التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥-٤٦٠هـ

قدم له

الإمام المحقق الشيخ آغا بزرك الطهراني

دام ظله

المجلد الأول

دار
احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

حياة الشيخ الطوسي

طلبنا من المؤرخ الشهير والبحاثة الكبير الامام آية الله الشيخ اغا بزرك الطهراني دام ظله ان يستل لنا ترجمة الشيخ الطوسي من كتابه (ازاحة الحلك الدامس بالشموس المضيئة في القرن الخامس) الذي هو من أجزاء موسوعته (طبقات أعلام الشيعة) فتفضل بذلك وأضاف اليها فوائد مهمة وأموراً لا يستغني عنها الباحثون ، وسماها (حياة الشيخ الطوسي) فله منا الشكر ومن الله الأجر .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد

ارتسمت على كل أفق من آفاق العالم الاسلامي أسماء رجال معدودين إمتازوا بمواهب وعبقريات رفعتهم الى الأوج الأعلى من آفاق هذا العالم ، وسجلت أسماءهم في قائمة عظماء التأريخ ، وجهابذة العلم ، وأصبحوا نجوماً لامعة ، ومصابيح ساطعة تتلألأ في كبد السماء كتلألأ الجوزاء ، وتضيء لأهل هذه الدنيا فتستفيد من نورها المجموعة البشرية كل حسب مكانته وعلى مقداره ، وبذلك بنوا لأنفسهم مجداً لا يطرأ عليه التلاشي والنسيان ، وخلد ذكرهم على مر الزمان وتعاقب الملوان .

وثمة رجال ارتسمت أسماؤهم في كل أفق من تلك الآفاق ، وهم قليلون للغاية شذت بهم طبيعة هذا الكون فكان لهم من نبوغهم وعظمتهم ما جعلهم أفذاذاً في دنيا الاسلام ، وشواذاً لا يمكن أن يجعلوا مقياساً لغيرهم ، أو ميزاناً توزن به مقادير الرجال ، إذ لا يمكنها أن تنال مراتبهم وان اشرأبت اليها أعناقهم وحدثتهم بها نفوسهم .

ومن تلك الغلة شيخنا وشيخ الكل في الكل علامة الآفاق شيخ الطائفة الطوسي أعلى الله درجاته وأجزل أجره ، فقد شاءت إرادة الله العليا أن تبارك في علمه وقلمه فتخرج منهما للناس نتاجاً من أفضل النتاج ، فيه كل ما يدل على غزارة العلم وسعة الاطلاع ، وقد مازه الله تعالى بصفات بارزة ، وخصه بعناية فائقة ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا .

وقد كرّس ـ قدس الله نفسه ـ حياته طوال عمره لخدمة الدين والمذهب ، وبهذا استحق مكانته السامية من العالم الاسلامي عامة والشيعي خاصة ، وبانتاجه الغزير أصبح ـ وأمسى ـ علماً من أعظم أعلامه ، ودعامة من أكبر دعائمه ، يذكر اسمه مع كل تعظيم وإجلال وإكبار وإعجاب ، ولقد أجاد من قال فيه :

شيخ الهدى والطائفة　　أثر القرون السالفه
وصل الآله نخصه　　بنهى الأمور العارفه
ظهرت سريرة علمه　　بالفضل عنه كاشفه
لله أوقف نفسه　　شكر الآله مواقفه
سحب الرضا هتفت على　　قبر يضمك ، واكفه
كم قد حباه فضيلة　　متبوعة مترادفه ؟ (١)

نسبه :

هو الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي نسبة الى طوس من مدن خراسان التي هي من أقدم بلاد فارس وأشهرها ، وكانت ـ ولا تزال ـ من مراكز العلم ومعاهد الثقافة ، لأن فيها قبر الامام علي الرضا عليه السلام ، ثامن أئمة الشيعة الاثنى عشرية ، وهي لذلك مهوى أفئدتهم يقصدونها من الأماكن الشاسعة والبلدان النائية ، ويتقاطرون اليها من كل صوب وحدب ، للثم تلك العتبة المقدسة والتمرّغ في ذلك الثرى الطيب .

---

(١) كتبت هذه الأبيات على ثريا أهديت لمرقد شيخ الطائفة ولم يذكر ناظمها .

ومن أجل هذا وذاك أصبحت كغيرها من مراقد آل محمد عليهم السلام هدفاً لأعدائهم ، فقد انتابتها النكبات ، وخربت ثلاث مرات ، هدمها للمرة الأولى الأمير سبكتكين ، وقوضها للمرة الثانية الغزنويون ، وأتلفتها للمرة الثالثة عاصفة الفتنة المغولية عام ٧١٦ ھ على عهد الطاغية جنكيزخان ، وقد تجددت أبنيتها وأعيدت آثارها بعد كل مرة ، وهي اليوم ـ مع ما حل فيها من تخريب ودمار ـ من أجل معاهد العلم عند الشيعة بالرغم من أعدائهم ، وفيها خزانة كتب للامام الرضا عليه السلام يحق للعالم الشيعي أن يعدها من مفاخره ، والله غالب على أمره .

ولادته ونشأته :

ولد شيخ الطائفة في طوس في شهر رمضان سنة ٣٨٥ هجرية ـ أعني عام وفاة هارون بن موسى التلعكبري ، وبعد أربع سنين من وفاة الشيخ الصدوق ـ وهاجر الى العراق فهبط بغداد في سنة ٤٠٨ ھ (١) وهو ابن ثلاثة وعشرين عاماً ، وكانت زعامة المذهب الجعفري فيها يومذاك لشيخ الأمة وعلم الشيعة محمد بن محمد بن النعمان الشهير بالشيخ المفيد عطر الله مثواه ، فلازمه ملازمة الظل ، وعكف على الاستفادة منه ، وأدرك شيخه الحسين بن عبيدالله ابن الغضائري المتوفى سنة ٤١١ ھ ، وشارك النجاشي في جملة من مشايخه ، وبقي على اتصاله بشيخه حتى اختار الله للاستاذ دار لقائه في سنة ٤١٣ ھ ، فانتقلت زعامة الدين ورياسة المذهب الى علامة تلاميذه علم الهدى السيد المرتضى طاب رمسه ، فانحاز شيخ الطائفة اليه ، ولازم الحضور تحت منبره ، وعني به المرتضى ، وبالغ في توجيهه وتلقينه ، واهتم له أكثر من سائر تلاميذه ، وعين له في كل شهر إثنى عشر ديناراً (٢) وبقي ملازماً له طيلة ثلاث

(١) فما ذكره في «الروضات» من روايته عن الشريف الرضي كما في ترجمة الشريف ص٥٧٣ من الطبعة الاولى من سبق القلم، حيث كانت وفاة الشريف سنة ٤٠٦ ھ بالاجماع ، ودخول الشيخ بغداد كان في ٤٠٨ كما صرح به هو ايضا في ص ٥٨١ ، والغريب نقل بعض لذلك عن « مستدرك الوسائل » لشيخنا الحجة النوري وهو خال من ذلك بل هو الذي نبه على هذا الاشتباه .

(٢) ان هذا وامثاله مما يكذب ما ينسبونه الى السيد المرتضى من البخل ، وانه دخل على الوزير المهلبي فقدم له عريضة يطالب فيها رفع ضريبة قدرها عشرون ديناراً فرضت على أرض له فلم يحفل —

وعشرين سنة ، وحتى توفي السيد المعظم لخمس بقين من شهر ربيع الاول سنة ٤٣٦ ه فاستقل شيخ الطائفة بالامامة ، وظهر على منصة الزعامة ، وأصبح علماً للشيعة ومناراً للشريعة ، وكانت داره في الكرخ مأوى الأمة ، ومقصد الوفاد ، يأتونها لحل المشاكل وايضاح المسائل ، وقد تقاطر اليه العلماء والفضلاء للتلمذة عليه والحضور تحت منبره وقصدوه من كل بلد ومكان ، وبلغت عدة تلاميذه ثلاثمائة من مجتهدي الشيعة ، ومن العامة ما لا يحصى كثرة .

وقد اعترف كل فرد من هؤلاء بعظمته ونبوغه ، وكبر شخصيته وتقدمه على من سواه ، وبلغ الأمر من الاعتناء به والاكبار له أن جعل له خليفة الوقت القائم بأمر الله — عبد الله — ابن القادر بالله — أحمد — كرسي الكلام والافادة ، وقد كان لهذا الكرسي يومذاك عظمة وقدراً فوق الوصف ، إذ لم يسمحوا به إلا لمن برز في علومه ، وتفوق على أقرانه ، ولم يكن في بغداد يومذاك من يفوقه قدراً أو يفضل عليه علماً فكان هو المتعين لذلك الشرف .

هجرته الى النجف الاشرف :

لم يفتأ شيخ الطائفة إمام عصره وعزيز مصره ، حتى ثارت القلاقل وحدثت الفتن بين الشيعة والسنة ، ولم تزل تنجم وتخبو بين الفينة والاخرى ، حتى اتسع نطاقها بأمر طغرل بيك أول ملوك السلجوقية فانه ورد بغداد في سنة ٤٤٧ ه وشن على الشيعة حملة شعواء ، وأمر باحراق مكتبة الشيعة التي أنشأها ابو نصر سابور

— الوزير به واعترض عنه تلامه بعض الحضور على اهانته واحترام أخيه الرضي مع انه دونه في العلم والفضل فمالى ذلك بما مر . هذا كله مما خلقه المغرضون وأنت ترى ان انتقال الرياسة الدينية اليه في بغداد بذلك العصر يستلزم الكرم والجود الفائقين ، كما ان مما لا شك فيه انه كان يعول بجماعة من تلامذته — غير الشيخ الطوسي — أن لم يعل بالجميع ، ويبذل لهم ما كان يبذل له وقد ذكر الشيخ البهائي في « الكشكول » ما كان يجريه المرتضى للشيخ الطوسي وقال بعده : ولأبي البراج كل شهر ثمانية دنانير الخ . وقد تصدى لرد مثل هذه المختلقات ولدنا الدكتور عبد الرزاق محي الدين في كتابه « أدب السيد المرتضى » الذي نال به شهادة الدكتوراه في الأدب من القاهرة ، والذي عرضه علينا بعد عودته الى العراق فراقنا كثيراً وكتبنا عليه تقريظا .

ابن أردشير وزير بهاء الدولة البويهي وكانت من دور العلم المهمة في بغـداد ، بناها هذا الوزير الجليل والاديب الفاضل في محـلة بين السورين في الكرخ سنة ٣٨١ ﻫ على مثال (بيت الحـكمة) الذي بناه هارون الرشيد ، وكانت مهمة للغاية فقـد جمع فيها هذا الوزير ما تفرق من كتب فارس والعراق ، واستكـتب تآليف أهل الهند والصين والروم كما قاله محمد كرد علي (١) ونافت كتبها على عشرة آلاف من جلائل الآثار ومهام الاسفار ، وأكـثرها نسخ الاصل بخطوط المؤلفين ، قال ياقوت الحموي (٢) : وبها كانت خزانة الكـتب التي أوقفها الوزير أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة ولم يكن فى الدنيا أحسن كـتباً منها كانت كلها بخطوط الائمة المعتبرة واصولهم المحررة إلخ وكان من جملتها مائة مصحف بخط ابن مقلة على ما ذكره ابن الاثير (٣) وحيث كان الوزير سابور من أهل الفضل والادب (٤) أخذ العلمـاء يهدون اليه مؤلفاتهم فأصبحت مكـتبته من أغنى دور الكـتب ببغداد ، وقد احترقت هذه المكـتبة العظيمة فيما احترق من محال الكرخ عند مجيء طغرل بيك ، وتوسعت الفتنة حتى اتجهت الى شيخ الطائفة واصحابه فأحرقوا كتبه وكرسيه الذي كان يجلس عليه للكلام

قال ابن الجوزي (٥) في حوادث سنة ٤٤٨ ﻫ : وهرب أبو جعفر

(١) خطط الشام ج ٦ ص ١٨٥ (٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤٢ . (٣) التاريخ الكامل ج ١٠ ص ٣ (٤) سابور معرب شاهور « شاه پور » كان من وزراء الشيعـة للملك الشيعي بهاء الدولة ، وكان من اهل العلم والفضل والأدب ، وكانت دار علمه محط الشعراء والادباء ، ذكره الثعالبي في « يتيمة الدهر » وعقد فصلا خاصاً للشعراء الذين مدحوه ، منهم أبو العلاء المعري فقد مدحـه بقصيدة مشهورة وذكر فيها دار كتبه هذه بقوله :

وغنت لنا في دار سابور قينة ... من الورق مطراب الاصائل مهباب

ترجم له ابن خلكان في « وفيات الاعيان » ج ١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ فقال : كان من أكابر الوزراء وأماثل الرؤساء ، جمعت فيـه الكـفاية والدراية ، وكان بابه محط الشعراء الخ وهذه المكانة المادية ـ مضافاً الى ما للرجل في نفسه من الفضائل العلمية والكمالات الروحية ـ من الاسباب القوية لتحريضه على جمع الكـتب العلمية ووقفها لأهل مذهبه ، ولا سيما النفيسة القليلة الوجود المصححة المعتبرة كما هي صفة جامعي الكـتب حتى اليوم .

ولد بشيراز في سنة ٣٣٦ ﻫ وتوفى في ٤١٦ ﻫ وتوفى مخدومه بهاء الدولة في ٤٠٣ ﻫ عن ٤٢ سنة ، ودفن في النجف عند والده فناخسرو الملقب بعضد الدولة كما ذكره القاضي نور الله المرعشي في « مجالس المؤمنين » ص ٣٧٩ رحمهم الله جميعاً . (٥) المنتظم ج ٨ ص ١٧٣ و ١٧٩ .

الطوسي ونهبت داره . ثم قال في حوادث سنة ٤٤٩ هـ : وفي صفر في هـذه السنة كبست دار أبي جعفر الطوسي متكلم الشيعة بالكرخ وأخذ ما وجد من دفاتره وكرسي كان يجلس عليه للكلام ، وأخرج الى الكرخ وأضيف اليه ثلاث سناجيق بيض كان الزوار من أهل الكرخ قديماً يحملونها معهم إذا قصدوا زيارة الكوفة فأحرق الجميع إلخ .

ولما رأى الشيخ الخطر محدقاً به هاجر بنفسه الى النجف الاشرف لائذاً بجوار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وصيرها مركزاً للعلم وجامعة كبرى للشيعة الامامية ، وعاصمة للدين الاسلامي والمذهب الجعفري ، وأخذت تشد اليها الرحال وتعلق بها الآمال ، واصبحت مهبط رجال العلم ومهوى افئدتهم وقام فيها بناء صرح الاسلام ، وكان الفضل في ذلك لشيخ الطائفة نفسه فقد بث في أعلام حوزته الروح العلمية ، وغرس في قلوبهم بذور المعارف الآلهية ، فحسروا للعلم عن سواعدهم ووصلوا فيه ليلهم بنهارهم عاكفين على دروسهم خائضين عباب العلم غائصين على أسراره موغلين في استبطان دخائله واستخراج مخبآته ، وكيف لا يكونون كذلك وقد شرح الله للعلم والعمل صدورهم وصقل اذهانهم وارهف طباعهم فحموا وطيس العلم ، وبان فضل النجف على ما سواها من المعاهد العلمية ، وخلفوا الذكر الجميل على مر الدهور والأعصار أعلى الله في الفردوس درجاتهم ، ولقد أحسن وأجاد صديقنا العلامة الحجة السيد علي نقي النقوي دام ظله حيث قال :

ذا شيخنا الطوسي شيد بها ... لربوع شرع المصطفى شرف
فهو الذي اتخذ (الغري) له ... مأوىً به العلياء تمتكف
فتهافتوا لسراج حكمته ... مثل الفراش اليه تزدلف
وقفتهم الابناء ضامنة ... تجديد ماقد شاده السلف الخ

تلك هي جامعة النجف العظمى التي شيد شيخ الطائفة ركنها الاساسي ووضع حجرها الأول ، وقد تخرج منها خلال هذه القرون المتطاولة آلاف مؤلفة من اساطين الدين واعاظم الفقهاء ، وكبار الفلاسفة ونوابغ المتكلمين ، وافاضل المفسرين واجلاء اللغويين ، وغيرهم ممن خبروا العلوم الاسلامية بأنواعها وبرعوا فيها ايما

براعة ، وليس أدل على ذلك من آثارهم المهمة التي هي في طليعة التراث الاسلامي ولم تزل زاهية حتى هذا اليوم ، يرتحل اليها رواد العلوم والمعارف من سائر الاقطار والقارات فيرتوون من مناهلها العذبة وعيونها الصافية (والمنهل العذب كثير الزحام) .

وقد استدل بعض الكتاب المحدثين على وجود الجامعة العلمية في النجف قبل هجرة شيخ الطائفة اليها ، وذلك اعتماداً على استجازة الشيخ ابي العباس النجاشي من الشيخ ابي عبدالله الخمري فقد قال في كتاب رجاله المطبوع ص ٣٠ عن كتاب « عمل السلطان » للبوشنجي ما لفظه : أجازنا بروايته ابو عبدالله الخمري الشيخ الصالح في مشهد مولانا أمير المؤمنين عليه السلام سنة اربعمائة .

وهذا لا يكفي للتدليل فالنجف مشهد يقصد للزيارة فربما تلاقيا في النجف زائرين فحصلت الاستجازة كما هو الحال في المحقق الحلي صاحب « الشرايع » فقد أجاز البعض في النجف أيام ازدهار العلم في الحلة وفتوره في النجف ، فهل يمكن عد المحقق من سكنة النجف ؟ وقد استجزت انا بعض المشايخ في كربلا ومشهد الكاظمين ومكة والمدينة والقاهرة وغيرها ، واجزت جماً من العلماء في الري ومشهد الرضا عليه السلام بخراسان وغير ذلك من البلاد ، ودوّن بعض ذلك في بعض المؤلفات فهل ينبغي عدي أوعد المجازين في علماء فارس أو الحجاز أو مصر ؟.

ثم انني اذهب الى القول بأن النجف كانت مأوى للعلماء وناديا للمعارف قبل هجرة الشيخ اليها ، وان هذا الموضع المقدس أصبح ملجيء للشيعة منذ انشأت فيه العمارة الاولى على مرقد الامام أمير المؤمنين عليه السلام ، لكن حيث لم تأمن الشيعة على نفوسها من تحكمات الأمويين والعباسيين ، ولم يستطيعوا بث علومهم ورواياتهم كان الفقهاء والمحدثون لا يتجاهرون بشيء مما عندهم ، وكانوا متبددين حتى عصر الشيخ الطوسي والى أيامه ، وبعد هجرته انتظم الوضع الدراسي وتشكلت الحلقات كما لا يخفى على من راجع (آمالي الشيخ الطوسي) الذي كان يمليه على تلامذته .

مكانته العلمية :

من البديهيات أن مكانة شيخ الطائفة المعظم وثروته العلمية الغزيرة في غنىً

عن البيـان والأطراء ، وليس في وسع الكاتب ـ مها تكلف ـ استكناه ما له من الأشواط البعيدة في العلم والعمل ، والمكانة الراسية عند الطائفة ، والمنزلة الكبرى في رياسة الشيعة ، ودون مقام الشيخ المعظم كلما ذكره الاعلام في تراجمهم له من عبارات الثناء والاكبار ، فمن سبر تأريخ الامامية ومعاجمهم ، وأمعن النظر في مؤلفات الشيخ العلمية المتنوعة علم أنه اكبر علماء الدين ، وشيخ كافـة مجتهدي المسلمين ، والقـدوة لجميع المؤسسين ، وفي الطليعة من فقهاء الاثنى عشرية ، فقد أسس طريقـة الاجتهاد المطلق في الفقه واصوله ، وانتهى اليه امر الاستنباط على طريقة الجعفرية المثلى ، وقد اشتهر بالشيخ فهو المراد به اذا اطلق في كلمات الأصحاب ، من عصره الى عصر زعيم الشيعة بوقته مالك أزمة التحقيق والتدقيق الحجة الكبرى ابي ذر زمانه الشيخ مرتضى الانصاري المتوفى سنة ١٢٨١ هـ فقد يطلق الشيخ في عصرنا هذا وقبيله ويكون المراد به الشيخ الانصاري ، أما في كتب القدماء والسلف فالمراد هو شيخ الطائفـة قدس الله نفسه (١) .

مضت على علماء الشيعة سنون متطاولة وأجيال متعاقبة ولم يكن من الهين على أحد منهم ان يعدو نظريات شيخ الطائفة في الفتاوى ، وكانوا يعدون أحاديثه اصلا مسلماً ، ويكـتفون بها ، ويعدون التأليف في قبالها ، واصدار الفتوى مع وجودها تجاسراً على الشيخ وإهانة له ، واستمرت الحال على ذلك حتى عصر الشيخ ابن ادريس فـكان ـ اعلى الله مقامه ـ يسميهم بالمقلدة ، وهو أول من خالف بعض آراء الشيخ وفتاواه وفتح باب الرد على نظرياته ، ومع ذلك فقـد بقوا على تلك الحال حتى ان المحقق وابن اخته العلامة الحلي ومن عاصرهما بقوا لا يعدون راي شيخ الطائفة ، قال

---

(١) وقد يقال : الشيخان . ويراد به الشيخ المفيد والشيخ الطوسي ، والشيخان في اصطلاح المتكلمين هما الجبائيان أبو علي محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٠٣ هـ ، وابنه أبو هاشم عبد السلام بن محمد المتوفي سنة ٣٢١ هـ وكلاهما من رؤساء المعتزلة ، ولهما مقالات على مذهب الاعتزال والكتب الكلامية مشحونة بمقالاتهما .

ويطلق الشيخ في كتب الحكمة والمنطق على ابي علي الحسين بن عبدالله بن سينا البخاري المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ويطلق الشيخ في كتب البلاغة على الشيخ ابي بكر عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ ، هـ وغير ذلك .

الحجة الفقيه الشيخ أسد الله الدزفولي التستري في « المقابس » ما لفظه : حتى ان كثيراً ما يذكر مثل المحقق والعلامة أو غيرهما فتاويه من دون نسبتها اليه ، ثم يذكرون ما يقتضي التردد أو المخالفة فيها فيتوهم التنافي بين الكلامين مع ان الوجه فيها ما قلناه .

نعم لما ألف المحقق الحلي « شرايع الاسلام » استعاضوا به عن مؤلفات شيخ الطائفة ، وأصبح من كتبهم الدراسية ، بعد ان كان كتاب « النهاية » هو المحور وكان بحثهم وتدريسهم وشروحهم غالباً فيه وعليه .

وليس معنى ذلك إن مؤلفات شيخ الطائفة فقدت أهميتها أو أصبحت لغواً لا يحتفل بها ، كلا بل لم تزل أهميتها تزداد على مرور الزمن شيئاً فشيئا ولن تجد في تأريخ الشيعة ومعاجمهم ذكر عظيم طار اسمه في البلدان واعترف له خصومه بالجلالة ، الا ووجدته يتضاءل أمام عظمة الشيخ الطوسي ، ويعترف بأعلميته وأفضليته وسبقه وتقدمه .

هذا النابغة الفذ الشيخ جمال الدين ابو منصور الحسن بن يوسف الحلي المتوفى سنة ٧٢٦ هـ الشهير بالعلامة ، الذي طبقت العالم الاسلامي شهرته ، والذي تضلع في سائر العلوم ونبغ في كافة الفنون . وانتهت اليه رياسة علماء عصره في المعقول والمنقول وألف في كل علم عدة كتب ، ولم يشك أحد في انه من عظماء العالم ونوادر الدهر ، هذا الرجل الذي مر عليك بعض وصفه ذكر شيخ الطائفة في كتابه « خلاصة الاقوال في معرفة أحوال الرجال » (١) ص ٧٣ ووصفه بقوله :

شيخ الامامية ووجهم ، ورئيس الطائفة ، جليل القدر ، عظيم المنزلة ، ثقة ،

---

(١) طبع هذا الكتاب في طهران عام ١٣١١ هـ طبعة سقيمة مملوءة بالأغلاط . وقد رأيت منه نسخاً صحيحة متقنة احداها في (الخزانة الغروية) تأريخ كتابتها (٧٦٦ هـ) وهي مقروءة على المشايخ وعليها بلاغاتهم ، وفيها فوائد كثيرة ، والثانية في (مكتبة الحجة السيد حسن الصدر) وهي نفيسة أيضاً قرئت على مصنفها العلامة فكتب على ظهر القسم الأول منها اجازة ، وفي آخر القسم الثاني اجازة أخرى أيضاً كلتاهما في سنة ٧١٥ هـ وهما اواحد ، والثالثة كتبت عن نسخة بخط حفيد المؤلف أى أبي المظفر يحي بن محمد بن الحسن الى غير ذلك ولمعرفة خصوصيات هذا الكتاب وزيادة الاطلاع عليه راجع كتابنا « الذريعة الى تصانيف الشيعة » ج ٧ ص ٢١٤ – ٢١٥ .

عين، صدوق ، عارف بالأخبار والرجال والفقه والأصول والكلام والأدب ، وجميع الفضائل تنسب اليه ، صنف في كل فنون الاسلام ، وهو المهذب للعقائد فى الاصول والفروع ، الجامع لكمالات النفس فى العلم والعمل الخ .

وكذا الحجة الكبير والعالم العظيم محيي علوم أهل البيت الشيخ محمد باقر المجلسي صاحب دائرة المعارف الكبرى « بحار الأنوار » والمتوفى سنة ١١١١ هـ فقد ذكر شيخ الطائفة فى كتابه « الوجيزة » ص ١٦٣ فقال ما بعضه :

فضله وجلالته اشهر من ان يحتاج الى البيان إلخ .

وكذا العلامة الشهير الحجة السيد مهدي الطباطبائي الملقب ببحر العلوم والمتوفى سنة ١٢١٢ هـ فقد ترجم لشيخ الطائفة فى كتابه « الفوائد الرجالية » فقال ما ملخصه :

شيخ الطائفة المحقة ، ورافع أعلام الشريعة الحقة ، إمام الفرقة بعد الأئمة المعصومين - عليهم السلام - ، وعماد الشيعة الامامية فى كل ما يتعلق بالمذهب والدين، محقق الأصول والفروع ، ومهذب فنون المعقول والمسموع ، شيخ الطائفة على الاطلاق ، ورئيسها الذي تلوى اليه الأعناق ، صنف في جميع علوم الاسلام ، وكان القدوة في ذلك والامام .

ومثلهم شيخنا وأستاذنا حجة العلماء وشيخ المجتهدين الشيخ ميرزا حسين النوري المتوفى سنه ١٣٢٠ هـ فقد ذكره في كتابه « مستدرك وسائل الشيعة » فأطراه وبالغ في الثناء عليه ، الى غير ذلك من عشرات الرجال من الشيعة والسنة ، وسنذكر قسماً منهم في هذه الترجمة .

ومن هذه الأقوال البليغة وغيرها التي صدرت من عظماء الشيعة وكبرائهم نعرف مكانة الشيخ ونستغني عن سرد فضائله ومناقبه الكثيرة .

آثاره ومآثره :

لم تزل مؤلفات شيخ الطائفة تحتل المكانة السامية بين آلاف الأسفار الجليلة التي أنتجتها عقول علماء الشيعة الجبارة ، ودبجتها يراعة اولئك الفطاحل الذين عز

على الدهر أن يأتي لهم بمثيل ، ولم تزل أيضاً غرة ناصعة في جبين الدهر وناصية الزمن وكيف لا وقد جمعت معظم العلوم الاسلامية أصلية وفرعية ، وتضمنت حل معضلات المباحث الفلسفية والكلامية التي لم تزل آراء العباقرة والنياقدة حائمة حولها ، كما احتضنت كل ما يحتاج اليه علماء المسلمين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ، وحسب الشيخ عظمة ان كتابيه (التهذيب) و (الاستبصار) من الاصول المسلمة في مدارك الفقه ، ومن الكتب الأربعة التي عليها المدار ــ على مرور الاعصار ــ في استنباط أحكام الدين بعد كتاب الله المبين .

لم يكن خلود الشيخ في التاريخ وحصوله على هذه المرتبة الجليلة إلا نتيجة لاخلاصه وتبتله الواقعي ، حيث لم يؤلف طلباً للشهرة أو حباً للرياسة أو استمالة لقلوب الناس وجلباً لهم ، أو مباهاة لعالم من معاصريه ، أو رغبة في التفوق أو غير ذلك من المقاصد الدنيئة والمآرب الدنيوية التي ابتلي بها الكثير من معاصرينا ــ للاسف ــ حاشا وكلا بل لم تخطر له على بال ، وانما كان في ذلك كله قاصداً وجه الله تعالى شأنه ، راغباً في حسن جزائه طالباً لجزيل ثوابه ، حريصاً على حماية الدين واحياء شريعة سيد المرسلين ومحو آثار المفسدين ، ولذلك كان مؤيداً في أعماله مسدداً في أقواله وافعاله ، وقضية واحدة تدلنا على شدة اخلاص الشيخ نثبتها بنصها عبرة للمعتبرين .

قال شيخنا ومولانا الحجة خاتمة المحدثين الميرزا حسين النوري اعلى الله مقامه في « مستدرك الوسائل » ج ٣ ص ٥٠٦ ما لفظه :

وعثرت على نسخة قديمة من كتاب « النهاية » وفي ظهره بخط الكتّاب ، وفي موضع آخر بخط بعض العلماء ما لفظه : قال الشيخ الفقيه نجيب الدين أبو طالب الاسترابادي رحمه الله : وجدت على كتاب « النهاية » بـ (خزانة مدرسة الري) قال : حدثنا جماعة من أصحابنا الثقات ان المشايخ الفقهاء الحسين بن المظفر الحمداني القزويني ، وعبد الجبار بن علي المقرىء الرازي ، والحسن بن الحسين بن بابويه المدعو بـ (حسكا) المتوطن بالري رحمهم الله كانوا يتحادثون ببغداد ويتذاكرون

كتاب « النهاية » وترتيب أبوابه وفصوله ، فكان كل واحد منهم يعارض الشيخ الفقيه أبا جعفر محمد بن الحسن الطوسي رحمة الله عليه في مسائل ، ويذكر انه لا يخلو من خلل ، ثم اتفق انهم خرجوا لزيارة المشهد المقدس بالغري على صاحبه السلام ، وكان ذلك على عهد الشيخ الفقيه أبي جعفر الطوسي رحمه الله وقدس روحه ، وكان يتخالج في صدورهم من ذلك ما يتخالج قبل ذلك ، فأجمع رأيهم على ان يصوموا ثلاثاً ويغتسلوا ليلة الجمعة ، ويصلوا ويدعوا بحضرة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام على جوابه فلعله يتضح لهم ما اختلفوا فيه ، فسنح لهم أمير المؤمنين عليه السلام في النوم ، وقال :

لم يصنّف مُصنف في فقه آل محمد عليهم السلام كتاباً أولى بأن يعتمد عليه ويتخذ قدوة ويرجع اليه ، أولى من كتاب النهاية التي ـ كذا ـ تنازعتم فيه ، وانما كان ذلك لأن مصنفه اعتمد فيه على خلوص النيه لله ، والتقرب والزلفى لديه فلا ترتابوا في صحة ما ضمنه مصنفه ، واعملوا به وأقيموا مسائله ، فقد تعنى في تهذيبه وترتيبه والتحري بالمسائل الصحيحة بجميع أطرافها .

فلما قاموا من مضاجعهم أقبل كل واحد منهم على صاحبه ، فقال : رأيت الليلة رؤيا تدل على صحة « النهاية » والاعتماد على مصنفها فاجمعوا على أن يكتب كل واحد منهم رؤياه على بياض قبل التلفظ ، فتعارضت ـ كذا ـ الرؤيا لفظاً ومعنىً ، وقاموا متفرقين مغتبطين بذلك فدخلوا على شيخهم أبي جعفر الطوسي قدس الله روحه ، فحين وقعت عينه عليهم قال لهم : لم تسكنوا الى ما كنت أوقفتكم عليه في كتاب (النهاية) حتى سمعتم من لفظ مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ، فتعجبوا من قوله وسألوه عما استقبلهم به من ذلك ، فقال : سنح لي أمير المؤمنين عليه السلام كما سنح لكم فأورد عليّ ما قاله لكم وحكى رؤياه على وجهها وبهذا الكتاب يفتي الشيعة فقهاء آل محمد عليهم السلام والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله الطاهرين انتهى . انتهى ما في مستدرك شيخنا النوري .

وهذه القضية وحدها كافية للتدليل على إخلاص شيخ الطائفة وصدق

خدمته ـ وان كان في غنىً عن ذلك ـ وحسبه ذخراً يوم العرض شهادة اميرالمؤمنين عليـــه السلام : بأنه لم يقصد بتأليف الكتاب غير وجه الله . ولمثل هذا فليعمل العاملون ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ومما يجدر بالذكر إننا نستفيد من هذه الواقعة امرين لم يصرح بها شيخنا النوري ـ عطر الله مثواه ـ .

الأول : إن معارضي الشيخ لم يكن لهم معه غرض شخصي في تخطئته ونقده وانما اختلفوا معه في بعض الآراء الفقهية فظنوا انه مخطأ ، وان فتاويه غير مرضية عند آل محمد عليـه وعليهم السلام . ولم يكن ذلك إلا غيرة على الدين ، وتحمساً له ، وتحفظاً من وقوع الخطأ فيه ، ولذلك لجئوا الى الامام عليه السلام مستفسرين منه عن وقع ذلك في نفسه ، فأجابهم عليه السلام بالرضا والقبول فسروا واطمأنوا وغبطوا شيخ الطائفة على توفيقه ، كما تدل عليه عبارة : وقاموا متفرقين مغتبطين الخ .

الثاني : ـ وهو أهم من سابقه ـ إنهم كانوا على بصيرة من أمرهم ، واطمئنان من أنفسهم ، وكانوا يشعرون برضى أئمتهم عليهم السلام عنهم ، ويرون أنفسهم عبيداً وخدماً لمواليهم ، وليس على العبـد إذا أراد المثول بين يدي مولاه إلا أن يكون على نحو يرضيه وشكل يبتغيه ، وأن يكون ممتثلاً لأوامره مبتعداً عن نواهيه ، واذاً فأي مانع من وصوله الى حضرة مولاه ، وتشرفه بخدمته ؟ .

وأنت ترى ان هؤلاء المشايخ رضوان الله عليهم ، لما عسر عليهم فهم هذا الامر وانغلقت في وجوههم أبواب الرجاء والأمل ، لجئوا الى مواجهة الامام عليه السلام ولم تكن مقدماتهم لذلك سوى بعض الآداب الشرعية المرعيـة من الصوم والوضوء والدعاء والرجاء ، فلو علم هؤلاء بتقصير لهم ، أو شعروا بتخلفهم عن بعض أوامره ، لما جسروا على طلب مواجهته ومقابلته ، وبهذا وغـيره أعلمنا قدماؤنا رضوان الله عليهم أنهم كانوا في غاية الالتزام بالتكاليف الشرعيـة كبيرة وصغيرة ، وفي غاية البعد عن كل دنية حتى المكروه والمباح ، وقد وعظونا بأعمالهم اكثر مما وعظونا بأقوالهم فيجب علينا اتباعهم والسير على الخطى التي رسموها لنا والطرق التي سنوها

من أجلنا ، وان لا نزل عن النهج القويم والصراط المستقيم عسى ان يشملنا عطف أئمة الهدى عليهم السلام فيكونوا شفعاءنا (يوم لا تغني نفس عن نفس شيئاً ولا تنفعها شفاعة) .

لقد طال بنا الكلام وخرجنا عما نحن بصدده فنعود الآن الى ذكر مؤلفات الشيخ فنقول : إن في مؤلفات شيخ الطائفة ميزة خاصة لا توجد فيما عداها من مؤلفات السلف ، وذلك لأنها المنبع الأول والمصدر الوحيد لمعظم مؤلفي القرون الوسطى ، حيث استقوا منها مادتهم وكونوا كتبهم ، ولأنها حوت خلاصة الكتب المذهبية القديمة ، وأصول (١) الأصحاب فقد مر عليك عند ذكر هجرة الشيخ الى النجف الأشرف ان مكتبة سابور في الكرخ كانت تحتضن الكتب القديمة الصحيحة التي هي بخطوط مؤلفيها أو بلاغاتهم ، وقد صارت كافة تلك الكتب طعمة للنار كما ذكرناه ، ولم نفقد بذلك ـ والحمد لله ـ سوى أعيانها الشخصية وهيآتها التركيبية الموجودة في الخارج ، وأما محتوياتها وموادها الأصلية فهي باقية على حالها دون زيادة حرف ولا نقيصة حرف ، لوجودها في المجاميع القديمة التي جمعت فيها مواد تلك الأصول قبل تأريخ إحراق المكتبة بسنين كثيرة ، حيث ألف جمع من أعاظم العلماء كتباً متنوعة ، واستخرجوا جميع ما في كتبهم من تلك الأصول وغيرها مما كان في المكتبات الأخرى ، وتلك الكتب التي ألفت عن تلك الأصول موجودة بعينها حتى هذا اليوم ، واكثر اولئك استفادة من تلك المكتبة وغيرها شيخ الطائفة الطوسي ـ رحمة الله عليه ـ لانها كانت تحت يده وفي تصرفه ، وهو زعيم الشيعة ومقدمهم يومذاك ، فلم يدع كتاباً فيها إلا وعمد الى مراجعته واستخراج ما يخص مواضيعه منه .

وهناك مكتبة أخرى كانت في متناول يده ، وهي مكتبة أستاذه السيد المرتضى الذي صحبه ثمان وعشرين سنة ، وكانت تشتمل على ثمانين ألف كتاب

---

(١) الأصل : عنوان يصدق على بعض كتب الحديث خاصة ، والأصول الاربعمائة هي : أربعمائة كتاب ألفت من جوابات الامام الصادق عليه السلام ، وقد تكلمنا عنها في غاية الوضوح والدقة في كتابنا (الذريعة الى تصانيف الشيعة) ج ١ ص ١٢٥ ـ ١٣٥ فليراجعه طالب التفصيل .

سوى ما أهدي منها الى الرؤساء كما صرح به كل من ترجم له ، وذلك أحد وجوه تلقيبه بالثمانيني .

ثم كان شيخ الطائفة متمكناً من هاتين الخزانتين العظيمتين ، وكأن الله ألهمه الأخذ بحظه منها قبل فوات الفرصة ، فقد اغتنمها أجزل الله أجره ، وغربل كوم الكتب فأخذ منها حاجته وظفر فيها بضالته المنشودة ، وألف كتابيه الجليلين (التهذيب) و (الاستبصار) اللذين هما من الكتب الأربعة ، والمجاميع الحديثية التي عليها مدار استنباط الأحكام الشرعية عند الفقهاء الاثنى عشرية منذ عصر مؤلفه حتى اليوم ، وألف أيضاً غيرها من مهام الأسفار قبل ان يحدث شيء مما ذكرنا ، وكذا غيره من الحجج فقد أجهدوا نفوسهم وتفننوا في حفظ تراث آل محمد عليه وعليهم السلام ، فكان لهم بحمد الله ما أرادوا .

وهكذا استقى شيخ الطائفة مادة مؤلفاته من تصانيف القدماء ، وكتب في كافة العلوم من الفقه وأصوله ، والكلام والتفسير ، والحديث والرجال ، والأدعية والعبادات ، وغيرها ، وكانت ولم تزل مؤلفاته في كل علم من العلوم مآخذ علوم الدين بأنوارها يستضيئون ومنها يقتبسون وعليها يعتمدون .

ولهذه الناحية فان لشيخ الطائفة على الشيعة حقاً لا ينكر وفضلاً لا يستر ، على أن جمعاً من علماء الشيعة القدماء عملوا ما عمله ، فان الشيخين الكليني والصدوق ألفا (الكافي) و (من لا يحضره الفقيه) اللذين هما من الكتب الأربعة أيضاً ، وكذا غيرهما من الأقطاب ، وإنا لا ننكر فضلهم بل نشكرهم على حسن صنيعهم ونقدر مجهودهم ونسأل الله لهم الأجر والثواب الجزيل ، إلا انه لا بد لنا من الاعتراف بان شيخ الطائفة بمفرده قام بما لا تقوم به الجماعة ، ونهض بأعباء ثقيلة لم يكن من السهل على غيره النهوض بها لولا العناية الربانية التي شدت عضده ، فان الغير ممن أجهد نفسه الكريمة فكتب وألف قد خص موضوعاً واحداً كالفقه أو الحديث أو الدعاء أو غير ذلك بينما لم يدع شيخ الطائفة باباً إلا طرقه ، ولا طريقاً إلا سلكها ، وقد ترك لنا نتاجاً طيباً متنوعاً غذّى عقول فطاحل عدة قرون وأجيال .

ومع ما ذكرناه مما حل بكتب الشيعة من حريق وتلف وتدمير ، فقد شذت مجموعة نادرة منها ، وبقيت عـدة من تلك الكتب بهيآتها الى أوائل القرن الثامن، ومنها عدد كثير من كتب الأدعية ، فقد حصلت جملة وافية للسيد جمال السالكين رضي الدين ابي القاسم علي بن موسى بن محمد الطاووسي الحسيني الحلي المتوفى سنة ٦٦٤ هـ ، كما يظهر ذلك من النقل عنها في أثناء تصانيفه ، فقـد ذكر في الفصل الثاني والأربعين بعد المائة من كتابه (كشف المحجة) الذي الفه سنة ٦٤٩ هـ بعد ترغيب ولده الى تعلم العلوم ما لفظه : (هيى الله جل جلاله لك على يدي كتباً كثيرة ـ الى قوله بعد ذكر كتب التفسير ـ : وهيىء الله جل جلاله عندي عدة مجلدات في الدعوات أكثر من ستين مجلداً) .

وبعد هذه السنة حصلت عنده عدة كتب أخرى ، فقال في آخر كتابه (مهج الدعوات) الذي فرغ منه يوم الجمعة ٧ جمادي الأولى سنة ٦٦٢ هـ يعني قبل وفاته بسنتين تقريباً : (فان في خزانة كتبنا هذه الأوقات أكثر من سبعين مجلداً في الدعوات).

أقول : وأما سائر كتبه فقد جاء في (مجموعة الشهيد) ، أنه جرى ملكه في سنة تأليفه (الاقبال) ـ وهي سنة ٦٥٠ هـ ـ على ألف وخمس مائة كتاب . والله أعلم بما زيد عليها من هذا التأريخ الى وفاته في سنة ٦٦٤ هـ وهذه النيف والسبعون مجلداً من كتب الدعوات التي عنـده كلها كانت من كتب المتقدمين على الشيخ الطوسي ـ الذي توفى سنة ٤٦٠ ـ لأن الشيخ منتجب الدين بن بابويه القمي جمع تراجم المتـأخرين عن الشيخ الطوسي الى ما يقرب من مائة وخمسين سنة وذكر تصانيفهم ، ولا نجد في تصانيفهم من كتب الدعاء إلا قليلا ، وذلك لما ذكرناه من أن علماء الشيعة بعده الى مائة سنة أو أكثر كانوا مكتفين بمؤلفاته ومتحاشين عن التأليف في قبالها، والحديث في هذا الباب طويل تـكاد تضيق عن الاحاطة به هذه الصحائف ، فلنمسك عنان القلم محيلين طالب التفصيل الى مقالتين مبسوطتين كتبناهما في (الذريعة الأولى في ج ١ ص ١٢٥ ـ ١٣٥ والثانيـة في ج ٨ ص ١٧٢ ـ ١٨١ واليك الآن فهرس ما وصل الينا من مؤلفات شيخ الطائفة مرتباً على حروف الهجاء :

١ ـ الأبواب : سمي بذلك لأنه مرتب على أبواب بعدد رجال أصحاب النبي (ص) وأصحاب كل واحد من الأئمة (ع) ويسمى بـ (رجال شيخ الطائفة) وقد ذكرناه بالعنوانين في (الذريعة) في ج ١ ص ٧٣ و ج ١٠ ص ١٢٠ وهو أحد الاصول الرجالية المعتمدة عند علمائنا ، وقد انتخبه شيخنا العلامة الحجة السيد محمد علي الشاه عبد العظيمي النجفي المتوفى سنة ١٣٣٤ هـ كما انتخب فهرست الشيخ ورجال كل من الكشي والنجاشي وخلاصة العلامة الحلي . وسمى الجميع (منتخب الرجال) وقد طبع أيضاً

٢ ـ إختيار الرجال : هو كتاب رجال الكشي الموسوم بـ (معرفة الناقلين) لابي عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي معاصر ابن قولويه المتوفى سنة ٣٦٩ هـ والراوي كل منهما عن الآخر ، وكان كتاب رجاله كثير الأغلاط كما ذكره النجاشي لذلك عمد شيخ الطائفة الى تهذيبه وتجريده من الأغلاط وسماه بذلك ، وأملاه على تلاميذه في المشهد الغروي وكان بدء إملائه يوم الثلاثاء ٢٦ صفر سنة ٤٥٦ كما حكاه السيد رضي الدين بن طاووس في (فرج المهموم) راجع تفصيله في (الذريعة) ج ١ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ ، والنسخة المطردة المعروفة برجال الكشي هي عين اختيار شيخ الطائفة ، وأما الأصل فلم نجد له اثراً .

٣ ـ الاستبصار فيما أختلف من الأخبار : هو أحد الكتب الأربعة والمجاميع الحديثية التي عليها مدار استنباط الأحكام الشرعية عند الفقهاء الاثنى عشرية منذ عصر المؤلف حتى اليوم ، جزآن منه في العبادات والثالث في بقية أبواب الفقه من العقود والايقاعات والاحكام الى الحدود والديات ، وهو مشتمل على عدة كتب التهذيب غير أنه مقصور على ذكر ما اختلف فيه من الأخبار وطريق الجمع بينها ، والتهذيب جامع للخلاف والوفاق ، وقد حصر الشيخ نفسه أحاديث الاستبصار في آخره في ٥٥١١ حديثاً ، وقال : حصرتها لئلا تقع فيها زيادة أو نقصان الخ . وقد طبع في المطبعة الجعفرية في لكنهو (الهند) سنة ١٣٠٧ هـ وطبع ثانياً في طهران سنة ١٣١٧ هـ وطبع ثالثاً في النجف الاشرف سنة ١٣٧٥ على نفقة الفاضل الشيخ علي الآخوندي ، وقد قوبل بثلاث نسخ مخطوطة ، وفاتهم مقابلة النسخه المقابلة

بخط شيخ الطائفـه نفسه الموجودة في (مكـتبة العلامة الشيخ هادي آل كاشف الغطاء) في النجف الاشرف، كما ذكرتها تفصيلا عند ذكر الكـتاب في (الذريعة) ج ٢ ص ١٤ ـ ١٦ ، وعلى (الاستبصار) شروح وتعليقات ذكرنا منها ثمانية عشر وقد أشار اليها العلامة السيد محمد صادق آل بحر العلوم في مقدمة (الفهرست) الذي طبع باشرافه ، ونقلها عنا برمتها العلامة الشيخ محمد علي الاوردبادي في مقـدمته للاستبصار طبع النجف .

وكتب لنا بعـد ذلك السيد شهاب الدين التبريزي انه حصل على نسخة من حواشي الاستبصار للعلامة المحقق الملقب بمجذوب كـتبها بخطه السيد محمد هاشم الحسيني ابن مير خواجه بيك الكججي وذكر الـكاتب ان المحشى كان استاذه وكان حياً في سنة ١٠٣٨ ه ويعبرالمحشى عن المولى عبد الله التستري المتوفى سنة ١٠٢١ ه بشيخنا ومولانا الاستاذ ، فرغ الـكاتب من النسخة في سنه ١٠٨٣ ه .

٤ ـ أصول العقائد : قال في فهرسه عند ترجمته لنفسه وتعـديد تصانيفه ما لفظه : (وكـتاب فيالاصول كبير خرج منه الـكلام في التوحيد و بعضالـكلام في العدل) .

٥ ـ الاقتصاد الهادي الى طريق الرشاد : وهو فيما يجب على العباد من أصول العقائد والعبادات الشرعية على وجه الاختصار ، راجع تفصيله ومحل وجود نسخه المخطوطة في (الذريعة) ج ٢ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

٦ ـ الآمالي : فيالحديث ، ويقال له (المجالس) لأنه املاه مرتباً في عدة مجالس ، وقد طبع في طهران عام ١٣١٣ ه منضما الى كتاب آخر اسمـه (الآمالي) ايضاً شاعت نسبته الى الشيخ ابي عليالحسن بنالشيخ الطوسي ، وليس كما اشتهر بل هو جزء من آمالي والده شيخ الطائفة أيضاً ، إلا انه ليس مثل جزئه الآخر مرتباً على المجالس ، ولهـذه الشايعة أسباب ذكرناها بغاية الدقة والتفصيل في (الذريعـة) ج ٢ ص ٣٠٩ ـ ٣١١ وص ٣١٣ ـ ٣١٤ فليرجع اليها .

٧ ـ أنس الوحيـد : كذا ذكره في ترجمته عنـد عدّ تصانيفه في كتابه

(الفهرست) وقال : انه مجموع .

٨ ـ الايجاز : في الفرائض ، وقد سماه بذلك لأن غرضه فيه الايجاز ، وأحال فيه التفصيل الى كتابه (النهاية) ، وهو من مآخذ (بحار الأنوار) وقد ذكرناه في (الذريعة) ج ٢ ص ٤٨٦ ، وشرحه قطب الدين الراوندي فسماه بـ (الانجاز) كما ذكرناه في ج ٢ أيضاً ص ٣٦٤ .

٩ ـ التبيان في تفسير القرآن : وهو هذا الكتاب العظيم ، والأثر الثمين الذي يمثله الطبع اليوم الى الملأ العلمي ، ويقدمه ناشره الى أنظار القراء الكرام ، وهو أول تفسير جمع فيه مؤلفه أنواع علوم القرآن ، وقد أشار الى فهرس مطوياته في ديباجته ووصفه بقوله : (لم يعمل مثله) . واعترف بذلك امام المفسرين أمين الاسلام الطبرسي في مقدمـة كتابه الجليل (مجمع البيان في تفسير القرآن) (١) فقال : انه الكتاب الذي يقتبس منه ضياء الحق ، ويلوح عليه رواء الصدق ، وقد تضمن من المعاني الأسرار البديعـة ، واحتضن من الألفاظ اللغة الوسيعة ، ولم يقنع بتدوينها دون تبيينها ولا بتنسيقها دون تحقيقها ، وهو القـدوة أستضيء بأنواره ، وأطأ مواقع آثاره .

وقال العلامة السيد مهدي بحر العلوم في (الفوائد الرجالية) ما لفظه :

أما التفسير فله فيه كتاب التبيان الجامع لعـلوم القرآن ، وهو كتاب جليل كبير عديم النظير في التفاسير ، وشيخنا الطبرسي إمام التفسير في كتبه ، اليه يزدلف ومن بحره يغترف ، وفي صدر كتابه الكبير بذلك يعترف .

وكان الشيخ المحقق محمد بن إدريس العجلي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ كثير الوقائع

---

(١) اشتبه الأمر على البحاثة المرحوم الحاج كاتب الجلبي في (كشف الظنون) ج ١ ص ٣١٢ وج ٢ ص ٣٨٥ فنسب (مجمع البيان) للشيخ الطوسي وقال : انه توفي سنة ٥٦١ هـ . ثم قال : واختصر (الكشاف) وسماه (جوامع الجامع) وابتدأ بتأليفه في سنة ٥٦٢ هـ وكأنه لم يميز بين الشيخ الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ والشيخ الطبرسي المتوفى سنة ٥٤٨ هـ و (جوامع الجامع) هو الأخير ألفه بعد (مجمع البيان) وفرغ منه سنة ٥٤٣ هـ كما فصلناه في (الذريعة) ج ٥ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

مع شيخ الطائفة ، دائم الرد على معظم مؤلفاته ، وهو أول من خالف أقواله كما أسلفناه إلا انه يقف عند كتابه التبيان ويعترف له بعظم الشأن ، واستحكام البنيان ، كما لا يخفى ذلك على من راجع (خاتمة المستدرك) لشيخنا النوري ، وقد بلغ من إعجابه به أن لخصه وسماه (مختصر التبيان) وهو موجود كما ذكرناه في محله .

واختصره ايضاً الفقيه المفسر أبو عبدالله محمد بن هارون المعروف والده بالكال ـ الكيال خ ل ـ شيخ محمد بن المشهدي صاحب المزار ، وقد سماه بـ (مختصر التبيان) كذلك كما ذكره المحدث الحر في (أمل الآمل) ، وعده ابن نما من تصانيفه أيضاً كما في إجازة صاحب (المعالم) .

وقد ذكرنا هذا الكتاب في (الذريعة) ج ٣ ص ٣٢٨ ـ ٣٠١ بغاية الوضوح كما أشرنا الى تفاصيل أجزائه وذكرنا ندرته وانه كان عند العلامة المجلسي بأجمعه كما ذكره في مآخذ (البحار) في أوله ، وذكرنا محال وجود أجزائه المتفرقة ، كمكتبة الجامع الأزهر بمصر ، ومكتبة السلطان محمد الفاتح ، ومكتبة السلطان عبد الحميد خان باسلامبول ، ومكتبة الحاج حسين الملك بطهران ، ومكتبة الشيخ جعفر في القطيف ، ومكتبة شيخ الاسلام في زنجان ، والخزانة الغروية في النجف الأشرف ومكتبة مجد الدين النصيري في طهران ، الى غير ذلك من النسخ .

واستدركنا البحث في الجزء الرابع ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ عند ذكر تفاسير الشيعة وذكرنا ما عثرنا عليه بعد ذلك من النسخ في مكتبة المرحوم الشيخ محمد السماوي في النجف ، ومكتبة صديقنا المعظم زعيم الشيعة الأكبر والمرجع الأعلى للتقليد اليوم السيد أغا حسين البروجردي دام ظله ، ومكتبة المرحوم السيد نصر الله التقوي رئيس المجلس الايراني في طهران وغير ذلك .

وكانت في كتب المرحوم الشيخ موسى الأردبيلي نسخة فيها الجزء الأول والرابع والسادس من هذا التفسير ، ولما توفي طلب مني الفاضل السيد شفيع الأردبيلي الوقوف على كتبه ، فحضرت هناك ورأيت هذه النسخة وكان تأريخ كتابتها ١٠٨٧ هـ وهي من موقوفات خاصة للنجف سنة ١١٤٠ هـ فرغب إلي السيد شفيع أن احتفظ

بها عندي خوفاً عليها من التلف ففعلت ، ولما لم أكن أعهد الجزء الأول في مكان آخر أمرت ولدي الفاضل الميرزا علي نقي المنزوي ـ صاحب عدة مؤلفات مطبوعة ومخطوطة ـ أن يستنسخها تكثيراً للنسخ ، ثم بعثت النسخة الأصلية الموقوفة الى (مكتبة الحسينية التسترية) ليستفاد منها ، وبقيت عندي نسخة خط ولدي ، وبعد ذلك بسنين رغب الفقيه الكبير الحجة السيد محمد الكوه كمري التبريزي رحمه الله في طبع الكتاب ، وسعى لجمع بعض أجزائه المتفرقة في البلدان وضم بعضها الى بعض ، ولم يكن فيها الجزء الأول ، فكتب الى جماعة يستفسر منهم ، منهم العلامة المجاهد الشيخ عبد الحسين الأميني حفظه الله صاحب (الغدير) فراجعني الشيخ الأميني فأخبرته بوجوده لدي وأعطيته نسختي فبعثها الى قم للسيد الكوه كمري فصححت وتم بها الكتاب والحمد لله ، وطبع في مجلدين كبيرين يقرب كل واحد منها من ٩٠٠ صفحة وذلك من سنة ١٣٦٠ ـ ١٣٦٥ هـ وكان الباذل لنفقته المحسن الصالح السيد عبد الرسول الروغني الشهير من تجار اصفهان ، وهو من المثرين وأهل الخير وكانت له بعض المبرات يجريها على يدنا في النجف الأشرف .

والحق أن السيد الحجة قد أسدى الى الامة جمعاء يداً لا تنكر ، وقام بخدمة كبيرة ، إذ طالما حنت نفوس المآت من أكابر العلماء الى مشاهدة هذا التفسير الجليل مجموعاً فى مكان واحد بعد تفرق أجزائه وتشتتها فى مختلف البلدان ، وقد وفق لتحقيق هذه الامنية السيد الكوه كمري فبذل جهوداً لا يستهان بها حتى استطاع جمعه وترتيبه فله منا الشكر ، ونسأل الله ان يتغمده برحمته ويجزل أجره .

وقد نقل على ظهر الكتاب من (الذريعة) بعض أوصاف التفسير وما قيل فيه ، ورغم ما بذله الناشر والمصححون من الخدمات المشكورة فقد جاء حافلاً بالاغلاط المطبعية والاملائية ، ولذلك عمد (صاحب مكتبة الأمين) فى النجف الأشرف فاجهد نفسه فى تصحيحه وحسن إخراجه فجاء ـ والحق يقال ـ أحسن بكثير من الطبعة الاولى ، والمأمول من أهل العلم والفضل المبادرة الى الاشتراك بهذا الكتاب واقتنائه وتشجيع أمثال هذه الخدمات الدينية التي لا تقابل بثمن ، لتنتشر أسفار

قدمائنا ، وتظهر للعيان مكانة سلفنا وما لهم من خـدمات وما بذلوه من جهود والله الملهم للصواب .

وقد ذكرنا في « الذريعة » ج ٣ ص ١٧٣ (البيان في تفسير القرآن) كبير في ستة مجلدات رأيناه في « مكتبة الشيخ عبد الحسين الطهراني الشهير بشيخ العراقين » وقلنا: وليس هذا التفسير هو تبيان الشيخ الطوسي ظاهراً لأنه عشرون مجلداً كما يقال أو أكثر ، نعم آخر الجزء الثاني وأول الثالث منه مطابق مع التبيان الخ .

ثم طابقنا الكتاب مع بعض النسخ فاتضح لنا انه من أجزاء التبيان فاستدركنا ذلك وصرحنا باتحادهما في « الذريعة » ايضاً ج ٤ ص ٢٦٦ عند ذكر التفاسير .

١٠ ـ تلخيص الشافي : في الأمامة ، أصله لعلم الهدى السيد المرتضى رحمة الله عليه ، وقد لخصه تلميـذه شيخ الطائفة ، وطبع التلخيص في آخر الشافي بطهران ، سنة ١٣٠١ هـ كما ذكرناه في « الذريعة » ج ٤ ص ٤٢٣ .

١١ ـ تمهيد الأصول : شرح لكتاب « جمل العلم والعمل » لاستاذه المرتضى لم يخرج منـه إلا شرح ما يتعلق بالأصول كما صرح به في الفهرست ، ولذا عبر عنه النجاشي بتمهيد الاصول ، توجد منه نسخة في « خزانة الرضا عليه السلام » بخراسان كما في فهرسها ، وقد ذكرناه في « الذريعة » ج ٤ ص ٤٣٣ .

١٢ ـ تهذيب الاحكام : أحد الكتب الأربعة والمجاميع القديمة المعول عليها عند الأصحاب من لدن تأليفها حتى اليوم ، استخرجه شيخ الطائفة من الأصول المعتمدة للقدماء ، والتي هيأها الله له وكانت تحت يده من وروده الى بغداد سنة ٤٠٨ هـ الى هجرته الى النجف الاشرف سنة ٤٤٨ هـ ، وقد خرج من قلمه الشريف تمام كتاب الطهارة الى كتاب الصلاة بعنوان الشرح على « المقنعة » تأليف استاذه الشيخ المفيد الذي توفى عام ٤١٣ هـ ، وذلك في حياة استاذه ، وكان عمره يومذاك خمساً ـ أو ستاً ـ وعشرين سنة ، ثم تممه بعـد وفاته ، وقد أنهيت أبوابه الى ثلاثمائة وثلاثة وتسعين باباً ، واحصيت أحاديثه في ١٣٥٩٠ ، وقد طبع في مجلدين كبيرين سنة ١٣١٧ هـ ويوجد في تبريز الجزء الأول منه بخط مؤلفه شيخ الطائفة ، وعليه خط الشيخ البهائي

وهو في مكـتبة السيد الميرزا محمد حسين بن علي أصغر شيخ الاسلام الطباطبائي المتوفى سنة ١٢٩٣ ﻫ ، كما ذكرناه في « الذريعة » مفصلاً ج ٤ ص ٥٠٤ ـ ٥٠٧ ، وأحصينا هناك من شروح الكـتاب ستة عشر ، ومن حواشيه عشرين ، كما أشرنا الى عدة كـتب تتعلق به ، كـ « إنتخاب الجيد من تهذيبات السيد » و « ترتيب التهذيب » و « تصحيح الاسانيد » و « تنبيه الأريب في إيضاح رجال التهذيب » الى غير ذلك مما لا غنىً للباحثين عن مراجعته .

١٣ ـ الجمل والعقود : في العبادات ، وقـد رأيت منه عدة نسخ في النجف الاشرف ، وفي طهران ، ألفه بطلب من خليفته في البلاد الشامية ، وهو القاضي عبد العزيز بن نحرير بن عبد العزيز بن البراج قاضي طرابلس المتوفى سنة ٤٨١ ﻫ ، كما صرح في أوله بقوله : « فاني مجيب الى ما سأل الشيخ الفاضل أطال الله بقاءه » . وقد صرح في هامش بعض النسخ القديمة بأن القاضي المذكور هو المراد بالشيخ كما ذكرناه في « الذريعة » ج ٥ ص ١٤٥ .

١٤ ـ الخلاف في الأحكام : ويقال له « مسائل الخلاف » أيضاً ، وهو مرتب على ترتيب كـتب الفقه وقد صرح فيه بأنه ألفه قبل كـتابيه « التهذيب » و « الاستبصار » وناظر فيه المخالفين جميعاً ، وذكر مسائل الخلاف بيننا وبين من خالفنا من جميع الفقهاء وذكر مذهب كل من خالف على التعيين ، وبيان الصحيح منه وما ينبغي أن يعتقد الى غير ذلك مما شرحه في أول الكتاب ، وهو في مجلدين كبيرين ، يوجـدان تماماً في « مكتبة الحجة السيد ميرزا باقر القاضي » في تبريز ، وهناك نسخ في النجف الأشرف في « مكتبة الشيخ هادي آل كاشف الغطاء » و « مكتبـة الشيخ محمد السماوي » و « مكتبة الشيخ مشكور الحولاوي » و « مكتبة الحسينية التسترية » ونسخة في الكاظمية في « مكتبة السيد حسن الصدر » وهي أقـدم نسخة رأيتها حيث أن على ظهر الصفحـة الأخيرة منها إجازة تأريخها سنة ٦٦٨ ﻫ ونظراً لنفاسة هذه الاجازة فقد نشرتها حرفياً في هامش الجزء السابع من « الذريعـة » ص ٢٣٦ عند ذكر الخلاف ، ونسخة أخرى في « الخزانة الرضوية » بخراسان ، تجد تفصيل

ذلك في « الذريعة » وقد طبع الكتاب بحمد الله في طهران سنة ١٣٧٠ ﻫ بأمر من زعيم الشيعة الحجة السيد أغا حسين البروجردي دام ظله مع تعليقة له عليه ، وذلك بنفقة الوجيه الصالح الحاج محمد حسين كوشان پور جزاهما الله خيرا الجزاء ان شاء الله ، والأسف ان السيد البروجردي لم يرجع الى « الذريعة » ولو رجع اليها لدلته على النسخة التامة التي ذكرناها ولاستغنى عن استكتاب القطع وضم بعضها الى بعض كما شرح ذلك بقلمه على ظهر الكتاب .

١٥ ـ رياضة العقول : شرح فيه كتابه الآخر الذي سماه « مقدمة فى المدخل الى علم الكلام » ذكرها النجاشي فى رجاله والمترجم له فى فهرس كتبه وابن شهراشوب فى « معالم العلماء » كما ذكرناه فى حرف الراء من « الذريعة » المخطوط .

١٦ ـ شرح الشرح : فى الاصول ، قال تلميذه الحسن بن مهدي السليقي : إن من مصنفاته التي لم يذكرها فى الفهرست كتاب شرح الشرح فى الاصول ، وهو كتاب مبسوط أملى علينا منه شيئاً صالحاً ، ومات رحمه الله ولم يتمه ولم يصنف مثله .

١٧ ـ العدة : في الأصول ، ألفه في حياة أستاذه السيد المرتضى ، وقسمه قسمين الأول في أصول الدين والثاني في أصول الفقه ، وهو أبسط ما ألف في هذا الفن عند القدماء أفاض فيه القول في تنقيح مباني الفقه بما لا مزيد عليه في ذلك العصر ، طبع ببمبيء في سنة ١٣١٢ ﻫ ، وطبع في ايران ثانياً سنة ١٣١٤ ﻫ مع حاشية المولى خليل القزويني المتوفى سنة ١٠٨٩ وليست شرحاً كما قاله الشيخ الحر في (أمل الآمل) بل هي حاشية مبسوطة في مجلدين كما فصله المولى عبد الله الأفندي في (رياض العلماء) وللوقوف على تفصيل ذلك راجع (الذريعة) ج ٦ ص ١٤٨ .

١٨ ـ الغيبة : في غيبة الامام الحجة المهدي المنتظر عليه السلام ، طبع في تبريز على الحجر طبعاً صحيحاً متقناً في سنة ١٣٢٤ ﻫ مع حاشية كل من العلامة الشيخ فضل علي الايرواني المتوفى سنة ١٣٣١ ﻫ والعلامة الشهيد الميرزا علي أغا التبريزي الملقب بثقة الاسلام ، وكان طبعه بنفقة الفاضل التقي الشيخ محمد صادق التبريزي المعروف بالقاضي ابن الحاج محمد علي بن الحاج علي محمد بن الحاج الله وردي ، وهو

من الكتب التي حصل عليها من إرث أبي زوجته السيد ميرزا مهدي خان الطباطبائي التبريزي ، وقد ظن بعضهم انه ألفه في حياة أستاذه الشيخ المفيد ، وانه هو المراد بقوله : ما رسمه الشيخ الجليل أطال الله بقاءه إلخ . وليس كذلك فقد قال في جواب الاعتراض على طول عمر الحجة كما في ص ٨٥ من الكتاب ما نصه : الى هذا الوقت الذي هو سنة سبع واربعين واربعماءة الخ فاين هذا الشيخ من الشيخ المفيد الذي توفى سنة ٤١٣ هـ ؟

١٩ ـ الفهرست : (١) ذكر فيه أصحاب الكتب والأصول ، وأنهى اليهم واليها أسانيده عن مشايخه ، وهو من الآثار الثمينة الخالدة ، وقد اعتمد عليه علماء الامامية على بكرة أبيهم في علم الرجال ، وقد شرحه العلامة المحقق الشيخ سليمان الماحوزي المتوفى ١١٢١ هـ وسماه (معراج الكمال الى معرفة الرجال) ورتبه على طريقة كتب الرجال كل من العلامة الشيخ علي المقشاعي الاصبعي البحراني المتوفى سنة ١١٢٧ هـ والعلامة المولى عناية الله القهپائي النجفي المتوفى بعد سنة ١١٢٦ وغيرها مما ذكرنا كلاً في محله من (الذريعة) .

طبع الفهرست في ليدن قبل سنين متطاولة ولا أذكر الآن عام طبعه ، على إنني وقفت عليه في طهران ، وكانت نسخه عزيزة جداً ولذلك كتبت عليه نسخة لنفسي قبل إحدى وستين سنة ، ولا تزال موجودة عندي بورقها وخطها القديم مع غيرها مما استنسخته يومذاك من الكتب لندرته ، وتأريخ فراغي من كتابتها في طهران أيام عودتي اليها من النجف الاشرف صبيحة يوم الأحد غرة شهر ربيع الأول سنة ١٣١٥ هـ .

وهذه الطبعة كانت جيدة متقنة صحيحة ثمينة جداً ، حتى ان مكتبات طهران وعلمائها يومذاك لم تكن تضم غير هذه النسخة ، لأن جلبها من الخارج كان يكلف ثمناً لا بأس به ، وقد كانت هذه النسخة في مكتبة الزعيم الحجة المعروف

(١) ذكره البحاثة المفضال يوسف أسعد داغر في مصادر كتابه (مصادر الدراسة الأدبية) ج ١ ص ٩ وذكر ان وفاة الشيخ في ٤٠٥ هـ والصحيح ٤٦٠ كما سيأتي وقال : انه في ٢٨٣ ص والصحيح ٣٨٣ .

والأديب الكبير الميرزا أبي الفضل الطهراني الشهير بـ (الكلانتري) والمتوفى سنة ١٣١٩ ه استعرتها من تلميذه استاذي الشيخ علي النوري الايلكائي رحمه الله فرأيت في آخرها عدة صفحات باللغة اللاتينيــة ، ففتشت في طهران كثيراً حتى عثرت بمن يحسنها فترجمها لي بالفارسية ونقلتها أنا الى العربية وصدرت بها نسختي ، وهي كلمة الناشر وخلاصتها : أنه أجهد نفسه في مقابلة النسخ والتدقيق في التصحيح الى غير ذلك

وطبع ثانياً في كلكته من بلاد الهند عام ١٢٧١ ه فجاء في ٣٧٣ صفحة وقد تولى نشره وتصحيحه (ا . سبرنجر) والمولى عبد الحق ، وقد طبع في ذيل صفحاته (نضد الايضاح) - يعني ايضاح الاشتباه للعلامة الحلي - تأليف علم الهـدى محمد ابن الفيض الكاشاني المتوفى بعد سنة ١١١٢ ه ولم أقف على هذه النسخة وانما ذكرها ناشر الطبعة الثالثة .

وفي سنة ١٣٥٦ ه طبعه في النجف الاشرف صديقنا العلامــة المحقق السيد محمد صادق آل بحر العلوم حفظه الله قاضي البصرة اليوم مع مقدمة ضافية عن حياة الشيخ وتعاليق مفيدة ، تدارك فيها ما فات في طبعتيه الأولى والثانية ، مع التصحيح الدقيق ، والمراجعة الى الأصول المعتبرة ، وكتب الرجال وتطبيق المنقول فيها عن الفهرست ، الى غير ذلك مما تظهر به ميزة هذه الطبعة ، وقد راعى فيها الامانة على خلاف عادة بعض المعاصرين ، فما نقل عنا شيئاً إلا وأشار الى مصدره أيده الله .

وللفهرست ذيول وتتمات هي من أنفس الكتب الرجاليـة ، منها « فهرست الشيخ منتجب الدين » المتوفى بعد سنة ٥٨٥ ه ذكر فيه المصنفين بعد عصر الشيخ الى عصره ؛ وقد طبع مع الجزء الأخير من « بحار الأنوار » وعندي منه نسخة بخطي فرغت من كتابتها في النجف الأشرف سنة ١٣٢٠ ه كتبتها قبـل أن اطلع على طبعه في آخر « البحار » . ومنها « معالم العلماء » للشيخ رشيد الدين محمد بن علي ابن شهراشوب السروي صاحب « المناقب » المطبوع والمتوفى سنة ٥٨٨ ه وقد زاد هذا الأخير على ما ذكره شيخ الطائفة من أسماء المصنفين ثلاث مائة مصنف .

وقد لخص (الفهرست) الشيخ نجم الدين أبو القاسم جعفر بن الحسن بن يحيى

ابن سعيد الهذلي الشهير بالمحقق الحلي صاحب (الشرايع) والمتوفى سنة ٦٧٦ ﻫ لخصه بتجريده عن ذكر الكتب والأسانيد اليها ، والاقتصار على ذكر نفس المصنفين وسائر خصوصياتهم مرتباً على الحروف في الاسماء والالقاب والكنى ، رأيته في (مكتبة السيد حسن الصدر) في الكاظمية كما ذكرته في « الذريعة » ج ٤ ص ٤٢٥ .

٢٠ ـ ما لا يسع المكلف الاخلال به : في علم الكلام ، ذكره النجاشي في « رجاله » والشيخ في « الفهرست » ، ورأيت عند العلامة المرحوم الشيخ هادي آل كاشف الغطاء مجموعة بخط جده الشيخ الاكبر جعفر كاشف الغطاء ، وفي أولها كتاب في أصول الدين وفروعه ليس بخط الشيخ الاكبر ، أوله : « الحمد لله كما هو أهله ومستحقه ، وصلى الله على سيد الانبياء محمد وعترته الأبرار الاخيار صلاة لا انقطاع لمددها ، ولا انتهاء لعددها ، وسلم وكرم ، أما بعد فقد أجبت الى ما سأله الاستاذ أدام الله تأييده من إملاء مختصر محيط مما يجب اعتقاده في جميع أصول الدين ، ثم ما يجب عمله من التبرعات ، لا يكاد المكلف من وجوبها عليه ـ كذا ـ لعموم البلوى ، ولم اخل شيئاً مما يجب اعتقاده من إشارة الى دليله وجهة علمه على صغر الحجم وشدة الاختصار ، ولن يستغني عن هذا الكتاب مبتدىء تعليما ، وتبصرة ومنتهٍ تنبيهاً وتذكرة ، ومن الله أستمد المعونة والتوفيق الخ » .

وعنوان شروعه في المطلب هكذا بلفظه : « ما يجب اعتقاده في أبواب التوحيد ، الأجسام محدثة لأنها لم تسبق الحوادث فلها حكمها في الحدوث الى آخر كلامه » . والمظنون قوياً كون هذا الكتاب هو « ما لا يسع المكلف الاخلال به » والله العالم .

٢١ ـ ما يعلل وما لا يعلل : في علم الكلام أيضاً ذكره النجاشي في « رجاله » وشيخ الطائفة نفسه في « الفهرست » أيضاً .

٢٢ ـ المبسوط : في الفقه من أجل كتب هذا الفن ، يشتمل على جميع أبوابه في نحو سبعين كتابا طبع في ايران سنة ١٢٧٠ ﻫ ، وقد وقفت على بعض نسخه

المخطوطة النفيسة في مختلف الاماكن، وفصلت ذكرها وذكرت خصوصياتها في حرف الميم من « الذريعة » ولا حاجة الى ذكرها بعد ان طبع الكتاب ومن أراد الوقوف عليها فعليه بمراجعة الكتاب المذكور .

٢٣ ـ مختصر أخبار المختار بن أبي عبيدالثقفي : ويعبر عنه بـ (أخبار المختار) أيضاً كما ذكرناه بهذا العنوان في (الذريعة) ج ١ ص٣٤٨ .

٢٤ ـ مختصر المصباح : في الأدعية والعبادات ، اختصر فيـه كتابه الكبير (مصباح المتهجد) ويقال له (المصباح الصغير) ايضاً في قبال أصله (المصباح الكبير) نسخة منه في « مكتبة الشيخ هادي آل كاشف الغطاء » ، ونسختان في « مكتبة مدرسةفاضل خان » في مشهد الرضا عليه السلام بخراسان كما ذكرناه في الميم من «الذريعة»

٢٥ ـ مختصر في عمل يوم وليلة : في العبادات ، وقـد سماه بعضهم « يوم وليلة » لكن الشيخ نفسه ذكره في « الفهرست » بهذا العنوان ، وقد اقتصر فيـه على الفرائض والنوافل الاحدى والخمسين ركعة في اليوم والليـلة وبعض التعقيبات في غاية الأختصار ، رأيت منه عدة نسخ ، إحداها بخط العلامة السيد أحمد زوين النجفي فرغ من كتابتها في سنة ١٢٣٤ هـ ، والثانية بخط مولانا الحجة الميرزا محمد الطهراني العسكري وهي الآن بمكتبته في سامراء ، وغـيرها مما ذكرته في الميم من « الذريعة » .

٢٦ ـ مسألة في الأحوال : ذكرها شيخ الطائفة نفسه في عـداد تصانيفه في كتابه « الفهرست » ووصفها بقوله : مليحة .

٢٧ ـ مسألة في العمل بخبر الواحد وبيان حجيته : ذكرناها في «الذريعة » ج ٦ ص ٢٧٠ بعنوان « حجية الاخبار » .

٢٨ ـ مسألة في تحريم الفقاع : ذكرهـا الشيخ نفسه في الفهرست ، نسخة منها بخط الحجة المرحوم الميرزا محمد الطهراني العسكري رأيتها عنـده بمكتبته في سامراء ، ونسخة أخرى في « مكتبـة الحسينية التسترية » في النجف الاشرف ، وثالثة في (مكتبة راجه فيض آباد) في الهند كما فصلناه في (الذريعة) .

٢٩ ـ مسألة في وجوب الجزية على اليهود والمنتمين الى الجبابرة : لا ذكر لها في (فهرست الشيخ) المطبوع المتداول ، بل ذكرها المولى عناية الله القهپاني في كتابه (مجمع الرجال) الموجود عندنا بخطه نقلاً عن فهرست الشيخ ، وهذا يدل على وجودها في النسخة التي وقف عليها ، ويظهر من ذلك وجود بعض النقصان في المتداول .

٣٠ ـ مسائل ابن البراج : ذكره شيخ الطائفة نفسه في كتابه (الفهرست)

٣١ ـ الفرق بين النبي والامام : في علم الكلام ، ذكرها في (الفهرست) ايضاً

٣٢ ـ المسائل الالياسية : هي مائة مسألة في فنون مختلفة ، ذكرها هو في « الفهرست » ، وذكرناها بعنوان « جوابات المسائل الالياسية » في « الذريعة » ج ٥ ص ٢١٤ .

٣٣ ـ المسائل الجنبلائية : في الفقه ، وهي أربع وعشرون مسألة كما ذكره الشيخ في « الفهرست » ، وذكرناها في « الذريعة » ج ٥ ص ٢١٩ بعنوان جوابات. وفي بعض المواضع : الجيلانية وهو غير صحيح .

٣٤ ـ المسائل الحائرية : في الفقه ، وهي نحو من ثلاثمائة مسألة ، كما في « الفهرست » ، وهي من مآخذ « بحار الانوار » كما ذكره المجلسي في أوله ، وينقل عنه ابن ادريس في « السرائر » بعنوان « الحائريات » كما ذكرناه في « الذريعة » ج ٥ ص ٢١٨ .

٣٥ ـ المسائل الحلبية : في الفقه أيضاً ، ذكره الشيخ نفسه في [الفهرست] ونقلناه في [الذريعة] ج ٥ ص ٢١٩ .

٣٦ ـ المسائل الدمشقية : في تفسير القرآن ، وهي إثنتي عشرة مسألة ، في تفسير القرآن ، ذكرها الشيخ نفسه في [الفهرست] وقال : لم يعمل مثلها . وذكرناها بعنوان الجوابات في [الذريعة] ج ٥ ص ٢٢٠ .

٣٧ ـ المسائل الرازية : في الوعيد ، وهي خمس عشرة مسألة وردت من الري الى استاذه السيد المرتضى فأجاب عنها ، واجاب عنها الشيخ الطوسي أيضاً ، ذكرها

فى [الفهرست] ، وذكرناها فى [الذريعة] ج ٥ ص ٢٢١ بعنوان [جوابات المسائل الرازية] . كما ذكرنا هناك جوابات أستاذه المرتضى .

٣٨ ـ المسائل الرجبية : فى تفسير آي من القرآن ، ذكرها الشيخ نفسه فى [الفهرست] ووصفها بقوله : لم يصنف مثلها . ذكرناها فى حرف الميم من [الذريعة] القسم المخطوط .

٣٩ ـ المسائل القمية : ذكرها المولى عناية الله القهپائي نقلاً عن [الفهرست] للشيخ لكن لم نجده فى النسخة المطبوعة ، وقد ذكرناه فى [الذريعة] ج ٥ ص ٣٣٠ بعنوان [جوابات المسائل القمية] .

٤٠ ـ مصباح المتهجد : في أعمال السنة كبير ، وهو من أجل الكتب في الأعمال والأدعية ، وهو قدوتها ، وأصلها ودوحتها ، ومنه اقتبس كثير من كتب الباب ، كـ (اختيار المصباح) لابن باقي و (ايضاح المصباح) للنيلي و (تتمات المصباح) في عشرة مجلدات كلها كتاب مستقل ، وله عنوان خاص ، وهي للسيد ابن طاووس ، و (قبس المصباح) للصهرشتي ، و (منهاج الصلاح) للعلامة الحلي ، ولكل من المولى حيدر علي الشيرواني المعروف بالمجلسي والسيد عبدالله شبر ، ونظام الدين علي بن محمد (١) (مختصر المصباح) و [منهاج الصلاح] لابن عبد ربه الحلي وغير ذلك طبع في طهران على نفقة المرحوم الحاج سهم الملك بيات العراقي بترغيب العالم التقي السيد علم الهدى الكابلي نزيل ملاير أخيراً ، وذلك في سنة ١٣٣٨ وبهامشه ترجمة فارسية للعلامة الشيخ عباس القمي .

٤١ ـ المفصح : في الامامة ، وهو من الآثار الهامة ، توجد نسخة منه في [مكتبة راجة فيض آباد] في الهند ، وحصلت نسخة منه لشيخنا الحجة الميرزا حسين النوري ، وجدها مع [النهاية] وهي بخط أبي المحاسن بن ابراهيم بن الحسين ابن بابويه كان تاريخ كتابته للنهاية الثلاثاء ١٥ ربيع الآخر سنة ٥١٧ هـ فاستنسخها

(١) كنا نظن انه نظام الدين الساوجي ، لكن المولى عبدالله الافندي صاحب (الرياض) قال : واحتمال كون نظام الدين هذا هو الساوجي تلميذ البهائي بعيد .

جماعة منهم: الحجة المرحوم الميرزا محمد الطهراني العسكري، وهي بخطه في مكتبته بسامراء.

٤٢ ـ مقتل الحسين عليه السلام: ذكره الشيخ في (الفهرست)، وعنه نقلناه في حرف الميم من (الذريعة) المخطوط.

٤٣ ـ مقدمة في المدخل الى علم الكلام: ذكره النجاشي في رجاله، والشيخ نفسه في (الفهرست) ووصفها فيه بقوله: لم يعمل مثلها.

أقول: رأيت في كتب الزعيم الفقيه المرحوم السيد محمد الكوه كمري الشهير بالحجة نسخة من كتاب (المستجاد من الارشاد) تأريخ كتابتها سنة ٩٨٢ هـ، وفي حاشيتها كتاب في أصول الدين منسوب الى شيخ الطائفة الطوسي، أوله: (اذا سألك سائل وقال: ما الايمان؟. فقل: هو التصديق بالله وبالرسول وبما جاء به وبالأئمة عليهم السلام، كل ذلك بالدليل لا بالتقليد، وهو مركب مبوب على خمسة أركان من عرفها كان مؤمناً، ومن جحدها كان كافراً، وهي التوحيد والعدل والنبوة والامامة والمعاد، وحد التوحيد.... ـ الى قوله: ـ والدليل على ان الله موجود ان العالم أثره وعناوينه الى آخره هكذا والدليل على كذا فهو كذا إلخ، ولعل هذا الكتاب هو المقدمة، ونسخة أخرى منه بعينه في مجموعة كانت في (مكتبة المولى محمد علي الخوانساري) في النجف الاشرف من دون نسبتها الى الشيخ، وتاريخ كتابتها ٩٨٢ هـ ايضاً، ومعها في المجموعة (النكت الاعتقادية) للشيخ المفيد، و (مختصر التحفة الكلامية)، ونسخة ثالثة عليها خط شيخ الطائفة في (مكتبة السيد محمد المشكاة) في طهران (١) كتب على ظهرها ما لفظه:

---

(١) هذه المكتبة تحتوي على أكثر من ألف مجلد كلها مخطوطة قديمة نادرة من مؤلفات أعلام القرون الأولى والوسطى، ولها بين أهل العلم والأدب في ايران شهرة واسعة، وقد رأيناها وضبطنا خصوصيات نوادرها، وصاحبها الجليل من العلماء الأفذاذ، وهو اليوم من أساتذة جامعة طهران على نزعته الروحية وعمته الشريفة، وهو من أصدقائنا ومن الآحاد الذين أجزناهم في الاجتهاد المطلق ورواية الحديث، وقد أهدى هذه المكتبة العظيمة ـ التي خسر في سبيل جمعها ما ورثه من الاملاك ـ الى جامعة طهران، فكان لذلك صدى ارتياح واستحسان. وقد اختارت الجامعة لتأليف فهرس لها فاضلين من أهل الفن والخبرة أحدهما ولدي الأرشد الاديب البحاثة الميرزا علي نقي المنزوي والثاني الفاضل البحاثة محمد تقي دانش پژوه وهما من خيرة تلامذة صاحب المكتبة السيد محمد المشكاة ي ــ

(مقدمة الكلام . تصنيف الشيخ الامام الورع قصوة العارفين ، وحجة الله على العالمين، لسان الحكماء والمتكلمين، أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي متعنا الله بطول بقائه ونفعنا بعلومه) . وكتب على الصفحة الثانية منه ما لفظه : (قرأ علي هذا الكتاب وبحث على معانيه صاحبه في عدة مجالس آخرها السادس والعشرين من المحرم لسنة خمس وأربعين واربعمائة بحدود دار السلام ، وكتبه محمد بن الحسن ابن علي ولله الحمد والمنة صلى الله على محمد وآله الطيبين) . وآخرها ما نصه : (. . . . مفيض الحياة وبارىء النسمة وهو المستحق له دائماً سرمداً وحسبي الله ونعم الوكيل رب اتمم بالخير . وقع الفراغ من استنساخه بتوفيق الله وبحسن معونته سادس عشرين – كذا – من رجب سنة أربع وأربعين واربعمائة في مدينة السلام على يد العبد الضعيف نظام الدين محمود بن علي الخوارزمي حامداً لله تعالى مصلياً على نبيه . .)

٤٤ ـ مناسك الحج في مجرد العمل : ذكره في (الفهرست) أيضاً .

٤٥ ـ النقض على ابن شاذان في مسألة الغار : ذكره كذلك في (الفهرست) وذكره العلامة السيد مهدي بحر العلوم في (الفوائد الرجالية) : وقال انه نقض في مسألة الغار ومسألة العمل بالخبر الواحد ، فظاهر كلامه انه رآه .

٤٦ ـ النهاية في مجرد الفقه والفتوى : من أعظم آثاره وأجل كتب الفقه ، ومتون الأخبار ، أحصي في فهرسه المخطوط عند العلامة الشيخ هادي آل كاشف الغطاء ، في ٢٢ كتاباً و ٢١٤ باباً ، وقد كان هذا الكتاب بين الفقهاء من لدن عصر مصنفه الى زمان المحقق الحلي كالشرايع بعد مؤلفها ، فكان بحثهم وتدريسهم

—— كلية المعقول والمنقول وقد أخرج ولدي المحروس حتى الآن جزئين الأول خاص بالكتب المؤلفة في القرآن والدعاء طبع في سنة ١٣٧٠ هـ فجاء في ٢٧٥ صفحة ، والثاني خاص بكتب الأدب طبع عام ١٣٧٢ هـ فجاء في ٨٨٩ صفحة وقد صدره بتقريض جليل من أخينا في الله الحجة فقيد الاسلام ومفخرة الشيعة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء رحمه الله كتبه على الجزء الأول عند ما بعث نسخة منه الى مكتبته الموقوفة في النجف الأشرف وقد أخرج الفاضل الآخر بعد الجزء الثاني سلسلة وصلنا منها حتى كتابة هذه السطور ٢٠٧٢ صفحة ولها تتمة على ما يقال ، وهي في مختلف العلوم وفي فصول مختلفة .

فيه ، وشروحهم عليه ، وكانوا يخصونه بالرواية والاجازة ، وله شروح متعددة ذكرناها في محالها من (الذريعة) ، وقد رأيت منه عدة نسخ أقدمها بخط الشيخ ابي الحسن على بن ابراهيم بن الحسن بن موسى الفراهاني فرغ من كتابتها غرة رجب سنة ٥٩١ هـ ، رأيتها في (مكتبة العلامة الحجة الشيخ عبد الحسين الطهراني) الشهير بشيخ العراقين ، الى غير ذلك من النسخ التي ذكرت خصوصياتها مفصلاً في حرف النون من (الذريعة) عند ذكر الكتاب ، وقد طبع كتاب النهاية في سنة ١٢٧٦ هـ مع (نكت النهاية) للمحقق و (الجواهر) للقاضي وغيرهما في مجلد كبير ، وله ترجمة فارسية لبعض الأصحاب المقاربين لعصر الشيخ الطوسي وهي نسخة عتيقة رأيتها في (مكتبة السيد نصر الله الأخوي) في طهران كما ذكرته في (الذريعة) ج ٤ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

٤٧ ـ هداية المسترشد وبصيرة المتعبد : في الأدعية والعبادات ذكره الشيخ في (الفهرست) وعنه نقلناه في حرف الهاء المخطوط من (الذريعة) .

هذا ما وصل الينا من أسماء مؤلفات شيخ الطائفة أعلى الله مقامه ومنه ما هو موجود وما هو مفقود ، ولعل هناك ما لم نوفق للعثور عليه (وفوق كل ذي علم عليم) .

مشايخه وأساتذته :

إن مشايخ شيخ الطائفة في الرواية وأساتذته في القراءة كثيرون ، فقد أحصى شيخنا الحجة الميرزا حسين النوري في « مستدرك وسائل الشيعة » ج ٣ ص ٥٠٩ سبعاً وثلاثين شخصاً استخرج أسماءهم من مؤلفات الشيخ ، ومن (الاجازة الكبيرة) التي كتبها العلامة الحلي ـ أعلى الله مقامه ـ لأولاد السيد ابن زهرة الحلبي وغير ذلك .

إلا أن مشايخه الذين تدور روايته عليهم في الغالب ، والذين أكثر الرواية عنهم وتكرر ذكرهم في (الفهرست) وفي مشيخة كل من كتابيه (التهذيب) و (الاستبصار) خمسة ، واليك أسماءهم حسب حروف الهجاء لا تفاوت الدرجات :

١ ـ الشيخ أبو عبدالله أحمد بن عبد الواحـد بن أحمد البزاز المعروف بابن الحاشر مرة ، وبابن عبدون أخرى ، والمتوفى سنة ٤٢٣ هـ .

٢ ـ الشيخ أحمد بن محمد بن موسى · المعروف بابن الصلت الأهوازي المتوفى بعد سنة ٤٠٨ هـ (١) .

٣ ـ الشيخ أبو عبدالله الحسين بن عبيدالله بن الغضائري المتوفى سنة ٤١١ هـ

٤ ـ الشيخ أبوالحسين علي بن احمد بن محمد بن أبي جيد المتوفى بعد سنة ٤٠٨ هـ

٥ ـ شيخ الأمة ومعلمها أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان الشهير بالشيخ المفيد والمتوفى سنة ٤١٣ هـ .

هؤلاء الخمسة هم الذين أكثر في الرواية عنهم في كتبه المهمة ، وقد روى عن باقي مشايخه في كتبه المذكورة وغيرها لكن لا بهذه الكثرة ، والى القارىء اسماءهم مرتبة على حروف الهجاء :

١ ـ أبو الحسين الصفار (ابن الصفار خ ل) .

٢ ـ أبو الحسين بن سوار المغربي . عده العلامة الحلي في (الاجازة الكبيرة) من مشايخه من العامة .

٣ ـ الشيخ أبو طالب بن غرور .

٤ ـ القاضي ابو الطيب الطبري الحويري المتوفى بعد سنة ٤٠٨ هـ .

٥ ـ أبو عبدالله أخو سروة .

٦ ـ أبو عبدالله بن الفارسي .

٧ ـ أبو علي بن شاذان المتكلم . وقد عده العلامة الحلي في (الاجازة الكبيرة) من مشايخه من العامة أيضاً .

٨ ـ أبو منصور السكري . قال صاحب (الرياض) : يحتمل أن يكون من

---

(١) ان تواريخ وفيات أكثر مشايخ شيخ الطائفة مجهولة ، فمن لم نقف على تاريخ وفاته من أهل العراق نذكر له هذا التأريخ لأنه كان حياً فيه ، وذلك لأن ورود شيخ الطائفة الى العراق كان في سنة ٤٠٨ هـ ، ولا شك انه استجازهم بعد وروده في تاريخ لا نعرفه ، ولذا فانا نثبت ما تيقناه راجين أن يوفق غيرنا لاكتشاف ما لم نوفق له .

العامة أو الزيدية . اقول : استبعد شيخنا النوري كونه من العامة مستدلاً بما وجده من رواياته التي لا يرويها أبناء العامة ، الا انه لم ينف كونه زيدياً .

٩ ـ أحمد بن ابراهيم القزويني المتوفى بعد سنة ٤٠٨ هـ .

١٠ ـ أبو الحسين وأبو العباس أحمد بن علي النجاشي صاحب (كتاب الرجال) المعروف والمتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

١١ ـ جعفر بن الحسين بن حسكة القمي المتوفى بعد ٤٠٨ هـ .

١٢ ـ الشريف أبو محمد الحسن بن القاسم المحمدي المتوفى بعد سنة ٤٠٨ هـ .

١٣ ـ أبو علي الحسن بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن أشناس المعروف بابن الحمامي البزاز . عبر عنه كذلك السيد ابن طاووس في (الاقبال) في عمل يوم الغدير والشيخ محمد الحر العاملي في (اثبات الهداة) ، وذكر شيخنا النوري في عداد مشايخ شيخ الطائفة الحسن بن اسماعيل المعروف بابن الحمامي . وهما واحد حتماً ، وقد عبر عنه في بعض المواضع بأبي الحسن محمد بن اسماعيل ، كما في صدر اسناد بعض نسخ الصحيفة السجادية ، فان هذا الرجل هو الراوي للصحيفة الكاملة بنسخة مخالفة للصحيفة المشهورة في بعض العبارات ، وفي الترتيب ، وفي عدد الأدعية ، ونحو ذلك كما قاله صاحب (الرياض) وذكر وجود عدة نسخ منها إحداها عنده ، وقد يعبر عنه أيضاً بالحسن بن اسماعيل وقد ترجم له بهذا العنوان في (أمل الآمل) ص ٤٦٧ من طبعة طهران سنة ١٣٠٧ هـ التي هي مع (الرجال الكبير) مسلسلة الأرقام ، ولذلك توهم فيه شيخنا النوري رحمه الله فذكره بهذا العنوان كما أسلفناه محتملاً التعدد ، ونقل السيد ابن طاووس في أواخر (الاقبال) عن أصل كتاب الحسن بن اسماعيل بن العباس ومراده هذا الشيخ أيضاً ، ويعبر عنه بابن اشناس وبابن الاشناس وغير ذلك ، والصحيح في اسمه ونسبه ما ذكرناه .

وقد ترجم له بهذا العنوان الصحيح معاصره أبو بكر الخطيب في (تأريخ بغداد) ج ٧ ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦ فقال :

... كتبت عنه شيئاً يسيراً ، وكان سماعه صحيحاً ، إلا انه كان رافضياً

خبيث المذهب ، وكان له مجلس في داره بالكرخ يحضره الشيعة ويقرأ عليهم مثالب الصحابة واللعن على السلف . . . سألته عن مولده فقال في شوال من سنة ٣٥٩ ﻫ ومات في ليلة الاربعاء الثالث من ذى القعدة سنة ٤٣٩ ﻫ ودفن صبيحة تلك الليلة في مقبرة باب الكناس .

أقول : أشناس (١) بفتح الألف وسكون الشين المعجمة وفتح النون ثم الألف الساكنة ، وبعدها السين المهملة : اسم غلام لجعفر المتوكل .

١٤ ــ أبو محمد الحسن بن محمد بن يحي بن داود الفحام المعروف بابن الفحام السر من رائي ــ السامرائي ــ المتوفى بعد سنة ٤٠٨ ﻫ

١٥ ــ أبو الحسين حسنبش المقرىء المتوفى بعد سنة ٤٠٨ ﻫ .

١٦ ــ أبو عبدالله الحسين بن ابراهيم القزويني المتوفى بعد سنة ٤٠٨ ﻫ .

١٧ ــ أبو عبدالله الحسين بن ابراهيم بن علي القمي المعروف بابن الخياط .

١٨ ــ ألحسين بن أبي محمد هارون بن موسى التلعكبري المتوفى بعد سنة ٤٠٨ ﻫ

١٩ ــ أبو محمد عبد الحميد بن محمد المقرىء النيسابوري .

٢٠ ــ أبو عمرو عبد الواحد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن مهدي المتوفى بعد سنة ٤١٠ ﻫ .

٢١ ــ أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر بن حفص المقرىء المعروف بابن الحمامي المقرىء المتوفى بعد سنة ٤٠٨ ﻫ ، وهو غير ابن اشناس المعروف بابن الحمامي المار ذكره فلا تتوهم .

٢٢ ــ السيد المرتضى علم الهدي أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمد ابن ابراهيم بن الامام موسى الكاظم عليه السلام ، المتوفى سنة ٤٣٦ ﻫ .

٢٣ ــ أبو القاسم علي بن شبل بن أسد الوكيل المتوفى بعد سنة ٤١٠ ﻫ .

٢٤ ــ القاضي أبو القاسم علي التنوخي ابن القاضي أبي علي المحسن ابن القاضي

---

(١) قال صاحب (الرياض) : المشهور ان أشناس بضم الهمزة ... لكن قد وجدت بخط بعض الافاضل في الصحيفة المذكورة ــ الصحيفة السجادية التي يرويها هذا الشيخ ــ لفظ أشناس مضبوطاً بفتح الهمزة .

أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن ابراهيم بن تميم القحطاني من تلامذته السيد المرتضى وأصحابه ، وقد عده العلامة الحلي في (الاجازة الكبيرة) من مشايخه من العامة أيضاً . لكن صاحب (الرياض) قال في ترجمته :الأكثر أنه من الامامية .

(أقول) : له ترجمة في (معجم الأدباء) ايضاً ج ١٤ ص ١١٠ — ١٢٤ أثبت نسبه فيها الى قضاعة ، وذكر انه كان مقبول الشفاعة في شبابه وان الخطيب البغدادي سمع منه : انه ولد سنة ٣٧٠ هـ . وقال أنه توفى في ٤٤٧ هـ .

٢٥ ـ أبو الحسين على بن محمد بن عبد الله بن بشران المعروف بابن بشران المعدل والمتوفى بعد سنة ٤١١ هـ .

٢٦ ـ محمد بن أحمد بن أبي الفوارس الحافظ المتوفى بعد سنة ٤١١ هـ .

٢٧ ـ أبو زكريا محمد بن سليمان الحراني (الحمداني خ ل) من أهل طوس والمظنون أنه من مشايخه قبل هجرته إلى العراق .

٢٨ ـ محمد بن سنان . عده العلامة الحلي في (الاجازة الكبيرة) من مشايخه من العامة أيضاً .

٢٩ ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن حموي البصري المتوفى بعد سنة ٤١٣ هـ .

٣٠ ـ محمد بن علي بن خشيش بن نضر بن جعفر بن ابراهيم التميمي المتوفى بعد سنة ٤٠٨ هـ .

٣١ ـ أبو الحسن محمد بن محمد بن محمد بن مخلد المتوفى بعد سنة ٤١٧ هـ .

٣٢ ـ السيد أبو الفتح هلال بن محمد بن جعفر الحفار المولود سنة ٣٢٢ هـ والمتوفى ٤١٤ هـ .

هؤلاء هم الذين عرفناهم من مشايخ شيخ الطائفة الطوسي ، وهم إثنان وثلاثون وذكرنا قبلهم خاصة مشايخه وهم خمسة فيكون المجموع سبعة وثلاثون ، الا أن شيخنا النوري لما أوردهم في (المستدرك) تمت عدتهم ثمانية وثلاثين ، وذلك لما ذكرناه من تكريره اسم الحسن بن محمد بن اسماعيل بن الاشناس بعنوان الحسن

ابن اسماعيل ، وقد نقلناهم عن شيخنا النوري بعد ترتيب اسمائهم على حروف الهجاء ، وإضافة بعض الفوائد والزيادات التي توضح أحوالهم .

تلامذته :

سبق وأن ذكرنا فيما تقدم من حديثنا عن شيخ الطائفة أن تلامذته من الخاصة بلغوا اكثر من ثلثمائة مجتهد ومن العامة مالا يحصى كثرة ، وقد صرح بذلك المجلسي في (البحار) والتستري في (المقابس) والخوانساري في (الروضات) والمدرس في (الريحانة) وغيرهم في غيرها .

والأسف ان هذا العدد الكبير غير معروف لدى كافة الباحثين حتى بعد عصر الشيخ بقليل ، فان الشيخ منتجب الدين بن بابويه المتوفى بعد سنة ٥٨٥ هـ على قرب عهده من الشيخ لم يستطع الوقوف على أسمائهم ، فانه لم يذكر منهم في كتابه (الفهرست) المطبوع في آخر (البحار) إلا ستة وعشرين عالما ، وزاد عليهم العلامة السيد مهدي بحر العلوم في (الفوائد الرجالية) أربعة فتمت عدتهم ثلاثين ، وهؤلاء معروفون ذكرت أسماؤهم في مقدمات كتب الشيخ المطبوعة في النجف الاشرف لكن شيخنا النوري لم يذكرهم ،

ونظراً لما حدث في اسماء بعضهم من التصحيف ، ولما وقفنا عليه من أسماء جماعة أخرى من تلاميذه الذين ذكرهم الحجة الشيخ أسد الله الدزفولي التستري في كتابه (المقابس) ولم يتعرض لذكرهم مترجموه المتأخرون ، فانا نسرد أسماء الجميع على ترتيب حروف الهجاء مقتصرين على ذكر الأوصاف التي وصفهم بها علماء الرجال والمفهرسون القدماء واليك الاسماء :

١ ـ الشيخ الفقيه الثقة العدل آدم بن يونس بن أبي المهاجر النسفي .

٢ ـ الشيخ الثقة المؤلف الجليل النبيل أبو بكر أحمد بن الحسين بن أحمد الخزاعي النيسابوري .

٣ ـ الشيخ الثقة ابو طالب اسحاق بن محمد بن الحسن بن الحسين بن محمد ابن علي بن الحسين بن بابويه القمي .

٤ ـ الشيخ الثقة أبو ابراهيم اسماعيل شقيق اسحاق المذكور .

٥ ـ الشيخ الثقة أبو الخير بركة بن محمد بن بركة الأسدي .

٦ ـ الشيخ الثقة العين المصنف أبو الصلاح تقي بن نجم الدين الحلبي .

٧ ـ السيد المحدث الثقة أبو ابراهيم جعفر بن علي بن جعفر الحسيني .

٨ ـ الشيخ الامام المصنف شمس الاسلام الحسن بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بحسكا .

٩ ـ الشيخ الفقيه الثقة أبو محمد الحسن بن عبد العزيز بن الحسن الجبهاني (الجهباني خ ل) .

١٠ ـ الشيخ الجليل الثقة العين ابو علي الحسن ابن شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي .

١١ ـ الشيخ الامام موفق الدين الفقيه الثقة الحسين بن الفتح الواعظ الجرجاني .

١٢ ـ الشيخ الامام الثقة الوجه الكبير محي الدين أبو عبد الله الحسين بن المظفر بن علي بن الحسين الحمداني نزيل قزوين .

١٣ ـ السيد عماد الدين أبو الصمصام وابو الوضاح ذو الفقار بن محمد بن معبد الحسيني المروزي .

١٤ ـ السيد الفقيه أبو محمد زيد بن علي بن الحسين الحسيني (الحسني) .

١٥ ـ السيد العالم الفاضل زين بن الداعي الحسيني .

١٦ ـ الشيخ الفقيه المشهور سعد الدين بن البراج .

١٧ ـ الشيخ الفقيه الثقة أبو الحسن سليمان بن الحسن بن سلمان الصهرشتي .

١٨ ـ الشيخ الفاضل المحدث شهراشوب السروي المازندراني جد الشيخ محمد بن علي مؤلف (معالم العلماء) و (المناقب) .

١٩ ـ الشيخ الفقيه الثقة صاعد بن ربيعة بن أبي غانم .

٢٠ ـ الشيخ عبد الجبار بن عبد الله بن علي المقرئ الرازي المعروف بالمفيد .

٢١ ـ الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن أحمد الحسيني الخزاعي النيسابوري المعروف بالمفيد أيضاً .

٢٢ ـ الشيخ الفقيه الثقة موفق الدين أبو القاسم عبيد الله بن الحسن بن الحسين بن بابويه .

٢٣ ـ الشيخ الفقيه الثقة علي بن عبد الصمد التميمي السبزواري .

٢٤ ـ الأمير الفاضل الزاهد الورع الفقيه غازي بن أحمد بن أبي منصور الساماني .

٢٥ ـ الشيخ الفقيه الثقة الصالح كردي بن عكبر بن كردي الفارسي نزيل حلب .

٢٦ ـ الشيخ الامام جمال الدين محمد بن ابي القاسم الطبري الآملي .

٢٧ ـ الشيخ الأمين الصالح الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن شهريار الخازن الغروي .

٢٨ ـ الشيخ الشهيد السعيد الفاضل السديد محمد بن الحسن بن علي الفتال صاحب « روضة الواعظين » .

٢٩ ـ الشيخ الفقيه الصالح أبو الصلت محمد بن عبد القادر بن محمد .

٣٠ ـ الشيخ الثقة العالم المؤلف فقيه الأصحاب أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي .

٣١ ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن الحلبي .

٣٢ ـ الشيخ الفقيه الثقة أبو عبد الله محمد بن هبة الله الطرابلسي .

٣٣ ـ السيد صدر الأشراف المنتهي اليه منصب النقابة والرئاسة في عصره ، السيد المرتضى أبو الحسن المطهر بن أبي القاسم علي بن أبي الفضل محمد الحسيني الديباجي .

٣٤ ـ السيد العالم الفقيه المنتهى بن أبي زيد بن كيابكي الحسيني الجرجاني .

٣٥ ـ العالم الفاضل الفقيه الوزير السعيد ذو المعالي زين الكفاة أبو سعيد منصور بن الحسين الآبي .

٣٦ ـ السيد الثقة الفقيه المحدث أبو ابراهيم ناصر بن الرضا بن محمد بن عبد الله العلوي الحسيني .

هؤلاء ستة وثلاثون عالماً من تلاميذ الشيخ الطوسي المعروفين ، ولعل في كتابينا (إزاحة الحلك الدامس بالشموس المضيئة في القرن الخامس) و (الثقات والعيون في سادس القرون) من ترجمنا له ولم يأت اسمه هنا ، غير ان ضيق الوقت وضعف الحال يمنعان من الرجوع اليه .

ولا يخفى إن فيما أضافه العلامتان السيد مهدي بحر العلوم والشيخ أسد الله الدزفولي ما يحتاج الى التأمل ، ففي تلمذ الشيخ عبيد الله بن الحسن على الشيخ الطوسي تأمل ، فان ولده الشيخ منتجب الدين كان أولى بذكره مع تلامذة الشيخ في (الفهرست) مع انه لم يذكره وكذا الكراجكي المتوفى سنة ٤٤٩ هـ وكذا جمال الدين محمد الطبري إن كان المراد به عماد الدين محمد بن أبي القاسم علي الطبري الآملي فانه من تلاميذ الشيخ أبي علي ابن الشيخ الطوسي كما ذكره الشيخ منتجب الدين ، وجل رواياته عن مشايخه بعد الخمسمائة والله العالم .

وفاته وقبره :

لم يبرح شيخ الطائفة في النجف الاشرف مشغولاً بالتدريس والتأليف ، والهداية والارشاد ، وسائر وظائف الشرع الشريف وتكاليفه ، مدة اثنتي عشرة سنة ، حتى توفي ليلة الاثنين الثاني والعشرين من المحرم سنة ٤٦٠ هـ عن خمس وسبعين سنة ، وتولى غسله ودفنه تلميذه الشيخ الحسن بن مهدى السليقي ، والشيخ أبو محمد الحسن بن عبد الواحد العين زربي ، والشيخ أبو الحسن اللؤلؤى ، ودفن في داره بوصية منه وأرخ وفاته بعض المتأخرين بقوله مخاطباً مرقده الزاكي كما هو مسطور

على جدار المسجد ، وقد ذكره العلامة المرحوم الشيخ جعفر نقدى في كتابه « ضبط التأريخ بالاحرف » ايضاً ص ١٣ :

يامرقد الطوسي فيك قد انطوى   محيي العلوم فكنت أطيب مرقد

الى أن قال :

أودى بشهر محرم فأضافه   حزناً بفاجع رزئه المتجدد

الى أن قال :

بك شيخ طائفة الدعاة الى الهدى   ومجمّع الاحكام بعد تبدد

الى أن قال :

وبكى له الشرع الشريف مؤرخاً   (أبكى الهدى والدين فقد محمد)

وتحولت الدار بعده مسجداً في موضعه اليوم حسب وصيته أيضا ، وهو مزار يتبرك به الناس من العوام والخواص ، ومن أشهر مساجد النجف ، عقدت فيه ـ منذ تأسيسه حتى اليوم ـ عشرات حلقات التدريس من قبل كبار المجتهدين وأعاظم المدرسين فقد كان العلماء يستمدون من بركات قبر الشيخ لكشف غوامض المسائل ومشكلات العلوم ، ولذلك كان مدرس العلماء ومعهد تخريج المجتهدين الى عصر شيخ الفقهاء الشيخ محمد حسن صاحب (الجواهر) الذي كان يدرس فيه أيضا ، حتى بعد أن بنوا له مسجده الكبير المشهور باسمه ، فقد كثر الحاحهم عليه وطلبهم منه الانتقال اليه لم يقبل ولم يرفع اليد عنه اعتزازاً بقدسية شيخ الطائفة وحبا للقرب منه ، وهكذا الى أن توفي .

واستمرت العادة كذلك الى عصر شيخنا المحقق الاكبر الشيخ محمد كاظم الخراساني صاحب «الكفاية» فقد كان تدريسه فيه ليلاً الى أن توفي ، وقد أحصيت عدة تلامذته في الأواخر بعض الليالي فتجاوزت الألف والمأتين ، وكذلك شيخنا الحجة المجاهد شيخ الشريعة الاصفهاني ، فقد كان يدرس فيه عصراً الى ان توفي وكما ان تلميذ شيخنا الخراساني الأرشد الحجة المعروف الشيخ ضياء الدين العراقي كان يدرس فيه صبحاً الى ان توفي . واقام فيه الجماعة جمع من أجلاء العلماء وأفاضل

الفقهاء ، منهم فقيه أهل البيت الشيخ محمد حسن صاحب « الجواهر » النجفي وغيره وقد لاحظته منذ نصف قرن أو اكثر فكان الذين يؤمون الناس فيه من أهل الصلاح والتقى المعروفين ، منهم الحجة الاخلاقي جمال السالكين الشيخ أغا رضا التبريزي فقد كان يقيم فيه الجماعة ليلاً مع كثير من خواص أهل العلم والفضلاء ، وكنا نحظى بذلك التوفيق الى ان هاجرنا الى سامراء ، وكان آخرهم العلامة التقي السيد محمد الخلخالي ، وبعد وفاته بقليل رغب إلي ولده الفاضل الجليل السيد علي أن أؤم الناس هناك بعد أن كنت أقيم الجماعة في الرواق المطهر ، فأجبت طلبه وكنت أصلي فيه الى هذه الأواخر ، وقد وفق لفرشه التاجر الوجيه ابن عمنا الحاج محمد الحسني نزيل طهران فقدم له خمس قطع من الفرش المتعارف في الصحن الشريف والمساجد الشريفة وقد جعل ولايتها بيدنا ما دمنا في قيد الحياة كما كتب ذلك عليها ، وتبعه الوجيه الحاج محمد تقي القنادالطهراني من أرحامنا ايضاً بخمس قطع وتبعها جمع آخر من كرمانشاه حتى كمل فرش المسجد بتوفيق الله ، وكانت صلاتنا فيه وقت المغرب فقط ، وأما صلاة الصبح فنقيمها في (مسجد الهندي) خوفاً من مضايقة الزوار ، وفي الصيف الماضي تغلب علينا الضعف فانقطعنا عن الرواح لعدم تمكننا من الصعود الى السطح فتبرع الوجيه الحاج ناجي كعويل بشراء عدة مراوح سقفية لتلطيف الجو وعدم الاحتياج للصعود الى السطح ، فعاودناه ثانياً ، وكان عامراً بالمؤمنين والصلحاء من اهل العلم والمهن ، حتى اتفقت حادثتنا في ليلة عاشوراء هذه السنة - ١٣٧٦ - وقد اثرت على العمود الفقري وبقينا على فراش المرض عدة شهور ، ثم لما تحسنت صحتنا لم تعد كما كانت عليه سابقاً كما هو مقتضى السن والمزاج ، ولما رغب في صلاتنا بعض المؤمنين من خواصنا صرنا نقيمها في (مسجد الطريحي) لقربه من دارنا ، ولم نزل هناك حتى يقضي الله بقضائه الذي لا مرد له ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وموقع مسجد الشيخ في محلة المشراق من الجهة الشمالية للصحن المرتضوي الشريف وسمي باب الصحن المنتهي الى مرقده بـ (باب الطوسي) ، وقد طرأت عليه بعد عمارته الأولى عمارتان ، حسبما نعلم إحداها في حدود سنة ١١٩٨ هـ وذلك

بترغيب من العلامة الحجة السيد مهدي بحر العلوم كما ذكره في (الفوائد الرجاليـة)
فقد قال : وقد جدد مسجده في حدود سنة ١١٩٨ ﻫ فصار من اعظم المساجد في
الغري ، وكان ذلك بترغيبنا بعض الصلحاء من اهل السعادة .

وبنى لنفسه مقبرة في جواره دفن فيها مع اولاده وجملة من أحفاده .

والثانية في سنة ١٣٠٥ ﻫ كما ذكره صديقنا العلامة السيد جعفر آل بحر العلوم
في كتابه (تحفة العالم) ج ١ ص ٢٠٤ وكانت بعناية العلامة السيد حسين آل بحر العلوم
المتوفى سنة ١٣٠٦ ، كما قاله ، فانه لما رأى تضعضع اركانه وانها آلت الى الخراب
رغب بعض أهل الخير في قلعه من أساسه ، فجدد وهي العمارة الموجودة اليوم .

وفي سنة ١٣٦٩ ﻫ . هدمت الحكومة ما يقرب من ربع مساحته فاضافتها الى
الشارع الذي فتحته بجنبه في نفس العام ، وسمته بشارع الطوسي ايضاً ، فصار للمسجد
بابان ، احدهما ـ وهو الأكبر والأوجه ـ على الشارع الجديد العام من جهة الشرق ،
والثاني وهو ـ الباب الأول ـ من جهة الغرب على الطريق القديم مقابل (المدرسة المهدية)
وقد انخفضت ارض المسجد عن الشارع كثيراً ، وتضعضعت عمارته ، فنسأله تعالى
ان يهدي بعض اهل السعادة والعاملين للآخرة لتعميره (انما يعمر مساجد الله من
آمن بالله واليوم الآخر) .

أولاده وأحفاده :

خلف شيخ الطائفة ولده الشيخ ابا علي الحسن بن ابي جعفر محمد الطوسي
رحمة الله عليه ، وقد خلف اباه على العلم والعمل ، وتقدم على العلماء في
النجف ، وكانت الرحلة اليه والمعول عليه في التدريس والفتيا والقاء الحديث وغير ذلك
وكان من مشاهير رجال العلم ، وكبار رواة الحديث وثقاتهم تلمذ على والده حتى
اجازه في سنة ٤٥٥ ﻫ اي قبل وفاته بخمس سنين .

ذكره الشيخ منتجب الدين بن بابويه في (الفهرست) المطبوع في آخر البحار
ص ٤ بدأ به حرف الحاء فقال :

الشيخ الجليل ابو علي الحسن ابن الشيخ الجليل الموفق ابي جعفر محمد بن

الحسن الطوسي ، فقيه ثقة عين ، قرأ على والده جميع تصانيفه اخبرنا الوالد عنه .

وذكره ابن حجر العسقلاني في (لسان الميزان) ج ٢ ص ٢٥٠ فقال :

الحسن بن محمد بن الحسن بن علي الطوسي أبو علي بن (١) جعفر . سمع من والده ، وأبي الطيب الطبري ، والخلال ، والتنوخي ، ثم صار فقيه الشيعة وامامهم بمشهد علي رضي الله عنه ، وسمع منه أبو الفضل بن عطاف ، وهبة الله السقطي ومحمد ابن محمدالنسفي ، وهو في نفسه صدوق ، مات في حدودالخمس مائة(٢) ، وكان متديناً كافاً عن السب .

وذكره الشيخ رشيد الدين أبو جعفر محمد بن علي بن شهراشوب السروي في (معالم العلماء) ص ٣٢ باختصار . ولا يخفى ان العلامة الميرزا محمد الاسترابادي لم يتعرض لذكره في كتابيه (الرجال الكبير) و (الرجال الصغير) ، وكذا الاستاذ الوحيد البهبهاني الذي استدرك على الاسترابادي ـ في تعليقته على كتابه ـ ما فاتهفانه لم يذكره أيضاً .

ولعل ذلك لم يكن عن غفلة منها حيث أن بناء المؤلفين في الرجال هو ذكر خصوص من ذكر في الأصول الأربعةالرجالية ، ولما لم يكن الشيخ أبو علي مذكوراً في أي واحد منها لم يتعرضوا لذكره . ومثلها أيضاً المولى محمد الأردبيلي صاحب (جامع الرواة) فانه أضاف فهرس الشيخ منتجب الدين الى الأصول الأربعة فجمعها في كتابه ومع ذلك فقد سقط من قلمه ذكر هذا الشيخ الجليل .

وذكره أيضاً المحدث العلامة الشيخ محمد الحر العاملي في « أمل الآمل » المطبوع بطهران سنة ١٣٠٧ هـ في ص ٤٦٩ هـ فقال :

الشيخ أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن بن علي الطوسي . كان عالماً فاضلا فقيهاً محدثا جليلا ثقة له كتب إلخ .

وذكره العلامة البحاثة المولى عبدالله الأفنـدي في كتابه « رياض العلماء

(١) الصحيح : أبي جعفر . كما مر عليك في أكثر من موضع .

(٢) التأريخ خطأ كما سنبينه .

وحياض الفضلاء » المخطوط الموجود في مكتبتنا ص ٩٣ فوصفه بقوله : الفقيه المحدث الجليل العالم العامل النبيل مثل والده ، ثم قال :

. . . كان شريكاً في الدرس مع الشيخ أبي الوفاء عبد الجبار بن عبد الله بن علي الرازي ، والشيخ ابي محمد الحسن بن الحسين بن بابويه القمي ، والشيخ ابي عبدالله محمد بن هبة الله الوراق الطرابلسي ، عند قراءة كتاب « التبيان » على والده الشيخ الطوسي كما رايته في إجازة الشيخ الطوسي المذكور بخطه الشريف لهم على ظهر كتاب التبيان المذكور . . الى ان قال :

وروى عن والده وطائفة من معاصريه رضي الله عنهم بل عن المفيد ايضا .

وقال في آخر الترجمة : أقول : وفي روايته عن الشيخ المفيد بلا واسطة محل تأمل فلاحظ (١) .

وذكره الشيخ اسد الله الدزفولي في « مقابس الأنوار » ص ١١ فقال :

الشيخ المحدث الفقيه الفاضل الوجيه النبيه المعتمد المؤتمن مفيد الدين أبو علي الحسن قدس الله تربته واعلى في الجنان رتبته . . . وكان من أعاظم تلامذة والده ، والديلمي ، وغيرهما من المشايخ ، وتلمذ عليه جماعة كثيرة من أعيان الأفاضل ، واليه ينتهي كثير من طرق الاجازات الى المؤلفات القديمة والروايات إلخ .

وذكره شيخنا العلامة الميرزا حسين النوري في « مستدرك الوسائل » ج ٣ ص ٤٩٧ فقال :

. . . الفقيه الجليل الذي ينتهي اكثر اجازات الاصحاب اليه ابو علي الحسن ابن شيخ الطائفة ابي جعفر محمد بن الحسن الطوسي العالم الكامل المحدث النبيل . . .

(١) قال شيخنا النوري في (المستدرك) في التعليق على هذا التأمل ما لفظه : وهو في محله فان وفاة المفيد سنة ٤١٣ ه ولم أعثر على تأريخ وفاة أبي علي الا أنه يظهر من مواضع من (بشارة المصطفى) انه كان حياً في سنة ٥١٥ ه فلو روى عنه لعد من المعمرين الذين من رأيهم ـ اي المترجمين ـ الاشارة اليه .

أقول : هذا هو القول الفصل ، حيث يلزم من تصحيح روايته عن المفيد كونه يوم وفاة أستاذه ابن عشرين سنة على الأقل ، وعليه فيكون عمره في تأريخ سنة ٥١٥ ه مائة واثنتان وعشرون سنة ، ولو كان كذلك لما فاتت مترجميه الاشارة الى ذلك .

ويعبر عنه تارة بأبي علي ، أو أبي علي الطوسي ، وأخرى بالمفيد أو المفيد الثاني إلخ .

وله تراجم أخرى في كثير من الكتب المخطوطة والمطبوعة لا سبيل لنا الى استقصائها في هذه العجالة ، وقد أجمع كافة المترجمين له على عظمته وعلو شأنه في العلم والعمل ، وأنه أحد كبار فقهاء الشيعة ، وأجلاء علماء الطائفة ، وأفاضل حملة الحديث وأعلام الرواة وثقاتهم . ومنتهى الاجازات والمعنعنات ، وقد بلغ من علو الشأن وسمو المكانة أن لقب بالمفيد الثاني ، وقد ترجم له بهذا العنوان العلامة المرحوم الشيخ عباس القمي في كتابه (الكنى والألقاب) ج ٣ ص ١٦٥ .

وقد تخرج عليه كثير من حملة العلم والحديث من الفريقين ، وحاز المرجعية عند الطائفتين لذلك كثرت الروايات عنه ، وانتهت الطرق اليه ، وقد ذكر مترجموه كثيراً من تلامذته ، فقد ذكر الشيخ منتجب الدين بن بابويه في (الفهرست) أربعة عشر رجلاً كلاً في موضعه ونحن نتبرك بايراد ذكرهم وهم الاعلام :

١ ـ الشيخ الفقيه الثقة أردشير بن أبي الماجد بن أبي المفاخر الكابلي .

٢ ـ الشيخ الفقيه الأديب اسماعيل بن محمود بن اسماعيل الحلبي .

٣ ـ الشيخ الفقيه الصالح بدر بن سيف بن بدر العربي . من مشايخ منتجب الدين

٤ ـ الشيخ الفقيه الصالح أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن محمد بن علي بن طحال المقدادي .

٥ ـ الشيخ الامام الفقيه الصالح الثقة موفق الدين الحسين بن فتح الله الواعظ البكر آبادي الجرجاني .

٦ ـ الشيخ الفقيه الصالح جمال الدين الحسيني بن هبة الله بن رطبة السوراوي .

٧ ـ الشيخ الفقيه الورع أبو سليمان داود بن محمد بن داود الحاسي .

٨ ـ السيد الفقيه الصالح أبو النجم الضياء بن ابراهيم بن الرضا العلوى الحسني الشجري .

٩ ـ السيد العالم الفقيه الثقة طاهر بن زيد بن أحمد .

١٠ ـ الشيخ الفقيه الصالح الشاعر أبو سليمان ظفر بن الداعي بن ظفر الحمداني

القزويني .

١١ ـ الشيخ الفقيه الحافظ الصالح الثقة أبو الحسن علي بن الحسين بن أحمد ابن علي الحاسي .

١٢ ـ الشيخ الفقيه ركن الدين علي بن علي .

١٣ ـ السيد الفاضل المتبحر الشاعر لطف الله بن عطاء الله أحمد الحسني الشجري النيسابوري .

١٤ ـ الشيخ الفقيه الثقة الامام المؤلف المكثر عماد الدين محمد بن أبي القاسم ابن علي الطبري الآملي الكجي .

وهناك جماعة من تلاميذه أيضاً ذكر بعضهم بعض المترجمين له ، ووقعنا على أسماء بعضهم في مختلف الروايات وسلاسل الحديث واليك أسماءهم مرتبة على حروف الهجاء وهم :

١٥ ـ أبو الفتوح أحمد بن علي الرازي . قال صاحب (الرياض) : وليعلم أنه ليس المراد بالشيخ أبي الفتوح المذكور هو صاحب التفسير المشهور ، وان اتحد عصرهما ، لأن اسم أبي الفتوح هذا هو الحسين بن علي بن محمد بن احمد الخزاعي الرازي فلاحظ ، وحمله على اخيه ممكن لكن يبعده إتحاد كنيتيهما .

١٦ ـ الشيخ العالم الياس بن هشام الحائري .

١٧ ـ الشيخ بواب البصري .

١٨ ـ الشيخ الفاضل ابو طالب حمزة بن محمد بن أحمد بن شهريار الخازن .

١٩ ـ ابو الفضل الداعي بن علي الحسيني السروي .

٢٠ ـ عبد الجليل بن عيسى بن عبد الوهاب الرازي .

٢١ ـ الشيخ موفق الدين عبيدالله بن الحسن بن بابويه ، والد الشيخ منتجب الدين

٢٢ ـ علي بن شهراشوب المازندراني السروي ، والد صاحب (المناقب) و (المعالم) .

٢٣ ـ علي بن علي بن عبد الصمد .

٢٤ ـ أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي صاحب (مجمع البيان) .

٢٥ ـ ابو الرضا فضل الله بن علي بن عبيد الله الحسيني الراوندي .

٢٦ ـ محمد بن الحسن الشوهاني .

٢٧ ـ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن الحلبي .

٢٨ ـ محمد بن علي بن عبد الصمد النيسابوری .

٢٩ ـ أبو علي محمد بن الفضل الطبرسي .

٣٠ ـ الشيخ محمد بن منصور الحلي الشهير بابن ادريس قال في (الرياض) : على المشهور من أن ابن أدريس يروى عن أبي علي هذا تارة بلا واسطة وتارة مع الواسطة .

٣١ ـ مسعود بن علي الصواني وفي (الرياض) : الصوابي وفي (المقابس) : السواني .

وهناك ثلاثة من العامة رووا عنه كما ذكره العسقلاني في (لسان الميزان) وقد سبقت الاشارة اليه وهم :

٣٢ ـ أبو الفضل بن عطاف .

٣٣ ـ محمد بن محمد النسفي .

٣٤ ـ هبة الله السقطي .

الى غير ذلك مما لا يمكن احصاؤه والوقوف عند حده ، ومع ذلك فلا نظن أن أحداً من مترجميه استوفى ما استوفيناه ، ووقف على كل ما أحصيناه والله الموفق .

آثاره :

ترك الشيخ أبو علي آثاراً قيمة وأسفاراً مهمة ، عرفنا منها : (شرح النهاية) وهو شرح الكتاب والده النهاية في الفقـــه ذكره في ترجمته صاحب (أمل الآمل) ، واسمه (المرشد الى سبيل التعبد) وذكره في ترجمته صاحب (معالم العلماء) .أيضاً

أقول : توهم الحجة الشيخ يوسف البحراني صاحب (الحدائق) عند ذكر الشيخ أبي علي في كتابه (لؤلؤة البحرين) ص ٢٤٥ حيث قال : وذكـره ابن

شهراشوب وقال المرشد الى سبيل الله والمتعبد إلخ فكأنه ظن بأن ذلك وصف للشيخ أبي علي مع أنه اسم كتاب من كتبه .

وقد ذكر له معظم مترجميه (كتاب الآمالي) الذي ذكرناه في عداد مؤلفات والده منهم العلامة المجلسي وصاحب (الرياض) وصاحب (أمل الآمل) وصاحب (الروضات) وصاحب (قصص العلماء) وصاحب « الكنى والألقاب » وصاحب « مستدرك الوسائل » وغيرهم ، وأصر شيخنا العلامة المجلسي على أنه من آثاره فقد قال في الجزء الأول من « بحار الأنوار » بعد ذكر مآخذ الكتاب في الفصل الثاني الذي عقده لبيان الوثوق بالمصادر واختلافها ، فقد قال :

. . . وآمالي ولده العلامة في زماننا أشهر من آماليه ، وأكثر الناس يزعمون انه آمالي الشيخ ، وليس كذلك كما ظهر لي من القرائن الجلية ، ولكن آمالي ولده لا يقصر عن آماليه في الاعتبار والاشتهار ، وان كان آمالي الشيخ عندي أصح وأوثق إلخ .

وقد ذكرنا هذا الآمالي في (الذريعة) ج ٢ ص٣٠٩ـ ٣١١ وص ٣١٣ـ١١٤ واثبتنا كونه من تآليف شيخ الطائفة وذكرنا الأسباب التي دعت الى هذه الشهرة الشايعة فعلى طالب التفصيل والوقوف على الحقيقة مراجعة الكتاب المذكور ،والتدقيق والتأمل فيما ذكرناه من الأدلة والوجوه .

أقول : وللشيخ أبي علي من المشايخ غير من مر ذكره في تراجمه المنقولة عن الكتب : أبو الحسن محمد بن الحسين المعروف بابن الصقال كما في (بشارة المصطفى لشيعة المرتضى) ص ١٦٧ ويروي عن ابي يعلي حمزة المعروف بسلار بن عبد العزيز الديلمي ـ المتوفى ٤٤٨ هكذا في (البغية) للسيوطي أو سنة ٤٦٣ كما في (نظام الاقوال) للساوجي ـ كما في (أمل الآمل) في ترجمة سلار .

وفاته :

توفي الشيخ أبو علي بعد سنة ٥١٥ هـ فقد كان حياً في هذا التأريخ كما يظهر في مواضع من أسانيد (بشارة المصطفى) المذكور ، والله العالم بما عاش بعد ذلك .

ولا نعرف موضع قبره لكننا لا نشك في أنه في النجف الأشرف ولعله قبر مع والده فما ذكره في (لسان الميزان) ج ٢ ص ٢٥٠ : من انه توفى في حدود سنة ٥٠٠ ﻫ غير صحيح كما سبقت الاشارة اليه .

ومن آراء الشيخ أبي علي المشهورة : القول بوجوب الاستعاذة في القراءة ، قال صاحب (رياض العلماء) في ترجمته له ما لفظه :

ثم اعلم ان الشيخ أبا علي هذا هو صاحب القول بوجوب الاستعاذة في قراءة الصلاة بل في مطلق القراءة نظراً الى ورود الأمر به . مع ان الاجماع وقع على ان الأمر فيها للاستحباب ، حتى ان والده (قده) أيضاً نقل في الخلاف الاجماع منا على الأمر فيها للندب قطعاً .

وخلف الشيخ أبو علي ولداً هو الشيخ أبو نصر محمد بن أبي علي الحسن بن أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي النجفي رحمة الله عليهم ، وهو بقية رجال العلم في هذا البيت في النجف الاشرف ، والغريب أنه لم يذكر في كتب أصحابنا الامامية ، ولم يترجم له الرجاليون وأهل السير والتأريخ والأخبار ، حتى ان شيخنا الحجة الميرزا حسين النوري على عظمته وجلالة قدره وشهرته في التضلع والتتبع لم يعرف عنه شيئاً فقد قال في (المستدرك) ج ٣ ص ٤٩٧ : ولم نعثر على حال الحسن وجده محمد أنهما من أهل الدراية والرواية أو لا .

أقول : كان الشيخ أبو نصر محمد من أعاظم العلماء ، وأكابر الفقهاء ، وأفاضل الحجج واثبات الرواة وثقاتهم ، فقد قام مقام والده في النجف وانتقلت اليه الرياسة والمرجعية ، وتقاطر عليه طلاب العلم من شتى النواحي ، ترجم له ابن العماد الحنبلي في (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) ج ٤ ص ١٢٦ - ١٢٧ في حوادث سنة أربعين وخمسمائة فقال :

وفيها أبو الحسن محمد بن الحسن ابي علي بن ابي جعفر الطوسي ، شيخ الشيعة وعالمهم ، وابن شيخهم وعالمهم ، رحلت اليه طوائف الشيعة من كل جانب الى العراق ، وحملوا اليه ، وكان ورعاً عالماً كثير الزهد ، واثنى عليه السمعاني وقال العماد الطبري

لو جازت على غير الانبياء صلاة صليت عليه .

أقول : توفي سنة ٥٤ كما ذكره في (الشذرات) وخلف ولداً واحداً سماه باسم جده الحسن ، وهو من جارية كانت له اسمها رياض النوبية أدركها السيد علي ابن غرام (عزام خ ل) الحسيني المولود سنة ٥٥٧ هـ والتوفى سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ كما حكاه السيد غياث الدين عبد الكريم بن طاووس ونقله عنه وعن خطه في كتابه (فرحة الغري) ص ٥٨ طبعة ايران سنة ١٣١١ هـ .

وخلف شيخ الطائفة ــ أعلى الله درجاته ــ غير ولده الشيخ أبي علي على ما ذكره المتقدمون ابنتين كانتا من حملة العلم وربات الاجازة ، ومن أهل الدراية والرواية قال في (رياض العلماء) : كانتا عالمتين فاضلتين ، احداهما أم ابن ادريس العلامة الشهير صاحب (السرائر) الحلي كما ذكر في ترجمته ، وامها بنت المسعود ابن ورام .

وقال صاحب (اللؤلؤة) ص ٢١٢ في ترجمة السيد رضي الدين أبي القاسم علي والسيد جمال الدين أبي الفضائل احمد ابني السيد سعيد الدين أبي ابراهيم موسى ابن جعفر آل طاووس ما لفظه :

. . . وهما أخوان من أم وأب وامهما على ما ذكره بعض علمائنا بنت الشيخ مسعود ورام بن أبي الفراس بن فراس بن حمدان ، وام امها بنت الشيخ وأجاز لها ولأختها ام الشيخ محمد بن ادريس جميع مصنفاته ومصنفات الأصحاب .

ونقل ذلك عنه في (الروضات) ص٣٩٢ من الطبعة الأولى وزاد عليه مالفظه : ووقع النص على جديتها له أيضاً من جهة الأم في مواقع كثيرة من مصنفات نفسه فليلاحظ .

وقال العلامة البحاثة الشيخ علي آل كاشف الغطاء في (الحصون المنيعة) في طبقات الشيعة المخطوط ج ١ ص ٣٢٨ ما لفظه :

بنتا الشيخ الطوسي كانتا عالمتين فاضلتين ، وكانت احداهما أم ابن ادريس ، وأما اختها فهي التي أجازها بعض العلماء ، ولعل المجيز اخوها الشيخ أبو علي أوالدها.

الى غير هؤلاء ممن ذكر هذا المعنى من المتقدمين وهم كثيرون ، وجاء بعدهم

المتأخرون فاخذوها عنهم ارسال المسلمات ومروا بها كراماً .

أقول : هذه النسبة غير صحيحة فليس الشيخ الطوسي الجد الأمي بغير واسطة لأبن طاووس ، ولا لا لأبن أدريس ، فقد صرح السيد رضي الدين علي بن طاووس في كثير من تصانيفه ومنها (الاقبال) في دعاء أول يوم من شهر رمضان في ص ٣٣٤ من طبعة تبريز بأن الشيخ الطوسي جد والده ـ السيد الشريف أبي ابراهيم موسى بن جعفر ـ من قبل امه ، والشيخ ابا علي خاله كذلك لكن ليس مراده الجد والخال أيضاً بلا واسطة بأن تكون والدة أبيه الشريف موسى ابنة الشيخ الطوسي كما استظهره شيخنا الحجة الميرزا حسين النوري في « مستدرك الوسائل » ج ٣ ص ٤٧١ ، لأن السيد ابن طاووس ولد في سنة ٥٨٩ هـ وكان والده حياً الى ان بلغ السيد من العمر حداً كان قابلاً فيه لقراءة كتاب « المقنعة » للشيخ المفيد و(الآمالي) للشيخ الطوسي وغير ذلك من الكتب عليه كما صرح به في تصانيفه ، فتكون حياة والده تقريباً الى حدود سنة ٦١٠ هـ ، وأما ولادته فلم تعلم تحقيقاً لكن الظاهر أنه لم يكن من المعمرين المناهزين للثمانين أو التسعين وإلا لكان قابلاً للذكر وكان يصرح به ولده ولو بالمناسبة في موضع من تصانيفه الكثيرة ، ولو فرض بلوغه الثمانين لكانت ولادته في حدود سنة ٥٣٠ هـ وكانت وفاة الشيخ الطوسي سنه ٤٦٠ هـ فلو فرضت له بنت صغيرة في التاريخ لم تكن تلد بعد الخمسين من عمرها ولهذا فلا تكون بنت الشيخ أم السيد موسى لبعد ذلك ولامتناعه عادة وان كان ممكناً عقلاً بان كانت البنت آخر ولد الشيخ وكان السيد موسى آخر ما ولدت البنت وقد عمر نيفاً ومائة سنة ، لكن ذلك ليس على مجاري القاعدة فلعل بنت الشيخ كانت والدة أم السيد موسى ، وكان الشيخ جد أم السيد موسى ، ويصح أن يطلق الجد والخال على جد الأم وخالها ، ولو كانت والدة ام السيد موسى بنت ابن الشيخ وهو الشيخ أبو علي فيكون هو جده لأمه لا خاله كما صرح به السيد ابن طاووس نفسه ، هذا ما نعتقده في الموضوع والظاهر أنه حقيقة المطلب .

وكذا الحال في الشيخ المحقق محمد بن ادريس الحلي الذي قيل : أن أمه بنت

الشيخ .لأن ابن ادريس ولد في سنة ٥٤٣ هـ فكيف تكون أمه بنت الشيخ ، ولو فرضنا إمكان ما مر من المحالات والمستبعدات من أنها آخر ما ولد للشيخ ، وانه آخر ما ولد لها فما نصنع لقول عدة من القدماء ان الشيخ أجاز ابنتيه . وهو قول ثابت لا يمكن انكاره أو تضعيفه .

ثم ان هناك خلط آخر وهو التعبير عن الشيخ ورام بالمسعود الورام أومسعود ابن ورام ، حيث ان المسعود الورام ، وابن ورام غير الشيخ ورام الزاهد صاحب (تنبيه الخاطر) كما نبه عليه شيخنا النوري .

ومن طرائف هذا الباب ما نقله صاحب « الرياض » عن رسالة فارسية لبعض الفضلاء كما عبر عنه من أن ابن عيسى الرماني المفسر سبط شيخ الطائفة الطوسي وانه قرأ على خاله الشيخ أبي علي ، وان له آثاراً منها « كشف الغمة » في فضائل الأئمة (ع) وهو غير « كشف الغمة » للأربلي وله غيره وانه كان ذا اطلاع تام على كلمات جده الشيخ الطوسي . الى غير ذلك .

أقول : الرماني هو الامام العالم الشيعي الكبير المفسر النحوي والفقيه المتكلم ابو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبدالله السر من رائي البغدادي الواسطي المعروف بابن الرماني أو بابي الحسن الوراق ، والملقب بالاخشيدي صاحب التفسير الكبير الذى ذكرناه في « الذريعة » ج ٤ ص ٢٧٥ وقد لقب بالاخشيدي لتلمذه على ابن اخشيد ، وبالرماني نسبة الى قصر الرمان بواسط ، وقد ترجم له ابن النديم في « الفهرست » ص ٩٤ ـ ٩٥ والحموي في « معجم الادباء » ج ١٤ ص ٧٣ ـ ٧٨ وذكره في « معجم البلدان » ج ١٤ ص ٢٨٣ وترجمه الخطيب في « تأريخ بغداد » ج ١٢ ص ١٦ ـ ١٧ والعسقلاني في « لسان الميزان » ج ٤ ص ٢٤٨ وذكرناه في كتابنا « نوابغ الرواة في رابعة المآت » ص ١٤٣ وذكره القمي في « الكنى والالقاب » ج ٢ ص ٢٥١ الى غير ذلك مما لا يمكن استقصاؤه في هذه العجالة ، وقد صرح الجميع بانه ولد في سنة ٢٩٦ هـ وتوفي سنة ٣٨٤ هـ وعليه فوفاته قبل ولادة الشيخ الطوسي بسنة واحدة فكيف يكون سبطاً للشيخ ؟ والأظرف أن الشيخ

نفسه قد استحسن تفسير الرماني هذا فقال في مقدمة كتابه «التبيان هذا » مالفظه:
وأصلح من سلك في ذلك مسلكاً جميلاً مقتصداً محمد بن بحر أبو مسلم الاصفهاني وعلى بن عيسى الرماني فان كتابيها أصلح ما صنف في هذا المعنى إلخ .

والخلاصة انه حصل لنا القطع بأن للشيخ إبنتين عالمتين فاضلتين من أهل الرواية والدراية لكن ما هو اسمها ، ومن تزوج بها ، ومتى توفيا فهذا أمر لم نوفق لمعرفته حتى الآن ورغم مرور هذه الازمان .

كما حصل لنا اليقين بأن صهر الشيخ الطوسي على احدى بناته هو الشيخ السعيد أبو عبدالله محمد بن احمد بن شهريار الخازن لمشهد مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ، الذي كان فقيهاً صالحاً ، وهو الذي يروي عنه «الصحيفة السجادية » السيد بهاء الشرف ابو الحسن محمد بن الحسن بن احمد العلوي الحسيني في ربيع الاول سنة ٥١٦ ﻫ كما وقع في أول الصحيفة ، وهو من تلاميذ شيخ الطائفة الذين عاشوا الى هذا التأريخ ، وهو يروي عن ابي منصور العكبري المعدل الذي يروي عن ابي المفضل الشيباني المتوفى سنة ٣٨٧ ﻫ ، وترجم له الشيخ منتجب الدين في « الفهرست » فقال: فقيه صالح . كما نقله عنه الشيخ الحر ايضاً في « أمل الآمل » ، وذكره أيضاً السيد ابن طاووس في « مهج الدعوات » فقال : « . . . وحدث الشيخ السعيد الأمين أبو عبدالله محمد بن احمد بن شهريار الخازن بالمشهد المقدس الغروي في شهر رمضان من سنة ثمان وخمسين واربعمائة » .

ويروي عنه عماد الدين الطبري في « بشارة المصطفى » وهو يروي عن الشيخ الطوسي ، والشريف زيد بن ناصر العلوي ، والشريف محمد بن علي بن عبد الرحمن صاحب « التعازي » ، وابو يعلي حمزة بن محمد الدهان ، وجعفر بن محمد الدرويستي ، ومحمد بن احمد بن علان المعدل وغيرهم كما ذكره في « رياض العلماء » .

وقد رزق الشيخ ابو عبدالله محمد من زوجته كريمة شيخ الطائفة ولده الشيخ أبا طالب حمزة . وكان فقيهاً صالحاً ايضاً يروي عن خاله الشيخ ابي علي بن الشيخ الطوسي ، وحدث عنه ابن اخيه الشيخ الموفق ابو عبدالله احمد بن شهريار بن ابي

عبد الله محمد بن احمد بن شهريار الخازن في مشهد أمير المؤمنين عليه السلام في رجب سنة ٥٥٤ هـ كما في الباب الثامن والثلاثين والمائة من كتاب « اليقين » لابن طاووس ويروي عن الشيخ الموفق هذا الشيخ حسن بن علي الدربي الذي هو استاذ المحقق الحلي ، والسيد علي بن طاووس كما في اجازة العلامة الحلي لبني زهرة الحلبي .

ترجم لحمزة صاحب « الرياض » ص ١٩٦ وصرح بانه سبط شيخ الطائفة وانه يروي عن خاله أبي علي ، وترجم له في « أمل الآمل » في القسم الثاني ولم يذكر جده الأخير ، ولحمزة ولد عالم كامل هو الشيخ علي كتب بخطه في الحلة « اختيار الرجال » تأليف جده شيخ الطائفة في سنة ٥٦٢ هـ وهي نسخة نفيسة جيدة كما أشرنا اليها في « الذريعة » ج ١ ص ٣٦٦ هـ وكتب الشهيد الأول نسخته عن خطه ، وكتب الشيخ نجيب الدين علي بن محمد تلميذ صاحب « المعالم » نسخته عن خط الشهيد رأيت نسخة نجيب الدين في « مكتبة العلامة السيد حسن الصدر » في الكاظمية .

والذي يستفاد من بعض الامارات ويغلب على الظن أن أول من لقب بالخازن هو الجد الأعلى لهؤلاء أعني شهريار القمي الذي يوصف بالخازن غالباً وجرت الخازنية في عقبه الى بطون ، وهو قمي الأصل معروف بالديانة والتقوى ، وله ولدان أحدهما أبو نصر أحمد المذكور ، والثاني الحسن بن شهريار والد جعفر الذي ذكره العسقلاني في « لسان الميزان » ج ١ ص ٣٠٥ ناقلاً لترجمته عن « تأريخ الري » لابن بابويه - ويعني به كتاب « الفهرست » للشيخ منتجب الدين - وكان شهريار جد هذه الأسرة معاصراً للسلطان عضد الدولة الديلمي الذي عمر المشهدين الشريفين الغري والحائر في سنة ٣٦٩ هـ كما صرح به جمع من المؤرخين فقد روى ابن طاووس في « فرحة الغري » ص ٥٨ من الطبعة الأولى عن يحيى بن عليان الخازن بمشهد مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه وجد بخط الشيخ أبي عبدالله محمد ابن السري المعروف بابن البرسي رحمه الله المجاور بمشهد الغرى سلام الله على صاحبه ، على ظهر كتاب بخطه قال : كانت زيارة عضد الدولة للمشهدين الشريفين الطاهرين الغروي والحائري في شهر جمادى الأولى في سنة احدى وسبعين وثلثمائة ، وورد

مشهد الحائر لمولانا الحسين صلوات الله عليه لبضع بقين من جمادي فزاره صلوات الله عليه وتصدق واعطى الناس على اختلاف طبقاتهم ، وجعل في الصندوق دراهم ففرقت على العلويين فأصاب كل واحد منهم اثنان وثلاثون درهماً وكان عددهم ألفين ومأتي إسم ، ووهب العوام والمجاورين عشرة آلاف درهم ، وفرق على أهل المشهدين من الدقيق والتمر مائة ألف رطل ومن الثياب خمس مائة قطعة ، واعطى الناظر عليهم ألف درهم ، وخرج وتوجه الى الكوفة لخمس بقين من جمادى المؤرخ ودخلها وتوجه الى المشهد الغروي يوم الاثنين ثاني يوم وروده ،وزار الحرم الشريف وطرح في الصندوق دراهم فأصاب كل واحد منهم أحد وعشرين درهماً وكان عدد العلويين ألف وسبعمائة اسماً وفرق على المجاورين وغيرهم خمسمائة الف درهم ، وعلى المترددين خمسمائة الف درهم وعلى الناحة الف درهم ، وعلى الفقراء والفقهاء ثلاثة آلاف درهم ، وعلى المرتبين من الخازن والنواب على يد أبي الحسن العلوي ، وابي القاسم بن ابي عابد ، وابي بكر بن سيار رحمه الله خمسمائة درهم وصلى الله على محمد النبي وآله الطاهرين .

وتجد ذكر ذلك ايضاً في « الكامل » لابن الأثير ج ٨ ص ٣٣٤ وقد كانت هذه الزيارة بعد سنة التعمير المذكورة فقد قال ابن عنبة في « عمدة الطالب » ص ٤٤ من طبعة لكنهو ما لفظه : « . . . الى ان كان زمن عضد الدولة فناخسرو ابن بويه الديلمي فعمره عمارة عظيمة ، واخرج على ذلك اموالاً جزيلة وعين له اوقافاً إلخ » .

افترى ان مثل هذا السلطان العظيم والسياسي المحنك ، والداهية الدهاء والمفكر الكبير ، يوقف الأملاك الكثيرة، ويحبس المنافع الواسعة، ويصرف في سبيل التعمير والتشييد المبالغ الطائلة ، ويعين للفقهاء والعلماء الرواتب ويطلق الصلات للمحتاجين من مجاوري هذا المشهد ، كل ذلك بدون تعيين متول او وكيل اوخازن او خادم للمشهد يقوم بلوازمه ؟ كلا لا شك ان ذلك كله قد كان باشراف رجل مسؤول عن كل شيء والغالب على الظن انه شهريار القمي جد هذه الاسرة الجليلة العريقة في العلم والتقى وخدمة المشهد وخزانته ، ويؤكد لنا ذلك تشرف عضد

الدولة للزيارة بعد عامين من تشييد المرقد وبناء القبة ، وكان ذلك من دون شك لمشاهدة ما قام به من الأعمال وهل هو على وفق رغبته وكما ينبغى ام لا ؟ هذا ما نذهب اليه والله العالم .

لقد طال بنا الكلام عن خلف الشيخ الطوسي ، وبعدنا عما كنا بصدده فلا يخفى ان عقب شيخ الطائفة لم ينقرض بل تحول بعضهم عن النجف الى اصفهان وبقي محافظاً على نسبه ومكانته العلمية ، فمن احفاده المولى المفسر المحدث الشيخ محمد رضا بن عبد الحسين بن محمد زمان النصيرى الطوسي ساكن اصفهان صاحب التفسير الكبير المسمى بـ « تفسير الأئمة لهداية الأمة » و « كشف الآيات » الذى فرغ منه في سنة ١٠٦٧ هـ ، فأن هذا الشيخ ينقل في اثناء تفسيره عن شيخ الطائفة بعض الاحاديث بما لفظه : « قال جدنا الأمجد العالم المتعلم بعلوم الصادقين الشيخ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي » والظاهر انه جده من طرف الأب والا لقيده بالأمي كما انه يقيد انتسابه لابن طاووس وابن ادريس بطرف الأم .

وأما نسبة هذا الشيخ الىالنصير فلم يظهر لنا وجهها لأنالمعروفين بنصيرالدين في علمائنا كثيرون ، منهم : (١) الخواجة نصيرالطوسي (٢) نصيرالدين أبو طالب عبدالله ابنحمزة بن الحسن الطوسي الشارحي المعروف بنصير الدين الطوسي والمذكور في (الفهرست) للشيخ منتجب الدين(٣)الشيخ نصيرالدين عليبن حمزة بنالحسنالمذكور في (أمل الآمل) (٤) الشيخ نصيرالدين علي بن محمد بن علي الكاشانيالحلي منالمائة الثامنة (٥) الشيخ نصير الدين بن محمد الطبري المدفون بسبزوار من المائة التاسعة الى غيرهم مما لا يخطر ببالنا .

وهذا التفسير كبير يقال أنه في ثلاثين مجلداً رأيت مجلدين منها . أحدها المجلد الأول وهو كبير ضخم وعلى ظهره تملك ابن مؤلفه كتب : انه ملكه بالارث . لكن لم يذكر تأريخه ، وتوقيعه : (عبد الله بن محمد رضا النصيري الطوسي). وقد ملك هذا المجلدالسيد شبر بن محمد بن ثنوان الحويزيالنجفي في سنة ١١٦٠ ـ ١١٨٢هـ كما يظهر من بعض خطوطه عليه في التأريخين ، وانتقل بعد ذلك الى العلامة الشيخ

أسد الله الدزفولي الكاظمي صاحب (المقابس) فوقفه وكتب صورة الوقف بخطه وقد رأيته في مكتبة المرحوم الشيخ محمد أمين آل الشيخ أسد الله المذكور .

وثاني المجلدين اللذين رأيتها - وهو ضخم كبير أيضاً - رأيته في النجف في مكتبة المرحوم الشيخ محمد جواد آل محي الدين ولا علم لي ببقيـة مجلداته ، غير ان صديقنا الجليل الحجة المرحوم الشيخ ابو المجد اغا رضا الاصفهاني صاحب (نقـد فلسفة داروين) قد كتب لنا من أنه : كان خمسة عشر مجلداً من هذا الكتاب في (المكتبة القزوينية) باصفهان وقد أخذ اقبال الدولة ثلاث مجلدات منها أيام حكومته باصفهان ولم يردها ، والبقية موجودة فيها انتهى وقد ذكرنا هذا التفسير مفصلا في (الذريعة) ج ٤ ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .

ولصاحب هذا التفسير أخ جليل هو المولى محمد تقي بن عبد الحسين النصيري الطوسي الاصفهاني مؤلف (المقال في مكارم الخصال) فرغ من بعض مجـلداته في اصفهان يوم الأحد ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٠٨٠ هـ ، ووالدهما المولى عبد الحسين بن محمد زمان النصيري الطوسي كان من العلماء أيضاً كما يظهر من خطـه بتملك (نهج الحق) في الكلام للعلامـة الحلي على نسخة كتبها محمد كاظم بن شكر الله الدزماني في سنة ١٠٢٥ هـ ، وتوقيعه : (عبد الحسين بن محمد زمان النصيري الطوسي) .

ومن رجال هذا البيت المصنفين الشيخ المولى حسن بن محمد صالح النصيرى الطوسي مؤلف (هـداية المسترشدين) في الاستخارات في سنة ١١٣٢ هـ ومنهم المولى محمد ابراهيم بن زين العابدين النصيرى الطوسي الذى كان حياً سنة ١٠٩٧ هـ وفيها استكتب لنفسه (تلخيص الشافي) ، ومنهم ولده المولى محمد بن ابراهيم بن زين العابدين النصيرى الطوسي الموجود بعض تملكاته ، وبالجملة : كل واحد من هؤلاء وصف نفسه بالنصيرى الطوسي فقط من دون تعرض لوصف السيادة حسنية أو حسنية أو غيرها ، أو أى لقب آخر ، ومن ذلك كله يظهر جلياً كون هذا المؤلف المفسر غـير الأمير الكبير السيد محمد رضا الحسيني منشي الممالك الساكن باصفهان في زمن تأليف الشيخ الحر كما ترجمه كذلك في (أمل الآمل) وذكر له كتاب (كشف

الآيات) و (التفسير الكبير) العربي والفارسي في أكثر من ثلاثين مجلداً ، فلا وجه لما كتبه السيد شبر الحويزي بخطه على ظهر المجلد الأول من هذا التفسير في سنة ١١٦٠ هـ من استظهاره أن المؤلف له هو المترجم له في (الأمل) مع أن هذا المؤلف صرح في أول المجلد الأول منه بأنه يروي جميع تلك الأخبار التي أوردها في تفسيره عن شيخه السيد السند . . . الى قوله بعد الاطراء : الأمير شرف الدين علي بن حجة الله الحسني الشولستاني النجفي . الذي كان حياً الى سنة ١٠٦٣ هـ وكان من مشايخ العلامة المولى محمد تقي المجلسي المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ قبل تأليف (الأمل) بسنين ، فالمؤلف معاصر له ولعله أيضاً لم يبق الى زمن تأليف (الأمل) وهو سنة ١٠٩٧ هـ والحال ان منشيء المالك كان حياً سنة تأليفه وكان ساكناً باصفهان .

وظهر مما ذكرناه أيضاً تقدم هذا المفسر على السيد الأمير محمد رضا بن محمد مؤمن المدرس الامامي الخواتون آبادي مؤلف (جنات الخلود) باسم الشاه سلطان حسين الصفوي في سنة ١١٢٧ هـ وان كان له تفسير أيضاً .

هذا كل ما نعرفه عن أحفاد شيخ الطائفة ، والأسف ان سلسلة نسبهم اليه لم تكن محفوظة ولعل في مؤلفاتهم ومكتباتهم في اصفهان ما يتضمن ذلك والله العالم .

ومن المستغرب ما ذكره بعض المعاصرين من أن للشيخ الطوسي أخا اسمه حمزة ، وقد نقل ذلك عن (تكملة أمل الآمل) للحجة السيد حسن الصدر رحمه الله وقال أنه تأسف على حاله لكونه من المنسيين الذين لا ذكر لهم في الأصول الرجالية وذكر انه وقف عليه في اجازة ابن نما واستظهر منها ان له روايات ومصنفات .

أقول : ان اجازة الشيخ نجم الدين جعفر بن محمد بن جعفر بن هبة الله بن نما الحلي لم تصل الينا صورتها التامة وانما وصلتنا منها بعض النبذ ، فقد ذكر الشيخ حسن صاحب (المعالم) في اجازته الكبيرة المطبوعة في آخر (البحار) ص ١٠٠ أنه كان يحتفظ بثلاث اجازات بخط الشيخ الشهيد محمد بن مكي قدس سره ، وهذه الاجازات كتبها أصحابها للشيخ كمال الدين حماد الواسطي ، وهي :

« ١ » اجازة السيد غياث الدين بن طاووس الحلي « ٢ » اجازة نجيب الدين

يحيي ابن سعيد الحلي « ٣ » اجازة نجم الدين جعفر الحلي الشهير بابن نما . ثم انه ذكر : انه ينقل المهم من مطالب الاجازات في اجازته المذكورة ، وليس فيما نقله من فوائد اجازة ابن نما ذكر ولا أثر لحمزة أخ الشيخ الطوسي كما قيل .

والمظنون ان الأمر اشتبه على الناقل فظن ان الشيخ الجليل الشهير بابن حمزة الطوسي المشهدي صاحب « الوسيلة الى نيل الفضيلة » ـ الشهير بأبي جعفر الثاني أو أبي جعفر المتأخر ـ فظن ان جده حمزة كان اخاً للشيخ الطوسى ، ولم يكن كذلك اذ لو كان لصرح به الشيخ منتجب الدين في ترجمته له حيث ذكره هكذا : الامام عماد الدين ابو جعفر محمد بن علي بن حمزة الطوسى المشهدي إلخ ولم يشر الى شيء من ذلك على خلاف عادته فيمن يعرف له قرابة من المترجمين .

ولا يخفى خطأ ذلك من ناحية ثانية فسيرة شيخ الطائفة معروفة لدى المؤرخين والباحثين منذ يوم خروجه من طوس حتى يوم وفاته في النجف ، ولم يغمض من ذلك شيء أبداً ، ولم نعرف طوال هذا العمر أخاً للشيخ الطوسي ولم نسمع باسمه ، وليت شعري أهاجر هذا الأخ مع أخيه الشيخ من طوس ؟ أم لحقه بعد ذلك الى بغداد ؟ وهل كان اكبر من اخيه وأصغر أو غير ذلك مما لا وجه لاحتمال صحته بكل وجه؟ ومع ذلك فالعالم هو الله .

تنبيهات

(١) ـ قال العلامة الحلي في « الخلاصة » عند ذكر شيخ الطائفة ما لفظه :

. . . وكان يقول أولاً بالوعيد ثم رجع . وقال ذلك غيره من المترجمين للشيخ الطوسي رحمة الله عليه .

أقول : القول بالوعيد هو اختيار عدم جواز عفو الله عن الكبائر عقلاً من غير توبة كما عليه جماعة الوعيدية كأبي القاسم البلخي وغيره ، وهو مخالف لاجماع الامامية فقد اتفقوا على القول بدخول المؤمن الصالح الى الجنة وخلوده فيها ، وأما الذي خلط العمل الصالح بغيره فقد أجمع الامامية على أنه لا يجب تعذيبه بل قد يعفو الله عنه أو يشفع النبي « ص » فيه لقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » . وقد يعاقبه الله لكن عقاباً غير دائم لأنه يستحق الثواب .

قال الشيخ الصدوق في كتابه « الاعتقادات » ما لفظه :

« ان اعتقادنا في الوعد والوعيد ان من واعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه ، ومن واعده على عمل عقاباً فهو بالخيار إن عذبه فبعدله وان عفا عنه فبفضله وما ربك بظلام للعبيد . وقال الله تعالى : ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . والله أعلم » .

وروى الكليني في « الكافي » عن الامام محمد الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى : (عسى الله أن يتوب عليهم) . انه عليه السلام قال : أولئك قوم مؤمنون يحدثون في ايمانهم من الذنوب التي يعيبها المؤمنون ويكرهونها . وفي (تفسير العياشي) عن الباقر عليه السلام أيضاً قال : عسى من الله واجب وانما نزلت في شيعتنا المذنبين . ونقله عنها أيضاً الصافي في تفسيره ص ١٩٨ من طبعة طهران سنة ١٣١١ ه .

الى غير ذلك مما ورد في هذا الباب في الكتاب والسنه أفترى ان شيخ الطائفة مع عظيم مكانته في العلوم الاسلامية يغفل عن هذا أو يضرب به عرض الجدار ويقول بالوعيد اولا ثم يرجع ، حاشا وكلا وانما نسب ذلك اليه أعداؤه وأدخله في ترجمته أبناء العامة الذين ذهب معظمهم الى تلك الاقوال والآراء ، ولم يكن للشيخ في ذلك رأي ولا قول .

ويدل على عدم صحة ذلك قول السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) في ترجمته للشيخ كما سيأتي أنه شافعي ، فهل يحتمل ذلك في حق هذا الحبر الكبير الذى هو امام الفرقة الاثنى عشرية بعد أئمتهم المعصومين عليهم السلام ؟ وهذه كتبه الجليلة الدالة على بلوغه أقصى درجات الاجتهاد ، ومن هذا يظهر لنا أن العلامة الحلي نقل ذلك فيه عن مثل هذا المؤلف .

(٢) ـ الاجماع في نظر شيخ الطائفة ليس على المعنى الحقيقي المصطلح عند

المتأخرين عنه ، بل الغالب أنه يتمسك بالاجماع في قبال آراء العامة للرد عليهم بما هو حجة عندهم حتى في الأصول مثل مسألة الامامة والخلافة، ولذا تراه ـ قدس الله نفسه ـ يستدل بالاجماع في جملة من الفروع ثم يفتي هو في كتابه الآخر بما يخالف ذلك الاجماع . وقد أحصى الشيخ السعيد زين الدين الشهيد تلك الاجماعات في رسالة مستقلة طبعت في آخر (الألفية) للشهيد الأول في سنة ١٣٠٨ ه وقد ذكر في أولها: أن شيخ الطائفة إدعى الاجماع في جملة من المسائل مع أنه بعينه خالف حكم ما ادعى الاجماع فيه،أفردناه للتنبيه على أن لا يعتبر الفقيه بدعوى الاجماع الخ . بدأ في بيان تلك المسائل بكتاب النكاح ثم الطلاق الى آخر كتاب الديات ، ومن هذا يظهر أنه لم يظفر بمخالفته للاجماعات في كتب العبادات .

(٣) ـ إن لشيخ الطائفة فتاوى نادرة لم يرتضيا المتأخرون عنه لقوة أدلة خلافها ، منها : مسألة مالا يدركه الطرف من الدم . فقد قال : بأنه غير منجس . وقال الشيخ صاحب (الجواهر) فيه : الأحوط بل الأقوى تنجيسه وفاقاً للمشهور بين الأصحاب ، ولم يحك عدم التنجيس الا عن الشيخ في (الاستبصار) و (المبسوط) الى قوله : ويظهر من صاحب (الذخيرة) موافقته ولا ريب خطئه الخ.

ومنها : مسألة تصوير ذوات الأرواح وصنع المجسمات فانه وان لم ينقل عنه القول بالجواز في كتبه الفقهية لكنه صرح به في (تفسير التبيان) ولعله عدل بعد ذلك عنه كما يأتي النقل عن كتابه (النهاية) ، قال في (التبيان) الطبعة الأولى ج ١ ص ٨٥ س ١٢ في تفسير قوله تعالى : (اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) . ما لفظه : اي اتخذتموه الهاً لأن بنفس فعلهم لصورة العجل لا يكونون ظالمين لأن فعل ذلك ليس بمحظور وانما هو مكروه ، وماروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه لعن المصورين معناه من شبه الله بخلقه أو اعتقد فيه أنه صورة فلذلك قدر الحذف في الآية كأنه قال اتخذتموه الهاً وذلك انهم عبدوا العجل بعد موسى لما قال لهم السامري هذا الهكم إلخ .

ثم ان أمين الاسلام الطبرسي صاحب (مجمع البيان) الذي حذا فيه حذو شيخ الطائفة في (التبيان) كما أسلفناه أورد كلام شيخ الطائفة في تفسير هذه الآية بعينه من دون نظر فيه أو تأمل ، ولكن المتأخرين عن هذين الامامين لم يرتضوا ذلك وانما أفتوا بحرمة التصوير ولا سيما تصوير ذوات الأرواح ، وتشددوا في خصوص المجسمات ، قال الشيخ الكبير أستاذ كافة المتأخرين العلامة الشيخ المرتضى الأنصاري في (المكاسب المحرمة) ص ٢٠٣ من طبعة طهران مالفظه : المسألة الرابعة تصوير صور ذوات الأرواح حرام اذا كانت الصورة مجسمة بلا خلاف فتوى ونصاً ، وكذا عدم التجسيم وفاقاً لظاهر (النهاية) وصريح (السرائر) إلخ ومن هذا القول احتملنا عدول الشيخ عن رأيه السابق في تفسيره ، وأما الشيخ الطبرسي فلم يصلنا كتابه في الفقه حتى نعرف فتواه بالجواز جزماً (١) .

(٤) ـ حكي عن صاحب (الرياض) : ان المؤرخ المسعودي صاحب (مروج الذهب) جد الشيخ الطوسي من طرف أمه . وهذا مستبعد أيضاً وعلى فرض وجود علاقة فليست بهذا القرب يعني ليس جده بلا واسطة فلعل أمه من بناته فقد طاف المسعودي فارس وكرمان سنة ٣٠٩ هـ فلعله تزوج في ايران وأعقب بها ، إما وفاته فهي بمصر عام ٣٤٦ هـ ولزيادة الاطلاع على أحواله راجع (فوات الوفيات) لابن شاكر ج ٢ ص ٥٧ طبع عام ١٢٨٣ هـ و (الفهرست) لابن النديم ص ٢١٩ طبع مصر و (تأريخ آداب اللغة العربية) لجرجي زيدان ج ٢ ص ٣١٣ وغير ذلك .

مصادر ترجمته :

لقد بلغ شيخ الطائفة رحمة الله عليه في عالم الشهرة درجة قصوى ، ومكانة لم يحظ بها إلا آحاد من العظماء والمؤسسين ، ولهذا فلا يكاد يخلو من ذكره كتاب في الرجال أو مشيخة في الحديث أو اجازة في الرواية أو سلسلة من السلاسل المنتهية الى

---

(١) كتب لنا قبل مدة الدكتور بشر فارس عضو المجمع العلمي اللغوي في القاهرة يسألنا عن رأي علماء الشيعة في تصوير ذوات الأرواح فلم نزد على ما ذكرناه .

أهل بيت العصمة عليهم السلام ، ولذلك فان مصادر ترجمته في غاية الكثرة ، وليس بامكاننا استقصاءها بأجمعها في هذه العجالة ، وانما نذكر من ذلك ما هو في متناول يدنا حال كتابة هذه الترجمة ، واننا لنعتقد بأن هناك أضعافه وان مالا يخطر ببالنا ولا يحضرنا أكثر وأكثر ، لكن لا يسقط الميسور بالمعسور ، ومالا يدرك كله لا يترك كله ، واليك الموجود :

(١) ـ إتقان المقال في أحوال الرجال : للشيخ محمدطه نجف ، ص ١٢١ طبع النجف سنة ١٣٤٠ هـ .

(٢) ـ اجازة الشيخ عبدالله السماهيجي . من مخطوطات مكتبتنا الورقة ٢٠ أ . وهي بخطنا في كتابنا الكبير (إجازات الرواية والوراثة في القرون الأخيرة الثلاثة) . وعن هذه الاجازة نقل صاحب (اللؤلؤة) معبراً عنها باجازة بعض مشايخنا المعاصرين .

(٣) ـ إزاحة الحلك الدامس بالشموس المضيئة في القرن الخامس . للعبد الفاني أغا بزرك الطهراني غفر الله له ولوالديه مخطوط ص ٧٢ وهو الجزء العاشر من موسوعتنا الثانية (طبقات أعلام الشيعة) ، وهو الذي استللنا منه هذه الترجمة وزدنا عليها جملة من الفوائد .

(٤) ـ الأعلام : لخير الدين الزركلي . ج ٣ ص ٤٨٤ طبع مصر سنة ١٣٤٧ هـ وقدسها فيه بقوله : وتوفي بالكوفة . وبقوله : المبسوط في الفقه ٨١ جزءاً . ولعل مراده ما يحويه من الكتب الفقهية ومع ذلك فلا يصح إذ هي نحو سبعين كتاباً .

(٥) ـ أعيان الشيعة : للسيد محسن الأمين ج ١ ص ١ و ١٢ و ٢٨٢ و ٣٠٣ ـ ٣٠٤ وغيرها طبع دمشق سنة ١٣٥٣ هـ .

(٦) ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار . للشيخ محمد باقر المجلسي ذكر فيه شيخ الطائفة في مواضع عديدة ، ولا سيما في مجلد الاجازات الذي هو آخر أجزائه .

(٧) ـ البداية والنهاية . لابن كثير ج ١٢ ص ٩٧ طبع مصر سنة ١٣٥١ هـ

(٨) ـ تأريخ آداب اللغة العربية . لجرجي زيدان ج ٣ ص ١٠٢ طبع مصر سنة ١٩١١ م . وقد سها بقوله : المتوفى سنة ٤٥٩ .

(٩) ـ تأريخ مصر . لبعض الأشعرية . ينقل عنه صاحب (الروضات) في ترجمته للشيخ .

(١٠) ـ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام . للسيد حسن الصدر ص ٣١٣ و ٣٣٩ طبع بغداد سنة ١٣٧٠ هـ .

(١١) ـ تحفة الأحباب في نوادر آثار الأصحاب . للشيخ عباس القمي ص ٣٢٣ — ٣٢٥ طبع طهران سنة ١٣٦٩ هـ .

(١٢) ـ تحية الزائر وبلغة المجاور . للشيخ الميرزا حسين النوري ص ٧٨ طبع طهران سنة ١٣٢٧ هـ .

(١٣) ـ تلخيص الأقوال في تحقيق أحوال الرجال . للسيد الميرزا محمد ابن علي الحسيني الاسترابادي ، مؤلف ثلاثة كتب في الرجال (١) الكبير (٢) الوسيط وهو هذا (٣) الصغير . وهذا الكتاب من مخطوطات مكتبتنا والترجمة في الورقة ١٤١ أ .

(١٤) ـ تنقيح المقال في علم الرجال (١) . للشيخ عبد الله المامقاني ج ٣ ص ١٠٤ طبع النجف سنة ١٣٥٢ هـ .

(١٥) ـ توضيح المقال في علم الرجال . للمولى علي الكني ، ص ٦٢ طبع طهران سنة ١٣٠٢ هـ .

(١٦) ـ جامع الرواة : للمولى محمد بن علي الأردبيلي ج ٢ ص ٩٥ طبع طهران سنة ١٣٧٤ هـ .

---

(١) ذكره الاستاذ البحاثة يوسف أسعد داغر في مآخذ كتابه (مصادر الدراسة الأدبية) ج ١ ص ١٢ وسماه (منتهى المقال) . ولخص رأي مؤلفه بأن الثقات ممن ذكره (١٣٢٨) والحسان (١٤٤٥) والموثقون (٦٤١) والباقي أي ١٣٢٦٨ مابين ضعيف ومجهول ومهمل .
أقول : راجع ما ذكرناه في (الذريعة) ج ٤ ص ٤٦٦ — ٤٦٧ لتعرف رأي الشيخ المامقاني ومراده بالمجهول .

(١٧) ـ الخلاصة المنظومة . للشيخ عبد الرحيم الاصفهاني ص ٨٤ طبع طهران سنة ١٣٤٣ هـ .

(١٨) ـ خلاصة الأقوال في معرفة الرجال . للعلامة الحلي ج ١ ص ٧٢ طبع طهران سنة ١٣١٠ هـ .

(١٩) ـ الذريعة الى تصانيف الشيعة . للفاني أغا بزرك الطهراني عفا الله عنه ج ١ ص ٧٣ و ٣٦٥ — ٣٦٦ و ج ٢ ص ١٤ — ١٦ و ٢٦٩ - ٢٧٠ و ٣٠٩ — ٣١١ و ٣١٣ — ٣١٤ و ٤٨٦ و ج ٣ ص ٣٢٨ — ٣٣١ و ج ٤ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ و ٤٢٣ و ٤٣٣ و ٥٠٤ — ٥٠٧ و ج ٥ ص ١٤٥ و ج ٧ ص ٢٣٦ و ج ١٠ ص ١٢٠ طبع النجف وطهران .

(٢٠) ـ راهنماي دانشمندان . للسيد علي أكبر البرقعي ج ٢ ص ١١٨ — ١٢٠ طبع طهران بدون تأريخ لكن الجزء الأول طبع سنة ١٣٦٨ هـ .

(٢١) ـ الرجال . لأبي العباس احمد بن علي النجاشي ص ٢٨٧ — ٢٨٨ طبع بمبيء سنة ١٣١٧ هـ . وهو معاصر للشيخ وأول من ترجم له بعد ترجمته لنفسه في كتابه (الفهرست) .

(٢٢) ـ الرجال . لابن داود من مخطوطات مكتبتنا تأريخ كتابته سنة ٩٩٢ ص ٥١ .

(٢٣) ـ الرواشح السماوية في شرح الاحاديث الامامية . للمير السيد محمد باقر الداماد ص ٨٨ طبع طهران سنة ١٣١١ هـ .

(٢٤) ـ روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات للسيد محمد باقر الخوانساري ص ٥٨٠ — ٥٩١ طبع طهران سنة ١٣٠٦ هـ .

(٢٥) ـ الروضة البهية في الطرق الشفيعية . للسيد شفيع الجابلاقي ص ١٨٢ ـ ١٩٠ طبع طهران سنة ١٢٨٠ هـ .

(٢٦) ـ ريحانة الأدب في المشهورين بالكنية واللقب . للشيخ الميرزا محمد علي المدرس التبريزي ج ٢ ص ٣٩٩ - ٤٠١ طبع طهران سنة ١٣٦٧ هـ .

(٢٧) ـ رياض العلماء وحياض الفضلاء . للمولى عبد الله الافندي ، من مخطوطات مكتبتنا ، ولكن ليس في نسختنا شيء من حرف الميم .

(٢٨) ـ سفينة بحار الأنوار ومدينة الحكم والآثار . للشيخ عباس القمي ، ج ٢ ص ٩٧ طبع النجف سنة ١٣٥٥ ﻫ .

(٢٩) ـ سماء المقال في تحقيق علم الرجال . للشيخ الميرزا أبي الهدى الكلباسي ج ١ ص ٣٢ – ٥٥ طبع قم سنة ١٣٧٢ ﻫ .

(٣٠) ـ سير العلم في النجف . للسيد محمد حسن آل الطالقاني مخطوط عقد فيه فصلاً لترجمة شيخ الطائفة وولده الشيخ أبي علي الحسن ، وحفيده الشيخ أبي نصر محمد بن الحسن بن محمد واستقصى تلامذتهم وبعض أحوالهم ص ١ ـ ١٤ .

(٣١) ـ شعب المقال في أحوال الرجال . للميرزا أبي القاسم النراقي ص٩٤ طبع يزد سنة ١٣٦٧ ﻫ .

(٣٢) الشيعة وفنون الاسلام . للسيد حسن الصدر ص ٣٣ و ٥٧ طبع صيدا سنة ١٣٣١ ﻫ .

(٣٣) ـ طبقات الشافعيــة الـكبرى . للسبكي ج ٣ ص ٥١ طبع المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٤ ﻫ . وقد اشتبه هناك فنمى شيخ الطائفـة الى مذهب الشافعي وتبعه كذلك في (كشف الظنون) ج ١ ص ٣١١ ، وهذه كتبه الاســـتدلالية وآراؤه المستنبطة تدل على انه من أكبر مجتهدي المسلمين فـكيف يظن أنه مقلد .

(٣٤) ـ عنوان الشرف في وشي النجف . للشيخ محمد السماوي ص ٨٨ طبـع النجف سنة ١٣٦٠ ﻫ . وفيه تأريخ لوفاة الشيخ فاتنا ذكره في محله ونذكره هنا . وفيه فائدة وهي ان قبر ولده الشيخ أبي علي معه كما احتملناه قال :

كشيخنا الطوسي من أماتا ... نعّيــه أرخه حي ماتا
مرقده بداره مع نجلــه ... وداره معروفة كـفضله

(٣٥) ـ عيون الرجال . للسـيد حسن الصدر ، ص ٧٤ طبـع لـكنهو سنة ١٣٣١ ﻫ .

(٣٦) ـ الفوائد الرجالية . للسيد مهدي بحر العلوم ، مخطوط في مكتبة حسينية التسترية في النجف ومكتبة السيد جعفر آل بحر العلوم وغيرها . ولا نتخطر صفحة الترجمة .

(٣٧) ـ الفوائد الرضوية في أحوال علماء المذاهب الجعفرية . للشيخ عباس القمي ج ٢ ص ٤٧٠ — ٤٧٣ طبع طهران سنة ١٣٦٧ هـ .

(٣٨) ـ الفهرست . لشيخ الطائفة نفسه ترجم لنفسه في حرف الميم ص ١٥٩ — ١٦١ طبع النجف سنة ١٣٥٦ هـ .

(٣٩) ـ فهرست كتابخانه آستان قدس رضوي . في مواضع كثيرة عند ذكر أكثر تصانيفه منها : ج ٤ ص ١٩ و٥٥ و ٢٠٣ ولولا ضعف الحال لاستقصيناها طبع خراسان سنة ١٢٦٩ هـ .

(٤٠) ـ فهرست كتابخانه عالي مدرسة سپهسالار . لابن يوسف الشيرازي ص ٦٦ — ٦٨ طبع طهران سنة ١٣٦٥ هـ .

(٤١) ـ فهرست كتابخانه مجلس لابن يوسف الشيرازي أيضاً ج ٣ ص ٦٩ طبع طهران سنة ١٣٠٨ هـ .

(٤٢) ـ فهرست كتابخانه اهدائي آقاي سيد محمد مشكاة . لنجلنا الأكبر الميرزا علي نقي المنزوي ج ١ ص ٢٠١ — ٢٠٤ و ج ٢ ص ٦٣٧ — ٦٤٠ طبع طهران سنة ١٣٧١ هـ .

(٤٣) ـ قصص العلماء . للميرزا محمد التنكابني ص ٣١٢ طبع طهران سنة ١٣٠٤ هـ .

(٤٤) ـ الكامل في التأريخ . لابن الأثير ج ١٠ ص ٢٤ طبع مصر سنة ١٣٠١ هـ .

(٤٥) ـ كشف الحجب والاستار عن أسماء الكتب والأسفار . للسيد اعجاز حسين الكنتوري طبع بكلكته سنة ١٣٢٠ هـ . وقد ذكر فيه مؤلفات شيخ الطائفة كلاً في محله ، ولا تحضرنا النسخة لتعيين الصفحات .

(٤٦) ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . لكاتب چلبي ج ١ ص ٣١١ — ٣١٢ طبع اسلامبول سنة ١٣١٠ هـ . وقد خلط في حديثه بين الشيخ الطوسي والشيخ الطبرسي كما أشرنا اليه في ص ق من هذه المقدمة .

(٤٧) ـ الكنى والألقاب . للشيخ عباس القمي ج ٢ ص ٣٥٧ طبع صيدا سنة ١٣٥٨ .

(٤٨) ـ لسان الميزان . لابن حجر العسقلاني ج ٥ ص ١٣٥ . طبع حيدر آباد الدكن سنة ١٣٣١ هـ .

(٤٩) ـ لؤلؤة البحرين في الاجازة لقرّتي العين . للشيخ يوسف الدرازي البحراني ، ص ٢٤٥ — ٢٥٢ طبع بمبيء بدون تأريخ .

(٥٠) ـ مجالس المؤمنين . للقاضي الشهيد نور الله المرعشي ص ٢٠٠ — ٢٠١ طبع تبريز .

(٥١) مجمع الرجال . للمولى عناية الله القهپائي مخطوط الورقة ٢٣٠ أ نسخة الأصل بخطه المؤلف سنة ١٠١٦ هـ . في مكتبتنا .

(٥٢) ـ مختلف الرجال . للسيد حسن الصدر مخطوط في مكتبته في الكاظمية ترجم للشيخ الطوسي في التنبيه العاشر من المقدمة .

(٥٣) ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل . للشيخ الميرزا حسين النوري ، ج ٣ ص ٥٠٥ — ٥٠٩ طبع طهران سنة ١٣٢١ هـ .

(٥٤) المستطرفات في الألقاب والكنى والنسب . للسيد حسين البروجردي ص ٢٠٤ و ٢١٠ طبع طهران سنة ١٣١٣ هـ .

(٥٥) المشيخة أو الاسناد المصفى الى آل بيت المصطفى . تأليف الفاني أغا بزرك الطهراني ص ٧١ — ٧٣ طبع النجف سنة ١٣٥٦ هـ .

(٥٦) ـ مصادر الدراسة الأدبية . ليوسف أسعد داغر ج ١ ص ١٢ طبع صيدا سنة ١٩٥٠ م .

(٥٧) ـ مصفى المقال في مصنفي علم الرجال . للفاني أغا بزرك الطهراني غفر له ولأبويه مخطوط الورقة ٦٥ ب .

(٥٨) ـ معالم العلماء لابن شهراشوب ص ١٠٢ — ١٠٣ طبع طهران سنة ١٣٥٣ ﻫ .

(٥٩) ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة . ليوسف اليان سركيس عمود ١٢٤٨ طبع مصر سنة ١٣٤٦ ﻫ ١٩٢٨ م .

(٦٠) ـ مقابس الأنوار ونفايس الأسرار في أحكام النبي المختار وآله الأطهار . للشيخ أسد الله الدزفولي . ص ٤ — ٦ طبع طهران سنة ١٣٢٢ ﻫ .

(٦١) ـ مقدمة الاستبصار . بقلم الشيخ محمد علي الأوردبادي طبع النجف سنة ١٣٧٥ ﻫ .

(٦٢) ـ مقدمة التبيان . بقلم بعض الفضلاء ، طبع سنة ١٣٦٠ ﻫ .

(٦٣) ـ مقدمة الخلاف . بقلم السيد أغا حسين البروجردي ، والشيخ ريحان الله النخعي الكلبايكاني ، والشيخ عبد الحسين الفقيهي ، والشيخ مهدي التبريزي طبع طهران سنة ١٣٧٠ ﻫ .

(٦٤) ـ مقدمة الفهرست . بقلم السيد محمد صادق آل بحر العلوم طبع النجف سنة ١٣٥٦ ﻫ .

(٦٥) مقدمة ترجمة النهاية . بقلم السيد محمد باقر السبزواري طبع طهران سنة ١٣٧٣ ﻫ .

ذكرنا في (الذريعة) ج ٤ ص ١٤٣ — ١٤٤ اننا وقفنا على ترجمة فارسية للنهاية في مكتبة السيد نصر الله الأخوي ، وقلنا : أنها نسخة عتيقة لبعض الأصحاب المقاربين لعصر الشيخ وأشرنا الى ذلك أيضاً في ص ٣٥ من هذه المقدمة عند ذكر النهاية وقد طبعت هذه الترجمة منذ ثلاث سنوات ، وأهدت الينا جامعة طهران نسخة منها لكن غفلنا عن ذكرها في محلها ، وقد نشرت عن غير نسخة التقوي بل عن نسخة (مكتبة

الحاج حسين ملك التجار) وقدم لها في ترجمة حياة الشيخ مقدمة ضافية .

(٦٦) ـ المنتظم في تأريخ الملوك والأمم . لابن الجوزي ج ٨ ص ١٧٣ و ١٧٩ طبع حيدر آباد ١٣٥٧ ﻫ .

(٦٧) ـ منتهى المقال في أحوال الرجال. للشيخ أبي علي الحائري ص ٢٧٠ طبع طهران سنة ١٣٠٢ ﻫ .

(٦٨) ـ منهج المقال في تحقيق أحوال الرجال . للسيد الميرزا محمد الاسترابادي ص ٢٩٢ — ٢٩٣ طبع طهران سنة ١٣٠٤ ﻫ .

(٦٩) ـ موجز المقال في مقاصد علم الدراية والرجال . للشيخ عبد الرحيم الاصفهاني حفيد صاحب (الفصول) ص ٢ طبع طهران سنة ١٣٤٣ ﻫ .

(٧٠) ـ نخبة المقال في علم الرجال للسيد حسين البروجردي ص ٨٨ طبع طهران سنة ١٣١٣ ﻫ .

(٧١) نقد الرجال للسيد مصطفى التفريشي لا تحضرنا نسخته لعين الصفحة منه ، وقد طبع في طهران عام ١٣١٨ ﻫ .

(٧٢) نقض الفضائح . للشيخ عبد الجليل القزويني الرازي ص ١٨٠ طبع طهران سنة ١٣٧١ ﻫ .

(٧٣) ـ نهاية الدراية . للسيد حسن الصدر ص ٢٣٨ — ٢٤٩ طبع لكنهو سنة ١٣٢٣ ﻫ .

(٧٤) هدية الأحباب في ذكر المعروفين بالكنى والألقاب. ص ١٦٨ طبع النجف ١٣٤٩ ﻫ .

(٧٥) ـ الوجيزة للشيخ محمد باقر المجلسي صاحب البحار) ص ١٦٣ طبع طهران سنة ١٣١٢ ﻫ .

(٧٦) ـ الوجيزة. للشيخ بهاء الدين محمد العاملي ص ١٨٤ طبع طهران سنة ١٣١١ ﻫ .

(٧٧) ـ وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة . للشيخ محمد الحر العاملي ج ٣

(٧٨) وصول الأخيار الى أصول الأخبار . للشيخ حسين العاملي والد الشيخ البهائي ص ٧١ طبع طهران سنة ١٣٠٦ هـ .

هذا ما أمكننا القيام به خدمة لشيخ الطائفة أجزل الله أجره ، وكان ذلك من أحلى أمانينا وأعذبها حيث كنا نفكر في ذلك منذ زمن بعيد فقد كنا عقدنا النية على اصدار كتابين ندرس في الأول حياة كل من المحمدين الثلاثة المتقدمة (١) محمد ابن يعقوب الكليني صاحب (الكافي) (٢) الشيخ الصدوق محمد بن علي القمي صاحب (من لا يحضره الفقيه) (٣) شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي رحمهم الله . وفي الثاني المحمدين الثلاثة المتأخرين (١) محمد بن مرتضى الشهير بالفيض صاحب (الوافي) (٢) محمد بن الحسن الحر العاملي صاحب (الوسائل) (٣) محمد باقر بن محمد تقي المجلسي صاحب (البحار) (*) . أداء لحقهم واعترافاً بفضلهم ، غير أن تراكم الأشغال وكثرة العوارض حالا بيننا وبين هذه الأمنية .

على أننا كتبنا في أواخر ذي القعدة سنة ١٣٧٤ هـ رسالة صغيرة قوامها إحدى عشرة صفحة في حال كتاب (الكافي) وهل يوجد فيه خبر ضعيف أولا؟ ولم لم يعرضه على السفراء الأربعة ؟ الى غير ذلك ، وكان تأليفها جواباً عن سؤال وجهه الينا الخطيب الشهير الشيخ عباس قلي التبريزي المعروف بالواعظ الچرندابي ، الا أنها كانت خاصة بالكتاب لا بحياة مؤلفه ، ولذلك بقينا بصدد انتهاز الفرصة للعودة الى ذلك وغيره مما ذكرناه لولا أن خاب رجاؤنا بعد النازلة التي حلت بنا في المحرم هذه السنة ، فقد حطمت الآمال ، وأوهنت العزائم ، وأماتت الهمم ، وذهبت ببقايا القوى ، ولم نزل رغم التحسن الظاهري في حالة لا تدع راحة ولا تعرف الاستقامة وقد عاقتنا عن كثير من الأعمال ، وأخرتنا عن مهام الأشغال العلمية وغيرها .

(*) هؤلاء الستة من أقطاب هذه الطائفة وعمدها وأركانها وحفظة آثارها ومآثرها ، ولهم على الشيعة الامامية فضل لا ينكر ومنة عظيمة ، وعلى كتبهم حتى يوم الناس هذا مدار العمل ، وتسمى مؤلفات المتقدمين بالكتب الأربعة ، ومؤلفات المتأخرين ، بالجوامع المتأخرة .

فمن ذلك عدم حضور المؤتمر الذي عقد في هذه الأيام في كراتشي للاحتفال بمرور أربعة عشر قرناً على ميلاد سيد الكونين وبطل الاسلام الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام ، فقد زارنا رئيس المؤتمر صديقنا القديم المهاراج محمد أمير أحمد المحمدي فدعانا للحضور هناك فاعتذرنا للضعف الشديد المستولي علينا فسجل الرئيس عذرنا وحمله الى الباكستان لاذاعته بين الأعضاء ، وطلب منا كلمة حول المؤتمر فكتبنا ما وسعه الوقت وساعدت عليه الحال ، وحمل الكلمة الى هناك أيضاً .

وهكذا قعد بنا المرض وعاقنا عن الكتابة وغيرها ، ولذا فأنا أرى الفضل كل الفضل لناشر التبيان الذي صار سبباً لكتابة هذه الترجمة ، ولولا طلبه لما خطر ذلك بالبال في هذه الحال ، فالحمد لله على اختياره ونسأله الصبر على بلائه ونصلي على محمد وآله الطاهرين .

وكتبه بأنامله المرتعشة في داره في النجف الأشرف ليلة الجمعة الحادي والعشرين من رجب سنة ست وسبعين وثلثمائة وألف .

الفاني
أغا بزرك الطهراني
عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

الحمدلله اعترافاً بتوحيده ، واخلاصاً لربوبيته ، واقراراً بجزيل نعمته ، وإذعاناً لعظيم منته ، وشكراً على جميع مواهبه ، وكريم فواضله ، وصلى الله على خيرته من خلقه محمد (ص) ، والطاهرين من عترته ، والطيبين من أرومته ، وسلم تسليما .

أما بعد ، فان الذي حملني على الشروع في عمل هذا الكتاب اني لم أجد أحداً من أصحابنا - قديماً وحديثاً - من عمل كتاباً يحتوي على تفسير جميع القرآن ، ويشتمل على فنون معانيه . وانما سلك جماعة منهم في جميع ما رواه ونقله وانتهى اليه فى الكتب المرويه في الحديث ، ولم يتعرض أحد منهم لاستيفاء ذلك ، وتفسير ما يحتاج اليه . فوجدت من شرع فى تفسير القرآن من علماء الأمة ، بين مطيل في جميع معانيه ، واستيعاب ما قيل فيه من فنونه - كالطبري وغيره - وبين مقصر اقتصر على ذكر غريبه ، ومعاني ألفاظه . وسلك الباقون المتوسطون في ذلك مسلك ما قويت فيه مُنتهم (١) وتركوا مالا معرفة لهم به فان الزّجاج والفرّاء ومن اشبههما من النحويين ، أفرغوا وسعهم فيما يتعلق بالاعراب والتصريف . ومُفضّل بن سلمة وغيره استكثروا من علم اللغة ، واشتقاق الالفاظ . والمتكلمين - كأبي علي الجبّائي وغيره - صرفوا همّتهم الى ما يتعلق بالمعاني الكلامية . ومنهم من أضاف الى ذلك الكلام في فنون علمه ، فادخل فيه ما لا يليق به من بسط فروع الفقه ، واختلاف الفقهاء - كالبلخي وغيره - وأصلحُ من سلك في ذلك مسلكاً جميلا مقتصداً ، محمد ابن بحر ، أبو مسلم الاصفهاني ، وعلي بن عيسى الرماني ، فان كتابيهما أصلح

«١» المنة : القوة والكلمة من الاضداد .

ماصنف في هذا المعنى ، غير أنهما أطالا الخطب فيه ، وأوردا فيه كثيراً مما لا يحتاج وسمعت جماعةً من اصحابنا قديماً وحديثاً ، يرغبون في كتاب مقتصد يجتمع على جميع فنون علم القرآن ، من القراءة ، والمعاني والاعراب ، والكلام على المتشابه ، والجواب عن مطاعن الملحدين فيه ، وأنواع المبطلين ، كالمجبّرة ، والمشبّهة والمجسّمة وغيرهم ، وذكر ما يختص اصحابنا به من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة مذاهبهم في اصول الديانات وفروعها .

وأنا ان شاءالله تعالى ، أشرع في ذلك على وجه الايجاز والاختصار لكل فن من فنونه ، ولا أطيل فيمله الناظر فيه ، ولا اختصر اختصاراً يقصر فهمه عن معانيه وأقدم امام ذلك ، فصلا يشتمل على ذكر جمل لابد من معرفتها دون استيفائها ، فان لاستيفاء الكلام فيها مواضع هي أليق به . ومن الله استمد المعونة ، وأستهديه الى طريق الرشاد ، بمنه وقدرته ان شاء الله تعالى .

* * *

فصل

في ذكر جمل لابد من معرفتها قبل الشروع في تفسير القرآن

إعلم ان القرآن معجزة عظيمة على صدق النبي عليه السلام ، بل هو من أكبر المعجزات وأشهرها . غير أن الكلام في إعجازه ، وجهة إعجازه ، واختلاف الناس فيه ، لا يليق بهذا الكتاب ، لأنه يتعلق بالكلام في الأصول . وقد ذكره علماء أهل التوحيد ، وأطنبوا فيه ، واستوفوه غاية الاستيفاء . وقد ذكرنا منه طرفاً صالحاً في شرح الجمل ، لا يليق بهذا الموضع ، لأن استيفاءه يخرج به عن الغرض واختصاره لا يأتي على المطلوب ، فالاحالة عليه أولى .

والمقصود من هذا الكتاب علم معانيه ، وفنون أغراضه . وأما الكلام في زيادته ونقصانه فما لا يليق به ايضاً ، لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها . والنقصان منه ، فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه ، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا وهو الذي نصره المرتضى (ره) ، وهو الظاهر في الروايات غير أنه رويت روايات كثيرة ، من جهة الخاصة والعامة ، بنقصان كثير من آي القرآن ، ونقل شيء منه من موضع الى موضع ، طريقها الآحاد التي لا توجب علماً ولا عملا ، والأولى الاعراض عنها ، وترك التشاغل بها ، لأنه يمكن تأويلها . ولو صحت لما كان ذلك طعناً على ما هو موجود بين الدفتين ، فان ذلك معلوم صحته ، لا يعترضه احد من الأمة ولا يدفعه .

ورواياتنا متناصرة بالحث على قراءته والتمسك بما فيه ، ورد ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع اليه . وقد روي عن النبي (ص) رواية لا يدفعها احد ، انه قال : (اني مخلف فيكم الثقلين ، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض) . وهذا يدل على

انه موجود في كل عصر ، لأنه لا يجوز ان يأمر بالتمسك بما لا نقـــدر على التمسك به . كما أن اهل البيت ، ومن يجب اتباع قوله حاصـل في كل وقت . واذا كان الموجود بيننا مجمعاً على صحته ، فينبغي ان نتشاغل بتفسيره ، وبيان معانيـه ونترك ما سواه .

واعلم ان الرواية ظـاهرة في اخبار اصحابنا بأن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيـح عن النبي صلى الله عليـه وآله ، وعن الأئمـة عليهم السلام ، الذين قولهم حجة كقول النبي (ص) ، وان القول فيه بالرأي لا يجوز . وروى العامـة ذلك عن النبي (ص) انه قال : (من فسر القرآن برأيه وأصاب الحق ، فقد اخطأ) وكره جماعة من التابعين وفقهاء المدينة القول في القرآن بالرأي : كسعيد بن المسيب وعبيـدة السلماني ، ونافع ، ومحمد بن القاسم ، وسالم بن عبـد الله ، وغيرهم . وروي عن عائشة أنها قالت : لم يكن النبي « ص » يفسر القرآن إلا بعـد أن يأتي به جبرائيل (ع) .

والذي نقول في ذلك : إنه لا يجوز ان يكون في كلام الله تعالى وكلام نبيـه تناقض وتضاد . وقـد قال الله تعالى : « انا جعلناه قرآنا عربيا » « ١ » وقال : « بلسان عربي مبين » « ٢ » وقال : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » « ٣ » وقال : « فيـه تبيان كل شيء » وقال: « ما فرطنا في الكتاب من شيء » « ٤ » فكيف يجوز ان يصفه بانه عربي مبين ، وانه بلسان قومـه ، وانه بيان للناس ولا يفهم بظاهره شيء ؟ وهل ذلك إلا وصف له باللغز والمعمى الذي لا يفهم المراد به إلا بعد تفسيره وبيانه ؟ وذلك منزه عن القرآن . وقد مدح الله أقواماً على استخراج معاني القرآن فقـال : « لعلمهُ الذين يستنبطونه منهم » « ٥ » ، وقال في قوم

« ١ » سورة الزخرف : آية ٤٣ .
« ٢ » سورة الشعراء : آية ١٩٥ .
« ٣ » سورة ابراهيم : آية ٤ .
« ٤ » سورة الانعام : آية ٣٨ .
« ٥ » سورة النساء : آية ٨٢ .

يذمهم حيث لم يتدبروا القرآن ، ولم يتفكروا في معانيه : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » «١» وقال النبي (ص) . (اني مخلف فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي) فبين ان الكتاب حجة ، كما أن العترة حجة . وكيف يكون حجة ما لا يفهم به شيء ؟ وروى عنه عليه السلام انه قال : (اذا جاءكم عني حديث ، فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافق كتاب الله فاقبلوه ، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط) . وروي مثل ذلك عن أئمتنا عليهم السلام ، وكيف يمكن العرض على كتاب الله ، وهو لا يفهم به شيء ؟ وكل ذلك يدل على ان ظاهر هذه الاخبار متروك والذي نقول به : إن معاني القرآن على أربعة أقسام :

احدها — ما اختص الله تعالى بالعلم به ، فلا يجوز لأحد تكلف القول فيه ، ولا تعاطي معرفته ، وذلك مثل قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل : إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو » «٢» ومثل قوله تعالى : « ان الله عنده علم الساعة . . » «٣» الى آخرها . فتعاطي معرفة ما اختص الله تعالى به خطأ .

وثانيها — ما كان ظاهره مطابقاً لمعناه ، فكل من عرف اللغة التي خوطب بها ، عرف معناها ، مثل قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » «٤» ومثل قوله تعالى : (قل هو الله أحد) (٥) وغير ذلك .

وثالثها — ما هو مجمل لا ينبيء ظاهره عن المراد به مفصلا . مثل قوله تعالى: (أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة) (٦) ومثل قوله : (ولله على الناس حج البيت

«١» سورة محمد : آية ٢٤ .
«٢» سورة الاعراف : آية ١٨٦ .
«٣» سورة لقمان : آية ٣٤ .
«٤» سورة الانعام : آية ١٥١ .
«٥» سورة التوحيد : آية ١ .
«٦» سورة البقرة : آية ٤٣ و ٨٣ و ١١٠ النساء آية ٧٦ . الحج آية ٧٨ . النور آية ٥٦ المجادلة آية ١٣ المزمل آية ٢ .

من استطاع اليه سبيلا) (١) وقوله : (وآتوا حقه يوم حَصاده) (٢) وقوله : (وفي أموالهم حق معلوم) (٣) وما اشبه ذلك . فان تفصيل اعداد الصلاة وعدد ركعاتها ، وتفصيل مناسك الحج وشروطه ، ومقادير النصاب في الزكاة لا يمكن استخراجه إلا ببيان النبي (ص) ووحي من جهة الله تعالى . فتكلف القول في ذلك خطأ ممنوع منه ، يمكن ان تكون الاخبار متناولة له .

ورابعها — ما كان اللفظ مشتركا بين معنيين فما زاد عنها ، ويمكن ان يكون كل واحد منها مراداً . فانه لا ينبغي أن يقدم احد به فيقول : ان مراد الله فيه بعض ما يحتمل — إلا بقول نبي او امام معصوم — بل ينبغي ان يقول : ان الظاهر يحتمل لأمور ، وكل واحد يجوز أن يكون مراداً على التفصيل . والله أعلم بما أراد .

ومتى كان اللفظ مشتركا بين شيئين ، أو ما زاد عليها ، ودل الدليل على انه لا يجوز ان يريد إلا وجهاً واحداً ، جاز ان يقال : إنه هو المراد .

ومتى قسمنا هذه الاقسام ، نكون قد قبلنا هذه الاخبار ولم نردها على وجه يوحش نقلتها والمتمسكين بها ، ولا منعنا بذلك من الكلام في تأويل الآي جملة .

ولا ينبغي لأحد ان ينظر في تفسير آية لا ينبىء ظاهرها عن المراد تفصيلا ، أو يقلد أحداً من المفسرين ، إلا ان يكون التأويل مجمعاً عليه ، فيجب اتباعه لمكان الاجماع ، لأن من المفسرين من حمدت طرائقه ، ومدحت مذاهبه ، كابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد وغيرهم . ومنهم من ذمت مذاهبه ، كأبي صالح ، والسدي والكلبي وغيرهم . هذا في الطبقة الاولى . وأما المتأخرون فكل واحد منهم نصر مذهبه ، وتأول على ما يطابق اصله ، ولا يجوز لأحد أن يقلد أحداً منهم ، بل ينبغي ان يرجع الى الادلة الصحيحة : إما العقلية ، أو الشرعية ، من اجماع عليه ، أو نقل متواتر به ، عمن يجب اتباع قوله ، ولا يقبل في ذلك خبر واحد ، خاصة

«١» سورة آل عمران : آية ٩١ .

«٢» سورة الانعام : آية ١٤١ .

«٣» سورة المعارج : آية ٢٣ .

اذا كان مما طريقه العلم ، ومتى كان التأويل يحتاج الى شاهد من اللغة ، فلا يقبل من الشاهد إلا ما كان معلوماً بين اهل اللغة ، شائعاً بينهم . وأما طريقة الآحاد من الروايات الشاردة ، والالفاظ النادرة ، فانه لا يقطع بذلك ، ولا يجعل شاهداً على كتاب الله وينبغي أن يتوقف فيه ويذكر ما يحتمله ، ولا يقطع على المراد منه بعينه ، فانه متى قطع بالمراد كان مخطئاً ، وان أصاب الحق ، كما روي عن النبي (ص) لأنه قال تخميناً وحدساً ولم يصدر ذلك عن حجة قاطعة . وذلك باطل بالاتفاق .

واعلموا ان العرف من مذهب اصحابنا والشائع من اخبارهم ورواياتهم ان القرآن نزل بحرف واحد ، على نبي واحد ، غير انهم اجمعوا على جواز القراءة بما يتداوله القراء وأن الانسان مخير باي قراءة شاء قرأ ، وكرهوا تجويد قراءة بعينها بل اجازوا القراءة بالمجاز الذي يجوز بين القراء ولم يبلغوا بذلك حد التحريم والحظر . وروى المخالفون لنا عن النبي (ص) انه قال : (نزل القرآن على سبعة احرف كلها شاف كاف .) وفي بعضها : (على سبعة ابواب) وكثرت في ذلك رواياتهم . ولا معنى للتشاغل بايرادها . واختلفوا في تأويل الخبر ، فاختار قوم ان معناه على سبعة معان : أمر ، ونهي ، ووعد ، ووعيد ، وجدل ، وقصص ، وأمثال وروى ابن مسعود عن النبي « ص » انه قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . »

وروى ابو قلامة عن النبي [ص] انه قال : [نزل القرآن على سبعة أحرف : أمر ، وزجر ، وترغيب ، وترهيب ، وجدل ، وقصص ، وأمثال .] وقال آخرون : [نزل القرآن على سبعة أحرف .] أي سبع لغات مختلفة ، مما لا يغير حكما في تحليل وتحريم ، مثل . هلم . ويقال من لغات مختلفة ، ومعانيها مؤتلفة . وكانوا مخيرين في أول الاسلام في أن يقرأوا بما شاءوا منها . ثم اجمعوا على حدها ، فصار ما اجمعوا عليه مانعاً مما اعرضوا عنه . وقال آخرون : [نزل على سبع لغات من اللغات الفصيحة ، لأن القبائل بعضها افصح من بعض] وهو الذى اختاره الطبرى . وقال بعضهم : [هي على سبعة اوجه من اللغات ، متفرقة في القرآن ، لانه

لا يوجد حرف قرىء على سبعة اوجه .] وقال بعضهم : [وجـه الاختلاف في القراءات سبعة :

أولها ـ اختلاف اعراب الكلمـة اوحركة بنائها فلا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغير معناها نحو قوله : هؤلاء بناتي هن اطهر لكم «١» بالرفع والنصب وهـل نجازي إلا الكفور ؟ (٢ بالنصب والنون وهل يجازى إلا الكفور ؟ بالياء والرفع . وبالبخل [٣] والبخل والبخل برفع الباء ونصبها . وميسرة [٤] وميسرة بنصب السين ورفعها .

والثاني ـ الاختلاف في اعراب الكلمـة وحركات بنائها مما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها فى الكتابة مثل قوله : ربنا باعد بين اسفارنا (٥) على الخبر . ربنا باعد على الدعاء . واذتلقونه بالسنتكم (٦) بالتشديد وتلقونه بكسر اللام والتخفيف

والوجه الثالث ـ الاختلاف في حروف الكلمة دون اعرابها ، مما يغير معناها ولا يزيل صورتها نحو قوله تعالى : كيف ننشزها (٧) بالزاء المعجمة وبالراء الغيرمعجمة

والرابع ـ الاختلاف في الكلمة مما يغير صورتها ولا يغير معناها نحو قوله : ان كانت إلا صيحة واحدة (٨) والازقية . وكالصوف المنفوش وكالعهن المنفوش (٩)

والخامس ـ الاختلاف في الكلمـة مما يزيل صورتها ومعناها نحو : وطلح منضود (١٠) وطلع .

السادس ـ الاختلاف بالتقـديم والتأخير نحو قوله : وجاءت سكرة الموت

«١» سورة هود آية ٧٨
«٢» سورة سبأ آية ١٧
«٣» سورةالنساء آية ٣٦ الحديد آية ٢٤ والبخل بالرفع مصدر بخل والبخل بالفتح مصدر بخل
«٤» سورة البقرة . آية ٢٨
«٥» سورة سبأ آية آية ١٩
«٦» سورة النور آية ١٥
«٧» سورة البقرة آية ٢٥٩
«٨» سورة يس آية ٢٩ ـ ٤٩ ـ ٥٣ سورة ص آية ١٥
«٩» سورة القارعة . آية ٥
«١٠» سورة ق آية ـ ١٩

بالحق (١) وجاءت سكرة الحق بالموت .

السابع ـ الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو قوله : وما عملت ايديهم وما عملته (٢) باسقاط الهاء واثباتها . ونحو قوله : فان الله هو الغني الحميد وان الله الغني الحميد . في سورة الحديد (٣) .

وهذا الخبر عندنا وان كان خبراً واحداً لا يجب العمل به فالوجه الأخير أصلح الوجوه على ما روي عنهم عليه السلام من جواز القراءة بما اختلف القراء فيه .

واما القول الأول فهو على ما تضمنته لأن تأويل القرآن لا يخرج عن احد الاقسام السبعة : إما أمر . اونهي . اووعد . او وعيد . اوخبر . او قصص . اومثل . وهو الذي ذكره اصحابنا في اقسام تفسير القرآن .

فاما ما روي عن النبي (ص) انه قال : [ما نزل من القرآن من آية إلا ولها ظهر وبطن .] وقد رواه ايضاً اصحابنا عن الائمة عليهم السلام فانه يحتمل ذلك وجوها :

احدها ـ ما روي في أخبارنا عن الصادقين عليهما السلام . وحكي ذلك عن ابي عبيدة أن المراد بذلك القصص باخبار هلاك الاولين وباطنها عظة للاخرين

والثاني ـ ما حكي عن ابن مسعود انه قال : [ما من آية إلا وقد عمل بها قوم ولها قوم يعملون بها .]

والثالث ـ معناها أن ظاهرها لفظها وباطنها تأويلها ذكره الطبري واختاره البلخي

والرابع ـ ما قاله الحسن البصري : [انك اذا فتشت عن باطنها وقسته على ظاهرها وقفت على معناها] وجميع اقسام القرآن لا يخلو من ستة : محكم . ومتشابه وناسخ . ومنسوخ . وخاص . وعام .

فالمحكم ما انبأ لفظه عن معناه من غير اعتبار امر ينضم اليه سواء كان اللفظ لغويا اوعرفيا . ولا يحتاج الى ضروب من التأويل . وذلك نحو قوله : [لا يكلف

«١» سورة يس آية ٣٥
«٢» سورة الواقعة آية ٢٥
«٣» آية ٢٤

الله نفساً إلا وسعها] [١] وقوله : [ولا تقتلوا النفس التي حرم الله] [٢] وقوله : [قل هو الله احد] [٣] وقوله : [لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوءاً احد] [٤] وقوله : [وما ربك بظلام للعبيد] [٥] وقوله : [ما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون] [٦] ونظائر ذلك .

والمتشابه ما كان المراد به لا يعرف بظاهره بل يحتاج الى دليل وذلك ما كان محتملا لامور كثيرة أو امرين ولا يجوز ان يكون الجميع مراداً فانه من باب المتشابه . وانما سمي متشابها لاشتباه المراد منه بما ليس بمراد وذلك نحو قوله : [ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله] [٧] وقوله : [والسماوات مطويات بيمينه] [٨] وقوله : (تجري باعيننا) (٩) وقوله (يضل من يشاء) (١٠) وقوله: (فاصمهم وأعمى أبصارهم وطبع على قلوبهم) (١١) ونظائر ذلك من الآي التي المراد منها غير ظاهرها . فان قيل : هلا كان القرآن كله محكماً يستغنى بظاهره عن تكلف ما يدل على المراد منه حتى دخل على كثير من المخالفين للحق شبهة فيه وتمسكوا بظاهره على ما يعتقدونه من الباطل ؟ أتقولون إن ذلك لم يكن مقدوراً له تعالى ؟ فهذا هو القول بتعجيزه ! أو تقولون هو مقدور له ولم يفعل ذلك فلم لم يفعله ؟ قيل الجواب على ذلك من وجهين : احدهما ـ ان خطاب الله تعالى ـ مع ما فيه من الفوائد ـ المصلحة معتبرة في الفاظه فلا يمتنع أن تكون المصلحة الدينية

«١» سورة البقرة آية ٢٨٦
«٢» سورة الانعام آية ١٥١
«٣» سورة التوحيد آية ١
«٤» سورة التوحيد آية ٣ و٤
«٥» سورة حم السجدة آية ٤٦
«٦» سورة الذاريات آية ٥٦
«٧» سورة الزمر آية ٥٦
«٨» سورة الزمر آية ـ ٦٧
«٩» سورة القمر آية ١٤
«١٠» سورة الرعد آية ٢٩ . ابراهيم آية ـ ٤، فاطر آية ـ ٨
«١١» سورة محمد . آية ٢٣

تعلقت بان يستعمل الألفاظ المحتملة ويجعل الطريق الى معرفة المراد به ضرباً من الاستدلال ولهذه العلة أطال في موضع وأسهب واختصر في آخر وأوجز واقتصر وذكر قصة في موضع وأعادها في موضع آخر .

واختلفت أيضاً مقادير الفصاحة فيه وتفاضلت مواضع منه بعضه على بعض

والجواب الثاني : ان الله تعالى انما خلق عباده تعريضاً لثوابه وكلفهم لينالوا اعلى المراتب واشرفها ولو كان القرآن كله محكماً لا يحتمل التأويل ولا يمكن فيه الاختلاف لسقطت المحنة وبطل التفاضل وتساوت المنازل ولم تبِن منزله العلماء من غيرهم . وانزل الله القرآن بعضه متشابهاً ليعمل أهل العقل افكارهم ويتوصلوا بتكلف المشاق والنظر والاستدلال الى فهم المراد فيستحقوا به عظيم المنزلة وعالي الرتبة .

فان قيل : كيف تقولون ، ان القرآن فيه محكم ومتشابه ، وقد وصفه الله تعالى بأنه اجمع محكم ؟ ووصفه في مواضع أخر بأنه متشابه وذكر في موضع آخر ان بعضه محكم ، وبعضه متشابه ـ كما زعمتم ـ وذلك نحو قوله : « الر . كتاب احكمت آياته » (١) وقال في موضع آخر : « الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً » (٢) وقال في موضع آخر : « وهو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وأخر متشابهات » (٣) وهل هذا إلا ظاهر التناقض ؟ قلنا : لا تناقض في ذلك ، لأن وصفه بأنه محكم كله ، المراد به انه بحيث لا يتطرق عليه الفساد والتناقض والاختلاف والتباين والتعارض ، بل لا شيء منه إلا وهو في غاية الاحكام ـ إما بظاهره اوبدليله ، على وجه لا مجال للطاعنين عليه . ووصفه بانه متشابه أنه يشبه بعضه بعضاً في باب الاحكام الذي أشرنا اليه ، وأنه لا خلل فيه ولا تباين ولا تضاد ولا تناقض . ووصفه بان بعضه محكم ، وبعضه متشابه ما اشرنا اليه ، من ان بعضه ما يفهم المراد بظاهره فيسمى محكماً ومنه ما يشتبه المراد منه بغيره وان كان على المراد والحق منه دليل فلا تناقض في ذلك بحال .

«١» سورة هود . آية ١

«٢» سورة الزمر . آية ٢٣

«٣» سورة آل عمران . آية ٧

واما الناسخ فهو كل دليل شرعي يدل على زوال مثل الحكم الثابت بالنص الأول في المستقبل على وجه لولاه لكان ثابتاً بالنص الاول مع تراخيه عنه . اعتبرنا دليل الشرع لأن دليل العقل اذا دل على زوال مثل الحكم الثابت بالنص الاول لا يسمى نسخاً . ألا ترى أن المكلف للعبادات ، اذا عجز اوزال عقله ، زالت عنه العبادة بحكم العقل ؛ ولا يسمى ذلك الدليل ناسخاً ؟ واعتبرنا زوال مثل الحكم ، ولم نعتبر الحكم نفسه لأنه لا يجوز أن ينسخ نفس ما أمر به ، لأن ذلك يؤدي الى البداء . وانما اعتبرنا أن يكون الحكم ثابتاً بنص شرعي ، لأن ما ثبت بالعقل اذا أزاله الشرع لا يسمى بأنه نسخ حكم العقل . ألا ترى أن الصلاة والطواف لولا الشرع لكان قبيحاً فعله في العقل واذ اورد الشرع بها لا يقال نسخ حكم العقل ؟ واعتبرنا مع تراخيه عنه لأن ما يقترن به لا يسمى نسخاً وربما يكون تخصيصاً ان كان اللفظ عاماً اومقيداً ان كان اللفظ خاصاً . ألا ترى أنه لو قال : اقتلوا المشركين الا اليهود لم يكن قوله إلا اليهود نسخاً لقوله اقتلوا المشركين ؟ وكذا لو قال : فسيحوا في الارض اربعة اشهر فقيد بهذه الغاية لا يقال لما بعدها نسخ . وكذا لما قال في آية الزنا : فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة (١) لا يقال لما زاد عليه منسوخ لانه مقيد في اللفظ .

والنسخ يصح دخوله في الامر والنهي بلا خلاف . والخبر ان تناول ما يصح تغييره عن صفة جاز دخول النسخ فيه لأنه في معنى الأمر . ألا ترى أن قوله : (ولله على الناس حج البيت) (٢) خبر ؟ وقوله : (والمطلقات يتربصن بانفسهن) (٣) أيضاً خبر ؟ وكذلك قوله : (ومن دخله كان آمنا) « ٤ » خبر ومع ذلك يصح دخول النسخ فيه فاما ما لا يصح تغييره عن صفة فلا يصح دخول النسخ فيه ، نحو الاخبار عن صفات الله تعالى ، وصفات الاجناس

«١» سورة النور . آية ٢
«٢» سورة آل عمران . آية ٩٧
«٣» سورة البقرة . آية ٢٢٨
«٤» سورة آل عمران . آية ٩٧

ـ لما يصح عليه التغيير ، لم يصح فيه النسخ حيث أن العبارة بالاخبار عنه بأنه قادر ، عالم ، سميع بصير، لا يصح النسخ فيه ، لأنه يمتنع دخول النسخ في الاخبار ـ ان كان الخبر لا يصح تغييره في نفسه .

ولا يخلو النسخ في القرآن من أقسام ثلاثة : احدها ـ نسخ حكمه دون لفظه ـ كآية العدة في المتوفى عنها زوجها المتضمنة للسنة (١) فان الحكم منسوخ والتلاوة باقية . وكآية النجوى (٢) وآية وجوب ثبات الواحد للعشرة (٣) . فان الحكم مرتفع ، والتلاوة باقية . وهذا يبطل قول من منع جواز النسخ في القرآن لأن الموجود بخلافه .

والثاني ـ ما نسخ لفظه دون حكمه ، كآية الرجم فان وجوب الرجم على المحصنة لا خلاف فيه ، والآية التي كانت متضمنة له منسوخة بلا خلاف، وهي قوله : (والشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البته ، فانهما قضيا الشهوة جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم .)

الثالث ـ ما نسخ لفظه وحكمه ، وذلك نحو ما رواه المخالفون من عائشة : أنه كان فيما أنزل الله ان عشر رضعات تحرمن ، ونسخ ذلك بخمس عشرة فنسخت التلاوة والحكم .

وأما الكلام في شرائط النسخ ، فما يصح منها وما لا يصح وما يصح أن ينسخ به القرآن ، وما لا يصح أن ينسخ به . وقد ذكرناه في كتاب العدة ـ في اصول الفقه ـ ولا يليق ذلك بهذا المكان .

وحكى البلخي في كتاب التفسير فقال : (قال قوم ـ ليسوا ممن يعتبرون ولكنهم من الأمة على حال ـ ان الأئمة المنصوص عليهم ـ بزعمهم ـ مفوض اليهم نسخ القرآن وتدبيره ، وتجاوز بعضهم حتى خرج من الدين بقوله : ان النسخ قد

«١» سورة البقرة . آية ٢٤٠

«٢» سورة المجادلة . آية ١٢

«٣» سورة الانفال . آية ٦٥

يجوز على وجه البداء وهو أن يأمر الله عز وجل عندهم بالشيء ولا يبدو له . ثم يبدو له فيغيره ، ولا يريد في وقت أمره به أن يغيره هو ويبدله وينسخه ، لأنه عندهم لا يعلم الشيء حتى يكون ؛ إلا ما يقدره فيعلمه علم تقدير ، وتعجرفوا فزعموا ان ما نزل بالمدينه ناسخ لما نزل بمكة)

وأظن انه عنى بهذا اصحابنا الأمامية ، لأنه ليس في الأمة من يقول بالنص على الأئمة عليهم السلام سواهم . فان كان عناهم فجميع ما حكاه عنهم باطل وكذب عليهم ، لأنهم لا يجيزون النسخ على أحد من الأئمة (ع) ولا احد منهم يقول بحدوث العلم . وانما يحكى عن بعض من تقدم من شيوخ المعتزلة ــ كالنظام والجاحظ وغيرهما ــ وذلك باطل . وكذلك لا يقولون : ان المتأخر ينسخ المتقدم إلا بالشرط الذي يقوله جميع من اجاز النسخ ، وهو ان يكون بينهما تضاد وتناف لا يمكن الجمع بينهما ، واما على خلاف ذلك فلا يقوله محصل منهم .

والوجه في تكرير القصة بعد القصة في القرآن ، أن رسول الله (ص) كان يبعث الى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة فلو لم تكن الأنباء والقصص مكررة ، لوقعت قصة موسى الى قوم وقصة عيسى الى قوم ، وقصة نوح الى قوم آخرين ، فاراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع ، ويثبتها في كل قلب ، ويزيد الحاضرين في الافهام

وتكرار الكلام من جنس واحد ، وبعضه يجري على بعض ، كتكراره في : قل ياايها الكافرون ، وسورة المرسلات ، والرحمن فالوجه فيه ، ان القرآن نزل بلسان القوم ، ومذهبهم في التكرار ــ ارادة للتوكيد وزيادة في الافهام ــ معروف كما ان من مذهبهم الايجاز والاختصار ارادة للتخفيف . وذلك أن افتنان المتكلم والخطيب في الفنون ، وخروجه من شيء الى شيء ، أحسن من اقتصاره من المقام على فن واحد . وقد يقول القائل : والله لأفعله ثم والله لأفعله ، اذا أراد التوكيد كما يقول : افعله بحذف اللام اذا أراد الايجاز . قال الله تعالي : « كلا سوف تعلمون

ثم كلا سوف تعلمون » (١) وقال : « فان مع العسر يسراً · ان مع العسر يسراً »(٢) وقال الله تعالى : « اولى لك فأولى . ثم اولى لك فأولى » (٣) وقال : « ما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما ادراك ما يوم الدين » (٤) كل هذا يراد به التوكيد . وقد يقول القائل لغيره : اعجل اعجل وللرامي ارم ارم قال الشاعر :

كم نعمةٍ كانت لكم　　　كم كم وكم

وقال آخر :

هلا سألت جموع كنـ　　　ـدة يوم ولوا اين اينا

وقال عوف بن الخزرج :

وكادت فزارةُ تَصلى بنا　　　فاولى فزار فأولى فزار

فاما تكرار معنى واحد بلفظين مختلفين ، كقوله : « الرحمن الرحيم » وقوله : « يسمع سرهم ونجواهم » والنجوى هو السر ، فالوجه فيه ما ذكرنا من ان عادة القوم ، تكرير المعنى بلفظين مختلفين ، اتساعاً في اللغة ، كقول الشاعر . كذباً ومينا . وهما بمعنى واحد وقول الآخر :

لمياء في شفتيها حوة لعس　　　وفي اللثات وفي أنيابها شنب

واللمى : سواد في الشفتين . والحوة . واللعس كلاهما سواد في الشفتين وكرر لاختلاف اللفظ . والشنب : تحزز في الانياب كالمنشار ، وهو نعت لها . ورحمن ورحيم ، سنبين القول فيهما فيما بعد . وقوله : « وغشاها ما غشى » (٥) وقوله : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » (٦) وقوله : « ولا طائر يطير بجناحيه » (٧) على

«١» سورة التكاثر . آية ٣ و ٤
«٢» سورة الانشراح آية ٥ و ٦
«٣» سورة القيامة آية ٣٤ و ٣٥
«٤» سورة الانفطار آية ١٧ و ١٨
«٥» سورة النجم آية ٥٤
«٦» سورة طه آية ٧٨
«٧» سورة الانعام . آية ٣٨

ما قلناه من التوكيد ، كما يقول القائل : كلمته بلساني ، ونظرت اليه بعيني ، ويقال بين زيد وبين عمرو ، وانما البين واحد . والمراد بين زيد وعمرو . وقال الشاعر أوس بن الحجر :

ألم تكسف الشمس شمس النها　　ر مع النجم والقمر الواجب (١)

والشمس لا تكون إلا بالنهار ، فأكد .

ذكرنا هذه الجملة تنبيهاً عن الجواب عما لم نذكره ، ولعلنا نستوفيه فيما بعد اذا جرى ما يقتضي ذكره ولولا عناد الملحدين ، وتعجرفهم ، لما احتيج الى الاحتجاج بالشعر وغيره للشيء المشتبه في القرآن ، لأن غاية ذلك أن يستشهد عليه ببيت شعر جاهلي ، اولفظ منقول عن بعض الاعراب ، أومثل سائر عن بعض أهل البادية . ولا تكون منزلة النبي (ص) ـ وحاشاه من ذلك ـ أقل من منزلة واحد من هؤلاء . ولا ينقص عن رتبة النابغة الجعدي ؛ وزهير بن الكعب وغيرهم . ومن طرائف الامور ان المخالف اذا اورد عليه شعر من ذكرناه ، ومن هو دونهم سكنت نفسه ، واطمأن قلبه . وهو لا يرضى بقول محمد بن عبدالله بن عبد المطلب . ومهما شك الناس في نبوته ، فلا مرية في نسبه ، وفصاحته ، فانه نشأ بين قومه الذين هم الغاية القصوى في الفصاحة، ويرجع اليهم في معرفة اللغة . ولو كان المشركون من قريش وغيرهم وجدوا متعلقاً عليه في اللحن والغلط والمناقضة ، لتعلقوا به ، وجعلوه حجة وذريعة الى اطفاء نوره وابطال امره ، واستغنوا بذلك عن تكلف ما تكلفوه من المشاق في بذل النفوس والاموال . ولو فعلوا ذلك لظهر واشتهر ، ولكن حب الالحاد والاستثقال لتحمل العبادات ، والميل الى الفواحش أعماهم وأصمهم ، فلا يدفع أحد من الملحدين ـ وان جحدوا نبوته (ص) ـ انه اتى بهذا القرآن ، وجعله حجةً لنفسه ، وقرأه على العرب . وقد علمنا انه ليس بأدون الجماعة في الفصاحة . وكيف يجوز ان يحتج بشعر الشعراء عليه ، ولا يجوز أن يحتج بقوله عليهم وهل هذا إلا عناد محض ، وعصبية صرف ؟ وانما يحتج علماء

«١» الواجب : الغائب

الموحدين بشعر الشعراء وكلام البلغاء ، اتساعاً في العلم ، وقطعاً للشغب ، وازاحة للعلة ، وإلا فكان يجب ألا يلتفت الى جميع ما يطعن عايه ، لأنهم ليسوا بان يجعلوا عياراً عليه باولى من ان يجعل هو عليه السلام عياراً عليهم .

وروي عن ابن مسعود ، انه قال : «كان الرجـل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن ، والعمـل بهن . » وروي انه استعمل علي (ع) عبدالله بن العباس على الحج فخطب خطبة لو سمعها الترك والروم لأسلموا . ثم قرأ عليهم سورة النور ـ وروي سورة البقرة ـ ففسرها . فقال رجل : « لو سمعت هذا الديلم لأسلمت » ويروى عن سعيد بن الجبير ، انه من قرأ القرآن ثم لم يفسره كان كالاعجمي أوالاعرابي .

فصل

في ذكر اسامي القرآن ، وتسمية السور والا يات

سمى الله تعالى القرآن باربعة اسماء : سماه قرآناً في قوله تعالى : « انا جعلناه قرآناً عربياً » (١) وفي قوله : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن » (٢) وغير ذلك من الآي .

وسماه فرقاناً في قوله تعالى : « تبارك الذي انزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . » (٣) .

وسماه الكتاب في قوله : « الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً » (٤) .

«١» سورة الزخرف آية ٣

«٢» سورة البقرة آية ١٨٥

«٣» سورة الفرقان آية ١

«٤» سورة الكهف آية ١

وسماه الذكر في قوله : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (١)

وتسميته بالقرآن تحتمل أمرين : احدهما — ما روي عن ابن عباس ، انه قال : (هو مصدر قرأت قرآنا) أي تلوته ، مثل : غفرت غفرانا ، وكفرت كفرانا

والثاني — ما حكي عن قتادة ، انه قال « هو مصدر قرأت الشيء اذا جمعت بعضه الى بعض » قال عمرو بن كلثوم

ذراعي عيطل [٢] ادماء [٣] بكر　　هجان [٤] اللون لم تقرأ جنينا

اي لم تضم جنينها في رحمها . وقال قطرب في معناه قولان احدهما هذا وعليه اكثر المفسرين . وقال قولا آخر معناه لفظت به مجموعاً . وقال معنى البيت أيضاً أي لم تلقه مجموعاً وتفسير ابن عباس أولى ، لأن قوله تعالى [ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه] (٥) .

والوجه المختار ان يكون المراد واذا تلوناه عليك ، وبيناه لك ، فاتبع تلاوته ولو حملناه على الجمع ـ على ما قال قتادة ـ لكان يجب ألا يلزم اتباع آية آية من القرآن النازله في كل وقت ، وكان يقف وجوب الاتباع على حين الجمع ، لأنه علقه بذلك على هذا القول ، لانه قال : « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » يعني جمعناه على ما قالوه فاتبع قرآنه ، وكان يقف وجوب الاتباع على تكامل الجميع ، وذلك خلاف الاجماع فالاول أولى .

فان قيل : (كيف يسمي القراءة قرآنا ، وانما هو مقروء ؟) قلنا : (سمي بذلك كما يسمى المكتوب كتاباً ، بمعنى : كتاب الكاتب) قال الشاعر في صفة طلاق كتبه لامرأته :

تؤمل رجعة مني وفيها　　كتابٌ مثل ما لصق الغراء

يعني طلاقاً مكتوباً .

«١» سورة يوسف آية ١٢ و ٦٣ وسورة الحجر آية ١٥

«٢» عيطل : طويلة العنق

«٣» ناقة ادماء : بيضاء

«٤» بيضاء اللون

«٥» سورة القيامة آية ١٧ ـ ١٨

وتسميته بانه فرقان ، لأنه يفرق بين الحق والباطل . والفرقان هو الفرق بين الشيئين . وانما يقع الفرق بين الحق والباطل بادلتـه الدالة على صحـة الحق ، وبطلان الباطل .

وتسميته بالكتاب لأنه مصدر من قولك ، كتبت كتابا ، كما تقول قمت قياماً . وسمي كتاباً وانما هو مكتوب ، كما قال الشاعر في البيت المتقدم . والكتابة مأخوذة من الجمع في قولهم : كتبت السقاء اذا جمعته بالخرز قال الشاعر :

لا تأمنن فزارياً خلوت به　　على قلوصك فاكتبها باسيار[١]

والكتبة ، الخرزة . وكلما ضممت بعضـه الى بعض على وجه التقارب فقد كتبته . والكتيب [٢] من الجيش ، من هذا ، لانضمام بعضها الى بعض .

وتسميته بالذكر ، يحتمل أمرين : احدهما ـ انه ذكر من الله تعالى ذكـر به عباده ، فعرفهم فيه فرائضه ، وحدوده . والآخر ـ انه ذكر وشرف لمن آمن به وصدق بما فيه . كقوله [وانه لذكر لك ولقومك] [٣] .

وأما السورة ـ بغير همز ـ فهي منزلتـه من منازل الارتفاع ، ومن ذلك سور المدينة سمي بذلك ، الحائط الذي يحويها لارتفاعه عما يحويه ، غير ان سور المدينة لم يجمع سوراً ، وسورة القرآن تجمع سوراً . وهذه أليق بتسميته سور القرآن سورة . قال النابغة

ألم تر ان الله اعطاك سورة　　يرى كل ملك دونها يتذبذب

يعني منزلة من منازل الشرف التي قصرت عنها الملوك .

واما من همز السورة من القرآن ، فانه أراد به القطعة التي انفصلت من القرآن ، وأبقيت وسؤر كل شيء بقيته . يقال اسأرت في الاناء أي ابقيت فيـه قال الاعشى بن ثعلبة ، يصف امرأة

فبانت وقد أسأرت في الفؤا　　د صدعاً على نأيها مستطارا

«١» اسيارج سير : الجلد

«٣» والكتيبة

«٣» سورة الزخرف آية ٤٤

وتسمية الآية بانها آية ، يحتمل وجهين احدها ـ لأنها علامة يعرف بها تمام ما قبلها ، ومنه قوله تعالى [أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لاولنا وآخرنا وآية منك] [١] يعني علامة لاجابتك دعاءنا . والآخر أن الآية القصة والرسالة . قال كعب بن زهير

ألا أبلغا هذا المعرض آية　　أيقظان قال القول اذا قال أم حلم

يعني رسالة . فيكون معنى الآيات القصص، قصة تتلو قصة روى واثلة بن الاصقع أن النبي [ص] قال [أعطيت مكان التوراة السبع الطول ، وأعطيت مكان الزبور المئين ، وأعطيت مكان الانجيل ، المثاني ، وفضلت بالمفصل] فالسبع الطول ١ ـ البقرة ٢ ـ آل عمران ٣ ـ النساء ٤ ـ المائدة ٥ ـ الانعام ٦ ـ الاعراف ٧ ـ ويونس . في قول سعيد بن جبير وروي مثل ذلك عن ابن عباس قال وسميت السبع الطوال ، لطولها على سائر القرآن . وأما المئون ، فهو كل سورة تكون مائة آية أو يزيد عليها شيئاً يسيراً ، اوينقص عنها شيئاً يسيراً . وأما المثاني فهي ما ثنت المئين ، فتلاها . فكان المئون لها أوائل ، وكان المثاني لها ثوان وقيل انها سميت بذلك ، لتثنية الله فيها الأمثال ، والحدود ، والقرآن ، والفرائض وهو قول ابن عباس . وقال قوم [المثاني سورة الحمد ، لانها تثنى قراءتها في كل صلاة] وبه قال الحسن البصري ، وهو المروي فى أخبارنا قال الشاعر

حلفت بالسبع اللواتي طوّلت　　وبمئين بعده قد أمّيت
وبثمان ثنيت وكررت　　وبالطواسين التي قد تليت
وبالحواميم التي قد سبّعت　　وبالمفصّل اللواتي فصلت

وسميت المفصل مفصلا ، لكثرة الفصول بين سورها ببسم الله الرحمن الرحيم وسمي المفصل محكما ، لما قيل انها لم تنسخ . وقال اكثر اهل العلم [أول المفصل من سورة محمد [ص] الى سورة الناس] وقال آخرون ﴿ من ق ، الى الناس ﴾ وقالت فرقة ثالثة ـ وهو المحكي عن ابن عباس ـ أنه من سورة الضحى الى الناس

«١» سورة المائدة آية ١١٧

وكان يفصل من الضحى بين كل سورتين بالتكبير ، وهو قراءة ابن كثير . وإن قيل : ما وجه الحكمة في تفصيل القرآن على السور ؟ قيل : فيه وجوه من الجواب .

احدها ـ أن القارىء اذا خرج من فن الى فن كان احلى في نفسه وأشهى لقراءته ومنها ـ ان جعل الشيء مع شكله ، وما هو أولى به هو الترتيب الذي يعمل عليه ومنها ـ أن الانسان قد يضعف عن حفظ الجميع ، فيحفظ سورة تامة ويقتصر عليها ، وقد يكون ذلك سبباً يدعوه الى غيرها ومنها ـ ان التفصيل أبين ، إذ كان الاشكال مع الاختلاط والالتباس أكثر . ومنها ـ ان كلما ترقى اليه درجة درجة ومنزلة منزلة كانت القوة عليه اشد ، والوصول اليه أسهل وانما السورة منزلة يرتفع منها الى منزلة .

(سورة الفاتحة)

اسماؤها ـ وسبب تسميتها بها :

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سماها أم القرآن ، وفاتحة الكتاب والسبع المثاني فسميت فاتحة الكتاب لأنه يفتتح بكتابتها المصاحف ، وبقراءتها في الصلاة ، فهي فاتحة لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة وسميت ام القرآن لتقدمها على سائر القرآن وتسمي العرب كل جامع أمراً ، اومتقدم لأمر اذا كانت له توابع تتبعه أماً فيقولون للجلدة التي تجمع الدماغ أم الرأس ، وتسمي لواء الجيش ، ورايتهم التي يجتمعون تحتها أماً ومن ذلك قول ذي الرمة :

واسمر قوام اذا نام صحبتي　　خفيف الثياب لا تواري له إزرا

على رأسه امّ لنا نقتدي بها　　جماع امور لا نعاصي له امرا

يصف راية معقودة على قناة يجتمع تحتها هو وصحبه وقيل : مكة ام القرى لتقدمها امام جميعها ، وجميعها ما سواها وقيل : إنما سميت بذلك ، لأن الارض دحيت منها فصارت لجميعها أماً ، ومن ذلك قول حميد بن ثور الهلالي :

اذا كانت الخمسون امك لم يكن　　لدائك إلا ان تموت طبيب

لأن الخمسين جامعة ما دونها من العدد ، فسماها ام الذي بلغها

وسميت السبع ، لأنها سبع آيات ـ بلا خلاف في جملتها ـ وسميت مثاني لأنها تثنى بها في كل صلاة فرض ونفل ، وقيل في كل ركعة وليس اذا سميت بانها مثاني ، منع ذلك تسمية غيرها بالمثاني ، من سور المئين على ما مضى القول فيه

واتفق القراء على التلفظ باعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قبل التسمية

المعنى :

ومعنى ذلك ، استجير بالله دون غيره ، لأن الاستعاذة ، هي الاستجارة

وقوله : من الشيطان . فالشيطان في اللغـة كل متمرد من الجن والانس والدواب ، ولذلك قال الله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن »(١) فجعل من الانس شياطين ، كما جعل من الجن . وانما سمي المتمرد شيطاناً ؛ لمفارقـة اخلاقه وافعاله ، أخلاق جميع جنسه وبعده من الخير . وقيل : هو مشتق من قولهم شطنت داري أي بعدت ، ومنه قول نابغة بني ذبيان :

نأت سعاد (٢) عنك نوىً شطون فبانت والفؤاد بها رهين

والشطون ، البعيد فيكون شيطاناً على هذا : فيعالا من شطن على وزن بيطار وغيداق (٣)

قال امية بن ابي الصلت :

أيما شاطن (٤) عصاه عكاه (٥) ثم يلقى في السجن والأكباد (٦)

ولو كان مشتقاً من شاط ، لقال : شائط . ولما قال : شاطن ، علم أنه مشتق من شطن ؛ والشطن الحبل

وأما الرجيم فهو فعيل بمعنى مفعول كقولهم كف خضيب ، ولحية دهين ، ورجل لعين ، يراد مخضوبة ، ومدهونة ، وملعون ومعنى المرجوم المشتوم فكل مشتوم بقول ردي فهو مرجوم وأصل الرجم الرمي بقول كان أو بفعل ومنه قوله تعالى « لئن لم تنته لأرجمنك » (٧) ويجوز أن يكون الشيطان رجيما لأن الله طرده من سمائه ورجمه بالشهب الثاقبة .

وسورة الحمد مكية في قول قتادة ومدنية في قول مجاهد . وليس فيها ناسخ ولا منسوخ .

«١» سورة الانعام آية : ١١٢

«٢» بسعاد

«٣» شاب غيداق : ناعم ، والغيداق : الكريم

«٤» الشاطن الخبيث . والشيطان كل عات متمرد من انس أوجن أودابة . «٥» عكاه : عقده

«٦» الكبد الشدة الجمع أكباد «٧» سورة مريم آية ٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحجة — عندنا آية من الحمد ومن كل سورة بدلالة إثباتهم لها في المصاحف بالخط الذي كتب به المصحف ، مع تجنبهم إثبات الاعشار والاخماس كذلك وفي ذلك خلاف ذكرناه في خلاف الفقهاء . ولا خلاف أنها بعض سورة النمل . فاما القراء فترك الفصل بين السور بالتسمية حمزة وخلف ويعقوب واليزيدي إلا القرطي عن سجادة بن اللبان عن مدين والمعدل إلا السوسي من طريق ابن حبش والباقون يفصلون بالتسمية إلا بين الانفال والتوبة ، وعندنا أن من تركها في الصلاة بطلت صلاته ، لأن الصلاة عندنا لا تصح إلا بفاتحة الكتاب وهي من تمامها سواء كانت الصلاة فرضاً أو نافلة ، وفيه خلاف ذكرناه في خلاف الفقهاء ومن قال انها ليست من القرآن قال إن الله أدب نبيه وعلمه تقديم ذكر اسم الله أمام جميع أفعاله وأقواله ليقتدي به جميع الخلق في صدور رسالاتهم وأمام حوائجهم قالوا والدليل على أنها ليست من القرآن أنها لو كانت من نفس الحمد لوجب أن يكون قبلها مثلها لتكون إحداها افتتاحاً للسورة حسب الواجب في سائر السور والاخرى أول آية منها ، وهذا عندنا ليس بصحيح ، لا ناقد بينا أنها آية من كل سورة ومع هذا لم يتقدمها غيرها ، على أنها لا يمتنع أن تكون من نفس التلاوة وإن تعبدنا باستعمالها في استفتاح جميع اموره ، ومن قال إن قوله « الرحمن الرحيم » بعد قوله : « الحمد لله رب العالمين » يدل على أن التي افتتح بها ليست من الحمد وإلا كان يكون ذلك تكراراً بلا فصل شيء من الآيات قبل ذلك وليس بموجود في شيء من القرآن فقوله باطل لأنه قد حصل الفصل بقوله : « الحمد لله رب العالمين » (١) وقد ورد في مثله في : قل ياايها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا انتم عابدون ما اعبد ، ولا انا عابد ما عبدتم ، ولا انتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين »(٢)

«١» سورة الحمد آية ١

«٢» سورة الكافرون بتمامها

وكرر آيتين بلفظ واحد فصل بينهما بآية واحد وقد ذكرنا الأدلة على صحة ما ذهبنا اليه في خلاف الفقهاء ومن جعلها آية جعل من قوله : « صراط الذين انعمت عليهم الى آخرها آية . ومن لم يجعلها كذلك جعل : صراط الذين انعمت عليهم آية

وعندنا انه يجب الجهر بها فيما يجهر فيه بالقراءة ، ويستحب الجهر بها فيما لا يجهر فيه .

الاعراب :

وقوله تعالى « بسم الله » يقتضي فعلا تتعلق به الباء ، ويجوز أن يكون ذلك الفعل قوله أبدأ أو أقرأ بسم الله أوشبهه ، أو قولوا بسم الله ، ولم يذكر لدلالة الكلام عليه ، وحذفت الألف في اللفظ لأنه ألف الوصل تسقط في الدرج وحذفت ههنا وحدها في الخط لكثرة الاستعمال ولا تحذف فى قوله تعالى « إقرأ باسم ربك » «١» وقوله « فسبح باسم ربك » وما أشبه ذلك لقلة استعمالها هناك وذكر ابو عبيدة ان « اسم » صلة والمراد هو الله الرحمن الرحيم ، واعتقد قوم لأجل ذلك ان الاسم هو المسمى واستدلوا بقول لبيد

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

قال ومعناه السلام عليكما ، فاسم السلام هو السلام ، وهذا خطأ عظيم ذكرناه في شرح الجمل فى الاصول ومعنى قول الشاعر ثم اسم السلام انه أراد به اسم الله تعالى لأن السلام من اسماء الله في قوله « السلام المؤمن المهيمن » وهذا كما قال عليه السلام « لا تسبوا الدهر ، فان الله هو الدهر » اي ان الله هو الفاعل لما تضيفونه الى الدهر ، وتسبونه لأجله ونظير ذلك ايضاً قول القائل اذا سمع غيره يشتم زيداً وهو يريد عمرواً «٢» (زيد في هذا المكان هو عمرو) اي هو المراد بالشتم دون زيد ويحتمل ان يكون اراد اسم الله عليكما اي الزماه ، وانما رفع لأنه اخر (عليكما كما قال الشاعر :

«١» سورة العلق آية ١

«٢» عمرو لا تقبل الواو في حالة التنوين بالفتح

يا أيها المائح « ١ » دلوي دونكا   اني رأيت الناس يحمدونكا

والمراد ، دونك دلوي ، فكيف يكون الاسم هو المسمى وقد يعرف الاسم من لا يعرف المسمى ، والاسم يكون مدركا وان لم يدرك المسمى ، والاسم يكتب في مواضع كثيرة والمسمى لا يكون إلا في موضوع واحد ، ولو كان الاسم هو المسمى ، لكان اذا قال القائل « نار » احترق لسانه واذا قال « عسل » وجد الحلاوة في فمه ، وذلك تجاهل ، ومن قال : « إن ذلك تسمية وليس ذلك باسم » قوله باطل ، لأن القائل لو قال : اكلت اسم العسل ، لكان جاهلا . وقال بموم : إن (اسم) ليس بصلة ، والمراد ابتدىء بتسمية الله ، فوضع الاسم موضع المصدر ويكون موضع (بسم) نصباً . قالوا لأن العرب تجري المصادر المبهمة على اسماء مختلفة ، كقولهم : اكرمت فلاناً كرامة ، واهنت فلاناً هواناً ، وكلمته كلاما وكان يجب ان يكون : اكرمته إكراماً واهنته اهانة وكلمته تكليما ومنه قول الشاعر :

أكفراً بعد رد الموت عني   وبعد عطائك المئة الرتاعا (٢)

وقال آخر :

فان كان هذا البخل منك سجية   لقد كنت في طول رجائك اشعبا (٣)

أراد في اطالتي رجاك فيكون على هذا تقدير الكلام : أقرأ مبتدئا بتسمية الله ، وابتدىء قراءتي بسم الله . فجعل الاسم مكان التسمية ، وهذا أولى ، لأن المأمور ان يفتتح العباد امورهم بتسمية الله ، لا بالخبر عن عظمته وصفاته ، كما امروا بالتسمية على الذبائح والصيد ، والأكل ، والشرب . وكذلك امروا بالتسمية عند افتتاح تلاوة تنزيل الله تعالى ، ولا خلاف أن القائل لو قال عند الذباحة : بالله ولم يقل : باسم الله لكان مخالفاً للمأمور .

اللغة :

والاسم مشتق من السمو وهو الرفعة والاصل فيه سمو بالواو ، وجمعه اسماء

« ١ » اسم فاعل من متح . متح الماء كمنع نزعه

« ٢ » صفة الابل ، « ٣ » اسم رجل يضرب المثل بشدة حرصه وطمعه

مثل قنو واقناء ؛ وحنو واحناء . واذا صغرته قلت سمي ، قال الراجز :

باسم الذي في كل سورة سمه

والسمة ايضاً ـ ذكره ابو زيد وغيره . وقيل انه مشتق من وسمت وذلك غلط لأن ما حذفت واو الفعل منه لا يدخله الف الوصل : نحو عدة ووعـد ، وزنه ووزن . لما حذفت الفاء لم تدخل عليه الالف . وايضاً كان يجب ، اذا صغر ان يرد الواو فيقال : وسيم ، كما يقال وعيدة ووزينة ووصيلة في تصغير عـدة وزنه وصلة . والامر بخلافه . وحكي عن ابن كيسان انه قال : انه لقب فلذلك ابتدىء به واتبع بالرحمن لأنه يختصه ثم بالرحيم لأنه يشاركه فيه غـيره . والصحيح انه ليس بلقب لأن اللقب انما يجوز على من تجوز عليه الغيبة والحضور وهما لا يجوزان عليه ولانه يمكن وصفـه بصفة لا يشاركه فيها غـيره . ولا معنى للقب لانه عيب والصحيح انه اسم مقيد لكنه لا يطلق إلا عليه تعالى . وقيل في معناها قولان : احدها ـ ان اصله لاه كما قال الشاعر :

كحلقـة من ابي رياح　　يسمعها لاهـه الكبار

فادخل عليه الالف واللام .

والثاني :

ان اصله إله فادخلت عليه الالف واللام ثم خففت الهمزة وادغمت احـدى اللامين في الاخرى فقيل : الله . وإله معناه يحق له العبادة ، وانما يحق له العبادة ، لأنه قادر على خلق الاجسام واحيائها ، والانعـام عليها ، بما يستحق به العبـادة ولذلك يوصف فيما لم يزل بأنه إله ولا يجوز أن يكون إلهاً للاعراض ، ولا للجوهر لاستحالة ان ينعم عليهـا بما يستحق به العبادة ، وهو إله الاجسام : حيوانها ، وجمادها لأنه قادر على ان ينعم على كل جسم بما معـه العبادة ، وليس الاله من يستحق العبادة ، لأنه لو كان كذلك لما وصف فيما لم يزل بانه إله ، لأنه لم يفعل الانعام الذي يستحق به العبادة ، ومن قال : انه إله للجماد ، فقد أخطأ لما قلناه من انه عبارة عمن يستحق العبـادة ، وهو انه قادر علي اصول النعم التي يستحق بها

العبادة دون ان يكون عبارة عمن يستحق العبادة ولا يجوز ان يوصف بهذه الصفة غير الله . وفى الناس من قال انه مشتق من الاله ، لأن الخلق يألهون اليه : أي يفزعون اليه في امورهم ، فقيل للمألوه : إله كما قيل للمؤتم : إمام . وقال بعضهم انه مشتق من الولهان ، وهذا غلط ، لأن الولهان : الهيمان ، وذلك لا يجوز في صفات الله تعالى . على ان التصريف بلزوم الهمزة يشهد بفساد هذا على ما قاله آخرون . وقال قوم هو مشتق من الألوهية ، التي هي العبادة . يقال فلان متأله أي متعبد ، قال رؤبة

لله در الغانيات المدّه (١) لما رأين حلي المموه

سبحن واسترجعن من تألهي

أي من تعبدي . قرأ ابن عباس (ويذرك وآلهتك (٢) يعني عبادتك . ويقال أله الله فلان الهه كما يقال عبده عبادة . وقيل انه مشتق من الارتفاع يقول العرب للشيء المرتفع لاه . يقولون طلعت لاهة أي الشمس وغربت أيضاً وقيل وصف به تعالى لأنه لا تدركه الأبصار ومعنى لاه : أي احتجب عنا

قال الشاعر :

لاه ربي عن الخلائق طراً خالق الخلق لا يرى ويرانا

وقيل سمي الله ، لأنه يوله القلوب بحبه .

(الرَّحمنِ الرَّحيمِ)

اللغة ـ هما اسمان مشتقان من الرحمة وهي النعمة التي يستحق بها العبادة وهما موضوعان للمبالغة ، وفي رحمان خاصة مبالغة يختص الله بها ، وقيل ان تلك المزية من حيث فعل النعمة التي يستحق بها العبادة ، لا يشاركه في هذا المعنى سواه .

والأصل في باب فعل يفعل وفَعِل يفعِل ان يكون اسم الفاعل فاعلا فان ارادوا المبالغة حملوا على فعلان وفعيل كما قالوا غضب فهو غضبان وسكر فهو

«١» المده ج ماده وهو المادح

«٢» سورة الاعراف آية ١٢٦

سكران اذا امتلأ غضباً وسكراً . وكذلك قالوا : رحم فهو رحمان وخصوه به تعالى لما قلناه . وكذلك قالوا علم فهو عليم ورحم فهو رحيم وعلى هذا الوجه لا يكونان للتكرار ، كقولهم ندمان ونديم بل التزايد فيه حاصل والاختصاص فيه بيّن . وقيل في معنى الرحيم : لا يكلف عباده جميع ما يطيقونه فان الملك لا يوصف بانه رحيم ، اذا كلف عبيده جميع ما يطيقونه . ذكره ابو الليث وانما قدم الرحمن على الرحيم لأن وصفه بالرحمن بمنزلة الاسم العلم ، من حيث لا يوصف به إلا الله تعالى فصار بذلك كاسم العلم في انه يجب تقديمه على صفته . وورد الاثر بذلك روى ابو سعيد الخدري عن النبي (ص) ان عيسى بن مريم قال : الرحمن رحمن الدنيا والرحيم رحيم الآخرة . وروي عن بعض التابعين انه قال : الرحمن بجميع الخلق والرحيم بالمؤمنين خاصة ووجه عموم الرحمن بجميع الخلق هو انشاؤه اياهم وجعلهم احياء قادرين وخلقه فيهم الشهوات ، وتمكينهم من المشتهيات ، وتعريضهم بالتكاليف لعظيم الثواب ، ووجه خصوص الرحيم بالمؤمنين ، ما فعل الله تعالى بهم في الدنيا من الألطاف التي لم يفعلها بالكفار ، وما يفعله بهم في الآخرة من عظيم الثواب ، فهذا وجه الاختصاص . وحكي عن عطاء أنه قال : الرحمن كان يختص الله تعالى به فلما تسمى مسيلمة بذلك صار الرحمن الرحيم مختصين به تعالى ، ولا يجتمعان لأحد وهذا الذي ذكره ليس بصحيح ، لأن تسمى (١) مسيلمة بذلك لا يخرج الاسم من أن يكون مختصاً به تعالى ، لأن المراد بذلك استحقاق هذه الصفة وذلك لا يثبت لأحد ، كما أنهم سمو اصنامهم آلهة ولم يخرج بذلك من أن يكون الاله صفة يختص بالوصف به .

وقال بعضهم إن لفظة الرحمن ليست عربية ، وانما هي ببعض اللغات كقوله تعالى « قسطاس » فانها بالرومية واستدل على ذلك بقوله تعالى : « قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا » (٢) إنكاراً منهم لهذا الاسم ، حكي ذلك عن تغلب ، والصحيح

«١» وفي نسخة تسمية

«٢» سورة الفرقان آية ٦٠

انه معروف واشتقاقه من الرحمة ، على ما بينا .

قال الشنفري :

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا ضرب الرحمن ، ربي ، يمينها

وقال سلامة بن جندل الطهوري :

عجلتم عليه قد عجلنا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

وحكي عن ابي عبيدة انه قال : « رحمن : ذو رحمة ، ورحيم معناه انه راحم وكرر لضرب من التأكيد كما قالوا ندمان ونديم » وانما قدم اسم الله لأنه الاسم الذي يختص به من يحق له العبادة وذكر بعده الصفة ولأجل ذلك اعرب باعرابه ، وبدأ بالرحمن لما بينا ان فيه المبالغة . وما روي عن ابن عباس من انهما اسمان رقيقان احدهما ارق من الآخر . فالرحمن الرقيق ، والرحيم العطاف على عباده بالرزق محمول على انه يعود عليهم بالفضل بعد الفضل وبالنعمة بعد النعمة لأنه تعالى لا يوصف برقة القلب . ودلت هذه الآية على التوحيد لأن وصفه بالرحمن يقتضي مبالغة في الوصف بالرحمة على وجه يعم جميع الخلق وذلك لا يقدر عليها غير الله القادر لنفسه ، وذلك لا يكون إلا واحداً ، ولأن وصفه بالالهية يفيد انه تحق له العبادة وذلك لا يكون إلا للقادر للنفس وهي تدل على العدل لأن وصفه بالرحمة التي وسعت كل شيء ، يعم كل محتاج الى الرحمة من مؤمن وكافر وطفل وبالغ من كل حي ، وذلك يبطل قول المجبرة الذين قالوا ليس لله على الكافر نعمة ولانها صفة مدح تنافي وصفه بانه يخلق الكفر في الكافر ثم يعذبه عليه لان هذا صفة ذم .

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين

الاعراب ـ اجمع القراء على ضم الدال من الحمد وكسر اللام الاولى من لله وكان يجوز أن يفتح الدال مع كسر اللام ويكسر الدال واللام (١) لكن لم يقرأ به إلا أهل البوادي . ومن نصب فعلى المصدر . ومن كسرها اتبع كسرة الدال كسرة

(١) ويضمهما

اللام ومن ضمها اتبع ضم الدال بضمة اللام (١) .

ونصب الدال لغة في قريش والحارث بن اسامة بن لؤي . وكسرها لغة في تميم وغطفان . وضمها لغة في ربيعة توهموا انه حرف واحد مثل الحلم . وقوله : لله مخفوض بالاضافة ورب العالمين (٢) مخفوض لانه نعت ويجوز نصبه على الحال والنداء وما قرىء به . والعالمين مخفوض بالاضافة ونونها مفتوحة لانها نون الجمع فرقاً بينها وبين نون التثنية . وبعض قيس يحذف الالف التي قبل الهاء ويخلس الهاء ويشددها ويقصرها . انشد بعضهم :

ألا لا بارك الله في سهيل　　　اذا ما بارك الله في الرجال

اختلس الاولى واشبع الثانية . ولا يقرأ بهذا .

ومعنى الحمد لله الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد بما أنعم على عباده من ضروب النعم الدينية والدنياوية (٣) وقال بعضهم : الحمد لله ثناء عليه بأسمائه وصفاته وقوله الشكر لله ثناء على نعمه وأياديه ؛ والأول أصح في اللغة ، لأن الحمد والشكر يوضع كل واحد منها موضع صاحبه . ويقال أيضاً : الحمد الله شكراً فنصب شكراً على المصدر ، ولو لم يكن في معناه لما نصبه ، ودخول الألف واللام فيه لفائدة الاستيعاب ، فكانه قال جميع الحمد لله ، لأن التالي مخبر بذلك ، ولو نصبه فقال حمداً لله أفاد أن القائل هو الحامد فحسب وليس ذلك المراد ، ولذلك اجتمعت القراء على ضم الدال على ما بيناه ، والتقدير : قولوا الحمد لله . واذا كان الحمد هو الشكر ، والشكر هو الاعتراف بالنعمة على ضرب من التعظيم فالمدح ليس من الشكر في شيء وانما هو القول المنبيء عن عظم حال الممدوح مع القصد اليه .

وأما الرب فله معان في اللغة : فيسمى السيد المطاع رباً ، قال لبيد بن ربيعة :

فاهلكن يوماً رب كندة وابنه　　　ورب معد بين خبت (٤) وعرعر (٥)

«١» واتبع ضم اللام بضم الدال ـ لعله الاصح

«٢» العالمين زائدة

«٣» دنيوية والألف زائدة . لأن الواو قلبت عنها

« ٤ و ٥ » خبت وعرعر موضعان

يعني سيد كندة . ومنه قوله تعالى : « أما أحدكما فيسقي ربه خمراً » يعني سيده ويسمى الرجل المصلح رباً ، قال الفرزدق بن غالب :

كانوا كسالئة (١) حمقاء اذحقنت سلأَها في اديم غير مربوب

يعني غيرمصلح ومنه قيل فلان رب ضيعة اذا كان يحاول اتمامها .والربانيون من هذا من حيث كانوا مدبرين لهم . واشتق رب من التربية يقال ربيته وربيتـه بمعنى واحد والربىّ الشاة ولدت حديثاً لأنها تربى . وقوله (رب العالمين) أي المالك لتدبيرهم . والمالك للشيء يسمى ربه ولا يطلق هـذا الاسم إلا على الله ، وأما في غيره فبقيد فيقال : رب الدار ورب الضيعة · وقيل انه مشتق من التربية ومنه قوله تعالى : (وربائبكم اللاتي في حجوركم) ومتى قيل في الله انه رب بمعنى انه سيـد فهو من صفات ذاته . واذا قيل بمعنى انه مدبر مصلح فهو من صفات الأفعال

والعالمين جمع عالم وعالم لا واحد له من لفظه كالرهط والجيش وغـير ذلك ، والعالم في عرف اللغة عبارة عن الجماعة من العقلاء لأنهم يقولون جاءني عالم من الناس ولا يقولون جاءني عالم من البقر وفي عرف الناس عبارة عن جميع المخلوقات وقيل انه ايضاًاسم لكل صنف من الأصناف وأهل كل زمن من كل صنف يسمى عالماً ولذلك جمع . وقيل عالمون لعالم كل زمان . قال العجاج :

خندف (٢) هامة هذا العالم

وهذا قول اكثر المفسرين كابن عباس وسعيـد بن جبير وقتادة وغـيرهم . واشتقاقه من العلامة لأنه علامة ودلالة على الصانع تعالى . وقيل انه من العلم ـ على ما روى ابن عباس ـ قال هم صنف من الملائكة والانس والجن لأنه يصح ان يكون كل صنف منهم عالماً . فان قيل كيف يجوز ان يقول الحمد لله والقائل هو الله تعالى وان (٣) كان يجب ان يقول الحمد لنا . قيل العالي الرتبة اذا خاطب من دونه لا يقول كما يقول للنظير . ألا ترى ان السيد يقول لعبـده الواجب ان تطيع سيـدك ولا

(١) سلأ السمن : عالجه
(٢) لقب اولاد الياس بن مضر
(٣) وكان يجب

تعصيه ، وكذلك يقول الأب لابنه يلزمك أن تبر أباك والمنـة لأبيك . والخلفاء يكتبون عن انفسهم إن أمير المؤمنين رأى كيت وكيت ليقع ذلك موقع اجلال واكرام واعظام . على انا قد بينا ان المراد بذلك : قولوا الحمـد لله ، وحـذف لدلالة الكلام عليه .

الرَّحمنِ الرَّحيم

آية . مخفوضان لانها نعت لله وقد مضى معناها (١)

قوله :

مَالِكِ يومِ الدِّين ـ آية

القراءة ـ

قرأ عاصم والكسائي وخلف ويعقوب : مالك بالألف . الباقون ملك بغـير الف ، ولم يمل أحد الف مالك ، وكسر جميعهم الكاف . وروي عن الأعمش ، انه فتحها على النداء ، وربيعة بن نزار يخففون مالك ويسقطون الألف ، فيقولون : ملك بتسكين اللام وفتح الميم كما قال ابو النجم .

تمشي الملك عليه حلله .

والألف ساقط في الخط في القراءتين والمعول على الأولتين دون النصب وإسكان اللام ومعنى ملك يوم الدين باسقاط الألف أنه الملك يومئذ لا ملك غيره وأنه لا يؤتى في ذلك الوقت أحداً الملك كما اتاه في الدنيا ، وقوى ذلك بقوله تعالى: « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار «٢» وبانه يطابق ما تقدم من قوله : « رب العالمين الرحمن الرحيم »

ومن قرأ مالك بالف معناه انه مالك يوم الدين والحساب لا يملكه غـيره ولا يليه سواه .

«١» في تفسير البسملة

«٢» سورة ابراهيم : آية ٤٨

اللغة

والمالك هو القادر على التصرف في ماله ، وأن يتصرف فيه على وجه ليس لأحدٍ منعه منه ، ويوصف العاجز بأنه مالك من جهة الحكم . والملك هو القادر الواسع القدرة الذي له السياسة والتدبير ، ويقال ملك بينّ الملك مضمومة الميم ، ومالك بينّ الملك والملك بفتح الميم وكسرها ، وضم الميم فيه لغة شاذة ذكرها ابو علي الفارسي. ويقال طالت مملكة الأمير ومملكته بكسر اللام وفتحها وطال مُلكه ومَلكه اذا طال رقه ، واعطاني من ملكه وملكه ، ولي في هذا الوادي ملك ومَلك و مِلك. ويقال نحن عبيد مملكة وليس بعبيد قن اي سبياً لم يملك في الأصل ، ويقال : شهدنا املاك فلان وملكه ، ولا يقال ملاكه ، فأصل الملك الشد من قول الشاعر :

ملكت بها كفي وانهرت [١] فتقها [٢]

اي شددت . وملكت العجين اي شددت عجنه . ويقال : هذا ملك فلان اذا كان له التصرف فيه على ما بيناه . فأمّا من رجح قراءة ملك من حيث انه وصف نفسه بأنه ملك كل شيء بقوله : « رب العالمين » فلا فائدة في تكرير ما قد مضى فقد ابعد لأن في القرآن له نظائر تقدّمها العام وذكر بعد العام الخاص : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق [٣] » فعمّ في الأول ثم خص ذكر الانسان تنبيهاً على تأمل ما فيه من اتقان الصنعة ووجوه الحكمة ، كما قال : « وفي انفسكم افلا تبصرون ؟ [٤] » ولذلك نظائر كثيرة .

وفي الناس من قال ان ملك ابلغ في المدح من مالك ، لأن كل ملك مالك وليس كل مالك ملكاً . وقال ثعلب : إن مالك ابلغ من ملك لأنه قد يكون الملك على من لا يملك ، كما يقال ملك الروم وان كان لا يملكهم ولا يكون مالكا إلا

« ١ » انهر وسم والصحيح فأنهرت

« ٢ » الصحيح فتقها . قله قيس بن الخطيم

« ٣ » سورة العلق . آية ١ و ٢

« ٤ » سورة الذاريات آية ٢١

على ما يملك . وقال بعضهم : ان مالك أبلغ في المدح للخالق من ملك · وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك ، لأن مالك من المخلوقين قد يكون غير ملك . واذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا . والاقوى أن يكون مالك أبلغ في المدح فيه تعالى ؛ لانه ينفرد بالملك ويملك جميع الاشياء فكان أبلغ .

وقوله تعالى : « يوم الدين »

الاعراب ـ مجرور بالاضافة في القراءتين معاً ، وهو من باب ياسارق الليلة أهل الدار . اتسع في الظرف فنصب . نصب المفعول به ثم اضيف على هذا الحد وليس ذلك مثل قوله : (وعنده علم الساعة) مفعول بها (١) على الحقيقة ، ولا أن جعل الظرف مفعولا على السعة ، لأن الظرف اذا جعل مفعولا على السعة فمعناه معنى الظرف . ولو جعل ظرفاً لكان المعنى : يعلم في الساعة . وذلك لا يجوز لانه تعالى يعلم في كل وقت والمعنى : انه يعلم الساعة أي يعرفها · ومن نصب انما هرب ان يخرج من خطاب الغائب الى المواجه في قوله « اياك نعبد واياك نستعين . » وليس ذلك ببديع ، لأنه مستعمل في القرآن وفي الشعر ·

قال الله تعالى : « حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم »«٢» فعدل عن خطاب المواجه الى الكناية عن الغائب . وقال الشاعر :

كذبتم وبيت الله لا تنكحونها　　بني شاب قرناها تصر (٣) وتحلب

وقال ابو كثير الهلالي :

يالهف نفسي ، كان جدة خالد　　وبياض وجهك للتراب الاعفر

وقال لبيد بن ربيعة :

قامت(٤) تشكي الي النفس مجهشة(٥)　　وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا

فرجع الى مخاطبة نفسه ، وقد تقدم الاخبار عنها .

«١» به «٢» سورة يونس : آية ٢٢

«٣» صر الناقة يصرها ـ بالضم ـ صراً شد ضرعها ـ القاموس القرن : الضفيرة

«٤» بأتت

«٥» موهنة ـ العقد الفريد . مجهشة ـ لسان العرب

وقال الكسائي التقدير : قولوا اياك نعبد . فيكون على حكاية ما امروا به.

اللغة :

والدين الحساب ، والدين الجزاء ايضاً . قال كعب بن جعيل :

اذا ما رمونا رميناهم ودناهم فوق ما يقرضونا

وقال آخر :

واعلم وايقن ان ملكك زائل واعلم بانك ما تدين تدان

يعني : ما تجزي تجزى . ومنه قوله تعالى : (كلا بل تكـذبون بالدين) يعني بالجزاء . وقوله : (فلولا ان كنتم غير مدينين) أي غير مجزيين . وبهذا قال جماعة من التابعين كسعيد بن جبير وقتادة . وروي عن ابن عباس ومجاهد وابي جعفر : انه الحساب . والدين ايضاً الطاعة . وقال عمرو بن كلثوم :

وايام لنا غر طوال عصينا الملك فيها ان ندينا

والدين الملك قال زهير :

لئن حللت بجو في بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فدك

والدين القهر والاستعلاء قال الأعشى :

هو دان الرباب اذ كرهوا الدين دراكا بغزوة وصقال (١)

يعني ذللهم للطاعة. والدين العادة ، قال المثقب العبدي :

تقول وقد درأت لها وضيني أهـذا دينـه ابداً وديني

التفسير

(ويوم الدين) عبـارة عن زمان الجزاء كله ، وليس المراد به ما بين المشرق والمغرب وطلوع الشمس الى غروبها

«١» وارتحال، وفي مجمع البيان : وصيال

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ـ آية

الاعراب

إياك نصب بوقوع الفعل عليه وموضع الكاف في إياك خفض باضافة إيا اليها وإيا اسم للضمير المنصوب ، إلا انه ظاهر يضاف الى سائر المضمرات نحو قوله : إياك ضربت وإياه ضربت ، وإياي ضربت ولو قلت : إيا زيد حدثت ، كان قبيحاً ، لأنه خص به المضمر وقد روى الخليل جوازه ، وهو قولهم : اذا بلغ الرجل الستين فاياه وإيا الشواب «١»

وقال الأخفش لا موضع للكاف من الاعراب ، لأنها حرف الخطاب وهو قول ابن السراج واختاره الرماني ، لأن المضمر معرفة تمتنع من الاضافة كما تمتنع من الصفة وحملوا ما رواه الخليل على الشذوذ

ولو قلت نعبد إياك لم يجز لأنك تقدر على ضمير متصل بان تقول نعبدك فلا يجوز ان تأتي بضمير منفصل ، ولأنه لو أخر لكان قد قدم ذكر العابد على المعبود ، وليس بجيد ومن قال إن إياك بكماله اسم فقد أخطأ لأنه لو كان كذلك لما اضيف ، كما حكيناه في قولهم إياه وإيا الشواب ، لأنهم اجروا الهاء فيه مجرى الهاء في عصاه

والنون مفتوحة من نعبده وقد روي عن يحي بن وثاب ، انه كان يكسرها وهي لغة هذيل ، يقولون نعلم وتعلم واعلم وتخاف وتقام وتنام فيكسرون أوائل هذه الحروف كلها ولا يكسرون الياء ، ولا في يستفعل ويفتعل فلا يقولون يبيض ويطمس ـ بكسر الياء ـ بل يفتحونها والدال والنون مرفوعان ، لان في أوله أحد الزوايد الاربع فاعربا

المعنى واللغة :

والعبادة ضرب من الشكر ، مع ضرب من الخضوع ولا تستحق إلا باصول

«١» امرأة شابة ونسوة شواب

النعم التي هي خلق الحياة والقدرة والشهوة وما يقدر من النعم لا يوازيه نعمة منعم فلذلك اختص الله بأن يعبد، وان استحق بعضنا على بعض الشكر

والعبادة في اللغة الذلة ، يقال هذا طريق معبد اذا كان مذللا بكثرة الوطء وبعير معبد اي مذلل بالركوب ، وقيل اصله اذا طلي بالقطران ، وسمي العبد عبداً لذلته لمولاه ، ومن العرب من يقول : هيّاك، فيبدل الألف هاء كما يقولون : هيه وايه .

ونستعين اي نطلب منك المعونة على طاعتك وعبادتك . واصله نستعون لأنه من المعونة فقلبت الواو ياء لثقل الكسرة عليها ونقلت كسرتها الى العين قبلها وبقيت الياء ساكنة ، والتقدير في اول السورة الى ههنا ، اي قل يا محمد هذا الحمد . وهذا كما قال: « ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ، ربنا ابصرنا(١) » اي: يقولون ربنا . وكما قال : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم » اي : يقولون سلام عليكم . وحمزة والكسائي اذا وقفا اشما الدال الرفع ، وكذلك في سائر القرآن ، فاما اذا وقفا على النصب ، تخير الكسائي الاشمام ، وتركه اجود . ومن استدل بهذه الآية على أن القدرة مع الفعل من حيث إن القدرة لو كانت متقدمة لما كان لطلب المعونة وجه اذا كان الله قد فعلها فيه فقد اخطأ لأن الرغبة في ذلك تحتمل امرين :

احدها — ان يسأل الله تعالى من الطافه ، وما يقوي دواعيه ويسهل الفعل عليه ما ليس بحاصل ، ومتى لطف له بأن يعلمه أن له في عاقبة الثواب العظيم والمنازل الجليلة زاد ذلك في نشاطه ورغبته .

والثّاني — ان يطلب بقاء كونه قادراً على طاعاته المستقبلة بأن يجدد له القدرة حالاً بعد حال عند من لا يقول ببقائها او لا يفعل ما يضادها وينفيها عند من قال ببقائها . فان قيل هلاّ قدم طلب المعونة على فعل العبادة لأن العبادة لا تتم إلاّ بتقدم المعونة اولا ؟ قيل : في الناس من قال المراد به التقديم والتأخير ، فكأنه قال : اياك نستعين واياك نعبد ، ومنهم من قال : ليس يتغير بذلك المعنى ، كما إن

«١» سورة الم السجدة آية ١٢

القائل اذا قال احسنت الي فقضيت حاجتي او قضيت حاجتي فأحسنت الي ، فان في الحالين المعنى واحد . قال قوم انهم سألوا المعونة على عبادة مستأنفة لا على عبادة واقعة منهم ، وانما حسن طلب المعونة ، وان كان لا بد منها مع التكليف على وجه الانقطاع اليه كما قال: « رب احكم بالحق » . ولأنه قد لا يكون في ادامته التكليف اللطف ولا في فعل المعونه به الا بعد تقدم الدعاء من العبد ، وانما كرر اياك لأن الكاف التي فيها هي كاف الضمير التي كانت تكون بعد الفعل في قوله نعبدك ، فلما قدمت ، زيد عليها أيا لأن الاسم اذا انفرد لا يمكن ان يكون على حرف واحد فقيل اياك ولما كانت الكاف يلزم تكرارها لو كرر الفعل وجب مثـــل ذلك في اياك . الا ترى انه لو قال نعبدك ونستعينك ونستهديك لم يكن بد من تكرير الكاف ، وكذلك لو قدم فقيل اياك نعبد واياك نستعين ، وفيه تعليم لنا ان نجدد ذكره عند كل حاجـة ومن قال انه يجري مجرى قول عدي بن زيد العبادي :

وجاعل الشمس مصراً [١] لاخفاء به   بين النهار وبيـن الليل قد فصلا

وكقول اعشى همدان :

بين الأشج وبين قيس باذخ   بخ بخ لوالده ولـلمولود

فكرر لفظ بين فقد اخطأ لأن في البيتين لولم تكرر بين لكان الفعل مستحيلا الا ترى انه لو قال الشمس قد فصلت بين النهار لم يكن كلاماً صحيحاً وكذلك البيت الآخر وليس كذلك الآية ، لأنه لو قال اياك نعبد وسكت لكان مستقلاً بنفسه ولهذا طعن به بعض المفسرين . وعندي ان هذا ليس بطعن ، لانه مغالطة لانه لو قال بين النهار والليل لكان كلاماً صحيحاً وانما كرر بين وكذلك لو قال اياك نعبد ونستعين كان كلاماً صحيحاً وانما كرر اياك تأكيداً والعلة ما ذكرناه اولا .

«١» المصر : الحاجز

قوله : إِهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيم

آية ـ القراءة :

قرأ ابن كثير في رواية ابن مجاهد عن قنبل والكسائي من طريق ابن حمدون ويعقوب من طريق رويس«١» بالسين . وكذلك في سراط ، في جميع القرآن . الباقون بالصاد واشم الصاد زايا حمزة في الموضوعين ، خاصة في رواية علي بن سالم ، وفي رواية الدوري وخلاد اشمامها الزاي ما كان فيه الف ولام . واما الصاد اذا سكنت وكان بعدها دال نحو : يصدر ، وفاصدع ، ويصدفون ، فاشم الصاد الزاي حيث وقع ، حمزة والكسائي وخلف ورويس .

الأعراب

(اهدنا) : مبني على الوقف لانه امر ، والهمزة مكسورة لأن ثالث المضارع منه مكسور في نحو يهدي . وموضع النون والألف من اهدنا ، نصب لأنه مفعول به والصراط منصوب لأنه مفعول ثان . فمن قرأ بالسين فلأنه الأصل ، من غير سبب يمنع منه ، ومن قرأ باشمام الزاي ، فللمؤاخاة بين السين والطاء بحرف مجهور من مخرج السين وهو الزاء من غير ابطال للأصل ومن قرأ بالصاد بين الصاد والطاء بالاستعلاء والاطباق . والقراءة بالصاد احسن لأن فيها جمعاً بين المتشاكلين في المسموع .

اللغة والتفسير

ومعنى اهدنا يحتمل امرين :

احدهما — ارشدنا . كما قال طرفة .

للفتى عقل يعيش به　　حيث يهدي ساقه قدمه

والثاني — وفقنا كما قال الشاعر :

فلا تعجلن هداك المليك　　فان لكل مقام مقالا

أي وفقك .

والآية تدل على بطلان قول من يقول : لا يجوز الدعاء بأن يفعل الله ما يعلم أنه يفعله لأنه عبث ، لأن النبي صلى الله عليه وآله كان عالماً بأن الله يهديه الصراط

«١» الصحيح: أويس

المستقيم ، وانه قد فعل ذلك ، ومع ذلك كان يدعو به . وقد تـكون الهداية بمعنى أن يفعل بهم اللطف الذي يدعوهم الى فعل الطاعة ، والهدى يكون ايضاً بمعنى العلم لصاحبه لأنه مهتد على وجه المدح . والهدى يـكون ان يهديه الى طريق الجنة ، كما قال الله تعالى :

« وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا » ، وأصل الهدايه في اللغة الدلالة على طريق الرشد فان قيل : ما معنى المسأله في ذلك وقد هداهم الله الصراط المستقيم ، ومعلوم أن الله تعالى يفعل بهم ما هو أصلح لهم في دينهم ؟ قيل : يجوز أن يكون ذلك عبادة وانقطاعاً إليه تعالى كما قال : «رب احكم بالحق » وإن علمنا أنه لا يحكم إلا بالحق ، ويكون لنا في ذلك مصلحة كسائر العبادات ، وكما تعبّدنا بأن نكرر تسبيحه وتحميده والاقرار بتوحيده ولرسوله بالصدق ، وإن كنا معتقدين لجميع ذلك . ويجوز أن يـكون المراد بذلك الزيادة في الألطاف كما قال تعالى : « والذين اهتدوا زدناهم هدى » « ١ » وقال : « يهدي به الله من اتبع رضوانه « ٢ » ويجوز أن يكون الله تعالى يعلم أن أشياء كثيرة تـكون أصلح لنا ، وأنفع لنا إذا سألناه ، وإذا لم نسأله لا يـكون ذلك مصلحة ، وكان ذلك وجهاً في حسن المصلحة . ويجوز أن يـكون المراد استمرار التكليف والتعريض للثواب ، لأن إدامته ليست بواجبة بل هو تفضل محض جاز أن يرغب فيه بالدعاء . ويلزم المخالف أن يقال له : إذا كان الله تعالى قد علم أنه يفعل ذلك لا محالة فما معنى سؤاله ما علم أنه يفعله ، فما أجابوا به فهو جوابنا .

والصراط المستقيم هو الدين الحق الذي أمر الله به من توحيده،وعدله، وولاية من أوجب طاعته . قال جرير :

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

أي على طريق واضح . وقال الشاعر :

«١» سورة الكهف آية ١٣

«٢» سورة المائدة آية ١٨

فصد عن نهج السراط الواضح

وقيل : إنه مشتق من « مسترط » الطعام ، وهو ممره في الحلق ، والصاد لغة قريش ؛ وهي اللغة الجيدة ، وعامة العرب يجعلونها سينا ، والزاي لغة لعذرة ، وكعب وبني القين يقولون : أزدق،فيجعلونها زاياً إذا سكنت.وأهل الحجاز يؤنثون الصراط كالطريق والسبيل والزقاق والسوق . وبنو تميم يذكرون هذا كله . وأصل الاستقامة التقويم والاستواء في جهة الانتصار وهو ضد الاعوجاج ، ثمنه القيام والتقويم والتقوّم ، ومنه المقاومة ، لأنه بمنزلة المماثلة بما هو كالاستواء . وتقاوموا في الأمر إذا تماثلوا ، والاستقامة المرور في جهة واحدة . وقيل في معنى قوله : « الصراط المستقيم » وجوه :

أحدها — إنه كتاب الله ، وروي ذلك عن النبي (ص) وعن علي عليه السلام وابن مسعود .

والثاني — انه الاسلام ، حكي ذلك عن جابر وابن عباس .

والثالث — انه دين الله عزوجل الذي لا يقبل من العباد غيره .

والرابع — انه النبي (ص) والأئمة (ع) القائمون مقامه صلوات الله عليهم ، وهو المروي في أخبارنا .

التفسير

والأولى حمل الآية على عمومها لأنا إذا حملناها على العموم دخل جميع ذلك فيه فالتخصيص لامعنى له .

قوله تعالى :

صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

آية ـ المعنى :

معناه بيان الصراط المستقيم ، إذ كان كل طريق من طرق الحق صراطاً مستقيماً . والمعنى صراط من أنعمت عليهم بطاعتك .

القراءة

وقرأ حمزة بضم الهاء من ذلك : وفي أيديهم « وإليهم » حيث وقع . وروى الدوري عنه بضم الهاء فيقوله : « فعليهم غضب من الله» « ١ » وقرأ يعقوب بضم كل هاء قبلها ياء ساكنة في التثنية وجمع المذكر والمؤنث ، نحو : « عليهما » وفيهما « عليهن » و « فيهن » ، وضمّ ميم الجمع ووصلها بواو في اللفظ ابن كثير وأبو جعفر . وعن نافع فيه خلاف كثير . وعن غيره لا نطول بذكره ، وهو مذكور في كتب القراءات. فمن قرأ بكسر الهاء وإسكان الميم قال: إنه أمن من اللبس إذا كانت الألف في التثنيـة قد دلت على الاثنين ولا ميم في الواحد، فلما لزمت الميم الجمع حذفوا الواو وأسكنوا الميم طلباً للتخفيف . وحجة من قرأ « عليهُم » انهم قالوا ضم الهاء هو الأصل لأن الهاء إذا انفردت من حرف متصل بها قيل : « هم فعلوا » ومن ضم الميم إذا لقيها ساكن بعد الهاء المكسورة قال : لمّا احتجت إلى الحركة رددت الحرف إلى أصله فضممت وتركت الهاء على كسرتها ،لأنه لم تأت ضرورة تحوج إلى ردها إلى الأصل، ومن كسر الميم فالساكن الذي لقيها ،والهاء مكسورة ثم اتبع الكسرة الكسرة.

الاعراب

(والذين) في موضع جرٍ بالاضافـة ، ولا يقال في الرفع (اللذون)،لأنه إسم ليس يتمكن . وقد حكي اللذون شاذا ، كما قيل الشياطون ، وذلك في حال الرفـع ولا يقرأ به ، وقرأ صراط من أنعمت عليهم : عمر بن الخطاب وعبد اللـه بن زبير ، وروي ذلك عن أهل البيت عليهم السلام . والمشهور الأول . والنعمة التي أنعم بها على المذكورين وإن لم تذكر في اللفظ فالكلام يدل عليها لا لمـا قال : إهدنا الصراط المستقيم ، وبّينا المراد بذلك ، ثم بينّ أن هذا صراط من أنعمت عليهم بها، فلم يحتج إلى إعادة اللفظ ، كما قال النابغة الذبياني :

كأنك من جمال بني أقيش يقعقع خلف رجليه بشن « ١ »

«٦» سورة النحل آية ١٠٦

«٤» الشن والشنة : القربة

لما قال جمال بني أقيش قال يقعقع ، ومعناه جمل يقعقع خلف رجليه ، ونظير ذلك كثيراً جداً .

قوله تعالى :

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

الاعراب :

أجمع المفسرون والقراء على جر (غير) لأنها نعت للذين ، وانما جاز أن تكون نعتاً الذين ، والذين معرفة وغير نكرة لأن الذين بصلتها ليست بالمعرفة كالأسماء المعينة التي هي أعلام كزيد وعمرو وانما هي كالنكرات اذا عرّفت كالرجل والبعير فلما كانت الذين كذلك كانت صفتها كذلك ايضاً وجاز ان تكون نعتاً للذين ، كما يقال لا أجلس إلا الى العالم غير الجاهل ، ولو كانت بمنزلة الأعلام لما جاز ، كما لم يجز في قولهم : مررت بزيد غير الظريف ، فلا يجرها على انها نعت ، وان نصبتها في مثل هذا جاز على الحال . ويحتمل ايضاً ان تكون مجرورة لتكرير العامل الذي خفض الذين فكأنك قلت : صراط الذين انعمت عليهم ، صراط غير المغضوب عليهم ويتقارب معناها لأن الذين انعمت عليهم هم الذين لم يغضب عليهم ، وقرىء في الشواذ غير المغضوب عليهم بالنصب ، ووجهها ان تكون صفة للهاء والميم اللتين في عليهم ، العائدة على الذين ، لانها وان خفضت بعلى فهي موضع نصب بوقوع الانعام عليها ، ويجوز ان يكون نصباً على الحال . وقال الاخفش والزجّاج : انها نصب على وجه الاستثناء من معاني صفة الذين أنعمت عليهم ، وتقديره : إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم إلا المغضوب عليهم الذين لم تنعم عليهم في اديانهم فلا تجعلنا منهم ، ويكون استثناء من غير جنس كما قال النابغة للذبياني :

وقفت فيها أصيلا لا اسائلها «١»   أعيت جوابا وما بالربع من أحد

«١» الصحيح كي اسائلها وفي نسخة : اصيلاناً اسائلها

إلا الاواري «١» لأيا ما ابينها والنؤي«٢» كالحوض بالمظلومة«٣» الجلد

وقال الفرّاء : وتغلب هذا خطأ ، لأنه لو كان كذلك لما قال : ولا الضالين لأن لا نفي وجحد . ولا يعطف على جحد إلا بجحد ، ولا يعطف بالجحد على الاستثناء وانما يعطف بالاستثناء على استثناء وبالجحد على الجحد . يقولون قام القوم إلا أخاك وإلا أباك ولا قام أخوك ولا أبوك ، ولا يقولون ما قام القوم إلا أخاك ولا أباك ، فعلى هذا تكون (غير) بمعنى : لا فكأنه قال لا المغضوب عليهم ولا الضالين. قال الرماني : من نصب على الاستثناء جعل لا صلة ، كما انشد ابو عبيدة

في بئر لا حور سرى وما شعر (٤)

أي في بئر هلكة .

(والمغضوب عليهم) هم اليهود عند جميع المفسرين الخاص والعام ، لأنه تعالى قد أخبر انه غضب عليهم وجعل فيهم القردة والخنازير ، (ولا الضالين) هم النصارى لأنه قال: (وضلوا عن سواء السبيل) «٥» وقال (لعن الذين كفروا) يعني النصارى . وروي ذلك عن النبي (ص). وقال بعضهم لا : زائدة تقديره : غير المغضوب عليهم والضالين كما قال : (ما منعك ان لا تسجد) «٦» أي معناه أن تسجد قال ابو النجم :

فما ألوم البيض ألا تسخرا لما رأين الشمّط القفندرا «٧»

يعني أن تسخر . وتكون غير بمعنى سوى . وقد بينا ضعف هذا عند الكوفيين لما مضى ، ولأنه انما يجوز ذلك اذا تقدمه نفي كقول الشاعر :

ما كان يرضى رسول الله فعلهم والطيبان ابو بكر ولا عمر

«١» ج آري محابس الخيل

«٢» حفرة حول الخيمة تمنع من تسرب الماء اليها

«٣» الارض التي لم تحفر قط وحفرت

«٤» أي بئر هلكة

«٥» سورة المائدة آية : ٨٠

«٦» سورة الاعراف آية ١١

«٧» الشمط : الشيب والقفندر : الصغير الرأس القبيح المنظر

واما الغضب من الله فهو ارادة العقاب المستحق بهم ، ولعنهم وبراءته منهم واصل الغضب الشدة ومنه الغضبة الصخرة الصلبة الشديدة المركبة في الجبل المخالفة له ورجل غضوب شديد الغضب والغضوب الحية الخبيثة لشدتها والغضوب الناقة العبوس. واصل الضلال الهلاك ومنه قوله (اذا ضللنا في الارض) أي هلكنا ومنه قوله تعالى (واضل اعمالهم) أي أهلكها . والضلال في الدين الذهاب عن الحق والاضلال الدعاء الى الضلال والحمل عليه ومنه قوله تعالى : « واضلهم السامري » «١» والاضلال الاخذ بالعاصين الى النار والاضلال الحكم بالضلال والاضلال التحيير بالضلال بالتشكيك لتعدل عنه . واليهود ـ وان كانوا ضلالا ـ والنصارى ـ وان كانوا مغضوباً عليهم ـ فانما خص الله تعالى كل فريق منهم بسمة يعرف بها ويميز بينه وبين غيره بها وان كانوا مشتركين في صفات كثيرة . وقيل انه أراد (بالمغضوب عليهم ولا الضالين) جميع الكفار وانما ذكروا بالصفتين لاختلاف الفائدتين

وروى جابر ابن عبدالله قال : قال رسول الله (ص) قال الله تعالى : (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي فله ما سأل فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال حمدني عبدي واذا قال الرحمن الرحيم قال اثنى عليّ عبدي، واذا قال مالك يوم الدين قال مجدني عبدي ثم قال هذا لي وله ما بقي)

ولا يجوز عندنا ان يقول القارىء عند خاتمة الحمد : آمين فان قال ذلك في الصلاة متعمداً بطلت صلاته لانه كلام لا يتعلق بالصلاة، ولأنه كلام لا يستقل بنفسه وانما يفيد اذا كان تأميناً على ما تقدم ومتى قصد بما تقدم الدعاء لم يكن تالياً للقرآن ، فتبطل صلاته وان قصد التلاوة لا يكون داعياً فلا يصح التأمين وان قصدهما فعند كثير من الاصوليين ان المعنيين المختلفين لا يصح ان يردا بلفظ واحد ، ومن اجاز ذلك ـ وهو الصحيح ـ منع منه لقيام الدلالة على المنع من ذلك فلأجل ذلك لم يجز .

«١» سورة طه آية : ٨٥

(سورة البقرة)

وهي مائتان وست وثمانون آية في الكوفي وسبع بصري وخمس مدني
وروي أن قوله : واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ـ نزلت في حجة الوداع

آ لمٓ

آية عند الكوفيين

المعنى : ـ واختلف العلماء في معنى أوائل هذه السور مثل (آلم) و (آلمص) و (كهيعص) و (طه) و(صاد)و (قاف) و (حم) وغيرذلك على وجوه فقال بعضهم انها إسم من أسماء القرآن ذهب اليه قتادة ومجاهـد وابن جريح وقال بعضهم هي فواتح يفتح بها القرآن ، روي ذلك عن مجاهد أيضاً واختاره البلخي وفائدتها أن يعلم ابتداء السورة وانقضاء ما قبلها وذلك معروف في كلام العرب وأنشد بعضهم

بل وبلدة ما الأنس من أهلها «١»

ويقول آخر   بل ما هيج أحزانا وشجواً قد شجا

وقوله(بل)ليس من الشعر وانما أراد أن يعلم أنه قطع كلامه وأخـذ في غيره وأنه مبتدأ الذي أخذ فيه غير ناسق له على ما قبله وقال بعضهم هي اسم للسورة روي ذلك عن زيد بن أسلم والحسن وقال بعضهم هي اسم الله الأعظم وروي ذلك عن السدي اسماعيل وعن الشعبي وقال بعضهم هي قسم اقسم الله به وهي من اسمائه وروي ذلك عن ابن عباس وعكرمة وقال قوم هي حروف مقطعـة من اسماء واقعاً كل حرف من ذلك بمعنى غير معنى الحرف الآخر يعرفه النبي صلى الله عليه وآله نحو قال الشاعر

نادوهم أن ألجموا ألاتا قالوا جميعاً كلهم ألافا

«١» في اللسان وفي تفسير الطبري (اهالها)

يريد ألا تركبون قالوا ألا فاركبوا وقال آخر :

قلنا لها قفي فقالت قاف

يعني قالت انا واقفه . روى ذلك أبوالضحى عن ابن عباس وعن ابن مسعود وجماعة من الصحابة وقال بعضهم هي حروف هجاء موضوعة . روي ذلك عن مجاهد وقال بعضهم هي حروف هجاء يشتمل كل حرف على معان مختلفة . روي ذلك عن أنس واختاره الطبري وقال بعضهم هي حروف من حساب الجمل وقال بعضهم لكل كتاب سر وسر القرآن في فواتحه. هذه أقوال المفسرين فاما أهل اللغة فانهم اختلفوا فقال بعضهم هي حروف المعجم استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تمام ثمانية وعشرين حرفا كما يستغنى بذكر أ ب ت ث عن ذكر الباقي وبذكر قفا نبك عن ذكر باقي القصيدة قالوا ولذلك رفع ذلك الكتاب لأن معناه عن الألف واللام والميم من الحروف المقطعة وقوله ذلك الكتاب الذي أنزلته اليك مجموعاً لا ريب فيه كما قالوا في أبي جاد أ ب ت ث ولم يذكروا باقي الحروف وقال راجز بني أسد :

لما رأيت أمرها في حطي أخذت منها بقرون شمط

فاراد الخبر عن المرأة بانها من أبي جاد فاقام قوله في حطي مقامه لدلالة الكلام عليه وقال آخرون بل ابتدئت بذلك أوائل السور ليفتح لاستماعه أسماع المشركين اذ تواصوا بالاعراض عن القرآن حتى اذا استمعوا له ، تلا عليهم آلم . وقال بعضهم الحروف التي هي اوائل السور حروف يفتتح الله بها كلامه وقال ابو مسلم : المراد بذلك ، ان هـذا القرآن الذى عجزتم عن معارضته ، ولم تقدروا على الاتيان بمثله هو من جنس هـذه الحروف التي تتحاورون بها في كلامكم وخطابكم ، فحيث لم تقدروا عليه فاعلموا انه من فعل الله ، وانما كررت في مواضع استظهاراً في الحجة وحكي ذلك عن قطرب . وروي في اخبارنا ان ذلك من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، واختاره الحسين بن علي المغربي واحسن الوجوه التي قبلت قول من قال : انها اسماء للسور خص الله تعالى بها بعض السور بتلك كما قيل للمعوذتين :

المقشقشتان ، أي تبرءان من النفاق ، وكما سميت الحمد أم القرآن وفاتحة الكتاب . ولا يلزم أن لا تشترك سورتان أوثلاث في إسم واحـد ، وذلك أنه كما يشترك جماعة من الناس في إسم واحد ، فاذا اريد التميز زيد في صفتـه ، وكذلك اذا أرادوا تميز السورة قالوا : الم ذلك ، الم الله ، الم ، وغير ذلك . وليس لأحد أن يقول : كيف تكون أسماء للسور ، والاسم غير المسمى ، فكان يجب ألا تكون هذه الحروف من السورة ، وذلك خلاف الاجماع . قيـل : لا يمتنع أن يسمى الشيء ببعض ما فيه ، ألا ترى انهم قالوا : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، ولا خلاف انها اسماء للسور وان كانت بعضاً للسور ، ومن فرق بين الأشخاص وغيرها في هذا المعنى : فاوجب في الأشخاص أن يكون الاسم غير المسمى ولم يوجب في غيرها ، فقد أبعـد ، لأنه لا فرق بين الموضعين على ما مضى القول فيه ، ولا يلزم أن تسمى كل سورة بمثل ذلك ، لأن المصلحة في ذلك معتبرة ، وقد سمى الله كل سورة بتسمية تخصها وإن لم تكن من هذا الجنس ، كما انه لما سمى الحمد باسمائها لم يلزم ذلك في كل سورة .

وقيل انها أوائل أسماء يعلم النبي (ص) تمامها ، والغرض بها ، نحو ما رويناه عن ابن عباس ، كما قال الشاعر :

سألتها الوصل فقالت : قاف

يعني : وقفت . وقال آخر :

بالخير خيرات وإن شراً فا

يريد : فشراً ، وقال آخر :

ولا أريد الشر إلا أن تا

يعني : إلا أن تشاء . وقال آخر :

ما للظليم«١» عال«٢» كيف لا يا ينقد عنـه جلده اذا يا

«١» الظليم : ذكر النعام «٢» عال : دعاء عليه من قولهم : عال عوله أي ثكلته أمه فاختصر في الطبعة الايرانية « غال » بدل « عال » و « ينقل » بدل « ينقد » و « جلد » بدل «جلده » والصحيح ما ذكرناه .

أي : اذا يفزع . فعلى هذا يحتمل ان يكون الالف : انا ، واللام : الله ، والميم : اعلم ، وكذلك القول فى لحروف ، وعلى هذا لا موضع (لالف لام ميم) من الاعراب ، وعلى قول من قال انها اسماء السور موضعها الرفع ، كأنه قال هذه الم ، او يكون ابتداءه ويكون خبره ذلك الكتاب ، واجمع النحويون على ان هذه الحروف وجميع حروف الهجاء مبنية على الوقف لا تعرب ، كما بني العدد على الوقف ، ولأجل ذلك جاز ان يجمع بين ساكنين كما جاز ذلك في العدد ، تقول واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، فتقطع الف اثنين وهي الف وصل ، وتذكر الهاء في ثلاثة واربعة ، فلو لم تنو الوقف لقلت ثلاث بالثاء . وحكي عن عاصم في الشواذ وغيره المٓ الله بقطع الهمزة ، الباقون بفتح الميم ، وقالوا فتح الميم لالتقاء الساكنين وقال قوم: لأنه نقل حركة الهمزة اليه ، واختار ابو علي الاول ، لأن همزة الوصل تسقط في الوصل ، فلا يبقى هناك حركة تنقل ، وانشد في نقل حركة همزة الوصل قول الشاعر

اقبلت من«١» عند زياد كالخرف تخط رجلاي بخط مختلف
فيكتبان في الطريق لام الف

ومتى أجريتها مجرى الأسماء لا الحكاية واخبرت عنها ، قلت : هذه كاف حسنة ، وهذا كاف حسن ، وكذلك باقي الحروف فتذكر وتؤنث ، فمن أنث قصد الكلمة ، ومن ذكر قصد الحرف ، فأما إعراب : ابي جاد ، هواز ، وحطي وكلمن ، فزعم سيبويه انها مصروفات ، تقول : علمت ابا جاد ، ونفعني ابو جاد ، وانتفعت بأبي جاد . وكذلك : هوازٌ ، وهوازٍ ، وهوازاً . وحطياً ، وحطيٌّ ، وحطيٍ ، وأما كلمن وسعفص وقرشيات فأعجميات ، تقول : هذه كلمن ، وتعلمت كلمن ، وانتفعت بكلمن ، وكذلك سعفص وقرشيات اسم للجمع مصروفة لأجل الألف والتاء . وأما معنى ابي جاد ، فقال الضحاك : انها اسماء الايام الستة التي خلق الله تعالى فيها الدنيا وقال الشعبي : انها أسماء ملوك مدين ، وانشد :

«١» في الطبعة الايرانية « عن » والصحيح ما ذكرنا

ألا ياشعيب قـد نطقت مقالة   سببت بها عمرواً وأوحى بني عمرو
ملوك بني حطي وهواز منهم   وسعفص أهـل للمكارم والفخر
هم صبحوا أهـل الحجاز بغارة   لميل شعاع الشمس أومطلع الفجر

وروي عن ابن عباس ان لأبي جاد حديثاً عجيباً ، ابي : آدم جـد في اكل الشجرة ، وهواز : فزل آدم فهوى من السماء الى الارض . واما حطي لحطت عنـه خطيئته واما كلمن فأكل من الشجرة ومنّ عليـه بالتوبة . وسعفص : عصى آدم فاخرج من النعيم الى الكبد «١» . وقرشيات : اقر بالذنب فسلم من العقوبة ، وهذا خبر ضعيف يتضمن وصف آدم ، وهو نبي بما لا يليق به .

وقال قوم: انها حروف من أسماء الله ، وروي ذلك عن معاوية بن قرة عن النبي (ص) .

ذلكَ الكتابُ

هذه لفظة يشار بها الى ما قرب، وذلك الى ما بعد ، وذاك الى ما بينهاويحتمل أن يكون معنى ذلك ههنا هذا ، على قول عكرمة وجماعة من أهل العربية كالاخفش وأبي عبيدة وغيرهما ، قال :

أقول له والرمح يأطر«٢» متنه   تأمل خفافاً انني أنا ذلكا

أي انني انا هــذا . وقال تعالى ذلك عالم الغيب والشهادة ، وهو موجود في الحـال وانما جاز أن يستعمل هـذا ، وهي اشارة الى حاضر ، بمعنى ذلك وهي اشارة الى غايب لأنه كالحاضر عند الغايب . ألا ترى ان الرجل يحدث حديثاً فيقول السامع هـذا كما قلت وربما قال ان ذلك كما قلت وانما جاز ذلك لقرب جوابه من كلام المخبر ، وكذلك لما قال تعالى (آلم) وذكرنا معنى ذلك ، قال لنبيه : يامحمد هذا الذي ذكرته وبينتـه ، ذلك الكتاب . فلذلك حسن وضع ذلك في مكان هـذا ، إلا أنه اشارة الى ما مضى . وقال قوم : ان معناه ذلك الكتاب الذي وعـدوا به على لسان موسى وعيسى كما قال الذين اتيناهم الكتاب

«١» الكبد :الشدة . «٢» في الطبعة الايرانية (ناظر) والصحيح ما ذكرناه كما في الاغاني

يعرفونه كما يعرفون ابناءهم يعني : هذا ذلك الكتاب . وقال قوم : انما اشار الى ما كان نزل من القرآن بمكة من السور فقال ذلك ، والأول اقوى لأنه اشبه باقوال المفسرين . واما من حمل ذلك على انه اشار به الى التوزاة والانجيل فقد ابطل لأنه وصفه بانه لا ريب فيه وانه هدى للمتقين ، ووصف ما في ايديهم بانه مغير محرّف في قوله :« يحرفون الكلم عن مواضعه» «١»

قوله تعالى :

لا رَيْبَ فِيهِ :

القراءة — قرأ ابن كثير بوصل الهاء بياء في اللفظ ، وكذلك كل هاء كناية قبلها ياء ساكنة فان كان قبلها ساكن غير الياء وصلها بالواو . ووافقه حفص في قوله: فيه مهانا . ووافقه المنسى في قوله : واشركه في أمري . ووافقه قتيبة في قوله : فملاقيه وسأصليه . فمن كسر الهاء مع ان الأصل الضمة فلأجل الياء والكسرة اللتين قبلها . والهاء تشبه الألف لأنها من حروف الحلق ولما فيها من الخفاء : فكما نحوا بالألف نحو الياء بالامالة لأجل الكسرة والياء كذلك كسروا الهاء للكسرة والياء لتتجانس الصورتان، وذلك حسن وتركوا الاشباع كراهية اجتماع المقاربة كما كرهوا اجتماع الامثال ، ومن أشبع وأتبعها الياء ، فان الهاء وإن كانت خفيـة فليس يخرجها ذلك من ان تكون كغيرها من حروف المعجم التي لا خفاء فيها نحو الراء والصاد وان الهاء والنون عنـد الجميع في وزن الشعر بمنزلة الراء والصاد وان كان في الراء تكرير وفي الصـاد استطالة ، فاذا كان كذلك كان حجزها بين الساكنين كحجز غيرها من الحروف التي لا خفاء فيها

المعنى :

ومعنى لا ريب فيه ، أي لا شك فيه . والريب الشك ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وعطاء والسدي وغيرهم . وقيل : هو أشد الشك وهو مصدر رابني الشيء

«١» سورة النساء آية ٤٥

يريبني قال ساعدة بن جويه الهذلي :

وقالوا تركن الحي قد حصروا به   فلا ريب ان قد كان ثم لحيم

أي أطافوا به واللحيم القتيل ، يقال لحم اذا قتل والهاء فيه عائدة على الكتاب ويحتمل ان يكون لا ريب فيه خبراً ، والمعنى انه حق في نفسه ، ولا يكون المراد به انه لا يقع فيه ريب لأن من المعلوم أن الريب واقع فيه من الكفار وفي صحته ويجري ذلك مجرى الخبر اذا كان مخبره على ما هو به في أنه يكون صدقا وان كذبه قوم ولم يصدقوه .ويحتمل أن يكون معناه الأمر أي تيقنوه ولا ترتابوا فيه

قوله تعالى :

هُدىً لِلمتقِين

المعنى :

معناه نور وضياء ودلالة للمتقين من الضلالة وانما خص المتقين بذلك وان كان هدى لغيرهم من حيث انهم هم الذين اهتدوا به وانتفعوا به كما قال :

« انما تنذر من اتبع الذكر » «١» وان كان انذر من لم يتبع الذكر ويقول القائل : في هذا الأمر موعظة لي اولك وان كان فيه موعظة لغيرها . ويقال هديت فلانا الطريق اذا أرشدته ودللته عليه ، أهديه هداية

الاعراب :

ويحتمل ان يكون منصوبا على الحال من الكتاب وتقديره ذلك الكتاب هاديا للمتقين وذلك يكون مرفوعاً بآلم . والكتاب نعت لذلك ، ويحتمل ان يكون حالا من الهاء في (فيه) ، كأنه قال : لا ريب فيه هاديا ويحتمل ان يكون رفعاً من وجوه :

أولها — ان يكون خبراً بعد خبر كأنه قال : هذا كتاب هدى أي قد جمع انه الكتاب الذي وعدوا به وانه هدى كما يقولون: هذا حلو حامض يريدون انه

«١» سورة يس آية ١١

قد جمع الطعمين . ويحتمل ان يكون رفعاً بانه خبر ابتداء محذوف وتقديره هو هدى لأن الكلام الأول قد تم ويحتمل ان يكون رفعه على قولك ذلك الكتاب لا ريب كأنك قلت : هذا الكتاب حق لأن لا شك بمعنى حق . ثم قال بعد ذلك فيه هدى للمتقين . وهدى يذكر في جميع اللغات وحكي عن بعض بني اسد هذه هدى حسنة تدغم النون في اللام عند الاكثر (والمتقين) مجرور باللام والمتقي هو الذي يتقي بصالح اعماله عذاب الله مأخوذ من اتقاء المكروه بما يجعله حاجزاً بينه وبينه كما قال ابو حية النميري :

والقت قناعاً دونهالشمس واتقت   باحسن موصولين كف ومعصم

وقيل ان المتقين هم الذين اتقوا ما حرم عليهم وفعلوا ما وجب عليهم . وقيل ان المتقين هم الذين يرجون رحمة الله ويحذرون عقابه . وقيل ان المتقين هم الذين اتقوا الشرك وبرئوا من النفاق وهذا الوجه ضعيف لأنه يلزم عليه وصف الفاسق المتهتك بانه متق اذا كان بريأ من الشرك والنفاق . وأصل الاتقاء الحجز بين الشيئين ومنه اتقاه بالترس لأنه جعله حاجزاً بينه وبينه واتقاه بحق كذلك ومنه الوقاية لأنها تحجز بين الرأس والاذى .

ومنه التقية في اظهار خلاف الابطان . والفرق بينه وبين النفاق : ان المنافق يظهر الخير ويبطن الشر ، والمتقي يظهر القبيح ويبطن الحسن . ويقال وقاه يقيه وقاية وتوقاه توقياً.

قوله تعالى

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

آية بلا خلاف

الذين في موضع خفض لأنه نعت المتقين ، ويجوز ان يكون رفعاً على الابتداء (ويؤمنون) رفع لأنه فعل مستقبل والواو والنون في موضع رفع لأنه كناية عن الفاعل ، والنون الأخيرة مفتوحة لانها نون الجمع والصلاة نصب لأنها مفعول به . والايمان في اللغة هو التصديق ، ومنه قوله : وما انت بمؤمن لنا . أي بمصدق لنا . وقال : (يُؤمِنُونَ بِالجبتِ والطاغوت) «١» وكذلك هو في الشرع

«١» سورة النساء آية ٥٠

عند أكثر المرجئة ، والمراد بذلك التصديق بجميع ما اوجب الله اوندبه او اباحة وهو المحكي عن ابن عباس في هذه الآية لأنه قال : الذين يصدقون بالغيب .

وحكى الربيع بن انس انه قال : الذين يخشون بالغيب . وقال: معناه يطيعون الله في السر والعلانية . وقيـل : إن الايمان مشتق من الامان ، والمؤمن من يؤمن نفسه من عذاب الله ، والله المؤمن لاوليائه من عذابه وذلك مروي في اخبارنا وقالت المعتزلة باجمعها : الايمان هو فعل الطاعة ، ومنهم من اعتبر فرائضها ونوافلها ، ومنهم من اعتبر الواجب منها لا غير ، واعتبروا اجتناب الكبائر من جملتها .

وروي عن الرضا عليه السلام : ان الايمان هو التصــديق بالقلب والعمل بالاركان والقول باللسان . وقد بينا الاقوى من ذلك في كتاب الاصول .

واما (الغيب) فحكي عن ابن عباس انه قال : ما جاء من عنـد الله . وقال جماعة من الصحابة كابن مسعود وغيره : ان الغيب ما غاب عن العباد علمه من امر الجنة والنار والأرزاق والاعمال وغير ذلك ، وهو الاولى لأنه عام ، ويدخل فيـه ما رواه اصحابنا من زمان الغيبة ووقت خروج المهدي عليه السلام . وقال قوم : الغيب هو القرآن ، حكي ذلك عن زر بن جيش . وذكر البلخي ان الغيب كل ما ادرك بالدلائل والآيات مما تلزم معرفته . وقال الرماني : الغيب خفاء الشيء عن الحس قرب أو بعد إلا انه قد كثرت صفة الغائب على البعيد الذي لا يظهر للحس .

واصل الغيب من غاب . يقولون : غاب فلان يغيب ، وليس الغيب ما غاب عن الادراك لأن ما هو معلوم وان لم يكن مشاهـداً ، لا يسمى غيباً ، والأولى ان تحمـل الآية على عمومها في جميع من يؤمن بالغيب ، وقال قوم : انها متناولة لمؤمني العرب خاصة دون غيرهم من مؤمني أهل الكتاب ، قالوا بدلالة قوله فيما بعد (والذين يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك) قالوا ولم يكن للعرب كتاب قبل الكتاب الذي انزله الله على نبيه تدين بتصديقه ، وانما الكتاب لأهل الكتابين وهذا غير صحيح ، لأنه لا يمنع أن تكون الآية الاولى عامـة في جميع المؤمنين المصدقين بالغيب وإن كانت الآية الثانية خاصة في قوم لأن تخصيص الثانية لايقتضي

تخصيص الأولى .

وقال قوم : انها مع الآيتين اللتين بعدها أربع آيات نزلت في مؤمني أهل الكتاب ، لأنه ذكرهم في بعضها . وقال قوم : ان الأربع آيات من أول السورة نزلت في جميع المؤمنين ، واثنتان نزلتا في نعت الكافرين ، وثلاثة عشر في المنافقين وهذا أقوى الوجوه ، لأنه حمل على عمومه ، وحكي ذلك عن مجاهد . وقوله : « يقيمون الصلاة » فاقامتها أداؤها بحدودها وفرائضها وواجباتها ، كما فرضت عليهم يقال : أقام القوم سوقهم إذا لم يعطلوها من البيع والشراء ، قال الشاعر :

أقمنا لأهل العراقين سوق الضراب فخاموا وولوا جميعا

وقال أبو مسلم محمد بن بحر : معنى (يقيمون الصلاة) يديمون أداء فرضها يقال للشيء الراتب قائم ولفاعله مقيم ، ومن ذلك : فلان يقيم أرزاق الجند . وقيل انه مشتق من تقويم الشيء من قولهم : قام بالأمر ، إذا أحكمه وحافظ عليه . وقيل انه مشتق مما فيه من القيام ، ولذلك قيل قد قامت الصلاة .

وأما الصلاة فهي الدعاء في اللغة ، قال الشاعر :

وقابلها الريح في دنّها « ١ » وصلى على دنّها وارتسم

أي دعا لها . وقال الأعشى :

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها فان ذبحت صلى عليها وزمزما « ٢ »

يعني دعا لها ، وأصل الاشتقاق في الصلاة من اللزوم من قوله تصلى ناراً حامية ، والمصدر الصلا ، ومنه اصطلى بالنار إذا لزمها ، والمصلّي الذي يجيء في أثر السابق للزوم أثره ، ويقال للعظم الذي في العجز صلواً ، وهما صلوان .

فأما في الشرع ففي الناس من قال إنها تخصصت بالدعاء والذكر في موضع مخصوص . ومنهم من قال ، وهو الصحيح ، انها في الشرع عبارة عن الركوع والسجود على وجه مخصوص وأركان واذكار مخصوصة . وقيل انها سميت صلاة

« ١ » وفي رواية : ظلها .

« ٢ » الزمزمة : صوت بعيد له دوي .

لأن المصلي متعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله ونعمه مع ما يسأل ربه فيها من حاجاته .

وأما الرزق ، فهو ما للحي الانتفاع به على وجه لا يكون لأحد منعه منه ، وهذا لا يطلق إلا فيما هو حلال فأما الحرام فلا يكون رزقاً لأنه ممنوع منه بالنهي ، ولصاحبه أيضاً منعه منه ، ولأنه أيضاً مدحهم بالانفاق مما رزقهم ، والمغصوب والحرام يستحق الذم على إنفاقه ، فلا يجوز أن يكون رزقاً .

وقوله : (ومما رزقناهم ينفقون) حكي عن ابن عباس انها الزكاة المفروضة يؤتيها احتساباً . وحكي عن ابن مسعود أنها نفقة الرجل على أهله ، لأن الآية نزلت قبل وجوب الزكاة . وقال الضحاك : هو التطوع بالنفقة فيما قرّب من الله والأولى حمل الآية على عمومها فيمن أخرج الزكاة الواجبة والنفقات الواجبة وتطوع بالخيرات .

وأصل الرزق الحظ لقوله: « وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون » « ١ »: أي حظكم ، وما جعله حظا لهم فهو رزقهم .

والانفاق أصله الاخراج ، ومنه قيل : نفقت الدابة إذا خرجت روحها ، والنافقاء ، جحر اليربوع ، من ذلك لأنه يخرج منها . ومنه النفاق لأنه يخرج إلى المؤمن بالايمان والى الكافر بالكفر .

قوله تعالى :

والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ — آية .

القراءة

لاعد القراء الألف من ما إلا حمزة فانه مدها ، وقد لحن في ذلك . وكان

«١» سورة الواقعة آية ٨٢ .

يقف قبل الهمزة فيقرأ : وبالاخرة تسكيناً على اللام شيئاً ثم يبتدىء بالهمزة، وكذلك الارض وشيء يقطع عند الياء من شيء كأنه يقف ثم يهمز . وموضع (ما) خفض بالباء ويكره الوقف على(ما)لأن الألف حرف منقوص.

التفسير

وقال قتادة : « ما أنزل إليك » القرآن « وما أنزل من قبلك » الكتب الماضية ، وقد بينا أن الأولى حمل الآيه على عمومها في المؤمنين ، وذكرنا الخلاف فيه ، والآخرةصفة الدار ، فحذف الموصوف ، قال الله تعالى : « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان » (١) ووصفت بذلك لمصيرها آخرة لأولى قبلها كما يقال : جئت مرة بعد أخرى ، ويجوز أن يكون سميت بذلك لتأخيرها عن الخلق ، كما سميت الدنيا دنيا لدنوها من الخلق ؛ وإيقانهم ما جحده المشركون من البعث والنشور والحساب والعقاب ؛ وروي ذلك عن ابن عباس ، والايقان بالشيء هو العلم به ؛ وسمي يقينا لحصول القطع عليه وسكون النفس إليه ،

قوله تعالى :

أُولئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ

القراءة

اولئك بهمزتين ، وفيهم من يخففهما وحمزة يمد اولئك واولئك اسم مبهم يصلح لكل حاضر تعرفه الاشارة كقولك ذاك في الواحد ، وأولاء جمع ذاك في المعنى ومن قصرقال أولا وأولالك ، واذا أمددته لم يجز زيادة اللام لئلا يجتمع ثقل الهمزة وثقل الزيادة ، وتقول : أولاء للقريب وها أولئك للبعيد وأولئك للمتوسط.

واضيف الهدى الى الله لأحد الأمرين :

احدها : لما فعل بهم من الدلالة على الهدى والايضاح له ، والدعاء اليه .

الثاني : لأنه يثيب عليه ، فعلى هذا يضاف الايمان بأنه هداية من الله .

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٤ .

[وهدى] في موضع خفض بعلى . ومعنى (على هدى) : أي على حق وخير بهداية الله إياهم ودعائه الى ما قالوا به ، ومن قال : هم على نور واستقامة أو بيان ورشد ، فهو داخل تحت ما قلنا ، والاولى أن يكون ذلك عاماً فيمن تقدم ذكره في الآيتين ، ومن خص ذلك فقد ترك الظاهر ، لأن فيهم من خصها بالمعنيين في الآية الاولى ، وفيهم من خصها بالمذكورين في الآية الثانية ، وقد بينا أن الجمع محمول على العموم وحملها على العموم في الفريقين محكي عن ابن عباس وابن مسعود .

[والمفلحون] هم المنجحون الذين أدركوا ما طلبوا من عند الله بأعمالهم وإيمانهم . والفلاح : النجاح . قال الشاعر :

اعقلي إن كنت لما تعقلي ولقد أفلح من كان عقل

يعني من ظفر بحاجته وأصاب خيراً . وتقول أفلح يفلح إفلاحا وتقول فلح يفلح فلاحاً وفلاحا والفلاح البقاء أيضاً . قال لبيد

نحل بلاداً كلها حل قبلنا ونرجو فلاحاً«١» بعد عاد وحمير

يعني البقاء وأصل الفلح القطع ، فكأنه قطع لهم بالخير ، ومنه قيل للاكار فلاحاً لأنه يشق الأرض ، والفلاح المكاري لأنه يقطع الارض قال الشاعر:

إن الحديد بالحديد يفلح

وفى اولئك لغات : فلغة أهل الحجاز : أوليك بالياء ، وأهل نجد وقيس وربيعة وأسد يقولون : اولئك بهمز . وبعض بني سعيد من بني تميم يقولون : الألك مشددة ، وبعضهم يقول : الالك . قال الشاعر :

ألا لك قوم لم يكونوا أشابة«٢» وهل يعظ الضليل إلا ألالكا

وهم دخلت الفصل . قوله تعالى

إِنَّ الذينَ كَفَروا سَواءٌ عَليهمْ ءأَنْذَرتَهُمْ أمْ لَمْ تُنذِرهمْ لايؤمنُونَ: آية

النزول ـ نزلت في أبي جهل وفي خمسة من قومه من قادة الاحزاب قتلوا يوم بدر في قول الربيع بن أنس ، واختاره البلخي والمغربي . وقال ابن عباس : نزلت في قوم

«١» وفي نسخة (الفلاح) «٢» الاشابة من الناس الأخلاط

باعيانهم من أحبار اليهود ذكرهم باعيانهم ، من اليهود الذين حول المدينة . وقال قوم : نزلت في مشركي العرب ، واختـار الطبري قول ابن عباس : والذي نقوله إنه لابد أن تكون الآية مخصوصة لأن حملها على العموم غير ممكن ، لأنا علمنـا أن في الكفار من يؤمن فلا يمكن العموم ، وأما القطع على واحد مما قالوه فلا دليل عليه ، ويجب تجويز كل واحد من هذه الاقوال ، ومن مات منهم على كفره يقطع على أنه مراد بالآية ، فعلى هذه قادة الاحزاب مرادون على ما قال ربيع بن انس ومن قتل يوم بدر كذلك ومن قال ان الآية مخصوصة بكفار اهل الكتاب قال : لأن ما تقدمها مختص بمؤمنيهم فيجب ان يكون ما يعقبها مختصاً بكفارهم وقد قلنا إن الآية الاولى حملها على عمومها اولى ولو كانت خاصة بهم لم يجب حمل هذه الآية على الخصوص لما تقدم فيما مضى . والذين نصب بأن . والكفر هو الجحود والستر ولذلك سمي الليل كافراً لظلمته قال الشاعر :

فتذكرا نقلا رشيداً بعد ما ألقت ذكاء «١» يمينها في كافر

وقال لبيد :

في ليـلة كفر النجوم غمامها

يعني غطاها .

والكافور اكمام الكرم الذي يكون فيه والكفري وِعاءُ الطلعـة لأنه يستر اللب ومنه قوله تعالى : (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) «٢» وسمي الزارع كافراً لتغطيته البذر ويقال فلان متكفر بالسلاح اذا تغطى به . وفي الشرع عبارة عمن جحد ما اوجب الله عليه معرفته من توحيده وعدله ومعرفة نبيه والاقرار بما جاء به من اركان الشرع فمن جحد شيئاً من ذلك كان كافراً وربما تعلقت به احكام مخصوصة من منع الموارثة والمناكحة والمدافنة والصلاة عليه وربما لم يتعلق بحسب الدليل عليه.

قوله تعالى :(سواء عليهم ءأنذرتهم) جمع بين الهمزتين أهل الكوفة وابن عامر

«١» وتصحيح البيت : ثقلا بدل نقلا ورثيداً بدل رشيداً ورثد المتاع وغيره فهو مرثود: وضع بعضه فوق بعض والثقل بيض النعام . ذكاء : الشمس .

«٢» سورة الحديد آية : ٢٠

إلا الحلواني وكذلك في كل همزتين في كلمة واحدة اذا كانت الاولى للاستفهام إلا في مواضع مخصوصه نذكرها فيما بعد الباقون بتخفيف الاولى وتليين الثانية وفصل بينهما بالألف أهل المدينة إلا ورشاً وابا عمرو والحلواني عن هشام .

ومعنى قوله (سواء) أي معتدل مأخوذ من التساوي كقولك متساو وتقول : هذان الأمران عندي سواء أي معتدلان ، ومنه قوله : (فانبذ اليهم على سواء)«١» يعني بذلك اعلمهم وآذنهم للحرب ليستوي علمك وعلمهم بما عليه كل فريق منكم للاخر ومعناه : أي الامرين كان منك اليهم الانذار أم ترك الانذار فانهم لا يؤمنون . وقال عبدالله بن قيس الرقيات :

تعدت بي الشهباء نحو ابن جعفر سواء عليها ليلها ونهارها

يعني بذلك عندها معتدل في السير الليل والنهار ، لأنها لا فتور فيه ومنه قول الآخر :

وليل يقول المرء من ظلماته سواء صحيحات العيون وعورها

لأن الصحيح لا يبصر فيه إلا بصراً ضعيفاً من ظلمته ، وهذا لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الخبر ، وله نظائر في القرآن ، كما تقول ما أبالي أقمت أم قعدت ، وانت مخبر لا مستفهم لأنه وقع موقع أي ، كأنك قلت لا أبالي أيّ الامرين كان منك وكذلك معنى الآية : سواء عليهم أيّ هذين منك اليهم حسن في موضعه ، سواء فعلت أم لم تفعل . وقال بعض النحويين ان حرف الاستفهام انما دخل مع سواء وليس باستفهام ، لأن المستفهم اذا استفهم غيره قال : أزيد عندك أم عمرو ويستفهم صاحبه ايهما عنده وليس احدهما احق بالاستفهام من الآخر فلما كان قوله : (سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم) بمعنى التسويه أشبه ذلك الاستفهام اذ شبهه بالتسوية ، وقال جرير :

الستم خير من ركب المطايا واندى العالمين بطون راح

فهذا في صورة الاستفهام وهو خبر ، لأنه لو أراد الاستفهام لما كان مدحاً وقال آخر :

«١» سورة الانفال آية ٥٩

سواء عليه أي حين أتيته أساعة نحس تتقى أم باسعد

ولا يجوز أن تقع أو في مثل هذا مكان أم لأن أم هي التي تعادل بها الهمزة لا أو .

والفرق بينها ان أو يستفهم بها عند أحد الامرين هل حصل أم لا وهو لا يعلمها معاً كقول القائل : أذن أوأقام ؟ اذ المراد تعلمهما ، فاذا علم واحداً منها ولم يعلمه بعينه قال أذن أم اقام ؟ يستفهم عن تعيين أحدهما هذا في الاستفهام . وفي الخبر تقول : لا أبالي أقمت أم قعدت . أي هما عندي سواء ولا يجوز ان تقول لا أبالي أقمت أوقعدت لأنك لست بمستفهم من شيء .

وحكي عن عاصم الجحدري انه قرأ سواو بواو مضمومة لا بهمزة وهذا غلط لأن العرب كلها تهمز ما بعده مده ، يقولون: كساء ورداء وهواء وجزاء وغير ذلك . وأما الانذار فهو اعلام وتخويف ، وكل منذر معلم وليس كل معلم منذراً وقد سمى الله نفسه بذلك فقال : (انا انذرناكم عذاباً قريباً) «١» لأن الاعلام يجوز وصفه به والتخويف أيضاً كذلك في قوله : (ذلك يخوف الله به عباده) فاذا جاز وصفه بالمعنيين جاز وصفه بلفظ يشتمل عليها وانذرت فعل متعد الى مفعولين كقوله تعالى : (انذرتكم صاعقة) (وانا انذرناكم عذاباً قريباً)وقد وردمعداً بالباء في قوله تعالى : (قل انما انذركم بالوحي) «٢» وقيل الانذار هو التحذير من مخوف يتسع زمانه الاحتراز ، فان لم يتسع زمانه للاحتراز كان اشعاراً ولم يكن انذاراً . قال الشاعر :

انذرت عمراً وهو في مهل قبل الصباح فقد عصى عمرو

فان قيل الذين علم الله منهم انهم لا يؤمنون ، هل كانوا قادرين على الايمان أم لا ؟ فان قلتم ما كانوا قادرين ، وقد كلفهم الله تعالى الايمان ، فقد كلفهم ما لا يقدرون عليه ، وهذا لا يجوز ـ وان كانوا قادرين ـ فقد قلتم : انهم كانوا قادرين على تجهيل الله . قلنا : هذا يلزم المخالف مثله ، فانه لا خلاف أنهم مأمورون

«١» سورة النساء : آية ٤٠

«٢» سورة الانبياء : آية ٤٥

بالايمان ، فيقال لهم : انه لا يجب ذلك كما لا يجب اذا كانوا مأمورين بالايمان ، ان يكونوا مأمورين (بابطال ما علم الله) «١» أليس الله قد علم انه لا يقيم القيامة اليوم ؟ ايقولون : انه قادر على اقامتها أم لا ؟ فان قلتم : انه لا يقدر ، فقد عجزتم الله . وان قلتم : انه يقدر ، فقد قلتم : انه يقدر على ان يجهل نفسه . والجواب الصحيح عن ذلك : أن العلم يتناول الشيء على ما هو به ، ولا يجعله على ما هو به ، فليس يمتنع ان يعلم حصول شيء بعينه ، وان كان غيره مقدورا ألا ترى أن من خير بين الصدق والكذب وقد علم أن كل واحد منها يقوم مقام صاحبه في باب الغرض وقد علم قبح الكذب وحسن الصدق لا يجوز أن يختار الكذب على الصدق ـ وان كان قادراً على الكذب ـ فبان بذلك صحة ما قلناه

قوله تعالى

خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ـ آية

القراءة — أجمع القراء السبعة على كسر الغين وضم التاء ، وروي عن بعض القراء فتح الغين ، وعن الحسن ضم الغين . وحكي عن عاصم في الشواذ : غشاوةً ، بنصب التاء ، ولا يقرأ بجميع ذلك .

التفسير

(ختم الله على قلوبهم) أي شهد عليها بانها لا تقبل الحق ، يقول القائل : أراك تختم على كل ما يقول فلان ، أي تشهد به وتصدقه ، وقد ختمت عليك بانك لا تعلم ، أي شهدت ، وذلك استعارة . وقيل ان ختم بمعنى طبع فيها أثراً الذنوب كالسمة والعلامة لتعرفها الملائكة فيتبرءوا منهم ، ولا يوالوهم ، ولا يستغفروا لهم مع استغفارهم للمؤمنين . وقيل : المعنى في ذلك أنه ذمهم بانها كالمختوم عليها في انها لا يدخلها الايمان ولا يخرج عنها الكفر ، قال الشاعر :

«١» ما بين القوسين وضعه المصحح في الطبعة الايرانية .

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

أي كأنه لا حياة فيه . والختم آخر الشيء ومنه قوله تعالى : (ختامه مسك) «١» ومنه : خاتم النبيين أي آخرهم . ومنه : ختم الكتاب لأنه آخر حال الفراغ منه والختم الطبع والخاتم الطابع .

وما يختم الله على القلوب من السمة والعلامة التي ذكرناها ليست بمانعة من الايمان كما أن ختم الكتاب والظرف والوعاء لا يمنع من أخذ ما فيه .

وحكي عن مجاهد أنه قال : الرّين أيسر من الطبع والطبع أيسر من الختم ومن الاقفال والقفل اشد من ذلك .

وقيل : إن قوله تعالى : (ختم الله) إخبار عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا اليه من الحق كما يقال : فلان اصم عن هذا الكلام اذا امتنع عن سماعه ورفع نفسه عن تفهمه .

والغشاوة : الغطاء وفيها ثلاث لغات : فتح الغين وضمها وكسرها وكذلك غشوة فيها ثلاث لغات . ويقال : تغشاني السهم اذا تجلله وكل ما اشتمل على شيء مبني على فعالة كالعمامة والقلادة والعصابة وكذلك في الصناعة كالخياطة والقصارة والصباغة والنساجة وغير ذلك وكذلك من استولى على شيء كالخلافة والامارة والاجارة وغير ذلك .

قال ابو عبيدة : (وعلى سمعهم) معناه على اسماعهم ووضع الواحد موضع الجمع لأنه اسم جنس كما قال : (يخرجكم طفلا) (٢) يعني اطفالا . ويجوز ان يكون اراد موضع سمعهم فحذف لدلالة الكلام عليه . ويجوز ان يكون اراد المصدر لأنه يدل على القليل والكثير ، فمن رفع التاء قال : الكلام الأول قد تم عند قوله: (وعلى سمعهم) واستأنف : (وعلى أبصارهم غشاوة) وتقديره : وغشاوة على أبصارهم ، ومن نصب قدّره ، يعني : جعل على أبصارهم غشاوة ، كما قال الشاعر :

«١» سورة المطففين : آية ٢٦

«٢» سورة الحج آية ٥

علفتها تبناً وماء باردا

وقال الآخر :

متقلداً سيفاً ورمحا

لما دل الكلام الأول عليه ، فاذا لم يكن في الكلام ما يدل عليه ، لا يجوز إضماره ، ولا يجوز أن ينصب بالفعل الأول الذي هو الختم ، لأن الختم لا يطلق على البصر ، كما ذكر في قوله تعالى : (وختم على سمعه وقلبه) ثم قال : (وجعل على بصره غشاوة) «١» فلم يدخل المنصوب في معنى الختم . وقال قوم : إن ذلك على وجه الدعاء عليهم ، لا للاخبار عنهم ، وهذا يمكن في قوله تعالى : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) وفي قوله (وعلى أبصارهم غشاوة) فيمن نصب غشاوة ، فاما من رفع ذلك ، فلا يكون دعاء . والأقوى أن ذلك خبر ، لأنه خرج مخرج الذم لهم والازراء عليهم ، فكيف يحمل على الدعاء ؟

ويحتمل أن يكون المراد (بختم) أنه سيختم ، ويكون الماضي بمعنى المستقبل ، كما قال : (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) «٢» وعلى هذا يسقط سؤال المخالف

والقلب جعل الشيء على خلاف ما كان . يقال : قلبه يقلبه قلباً ، والقليب البئر لأن الماء ينقلب اليها ، وما به قلبة : أي انقلاب عن صحة ، وفلان حوّل قلب : اذا كان يقلب الامور برأيه ويحتال عليها ، والقلوب الذئب لتقلبه في الحيلة على الصيد بخبثه ، وسمي القلب قلباً لتقلبه بالخواطر . قال الشاعر :

ما سمي القلب إلا من تقلبه والرأي يعزب والانسان أطوار

والبصر : مصدر بصر به يبصر بصراً ، بمعنى أبصره ابصاراً . والبصيرة : الابصار للحق بالقلب . والبصائر قطع الدم لأنها ترى كثيرة للغسل .

(ولهم عذاب عظيم) باظهار التنوين ، لأن النون تبين عند حروف الحلق وهي ستة أحرف : العين ، والغين ، والحاء ، والخاء ، والهمزة والهاء ومن هذه الاحرف ما لا يجوز فيه الاخفاء ، وهي العين ، كقوله : من عند الله » و « من

«١» سورة الجاثية آية ٢٢

«٢» سورة الاعراف آية ٤٣

عليها ». والهمزة ، نحو قوله : « غثاء أحوى » «١» والخاء والغين يجوز إخفاؤهما عندهم على ضعف فيه من قوله : « والمنخنقة » و (ناراً خالدا) (فان خفتم) (من خلفهم) و (ميثاقاً غليظاً) «٢» (ماء غدقا) «٣» (قولا غير الذي) «٤» قال الفراء : أهل العراق يبينون وأهل الحجاز يخفون وكل صواب .

فان قيل : اذا قلتم : ان الله ختم على قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فكيف يكونون قادرين على الايمان ؟ قيل : يكونون عليه لأن الختم والغشاوة ليسا بشيء يفعلها الله تعالى في القلب والعين يصد بها عن الايمان ، ولكن الختم شهادة على ما فسرناه من الله عليهم بانهم لا يؤمنون ، وعلى قلوبهم بانها لا تعي الذكر ، ولا تعي الحق ، وعلى اسماعهم بأنها لا تصغي الى الحق . وهذا إخبار عمن يُعلم منه أنه لا يؤمن . والغشاوة هي « إلفهم الكفر بحبهم له » «٥» ولم يقل تعالى: إنه جعل على قلوبهم بل أخبر انه كذلك. ومن قرأ بالنصب ـ وإن كان شاذاً ـ يحتمل أن يكون أراد معنى قوله : ان السورة زادتهم رجساً الى رجسهم والسورة لم تزدهم ولكنهم ازدادوا عندها ، وسنوضح ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى .

(ولهم عذاب عظيم) تقديره : ولهم ، بما هم عليه من خلافك ، عذاب عظيم وحكي ذلك عن ابن عباس . وأصل العذاب الاستمرار بالشيء يقال : عذبه تعذيباً : إذا استمر به الألم. وعذب الماء عذوبة : اذا استمر في الحلق وحمار عاذب وعذوب : اذا استمر به العطش فلم يأكل من شدة العطش. وفرس عذوب مثل ذلك . والعذوب الذي ليس بينه وبين السماء ستر . وأعذبته عن الشيء بمعنى فطمته. وعذبة السوط طرفه والعذاب استمرار الألم .

وأصل العِظَم عِظَم الشخص ، ومنه عظيم الشأن الغني بالشيء عن غيره

«١» سورة الاعلى آية ٥

«٢» سورة النساء آية ٢٠ و ١٥٣

«٣» سورة الجن : آية ١٦

«٤» سورة البقرة : آية ٥٩

«٥» في الاصل بياض وفي النسخة الايرانية احتمالات استنتجنا منها العبارة الموجودة .

وعظمة الله تعالى كبرياؤه والعظام من العظم لأنه من أكبر ما يركب منه البدن.

قوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنا بِاللهِ وبِاليَوْمِ الآخِرِ،وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِين.آية

التفسير :

(من) لفظ يخبر به عن الواحد من العقلاء ، واثنين وجماعة فلما قال : (وما هم بمؤمنين) دل على أنه أراد الجمع وانما قال : (يقول) بلفظ الواحد حملا له على اللفظ قال الشاعر :

نكن مثل مَنْ ياذئب يصطحبان

وقيل في معنى الناس وجهان :

أحدها — أن يكون جمعاً لا واحد له من لفظه واحدهم إنسان والانثى انسانة

والثاني — أن أصله : أناس فاسقطت الهمزة منها لكثرة الاستعمال اذا دخلها الألف واللام للتعريف ثم أدغمت لام التعريف في النون كما قيل : (لكنا هو الله) واصله : لكن انا .

وقال بعضهم : ان الناس لغة غير اناس ، وإلا لقيل في التصغير : انيس رداً الى اصله .

واشتقاقه من النوس : وهو الحركة ناس ينوس نوساً : اذا تحرك والنوس : تذبذب الشيء في الهواء ، ومنه نوس القرط في الاذن لكثرة حركته .

ولا خلاف بين المفسرين ان هذه الآية وما بعدها نزلت في قوم من المنافقين من الأوس والخزرج وغيرهم ، روي ذلك عن ابن عباس وذكر اسماءهم ولا فائدة في ذكرها . وكذلك ما بعدها الى قوله :(وما كانوا مهتدين) كلها في صفه هؤلاء المنافقين . والمنافق هو الذي يظهر الاسلام بلسانه وينكره بقلبه .

واليوم الآخر هو يوم القيامه وانما سمي يوم القيامة اليوم الآخر لأنه يوم لا يوم بعده سواه . وقيل : لأنه بعد ايام الدنيا واول ايام الآخرة . فان قيل :

كيف لا يكون بعده يوم ولا انقطاع للاخرة ولا فناء؟ قيل : اليوم في الآخره سمي يوماً بليلته التي قبله فاذا لم يتقدم النهار ليل لم يسم يوماً فيوم القيامة يوم لا ليل بعده فلذلك سماه اليوم الآخر .

وانما قال : (وما هم بمؤمنين) مع قوله : (. . من يقول آمنا بالله) تكذيباً لهم فيما اخبروا عن اعتقادهم من الايمان والاقرار بالبعث والنبوة فبين ان ما قالوه بلسانهم مخالف لما في قلوبهم وذلك يدل على ان الايمان لا يكون مجرد القول على ما قالته الكرامية .

(يقول) من القول ومنه : تقوّل اذا تخرص القول واقتال فهو مقيال : اذا أخذ نفعاً الى نفسه بالقول أودفع به ضرراً عنها والمقول اللسان يُقوّله تقويلا اذا طالبه باظهار القول .

قوله تعالى :

يُخَادِعُونَ اللهَ والَّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعونَ إلاَّ أنفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ . آية .

القراءة :

قرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو بضم الياء وبألف . الباقون بفتح الياء بلا الف في قوله (وما يخدعون)

اللغة :

قال ابو زيد : خدعت الرجل اخدعه خدعاً بكسر الخاء وخديعة ويقال في المثل : إنك لأخدع من ضب حرشته . وقال ابن الاعرابي : الخادع : الفاسد من الطعام ومن كل شيء وانشد :

ابيض اللون لذيذاً طعمه طيب الريق اذا الريق خدع

اي تغير وفسد . وقال ابو عبيدة : يخادعون بمعنى يخدعون قال الشاعر :

وخادعت المنية عنك سراً فلا جزع الاوان ولا رواها

التفسير :

وخداع المنافق إظهاره بلسانه من القول أو التصديق خلاف ما في قلبه من الشك والتكذيب وليس لأحد ان يقول : كيف يكون المنافق لله ولرسوله وللمؤمنين مخادعاً وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية ؟ . وذلك ان العرب تسمي من اظهر بلسانه غير ما في قلبه لينجو مما يخافه مخادعاً لمن تخلص منه بما اظهر له من التقية فلذلك سمي المنافق مخادعاً من حيث انه نجا من اجراء حكم الكفر عليه بما اظهره بلسانه فهو وإن كان مخادعاً للمؤمنين فهو لنفسه مخادع لأنه يظهر لها بذلك أنه يعطيها أمنيتها وهو يوردها بذلك أليم العذاب وشديد الوبال ، فلذلك قال : « وما يخدعون إلا أنفسهم » .

وقوله : « وما يشعرون » يدل على بطلان قول من قال : إن الله لا يعذب إلا من كفر عناداً بعد علمه بوحدانيته ضرورة ، لأنه أخبر عنهم بالنفاق وبأنهم لا يعلمون ذلك ، والمفاعلة ، وإن كانت تكون من اثنين ، من كل واحد منها لصاحبه ، مثل ضاربت وقاتلت وغير ذلك ، فقد ورد من هذا الوزن « فاعَلَ » بمعنى (فَعلَ) مثل : قاتله الله ، وطابقت النعل ، وعافاه الله ، وغير ذلك . وقد حكينا أن معناه : يخدعون ، كما قال في البيت المقدّم وقيل : إنه لم يخرج بذلك عن الباب ومعناه : ان المنافق يخادع الله بكذبه بلسانه على ما تقدم ، والله يخادعه بخلافه بما فيه نجاة نفسه كما قال . (انما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين) «١» وحكي عن الحسن ان معنى يخادعون الله انهم يخدعون نبيه لأن طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله كما قال : (وان يريدوا ان يخدعوك) «٢» وقيل معناه : انهم يعملون عمل المخادع كما يقال فلان يسخر من نفسه ومن قرأ (وما يخادعون) بألف طلب المشاكلة والازدواج كما قال : (وان عاقبتم فعاقبوا) «٣» وكما قال :

«١» سورة آل عمران : آية ١٧٨ .

«٢» سورة الانفال : آية ٦٣ .

«٣» سورة النحل : آية ١٢٦ .

(وجزاء سيئة سيئة مثلها) «١» وكما قال الشاعر :

ألا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال تعالى : (فيسخرون منهم سخر الله منهم) «٢» ومثله كثير . وقيل في حجـة من قرأ يخادعون بألف هو ان ينزل ما يخطر بباله ويهجس في نفسه من الخداع بمنزلة آخر يجازيه ذلك ويفاوضه فكأن الفعل من اثنين كما قال الشاعر وذكر حماراً أراد الورود :

تذكر من أنى ومن أين شربه يؤامر نفسيه كذي الهجمة الابل «٣»

فجعل ما يكون منه من وروده الماء والتمثل بينهما بمنزلة نفسين وقال الآخر :

وهل تطيق وداعاً ايها الرجل

وعلى هذا قول من قرأ : (قال إعلم ان الله على كل شيء قدير) فوصـل فخاطب نفسه ونظائر ذلك كثيرة وانما دعاهم الى المخادعة امور

احدها — التقية وخوف القتل

والثاني — ليكرموهم إكرام المؤمنين .

الثالث — ليأنسوا اليهم في اسرارهم فينقلوها الى اعدائهم . والخداع مشتق من الخدع وهو اخفاء الشيء مع ايهام غيره ومنه المخدع : البيت الذي يخفى فيـه الشيء فان قيل : أليس الكفار قـد خدعوا المؤمنين بما اظهروا بالسنتهم حتى حقنوا بذلك دماءهم واموالهم ـ وان كانوا مخدوعين في أمر آخرتهم ـ قيـل : لا نقول خدعوا المؤمنين لأن اطلاق ذلك يوجب حقيقة الخديعـة لكن نقول : خادعوهم وما خدعوهم بل خدعوا انفسهم ، كما قال في الآية ، ولو أن انساناً قاتل غـيره ، فقتل نفسه جاز أن يقال : انه قاتل فلاناً ، فلم يقتل إلا نفسه ، فيوجب مقـاتلة صاحبه ، وينفي عنه قتله .

والنفس مأخوذة من النفاسـة ، لأنها أجل ما في الانسان . تقول : نفس

«١» سورة الشورى : آية ٤٠

«٢» سورة التوبة : آية ٨٠

«٣» في الطبعة الايرانية نفسه بدل نفسيه

ينفس نفاسة : اذا ضن به ، وتنافسوا في الأمر : اذا تشاحوا . والنفس : الروح . ونفس عنه تنفيساً : اذا روح عن نفسه . والنفس : الدم ، ومنه النفساء ، ونفست المرأة . والنفس : خاصة الشيء ، وقوله : « وما يشعرون » يعني وما يعلمون ، يقال ما شعر فلان بهذا الأمر وهو لا يشعر به اذ لم يدر ، شعراً وشعوراً ومشعوراً قال الشاعر :

عقوا بسهم فلم يشعر به احد ثم استفاءوا وقالوا حبذا الوضح «١»

يعني : لم يعلم به أحد . واصل الشعر : الدقة شعر به يشعر : اذا اعلمه بامر يدق ومنه الشعيرة والشعير ، لأن في رأسها كالشعر في الدقه .والمشاعر : العلامات في مناسك الحج كالموقف والطواف ، وغيرها . واشعرت البدنة ، اذا اعلمتها على انها هدي . والشعار ما يلي الجسد ، لأنه يلي شعر البدن .

الاعراب :

(إلا انفسهم) نصب على الاستثناء .

قوله تعالى :

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ـ آية .

القراءة :

امال الزاي ابن عامر والحلواني وحمزة ، وقرأ اهل الكوفة بفتح الياء يكذبون مخففاً .

اللغة والتفسير :

يقال زاد يزيد زيادة «٢» وقال الشاعر

كذلك زيد المرء بعد انتقاصه

«١» في الطبعة الايرانية بدل (عقوا) عفوا وبدل (استفاءوا) استقادوا وبدل (وقالوا) فقالوا

«٢» وزيداً وزيداً وزيداً ومزيداً وزيدانا

و (زدت) فعل يتعدى الى مفعولين ، قال تعالى (وزدناهم هدى وزدناهم عذاباً فوق العذاب) وزاده بسطة في العلم والجسم وقوله [فزادهم ايمانا] والمعنى: زادهم فوق الناس لهم ايماناً اضمر المصدر في الفعل ، واسند الفعل اليه ، كما قال [ما زادهم إلا نفورا] [١] أي ما زادهم مجيء النذير ، والمعنى ازدادوا عنده وقال ابو عبيدة المرض الشك والنفاق ، وقيل في قوله [فيطمع الذي في قلبه مرض] أي فجور ، وقال سيبويه : مرضته قمت عليه ، ووليته ، وامرضته : جعلته مريضاً .

وقيل إن المرض الغم والوجع من الحسد والعداوة لكم [فزادهم الله مرضاً] دعاء عليهم ، كما قال تعالى : [ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم] «٢» واصل المرض : السقم في البدن فشبه ما في قلوبهم من النفاق والشك بمرض الاجساد .

والأليم بمعنى المؤلم الموجع : فعيل بمعنى مفعل : مثل بديع بمعنى مبدع ، ومكان حريز بمعنى محرز . قال ذو الرمة :

يصك وجوهها وهج اليم

فان قيل اذا كان معنى قوله : (في قلوبهم مرض) أي شك ونفاق ، ثم قال : [فزادهم الله مرضاً] ثبت ان الله يفعل الكفر بخلاف ما تذهبون اليه . قيل : ليس الأمر على ما ذكرتم ، بل معناه : إن المنافقين كانوا كلما أنزل الله آية أوسورة كفروا بها ، فازدادوا بذلك كفراً الى كفرهم ، وشكاً الى شكهم ، فجاز لذلك أن يقال : فزادهم الله مرضاً لما ازدادوا هم مرضاً عند نزول الآيات : ومثل ذلك قوله حكاية عن نوح : [رب اني دعوت قومي ليلا و نهاراً ، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً] «٣» وهم الذين ازدادوا فراراً عند دعائه : ومثل قوله : [فزادهم رجساً الى رجسهم] «٤» وانما اراد انهم ازدادوا عند نزول الآية وكقوله :

«١» سورة فاطر آية ٤٢ .

«٢» سورة التوبة آية ١٢٨

«٣» سورة نوح آية ٦

«٤» سورة التوبة آية ١٢٦

(فاتخذتموهم سخريّا حتى انسوكم ذكري) «١» والمؤمنون ما أنسوهم ذكر الله بل كانوا يدعونهم اليه تعالى ، لكن لما نسوا ذكر الله عند ضحكهم من المؤمنين واتخاذهم إياهم سخرياً ، جاز أن يقال : إن المؤمنين انسوهم . ويقول القائل لغيره اذا وعظه فلم يقبل نصيحته : قد كنت شريراً فزادتك نصيحتي شرا . وانما يريد أنه ازداد عنده . فلما كان المنافقون فقد مرضت قلوبهم بما فيها من الشك ، ثم ازدادوا شكا وكفرا عند ما كان تجدد من امر الله ونهيه ، وما ينزل من آياته ، جاز أن يقال : [فزادهم الله مرضا] فان قيل : فعلى هذا ينبغي أن يكون انزال الآيات مفسدة ، لانهم يزدادون عند ذلك الكفر . قلنا: ليس احد المفسدة ما وقع عنده الفساد ، وانما المفسدة ما وقع عندها الفساد ، ولولاها لم يقع ، ولم يكن تمكيناً ، وهذا تمكين لهم من النظر في معجزاته ودلائله ، فلم يكن استفساداً ولو كان الأمر على ما قالته المجبرة :إن الله يخلق فيهم الكفر لقالت الكفار ما ذنبنا ، والله تعالى يخلق فينا الكفر ، ويمنعنا من الايمان . فلم تلوموننا على ما فعله الله ؟ فتكون الحجة لهم لا عليهم. وذلك باطل ،والتقدير في الآية في اعتقاد قلوبهم الذي يعتقدونه في الدين والتصديق بنبيه مرض ، وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه. قال الشاعر :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ان كنت جاهلة بما [٢] لم تعلمي

يعني اصحاب الخيل كما قال: [ياخيل الله اركبي] يعني يااصحاب خيل الله ، وكما قال تعالى: [واسأل القرية] [٣] وانما اراد اهلها. وروي عن ابن عباس أن المرض المراد به الشك والنفاق ، وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد

والكذب ضد الصدق ، وهو الاخبار عن الشيء لا على ما هو به ، يقال كذب يكذب كذبا وكذابا ـ خفيف وثقيل ـ مصدران . والكذب كالضحك والكذاب كالكتاب والاكذاب : جعل الفاعل على صفة الكذب. والتكذب :التحلي

«١» سورة الاحزاب: آية ١١١ .
«٢» في الطبعة الايرانية (لما)
«٣» سورة يوسف : آية ٨٢ .

بالكذب . وجهة من ضم الياء وشدد الذال أنه ذهب الى أنهم استحقوا العذاب بتكذيبهم النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وبما جاء به . ومن فتح الياء وخفف الذال قدر المضاف ، كأنه قال : بكذبهم ، وهو اشبه بما تقدم ، وهو قولهم : (آمنا بالله وباليوم الآخر) [١] ، فاخبر الله عنهم فقال : (وما هم بمؤمنين) ولذلك يحمد تكذيبهم . وادخل كان ليعلم ان ذلك كان فيما مضى ، كقول القائل : ما احسن ما كان زيداً . وقال بعض الكوفيين : لا يجوز ذلك ، لأن حذف كان ، انما أجازوه في التعجب . لأن الفعل قد تقدمها فكأنه قال حسناً كان زيد . ولا يجوز ذلك ههنا لأن كان تقدمت الفعل .

قوله تعالى :

وَاذا قيلَ لَهـُمْ لا تُفسِدُوا في الأَرْضِ قالوا إنَّما نَحْنُ مُصْلِحونَ . آية

القراءة :

رام ضم القاف فيها وفي أخواتها الكسائي وهشام ورويش (٢) ووافقهم ابن ذكوان في السين والحاء ، مثل : حيل وسيق ، وسيئت ، ووافقهم اهل المدينة في سيق وسيئت فمن ضم ذهب الى ما حكي عن بعض العرب : قد قول ، وقد بوع المتاع ، بدل قيل وبيع ، ومن كسرها قال : لأن ياء الساكنة لا تكون بعد حرف مضموم ، ومن اشم قال : اصله قول ، فاستثقلت الضمة ، فقلبت كسرة ، واشمت ليعلم ان الأصل كانت ضمة .

المعنى :

وروي عن سلمان ـ رحمه الله ـ أنه قال : لم يجيء هؤلاء . وقال أكثر المفسرين : إنها نزلت في المنافقين الذين فيهم الآيات المتقدمة ، وهو الأقوى ويجوز أن يراد بها من صورتهم صورتهم ، فيحمل قول سلمان ـ رحمه الله ـ على أنه

«١» سورة البقرة . آية ٨ .

«٢» لم نعثر على هذا الاسم في كتب الرجال ولعله ورش .

أراد بعد انقراض المنافقين الذين تناولتهم الآية .

ومعنى قولهم له : (انما نحن مصلحون) يحتمل امرين :

أحدهما — ان يقول : إن هذا الذي عندكم فساد ، هو صلاح عندنا ، لأنا إذا قابلناهم استدعيناهم الى الحق في الدين ·

والثاني ـ أن يجحدوا ذلك البلاغ .

والافساد مأخوذ من الفساد : وهو كلما يغير عن استقامة الحال . تقول : فسد يفسد فسادا . والافساد : إحداث الفساد . والمفاسدة : المعاملة بالفساد . والتفاسد : تعاطي الفساد بين اثنين . والاستفساد . المطاوعة على الفساد . لا تفسدوا في الأرض فيقولون انما نحن مصلحون ، ويقال لهم : آمنوا كما آمن الناس فيقولون أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ فليس هؤلاء منافقين ، بل مظهرون لكفرهم · والآية في المنافقين قيل : المنافقون وإن كانوا يظهرون الايمان للنبي ـ صلى الله عليه وآله ـ فانهم كانوا لا يألون المسلمين خبالا ، وكانوا يثبطون عن النبي (ص) ويدعون الى ترك نصرته من يثقون باستماعهم منهم ، ومن يظنون ذلك به ، فربما صادفوا من المؤمنين التقي فيجيبهم بما ذكر الله ، فاذا أخبر أولئك النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ثم ذكروا له (١) ما قالوا وعاتبهم النبي (ص) عادوا الى إظهار الايمان والندم عليه ، أو كذبوا قائله والحاكي عنهم ، وكان لا يجوز في الدين إلا قبول ذلك منهم بما يظهرون ، وخاصة في صدر الاسلام ، والحاجة الى تألف قلوبهم ماسة (٢) . ومن قرأ الاخبار تبين صحة ما قلناه .

والافساد في الارض : العمل فيها بما نهى الله عنه ، وتضييع ما أمر الله بحفظه كما قال تعالى حاكياً عن الملائكة : (أتجعل فيها من يفسد فيها) ؟(٣) يعنون من يعصيك ، ويخالف امرك ، وهذه صفة المنافقين .

والأرض : هي المستقر للحيوان ، ويقال لقوائم البعير : أرض ، وكذلك

«١» في الطبعة الايرانية : ثم ذكروه ولعل الصحيح ما ذكرنا

«٢» في الطبعة الايرانية (ماسة) ضرب عليها ولعل وجودها اصح

«٣» سورة البقرة : آية ٣٠

الفرس ان قوي . والارض : الرعـدة ، وقال ابن عبـاس : ما أدري إذاً زلزلت الأرض ام بي أرض ؟ أي رعدة ، والأرضة : دويبة تأكل الخشب .

والصلاح : استقامة الحال ، فالاصلاح : جعل الحال على الاستقامة .والاصطلاح الاجتماع . والتصالح : التمالي على الصلاح ، ومنه المصالحة والاستصلاح ، والصالح : المستقيم الحال ، والمصلح : المقوم للشيء على الاستقامة .

قوله تعالى :

أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ . آية

التفسير :

ألا : فيها تنبيه ، ومعناها لاستفتاح الكلام ، ومثله : ألا ترى ؟ أما تسمع ؟ وأصلها (لا) دخل عليها ألف الاستفهام والألف اذا دخل على الجحد أخرجه الى الايجاب نحو قوله : (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) ؟ لأنه لا يجوز للعجيب إلا الاقرار ببلى .

والهاء والميم في موضع النصب بأن . وهم فصل عنـد البصريين ويسميه الكوفيون عمادا . وقوله [لا يشعرون] قـد فسرناه [١] وفيها دلالة على من قال: بان الكفار معاندون عالمون بخطاياهم وان المعرفة ضرورة ووصفهم بانهم [هم المفسدون] لا يمنع من وصف غيرهم بانه مفسد ، لأن ذلك دليل الخطاب

وحكي عن ابن عباس: أن معنى قوله [انما نحن مصلحون] انما يريد الأصلاح بين الفريقين من المؤمنين واهل الكتاب وحكي عن مجاهد انهم اذا ركبوا معصية الله ، قيل لهم : لا تفعلوا هذا . قالوا : إنما نحن مصلحون أي : انما نحن على الهدى وكلا الأمرين محتمل لأنها جميعاً عندهم أنه إصلاح في الدين وإن كان ذلك إفساداً عنـد الله ، ومن حيث أنه خلاف لما أمرهم به ، وإنما جاز تكليف ما لا يشعر أنه على ظلال ، لأن له طريقاً الى العلم .

« ١ » في قوله : « يخادعون الله . . » تتمة الآية

قوله تعالى :

وإذا قِيلَ لَهُمْ آمِنوا كما آمنَ النَّاسُ ، قالُوا أنؤْمنُ كما آمنَ السُّفهاءُ أَلا إنهم هُمُ السفهاءُ ولكنْ لا يَعلمُونَ . آية

قرأ ابن عامر وأهل الكوفة بتحقيق الهمزتين ، وكذلك كل همزتين مختلفتين من كلمتين . الباقون بتخفيف الأولى وتليين الثانية .

المعنى :

المعنيّ بهذه الآية هم الذين وصفهم تعالى بانهم يقولون : « آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين »

والمعنى إذا قيل لهم آمنوا بمحمد (ص) وبما جاء من عند الله ، كما آمن به الناس يعني المؤمنين حقاً ، لأن الألف واللام ليسا فيه للاستغراق ، بل دخلا للعهد ، فكأنه قيل : آمنوا كما آمن الناس الذين تعرفونهم باليقين والتصديق بالله ونبيه ـ صلى الله عليه وآله ـ وبما جاء به من عند الله .

والألف في قوله : (أنؤمن) ألف إنكار ، وأصلها الاستفهام ، ومثله (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) «١» وكقول القائل : أأضيع ديني وأثلم مروّتي ؟ وكل هذا جواب ، لكن قد وضع السؤال فيه وضعاً فاسداً ، لوصفهم ان الذين دعوا إليهم سفهاء .

وموضع (إذا) نصب ، وتقديره : قالوا إذا قيل لهم ذلك انؤمن ، فالعامل فيه قالوا .

والسفهاء جميع سفيه ، مثل : علماء وعليم ، وحكماء وحكيم،والسفيه : الضعيف الرأي الجاهل القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضار ولذلك سمى الله الصبيان سفهاء بقوله : (لا تؤتوا السفهاء اموالكم) (٢)فقال عامه اهل التأويل هم النساء والصبيان لضعف آرائهم وأصل السفه : خفة الحلم وكثرة الجهل . يقال : ثوب سفيه اذا

«١» سورة يس : آية ٤٧ . «٢» سورة النساء : آية ٤

كان رقيقاً بالياً . وسفهته الريح : اذا طيرته كل مطير . وفي اخبارنا أن شارب الخمر سفيه فأمر الله تعالى أن يؤمنوا كما آمن المؤمنين المستبصرون فقالوا : أنؤمن كما آمن الجهال ،ومن لا رأي له ومن لا عقل له كالصبيان والنساء، فحكم الله عليهم حينئذ بانهم السفهاء باخباره عنهم بذلك. وهو من تقدم ذكره من المنافقين .

والسفيه إنما سمي مفسداً من حيث انه يفسد من حيث يظن انه يصلح ، ويضيّع من حيث يرى أنه يحفظ وكذلك المنافق يعصي ربه من حيث يظن انه يطيع ويكفر به من حيث يظن أنه يؤمن به . والألف واللام في السفهاء للعهد كما قلناه في الناس .

وهذه الآية ايضاً فيها دلالة على من قال : إن الكافر لا يكون إلا معانداً، لأنه قال : (ولكن لا يعلمون) .

قوله تعالى:

وإذا لقُوا الَّذِين آمنُوا قَالُوا آمنَّا وإذا خَلَوْا الى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إنا مَعَكُمْ إنما نحْنُ مُستَهزِئُونَ ـ آية.

القراءة

قرىء في الشواذ واذا لاقوا الذين . قرأها اليماني . وفي القراء من همز « مستهزئون»، ومنهم من ترك الهمزة .

المعنى:

حكي عن ابن عباس أنه قال : هذه في صفة المنافقين فكان الواحد منهم اذا لقي اصحاب النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ قال إنا معكم ـ أي على دينكم ـ وإذا خلوا الى شياطينهم ـ يعني اصحابهم ـ قالوا انما نحن مستهزئون ـ يعني نسخر منهم يقال خلوت اليه ، وخلوت معه . ويقال خلوت به على ضربين : احدهما ـ بمعنى خلوت معه ، والآخر ـ بمعنى سخرت منه . وخلوت اليه في قضاء الحاجة لا غير. وخلوت به له معنيان : احدهما ـ هذا ، والآخر ـ سخرت منه . قال الأخفش:

وقد تكون « الى » في موضع الباء ، « وعلى » في موضع عن ، وانشد :

اذا رضيت عليّ بنو قشير   لعمر الله أعجبني رضاها

فعلى هذا يحتمل أن تكون الآية : (خلوا مع . .) وقال الرماني : الفرق بين اللقاء والاجتماع ، أن اللقاء لا يكون إلا على وجه المجاورة ، والاجتماع قد يكون كاجتماع العرضين في محل . وقد بينا معنى الشيطان فيما مضى (١) معكم (ومعكم) ـ بفتح العين وسكونها ـ لغتان .

وترك الهمزة في (مستهزئون) لغة قريش ، وعامة غطفان . وكنانة بعضها يجعلها بمنزلة (يستقصون ، ويستعدون) بحذفها . وبعض بني تميم وقيس يشيرون الى الزاء بالرفع ، بين الرفع والكسر ، وهذيل ، وكثير من تميم يخففون الهمزة

وقال بعض الكوفيين : إن معنى (إذا خلوا) : إذا انصرفوا خالين ، فلأجل ذلك قال : الى شياطينهم . على المعنى ، وهو مليح ، وقيل : إن شياطينهم : رؤساؤهم وقيل : أريد بهم أصحابهم من الكفار . وروي عن أبي جعفر عليه السلام : أنهم كهانهم .

والاستهزاء : طلب الهزء بايهام أمر ليس له حقيقة في من يظن فيه الغفلة . والهزء : ضد الجد يقال هزىء به هزء والتهزي : طلب الهزء : بالشيء ، وغرضهم كان بالاستهزاء مع علمهم بقبحه حقن دمائهم باظهار الايمان واذا خلوا الى شياطينهم كشفوا ما في نفوسهم

قوله تعالى :

اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ـ آية

الاعراب :

الله : رفع بالابتداء وخبره : يستهزىء بهم

«١» مر في الاستعاذة .

المعنى :

والله تعالى لا يجوز عليه حقيقة الاستهزاء لأنها السخرية على ما بيناه ومعناها من الله هو الجزاء عليها وقد يسمى الشيء باسم جزائه ، كما يسمى الجزاء باسم ما يستحق به كما قال تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) «١» وقال : (ومكروا ومكر الله) «٢» وقال : (وان عاقبتم فعاقبوا) «٣» والأول ليس بعقوبة والعرب تقول : الجزاء بالجزاء · والأول ليس بجزاء (والبيت الاول شاهد بذلك) (؟)وقيل إن استهزاءهم لما رجع عليهم جاز أن يقول عقيب ذلك : (الله يستهزىء بهم) يراد به ان استهزاءهم لم يضر سواهم وانه (دبر) [٤] عليهم واهلكهم · يقول القائل : أراد فلان أن يخدعني فخدعته : أي دبر علي امراً فرجع ضرره عليه · وحكي عن بعض من تقدم أنه قال اذا تخادع لك انسان ليخدعك فقد خدعته

وقيل ايضاً : إن الاستهزاء من الله : الاملاء الذي يظنونه إغفالا وقيل : إنه لما كان ما اظهره من اجراء حكم الاسلام عليهم في الدنيا بخلاف ما أجراه عليهم في الآخرة من العقاب وكانوا فيه على اغترار به كان كالاستهزاء وروي في الاخبار أنه يفتح لهم باب جهنم ، فيظنون أنهم يخرجون منها ، فيزدحمون للخروج ، فاذا انتهوا الى الباب ، ردتهم الملائكة حتى يرجعوا ، فهذا نوع من العقاب ، وكان الاستهزاء ، كما قال الله تعالى : (كلما أرادوا أن يخرجوا فيها من غم اعيدوا فيها) «٥»

وقوله (يمدهم) حكي عن ابن عباس وابن مسعود أنهما قالا : معناه يملي لهم بأن يطوّل أعمارهم ، وقال مجاهد : يزيدهم وقال بعض النحويين يمدهم كما يقولون نلعب الكعاب : أي بالكعاب . وحكي أن مد وأمدّ لغتان ، وقيل مددت له وأمددت له يقال مد البحر فهو ماد ، وأمد الجرح فهو ممد قال الجرمي : ما كان من الشر فهو

«١» سورة الشورى : آية : ٤٠

«٢» سورة آل عمران : آية ٥٤ . «٣» سورة النحل : آية ١٢٦ .

« ؟ »

«٤» في الطبعة الايرانية (دمر) بدل « دبر » وما ذكر في المتن هو الصحيح بقرينة ما يأتي من قوله : « . . دبر علي أمراً » «٥» سورة الحج : آية ٢٢

مددت وما كان من الخير فهو أمددت ، فعلى هذا ، إن اراد تركهم ، فهو من مددت واذا أراد اعطاءهم يقال أمدهم ، وقرىء في الشواذ : ويمدهم — بضم الياء. وقال بعض الكوفيين كل زيادة حدثت في الشيء من نفسه ، فهو مددت — بغير ألف — كما يقولون مد النهر ومده نهر آخر ، فصار منه اذا اتصل به ، وكل زيادة حدثت في الشيء من غيره فهو أمددت — بألف — كما يقال أمد الجرح لأن المدة «١» من غير الجرح ، وأمددت الجيش .

واقوى الاقوال أن يكون المراد به نمدهم على وجه الاملاء والترك لهم في خيرهم ، كما قال : « انما نملي لهم ليزدادوا إثما) «٢» ، وكما قال : (ويمدهم في طغيانهم يعمهون) يعني يتركهم فيه . والطغيان : العملان من قولك طغى فلان يطغى طغياناً ، اذا تجاوز حده ، ومنه قوله : (كلا إن الانسان ليطغى) «٣» أي يتجاوز حده ، والطاغية : الجبار العنيد ، وقال أمية بن أبي الصلت :

ودعا الله دعوة لات هنا بعد طغيانه فظل «٤» مشيرا

يعني لا هنا . ومعناه في الآية : في كفرهم يترددون . والعمه : التحير . يقال : عمه يعمه عمها فهو عمه وعامه : أي حائر عن الحق ، قال رؤبة :

ومهمه اطرافه في مهمه أعمى الهدى بالجائرين «٥» العُمه

جمع عامه ، فان قيل : كيف يخبر الله أنه يمدهم في طغيانهم يعمهون ، وانتم تقولون : إنما أبقاهم ليؤمنوا لا ليكفروا ، وانه أراد منهم الايمان دون الكفر ؟ قيل معناه : أنه يتركهم وما هم فيه لا يحول بينهم وبين ما يفعلونه ، ولا يفعل بهم

«١» المدة : ما يجتمع في الجرح من القيح .

«٢» سورة آل عمران : آية ١٧٨ .

«٣» سورة العلق : آية ٦

«٤» في الطبعة الايرانية « فصار » بدل فظل ، والبيت في ديوان امية . و « لات هنا » كلمة تدور في كلامهم يريدون بها : « ليس هذا حين ذلك » و « هنا » مفتوحة الهاء مشددة النون مثل « هنا » مضمومة الهاء مخففة النون .

«٥» الصحيح ما ذكرنا وفي الطبعة الايرانية « فالحائرين » وفي تفسير الطبري نقلا عن ديوان رؤبة بالجاهلين .

من الألطاف التي يؤتيها المؤمنين ، فيكون ذلك عقوبة لهم واستصلاحاً . ونظير ذلك قول القائل لأخيه ، اذا هجره أخوه متجنياً عليه ، اذا استعتبه فلم يراجعه : سأمد لك في الهجران مداً يريد سأتركك وما صرت اليه تركا ينبهك على قبح فعلك لا أنه يريد بذلك أن يهجره أخوه ، ولكن على وجه الغضب والاستصلاح والتنبيه

قوله تعالى

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . آية

القراءة :

ضم جميع القراء الواو من (اشتروا الضلالة) وروى السوخردي عن زيد ابن اسماعيل بتخفيف ضمة الواو ، وكذلك نظائره ، نحو : (لتبلون) ، (فتمنوا الموت) . وروى عن يحيى بن يعمر في الشواذ أنه كسرها ، شبهها بواو : (لو) في قوله : (لو استطعنا لخرجنا) «١» وضم يحيى بن وثاب واو (لووا) وفيما ذكرناه شبهها بواو الجمع ، والصحيح ما عليه القراء ، لأن الواو في الآية ونظائرها واو الجمع فحركت بالحركة التي من جنسها لالتقاء الساكنين .

المعنى :

وهذه الآية الاشارة بها الى من تقدم ذكره من المنافقين ، وقال ابن عباس اشتروا الكفر بالايمان ، وقال قتادة : استحبوا الضلالة على الهدى ، وقال ابن مسعود : اخذوا الضلالة وتركوا الهدى ، وقال مجاهد آمنوا ثم كفروا . وهذه الأقوال متقاربة المعاني . فان قيل كيف اشتروا هؤلاء القوم الضلالة بالهدى ، وانما كانوا منافقين لم يتقدم نفاقهم ايمان ؟ فيقال فيهم باعوا ما كانوا عليه بضلالتهم التي استبدلوها منه ، والمفهوم من الشراء اعتياض شيء ببذل شيء مكانه عوضاً منه ، وهؤلاء ما كانوا قط على الهدى .

«١» سورة التوبة : آية ٤٣

قلنا : من قال : بان الآية مخصوصة بمن كفر بعد إيمانه . فقد تخلص من هذا السؤال ، غير أن هذا لا يصح عندنا ، من أن من آمن بالله لا يجوز أن يكفر . وان حملنا على اظهار الايمان ، لم يكن في الآية توبيخ ، ولا ذم . والآية تتضمن التوبيخ على ما هم عليه ، لأنها اشارة الى ما تقدم وتلك صفات المنافقين . والجواب عن ذلك ان نقول : إن من ارتكب الضلالة وترك الهدى ، جاز ان يقال ذلك فيه ويكون معناه : كان الهدى الذي تركه هو الثمن الذي جعله عوضاً عن الضلالة التي أخذها فيكون المشتري أخذ المشترى مكان الثمن المشترى به كما قال الشاعر :

أخذت بالجمة رأساً أزعرا وبالثنايا الواضحات الدردرا
وبالطويل العمر عمراً جيدرا كما اشترى المسلم اذ تنصرا «١»

ومنهم من قال : استحبوا الضلالة على الهدى انما قال ذلك لقوله تعالى: (واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) «٢» فحمل هذه الآية عليه . ومن حملها على انهم اختاروا الضلالة على الهدى . فان ذلك مستعمل في اللغة يقولون اشتريت كذا على كذا . واشتريته يعنون اخترته . قال اعشى بني ثعلبة .

فقد اخرج الكاعب المسترا «٣» ة من خدرها واشيع القمارا

يعني : المختارة . قال ذو الرمة في معنى الاختيار :

يذب القصايا عن شراة كأنها جماهير تحت المدجنات الهواضب «٤»

وقال آخر :

«١» زعر الشعر فهو زعر وازعر : قل وتفرق .
الدردر : مغارز اسنان الصبي، أوهي قبل نباتها وبعد سقوطها . الجيدر : القصير والمراد قصير العمر
«٢» سورة حم السجدة: آية ١٧.
«٣» في الطبعة الايرانية « المشتراة » وكذلك في مخطوطة تفسير الطبري اما في ديوانه ٣٥ وطبقات فحول الشعراء ٣٦ واللسان « سرا » فكما ذكرنا.
«٤» ديوانه . يذب : يدفع ويطرد . والقصايا : وهي من الابل رذالتها ضعفت فتخلفت . وجماهير جمهور : وهو رملة مشرفة على ما حولها . والهواضب : التي دام مطرها . والمدجنات من سحابة داجنة : أي كثيفة .

إن الشراة روقة الأموال وحزرة القلب خيار المال «١»

والأول أقوى لقوله : (فما ربحت تجارتهم) فبين ان ذلك بمعنى الشراء والبيع الذي يتعارفه الناس . والربح — وان اضافه الى التجارة — فالمراد به التاجر لأنهم يقولون ربح : بيعك وخسر بيعك وذلك يحسن في البيع والتجارة ، لأن الربح والخسران يكون فيها . ومتى التبس فلا يجوز إطلاقه . لا يقال : ربح عبدك اذا أراد ربح في عبده ، لأن العبد نفسه قد يربح ويخسر . فلما أوهم لم يطلق ذلك فيه .

وقيل : إن المراد ، فما ربحوا في تجارتهم . كما يقال : خاب سعيك : أي خبت في سعيك . وإنما قال ذلك لأن المنافقين بشرائهم الضلالة خسروا ولم يربحوا ، لأن الرابح من استبدل سلعة بما هو أرفع منها . فاما اذا استبدلها بما هو أدون منها فانما يقال خسر فلما كان المنافق استبدل بالهدى الضلالة وبالرشاد الخيبة عاجلا وفي الآخرة الثواب بالعقاب كان خاسراً غير رابح . وانما قال : « وما كانوا مهتدين » ، لأنه يخسر التاجر ولا يربح ويكون على هدى . فأراد الله تعالى أن ينفي عنهم الربح والهداية فقال : « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » باستبدالهم الكفر بالايمان ، واشترائهم النفاق بالتصديق ، والاقرار بها . فان قيل : لم قال : فما ربحت تجارتهم في موضع ذهبت رؤوس اموالهم ؟ قيل : لأنه قد ذكر الضلالة بالهدى ، فكأنه قال : طلبوا الربح فما ربحوا ، لما هلكوا . وفيه معنى ذهبت رؤوس اموالهم ويحتمل ان يكون ذلك على وجه التقابل : وهو ان الذين اشتروا الضلالة بالهدى لم يربحوا ، كما ان الذين اشتروا الهدى بالضلالة ، ربحوا . قوله تعالى :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . آية .

اللغة :

إن قيل : كيف قال : (مثلهم) ، أضاف المثل الى الجمع ، ثم شبهه بالواحد في

«١» في الطبعة الايرانية : « الشراء » بدل « الشراة » وحوزة بدل « حزرة » والصحيح ما ذكرنا كما عن اللسان في مادة « حزر » وروقة الناس : خيارهم .وحزرة نفسي : خير ما عندي .

قوله : « كمثل الذي استوقد ناراً» ، هلاّ قال كمثل الذين استوقدوا نارا ، يكني به عن جماعة من الرجال ، والنساء ، والصبيان . والذي لا يعبر به إلاعن واحد مذكر ولو جاز ذلك ، لجاز أن يقول القائل : كأن أجسام هؤلاء — ويشير الى جماعة عظيمي القامة - نخلة . وقد علمنا أن ذلك لا يجوز ؟ قلنا : في الموضع الذي جعله مثلا لأفعالهم جائز حسن وله نظائر كقوله : « تدور اعينهم كالذي يغشى عليه من الموت » «١» . والمعنى : كدور أعين الذي يغشى عليه من الموت وكقوله « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » «٢» ومعناه إلا كبعث نفس واحدة لأن التمثيل وقع للفعل بالفعل وأما في تمثيل الأجسام لجماعة من الرجال في تمام الخلق والطول بالواحد من النخيل ، فغير جائز ، ولا في نظائره .

التفسير :

والفرق بينهما ، أن معنى الآية ، أن مثل استضاءة المنافقين بما أظهروا من الاقرار بالله ، وبمحمد صلى الله عليه وآله ، وبما جاء به قولا — وهم به مكذبون اعتقاداً — كمثل استضاءة الموقد ، ثم اسقط ذكر الاستضاءة ، واضاف المثل اليهم كما قال الشاعر وهو نابغة جعدة :

وكيف تواصل من اصبحت   خلالته كأبي مرحب «٣»

أي كخلالة أبي مرحب . واسقط لدلالة الكلام عليه وأما إذا أراد تشبيه الجماعة من بني آدم وأعيان ذوي الصور والاجسام بشيء فالصواب أن يشبه الجماعة بالجماعة ، والواحد بالواحد ، لأن عين كل واحد منهم غير اعيان الآخر كما قال تعالى : « كأنهم خشب مسندة » «٤» وقال : « كأنهم اعجاز نخل خاوية » «٥»

«١» سورة الاحزاب آية ١٩ .

«٢» سورة لقمان آية ٢٨ .

«٣» الخلة والخلالة الصداقة التي ليس فيها خلل . وابو مرحب كناية عن الظل . يريد أنها تزول كما يزول الظل لا تبقى له مودة .

«٤» سورة المنافقون : آية ٤ .

«٥» سورة القمر آية ٢٠ .

واراد جنس النخل ومثل قوله : ما افعالكم إلا كفعل الكلاب ثم يحذف الفعل فيقال : ما افعالكم إلا كالكلاب .

وقيل : إن « الذي » بمعنى الذين كقوله : « والذى جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون » «١» وقال الشاعر :

وان الذي حانت بفلج دماؤهم   هم القوم كل القوم ياام خالد

وانما جاز ذلك ، لأن الذين منهم يحتمل الوجوه المختلفة وضعف هذا الوجه من حيث ان في الآية الثانية وفي البيت دلالة على انه اريد به الجمع . وليس ذلك في الآية التي نحن فيها . وقيل فيه وجه ثالث وهو ان التقدير : مثلهم كمثل اتباع الذي استوقد ناراً وكما قال : (واسأل القرية) «٢» وانما اراد اهلها . وفي الآية حذف (طفئت عليهم النار)

وقوله : (استوقد ناراً) معناه : اوقد ناراً كما يقال استجاب بمعنى اجاب قال الشاعر :

وداع دعا يامن يجيب الى الندى   فلم يستجبه عند ذاك مجيب

يريد : فلم يجبه

الوَقود : الحطب . والوُقود : مصدر وقدت النار وقودا . والاستيقاد : طلب الوقود . والايقاد : ايقاد النار . والتوقد : التوهج . والايقاد : التهاب النار . وزند ميقاد : سريع الوري . وقلب وقاد : سريع الذكاء والنشاط . وكل شيء يتلألأ فهو يتقد . وفي الحجر نار لا تقد ، لأنها لا تقبل الاحتراق والوقود : ظهور النار فيما يقبل الاحتراق .

وأصل النار النور . نار الشيء اذا ظهر نوره . وانار : اظهر نوره . واستنار : طلب اظهار نوره . والمنار : العلامات . والنار : السمت . وضاءت النار : ظهر ضوؤها وكل ما وضح فقد اضاء . واضاء القمر الدار : كقوله : اضاءت ما حوله . قال الشاعر :

«١» سورة الزمر : آية ٣٣ .

«٢» سورة يوسف : آية ٨٢ .

اضاءت لهم احسابهم ووجوههم   دجى الليل حتى نظّم الدر ثاقبه «١»

وقوله : [حوله] مأخوذ من الحول وهو الانقلاب . يقال حال الحول : اذا انقلب الى أول السنة وأحال في كلامه اذا صرفه عن وجهه وحوّله عن المكان : أي نقله الى مكان آخر : وتحول : تنقل واحتال عليه وحاوله طالبه بالانقلاب الى مراده والحَول بالعين ـ بالفتح ـ والحِول ـ بالكسر ـ الانقلاب عن الأمر ومنه قوله « لا يبغون عنها حولا » «٢» والحوالة انقلاب الحق عن شخص الى غيره والمحالة : البكرة . والحيلة : إيهام الأمر للخديعة . وحال بينه وبينه : مانع والحائل : الناقة التي انقطع حملها . والحائل : العير . وحوله الصبا : أي دايرته

ذهب به واذهبه : أي أهلكه ، لا ذهابه الى مكان يعرف ، ومنه (ذهب الله بنورهم) . والمذهب : الطريقة في الأمر . والذّهبه : المطرة الجود . وقوله : (وتركهم في ظلمات) : أي أذهب النور بالظلمات . وتاركه متاركة وتتاركوا : تقابلوا في الترك . واترك اتراكا : اعتمد الترك . والتركة والتريكة : بيضة النعام المنفردة لتركها وحدها .

والظلمات : جمع الظلمة ، واصلها انتقاص الحق من قوله : ولم تظلم منه شيئاً أي لم تنقص . واظلم الجواد احتمل انتقاص الحق لكرمه ، ومن أشبه أباه فما ظلم أي ما انتقص حق الشبه . وظلمت الناقة : اذا نحرت من غير علة .

والظلم : ماء الأسنان من اللون لا من الريق . والظلم : الثلج . وقوله : (في ظلمات لا يبصرون) . قال ابن عباس : إنهم يبصرون الحق ويقولون به حتى اذا خرجوا من ظلمة الكفر ، أطفأوه بكفرهم به ، فتركهم في ظلمات الكفر ، فهم لا يبصرون هدى ، ولا يستقيمون على حق ، وروي عنه أيضاً أنه قال : هذا مثل ضربه الله تعالى المنافقين ، أنهم كانوا يعتزون بالاسلام ، فيناكحهم «٣» المسلمون

«١» وفي رواية « الجزع » بدل « الدر » .

«٢» سورة الكهف : آية ١٠٩

«٣» في الطبعة الايرانية ، بصيغة الماضي والظاهر من السياق ان الصيغة ما ذكرنا

ويولدونهم ، ويقاسمونهم الفيء ، فلما ماتوا ، سلبهم الله ذلك العز ، كما سلب صاحب النار ضوءه ، وتركهم في عـذاب ، وهو أحسن الوجوه . وقال أبو مسلم : معناه أنه لا نور لهم في الآخرة ؛ وإن ما أظهروه في الدنيا ، يضمحل سريعاً كاضمحلال هذه اللمعة . وحال من يقع في الظلمة بعد الضياء اشق في الحـيرة ، فكذلك حال المنافقين في حيرتهم بعد اهتـدائهم ، ويزيد استضرارهم على استضرار من طفئت ناره بسوء العاقبة . وروي عن ابن مسعود وغـيره أن ذلك في قوم كانوا اظهروا الاسلام ، ثم أظهروا النفاق ، فكان النور الايمان ، والظلمة نفاقهم . وقيـل فيها وجوه تقارب ما قلناه

وتقدر بعد قوله : (فلما اضاءت ما حوله) (انطفأت) لدلالة الكلام عليها كما قال ابو ذؤيب الهذلي :

دعاني اليها القلب إني لأمره　　مطيع فما ادري ارشد طلابها ؟ «٢»

وتقديره ، ارشد طلابها ام غي ؟

وقال الفراء يقـال ضاء القمر يضوء ، واضاء يضيء ، لغتان وهو الضوء والضوء ـ بفتح الضاد وضمها ـ وقد اظلم الليل ، وظَلِم ـ بفتح الظاء وكسر اللام ـ وظلمات على وزن غرفات ، وحجرات ، وخطوات ، فاهل الحجاز وبنو اسد يثقلون وتميم وبعض قيس يخففون والكسائي يشمّ الهاء الرفع بعد نصب اللام في قوله (حوله) ، و (نجمع عظامه) في حال الوقف الباقون لا يشمون وهو احسن

قوله تعالى

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ . آية بلا خلاف

التفسير واللغة :

قال قتـادة « صم » لا يسمعون الحق « بكم » لا ينطقون به « عمي »

«١» وفي ديوان الهذليين : ٧١ « عصاني اليها القلب » والروايتان صحيحتان

لا يرجعون عن ضلالتهم صم رفع على انه خبر ابتداء محذوف، وتقديره هؤلاء الذين ذكرناهم في القصة : صم بكم عمي والأصم هو الذي ولد كذلك وكذلك الأبكم هو الذي ولد أخرس . ويقال الأبكم : المسلوب الفؤاد . ويجوز أن يجمع أصم : صمان : مثل اسود وسودان . واصل الصم : السد ، فمنه الصم : سد الأذن بما لا يقع معه سمع وقناة صماء : كبيرة الجوف صلبة ، لسد جوفها بامتلائها . وفلان أصم ، لسد خروق مسامعه عن ادراك الصوت . وحجر أصم ، أي صلب . وفتنة صماء : أي شديدة . والتصميم : المضي في الأمر . والصمام : ما يشد به رأس القارورة ، لسده رأسها . والفعل : أصمها .والصميم : العظم الذي هو قوام العضو ، لسد الخلل به وأصل البكم : الخرس . وقيل هو الذي يولد أخرس وبكم عن الكلام : اذا امتنع منه جهلا أو تعمداً كالخرس والأبكم : الذي لا يفصح ، لأنه كالخرس

واصل العمى :ذهاب الادراك بالعين والعمى في القلب كالعمى في العين بآفة تمنع من الفهم واعماه : إذا اوجد في عينيه عمىً .وعمّي الكتاب تعمية ، وتعامى عن الأمر تعامياً وتعمى الأمر : تطمس كأن به عمى وما اعماه : من عمى القلب ، ولا يقال ذلك من الجارحة . والعماية : الغواية . والعماء : السحاب الكثيف المطبق .

والرجوع: مصدر رجع يرجع رجوعا ، ورجعه رجعا . والارتجاع :اجتلاب الرجوع . والاسترجاع : طلب الرجوع . وتراجع : تحامل . وترجع : تعمد للرجوع ورجّع : كثر في الرجوع . ورجع الجواب : رده . والمرجوعة : جواب الرسالة . والرجع : المطر ، ومنه قوله : (والسماء ذات الرّجْع) «١» والرجع : نبت الربيع والرجوع عن الشيء بخلاف الرجوع اليه

والمعنى : إنهم صم عن الحق لا يعرفونه ، لأنهم كانوا يسمعون بآذانهم ، وبكم عن الحق لا ينطقون مع ان ألسنتهم صحيحة ، عمي لا يعرفون الحق واعينهم صحيحة ، كما قال : (وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) . (فهم لا يرجعون) ويحتمل امرين :

«١» سورة الطارق آية ١١.

أحدها — ما روي عن ابن عباس ، أنه على الذم والاستبطاء .

والثاني — ما روي عن ابن مسعود ، انهم لا يرجعون الى الاسلام . وقال قوم : إنهم لا يرجعون عن شراء الضلالة بالهدى . وهو أليق بما تقدم وهذا يدل على أن قوله : « ختم الله على قلوبهم » وطبع الله عليها ، ليس هو على وجه الحيلولة بينهم وبين الايمان ، لأنه وصفهم بالصم والبكم ، والعمى مع صحة حواسهم . وانما أخبر بذلك عن إلفهم الكفر واستثقالهم للحق والايمان كأنهم ما سمعوه ولا رأوه فلذلك قال : « طبع الله على قلوبهم » « وأضلهم » « وأصمهم » « وأعمى أبصارهم » « وجعل على قلوبهم أكنة » « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وكان ذلك إخباراً عما أحدثوه عند امتحان الله إياهم وأمره لهم بالطاعه والايمان لأنه ما فعل بهم ما منعهم من الايمان . وقد يقول الرجل : حب المال قد اعمى فلاناً واصمه ولا يريد بذلك نفي حاسته لكنه اذا شغله عن الحقوق والقيام بما يجب عليه قيل : اصمه واعماه وكما قيل في المثل : حبك للشيء يعمي ويصم — ويريدون به ما قلناه — وقال مسكين الدارمي :

اعمى اذا ما جارتي خرجت حتى يواري جارتي الخدر
ويصم عما كان بينهما سمعي وما بي غيره وقر (١)

وقال آخر : اصم عما ساءه سميع . فجمع الوصفين . وانما جاز (صم وبكم) بعد وصف حالهم في الآخرة كما في قوله : (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) لامرين:

احدها — ان المعتمد من الكلام على ضرب المثل لهم في الدنيا في الانتفاع باظهار الايمان .

الثاني إنه اعتراض بين مثلين بما يحقق حالهم فيها على سائر امرها . وقيل إن معناه : التقديم والتأخير

---

(١) في الطبعة الايرانية بدل « يصم » « تصم » وبدل : « سمعي » « أذني » وبدل « بي » « في » وبدل « غيره » « سمعها » والبيتان في « معجم الادباء ١١ : ١٣٢ »

قوله تعالى :

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ .

اللغة والتفسير :

الصيب على فيعل من صاب يصوب ، وأصله صَيوِبْ ، لكن استقبلتها ياء ساكنة فقلبت الواو ياء وأدغمتا ، كما قيل : سيد من ساد يسود ، وجيد من جاد يجود ، قياساً مطرداً . والصيب المطر . وكل نازل من علو الى أسفل يقال فيه صاب يصوب . قال الشاعر :

كأنهم صابت عليهم سحابة   صواعقها لطيرهن دبيب «١»

وقال عبيد بن الأبرص :

حيٌّ عفاها صيب رعده   داني النواحي مغدق وابل

وهذا مثل ضربه الله للمنافقين ، كان المعنى : أو كاصحاب صيب . فجعل كفر الاسلام لهم مثلا فيما ينالهم فيه من الشدائد ، والخوف . وما يستضيئون به من البرق مثلا لما يستضيئون به من الاسلام . وما ينالهم من الخوف في البرق بمنزلة ما يخافونه من القتل بدلالة قوله : (يحسبون كل صيحة عليهم) «٢» وقال ابن عباس : الصيب القطر . وقال عطا : هو المطر . وبه قال ابن مسعود ، وجماعة من الصحابة . وبه قال قتادة . وقال مجاهد : الصيب : الربيع .

وتأويل الآية : مثل استضاءة المنافقين بضوء إقرارهم بالاسلام مع استسرارهم الكفر كمثل مُوقِد نار ، يستضيء بضوء ناره ، أو كمثل مطر مظلم ودقه يجري من السماء ، تحمله مزنة ظلماء في ليلة مظلمة . فان قيل : فان كان المثلان للمنافقين

«١» في الطبعة الايرانية (يطرهن) بدل (لطيرهن) والبيت لعلقمة بن عبدة ، والبيت في ديوانه وفي شرح المفضليات «٢» سورة المنافقون : آية ٤

فلِمَ قال : (أو كصيب) وأو لا تكون إلا للشك وان كان مثلهم واحداً منها ، فما وجه ذكر الآخر بأو وهي موضوعه للشك من المخبر عما أخبر به ؟ قيل : إن (أو) قد تستعمل بمعنى الواو كما تستعمل للشك بحسب ما يدل عليه سياق الكلام . قال توبة بن الحمير :

وقد زعمت ليلى باني فاجر لنفسي تقاها أوعليها فجورها

ومعلوم أن توبة لم يقل ذلك على وجه الشك ، وانما وضعها موضع الواو .

وقال جرير :

نال الخلافة أوكانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر

ومثله كثير . قال الزجّاج : معنى(أو) في الآية التخيير ، كأنه قال : إنكم مخيرون بان تمثلوا المنافقين تارة بموقد النار ، وتارة بمن حصل في المطر . يقال : جالس الحسن أو ابن سيرين . أي : انت مخير في مجالسة من شئت منها .

والرعد : قال قوم : هو ملك موكل بالسحاب يسبح . روي ذلك عن مجاهد وابن عباس ، وابي صالح . وهو المروي عن أئمتنا (عليهم السلام) . وقال قوم : هو ريح يختنق تحت السماء . رواه ابو خالد عن ابن عباس . وقال قوم : هو اصطكاك اجرام السحاب . فمن قال انه ملك قدر فيه صوته ، كأنه قال : فيه ظلمات وصوت رعد ، لأنه روي انه يزعق به ، كما يزعق الراعي بغنمه . والصيب اذا كان مطراً . والرعد إذا كان صوت ملك ، كان يجب أن يكون الصوت في المطر ، لأنه قال (فيه) والهاء راجعة اليه ، والمعلوم خلافه ، لأن الصوت في السحاب والمطر في الجو الى أن ينزل . ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن يقال : لا يمتنع أن يحل الصوت المطرحين انفصاله من السحاب ، ولا مانع يمنع منه ، ويحتمل أن يكون المراد بفي (مع) ، كأنه قال : معه ظلمات ورعد . وقد بينا جوازه فيما مضى .

واما البرق ، فروي عن علي (عليه السلام) أنه قال : مخاريق الملائكة من حديد ، تضرب بها السحاب ، فتنقدح منها النار . وروي عن ابن عباس : انه سوط من نور ، يزجر به الملك السحاب . وقال قوم : إنه ما رواه ابو خالد عن ابن

عباس . وقال مجاهد : هو مصع ملك . والمصاع : المجالدة بالسيوف وبغيرها . قال أعشى بني ثعلبة ، يصف جواري لعبن بحليهن :

اذا هن نازلن أقرانهن وكان المصاع بما في الجون «١»

يقال منه : ماصعه مصاعا ، والمعاني متقاربة ، لأن قول علي عليه السلام : إنه مخاريق . وقول ابن عباس : إنه سياط يتقاربان . وما قال مجاهد : إنه مصاع قريب ، لأنه لا يمتنع انه أراد مصاع الملك بذلك ، وإزجاره به .

والصواعق جمع صاعقة : وهو الشديد من صوت الرعد ، فتقع منه قطعة نار تحرق ما وقعت فيه . والصاعقة : صيحة العذاب . والصاعاق : الصوت الشديد للثور والحمار صعق صعاقا . والصعق : الموت من صوت الصاعقة . والصعق : الغشي من صوت الصاعقة . صعق فهو صعق . ومنه قوله : (وخر موسى صعقا) «٢» وروي شهر ابن حوشب : ان الملك اذا اشتد غضبه ، طارت النار من فيه ، فهي الصواعق . وقيل : إن الصواعق نار تنقدح من اصطكاك الاجرام . وقريش وغيرهم من الفصحاء يقولون : صاعقة وصواعق ، والقوم يصعقون . وتميم وبعض ربيعة يقولون : صواقع ، والقوم يصقعون .

وفي تأويل الآية ، وتشبيه المثل أقاويل :

روي عن ابن عباس : أنه مثل للقرآن . شبه المطر المنزل من السماء بالقرآن وما فيه الظلمات بما في القرآن من الابتلاء . وما فيه من الرعد بما في القرآن من الزجر . وما فيه من البرق بما فيه من البيان . وما فيه من الصواعق بما في القرآن من الوعيد آجلا ، والدعاء الى الجهاد عاجلا .

والثاني — وقيل : إنه مثل للدنيا وما فيها من الشدة والرخاء ، والبلاء كالصيب الذي يجمع نفعاً وضراً ، فان المنافق يدفع عاجل الضر ، ويطلب آجل النفع .

والثالث — انه مثل القيمة لما يخافونه من وعيد الآخرة ، لشكهم في دينهم

«١» في الطبعة الايرانية (كان) بدل وكان . ما ذكرنا عن ديوانه ١٥

«٢» سورة الاعراف : آية ١٤٢

وما فيه من البرق بما فيــه من إظهار الاسلام ، من حقن دمائهم ، ومناكحتهم ، ومواريثهم . وما فيه من الصواعق بما في الاسلام من الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل .

والرابع — أنه ضرب الصيب مثلا بضرب إيمان المنافق . ومثل ما في الظلمات بضلالته . وما فيه من البرق بنور إيمانه . وما فيه من الصواعق بهلاك نفاقه .

والوجه الأخير اشبه بالظاهر ، وأليق بما تقدم .

وروي عن ابن مسعود ، وجماعــة من الصحابة : أن رجلين من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فاصابهما المطر الذي ذكره الله (فيه رعد شــديد وصواعق وبرق) ، فجعلا كلما اصابتهما الصواعق ، جعلا أصابعهما في آذانهما من الفرق «١» أن تدخل الصواعق فى آذانهما فتقتلهما واذا لمع البرق مشيا في ضوئه ، واذا لم يلمع ، لم يبصرا ، فاقاما في مكانهما لا يمشيان . فجعلا يقولان : ليتنا قـد اصبحنا فنأتي محمداً ، فنضع أيدينا في يده . فاصبحا فاتياه ، وأسلما ، وحسن إسلامهما فضرب الله شأن هذين المنافقين مثلا لمنافقي المدينة ، وأنهم اذا حضروا النبي (ص) ، جعـلوا أصابعهم فرقاً من كلام النبي (ص) أن ينزل فيهم شيء ، كما قام ذانك المنافقان ، يجعلان أصابعهما في آذانهما .

(واذا أضاء لهم مشوا فيه) : يعني اذا كثرت اموالهم ، وأصابوا غنيمة وفتحاً ، مشوا فيه ، وقالوا دين محمد (صلى الله عليه وآله) صحيح .

(واذا أظـلم عليهم قاموا) : يعني اذا أهلكت أموالهــم ، وولد البنات ، واصابهم البلاء ، قالوا : هــذا من أجل دين محمد (ص ، وارتدوا كما قام ذانك المنــافقان اذا أظلم البرق عليهما . ويقوي عندي ، أن هـذا مثل آخر ، ضربه الله بالرعد والبرق لما هم فيــه من الحيرة والالتباس . يقول لا يرجعون الى الحق إلا خلسا كما يلمع البرق ، ثم يعودون الى ضلالهم واصلهم الذي هم عليه ثابتون واليه يرجعون . والكفر كظلمة الليل والمطر الذي يعرض في خلالها البرق لمعاً . وهم في

«١» الفرق : الخوف

اثناء ذلك يحذرون الوعيد والعذاب العاجل إن أظهروا الكفر كما يحذرون الصواعق من الرعد ، فيضعون أصابعهم في آذانهم ارتياعا وانزعاجا في الحال ثم يعودون الى الحيرة والضلال .

(حذر الموت) : نصب على التمييز وتقديره (من حذر الموت) . ويجوز ان يكون نصباً ، لأنه مفعول له فكأنه قال : يفعلون هذا الأجل حذر الموت . ويحتمل أن يكون نصباً على الحال .

والموت : ضد الحياة . والاماتة : فعل بعده الموت . والميتة : مالم تدرك ذكاته . والميتة : الموت في حال مخصوص من ذلك ميتة سوء . والموتان : وقوع الموت في المواشي . وموّتت المواشي : اذا كثر فيها الموت . وموتان الأرض : التي لم تزرع .

والحذر : طلب السلامة من المضرة . وحذّره تحذيرا ، وحاذره محاذرة والحذيرة : المكان الغليظ ، لأنه يتحذر منه .

قوله : (محيط بالكافرين) يحتمل أمرين :

احدها — إنه عالم بهم ـ وإن كان عالماً بغيرهم ـ وإنما خصهم لما فيه من التهديد .

والثاني — إنه المقتدر عليهم ـ وان كان مقتدراً على غيرهم ـ ، لأنه تقدم ذكرهم ، ولما فيه من الوعيد . والمحيط : القادر . قال الشاعر :

أحطنا بهم حتى اذا ما تيقنوا   بما قدروا مالوا جميعاً الى السلم

أي قدرنا عليهم . فاما الاحاطة بمعنى كون الشيء حول الشيء ، مما يحيط به فلايجوز على الله تعالى ، لأنه من صفات الأجسام . والذي يجوز ، الاحاطة بمعنى الاقدار والملك . كما يقال : أحاط ملكك بمال عظيم : يعنون أنه يملك مالا عظيما . ويقال: حاطه يحوطه حوطا : اذا حفظه من سوء يلحقه . ومنه الحائط ، لأنه يحيط بما فيه . واحاط به : جعل عليه كالحائط الدائر . والاحتياط : الاجتهاد في حفظ الشيء .

قوله تعالى:

يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . آية.

المعنى:

معنى (يكاد) : يقارب ، وفيه مبالغة في القرب ، وحذفت منه أن ، لأنها للاستقبال . قال الفرزدق :

يكاد يمسكه عرفان راحتـه ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

(يخطف) فيـه لغتان يقال : خطف يخطف ، وخطِف يخطف . والأول أفصح ، وعليه القراء . وروي عن الحسن (يخطف) ـ بكسر الخاء وكسر الطاء ـ ويروى (يخطف) بكسر الياء والخاء والطاء. والخطف : السلب . ومنه الحـديث ، أنه نهى عن الخطفة : يعني النهبة . ومنه قيل الخطاف : . والذي يخرج به الدلو من البئر (خطاف) ، لاختطافه واستلابه . قال نابغة بني ذبيان :

خطاطيف حجن في حبال متينة تمد بها أيد اليك نوازع «١»

جعل ضوء البرق ،وشدة شعاع نوره ، كضوء إقرارهم بألسنتهم بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ، واليوم الآخر ، ثم قال : (كلما أضاء لهم مشوا فيه) : يعني كلما أضاء البرق لهم . وجعل البرق مثلا لايمانهم . وإضاءة الايمان أن يروا فيـه ما يعجبهم في عاجل دنياهم ، من إصابة الغنائم ، والنصرة على الأعداء فلذلك أضاء لهم ، لأنهم إنما يظهرون بألسنتهم ما يظهرونه من الاقرار ابتغاء ذلك ، ومدافعة عن انفسهم واموالهم ، كما قال : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » «٢» . (واذا أظلم عليهم) : يعني

«١» خطاطيف : ج خطاف .وحجن ج أحجن :وهو المعوج. و نوازع ج نازع و نازعة من قولهم نزع الدلو من البئر ينزعها جذبها أخرجها

«٢» سورة الحج آية ١١

ضوء البرق على السائرين في الصيب الذي ضربه مثلا للمنافقين ، وظلام المنافقين : أن يروا في الاسلام ما لا يعجبهم في دنياهم ، من ابتلاء الله المؤمنين بالضراء ، وتمحيصه اياهم بالشدائد والبلاء من إخفاقهم في مغزاهم ، أو إدالة عدوهم ، أو إدبار دنياهم عنهم ، أقاموا على نفاقهم ، وثبتوا على ضلالهم ، كما ثبت السائر في الصيب الذي ضربه مثلا . (اذا أظلم) وخفت ضوء البرق ، فحار في طريقه ، فلم يعرف منهجه . وقوله : (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) ، انما خص الله تعالى ذكر السمع والبصر ، انه لو شاء ، لذهب بها دون سائر اعضائهم ، لما جرى من ذكرها في الآيتين من قوله : (يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت) ، وفي قوله : (يخطف أبصارهم) فلما جرى ذكرهما على وجه المثل ، عقب بذكر ذلك بانه لو شاء ، اذهبه من المنافقين عقوبة لهم على نفاقهم ، وكفرهم ، كما توعد في قوله : (محيط بالكافرين) . وقوله : « بسمعهم » قد بينا فيما تقدم ، أنه مصدر يدل على الجمع وقيل : إنه واحد موضوع للجمع ، فكأنه أراد « باسماعهم » قال الشاعر :

كلوا في نصف بطنكم تعفوا   فان زمانكم زمن خميص (١)

اراد البطون ويقال : ذهبت به واذهبته وحكي أذهب به ، وهو ضعيف ذكره الزجاج والمعنى : ولو شاء الله لأظهر على كفرهم فدمر عليهم وأهلكهم لأنه) على كل شيء قدير) : أي قادر وفيه مبالغة

قوله تعالى :

يَاأَيها النَّاس اعبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّذين مِنْ قَبلِكُمْ لعلَّكُمْ تتقون . آية

القراءة :

أفصح اللغات فتح الهاء بـ « أيها » وبعض بني مالك من بني اسد رهط شقيق بن سلمة يقولون : ياأيه الناس ويا أيته المرأة وياأيه الرجل .ولا يقرأ بها . ومن

(١) من ابيات سيبويه التي لا يعلم قائلها . سيبويه . الخزانة

رفعها توهمها آخر الحروف وقد حذفت الألف في الكتابة من ثلاثة مواضع : أيه المؤمنون ويا أيه الساحر وأيه الثقلان وسنذكر خلاف القراء في التلفظ بها

النزول :

وروي عن علقمة والحسن : أن كلما في القرآن « ياأيها الذين آمنوا » نزل بالمدينه وما فيه « ياايها الناس » نزل بمكة

واعلم أن « أيا » اسم مبهم ناقص جعل صلة الى نداء ما فيه الألف واللام ويلزمه ها التي للتنبيه لابهامه ونقصه واجاز المازني « يااي الظريف » قياساً على « يازيد الظريف » ولم يجزه غيره لأن « ايا » ناقص والنصب عطفاً على الموضع بالحمل على المعنى ولا يحمل على التأويل إلا بعد التمام وهذا هو الصحيح عندهم

المعنى :

وهذه الآية متوجهة الى جميع الناس : مؤمنهم ، وكافرهم ، لحصول العموم فيها . إلا من ليس بشرائط التكليف من المجانين والأطفال وروي عن ابن عباس أنه قال : قوله « اعبدوا ربكم » : أي وحدوه وقال غيره : ينبغي أن يحمل على عمومه في كل ما هو عبادة لله : من معرفته ، ومعرفة أنبيائه ، والعمل بما أوجبه عليهم وندبهم اليه وهو الأقوى وقوله : « لعلكم تتقون » : أي تتقون عذابه بفعل ما أوجبه عليكم كما قال : « واتقوا النار التي أعدت للكافرين »

الاعراب :

وقوله : « والذين » في موضع نصب لأنه عطف على الكاف والميم في قوله : (خلقكم) وهو مفعول به

(من قبلكم) : اي من تقدم زمانكم من الخلائق والبشر وقال مجاهد : (تتقون) : مطيعون والاول أقوى والخلق : هو الفعل على تقدير وخلق الله السماوات : فعلها على تقدير ما تدعو اليه الحكمة من غير زيارة ولا نقصان ومثله الرزق والخلق : الطبع والخليقة : الطبيعة وخليق به : شبيه به والخلاق : النصيب والاختلاق : افتعال الكذب والخلق : البالي والاخلق : الاملس

ومعنى « لعلكم تتقون » قال الشاعر :

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا   نكف ووثقتم لنا كل موثق
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم   كلمح سراب في الملا متألق (١)

يعني قلتم لنا : كفوا لنكف ، لأنه لو كان شاكا لما كانوا وثقوا كل موثق ويقول القائل : اقبل قولي لعلك ترشد وادخاله « لعل » ترقيق للموعظة وتقريب لها من قلب الموعوظ يقول القائل لأجيره : اعمل لعلك تأخذ الاجرة وليس يريد بذلك الشك وانما يريد لتأخذ اجرتك وقال سيبويه : انما ورد ذلك على شك المخاطبين كما قال تعالى : (فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر او يخشى) واراد بذلك الابهام على موسى وهارون وفائدة ايراد لفظة « لعل » هو ان لا يحل العبد ابداً محل الأمن المدل لكي يزداد حرصاً على العمل وحذراً من تركه واكثر ما جاءت لعل وغيرها من معاني التشكيك فيما يتعلق بالاخرة في دار الدنيا فاذا ذكرت الأخرة مفردة جاء اليقين وهذه الآية يمكن الاستدلال بها على ان الكفار مخاطبون بالعبادات ، لدخولهم تحت الاسم . وقال بعضهم : معنى قوله (لعلكم تتقون) لكي تتقوا النار في ظنكم ورجائكم ، لأنهم لا يعلمون انهم يوقون النار في الآخرة ، لأن ذلك من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله . قال : لعلكم تتقون ذلك في ظنكم ورجائكم واجرى (لعل) على العباد دون نفسه تعالى الله عن ذلك . وهذا قريب مما حكيناه عن سيبويه . و (لعل) في الآية ، يجوز أن تكون متعلقة بالتقوى . ويجوز أن تكون متعلقة بالعبادة في قوله : (اعبدوا) . وهوالاقوى . قوله تعالى :

اَلَّذِي جعلَ لكمُ الارضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بناء وَأنزلَ منَ السَّماءَ مَاء فاخرَجَ به منَ الثمرَات رِزْقاً لكمْ فلا تجْعلوا لله أنداداً وأنتمْ تعلمونَ

آية واحدة .

(الذي) : في موضع نصب ، لأنه نعت لقوله : (ربكم) في قوله : (اعبدوا

(١) قائلها غير معروف ، رواها ابن الشجري في أماليه ١ ـ ١٥ وهناك رواية أخرى ـ

ربكم) وهي مثل الذي قبلها . فانها جميعاً نعتان لـ (ربكم) .

فراشا : يعني مهاداً ، أو وطاء . لا حزنة غليظة لا يمكن الاستقرار عليها . وتقديره: اعبدوا ربكم الخالق لكم والخالق للذين من قبلكم ، الجاعل لكم الارض فراشاً . فذكر بذلك عباده نعمه عليهم ، وآلاءه لديهم ، ليذكروا اياديه عندهم ، فيثبتوا على طاعته تعطفاً منه بذلك عليهم ، ورأفة منه بهم ، ورحمة لهم من غير ما حاجة منه الى عبادتهم ، ليتم نعمته ، لعلهم يهتدون .

وسمّي السماء سماء لعلوها على الأرض ، وعلو مكانها من خلقه وكل شيء كان فوق شيء فهو لما تحته سماء لذلك . وقيل لسقف البيت سماء لأنه فوقه .

وسمي السحاب سماء . ويقال : سمى فلان لفلان اذا أشرف له ، وقصد نحوه عاليا عليه . قال الفرزدق :

سمونا لنجران اليماني واهله ونجران أرض لم تديث مقاوله (١)

وقال النابغة الذبياني :

سمت لي نظرة فرأيت منها تحيت الخدر واضعة القرام (٢)

يريد بذلك أشرفت لي نظرة وبدت . وقال الزجاج : كل ما على الأرض فهو فهو بناء لامساك بعضه بعضاً ، فيأمنوا بذلك سقوطها . فخلق السماء بلا عمد ، وخلق الأرض بلا سند ، يدل على توحيده وقدمه ، لأن المحدث لا يقدر على مثل ذلك . وانما قابل بين السماء وبين الفراش لأمرين :

احدها — ما حكاه أبو زيد : أن بنيان البيت سماؤه : وهو اعلاه ؛ وكذلك بناؤه وانشد :

بنى السماء فسواها ببنيتها ولم تمد باطناب ولا عمد

— « كلمح سراب في الفلا . . » والمعنى واحد فالملا : الصحراء والمتسع من الأرض . والفلا جمع فلاة : وهي الأرض المستوية ليس فيها شيء .

(١) ديوانه : ٧٣٥ . ونجران : ارض في مخاليف اليمن من مكة وديث البعير : ذلله بعض الذل حتى تذهب صعوبته . والمقاول : جمع مقول ، والمقول والقيل : الملك من ملوك حمير .

(٢) ديوانه : ٨٦ وروايته : « صفحت بنظرة » والقرام : ستر رقيق فيه رقم ونقوش . والخدر هنا : الهودج . وفي الطبعة الايرانية بدل « تحيت » « بحيث » .

يريد (ببنيتها) : علوها ·

والثاني — أن سماء البيت لما كان قد يكون بناء وغير بناء : اذا كان من شعر او وبر ، أو غيره . قيل جعلها بناء ليدل على العبرة برفعها · وكانت المقابلة في الارض والسماء باحكام هذه بالفرش ، وتلك بالبناء .

وقوله : (من السماء) أي من ناحية السماء . قال الشاعر :

أمنك البرق أرقبه فهاجا

أي من ناحيتك . فبناء السماء على الأرض كهيئة القبة . وهي سقف على الأرض وانما ذكر السماء والأرض ، فيما عد عليهم من نعمه التي أنعمها عليهم ، لأن فيها أقواتهم ، وأرزاقهم ومعايشهم ، وبها قوام دنياهم . وأعلمهم أن الذي خلقها وخلق جميع ما فيها من أنواع النعم هو الذي يستحق العبادة والطاعـة ، والشكر · دون الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع . وقوله : (وأنزل من السماء ماء) : يعني مطراً . فاخرج بذلك المطر مما أنبتوه في الأرض من زرعهم ، وغروسهم ثمرات رزقا لهم ، وغذاء وقوتاً ، تنبيهاً على أنه هوالذي خلقهم ، وأنه الذي يرزقهم ويكلفهم دون من جعلوه نداً وعدلا من الأوثان والآلهـة ، ثم زجرهم أن يجعلوا له نداً مع علمهم بان ذلك كما أخبرهم ، وانه لا ند له ولا عدل . ولا لهم نافع ولا ضار ، ولا خالق ولا رازق سواه بقوله : « فلا تجعلوا لله أنداداً » .

والند : العدل والمثل . قال حسان بن ثابت :

اتهجوه ولست له بند فشركما لخيركما الفداء (١)

أي لست له بمثل ولا عدل . وقال جرير :

أتيما تجعلون إلي نداً وما تيم لذي حسب نديد

وقال مفضل بن سلمة الند : الضد . والندود : الشرود ، كما يند البعير . ويوم التناد : يوم التنافر . والتنديد : التقليل . والفراش : البساط · والفرش : البسط · فرش يفرش فرشاً ، وافترش افتراشاً · وفراش الرأس : طرائق رقاق من القحف .

(١) ديوانه ٢٨ روايته « بكفء »

والفراش : فراش القاع والطين بعد ما يبس على وجه الأرض . والفراش : الذي يطير ويتهافت في السراج . وجارية فريش : قد افترشها الرجل . والفرش : صغار النعم . ورجل فراشة : خفيف . والفرش من الشجر : دقه . واصل الماء : موه ، لأنه يجمع امواها ، ويصغر مويه . وماهت الركيـة تموه موها . واماهها صاحبها : — اذا أكثر ماءها — إماهة .

وروى عن ابن مسعود وغيره من الصحابة ، أن معنى الآية : لا تجعلوا لله أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصيـة الله . قال ابن عباس : إنه خاطب بقوله : (ولا تجعلوا لله أنداداً وانتم تعلمون) ، جميع الكفار من عباد الاصنام ، واهـل الكتابين ، لأن معنى قوله : « وانتم تعلمون » أنه لا رب لكم يرزقكم غيره . وإن ما تعبدون لا يضر ولا ينفع . وروي عن مجاهد : أنه عنى بذلك أهـل الكتابين . لأنهم الذين كانوا يعلمون أنه لا خالق لهم غيره ، ولا منعم عليهم سواه . والعرب ما كانت تعتقد وحـدانيته تعالى . والأول أقوى لأن الله تعالى ، قد أخبر أن العرب قد كانت تعتقدوحدانيته تعالى . فقال تعالى حكاية عنهم : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) . وقال تعـالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويدبر الأمر سيقولون الله فقل ألا تتقون » (١) ؟ فحمل الآية على عمومها اولى ، ويطابق أول الآية . وقـد بينا أن خطابه لجميع الخلق . واستدل ابو علي الجبائي بهذه الآية ، على أن الأرض بسيطة ليست كرة كما يقول المنجمون والبلخي بأن قال : جعلها فراشاً . والفراش البساط بسط الله تعـالى اياها . والكرة لا تكون مبسوطـة . قال : والعقل يدل ايضاً على بطلان قولهم ، لأن الأرض لا يجوز أن تكون كروية مع كون البحار فيها ، لأن الماء لا يستقر إلا فيما له جنبان يتساويان ، لأن الماء لا يستقر فيه كاستقراره في الأواني . فلو كانت له ناحيـة في البحر مستعلية على الناحية الأخرى ، لصار الماء من الناحية المرتفعة الى الناحيـــة

(١) سورة يونس : آية ٣١

المنخفضة . كما يصير كذلك إذا امتلأ الاناء الذي فيه الماء . وهذا لا يدل على ماقاله ، لأن قول من قال الأرض كروية ، معناه إن لجميعها شكل الكرة.

وقوله : « وانتم تعلمون » يحتمل امرين :

احدهما — إنكم تعلمون أنه لا خالق لكم ، ولا منعم بما عدده من انواع النعيم سوى الله . وإن من اشركتم به لا يضر ولا ينفع .

والثاني — إنه أراد ، وأنتم علماء بامور معايشكم ، وتدبير حروبكم ، ومضاركم ومنافعكم . لستم باغفال ولا جهال .

قوله تعالى :

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . آية بلا خلاف .

الحجة :

هذه الآية فيها احتجاج لله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) على مشركي قوم من العرب والمنافقين ، وجميع الكفار من أهل الكتابين ، وغيرهم ، لأنه خاطب أقواماً عقلاء ألباء « ١ » في الذروة العليا من الفصاحة ، والغاية القصوى من البلاغة واليهم المفزع في ذلك . فجاءهم بكلام من جنس كلامهم وجعل عجزهم من مثله حجة عليهم ، ودلالة على بطلان قولهم . ووبخهم ، وقرعهم وامهلهم المدة الطويلة . وقال لهم : (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) « ٢ » ، ثم قال : (فاتوا بسورة مثله) « ٣ » وقال في موضع آخر : (بسورة من مثله) . وخبرهم أن عجزهم ، إنما هو عن النظير والجنس ، مع أنه ولد بين أظهرهم ونشأ معهم ، ولم يفارقهم في سفر ولا حضر . وهو من لا يخفى عليهم حاله لشهرته وموضعه . وهم اهل الحمية والانفة يأتي الرجل منهم بسبب كلمة على القبيلة ، فبذلوا أموالهم ونفوسهم في إطفاء امره ولم يتكلفوا معارضته

« ١ » الباء : ج لبيب

« ٢ » سورة هود : آية ١٣

« ٣ » سورة يونس : آية ٣٨

بسورة ولا خطبة فدل ذلك على صدقه. وذكرنا ذلك في الأصول

المعنى :

وقوله : (بسورة من مثله) قال قوم : إنها بمعنى التبعيض : وتقديره : فاتوا ببعض ما هو مثل له وهو سورة . وقال آخرون : هي بمعنى تبيين الصفة كقوله : (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) «١» وقال قوم : إن « من » زائدة . كما قال في موضع آخر : « بسورة مثله » : يعني مثل هذا القرآن . وقال آخرون : أراد ذلك من مثله في كونه بشراً امياً ، طريقته مثل طريقته. والأول أقوى، لأنه تعالى قال في سورة أخرى: « بسورة مثله» . ومعلوم أن السورة ليست محمداً «ص»، ولا له بنظير ولأن في هذا الوجه تضعيفاً لكون القرآن معجزة ، ودلالة على النبوة .

وقوله : « وادعوا شهداءكم من دون الله » . قال ابن عباس : أراد أعوانكم على ما أنتم عليه ، إن كنتم صادقين . وقال الفراء : أراد ادعوا آلهتكم . وقال مجاهد وابن جريج أراد قوماً يشهدون لكم بذلك ممن يقبل قولهم . وقول ابن عباس أقوى

وقوله : « مثله » ، أراد به ما يقاربه في الفصاحة ، ونظمه ، وحسن ترصيفه وتأليفه ، ليعلم أنه اذا عجزوا عنه ، ولم يتمكنوا منه ، أنه من فعل الله تعالى ، جعله تصديقاً لنبيه ، وليس المراد أن القرآن له مثل عند الله ، ولولاه لم يصح التحدي لأن ما قالوه : لا دليل عليه . والاعجاز يصح ، وإن لم يكن له مثـل أصلا ، بل ذلك أبلغ في الاعجاز ، لأن ذلك جار مجرى قوله : (هاتوا برهـانكم) «٢» وانما أراد نفي البرهان أصلا . والدعاء اراد به الاستعانة . قال الشاعر :

وقبلك ربّ خصم قد تمالوا عليّ فما جزعت ولا دعوت

وقال آخر :

فلما التقت فرساننا ورجالهم دعوا يالكعب واعتزينا لعامر «٣»

«١» سورة الحج آية ٣٠

«٢» سورة البقرة آية ١١١

«٣» في الطبعة الايرانيـة و « رجالنا » بدل « رجالهم » والبيت للراعي النميري : اللسان « عزا » واعتزى .

يعني انتصروا بكعب واستغاثوا بهم .

وشهداء جمع شهيد : مثل شريك وشركاء وخطيب وخطباء . والشهيد : يسمى به الشاهد على الشيء لغيره بما يحقق دعواه . وقد يسمى به المشاهد للشيء . كما يقال : جليس فلان . يريد به مجالسه ومنادمه . فعلى هذا تفسير ابن عباس أقوى. وهو ، أن معناه استنصروا أعوانكم على أن يأتوا بمثله، وشهداءكم الذين يشاهدونكم ويعاونونكم على تكذيب الله ورسوله ، ويظاهرونكم على كفركم ونفاقكم إن كنتم محقين . وما قاله مجاهد وابن جريج في تأويل ذلك لا وجه له ، لأن القوم على ثلاثة اصناف : فبعضهم اهل ايمان صحيح . وبعضهم أهل كفر صحيح . وبعضهم أهل نفاق . فأهل الايمان اذا كانوا مؤمنين بالله ورسوله ، فلا يجوز ان يكونوا شهداء للكفار على ما يدعونه . واما اهل النفاق والكفر فلا شك انهم اذا دعوا الى تحقيق الباطل وابطال الحق ، سارعوا اليه مع كفرهم وضلالتهم . فمن أي الفريقين كانت تكون شهداء . لكن يجري ذلك مجرى قوله : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » «١» وقد أجاز قوم هذا الوجه أيضاً قالوا : لأن العقلاء لا يجوز أن يحملوا نفوسهم على الشهادة بما يفتضحون به في كلام أنه مثل القرآن ولا يكون مثله . كما لا يجوز ان يحملوا نفوسهم على ان يعارضوا ما ليس بمعارض في الحقيقة .

ومعنى الآية : إن كنتم في شك من صدق محمد صلى الله عليه وآله فيما جاءكم به من عندي ، فاتوا بسورة من مثله ، فاستنصروا بعضكم بعضاً على ذلك إن كنتم صادقين في زعمكم حتى إذا عجزتم وعلمتم انه لا يقدر على ان يأتي به محمد « ص » ، ولا احد من البشر يتضح عندكم انه من عند الله تعالى قوله تعالى :

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . آية

المعنى :

معنى « فان لم تفعلوا » لم تأتوا بسورة من مثله — وقد تظاهرتم انتم

«١» سورة أسرى : آية ٨٨ .

وشركاؤكم عليه واعوانكم — وقد تبين لكم بامتحانكم، واختباركم عجزكم وعجز جميع الخلق عنه وعلمتم انه من عندي، ثم اقتم على التكذيب به

وقوله: (ولن تفعلوا) لا موضع له من الاعراب، وانما هو اعتراض بين المبتدأ والخبر، كقولك: زيد - فافهم ما اقول — رجل صدق. وانما لم يكن له موضع اعراب، لأنه لم يقع موضع المفرد. ومعنى (ولن تفعلوا): اي لن تأتوا بسورة من مثله ابداً، لأن (لن) تنفي على التأبيد في المستقبل وفي قوله: (ولن تفعلوا) دلالة على صحة نبوته، لأنه يتضمن الاخبار عن حالهم في المستقبل بانهم لا يفعلون ولا يجوز لعاقل ان يقدم على جماعة من العقلاء يريد تهجينهم فيقول: انتم لا تفعلون إلا وهو واثق بذلك، ويعلم ان ذلك متعذر عندهم وينبغي ان يكون الخطاب خاصاً لمن علم الله انه لا يؤمن، ولا يدخل فيه من آمن فيما بعد وإلا كان كذبا

وقوله: (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة). الوقود ـ بفتح الواو ـ اسم لما يوقد. والوُقود ـ بضمها ـ: المصدر. وقيل إنها بمعنى واحد في المصدر واسم الحطب. حكاه الزجاج والبلخي. والاول أظهر.

(اتقوا الله) ـ مشددة ـ لغة اهل الحجاز. وبنو أسد وتميم يقولون: (تقوا الله) خفيف بحذف الألف.

(الحجارة) قيل: إنها حجارة الكبريت لأنها أحر شيء اذا حميت. وروي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود. والظاهر إن الناس والحجارة: وقود النار وحطبها كما قال: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) «١» تهيباً وتعظيما بانها تحرق الحجارة والناس.

وقيل: إن أجسادهم تبقى على النار بقاء الحجارة التي توقدها النار بالقدح وقال قوم معناه: أنهم يعذبون بالحجارة المحماة مع النار. والاول أقوى وأليق بالظاهر. وانما جاز أن يكون قوله: (فاتقوا النار) جواب الشرط مع لزوم الاتقاء

«١» سورة الانبياء: آية ٩٨.

من النار كيف تصرفت الحال ، لأنه لا يلزمهم الاتقاء على التصديق بالنبوة إلا بعد قيام المعجزة ، فكأنه قال : فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فقد قامت الحجة ، ووجب اتقاء النار بالمخالفة .

وقوله : (اعدت للكافرين) لا يمنع من اعدادها لغير الكافرين من الفسّاق كما قال : (وإن جهنم لمحيطه بالكافرين) «١» ولم يمنع ذلك من إحاطتها بالفساق والزناة والزبانية . وقال قوم : هذه نار مخصوصة للكافرين لا يدخلها غيرهم . والفساق لهم نار أخرى . وقد استدل بهذه على بطلان قول من حرم النظر والحجاج العقلي . بان قيل : كما احتج الله تعالى على الكافرين بما ذكره فى هذه الآية وألزمهم به تصديق النبي (ص) والمعرفة بان القرآن كلامه ، لأنه قال : إن كان هذا القرآن كلام محمد فاتوا بسورة من مثله · ودلهم بعقولهم أنه لو كان كلام محمد لتهيأ لهم مثل ذلك ، لأنهم الذين يؤخذ عنهم اللغة · واذا كان لم يتهيأ لهم ذلك علموا بعقولهم أنه من كلام الله وهذا هو معنى الاحتجاج بالعقول ، فيجب ان يكون ذلك صحيحاً من كل واحد

قوله تعالى :

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنوا وَعَملوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جنّاتٍ تَجرِي مِنْ تَحتِها الأَنهارُ كُلّما رُزِقوا مِنها مِنْ ثَمرةٍ رِزقاً قالوا هَذا الَّذِي رُزِقنا مِنْ قبلُ وأُتوا بهِ مُتَشابِهاً وَلَهمْ فِيها أزوَاجٌ مُطَّهَرَةٌ وَهُمْ فِيها خالِدُونَ . آية

اللغة :

البشارة : هو الاخبار بما يسر المخبر به إذا كان سابقاً لكل خبر سواه ، لأن الثاني لا يسمى بشارة وقد قيل : إن الاخبار بما يغم ايضاً يسمى بشارة · كما قال تعالى :(فبشرهم بعذاب أليم) «٢» والاولى أن يكون ذلك مجازاً · وهي مأخوذة

«١» سورة التوبة : آية ٥٠ .

«٢» سورة آل عمران: آية ٢١ .

من البشرة : وهي ظاهر الجلد لتغييرها بأول الخبر . ومنه تباشير الصبح : أوله ، وكذلك تباشير كل شيء .المبشرات : الرياح التي تجيء لسحاب . والبشر: الانسان والبشرة : أعلى جلدة الجسد ، والوجه من الانسان .

والمباشرة : ملاصقة البشرة . والبشر : قشر الجلد .

والجنان : جمع جنة ، والجنة : البستان . والمراد بذكر الجنة ما في الجنة من اشجارها واثمارها ، وغروسها دون أرضها ، فلذلك قال: (تجري من تحتهاالانهار) لأنه معلوم انه اراد الخبر عن ماء انهارها انه جار تحت الاشجار والغروس والثمار لا انه جار تحت ارضها ، لأن الماء اذا كان تحت الارض جاريا ، فلا حظ فيه للعيون إلا بكشف الساتر بينه وبينها ، على ان الذي يوصف به انهار الجنة انها جارية في غير اخاديد . روي ذلك عن مسروق ، رواه عنه ابو عبيدة وغيره .

الاعراب :

(وجنات) : منصوب بان . وكسرت التاء لأنها تاء التأنيث في جمع السلامة وهي مكسورة في حال النصب بالخفض . وموضع « ان » نصب بقوله : « وبشر الذين » .وقال الخليل والكسائي : موضعه الجر بالباء كأنه قال : وبشرهم بأن لهم .

المعنى :

وقال الفضل : الجنة: كل بستان فيه نخل ، وإن لم يكن شجر غيره . وإن كان فيه كرم : فهو فردوس ، كان فيه شجر غير الكرم ام لم يكن

(من ثمرة) : من زائدة والمعنى: كلما رزقو ثمرة . (ومنها) : يعني من الجنات والمعنى : أشجارها وتقديرها : كلما رزقوا من اشجار البساتين التي اعدها الله المؤمنين وقال الرماني : هي بمعنى التبعيض ، لأنهم يرزقون بعض الثمرات في كل وقت ويجوز ان تكون بمعنى تبيين الصفة وهو ان يبين الرزق من اي جنس هو

وقوله : « هذا الذي رزقنا من قبل » روي عن ابن عباس ، وابن مسعود

وجماعة من الصحابة انه الذي رزقنا في الدنيا وقال مجاهـد : معناه اشبهه به . وقال بعضهم : إن ثمار الجنة إذا جنيت من اشجارها ، عاد مكانها فاذا رأوا ما عاد بعد الذي جني ، اشتبه عليهم . فقالوا :هذاالذي رزقنا من قبل .وهذا قول أبي عبيدة ، ويحيى بن أبي كثير . وقال قوم : هذا الذي رزقنا ، وعدنا به في الدنيا . وقد بينا فيما تقدم ، أن الرزق عبارة عما يصح الانتفاع به على وجه لا يكون لأحد المنع منه . وقال المفضل ذلك يخص الاقوات . وقال قوم : هذا الذي رزقنا من قبل لمشابهته في اللون وإن خالفه في الطعم . واقوى الأقوال قول ابن عباس وأن معناه هذا الذي رزقنا في الدنيا ، لأنه قال : (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هـذا الذي رزقنا من قبل) فعم ولم يخص . فاول ما اتوا به لا يتقدر هذا القول فيه إلا بأن يكون اشارة الى ما تقدم رزقه في الدنيا ، لأنا فرضناه أولا وليس في الآية تخصيص ويكون التقدير هذا الذي رزقنا في الدنيا لأن ما رزقوه أولا قد عدم واقام المضاف اليه مقام المضاف كما أن القائل اذا قال لغيره: أعددت لك طعاماً ، ووصفه له ، يحسن أن يقول : هذا طعام كل وقت يريد مثله ومن جنسه ، ونوعه وقوله : «واتوا به متشابها »قال الضحاك :إذا رأوه ،قالوا : هوالأول في النظر واللون ، واذا طعموا وجدوا له طعماً غير طعم الاول وقوله :

(واتوا به) معناه جيئوا به ، وليس معناه أعطوه . وقال قوم: (وأتو به متشابهاً) أي يشبه بعضه بعضاً إلا في المنظر والطعم أي كل واحد منه له من الفضل في نحوه مثل الذي للاخر في نحوه . ذكره الأخفش . وهـذا كقول القائل : وقـد جيء بأثواب أو أشياء رآها فاضلة فاشتبهت عليه في الفضل، فقال :ما أدري ما أختار منها كلها عندي فاضل . قال الشاعر

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

يعني أنهم تساووا في الفضل والسؤدد . وروي هذا عن الحسن وابن جريج وقال قتادة معناه يشبه ثمار الدنيا غـير انها أطيب . وقال ابن زيد والاشجعي: إن التشابه في الاسماء دون الالوان والطعوم ، فلا يشبه ثمار الجنة شيء من ثمار الدنيا

في لون ولا طعم ٠ واولى هـذه الاقوال أن يكون المراد به متشابهاً في اللون والمنظر على ان الطعم مختلف لما قدمناه من أن هذا يقولونه في أول الحال أيضاً ، وما تقدر عليه غرة ٠ وبعد هذا قول من قال : معناه أن كلها جياد لا رذال فيه ٠ وقال بعض المتأخرين في قوله (هذا الذي رزقنا من قبل) معناه هذا الذي اعطينا بعبادتنا من قبل وقال ابو علي معناه ذلك ما يؤتون به في كل وقت من الثواب مثـل الذي يؤتى في الوقت الذي قبله من غير زيادة ولا نقصان ، لأنه لا بد أن تتساوى مقادير الاستحقاق في ذلك ، وقال أيضاً يجب أن يسوي بينهم في الاوقات في مقـدار ما يتفضل به عليهم في وقت ، ويزدادون في وقت آخر قال : لأن ذلك يؤدي الى أن التفضل أعظم من الثواب ٠ وهذا الذي ذكره غير صحيح ، لأن العقـل لا يدل على مقادير الثواب في الاوقات ولا يعلم ذلك غير الله ، بل عندنا لا يدل العقل على دوام الثواب وانما علم ذلك بالسمع والاجماع واما التفضل فلا شك أنه يجوز أن يزيد في وقت على ما يفضـله في وقت آخر ولا يؤدي ذلك الى مساواته للثواب ، لأن الثواب يتميز من التفضل لمقارنة التعظيم له والتبجيل ولأجل ذلك يتميز كل جزء من الثواب من كل جزء من التفضل ولا زيادة هناك

وقوله (ولهم فيها ازواج مطهرة) قيل في الأبدان والأخلاق والافعال ولا يحضن ، ولا يلدن ، ولا يذهبن الى غائط ٠ وهو قول جماعة المفسرين

وقوله (وهم فيها خالدون) أي دائمون يبقون ببقاء الله لا انقطاع لذلك ولا نفاد

قوله تعالى:

إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحيي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعوضَةً فَما فَوْقَها فَأَما الَّذينَ آمَنوا فَيَعلمونَ أَنهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وأَما الَّذينَ كَفَروا فَيَقولونَ ماذَا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثيراً وَيَهدي بِهِ كَثيراً وما يُضِلُّ بِهِ إِلا الفاسِقينَ . آية واحدة . سبب النزول :

اختلف اهل التأويل في سبب نزول هذه الآية فروي عن ابن مسعود وابن

عباس أن الله تعالى ، لما ضرب هذين المثلين للمنافقين وهو قوله (كمثل الذي استوقد ناراً) وقوله (أوكصيب من السماء) قال المنافقون الله أجل من (أن يضرب مثلا) الى آخر الآية ، وقال الربيع بن أنس هـذا مثل ضربه الله للدنيا ، لأن البعوضة تحيا ما جاعت ، فاذا سمنت ماتت فشبه الله تعـالى هؤلاء بانهم اذا امتلؤوا أخذهم الله ، كما قال تعالى (فلمـا نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء الى آخر الآية) (١) — الى ان قال — (حتى اذا فرحوا بمـا اوتوا أخذناهم بغتـة فاذا هم مبلسون) «٢» ، وقال قتادة معناه أن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها أي لا يستحيي من الحق أن يذكر منه شيئاً ما قل أو كثر . إن الله تعالى حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال اهل الضـلالة ماذا اراد الله من ذكر هذا ؟ فانزل الله تعـالى (ان يضرب مثلا ما بعوضـة فما فوقها : الآية) وكل هـذه الوجوه حسنة . واحسنها قول ابن عباس ، لأنه يليق بما تقدم . وبعده ما قال قتادة . وليس لأحـد ان يقول : هذا المثل لا يليق بما تقدم . من حيث لم يتقدم للبعوضـة ذكر . وقد جرى ذكر الذباب والعنكبوت في موضع آخر . في تشبيه آلهتهم بها وان يكون المراد بذلك اولى ، وذلك ان قوله : « ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » . انما هو خبر منه تعالى انه لا يستحيي تعـالى أن يضرب مثلا في الحق من الأمثال : صغيرها وكبيرها ، لأن صغير الأشياء عنده وكبيرها بمنزلة واحدة من حيث لا يتسهل الصغير ، ولا يصعب الكبير . وإن في الصغير من الاحكام والاتقان ما في الكبير . فلمـا تساوى الكل في قدرته ، جاز أن يضرب المثل بما شاء من ذلك ، فيقر بذلك المؤمنون ، ويسلمون — وان ضل به الفاسقون بسوء اختيارهم — وهذا المعنى مروي عن مجاهد . وروي عن الصادق جعفر بن محمد (عليـه السلام) انه قال : إنما ضرب الله بالبعوضة ، لأن البعوضة على صغر خلق فيها جميع ما في الفيل على كبره وزيادة عضوين آخرين. فاراد الله ان ينبه بذلك المؤمنين على لطف خلقه وعجيب عظم صنعه.

«١و٢» سورة الانعام: آية ٤٤.

المعنى :

و (يستحيي) لغة اهل الحجاز وعامة العرب بيائين . وبنو تميم يقولون : بياء واحدة اخصر . كما قالوا : الم يك ، ولا ادر ومعنى (يستحيي) : قال بعضهم : إنه لا يخشى ان يضرب مثلا كما قال : (وتخشى الناس والله احق ان تخشاه)«١» معناه : تستحي الناس والله احق ان تستحييه ، فيكون الاستحياء بمعنى الخشية بمعنى الاستحياء . وقال الفضل بن سلمة : معناه لا يمتنع وقال قوم : لا يترك وهو قريب من الثاني

واصل الاستحياء : الانقباض عن الشيء ، والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح والاستحياء ، والانخزال والانقماع ، والارتداع متقاربة المعنى وضد الحياء القحة ومعنى (الاستحياء)في الآية: انه ليس في ضرب المثل بالحقير عيب يستحي وكأنه قال : لا يحل ضرب المثل بالبعوضة محل ما يستحي منه فوضع قوله : ـ (إن الله لا يستحيي) الآية ـ إختاره الرماني وقوله : (ان يضرب مثلا) فهو ان يصف ويمثل ويبين كما قال تعالى (ضرب لكم مثلا من انفسكم)«٢» معناه وصف لكم كما قال الكميت:

وذلك ضرب أخماس أريدت لأسداس عسى أن لا تكونا

والمعنى وصف أخماس . وضرب المثل بمثله . يقال : أي ضرب هذا ؟ أي من أي جنس ولون . والضروب : الأمثال . والمثل : الشبه . ويقال : مِثل ومَثل . كما قالوا : شِبه وشَبه . كقول كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لنا مثلا وما مواعيده إلا الأباطيل

يعني شبهاً . فمعنى الآية : إن الله لا يستحيي أن يصف شبهاً لما شبه به .

الاعراب :

وإما إعراب (بعوضة) : فنصب من وجهين — على قول الزجاج — احدهما — ان تكون « ما » زائدة . كأنه قال : إن الله لا يستحيي أن

«١» سورة الاحزاب . آية ٣٧.

«٢» سورة الروم: آية ٢٨ .

يضرب بعوضة مثلا أو مثلا بعوضة وتكون « ما » زائدة . نحو قوله : (فبما رحمة من الله) . «١»

والثاني — أن تكون « ما » نكرة . ويكون المعنى : أن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا شيء بعوضة . فكان بعوضة في موضع نصب شيء ، لأنه قال : يستحيي ان ضرب مثلا شيء من الاشياء بعوضة فما فوقها . قال الفراء يجوز أن يكون معنى « ما » بين بعوضة الى ما فوقها كما يقول القائل : مطرنا ما «٢» زبالة فالثعلبية . وله عشرون ما ناقة وجملا . وهي أحسن الناس ما قرنا فقدما . يعنون ما بين في جميع ذلك . وقال بعضهم : « ما » بمعنى الذي . ويكون التقدير الذي هو بعوضة لأنها من صلة الذي ، فأعربها باعرابه . كما قال حسان بن ثابت :

فكفى بنا فخراً على من غيرنا   حب النبي محمد ايانا

فأعرب (غيرنا) باعراب (من) ويجوز ذلك في من وما ، لأنها يكونان تارة معرفة وتارة نكرة .

والبعوضة : من صغار البق . وقوله : « فما فوقها » في الصغر والقلة . كما يقول القائل : إن هذا الأمر لصغير ، فيقول المجيب : وفوق ذلك أي هو أصغر مما قلت . وكلاهما جائز فمن قال بالأول ، قال : لأن البعوضة غاية في الصغر ومن قال بالثاني ، قال : يجوز أن يكون ما هو أصغر منها وحكي عن رؤبة ابن العجاج : انه رفع بعوضة وانشد بيت النابغة :

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا   الى حمامتنا أو نصفه فقد «٣»

بالرفع فأعمل ما ولم يعمل ليت قال : وهي لغة تميم يعملون آخر الأداتين وقال الزّجاج : الرفع كان يجوز وما قرىء به اذا كانت « ما » بمعنى الذي ، ويقدر بعدها هو ويكون تقديره مثلا الذي هو بعوضة كمن قرأ تماماً على الذي هو أحسن وقد قرىء به وهو ضعيف عند سيبويه وفي الذي اقوى ، لأنه أطول ، ولأنها

«١» سورة آل عمران : آية ١٥٩

«٢» في المطبوعة « بين » بعد ما زائدة

«٣» قد : اسم فعل بمعنى يكفي

لا تستعمل إلا في الاسماء

وقوله : (فأما الذين) لغـة العرب جميعاً بالتشديد . وكثير من بني عامر وتميم يقولون أيما فلان ففعل الله به وانشد بعضهم :

مبتـلة هيفاء أيما وشاحهـا فيجري وايما الحجل منها فلا يجري

(آمنوا فيعلمون أنه الحق) الفاء جواب (أما) وفيها معنى الشرط والجزاء والمعنى : ان المؤمنين بالله على الحقيقة يعلمون أن هذا المثل حق من عند الله وأنه من كلامه . (واما الذين كفروا) يعني الجاحـدين ، (فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا) على ما بيناه .

وانتصب (مثلا) عند ثعلب بانه قطع . وعند غيره انه تفسير . وقال قوم : إنه نصب على الحال . وذا مع ما بمعنى أي شيء الذي أراد الله بهـذا مثلا . فعلى هذا يكون الجواب رفعاً ، كقولك : البيان لحال الذي ضرب له المثل . ويحتمـل أن يكون وقعا ذا وما بمنزلة اسم واحد فيكون الجواب نصباً كقولك : البيان لحال الممثل به . ورد القرآن بها جميعاً . قال تعالى : (ماذا أنزل ربكم قالوا خـيرا) وفي موضع آخر : (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) ذكرها سيبويه ، والأخفش وهذا إشارة الى المثل . ومثـلا ما ، نون التنوين تدغم في الميم عنـد جميع القراء . ويكره الوقف فيها على قوله : « لا يستحيي » ثم يقول: (أن يضرب مثلا) وكذلك على قوله : « والله لا يستحيي » ثم يقول : « من الحق » .

وقوله : « يضل به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » . إن قيل : أليس تقولون : إن الله لا يضل أحداً ، ولا يهـدي خلقاً ، وإن العباد هم يضلون انفسهم ويهدونها ، وهم يضلون من شاءوا ويهدون من شاءوا . وقد قال الله تعالى : في غـير موضع من كتابه نحو قوله : (يضل من يشاء ويهـدي من يشاء) ، ولا يمكنكم ان تقولوا : إن المراد بالاضلال العقوبة والتسمية ، لأنه لو قال : يضل كثيراً ويهدي كثيراً ، كان ذلك ممكناً ، لكنه قال : (يضل به) و (يهدي به) والهاء راجعة الى القرآن ، والمثل الذي ضربه فيه . ولا يجوز أن يعاقب بالمثـل ، ولا أن يسمى

بالمثل . فعلم بذلك أنه أراد أنه ليس عليهم وجعله حيرة لهم

قلنا اول ما في ذلك انا لا نطلق أن الله لا يضل احداً ولا يهدي احداً . ومن اطلق ذلك ، فقد اخطأ . ولا نقول ايضاً إن العباد يضلون انفسهم ويهدونها مطلقاً او يضلون غيرهم ويهدونه . فان إطلاق جميع ذلك خطأ ، بل نقول : إن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء . ونقول : إن من اضله الله فهو الضال ومن هداه فهو المهتدي ، ولكن لا نريد بذلك ما يريده المخالف مما يؤدي الى التظليم والتجوير لله في حكمه والمخالف يقول : إن الله يضل كثيراً من خلقه بمعنى انه يصدهم عن طاعته ، ويحول بينهم وبين معرفته ، ويلبس عليهم الأمور ويحيرهم ويغالطهم ، ويشككهم ويوقفهم في الضلالة ، ويجبرهم عليها . ومنهم من يقول : يخلقها فيهم ، ويخلق فيهم قدرة موجبة له ، ويمنعهم الأمر الذي به يخرجون منها ، فيصفون الله تعالى باقبح الصفات وأخسها . وقالوا فيه بشرّ الأقوال . وقلنا نحن : إن الله قد هدى قوماً واضل آخرين ، وأنه يضل من يشاء . غير أن لفضله وكرمه ، وعدله ورحمته لا يشاء أن يضل إلا من ضل وكفر وترك طريق الهدى وإنه لا يشاء ان يضل المهتدين والمتمسكين بطاعته ، بل شاء أن يهديهم ويزيدهم هدى ، فانه يهدي المؤمنين بان يخرجهم من الظلمات الى النور . كما قال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى واتاهم تقواهم) «١» وقال : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) «٢» . وقال : (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) «٣» وقال : (يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض اولئك هم الخاسرون)«٤» وقال : (ويضل الله الظالمين) «٥» . والاضلال على وجوه كثيرة منها :

— ما نسبه الله تعالى الى الشيطان : وهو الصد عن الخير والرشد والدعاء الى

«١» سورة محمد: آية ١٧.

«٢» سورة التغابن : آية ١١ .

«٣» سورة البقرة : آية ٢٥٧.

«٤» سورة البقرة : آية ٢٧.

«٥» سورة ابراهيم : آية ٢٧.

الفساد والضلال ، وتزيين ذلك ، والحث عليه . وهذا ينزه الله تعالى عنه .

— ومنها التشديد الامتحان والاختبار اللذين يكون عندها الضلال ويعقبها ونظير ذلك في اللغة أن يسأل الرجل غيره شيئاً نفيساً خطيراً يثقل على طباعه بذله فاذا بخل به ، قيل له نشهد لقد بخل به فلان . وليس يريدون بذلك عيب السائل وانما يريدون عيب الباخل المسؤول، لكن لما كان بخل المسؤول ظهر عند مسألة السائل جاز أن يقال في اللغة : انه بخلك . ويقولون للرجل اذا أدخل الفضة النار ليعلم فسادها من صلاحها ، وظهر فسادها : أفسدت فضتك ، ولا يرون أنه فعل فيها فساداً ، وإنما يريدون ان فسادها ظهر عند محنته . ويقرب من ذلك قولهم : فلان أضل ناقته ، ولا يريدون انه أراد أن يضل ، بل يكون قد بالغ في الاستتار منها وانما يريدون ضلت منه لا من غيره . ويقولون افسدت فلانة فلانا ، واذهبت عقله . وهي لا تعرفه ، لكنه لما فسد وذهب عقله من أجلها ، وعند رؤيته إياها قيل : قد افسدت ، واذهبت عقله .

— ومنها التخلية على جهة العقوبة وترك المنع بالقهر والاجبار، ومنع الالطاف التي يؤتيها المؤمنين جزاء على ايمانهم . كما يقول القائل لغيره افسدت سيفك ، اذا ترك أن يصلحه . لا يريد أنه أراد أن يفسد أو أراد سبب فساده ، أولم يحب صلاحه ، لكنه تركه فلم يحدث فيه الاصلاح – في وقت ـ بالصقل والاحداد . وكذلك قولهم : جعلت اظافيرك سلاحاً . وانما يريدون تركت تقليمها .

— ومنها التسمية بالاضلال والحكم به كافراً . يقال : أضله اذا سماه ضالا . كما يقولون : أكفره اذا سماه كافراً ، ونسبه اليه . قال الكميت :

وطائفة قد أكفروني بحبكم وطائفة قالوا : مسيء ومذنب

— ومنها الاهلاك والتدمير . قال الله تعالى : « أإذا ضللنا في الارض » أي هلكنا . فيجوز أن يكون أراد بالآية : حكم الله على الكافرين وبراءته منهم ولعنه إياهم إهلاكا لهم ، ويكون اضلاله إضلالا كما كان الضلال هلاكا . واذا كان الضلال ينصرف على هذه الوجوه ، فلا يجوز أن ينسب الى الله تعالى اقبحها وهو ما أضافه الى الشيطان ، بل ينبغي أن ينسب اليه أحسنها وأجلها . واذا ثبتت

هذه الجملة ، رجعنا الى تأويل الآية ، وهو قوله : « يضل به كثيراً » معناه أن الكافرين لما ضرب الله لهم الامثال قالوا : ما الحاجة اليها ؟ قال الله تعالى : فيها اعظم الفائدة : لأنها محنة واختبار . وبها يستحق الثواب ، ويوصل إلى النعيم . فسمى المحنة اضلالا وهداية ، لأن المحنة إذا اشتدت على الممتحن وثقلت فضل عندها ، جاز أن تسمى اضلالا ، فاذا سهلت فاهتدى عندها ، سميت هداية ، كما أن الرجل يقول لصاحبه : ما يفعل فلان ؟ فيقول هو ذا . يسخي قوماً ويبخل قوماً آخرين أي يسأل قوماً فيشتد عليهم للعطاء فيبخلون ، ويسأل آخرين ، فيسهل عليهم فيعطون ويجودون ، فسمي سؤاله باسم ما يقع عنده ويعقبه .

فمعنى قوله : « يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً » أي يمتحن به عباده ، فيضل به قوم كثير ، ويهتدي به قوم كثير . ولا يجب على ذلك أن يكون أراد إضلالهم . كما لا يجب ذلك في السائل الذي لا يريد بخل المسئول ، بل يريد إعطاءه فان قيل : أليس الله تعالى امتحن بهذه الأمثال المؤمنين كما امتحن بها الكافرين ، فيجب أن يكون مضلا لهم ؟ قلنا : إنما سمى المحنة الشديدة إضلالا إذا وقع عندها الضلال كما أن السؤال يسمى تبخيلا إذا وقع عنده البخل .

وقال قوم : معنى قوله : « يضل به كثيراً » يعني يضل بالتكذيب بهذه الأمثال كثيراً ويهدي بالايمان كثيراً ، لأنه لوكان سبباً للضلال لما وصفه الله بأنه هدى وبيان وشفاء لما في الصدور . وحذف التكذيب والاقرار اختصاراً ، لأن في الكلام ما يدل عليه . كما يقول القائل : نزل السلطان فسعد به قوم وشقي به آخرون . وانما يراد به سعد باحسانه قوم وشقي باساءته آخرون . لا بنزول جيشه، لأنه نفسه لايقع به سعادة ولا شقاء . وكما قال : « وأشربوا في قلوبهم العجل » وانما أراد حب العجل . وذلك كثير . وقد بينا أن الاضلال والهداية يعبر بها عن العذاب والثواب ، فعلى هذا يكون تقدير الآية : يضل أي يعذب بتكذيب القرآن ، والأمثال كثيراً ، ويهدي أي يثيب بالاقرار به كثيراً . والدليل على

ما قلناه قوله : « وما يضل به إلا الفاسقين » فلا يخلو أن يـكون أراد ما قلناه من العقوبة على التـكذيب ، أو أراد به الحيرة والتشكيك ، وقد ذكرنا انه لا يفعل الحيرة المتقدمة التي بها صاروا ضلالا فساقاً ، لم يفعلها الله إلا بحيرة قبلها ، وهـذا يوجب مالا نهاية له من حيرة قبل حيرة ، لا إلى أول ، أو اثبات إضلال لا إضلال قبله ، فان كان الله قد فعل هذا الضلال الذي لم يقع قبله ضلال فقد أضل من لم يـكن فاسقاً ، وهذا خلاف قوله : « وما يضل به إلا الفاسقين » فثبت أنه أراد أنه لا يعاقب إلا الفاسقين ، كما قال : « ويضل الله الظالمين ويفعل ما يشاء « ١ »

وحكى الفراء وجهاً آخو آمليحاً ، قال : قوله « ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً » حكاية عمن قال ذلك ، كأنهم قالوا : ماذا أراد بهذا مثلا يضل به كثيراً ، أي يضل به قوم ويهدي به قوم ، ثم قال الله : « وما يضل به إلا الفاسقين » فبين عزوجل الاضلال ، وأنه لا يضل إلا ضالا فاسقاً ، واقتصر على الاخبـار عنهم وبيان ما بين الاضلال دون ما أراد بالمثل ، وهذا وجه حسن تزول معه الشبهة .

وأصل الفسق في اللغة الخروج عن الشيء ، يقال منه : فسقت الرطبة إذا اخرجت من قشرها ، ومن ذلك سميت الفارة فويسقة ، لخروجها من حجرهـــا ، ولذلك سمي المنافق والـكافر فاسقين لخروجها عن طاعة الله ، ولذلك قال الله تعالى في صفة إبليس : « إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » « ٢ » يعني خرج من طاعته واتباع أمره .

قوله تعالى :

الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْـدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ

« ١ » سورة ابراهيم: آية ٢٧.

«٢» سورة الـكهف آية ٥١.

الله بهِ أن يُوصَلَ وَيُفسدونَ في الأَرْضْ أولَئكَ هُمُ الخاسرونَ.

آية واحدة.

العهد: العقد، والأصر مثله، والعهد: الموثق. والعهد: الالتقاء، يقال: ما لفلان عهد بكذا، وهو قريب العهد بكذا. والعهد له معان كثيرة. وسمي المعاهد — وهو الذمي — بذلك لأنه بايع على ما هو عليه من إعطاء الجزية، والكف عنه. والعهدة كتاب الشراء، وجمعه عهد. وإذا أقسم بالعهد تعلق به عندنا كفارة الظهار، وقال قوم: كفارة يمين، وقال آخرون: لا كفارة عليه.

و « عهد الله » قال قوم: هو ما عهد إلى جميع خلقه في توحيده وعدله، وتصديق رسوله بما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهد إليهم في أمره ونهيه، وما احتج به لرسله بالمعجزات التي لا يقدر على الاتيان بمثلها الشاهدة لهم على صدقه. ونقضهم ذلك: تركهم الاقرار بما قد ثبت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب.

وقال قوم هو وصية الله إلى خلقه، وأمره على لسان رسله إياهم فيما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه. ونقضهم: تركهم العمل به.

وقال قوم: هذه الآية نزلت في كفار أهل الكتاب، والمنافقين منهم، وإياهم عنى الله عزوجل بقوله « إن الذين كفروا سواء عليهم .. » الآية. وقوله: « ومن الناس من يقول آمنا بالله » وكل ما في هذه الآية من اللوم والتوبيخ متوجه إليهم. وعهد الله الذي نقضوه بعد ميثاقه هو ما أخذه عليهم في التوراة من العمل بما فيها، واتباع محمد (ص) إذا بعث، والتصديق بما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك جحودهم به بعد معرفتهم بحقيته « ١ » وانكارهم ذلك،

«١» نسخة بدل (بحقيته)

وكتمانهم ذلك عند الناس بعد إعطائهم إياه تعالى من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، وإيمانهم أنهم متى جاءهم نذير آمنوا به ، فلما جاءهم النذير ازدادوا نفوراً ، ونبذوا ذلك وراء ظهورهم واشتروا به ثمنــاً قليلا . وهذا الوجه اختاره الطبري . ويقوي هذا قوله : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين من كتابٍ وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم على ذلك امري قالوا : اقررنا ، قال : فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين » « ١ » والامر العهد أيضاً وقال في موضع آخر: « وأقسموا بالله جهدأيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها» «٢» وقال : « وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا » « ٣ » وقال قوم : انما عنى بذلك العهد الذي أخذه الله حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصفه في قوله : « واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم .. الى آخر الآية » « ٤ » وهذا الوجه عندي ضعيف لأن الله تعالى لا يجوز ان يحتج على عباده بعهد لا يذكرونه ولا يعرفونه . وما ذكروه غير معلوم اصلا . والآية سنبين القول فيها اذا انتهينا اليها إن شاء الله .

والقطع هو الفصل بين الشيئين احدهما من الآخر . والأصل أن يكون في الأجسام ويستعمل في الأعراض تشبيهاً به . يقال قطع الحبل والكلام . والأمر هو قول القائل لمن دونه : افعل وهو ضد النهي . والوصل هو الجمع بين الشيئين من غير حجز وقال قوم الميثاق هوالتوثيق . كما قال : « انبتكم من الارض نباتا » كقولهم اعطيتهم عطاء يريداعطاء . الاعراب : ـ وقوله : «ان يوصل» بدل من الهاء التي في به تقديره : ما أمر الله بأن يوصل ، وهو في موضع خفض.(والذين) موضعه نصب ، لأنه صفةللفاسقين .(أولئك) رفع بالابتداء . (والخاسرون)خبره . (وهم) فصل عند

«١» سورة آل عمران اية ٨١ .

«٢» سورة الانعام اية ١٠٩ .

«٣» سورة فاطمة اية ٤٣ .

«٤» سورة الاعراف اية ١٧١ .

البصريين وعماد عند الكوفيين . ويجوز أن يكون هم ابتداء ثانياً . والخاسرون خبره . والجملة في موضع خبر اولئك والنقض ضد الابرام . والميثاق والميعاد والميقات متقاربة المعنى . يقال وثق يثق ثقة واوثق ايثاقاً . وتوثق توثقاً . ويقال فلان ثقة للذكر والانثى ، والواحد والجمع بلفظ واحد . فاذا جمع قيل ثقات في الرجال والنساء . ومن لابتدء الغاية في الآية . وقيل : إنها زائدة . والهاء في قوله ميثاقه يحتمل ان تكون راجعة الى اسم الله تعالى . وقال قتادة قوله : « ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل » وقطيعة الرحم والقرابة . وقال غيره معناه الأمر بأن يوصل كل من أمر الله بصلة من اوليائه . والقطع : البراءة من اعدائه وهذا أقوى ، لأنه أعم من الأول . ويدخل فيه الأول . وقال قوم : اراد صلة رسوله وتصديقه ، فقطعوه بالتكذيب وهو قول الحسن . وقال قوم أراد أن يوصل القول بالعمل ، فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا . وما قلناه اولا أولى لأنا إذا حملناه على عمومه دخل ذلك فيه .

وقوله : « يفسدون في الأرض » . قال قوم : استدعاؤهم الى الكفر . وقال قوم : إخافتهم السبيل وقطعهم الطريق . وقال قوم اراد كل معصية تعدى ضررها الى غير فاعلها . والخسران هو النقصان . قال جرير :

إن سليطا فى الخسار إنه   أولاد قوم خلقوا أقنه

يعني بالخسار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم . وقال قوم : الخسار هاهنا : الهلاك يعني هم الهالكون . وقال قوم : كلما نسبه الله من الخسار الى غير المسلمين فانما عنى به الكفر وما نسب به إلى المسلمين انما عنى به الدنيا ، روي ذلك عن ابن عباس .

كَيفَ تَكفرُونَ بِاللهِ وَكُنتم أمواتاً فأحياكم ثُم يُميتُكمْ ثُم يُحييكم ثُمَّ إليه تُرجَعونَ . آية

« كيف » موضوعة للاستفهام عن الحال . والمعنى ههنا التوبيخ . وقال الزجاج : هو التعجب للخلق وللمؤمنين . أي اعجبوا من هؤلاء كيف يكفرون . وقد

ثبتت حجة الله عليهم .

ومعنى « وكنتم » أي وقد كنتم . الواو واو الحال . واضمار قد جائز اذا كان في الكلام ما يدل عليها . كما قال : (حصرت صدورهم) أي قد حصرت صدورهم وكما قال : (إن كان قميصه قد من دبر) أي قد قدّ من دبر . ومن قال هو توبيخ قال هو مثل قوله : « فأين تذهبون » . وقال قتادة : وكنتم امواتاً فأحياكم كما كانوا امواتاً في اصلاب آبائهم يعني نطفاً ، فاحياهم الله بأن أخرجهم ثم اماتهم الله الموتة التي لابد منها ، ثم احياهم بعد الموت . وهما حياتان وموتان وعن ابن عباس وابن مسعود أن معناه لم تكونوا شيئاً فخلقكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم يوم القيامة . وروى ابو الأحوص عن عبدالله في قوله : « امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين » قال : هي كالتي في (البقرة) : « كنتم امواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم » وهو قول مجاهد وجماعة من المفسرين . وروي عن أبي صالح أنه قال : كنتم امواتاً في القبور فأحياكم فيها ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم يوم القيامة وقال قوم : كنتم امواتاً يعني خاملي الذكر ، دارسي الاثر ، فاحياكم بالظهور والذكر ثم يميتكم عند تقضي آجالكم ثم يحييكم للبعث قال ابو نخيلة السعدي :

فاحييت من ذكري وما كان خاملا   ولكن بعض الذكر انبه من بعض

وهذا وجه مليح غير أن الاليق بما تقدم قول ابن عباس وقتادة . وقال قوم : معناه أن الله تعالى احياهم حين أخذ الميثاق منهم وهم في صلب آدم وكساهم العقل ثم اماتهم ثم احياهم واخرجهم من بطون امهاتهم . وقد بينا أن هذا الوجه ضعيف في نظائره ، لأن الخبر الوارد بذلك ضعيف والاقوى في معنى الآية أن يكون المراد بذلك تعنيف الكفار واقامة الحجة عليهم بكفره وجحودهم ما انعم الله تعالى عليهم وانهم كانوا أمواتاً قبل ان يخلقوا في بطون امهاتهم واصلاب آبائهم يعني نطفاً والنطفة موات، ثم احياهم فاخرجهم الى دار الدنيا احياء ، ثم يحييهم في القبر للمساءلة ، ثم يبعثهم يوم القيامة للحشر والحساب وهو قوله تعالى : « ثم اليه ترجعون » معناه ترجعون للمجازاة على الاعمال كقول القائل : طريقك عليّ

ومرجعك الي . يريد اني مجازيك ومقتدر عليك وسمى الحشر رجوعاً الى الله ، لأنه رجوع الى حيث لا يتولى الحكم فيه غير الله فيجازيكم على اعمالكم كما يقول القائل : امر القوم الى الأمير أو القاضي ولا يراد به الرجوع من مكان الى مكان وانما يراد به ان النظر صار له خاصة دون غيره فان قال قائل : لم يذكر الله احياء في القبر فكيف تثبتون عذاب القبر قلنا : قد بينا أن قوله : « ثم يحييكم » المراد به احياؤهم في القبر للمساءلة وقوله : « ثم اليه ترجعون » معناه احياؤهم يوم القيامة وحذف ثم يميتكم بعد ذلك لدلالة الكلام عليه على ان قوله : « ثم يحييكم » لو كان المراد به يوم القيامة ، لم يمنع ذلك من احياء في القبر ، واماتة بعده كما قال تعالى : « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم احياهم » «١» ولم يذكر حياة الذين احيوا في الدنيا بعد ان ماتوا . وقال في قوم موسى « فاخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون ثم بعثنا من بعد موتكم لعلكم تشكرون » «٢» ولم يذكر حياتهم في الدنيا ولم يدل ذلك على أنهم لم يحييوا في الدنيا بعد الموت وكذلك ايضاً لا تدل هذه الآية على ان المكلفين لا يحيون في قبورهم للثواب والعقاب على ما أخبر به الرسول (عليه السلام) وقول من قال : لم يكونوا شيئاً . ذهب الى قول العرب للشيء الدارس الخامل : إنه ميت يريد خموله ودرسه وفي ضد ذلك يقال : هذا أمر حي يراد به ، كانه متعالم في الناس ومن اراد الاماتة التي هي خروج الروح من الجسد ، فانه اراد بقوله : « وكنتم امواتا » انه خطاب لأهل القبور بعد احيائهم فيها وهذا بعيد لأن التوبيخ هنالك انما هو توبيخ على ما سلف ، وفرط من اجرامهم لا استعتاب واستدراع وقوله : « كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا » توبيخ مستعتب ، وتأنيب مسترجع من خلقه من المعاصي الى الطاعة ، ومن الضلالة الى الانابة ولا انابة في القبر ولا توبة فيها بعد الوفاة واحسن الوجوه مما قدمنا ما ذكر ابن عباس وبعده قول قتادة.

«١» سورة البقرة آية ٢٤٣ .

«٢» سورة البقرة : آية ٥٤ ـ ٥٥

قوله تعالى :

هُوَ الَّذي خلقَ لكمْ ما في الارضِ جميعاً ثمَّ استوى الى السَّماءِ فَسوَّاهُنَّ سبعَ سماواتٍ وَهوَ بكلِّ شيءٍ عليمٍ. آية بلا خلاف .

المعنى :

« هو » كناية عن الله عز وجل في قوله : « تكفرون بالله » واراد به تأكيد الحجة فقال : « كيف تكفرون بالله » الذي احياكم بعد موتكم « ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون الذي خلق لكم ما في الارض » يعني الذي في الارض ٠

و « ما » في موضع نصب ، لأن الأرض وجميع ما فيها نعمة من الله لخلقه : اما دينية فيستدلون بها على معرفته ، وإما دنيوية فينتفعون بها بضروب النفع عاجلا

وقوله : « ثم استوى الى السماء فيه وجوه :

احدها — ما قاله الفراء : من ان معناه اقبل عليها ٠ كما يقول القائل : كان فلان مقبلا على فلان يشتمه ، ثم استوى الي يشتمني ، واستوى علي يشاتمني قال الشاعر:

اقول وقد قطعن بنا شروري ثواني واستوين من الضجوع «١»

أي أقبلن وخرجن من الضجوع وقال قوم : ليس معنى البيت ما قاله وانما معناه استوين على الطريق من الضجوع خارجات «٢» بمعنى استقمن عليه ٠ وقال قوم : معنى استوى : قصدها لتسويتها كقول القائل : قام الخليفة يدبر أمر بني تميم ، ثم استوى وتحول الى بني ربيعة ، فأعطاهم وقسم لهم اي قصد اليه ٠ ويقال مر فلان مستوياً الى موضع كذا ولم يعدل اى قصد اليها ٠ وقال قوم : معنى استوى اى استولى على السماء بالقهر كما قال : « لتستووا على ظهوره » «٣» أي تقهروه ومنه قوله تعالى : « ولما بلغ أشده واستوى » «٤» أى تمكن من أمره

«١» قائله تميم بن ابي ٠ عن معجم ما استعجم ٠ في المطبوعة « سواهد » بدل « ثواني » شروري : جبل بين بني اسد وبني عامر في طريق الكوفة ٠ الضجوع ـ بفتح الضاد ـ مكان

«٢» فى المطبوعة « فارجات » والصحيح ما ذكرنا

«٣» سورة الزخرف ٠ آية ١٣ «٤» سورة القصص : آية ١٤

وقهر هواه بعقله فقال : (ثم استوى الى السماء) فى تفرده بملكها ، ولم يجعلها كالارض ملكا لخلقه ومنه قول الشاعر :

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر

وقال آخر :

ثم استوى بشر على العراق من سيف ودم مهراق

وقال الحسن : ثم استوى امره وصنعه الى السماء ، لأن أوامره وقضاياه تنزل من السماء الى الأرض وقال بعضهم استوى بمعنى استوت به السماء كما قال الشاعر :

اقول له لما استوى في ترائه على أي دين قتّل الناس مصعب «١»

وأحسن هذه الوجوه أن يحمل على أنه علا عليها فقهرها ، وارتفع فدبرها بقدرته ، وخلقهن سبع سماوات ، فكان علوه عليها علو ملك وسلطان لا علو انتقال وزوال ، وبعد ذلك قول من قال : قصد اليها لخلقها ، ولا يقدح في الأول علوه تعالى على الاشياء فيما لم يزل ، لأنه وان كان كذلك لم يكن قاهراً لها بخلقها ، لأن ذلك متجدد ، وانما قال : الى السماء ولا سماء هناك كما يقول القائل : اعمل هذا الثوب وانما معه غزل ، وقال قوم : انما سواهن سبع سماوات بعد ان كانت دخانا والاول أملح ، وقال الرماني السموات غير الافلاك لأن الأفلاك تتحرك وتدور واما السماوات لا تتحرك ولا تدور لقوله تعالى : (ان الله يمسك السماوات والأرض ان تزولا) «٢» وهذا ليس بصحيح ، لأنه لا يمتنع ان تكون السماوات هي الأفلاك وان كانت متحركة ، لأن قوله تعالى : (يمسك السماوات والارض أن تزولا) معناه لا تزول عن مراكزها التي تدور عليها . ولولا امساكه لهوت بما فيها من الاعمالات سفلا . ومعنى (سواهن) أي هيأهن وخلقهن وقومهن ودبرهن والتسوية : التقويم والاصلاح . يقال سوى فلان لفلان هذا الأمر أي قومه واصلحه . وقال الفراء : السماء واحدة تدل على الجمع فلذلك قال : (ثم استوى الى السماء) فذكرها بلفظ الواحد . ثم اخبر عنها بلفظ الجمع في قوله : (فسواهن) وقال

«١» لم يعرف قائل هذا البيت فى مطبوعة « الطبري » « ترابه » بدل ترائه

«٢» سورة فاطر : آية ٤١

الأخفش : السماء اسم جنس يدل على القليل والكثير كقولهم اهلك الناس الدينار والدرهم . وقال بعضهم : السماء جمع واحده سماوة : مثل بقرة وبقر ، ونخلة ونخل ، وثمرة وثمر «١» ولذلك أنثت فقيل هـذه سماء ، وذكرت أخرى فقيل : (السماء منفطر به) «٢» كما يفعل ذلك بالجمع الذى لا فرق بينه وبين واحده غير دخول الهاء وخروجها فيقال : هذا نخل ،وهذه نخل وهذا بقر وهذه بقر . ومن قال بالاول قال : إذا ذكرت فانما هو على مذهب من يذكر المؤنث . كقول الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض ابقل ابقالها «٣»

وقال اعشى بني ثعلبة :

فاما ترى لمتي بدّلت فان الحوادث أزرى بها «٤»

وقال قوم : إن السماوات ، وان كانت سماء فوق سماء . وارضاً فوق أرض فهي في التأويل واحدة ، وتكون الواحدة جماعا كما يقال : ثوب أخلاق وأسمال ؛ ورمة اعشار ، للمتكسرة ، وبرمه اكسار واجبار واخلاق ، أي نواحية أخلاق«٥» ويقال ارض اعقال وارض اخصاب . والمعنى أن كل ناحية منها كذلك ، فجمع على هذا . ولا ينافي ذلك قول من قال : إن السماء كانت دخاناً قبل أن يسويها سبع سماوات ، ثم سبعاً بغير استوائه عليها . وذلك أنه يقول : كن سبعاً غير مستويات ، فسواها الله تعالى فان قيل : قوله (هو الذيخلق لكم ما في الارض جميعاً ثم استوى الى السماء) ظاهره يوجب أنه خلق الأرض قبل السماء ، لأن (ثم) للتعقيب ، وللتراخي . وقال في موضع آخر : (انتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) ثم قال : (والأرض بعد ذلك دحاها) هذا ظاهر التناقض .قلنا :المعنى

«١» ثمرة وثمر (نسخة) .

«٢» سورة المزمل : آية ١٨ .

«٣» صاحب البيت عامر بن جوين ، المزنه : قطعة السحاب . الودق : المطر . ابقلت الارض: اخرجت بقلها .

«٤» ازرى بها : حقرها وانزل بها الهوان .

«٥» الخاق : البالي . وبرمة اجبار جاؤ برمة اجبر وان لم يقولوه مفردا . واصله من جبر العظم وهو لأمه .

في ذلك خلق الارض قبل السماء غير أنه لم يدحها . فلما خلق السماء دحاها بعد ذلك ودحوها : بسطها ، ومدها ومنه ادحية لنعام ، سميت بذلك ، لأنها تبسطها لتبيض فيها . ويجوز أن لا يكون معنى (ثم) و (بعد) في هذه الآيات الترتب في الاوقات والتقدم والتأخر فيها ، انما هو على جهة تعداد النعم والاذكار لها . كما يقول القائل لصاحبه : أليس قد اعطيتك ، ثم حملتك ، ثم رفعت في منزلتك ، ثم بعد ذلك كله خلطتك بنفسي وفعلت بك وفعلت . وربما يكون بعض الذى ذكره في اللفظ متقدما ، كان متأخرا ، لأن المراد لم يكن الاخبار عن اوقات الفعل ، وانما المراد الذكر والتنبيه عليها . فان قيل أي نسبة بين قوله : (ثم استوى الى السماء) وبين قوله : (وهو بكل شيء عليم) وكان يجب ان يقول : (وهو على كل شيء قدير) قيل انما جاز ذلك ، لأن الله لما وصف نفسه بما يدل على القدرة والاستيلاء وصل ذلك بما يدل على العلم ، إذ بها يصح وقوع الفعل على وجه الاحكام ، والاتقان . وايضاً اراد أن يبين انه عالم بما يؤول اليه حاله ، وحال المنعم به عليه ، فيستحق بذلك النعمة .

وتلخيص معنى الآية ان الله تعالى هو الذى خلق لكم الارض وما فيها من الجبال والمياه والاشجار ، وما قدر فيها من الأقوات ، ثم قضى خلق السماء بعد خلقه الأرض . ومعنى استوى أي عمد لها وقصد الى خلقها ، وسواها سبع سماوات فبناهن وركبهن كذلك ونظير ذلك قوله : (أإنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام) «١» يعني يومين بعد اليومين الأولين حتى صار بذلك اربعة ايام ثم استوى الى السماء . فمعنى قوله : (خلق لكم ما في الأرض جميعاً) هو الذي بينه بقوله : (وجعل فيها رواسي من فوقها . . الآية) وجعل ذكره لذلك في الآية الأولى تأكيد الحجة على عباده لئلا يكفروا به ، ولأن يؤمنوا به ويشكروه . وقوله : (كيف تكفرون) يدل انه تعالى ما اراد الكفر

«١» سورة حم السجدة : آية ٩ و ١٠

منهم ، لأنه لو اراده منهم وخلقه فيهم لما قال ذلك . كما لا يحسن أن يقول : لم كنتم سوداً وبيضاً وطوالا وقصاراً . وقوله : وهي دخان . فالذي روي في الاخبار أن الله تعالى لما خلق الارض ، خلقها بعد الماء فصعد منه بخار وهو الدخان ، فخلق الله منه السماوات وذلك جائز لا يمنع منه مانع . وقوله : (وهو بكل شيء عليم) معناه عالم وفيه مبالغة . وانما أراد اعلامهم أنه لا يخفى عليه شيء من افعالهم الظاهرة والباطنة ، والسر والعلانية .

قوله تعالى :

وَاذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة إني جَاعِلٌ في الارْضِ خَلِيفَةً قَالوا أتجعلُ فِيها مَنْ يُفسدُ فِيها وَيسفِكُ الدِّمَاءَ وَنحنُ نُسبِّحُ بحمدِكَ وَنُقَدِّسُ لكَ قالَ إني أعلمُ ما لا تعلمونَ . آية

المعنى :

قال أبو عبيدة : (إذا) زائدة . والتقدير (قال ربك للملائكة) . وهي تحذف في مواضع . قال الاسود بن يعمر :

واذا وذلك لا مهاه لذكره والدهر يعقب صالحاً بفساد «١»

معناه وذلك لا مهاه لذكره . قال عبد مناة بن مربع وقيل : ابن ربع الهذلي

حتى اذا أسلكوهم في قتائدةٍ شلاً كما تطرد الجمالة الشردا «٢»

ومعناه حتى اسلكوهم . والقتائد : الموضع الذي فيه قتاد «٣» كثير . والشل الطرد . والجمالة : الجمالون . والشرد الابل التي تشرد عن مواضعها ، وتقصد غيرها وتطرد عنها . وهذا الذي ذكره ليس بصحيح ، لأن إذا : حرف يأتي بمعنى الجزاء ويدل على مجهول من الوقت . ولا يجوز إبطال حرف كان دليلا على معنى في الكلام

«١» في المطبوعة (لا مهاة) والصحيح ما ذكرنا كما عن (المفضليات) يقال ليس لعيشنا مهه ومهاه أي ليس له حسن او نضارة «٢» في المطبوعة (يطرد) والبيت في ديوان الهذليين والخزانة اسلك الرجل غيره الطريق وسلكه فيه اضطره اليه والقتائدة : جبل في طريق مكة والمدينة وجواب (اذا) في البيت فعل محذوف دل عليه المصدر . «٣» القتاد نبات ذو شوك .

إلا لضرورة . وليس المعنى في البيتين على ما ظن ، بل لو حمل (إذا) في البيتين على البطلان بطل معنى الكلام الذي أراد الشاعر ، لأن الأسود أراد بقوله :(واذا) الذي نحن فيه وما مضى من عيشنا .واراد بقوله (ذلك)الاشارةالى ما تقدم وصفه من عيشه الذي كان فيه لا مهاه لذكره . يعني لا طعم له ، ولا فضل لأعقاب الدهر ذلك بفساد . ومعنى قول عبد مناة بن ربع: حتى اذا اسلكوهم في قتائدة . إن قوله : اسلكوهم مثلا يدل على معنى محذوف ، واستغنى عن ذكره بدلالة (اذا) عليه فحذف كما قال نمر بن تولب :

فان المنية من يخشها   فسوف تصادفه اينما

يريد اينما ذهب . وكما يقول القائل : من قبل ، ومن بعد . يريد من قبل ذلك ، ومن بعد ذلك ، ويقول القائل : اذا اكرمك أخوك فأكرمه واذا لا «١» فلا يريد واذا لم يكرمك فلا تكرمه . ومن ذلك قول الشاعر :

فاذا وذلك لا يضرك ضرة   في يوم اسأل نائلااو انكد «٢»

وكذلك لو حذف (اذا) في الآية لاستحالت عن معناهاالذي تفيده(إذ) ، لأن تقديره : ابتدأ خلقكم اذ قال ربك للملائكة . قال الزجاج والرماني أخطأ أبو عبيدة ، لأن كلام الله لا يجوز أن يحمل على اللغو مع امكان حمله على زيادة فائدة قال : ومعنى إذ : الوقت وهي اسم كيف يكون لغواً ؟ قال والتقدير الوقت والحجة في (إذ) أن الله عز وجل ذكر خلق الناس وغيرهم ، فكأنه قال : ابتدأ خلقك اذ قال ربك للملائكة . وقال الفضل : لما امتن الله بخلق السماوات والأرض ، ثم قال : وإذ قلنا للملائكة ما قلناه فهو نعمة عليكم وتعظيم لأبيكم . واختار ذلك الحسن «٣» بن علي المغربي . وقال الرماني والزهري : اذكر اذ قال ربك . والملائكة جمع غير أن واحدهم بغير همز أكثر فيحذفون الهمزة ويحركون اللام التي كانت ساكنة لو همز الاسم الى اللام . فاذا اجمعوا ، ردوه الى الأصل وهمزوا . كما

«١» في المطبوعة « لا » ساقطة ولا يستقيم المعنى بدونها . «٢» في المطبوعة « نكرا » بدل انكد. ونكده ما سأله: قال له العطاء او لم يعطه البتة . «٣» نسخة بدل « الحسين » .

يقولون: رأى ، ثم يقولون يرى بلا همز . وذلك كثير. وقد جاء مهموزا في واحده قال الشاعر :

فلست بأنسي ولكن ملأكا تنزل من جو السماء يصوب «١»

وقد يقال في واحدهم مألك : مثل قولهم : جبذ وجذب فيقلبونه ، وشأمل وشمأل . ومن قال : مألك يجمعه ملائك بلا هاء مثل اشعث واشاعث . قال أمية ابن ابي الصلت :

وفيها من عباد الله قوم ملائك ذللوا وهم صعاب «٢»

واصل الملأك «٣» الرسالة . قال عدي بن زيد العبادي :

ابلغ النعمان عني ملأكاً أنه قدطال حبسي وانتظاري «٤»

وقد ينشد ملأكا ومألكا على اللغة الأخرى . فمن قال: ملأكا فهو مفعل من لاك اليه يليك إذا أرسل اليه رسالة: ومن قال مألكا فهو مفعل من ألكت اليه الألكة اذا ارسلت اليه مألكة والوكا وكما قال لبيد بن ربيعة :

وغلام ارسلته امه بالوك فبذلنا ما سأل

وهذا من الكت ويقال : لاك يلأك والك يألك اذا أرسل قال عبد بني الحسحاس «٥» :

ألكني اليها عمرك الله يافتى بآية ما جاءت الينا تهاديا «٦»

يعني أبلغها رسالتي . فسميت الملائكة ملائكة بالرسالة ، لأنها رسل الله بينه وبين انبيائه ، ومن أرسل من عباده . هذا عند من يقول : إن جميع الملائكة رسل فاما ما يذهب اليه اصحابنا أن فيهم رسلا وفيهم من ليس برسل ، فلا يكون الاسم

«١» البيت منسوب لعلقمة بن عبدة وليس في ديوانه وهو من ابيات سيبويه وفى اللسان « ألك » «٢» ديوانه . ذللوا : من الذل . «٣» في المطبوعة « ملك » وصححت بـ «مألك»

«٤» الاغاني والعقد الفريد بعد البيت وهو متمم له :

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

«٥» في المطبوعة عبيد بن الحسحاس .

«٦» الكني اليها : ابلغها رسالة مني . ديوان سحيم عبد بني الحسحاس .

مشتقاً ، بل يكون علماً او اسم جنس . وانما قالوا : إن جميعهم ليسوا رسل الله لقوله تعالى : (يصطفي من الملائكة رسلا) «١» فلو كانوا جميعاً رسلا ، لكانوا جميعاً مصطفين ، لأن الرسول لا يكون إلا مختاراً مصطفى . وكما قال : (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) «٢» .

وقوله : (اني جاعل) أي فاعل وخالق . وهما يتقاربان . قال الرماني : حقيقة الجعل : تصيير الشيء على صفة . والاحداث حقيقة : إيجاد الشيء بعد أن لم يكن موجوداً . والخليقة : الفعيلة من قولهم : خلف فلان فلاناً في هذا الأمر : اذا قام مقامه فيه بعده ، لقوله تعالى : (ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون) «٣» يعني بذلك : أبدلكم في الارض منهم ، فجعلكم خلفاً في الارض من بعدهم . وسمي الخليفة خليفة من ذلك ، لأنه خلف من كان قبله ، فقام مقامه. الخلف ـ بتحريك اللام ـ يقال : فيمن كان صالحاً . ـ وبتسكين اللام ـ اذا كان طالحاً . قال الله تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة) . وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : ينقل هذا العلم من كل خلف عدوله . وقال قوم : سمى الله تعالى آدم خليفة ، لأنه جعل آدم وذريته خلفاء الملائكة ، لأن الملائكة كانوا سكان الأرض . وقال ابن عباس : انه كان في الارض الجن ، فأفسدوا فيها ، وسفكوا الدماء ، فاهلكوا ، فجعل الله آدم وذريته بدلهم . وقال الحسن البصري : إنما أراد بذلك قوماً يخلف بعضهم بعضاً من ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم في إقامة الحق وعمارة الأرض . وقال ابن مسعود : أراد أني جاعل في الأرض خليفة يخلفني في الحكم بين الخلق ، وهو آدم ، ومن قام مقامه من ولده . وقيل انه يخلفني في انبات الزرع واخراج الثمار ، وشق الانهار . وقيل ان الأرض أراد بها مكة ، روي ذلك عن ابن سارط ، أن النبي (ص) قال : دحيت الأرض من مكة ولذلك سميت ام القرى . قال : دفن نوح وهود وصالح وشعيب

«١» سورة الحج : آية ٧٥ .
«٢» سورة الدخان : آية ٣٢ .
«٣» سورة يونس : آية ١٤ .

بين زمزم والمقام . وقال قوم : انها الأرض المعروفة . وهو الظاهر .

وقوله : (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) وروي ان خلقاً يقال لهم الجان كانوا في الأرض فافسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله تعالى ملائكة اجلتهم من الأرض . وقيل : ان هؤلاء الملائكة كانوا سكان الارض بعد الجان فقالوا : يا ربنا اتجعل في الارض يفسد فيها ويسفك الدماء . على وجه الاستخبار منهم والاستعلام عن وجه المصلحة ، والحكمة لا على وجه الانكار . كأنهم قالوا ان كان هذا كما ظننا فعرفنا وجه الحكمة فيه . وقال قوم : المعنى فيه ان الله اعلم الملائكة انه جاعل في الارض خليفة وان الخليفة فرقة تسفك الدماء وهي فرقة من بني آدم فأذن الله للملائكة ان يسألوه عن ذلك وكان اعلامه أياهم هذا زيادة على التثبيت في نفوسهم انه يعلم الغيب فكأنهم قالوا : أتخلق فيها قوماً يسفك الدماء ، ويعصونك وانما ينبغي انهم اذا عرفوا انك خلقتهم ان يسبحوا بحمدك كما نسبح ويقدسوا كما نقدس ؟ ، ولم يقولوا : هذا إلا وقد اذن لهم ، لأنهم لا يجوز ان يسألوا ما لا يؤذن لهم ما فيه ،ويؤمرون به ، لقوله : (ويفعلون ما يؤمرون) «١» فان قيل من اين لكم أنهم كانوا علموا ذلك ؟ قيل ذلك محذوف لدلالة الكلام عليه ، لأنا علمنا أنهم لا يعلمون الغيب وليس اذا فسد الجن في الارض ، وجب أن يفسد الانس وقوة السؤال تدل على أنهم كانوا عالمين وجرى ذلك مجرى قول الشاعر :

فلا تدفنوني إن دفني محرم … عليكم ولكن خامري أم عامر «٢»

فحذف قوله : دعوني للتي يقال لها إذا أريد صيدها خامري أم عامر فكأنه قال : إني جاعل في الأرض خليفة يكون من ولده افساد في الأرض وسفك الدماء وقال ابو عبيدة والزجاج : أنهم قالوا ذلك على وجه الايجاب وإن خرج مخرج الاستفهام كما قال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا … واندى العالمين بطون راح ؟

«١» سورة النحل : آية ٥٠ «٢» الشعر للشنفرى. الحماسة الاغاني. ويروى (فلا تقبروني ان قبري) (ولكن ابشري) خامري : استتري . امعامر : كنية الضبع.

فعلى هـذا الوجه قال قوم : إنما أخبروا بذلك عن ظنهم وتوهمهم ، لأنهم رأوا الجن من قبلهم قـد افسدوا في الأرض وسفكوا الدماء فتصوروا أنه إن استخلف غيرهم ، كانوا مثلهم ، فقال تعالى منكراً لذلك : (إني اعلم ما لا تعلمون) وهذا قول قتادة وا بن عباس وابن مسعود . وقال آخرون : إنهم قالوه يقينا لأن الله كان أخـبرهم انه يستخلف في الارض من يفسـد فيها ويسفك الدماء . فاجابوه بعد علمهم بذلك بأن قالوا : « أتجعل فيها من يفسـد فيها ويسفك الدماء » وانما قالوه استعظاماً لفعلهم أي كيف يفسدون فيها ويسفكون الدماء ، وقـد انعمت عليهم واستخلفتهم فيها فقال : « إني اعلم ما لا تعلمون » وقال قوم : إنهم قالوا ذلك متعجبين من استخلافه لهم أي كيف يستخلفهم وقد علم انهم « يفسـدون فيها ويسفكون الدماء »؟ فقال : « إني اعلم ما لا تعلمون » .

والسفك : صب الدماء خاصة دون غيره من الماء ، وجميع المايعات . والسفح مثله لأنه مستعمل في جميع المايعات على وجه التضييع ، ولذلك قالوا في الزنا انه سفاح لتضييع مائه فيه .

والملائكة المذكورون في الآية . قال قوم : هم جميع الملائكة . وقال آخرون ـ وهو المروي عن ابن عباس والضحاك ـ إنه خطاب لمن اسكنه من الملائكة الأرض بعد الجان ، وقبل خلق آدم ، وهم الذين أجلوا الجان عن الارض . وقال قتادة في قوله : « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » وقد علمت الملائكة من علم الله أنه لا شيء عنـد الله أكبر من سفك الدماء والافساد في الارض قال الله تعـالى : « إني اعلم ما لا تعلمون » من أنه سيكون من الخليفة رسل وانبياء ، وقوم صالحون وسا كنون الجنة . واقوى هـذه الوجوه قول من قال : إن الملائكة إنما قالت : « اتجعل فيها من يفسد فيها » على وجه التعجب من هذا التـدبير ، لا إنكاراً له ولكن على وجه التألم والتوجع والاغتمام والاستعلام لوجه التـدبير فيه ، فقال : « إني اعلم ما لا تعلمون » من وجه المصلحة في خلقهم ، وما يكون منهم من الخير والرشد والعلم ، وحسن التدبير والحفظ ، والطاعة ما لا تعلمون . فإن قيل : الملائكة

بم عرفت ذلك ، اذ لم يمكنها أن تستدرك ذلك بالنظر والفكر . قلنا : قد يجوز أن لا يكون خطر ببالها ذلك إلا عند ما أعلمهم الله ، فلما علموا ذلك ، فزعوا الى المسألة عنه ، لأن المسألة لمن يتوقع سرعة جوابه أو يوثق بعلمه وخبره يقوم مقام النظر والفكر . وقوله : « أتجعل فيها من يفسد فيها » يريدون من ولد آدم الذين ليسوا أنبياء ، ولا أئمة معصومين . فكأنه قال تعالى : إني جاعل في الأرض خليفة يكون له ولد ونسل يفعلون كيت وكيت . فقالوا : « اتجعل فيها من يفسد فيها » يريدون الولد . وقد بينا أن الخليفة من يخلف من تقدمه، جماعة كانوا أو واحداً فلما أخبر الله تعالى الملائكة أنه يخلق في الارض عباداًهم آدم وولده ويكون خليفة لمن تقدمهم من الجن أو غيرهم ، قالوا ما قالوا . ويحتمل أن يكون قوله : « من يفسد فيها » يريدون البعض لا الكل . كما يقال : بنو شيبان يقطعون الطريق . ويراد بعضهم دون جميعهم .

وقوله : (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) والتسبيح هو التنزيه من السوء على وجه التعظيم وكل من عمل خيراً قصد به الله فقد سبح . يقال : فرغت من سبحتي أي من صلاتي . وقال سيبويه : معنى سبحان الله : براءة الله وتنزيه الله من السوء . قال اعشى بني تغلب :

اقول ـ لما جاءني فخره ـ :   سبحان من علقمة الفاخر «١»

أي براءة من علقمة الفاخر . وهو مشتق من السبح الذي هو الذهاب . قال الله تعالى : « إن لك في النهار سبحاً طويلا » «٢» ولا يجوز أن يسبح غير الله وان كان منزها ، لأنه صار علماً في الدين على أعلى مراتب التعظيم التي لا يستحقها سواه . كما أن العبادة غاية في الشكر لا يستحقها سواه . وقال ابن عباس وابن مسعود : « نحن نسبح بحمدك » بمعنى نصلي لك كما قال : « فلولا انه كان من المسبحين » «٣» أي من المصلين . وقال مجاهد : معناه نعظمك بالحمد والشكر على

«١» ديوانه . الاغاني . علقمة في البيت هو علقمة بن علاثة هجاه الشاعر . «٢» سورة المزمل : آية ٧ . «٣» سورة الصافات : آية ١٤٣ .

نعمك . وقال قتادة : هو التسبيح المعروف . وقال المفضل : هو رفع الصوت بذكر الله . قال جرير :

قبح الاله وجوه تغلب كلما سبح الحجيج وهللوا إهلالا

واصل التقديس : التطهير . ومنه قوله : الأرض المقـدسة أي المطهرة . قال الشاعر :

فادركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس «١»

أي المطهر . وقال قوم : معنى نقدس لك : نصلي لك . وقال آخرون : نقدس انفسنا من الخطايا والمعاصي وقال قوم : نطهرك من الادناس أي لا نضيف اليك القبائح. والقَدَس : السطل الذي يتطهر منه أي يقدس . ويوصف تعالى بأنه قدوس سبوح أي سبحانه أن يكون شريكا لغـيره طاهر من كل عيب . وقوله : « إني اعـلم ما لا تعملون » . قال قوم : أراد ما أظهره إبليس من الكبر والعجب والمعصية لما أمر الله تعالى لآدم . ذهب اليه ابن مسعود ، وابن عباس . وقال قتادة : أراد من في ذرية آدم من الانبياء والصالحين . وقال قوم : أراد به ما اختص بعلمه من تدبير المصالح . فان قيـل : لو كان آدم قادراً على أن لا يأكل من الشجرة ، لكان قادراً على نقض ما دبره الله فيـه ، لأنه لو لم يأكل منها للبث في الجنـة . والله تعالى إنما خلقه ليجعله خليفة في الأرض فهذا يدل على أنه لم يكن بد من المخالفة . قلنا عن هذا جوابان :

أحدهما — ان الجنة التي خلق الله تعالى فيها آدم ، لم تكن جنة الخلد ، وانما كانت في الأرض حيث شاء الله ، وانه حيث كان في الارض ، كان خليفة في الارض وفي هذا سقط السؤال .

والثاني — ان الله تعـالى علم أن آدم سيخالف ، وانه يهبط الى الأرض فيستخلفه فيها فأخبر الله تعالى بما علم . وقولهم : إنه لو كان قادراً على أن لا يخالف ، لكان قادراً على نقض تدبيره ـ جهل ، لأن الله تعالى قـد أمره بأن لا

«١» شبرق : مزق

يقرب الشجرة . فهل يجب بأن يكون أمره بأن ينقض تدبيره ؟ فاذا قالوا : لا . قيل: وكذلك الله قد اقدره على ألا يخالف فيلبث في الجنة . ولا يجب بذلك أن يكون أقدره على نقض تدبيره . وقد روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أن الملائكة سألت الله أن يجعل الخليفة منهم . وقالوا : نحن نقدسك ونطيعك ولا نعصيك كغيرنا . فقال أبو عبدالله (عليه السلام) : فلما أجيبوا بما ذكر الله في القرآن ، علموا أنهم قد تجاوزوا ما ليس لهم فلاذوا بالعرش استغفاراً ، فأمر الله آدم بعد هبوطه أن يبني لهم في الارض بيتاً يلوذ به المخطئون كما لاذ بالعرش الملائكة المقربون . فقال الله تعالى : إني اعرف بالمصلحة منكم . وهو معنى قوله : « إني اعلم ما لا تعلمون » .

قوله تعالى :

وَعَلَّمَ آدمَ الأَسماءَ كلَّها ثم عَرَضهم عَلى الملآئكةِ فَقالَ أَنبئوني بأسماءِ هَؤلاءِ إنْ كنتم صَادِقِينَ . آية واحدة بلا خلاف

روي عن النبي (ص) أنه قال : خلق الله آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، — وقيل قبضها ملك الموت — فجاء بنو آدم على قدر ذلك : منهم الاسود والأحمر ، والابيض ، والسهل ، والحزن ، والخبيث ، والطيب .

اللغة :

وقال ابو العباس : في اشتقاق آدم قولان :

أحدهما — انه مأخوذ من أديم الارض . قال : فاذا سميت به في هذا الوجه ثم نكرته ، صرفته .

والثاني — انه مأخوذ من الادمة على معنى اللون والصفة ، فاذا سميت به في هذا الوجه ، ثم نكرته ، لم تصرفه .

والأدمة والسمرة ، والدكنة والورقة متقاربة المعنى في اللغة . وقال صاحب العين الأدمة في الناس : شربة من سواد . وفي الابل والظباء : بياض . وادمة

الارض : وجهها . والؤدم «١» من الجلد خلاف المبشر وأدما أنثى . وآدم ذكر وهي الأدم في الجماعة . وآدم أبو البشر . والأدم : ما يؤتدم به وهو الادام . والأدم : جماعه الأديم . وأديم كل شيء : وجهه . و (كل) لفظة عموم على وجه الاستيعاب . وقال الرماني : حدّه الاحاطة بالابعاض ، يقال : أبعض القوم جاءك أم كلهم ؟ وتكون تأكيداً مثل أجمعين . غير أنه يبتدأ في الكلام بكل ، كقوله تعالى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » «٢» لأن كلاً قد يلي العوامل ويبتدأ واجمعون لا تكون إلا تابعة .

ويقال عرض عرضاً . قال صاحب العين : عرض علينا فلان المتاع يعرض عرضاً للشراء او الهبه . وقال الزجاج : العرض أصله في اللغة : الناحية من نواحي الشيء فمن ذلك العرض خلاف الطول . وعرض الرجل . قال بعضهم : ما يمدح به أو يذم وقيل عرضه : خليقته المحمودة . وقيل عرضه : حسبه. وقال الرماني : هي ناحيته التي يصونها عن المكروه وحقيقة العرض : الاظهار للشيء ليتصفح

والانباء والاعلام والاخبار واحد . قال صاحب العين : النبأ — مهموز — هو الخبر المنبيء والمخبر ولفلان نبأ أي خبر ويقال : نبأته وأنبأته واستنبأته والجمع الانباء . والنبوة اذا أخذت من الانباء فهي مهموزة لكن روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه «٣» قال : لا تنبز باسمي ، لرجل قال له : يانبيء الله . والنبيء — بالهمز — : الطريق الواضح ، يأخذ بك الى حيث تريد. والنبأة : صوت الكلاب تنبأ به نبأ. وحقيقة الانباء : الاظهار للخبر . قال الشاعر :

أدان وانبأه الأولون بأن المدان ملي وفي

والفرق بين الاخبار والاعلام أن الاعلام قد يكون بخلق العلم الضروري في القلب كما خلق الله من كال العقل والعلم بالمشاهدات . وقد يكون بنصب الادلة للشيء . والاخبار هو إظهار الخبر ، علم به أو لم يعلم . ولا يكون مخبراً بما يحدثه

«١» المؤدم : الحاذق المجرب جمع لين الادمة وخشونة البشرة .
«٢» سورة الحجر : آية ٣٠ .
«٣» ـ أنه ـ ساقطة من المطبوعة .

من العلم في القلب . كما يكون معلماً بذلك .

وقوله : « ثم عرضهم على الملائكة » إنما لم يقل : ثم عرضها ، اذ كانت الاسماء لا تعقل ، لأنه أراد أصحاب الاسماء وفيهم ما لا يعقل . كما تغلب المذكر اذا اجتمع مع المؤنث ، لأنهم يقولون : إن أصحابك وإماءك جاءوني . وروي عن ابن عباس أنه قال : عرض الخلق . وقال مجاهد : عرض أصحاب الاسماء .

وقوله : « وعلم آدم الاسماء كلها » معناه أنه علمه معاني الاسماء ، من قبل أن الاسماء بلا معان لا فائدة فيها ، ولا وجه لايثاره الفضيلة بها . وقد نبه الله الملائكة على ما فيه من لطيف الحكمة ، فاقروا عند ما سئلوا عن ذكرها والأخبار عنها أنهم لا علم لهم بها . فقال : « يا آدم أنبئهم باسمائهم » . وقول قتادة ، وظاهر العموم يقتضي أنه علمه الاسماء . وبه قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة . وأكثر المتأخرين : كالبلخي والجبائي وابن الاخشيد والرماني وقال الطبري عما يحكى عن الربيع وابن زيد : انهما قالا : علمه الله اسماء ذريته واسماء الملائكة وقال هو الاختيار دون قول ابن عباس . وقال : إن قولهم : « عرضهم » إنما يكون لمن يعقل في الاظهر من كلام العرب وهذا غلط لما بيناه من التغليب وحسنه . كما قال تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » «١» وهذا يبطل ما قاله ، ويبقى اللفظ على عموم وظاهر الآية وعمومها يدل على انه علمه جميع اللغات وبه قال الجبائي والرماني فأخذ عنه ولده اللغات فلما تفرقوا ، تكلم كل قوم منهم بلسان ألفوه واعتادوه وتطاول الزمان على ما خالف ذلك فنسوه ويجوز أن يكونوا عالمين بجميع تلك اللغات الى زمن نوح فلما أهلك جميع الخلائق إلا نوحاً ومن معه ، كانوا هم العارفين بتلك اللغات فلما كثروا وتفرقوا اختار كل قوم منهم لغة تكلموا بها ، وتركوا ما سواها ، وانقرض ونسوه . والخبر الذي يروي أن الناس امسوا ولغتهم واحدة ثم اصبحوا وقد تغيرت السنتهم وكان لا يعرف كل فريق منهم إلا كلام من كان

«١» سورة النور : آية ٤٥ .

على لغتهم ـ خبر ضعيف وأيضاً فلا يجوز أن يذهب العاقل ما كان في امسه من جلائل الامور مع سلامة عقله . قالوا : واللغات جميعاً إنما سمعت من آدم ، وعنه أخذت وقال ابن الاخشيد : إن الله فتق لسان اسماعيل بالعربية ولذلك صار اصلا للعرب من ولده ، لأنه تكلم بها على خلاف النشوء والعادة ، بل على أنه ابتدأه بها وألهمه إياها . فان قيل: مامعنى قوله: « انبئوني باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » ما الذي ادعي حتى قيل هذا ؟ قيل عن ذلك اجوبة كثيرة للعلماء .

احدها — ان الملائكة لما أخبرهم الله عز وجل أنه جاعل في الأرض خليفة هجس في نفوسها أنه لو كان الخليفة منهم بدلا من آدم وذريته ، لم يكن فساد ولا سفك دماء . كما يكون من ولد آدم ، وان ذلك أصلح لهم وان كان الله عز وجل لا يفعل إلا ما هو اصلح في التدبير ، والأصوب في الحكمة . فقال الله تعالى : « انبئوني باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » فيما ظننتم في هذا المعنى ليدلهم على أنهم إذا لم يعلموا باطن ما شاهدوا ، كانوا من أن يعلموا باطن ما غاب عنهم أبعد

والثاني - أنه وقع في نفوسهم أنه لم يخلق الله خلقاً إلا كانوا أفضل منهم في سائر ابواب العلم . فقيل : إن كنتم صادقين في هذا الظن فاخبروا بهذه الاسماء .

والثالث — قال ابن عباس : إن كنتم تعلمون لم أجعل في الارض خليفة فـ « انبئوني باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » لأن كل واحد من الأمرين من علم الغيب . فكما لا تعلمون ذا لا تعلمون الآخر .

والرابع — ما ذكره الأخفش والجبائي وابن الأخشيد : إن كنتم صادقين فيما تخبرون به من اسمائهم . كقول القائل للرجل : أخبرني بما في يدي إن كنت صادقاً أي إن كنت تعلم فاخبر به ، لأنه لا يمكن أن يصدق في مثل ذلك إلا اذا أخبر عن علم منه ، ولا يصح أن يكلف ذلك إلا مع العلم به ، ولا بد إذا استدعوا الى الاخبار عما لا يعلمون من أن يشرط بهذا الشرط ، ووجه ذلك التنبيه كما يقول العالم للمتعلم : ما تقول في كذا ، ويعلم أنه لا يحسن الجواب لينبهه عليه ، ويحثه على طلبه ، والبحث عنه ، فلو قال له : اخبر بذلك إن كنت تعلم ، او قال له :

ان كنت صادقاً ، لكان حسناً . فاذا نبهه على أنه لا يمكنه الجواب أجابه، حينئذ فيكون جوابه بهذا التدريج أثبت في قلبه ، وأوقع في نفسه . وقوله : « انبئوني » قال قوم : هو امر مشروط . كأنه قيل : إن امكنكم أن تخبروا بالصدق فيه ، فافعلوا . وقيل : إن لفظه لفظ الامر ومعناه التنبيه على ما بيناه في سؤال العالم للمتعلم ولا يجوز أن يكون ذلك تكليفاً ، لأنه لو كان تكليفاً ، لم يكن تنبيهاً لهم على أن آدم يعرف من اسماء هذه الاشياء بتعريف الله اياه ذلك ما لا يعرفون . فلما أراد تعريفهم ما خص به آدم ، من ذلك علمنا أنه ليس بتكليف . ومعنى قوله : « إن كنتم صادقين » شرط . كأنه قيل : إن كنتم صادقين في الاخبار بذلك وليس « إن » بمعنى « إذ » على ما حكاه الكسائي عن بعض المفسرين ، لأنها لو كانت كذلك ، لكانت « ان » — بفتح الهمزة — وتقديره : ان كنتم محققين ايمانكم ، فافعلوا كذا وكذا ، لأن (إذ) إذا تقدمها فعل مستقبل صارت علة للفعل وسبباً له . كقولك : إذ قمت أي من أجل ان قمت . فلو كانت إن في الآية بمعنى إذ ، كان التقدير : انبئوني باسماء هؤلاء من أجل انكم صادقين واذا وضعت إن مكان ذلك ، وجب أن تفتح الالف وذلك خلاف ما عليه القراء . والانباء قال قوم : اصله الاعلام . كقولهم : انبأت عمراً زيداً أخاك بمعنى اعلمت ولا يصلح ها هنا أخبرت إلا أنه يتناول انبئوني ها هنا بمعنى اخبروني على وجه المجاز والتوسع لتقارب المعنى في الاخبار والانباء ، لأن الله تعالى عالم بالاشياء فيما لم يزل . فلا يجوز أن يقول : علموني لما هو عالم به ومن قال : أصله الاخبار ، تعلق بظاهر القرآن وفي كيفية عرضهم قولان :

احدها — انه عرضهم بعد أن خلقهم

والثاني — أنه عرضهم بأن صورهم لقلوب الملائكة وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من حيث أن الله تعالى لما أراد تشريف آدم اختصه بعلم أبانه به من غيره ، وجعل له الفضيلة فيه ، وفي كيفية تعليم الله آدم الاسماء ، قال البلخي : ويجوز ان يكون اخبره بذلك فوعاه في وقت قصير بما اعطاه الله من الفهم والحفظ

او بأن دله ومكنه ، ورسم به رسماً فابتدع هو لكل شيء اسما يشاكله . ولابد ان يكون اعلامه له بلغة قد تقدمت المواضعة عليها حتى يفهم بالخطاب المراد به . وقال المواضعة لابد ان تستند الى سمع عند قوم وعند ابي هاشم واصحابه لا يصح ذلك فأما الذي عرض على الملائكة قال قوم عرضت الاسماء دون المسميات وقال قوم آخرون : عرضت المسميات بها . وهو الأقوى لقوله : « ثم عرضهم » وفي قراءة ابن مسعود : ثم عرضهن . وفي قراءة أبي : عرضها . وقال قوم : إنه عرضهم بعد أن خلق المسميات واحضرها لقوله : اسماء هؤلاء . وذلك إشارة الى الحاضر . وقال آخرون : إنه صورهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم قبل خلقهم وقيل : إن قوله اشارة الى الاسماء التي علمها آدم « وانبئوني » اكثر القراء بهمز . وروي عن الأعمش ترك الهمز فيه ، وهي لغة قريش .

« هؤلاء » . لغة قريش ومن جاورهم باثبات الف بين الهاء والواو ، ومد الألف الأخيرة . وتميم وبكر وعامة بني اسد يقصرون الألف الأخيرة وبعض العرب يسقط الألف الأولى التي بين الهاء والواو . ويمد الاخيرة . وانشد :

تجلد لا يقل هؤلاء هذا ... بكى لما بكى اسفاً وعيبا

وحقق الهمزة ابن عامر واهل الكوفة اذا اتفقا من كلمتين . وقرأ أبو عمرو واحمد بن صالح عن قالون بتحقيق الأولى فحذف الثانية . وقرأ ورش وقنبل وابو جعفر واويس بتحقيق الاولى وتليين الثانية ، وقرأ ابن كثير إلا قنبلا ونافع إلا ورشا واحمد بن صالح بسكون الاولى ، وتحقيق الثانية في المكسورتين والمضمومتين وفي المفتوحتين بتحقيق الاولى وحذف الثانية

قوله تعالى .

قالوا سُبحانَكَ لا عِلمَ لَنا إلاّ ما عَلَّمتنا إنَّكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ آية

المعنى :

هذه الآية فيها اخبار من الله تعالى عن ملائكته بالرجوع اليه ، والأوبة ،

والتهليم انهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله .

وقوله : « سبحانك » نصب على المصدر ومعناه نسبحك وسبحانك مصدر لا ينصرف ٠ وقدمنا في ما مضى أن معنى التسبيح التنزيه ومعناه ها هنا تبريا منهم أن يعلموا الغيب واقراراً أنه المختص به تعالى دون غيره ٠

وقوله : « العليم الحكيم » معنى عليم أنه عالم وفيه مبالغة ومن صفات ذاته واذا كانت كذلك ، افادت انه عالم بجميع المعلومات ويوصف به في ما لم يزل ، لأن ذلك واجب في العالم نفسه. وقوله : « الحكيم » يحتمل امرين:

احدهما — انه عالم ، لأن العالم بالشيء يسمى بأنه حكيم فعلى هذا يكون من صفات الذات مثل العالم وقد بيناه ٠

والثاني — ان يكون من صفات الافعال ومعنى ذلك أن افعاله محكمة متقنة وصواب ليس فيها وجه من وجوه القبح ولا التفاوت ولا يوصف بذلك في ما لم يزل ٠ وروي عن ابن عباس انه قال : العليم الذي كمل علمه ٠ والحكيم : الذي كمل في حكمته وقد قيل في معنى حكيم : انه المانع من الفساد ومنه سميت حكمة اللجام لأنها تمنع الفرس من الجري الشديد قال جرير :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم   إني أخاف عليكم ان اغضبا

أي امنعوهم . والاحكام والاتقاق والاتساق والانتظام متقاربة . والحكمة . نقيض السفه يقال : حكم حكما واحكم إحكاما .ويقال: أحكم فلان عمله إذا بالغ فيه فاصاب حقيقته والحكمة هي التي تقف بك على مر الحق الذى لا يخلطه باطل ، والصدق الذي لايشوبه كذب ومنه قوله : « حكمة بالغة » « ١ » والحكم بين الناس هو الذي يرضى به ليقف الاشياء مواضعها ومنه قوله : « فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها » « ٢ » والحاكم القاضي بين الناس ، وليقفهم على الحق ويقال : رجل حكيم اذا كان ذلك شانه وكانت معه اصول من العلم والمعرفة ،

«١» سورة القمر : آية ٥ .

«٢» سورة النساء : آية ٣٤.

واذا حكم بين الرجلين يقال : حكم يحكم واذا صار حكيماً قيل : حكم يحكم وامر مستحكم اذا لم يكن فيه مطمن . وفي الحديث في رأس كل عبد حكمة اذا هم بسيئة وشاء الله ان يقدعه بها قدعة يعني منعه والحكم في الانسان هي العلم الذى يمنع صاحبه من الجهل ومعنى قول الملائكة « سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا » يحتمل امرين :

احدها — ما قدمنا . وهو قول ابن عباس قال : « سبحانك » تنزيهاً لله من أن يكون احد يعلم الغيب سواه .

والثاني — انهم أرادوا أن يخرجوا مخرج التعظيم لله . فكأنهم قالوا : تنزيهاً لك عن القبائح . فعلى هذا الوجه يحسن — وإن لم يعلقه بعلم الغيب كما علق في الأول — وفي الناس من استدلّ بهذه الآية على بطلان الأحكام في النجوم . وهذا يمكن ان يكون دلالة على من يقول : إنها موجبات لا دلالات . فأما من يقول : إنها دلالات على الأحكام نصبها الله . فانه يقول : نحن ماعلمنا إلا ما علمنا الله ، إنه الذي جعل النجوم أدلة لنا . كما أن ما علمناه استدلال غير ضرورة مضاف إليه ايضاً من حيث نصب الدلالة عليه . واستدل جماعة من المفسرين بهذه الآية ، والآيتين قبلها على صدق النبي (ص) وجعلوها من جملة معجزاته إذ كان إخبارا عمالا تعلمه العرب ولا يوصل إليه إلا بقراءة الكتب والنبي (عليه السلام) لم يعرف بشيء من ذلك مع العلم بمنشئه ومبتدء أمره ومنتهاه . وهذا يمكن أن يذكر على وجه التأكيد والتقوية ، لآياته ومعجزاته من غير ان يكون لو انفرد لكفى في باب الدلالة . لأن لقائل أن يقول : إنه قرأ الكتب سراً ، واخذ عمّن قرأها خفياً فلا طريق للقطع على ذلك . وانما تغلب في الظن . فان قيل : ما الفائدة في الجواب بقولهم : « لا علم لنا إلا ما علمتنا » ؟ قلنا : لو اقتصروا على قولهم : « لا علم » ، لكان كافيا ، لكن أرادوا أن يضيفوا إلى ذلك التعظيم والاعتراف بأن جميع ما يعلمونه من تعليمه ، وان هذا ليس من جملة ذلك ، واختصار ذلك أدل على الشكر لنعمه .وقيل في معنى « عليم » امران :

احدها — انه عليم بغير تعليم بدلالة انهم اثبتوا لله ما نفوه عن انفسهم بقولهم : « لاعلم لنا إلا ما علمتنا » أي نحن معلّمون وانت العليم غير المعلّم .

والثاني — انه العليم الحكيم . وكلاهما حسن . والأول احسن ، لأنه اكثر فائدة ، واولى في تقابل البلاغة . وقد تضمنت الآية الدلالة عليه انه لا علم له الا ما علمه الله . اما بالضرورة وإما بالدلالة .

قوله تعالى :

قالَ يا آدَمَ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . آية بلا خلاف

اللغة :

روى الداحوني عن هشام : انبيهم ونبيهم ، في الحج والقمر ، فقلبت الهمزة وكسرت الهاء . وروى الزينبي من طريق المالكي والعطاء ـ كسر الهاء ، وتحقيق الهمزة . الباقون بضم الهاء وتحقيق الهمزة . قال ابو علي : من ضم الهاء حملها على الأصل ، لأن الأصل أن تكون هاء الضمير مضمومة : مثل قولهم : ضربهم وأنبأهم . وانما تكسر الهاء اذا وليها كسرة أو ياء نحو بهم وعليهم . ومع هذا يضمه قوم حملا على الأصل . ومن كسر الهاء التي قبلها همزة مخففة ، فانه اتبع كسرة الهاء الكسرة التي قبلها . واذا كان بينها حاجز . كما قالوا : هذا المرء ومررت بالمرء فاتبعوا مع هذا الفصل . وحكي عن ابي زيد أنه قال: قال رجل من بكر بن وائل أخذت هذا منه ومنها . وكسر الهاء في الادراج والوقف . وحكي عنه : لم أعرفه ولم أضربه ـ فكسر ـ ، وقال لم اضربها . فكسر الهاء مع الباء . ويحتمل أن يكون ما اعتد بالحاجز بين الكسرة والهاء لسكونها فكان الكسرة وليت الهاء .

ومعنى « انبئهم » : خطاب لآدم ، يعني اخبر الملائكة ، لأن الهاء كناية عنهم وموضعهم النصب .

« باسمائهم » يعني باسماء الذين عرضهم على الملائكة . والهاء والميم في اسمائهم كناية عن المرادين بقوله : « باسماء هؤلاء » . وقد مضى بيانه .

وقوله : (واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) . فالابداء والاعلان والاظهار بمعنى واحد . يقال : بدا وعلن وظهر . وضد الابداء الكتمان ، وضد الاظهار الابطان وضد الاعلان الاسرار . يقال : بدا يبدو من الظهور . وبدأ يبدأ بداء ـ بالهمز ـ بمعنى استأنف . قال صاحب العين : بدا الشيء يبدو بدوا : اذا ظهر . وبداله في الأمر : بدء وبداء ـ بالهمز ـ بمعنى استأنف . والبادية اسم الارض التي لا حضر فيها . واذا خرج الناس من الحضر الى الصحراء والمرعى ، يقال : بدوا بدأ واسمه البدو ويقال اهل البدو ، واهل الحضر. واصل الباب الظهور والخفاء نقيض الظهور وقال الرماني حد الظهور :الحصول على حقيقة يمكن أن تعلم بسهولة . والله ظاهر بادلته باطن عن احساس خلقه . وكل استدلال فانما هو ليظهر شيء بظهور غيره . والكتمان : نقيض إعلان السر ونحوه . وناقة كتوم وهي التي لا ترغو اذا ركبها صاحبها أي لا تصيح . والكاتم من القسي : التي لا ترن اذا انتضيت .

الألف في قوله : « ألم أقل لكم » ألف تنبيه . كقول القائل : أما ترى اليوم ما اطيبه . لمن يعلم ذلك إلا أنك تريد أن تحضر ذهنه ، وان ليس مثله ما يخفى عليه كقوله : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » وحكي عن سيبويه : أما ترى أي برق ها هنا ، وهي الف تنبيه اصلها الاستفهام ومن الناس من قال إن معناه التوبيخ، ومن لم يجز على الملائكة المعصية ، منع من ذلك .فان قيل ما الفائدة في انباء آدم (ع) الملائكة بذلك دون إعلامه إياهم بذلك؟ قلنا : أراد الله بذلك تكرمة آدم (ع) وتشريفه ، وإجلال المنة عليه ، وتعظيم النعمة لديه وجميع قصة آدم تؤذن بذلك. فان قيل : ما معنى « غيب السماوات والأرض » والله لا يغيب عنه شيء ؟ قيل في معناه : إنه يعلم ما غاب عنهم فلم يشاهدوه كما يعلم ما حضرهم فشاهدوه

وقوله : « واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » قيل في معناه أقوال :

احدها — انه يعلم سرهم وعلانيتهم وذكر ذلك تنبيهاً لهم على ما يجبلهم عليه من الاستدلال ، لأن الاصول الاول لم يستدل بها . إنما تذكر على وجه التنبيه يستخرج بها غيرها ، فيستدل بعلم الغيب انه خلق عباده — على ما خلقهم عليه — للاستصلاح وما توجبه الحكمة .

والثاني — ما يسرون بمعنى ما أضمره إبليس من المعصية والمخالفة . وما يعلنون : قولهم : « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » . قال الرماني : وهذا الوجه غلط ، لأن ابليس ليس من الملائكة ، ولأن القول على العموم لا يجوز أن يصرف الى الخصوص بغير دلالة . وهذا الوجه اختاره الطبري . وقال : هو بمنزلة قولهم : قتل الجيش وهزموا . وانما قتل البعض . قال الرماني : إنما يقال ذلك اذا حل قتل الواحد محل قتل الجميع : مثل قتل الرئيس او من يقوم مقامه . ولا يقال أيضاً إلا والدلالة عليه ظاهرة وليس كذلك في الآية .وقد روى روايات في هذا المعنى والوجه في هذا أن إبليس لما دخل معهم في الأمر بالسجود ، جاز أن يستثنى من جملتهم

والثالث — قيل : ان الله تعالى لما خلق آدم ، مرت به الملائكة قبل أن ينفخ فيه الروح ، ولم تكن رأت مثله قبل ، فقالت : لن يخلق الله خلقاً إلا كنا اكرم منه وافضل عنده فزعم أن هذا الذي أخفوه في نفوسهم وان الذي أبدوه قولهم : « اتجعل فيها من يفسد فيها » روي ذلك عن الحسن والوجه الأول اقوى، لأنه اعم ، ويدخل فيه هذا الوجه ولا دلالة يقطع بها على تخصيص الآية فان قيل : ما وجه ذكره تعالى لهم الاسرار من علم الغيب قلنا على وجه الجواب فيما سألوا عنه من خلق من يفسد ويسفك الدماء وذلك على وجه التعريض بالجواب دون التصريح ، لأنه لو صرح به ، لقال : خلقت من يفسد ويسفك الدماء لما اعلم في ذلك من المصلحة لجملة عبادي فيما كلفتهم اياه وأمرتهم به فدل في الاحالة في الجواب على العلم بباطن الامور وظاهرها أنه خلقهم لأجل علمه بالمصلحة في ذلك

ودلهم بذلك على أن عليهم الرضا والتسليم لقضاء الله ، لأن الله يعلم من الغيب ما لا يعلمونه ، ويعلم من مصالحهم ما لا يعلمونه في دينهم ودنياهم فان قيل وأي شيء في تعلم آدم الاسماء كلها مما يدل على علم الغيب قلنا : لأنه علمه الاسماء كلها بما فيها من المعاني التي تدل عليها على جهة فتق لسانه بذلك والهامه إياه وهي معجزة أقامها الله تعالى للملائكة تدل على جلالته وارتفاع قدره بما اختصه به من العلم العظيم الذي لا يصل اليه إلا بتعليم الله اياه ، فبان بذلك الاعجاز بالاطلاع على ما لا سبيل الى علمه إلا من علام الغيوب . ففيه من المعجزة أنه فتق لسانه بها على خلاف مجرى العادة ، وأنه علمه من لطائف الحكمة فيه ما لا تعلمه الملائكة مع كثرة علومها ، وانها اعرف الخلق بربها فعرفوا ما دلهم على علم الغيب بالمعجزة مؤكداً لما يعلمونه من ذلك بالادلة العقلية . ولذلك نبههم فقال : « ألم أقل لكم اني اعلم غيب السماوات والارض اي قد دللتكم على ذلك من قبل وهذه دلالة بعد وقيل : افتتح الله الدلالة على الاعجاز بالكلام في آدم ، ثم ختم به في محمد (ص)

قوله تعالى :

وَإِذْ قُلنا للملائِكةِ اسجدُوا لآدَمَ فَسجدُوا إلاَّ إبليسَ أَبَى وَاسْتَكبرَ وَكانَ مِنَ الكافِرِينَ . آية واحدة .

القراءة :

ضم التاء من الملائكة ابو جعفر وحده وحيث وقع اتبع التاء ضمة الجيم . وقيل : انه نقل ضمة الهمزة وابتدا بها والأول اقوى ، لأن الهمزة الف وصل تسقط في الدرج فلا يبقى فيها حركة تنقل فالوجه الاول هو المعتمد عليه والصحيح ما عليه القراء من كسر التاء بلام الجر

و « ابليس » نصب بالاستثناء من الاثبات

ويكره الوقف على قوله : « فسجدوا » وعلى « إلا » حتى يقول : « إلا إبليس » وكذلك كل استثناء

وظاهر الآية يقتضي ان الأمر كان لجميع الملائكة بالسجود ، لعمومها . وقال قوم : إن الامر كان خاصاً بطائفة من الملائكة كانوا مع ابليس طهر الله بهم الارض من الجن والأول اقوى

اللغة :

والسجود والخضوع والتذلل بمعنى واحد في اللغة . ونقيض التذلل التكبر يقال سجد يسجد سجودا ، واسجد اسجادا : إذا خفض رأسه من غير وضع لجبهته . قال الشاعر :

وكلتاهما خرت واسجد رأسها كما سجدت نصرانة لم تحنف

والسجود في الشرع : عبارة عن عمل مخصوص في الصلاة ـ والركوع والقنوت كذلك ـ وهو وضع الجبهة على الأرض . ويقال سجدنا لله سجوداً . وقوم سجد ونساء سجد . والسجد من النساء : الفاترات الأعين . قال الشاعر :

أغرك مني ان ذلك عندنا واسجادعينيك الصيودين رابح «١»

وعزائم السجود من ذلك . وقوله : « وإن المساجد لله » قيل : إنه السجود وقيل : إنه المواضع من الجسد التي يسجد عليها . واحدها مسجد . والمسجد اسم جامع لجميع المسجد وحيث لا يسجد بعد ان يكون أخذ لذلك . فاما المسجد من الارض فهو موضع السجود بعينه . وقال قوم : معنى السجود في اصل اللغة : الخضوع والانحناء ، وقيل التذلل . قال الشاعر :

بجمع يقل البلق في حجراته ترى الأكم فيه سجداً للحوافر

كأنه قال مذللة للحوافر . والسجود على اربعة اقسام : سجدة الصلاة وسجدة التلاوة ، وسجدة الشكر وسجدة السهو .

وقوله : « أبى » معناه ترك وامتنع . والاباء والامتناع والترك بمعنى (واحد) «٢» ونقيض أبى أجاب . يقال أبى يأبى إباء وتأبى تأبيا . قال صاحب

«١» البيت لكثير . اللسان « سجد » في المطبوعة «رابح » مشوشة غير مقروءة .
«٢» « واحد » غير موجود في المطبوعة .

العين : أبى يأبى إباه إذا ترك الطاعة ومال الى المعصية . كقوله : « فكذب وابى » وكل من ترك أمراً ورده فقد أباه . ورجل أبي وقوم أبيون وأباة «١» قال الشاعر :

اباة الضيم من قوم اباة

وليس الاباء بمعنى الكراهة ، لأن العرب تتمدح بأنها تأبى الضيم ولا تتمدح في كراهة الضيم ، وانما المدح في المنع منه . كقوله : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » أي يمنع الكافرين من اطفاء نوره .

والاستكبار والتكبر ، والتعظم والتجبر نظائر . وضدها التواضع . يقال كبر كبراً ، وأكبر اكباراً ، واستكبر استكباراً ، وتكبر تكبراً ، وتكابر تكابراً وكابره مكابرة ، وكبره تكبرا قال صاحب العين : الكبر : العظمة . والكبر والكبر : الاثم الكبير جعل اسماً من الكبيرة . كالخطيئة والخطىء . وكبر كل شيء معظمه . والكبر مصدر الكبير في السن من جميع الحيوان . فاذا أردت الأمر العظيم قلت كبر : كبر هذا الأمر كبارة . والكبار في معنى الكبير . ويقال اكبرت الشيء : اذا أعظمته . ومنه قوله : « فلما رأينه اكبرنه » والتكبير في الصلاة تفعيل من قولهم: الله اكبر . واصل الباب الكبر وهو العظم . ويقال على وجهين : كبر الجثة وهو الأصل وذلك لا يجوز عليه تعالى وكبر الشأن والله تعالى الكبير من كبر الشأن . وذلك يرجع الى سعة مقدوره ومعلومه وتحقيقه انه قادر على ما لا يتناهى من جميع الاجناس المقدورات . وعالم بكل معلوم . والاستكبار : الأنفة مما لا ينبغي أن يوقف منه . وموضع « إذ » من قوله : « وإذ قلنا » نصب ، لأنه عطف على « إذ » الأولى كأنه قال : واذ أراد . وقال ابو عبيدة لا موضع لها من الاعراب لأنها زائدة . وانشد :

حتى اذا أسلكوهم في قتائدة   شلا كما تطرد الجمالة الشردا «٢»

وقال : المراد واستشهد به على وجهين كل واحد منهما نقيض الآخر . فأحد

«١» في المطبوعة « خفيف » بعد اباة وفي الهامش ذكروها « عفيف » على وجه الاحتمال
«٢» مر القول في هذا البيت .

الوجهين قوله : « حتى اذا جاءوها وفتحت ابوابها » فلم يأت « إذ » جواب والوجه الآخر فيه على زيادة « إذ » في هذا الموضع · وكلا الوجهين خطأ عنده ، لأن الجواب في قوله : فتائدة . هو قوله : شلاً بوقوعه موقع : شلوهم شلا كما يقول القائل : إذا أتيت الحرب ، فضربا وطعنا . وأما الزيادة فقد بينا وجه الخطأ فيها فيما تقدم .

واختلفوا في امر الملائكة والسجود لآدم على وجهين :

قال قوم : انه امرهم بالسجود له تكرمة وتعظيما لشأنه · — وهو المروي في تفسيرنا واخبارنا — وهو قول قتادة وجماعة من اهل العلم . واختاره ابن الاخشيد والرماني وجرى ذلك مجرى قوله : (وخروا له سجدا) «١» في اولاد يعقوب ، ولأجل ذلك جعل اصحابنا هذه الآية دلالة على أن الانبياء افضل من الملائكة من حيث امرهم بالسجود له والتعظيم علي وجه لم يثبت ذلك لهم بدلالة امتناع ابليس من السجود له وانفته من ذلك وقوله : (قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لأن اخرتني الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) «٢» ولو كان ذلك على وجه كونه قبلة لما كان لذلك وجه ، ولا فيه أنفة ولا يحسن أن يؤمر الفاضل بتعظيم المفضول على نفسه ، لأن ذلك سفه به . وسنبين قول من خالف فيه وشبههم وقال الجبائي والبلخي وجماعة أنه جعله قبلة لهم فامرهم بالسجود الى قبلتهم . وفيه ضرب من التعظيم له وهذا ضعيف ، لأنه لو كان على وجه القبلة لما امتنع ابليس من السجود ، ولما استعظمته الملائكة ، ولكن لما أراد ذلك تعظيما له على وجه ليس بثابت لهم ، امتنع ابليس وتكبر . واختلفوا في ابليس هل كان من الملائكة ام لا ؟ فقال ابن عباس وابن مسعود وابن المسيب وقتادة وابن جريج والطبري : إنه كان منهم بدلالة استثنائه من جملتهم هاهنا في قوله : « إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » وقال : (ما منعك ان تسجد لما امرتك) مع قوله : (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) وهو المروي عن أبي عبدالله (عليه السلام) والظاهر

«١» سورة يوسف : آية ١٠٠ .

«٢» سورة اسري : آية ٦٢ .

في تفاسيرنا ، ثم اختلف من قال : إنه كان منهم : فنهم من قال : إنه كان خازناً على الجنان ، ومنهم من قال : كان له سلطان سماء الدنيا وسلطان الأرض ، ومنهم من قال : إنه كان يسوس ما بين السماء الى الأرض وقال الحسن البصري وقتادة في رواية ابن زيد والبلخي والرماني وغيره من المتأخرين : انه لم يكن من الملائكة وان الاستثناء في الآيه استثناء منقطع كقوله تعالى : (ما لهم به من علم الا اتباع الظن) «١» وقوله : (فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون الا رحمة منا) «٢» وكقوله : (لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم) «٣» وكقول الشاعر ـ وهو النابغة ـ

وقفت فيها اصيلا كي اسائلها اعيت جوابا وما بالربع من احد
إلا الأواري لأياً ما ابينها والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد «٤»

وانشد سيبويه :

والحرب لا يبقى لجاحمها التخيل والمراح
إلا الفتى الصبار في النجدات والفرس الوقاح «٥»

وقال آخر :

وبلدة ليس بها انيس إلا اليعافير وإلا العيس «٦»

واستدل الرماني على أنه لم يكن من الملائكة باشياء :

منها — قوله : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » فنفى عنهم المعصية نفياً عاما .

والثاني — انه قال : « إلا إبليس كان من الجن » ومتى اطلق لفظ الجن لم

«١» سورة النساء : آية ١٥٦ .

«٢» سورة يس : آية ٤٣ و ٤٤ .

«٣» سورة هود : آية ٤٣ .

«٤» مر القول في هذا البيت . ايضاً في المطبوعة « لا اسائلها » .

«٥» جحم ـ من الحرب ـ معظمها وشدة القتل في معركتها ـ القاموس ـ . الوقاح : الحافر الصلب ـ القاموس ـ .

«٦» اليعافير : ج يعفور وهو الظبي . العيس : الابل البيض يخالط بياضها شقرة وهو اعيس وهي عيساء .

يجز أن يعنى به إلا الجنس المعروف المباين لجنس الانس والملائكة .

والثالث — ان ابليس له نسل وذرية . قال الحسن : ابليس ابو الجن كما أن آدم ابو الانس . وابليس مخلوق من النار والملائكة روحانيون خلقوا من الريح — في قول ابي علي — وقال الحسن : خلقوا من النار لا يتناسلون ولا يطعمون ولا يشربون . وقال الله في ابليس وولده : « أتتخذونه وذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو » .

والرابع — وهو اقوى ما عنده — قوله تعالى: « جاعل الملائكة رسلا أولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع » فعمها بالوصف بالرسالة . ولا يجوز على رسل الله أن يكفروا أو يفسقوا كالرسل من البشر .

والجواب عما ذكره اولا : إن قوله : « لا يعصون الله ما أمرهم » صفة لخزنة النيران ، لا جميع الملائكة . يدل على ذلك قوله : « ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم واهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » «١» . وليس إذا كان هؤلاء معصومين وجب ذلك في جميعهم .

والجواب عما ذكره ثانيا : ان قوله : كان من الجن معناه صار . ذكر ذلك الأخفش وجماعة من اهل اللغة . وقيل ايضاً : إن ابليس كان من طائفة من الملائكة يسمون جنا من حيث كانوا خزنة الجنة . وقيل سموا بذلك لاختفائهم عن العيون . كما قال اعشى قيس بني ثعلبة :

ولو كان شيء خالداً أو معمراً ... لكان سليمان البريء من الدهر
براه إلهي واصطفاه عباده ... وملكه ما بين ثُرْيا الى مصر
وسخر من جن الملائك تسعة ... قياماً لديه يعملون بلا أجر «٢»

وقد قال الله تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا » «٣» ، لأن قريشاً

«١» سورة التحريم : آية ٦ .

«٢» ملحق ديوان الاعشى . الدهر هنا . كتابته وفي المطبوعة . « تربا » بدل « ثريا » .

«٣» سورة الصافات : آية ٥٨ .

قالت : الملائكة بنات الله .

والجواب عما ذكره ثالثاً من أن إبليس له نسل ، «١» طريقه الآحاد ، ولو كان صحيحاً ، لم يمنع ان يكون الله ركب فيه شهوة النكاح تغليظاً عليه في التكليف وإن لم يكن ذلك في باقي الملائكة ، فلا وجه لاستبعاده .

والجواب عما ذكره رابعاً قوله « جاعل الملائكة رسلا أولي اجنحة » «٢» فمعارض بقوله : « الله يصطفي من الملائكة رسلا » «٣» فإن كان ظاهر تلك يقتضي العموم فظاهر هذه يقتضي التخصيص ، لأن (من) للتبعيض ، ولو لم يكن كذلك، لجاز لنا أن نخص هذا العموم بقوله : (إلا إبليس) لأن حمل الاستثناء على أنه منقطع حمل له على المجاز . كما أن تخصيص العموم مجاز ، واذا تعارضا ، سقطا فأما ما روي عن ابن عباس أن الملائكة كانت تقاتل الجن ، فسبي إبليس ، وكان صغيراً مع الملائكة ، فتعبد معها . فلما أمروا بالسجود لآدم ، سجدوا إلا إبليس ابى ، فلذلك قال الله تعالى : « إلا إبليس كان من الجن » فانه خبر واحد لا يصح . والمعروف عن ابن عباس ما قلناه أنه كان من الملائكة فأبى واستكبر وكان من الكافرين . ومن قال إن إبليس خلق من نار ومن مارج والملائكة لم يخلقها من ذلك فقوله ضعيف ، لأنه لا يمنع أن يكون الله تعالى خلق الملائكة اصنافاً : صنفاً من نار ، وصنفاً من نور ، وصنفاً من غير ذلك ، وصنفاً آخر لا من شيء ، فاستبعاد ذلك ضعف معرفة . (وابليس) قال الزجاج والرماني وغيرهما من النحويين انه ليس بمأخوذ من الابلاس كقوله « مبلسون » أي : آيسون من الخير قالوا : لأنه أعجمي معرب بدلالة أنه لا ينصرف للعجمة والتعريف . وقال الطبري : هو مشتق من الابلاس ووزنه افعيل . وأنشد العجاج :

ياصاح هل تعرف رسماً مكرسا   قال نعم أعرفه وأبلسا

وقال رؤبة :

«١» زاد المصحح في المطبوعة في هذا الموضع « ان ذلك » وبدونه يصح المعنى .

«٢» سورة فاطر آية ١

«٣» سورة الحج آية ٧٥

وحضرت يوم الخميس الأخماس وفي الوجوه صفرة وابلاس

يعني اكتئاباً وكسوفاً. وقال : إنما لم يجر استثقالا ، من حيث كان اسماً لا نظير له من أسماء العرب فشبه بأسماء العجم التي لا تنصرف . وزعم ان اسحاق لا ينصرف وهو من أسحقه الله إسحاقاً ، وأن أيوب من آبَّ يئوب على زنة فعول كقيوم من قام يقوم . قال الرماني : غلط في جميع ذلك ، لأنها الفاظ أعربت من العجميه ووافقت الفاظ العربية . وكان ابن السراج يمثل ذلك — على جهة التبعيد — بمن زعم ان الطير ولد الحوت وغلط أيضاً في قوله انه لا نظير له في اسماء العرب ، لأنهم يقولون: إزميل للشفرة ، قال الشاعر :

هم منعوا الشيخ المناجي بعد ما رأى حمة الازميل فوق البراجم

والاعريض : الطلع ، واحريض : صبغ أحمر ، وقالوا : هو العصفر ، وسيف اصليت : ماض كثير الماء ، وثوب اضريج : مشبع الصبغ ، وقالوا : هو من الصفرة خاصة . وسبيل ابليس سبيل (انجيل) في انه معرب غير مشتق .

وحد الاستكبار الرفع للنفس الى منزلة لا تستحق . قوله : « وكان من الكافرين » قال قوم : يدل على أنه كان قبله قوم كفار من الجن . وقال آخرون لا يدل ، ويجري ذلك مجرى قول القائل : كان آدم من الانس ، ولم يكن قبله انسي وكان إبليس من الجن ولم يكن قبله جني ، ومعناه : صار من الكافرين . ومن قال ان ابليس كان من جملة الملائكة ، قال : كان من جملة المأمورين بالسجود لآدم بدلالة قوله : « ما منعك الا تسجد إذ امرتك ؟ » ولأنه استثناه من جملتهم ولم يكن منهم ، علمنا انه كان من جملة المأمورين كقول القائل : أمر أهل البصرة بدخول الجامع فدخلوا إلا رجلا من أهل الكوفة ، فانه يعلم بهذا ان غير اهل البصرة كان مأموراً بدخول الجامع غير ان أهل البصرة كانوا اكثر فلذلك خصوا بالذكر ، وكذلك القول في الآية . ومن استدل بهذه الآية على أن أفعال الجوارح من من الايمان من حيث لو لم يكن كذلك ، لوجب ان يكون ابليس مؤمناً بما معه من المعرفة بالله وان فسق بابائه ، فقد أبعد ، لأن المخالف يقول : اذا علمت كفره

بالاجماع علمت انه لم يكن معه إيمان اصلا ، كما اذا رأيت انه يصلي للشمس علمت ان معه كفراً ، وان كانت، صلاته للشمس ليست كفراً . فان قيل : اذا كانت «إذ» لما مضى ، فما معنى قوله : « واذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي إلٰهين من دون الله » ؟ وكيف قال : « واذ يتحاجون في النار » ؟ قيل : معنى ذلك كله على تقدير الاستقبال لأن ما تحقق بمنزلة ما قد كان ، كما قال : « ونادى اصحاب النار أصحاب الجنة ».

قوله تعالى :

وَقُلنا ياآدمُ اسْكنْ أنْتَ وَزَوْجُك الجنَّةَ وَكُلاَ منْها رَغَداً حَيْثُ شِئتما وَلاَ تقرَبا هَذه الشَّجرَةَ فَتكونُا مِن الظّالمين . آية بلا خلاف .

السكون والثبوت والهدوء نظائر ، ومثله الاستقرار والاطمئنان والثبات . والمسكن والمأوى والمثوى بمعنى [واحد]، تقول: سكن يسكن سكونا إذ لبث في المكان وسكن إذا سكت . سكن الريح ، وسكن المطر ، وسكن الغضب . والسكن هم العيال وهم أهل البيت . قال سلامة بن الجندل :

ليس بأسفى ولا أقنى ولا سغل   ينقي دواء قفي السكن مربوب

والمسكن المنزل ، والسكن السكان ، والسكن ان يسكن إنسان منزلا بلا كراء والسكينة : الموادعة والوقار . والسكن : الرحمة والبركة ، كقوله : (إن صلاتك سكن لهم) والمسكين : الذي لا شيء له ـ عندابي عبيدةـ ، والفقير : الذي له شيء وان كان قليلا قال الشاعر :

أما الفقير الذي كانت حلوبته   وفق العيال فلم يترك له سبد

وقوله تعالى : (اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) قال ابوحاتم : — أحسنه — أنهم كانوا شركاء في سفينة لا يملكون سواها . فهذا يخالف أبا عبيدة وسكان السفينة معروف عربي اشتقاقه من انها تسكن به عن الحركة والاضطراب .

ومعنى (اسكن أنت وزوجك الجنة) : اجعلها مأوى تأوي فيه وتسكن اليه، وقد اعظم الله النعمة على آدم بما اختصه من علمه ، وأسجد له ملائكته ، واسكنه جنته ، وتلك نعمة على ولده ، فالزمهم الشكر عليها ، والقيام بحقها .

والجنة التي اسكن فيها آدم ، قال قوم : هي بستان من بساتين الدنيا ، لأن جنة الخلد لا يصل اليها إبليس ووسوسته ، واستدل البلخي على انها لم تكن جنة الخلد بقوله تعالى حكاية عن ابليس لما اغوى آدم ، قال له : (هل أدلك على شجرة الخلد ؟) فلو كانت جنة الخلد لكان عالماً بها ، فلم يحتج الى دلالة . وقال الحسن البصري وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء واكثر المعتزلة كأبي علي والرماني وابي بكر بن الاخشيد وعليه أكثر المفسرين : انها كانت جنة الخلد ؛ لأن الألف واللام للتعريف وصار كالعلم عليها قالوا : ويجوز ان يكون وسوسة ابليس من خارج الجنة ، فيسمعان خطابه ويفهمان كلامه ، قالوا : وقول من يقول : ان جنة الخلد من يدخلها لا يخرج منها لا يصح ، لأن معنى ذلك إذا استقر اهل الجنة في الجنة للثواب ، وأهل النار فيها للعقاب لا يخرجون منها ، واما قبل ذلك فانها تفنى لقوله تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه) .

(وزوجك الجنة) الزوج : بطرح الهاء قال الأصمعي : هو أكثر كلام العرب ، وقال الكسائي : اكثر كلام العرب بالهاء ، وطرح الهاء لغة لأزد شنوءة ، ولفظ القرآن لم يجيء إلا بطرح الهاء . وقال المبرد : الوجه طرح الهاء من الزوجة وأنشد :

وأراكم لدى المحاماة عندي   مثل صوت الرجال للازواج

جمع زوج ، ولا يجوز ان يكون جمع زوجة . وقال الرماني : قول الاصمعي أجود ، لأن لفظ القرآن عليه ، والعلة في ذلك انه لما كانت الاضافة تلزم الاسم في اكثر الكلام كانت مشبهة له ، وكانت بطرح الهاء افصح وأخف مع الاستغناء بدلالة الاضافة عن دلالة هاء التأنيث .

وقوله تعالى : (وكلا) فالأكل والمضغ واللقم متقاربة ، وضد الأكل

الازم . وسأل عمر بن الخطاب الحارث بن كلدة طبيب العرب ، فقال له : ياحار ما الدواء ؟ فقال : الازم ، أي ترك الأكل .والأكلة مرة ، والأكلة اسم كاللقمة والأكولة الشاة ، والغنم التي ترعى للأكل لا للنسل ، والأكال : أن يتأكل عود أو شيء وأكيل الرجل: ما آكله واكيل الذئب:الشاة وغيرها إذا أردت المأكولة وإذا أردت به إسماً قلت : أكيلة ذئب . والمأكلة : ما جعل للانسان لا يحاسب عليه . ورجل وامرأة أكول: كثير الاكل . والمأكل كالمطعم والمشرب .والمأكل: المطعم . وأصل الباب الأكل وهو المضغ لذي الطعم . ويقال الذي يشترك فيه الحيوان كله فيه سوى الملائكة . المأكل والمنكح والمشرب.

و « الرغد » النفع الواسع الكثير الذي ليس فيه عناء . وقال صاحب العين : عيش رغد ورغيد : رفيه وقوم رغد ونساء رغد قال امرؤ القيس بن حجر :

بينما المرء تراه ناعماً يأمن الأحداث في عيش رغد

والرغيدة : الزبدة في بعض اللغات . وأرغد الرجل ماشيته : إذا تركها وسومها والمشيئة والارادة بمعنى واحد وكذلك المحبة والاختيار وان كان لها شروط ذكرناها في الاصول .

« ولا تقربا » القرب والدنو والمجاورة متقاربة المعنى وضد البعد يقال : قرب يقرب قرباً واقترب اقتراباً . قال صاحب العين : القرب طلب الماء يقال : قرب الماء يقرب وقد قربه قرباً إذا طلبه ليلا ولا يقال لطالب الماء نهاراً قارب والقراب للسيف والسكين والفعل منه : قربت قراباً وقيل قربت اقرابا .والقربان : ما تقربت به الى الله تعالى وقربان الملك وقرابينه : وزراؤه . والقربى : حق ذي القرابة . وقرب فلان اهله : اذا غشيها قربانا . وما قربت هذا الأمر ولا فلانا قربانا وقربى .

والشجرة : كل ما قام على ساق من النبات . وهي اسم يعم النخلة والكرمة وغيرها . وما لم يقم على ساق لا يسمى شجراً كالبقل والحشيش . واما اليقطين كالقرع والبطيخ فقد سمي شجراً . قال الله تعالى : « وانبتنا عليه شجرة من يقطين » قال صاحب العين : الشجرة واحدة تجمع على الشجر والشجرات والأشجار واختلفوا

في الشجرة التي نهى الله آدم عنها . فقال ابن عباس : هي السنبلة . وقال ابن مسعود والسدي وجعفر بن زهير : هي الكرمة . وقال ابن جريج : هي التينة وروي عن علي (عليه السلام) انه قال : شجرة الكافور . وقال الكلبي : شجرة العلم على الخير والشر . وقال ابن جذعان : هي شجرة الخلد التي كان يأكل منها الملائكة . والاقاويل الثلاثة الأولة اقرب .

« فتكونا من الظالمين » الظلم والجور والعدوان متقاربة . وضد الظلم الانصاف وضد الجور العدل . واصل الظلم انتقاص الحق لقوله تعالى : « كلتا الجنتين اتت اكلها ولم تظلم منه شيئا » أي لم تنقص . وقيل : أصله وضع الشيء في غير موضعه من قولهم : من يشبه أباه فما ظلم أي فما وضع الشبه في غير موضعه . وكلاهما مطرد على الوجهين فالظلم اسم ذم . ولا يجوز أن يطلق إلا على مستحق اللعن لقوله : « ألا لعنة الله على الظالمين » ولا يجوز اطلاقه على انبياء الله تعالى ولا الأئمة المعصومين وظالم ومسيء وجائر : اسماء ذم وهو فاعل لما يستحق به الذم من الضرر وضدها عادل ومنصف ومحسن وهي من صفات المدح . ويقول المعتزلة لصاحب الصغيرة : ظالم لنفسه . ومن نفى الصغيرة عن الانبياء من الامامية قال : يجوز أن يقال : ظالم لنفسه اذا بخسها الثواب . كقوله « ظلمت نفسي » وقوله « إني كنت من الظالمين » حكاية عن يونس من حيث بخس نفسه الثواب بترك المندوب اليه . والظلم هو الضرر المحض الذي لا نفع فيه أو عليه آجلا ، ولا فيه دفع ضرر اعظم منه ولا هو واقع على وجه المدافعة ، ولا هو مستحق . فما هذه صفته يستحق به الذم اذا وقع من مختار عالم أو متمكن من العلم به . وروي ان الله تعالى ألقى على آدم النوم ، وأخذ منه ضلعاً فخلق منه حواء . وليس يمتنع أن يخلق الله حواء من جملة جسد آدم بعد أن لا يكون جزء ، أو مما لا يتم كون الحي حياً إلا معه ، لأن ما هذه صفته لا يجوز أن ينقل الى غيره ، أو يخلق منه حي آخر من حيث يؤدي الى أن لا يصل الثواب الى مستحقه ، لأن المستحق لتلك الجملة باجمعها وهذا قول الرماني وغيره من المفسرين ، ولذلك قيل للمرأة : ضلع اعوج . وقيل سميت امرأة

لأنها خلقت من امرء فأما تسميتها حواء : لما أدخل آدم الجنة واخرج منها إبليس ولعن وطرد فاستوحش ، فخلقت ليسكن اليها . فقالت له الملائكة تجربة لعلمه : ما اسمها ؟ قال حواء . قالوا لم سميت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من شيء حي .

وقال ابن اسحاق : خلقت من ضلعه قبل دخوله الجنه ، ثم دخلا جميعاً الجنة لقوله تعالى : « يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة » التي كان فيها آدم في السماء ، لأنه اهبطها منها . وقال ابو مسلم محمد بن يحيي : هي في الأرض ، لأنه امتحنها فيها بالنهي عن الشجرة التي نهاهما عنها دون غيرها من الثمار .

و « حيث » مبنية على الضم كما تبنى الغاية : نحو من قبل ومن بعد ، لأنه منع من الاضافة [الى المفرد] كما منعت الغاية من الاضافة الى مفرد .

وقوله : « ولا تقربا هذه الشجرة » صيغته صيغة النهي . والمراد به الندب عندنا لأنه دل الدليل على أن النهي لا يكون نهياً الى بكراهته للمنهي عنه . والله تعالى لا يكره إلا القبيح . والانبياء لا يجوز عليهم القبائح : صغيرها ولا كبيرها . وقالت المعتزلة : إن تلك كانت صغيرة من آدم — على اختلافهم في انه كان منه عمداً أو سهواً أو تأويلا — وانما قلنا لا يجوز عليهم القبائح ، لأنها لو جازت عليهم لوجب أن يستحقوا بها ذماً ، وعقابا وبراءة ولعنة ، لأن المعاصي كلها كبائر عندنا والاحباط باطل ولو جاز ذلك لنفر عن قبول قولهم . وذلك لا يجوز عليهم كما لا يجوز كل منفر عنهم من الكبائر والخلق المشوهة والاخلاق المنفرة . ولا خلاف أن النهي يتناول الأكل دون القرب كأنه قال : لا تقربا بالاكل لأنه لا خلاف أن المخالفة وقعت بالأكل لا بالدنو منها ولذلك قال : « فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما »

وقوله : « فتكونا » يحتمل أن يكون جواباً للنهي فيكون موضعه نصباً . وهو الأقوى ويحتمل أن يكون عطفاً على النهي فيكون موضعه جزماً وكلاهما جيد محتمل ومتى كان جواباً كان تقديره : إن قربتما كنتما من الظالمين، لأنه يتضمن معنى الجواب واذا كان عطفاً على النهي فكأنه قال : لا تكونا من الظالمين . واجاز البصريون من اهل العدل أن يبتدىء الله الخلق في الجنة فينعمهم فيها تفضلا منه

لا على وجه الثواب ، لأن ذلك نعمة منه تعالى كما أن خلقهم وتكليفهم وتعريضهم للثواب نعمة منه ، وله أن يفعل ما يشاء من ذلك وقال ابو القاسم البلخي : لايجوز خلقهم في الجنة ابتداء ، لأنه لو جاز ذلك ، لما خلقهم في دار المحنة ، ولما ابتلى من يعلم أنه يكفر ويصير الى عذابه وانما لم يجز أن يخلقهم ابتداء في الجنـة ، لأنه لو خلقهم فيها ، لم يخل : إما أن يكونوا متعبدين بالمعرفة لله والشكر ، أولا يكونوا كذلك فلو كانوا غير متبعبدين ، كانوا مهملين ولذلك لا يجوز ولو كانوا متعبدين لم يكن بد من ترغيب وترهيب ووعد ، ووعيد ولو كانوا كذلك كانوا على ما هم عليه في دار الدنيا وكان لابد من دار أخرى يجازون فيها ويخلدون واجاب عن ذلك الاولون بان قالوا : لو ابتدأ خلقهم في الجنة لاضطرهم الى معرفته ، والجـأهم الى فعل الحسن وترك القبيح ومتى راموا القبيح ، منعوا منه فلا يؤدي ذلك الى ما قاله : كالحور العين والاطفال والبهائم اذا حشرهم يوم القيامة .

فأزلَّهما الشيطانُ عنها فأخرجَهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوٌ ولكم في الأرضِ مستقرٌ ومتاعٌ إلى حينٍ . آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ حمزة وحده « وأزالهما » بألف وتخفيف اللام . الباقون بتشـديد اللام وحذف الألف .

اللغة :

الزلة والمعصية والخطيئة والسيئة بمعنى واحد وضد الخطيئة الاصابة . ويقال : زل زلة ،وأزله إزلالا ، واستزله استزلالا وقال صاحب العين : زل السهم عن النزع زليلا وزل فلان عن الصخر زليلا فاذا زلت قدمه ، قلت : زل زلا فاذا زل في مقـالة أو خطبة ، قلت : زل زلة . قال الشاعر :

هلا على غيري جعلت الزلة

وأزله الشيطان عن الحق : إذ أزاله . والمزلة : المكان الدحض (١) . والمزلة : الزلل في الدحض . والزلل : مثل الزلة في الخطأ . والازلال : الانعام . وفي الحديث : (من أزلت إليه نعمة فليشكرها .) بمعنى أسديت . قال كثير :

وإني ـ وإن صدت ـ لمثن وصادق عليها بما كانت إلينا أزلت (٢)

ويقال : أزللت الى فلان نعمة ، فأنا أزلها إزلالا . فالأصل في ذلك الزوال . والزلة : زوال عن الحق .

ومعنى « أزالها »(٣) : نحاها . من قولك : زلت عن المكان : اذا تنحيت منه . والوجه ما عليه القراء (٤) لأن هذا يؤدي إلى التكرار ، لأنه قال بعدذلك « فأخرجها » فيصير تقدير الكلام : فأخرجها الشيطان عنها فأخرجها . وذلك لا يجوز . ويحسن أن يقول : استزلها فأخرجها . ومن قرأ : « أزالها » ، أراد المقابلة بين قوله : « أزلها » وبين قوله : « اسكن » ، لأن معناه : اسكن واثبت انت وزوجك . وتقديره : اثبتا ، فأراد أن يقابل ذلك فقال : « فأزالها » فقابل الزوال بالثبات . وإنما نسب الا زلال والاخراج إلى الشيطان لما وقع ذلك بدعائه ووسوسته وإغوائه . ولم يكن إخراجها (٥) من الجنة على وجه العقوبة ، لأنا قد بينا أن الأنبياء لا يجوز عليهم القبائح على حال ومن أجاز عليهم العقاب ، فقد أعظم الفرية وقبح (٦) الذكر على الأنبياء . وإنما أخرجهم من الجنة ، لأنه تغيرت المصلحة لما تناول من الشجرة ، واقتضى التدبير والحكمة تكليفه في الأرض وسلبه ما ألبسه الله (تعالى) من لباس الجنة . وقال قوم : إن إلباس الله له ثياب الجنة كان تفضلا . وللمتفضل أن يمنع ذلك تشديداً للمحنة . كما يفقر بعد الغنى ، ويميت بعد الاحياء ، ويسقم بعد الصحة .

فان قيل : كيف وصل إبليس إلى آدم حتى أغواه ووسوس اليه . وآدم كان

---

(١) الدحض بفتح الحاء وسكونها ، من الأمكنة : الزلق . ج : دحاض
(٢) في المطبوعة والمخطوطة (عليا) بدل (عليها) . الديوان
(٣) على قراءة حمزة (٤) أي بتشديد اللام (٥) في المخطوطة (باخراجها)
(٦) وفتح . خ . ل

في الجنة ، وابليس قد أخرج منها حين تأبي من السجود ؟ قيل : عن ذلك أجوبة : أحدها ـ ان آدم كان يخرج الى باب الجنة ، وابليس لم يكن ممنوعاً من الدنو منه ، وكان يكلمه ويغويه .

[الثاني] ـ وقال آخرون : انه كلمها من الأرض بكلام فهماه (١) منه وعرفاه.

[والثالث] ـ قال قوم : إنه دخل في فقم الحية ، وخاطبها من فقمها . والفقم : جانب الشدق .

[والرابع] ـ قال قوم : راسلهما بالخطاب . وظاهر الكلام يدل على أنه شافهها بالخطاب .

[والخامس] ـ وقال قوم : يجوز أن يكون قرب من السماء فكلمها .

فأما ما روي عن سعيد بن المسيب : ـ أنه كان يحلف ولا يستثني ، أن آدم ما أكل من الشجرة وهو يعقل ، ولكن حواء سقته الخمر حتى إذا سكر ، قادته اليها فأكل ـ فانه خبر ضعيف . وعند اصحابنا ، أن الخمرة كانت محرمة في سائر الشرائع ومن لم يقل ذلك ، يقول : لو كان كذلك ، لما توجه العتب على آدم ، ولا كان عاصياً بذلك . والأمر بخلاف ذلك . وانما قلنا ذلك : لأن النائم غير مكلف في حال نومه ، لزوال عقله ، وكذلك المغمى عليه ، وكذلك السكران . وانما يؤاخذ السكران بما يفعله فى شرعنا ، لما ثبت تحريم ما يتناوله اسم المسكر . والا فحكمه حكم النائم عقلا . وقد قلنا : إن أكلها من الشجرة كان على وجه الندب ، دون أن يكون ذلك محظوراً عليها ، لكن لما خالفا في ترك المندوب اليه تغيرت المصلحة ، واقتضت إخراجها من الجنة . وقد دللنا على ذلك في ما مضى .

[والسادس] ـ وقال قوم : تعمد ذلك .

[والسابع] ـ وقال قوم آخرون : نُهي عن جنس الشجرة ، واخطأ .

[والثامن] ـ وقال قوم : إنه تأول (٢) النهي الحقيقي ، فحمله على الندب

---

(١) في المخطوطة (وتكلما منه وعرفاه)

(٢) في المخطوطة والمطبوعة (ناول)

وأخطأ . وقد قدمنا ماعندنا فيه . فان قيل : كيف يكون ذلك ترك الندب مع قوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » ؟ قلنا التوبة : ـ قيل ـ الرجوع ويجوز ان يرجع تارك الندب عن ذلك ، . . . . . (١) يكون تائباً . ومن قال : وقعت معصيته محبطة . . . . . (٢) بها يخرج عن الاصرار . كما لحد (٣)... (٤) الأولى اسقطت العقاب .... (٥) وابليس يقول لهما : « مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما : اني لكما لمن الناصحين . » قيل : ما قبلا ذلك من إبليس ، ولو قبلاه لكانت المعصية أعظم . فلما لم يعاتبهما الله على ترك ذلك ، دل على أنهما لم يقبلا . وهذا جواب من يقول : انه كان صغيراً ، (٦) أوكان ناسياً . وعلى ما قلناه ـ إن ذلك كان ندباً ـ لا يحتاج الى ذلك ، بل دليل العقل أمننا من وقوع قبيح من آدم ، والانبياء . فلو كان صريحاً ، لتركنا ظاهره لقيام الدليل على خلافه . على أنه لا يمنع أن يقاسمهما : إنه لمن الناصحين في ترك الندب . وإنما ظاهر النهي تركه يوجب أن يصيرا من الخالدين .

وقوله : « مما كانا فيه » يحتمل أن يكون أراد : من لباسهما حتى بدت لهما سوآتهما ويحتمل أن يكون من الجنة ، حتي أهبطا . ويحتمل أن يكون أراد : من الطاعة إلى المعصية .

اللغة :

وقوله : « اهبطوا » فالهبوط والنزول والوقوع نظائر . ونقيض الهبوط والنزول الصعود . يقال : هبط يهبط : اذا انحدر في هبوط من صعود . والهبوط اسم كالحدور ، وهو الموضع الذي يهبط من اعلى الى اسفل . والهبوط : المصدر . قال ابن دريد : هبطته واهبطته .

والعداوة ، والبراءة ، والمباعدة ، نظائر . وضد العدو ، الوليّ . والعدو :

---

(١) في الاصل بياض

(٢) بياض (٣) (لحد) هكذا في الأصل (٤) بياض (٥) بياض.

(٦) في المخطوطة (صغيراً وكان) وفي المطبوعة (صغيراً ولو كان).

الُحضر (١) ـ خفيف ـ والعدو : ـ ثقيل ـ يقال في التعدي · وقرىء : « فيسبّوا الله عدواً ـ وعُدُوّاً ـ بغير علم» « ٢ » والعدوان : الظلم · والعدوى : طلبك الى وال ليعديك على من ظلمك ـ أي ينتقم لك ـ والعدو اسم جامع للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث · فاذا جعلته نعتاً ، قلت : الرجـــلان عدوّاك ، والرجال اعداؤك ، والمرأتان عدوتاك ، والنسوة عدوّاتك . وأصل الباب : المجاوزة . يقال : لا يعدوّنك هذا الأمر ـ أي لا يتجاوزنّك ·

المعنى :

وقوله : « اهبطوا » انما قال بالجمع ، لأنه يحتمل اشياء :

احدها ـ أنه خاطب آدم وحواء وابليس ، فيصلح ذلك ، وان كان ابليس أهبط من قبلها . يقال : أخرج جمع من الجيش ـ وان خرجوا متفرقين ـ. اختار هذا الزجاج .

والثاني ـ أنه أراد آدم وحواء والحية .

والثالث ـ آدم وحواء وذريتها .

والرابع ـ قال الحسن : إنه أراد آدم وحواء والوسوسة . وظاهر القول وان كان أمراً فالمراد به التهديد . كما قال : « اعملوا ما شئتم . »

وقوله : « مستقر » قرار ، لقوله : « وجعل لكم الأرض قراراً » . وقيل : مستقر في القبور . والأول أقوى وأحسن .

اللغة :

والقرار : الثبات ، والبقاء مثله . وضد القرار الانزعاج . وضد الثبات الزوال وضد البقاء الفناء . ويقال : قرّ قراراً . والاستقرار : السكون من وقت واحد على حال . « والمستقرّ » يحتمل أن يكون بمعنى الاستقرار ، ويحتمل أن يكون بمعنى المكان الذي يستقرّ فيه ·

(١) الحضر ، بضم الحاء وتسكين الضاد : الاسم من أحضر الفرس أي عدا .
(٢) سورة الانعام آية : ١٠٨ .

وقوله : « ومتاع إلى حين » والمتاع والتمتع والتلذذ والمتعة متقاربة المعنى . وضدها التألم . يقال : أمتعه به إمتاعاً ، وتمتع تمتعاً ، واستمتع استمتاعاً ، ومتعه تمتيعاً ، ومتع النهار متوعاً — وذلك قبل الزوال — والمتاع من أمتعة البيت : ما يتمتع به الانسان من حوائجه . وكل شيء تمتعت به فهو متاع . ومنه متعة النكاح ، ومتعة المطلقة ، ومتعة الحج .

وقوله : « إلى حين » . فالحين ، والمدة والزمان ، متقاربة . والحين الهلاك حان يحين . وكل شيء لم يوفق للرشاد ، فقد حان حينا والحين : الوقت من الزمان وجمعه أحيان . وجمع الجمع ، أحايين . ويقال : حان يحين حينونةً . وحينت الشيء: جعلت له حيناً .وحينئذ : يبعدقولك : الآن . فاذا باعدوا بين الوقتين ، باعدوا بإذ (إذ) فقالوا : حينئذ . والحين : يوم القيامة . وأصل الباب ، الوقت . والحين : وقت الهلاك . ثم كثر ، فسمي الهلاك به . والحين : الوقت الطويل .

المعنى :

وقيل : ال « حين » في الآية يعني الموت . وقيل إلى يوم القيامة . وقيل : إلى أجل . وقال ابن سراج : إذا قيل : « ولكم في الأرض مستقر ومتاع » لظن أنه غير منقطع . فقال : « إلى حين » انقطاعه . والفرق بين قول القائل : هذا لك حيناً ، وبين قوله : إلى حين . أن إلى تدل على الانتهاء ، ولابد أن يكون له ابتداء وليس كذلك الوجه الآخر .

معنى قوله : « بعضكم لبعض عدوٌّ » . قال الحسن : يعني بني آدم ، وبني إبليس وليس ذلك بأمرٍ على الحقيقة ، بل هو تحذير ، لأن الله لا يأمر بالعداوة . وفي الآية دلالةٌ على أن الله تعالى لا يريد المعصية . ولا يصدُّ أحداً عن طاعته ، ولا يخرجه عنها . ولا تنسب المعصية إليه ، لأنه نسب ذلك إلى الشيطان ، وهو يتعالى عما عاب به الأبالسة والشياطين .

فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ — آية (٣٧).

قرأ إبن كثير (آدم) بنصب الميم . (كلمات) برفع التاء .

اللغة :

يقال : لقي زيد خيراً فيتعدى الفعل الى مفعولٍ واحد . ومنه قوله : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » (١) . وقوله : « إذا لقيتم فئةً فاثبتوا » (٢) و « لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً » (٣) فاذا ضعفت العين تعدى إلى مفعولين . تقول : لقّيت زيداً خيراً . قال الله تعالى : « ولقاهم نضرة وسروراً » (٤) . وتقول : لقيت بعض متاعك على بعض ، فتعدّيه إلى مفعولٍ واحد لأنه بناء مفرد لا لأنه منقول ليتعدى إلى مفعولين . وتقول : لقيته لقيـة واحدة في التلاقي واللقيان (٥) . ولقيته لقاء ولقياناً ولقاة . وقوله : « تحيتهم يوم يلقونه سلامٌ »(٦) معناه يلقون ثوابه بخلاف قوله : « يلقون غيا » (٧) .

المعنى :

ومعنى « تلقى آدم من ربه كلمات » . تعلمها . يقال : تلقيت هذا من فلان أي قبله فهمي من لفظه . قال أبو عبيدة : قال أبو مهدية : ـ وتلا عليه آيات (٨) من القرآن قال : تلقيتهامن عمي تلقاها من أبي هريرة ، تلقاها من رسول الله (ص) وأصل الملاقاة الملاصقة ، لـكنه كثر حتى قيل : لاقى فلان فلاناً : إذا قاربه ، وإن لم يلاصقه . وكذلك تلاقى الجيشان ، وتلاقى الفرسان . ويقـال : تلاقى الخطان أي تماسا . وتقول : تلقيت الرجل بمعنى استقبلته . وتلقاني : استقبلني . فعلى هذا يجوز في العربية رفع ادم ، ونصبه ، مع رفع الكلمات . والاختيار قراءة الاكثر ، لأن معنى التلقي ههنا القبول . فكأنه قال : قبل (٩) آدم من ربه كلمات . وانما

(١) سورة محمد : آية ٤ (٢) سور الانفال : آية ٤٦ (٣) سورة الكهف : آية ٦٣
(٤) سورة الدهر : آية ١١ (٥) في المخطوطة (والقتال) (٦) سورة الأحزاب : ٤٤
(٧) سورة مريم : ٥٩ (٨) في المخطوطة (الآية) (٩) في المخطوطة (لقي)

جاز نصب آدم ، لأن الأفعال المتعدية الى المفعول به على ثلاثة اقسام : احـدها يجوز ان يكون الفاعل له مفعولا به والمفعول به فاعلا . نحو اكرم بشر ٌ بشراً وشتم زيد عمراً

[ثانيها] ومنها لا يكون المفعول به فاعلا ، نحو : أكلت الخبز ، وسرقت درهماً ، وأعطيت ديناراً ، وأمكنني الغرض .

(وثالثها) ما يكون اسناده الى الفاعل في المعنى كاسناده الى المفعول ، نحو : أصبت ونلت ، وتلقيت . تقول : نالني خير ٌ ، ونلت خيراً، وأصابني خير ٌ ، وأصبت خيراً . ولقيني زيد ٌ ، ولقيت زيداً . وتلقاني ، وتلقيته . وقال تعالى : « وقد بلغني الكبر » «١» . وقال: « وقد بلغت من الكبر عتيا » «٢» فعلى هذا الرفع والنصب في المعنى واحد في الآية . وإنما اجيز رفع آدم ، لأن عليه الأكثر وشواهـده اكثر . كقوله « تلقونه بالسنتكم » «٣». واسند الفعل الى المخاطبين والمفعول به كلام متلق . كما أن الذي تلقى آدم كلام متلق وكما اسند الفعل الى المخاطبين . فجعل التلقي لهم كذلك يلزم ان يسند الفعل إلى آدم ، فيجعل التلقي له دون الكلمات . واما على ما قال ابو عبيدة معناه قبل الكلمات ، فالكلمات مقبولة ، فلا يجوز غير الرفع في آدم . ومثل هـذا في جواز اضافتـه تارة الى الفاعل ، واخرى الى المفعول . كقوله : « لا ينال عهدي الظالمين » «٤» . وفي قراءة ابن مسعود : « لا ينال عهدي الظالمون » والكلمات جمع كلمة . والكلمة : اسم جنس لوقوعه على الكثير والقليل . يقولون : قال امرؤ القيس في كلمته يعني في قصيدته . وقال قس ّ «٥» في كلمتـه يعنون في خطبته . فوقوعها على الكثير نحو ما قلناه . ووقوعها «٦» على القليل قال سيبويه: قال قد اوقعها على الاسم المفرد ، والفعـل المفرد ، والحرف المفرد . فأما الكلام فان سيبويه قد استعمله فيما كان مؤلفاً من هذه الكلم فقال : لو قلت : إن تضرب ناساً لم يكن كلاماً . وقال ايضاً : انما ، فقلت ، ونحوه ، ما كان كلاماً [بل] «٧» قولا

«١» سورة آل عمران : آية ٤ . «٢» سورة مريم : آية ٧ . «٣» سورة النور : آية ١٥

«٤» سورة البقرة : آية ١٢٤ . «٥» في المخطوطة (قيس) «٦» في المطبوعة (وقوعها)

«٧» في المخطوطة والمطبوعة بدون (بل) ولا يستقيم السياق بدونها .

واوقع الكلام على المتألف . والذي حرره المتكلمون ، ان حد الكلام ما انتظم من حرفين فصاعداً من هذه الحروف المنقولة ، إذا وقع ممن يصح منه اومن قِبَله الافادة . ثم ينقسم قسمين : مفيد ، ومهمل . فالذي أراد سيبويه أنه لا يكون كلاماً ، أنه لا يكون مفيداً وذلك صحيح . فأما تسميته بأنه كلام ، صحيح . وكيف لا يكون صحيحاً ، وقد قسموه الى قسمين : مهمل ، ومفيد ، فأدخلوا المهمل الذي لا يفيد في جملة الكلام .

والكلمة والعبارة ، والابانة ، نظائر . وبينها فروق . والفرق بين الكلمة والعبارة ، أن الأظهر في الكلمه هي الواحدة من جملة الكلام ـ وان قالوا في القصيدة أنها الكلمة ـ والعبارة تصلح للقليل والكثير . وأما الابانة فقد تكون بالكلام ، والحال ، وغيرها من الأدلة : كالاشارة والعلامة ، وغير ذلك . وأما النطق فيدل على إدارة اللسان بالصوت ، وليس كذلك الكلام ولهذا يقولون : ضربته فما تكلم ، ولا يقولون : فما نطق ، اذا كان صاح . وكذلك لا يجوز أن يقال في الله : إنه ناطق . وأما اللفظ فهو من قولك : لفظت الشيء : إذا أخرجته من فمك . وليس في الكلام مثل ذلك . ويقال : كلمته تكليماً وكلاماً «١» . وتكلم تكلما . ولذلك لا يجوز أن يقال فيه تعالى لَفَظَ ، ولا أنه لافظ . والكَلْم : الجرح . والجمع : الكلوم . يقال : كلمته أكلمه كلماً ، فأنا كالم ، وهو مكلوم . وكليمك : الذي يكلمك . ويقال : كِلْمَة وكلِمة «٢» لغة تميمية ، وقيل إنها حجازية . وتميم حكي عنها كِلْمة بكسر الكاف وتسكين اللام ، وحكي تسكين اللام مع فتح الكاف . وأصل الباب أنه أثرٌ دالٌّ والكَلْم أثر دال على الجارح . والكلام أثر دال على المعنى الذي تحته . والمتكلِّم : من رفع ما سميناه كلاماً بحسب دواعيه وأحواله . وربما «٣» عُبِّر عنه بأنه الفاعل للكلام . وليس المتكلم من حله «٤» الكلام ، لأن الكلام يحلُّ اللسان والصدر ولا يوصفان بذلك . وقد بينا فساد الكلام النفسي «٥» في كتاب العدة ، في أصول

«١» في المخطوطة (تكلماً وتكاماً) . «٢» في المخطوطة « وكام » .

«٣» في المخطوطة « قديماً » . «٤» في المخطوطة « من جملة » . «٥» في المخطوطة « النفسي » ساقطة .

الفقه . وقلنا : إن اختصر ذلك ، هل هو إلا الخبر ، أو ما معناه معنى الخبر ، وإن كان لكل قسم معنى يخصه ؟ .

المعنى :

والكلمات التي تلقاها آدم قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » «١» فان في ذلك اعترافاً بالخطيئة ، ولذلك وقعت موقع الندم . وحقيقته الانابة . وحكي عن مجاهد أنه قال: هي قول آدم : اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فارحمني ، إنك أنت خير «٢» الراحمين اللهم «٣» لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي ، فتب علي إنك أنت التواب الرحيم . وروى مثل ذلك عن أبي جعفر عليه السلام . وحكي عن ابن عباس : أن آدم قال لربه إذ عصاه : أرأيت أن تبت وأصلحت ؟ . فقال له تعالى: إني راجعك إلى الجنة وكانت هذه الكلمات . وروي في أخبارنا : أن الكلمات هي توسله بالنبي عليه السلام وأهل بيته . وكل ذلك جائز .

قوله : « فتاب عليه »

اللغة :

فالتوبة ، والانابة ، والاقلاع ، نظائر في اللغة . وضد التوبة : الاصرار . يقال : تاب يتوب توبةً ، وتواباً واستتابة . والله تعالى يوصف بالتوّاب . ومعناه أنه يقبل التوبة عن عباده . وأصل التوبة : الرجوع عما سلف ، والندم على ما فرط . والله تعالى تائب على العبد بقبول توبته . والعبد تائب الى الله بمعنى نادم على معصيته والتائب : صفة مدح لقوله «٤» : « التائبون العابدون » «٥» . والتوبة شرطها

«١» سورة الأعراف : آية ٢٣ و ١٤٨ . «٢» في المخطوطة « أرحم » . «٣» في المخطوطة « اللهم » ساقطة .

«٤» في المخطوطة « كقوله » . «٥» سورة التوبة : آية ١١٣ .

الندم على ما مضى من القبيح ، والعزم على أن لا يعود الى مثله من القبيح ، لأن هذه التوبة هي المجمع على سقوط العقاب عندها، وما عداها فمختلف فيه . وقد يقول القائل : قد تبت من هذا الأمر أي «١» عزمت على ألا أفعله ، وصرت بمنزلة التائب ، وذلك مجاز . وكل معصية لله تعالى فانه يجب التوبة منها ، والتوبة يجب قبولها ، لأنها طاعة . فأما إسقاط العقاب عنده فتفضل منه تعالى . وقالت المعتزلة ومن وافقها : وذلك واجب . وقد بينا الصحيح من ذلك في شرح الجمل . والتوبة اذا كانت من ترك ندب عندنا تصح . وتكون على وجه الرجوع الى فعله . وعلى هذا تحمل توبة الانبياء كلهم في جميع ما نطق به القرآن ، لأنه قد بينا أنه لا يجوز عليهم فعل القبيح . والمطبوع على قلبه له توبة . وبه قال أهل العدل . وقالت البكرية لا توبة له . وهو خطأ ، من قبل انه لا يصح تكليفه إلا وهو متمكن من أن يتخلص من ضرر عقابه . وذلك لا يتم إلا بأن يكون له طريق الى إسقاط عقابه . وقد وعد الله بذلك — وإن كان تفضلا — إذا حصلت التوبة واختلفوا في التوبة من الغصب ، هل تصح مع الاقامة على منع المغصوب ؟ . فقال قوم : لا تصح : وقال آخرون : تصح — وهو الأقوى — إلا أن يكون فاسقاً بالمنع ، فيعاقب «٢» عقاب المانع ، وإن سقط عنه عقاب الغصب. والصحيح أن القاتل عمداً تصح توبته . وقال قوم : لا تصح . والتوبة من القتل الذي يوجب القود ، قال قوم : لا تصح إلا بالاستسلام لولي المقتول ، وحصول الندم ، والعزم على أن لا يعود . وقال قوم آخرون : تصح التوبة من نفس القتل ، ويكون فاسقاً بترك الاستسلام . وهذا هو الأقوى ، واختاره الرماني . فاما التوبة من قبيح بفعل آخر ، فلا تصح على أصلنا كالتائب من الالحاد بعبادة المسيح . وقال قوم : تصح . وأجراه مجرى معصيتين يترك باحداها الأخرى ، فانه لا يؤاخذ بالمتروكة وقال قوم : التوبة من اعتقاد جهالة إذا كان صاحبها لا يعلم انها معصية بأنه يعتقد انه لا محجوج إلا عارف ، فانه يتخلص من ضرر تلك المعصية إذا رجع عنها الى المعرفة ، وإن لم يوقع معها توبة . وقال

«١» في المخطوطة « يعني » بدل أي «٢» في المطبوعة والمخطوطة « يعاقب » بدون الفاء

آخرون : لا يتخلص إلا بالتوبة ، لأنه محجوج فيه ، مأخوذ بالنزوع عن الاقامة عليه ، وهو الأقوى . فأما ما نسي من الذنوب ، فانه يجري مجرى التوبة منه على وجه الجملة . وقال قوم : لا يجري . وهو خطأ ، لأنه ليس عليه في تلك الحال اكثر مما عمل فأما ما نسي من الذنوب مما لو ذكر ، لم يكن عنده معصية . وهل يدخل في الجملة إذا اوقع التوبة من كل خطيئة ؟ قال قوم : يدخل فيها . وقال آخرون لا يدخل فيها ، لكنه يتخلص من ضرر (١) المعصية ، لأنه ليس عليه اكثر مما علم في تلك الساعة . والأول اقوى ، لأن العبد إذا لم يذكر صرف توبته الى كل معصية هي في معلوم الله معصية . فأما المشرك إذا كان يعرف قبل توبته بفسق — إذا تاب من الشرك — هل يدخل فيه التوبة من الفسق في الحكم ، وإن لم يظهر التوبة منه ؟ . قال قوم : لا يزول عنه حكم الفسق ، وهو قول اكثر المعتزلة . وقال قوم: يزول عنه حكم الفسق . وقال الأخشيذ : القول في هذا باجتهاد . والذي يقوى في نفسي انه يزول ، لأن الاسلام الأصل فيه العدالة الى ان يتجدد منه بعد الاسلام ما يوجب تفسيقه . فأما التوبة من قبيح مع الاقامة على قبيح آخر يعلم ويعتقد قبحه ، فعند اكثر من تقدم صحيحة وقال ابو هاشم ، واصحابه : لا تصح وقد قلنا ما عندنا في ذلك ، في شرح الجمل واعتمد الأولون على ان قالوا : كما يجوز ان يمتنع من قبيح لقبحه ، ويفعل قبيحاً آخراً ، وإن علم قبحه كذلك جاز ان يندم من القبيح ، مع المقام على قبيح آخر يعلم قبحه . وهذا إلزام صحيح معتمد واختلفوا في التوبة عند ظهور اشراط الساعة ، هل تصح ام لا ؟ فقال الحسن: يحجب عنها عند الآيات الست . ورواه عن النبي (ص) انه قال : بادروا الأعمال قبل ست : طلوع الشمس من مغربها ، والدَّجال ، والدُّخان ودابة الأرض ، وخويصة أحدكم يعني الموت ، وأمر العامة يعني القيامة . وقال قوم : لا شك أن بعض الآيات يحجب ، وباقيها محجوز . وهو الأقوى .

وقوله : « فتاب عليه » . يعني قبل توبته ، لأنه لما عرضه للتوبة ، بما ألقاه

«١» في المخطوطة « ضرب »

من الكلمات فعل التوبة ، وقبلها الله تعالى منه [وقيل تاب عليه أي وفق للتوبة وهداه اليها] «١» فقال اللهم تب عليّ أي وفقي للتوبة . [فلقنه الكلمات حتى قالها فلما قالها قبل توبته] .«٢»

وقوله : « إنه هو التواب الرحيم » . إنما ذكر الرحيم ، ليدل بذلك على أنه متفضل بقبول التوبة ، ومنعم به ، وأن ذلك ليس هو على وجه الوجوب ، على ما يقوله المخالف . ومن خالف في ذلك يقول : لما ذكر التواب بمعنى الغفار باسقاط العقوبة ، وصل ذلك بذكر النعمة ، ليدل على أنه مع إسقاط العقوبة ، لا يخلي العبد من النعمة الحاصلة ترغيباً له ، وفي الانابة والرجوع اليه بالتوبة . « وتواب » بمعنى أنه قابل التوبة لا يطلق إلا عليه تعالى ، ولا يطلق في الواحد منا . وإنما قال : « فتاب عليه » . ولم يقل فتاب عليهما ، لأنه اختصر ، كما قال : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » «٣» . ومعناه أن يرضوهما . كذلك معنى الآية : فتاب عليهما ومثل ذلك قوله : « وإذا رأوا تجارة أولهواً انفضوا اليها » (٤) وقال الشاعر :

رماني بأمر كنت منه ووالدي   بريئاً ، ومن جول الطّوي رماني«٥»

وقال آخر :

نحن بما عندنا وأنت بما   عندك راض والرأي مختلف«٦»

وحكي عن الحسن ، انه قال : لم يخلق الله آدم إلا للأرض ، ولو لم يعص لخرج على غير تلك الحال . وقال غيره : يجوز ان يكون خلقه للأرض إن عصى ولغيرها ان لم يعص وهو الأقوى لأن ما قاله لا دليل عليه وروي عن قتادة : ان اليوم الذي قبل الله توبة آدم فيه يوم عاشوراء ورواه ايضاً اصحابنا

«١و٢» زدنا ما بين القوسين وهو موجود في مجمع البيان ص ٨٩ م ١ تفسير نفس الآية والسياق هنا يقتضي ذلك (٣) سورة التوبة : آية ٦٤ (٤) سورة الجمعة آية ١١ «٥» قال ابن بري : البيت لابن أحمر قال : وقيل هو للازرق بن طرفة بن العمرد « بفتح العين وفتح الميم وتشديده » الفراصي الجول : جانب البئر . الطوي : البئر ، لانها تطوى بالحجارة . ومعنى البيت : رماني بأمر عاد عليه قبحه ، لأن الذي يرمي من جول البئر يعود ما رمى به عليه ويروى : ومن اجل الطوي قال وهو الصحيح ـ لسان العرب ـ «٦» البيت لقيس بن الخطيم ، شاعر جاهلي ، قتل أبوه وهو صغير ـــ

قوله تعالى :

(قُلنا اهْبِطُوا منها جميعاً فامَّا يأتينَّكم منِّي هُدىً فمن تَبِعَ هُداي فلا خوفٌ عليهم ولاهُمْ يحزنون) . (٣٨)

آية بلا خلاف .

المعنى :

قد بينا معنى الهبوط فيما مضى «١» بما فيه كفاية . وقال الجبائي : الهبوط الأول : هو الهبوط من الجنة الى السماء ، وهـذا الهبوط من السماء الى الأرض . وقد يستعمل في غير النزول من مكان عال ، الى أسفل . يقال هبط فلانٌ الى أرض كذا ، اذا أتاها ، وإن لم يرد به النزول الذى فيه . إلا أن فيه إيماءً الى هبوط المنزل قال لبيد :

كلُّ بني حرةٍ مصيرهم قلٌ وإن أكثروا من العدد

إن يغبطوا يهبطوا وإن أمِروا يوماً فهم للفناء والفند

الفَنَد : الهرب . والاتيان ، والمجيء ، والاقبال ، نظائر ونقيضه : الذهاب والانصراف ويقال : أتى ، اتياناً ، وأتى أتياً ، وتأتى ، تأتياً وأتى تأتية وآتيت فلاناً على أمره مؤاتاةً ولا يقال أتية الا في لغة قبيحة لتيم

ودخلت (ما) في قوله مع « ان » التي للجزاء ، ليصح دخول النون التي للتوكيد في الفعل ولو أسقطت (ما) لم يجز دخول النون ، لأنها لا تدخل في الخبر الواجب الا في القسم ، أو ما أشبه القسم كقولك : زيدٌ ليأتينك ولو قلت بغير اللام ، لم يجز وكذلك تقول : بعينٍ ما أرينك ولو قلت : بعينٍ أرينك ، بغير ما لم يجز فدخول (ما) ههنا كدخول اللام في أنها تؤكد أول الكلام وتؤكد النون

—— ولما بلغ قتل قاتل أبيه ونشأت بسبب ذلك حروب بين قومه وبين الخزرج وله ولد اسمه ثابت وهو من الصحابة ، شهد مع علي ـ ع ـ صفين والجمل والنهروان . «١» في آية «٣٦» البقرة

آخره . والأمر ، والنهي ، والاستفهام ، تدخل النون فيه وان لم يكن معه (ما) اذا كان الأمر والنهي ، مما تشتد الحاجة الى التوكيد فيه والاستفهام مشبه به اذا كان معناه اخبرني والنون انما تلحق للتوكيد ، فلذلك كان من مواضعها .

قال الله تعالى : « ولا تقولنّ لشيء اني فاعلٌ ذلك غداً » (١) فان قيل : اين جواب اما ؟ واين جواب من ؟ قيل : الجزاء وجوابه بمنزلة المبتدا والخبر ، لأن الشرط لا يتم الا بجوابه ، كما لا يتم المبتدأ الا بخبره ألا ترى ، انك لو قلت : إن تقم ، وسكتت ، لم يجز . كما لو قلت : زيد ، لم يكن كلاما ، حتى تأتي بالخبر . ولك أن تجعل خبر المبتدأ جملة ، وهي أيضاً مبتدأ وخبر ، كقولك : زيد أبوه منطلق . وكذلك (إن) التي للجزاء ، إذا كان الجواب بالفاء ، ووقع بعد الفاء الكلام مستأنفاً ، صلح أن يكون جزاءً ، وغير جزاء . تقول : إن تأتني فأنت محمود ولك أن تقول : إن تأتني . فمن يكرمك أكرمه . وإن تأتني فمن يبغضك فلا وضيعة عليه .

وقوله : « إما يأتينكم » شرط ، وجوابه الفاء . وما بعد قوله : « فمن »، شرط آخر ، وجوابه الذي بعده من قوله : « فلا خوف عليهم » . وهو نظير المبتدأ والخبر الذي يكون خبره مبتدأ وخبراً . وهذا في مقدمات القياسات ، يسمى الشرطية المركبة ، وذلك أن المقدم فيها إذا وجب ، وجب التالي المرتب عليه .

و « الهدى » المذكور في الآيه يحتمل أمرين : أحدهما — البيان والدلالة . والآخر — الانبياء والرسل . وعلى القول الأخير يكون قوله : « قلنا اهبطوا » لآدم وحواء وذريتها . كما قال : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » (٢) أي أتينا بما فينا من الخلق طائعين .

وقوله : « فمن تبع هداي » .

---

(١) سورة الكهف آية ٢٤ . (٢) حم السجدة آية ١٢ .

اللغة :

فالاتباع ، والاقتداء ، والاحتذاء ، نظائر . ونقيض الاتباع : الابتداع تقول : تبعه تباعاً وأتبعه إتباعاً . وتابعه متابعة . وتتبع تتبعاً . واستتبع استتباعاً . والتابع : التالي . ومنه التتبُّع . والتبيع : ما تبع أثر شيء فهو يتبعه . والتتبُّع . فعلك شيئاً بعد شيء . تقول : تتبعت عليه آثاره . وفي الحديث : القادة والأتباع . والقادة : السادة . والأتباع . القوم الذين يتبعونهم . والقوائم ، يقال لها تبع . والتبيع من ولد البقر : العجل ، لأنه تبع أمه يعدو . وثلاثة أتبعة ـ الجمع ـ وبقرة متبع : خلفها تبيع . وخادم متبع : معها ولدها يتبعها حيثما أقبلت وأدبرت . وأتبع فلان فلاناً . وأتبعه الشيطان : إذا تتبعه يريد به شراً . كما تبع فرعون موسى . قال الله تعالى : « فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » (١) . وفلان يتبع فلاناً : إذا تتبع مساوئه في مهلة . والتتابع من الأشياء : إذا فعل هذا في أثر هذا بلا مهلة . ومنه تتابعت الأمطار ، وتتابعت الأشياء . والتبع الظل . وأصل الباب كله . الاتباع وهو أن يتلو شيء شيئاً .

قوله : « فلا خوف عليهم » .

اللغة :

فالخوف والجزع ، والفزع . نظائر . ونقيض الخوف : الأمن . تقول : خافه ، يخافه ، خوفاً وأخافه إخافة . وتخوف تخوفاً . وخوفه تخويفاً . وطريق مخوف : يخافه الناس . وطريق مخيف : تخيف الناس . والتخوف : التنقص . يقال : تخوفناهم : تنقصناهم . ومنه قوله : « أو يأخذهم على تخوف » ، أي على تنقص . وأصل الباب : الخوف الذي هو الفزع . والخوف كله من الضرر . يقال : فلان يخاف الأسد ، أي يخاف ضرره . ويخاف الله ، أي يخاف عقابه . والحزن ، والهم ، والغم نظائر . ونقيضه السرور . يقال : حزن حزناً وحزنه حزناً وتحزن تحزناً وحزن

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٤ .

تحزيناً . والُحزن ، والَحزن ، لغتان . وحزنني ، وأحزنني ، لغتان . وأنا محزون ومحزن . وإذا أفردوا الصوت أو الأمر ، قالوا : محزن لا غير . والحزن من الأرض والدواب : ما فيه خشونة . والأنثى : حزنة . والفعل : حزن ، حزونة . وقولهم : كيف حشمك وحزانتك ؟ أي كيف من تتحزن بأمره . وأصل الباب : غلظ الهم .

وقوله : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

المعنى :

عمومه يقضي أنه لا يلحقهم خوف أهوال القيامة . وهو قول الجبائي . وقال ابن أخشيذ : لا يدل على ذلك ، لأن الله تعالى وصف القيامة بعظم الخوف . قال الله تعالى : « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » ... إلى قوله « شديد »(١) . ولأنه روي أنه يلجم الناس العرق ، وغير ذلك من الشدائد . وهذا ليس بمعتمد ، لأنه لا يمتنع أن يكون هؤلاء خارجين من ذلك الغم . وأما الحزن ، فلا خلاف أنه لا يلحقهم . ومن أجاز الخوف ، فرق بينه وبين الحزن ، لأن الحزن إنما يقع على ما يغلظ ويعظم من الغم والهم ، فلذلك لم يوصفوا بذلك . ولذلك قال تعالى « لا يحزنهم الفزع الأكبر » (٢) لأن ما يلحقهم لا يثبت ، ويزول وشيكا . قالوا : ويدلك على أن الحزن ما ذكرنا ، أنه مأخوذ من الحزن ، وهو ما غلظ من الأرض . فكان ماغلظ من الهم . فأما لحوق الحزن والخوف في دار الدنيا ، فلا خلاف أنه يجوز أن يلحقهم ، لأن من المعلوم ، أن المؤمنين لا ينفكون منه .

و « هداي » بتحريك الياء . وروي عن الأعرج « هداي » بسكون الياء . وهي غلط ، إلا أن ينوى الوقف .

وإنما كرر « اهبطوا » لأن احدهما كان من الجنة إلى السماء . والثاني من السماء . الى الأرض عند أبي علي . وقيل : المعنى واحد ، وكرر تأكيداً . وقيل : هو على تقدير اختلاف حال المعنى ، لا اختلاف الأحوال . كما يقول : اذهب

(١) سورة الحج آية ١ . (٢) سورة الانبياء آية ١٠٣ .

مصاحباً ، إذهب سالماً معافى ً . وكأنه على تقدير ذهاب بجامع ذهاباً ـ وإن كانت حقيقته واحدة .

وإنما كرر « اما » في قوله : « إما شاكراً وإما كفوراً » (١) ولم يكرر ههنا ، لأنهـــا هناك للعطف ، وههنا الجزاء . وإنما هي (إن) ضم اليها (ما) كقوله : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبـذ إليهم على سواء » (٢) وهداي : مثل هواي . وهي لغة قريش ، وعامة العرب . وبعض بني سليم يقولون : هويّ . مثل : عليّ ، ولديّ . قال أبو ذؤيب : (٣)

سبقوا هويّ واعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع(٤)

وروي هدي (٥) في الآية عن الجحدى ، وابن أبي إسحاق ، وعيسى . والصواب ما عليه القراء . والفرق بين هوي ولدي وعلي ، وهو أن إلي وعلي ولدي مما يلزمها الاضافة ، وليست بمتمكنة . ففصلوا بينها وبين الأسماء المتمكنة ، كما فصلوا بين ضمير الفاعل وضمير المفعول ، حين قالوا : ضربت فسكنوا لأجل التـــاء ، ولم يسكنوا في ضربك ، إذ الفاعل يلزم الفعل .

قوله تعالى :

« والذينَ كَفَرُوا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحابُ النارِ هُم فيهـا خَالدُون » . ٣٩ . — آية

قد بينـا فيما مضى معنى الـكفر والتـكذيب ، فلا وجـــه لاعادتـــــه . والاســــتدلال بهذه الآية — على أن من مات مصراً على الـكـــفر ، غير تائب منه ، فـكذب بآيات ربه ؛ فهو مخلد في نار جهنم — صحيح ، لأن الظاهر يفيد ذلك ، والاستدلال بها ، على أن عمل الجوارح من الـكفر ، من حيث قال : « وكذبوا

(١) سورة الدهر : آية ٣ (٢) سورة الانفال آية ٥٩ .

(٣) الهذلي اسمه خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد بن مخزوم ينتهي نسبه لنزار ، وهو أحد المخضرمين ممن أدرك الجاهلية والاسلام .

(٤) لسان العرب . العنق : ضرب من السير السريع . تخرموا : استأصلوا . والبيت من قصيدة يرثي بها ابناءه الخمسة الذين هلكوا في عام واحد .

(٥) في المطبوعة والمخطوطة (هوي) .

بآياتنا » فبعيد ، لأن التكذيب نفسه — وإن لم يكن كفراً ، وهو لا يقع الا من كافر — فهو دلالة عليه كالسجود للشمس وغيره .

وقوله : « أصحاب » . فالاصطحاب ، والاجتماع ، والاقتران ، نظائر وكذلك الصاحب والقرين . ونقيضه : الافتراق . يقال صحبه صحبةً . وأصحبه إصحاباً . واصطحبوا اصطحاباً وتصاحبوا تصاحباً . واستصحبوا استصحاباً . وصاحبه مصاحبة والصحب : جماعة. والصحب ، والأصحاب جماعة الصاحب (١) . ويقال أيضاً : الصحبان والصحبة ، والصحاب . والصحابة : مصدر قولك : صحبك الله يعني بالسلامة وأحسن صحابتك ويقال للرجل عند التوديع : معاناً ، مصاحباً ومصحوب ، ومصاحب . ومن قال : مصاحب معان ، فانما معناه : أنت المصاحب المعان . والصحبة : مصدر صحب يصحب . وقد أصحب الرجل : إذا صار صاحباً . ويقال : قد أصحب الرجل ، وقد أشطأ : إذ بلغ ابنه مبلغ الرجال ، الذي صار ابنه مثله . وأشطأ الزرع : إذا لحقته فراخه . ويقال له : الشطأ . قال أبو عبيدة ، وابن دريد : قوله : « ولاهم منا يصحبون » (٢) أي لا يحفظون وأديم مصحب : إذا دبغته وتركت عليه بعض الصوف والشعر. وأصل الصحبة : المقارنة . والصاحب(٣) هو الحاصل مع آخر مدة ، لأنه إذا اجتمع معه وقتاً واحداً ، لا يقال : صاحب ، ولـكن يقال : صحبه وقتاً من الزمان ثم فارقه . والفرق بين المصاحبة ، والمقارنة ، أن في المصاحبة دلالة على المبالاة ، وليس ذلك حاصلا في المقارنة . واتباع الرئيس : اصحابه .

و « آيات الله » . دلائله ، وكتبه التي أنزلها على أنبيائه . والآية : الحجة . والدلالة ، والبيان ، والبرهان واحد في أكثر المواضع ، ـ وإن كان بينهما فرق في الأصل ـ لأنك تقول دلالة هذا الكلام كذا . ولا تقول : آيته ، ولا علامته . وكذلك تقول : دلالة هذاالاسم ، ولا تقول : برهانه .

---

(١) في المطبوعة والمخطوطة (الصحب) (٢) سورة الانبياء آية ٤٣.

(٣) في المخطوطة والمطبوعة (الا حاب)

و « أصحاب النار » . هم الملازمون لها . كما تقول : أصحاب الصحراء يعني القاطنين فيها ، الملازمين لها .

والخلود معرب من العرف ، يدل على الدوام لأنهم يقولون : ليست الدنيا دار خلود ، وأهل الجنة مخلدون . يريدون الدوام فأما في أصل الوضع ، فانه موضوع لطول الحبس . فان قيل : لم دخلت الفاء في قوله : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فاولئك لهم عذاب مهين » في سورة الحج ولم يقل ههنا في قوله : « أولئك أصحاب النار » ؟ قيل : لأن مادخلت فيه الفاء من خبر (الذي وأخواته) مشبه بالجزاء . ومالم يكن فيه فاء ، فهو على أصل الخبر . وإذا قلت : مالي ، فهو لك ، جاز على وجه ، ولم يجز على وجه . فان أردت أن معنى (ما) الذي ، فهو جائز . وإن أردت أن مالي تريد به المال ، ثم تضيفه إليك ، كقولك : غلامي لك ، لم يجز ، كما لم يجز ، غلامي ، فهو لك .

الاعراب :

وموضع(١) أولئك : يحتمل ثلاثة أشياء :

أحدها ـ أن يكون بدلا من الذين ، أو يكون عطف بيان ، وأصحاب النار : بيان عن أولئك ، مجراه (٢) مجرى الوصف . والخبر ، هم فيها خالدون .

والثاني ـ أن يكون ابتداء وخبراً في موضع الخبر الأول .

والثالث ـ أن يكون على خبرين بمنزلة خبر واحد ، كقولهم : حلو (٣) ، حامض .

قوله تعالى :

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي

(١) في المخطوطة (ووضع) (٢) في المخطوطة (فأجراه) .

(٣) في المخطوطة (كقولهم : حلو وحامض) . وفي المطبوعة (كقوله حلو وحامض) .

أوف بعهدكم وإياي فارهبون » — آية بلا خلاف .

« يا » حرف نداء . « بني » : جمع ابن . والابن ، والولد ، والنسل ، والذرية متقاربة المعاني . إلا أن الابن يقع على (١) الذكر ، والولد يقع على الذكر والانثى والنسل والذرية تقع على جميع ذلك . وأصله ، من البناء . وهو وضع الشيء على الشيء . والابن مبني على الأب تشبيهاً للبناء على الأصل ، لأن الأب أصل والابن فرع . ويقال : تبنى تبنياً ، وبنى بناءً ، وابتنى ابتناءً ، وباناه مباناة . والبنوة : مصدر الابن — وإن كان من البناء (٢) كما قالوا : الفتوة : مصدر الفتى . وثنوا الفتى : فتيان . ويقال : فلان ابن فلان ، على التبني . ولا يطلق ذلك الا على ماكان من جنسه وشكله تشبيهاً بالابن الحقيقي . ولهذا لا يقولون : تبنى زيد حماراً ، لما لم يكن من جنسه ولا تبنى شاب شيخاً لما لم يكن ذلك فيه . والفرق بين اتخاذ الابن وبين (٣) اتخاذ الخليل ، أن اتخاذ الخليل ، يكون به خليلاً على الحقيقة ، لأن بالمحبة والاطلاع على الأسرار المهمة يكون خليلا على الحقيقة . وليس كذلك الابن . لأن البنوة في الحقيقة ، إنما هي الولادة للابن .

و « بني » في موضع نصب ، لأنه منادى مضاف .

و « إسرائيل » في موضع جر ، لأنه مضاف إليه . وفتح ، لأنه أعجمي لا ينصرف ، لأن (إسرا) معناه : عبد و (ئيل) هو الله بالعبرانية فصار مثل عبد الله . وكذلك جبرائيل ، وميكائيل . ومن حذف الألف من جبرائيل ، حذفه للتعريب (٤) كما يلحق (٥) الاسماء التغيير إذا أعربت ، فيلخصون حروفها على العربية .

وفي « اسرائيل » خمس لغات : حكى الأخفش : إسرال ، بكسر الهمزة من غير ياء . وحكي : أسرال ، بفتح الهمزة . ويقول بعضهم : إسريل ، فيميلون . وحكى

---

(١) في المخطوطة (يقع على) ساقطة (٢) في المطبوعة (من البناء) .
(٣) في المطبوعة (وبين) ساقطة (٤) في المخطوطة (للتعريف)
(٥) في المخطوطة (كالا يلحق)

قطرب : سرال ، من غير همز ولا ياء ، واسراين ، بالنون . والخامس ـ إسرايل ، قراءة إلياس . وحمزة وحده مد بغير ألف .

المعنى :

وقال أكثر المفسرين : إن المعنى ، يا بني إسرائيل ، أحبار اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله « ص » . وهو المحكي عن ابن عباس . وقال الجبائي : المعني به بنو إسرائيل من اليهود والنصارى . ونسبهم إلى الأب الأعلى ، كما قال : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » (١) .

اللغة :

قوله : « اذكروا » . فالذكر ، والتنبيه ، والتيقظ نظائر . ونقيضه : التغافل يقال : ذكره يذكره ذكراً . وأذكره إذكاراً . واستذكره استذكاراً . وتذكره تذكراً . وذكّره تذكاراً . واذّكر اذكاراً . وقال صاحب العين : الذكر : الحفظ للشيء تذكره . تقول : هو مني على ذكر . والذكر : جري الشيء على لسانك . تقول : جرى منه ذكر . والذكر : الشرف ، والصيت لقوله : « وإنه لذكر لك ولقومك » (٢) والذكر : الكتاب الذي فيه تفصيل الدين وكل كتاب من كتب الأنبياء ذكر . والذكر : الصلاة ، والدعاء . وقيل : كانت الأنبياء إذا حزنهم أمر فزعوا إلى الذكر أي الصلاة ، يقومون فيصلون . وذكر الحق : هو الصك . والذكرى : هو اسم للتذكير . والذكر : ذكر الرجل معروف . والجمع : الذكرة ولهذا سمي ما ينسب اليه ، المذاكير . ولا يفرد . وإن أفرد فمذكر ، مثل مقدم ومقاديم . والذكر : خلاف الانثى . وجمعه : ذكور ، وذكران . ومن الدواب ، ذكورة لا غير . والذكر من الحديد : أيبسه وأشده . ولذلك يسمى السيف ، مذكر . وامرأة مذكرة ، وناقة مذكرة : إذا كانت خلقتها تشبه خلقة الذكر ، وأشبهته في شمائلها . وامرأة مذكار : إذا أكثرت ولادة الذكور . وعكسه : مئناث . ويقال

(١) سورة الاعراف آية ٣ (٢) الزخرف آية ٤٤ .

للحبلى : أيسرت ، وأكثرت أي يسر عليها ، وولدت ذكوراً . والذكر : ضد النسيان . ورجل ذكر : شهم من الرجال ، ماهر في أموره . واصل الباب : الذكر الذي هو التنبيه على الشيء . والذكر : الوصف بالمدح والثناء أو بالمدح والهجاء .

وقوله : « نعمتي » . المراد بها الجماعة . كما قال تعالى : « وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها » (١) والنعمة وإن كانت على أسلافهم جاز أن تضاف اليهم . كما يقول القائل إذا فاخره غيره : هزمناكم يوم ذي قار ، وقتلناكم يوم الفجار ، وبددنا جمعكم يوم النار . والمراد بذلك ، جميع النعم الواصلة اليهم ، مما اختصوا به ، دون آبائهم ، أو اشتركوا فيه معهم ، وكان نعمة على الجميع . فمن ذلك تبقية آبائهم حتى تناسلوا ، فصاروا من أولادهم . ومن ذلك ، خلقه اياهم على وجه يمكنهم الاستدلال على توحيده ، والوصول الى معرفته ، فيشكروا نعمه ، ويستحقوا ثوابه ومن ذلك ما لا يخلون منه في كل وقت من منفعة ودفع مضرة . فالقول الأول هو التذكير بالنعمة عليهم في أسلافهم . والقول الثاني : تذكير جميع النعم عليهم والنعم التي على أسلافهم ، ما ذكر في قوله تعالى : « واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » (٢)

وقوله : « أوف بعهدكم » . في موضع جزم ، لأنه جواب الأمر .

اللغة :

قال صاحب العين : تقول وفيت بعهدك وفاءً . ولغة أهل تهامة : أوفيت بعهدك . وهي القرآن . قال الشاعر في الجمع بين اللغتين :

أما ابن عوفٍ فقد أوفى بذمته   كما وفى بقلاص النجم حاديها

يعني به الدبران . وهو التالي وتقول : وفى ، يفي وفاءً وأوفى ، يوفي ايفاءً واستوفى ، استيفاءً وتوفى ، توفيا . ووفى ، توفية . وتوافى ، توافياً ووافاه موافاةً . وكل شيء بلغ تمام الكلام فقد وفى وتم . وكذلك درهمٌ وافٍ ، لأنه

(١) سورة ابراهيم آية ٣٤ .وسورة النحل : آية ١٨ . (٢) سورة المائدة : آية ٢٢ .

درهم وفى مثقالاً . وكيل واف ورجل وفا : ذو وفاء وأوفى فلان على شرف من الأرض اذا أشرف فوقها . وتقول : أوفيته حقه . ووفيته اجره . والوفاة : المنية توفى فلان ، وتوفاه الله : اذا قبض نفسه . واصل الباب : الوفاء وهذا هو الاتمام . ومن اكرم اخلاق النفس الوفاء . ومن ادونها ، وارذلها الغدر .

المعنى :

ومعنى قوله : « اوفوا بعهدي اوف بعهدكم » قال ابن عباس : اوفوا بما امرتكم من طاعتي ، ونهيتكم عن معصيتي في النبي صلى الله عليه وآله وغيره : « اوف بعهدكم » اي ارضى عنكم ، وادخلكم الجنة وسمي ذلك عهداً ، لأنه تقدم بذلك اليهم في الكتب السابقة كما قال : « يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (١) . والعهد : هو العقد عليهم في الكتاب السابق بما امروا به ، ونهوا عنه . قال بعضهم : انما جعله عهداً ، لتأكيده بمنزلة العهد الذي هو اليمين قال الله تعالى : « واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » (٢) وقال الحسن : العهد الذي عاهدهم عليه حيث قال : « خذوا ما آتيناكم بقوة » اي بجد « واذكروا ما فيه » اي ما في الكتاب في قوله : « ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي . . . الى آخر الآية » (٣) وقال الجبائي : جعل تعريفه إياهم نعمه عهداً عليهم وميثاقاً لأنه يلزمهم القيام بما يأمرهم به من شكر هذه النعمة ، كما يلزمهم الوفاء بالعهد ، والميثاق الذي يأخذ عليهم. والقول الأول أقوى ، لأن عليه أكثر المفسرين ، وبه يشهد القرآن .

قوله : « وإياي » .

الاعراب :

« وإياي » ضمير منصوب . ولا يجوز أن يكون منصوباً بقوله : « فارهبون » ، لأنه مشغول . كما لا يجوز في قولك : زيداً فاضربه . أن يكون

(١) سورة البقرة : آية ١٤٦ (٢) سورة آل عمران : آية ١٨٧ . (٣) سورة المائدة ١٣ .

منصوباً بقوله : فاضربه . لكنه يكون منصوباً بفعل دل عليه ما هو مذكور في اللفظ . تقديره : وإياي ارهبوا . ولا يظهر ذلك ، للاستغناء عنه بما يفسره ، وإن صح تقديره . ولا يجوز في مثل ذلك الرفع على أن يكون الخبر « فارهبون » إلا على تقدير محذوف . كما أنشد سيبويه :

وقائلةٍ : خولانُ فانكح فتاتهم   وأكرومة الحيين خِلوٌ كماهيا

تقديره : وقائلةٍ : هذه خولان . وعلى هذا ، حمل قوله : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » (١) وقوله : « والزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما » (٢) تقديره مما يتلى عليكم ، السارق والسارقة . وفيما فرض عليكم ، الزانية والزاني .

وقوله : « فارهبون »

اللغة :

فالرهبة ، والخشية ، والمخافة ، نظائر . وضدها : الرغبة . تقول : رهب رهبة : وأرهبه ، إرهاباً ، ورهبه ، ترهيباً . واسترهب ، استرهاباً . ويقال : رهب فلانٌ يرهب . رَهبا ، ورهاباً ، ورهبة : اذا خاف من شيء . ومنه اشتقاق الراهب . والاسم : الرهبة . ومن أمثالهم : رَهبوتٌ خير من رحموت . أي ترهب خير من أن ترحم . والترهب : التعبد في صومعة . الجمع : الرهبان . والرهبانية : خطباء . والفرق بين الخوف والرهبة : أن الخوف هو شك في أن الضرر يقع أم لا . والرهبة : معها العلم بأن الضرر واقع عند شرط ، فان لم يحصل ذلك الشرط ، لم يقع .

واختير تحريك الياء في قوله : « نعمتي التي أنعمت » لأنه لقيها ألف ولام فلم يكن بدٌ من اسقاطها أو تحريكها ، وكان التحريك أولى ، لأنه أدل على الأصل وأشكل بما يلزم اللام في الاستئناف ، من فتح ألف الوصل ، واسكان الياء في قوله : « ياعبادي الذين اسرفوا » أجود ، لأن من حق الاضافة ، ألا تثبت في النداء . واذا لم تثبت فلا سبيل الى تحريكها . وقوله : « فبشر عبادي الذين يستمعون » الاختيار حذف الياء ، لانه رأس آية . ورؤوس الآي لا يثبت فيها

(١) سورة المائدة : آية ٤١ (٢) سورة النور : آية ٢ .

الياء ، لانها فيهاصل ينوى فيها الوقف كما يفعل ذلك في القوافي . ومثل قوله : « نعمتي التي » قوله : « أخي اشدد » في ان الاختيار تحريك الياء ، وان كان مع الالف واللام اقوى ، لما تقدم ذكره مع المشاكلة والرد الى الاصل . وفي « اخي اشدد » : سبب واحد ، وهو انه ادل على الاصل . واجمعوا على اسقاط الياء من قوله « فارهبون » . الا ابن كثير ، فانه اثبتها في الوصل دون الوقف والوجه حذفها لكراهية الوقف على الياء . وفي كسر النون دلالة على ذهاب الياء .

قوله تعالى :

« وَآمِنوا بِما أنزلتُ مصدِّقاً لِما مَعكم وَلا تكونوا أوَّلَ كافرٍ بهِ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإيَّايَ فاتَّقون » (٤١) آية واحدة بلا خلاف

المعنى :

« آمنوا » معناه صدّقوا ، لأنا قد بينا ان الايمان هو التصديق .

« بما انزلت » يعني بما انزلت على محمد « ص » من القرآن .

وقوله : « مصدقاً » يعني ان القرآن مصدق لما مع اليهود من بني اسرائيل من التوراة . وامرهم بالتصديق بالقرآن ، واخبرهم ان فيه تصديقهم بالتوراة ، لأن الذي في القرآن من الامر بالاقرار بنبوة محمد « ص » ، وتصديقه نظير الذي في التوراة والانجيل . وموافق لما تقدم من الاخبار به ، فهو مصداق ذلك الخبر . وقال قوم : معناه انه مصدق بالتوراة والانجيل الذي فيه الدلالة على انه حق . والاول الوجه ، لأن على ذلك الوجه حجة عليهم ، دون هذا الوجه .

الاعراب :

ونصب « مصدقاً » على الحال من الهاء المحذوفة ، كأنه قال : انزلته مصدقاً ويصلح ان ينصب بـ « آمنوا » كأنه قيل : آمنوا بالقرآن مصدقاً .

والمعنيُّ بقوله : « آمنوا » اهل الكتاب من بني اسرائيل ، لأنه في ذكرهم. وفيه احتجاج عليهم ، اذ جاء بالصفة التي تقدمت بها بشارة موسى وعيسى عليهما

السلام . وهو امرٌ بالاقرار بالنبوة ، وما جاءت به من الشريعة .

اللغة :

وإنما وحد « كافراً » في قوله : « ولا تكونوا أول كافر » ، وقبله جَمْع ، لما ذكره الفرّاء والأخفش : وهو أنه ذهب مذهب الفعل ، كأنه قال : أول من كفر به . ولو أراد الاسم لما جاز إلا الجمع ومثل ذلك قول القـائل للجماعة : لا تكونوا أول رجل يفعل ذلك . قال المبرد : هـذا الذي ذكره الفرّاء خارجٌ عن المعنى المفهوم ، لأن الفعل ههنا والاسم سواء . إذا قال القائل : زيد أول رجل جاء فمعناه أول الرجال الذين جاؤوا رجلاً رجـلاً ، ولذلك قال : أول كافر ، وأول مؤمن ومعناه : أول الكافرين وأول المؤمنين لا فصل بينهما في لغةولا قياس. ألا ترى أنك تقول : رأيت مؤمناً ،ورأيت كافراً كما تقول : رأيت رجلاً لا يكون إلا ذلك ، لأنك انما رأيت واحداً ، كما تقول : رأيت زيداً أفضل مؤمن ، وزيدٌ أفضل حرّ ، وزيدٌ افضل رجل ، وانبل غلام، وليس بين ذلك اختلاف. ولكن جاز ولا تكونوا اول قبيل كافر به ، واول حزب كافر به ، وهو مما يسوغ فيـه النعت ، ويبين به الاسم ، لأنك تقول : جاءني قبيـلٌ صالح ، وجاءني حيٌّ كريم ، فينعت به الجمع ، اذا كان الجمع اسماً واحداً لجميعه كقولك : نفر ، وقبيل ، وحزبٌ ، وجمع ولا تقول : جاءني رجل كريم ، وانت تريد برجل نفراً كما تقول : نفر كريم ، لأن النعت جارٍ على المنعوت والاسم منفرد بنفسه ونظير قوله : « اول كافر » ، قول الشاعر :

فاذا همُ طَعِموا فألأم طاعم　　واذا همُ جاعوا فشرُّ جياع (١)

المعنى :

ومعنى قوله : « ولا تكونوا أول كافر به » قال قوم : يعني بالقرآن من أهل الكتاب: لأن قريشاً كفرت به قبلهم بمكة . وقيل : معناه : لا تكونوا أول كافر به أي لا تكونوا أول السابقين بالكفر فيه فيتبعكم الناس أي لا تكونوا أئمة في الكفر به . وقيل : لا تكونوا اول كافر به اي اول جاحدٍ به إن صفته في كتابكم .

(١) لرجل جاهلي . معاني القرآن للفراء . طعموا : شبعوا .

اللغة :

والأول والسابق والمتقدم نظائر · ويقال اول وآخر واول وثان . والأول : هو الموجود قبل الآخر · والاول قبل كل شيء يناقض الوصف بانه محدث ويعلم ذلك ضرورة ·

والهاء في قوله : « به » قيل فيه ثلاثة اقوال : احدها — انه يعود الى « ما » في قوله : « بما انزلت » وهو الاجود ·

والثاني — لا تكونوا اول كافر به اي بمحمد « ص ».

والثالث — اول كافر بما معكم ، من كتابكم ، لانهم إذا جحدوا ما فيه من صفة النبي (ص) فقد كفروا به والاول قول ابن جريج · وانما كان هو الاجود لانه اشكل بما تقدم · والثاني قول ابي العالية · والثالث حكاه الزجاج وقواه بأنهم كفروا بالقرآن · وانما قيل : ولا تكونوا اول كافر بكتابكم اي صفة محمد (ص) فيه · وقال الرماني : وإنما عظم اول الكفر لانهم إذا كانوا ائمة فيه وقدوة في الضلالة كان كفرهم اعظم · كما روي عن النبي (ص) : من سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة · ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة · وليس في نهيه عن ان يكونوا اول كافر دلالة على انه يجوز ان يكونوا آخر كافر ، لأن المقصود من الكلام النهي عن الكفر على كل حال وخص الاول بالذكر لما قدمنا من عظم موقعه كما قال الشاعر :

من اناس ليس في اخلاقهم عاجل الفحش ولا سوء الجزع

وليس يريد ان فيهم فحشاً آجلا ·

وقوله : « ثمناً قليلا » · فالثمن والعوض والبدل نظائر · وبينها فرق فالثمن : هو البدل في البيع من العين او الورق · واذا استعمل في غيرهما كان مشبهاً بها ومجازاً · والعوض : هو البدل الذي ينتفع به كائناً ما كان · واما البدل : فهو الجعل للشيء مكان غيره · ويقال : ثمنه تثميناً · وثامنه مثامنة · ويجمع الثمن اثماناً واثمناً · ويروى بيت زهير :

وعزّت أثمن البـدن

جمع ثمن . ومن روى أثمن البدن : أراد الثمينة منها أي أكثرها ثمنا . والثمن جزء من الثمانية اجزاء ، من اي مالٍ كان . وثوب ثمين : اذا كان كثير الثمن والفرق بين الثمن والقيمة ، أن الثمن قد يكون وفقا ، وقد يكون بخسا ، وقد يكون زائداً . والقيمة لا تكون الا مساوية المقـدار للمثمن من غير نقصان ولا زيادة . وكل ماله ثمن فهو مال . وليس كل ملك له ثمن .

والقليل ، والحقير ، واليسير ، نظائر . وضده : الكثير . تقول : قل ، يقل ، قلةً . واقل منـه ، اقلالا . واستقل استقلالا . وتقلل ، تقللا . وقلله ، تقليلا . وقليل ، وقلال ، بمعنى واحد] . ورجل قليل أي قصير . وقل الشيء : اقله . والقلة ، والقل لغتان . والقلة : راس كل شيء . والرجل يقل شيئا : يحمله . وكذلك يستقله . واستقل الطائر : اذا ارتفع . وقلة الجبل : اعلاه . وهي قطعة تستدير في اعلاه . وهي القلة . والقلة التي جاءت في الحديث مثل : قلال هجر . قيل إنها جرارٌ عظام . والقلة : النقصان من العدد . وقيل في الصغر .

وقوله : « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلاً » فأدخل (الباء) في الآيات دون الثمن . وفي سورة يوسف ، في الثمن . في قوله : « وشروه بثمن بخس » (١) قال الفراء : إنما كان كذلك ، لأن العوض كلها ، أنت مخير فيها في إدخال الباء . إن شئت قلت : اشتريت الثوب بكساءٍ . وإن شئت قلت : اشتريت بالثوب كساءً . أيها جعلته ثمناً لصاحبه ، جاز فاذا جئت الى الدراهم والدنانير ، وضعت الباء في الثمن كقوله : « بثمن بخس » ، لأن الدراهم ثمن أبداً .

وروي عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله : « ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا » قال عليه السلام : كان لحيي بن أخطب وكعب بن اشرف ، وآخرين منهم مأكلة على يهود في كل سنة . وكرهوا بطلانها بأمر النبي « ص » فحرفوا لذلك آيات من التوراة فيها صفته وذكره ، فذلك الثمن القليل الذي أريد به في الآية .

(١) سورة يوسف : آية ٢٠ .

وتقييده بـ « لا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا » لا يدل على أنه إذا كان كثيراً يجوز مشترىً به ، لأن المقصود من الكلام ، أن أي شيء باعوا به آيات الله كان قليلا ، وانه لا يجوز أن يكون له ثمنٌ يساويه . كقوله : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به » (١) انما أراد بذلك نفي البرهان عنه على كل حال ، وأنه لا يجوز أن يكون عليه برهان . ومثله قوله : « ويقتلون النبيين بغير حق » (٢) وانما اراد ان قتلهم لا يكون إلا بغير الحق نظائر ذلك كثيرة . ومثله قول الشاعر :

على لاحبٍ لا يهتدى بمناره

وانما اراد : لا منار هناك فيهتدى به . ولذلك نظائر نذكرها إذا انتهينا اليه إن شاء الله .

قوله تعالى :

« ولا تلْبِسوا الحقَّ بالباطل وتكتُموا الحقَّ وأنتم تعلمون » . (٤٢)

آية واحدة بلا خلاف .

اللغة :

اللبس ، والستر ، والتغطية ، والتعمية ، نظائر . والفرق بين التعمية ، والتغطية ان التعمية قد تكون بالنقصان والزيادة ، والتغطية تكون بالزيادة . وضد الستر : الكشف . وضد اللبس : الايضاح . يقال : لبس ، لبساً . وألبسه ، إلباساً . والتبس ، التباساً . وتلبس ، تلبساً . ولبّسه ، تلبيساً ولابسه ، ملابسةً . واللباس ما واريت به جسدك . ولباس التقوى : الحياء والفعل : لبس ، يلبس . واللبس : خلط الأمور بعضها ببعض . إذا التبست . واللبوس : الدروع . وكل شيء تحصنت به ، فهو لبوس . قال الله تعالى : « وعلمناه صنعة لبوسٍ لكم » (٣) . قال الشاعر :

إلبس لكل حالة لبوسَها إما نعيمها وإما بؤسها

وثوبٌ لبيس . وجمعه : ألبس . واللبسة : ضربٌ من اللباس . والفعل : لبس

---

(١) سورة المؤمنون : آية ١٠٨ . (٢) سورة آل عمران : آية ٢١ (٣) سورة الانبياء آية ٨٠ .

يلبس ؛ لبساً ، ولبسة واحدة . ويقال : لبست الأمر ألبسه : إذا عميته . ومنه قوله : « وللبسنا عليهم ما يلبسون » (١) . ولا بست الرجل ملابسةً : إذا عرفت دخلته . وفي فلان ملبس : إذا كان فيه مستمع . وفي أمره لبسة : أي ليس بواضح وأصل اللبس :الستر : قال الأخطل :

وقد لبست لهذا الدهر أعصره حتى تجلل راسي الشيب فاشتملا (٢)

والفرق بين اللبس ، والاخفاء ، والريب ، والاشكال . أن الاخفاء يمكن أن يدرك معه المعنى . ولا يمكن إدراك المعنى مع اللبس . والريب معه تهمة المشكوك فيه . والاشكال قد يدرك معه المعنى ، إلا أنه بصعوبة ، لأجل التعقيد . وأسباب الالباس كثيرة : منها — الاشتراك . ومنها — الاختلاف . ومنها — الاختزال . وهو : حذف مقدمه وشرطه ، أو ركنه . ومنها — الاختلاط ، والبسط . وهو : المنع من إدراك الشيء ، تشبيهاً بما يمنع من إدراكه بالستر والتغطية . ومنه قول النبي « ص » للحارث بن خوط : يا حار ، إنه ملبوس عليك . إن الحق لا يعرف بالرجال . إعرف الحق تعرف أهله .

والبطلان ، والفساد ، والكذب ، والزور ، والبهتان ، نظائر . وضد الحق: الباطل . يقال : بطل ، بطولا ، وبطلا ، وبطلاناً : إذا تلف . وأبطلته ، إبطالا : إذا أتلفته . والبطل ، والباطل ، واحد . وبطل الرجل ، بطولة إذا صار بطلا . ويقال: رجل بطل . ولا يقال : إمرأة بطلة . وبطل ، بطالة : إذا هزل ، وكان بطالا . والأباطل : جمع إبطالة وأبطولة . والباطل : ضد الحق . وأبطلته : جعلته باطلا . وأبطل فلان : إذا جاء بباطل . والبطل :الشجاع الذي يبطل جراحاته ، لا يكترث لها ، ولا تكفه عن نجدته . وأصل الباطل ، الخبر الكذب . ثم كثر حتى قيل لكل فاسد. ويقال : فعل باطل أي قبيح . وبناء باطل أي منتقض . وزرع باطل أي محترق تالف .

---

(١) سورة الانعام . آية ٩.

(٢) ديوانه . واعصرج عصر . ولبس له اعصره : عاش وقاسى خيره وشره وتجلل الشيب الرأس علاه . وفي المطبوعة و المخطوطة (تخلل) .

المعنى :

ومعنى لبسهم الحق بالباطل : أنهم آمنوا ببعض الكتاب ، وكفروا ببعض ، خلطوا الحق بالباطل ، لأنهم جحدوا صفة محمد « ص » فذلك الباطل ، وأقروا بغيره مما في الكتاب على ما هو به ، وذلك حق . وقال ابن عباس : لا تخلطوا الصدق بالكذب . وقال الحسن : كتموا صفة محمد «ص» ودينه ، وهو الحق . وأظهروا دين اليهودية والنصرانية . وقال ابن زيد : الحق : التوراة التي أنزلها الله على موسى . والباطل : ما لبسوه بأيديهم . واللبس في الآية : قيل معناه : التعمية . وقيل : خلط الحق بالباطل ، عن ابن عباس . ومنه قوله : « وللبسنا عليهم ما يلبسون » أي لخلطنا عليهم ما يخلطون . قال العجاج :

لما لبسن الحق بالتجني عيين واستبدلن زيداً مني (١)

وقال بعضهم : الحق : إقرارهم بأن محمداً « ص » مبعوث إلى غيرهم . والباطل إنكارهم أن يكون بعث إليهم . وهذا ضعيف ، لأنه إن جاز ذلك على نفر يسير ، لم يجز على الخلق الكثير ، مع إظهار النبي « ص » وتكذيبهم فيه ، وإقامة الحجة عليهم .

الاعراب :

وقوله : « وتكتموا الحق » يحتمل أمرين من الاعراب . أحدها — الجزم على النفي ، كأنه قال : لا تلبسوا الحق ، ولا تكتموه . والآخر — النصب على الظرف ، كأنه قال : لا تجمعوا اللبس والكتمان . كما قال الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم (٢)

ومثله : لا يسعني شيء ، ويعجز عنك . وعند الخليل وسيبويه ، والاخفش ، ينصب مثل ذلك ، باضمار أن . ويكون تقدير الكلام : لا يكن منكم لبس الحق

«١» ديوانه

«٢» هذا البيت روي في عدة قصائد لعدة شعراء . نسب للأخطل . ونسب للمتوكل الليثي ونسب لسابق البربري ونسب للطرماح ونسب لأبي الأسود الدؤلي

وكتمانه . ودل « تلبسوا » على اللبس و « تكتموا » على الكتمان . كما تقول : من كذب كان شراً له . فكذب دليل على الكذب . فكأنه قال : من كذب كان الكذب شراً له .

قوله : « وأنتم تعلمون »

المعنى :

قال قوم : هو متوجه إلى رؤساء أهل الكتاب ، ولذلك وصفهم بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه للتلبيس على أتباعهم ـ قالوا ـ وهذا تقبيح لما يفعلونه . وكذلك قوله : « وتكتمون الحق » أي تتركون الاعتراف به ، وأنتم تعرفونه أي تجحدون ما تعلمون . وجحد المعاند أعظم من جحد الجاهل . ومن قال هـذا ، لا يلزمه ما يتعلق به أهل التعارف ، من هذه الآية ، من قولهم : إن الله أخبر أنهم يكتمون الحق وهم يعلمون ، لأنه إذا خص الخطاب بالرؤساء ـ وهم نفر قليل ـ فقد جوز على مثلهم العناد والاجتماع على الكتمان . وإنما يمنع مع ذلك في الجماعة الكثيرة ، لما يرجع الى العادات ، واختلاف الدواعي . كما قيل في الفرق بين التواطي والاتفاق في العدد الكثير . وقال بعضهم : وأنتم تعلمون البعث والجزاء . فان قيل : كيف يصح ذلك على أصلكم الذي تقولون : إن من عرف الله لا يجوز أن يكفر ؟ . وهؤلاء إذا كانوا كفاراً ، وماتوا على كفرهم . كيف يجوز أن يكونوا عارفين بصفة محمد ، وأنه حق ، بما معهم من التوراة . وذلك مبني على معرفة الله ، وعندكم ما عرفوا الله ؟ قيل : إن الله الذي يمنع أن يكفر من عرف الله ، إذا كان معرفته على وجه يستحق بها الثواب ، فلا يجوز أن يكفر ، لأنه يؤدي إلى اجتماع الثواب الدائم على إيمانـه ، والعقاب الدائم على كفره . والاحباط باطل . وذلك خلاف الاجماع . ولا يمتنع أن يكونوا عرفوا الله على وجه لا يستحقون به الثواب لأن الثواب إنما يستحق ، بأن يكونوا نظروا من الوجه الذي وجب عليهم . فأما إذا نظروا بغير ذلك ، فلا يستحقون الثواب ، فيكونوا على هذا عارفين بالله وبالكتاب الذي أنزله على موسى ، وعارفين بصفات النبي « ص » . لكن لا يؤمنون مستحقين الثواب .

وعلى هذا يجوز أن يكفروا . وفي الناس من قال : استحقاقهم الثواب على إيمانهم مشروط بالموافاة . فاذا لم يوافوا به ، لم يستحقوا الثواب . فعلى هذا أيضاً ، يجوز أن يكونوا عارفين ، وإن لم يكونوا مستحقين لثواب يبطل بالكفر . والمعتمد الأول . وقال قوم : الآية متوجهة إلى المنافقين منهم . وكان خلطهم الحق بالباطل ما أظهروا بلسانهم من الاقرار بالنبي « ص » بما يستبطنونه من الكفر . وهذا يمكننا الاعتماد عليه ، ويكون قوله : « وأنتم تعلمون » معناه أنكم تعلمون أنكم تظهرون خلاف ما تبطنونه . وهذا أسلم من كل وجه على أصلنا . ويمكن أن يقال : معنى قوله : « وأنتم تعلمون » أي عند أنفسكم ، لأنهم إذا كانوا يعتقدون أنهم عالمون بالتوراة ، وبأنه من عند الله ، وفيها ذكر النبي ، فهم عالمون عند انفسهم بنبوته ، لكن يكابرون .

قوله تعالى :

« وأقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ واركعوا مَعَ الرَّاكعين »

(٤٣) — آية بلاخلاف .

اللغة :

الصلاة في أصل اللغة : الدعاء . قال الأعشى :

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي   نوماً فان لجنب المرء مضطجعا

أي دعوت. وقال آخر :

وقابلها الريح في دنّها   وصلى على دنّها وارتسم (١)

أي ودعا . وقيل : أصلها : اللزوم . من قول الشاعر :

لم أكن من جناتها علم الله   واني لحرها اليوم صال

أي ملازم لحرها . وكان معنى الصلاة ، ملازمة العبادة على الحد الذى أمر

(١) مر الكلام في هذا البيت ١ : ٥٦ .

الله عزوجل . وقيل : أصلها : الصلا وهو عظم العجز لرفعه في الركوع والسجود من قول الشاعر :

فآب مصلوه بغير جليـــة　　وغودر بالجولان حزم ونائل (١)

اي الذين جاؤوا في صلا السابق . والقول الأول أقرب إلى معنى الصلاة في الشرع . وقد بينا معنى إقامة الصلاة فيما مضى ، فلا وجه لاعادته .

وقوله : « وآتوا الزكاة » . فالزكاة . والنماء ، والزيادة ، نظائر في اللغـة . ونقيض الزيادة : النقصان . ويقال : زكا ، يزكو زكاء . وتزكى ، يتزكى تزكيـــة . قال صاحب العين : الزكاة ، زكاة المال ، وهو تطهيره . ومنه زكى . يزكي ، تزكيـةً . والزكاة : زكاة الصلاح . تقول : رجل تقي زكي . ورجال أتقياء أزكياء . والزرع زكا زكاء ـ ممدود ـ . وكل شيء يزداد وينمو ، فهو يزكو زكاء . وتقول : هذا لا يزكو بفلان أي لا يليق به . قال الشاعر :

المال يزكو بك مستكثراً　　يختال قد أشرق للناظر

ومصدر الزكاة : ممدود . ويقال : إن فلاناً لزكا النقد أي حاضره وعتيده .

والزكا : الشفع قال الشاعر :

كانوا خساً أو زكاً من دون أربعة　　لم يخلقوا وجدود الناس تعتلج (٢)

والخسا : الوتر . وأصل الباب : النمو ، والزكاة تنمي المال بالبركة التي يجعل الله فيه . وسمي بالزكاة في الشريعة ، ما يجب إخراجه من المال ، لأنه نماء ما ينقى ويثمر . وقيل : بل مدح لما ينقى ، لأنه زكي أي مطهر . كما قال : « أقتلت نفساً زكية بغير نفس » (٣) أي طاهرة —

وقوله : « واركعوا » . فالركوع ، والانحناء ، والانخفاض نظائر في اللغة . يقال : ركع ، ورفع . قال الشاعر :

---

(١) في التفسير الكبير (وآب مضلوه) . من اضل القوم ميتهم : اذا واروه في قبره ، وفيه بدل (بغير جلية) بعين جاية : والشعر للنابغة .

(٢) اللسان مادة (خسا) . وقد نقله الفراء عن الدبيرية . زكا : تقوله العرب للزوج وخسا للفرد : تعتلج تضطرع (٣) سورة الكهف آية : ٧٤ .

لا تهين الفقير علك أن   تركع يوماً والدهرقد رفعه(١)

قال أبو زيد : الراكع : الذي يكبو على وجهه . ومنه الركوع في الصلاة . قال الشاعر :

وأفلت حاجب فوق العوالي   على شقّاء تركع في الظراب (٢)

والركمة : الهوة فى الارض . ـ لغة يمانيـة ـ قال صاحب العين : كل شيء ينكب لوجهـــه ، فتمس ركبته الأرض أولا تمس ، بعد أن يطأطىء رأسه ، فهو راكع . قال الشاعر :

ولـكني أنص العيس تدمى   أياطلها وتركع بالحزون(٣)

وقال لبيد :

أخبر أخبار القرون التي مضت   أدب كأني كلما قمت راكع

وقيل : إنه مأخوذ من الخضوع . ذهب اليه المفضل بن سلمة والأصمعي . قال الشاعر :

لا تهين الفقير علك أن   تركع يوماً والدهر قد رفعه

والأول أقوى ، لأن هذا مجاز مشبه به .

وقوله : « واركعوا مع الراكعين » إنما خص الركوع بالذكر من أفعال الصلاة ، لما قال بعض المفسرين : إن المأمورين هم أهل الكتاب ، ولا ركوع في صلاتهم . وكان الأحسن ذكر المختص دون المشترك ، لأنه أبعد عن اللبس . وقيل : لأنه يعبر بالركوع عن الصلاة . يقول القائل : فرغت من ركوعي أي من صلاتي . وإنما فعل ذلك ، لأنه أول ما يشاهد مما يدل على أن الانسان في الصلاة ، لأنا بينا أن أصل الركوع الانحناء . فان قيل : كيف أمروا بالصلاة والزكاة وهم لا يعرفون حقيقة ما في الشريعة ؟ قيل : إنما أمروا بذلك ، لأنهم أحيلوا فيه على بيان الرسول

(١) قائل هذا البيت الأضبط بن قريع الأسدي .

(٢) شقاء : مؤنث الأشق . وفرس اشق : يشتق في عدوه يميناً وشمالا . الظراب ج ظرب ـ بفتح الظاء وكسر الراء وهي الرابية .

(٣) انص العيس : استحثها . اياطل : ج . ايطل وهي الخاصرة . ارض حزون : غليظة .

اذ قال : « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (١) . ولذلك جاز أن يأمرهم بالصلاة على طريق الجملة ، ويحيلهم في التفصيل الى بيان الرسول « ص » . وقد بينا تفصيل ما ورد الشرع به ، من الصلاة والزكاة ، وفرائضها وسننها في كتاب النهاية والمبسوط وغيرهما من كتبنا في الفقه ، فلا نطول بذكره في هذا الكتاب . وقد ورد في القرآن على طريق الجملة آي كثير : نحو قوله : « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . وقوله « وأقيموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » (٢) . وقوله : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » (٣) وقوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » (٤). ويمكن الاستدلال بهذه الآيات على وجوب الصلوات ، وعلى صلاة الجنائز ، وصلاة العيدين ، وعلى وجوب الصلاة على النبي وآله في التشهد ، لأنه عام في جميع ذلك . فان قيل : قوله : « وأقيموا الصلاة » قد ثبت أن هذا خطاب لأهل الكتاب ، وليس في صلاتهم ركوع ، فكأنه أمرهم بالصلاة على ما يرونهم ، وأمرهم بضم الركوع إليها . وعلى معنى قوله : « اركعوا » ـ أي صلوا نقول : إن ذلك تأكيد . ويمكن أن يقال : فيه فائدة . وهو أن يقال : إن قوله : « أقيموا الصلاة » إنما يفيد وجوب إقامتها . ويحتمل أن يكون إشارة إلى صلاتهم التي يعرفونها . ويمكن أن يكون إشارة إلى الصلاة الشرعية ، فلما قال : « واركعوا مع الراكعين » يعني مع هؤلاء المسلمين الراكعين، تخصصت بالصلاة في الشرع ، ولا يكون تكراراً ، بل يكون بياناً . وقيل : قوله : « واركعوا مع الراكعين » حث على صلاة الجماعة ، لتقدم ذكر الصلاة المنفردة في أول الآية .

---

(١) سورة الحشر : آية ٧ .

(٢) سورة النساء : آية ١٠٢ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٣٨ .

(٤) سورة المؤمنون : آية ١ .

قوله تعالى :

« أتأمرونَ الناسَ بالبرِّ وتنسَونَ أنفُسكم وأنتم تتلُون الكتابَ أفلا تعقلون . » (٤٤) — آية

المعنى :

كل طاعة لله تعالى ، فلا خلاف أنها تسمى براً . واختلفوا في المراد بهذه الآية . فقال ابن عباس : المراد به التمسك بكتابهم ، فكانوا يأمرون أتباعهم ، ويتركون هم التمسك به ، لأن جحدهم النبي « ص » هو تركهم التمسك به . وقال قتادة : كانوا يأمرون الناس بطاعة النبي « ص » ويخالفون ذلك . وقال قوم : إن معناه : أنهم كانوا يأمرون ببذل الصدقة ، ويضنون بها . وقال بعضهم : البر : الصدق من قولهم : صدق ، وبر . ومعناه : أنهم يأمرون بالصدق ولا يصدقون .

اللغة :

والبر ـ في أصول اللغة ـ والصلة ، والاحسان ، نظائر . يقال : هو بار وصول محسن . وضد البر : العقوق . وقال ابن دريد : البر ضد العقوق ، ورجل بار وبر بمعنى واحد . وبرت يمينه : إذا لم يحنث . وبر حجه وبر ـ لغتان ـ . والبر : خلاف البحر . والبر : ـ معروف ـ أفصح من الحنطة والقمح . واحدة برة . قال الهذلي :

لادر دري إن أطعمت نازلهم   قرف الحني وعندي البر مكنوز

الحني : ردي المقل خاصة . ومن أمثالهم : لا يعرف الهر من البر . واختلفوا في هذا المثل فقال الرماني : الهر : السنور . والبر : الفارة في بعض اللغات ، أو دويبة تشبهها . وقال الاخفش : معناه : لا يعرف من يبره ممن يهر عليه . وقوم بررة أبرار والمصدر البر . ويقال : صدق وبر . وبرت يمينه أي صدقت . وكانت العرب تقول : فلان يبرر به أي يطيعه . قال الراجز :

لاهم إن بكراً دونكا　　يبرك الناس ويفجرونكا

والابرار : الغلبة . يقال أبر عليهم فلان . قال طرفة :

ويبرون على الآي البر .

والبربرة : كثرة الكلام ، والجلبة باللسان . وأصل الباب كله : البر وهو : اتساع الخير . والفرق بين البر والخير ، أن البر يدل على القصد ، والخير قد يقع على وجه السهولة .

قوله : « وتنسون انفسكم » .

اللغة :

فالنسيان ، والغفلة ، والسهو ، نظائر . وضد النسيان : الذكر . تقول : نسي نسياناً . وأنساه ، إنساء . وتناساه ، تناسياً . وفلان نسي ، كثير النسيان . والنسي ، والمنسي . الذي ذكره الله تعالى: « وكنت نسياً منسيا »(١) وسمي الانسان إنساناً ، إشتقاقاً من النسيان . وهو في الاصل : إنسيان . وكذلك إنسان العين . والجمع : أناسي . والنسا : عرق سيق بين الفخذين ، فيستمر في الرجل . وهما نسيان . والجمع : أنساء . وهو في الفخذ . ويسمى في الساق : الطفل . وفي البطن : الحالبين (٢) وفي الظهر : الأبهر . وفي الحلق : الوريد . وفي القلب : الوتين . وفي اليد : الأكحل . وفي العين : الناظر . يقال : هو بهر الجسد ، لأنه عد جميع العروق . وأصل الباب : النسيان ضد الذكر . وقوله : « نسوا الله فنسيهم »(٣) أي تركوا طاعته ، فترك ثوابهم . ويقال : آفة العلم النسيان . والمذاكرة تحيي العلم . وحد النسيان : غروب الشيء عن النفس بعد حضوره لها . والفرق بين النسيان والسهو ، أن السهو يكون ابتداءً وبعد الذكر . والنسيان لا يكون إلا بعد الذكر . والنسيان ، والذكر معاً ، من فعل الله تعالى ، لأن الانسان يجتهد أن يذكر شيئاً فلا يذكره .

(١) سورة مريم آية : ٣٢ . (٢) عرقان يكتنفان بالسرة (٣) سورة التوبة : آية ٦٨ .

المعنى :

ومعنى قوله : « وتنسون أنفسكم » أي تتركونها . وليس المراد بذلك ما يضاد الذكر ، لأن ذلك من فعل الله لا ينهاهم عنه . فان قيل : إذا كان الواجب عليهم مع ترك الطاعة والاقامة على المعصية ، الأمر بالطاعة ، والنهي عن المعصية ، فكيف قيل لهم هذا القول ؟ قلنا : في أمرهم بالطاعة ، ونهيهم عن المعصية تعظيم لما يرتكبونه من معصية الله تعالى ، لأن الزواجر كلها ، كلما كانت أكثر ، كانت المعصية أعظم ففي نهيهم لغيرهم ، زواجر . فهو توبيخ على عظيم ما ارتكبوا من ذلك .

وقوله : « وانتم تتلون الكتاب » .

اللغة :

فالتلاوة ، والقراءة ، والدراسة ، نظائر . يقال : فلانٌ يتلو تلاوة ، فهو تالٍ أي تابع . والمتالي : الأمهات إذا تلاهن الاولاد . والواحد : متل . وناقة متلية : وهي التي تنتج فى آخر النتاج . وأصل الباب : الاتباع . فتسمى التلاوة بذلك ، لاتباع بعض الحروف فيها بعضاً . والفرق بين التلاوة والقراءة ، أن أصل القراءة جمع الحروف ، وأصل التلاوة ، اتباع الحروف . وكل قراءةٍ تلاوة ، وكل تلاوةٍ قراءة وحد الرماني : التلاوة : ما به صوت يتبع فيه بعض الحروف بعضاً .

المعنى :

والكتاب الذي كانوا يتلونه التوراة ـ على قول ابن عباس وغيره . وقال أبو مسلم كانوا يأمرون العرب باتباع الكتاب الذى في أيديهم ، فلما جاءهم كتاب مثله ، لم يتبعوه .

وقوله : « أفلا تعقلون »

اللغة :

فالعقل ، والفهم ، واللب ، والمعرفة ، نظائر يقال فلانٌ عاقلٌ فهيم أديب ذو معرفة ، وضد العقل : الحمق . يقال : عقل الشيء عقلا ، وأعقله غيره إعقالا .

ويقال : اعتقله ، اعتقالا وانعقل ، انعقالا . وقيل لابن عباس : أنى لك هذا العلم ؟ قال : قلبٌ عقول ، ولسانٌ سؤول . ويقـال : عقلت بعـد الصبا أي عرفت الخطأ الذي كنت فيه . وقال صاحب العين : العقل : ضد الجهل يقال : عقل الجاهل : إذا علم . وعقل المريض بعـد ما هجر وعقل المعتوه ونحوه والعقال : الرباط ويقـال : عقلت البعير أعقله ، عقلاً : إذا شددت يده بالعقال وإذا أخذ صدقة الابل تامةً لسنةٍ يقال : أخذ عقالاً وعقالين لسنتين ، وعقلا لجماعة وقال الشاعر :

سعى عقالاً فلم يترك لنا سبداً   فكيف لو قد سعى عمرو عقالين
لاصبح الناس أوباداً وماوجدوا   يوم التحمل في الهيجا جمالين(١)

قال المبرد : يقال للمصدق إذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنه : أخذ عقالاً . وإذا أخذ قيمته : قيل : أخذ نقداً . والعقيلة من النساء : التي قـد عُقلت في بيتها أي حبست في بيتها وخدرت . والجمع : عقائل . والدرة عقيلة البحر . وعقيلة كل شيء : أكرمه . وعُقل القتيل : إذا أوديت ديته من القرابة ، لا من القبائل . والعقل في الرجل : اصطكاك الركبتين والعقل : ثوب أحمر تتخـذه نساء العرب . والمعقول : هذا العقل عند قوم . قال الراعي :

حتى إذا لم يتركوا لعظامه   لحماً ولا لفؤاده معقولا

والعقل ، والمعقل : وهو الحصن وجمعـه : عقول والماقول من النهر والوادي ومن الامور أيضاً : الملتبس ، وما اعوج منه . وعقـل الدواء بطنه أي حبسه وقولهم لا يعقل حاضر لبادٍ قال ابن دريد : معناه أن القتيل إذا كان بالبـادية ، فان أهلها يتعاقلون بينهم الديّة ، ولا يلزمون أهل الحضر من بني اعمامهم شيئا . وفي الحديث انا لا نتعاقل المضيع يعني ما سهل من الشجاج (٢) ، بل يلزم الجاني . وعاقلة الرجل : بنو عمه الأدنون ، لأنهم كالمعقل له . وأصل الباب العقل الذي هو العقد . والعقل مجموع علوم لأجلها يمتنع من كثير من القبائح يعقل كثيراً من الواجبات . وقال الرماني : العقل هو العلم الأول الذي يزجر عن قبيح الفعل . وكل من كان زاجره

---

(١) الشعر لعمرو بن العداء الكلبي . لسان العرب وروايته « الحي » بدل « الناس » السبد : بقايا النبت . اوباد : ج وبد وهو الفقر والبؤس . وجما ابن يريد قطيين (٢) الشجاج واحدها —

أقوى ، كان عقله أقوى . وقيل : العقل : معرفة يفصل بها بين القبيح والحسن في الجملة . وقيل : العقل : قوة يمكن معها الاستدلال بالشاهد على الغائب . وهذه العبارات قريبة المعاني مما ذكرناه . والفرق بين العقل والعلم ، أن العقل قد يكمل لمن فقد بعض العلوم ، كفقد من كمل عقله العلم بأن هذه الرمانة حلوة أو حامضة . ولا يكمل العلم لمن فقد بعض عقله . فان قيل : اذا كان العقل مختلفا فيه ، فكيف يجوز أن يستشهد به ؟ . قيل الاختلاف في ماهية العقل ، لا يوجب الاختلاف في قضاياه . ألا ترى أن الاختلاف في ماهية العقل — حتى قال بعضهم معرفة ، وقال بعضهم قوة — لا يوجب الاختلاف في أن الألف أكثر من الواحد ، وأن الموجود غيرالمعدوم ، وغير ذلك من قضايا العقل .

قوله تعالى :

«واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين» (٤٥)

آية واحدة .

قال الجبائي : هذا خطاب للمؤمنين دون أهل الكتاب . وقال الطبري ، والرماني : هو خطاب لأهل الكتاب ، ويتناول المؤمنين على وجه التأديب . والأقوى أن يكون خطاباً لجميع من هو بشرائط التكليف ، لفقد الدلالة على التخصيص ، واقتضاء العموم ذلك . فمن قال : إنه خطاب لأهل الكتاب ، قال : لأنه قال: واستعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهدتكم في كتابكم عليه : من طاعتي ، واتباع أمري واتباع رسولي ، وترك ما نهيتكم عنه ، والتسليم لأمري ولمحمد «ص» بالصبر والصلاة.

اللغة :

وأصل الصبر : هو منع النفس محابها ، وكفها عن هواها . ومنه الصبر على المصيبة ، لكفه نفسه عن الجزع . وقيل لشهر رمضان : الصبر ، لصبر صائمه عن الطعام والشراب نهاراً وصبرت إياهم صبرة : حبسه لهم ، وكفه إياهم عنه ، كما يصبر الرجل القتيل ، فيحبسه عليه ، حتى يقتله صبراً يعني حبسه عليه ، حتى قتله .

— الشجة وهي الجرح في الرأس والوجه .

والمقتول : مصبور . والقاتل : صابر .والصبر . واللبث ، والحبس ، نظائر. والصبر : ضد الجزع . وأنشد أبو العباس :

فان تصبرا ، فالصبر ، خيرُ معيشة   وإن تجزعا ، فالأمر ما تريان

ويقال : صبر صبراً . وتصبر تصبراً . واصطبر ، اصطباراً . وتصابر تصابراً . وصابره مصابرة . قال صاحب العين : الصبر : نصب الانسان للقتل . فهو مصبور . يقال : صبروه أي نصبوه للقتل . ويقال : صبرته أي حلّفته بالله جهد نفسه . وكل من حبسته لقتل أو يمين ، فهو قتل صبر ويمين صبر . والصبر : عصارة شجر معروف . والصبار : تمر الهند . وصبر الاناء ونحوه : نواحيه . وأصبار القبر : نواحيه . والصبرة من الحجارة : ما اشتد وغلظ . والجمع : الصبّار . وأم صبار : هي الداهية الشديدة . وصبر كل شيء : أعلاه . وصبير القوم : الذي يصبر معهم في أمرهم وصبر الخوان : رقاقة غليظة تبسط تحت ما يؤكل من الطعام . وتقول : اشتريت الشيء بلا صبر أي بلا كيل والصبير : الكفيل واصل الباب : الصبر الذي هو الحبس .

المعنى :

والصبر خلق محمود ، أمر الله تعالى به ودل عليه ، فقال : « واصبر وماصبرك إلا بالله » (١) وقال : « اصبروا وصابروا » (٢) وقال : « وبشر الصابرين » (٣) وقال : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الامور » (٤) وفي الحديث : اقتلوا القاتل ، واصبروا الصابر وذلك فيمن أمسكه حتى قتله آخر فأمر بقتل القاتل ، وحبس المسك . والصبر المأمور به في الآية ، قيل : فيه قولان : أحدهما — الصبر على طاعته واجتناب معصيته . والثاني — أنه الصوم . وفي الصلاة هنا قولان : أحدها — الدعاء . والثاني — أنها الصلاة الشرعية ذات الركوع والسجود . وكان النبي (ص) إذا أحزنه أمر ، استعان بالصلاة والصوم .ووجه الاستعانة بالصلاة ، لمكان ما

(١) سورة النحل : آية ١٢٧ . (٢) سورة آل عمران : آية ٢٠٠ .
(٣) سورة البقرة : آية ١٥٥ . (٤) سورة لقمان آية ١٧ .

فيها من تلاوة القرآن والدعاء والخضوع لله تعالى ، والاخبات . فان في ذلك معونة على ما تنازع اليه النفس من حب الرياسة والانفة من الانقياد الى الطاعة .

والضمير في قوله : « وإنها لكبيرة » عائد على الصلاة عند أكثر المفسرين . وقال قوم :عائد الى الاجابة للنبي (عليه السلام) وهذا ضعيف ، لأنه لم يجر للاجابة ذكر ولا هي معلومة ، إلا بدليل غامض . وليس ذلك كقوله « إنا أنزلناه » لأن ذلك معلوم ورد الضمير على واحد ، وقد تقدم ذكر شيئين فيه قولان : أحدهما: - انها راجعة الى الصلاة دون غيرها على ظاهر الكلام ، لقربها منه ولأنها الأهم والأفضل ولتأكيد حالها وتفخيم شأنها وعموم فرضها . والآخر - ان يكون المراد الاثنين وان كان اللفظ واحداً كقوله: « والله ورسوله احق ان يرضوه » (١) قال الشاعر :

اما الوسامة اوحسن النساء فقد   اوتيت منه أوان العقل محتنك (٢)

وقال البرجمي :

فمن يك امسى بالمدينة رحله   فاني وقيار بها لغريب (٣)

وقال ابن احمد :

رماني بأمر كنت منه ووالدي   بريا ومن طول الطوي رماني (٤)

وقال آخر :

نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف (٥)

وقوله « واذا رأوا تجارة أولهواً انفضوا اليها » . قال قوم : اللفظ واحد والمراد به اثنان . وقال الفرّاء : راجع الى التجارة لأن تجارة جاءت فضربوا بالطبل فانصرف الناس اليها .

والاستعانة في الآية المامور بها على ما تنازع اليه نفوسهم من حب الرياسة وغاية الشهوة للذة العاجلة والاستعانة بالصبر على المشقة بطاعة الله . ومعنى (الكبيرة) ههنا أي ثقيلة - عند الحسن والضحاك . وأصل ذلك ما يكبر ويثقل على الانسان

(١) سورة التوبة : آية ٦٣ . (٢) احتنك الشيء : استولى عليه .
(٣) وروى (وقياراً) . (٤) مر القول في هذا البيت . (٥) في هذين البيتين ١ : ١٧٢

حمله ، كالأحمال الجافية التي يشق حملها ، فقيل لما يصعب على النفس ، وان لم يكن من جهة الحمل - يكبر عليها . تشبيهاً بذلك .

وقوله : « الا على الخاشعين »

اللغة :

فالخشوع ، والخضوع ، والتذلل ، والاخبات ، نظائر . وضد الخضوع : الاستكبار . يقال : خشع خشوعاً . وتخشع تخشعاً . قال صاحب العين : خشع الرجل يخشع خشوعاً : إذا رمى ببصره الأرض . واختشع : إذا طأطأ رأسه كالمتواضع . والخشوع قريب المعنى من الخضوع ، إلا أن الخضوع في البدن ، والاقرار بالاستخدام (١) . والخشوع في الصوت والبصر . قال الله تعالى : « خاشعة أبصارهم » و « خشعت الأصوات للرحمن » (٢) . أي سكنت . وأصل الباب : من اللين والسهولة من قولهم : نقاً خاشعاً : للأرض التي غلبت عليها السهولة. والخاشع : الأرض التي لا يهتدى إليها بسهولة ، لمحو الرياح آثارها . والخاشع ، والمتواضع ، والمتذلل ، والمسكين ، بمعنى واحد قال الشاعر :

لما أتى خبر الزبير تواضعت　　سور المدينة والجبال الخشع (٣)

وخاشع : صفة مدح ، لقوله : « والخاشعين والخاشعات » وإنما خص الخاشع بأنها لا تكبر عليه ، لأن الخاشع قد تواطأ ذلك له ، بالاعتياد له ، والمعرفة بماله فيه ، فقد صار بذلك بمنزلة مالا يشق عليه فعله ، ولا يثقل تناوله وقال الربيع بن أنس : « الخاشعين » في الآية : الخائفون .

---

(١) وفي نسخة : « الاستحياء » . (٢) سورة طه آية : ١٠٨ .

(٣) البيت لجرير ، الديوان ص : ٣٤٥ . استشهد به سيبويه على ان تاء التأنيث جاءت للفعل لما أضاف « سور » الى المدينة وهي مؤنث ، وهو بعض منها .

قوله تعالى :

« الذّينَ يظنّونَ أنهّم ملاقوا ربّهمْ وأنهّم إليه راجعون » .

(٤٦) ـ آية بلا خلاف .

ان قيل كيف اخبر الله عمن وصفه بالخشوع بالطاعة ، ومدحهم بذلك بانهم يظنون بانهم ملاقوا ربهم . وذلك مناف لصفة المدح ؟ قلنا : الظن المذكور في الآية المراد به العلم واليقين . قال دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج　　سراتهم في الفارسيّ المسرّد

وقال عمير بن طارق :

بأن تغتزوا قومي واقعد فيكم　　واجعل مني الظن غيباً مرجماً (١)

وقال ابو داود (٢) :

ربّ هم فرجته بعزيم　　وغيوب كشفتها بظنون

وقال المبرد : ليس من كلام العرب : أظن عند زيد مالاً ، يريد : أعلم لأن العلم المشاهد لا يناسب باب الظن . وقد أفصح في ذلك أوس بن حجر في قوله :

الألمعي الذي يظن بك الظن　　كأن قد رأى وقد سمعا

وقال آخر :

فالاّ يأتكم خبر يقين　　فان الظن ينقص او يزيد

وقال بعض الشيوخ : اصل الظن ما يجول في النفس من الخاطر الذي يغلب على القلب ، كأنه حديث النفس بالشيء ، وتأول جميع ما في القرآن من معنى العلم على هذا . وقال الحسن وابو العالية ومجاهد وابن جريج : يظنون ، أي يوقنون . ومثله : « ظننت اني ملاقٍ حسابيه » (٣) أي علمت ومثله : « وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا إليه » (٤) ، ومعناه استيقنوا . وقوله « ورأى المجرمون النار

(١) في الايرانية بدل : « بأن تغتزوا » « فان تغتروا » وبدل « غيباً » « عيناً » ، البيت في نقائض جرير والفرزدق . وروايته : « رأجلس فيكم » و « وأجعل علمي ظن غيب مرجماً » .

(٢) في الايرانية : « الذواد » .

(٣) سورة الحاقة : آية ٢٠ (٤) سورة التوبة آية : ١١٩ .

فظنوا إنهم مواقعوها » (١) ، يعني : علموا . وقد جاء في القرآن الظن بمعنى الشك كقوله : « ان هم إلا يظنون » (٢) وقوله : « ان الظن لا يغني من الحق شيئا »(٣) وقال قوم : يحتمل قوله « يظنون » وجهاً آخراً ، وهو انهم يظنون انهم ملاقوا ربهم بذنوبهم لشدة اشفاقهم من الاقامة على معصية الله ، وهذا وجه مليح ، وقد استبعده الرماني وقال : لأن فيه حذوفا كثيرة ، وليس بمنكر اذا كان الكلام محتملاً له . وقيل أيضاً : الذين يظنون إنقضاء اجلهم وسرعة موتهم فيكونون ابداً على حذر ووجل ، كما يقال لمن مات : لقي الله . والظن والشك والتجويز نظائر ، إلا ان الظن فيه قوة على أحد الأمرين دون الآخر ، وحده ما قوي عند الظان كون المظنون على ما ظنه مع تجويزه ان يكون خلافه. فبالتجويز ينفصل من العلم ، وبالقوة ينفصل من الشك والتقليد وغير ذلك . وضد الظن اليقين ويقال ظن ظنا وتظنن تظننا . وقال : « وظنوا انهم الينا لا يرجعون » (٤) . وقوله : « وظننتم ظن السوء » (٥) والظنين المتهم ، ومصدره الظنة والظنون الرجل السيء الظن بكل احد ، والظنون القليل الخير ، والتظني والتظنن بمعنى واحد . والظنون البئر التي يظن ان بها ماء ولا يكون فيها شيء ، ومظنة الرجل ومظانه حيث يألفه فيكون فيه .

ومعنى قوله « انهم ملاقوا ربهم » اي ملاقوا جزاء ربهم ، فجعل ملاقاة الجزاء ملاقاة له تفخيما وتعظيماً لشأن الجزاء . وأصل الملاقاة الملاصقة ، من قولك التقى الحدان اي تلاصقا ، ثم كثر حتى قالوا التقى الفارسان اذا تحاذيا ولم يتلاصقا . ومثل ما قلنا في قوله « ملاقوا ربهم » قوله تعالى : « فاعقبهم نفاقاً في قلوبهم الى يوم يلقونه » (٦) معناه يوم يلقون جزاءه ، لأن المنافقين لا يرون الله عند احد من اهل الصلاة ، وكذلك قوله « ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق

---

(١) سورة الكهف : آية ٥٤　　(٢) سورة الجاثية آية : ٢٣ .
(٣) سورة يونس آية : ٣٦　　(٤) سورة القصص آية ٣٩ .
(٥) سورة الفتح آية : ١٢ .　　(٦) سورة التوبة آية : ٧٨ .

قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » (١) معناه إذ وقفوا على جزاء ربهم ، لأن الكفار لا يرون الله عند احد من الأمة .

فان قيل : ما معنى الرجوع ههنا وهم ما كانوا قط فى الآخرة فيعودوا إليها؟ قيل : راجعون بالاعادة في الآخرة — في قول ابي العالية — وقيل : يرجعون بالموت كما كانوا في الحال المتقدمة ، لانهم كانوا امواتاً ، ، ثم احيوا ، ثم يموتون ، فيرجعون امواتاً كما كانوا: والأول اظهر واقوى ، وقيل : ان معناه : انهم راجعون الى ان لا يملك احدهم ضرا ولا نفعاً غيره تعالى كما كانوا في بدء الخلق ، لانهم في ايام حياتهم قد يملك الحكم عليهم غيرهم ، والتدبير لنفعهم وضرهم بين ذلك قوله : « مالك يوم الدين » ومعنى ذلك انهم يقرون بالنشاة الآخرة فجعل رجوعهم بعد الموت الى المحشر رجوعا اليه .

اللغة :

وأصل الرجوع العود الى الحال الاول . يقال رجع الرجل ورجعته وهو احد ما جاء على فعل وفعلة ويحتمل ان يكون المراد أنهم اليه صائرون . كما يقول القائل : رجع الأمر الى فلان وان كان قط لم يكن له . ومعناه صار اليه : وحذفت النون من «ملاقوا ربهم» عند البصريين تخفيفاً والمعنى على اثباتها ، ومثله قوله : « انا مرسلوا الناقة » (٢) « وكل نفس ذائقة الموت » (٣) قال الشاعر :

هــــل انت باعث دينار لحاجتنا   او عبد رب اخا عون بن مخراق(٤)

ولو اردت معنى الماضي لتعرف الاسم بالاضافة ، لم يجز فيه اظهار النون البتة . واذا كان الفعل غير واقع كان اثبات النون هو الوجه دون الاضافة . فلو قيل

(١) سورة آل عمران آية : ١٠٦ وسورة الانعام آية : ٣٠ والأعراف : آية ٤٨ . والأنفال آية : ٣٥ والأحقاف آية ٣٤ .

(٢) سورة القمر آية ٣٧ (٣) سورة آل عمران آية : ١٨٥ . وسورة الأنبياء آية : ٣٥ وسورة العنكبوت آية ٥٧ .

(٤) سيبويه . قال صاحب الخزانة : البيت من ابيات سيبويه التي لم يعرف قائلها . وقيل هو لجرير بن رألان السنبسي . وقيل هو لجرير . وقيل لتأبط شرا . دينار وعبد رب : رجلان .

ملاقون كان صواباً . قال الاخفش : وجرى حذف النون ههنا للاستثقال كما قال الشاعر في قوله :

فان الذي حانت بفلج دماؤهم   هم القوم كل القوم يا ام خالد (١)

فاسقط النون من الذين استثقالا وقال الأخطل :

ابني كليب ان عمّي الذا   قتلا الملوك وفككا الاغلالا

فاسقط النون . وقال الكوفيون : اذا حذف النون فاللفظ الاسم وإذا اثبت وظهر النصب فالمعنى الفعل . قال الزجاج : ويجوز كسر الهمزة من قولهم : انهم اليه راجعون ، لكن لم يقرأ به أحد على معنى الابتداء ولا يجوز كسر الأولى لأن الظن وقع عليها .

قوله تعالى :

« يا بَني إسرائيلَ اذكرُوا نِعمَتيَ التي أنعَمتُ عليكُمْ وإني فضَّلتكُم على العالمِين » (٤٧) — آية .

المعنى :

قد مضى تفسير مثل هذا في ما تقدم فلا وجه لاعادته . وأما قوله : « وإني فضلتكم على العالمين » ذكرهم الله تعالى من الآية ونعمه عندهم بقوله : « وإني فضلتكم على العالمين » فضلت اسلافكم ، فنسب النعمة الى آبائهم واسلافهم ، لأنها نعمة عليهم منه ، لأن مآثر الآباء مآثر الابناء ، والنعم عند الاباء نعم عند الأبناء لكون الابناء من الآباء . وقوله « فضلتكم » .

اللغة :

فالتفضيل ، والترجيح ، والتزييد ، نظائر . والتفضيل نقيضه : التسوية . يقال: فضله وتنقصه على وجهة النقص ونقيض التزييد : التنقيص . يقال : فضل فضلا

---

(١) البيت للأشهب بن رميلة . سيبويه ١ : ٩٦ والبيان ٤ : ٥٥ وفلج واد بين البصرة وحمى ضرية . ومر هذا البيت ايضاً في ١ : ٨٦ .

وافضل افضالا. وتفضل تفضلا واستفضل استفضالا. وتفاضلوا تفاضلا وفاضله مفاضلة. وفضله تفضيلا. والمفضال: اسم المفاضلة. والفضيلة : الدرجة الرفيعة في الفضل. والتفضل : التوشح . ورجل فضل : متفضل . وامرأة متفضلة ، وعليها ثوب فضل : اذا خالفت بين طرفيه على عاتقها فتتوشح به قال الشاعر :

« اذا تمرد فيه الفسه الفضل » . وافضل فلان على فلان : اذا أناله من خيره وفضله ، واحسن اليه . وافضل فلان من الطعام والأرض والخبز : اذا ترك منه شيئاً. لغة أهل الحجاز : فضل يفضل ورجل مفضال : كثير المعروف والخير . والفضائل: واحدها فضيلة . وهي المحاسن . والفواضل : الأيادي الجميلة . وثوب المفضل : ثوب تخفف به المرأة في بيتها والجمع مفاضل. وامرأة مفضل : اذا كان عليها مفضل . واصل الباب : الزيادة . والافضال ، والاحسان ، والانعام نظائر . ويقال فضله : اذا اعطاه الزيادة وفضله اذا حكم له بالزيادة .

فان قيل لم كرر قوله : « يا بني اسرائيل » ؟ قلنا : لأنه لما كانت نعم الله هي الأصل فيما يجب فيه شكره وعبادته ، احتيج الى تأكيدها . كما يقول القائل : اذهب اذهب : اعجل اعجل وغير ذلك في الأمر المهم ، وايضاً فان التذكير الأول ورد مجملا ، وجاء الثاني مفصلا ، كأنه قال اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم فيما انتم عليه من المنافع التي تتصرفون فيها وتتمتعون بها ، وإني فضلتكم على العالمين . ودل هذا على قوله : « وإني فضلتكم على العالمين » لأنها احدى الخصال التي ذكروا بها وجاءت عاطفة فدلت على خصلة قبلها : اما مذكورة او مقدرة . وإنما فضلوا بما ارسل الله فيهم من كثرة الرسل وانزل عليهم من الكتب : وقيل : تكثرة من جعل فيهم من الانبياء ، وما انزل الله عليهم من المن والسلوى الى غير ذلك من النعمة العظيمة من تغريق فرعون عدوهم ، ونجاتهم من عذابه ، وتكثير الآيات التي يخف معها الاستدلال ، ويسهل بها كثرة المشاق . وهو قول اكثر أهل العلم كابي الغالية ، وغيره . ونظير هذه الآية قوله « واذ نجيناكم من آل فرعون » « وإذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم واغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون » .

وقوله « على العالمين »

المعنى :

قال أكثر المفسرين: انه أراد الخصوص ومعناه عالمي زمانهم. ذهب اليه قتادة والحسن وابو العالية ومجاهد وغيرهم . وقال بعضهم: اذا قلت فضل زيد على عمرو في الشجاعة لم يدل على انه أفضل منه على الاطلاق ، ولا في جميع الخصال فعلى هـذا يكون التخصيص في التفضيل لا في العالمين. وامة نبينا محمد «ص» أفضل من أولئك بقوله: « كنتم خير امة اخرجت للناس » (١) وعليه اجماع الامة ، لأنهم اجمعوا على ان امة محمد « ص » أفضل من سائر الامم كما ان محمداً « ص » أفضل الأنبياء من ولد آدم « ع » .

قوله تعالى :

« واتقُوا يَوماً لا تجزَى نَفسٌ عن نفسٍ شَيْئاً وَلا يقبَلُ منها شفَاعةٌ ولا يؤخَذُ منها عَدلٌ وَلا هم يُنصَرُونَ »(٤٨) آية واحدة بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وأهل البصرة « لا يقبل منها بالياء » الباقون بالتاء .

الاعراب :

موضع « لا تجزى » نصب لأنه صفة يوم . والعائد عند الكسائي لا يكون إلا هاء محذوفة من تجزيه وقال بعضهم : لا يجوز إلا فيه؛ وقال سيبويه والاخفش والزجاج : يجوز الأمران .

المعنى :

قال ابو علي المعنى في قوله « لا يقبل منها شفاعة » فمن ذهب الى ان (فيه) محذوفة من قوله « واتقوا يوماً لا تجزي » ، جعل (فيه) بعد قوله « ولا يقبل» ومن

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠ .

ذهب الى انه حذف الجار ، وأوصل الفعل الى المفعول، ثم حـذف الراجع من الصفة كما يحذف من الصلة، كان مذهبه في قوله: لا يقبل ايضاً مثله وحذف الهاء من الصفة يحسن كما يحسن حذفها من الصلة ألا ترى ان الفعل لا يتسلط بحذف المفعول منه على الموصوف كما لا يتسلط بذلك على الموصول ؟ ومما حذف منه الراجع الى الصفة قوله :

وما شيء حميت بمستباح

ومن الحذف قوله :

تروّحي اجدران تقيلي غـدا بجنبي بارد ظليـل

المعنى : تأتي مكانا اجدران تقيلي فيه فحذف الجار ووصل الفعل ثم حـذف الضمير : ونظير الآية قول الراجز :

قد صبحت صبيحها السلام بكبـدٍ خالطها السنام
في ساعة يحبها الطعام (١)

أي تحب الطعام فيها .

اللغة :

والمجازاة والمكافأة والمقابلة نظائر .يقال: جزى يجزي جزاء، وجازاه مجازاة، وتجازوا تجازيا :قال صاحب العين : المجازاة:المكافأة بالاحسان احسانا وبالاساءة اساءة وفلان :ذو جزاء وذو غناء وتقول هذا الشيء يجزىء عن هذا بهمز وتليين وفي لغـة يجزي أي يكفي واصل الباب مقابلة الشيء بالشيء .

المعنى :

ومعنى قوله « لا تجزي نفس عن نفس شيئاً »(٢)أي لا تقابل مكروهها بشيء يدرأه عنها .قال الله تعالى : « هـل تجزون إلا ما كنتم تعملون » (٣) وقال :« اليوم تجزى كل نفس ما كسبت » (٤) والفرق بين المقابلة والمجازاة ان المقابلة قد تكون للمساواة فقط كمقابلة الكتاب بالكتاب والمجازاة تكون في الشر بالشر والخير بالخير. ومعنى

(١) صبح القوم سقام الصبوح وهو ما يشرب صباحاً من خمر أو لبن . (٢) سورة البقرة آية ٤٨ ـ و ١٢٣ (٣) سورة النمل آية ٩٠ (٤) سورة المؤمن آية ١٧ .

قوله « لا تجزي» أي لا تغني وهو قول السدي كما تقول: البقرة تجزي عن سبعة وهي لغة أهل الحجاز. وبنو تميم تجزىء بالهمزة من اجزاه: والأول من جزت وقال الاخفش لا تجزي منها أي لا يكون مكانها بدلا منها وأنكر عليهم ذلك لقوله: « شيئاً » .

وجعل الأخفش لا تجزي منها « شيئاً » في موضع المصدر كأنه يقول لا تجزي جزاء ولا تغني غناء قال الرماني والاقرب ان تكون « شيئاً » في موضع حقاً كأنه قيل لا يؤدي عنها حقا وجب عليها . وقال بعضهم « لا تجزي » بمعنى لا تقضي .

وقبول الشيء تلقيه والاخذ به وضده الاعراض عنه ومن ثم قيل لتجاه القبلة قبالة . وقالوا : أقبلت المكواة الداء أي جعلتها قبالته ويجوز ان يكون المخاطبون بذلك اليهود، لأنهم زعموا ان اباءهم الانبياء، وتشفع لهم واويسوا بقوله، قل فلم يعذبكم بذنوبكم» وبقوله :« لا يقبل منها شفاعة» والقبول والانقياد والطاعة والاجابة نظائر ونقيضها الامتناع يقال قبل قبولا ، وأقبل اقبالا ، وقابله مقابلة وتقابلوا تقابلا ، واستقبله استقبالا ، وتقبل تقبالا ، وقبله تقبيلا وقبل نقيض بعد والقبل خلاف الدبر والقبل اقبالك على الشيء كأنك لا تريد غيره والقبل الطاقة تقول لا قبل لي أي لا طاقة لي . ومنه قوله : « فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها (١) » والقبل التلقاء تقول لقيته قبلا أي مواجهة واصبت هذا من قبله أي من تلقائه أي من لدنه ومن عنده وقوله : « وحشرنا عليهم كل شيء قبلا (٢) » أي قبلا وفسر بعضهم عيانا ، وكل جيل من الناس والجن والقبيلة من قبائل العرب معروفة والكرة يقال لها قبائل . وكل قطعة من الجلد قبيلة .وقبيلة الرأس كل فلقة قد قوبلت بالاخرى وكذلك قبائل العرب والقبال : زمام البغل . يقال : بغل مقبولة ومقبلة . والقبل رأس كل شيء مثل الجبل والاكمة وكثب الرمل . وقبالة كل شيء. ما كان مستقبله ومن الجيران مقابل ومدابر . وشاة مقابلة : اذا قطعت من اذنها قطعة وتركت معلقة من مقدم ، وان كانت من خلف فهي مدابرة واذا ضممت شيئاً الى شيء قلت قابلته والقابلة هي الليلة: المقبلة . وكذلك العام القابل والمقبل. والقابلة: التي تقبل الولد.

---

(١) سورة النمل آية ٣٧ .

(٢) سورة الانعام آية ١١١ .

والقبول من الريح : الصبا لأنها تستقبل الدبور ، وهي تستقبل القبلة من المشرق والقبول: ان تقبل العفو وغير ذلك . وهو اسم المصدر واميت الفعل منه والقبول الاسم . تقول: أفعل هذا من ذي قبل أي من ذي استقبال . والقبلة معروفة والفعل منه التقبيل . والقبلة قبلة الصلاة والتقبل تقبل الشيء تقول : تقبل الله منك وعنك عملك . وتقول : تقبلت فلانا من فلان بقبول حسن ورجل مقابل في كرم وفي شرف من قبل اعمامه واخواله. ورجل مقبل الشاب لم ير فيه اثر من الكبر. والقبيل والدبير: في الحبل فالقبيل الفتل الاول الذي عليه العامة ،والدبير الفتل الاخروبعضهم يقول القبيل في قوى الحبل كل قوة على وجهها الداخل قبيل والوجه الخارج : دبير وقد قرىء قبلا و قبلا فمن قرأ قبلاً أراد جمع قبيل ومن قرأ قَبلا أراد مقابلة والقبيل والكفيل واحد وقبيل القوم عريفهم . والباب المقابلة خلاف المدابرة .

وأما الشفاعة فهي مأخوذة من الشفع الذي هو خلاف الوتر فكأنه سؤال من الشفيع.شفع: سؤال المشفوع له والشفاعة ،والوسيلة والقربة والوصلة نظائر . ويقال شفع شفاعة وتشفع تشفعاً ، واستشفع استشفاعاً ، وشفعه تشفيعاً والشفع من العدد : ما كان ازواجا تقول كان وتراً فشفعته باخر حتى صار شفعاً ومنه قوله : « والشفع والوتر(١) » قال الشفع: يوم النحر. والوتر: يوم عرفه. وقال بعض المفسرين: الشفع :الخفاء يعني كثرة الخلق والوتر الله والشافع : الطالب لغيره والاسم الشفاعة والطالب: الشفيع والشافع والشفعة في الدار معروفة . وتقول فلان يشفع الي بالعداوة أي يعين علي ويعاديني وتقول شفعت الرجل : اذا صرت ثانيه وشفعت له: اذا كنت له شافعا . وانما سميت شفعة الدار ، لأن صاحبها يشفع ما له بها ، ويضمها الى ملكه واصل الباب : الزوج من العدد : وقوله « ولا يقبل منها شفاعة » مخصوص عندنا بالكفار ، لأن حقيقة الشفاعة عندنا ان يكون في اسقاط المضار دون زيادة المنافع. والمؤمنون عندنا يشفع لهم النبي (ص) فيشفعه الله تعالى ، ويسقط بها العقاب عن المستحقين من أهل الصلوة لما روي من قوله « ع » : ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر

---

(١) سورة الفجر آية ٣ .

من امتي ؛ وانما قلنا لاتكون في زيادة المنافع ، لأنها لو استعملت في ذلك ، لكان احدنا شافعاً في النبي « ص » اذا سأل الله ان يزيده في كراماته وذلك خلاف الاجماع فعلم بذلك ان الشفاعة مختصة بما قلناه وعلم بثبوت الشفاعة ان النفي في الآية يختص بالكفار دون أهل القبلة .والآيات الباقيات(١) نتكلم عليها اذا انتهينا اليها ان شاء الله. والشفاعة ثبت عندنا للنبي«ص» وكثير من اصحابه ولجميع الأئمة المعصومين وكثير من المؤمنين الصالحين. وقيل ان نفي الشفاعة في هـذه الآية يختص باليهود من بني اسرائيل ، لأنهم ادعوا انهم ابناء الله واحباؤه واولاد انبيائه، وان اباءهم يشفعون اليه فأيسهم الله من ذلك ، فاخرج الكلام مخرج العموم . والمراد به الخصوص . ولا بد من تخصيص الآية لكل احد ، لأن المعتزلة والقائلين بالوعيد يثبتون شفاعة مقبولة — وان قالوا انها في زيادة المنافع — واصل الشفاعة ان يشفع الواحد للواحد فيصير شفعا . ومنه الشفيع لأنه يصل جناح الطالب ويصير ثانياً له . والذي يدل على ان الشفاعة في اسقاط الضرر قول شاعر غطفان انشده المبرد :

وقالوا اتعلم ان مالك ان تصب   يفدك وان يحبس بديل و يشفع (٢)

واستعملت في زيادة المنافع ايضاً ـ وان كان مجازاً لما مضى ـ قال الحطيئة في طلب الخير :

وذاك إمرؤ ان تاته في صنيعة   الى ما له لم تأته بشفيع

وقد استعملت الشفاعة بمعنى المعاونة انشد بعضهم للنابغة :

اتاك امرؤ مستعلن لي بغصـة   له من عـدو مثل مالك شافع

أي معين وقال الاحوص :

كأن من لامني لاصرمها   كانوا لليلى بلومهم شفعوا

أي تعاونوا .

قوله : « لا يؤخذ منها عدل »

---

(١) في المخطوطة «الباقية ».

(٢) بديل : يزول .

اللغة :

والعدل ،والحق،والانصاف نظائر.والعدل: نقيض الجور يقال: عدلاعدل واعتدل اعتدالا . وتعادل تعادلا وتعدلا . وعادله معادلة . وعدله تعديلا والعـدل المرضي من الناس . يقع على الواحد والجماعة والذكر والانثى: فاذا قلت هم عدل قلت هما عـدلان والعدل : الحكم بالحق يقال هو حكم عدل ذو معدلة في حكمه وعـدل الشيء نظيره ومثله تقول عدلت بفلان فلانا اعدله . والعادل المشرك الذي يعدل بربه والعـدل ان يعدل الشيء عن وجهه فيميله تقول : عدلته عن كذا وعدلت انا عن الطريق والعديل الذي يعادلك في المحمل أو نحوه ما كان . وسمعت العرب تقول : اللهم لا عدل لك أي لا مثل لك. وفي الكفارة (عدل ذلك) أي مثله في العدل ، لا بالنظير بعينه والعدل الفداء ،لقوله :« لا يقبل منها عدل » وقيل ايضاً : ان العدل : الفريضة والصرف : النافلة وقوله « بربهم يعدلون (١) » أي يشركون . وقيـل لما يؤكل : معتدل اذا لم يكن فيه ضرر من حر أو برد . وتقول عدلته أي اقمتـه حتى اعتدل واستقام وعدلت فلانا عن طريقه والدابة عن طريقها :إذاعطفتها فانعدلت وانعدل(٢) الطريق . ويقولون الطريق يعدل الى مكان كذا وكذا . فاذا أراد الاعوجاج نفسه قال : ينعدل في مكان كذا وكذا أي ينعوج ، والاعتدال : الاستواء . فلان عدل حسن العدالة ، واصل الباب العدل الذي هو الاستقامة . والعدل المذكور في الآية الفدية . روي ذلك عن النبي (ص) وهو قول ابن عباس وابي العاليـة . وقال قوم هو بدل والفرق بين العِدل والعَدل ان العدل بالكسر المثل تقول عندي عدل جاريتك أي جارية مثلها . فاذا قلت عندي عَدل جاريتك يجوز ان يكون قيمتها من الثمن . ومن قرأ بالتاء فلأن الشفاعة مؤنثة ومن ذكر قال : لأن التأنيث ليس بحقيقي ولأن الفعل تقدم على المؤنث فاشبه علامة التثنية والجمع اذا تقدم الفعل سقط كذلك ههنا . ومثله قوله : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » وكقول الشاعر :

---

(١) سورة الانعام : آية ١ . وسورة الانعام آية ١٥٠

(٢) في المطبوعة « العدل »

فلا مزنة ودقت ودقها   ولا ارض ابقل ابقالها (١)

والتاء اجود ، لأنه أصل . والياء حسن .

قوله « ولاهم ينصرون » .

اللغة :

والنصر والمعونة والتقوية نظائر . وضد النصر الخذلان . يقال : نصرته نصرا وانتصر انتصاراً . واستنصر استنصاراً . وتناصر تناصراً . قال صاحب العين : النصر عون المظلوم . وفي الحديث : انصر اخاك ظالماً ومظلوماً معناه ان كان مظلوماً فامنع منه الظلم . وان كان ظالماً فامنعه من الظلم وانهه . والانصار : كالنصار وانصار النبي « ص » اعوانه وانتصر فلان : اذا انتقم من ظالمه . والنصير الناصر . والتنصر الدخول في النصرانية . والنصارى . منسوبون الى ناصرة ، وهي موضع . ونصرت السماء اذا امطرت . قال الشاعر :

اذا خرج الشهر الحرام فودعي   بلاد تميم وانصري ارض عامر

ونصرت الرجل : اذا اعطيته وانشد :

ابوك الذي اجدى عليّ بنصرة   فاسكت عني بعده كل قائل

وأصل الباب المعونة والنصرة قد تكون بالحجة وقد تكون بالغلبة فالله (عز وجل) ينصر جميع المؤمنين بالحجة التي تؤيدهم . واما النصر بالغلبة فبحسب المصلحة ولا يدل وقع الغلبة لبعض المؤمنين على انه مسخوط عليه كما انه ليس في تخلية الله بين الكفار وبين الانبياء دلالة على حال منكرة . وقد قتل الكفار كثيراً من الانبياء ونالوا منهم بضروب من الأذى قال الله تعالى « ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق » (٢) وقوله : ثم بغي عليه لينصره الله معناه بالغلبة واما ما يأخذ له بالحق من الباغي عليه ، لينصر به من الله للمبغي عليه واقعة لا محالة والخذلان لا يكون الا للظالمين ، لأن الله تعالى لا يخذل اولياءه واهل طاعته .

(١) مر هذا البيت : ١ : ١٢٦

(٢) سورة الحج : آية ٦٠

وقوله : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » (١) أي بالمعونة التي توجب الغلبة ، لأن الله تعالى يقدر على اعطائهم ما يغلبون به كل من نازعهم ، ويستعلون على كل من ناوأهم . وحد النصرة: المعونة على كل من ظهرت منه عداوة ، وقد تكون المعونة بالطاعة فلا تكون نصرة . والفرق بين النصرة والتقوية ان التقوية قد تكون على صناعة والنصرة لا تكون الا مع منازعة . فاما قولهم : لا قبل الله منهم صرفا ولا عدلا . فقال الحسن البصري : الصرف : العمل . والعدل : الفدية . وقال الكلبي : الصرف : الفدية والعدل : الفريضة وقال ابو عبيدة : الصرف : الحيلة . والعدل : الفدية . وقال ابو مسلم : الصرف : التوبة والعدل : الفداء قوله تعالى :

«وَاذ نجيناكم مِن آل فِرعَون يَسومُونكم سوءَ العَذاب يُذَبّحون أبناءَكم وَيَستَحيون نِساءكم وَفي ذلِكم بلاءٌ مِن رَبكم عَظيمٌ» . آية بلا خلاف (٤٩) .

هذه الآية عطف على ما تقدم من قوله « اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم » و « اذا » ههنا متعلقة بذلك كأنه قال اذكروا نعمتي عليكم اذ نجيناكم من آل فرعون ونظيره « والى ثمود اخاهم صالحاً » (٢) لما تقدم ما يدل على « ارسلنا » وهو قوله : « لقد ارسلنا نوحاً الى قومه » (٣) فكأنه قال : وارسلنا الى ثمود اخاهم صالحاً والخطاب وان كان متوجهاً الى الحاضرين في الحال ، فالمراد به من سلف لهم من الآباء . كما يقول القائل : هزمناكم يوم ذي قار ، وقتلناكم يوم الفجار (٤) وانما يعني الاسلاف . قال الاخطل يهجو جريراً :

ولقد سما لكم الهذيل فنالكم   باراب حيث يقسّم الانفالا (٥)

وجرير لم يلحق هذيلا

«١» آل عمران : آية ١٦٠ «٢» سورة الاعراف : آية ٧٢ «٣» سورة الاعراف آية ٥٨ «٤» فى المطبوعة والمخطوطة « الجفار » «٥» ديوانه ، ونقائض جرير والاخطل ، والهذيل هذا هو ابن هبيرة التغلبي غزا بني يربوع باراب « وهو ماء لبني رياح بن يربوع » وبني تيم تفزع اولادها باسمه. والانفال : الغنائم .وفي المطبوعة والمخطوطة « نقيم » بدل يقسم.

ولا ادرك اراب.وقد بينا ان النعمة على الآباء نعمة على الاولاد ، فلا وجه لأعادته .

اللغة :

ومعنى « نجيناكم » فالنجاة ، والسلامة ، والاسعاد ،والتخلص نظائر . وضد النجاة الهلاك تقول : نجاينجو نجاة .وانجاه الله : إنجاء ونجاه تنجية.وانتجوا انتجاء واستنجى استنجاء ، وتناجوا تناجياً . قال صاحب العين : نجا ينجو نجاة في السرعة فهو ناج : اي . سريع وناقة ناجية اي سريعة وتقول نجوت فلاناً اي استنكهته قال الشاعر :

نجوت مجالدا فوجدت منه كريح الكلب مات حديث عهد

ونجا بنو فلان اذا احدثوا ذنباً او غيره ، والاستنجاء : التنظيف بمدرأ وماء .والنجاة هي النجوة من الارض وهي التي لا يعلوها السيل .قال الشاعر :

فمن بنجوته كمن بعقوته والمستكن كمن يمشي بقرواح

والنجو : السحاب اول ما ينشا وجمعه نجاء . والنجوة : ما خرج من البطن من ريح وغيرها . والنجو : استطلاق البطن يقال : نجا فلان نجوا والنجو : كلام بين اثنين كالسر والسار . تقول ناجيتهم فتناجوا بينهم ، وكذلك انتجوا وهم جميعاً نجوى وكلامهم نجوى ، وفلان نجيّ فلان اي يناجيه دون غيره ، قال الشاعر :

إني اذا ما القوم كانوا انجيه واضطرب القوم اضطراب الارشيه

والنجا : ما القيته عن نفسك من ثياب او سلخته عن الشاة . تقول : نجوت الجلد انجوه نجا اذا كشطته ونجوت العود اي اقتضبته وقال بعض المفسرين في قوله : « فاليوم ننجيك ببدنك » (١) أي نلقيك على نجوة . وأصل الباب : النجوة وهي الارتفاع . والفرق بين النجاة وبين التخلص ان التخلص قد يكون من تعقيد ليس باذى وليس كذلك النجاة ، لانها لا تكون الا من مكروه وكل نجاة : نعمة ولا يقال : لمن لاخوف عليه نجا ، لأنه لا يكون ناجياً الا مما يخاف مثله .

---

(١) سورة يونس آية : ٩٢ .

قوله « من آل فرعون » فالآل ، والأهل ، والقرابة ، نظائر ، وقيل اصل الآل الأهل ، لأنه يصغر اهيل : وحكى الكسائي : اويل فزعموا انها ابدلت . كما قالوا : ايهات وهيهات . وكما قالوا ماء واصلها ماه بدليل قولهم مويه في التصغير . وفي الجمع : امواه ومياه . وقيل : لا بل أصل على حياله: والفرق بين الآل والأهل ان الأهل اعم منه يقال أهل الكوفة ولا يقال آل الكوفة . ويقال أهل البلد ولا يقال آل البلد. وآل فرعون : قومه واتباعه وقال صاحب العين : الآل كل شيء يؤول الى شيء : اذا رجع اليه تقول : طبخت العصير حتى آل الى كذا . واولى كلمة وعيد على وزن فعلى والآل : السراب وآل الرجل : قرابته واهل بيتـه . وآل البعير : الواحه ، وما اقترب من او طار جسمه . وآل الخيمة عمدها . والآلة : شدة من شدائد الدهر قالت الخنساء :

سأحمل نفسي على آلة اما عليها واما لهـا

وآل الجبل : اطرافه . ونواحيه ، وقال ابن دريد آل كل شيء : شخصه . وآل الرجل : اهله . وقراباته . قال الشاعر :

ولا تبك ميتا بعد ميت اجنه علي وعباس وآل ابي بكر

والآلة : الحربة . وأصل الباب : الأول . وهو الرجوع . قال ابو عبيدة : سمعت أعرابياً فصيحاً يقول أهل مكة آل الله : فقلنا : ماتعني بذلك ؟ قال : اليسوا مسلمين ، والمسلمون آل الله ؟ قال وقال : ليس يجوز ان ينصب رجلا من المسلمين . فيقول آل فلان . وانما يجوز ذلك للرئيس المتبع . وفي شبه مكة لأنها ام القرى . ومثل فرعون في الضلال واتباع قومه له فان جاوزت هذا فان آل الرجل اهل بيته خاصة فقلنا له : افيقول لقبيلته (١) آل فلان . قال : لا إلا أهل بيته خاصة .

وفرعون اسم لملوك العمالقة كما قيل : قيصر لملك الروم . وكسرى : لملك الفرس . وخاقان : لملك الترك . والاخشاذ : لملك الفراعنة وتبع : لملك التبابعة فهو على هذا بمعنى الصفة ، لأنه يفيد فيه انه ملك العمالقة بنفس الصفة الجارية عليه وعلى غيره

(١) في المطبوعة والمخطوطة : (فقلت له فتقول للقبيلة) .

وقيل : ان اسم فرعون مصعب بن الريان ، وقال محمد ابن اسحاق : هو الوليد بن مصعب .

ومعنى قوله : « يسومونكم سوء العذاب » اي يولونكم سوء العذاب .

اللغة :

يقال سامه خطة خسفاً : اذا اولاه ذلك . قال الشاعر :

ان سيم خسفاً وجهه تربدا (١) .

وقيل يجشمونكم سوء العذاب . والسوم ، والتجشم ، والتجمل ، نظائر . يقال : سامه الشقة وجشمه اياها وحمله اياها بمعنى [واحد] . يقال : سام ، يسوم ، سوما . وساومه ، واستامه ، استياما . وتساوموا تساوماً . وسوم تسويماً . والسوم سومك سلعة ومنه المساومة والاستيام . والسوم من سير الابل . وهبوب الرياح اذا كان مستمراً في سكون . يقال : سامت الرياح . وسامت الابل وهي تسوم سوما والسوام هي الغنم السائمة . واكثر ما يقال ذلك في الابل خاصة ، والسائمة تسوم الكلأ سوما : اذا داومت رعيه . والراعي يسيمها والمسيم الراعي . والسويم : العلامة على الجبل يقال : سوم فلان فرسه : إذا اعلم عليه بحريرة او شيء يعرف به والسما : في الأصل ياء وهاء وواو وهي العلامة التي يعرف بها الخير والشر في الانسان ومنه قوله : « سيماهم في وجوههم » (٢) « وتعرفهم بسيماهم » (٣) وقوله : « يعرف المجرمون بسيماهم » (٤) ويقال سيماء الخير وسمت فلانا سوء العذاب من المشقة . وقال ابن دريد سام الرجل ما شيته يسومها سوما اذا رعاها فالماشية سائمة. والرجل مسيم ولم يقولوا سام خرج من القياس . وأصل الباب: السوم(٥) الذي هو ارسال الابل في المرعى وقوله : سوء العذاب » « واليم العذاب » « وشديد العذاب نظائر . يقال : ساءه يسوءه سوء واساء اساءة. قال صاحب العين : السوء اسم العذاب الجامع للآفات

(١) الخسف : الظلم والهوان . تربد وجهه : تلون من الغضب كانما تسود منه مواضع .
(٢) سورة الفتح آية : ٢٩ . (٣) سورة البقرة آية : ٢٧٣ .
(٤) سورة الرحمن آية : ٤١ . (٥) السوم ساقطة من المخطوطة . المطبوعة . هامش

والداء تقول سؤت فلانا اسوءه مساءة ومسائية : وتقول اردت مساءتك ومسائتيك واسأت اليه في الصنع واستاء فلان من السوء . كقوله : اهتم من الهم وسؤت فلانا وسوءت له وجهه . وتقول لساء ما صنع والسيء والسيئة اسم الخطيئة والسوأى فعلى اسم للفعلة السيئة بمنزلة الحسنى وامرأة سوء قبيحة والسوءة السوأى للفعلة القبيحة يقال للرجل السوء.والسوأة الفرج لقوله:«فبدت لهما سوأتها» (١) والسوأة كل عمل يشين ، تقول سوأة لفلان ، تعيبه لأنه ليس بخير والسوأة السؤى : المرأة المخالفة ، وتقول في النكرة رجل سوء فاذا عرفته قلت : الرجل السوء لا تضيفه . وتقول عمل سوء وعمل السوء . ورجل صدق ولا تقول الرجل الصدق لأن الرجل ليس من الصدق . وكلما ذكر بسيء فهو السوء . ويكنى عن البرص بالسوء . كقوله : « بيضاء من غير سوء » (٢) . أي من غير برص . وتقول : الأخير في قول السّوء ولا في قول السُّوء . فاذا فتحت السين فعلى ما وصفناه . واذا ضممته فمعناه لا تقل سوء . وأصل الباب : السوء من قولك : ساء يسوء سوءً ، ثم كثر حتى صار علماً على الضر القبيح ، فقالوا اساء يسيء اساءة . نقيض احسن يحسن احسانا .

وقوله : « يذبحون ابناءكم » .

اللغة :

فالذبح ، والنحر ، والشنق : نظائر والذبح : فري الاوداج : يقال ذبح ذبحا واستذبح استذباحا ، وتذابحوا تذابحا.وذبح تذبيحاًوأصل الذبح الشق وذبحت المسك اذا فتقت عنه ، فهو ذبيح ومذبوح والذبح : الشيء المذبوح لقوله : « وفديناه بذبح عظيم » (٣) والذباح والذبحة بفتح الباء وتسكينها ، داء يصيب الانسان في حلقه. وتقول العرب : حي الله هذه الذبحة . اي هذه الطلعة . والذباح : الشقوق في الرجل اصله : ذباح في رجله . والذبح نور أحمر . وسعد الذابح : كوكب معروف من

(١) سورة الاعراف آية : ٢١ ، وسورة طه آية : ١٢١ .

(٢) سورة طه آية : ٢٢ ، وسورة النمل آية : ١٢ ، وسورة القصص آية : ٣٢ .

(٣) سورة الصافات آية : ١٠٧ .

منازل القمر . قال صاحب العين : الذبح : قطع الحلقوم من باطن · وموضعه المذبح والمذبح السكين الذي يذبح به الذباح والذباح. نبات من الشجر قال الاعشى : « انما قولك صاب وذبح » . وقال آخر : « كان عيني فيها الصاب مذبوح » (١) وأصل الباب الشق ·

قوله : « يستحيون نساءكم » إنما قال نساءكم وهم كانوا لا يستبقون الأطفال من البنات تغليباً ، لأنهم كانوا يستبقون الصغار والكبار كما يقال : أقبل الرجال وإن كان معهم صبيان ، وقيل إن اسم النساء يقع على الكبار والصغار ، وقيل : انهم سموا بذلك على تقدير انهن يبقين حتى يصرن نساء · والمرأة والنساء والزوجات ، نظائر · ولا واحد للنساء من لفظه . ويقال : الرجال والنساء على وجه النقيض . قال صاحب العين : النسوة ، والنسوان ، والنسين ، كل ذلك مثل النساء ·

قوله : « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » البلاء ، والاحسان ، والنعمة ، نظائر في اللغة . وبلي ، بلى بلى فهو بال والبلاء لغة . قال الشاعر :

والمرء يبليه بلاء السربال　　تناكر الليالي واختلاف الأحوال

والبلية الدابة التي كانت تشد في الجاهلية عند قبر صاحبها راسها في الركبة حتى تموت . ومنها ما يعقر عند القبر حتى يموت وناقة بلو مثل نضو قد أبلاها السفر . والفعل من البلية . ابتليت وتقول : بلي الانسان وابتلى . والبلاء على وجهين في الخير والشر . والله تعالى يبلي العبد بلاء حسناً . وبلاء سيئاً . وابليت فلاناً عذراً أي بليت فيما بينه وبيني بما لا لوم علي بعده . والبلوى : هي البلية ، والبلوى التجربة . تقول بلوته بلوى · وأصل الباب التجربة · والبلاء : الامتحان الذي فيه انعام . والبلاء : الامتحان الذي فيه انتقام ، فاذا اردت الانعام ، قلت : ابليته بلاء حسناً . وفي الاختيار : تقول بلوته بلاء . قال الله تعالى : « ونبلوكم بالخير والشر فتنة » (٢)

---

(١) قاله ابو ذؤيب الهذلي . وصدر البيت « انى ارقت فبت الليل مشتجراً » وفي المحكم (مرتفقا) بدل « مشتجراً » ولعلهما روايتان . والمشتجر : الذي يضم يده تحت حنكه مذكر الشدة همه . ــ لسان العرب ــ .

(٢) سورة الانبياء آية ٣٥ .

وقال في الانعام : « وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً » قال زهير :

جزى الله بالاحسان مافعلا بكم وابلاهما خير البلاء الذي يبلو(١)

فجمع المعنين لأنه اراد : وانعم عليها خير النعم التي يختبر بهـا عباده ، وقال الأحنف : البلاء ثم الثناء ، يعني الانعام ، ثم الشكر ،

المعنى :

وإنما كان في استحياء النسـاء محنة عليهم . وبلوى لهم ، لأنهم كثيراً يستعبدون ، وينكحن على الاسترقاق . فهو على رجالهن اعظم من قتلهن . وقيـل : إنهن كن يستبقين الاذلال ، والاستبقاء ، محنة ، كما ان من أحيي : للتعذيب فحياته نقمة . ومن احيي للتلذيذ فحياته نعمة .

والأبناء جمع ابن . والمحذوف من الابن عند الاخفش الواو ، لانهـا اثقل وهي بالحذف اولى . وقال الزجاج : يجوز أن يـكون المحذوف ياء وواواوهما سيان ولا حجة في البنوة كما لاحجة في الفتوة . لقولهم فتيان قال : وقد جاء حذف الياء. كما في يد . كقولهم يديت اليه يدا . وفي دم قال الشاعر :

فلو انا على حجر ذبحنا جرى الدميان بالخبر اليقين

والقتل الذي هو فري الاوداج ، او نقض بنية الحياة يقدر الواحد منا عليه وأما الموت بتسكين الحركة الحيوانية ، او فعل ضد الحيوة عند من قال : لها ضد ، فلا يقدر عليه غير الله .

الاعراب :

وموضع « يسومونكم سوء العذاب » يحتمل أمرين من الاعراب : —

احدهما الاستئناف : فيكون موضعه رفعاً ، كأنه قال : يسومونكم من قبل ذلك سوء العذاب .

---

(١) سورة الانفال آية ١٧

(٢) ديوانه . وروايته « رأى الله ... فأبلاهما » .

والثاني : — أن يكون موضعه نصباً على الحال من آ ل فرعون . والعامل فيه نجيناكم .

« ويسومونكم سوء العذاب » كان بذبح الابناء واستحياء النساء . وقيل : باستعمالهم في الاعمال الشاقة . واستحياء النساء كان بان يستبقين . وقيل انه كان يفتش احياء النساء عما يلدن ، وقيل : انهم كانوا يستحيون ان يلجوا على النساء في بيوتهن اذا انفردن عن الرجال صيانة لهم فعلى هذا يكون انعاما عليهن . وهذا بعيد من من اقوال المفسرين . والسبب فى أن فرعون كان يذبح الابناء ويستحيي النساء ما ذكره السدي وغيره ، أن فرعون رأى في منامه نارا اقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر . فاحرقت القبط وتركت بني اسرائيل ، واخربت مصر فدعى السحرة والكهنة والقافة . فسألهم عن رؤياه فقالوا : يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه ـ يعنون بيت المقدس ـ رجل يكون على يده هلاك مصر . فامر بني إسرائيل الا يولد لهم غلام إلا ذبحوه . ولا جاريه الا تركت . وليس في الآية دلالة على سقوط القود عمن قتل غيره مكرها ولا القود على المكره ولاان كان مختاراً غير مكره . فالقود عليه لأنه لم يجر لذلك ذكر : فان قيل اذا كانوا نجوهم والله انجاهم . ما المنكر أن يكون العاصي هو الذي عصى الله والله خلق معصيته؟ قيل :لا يجب ذلك . الا ترى انه يقال قد ينجيني زيد فانجو . وان لم يكن فعل بلا خلاف . وكذلك اذا استنقذنا النبي « ص » من الضلالة فخلصنا لا يجب ان يكون من فعل فعلنا . واخبار الله اليهود بهذه القصة على لسان رسوله من دلائل نبوته ، لأن منشأه معروف وبعده عن مخالطة الكتابيين معلوم .

قوله تعالى :

وَاذ فَرَقنا بِكُمُ البَحرَ فَأَنجَينا كُمْ وَاَغرَقنا آلَ فِرعَونَ وَانتم تَنظرون (٥٠) — آية .

موضع اذا نصب كما تقدم وهو عطف على ما مضى . فكأنه قال : واذكروا اذ فرقنا بكم البحر : وذلك من جملة نعم الله تعالى التي عددها عليهم مما فعله

مع اسلافهم .

ومعنى فرقنا بكم البحر أي فرقنا بين الماءين حتى مررتم فيه وكنتم فرقا بينهما .

اللغة :

والفرق والفصل والقطع نظائر : والفرق يقتضي الجمع يقال فرق فرقا . وافرق المريض افراقا وافترق الشيء افتراقا . واستفرق استفراقا . وفرقه تفريقا . وتفارقوا تفارقا وتفرق تفرقا وفارقه مفارقة وانفرق انفراقا والفرق موضع المفرق من الرأس والفرق تفريق ما بين الشيئين والفرق فرجك ما بين شيئين تفرق بينهما فرقا، حتى يتفرقا ويفترقا ، وتقول تفارق هؤلاء الصبحة أي فارق بعضهم بعضاً ، وافترقوا وتقول : مشطت الماشطة كذا وكذا فرقا . أي كذا وكذا ضربا . والفرق طائفة من الناس . قال أعرابي لصبيان رآهم هؤلاء فرق سوء والفرق : الطائفة من كل شيء ، ومن الماء ، اذا انفرق بعضه عن بعض . وكل طائفة من ذلك فرق . وقوله : « فكان كل فرق كالطود العظيم » (١) يعني الفرق من الماء ، والفريق الطائفة من الناس . والفرقة : مصدر الافتراق . وهو احد ما خالف فيه مصادر افعل . والفرقان : اسم للقرآن . وكل كتاب انزل الله وفرق به بين الحق والباطل فهو فرقان . وسمى الله تعالى التوراة فرقانا . وقوله : « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » (٢) كان يوم بدر ويوم احد فرق الله بين الحق والباطل . والفرق هو الفلق . والمفرق هو مكيال لأهل العراق والفرق : الخوف . تقول : رجل فروقة وامرأة فروقة والفعل فرق يفرق من كذا فرقا . وقوله: «وقرآنا فرقناه» (٣) ـ مخفف ـ معناه احكمناه كقوله: « فيها يفرق كل أمر حكيم » (٤) وتقول : مفرق ما بين الطرفين . وافرق فلان من مرضه افراقا اذا برىء ولا يكون الافراق إلا من مرض لا يصيب الانسان إلا دفعة واحدة : نحو الجدري ، والحصبة ، وديك افرق : اذا انفرق عرفه . وتيس افرق : اذا تباعد طرفا قرنيه . ورجل فروقة وكذلك المرأة : مثل ، نسابة وعلامة . وجاء مصدر فرقته

---

(١) سورة الشعراء : آية ٦٤ . (٢) سورة الانفال : آية ٤١ . (٣) سورة الاسراء آية ١٠٦ . (٤) سورة الدخان : آية ٤ . وسورة الرحمن آية ١٩

تفرقة . والفرق الذي جاء في الحديث : ما اسكر الفرق . فالجرعة منه حرام ، مكيال يعرف بالمدينة . وفرقة من الناس وجمعه فرق . واصل الفرق الفصل بين الشيئين . والفريقة حلبة تطبخ بتمر للنفساء . وغيرها .

والبحر يسمى بحراً وهو انبساطه وسعته ويقال استبحر فلان في العلم وتبحر لاستبحاره اذا اتسع فيه وتمكن منه (١) . ويقال تبحر الراعي في رعي كثير . قال امية الصغير :

انفق نصابك في نفل تبحره من الاباطح واحبسها بجلدان

وتبحر فلان في الماء . ومن ذلك بحيرة طبرية وهي عشرة اميال في ستة اميال وقيل : هي علامة خروج الدجال اذا يبست ، فلا يبقى منها قطرة ماء . وبحرت اذن الناقة بحراً اذا شققتها . وهي البحير وكانت العرب تفعل ذلك اذا انتجت عشرة ابطن فلا تركب ولا ينتفع بظهرها . فنهى الله عن ذلك . والسائبة التي تسيب فلا ينتفع منها بظهر ولا لبن . والوصيلة في الغنم كانت اذا وضعت انثى تركت وان وضعت ذكراً أكله الرجال ، دون النساء . وان ماتت الانثى الموضوعة اشتركوا في أكلها ، وان ولد مع الميتة ذكر حي اتصلت به ، كانت للرجال دون النساء . ويسمونها وصيلة . وقد قيل غير ذلك سنذكره في موضعه إن شاء الله تعالى . والباحر الاحمق الذي لبس في حديثه اذا كلم بقي كالمبهوت . وبحراني منسوب الى البحرين ودم بحراني وباحر : اذا كان خالص الحمرة من دم الجوف . والعرب تسمي المالح والعذب بحراً اذا كثرومنه قوله : « مرج البحرين يلتقيان » (٢) يعني المالح والعذب وأصل الباب الاتساع . والبحر : هو المجرى الواسع الكثير الماء . واما المالح : فهو الذي لا يرى حافتيه من في وسطه ، لعظمه وكثرة مائه . فدجلة بحر بالاضافة الى الساقية . وليست بحراً بالاضافة الى جدة ، وما جرى مجراها .

المعنى :

ومعنى قوله « فرقنا بكم البحر » أي جعلناكم بين فرقيه تمرون في طريق يبس

(١) في المخطوطة والمطبوعة « فيه » (٢) سورة طه : آية ٧٧ .

كما قال تعالى : « فاضرب لهم طريقاً في البحر يبسا » (١) وقال : « واوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فكان كل فرق كالطود العظيم » (٢) وقال بعضهم في معنى فرقنا يعني بين الماء وبينكم أي فصلنا بينكم وبينه حجزنا حيث مررتم فيه وهذا خلاف الظاهر ، وخلاف ما بينه في الآيات الاخر التي وردت مفسرة لذلك ، ومبنية لما ليس فيه اختلاف .

وقوله :

« واغرقنا آل فرعون »

اللغة :

قال صاحب العين : الغرق : الرسوب في الماء ويشبه به الدين والبلوى والتغريق والتغويص والتغييب نظائر . والنجاة ضد الغرق كما انها ضد الهلاك . يقال غرق غرقا واغرق في الامر اغراقا . وغرقه تغريقا وتغرق تغرقا . ورجل غرق وغريق . وغرقت السيل واغرقته اذا بلغت به غاية المد في النفوس . والفرس اذا خالط ، ثم سبقها : يقال اغترقها . والغرق من اللبن القليل . قال ابن دريد : غرق يغرق غرقا في الماء . وغرق في الطيب ، والمال . واصله في الماء . وكثر فاستعمل في غيره . وكذلك غرق في الذنوب . واغرق في الأمر يغرق إغراقا : اذا جاوز الحد فيه . واصله من نزع السهم حتى يخرجه من كبد القوس . واغرورقت عيناه : شرقت بدمعها . وجمع غريق : غرقى واصل الباب الغرق : الرسوب في الماء .

وقوله :

« وانتم تنظرون » قال المفسرون : وانتم ترون ذلك وتعاينونه .

اللغة :

والنظر والبصر والرؤية نظائر في اللغة . يقال نظر ينظر نظراً . وانظر ينظر انظاراً . وانتظر انتظاراً . واستنظر استنظاراً . وتناظر تناظراً . وناظره مناظرة .

---

(١) سورة الشعراء : آية ٦٤ .

قال صاحب العين : نظر ينظر نظراً ـ بتخفيف ـ المصدر . وتقول : نظرت الى كذا — من غير ذكر العين — ونظرت في الكتاب ونظرت فى الأمر . وقول القائل انظر الى الله تعالى ، ثم اليك معناه أني اتوقع فضل الله ثم فضلك . ويقال : نظرت بعلمي ويقال انظر الدهر اليهم أي اهلكهم قال الشاعر :

نظر الدهر اليهم فابتهل

والنظر: الاسم من نظر . وقوله : (لا ينظر اليهم) أي لا يرحمهم . والمنظور من الناس هو المرجو فضله . ينعت به السيد . والنظور : الذي لا يغفـل عن النظر الى ما اهمه . والمناظرة ان تناظر اخاك في امر تنظر انت في ذلك وينظر هو فيـه كيف تأتيانه . والمنظرة موضع في رأس جبل يكون فيه رقيب ينظر فيه الى العدو ويحرس اصحابه . والمنظرة منظرة الرجل اذا نظرت اليه اعجبك أواساءك . تقول: انه لذو منظرة بلا مخبرة والمنظر مصدر كالنظر . والمنظر: الشيء الذي يعجب بالنظر اليـه ويسرّ به . تقول : ان فلانا لفي منظر ومسمع وفي ري ومشبع أي فيما أحب النظر اليه. ونظار بمعنى انتظر في الامر . وناظر العين : النقطة السوداء الخالصة الصافية التي في جوف سوداء العين مما يرى انسان العين والنظير : نظيرك الذي هو مثلك . والانثى نظيرة . وجمعه نظائر في الكلام والانشاء . ونظرته وانتظرته بمعنى واحد ويقول انظرني يافلان أي استمع الي لقوله : « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » (١) وتقول : بعت فلانا فانظرته . أي انسأته والاسم النظرة . ومنه قوله : « فنظرة الى ميسرة » (٢) أى فانتظار . واستنظر فلان — من النظرة — : اذا هو سأل . والنظر توقع أمر تنتظره . وبفلان نظرة أى سوء هيئة وقوله : « انظرونا نقتبس من نوركم (٣) » أي انتظرونا . واصل الباب كله الاقبال نحو الشيء بوجه من الوجوه . وقال قوم : إن النظر اذا كان معه الى، لا يحتمل الا الرؤية . وحملوا قوله « الى ربها ناظرة » (٤) على ذلك وقالوا لا يحتمل التـأمل . وذلك غلط ، لأنهم

---

(١) سورة البقرة : آية ١٠٤ . (٢) سورة البقرة آية ٢٨٠ .

(٣) سورة الحديد : آية ١٣ . (٤) سورة القيامة : آية ٢٣ .

يقولون : انما انظر الى الله ثم اليك بمعنى اتوقع فضل الله ثم فضلك . وقال الطريح ابن اسماعيل :

واذا نظرت اليك من ملك والبحر دونك جرتني نعماء (١)

وقال جميل بن معمر :

اني اليك لما وعدت لناظر نظر الفقير الى الغني الموسر (٢)

وقال آخر :

وجوه يوم بدر ناظرات الى الرحمان تأتي بالفلاح

واتوا بـ (الى) على معنى نظر الانتظار والصحيح ان النظر لا يفيد الرؤية وانما حقيقته تحديق الجارحة الصحيحة نحو المرئي طلباً لرؤيته ولو افاد الرؤية ، لما جعل غاية لنفسه ، الا تراهم يقولون : ما زلت انظر اليه ولا يقولون ما زلت أراه حتى رأيته ، ولأنهم يثبتون النظر وينفون الرؤية يقولون : نظرت اليه فلم أره ولا يقولون رأيته فلم أره .

المعنى :

فاذا ثبت هذا ، فالأولى ان نقول : إن تأويل الآية « واغرقنا آل فرعون » وانتم مقبلون عليهم متوقعون له وقال الفراء قد كانوا في شغل من ان ينظروا مستورين بما اكتنفهم من البحر من ان يروا فرعون وغرقه ولكنه كقولك : قد ضربت واهلك ينظرون . فما اتوك ، ولا اعانوك . ومعناه وهم قريب بمرأى ومسمع ومثله قوله : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل » (٣) وليس ههنا رؤية ، وانما هو علم ، لأن الرؤية تستعمل في مثل ذلك يقول القائل رأيت فرعون اعتى الخلق واخبثه وهذا الذي ذكره الفرّاء محتمل مليح ، غير انه مخالف لقول المفسرين كلهم فانهم لا يختلفون أن اصحاب موسى رأوا انفراق البحر والتطام امواجه بآل فرعون ، حتى غرقوا فلا وجه للعدول عن الظاهر مع احتماله ولأنهم اذا عاينوا ذلك ، كانوا

(١) طريح بن اسماعيل الثقفي شاعر الوليد بن يزيد الأموي وخليله والبيت لم نعثر عليه وهو كما ترى (٢) لم نجده في ديوانه ولا في بعض مراجعنا الاخرى (٣) سورة الفرقان : آية ٤٥.

أشد في قيام الحجة ، واعظم في ظهور الآية وذكر الزجاج وجهاً آخراً قال : معناه وانتم بازائهم . كما يقول القائل : دور آل فلان الى دور آل فلان أي هي بازائها ، لأنها لا تبصر .

قصة موسى (ع) :

وقصة فرعون مع بني اسرائيل في البحر . ولا نعلم جملة ما قال ابن عباس : ان الله اوحى الى موسى « ان اسر بعبادي إنكم متبعون » (١) فسرى موسى ببني اسرائيل ليلا « فاتبعه فرعون » (٢) في الف الف حصان سوى الاناث . وكان موسى في ستمائة الف . فلما عاينهم قال : « ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون وانا لجميع حاذرون » (٣) فسرى موسى ببني اسرائيل حتى هجموا على البحر « فالتفتوا فاذا هم برهج دواب فرعون « فقالوا ياموسى أوذينا من قبل ان تأتينا ومن بعد ما جئتنا » (٤) هذا البحر امامنا وهذا فرعون قد رهقنا بمن معه « قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون » (٥) قال فاوحى الله الى موسى « ان اضرب بعصاك البحر » واوحى الى البحر ان اسمع لموسى واطع اذا ضربك . قال فبات البحر له أفكل أي له رعدة لا يدري من أي جوانبه يضربه . قال فقال يوشع لموسى (ع) بماذا امرت قال : امرت ان اضرب البحر . قال فاضربه . فضرب موسى البحر بعصاه ، فانفلق ، فكان اثنا عشر طريقاً كالطود العظيم فكان لكل سبط منهم طريق يأخذون فيه فلما اخذوا في الطريق ، قال بعضهم لبعض : ما لنا لا نرى اصحابنا قالوا لموسى : اصحابنا لا نراهم . فقال لهم : سيروا فانهم على طريق مثل طريقكم . فقالوا لا نرضى حتى نراهم . فيقال ان موسى قال لله تعالى : اللهم اعنّي على اخلاقهم السيئة . فاوحى الله اليه انقل (٦) بعصاك هكذا يميناً وشمالا . فصار فيها كوى ينظر بعضهم الى بعض . قال ابن عباس : فساروا حتى خرجوا من البحر . فلما جاز آخر قوم موسى هجم فرعون هو واصحابه وكان فرعون على فرس أدهم ذنوب (٧) حصان . فلما هجم على البحر هاب

(١ و ٢) سورة الشعراء : آية ٥٣ (٣) الشعراء آية ٥٥ و ٥٦ . (٤ و ٥) سورة الاعراف آية ١٢٨ . (٦) و المطبوعة « أن قل » (٧) طويل الذنب . في المطبوعة والمخطوطة « ديوب »

الحصان ان يتقحم على البحر ، فتمثل له جبرائيل على فرس انثى وديق (١) فلما رآها الحصان تقحم خلفها : وقيل لموسى ترك البحر رهواً أي طرقا على حاله . ودخل فرعون وقومه البحر فلما دخل آخر قوم آل فرعون وجاز آخر قوم موسى ، انطبق البحر على فرعون وقومه فاغرقوا . ويقال نادى فرعون حين رأى من سلطان الله وقدرته ما رأى ، وعرف ذله وخذلة نفسه : لا إله إلا الذي امنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين فان قيل : كيف لم يسو الله بين الخلق في هذه الآيات الباهرات التي اعطاها بني اسرائيل لتكون الحجة أظهر والشبهة أبعد ؟ قيل الآيات يظهرها الله على حسب ما يعلم من المصلحة في ذلك ، وعلى حد لا ينتهي الى الالجاء والاضطرار وخولف بين الآيات لهم على قدر حدة اذهان غيره ، وكلالة اذهانهم يدل على ذلك ان بعد مشاهدة هذه الآيات قالوا ياموسى أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . ولما كانت العرب من أحدّ الناس اذهاناً وأجودهم أوهاماً جاءت الآيات مشاكلة لطباعهم ومجانسة لدقة إذهانهم . وفي الجميع الحجة الباهرة ، والآية القاهرة وليس يمكن ان يقال انه لو ظهر لهم مثل تلك الآيات ، لامنوا لا محالة . على وجه لا يكونون ملجئين اليه لأن ذلك لو كان معلوما ، لأظهره الله تعالى . فلما لم يظهرها الله علمنا انه لم يكن ذلك معلوما وموسى «ع» لم يكن مجتلباً الى المعارف ، لمشاهدته هذه الآيات ، لأنه كان يقدم له الايمان بالله ومعرفته .

وقوله :

« واغرقنا آل فرعون » وان لم يكن في ظاهره انه أغرق فرعون فهو دال عليه . وكأنه قال : وأغرقنا آل فرعون معهم ، وانتم تنظرون فاختصر لدلالة الكلام عليه ، لأن الغرض مبني على اهلاك فرعون وقومه و نظيره قول القائل : دخل جيش الامير البادية . فان الظاهر من ذلك ان الامير معهم .

قوله تعالى :

---

(١) ودیق : تشتهي الفحل

« وَاذْ واعَدنا موسى اربَعين لَيلةً ثمّ اتخذتمُ العِجل مِن بعدِه وانتمْ ظالِمُونَ » (٥١)

القراءة :

قرأ « واعدنا » بغير الف أهل البصرة ، وابو جعفر هنا وفي الاعراف ، وطه وقرأ الباقون بالف قبل العين ، وقرأ ابن كثير وحفص والبرجمي ورويس (اتخذتم) (واخذتم) وما جاء منه باظهار الذال . ووافقهم الأعشى فيما كان على وزن افتعلت وافتعلتم . الباقون بالادغام . حجة من قرأ باثبات الالف دلالة الله على وعده وقبول موسى لأنه اذا حسن في مثل قوله : « اخلفوا الله ما وعدوه »(١) الاخبار كان هنا في الاختيار واعدنا . ومن قرأ بالالف ، قال: هو اشد مطابقة للمعنى اذا القبول ليس بوعد في الحقيقة انما هو اخبار الموعود بما يفعل به من خير . وعلى هذا قوله : « اخلفوا الله لما وعدوه » مجاز حقيقة بما اخبروه انهم فاعلوه وقال جماعة من أهل العلم : ان المواعدة في الحقيقة لا تكون إلا من البشر والله تعالى هو المتفرد بالوعد والوعيد . كما قال تعالى « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين » «٢» وقال : « وعد الله الذين امنوا وعملوا الصالحات » «٣» والقراء تان جميعاً صحيحتان قويتان

اللغة :

« واذ » معطوفة على الآيات المتقدمة : كأنه قال : واذكروا اذ وعدنا وبينا وجه الحسن فيه فالوعد ، والعدة ، والموعد والميعاد ، نظائر . والوعد في الخير والوعيد في الشر يقال وحده : وعدا . واوعده : ايعاداً . وواعده : مواعدة . تواعدوا : تواعداً . واتعدوا : اتعاداً . وتوعدوا ـ في الشر خاصة ـ قال صاحب العين : الوعد والعدة مصدران ويكونان اسمين . فاما العدة فيجمع على العدات والوعد لا يجمع . والموعد : موضع التواعد . وهو الميعاد . ويكون الوعد مصدر وعدته . ويكون الموعد وقتاً للحين . والموعدة اسم العدة . والميعاد : لا يكون

«١» سورة التوبة آية ٧٨ «٢» الانفال آية ٩ «٣» سورة المائدة آية ١٠ والفتح ٣٩ والنور ٥٥

إلا وقتاً أو موضوعا . والوعيد من التهدد : أوعدته المكاره ويقال ايضاً : وعـدته من الشر كقوله : « النار وعدها الله الذين كفروا » (١) ووعد الفحل : اذا هم ان يصول . واصل الباب: الوعد الذي هو الخبر بانه سيفعل بالمخبر به خيراً أو شراً وقال احمد ابن يحيى : تقول أوعدته ، وتسكت أو تجيء بالباء تقول: أوعدته بالشر ولا تقول اوعدته الشر .

وموسى اسم مركب من اسمين بالقبطيـة (مو) هو المـاء و (سى) شجر . وسمي به ، لأن التابوت الذي كان فيـه موسى وجد عند الماء ، والشجر وجـدته جواري آسية امرأة فرعون وقد خرجن ليغتسلن ، فسمي بالمكان الذي وجد فيه وهو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب اسرائيل الله .

المعنى :

وقال : « اربعين ليلة » ولم يقل يوماً على عادة العرب في التاريخ بالليالي ، لأن الأهلة تطلع فيها . واعتمادهم على الأهلة . وقال الأخفش . وعد باتمام اربعين ليلة ، أو انقضاء اربعين ليلة كقولك : اليوم أربعون يوما مذ خرج فلان . واليوم يومان: أي تمام يومين . وقال غيره : الاربعون كلها داخلة في الميعاد .قال ابو العالية : واعدنا موسى اربعين ليلة يعني ذا القعدة وعشراً من ذي الحجة وقال غيره : ذا الحجـة وعشراً من المحرم . وذلك حين خلف موسى اصحابه واستخلف عليهم هارون فمكث على الطور أربعين ليلة وانزلت عليه التوراة في الالواح . وعن الربيع نحوه . وقال الطبري : لا يجوز ما قاله الاخفش ، لأنه خلاف ظاهر التلاوة وما جاءت به الرواية قال الرماني : في هذا غلط ظاهر . ان الوعد لا يتصل وقوعه في الاربعين كلهـا اذا كان الوعد هو الاخبار الموعود بما فيه النفع ، فلم يكن ذلك الخبر في طول تلك المدة فلابد على ذلك ان يكون التقدير على ما قاله الاخفش أو على وعدناه اقامة اربعين ليلة للمناجاة أو غيبته اربعين ليلة عن قومه للمناجاة ، وما اشبه ذلك من التقدير . قال ابو علي : لا يخلو ان تكون « اربعين » ظرفا أو مفعولا ثانياً . ولا يجوز ان

(١) سورة الحج : آية ٧٢.

تكون ظرفا ، لأن الوعد ليس فيها كلها فيكون جواب كم . ولا في بعضها فيكون جوابا لمتى ٠ فاذا لم تكن ظرفا كانت منتصبة بوقوعها موقع المفعول الثاني . فيكون تقديره : وعدنا موسى انقضاء اربعين ليلة أوتتمة أربعين ليلة فحذف المضاف كما يقول اليوم خمسة عشرمن الشهر أي تمامه .

اللغة:

والاربعة عدد يزيد على الثلاثة ، وينقص عن الخمسة يقال : ربع يربع ربعا ٠ وربع تربيعا وتربع تربعا ٠ وارتبع ارتباعا تقول ربعت القوم فانا رابعهم ٠ والرابع من الورد وهو ان تحبس الابل عن الماء اربعة ايام ثم ترد يوم الخامس ٠وربعتالحجر بيدي ربعا اذا رفعته عن الارض بيــدك ٠ وارتبعت الحجر كذلك ٠وربعت الوتر اذا جعلتــه اربع طاقات ، وتقول : أربع على ضلعك ، واربع على نفسك ، واربع عليك كل ذلك واحد بمعنى انتظر. والربع المنزل والموطن. والربع الفصيل الذى نتج في الربيع وما ينتج بالصيف يقال له : هبع .وفي المثل ما له هبع ولا ربع . ورجل ربعة ومربوع : ليس بطويل ولا قصير ٠ والربعة : الجونة ٠ والمرباع كانت العرب اذا غزت اخذ رئيس القوم ربع الغنيمــة ، والباقي بينهم ٠ واول الاسنان الثنايا ، ثم الرباعيات وهي اربعة ثنيتان من تحت وثنيتان من فوقوالواحد رباعية واربع الفرس اذا القى رباعية من السنة الاخرى ٠ والجمع الربع .والربيعة : هي البيضة من السلاح ٠ يقال : ربعت الارض فهي مربوعة من الربيع .وارتبع القوم : اذا اصابوا ربيعا وحمر ربع ما لي يوم الرابع والمربعة خشبة تشال بها الاحمال ، وتوضع على الابل والربع : الباهر ٠ ورجل مربوع ومربع : اذا اخذته حمى الربع والربيع حظ من الماء للارض ربع يوم اوربع ليلة يقال لفلان في الماء ربيع وربع المال جزء من اربعة ويقال له : ربيع ولم يتجاوز العرب في هذا المعنى الثمين وقال بعضهم : التسيع والعشير والاول اظهر واصل الباب الاربعة من العدد والاربعة تجري تارة على نفس العدد ، واخرى على المعدود فاذا اجريته على العدد ، قلت اربعة اثواب واذا اجريته على المعــدود قلت ٠ اثواب اربعة ٠

وليلة وعشية ومساء نظائر ويقال يوم وليلة . على طريق النقيض . قال صاحب العين : الليل ضد النهار . والليل ظلام الليل . والنهار الضياء . فاذا افردت احدهما من الآخر قلت : ليلة ويوم تصغيرها لييلة اخرجوا الياء الاخيرة من مخرجها في الليالي يقول بعضهم : انما كان بناؤها ليلاء فقصر يقولون : هذه ليلة ليلاء : اذا اشتدت ظلمتها . قال الكميت :

وليلهم الاليل

هذا لضرورة الشعر . في الكلام ليلاء . والليلة : الوقت من غروب الشمس الى طلوع الفجر الثاني . واليوم من طلوع الفجر الثاني الى غروب الشمس .

قال ابو زيد اتخذنا ما لا فنحن نتخذه اتخاذاً وتخذت تخذا . قال ابو علي اتخذ افتعل ومنه تخذت . قال الله تعالى : « لو شئت لاتخذت عليه اجرا » (١) وتخذت : لا يتعدى ، إلا الى مفعول واحد . واتخذت تارة يتعدى الى مفعول واحد وتارة الى مفعولين فتعديه الى مفعول واحد . مثل قوله : « ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا » (٢) ومثل قوله : « واتخذوا من دون الله آلهة » (٣) وتعديه الى مفعولين مثل قوله تعالى « اتخذوا ايمانهم جنة » (٤) وقوله : لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء » (٥) وقوله : « واتخذتموهم سخريا » (٦) ومن ادغم فلمقرب مخرج الذال من مخرج التاء . ومن لم يدغم فلان مخرجها متغاير .

والعجل والثور والبقرة نظائر . الا أن العجل هو البقرة الصغيرة ويقال عجل وعجول . واشتقاقه من عجل يعجل عجلة واعجله اعجالا . واستعجل استعجالا . وتعجل تعجلا . وعجل تعجيلا . وعاجلته معاجلة . وتعاجلوا تعاجلا . ورجل عَجِل وعَجُل لغتان . وتقول : استعجلت فلانا أي حثثته واعجلت فلانا اعجله اعجالا وتعجلت خراجه أي كلفته ان يعجله ورجل عجلان وامرأة عجلى وقوم عجال ونسوة عجال . والعجال الابل . والعجل عجل الثيران والواحدة عجلة ويجمع على الاعجال والعجالة ما

(١) سورة الكهف : آية ٧٨ (٢) سورة الفرقان : آية ٢٧ . (٣) سورة مريم : آية ٨٢ .
(٤) سورة المجادلة : آية ١٦ . (٥) سورة الممتحنة : آية ١ (٦) المؤمن آية ١١١ .

تعجلت من شيء. والعجالة طعام الراكب الذي لا يحسن طبخه ويقال: هو تمر ولبن والعجلة الادواة الصغيرة وهي المطهرة. والجمع العجال. والعاجلة: نقيض الآجلة يعني الدنيا والآخرة. والعاجل: نقيض الآجل عام في كل شيء تقول عاجل وآجل. والعجل: ولد البقرة. وجمعه عجاجيل ويقال عجول. والانثى: عجولة وقوله: «خلق الانسان من عجل» (١) يقال إن آدم «ع» حين بلغ الروح منه الى الركبتين همّ بالنهوض قبل ان تبلغ القدمين فقال الله تعالى: «خلق الانسان من عجل» واورثنا آدم العجلة. والعجل الظنين: من غير الخليل والعجل خشب يؤلف شبه المحفة تجعل عليه الاثقال. وجمعه الاعجال. وصاحب عجال واصل الباب العجل الذي هو الاسراع. والعجلة والسرعة والخفة نظائر ونقيض العجلة التأني ونقيض السرعة: الابطاء

وبعد نقيض قبل تقول: كان هذا بعد هذا. وتقول: بعد بعدا. او ابعده الله إبعاداً وتباعد تباعدا وباعده مباعدة. واستبعده استبعاداً. وبعده تبعيداً. وتبعد تبعدا. قال صاحب العين بعد لما يكون على اثر الشيء اذا كان قد مضى فاذا افردوا قالوا: هو من بعد: كقوله تعالى: «لله الأمر من قبل ومن بعد» (٢) وتقول: بعداً وسحقا. ويقرأ: «باعد بين اسفارنا» «٣» وبعد بمعنى واحد. والابعد نقيض الاقرب. والجمع: اباعد واقارب ويقرأ «بعدت ثمود» و «بعُدت ثمود» «٤» ومعناها واحد إلا انهم يقولون: بعد الرجل وابعده الله والبعد من اللعن يقول: ابعده الله أي لايرثي له مما نزل به وقال ابن دريد: البعد: ضد القرب وبعد ضد قبل. وسمع ابو زيد العرب تقول: فلان غير بعيد وغير بعد واصل الباب البعد نقيض القرب.

المعنى:

ومعنى قوله: «ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون» أي اتخذتموه إلهاً لأن بنفس فعلهم لصورة العجل لا يكونون ظالمين، لأن فعل ذلك ليس بمحظور

(١) سورة الانبياء: آية ٣٧. (٢) سورة الروم آية ٤ (٣) سورة سبأ آية ١٩.
(٤) سورة هود آية ٩٦.

وانما هو مكروه وما روي عن النبي « ص » انه لعن المصورين معناه : من شبه الله بخلقه او اعتقد فيه انه صورة فلذلك قدر الحذف في الآية . كانه قال : اتخذتموه الهاً وذلك انهم عبدوا العجل بعد موسى لما قال لهم السامري : هذا الهكم واله موسى . فنسي اي ترك آلهم ومضى ناسيا . وقيل : بل معنى فنسي اي فترك ما يجب عليه من عبادة الله .

قصة السامري :

وكان سبب عبادتهم العجل ما ذكره ابن عباس . ان السامري كان رجلا من اهل (با كرم) (١) . وكان من قوم يعبدون البقر . وكان حب عبادة البقر في نفسه. وكان قد اظهر الاسلام في بني اسرائيل ، فلما قصد موسى الى ربه خلف هرون في بني اسرائيل : قال لهم هرون : انكم تحملتم اوزارا من زينة آل فرعون ، وامتعة وحلي ، فتطهروا منها ، فانها نجس ، واوقد لهم ناراً . وقال لهم : اقذفوا ما كان معكم فيها . فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الامتعة وذلك الحلي ، فيقذفون به فيها . حتى اذا انكسر الحلي ورأى السامري اثر فرس جبرئيل ، فأخذ ترابا من اثر حافره، ثم اقبل الى النار . فقال لهرون يانبي الله القي ما في يدي؟ قال نعم ولم يظن هرون الا انه كبعض ماجاء به غيره من الحلي والامتعة . فقذف فيها وقال كن عجلا جسداً له خوار وكان البلاء والفتنه وقال : هذا الهكم واله موسى، فعكفوا عليه واحبوه حبا لم ير مثله قطاً .

اللغة :

وسمي العجل عجلا مأخوذ من التعجيل لأن قصر المدة كالعجل في الشيء . وقال ابو العالية : انما سمّي العجل عجلا،لانهم عجلوا فاتخذوه قبل أن يأتيهم موسى . وقال الحسن صار العجل لحماً ودماً . وقال غيره لا يجوز لأن ذلك من معجزات الانبياء . ومن وافق الحسن قال : ان القبضة من اثر الملك كان الله قد اجرى العادة بانها اذا طرحت على اي صورة كانت حية ، فليس ذلك بمعجزة اذ سبيل السامري

(١) هكذا في المطبوعة والمخطوطة وفي مجمع البيان « باجرمي » .

فيه وسبيل غيره سواء. ومن لم يجز انقلابه حيا ، فاوّل الخوار على ان السامري جعل فيه خروقا ، فدخلها الريح فحدث فيه صوت كالخوار .

وانما قال : « وانتم ظالمون » يعني ظالمي انفسهم اذا دخلوا عليها الضرر بما يستحقون على عبادته من العقوبة والظلم . وقد يكون للنفس وقد يكون للغير . وانما وصفوا بانهم اتخذوا العجل الها وهي صفة ذم لهم بما لم يفعلوا لرضاهم بما كان عليه اسلافهم ، وسلوكهم طرائقهم في المخالفة لأمر الله ، والذم إعلى الحقيقة على افعالهم فان كان اللفظ على افعال اسلافهم فاخرج اللفظ مخرج من كانهم فعلوا ذلك لسلوكهم تلك الطرق وعدولهم الى المخالفة . فالذم متعلق بما كان منهم في الحقيقة ، فان قيل : هل هذا الميقات في قوله : واعدنا موسى ثلثين ليلة واتممناها بعشر . قيل : قال ابو علي وابو بكر بن اخشاذ واسمه احمد بن علي ان هذا ذاك وفي الناس من قال : هو غيره والاول اظهر ، وانما ذكر الثلاثين واتمها بعشر والاربعين قد تكمل بعشرين وعشرين ، لأن الثلاثين اراد بها ذا القعدة وذا الحجة فذكر هذا العدد لمكان الشهر ثم ذكر ما يتم به العدد اربعين ليلة .

وانما قال « اربعين ليلة » ولم يقل اربعين يوماً ، لتضمن الليالي الايام على قول المبرد ، ومعنى ذلك : انه اذا ذكرت الليالي دخلت فيها الايام وليس اذا ذكرت الايام دخلت الليالي فيها . هكذا هو الاستعمال ، والصحيح ان العرب كانت تراعي في حسابها الشهور والأيام والأهلة . فاول الشهر الليالي ولذلك ارخت بالليالي وغلبتها على الايام ولذلك صارت الايام تابعة لليالي . واكتفى بذكر الليالي من الايام ، فقيل لعشر خلون . ولم يقولوا لعشرة لأنه جرى على ما جرى على الليالي .

« واتخذ » قال الرماني : وزنه افتعل واصله يتخذ فقلبت الياء تاء وادغمت في التاء التي بعدها وقال ابو علي يتخذت وليس من اخذت ، لان الهمزة لا تبدل من الياء ولا تبدل الياء منها، واتخذت لا تكون افتعلت من اخذت وتكون ابدلت الهمزة ياء ثم ادغمت في التاء كما قالوا يسر الجزور وهو من اليسر لانه لا يجوز على قول اصحابنا لاختلاف الحرفين وفائدة الآية التعجب من قولهم اذ كانوا في مقدار هذه المدة

اليسيرة لغيبة موسى عنهم اتخذوا العجل الها وادغام الذال عند التاء جائز وتركه أيضاً كذلك جائز .

قوله تعالى :

« ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم من بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشكُرُون »

(٥٢) ــ آية بلا خلاف.

قيل في معنى ما وقع العفو عنهم بقوله : (ثم عفونا عنكم) قولان :

احدها — انا تركنا معاجلتكم بالعقوبة من بعد اتخاذكم العجل الهاً .

والآخر — عفونا عنكم بقبول التوبة من عبادة العجل .

اللغة :

والعفو ، والصفح ، والمغفرة ، والتجاوز ، نظائر . فالمغفرة نقيض العقوبة . ويقال عفا عفواً واعفاه اعفاه واستعفى استعفاء ، وعفى تعفية وعافاه معافاة وتعفى تعفيا . وتعافى تعافيا ، واعتفاه اعتفاء . والعفو احل المال واطيبه . والعفو : المعروف . والعفاة : طلاب المعروف . وهم المعتفون . تقول : اعتفيت فلانا اذا طلبت معروفه وفضله . والعافية من الطير والدواب طلاب الرزق . اسم جامع لها . ومنه قوله (ع) من غرس شجرة مثمرة فما اكلت العافية منها كتب له صدقة . والعافية دفاع الله عن العبد يقول عافاه الله من مكروه وهو يعافيه معافاة . والاستعفاء : ان تطلب الى من كلفك امرا ان يعفيك منه ، وعفى الشيء : اذا كثروا عفيته : اذا اكثرته ، قال تعالى « حتى عفوا » . ومنه اعفاء اللحية : اكثارها . وعفى : درس يقال اخذ من فلان ما عفا ، وصفا . والعفا : التراب تقول : يعفيه العفا . وعليه العفا . والعفا الدروس قال زهير :

على اثار ما ذهب العفاء

ومنه عفت الديار . والريح تعفو الديار عفاء ، وعفوا . وتعفت الدار والاثر تعفياً والعَفوة والعِفوة والعُفوة . والجمع العفو : وهي الحمر الأفتاء والفتيات . والعفاء . ما كثر من

الوبر والريش وناقــة ذات عفاء كثيرة الوبر طويلة والعفو : ولد الاتان الوحشية . وأصل الباب : الترك . ومنه قوله : « فمن عفي له من أخيه شيء » من ترك له . وعفو الشيء صفوه ومعنى « لعلكم » في الآية لكي تشكروا وقيل : معناه التعريض كانه قال : عرضنا كم للشكر .

وقوله : « من بعد ذلك » ـ وان كان اشارة الى الواحد ـ فمعناه الجمع . وانما كان ذلك كذلك ، لان ذا اســم مبهم فمرة يأتي على الاصل ، ومرة يأتي على مشاكلة اللفظ . اذا كان لفظ المبهم على الواحـــد وان كان معناه الجمع على انه قد يخاطب بلفظ الواحد ويراد به الجمع كقوله : « يا ايها النبي » ثم قال : « اذا طلقتم النساء » .

وقوله : « من بعد ذلك » إشارة الى اتخاذهم العجل الهاً .

وقوله : « لعلكم تشكرون » .

اللغة :

فالشكر : هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم . وقال الرماني : الشكر هو الاظهار للنعمة . والصحيح هو الاول لأنه قد يظهر النعمة من لا يكون شاكرا لها . والفرق بين الشكر والمكافاة ان المكافأة من التكافؤ وهو التساوي ، وليس كذلك الشكر ففي مكافأة النعمة دلالة على انه قد استوفى حقها . وقد يكون الشكر مقصرا عنها وان كان ليس على المنعم عليه اكثر منه الا انه كلما ازداد من الشكر ، حسن له الازدياد وان لم يكن واجبا لأن الواجب لا يكون إلا متناهيـاً وذلك كالشكر لنعمة الله لو استكثرته غاية الاستكثار لم يكن لينتهي الى حد لا يجوز له الازدياد لعظم نعم الله عزوجل وصغر شكر العبد . ويقال : شكر شكرا ، وشكورا ، وتشكر تشكرا . والشكور : من الدواب ما يكفيه قليل العلف لسمنه . والشكر من الحيوانات : التي تصيب حظا من بقل او مرعى فتغزر ليتها بعد قلة . يقال اشكر القوم : اذا انزلوا منزلا فاصابت نعمهم شيئاً من بقل ، فدرت عليه ، وانهم ليحلبون شكرة بجزم الكاف وقد شكرت الحلوبة شكرا : والشكير شعر ضعيف ينبت خلال

الشيب . وكذلك ما ينبت من ساق الشجر قضبان تخرج غفه بين قضبان عاسية يقال له الشكر واشكر ضرع الناقة اذا امتلا لبنا والشكر بضع المرأة . وأصل الباب : الظهور ولا يستحق الكافر الشكر على وجه الاجلال والانعام ، والكافر لا يستحق كذلك وانما يجب له مكافاة نعمته كما يجب قضاء دينه على وجه الخروج اليه من غير تعظيم له ويسمى ذلك شكرا والشكر لا يستحق الا على نعمة ومعنى قولنا في الله انه غفور شكور انه يجازي العبد على طاعاته من غير ان ينقصه شيئاً مين حقه فجعل المجازاة على الطاعة شكرا في مجاز اللغة ولا يستحق الانسان الشكر على نفسه لأنه لا يكون منعماً على نفسه كما لا يكون مقرضاً لنفسه والنعمة تقتضي منعماً غير المنعم عليه . كما أن القرض يقتضي مقترضا ، غير المقرض . وقد يصح ان يحسن الى نفسه كما يصح أن يسيء إليها ، لأن الاحسان من المحسن . فاذا فعل بها فعلا حسنا ينتفع به، كان محسناً اليها بذلك الفعل ، واذا فعل بها فعلا قبيحاً كان مسيئاً اليها .

والشكر متعلق في الآية بعفو الله عنهم ، ونعمه عليهم : كأنه قال : لتشكروا الله على عفوه عنكم وسائر نعمه عليكم .

قوله تعالى :

« وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » .

آية (٥٣) .

اللغة :

قوله : « وإذ » عطف على ما مضى من التذكير بنعمه فكأنه قال : واذكروا اذ آتينا موسى الكتاب ، لان (اذ) اسم للوقت الماضي و (اذا) للوقت المستقبل . وكذلك تستعمل في الجزاء ، لأن الجزاء لا يكون إلا بالمستقبل . كقولهم : ان تاتني آتك ولو تشبه الجزاء من حيث انه لابد لها من الجواب . كما لابد لحرف الجزاء من الجواب .

المعنى :

وقوله : « واتينا موسى الكتاب » معناه اعطيناه . والكتاب يريد به التوراة . وأما الفرقان فقال الفراء وقطرب وتغلب : يحتمل أن يكون اتى موسى كتاب التوراة ومحمد الفرقان : كما قال الشاعر :

متقلدا سيفا ورمحا (١)

وضعف قوم هذا الوجه ، لأن فيه حمل القران على المجاز من غير ضرورة مع انه تعالى اخبر انه اتى موسى الفرقان في قوله : « ولقد اتينا موسى وهرون الفرقان وضياء » (٢) وقال الفراء : هو كلام مثنى يراد به : التوراة . وكرر لاختلاف اللفظين : كقولهم : بعداً وسحقاً ، وهما بمعنى واحد . قال الرماني : هذا المثال لا يشبه الآية ، لانه جمع الصفتين لموصوف واحد على معنيين متفقين . والاولى ان يمثل بقولهم : هو العالم الكريم فجمعت الصفتان لموصوف واحد على معنيين مختلفين . وقال عدي ابن زيد :

وقدّدت الاديم لراهشيه　　والفى قولها كذبا ومينا (٣)

وقال قوم : الكتاب : التوراة والفرقان : انفراق البحر لبني اسرائيل . والفرج الذي اتاهم كما قال . « يجعل لكم فرقانا » اي مخرجا . وقال بعضهم : الفرقان : الحلال والحرام الذي ذكره في التوراة . وروي عن ابن عباس وابي العالية ومجاهد : ان الفرقان الذي ذكره هو الكتاب الذي اتاه يفرق فيه بين الحق والباطل . وقال ابن زيد : الفرقان : النصر الذي فرق الله به بين موسى وفرعون : كما فرق بين محمد «ص» وبين المشركين . كما قال : « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » (٤) . وقال أبو مسلم : هو ما اوتي موسى من الآيات والحجج التي فيها التفرقة بين الحق والباطل .

---

(١) مر في ١ : ٦٥ وهو عجز بيت شطره : ورأيت زوجك في الوغى .
(٢) سورة الانبياء : آية ٤٨ .　　(٣) في المخطوطة والمطبوعة (وقدمت) .
(٤) سورة الانفال : آية ٤١ .

وقوله: « لعلكم تهتدون ».

المعنى:

اي لكي تهتدوا. وقد بيناه فيما مضى وفيه دلالة على انه (تعالى) اراد ان يهتدوا لان هذه اللام لام الغرض وذلك يفسد قول المجبرة إنه اراد منهم الكفر. فأن قيل: كيف يهتدون بما اوتي موسى من البيان، وما اوتي في التوراة من البرهان مع انقطاع النقل الذي تقوم به الحجة. قيل: الجواب عنه من وجهين:

احدهما — ان الخطاب لأسلافهم: كما قال: « واذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم واغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون ».

والثاني — ان اخبار الرسول لهم ما تقوم به الحجة عليهم، فيمكنهم ان يستدلوا بذلك على ما انعم الله به على اسلافهم، ولانهم مقرون بان موسى (ع) اوتي التوراة بما فيها من الهدى والبينات، فتقوم الحجة عليهم باقرارهم.

قوله تعالى:

« واذ قالَ موسى لِقَومِه يا قَومِ انَّكُم ظَلَمتُم انفُسَكُم باتِّخاذِكُم العِجلَ فَتوبوا الى بارِئِكُم فاقتُلوا انفُسَكُم ذلِكُم خيرٌ لَكُم عِندَ بارِئِكُم فَتابَ عَليكُم انَّهُ هو التوّابُ الرَّحيم » — (٥٤) آية بلا خلاف.

القراءة:

« بارئكم » اسكن الهمزة فيها ابو عمرو. إلا المعدل وسحارة من طريق الجرمي، وابن مجاهد فكلهم خففوا الهمزة فيها. الا ابا طاهر عن ابن مجاهد عن اسماعيل فانه قلبها ياء.

التقدير واذكروا ايضاً اذ قال موسى لقومه: « ياقوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل ». وظلمهم اياها كان فعلهم بها مالم يكن لهم ان يفعلوه بما يستحق

به العقاب . وكذلك كل من فعل فعلا يستحق به العقاب فهو ظالم لنفسه . وقد بينا معنى التوبة فيما مضى .(١)

واما قوله : « الى بارئـكم » .

اللغة :

فالبارىء هو الخالق الصانع . يقال : برأه . واستبرأ استبراء ، وتبرأ تبريا ، وباراه مباراة ، وبرأه براءة ، وتبرئة . قال صاحب العين : البرأ مهموز وهو الخلق تقول برأ الله الخلق وهو يبرؤهم وهو البارىء وقال امية :

الخالق البـارىء المصور في　　　الأرحام ماء حتى يصير دمـا

والبرء السلامة من السقم . تقول برأ برؤه وبرئت وبرأت وبرؤت براءة . وتبرأ تبريا لغة في هـذا والبراءة من العيب والمـكروه لا يقال منه : الا برىء براء وفاعله بريء وفلان بريء وبراء كقوله : إني براء . وامرأة براء . ونسوة براء وبراء على وزن فعلاء . ومنـه قوله : « انا براآء منـكم » جمع بريء . ومن ترك الهمزة . قال : براء على وزن فعـال . . وتقول بارأت الرجل اي برئت اليه . وبرىء الى مثل ذلك . وبارات المراة اي صالحتها على المفارقة وابرات الرجل من الضمان والدين وبرأه تبرئة . ويقال : ابرأ الله فلانا من المرض إبراء حسناً ، والاستبراء : استبراء الجارية والمرأة بان لايطأها حتى تحيض . والاستبراء نقاء الفرج من القذر . وأصل الباب تبري الشيء من الشيء : وهو انفصاله منـه . وبرأ الله الخلق اي فطرهم ، فانهم انفصلوا من العدم الى الوجود . والبرية الخلق ، فعيلة بمعنى مفعول، لا يهمز كما لا يهمز ملك وان كان اصله من الالوكة . وقيل البرية مشتقة من البراوة ، وهو التراب ، فلذلك لم تهمز . وقيـل إنه مأخوذ من بريت العود ، فلذلك لم يهمز . والبراءة من الشيء : المفارقة والمباعدة عنه : وبرىء الله من الكافر : باعده عن رحمته وانواع الفعل كثيرة : منها الخلق ، والانشاء ، والارتجاع . والبرء : الفطر . فأما

(١) انظر ص ٦١٩ — ١٧٠

الاحداث ، والايجادوالتكوين فكالفعل والجعل : اعم من الفعل ، لأنه لما وجد بعد ان لم يكن كقولك : جعلت الطين خزفاً . فلم يحدث الخزف في الحقيقة ، وانما احدث ما صار خزفاً .

وقوله : « فاقتلوا »

اللغة :

فالقتل والذبح والموت نظائر . وبينها فرق : فالقتل نقض بنية الحياة . والذبح فري الاوداج . والموت عند من اثبته معنى عرض يضاد الحياة . يقال : قتل يقتل قتلا . واقتتلوا اقتتالا . وتقاتلوا تقاتلا . واستقتل استقتالا . وقتل تقتيلا . وقاتله مقاتلة . وقوله تعالى : « قاتلهم الله » (١) معناه لعنهم الله . وقوم اقتال : اي هم اهل الوتر ، والترة : اي هم اعداء وتراة . وتقول : تقتلت الجارية للفتى يصف به العشق . وقال الشاعر :

تقتلت لي حتى اذا ما قتلتني　　تنسكت ما هذا بفعل النواسك (٢)

واقتل فلان فلانا : اذا عرضه للقتل . والمقتل من الدواب الذي قد ذل ومرن على العمل . وقلب مقتل : اي قتل عشقاً . ومنه قول امرىء القيس :

في اعشار قلب مقتل (٣)

قال ابن دريد : قتلت الخمر بالماء إذا مزجتها . قال الشاعر :

ان التي ناولتني فرددتها　　قُتلت قتلت فهاتها لم تقتل

وتقتل الرجل لحاجة اي يأتي لها . ويقتل الرجل للمرأة : اذا خضع لها في كلامه وقتل الرجل : عدوه . والجمع اقتال . وفلان قتل فلان : اي نظيره ، وابن عمه

---

(١) سورة التوبة : آية ٣١ وسورة المنافقون آية ٤ .

(٢) تقتلت المرأة : تثنت في مشيتها .

(٣) معلقته . والبيت : وما ذرفت عيناك الا لتضربي　بسهميك في اعشار قلب مقتل

والسهمان : الرقيب والمعلى من سهام الميسر . ومعناه استوليت على القلب كله .

وقتله قتلة سوء واقتتلوا بمعنى تقاتلوا ومثله قتلوا قال ابو النجم :

ندافع الشيب ولم يقتل

وناقة ذات قتال وذات كيال ، اذا كانت غليظة وثيقة الخلق . في المثل : قتلت ارض جاهلها ، وقتل ارضا عالمها . ومقاتل الانسان : هي التي اذا اصيبت قتلت. وأصل الباب : القتل وهو نقض البنية التي تصح معها الحياة . وقال المبرد : واصله اماتة الحركة . وقوله : « قاتلهم الله انى يؤفكون » اي قد حلوا محل من يقال له هذا القول . اي انزل الله بهم القتل . ويقول قتله علما اذا ايقنه وتحققه .

وقوله : « فاقتلوا انفسكم » .

المعنى :

قيل في معناه قولان :

احدهما — يقتل بعضكم بعضا . ذهب اليه ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن وغيرهم من اهل العلم ، كما يقول القائل : قتل آل فلان اذا قتل بعضهم بعضا .

والثاني — ذكره ابن عباس واسحاق واختاره ابوعلي . وهو ان يستسلموا للقتل فجعل استسلامهم للقتل قتلا منهم لانفسهم على وجه التوسع . وقيل : ان السبعين الذين اختارهم موسى للميقات امروا بالقتل لمن سأل الرؤية من بني اسرائيل وقيل : إنهم قتلوا انفسهم كما امروا . عمدوا الى الخناجر وجعل بعضهم يطعن بعضا. قال ابن عباس وغيره من اهل العلم : ويقال غشتهم ظلمة شديدة فجعل بعضهم يقتل بعضا ، ثم انجلت الظلمة ، فاجلوا عن سبعين الف قتيل . والسبب الذي لاجله امروا بقتل انفسهم ذكره ابن جريج : ان الله علم ان ناساً منهم علموا ان العجل باطلا فلم يمنعهم ان ينكروا الا خوف القتل ، فلذلك بلاهم الله ان يقتل بعضهم بعضا . وقال الرماني : ولا بد ان يكون في الامر بالقتل لطف لهم ولغيرهم ، كما يكون في استسلام القاتل لطف له ولغيره . فان قيل كيف يكون في قتلهم نفوسهم لطف لهم ، وبعد القتل لا تكليف عليهم . والالطف لا يكون لطفاً فيما مضى ولا فيما يقاربه

قلنـــا : اذا كان القوم كلفوا ان يقتل بعضهم بعضا وكل واحـد منهم يقصد قتل غيره ويجوز ان يبقى بعده فيـكون القتل لطفاً له فيما بعد ، ولو كان بمقدار زمان يفعل فيه واجبا واحدا : ويمتنع فيه من قبيح . وذلك كما نقول في عبادتنا في قتال المشركين . فان الله تعالى تعبدنا ان نقاتل حتى نقتل ونقتل ومدح على ذلك ، فلذلك روى اهل السير ان الذين عبدوا العجل تعبدوا ان يقاتلوا من لم يعبد ويصبروا على ذلك حتى يقتل بعضهم بعضـا . وكان القتل شهادة لمن قتل ، وتوبة لمن بقي . وانما كانت تـكون شبهة ، لو امروا بان يقتلوا نفوسهم بايديهم . ولو صح ذلك لـكان لا يمتنع بان يـكونوا امروا بان يفعلوا بنفوسهم الجراح التي تفضي الى الموت ـ وان لم يزل معها العقل فينا في التكليف ـ .

وأما على القول الآخر وهو انهم امروا بالاستسلام والقتل والصبر عليـــه فلامسألة لانهم امروا بقتل نفوسهم . وعلى هذا يـكون قتلهم حسناً ، لانه لو كان قبيحاً لما جاز ان يؤمروا بالاستسلام . وكذلك نقول : لا يجوز ان يتعبد نبي او امام بان يستسلم للقتل مع قدرته على الدفع عن نفسه ، فلا يدفعه لانــ في ذلك استسلاما القبيح مع القدرة على الدفع منه ، وذلك لا يجوز وانما يقع قتل الانبياء والائمة على وجه الظلم ، وارتفاع التمكن من الدفع مع الحرص على الدفع . غير انه لا يمتنع ان يتعبد بالصبر على الدفاع . وتحمل المشقة في ذلك ـ وان قتله غيره ظالما والقتل ـ وان كان قبيحا بحـكم العقل ـ ، فهو ما يجوز تغيره بان يصير حسنا ، لانه جار مجرى سائر الالام . وليس يجري ذلك مجرى الجهل والـكذب الذي ليس يصير قط حسناً ووجه الحسن في القتل انه لطف على ما قلناه ، وكما يجوز من الله انـــ يميت الحي ، كذلك يجوز ان يامرنا باماتته ويعوضه على ما يدخل عليه من الالام ويـكون فيه لطف على ما قدمناه .

وقوله : « ذلـكم » اشارة الى التوبة مع القتل لانفسهم على ما امرهم الله تعالى به بدلالة قوله . « فتوبوا الى بارئـكم فاقتلوا انفسكم » فقوله : « توبوا » دال على التوبة ، فكانها مذكورة .

وقوله : « خير »

اللغة :

فالخير ، والنفع ، والفضل ، والحظ نظائر وضد الخير : الشر . وضد النفع : الضرر . تقول : خار الله له الخير خيرة . واختار اختياراً واستخار فلان استخارة وتخير تخيراً وتخايراً . وخيره تخييراً . وخايره مخايرة . ورجل خير وامرأة خيرة : أي فاضلة . وقوم اخيار ، وخيار . وامرأة خيرة . حقيقة في جمالها ، وميسمها . ومنه قوله : « فيهن خيرات حسان » (١) . وناقه خيار . ورجل خيار . وتقول : والجمع خيار . وتقول : هذه وهذا وهؤلاء خيرتي . وما تختاره . وتقول : انت بالخيار وانت بالخيار سواء . والرجل يستخير الضبع واليربوع : اذا جعل حبسه في موضع النافقاء ، فخرج من القاصعاء (٢) . والخيرة مصدر خار خيرة ساكنة الياء مثل راب ريبة . واصل الباب الخير نقيض الشر . والخير : الهيأه المختارة . وحذفت الياء من قوله : « ياقوم » واثبتت في قوله : « ياليت قومي » لأن ياء الاضافة تحذف في النداء ، لأنه موضع حذف ، يحذف فيه التنوين ، ويحذف الاسم للترخيم ، فلما كانت بالاضافة تحذف في غير النداء ، لزم حذفها في النداء . وأما قوله : « ياليت قومي يعلمون » (٣) ، فانها تثبت لانها ياء الاضافة . لا يلحقها ما يوجب حذفها ، كما لحق الياء في النداء . ويجوز في « ياقوم » كسر الميم وحذف الياء هو اجماع القراء ويجوز بياء ساكنة ، ويجوز بفتح الياء وما قرىء بها . فاما إسكان الهمزة . فالذي رواه سيبويه عن ابي عمر واختلاس الحركة . وهو اضبط من غيره والاسكان في مثل هذا يجوز في ضرورة الشعر كقول الشاعر :

اذا اعوججن قلت صاحبْ قوم

وكان ينبغي ان يقال صاحبَ لأنه منادى . وقال امرؤ القيس :

فاليوم فاشرب غيرمستحقب   اثما من الله ولا واغل

---

(١) سورة الرحمان : آية ٧٠ (٢) النافقاء : جحر اليربوع . القاصعاء مثل النافقاء

(٣) سورة يس : آية ٢٦

وقد روى بعضهم صاح قوم وروي فاليوم فاشرب وروى بعضهم : فاليوم فاسقي

ولا يقال في الله تعالى تائب مطلقاً . وإنما يقال : تائب على العبد .

قوله : « فتاب عليكم » فالفاء متعلق بمحذوف كأنه قال ففعلتم اوقتلتم انفسكم فتاب عليكم . وكان فيما بقي دلالة عليه .

قوله تعالى :

« وَاذ قُلتمْ يامُوسى لَن نؤمِنَ لكَ حَتىّ نرى اللهَ جَهرَةً فاخَذَتكم الصاعِقَةُ وانتمْ تَنظُرُون » (٥٥)آية بلا خلاف .

وهذه الآية ايضاً عطف على ما تقدم كأنه قال واذكروا اذ قلتم ياموسى لن نصدق حتى نرى لله جهرة .

اللغة :

فالرؤيا والنظر والابصار نظائر في اللغة يقال : رأى رؤية ورأى من الرأي رأيا . وأراه لله اراءة وتراءى القوم ترائيا . وارتأى ارتياء وراءاه مراءاة قال صاحب العين : الرأي رأي القلب والجمع الاراء . وتقول : ما اضل آراءهم على التعجب ورأيهم ايضاً ورأيت رؤية وتقول رأيته رأي العين . أي حيث يقع البصر عليه . وتقول من رأي القلب : ارتأيت . وتقول : رأيت رؤيا حسنة . وتقول : رأيت فلانا ذا مسحة في اللون ، وزية حسنة في اللباس ، والمتاع . والذي يتعرض بزيه كهانة او طبا . وفي بعض اللغات ريت بمعنى رأيته . وعلى ذلك قراءة من قرأ اريت قال الشاعر :

قد ريت منه عجبا من الكبر

وتراءى القوم : إذا رأى بعضهم بعضا وتراءى لي فلان : اذا تصدى لي فاراه والرواء : المنظر في البهاء والجمال . تقول : امرأة لها رواء وبهاء وسناء أي حسنة . والمرآة مثل المنظرة والمنظر والمرآة التي ينظر فيها وجمعها مراءى . ومن حوّل الهمزة قال : مرايا . تقول مرأت المرأة : اذا نظرت وجهها . وفي الحديث لا يتراءى احدكم في الماء أي لا ينظر فيه .

ويحذفون الهمزة في كل كلمة تشتق من رأيت اذا كانت الراء ساكنة تقول أريت فلانا فانا مري وهو مري . أي بحذف الهمزة واثبتوها في موضعين في قولهم رأيته فهو مرئي أرأت الناقة والشاة اذا يرى ضرعها انها قد اقربت وانزلت . وهي مرئى . والحذف فيه ايضا صواب وتقول : من الظن رأيت ان فلانا اخوك . ومنهم من يحذف الهمزة يقول ريت انه ومن قلب الهمزة من رأى قال راي مثل ما تقولون : آرتيت واستريت بالمرآة والمرئية : مكسورة الراء مهموزة ممدودة ما ترى المرأة من الحيض صفرة أو بياضاً قبلا او بعدا وأما البصير بالعين فهو الرؤية . إلا أن تقول نظرت اليه رأي العين فيه وتقول : ما رأيته إلا رؤية واحدة وتقول للذي يريك الشيء مري والمرآة مرية بلا همزة وتقول رأيت فلانا برؤية والمرآة التي تنظر فيها والرآي ما رأيت القوم في حسن البشارة والهيئة قال جرير :

وكل قوم لهم رأي ومختبر   وليس في تغلب رأي ولا خبر

واصل الباب : الرؤية بالعين وشبه الرؤية بالقلب به بمعنى العلم . والرأي يرى حال صلاح ويظن خلافها . والمرية لأنها بمنزلة الالة للقلب يرى بها .

والجهرة ، والعلانية ، والمعاينة نظائر تقول : جهر جهرا أو جاهر مجاهرة ، وجهاراً . وتجاهروا تجاهراً . ورجل جهير الصوت . قال صاحب العين : جهر فلان بكلامه ، وهو يجهر بقراءته جهارا ، واجهر بقراءته اجهاراً . وجاهرتم بالامر جهارا أي عالنتم به اعلانا واجتهر القوم فلانا جهاراً : اذا نظروا اليه وكل شيء يبدو فقد جهر ورجل جهير : اذا كان في المنظر والجسم في الناس مجهراً . وكلام جهير ، وصوت جهير أي عال . والفعل منه جهر جهارة . والجهير هو الجريء المتقدم والجهوري : هو الصوت العالي. والجوهر : كل حجارة يستخرج منها شيء ينتفع به وجوهر كل شيء ما خلقت عليه حلية . والشاة الجهر التي لا تبصر في الشمس والكبش اجهر وقال بعضهم : جهرت البئر : اذا اخرجت ما فيها من الحمأة ، والماء . وبئر مجهورة . والجهر : ضد السر وجهرني الرجل إذا راعك جماله وهيئته . ورجل جهير ذو رواء واصل الباب الظهور .

والجهر يقتضي ظاهراً بعد ان يكون خافياً ، ليدرك ما لم يكن قبل مدركا ويستدل بالجهر على أنهم أرادوا الرؤية بالعين دون رؤية القلب . وحقيقة الجهر ظهور الشيء معاينة والفرق بين الجهر والمعاينة أن المعاينة ترجع الى حال المدرِك والجهرة ترجع الى حال المدرَك .

المعنى :

ومعنى قوله : « حتى نرى الله جهرة » قال ابن عباس : علانية . وقال قتادة عيانا . وقد تكون الرؤية غير جهرة كالرؤية في النوم والرؤية بالقلب فاذا قال جهرة لم يكن إلا رؤية العين على التحقيق ، دون التخيل وسؤالهم الرؤية . قال قوم : هو كفر لأن اجازة الرؤية كفر . وقال آخرون : ليس بكفر وانما اجازة الرؤية التي تقتضي التشبيه كفر . فاما هذا القول منهم فكفر اجماعا ، لأنه رد على الرسول وكل من يلقى قول الرسول بالرد من المكلفين ، كان كافراً .

واما الصاعقة فانها تكون على ثلاثة اوجه :

أولها — الموت : كقوله : « فصعق من في السموات ومن في الارض » (١) « فاخذتكم الصاعقة » (٢)

الثاني — العذاب. كقوله : « فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » (٣)

والثالث — نار تسقط من السماء كقوله : «ويرسل الصواعق» (٤) واكثرهم على ان موسى لم يمت بالصاعقة كما مات من سأل الرؤية وقال شاذ منهم : انه مات بالصاعقة

وقوله : « وخر موسى صعقا » أي مغشياً عليه عند اكثر المفسرين بدلالة قوله : « فلما افاق » والافاقة لا تكون إلا من الغشية دون الموت ؛ وإلا لكان قد قال فلما حيي .

وقوله : « جهرة » مشتق من جهرت الركية اجهرها جهرا وجهرة : اذا كان

(١) سورة الزمر : آية ٦٨ (٢) سورة البقرة : آية ٥٥
(٣) سورة حم ـ السجدة : آية ١٣ (٤) سورة الرعد آية ١٤

ماؤها قد غطاه الطين ، فنقيت حتى ظهر الماء وقيل : اخذ من قولهم : فلان تجاهر بالمعاصي : اذا كان لا يسرها وانما فزعوا بسؤال اسلافهم الرؤية من حيث انهم سلكوا طريقهم في المخالفة للنبي الذي لزمهم اتباعه والتصديق بجميع ما اتى به فجروا على عادة اسلافهم في ذلك الذين كانوا يسألون تارة ان يجعل لهم إلهاً غير الله ومرة يعبدون العجل من دون الله ومرة يقولون : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » ومرة يقولون : « اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون » وقال الزجاج في هذه الآية دلالة على مشركي العرب الذين كانوا ينكرون البعث ، لأهل الكتاب مع مخالفتهم الرسول يقرون باذن الله أمات قوماً في الدنيا ، ثم احياهم وعندنا ان نقل اهل الكتاب لمثل هذا ليس بحجة وانما الحجة في اخبار الله على لسان نبيه وحده اذ كان كلما يخبر به فهو حق وصدق . واستدل البلخي بهذه الآية على ان الرؤية لا تجوز على الله تعالى . قال لانها انكارهم امرين ردهم على نبيهم ، وتجويزهم الرؤية على ربهم وبين ذلك قوله تعالى : فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة فدل ذلك على ان المراد إنكار الامرين وهذه الآية تدل على قوله :

« رب ارني انظر اليك » كان سؤالا لقومه ، لأنه لا خلاف بين اهل التوراة ان موسى ما سأل الرؤية الا دفعة واحدة . وهي التي سألها لقومه وقوله :

« لن نؤمن لك » تعلق بما يخبرهم به من صفات الله عز وجل ؛ لأنهم قالوا لن نؤمن لك بما تخبرنا به من صفاته وما يجوز عليه حتى نراه . وقيل : انه لما جاءهم بالالواح وفيها التوراة قالوا لن نؤمن بان هذا من عند الله حتى نراه جهرة ونرى على وزن نفعل واصله : نرأى قال الشاعر :

أرى عيني ما لم ترأياه كلانا عالم بالترهات

فجاء به على الاصل

وقال آخر :

ألم تر ما لاقيت والدهر اعصر ومن يتمل العيش يرأى ويسمع

وانما دعاهم الى ان قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله شكهم ، وحيرتهم فيما دعاهم

اليه موسى (ع) من توحيد الله عز وجل ، ولو كانوا عارفين ، لكان دعاهم اليه العناد لموسى ومعلوم انهم لم يكونوا معاندين له (ع) . وفي الناس من قال : إن قولهم : جهرة من صفه السؤال على التقديم والتأخير كانه قال : واذا قلتم جهرة لن نؤمن لك حتى نرى الله . وقال الاكثر إنها من صفه الرؤية . وهو الاقوى ، لان ما قالوه ترك الظاهر ، وتقدير التقديم والتأخير ليس هنا إلى ذلك حاجة .

وقوله : « وانتم تنظرون » يعني ما نزل بكم من الصاعقة والموت .

قوله تعالى :

« ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » — (٥٦)

آية بلا خلاف .

قوله : « بعثناكم » احييناكم . عند اكثر المفسرين : كالحسن ، وقتادة ، وغيرهما، وقال السدي : بعثناكم أنبياء . والأول أصح لانه ظاهر الكلام . فلا يجوز العدول عنه وأصل البعث : إثارة الشيء من محله ، ومنه قيل : بعث فلان راحلته : اذا اثارها من مبركها للسير . ومنه قولهم بعثت فلانا لحاجتي : اذا اقمته من مكانه الذي هو فيه للتوجه فيها . ومن ذلك قيل : ليوم القيامة يوم البعث لأنه يوم تثار فيه الناس من قبورهم لموقف الحساب .

اللغة :

والبعث والارسال وكل الاطلاق نظائر . يقال : بعثت بعثا . وانبعثت انبعاثا . وتبعثت تبعثة . وبعثته من نومه فانبعث . اي نبهته فانتبه . وتقول : ضرب البعث على الجند . اذا بعثوا إلى العدو . وكل قوم يبعثون الى وجه او في امر فهم بعث . وأصل الباب : البعث وهو الارسال . وكل باعث فاعل . واما المبعوث فقد يكون فاعلا ، وقد لا يكون . يقال : بعث الله عليهم ريحا فاقتلعتهم والريح مبعوثة . ويقال : الشهوة للشيء تبعث على الطلب له . فان قيل : هل يجوز ان يرد الله احداً الى التكليف بعد ان مات ، وعاين ما يضطره الى معرفته بالله ؟ قيل : في ذلك خلاف قال ابو علي : لا يجوز ذلك إلا على من لم يضطره الله الى معرفته وقال بعضهم : يجوز التكليف في

الحكمة . وان اضطر الى المعرفة . وقول ابي علي أقوى . واعل الرماني قول ابي علي ، فان قيل : لما كانت المعرفة لاجل الطاعات التي كلفها العبد كانت هي الغرض الذي يتبعه سائر الطاعات فلو ارتفع الغرض ، ارتفع التابع له . كما ان الغرض في الشرائع الاستصلاح في الاصول التي تجب بالعقل فلو ارتفع ذلك الغرض ، ارتفع وجوب العمل بالشرع . وكما انه لا يجوز تكليف الطاعة مع رفع التمكن مع المعرفة من غير ضرورة اليها قال : ووجه القول الثاني أنه لما كان الشكر على النعمة يجب في المشاهد مع الضرورة الى معرفة النعم ، كان الشكر للنعمة التي هي اجل من نعمة كل منعم في الشاهد اولى ان تجب مع الاضطرار الى المعرفة . ولابي علي ان يقول لا تمنع من الوجوب ، لكن لا يجوز التكليف ، لان الغرض المعرفة . اي هي اصل ما وقع التكليف به للعباد . والذي اقوله: إن الذي يحيي بعد الاماتة ، ان كان لم يخلق له المعرفة الضرورية لم يضطر إليها ، فانه يمتنع تكليفه ، لأن العلم بان الاحياء بعد الاماتة ، لا يقدر عليه غير الله طريقه الدليل وغوامض الاستدلال ، فليس احياؤه بعد الاماتة ما يوجب ان يكون مضطرا الى معرفته ، فلذلك يصح تكليفه ، وليس الاحياء بعد الاماتة الا كالانتباه من النوم والافاقة بعد الغشية فان ذلك لا يوجب علم الاضطرار . وان فرضنا انه خلق فيه المعارضة ضرورة ، فلا يحسن تكليفه لان حسن التكليف موقوف على ازاحة علة المكلف من فعل اللطف ، والاقدار وغير ذلك . ومن جملة الالطاف تكليفه للمعرفة . والضرورية لا تقوم مقامها على ما بيناه في الاصول . واذاً لا يحسن تكليفه ، لانه يصير مكلفا ولم يفعل به ما هو لطف له ، وذلك لا يجوز .

وقوله : « لعلكم تشكرون » معناه لكي تشكروا . وهذه لام الغرض . وفيه دليل على فساد قول المجبرة إن الله تعالى ما اراد من الكفار الشكر ، لانه لو اراد كفرهم ، لقال : لتكفروا وذلك خلاف القرآن . ومن استدل بها على جوازها كان صحيحاً ، لان من منع منه واحاله ، فالقرآن يكذبه ، وان استدل به على وجوب الرجعة وحصولها فلا يصح لان احياء قوم في وقت ، ليس بدلالة على احياء اخرين في وقت اخر ، ذلك يحتاج إلى دلالة اخرى . وقول من قال : لا تجوز

الرجعة ، لان ذلك معجزة ودلالة على نبوة نبي . وذلك لا يجوز إلا في زمن نبي غير صحيح ، لان عندنا يجوز اظهار المعجزات على يد الأئمة والصالحين . وقد بيناه في الاصول . ومن ادعى قيام الحجة بان الخلق لا يردون الى الدنيا : كما علمنا ان لا نبي بعد نبينا مقترح مبتدع ، لما لا دليل على صحته ، فانا لا نخالف في ذلك . وقال البلخي : لا تجوز الرجعة مع الاعلام بها ، لان فيها اغراء بالمعاصي من جهة الاتكال على التوبة في الكرة الثانية . قال الرماني : هذا ليس بصحيح من قبل انه لو كان فيها اغراء بالمعصية ، لكان في إعلام التبقية الى مدة إغراء بالمعصية . وقد أعلم الله تعالى نبيه وغيره ابليس : انه يبقيه الى يوم يبعثون ولم يكن في ذلك إغراء بالمعصية وعندي ان الذي قاله البلخي ليس بصحيح ، لان من يقول بالرجعة ، لا يقطع على ان الناس كلهم يرجعون ، فيكون ، في ذلك اتكال على التوبة في الرجعة ، فيصير اغراء . فلا احد من المكلفين الا ويجوز ان لا يرجع . وان قطع على الرجعة في الجملة ويجوز ان لا يرجع ، فكفى في باب الزجر . وأما قول الرماني : إن الله تعالى اعلم اقواما مدة مقامهم ، فان ذلك لا يجوز الا فيمن هو معصوم يؤمن من جهة الخطأ كالانبياء ومن يجري مجراهم في كونهم معصومين . فاما من ليس بمعصوم ، فلا يجوز ذلك ، لانه يصير مغرى بالقبح واما تبقية ابليس مع اعلامه ان يستبقيه الى يوم القيامة ففيه جوابان .

احدها — انه انما وعده قطعاً بالتبقية بشرط الا يفعل القبيح ومن فعل القبيح حق اخترته عقبه . ولا يكون مغرى :

والثاني — ان الله قد علم انه لا يريد بهذا الاعلام فعلا قبيحا ، وإلا لما كان يفعله ، وفي ذلك اخراجه من باب الاغراء . وقد قيل : إن ابليس قد زال عنه التكليف . وانما امكنه الله من وسوسة الخلق تغليظا للتكليف ، وزيادة في مشاقهم ويجري ذلك مجرى زيادة الشهوات انه يحسن فعلها إذا كان في خلقها تعريض للثواب الكثير الزائد .

قوله تعالى :

« وَظَلَّلنا عَلَيكم الغَمامَ وانزَلنا عَلَيكم المَنَّ والسَلوَى ، كلوا مِن طَيباتِ ما رَزَقناكم وَما ظَلمونا ولَكنْ كانوا انفسهم يَظلمون » (٥٧) آية بلا خلاف — .

قوله : « وظللنا » عطف على قوله « ثم بعثناكم من بعد موتكم » وكأن التقدير ثم بعثناكم من بعد موتكم وظللنا عليكم الغمام .

والظلمة والغمامة والسترة نظائر في اللغة . تقول : ظل يظل ظلولا . واظل اظلالا . واستظل استظلالا . وتظلل تظللا . وظلله تظليلا . قال صاحب العين : تقول ظل نهاره فلان صائماً . ولا تقول العرب : ظل إلا لكل عمل بالنهار . كما لا تقول : بات إلا بالليل . وربما جاءت ظل في اشعارهم نادرا . ومن العرب من يحذف لام ظللت ، ونحوها فاما اهل الحجاز فيكسرون الظاء على كسر اللام التي القيت فيقولون : ظللنا وظللتم . كما قال تعالى « فظلتم تفكهون » (١) والمصدر : الظلول . فالامر فيه اظلل والظل ضد القبح ونقيضه . ويقال لسواد الليل ' فيسمى ظلا . وجمعه ظلال . قال الله تعالى : « الم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً » (٢) يعني الليل . والظل في كلام العرب هو الليل . وتقول اظلتني هذه الشجرة اظلالا . والمكان الظليل : الدائم الظل . وقد دامت ظلاله . والظلة كهيئة الصفة ، وقوله : « عذاب يوم الظلة » (٣) يقال هو عذاب يوم الصفة . والظلة البرطلة . والاظلال : الدنوّ يقول قد اظلك فلان اي كأنه القى عليك ظله من قربه . وتقول لا تجاوز ظل ظلك وملاعب ظله : طائر يسمى بذلك . والاظل : باطن منسم البعير وجمعه اظلال قال الشاعر :

يشكو الوجى من اظلل واظلل

---

(١) سورة الواقعة آية : ٦٥ .   (٢) سورة الفرقان آية : ٤٥ .
(٣) سورة الشعراء آية : ١٨٩ .

يعني من اظل واظل . فاظهر التضعيف بضرورة الشعر قال لبيد :

بنكيب معر دامي الاظل (١)

اراد بخف نكيب : منكوب نكبته الحجارة . معر : ساقط الشعر املس . والظل كون النهار تغلب عليه الشمس . قال رؤبة : كل موضع تكون فيزول عنه ظل وفيء يقالان جميعا . وما سوى ذلك يقال له ظل ولا يقال : فيه الفيء . والظل الظليل : الجنة قال الله تعالى : « وندخلهم ظلا ظليلا » (٢) والظل : الخيال الذي يرى من الجن وغيره . والمظلة ايضا تتخذ من خشب وغيره يستظل بها والظل : المنعة والعز . كذا ذكر ابن دريد يقال : فلان في ظل فلان اي في عزه وأصل الباب : التظليل . وهو الستر والاظلال الدنو : كدنو الساتر . وحد التظليل الستر من علة .

والغمام : السحاب والقطعة منها غمامة تقول : يوم غم ، وليلة غمة وامر غام . ورجل مغموم ، ومغتم ، ذو غم . وفلان في غمة من امره : اذا لم يهتد له . والغماء : الشديدة من شدائد الدهر ، ورجل اغم ، وجبهة غماء : كثيرة الشعر تقول منه : غم يغم . وكذلك في القفا . قال الشاعر :

فلا تنكحي إن فرق الدهر بيننا اغم القفا والوجه ليس بأنزعا

والغميم : الغمس وهو ان يسحق حتى يغلظ . والغم : ضد الفرح . والغمة : الغطاء على القلب من الغم . والغمة : الضيقه تقول : اللهم احسر عنا هذه الغمة أي الضيقة . وغم الهلال اذا غطاه الغيم . وكل شيء غطيته فقد غميته ولذلك سمي الرطب الغموم وهو الذي يوضع في جرة وهو بسر ثم يغطى حتى يرطب . والغمام اشتق من هذا ، لانه يغطى السماء ، ورجل أغم . وامرأة غماء اذا دنا قصاص الشعر من حاجبه حتى يغطى جبهته ، وكذلك هو في القفا . وأصل الباب الغطاء .

المعنى :

يوم الغمام الذي ظلل على بني اسرائيل . قال ابن عباس ومجاهد : لم يكن بالسحاب ، ولكنه الذي عنى في قوله : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من

---

(١) اللسان (معر) وصدره : وتصك المرو لما هجرن (٢) سورة النساء آية : ٥٦ .

الغمام » . (١) وهو الغمام الذي اتت فيه الملائكة يوم بدر ، ولم يكن لغيرهم . قال ابن عباس كان معهم في التيه وقيل هو ما ابيض من السحاب ٠

واما المن قال ابن عباس : هو المن الذي يعرفه الناس يسقط على الشجر وقال قتادة : كان المن ينزل عليهم مثل الثلج ٠ وقيل هو عسل وقيل خبز مرقق وقيل هو الزنجبيل ٠ وقيل هو شيء كالصمغ كان يقع على الاشجار وطعمه كالشهد والعسل عن مجاهد وقال الزجاج : جملة المن ما من الله تعالى على عباده مما لا تعب فيه ولا نصب ٠ وروي عن النبي (ص) انه قال : الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين ٠ قال بعض اهل العلم يعني بمائها الوسمي الذي يكون منها الكمأ وهو اول مطر يجيء في الخريف ٠ وقيل هو الذي يسقط على الثمام ٠

والمنّ حلوٌ كالعسل . وإياه عنى الاعشى في قوله :

لو أطعموا المن والسلوى مكانهم　ما ابصر الناس طعما فيهم نجعا (٢)

وجعله امية بن ابي الصلت في شعره عسلا فقال :

ورأى الله انهم بمضيع　لا بذي مزرع ولا معمورا (٣)

فنساها عليهم غاديات　ومرى مزنهم خلايا وخورا (٤)

عسلا ناطفا وماء فراتا　وحليباً ذا بهجة مشمورا (٥)

الناطف : القاطر والصافي من اللبن والمن قطع الخير قال الله تعالى لهم « اجر غير ممنون » أي غير مقطوع ٠ والمن : هو الاحسان الى من لا يستثنيه والاسم هو المنة والله تعالى

---

(١) سورة البقرة : آية ٢١٠ (٢) ديوانه . ومن قصيدة طويلة يمدح بها ذا التاج هوذة ابن علي الحنفي صاحب اليمامة . الطعم : مأكل من الطعام . ونجع الطعام في الانسان : استمرأه آكله وصلح عليه . (٣) ديوانه يقال : هو بدار مضيعة : كانه فيها ضائع . مزرع مصدر ميمي من زرع يعني ليس بذي زرع . معمور آهل ونصب معموراً عطفاً على بذي مزرع في المطبوعة والمخطوطة « ورأى » بدل « فرأى » « مشمورا » بدل « معمورا »

(٤) فنساها من نسأها ٠ ونسأ الدابة زجرها وساقها . غاديات جمع غادية وهي السحابة التي تنشأ غدوة ٠ ومرى الناقة مرياً مسح ضرعها لتدر . والمزن جمع مزنة وهي السحابة ذات الماء ٠ وخلايا جمع خلية وهي الناقة التي خليت للحلب لغزارة لبنها . الخور : ابل حمر تميل الى الغبرة . في المخطوطة والمطبوعة بدل « فنساها » « فسناها » وبدل « مرى » « قرى » . وبدل « مزنهم » « منهم » وبدل « وخورا » « وعورا » . (٥) ناطف قطر والفرات : اشد الماء عذوبة ٠

المنان علينا الرحيم والمنّة : قوة القلب . يقال ضعيف المنّة . ويقال ليست لقلبه منة والمنون : الموت . وهو اسم مؤنث . قال ابن دريد : منّ يمنّ منا : اذا اعتقد منه ومن عليه بيد أسداها اليه اذا قرعه بها . واصل الباب : الاحسان . فالمن الذي كان يسقط على بني اسرائيل مما من الله عليهم أي أحسن به اليهم .

واما السلوى فقال ابن عباس : هو السماني وقيل : هو طائر كالسماني وواحده سلوى قال الاخفش : لم اسمع له بواحد . قال: و يجوز ان يكون واحده سلوى، مثل جماعته كما قالوا دفلى للواحد والجماعة . وقال الخليل : واحده سلواة قال الشاعر:

كما انتفض السلواة بلله القطر

ويقال سلا فلان يسلو عن فلان : اذا تسلى عنه . وفلان في سلوة من العيش اذا كان في رغد يسليه الهم . والسلوان : ماء من شربه ذهب غمه على ما يقال ويقال هذا مثل يضرب لمن سلا عن شيء يقال سقي سلوة وسلوانا . وقال ابن دريد : سلا يسلو سلوا ، وسلوا وسلوة والسلوانة : خرزة زعموا انهم اذا صبوا عليها الماء ، فسقي منها الرجل ، سلا واصل الباب السلو ، وهو زوال الهم .

سبب نزول المن والسلوى :

وكان سبب انزال المن والسلوى عليهم انه لما ابتلاهم الله تعالى بالتيه ، حين قالوا لموسى : « اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون » (١) فأمرهم بالمسير الى بيت المقدس، فلما ساروا تاهوا في قدر خمس فراسخ أو الستة. فلما اصبحوا ساروا عادين فامسوا ، فاذا هم في مكانهم الذي ارتحلوا منه فلم يزالوا كذلك ، حتى تمت اربعين سنة ، تفضل عليهم في تلك الحال ، واحسن اليهم ، وانزل عليهم المن والسلوى . وكانت ريح الجنوب تحشره عليهم قال ابن جريج : كان الرجل إذا اخذ من المن والسلوى زيادة على طعام يوم واحد ، فسد إلا يوم الجمعة فانهم اذا اخذوا طعام يومين لم يفسد .

(١) سورة المائدة آية : ٢٧ .

الاعراب :

وموضع « كلوا » نصب على وقلنا كلوا كذا قال الرماني :

وقيل في معنى « الطيبات » قولان :

احدها ـ انه المشتهى اللذيذ

والثاني ـ انه المباح الحلال الذي يستلذ اكله .

وقوله : « وما ظلمونا »

المعنى :

انما يتصل بما قبله بتقدير محذوف فكأنه قال نخالفوا ما امر الله به أو كفروا هذه النعمة . « وما ظلمونا » قال ابن عباس وما نقصونا ، ولكن كانوا انفسهم ينقصون . وقال غيره : معناه وما ضرونا ، ولكن كانوا انفسهم يضرون . قال ابو علي الظلم الذي لا يستحقه المضرور ممن قصده وليس للمضرور فيه نفع . وقال الرماني حقيقة الضرر القبيح . والصحيح في حقيقة الظلم ما ذكرناه فيما مضى هو الضرر الذي لا نفع فيه يوفي عليه ، ولا دفع ضرر اعظم منه عاجلا وآجلا ولا يكون واقعاً على وجه المدافعة فاما ما قاله الرماني فهو حد الشيء نفسه ، لأن السؤال باق ولقائل ان يقول : وما الضرر إلا القبيح ؛ لأن كونه قبيحا حكم من احكامه فلابد من بيان ذلك حينئذ . وما ذكره ابو علي ينتقض بالالم الواقع على وجه المدافعة وبالالم الذي فيه وجه ضرر اعظم منه عن الضرورة ، وبالضرر الذي فيه نفع يوازيه

وروي عن عن الصادق (ع) انه قال : المن كان ينزل على بني اسرائيل من بعد طلوع الفجر الثاني الى طلوع الشمس فمن نام في ذلك الوقت ، لم ينزل عليه نصيبه فلذلك يكره النوم في هذا الوقت الى بعد طلوع الشمس .

قوله تعالى :

« وَإذْ قلنا ادْخلوا هـٰذِهِ الْقَرْيَةَ وكلوا منها حَيثُ شِئتم رَغَداً

وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين » (٥٨) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ نافع واهل المدينة يغفر بضم الياء وفتح الفاء . الباقون بفتح النون ، وكسر الفاء وادغم الراء في اللام وما جاء منه . والآيه معطوفة على ما تقدم . فكأنه قال واذكروا اذ قلنا . ادخلوا والدخول والولوج والاقتحام نظائر والفرق بين الدخول والاقتحام ان الاقتحام دخول على صعوبة .

اللغة :

ونقيض الدخول : الخروج تقول : دخل يدخل دخولا . وادخله ادخالا . وتداخل تداخلا ، واستدخل استدخالا ، وداخله مداخلة . ويقال : في امره دخل أي فساد . دخل امره يدخل دخلا : أي فسد . ودخلت الدار وغيرها دخولا واوردت ابلي دخالا إذا اوردتها فادخلت بين كل بعيرين بعيراً ضعيفاً بعدما ابتعرأو تشرب دون ريها . وفلان دخيل بني فلان : اذا كان من غيرهم . واطلعت فلانا على دخلة امري : اذا بثثته مكتومك . والدخل طائر صغير . وفلان حسن المدخل ، أو قبيح المدخل : أي المذهب في الامور . وكل لحمة على عصب فهي دخلة . قال صاحب العين : فلان مدخول اذا كان في عقله دخل ، أو في حسبه . والمدخول : المهزول الداخل في جوفه الهزال . والدخلة : بطانة الامير . يقال : فلان خبث الدخلة . وادخل في عار ويدخل فيه ونحو ذلك يصف شدة الدخول . ودخيل الرجل : الذي يداخله في اموره كلها فهو له دخيل . دخال والدخال : مداخلة المفاصل بعضها في بعض . والدخولة معروفة والدخل : صغار الطير امثال العصافير مأواها الغيران ، وبطون الاودية تحت الشجر الملتف وجمعه دخاخيل . والانثى دخلة . واصل الباب : الدخول قال الرماني في حد الدخول : الانتقال الى محيط . وقد يقال : دخل في الامر : كما يقال دخل في الدار تشبيهاً ومجازاً .

وقوله : « هذه القرية » إشارة الى بيت المقدس - على قول قتادة ، والربيع ابن أنس - وقال السدي : هي قرية بيت المقدس : وقال ابن زيد : إنها أريحا قريب من بيت المقدس .

اللغة :

والقرية والبلدة والمدينه نظائر . قال ابو العباس : اصله الجمع : ومنه المقراة: الحوض الذي تسقى فيه الابل . سمي مقراة ، لجمع الماء فيـه . والمقراة : الجفنـة التي يعد فيها الطعام للاضياف قال الشاعر :

عظام المقاري جارهم لا يفزّع

ومنه قريت الضيف . ومنه قريت الماء في الحوض . ومنه قريت الشاة تقري وشاة قارية : إذا كانت تجمع الجرة في شدقها . وهو عيب عندهم شديد وكل ما قري فهو مقري : مثل المرقـد كل ما رقدت فيـه . والقري : المسيل الذي يحمل الماء الى الروضة . وجمعه : قريان : كقضيب وقضبان قال الشاعر :

ماء قريّ حده قري

قال ابن دريد : قريت الضيف أقريه قرى . وقريت الماء في الحوض أقريه قريا . وقرى البعير : جرته في شدقه قريا . والقرية : اشتقاقها من قرى البعير جرته : أي جمعها . والجمع قرى – على غير قياس – . وقال قوم من اهل اليمن : قرية : وقال صاحب العين : القرية والقيرية – لغتان – تقول : ما زلت استقري هذه الأرض قرية قرية . والكسر لغة عانية . ومن هناك اجتمعوا على جمعها على القرى ، حيث اختلفوا فحملوها على لغة من قال : كِسوة وكُسوة . والنسبة اليها قروي . وام القرى : مكة وقوله : « وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا » (١) يعني بها :الكور والأمصار والمدائن والقرى : الظهر من كل شيء ، حتى الآكام وغيرهـا . والجمع الاقراء . والقرى : الاحسان الى الضيف . تقول : اقرى يقري الضيف قرىً : اذا اضافه ضيافة ، وانزله نزالة . والقرى جيء الماء في الحوض . والمدة تقرى في الجرح : أي تجتمع .

(١) سورة الكهف : آية ٦٠

وقوله : « وادخلو الباب »

المعنى :

أي الباب الذي امروا بدخلوها . وقال مجاهد والسدي : هو باب حطة من بيت المقدس . وهوالباب الثامن . وقيل : بابالقبة التي كان يصلي إليها موسى . وقال قوم : بابالقرية التي أمروا بدخولها . قال أبو علي : قول من قال : إنهبابب القرية، لأنه لم يدخلوا القرية في حياة موسى ، لأنه قال : « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم » . والعطف بالفاء يدل على أن هذا التبديل منهم كان في أثر الأمر فدل ذلك على أنه كان في حياة موسى .

ومعنى قوله : « سجداً »

قال ابن عباس : ركعاً . وهو شدة الانحناء . ومنهالسجدمن النساء : الفاترات الأعين . وقال الأعشى :

ولهوي إلى حور المدامع سجد

وقال الآخر :

ترى الأكم منه سجداً للحوافر (١)

وقال غيره : ادخلوا خاضعين متواضعين . قال اعشى قيس :

تراوح من صلوات المليـ ـك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا

وقوله : « حطة »

المعنى :

قال الحسن ، وقتادة واكثر أهل العلم : معناه حُط عنا خطايانا . وروي عن ابن عباس أنه قال : أمروا أن يستغفروا . وروي عنه ايضاً أنه قال : امروا أن يقولوا : هذا الأمر حق : كما قيل لكم . وقال عكرمة : امروا أن يقولوا لا إله إلا الله . وكل هذه الأقوال محط الذنوب فيترحم لحطة عنها .

(١) الكامل ١ : ٢٥٨ في المطبوعة فيها . وهو غلط . والأكم : ج ١٠ اكام ج ٠ أكمة وهي التل .

(٢) ديوانه . راوح . عمل عملين في عمل . والجؤار . رفع الصوت بالدعاء .

اللغة :

وحطة مصدر مثل ردّة وجدّة من رددت وجددت . قال صاحب العين : الحط : وضع الأحمال عن الدواب تقول : حططت عنها أحط حطا . وانحط انحطاطا. والحط والوضع والخفض نظائر . والحط : الحدر من العلو : كقول امرىء القيس :

كجلمود صخرٍ حطه السيل من علِ (١)

ويقال للنجيبة السريعة : حطت في سيرها وانحطت . وتقول حط الله وزرك الذي انقض ظهرك . وقال الشاعر :

واحطط إلهي ـ بفضل منك ـ أوزاري

والحطاطة : بثرة تخرج في الوجه تقبح اللون ولا تقرح . وجارية محطوطة المتنين : ممدودة حسنة والحط : حط الاديم بالمحط . وهي خشبة يصقل بها الأديم او ينقش . وأصل الباب : الحط : وهو الحدر من علو . وارتفعت « حطة » في الآية ـ على قول الزجاج ـ على تقدير مساءلتنا حطة ، وقال غيره : دخولنا الباب سجداً : حطة لذنوبنا كقوله : « وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً قالوا : معذرة » يعني موعظتنا بعذرة إلى ربكم . ويجوز النصب في العربية على معنى حط عنا ذنوبنا حطة ، كقولك : سمعا وطاعة يعني اسمع سمعاً واطيع طاعة ، كقولك : معاذ الله . يعني نعوذ بالله وهو أقوى لأنه دعاء .

وقوله : « نغفر لكم »

اللغة :

والغفران والعفو ، والصفح نظائر . يقال : غفر الله غفرانا . واستغفر استغفارا واغتفر اغتفاراً . قال ابو العباس : غفر الله لزيد بمعنى : ستر غطى له على ذنوبه . والغفران انما هو التغطية . يقال للسحابة فوق السحاب : الغفارة . وثوب ذو غفر :

---

(١) معلقته ، وصدر البيت : مكر مفر مقبل مدبر معاً ـ يصف فرسه ـ

اذا كان له زئير يستر قبحه . ويقال : المغفر ، لتغطية العنق . ويقال غفرت الشيء : إذ واريته . والمغفرة والغفيرة بمعنى [واحد] . والمغفرة : منزل (١) من منازل القمر . يسمى [بذلك] لخفائه . وقال الزجاج : الغفر : التغطية . وكل ما تفرع من هذا الباب فهذا معناه . وقولهم : اللهم اغفر لنا . تأويله اللهم غط علينا ذنوبنا والله الغفور والغفار والمغفر ما يغطى به الرأس من الحديد وغيره . وكذلك الغفارة وهي خرقة تلف على سية القوس : أي طرفها . وغفارة : اسم رأس جبل . والمغفورة والمغفارة . صمغ العرفط وقد اغفر الشجر : إذا ظهر ذلك فيه . وفي الحديث : أن النبي « ص » دخل على عائشة . فقالت : يا رسول الله . أكلت مغافير ؟ تعني هذا الصمغ . ومنهم من يقول : مغاثير : كما قيل جدث ، وجدف . والغفر : شعر صغار دون الكبار . وريش دون الريش الكبار ، لأنه هو الذي يغطي الجلد . والغفر : النكس من المريض . يقال : صلح فلان من مرضه ثم غفر أي نكس . ومنه قول ضرار . ـ وقيل إنه لجميل ـ :

خليلي إن الدار غفر لذي الهوى   كما يغفر المحموم او صاحب الكلم

ومعناه : أن المحب إذا سلا عن حبيبه ، ثم رأى داره جدد عليه حبه . فكأنه مريض نكس . وانما قيل النكس ، لأنه يغطي على العافية . والغفر : شعر يكون في اللحيين . وقد غفر فلان ، وقد غفرت المرأة : إذا انبت لها ذلك الشعر . ومتاع البيت يقال له : الغفر ، لأنه يغطي على الخلل . والغفر : الحوالق . ويقال جاء والجماء الغفير . وجاءوا جماً غفيرا . وجاءوا جماء الغفير : اي مجتمعين جمعاً يغطي الأرض . والغفر : ولد الأروى : وهي انثى الوعل ، لأنها تأوي الجبال ، فتستتر عن الناس . يقال لأنثى الوعل ، إذا كان معها ولدها : مغفر . كما يقال : لكل ذات طفل : مطفل. ويقال : غفرت الأمر تغفرة : إذا أصلحته بما ينبغي ان يصلح به . والمعنى : أصلحته بما غطى على جميع فساده . والغفر : زئير الثوب . وثوب ذو غفر . وغفرت المتاع اذا جعلته في وعاء . وكل شيء غطيته ، فقد سترته . ويقال إصبغ ثوبك فانه أغفر

(١) ثلاثة انجم صغار .

للوسخ : أي استر له . وأصل الباب : التغطية وحد المغفرة : ستر الخطيئة برفع العقوبة
والخطيئة ، والزلة ، والمعصية نظائر . يقال : خطأ خطأ . واخطأ إخطاءً .
واستخطأه استخطاء . وخطأه تخطئة . وتخاطى تخاطياً . قال ابن دريد : الخطأ مقصور
مهموز . يقال خطأ الشيء خطأ : اذا لم يرده واصابه . واخطأ يخطىء اخطاء : اذا
اراده فلم يصبه . والأول خاطىء والثاني مخطىء به . والخطيئه تهمز . قال صاحب
العين : الخطأ : ما لم يتعمد ، ولكن يخطىء اخطاء وخطاءة وتخطئة . واصل الباب : الخطأ
ومثله الزلل . والخاطىء الذي قد زل عن الشيء في قصده ـ وان اتفق له ان يصيبه
من غير أن يقصده ، ولذلك لا يكون الخاطىء في الدين إلا عاصياً ، لأنه لم يقصد الحق
وأما المخطىء فانما زل عن قصده . ولذلك يكون المخطىء من طريق الاجتهاد مصيباً
لأنه قصد الحق واجتهد في اصابته فصار الى غيره . وحد الخطيئة : العدول عن
الغرض المجرد . وخطايا وزنها : فعائل . وتقديره خطائي ، فقلبت الهمزة الأخيرة ياءً
على حركة ما قبلها ، فصارت خطائي ، ثم فعل بها ما فعل بمداري ، حتى قيل مدارى
فصارت : خطاءى . فاستثقل همز بين ألفين ، لأنه بمنزلة ثلاث ألفات ، فقلبت الهمزة
ياء . وانما أعلت هـذا الاعلال ، لأن الهمزة التي بعد الألف عرضت في جميع
فعل القياس . تقول : في جمع مرآة مراءى ، فلا تعل . والخليل يقول : وزنه فعالى
على قلب الهمزة .

القراءة :

من اختار النون من القراء ، قال : لأنه مطابق لما تقدم من قوله : « وظللنا »
و « قلنا » . وانما اتفق القراء على خطاياكم هاهنا ، واختلفوا في الأعراف وسورة
نوح ، لأن اللتين في الأعراف ونوح كتبتا في المصحف بالياء بعد ألف ، والتي في
البقرة بألف .

وقوله : « وسنزيد المحسنين » .

فالزيادة التي وعدها الله المحسنين ، هي تفضل يعطيه الله المحسنين ، يستحقونها
بوعده اياهم. وهي زيادة على الثواب الذي يستحقونه بطاعته (تعالى) .

اللغة :

والفرق بين احسن اليه واحسن في فعله : ان أحسن اليه لا يكون إلا بالنفع له. واحسن في فعله ليس كذلك. ألا ترى انه لا يقال: أحسن الله اليه إلى أهل النار بتعذيبهم . ويقال : أحسن فى تعذيبهم بالنار ؛ يعني أحسن في فعله وفي تدبيره .

والاحسان ، والانعام ، والافضال نظائر . وضد الاحسان : الاساءة : يقال حسن حسنا ؛ واحسن إحسانا . واستحسن استحسانا . وتحاسنوا تحاسنا . وحسنه تحسينا . وحاسنه محاسنة . والمحسن والجمع محاسن : ـ المواضع الحسنة في البدن . ويقال : رجل كثير المحاسن . وامرأة كثيرة المحاسن . وامرأة حسناء . ولا تقول : رجل أحسن ، وتقول : رجل حسان وامرأة حسانة . وهو المحسن جيدا . والمحاسن في الاعمال : ضد المساوىء . تقول : أحسن فانك الحسان . والحسنى : الجنة ، لقوله: « للذين احسنوا الحسنى وزيادة » . والحسنى : ضد السوء . والحسن : ضد القبيح والحسان : جمع حسن الحقوها بضدها ، فقالوا : قباح وحسان . كما قالوا : عجاف وسمان . واصل الباب : الحسن . وهو على ضربين : حسن في النظر ، وحسن في الفعل وكذلك القبيح . وحد الحسن من طريق الحكمة : هو الفعل الذي يدعو اليه العقل . وحد القبيح : الذي يزجر عنه العقل . وحد الاحسان : هو النفع الحسن . وحد الاساءة : هو الضرر القبيح هذا لا يصح الا على قول من يقول: إن الانسان يكون محسنا الى نفسه ومسيئا اليها . ومن لا يقول فذلك يريد فيه الواصل الى الغير مع قصده الى ذلك والاقوى في حد الحسن أن تقول : هو الفعل الذي اذا فعله العالم به على وجه ، لم يستحق الذم فانه لا ينتقض بشيء .

وقوله : « وكلوا منها حيث شئتم رغدا » يعني من هذه القرية ، حيث شئتم رغداً أي واسعاً بغير حساب . وقد بينا معناه فيما مضى واختلاف الناس فيه .

قوله تعالى :

« فَبَدَّل الذينَ ظَلَمُوا قَولاً غَيرَ الذي قِيل لَهُمْ فأنزَلنا عَلى

الذينَ ظَلَمُوا رِجزاً مِن السَّماءِ بما كانوا يَفسُقون ». (٥٩) آية بلا خلاف .

معنى قوله: فبدل الذين ظلموا: غيروا .

وقوله : « الذين ظلموا » معناه : الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعله .

وقوله : « غير الذي قيـل لهم » يعني بذلك بدلوا قولا غير الذي امروا أن يقولوه . فقالوا بخلافه . فذلك هو التبديل والتغيير . وكان تبديلهم بالقول : انهم امروا ان يقولوا : حطة ، وان يدخلوا الباب سجداً . وطؤطيء لهم الباب ليدخلوه كذلك فدخلوه يزحفون على استاهم فقالوا : حطة في شعيره مشتهرين .

وقوله : « فانزلنا على الذين ظلموا » يعني : الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعـله في تبديلهم بالقول والفعل

« رجزاً » :

اللغة :

والرجز في لغة اهل الحجاز: العذاب . وفي لغة غيرهم :الرجس ، لأن الرجس الشر. ومنه قوله (ع) في الطاعون: إنه رجس عـذّب به بعض الامم وهو قول ابن عباس ،وقتادة .وقال ابوعبيدة : الرجز .والرجس لغتان مثل الردع ، والسدع والبزاق والبساق . وقال ابو العالية : هوالغضب .وقال ابو زيد: هو الطاعون ، فقيل انه مات منهم في ساعة واحدة اربعة وعشرون الفاً من كبرائهم وشيوخهم وبقي الابناء وانتقل العلم والعبادة اليهم .

وقوله: « من السماء » قال قوم: يعني ماقضاه الله عليهم من السماء . وقال آخرون : أراد بذلك المبالغة في علوه بالقهر .

وقوله « يفسقون » مضمومة السين عليه جميع القراء وهو اشهر اللغات . وقد حكي في بعض اللغات بكسر السين

قوله تعالى :

« وَاذِ استَسقى مُوسى لِقومهِ فَقلنا اضربْ بعصَاكَ الحَجرَ فانفجَرت مِنه اثنَتا عشرة عيناً قَد علم كلُّ اناسٍ مشربهم كلُوا واشربوا مِن رزقِ اللهِ ولا تعثوْا في الارض مفسدينَ » (٦٠) آية واحدة بلا خلاف.

قوله: « واذا » متعلق بكلام محذوف. ويجوز ان يكون ذلك ما تقدم ذكره في الآيات المتقدمة من ضروب نعم الله على بني اسرائيل فكأنه قال : واذكروا إذ استسقى موسى لقومه: أي ساله إن يسقي قومه ماء

تقول : سقيته من سقي السقة ، واسقيته :دللته على الماء فنزل منزلة سؤال ذلك .

والمعنى الذي سال موسى اذا كان فيما ذكر من الكلام الظاهر دلالة على معنى فما نزل . وكذلك قوله . « فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا» من ماء فاستغنى بدلالة الظاهر على المنزول منه ، لأن معنى الكلام : قلنا اضرب بعصاك الحجر فضربه فانفجرت منه . فترك ذكر الخبر غير ضرب موسى الحجر اذا كان فيما ذكره دلالة على المراد . وكذلك قوله : « قد علم كل اناس مشربهم » فترك ذكر منهم لدلالة الكلام عليه .

والانفجار ، والانشقاق . والانبجاس أضيق منه فيكون أولا انبجاسا ، ثم يصير انفجاراً و العين من الاسماء المشتركة. العين من الماء مشبهة بالعين من الحيوان لخروج الماء منها ، كخروج الدمع من عين الحيوان وقد بينا ان اناسا لا واحد له من لفظه فيما مضى وإن الانسان لو جمع على لفظه لقيل اناسين واناسيه وقوم موسى هم بنو اسرائيل الذين قص الله عز وجل قصصهم في هذه الآيات . وانما استسقى لهم ربهم الماء في الحال التي تاهوا فيها في التيه شكراً اليه الظما فامروا بحجر طوراني من الطور. فضربه موسى بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط عين معلومة ماؤها لهم .وروي عن ابن عباس انه قال :ظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم ثيابا لا تبلي ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع وروي

انه كان مثل شكل الرأس . وامر موسى فضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية منه ثلاثة عيون ، ولا يرتحلون مرحلة إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم في ذلك المكان الذي كان بينهم في المنزل الاول . وقيل إنهم كانوا ينقلونه معهم في الجوالق اذا احتاجوا الى الماء . ضربه موسى بالعصى فيه فتفجر منه الماء وقال قوم : بانه امر بان يضرب أي حجر شاء لا حجراً بعينه . والاول أظهر لأن فيه لام التعريف .

والشين ساكنة في اثنتا عشرة عند جميع القراء . وكان يجوز كسرها في اللغة ولم يقرأ به احد . والكسر لغة ربيعة ، وتميم والاسكان : لغة اهل الحجاز واسد فاذا صغرت اثنتا عشرة قلت ثني عشرة واذا صغرت ثنى قلت ثنتي عشرة . وروى فتحها محمد عن الأعمش . وهو غلط إلا إذا قيل عشرة مفرد فانه بفتح الشين . فاما ما زاد على ذلك فالشين ساكنة ، أو مكسورة إلا قولهم أحد عشر إذا بنيا معاً . ونصب عيناً على التمييز . وعند الكوفيين على التفسير ولا ينبغي الوقف على احد الاسمين المجمولين اسماً واحداً ، دون الآخر : كقولك احد عشر ، واثنا عشر ، وما اشبه ذلك ولذلك يكره الوقف على العدد الأخير قبل ان يميزه ، ويفسره وكذلك قوله : « خير ثواباً وخير مرداً » (١) « وملء الارض ذهباً » (٢) « وعدل ذلك صياماً » (٣) « وخير حافظاً » (٤) « واحسن ثواباً » واشباه ذلك ومن آيات الله العجيبة انفجار العيون من الحجر الصلد بعدد قبائل اسرائيل على وجه يعرف كل فرقة منهم شرب نفسه ، فلا ينازعه فيه غيره . وذلك من الأمور الظاهرة . على أن فاعل ذلك هو الله تعالى وان ذلك لا يتم فيه حيلة محتال ولا كيد كائد. ومن استبعد ذلك من الملحدين فالوجه ان يتشاغل معه في الكلام في اثبات الصانع ، وحدوث الصنعة ، واثبات صفاته وما يجوز عليه ، وما لا يجوز فاذا ثبت ذلك سهل الكلام في ذلك. ومتى شك في ذلك ، أو في شيء منه ، كان الكلام معه في هذا الفرع ضربا

(١) سورة مريم : آية ٧٧ (٢) سورة آل عمران : آية : ٩١ .
(٣) سورة المائدة : آية ٩٨ (٤) سورة يوسف آية ٦٤

من الماء لا وجه للتشاغل به .وقوله هاهنا : « فانفجرت » لا ينافي قوله في الاعراف : « فانبجست » لأن الانبجاس : هو الانفجار إلا أنه قليل وقيل : إنه لا يمتنع أن يكون أوله ما ينبجس ،كان قليلا ، ثم صار كثيراً ، حتى صار انفجاراً

وقوله : « كلوا واشربوا من رزق الله »

يعني من النعم التي عددها عليهم من المن والسلوى وغير ذلك

وقوله : « ولا تعثوا في الارض مفسدين »

أي لا تطغوا ولا تسعوا في الارض فسادا . واصل العثا : شدة الفساد . يقال منه : عثا فلان في الارض الى عاثية يعثأ . والجماعة يعثون . وفيه لغتان أخريتان : احدها — يعثو عثوا . ومن قرأ بهذه اللغة ينبغي أن يضم الثاء . ولم يقرأ به احد . واللغة الاولى : لغة اهل الحجاز . وقال بنو تميم : عاث يعيث عيثا وعيوثا وعيثانا . بمعنى واحد . قال رؤبة بن العجاج :

وعاث فينا مستحل عائث   مصدقٌ أو تاجر مقاعث (١)

يعني بقوله : عاث فينا : افسد فينا . وقيل : يعثو أصله العيث . فقدموا بعض الحروف ، واخروا بعضها . يقال : عثا يعثو . وعاث يعيث وهو الفساد . قال ابن اذينة الثقفي :

وانما قال : « لا تعثوا في الأرض مفسدين » وإن كان العيث لا يكون إلا فسادا ، لأنه يجوز أن يكون فعلا ظاهره الفساد ، وباطنه المصلحة : كخرق موسى السفينة ، فبين ذلك العيث الذي هو الفساد ظاهراً وباطناً .

قوله تعالى :

« وَإِذْ قُلتُمْ : يامُوسى لَنْ نَصبرَ عَلى طَعامٍ وَاحدٍ فادْعُ لنا ربَّك يُخرج لنا ممَّا تنبتُ الأَرْضُ مِنْ بَقلها وقثّائها وفُومها وعَدَسِها وبَصلها

---

(١) ديوانه . مستحل : استباح الاموال . مصدق : هو العامل الذي يجبي الحقوق من المسلمين . تعث الشيء : استأصله . في المخطوطة : « سحل » بدل مستحل « فاجر » بدل « تاجر » و « مباعث » بدل « مقاعث » .

قال : أَتَستَبدِلونَ الَّذي هُوَ أدنى بالذي هوَ خيرٌ اهْبِطوا مِصراً فانَّ لَكُمْ مَا سأَلْتُمْ . وَضُرِبَتْ عليهِمُ الذِلَّةُ و المسكَنةُ وَباءوا بغضبٍ مِنَ اللهِ ذَلكَ بأَنَّهم كانوا يكفرون بآياتِ اللهِ ، وَيقتلونَ النبيينَ بغيرِ الحقِّ . ذلك بما عَصوا وكانوا يَعتَدونَ » (٦١) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ اهل المدينـــة : النبيئين ـ بالهمز ـ الباقون بغير همزة . وترك الهمزة هو الاختيار .

اللغة :

واختلفوا في اشتقاقه . فقال بعضهم : من انبائك الامر : كأنه انبأ عن الله وأخبر عنه . فترك الهمز ذلك لكثرة ما يجزي . وقال الكسائي : النبي : الطريق يراد به أنه علم وطريق الى الحق . واصله من النبوة والنجوة : المكان المرتفع . ومن قال : هو مشتق من الانباء ، قال : جاء فعيل بمعنى مفعـل : كما قال : سميع بمعنى مسمع . كذلك قالوا : نبيء بمعنى منبأ ، وبصير بمعنى مبصر . وابدل مكان الهمزة من النبيء الياء ، فقالوا : نبيّ(١) هذا ويجمع النبي انبياء . وانما جمعوه كذلك ، لانهم ألحقوا النبي بابدال الهمزة منه ياء . فالنعوت التي تأتي على تقدير فعيل من ذوات الياء والواو وذلك كقولهم : ولي واولياء . ووصي واوصياء . ودعي وادعياء . ولو جمعوه على اصله ، والواحـد بني ليعتل اليها ، لأن فعيلا تجمع فعلاء : كقولهم : سفيه وسفهاء وفقيه وفقهاء . وشريك وشركاء . وقد سمع من العرب : النبآء . وذلك في لغـة من همز النبي . ومن قول العباس بن مرداس السلمي في وصف النبي (ص) ومدحه :

ياخاتم النبآء انك مرسل   بالخير كل هدى السبيل هداكا(٢)

(١) في المطبوعة « ما » زائدة في هذا الموضع . (٢) سيرة ابن هشام ٤ : ١٠٣ فاعل « هداك » هو الله سبحانه وتعالى في المخطوطة « الانبياء » بدل « النبآء » وهو غلط وفي مجمع—

فجمع على أن واحدهم نبيء ـ مهموز ـ وقد قال بعضهم : النبي والنبوة غير مهموزين ، لأنها مأخوذان من النبوه . وهي مثل النجاة . وهما مأخوذان من المكان المرتفع . وكل يقول : إن اصل النبي : الطريق قال القطامي :

لما وردن نبيا واستتب بها مسحنفر كخطوط السيح منسحل (١)

قالوا : وسمي الطريق نبياً ، لأنه ظاهر مبين من النبوة قال ابوعلي الفارسي: قال ابو زيد : نبأت من ارض الى أرض ، وانا انبأ نباء ونبوء : إذا خرجت منها الى أخرى . وليس اشتقاق النبي من هذا — وان كان من لفظه — ولكنه من النبأ الذي هو الخبر . كأنه المخبر عن الله . فان قلت : لم لا يكون من النباوة ومما انشده ابو عثمان . قال : انشدني ابن كيسان :

محض الضريبة في البيت الذي وضعت فيه النباوة حلواً غير ممذوق

او يجوز فيه الأمرين ؟ فتقول : إنه يجوز أن يكون من النباوة ومن النبأ كما أجيز في عضة أن يكون من الواو : كقوله وعضوات . ومن الهاء كقوله :

لها بعضاه الأرض تهرير

قال : وليس ذلك كالعضة ، لأن سيبويه زعم أنهم يقولون في تحقير النبوة : كان مسيلمة بنبوته نبيئة سوء . وكلهم يقولون : تنبأ مسيلمة . ولو كان يحتمل الامرين جميعاً ، لما اجتمعوا على انبياء ولا على النبيئه . فان قيل : فلم لا يستدل بقولهم : انبياء ؟ قيل : ما ذكرته لا يدل على تجويز الأمرين ، لأن (انبياء) انما جاز ، لأن البدل لما الزم في نبيء ، صار في لزوم البدل له : كقولهم: عيد واعياد . فكما أن عيد لا يدل على أنه من الياء لكونه من عود الشيء . كذلك لا يدل انبياء على انه من النباوة ، ولكن لما لزم البدل ، جعل بمنزلة تقي واتقياء ،

— البيان « النباء» بتشديد الياء . وعجزه في المخطوطة والمطبوعة هكذا : بالحق خير هدى الاله هداكا . ومثله في مجمع البيان. (١) الديوان : ٤ والضمير في «وردن » للابل . وروايته « واستتب بنا » ونبي : كثيب رمل في ديار بني تغلب . واستتب الامر : استوى . مسحنفر : صفة للطريق وهو الواسع . السيح : لباس مخطط . وسحلت الريح الارض : كشطت ما عليها . والبيت في المخطوطة والمطبوعة هكذا :

لما وردت نبأ واسد لما مستحقر كخطوط النسج منسجل

وصفي واصفياء . فلما لزم ، صار كالبرية ، والخابية ، ونحو ذلك ، مما لزم الهمزة فيه حرف اللين بدلا من الهمزة ، لما دل على أنه من الهمزة ، وأنه لا يعترض عليه شيء وصار قول من حقق الهمزة في الشيء ، كرد الشيء إلى الأصل المرفوع استعماله : نحو وذر وودع . فمن ثم كان التخفيف فيه الأكثر .

فاما مأروي في الحديث : من أن بعضهم قال : يا نبيء الله ، فقال : لست بنبيء الله ولكني نبي الله فقال : ابو علي : اظن أن من اهل النقل من ضعف اسناده . ومما يقوي تضعيفه أن من مدح النبي « ص » فقال : يا خاتم النبآء لم يؤثر فيه انكار عليه . ولو كان في واحدة نكير ، لكان في الجميع مثله ، ثم بينا فيما مضى : أن الصبر كف النفس ، وحبسها عن الشيء (١) .

المعنى :

فاذا ثبت ذلك . فكأنه قال : واذكروا إذ قلتم : يا معشر بني اسرائيل ، لن نطيق حبس انفسنا على طعام واحد . وذلك الطعام هو ما اخبر الله عزوجل إذ أطعمهم في تيههم وهو السلوى في قول اهل التفسير وفي قول ابن منبه : الخبز النقي مع اللحم . قيل : ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض : من البقل . والقثاء ، وما سماه الله مع ذلك وذكر انه سألوه لموسى وكان سبب مسألتهم ذلك ما رواه قتادة . قال : كان القوم في البرية . وقد ظلل عليهم الغمام ، وانزل عليهم المن والسلوى . فملوا ذلك وذكروا عيشا كانت لهم بمصر فسألوا ذلك موسى . فقال الله تعالى : اهبطوا مصرا فان لكم ما سئلتم .

وانما قال مما تنبت الارض ، لان (من) تدخل للتبعيض . ولولم تدخل هاهنا لكانت المسألة تدخل على جميع ما تنبته الارض . فاتوا بـ (من) التي نابت مناب البعض حيث قامت مقامه ، وفي الناس من قال : إن من هاهنا زائدة وانها تجري مجرى قولهم : ما جاءني من احد والصحيح : الاول ، لان من لا تزاد في الايجاب . وانما تزاد في النفي ، ولان من المعلوم انهم ما ارادوا جميع ما تنبته الارض وجرى ذلك

(١) في تفسير سورة البقرة : آية ٤٥ . انظر ١ . ٢٠١ ، ٢٠٢ .

مجرى قول القائل : أصبت اليوم من الطعام عند فلان . يريد أصبت شيئاً منه .
وقوله « يخرج » جزم جواب الأمر .

اللغة :

والبقل ، والقثاء معروفان . وفي القثاء لغتان : ضم القاف ، وكسرها . والكسر اجود . وهي لغة القرآن . وانما ذكر الله تعالى هذه الالفاظ وان لم تكن لائقة بفصاحة القرآن على وجه الحكاية عنهم . واما الفوم فقال ابن عباس وابو جعفر الباقر (ع) وقتادة والسدي : انه الحنطة . وانشد ابن عباس : قول احيحه ابن الحلاج :

قد كنت اغنى الناس شخصاً وافدا　　ورد المدينة عن زراعة فوم (١)

وقال الفراء : والجبائي والازهري : هو الحنطة والخبز : تقول العرب : فوّموا بالتشديد اي اخبزوا لنا . وقال قوم : في الحبوب التي تخبز وهو ماثور . وقال ابن مجاهد وعطا وابن زيد : انه الخبز في قراءة ابن مسعود . وهو قول الربيع بن انس والكسائي انه الثوم . وابدل الثاء فاء كما قالوا : جدث وجدف واثافي واثاثي . قال : الفراء : وهذا اشبه بما بعده من ذكر البصل . قال امية بن ابي الصلت :

فوق شرى مثل الجوابي عليها　　قطع كالوذيل في نفي فوم

وقال ايضاً :

كانت منازلهم اذ ذاك ظاهرة　　فيها الفراديس والفومان والبصل (٢)

قال الزجاج . وهذا بعيد ، لانه لا يعرف الثوم بمعنى الفوم ، لان القوم لا يجوز ان يطلبوا الثوم ولا يطلبون الخبز الذي هو الاصل . وايضا .

---

(١) هكذا في المطبوعة والمخطوطة ومجمع البيان . وفي لسان العرب : لأبي محجن الثقفي وروايته :

قد كنت أحسبني كأغنى واحد　　نزل المدينة عن زراعة فوم

(٢) اللسان (فوم) وروايته :

كانت لهم جنة اذ ذاك ظاهرة　　فيها الفراديس والفومان والبصل

فراديس . ج . فردوس .

فلا خلاف أن الفوم : هو الطعام ، وان كان كل حب يخبز منه يقال : له فوم .

وقوله : « أتستبدلون الذي هوادنى بالذي هو خير »

المعنى :

قيل فيه قولان :

احدها — الذي هو ادنى الطعامين بدلا من اجودها .

والثاني — الذي تتبدلون في زراعته وصناعته بما اعطاكم الله عفوا من المن والسلوى .

وقرا بعضهم : ادنى مهموزا . وقال بعض المفسرين : لولا الرواية لكان هو الوجه ، لانه من قولك : رجل دنيء من الدناءة . وما كنت دنيئاً ولكنك دنئت اي خسست واذا قرىء بلا همز فمعناه : القرب . وليس هذا موضعه ، ولكنه موضع الخساسة . ولو كان ما سألوه أقرب اليهم ، لما سألوه ، ولا التمسوه . ويجوز أن يجعل ادنى واقرب بمعنى : ادون : كما تقول هذا شيء مقارب اى دون . وحكى الأزهري عن ابي زيد (الداني) بلا همز : الخسيس . والدنيء بالهمز : — الماجن (١) .

وقوله : « اهبطوا مصراً » تقديره : فدعى موسى فاستجبنا له ، فقلنا لهم : اهبطوا مصرا . وقد تم الكلام ، لأن الله اجابهم بقوله : « فان لكم ما سألتم . وضربت ... » ثم استأنف حكم الذين اعتدوا في السبت ، ومن قتل الانبياء فقال : « ضربت عليهم الذلة والمسكنة . »

القراءة :

ونون جميع القراء (مصراً) . وقرأ بعضهم بغير تنوين . وهي قراءة ابن مسعود . بغير الف . وقال قتادة ، والسدي ، ومجاهد ، وابن زيد : لانه اراد مصراً من غير تعيين لان ما سألوه من البقل والقثاء لا يكون إلا فى الامصار ، وقال الحسن وابو العالية ، والربيع : إنه اراد مصر فرعون الذي خرجوا منه ، وقال ابو مسلم

(١) في المطبوعة (الماجر) . والماجن : خبيث البطن والفرج .

محمد بن بحر : اراد بيت المقدس لقوله « ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم » .

اللغة :

وروي ذلك عن ابن زيد . واما اشتقاق مصر فقال بعضهم هو من القطع لانقطاعه بالعمارة . ومنهم من قال هو مشتق من الفصل بينه وبين غيره . قال عدي ابن زيد :

وجاعل الشمس مصراً لا خفاء به بين النهار وبين الليل قد فصلا (١)

ومن نون أراد مصراً من الامصار غير معين . ويجوز أيضاً أن يريد مصراً بعينه الذي خرجوا منه . وإنما نون إتباعاً للمصحف ، لأن في المصحف ألف : كما قرأ : « قواريراً قواريراً » (٢) منوناً اتباعاً لخط المصحف . ومن لم ينون اراد مصر بعينها لا غير . وكل ذلك محتمل .

وقوله : « ضربت عليهم الذلة والمسكنه » استئناف كلام . بما فعل الله بهم . يعني بالذين اعتدوا في السبت ، وقتلوا الانبياء .

ومعنى « ضربت » : أي فرضت ووضعت عليهم الذلة ، والزموها من قول القائل : ضرب الامام الجزية على اهل الذمة . وضرب فلان على عبده الخراج . وضرب الأمير على الجيش البعث . يريد بجميع ذلك ألزم ذلك . وبه قال الحسن ، وقتادة . وقيل : معنى « ضربت عليهم » : أي حلوا بمنزلة الذل والمسكنة . مأخوذ من (ضرب القباب) . قال الفرزدق في جرير :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

وأما « الذلة » : فقال الحسن وقتادة ، وغيره : [يعطون الجزية عن يدٍ وهم

---

(١) اللسان ـ مادة (مصر) . وروايته (جعل) بدل (جاعل).

(٢) سورة الانسان آية ١٥ ، ١٦.

صاغرون] (١) [والذلة] مشتق من قولهم : ذل فلان يذل ذلا وذلة .

واما المسكنة : فهي مصدر التسكين . يقال : ما فيهم أسكن من فلان . وما كان سكيناً ، ولـكن تمسكن تمسكناً . ومنهم من يقول : تسكن تسكنا . والمسكنة هاهنا مسكنة الفاقة والحاجة : وهي خشوعها وذلها . تقول : ما في بني فلان اسكن من فلان : أي افقر منـه . وهو قول ابي العالية والسدي . وقال ابن زيد : المعني يهود بني اسرائيل . أبدلهم الله (تعالى) بالعز ذلاً ، وبالنعمة بؤساً ، وبالرضا عنهم غضبا ، جزاء منه بما كفروا بآياته ، وقتلهم (٢) انبياءه ورسله اعتداء وظلماً .

وقوله : « وباءوا بغضب من الله » : أي انصرفوا ورجعوا . ولا يقال : باء إلا موصولا : إما بخـــير واما بشر . وا كثر ما يستعمل في الشر . كذا . قال الـكسائي . ويقال : باء بذنبه يبوء به بوء . ومنه قوله تعالى : « أريد أن تبوء بإثمي وإثمك » يعني ترجع . بما قد صار عليك دوني . فمعنى الكلام : ارجعوا منصرفين متحملين غضب الله .

وروي أن رجلا جاء برجل الى النبي « ص » ، فقال : هـــذا قاتل أخي ، وهو بواء به : أي مقتوله به . ومنه قول ليلى الأخيلية :

فان تـكن القتلى بواء فانـكم　　فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر

وقال الزجاج : أصل ذلك التسوية . ومعنى ذلك أنهم تساووا بغضب من الله ومنه ما روي عن عبادة بن الصامت . قال : جعل الله تعالى الأنفال الى نبيـه ، فقسمها بينهم على بواء أي : على سواء بينهم في القسم . ومنه قول الشاعر :

فيقتل خيراً بامرىء لم يـكن به　　بواء ولـكن لا نـكايل بالدم

والأصل : الرجوع . على ما ذكرناه . وقال قوم : هو الاعتراف ، ومعناه :

---

(١) ما بين القوسين زدناه عن تفسير الطبري . وعنه : الذلة . الصغار . انظر سورة التوبة . ٢٩ . في المطبوعة والمخطوطة حصل سقط في هذا المكان . وهـذا ما فيها . (أن يجزيه الصغار مشتق من . .)

(٢) في المطبوعة (وقتله) .

انهم اعترفوا بما يوجب عليهم غضب الله . ومنه قول الشاعر :

إني ابوء بعثرتي وخطيئتي ربي وهل إلا إليك المهرب

وأما الغضب . قال قوم : ما حل بهم من البلاء والنقمة في دار الدنيا بدلا من الرخاء والنعمة . وقال آخرون : هو ما بينا لهم في الآخرة من العقاب على معاصيهم .

وقوله : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله » إشارة الى ما تقدم ذكره من ضرب الذلة والمسكنة ، وإحلال غضبه بهم ، لأنه يشتمل على جميع ذلك ومعنى « بأنهم » أي لأجل أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، فعلنا (١) بهم ما فعلنا من انواع العذاب .

وقوله : « يقتلون النبيين بغير الحق » لايدل على أنه قد يصح أن يقتلوهم بحق ، لأن هذا خرج مخرج الصفة لقتلهم . وانه لا يكون إلا ظلماً بغير حق : كما قال : « ومن يدع مع الله إله آخر لا برهان له به » (٢) وكما قال : « رب احكم (٣) بالحق » . وكما قال الشاعر :

على لاحب لا يهتدي بمناره

ومعناه ليس هناك منار يهتدى به . ومثله كثير.

وقوله : « ذلك بما عصوا » إشارة الى ما انزل الله من الذلة والمسكنة بما عصوا من قتلهم الانبياء وعدوهم في السبت وغير ذلك . وقيل معناه : نقض العهد . وكانوا يعتقدون في قتل الانبياء . انه روي انهم كانوا اذا قتلوا النبي في أول النهار قامت سوق بقتلهم في آخره . وانما خلى الله بين الكافرين ، وقتل الانبياء ، لينالوا من رفيع المنازل مالم ينالوه بغيره وليس ذلك بخذلان لهم كما فعل بالمؤمن من أهل طاعته . وقال الحسن : ان الله تعالى ما امر نبياً بالحرب الا نصره . فلم يقتل : وانما خلى بينه وبين قتل من لم يؤمر (٤) بالقتال من الانبياء . والذي نقوله : إن النبي

---

(١) في المطبوعة (فعلناه) . (٢) سورة المؤمنون آية ١١٨

(٣) سورة الانبياء آية ١١٢ (٤) في المخطوطة والمطبوعة « يؤمن »

ان كان لم يؤد الشرع ، لا يجوز أن يمكن الله من قتله ، لانه لو مكن (١) فقتل لادى الى ان تزاح علل المكلفين فيما لهم من الالطاف ، والمصالح فاذا أدوا الشرع ، جاز حينئذ أن يخلي بينهم ، وبين من قتلهم ، لانه لا يجب المنع منه وروى ابو هريرة عن النبي (ص) انه قال : اختلف بنو اسرائيل بعد موسى بخمسمائة سنة ، حتى كثر منهم أولاد السبايا واختلفوا بعد موسى بماني سنة

والاعتداء تجاوز الحدالذي حده الله لعباده الى غيره وكل متجاوز حد شيء الى غيره فقد تعداه الى ما تجاوز اليه فمعنى الكلام فعلت بهم ما فعلت من ذلك بما عصوا امري وتجاوزوا حده الى ما نهيتهم عنه

قوله تعالى :

« انَّ الذين امنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٦٢) آية واحدة .

القراءة :

قرأ نافع بترك الهمز من الصابئين ، وجميع القراء الباقون يهمزون

اما « الذين آمنوا » وهم المصدقون برسول الله (ص) بما اتاهم من الحق من عند الله . واما الذين هادوا فهم اليهود .

اللغة :

ومعنى هادوا : تابوا . يقال : هاد القوم يهودون هودا ، وهيادة وقال ابن جريج : إنما سميت اليهود يهودا ، لقولهم : انا هدنا اليك . قال أعرابي يؤخذ بقوله : على ما قال ابو عبيدة : فاني من مدحه هائد أي تائب . وقيل : انما سموا يهودا ، لانهم نسبوا الى يهوذا أكبر أولاد يعقوب فعربت الذال دالا . وقال زهير : في معنى الرجوع :

(١) في المخطوطة والمطبوعة « مكنه » .

سوى مربع لم يات فيه مخافة   ولا رهقا من عابد متهود (١)

أي تائب فسميت اليهود يهودا ، لتوبتهم من عبادة العجل . واصل الهود :(٢) الطانينة . ويخبر به عن لين السير . ومنه الهوادة : وهي السكون . قال الحسين بن علي المغربي انشدني ابو رعاية السلمي ، وهو من افصح بدوي أطاف بنا ، واغزرهم رواية :

صباغتها من مهنة الحي بالضحى   جياد المداري حالك اللون اسودا

اذا نفضتـه مال طوراً بجيـدها   وتمثاله طوراً باغيدا فوّدا

كما مال قنوا مطعم هجرّية   اذا حركت ريح ذرى النخل هودا

المطعم : النخلة . شبه شعرها باقناء البسر . هوّد تحرك تحريكة لينة قال زهير :

ولا رهقا من عايد متهود

وليس اسم يهود مشتقا من هذا .

والنصارى جمع نصران كقولهم سكران وسكارى . ونشوان ونشاوى . هذا قول سيبويه : قال الشاعر :

تراه اذا كان العشي محنفا   يضحي لديه وهو نصران شامس(٣)

وقد سمع في الانثى نصرانة قال الشاعر :

وكلتاهما خرت واسجد رأسها   كما سجدت نصرانة لم تحنف (٤)

وقد سمع في جمعهم انصار بمعنى النصارى قال الشاعر :

لما رأيت نبطاً انصارا   شمرت عن ركبتي الازارا

كنت لهم من النصارى جارا

والمشهور أن واحد النصارى نصري : مثل بعير مهري ومهارى . وانما سموا نصارى ، لنصرة بعضهم بعضا . دليله الآيات التي ذكرناها . وقيل انما سموا بذلك

(١) اللسان: هود . وروايته: سوى ربع لم يأت فيها مخافة . . الخ وفي مجمع البيان «مربع» بدل مربع (٢) في المطبوعة « اليهود » (٣) لم نعرف قائله . « محنفاً » صار الى الحنيفية . شامس: مستقبل الشمس . (٤) اللسان : نصر وروايته « فكلتاهما » و « اسجدت » وفي تفسير الطبري ـ دار المعارف ـ تعليقة الاستاذ محمود محمد شاكر ذكر البيت في مادة حنف من اللسان وهو غلط والصحيح ما ذكرنا . في المطبوعة والمخطوطة « جرت» بدل « خرت » وهو تحريف . البيت الاول اللسان : نصر والكل في امالي الشجري : ٧٩ و ٣٧١ .

لأنهم نزلوا ارضاً يقال لها : ناصرة . وكان ينزلها عيسى فذهب اليها ، فقيل عيسى الناصري ، ثم نسب اصحابه اليه فقيل النصارى ، وهذا قول ابن عباس ، وقتادة ، وابن جريج . وقيل : إنهم سموا بذلك ، لقوله : « من انصاري الى الله » (١)

والصابئون جمع صابىء : وهو من انتقل من دينه الى دين آخر كالمرتد من اهل الاسلام . وكل خارج من دين كان عليه الى آخر يسمى صابئاً قال ابو زيد : صبا فلان في دينه يصبا صبوا اذ كان صابئا وصبأ ناب الصبي يصبوا صبوا : اذا كان طلع . وقال الزجاج : صبأت النجوم : اذا ظهرت . وقال ابو زيد : صبوت اليهم تصبأ صبأ وصبوء : إذا طلعت عليهم ، وكان معنى الصابىء التارك دينه الذي شرع له الى دين غيره : كما قال : ان الصابىء على القوم تارك لأرضه ومنتقل الى سواها . فالدين الذي فارقوه هو تركهم التوحيد الى عبادة النجوم ، أو تعظيمها . وقال نافع هو مأخوذ من قولهم: صبا يصبوا اذا مال الى الشيء ، واحبه ولذلك لم يهمز قال الشاعر :

صبوت اياديب وانت كبير

قال ابو علي الفارسي : هذا ليس بجيد ، لأنه قد يصبو الانسان الى دين فلا يكون منه مدين به مع صبوه اليه فاذا كان هـذا هكذا ، وكان الصابئون منتقلين من دينهم الذي اخذ عليهم الى سواه ، وجب ان يكون مأخوذاً من صبأت الذي هو الانتقال . ويكون الصابئون على قلب الهمزة ، وقلب الهمزة على هذا الحد ، لا يجيزه سيبويه إلا في الشعر ويجيزه غيره فهو على قول من اجاز ذلك . وممن اجاز ذلك ابو زيد . وحكي عنه انه قال لسيبويه : سمعت قريت واخطيت قال فكيف تقول في المضارع قلت : اقرأ فقال حسبك أو نحو هـذا . قال ابو علي يريد سيبويه ان قريت مع اقرأ لا ينبغي ، لأن قريت اقرأ على الهمز وقريت على القلب ، فلا يجوز ان تغير بعض الأمثلة دون بعض . فدل على ان القائل لذلك غير فصيح ، فانه غلط في لغتـه . وقال قتادة والبلخي : الصابئون قوم معروفون لهم مذهب ينفردون به ،

---

(١) سورة الصف آية ١٤ .

من عبادة النجوم . وهم مقرّون بالصانع وبالمعاد وببعض الانبياء . وقال مجاهد والحسن وابن ابي نجيح : الصابئون بين اليهود والمجوس لادين لهم . وقال السدي : هم طائفة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور . وقال الخليل: هم قوم دينهم شبيه بدين النصارى إلا ان قبلتهم نحو مهب الجنوب . خيال منصف النهار ، ويزعمون انهم على دين نوح . وقال ابن زيد : الصابئون هم اهل دين من الاديان كانو بالجزيرة : جزيرة الموصل ، يقولون لا إله إلا الله ولم يؤمنوا برسول الله « ص » ، فمن اجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي « ص » واصحابه : هؤلاء الصابئون : يشبهونهم بهم . وقال آخرون : هم طائفة من اهل الكتاب . والفقهاء باجمعهم يجيزون اخذ الجزية منهم . وعندنا لا يجوز ذلك ، لانهم ليسو اهل الكتاب .

وقوله : « من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم » .

المعنى :

تقول : من صدق بالله وأقر بالبعث بعد المات يوم القيامة وعمل صالحاً واطاع الله فلهم اجرهم عند ربهم : يعني ثواب عملهم الصالح فان قيل : فاين تمام قوله : ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين — قيل تمامه جملة قوله تعالى : من آمن بالله واليوم الآخر : لأن معناه : من أمن منهم بالله واليوم الآخر ، وترك ذكر منهم لدلالة الكلام عليه .

ومعنى الكلام : ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من يؤمن منهم بالله واليوم الآخر فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم .

وقوله : « من آمن بالله واليوم الآخر » .

الاعراب :

في الناس من قال : هو خبر عن الذين هادوا والنصارى والصابئين : لان الذين آمنوا كانوا مؤمنين فلا معنى حينئذ ان يقول من آمن وهو نفسهم .

ومنهم من قال : هو راجع الى الكل ويكون رجوعه على الذين آمنوا على

وجه الثبات على الايمان والاستدامة ، وترك التبديل والاستبدال به .

وفي الذين هادوا والنصارى والصابئين : استئناف ايمان بالنبي « ص » وما جاء به .

وقوله : « من آمن بالله » فوحد الفعل ثم قال فلهم اجرهم : لان لفظة (من) وان كانت واحدة ، فمعناها يكون للواحد والجمع والانثى والذكر . فان ذهب الى اللفظ وحّد . وان ذهب الى المعنى جمع كما قال : « ومنهم من ينظر اليك افأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون » (١) فجمع مرة مع الفعل لمعناه ووحد اخرى على اللفظ . قال الشاعر :

ألمّـا بسلمى عنكما إن عرضتما　　وقولا لها : عوجي على من تخلفوا (٢)

فجمع الفعل لانه جعل من بمنزلة الذين وربما كان لاثنين وهو ابه . وما جاء فيه قال الفرزدق :

تعال فان عاهدتني لا تخونني　　نكن مثل من يا ذئب يصطحبان (٣)

قوله : « من آمن بالله واليوم الآخر »

النزول :

قال السدي : نزلت في سلمان الفارسي ، واصحابه النصارى الذين كان قد تنصر على ايديهم قبل مبعث رسول الله «ص». وكانوا قد أخبروه بأنه سيبعث ، وانهم يؤمنون به إن أدركوه .

وروي عن ابن عباس : أنها منسوخة بقوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً ، فلن يقبل منه » (٤) . وهذا بعيد ، لأن النسخ لا يجوز أن يدخل في الخبر الذي يتضمن الوعيد. وانما يجوز دخوله فيما طريقه الأحكام الشرعية التي يجوز تغييرها

---

(١) سورة يونس آية : ٤٣ . (٢) ديوان امرىء القيس . ومنهم من نسبه لرجل من كندة. في المخطوطة والمطبوعة (عضتما) بدل (عرضتما) .

(٣) ديوانه . الكامل ١ : ٢١٦ . من قصيدة قالها عندما استضافه الذئب فأقراه . في المخطوطة والمطبوعة « تعيش » بدل « تعال » وفي بعض المصادر الاخرى « تعشي » .

(٤) سورة آل عمران آية : ٨٥

وقال قوم : إن حكمها ثابت . والمراد بهـا : ان الذين آمنو بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم من المنافقين هم واليهود ، والنصارى ، والصابئين إذا آمنوا بعد النفاق ، واسلموا عند العناد ، كان لهم أجرهم عند ربهم : كمن آمن في أول الاسـلام من غير نفاق ، ولا عناد ، لأن قوماً من المسلمين قالوا : إن من أسلم بعد نفاقه ، وعناده كان أجره اقل وثوابه انقص . وأخبر الله بهذه الآية أنهم سواء في الأجر والثواب. واولى الأقاويل ما قدمنا ذكره . وهو المحكي عن مجاهد والسدي : ان الذين آمنوا من هذه الأمة ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين من آمن من اليهود ، والنصارى ، والصابئين بالله واليوم الآخر ، فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، لأن هذا اشبه بعموم اللفظ . والتخصيص ليس عليه دليل .

وقد استدلت المرجئة بهذه الآية على أن العمل الصالح ، ليس من الايمان ، لأن الله تعالى أخبرهم عنهم بأنهم آمنوا ، ثم عطف على كونهم مؤمنين . أنهـم إذا عملوا الصالحات ما حكمها . قالوا : ومن حمل ذلك على التأكيد أو الفضل ، فقد ترك الظاهر . وكل شيء يذكرونه مما ذكر بعد دخوله في الأول مما ورد به القرآن : نحو قوله : « فيها فاكهة ونخل ورمان » (١) . ونحو قوله : « وإذ أخـذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح » (٢) . ونحو قوله : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا » . وقوله : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله » (٣) . قالوا: جميع ذلك مجاز . ولو خلينا والظاهر ، لقلنا : إنه ليس بداخل في الأول . فان قالوا: أليس الاقرار ، والتصديق من العمل الصالح ؟ فلا بد لـكم من مثل ما قلناه ، قلنا عنه جوابان :

احدهما — ان العمل لا يطلق الا على افعال الجوارح ، لانهم لا يقولون : عملت بقلبي ، وانما يقولون : عملت بيدي اوبرجلي .

والثاني — ان ذلك مجاز ، وتحمل عليه الضرورة . وكلامنا مع الاطلاق .

---

(١) سورة الرحمان آية ٦٨　　(٢) سورة الاحزاب آية ٧ .

(٣) سورة محمد آية ١

وقوله : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » : يعني لا خوف عليهم مما قدموا عليه من اهوال القيامة . ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا عند معاينتهم ما اعد لهم من الثواب، والنعيم المقيم عنده وقيل : انه لا يحزنون من الموت .

قوله تعالى :

« وَاذْ اَخَذْنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما اتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » (٦٣) آية بلا خلاف .

تقديره : واذكروا إذ أخذنا ميثاقكم .

اللغة :

الميثاق : المفعال من الوثيقة : اما بيمين ، واما بعهد وغير ذلك من الوثائق . والميثاق الذي اخذه الله هو الذي ذكره في قوله : « واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين احسانا » «١» في الآيات التي ذكر بعدها . ويحتمل ان يكون اراد الميثاق الذي اخذ الله على الرسل في قوله : « واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم » «٢» وقوله : « واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما اتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال اقررتم واخذتم على ذلكم اصري » «٣» وقد بينا ان اخذ العهد هو ما نصب لهم من الحجج الواضحة ، والبراهين الصحيحة الدالة على توحيده ، وعدله ، وصدق انبيائه ورسله . وافسدنا ما يقوله اهل الحشو : من استخراج الذرية من ظهر آدم ، واخذ العهد عليهم بما لا يحتاج الى اعادته .

وقوله : « ورفعنا فوقكم الطور » . قال مجاهد : الطور هو الجبل . وكذلك هو في اللغة . وقال العجاج :

دانى جناحيه من الطور فمر　　تقضي البازي اذا البازي كسر «٤»

«١» سورة البقرة آية ٨٣ . «٢» سورة الاحزاب : آية ٧ . «٣» سورة آل عمران : آية ١٨٧ «٤» ديوانه دانى جناحيه : ضم جناحيه. تقضي : اصلها تقضض، وتقضض الطائر : هوى في طيرانه . والبازي : ضرب من الصقور : كسر الطائر جناحيه ضمهما قليلا يريد النزول .

وقيل: إنه اسم جبل بعينه . ناجى الله عليه موسى بن عمران . ذهب اليه ابن عباس وابن جريج . وقيل : انه من الجبال التي تنبت دون ما لا تنبت «١» . رواه الضحاك عن ابن عباس وقال قتادة « ورفعنا فوقكم الطور » قال : الطور الجبل اقتلعه فرفعه فوقهم . فقال : « خذوا ما اتيناكم بقوة » وقال مجاهد : الطور اسم جبل بالسريانية . وقال قتادة : بالعربية .

وقال قوم من النحويين : معنى خذوا تقديره ورفعنا فوقكم الطور وقلنا لكم خذوا ما اتيناكم يعني التوراة بقوة . اي بجد ويقين ، لا شك فيه والا قذفناه «٢» عليكم كما تقول : اوجبت عليه قم «٣» اي اوجبت عليه فقلت «٤» قم . وقال الفراء : اخذ الميثاق : قول بلا حاجة بالكلام الى اضمار قول . فيكون من كلامين . غير انه ينبغي لكل ما خالف القول من الكلام الذي هو بمعنى القول ، أن تكون معه أن كما قال تعالى : « انا ارسلنا نوحا الى قومه ان انذر قومك » «٥» قال ويجوز حذف أن

ومعنى « ما اتيناكم » أي اعطيناكم لأن الايتاء هو الاعطاء . يعني ما امرناكم به في التوراة . « بقوة » : أي بجد ويقين على ما بيناه . وهو قول ابن عباس وقتادة ، والسدي . وقال ابو العالية والربيع بن انس : بطاعة الله وقال مجاهد : إنه العمل بما فيه وحكي عن ابن الجران معناه : القبول . وقال : ابو علي : « بقوة » معناه : بالقدرة التي جعلنا فيكم . وذلك دلالة على ان القدرة قبل الفعل . ومعنى اذكروا ما فيه . قال قوم : احفظوه ، لا تنسوه . وقال آخرون : اعملوا بما فيه ولا تتركوه . والمعنى في ذلك ان ما اتيناكم فيه من وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب اعتبروا به ، واقبلوه وتدبروه ، كي اذا فعلتم ذلك تتقوني وتخافوا عذابي بالاصرار على ضلالتكم فتنتهوا الى طاعتي فتنزعوا عما انتم عليه من المعصية .

«١» وهذا معنى اصطلاحي منقول عن ابن عباس كما ترى لا كما توهمه الاستاذ محمود محمد شاكر في حاشيته على تفسير الطبري ٢ ، ١٥٧ . وهذا نص حاشيته « هذا قول لم أجده في كتب اللغة في مادته . » «٢» في المخطوطة والمطبوعة « قدمناه » وهو تصحيف « ٣ و ٤ » في المطبوعة « قر » «٥» سورة نوح آية ١ .

قوله تعالى :

« ثُمَّ تَوَلَّيتُم مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فلو لا فَضلُ اللهِ عَليكم وَرَحمته لكنتم مِنَ الخاسرِينَ » (٦٤) آية.

قوله توليتم : اعرضتم ووزنه : تفعلتم من قولهم ولاني فلان دبره : اذا استدبر عنه وجعله خلف ظهره . ثم يستعمل ذلك في كل تارك طاعة آمر ومعرض بوجهه . يقال : فلان تولى عن طاعة فلان ، ويتولى عن مواصلته وصداقته ، ومنه قوله : « فلما اتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون » «١» يعني خالفوا ما وعدالله من قوله : « لئن اتانا الله امن فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين » «٢» ونبذوا ذلك وراء ظهورهم فصار معنى الآية انكم نبذتم العهد الذي اخذناه عليكم بعد اعطائكم المواثيق . وكنى بذلك عن جميع ما تقدم ذكره في الآية ، ثم قال: « فلولا فضل الله عليكم » يعني فلولا ان فضل الله عليكم بالتوبة بعد نكثكم الميثاق الذي واثقتموه اذ رفع فوقكم الطور فاجتهدتم في طاعته ، واداء فرائضه ، وانعم عليكم بالاسلام ، وبرحمته التي رحمكم بها ، فتجاوز عن خطيئتكم بمراجعتكم «٣» طاعة ربكم لكنتم من الخاسرين . وهذا وان كان خطابا لمن كان بين ظهراني مهاجر رسول الله « ص» فانما هو خبر عن اسلافهم . فاخرج الخبر مخرج الخبر عنهم . على نحو ما مضى ذكره . وقال قوم : الخطاب في هذه الآية انما اخرج باضافة الفعل الى المخاطبين والفعل لغيرهم لأن المخاطبين انما كانوا يتولون من كان فعل ذلك من اوائل بني اسرائيل ، فصيرهم الله منهم ، من اجل ولايتهم لهم . وقال بعضهم : انما قال لهم ذلك ، لأن سامعيه كانوا عالمين . وان الخطاب خرج مخرج الخطاب للاحياء من بني اسرائيل ، واهل الكتاب — وان كان المعنى في ذلك انما هو خبر عما مضى من اسلافهم — ومثل ذلك قول الشاعر :

«١» سورة التوبة: آية ٧٧ «٢» سورة التوبة آية ٧٦ . «٣» في المطبوعة « ثم احفتكم» والمخطوطة « احفتكم » وهو تحريف فاحش .

اذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ولم تجدي من ان تقري به بدا «١»

فقال: اذا ما انتسبنا. واذا تقتضي من الفعل مستقبلا. ثم قال: لم تلدني فاخبر عن ماض، لأن الولادة قد مضت لأن السامع فهم معناه ـ والاول اقوى ـ وقال ابو العالية: فضل الله الاسلام ورحمته القرآن.

وقوله: « فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ».

لا يدل على ان الذين خسروا، لم يكن عليهم فضل الله لأن فضل الله شامل لجميع الخلائق، لأن ذلك دليل خطاب. وليس ذلك بصحيح عند الاكثر، والذي يكشف عن ذلك، ان الواحد منا قد يعطي اولاده وعبيده ويتفضل على جميعهم ثم يبذره بعضهم ويبقى فقيراً. ويحفظه آخر فيصير غنيا، ويحسن ان يقول للغني منهم لولا فضلي عليك لكنت فقيراً. ولا يدل على انه لم يتفضل على الذي هو فقير. واذا كان كذلك كان تأويل الآية انه لولا اقداري لكم على الايمان وازاحة علتكم فيه حتى فعلتم ايمانكم، لكنتم من الخاسرين. وانما جعل الايمان فضلا فيؤتيه الذين به ينجون ولم يكونوا خاسرين من حيث كان هو الداعي اليه والمقدر عليه، والمرغب اليه.

ويحتمل ان يكون المعنى: ولولا فضل الله عليكم بامهاله اياكم بعد توليكم عن طاعته حتى تاب عليكم برجوع بعضكم عن ذلك وتوبته لكنتم من الخاسرين.

ويحتمل ان يكون اراد بهذا الفضل في وقت رفع الجبل فوقهم باللطف والتوفيق الذي تابوا عنده حتى زال عنهم العذاب وسقوط الجبل، ولولا فضل الله: لسقط الجبل

قوله تعالى:

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » (٦٥) آية.

المعنى:

علمتم أي عرفتم هاهنا. فقوله: علمت اخاك ولم اكن اعلمه: أي عرفته ولم

«١» معاني الفراء. قائله زائدة بن صعصعة الفقعسي.

اكن اعرفه كقوله تعالى : « واخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » (١) .
يعني لا تعرفونهم الله يعرفهم . والذين نصب ، لانه مفعول به . اعتدوا : أي ظلموا وجاوزوا ماحدلهم ، وكانوا امروا ألا يعدوا في السبت، وكانت الحيتان تجتمع، لامنها في السبت فحبسوها في السبت واخذوها في الاحد . واعتدوا في السبت ، لان صيدها هو حبسها. وقال قوم : بل اعتدوا فصادوا يوم السبت وسمي السبت سبتاً لان السبت هو القطعة من الدهر فسمي بذلك اليوم ، هذا قول الزجاج وقال ابوعبيدة : سمي بذلك : لانه سبت خلق فيه كل شيء : اي قطع ووقوع . وقال قوم سمي بذلك ، لأن اليهود يسبتون فيه : اي يقطعون الاعمال . وقال آخرون : سمي بذلك ، لما لهم فيه من الراحة ، لان اصل السبت هو السكون والراحة . ومن ذلك قوله : « وجعلنا نومكم سباتاً » (٢) ، وقيل للنائم مسبوت لاستراحته وسكون جسده فسمي به اليوم ، لاستراحة اليهود فيه .

وقوله : « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » . اخبار عن سرعة فعله ومسخه اياهم . لا أن هناك امراً كما قال للسموات والارض « اتيا طوعاً او كرهاً قالتا اتينا طائعين » (٣) . ولم يكن هناك قول ، وانما اخبر عن تسهل الفعل عليه وتكوينه له بلا مشقة ، بلفظ الامر .

ومعنى الآية على ما قاله اكثر المفسرين : انه مسخهم قردة في صورة القردة سواء .

وحكي عن ابن عباس : انه قال : لم يمش مسخ قط اكثر من ثلاثة ايام . ولم يأكل ولم يشرب .

وقال مجاهد : إن ذلك مثل ضربه الله ، كما قال : « كمثل الحمار يحمل اسفاراً » (٤) . ولم يمسخهم قردة . وحكي عنه ايضاً : انه قال : مسخت قلوبهم فجعلت كقلوب القردة لا تقبل وعظاً ولا تقي زجراً . وهذان القولان منافيان لظاهر

(١) سورة الانفال آية . ٦١ .　　(٢) سورة عم آية . ٩ .
(٣) سورة حم ـ السجدة آية : ١١ .
(٤) سورة الجمعة آية . ٥ .

التأويل : لما عليه اكثر المفسرين من غير ضرورة داعية اليه . وقوله : « خاسئين » : اي مبعدون ، لان الخاسىء هو المبعد المطرود كما يخسأ الكلب . تقول : منه خسأه اخسؤه خسء وخسياً هو يخسو خسواً . يقال : خسأته فخسأ وانخسأ . قال الراجز :

كالكلب ان قلت له اخسا انخسا (١)

اي إن طردته ، انطرد . وقال مجاهد معناه ، اذلاء صاغرين . والمعنى قريب . وفي هذه الآيات احتجاج من الله تعالى بنعمه المترادفة واخباراً للرسول عن عناد اسلافهم وكفرهم مرة بعد اخرى مع ظهور الآيات والعلامات ، تعزية له « ص » وتسلية له عندما رأى من جحودهم ، وكفرهم وليكون وقوفه على ماوقف عليه من اخبارهم حجة عليهم وتنبيهاً لهم وتحذيراً ان يحل بهم مما حل بمن تقدمهم من آبائهم واسلافهم .

قوله تعالى :

« فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ » .

(٦٦) آية بلا خلاف

المعنى :

الضمير في قوله : « فجعلناها » يحتمل ان يكون راجعاً الى العقوبة او القردة فكأنه قال : جعلنا القردة ، اي ما حل بها من التشويه وتغيير الخلقة ، دلالة على ان من تقدمهم اوتأخر عنهم . فمن فعل مثل فعلهم يستحق من العقاب مثل الذي نزل بهم نكالاً لهم جميعاً وموعظة للمتقين : اي تحذيراً وتنبيهاً ، لكيلا يواقعوا من المعاصي ما واقع أولئك فيستحقوا ما استحقوا ـ نعوذ بالله من سخطه ـ ويحتمل ان تكون (الهاء) راجعة الى الحيتان . ويحتمل ان تكون راجعة الى القرية التي اعتدوا اهلها فيها . ويحتمل ان تكون (الهاء) راجعة الى الامة الذين اعتدوا وهم

(٢) لسان العرب . خسأ . وروايته . ان قيل له .

اهل ايلة : قرية على شاطىء البحر . وروي ذلك عن ابي جعفر « ع » .

وقوله : « نكالا » قال ابن عباس : عقوبة . وقال غيره : ينكل بها من يراها . وقيل : انها شهرة ، لان النكال : الاشتهار بالفضيحة ، ذكر ذلك الجبائي . وليس بمعروف .

والنكال الارهاب للغير واصله المنع ، لانه مأخوذ من النكل وهو القيد ، وهو ايضاً اللجام وكلاهما مانع .

وقوله : « لما بين يديها وما خلفها » . روي عن عكرمة عن ابن عباس : انه اراد ما بين يديها وما خلفها من القرى . وروي عن الضحاك عن ابن عباس انه : اراد ما بين يديها يعني : من بعدهم من الامم . وما خلفها الذين كانوا معهم باقين . وقال السدي (ما بين يديها) : من ذنوبها (وما خلفها) يعني : عبرة لمن يأتي بعدهم من الامم . وقال قتادة (لما بين يديها) ذنوبها (وما خلفها) : عبرة لمن يأتي خلفهم : بعدهم من الامم وقال قتادة لما بين يديهاذنوب القوم وما خلفها الحيتان التي اصابوها وقال مجاهد : ما بين يديها ما مضى من خطاياهم . وما خلفها من خطاياهم : التي اهلكوا بها وموعظة للمتقين). خص المتقين بها ــ وان كانت موعظة لغيرهم ــ، لانتفاع المتقين بها دون الكافرين . كما قلناه في غيره . كقوله : « هدىً للمتقين » . واصل النكال العقوبة تقول : نكل فلان بفلان ينكل تنكلا ونكالا قال عدي بن زيد :

لا يسخط المليك ما يصنع العبـ   ـد ولا في نكاله تنكير (١)

واقوى التأويلات ما رواه الضحاك عن ابن عباس : من انها كناية عن العقوبة والمسخة التي مسخها القوم ، لان في ذلك اشارة الى العقوبة التي حلت بالقوم ــ وان كانت باقي الاقوال ايضاً جائزة .

---

(١) يقول : لا يغضب الملك ما اسم عبده من العفو والصفح ، وان عاقب فما في عقوبته ما يستنكر .

قوله تعالى :

« وإذْ قالَ موسى لِقومِه إنّ اللهَ يأمرُكم أن تَذْبَحوا بقرةً قالوا أتتّخِذُنا هزواً قالَ أعوذُ باللهِ أنْ أكونَ مِنَ الجاهِلينَ » . (٦٧) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابو عمرو ونافع والكسائي وابن عامر : هزواً مثقلا ، وكذلك كفوا مثقلة . وقرأ آخر مخففاً . وعاصم يثقلهن ويخففهن . وحمزة يخففهن ثلاثهن (١).

الاعراب واللغة :

قوله : « واذ » معطوفة على قوله واذكروا نعمتي التي انعمت عليكم : واذكروا اذ قال موسى لقومه . واهل الحجاز يثقلون هذه الكلمات . وبنو أسد وتميم وعامة قيس يخففونهن ومن لا يحصى ممن تجاوزهم يقولون عن مكان أن اذا كانت الهمزة مفتوحة : يجعلونها عيناً ويقولون اشهد عن رسول الله فاذا كسروها رجعوا الى لغة اهل الحجاز الى الهمزة .

المعنى :

وهذه الآية فيها توبيخ للمخاطبين من بني اسرائيل في نقض اوائلهم الميثاق والذي اخذه الله عليهم بالطاعة لانبيائه . فقال : واذكروا ايضاً من نكثهم ميثاقي اذ قال موسى لقومه : إن الله يأمركم ان تذبحو بقرة قالوا اتتخذنا هزواً .

والهزء والسخرية واللعب نظائر . قال الراجز :

قد هزئت مني ام طيلسة قالت اراه معدماً لا شيء له (٢)

اي سخرت ولعبت ولا يجوز أن يقع من انبياء الله عزوجل فيما يؤدونه هزواً

(١) لا يوجد في المتن الا مثلان .

(٢) قائله : صخير بن عمير التميمي . ومنهم من نسب القصيده كلها للأصمعي . امالي القالي ٢ : ٢٨٤ . ورواية : تهزأ مني أخت آل طيسلة .

ولا لعب . وظنوا في أمره اياهم عن الله : بذبح ـ البقرة ـ عند تدرائهم في القتيل ـ انه هازىء لاعب ولم يكن لهم ذلك .

وحذفت الفاء من قوله : أتتخذنا هزواً ـ وهو جواب ـ للاستغناء ما قبله من الكلام عنه وحسن السكوت على قوله إن الله يأمركم ان تذبحوا بقرة فجاز لذلك اسقاط الفاء من قوله . فقالوا كما حسن اسقاطها في قوله : « فما خطبكم ايها المرسلون قالوا انا ارسلنا »(١) ولم يقل فقالوا . ولو قيل بالفاء لكان حسناً . ولو كان ذلك على كلمة واحدة لم تسقط منه الفاء ألا ترى انك اذا قلت : قمت ففعلت ، لم يجز اسقاط الفاء لانها عطف لا استفهام يوقف عليه .

فقال موسى حينئذ : اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين . يعني السفهاء الذين يردون على الله الكذب والباطل . وكان السبب في امر موسى لقومه بذبح البقرة ما ذكره المفسرون أن رجلا من بني اسرائيل كان غنياً ولم يكن له ولد وكان له قريب يرثه قيل انه اخوه وقيل انه ابن اخيه وقيل ابن عمه واستبطأ موته فقتله سراً والقاه في موضع بعض الاسباط وادّعى قتله على احدهم فاحتكموا الى موسى فسأل من عنده من ذلك علم فقال انت نبي الله وانت اعلم منا فقال ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة فلما سمعوا ذلك منه وليس فى ظاهره جواب عما سألوا عنه قالوا اتتخذنا هزواً قال اعوذ بالله أن اكون من الجاهلين لان الخروج عن جواب السائل المسترشد الى الهزء جهل . وقال بعضهم وانما امروا بذبح البقرة دون غيرها لانها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عليهم ما كانوا يرونه من تعظيمهم وليعلم باجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته والبقرة اسم الانثى . والثور الذكر : مثل ناقة وجمل ، وامراة ورجل ، فيكون تأنيثه بغير لفظه .

والبقرة : مشتق من الشق : يقولون : بقر بطنه : إذا شقه ، لأنها تشق الارض في الحرث .

---

(١) سورة الذاريات آية ٣١ ، ٣٢ .

قوله تعالى :

«قَالُوا : ادْعُ لنا رَبَّكَ يُبين لنا مَا هيَ . قَالَ : إنَّه يَقول : إنها بَقرة لا فارضٌ ، ولا بكرٌ عوانٌ بَينَ ذَلكَ فافعلوا مَا تؤمَرون » (٦٨) ـ آية .

الفارض : الكبيرة المسنة . وبه قال الجمهور . يقال منه : فرضت البقرة تفرض فروضاً . وفرضت تفرض فراضة : إذا أسنت . قال الشاعر :

لعمري لقد اعطيت جارك فارضا تساق إليه ما تقوم على رجل(١)

وقيل : إن الفارض : التي قد ولدت بطونا كثيرة . فيتسع لذلك جوفها ، لأن معنى الفارض ، في اللغة الواسع . وهو قول بعض المتأخرين. واستشهد بقول الراجز :

يارُبَّ ذي ضِغْنٍ عليَّ فارض له قروءٌ كقروء الحائض (١)

ومنه قول الراجز :

هدلاء كالوطب نحاه الماخض له زجاج ولهاة فارض (٢)

ويقال لحية فارض : إذا كانت عظيمة . قال الشاعر :

شيب اصداغي فرأسي ابيض محامل فيها رجال فرّض (٣)

أي ذو أسنان : وقال الجباني : الفارض : التي لم تلد بطونا كثيرة ، فيتسع لذلك بطنها . قال الرماني وهذا غلط لا يعرف . والبكر : الصغيرة التي لم تحمل . والبكر من اناث البهائم وبني آدم : ما لم يفتحله الفحل . ـ مكسورة الباء ـ والبكر : ـ بفتح الباء ـ الفتي من الابل .

---

(١) قائله علقمة بن عوف . اللسان . (فرض) وروايته . (ضيفك) بدل (جارك) و (تجر) بدل (تساق) .

(٢) اللسان . « فرض» . وروايته . يارب مولى حاسد مباغض وبين البيتين اللذين اثبتهما الشيخ « ره» هذا البيت . علي ذي ضغن وضب فارض

(٣) الثاني في اللسان . « زجج » . والزجاج . وهو الحديدة التي تركب في اسفل الرمح . اللهاة : لحمة حمراء .

«٤» لرجل من فقيم . اللسان . «فرض» . واحدم فارض .

والعوان : النصف التي قد ولدت بطناً أو بطنين قال الفراء : يقال من العوان : عوّنت المرأة تعويناً ـ بالفتح والتشديد ـ وعونت : إذا بلغت ثلاثين سنة . وقال أبو عبيدة : إنما قال : « عوان بين ذلك » ولم يقل بينهما ، لأنه أخرجه على لفظة واحدة ، على معنى هذا الكلام الذي ذكرناه . قال رؤبة في صفة العير :

فيه خطوط من سواد وبلق كأنها في الجلد توليع البهق(١)

قال ابو عبيدة : إن أردت الخطوط ، فقل : كأنها ، وان اردت السواد والبلق ، فقل : كانها . فقال : كان ذلك وذاك . قال الفراء : إنما يصح ان يكنى عن الاثنين بقولهم ذاك في الفعلين خاصة . ولا يجوز في الاسمين . ألا ترى ، انهم يقولون : اقبالك وادبارك يشق علي ، لأنها مشتقان من فعل . ولم يقولوا : أخوك وابوك يزورني حتى تقول: يزوراني . وقال الزجاج تقول : ظننت زيداً قائماً فيقول القائل ظننت ذلك وذاك . قال الشاعر في صفة العوان :

خرجن عليه بين بكر عويرة وبين عوان بالعمامة ناصف (٢)

بين ذلك يعني بين الكبيرة والصغيرة . هو اقوى ما يكون من البقر واحسنه قال الاخطل :

وما بمكة من شمطٍ محفّلة وما بيثرب منعون وابكار(٣)

ويقال بقرة عوان ، وبقر عون . قال الاخفش : لا فارض ، ولا بكر . ارتفع ولم ينتصب كما ينتصب النفي لأن هذه صفة في معنى البقرة والنفي المنصوب ، لا يكون صفة من صفتها . انما هو اسم مبتدأ وخبره مضمر . وهذا مثل قولك : عبدالله لا قائم ولا قاعد . أدخلت لا للنفي وتركت الاعراب على حاله ، لو لم يكن فيه لا ، ثم قال : « عوان » فوقع على الابتداء . كأنه قال : هي عوان . ويقال ايضاً : عوانة . قال الاعشى :

بكميت عرفاء محمرة مخف عربها عوانة اوفاق

(١) اللسان : (بهق) وروايته « الجسم » بدل « الجلد » .

(٢) لم نجده في مراجعنا .

(٣) ديوانه ١٩ . وروايته وما بزمزم من شمط محلقة . . . يقد حالقين رؤوسهم وقد —

قوله تعالى :

« قَالُوا ادْعُ لنا رَبَّكَ يُبيِّنْ لنا ما لَوْنُها قالَ إنَّهُ يقولُ إنَّها بَقرةٌ صَفراءُ فاقعٌ لَوْنُها تَسرُّ النَّاظِرِينَ » (٦٩) آية بلا خلاف .

الاعراب :

لونها : رفع لأن ما ليست زائدة ، بل هي بمعنى أي : كأنهم قالوا : أي شيء لونها ؟ وقوله : « يبين » : جزم لأنه جواب الأمر بغير ياء .

ومعنى الآية : أن قوم موسى قالوا : ياموسى أدع لنا ربك يبين لنا ما لون البقرة التي امرنا بذبحها .

واما قوله : « صفراء » قال الحسن المراد به : سوداء شديدة السواد . تقول العرب: ناقة صفراء أي سوداء . قال الشاعر :

تلك خيلي منه وتلك ركابي هن صفر ألوانها كالزبيب (١)

يعني ركابي هن سود . غير أن هذا ـ وان وصفت به الابل ، فليس مما توصف به البقر . مع ان العرب لا تصف السواد بالفقوع . وانما تصفه بالشدة وبالحلوكة ونحوها . تقول : اسود حالك وحائك وحنكوك وغربيب ودجوجي ، ولا تقول : فاقع . وقال أكثر المفسرين : إنها صفراء اللون من الصفرة المعروفة وهذا الصحيح ، لأنه الظاهر ، ولأنه قال : « فاقع لونها » وهو الصافي ولا يوصف السواد بذلك ـ على ما بيناه ـ فاما ما ابيض فيؤكدونه بأنه ناصع ، واخضر ناضر واصفر فاقع . وقال سعيد بن جبير : المعنى في الآية : بقرة صفراء القرن والظلف . وقال مجاهد : صفراء اللون كله . وهو الظاهر لأنه قال : فاقع لونها . فوصف جميع اللون بذلك . وقال ابن عباس : أراد بذلك صفراء شديدة الصفرة . وقال غيره :

ـــ تحالوا من احرامهم : أي قضوا حجهم ، الشمط ج الشمط : وهو الذي خالط سواد شعره بياض الشيب « وشمط محفله » يقال منه : رجل ذو حفيل ، وذو حفلة : ذو جد واجتهاد . فعلى ما انتهجه الشيخ قدس سره ، المعنى : انهم جادون في العبادة . (١) للاعشى الكبير . اللسان : « صفر » وروايته « اولادها » بدل « الوانها » . الركاب : الابل التي يسار عليها . والزبيب من العنب معروف.

خالص وقال ابو العالية وقتادة : الصافي . وقوله : « تسر الناظرين » فالسرور : ما يسر به القلب. والفرح ما فرحت به العين وقيل معناه : تعجب الناظرين . ومن القراء من اختار الوقف على قوله : « صفراء » والصحيح ان الوقف انما يجوز عند تمام النعت كله وقال قوم : التمام عند قوله : « فاقع » ويقال فقع لونها يفقع ـ بالتشديد وضم الياء ـ ويفقع ـ بالتخفيف وفتح الياء ـ فقوعا اذا خلصت صفرته .

قوله تعالى :

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ اِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَاِنَّا إِن شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ » . (٧٠) آية واحدة .

القراءة :

القراء كلهم على تخفيف الشين مفتوحة الهاء . وقرأ الحسن : بتشديد الشين ، وضم الهاء . وقرأ الاعمش إن البقر متشابه . وكذا هو في مصحف ابن مسعود والمعمول على ما عليه القراء وما هو في المصحف المعروف . تقدير الكلام : قال قوم موسى لما امروا بذبح البقرة لموسى . وترك ذكر موسى ، لدلالة الكلام عليه .

اللغة :

واهل الحجاز يؤنثون البقر . فيقولون : هذه بقر وكذلك النخل . وكل جمع كان واحده بالهاء ، وجمعه بطرح الهاء ، فانهم يؤنثون ذلك وربما ذكروا ذلك قال الله تعالى « كأنهم اعجاز نخل خاوية » (١) ـ بالتأنيث ـ وفي موضع آخر : « كأنهم اعجاز نخل منقعر » (٢) والاغلب عليهم التأنيث . واهل نجد يذكرون وربما انثوا . والتذكير الغالب . فمن ذكر نصب الهاء من « تشابه » يعني التبس واشتبه . ومن انث رفع الهاء لأنه يريد يتشابه علينا .

والبقر ، والباقر ، والجامل ، والجمال بمعنى واحد . وقرأ بعضهم إن الباقر تشابه علينا . وهو شاذ . قال الشاعر :

(١) سورة الحاقة آية ٧ (٢) سورة القمر آية ٢٠ .

وما ذنبه ان عافت الماء باقر　　وما ان تعاف الماء الا لتضربا (١)

وقال آخر :

ما لي رأيتك بعد اهلك موحشا　　خلقا كحوض الباقر المتهدم

وقال آخر :

لهم جامل لا يهدأ الليل سامره (٢)

يريد الجمال . والذي ذهب اليه ابن جريج ، وقتادة ورووه عن ابن عباس عن النبي (ص) انهم امروا بادنى بقرة ، لكنهم لما شددوا على انفسهم ، شدد الله عليهم : وايم الله ، لو انهم لم يستثنوا ما تبينت لهم الى آخر الدهر يعني انهم لو لم يقولوا وانا ان شاء الله لمهتدون بتعريف الله ايانا ، وبما شاء له الله من اللطف والزيادة في البيان . وكل من اختار تاخير بيان المجمل عن حال الخطاب استدل بهذه الآية على جواز ذلك . وسنبين ذلك فيما بعد ان شاء الله .

قوله تعالى :

« قالَ إِنَّهُ يَقُولُ انها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تثيرُ الأَرضَ وَلا تَسقي الحَرثَ مُسَلَّمةٌ لا شِيَةَ فيها قالُوا الآنَ جِئتَ بالحَقّ فَذَبحوها وَما كادُوا يَفعلونَ » (٧١) آية بلا خلاف .

المعنى ان البقرة التي امرتكم بذبحها ، لا ذلول أي لم يذللها العمل باثارة الارض باظلافها . ولا تسقي الحرث . معناه : ولا يستقى عليها الماء ، فيسقى الزرع . كما يقال للدابة التي قد ذللها الركوب والعمل . تقول دابة ذلول بين الذل ــ بكسر الذال ــ وفي مثله من بني آدم رجل ذليل بين الذل والمذلة . قال الزجاج : يحتمل أن يكون اراد ليست بذلول وهي تثير الارض . ويحتمل : انها ليست ذلولة ، ولا مثيرة الارض قيل : إنها كانت وحشية في قول الحسن مسلمة . معناه : من السلامة . يقال منها سلمت تسلم ، فهي مسلمة من الشية .

(١) ميمون بن قيس ــ الاعشى الكبير ــ اللسان : « ثور » . (٢) اللسان : (جمل) قائله الحطيئة . وصدر البيت : فان تك ذا مال كثير فانهم .

لاشية فيها لا بياض فيها ، ولا سواد وقال قتادة مسلمة من العيوب . وبه قال الربيع . وقال ابن جريج : لا عوان فيها . قال المؤرخ : لا شية فيها : أي لا وضح فيها بلغة اردشنوه والذي قال اهل اللغة « لاشية فيها » : اي لا لون يخالف لون جلدها واصله : وشي الثوب واصله تحسين عيوب الشيء ، يكون فيه بضروب مختلفة من الوان سداه ، ولحمته يقال منه : وشيت الثوب : اشيه شية ووشيا . ومنه قيل للساعي بالرجل الى السلطان ، أو غيره واش لكذبه عليه عنده . وتحسينه كذبه عنده بالاباطيل يقال : وشيت به ، وشاية . قال كعب بن زهير :

يسعى الوشاة بجنبيها وقولهم   انك يابن ابي سلمى لمقتول(١)

يعني : انهم يتقولون الاباطيل ، ويخبرونه انه إن لحق بالنبي (ص) قتله وقال بعض اهل اللغة ان الوشي : العلامة واصله : شية من وشيت ، لكن لما اسقطت منها الواو وابدلت مكانها الهاء في اخرها : كما قالوا : وزنته زنة ووعدته عدة . وكذلك وشيته شية .

وقالوا : « الآن جئت بالحق » موصولة الهمزة واذا ابتدأت ، قطعت الالف الاولى ، لأن الف الوصل إذا ابتدىء بها قطعت . قال الفراء : والاصل الاوان . فحذفت الواو . والالف واللام دخلتا في آن لانها ينوبان عن الاشارة . المعنى انت الى هذا الوقت تفعل هذا . فلم تعرب الآن كما لم تعرب هذا . ومن العرب من يقول « قالوا الآن جئت بالحق » ويذهب الوصل ويفتح اللام ، ويحذف الهمزة التي بعد اللام . ويثبت الواو في(قالوا) ساكناً ، لأنه انما كان يذهبه لسكون اللام . واللام قد تحركت ، لأنه حوّل عليها حركة الهمزة قال الشاعر :

وقد كنت تخفي حب سمراء حقبة   فبح لان منها بالذي انت بائح

المعنى :

ومعنى قوله : « الآن جئت بالحق » يحتمل امرين :

احدها — الان بينت الحق . وهو قول قتادة . وهذا يدل على انه كان فيهم

(١) ديوانه . الجناب : الناحية . في المطبوعة « بحسنها » بدل « بجنبها » .

من يشك في ان موسى (ع) ما بيّن الحق . وقال عبـد الرحمان : يريد انه حين بينها لهم ، قالوا هذه بقرة فلان . الآن جئت بالحق وهو قول من جوزانه قبل ذلك لم يجيء بالحق على التفصيل ـ وإن أتى به على وجه الجملة ـ وقوله : (فذبحوها وما كادوا يفعلون) يحتمل امرين :

احدها ـ كادوا لا يفعلون اصلا ، لغـلاء ثمنها ، لأنه حكي عن ابن عباس ومحمد ابن كعب انهم اشتروها بملء جلدها ذهباً من مال المقتول . وقيـل بوزنها عشر مرات .

والثاني ـ ما قال عكرمـة ووهب كادوا ألا يفعلوا خوفاً من الفضيحـة على انفسهم في معرفة القاتل منهم ، قال عكرمة ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير .

اللغة :

ومعنى كاد : هم ولم يفعل . ولا يقال كاد أن يفعل . وانما يقـال كاد يفعل ، قال الله ما كادوا يفعلون قال الشاعر :

قد كاد من طول البلى ان يمصحا (١)

يقال مصح الشيء اذا فني وذهب . يمصح مصوحاً . وانشد الاصمعي :

كادت النفس ان تفيض عليه اذ ثوى حشو ريطة وبرود (٢)

ولا يجيء منه إلا فعل يفعل وتثنيتها . وقال بعضهم : قـد جاءت بمعنى إيقاع الفعل لا بمعنى الهم والقرب من ايقاعه ، وانشد قول الاعشى :

قد كاد يسمو الى الجرباء وارتفعا

الجرباء : السماء : أي سما وارتفع وقال ذو الرمة :

لو أن لقمان الحكيم تعرضت لعينيه ميّ سافراً كاد يبرق(٣)

أي لو تعرضت لعينيه أي دهش وتحير . وروي عن ابي عبـدالله السلمي انه قرأ لا ذلول بفتح اللام غير منون وذلك لا يجوز لأنه ليس المراد النفي وانما المراد

---

(١) اللسان : « مصح » . مصح الشيء مصوحاً : ذهب وانقطع .

(٢) اللسان : « نفس » . النفس : الروح . الريطة : الملاءة . برود جمع برد وهو الثوب المخطط

(٣) اللسان : « برق » برق يبرق بروقا : تحير .

بها بقرة غير ذلول . وعندنا انه يجوز في البقرة غير الذبح . فان نحر مختاراً لم يجز اكله وفيه خلاف ، ذكرناه في خلاف الفقهاء .

قد استدل اصحابنا بهذه الآيات على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب الى وقت الحاجة . فان قالوا ان الله امرهم بذبح بقرة هذة الصفات كلها لها ، ولم يبين ذلك في اول الخطاب حتى سألوا عنه وراجعوا فيه، فبين حينئذ المراد لهم شيئاً بعد شيء . وهذا يدل على جواز تأخير البيان . فان قيل ولم زعمتم ان الصفات المذكورة في البقرة الاولى التي امروا بذبحها، وما الذي تنكرون انهم امروا بذبح البقرة أي بقرة كانت فلما راجعوا تغيرت المصلحة فأمروا بذبح بقرة اخرى هي لا فارض ولا بكر فلما راجعوا تغيرت المصلحة ، فأمروا بذبح بقرة صفراء فاقع لونها فلما راجعوا تغيرت المصلحة فأمروا بذبح بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقي الحرث مسلمة لاشية فيها . وانما يصح لكم لو كانت الصفات المذكورة كلها مرادة في البقرة الاولى .

قلنا هذا باطل ، لأن الكناية في قوله : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي » لا يجوز ان تكون كناية إلا عن البقرة التي تقدم ذكرها وامروا بذبحها ، لأنه لم يجر في الكلام ما يجوز ان تكون هذه الكناية عنه إلا البقرة ، ويجري ذلك مجرى ان يقول واحد لغلامه: اعطني تفاحة فيقول الغلام ما هي؟ بينها فلا يصرف واحد من العقلاء هذه الكناية إلا الى التفاحة المأمور باعطائه اياها . ثم يقال بعد ذلك انها بقرة لا فارض ولا بكر وقد علمنا ان الهاء في قوله : انه يقول كناية عنه تعالى ، لانه لم يتقدم ما يجوزان يكون كناية عنه إلا اسمه تعالى . وكذا يجب ان يكون قوله انها كناية عن البقرة المتقدم ذكرها وإلا فما الفرق بين الامرين ؟ وكذلك الكلام في الكناية الثانية والثالثة سواء . ولا خلاف بين المفسرين ان الكناية في الآية من اولها الى آخرها : كناية عن البقرة المأمور بها في الأول .

وقالت المعتزلة : انها كناية عن البقرة التي تعلق التكليف المستقبل بها .

ولا خلاف بين المفسرين ان جميع الصفات المذكورات للبقرة اعوز اجتماعها القوم حتى توصلوا الى اجتماع بقرة لها هذه الصفات كلها بملء جلدها ذهباً . وروي اكثر

من ذلك . ولو كان الامر على ما قاله المخالف لوجب ان لا يعتبروا فيما يبتاعونه إلا الصفات الاخيرة دون ما تقدمها ، وتلغي الصفات المتقدمة اجماعهم على ان الصفات كلها معتبرة . دليل على ان الله تعالى أخر البيان . فان قيل لم عنفوا على تأخيرهم امتثال الامر الأول مع ان المراد بالامر الأول تأخر ؟ ولم قال فذبحوها وما كادوا يفعلون ؟ قلنا ما عنفوا بتأخير امتثال الأمر الأول : وليس في الظاهر ما يدل عليه بل كان البيان يأتي شيئاً بعد شيء كما طلبوه من غير تعنيف فلا قول يدل على انهم بذلك عصاة . فاما قوله : في اخر القصة : « فذبحوها وما كادوا يفعلون » .

فانما يدل على انهم كادوا يفرطون في اخر القصة ، وعند تكامل البيان . ولا يدل على انهم فرطوا في اول القصة .

ويقوي ذلك قوله تعالى بعد جمع الاوصاف : « الآن جئت بالحق » اي جئت به على جهة التفصيل . وان كان جاءهم بالحق مجملاً . وهذا واضح بحمدالله ، وقد استوفينا الكلام في هذه الآية وغيرها في العدة في اصول الفقه مالا مزيد عليه .

قوله تعالى :

« وإذ قَتلتم نفساً فادّارأتُم فيها وَاللهُ مُخرِجٌ مَا كُنتم تكتمونَ »

(٧٢) . آية

تقدير الآية: واذكروا إذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها . وهو عطف على قوله: « واذكروا نعمتي التي انعمت عليكم » . وهو متقدم على قوله : « واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة » لانهم انما امروا بذبح البقرة بعد تدارئهم في امر المقتول .

ومعنى ادا رأتم : اختلفتم واصله تدارأتم . فادغمت التاء في الدال بعد ان سكنت ، وجعلوا قبلها ألفا لتمكن النطق بها . قال ابوعبيدة : ادارأتم : بمعنى اختلفتم فيها . من التدارؤ ، ومن الدرء وقيل الدراء : العوج : اي اعوججتم عن الاستقامة ، ومنه قول الشاعر :

فتكب عنهم درء الاعادي　　وداووا بالجنون من الجنون

اي اعوجاج الاعادي . وقال قوم : الدرء المدافعة . ومعناه تدافعتم في القتل. ومنه قوله : « ويدرأ عنها العذاب » . وقال رؤبة ابن العجاج :

ادركتها قدام كل مدره　　بالدفع عني درء كل عنجه(١)

ويقال : فلان لايداري ولا يماري اي : لا يخالف . ومنه قوله : « والله مخرج ما كنتم تكتمون » اي : مظهر ما كنتم تسرون من القتل .

قوله تعالى :

« فَقُلنا اضربوهُ بِبعضها كذلكَ يُحيي اللهُ الموتى ويُريكم آياتِه لَعلَّكُمْ تَعقلون » . (٧٣) آية بلا خلاف.

روي ابن سيرين عن ابي عبيدة السلماني قال : كان رجل من بنى اسرائيل عقيما ، وله مال كثير . فقتله وارثه وجره ، فقدمه على باب اناس آخرين . ثم اصبح يدعيه عليهم حتى تسلح هؤلاء وهؤلاء ، وارادوا ان يقتتلوا (٢) فقال ذووا النهى: أتقتتلون (٣) وفيكم نبي الله ؟ فامسكوا حتى اتوه ، فامرهم أن يذبحوا بقرة ، فيضربوه ببعضها . فقالوا : اتتخذنا هزواً . قال : اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين . قال : فوجدوها عند رجل . فقال : لا ابيعها إلا بملء جلدها (٤) ذهبا . وكان بارا بابيه . فعوضه الله عن ذلك وجازاه عن بره بابيه ، اذ باع البقرة بملء جلدها ذهبا فضربوه ببعضها . فتكلم . فقال : قتلني فلان ، ثم عاد ميتاً فلم يورث قاتل بعده . واختلفوا [في البعض من البقرة المضروب به القتيل] (٥) . فقال الفراء : ضرب بذنبها . وقال البعض اقل من النصف . وقال ابن زيد : ضرب ببعض ارابها . وقال ابو العالية : ضرب بعظم من عظامها . وقال السدي : ضرب

---

(١) ديوانه . المدره : هو المدافع　　العنجه : ذو الكبر والعظم . ومنه العنجهية .

(٢و٣) في المطبوعة (تقتلون)　　(٤) في المطبوعة (الا بملء ذهبا) .

(٥) ما بين القوسين زدناه عن « مجمع البيان » ليتم المعنى . وهذه عبارة التبيان مخطوطته ومطبوعته « في أي موضع ضرب من القتيل . »

بالبضعة التي بين الكتفين . وقال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة : ضرب بفخذ البقرة . والهاء في قوله فاضربوه كناية عن القتيل والهاء في قوله : ببعضها كناية عن البقرة . وهذه الاقاويل كلها محتملة الظاهر . والمعلوم ان الله تعالى امر ان يضرب القتيل ببعض البقرة . ولا يضر الجهل بذلك البعض بعينه ، وانما امرهم بذلك لانهم اذا فعلوه احيي الميت . فيقول فلان قتلني : فيزول الخلف ، والتداري بين القوم . والقديم تعالى ، وان كان قادراً على الاخبار بذلك فان هذا اظهر . والاخبار به أعجب لانه معجز خارق للعادة .

والتقدير في الآية فقلنا اضربوه ببعضها فضربوه فحيي كما قال : « اضرب بعصاك الحجر فانفلق » تقديره فضرب ، فانفلق . وكذلك قوله : « يحيي الموتى » فيه اضمار كانه قال : فقلنا اضربوه ببعضها فحيي كذلك يحيي الله الموتى اي اعلموا ان ما عاينتموه ان الله قادر على ان يحيي الموتى للجزاء ، والحساب الذي اوعدكم به . ولما ضربوه ببعض البقرة ، احياه الله تعالى ، فقال : قتلني ابن اخي ثم قبض . وكان اسمه عاميل . فقال بنو اخيه والله ماقتلناه وكذبوا الحق بعد معاينته . وانما جعل سبب احيائه الضرب بموات لاحياة فيه ، لئلا يلتبس على ذي شبهة ان الحياة انتقلت اليه مما ضرب به لتزول الشبهة ، وتتأكد الحجة .

وقوله : « كذلك يحيي الله الموتى » يحتمل ان يكون حكاية عن قول موسى لقومه . ويحتمل ان يكون خطابا من الله تعالى لمشركي قريش .

وقوله : « لعلكم تعقلون » اي لتعقلوا . وقد كانوا عقالا قبل ذلك ، لأن من لا عقل له ، لا تلزمه الحجة ، لكنه اراد تنبيههم ، وان يقبلوا ما يدعون اليه ، ويطيعوه ويعرفوه حق معرفته .

قوله تعالى :

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِن بَعدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ اَو اَشَدُّ قَسوَةً وَاِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنهُ الاَنهارُ وَاِنَّ مِنها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخرُجُ مِنهُ المَاءُ وَاِنَّ مِنها

لما يَهبِطُ من خَشيةِ الله وَما الله بغافلٍ عَما تَعملون » (٧٤) . آيـة واحدة بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وحده ها هنا عما يعملون بالياء الباقون بالتاء .

الخطاب بقوله : « قلوبكم » قيل فيمن يتوجه اليه قولان :

احدها — انه اريد بنو اخي المقتول حين انكروا قتله بعد ان سمعوه منه عند احياء الله تعالى له ، انه قتله فلان . هذا قول ابن عباس .

والثاني — قول غيره : أنه متوجه الى بني اسرائيل كلهم . قال : وقوله : « من بعد ذلك » اي من بعد آيات الله كلها التي اظهرها على يد موسى . وعلى الوجه الاول يكون ذلك اشارة الى الاحياء .

ومعنى « قست قلوبكم » اي : غلظت ويبست وعتت .

اللغة :

القسوة : ذهاب اللين ، والرحمة والخشوع ، والخضوع . ومنه يقال : قسا قلبه يقسو قسوا وقسوة وقساوة . وقوله من بعد ذلك اي من بعد احياء الميت لكم ببعض من اعضاء البقرة بعد ان تدار أوا فيه واخبرهم بقاتله ، والسبب الذي من اجله قتله . وهذه آية عظيمة كان يجب على من شاهد هذا ان يخضع ويلين قلبه . ويحتمل ان يكون من بعد احياء الميت . والآيات الاخرى التي تقدمت كمسخ القردة والخنازير ورفع الجبل فوقهم وانبجاس الماء من الحجر وانفراق البحر وغير ذلك . وانما جاز ذلك وان كانوا جماعة . ولم يقل ذلكم ، لان الجماعة : في معنى الجمع والفريق . فالخطاب في لفظ الواحد ومعناه جماعة .

قوله : « فهي كالحجارة » يعني قلوبهم ، فشبهها بالحجارة في الصلابة واليبس والغلظ والشدة : اي اشد صلابة ، لامتناعهم بالاقرار اللازم من حقه الواجب من طاعته بعد مشاهدة الآيات . ومعنى « أو » في الآية : يحتمل امور :

احدها ذكره الزجاج : فقال : هي بمعنى التخيير كقولك جالس الحسن او ابن

سيرين ايها جالست جائز ، فكأنه قال : ان شبهت قلوبهم بالحجارة جاز ، وان شبهتها بما هو اصلب كان جائزاً .

والثاني ان تكون « او » بمعنى الواو . وتقديره : فهي كالحجارة واشد قسوة ، كما قال : « وارسلناه الى مأة الف او يزيدون » (١) ومثله قول جرير :

نال الخلافة او كانت له قدرا كما اتى ربه موسى على قدر (٢)

وقال توبة ابن الحمر :

وقد زعمت ليلى باني فاجر لنفسي تقاها او عليها فجورها

اي وعليها . ومثله قوله تعالى : « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن او آباء بعولتهن » ... الآية (٣) .

والثالث ان يكون المراد الابهام على المخاطبين كما قال ابو الاسود الدؤلي :

احب محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصيا

فان يك حبهم رشداً اصبه ولست بمخطىء إن كان غيا(٤)

وأبو الاسود لم يكن شاكا في حبهم ولكن ابهم على من خاطبه . وقيل لابي الاسود حين قال ذلك : شككت قال كلا ثم استشهد بقوله تعالى : « قل الله وإنا وايا كم لعلى هدى او في ظلال مبين » (٥) افتراه كان شاكا حين اخبر بذلك .

والرابع ـ ان يكون اراد بل اشد قسوة ، ومثله « وارسلناه الى مأة الف او يزيدون » اي بل يزيدون ، ولا تكون بل للاضراب عن الاول بل مجرد العطف .

والخامس ـ انها كالحجارة ، أو اشد قسوة عندكم .

والسادس : ان يكون اراد مثل قول القائل اطعمتك حلواً وحامضاً وقد

---

(١) سورة الصافات آية : ١٤٧ .

(٢) ديوانه : والممدوح هو عمر ابن عبد العزيز . وروايته (اذ كانت). وقد مر في ١ : ٩٢ . (٣) سورة النور آية : ٣١ .

(٤) ديوانه : والاغاني « ١١٣٠ ورواية الديوان « وفيهم اسوة ان كان غياً » .

(٥) سورة سبأ آية : ٢٥

اطعمه النوعين جميعاً . وهو انه لم يشك انه اطعمه الطعامين معاً فكأنه قـال : فهي كالحجارة او اشد قسوة . ومعناه ان قلوبهم لا تخرج من احد هذين المثلين . اما ان تـكون مثلا للحجارة القسوة · واما ان تـكون اشد منها · ويكون معناه على هذا بعضها كالحجارة قسوة وبعضها اشد قسوة من الحجارة . وكل هذه الاوجه محتملة واحسنها الابهام على المخاطبين· ولا يجوز ان يـكون المعنى الشك ، لان الله تعالى عالم لنفسه لا يخفى عليه خافية . وكذلك فى امثال ذلك نحو قوله : « فكان قاب قوسين او ادنى » وغير ذلك وانشدوا في معنى او يراد به بل قول الشاعر :

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى   فصورتهـا او انت في العين املح

الاعراب :

يريد بل انت . والرفع في قوله : « أو اشد قسوة » ، يحتمل امرين :

احدهما — ان يـكون عطفاً على معنى الـكاف التي في قوله : كالحجارة ، لان معناها ، فهي مثل الحجارة .

والآخر : ان يـكون عطفاً على تـكرير هي ، فيكون التقدير فهي كالحجارة او هي اشد قسوة من الحجارة .

وقرىء بنصب الدال شاذاً فيـكون نصبه على ان موضعه الجر بالـكاف. وانما نصب على انه على وزن افعل لا ينصرف .

وقوله : « وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار » .

المعنى :

معناه ان من الحجارة ما هو انفع من قلوبهم القاسية ، يتفجر منها انهار، وان منها لما يهبط من خشية الله ، والتقدير ان من الحجارة حجارة يتفجر منها انهار الماء فاستغنى بذكر الانهار عن ذكر الماء . وكرر قوله منه للفظ ما .

اللغة :

والتفجر : التفعل من فجر الماء : وذلك اذا نزل خارجاً من منبعه وكل سائل

شخص خارجاً من موضعه ومكانه فقد انفجر . ماء كان اودماء او حديد او غير ذلك.
قال عمر بن لجاء :

ولما أن قربت الى جوير　　ابى ذو بطنه إلا انفجار (١)

يعني خروجاً وسيلانا .

وقوله : « وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء » تشقق الحجارة انصداعها واصله يتشقق ، لكن التاء ادغمت في الشين فصارت شينا مشددة. وقوله : « فيخرج منه الماء » .

المعنى :

يعني فيخرج منه الماء فيكون عينا نابعة لا انها جارية حتى يكون مخالفا للاول . وقال الحسين بن علي المغربي : الحجارة الاولى حجارة الجبال تخرج منها الانهار . والثانية حجر موسى الذي ضربه فانفجر منه عيون ، فلا يكون تكراراً .
وقوله : « وان منها لما يهبط من خشية الله » . قال ابو علي والمغربي : معناه بخشية الله ، كما قال : يحفظونه من امر الله اي بامر الله . قال وهي حجارة الصواعق والبرد . والكناية في قوله منها قيل فيها قولان :

احدها : انها ترجع الى الحجارة ، لانها اقرب مذكور . وقال قوم : انها ترجع الى القلوب لا الى الحجارة . فيكون معنى الكلام . وان من القلوب لما يخضع من خشية الله ، ذكره ابن بحر وهو احسن من الاول . ومن قال بالاول اختلفوا فيه . فمنهم من قال : إن المراد بالحجارة الهابطة البرد النازل من السحاب . وهذا شاذ، لم يذكره غير ابي علي الجبائي . وقال الاكثر إن المراد بذلك الحجارة الصلبة ، لانها اشد صلابة . وقالوا في هبوطها وجوهاً :

احدها — ان هبوط مايهبط من خشية الله تفيء ظلاله .

وثانيها — انه الجبل الذي صار دكا لما تجلى له ربه .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٣٠٩ . والاغاني ٨ : ٧٢ . وروايته الا « انحداراً » « وذو بطنه » كناية عما يشمأز من ذكره .

وثالثها — قاله مجاهد : إن كل حجر تردى من رأس جبل فهو من خشية الله

ورابعها — ان الله تعالى اعطى بعض الجبال المعرفة ، فعقل طاعة الله تعالى ، فاطاعه كالذي روي في حنين الجذع . وما روي عن النبي «ص» انه قال : إن حجراً كان يسلم عليّ في الجاهلية إني لا اعرفه الآن .

وهذا الوجه فيه ضعف ، لأن الجبل ان كان جاداً ، فمحال ان يكون فيه معرفة الله . وان كان عارفا بالله وبنيته بنية الحي فانه لا يكون جبلا . وأما الخبر عن النبي (ع) فهو خبر واحد . ولو صح ، لكان معناه ان الله تعالى احيا الحجر فسلم على النبي « ص » ويكون ذلك معجزاً له « ع » . واما حنين الجذع فان الله تعالى خلق فيه الحنين ، فكان بذلك خارقا للعادة ، لأنه اذا استند اليه النبي « ص » سكن واذا تنحى عنه ، حنّ وقال قوم : يجوز ان يكون الله تعالى بنى داخله بنية حي ، فصح منه الحنين . وقال قوم : معنى « يهبط من خشية الله » إنه يوجب الخشية لغيره بدلالته على صانعه . كما قيل ناقة تاجرة . اذا كانت من نجابتها وفراهتها ، تدعو الناس الى الرغبة فيها : كما قال جرير بن عطية :

واعور من نبهان اما نهاره   فاعمى ، واما ليله فبصير (١)

فجعل الصفة لليل والنهار . وهو يريد صاحبه النبهاني الذي يهجوه بذلك من اجل انه كان فيها على ما وصفه به . والذي يقوى في نفسي ان معنى الآية الابانة عن قساوة قلوب الكفار ، وان الحجارة ألين منها ، لو كانت تلين لشيء ، للانت وتفجرت منها الانهار ، وتشققت منها المياه ، وهبطت من خشية الله . وهذه القلوب لا تلين مع مشاهدتها الآيات التي شاهدتها بنو اسرائيل : وجرى ذلك مجرى ما يقوله تعالى : « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » (٢) ومعناه لو انزلنا هذا القرآن على جبل ، وكانت الجبال مما تخشع لشيء ما ، لرأيته خاشعاً متصدعاً وكقوله تعالى : « ولو ان قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الارض» (٣) الى آخرها سواء . وادخلت هذه اللامات فيها تأكيداً للخبر .

---

(١) ديوانه : ٢٠٦ (٢) سورة الحشر آية : ٢١ . (٣) سورة الرعد آية : ٣٣ .

ويجوز في قوله « فهي كالحجارة » اسكان الهاء وقد قرىء به ، لأن الفاء مع الهاء قد جعلت الكلمة بمنزلة تخذ فتحذف الكسرة استثقالا.

المعنى :

والمعنى في الآية : انه تعالى لما اخبر عن بني اسرائيل وما انعم عليهم به ، واراهم من الآيات ، وغير ذلك ، فقال مخبراً عن عصيانهم ، وطغيانهم « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة ، أو اشد قسوة » ثم اخبر تعالى انه لا امتناع عند الحجارة مما يحدث فيها من امره ، وان كانت قاسية ، بل هي متصرفة على مراده لا يعدم شيء مما قدر فيها . وبنو اسرائيل مع كثرة نعمه عليهم وكثرة ما أراهم من الآيات ، يمتنعون من طاعته ، ولا تلين قلوبهم لمعرفة حقه ، بل تقسو وتمتنع من ذلك . وقوله : « وإن منها لما يهبط من خشية الله » أي عند ما يحدث فيها من الآية الهائلة : كالزلازل وغيرها ، واضاف الخشية الى الحجارة . وان كانت جماداً على مجاز اللغة والتشبيه . والمعنى في خشوع الحجارة انه يظهر فيها ما لو ظهر في حي مختار قادر ، لكان بذلك خاشعاً . وهو ما يرى من حالها . وانها منصرفة لامتناع عندها مما يراد بها . وهو كقوله : « جداراً يريد ان ينقض » (١) لأن ما ظهر فيه من الميلان ، لو ظهر من حي لدل على انه يريد أن ينقض ، ليس ان الجدار يريد شيئاً في الحقيقة ، ومثله « وإن من شيء الا يسبح بحمده » (٢) وقوله : « ولله يسجد من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس » (٣) وقوله : « والنجم والشجر يسجدان » (٤) وقال زيد الخيل :

بجمع تظل البلق في حجراته ترى الاكم فيه سجداً للحوافر (٥)

فجعل ما ظهر في الاكم من آثار الحوافر ، وقلة امتناعها عليها ، ومدافعتها لها كما يدافع الحجر الصلب الحديد الصلب سجوداً لها ، ولو أن الاكم كانت في صلابة

---

(١) سورة الكهف آية ٧٨ (٢) سورة الاسرى آية ٤٤ (٣) سورة الحج آية ١٨
(٤) سورة الرحمان آية ٦ (٥) زيد الخيل بن مهلهل الطائي الفارس المشهور .

الحديد حتى يمتنع من الحوافر ، ولا تؤثر فيها ، ولا تذهب يميناً ولا شمالا ، ولا تظاهر بكثرة تزداد الحوافر عليها ، ما جاز ان يقال : انها تسجد للحوافر . وقال ابن حمزة :

وعرفت من شرفات مسجدها　　حجرين طال عليها القصر
ركب الخلاء فقلت اذ بكيا　　ما بعد مثل بكاءما صبر

وقال جرير :

لما اتى خبر الزبير تواضعت　　سور المدينة والجبال الخشع

فصيرها متواضعة . والعرب يفهم بعضها مراد بعض بهذه الاشياء . فمن تعلق بشيء من هذا ليطعن به ، فانما يطعن على لغة العرب بل على لغة نفسه من اهل أي لغة كان . فان هـذا موجود متعارف في كل لغة ، وعند كل جيل .

وقوله : « وما الله بغافل عما تعملون » من قرأ بالتاء ، قال : الخطاب متوجه الى بني اسرائيل فكأنه قال : وما الله بغافل يامعشر المكذبين بآياته والجاحدين بنبوة محمد « ص » عما تعملون . ومن قرأ بالتاء فكان الخطاب لغيرهم والكناية عنهم . والغفلة عن الشيء تركه على وجه السهو والنسيان فأخبرهم الله تعالى انه غير غافل عن اعمالهم السيئة ولا ساه عنها .

قوله تعالى :

« أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثم يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عقلوه وهم يَعْلَمُونَ » (٧٥) آية بلا خلاف .

المعنى :

الألف في قوله أفتطمعون ألف استفهام والمراد به الانكار ، كقوله :

— والباق جمع ابلق وبلقاء : الفرس المحجلة . والحجرات جمع حجرة : الناحية والباء « بجمع » متعلقة ببيت سابق ، هو :

بني عامر هل تعرفون اذا غدا　　ابو مكنف قد شد عقد الدوابر

« ألم يأتكم نذير قالوا بلى . » (١) فاذا كان في الاول نفياً ، كان الجواب بلى واذا لم يكن نفياً كان الجواب لا . وهذا خطاب لامة النبي «ص » فكأنه قال: أفتطمعون أيها المؤمنون أن يؤمنوا لكم من طريق النظر والاعتبار، ونفي التشبيه، والانقياد للحق وقد كان فريق منهم : أي ممن هو في مثل حالهم من اسلافهم يسمعون كلام الله ثم يعلمون انه الحق ، ويعاندون فيحرّفونه ويتأولونه ، على غير تأويله .

وقوله : « وقد كان فريق منهم » والفريق جمع كالطائفة لا واحد له من لفظه وهو فعيل من الفرق سمي به الجمع كما سميت الجماعة بالحزب من التحزب قال اعشى بن تغلبة:

اخذوا فلما خفت ان يتفرقوا فريقين منهم مصعد ومصوب (٢)

وقوله: «منهم» يعني من بني اسرائيل، وانما جعل الله الذين كانوا على عهد موسى ومن بعد: من بني اسرائيل من اليهود الذين قال الله تعالى لأصحاب محمد « ص » افتطمعون أن يؤمنوا لكم ، لأنهم كانوا آباؤهم واسلافهم ، فجعلهم منهم اذ كانوا عشائرهم وفرقهم واسلافهم .

وقوله : « يسمعون كلام الله » قال قوم منهم مجاهد والسدي : إنهم علماء اليهود يحرفون التوراة ، فيجعلون الحلال حراماً والحرام حلالا ابتغاء لأهوائهم واعانة لمن يرشوهم . وقال ابن عباس والربيع وابن اسحاق والبلخي : انهم الذين اختارهم موسى من قومه، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا امره، وحرفوا القول في اخبارهم لقومهم حتى رجعوا اليهم وهم يعلمون انهم قد حرفوا . وهذا اقوى التأويلين ،لأنه تعالى اخبر عنهم بانهم يسمعون كلام الله والذين سمعوا كلام الله . بلا واسطة هم الذين كانوا مع موسى . فاما هؤلاء فانما سمعوا ما يضاف الى كلامه بضرب من العرف دون حقيقة الوضع . ومن قال بهذا . قال : هم الذين سمعوا كلام الله الذي اوحى الله الى موسى . وقال قوم هو التوراة التي علمها علماء اليهود .

وقوله : « من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » . قيل فيه وجهان :

احدها — وهم يعلمون انهم يحرفونه .

---

(١) سورة الملك : آية ٨ و٩ (٢) ديوانه . اجدالسير : انكمش فيه واسرع . مصعد : مبتدىء في الصعود الى نجد والحجاز . ومصوب : منحدر في رجوعه الى العراق .

والثاني — من بعد ما تحققوه وهم يعلمون ما في تحريفه من العقاب . والذي يليق بمذهبنا في الموافاة أن نقول : ان معناه وهم يعلمون انهم يحرّفونه . فان قيل فلماذا اخبر الله عن قوم بانهم حرفوا وفعلوا ما فعلوا من المعاندة ما يجب أن يؤيس من ايمان من هو في هذا الوقت ، وأي علقة بين الموضوعين والحالين ؟ قيل : ليس كلما يطمع فيه يؤيس منه على وجه الاستيقان بانه لا يكون ، لأن الواحد من افناء العامة(١) لا يطمع ان يصير ملكا . ومع ذلك لا يمكن القطع على كل حال ان ذلك لا يكون ابداً . ولكن لا يطمع فيه لبعده ، والله تعالى نفى عنهم الطمع ولم يؤيسهم على القطع والثبات وانما لم يطمع فيهم لبعد ذلك من الوهم منهم مع احوالهم التي كانوا عليها. وشبههم باسلافهم المعاندين ، وقد كانوا قادرين على ان يؤمنوا وكان ذلك منه جائزاً . وهؤلاء الذين عاندوا ـ وهم يعلمون ـ كان قليلا عددهم ، يجوز على مثلهم التواطؤ والاتفاق وكتمان الحق ، وانما يمتنع ذلك في الجمع العظيم والخلق الكثير ، لأمر يرجع الى اختلاف الدواعي . فأما على وجه التواطؤ والعمد فلا يمتنع فيهم ايضاً ، فيبطل بذلك قول من نسب فريقاً الى المعاندة دون جميعهم وان كانوا باجمعهم كفاراً .

قوله تعالى :

« وإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » . (٧٦) آية .

هذه الآية فيها اخبار عمن رفع الله الطمع في ايمانهم من يهود بني اسرائيل الذين كانوا بين اظهرهم فقال : افتطمعون ايها المؤمنون ان يؤمنوا لكم ، وهم القوم الذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، وهم الذين اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا : أي صدقنا بمحمد (ص) وبما صدقتم به واقررنا بذلك . فأخبر الله بانهم تخلقوا باخلاق المنافقين وسلكوا منهاجهم . « واذا

(١) اي لا يعلم ممن هو

خلا بعضهم الى بعض » : أي اذا خلا بعض هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم ، الى بعض منهم فصاروا في خلاء الناس، وذلك هو الموضع الذي ليس فيه غيرهم، قالوا ـ يعني بعضهم لبعض ـ: اتحدثونهم بما فتح الله عليكم . وقال ابن عباس بما فتح الله عليكم أي بما ألزمكم الله به . فيقول له آخرون انما نستهزىء بهم ونضحك . وروى سعيد ابن جبير عن ابن عباس ان معناه قالوا لا تحدثوا العرب بهذا . فانكم قد كنتم تستفتحون به عليهم . فانزل الله هذه الآية : أي تقرون بانه نبي وقد علمتم انه قد اخذ له الميثاق عليكم باتباعه وهو يخبركم بانه النبي الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا . اجحدوه ولا تقروا به لهم . فقال الله تعالى : « اولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون » (١)

وقال ابو العالية : اتحدثونهم بما فتح الله عليكم : اي بما انزله في كتابكم من بعث محمد (ص) وبه قال قتادة وقال مجاهد : ذلك قول يهود بني قريظة حين سبهم النبي (ص) بانهم اخوة القردة والخنازير . قالوا من حدثك بهذا ـ حين ارسل اليهم علياً (ع) فاذوا محمداً (ص) ـ فقال : يااخوة القردة والخنازير قال بعضهم لبعض : ما اخبره بهذا إلا منكم اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ، ليكون لهم حجة عليكم ؟ وقال السدي : هؤلاء ناس آمنوا من اليهود ثم نافقوا وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به فقال بعضهم لبعض : اتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ليحاجوكم به ، ليقولوا نحن احب الى الله منكم واكرم عليه منكم ؟ ومثله روي عن ابي جعفر «ع» واصل الباب الفتح في لغة العرب : القضاء والنصرة والحكم . يقال اللهم افتح بيني وبين فلان : أي احكم بيني وبينه ، ومنه قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الفتح » (٢) يعني هذا القضاء فقال تعالى : « قل يوم الفتح (٣) يعني يوم القضاء . وقال الشاعر :

ألا ابلغ بني عصم رسولا فاني عن فُتاحتكم غنيّ (٤)

---

(١) سورة البقرة آية ٧٧ (٢) سورة آلم السجدة آية ٢٨ . (٣) سورة آلم السجدة آية ٢٩

(٤) نسب للاشعري الجعفي ولمحمد بن حمران بن ابي حمران . أمالي القالي : ٢٨١ . اللسان : « فتح » وبنو عصم م رهط عمرو بن معد يكرب الزبيدي .

ويقال للقاضي الفتاح قال الله تعالى : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين » (١) يعني احكم به . ويقال فتح بمعنى علم ، فقال افتح على هذا أي اعلمني بما عندك فيه . واذا كان معنى الفتح ما وصف فقد بان ان معنى الآية . اتحدثونهم بما حكم الله عليكم وقضاه فيكم ، ومن حكمه ما أخذ به ميثاقهم من الايمان بمحمد « ص » بما بينه في التوراة ومن قضائه انه جعل منهم القردة والخنازير . فاذا ثبت ذلك ،فان اقوى التأويلات : قول من قال : اتحدثونهم بما فتح الله عليكم من بعث محمد « ص » وصفته في التوراة ، وانه رسول الله « ص » الى خلقه .

وروي عن ابي جعفر « ع » انه قال : كان قوم من اليهود ليسوا بالمعاندين المتواطئين ، اذا لقوا المسلمين ،حدثوهم بما في التوراة من صفة محمد « ص » فنهاهم كبراؤهم عن ذلك، وقالوا : لا تخبروهم بما في التوراة من صفة محمد «ص» فيحاجوكم به عند ربكم ، فنزلت الآية .

ومعنى قوله : « افلا تعقلون » أفلا تفهمون ايها القوم أن اخباركم محمد«ص» واصحابه ، بما تحدثونهم به واقراركم لهم بما تقرون لهم من وجودكم بعث محمد في كتبكم وانه نبي مبعوث حجة عليكم عند ربكم يحتجون بها عليكم . وقال ابو عبيدة « بما فتح الله عليكم » أي بما منّ عليكم واعطاكم ليحاجوكم به . وقال الحسن : في قوله « ليحاجوكم به عند ربكم » أي في ربكم فيكونوا اولى منكم اذا كانت حجتهم عليكم .قال الحسن: ثم رجع الى المؤمنين فقال : « افلا تعقلون » ايها المؤمنون فلا تطمعوا في ذلك . قوله تعالى :

« أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ »

(٧٧) آية بلا خلاف .

المعنى :

معناه : اولا يعلمون ان الله يعلم سرهم وعلانيتهم ، فكيف يستخيرون أن

(١) سورة الاعراف آية : ٨٩ .

يسروا الى اخوانهم النهي عن التحدث بما هو الحق وليسوا كسائر المنافقين ، وان كانوا يسرون الكفر فانهم غير عالمين بان الله يعلم سرهم وجهرهم ، لأنهم جاحدون له. وهؤلاء مقرون . فهم من هذه الجهة ألوم واعجب شأناً واشد جزاءً . وقال قتادة في « اولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون » من كفرهم وتكذيبهم محمداً (ص) اذا خلا بعضهم الى بعض . « وما يعلنون » اذا لقوا اصحاب محمد « ص » قالوا آمنا يغرونهم بذلك . ومثله روي عن ابي العالية .

قوله تعالى :

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وإِنْ هُم إِلاَّ يَظُنُّونَ » (٧٨) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابو جعفر المدني : اماني مخففاً والباقون بالتشديد .

المعنى :

قوله : « ومنهم » يعني هؤلاء اليهود الذين قص الله قصتهم في هذه الآيات وقطع الطمع في ايمانهم . وقال اكثر المفسرين : سموا اميين ، لأنهم لا يحسنون الكتابة ، ولا القراءة . يقال منه : رجل امي بين الامية . ومنه قوله « ع » أما امة اميون لا يكتب ولا يحسب وانما سمي من لا يحسن الكتابة امياً لأحد امور . قال قوم : هو مأخوذ من الامة أي هو على اصل ما عليه الامة من انه لا يكتب . لا يستفيد الكتابة بعد اذ لم يكن يكتب

الثاني ـ ان الامة : الخلقة . فسمي امياً لأنه باق على خلقته . ومنه قول الاعشى :

وان معاوية الا كرميـ　　ـن حسان الوجوه طوال الامم(١)

والثالث ـ انه مأخوذ من الام . وانما اخذ منه ، لاحد امرين :

احدها ـ لانه على ما ولدته امه من انه لا يكتب .

---

(١) اللسان « امم » الامم جمع امة يريد طوال القامات . في المخطوطة والمطبوعة « معونة » بدل « معاوية » .

والثاني ـ نسب الى امه ، لأن الكتابة كانت في الرجال دون النساء فنسب من لا يكتب من الرجال الى امه ، لجهلها دون ابيه . وقال ابو عبيدة الاميون هم الامم الذين لم ينزل عليهم كتاب . والنبي الامي : الذي لا يكتب ، وانشد لتبع :

له امة سميت بالزبو ر امية هي خير الامم

وروي عن ابن عباس : ان الاميين قوم لم يصدقوا رسولا ارسله الله عزوجل ولا كتابا انزله ، وكتبوا كتابا بايديهم ، وقالوا : لقوم جهال هذا من عند الله . وقال : قد اخبر انهم يكتبون بايديهم ، ثم سماهم اميون لجحودهم كتاب الله عزوجل ورسله . والوجه الاول اوضح في اللغة . وهذا الوجه مليح لقوله في الآية الثانية « فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم » فأثبت انهم يكتبون ومن قال بالاول يحتاج ، ان يجعل هذا مستأنفاً لغير من تقدم ذكره ، أو لبعضهم .

وقوله : « لا يعلمون الكتاب » أي لا يعلمون ما في الكتاب الذي انزله الله عز وجل ، ولا يدرون ما أودعه من حدوده وأحكامه وفرائضه كهيئة البهائم . وانما هم مقلدة لا يعرفون ما يقولون . والكتاب المعني به التوراة . وانما ادخل عليه لام التعريف ، لأنه قصد به قصد كتاب معروف بعينه . ومعنى الآية فريق لا يكتبون ولا يدرون ما في الكتاب الذي عرفتموه ، والذي هو عندكم ، وهم ينتحلونه ، ويدعون الاقرار به من احكام الله عز وجل وفرائضه وما فيه من حدوده التي بينها فيه إلا اماني .

قال ابن عباس ومجاهد إلا قولا يقولون بافواههم كذبا . وقال قتادة الاماني انهم يتمنون على الله ما ليس لهم . وقال آخرون : الاماني احاديث . وقال الكسائي والفراء وغيرهما : معناه إلا تلاوة ، وهو المحكي عن ابي عبيدة على ما رواه عنه عبد الملك بن هشام ، وكان ثقة . وضعف هذا الوجه الحسين بن علي المغربي ، وقال هذا لا يعرف في اللغة . ومن صححه استدل بقوله تعالى : « اذا القى الشيطان في امنيته » (١) . قال كعب بن مالك :

---

(١) سورة الحج آية ٥٢

تمنى كتاب الله اول ليلة　　واخره لا في حمام المقادر

وقال آخر :

تمنى كتاب الله بالليل خالياً　　تمني داود الزبور على رسل

وقال ابو مسلم محمد بن بحر الاصفهاني : الاماني التقدير . قال الشاعر :

ولا تقولن لشيء سوف افعله　　حتى يبين ما يمني لك الماني

أي ما يقدر لك المقدر « وإلا » هاهنا استثناء منقطع . ومعناه لكن اماني وكل موضوع يعلم ان ما بعد إلا خارج عن الاول فهو بمعنى لكن ، كقوله « ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » وكقولهم ما في الدار واحد إلا حماراً ، والا وتداً قال الشاعر :

ليس بيني و بين قيس عتاب　　غيرطعن الكلى وضرب الرقاب (١)

وقال آخر :

حلفت يميناً غير ذي مثنوية　　ولا علم إلا حسن ظن بصاحب(٢)

معناه لكن حسن ظني بصاحبي . ومثله (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) (٣) . ومثله (لا عاصم اليوم من امر الله إلا من رحم) (٤) . ولولا ولوما وهلا وإلا الثقيلة بمعنى واحد قال الشاعر :

تعدون عقر النيب افضل مجدكم　　بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا(٥)

يعني هلا . وقال آخر :

اتيت بعبد الله في القيد موثقاً　　فهلا سعيداً ذا الجناية والغدر

---

(١) قائله : عمرو بن الأيهم التغلبي ، وقيل اسمه : عمر ، وقيل هو اعشى تغلب .

(٢) قائله : نابغة بني ذبيان . ديوانه . مثنوية : استثناء

(٣) سورة النساء آية ٩١ .

(٤) سوره هود آية ٤٣ .

(٥) قائله : جرير ، من قصيدة يهجو بها الفرزدق . عقر الناقة : ضرب قوائمها . النيب ج ناب : الناقة المسنة . ضوطرى : الرجل الضخم اللئيم . والضوطري : الامرأة الحمقاء . الكمي : الشجاع

ثم قال آخر :

وما شيخوني غير اني ابن غالب   واني من الاثرين عند الزغايف

واحدهم زغيف : وهو التابع . وكل موضوع حسن ان يوضع فيه مكان إلا (لكن) فاعلم انه مكان استثناء منقطع . ولو قيل هاهنا ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون لكان صحيحاً .

والاماني واحدها امنية مثقل ومن خفف الياء قال ، لأن الجمع يكون على غير واحده بنقصان أو زيادة . والاماني كلهم يخففونها لكثرة الاستعمال ، وكذلك الاضاحي . واولى التأويلات قول ابن عباس ومجاهد : من ان الاميين الذين وصفهم الله بما وصفهم به في هذه الآية ، وانهم لا يفقهون من الكتاب الذي انزل اليه على موسى شيئاً لكنهم متخرصون الكذب . ويقولون : الباطل . والتمني في الموضوع تخلق الكذب وتخرصه . يقال منه تمنيت اذا افتعلته وتخلقته . ومنه ما روي عن بعض الصحابة انه قال : ما تعنيت ولا تمنيت أي ما تخرصت الباطل ، ولا تخلقت الكذب والافك ، ويقوي ذلك قوله في آخر الآية : (وان هم إلا يظنون) فبين أنهم يتمنون ما يتمنون من الكذب ظناً لا يقيناً ، ولو كان المعنى انهم يتلونه لما كانوا ظانين وكذلك لو كانوا يتمنونه ، لأن الذي يتلوه اذا تدبر علمه ، ولا يقال فيمن يقرأ كتاباً لم يتدبره ، وتركه انه ظان لما يتلوه إلا ان يكون شاكا فيما يتلوه ولا يدري أحق هو ام باطل ، ولم يكن القوم الذين عاصروا النبي (ص) من اليهود شاكين في التوراة انها من عند الله ، وكذلك التمني . لا يجوز ان يقال : هو ظان بتمنيه ، لأن التمني من المتمني اذا وجد لا يقال فيه شاك فيما هو عالم به ، لأنه ينافي العلم . والمتمني في حال وجود تمنيه لا يجوز ان يقال هو يظن تمنيه . وقوله : (وان هم إلا يظنون) قال جميع المفسرين معناه يشكون . والذي اقوله ان المراد بذلك نفي العلم عنهم ، وقد ينتفي العلم تارة بالشك وتارة بالظن . واما في الحقيقة فالظن غير الشك ، غير ان المعنى متفق عليه هاهنا .

قوله تعالى :

« فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » (٧٩) آية بلا خلاف .

اللغة والاعراب :

قال الزجاج :الويل كلمة يستعملها كل واقع في هلكة . واصله في اللغةالعذاب والهلاك وارتفع بالابتداء ، وخبره الذين · ولو كان في غير القرآن ، لجاز بالنصب على معنى جعل الله ويلا للذين والرفع على معنى ثبوت الويل للذين ، ومثله الويح والويس اذا كان بعدهن لام رفعتهن · واما التعس والبعد وما اشبهها فهو نصب ابداً . فان اضفت ويل وويح وويس نصب من غيرتنوين . تقول ويلَ زيدٍ وويسَ زيد · ولا يحسن في التعس والبعد الاضافة بغير لام فلذلك لم ترفع · وقد نصب قوم مع اللام فيقولون ويلاً لزيد ، ويحاً لخالد · قال الشاعر :

كسا اللؤم تيماً خضرة في جلودها فويلاً لتيم من سرابيلها الخضر(١)

المعنى :

قال ابن عباس : « الويل » في الآية العذاب . وقال الاصمعي هو التقبيح . ومنه قوله : « ولكم الويل مما تصفون » · وقال المفضل : معناه الحزن . وقال قوم : هو الهوان والخزي ، ومنه قول الشاعر :

يازبرقان اخا بني خلف ما انت ويل ابيك والفخر(٢)

وقال ابو سعيد الخدري : الويل واد في جهنم · وقال عثمان بن عفان : هو جبل في النار .

---

(١) قائله جرير . اللسان : (ويل) (٢) البيت للمخبل اللسان : (ويل) وروايته (ويب) بدل (ويل) . ومعنى ويب : التصغير والتحقير .

وقوله : « يكتبون الكتاب بايديهم » معناه انهم يقولون كتبته، ثم يضيفونه الى الله ، كقوله « خلقت بيدي » (١) « وعملت ايدينا » (٢) أي نحن تولينا ذلك ولم نكله الى احد من عبادنا . ومثله رأيته بعيني وسمعته باذني ولقيته بنفسي . والمعنى في جميع ذلك التأكيد ، ولأنه قد يأمر غيره بالكتابة ، فتضاف اليه مجازاً . فلذلك يقول الامي كتبت الى آل فلان بكذا ، وهذا كتابي اليك ، وكما تقول : حملت الى بلد كذا . وانما امرت بحمله . فاعلمنا الله تعالى انهم يكتبونه بايديهم ، ويقولون هو من عند الله ، وقد علموا يقيناً اذا كتبوه بايديهم انه ليس من عند الله . وفي الآية دلالة على ابطال قول المجبرة ، لأنه تعالى عابهم بهذا القول ، اذ نسبوا ما كتبوه من التحريف الى انه من عند الله ، وجعل عليهم الويل . واذا كان تحريفه من الكتاب — ليس من عند الله ، من جهة القول والحكم — فليس ذلك منه من جهة القضاء والحكم ولا التقدير والمشيئة .

وقال ابن السراج : معنى « بايديهم » أي من تلقاء انفسهم .

وقوله « ليشتروا به ثمناً قليلاً » . قال قوم : أي انه عرض الدنيا لأنه قليل المدة ، كما قال تعالى : « قل متاع الدنيا قليل » (٣) ذهب اليه ابو العالية . وقال آخرون : إنه قليل لأنه حرام .

وروي عن ابي جعفر (ع) ، وذكره ايضاً جماعة من اهل التأويل أن أحبار اليهود كانت غيرت صفة النبي (ص) ليوقعوا الشك للمستضعفين من اليهود .

وقوله : « ويل لهم مما كانوا يكسبون » يقولون مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم . واصل الكسب العمل الذي يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر ، وكل عامل عملا بمباشرة منه لما عمل . ومعناه هاهنا الاحتراف فهو كاسب لما عمل . قال لبيد ابن ربيعة :

لمعفر قهد تنازع شلوه　غبس كواسب لا يمن طعامها (٤)

---

(١) سورة ص : آية ٧٥ . (٢) سورة يس : آية ٧١ . (٣) سورة النساء : آية ٧٦ .

(٤) معلقته . اللسان : (عفر) في المخطوطة والمطبوعة (بمعفر فهد) بدل (لمعفر قهد) —

وقيل الكسب عبارة عن كل عمل بجارحة يجتلب به نفع ، أو يدفع به مضرة ومنه قيل للجوارح من الطير : كواسب .

قوله تعالى :

« وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ » (٨٠) آية بلا خلاف .

المعنى :

قوله : « وقالوا » يعني اليهود الذين قالوا لن تمسنا النار ، ولن ندخلها إلا اياماً معدودة . وانما لم يبين عددها في التنزيل ، لأنه تعالى اخبر عنهم بذلك ، وهم عارفون بعدد الايام التي يوقتونها في النار ، فلذلك نزل تسمية عدد الايام ، وسماها معدودة ، لما وصفنا .

وقال ابو العالية وعكرمة والسدي وقتادة : هي أربعون يوماً . ورواه الضحاك عن ابن عباس . ومنهم قال : انها عدد الايام التي عبدوا فيها العجل .

وقال ابن عباس : إن اليهود تزعم انهم وجدوا في التوراة مكتوباً ان ما بين طرفي جهنم مسيرة اربعين سنة ، وهم يقطعون مسيرة كل سنة في يوم واحد، فاذا انقطع المسير، انقطع العذاب وهلكت النار . وقال مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس : إنها سبعة ايام ، لأن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، وانهم يعذبون بعدد كل ألف سنة يوماً واحداً من ايام الآخرة ، وهو كألف سنة من ايام الدنيا . ولما قالت اليهود ما قالت من قولها : لن تمسنا النار إلا اياماً معدودة على ما بيناه ، قال الله تعالى لنبيه : « قل اتخذتم عند الله عهداً » بما تقولون من ذلك أو ميثاقاً ، فالله

—— وفي المطبوعة (غبش) بدل (غبس) . المعفر : الذي التي في العفر ، وهو التراب . والقهد : ولد البقر . والشلو : العضو من اللحم . وغبس : غبر ولا يمن طعامها : تكسب طعامها بنفسها .

لا ينقض عهده « ام تقولون على الله ما لا تعلمون » من الباطل جهلاً وجراءة عليه

القراءة :

وفي القراء من قرأ « أوتخذتم » بادغام الذال في التاء . ومنهم من لم يدغم . واصل أتخذتم أأتخذتم .دخلت ألف الاستفهام على ألف القطع من نفس الكلمة ، فكره اجتماعها فحذفت الاصليـة ، وبقيت التي للاستفهام ، لانها لمعنى ـ وهي وان كانت للاستفهام في الاصل ـ فالمراد بها هاهنا التنكير ، والتوبيخ ، والاعلام لهم ولغيرهم أن الامر بخلاف ما قالوه ، وانهم يقولون بغير علم . والدليل على انها ألف استفهام كونها مفتوحة . ولو كانت اصلية لكانت مكسورة في إتخـذتم ، ولذلك يدخل بينها المد كما قالوا في « آلله اذن لكم » (١) ، لأن قوله : « اذن الله » لو اخبر بها لكانت مفتوحة . ولو لم تدخل المدة لاشتبهت ألف الاستفهام بهمزة الخبر ، وليس كذلك هاهنا ، لأن الفتحـة تختص للاستفهام وفي الخبر تكون مكسورة . وفي المفتوحتين لابد من الجمع بين الهمزتين . ومنهم من يفصل بينها بمدة . ومنهم من لا يفصل ، نحو قوله « أأمنتم من في السماء » (٢)

قوله تعالى :

« بَلَىَ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَـةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٨١) آية بلا خلاف .

الاعراب والقراءة :

قرأ اهل المدينة خطيئاته على الجمع . الباقون على التوحيد .

قوله « بلى » جواب لقوله : « لن تمسنا النار إلا اياماً معـدودة » فرد الله عليهم بأن قال : « بلى من احاطت به خطيئته » ابداً . وبلى تكون جواباً للاستفهام الذي اوله جحود . وتكون جواباً للجحد وان لم تكن استفهاماً ، كقوله : « تقول

(١) سورة يونس : آية ٥٩ . (٢) سورة الملك : آية ١٦ .

حين ترى العذاب » الى قوله « بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها » (١) . ويقول القائل لم افعل كذا وكذا فيقول له غيره : بلى قد فعلت . بلى ونعم جوابان :

أحدها ـ يدخل فيما لا يدخل فيه الآخر ، لأن بلى تدخل في باب الجحود. وقال الفراء : انما امتنعوا من استعمال نعم في جواب الجحد ، لأنه اذا قال لغيره مالك علي شيء فقال له نعم، فكأنه قد صدقه، وكأنه قال نعم ليس لي عليك شيء ، فلهذا اختلف نعم وبلى .

وقوله : « سيئة » ثمن همز أتى بيائين بعدهما همزة . ومن ترك الهمزة على لغة أهل الحجاز يقول « سية » مثل عية . ومن لين قال « سيئة » كأنه يشير الى الهمزة ويسكنها .

المعنى :

قال مجاهد ، وابن عباس وابو وايل ، وقتادة وابن جريج : « السيئة » هاهنا الشرك . وقال السدي : الذنوب التي وعد الله عليها النار . والذي يليق بمذهبنا هاهنا قول مجاهد ، لأن ما عدا الشرك لا يستحق عندنا عليه الخلود في النار .

« وأحاطت به خطيئته » . قال ابن عباس ومجاهد انها الشرك . وقال الربيع ابن خيثم : من مات عليها . وقال ابن السراج : هي التي سدت عليه مسالك النجاة . وقال جميع المعتزلة : انه اذا كان ثوابه اكثر من عقابه . والذي نقوله : الذي يليق بمذهبنا ان المراد بذلك الشرك والكفر . لأنه الذي يستحق به الدخول مؤبداً . ولا يجوز ان يكون مراداً بالآية .

وقوله : « واحاطت به خطيئته » يقوي ذلك ، لأن المعنى فيه ان تكون خطاياه كلها اشتملت عليه ولا يكون معه طاعة يستحق بها الثواب ، تشبيهاً بما احاط بالشيء من كل وجه . ولو كان معه شيء من الطاعات ، لكان مستحقاً للثواب فلا تكون السيئة محيطة به ، لأن الاحباط عندنا باطل فلا يحتاج الى تراعي كثرة

(١) سورة الزمر آية ٥٨ ، ٥٩ .

العقاب، وقلة الثواب، لأن قليل الثواب عندنا يثبت مع كثرة العقاب، لما ثبت من بطلان التحابط بادلة العقل. وليس هذا موضع ذكرها، لأن الآية التي بعدها فيها وعد لأهل الايمان بالثواب الدائم. فكيف يجتمع الثواب الدائم والعقاب الدائم، وذلك خلاف الاجماع؟ ومتى قالوا احدهما يبطل صاحبه، قلنا الاحباط باطل ليس بصحيح على ما مضى.

قوله تعالى:

« وَالذين آمنُوا وَعملُوا الصَّالحاتِ أُولَئِكَ أصحاب الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خالدُونَ (٨٢) آية.

هذه الآية متناولة (١) لمن آمن بالله وصدق به، وصدق النبي (ص) وعمل الصالحات التي اوجبها الله تعالى عليه، فانه يستحق بها الجنه خالداً ابداً. وظاهرها يمنع من ان مرتكب الكبيرة مخلد في النار، لأنه اذا كان مؤمناً مستحقاً للثواب الدائم، فلا يجوز ان يستحق مع ذلك عقاباً دائماً، لأن ذلك خلاف ما اجمع المسلمون عليه ومتى عادوا الى الاحباط، كلموا فيه بينهم وبين بطلان قولهم.

قوله تعالى:

« وَإِذِ أَخَذْنا مِيثَاقَ بَني إسرائيلَ لا تعبُدونَ إلاَّ اللهَ وبالوالدين إحسَاناً وذي القُربى واليَتامى والمَساكين وقُولُوا للنَّاسِ حُسناً وأقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ ثمَّ تولَّيتمْ إلاَّ قليلاً منكم وانتُمْ مُعرِضُونَ (٨٣) آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «لا يعبدون» بالياء. الباقون بالتاء.

---

(١) في المخطوطة والمطبوعة (متأولة) بدل (متناولة).

وقرأ « حسناً » بنصب(١) الحاء والسين (٢)حمزة والكسائي الباقون « حسناً » بضم الحاء وإسكان السين وتقدير الآية : واذكروا ايضاً يامعشر بني اسرائيل اذ أخذنا ميثاقكم لا تعبدون إلا الله ، فلما اسقطت ان ، رفع . كما قال الشاعر :

ألا ايهذا اللائمي اشهد الوغى وان اشهد اللذات هل انت مخلدي (٣)

ومثله قوله : « افغير الله تأمروني اعبد » . ومن قرأ بالياء ، تقديره انه اخبر انه تعالى أخذ ميثاقهم ، لايعبدون إلا الله ، وبالوالدين احساناً ، ثم عدل الى خطابهم فقال : « وقولوا للناس حسناً » . والعرب تفعل ذلك كثيراً . وانما استخاروا ان يصيروا الى المخاطبة بعد الخبر ، لأن الخبر انما كان عمن خاطبوه بعينه ، لا عن غيره . وقد يخاطبون ، ثم يصيرون بعد ذلك الى الخبر عن المخاطب . مثال الاول قول الشاعر :

شطت مزار العاشقين فاصبحت عسراً علي طلابك ابنة مخزم (٤)

مزار نصب . والتاء من اصبحت كناية عن المرأة فأخبر عنها ثم خاطبها . ومثال الثاني قول الشاعر :

اسيئي بنا أو احسني لا ملومة لدينا ولا مقلية ان تقلت (٥)

وقال زهير :

فاني لو إلاقيك اجتهدنا وكان لكل منكره كفاء

وابري موضحات الرأس منه وقد يبرى من الجرب الهناء

ومن قرأ بالتاء فان الكلام من أوله خطاب .

وتقديره : واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل ، قلنا لا تعبدوا الا الله . قال بعض النحويين : المعنى واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله ، وبالوالدين

---

(١) في المخطوطة والمطبوعة هكذا والصحيح بفتح (٢) في المطبوعة « الصواب وبفتح الحاء والسين » زائدة . (٣) قائله طرفه بن العبد البكري ديوانه : ٣١٧ . من معلقته المشهورة . وروايته : « الزاجر » بدل « اللائم » . واحضر ـ في الموضعين ـ بدل (اشهد) . (٤) قائله عنترة بن شداد . اللسان (شطط) وروايته (طلابها) بدل (طلابك) وفي معلقته هكذا :

حلت بارض الزائرين فاصبحت عسراً علي طلابك ابنة مخرم

(٥) قائله كثير عزة ، ديوانه ١ : ٥٣ . تقلاه يقليه قلى فهو مقلي : كرهه . وتقلى أي استعمل من القول أو الفعل ما يدعو الى بغضه .

احسانا. حكاية ، كأنه قال استحلفناهم لا يعبدون إلا الله ، اذ قلنا لهم : والله لو قالوا والله لا تعبدون . والاول اجود .

وقوله تعالى : « وبالوالدين احسانا » عطف على موضع أن المحذوفة في « تعبدون إلا الله وبالوالدين احسانا » فرفع لا تعبدون ، لما حذفت أن ، ثم عطف بالوالدين على موضعها : كما قال الشاعر :

معاوي اننا بشر فاسجح   فلسنا بالجبال ولا الحديدا (١)

فعطف (٢) ولا الحديد على موضع الجبال . واما الاحسان فمنصوب بفعل مضمر يؤدي عن معناه ، قوله (٣) « وبالوالدين » اذ كان مفهوما معناه .

وتقدير الكلام واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل بان لا تعبدوا إلا الله وان تحسنوا الى الوالدين احسانا . فاكتفى بقوله : « وبالوالدين » عن ان يقول بان تحسنوا الى الوالدين احسانا، اذ (٤) كان مفهوماً بما ظهر من الكلام . وقال بعض اهل العربية : تقديره وبالوالدين فاحسنوا ، فجعل الياء التي في الوالدين من صلة الاحسان مقدمة عليه. وقال آخرون : الا تعبدوا إلا الله واحسنوا بالوالدين احسانا، فزعموا ان الباء في وبالوالدين من صلة المحذوف . اعني من احسنوا . فجعلوا ذلك من كلامين والاحسان الذي اخذ عليهم الميثاق بان يفعلوه الى الوالدين ما فرض على امتثالها من فعل المعروف ، والقول الجميل ، وخفض جناح الذل رحمة بها ، والتحنن عليها ، والرأفة بها ، والدعاء لهما بالخير ، وما اشبهه مما ندب الله تعالى الى الفعل بها .

وقوله : « وذي القربى » أي وبذي القربى ان تصلوا قرابة منهم ، ورحمة .

اللغة :

والقربى مصدر على وزن فعلى من قولك : قرب مني رحم فلان قرابة ، وقربى وقربا بمعنى واحد .

---

(١) قائله عقيبة بن هبيرة الأسدي ، جاهلي اسلامي . الخزانة : ٣٤٣ . (٢) في المطبوعة « فعطت » «٣» في المطبوعة والمخطوطة « وقوله » على ما يظهر ان الناسخ زاد الواو لأنه لم يفهم معنى الكلام . «٤» في المطبوعة والمخطوطة « اذا » الالف ايضاً زيادة من الناسخ .

واليتامى جمع يتيم: مثل اسير واسارى . ويدخل في اليتامى الذكور منهم والاناث

المعنى :

ومعنى ذلك : اخذنا ميثاق بني اسرائيل بان لا تعبدوا إلا الله وحده ، دون ما سواه من الانداد ، وبالوالدين احسانا وبذي القربى ان يصلوا رحمه ، ويعرفوا حقه . وباليتامى ان يتعطفوا عليهم بالرأفة ، والرحمة ، وبالمساكين أن يوفوهم حقوقهم التي ألزمها الله في اموالهم .

والمسكين هو المتخشع المتذلل من الفاقة والحاجة وهو مفعيل من المسكنة وهي ذل الحاجة والفاقة .

وقوله : « وقولوا للناس حسناً » فيه عدول الى الخطاب بعد الخبر على ما مضى القول فيه . وقد ذكرنا اختلاف القراء في حَسناً وحُسناً . واختلف اهل اللغة في الفرق بينهما فقال بعض البصريين هو (١) على احد وجهين :

أحدهما ـ أن يكون أراد بالحُسن الحسَن . ويكون لمعنيين مثل البُخل والبَخل واما ان يكون جعل الحسَن هو الحُسن في التشبيه ، لأن الحُسن مصدر والحسن هو الشيء الحسن ، فيكون ذلك : كقول القائل : انما انت أكل وشرب قال الشاعر :

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع (٢)

فجعل التحية ضربا وقال آخر : بل الحسن هو الاسم العام الجامع جميع معاني الحسن ، والحسن هو البعض من معاني الحَسن ، ولذلك قال تعالى اذ (٣) وصى بالوالدين « ووصينا الانسان بوالديه حسنا » (٤) يعني بذلك انه وصاه بجميع معاني الحسن : وقرىء في الشواذ : حسنى . لا يقرء بها لشذوذها حكاها الاخفش . وذلك لا يجوز لأن فعلى ، وافعل لا يستعمل إلا بالالف واللام . نحو الاحسن والحسنى والافضل

---

(١) في المطبوعة والمخطوطة (المصريين) وهو خطأ . (٢) قائله عمرو بن معد يكرب . الخزانة ٤ : ٥٤ . يقال دلفت الكتيبة الى الكتيبة في الحرب : أي تقدمت . (٣) في المطبوعة والمخطوعة (اذا) بزيادة الألف وهو خطأ . (٤) سورة العنكبوت : آية ٩

والفضلى قال الله تعالى : « للذين احسنوا الحسنى » (١) وروي عن أبي جعفر محمد ابن علي الباقر « ع » وعن عطا انهما قالا : وقولوا للناس حسنا للناس كلهم . وعن الربيع بن انس قولوا للناس حسنا : أي معروفا . وعن ابن الحنفية انه قال: « هل جزاء الاحسان إلا الاحسان » هي مسجلة للبر والفاجر . يريد بمسجلها انها مرسلة . ومنهم من قال: امروا بان يقولوا لبنى اسرائيل حسنا . قال ابن عباس يأمرون بألا اله الا الله ، من لم يقبلها ويرغب عنها حتى يقولها : كما قالوها . فان ذلك قربة لهم من الله . قال : والحسن ايضاً من لين القول ـ من الادب الحسن الجميل ـ والخلق الكريم وهو مما ارتضاه (٢) الله تعالى واحبه . وقال ابن جريج : قولوا للناس حسنا : أي صدقا في شأن محمد «ص» وقال سفيان الثوري: مروهم بالمعروف ، وانهوهم عن المنكر

وقوله : « واقيموا الصلاة » ادوها بحدودها الواجبة عليكم .

« وآتوا الزكاة » معناه واعطوها اهلها كما اوجبها عليكم . والزكوة : التي فرضها الله على بنى اسرائيل . قال ابن عباس :كان فرض في اموالهم قربانا تهبط اليه نار فتحملها . وكان ذلك تقبله . ومن لم تفعل النار به ذلك ،كان غير متقبل . وروي عنه أيضاً ان انعني به طاعة الله والاخلاص .

وقوله : « ثم توليتم إلا قليلا منكم وانتم معرضون » خبر من الله تعالى عن يهود بني اسرائيل انهم نكثوا عهده ، ونقضوا ميثاقه بعد ما اخذ ميثاقهم على الوفاء له ، بان لا يعبدوا غيره ، وبان يحسنوا إلى الآباء والامهات ، ويصلوا الارحام ، ويتعطفوا على الايتام ، ويردوا حقوق المساكين ، ويأمروا عباد الله بما امرهم به ، ويقيموا الصلاة بحدودها ، ويؤتوا زكاة اموالهم ، فخالفوا امره في ذلك كله ، وتولوا عنه معرضين إلا من عصمه الله منهم ، فوفى لله بعهده ، وميثاقه . ووصف هؤلاء بأنهم قليل بالاضافة الى من لم يؤمن. وقال بعضهم : أراد « ثم توليتم إلا قليلا منكم ، وانتم معرضون » : اليهود الذين كانوا على عهد رسول الله (ص) . وعنى

(١) سورة يونس : آية ٢٦

(٢) في المطبوعة « ارتضا » بدون الهاء .

بسائر الآية اسلافهم ، كأنه ذهب الى ان معنى الكلام : ثم توليتم إلا قليلاً منكم ثم تولى سلفكم إلا قليـلا منهم ، ثم قال : وانتم معاشر بقاياهم معرضون ايضاً عن الميثاق الذي اخذ عليكم . وقال قوم : يلي قوله : (ثم توليتم إلا قليـلاً منكم وانتم معرضون) خطاب لمن كان بين ظهراني مهاجري رسول الله « ص » من يهود بني اسرائيل ، وذم لهم بنقضهم الميثاق ، الذي اخذ عليهم في التوراة ، وتبديلهم امر الله وركوبهم معاصيه .

وروي عن ابن عباس انه قال : قوله « وقولوا للناس حسناً » نسخ بقوله : قاتلوهم حتى يقولوا لا إله إلا الله أويقروا بالجزية . وقال آخرون: ليست منسوخة لكن امروا بأن يقولوا حسناً في الاحتجاج عليهم ، اذا دعوا الى الايمان ، وبين ذلك لهم . وقال قتادة نسختها آية السيف . والصحيح انها ليست منسوخة ، وانما امر الله تعالى بالقول الحسن في الدعاءاليه والاحتجاج عليه ، كما قال تعالى لنبيه (ص) « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظةالحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (١) وبيّن في آية اخرى ، فقال : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم (٢) وليس الامر بالقتال ناسخاً لذلك ، لأن كل واحد منها ثابت في موضعه

قوله تعالى :

« وإذْ أخـَذْنا ميثاقكُمْ لا تسفكونَ دِمَاءكُمْ ولا تخرِجُونَ أنفُسكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثمَّ أقرَرْتمْ وأنتمْ تشهدونَ » (٨٤) آية بلاخلاف

المعنى :

قد بينا فيما مضى أن الميثاق هو العهد . والمعنى في الآية : واذكروا اذ اخذنا ميثاق اسلافكم الذين كانوا في زمن موسى ، والانبياء الماضين (ع) ، وانما اضاف اليهم لما كانوا أخلافا (٣) لهم على ما مضى القول فيه . وتقدير الاعراب في هـذه

(١) سورة النحل آية : ١٢٥ (٢) سوره الانعام آية : ١٠٨ .

(٣) هذه عبارة المخطوطة وفي المطبوعة : « كانوا خلافا على » .

الآية مثل الآية الاولى سواء .

واما سفك الدم ، فانه صبه واراقته . ومعنى « لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم » النهي عن أن يقتل بعضهم بعضاً ، وكان في قتل الرجل منهم قتل نفسه اذا كانت ملتها واحدة ، ودينها واحد وكان اهل الدين الواحد في ولاية بعضهم بعضاً بمنزلة رجل واحد . كما قال النبي (ص) : انما المؤمنون في تعاطفهم وتراحمهم بينهم بمنزلة الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر . فهذا قول قتادة وابي العالية . ويحتمل ان يكون المراد لا يقتل الرجل منكم غيره فيقاد به قصاصاً . فيكون بذلك قاتلا نفسه ، لانه كالسبب فيه واضيف قتل الولي اياه قصاصاً اليه بذلك . كما يقال لرجل يعاقب لجناية جناها على نفسه : انت جنيت على نفسك . وفيه قول ثالث : وهو ان قوله : « انفسكم » اراد به اخوانكم ، لانهم كنفس واحدة .

وقوله : « ثم اقررتم وانتم تشهدون » اي اقررتم بذلك ايضاً ، وبذلتموه من انفسكم ، وانتم شاهدون على من تقدمكم باخذنا منهم الميثاق ، وما بذلوه من انفسهم . فذكر تعالى اقرارهم وشهادتهم ، لأن اخذ الميثاق كان على اسلافهم – وإن كان لازماً للجميع ، لتوكيد الحجة عليهم . – وقال بعض المفسرين : نزلت هذه الآية في بني قريظة والنضير .

يقول : حرم الله في الكتاب ان تسفكوا دماءكم ، اي لا تقتتلوا فيقتل بعضكم بعضاً (١) ، ولا تتركوا أسيراً في يد الآسرين ليقتلوه «ولا تخرجوا انفسكم من دياركم » معناه لا تغلبوا احداً على داره ، فتخرجوه ، فقبلتم ذلك واقررتم به . وهو اخذ الميثاق « وانتم تشهدون » بذلك .

واما النفس فمأخوذة من النفاسة ، وهي الجلالة فنفس الانسان انفس ما فيه . والدار هي المنزل الذي فيه ابنية المقام ، بخلاف (٢) منزل الارتحال . وقال الخليل : كل

---

(١) في المخطوطة « لا تقلوا » . وعبارة المطبوعة هكذا : «لا يقتلوا فيقتل بعضكم ولا تتركوا ... » .

(٢) في المطبوعة « بجلال » .

موضع حل فيه قوم فهو دار لهم ـ وان لم يكن فيه ابنية . وقيل ايضاً : إن معنى قوله : « ثم اقررتم وانتم تشهدون » ان اقرارهم هو الرضاء به ، والصبر عليه : كما قال الشاعر :

الست كليبياً اذ سيم خطة   اقر كاقرار الحليلة للبعل

وقوله : « وانتم تشهدون » يحتمل امرين :

احدهما ـ وانتم تشهدون على انفسكم بالاقرار .

والثاني ـ وانتم تحضرون دماءكم وتخرجون انفسكم من دياركم .

وحكي عن ابن عباس انه قال : ذلك خطاب من الله تعالى لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجري رسول الله (ص) أيام هجرته اليهم موبخاً لهم على تضييعهم احكام ما في ايديهم من التوراة التي كانوا يقرون بحكمها . فقال الله تعالى لهم : « ثم اقررتم » يعني بذلك اقر أولكم وسلفكم وانتم تشهدون على اقرارهم ، باخذ الميثاق عليهم بان لا يسفكوا دماءهم، ولا يخرجوا انفسهم من ديارهم ، ويصدقوا بان ذلك حق من ميثاقي عليكم . وقال ابو العالية : ذلك خبر من الله عن أوائلهم . ولكنه اخرج الخبر مخرج المخاطبة عنهم على النحو الذي وصفناه في سائر الآيات . « وانتم تشهدون » اي وانتم شهود .

قوله تعالى :

« ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيمَةِ يُرَدُّونَ الى اشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (٨٥) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ اهل الكوفة تظاهرون هاهنا ، وفي التحريم بتخفيف الظاء . الباقون بالتشديد فيها . وقرأحمزة «أسرى» بفتح الهمزة، وسكون السين بغيرالف بعدها . وقرأ اهل المدينة ، وعاصم ، والكسائي ، ويعقوب (تفادوهم) بضم التاء وبألف .

وقوله « ثم انتم هؤلاء » يحتمل وجهين :

احدهما ــ ان يكون اريد به ثم انتم يا هؤلاء فترك يا استغناء ، لدلالة الكلام عليه : كما قال : « يوسف : اعرض عن هذا » (١) ومعنى الكلام ثم انتم يا معشر يهود بني اسرائيل بعد اقراركم بالميثاق الذي اخذته عليكم : ألاّ تسفكوا دماءكم ، ولا تخرجوا انفسكم من دياركم ، وبعد شهادتكم على انفسكم بذلك انه حق لازم لكم الوفاء به تقتلون انفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم متعاونين عليهم في اخراجكم اياهم بالاثم ، والعدوان .

والتعاون هو التظاهر ، وانما قيل للتعاون: التظاهر ، لتقوية بعضهم ظهر بعض . فهو تفاعل من الظهر . وهو مساندة بعضهم ظهره الى ظهر بعض. قال الشاعر :

تظاهرتم اشباه نيب تجمعت على واحد لازلتم قرن واحد

ومنه قوله تعالى : « وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه » وقوله « والملائكة بعد ذلك ظهير » (٢) وقوله : « ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٣) وقوله : « سحران تظاهرا » [٤] وقوله : « وكان الكافر على ربه ظهيرا » [٥] ويقال: اتخذ معك نفراً ونفرين ظهيرين يعني عدة ، والوجه الآخر أن يكون معناه : ثم انتم القوم تقتلون انفسكم فيرجع الى الخبر عن (انتم) وقد اعترض بينهم وبين الخبر عنهم (هؤلاء) كما تقول العرب : انا ذا أقوم ، وانا ذا أجلس . ولو قيل أنا هـذا يجلس لكان صحيحاً . وكذلك انت ذاك تقوم، وقال بعض النحويين : ان هؤلاء [في] [٦] قوله: « ثم انتم هؤلاء » تنبيه ، وتوكيد لانتم . وزعم أن انتم: وان كان كناية عن

(١) سورة يوسف : آية ٣٠ . (٢) سورة التحريم : آية ٤ . (٣) سورة الاسرى : آية ٨٨ (٤) سورة القصص : آية ٤٨ . (٥) سورة الفرقان : آية ٥٥ (٦) زودنا (في) ليتم المعنى

اسماء جميع المخاطبين فانما جازان يؤكد بهؤلاء . وأولاء يكنى بها عن المخاطبين كما قال خُفاف بن ندبة :

اقول له والرمح يأطرمتنه   تبيّن خفـافا انني اناذ لكا [١]

يريد انا هو ، وكما قال « حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة » . [٢]

والاثم قيل معناه : هو ما تنفر منه النفس ولم يطمئن اليه القلب . ومنه قول النبي (ص) لنواس بن سمعان ، حين سـأله عن البر والاثم ، فقال (ص) : البر ما اطمأنت اليه نفسك والاثم ما حاك في صدرك . وقال قوم : معنى الاثم [٣] ما يستحق عليه الذم ، وهو الاصح .

والعدوان مجاوزة الحق . وقال قوم : هو الافراط في الظـلم . واسرى جمع اسير واسارى جمع اسرى . كما قالوا : مريض ومرضى وجريح وجرحى وكسير وكسرى . هذا قول المفضل بن سلمة قال ابو عمرو بن العـلاء : الاسارى هم الذين في الوثاق والاسرى الذين في اليد . وان لم يكونوا في الوثاق .

ومعنى تفادوهم أو تفدوهم : طلب الفدية من الاسير الذي في ايديهم من اعدائهم قال الشاعر :

فِفي فادي اسيرك إن قومي   وقومك ما أرى لهم اجتماعا

وكان هذا محرما عليهم ـ وان كان مباحا لنا ـ فذكر الله تعالى توبيخا لهم في فعل ما حرم عليهم . وقال آخرون : انه افتداء الاسير منهم اذا اسره اعداؤهم . وهذا مدح لهم ذكره من بعد ذمهم انهم خالفوه في سفك الدماء ، وتابعوه في افتـداء

---

(١) الاغاني ٢ : ٣٢٩ ، ١٣ : ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٦ : ١٣٤ وقد مر في ١ : ٥١ من هذا الكتاب . قال هذا في مقتل ابن عمه معاوية بن عمرو : أخي الخنساء . اقول له : أي لمالك ابن حمار الذي مر ذكره في البيت السابق وهو :

فان تك خيلي قد اصيب صميمها   فعمداً على عين تيممت مالكا

واطر الشيء : ان تقبض على احد طرفي الشيء ثم تعوجه ، وتعطفه وتثنيه . واراد ان حر الطعنة جعله منثني من المها ثم ينثني ليهوي صريعاً اذ أصاب الرمح مقتله . في المطبوعة « ناظر فنه » بدل « يأطر متنه » وهو تحريف .

(٢) سورة يونس آية ٢٢ . (٣) في المخطوطة والمطبوعة « الاسم »

الاسرى استشهاداً على هذا الباطل بقوله : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » وقال قوم : الفرق بين تفدوهم وتفادوهم ، ان تفدوهم هو افتكاك بمال وتفادوهم هو افتكاك الاسرى بالأسرى . واختلفوا فيمن عنى بهذه الآية فروى عكرمة عن ابن عباس انه قال : « ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم » الى قوله : والعدوان أي اهل الشرك ، حتى يسفكوا دماءهم معهم ، ويخرجوهم من ديارهم معهم قال: انبأهم الله بذلك من فعلهم ، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم ، وافترض عليهم فيها فداء اسراهم . وكانوا فريقين : طائفة منهم بنو قينقاع (١) وانهم حلفاء الخزرج . وحلفاء النضير وقريظة ، وانهم حلفاء الاوس . وكانوا اذا كانت بين الاوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع (٢) مع الخزرج ، وخرجت بنو النضير وقريظة مع الاوس ، يظاهر كل فريق حلفاءه على اخوانه ، حتى يتسافكوا دماءهم بينهم وبايديهم التوراة ، يعرفون منها ما عليهم ولهم . والاوس والخزرج اهل شرك يعبدون الاوثان ولا يعرفون جنة ولا نارا ، ولا قيامة ولا كتابا ، ولا حلالا ولا حراما ، فاذا وضعت الحرب اوزارها افتدوا اسراهم تصديقاً لما في التوراة ، واخذا به يفتدي بنو قينقاع من كان (من) (٣) اسراهم في ايدي الاوس ، ويفتدي بنو النضير وقريظة ما كان في ايدي الخزرج . ويطلبون ما اصابوا من الدماء ، وما قتلوا من قتلوا منهم ، فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم . يقول الله تعالى حين انبأهم بذلك : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ » أي تفادونهم بحكم التوراة وفي حكم التوراة ان لا يقتل ويخرج من داره ويظاهر (٤) عليه من يشرك بالله ويعبد الاوثان من دونه ـ ابتغاء عرض الدنيا ـ ففي ذلك من فعلهم مع الاوس والخزرج نزلت هذه القصة . وذكر فيه اقوال اخر تزيد وتنقص لا فائدة في ذكرها ، ممناها متقارب لما اوردناه .

وقوله « يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض

(١ و ٢) في المخطوطة والمطبوعة « قيقاع » وهو خطأ .

(٣) زدنا « من » لأنه لا يتم المعنى بدونها .

(٤) في المخطوطة والمطبوعة « ان لا يقتل ويخرجونه من وتظاهر . . » .

الكتاب وتكفرون ببعض » القصد بذلك توبيخهم وتعنيفهم على سوء افعالهم . فقال: ثم انتم بعد اقراركم بالميثاق الذي أخذته عليكم : « لا تسفكوا دماءكم ولا تخرجوا انفسكم من دياركم » تقتلون انفسكم يعني يقتل بعضكم بعضاً . وانتم مع قتلكم من تقتلون منكم . اذا وجدتم اسيراً منكم في ايدي غيركم من اعدائكم تفدونهم . ويخرج بعضكم بعضاً من ديارهم ، وقتلكم اياهم واخراجكم اياهم من ديارهم حرام عليكم كما حرام عليكم تركهم اسرى في ايدي عدوكم . فكيف تستجيزون قتلهم ولا تستجيزون ترك فدائهم . وتستجيزون قتلهم وهما جميعاً في اللازم لكم من الحكم فيهم سواء ، لأن الذي حرمت عليكم من قتلهم واخراجهم من دورهم نظير الذي حرمت عليكم من تركهم اسرى في ايدي عدوهم . « أفتؤمنون ببعض الكتاب » الذي فرضت عليكم فيه فرائضي وبينت لكم فيه حدودي ، واخذت عليكم بالعمل بما فيه ميثاقي ، فتصدقون به فتفادون اسراكم من ايدي عدوكم ، وتكفرون ببعضه فتجحدونه فتقتلون من حرمت عليكم قتله ، من اهل دينكم ومن قومكم ، وتخرجونهم من ديارهم وقد علمتم ان في الكفر منكم ببعضه نقضاً منكم في عهدي وميثاقي .

وقوله : « فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا » فالخزي : الذل ، والصغار يقال خزي الرجل يخزى خزياً . « في الحياة الدنيا » يعني في عاجل الدنيا قبل الآخرة . ثم اختلفوا في الخزي الذي خزاهم الله بما سلف منهم من المعصية فقال بعضهم : ذلك حكم الله الذي انزله على نبيه (ص) من اخذ القاتل بما قتل ، والقود به قصاصاً ، والانتقام من الظالم للمظلوم .

وقال آخر : بل ذلك هو الجزية منهم ـ ما اقاموا على دينهم ـ ذلة لهم وصغاراً

وقال آخرون : الخزي الذي خزوا به في الدنيا إخراج رسول الله (ص) بني النضير من ديارهم لأول الحشر . وقيل : مقاتلة بني قريظة وسبي ذراريهم . وكان ذلك خزياً في الدنيا وفي الآخرة عذاب عظيم ومعنى قوله : « يوم القيامة يردون الى اشد العذاب » أي اسوء العذاب ، يعني بعد الخزي الذي يحل بهم في الدنيا يردهم الله الى اشد العذاب ـ الذى اعده الله لأعدائه .

وقال بعضهم: يردهم يوم القيامة الى اشد العذاب ، يعني اشد من عذاب الدنيا ـ والاول اقوى: انه من أشد العذاب يعني اشد جنس العذاب . وذلك يقتضي العموم ولا يخص إلا بدليل .

وقوله : « وما الله بغافل عما تعملون » . منهم من قرأ بالياء ، رده الى من أخبر عنهم .

ومن قرأ بالتاء ، رده الى المواجهين بالخطاب . والياء اقوى ، لقوله : « فما جزاء من يفعل ذلك » .

وقوله : « ويوم القيامة يردون » فالرد الى هذا أقرب من قوله : « أفتؤمنون ببعض الكتاب » فاتباع الأقرب أولى من إلحاقه بالاول . والكل حسن . والمعنى وما الله بساهٍ عن اعمالهم الخبيثة بل هو محص لها وحافظ لها حتى يجازي عليها . فان قيل : ظاهر الآية يقتضي ان يصح الايمان ببعض الاشياء ، وان كفروا بالبعض الآخر ، وذلك مناف لمذهبكم فى الارجاء والموافاة . لأن المعنى في ذلك إظهار التصديق بالبعض ، والمنع بالتصديق بالبعض الآخر . ويحتمل ان يكون المراد ان ذلك على ما يعتقدونه ، لأنكم اذا اعتقدتم جميع ذلك ثم عملتم ببعضه دون بعض ، فكأنكم آمنتم ببعضه دون بعض .

قوله تعالى :

« أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » (٨٦) آية بلا خلاف .

المعنى :

قوله : « أولئك » إشارة الى الذين اخبر عنهم يؤمنون ببعض الكتاب ، فيفادون أساراهم من اليهود ، ويكفرون ببعض فيقتلون من حرم الله عليهم قتله من اهل ملتهم ، ويخرجون من داره من حرم الله اخراجه . هم الذين اشتروا رياسة الحياة الدنيا . ومعناه ابتاعوها على الضعفاء واهل الجهل والغباء منهم . وانما وصفهم

بانهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، لأنهم رضوا بالدنيا بكفرهم بالله عز وجل فيها عوضاً من نعيم الآخرة الذي اعده الله للمؤمنين . فجعل تركهم حظوظهم من نعيم الآخرة بكفرهم بالله ثمناً لما ابتاعوه من خسيس الدنيا بما اخبر الله انه لا حظ لهم في نعيم الآخرة ، وان لهم في الآخرة عذاباً غير مخفف عنهم فيها العقاب . وقوله : « ولا هم ينصرون » أي لا ينصرهم احد في الآخرة فيدفع عنهم بنصرته عذاب الله تعالى

قوله تعالى :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ » (٨٧) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ أهل الكوفة الرسل مثقل في جميع القرآن . وقرأ ابن كثير القدس بسكون الدال حيث وقع . الباقون بتثقيلها ،

المعنى :

ومعنى قوله « اتينا موسى الكتاب » انزلناه اليه واعطيناه . والكتاب المراد به التوراة . وقوله « وقفينا » معناه واردفنا ، واتبعنا بعضه خلف بعض ، كما يقفو الرجل الرجل : اذا سار في اثره من ورائه واصله من القفا . يقال فيه قفوت فلاناً اذا صرت خلف قفاه . كما يقال دبرته اذا صرت في دبره قال امرؤ القيس :

وقفى على اثارهن بحاصب فمر العشى البارد المتحصب (١)

ومعنى قوله : « بالرسل » من بعد موسى . والمراد بالرسل الانبياء ، وهم جمع رسول يقال : رسول ورسل ، كما يقال : رجل صبور وقوم صبر . ورجل شكور ، وقوم

(١) ديوانه ٣٨ . وروايته « فقفى » بدل وقفا وعجزه

وغيبة شؤبوب من الشد ملهب

والعجز الموجود اعلاه غير موجود في ديوان امرىء القيس .

شكر . والمعنى في « قفينا » اتبعنا بعضهم بعضا على منهاج واحد، وشريعة واحدة ، لأن كل من بعثه الله نبيا بعد موسى الى زمن عيسى بن مريم (ع) فانما بعثه باقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء الى ما فيها ، فلذلك ، قال : « وقفينا من بعده بالرسل » يعني على منهاجه وشريعته .

وقوله : « واتينا عيسى بن مريم البينات » اعطينا عيسى بن مريم الحجج والدلالات على نبوته من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص ونحو ذلك من الآيات التي دلت على صدقه وصحة نبوته .

وقوله : « وايدناه بروح القدس » أي قويناه واعناه . يقال منه ايدك الله ، أي قواك الله . وهو رجل ذو ايد وذو اياد أي ذو قوة ومنه قول العجاج :

من ان تبدلت بآدي آدا (١)

يعني بقوة شبابي قوة الشيب قال الشاعر :

ان القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو جلد و بطش أيّد (٢)

يعنى بالايد القوي قال قتادة والسدي والضحاك والربيع : روح القدس هو جبرائيل « ع » . قال : ابن زيد ايد الله عيسى بالانجيل روحا كما جعل القرآن روحا كلاهما روح الله كما قال: « وكذلك أوحينا اليك روحا من امرنا » . وروى الضحاك عن ابن عباس ان الروح : الاسم الذي كان يحيي به الموتى. واقوى الاقوال قول من قال : هو جبرائيل (ع) لأن الله تعالى ايد عيسى به كما قال تعالى « ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي التي انعمت عليك وعلى والدتك إذ ايدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » (٣) فاخبر انه ايده به ولو كان المراد به الانجيل لكان ذلك تكراراً . وانما سمي الله تعالى جبرائيل روحاً واضافه الى القدس ، لأنه كان بتكوين الله روحاً من عنده من غير ولادة والد ولده . وقال قوم سمي روحاً لأنه كان بمنزلة الارواح للابدان تحيي بما يأتي به من

(١) اللسان « ايد » والبيت الذي بعده : لم يك يناّد فامسى انآدا . وفي المطبوعة باد آذا

(٢) مروج الذهب ٣ : ١٠٤ . قائله عبدالله بن عبد الأعلى .

(٣) سورة المائدة آية ١١٣ .

البينات . وقال آخرون : سمي بذلك ، لأن الغالب على جسمه الروحانية لرقته وكذلك سائر الملائكة وانما خص به تشريفا والتقديس والتطهير والقدس : الطهر وقال السدي: القدس هاهنا البركة يقال : قدس عليه : برك عليه .ويكون اضافته الى نفسه كقوله « حق اليقين » وقال الربيع : القدس الرب . وقال ابن زيد القدس هو الله ، وايده بروحه ، واحتج بقوله «الملك القدوس» . وقال القدوس والقدس واحد . وروي عن ابن عباس ان القدس الطاهر وقال الراجز :

الحمد لله العلي القادس

وقال رؤبة :

دعوت رب القرة القدوسا

وقوله :« افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » فالخطاب بذلك متوجه الى يهود بني اسرائيل وكأنه قال : يامعشر يهود بني اسرائيل لقد اتينا موسى التوراة وتابعنا من بعده الرسل اليكم واتينا عيسى ابن مريم الحجج والبينات اذ بعثناه اليكم وايدناه بروح القدس وانتم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه انفسكم استكبرتم عليهم تجبراً وبغياً وكذبتم منهم بعضاً وقتلتم بعضا ، وظاهر الخطاب وان كان خرج مخرج التقدير فهو بمعنى الخبر .

قوله تعالى :

« وَقالُوا قلوبُنا غُلفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفرِهِمْ فَقَليلاً مايؤمنون»

(٨٨) آية واحدة .

القراءة :

القراء المعروفون على تسكين اللام من قوله غلف . وقال ابن محيص غلف بضم اللام

المعنى :

وروي عن ابن عباس ذلك فمن قرأ بالتسكين قال : معنى غلف الواحد منها

اغلف وغلف مثل احمر وحمر فكأنهم قالوا : قلوبنا أوعية فلم لا تعي ما تأتيننا به قالوا كما « قالوا قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي اذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » أي لا تفقه لأنها في حجاب . ومنه يقال للرجل الذي لم يختن اغلف والمرأة غلفاء ويقال للسيف اذا كان في غلاف اغلف وقوس غلفاء : وجمعها غلف وكذلك كل لغة على وزن افعل للذكر والانثى فعلاء يجمع على فعل مضمومة الاول ساكنة الثاني نحو احمر وحمر واصفر وصفر فيكون ذلك جمعاً للتذكير والتأنيث ولا يجوز ثقيل عين الفعل إلا في ضرورة الشعر . قال طرفه :

ايها الفتيان في مجلسنا جردوا منها وراداً وشقر(١)

فحرك لضرورة الشعر . ومن قرأ « غلف » مثقلا قال : هو جمع غلاف مثل مثال ومثل وحمار وحمر . فيكون معناه إن قلوبنا اوعية للعلم فما بالها لا تفهم ، وهي اوعية للعلم . ويجوز ان يكون التسكين عين التثقيل (٢) مثل رسْل ورُسل . وقال عكرمة غلف : أي عليها طابع . والمعنى عندنا ان الله اخبر ان هؤلاء الكفار ادعوا ان قلوبهم ممنوعة من القبول وذهبوا الى ان الله منعهم من ذلك ، فقال الله رداً عليهم « بل لعنهم الله بكفرهم » أي انهم لما كفروا فالفوا كفرهم واشتد اعجابهم به ومحبتهم اياه ، منعهم الله ، من الالطاف والفوائد ـ ما يؤتيه المؤمنين ثواباً على ايمانهم وترغيباً لهم في طاعتهم ، وزجر الكافرين عن كفرهم ، لأن من سوى بين المطيع والعاصي له ، فقد اساء اليهما . وفي الآية ردّ على المجبرة ايضاً ، لأنهم قالوا : مثل ما يقول اليهود من أن على قلوبهم ما يمنع من الايمان ويحول بينهم وبينه ، وكذبهم الله تعالى في ذلك بأن لعنهم وذمهم . فدل على أنهم كانوا مخطئين ، كما هم مخطئون . وقال ابو علي الفارسي : ما يدرك به المعلومات من الحواس وغيرها ، اذا ذكر بانه لا يعلم وصف بان عليه مانعاً كقوله تعالى : « افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » (٣) . فان الفعل لما كان مانعاً من الدخول الى المقفل عليه شبه القلوب به . ومثله قوله :

(١) ديوانه اشعار الستة الجاهليين . جردوا تدعوا للغارة . وتجرد الفرس تقدم الحلبة فخرج منها . وراد جمع ورد « فتح فسكون » وهو من الخيل بين الكميت والاشقر .
(٢) هذه عبارة المخطوطة وفي المطبوعة سقط . (٣) سورة محمد آية ٢٤ .

« سكرت ابصارنا » (١) وقوله : « الذين كانت اعينهم في غطاء عن ذكري » (٢) ومثله « بل هم منها عمون » (٣) وقوله : « صم بكم » (٤) . لأن العين اذا كانت في غطاء لم ينفذ شعاعها فلا يقع بها ادراك، فكأن شدة عنادهم بحملهم على رفع المعلومات. واللعن هو الاقصاء والابعاد . يقال : لعن الله فلاناً يلعنه لعناً . فهو ملعون ، ثم يصرف مفعول الى فعيل ، فيقال :هو لعين . كما قال الشماخ بن ضرار :

ذعرت به القطا ونفيت عنه　　مقام الذئب كالرجل اللعين (٥)

أي المبعد . فصار معنى الآية قالت اليهود : « قلوبنا في اكنة مما يدعونا اليه» محمد (ص) . فقال الله : ليس ذلك كما زعموا ولكنه تعالى اقصاهم وأبعدهم عن رحمته وطردهم عنها ، لجحودهم به وبرسله .

وقوله تعالى : « قليلاً ما يؤمنون » قال قتادة : قيل منهم من يؤمن . وقال قوم : « قيلاً ما يؤمنون » أي لا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم . والذي نقوله ان معنى الآية ان هؤلاء الذين وصفهم الله تعالى قليلوا الايمان بما انزله الله تعالى على نبيه محمد « ص » ولذلك نصب قوله « قليلاً » لأنه نصب على نعت المصدر المتروك . وتقديره لعنهم الله بكفرهم ، فأيماناً قليلاً يؤمنون . ولو كان الامر على ما قال قتادة ، لكان القليل مرفوعاً ، وكان تقديره فقليل ايمانهم . وقال قوم من اهل العربية : ان ما زائدة لا معنى لها . كقوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم » (٦) وتقدير الكلام : قليلاً يؤمنون ، وانشد بيت مهلهل

لو بأبانين جاء يخطبها　　ضرج ما انف خاطب بدم (٧)

يعني ضرج انف خاطب . وما زائدة . وقال قوم : ذلك خطأ في الآية وفي البيت وان ذلك من المتكلم على ابتداء الكلام بالخبر عن عموم جميع الاشياء اذا كانت

(١) سورة الحجر : آية ١٥ (٢) سورة الكهف : آية ١٠٢ (٣) سورة النحل آية : ٦٦
(٤) سورة البقرة آية ١٧ . (٥) ديوانه : ٩٢ . في المطبوعة والمخطوطة « دعوت » بدل ذعرت . (٦) سورة آل عمران آية ١٥٩ . (٧) الكامل ٢ : ٦٨ . وروايته « خضب » بدل « ضرج » وفي المطبوعة والمخطوطة « بانين » ومع ذلك غير منقطة . ابانان : ابان الاسود وابان الابيض .

« ما » كلمة تجمع كل الاشياء، ثم تخص بعض ما عمته، فانها تذكر بعدها. وفي الناس من قال: « فقليلا ما يؤمنون »، لأنه كان معهم بعض الايمان من التصديق بالله وبصفاته، وغير ذلك مما كان فرضاً عليهم، وذلك هو القليل بالاضافة الى ما جحدوا به من التصديق بالنبي « ص » وما جاء به. والذي يليق بمذهبنا ان نقول: إنه لم يكن معهم ايمان اصلاً، وانما قال: « فقليلا ما يؤمنوا » كما يقول القائل: قل ما رأيت هذا قط. وروي عنهم سماعاً: - اعني العرب - مررت ببلد قل ما ينبت إلا الكراث والبصل. يريدون ما ينبت إلا الكراث والبصل.

قوله تعالى:

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ». (٨٩) آية بلا خلاف.

المعنى:

التقدير: ولما جاء اليهود من بني اسرائيل الذين وصفهم الله، كتاب من عند الله يعني به القرآن الذي انزله على محمد « ص » واشتقاق الكتاب من الكتب، وهو جمع كتبة وهي الخرزة. وكلما ضممت بعضه الى بعض، فقد كتبته. والكتيبة من الجيش من هذا الانضمام بعضها الى بعض.

وقوله: « مصدق لما معهم » من الكتب التي انزلها الله قبل القرآن من التوراة والانجيل وغيرها. « ومعنى مصدق لما معهم » لما في التوراة والانجيل، والاخبار التي فيها. ويحتمل ان يكون المراد: مصدق بان التوراة والانجيل من عند الله. ومصدق رفع، لأنه نعت الكتاب. ولو نصب على الحال، لكان جائزاً، لكن لم يقرأ به.

وقوله: « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ». قال ابو عبيدة معناه يستنصرون. قال ابن عباس: إن اليهود كانوا يستنصرون على الاوس الخزرج

برسول الله « ص » قبل مبعثه فلما بعثه الله في العرب ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشير ابن معرور : يا معشر اليهود اتقوا الله واسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وآله ونحن اهل الشرك ، وتخبرونا بانه مبعوث . فقال لهم سلام بن مشكم : ما جاء بشيء ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم . فأنزل الله ذلك . وقال قوم : معنى « يستفتحون » يستحكمون ربهم على كفار العرب . كما قال الشاعر :

ألا أبلغ بني عُصم رسولا فاني عن فُتاحتكم غني «١»

اي محاكمتكم . وقال قوم : معناه يستعلمون من علمائهم صفة نبي يبعث من العرب ، وكانوا يصفونه . فلما بعث انكروه .

واما جواب قوله : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم » فقال قوم : ترك جوابه استغناء بمعرفة المخاطبين . معناه كما قال : « ولو ان قرآناً سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى » « ٢ » فترك الجواب ، وكان تقديره ولو ان قرآناً سوى هذا القرآن سيرت به الجبال ، اوقطعت به الارض ، او كلم به الموتى لسيرت بهذا . ترك ذلك لدلالة الكلام عليه وكذلك الآية الجواب فيها محذوف لدلالة قوله : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وقال آخرون : قوله : « كفروا » جواب لقوله : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم » . ولقوله: « ولما جاءهم ما عرفوا » . ونظيره قوله : « فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » « ٣ » فصار قوله : فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون جواباً لقوله : « فاما يأتينكم » ، ولقوله : « فمن تبع هداي » ، ومثله في الكلام قولك ما هو إلا ان جاءني فلان ، فلما ان قعد وسعت له ، فصار قولك : وسعت له جواباً لقولك : ما هو إلا ان جاءني ، ولقولك : فلما ان قعد . وجاء الاول للكتاب وجاء الثاني ـ قيل : إنه ـ للرسول ، فلذلك كرر . وقوله : فلعنة الله على الكافرين »

«١» قائله الاشعر الجعفي . اللسان (فتح) وروايته :

ألا من مبلغ عمراً رسولا فاني عن فتاحتكم غني

«٢» سورة الرعد آية : ٣٣ «٣» سورة البقرة آية : ٣٨ .

فقد بينا فيما مضى ، معنى اللعنة ، ومعنى الكفر فلا وجه لاعادته . وقد مضى الجواب عمن يستدل بمثل ذلك على ان الكافر قد يكون عالماً ببعض الاشياء التي اوجبها الله تعالى بخلاف ما يذهب اليه اصحاب الموافاة ، وان من عرف الله فلا يجوز ان يكفر وان المعتمد على ذلك : ان نقول : لا يمتنع ان يكونوا قد عرفوا الله وكثيراً مما وجب عليهم ، لكن لم يكن وقع نظرهم على وجـــه يستحقون به الثواب ، لان ذلك هو الممنوع منه ، وقد بينا ايضاً صفة من يتعلق بذلك من اصحاب الضرورات ، لأن غايـة ما في ذلك ان القوم كانوا عارفين فجحدوا ما عرفوا ، وليس يمتنع ان يكونوا عارفين استدلالاً ثم جحدوا : فالضرورة لم يجر لها ذكر .

قوله تعالى :

« بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) آية .

اللغة والاعراب :

أصل بئس : بئس من البؤس : فأسكنت الهمزة ونقلت حركتها الى الباء . كما قالوا في ظللت ظلت ، وكما قيل للكبد كبد ، فنقلت حركة الباء الى الكاف ، لما سكنت الباء . ويحتمل ان تكون بئس . وان كان اصلها بئس من لغة من ينقل حركة العين من فعل الى الفاء اذا كانت عين الفعل احد حروف الحلق الستة . كما قالوا في لعب : لِعب . وفي سئم سيم ، وهي لغة تميم . ثم جعلت دلالة على الذم والتوبيخ ووصلت بـ (ما) . واختلفوا في (ما) فقال قوم من البصريين : هي وحدها اسم ، « وان يكفروا » تفسير له . نحو نعم رجلا زيد « وان ينزل الله » بدل من انزل . وقال الفراء : بئس الشيء اشتروا به انفسهم ان يكفروا . فـ (ما) اسم بئس ، (وأن يكفروا) الاسم الثاني . وقوله «ان ينزل اللهمن فضله على من يشاء من عباده » ، إن

شئت جعلت (أن) في موضع رفع ، وان شئت في موضع خفض : فالرفع بئس الشيء هذا ان يكفروا ، والخفض بئس الشيء إشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله بغياً . وفي قوله : « لبئس ما قدمت لهم انفسهم أن سخط الله عليهم » « ١ » . مثل ذلك . قال ابو عبيدة : والعرب تجعل (ما) وحدها في هذا الباب بمنزلة الاسم التام . وقوله : « فنعما هي » « وبئس ما انت » قال الراجز :

لا تعجلا بالسير وادلواها لبئسما بطء ولا ترعاها «٢»

قال : ويقولون ابئس ما تزويج ، ولا مهر : فيجعلون(ما) وحدهااسماً بغير صلة .

وروي عن النبي « ص » انه قال : نعم ما المال للرجل الصالح ، فجعلت (ما) اسماً . وقال قوم : هذا الوجه ضعيف ، لان هذا القول ، يكون التقدير بئس الشيء اشتروا به انفسهم ، فقد صارت ما بصلتها اسماً موقتاً ، لان اشتروا فعل ماضي ، واذا وصلت بفعل ماضي كانت معرفة موقتة . تقديره بئس شراؤهم كفرهم . وذلك غير جائز عنده : فبان بذلك فساد هذا القول . وبئس ونعم لا يلقاها اسم علم كزيد وعمر ، واخيك وابيك : فانما يلقاها المعرف بالالف واللام . كقولك : الرجل والمرأة ، وما اشبـه ذلك . فان نزعتها ، نصبت . كقوله : « بئس للظالمين بدلاً » « ٣ » « وساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا » « ٤ » فان كانت نكرة مضافة الى نكرة جاز الرفع والنصب . كقولك نعم غلام سفر غلامك ، بالرفع والنصب — حكاه الفراء .

وقال بعضهم : إن (ان) في موضع خفض ان شئت ، وان شئت في موضع رفع : فالخفض ان ترده على الهاء في به على التكرير على كلامين ، لانك قلت : اشتروا انفسهم بالكفر : والرفع ان يكون تكراراً على موضع (ما) التي تلي

«١» سورة المائدة آية : ٨٣ .

«٢» اللسان (دلا) دلوت الناقة دلواً : سقتها رويداً ورعى الماشية وارعاها : اطلقها في المرعى .

«٣» سورة الكهف آية : ٥١

«٤» سورة الاعراف آية : ١٧٦ .

بئس ، ولا يجوز ان يكون رفعاً على قولك بئس الرجل عبد الله .

وقال بعضهم : أولى هذه الاقوال أن تجعل بئسما مرفوعاً بالراجع من الهاء في قوله : اشتروا به . كما رفعوا ذلك بعبد الله ، في قولهم : بئسما عبد الله ، وجعل أن يكفروا مترجماً عن بئس . فيكون التقدير بئس الشيء باع اليهود به انفسهم بكفرهم ، بما انزل الله بغياً وحسداً ان ينزل الله من فضله . وتكون ان التي في قوله : « ان ينزل الله » في موضع نصب ، لانه يعني به ان يكفروا بما انزل الله من اجل ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . وموضع (ان) جر . والكسائي جعل ان في موضع خفض بنية الباء وانما كان النصب اقوم ، لتمام الخبر قبلها ولا خافض معها . وحرف الخفض اذا كان مضمراً لا تخفض به .

المعنى :

ومعنى قوله : « اشتروا به انفسهم » اي باعوا به انفسهم ـ على وزن افتعلوا ـ من الشراء وسمي البائع الشاري بهذا ، لانه باع نفسه ودنياه عنده . واكثر الكلام شريت بمعنى بعت . واشتريت بمعنى ابتعت . قال الشاعر يزيد بن مفرغ الحميري :

وشريت برداً ليتني من قبل برد كنت هامة «٣»

ومعنى قوله : « وشروه بثمن بخس » باعوه . وربما استعملت اشتريت بمعنى بعت . وشريت بمعنى ابتعت . والاكثر ما قلناه .

وقوله : « بغياً » اي حسداً وتعدياً . فان قيل : كيف باعت اليهود انفسها بالكفر . وهل يشترى بالكفر شيء ؟ قيل معنى الشراء والبيع ـ عند العرب ـ هو ازالة ملك المالك إلى غيره بعوض يعتاضه منه ، ثم يستعمل ذلك في كل معتاض من عمله عوضاً ـ خيراً كان أو شراً ـ يقال نعم ما باع فلان نفسه به ، وبئس ما باع به نفسه . بمعنى نعم الكسب كسبها ، وبئس الكسب كسبها . وكذلك قوله : « بئس ما اشتروا به انفسهم » ، لما ابقوا انفسهم بكفرهم بمحمد « ص » واهلكوها .

«٣» طبقات فحول الشعراء : ٥٥٥ من قصيدة له في هجاء عباد بن زياد ـ وكان قد باع غلاماً لابن مفرغ . اسمه (برد) قوله . كنت هامة . اي كنت هالكاً .

خاطبهم الله بالعرف الذي يعرفونه : فقال : بئس ما اعتاضوا من كفرهم بالله ، وتكذيبهم محمداً « ص » إذا كانوا رضوا به عوضاً من ثواب الله ، وما اعدّ لهم ـ لو كانوا امنوا بالله وما انزل على انبيائه ـ بالنار ، وما اعدّلهم بكفرهم بذلك . ونظير هذه الآية قوله : في سورة النساء : « الم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب » الى قوله : « وآتيناهم ملكاً عظيماً » «١» .

وكان ذلك حسداً منهم لكون النبوة في غيرهم .

وقوله : « بغياً » نصب لانه مفعول له . والمعنى فساداً . قال الاصمعي : مأخوذ من قولهم : بغى الجرح اذا فسد . ويجوز ان يكون مأخوذاً من شدة الطلب للمطاول . وسميت الزانية بغيّاً لانها تطلب . واصل البغي الطلب . و « بغياً ان ينزل الله » اي لأن ينزل الله . وكذلك كل ما في القرآن . ومثله قول الشاعر :

أتجزع أن بان الخليط المودع وحبل الصفا من عزة المتقطع

وقوله : « فباءوا بغضب على غضب » اي رجعوا . والمراد رجعت اليهود من بني اسرائيل بعد ما كانوا عليه من الاستنصار لمحمد « ص » في الاستفتاح به ، وبعد ما كانوا يخبرون الناس من قبل مبعثه انه نبي مبعوث ـ مرتدين على اعقابهم حين بعثه الله نبياً ـ بغضب من الله استحقوه منه بكفرهم به وجحدهم بنبوته ، وانكارهم اياه . وقال السدي : الغضب الاول حين عبدوا العجل ، والثاني ـ حين كفروا بمحمد « ص » . وقال عطا وغيره : الغضب الاول ـ حين غيروا التوراة قبل مبعث محمد « ص » : والغضب الثاني ـ حين كفروا بمحمد « ص » . وقال عكرمة والحسن : الاول ـ حين كفروا بعيسى « ع » : والثاني ـ حين كفروا بمحمد « ص » . وقد بينا ان الغضب من الله هو ارادة العقاب بهم .

وقوله : « وللكافرين عذاب مهين » معناه للجاحدين بنبوة محمد « ص » عذاب مهين من الله : إما في الدنيا ، وإما في الآخرة . و « مهين » هو المذل لصاحبه

«١» سورة النساء آية ٤٣ ـ ٥٣ .

المخزي لملبسه هواناً وذلة . وقيل « المهين » هو الذي لا ينتقل منه الى اعزاز وإكرام . وقد يكون غير مهين اذا كان تمحيصاً وتكفيراً ينتقل بعده الى اعزاز وتعظيم : فعلى هذا من ينتقل من عذاب النار الى الجنة ، لا يكون عذابه مهيناً . قال المؤرخ : « فباءوا » استوجبوا اللعنة ـ بلغة جرهم ـ . ولا يقال باء مفردة حتى يقول بكذا وكذا : اما بخير واما بشر . قال ابو عبيدة : « فباءوا بغضب » احتملوه واقروا به . واصل البواء التقرير والاستقرار . قال الشاعر :

أصالحكم حتى تبوءوا بمثلها   كصرخة حبلى يسرتها قبولها «١»

قوله تعالى :

« وإذا قيلَ لَهم آمِنُوا بما أنزَلَ اللهُ قالُوا نُؤمِنُ بما أُنزِلَ علينا وَيكفُرونَ بما وَراءَه وَهو الحقُّ مُصدّقاً لِما مَعهم قُل فَلِمَ تَقتُلونَ أنبياءَ اللهِ مِن قَبلُ إن كُنتم مُؤمِنين (٩١) آية بلا خلاف .

المعنى :

قوله : « بما انزل الله » يعني القرآن . « قالوا نؤمن بما أنزل علينا » يعنون التوراة . « ويكفرون بما وراءه » يعني بما بعده قال الشاعر :

تمني الاماني ليس شيء وراءها   كموعد عرقوب اخاه بيثرب (١)

وقال الفراء : معنى « وراءه » ها هنا سواه . كما يقال للرجل يتكلم بالحسن : ما وراء هذا الكلام شيء يراد به ، ليس عند المتكلم شيء سوى ذلك الكلام .

«١» قائله الأعشى الكبير اللسان (قبل) وروايته (اسلمتها قبيلها) أي يأست منها قابلتها التي تستقبل المولود . وديوانه ١٧٧ ، رقم القصيدة ٢٣ . وروايته (يسرتها قبولها) أي سهلت ولادتها قابلتها . وفي المخطوطة والمطبوعة (بشرتها قبيلها) وفي المخطوطة (نصالحكم) بدل (اصالحكم) وفي المطبوعة (نصاحبكم) . تبوءوا تعودوا . «٢» لم نجد هذا البيت في مصادرنا . وفي اللسان (عرقب) بيت للأشجعي عجزه كعجز هذا الا أن (مواعيد) جاءت به بدل (كموعد) ويقول (بيترب) ـ بالتاء ـ مكان في اليمن (ويثرب) ـ بالثاء ـ المدينة نفسها

ومعنى قوله : « ويكفرون بما وراءه وهو الحق » وبما سوى التوراة وبما بعده من كتب الله عزوجل التي انزلها الله الى رسله .

قوله : « هو الحق مصدقاً » يعني القرآن مصدقاً لما معهم ـ ونصب على الحال ـ ويسميه الكوفيون على القطع .

وقوله : « من قبل » ضم على الغاية ، وكذلك اخواتها نحو بعد وتحت وفوق اذا جعلت غاية ضمت . وفي ذلك خبر من الله تعالى ذكره انهم من التكذيب في التوراة على مثل الذي هم عليه من التكذيب بالانجيل والقرآن عناداً وخلافاً لأمره ، وبغياً على رسله .

وقوله : « فلم تقتلون انبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين » يعني قل يا محمد ليهود بني اسرائيل اذا قلت لهم آمنوا ـ قالوا لك نؤمن بما انزل علينا ـ : لم تقتلون ان كنتم مؤمنين بما أنزل الله عليكم ـ انبياءه ـ وقد حرم عليكم في الكتاب الذي انزل عليكم قتلهم ، بل امركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم . وفي ذلك تكذيب لهم في قولهم نؤمن بما انزل علينا ، وتعيير عليهم .

وقوله : « فلم تقتلون » وان كان بلفظ الاستقبال المراد به الماضي ، بدلالة قوله : من قبل . وذلك لما مضى ، كما قال : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين » «١» اي ما تلت . قال الشاعر :

ولقد امر على اللئيم يسبني   فمضيت عنه وقلت لا يعنيني«٢»

وفي رواية اخرى ثمت . قلت يريد بقوله ولقد امر بدلالة قوله : فمضيت ولم يقل فأمضي وقال آخر :

واني لآتيكم تشكر ما مضى   من الامر واستيجاب ما كان في غد«٣»

«١» سورة البقرة آية : ١٠٢ «٢» قائله رجل من بني سلول . سيبويه ٤١٦ . وشرح شواهد المغني وغيرها كثير . وروايتهم جميعاً « ثمت » بدل عنه .

«٣» قائله الطرماح بن حكيم الطائي . ديوانه ١٤٦ . واللسان (كون) وروايته (الاستنجاز) بدل (استيجاب) وكذلك المطبوعة .

يعني بذلك ما يكون في غد . قال الحطيئة :

شهد الحطيئة حين يلقى ربه　　أن الوليد احق بالعذر«١»

يعني يشهد وقال آخر :

فما أضحى ولا امسيت إلا　　اراني منكم في كوفان «٢»

فقال : اضحى ، ثم قال : ولاامسيت . ومثله « يحسب انماله اخلده »«٣» اي يستخلده . وقال بعض الكوفيين انما قال : « فلم تقتلون انبياء الله من قبل » واراد به الماضي كما يقول القائل — موبخاً لغيره ، ومكذباً له : لم تكذب ، ولم تبغض نفسك الى الناس . قال الشاعر :

اذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة　　ولم تجدي من ان تقري به بداً«٤»

فالجزاء المستقبل ، والولادة كلها قد مضت ، وجاز ذلك لانه معروف . وقال قوم : معناه فلم ترضون بقتل ابياء الله إن كنتم مؤمنين . وقالت فرقة ثانية : فلم تقاتلون انبياء الله فعبر عن القتال بالقتل ، لانه يؤول اليه .

قوله تعالى :

« وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) آية بلا خوف .

المعنى :

« ولقد جاءكم موسى » يعني جاء اليهود موسى « بالبينات » الدالة على صدقه وصحة نبوته . كقلب العصا حية ، وانبجاس الماء من الحجر ، واليد البيضاء ، وفلق البحر ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، وغيرها من الآيات . وسماها بينات ، لظهورها وتبينها للناظرين اليها انها معجزة لا يقدر على أن يأتي بمثلها بشر . وانما هي جمع بينة

«١» ديوانه ٨٥ وانساب الاشراف ٥ : ٣٢ من قصيدة قالها في الوليد بن عقبة بن ابي معيط — وكان قد حده عثمان بن عثمان على شرب الخمر .

«٢» اللسان (كوف) . والكوفان (بتشديد الواو) . الاختلاط والشدة والعناء .

«٣» سورة الهمزة آية ٣　　«٤» قائله زائدة بن صعصعة وتقدم في ١ . ٢٨٩ .

مثل طيبة وطيبات وقوله : « ثم اتخذتم العجل من بعده » يعني بعد « موسى » لما فارقهم ومضى الى ميقات ربه .

ويجوز ان تكون الهاء كناية عن المجيء . فيكون التقدير : ثم اتخذتم العجل من بعد مجيء موسى بالبينات « وانتم ظالمون » كما يقول القائل : جئتني فكرهتك : اي كرهت مجيئك . وليس المراد بثم هاهنا النسق ، وانما المراد بها التوبيخ ، والتعجب والاستعظام لكفرهم مع ما رأوا من الآيات . وقوله : « وانتم ظالمون » يعني انكم فعلتم ما فعلتم من عبادة العجل . وليس ذلك لكم ، وعبدتم غير الله ، وكان ينبغي لكم ان تعبدوا الله ، لان العبادة لا تكون لغير الله ، فانتم بفعل ذلك ظالمون انفسكم .

قوله تعالى :

« وإذ اخذنا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعنا فَوقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتيناكم بِقُوَّةٍ واسْمَعُوا قالوا سَمِعْنَا وَعَصَينا وأُشْرِبُوا في قُلوبِهِم العِجلَ بكفرِهِم قُل بِئْسَما يأمُرُكُم بِهِ إيمانُكُمْ إنْ كُنتُم مُؤمِنينَ (٩٣)

آية بلا خلاف .

المعنى :

تقديره واذكروا إذ أخذنا ميثاقكم وعهودكم بان تأخذوا ما آتيناكم من التوراة التي انزلها الله على موسى بجد واجتهاد ، ومعناه اقبلوا ما سمعتم ، كما قيل سمع الله لمن حمده : اي قبل الله حمده قال الراجز :

بالحمد والطاعة والتسليم خير واعفى لفتى تميم (١)

فصار تقدير الآية : « واذ اخذنا ميثاقكم » بأن « خذوا ما آتيناكم بقوة » واعملوا بما سمعتم واطيعوا الله « ورفعنا فوقكم الطور » من اجل ذلك .

(١) قائله رجل من ضبة من بني ضرار يدعى جبير بن الضحاك . تاريخ الطبري ٤ : ٢٢٣ . في ذكر سنة ٥٥ وروايته (السمع) بدل (بالحمد) .

وقوله : « قالوا سمعنا وعصينا » كأن الكلام خرج مخرج الخبر عن الغائب بعد أن كان الابتداء بالخطاب ، لما تقدّم ذكره من ابتداء الكلام ، اذ كان حكاية . والعرب تخاطب ، ثم تعود بعد ذلك الى الخبر عن الغائب ، ثم تخاطب ، لان قوله : « واذ اخذنا ميثاقكم » بمعنى قلنا لكم ، فأجبتمونا ، وقوله : « سمعنا » إخبار من الله تعالى عن اليهود الذين أخذنا ميثاقهم ان يعملوا بما في التوراة ، وان يطيعوا الله بما يسمعون منها انهم قالوا حين قيل لهم ذلك : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ويحتمل ان يكون ماقالوه لكن فعلوا ما يدل على ذلك ، فقام الفعل مقام القول . كما قال الشاعر :

امتــلأ الحوض وقال قطني　　مهلا رويداً قد ملأت بطني (١)

وقوله : « واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم » فيه وجوه :

احدها ـ ما قال قتادة وابو العالية : واشربوا في قلوبهم حب العجل . يقال أشرب قلبه حبّ كذا وكذا قال زهير :

فصحوت عنها بعد حبّ داخل　　والحبّ يشربه فؤادك داء (٢)

وقالت اعرابية :

باهلي من عادى ونفسي فداؤه　　به هام قلبي منذ حين ولا يدري

هوى اشربته النفس ايام جهلها　　ولجّ عليه القلب في سالف الدهر

وقال السدي : لما رجع موسى الى قومه اخذ العجل الذي وجدهم عاكفين عليه ، فذبحه ثم حرقه بالمبرد ، ثم ذراه في اليم فلم يبق بحر يجري يومئذ إلا وقع فيه شيء منه ، ثم قال اشربوا فشربوا ، فمن كان يحبه خرج على شاربه الذهب . والاول عليه اكثر محصلي المفسرين وهو الصحيح ، لان الماء لا يقال فيه : أشرب منه فلان في قلبه ، وانما يقال ذلك : في حب الشيء على ما بيناه ، ولكن يترك ذكر الحب اكتفاء بفهم السامع ، لمعنى الكلام ، اذ كان معلوماً ان العجل لا يشربه القلب

(١) اللسان (قطط) وروايته (سلا) بدل (مهلا) .

(٢) ديوانه : ٣٣٩ . وروايته (تشربه) بضم التاء وسكون الشين وكسر الراء .

وان الذي اشرب منه حبّه . كما قال « واسأل القرية » وانما اراد اهلها . كما قال الشاعر :

حسبت بغام راحلتي عناقاً   وما هي ويب غيرك بالعناق (١)

يريد بذلك حسبت بغام راحلتي بغام عناق . وقال طرفه بن العبد :

ألا إنني سقّيت اسود حالكا   ألا بجلي من الشراب ألا بجل (٢)

يريد بذلك سقيت سما اسود ، فاكتفى بذكر (اسود) عن ذكر (السم) لمعرفة السامع بمعنى ما اراد بقوله سقيت اسود . وقال آخر :

وكيف تواصل من أصبحت   خلالته كأبي مرحب ؟ (٣)

اي كخلالة أبي مرحب وقال آخر :

وشر المنايا ميتةوسط اهله (٤)

اي ميتة ميت . وقد يقول العرب : اذا سرك ان تنظر الى السخاء ، فانظر الى هرم (٥) ، أو الى حاتم . فيجتزئون بذكر الاسم عن ذكر فعله ، للعلم به .

وقوله : « بئسما يأمركم به ايمانكم إن كنتم مؤمنين » معناهقل يا محمد ليهود بني اسرائيل : بئس الشيء يأمركم به ايمانكم إن كان يأمركم بقتل انبياء الله ورسله والتكذيب بكتبه ، وجحد ما جاء من عنده . وقال الازهري : معنى ان كنتم :

---

(١) اللسان (عنق) انشده ابن الاعرابي . لقريظ يصف الذئب وفي اللسان (بغم) نسبه الى ذي الخرق . البغام : الصوت من الحيوان الصامت . والعناق : الانثى من المعز ، ويب كلمة تقولها العرب للتحقير . بمعنى ويل .

(٢) ديوانه : ٣٤٣ (اشعار الستة الجاهلين) ، واللسان (سود) وروايته (شربت) بدل (سقيت) بضم السين وتشديد القاف وضم التاء . ويروى (ساخاً) بدل (حالكا) واختلف فيما اراد بقوله (اسود) قيل الماء ، وقيل المنية ، وقيل السم . وبجلي حسبي .

(٣) قائله النابغه الجعدي : اللسان (خلل) . ابي مرحب : كنية الظل ، ويقال هو كنية عرقوب الذي قيل عنه :   مواعيد عرقوب اخاه بيثرب

انظر ١ : ٨٥ فثمت ايضاح كاف .

(٤) وعجز البيت :   كهلك الفتى قد اسلم الحي حاضره

(٥) في المطبوعة « هرما » وهو تحريف . وهرم : هو ابن سنان صاحب زهير بن ابي سلمى وحاتم : الطائي المشهور .

اي ما كنتم مؤمنين ـ نفياً ـ والاول اجود . ومعنى ايمانهم : تصديقهم الذي زعموا انهم مصدقون ، من كتاب الله اذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا .

وقوله : « ان كنتم مؤمنين » أي ان كنتم مصدقين كما زعمتم ، فأخبر ان تصديقهم بالتوراة ، انه كان يأمرهم بذلك ، فبئس الامر يأمرهم به . وانما ذلك نفي عن التوراة ان يكون يأمر بشيء مما يكرهه الله من افعالهم ، واعلاماً منه ان الذي تأمرهم به اهواؤهم ، وتحمل عليه عداوتهم . وهذا كما يقول الرجل : بئس الرجل انا إن رضيت بفعلك ، او ساعدتك عليه .

والمعنى وأشربوا في قلوبهم حب العجل بكفرهم ، اي لالفهم الكفر وثبوتهم فيه ، والكفر يدعو بعضه الى بعض ، ويحسّن بعضه بعضاً . وليس المعنى في قوله : « واشربوا » ان غيرهم فعل ذلك بهم ، بل هم الفاعلون له ، كما يقول القائل : أنسيت ذلك من النسيان (٣) ليس يريد إلا انك فعلت . وقولهم : لقد أوتي فلان علماً جماً ـ وان كان هو المكتسب له ، وإن الجنس الذين قالوا : سمعنا وعصينا غير الذين رفع عليهم الطور بأعيانهم ، لكنهم كانوا على منهاجهم ، وسبيلهم . فأما أولئك باعيانهم ، فانهم آمنوا : إما طوعاً ، واما كرهاً . والمعنى في (الباء) المتصلة بالكفر : أنهم كفروا بالله بما اشربوا من محبة العجل . وليس المعنى انهم في ذلك اشربوا حبّ العجل جزاءً على كفرهم ، لأن محبة العجل كفر قبيح . والله لا يفعل الكفر في العبد ، لا إبتداء ، ولا مجازاة .

---

(١) في المطبوعة والمخطوطة « الست من الشنئان) وهو غلط .

قوله تعالى :

« قُلْ إنْ كانَتْ لكُمُ الدّارُ الآخرةُ عِندَ اللهِ خالِصةً مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوا الموْتَ إن كُنتُم صادِقِين » (٩٤) آية واحدة بلا خلاف .

هذه الآية مما احتج الله بتأويلها لنبيه (ص) على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره ، وفضح بها احبارهم وعلماءهم ، لانه دعاهم الى قضية عادلة بينه وبينهم ، كما كان من الخلاف الواقع بينهم . فقال لفريق من اليهود : ان كنتم صادقين ان الجنة خالصة لكم دون الناس كلهم ، او دون محمد واصحابه الذين آمنوا به فتمنوا الموت ، لان من اعتقد انه من أهل الجنة قطعاً ، كان الموت أحب اليه من حياة الدنيا التي فيها النغص ، وانواع الآلام ، والمشاق ، ومفارقتها الى نعيم خالص يتخلص به من اذى الدنيا .

وقوله : « فتمنوا الموت » ـ وان كان صورته صورة الامر ـ المراد به التوبيخ ، والزام الحجة .

وروي عن النبي (ص) انه قال : لو ان اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار فقال الله تعالى لهم « ولن يتمنونه ابداً بما قدمت ايديهم » تحقيقاً لكذبهم ، فقطع على انهم لا يظهرون التمني وفي ذلك اعظم الدلالة على صدقه ، لانه اخبر بشيء قبل كونه ، فكان كما اخبر ، لانه لا خلاف انهم لم يتمنوا . وقيل انهم ما تمنوا ، لانهم علموا انهم لو تمنوا الموت ، لماتوا ـ كما قاله ـ فلذلك لم يتمنوه . وهذا قول ابن عباس . وقال غيره : إن الله صرفهم عن اظهار التمني ، ليجعل ذلك آية لنبيه (ص) .

أما التمني فهو قول لما كان: ليته لم يكن ، ولما لم يكن ليته كان . وقال قوم: هو معنى في القلب . غير انه لا خلاف انه ليس من قبل الشهوة . فمن قال من المفسرين : انه أراد فتشهوا ، فقد اخطأ . وقد روي عن ابن عباس انه قال : فاسألوا الموت . وهذا بعيد ،

لان التمني بمعنى السؤال لا يعرف في اللغة . فان قيل : من اين انهم ما تمنوه بقلوبهم عند من قال : انه معنى في القلب ؟ قلنا : لو تمنوه بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم حرصاً منهم على تكذيبه في إخباره ، وجهداً في اطفاء امره . وهذه القصة شبيهة بقصة المباهلة ، وان النبي (ص) لما دعا النصارى الى المباهلة امتنعوا لقلة ثقتهم بما هم عليه ، وخوفهم من صدق النبي (ص) .

ومعنى « خالصة » : صافية . يقال خلص لي هذا الامر : اي صار لي وحدي ، وصفا لي يخلص خلوصاً وخالصة . والخالصة : مصدر كالعاقبة يقال للرجل هذا خلصاني : اي خالصتي – من دون اصحابي .

قوله تعالى :

« وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيهِم وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ »

(٩٥) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الذين قيل لهم : « تمنوا الموت ان كنتم صادقين » بانهم لا يتمنون ذلك ابداً . وقد بينا ان في ذلك دلالة على صدق النبي (ص) من حيث تضمنت انهم لا يتمنون ذلك في المستقبل . وكان كما قال .

وقوله : « ابداً » نصب على الظرف : اي لم يتمنوه ابداً طول عمرهم . كقول القائل : لا أكلمك ابداً ، . وانما يريد ما عشت .

وقوله : « بما قدمت ايديهم » معناه بالذي قدمت ايديهم ويحتمل ان يكون المراد بتقدمة ايديهم : فتكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر .

وقوله : « والله عليم بالظالمين » انما خص الظالمين بذلك – وان كان عالماً بغيرهم لأن الغرض بذلك الزجر ، كانه قال : عليم بمجازاة الظالمين . كما يقول القائل لغيره ، مهدداً له : انا عالم بك بصير بما تعمله . وقيل : انه عليم بانهم لا يتمنونه ابداً حرصاً على الحياة ، لان كثيراً منهم يعلم انه مبطل : وهم المعاندون منهم الذين يكتمون الحق وهم يعلمون .

قوله تعالى :

« وَلَتَجِدَنَّهُم أَحرَصَ النَاس على حَيوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشرَكوا يَوَدُّ أَحدُهُم لو يُعَمَّر أَلفَ سَنةٍ وَما هُوَ بِمُزحزِحِهِ مِنَ العَذابِ أَن يُعَمَّر واللهُ بَصيرٌ بِما يَعمَلونَ » (٩٦) آية بلا خلاف .

المعنى :

قال ابن عباس ، وابو العالية : ومجاهد ، والربيع : ان المعني بقوله احرص الناس على حياة اليهود واحرص من الذين اشركوا وهم المجوس وهم الذين يود احدهم لو يعمّر الف سنة وما هو بمزحزحه لانه اذا دعا بعضهم لبعض يقول له : هزار سال بده : اي عشرة الاف سنة واليهود احرص على الحياة منهم « وما هو بمزحزحه » اي بمباعده من العذاب ان يعمر لانه لو عمر ما تمنى لما دفعه طول العمر من عذاب الله تعالى على معاصيه وانما وصف الله اليهود بانهم احرص الناس على حياة لعلمهم بما قد اعدّ الله لهم في الآخرة على كفرهم ، مما لا يقر به اهل الشرك الذين لا يؤمنون بالبعث ويعلمون ما هناك من العذاب . وان المشركين لا يصدقون ببعث ولا عقاب . واليهود احرص منهم على الحياة واكره للموت .

وقوله : « وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر » يعني وما التعمير وطول البقاء بمزحزحه من عذاب الله ، وهو عماد لطلب (ما) الاسم اكثر من طلبها الفعل كما قال الشاعر :

وهل هو مرفوع بما ها هنا راس (١)

وان في قوله : « يعمر » رفع بمزحزحه وحسنت الباء في قوله « بمزحزحه »

---

(١) معاني القرآن للفراء ١ : ٥٢ صدر البيت :

بثوب ودينار وشاة ودرهم

وقوله . « بثوب » متعلق بقوله « باع » من البيت المتقدم وهو

بأن السلامي الذي بضرية　امير الحمى قد باع حقي بني عبس

ومعنى « فهل هو مرفوع بما هاهنا رأس » فهل نجد ناصراً ينصرنا ويأخذ لنا حقنا ، فترفع رؤسنا . وهذه كلمة يقولونها في مثل ذلك .

كما تقول : ما عبد الله بملازمة زيد وهي التي مع (ما) ذكره عماد للفعل ، لاستفتاح العرب النكرة قبل المعرفة . وقال قوم : ان هو التي مع (ما) كناية عن ذكر العمر وجعل ان يعمر مترجما عن هو يريد ما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر : اي وان عمر قال الزجاج : وما هو كناية عن احدهم كانه قال : وما احدهم بمزحزحه من العذاب كانه قال : يود احدهم ان يعمر الف سنة وما ذلك العمر بمزحزحه من العذاب وقوله : « بمزحزحه » اي بمبعده قال الحطيئة :

فقالوا تزحزح لا بنا فضل حاجة اليك ولا منا لو هيك رافع (١)

يعني تباعد يقال منه : زحزحه يزحزحه زحزحة وزحزاحاً . فتأويل الآية : وما طول العمر بمبعده من عذاب الله ، ولا منجيه منه ، لانه لا بد للعمر من الفناء فيصير الى الله تعالى ، وقال الفراء : « احرص الناس على حياة ، ومن الذين اشركوا » ايضا والله اعلم كقولك هو اسخى الناس . من حاتم ومن هرم(٢) لان تأويل قولك : اسخي الناس انما هو اسخى من الناس .

وقوله : « والله بصير بما يعملون » قرىء بالتاء والياء معاً : اي لا يخفى عليه شيء من اعمالهم ، بل هو بجميعها محيط ، ولها حافظ حتى يذيقهم بها العذاب ومعنى بصير مبصر عند اهل اللغة وسميع بمعنى مسمع ، لكنه صرف الى فعيل في بصير وسميع ، ومثله « عذاب أليم » بمعنى مؤلم « وبديع السموات » بمعنى مبدع . وعند المتكلمين المبصر : هو المدرك للمبصرات ، والبصير هو الحي الذي لا آفة به ، لانه يجب ان يبصر المبصرات اذا وجدت . وليس احدهما هو الآخر وكذلك سميع ومسمع .

وقوله : « يود » تقول وددت الرجل أود وداً ووداً ووداداً ووداة ومودة واود: لا يكون ماضيه ، الا وددت وقال بعض المفسرين : ان تأويل قوله « لتجدنهم احرص الناس على حياة » اي من الناس اجمع ، ثم قال : واحرص من الذين اشركوا

---

(١) الاغاني ١٣ . ٦ وقد نسب البيت لقيس بن الحدادية من قصيدة طويلة ، نفيسة .

(٢) في المخطوطة والمطبوعة « هرية » انظر ١ . ٣٥٥ .

على وجه التخصيص ، لان من لا يؤمن بالبعث ، والنشور ، يكون حرصه على البقاء في الدنيا اكثر ممن يعتقد الثواب ، والعقاب . فان قيل : أليس نجد كثيراً من المسلمين يحرصون على الحياة ، ويكرهون الموت ؟ فكيف تدل هذه الآية على ان اليهود لم يكونوا على ثقة مما كانوا يدّعونه من انهم اولى به من المسلمين ـ مع ان المسلمين يشاركونهم في الحرص على الحياة ـ وهم على يقين من الآخرة ، وما فيها من الثواب ، والعقاب ؟ قيل : ان المسلمين لا يدّعون أن الدار الآخرة لهم خالصة ، ولا انهم احباء الله ، ولا انهم من اهل الجنة قطعاً ، كما كانت اليهود تدعي ذلك ، بل هم مشفقون من ذنوبهم ، يخافون أن يعذبوا عليها في النار ، فلهذا يشفقون من الموت ، ويحبون الحياة ، ليتوبوا من ذنوبهم التي يخافون ان يعذبوا عليها في النار ، فلهذا يشفقون من الموت ويحبون الحياة ليتوبوا من ذنوبهم ، ويصلحوا اعمالهم . ومن كان على يقين مما يصير اليه ، لم يؤثر الحياة على الموت . كما روي عن علي (ع) انه قال : لا ابالي سقط الموت عليّ او سقطت على الموت ، وقال : اللهم سئمتهم ، وسئموني : فابدلني بهم خيراً منهم ، وابدلهم بي شراً مني . وقوله : اللهم عجل اليّ الراحة ، وعجل لهم الشقوة . وكما روي عن عمار (ره) انه قال يوم صفين : القى الاحبة : محمداً وصحبه . وكما قال حذيفة عند الموت : حبيب جاء على فاقة لا افلح من ندم .

قوله تعالى :

« قُلْ مَن كانَ عَدُوّاً لِجبريل فَانه نَزَّلهُ عَلى قَلبكَ بِإذنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِما بَينَ يَدَيْه وهُدىً وبُشرَى للمؤمنين » (٩٧) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابن كثير : (جبريل) بفتح الجيم وكسر الراء وبعدها ياء ساكنة من غير همزة مكسورة . وقرأ حمزة والكسائي وخلف وابو بكر إلا يحيى : بفتح الجيم والراء بعدها همزة مكسورة بعدها ياء ساكنة على وزن (جبرعيل) .

وروى يحيى كذلك إلا انه حذف بعده الهمزة فيصير (جبريل) . الباقون بكسر الجيم والراء ، وبعدها ياء ساكنة من غير همز . وقرأ اهل البصرة (ميكال) بغير همز ، ولا ياء . وقرأ اهل المدينة بهمزة مكسورة بعد الالف . مثل (ميكاءل) الباقون باثبات ياء ساكنة بعد الهمزة على وزن (ميكاعيل) .

اللغة :

قال ابو الحسن الاخفش : في (جبريل) ست لغات : جبرائيل ، وجَبرئيل ، وجبرال ، و جبريل ، وجبرال ، وجبريل . وحكى الزجاج بالنون ايضاً بدل اللام ، وهي لغة بني أسد . وبتشديد اللام .

النزول :

اجمع اهل التأويل على ان هذه الآية نزلت جواباً لليهود ـ حين زعموا أن جبريل عدوّ لهم ، وان ميكال وليّ لهم ـ لما أخبروا ان جبريل هو الذي نزل على محمد (ص) ـ قالوا : جبريل عدو لنا ، يأتي بالحرب والجدب . وميكائيل يأتي بالسلام والخصب : فقال الله تعالى : « قل من كان عدوا لجبريل » اذ كان هو المنزل الكتاب عليه ، فانه انما أنزله على قلبه باذن الله ، لا من تلقاء نفسه ، وانما انزل لما هو مصدق بين يديه من الكتب التي في ايديهم ، لا مكذباً لها ، وانه وإن كان فيما أنزل الامر في الحرب ، والشدة على الكافرين . فانه هدىً وبشرى للمؤمنين .

المعنى :

وقوله : « على قلبك » ولم يقل على قلبي . كقولك الذي تخاطبه : لا تقل للقوم إن الخبر عندك ، ويجوز ان تقول : لا تقل : ان الخبر عندي . وكما تقول : قال القوم : جبرائيل عدونا ، ويجوز ان تقول : قالوا : جبرائيل عدوهم . ولا ينبغي أن يستنكر أحد أن اليهود يقولون : إن جبرائيل عدونا ، لان الجهل في هؤلاء أكثر من ان يحصى . وهم الذين اخبرالله عنهم بعد مشاهدة فلق البحر ، والمعجزات

الباهرة « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » « ١ » وقالوا : « ارنا الله جهرة » « ٢ » ومثل ذلك طائفة من النصارى تعادي سليمان فلا تذكره ولا تعظمه ، ولا تقرّ نبوته .

الاعراب :

وجبرائيل ، وميكائيل : اسمان اعجميان أعربا . وقيل : ان جبر عبد وايل الله مثل عبد الله «٣» . وضعف ذلك ابو علي الفارسي من وجهين :

احدهما ـ ان ايل لا يعرف في اسماء الله في لغة العرب .

والثاني ـ انه لو كان كذلك لأعرب آخر الكلمة . كما فعل ذلك في سائر الاسماء المضافة : والامر بخلافه .

سبب النزول :

وكان سبب نزول هذه الآية ما روي أن صوريا ، وجماعة من يهود اهل فدك ، لما قدم النبي (ص) المدينة سألوه ، فقالوا : يا محمد كيف نومك ، فقد اخبرنا عن نوم النبي الذي يأتي في اخر الزمان ؟ فقال : تنام عيناي وقلبي يقظان ، فقالوا : صدقت يا محمد ، فاخبرنا عن الولد يكون من الرجل او من المرأة ؟ فقال : اما العظام والعصب والعروق ، فمن الرجل ، واما اللحم والدم والظفر والشعر : فمن المرأة . قالوا : صدقت يامحمد ، فما بال الولد يشبه اعمامه ، ليس فيه من شبه اخواله شيء ، او يشبه اخواله ليس فيه من شبه اعامه شيء ؟ فقال : ايهما علا ماؤه كان الشبه له ، قالوا : صدقت يا محمد ، فاخبرنا عن ربك ما هو ؟ فأنزل الله تعالى : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحـد » « ٤ » . فقال ابن صوريا : خصلة واحدة إن قلتهـا آمنت بك ، واتبعتك ، اي ملك يأتيك بما ينزل الله لك ؟ قال : جبريل . قالوا : ذلك عدونا ينزل بالقتال والشدة والحرب ، وميكائيل ينزل باليسـر والرخاء ، فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك : آمنا بك . فأنزل الله عزوجل هذه الآية.

«١» سورة الاعراف آية : ١٣٧ . «٢» سورة النساء آية : ١٥٢ .

«٣» في المخطوطة والمطبوعة واو زائدة قبل « مثل » .

«٤» سورة الاخلاص بأجمعها .

المعنى :

وقوله : « مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » يعني القرآن .
ونصب مصدقاً على الحال . والهاء في قوله : « نزله على قلبك » يا محمد « مصدقاً لما بين يديه » يعني القرآن ، ويعني مصدقاً لما سلف من كتب الله امامه التي انزلها على رسله ، وتصديقاً لها : موافقةً لمعانيها في الامر باتباع النبي (ص) ، وما جاء به من عند الله . وانما اضافه « هدىً وبشرى للمؤمنين » من حيث كانوا المهتدين به ، والعاملين العاملين به — على ما بيناه فيما مضى . —

قوله تعالى :

« مَن كانَ عَدُوّاً لِلّهِ وَمَلائكتهِ وَرُسُلِهِ وَجِبريلَ وَميكالَ فانَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافِرينَ (٩٨) آية .

وقد بينا اختلاف القراء في جبريل وميكائيل — وان كانا من جملة الملائكة — فانما افردا بالذكر ، لاجل امرين :
أحدهما — ذكرا لفضلهما ومنزلتهما . كما قال : « فيهما فاكهة ونخل ورمان » (١) ولما تقدم من فضلهما ، وان الآية نزلت فيهما ، وفيما جرى من ذكرهما .
والثاني — ان اليهود لما قالت : جبريل عدونا ، وميكال ولينا ، خصا بالذكر ، لئلا يزعم اليهود ان جبريل وميكال مخصوصان من جملة الملئكة ، وغير داخلين في جملتهم ، فنص الله تعالى عليهما ، لابطال ما يتأولونه من التخصيص . ثم قال : « فان الله عدو للكافرين » ولم يقل فانه ، فكرر اسم الله لئلا يظن ان الكناية راجعة الى جبرائيل ، او ميكائيل . ولم يقل (لهم) لانه يجوز ان ينتقلوا عن العداوة بالايمان . وفي هذه الآية دلالة على خطأ من قال من المجبرة : ان الامر ليس بمحدث احتجاجاً بقوله : « ألا له الخلق والامر » (٢) قالوا : فلما افرد الامر بالذكر بعد ذكره الخلق دل على ان الامر ليس بمخلوق . ولو كان الامر على ما قالوه ، لوجب ان لا يكون جبريل

«١» سورة الرحمان آية : ٦٨ .　　«٢» سورة الاعراف آية : ٥٣ .

وميكائيل من الملائكة . ونظير ذلك أيضاً قوله : « واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح » (١) .

قوله تعالى :

« وَلَقد أنزَلنا إليكَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ وَما يَكفُرُ بِها إلاّ الفاسِقُونَ » (٩٩) آية بلا خلاف .

المعنى :

معنى الآيات يحتمل امرين :

احدهما ـ ذكره البلخي وجماعة من أهل العلم يعني سائر الآيات المعجزات التي اعطاها الله النبي (ص) من الآيات : القرآن ، وما فيه ، وغير ذلك من الدلالات وقال بعضهم : هو الاخبار عما غمض مما في كتب الله السالفة من التوراة ، والانجيل ، وغيرها . وقال ابن عباس : ان ابن صوريا القطراني قال لرسول الله (ص) : يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما انزل عليك من اية بينة فنتبعك لها . فانزل الله في ذلك « ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون » فان قال بعض اليهود : انتم مقرون باياتنا ونحن نجحد بآياتكم ، فحجتنا لازمة لكم لانها مردودة الى ما تعرفونه (٢) ؟ قيل لهم فيجب على هذا ألا يكون لكم حجة على الدهرية والبراهمة والثنوية ، لانهم لا يعترفون باياتكم . وانما قال : « وما يكفر بها الا الفاسقون » ولم يقل الكافرون . وان كان الكفر اعظم من الفسق ، لاحد امرين :

[الاول] انه عنى الخارجين عن اديانهم ، وان اظهروا انهم يتمسكون بها ، لان اليهود قد خرجت بالكفر بالنبي (ص) من شريعة موسى . والفسق هو الخروج عن امر الله الى ما يعظم من معصيته .

والثاني ـ انه اراد الفاسقين المتمردين في كفرهم ، لان الفسق لا يكون الا اعظم الكبائر فان كان في الكفر ، فهو اعظم الكفر ، وان كان فيما دون الكفر ، فهو

«١» سورة الاعراف آية : ٣٣ . «٢» في المطبوعة (تعرفون) .

أعظم المعاصي . هذا يجيء على مذهب الحسن ، لانه ذكر ان الفاسقين : عني به جميع من كفر بها ، وقد يدخل في هذا الكلام احد امرين : احدهما ـ لقوم يتوقعون الخبر او لقرب (٥) الماضي من الحال . تقول : قد ركب الامير ، وجاء زيد ، وقد عزم على الخروج ، إي عازماً عليه ، وهي ها هنا مع لام القسم على هذا تقديره قوم يتوقعون الخبر ، لان الكلام اذا أُخرج ذلك المخرج كان أوكد وابلغ ، والآية هي العلامة التي فيها عبرة . وقيل العلامة هي الحجة . والبينة الدلالة الفاصلة بين القضية الصادقة والكاذبة ماخوذة من ابانه احد الشيئين عن الاخر فيزول التباسه به .

قوله تعالى :

« أَوَ كُلَّما عاهَدوا عَهداً نَبَذه فَريقٌ مِنْهُم بَل اكثَرُهُم لا يُؤمِنُونَ » (١٠٠) آية واحدة .

الاعراب :

الواو في قوله « او كلما » عند سيبويه واكثر النحويين واو العطف ، الا ان الف الاستفهام دخلت عليها ، لان لها صدر الكلام ، وهي او الاستفهام بدلالة ان الواو يدخل على هل ، لان الالف اقوى منها . قال الزجاج وغيره تقول : وهل زيد عاقل ، ولا يجوز وأزيد عاقل . وقال بعضهم يحتمل ان تكون زائدة . كزيادة الفاء في قولك : أفالله لتصنعن . والاول ـ اصح لانه لا يحكم بالزيادة مع وجود معنى من غير ضرورة ، والعطف على قوله : « خذوا ما اتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا » (٦) او كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ؟ وانما اتصل ذكر العهد بما قبله لاحد امرين :

احدهما ـ بقوله : « واذ اخذنا ميثاقكم » .

والثاني ـ انهم كفروا بنقض العهد كما كفروا بالآيات .

«١» في المطبوعة « الخبر وليقرب » «٢» سورة البقرة آية : ٩٣ .

المعنى :

والمراد بالعهد هاهنا : الميثاق الذي اخذه الله ليؤمنن بالنبي الامي - على قول ابن عباس ـ وقال ابو علي : المعني به العهود التي كانت اليهود اعطوها من انفسهم ـ في ايام انبيائهم ، وفي ايام نبينا محمد (ص) ، لانهم كانوا عاهدوه انهم لا يعينوا عليه احداً فنقضوا ذلك واعانوا عليه قريشاً يوم الخندق .

اللغة :

وقوله : « نبذه » النبذ والطرح والالقاء نظائر . قال صاحب العين : والنبذ طرحك الشيء عن يدك امامك ، او خلفك . والمنابذة : انتباذ الفريقين للحرب . تقول نبذنا إليهم على سواء : اي نابذناهم الحرب . والمنبوذون هم الاولاد الذين يطرحون ـ والنبيذ معروف ـ والفعل نبذت لي ، ولغيري ، وانبذت : خاصة لنفسي . والمنابذة في البيع منهي عنهـا وهي كالرمي ، كأنه اذا رمى اليه : وجب له ، وسمي النبيذ : نبيذاً ، لان التمر كان يلقى في الجرة وغيرها (١) . وهي فعيل بمعنى مفعول . واصاب الارض نبذة من المطر : اي قليل .

المعنى :

قال قتادة : معنى نبذه في الآية : نقضه ، وقيل : تركه . وقيل ألقاه ، والمعنى متقارب ـ قال ابو الاسود الدؤلي :

نظرت الى عنوانه فنبذته　　كنبذك نعلاً اخلقت من نعالكا «٢»

وقوله : « بل اكثرهم » الهاء ، والميم عائدتان على المعاهدين ، ولا يصلح على الفريق اذ كانوا كلهم غير مؤمنين . واما المعاهدون : فنهم من آمن كعبد الله

«١» في المطبوعة والمخطوطة « في الجر وغيره » .

«٢» ديوانه : ١١ . من ابيات كتب بها الى صديقه الحصين بن الحر ، وهو وال على ميسان • وكان كتب اليه في امر يهمه فشغل عنه ـ • وقبل البيت .

وخبرني من كنت ارسلت انما　　اخذت كتابي معرضاً بشمالكا

ابن ســلام ، وكعب الاحبـار وغيرها . وانما دخلت بل على قوله : « اكثرهم لا يؤمنون » ، لامرين :

احدها ـ انه لما قال : « نبذه فريق منهم » دل على انه كفر ذلك الفريق بالنقض ، وحسن هذا التفصيل ، لان منهم من نقض عناداً . ومنهم من نقض جهلاً .

والوجه الثـاني ـ كـفر فريق منهم بالنقض ، وكفر اكثرهم بالجحد للحق ، وهو امر النبي « ص » وما يلزم من اتباعه ، والتصديق به . وقيل بل يعني ان الفريق وان كانوا هم المعاندون ، والجميع كافرون . كما تقول : زيد كريم بل قومـه جميع كرام .

وقوله : « او كلما » نصب على الظرف ، والعامل فيه نبذ ، ولا يجوز ان يعمل فيه عاهدوا ، لانه متمم [لما] : اما صلة ، واما صفة .

قوله تعالى :

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (١٠١) آية .

المعنى :

قال السدي واكثر المفسرين : المعني بالرسول محمد « ص » . وقال بعضهم : يجوز أن يعنى به هاهنا الرسالة . كما قال كـثير :

فقد كذب الواشون ما بحت عندهم   بليلى ولا ارسلتهم برسـول «١»

وهذا ضعيف ، لأنه خلاف الظاهر ، قليل الاستعمال . والـكتاب يحتمل ان يراد به التوراة . ويحتمل ان يراد به القرآن . قال السدي : نبذوا التوراة ، واخذوا بكتاب اصف ، وسحرهاروت وماروت : يعني انهم تركوا ما تدل عليه التوراة من صفة النبي « ص » . وقال قتاده وجماعة من اهل العلم : إن ذلك الفريق كانوا

«١» اللسان « رسل » وقد جاء على وجهين احدهما ـ « برسيل » بدل « برسول » والثاني ـ « بسر » بدل « بليلى » وفي كليهما « لقد » بدل « فقد » .

معاندين . وقال ابو علي : لا يجوز على جماعتهم ان يكتموا ما علموا مع كثرة عددهم، واختلاف هممهم ، لانه خلاف العادة ، ولكن يجوز على الجمع الكثير ان يتواطوا على الكتمان ، ولذلك قال : « فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله » .

وقوله : « مصدق لما معهم » يحتمل أمرين : احدهما ـ مصدق لما معهم ، لانه جاء على الصفة التي تقدمت بها البشارة . والثاني ـ انه مصدق بالتوراة انها حق من عند الله ـ والاول احسن ، ـ لان فيه حجة عليهم ، وعبرة لهم . وقال الحسن : « مصدق لما معهم » من التوراة ، والانجيل . وقال غيره : يصدق بالتوراة ، لان الاخبار هاهنا عن اليهود دون النصارى . وانما قال : « نبذ فريق منهم من الذين أوتو الكتاب » ولم يقل منهم ، اذ تقدم ذكرهم ، لاحد امرين :

احدهما ـ انه لما اريد علماء اهل الكتاب ، اعيد ذكرهم لاختلاف المعنى ـ على قول البلخي .

والثاني ـ انه للبيان . وكان يجوز النصب في مصدق ، لان كتاباً قد وصف ، لانه من عند الله ـ على ما قاله الزجاج وقوله : « كأنهم لا يعلمون » فمعناه انهم يعلمون وكأنهم لكفرهم وكتمانهم لا يعلمون .

قوله تعالى :

« واتَّبعُوا مَا تتلُو الشّياطِينُ عَلى مُلكِ سُلَيمانَ وما كفرَ سُليمانُ وَلكنَّ الشّياطِين كفرُوا يُعلمونَ النّاسَ السِّحْرَ وَمَا أنزلَ على المَلكين بِبابلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وما يُعلمانِ من أحدٍ حتّى يَقُولا إنّما نَحنُ فِتنَةٌ فَلا تكفُر فَيتعلمُونَ مِنهُما ما يُفرّقون به بينَ المرءِ وَزَوجه وَما هُم بِضارّين بِه مِن أحدٍ إلاّ بإذنِ اللهِ ويتعلمّونَ مايضرّهم وَلاَ يَنفعهُم وَلَقد عَلمُوا لَمن اشتَراهُ مَالهُ في الآخرةِ مِن خلاقٍ

ولبِئسَ ما اشتَروا بِه أنفسهم لو كانُوا يعلمُون » (١٠٢) آيـة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف : « ولكن الشياطين » « ولكن الله قتلهم » « ١ » « ولكن الله رمى » « ٢ » بتخفيف النون من (لكن) وكسرها في الوصل ، ورفع الاسم بعدها . الباقون بالتشديد . وروي تثنية (الملكين) بكسر اللام ، هاهنا حسب .

المعنى :

واختلفوا في المعني بقوله « واتبعوا » على ثلاثة اقوال : فقال ابن جريج ، وابو اسحاق : المراد به اليهود الذين كانوا في زمن النبي « ص » وقال الجبائي : المراد به اليهود الذين كانوا في زمن سليمان . وقال قوم : المراد به الجميع وهو قول المتأخرين ، قال : ، لان مبتغي السحر من اليهود لم يزالوا منذ عهد سليمان إلى ان بعث محمد « ص » . وروي عن الربيع : أن اليهود سألوا محمداً « ص » زماناً عن امور من التوراة ـ لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا انزل الله عليه ما سألوا عنه ـ فيخبرهم، فلما رأوا ذلك قالوا : هذا أعلم بما انزل علينا منا وانهم سألوه عن السحر ، وخاصموه به ، فأنزل الله عزوجل« واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان » ومعنى « تتلوا » قال ابن عباس : تتبع ، لان التالي تابع . وقال بعضهم : يدعى ـ وليس بمعروف ـ وقال قتادة ، وعطا : معناه تقرأ من تلوت كتاب الله : اي قراته . وقال تعالى : « هنالك تتلو كل نفس ما اسلفت » « ٣ » اي تتبع وقال حسان بن ثابت :

نبي يرى مالا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مشهد « ٤ »

« ١ ، ٢ » سورة الانفال آية ١٧ .

« ٣ » سورة يونس آية ٣٠ .

« ٤ » قائله حسان بن ثابت . ديوانه : ٨٨ . من ابيات قالها في خبر ام معبد حين خرج رسول الله « ص » مهاجراً الى المدينة وروايته « مسجد » بدل « مشهد » .

والذي تتلوه هو السحر ـ على قول ابن اسحاق ، وغيره من اهل العلم : ـ وقال بعضهم : الكذب . ومعنى قوله : « على ملك سليمان » على عهد سليمان . قال ابن اسحاق وابن جريج : في ملك سليمان حين كان حياً . وهو قول المبرد وقال قوم : إنما قال تتلو « على ملك » لانهم كذبوا عليه بعد وفاته كما قال : « ويقولون على الله الكذب » « ١ » وقال : « أتقولون على الله مالا تعلمون » « ٢ » وقال الشاعر :

عرضت نصيحة مني ليحيي فقال غششتني والنصح مرّ
وما بي ان اكون اعيب يحيي ويحيي طاهر الاخلاق برّ
ولكن قد اتاني ان يحيي يقال عليه في نفعاء شرّ

فاذا صدق ، قيل : تلا عنه . واذا كذب ، قيل تلا عليه ، واذا أبهم ، جاز فيه الامران . وقوله : « الشياطين » قال قوم : هم شياطين الجن ، لان ذلك هو المستفاد من اطلاق هذه اللفظة . وقال بعضهم : المراد به شياطين الانس المتمرّدة في الضلالة . كما قال جرير :

ايام يدعونني الشيطان من غزلي وكنّ يهويْنني اذ كنت شيطانا

وقوله : « وما كفر سليمان » وإن لم يجر لذلك ذكر ، يكون هذا تكذيباً له . فمعناه ان اليهود اضافوا الى سليمان السحر ، وزعموا ان ملكه كان به ، فبرّأه الله مما قالوا . وهو قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة . وقال ابن اسحاق : قال بعض أحبار اليهود : ألا تعجبون من محمد « ص » يزعم أن سليمان كان نبياً ، والله ما كان إلا ساحرا فأنزل الله تعالى : « وما كفر سليمان » وقيل : تقدير الكلام واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر ، فتضيفه الى سليمان . وما كفر سليمان . لان السحر لما كان كفرا ، نفى الله تعالى عنه ذلك على المعنى ـ وان كانوا لم يضيفوا اليه كفرا ـ والسبب الذي لاجله اضافت اليهود الى سليمان السحر ، ان سليمان جمع كتب السحر تحت كرسيه . وقيل في خزائنه ، لئلا يعمل به فلما مات

« ١ » سورة آل عمران . آية ٧٥ ، ٧٨ .
« ٢ » سورة الاعراف آية . ٢٧ ، سورة يونس آية . ٦٨ .

وظهر عليه قالت الشياطين : بهذا كان يتمّ ملكه ، وشاع في اليهود وقبلوه ، لعداوتهم لسليمان . وقيل انهم وضعوا كتاب السحر بعد سليمان واضافوه اليه وقالوا : بهذا كان يتمّ له مكان فيه ، فكذبهم الله تعالى في ذلك ، ونفى عنه ذلك .

اللغز :

والسحر والكهانة والحيلة نظائر . يقال سحره يسحره سحراً ، واسحرنا اسحارا ، وسحّره تسحيراً . قال صاحب العين : السحر عمل يقرّب الى الشيطان . كل ذلك يكتبونه السحر . ومن السحر الاخذة التي تأخذ العين حتى يظن ان الامر كما ترى – وليس الأمر كما ترى – والجمع الاخذ . والسحر البيان من اللفظ كما قال النبي «ص» : ان من البيان لسحراً ، والسحر فعل السحر في شيء يلعب به الصبيان اذا مد خرج على لون ، فاذا مد من جانب آخر خرج على لون آخر يسمى السحارة والسحر العدو قال لبيد :

ارانا موضعين لامر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب «١»

وقال آخر :

فان تسلينا مم نحن فاننا عصافير من هذا الانام المسحر «٢»

وقوله : «انما انت من المسحرين» «٣» يعنى من المخلوقين . وفي تميز العربية هو المخلوق الذي يطعم ، ويسقى ، والسحَر اخر الليل . بالتنوين . قال الطرماح :

بان الخليط بسحرة فتبددوا والدار تشعب بالخليط وتبعد «٤»

«١» اللسان (سحر) وقد نسبه لامرىء القيس . والبيت الذي يليه .

عصافير وذبان ودود واجرأ من مجلحة الذئاب

والسحر . الغذاء . وموضعين . مسرعين . لامر غيب . يريد الموت .

«٢» اللسان (سحر) قائله لبيد . وروايته (تسألينا فيما) بدل (تسلينا مم) . والسحر هنا . يحتمل احد امرين . الخديعة ، والغذاء .

«٣» سورة الشعراء . آية ١٥٣ ، ١٨٥ .

«٤» اللسان «خلط» ذكر الصدر فقط . الخليط . القوم الذين امرهم واحد والجمع خلطاء ، وخلط .

وتسحّرنا اكلنا سحوراً ، واسحرنا كقولك اصبحنا . والسحر الرئة مخفف ، وما يتعلق بالحلقوم . ويقال للجبان اذا جبن انتفخ مسحره واستحر الطائر اذا غلبه بسحر . واصل الباب الخفاء ، والسحر قيل : الخفاء سببه توهم قلب الشيء عن حقيقته كفعل السحرة في وقت موسى ـ لما اوهموا ان العصا والحبال صارت حيوانا ـ فقال: « يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » (١) .

وقوله : « لكن الشياطين كفروا » قيل فيه ثلاثة اقوال :

احدها ـ انهم كفروا بما نسبوه الى سليمان من السحر .

والثاني ـ انهم كفروا بما استخرجوه من السحر .

والثالث ـ معناه ولكن الشياطين سحروا فعبر عن السحر بالكفر .

وقوله : « يعلمون الناس السحر » قيل فيه قولان :

احدها ـ انهم القوا السحر اليهم فتعلموه .

[والثاني ـ انهم دلوه على استخراجه من تحت الكرسي فتعلموه] (٢)

وقوله : « وما انزل على الملكين » قال ابن عباس وقتادة وابن زيد والسدي: ان (ما) بمعنى الذي . وقال الربيع في احدى الروايتين عن ابن عباس : انها بمعنى الجحد . وروي عن القاسم بن محمد : انها تحتمل الامرين . وموضع (ما) نصب لفظها على السحر ، وقيل انها عطف على (ما) في قوله : « ما تتلو الشياطين » وقال بعضهم : موضعها جر عطف على ملك سليمان ، وعلى ما انزل . ومن قرأ بكسر اللام في الملكين قال : هما من ملوك بابل ، وعلوجها . (٣) وهو قول ابي الاسود الدؤلي، والربيع ، والضحاك ، وبه قرأ الحسن البصري ، ورواها عن ابن عباس ، واختلف

---

(١) سورة (طه) آية : ٦٦ .

(٢) ما بين القوسين من مجمع البيان ، لان الشيخ ذكر قولين ، ولا يوجد في المخطوطة وفي المطبوعة الاقول واحد .

(٣) العلوج ، جمع علج ، ويجمع ايضاً على اعلاج ومعلوجي ، ومعلوجاء وهو الرجل الشديد من كفار العجم . ومنهم من يطلقه على عموم الكافر .

من قال بهذا فقال قوم: كانا مؤمنين، ولذلك نهيا عن الكفر. وقال قوم: انهما كانا نبيين من انبياء الله. ومن قرأ بالفتح قال قوم منهم: كانا ملكين وقال آخرون: كانا شيطانين. وقال قوم: هما جبريل وميكائيل خاصة. واختلفوا في بابل فقال قوم: هي بابل العراق، لانها تبلبل بها الالسن: وروي ذلك عن عائشة وابن مسعود. وقيل: بابل دماوند. ذكره السدي. وقال قتادة: هي من نصيبين الى رأس العين. وقال الحسن ان الملكين ببابل الكوفة الى يوم القيامة، وان من اتاهما سمع كلامهما. ولا يراهما وبابل بلد لا ينصرف.

وقيل في معنى السحر اربعة اقوال:

احدها ـ انه خدع ومخاريق، وتمويهات لا حقيقة لها يخيل الى المسحور أن لها حقيقة.

والثاني ـ انه اخذ بالعين على وجه الحيلة.

والثالث ـ انه قلب الحيوان من صورة الى صورة، وانشاء الاجسام على وجه الاختراع فيمكن الساحر ان يقلب الانسان حماراً وينشيء اجساماً.

والرابع ـ انه ضرب من خدمة الجن كالذي يمسك له التجدل فيصرع، واقرب الاقوال الاول، لان كل شيء خرج عن العادة الخارقة، فانه لا يجوز أن يتأتى من الساحر. ومن جوز للساحر شيئاً من هذا، فقد كفر لانه لا يمكنه مع ذلك العلم بصحة المعجزات الدالة على النبوات، لانه اجاز مثله من جهة الحيلة والسحر.

وقوله: «وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر» يتصل قوله: «فلا تكفر» باحد ثلاثة أشياء: احدها ـ فلا تكفر بالعمل بالسحر والثاني ـ فلا تكفر بتعلم السحر ويكون مما امتحن الله عزوجل به كما امتحن بالنهر في قوله: «فمن شرب منه فليس مني» وثالثها (١) ـ فلا تكفر بواحد منهما للتعلم للسحر والعمل به فان قيل كيف يجوز ان يعلم الملكان السحر؟ قيل يعلمان ما السحر وكيف الاحتيال به، ليجتنب، ولئلا يتموه على الناس انه من جنس المعجزات التي تظهر على يد

(١) سورة البقرة آية: ٢٤٩.

الانبياء فيبطل الاستدلال بها . وقال جماعة من المفسرين منهم : ابو علي وغيره : انزلها الله من السماء وجعلها بهيئة الانس ، حتى بينا للناس بطلان السحر . وقال الحسن وقتادة : اخذ عليها ألا يعلماه « حتى يقولا : انما نحن فتنة فلا تكفر » .

وقوله : « وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر » على قول من جعل ما جحداً .

وقوله : « وما انزل على الملكين » يحتمل ان يكون ذلك من قول هاروت وماروت وليسا ملكين . كما يقول الغاوي الخليع لنا انك في ضلال فلا تردّ ما انا فيه ، فيقرّ بالذنب وهو يأتيه . والتقدير على هذا : « ولكن الشياطين كفروا » هاروت وماروت . فمن قرأ الملكين بفتح اللام ـ وهو قراءة الجمهور ، اختلفوا فمنهم من قال : ان سحرة اليهود زعموا ان الله انزل السحر على لسان جبريل ، وميكايل الى سليمان ، فاكذبهم الله بذلك وفي الكلام تقديم وتأخير ، فتقديره وما كفر سليمان وما انز على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا . يعلمان الناس السحر . ببابل هاروت وماروت ـ وهما رجلان ببابل غير الملكين اسم احدهما ـ هاروت والآخر ماروت ، ويكون هاروت وماروت بياناً عن الناس . وقال قوم : ان هاروت وماروت ملكان من الملائكة . واختلفوا في سبب هبوطها ـ على قولين .

فقال قوم : ان الله اهبطها ليامرا بالدين ، وينهيا عن السحر ، لان السحر كان كثيراً في ذلك الوقت ، ثم اختلفوا فقال قوم : كانا يعلمان الناس كيفية السحر وينهيانهم عن فعله ، ليكون النهي بعد العلم به ، لان من لا يعرف الشيء فلا يمكنه اجتنابه . وقال قوم آخرون : لم يكن للملكين تعليم السحر ، ولا اظهاره ، لما في تعليمه من الاغراء بفعله . والثالث هبطا لمجرد النهي ـ اذ كان السحر فاشيا ـ .

وقال قوم : كان سبب هبوطها ان الملائكة تعجبت من معاصي بني آدم مع كثرة نعم الله عليهم ، فقال لهم : اما لو كنتم مكانهم لعملتم مثل اعمالهم ، فقالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا ، فامرهم ان يختاروا ملكين ليهبطا الى الارض فاختاروا هاروت وماروت ، فاهبطا الى الارض ، وركب فيهما شهوة الطعام والشراب والنكاح،

واحلّ لهما كل شيء بشرط الا يشركا بالله ولا يشربا الخمر ولا يزنيا ، ولا يقتلا النفس التي حرم الله فعرضت لهما امرأة للحكومة فمالا اليها ، فقالت لهما لا اجيبكما حتى تعبدا صنماً وتشربا الخمر ، وتقتلا النفس ، فعبدا الصنم وواقعاها ، وقتلا سائلاً مرّ بهما خوفاً ان يشهر امرهما في حديث طويل ، لا فائدة في ذكره . قال كعب فو الله ما امسيا من يومهما الذي اهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه فتعجبت الملائكة من ذلك ثم لم يقدر هاروت وماروت على الصّعود الى السماء وكانا يعلمان الناس السحر ومن قال : بعصمة الملائكة ، لم يجز هذا الوجه . وقال قوم من اهل التأويل : ان ذلك على عهد ادريس . وانما قوله : « انما نحن فتنة » .

اللغة :

فالامتحان والفتنة والاختبار نظائر . يقال فتنه فتنة وافتتن افتتانا . وقال ابو العباس ، فتن الرّجل وأفتن (١) بمعنى اختبر . وتقول : فتنت الرجل ، وافتنته . ولغة قريش : فتنته قال الله تعالى : « وفتناك فتونا » (٢) وقال « ولقد فتنا سليمان » (٣) ، وقال اعشى همدان :

لئن فتنتنى فهي بالامس افتنت سعيداً فأمسى قد قلا كل مسلم (٤)

فجاء باللغتين . وقوله تعالى : « فظن داود أنما فتناه » (٥) اي اختبرناه . ويقال فتنت الذهب في النار : اذا اختبرته فيها ، لتعلم اخالص هو ام مشوب . فقيل — لكل ما أحميته في النار : — فتنته . وتقول فتنت الخبزة في النار : اذا أنضجتها . ومثله يقال في اللحم . وقوله : « والفتنة أشدّ من القتل » (٦) اي الكفر أشد

---

(١) في المطبوعة والمخطوطة (فتن) باسقاط الالف .
(٢) سورة طه آية : ٤٠ . (٣) سورة ص آية : ٣٤ .
(٤) اللسان (فتن) وروايته (لهي) بد (فهي) قال ابن بري : قال بن جني ويقال هذا البيت لابن قيس . والبيت الذي يليه :

والقى مصابيح القراءة واشترى وصال الغواني بالكتاب المتمم

فقال سعيد : كذبتن كذبتن . وفي مجمع البيان (لقد) بدل (لئن) (وهي) بدل (فهي) .
(٥) سورة : ص آية ٢٤ . (٦) سورة البقرة : آية ١٩١ .

من القتل . والفتن في الدين والحروب وقولهم : فتنة السوط أشد من فتنة السيف ، ومعناه اختبار السوط أشد لان فيه تعذيباً متطاولاً . وقوله : « يوم هم على النار يفتنون » (١) اي يشوون من قولك فتنت الخبز . والمعنى الصحيح انهم يعذبون بكفرهم . يقال فتن الكافر ، العذاب وافتتنه اي جزاه بفتنته كقولك : كذب واكذبته . وكل من صبأ فقد فتن . وقوله : « بأيكم المفتون » (٢) قال الاخفش : معناه الفتنة : فهو مصدر ، كقولك : رجل ليس له معقول ، وخذ ميسوره ودع معسوره · وابى ذلك سيبويه · وقال : خذ ميسوره اي ما تيسر له . وليس له مرفوع : اي ما يرفع . قال صاحب العين : فتن فلان فتوناً فهو فاتن : اي مفتن . وقوله : « وما انتم عليه بفاتنين » (٣) اي مضلين ـ عن الحسن ومجاهد ـ وأصل الباب الاختبار . ومعناه في الآية : انما نحن اختبار وبلوى وامتحان ، فلا تكفر . وقال قتادة : « انما نحن فتنة » اي بلاء . ويحتمل أن يكون معناه انهما كانا كافرين ، فيكون معنى قولهما : « انما نحن فتنة » اي شيء عجيب مستطرف كما يقال للمرأة الحسناء انها فتنة من الفتن . ويكون قوله : « فلا تكفر » على هذا الوجه يعني بما جئناك به ، بل صدق به واعمل عليه . وقوله : « حتى يقولا » يحتمل امرين :

احدهما ـ انّ حتى ، بمعنى إلا وتقديره وما يعلمان من احد إلا أن يقولا : انما نحن فتنة ، فلا تكفر ويكون ذلك زيادة في الابتلاء من الله في التكليف .

والثاني ـ انه نفي لتعليمهما الناس السحر ، وتقديره ولا يعلمان أحداً السحر ، فيقولان : « انما نحن فتنة فلا تكفر » فعلى هذا يكون تعليم السحر من الشياطين ، والنهي عنه من الملكين .

وقوله : « فيتعلمون » قال قوم : معنى تعلم واعلم واحد . كما جاء علمت ،

« ١ » سورة الذاريات : آية ١٣ .

« ٢ » سورة القلم : آية ٦ .

« ٣ » سورة الصافات : آية ١٦٢ .

واعلمت ، وفهمت ، وافهمت كما قال كعب بن زهير :

تعلم رسول الله إنك مدركي وان وعيداً منك كالاخذ باليد (١)

وقال القطامي :

تعلّم ان بعد الغي رشداً وان لهذه الغير انقشاعا

ومنهم من قال : تعلم بمنزلة تسبب الى مابه تعلم من النظر في الادلة . وليس في اعلم ذلك ، لانه قد ينبئهم على ما يعلمه بالتأمل له ، كقوله : اعلم ان الفعل يدل على الفاعل. وما لم يسبق المحدث فهو محدث . والأول كقوله : تعلم النحو والفقه . فان قيل كيف يفرق بين المرء وزوجه ؟ قلنا فيه ثلاثة اقوال :

احدها ــ انه اذا تعلم السحر كفر فحرمت عليه امرأته .

والثاني ــ ان يمشي بينهما بالنميمة حتى يفسد بينهما ، فيفضي الى الطلاق والبينونة .

والثالث ــ قال قتادة وغيره : يوجد كل واحد منهما على صاحبه ويبغضه اليه . وقيل : انه كان من شرع سليمان أن من تعلم السحر ، بانت منه زوجته . وقوله : « منهما » الضمير ــ قيل : ــ انه راجع الى الملكين . وقيل بل الى الكفر والسحر لانه تقدم الدليل عليهما في قوله : « ولكن الشياطين كفروا » كما جاء « سيذكر من يخشى ويتجنبها الاشقى » (٢) اي يتجنب الذكرى . ومن قال الملائكة معصومون ، يقول الكناية ترجع الى الكفر والسحر لا غير دون الملكين . فكأنه قيل : « فيتعلمون » مكان ما علماهم « ما يفرقون به بين المرء وزوجه » ، كقول القائل : ليت لنا من كذا ، وكذا كذا : اي بدله . قال الشاعر :

جمعت من الخيرات وطباً وعلبة وصراً لأخلاف المزممة البزل

« ١ » شذور الذهب : ٣٦٢ . وهذا بيت من قصيدة طويلة نسبها لانس بن زنيم الديلي يقولها بعد فتح مكة معتذراً لرسول الله « ص » مما كان عمرو بن سالم الخزاعي يقوله فيه وفي اصحابه ومطلعها :

انت الذي تهدى معد بامره بل الله يهديهم وقال : لك اشهد

« ٢ » سورة الاعلى : آية ١٠ .

ومن كل اخلاق الكرام نميمة وسمياً على الجار المجاور بالنجل(١)

يريد جمعت مكان خيرات الدنيا هذه الخيرات الرديئة ، والافعال الدنيئة .

اللغة :

وقوله : « يفرقون بين المرء وزوجه » فالمرء تأنيثه المرأة . قال صاحب العين: امرأة تأنيث المرء ويقال مرأة بلا ألف . والمرأة مصدر الشيء المريء الذي يستمرأ يقال ماكان مريئاً ، ولقد مرؤ واستمرأته ، وهو المريء ، للطعام وأصل البـــاب المريء ، فقولهم مرأة كقولهم جارية اي جرت في النور والشباب . فأمّا امراء الطعام فانه يجري وينفذ في مجاريه ، ولا يقف . وكذلك المرأة تجري في السن الى حـد . وفرق في الشواذ ما بين المرء ـ بضم الميم ـ وهي لغـــة هذيل . وقوله : « وما هم بضارين به من احد » فالضرر والالم والاذى نظائر . والضر نقيض النفع . يقال ضره يضره ضراً ، واضر به اضراراً ، واستضر استضراراً ، واضطّر اضطراراً . وضاره مضارّة وضراراً . قال صاحب العين : الضَّر والضُّر لغتان ، فاذا جمعت الضر والنفع. فتحت الضاد . والضرر نقصان يدخل في الشيء . يقال دخل عليه ضرر في ماله . والضرورة اسم لمصدر الاضطرار . والضرير : الذاهب البصر من الناس . تقول : رجل ضرير بين الضرارة . والضراء من الضر . وقوم اضراء .

والضرر مصدر اضره مضارة وفي الحديث (لا ضرر ولا ضرار) واذا ضرّ به المرض قيل : ضرير ، وامرأة ضريرة . والضرير : اسم للمضارة ، وا كثر ما يستعمل في الغيرة تقول : ما اشد ضريره عليها . قال الشاعر يصف حمـــاراً وحشياً : —

(١) امالي المرتضى ١ : ٤٢١ . الوطب صفاء اللبن خاصة . والعلبة : جلدة تؤخذ من جنب البعير فتسوى مستديرة كالقصعة المدورة يشرب بها الرعيان . والصر : شد ضرع النوق الحلوبات والفاعل صرار . والأخلاف : جمع خلف ـ بكسر فسكون ـ ضرع الناقة . والبزل : جمع بازل : الناقة او البعير اذا استكمل الثامنة ، وطعن في التاسعة ، وبزل نابه اي انشق عن اللحم . والمزممة : هي التي علق عليها الزمام . والنجل تمزيق العرض بالغيبة . وفي الحديث « من نجـــل الناس نجلوه » في المطبوعة والمخطوطة (رطباً) ـ بدل (وطباً) . و (غلبـــة) بدل (علبة) و (لمحلي) بدل « بالنجل » .

حتى اذا مالان من ضريره (١)

والضرتان : امرأتان للرجل ، والجمع الضرائر . والضرتان : الالية من جانبي عظمها ، وهما الشحمتان اللتان تهدلان من جانبيها . وضرة الابهام : لحمة تحتها . وضرة الضرع : لحمة تحتها . والضر : الهزال . وضرير الوادي : جانباه وكل شيء دنا منك حتى يزحمك : فقد اضربك . وأصل الباب : الانتقاص .

وقوله : « من أحد الا باذن الله » يحتمل امرين :

احدهما ـ بتخلية الله .

والثاني ـ الا بعلم الله من قوله : « فاذنوا بحرب من الله » معناه اعلموا . بلا خلاف ويقال : انت آذن اذناً . قال الحطيئة :

الا يا هند إن جددت وصلا والا فاذنيني بانصرامي (٢)

وقال الحارث بن حلزة :

آذنتنا ببينها اسماء (٣)

معناه اعلمتنا . والاذن في اللغة على ثلاثة أقسام :

احدها ـ بمعنى العلم وذكرنا شاهده .

والثاني ـ الاباحة والاطلاق كقوله « فانكحوهن باذن اهلهن » (٤). وقوله : « يا ايها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم » (٥) .

والثالث ـ بمعنى الامر : كقوله : « انزله على قلبك باذن الله » (٦) وقد اجمعت الأمة على انه لم يأمر بالكفر، ولم يتجه نفي القسم الثالث . ولا يجوز أن يكون المراد

---

(١) اللسان « ضرر » .

(٢) في المطبوعة والمخطوطة « ألا » ساقطة . وفي المطبوعة « ماهند » وعجزه فيهما .
والا فأذنيني عاجلا بانصرامي

(٣) معلقته الشهيرة وهذا مطلعها . وعجزه .
رب ثاو يمل منه الثواء

(٤) سورة النساء : آية ٢٤ .

(٥) سورة النور : آية ٥٨ . (٦) سورة البقرة : آية ٩٧ .

« إلا باذنه » الا بارادته ، ومشيئته ، لان الارادة لا تسمى إذناً . الا ترى أن من اراد الشيء من غيره أن يفعله ، لا يقال أذن له فيه ؟ فبطل ما قالوه . وقد روي عن سفيان إلا بقضاء الله . وقال بعض من لا معرفة له : الاذن بمعنى العلم بفتح الهمزة والذال دون الاذن بكسر الهمزة وسكون الذال ـ وهذا خطأ ، لان الاذن مصدر يقال فيه اذن واذن مثل حذروحذر . وقال تعالى : «خذوا حذركم » «١»ويجوز فيه لغتان مثل : شِبه وشَبه ومِثل ومَثل . وقال هذا القائل : من شاء الله يمنعه ، فلم يضره السّحر . ومن شاء خلى بينه ، وبينه ، يضره . وقوله : « لا ينفعهم » .

اللغة :

فالنفع نقيض الضر والنفع والمنفعة واللذة نظائر . يقال نفع ينفع نفعا ، فهو نافع . وانتفع فلان بكذا وكذا . ورجل نفاع ينفع النـاس . وأصل النفع : ضد الضر . وحد النفع هو كل فعل يكون الحيوان به ملتذا : اما لانه لذة ، او يؤدي الى اللذة . والمضرة كل معنى يكون الحيوان به ألما : اما لانه ألم ، او يؤدي الى الالم . والهاء في قوله « لمن اشتراه » عائدة الى السحر .

المعنى :

والمعنى لقد علمت اليهود أن من اسـتبدل السحر بدين الله ، ماله في الآخرة من خلاق . وهو قول ابن زيد ، وقتـادة . وقال قوم من المفسرين ، كأبي علي ، وغيره . كانوا يعطون عليـه الأجرة ، فذلك اشتراؤهم له . والخلاق : النصيب من الخير ، وهو قول مجاهد ، وسفيان . وقال قوم : ماله من جهة . وقال الحسن : ماله من دين . قال امية بن ابي الصلت :

يدعون بالويل فيها لاخلاق لهم إلا سرابيل من قطر واغلال (٢)

يعني لا نصيب لهم في الآخرة من الخير . ومعنى « شروا به انفسهم » باعوا به

«١» سور النساء : آية ٧٠ ، ١٠١ .

«٢» ديوانه : ٤٧ . والقطر : النحاس الذائب . في المطبوعة (لا سرائيل) بدل (الا سرابيل) .

انفسهم في قول السدي ، وغيره - فان قيل : كيف قال : « لو كانوا يعلمون » وقد قال قبله « ولقد علموا لمن اشتراه » ؟ قلنا عنه ثلاثة اجوبة :

احدها - إنهم فريقان : فريق علموا . وعاندوا وفريق علموا وضيعوا .

والثاني - انهم فريق واحد إلا انهم ذُمّوا في أحد الكلامين بنفي العلم ، لانه بمنزلة المنتفي : واخبر عن حالهم في الاخرة وتقديره أنهم علموا قدر السّحر ، ولم يعلموا ان هلاكهم بتصديقه ، واستعماله ، اولم يعلموا كنه ما اعد الله من العذاب على ذلك وان علموه على وجه الجملة .

[والثالث] وقال قوم : هو مقدّم ومؤخر . وتقديره وما هم بضارين به من احد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرّهم ولا ينفعهم ولبئس ما شروا به انفسهم لوكانوا يعلمون . ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق وقال بعضهم : هما جميعاً خبر عن فريق واحد ، واراد بقوله : « ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون » اي لو كانوا يعلمون بما علموه فعبر عن المعلوم بالعلم ، كما قال كعب بن زهير المزني يصف ذئباً وغرابا تبعاه ، لينالا من طعامه ، وزاده :

اذا حضراني قلت لو تعلمانه الم تعلما اني من الزاد مرمل «١»

فاخبر انه قال لهما : لو تعلمانه فنفى عنهما العلم ، ثم استخبرهما ، فقال : الم تعلما ، وكذلك الآية . وقال قوم : إن الذين علموا الشياطين والذين لم يعلموا الناس دون الشياطين ، فان قيل : ما معنى لمن اشتراه ، واين جوابها ان كانت شرطا ؟ قلنا عنه جوابان احدهما - انها بمعنى الجزاء . والآخر بمعنى الذي في قول الزجاج ، وجوابها مكتفى منه جواب القسم . كما قال : « لئن اخرجوا لا يخرجون معهم » «٢» ولذلك وقع قالوا : ولا يجوز الجزم إلا في ضرورة الشعر ، كما قال الشاعر :

لئن كان ما حدثته اليوم صادقاً اصم في نهار القيظ للشمس باديا

والوجه ، لاصو من . ولا يجوز لاصوم إلا في ضرورة الشعر كما قال :

«١» ديوانه ٥١ وآمالي الشريف المرتضى ١ : ٢٢٤ المرمل الذي نفد زاده ، ومنه الارمل .

«٢» سورة الحشر آية ١٢

لئن تك قد ضاقت عليكم بيوتكم ليعلم ربي ان بيتي واسع (١)

قالوا وان جزمت الاول، جاز جزم الثاني، كقولك: لئن تقم لا نقم إليك.

وقوله: «فيتعلمون» يجوز ان يكون عطفاً على فيأتون فيتعلمون، وقد دل اول الكلام على يأتون. وقيل: فيعلمون الناس السحر فيتعلمون - وكلاهما ذكره الكسائي والفراء - وانكر الزجاج القول الاخير، لاجل قوله: «منهما اي من الملكين، واجاز القول الاول، واختار قولاً ثالثاً: وهو يعلمان، فيتعلمون، والذي انكره يجوز إذا كان «منهما» راجعاً الى السحر والكفر، ولا يجوز ان يكون «فيتعلمون» جواباً لقوله: «فلا تكفر» فينصب، لان تقديره لا يكن كفر فتعلم، كما تقول: لاتدن من الأسد فيأكلك: اي لايكن دنو فأكل. فهذا نهي عن دنو يقع بعده اكل. وانما النهي في الاول عن الكفر بتعلم السحر، للعمل وليس يصلح للجواب على هذا المعنى ولا يجوز ان يكون جواباً للنفي في قوله: «وما يعلمان»، لان لفظه على النفي، ومعناه الايجاب كأنه قيل: يعلمان اذا قالا نحن فتنة فلا تكفر. فان قيل: ما اللام الاولى في قوله: «ولقد علموا» وما الثانية في قوله: «لمن اشتراه» ومثله قوله: «ولئن جئتهم بآية ليقولن» (٢) قيل: الثانية لام القسم بالاجماع قال الزجاج: لانك إنما تحلف على فعلك لا على فعل غيرك - في قولك: والله لئن جئتني لاكرمنك - فأما الاولى فزعم بعض النحويين أنها لما دخلت في اول الكلام اشبهت لام القسم، فاجيبت بجوابه - قال الزجاج: هذا خطأ، لان جواب القسم لا يشبه القسم، ولكن اللام الاولى دخلت إعلاماً ان الجملة بكاملها معقودة بالقسم، لان الجزاء - وان كان القسم عليه -، فقد صار للشرط فيه حظ، ولذلك دخلت اللام. قال الرماني: هذا الذي ذكره، لا يبطل شبهها بالقسم، لانها للتوكيد، كما انه للتوكيد، فكأنه قال: والله إن اتيتني لاكرمنك

---

(١) الخزانة ٤: ٢٢٠ نسبه لكميت بن معروف. في المخطوطة (ري) بدل (ربي) وفي المطبوعة (رىء).

(٢) سورة الروم: آية ٥٨.

والظاهر في روايات اصحابنا ان الساحر يجب قتله وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف. وقال ابو علي من قال: انه يقلب الاجسام، وينشئها، يجب قتله ان لم يتب، لانه مرتد كافر بالانبياء، لانه لا يجد بين ما ادعى وبين آياتهم فضلاً (١) واما من قال: إنه يموه ويمخرق (٢)، فانه يؤدب، فلا يقتل. واما الروايات التي في ان الملكين اخطأا، وركبا الفواحش، فانها اخبار آحاد. من اعتقد عصمة الملائكة، يقطع على كذبها ومن لم يقطع على ذلك، جوز ان تكون صحيحة، ولا يقطع على بطلانها. والذي نقوله ان كان الملكان رسولين فلا يجوز عليهما ذلك، وان لم يكونا رسولين، جاز ذلك — وان لم نقطع به — وقد بينا الكلام عليه فيما مضى. فأما ما روي من أن النبي «ص» سحر — وكان يرى انه يفعل مالم يفعله — وانه لم يفعله فأخبار آحاد، لا يلتفت اليها. وحاشى النبي «ص» من كل صفة نقص، اذ تنفر من قبول قوله، لانه حجة الله على خلقه، وصفيه من عباده، واختاره الله على علم منه. فكيف يجوز ذلك مع ما جنبه الله من الفظاظة والغلظة، وغير ذلك من الاخلاق في الدنيئة، والخلق المشينة، ولا يجوّز ذلك على الانبياء الا من لم يعرف مقدارهم ولا يعرفهم حقيقة معرفتهم. وقد قال الله تعالى: «والله يعصمك من الناس» (٣) وقد اكذب الله من قال: ان يتبعوا إلا رجلاً مسحوراً. فقال: «وقال الظالمون ان يتبعون إلا رجلاً مسحورا» (٤) فنعوذ بالله من الخذلان، ونحمده على التوفيق لما يرضاه.

و «لكن» مشددة، ومخففة معناهما واحد. قال الكسائي: والذي أختارته العرب اذا كانت (ولكن) بالواو مشددة، واذا كانت بلا واو اختاروا التخفيف — وكل صواب — وقرئ بغير ما اختاروه اتباعاً للاخبار في القراءة.

---

(١) في المطبوعة «بين اباءهم فضلا»

(٢) المخرق، والمموه يطلقان على معنى واحد. والمخرقة مأخوذة من مخاريق الصبيان. وهي خرق مفتولة يلعبون بها.

(٣) سورة المائدة. آية ٧٠.

(٤) سورة الأسرى. آية ٤٧ والفرقان. آية ٨.

« وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعلَمُونَ » (١٠٣) ـ آية بلا خلاف ـ

الاعراب :

الضمير في قوله : « ولو انهم آمنوا » عائد على الذين يتعلمون السحر . قال الحسن : تعلموا ان ثواب الله خير لهم من السحر . وأما جواب لو فللنحويين فيه قولان . فالبصريون يذهبون الى ان جوابه محذوف ، وتقديره . ولا ثيبوا . واوقع لمثوبة من عند الله موقعه لدلالته عليه . وقال بعضهم : التقدير ولو انهم آمنوا واتقوا لأثيبوا ، ثم قال : « ولمثوبة من عند الله خير لو كانو يعلمون » أي لوكانوا يستعملون ما يعلمون . وليس انهم كانوا يجهلون ذلك ، كما يقول الانسان لصاحبه ـ وهو يعظه : ـ ما أدعوك اليه خير لك او كنت تعقل أو تنظر في العواقب والفكر فيها . وقال الفراء : الجواب في « لمثوبة » . لأن « لو » اشبهت لئن ، (١) من حيث كان كل واحد منها جزاء ، فلما اشبهتها اجيبت بجوابها ، فالمعنى لئن آمنوا لمثوبة . فعلى القول الاول ، لا يجوز ، لو أتاني زيد لعمرو خير منه . وعلى الثاني يجوز . ولو قلت لو اتاني زيد ، لاكرامي خير له ، جاز على الوجهين . واللام التي في (لمثوبة) لام الابتداء ، لانها دخلت على الاسم ، كما دخلت في (علمت لزيد خير منك) . ولو جاز هاهنا ، لام القسم ، لنصبت الاسم في علمت .

المعنى :

فان قيل : ما معنى قول الله تعالى « لمثوبة من عندالله خير لو كانوا يعلمون » وهو خير علموا أو لم يعلموا ؟ قيل : لو كانوا يعلمون ، لظهر لهم بالعلم ذلك ، أي لعلموا أن ثواب الله خير من السحر . وقال ابو علي : المعني في ذلك الدلالة على جهلهم ، والترغيب لهم في ان يعلموا ذلك ، وان يطلبوا ما هو خير لهم من السحر ـ وهو ثواب

---

(١) في المطبوعة والمخطوطة (يكن) وهو تحريف فظيع .

الله الذي ينال بطاعته، واتباع مرضاته. وفيه دلالة على بطلان قول اصحاب المعارف، لأنهم لو كانوا عارفين ـ على ما يقولونه، لما قال: «لو كانوا يعلمون».

والمثوبة: الثواب ـ في قول قتادة والسدي والربيع ـ والثواب: هو الجزاء على العمل بالاحسان وهو منافع مستحقة يقار بها تعظيم وتبجيل.

اللغة:

والمثوبة والثواب والاجر نظائر. ونقيض المثوبة العقوبة، يقال ثاب يثوب ثوباً وإثابة، واثابه اثابة، وثواباً، ومثوبة، واستثابة. وثوّب تثويباً. والثواب في الاصل معناه: ما رجع اليك من شيء. تقول اعترت الرجل غشية، ثم ثابت اليه نفسه، ولذلك صار حق الثواب الجزاء، لانه العائد على صاحبه مكافأة مافعل. ومنه التثويب في الاذان وغيره: وهو ترجيع الصوت، ولا يقال، ذلك للصوت مرة واحدة. ويقال ثوّب الداعي اذا كرر دعاءه الى الحرب، أو غيرها. ويقال انهزم القوم ثم ثابوا، أي رجعوا. والثوب مشتق من هذا، لأنه ثاب لباساً بعد أن كان قطناً، أو غزلاً. والثيّب: التي قد تزوجت بوجه ما كان، ولا يوصف به الرجل إلا ان تقول ولد الثيبين وولد البكرين. والمثابة: الموضع الذي يثوب اليه الناس. قال الله تعالى: «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس» أي مجتمعاً بعد التفرق. وان لم يكن تفرقوا من هناك، فقد كانوا متفرقين ثم ثابوا اليه. ويقال ثاب الحوض ثئوباً اذا امتلأ أو كاد يمتلىء. وأصل الباب الثوب: الرجوع

القراءة:

قرأ قتادة (لمثوبة) بسكون الثاء وفتح الواو ـ وهي لغة جازت على الاصل ـ كما قالوا: مشورة ومشورة ـ بفتح الواو وسكون الشين، وضم الشين وسكون الواو ـ والقراء على خلافه. والعرب مجمعون على إلقاء الالف من قولهم: هذا خير منك، وشر منك، إلا بعض بني عامر يقولون: ما اريد خيراً اخير من ذا. وقال بعضهم أيضاً: هذا أشر من ذا ـ والوجه طرح الالف ـ

قوله تعالى :

« يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(١٠٤) آية بلا خلاف

اللغة :

المراعاة : التفقد للشيء في نفسه ، أو احواله . والمراعاة ، والتحفظ ، والمحافظة ، والمراقبة : نظائر . ونقيض المراعاة الاغفال : يقال رعى يرعى رعياً ، والرعي : ما تأكله الماشية من نبات الارض . ورعى الله فلاناً اذا حفظه . ورعيت له عهده وحقه بعده ، أو في من خلّف . وارعيته سمعي اذا اصغيت اليه . وراعيته نفسي : اذا لاحظته . وجمع الراعي : رعاء ورعاة ورعيان . والرعاية : فعل الراعي ، يرعاها رعاية : اذا ساقها ، وسرّحها ، وأراحها ، فقد رعاها ، وكل من ولي قوماً فهو راعيهم ـ وهم رعيته ـ والمرعي من الناس : المسوس . والراعي : السائس ويقال : فلان يراعي كذا : معناه ينظر الى ما يصير اليه أمره . ورعيت النجوم : أي رقبتها ، واسترعاه الله خلقه ، أي ولاه أمرهم ليرعاهم . والارعاء : الابقاء على اخيك . وتقول اراعيني سمعك أي اسمع يافلان . وكان المسلمون يقولون : يارسول الله راعنا : أي استمع منا ، فحرفت اليهود ، فقالوا : يامحمد راعنا ـ وهم يلحدون الى الرعونة ـ يريدون به النقيصة ، والوقيعة ، فلما عوتبوا قالوا : نقول كما يقول المسلمون ، فنهى الله عن ذلك فقال : « ياأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » ورجل ترعية : الذي لم تزل صنعته وصنعة آبائه الرعاية (١) . قال الشاعر :

يسوقها ترعية جاف فُضُل إن رتعت صلى وإلا لم يصل (٢)

واصل الباب : الرعي : الحفاظ .

---

(١) في المطبوعة لم يزل صنعة وصنيعه امامة الرعاية . (٢) اللسان (فضل) وبه رواية اخرى ايضا : يتبعها بدل يسوقها . وفي المخطوطة والمطبوعة هكذا :

يسوسها ترعية حاف فصل فان رعت صلا والا لم يصل

رجل فضل وامراة فضل : متفضل في ثوب واحد .

المعنى :

وأما الآية فللمفسرين فيها ثلاثة أقوال :

ـ قال ابن عباس ومجاهد : « لا تقولوا راعنا » ، أي لا تقولوا : اسمع منا ونسمع منك .

ـ وقال عطاء : « لاتقولوا راعنا » ، أي لا تقولوا خلافاً . وروي ذلك ايضاً عن مجاهد . وهذا الاوجه له ـ إلا ان يراد (راعنا) بالتنوين . ـ

ـ وقيل : معناه ارقبنا . قال الاعشى :

يرعي الى قول سادات الرجال اذا　　ابدوا له الحزم أو ماشاءه ابتدعا (١)

يعني يصغي . وقال الاعشى ايضاً :

فظللت أرعاهـا وظل يحوطها　　حتى دنوت اذا الظلام دنا لها(٢)

والسبب الذي لأجله وقع النهي عن هذه الكلمة ، قيل فيه خمسة أقوال :

ـ احدها ـ ما قاله قتادة وعطية : انها كلمة كانت تقولها اليهود على وجه الاستهزاء .

[الثاني] ـ وقال عطاء هي كلمة كانت الانصار تقولها فى الجاهلية ، فنهوا عنها في الاسلام .

[الثالث] ـ وقال ابو العالية : ان مشركي العرب كانوا اذا حدّث بعضهم بعضاً ، يقول احدهم لصاحبه ارعنا سمعاً فنهوا عن ذلك .

[الرابع] ـ وقال السدي : كان ذلك كلام يهودي بعينه ، يقال له : رفاعة ابن زيد . يريد بذلك الرعونة فنهي المسلمون عن ذلك .

---

(١) ديوانه : ٨٦ . ابتدع : احدث ما شاء .

(٢) ديوانه : ٢٧ . في المخطوطة والمطبوعة (وضالت) بدل (فظللت) و (نحو دنوت) بدل (حتى دنوت)

[الخامس] ـ وقال ابو علي قد بين الله عزوجل ، انها كلمة كانت اليهود تلوي بها السنتهم ـ في قوله : ـ « من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه » . (١) « ويقولون سمعنا وعصينا » (٢) « اسمع غير مسمع وراعنا ليا بالسنتهم وطعناً في الدين » (٣) وهو قول ابن عباس ، وقتادةوقيل : « لا تقولواراعنا » من المراعاة والمكافأة . فامروا أن يخاطبوا النبي (ص) بالتوقير والتعظيم ، اي لا تقولوا : راعنا سمعك ، حتى نفهمك وتفهم عنا . وقال ابو جعفر (ع) هذهالكلمة : سبّ (٤) بالعبرانية ـ اليه كانوا يذهبون ـ قال الحسين بن علي المغربي فبحثهم عن ذلك فوجدتهم يقولون را ع رن (٥) قال : على معنى الفساد والبلاء ، ويقولون : (انا) بتفخيم النون ، واشمامها بمعنى ، لأن مجموع اللفظين واللفظتين فاسد ، لان فلما عوتبو علىذلك قالوا إنّا نقول : كما يقول المسلمون. فنهي المسلمون عن ذلك . ولما كان معنى (راعنا) يراد به النظر قال : قولوا عوضها انظرنا ، اي انظر الينا . « واسمعوا » : ما يقوله لكم الرسول .

القراءة :

وروي عن الحسن انه كان يقرأ « راعناً » بالتنوين بمعنى لاتقولوا : قولا راعنا يعني من الرعونة ، وهي الحق ، والجهل وهذا شاذ لا يؤخذ به ، وفي قراءة ابن مسعود « راعنا » خطاب من جماعة لجماعة بمراعاتهم وهذا ايضا شاذ .

المعنى :

ومعنى انظرنا يحتمل امرين : احدهما ـ انتظرنا نفهم ونتبين ما تعلمنا . والثاني ـ قال مجاهد : معناه فهمنا ، بين لنا يا محمد يقال منه : نظرت الرجل انظره

---

(١) سورة النساء : آية ٤٥ . والمائدة : ١٤ .

(٢) سورة البقرة : آية ٩٣ .

(٣) سورة النساء : آية ٤٥ .

(٤) في المخطوطة والمطبوعة (سبت) .

(٥) هكذا في المخطوطة والمطبوعة . ولم نجدها في باقي التفاسير .

نظرة ، بمعنى انتظرته وارتقبته . ومنـــه قوله : « انظرونا نقتبس » (١) اي انتظرونا وقيل معناه : اقبل علينا .

وقوله : « واسمعوا » يحتمل امرين :

احدها ـ قال الحسن والسدي : إن معناه اسمعوا ما ياتيكم به الرسول .

والثاني ـ ما قال ابو علي : معناه اقبلوا ما يامركم به الرسول من قوله : سمع الله لمن حمده ، وسمع الله دعاك ، وقبله . وقال علقمة والحسن والضحاك : كل شيء من القرآن : « يا ايها الذين امنوا » فانه نزل بالمدينة .

قوله تعالى :

« ما يَوَدّ الذينَ كَفَروا مِن أهل الكِتابِ ولا المُشركينَ ان يُنزّلَ عَليكُم من خَيرٍ مِن ربّكُم والله يَختَصُّ برَحمته من يَشاء والله ذو الفَضلِ العَظيم » (١٠٥) آية واحدة بلا خلاف .

معنى ما يود : ليس يحب . يقال منه : وده يوده ودا ، ووداداً . والمودة المحبة .

« ولا المشركين » في موضع جر بالعطف على اهل الكتاب . وتقديره ، ولا من المشركين .

وقوله : « ان ينزل » في موضع نصب بقوله : « يود » .

وانما ذموا على ذلك ـ وان كان ذلك ميل الطباع ، ـ لان ذلك في دلالة على انهم فعلوا كراهية لذلك ، وتعرضوا بذلك لعداوة المؤمنين . وكان الذم عليهم لذلك ، ولو رفع « المشركين » عطفاً على « الذين كفروا » كان جائزا ولكن لم يقرأ به احد . ومثله في احتماله الامرين قوله : « يا أيها الذين امنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم لهواً ولعباً من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء » (٢) .

ـ بخفض الراء وفتحها ـ وقرئ بهما .

(١) سورة الحديد : آية ١٣ .
(٢) سورة المائدة : آية ٦٠

و « من » في قوله : « من خير » زائدة مؤكدة ، كقولك : ما جاءني من احد . وموضعها رفع قال ابو ذؤيب :

جزيتك ضعف الودّ لما استبنته　　وما ان جزاك الضعف من احد قبلي (١)

واما « من » في قوله : « من ربكم » فلابتداء الغاية . والتي في قوله : « من اهل الكتاب » فللتنويع ، مثل التي في قوله : « فاجتنبوا الرجس من الاوثان » (٢) .

قوله : « يختص برحمته من يشاء » .

المعنى :

روي عن علي (ع) وابي جعفر الباقر (ع) انه أراد النبوة . وبه قال الحسن ، وابو علي والرماني ، والبلخي وغيرهم من المفسرين . وقال « يختص بها من يشاء » من عباده وروي عن ابن عباس انه اراد دين الاسلام . وهذا بعيد ، لانه تعالى وصف ذلك بالانزال ، وذلك لا يليق الا بالنبوة .

اللغة :

والاختصاص بالشيء هو الانفراد به والاخلاص له مثله . وضد الاختصاص الاشتراك . ويقال خصّ خصوصاً ، وتخصص : تخصصاً . وخصصه : تخصيصاً ، وكلّه خاصة من ذلك ، وكلمة عامة ووسائط من ذلك . ويقال : خصه بالشيء ، يخصّه خصا : اذا وصله به . وخصان الرجل . من يختصّه من اخوانه . والخصائص : الفرج والخصاصة : الحاجة . والخص شبه كوة تكون في قبة أو نحوها ، اذا كان واسعا قدر الوجه . وقال الراجز :

وان خصاص ليلهنّ استدا　　ركبن في ظلمائه ما اشتدا (٣)

---

(١) اللسان (ضعف) قال الاصمعي : معناه اضعفت لك الود ، وكان ينبغي أن يقول : ضعفي الود .

(٢) سورة الحج : آية ٣٠ .

(٣) اللسان (خصص) استد أي استتر بالغيم

شبه القمر بالخصاص . وكل خلل أو خروق تكون في السحاب او النخل ، تسمى الخصاصة : والخصائص فرج بين الاثا في (١) وأصل البـــاب : الانفراد بالشيء . فمنه الخصائص : الفرج لانه انفراد كل واحد عن الآخر من غير جمع بينها. ويقال : اختصصته بالفائدة واختصصت بهـــا انا ، كقولك : افردته بهـــا ، وانفردت بها .

وتقدير الآية ما يحبّ الكافرون من اهل الكتاب ، ولا المشركين بالله من عبدة الاوثان ، ان ينزل عليكم شيئاً من الخير الذي عنده ، والخير الذي تمنوه الا ينزله الله عليهم ما اوحى الى نبيه ، وانزله عليه من الشرائع ، والقرآن بغيا منهم وحسداً .

« والله ذو الفضل العظيم » خير منـــه (تعالى) ان كل خيرنا له عباده في دينهم ، ودنياهم ، فانه من عنده ابتداء ، وتفضلا منه عليهم من غير استحقاق منهم ذلك عليه .

قوله تعالى :

« مانَنسَـخ مِن آيةٍ او نُنسِها نأتِ بِخَيرٍ منها او مِثلِها أَلَم تَعلَم أَنَّ اللهَ عَلى كلِّ شيءٍ قَديرٌ » (١٠٦) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابن عامر ، الا الداحوني عن هشام « ما ننسخ » بضم النون وكسر السين. الباقون يفتحها . وقرأ ابن كثير وابو عمرو « ننســـاها » بفتح النون ، والسين ، واثبات الهمزة الساكنة بعد السين . الباقون ـ بضم النون ، وخفض السين بلا همزة .

اللغة :

النسخ والبدل والخلف نظائر . يقال : نسخ نسخاً ، وانتسخ انتساخـــاً ، واستنسخ استنساخاً ، وتناسخوا تناسخاً ، وناسخ مناسخة . قال ابن دريد : كل

---

(١) بين الاثا في أي بين الاصابع .

شيء خلف شيئاً ، فقد انتسخه ، ونسخت الشمس الظل ، وانتسخ الشيب الشباب . وقال صاحب العين : النسخ ان تزيل امراً كان من قبل يعمل به ، ثم تنسخه بحادث غيره . كالآية نزل فيها امر ، ثم يخفف الله عن العباد بنسخها بآية اخرى ، فالآية الاولى منسوخة ، والثانية ناسخة . وتناسخ الورثة أن تموت ورثة بعد ورثة واصل الميراث قائم لم يقسم ، وكذلك تناسخ الازمنة من القرون الماضية . واصل الباب : الابدال من الشيء غيره . وقال الرماني : النسخ الرفع ، لشيء قد كان يلزمه العمل به الى بدل ، وذلك كنسخ الشمس بالظل ، لانه يصير بدلا منها ـ في مكانها ـ وهذا ليس بصحيح ، لانه ينتقض بمن تلزمه الصلاة قائما ثم يعجز عن القيام ، فانه يسقط عنه القيام لعجزه . ولا يسمى العجز ناسخاً ، ولا القيام منسوخاً ، وينتقض بمن يستبيح بحكم العقل عند من قال بالاباحة ، فاذا ورد الشرع بحظره ، لا يقال الشرع نسخ حكم العقل ، ولا حكم العقل يوصف بانه منسوخ ، فاذاً الاولى في ذلك ما ذكرناه في اول الكتاب : وهو ان حقيقة كل دليل شرعي دلّ على ان مثل الحكم الثابت بالنص الاول غير ثابت فيما بعد على وجه لولاه لكان ثابتاً بالنص الاول مع تراخيه عنه ، فاذا ثبت ذلك ، فالنسخ في الشرع : على ثلاثة اقسام . نسخ الحكم دون اللفظ ، ونسخ اللفظ دون الحكم ، ونسخهما معاً .

فالاول ـ كقوله : « يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مأتين » الى قوله : « الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مأة صابرة يغلبون مأتين » (١) ، فكان الفرض الاول وجوب ثبات الواحد للعشرة ، فنسخ بثبوت الواحد للاثنين ، وغير ذلك من الاي المنسوخ حكمها ، وتلاوتها ثابتة ، كآية العدة ، واية حبس من يأتي بالفاحشة ، وغير ذلك

والثاني ـ كآية الرجم . قيل انها كانت منزلة فرفع لفظها وبقي حكمها .

والثالث ـ هو مجوّز وان لم يقطع بانه كان . وقد روي عن ابي بكر انه كان يقرأ لا ترغبوا عن آبائكم فانه كفر (٢)

---

(١) سورة الانفال : آية ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) في المطبوعة زيادة (بكم)

المعنى :

واختلفوا في كيفية النسخ على أربعة اوجه :

ـ قال قوم : يجوز نسخ الحكم والتلاوة من غير افراد واحد منهما عن الآخر .

ـ وقال آخرون : يجوز نسخ الحكم دون التلاوة .

ـ وقال آخرون : يجوز نسخ القرآن من اللوح المحفوظ ، كما ينسخ الكتاب من كتاب قبله .

ـ وقالت فرقة رابعة : يجوز نسخ التلاوة وحدها ، والحكم وحده ، ونسخهما معاً ـ وهو الصحيح ـ

وقد دللنا على ذلك ، وافسدنا سائر الاقسام في العدة في اصول الفقه . وذلك ان سبيل النسخ سبيل سائر ما تعبد الله تعالى به ، وشرعه على حسب ما يعلم من المصلحة فيه فاذا زال الوقت الذي تكون المصلحة مقرونة به ، زال بزواله . وذلك مشروط بما في المعلوم من المصلحة به ، وهذا القدر كاف في ابطال قول من ابى النسخ ـ جملة ـ واستيفاؤه في الموضع الذي ذكرناه .

وقد انكرقوم جواز نسخ القرآن ، وفيما ذكرناه دليل على بطلان قولهم ، وقد جاءت اخبار متظافرة بانه كانت اشياء في القرآن نسخت تلاوتها ، فمنها ما روي عن ابي موسى : انهم كانوا يقرؤون لو ان لابن آدم واديين من مال لا بتغى اليها ثالث ، لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب . ثم رفع . وروي عن قتادة قال : حدثنا انس بن مالك أن السبعين من الانصار الذين قتلوا ببئر معونة : ـ قرأنا فيهم كتابا ـ بلغوا عنا قومنا انا لقينا ربنا ، فرضي عنا وارضانا ، ثم ان ذلك رفع . ومنها الشيخ والشيخة ـ وهي مشهورة ـ . ومنها ما روي عن ابي بكر انه قال : كنا نقرأ : لا ترغبوا عن آبائكم فانه كفر . ومنها ما حكي : ان سورة الاحزاب كانت تعادل سورة البقرة ـ في الطول ـ وغير ذلك من الاخبار المشهورة بين اهل النقل . والخبر على ضربين :

احدها ـ يتضمن معنى الامر بالمعروف ـ فما هذا حكمه ـ يجوز دخول

النسخ فيه .

والآخر يتضمن الاخبار عن صفة الامر . (١) لا يجوز تغييره في نفسه ، ولا يجوز ان يتغير من حسن الى قبح أو قبح الى حسن ، فان ذلك لا يجوز دخول النسخ فيه . وقد بينا شرح ذلك في العدة . والافعال على ثلاثة اقسام ـ احدها ـ لا يكون إلا حسناً . وثانيها ـ لا يكون إلا قبيحاً . وثالثها ـ يحتمل الحسن والقبح بحسب ما يقع عليه من الوجوه :

فالاول ـ كارادة الافعال الواجبة ، أو المندوبة التي لا يجوز تغيّرها ، كشكر المنعم ، ورد الوديعة ، والاحسان الخالص وغير ذلك .

والثاني ـ كارادة القبيح ، وفعل الجهل .

والثالث ـ كسائر الافعال التي تقع على وجه ، فتكون حسنة ، وعلى آخر فتصير قبيحة .

فالأول ، والثاني لا يجوز فيه النسخ . والثالث يجوز فيه النسخ .

ومن قرأ ننسخ ـ بفتح النون ـ فمن نسخت الكتاب . فانا ناسخ ، والكتاب منسوخ . ومن قراء ـ بضم النون ، وكسر السين ـ فانه يحتمل فيه امرين :

احدها ـ قال ابو عبيدة : ماننسخك يامحمد . يقال نسخت الكتاب ، وانسخه غيري .

والاخر ـ نسخته جعلته ذا نسخ . كما قال قوم للحجاج ـ وقد قتل رجلا ـ : أقبرنا فلاناً أي جعله ذا قبر يقال قبرت زيداً : اذا دفنته واقبره الله : جعله ذا قبر كما قال : « ثم اماته فاقبره » (٢)

وقوله « أو ننسأها » فالنسء التأخير ونقيضه التقديم ، يقال انسأت الابل عن الحوض أنسأها نسأ : اذا اخرتها عنه ، وانتسأت عن الشيء ـ : اذا تباعدت عنه ـ انتساء ونسأت الابل في ظمئها فانا أنسؤها نسأ : اذا زدتها في ظمئها يوماً أو يومين ، أو

(١) في المطبوعة (صنعة الامر)

(٢) سورة عبس : آية ٢١ .

ا كثرمن ذلك . وظمؤها : منعها الماء . ونسأت الماشية تنسأ نسأ : اذا سمنت . وكل سمين ناسيء ، تأويلها انجلودها نسأت اي تأخرت عن عظامها ، قاله الزجاج ، وقال غيره : انما قيل ذلك لانها تأخرت في المرعى حتى سمنت ، ونسأت المرأة تنسىء نسأ اذا تأخر حيضها عن وقته ، ورجي حملها ، ويقال : انسأت فلاناً البيع (١) ونسأ الله في اجل فلان ، وانسأ الله اجله اذا أخر اجله . والنسيء تأخر الشيء ، ودفعه عن وقته ، ومنه قوله تعالى : « انما النسيء زيادة في الكفر » (٢) وهو ما كانت العرب تؤخر من الشهر الحرام في الجاهلية . ونسأت اللبن أنسؤه نسأ اذا اخذت حليباً وصببت عليه الماء ، واسم ذلك : النسيء ، والنسيء هذا سمي بذلك ، لأنه اذا خالطه الماء أخر بعض اجزاء اللبن عن بعض قال الشاعر :

سقوني النسء ثم تكنفوني   عداة الله من كذب وزور (٣)

ويقال للعصاة المنساة ، لانها ينسأ بها ، أي يؤخر بها ما يساق عن مكانه ، ويدفع بها الانسان عن نفسه ونسأت ناقتي اذا رفعتها في السير واصل الباب التأخير .

المعنى :

وقال الحسن في قوله : «ما ننسخ من آية أو ننسها » ان نبيكم (ص) أقرىء قرآناً ثم نسيه ، فلم يكن شيئاً ومن القرآن ما قد نسخ وأنتم تقرأونه . وقال ابن عباس « ماننسخ من آية » أي ما نبدل من آية ومن قرأ ننسأها بالهمز فان معناه نؤخرها (٤) من قولك نسأت هذا الامر أنسؤه نساء اذا أخرته وبعته بنسأ أي بتأخير ، وهو قول عطا وابن ابي نجيح ، ومجاهد ، وعطية وعبيد بن عمير . وعلى هذا يحتمل نؤخرها امرين . احدها فلا ننزلها وننزل بدلا منها ما يقوم مقامها في المصلحة ، أو ما يكون اصلح للعباد منها . وهذا ضعيف لانه لا فائدة في تأخير

---

(١) في المخطوطة والمطبوعة (المنع)

(٢) سورة التوبة : آية ٣٨ .

(٣) قائلة عروة بن الورد العبسي . اللسان (نسأ) في المخطوطة والمطبوعة (النسيء) بدل (النسء) وهما لغتان .

(٤) في المطبوعة (لو أخرها) وهو تحريف من الناسخ .

ما لا يعرفه العباد ، ولا علموه ولا سمعوه .

والثاني ـ نؤخرها الى وقت ثان ، فنأتي بدلا منها في الوقت المقدم ، بما يقوم مقامها . فاما من حمل ذلك ، على معنى يرجع الى النسخ، فليس يحسن لأنه يصير تقديرها ، ما ننسخ من اية او ننسخها . وهذا لا يجوز . ومعنى قوله :

« نأت بخير منها او مثلها ».

المعنى :

قيل فيه قولان :

احدها ـ قال ابن عباس نأت بخير منها لكم في التسهيل والتيسير ، كالامر بالقتال الذي سهل على المسلمين بدلالة قوله : « الان خفف الله عنكم » (١) اومثلها كالعبادة بالتوجه الى الكعبة بعد ما كان الى بيت المقدس .

والوجه الثاني بخير منها فى الوقت الثاني ، اي هي لكم خير من الاولى في باب المصلحة،او مثلها في ذلك . وهو قول الحسن وهذا الوجه اقوى ، وتقديره كأن الآية الاولى فى الوقت الثاني في الدعاء الى الطاعة ، والزجر عن المعصية ، مثل الآية الاولى في وقتها . فيكون اللطف بالثانية ، كاللطف بالاولى الا انه في الوقت الثاني يسهل بها دون الاولى . وقال ابو عبيدة معنى « ننساها » (٢) اي نمضيها فلا ننسخها قال طرفة :

امون كألواح الاران نسأتها　　على لاحب كانه ظهر برجد (٣)

يعني امضيتها ومن قرأ « ننسها » بضم النون ، وكسر السين يحتمل امرين :

احدها ـ ان يكون مأخوذا من النسيان إلا انه لا يجوز أن يكون ذلك

---

(١) سورة الانفال : آية ٦٦ .

(٢) في المخطوطة (يستقيم) .

(٣) معلقته المشهورة ، واللسان (أرن) . في المخطوطة (وعنس) بدل (أمون) وفي المطبوعة (كالراح) بدل (كالواح) . ومعنى الأمون التي أمنت أن تكون ضعيفة ، والاران : التابوت الذي تحمل فيه الموتى ، واللاحب : الطريق الواضح ، والبرجد : كساء من اكسية العرب .

من النبي (ص) لأنه لا يجوز ذلك من حيث ينفر عنه، ويجوز ذلك على الأمة بان يؤمروا بترك قراءتها، وينسونها على طول الايام. ويجوز ان ينسيهم الله (تعالى) ذلك وان كانوا جمعا كثيرا، ويكون ذلك معجزا بمعنى الترك من قوله: «نسوا الله فنسيهم» (١) والاول عن قتادة، والثاني عن ابن عباس وقال معناه: نتركها لا نبدلها. وقال الزجاج: ننسها بمعنى نتركها خطأ، انما يقال: نسيت بمعنى تركت، ولا يقال أنسيت بمعنى تركت وانما معنى ننساها نتركها، اي ان نامركم بتركها. قال الرماني: انما فسر المفسرون على ما يؤول اليه المعنى لانه اذا امر بتركها، فقد تركها. فان قيل: اذا كان نسخ الاية رفعها، وتركها فما معنى ذلك إلا ان يترك، ولم جمع بينها؟ قيل: ليس معنى تركها الا ان يترك، وقد غلط الزجاج في توهمه ذلك، وانما معناه اقرارها، فلا ترفع، كما قال ابن عباس: نتركها، ولا نبدلها وانما قال: «الم تعلم ان الله على كل شيء قدير» تنبيهاً على انه يقدر على ايات وسور مثل القرآن ينسخ بها امره لنا فيه بما امرنا، فيقوم في النفع مقام المنسوخ. او اكثر. وقال بعضهم: معنى «او» في الآية الواو، كان قال: ما ننسخ من ايه وننساها نات بخير منها، فعلى هذا زالت الشبهة. فان قيل: اي تعلق بين هذه الآية وبين التي قبلها؟ قلنا: لما قال في الآية الاولى «ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم» دل في هذه الآية على انه جل وعز، لا يخليهم من إنزال خير اليهم، خلاف ما يود اعداؤه لهم: فان قيل: هل يجوز نسخ القرآن بالسنة أم لا؟ قلنا فيه خلاف بين الفقهاء، ذكرناه في اصول الفقه، وبين اصحابنا ايضا فيه خلاف، إلا ان يقوى في النفس جواز ذلك. وقد ذكرنا ادلة الفريقين، والشبه فيها في اصول الفقه – لا يحتمل ذكرها هذا المكان. وانما اخرنا ذلك، لأن تلاوة القرآن، والعمل بما فيه تابع للمصلحة، ولا يمتنع ان تتغير المصلحة، تارة في التلاوة فتنسخ، وتارة في الحكم فينسخ، وتارة فيها فينسخان. وكذلك لا يمتنع ان تكون المصلحة في ان تنسخ، تارة بقرآن، وتارة

(١) سورة التوبة: آية ٦٨.

بالسنة المقطوع بها . فذلك موقوف على الادلة .

وقوله : « نأت بخير منها » لا يدل على ان السنة خير من القرآن ، لأن المراد بذلك نأت بخير منها في باب المصلحة . على ان قوله : « نات بخير منها » فمن اين ان ذلك الخبر يكون ناسخاً . فلا متعلق في الآية يمنع من ذلك . والاولى جوازه . على ان هذا وان كان جائزاً ، فعندنا انه لم يقع ، لانه لا شيء من ظواهر القرآن يمكن ان يدعى انه منسوخ بالسنة اجماعاً ، ولا بدليل يوجب العلم . واعيان المسائل فيها خلاف ، نذكرما عندنا فيه ـ اذا مررنا بتاويل ذلك . واما ما روي عن ابن سعيد ابن المسيب من انه كان يقرأ « أوتنسها » بالتاء المعجمة من فوق ، وفتح السين ـ فشاذ ، لا نلتفت اليه ، لانا قد بينا ان النبي « ص » لا يجوز عليه ان ينسى شيئاً من وحي الله . وكذلك ما روي عن ابي رجا العطاردي « ننسها » بضم النون الاولى ، وفتح الاخرى ، وتشديد السين ـ ذكرها شاذة .

وفي الآية دليل على ان القرآن غير الله ، وان الله هو المحدث له ، والقادر عليه ، لأن ما كان بعضه خيراً من بعض ، او شراً من بعض ، فهو غير الله لا محالة . وفيها دليل ان الله قادر عليه ، وما كان داخـــلا تحت القدرة ، فهو فعل ، والفعل لا يكون إلا محدثاً ، ولانه لو كان قديماً لما صح وجود النسخ فيـه ، لانه اذا كان الجميع حاصلا فيما لم يزل ، فليس بعضه بان يكون ناسخاً ، والاخر منسوخاً باولى من العكس . فان قيل : لم قال : « ألم تعلم ان الله » او ما كان النبي « ص » عالماً بان الله على كل شيء قدير ؟ قلنا عنه جوابان :

احدهما ـ ان معنى قوله : « الم تعلم » اما علمت ؟

والثاني ـ انه خرج ذلك مخرج التقرير ، كما قال : « أأنت قلت للناس » «١».

وفيه جواب ثالث ـ انه خطاب للنبي « ص » والمراد امته ، بدلالة قوله بعد ذلك : « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » .

«١» سورة المائدة : آية ١١٩ .

قوله تعالى :

« أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ » (١٠٧) آية .

المعنى :

« الولي » في الآية : هو القيم بالامر . من وليه الشيء . ومنه ولي عهد المسلمين .

ومعنى قوله : « من دون الله » سوى الله . قال امية بن ابي الصلت :

يا نفس مالك دون اللهمن واقي	وماعلى حدثان الدهرمن باقي «٢»

وفي قوله : « مالكم من دون الله من ولي ولا نصير » ثلاثة اوجه :

احدها ــ التحذير من سخط الله ، وعقابه اذ لا احد يمنع منه .

والثاني ــ التسكين لنفوسهم : ان الله ناصرهم دون غيره ، اذ لا يعتد بنصر احد مع نصره .

والثالث ــ التفريق بين حالهم ، وحال عبّاد الاوثان . مدحاً وذماً لاؤلئك . وبهذا قال ابو علي الجبائي ، وإنما قال للنبي « ص » « الم تعلم ان الله له ملك السماوات والارض » وان كان النبي « ص » عالماً بان له الملك كله ، لامرين : احدها ــ التقرير والتنبيه الذي يؤول الى معنى الايجاب كما قال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا	واندى العالمين بطون راح؟

وانكر الطبري ان يدخل حرف الاستفهام على حرف الجحد بمعنى الاثبات والبيت الذي انشدناه ، يفسد ما قاله ، وايضاً قوله : « أليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى » « ٢ » وقوله : « أليس الله بكاف عبده » « ٣ » وغير ذلك يفسد ما قاله .

«١» ديوانه : ٤٣ في المطبوعة (راق) بدل (واق) .

«٢» سورة الانسان : آية ٤٠ .

«٣» سورة الزمر : آية ٣٦ .

والوجه الثاني ـ انه خطاب للنبي (ص) والمراد به امته كما قال : «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء » (١) وقال جميل بن معمر :

ألا ان جيراني العشية رائح   دعتهم دواع من هوى ومنادح(٢)

وانما يحسن ذلك ، لأن غرضه الخبر عن واحد فلذلك قال : رائح وقال أيضاً :

خليلي فيما عشتما هل رأيتما   قتيلا بكى من حب قاتله قبلي(٣)

يريد قاتلته ، فكنى بالمذكر عن المؤنث . قال الكميت :

الى السراج المنير احمد لا   يعدلني رغبة ولا رهب (٤)

عنه الى غيره ولو رفع النـ   ـاس الي العيون وارتقبوا (٥)

وقيل افرطت بل قصدت ولو   عنفني القائلون او ثلبوا (٦)

لج بتفضيلك اللسان ولو   اكثر فيك الضجاج واللجب (٧)

انت المصفى المحض المهذب في النـ   ـسبة إن نص قومك النسب (٨)

قالوا : انما خرج كلامه على وجه الخطاب للنبي (ص) ، واراد به أهل بيته بدلالة قوله : ولو اكثر فيك الضجاج واللجب ، لأنه لا أحد يوصف من المسلمين بتعنيف مادح النبي (ص) ولا باكثار الضجاج واللجب في إطناب القول فيه ، وانما قال : « له ملك السموات » ولم يقل ملك ، لانه أراد ملك السلطان والمملكة

---

(١) سورة الطلاق : آية ٢ .

(٢) لم نجده في ديوانه ، منادح : البلاد الواسعة البعيدة .

(٣) الأمالي ٢ : ٧٤ والأغاني ١ : ١١٧ و ٧ : ١٤٠ . في المخطوطة والمطبوعة « أو » بدل « هل » .

(٤) الهاشميات ٣٤ والحيوان للجاحظ ١٧٠ ـ ١٧١ .

(٥) « عنه الى غيره » متعلق بقوله : « لا يعدلني . . . » في البيت قبله .

(٦) افرطت : جاوزت الحد . قصدت : عدلت بين الافراط والتقصير . الثلب : العيب والذم . في المخطوطة والمطبوعة « العالمون » بدل « القائلون » .

(٧) فيك ـ هنا ـ : بسببك ومن اجلك . الضجاج : مصدر ضاجه ـ بتشديد الجيم ـ يضاجه مضاجة وضجاجا : المشاغبة مع الصياح . واللجب ارتفاع الاصوات واختلاطها طلباً للغلبة .

(٨) هذب الشيء : نقاه من كل ما يعيب . نص الشيء : رفعه وأبانه . يعني أبان فضلهم على غيرهم .

دون الملك . يقال من ذلك : ملك فلان على هذا الشيء يملكه مُلكاً ومَلكا وملكا . والنصير فعيل من قولك : نصرتك انصرك فأنا ناصر ونصير ، وهو المؤيد والمقوي .

قوله تعالى :

« أم تُريدونَ أنْ تَسألوا رَسُولَكُمْ كما سُئِل مُوسى مِنْ قَبل ومَنْ يَتَبدَّل الكُفر بالايْمان فَقد ضَلَّ سَواء السَّبيل » (١٠٨) آية بلا خلاف .

سبب النزول :

اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية ، فروي عن ابن عباس أنه قال: قال رافع بن خزيمة ، ووهب بن زيد لرسول الله (ص) إئتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه ، وفجرّ لنا انهارا ، نتبعك ونصدقك ، فأنزل الله في ذلك من قولها « أم تريدون ان تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل » وقال الحسن عنى بذلك المشركين من العرب لما سألوه فقالوا « أو تأتي بالله والملائكة قبيلا » (١) وقالوا : « او نرى ربنا » (٢) وقال السدي: سالت العرب محمداً (ص) أن يأتيهم بالله فيروه جهرة . وقال مجاهد : سألت قريش محمداً أن يجعل لهم الصفا ذهباً . فقال نعم هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل . فأبوا ورجعوا . وقال ابو علي : روي ان النبي (ص) سأله قومه ان يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات انواط وهي شجرة كانوا يعبدونها ، ويعلقون عليها التمر ، وغيره من الماكولات . كما سألوا موسى « اجعل لنا الها كما لهم الهة » (٣) ومعنى « أم » في قوله : « أم تريدين » التوبيخ وإن كان لفظها لفظ الاستفهام كقوله تعالى « كيف تكفرون بالله » (٤) .

(١) سورة الاسراء : آية ٩٢ .

(٢) سورة الفرقان : آية ٢١ .

(٣) سورة الاعراف : آية ١٣٧ .

(٤) سورة سورة البقرة : آية ٣٨ .

اللغة :

وأم على ضربين : متصلة ، ومنفصلة : فالمتصلة عديلة الالف وهي مفرقة لما جمعته اي . كما ان اومفرقة لما جمعته احد تقول : اضرب ايهم شئت أزيدا ام عمراً ام بكرا . والمنفصلة غير المعادلة لألف الاستفهام قبلها لا يكون الا بعد كلام ، لانها بمعنى بل والالف كقول العرب : إنها لابل ام شاة كانه قال : بل شاة هي . ومنه قوله : « الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه » (١) كانه قال : بل يقولون : افتراه . وكذلك « أم تريدون » كانه قيل : بل تريدون وقال الاخطل .

كذبتك عينك ام رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا (٢)

وقال الفراء : إن شئت قلت قبله استفهام فترده عليه . وهو قوله : « ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير » وقال الرماني في هذا بعد أن تكون على المعادلة ولابد ان يقدر له أم تعلمون خلاف ذلك « فتسألون رسولكم كما سئل موسى من قبل » والمعنى (٣) أنهم يتخيرون الا يات ويسالون المحالات . كما سئل موسى ، فقالوا : « اجعل لنا إلها كما لهم الهة » وقالوا « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » (٤) وهذا الوجه اختاره البلخي والمغربي وحكي عن بعضهم أن ذلك عطف على قوله : « افتؤمنون ببعض الكتاب » (٥) وقيل ايضاً لما قيل لهم قولوا : « انظرنا واسمعوا » (٦) كان تقدير الكلام فهل تعقلون هذا ام تريدون ان تسألوا رسولكم .

---

(١) سورة الم ـ السجدة آية ٣ .

(٢) ديوانه ٤١ . واسط قرية غربي الفرات وهي من منازل بني تغلب . الغلس ظلمة اخر الليل اذا اختلطت بتباشير الصباح . في المطبوعة والمخطوطة « غلس » بدل « غاس »

(٣) في المخطوطة والمطبوعة « والمعنى عنهم بانهم » .

(٤) سورة البقرة : آية ٥٥ .

(٥) سورة البقرة : آية ٨٥ .

(٦) سورة البقرة : آية ١٠٤ .

وقوله : « سواء السبيل » معناه قصد الطريق ـ على قول الحسن ـ وسواء بالمد تكون على ثلاثة اوجه بمعنى قصدوعدل ، وبمعنى وسط . كقوله : « خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم » (١) وقوله : « فاطّلع فرآه في سـواء الجحيم » (٢) اي وسطها قال حسان :

يا ويح انصار النبي ونسله　　بعد المغيب في سواء الملحد (٣)

وتـكون بمعنى غير كقولك للرجل اتيت سواك أي غيرك . ومعنى ضل هاهنا الذهاب عن الاستقامة قال الاخطل :

كنت القذى في موج اكدر مزبد　　قذف الأتي به فضل ضلالا (٤)

أي ذهبت يمينا وشمالا والسبيل والطريق والمذهب نظائر ويقال : اسبل اسبالا وسبله تسبيلا . والسبيل يذكر ويؤنث ، والجمع السبل . والسـابلة : المختلفة في الطرقات في حوائجهم ، والجمع السوابل . وسبل سابل كقولهم شعر شاعر . والسبلة ما على الشفة العليا من الشعر بجمع الشاربين وما بينهما والسبل المطر المسبل والمسبولة هي سنبلة الذرة والارز ونحوه اذا مالت ويقال للزرع اذا سنبله : سنبلة ويقـال اسبلت اسبالاً : اذا ارخيته . واسبل الرجل ازاره : اذا ارخاه من الخيـلاء قال الشاعر :

واسبل اليوم من برديك اسبالا

وأصل الباب الاسبال : وهو الحد . والسؤال : هو الطلب ممن يعلم معنى الطلب أمراً من الامور . ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها والتعلق بينهما انه لما دل الله بما تقدم من الآيات على تدبير الله لهم فيما يأتي به من الآيات وما ينسخه فـكانه قال :

---

(١) سورة الدخان : آية ٤٧ .　　(٢) سورة الصافات : آية ٥٥ .

(٣) ديوانه : ٩٨ . وروايته « رهطه » بدل نسله وفى المخطوطة كما اثبتنا وفي المطبوعة « قبله » . والقصيدة يرثي بها رسول الله « ص » المغيب من غيب : وارى . اللحد : القبر .

(٤) ديوانه : ٥٠ القذى : ما يـكون فوق الماء من اوسـاخ . وقوله : (اكدر) : بحر كدر بعد صفاء مزبد : بحرهـائج يقـذف بالزبد . الأتي السيل . وروايـة الديوان : (في لج اكدر) .

ام لا ترضون بذلك فتخيروا الآيات وتسألوا المحالات « كما سئل موسى » لأن الله تعالى انما يأتي بالآيات على ما يعلم فيهامن المصلحة،فاذا أتى بآية تقوم بها الحجة فليس لاحد الاعتراض عليها ، ولا له اقتراح غيرها . لانه تعنت اذ قد صح البرهان بها .

وقوله : « ومن يتبدل الكفر بالايمان » معناه من يستبدل الكفر يعني الجحود بالله وباياته بالتصديق بالله وبآياته وبالاقرار به . وقال بعضهم عبر بالكفر هاهنا عن الشدة وبالايمان عن الرخاء،وهذا غير معروف في اللغة ولا العرف الا ان يراد بذلك الثواب والعقاب اللذان يستحقان عليها فيكون له وجه في التنزيل .

قوله تعالى :

« ودّ كثيرٌ من اَهل الكتابِ لو يردونكم مِن بَعد ايمانكم كفاراً حسَداً مِن عِندِ انفسهم مِن بعدِ ما تبين لهُم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ان الله على كُلِ شيء قدير » (١٠٩) آية واحدة .

المعنى بقوله : « ود كثير من اهل الكتاب » ـ عن الحسن ـ النصارى واليهود . وقال الزهري ، وقتادة : كعب بن الاشرف ، وعن ابن عباس حي بن اخطب ، وابو ياسر بن اخطب .

وحسداً نصب على أحد أمرين :

أحدها ـ على الجملة التي قبله بدلا من الفعل . كانه قال : حسدوكم حسداً كانه قال : نحسدك حسدا .

والآخر : ـ ان يكون مفعولا . كانه قال : يردّونكم لاجل الحسد كما تقول : جئته خوفاً منه . تقول حسدت احسد حسداً ، وحسدتك على الشيء ، وحسدتك الشيء ، بمعنى واحد . قال الشاعر :

فقمت الى الطعام فقال منهم فريق نحسد الانس الطعاما (١)

---

(١) اللسان : «حسد» . وروايته « زعيم » بدل « فريق » . قال ابن بري : الشعر لشمر بن ذي الحرث الضبي وربما روي لتأبط شرا . وانكر ابو القاسم الزجاجي رواية من روى «عموا صباحا» واستدل على ذلك بأن هذا البيت من قطعة كلها من روي الميم . قال ابن بري ـ

ورجل حاسد وحسود ، وحسّاد . والحسد هو الاسف بالخير على من له خير . واشد الحسد التعرض للاغتمام بكون الخير لاحد . وقد يكون الحاسد متمنياً لزوال النعمة عن المحسود وان لم يكن يطمع في تحول تلك النعمة . والصفح هو التجاوز عن الذنب . والصفح ، والعفو ، والتجاوز بمعنى واحد . يقال صفح صفحـــاً وتصفح تصفحة ، وتصافحوا تصافحاً والصفحة ما كان من ظاهر الشيء يقال لظاهر جلد الانسان : صفحة ، وكذلك هومن كل شيء . ومن هذا صافحته : اي لقيت صفحة كفه صفحة كفي . وفي الحديث التشيج للرجال والتصفح للنساء : اي التصفيق . فانما هو لانها تضرب بصفحة كف على صفحة الاخرى . وانشد الاصمعي :

كأن مصفحات في ذراه　　　وانواحاً عليهن المآلى (٢)

المآلي جمع مئلاة وهي خرقة تمسكها النائحة تقاص بها دمعتها . والصفاح من السيوف العراض واحدها صفحة وصُفحة . وقال :

ضربناهم حتى اذا ارفضّ جمعهم　　　علوناهم بالمرهفـــات الصفائح

وصفحت عنه قيل فيه قولان :

احدها ـ اني لم آخذه بذنبه . وابديت له مني صفحة جميلة .

[الثاني] وقيل بل لم ير مني ما يقبض صفحته .

وتقول صفحت الورقة : اي تجاوزتها الى غيرها . ومنه تصفحت الـكتاب ، وقد تصفح الـكتاب ، وقد يتصفح الـكتاب من لا يحسن ان يقرأ . ويسمى الصفح

ـ قد وهم ابو القاسم في هذا أولم تبلغه هذه الرواية لأن الذي يرويه عمواصباحاً يذكره مع ابيات كلها على روي الحاء وهي للخرع بن سنان الغساني ومن جملة الابيات :

نزلت بشعب واد الجن لما　　　رأيت الليل قد نشر الجناحا

ـ باختصار عن اللسان ـ

(١) اللسان « صفح » وقد نسب البيت الى لبيد . في المطبوعة والمخطوطة « بايديها » بدل « عليهن » المصفحات ـ بكسر الفـــاء وتشديدها ـ نساء يصفقن بايديهن في ماتم . وروي « مصفحات » ـ بفتح الفاء وتشديدها ـ اريد بها السيوف العريضة .

من المصحف وغيره من الدفاتر من الصفحة . ومنه « فاصفح الصفح الجميل » (١) .
وقوله : « فاعفوا واصفحوا » قال الحارث بن هشام :

وصفحت عنهم والاحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم سرمد

اي لم احاربهم لاقبض صفاحهم ، او اريهم ذلك في نفسي . ويقال نظر اليهم صفحاً بقدر ما ابدي صفحته لم يتجاوز . والصفاح موضع سمي بذلك ، لانه صخور مستوية تبدو صفائحها . وأصل الباب صفحة الشيء وهي ظاهره .

وقوله : « من عند انفسهم » قال الزجاج : متعلق بـ « ودّ كثير » لا بقوله : « حسداً » ، لان حسد الانسان ، لا يكون من غير نفسه . وقد يجوز ان يتصل بقوله : « حسداً » على التوكيد . كما قال تعالى : « ولا طائر يطير بجناحيه » (٢) ويحتمل وجهاً آخراً وهو ان اليهود كما يضيفون الكفر والمعاصي الى الله تعالى ، فقال الله : « من عند انفسهم » تكذيباً لهم انها من عند الله .

وقوله : « من بعد ما تبين لهم الحق » قال قتادة : من بعد ما تبين لهم ان محمداً رسول الله (ص) والاسلام دين الله . وهو قول الربيع والسدي وابن زيد ، وروى عن ابن عباس مثله .

وقال بن عباس : ان قوله : « فاعفووا واصفحوا حتى يأتي الله بامره » منسوخة بقوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » (٣) . وقال قتادة نسخت بقوله : « قاتلوا المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » الآية . وبه قال الربيع والسدي .

وروي عن ابي جعفر محمد بن علي : انه قال : لم يؤمر رسول الله (ص) بقتل ، ولا اذن له فيه حتى نزل جبرائيل (ع) بهذه الآية « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا » (٤) وقلده سيفاً .

(١) سورة الحجر : آية ٨٥
(٢) سورة الانعام : آية ٣٨
(٣) سورة التوبة : آية ٦ .
(٤) سورة الحج : آية ٣٩ .

وقوله : « حتى يأتي الله بأمره » قال ابو علي : « بامره » لكم يعاقبهم او يعافيهم هو على ذلك ، ثم اتى بامره فقال : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » (١)

وقوله : « ان الله على كل شيء قدير » قيل فيه ثلاثة اقوال :

قال ابو علي : انه قدير على عقابهم اذ هو « على كل شيء قدير » .

وقال الزجاج : قدير على ان يدعو الى دينه بما احب مما هو الأليق بانجائكم اي فيأمر بالصفح تارة وبالعقاب اخرى على حسب المصلحة .

والثالث ـ انه لما امر بالامهال ، والتأخير في قوله : « فاعفوا واصفحوا » كأنّ فيه تعلق النفس بالعافية في ذلك ، فقال امهلوهم فانهم لا يعجزون الله ، ولا يفوتونه ، اذ هو « على كل شيء قدير » .

وانما امرهم بالصفح ، والعفو وان كانوا مضطهدين مقهورين مقموعين ، من حيث ان كثيراً من المسلمين كانوا عزيزين في عشائرهم ، وأقوامهم يقدرون على الانتصار والانتقام من الكفار ، فامرهم الله تعالى بان يعفوا وإن قدروا حتى يأتي الله بامره .

قوله تعالى :

« وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (١١٠) آية واحدة بلا خلاف .

ان قيل ما المقتضي لذكر الصلاة والزكاة هاهنا ، قلنا : انه تعالى لما اخبرهم بشدة عداوة اليهود لهم وامرهم بالصفح عنهم قال : « اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » فان في ذلك معونة على الصبر مع ما تجزون بها من الثواب والاجر ، كما قال في موضع آخر : « واستعينوا بالصبر والصلاة » .

وقوله : « وما تقدموا » معنى (ما) الجزاء ، وجوابه « تجدوه » . ومثله « ما

(١) سورة التوبة : آية ٣٠ .

يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » والخير المذكور في الآية هو العمل الصالح الذي يرضاه الله . ومعنى « تجدوه » اى تجدوا ثوابه . وكذا قال الربيع كما قال ابن نجا :

وسبحت المدينة لا تلمها (١)

اي سبحت اهل المدينة . وقوله : « ان الله بما تعملون بصير » معناه انه لا يخفى عليه شيء من اعمالكم . جازاكم على الاحسان بما تستحقونه من الثواب ، وعلى الاساءة بما تستحقونه من العقاب ، فاعملوا عمل من يدري انه يجازيه من لا يخفى عليه شيء من عمله ، ففي ذلك دلالة على الوعد ، والوعيد ، والامر والزجر ، وان كان خبرا عن غير ذلك في اللفظ .

قوله تعالى :

« وَقالوا لَن يَدخُلَ الجَنةَ إلاَّ مَن كانَ هُوداً أو نَصارى تِلكَ اَمانيُّهُم قُل هاتُوا بُرهانَكم ان كنتُم صادِقين » (١١١) آية بلا خلاف .

المعنى :

قوله : « هوداً » يريد يهودا فحذف الياء المزادة ووحد كان ، لان لفظة (من) قد تكون للواحد وتكون للجماعة والعرب تقول : من كان صاحباك . ولا يجوز الوقف على قوله : « وقالوا » بل يجب صلته بقوله : « لن يدخل الجنة » الآية . فان قيل كيف جمع بين اليهود والنصارى في الحكاية مع افتراق مقالتها في المعنى ، وكيف يحكي عنها ماليس يقول لها ؟ قلنا : فعل ذلك للايجاز والاختصار وتقديره : قالت اليهود : لن يدخل الجنة الا من كان يهوديا ، وقالت النصارى ، لن يدخل الجنة الا من كان نصرانيا ، فادرج الخبر عنها للايجاز من غير اخلال اذ شهرة

(١) وعجز البيت :

رأت قمراً بسوقهم نهاراً

حالها تغني عن البيان . ومثله في الادراج ، والجمع من غير تفصيل قوله : « قلنا اهبطوا » (١) وانما كانت الصورة إهبط لابليس ، ثم قيل اهبطا لادم وحواء فحكاه على المعنى وتقدير الكلام . وقال بعض اهل الكتاب : لن يدخل الجنة الا من كان هوداً . وقال بعضهم : لن يدخل الجنة الا من كان نصارى : والبعض الثاني غير الاول الا انه لما كان اللفظ واحداً أجمع مع الاول . قال حسان بن ثابت :

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء (٢)

تقديره ومن يمدحه وينصره . غير انه لما كان اللفظ واحدا أجمع مع الاول ، وصار كانه اخبار به عن جملة واحدة . وانما كان (٣) حقيقة عن بعضين متفرقين . ومثله « هو الذي خلقكم من نفس واحدة » (٤) يعني آدم ، ثم قال « وجعل منها زوجها » (٥) اي من النفس بمعنى الجنس فهو في اللفظ على مخرج الراجع الى النفس الاولى . وفي تحقيق المعنى لغيرها وهذا قول اكثر المفسرين السدي وغيره . وفي معنى (٦) هود ثلاثة اقوال .

احدها ـ انه جمع هائد وهود كحائل وحول وعائد وعود وعائط وعوط وهو جمع المذكر والمؤنث على لفظ الواحد . والهائد : التائب الراجع الى الحق .

والوجه الثاني ـ ان يكون مصدرا يصلح للواحد والجمع . كما يقال : رجل فطر ، وقوم فطر ونسوة فطر ورجل صوم وقوم صوم .

والثالث ـ ان يكون معناه إلا من كان يهوديا الا ان الياء الزائدة حذفت . ورجع الى معنى الاصل من اليهود .

ومعنى « امانيهم » قال المؤرخ : اباطيلهم ـ بلغة قريش ـ وقال قتادة : اماني

« ١ » سورة البقرة : آية ٣٦ .

« ٢ » ديوانه من قصيدة يذم بها أبا سفيان حين علم أن أبا سفيان هجا رسول الله «ص» ومطلعها :

ألا ابلغ أبا سفيان عني فانت مجوف نخب هواء

« ٣ » في المطبوعة « كان » ساقطة .

« ٤ و ٥ » سورة الاعراف : آية ١٨٨ .

« ٦ » في المطبوعة « معنى » ساقطة .

يتمنونها على الله كاذبة وبه قال الربيع . وقيل ايضا معناه تلك أقاويلهم وتلاوتهم كما قال « لا يعلمون الكتاب الا اماني » (١) اي تلاوة .

ومعنى « هاتوا » احضروا . وهو وإن كان على لفظ الامر المراد به الانكار والتعبير . وتقديره ان آتيتم ببرهان صحت مقالتكم . ولن ياتوا به ، لان كل مذهب باطل فلا برهان عليه .

اللغة :

والبرهان والحجة والدلالة والبيان بمعنى واحد ، وهو ما أمكن الاستدلال به على ما هو دلالة عليه مع قصد فاعله الى ذلك . وفرق الرماني بين الدلالة والبرهان بأن قال : الدلالة قد تنبيء عن معنى فقط . لا تشهد بمعنى اخر ؛ وقد تنبيء عن معنى يشهد بمعنى اخر ، والبرهان ليس كذلك ، لانه بيان عن معنى ينبيء عن معنى اخر ، وهذا الذي ذكره لا يسلم له لانه محض الدعوى وبه قال الحسن ، ومجاهد والربيع والسدي .

المعنى :

« هاتوا برهانكم » اي حجتكم . وفي الآية دلالة على فساد التقليد لانه لو جاز التقليد لما ألزم القوم ان ياتوا فيما قالوه ببرهان . وقد يجوز في العربية امانيهم بالتخفيف على ما ذكره الزجاج . والتثقيل اجود .

قوله تعالى :

« بَلى مَن اَسلَم وَجهَه لِلهِ وَهُو مُحسنٌ فله أجرُهُ عِند ربه ولا خَوفٌ عَلَيهم وَلا هُم يَحزَنون » (١١٢) ـ آية بلا خلاف . ـ

فان قيل : اليس بلى انما تكون في جواب الاستفهام مثل قوله «الست بربكم قالوا بلى » فكيف دخلت هاهنا؟ قلنا إنما جاز ذلك لأنه يصلح ان يكون تقديره أما

« ١ » سورة البقرة : آية ٧٨ .

يدخل الجنة احد فقيل « بلى من اسلم وجهه لله » لان ما تقدم يقتضي هذا السؤال ، ويصلح ان يكون جواباً للجحد على التكذيب ـ كقولك : ما قام زيد فيقول : بلى قد قام ، ويكون التقدير ها هنا ليس الامر كما قال الزاعمون « لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى » ولكن « من اسلم وجهه لله وهو محسن » فهو الذي يدخلها وينعم فيها ، أو بلى من اخلص نفسه لطاعة الله .

ومعنى اسلم يحتمل امرين : احدهما ـ اسلم الى كذا بمعنى صرفه اليه كقولك اسلمت الثوب اليه ، والثاني ـ اسلم له بمعنى اخلص له من قولك : قد سلم الشيء لفلان اذ اخلص له . ومنه قوله : « ورجلا سلماً لرجل » (١) اي خالصاً وقال زيد ابن عمرو بن نفيل :

واسلمت نفسي لمن اسلمت له المزن تحمل عذباً زلالا (٢)

وانما جاز اسلم وجهه لله على معنى اسلم نفسه لله على مجرى كلام العرب في استعمال وجه الشيء ،وهم يريدون نفس الشيء ،إلا انهم ذكروه باللفظ الاشرف الأنبه ودلوا عليه به . كما قال عزوجل : « كل شيء هالك إلا وجهه » (٣) أي إلا هو . وقال : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك » (٤) وقال الاعشى :

أؤول الحكم على وجهه ليس قضائي بالهوى الجائر (٥)

يعني على ما هو من صحته ، وصوابه . وقال ذو الرمة :

فطاوعت همي وانجلى وجه بازل من الأمر لم يترك خلاجاً بزولها (٦)

« ١ » سورة الزمر آيه ٢٩ .

« ٢ » سيرة ابن هشام ١ : ٢٤٦ المزن واحدته مزنة : وهو السحاب عامة . وقيل : المزن : السحاب البيضاء .

« ٣ » سورة القصص آية : ٨٨ .

« ٤ » سورة الرحمان : آية ٢٧ .

« ٥ » ديوانه : ١٤٣ . رقم القصيدة ١٨ . اول الحكم الى اهله : رده اليهم . الجائر . المنحرف عن الصواب . في المطبوعة والمخطوطة « وأول » بدل « أؤول » .

« ٦ » ديوانه . ٥٦ من قصيدة يمدح بها عبيد الله بن عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي طاوعت همي : طاوعت ما همت به نفسي . وقوله : بازل من الامر هذا مثل . يقال . —

يريد انجلى البازل من الامر . وقال ابن عباس : اسلم وجهه لله : اخلص عمله لله . وقال الربيع : اخلص لله . وقال الحسن : يعني بوجهه : وجهه في الدين . وقيل معناه استسلم لامر الله . ومن الوجه يقال : توجه توجهاً ، وواجه مواجهة ، وتواجهوا تواجهاً . والجهة : النحو . تقول : كذا على وجه كذا ، والوجهة القبلة شبهها في كل وجهة : اي كل وجه استقبلته ، واخذت فيه . وتقول توجهوا اليك، ووجهوا اليك ، كل يقال : غير أن قولك : توجهوا اليك على معنى ولوا اليك وجوههم . والتوجه الفعل اللازم . والوجاه والتجاه لغتان : وهو ما استقبل شيء شيئاً تقول دار فلان تجاه دار فلان . والمواجهة : استقبالك بكلام او بوجه . وأصل الباب الوجه مستقبل كل شيء . ووجه الانسان : محياه . ونقيض الوجه القفاء . ويقال : وجه الكلام ، تشبيهاً بوجه الانسان ، لانه اول ما يبدو منه ، ويعرف به . وقد يقال في الجواب : هذا وجه وذلك خلف ، تشبيهاً ايضاً من جهة الحسن ، لان الغالب في الوجه انه احسن . ويقال : هذا وجه الرأي الذي يبدوا منه ، ويعرف به. والوجه من كل شيء : اول ما يبدو ، فيظهر بظهور ما بعده .

وقوله : « وهو محسن » في موضع نصب ، لانه في موضع الحال وانما قال: « فله اجره » على التوحيد ، ثم قال : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » على الجمع لان (من) لفظها لفظ الواحد ، ومعناها الجمع ، فمرة تحمل على اللفظ ، واخرى على المعنى كما قال : « ومنهم من يستمع اليك » (١) وفي موضع اخر « ومنهم من يستمعون اليك » (٢) . وقال الفرزدق :

تعال فان عاهدتني لا تخونني　　نكن مثل من يا ذئب يصطحبان (٣)

— بزل ناب البعير بزولا اي انشق وظهر . وخطة بزلاء . تفصل بين الحق والباطل . والخلاج : الشك والتردد . والبيت في المطبوعة هكذا .

قطاعت هي وانجل اوجه نازل　　من الامر لم يترك خلاجاً تزولها

وفي المخطوطة قريب من هذا .

« ١ » سورة الانعام . آية ٢٥ وسورة محمد . آية ١٦ .

« ٢ » سورة يونس . آية ٤٢ .　　« ٣ » انظر ١ . ٢٨٤

فثنى واللفظ واحد لاجل المعنى . فان قيل اذا كان قد ذكر « فلهم اجرهم عند ربهم » فلم قال : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » قيل عن ذلك جوابان :

احدهما - الدلالة على انهم على يقين لا على رجاء يخاف معه ألا يكون الموعود به .

والثاني - الفرق بين حالهم ، وبين حال اهل العقاب الذي يخافون ويحزنون .

قوله تعالى :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » (١١٣) - آية بلا خلاف . -

النزول :

اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية فقال ابن عباس : انه لما قدم اهل نجران من النصارى على رسول الله « ص » اتتهم احبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله (ص) فقال رافع بن خويلد : ما انتم على شيء ، وكفر بعيسى وبالانجيل ، فقال رجل من من اهل نجران من النصارى : ما أنتم على شيء وجحد بنبوة موسى ، وكفر بالتوراة فأنزل الله في ذلك الآية الى قوله : « فيما كانوا فيه يختلفون » .

وقال الربيع : هؤلاء اهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله (ص) .

المعنى :

ومعنى الآية احد شيئين :

احدهما - حل الشبهة بانه ليس في تلاوة الكتاب معتبر في الانكار، لما لم يؤت على انكاره، ببرهان فلا ينبغي ان تدخل الشبهة بانكار اهل الكتاب لملة اهل الاسلام

اذ كل فريق من اهل الكتاب قد انكر ماعليه الآخر ، ثم بين أن سبيلهم كسبيل من لا يعلم الكتاب في الانكار لدين الاسلام من مشركي العرب ، وغيرهم ممن الكتاب له فيهم ، وجحدهم لذلك سواء اذ لا حجة معهم يلزم بها تصديقهم ، لا من جهة سمع ولا عقل .

والوجه الآخر ـ الذم لمن انكر ذلك من اهل الكتاب على جهة العناد ، اذ قد ساوى المعاند منهم للحق الجاهل به في الدفع له ، فلم ينفعه علمه ، بل حصل على مضرة الجهل كما حصل عليه من لا علم له به . فان قيل : اذا كانت اليهود انما قالت : ليست النصارى على شيء في تدينها في التوراة فكيف قال : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » وأهل الحق ايضاً يقولون مثل قولهم ؟ قيل : إن المعنى « كذلك قال الذين لا يعلمون الكتاب » اي فقدساووا في ذلك من لا كتاب له . وكما لا حجة في جحد هؤلاء كذلك لا حجة في جحدهم ، ولم يساووا أهل الحق فيه ، لانهم قالوه عن علم . والمعني بقوله : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » ـ في قول السدي ـ هم العرب الذين قالوا : ليس محمد (ص) على شيء . وقال الربيع : قالت النصارى : مثل قول اليهود قبلهم ، ووجه هذا القول ، اي فقد ساووكم يا معشر اليهود في الانكار « وهم لا يعلمون » . وقال عطاء : هؤلاء الذين لا يعلمون امم كانت قبل اليهود والنصارى ، وقبل التوراة والانجيل .

اللغة :

« والقيامة » مصدر إلا انه صار كالعلم على وقت بعينه ، وهو الوقت الذي بعث الله عزوجل فيه الخلق ، فيقومون من قبورهم الى محشرهم . تقول : قام يقوم قياماً وقيامة : مثل عاد يعود عياداً وعيادة ، وصانه صيانة ، وعاده عيادة .

المعنى :

وقوله : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » يحتمل امرين : (١)

« ١ » أثبت ثلاثة أمور .

احدها - قال الحسن حكمه فيهم ان يكذبهم جميعاً ويدخلهم النار . وقال ابو علي : حكمه الانصاف من الظالم المكذب بغير حجة ولا برهان للمظلوم المكذب . وقال الزجاج : حكمه ان يريهم من يدخل الجنة عيانا . وهذا هو حكم الفصل في الآخرة فاما حكم العقل في الدنيا فالحجة التي دل الله بها على الحق من الباطل في الديانة .

قوله تعالى :

وَمَن أظلم مِمن مَنعَ مَساجِدِ اللهِ أن يذكَرَ فيهَا إسمهُ وَسَعى في خَرابِها أولئكَ ما كانَ لهم أنَ يَدخُلوها إلا خائفينَ (١١٤) - آية واحدة . -

المعنى :

اختلف المفسرون في المعنى بهذه الآية ، فقال ابن عباس ، ومجاهد ، واختاره الفراء انهم الروم ، لانهم كانوا غزوا بيت المقدس ، وسعوا في خرابه حتى كانت أيام عمر ، فاظهر الله عليهم المسلمين ، وصاروا لا يدخلونه إلا خائفين : وقال الحسن وقتادة والسدي : هو بخت نصر خرب بيت المقدس . قال قتادة : واعانه عليه النصارى . وقال قوم : عنى به سائر المشركين ، لانهم يريدون صد المسلمين عن المساجد ، ويحبونه . وقال ابن زيد ، والبلخي ، والجبائي والرماني : الراد به مشركي العرب . وضعف هذا الوجه الطبري من بين المفسرين بان قال : إن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام . وهذا ليس بشيء ، لان عمارة المساجد بالصلاة فيها وخرابها بالمنع من الصلاة فيها . وقد روي انهم هدموا مساجد كان أصحاب النبي يصلون فيها بمكة ، لما هاجر النبي واصحابه . وقال : وهو ايضاً لا يتعلق بما قبله من ذم أهل الكتاب كما يتعلق اذا عنى به النصارى ، وبيت المقدس . فيصير الكلام منقطعاً ، فيقال له : قد جرى ذكر لغير أهل الكتاب من المشركين في قوله : « كذلك قال الذين لا يعلمون » وهذا أقرب من اليهود والنصارى ، ولان ذلك كله ذم : فمرة

يوجه الى اليهود ، ومرة الى النصارى ، ومرة الى عباد الاوثان وغيرهم من أهل الشرك . فان قيل : كيف قال : « مساجد الله » بالجمع وهو أراد المسجد الحرام ، أو بيت المقدس ؟ قيل عنه جوابان :

احدهما ـ ان كل موضع منه مسجد ، كما يقال لكل موضع من المجلس العظيم مجلس . فيكون اسماً يصلح ان يقع على جملته ، وعلى كل موضع سجود فيه .

[والثاني] ـ وقال الجبائي لانه يدخل فيه المساجد التي بناها المسلمون للصلاة بالمدينة .

وقوله : « ممن منع »

اللغة :

والمنع ، والصد والحيلولة نظائر . وضد المنع الاطلاق . يقال : منع منعاً . وامتنع امتناعا . وتمنع تمنعاً . وتمانع تمانعاً . ومانعه ممانعة . وقال صاحب العين : المنع : ان يحول بين الرجل وبين الشيء يريده . وتقول : منعته فامتنع . ورجل منيع لا يخلص اليه وهو في عز ومنعة يخفف ويثقل . وامرأة منيعة ممتنعة لا تؤاتى على فاحشة وقد تمنعت مناعة . وكذلك الحصن وغيره تقول : منع مناعا : اذا لم يرم ومناع ، أي امنع قال الشاعر :

مناعها من ابل مناعها ألا ترى الموت لدى اوباعها(١)

المعنى :

ومساجد الله قد بينا ان منهم من [قال] أراد المسجد الاقصى ، ومنهم من [قال] أراد المسجد الحرام ، ومنهم من قال : أراد جميع المساجد .

وروي عن زيد بن علي عن أبيه عليهما السلام انه أراد جميع الارض ، لقوله

---

(١) لم نجد هذا البيت في مصادرنا ووجدنا بيتاً يشبهه في شواهد سيبويه ١ : ١٢٣ ولم ينسبه وهو :

تراكها من ابل تراكها أما ترى الموت لدى أوراكها

وهذا ايضاً موجود في الكامل للمبرد : ٤١٣ .

عليه السلام : جعلت لي الارض مسجداً وترابها طهوراً .

وقوله : « وسعى في خرابها »

اللغة :

والسعي والعدو والركض نظائر . وضد السعي الوقف . تقول : سعى (١) سعياً ، واستسعى استسعاء وتساعوا تساعياً . قال صاحب العين : السعي : عدو دون الشديد . وكل عمل من خير أو شر ، فهو السعي يقال : فلان يسعى على عياله أي يكسب لهم يقولون : ان السعي الكسب والعمل . قال الشاعر :

سعى عقالا فلم يترك لنا سبداً　　فكيف لو قد سعى عمرو عقالين (٢)

عقال صدقة عام . والساعية ان تسعى بصاحبك الى وال من فوقه . والسعاية ما يستسعى به العبد من ثمن رقبته اذا اعتق بعضه ، وهو ان يكلف من العمل مايؤدي عن نفسه ما بقي ويقال سعى للسلطان اذا ولي الصدقة وساعي الرجل الامة : اذا فجر بها . ولا تكون المساعاة إلا في الاماء . واصل الباب : السعي : العدو .

وقوله : « في خرابها » فالخرب ، والهدم ، والنقض نظائر ونقيض الخراب العمارة . يقال : خرب خرابا واخربه إخرابا . وتخرب تخربا وخربه تخريباً . والخرب الذكر من الحبارى والجمع الخربان . قال الشاعر :

ما رأينا خربا ينفر عنه البيض صقر لايكون المهر جحشاً لايكون الجحش مهر

والخربة : سعة خرق الاذن . قال ذو الرمة :

كأنه حبشي يبتغي أثراً　　أومن معاشر في آذانها الخرب (٣)

---

(١) في المطبوعة سعى ساقطة .

(٢) انظرا : ٣٠٠ فثمت ايضاح واف .

(٣) اللسان (خرب) يصف نعاما شبهه برجل حبشي ، لسواده . وقوله (يبتغي اثراً) لانه مدلى الرأس وفي آذانها الخرب : يعني السند . وقيل الخربة سعة خرق الاذن في المطبوعة (اشراً) بدل (أثراً) و (جشي) بدل (حبشي) .

والخربة : عروة المزادة وكذلك كل بيت مستدير . والخارب: اللص . وما رأينا من فلان خربة أي فساداً في دينه أو شيناً . والخارب من شدائـد الدهر . قال الشاعر :

ان بها اكتل أو رزاما خويربين ينقفان الها ما (١)

والرزام : الهزال . والخروبة شجرة الينبوت . والخرابة : سرقة الابل قال الاصمعي لا يكادون يسمون الخارب إلا سارق الابل وأصل الباب : الخراب ضد العمران .

وقوله : « ومن اظلم » رفع لانه خبرالابتداء وتقديره أي أحد اظلم .

وقوله : « ان يذكر » يحتمل وجوهاً من النصب . قال الاخفش : يجوز ان يكون على حذف (من) ، وتقديره من ان يذكر ، ويجوز أن يكون على البدل من « مساجد الله » ، وقال الزجاج : يجوز على معنى كراهية أن يذكر . وعلى الوجوه كلها العامل فيه (منع)

المعنى :

ومعنى قوله : « اولئك ما كان لهم ان يدخلوها إلا خائفين » فيها خلاف . قال قتادة : هم اليوم كذلك لا يوجدنصراني في بيت المقدس إلا انهك (٢) ضربا ، وابلغ اليه في العقوبة . وبه قال السدي . وقال ابن زيد : نادى رسول الله (ص) ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان وقال الجبائي بين الله انه ليس لهؤلاء المشركين دخول المسجد الحرام ، ولا دخول المساجد فان دخل منهم داخل الى بعض المساجد ،كان على المسلمين اخراجه منه إلا ان يدخل الى بعض الحكام

---

(١) اللسان (خرب) الاكتل والكتال : هما شدة العيش . والرزام الهزال . قال ابو منصور : اكتل ورزام ـ بكسر الراء ـ رجلان خاربان أي لصان . وقوله : خوربان أي هما خاربان وصغرهما وهما اكتل ورزام ، ونصب خوربين على الذم . والجمع خراب . في المطبوعة والمخطوطة (خربيان) بدل (خويربين) و (نفقان) بدل (ينقفان)

« ٢ » في المطبوعة « الا ازهك » بدل « الا انهك »

بخصومة بينه وبين غيره الى بعض القضاة ، فيكون دخوله خائفـــا من الاخراج على وجة الطرد بعد انفصال خصومته ، ولا يقعد مطمئنا كما كان يقعد المسلم . وهو الذي يليق بمذهبنا ، ويمكن الاستدلال به على ان الكفار لايجوز أن يمكنوا من دخول المساجد على كل حال . فأما المسجد الحرام خاصة ، فان المشركين يمنعون من دخوله ، ولا يتركون ليدخلوه لحكومة ، ولا غيرها ، لأن الله تعالى قد امر بمنعهم من دخوله بقوله : « ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر » (١) يعني المسجد الحرام . وقال الزجاج : أعلم الله ان أمر المسلمين يظهر على جميع من خالفهم حتى لا يمكن دخول مخالف الى مساجدهم إلا خائفاً . وهو كقوله : « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (٢) كأنه قيل : أولئك ما كان لهم ان يدخلوها إلا خائفين ، لاعزاز الله الدين واظهاره المسلمين .

قوله تعالى :

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٥)

ـ آية . ـ

المعنى :

قال قتادة : معناه انهم « يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون » . وقال السدي: خزيهم في الدنيا انهم اذا قام المهدي ، وفتحت قسطنطينية قتلهم ، فلذلك خزيهم في الدنيا ان يقتلوا ان كانوا حرباً ، ويؤدون الجزية ان كانوا ذمة . وقال الجبائي : الخزي لهؤلاء الكفار الذين امرنا بمنعهم من دخول المساجد على سبيل ما يدخلها المؤمنون . وقوله : « ولهم في الآخرة عذاب عظيم » قال الفراء : يقول فيما وعد الله المسلمين من فتح الروم وان لم يكن بعد ـ والناس على خلافه ، في ان معنى الآخرة

(١) سورة التوبة : آية ١٩ .

(٢) سورة التوبة : آية ٣٤ .

يوم القيامة . كأنه قيل : لهم في الآخرة عذاب جهنم .

قوله تعالى :

وَلِلّهِ المشرقُ والمغربُ فَأَيْنَمَا تُوَلوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٦) آية بلا خلاف .

اللغة :

المشرق والشرق : اسمان لمطلع الشمس ، والمغرب ، والغرب : اسمان لغربها . يقال : شرق شروقا ، واشرق إشراقا ، وتشرق تشريقاً . والمشرقان والمغربان : مشرقا الشتاء والصيف ، ومغرباها . والمشارق مطالع الشمس في كل يوم حتى تعود الى المشرق الاول في الحول . وشرقت الشمس : اذا طلت ، واشرقت : اذا اضاءت . وتقول : لا افعل ذلك ماذر شارق : أي ما طلع قرن الشمس . وشرق يشرق شرقاً : اذا اغتص . وقال عدي بن زيد :

لو بغير الماء حلقي شرق　　　كنت كالغصان بالماء اعتصاري (١)

والمشرقة (٢) حيث يقعد المشرق في وجه الشمس . قال الشاعر :

تحبين الطلاق وأنت عندي　　　بعيش مثل مشرقة الشتاء (٣)

وشرق الثوب بالصبغ : اذا احمر واشتدت حمرته ، ولطمه فشرق الدم في عينه : اذا احمرت . وتقول : اشرورقت عينه ، واغرورقت . وناقة شرقاء : اذا شقت أذنها (٤) بنصفين طولا ، وكذلك الشاة . وأيام التشريق أيام مشرق اللحم في الظل .

(١) اللسان شرق و (عصر) الشرق بالماء والريق : كالغصص بالطعام . الاعتصار : ان يغص الانسان بالطعام فيعتصر بالماء : وهو أن يشربه قليلا قليلا .

(٢) المشرقة فيها اربع لغات ـ بضم الراء ، وفتحها ـ وشرقة ـ بتسكين الراء ـ ومشراق .

(٣) لم نجد هذا البيت في مصادرنا ولم نعرف قائله . وفي اللسان (شرق) بيت يشبهه وهو :

تريدين الفراق وأنت مني　　　بعيش مثل مشرقة الشمال

(٤) في المطبوعة (وفاقه شرقاً اذا شقتا نها)

وقال صاحب العين : كانوا يشرقون اللحم تلك الايام في الشمس . وقوله : فأخذتهم الصيحة مشرقين » (١) أي حيث طلعت عليهم الشمس . والشرق طائر من الطيور الصوائد . مثل الصقر ، والشاهين وقال الشاعر :

قد اغتدى والصبح ذو بريق بملحم احمر سوذنيق
أجدل أو شرق من الشروق (٢)

وكل شيء طلع من الشمس يقال : شرق يشرق . وفي الحديث : لا تشريق إلا في مصر ، ومسجد جامع ، أي لا صلاة عيد ، لانها وقت طلوع الشمس . واصل الباب الطلوع . والمغرب والمغيب نظائر . تقول : غرب يغرب غروبا ، واغترب اغترابا واستغرب استغرابا ، وغرّب تغريباً . وسمي الغراب غراباً لبعده ونفوره (٣) وانه أشد الطيور خوفاً وأصل الباب الحد والتباعد حتى بلغ النهاية . ومن هذا مغرب الشمس . والرجل الغريب المتباعد . وشطت غربة النوى أي بعد المتنائي : وهو أبعد البعد . وغرب السيف والسهم : حدّه سمي بذلك ، لانه يمضي فلا يرد ، فهو مأخوذ من الابعاد . ويقال لموضع الرداء : غارب . وقولهم للدابة : مغرب : اذا ابيضت حدقته ، واهدابه . شبيه بابيضاض الشمس عند الغروب . وقولك للرجل : أغرُب معناه أبعد . وثوبي غربي : اذا لم تستحكم حمرته . مأخوذ من الدابة الغرب . وتقول: اصابه حجر غرب : اذا أتاه من حيث لا يدري . وأتاه حجر غرب : اذا رمى غيره فاصابه . ويقال : إقطع غرب لسان فلان عني : أي اقطع حدة لسانه . وناقة ذات غرب ، أي حدة الغرب . والغرب : الدمع الحار الفاسد . وقال الكميت :

أبى غرب عينيك إلا انهمالا

« ١ » سورة الحجر آية ٧٣ .

« ٢ » اللسان « شرق » ولم ينسبها الملحم -- بفتح الحاء -- من يطعم اللحم -- بفتح العين -- السوذق ، والسوذنيق والسوذانق ، وربما قالوا : ذيذونق : الشاهين ، وهو طائر كالصقر وجيم مادة « سوذق » فارسية معربة . وفي المخطوطة والمطبوعة هكذا :

قد اغتدى والصبح ذو نبيق لمسلحم اكلب شوذنيق

« ٣ » في المطبوعة « عن أباً لبعده ونقول »

وجمعه غروب . والغرب : دلو ضخم يتخذ من جلد تام . والغرب : ما قطر من الماء من الدلاء من الحوض ، والبئر ويقال : اغرب الحوض : اذا سال من جوانبه وفاض والغرب : جنس من الشجر خارج عن حد ما يحمل بحمل ، أو طيب ريح ، أو صلابة . وغاية مغربة : أي بعيدة . والغرب : الفضة . وقيل : انه جام من فضة . وقيل : انه الذهب . قال الشاعر :

كما دعدع ساقي الاعاجم الغربا (١)

والغارب : اعلى الموج والغارب : مابين يدي السنام. وعنقاء مغرب : موضوع على طائر لا يعرف حده والغربيب : الاسود الشديد السواد . وأصل الباب : الغرب : الحد . واللام في قوله : « ولله المشرق » لام الملك وأصلها لام الاضافة وهي على ثمانية اوجه : الملك ، والفعل ، والعلة ، والولادة ، والاختصاص ، والاستغاثة ، ولام كي . وهي لام الغرض (٢) ولام العاقبة . (٣) فلام الملك كقولك : له مال ، والفعل : له كلام ، والعلة : (٤) هو اسود لما فيه السواد ، ولام الولادة : (٥) أب له ولد له أخ ، والاختصاص : له علم ، وله ارادة (٦) والاستغاثة يالبكر ، ولام كي : «وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون» ، (٧) ولام العاقبة : « فالتقطة آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا » فهذه وجوه لام الاضافة . وانما قيل : « ولله المشرق والمغرب » بالتوحيد وله جميع المشارق والمغارب لاحد امرين :

---

(١) اللسان (غرب) . قائله الاعشى . و (كما) زائدة من الصدر والبيت :
فدعد عاسرة الركاء كما   دعدع ساقي الاعاجم الغربا
والغرب : جام الفضة . قال ابن بري هذا البيت للبيد وليس للاعشى كما زعم الجوهري
(٢) في المطبوعة (كلام الغرض) .
(٣) في المطبوعة « الغاية »
(٤) في المطبوعة (يعله) .
(٥) في المطبوعة « له » ساقطة
(٦) في المطبوعة « وله ارادة في ارادة »
(٧) سورة الانعام : آية ١٢٣ .

احدهما ـ انه اخرج ذلك مخرج الجنس ، فدلّ على الجمع ، كما قيل اهلك الناس الدينار والدرهم .

والآخر ـ انه على الحذف . كأنه قيل المشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم ، والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم . وانما خص الله تعالى ذكر ذلك ها هنا لاحد امور :

احدها ـ قال ابن عباس : واختاره الجبائي انه رد على اليهود لما انكروا تحويل القبلة الى الكعبة ، وقال : ليس هو في جهة دون جهة ، كما تقول المشبهة .

والثاني : قال ابن زيد وقتادة ، كان للمسلمين التوجه بوجوههم الى الصلاة حيث شاؤوا ثم نسخ ذلك بقوله : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » (١) وانما كان النبي (ص) اولا اختار التوجه الى بيت المقدس ، وقد كان له التوجه الى حيث شاء .

وقال آخرون : كان ابن عمر يصلي حيث توجهت به راحلته في السفر تطوعا ، وذكر أن رسول الله (ص) كان يفعل ذلك ويتاول عليه الآية .

وقيل : نزلت في قوم صلوا في ظلمة وقد خفيت عليهم جهة القبلة ، فلما اصبحوا اذا هم صلوا الى غير القبلة ، فانزل الله هذه الآية . وهذا قول عبد الله بن عامر عن ابيه . والنخعي والاول اقوى الوجوه .

وقوله : « فثم وجه الله » المراد بالوجه ، فيه اختلاف . قال الحسن ، ومجاهد : المراد به ، فثم جهة القبلة ، وهي الكعبة ، لانه يمكن التوجه اليها من كل مكان . قال ابن بيض :

أي الوجوه انتجعت قلت لها   لاي وجه إلا الى الحكم
متى يقل صاحبا يرادفه   هذا ابن بيض بالباب يبتسم

وقيل : معناه فثم وجه الله ، فادعوه كيف توجهتم . وقال آخرون ، واختاره

« ١ » سورة البقرة : آية ١٥٠ .

الرماني والجبائي : فثم رضوان الله . كما يقال : هذا وجه العمل ، وهذا وجه الصواب وكانه قال : الوجه الذي يؤدي الى رضوان الله . وتقدير الآية واتصالها بما قبلها ، كأنه قال : لا يمنعكم تخريب من خرب المساجدان تذكروه حيث كنتم من أي وجه ، وله المشرق والمغرب ، والجهات كلها .

المعنى :

وقوله : « والله واسع عليم » قال قوم : معناه غني ، فكانه قيل : واسع المقدور . وقال الزجاج : يدل على التوسعة للناس فيما رخص لهم في الشريعة ، وكانه قيل : واسع الرحمة ، وكذلك رخص في الشريعة . ومعنى القول الاول انه غني عن طاعتكم ، وانما يريدها لمنفعتكم . وقال الجبائي : معناه واسع الرحمة .

اللغة :

والسعة والفسحة والمباعدة نظائر . وضد السعة الضيق يقال : وسع يسع سعة ، وأوسع إيساعا ، وتوسع توسعاً ، واتسع اتساعا ، ووسع توسعة ، والوسع : جدة الرجل وقدرة ذات يده ، فرحمة الله وسعت كل شيء وانه ليسعنى ما وسعك . وتقول: وسعت الوعاء فاتسع فعل لازم . وكذلك اتوسع . وسع الفرس سعة ووساعة ، فهو وساع . وأوسع الرجل : اذا كان ذا سعة في المال ، فهو موسع ، وموسع عليه . وتقول سير وسيع ووساع . وفي القرآن « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (١) أي طاقتها واصل الباب : السعة نقيض الضيق .

المعنى :

ومعنى عليم انه عالم بوجه الحكمة ، فبادروا الى ما أمركم به من الطاعة . وقيل واسع الرحمة عليم اين يضعها على وجوه الحكمة . ومعنى (ثم) هناك تقول لما قرب من المكان : هنا ، وما تراخى : ثم وهناك .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

الاعراب :

وانما بني ، لان فيـــه معنى الاشارة الى المكان لابهامها ، وبني على الحركة لالتقاء الساكنين ، وفتح لخفة الفتحة في المضاعف .

وقوله : « فأينما تولوا » جزم بأينما . والجواب فثم وجه الله . « وثم » موضعه النصب لـكنه بني على الفتح وقوله: « اينما » تكتب موصولة في اربعة مواضع ليس في القرآن غيرها . هذه واحـــدة ، وفي النحل « اينما يوجهه » (١) وفي الاحزاب « ملعونين اينما ثقفوا » « ٢ » وفى الشعراء « اينما كنتم تعبدون » « ٣ » ومن الناس من يجعل معها التي في النساء « اينما تكونوا يدرككم الموت » (٤) وكلها على القياس إلا التي في الشعراء ، فان قياسها ان تكتب مفصولة ، لان (ما) اسم موصول بما بعده بمعنى الذي .

قوله تعالى :

« وَقالوا اتخذَ اللهُ وَلَداً سُبحانَهُ بَلْ لَهُ مافي السماوَاتِ والارض كلٌّ لهُ قَانِتونَ » (١١٧) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابن عامر وحده : « قالوا » بلا واو .

المعنى :

والمعني بهذه الآية النصارى وقال قوم : النصارى ، ومشركوا العرب معاً ، من حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وقالت النصارى : المسيح بن الله ـ هذا قول الزجاج . ـ وفي هذه الآية دلالة على انه لا يجوز الولد على وجـه من الوجوه ،

« ١ » آية ٧٦ .
« ٢ » آية ٦١ .
« ٣ » آية ٩٢ .
« ٤ » آية ٧٧ .

لأنه اذا كان جميع مافي السماوات والارض ملكا له ، فالمسيح عبد مربوب ، وكذلك الملائكة المقربون ، لان الولد لا يكون إلا من جنس الوالد ، ولا يكون المفعول إلا من جنس الفاعل ، وكل جسم فعل لله فلا مثل له ولا نظير على وجه من الوجوه (تعالى الله) عن صفات (١) المخلوقين .

وقوله : « وكل له قانتون » . الاصل في القنوت الدوام . وينقسم اربعة اقسام :

الطاعة ، كقوله : « كل له قانتون » أي مطيعون والقنوت الصلاة كقوله : « يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي » (٢) . والقنوت : طول القيام . وروي عن جابر بن عبد الله قال : سئل النبي (ص) أي الصلاة أفضل فقال : طول القنوت. ويكون القنوت السكوت ، كما قال زيد بن ارقم : كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت « وقوموا لله قانتين » (٣) فامسكنا عن الكلام . وقيل في « قانتون » هاهنا ثلاثة أقوال :

[الاول] قال مجاهد : معناه مطيعون ، وطاعة الكافر في سجود ظله . وقال ابن عباس : مطيعون .

الثاني ـ قال السدي : كل له مطيعون يوم القيامة . وقال الربيع : كل له قائم يوم القيامة .

الثالث ـ قال الحسن : كل قائم له بالشهادة عبدة . وقالت فرقة رابعة ـ وهو الاقوى ـ : كل دائم على حالة واحدة بالشهادة بما فيه من آثار الصنيعة ، والدلالة على الربوبية . وزعم الفراء : انها خاصة لاهل الطاعة ، بدلالة انا نجد كثيراً من الخلق غير طائعين . وعلى ما اخترناه لا يحتاج الى التخصيص .

« ١ » في المطبوعة « طبقات . »

« ٢ » سورة آل عمران : آية ٤٣ .

« ٣ » سورة البقرة : آية ٢٣٨ .

اللغة :

وأما القنوت في اللغة فقد يكون بمعنى الطاعة . تقول : قنت يقنت قنوتاً ، فهو قانت : اذا اطاع . وقال صاحب العين : القنوت في الصلاة دعاء (١) بعد القراءة في آخر الوتر ، يدعو قائماً . ومنه قوله : « امن هو قانت أناء الليل ساجداً أو قائماً » (٢) . والقنوت ، والدعاء : قيام في هذا الموضع . وقيل في قوله : « وقوموا لله قانتين » (٣) أي خاشعين . وقال ابن دريد : القنوت : الطاعة . وقال ابو عبيدة : القانتات : الطائعات ، والقنوت في الصلاة : طول القيام ـ على ما قاله المفسرون ـ في قوله : « وقوموا لله قانتين » . واصل الباب : المداومة على الشيء .

قوله تعالى :

بَديعُ السَّماواتِ والأَرْضِ وإذا قَضى أَمْراً فإنما يَقولُ لَهُ كُنْ فَيكُونُ (١١٨) ـ آية بلا خلاف . ـ

القراءة :

قرأ ابن عامر « فيكون » نصباً . الباقون بالرفع .

اللغة :

بديع بمعنى مبدع . مثل أليم بمعنى مؤلم ، وسميع بمعنى مسمع . وبينها فرق لأن في بديع مبالغة ليس في مبدع ، ويستحق الوصف في غير حال الفعل على الحقيقة . بمعنى ان من شأنه الانشاء لانه قادر عليه ، ففيه معنى مبدع . وقال

---

(١) في المطبوعة « دعة » .

(٢) سورة الزمر : آية ٩ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٣٨ .

السدي : تقول ابتدعها ، نخلقها ولم يخلق قبلها شيئاً (١) تتمثل به . والابداع ، والاختراع ، والانشاء نظائر وضد الابتداع الاحتذاء على مثال . يقال : أبدع إبداعا ، وابتدع ابتداعا ، وبدع تبديعاً . وقال ابن دريد : بدعت الشيء : اذا انشأته : والله « بديع السماوات والارض » أي منشئها . وبدعت الركي ، (٢) اذا استنبطتها ، وركي بديع : أي جديد الحضر . ولست ببدع في كذا . أي لست بأول من أصابه هذا . ومنه قوله : « ما كنت بدعاً من الرسل » (٣) . وكل من احدث شيئا ، فقد ابدعه . والاسم : البدعة وأبدع بالرجل : اذا كلت راحلته ، وانقطع به . وقوله : « ما كنت بدعاً من الرسل » أي ما كنت بأول مرسل . والبدعة : ما ابتدع من الدين ، وغيره ، وجمعها بدع . وفي الحديث : كل بدعة ضلالة . وتقول جئت بأمر بديع ، أي مبتدع عجيب وأبدعت الابل : اذا تركت في الطريق من الهزل . وأصل الباب : الانشاء .

المعنى :

وقوله : « اذا قضى امراً » يحتمل أمرين :

أحدها ـ اذا خلق امراً . كما قال « فقضاهن سبع سماوات في يومين » (٤) أي خلقهن ـ وهو اختيار البلخي ، والرماني ، والجبائي .

والثاني : حتم بان يفعل أمراً وحكم . وقيل احكم امراً ، كما قال ابو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما　　داود أو صنع السوابغ تبع (٥)

« ١ » في تفسير الطبري ـ دار المعارف المصرية ـ ٢ : ٥٤٠١ « ابتدعها خلقها ولم يخلق شيء فيتمثل به » ومثله في الدر الثمين ١ : ١١ وفي مطبوعة بولاق من التفسير المذكور كما أثبتنا .

« ٢ » الركي ، جمع ركية : البئر تحفر

« ٣ » سورة الاحقاف : آية ٩ .

« ٤ » ـ سورة حم ـ السجدة : آية ١٢ .

« ٥ » ديوانه : ١٩ . واللسان « صنع » من قصيدة يرثي لها أولاده حين ماتوا بالطاعون ومسرودتان : درعان من السرد وهو الخرز والنسج . تبع : اسم لكل ملك من ملوك حمير . الصنع : الحاذق والامرأة : صناع .

اللغز :

قضاها :احكمها ، والقضاء والحكم نظائر . يقال : قضى يقضي قضاء ، واقتضى اقتضاء ، وتقاضيا تقاضيا ، واستقضى استقضاء ، وتقضّ تقضياً وقضّ تقضية ، وقاضاه مقاضاة ، وانقضى انقضاء . قال صاحب العين : قضى يقضي قضاء ، وقضية : يعني حكم . وتقول : قضى اليه عهداً معناه اوصى اليه . ومنه قوله : « وقضينا الى بني اسرائيل » (١) . « وقضى عليها الموت » (٢) أي اتى عليه . والانقضاء فناء الشيء ، وذهابه . وكذلك التقضي وأصل الباب : القضاء . والفصل والقضاء ينصرف على وجوه :

منها الامر كقوله تعالى : «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه »(٣) أي أمر . ومنه الخلق كقوله : « قضاهن سبع سماوات » (٤) أي خلقهن . ومنه الاخبار ، والاعلام ، كقوله : « وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب » (٥) أي اخبرناهم ومنه الفصل : قضى القاضي بين الخصمين أي فصل الامر بينهما .

المعنى :

ومعنى قوله : « فانما يقول له كن فيكون » قيل فيه قولان :

أحدها ـ انه بمنزلة المثل ومعناه ان منزلة الفعل له في السهولة ، وانتفاء التعذر كمنزلة ما يقال له كن فيكون كما يقال قال فلان برأسه كذا وقال بيده : اذا حرك رأسه وأومى بيده ، ولم يقل شيئاً في الحقيقة وقال ابو النجم :

(١) ـ سورة اسرى : آية ٤ .
(٢) ـ سورة الزمر : آية ٤٢ .
(٣) ـ سورة الاسرى : آية ٢٣ .
(٤) سورة ـ حم ـ السجدة : آية ١٢ .
(٥) سورة الاسراء : آية ٤ .

اذ قالت الانساع للبطن الحقى قدماً فآضت كالفنيق المحنق (١)

وقال عمرو بن حممة الدوسي (٢) :

فاصبحت مثل النسر طارت فراخه اذا رام تطياراً يقال له : قع (٣)

وقال آخر :

امتلأ الحوض وقال قطني مهلا رويداً قد ملأت بطني (٤)

وقال آخر :

فقالت له العينان سمعاً وطاعة وحدّرتا كالدر لما يثقب (٥)

وقال العجاج : (٦) يصف ثوراً :

وفيه كالاعواض للعكور فكر ثم قال في التفكير

ان الحياة اليوم في الكرور

والوجه الآخر أنه علامة جعلها الله للملائكة اذا سمعوها ، علموا انه احدث امراً . وكلاهما حسن والاول أحسن وأشبه في كلام العرب في عادة الفصحاء . ونظيره قوله تعالى : « فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا اتيناطا ئعين » (٧) وهو الذي اختاره البلخي ، والرماني ، واكثر المفسرين . وقد قيل في ذلك اقوال فاسدة ، لا يجوز التعويل عليها :

---

(١) اللسان (حنق) ذكر البيتين . وفي (قول) البيت الاول فقط . وروايته « قد قالت » بدل « اذ قالت » . يصف الشاعر ناقة انضاها السير . الانساع : جمع نسع ـ بكسر النون وسكون السين ـ وهو السير : خيط من الجلد . ولحق البطن : ضمر . وآض : صار ورجع الفنيق : الجمل الفحل . والمحنق : الضامر القليل اللحم .

« ٢ » في المطبوعة « عمر بن حمد السدوسي » والصحيح ما أثبتناه . وهو احد المعمرين زعموا أنه عاش ثلاثمئة وتسعين سنة وهو ايضاً أحد حكام العرب .

« ٣ » الحماسة للبحتري : ٢٠٥ .

« ٤ » اللسان « قطط » البيتان . و « قول » البيت الاول فقط .

« ٥ » اللسان « قول » وروايته « قالت » بدل « فقالت » وبالفاء اتم للوزن . وفي مجمع البيان « وقالت » بالواو .

« ٦ » في المطبوعة « ضعيف » زائدة في هذا الموضع

« ٧ » سورة ـ حم ـ السجدة : آية ١١ .

ان الامر خاص في الموجودين الذين قيل لهم « كونوا قردة خاسئين » (١) ومن جرى مجراهم ، لانه لا يؤمر المعدوم عندهم .

ومنها انه أمر المعدوم من حيث هو لله معلوم ، فصح أن يؤمر فيكون .

ومنها ـ ان الآية خاصة في الموجودات من اماتة الاحياء واحياء (٢) الموتى وما جرى مجرى ذلك من الامور . وانما قلنا بافساد هذه الاقوال ، لانه لا يحسن ان يؤمر إلا من كان عاقلا مميزاً يقدر على ما أمر به ، ويتمكن من فعله . وجميع ماذكروه بخلافه . لأن المعدوم ليس بحي ، ولا عاقل . ولا يصح امره . ومن كان موجوداً لا يجوز ان يؤمر أن يكون قردة ، لان المعاني التي تكون بها كذلك ، ليس في مقدوره . كذلك القول في الاماتة والاحياء وتأويل قوله : « كونوا قردة خاسئين » قد بيناه فيما مضى . فقال بعضهم : إنه أمر للموجود في حال كونه لاقبله ولا بعده ، وانه مثل قوله : « ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون » (٣) وان دعاء الله إياهم لا يتقدم خروج القوم من قبورهم ، ولا يتأخر عنه . وهذا فاسد لأن من شرط حسن الامر أن يتقدم المأمور به . وكذلك القول في الدعاء ، فلا يسلم ما قالوه . وتأويل ماالستشهدوا به على ما بيناه في الآية سواء في انه اخبار عن تسهيل الفعل وسرعة وقوعه ، وارادته ، لا ان يكون هناك دعاء على الحقيقة ، ثم يلزم على جميع ما ذكروه ان تكون الاشياء مطيعة لله تعالى لان الطاعة هي موافقة الامر من الاشياء التي قالها : كوني بأن فعلت نفسها ، ويلزم ان يكون لهـا عقل وتمييز وكل ذلك فاسد . فاما من استدل بهذه الآية ونظائرها على ان كلام الله قديم من حيث انه لو كان محدثا لاقتضى ألا يحصل إلا (بكن) . والكلام في (كن) كالكلام فيه الى أن ينتهي الى (كن) قديمة . وهو كلام الله القديم . فهذا باطل لانا قد بينا معنى الآية ، فلا يصح ما قالوه . على ان الآية تقتضي حدوث كلامه من

« ١ » سورة البقرة : آية ٦٥ .

« ٢ » واحياء ساقطة من المطبوعة .

« ٣ » سورة الروم : آية ٢٥ .

حيث أخبر ان المكونات تكون عقيب (كن) لأن الفاء توجب التعقيب ، فاذا كانت الاشياء محدثة ، فما يتقدمها بوقت واحد لا يكون إلا محدثاً فبطل ما قالوه . وايضاً فانه قال : « اذا قضى امراً » ومعناه خلق فبين انه يخلق الامر وقوله : « كن » أمر يوجب أن يكون محدثا . ودلت الآية على نفي الولد عن الله من وجهين .

احدها ـ ان الذي ابتدع السماوات والارض من غير مثال هو الذي ابتدع المسيح من غير والد .

والآخر ـ ان من هذه صفته ، لا يجوز عليه اتخاذ الولد ، كما لا يجوز صفات النقص عليه (تعالى) عن ذلك . واذا حملنا الآية على وجود المثال ، فوجود الخلق هو كقوله : « كن » إلا انه خرج على تقدير فعلين ، كما يقال : اذا تكلم فلان بشيء ، فانما كلامه مباح ، واذا أمر بشيء فانما هو حتم ، وكما قال : تاب فاهتدى فتوبته هي اهتداؤه ، فلا يتعذر أن يقال : كن قبله ، أو معه . ومتى حملنا ذلك على انه علامة للملائكة فانه يحتمل ان يكون معه ، ويحتمل ان يكون قبله . كما تقول : اذا قدم زيد ، قدم عمرو . فانه يحتمل ان يكون وقتاً للامرين معا إلا أنه اشبه الشرط ، كقولك : ان جئتني اعطيتك . ولذلك دخلت الفاء في الجواب ، كما تجيء في الشرط ، كقوله : « ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل » (١) وكذلك تحتمل الآية الامرين .

الاعراب :

ورفع قوله : « فيكون » يحتمل أمرين : احدهما ـ ان يكون عطفاً على يقول . والآخر ـ على الاستئناف أي فهو يكون . ونصبه على جواب الامر ، فلا يجوز ، لانه انما يجب الجواب بوجود الشرط . فما كان على فعلين في الحقيقة ، كقولك إأتني فأكرمك ، فالاتيان غير الاكرام ، فأما « كن فيكون » فالكون الحاصل هو الكون المأمور به ، ومثله انما اقول له إأتني ، فيأتيني . وقال ابو علي الفارسي : يجوز ذلك

« ١ » سورة يوسف : آية ٧٧ .

على وجه : وهو على ان لفظه لما كان لفظ الامر ، نصب كما نصب في جواب الامر ، فان كان الامر بخلافه - كما قال ابو الحسن في نحو قوله تعالى « قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة » (١) ويجوز ذلك في الآي على انه اجري مجرى جواب الامر - وان لم يكن جوابا له في الحقيقة . - وقد يكون اللفظ على شيء ، والمعنى على غيره نحو قولهم : ما أنت وزيد ، والمعنى لم تؤذيه . وليس ذلك في اللفظ ، ومثله « فلا تكفر فيتعلمون » (٢) ليس فيتعلمون جواباً لقوله : « فلا تكفر » ولكن معناه يعلمون أو يعلمان ، فيتعلمون منهما غير أن قوله « فلا تكفر » نهي على الحقيقة . وليس قوله « كن » امراً على الحقيقة ، فمن هاهنا ضعفت هذه القراءة .

قوله تعالى :

« وَقَالَ الذينَ لا يَعلمُونَ لَولا يُكلمنا اللهُ أو تأتينا آيةٌ كذلكَ قالَ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ مِثلَ قَولِهِمْ تَشابَهت قلوبُهم قد بَيَّنا الآياتِ لِقومٍ يُوقِنونَ » (١١٩) آية بلا خلاف .

المعنى :

المعني بهذه الآية في قول مجاهد : النصارى . وقول ابن عباس : اليهود . وفي قول الحسن وقتادة : مشركوا العرب . وكل ذلك يحتمل . غير انه لمشركي العرب أليق ، لانه يشاكل ما طلبوا حين قالوا : « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا » الى قوله : « هل كنت إلا بشراً رسولا » (٣) ويقوي ذلك قوله : « وقال الذين لا يعلمون » : الكتاب . فبين أنهم ليسوا أهل كتاب . ومن اختار ان المراد بها النصارى قال : لانه قال قبلها « وقالوا اتخذ الله ولداً » (٤) وهذا

« ١ » سورة ابراهيم : آية ٣١ .
« ٢ » سورة البقرة : آية ١٠٢ .
« ٣ » سورة البقرة : آية ١١٩ .
« ٤ » سورة البقرة : آية ١١٦ .

لا دلالة فيه ، ولا يمتنع ان يذكر قوماً ، ويخبر عنهم ، ثم يستأنف قوماً آخرين ، فيخبر عنهم على ان مشركي العرب قد اضافوا الى الله البنات فدخلوا في جملة من قال : « اتخذ الله ولداً » .

ومعنى قوله : « لولا » هلاّ ، كما قال الأشهب بن رميلة :

تعدّون عقر النيب أفضل مجدكم بنى ضو طرى لولا الكمي المقنعا (١)

أي هلاّ تعقرون الكمي المقنعا . وانما قال : « أو تأتينا آية » وقد جاءتهم الآيات ، لانهم طلبوا آية ، كما ان آية الرسل توافق دعوتهم ؛ ويكلمهم الله كما كلمهم الله .

والمعني بقوله « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » اليهود على قول مجاهد . وعلى قول قتادة والسدي والربيع : اليهود والنصارى . والضمير في قوله : « تشابهت قلوبهم » يعني كناية عن قلوب اليهود والنصارى ـ على قول مجاهد ـ وعلى قول الربيع وقتادة : عن العرب واليهود والنصارى وغيرهم ، فقوله « تشابهت قلوبهم » يعني في الكفر ، بالاعتراض على انبياء الله بالجهل ، لان اليهود قالت لموسى : « أرنا الله جهرة » وقالت النصارى للمسيح : « أنزل علينا مائدة من السماء » . وقالت العرب لمحمد (ص) : حول لنا الصفا ذهباً ، وغير ذلك . وكذلك قال الله تعالى . « أتوا صوابه » (٢) وروي عن ابن إسحاق انه قرأ « تشابهت » ـ بتشديد الشين ـ خطأ ، لان ذلك انما يجوز في المضارع . بمعنى تتشابه ـ فتدغم احدى التاءين في الشين ـ هكذا قال الفراء ، وغيره من أهل العلم .

وقوله : « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » معناه أيقن بها قوم من حيث دلتهم على الحق ، فالواجب على كل هؤلاء ان يستدلوا بها ، ليصلوا الى اليقين كما وصل غيرهم اليه بها .

« ١ » وقيل انه لجرير وهو مذكور في ديوانه : ٣٣٨ . وروايته افضل سعيكم . وقد مر في ١ : ٣١٩ . والبيت من قصيدة طويلة في مناقضة جرير والفرزدق . والكمي : الشجاع .

« ٢ » سورة الذاريات : آية ٥١ .

اللغة :

واليقين والعلم والمعرفة نظائر في اللغة . ونقيضه الشك ، والجهل . تقول أيقن ايقاناً ، وتيقن تيقنا ، واستيقن استيقانا . وقال صاحب العين : اليقين النفس . قال الشاعر :

وما بالذي ابصرتـــه العيو   ن من قطع يأس ولا من يقن (١)

واليقين : علم يثلج به الصدر ، ولذا يقولون : أجد برد اليقين ، ولا يقولون: وجد برد العلم . فان قيل : لم لم يؤتوا الآيات التي طلبوها ، لتكون الحجة أأكد قلنا : اظهار الآيات يعتبر فيه المصالح ، وليس بموقوف على اقتراح العباد . ولو علم الله ان ما اقترحوا من الآيات فيه مصلحة ، لاظهرها ، فلما لم يظهرها ، علمنا انه لم يكن فيها مصلحة لنا اصلا .

قوله تعالى :

« إنّا أرسَلناكَ بِالحق بَشِيراً ونَذِيراً وَلا تسأل عَنْ أصحَابِ الجَحِيم » (١٢٠) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ نافع « لا تسأل » . بفتح التاء وجزم اللام . على النهي ، وروي ذلك عن ابي جعفر محمد بن علي الباقر (ع) ، وابن عباس . ذكر ذلك الفراء ، والبلخي الباقون على لفظ الخبر على مالم يسم فاعله .

المعنى :

معنى قوله : « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » تسلية للنبي (ص) فقيل له

---

(١) اللسان « يقن » اليقن ـ بفتح الياء والقاف ـ : اليقين . في المطبوعة « يقين » بدل « يقن » وفي المخطوطة « تيقين » .

« انما انت بشير ونذير » ولست « تسأل عن أصحاب الجحيم » ومثله قوله : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » وقوله « ليس عليك هـــداهم » (١) وقوله « عليه ما حمل وعليكم ما حملتم » (٢)

الاعراب :

وموضع « تسأل » يحتمل أمرين :

احدهما ـ ان يكون استئنافا ولا موضع له .

والآخر ـ ان يكون حالا ، فيكون موضعه نصباً . ذكر ذلك الزجاج ، لانه قال : « أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً » غير مسئول عن اصحاب الجحيم . ومن فتح التاء على الخبر . تقديره : غير سائل . وانكر قوم الحال . واعتلوا ان في قراءة أبي: « وما تسأل » وفي قراءة عبدالله : « ولن تسأل » وهذا غير صحيح ، لان ليس قياس (لا) قياس لن (٣) وما ، لانه يجوز أرسلناك لا سائلا ، ولا يجوز ماسائلا. ولذلك احتمل مع لا الحال ، ولن يحتمل مع ما ولن ، لان للا (٤) تصرفا ليس لها فيجوز ان يعمل ماقبلها في ما بعدها ، ولا يجوز ذلك فيها . تقول :جئت بلا خبر ، ولا يجوز بما خبر . والجحيم النار بعينها اذا شبت وقودها . قال امية بن ابي الصلت :

اذا شبت جهنم ثم زادت　　واعرض عن قوابسها الجحيم (٥)

فصار كالعلم على جهنم . وقال صاحب العين : الجحيم : النار الشديدة التأجج، والالتهاب كما اججوا نار ابراهيم . وهي تجحم جحوما (٦) يعني توقدت جمرتها وجاحم الحرب : شدة القتل في معركتها . وقال سعيد بن مالك بن ضبيعة :

(١) سورة البقرة : آية ٢٧٢ .
(٢) سورة النور : آية ٥٤ .
(٣) (لن) ساقطة من المطبوعة .
(٤) في المطبوعة (لانه لا) .
(٥) ديوانه ٥٣ . وروايته (فارت) بدل (زادت) .
(٦) في المطبوعة « حجواما » .

والحرب لا يبقى لجــا حمها التخيل والمراح (١)
إلا الفتى الصبار في النـ جدات والفرس الوقاح

والجحمة : العين بلغة حمير قال الشاعر :

أيا جحمتا بكي على أم مالك اكيلة قلوب بأعلى المذانب «٢»

وجحمتا الاسد : عيناه . وتقول : جحمت النار جحماً : اذا اضطرمت . وجمر جاحم : اذا اشتد اشتعاله . ومنه اشتقاق الجحيم . واصل الباب الالتهاب . ومنه الاجحم : الشديد حمرة العين شبه بالنار في حمرتها . والحرب تشبه بالتهاب النار .

المعنى :

وفي الآية دلالة على انه لا يؤخذ احد بذنب غيره قريبا كان منه أو بعيداً . كما بين الله انه لا يطالب احد بذلك غيره . وان كان قد فرض على النبي « ص » ان يدعو الى الحق ، ويزجر عن الباطل . وليس عليه ان يقبل المدعو . ومن قرأ بلفظ النهي . قال الزجاج : يحتمل أمرين :

أحدها ـ ان يكون امره بترك المسألة . والآخر ـ ما قاله الاخفش : ان يكون المعنى على تفخيم ما أعد لهم من العقاب . كما يقال لا تسال عن فلان أي قد صار الى امر عظيم . وقال قوم : لو كان على النهي : لقال فلا « بالفاء » ، لانه يصير بمنزلة الجواب كأنه يدل على لانا ارسلناك إلا بالحق ولا تسأل عن اصحاب الجحيم . ولا يحتاج بالرفع الى الفاء . واذا كان على الرفع فظاهر الكلام الاول يقتضيه اقتضاء الاحوال ، أو اقتضاء البيان الذي يجري مجرى الحجاج على من اعترض بان فعل

« ١ » اللسان « جحم » في المخطوطة والمطبوعة « الخيل » بدل « التخيل » .
« ٢ » اللسان « جحم » قال ابن بري صواب انشاده بما قبله وما بعده :

انيح لها القلوب من ارض قرقري وقد يجلب الشر البعيد الجوالب
أيا جحمتي بكي على أم مالك اكيلة قليب ببعض المذانب
فلم يبق منها غير نصف عجانها وشنطرة منهــا واحدي الذوائب

القلوب : الذئب .

الداعي الى الايمان لا يحل موقعه الا بان يقبل المدعو اليه . واما ايصاله بما تقدم على الجزم ، فانما هو على معنى التغليظ لشـــان الجحيم ، ليزجر (١) بذلك عن ترك اتباعه (ص) والتصديق بما اتى به من البشارة . قال أبو علي الفارسي إنما تلزم الفاء اذا كان الكلام الاول علة فيما بعد ذلك ، كقولك اعطيك فرسا فلا تسأل شيئاً اخراً والآية بخلاف ذلك . وفي الناس من قال : القراءة بالجزم مردودة ، لانه لم يتوجه له اتصال الكلام ، ولا كيف جاء بالواو دون الفاء . وقد بينا الاتصال . فاما المجيء بالواو فلأنه لم يرد الدلالة على معنى الجواب ، ولـكن عطف جملة على جملة تتعلق بها وتقتضي على ما انطوى عليه معناها ومعنى الحق في قوله : « انا ارسلنـاك بالحق » الاسلام ، بشيرا من اتبعك عليه بالثواب نذيرا من خالفك فيه بالعقاب . وقيل : « إنا ارسلنـاك بالحق » يعني على الحق . كما قال : « خلق الله السماوات والارض بالحق » (٢) كأنه قال : على انها حق لا باطل .

قوله تعالى :

« وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلا النصارى حَتى تَتبع مِلتَهُم قل إن هدَى اللهِ هو الهُدى ولَئن اتبعتَ اهواءَهم بَعدَ الذي جاءَكَ من العِلم ما لَكَ من اللهِ من وليٍ ولا نَصير » (١٢١)

قيل في معنى هذه الآية قولان :

احـــدها ـ ان النبي « ص » كان مجتهداً في طلب ما يرضيهم ، ليقبلوا الى الاسلام ويتركوا القتـال ، فقيل له : دع ما يرضيهم الى ما امر الله به من مجاهدتهم .

والآخر ـ قال الزجاج : كانوا يسألونه « ع » الهدنة والمسالمة ويرونه انه ان امهلهم اسلموا . فاعلمه الله انهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم . وهذه الآية تدل انه لا يصح ارضاء اليهود ولا النصارى على حال ، لانـــه تعالى علقه بان اليهود

---

(١) في المطبوعة (ليرجم)　　(٢) سورة ابراهيم آية : ١٩ .

لا يرضون عنه حتى يكون « ص » يهوديا ، والنصارى لا يرضون عنه حتى يكون نصرانيا ،فاستحال ان يكون يهوديا نصرانيا في حال واستحال إرضاؤهم بذلك .

اللغة :

والرضا والمحبة ، والمودة نظائر وضد الرضا الغضب . ويقال رضي يرضى رضاء . وارضاه إرضاء ، وارتضاه ارتضاء ، واسترضاه وترضاه ترضيا ، وتراضوا تراضيا ، والرضي والمرضي بمعنى واحد . والرضا مقصور من بنات الواو بدلالة الرضوان تقول : رجل رضى ورجال رضى وامرأة ونساء رضى. وأصل الباب الرضى نقيض الغضب . وقوله : « حتى تتبع ملتهم » فالملة ، والنحلة ، والديانة نظائر . وتقول وجد فلان ملة وملالا . وهو عدوى الحمى . ومللت الشيء أمله ملالة ومللا: إذا سئمته ومللت الخبزة املها ملا : اذا دفنتها في الجمر والجمر بعينه الملة . وقال صاحب العين : الملة الرماد والجمر وكل شيء تمله في الجمر فهو مملول . قال الشاعر في وصف الحرباء :

كأنّ ضاحيه بالنار مملول (١)

والمملول (٢) الممتل من الملة . وطريق ممل مليل : قد سلك حتى صار معلماً وملة رسول الله « ص » الامر الذي اوضحه. وامتل الرجل اذا اخذ في ملة الاسلام: اي قصدها ما امل منه . والأمل املال الكتاب ، ليكتب . والمليلة من الحمى .

المعنى :

وقوله : « قل إن هدى الله هو الهدى » معناه هو الذي يهدي الى الجنة . لا اليهودية ، ولا النصرانية . وقيل ان معناه الدعاء الى هدى الله الذي يكذب قولهم

---

(١) البيت من قصيدة لكعب بن زهير . اللسان (ملل) . يقول كأن ما ظهر منه للشمس مشوي بالملة من شدة حره . يقال : أطعمنا خبز ملة ، واطعمنا خبزة مليلا ، ولا يقال اطعمنا ملة. في المطبوعة . كان صاحبه في النار مملوك . وهو تحريف فاحش . وفي المخطوطة . كان صاحبه في النار مملول . والصحيح ما ذكرناه .

(٢) في المطبوعة « والمملوك » .

« لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً او نصارى » (١) وهي الادلة الراضحة على ان المطيع لله هو الذي يفوز بثوابه في الجنة ، لامن ذكروه من العصاة له . وهذه الآية تدل على ان من علم الله منه انه لا يعصي ، يتناوله الوعيد والزجر ، لانه تعالى علم ان النبي « ص » لا يعصي ولا يتبع اهواءهم ، وفيها دلالة على ان كل من اتبع الكفار على كفرهم ماله من الله من ولي ولا نصير ، لانه اذا وجب ذلك في متبع واحد ، وجب ذلك في الجميع .

الاعراب :

« حتى تتبع » نصب بحتى وحكى الزجاج عن الخليل وسيبويه ؛ وجميع البصريين أن الناصب للفعل (أن) بعد حتى، لان حتى تخفض الاسم في قوله: «حتى مطلع الفجر » (٢) ولا يعرف في العربية حرف يعمل في اسم وفعل ، ولا ما يكون خافضاً لاسم، يكون ناصباً لفعل. فصار ذلك مثل قولك جاء زيد ليضربك ، فانها تنصب الفعل باضمار (ان) لكونها جارّة للاسم .

قوله تعالى :

« ألذينَ آتَيناهُم الكِتابَ يَتلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه أولئكَ يُؤمِنُونَ بِه وَمَن يكفُر بِه فأولَئكَ هُم الخاسِرُونَ » (١٢١)

آية بلا خلاف .

المعنى :

المعني بهذه الآية ـ في قول قتادة واختيار الجبائي ـ اصحاب النبي (ص) الذين آمنوا بالقرآن وصدقوا به . وقال ابن زيد : هو من آمن بالنبي (ص) من بني اسرائيل . والكتاب على قوله : التوراة .

ومعنى قوله : « يتلونه حق تلاوته » قال ابن عباس : يتبعونه حق اتباعه ،

---

(١) سورة البقرة : آية ١١١ .

(٢) سورة الفجر : آية ٧ .

ولا يحرفونه ، ثم يعملون بحلاله ويقفون عند حرامه . ومثله قوله : « والقمر اذا تلاها » (١) اي تبعها . وبه قال ابن مسعود ، ومجاهد وقتادة ، وعطاء . وروي عن ابي عبد الله (ع) حق التلاوة الوقوف عند ذكر الجنة والنار يسأل في الأولى ، ويستجير من الاخرى . وقال قوم « يتلونه حق تلاوته » يقرؤونه حق قراءته .

اللغة :

والتلاوة في اللغة على وجهين :

احدهما ـ القراءة .

والثاني ـ الاتباع .

والاول اقوى ، وعليه اكثر المفسرين ولا يجوز ان يقال : يتلونه حق التلاوة على مذهب الكوفيين ، كما لا يجوز يتلونه : ايّ التلاوة ، لان ايا اذا كانت مدحاً وقع على النكرة ، ولم يقع على المعرفة . فلا يجوز مررت بالرجل حق الرجل كما لا يجوز مررت بالرجل اي الرجل . وكما لا يجوز مررت بابي عبد الله ابي زيد . وانما جاز تلاوته . كما يجوز رب رجل واخيه . وقال بعض البصريين يجوز مررت بالرجل حق الرجل . ولا يجوز مع اي لان ايا تدل على البعض . وليس كذلك حق . فاما مررت بالرجل كل الرجل فجائز عند الجميع ، لان اصله التوكيد ، فترك على حاله .

المعنى :

والمعني بقوله « ومن يكفر به » اليهود ـ على قول ابن زيد ـ والاولى ان يكون ذلك محمول على عمومه في جميع الكفار . وبه قال الجبائي واكثر المفسرين.

قوله تعالى :

« يَا بَنِي إِسرَائِيلَ اذكرُوا نِعمتي التي أَنعَمتُ عَلَيكم وأَنِي

---

(١) سورة الشمس : آية ٢ .

فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ » (١٢٢) آية واحدة .

هذا خطاب من الله لبني اسرائيل الذين كانوا في عهد رسول الله « ص » امرهم الله ان يذكروا نعمته التي انعم بها عليهم ·

اللغة :

والنعمة : النفع الذى يستحق به الشكر · والانعام والاحسان والافضال نظائر . ونقيض النعمة : النقمة : وهو الضرر المستحق ·

المعنى :

ومعنى قوله : « وأني فضلتكم على العالمين » يعني عالمي زمانهم . وتفضيله اياهم بان جعل فيهم النبوة والحكم وهذه الآية قد تقدم ذكر مثلها في رأس نيف واربعين . وقيل في سبب تكريرها ثلاثة اقوال :

احدها ـ ان نعم الله لما كانت الاصل الذى به يجب شكره ، وعبادته ذكر بها ، ليقبلوا الى طاعته واتباع امره ، وليكون مبالغة في استدعائهم الى ما يلزمهم لربهم التظاهر بالنعم عليهم ·

والثاني ـ انه لما ذكر الكتاب وعنى به التوراة ، وكان فيه الدلالة على شأن عيسى ومحمد « ص » في النبوة والبشارة المتقدمة ، ذكرهم عزوجل بما انعم عليهم من ذلك ، وفضلهم كما جاء « فبأى آلاء ربكما تكذبان » (١) بعد نعم ذكرهم بها ، ثم عدد نعماً اخر ، وقال فيها « فبأى آلاء ربكما تكذبان (٢) اى فبأى هذه تكذبان وكل تقريع جاء ، فانما هو موصول بتذكير نعمه غيرالاول. والثالث غير الثاني · وهكذا الى آخر السورة · وكذلك الوعيد ـ في سورة المرسلات ـ بقوله : « ويل يومئذ للمكذبين » (٣) انما هو بعد الدلالة على اعمال يعظم التكذيب بما تدعو اليه الادلة ·

(١ و ٢) سورة الرحمان من آية ١٣ الى ٧٧ ·

(٣) سورة الطور اية ١١ ، وسورة المرسلات من اية ١٥ الي ٤٩ ، وسورة المطففين اية ١٠ ·

الثالث - انه مقدمة لما بعده ، لانه تعالى اراد وعظهم ذكرهم قبل ذلك بالنعم عليهم ، لانه استدعاء الى قبول الوعظ لهم (١) . وقيل : فيه وجه رابع .

وهو انه لما تباعد بين الكلامين حسن التنبيه والتذكير .

وموضع « التي » نصب بالعطف على نعمتي .

قوله تعالى :

« واتَّقُوا يَوماً لا تَجزي نَفسٌ عن نَفسٍ شيئاً وَلا يُقبَل منها عَدلٌ ولا تَنفَعها شَفاعَةٌ ولا هُم ينصرُون » (١٢٤) آية بلا خلاف .

ومثل هذه الآية ايضاً تقدم . وبينا ما فيها ، فلا معنى للتكرار . وبينا ان العدل هو الفدية . وقيل هو المثل . ويقال هذا عدله ، اي مثله والعدل ، هو الحمل وبينا قول من يقول : إن الشفاعة لا تكون إلا لمرتكبي الكبائر : اذا ماتوا مصرين . فان قلنا ظاهر الآية متروك بالاجماع ، لانه لا خلاف ان هاهنا شفاعة نافعة والآية تقتضي نفيها ، وان خصوا بانها لا تنفع المصرين ، وانما ينفع التائبين ؟ قلنا : لنا ان نخصها بالكافرين دون فساق (٢) المسلمين . واما قوله : « لا يشفعون » الا لمن ارتضى فنتكلم عليه اذا انتهينا اليه . ومن قال : إنه ليس يعني انه يشفع لها شافع فلا تنفع شفاعته ، لكنه يريد لا تأتي بمن يشفع لها . كما قال الشاعر :

على لاحب لا يهتدى بمناره

وإنما اراد به لا منار هناك فيهتدى به لا يضرنا ، لانا لانقول : إن هناك شفاعة تحصل ولا تنفع بل نقول : إن الشفاعة اذا حصلت من النبي ، وغيره فانها تنفع لا محالة . وكذلك عند المخالف ، وان قلنا : انها تنفع في اسقاط المضار وقالوا : هم في زيادة المنافع . غير ان اتفقنا (٣) على انها تحصل لا محالة ولسنا ممن ينفي حصول الشفاعة اصلا .

---

(١) في المخطوطة « لهم فيه » .

(٢) في المطبوعة « فاق » وهو تحريف .

(٣) في المطبوعة « انقضا » .

قوله تعالى :

« واذِ ابتَلى ابراهيمَ رَبه بِكلمات فاتَمهن قالَ اني جاعلُكَ للناس اماماً قالَ ومن ذريتي قالَ لا ينال عهدي الظالمين » (١٢٥) آية بلا خلاف .

القراءة :

اسكن الياء من « عهدي » حمزة وحفص إلا ابن ساهي . وكتب في بعض المصاحف « ابراهم » بغير ياء وفي اكثرها بالياء . قال بعض الجرهميين : نحن ورثنا على عهد (ابراهم)(١) . وقرأ ابن عامر ابراهام في خمسة وثلاثين موضعاً في القرآن كله : في البقرة خمسة عشرة موضعاً . وهو جميع ما فيها . تقدير الآية واذكرو إذ ابتلى ابراهيم ربُّه بكلمات .

المعنى :

والابتلاء هو الاختبار ـ وهو مجاز هاهنا لان حقيقته الامر من الله تعالى بخصال الايمان فسمي ذلك اختبارا ، لان ما يستعمل بالامر منا في مثل ذلك على جهة الاختبار والامتحان، فجرى تشبيهاً بايستعمله اهل اللغه عليه.وقال بن الاخشاذ : إنما ذلك على انه جل ثناؤه يعامل العبد معاملة المختبر الذي لا يعلم لانه لو جازاهم بعمله فيهم ، كان ظالما لهم . والكلمات التي ابتلى الله ابراهيم بها فيها خلاف فيروى في بعض الروايات عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، وابو الخلد : انه أمره (٢) اياه بعشرة سنن (٣) . خمس في الرأس ، وخمس في الجسد . فاما التي في الرأس فالمضمضة والاستنشاق والفرق وقص الشارب ، والسواك . واما التي في الجسد : فالختان وحلق

« ١ » استدل بهذا على « ابرام » ـ بدون ياء ـ وفي المطبوعة والمخطوطة بالياء . وهو غلط .

« ٢ » في المخطوطة والمطبوعة « أمن » .

« ٣ » في المطبوعة « سنين » .

العانة ، وتقليم الاظفار ، ونتف الابطين والاستنجاء . وفي احدى الروايتين عن ابن عباس أنه ابتلاه من شرائع الاسلام بثلاثين شيئاً عشرة منها في براءة « التائبون العابدون الحامدون .الى اخرها » وعشرة في الاحزاب : « ان المسلمين والمسلمات الى اخرها» وعشرة في سورة المؤمنين : الى قوله « والذين هم على صلاتهم يحافظون» وعشرة في سأل سائل الى قوله: « والذين هم على صلاتهم يحافظون »فجعلها اربعين سهما وفي رواية ثالثة عن ابن عباس انه امره بمناسك الحج : الوقوف بعرفة والطواف والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار (١) والافاضه . قال الحسن : ابتلاه الله بالكوكب وبالقمر وبالشمس ، وبالختان وبذبح ابنه ، وبالنار ، وبالهجرة وكلهن وفى لله فيهن . وقال مجاهد : ابتلاه الله بالآيات التي بعدها وهي « اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين » وقال الجبائي : أراد بذلك كلما كلفه (٢) من طاعاته العقلية والشرعية .

وقوله : ﴿ فاتمهن ﴾ معناه وفى بهن على قول الحسن وقال قتادة والربيع : عمل بهن ، فاتمهن . وقال البلخي : الضمير في اتمهن راجع إلى الله . وهو اختيار الحسين بن علي المغربي . قال البلخي : الكلمات هي الامامة على ما قال مجاهد . قال : لأن الكلام متصل ، ولم يفصل بين قوله : « اني جاعلك للناس اماما » وبين ماتقدمه بواو ، فاتمهن الله بان اوجب بها الامامة له بطاعته ، واضطلاعه ، ومنع ان ينال العهد الظالمين من ذريته ، واخبره بان منهم ظالما فرضي به وأطاعه وكل ذلك ابتلاء واختبار .

اللغة :

والتمام والكمال والوفاء نظائر . وضد التمام النقصان . يقال : تم تماما ، وأتم إتماماً. واستتم استتماما . وتمم تتميما وتتمة. وتتمة كل شيء : ما يكون تمامه بغايته كقولك: هذه الدراهم تمام هذه المأة .وتتمة هذه المأة. التم:الشيء التمام . تقول جملته لك تماما

« ١ » ورمي الجمار ساقطة من المطبوعة « ٢ » كلفه ساقطة من المطبوعة .

أي بتمامه ، والتميمة : قلادة ، من سيور . وربما جعلت فيه العوذ ، تعلق على الصبيان. والليلة التمام اطول ليلة في السنة . ويقال : بل ليل التمام لثلاث عشرة، لانه يستبان فيها نقصانها من زيادتها (١) . ويقال : بل ليلة اربع عشرة ، لانه يتم فيها القمر ، فيصير بدراً . ويقال حملته لتمام ـ بفتح التاء وكسرها ـ والتمام في لغة تميم هو التمام . وقال ابن دريد : امرأة حبلى متم (٢) وولد الغلام اتم ، وتمام . وبدر تمام ، وليل تمام ـ بالكسر فيهن ـ وما بعد هذا فهو تمام ـ بالفتح ـ . وأصل الباب التمام ، وهو الكمال .

المعنى :

وقوله : « من ذريتي » معناه واجعل من ذريتي من يؤتم به ، ويقتدى به ـ على قول الربيع وأكثر المفسرين . وقال بعضهم معناه انه سأل لعقبه ان يكونوا على عهده ، وورثته . كما قال : « واجنبني وبني ان نعبد الاصنام » (٣) فأخبره الله ان في عقبه الظالم المخالف له،وذريته بقوله : « لا ينال عهدي الظالمين » والاول اظهر . وقال الجبائي قوله : « ومن ذريتي » سؤال منه لله أن يعرفه هل في ذريته من يبعثه نبياً ، كما بعثه هو ، وجعله إماماً . وهذا الذي قاله ليس في الكلام ما يدل عليه ، بل الظاهر خلافه . ولو احتمل ذلك لم يمتنع ان يضيف الى مسألة منه لله ان يفعل ذلك بذريته مع سؤاله تعريفه ذلك .

اللغة :

والذرية ، والنسل والولد نظائر . واراد ابراهيم (ع) هذا . وقال بعضهم : عبر بالذرية عن الآباء . وقال تعالى : « وآية لهم انا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون » (٤) اي آباءهم . وهذا ليس بواضح . وبعض العرب ذرية ـ بكسر

« ١ » هكذا عبارة المخطوطة والمطبوعة . وفي لسان العرب « تمم » هي ثلاث ليال لا يستبان زيادتها من نقصانها .

« ٢ » في المخطوطة والمطبوعة « ميتم » « ٣ » سورة ابراهيم : آية ٣٥ .

« ٤ » سورة يس : آية ٤١ .

الذال - وبها قرأ زيد بن ثابت . قال صاحب العين الذر : صغار النمل . واحده ذرة ، والذر اخذك الشيء بأطراف اصابعك . تقول : ذررت الدواء اذره ذراً . وكذلك الملح وغيره . واسم الدواء - الذي يتخذ للعين - ذرور . والذريرة : ذات قصب الطيب ، وهو قصب يجاء به من الهند كأنه قصب النشاب (١) . والذرارة ما تناثر (٢) من الشيء الذي تذره . والذرية : فعلية من ذررت ، لان الله تعالى ذرهم في الارض ، فنثرهم فيها . كما ان السريرة من سررت . والجمع الذراري ، والسراري وما أشبهه وإن خففت ، جاز . والذرور ذروة الشمس ، فهو يذر ذروراً وذلك اول طلوعها ، وسقوطها الى الارض ، أو الشجر . وتقول ذر قرن الشمس اي طلع . وأصل الباب الذر وهو التفرقة .

وقوله: « لا ينال عهدي » والنيل والالحاق والادراك نظائر . والنيل والنوال: ما نلته من معروف انسان . واناله معروفه ، ونوّله : اعطاه نوالا . قال طرفة :

إن تنوله فقد تمنعه وتريه النجم يجري بالظهر (٣)

وقولهم : نولك ان تفعل ذلك ، ومعناه حقك ان تفعل . والنول خشبة الحائك الذي ينسج الوسائد عليه ونحوها . واذا نه المنصوبة ايضاً تسمى النوال . وأصل الباب النيل ، وهو اللحوق .

المعنى :

والمراد بالعهد هاهنا فيه خلاف . قال السدي واختاره الجبائي : إنه اراد النبوة . وقال مجاهد : هو الامامة وهو المروي عن ابي جعفر ، وابي عبد الله (ع) قالوا : لا يكون الظالم إماماً . وقال ابو حذيفة : لا اتخذ إماماً ضالا في الدنيا . وقيل : معناه الامر بالوفاء له فيما عقده من ظلمه . وقال ابن عباس : فاذا عقد عليك في ظلم ، فانقضه. وقال الحسن : ليس لهم عند الله عهد يعطيهم عليه خيراً في الآخرة، وأما في الدنيا ، فقد يعاهدون فيوفى لهم . وكأنه على هذا التأويل طاعة يحتسب بها في الآخرة .

---

(١) في المطبوعة « النشاء » (٢) في المطبوعة « ما تناش »

(٣) اللسان « نول » .

وقوله : « لا ينال عهدي الظالمين » يدل على انه يجوز ان يعطي ذلك بعض ولده اذا لم يكن ظالماً ، لانه لو لم يرد ان يجعل احداً منهم إماما للناس ، كان يجب أن يقول في الجواب لا ولا ينال عهدي ذريتك . وكان يجوز ان يقول في العربية : لا ينال عهدي الظالمون ، لان ما نالك فقد نلته · وروي ذلك في قراءة ابن مسعود إلا أنه في المصحف (بالياء) . تقول نالني خيرك ، ونلت خيرك . واستدل اصحابنا بهذه الآية على ان الامام لا يكون إلا معصوما من القبائح ، لان الله تعالى نفى ان ينال عهده ـ الذي هو الامامة ـ ظالم ، ومن ليس بمعصوم فهو ظالم : إما لنفسه ، أو لغيره . فان قيل : انما نفى ان يناله ظالم ـ في حال كونه كذلك ـ : فاما اذا تاب وأناب ، فلا يسمى ظالماً ، فلا يمتنع أن يناال . قلنا : اذا تاب لا يخرج من أن تكون الآية تناولته ـ في حال كونه ظالما ـ فاذا نفى ان يناله ، فقد حكم عليه بانه لا ينالها ، ولم يفد انه لا ينالها في هذه الحال دون غيرها ، فيجب ان تحمل الآية على عموم الاوقات في ذلك ، ولا ينالها وإن تاب فيما بعد . واستدلوا بها ايضا على أن منزلة الامامة منفصلة من النبوة ، لان الله خاطب ابراهيم (ع) وهو نبي ، فقال له : انه سيجعله إماما جزاء له على اتمامه ما ابتلاه الله به من الكلمات ، ولو كان إماما فى الحال ، لما كان للكلام معنى ، فدل ذلك على ان منزلة الامامة منفصلة من النبوة . وانما أراد الله أن يجعلها لابراهيم (ع) وقد أملينا رسالة مقررة في الفرق بين النبي ، والامام ، وان النبي قد لا يكون إماما على بعض الوجوه ، فاما الامام فلا شك انه يكون غير نبي · واوضحنا القول في ذلك ، من أراده وقف عليه من هناك. وابراهيم : وابراهم لغتان، واصله ابراهام فحذفت الالف استخفافا . قال الشاعر:

عذت بما عاذ به إبراهم (١)

وقال امية : مع ابراهم التقي وموسى

قوله تعالى :

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ

(١) قائله عبد المطلب . اللسان (برم) وتتمة الرجز :

مستقبل القبلة وهو قائم انى لك اللهم عان راغم

ابراهيمَ مُصلىً وَعهِدنا الى ابراهيمَ واسماعيلَ أن طهِرا بيتيَ للطائفينَ والعاكفينَ والرُّكعِ السجودِ (١٢٦) آية واحدة .

القراءة :

قرأ نافع وابن عامر « واتخذوا » على لفظ الخبر . الباقون بلفظ الامر .

المعنى :

قوله : « واذ جعلنا » عطف على قوله « وإذ ابتلى ابراهيم ربه »وذلك معطوف على قوله : « يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم » « واذكروا إذ ابتلى ابراهيم ربه » «واذا جعلنا البيت مثابة » والبيت الذي جعله مثابة هو البيت الحرام .

اللغة :

والبيت في اللغة ، والمنزل ، والمأوى نظائر . يقال : بات يبيت بيتوتة ، وبيته مبايتة . وتبيت تبيتاً . وتبايتوا تبايتاً . والبيت من أبيات الشعر ومن بيوت الناس . والبيت من بيوتات العرب : احياؤها (١) . وبيت فلان أبياتاً تبيتاً اذا بناها . والبيتوتة : الدخول في الليل . تقول : بت افعل كذا ، وبالنهار ظللت (٢) وباتوا بيتوتة حسنة . وأباتهم الله إباتة . وأباتهم الامر بياتاً كل ذلك دخول الليل . وليس من النوم في شيء وما عنده بيت ليلة . ولا بيتة ليلة بكسر الباء يعني القوت . والله يكتب ما يبيتون عمل الليل وبيت القوم اذا اوقعت فيهم ليلا . والمصدر البيت . والاسم : البيات . ومنه قوله : « بأسنا بياتا » ويسمى البيت من الشعر بيتاً لضمه الحروف والكلام كما يضم البيت أهله وامرأة الرجل : بيته . قال الراجز :

---

(١) في المطبوعة والمخطوطة (أخيارها) .

(٢) في المطبوعة (وتا ٰيها وظلت) .

مالي اذا اخذتهـا صأيت (١)　　أكبر غيرني أم بيت

وماه بيوت اذا بات ليـلة في إنائه واصل الباب البيت : المـنزل

وقوله : « مثابة » في معناه خلاف . قال الحسن يثيبون اليه كل عام ، أي ليس هو مرة في الزمان فقط . وقال ابن عباس : معناه أنه لا ينصرف عنه احد ، وهو يرى انه قد قضى منه وطراً ، فهم يعودون اليه . وقال ابو جعفر (ع) : يرجعون اليه لا يقضون منه وطراً وبه قال مجاهد . وحكى الخازني (٢) ان معناه يحجون (٣) اليه فيثابون عليه . وقال الجبائي يثوبون اليه : يصيرون اليه .

اللغة :

والفرق بين مثابة ومثاب ، ان الاخفش قال : مثابة المبالغة لما كثر من يثوب اليه . كما قيل علامة ونسابة وسيارة وقال الفراء والزجاج : معناهما واحد . كالمقامة والمقام بمعنى واحد . ووزن مثابة مفعلة واصلها مثوبة . من ثاب يثوب مثابـة ، ومثابا . وثوابا : اذا رجع فنقلت حركة الواو الى الياء ثم قلبت على ما قبلها . قال ورقة بن نوفل في صفة الحرم :

مثاب لافناء القبائل كلهـا　　تخب اليه اليعملات الطلائح (٤)

---

(١) اللسان (بيت) وآمالي الشريف المرتضى ١ : ٣٧٨ . ولم ينسبهما . في المخطوطة والمطبوعة :

البر قد عالني أم بيت

صأى يصئي ويصأى صئيا ـ بكسر الصاد وضمها وفتحها ـ الفرخ : صاح . وكذا العقرب ومنه المثل « يلدغ ويصئي » يضرب لمن يظلم ويشكو .

(٢) في المخطوطة الحارثي .

(٣) في المطبوعة (الحجون)

(٤) اللسان (ثوب) وروايته (الذوامل) بدل « الطلائح » وقد نسبه لابي طالب « رض » وفي تفسير الطبري ٣ : ٢٦ وفي تفسير أبي حيان ١ : ٣٨٠ ايضاً برواية التبيان الا أن ابي حيان نصب (مثابا) .

وافناء القبائل : اخلاطهم . والخبب : ضرب سريع من العدو . واليعملات : ج . يعملة وهي الناقة السريعة المطبوعة على العمل . اشتق اسمها من العمل . وطلائح ج . طليح : الناقـة التي اجهدها السير .

ومنه ثاب اليه عقله ، أي رجع اليه بعد عزوبه . وقوله « وأمنا » فالامن مصدر قولك أمن يأمن أمنا . وانما جعله أمنا بان حكم ان من عاذ به والتجأ لايخاف على نفسه ما دام فيه بما جعله في نفوس العرب من تعظيمه فكان من فيه آمنا على ماله ودمه ويتخطف الناس من حوله كما قال : « أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » (١) ولعظم حرمته ان من جنى جناية والتجأ اليه لايقام عليه الحد حتى يخرج لكن يضيق عليه في المطعم والمشرب ، والبيع والشراء ، حتى يخرج منه ، فيقام عليه الحد . فان احدث فيه ما يوجب الحد أقيم عليه فيه ، لانه هتك حرمة الحرم . ولان الله تعالى جعل الاشهر الحرم لا يحل فيها القتال ، والقتل وكل ذلك بسبب البيت الحرام ، فهو آمن بهذه الوجوه .

القراءة والاعراب :

وقوله : « واتخذوا من مقام ابراهيم » اكثر القراء على لفظ الامر . إلا ابن عامر ونافع فانها قرأ اعلى لفظ الخبر من فعل ماض ويحتمل ان يكون اللفظ معطوفا على قوله : « واذكروا » كانه قال يابني اسرائيل اذكروا نعمتي ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى .

المعنى :

وقال الربيع بن انس : من الكلمات التي ابتلى ابراهيم ربه قوله : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » وكأنه قال : « اني جاعلك للناس إماما » وقال : « اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » وقيل : انه معطوف على « واذ جعلنا البيت » لان معناه واذكروا اذا جعلنا البيت واتخذوا وقيل : انه معطوف على معنى « جعلنا البيت مثابة للناس » لأن فيه معنى ثوبوا اليه واتخذوا . وظاهر قوله : واتخذوا انه عام لجميع المكلفين إلا من خصه الدليل وعليه اكثر المفسرين . وقال ابو علي

(١) سورة العنكبوت : آية ٦٧ .

الفارسي : وجه قراءة من قرأ ، على الخبر انه عطف على ما أضيف اليه اذ كأنه قال واذ اتخذوا قال . وتقوية قوله ان ما بعده خبر ، وهو قوله « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل » .

المعنى :

المعني بقوله : « من مقام » قيل فيه اربعة أقوال :

احدها ـ قال ابن عباس الحج كله مقام ابراهيم .

[ثانيها] ـ وقال عطا مقام ابراهيم عرفة والمزدلفة والجمار .

[ثالثها] ـ وقال مجاهد : الحرم كله مقام ابراهيم .

[رابعها] ـ وقال السدي : مقام ابراهيم هو الحجر الذى كانت زوجة اسماعيل وضعته تحت قدم ابراهيم حين غسلت رأسه . فوضع ابراهيم رجله عليه وهو راكب فغسلت شقه ثم رفعته من تحته وقد غابت رجله في الحجر فوضعته تحت الشق الآخر فغسلته فغابت ايضا رجله فيه فجعلها الله من شعائره ، فقال « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » وبه قال الحسن ، وقتادة ، والربيع ، واختاره الجبائي ، والرماني ، وهو الظاهر في اخبارنا ، وهو الاقوى ، لان مقام ابراهيم اذا اطلق (١) لا يفهم منه إلا المقام المعروف الذي هو في المسجد الحرام . وفي المقام دلالة على نبوة ابراهيم (ع) ، لان الله تعالى جعل الصخرة تحت قدمه كالطين حتى دخلت قدمه فيها ـ وكان ذلك معجزة له ـ . وقيل في معنى قوله « مصلى » ثلاثة أقوال :

قال مجاهد : مدعى مأخوذ من صليت بمعنى دعوت .

وقال الحسن والجبائي : قبلة .

وقال قتادة والسدي : أمروا أن يصلوا عنده . وهو المروي في أخبارنا . وبذلك استدلوا على أن صلاة الطواف فريضة مثله ، لان الله تعالى أمر بذلك والامر يقتضي الوجوب ، وليس هاهنا صلاة يجب اداؤها عنده غير هذه بلا خلاف .

(١) في المطبوعة (انطاق وفي المخطوطة (انطاق)

وقوله : « عهدنا الى ابراهيم واسماعيل » أي أمرنا ان طهرا . قال الجبائي : أمرا أن يطهراه من فرث ودم كان يطرحه عنده المشركون قبل ان يصير في يد ابراهيم . ويجوز أن يريد طهراه من الاصنام ، والاوثان التي كانت عليه للمشركين قبل أن يصير في يد ابراهيم . وبهقال قتادة ، ومجاهد . وقال السدي طهراه ببنائكما له على الطهارة ، كما قال : « أفمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير » (١)

اللغة :

والطائف والدائر والجائل نظائر . طاف يطوف طوافا اذا دار حول الشيء . وأطاف به اطافة : اذا ألم به . وطوف تطويفا . والطوف : خشب أو قصب يجمع بعضه الى بعض ، يركب عليه في البحر . والطوفان مصدر طاف يطوف طوفا . فأما طاف بالبيت فهو طواف . وأطاف به اذا احاط به . والطائف : العاس . والطوافون المماليك كقوله : (طوافون عليكم) (٢) والطائف : طائف الجن والشيطان . وكل شيء يغشى القلب من وسواسه فهو طيفه . والطائفة من كل شيء قطعة . تقول : طائفة من الناس ، وطائفة من الليل . قال الله تعالى (طائفة من الذين معك) (٣) واصل الباب الطوف : الدور .

المعنى :

ومعنى « الطائفين » هاهنا قيل فيه قولان :

احدها ـ ما قال سعيد بن جبير : « الطائفين » من أتاه من غربة .

والثاني ـ قال عطا واختاره الجبائي ، وغيرهم : الطائفون بالبيت . ـ وهو الاصح ـ

وقوله : « والعاكفين » هاهنا قيل فيه اربعة أقوال :

---

(١) سورة التوبة : آية ١١٠ .

(٢) سورة النور : آية ٥٨ .

(٣) سورة المزمل : آية ٢٠ .

الاول ـ قال عطا واختاره الجبائي : انهم المقيمون بحضرته .

والثاني ـ قال مجاهد وعكرمة : انهم المجاورون .

والثالث ـ قال سعيد بن جبير ، وقتادة : انهم أهل البلد الحرام .

والرابع ـ قال ابن عباس : هم المصلون . والاول أقوى ، لانه المفهوم من اطلاق هذه اللفظة . قال النابغة (١)

عكوف على ابياتهم يثمدونها رمى الله في تلك الاكف الكوانع(٢)

اللغة :

والعكف والزوم والدوام على الشيء نظائر . تقول عكف يعكف ، عكفاً وعكوفاً ، اذا : لزم الشيء وأقام عليه فهو عاكف ، وعكف الطير بالقتيل . والعاكف المعتكف في المسجد ، قلما يقولون عكف ، وان قيل كان صوابا ، وانما يقولون : اعتكف . ويقال للنظم اذا نظم فيه الجوهر : عكف تعكيفاً . والمعكوف : المحبوس واصل الباب العكف وهو اللزوم .

المعنى :

والمعني بقوله : « والركع السجود » قال قتاده وعطا : هم الذين يصلون عند الكعبة ، يركعون عندها ، ويسجدون . وقال الحسن : « الركع السجود » جميع

(١) هو نابغة بني ذبيان .

(٢) ديوانه ، واللسان (رمي) روايتها (قعوداً) بدل (عكوف) (والانوف) بدل (الاكف) وفي بعض المصادر الاخري (عكوفا) بدل (عكوف) وفي بعض الروايات (يثمدونهم) بدل « يثمدونها » . وهذا البيت من أبيات قالها لزرعة بن عامر ، حين بعثت بنو عامر الى حصن ابن حذيفة ، وابنه عيينة بن حصن : أن اقطعوا حلف ما بينكم وبين بني أسد ، والحقوم ببني كنانة ، ونحالفكم ونحن بنوابيكم . وكان عيينة هم بذلك ، فقالت بنو ذبيان : اخرجوا من فيكم من الحلفاء ، ونخرج من فينا ! فأبوا ، فقال النابغة : هذه الابيات ، فمدح بني أسد ، وذم بني عبس ، ونقص بني سهم ومالك من غطفان وعبد بن سعيد بن ذبيان . وهاجم بهذا البيت الجميع و « يثمدنها » الضمير عائد الى الابيات . أي يلازمون بيوتهم ، يسترزقونها ، لان معنى الثمد الاسترزاق . وهو هزء بهم . « الكوانع » جمع كانع : وهو الخاضع الذي تداني وتصاغر .

المؤمنين ، وبه قال الفراء . وهو الاقوى ، لانه العموم . فان قيل : كيف امر الله تعالى ان يطهر بيته ولم يكن هناك بيت بعد ؟ قيل : معناه ابنيا لي بيتاً مطهراً - في قول السدي - وقال عطا : معناه طهرا مكان البيت الذي تبنياه فيما بعد . وفي الآية دلالة على ان الصلاة جوف البيت جائزة .

قوله تعالى :

« وإذ قَالَ إبراهِيمُ رَبِّ اجعل هَذا بَلداً آمِناً وارْزُقْ أهلَهُ مِنَ الثمرَاتِ مَن آمَنَ مِنهم باللهِ واليوم الآخرِ قَالَ وَمَنْ كفَرَ فَأُمَتِعهُ قَليلاً ثُمَّ أضطرُّهُ الى عَذابِ النارِ وَبِئسَ المَصيرُ (١٢٧) - آية . -

المعنى :

التقدير واذكروا إذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً . فان قيل : هل كان الحرم آمنا قبل دعوة ابراهيم (ع) ؟ قيل فيه خلاف :

قال مجاهد عن ابن عباس ، وابو شريح الخزاعي : كان آمنا لقول النبي (ص) حين فتح مكة هذه حرم حرمها الله يوم خلق السماوات والارض ، وهو الظاهر في رواياتنا .

وقال قوم : كانت قبل دعوة ابراهيم كسائر البلاد ، وانما صارت حرماً بعد دعوته (ع) كما صارت المدينة . لما روي ان النبي (ص) قال : ان ابراهيم (ع) حرم مكة ، واني حرمت المدينة .

وقال بعضهم : كانت حراماً والدعوة بوجه غير الوجه الذي صارت به حراماً بعد الدعوة والاول يمنع الله إياها من الاصطلام ، والانتقام ، كما لحق غيرها من

البلاد ، وبما جعل في النفوس من تعظيمها ، والهيبة لها . والوجه الثاني ـ بالامر على ألسنة الرسل . فأجابه الله الى ماسأل وانما سأل أن يجعلها آمنا من الجدب ، والقحط لانه أسكن أهلـه بواد غير ذي زرع ، ولا ضرع . ولم يسأله أمنه من انتقال ، وخسف ، لانه كان آمنا من ذلك . وقال قوم : سأله الامرين على ان يديمهما له . وان كان احدهما مستأنفا ، والآخر كان قبل .

ومعنى قوله : « بلداً آمنا » أي يأمنون فيه . كما يقال : ليل نائم أي النوم فيه .

اللغة :

والبلد والمصر والمدينة نظائر . ورجل بليد اذا كان بعيد الفطنة . وكذلك يقال للدابة التي تقصر عن نظائرها . وأصل البلادة التأثير . ومن ذلك قولهم لـكركرة البعير : بلدة لانه اذا برك تأثرت (١). والبلد : الاثر في الجلد ، وغيره . وجمعه أبلاد . وانما سميت البلاد من قولك . بلدا وبلدة ، لانها مواضع مواطن الناس وتأثيرهم . والبلد: المقبرة ويقال : هو نفس القبر قال حفاف :

كل امرىء نازل أحبته   ومسلم وجهه الى البـــلد

« ولا اقسم بهذا البلد » يعني بمكة والتبلد نقيض التجـــلد . وهو استكانة وخضوع . وتبلد الرجل : اذا نكس وضعف في العمر ، وغيره حتى في السجود . والبلدة : منزل من منازل القمر . وأصل الباب البلد ، وهو الاثر في الجلد ، وغيره .

المعنى :

« وقوله « فأمتعه قليلا » يعني بالرزق الذي أرزقه الى وقت مماته . وقيل فأمتعه بالبقاء في الدنيا . وقال الحسن : فامتعه بالامن والرزق الى خروج محمد (ص) فيقتله إن أقام على كفره . أو يجليه (٢) عنها . وقد قرىء في الشواذ فامتعه على وجه الدعاء

(١) في المطبوعة (اذا ترك أخرت) .
(٢) في المطبوعة (الجلية) بدل (يجليه) .

بصورة الامر ، ثم اضطره بمثل ذلك على ان يكون ذلك سؤالا من ابراهيم ان يمتع الكافر قليلا ثم يضطره بعد ذلك الى عذاب النار . والاول اجود لانـه قراءة الجماعة ، هذا مروي عن ابن عباس .

القراءة :

والراء مفتوحة في هذه القراءة وكان يجب ان تكسر كما يقال مد ومد ولم يقرأ به أحد وقرأ : ابن عباس وحده «فأمتعه قليلا » من المتعة على الخبر الباقون بالتشديد بدلالة قوله : « متعناهم الى حين » .

اللغة :

والفرق بين متعت وامتعت ان التشديد يدل على تكثير الفعل ، وليس كذلك التخفيف . وفعلت وافعلت يجيء على خمسة إقسام :

احدها ـ ان يكونا بمعنى واحد كقولهم : سميت واسميت ويجيء على التكثير والتقليل ويجيء على النقص كقولك : فرطت : قصرت . (١) وافرطت : جاوزت .

والرابع ـ توليت الفعل وتركته حتى يقع : كقوله « يخربون بيوتهم » اي يهدمون . فاما اخربت فمعناه (٢) تركت المنزل وهربت منه حتى خرب .

والخامس ـ ان ينفرد احدها عن الآخر . كقولك : كلمت لا يقال فيه افعلت واجلست ولا يقال : منه فعلت .

المعنى :

ومعنى « ثم أضطره » ادفعه الى عذاب النار وأسوقه اليها . والاضطرار هو الفعل في الغير على وجه لا يمكنه الانفكاك منه ، اذا كان من جنس مقدوره ، ولهذا لا يقال فلان مضطر الى كونه ـ وان كان لا يمكنه دفعه عن نفسه ـ لما لم يكن السكون من جنس مقدوره . ويقال هو مضطر الى حركة الفالج وحركة العروق ، لما كانت الحركة من جنس مقدوره .

(١) في المطبوعة (فبصرت) .　　(٢ المطبوعة فتمناه) .

وقوله : « وبئس المصير » هو الحال التي يؤدي اليها اولها .

اللغة :

وصار وحال وآل نظائر. يقال صار يصير مصيراً، قياسه رجع يرجع مرجعا (١) وصيره تصييرا قال صاحب العين : صير ، كل امر مصيرة والصيرورة مصدر صار يصير صيرورة . وقال بعضهم : صيور الامر اخره . قال الكميت يمدح هشام ابن عبد الملك:

ملك لم يصنع الله منـــه　　بدء أمر ولم يضـع صيورا

وصارة الجبل : رأسه . والصير : الشق . وفي الحديث من نظر في صير باب ففقئت عينه فهي هـدر . وصير البقر : موضع يتخذه للحظيرة . واذا كان للغنم فهو زريبة واصل الباب : المصير ، وهو المآل .

المعنى :

ومعنى الآية سأل سؤال عارف بالله مطيع له ، وهو ان يرزق من الثمرات من آمن بالله ، واليوم الاخر ، فأجاب الله ذلك ، ثم أعلمه انه يمنع من كفر بـه ، لاجل الدنيا ، ولا يمنعه من ذلك كما يتفضل به على المؤمن ، ثم يضطره في الآخرة، الى عذاب النار ، وبئس المصير . وهي كما قال : نعوذ بالله منها .

وقوله في الآية « قليلا » يحتمل ان يكون صفة للمصدر كما قال متـــاعا حسنا فوصف به المصدر ، وليس لاحد ان يقول كيف يوصف به المصدر ، وهو فعل يدل على التكثير ، وكيف يستقيم وصف الكثير بالقليل في قوله « فأمتعه » وهلا كانت قراءة ابن عامر ان حج على هذا وذلك ايضاً إنما وصفه بانه قليل من كان آخره الى نفاد، ونقص، وفناء . كما قال « متاع الدنيا قليل » ويجوز ايضاً ان يكون صفة للزمان . كما قال : « عما قليل ليصبحن نادمين » يعني بعد زمان قليـل وعن ابي جعفر « ع » في قولـه : « وارزقهم من الثمرات » اي تحمل اليهم من الآفاق .

« ١ » في المطبوعة (رجعاً) .

قوله تعالى :

« وَاذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم » (١٢٨) آية .

تقديره واذ يرفع ابراهيم القواعد .

اللغة

والرفع والاعلاء ، والاصعاد نظائر . ونقيض الرفع الوضع . ونقيض العلو : السفل . ونقيض الاصعاد الانزال تقول : رفع يرفع رفعا . وارتفع الشيء بنفسه . وبرق رافع : ساطع . والمرفوع : من سير الفرس . والبرذون دون الحضر ، وفوق الموضوع . ويقال : إنه لحسن الموضوع . ويقال ارفع من دابتك . وقد رفع الرجل يرفع رفاعة ، فهو رفيع والمرأة رفيعة . والحمار يرفع في عدوه ترفيعاً : اذا كان عدو بعضه ارفع من بعض . وكذلك لو احدث شيئاً فرفعته : الاول فالاول ، قلت رفعة ترفيعا . فالرفع نقيض الخفض في كل شيء . والرفعة نقيض الذلة ، ورفعته الى السلطان رفعاً اي قربته اليه . وفي التنزيل « وفرش مرفوعة (١) اي مقربة . والمرفع كل شيء رفعت به شيئاً ، فجعلته عليه . واصل الباب الرفع : نقيض الخفض . تقول رفع رفعاً وارتفع ارتفاعاً ، ورفع ترفيعاً ، وترافعوا ترافعاً ، وترفع ترفعاً ، ورافعه مرافعة .

والقواعد : واحدها قاعدة . قال الزجاج : اصله في اللغه الثبوت والاستقرار ، فمن ذلك القاعدة من الجبل ، وهي اصله . وقواعد البناء أساسه الذي بني عليه . واحدتها قاعدة . وامرأة قاعدة اذا اتت عليها سنون لا تزوج . ومنه قوله : « والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً » (٢) واذا لم تحمل المرأة ، ولا النخلة . يقال : قد قعدت وهي قاعدة ، وجمعها قواعد ايضاً . وتأويلها انها قد ثبتت على ترك الحمل . واذا

« ١ » سورة الواقعة : آية ٢٤ .
« ٢ » سورة سبأ : آية ٦٠ .

قعدت المرأة عن الحيض،فهي قاعد ايضاً بغيرهاء ـ لانه لافعل لها في قعودها عن الحيض وقد قعدت المرأة اذا كانت باولاد لئام فهي قاعدة . والاقعاد ان يقعد الرجل عن الشيء البتة يقال : اقعد فهو مقعد اي اقعدته الزمانة . وللجارية ثدي مقعد اذا كان متمكناً لا ينكس وشهر ذي القعدة كانت العرب تقعد فيه عن القتال . والقعود ما يقتعد الراعي ويحمل عليه متاعه ، وجمعه قعدان . وقعيد الانسان جليسه . ومنه قوله : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » (١) يعني الملكين . والقعيد كلما اتى من طائر أو ظبي . ويقال للئيم : قعد ، والجبان : قاعد ، لانه قعد عن الحرب . وقعد اللئيم عن الكرم قال الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي (٢)

والقعدة في النسب أقرب القرابة إلى الأب أو الجد . والمقاعد مواضع القعود في الحرب ، وغيرها . ومنه قوله : « مقاعد للقتال » (٣) وقعيدة الرجل امرأته القاعدة في بيته . وأصل الباب القعود . نقيض القيام . والقواعد والاساس والاركان نظائر . وقيل : انما قيل في واحدة القواعد من النساء قاعد لشيئين :

أحدهما ـ أن ذلك كالطالق والحائض وما اشبه ذلك من الصفات التي تختص بالمؤنث دون المذكر فلم يحتج إلى علامة التأنيث . وإن أردت الجلوس قلت : قاعدة لا غير لانها تشارك في ذلك الرجال .

والوجه الاخر ـ إن ذلك على وجه التشبيه اي ذات قعود كما يقال نابل ودارع أي ذو نبل ودرع . لاتريد به تثبيت الفعل .

الاعراب :

وموضع الجملة من قوله : « ربّنا تقبل منا » نصب بقول محذوف ، فكأنه قال : يقولان ربنا تقبل منا . واتصل بما قبله ، لأنه من تمام الحال لان (يقولان) في موضع الحال .

« ١ » سورة ق : آية ١٧ .

« ٢ » اللسان (طعم) ، وكسا . طاعم : حسن المطعم .

« ٣ » سورة آل عمران : آية ١٢١ .

المعنى :

قال ابن عباس معناه يقولان (١) : ربنا ، ومثله « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم » (٢) أي يقولون (٣) ومثله « والملائكة باسطو أيديهم اخرجوا أنفسكم » (٤) أي يقولون . وقال بعضهم : هو شاذ تقديره يقول : ربنا . يرده الى اسماعيل وحده . ولا يعمل على ذلك لشذوذه .

وقال أكثر المفسرين كالسدي، وعبد بن عمير الليثي ، واختاره الجبائي ، وغيرهم : إن ابراهيم واسماعيل معاً رفعا القواعد . وقال ابن عباس : كان ابراهيم يبني وإسماعيل يناوله . وقال بعض الشذاذ (٥) أن ابراهيم وحده رفعها وكان اسماعيل صغيراً ـ وهو ضعيف لانه خلاف ظاهر اللفظ وخلاف اقوال المفسرين . وقال أكثر أهل العلم أنها رفعا البيت للعبادة لا للسكنى ، بدلالة قوله : « ربنا تقبل منا » . وهل كانت للبيت قواعد قبل ابراهيم ؟ فيه خلاف .

فقال ابن عباس وعطا : قد كان آدم عليه السلام بناه ثم عفي أثره ، فجدده ابراهيم . وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله (ع) .

وقال مجاهد ، وعمرو بن دينار : بل انشأه ابراهيم بامر الله عزوجل إياه . وكان الحسن يقول : أول من حج البيت ابراهيم (ع) . وقد روي في اخبارنا ان أول من حج البيت آدم وذلك يدل على انه قدكان قبل ابراهيم . وانما قال : « انك أنت السميع العليم » لانه لما ذكر الدعاء ، اقتضى حينئذ ذكر ذلك ، كأنه قال : انك أنت السميع العليم بنا ، وبما يصلحنا .

ومعنى قوله : « تقبل منا » اي اثبنا على عمله ، وهو مشبه بتقبل الهدية في أصل اللغة . وروي عن محمد بن علي الباقر (ع) انه قال : ان الله تعالى وضع تحت

« ١ » في مجمع البيان : (وفي حرف عبد الله بن مسعود ويقولان ربنا تقبل منا) . وفي ـ حاشية ـ وفي حرف عبد الله يقولان ربنا .

« ٢ » سورة الرعد : آية ٢٥ .

« ٣ » يقولون سلام عليكم .　　　　« ٤ » سورة الانعام : آية ٩٣ .

« ٥ » في المطبوعة والمخطوطة (السداد) .

العرش اربع اساطين وسماه الصراح وهو البيت المعمور وقال للملائكة طوفوا به ثم بعث ملائكة ، فقال ابنوا في الارض بيتاً بمثاله ، وقدره وامر من في الارض ان يطوفوا بالبيت .

وقال ابو جعفر : اسماعيل أول من شق لسانه بالعربية ، وكان ابوه يقول : وهما يبنيا البيت : ـ يا اسماعيل هابي ابن (١) . اي اعطني حجراً ، فيقول له اسماعيل بالعربية : يا أبي هاك حجراً ـ وابراهيم يبني واسماعيل يناوله الحجارة . وروى فلا عن عبد الله بن عمر قال : لما أهبط الله آدم من الجنه قال : اني منزل معك او مهبط معك بيتاً تطوف حوله كما يطاف حول عرشي ، وتصلي عنده كما يصلي عند عرشي ، ولما كان زمن الطوفان رفع وكانت الانبياء يحجونه ولا يعملون مكانه حتى بوأه الله لابراهيم فاعلمه (٢) مكانه فبناه من خمسة اجبل : من حرا ، وثبير ، ولبنان ، وجبل الطور ، وجبل الخمر (٣) . قال الطبري وهو جبل بدمشق .

قوله تعالى :

« رَبَّنا وَاجعَلنا مُسلِمين لَكَ وَمن ذُرّيَتنا أُمةً مُسلمة لَكَ وَأرنا مَناسِكنا وتُب عَلَينا انّكَ أنت التَّوابُ الرّحيم » (١٢٩)

آية بلا خلاف .

روي في الشواذ عن عوف بن الاعرابي انه قرأ (مسلمين) على الجمع . وانما سألا الله تعالى أن يجعلها مسلمين بمعنى : ان يفعل لهما من الألطاف ما يتمسكان معه بالاسلام في مستقبل عمرهما لان الاسلام كان حاصلا في وقت دعائهما ويجري ذلك مجرى احدنا ، اذا أدب ولده وعرّضه لذلك حتى صار أديباً جاز أن يقال : جعل ولده أديباً وعكس ذلك اذا عرّضه للبلاء ، والفساد ، جاز ان يقال : جعله ظالماً محتالاً فاسداً ويجوز ان يكونا قالا ذلك تعبداً كما قال تعالى: «رب احكم بالحق» .

« ١ » وفي العبرانية معنى اعطني حجرا : هاتلي ابن .

« ٢ » في المطبوعة (كابراهيم اعلمه) وهو تحريف .

« ٣ » الخمر جبل بيت المقدس سمي بذلك لكثرة كرومه (ياقوت) .

المعنى :

والاسلام : هو الانقياد لامر الله تعالى بالخضوع ، والاقرار بجميع ماأوجب عليه . وهو والايمان واحد عندنا ، وعند اكثر المرجئة والمعتزلة . وفي الناس من قال: بينهما فرق ، وليس ذلك بصحيح ، لقوله « ان الدين عند الله الاسلام » . وقوله : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » (١) وانما خصا بالدعوة بعض الذرية في قوله : « ومن ذريتنا » ، لان (من) للتبعيض من حيث أن الله تعالى : كان أعلمه أن في ذريتهما من لا ينال العهد ، لكونه ظالماً . وقال السدي : إنما عنيا (٢) بذلك العرب . والاول هو الصحيح . وهو قول اكثر المفسرين .

وقوله : « وأرنا مناسكنا » فالمناسك هاهنا المتعبدات قال الزجاج : كل متعبد منسك (٣) . وقال الجبائي : المناسك هي ما يتقرب به الى الله من الهدى ، والذبح ، وغير ذلك من اعمال الحج والعمرة . وقال قتادة : أراهما الله مناسكهما الطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، والافاضة عن عرفات والافاضة من جمع ورمي الجمار حتى أكمل الله الدين . فهذا القول أقوى لأنه العرف في معنى المناسك وقال عطا : مناسكنا مذابحنا .

اللغة :

والنسك في اللغة : العبادة . رجل ناسك عابد، وقد نسك نسكا . والنسك : الذبيحة يقال : من فعل كذا فعليه نسك ، اي دم يهريقه ، ومنه قوله : « او نسك » اي دم واسم تلك الذبيحة : النسيكة والموضع الذي يذبح فيه المناسك والمنسك هو النسك نفسه . قال الله (تعالى) : « ولكل امة جعلنا منسكا » ويقال: نسك ثوبه اي غسله وقال ابن دريد : النسك اصله ذبائح كانت تذبح في الجاهلية . والنسيكة : شاة كانوا

« ١ » سورة آل عمران : آية ٨٥ .
« ٢ » في المطبوعة (صينا) .
« ٣ » في المطبوعة والمخطوطة (منك) .

يذبحونها في الحرم في الاسلام ، ثم نسخ ذلك بالاضاحي قال الشاعر (١) :

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه   ولا تعبدالشيطان والله فاعبدا (٢)

واصل الباب العبادة وقيل ان النسك الغسل . قال الشاعر :

فلا ينبت المرعى سباخ عراعر   ولو نسكت بالماء ستة اشهر (٣)

اي غسلت ذكره الحسين بن علي المغربي . قال : وليس بمعروف .

وقوله : « وارنا » (٤) يحتمل امرين : احدهما ـ ان يكون من رؤية البصر. والآخر ـ أن يكون من رؤية القلب بمعنى اعلمنا . قال حطائط بن جعفر «٥»

اريني جوادا مات هزلا لعلني   ارى ما ترين او بخيلا مخلدا « ٦ »

اي عرفني ومعنى قوله: « وتب علينا » اي ارجع علينا بالرحمة والمغفرة وليس فيه دلالة على جواز الصغيرة ، او فعل القبيح عليهم . ومن ادعى ذلك ، فقد ابطل . وقال قوم : معناه تب على ظلمة ذريتنا .وقيل : بل قالا: ذلك انقطاعا اليه « تعالى » تعبدا ليقتدى بها فيه . وهو الذي نعتمده .

« والتّواب » القابل للتوبة هاهنا واذا وصف به العبد ، فمعناه أنه فاعل التوبة دفعة بعد اخرى ، فيفيد المبالغة . فعلى مذهبنا اذا قلنا : قبل الله توبته اي تاب عليه معناه انه يستحق الثواب . واذا قلنا : تاب العبد من كبيرة مع الاقامة على

« ١ » قائله الأعشى الكبير ميمون بن قيس من قصيدة يمدح بها رسول الله (ص) .

« ٢ » ديوانه ١٣٧ رقم القصيدة ١٧ . وروايته (الاوثان) بدل (الشيطان) . واللسان (نصب) ورواية العجز : لعافية والله ربك فاعبدا .

وفي اللسان ـ حاشية ـ قوله : « العافية » كذا بنسخة من الصحاح الخط وفي نسخ الطبع كنسخ شارح القاموس « العاقبة » . وفي اللسان ايضا . ويروي عجز بيت الأعشى : ولا تعبد .... اي كما اثبتنا .

ذا النصب يعني اياك وذا النصب . اي لا تذبح القرابين للأصنام . فاعبدا أراد فاعبدن.

« ٣ » اللسان ـ (نسك) . ولم ينسبه .   « ٤ » في المطبوعة (وانها)

« ٥ » هو رجل من بني نهشل بن دارم .

« ٦ » اللسان « أنن » و « علل » . قال ابن بري فيه : قال حطائط بن جعفر ، ويقال هو لدريد . وروايته « لانني » بدل « لعلني » وهما بمعنى واحد . والشاعر يخاطب امه عند ملامته على انفاقه ماله .

كبيرة اخرى معناه عند من أجاز ذلك انه رفع العقاب بها على تلك الكبيرة التي تاب منها . وعندنا أنه يستحق بهـا الثواب ايضاً . وفي الآية دلالة على انه يحسن الدعاء بما يعلم الداعي أنه يكون لا محالة ، لانهما كانا عالمين بأنهما لايفارقان الاسلام . ولا ياتيان الكبيرة .

القراءة :

والاختيار في « ارنا » كسر الراء وهي قراءة الجمهور ، لانها كسرة الهمزة حولت الى الراء ، لأن اصله كان ارئنا ، فنقلت الكسرة الى الراء وسقطت الهمزة ، فلا ينبغي أن تسكن ، لئلا تجحف بالكلمة وتبطل الدلالة على الهمزة . وقد سكنه ابن كثير . وفي بعض الروايات عن ابي عمر وعلى وجه التشبيه بما يسكن في مثل كبد ونخذ وقال الشاعر :

لو عصر منه المسك والبان انعصر

وقال آخر :

قالت سليمى اشتر لنا دقيقا　　واشتر وعجل خادما لبيقـا

قوله تعالى :

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (١٣٠) آية واحدة بلا خلاف .

الضمير في قوله فيهم راجع الى الامة المسلمة التي سأل الله ابراهيم من ذريته . والمعني بقوله « رسولا منهم » هو النبي (ص) لما روي عن النبي (ص) انه قال : انا دعوة ابي ابراهيم وبشارة عيسى (ع) يعني قوله « ومبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد » (١) وهو قول الحسن وقتادة والسدي وغيرهم من اهل العلم .

« ١ » سورة الصف : آية ٦ .

ويدل على ذلك ايضاً ، وان المراد به نبينا (ص) دون الانبياء الذين بعثهم الله من بني اسـرائيل انه دعى بذلك لذريته الذين يكونون بمكة وما حولها على ما تضمنته الآية .

وفي قوله : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم » ولم يبعث الله من هذه صورته إلا محمداً « ص » . والمراد بالكتاب القرآن ـ على قول ابن زيد وا كثر المفسرين ـ ومعنى « الحكمة » هاهنا السنة . وقيل المعرفة بالدين والفقه في التأويل . وقيل العلم بالاحكام التي لا يدرك علمها إلا من قبل الرسل « ع » فالاول قول قتادة ، والثاني قول انس بن مالك والثالث قول ابن زيد . وقال قوم هو كلام مثنى كأنه وصف التنزيل بانه كتاب ، وبانه حكمة ، وبانه آيات . وقال بعضهم : الحكمة شيء يجعله الله في القلب ينوره به كما ينور البصر فيدرك المبصر ، وكل حسن .

ومعنى قوله : « ويزكيهم » قال ابن عباس : هو طاعة الله والاخلاص له . وقال ابن جريج يطهرهم من الشرك ويخلصهم منه . وقال الجبائي : « ويزكيهم » معناه يستدعيهم الى فعل ما يزكون به ، من الايمان والصلاح . ويحتمل ان يراد به انه يشهد لهم بالزكاء آمنوا واصلحوا .

اللغة :

و « العزيز » القادر الذي لا يعجزه شيء . وقيل : القادر الذي لا يمتنع عليه شيء اراد فعله . وقيل : القدير وهو مبالغة الوصف بالقدرة . ونقيض العز الذل . ويقال : عزه يعز عزة وعزازاً . واعتز به اعتزازاً . وتعزّز تعززاً . وعازّه معازة . تقول : عز يعز عزة وعزاً : اذا صار عزيزاً . وعز يعز عزاً : اذا قهر . ومنه قولهم : من عز بز اي من غلب سلب . وكل شيء صلب ، فقد اعتز . وسمي العزاز من الارض : وهو الطين الصلب الذي لا يبلغ ان يكون حجارة . وعن الشيء اذا قل لا يكاد يوجد . وفلان اعتز بفلان اذا تشرف به « وعزني في الخطاب » (١) اي

« ١ » سورة ص : آية ٢٣ .

غلبني في محاوراة الكلام والعزاء : السنة الشديدة ، والمطر يعزز الارض تعزيزاً اذا لبدها . واصل الباب : القوة .

المعنى :

وقوله : « الحكيم » يحتمل امرين :

احدهما ـ المدبر الذي يحكم الصنع ، يحسن التدبير .

والثاني ـ بمعنى عليم ، والاول بمعنى حكيم في فعله بمعنى محكم ، فعدل الى حكيم ، للمبالغة . وانما ذكر الحكيم هاهنا ، لأنه يتصل بالدعاء ، كأنه قال : فزعنا إليك ، لانك القادر على إجابتنا العالم بما في ضمائرنا وبما هو أصلح لنا مما لا يبلغه علمنا .

قوله تعالى :

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » (١٣١) ـ آية بلا خلاف ـ

اللغة :

قوله : « ومن يرغب » فالرغبة : المحبة لما فيه للنفس منفعة . ورغب فيه ضد رغب عنه . والرغبة : المحبة (١) . والرغبة والمحبة والارادة نظائر . وبينها فرق . نقيض الرغبة الرهبة ونقيض المحبة : البغضة . ونقيض الارادة الكراهية . تقول : رغب رغبة وأرغبه إرغاباً . ورغّبة ترغيباً . وتقول : رغب رغبة ، ورغباً ، ورغبى ورغباً إذا ملت لحبك (٢) ، ورغبت عنه إذا صددت عنه ، وأنا راغب به فيهما جميعاً ، والشيء مرغوب فيه ، ومرغوب عنه . ولي عن فلان مرغب . وهو رجل

« ١ » ـ « والرغبة : المحبة » ساقطة من المطبوعة .

« ٢ » في المطبوعة « اذا املت لحبتك » .

رغيب : نهم شديد الاكل (١) وفرس رغيب الشحوة (٢) كثير الأخذ بقوائمه من الارض . وموضع رغيب واسع والرغبة العطاء الكثير الذي يرغب في مثله . وقال صاحب العين : اللهم اليك الرغباء ومن لدنك النعماء ، ورغبت عن الشيء إذا تركته .

الاعراب :

ومعنى « ومن يرغب عن ملة إبراهيم » لفظه الاستفهام ، ومعناه الجحد (٣)، كأنه قال : ما يرغب عن ملة ابراهيم ولا يزهد فيها إلا من سفه نفسه وكأنه قال : واي الناس يزهد فيها « إلا من سفه نفسه » والاولى على الاستفهام ، ومعناه الجحد (٤) . والثانية ـ بمعنى الذي كأنه قال : إلا الذي سفه نفسه . وفي نصب (نفسه) خلاف . قال الاخفش : معناه سفّه نفسه . وقال يونس : اراها لغة . قال الزجاج : اراد أن فعل (٥) لغة في المبالغة . كما أن فعل كذلك . فعلى هذا يجوز سفهت زيداً : بمعنى سفهت . وقال ابو عبيدة : معناه اهلك نفسه ، وأوبق نفسه . وقال ابن زيد : إلا من اخطأ حظه . وقال ابن تغلب والمبرد : سفه ـ بكسر الفاء ـ يتعدى ، وسفه ـ بضم الفاء ـ لا يتعدى . فهذا كله وجه واحد .

والثاني ـ أن يكون على التفسير ، كقوله « فان طبن لكم عن شيء منه نفساً »(٦) وهو قول الفراء : قال : العرب توقع سفه على نفسه . وهي معرفة ، وكذلك « بطرت معيشتها » (٧) . وانكر الزجاج هذا الوجه . وقال : معنى التمييز لا يحتمل التعريف ، لأن التمييز انما هو واحد يدل على جنس (٨) ، فاذا عرفته صار مقصوداً بعينه .

والوجه الثالث ـ ان يكون على التمييز ، والمضاف على الانفصال ، كما تقول :

« ١ » في المخطوطة « بهم بتسديد الاصل » وفي المطبوعة « بهم شديد الاكل » .

« ٢ » في المطبوعة « الشجرة » وفي المخطوطة غير منقطة .

« ٣ ، ٤ » في المطبوعة « الحجة » وهو تحريف .

« ٥ » في المخطوطة والمطبوعة « ان سفه » وهو غلط لان الجملة الثانية تدل على ما اثبتناه .

« ٦ » سورة النساء : آية ٤ « ٧ » سورة القصص : آية ٥٨ .

« ٨ » في المطبوعة (حسن) .

مررت برجل مثله أي مثل له .

والوجه الرابع ـ على حذف الجار ، كما قال : « أن تسترضعوا اولادكم فلا جناح عليكم » (١) اي لأولادكم . ومثله « ولا تعزموا عقدة النكاح » (٢) اي على عقدة النكاح . قال الشاعر :

نغالي اللحم للأضياف نيئاً ونرخصه إذا نضج القدير (٣)

والمعنى نغالي (٤) باللحم . وقال الزجاج : وهذا مذهب صحيح . واختار هو أن سفه بمعنى جهل . وهو موافق لمعنى ما قال ابن السراج في « بطرت معيشتها » لان البطر مستقل النعمة غير راض بها . وقال ابو مسلم : معناه جهل نفسه ، وما فيها من الآيات الدالة على ان لها صانعا ليس كمثله شيء فيعلم به توحيد الله وصفاته .

اللغة :

ومعنى قوله : « ولقد اصطفيناه في الدنيا » اخترناه للرسالة والصفو : التميز من مالر الكدر . واصطفيناه على وزن افتعلناه من الصفوة . وانما قلبت التاء طاء ، لانها اشبه بالصاد بالاستعلاء والاطباق ، وهي من مخرج التاء فأتى بحرف وسط بين الحرفين . والاصطفاء والاختيار والاجتباء نظائر . والصفاء والنقاء والخالص (٥) نظائر والصفاء نقيض الكدر . وصفوة كل شيء خالصه من صفوة الدنيا ، وصفوة الماء وصفوة الاخاء تقول : صفا صفاء ، واصفاه اصفاء ، واصطفاه ، اصطفاء . وتصفى تصفيا وتصافوا تصافيا . وصفاه تصفية وصافاه مصافاة . واستصفاه استصفاء . والصفا مصافاة المودة والاخاء . والصفاء مصدر الشيء الصافي وإذا اخذت صفوة ماء

« ١ » سورة البقرة : آية ٢٣٣ .

« ٢ » سورة البقرة : آية ٢٣٥ .

« ٣ » اللسان (غلا) قال ابو مالك : نغالي اللحم نشتريه غالياً ثم نبذله ونطعمه اذا نضج في قدورنا وفي المطبوعة (تعالى) بدل نغالي . وفي المطبوعة والمخطوطة (نبذله) بدل (نرخصه) و « القدور » بدل « القدير » .

« ٤ » في المطبوعة « تعالى يستعمونها » بدل « نغالي باللحم » .

« ٥ » في المطبوعة « الخاص » .

من غدير ، قلت استصفيت صفوة . وصفي الانسان : الذي يصافيه المودة . وناقة صفي كثيرة اللبن. ونخلة صفية : كثيرة الحمل. والجمع الصفايا والصفا: الحجر الضخم الأملس الصلب. فاذا انثوا(١) الصخرة قالوا صفاة صفواء. واذا ذكروا قالوا صفا صفوان والصفوان واحدته صفوانة. ومن الحجارة : الملس لا تنبت شيئاً . قال تعالى : « كمثل صفوان عليه تراب »(٢) . واصل الباب : الصفا : الخلوص .

قوله : « وانه في الآخرة لمن الصالحين » انما خص الآخرة بالذكر وان كان في الدنيا كذلك لان المعنى من الذين يستوجبون على الله الكرامة وحسن الثواب، فلما كان خلوص الثواب في الآخرة دون الدنيا ، وصفه بما ينبيء عن ذلك . ففي قوله : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه » دلالة على ان ملة ابراهيم هي ملة نبينا محمد « ص » ، لان ملة ابراهيم داخلة في ملة محمد « ص » مع زيادات في ملة محمد « ص » فبين أن الذين يرغبون من الكفار عن ملة محمد التي هي ملة ابراهيم ، قد سفهوا أنفسهم وهو معنى قول قتادة والربيع .

قوله تعالى :

« اِذ قالَ له رَبّهُ اَسلِم قال اَسلَمتُ لِربّ العالَمينَ (١٣٢)

آية بلا خلاف .

قوله : « اذ قال له ربه » متعلق بقوله : « ولقد اصطفيناه » وموضعه نصب وتقديره : ولقد اصطفيناه حين قال له ربه اسلم . وقال الحسن : انما قال ذلك ، حين أفلت الشمس ، « فقال يا قوم إني بريء مما تشركون . اني وجهت وجهي » (٣) وانه اسلم حينئذ . وهذا يدل على أنه كان ذلك قبل النبوة . وأنه قال له ذلك : إلهاماً استدعاه به الى الاسلام ، فاسلم حينئذ . لما وضح له طريق الاستدلال بما رأى من الآيات ، والعبر الدالة على توحيده . ولا يصح أن يوحي الله تعالى اليه قبل اسلامه بانه نبي الله ، لان النبوة حال اعظام واجلال . ولا يكون ذلك قبل الاسلام . وانما

(١) في المخطوطة (نعتوا) .　　(٢) سورة البقرة : آية ٢٦٤ .
(٣) سورة الانعام : آية ٧٨ .

قال: « اصطفيناه » على لفظ المتكلم مع قوله: « اذ قال له ربه » على لفظ الغائب للتصرف في الكلام كما قال الشاعر:

باتت تشكي الي النفس مجهشة   وقد حملتك سبعا بعد سبعينا (١)

والاسلام واجب على كل مكلف، وان اختلفت شرائع الانبياء فيما يتعبدون: من الحلال، والحرام. لقوله « تعالى »: ان « ان الدين عند الله الاسلام » (٢) وان الاسلام انما هو الاخلاص لله بالعمل بطاعته، واجتناب معصيته وذلك واجب على كل متعبد. وكله اسلام.

قوله تعالى:

« وَوَصّى بِها اِبراهيمُ بَنيه وَيَعقُوبُ يا بَنيَّ اِنّ اللّهَ اصطَفى لَكُمُ الدّينَ فَلا تَمُوتنَّ اِلا وانتُم مُسلِمُونَ » (١٣٣) آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ أهل المدينة، وابن عامر « واوصى » بهمزة مفتوحة بين الواوين، وتخفيف الصاد. الباقون ووصى مشددة الصاد. ومن قرأ وصى ذهب إلى قوله: « فلا يستطيعون توصية » (٣) ومصدر وصى مثل قطع تقطعة ولم يجيئوا به على تفعيل كراهية اجتماع الياءات مع الكسرة. ومن قرأ أوصى فلقوله: « من بعد وصية يوصي بها » (٤) وكلاهما جيدان.

اللغة:

والوصية مأخوذة من قولهم: اوصى النبت: اذا اتصل بعضه ببعض فلما

(١) اللسان (جهش) قائله لبيد. اجهش اذا تهيأ للبكاء.
(٢) سورة آل عمران: ١٩.   (٣) سورة يس آية: ٥٠.
(٤) سورة النساء: آية ١٠.

أوصل الموصي جل أمره الى الموصى إليه ، قيل : وصية . ووصى وأوصى وأمر وعهد نظائر في اللغة . وضد أوصى أهمل . والوصاة كالوصية، والوصاية مصدر التوصي. والفعل أوصيت إيصاء ووصيت توصية ، في المبالغة ، والكثرة وتقول : قد قبل الوصاية . وإذا انطاع المرعى للسائمة فاصابته رواعد ، قيل وصى لها الرعي يصي وصيا . ووصيا . وأصل الباب : الوصية وهي الدعاء إلى الطاعة .

المعنى :

والهاء في قوله : « ووصى بها » يحتمل ان تعود الى احد شيئين :

احدها الى الملة . وقد تقدم ذكرها في قوله : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم » .

والثاني ـ ان يعود الى الكلمة في قوله : « اسلمت لرب العالمين » . والاول أقوى ، لانه مذكور في اللفظ . وهو قول الزجاج . واكثر المفسرين . والثاني حكاه البلخي وبعض اهل اللغة . وارتفع يعقوب ، لانه معطوف على ابراهيم . والمعنى ووصى بها يعقوب . وبه قال ابن عباس وقتادة . وقال بعضهم : إنه على الاستئناف كأنه قال : ووصى يعقوب أن « يا بني إن الله اصطفى لكم الدين » والاول اظهر لأن عليه اكثر المفسرين . « والألف واللام » . في الدين للعهد دون الاستغراق، لانه إنما اراد بذلك دين الاسلام دون غيره من الأديان . وانما أسقطت (أن) في « وصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » أن « يا بني » واثبت في « إنا ارسلنا نوحاً الى قومه أن انذر » (١) ، لأن اوصى في الآية بمعنى القول ، فجعل بمنزلة قولك الا ّ تقديره تقدير القول ، فيجوز حينئذ إلحاق أن . كما قال : « إنا ارسلنا نوحاً الى قومه أن انذر » ومثله « وآخر دعواهم أن الحمد لله » (٢) وقوله : « فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله » (٣) وكل هذا الباب يجوز فيه الوجهان : بان تقدّره تقدير القول ، ليكمل به تقدير الفعل الذي ليس بقول . واما قوله : « ان كان ذا

---

(١) سورة نوح : آية ١ . (٢) سورة يونس : آية ١٠ .
(٣) سورة الاعراف : آية ٤٣ .

مال وبنين » (١) فلا يجوز إسقاطها في مثله من الكلام ، لانه ليس فيه معنى الحكاية ، والقول كما في الدعوى ، والارسال . واما قوله : « والملائكة باسطوا ايديهم اخرجوا انفسكم (٢) فلا يجوز في مثله إثبات ، لانه يضمر معه القول ، ولا يجوز معه التصريح بالقول ، ولا مع اضمار أن لأنه حكاية كما تقول : قلت له : زيد في الدار ، ولا يجوز قلت له : أن زيداً في الدار وانشد الكسائي :

إني سأبدى لك فيما ابدي　　لي شجنان : شجن بنجد

وشجن لي ببلاد الهند (٣)

لأن الابداء قول . ومنه قوله : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة » (٤) ، لأن العدة قول . فان قيل : كيف قال : « لا تموتن » على وجه النهي لهم عن الموت ، والموت ليس في مقدورهم ، فيصح أن ينهوا عنه ؟ قلنا : اللفظ وإن كان على لفظ النهي . فما نهوا عن الموت ، وانما نهوا في الحقيقة عن ترك الاسلام : لئلا يصادفهم الموت عليه ، وتقديره لا تتعرضوا للموت على ترك الاسلام بفعل الكفر ، ومثله من كلام العرب لا أرأيتك (٥) ها هنا ، فالنهي في اللفظ للمتكلم ، وإنما هو في الحقيقه للمخاطب ، فكأنه قال : لا تتعرض لأن اراك بكونك هاهنا . ومثله لا يصادفنك الامام على ما يكره ، وتقديره : لا تتعرض لأن يصادفك على ما يكره . ومثله لا يكونن زيد إلا عندك تقديره : لا تتعرض لأن يكون زيد ليس عندك : بالتفريط في ذلك ، والاهمال له والأصل في هذا أن التعريض لوقوع الشيء بمنزلة ايقاع الشيء .

وقوله : « وانتم مسلمون » جملة في موضع الحال . وتقديره : لا تموتن إلا مسلمين .

---

(١) سورة القلم : آية ١٤ .　　(٢) سورة الانعام : آية ٩٣ .

(٣) اللسان (شجن) . الشجن : هوى النفس وهو مجاز من الحزن والهم . وكنوا به المرأة المحبوبة التي تشغل القلب .　　(٤) سورة المائدة : آية ١٠ .

(٥) في المخطوطة والمطبوعة (لاريتك) .

قوله تعالى :

« أم كُنتُمْ شُهداءَ إذ حَضَرَ يَعقوبَ الموتُ إذْ قالَ لِبَنِيه ما تَعبُدونَ مِنْ بَعدي قالُوا نَعبُدُ إلهكَ وإلهَ آبائِكَ إبْراهِيمَ وإسْماعِيلَ وإسحاقَ إلهاً واحِداً ونَحنُ لَهُ مُسلِمُونَ»

(١٣٤) ـ آية واحدة بلا خلاف ـ

(أم) هاهنا منقطعة وليست بمتصلة كقوله : الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه » (١) ومثله قول الشاعر (٢) :

كذبتك عينُك أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا (٣)

ولا تجيء منقطعة الا لف وقد تقدمها كلام ، لانها بمعنى بل ، وألف الاستفهام . كأنه قيل : بل كنتم شهداء ، ومعناها ـ هنا ـ الجحد : اي ما كنتم شهداء . واللفظ لفظ الاستفهام . والمعنى على خلافه ، لأن إخراجه مخرج الاستفهام أبلغ في الكلام ، وأشد مظاهرة في الحجاج : أن يخرج الكلام مخرج التقرير بالحق فتلزم الحجة ، والانكار له فتظهر الفضيحة ، فلذلك اخرج الجحد (٤) في الاخبار مخرج الاستفهام .

والمخاطب بـ « أم كنتم شهداء » أهل الكتاب في قول الربيع . والمعنى : انكم لم تحضروا ذلك ، فلا تدعوا على انبيائي ورسلي الأباطيل بنحلكم إياهم خلاف الاسلام من اليهودية والنصرانية ، فاني ما بعثتهم إلا بالحنفية . والشهداء جمع شهيد . و (إذ) ها هنا بدل من (إذ) الاولى ، والعامل فيها معنى الشهادة . وقيل بل العامل فيها حضر ، وكلاهما حسن .

اللغة :

والحاضر والشاهد من النظائر . ونقيض الحاضر الغائب . ويقال : حضر

« ١ » سورة السجدة : آية ١ و ٢ و ٣ . « ٢ » هو الاخطل .
« ٣ » انظر : ٣ . ٤ تجد التفصيل « ٤ » في المطبوعة (الحجة) .

حضوراً ، واحضره إحضاراً ، واستحضره استحضاراً ، واحتضره احتضاراً ، وحاضره محاضرة . والحضر خلاف البدو . وحضرت القوم أحضرهم حضوراً : اذا شهدتهم . والحاضر خلاف الغائب . واحضر الفرس إحضاراً : اذا عدا عدواً شديداً واستحضرته استحضاراً . والحضرة الجماعة من الناس ما بين الخمسة الى العشرة . وحاضرت الرجل محاضرة وحضاراً : إذا عدوت معه . وحاضرته : اذا جانيته عند السلطان ، أو في خصومة ، ومحضر القوم ،رجعهم الى المياه بعد النجعة ، وفرس محضر . ولا يقال : محضاراً . وألقت الشاة حضيرتها يعني المشيمة وغيرها . والابل الحضار البيض . لا واحد لها من لفظها مثل الهجان سواء . وحضرة الرجل فناؤه وأصل الباب الحضور : خلاف الغيبة .

الاعراب :

وقوله « إلهاً واحداً » يحتمل انتصابه أحد أمرين :

احدها ــ أن يكون حالا من قوله : « إلهك » :

والآخر ــ أن يكون بدلا من إلهك . وتكون الفائدة فيه التوحيد ، وانما قدم اسماعيل على اسحاق ، لأنه كان اكبرهم . به قال ابن زيد .

وقوله : « ونحن له مسلمون » الجملة في موضع نصب على الحال . وقيل لا موضع لها ، لانها على الاستئناف و« ابراهيم واسماعيل واسحاق» في موضع خفض . والعامل فيها ما عمل في ابائك ، لانه مبين له . كما تقول : مررت بالقوم : اخيك ، وغلامك وصاحبك . وانما قال : « آبائك » واسماعيل عم يعقوب ، لما قاله الفراء وابوعبيدة : من أن العرب تسمي العم أباً فالآية دالة على أن العمومة يسمون آباء .

وقد روي عن النبي (ص) انه قال : ردّوا علي ابي يعني العباس عمه فسمي العم أباً كما سمي الجد أباً من حيث يجب له التعظيم ، نحو ما يجب للأب ، وقد قرىء في الشواذ واله أبيك ، فعلى هذا ينجر اسماعيل واسحاق على العطف ، وهو غير المعنى الاول ، لانه مترجم عن الآباء وفي الثاني عطف غير ترجمة كما تقول رأيت غلام زيد وعمر ، أي غلامهما فكأنه قال : لهم ولم يذكر بالابوة إلا ابراهيم وحده

والقراءة الاولى هي المشهورة وعليها القراء .

قوله تعالى :

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٥) آية بلا خلاف .

اللغة :

قوله : « تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » فالامة المراد بها هنا الجماعة والامة على ستة اقسام الجماعة . والامة : الحين لقوله : « واذكر بعد امة »(١) أي بعد حين ، والامة القدوة والامام . لقوله : « ان ابراهيم كان امة قانتا » (٢) والامة العامة وجمعها امم . قال الاعشى :

وان معاوية الاكرمين   حسان الوجوه طوال الامم (٣)

والامة : الاستقامة في الدين والدنيا . قال النابغة :

وهل يأثمن ذو امة وهو طائع (٤)

والامة : أهل الملة الواحدة . كقولهم : أمة موسى ، وامة عيسى ، وامة محمد (ص) واصل الباب : القصد من أمه يؤمه . اذا قصده . ومعنى خلت . مضت كما تقول : لثلاث خلون من الشهر ، أي مضين وأصله : الانفراد ومنه خلا الرجل بنفسه : اذا انفرد . وخلا المكان من أهله أي انفرد منهم . وحد الخلو : حصول الشيء وحده . والفرق بين الخلو والفراغ ، أن الخلو اذا لم يكن مع الشيء غيره ، وقد يفرغ منه وهو معه . فاذا قلت خلا منه فليس معه . والكسب : العمل الذي يجلب

(١) سورة يوسف : آية ٤٥ .
(٢) سورة النحل : آية ١٢٠ .
(٣) ديوانه . رقم القصيدة ٤ . وروايته (عظام القباب) بدل (حسان الوجوه) . وفي اللسان (امم) (بيض الوجوه) .
(٤) اللسان (امم) . وصدر البيت :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة

في المخطوطة والمطبوعة (وهو طالم) .

به نفع ، و يدفع به ضررعن النفس . وكسب لاهله : اذا اجتلب ، ذلك لهم بعلاج ومراس . ولذلك لا يجوز في صفة الله .

وقوله « ولا تسألون عما كانوا يعملون » معناه انه لا يقال لكم اعملوا كذا وكذا . وعلى جهة المطالبة بما يلزمهم من أجل عملهم . كما لا يقال لهم لم عملتم انتم كذا وكذا . وانما يطالب كل انسان بعمله دون عمل غيره كما قال : « ولا تزر وازرة وزر اخرى » (١) وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة : إن الابناء يؤخذون بذنوب الآباء . ويؤخذ الطفل بذنب ابيه ، لان الله تعالى نفى ذلك ومثله قوله : «ولا تزر وازرة وزر اخرى» وقوله : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم » (٢) . والاشارة بقوله : « تلك امة » الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ولدهم . يقول الله تعالى لليهود والنصارى : يامعشر اليهود والنصارى دعوا ذكر ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والمسلمين من اولادهم بغير ماهم اهله ، ولا تنسبوا اليهم الكفر ، واليهودية والنصرانية ، ولا تضيفوها اليهم وإنها امة قد خلت ولا تسألون انتم عما كانوا يعملون .

الاعراب :

وقوله « لها ما كسبت » يحتمل ان يكون موضعه نصب بأنه حال كأنه قال: قد يلزمها ما تستحقه بعملها . ويجوز أن لا يكون لها موضع لانها مستأنفة . ولا يكون جزء من الجزء الاول ، لكن تكون متصلة به في المعنى وان لم تكن جزء منه ، لانهما خبران في المعنى عن شيء واحد . كأنه قيل للجماعة . قد خلت . والجماعة لها ما كسبت .

قوله تعالى :

وَقَالُوا كُونُوا هوداً أَو نَصارى تَهتدُوا قُلْ بَلْ مِـلَّةَ ابراهيمَ

« ١ » سورة الانعام : آية ١٦٤ .

« ٢ » سورة المؤمن : آية ١٧ .

حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ (١٣٦) آية بلا خلاف .

الضمير في قوله : « وقالوا كونوا » يرجع الى اليهود ، والنصارى ، لان كل فريق منهم دعي الى ماهو عليه ومعنى « تهتدوا » أي تصيبوا طريق الحق . كأنهم قالوا : تهتدوا الى الحق .

وروي عن عبدالله بن عباس ، انه قال: قال عبد الله بن صوريا الاعور لرسول الله (ص) : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يامحمد تهتد . وقالت النصارى : مثل ذلك فانزل الله (تعالى) «وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا الآية » وفي قوله : « بل ملة ابراهيم حنيفاً » حجة على وجوب اتباع ملة ابراهيم إذ كانت سليمة من التناقض . وكان في اليهودية والنصرانية تناقض ، وذلك لا يكون من عند الله فصارت ملة ابراهيم احق بالاتباع من غيرها . والتناقض في اليهودية مثل منعهم من جواز النسخ مما في التوراة مما يدل على جواز ذلك وامتناعهم من العمل بما تقدمت به البشارة في التوراة من اتباع النبي الامي مع اظهارهم التمسك بها ، وامتناعهم من الاذعان لما (١) دلت عليه المعجزة : من نبوة عيسى ، ونبوة محمد (ص) مع اقرارهم بنبوة موسى من أجل المعجزة الى غير ذلك من انواع التناقض . وأما النصارى أب وابن وروح قدوس إله واحد مع زعمهم ان الاب ليس هو الابن وان الاب إله والابن إله وروح القدس إله . فاذا قيل لهم قولوا ثلاثة آلهة امتنعوا من ذلك . الى ما يصفون به الباري تعالى مما (٢) يوجب الحاجة والحدث . ويقولون : مع ذلك انه قديم لم يزل الى غير ذلك من مناقضاتهم التي لا تحصى كثيرة ، وهي موجودة في الكتب عليهم نبهنا على جملها . وأما الحنيفية فهي الاستقامة . وانما قيل للذي يقبل باحدى قدميه على الاخرى أحنف تفاؤلا بالسلامة كما قيل للهلكة : مفازة تفاؤلا بالفوز ، والنجاة ، وهو قول الرياشي وابن قتيبة ، واهل اللغة . وقال الزجاج : أصله الميل ، وابراهيم حنيف الى دين الاسلام ، وقال : العادل الى دين

« ١ » في المطبوعة « ما » .

« ٢ » في المطبوعة « متا » .

ربه عن اليهودية ، والنصرانية . وقال ابو حاتم : قلت للاصمعي من أين عرف في الجاهلية الحنيف ؟ فقال : لانه من عدل عن دين اليهود والنصارى فهو حنيف عندهم ، ولأن كل من حج البيت كانوا يسمونه حنيفاً وكانوا اذا أرادوا الحج قالوا : هلم نتحنف . وقال صاحب العين : الحنف ميل في صدر القدم . يقال رجل حنف ، وسمي الأحنف لحنف كان به . وقالت حاضنته وهي ترقصه :

والله لولا حنف برجله   ما كان في صبيانكم كمثله(١)

والحنيف : المسلم الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة ابراهيم « وكان حنيفا مسلما » وقال بعضهم : الحنيف كل من أسلم في أمر الله ، ولم يلتو في شيء والجمع الحنفاء . وقال بعضهم : قيل حنيف ، لانه تحنف عن الاديان كلها : أي مال الى الحق . وفي الحديث أحب الاديان الى الله الحنفية السمحة ، وهي ملة ابراهيم لا حرج فيها ، ولا ضيق . وأصل الباب الحنف ، وهو الميل .

ونصب « ملة ابراهيم » يحتمل اربعة اوجه ،

احدها – ان كونوا هوداً أو نصارى . قد تضمن معنى اتبعوا اليهودية والنصرانية ، فعطف به على المعنى .

والثاني – على الحال كأنه (٢) قال بل نتبع ملة ابراهيم . فالاول عطف والثاني [حذف] .

والثالث – على معنى بل أهل ملة ابراهيم ، فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه كقوله تعالى « واسأل القرية » . والرابع – على الاغراء .

قوله تعالى :

« قُولُوا آمنا بالله وَمَا أنزِلَ إلَينا وَما أنزلَ الى إبْراهيمَ وإسماعيلَ وَإسحاقَ وَيعقوبَ والأسباطِ وَما أوتِيَ موسَى وعيسى وما أوتِيَ

« ١ » اللسان (حنف) وروايته (في فتيانكم من مثله) .
« ٢ » في المخطوطة بياض . في المطبوعة هكذا : (الحال قال .)

النَّبيونَ من ربِّهم لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ له مُسلِمون »
(١٣٧) ـ آية واحدة بلا خلاف . ـ

قوله تعالى : « قولوا آمنا بالله » يحتمل ان يكون جوابا ـ على ما روي عن ابن عباس : أن نفراً من اليهود أتوا رسول الله (ص) فسألوه عمن يؤمن به من الرسل ، فقال أؤمن بالله وما أنزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ... الى آخرها ـ ، فلما ذكر عيسى جحدوا بنبوته ، وقالوا : لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمن به ، فأنزل الله فيهم « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل من قبل وان اكثركم فاسقون » (١) .

والثاني ـ قال الحسن وقتادة : أمر الله المؤمنين أن يقولوا : « آمنا بالله وما أنزل الينا » الآية ، وجعل ذلك محنة فيما بينهم وبين اليهود والنصارى .

اللغة :

والاسباط جمع سبط . قال تغلب: يقال: سبط عليه العطاء والضرب : اذا تابع عليه حتى يصل بعضه ببعض وانشد الثوري في قطيع بقر :

كأنه سبط من الاسباط (٢)

شبهه بالجماعة من الناس يتتابعون في أمر . والسبط : جماعة . ومن ثم قيل لولد يعقوب أسباط . وشعر سبط : سلس منبسط . ومنه سمي الساباط لانبساطه بين الدارين حتى يجمعهما . والسباطة : الكناسة بعضها الى بعض . وقال ابن دريد : السبط واحد الاسباط ، وهم أولاد اسرائيل . وقالوا : الحسن والحسين سبطا رسول الله (ص) أي ولداه . والسباطة ما سقط من سقط الشعر اذا سرحته . واخذت

« ١ » سورة المائدة : آية ٦٢ .

« ٢ » اللسان « سبط » .

فلاناً سباط : اذا اخذته الحمى . والسبط من اليهود بمنزلة القبيلة من قبائل العرب . ويقال هو سبط الكفين : اذا كان طويل الاصابع . والسبط : قناة جوفاء مضروبة بالقصب يرمى فيها سهام صغار ينفخ نفخاً لا يكاد يخطىء وأصل الباب : السبط وهو التتابع . وقال الزجاج : السبط الجماعة الذين يرجعون الى أب واحد . والسبط : الشجر . والسبط : الذين من شجرة واحدة . وقال قتادة : الاسباط يوسف واخوته ولد يعقوب اثني عشر رجلا فولد كل واحد منهم أمة من الناس . فسموا الاسباط وبه قال السدي والربيع وابن إسحاق . واسماء الاثني عشر ذكر وهم : يوسف ويامين ، وروبيل ، ويهوذا ، وشمعون ، ولاوي ، ودان ، وقهاب ، (١) ويشجر ، وتفتالي ، رجاذ ، واشر . ولا خلاف بين المفسرين انهم ولد يعقوب . وقال كثير من المفسرين : انهم كانوا انبياء . والذي يقتضيه مذهبنا انهم لم يكونوا أنبياء باجمعهم ، لانه وقع منهم من المعصية ما فعلوه مع يوسف (ع) مالا خفاء به ، والنبي عندنا ، لا يجوز عليه فعل القبائح : لا صغيرها ، ولا كبيرها ، فلا يصح مع ذلك القول بنبوتهم . وليس في ظاهر القرآن أنهم كانوا انبياء وقوله تعالى : « وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط » لا يدل على انهم كانوا أنبياء لأن الانزال يجوز أن يكون على بعضهم ممن كان نبياً ، ولم يقع منه ما ذكرناه من الافعال القبيحة . ويحتمل أن يكون المراد انهم امروا باتباعه . كما يقال : انزل الله الى امة النبي (ص) القرآن . كما قال : « وما أنزل الينا » وان كان المنزل على النبي (ص) ، لكن لما كانوا مأمورين بما فيه اضيف بانه انزل اليهم .

ومعنى قوله : « لا نفرق بين أحد منهم » انا لا نؤمن ببعض الانبياء ونكفر ببعض ، كما فعلت اليهود والنصارى ، فكفرت اليهود بعيسى ومحمد (ص) وكفرت النصارى بسليمان ونبينا محمد صلى الله عليهما .

وقوله تعالى : « ونحن له مسلمون » خاضعون بالطاعة . وقيل : مذعنون له

« ١ » في المخطوطة والمطبوعة كما هو مثبت وكذلك في مجمع البيان . وفي تفسير الطبري ٣ : ١١٢ ـ دار المعارف المصرية قهات ـ .

بالعبودية وقيل مستسلمون لامره ، ونهيه اعتقاداً وفعلا وقيل داخلون في حكم الاسلام الذي هو دينه ، كما قال : « إن الدين عنـــد الله الاسلام » والفرق بين التفريق والفرق ان التفريق جعل الشيء مفارقا لغيره ، والفرق نقيض الجمع ، والجمع جعل الشيء مع غيره ، والفرق جعل الشيء لا مع غيره والفرق بالحجة هو البيان الذي يشهد ان الحكم لاحد الشيئين دون الآخر ، وفائدة الآية الامر بالايمان بالله والاقرار بالنبيين ، وما انزل اليهم من الكتب ليتعبدوا به من الاحكام ، والرد على من فرق بينهم فيما جمعهم الله عليه من النبوة .

قوله تعالى :

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا هُم فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (١٣٨) آية بلا خلاف .

المعنى :

اخبر الله تعالى ان هؤلاء الكفار متى آمنوا على حد ما آمن المؤمنون به ، فقد اهتدوا الى طريق الجنة . والباء في قوله « بمثل ما امنتم » يحتمل ثلاثة اشياء :

اولها ـ ان تكون زائدة والتقدير ، فان آمنوا مثل الذي امنتم أي مثل ايمانكم كما قال : « كفى بالله » والمعنى كفى الله . قال الشاعر :

كفى الشيب والاسلام للمرء ناهياً (١)

والثاني ان يكون المعنى بمثل هذا ولا تكون زائدة . كأنه قال : فان آمنوا على مثل ايمانكم ، كما تقول : كتبت على مثل ما كتبت ، وبمثل ما كتبت كأنك تجعل المثال آلة يتوصل به الى العمل ، وهذا أجود من الاول .

والثالث ـ أن تلغى مثل ، كما ألغيت الكاف في قوله : « فجعلهم كعصف

---

(١) اللسان (نهي) وصدره :

سمية ودع ان تجهزت غاديا

مأكول » (١) وهذا أضعف الوجوه لانه اذا أمكن حمل كلام الله على فائدة ، فلا يجوز حمله على الزيادة ، وزيادة الاسم أضعف من زيادة الحرف ، كزيادة ما ولا وما أشبه ذلك .

وروي عن ابن عباس انه قال : لا تقولوا « فان آمنوا بمثل ما امنتم به » فانه ليس لله مثل ولكن قولوا « فان آمنوا بالذي آمنتم به » وهذه رواية شاذة مخالفة لما أجمع عليه القراء ، ومتى صحت فالوجه فيها أن يكون أراد أن يفسر المعنى فكانه قال : لا تتأولوه على الجعل لله عز وجل مثلا فانه شرك ، لكن تأولوه على ما يصح تأويله من غير تمثيل للمعبود تعالى . وقال ابن عباس : ان الايمان هو العروة الوثق وانه لا يقبل عملا إلا به ، ولا تحرم الجنة إلا على تركه .

وقوله تعالى : « وان تولوا » معناه ان اعرضوا عن الايمان وجحدوه ولم يعترفوا به « فانما هم في شقاق » معناه انهم في مفارقة . في قول قتادة والربيع ، وقال ابن زيد الشقاق هو المنازعة والمجادلة . قال الحسن : معناه التعادي وأصل الشقاق يحتمل ان يكون مأخوذاً من الشق ، لانه صار في شق غير شق صاحبه ، للعداوة المباينة ، ويحتمل أن يكون مأخوذاً من المشقة لانه يحرص على ما يشق على صاحبه ، ويؤذيه . وفي الآية دلالة على نبوة النبي (ص) ، لان الله تعالى وعده ان يكفيه من يعاديه من اليهود والنصارى الذين شاقوه بقوله : « فسيكفيكهم الله » فكان الامر على ما وعد به .

اللغة :

والكفاية والوقاية والسلامة نظائر تقول كفى يكفي كفاية : اذا قام بالامر واكتفى اكتفاء ، واستكفى استكفاء ، وتكفى تكفياً ، وكفاك هذا الامر أي حسبك ورأيت رجلا كافيك من رجل أي كفاك به رجلا . وأصل الباب الكفاية ، وهو بلوغ الغاية يقال يكفي ويجزي ويغني بمعنى واحد .

---

(١) سورة الفيل : آية ٥

قوله تعالى :

صِبغَةَ اللّهِ وَمَن أَحسنُ من اللّهِ صبغةً وَنحنُ لهُ عابدُون (١٣٩) آية بلا خلاف .

قوله تعالى : « صبغة الله » معناه فطرة الله . في قول الحسن وقتادة وابي العالية ، ومجاهد وعطية وابن زيد والسدي . وقال الفراء والبلخي : انه شريعة الله في الختان الذي هو التطهير وقوله : « صبغة الله » مأخوذ من الصبغ ، لان بعض النصارى كانوا اذا ولد لهم مولود جعلوه في ماء طهور يجعلون ذلك تطهيراً له ، ويسمونه العمودية : فقيل : صبغة الله أي تطهير الله ، لا تطهيركم بتلك الصبغة . وهو قول الفراء : وقال قتـادة : اليهود تصبغ ابناءها يهوداً والنصارى تصبغ ابناءها نصارى ، فهذا غير المعنى الاول ، وانما معناه : انهم يلقنون اولادهم اليهودية والنصرانية ، فيصبغونهم بذلك لما يشربون قلوبهم منه ، فقيل صبغة الله التي امر بها ورضيها يعني الشريعة ، لاصبغتكم . وقال الجبائي سمى الدين صبغة لانه هيئة تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة وغير ذلك من الآثار الجميلة التي هي كالصبغة وقال امية :

في صبغة الله كان اذ نسي الـ ... ـعهد وخلّى الصواب اذ عزما

اللغة :

قال صاحب العين : الصبغ ما يلون به الثياب ، والصبغ مصدر صبغت والصباغة حرفة الصباغ ، والصبغ ، والصباغ : ما يصطبغ به في الاطعمة . والاصبغ من الطير ما ابيض ذنبه أو بعضه . وأصل الباب الصبغ : وهو المزج للتلوين .

الاعراب :

ونصب « صبغة الله » في الآية يحتمل امرين :

احدهما ـ أن يكون مردوداً على « بل ملة ابراهيم » بدلا منه وتفسيراً له .

والثاني - اتبعوا صبغة الله . والاجود الاول . وكان يجوز الرفع بتقدير هي صبغة الله .

المعنى :

ومعنى قوله : « ومن أحسن من الله صبغة » واللفظ لفظ الاستفهام . وبه قال الحسن وغيره .

وقوله « ونحن له عابدون » يجب أن نتبع صبغته لا ماصبغنا عليه الآباء والاجداد . وقيل معناه « ونحن له عابدون » في اتباعنا ملة ابراهيم صبغة الله للاعتراف بالوجه الذي اتبعوه .

قوله تعالى :

« قلْ أتحاجُّونَنا في اللهِ وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكم ولَنا أعمالُنا وَلَكم أعمالُكمْ وَنحنُ لَهُ مُخلِصونَ (١٤٠) آية

المعنى :

أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية أن يقول لهؤلاء الكفار « اتحاجوننا في الله » ومعناه : تخاصموننا وتجادلوننا فيه وهو تعالى الذي خلقنا وانعم علينا ، وخلقكم وانعم عليكم . وكانت محاجتهم له (ص) انهم زعموا انهم أولى بالحق ، لانهم راسخون في العلم ، وفي الدين ، لتقدم النبوة فيهم ، والكتاب ، فهم أولى بأن يكون الرسول منهم . وقال قوم : بل قالوا : نحن أحق بالايمان ، لانا لسنا من العرب الذين عبدوا الاوثان ، فبين الله تعالى وجه الحجة عليهم انه ربنا وربهم ، فهو أعلم بتدبيرنا وتدبيرهم ، ومصلحتنا ومصلحتهم ، وانه لا حجة علينا في اجرام (١) غيرنا ومعاصيهم . وقال الحسن : كانت محاجتهم أن قالوا : نحن اولى بالله منكم ،

(١) في المطبوعة (من) زائدة في هذا الموضع .

وقالوا : « نحن ابناء الله واحباؤه » (١) وقالوا : « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » وقالوا « كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » وغرضهم بذلك الاحتجاج بان الدين ينبغي ان يلتمس من جهتهم ، وأن النبوة اولى أن تكون فيهم وليس الامر على ما ظنوا ، لان « الله اعلم حيث يجعل رسالته » (٢) ومن الذي يقوم باعبائها ، ويتحملها على وجه يكون اصلح للخلق واولى بتدبيرهم .

وقوله : « لنا اعمالنا » معناه الانكار لاحتجاجهم باعمالهم ، لانهم مشركون، ونحن له مخلصون . وقيل معناه الانكار للاحتجاج بعبادة العرب للاوثان ، فقيل: لا حجة في ذلك إذ لكل احد عمله ، لا يؤخذ بجرم غيره .

اللغة :

والاعمال والافعال والاحداث نظائر . والاخلاص والافراد والاختصاص نظائر وضد الخالص المشوب .

وقوله : « ونحن له مخلصون » فيه احتجاج بأن المخلص لله اولى بالحق من المشرك به . وقيل معناه : الرد عليهم بما احتجوا به من عبادة العرب للاوثان ، بانه لا عيب علينا في ذلك اذا كنا مخلصين ، كما لا عيب عليكم بفعل من عبد العجل من الاسلاف اذا اعتقدتم الانكار عليهم ، بانهم على الاشراك بالله بالتشبيه له ، والكفر بآياته . وقال ابن عباس : معنى « اتحاجوننا » أتجادلوننا . وقال مجاهد : معناه أتخاصموننا . وبه قال ابن زيد .

ومعنى « في الله » في دين الله ، والالف صورتها الاستفهام . ومعناه الانكار ويجوز في « اتحاجوننا » ثلاثة اوجه من العربية : الاظهار ، والادغام ، والحذف . فالادغام تشديد النون ، والحذف تخفيف النون الواحدة .

قوله تعالى :

---

(١) سورة المائدة : آية ٢٠

(٢) سورة الانعام : آية ١٢٤ .

« أَمْ تَقولونَ انَّ إبراهيمَ وَإسماعيلَ وإسحاقَ وَيعقوبَ والأسباطَ كانُوا هُوداً أو نَصارَى قُل أأنْتمْ أعلَمُ أمِ اللهُ وَمنْ أظلمُ مِمنْ كتمَ شهادةً عِندَه مِنَ اللهِ وَما اللهُ بِغافِلٍ عَما تَعملونَ » (١٤١) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر « أم تقولون » بالتاء . ووافقهم ابن عامر ورويس . الباقون بالياء .

المعنى :

من قرأ بالياء جعله متصلا بما قبله من الاستفهام كأنه قال : اتحاجوننا فيالله أم تقولون ان الانبياء كانوا على دينكم . والتقدير بأي الحجتين متعلقون في امرنا : أبا لتوحيد ، فنحن موحدون ، أم باتباع دين الانبياء ، فنحن لذلك متبعون . ومن قرأ بالياء ، فالوجه فيه انه عدل الى حجاج آخر عن الحجاج الاول . كأنه قال : بل أتقولون ان الانبياء من قبل ان تنزل التوراة والانجيل كانوا هوداً أو نصارى . ويكون قد اعرض عن خطابهم استجهالا لهم بما كان منهم ، كما يقبل العالم على من بحضرته بعد ارتكاب مخاطبه جهالة شنعة : فيقول : قد قامت عليه الحجة أم يقول بابطال النظر المؤدي الى المعرفة . وقد انكر الطبري القراءة بالياء ، وقال هي شاذة لا تجوز القراءة بها وليس الامر على ما ظن بل وجهها ما بيناه . ومعنى الآية : الاحتجاج عليهم في قولهم : « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » فقيل لهم : كيف ذلك ، والامر بخلافه من وجهين :

احدها ـ ما اخبر به نبينا عليه السلام مع ظهور المعجز الدال على صدقه .

والآخر ما في التوراة والانجيل من أنهم كانوا على الحنيفية ، لان عندهم اسم اليهودية يقع على من تمسك بشريعة التوراة والنصرانية اسم لمن تمسك بشريعة

الانجيل • وقد قال الله تعالى : وما انزلت التوراة والانجيل إلا من بعده » (١) وقيل ايضاً ان معناه التوبيخ لاهل الكتاب بادعائهم عليهم خلاف الاسلام بغير حجة ولا برهان .

وقوله : « أأنتم اعلم أم الله » صورته صورة الاستفهام والمراد به التوبيخ ومثله قوله : « أأنتم أشد خلقاً أم السماء »(٢) .

اللغة :

والاعلم والاعرف والادرى بمعنى واحد . والاظلم والاجور والاعتى نظائر ، فان قيل لم قال : « أأنتم أعلم أم الله » وقد كانوا يعلمونه وكتموه ، وانما ظاهر هذا الخطاب لمن لا يعلم ، قلنا من قال : انهم كانوا على ظن وتوهم : فوجه الكلام على قوله واضح . ومن قال : كانوا يعلمون ذلك وانما كانوا يجحدونه يقول : معناه ان منزلتكم منزلة المعترض على ما يعلم ان الله اخبر به فما ينفعه ذلك مع إقراره بان الله اعلم منه ، وانه لا يخفى عليه شيء ، لان ما دل على انه اعلم هو الدال على انه لايخفى عليه شيء ، وهو انه عالم لنفسه ويعلم جميع المعلومات .

وقوله تعالى : « ومن اظلم ممن كتم » قيل في (من) في قوله : « من الله » ثلاثة اقوال :

احدها ـ انها بمعنى ابتداء الغاية ، لان الله تعالى ابتدأ الشهادة في التوراة والانجيل بصحة النبوة لمحمد صلى الله عليه وآله ، ويكون ابتداء الشهادة بأن الانبياء كانوا على الحنيفية ، فهذه شهادة من الله عندهم .

والثاني ـ كتمها من عباد الله .

والثالث ـ ما حكاه البلخي : انه بمنزلة من أظلم ممن يجور على الفقير الضعيف من السلطان الغني القوي : أي فلا احد أظلم منه . والمعنى انه يلزمكم ان لا أحد أظلم من الله ، تعالى عن ذلك إذ ما يكتم ما فيه الغرور للعباد ، ليوقعهم في الضلال وهو

(١) سورة آل عمران . آية ٦٥ .

(٢) سورة النازعات : آية ٢٧ .

الغني بنفسه الذي لا يجوز أن يلحقه المنافع والمضار جل ثناؤه وتقدست اسماؤه ، وهذا الذي ذكره يلزم اليهود والجهال . كما حكى الله تعالى عنهم « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا » (١) والشهادة التي كتموها قيل فيها قولان :

احدها ـ قال مجاهد والربيع وابن ابي نجيح : انهم كتموا الشهادة بانهم كانوا على الاسلام .

والثاني ـ قال الحسن وقتادة وابن زيد واختاره الجبائي : انهم كتموا الشهادة بالبشارة التي عندهم بالنبي (ص) . فان قيل اذا كان الذي كتموه امر محمد صلى الله عليه وآله فكيف يتصل بما قبله : قيل قال الحسن : كتموا محمداً صلى الله عليه وآله ودينه لأن في دينه ان ابراهيم كان مسلما لم يك من المشركين . والاحتجاج عليهم « أ أنتم أعلم أم الله » على وجه الالزام لهم بالجهالة كانه قيل : اذا زعمتم أن هؤلاء كانوا يهوداً أو نصارى ، وقد اخبر الله بخلاف ذلك عنهم فقد لزمكم أن تكونوا أعلم من الله تعالى ، وهذا غاية الخزي لمن بلغه .

وقوله تعالى : « وما الله بغافل عما تعملون » فالغفلة والسهو والسنة نظائر ومعنى الآية يحتمل امرين :

احدها ـ ليس ألله بساه عن كتمان الشهادة التي لزمكم القيام بها لله تعالى .

الثاني ـ ان يكون على عمومه والمعنى : أنه لا يخفى عليه شيء من المعلومات لا صغيرها ، ولا كبيرها فكونوا على حذر من الجزاء على السيئات بما تستحقونه من العقاب ، وكتم واخفى واسر معناها واحد والبينة والحجة واحد .

قوله تعالى :

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) آية بلا خلاف .

---

(١) سورة المائدة : آية ٦٧ .

المعنى :

قيل في تكرار قوله تلك امة قد خلت قولان :

احدهما ـ انه عنى بالاول : ابراهيم ومن ذكر معه من الانبياء .

والثاني ـ عنى به اسلافهم من آبائهم الذين هم على ملتهم .

والقول الثاني ان الجواب اذا اختلفت أوقاته فكان الثاني في غير موطن الاول ، وكان بعد مدة من وقوع الاول بحسب ما اقتضاه الحال لم يكن ذلك معيباً عند أهل اللغة ، ولا عند العقلاء ، والاعتراض عليهم بقوله « تلك أمة قد خلت » انه اذا لم تشكوا أن يكون فرضهم غير فرض الامة التي قد خلت قبلكم ، ولا تحتجوا بأنه لا يجوز أن يخالفوا عليه ، ولو سلم لكم أنهم كانوا على ما تذكرونه ما جاز لكم أن تتركوا ما نقل لكم الله عنه على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وآله إذ لله تعالى ان ينسخ من الشريعة ما شاء على ما يعلم في ذلك من وجوه الحكمة ، وعموم المصلحة . وقيل : ان ذلك ورد مورد الوعظ لهم بانه : اذا كان لا يؤخذ الانسان إلا بعمله فينبغي ان تحذروا على انفسكم ، وتبادروا بما يلزمكم ، ولا تتكلوا على فضائل الاباء والاجداد فان ذلك لا ينفعكم اذا خالفتم امر الله فيما اوجب عليكم .

والمعنى بقوله تلك امة قد خلت على قول قتادة والربيع ابراهيم عليه السلام ومن ذكر معه . وعلى قول الجبائي : وغيره : من سلف من آبائهم الذين كانوا على ملتهم اليهودية والنصرانية. وقد بينا فيما مضى أن الأمة الجماعة التي تؤم جهة واحدة كأمة محمد (ص) التي تؤم العمل على ما دعا اليه . وكذلك أمم سائر الانبياء (ص) والخلاء الفراغ يقال : فرغ من عمله ، وفرغ من مكانه . وانما قيل لما مضى خلا ، لانه خلا منه مكانه . والكسب الفعل الذي يجر لفاعله نفعاً او يدفع به ضرراً . وانما قيل كسب السيئة ، لانه اجلب النفع عاجلا .

وقوله : « ولا تسألون » معناه لا تطالبون . والسؤال الطلب . وهو ايضاً الاخبار الذي اقتضاه ما تقدم من الكلام أي لا يقال لكم لم عصي آباءكم . وانما يقال لكم لم عصيتم ولم ظلمتم .

تم المجلد الأول من التبيان

ويليه المجلد الثاني

وأوله « سيقول السفهاء من الناس » . . . (١٤٢)[1]

ملاحظة : اعتمدنا ـ اكثر ما اعتمدنا ـ في تصحيح هذا المجلد على تفسير مجمع البيان لأن الطبرسي (رحمه الله) كثير النقل عن التبيان والله الملهم للصواب ـ المصححان ـ .

---

(١) كررنا هذا الرقم لأن الشيخ رقم آية آيتين حسب قراءة البصريين وراجعنا التفاسير كلها فوجدناها مرتبة حسب القراءة الثانية فرجعنا بالترقيم .

الفهـــارس

وضعهـــا

احمد شوقي الأمين و احمد حبيب قصير

فهارس المقدمة

فهرس المواضيع

فهرس الاعلام المذكورة في التعليق (١)

(١) بما أن وجود الاعلام بكثرة في الاصل اقتصرنا على ذكر الاعلام الموجودة في الحاشية فقط .

---

(١) ورد هذا الاسم بتعبيرين: شيخ الطائفة والشيخ الطوسي جمعناهما بلفظ واحد (الطوسي).

فهرس القوافي

فهرس الخطأ والصواب

بالرغم مما بذلناه من الجهد في تصحيح المقدمة فقد وقعت بعض الأخطاء المطبعية وآثرنا الاشارة اليها ها هنا ، كما ان ترقيم الصفحات بالحروف أصبح بعد طول الموضوع غير مفهوم من قبل الاكثرية ، ولذلك اضطررنا الى ترقيم الصفحات خطأ وتعيينها في جدول الخطأ والصواب بالارقام لا الحروف الابجدية ـ مصحح المقدمة ـ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	٩	إبن	بني
٧	٧	الجزري	ابن الجزري
٨	١٧	بالمفلدة	بالمقلدة
٩	١٩	ووجهم	ووجههم
١٧	٤	الحسيني	الحسني
٢٤	٤	تهذيبات	تنبيهات
٣٧	٢١	وثلاثون	وثلاثين
٥٣	٢٣	أو الدها	أو والدها
٥٤	٥	خلط آخر	خلطاً آخراً
٥٤	١٩	القاعدة	العادة
٥٥	٥	توفيا	توفيتا
٥٧	١١	وأبي الفاسم	وعلى يد أبي القاسم
٥٧	١٢	خمسمائةدرهم	زائد
٦٣	١٠	لم يرتضيا	لم يرتضها
٦٣	١٤	خطئه	في خطئه
٦٤	٨	عدم	مع عدم
٧٣	٥	المتقدمة	المتقدمين

فهارس المجلد الأول من التبيان

١ — فهرس المواضيع

٢ ـ فهرس الآيات المستشهد بها

(٢) سورة البقرة

(٥) سورة المائدة

(٦) سورة الانعام

٣ ـ فهرس الامثال

٤ ـ فهرس القوافي

(١) اذا وضعنا القافية ضمن هذا القوس دلالة على ان عجز البيت من وضعنا واذا وضعنا اول البيت ضمنه فالصدر من وضعنا

٥ - فهرس الأحاديث

صفحة

الصفحة

٦ - فهرس الردود

٧ — فهرس المباحث اللغوية

٨ ـ فهرس الخطأ والصواب

ص	سطر	خطأ	صواب
٤	١٩	عن	عنه
٢٥	٠١	بآية واحد	بآية واحدة
٣٥	١٥	الكنانة	الكناية
٤٧	١٩	قال	قول
٧٧	١٩	جميع	جمع
١٠٢	١٦	من الميت ويدبر	ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر
١٠٩	٠٨	وزقا	رزقا
١١٨	٠٨	آخواً	آخراً
١٢٠	٣ ـ حاشية ـ	فاطمة	فاطر
١٢٥	٠٥	من سيف	من غير سيف
١٦٤	٠٢	وعدوداً	وعدواً
٢٢٢	١٠	بكم	ربكم
٢٣٢	١٨	وحده	وعده
٢٤١	٠٦	مين	من
٢٤٥	١٢	قتلني	قتلتني
٢٤٩	١٢	لله	الله
٢٥٦	١٣	القبح	الضح
٢٧٦	١٤	فاستجنا	فاستجبنا
٣٥٢	١١	ابيياء	انبياء
٣٧٢	٠٣	مكان	ما كان
٣٧٩	٠٧	النور	النحو
٣٨٤	١٣	في الدنيئة	الدنيئة
٤٤٨	١٤	اليعيض	التبعيض

وثمة أخطاء مطبعية لا تنقص من المعنى ولا تزيد فيه تركناها لفهم القارىء الكريم ونسأله تعالى العصمة من الزلل .

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥-٤٦٠هـ

تحقيق وتصحيح

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الثاني

دار
إحياء التراث العربي

« سَيقولُ السُّفهاءُ مِنَ النَّاسِ ماوَلّاهم عن قِبلتهم الَّتي كانوا عـلَيها ، قُل للهِ المشرِقُ والمغرِبُ يَهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم (١٤٢) ـ آية واحدة بلا خلاف .

أخبر الله (تعالى) نبيه عليه السلام أنه سيقول لك فيما بعد السفهاء ، وهو جمع سفيه ، وهو والجاهل والغبي نظائر .

« ما ولاهم » معناه ، أي شيء ولاّهم . ومعنى ولاّهم صرفهم عنه ، ومثله : قلّبه عنه وفتله . « عن قبلتهم التي كانوا عليها » . والقبلة : الجهة التي تستقبل في الصلاة ، وقبلة المسلمين : الكعبه . والسفيه : الخفيف إلى مالا يجوز له أن يخف إليـه ، وهي صفة ذم في الدين . وضد السفه الحكمة . واشتقاق لاهم من الولي ، وهو حصول الثاني بعد الأول من غير فصل . فالثاني يلي الأول ، والثالث يلي الثاني ، والرابع يلي الثالث ثم هكذا أبداً . وولّى عنه خلاف ولّى إليه : مثل قولك . عدل عنه ، وعدل إليه ، وانصرف ، عنه وانصرف إليه . فاذا كان الذي يليه متوجهاً إليه فهو متول إليه واذا كان متوجهاً إلى خلاف جهته ، فهو متول عنه .

والقبلة مثل الجلسة للحال التي يقابل لشيء غيره عليها كما أن الجلسة التي يجلس عليها . فكان يقال : — فيما حكي — هو لي قبلة ، وأنا له قبلة ، ثم صار علماً على الجهة التي تستقبل في الصلاة .

واختلفوا في الذين عابوا المسلمين بالانصراف عن قبلة بيت المقدس إلى الكعبة على ثلاثة أقوال :

[الأول] فقال ابن عباس ، والبراء بن عازب : هم اليهود [الثاني] قال الحسن : هم مشركوا العرب ، وإن رسول الله (صلى الله عليه وآله لمّا حول الكعبة من بيت المقدس ، قالوا : يا محمد (ص) رغبت عن قبلة آبائك ، ثم رجعت إليها ايضاً ، والله لترجعن إلى دينهم . والثالث قال السدي : انهم المنافقون ، قالوا ذلك استهزاء

بالاسلام . واختلفوا في سبب عيبهم الصرف عن القبلة : فقال قوم : انهم قالوا ذلك على وجه الانكار للنسخ . و[الثاني] قال ابن عباس : إن قوماً من اليهود قالوا : يا محمد ماولاك عن قبلتك التي كنت عليها ، ارجع اليها نتبعك و نؤمن . وأرادوا بذلك فتنته . الثالث ـ انه قال ذلك مشركوا العرب ليوهموا ان الحق ماهم عليه .

وإنما صرفهم الله عن القبلة الاولى لما علم الله تعالى من تغير المصلحة في ذلك . وقيل انما فعل ذلك لما قال تعالى « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » ، لانهم كانوا بمكة ، أمروا أن يتوجهوا الى بيت المقدس ليتميزوا من المشركين الذين كانوا بحضرتهم يتوجهون الى الكعبة ، فلما انتقل رسول الله (ص) الى المدينة كان اليهود المجاورون للمدينة يتوجهون الى بيت المقدس فنقلوا الى الكعبة ليتميزوا من هؤلاء كما اريد في الاول ان يتميزوا من أولئك واختار ذلك البلخي والجبائي والرماني .

وقوله تعالى : « قل لله المشرق والمغرب » أمر من الله تعالى لنبيه (ص) ان يقول لهؤلاء الذين عابوا انتقالهم عن بيت المقدس الى الكعبة : المشرق والمغرب ملك لله يتصرف فيها كيف شاء على ما تقتضيه حكمته . والمشرق والمطلع نظائر ، وكذلك المغرب والمغيب نظائر .

وفي الآية دلالة على جواز النسخ لانه تعالى نقلهم ـ عن عبادة كانوا عليها ـ الى ايقاعها على وجه آخر وهذا هو النسخ .

وقوله : « لله المشرق والمغرب » فيه دلالة على أن من له المشرق والمغرب ، فله التدبير فيها ، وفي ذلك اسقاط قول من زعم : أن الارض المقدسة أولى بالتوجه اليها . لانها مواطن الانبياء ـ وقد شرفها الله وعظمها ـ فلا وجه للتولية عنها ـ فرد الله عليهم بأن المواطن كلها لله يشرف منها ما يشاء في كل زمان على ما يعلمه من مصالح العباد . وقال ابن عباس ، والبراء بن عازب : انه كانت الصلاة الى بيت المقدس الى بعد مقدم النبي (ص) بسبعة عشر شهراً . وقال انس بن مالك : انما كان ذلك تسعة اشهر أو عشرة اشهر . وقال معاذ بن جبل كان ثلاثة عشر شهراً . وقال

قتادة صلّت الانصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم النبي (ص) وصلّى النبي (ص) بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً ثم وجهه الله الى الكعبة . ولا خلاف ان التوجه الى بيت المقدس قبل النسخ كان فرضاً واجباً . ثم اختلفوا فقال الربيع : كان ذلك على وجه التخيير ، خير الله نبيه بين ان يتوجه الى بيت المقدس و بين غيرها .

وقال ابن عباس وأكثر المفسرين كان ذلك فرضاً معنياً ـ وهو الاقوى ـ ، لقوله: « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها » فبين انه جعلها قبلة ، وظاهر ذلك انه معين ، لانه لادليل على التخيير ، على انه لو ثبت انه كان مخيراً لما خرج من ان يكون فرضاً ، كما ان الغرض ان يصلي الصلاة في الوقت ثم هو مخير بين أوله وأوسطه وآخره .

وقوله : « والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » معناه: يهديهم الى الدين المستقيم الذي يؤديهم الى الجنة ، فلذلك سماه صراطاً كما يؤدي الطريق الى المقصد .

قوله تعالى :

« وَكَذلِكَ جعلناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونوا شُهداءَ على النّاسِ وَيكونَ الرَّسولُ عليكُمْ شَهيداً وما جَعلنا القِبلةَ الَّتي كُنتَ عَليها الاَّ لِنعلَمَ من يَتَّبِعُ الرَّسولَ مِمَّنْ ينقلبُ على عَقِبيه وانْ كانَتْ لَكبيرةً إلاَّ على الَّذينَ هدى اللهُ وَما كانَ اللهُ لِيُضيعَ ايمانَكم إنَّ اللهَ بالناس لرؤوفٌ رحيمٌ » (١٤٣) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم « لرؤوف » على وزن لرعوف . الباقون « لرؤف » على وزن (فَعُل) .

المعنى :

اخبر الله تعالى أنه جعل أمة نبيه محمد (ص) وسطاً : أي سماها بذلك وحكم لها به . والوسط : العدل . وقيل الخيار ، ومعناها واحد:وقيل : انه مأخوذ من المكان الذي تعدل المسافة منه الى اطرافه . وقيل : بل أخذ الوسط من التوسط بين المقصر والمغالي ، فالحق معه (١) . وقال مؤرج : اي وسط بين النـاس وبين انبيائهم وقال زهير :

هم وسـط يرضى الأنام بحكمهم　　اذا نزلت احدى الليالي بمعظم (٢)

وروي عن النبي (ص) انه قال : أمة وسطاً : عدلا . وهو قول مجاهد ، وقتادة ، والربيع ، وابن عباس ، واكثر المفسرين . وقال صاحب العين : الوسط من الناس وغيرهم ، ومن كل شيء أعدله ، وافضله وقيل الواسط والوسط بمعنى واحد ، كما قيل يابس ويبس بمعنى واحد . قال تعالى « في البحر يبساً » (٣) والوسط — بتسكين السين — الموضع . والوسط — بالتحريك ـ لما بين طرفي كل شيء ، ويسمى واسط الرحل بين القادمة والاخرة ، وكذلك واسطة القلادة . واصل الباب الوسط : العدل. وقولهم فلان من اوسطهم نسباً : اي تكالله الشرف من نواحيه .

الاعراب :

واللام الاولى في قوله : « لتكونوا شهداء على الناس » لام كي ، كأنه قال كي تكونوا ، واصلها لام الاضافة . واللام في قوله : « وان كانت لكبيرة » لام تأكيد ، وهي تلزم أن المخففة من الثقيلة ، لئلا تلبس بأن التي بمعنى ما ، كقوله تعالى:

(١) الضمير راجع الى الوسط اي الحق مع الوسط لأنه ليس بالمقصر ولا بالمغالي .
(٢) ديوانه ٢ : ٢٧ وروايته .

لحي حلال يعصم الناس أمرهم　　اذا طرقت احدى الليالي بمعظم

وفي تفسير الطبري وبعض المصادر الاخرى كما هو مثبت في المتن .
(٣) سورة طه : آية ٧٧ .

« إن الكافرون إلا في غرور » (١) وهي لام الابتـداء أخرت الى الخبر في باب (ان) خاصة . واما اللام الثالثة في قوله :« وما كان الله ليضيع إيمانكم »فلام الجحد، واصلها لام الاضافة ، والفعل نصب باضمار (أن) ، ولا يظهر بعدها (ان) ، لان التأويل : ما كان الله مضيعاً ايمانكم ، فلما حمل معناه على التأويل ، حمل ، لفظه ايضاً على التأويل من غير تصريح باظهار (ان) .

المعنى :

فان قيل : بأي شيء يشهدون على الناس ، قلنا فيه ثلاثة اقوال : احدها — ليشهدوا على الناس باعمالهم التي خالفوا فيها الحق في الدنيا وفي الآخرة كما قال : « وجيء بالنبيين والشهداء » (٢) وقال « يوم يقوم الاشهاد » (٣) قال ابن زيد: الاشهاد أربعة الملائكة ، والانبياء ، وامة محمد (ص) والجوارح . كما قال : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون » (٤) .

الثاني ـ يشهدون الانبياء على اممهم المكذبين بانهم بلّغوا . وجاز ذلك لاعلام النبي (ص) اياهم بذلك .

الثالث ـ « لتكونوا شهداء على الناس » أي حجة عليهم فيما يشهدون ، كما أن النبي (ص) شهيد بمعنى حجة في كلما اخبر به . والنبي (ص) وحده كذلك . فأما الامة فجماعتها حجة دون كل واحد منها . واستدل البلخي ، والجبائي ، والرماني ، وابن الاخشاد ، وكثير من الفقهاء ، وغيرهم بهذه الآية على أن الاجماع حجة من حيث ان الله وصفهم بانهم عدول ، فاذا عدلهم الله تعالى ، لم يجز أن تكون شهادتهم مردودة — وقد بينا في اصول الفقه أنه لا دلالة فيها على ان الاجماع حجة — وجملته ان الله تعالى وصفهم بانهم عدول ، وبانهم شهداء وذلك يقتضي ان يكون كل واحد عدلا ،

(١) سورة الملك : آية ٢٠ .
(٢) سورة الزمر : آية ٦٩ .
(٣) سورة المؤمن : آية ٥١ .
(٤) سورة النور : آية ٢٤ .

وشاهداً ،لان شهداء جمع شهيد ، وقد علمنا أن كل واحد من هذه الامة ليس بهـــذه الصفة ، فلم يجز أن يكون المراد ماقالوه ، على أن الأمة إن أريد بها جميع الامة ، فقد بينا ان فيها كثيراً ممن يحكم بفسقه بل بكفره ، فلا يجوز حملها على الجميع . وان خصوها بالمؤمنين العدول ، لنا أن نخصها بجماعة ، كل واحد منهم موصوف بما وصفنا به جماعتهم: وهم الائمة المعصومون من آل الرسول (ص) على أنا لو سلمنا ماقالوه من كونهم عدولا ، ينبغي أن نجنبهم ما يقدح في عدالتهم وهي الكبائر ، فأما الصغائر التي تقع مكفرة ، فلا تقدح في العدالة ، فلا ينبغي أن نمنع منها ، ومتى جوزنا عليهم الصغائر لم يمكنا أن نحتج باجماعهم ، لانه لاشيء أجمعوا عليه إلا ويجوز أن يكون صغيراً فلا يقدح في عدالتهم ، ولا يجب الاقتداء بهم فيه لكونه قبيحاً . وفي ذلك بطلان الاحتجاج باجماعهم . وكيف يجنبون الصغائر ، وحال شهادتهم ليس بأعظم من شهادة النبي (ص) ومع هذا يجوزون عليه الصغائر فهلا جاز مثل ذلك عليهم ، ولا تقدح في عدالتهم - كما لم تقدح في عدالة النبي (ص) ؟

قوله : « ويكون الرسول عليكم شهيداً » . قيل في معناه قولان :

أحدها - عليكم شهيداً بما يكون من اعمالكم . وقيل : يكون حجة عليكم .

والثاني - يكون لكم شهيداً بأنكم قد صدقتم - يوم القيامة - فيما تشهدون به . وجعلوا (على) بمعنى اللام كما قال : « وما ذبح على النصب »(١) اي للنصب . والتشبيه في قوله « وكذلك » وقع بما دل عليه الكلام في الآية التي قبلها : وهي قوله « يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » فتقديره انعمنا عليكم بالعدالة كما انعمنا عليكم بالهداية والعامل في الكاف جعلنا ، كانه قيل : « من يشأ الى صراط مستقيم » فقد انعمنا عليكم بذلك وجعلناكم أمة وسطاً فأنعمنا كذلك الانعام . إلا أن (جعلنا) يدل على انعمنا في هذا الكلام ، فلم نحتج الى حذفه معه في قوله تعالى : « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها » اي ما صرفناك عن القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم ، وحذف لدلالة

---

(١) سورة المائدة : آية ٤

الكلام عليه . وقوله « إلا لنعلم » قيل في معناه ثلاثة اقوال :

اولها « إلا لنعلم » اي لنعلم حزبنا من النبي والمؤمنين ، كما يقول الملك فعلنا وفتحنا بمعنى فعل أولياؤنا ومن ذلك قيل : فتح عمر السواد وجبا الخراج وإن لم يتولّ ذلك بنفسه .

الثاني — إلا ليحصل المعلوم موجوداً ، فقيل على هذا : إلا لنعلم ، لانه قبل وجود المعلوم لا يصح وصفه بانه عالم بوجوده .

والثالث — إلا لنعاملكم معاملة المختبر الممتحن الذي كأنه لا يعلم أن العدل يوجب ذلك ، من حيث لو عاملهم بما يعلم انه يكون منهم كان ظلماً لهم . ويظهر ذلك قول القائل لمن انكر أن تكون النار تحرق الحطب : فليحضر النار والحطب لنعلم أتحرقه أم لا ، على جهة الانصاف في الخطاب ، لا على جهة الشك في الاحراق . وهذا الوجه اختاره ابن الاخشاد ، والرماني . وكان علي بن الحسين المرتضى الموسوي يقول في مثل ذلك وجهاً مليحاً : وهو ان قال : قوله لنعلم يقتضي حقيقة ان يعلم هو وغيره ولا يحصل علمه مع علم غيره إلا بعد حصول الاتّباع ، فاما قبل حصوله فانما يكون هو تعالى العالم وحده ، فصح حينئذ ظاهر الاية ، وهذا وجه رابع ، وفيه قول خامس ـ وهو ان يعلموا انا نعلم ، لانه كان منهم من يعتقد ان الله لا يعلم الشيء حتى يكون على ان قوله : « لنعلم من يتبع الرسول » لا يدل على حدوث العلم ، لانه كان قبل ذلك عالماً بان الاتباع سيوجد ، او لا يوجد ، فان وجد كان عالماً بوجوده وان لم يتجدد له صفة . وانما يتجدد المعلوم ، لان العلم بان الشيء سيوجد علم بوجوده إذا وجد . وانما يتغير عليه الاسم ، ويجري ذلك مجرى تغير الاسم على زمان بعينه ، بان يوصف بانّه غد قبل حصوله ، فاذا حصل قيل انه اليوم ، فاذا تقضى وصف بانه أمس ، فتغير عليه الاسم والمعلوم لم يتغير .

وقوله تعالى : « ممن ينقلب على عقبيه » قيل في معناه قولان :

احدها — ان قوماً ارتدّوا عن الاسلام لما حولت القبلة جهلا منهم بما فيها من وجه الحكمة .

والآخر ان المراد به كل مقيم على كفره ، لان جهة الاستقامة إقبال ، وخلافها ادبار . لذلك وصف الكافر بانه ادبر واستكبر . وقال : « لا يصلاها إلا الاشقى ألذي كذب وتولى » (١) اي عن الحق .

اللغة :

والعقب مؤخر القدم قال ثعلب : ونرد على اعقابنا : أي نعقب بالشر بعد الخير وكذلك رجع على عقبيه . وسميت العقوبة عقوبة لانها تتلو الذنب . والعقبة كرة بعد كرة في الركوب والمشي .. والمعقبات: ملائكة الليل تعاقب ملائكة النهار . وعقب الانسان نسله . والعقاب معروف والعقب أصلب من العصاب وامتن ، يعقب به الرماح . والتعقيب : الرجوع الى امر تريده . ومنه قوله تعالى : « ولم يعقب » (٢) ومنه يقال عقب الليل النهار يعقبه . واعقب الرأي خيراً، واعقب عزه ذلاً أي ابدل به . والعقبة طريق في الجبل . وعرو العقاب : الراية لشبهها بعقاب الطائر . واليعقوب ذكر القبج تشبه به الخيل فى السرعة . لا معقب لحكمه أي لا رادّ لقضائه . والمعقب : الذي يتبع الانسان في طلب حق . واصل الباب التلو .

المعنى :

والضمير في قوله « وان كانت لكبيرة » يحتمل رجوعه الى ثلاثة أشياء : القبلة على قول ابن عامر . والتحويلة على قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة . وهو الاقوى ، لان القوم ثقل عليهم التحويل لا نفس القبلة . وعلى قول ابن زيد الصلاة وقوله : « لكبيرة » قال الحسن : معناه ثقيلة يعني التحويلة الى بيت المقدس ، لان العرب لم تكن قبلة أحب اليهم من الكعبة . وقيل معناه عظيمة على من لم يعرف ما فيها من وجوه الحكمة . فاما الذين هدى الله ، لان المعرفة بما فيها من المصلحة تسهل المشقة فيصير بمنزلة مالا يعتد بها ولذلك حسن الاستثناء بما يخرجهم منها .

---

(١) سورة الليل : آية ١٥ – ١٦ (٢) سورة النمل آية ١٠ وسورة القصص آية ٣١

وقوله : « وما كان الله ليضيع ايمانكم » قيل في معناه اقوال :

اولها ـ قال ابن عباس وقتادة والربيع : لما حولت القبلة قال ناس: كيف باعمالنا التي كنا نعمل في قبلتنا الاولى . وقيل: كيف من مات من اخواننا قبل ذلك ، فأنزل الله ﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم ﴾ .

الثاني ـ معناه قال الحسن : وانه لما ذكر ما عليهم من المشقة في التحويلة اتبعه بذكر مالهم عنده من المثوبة وانه لا يضيع ما عملوه من الكلفة فيه . لان التذكير به يبعث على ملازمه الحق والرضا به .

الثالث — قال البلخي : انه لما ذكر انعامه عليهم بالتولية الى الكعبة ذكر سبب ذلك الذي استحقوه به وهو ايمانهم بما عملوه اولا فقال : « وما كان الله ليضيع ايمانكم » الذي استحققتم به تبليغ محبتكم في التوجه الى الكعبة .

اللغة :

والاضاعة مصدر اضاع يضيع . وضاع الشيء يضيع ضياعة ، وضعه تضييعاً . قال صاحب العين : ضيعة الرجل حرفته . يقال : ما ضيعتك اي ما حرفتك ، هذا في الضياع وضاع عمل فلان ضيعة ، وضياعاً . وتركهم بضيعة ومضيعة . والضيعه والضياع معروف واصل الضياع الهلاك .

وقوله : ﴿ ان الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ ان قيل: ما الذي اقتضى ذكر هذه الصفة ، قلنا الرؤوف بعباده الرحيم بهم لا يضيع عنده عمل عامل منهم . فدل بالرأفة والرحمة على التوفير عليهم فيما استحقوه دون التضييع لشيء منه . وانما قدمت الرأفة على الرحمة ، لان الرأفة أشد مبالغة من الرحمة ليجري على طريقة التقديم ـ بما هو اعرف ـ مجرى اسماء الاعلام ثم إتباعه بما هو دون منه ليكون مجموع ذلك تعريفاً أبلغ منه ، لو انفرد كل واحد عن الآخر كما هو في الرحمن الرحيم فرؤف على وزن فعول ، لغة اهل الحجاز . على وزن فعل ، لغة غيرهم قال الانصاري (١) :

---

(١) هو كعب بن مالك الانصاري .

نطيع نبينـــا لنطيع ربـاً هو الرحمن كان بنا رؤفا (١)

وقال جرير : يعني منعمين حقا، كفعل الوالد الرؤوف الرحيم. والرأفة : الرحمة تقول رأف يرأف رأفة .

المعنى :

واستـدل من قال الصلاة : الايمان بهذه الآيـــة ، فقالوا : سمى الله الصلوة ايمانا ـ على تاويل ابن عباس، وقتادة، والسدي والربيع وداود بن ابي عاصم وابن زيد وسعيد بن المنذر وعمرو بن عبيد وواصل وجميع المعتزلة . ومن خالفهم من المرجئـــة لا يسلم هذا التأويل ويقول : الايمان على ظاهره وهو التصديق ولا ينزل ذلك بقول من ليس قوله حجة ، لانهم ليسوا جميع المفسرين بل بعضهم ولا يـكون ذلك حجة. واستدل الجبائي بهذه الآية على ان الشاهد هو الحاضر دون من مات ، بان قال : لو كان الرسول شاهداً على من مضى قبله أو من يأتي بعده ومن هو حاضر معه لم يـكن لقوله ﴿ ويـكون الرسول عليـكم شهيدا ﴾ معنى . ويؤكد ذلك قوله ﴿ وكنتُ عليهم شهيدا ما دمتُ فيهم ﴾ (٢) وقال غيره : قد يجوز ان يشهد العالم بما علم وان لم يحضره ـ وهو الاقوى ـ وهذه الآية فيها دلالة على جواز النسخ في الشريعة بل على وقوعه، لانه قال ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها ﴾ فاخبر ان الجاعل لتلك القبلة كان هو تعالى، وانه هو الذي نقله عنها وذلك هو النسخ ، فان قيل: كيف أضاف الايمان الى الاحياء وهم كانوا قالوا : كيف بمن مضى من اخواننا قلنا يجوز ذلك على التغليب ، لان من عادتهم ان يغلبوا المخاطب على الغائب كما يغلبون المذكر على المؤنث تنبيهاً على الاكمل، فيقولون : فعلنا بكما وبلغناكما ، وان كان احدهما حاضراً والاخر غائباً ، فان قيـــل كيف جاز على اصحاب النبي صلى الله وآله الشك فيمن مضى من اخوانهم فلم يدروا انهم كانوا على حق في صلاتهم الى بيت المقدس ؟ قيل في ذلك : كيف اخواننا لو ادركوا الفضل بالتوجه ،وانهم أحبوا لهم ما احبوا لانفسهم . ويكون قال ذلك منافق بما فيه الرد على المخالفين المنافقين .

---

(١) اللسان « رأف » وروايته « ونطيعه » بدل « لنطيع » في المطبوعة « رؤف » بدل « رؤوفا » . (٢) سورة المائدة : آية ١٢٠ .

قوله تعالى :

« قَد نَرى تَقلُّبَ وَجهِكَ في السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبلَةً تَرضاها فَوَلِّ وَجهَكَ شَطرَ المَسجِدِ الحَرامِ وَحَيثُ ما كُنتُم فَوَلّوا وُجوهَكُم شَطرَهُ وإنَّ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ لَيَعلَمونَ أنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّهِم وما اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعمَلونَ » (١٤٤) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وابو جعفر ، وروح « عما تعملون » بالتاء . الباقون بالياء .

النزول :

وقال قوم ان هذه الآية نزلت قبل التي تقدمتها : وهي قوله : ﴿ سيقول السفهاء ﴾

المعنى :

إن قيل لم قلب النبي (ص) وجهه في السماء ، قلنا عنه جوابان :

احدهما — انه كان وعد بالتحويل عن بيت المقدس ، وكان يفعل ذلك انتظاراً وتوقعاً لما وعد به .

والثاني — انه كان يحبه محبة الطباع ، ولم يكن يدعو به حتى ادركه فيه ، لان الانبياء لا يدعون إلا بما أذن لهم فيه لئلا تكون المصلحة في خلاف ما سألوه فيكون في ردهم تنفرّ عن قبول قولهم . وهذا الجواب يروى عن ابن عباس ، وقتادة . وقيل في سبب محبة التوجه الى الكعبة ثلاثة اقوال :

أولها ـ قال مجاهد : انه أحب ذلك ، لانها كانت قبلة ابراهيم ـ حكاه الزجاج ـ انها احب ذلك استدعاء العرب الى الايمان .

اللغة :

وقوله : ﴿ قد نرى ﴾ فالرؤية هي ادراك الشيء من الوجه الذي يتبين بالبصر. وقوله : ﴿ تقلب وجهك ﴾ التقلب والتحول والتصرف نظائر : وهو التحرك في الجهات وقوله : ﴿ ترضاها ﴾ تحبها . والرضاء ضد السخط : وهو ارادة الثواب . والسخط ارادة الانتقام . وقوله : ﴿ شطر المسجد ﴾ اي نحوه ، وتلقاه بلا خلاف بين اهل اللغة . وعليه المفسرون كابن عباس ، ومجاهد ، وابي العاليـــة ، وقتادة ، والربيع ، وابن زيد ، وغيرهم . قال الشاعر :

وقد اظلـــكم من شطر ثغركم   هول له ظلم يغشـــاكم قطعا

اي من نحو ثغركم وانشد ابن عبيدة الهذلي (١) :

ان العسير بهـــا داء مخامرها   فشطرها نظر العينين محسور (٢)

وقال ابن احمر (٣) :

تعـــدو بنا شطر جمع وهي عاقدة   قد كارب العقد من ايفادها الحقبا (٤)

وقال الجبائي : اراد بالشطر النصف ، كأنه قال : وجهك نصف المسجد ، لان شطر الشيء : نصفه ، فأمره ان يولي وجهه نحو نصف المسجد حتى يكون مقابل الكعبة . وهذا فاسد ، لانه خلاف أقوال المفسرين ، ولان اللفظ اذا كان مشتركاً بين النصف ، وبين النحو ينبغي ألا يحمل على احدها إلا بدليل . وعلى ما قلناه اجماع المفسرين ، قال الزجاج : يقال : هؤلاء القوم شاطرونا دورهم ، تتصل بدورنا كما

---

(١) هو قيس بن العيزارة الهذلي . والعيزارة أمه واسمه قيس بن خويلد بن كاهل .

(٢) ديوانه : ٣٦١ والكامل لابن الاثير ١ : ١٢ ، ٢ : ٣ واللسان « شطر » في المطبوعة « العشير » بدل « العسير » و « تخامرها » بدل « مخامرها » و « مشورا » بدل « محسور »

(٣) في المطبوعة « الراحم » وهو تحريف .

(٤) سيرة ابن هشام ٢ ١١٩ ، والروض الانف ٢ : ٣٨ والخزانة ٣ : ٣٨ ، ومجاز القرآن لابي عبيدة : ٦٠ في المطبوعة « كادت العقد من العادها » بدل « كارب العقد من ايفادها » وهو تحريف فاحش وقوله : جمع هي اسم مكان ، ويسمى المزدلفة عاقدة قد عكف ذنبها بين فخذيها . كارب : اوشك ، وكاد ، وقارب ، ودنا . اوفدت الناقة : اسرعت . الحقب : الحزام .

يقال هؤلاء ينـــاحوننا أي نحن نحوهم وهم نحونا . وقال صاحب العين شطر كل شيء نصفه وشطره : قصده ونحوه ، ومنه المثل احلب حلباً لك شطره اي نصفه . وشطرت الشيء جعلته نصفين ، وقد شطرت الشاة شطاراً : وهو ان يكون احد طبيها اكثر من الآخر وان حلبا جميعاً ، ومنزل شطر : اي بعيد ، وشطر فلان على اهله : اي تركهم مراغماً أو مخالفاً . ورجل شاطر . وقد شطر شطورة ، وشطوراً وشطارة : وهو اعيا اهله خبثاً .وأصل الشطر النصف .

المعنى :

وقال السدي المعني بقوله ﴿ وان الذين أوتوا الكتاب ﴾ هم اليهود . وقال غيره: هم احبار اليهود، وعلماء النصارى غير انهم جماعة قليـــلة يجوز على مثلهم اظهار خلاف ما يبطنون ، لان الجمع الكثير لا يتأتى ذلك منهم لما يرجع الى العادة ، وانه لم يجز بذلك مع اختلاف الدواعي ، وانما يجوز العناد على النفر القليل وقد مضى فيما تقدم نظير ذلك ، وان على ما نذهب اليه في الموافاة لا يمكن أن يكونوا عارفين بذلك إلا أن يكون نظيرهم لا يوجه وجوب المعرفة ، فاذا حصلت المعرفة عند ذلك فلا يستحقون عليه الثواب لان النبي (ص) يمنع منه ان يكونوا مستحقين للثواب الدائم ويكفرون فيستحقون العقاب الدائم والأحبـــاط باطل ، فيؤدي ذلك الى اجتماع الاستحقاقين الدائمين وذلك خلاف الاجماع .

وهذه الآية ناسخة لفرض التوجه الى بيت المقدس قبل ذلك . وروي عن ابن عباس انه قال : اول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا شأن القبـــلة . وقال قتادة : نسخت هذه الآية ما قبلها . وقال جعفر بن مبشر هذا مما نسخ من السنة بالقرآن ـ وهذا هو الاقوى ـ ، لانه ليس في القرآن مما يدل على تعبده بالتوجه الى بيت المقدس . ومن قال : انها نسخت قوله تعالى : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ قلنا له هذه ليست منسوخة بل هي مختصة بالنوافل — في حال السفر — فأما من قال : يجب على الناس ان يتوجهوا الى الميزاب الذي على الكعبة ويقصدوه ، فقوله باطل ، لانه خلاف

ظاهر القرآن . قال ابن عباس : البيت كله قبلة — وهو قول جميع المفسرين . وروى بعض إصحاب الحديث : ان البيت هو القبلة وان قبلته بابه . وهذا يجوز . قال فاما ان يجب على جميع الخلق التوجه اليه، فهوخلاف الاجماع .

وقوله : ﴿ حيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ روي عن ابي جعفر وابي عبد الله (ع) ان ذلك في الفرض ، وقوله : ﴿ فأينما تولوا فثم وجـــه الله ﴾ في النافلة .

وروى عن ابن عباس وابي جعفر محمد بن علي: انه لما حول الى الكعبة اتى رجل من عبد الاشهل من الانصار وهم قيـــام يصلون الظهر وقد صلوا ركعتين نحو بيت المقدس، فقال: ان الله قد صرف رسوله نحو البيت الحرام، فصرفوا وجوههم نحو البيت الحرام في بقية صلاتهم .

الاعراب :

وقوله : ﴿ وحيثما كنتم ﴾ موضع كنتم جزم بالشرط ، وتقديره وحيث ماتكونوا، والفاء جواب ولولا (ما)لم يجز الجزاء (بحيث)لخروجها عن نظائرها ، بانه لا يستفهم بها ، ولان الاضافة لها كالصلة لغيرها،وليست بصلة كصلة اخواتها . والهاء في قوله تعالى : ﴿ وانه للحق ﴾ على قول الجبائي يعود الى التحويل . وقال الحسن : هي عائدة الى التوجه الى الكعبة ، لانها قبلة ابراهيم ، والانبياء قبله .

اللغة :

و « الحق » وضع الشيء في موضعه اذا لم يكن فيه وجه من وجوه القبح . والغفلة : هي السهو عن بعض الاشياء خاصة واذا كان السهو عاماً فهو فوق الغفلة وهو السهو العام ، لان النائم لا يقال : انه غفل عن الشيء الا مجاز .

المعنى :

وقال عطا في قوله تعالى : ﴿ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ قال : الحرم

كله مسجد . وهذا مثل قول أصحابنا أن الحرم قبلة من كان نائيا عن الحرم من أهل الآفاق . واختلف الناس في صلاة النبي (ص) الى بيت المقدس فقال قوم : كان يصلي بمكة الى الكعبة ، فلما صار بالمدينة أمر بالتوجه الى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ثم أعيد الى الكعبة . وقال قوم : كان يصلي بمكة الى بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينها ولا يصلي في غير المكان الذي يمكن هذا فيه . وقال قوم : بل كان يصلي بمكة،وبعد قدومه المدينة سبعة عشر شهراً الى بيت المقدس،ولم يكن عليه ان يجعل الكعبة بينه وبينها ، ثم أمره الله بالتوجه الى الكعبة . ومن صلى الى غير القبلة لشبهة دخلت عليه ، ثم تبينه،فان كان الوقت باقياً أعاد الصلاة . وان خرج الوقت ، فان كان صلى يميناً وشمالا،فلا إعادة عليه ، وإن صلى الى استدبارها أعاد . وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف .

قوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(١٤٥) آية بلا خلاف .

الاعراب :

اختلف النحويون في أن جواب ـ لئن ـ لم كان جواب (لو) فقال الاخفش،ومن تبعه اجيبت بجواب ـ لو ، لان الماضي وليها كما يلي لو فاجيبت بجواب (لو) ودخلت كل واحدة منها على صاحبتها قال الله تعالى : ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون ﴾ (١) فجرى مجرى ولو ارسلنا وقال ﴿ ولو انهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله ﴾ (٢) على جواب لئن . وقال سيبويه وجميع اصحابه : ان معنى ﴿ لظلوا

---

(١) سورة الروم آية ٥١ (٢) سورة البقرة آية ١٠٣

من بعده يكفرون ﴾ ليظلن ومعنى (لئن) غير معنى (لو)في قول الجماعة.وإن قالوا إن الجواب متفق لانهم لا يدفعون أن معنى (لئن)ما يستقبل ومعنى (لو) : ما مضى وحقيقة معنى (لو) أنها يمتنع بها الشيء لامتناع غيره . كقولك لوأتيتني لأكرمتك أي لم تأتني فلم اكرمك ، فامتنع الاكرام ، لامتناع الاتيان . ومعنى (إن) (ولئن) انما يقع بها الشيء لوقوع غيره تقول : إن تأتني أكرمك ، فالاكرام يقع بوقوع الاتيان وقال بعضهم : إن كل واحدة منها على موضعها ، وانما لحق في الجواب هذا التداخل ،لدلالة اللام على معني القسم،فجاء الجواب بجواب القسم،فاغني عن جواب الجزاء لدلالته عليه ، لان معني لظلوا ليظلن وهذا هو معنى قول سيبويه . ويجوز أن تقول : إن أتيتني لم أجفك ،ولا يجوز أن تقول: إن اتيتني ماجفوتك ، لان (ما) منفصلة (ولم)كجزء من الفعل . ألا ترى أنه يجوز ان تقول : زيداً لم أضرب ، ولا يجوز زيداً ما ضربت . وانما يجاب الجزاء بالفعل أو الفاء ، فاذا تقدم لام القسم جاز ، فقلت لئن أتيتني ما جفوتك .

المعنى :

فان قيل: كيف قال﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ وقد آمن منهم خلق ؟ قلنا عن ذلك جوابان :

احدها ـ قال الحسن : إن المعنى أن جميعهم لا يؤمن، وهو اختيار الجبائي .

والثاني ـ أن ذلك مخصوص لمن كان معانداً من أهل الكتاب دون جميعهم الذين وصفهم الله ، فقال« يعرفونه كما يعرفون ابناءهم»اختاره البلخي والزجاج.وهذه الآية دالة على فساد قول من قال:لا يكون الوعيد بشرط ، وعلى فساد قول من قال بالموافاة ، وإن من علم الله أنه يؤمن لا يستحق العقاب أصلا ، لأن الله تعالى علق الوعيد بشرط يوجب أن يكون متى تحصل الشرط تحصل استحقاق العقاب ، وفيها دليل على فساد قول من قال : إن الوعيد لا يقع لمن علم أنه لا يعصي ، لأن الله تعالى علم من حال الرسول أنه لا يتبع اهواءهم ومع هذا يوعده إن اتبع أهواءهم . وفي الآية دلالة على

بطلان قول من قال : إن في المقدور لطفاً، لوفعل الله بالـكافر لآمن لامحالة ، من قبل أنه قيل في قوله ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الـكتاب بكل آية مـا تبعوا قبلتك ﴾ قولان :

أحدهما ـ أن المعاند لاينفعه الدلالة لأنه عارف والآخر أنه لا لطف لهم فتلتمسه ليؤمنوا ،وعلى القولين فيه دلالة على فساد قول أصحاب اللطف ، لان مخرجه مخرج التنصل من التخليف عنهم ما يؤمنون عنده طوعاً،فلو قال قائل:وما في أن الآية لا ينفعهم في الايمان لطف ينفعهم فيه لـكان لا يسقط سؤاله إلا بأن يقال : لا لطف لهم كما لا آية تنفعهم وقوله : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال :

احدها ـ ﴿ لئن اتبعت أهواءهم ﴾في المداراة لهم حرصاً على أن يؤمنوا ﴿ إنك إذا لمن الظالمين ﴾ لنفسك مع اعلامنا إياك : ﴿ انهم لا يؤمنون ﴾ . هذا قول ابي علي الجبائي .

الثاني ـ الدلالة على أن الوعيد يجب باتباع أهوائهم فيما دعوا اليه من قبلتهم ، وأنه لا ينفع معذلك عمل سلف ، لأنه ارتداد . والخطاب للنبي (ص) والمراد به كل من كان بتلك الصفة . كما قال : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ (١) وهذا قول الحسن ، والزجاج .

الثالث ـ ان معناه الدلالة على فساد مذاهبهم ،وتبكيتهم بها . كما تقول : لئن قيل عنك أنه لخاسر تريد به التبكيت على فساد رأيه ، والتبعيد من قبوله .

وقوله : ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ قيل في معناه أربعة اقوال :

اولها ـ أنه لما قال : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الـكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ على وجه المقابلة كما تقول : ما هم بتاركي انكار الحق وما أنت بتارك الاعتراف به ، فيكون الذي جرّ الكلام التقابل للكلام الاول ، وذلك حسن من كلام البلغاء .

---

(١) سورة الزمر : آية ٦٥ .

الثاني - أن يكون المراد أنه ليس يمكنك استصلاحهم باتباع قبلتهم لاختلاف وجهتهم ، لان النصارى يتوجهون الى المشرق ، واليهود الى بيت المقدس ، فبين الله تعالى : أن رضا الفريقين محال .

الثالث - أن يكون المراد حسم طمع أهل الكتاب من اليهود إذ كانوا طمعوا في ذلك وظنوا انه يرجع الى الصلاة الى بيت المقدس ، وما جوا في ذكره .

الرابع - انه لما كان النسخ مجوزاً قبل نزول هذه الآية ، فأنزل الله تعالى الآية ، ليرتفع ذلك التجوز .

وقوله : ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ قيل في معناه قولان :

أحدها - قال الحسن ، والسدي ، وابن زيد ، والجبائي: أنه لا يصير النصارى كلهم يهوداً ، ولا اليهود كلهم يصيرون نصارى أبداً ، كما لا يتبع جميعهم الاسلام . وهذا من الاخبار بالغيب .

وقال غيرهم : معناه إسقاط الاعتلال بأنه مخالفة لأهل الكتاب الذين ورثوا ذلك من أنبياء الله بامره إياهم به ، فكما جاز أن يخالف بين وجهتهم للاستصلاح جاز ان يخالف بوجهة ثالثة للاستصلاح في بعض الازمان .

وقد بينا حد الظلم فيما تقدم ، واعترضنا قول من قال : هو الضرر والقبيح الذي يستحق به الذم من حيث أن ذلك ينقض بفعل الساهي ، والنائم ، والطفل ، والمجنون — اذا كان بصفة الظلم — فانه يكون قبيحاً وان لم يستحقوا به ذماً . ومن خالف في ذلك كان الكلام عليه في موضع آخر . على ان المخالف في ذلك ناقض ، فانه قال : ان الكذب يقع من الصبي ويكون قبيحاً . وهذا اذا جاز . هلا جاز ان يقع منه الظلم ؟ فان قال : لان العقل للانسان البالغ ، يزجر الصبي عن ذلك بالتاديب . قلنا مثل ذلك في الظلم سواء .

قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ

فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٤٦) آية بلا خلاف

المعنى :

أخبر الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم يعرفون النبي (ص) كما يعرفون أبناءهم، وأن جماعــة منهم يكتمون الحق مع علمهم بأنه حق . وقيل في الحق الذي كتموه قولان :

احدها ـ قال مجاهد : كتموا محمداً (ص) ونبوته ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل .

والثاني ـ قال الربيع : انهم كتموا أمر القبلة . وقوله ﴿ وهم يعلمون ﴾ يحتمل امرين :

احدها ـ يعلمون صحة ما كتموه . والثاني ـ يعلمون ما لمن دفع الحق من العقاب والذم .

و (الهاء) في قوله :﴿يعرفونه ﴾عائدة ـ في قول ابن عباس ، وقتادة ، والربيع ـ على أن أمر القبـــلة حق . وقال الزجاج هي عائدة على أنهم يعرفون النبي (ص) وصحة أمره ، وثبوت نبوته ، وانما قال : ﴿ وان فريقاً منهم ليكتمون الحق ﴾ وفي أول الآية قال : ﴿ يعرفونه ﴾ على العموم ، لان أهل الكتاب منهم من أسلم وأقر بما يعرف فلم يدخل في جملة الكاتمين . كعبد الله بن سلام ، وكعب الاحبار ، وغيرهما ممن دخل في الاسلام .

والعلم والمعرفة واحد . وحده ما اقتضى سكون النفس . وإن فصلت ، قلت : هو الاعتقاد للشيء على ما هو به مع سكون النفس . وفصل الرماني بين العلم والمعرفة ، بأن قال : المعرفة هي التي يتبين بها الشيء من غيره على جهة التفصيل . والعلم قد يتميز به الشيء على طريق الجملة دون التفصيل كعلمك بان زيداً في جملة العشرة . وإن لم تعرفه بعينه وإن فصلت بين الجملة التي هو فيها ، والجملة التي ليس هو فيها . وهذا غير صحيح

لان المعرفة أيضاً قد يتميز بها الشيء على طريق الجملة ، فلا فرق بينها . فان قيل لم قال: « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » إنهم ابناءهم في الحقيقة ، ويعرفون أن محمداً (ص) هو النبي المبشر به في الحقيقة ؟ قلنا التشبيه وقع بين المعرفة بالأبن في الحكم : وهي معرفة تميزه بها من غيره ، وبين المعرفة بالنبي المبشر به في الحقيقة ، فوقع التشبيه بين معرفتين . إحداهما أظهر من الاخرى .

قوله تعالى :

﴿الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٤٧)

آية بلا خلاف .

الاعراب :

« الحق » مرتفع بأنه خبر ابتداء محذوف وتقدير ذاك الحق من ربك أو هو الحق من ربك . ومثله مررت برجل كريم زيد : اي هو زيد ، ولو نصب كان جائزاً في العربية على تقدير إعلم الحق من ربك .

المعنى :

وقوله : « فلا تكونن من الممترين » معناه من الشاكين ذهب اليه ابن زيد ، والربيع ،وغيرهما من المفسرين . والامتراء الاستخراج . وقيل : الاستدرار . فكأنه قال : فلا تكن من الشاكين فيما يلزمك استخراج الحق فيه . قال الاعشى :

تدرّ على اسؤق الممتريـ　　ن ركضاً إذا ما السراب ارجحن (١)

يعني الشاكين في درورها ، لطول سيرها . وقيل : المستخرجين ما عندها . قال صاحب العين : المري مسحك ضرع الناقة . تمر بهـا بيدك لكي تسكن ، للحلب ، والريح تمري السحاب مرياً . والمرية من ذلك . والمرية الشك . ومنه الامتراء ،

(١) ديوانه : ٢٣ رقم القصيدة : ٢ ، واللسان « رجحن » تدر - بضم الدال وتشديد الراء - تجري بسرعة . الممترين : الذين يغمزون خيلهم بساقهم . ارجحن السراب : ارتفع في المطبوعة « وكفاً » بدل « ركضاً » و « السحاب » بدل « السراب » .

والتماري ، والمماراة ، والمراء . وأصل الباب الاستدرار . ويقال : بالشكر تمترى النعم اي تستدر . وقال الحسن ، والربيع ، والجبائي : معنى الآية « فلا تكونن من الممترين » في الحق الذي تقدم اخبار الله به من أمر القبلة ، وعناد من كتم النبوة وامتناعهم من الاجماع على ما قامت به الحجة . وقال بعضهم : « لا تكونن من الممترين » في شيء يلزمك العلم به . وهو الاولى ، لانه أعم ، والخطاب وان كان متوجهاً الى النبي (ص) فالمراد به الامة كما قال تعالى : « يا أيها النبي إذا طلقتم » (١) وقال : (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) (٢) . وقال قوم : إن الخطاب له ، لأنه إنما لا يجوز عليه ذلك لملازمته أمر الله . ولو لم يكن هناك أمر لم يصح أن يلازم . والنون الثقيلة يؤكد بها الامر والنهي ، ولا يؤكد بها الخبر، لما كان الخبر يدل على كون المخبر به ، وليس كذلك الأمر والنهي ، والاستخبار ، لأنه لا يدل على كون المدلول عليه ، فألزم الخبر التأكيد بالقسم وما يتبعه من جوابه ، واختصت هذه الاشياء بنون التأكيد ليدل على اختلاف المعنى في المؤكد . ولما كان الخبر أصل الجمل أكد بأبلغ التأكيد وهو القسم .

قوله تعالى :

﴿ وَلِكُلٍّ وُجْهَةٌ هو مَوَلِّيها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأتِ بِكُمْ اللهُ جميعاً إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ . (١٤٨)

آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابن عامر وابو بكر عن عاصم (مولاّها) . وروي ذلك عن ابن عباس ومحمد بن علي ، فجعلا الفعل واقعاً عليه . والمعنى واحد ، كذا قال الفراء .

---

(١) سورة الطلاق : آية ١ (٢) سورة الاحزاب آية : ١ .

المعنى :

وفي قوله : « ولكل وجهة هو موليها » أقوال :

أحدها ـ قال مجاهد ، والربيع ، وابن زيد ، وابن عباس ، والسدي : أن لكل أهل ملة من اليهود والنصارى .

الثاني ـ قال الحسن : إن لكل نبي وجهة واحدة : وهي الاسلام وان اختلف الاحكام كما قال : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » اي في شرائع الانبياء .

الثالث ـ قال قتادة : هو صلاتهم الى بيت المقدس ، وصلاتهم الى الكعبة .

الرابع ـ ان لكل قوم من المسلمين وجهة، من كان منهم وراء الكعبة وقد امها أو عن يمينها أو عن شمالها ، وهو الذي اختاره الجبائي . والوجهة قيل فيه قولان :

احدها ـ انه قبلة . ذهب اليه مجاهد ، وابن زيد . الثاني قال الحسن : هو ما شرعه الله لهم من اسلام .

وفي (جهة) ثلاث لغات : وجهة ، وجهة ، ووجه . وإنما أتم لانه اسم لم يجيء على الفعل . ومن قال : جهة . قال المبرد : جاء به على قولهم وجهني ، ووجهته . ومعنى « موليها » مستقبلها ـ في قول مجاهد وغيره . كأنه قال : مول إليها ، لان ولى اليه نقيض ولى عنه . كقولك : انصرف اليه ، وانصرف عنه . وقوله « هو » عائد ـ على قول اكثر المفسرين ـ الى كل . وقال قوم يعود على اسم الله حكاها الزجاج . و « الخيرات » هي الطاعات لله ـ على قول ابن زيد وغيره ـ وقوله : « يأت بكم الله جميعاً » يعني يوم القيامة ـ من حيث ما متم من بلاد الله ـ وهو قول السدي ، والربيع وقد روي « ولكل وجهة » مضاف غير منون ـ وذلك لا يجوز ، لانه يكون الكلام ناقصاً ، لا معنى له ولا فائدة فيه . وقوله : « استبقوا » يحتمل معنيين :

احدها ـ بادروا الى ما أمرتم به مبادرة من يطلب السبق اليه .

الثاني ـ قال الربيع : سارعوا الى الخيرات . وهو الاولى ، لانه أعم .

اللغة :

والاستباق ، والابتدار ، والاسراع نظائر . قال صاحب العين : السبق: القدمة في الجري وفي كل أمر . تقول : له في هذا الامر سبقة ، وسابقة وسبق : أي سبق الناس اليه . والسبق الخطر الذي يوضع بين اهل السباق ، وجمعه اسباق . والسبافان في رجل الطائر الجارح قيداه من خيط أو سير . واصل الباب السبق : التقدم في الامر .

قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ « ١٤٩ » آية بلا خلاف .

قيل في تكرار قوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » قولان : .

احدهما ـ أنه لما كان فرضاً، نسخ ما قبله، كان من مواضع التأكيد لينصرف الى الحال الثانية بعد الحال الاولى على يقين .

والثاني ـ أنه مقدم لما يأتي بعده ويتصل به ، فاشبه الاسم الذي تكرره لتخبر عنه باخبار كثيرة كقولك : زيد كريم ، وزيد عالم ، وزيد حليم ، وما اشبه ذلك مما تذكره لتعلق الفائدة به وإن كانت في نفسها معلومة عند السامع ، ومعنى قوله « وإنه للحق » الدلالة على وجوب المحافظة ـ من حيث كان حقاً لله فيه طاعة ـ ، ومعنى قوله « وما الله بغافل عما تعملون » ها هنا التهديد كما يقول الملك لعبيده ليس يخفى علي ما أنتم فيه ، ومثله قوله : « إن ربك لبالمرصاد » (١) . والوجه الجارحة المخصوصة وقد حده الرماني بانه صفيحة فيها محاسن تعرف بها الجملة ، وحيث مبنية على الضم ، لانها كالغاية تمامها الاضافة الى المفرد ، دون الجملة ، لها بمنزلة الصلة ، فجرت لذلك مجرى قوله « من قبل ومن بعد » . (٢)

---

(١) سورة الفجر آية : ١٤ (٢) سورة الروم آية : ٥ .

قوله تعالى :

﴿ ومِنْ حيثُ خَرجتَ فَولِّ وَجهكَ شَطر المسجد الحرام وحيثُ ما كنتم فولّوا وُجوهَكمْ شطره لِئلاّ يَكونَ للنَّاسِ عَليكمْ حجةٌ إلاّ الّذينَ ظلموا منهم فلا تخشَوهمْ واخشوني ولأُتمَّ نِعمتي عليكمْ ولعلَّكم تهتدونَ ﴾ « ١٥٠ » آية بلا خلاف .

المعنى :

قيل في تكرار قوله : « ومن حيث خرجت » ثلاثة اقوال :

احدها ـ لاختلاف المعنى وإن اتفق اللفظ ، لأن المراد بالاول : من حيث خرجت منصرفاً عن التوجه الى بيت المقدس . « فول وجهك شطر المسجد الحرام » وأريد بالثاني أين كنت في البلاد ، فتوجه نحو المسجد الحرام مستقبلا كنت لظهر الكعبة أو وجهها أو يمينها او شمالها .

الثاني ـ لاختلاف المواطن التي تحتاج الى هذا المعنى فيها .

الثالث ـ لانه مواضع التأكيد بالنسخ الذي نقلوا فيه من جهة الى جهة للتقرير والتثبيت . فان قيل هل في قوله تعالى : « وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » حذف منه (في الصلاة) أم هو مدلول عليه من غير حذف ؟ قيل : هو محذوف ، لأنه اجتزء بدلالة الحال عن دلالة الكلام ، ولو لم يكن هناك حال دالة لم يكن بدّ من ذكر هذا المحذوف إذا أريد به الافهام لهذا المعنى فأما قوله : عليم وحكيم . فانه يدل على المعلوم من غير حذف .

ومعنى قوله : « لئلا يكون للناس عليكم حجة » ها هنا . قيل فيه قولان :

احدها ـ لا تعدلوا عما أمركم الله في التوجه الى الكعبة ، فيكون لهم عليكم حجة ، بأن يقولوا لو كنتم تعلمون أنه من عند الله ما عدلتم عنه .

الثاني — لئلا يكون لأهل الكتاب عليكم حجة لو جاء على خلاف ما تقدمت به البشارة في الكتب السالفة من أن المؤمنين سيوجهون الى الكعبة .

وموضع اللام من « لئلا » نصب والعامل فيه احد شيئين : فولوا . والآخر ما دخل الكلام من معنى عرّفتكم ذلك . وهو قول الزجاج .

وقوله : « إلا الذين ظلموا منهم » قيل فيه اربعة اقوال :

احدها — أنه استثناء منقطع ، و « إلا » بمنزلة (لكن) كقوله ﴿ ماهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ (١) وقوله : ماله عليّ إلا التعدي ، والظلم ، كأنك قلت: لكن يتعدى ويظلم ، وتضع ذلك موضع الحق اللازم ، فكذلك لكن الذين ظلموا منهم ، فانهم يتعلقون بالشبهة ، ويضعونها موضع الحجة . فلذلك حسن الاستثناء المنقطع قال النابغة :

لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب (٢)

جعل ذلك عيبهم على طريق البلاغة ، وان كان ليس بعيب . كأنه يقول : ان كان فيهم عيب فهذا ، وليس هذا بعيب ، فاذاً ليس فيهم عيب ، فكذا إن كان على المؤمنين حجة، فللظالم في احتجاجه ، ولا حجة له ،فليس اذاً عليهم حجة .

القول الثاني — ان تكون الحجة بمعنى المحاجّة، والمجادلة ، كأنه قال : لئلا يكون للناس عليكم حجاج إلا الذين ظلموا منهم ، فانهم يحاجوكم بالباطل .

الثالث — ما قاله ابو عبيدة ان (إلا) ها هنا بمعنى الواو كأنه قال : لئلا يكون للناس عليكم حجة والذين ظلموا منهم . وان ذكر ذلك الفراء والمبرد قال الفراء : لا يجيء إلا بمعنى الواو إلاّ اذا تقدم استثناء كما قال الشاعر :

ما بالمدينة دار غير واحدة دار الخليفة إلا دار مروان

---

(١) سورة النساء آية : ١٥٦ .

(٢) اللسان « فلل » (وقرع). فلول السيف . كسر من حده . القرع : الضرب الشديد الكتائب جمع كتيبة وهي فرقة من الجيش المصفح .

وانشد الاخفش :

وأرى لها داراً بأغدرة السيـ ـدان لم يدرس لهـا رسم
إلا رماداً هـامداً دفعت عنه الرياح خوالد سُحم(١)

يعني أرى لها داراً ورماداً . وكأنه قال في البيت الاول: ما بالمدينة دار إلا دار الخليفة ودار مروان . وخالفه ابو العباس فلم يجز ان تكون (إلا) بمعنى الواو أصلا .

الرابع — قال قطرب : يجوز الاضمار على معنى لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا على الذين ظلموا . وموضع الذين عنده خفض على هذا الوجه بجعله بدلا من الكاف كأنه قيل في التقدير : لئلا يكون للناس على أحد حجة إلا الظالم . قال الرماني : وهذا وجه بعيد لا ينبغي أن يتأول عليه ، ولا على الوجه الذي قاله ابو عبيدة والاختيار القول الاول .

و أثبتت (الياء) في قوله « واخشوني » ها هنا ، وحذفت فيما عداه ، لانه الاصل ، وعليه اجماع ها هنا . واما الحذف فللاجتزاء بالكسرة من الياء .

وقوله : « واخشوني » معناه واخشوا عقابي بدلالة الكلام عليه في الحال ، وإنما ذكرهم فقال « فلا تخشوهم » لانه لما ذكرهم بالظلم ، والاستطالة بالخصومة والمنازعه طيب بنفوس المؤمنين أي فلا تلتفتوا الى ما يكون منهم فان عاقبة السوء عليهم . وقال قتادة ، والربيع : المعني بالناس هاهنا أهل الكتاب . وقال غيرهما : هو على العموم — وهو الاقوى — وقال ابن عباس ، والربيع ، وقتادة : المعني بقوله « الذين ظلموا » مشركوا العرب . وقال قوم : هو على العموم — وهو الاولى — .

وقوله « لئلا » ترك الهمزة نافع . الباقون يهمزون . ويلين كل همزة مفتوحة قبلها كسرة . والحجة هي الدلالة . وهي البرهان .

قوله تعالى :

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ

---

(١) اللسان (خلد) ذكر البيت الثاني فقط .

الكتابَ والحكمةَ ويعلمكم مالم تكونوا تعلمونَ » (١٥١) — آية بلا خلاف .

المعنى :

التشبيه بقوله ﴿ كما أرسلنا ﴾ يحتمل أمرين :

احدها — ان النعمة في أمر القبلة كالنعمة بالرسالة ، لان الله لطف بعباده بها على ما يعلم من المصلحة ، ومحمود العاقبة .

الثاني — الذكر الذي أمر الله به كالنعمة بالرسالة فيما ينبغي ان يكون عليه من المنزلة في العظم والاخلاص لله ، كعظم النعمة . وهو على نحو قوله : ﴿ كما احسن الله اليك (١) والعرب تقول : الجزاء بالجزاء،فسمي الاول باسم الثاني للمقابلة ، والتشبيه لكل واحد منهما بالآخر .

الاعراب :

و (ما)في قوله : ﴿ كما ﴾ مصدرية . كأنه قال : كارسالنا فيكم ويحتمل أن تكون كافة قال الشاعر :

أعلاقة أم الوُليد بعــــدما أفنان رأسك كالثغام المخلس (٢)

لأنه لا يجوز كما زيد يحسن اليك، فأحسن الى أبنائه . والعامل في قوله ﴿ كما ﴾ يجوز أن يكون أحد أمرين :

أحدها ـ الفعل الذي قبله : وهو قوله : ﴿ ولأتم نعمتي عليكم ﴾ ﴿ كما أرسلنا فيكم ﴾ والقول الثاني ـ الفعل الذي بعده : وهو فاذكروني ﴿ كما أرسلنا ﴾ . والأول

---

(١) سورة القصص آية : ٧٧ .

(٢) قائله المرار الاسدي ، وفي التكملة المرار الفقعسي .

(٣) اللسان « عاق » و « ثغم » و « فنن » العلاقة : الحب . أفنان خصل الشعر . الثغام شجر ابيض . المخلس : الذي بين السواد والبياض : فكانه يقول : أحب بعد الشيب .

أحد قولي الفراء ، والزجاج واختاره الجبائي . والثاني قول مجاهد والحسن ، وابن ابي يحتج بأحد قولي الفراء ، والزجاج ، واختيار الزجاج . وقال الفراء : لا ذكروني جوابان : احدهما ـ ﴿ كما ﴾ . والآخر ـ أذكركم ، لأنه لمـا كان يجب عليهم الذكر ليذكرهم الله برحمته ، ولما سلف من نعمته ، أشبه ـ من هذا الوجه ـ الجواب ، لأنه يجب للثاني فيه بوجوب الأول .

المعنى :

وقوله : ﴿ يزكيكم ﴾ معناه يعرّضكم لما تكونوا به أزكياء من الأمر بطاعة الله واتباع مرضاته . ويحتمل أيضاً أن يكون المراد : ينسبكم إلى أنكم أزكياء شهادة لكم بذلك ، ليعرفكم الناس به ، وإنما قال : ﴿ الكتاب والحكمة ﴾ لاختلاف الفائدة في الصفتين وإن كانتا لموصوف واحد . كقولك : هو العالم بالأمور القادر عليها . ويحتمل أن يكون أراد بالكتاب : القرآن ، وبالحكمة : الوحي من السنة .

والكاف في قوله : ﴿ فيكم ﴾ خطاب للعرب ـ على قول جميع أهل التأويل .

وقوله : ﴿ ويعلمكم ﴾ معناه مالا سبيل لكم إلى علمه إلا من جهـة السمع ، فذكرهم الله بالنعمة فيه . ويكون التعليم لما عليه دليل من جهه العقل تابعاً للنعمة فيه . ولا سيما اذا أوقع موقع اللطف .

ومعنى الارسال : هو التوجه بالرسـالة والتحميل لها ليؤدي الى من قصد ، فالدّلالة والرّسالة جملة مضمنة بمن يصل اليه ممن قصد بالمخاطبة .

والتلاوة : ذكر الكلمة بعد الكلمة على نظام متسق في الرتبة .

والتزكية : النسبة الى الازدياد من الأفعال الحسنة التي ليست بمشوبة . ويقال أيضاً على معنى التعريض لذلك بالاستدعاء اليه واللطف فيه .

والحكمة : هي العلم الذي يمكن به الافعال المستقيمة .

قوله تعالى :

﴿ فاذْكُرونِي أَذكُرْكُمْ وأشكُروا لِي ولا تَكفُرونَ ﴾ (١٥٢)

آية بلا خلاف .

المعنى :

الذّكر المأمور به في الآيه ، والموعد به ، قيل فيه أربعة أقوال :

احدها ـ قال سعيد بن جبير « اذكروني » بطاعتي « أذكركم » برحمتي .

الثاني ـ « اذكروني » بالشكر ﴿ أذكركم ﴾ بالثواب .

الثالث ـ ﴿ أذكروني ﴾ بالدعاء ﴿ أذكركم ﴾ بالاجابة .

الرابع ـ ﴿ اذكروني ﴾ بالثناء بالنعمة ﴿ أذكركم ﴾ بالثناء بالطاعة .

اللغة :

والذّكر : حضور المعنى للنفس ، فقد يكون بالقلب ، وقد يكون بالقول ، وكلاهما يحضر به المعنى للنفس ، وفي اكثر الاستعمال يقال : الذكر بعد النسيان ، وليس ذلك بموجب إلا ان يكون إلا بعد نسيان ، لان كل من حضره المعنى بالقول أو العقد أو الحضور بالبال : ذاكر له . واصله التنبيه على الشيء . فمن ذكّر ناسياً ، فقد نبّهه عليه . وإذا ذكّرناه نحن فقد نبهّنا عليه . والذكر نقيض الانثى ﴿ وإنــه لذكر لك ﴾ (١) أي شرف لك من النباهة والجلالة . والفرق بين الذكر ، والخاطر . أن الخاطر : مرور المعنى بالقلب ، والذكر قد يكون ثابتاً في القلب . وقد يكون بالقول .

الاعراب :

وقوله تعالى : ﴿ واشكروا لي ﴾ معناه اشكروا لي نعمتي فحذف، لان حقيقة الشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم . وقوله : ﴿ ولا تكفرون ﴾ فيه حذف،

---

(١) سورة الزخرف آية : ٤٤ .

وتقديره : ولا تكفروا نعمتي ، لان الكفر هو ستر النعمة وجحدها . لاستر المنعم . وقولهم حمدت زيداً ، وذممت عمراً ، فلا حذف فيه وإن كنت انما تحمد من اجل الفعل الحسن ، وتذم من اجل الفعل القبيح . كما أنه ليس في قولك : زيد متحرك حذف ، وإن كان إنما تحرك من أجل الحركة . وليس كل كلام دال على معني غيرمذكور يكون فيه حذف ، لأن قولك زيد ضارب دالّ على مضروب ، وليس بمحذوف ، وكذلك زيد قاتل دال على مقتول ، وليس بمحذوف ، فالحمد للشيء دلالة على انه محسن ، والذم له دلالة على أنه مسيء كقولك : نعم الرجل زيد ، وبئس الرجل عمرو ، وكذلك قولك : زيد المحسن ، وعمرو المسيء ، ليس فيه محذوف ويقال : شكرتك ، وشكرت لك ، وإنما قيل شكرتك،لانه أوقع اسم المنعم موقع النعمة ، فعدى الفعل بغير واسطة والاجود : شكرت لك النعمة ، لانه الاصل في الكلام ، والاكثر في الاستعمال . قال الشاعر (١) :

هُمُ جمعوا بؤسى ونعمى عليكم ... فهلاّ شكرت القوم إذ لم تقاتل (٢)

ومثل ذلك نصحتك ، ونصحت لك ، وإنما حذف (الياء) في الفواصل ؛ لانها في نية الوقف،فلذلك قال ﴿ ولا تكفرون ﴾ بغير (ياء) وهي في ذلك كالقوافي التي يوقف عليها بغير ياء كقول الاعشى :

ومن شانيءٍ كاشف وجهه ... إذا ماانتسبت له أنكرن (٣)

يعني أنكرني فحذف الياء .

(١) نسبه ابو حيان في تفسيره ١ : ٤٤٧ امر بن لجأ .

(٢) معاني القرآن للفراء ، ١ : ٩٢ يقول : لماذا لم تشكر القوم الذين جمعوا لك النعيم والبؤس وانت لم تقاتل .

(٣) ديوانه : ١٩ . رقم القصيدة ٢ . في المطبوعة « بله » بدل « وجهه » و « ذكرت » بدل « انتسبت » .

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٥٣) آية واحدة بلاف خلاف .

اللغة والمعنى :

الصبر هو حبس النفس عما تدعو اليه من الامور ، والصابر هو الحابس نفسه عما تدعو اليه مما لا يجوز له . وهو صفة مدح . ووجه الاستعانة بالصبر أن في توطين النفس على الأمور تسهيلا لها . واستشعار الصبر إنما هو توطين النفس . ووجه الاستعانة بالصلاة ما فيها من الذكر لله ، واستشعار الخشوع له ، وتلاوة القرآن وما فيه من الوعظ ، والتخويف ، والوعد ، والوعيد ، والجنة ، والنار ، وما فيه من البيان الذي يوجب الهدى ويكشف العمى وكل ذلك داع الى طاعة الله ، وزاجر عن معاصيه ، فمن هاهنا كان فيه المعونة على ما فيه المشقة من الطاعة . وأمَّا الاستعانة فهي الازدياد في القوة مثل من يريد أن يحمل مئة رطل فلا يتهيأ له ذلك فاذا استعان بزيادة قوة تأتي ذلك ، وكذلك إن عاونه عليه غيره وعلى ذلك السبب والآلة ، لانه بمنزلة الزيادة في القوة . وقوله تعالى : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ أي معهم بالمعونة ، والنصرة ، كما تقول : إذا كان السلطان معك ، فلا تنال من لقيت . وقد تكون (مع) في الكلام على معنى الاجتماع في المكان . وذلك لا يجوز عليه تعالى .

وفي الآية دلالة على أن الصلاة فيها لطف ، لان الله تعالى أمرنا بالاستعانة بها ، وتوضيحه قوله : ﴿ ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ﴾ (١) ولولا هذا النص ، لجوزنا أن يكون في غير ذلك . والذي يستعان عليه بالصبر والصلاة . قيل فيه قولان :

احدها ـ طاعة الله ، كأنه قال استعينوا بهذا الضرب من الطاعة على غيره فيها.

والثاني ـ على الجهاد في سبيل الله ، لأعدائه .

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٤٥ .

الاعراب :

وموضع الذين رفع لا يجوز غير ذلك عند جميع النحويين إلا المازني ، فانه أجاز يا أيها الرجل اقبل ، والعامل فيه ما يعمل في صفة المنادي ـ عند جميع النحويين ـ إلا الأخفش ، فانه يجعله صلة لأي ويرفعه بأنه خبر ابتداء محذوف ، كأنه قيل : يامن هم الذين آمنوا . إلا أنه لا يظهر المحذوف مع أي ، وإنما حمله على ذلك لزوم البيان له ، فقال : الصلة تلزم ، والصفة لا تلزم . قال الرماني والوجه عندي أن تكون صفة بمنزلة الصلة في اللزوم ، وإنما لزمت أي ها هنا في النداء ، لان العرض بحرف التنبيه وقع في موضع التنبيه ، فلزم ، فلا يجوز أن تقول : نعم الذين في الدار ، لان نعم إنما تعمل في الجنس الذي يكره إذا أضمر فسر بها .

قوله تعالى :

﴿ وَلا تَقولنَّ لِمن يُقتلُ في سبيلِ اللهِ أمواتٌ بل أحياءٌ وَلكنْ لا تَشعرونَ ﴾ (١٥٤) آية بلا خلاف .

المعنى :

فان قيل: هل الشهداء أحياء على الحقيقة ، أم معناه أنهم سيحيون وليسوا أحياء؟ قلنا : الصحيح أنهم أحياء الى أن تقوم الساعة ، ثم يحييهم الله في الجنة ، لا خلاف بين أهل العلم فيه إلا قولا شاذاً من بعض المتأخرين . والأول قول الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والجبائي ، وابن الاخشاد ، والرماني ، وجميع المفسرين . والقول الثاني حكاه البلخي . يقال : ان المشركين كانوا يقولون : إن أصحاب محمد (ص) يقتلون نفوسهم في الحرب لا لمعنى ، فأنزل الله تعالى الآية . وأعلمهم أنه ليس الأمر على ما قالوه ، وأنهم سيحيون يوم القيامة ويثابون ، ولم يذكر ذلك غيره . وقيل : ليس هم أمواتاً بالضلالة بل هم أحياء بالطاعة ، والهدى ، كما قال : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ (١)

---

(١) سورة الانعام آية : ١٢٢

فجعل الضلالة موتاً ، والهداية حياة . وقيل : معناه ليس هم أمواتاً بانقطاع الذكر ، بل هم احياء ببقاء الذكر عند الله ، وثبوت الاجر عنده . واستدل ابو علي الجبائي على أنهم أحياء في الحقيقة بقوله : ﴿ ولكن لا تشعرون ﴾ فقال : لو كان المعنى سيحيون في الآخرة،لم يقل المؤمنين المقرين بالبعث ، والنشور ﴿ولكن لا تشعرون﴾ لأنهم يعلمون ذلك ، ويشعرون به . فان قيل : ولم خصّ الشهداء بأنهم احيـــاء ، والمؤمنون كلهم في البرزخ أحياء ؟ قيل يجوز أن يكونوا ذكروا اختصاصاً ، تشريفاً لهم . وقد يكون على جهة التقديم للبشارة بذكر حالهم في البيان لما يختصون به من أنهم يرزقون ، كما قال تعالى﴿ بل احياء عندربهم يرزقون ﴾(١) . وإنما قيل للجهاد سبيل الله ، لأنه طريق الى ثواب الله تعالى .

اللغة :

والموت : نقص بنية الحياة . والموت ـ عند من قال إنه معنى عرضي ـ ينافي الحياة منافاة التعاقب . ومن قال : ليس بمعنى قال : هو عبارة عن فساد بنية الحياة . فأما الحياة ، فهي معنى بلا خلاف .

الاعراب :

وقوله : ﴿ أموات ﴾ رفع بانه خبر ابتداء محذوف ، كأنه قال : لا تقولوا هم أموات . ولا يجوز فيه النصب على قولك:قلت خيراً ، لأن الخير في موضع المصدر كأنه قال : قلت قولا حسناً . فاما قوله ﴿ ويقولون طاعة ﴾ (٢) فيجوز فيه الرفع والنصب في العربية : الرفع على منا طاعة:والنصب على نطيع طاعة والفرق بين (بل) و(لكن) ان (لكن) نفي لأحد الشيئين ، وإثبـــات للآخر ، كقولك : ما قام زيد لكن عمرو ، وليس كذلك (بل)،لانها للاضراب عن الاول ، والاثبات للثاني ، ولذلك وقعت في الايجاب كقولك : قام زيد بل عمرو . فاما اذا قصد المتكلم ، فانما هو ليدل

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٦٩ . (٢) سورة النساء آية : ٨٠

على أن الثاني أحق بالاخبار عنه من الاول ، كقولك : قام زيد بل عمرو ، كأنه لم يعتد بقيام الأول .

اللغة :

والشعور : هو ابتداء العلم بالشيء من جهة المشاعر ، وهي الحواس ، ولذلك لا يوصف تعالى بأنه شاعر ،ولاأنه يشعر،وإنما يوصف بأنه عالم ويعلم. وقد قيل: إن الشعور إدراك مادقّ للطف الحسن مأخوذ من الشعر لدقته ، ومنه شاعر ، لانه يفطن من إقامة الوزن وحسن النظم بالطبع لما لا يفطن له غيره .

المعنى :

فان قيل : هل كون عقولهم إذا كانوا أحيـــاء ، وكيف يجوز أن يصل اليهم ثوابهم مع نقصان عقولهم ؟ قيل الثواب لم يصل اليهم على كنهه وانما يصل اليهم طرف منه . ومثلهم في ذلك مثل النائم على حال جميلة في روضة طيبة يصل اليهم طيب ريحها ولذيذ نسيمها على نحو ما جاء في الحديث من انه يفسح له مد بصره ، ويقال له نم نومـــة العروس . وأما الذين قتلوا في سبيل الله ، فعلى ما ذكرناه من الاختصاص بالفضيلة. فان قيل : كيف يجوز أن يكونوا أحياء ـ ونحن نرى جثتهم على خلاف ما كانت عليه في الدنيا . ؟ قيل : إن النعيم انما يصل الى الروح وهي الحية ، وهي الانسان ، دون الجثة ـ والجثة كالجنة واللباس لصيانة الأرواح . ومن زعم ان الانسان هذه الجملة المعروفة وجعل الجثة جزء منها فانه يقول : يلطف أجزاء من الانسان توصل اليـــه النعيم ، وإن لم يكن الانسان بكماله على نحو ما ذكرنا أن النعيم لا يصل اليه نفسه .

قوله تعالى :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ » (١٥٥) .

الخطاب بهذه الآية متوجه الى اصحاب النبي (ص) ـ على قول عطاء ، والربيع

وابي علي ، والرماني ، ولو قيل : أنه خطاب لجميع الخلق ، لكان ايضاً صحيحاً ، لأن ذلك جاز في جميعهم .

اللغة :

والابتلاء في الاصل : الطلب لظهور ما عند القادر على الأمر من خير أوشر . والابتلاء ، والاختبار ، والامتحان ، بمعنى واحد ، والابتلاء بهذه الأمور المذكورة في الآية بأمور مختلفة . فالخوف هو انزعاج النفس لما يتوقع من الضرر ، وكان ذلك لقصد المشركين لهم بالعداوة . والجوع كان لفقرهم وتشاغلهم بالجهاد في سبيل الله عن المعاش . ونقص الأموال للانقطاع بالجهاد عن العمارة . والأنفس بالقتل في الحرب مع رسول الله (ص) . والجوع ضد الشبع . يقال جاع يجوع جوعاً ، وأجاعه إجاعة ، وجوّعه تجويعاً ، وتجوّع تجوّعاً . قال صاحب العين : الجوع اسم جامع للمخمصة ، والمجاعة : عام فيه جوع . والنقص نقيض الزيادة . قال صاحب العين : النقص الخسران في الحظ . تقول نقص نقصاً ، وانتقص انتقاصاً ، وتناقص تناقصاً ، ونقصه تنقيصاً ، واستنقص استنقاصاً ، وتنقصه تنقصاً . والنقصان يكون مصدراً أو إسماً ، كقولك : نقصانه كذا : أي قدر الذاهب . ونقص الشيء ، ونقصته ، ودخل عليه نقص : في عقله ودينه . ولا يقال : نقصان . والنقيصة : الوقيعة في الناس . والنقيصة انتقاص حق ذي الرحم . وتنقصه تنقصاً : اذا تناول عرضه . واصل الباب النقص الحط من التمام . والمال معروف . وأموال العرب أنعامهم . ورجل مال : أي ذو مال . ونال : أي ذو نوال . وتقول : تموّل الرجل ، ومول غيره . واصل الباب المال المعروف . والثمرة : أفضل ما تحمله الشجرة .

المعنى :

ووجه المصلحة في ذلك هو ما في ذلك من الامور المزعجة الى الاستدلال والنظر في الادلة الدالة على النبوة ، وليعلم ايضاً انه ليس فيما يصيب الانسان من شدة في الدنيا ما يوجب نقصان منزلته . ففي ذلك ضروب العبرة . فان قيل إذا كان الله

قد فعل الابتلاء بهذه الاشياء ، والمشركون أوقعوها بالمؤمنين ففي ذلك إيجاب فعل من فاعلين . قلنا : لا يجب ذلك ، لان الذي يفعله الله تعالى غير الذي يفعله المشركون ، لأن علينا ان نرضى بما فعله الله ونسخط مما فعله المشركون ، وليس يقدرون على شيء مما ذكر في الآية ، ولكنهم يقدرون على التعريض له بما هو محرم عليهم ، وقبيح منهم .

الاعراب :

وفتحت الواو في لنبلونكم لامرين :

احدهما ـ للعلة التي فتحت الراء في لتنصرُنكم (١) وهو أنه بني على الفتحة ، لانها أخف إذ استحق البناء على الحركة كما استحق (يا) في النداء حكم البناء على الحركة .

الثاني — أنه فتح لالتقاء الساكنين إذ كان قبل معتلا لا يدخله الرفع .

المعنى :

وانما قال : « بشيء » من الخوف ولم يقل : باشياء لامرين :

احدهما — لئلا توهم بأشياء من كل واحد ، فيدل على ضروب الخوف ، ويكون الجمع كجمع الاجناس للاختلاف ، فقدر : شيء من كذا ، وشيء من كذا ، وأغنى المذكور عن المحذوف .

والثاني — أنه وضع الواحد في موضع الجمع للابهام الذي فيه ك(من) .

والابتلاء بما ذكر لا بد ان يكون فيه لطف في الدين ، وعوض في مقابلته ، ولا يحسن فعل ذلك لمجرد العوض — على ما ذهب اليه قوم — . فان قيل : الابتلاء بأمر القبلة وغيره من عبادات الشرع هل يجري مجرى الألم ـ عند المصيبة ؟ قلنا : لا ، بلا خلاف ها هنا ، فانه لا بد ان يكون فيه لطف في الدين فان (٢) كان فيه

---

(١) في المطبوعة « لنضربنكم » وهو غلط .
(٢) والاصح « وان كان » بدل « فان كان »

خلاف في الألم ، لأن هذه طاعات يستحق بها الثواب . وبالاخلال بها ـ إذا كانت واجبة ـ يستحق العقاب ، فلا يجري مجرى الألم المحض . والصبر واجب كوجوب العدل الذي لا يجوز عليه الانقلاب ـ في الشرع ـ إذ الصبر حبس النفس عن القبيح من الأمر ، وقد بينا فيما مضى ابتلاء الله تعالى العالم بالعواقب ، فان المراد بذلك انه يعامل معاملة المبتلي ، لأن العدل لا يصح إلا على ذلك ، لانه لو أخذهم بما يعلم أنه يكون منهم ، قبل ان يفعلوه ، لكان ظلماً وجوراً ، فبين الله بعد ، أنه يعاملهم بالحق دون الظلم .

والوقوف على قوله : ﴿ وبشر الصابرين ﴾ حسن ، وقال بعضهم : لا يحسن . وذلك غلط ، من حيث كانت صفة مدح ، وعامل الصفة في المدح غير عامل الموصوف، وإنما وجب ذلك ، لأن صفة صابر صفة كصفة تقي ،كما قال الله تعالى : ﴿ إنّ الله مع الصابرين ﴾ (١) .

والجوع : الحاجة الى الغذاء ، وتختلف مراتبه في القوة والضعف . وقد يقال : جوع كاذب ، لأنه يتخيل به الحاجة الى الغـذاء لبعض الامور العارضة من غير حقيقة .

وقوله تعالى : ﴿ وبشر الصابرين ﴾ فالتبشير في الاصل هو الاخبار بما يسرّ ، أو نعمة ، يتغير له البشرة ، غير انه كثر استعماله فيما يسرّ . والصبر المحمود هو حبس النفس عما قبح من الأمر .

قوله تعالى :

﴿ ألَّذِينَ إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالوا إنّا للهِ وإنّا إليه راجعونَ ﴾ (١٥٦) آية بلا خلاف .

المعنى :

في قوله : ﴿ إنا لله ﴾ إقرار لله بالعبودية ﴿ وإنا إليه راجعون ﴾ فيـــه إقرار

---

(١) سورة البقرة آية : ١٥٣ .

بالبعث والنشور ، وان مآل الامر يصيرإليه ، وإنما كانت هذه اللفظة تعزية عن المصيبة، لما فيها من الدلالة على أن الله يجزها (١) ان كانت عدلا ، وينصف من فاعلها إن كانت ظلماً . وتقـــديره ﴿ إنا لله ﴾ تسليماً لأمره ورضاً بتدبيره . ﴿ وإنا اليه راجعون ﴾ ثقة بأنا إلى العدل نصير .

المعنى :

والمصيبة هي المشقة الداخلة على النفس ، لما يلحقها من مضرة ، وهي من الاصابة ، لأنها يصيبها بالبليـة . ومعنى الرجوع الى الله : الرجوع الى انفراده بالحـكم كما كان أول مرة لأنه قد ملّك قوماً في الدنيا شيئاً من الضر ، والنفع لم يكونوا يملـكونه ، ثم يرجع الأمر الى ما كان إذا زال تمليك العباد .

وأصل الرجوع هومصير الشيء الى ما كان ، ولذلك يقال : رجعت الدار الى فلان إذا اشتراها مرة ثانية . والرجوع والعود ، والمصير نظائر .

وفي الآية معنى الامر لانها مدح عام ، لـكل من كان على تلك الصفة بتلك الخصلة . وأجاز الـكسائي والفراء في ﴿ إنا لله ﴾ الامالة ، ولا يجوز ذلك في غير اسم الله ، مثل قولك : إنا لزيد ، لا يجوز إمالته ، وإنما جاز الامالة مع اسم الله لـكثرة الاستعمال حتى صارت بمنزلة الـكلمة الواحدة ، وإنما لم يجز الامالة في غير ذلك ، لأن الحروف كلها وما جرى مجراها لا يجوز فيها الامالة مثل (حتى) و لـكن و (مما) وما اشبه ذلك ، لأن الحروف بمنزلة بعض الكلمة من حيث امتنع فيها التصريف الذي يكون فى الأسماء والأفعال .

قوله تعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (١٥٧) آية بلا خلاف .

---

(٣) والاصح « يجز بها » بدل « يجزها » .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الصابرين الذين وصفهم الله في الآية الأولى .

وقيل في معنى الصلاة ثلاثة أقوال :

احدها ـ انها الدعاء ، كما قال الاعشى :

وصلّى على دنّها وارتسم (١)

أي دعا لها .

والثاني ـ انها مشتقة من الصلوى مكتنفا ذنب الفرس أو الناقة ، فسميت الصلاة ـ في الشرع ـ بذلك ، لرفع الصلوة في الركوع والسجود . الثالث ـ قال الزجاج : إن أصلها اللزوم من قوله ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ (٢) أي تلزمها ، والصلاة من أعظم ما يلزم من العبادة . وقال قوم : معنى الصلاة ها هنا : الثناء الجميل. وقيل : بركات الدعاء ، والثناء يستحق دائماً ، ففيه معنى اللزوم ، وكذلك الدعاء يدعا به مرة بعد مرة ، ففيه معنى اللزوم . والمصلي من الخيل الذي يلزم أثر السابق .

ومعنى ﴿ المهتدون ﴾ يعني الى الحق الذي به ينال الثواب ، والسلامة من العقاب . والرحمة : الانعام على المحتاج ، وكل واحد يحتاج الى نعمة الله . والاهتداء: الاصابة لطريق الحق وهو الاصابة للطريق المؤدي الى النعمة .

قوله تعالى :

« إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » (١٥٨) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ حمزة والكسائي ﴿ ومن يطوع ﴾ بالياء ، وتشديد الطاء ، والواو ، وسكون العين . الباقون بالتاء على فعل ماض .

---

(١) ديوانه : ٣٥ ، رقم القصيدة : ٤ واللسان « صلا » وقد مر البيت في ١ : ٥٦ ـ ١٩٣

(٢) سورة الغاشية آية : ٤ .

المعنى:

الصفا ـ في الاصل ـ الحجر الاملس مأخوذ من الصفوّ . قال المبرد : الصفا : كل حجر لا يخلط غيره ، من طين أو تراب يتصل به حتى يصيرمنه، وانما اشتقاقه من صفا يصفو — إذا خلص — وهو الصافي الذي لا يكدّره شيء يشوبه . وقيل واحد الصفا : صفاء . وقيل بل هو واحد يجمع اصفاء أو صفى — وأصله من الواو — ، ولانك تقول ـ في تثنيته : صفوان ، ولانه لا يجوز فيه الامالة .

والمروة في الاصل:هي الحجارة الصلبة اللينة . وقيل : الصفا:الصغير ، والمروة : لغة في المرو . وقيل انه جمع مثل تمرة وتمر ، قال ابو ذؤيب :

حتى كأني للحوادث مروة (١)

والمرو : نبت . والاصل الصلابة . والنبت سمي بذلك لصلابة بزره . والصفا والمروة : هما الجبلان المعروفان بالحرم ، وهما من الشعائر ، كما قال الله تعالى .

والشعائر:المعالم للاعمال ، فشعائر الله : معالم الله التيجعلها مواطن للعبادة ، وهي أعلام متعبداته من موقف ، أو مسعى ، أو منحر ، وهو مأخوذ من شعرت به : أي علمت ، وكل معلم لعبادة من دعاء ، أو صلاة ،أو اداء فريضة ، فهو مشعر لتلك العبادة، وواحد الشعائر شعيرة ، فشعائر الله أعلام متعبداتهقال الكميت بن زيد :

نقتلهم جيلا فجيلا تراهم　شعائر قربان بهم نتقرب (٢)

والحج:قصد البيت بالعمل المشروع من الاحرام ، والطواف ، والوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة . واشتقاقهمن الحج الذي هو القصد ـ على وجه التكرار والتردد قال الشاعر (٣) :

---

(١) ديوانه ٣ . من قصيدة العارعة في رثاء أولاده . وعجزه :

بصفا المشرق كل يوم تقرع

ويروى « المشقر » وهو سوق الطائف . المروة : الصخرة . والمشرق : الناسك بمنى يصف الشاعر نفسه بأنه من كثرة الحوادث : أصبح كالصخرة في مكان تمر بها الناس كثيراً ويقرعها واحد بعد الآخر .

« ٢ » اللسان « شعر » والهاشميات : ٢١　« ٣ » هو المخبل السعدي ، وهو مخضرم .

وأشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المزعفرا (١)

يعني يكثرون التردد اليه بسؤدد . وقال آخر :

يحجّ مأمومة في قعرها لجف (٢)

وأما العمرة في الأصل فهي الزيارة وهي ها هنا زيارة البيت بالعمل المشروع : من طواف الزيارة والاحرام . وأخذت العمرة من العمارة لان الزائر للمكان يعمره بزيارته له ، وقوله : ﴿ فلا جناح عليه ﴾ . فالجناح هو الميل عن الحق ، وأصله من جنح إليه جنوحاً إذا مال اليه . قال صاحب العين : الاجناح : الميل . اجنحت هذا فأجنح أي املته فمال . وقوله : ﴿ وإن جنحوا للسلم فأجنح لها ﴾ (٣) أي مالوا إليك لصلح فمل إليهم . وجناحا الطائر : يداه ، ويدا الانسان : جناحاه . وجناحا العسكر جانباه ، وجناحا الوادي: مجريان عن يمينه وشماله . وجنحت الابل في السير إذا أسرعت . وإنما قيل للاضلاع جوانح ، لاعوجاجها . وجنحت السفينة إذا مالت في أحد شقيها . وكل مائل إلى شيء فقد جنح إليه ﴿ ولا جناح عليكم ﴾ أي ميل إلى مأثم . وكل ناحية: جناح ، ومر جنح من الليل أي قطعة نحو نصفه . وأصل الباب الميل . والطواف : الدور حول البيت . ومنه الطائف: الدائر بالليل . والطائفة الجماعة كالحلقة الدائرة . ويطّوف أصله يتطوف ، فادغمت التاء في الطاء ، لانها من مخرجها ، والطاء

« ١ » البيان والتبين ٣ : ٩٧ واللسان (سبب) (حجج) (زبرق) حل بالمكان حلولا : اذا نزل القوم به . يحجون يكثرون الاختلاف اليه (سب الزبرقان) الزبرقان بن بدر الفزاري وهو من سادات العرب . وقيل ان سب : است : وقيل عمامة . المزعفر المصبوغ بالزعفران . يقول يكثرون الذهاب الى هذا الرجل الذي يصبغ عمامته ، أواسته بالزعفران . وهذا هجا له .

« ٢ » اللسان (حجج) (لجف) وعجزه :

فاست الطبيب قذاها كالمغاريد

يحج : يزور أو يكشف . مأمومة : شجة في أم الرأس . في قعرها : في اقصاها . لجف : حفر . فاست : فيل . المغاريد : صمغ معروف يوضع على الجرح .

يقول يرى شجة في أم الرأس يخاف من رؤيتها ويجزع ، فيصفر من هولها .

« ٣ » سورة الانفال آية : ٦٢ .

أقوى بالجهر منها.والفرق بين الطاعة والتطوع : ان الطاعة موافقة الارادة في الفريضة والنافلة . والتطوع التبرز بالنافلة خاصة . واصلها الطوع الذي هو الانقياد .

المعنى :

وإنما قال ﴿ فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ وهو طاعة ، من حيث أنه جواب لمن توهم أن فيه جناحاً ، لصنمين كانا عليه : احدهما إساف ، والآخر نائلة ، في قول الشعبي ، وكثير من أهل العلم . وروى ذلك عن ابي جعفر وابي عبد الله (ع) وكان ذلك في عمرة القضاء ولم يكن فتح مكة بعد ، وكانت الاصنام على حالها حول الكعبة وقال قوم : سبب ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بينهما ، فكره المسلمون ذلك خوفاً أن يكون من أفعال الجاهلية ، فأنزل الله تعالى الآية . وقال قوم عكس ذلك : أن أهل الجاهلية كانوا يكرهون السعي بينهما ، فظن قوم أن في الاسلام مثل ذلك ، فأنزل الله تعالى الآية . وجملته أن في الآية ردّاً على جميع من كرهه ، لاختلاف أسبابه . والطواف بينهما فرض عندنا في الحج والعمرة ، وبه قال الحسن وعائشة وغيرهما، وهو مذهب الشافعي ، وأصحابه . وقال أنس بن مالك ، وروى عن ابن عباس : أنه تطوع وبه قال ابو حنيفة ، وأصحابه ، واختاره الجبائي.وعندنا ان من ترك الطواف بينهما متعمداً ، فلا حج له حتى يعود فيسعى ، وبه قالت عائشة ، والشافعي . وقال ابو حنيفة ، وأصحابه ، والثوري : إن عاد ، فحسن ، وإلا جبره بدم، وقال عطا ، ومجاهد يجزيه ولا شيء عليه . وقوله تعالى : ﴿ ومن تطوع خيراً ﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال :

أولها « من تطوع خيراً » اي بالحج أو العمرة بعد الفريضة . الثاني ــ « ومن تطوع خيراً » أي بالطواف بهما عندمن قال إنه نفل . الثالث ــ « من تطوع خيراً» بعد الفرائض ،وهذا هوالأولى ، لانه أعم.وفي الناس من قال : وهو الجبائي ، وغيره : إن التقدير فلا جناح عليه ألا يطوف بهما كما قال : « يبين الله لكم أن تضلوا » ومعناه ألاّ تضلوا وكما قال : « أن تقولوا يوم القيامة » (١) . ومعناه الا تقولوا .

« ١ » سورة الاعراف آية : ١٧١ .

وقال آخرون : إن ذلك لا يجوز وهو اختيار الرماني . وهو الصحيح ، لأن الحذف يحتاج الى دليل . ومعنى القراءتين واحد لا يختلف .

ووصف الله تعالى بأنه شاكر مجاز ، لأن الشاكر في الاصل هو المظهر للانعام، والله لا يلحقه المنافع ، والمضار ـ تعالى عن ذلك ـ ومعناه ها هنا المجازي على الطاعة بالثواب ، وخروج اللفظ مخرج التلطف حثاً على الاحسان اليهم ، كما قال « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً »(١) والله لا يستقرض من عوز ، لكن تلطف في الاستدعاء كأنه قال : من ذا الذي يعمل عمل المقرض ، بأن قدم فيأخذ أضعاف ما قدم في وقت فقره وحاجته الى ذلك فكذلك ، كأنه قال : « من تطوع خيراً فان الله » يعامله معاملة الشاكر ، بحسن المجازاة ، وايجاب المكافاة . والفرق بين التطوع والفرض أن الفرض يستحق بتركه الذم والعقاب ، والتطوع لا يستحق بتركه الذم ، ولا العقاب . وروي عن جعفر بن محمد : أن آدم نزل على الصفا ، وحواء على المروة ، فسمى المرو باسم المرأة .

قوله تعالى :

﴿ إنَّ الذِّينَ يَكْتُمونَ ما أنزلنا مِنَ البَيِّنات والهدى مِنْ بَعد ما بَيَّنَّاهُ لِلناس في الكِتابِ أولئكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ ويَلعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴾ (١٥٩) آية بلا خلاف .

المعنى :

قيل في المعني بهذه الآية قولان :

احدهما ـ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والربيع ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ،

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٥ .

واختاره الجبائي ، وأكثر أهل العلم : انهم اليهود ، والنصارى : مثل كعب بن الاشرف وكعب بن أسيد ، وابن صوريا ، وزيد بن تابوه ، وغيرهم من علماء النصارى الذين كتموا أمر محمد (ص) ، ونبوته : وهم يجدونه مكتوباً في التوراة والانجيل مبينا فيها .

والثاني ـ ذكر البلخي : أنـــه متناول لكل من كتم ما أنزل الله وهو أعم ، لأنه يدخل فيه أولئك وغيرهم ، ويروى عن ابن عباس أن جماعة من الأنصار سألوا نفراً من اليهود عما في التوراة ، فكتموهم اياه ، فأنزل الله عزوجل « إن الذين يكتمون » الآية . وإنما نزل فيهم هذا الوعيد ، لان الله تعالى علم منهم الكتمان ، وعموم الآية يدل : على أن كل من كتم شيئاً من علوم الدين ، وفعل مثل فعلهم في عظم الجرم أو أعظم منه ، فان الوعيد يلزمه ، وأما ما كان دون ذلك ، فلا يعلم بالآية بل بدليل آخر . وقد روي عن النبي (ص) أنه قال : من سئل عن علم يعلمه ، فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار . وقال ابو هريرة : لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم وتلا « إن الذين يكتمون ما أنزل الله » الآية ، فهـــذا تغليظ للحال في كتمان علوم الدين .

وكتمان الشيء اخفاؤه مع الداعي الى اظهاره ، لانه لا يقال لمن أخفى مالا يدعوا الى اظهاره داع : كاتم . والكتاب الذى عني هاهنا قيل التوراة . وقيل كل كتاب أنزله الله . وهو أليق بالعموم . وقال الزجاج : هو القرآن ، واستدل قوم بهذه الآية على وجوب العمل بخبر الواحد من حيث أن الله تعالى توعد على كتمان ما أنزله ، وقد بينا في اصول الفقه أنه لا يمكن الاعتماد عليه ، لأن غاية ما في ذلك وجوب الاظهار ، وليس إذا وجب الاظهار وجب القبول ، كما أن على الشاهد الواحد يجب إقامة الشهادة وإن لم يجب على الحاكم قبول شهادته ، حتى ينضم اليه ما يوجب الحكم بشهادته ، وكذلك يجب على النبي (ص) إظهار ما حمله ، ولا يجب على أحد قبوله حتى يقترن به المعجز الدال على الصدق ، ولذلك نظائر ذكرناها . على أن الله تعالى بين أن الوعيد إنما توجه على من كتم ما هو بينة وهدى وهو الدليل ، فمن أين أن خبر الواحد بهذه المنزلة ، فاذاً لادلالة في الآية على ما قالوه ، والبينات والهدى هي الادلة

وهما بمعنى واحد ، وإنما كرر لاختلاف لفظها . وقيل : إنه اراد بالبينات الحجج الدالة على نبوته (ص) وبالهدى إلى ما يؤديه إلى الخلق من الشرائع ، فعلى هذا لا تكرار .

اللغة :

واللعن في الاصل الابعاد على وجه الطرد قال الشماخ :

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين (١)

أرادمقام الذئب اللعن . واللعين في الحكم: الابعاد ـ من رحمة الله ـ بايجاب العقوبة، فلا يجوز لعن مالا يستحق العقوبة . وقول القائل : لعنه الله دعاء ، كأنه قال : أبعده الله ، فاذا لعن الله عبداً ، فمعناه الاخبار بأنه أبعده من رحمته .

المعنى :

والمعني بقوله و ﴿ يلعنهم اللاعنون ﴾ قيل فيه أربعة أقوال :

احدها ـ قال قتادة ، والربيع ، واختاره الجبائي ، والرماني ، وغيرهما : انهم الملائكة والمؤمنون ـ وهو الصحيح ـ ، لقوله تعالى في وعيد الكفار ﴿ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ﴾ (٢) فلعنة اللاعنين كلعنة الكافرين .

الثاني ـ قال مجاهد ، وعكرمة : إنها دواب الأرض ، وهو انها تقول منعنا القطر لمعاصي بني آدم .

الثالث ـ حكاه الفراء أنه كل شيء سوى الثقلين الانس والجن ، رواه عن ابن عباس .

الرابع ـ قاله ابن مسعود : أنه إذا تلاعن الرجلان رجعت اللعنة على المستحق لها ، فان لم يستحقها واحد منهم رجعت على اليهود الذين كتموا ما أنزل الله . فان قيل: كيف يجوز على قول من قال: المراد به البهائم اللاعنون، وهل يجوز على قياس ذلك الذاهبون؟ قلنا لما أضيف اليها فعل ما يعقل عوملت معاملة ما يعقل كما قال تعالى ﴿ والشمس والقمر رأيتهم لي

---

(١) مر تخريجه في ١ : ٣٤٣ من هذا الكتاب (٢) سورة البقرة آية : ١٦١

ساجدين ﴾ (١) فان قيل : كيف يجوز إضافة اللعن إلى مالا يعقل من البهيمه والجماد؟ قيل : لامرين احدهما ـ لما فيه من الآية التي تدعوا الى لعن من عمل بعصية الله .

والثاني ـ أن تكون البهائم تقول على جهة الالهام لما فيه من الاعتبار .

قوله تعالى :

« إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِم وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (١٦٠) آية بلا خلاف .

المعنى :

استثنى الله تعالى في هذه الآية من جملة الذين يستحقون اللعنة من تاب ، وأصلح، وبين . واختلفوا في معنى « بينوا » فقال أكثر المفسرين ، كقتادة ، وابن زيد ، والبلخي ، والجبائي ، والرماني : إنهم بينوا ما كتموه من البشارة بالنبي (ص) ، وقال بعضهم : بينوا التوبة ، وإصلاح السريرة بالاظهار لذلك . وإنما شرط مع التوبة الاصلاح ، والبيان ليرتفع الايهام بأن التوبة مما سلف من الكتمان يكفي في ايجاب الثواب .

ومعنى قوله تعالى ﴿ أتوب عليهم ﴾ أقبل توبتهم . والاصل في أتوب أفعل التوبة إلا أنه لما وصل بحرف الاضافة دل على ان معناه أقبل التوبة ، وإنما كان لفظه مشتركا بين فاعل التوبة ، والقابل لها ، للترغيب في صفة التوبة إذ وصف بها القابل لها ، وهو الله وذلك من إنعام الله على عباده ، لئلا يتوهم بما فيها من الدلالة على مقارفة الذنب أن الوصف بها عيب ، فلذلك جعلت في أعلا صفات المدح ، والتوبة هي الندم الذي يقع موقع التنصل من الشيء وذلك بالتحسر على موافقته ، والعزم على ترك معاودته إن أمكنت المعاودة. واعتبر قوم المعاودة الى مثله في القبيح . وهو الاقوى . لاجماع الامة على سقوط العقاب عندها ، وما عداها فمختلف فيه . فان قيل : ما الفائدة في هذا الاخبار ، وقد

(١) سورة يوسف آية : ٤ .

علمنا أن العبد متى تاب لا بدّ أن يتوب الله عليه ؟ قلنا أمّا على مذهبنا ، فله فائدة واضحة: وهو أن اسقاط العقاب عندها ليس بواجب عقلا ، فاذا أخبر بذلك أفادنا مالم نكن عالمين به ، ومن خالف في ذلك قال : وجه ذلك أنه لما كانت توبة مقبولة وتوبة غير مقبولة صحت الفائدة بالدلالة على أن هذه التوبة مقبولة . ومعنى قبول التوبة حصول الثواب عليها وإسقاط العقاب عندها .

و ﴿ التوّاب ﴾ فيه مبالغة إمّا لكثرة ما يقبل التوبة وإما لأنه لا يرد تائباً منيباً أصلا . وقبول التوبة بمعنى اسقاط العقاب عندها ، غير واجب عندنا عقلا . وإنما علم ذلك سمعاً ، وتفضلا ، من الله تعالى على ما وعد به بالاجماع على ذلك . وقد بيّنا في شرح الجمل في الأصول أنه لا دلالة عقلية عليه ، ووصفه نفسه بالرحيم عقيب قوله ﴿ التوّاب ﴾ دلالة على أن اسقاط العقاب عند التوبة تفضل منه ورحمة من جهته . ومن قال : إن الفعل الواجب نعمة إذا كان منعماً بسببه كالثواب ، والعوض ، فانه لما كان منعماً بالتكليف وبالآلام التي يستحق بها الاعواض ، جاز أن يقال في الثواب والعوض أنه تفضل وإن كانا واجبين ، فقوله باطل ، لأن ذلك إنما قلنا في الثواب للضرورة ، وليس هاهنا ضرورة تدعو الى ذلك . وإصلاح العمل هو إخلاصه له من قبيح يشوبه ، والتبيين هو التعريض للعلم الذي يمكن به صحة التميز .

الاعراب :

وموضع الذين نصب على أنه استثناء من موجب . و (إلا) حقيقتها الاستثناء . ومعنى ذلك الاختصاص بالشيء دون غيره كقولك : جائني القوم إلا زيداً فقد اختصصت زيداً بأنه لم يجيء ، وإذا قلت ما جاءني إلا زيد ، فقد اختصصت زيداً بأنه جاء ، واذا قلت ما جاءني زيد إلا راكباً فقد اختصصته بهذه الحال دون غيرها من المشي والعدو ، وما أشبه ذلك .

قوله تعالى :

« إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ

اللهِ وَالملائِكةِ والناسِ أجمعينَ » « ١٦١ » آية بلاخلاف .

المعنى :

إن قيل : كيف يلعن الكافر كافراً مثله وهو الظاهر في قوله ﴿ والناس أجمعين ﴾؟ قيل عنه ثلاثة أجوبة :

أولها ـ أنه يلعنه الناس أجمعون يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ (١) وهو قول ابي العالية .

الثاني ـ قال السدي : انه لا يمتنع أحد من لعن الظالمين ، فيدخل في ذلك لعن الكافر لأنه ظالم .

الثالث ـ يراد به لعن المؤمنين خصوصاً ، ولم يعتدّ بغيرهم كما يقال: المؤمنون هم الناس ، وهو قول قتادة والربيع ، هذا إذا حمل على أن اللعن في دار الدنيا ، لأن من المعلوم أن أهل ملة لا يلعن أهل ملته .

القراءة :

وحكي عن الحسن أنه قرأ «والملائكة» رفعاً ويكون ذلك على حمله على معنى يلعنهم الله والملائكة والناس أجمعون . كما تقول : عجبت من ضرب زيد ، وعمرو ـ بالرفع ـ وهذه قراءة شاذة لا يعول عليها لانّ المعتمد ما عليه الجمهور. ولا يجوز رفع « أجمعين » وحده هاهنا لأن هذه اللفظة لا تكون إلا تابعة ، وليس في الكلام مظهر ولا مضمر تتبعه على ذلك ، وإنما الحمل على المعنى بمنزلة إعادة معنى العامل الأوّل ، كأنك قلت: ويلعنهم الملائكة والناس أجمعون .

المعنى :

والكفر ما يستحق به العقاب الدائم عندنا ، وعند من خالفنا في دوام عقاب فساق أهل الصلاة انه ما يستحق به العقاب الدائم الكثير ، ويتعلق به أحكام مخصوصة،

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٢٥

وسواء كان الكفر في تشبيه الله تعالى بخلقه أو في تجريده في أفعاله أو الرد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو ما كان أعظم منه في القبح . واللعنة: الابعاد من الرحمة على ما بيناه مع ايجاب العقوبة ، ويجري ذلك من الناس على وجه الدعاء ، ومن الله على وجه الحكم ، وإنما قال : ﴿ وماتوا وهم كفار ﴾ وكل كافر ، فهو ملعون في حال كفره وإن لم يكن ممن يوافي بالكفر للدلالة على خلودهم في النار إذا ماتوا على غير توبة ، وقد دلّ على ذلك ما بيّنه في الآية الثالثة ، وإنما أكد بأجمعين ليرتفع الاحتمال ، والايهام قبل أن ينظر في تحقيق الاستدلال، ولهذا لم يجز الأخفش رأيت أحد الرجلين كليهما ، وأجاز رأيتهما كليهما ، لأنك إذا ذكرت الحكم مقرونا بالدليل عليه ، أزلت الايهام للفساد ، وإذا ذكرته وحده فقد يتوهم عليك الغلط في المقصد بقولك : أحد الرجلين ، لما ذكرت التثنية وذكرت أحداً كنت بمنزلة من ذكر الحكم ، والدليل عليه فأمّا ذكر التثنية في رأيتهما ، فبمنزلة ذكر الحكم وحده . وواحد الناس إنسان في المعنى ، فأما في اللفظ ، فلا واحد له ، وهو كنفر ، ورهط مما يقال : إنه اسم للجمع.

قوله تعالى :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنهُمُ العَذابُ وَلا هُمْ يُنظَرونَ ﴾ «١٦٢»

آية بلا خلاف .

المعنى :

والهاء في قوله «فيها» عائدة على اللعنة في قول الزجاج . وقال ابو العالية هي عائدة الى النار ، ومعنى قوله ﴿ ولاهم ينظرون ﴾ على قول ابي العالية رفع لايهام الاعتذار كما قال : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ (١) لئلا يتوهم أن التوبة والانابة هناك تنفع . والخلود في اللعنة يحتمل أمرين أحدهما ـ إستحقاق اللعنة بمعنى أنها تحق عليهم أبداً. والثاني ـ في عاقبة اللعنة : وهي النار التي لا تفنى ، وإنما قال : ﴿ لا يخفف ﴾

(١) سورة المرسلات آية : ٣٦

مع أنهم مخلدون، لأن التخفيف قد يكون مع الخلود ، بان يقل المعاون ما يفعل ، فأراد الله أن يبين أنه يقع الخلود ، ويرتفع التخفيف .

الاعراب :

وخالدين نصب على الحال من الهاء والميم في عليهم ، كقولك: عليهم المال صاغرين، والعامل فيه الاستقرار في عليهم .

اللغة :

والخلود : اللزوم أبداً ، والبقاء : الوجود وقتين فصاعداً ، ولذلك لم يجز في صفات الله خالد ، وجاز باق ، ولذلك يقال : أخلد الى قوله : أي لزم معنى ما أتى به، ومنه قوله تعالى ﴿ ولكنه أخلد الى الارض ﴾ (١) أي مال اليها ميل اللازم لها ، كأنه قبل الخلد فيها .

والفرق بين الخلود والدوام أن الدوام : هو الوجود في الأول ، ولا يزال . واذا قيل دام المطر ، فهو على المبالغة، وحقيقته لم يزل من وقت كذا الى وقت كذا، والخلود هو اللزوم أبداً . والتخفيف: هو النقصان من المقدار الذي له اعتماد . والعذاب: الألم الذي له أمتداد . والانظار : الامهال قدر ما يقع النظر في الخلاص ، واصل النظر الطلب ، فالنظر بالعين: الطلب بالعين ، وكذلك النظر بالقلب أو باليد أو بغيرها من الحواس ، وتقول أنظر الثوب أين هو . والفرق بين العذاب والايلام . ان الايلام قد يكون بجزء (٢) من الالم في الوقت الواحد . والعذاب له استمرار من الألم في أوقات ، ومنه العذب، لاستمراره في الحلق (٣). والعذبة ، لاستمرارها بالحركة (٤).

---

(١) سورة الاعراف آية : ١٧٥ . (٢) في المطبوعة (بجز)

(٣) وفي مجمع البيان (ومنه العذاب لاستمراره بالحلق) والصحيح ما ذكره الشيخ ، لان المقصود منه : عذوبة الماء ونحوه ، ولا يكون ذلك الا في الحلق .

(٤) العذبة التي تستمر بالحركة : خرقة النائحة .

قوله تعالى :

« وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » « ١٦٣ » آية بلا خلاف .

المعنى :

يوصف تعالى بأنه واحد على أربعة أوجه أولها ـ إنه ليس بذي أبعاض ولا يجوز عليه الانقسام. الثاني ـ واحد في استحقاق العبادة. الثالث ـ واحد لا نظير له ولا شبيه. الرابع ـ واحد في الصفات التي يستحقها لنفسه ، فهو قديم ، وقادر لا يعجزه شيء ، وعالم لا يخفى عليه شيء ، فكل هذه الصفات يستحقها وحده ، والواحد شيء لا ينقسم عدداً كان أو غيره ، ويجري على وجهين : على الحكم ، وعلى جهة الوصف ، فالحكم كقولك : الجزء واحد ، والوصف كقولك : إنسان واحد ، ودار واحدة . ومعنى إله أنه يحق له العبادة ، وغلط الرماني ، فقال : هو المستحق للعبادة ، ولو كان كما قال لما كان تعالى إلها فيما لم يزل ، لأنه لم يفعل ما يستحق به العبادة . ومعنى ماقلناه : أنه قادر على ما إذا فعله استحق به العبادة . وقيل معنى إله انه منعم بما يستحق به العبادة ، وهذا باطل لما قد بيناه ، ولا يجوز أن يحيا أحد من الخلق بالالهية، لانه يستحيل ان يقدر أحد سوى الله على ما يستحق به العبادة من خلق الأجسام، والقدرة، والحياة، والشهوة، والنفاد، وكمال العقل، والحواس وغير ذلك، فلا تصح الالهية الا له، لأنه القادر على ماعددناه، والآية تتصل بما قبلها وبما بعدها، فاتصالها بما قبلها ، كاتصال الحسنة بالسيئة ، لتمحو أثرها ، وتحذر من مواقعتها ، لأنه لما ذكر الشرك ، وأحكامه أتبع ذلك بذكر التوحيد وأحكامه ، واتصالها بما بعدها كاتصال الحكم بالدلالة على صحته ، لأن ما ذكر في الآية التي بعدها حجة على صحة التوحيد. فان قيل : كيف يتصل الوصف بالرحمة بما قبله ؟ قلنا ، لأن العبادة تستحق بالنعمة التي هي في أعلى مرتبة ، ولذلك بولغ في الصفة بالرحمة ، ليدل على هذا المعنى .

الاعراب :

و (هو) في موضع رفع ، ولا يجوز النصب ، ورفعه على البدل من موضع (لا) مع الاسم ، كقولك : لا رجل إلا زيد كأنك قلت : ليس إلا زيد - فيما تريد من المعنى - إذا لم يعتد بغيره ، ولا يجوز النصب على قولك : ما قام احد إلا زيداً ، لان البدل يدّل على أن الاعتماد على الثاني ، والمعني ذلك ، والنصب يدّل على أن الاعتماد في الاخبار إنما هو على الاول ، وقوله تعالى : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ إثبات لله تعالى وحده وهو بمنزلة قولك : الله إله وحده ، وإنما كان كذلك لأنه القادر على ما يستحق به الالهية ، ولا يدل على النفي في هذا الخبر من قبل أنه لم يدّل على إله موجود ، ولا معدوم سوى الله عزّ وجل ، لكنه نقيض لقول من إدّعى إلهاً مع الله. وإنّما النفي إخبار بعدم شيء كما أن الاثبات إخبار بوجوده .

قوله تعالى :

﴿ إن في خَلقِ السَّماواتِ والأَرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلكِ الَّتي تَجري في البَحرِ بِما يَنفعُ النَّاسَ وما أنزلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فأحيا بِه الأرضَ بعدَ مَوتِها وبثَّ فيها من كلِّ دابَّةٍ وتصريفِ الرِّياحِ والسحابِ المسخَّرِ بينَ السماءِ والأَرضِ لآياتٍ لقومٍ يَعقلون ﴾ (١٦٤) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ نافع ، وابن كثير ، وابو عمرو ، وابن عاصم ، وابن عامر ﴿ الرّياح ﴾ على الجمع . الباقون على التوحيد ، ولم يختلفوا في توحيد ماليس فيه ألف ولام .

المعنى :

لما أخبر الله تعالى الكفار بأن إلههم إله واحد لاثاني له ، قالوا : ما الدلالة

على ذلك ؟ فقال الله عزّ وجل : ﴿ إنّ في خلق السماوات والارض ﴾ الآية الى آخرها.

ووجه الدّلالة من الآية ﴿ أن في خلق السماوات والارض ﴾ يدل على أنّ لها خالق ، لا يشبهها ولا تشبهه ، لانه لا يقدر على خلق الاجسام إلا القديم القادر لنفسه الذي ليس بجسم ، ولا عرض ، إذ جميع ذلك محدث ولا بدّ له من محدث ليس بمحدث ، لاستحالة التسلسل . وأما ﴿ الليل والنهار ﴾ ، فيدلان على عالم مدبر من جهة أنه فعل محكم ، متقن ، واقع على نظام واحد ، وترتيب واحد ، لا يدخل شيئاً من ذلك تفاوت ، ولا اختلاف .

وأما ﴿ الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ فتدل على منعم دبّر ذلك لمنافع خلقه ، ليس من جنس البشر ، ولا من قبيل الأجسام ، لان الاجسام يتعذر عليها فعل ذلك .

وأما الماء الذي ينزل من السماء ، فيدل على منعم به يقدر على التصريف فيما يشاء من الأمور ، لا يعجزه شيء .

وأمّا ﴿ إحياء الارض بعد موتها ﴾ ، فيدل على الانعام بما يحتاج اليه العباد . وإحياؤها : إخراج النبات منها ، وأنواع الثمار ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ دالّ على ان لها صانعاً مخالفاً لها منعماً بأنواع النعم . ﴿ وتصريف الرياح ﴾ يدل على الاقتدار على ما لا يتأتى من العباد ولو حرصوا كل الحرص ، واجتهدوا كل الاجتهاد ، لأنه إذا ذهبت جنوباً مثلا ، فاجتمع جميع الخلق على أن يقلبوها شمالا أو صباً أو دبوراً ، لما قدروا على ذلك ، ولا تمكنوا على ردّه من الجهة التي يجيء منها .

وأما ﴿ السحاب المسخر ﴾ فيدل على أنه يمسكه القديم ، والذي لا شبه له ولا نظير ، لأنه لا يقدر على تسكين الأجسام الثقال بغير علاقة ولا دعامة إلا الله تعالى ، وكذلك لا يقدر على تسكين الارض كذلك إلا القادر لنفسه ، ، فهي تدل على صانع غير مصنوع قديم لا يشبهه شيء ، قادر لا يعجزه شيء ، عالم لا يخفى عليه شيء ، حي لا يموت واحد ليس كمثله شيء ، سميع بصير ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات

ولا في الارض ﴾ (١) لان صفات النقص لا تجوز عليه تعالى . ويدل على أنه منعم بما لا يقدر غيره على الانعام بمثله (٢) ، أنه يستحق بذلك العبادة دون غيره .

اللغة :

والخلق هو الاحداث للشيء على تقدير من غير احتذاء على مثال ، ولذلك لا يجوز إطلاقه إلا في صفات الله ، لأنه ليس أحد ـ جميع أفعاله على ترتيب من غير احتذاء على مثال ـ إلا الله تعالى . وقد استعمل الخلق بمعنى المخلوق كما استعمل الرضى بمعنى المرضى ، وهو بمنزلة المصدر ، وليس معنى المصدر معنى المخلوق ، واختلف أهل العلم فيه إذا كان بمعنى المصدر ، فقال قوم : هو الارادة له . وقال آخرون : إنما هو على معنى مقدر ، كقولك : وجود وعدم ، وحدوث وقدم ، وهذه الاسماء تدل على مسمى مقدر للبيان عن المعاني المختلفة وإلا فالمعنى بما هو الموصوف في الحقيقة . وإنما جمعت السماوات ووحدت الأرض ، لأنه لما ذكرت السماء بأنها سبع في قوله تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ﴾ (٣) وقوله : ﴿ خلق سبع سموات ﴾ (٤) جمع لئلا يوهم التوحيد معنى الواحدة من هذه السبع . وقد دل مع ذلك قوله ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ (٥) على معنى السبع ، ولكنه لم يجر على جهة الافصاح بالتفصيل في اللفظ . ووجه آخر : وهو أن الأرض لتشاكلها تشبه الجنس الواحد ، كالرجل ، والماء الذي لا يجوز جمعه إلا أن يراد الاختلاف ، وليس تجري السماوات مجرى الجنس ، لأنه دبر في كل سماء أمرها . والتدبير الذي هو حقها .

وفي اشتقاق قوله ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ قولان :

احدهما ـ من الخلف ، لأن كل واحد منهما يخلف صاحبه على وجه المعاقبة له .

والثاني ـ من اختلاف الجنس كاختلاف السواد والبياض ، لأن أحدهما لا يسد مسد الآخر في الادراك . والمختلفان مالا يسد أحدهما مسد الآخر فيما يرجع الى ذاته .

« ١ » سورة سبأ آية : ٣　　　« ٢ » في المطبوعة (لمثله)
« ٣ » سورة البقرة آية : ٢٩　　« ٤ » سورة الطلاق آية : ١٢ ، وسورة الملك آية : ٣
« ٥ » سورة الطلاق آية : ١٢

والنهار : إتساع الضياء ، وأصله الاتساع ، ومنه قول الشاعر : (١)

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها (٢)

أي أوسعت ، و يصلح ان يكون من النهر أي جعله كالنهر . والنهر أوسع مجاري الماء ، فهو أوسع من الجدول ، والساقية . وإنما جمعت الليلة ، ولم يجمع النهار لأن النهار بمنزلة المصدر ، كقولك : الضياء ، يقع على الكثير والقليل ، فأما الليلة ، فمخرجها مخرج الواحد من الليل على أنه قد جاء جمعه على وجه الشذوذ . قال الشاعر :

لولا الثريدان هلكنا بالضُّمر ثريد ليل وثريد بالنُّهر (٣)

والفلك : السفن يقع على الواحد ، والجمع بلفظ واحد ، ومنه قوله : ﴿ في الفلك المشحون ﴾ (٤) ومنه ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ (٥) والفلك : فلك السماء ، قال الله تعالى : ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ (٦) . وكل مستدير فلك ، والجمع أفلاك وقال صاحب العين : قيل : اسم للدوران خاصة . وقيل : بل اسم لأطواق سبعة فيها النجوم . وفلكت الجارية إذا استدار ثديها . والفلكة : فلكة المغزل معروف . وفلكة الجدي ، وهو قضيب يدار على لسانه لئلا يرضع . واصل الباب الدور ، والفلك السفينة لأنها تدور بالماء أسهل دور . وإنما جعل الفلك الواحد ، والجمع بلفظ واحد ، لأن فعل وفعل (٧) يشتركان كثيراً : العرب ، والعرب ، والعجم ، والعُجم ، والبخل والبخل .

« ١ » هو قيس بن الخطيم .

« ٢ » اللسان (نهر) ملكت : شددت وقويت . أنهرت فتقها : وسعته حتى جعلته نهراً . يصف طعنة ، فشبهها اولا بالنهر ثم شبهها بالنافذة بقوله : يرى قائم ...) وهذا في غاية المبالغة .

« ٣ » اللسان (نهر) ، وتهذيب الألفاظ : ٤٢٢ ، والمخصص ٩ : ٥١ . ورواية اللسان ، والمخصص « لمتنا » بدل « هلكنا » . الضمر ـ بضم الميم ، وسكونها ـ الهزال ، وخاق البطن ، والضمر هنا : الجوع ، لأن المعنى لولا ثريد الليل وثريد النهار لمتنا جوعاً . والثريد : خبز يبل في ماء اللحم وغيره .

« ٤ » سورة يس آية : ٤١ « ٥ » سورة هود آية : ٣٧

« ٦ » سورة الانبياء آية : ٣٣ ، وسورة يس آية ٤٠

« ٧ » فعل الاولى ـ بفتح الفاء والعين ـ والثانية ـ بضم الفاء وسكون العين ـ ، وكذلك كل ما مثل به من الكلمات المتفقة في المادة في هذا الموضع .

ومن قال في أسد : أسد . قال في فلك : فلك ، فجمعه على فُعل . وإنما أنث الفلك إذا أريد به الجمع ، كقولك : السفن التي تجري في البحر .

وقوله : ﴿ وما أنزل الله من السماء ﴾ يعني من نحو السماء عند جميع المفسرين. وقال قوم : السماء تقع على السحاب ، لأن كل شيء علا فوق شيء ، فهو سماء له. فان قيل : هل السحاب بخارات تصعد من الأرض ؟ قلنا ذلك جائز لا يقطع به ، ولا مانع ايضاً من صحته من دليل عقل ، ولا سمع . والسماء : السقف ، فسماء البيت سقفه قال تعالى: ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ (١) فالسماء المعروفة سقف الارض. وأصل الباب السمو: وهو العلو . والسماء: الطبقة العالية على الطبقة السافلة إلا أنها صارت بمنزلة الصفة على السماء المعروفة : وهي التي من أجل السمو كانت عالية على الطبقة السافلة . والأرض الطبقة السافلة . يقال : أرض البيت وأرض الغرفة ، فهو سماء لما تحته من الطبقة ، وارض لما فوقه ، وقد صار الاسم كالعلم على الأرض المعروفة . وإنما يقع على غيرها بالاضافة .

والليل هو الظلام المعاقب للنهار . وقد يقال لما لا يصل اليه ضوء الشمس : هو الليل وإن كان النهار موجوداً . والبحر : هو الخرق الواسع الماء الذي يزيد على سعة النهر . والمنفعة : هي اللذة ، والسرور وما أدى إليهما ، أو إلى كل واحد منهما . والنفع ، والخير ، والحظ نظائر ، وقد تكون المنفعة بالآلام إذا أدت الى لذات . والاحياء : فعل الحياة . وحياة الارض : عمارتها بالنبات ، وموتها إخرابها بالجفاف الذي يمتنع معه النبات . والبث : التفريق ، وكل شيء بثثته ، فقد فرقته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كالفراش المبثوث ﴾ (٢) ، وتقول : انبث الجراد في الأرض ، وتقول : بثثته سري ، وابثثته إذا أطلعته عليه . والبث : ما يجده (٣) الرجل من كرب ، أو غم في نفسه ، ومنه قوله : ﴿ أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ (٤) . وأصل الباب التفريق . وقال صاحب العين : كل شيء مما خلق الله يسمى دابة مما يدب ، وصار بالعرف اسماً

« ١ » سورة الانبياء آية : ٣٢   « ٢ » سورة القارعة آية : ٤

« ٣ » في المطبوعة « مايمجده »   « ٤ » سورة يوسف آية : ٨٦

لما ركب ، ويقولون للبرذون : دابة وتصغيرها دويبة . ودب النمل يدب دبيبه . ودب الشراب بالانسان دبيباً . ودب القوم إلى العدو أي مشوا على هيئتهم لم يشرعوا . والدبابة تتخذفي الحروب ، ثم يدفع إلى أصل حصن فينقبون وهم في جوف الدبابة(١) والدب : نوع من السباع ، والانثى دبه . والدبة لزوم حال الرجل في فعاله . ركب فلان دبة فلان ، وأخذ بدبته أي عمل بعمله .

وقوله تعالى : ﴿ وتصريف الرياح ﴾ التصريف والتقليب والتمليك نظائر . وتصريف الرياح تصرفها من حال إلى حال ، ومن وجه إلى وجه ، وكذلك تصرف الخيول ، والسيول ، والأمور . وصرف الدهر تقلبه ، والجمع صروف . والصريف : اللبن إذا سكنت رغوته . وقال بعضهم : لا يسمى صريفاً حتى يتصرف به الضرع . والصريف صريف الفحل بنابه حتى يسمع لذلك صوت ، وكذلك صريف البكرة . وعنز صارف : إذا أرادت الفحل . والصرف : صبغ أحمر ، قال الاصمعي : هو الذي يصبغ به الشرك . والصرف : فضل الدرهم على الدرهم في الجودة . وكذلك بيع الذهب بالفضة ، ومنه اشتق إسم الصيرفي ، لتصريفه أحدهما في الآخر . والصرف : النافلة . والعدل : الفريضة . والصرفة : منزل من منازل القمر : كوكب إذا طلع قدام الفجر ، فهو أول الخريف ، وإذا غاب من طلوع الفجر ، فذاك أول الربيع . والصرف : الشراب غير ممزوج . والصرفان تمر معروف ، أوزنه وأجوده . وأصل الباب : القلب عن الشيء . والسحاب : مشتق من السحب وهو جرك الشيء على وجه الأرض ، تسحبه سحباً كما تسحب المرأة ذيلها ، وكما تسحب الريح التراب ، وسمي السحاب سحاباً ، لا نسحابه في السماء وكل منجر منسحب .

والتسخير ، والتذليل ، والتمهيد نظائر . تقول : سخر الله لفلان كذا إذا سهله له ، كما سخر الرياح لسليمان . وسخرت الرجل تسخيراً إذا اضطهدته ، فكلفته عملا بلا أجرة . وهي السخرة ، وسخرمنه إذا استهزأ به ، قال الله تعالى ﴿ فيسخرون

« ١ » في المطبوعة « دابة »

منهم سخر الله منهم ﴾ (١) وقال ﴿ فاتخذتموهم سخريا ﴾ (٢) من الاستهزاء ، وسخريا من تسخير الحول وما اشبهه . واصل الباب : التسخير : التذليل .

المعنى :

وقيل في تصريف الرياح قولان : احدها — هبوبها شمالا وجنوباً وصبا ودبوراً . والثاني -قيل مجيؤها بالرحمة مرة وبالعذاب أخرى . وهوقول قتادة .

وقوله : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ فيه قولان : احدها ـ أنه عام لمن استدل به ، ومن لم يستدل من العقلاء . والثاني ـ أنه خاص لمن استدل به كما قال : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ (٣) وكما قال ﴿ هدى للمتقين ﴾ (٤) لما كانوا هم الذين اهتدوا بها وخشوا عند مجيئه أضيف إليهم وإنما أضيفت الآيات الى العقلاء لامرين : أحدها ـ لأنها نصبت لهم . والثاني ـ لأنها لا يصح أن يستدل بها سواهم .

اللغة :

قال ابو زيد : قال القيسيون : الرياح أربع : الشمال ، والجنوب ، والصبا ، والدبور . فأما الشمال عن يمين القبلة والجنوب عن شمالها والصبا والدبور متقابلتان ، فالصبا من قبل المشرق والدبور من قبل المغرب واذا جاءت الريح بين الصبا والشمال ، فهي النكباء التي لا يختلف فيها . والتي بين الجنوب والصبا ، فهي الجربياء ، وروى ابن الاعرابي عن الاصمعي ، وغيره : ان الرياح اربع : الجنوب ، والشمال ، والصبا ، والدبور . قال ابن الاعرابي : كل ريح بين ريحين ، فهي نكباء . قال الاصمعي : اذا انحرفت واحدة منهن ، فهي نكباء ، وجمعها نكب . فاما مهبهن ، فان ابن الاعرابي قال : مهب الجنوب من مطلع سهيل الى مطلع الثريا ، والصبا من مطلع الثريا الى بنات نعش ، والشمال من بنات نعش الى مسقط النسر الطائر ، والدبور من مسقط النسر الطائر الى مطلع سهيل ، والجنوب ، والدبور لها هيف والهيف : الريح الحارة ، والصبا ، والشمال : لاهيف لها . وقال

« ١ » سورة التوبة آية : ٨٠ « ٢ » سورة المؤمنون آية : ١١١
« ٣ » سورة النازعات آية : ٤٥ « ٤ » سورة البقرة آية : ٢

الأصمعي : ما بين سهيل الى طرف بياض الفجر : جنوب . وما بان انهما هما ، يستقبلهما من الغرب: شمال ، وما جاء من وراء البيت الحرام فهو دبور ، وما جاء قبالة ذلك ، فهو صبا . وتسمى الصّبا قبولا ، لأنها تستقبل الدّبور ، وتسمى الجنوب الازيب ، والنعامى . وتسمى الشمال محوة ولا تصرف ، لأنها تمحوا السحاب وتسمى الجربياء ، وتسمى مسعا ، وتسما وتسمى الجنوب اللاقح . والشمال حائلا ، وتسمى ايضاً عقيما ، وتسمى الصبا عقيما ايضاً . قال الله تعالى : « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » (١) وهي التي لا تلقح السحاب . والذاريات التي تذروا التراب ذرواً .

ومن قرأ بلفظ الجمع ، فلأن كل واحدة من هذه الرياح مثل الاخرى في دلالتها على التوحيد وتسخيرها لنفع الناس . ومن وحّد أراد به الجنس كما قالوا أهلك الناس الدينار ، والدرهم .

قوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ . (١٦٥) آية بلا خلاف

القراءة :

قرأ نافع وابن عامر ، وأبو جعفر من طريق النهرواني « ولو ترى » بالتاء . الباقون بالياء . وقرأ أبو جعفر ، ويعقوب « إن القوة لله ، وإن الله » بكسر الهمزة فيهما . الباقون بفتحهما . وقرأ ابن عامر وحده « إذ يرون » بضم الياء . والباقون بفتحها .

اللغة :

الانداد ، والامثال ، والاشباه نظائر ، والانداد (٢) واحدها ندّ . وقيل

« ١ » سورة الذاريات آية : ٤١ .		« ٢ » في المطبوعة (الانداد) ساقطة .

الاضداد . وأصل النّد المثل المناوي والمراد به هنا قال قتادة ، والربيع ، ومجاهد ، وابن زيد . وأكثر المفسرين آلهتهم التي كانوا يعبدونها . وقال السدي : رؤساؤهم الذين يطيعونهم طاعة الارباب من الرجال . وقوله تعالى « يحبونهم » فالمحبة هي الارادة إلا ان فيها حذفاً ، وليس ذلك في الارادة فاذا قلت: أحب زيداً معناه أريد منافعه أو مدحه ، وإذا أحب الله تعالى عبداً فمعناه أنه يريد ثوابه وتعظيمه ، وإذا قال : أحب الله معناه أريد طاعته واتباع أوامره ، ولا يقال: أريد زيداً ، ولا أريد الله ولا إن الله يريد المؤمن ، فاعتيد الحذف في المحبة ، ولم يعتد في الارادة . وفي الناس من قال : المحبة ليست من جنس الارادة ، بل هي من جنس ميل الطبع ، كما تقولون: أحب ولدي أي يميل طبعي اليه . وذلك مجاز ، بدلالة أنهم يقولون : أحببت أن أفعل بمعنى أردت أن أفعل . وضدّ الحب البغض . وتقول : أحبه حبّا ، وتحبب تحبباً ، وحببه تحبيباً ، وتحابا تحاباً . والمحبة : الحب . والحب واحده حبة من بر ، أوشعير ، أو عنب . أو ما أشبه ذلك . والحبة بزور البقل . وحبة القلب ثمرته . والحب : الجرة الضخمة . والحب القرط من حبة واحدة . وحباب الماء : فقاقيعه . والحباب الحية . وأحب البعير إحباباً : إذا برك ، فلا يثور ، كالحران في الخيل ، قال أبو عبيدة : ومنه قوله تعالى « أحببت حب الخير عن ذكر أبي » (١) أي لصقت بالأرض لحب الخير ، حتى تأتيني الصلاة . وأصل الباب : الحب ضد البغض .

المعنى :

وقوله : « كحب الله » قيل في هذه الاضافة ثلاثة أقوال : أحدها ـ كحبكم الله . والثاني ـ كحبهم الله . والثالث ـ كحب الله الواجب عليهم لا الواقع منهم ، كما قال الشاعر :

فلستُ مسلماً ما دمت حيّاً على زيد بتسليم الأمير (٢)

« ١ » سورة ص آية : ٣٢ .

« ٢ » البيان والتبيين ٤ : ٥١ ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ١٠٠ ، وأمالي الشريف المرتضي ١ : ٢١٥ . ولم نعرف قائله .

أي مثل تسليمي على الامير . فان قيل : كيف يحب المشرك ـ الذي لا يعرف الله ـ شيئاً كحبه لله ؟ قلنا من قال : إن الكفار يعرفون الله قال : كحبه لله . ومن قال : هم لا يعرفون الله ـ على ما يقوله أصحاب الموافاة ـ قال : معناه كحب المؤمنين لله أو كالحب الواجب عليهم .

وقوله تعالى : « والذين آمنوا أشد حباً لله » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ « أشد حبّا لله » للاخلاص له من الاشراك به

والثاني ـ لانهم عبدوا من يملك الضر والنفع ، والثواب ، والعقاب ، فهم أشد حباً لله بذلك ممن عبد الأوثان .

الاعراب :

ويجوز فتح « أن » من ثلاثة أوجه ، وكسرها من ثلاثة أوجه ـ مع القراءة بالياء ـ :

أولها ـ يجوز فتحها بايقاع الفعل عليها بمعنى المصدر . وتقديره « ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب » قوة الله وشدة عذابه .

الثاني ـ أن يفتح على حذف اللام كقولك : لأن القوة لله .

الثالث ـ على تقدير لرأوا أن القوة لله ، على الاتصال بما حذف من الجواب .

والأول من الكسر على الاستئناف . الثاني ـ على الحكاية مما حذف من الجواب كأنه قيل : لقالوا إن القوة لله جميعاً . الثالث ـ على الاتصال مما حذف من الحال ، كقولك : يقولون : إن القوة لله .

ومن قرأ بالتاء ، يجوز ايضاً في الفتح ثلاثة أوجه . وفي الكسر ثلاثة أوجه :

أول الفتح ـ على البدل ، كقولك : ولو ترى الذين ظلموا أن القوة لله عليهم ، وهو معنى قول الفراء . الثاني ـ لأن القوة لله . الثالث ـ أرأيت أن القوة لله . قال أبو علي الفارسي : من قرأ بالتاء لا يجوز أن تنصب أن إلا بالفعل المحذوف ـ في الجواب . وأما البدل فلا يجوز ، لأنها ليست « الذين ظلموا » ولا بعضهم ولا مشتملة

عليهم ، هذا إن جعل الرؤية من رؤية البصر . وإن جعلها من رؤية القلب ، فلا يجوز ايضاً ، لأن المفعول الثاني في هذا الباب هو الأول في المعنى ، وقوله تعالى : « إن القوة لله » لا يكون الذين ظلموا ، فلم يبق بعد ذلك إلا أنه ينتصب بفعل محذوف . والكسر مع التاء مثل الكسر مع الياء . واختار الفراء – مع الياء – الفتح ، ومع التاء الكسر ، لأن الرؤية قد وقعت على الذين ، وجواب لو محذوف ، كأنه قيل : لرأوا مضرة اتخاذهم للأنداد ، ولرأوا أمراً عظيما لا يحصر بالاوهام . وحذف الجواب ، يدل على المبالغة ، كقولك : لو رأيت السياط تأخذ فلاناً .

والضمير في قوله « يتخذ » عائد على لفظ من . وفي قوله يحبونهم على معنى من ، لأن من مبهم ، فمرة يحمل الكلام منها على اللفظ ، وأخرى على المعنى ، كما قال : « ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً » (١) – بالتاء ، والياء – حملا لمن على اللفظ والمعنى .

واتصلت الآية بما قبلها اتصال انكار ، كأنه قال : أبعد هذا البيان والأدلة القاهرة على وحدانيته ، يتخذون الأنداد من دون الله .

ومن قرأ قوله « ولو ترى » – بالتاء – جعل الخطاب للنبي (ص) والمراد به غيره ، كما قال : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء » (٢) . والذين على هذا في موضع نصب . ومن قرأ بالياء يكون الذين في موضع رفع بأنهم الفاعلون .

وقوله « جميعاً » نصب على الحال ، كأنه قيل : إن القوة لله ثابتة لله في حال اجتماعها . وهي صفة مبالغة بمعنى إذا رأوا مقدورات الله فيما تقدم الوعيد به ، علموا أن الله قادر لا يعجزه شيء .

والشدة قوة العقد ، وهو ضد الرخاوة . والقوة والقدرة واحد . و (ترى) في قوله تعالى : « ولو ترى » من رؤية العين بدلالة أنها تعدت الى مفعول واحد ، لأن التقدير ولو ترون أن القوة لله جميعاً أي ولو يرى الكفار ذلك .

« ١ » سورة الاحزاب آية : ٣١ .

« ٢ » سورة الاطلاق آية : ١

ومن قرأ ـ بالتاء ـ يقوى انها المتعدية الى مفعول واحد ، ويدل على ذلك ايضاً قوله « إذ يرون العذاب » ، وقوله : « وإذا رأى الذين ظلموا العذاب » « فلا يخفف عنهم » ، فتعدى الى مفعول واحد . فان قيل : كيف قال : « ولو يرى الذين ظلموا » وهو أمر مستقبل ، وإذ لما مضى ؟ قيل : إنما جاء على لفظ المضي لارادة التقريب في ذلك ، كما جاء « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » (١) وعلى هذا جاء في هذا المعنى أمثلة الماضي كقوله : « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة » (٢) . هكذا ذكره أبو علي الفارسي قال : وعلى هذا المعنى جاء في مواضع كثيرة في القرآن ، كقوله تعالى « ولو ترى إذ وقفوا على ربهم » (٣) « ولو ترى إذ وقفوا على النار » (٤) « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » (٥) « ولو ترى إذ فزعوا ، فلا فوق » (٦) « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة » (٧) . كذلك هذه الآية .

قوله تعالى :

إذ تَبرَّأَ الَّذينَ اتبعوا مِنَ الَّذينَ اتَّبعوا ورأَوُا العذابَ وَتقطَّعت بِهمُ الأَسبابُ (١٦٦) آية واحدة بلا خلاف

الاعراب واللغة :

العامل في (إذ) قوله تعالى : « وإن الله شديد العقاب إذ تبرأ الذين » كأنه قيل وقت تبرأوا .

والتبرّء : التباعد للعداوة ، فاذا قيل تبرّأ الله من المشركين معناه باعدهم من رحمته ، وكذلك إذا تبرّء الرسول منهم معناه باعدهم ـ للعداوة ـ عن منازل من

---

(١) سورة النحل آية : ٧٧ .

(٢) سورة الاعراف آية : ٥٠ .

(٣) سورة الانعام آية : ٣٠ .

(٤) سورة الانعام آية : ٢٧ .

(٥) سورة سبأ آية : ٣١ .

(٦) سورة سبأ آية : ٥١ .

(٧) سورة الانفال آية : ٥١ .

لا يجب له الكراهة .

والتبرء في أصل اللغة ، والتزيل ، والتقصي نظائر . وضد التبرء التولي .

والاتباع : طلب الاتفاق في مكان ، أو مقال ، أو فعال ، فاذا قيل اتبعه ليلحقه ، فمعناه ليتفق معه في المكان ، واذا تبعه في مذهبه أو في سيره أو غير ذلك من الاحوال ، فمعناه طلب الاتفاق .

و « اتبعوا » ظمت الألف فيه لضمة الثالث ، وضمة الثالث لما لم يسم فاعله ، لأنه إنما يضم له أول المتحرك من الفعل فيما بني عليه ، والف الوصل لا يعتد به ، لأنه وصلة الى التكلم بالساكن فاذا اتصل بمتحرك ، استغني عنه .

المعنى :

والمعني بقوله : « الذين اتبعوا » رؤساء الضلالة من الانس . وقال قوم : هم من الجن . وقيل : من الجميع . والأول ـ قول قتادة ، والربيع ، وعطا . والثاني ـ قول السدي .

وقوله تعالى : « وتقطعت بهم الأسباب » فالتقطع : التباعد بعد الاتصال . والسبب : الوصلة الى التعذر عما يصلح من الطلب . ومعنى الأسباب هاهنا . قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال مجاهد . وقتادة ، والربيع ، وفي رواية عن ابن عباس : هي الوصلات التي كانوا يتواصلون عليها .

الثاني ـ روي عن ابن عباس : أنها الأرحام التي كانوا يتقاطعون بها .

الثالث ـ قال ابن زيد : الأعمال التي كانوا يوصلونها . وقال الجبائي : تقطعت بهم اسباب : النجاة .

اللغة :

والسبب : الحبل . والسبب : ما تسببت به من رحم ، أو يد ، أو دين . ومنه قوله : « فليرتقوا في الأسباب » (١) . تقول العرب . إذا كان الرجل ذا دين :

(١) سورة ص آية : ١٠

ارتقا في الأسباب . والسبّ : الشتم . والسبّ : القطع . والسبّ : الشقة البيضاء من الثياب ، وهي السبيبة (١) ، ومضت سبة من الدهر أي ملاوة . والسب : الوتد . والسبابة : ما بين الوسطى والابهام . والتسبب : التوصل الى ما هو منقطع عنك . ويقال : تسبب يتسبب تسبباً ، واستبّوا استباباً ، وسبب تسبيباً ، وسابّه مسابّة .

قوله تعالى :

وَقالَ الّذينَ اتّبعوا لو أنّ لنا كرةً فنتبرّأ منهم كما تبرءوا منّا كذلكَ يُريهمُ اللهُ أعمالهمْ حسراتٍ عليهمْ وماهمْ بخارجينَ منَ النّارِ (١٦٧) آية بلا خلاف .

المعنى :

المعني بقوله : « وقال الذين اتبعوا » هم الذين تبرءوا منهم : ساداتهم الذين اتبعوهم « لو أن لنا كرة » يعني رجعة الى دار الدنيا ، قال الاخطل :

ولقد عطفن على فزارةَ عطفة　　كرّ المنيح وجلن ثم مجالا (٢)

فالعامل في « لوأن » محذوف ، كأنه قال : لو صح أنّ لنا كرة ، لأن (لو) في التمني ، وغيره تطلب الفعل . وإن شئت قدرته : لو ثبت أنّ لنا كرة .

اللغة :

والكرّ نقيض الفر تقول : كرّ يكر كراً ، وكرة ، وتكرّر تكرراً ، وكرر

« ١ » وفي لسان العرب (سبب) السب ، والسبيبة : الشقة ، وخص بعضهم به الشقة البيضاء .

« ٢ » ديوانه : ٤٨ ، ونقائض جرير والأخطل : ٧٩ . في المطبوعة (المسيح) بدل (المنيح) وفي الديوان (قدارة) بدل (فزاره) . وفزارة : ابن ذبيان بن بغيض . والمنيح : قدح لاحظ له في الميسر . والمنيح اسم رجل من بني أسد من بني مالك . ومعنى البيت : لقد هاجمنام في الحرب بشدة ومراس مثل ما يهاجم المنيح .

تكريراً، وتكراراً. والكرة والفرة متقابلان. والكرّ والرجع والفتل نظائر في اللغة قال صاحب العين: الكر الرجوع عن الشيء ومنه التكرار. والكرّ الحبل الغليظ. وقيل: الشديد الفتل. والكرير صوت في الحلق. والكرير: نهر. والكرة: سبرقين وتراب، يدق، ويجلا به الدّروع.

وقوله «فنتبرء منهم» فالتبرء والانفصال واحد، ومنه برئ من مرضه: اذا انفصل منه بالعافية. ومنه برئ من الدين براءة. وبرئ الله من الخلق.

الاعراب:

وانتصب «فنتبرّء» على أنه جواب التمني ـ بالفاء ـ كأنه قال: لو كان لنا كرة فتبرّءاً (١) وكلما عطف للفعل على تأويل المصدر، نصب باضمار (أن). ولا يجوز اظهارها.

المعنى:

وقوله: «كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات» وذلك لانقطاع الرجاء من كل واحد منهما. وقيل ايضاً: كما أراهم العذاب يريهم أعمالهم حسرات عليهم. وذلك، لأنهم أيقنوا بالهلاك في كل واحد منهما. والعامل في الكاف يريهم.

والأعمال التي يرونها حسرات قيل فيها ثلاثة أقوال:

أحدها ـ المعاصي يتحسرون عليها لم عملوها.

الثاني ـ الطاعات يتحسرون عليها لم لم يعملوها، وكيف ضيعوها، ومثله «زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون» (٢) أي أعمالهم التي فرضناها عليهم، أو ندبناهم اليها.

«١» في المطبوعة نسختين احداها نفس الآية، وهذا لا يجوز مع قوله كأنه، لأن التشبيه يقتضي التغاير بين المشبه، والمشبه به حتى يكون بينهما اثنينية، والنسخة الثانية (كان لنا كرة ورفنتبرأ) وهذه ليس فيه معنى محصل، فلابد أن تكون خطأ، وفي مجمع البيان (ليت لنا كروراً فتبروءاً) ويدل على صحة ما أثبتنا تتمة الجملة. والمخطوطة هنا ناقصة بعض الاوراق.

«٢» سورة النمل آية: ٤.

وروي عن أبي جعفر (ع) أنه قال : هو الرجل يكتسب المال ، ولا يعمل فيه خيراً ،فيرثه من يعمل فيه عملاصالحاً ، فيرى الأول ماكسبه حسرة في ميزان غيره . فان قيل : لو جاز أن تضاف الأعمال التي رغبوا فيها ، ولم يفعلوها بأنها أعمالهم لجاز أن يقال : الجنة دارهم وحور العين أزواجهم لأنهم عرضوا لها ! قلنا لا يجب ذلك ، لأنا إنما حملنا على ذلك للضرورة . ولو سمى الله تعالى الجنة بأنها دارهم لتأولنا ذلك ، ولكن لم يثبت ذلك ، فلا يقاس على غيره .

الثالث ـ الثواب فان الله تعالى يريهم مقادير الثواب التي عرضهم لهـا لو فعلوا الطاعات فيتحسرون عليه ـ لم فرطوا فيه ـ والقول الأول قول الربيع ، وابن زيد ، واختيار الجبائي ، وأحد قولي البلخي . والثاني قول عبد الله ، والسدي ، وأحد قولي البلخي . وهو كما تقول الانسان أقبل على عملك وأعقدت عليه عملا قلت في عملك ، والذي أقوله : ان الكلام يحتمل أمرين : فلا ينبغي أن يقطع على واحد منهما إلا بدليل إلا ان الاول أقوى ، لانه الحقيقه . والله أعلم بمراده .

اللغة :

والحسرات : جمع الحسرة ، وهي أشد من الندامة . والفرق بينهما وبين الارادة ان الحسرة تتعلق بالماضي خاصه ، والارادة تتعلق بالمستقبل ، لان الحسرة انما هي على ما فات بوقوعه أو بتقضي وقته . وانما حركت السين ، لانه اسم على فعلة اوسطه ليس من حروف العلة ، ولو كان صفة لقلت : صعبات فلم يحرك ، وكذلك جوزات وبيضات . وانما حرك الاسم ، لانه على خلاف الجمع السالم ، إذ كان انما يستحقه ما يعقل .

والحسرة والندامة نظائر ، وهي نقيض الغبطة . وتقول : حسرت العمامة عن رأسي إذا كشفتها . وحسر عن ذراعيه حسراً، وانحسر انحساراً ، وحسره تحسيراً . والحاسر في الحرب الذي لا درع عليه ، ولا مغفر . وحسر يحسر حسرة وحسراً : اذا كمد على الشيء الفائت (١) ، وتلهف عليه . وحسرت الناقة حسوراً : اذا أعيت.

« ١ » في المطبوعة (اذا كمل على الشيء الغايب) وهو تحريف .

وحسر البصر اذا كلّ عن البصر : والمحسرة : المكنسة . والطير يتحسر : اذا خرج من ريشه العتيق الى الحديث . وأصل الباب الحسر : الكشف .

وفي الآية دلالة على انه كان فيهم قدرة على البراءة منهم ، لانهم لو لم يكونوا قادرين لم يجز أن يتحسروا على ما فات ، كما لا يتحسر الانسان لم لم يصعد الى السماء ، ولا من كونه في الارض .

قوله تعالى :

يا أيها النَّاسُ كلوا مِما في الأَرضِ حلالاً طيباً ولا تتَّبعوا خطوات الشَّيطانِ إنَّه لكم عدوٌّ مبينٌ (١٦٨) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ نافع ، وأبو عمر ، وحمزة ، وخلف ، وأبو بكر إلا البرجمي ، والبزي إلا ابن مرج والربيبي إلا الولي « خطوات » بسكون الطاء حيث وقع . الباقون بضمها .

اللغة :

الأكل : هو البلع عن مضغ ، وبلع الحصاليس بأكل في الحقيقة ، وقد قيل : النعام يأكل الجمر ، فأجروه مجرى فلان يأكل الطعام . ويقال : مضغه ولم يأكله . والحلال : هو الجائز من أفعال العباد ، مأخوذ من أنه طلق ، لم يعقد بحظر . والمباح هو الحلال بعينه ، وليس كل حسن حلالا ، لأن أفعاله تعالى حسنة ولا يقال : انها حلال ، إذ الحلال اطلاق في الفعل لمن يجوز عليه المنع . وتقول : حل يحل حلالا ، وحلّ يحل حلولا ، وحل العقد حلا ، وأحله إحلالا ، واستحلّ استحلالا ، وتحلل تحللا واحتل احتلالا ، وتحالوا تحالا ، وحاله محالة ، وحلله تحليلا ، وانحل انحلالا ، وحل العقد يحله حلا ، وكل جامد أذبته فقد حللته ، وحل بالمكان اذا نزل به ، وحل الدين محلا ، وأحل من إحرامه وحل ، والحل : الحلال . ومن قرأ « يحلل » معناه ينزل ومن قرأ « يحل » معناه يجب ، وحلت عليه العقوبة أي وجبت . والحلال الجدي الذي يشق عن بطن

أمه ، وتحلة اليمين ، منه قول الشاعر : (١)

تحفي التراب بأضلاف ثمانية   في أربع مسهن الأرض تحليل(٢)

أي هين . والحليل ، والحليلة : الزوج والمرأة سميا بذلك ، لأنهما يحلان في موضع واحد . والحلة : أزار ، ورداء برد ، وغيره . لايقال حلة حتى يكون ثوبين . والاحليل مخرج اللبن من الضبي ، والفرس ، وخلف الناقة ، وغيرها ، وهو مخرج البول من الذكر . وأصل الباب : الحل نقيض العقد ، ومنه أحل من إحرامه ، لأنه حلّ عقد الاحرام بالخروج منه . وتحلة اليمين أخذ أقل القليل ، لأن عقدة اليمين تنحل به .

والطيب : هو الخالص من شائب ينغص ، وهو على ثلاثة أقسام : الطيب المستلذ ، والطيب الجائز ، والطيب الطاهر ، كقوله تعالى : « فتيمموا صعيداً طيباً » (٣) أي طاهراً . والاصل واحد ، وهو المستلذ إلا أنه يوصف به الطاهر ، والجائز تشبيهاً إذ ما يزجر عنه العقل أو الشرع ، كالذي تكرهه النفس في الصرف عنه ، وما تدعو اليه بخلاف ذلك . وتقول : طاب طيباً ، واستطاب استطابة ، وطايبه مطايبة ، وتطيب تطيباً ، وتطيبه تطييباً ، والطيب : الحلال والنضيف ، والطهور ، من الطيب . وأصل الباب : الطيب خلاف الخبيث .

والخطوة : بعد ما بين قدمي الماشي . والخطوة المرة من الخطو : وهو نقل قدم الماشي . وتقول : خُطوة ، وخَطوة واحدة . والاسم : الخطوة ، وجمعها خطىً ، وقوله تعالى : « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » أي لاتتبعوا آثاره ولا تقتدوا به . وأصل الباب الخطو : نقل القدم قدماً . والعدو : المباعد عن الخير الى الشر . والولي نقيضه .

« ١ » هو عبدة بن الطبيب .

« ٢ » اللسان « حلل » في المطبوعة (خفي) بدل (تحفي) والاصلاب بدل (الاضلاف)

« ٣ » سورة النساء آية : ٤٢ ، وسورة المائدة آية : ٧ .

المعنى :

وإنما قال : « حلالا طيباً » فجمع الوصفين ، لاختلاف الفائدتين : إذ وصفه بأنه حلال يفيد بأنه طلق . ووصفه بانه طيب مفيد أنه مستلذ إما في العاجل وإما في الآجل . و « خطوات الشيطان » هاهنا قيل فيه خمسة أقوال : فقال ابن عباس : أعماله . وقال مجاهد ، وقتادة : خطاياه ، وقال السدي : طاعتكم إياه . وقال الخليل : ايثاره . وقال قوم : هي النذور في المعاصي . وقال الجبائي : ما يتخطى بكم اليه بالأمر والترغيب . وروي أن هذه الآية نزلت ، لما حرم أهل الجاهلية من ثقيف ، وخزاعة ، وبني مدلج من الانعام ، والحرث : البحيرة والسائبة والوصيلة ، فنهى الله تعالى عما كانوا يفعلونه ، وأمر المؤمنين بخلافه . والاذن في الحلال يدل على حظر الحرام على اختلاف ضرور به ، وأنواعه ، فحملها على العموم أولى . والمآكل ، والمنافع في الأصل للناس فيها ثلاثة أقوال : فقال قوم : هي على الحظر . وقال آخرون: هي على الاباحة . وقال قوم : هي على الوقف . وحكى الرماني : أن فيهم من قال : بعضها على الحظر ، وبعضها على الاباحة . وقد بينا ما عندنا في ذلك في أصول الفقه إلا أن هذه الآية دالة على إباحة المآكل إلا ما دل الدليل على حظره . (١) وقوله: « انه لكم عدو مبين » في وصف الشيطان معناه أنه مظهر العداوة بما يدعوا اليه من خلاف الطاعة لله التي فيها النجاة من الهلاك ، والفوز بالجنة .

قوله تعالى :

إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) آية واحدة بلا خلاف .

اللغة :

الأمر من الشيطان هو دعاؤه الى الفعل ، فأما الأمر في اللغة ، فهو قول

« ١ » كل لفظة حظر في الاسطر المتقدمة فانها في المطبوعة « خطر » . والمخطوطة ناقصة في هذا الموضع . والصحيح ما أثبتناه لمقابلته بالحلال .

القائل لمن هو دونه : إفعل . واذا كان فوقه سمي ذلك دعاء ، ومسألة . وهل يقتضي الأمر الايجاب ، أو الندب ، ذكرناه في أصول الفقه ، فلا نطول بذكره هاهنا .

والسوء : كل فعل قبيح يزجر عنه العقل أو الشرع ، ويسمى ما تنفر عنه النفس سوء ، تقول : ساءني كذا يسوءني سوء . وقيل إنما سمي القبيح سوء ، لسوء عاقبته ، لأنه يلتذ به في العاجل ، ولا يخلوا المكلف من الزجر عن القبيح إما عقلا ، أو شرعاً ، ولو خلا منه لكان معرّى بالقبيح ، وذلك لا يجوز .

والسوء في الآية قيل فيه قولان : قال السدي : هو المعاصي . وقال غيره : ما يسوء الفاعل : يعني ما يضره . والمعنى قريب من الأول ، والأول هو الصحيح . والفحشاء : هو العظيم القبح في الفعل ، وكذلك الفاحشة . وقيل المراد به : الزنا من الفجور ، عن السدي . والفحشاء : مصدر فحش فحشاً ، كقولك : ضره ضراًوسره سرّاء وسرّا .والفحشاء ، والفاحشة ، والقبيحة ، والسيئة نظائر ، ونقيضها الحسنة . تقول : فحش فحشاً ، وأفحش إفحاشاً ، وتفاحش تفاحشاً ، وفحش تفحيشاً ، واستفحش استفحاشاً ، وكل من تجاوز قدره فهو فاحش . وأفحش الرجل : اذا قال فحشاً ، وكل شيء لم يكن موافقاً للحق ، فهو فاحشة . قال الله تعالى : « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » (١) يعني بذلك خروجها من بيتها بغير إذن زوجها المطلّق لها . وقال تعالى « وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي » (٢) والقول : كلام له عبارة تنبيء عن الحكاية ، وذلك ككلام زيد ، يمكن أن يأتي عمرو بعبارة عنه تنبيء عن الحكاية له فيقول : قال زيد كذا وكذا ، فيكون قوله : قال زيد ، يؤذن أنه يحكى بعده كلام ، وليس كذلك إذا قال : تكلم زيد لأنه لا يؤذن بالحكاية .

والعلم : ما اقتضى سكون النفس . وقيل : هو تبين الشيء على ما هو به للمدرك له .

---

(١) سورة الطلاق آية : ١ .

(٢) سورة النحل آية ٩٠ .

المعنى :

فان قيل : كيف يأمرنا الشيطان ونحن لا نراه، ولا نسمع كلامه ! قلنا : لما كان الواحد منا يجد من نفسه معنى الأمر بما يجد من الدعاء الى المعصية ، والمنازعة في الخطيئة ، وكان ما نجده من نفوسنا من الدعاء ، والاغواء إنما هو بأمر الشيطان الذي دلنا الله عليه ، وحذرنا منه ، صحّ إخبار الله بذلك . فان قيل : اذا كان الله عز وجل يوصل معنى أمره لنا الى نفوسنا ، فما وجه ذلك في الحكمة ، وهو لو أمر من غير إيصال معنى الأمر لم يكن في ذلك مضرة ؟ قلنا . في ذلك أكبر النعمة لأن التكليف لا يصح إلا مع منازعة الى الشيء المنهي عنه ، فكان ذلك من قبل عدوّ ، يحذره ، أولى من أن يكون المنازعة من قبل ولي يستنصحه . وفي ذلك المصلحة لنا بالتعريض للثواب الذي يستحقه بالمخالفة له ، والطاعة لله تعالى ، كما أن في خلقه مصلحة من هذه الجهة ، واذا كان إنما أفهمنا ذلك لنجتنبه ، فهو كتعليم شبهة ملحد ، لنعلم حلها .

وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال : إن المعارف ضرورة ، لأنها لو كانت ضرورة ، لما جاز أن يدعوهم الى خلافها ، كما لا يدعوهم الى خلاف ماهم مضطرون اليه من أن السماء فوقهم ، والأرض تحتهم ، وما جرى مجراه مما يعلم ضرورة لأن الدعاء الى ذلك يجري مجرى الدعاء الى خلق الأجسام ، وبعث الأموات ، لا يدخل تحت مقدور القدرة . وقد استدل نفاة القياس ، والقول بالاجتهاد بهذه الآية بأن قالوا : القول بالاجتهاد والقياس قول بغير علم ، وقد نهى الله عن ذلك فيجب أن يكون ذلك محظوراً ، ومذهبنا وإن كان المنع من القول بالاجتهاد ، فليس في هذه الآية دلالة على ذلك ، لأن للخصم أن يقول : اذا دلني الله تعالى على العمل بالاجتهاد ، فلا أعمل أنا به إلا بالعلم ، ويجري ذلك مجرى وجوب العمل عند شهادة الشاهدين ، والعمل بقول المقومين في أروش الجنايات ، وقيم المتلفات ، وجهات القبلة ، وغير ذلك من الأشياء التي هي واقعة على الظن شرط ، والعمل واقف على الدليل الموجب للعلم

عنده ، فلا يكون في الآية دلالة على ذلك . وقد بينا ما نعتمده في بطلان القول بالاجتهاد والرأي ـ في أصول الفقه ـ فلا وجه لذكره هاهنا .

قوله تعالى :

وإذا قِيلَ لهمْ اتَّبعوا ما أنزلَ اللهُ قالوا بَلْ نتَّبِعُ ما ألْفَينا عليهِ آباءَنا أوَلوْ كانَ آباؤُهمْ لا يَعقلونَ شَيئاً وَلا يَهتدونَ (١٧٠)

آية واحدة بلا خلاف .

ألفينا ، وصادفنا ، ووجدنا بمعنى واحد ، والأب ، والوالد واحد .

الاعراب :

وقوله تعالى : « أولو كان» هي واو العطف ، دخلت عليها حرف الاستفهام ، والمراد بها التوبيخ والتقريع ، فهي ألف التوبيخ . ومثل هذه الألف (١) « أثم اذا ما وقع » (٢) و « أفلم يسيروا فى الأرض » (٣) . وانما جعلت ألف الاستفهام للتوبيخ ، لأنه يقتضي ما الاقرار به فضيحة عليه ، كما يقتضي الاستفهام الاخبار ، مما يحتاج اليه .

المعنى :

والمعنى : إنهم يقولون ، هذا القول « وإن كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » . والفرق بين دخول الواو ، وسقوطها في مثل هـذا الكلام ، أنك اذا قلت : اتبعه ولو ضرك ، فمعناه اتبعه على كل حال ولو ضرك ، وليس كذلك اذا قال : اتبعه لو ضرك ، لأن هذا خاص ، والأول عام ، فانما دخلت الواو لهـذا المعنى .

« ١ » في المطبوعة (الواو) .

« ٢ » سورة يونس آية : ٥١

« ٣ » سورة يوسف آية : ١٠٩ ، وسورة الحج آية : ٤٦ ، وسورة المؤمن آية ٨٢ ، وسورة محمد آية : ١٠ .

ومعنى قوله : « لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » يحتمل شيئين :

أحدها ـ لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون إليه .

والثاني ـ على الشتم والذم ، كما يقال : هو أعمى اذا كان لا يبصر طريق الحق ـ على الذم ـ هذا قول البلخي . والأول قول الجبائي .

وفي الآية دلالة على بطلان قول أصحاب المعارف ، لأنها دلت على أنهم كانوا على ضلال في الاعتقاد .

والضمير في قوله : « هم » قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ انه يعود على (من) في قوله : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً » .

والثاني ـ انه يعود على (الناس) من « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيباً » فعدل عن المخاطبة الى الغيبة ، كما قال تعالى : « حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة » . (١)

الثالث ـ انه يعود على الكفار ، إذ جرى ذكرهم ، ويصلح أن يعود اليهم وإن لم يجر ذكرهم ، لأن الضمير يعود على المعلوم ، كما يعود على المذكور . وقال ابن عباس : إن النبي (ص) دعا اليهود من أهل الكتاب الى الاسلام ، فقالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم وخيراً منا ، فأنزل الله عز وجل « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله » الآية .

و« وألفينا » في الآية معناه وجدنا ـ في قول قتادة ـ قال الشاعر : (٢)

فألفيتــه　غير　مستعتب　　ولا ذاكر الله إلا قليلا (٣)

« ١ » سورة يونس آية : ٢٢

« ٢ » هو أبو الأسود الدؤلي .

« ٣ » ديوانه : ٤٩ ، والأغاني ١١ ١٠٧ ، وشرح شواهد المغني : ٣١٦ ، واللسان (عتب) وهو من أبيات قالها في امرأة كان يجلس اليها بالبصرة ، فقالت له : هل لك أن تتزوجني ، فاني امرأة صناع الكف ، حسنة التدبير قانعة بالميسور ، فتزوجها ثم وجدها على خلاف ما قالت ، فخانته وأسرعت في ماله ، وأفشت سره ، فردها الى أهلها ، وأنشد الأبيات ، فقالوا : بلى والله يا أبا الأسود ، فقال : هذه صاحبتكم ، واني أحب أن أستر ما أنكرت من أمرها ، ثم سلمها اليهم ،

والاتباع : طلب الاتفاق في المقال أو الفعال . أما في المقال ، فاذا دعا الى شيء استجيب له . وأما في الفعال ، فاذا فعل شيئاً ، فعلت مثله .

والعقل مجموعة علوم بها يتمكن من الاستدلال بالشاهد على الغائب . وقال قوم : هو قوة في النفس يمكن بها ذلك . والاهتداء الاصابة لطريق الحق بالعلم .

وفي الآية حجة عليهم من حيث أنهم اذا جاز لهم أن يتبعوا آباءهم فيما لا يدرون أحق هو أم باطل ، فلم لا يجوز اتباعهم مع العلم بأنهم مبطلون . وهذا في غاية البطلان .

وفيها دلالة على فساد التقليد ، لأن الله تعالى ذمهم على تقليد آبائهم ، ووبخهم على ذلك . ولو جاز التقليد لم يتوجه إليهم توبيخ ، ولا لوم ، والأمر بخلافه .

قوله تعالى :

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلاَّ دعاءً وَنداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١) آية بلا خلاف .

المعنى :

التشبيه في هذه الآية يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل :

أحدها ـ وهو أحسنها وأقربها الى الفهم ، وأكثرها في باب الفائدة ـ ما قاله أكثر المفسرين كابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والربيع ، واختاره الزجاج ، والفراء ، والطبري ، والجبائي ، والرماني . وهو المروي عن أبي جعفر (ع) إن مثل الذين كفروا في دعائك إياهم ، « كمثل الذي ينعق » أي الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم التي لا تفهم كالابل ، والبقر ، والغنم ، لأنها لا تعقل ما يقال لها ، وانما تسمع الصوت . والحذف في مثل هذا حسن . كقولك لمن هو سيء الفهم : أنت كالحمار ، وزيد كالأسد : أي في الشجاعة ، لأن المعنى في أحد الشيئين أظهر ، فيشبه بالآخر ليظهر بظهوره ، وهذا باب حسن البيان .

الثاني ـ حكاه البلخي ، وغيره : إن مثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم من

الاوثان كمثل الناعق في دعائه مالا يسمع ، بتعالى ، وما جرى مجراه من الكلام ، وذلك أن البهائم لا تفهم الكلام ؛ وإن سمعت النداء ، والدعاء ، وأقصى أحوال الأصنام أن تكون كالبهائم في أنها لا تفهم ، فاذا كان لا يشكل عليهم أن من دعا البهائم بما ذكرناه جاهل ، فهم في دعائهم الحجارة أولى بالجهل وصفة الذم .

الثالث ـ قال ابن زيد : إن مثل الذين كفروا في دعائهم آلتهم كمثل الناعق في دعائه الصدى في الجبل ، وما أشبهه ، لأنه لا يسمع منه إلا دعاء ونداء ، لأنه اذا قال : يا زيد ، سمع من الصدى يازيد ، فيتخيل اليه أن مجيباً أجابه ، وليس هناك شيء ، فيقول : يازيد ، وليس فيه فائدة ، فكذلك يخيل الى المشركين أن دعاءهم للاصنام يستجاب ، وليس لذلك حقيقة ، ولا فائدة . وإنما رجحنا الوجه الأول ، لما بيناه من حسن الكلام ، ولانه مطابق للسبب الذي قيل : إنها نزلت في اليهود ، فانهم لم يكونوا يعبدون الاصنام ، ولا يليق بهم الوجه الثاني ، فاذا ثبت ذلك ، ففيه ثلاثة أوجه من الحذف :

أولها ـ « ومثل الذين كفروا » في دعائك لهم كمثل الناعق في دعائه المنعوق به . والثاني ـ « ومثل الذين كفروا » في دعائهم الاوثان كمثل الناعق في دعائه الأنعام . الثالث ـ مثل وعظ الذين كفروا كمثل نعق الناعق بما لا يسمع ، وهـذا من باب حذف المضاف ، وإقامة المضاف اليه مقامه كقول الشاعر : (١)

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتي . على وعل في ذي المطارة عاقل (٢)

والتقدير على مخافة وعل . فان قيل : كيف قوبل الذين كفروا ـ وهم المنعوق به ـ بالناعق ، ولما تقابل المنعوق به بالمنعوق به ـ في ترتيب الكلام ـ أو الناعق بالناعق ؟ قيل للدلالة على تضمين الكلام تشبيه اثنين باثنين : الداعي للايمان للمدعو

« ١ » هو نابغة بني ذبيان .

« ٢ » ديوانه : ٩٠ ، واللسان (خوف) ، ومجاز القرآن : ٦٥ ، وأمالي الشريف المرتضى ١ : ٢٠٢ ، ٢١٦ . الوعل : تيس الجبل يتحصن بوزره من الصياد . (ذى المطار) ـ بفتح الميم ـ : اسم جبل . وعاقل : قد عقل في رأس الجبل . في المطبوعة (لقد) بدل (وقد) ورواية اللسان (بذى) بدل (في ذي) .

من الـكفار بالداعي الى المراد للمدعوّ من الانعام ، فلما أريد الايجاز أبقي ما يدل على ما ألقي ، فأبقي في الأول ذكر المدعو ، وفي الثاني ذكر الداعي ، ولو رتب على ما قال السائل ، لبطل هذا المعنى . وزعم أبو عبيدة ، والفراء : أنه يجري مجرى المقلوب الذي يوضع فيه كلمة مكان كلمة ، كأنه وضع الناعق مكان المنعوق به ، وأنشد :

كانت فريضة ما تقول كما كان الزناء فريضة الرجم (١)

والمعنى كما كان الرجم فريضة الزناء ، وكما يقال : أدخلت القلنسوة في رأسي ، وإنما هو أدخلت رأسي في القلنسوة قال الشاعر :

إنّ سراجا لكريم مفخره تحلى به العين اذا ما تجهره (٢)

والمعنى يحلى بالعين ، فجعله تحلى به العين . والاقوى أن يكون الأمر على ما بيناه من المعنى الذي دعا الى الخلاف في الحذف ، ليدل بما بقي على ما ألقي .

اللغة :

قال صاحب العين : نعق الراعي بالغنم ينعق نعيقاً اذا صاح بها زجراً ، ونعق الغراب نعاقاً ونعيقاً اذا صاح . والناعقان : كوكبان من كواكب الجوزاء : رجلها اليسرى ومنكبها الأيمن ، وهو الذي يسمى الهنعة ، وهما أضوء كوكبين في الجوزاء . وأصل الباب الصياح ، والنداء : مصدر نادى مناداة ، ونـداء ، وتنادوا تنادياً ، وندى تندية ، وتندى تندّياً . والنداء ، والدعاء ، والسؤال نظائر ، قال صاحب العين: الندى له وجوه من المعنى : ندى الماء ، وندى الخير ، وندى الشر ، وندى الصوت ، وندى الحضر . فأما ندى الماء ، فمنه ندى المطر ، أصابه ندى من طلّ ، ويوم ندى، فأرض ندية . والمصدر منه الندوة ، والندى ما أصابه من البلل ، وندى الخير هو المعروف ، تقول : أندى علينا فلان ندى كثيراً ، وإن يده لندية بالمعروف ، وندى

« ١ » البيت للنابغة الجعدي . اللسان (زنا) ، وأمالي الشريف المرتضى ١ : ٢١٦ ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ٩٩ ، ١٣١ .

« ٢ » اللسان (حلا) . وأمالي الشريف المرتضى ١ : ٢١٦ . في المطبوعة (لجلاله) بدل (تحلا به) . تجهره : تنظر اليه نظرة اعجاب وتقدير .

الصوت : بعد مذهبه ، وندى الحضر : صحة جريه ، واشتق النداء في الصوت من ندى ناداه أي دعاه بأرفع صوته : ناداه به . والندوة الاجتماع في النادي ، وهو المجلس . ندى القوم يندون ندواً اذا اجتمعوا ، ومنه دار الندوة ، وأصل الباب الندى : البلل ، وندى الجود كندى الغيث .

المعنى :

ومعنى « صم بكم عمي فهم لا يعقلون » أي صم عن إستماع الحجة ، بكم عن التكلم بها ، عمي عن الابصار لها ، وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي . والاعمى : من في بصره آفة تمنعه من الرؤية . والاصم : من كان في آلة سمعه آفة تمنعه من السمع . والابكم : من كان في لسانه آفة تمنعه من الكلام . وقيل : إنه يولد كذلك ، والخرس قد يكون لعرض يتجدد .

وأجاز الفراء النصب في « صم » على الذم ، والاجود الرفع على ما عليه القراء ، وتقديره هم صم .

وفيها دلالة على بطلان قول من زعم : أنهم لا يستطيعون سمعاً على الحقيقة ، لأنه لا خلاف أنهم لم يكونوا صماً لم يسمعوا الاصوات ، وانما هو كما قال الشاعر :

أصمّ عما ساءه سميع (١)

وفيها دلالة على بطلان قول من قال : إن المعرفة ضرورة ، لأنهم لو كانوا عالمين ضرورة لما استحقوا هذه الصفة .

وقال عطا : نزلت هذه الآية في اليهود ، ومعنى ينعق يصوت قال الأخطل :

فانعق بضأنك يا جرير فانما ... منّتك نفسك في الخلاء ضلالا (٢)

والدعاء : طلب الفعل من المدعو ، والأولى أن يعتبر فيه الرتبة ، وهو أن

« ١ » اللسان (صمم) ، (سمع) .

« ٢ » ديوانه : ٥٠ ، ونقائض جرير والأخطل : ٨١ ، واللسان (نعق) وطبقات فحول الشعراء ٤٢٩ ، ومجاز القرآن : ٦٤ ، يقول : انما أنت راعي غنم وليس لك حظ في هذا الأمر الذي منتك نفسك به ، فارجع الى غنمك ، فأمرها وانهاها ، واترك الحرب ، وانشاد الشعر .

يكون فوق الداعي . والسمع : إدراك الصوت . والمثل : قول سائر يدل على أن سبيل الثاني سبيل الاول .

قوله تعالى :

يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا كلوا مِنْ طيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ واشْكروا لِلّهِ إنْ كُنتُمْ إيّاهُ تَعبدُونَ (١٧٢) آية بلا خلاف .

المعنى :

هذا الخطاب يتوجه الى جميع المؤمنين ، وقد بينا أن المؤمن هو المصدق بما وجب عليه ، ، ويدخل فيه الفساق بأفعال الجوارح ، وغيرها ، لأن الايمان لا ينفي الفسق ـ عندنا ـ . وعند المعتزلة : إنه خطاب لمجتنبي الكبائر ، وإنما يدخل فيه الفساق على طريق التبع ، والتغليب ، كما يغلب المذكر على المؤنث في قولك : الاماء والعبيد جاوزني ، وقد بينا فيما تقدم أن أفعال الجوارح لا تسمى إيماناً ـ عند أكثر المرجئة ، وأكثر أصحابنا ـ وإن بعضهم يسمي ذلك إيماناً ، لما رووه عن الرضا (ع) . وإيمان مأخوذ من أمان العقاب ـ عند من قال : إنه تناول مجتنبي الكبائر ـ وعند الآخرين من أمان الخطأ ، في الاعتقاد الواجب عليه . وفي المخالفين من يجعل الطاعات الواجبات ، والنوافل من الايمان . وفيهم من يجعل الواجبات فقط إيماناً ، ويسمي النوافل إيماناً مجازا .

وقوله « كلوا » ظاهره ظاهر الأمر ، والمراد به الاباحة ، والتخيير ، لأن الأكل ليس بواجب إلا أنه متى أراد الأكل ، فلا يجوز أن يأكل إلا من الحلال الطيب ، ومتى كان الوقت وقت الحاجة فانه محمول على ظاهره في باب الأمر : سواء قلنا : إنه يقتضي الايجاب أو الندب .

وفي الآية دلالة على النهي عن أكل الخبيث ـ في قول البلخي ، وغيره ـ كأنه قيل : كلوا من الطيب دون الخبيث ، كما لو قال : كلوا من الحلال ، لكان ذلك

دالاً على حظر الحرام ـ وهذا صحيح فيما له ضدّ قبيح مفهوم . فأمّا غير ذلك ، فلا يدل على قبح ضدّه ، لأن قول القائل ، كل من زيد ، لا يدل على أن المراد تحريم ما عداه ، لأنه قد يكون الغرض البيان لهذا خاصه ، والآخر موقوف على بيان آخر ، وليس كذلك ماضدّه قبيح ، لأنه قد يكون من البيان تقبيح ضده .

والطيبات قدمنا معناها فيما تقدم ، وأن المراد بذلك الخالص من شائب ينغص ، وإن كان لا يخلو شيء من شائب ، لكنه لا يعتد به في الوصف بأنه حلال طيب ، ولو كان في الطعام ما ينغصه لجاز وصفه بأنه ليس بطيب .

والرزق قد بينا فيما مضى : أنه ماللحي الانتفاع به على وجه لا يكون لأحد منعه منه .

وقوله : « واشكروا لله » فالشكر : هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم ، ويكون ذلك عن وجهين : (١)

أحدها ـ الاعتراف بالنعمة ـ متى ذكرها ـ للمنعم بالاعتقاد لها .

الثاني ـ الطاعة بحسب جلالة النعمة ، فالأول لازم في كل حال من أحوال الذكر ، والثاني إنما يلزم في الحال التي يحتاج فيها الى القيام بالحق ، واقتضى ذكر الشكر هاهنا ما تقدم ذكره من الانعام في جعل الطيب من الرزق ، للانتفاع ، واستدفاع المضار ، وذكر الشرط هاهنا إنما هو وجه المظاهرة في الحجاج ولما فيه من حسن البيان دون أن يكون ذلك شرطاً في وجوب الشكر ، وتلخيص الكلام إن كانت العبادة لله واجبة عليكم بأنه إلهكم ، فالشكر له واجب عليكم بأنه محسن اليكم .

وأما العبادة ، فهي ضرب من الشكر ، لأنها غاية ليس وراءها شكر ، ويقترن به ضرب من الخضوع . ولا يستحق العبادة إلا الله ، لأنها تستحق باصول النعم من الحياة ، والقدرة ، والشهوة ، والنفاد ، وأنواع المنافع ، وبقدر من النفع لا يواريه

« ١ » في المطبوعة هنا تكرير الوجه الاول كله . والظاهر أنه تسطير من الناسخ وانما حذفناه لعدم وجوده في المخطوطة ولا في مجمع البيان . لأن مجمع البيان ناقل المطالب بحذافيره ، ولم يكرر .

نعمة منعم ، فلذلك اختص الله تعالى باستحقاقها .

قوله تعالى :

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(١٧٣) آية بلا خلاف .

القراءة .

قرأ نافع وابن عامر ، وابن كثير ، والكسائي ـ بضم نون ـ « فمن اضطر » الباقون بكسرها .

اللغة والاعراب :

لفظة إنما تفيد إثبات الشيء ، ونفي ما سواه كقول الشاعر :

وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي (١)

ومعناه لا يدافع غيري ، وغير من هو مثلي ، وهو قول الزجاج ، والفراء ، والرماني ، والطبري ، وأكثر أهل التأويل . وإنما كانت لاثبات الشيء ، ونفي ما سواه ، من قبل أنها لما كانت (إن) للتأكيد ، ثم ضم إليها (ما) للتأكيد ايضاً ، أكدت (إن) من جهة التحقيق للشيء ، وأكدت (ما) من جهة نفي ما عداه ، فكأنك اذا قلت : إني بشر ، فالمعنى أنا بشر على الحقيقة ، فاذا قلت : إنما أنا بشر ، فقد ضممت إلى هذا القول ما أنا إلا بشر .

وتقدير قوله تعالى : « إنما حرّم عليكم الميتة » ما حرم عليكم إلا الميتة . ولو كانت (ما) بمعنى الذي ، لكتبت مفصولة (٢) ، ومثله قوله تعالى : « إنما الله

« ١ » قائله الفرزدق ، تلخيص المفتاح أو مختصر المعاني للتفتزاني (باب القصر) وهو :

أنا الذائد الحامي الديار وانما	يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

« ٢ » في المطبوعة (مفعوله) .

إله واحد »(١) أي لا إله إلا واحد ، ومثله « إنما أنت منذر » (٢) أي لا نذير إلا أنت (٣) ومثله إنما ضربت أخاك أي ما ضربت إلا أخاك .

فاذا ثبت ذلك ، فلا يجوز في الميتة إلا النصب ؛ لأن (ما) كافة (٤) ومعناه تحريم الميتة ، وتحليل المذكى ، ولو كانت ما بمعنى الذي ، لكان يجوز في الميتة الرفع .

والفرق بين الميت ، والميتة قيل فيه قولان :

أحدها ـ قال أبو عمرو : ما كان قد مات ، فهو بالتخفيف مثل « يخرج الحي من الميت » (٥) . وما لم يمت بالتثقيل كقوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » (٦) . ووجه ذلك أن التثقيل لما كان هو الأصل كان أقوى على التصريف في معنى الحاضر والمستقبل .

و [الثاني] قال قوم : المعنى واحد ، وانما التخفيف لثقل الياء على الكسرة ، قال الشاعر : (٧)

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء (٨)

فجمع بين اللغتين :

« ١ » سورة النساء آية : ١٧ .

« ٢ » سورة الرعد آية : ٨ .

« ٣ » هكذا في النسخ كلها وفي مجمع البيان ايضاً ، والصحيح (ما أنت الا منذر) وهو من باب قصر الموصوف على الصفة ، وهو الذي يقتضيه المقام ، وعبارة المتن من باب قصر الصفة على الموصوف .

« ٤ » في المطبوعة (كأنه) بدل (كافة ؛ ومعنى كافة : أي قد كفت (ان) عن العمل بالجملة التي بعدها ، واذا كانت (ان) مكفوفة تعين نصب (الميتة) بـ (حرم) ، واذا كانت ان عاملة في الجملة تكون « ما » اسم موصول بمعنى الذي ، وهي اسم « ان » . والميتة خبر « ان » فيتعين الرفع على هذا التقدير كما يتعين النصب على الاول .

« ٥ » سورة الانعام آية : ٩٥ . وسورة يونس آية : ٣١ وسورة الروم آية : ١٩ .

« ٦ » سورة الزمر آية : ٣٠ .

« ٧ » هو عدي بن الرعلاء .

« ٨ » اللسان « ميت » وشرح شواهد المغني : ١٣٨ . ومعجم الشعراء : ٢٥٣ . وغيرها كثير .

المعنى :

قوله : « وما أهل به لغير الله » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال الربيع ، وابن زيد ، وغيرهما من أهل التأويل : معناه ذكر غير اسم الله عليه .

والثاني ـ قال قتادة ، ومجاهد : ما ذبح لغير الله .

اللغة :

والاهلال على الذبح : هو رفع الصوت بالتسمية ، وكان المشركون يسمون الأوثان ، والمسلمون يسمون الله . ويقال : انهل المطر انهلالا وهو شدة انصبابه ، وتهلل السحاب ببرقه أي تلألأ ، وتهلل وجهه اذا تلألأ ، وتهلل الرجل فرحاً . والهلال غرة القمر ، لرفع الناس أصواتهم عنـــد رؤيته بالتكبير ، والمحرم يتهلل بالاحرام ، وهو أن يرفع صوته بالتلبية ، ويهلل الرجل : يكبر اذا نظر الى الهلال . وهلل البعير تهليلا اذا تقوس كتقوس الهلال ، وسمي به الذكر ، لأن الهلال ذكر . وثوب هل أي رقيق مشبه بالهلال في رقته . والتهليل : الفزع . واستهل الصبي اذا بكى حين يولد . والهلال : الحيـة الذكر ، لأنه يتقوس ، وسمي به الذكر ، لأن الهلال ذكر .

« فمن اضطر » من كسر النون فلا لتقاء الساكنين ، ومن ضمها أتبع الضمة الضمة في الطاء . وقرأ أبو جعفر بكسر الطاء .

والاضطرار : كل فعل لا يمكن المفعول به الامتناع منه ، وذلك كالجوع الذي يحدث للانسان ، ولا يمكنه الامتناع منه . والفرق بين الاضطرار ، والالجاء أن الالجاء تتوفر معه الدواعي الى الفعل من جهة الضر أو النفع ، وليس كذلك الاضطرار .

وأكثر المفسرين على أن المراد في الآية المجاعة . وقال مجاهد : ضرورة إكراه . والأولى أن يكون محمولا على العموم إلا ما خصه الدليل .

« ولحم الخنزير » قال صاحب العين يقال : رجل لحم اذا كان أكول اللحم . وبيت لحم : يكثر فيه اللحم . وألحمت القوم اذا قتلتهم وصاروا لحماً . والملحمة : الحرب ذات القتل الشديد . واستلحم الطريق اذا اتسع . واللحمة : قرابة النسب . واللحمة ما يسد به بين السديين من الثوب . واللحام : ما يلحم به صدع ذهب أو فضة أو حديد حتى يلتحما ، ويلتئما . وكل شيء كان متبايناً ثم تلاءم ، فقد التحم . وشجة متلاحمة إذا بلغة اللحم . وأصل الباب اللزوم ، فمنه اللحم للزومه بعضه بعضاً .

المعنى :

وقوله : « غير باغ ولا عاد » قيل فى معناه ثلاثة أقوال : أولها ـ « غير باغ » اللذة « ولا عاد » سد الجوعة وهو قول الحسن ، وقتادة ، ومجاهد ، والربيع ، وابن زيد . والثاني ـ ما حكاه الزجاج « غير باغ » في الافراط « ولا عاد » فى التقصير . والثالث ـ « غير باغ » على إمام المسلمين « ولا عاد » بالمعصية طريق المحقين ، وهو قول سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وهو المروي عن أبي جعفر ، وأبي عبدالله (ع) قال الرماني : وهذا القول لا يسوغ ، لأنه تعالى لم يبح لأحد قتل نفسه بل حظر عليه ذلك ، والتعريض للقتل قتل في حكم الدين ، ولأن الرخصة إنما كانت لأجل المجاعة المتلفة ، لا لأجل الخروج في طاعة ، وفعل إباحة . وهذا الذي ذكره غير صحيح لأن من بغى على إمام عادل فأدى ذلك الى تلفه ، فهو المعرّض نفسه للقتل ، كما لو قتل في المعركة ، فانه المهلك لها ، فلا يجوز لذلك استباحة ما حرّم الله ، كما لا يجوز له أن يستبقي نفسه بقتل غيره من المسلمين ، وما قاله من أن الرخصة لمكان المجاعة ، لا يسلم إطلاقه ، بل يقال : إنما ذلك للمجاعة التي لم يكن هو المعرض نفسه لها ، فأما إذا عرّض نفسه لها ، فلا يجوز له استباحة المحرم ، كما قلنا في قتل نفس الغير ، ليدفع عن نفسه القتل . وأصل البغي : الطلب من قولهم : بغى الرجل حاجته يبغيها بغاً قال الشاعر :

لا يمنعنّك من بغـا　　ء الخير تعقاد التمائم (١)

إن الأشائم كالأيا　　من والأيامن كالأشائم (٢)

والبغاء : طلب الزنا . وإنما اقتضى ذكر المغفرة هاهنا أحد أمرين :

أحدهما ـ النهي عما كانوا عليه من تحريم مالم يحرمه الله من السائبة ، والوصيلة ، والحام ، فوعد الله بالمغفرة عند التوبة ، والانابة الى طاعة الله فيما أباحه أو حظره .

الثاني ـ إذا كان يغفر المعصية ، فهو لا يوآخذ بها ، جعل فيه الرخصة ، ولا يجوز أن يقع في موضع غير (إلا) لأنها بمعنى النفي هاهنا ، ولذلك عطف عليها بـ (لا) لأنها في موضع (لا) . فأما (إلا) فمعناها في الأصل الاختصاص لبعض من كل ، وليس هاهنا كل يصلح أن يخص منه . « غير باغ » منصوب على الحال وتقديره لا باغياً ، ولا عادياً . والقدر المباح من الميتة عند الضرورة ما يمسك الرمق فقط ـ عندنا ـ وفيه خلاف ذكرناه في خلاف الفقهاء .

قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) آية بلاخلاف .

المعنى :

المعني بهذه الآية أهل الكتاب باجماع المفسرين إلا أنها متوجهة ـ على قول كثير منهم ـ الى جماعة قليلة منهم ، وهم علماؤهم الذين يجوز على مثلهم كتمان ماعلموه ، وأما الجمع الكثير منهم الذين لايجوز على مثلهم ذلك لاختلاف (٣) دواعيهم ، فلا

« ١ » اللسان « عقد » في المطبوعة « لايمنعك » بدل « لا يمنعنك » ولم يستقم به الوزن .

« ٢ » اللسان « شأم » وروايته « فاذا » بدل « ان » .

« ٣ » في المطبوعة « لا خلاف » .

يجوز . والذي كتموه قيل فيه قولان :

قال أكثر المفسرين : إنهم كتموا أمر النبي (ص) بأن حرفوه عن وجهه في التأويل ، هذا اذا حمل على الجماعة الكثيرة . وإن حمل على القليلة منهم ، يجوز أن يكونوا كتموا نفس التنزيل ايضاً .

الثاني ـ قال الحسن : كتموا الأحكام ، وأخذوا الرشا على الأحكام ، والكتاب على القول الأول : هو التوراة ، وعلى الثاني يجوز أن يحمل على القرآن وسائر الكتب .

وقوله : « ويشترون به ثمناً قليلا » ليس المراد به أنهم اذا اشتروا به ثمناً كثيراً كان جائزاً . وإنما المقصد كلما يأخذونه في مقابلته من حطام الدنيا ، فهو قليل ، كما قال « ويقتلون النبيين بغير حق » (١) وكما قال « ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به » (٢) وانما أراد أن قتل النبيين لا يكون إلا بغير حق ، وإن من ادعى مع الله إلها آخر لا يقوم له عليه برهان . وكما قال الشاعر :

على لاحب لا يهتدي بناره

والمعنى لا لاحب هناك ، فيهتدى به ، لأنه لو كان ، لاهتدي به .

وقوله تعالى « ما يأكلون في بطونهم إلا النار » معناه على قول الربيع ، والحسن ، والجبائي ، وأكثر المفسرين : الأجر الذي أخذوه على الكتمان ، سمي بذلك ، لأنه يؤديهم الى النار ، كما قال في أكل مال اليتيم ظلماً « إنما يأكلون في بطونهم ناراً »(٣) وقال بعضهم : إنما يأكلون في جهنم ناراً جزاء على تلك الاعمال ، والأول أحسن . فان قيل اذا كان الأكل (٤) لا يكون إلا في البطن ، فامعنى قوله « في بطونهم » ؟ قلنا عنه جوابان :

أحدها ـ ان العرب تقول : جعت في غير بطني وشبعت في غير بطني ، اذا

« ١ » سورة آل عمران آية : ٢١ .

« ٢ » سورة المؤمنون آية : ١١٧ .

« ٣ » في المطبوعة « الاول » .

« ٤ » سورة النساء آية : ٩ .

جاع من يجري جوعه مجرى جوع نفسه ، فذكر ذلك لإزالة اللبس .

والثاني ـ انه لما استعمل المجاز بالاجراء على الرشوة اسم النار ، حقق بذكر البطن ، ليدل على أن النار تدخل أجوافهم .

اللغة :

والبطن : خلاف الظهر . والبطن : الغامض من الأرض . والبطن من العرب : دون القبيلة . وعرفت هذا الأمر ظاهره ، وباطنه أي سرّه وعلانيته . ورجل بطين : عظيم البطن . ومبطّن : خميص البطن . وفلان بطانتي دون إخواني . أي الذي أبطنه أمري . واستبطنت أمر فلان : إذا وقفت على دخلته . ويقال في المثل : البطنة تذهب الفطنة ، وبطن الشيء بطوناً اذا غمض . والبطان حزام الرّحل . والبطين : نجم وهو بطن الحمل . وأصل الباب البطون : خلاف الظهور .

المعنى :

وقوله تعالى : « ولا يكلمهم » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ لا يكلمهم بما يحبون ، وإنما هو دليل على الغضب عليهم ، وليس فيه دليل على أنه لا يكلمهم بما يسوءهم ، لأنه قد دلّ في موضع آخر ، فقال « فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين » (١) وقال « ربّنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون » (٢) وهذا قول الحسن ، وواصل ، وأبي علي .

الثاني ـ لا يكلمهم أصلا ، فتحمل آيات المسائلة على أن الملائكة تسألهم بأمر الله ويتأول قوله « اخسئوا فيها ولا تكلمون » على أن الحال دالة على ذلك . وإنما دلّ نفي الكلام على الغضب ـ على الوجه الاول ـ من حيث أن الكلام وضع في الأصل

« ١ » سورة الاعراف آية : ٥ .

« ٢ » سورة المؤمنون آية : ١٠٨ ـ ١٠٩ .

للفائدة ، فلما انتفى على جهة الحرمان للفائدة ، دلّ على الغضب ، ولا يدخل في ذلك الكلام للغم والايلام .

وقوله : « ولا يزكيهم » معناه لا يثني عليهم ، ولا يصفهم بأنهم أزكياء . ويحتمل أن يكون المراد لا يتقبل أعمالهم تقبل أعمال الازكياء .

والاشتراء هو الاستبدال بالثمن العوض ، فلما كانوا هؤلاء استبدلوا بذنبهم الثمن القليل ، قيل فيهم : إنهم اشتروا به ثمناً قليلا . والثمن هو العوض من العين ، والورق والقلة هو نقصان المقدار عنْ مقدار غيره ، لانه يقال : هو قليل بالاضافة الى ما هو أكثر منه ، وكثير بالاضافة الى ما هو أقل منه .

والكلام ماانتظم من حرفين فصاعداً من هذه الحروف المعقولة : إذا وقع ممن يصح منه أو من قبيله للافادة وقال الرماني : الكلام ماكان من الحروف دالاً بتأليفه على معنى ، قال وأصله من الآثار وهي كالعلامات الدالة،والكلم أي الجراح . وما ذكرناه أولى ، لأن هذا ينتقض بالمهمل من الكلام ، فانه لا يفيد وهو كلام حقيقة .

قوله تعالى :

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالهدى وَالعَذَابَ بِالمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) آية واحدة بلاخلاف .

المعنى :

معنى « اشتروا الضلالة بالهدى » استبدلوا ،لأن أصل الشراء الاستبدال ، وليس يقع في مثله إشكال ، فأما قولهم : استبدل بالجارية غيرها ، فلا يجوز أن يقال بدلاً منه : اشترى ، لأنه يلتبس . والضلالة التي اشتروها بالهدى : كفرهم بالنبي (ص) وجحدهم لنبوته استبدلوه بالايمان به ، وهم وإن لم يقصدوا أن يضلوا بدلا من أن يهتدوا فقد قصدوا الكفر بالنبي (ص) بدلا من الايمان به ، وذلك ضلال

بدلا من هدى ، فقد قصدوا الضلال بدلا من الهدى ، وإن لم يقصدوه من وجه أنه ضلال . ولا يجوز أن يقول : قصدوا أن يضلوا . لأنه يوهم أنهم قصدوه من هذا الوجه ، كما ينبيء علموا أنهم يضلون غير أنهم علموه من هذا الوجه ، ويجوز قصدوا الضلال ، وعلموا الضلال، لأنه لا ينبيء على هذا الوجه وإنما علموه ، وقصدوه من وجه آخر ، وهو جحدهم محمداً (ص) بدلا من التصديق به .

وقوله تعالى « فما أصبرهم على النار » الفاء معناها معنى الجواب ، لأن الكلام المتقدم قد تضمن معنى من كان بهذه الصفة ، « فما أصبرهم على النار » فعومل معاملة المعنى الذي تضمنه حتى كأنه قد لفظ به . والعجب لا يجوز على القديم تعالى ، لأنه عالم بجميع الأشياء ، لا يخفى عليه شيء . والتعجب يكون مما لا يعرف سببه . وإنما الغرض ـ من الآية ـ أن يدلنا على أن الكفار حلوا محل من يتعجب منه ، فهو تعجيب لنا منهم . وقد قيل في معنا (ما) في قوله « فما أصبرهم على النار » قولان :

أحدها ـ قال الحسن ، وقتادة ، ومجاهد : إنها للتعجب . والثاني ـ قال ابن عباس ، وابن جريج ، وابن زيد والسدي : إنها للاستفهام . وقيل في معنا « أصبرهم » أربعة أقوال :

أحدها ـ ما أجرأهم على النار ، ذهب اليه الحسن وقتادة . والثاني ـ قال مجاهد : ما أعملهم بأعمال أهل النار . وهو المروي عن أبي عبدالله (ع) . والثالث ـ حكاه الزجاج : ما أبقاهم على النار ، كما تقول : ما أصبره على الحبس . والرابع ـ ذكره الفراء : ما صبرهم على النار أي حبسهم عليها . وقال الكسائي : هو استفهام على وجه التعجب . قال أبو العباس : المبرد : هذا حسن كأنه توبيخ لهم وتعجيب لنا ، مثل قولك للذي وقع في هلكة ما اضطرك الى هذا ، اذا كان غنياً عن التعرض للوقوع في مثلها . يقال : أصبرت السبع ، والرجل ، ونحوه اذا نصبته لما يكره . وقال الحطيئة :

قلتُ لها أصبرُها جاهداً ويحك أمثال طريف قليل : (١)

(١) اللسان (صبر). الضمير في أصبرها عائد على النفس ، وكأنه يقول : احبس نفسك على الجهاد .

معناه ألزمها ، واضطرها . فأما التعجب ، فمثل قوله « قتل الانسان ما أكفره » (١) أي قد حل محل ما يتعجب منه . وقيل : ما أصبرك على كذا بمعنى ما أجرأك قال أبو عبيدة : هي لغة يمانية .

واشتق أصبر بمعنى أجرأ من الصبر الذي هو حبس النفس ، لأن بالجرءة يصبر على الشدة . فأما القول الآخر : فحبسوا أنفسهم على عمل أهل النار ، بدوامهم عليه، وانهماكهم فيه . وحكى الكسائي عن قاضي اليمن عن بعض العرب ، قال لخصمه : ما أصبرك على الله أي على عذاب الله تعالى .

قوله تعالى :

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) آية واحدة .

الاعراب :

ذلك رفع بالابتداء ، أو بأنه خبر الابتداء وهو إشارة الى أحد ثلاثة أشياء : أولها ـ قال الحسن : ذلك الحكم بالنار . الثاني ـ ذلك العذاب . الثالث ـ ذلك الضلال .

وفي تقدير خبر ذلك ثلاثة أقوال : [الاول] ـ قال الزجاج : ذلك الأمر ، أو الأمر ذلك ، فحذف لدلالة ما تقدم من الأمر بالحق . فكأنه قال : ذلك الحق . واستغنى عن ذكر الحق لتقدم ذكره في الكلام . الثاني ـ ذلك معلوم « بأن الله نزل الكتاب بالحق » فقد تقدم ذكر ما هو معلوم بالتنزيل ، فحذف لدلالة الكلام عليه . الثالث ـ ذلك العذاب لهم « بأن الله نزل الكتاب بالحق » وكفروا به ، فتكون الباء في موضع الخبر . ويحتمل ذلك أن يكون رفعاً على ما بينا . ويحتمل أن يكون نصباً على فعلنا ذلك ، لأن في الكلام ما يدل على (فعلنا) .

« ١ » سورة عبس آية : ١٧ .

المعنى :

ومعنى الكتاب هاهنا قيل: إنه التوراة . وقال الجبائي : إنه القرآن ، وغيره . وهو أعم فائدة .

وقال بعضهم : إن المراد بالأول التوراة ، وبالثاني القرآن . ومعنى الاختلاف هاهنا يحتمل أمرين :

أحدهما ـ قول الكفار في القرآن · ومنهم من قال : هو كلام السحرة . ومنهم من قال : كلام يعلمه . ومنهم من قال : كلام يقوله الثاني ـ اختلاف اليهود والنصارى في التأويل ، والتنزيل من التوراة ، والانجيل ، لأنهم حرفوا الكتاب ، وكتموا صفة محمد النبي (ص) وجحدت اليهود الانجيل والقرآن .

قوله تعالى : « لفي شقاق بعيد » فيه قولان :

أحدها ـ بعيد عن الالفة بالاجتماع على الصواب · الثاني ـ بعيد : من الشقاق ، لشهادة كل واحد على صاحبه بالضلال . وكلاهما قد عدل عن السداد . ومن ذهب الى أن المعنى ذلك العذاب « بأن الله نزل الكتاب بالحق » قدر فكفروا به ، وجعله محذوفاً . ومن ذهب الى أن المعنى : ذلك الحكم بدلالة « أن الله نزل الكتاب بالحق » لم يجعله محذوفاً .

والمعني بالذين اختلفوا على قول السدي : اليهود ، والنصارى . وقال غيره : هم الكفار من عبدة الاوثان ، وغيرهم من أهل الضلال . وهو الاولى ، لأنه أعم .

الاعراب :

وإنما كسرة (إن) الثانية لالحاق اللام الخبر ، وهي لام الابتداء ، فأخرت الى الخبر وكسرت معها (إن) لأنها للاستئناف ايضاً . فأما (أن) المفتوحة فاسم يعمل فيه عوامل الاعراب كما يعمل في الأسماء . وإنما كسرت (إن) في قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام» « ١ » لا لالحاق اللام ، ولكن

« ١ » سورة الفرقان آية : ٢٠ .

لدخول (إلا) على جملة مستأنفة في التقدير . كأنه قيل: إلا هم يأكلون الطعام . ولو قلت ما ظننت إلا إنك لخارج لكسرت لأجل اللام .

اللغة :

والاختلاف :الذهاب على جهة التفريق في الجهات . وأصله من اختلاف الطريق. تقول : اختلفنا الطريق ، فجاء هـذا من هاهنا ، وجاء ذاك من هناك ، ثم قيل في الاختلاف في المذاهب تشبيهاً في الاختلاف في الطريق من حيث أن كل واحد منهم على نقيض ما عليه الآخر من الاعتقاد . فأما الاختلاف في الأجناس ، فهو مالا يسد واحد منهما مسد الآخر ، فيما يرجع الى ذاته ، كالسواد والبياض ، وغيرهما .

والشقاق : انحياز كل واحد عن شق صاحبه للعداوة له . وهو طلب كل واحد منهما ما يشقّ على الآخر ، لأجل العداوة . والمشاقة مثله .

قوله تعالى :

لَيسَ البرَّ أنْ تُولوُّا وُجوهَكمْ قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولَكنَّ البرَّ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنَّبيِّينَ وآتى المالَ على حبِّهِ ذَوي القربى واليتامى والمَساكينَ وابنَ السَّبيلِ والسَّائلينَ وفي الرِّقاب وأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكاةَ والموفونَ بعهدِهمْ إذا عاهَدوا والصَّابرينَ في البأساءِ والضَّرَّاءِ وحينَ البأسِ أولَئكَ الَّذينَ صدقوا وأولَئكَ همُ المتَّقُونَ (١٧٧) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ حفص الأهبيرة ، وحمزة « ليس البرَّ » بنصب الراء . الباقون برفعها . وقرأ نافع ، وابن عامر « ولكنِ البرّ » بتخفيف النون ورفع الراء .

النزول :

قيل : إن هذه الآية نزلت لما حولت القبلة ، وكثر الخوض في نسخ تلك الفريضة ، صار كأنه لا يراعى بطاعة الله إلا التوجه للصلاة ، فأنزل الله تعالى الآية ، وبين فيها أن البرّ ما ذكره فيها ، ودل على أن الصلاة إنما يحتاج اليها لما فيها من المصلحة الدينية ، وإنه انما يأمر بها ، لما في علمه أنها تدعو الى الصلاح ، وتصرف عن الفساد ، وإن ذلك يختلف بحسب الأزمان ، والأوقات .

المعنى :

وقوله : « ليس البرّ » قيل فيه قولان : أحدهما ـ ذكره ابن عباس ، ومجاهد: أنه « ليس البرّ » كله في التوجه الى الصلاة بل حتى يضاف إلى ذلك غيره من الطاعات التي أمر الله تعالى بها . والثاني ـ قاله قتادة ، والربيع واختاره الجبائي : انه « ليس البرّ » ما عليه النصارى من التوجه الى المشرق ، أو ما عليه اليهود من التوجه الى المغرب « ولكن البرّ » ما ذكره الله تعالى في الآية ، وبينه . وقوله : « ولكن البرّ من آمن » قيل فيه ثلاثة أقوال :

أولها ـ « ولكن البرّ » برّ « من آمن بالله » فحذف المضاف ، وأقام المضاف اليه مقامه ، واختاره المبرد ، لقوله « ليس البرّ أن تولوا » وقال النابغة :

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتي على وعلٍ في ذي المطارة عاقل (١)

يعني مخافة وعل . وقالت الخنساء :

ترتع ما غفلت حتى اذا ادّكرتْ فانما هي إقبال وإدبار (٢)

معناه انما هي مقبلة تارة ، ومدبرة أخرى ، فبالغ ، فجعلها إقبالا وإدباراً ،

« ١ » مر تخريجه في ٢ : ٨٧ .

« ٢ » اللسان (قبل) في المطبوعة (غفت) بدل (غفلت) وفي مجمع البيان (مارتعت) . الرتع : الأكل في شره ، ورتعت المواشي : أكلت ما شأت وجاءت وذهبت . ادكرت: تذكرت .

وقال متمم : (١)

لعمري ! وما دهري بتأبين هالك ولا جزعاً مما أصاب فأوجعا (٢)

معناه ولا ذي جزع .

الوجه الثاني ـ ولكن ذا البرّ من آمن بالله. الثالث ـ ولكن البارّ من آمن بالله ، فجعل المصدر في موضع اسم الفاعل . وقد بينا في ما مضى حقيقة الايمان والخلاف فيه ، فلا معنى لاعادته .

والضمير في قوله : « على حبه » يحتمل أن يكون عائداً على حب المال ، ويحتمل أن يكون عائداً على حب الاتيان ، قال عبدالله بن مسعود : على حب المال، لأنه يأمل العيش ويخشى الفقر . وأما على حب الاتيان ، فوجهه ألاّ تدفعه وأنت متسخط عليه كاره . ويحتمل وجهاً ثالثاً : وهو أن يكون الضمير عائداً على الله ، ويكون التقدير على حب الله ، فيكون خالصاً لوجهه ، وقد تقدم ذكر الله تعالى في قوله « من آمن بالله » .وهو أحسنها . والآية تدل على وجوب إعطاء مال الزكاة بلا خلاف ، وتدل ايضاً ـ في قول الشعبي ، والجبائي ـ على وجوب غيره مما له سبب وجوب كالانفاق على من تجب عليه نفقته ، وعلى من يجب عليه سدّ رمقه إذا خاف التلف ، وعلى مايلزمه من النذور ، والكفارات ، ويدخل فيها ايضاً مايخرجه الانسان على وجه التطوع ، والقربة الى الله ، لأن ذلك كله من البرّ .

وابن السبيل : هو المنقطع به إذا كان مسافراً محتاجاً وإن كان غنياً في بلده ، وهو من أهل الزكاة .

وقيل : إنه الضيف ، والأول قول مجاهد ، والثاني قول قتادة . وانما قيل : ابن السبيل : بمعنى ابن الطريق ، كما قيل للطير : ابن الماء ، لملازمته إياه ، قال ذو الرمة :

---

(١) هو متمم بن نويرة .

(٢) اللسان (أبن) ، (دهر) ليس من عادتي تأبين الاموات ، ومدحهم بعد موتهم ، ولست أجزع من المصيبة .

وردت اعتسافاً والثرّيا كأنها على قمة الرأس ابن ماءٍ محلق (١)

والسائلين معناه : والطالبين للصدقة ، لأنه ليس كل مسكين يطلب .

وقوله : « وفي الرقاب » قيل فيه قولان : احدهما ـ عتق الرقاب . والثاني ـ المكاتبين . وينبغي أن تحمل الآية على الامرين ، لأنها تحتمل الامرين ، وهو اختيار الجبائي ، والرماني .

اللغة :

والمراقبة : المراعاة . والرقبة : الانتظار . والرقيب : المشرف على القوم لحراستهم . والرقيب : الحافظ . وتقول : رقبته أرقبه رقباً ، وراقبته مراقبة ، وارتقبته ارتقاباً ، وتراقبوا تراقباً ، وترقب ترقباً . والرقوب : الأرملة التي لا كاسب لها ، لأنها تترقب معروفاً أو صلة . والرقبة مؤخر أصل العنق . وأعتق الله رقبته ، ولا يقال عتقه . والرقيب ضرب من الحيّات خبيث . والرقوب : المرأة التي لا يعيش لها ولد . والرقيب : النجم الذي يتبين من المشرق ، فيغيب رقيبه من المغرب .

المعنى :

وقوله تعالى : « ذوي القربة » قيل أراد به قرابة المعطي ، اختاره الجبائي ، لقول النبي (ص) لفاطمة بنت قيس ، لما قالت : يارسول الله إن لي سبعين مثقالا من ذهب ، فقال : اجعليها في قرابتك . وقال (ع) لما سئل عن أفضل الصدقة ، فقال: جهد المقل على ذي القرابة الكاشح . ويحتمل أن يكون أراد به قرابة النبي (ص) . كما قال : « قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » (٢) وهو قول أبي جعفر ، وأبي عبد الله (ع) وقوله : « في البأساء والضراء وحين البأس » قال قتادة:

« ١ » ديوانه : ٤٠١ ، واللسان (عسف) . وردت اعتسافاً : سرت بدون تدبير ، ولا معرفة للطريق ، بل اقتحمت اقتحاماً . والثريا : جملة من النجوم تشبه قطف العنب . شبه الثريا بالطير المحلق فوق رأسه وهو على الماء .

« ٢ » سورة الشورى آية : ٢٣ .

البأساء : البؤس ، والفقر . والضراء : السقم ،والوجع . ومنه قوله : « مسني الضر » (١) . وحين البأس : حين القتال . وقال ابن مسعود : البأساء : الفقر . والضراء : السقم . وانما قيل : البأساء في المصدر ولم يقل منه أفعل ، لأن الأصل في فعلاء أفعل للصفات التي للألوان ، والعيوب . كقولك أحمر ، وحمراء . وأعور ، وعوراء . فأما الأسماء التي ليست بصفات ، فلا يجب ذلك فيها . وعلى ذلك تأوّلوا قول زهير :

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم تُرضع فتفطم (٢)

وأنكر ذلك قوم ، لأنه لم يصرف أشأم . وقالوا إنما هو صفة وقعت موقع الموصوف كأنه قال : غلمان أمر أشأم ، فلذلك قالوا إنما المعنى الخلة البأساء ، والخلة الضراء .

« والموفون بعهدهم » رفع عطفاً على « من آمن » . ويحتمل أن يكون رفعاً على المدح ، وتقديره : وهم الموفون ، ذكره الزجاج . والصابرين نصب على المدح ، كقول الشاعر :

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم
وذا الرأي حين تغم الأمور بذات الصليل وذات اللجم (٣)

ويحتمل أن يكون نصب بفعل مضمر ، وتقديره وأعني الصابرين . ويحتمل أن يكون عطفاً على قوله : « وآتى المال على حبه ذوي القربى » « والصابرين » فعلى هذا يجب أن يكون رفع « الموفين » على المدح للضمير الذي في صلة (من) ، لأنه لا يجوز بعد العطف على الموصوف ، العطف على ما في الصلة . وهذا الوجه ضعيف ، لأنه يؤدي الى التكرار ، لأنهم دخلوا في قوله : « والمساكين وابن

(١) سورة الانبياء آية : ٨٣ .

« ٢ » ديوانه : ٢٠ من معلقته الفريدة ، من أبياته في صفة الحرب . الضمير في (فتنتج) عائد الى الحرب ، وقد مر ذكرها في أول الأبيات . (أشأم) : أي غلمان شؤم.

« ٣ » معاني القرآن للفراء ١ : ١٠٥ ، وأمالي الشريف المرتضى ١ : ٢٠٥ ، والانصاف : ١٩٥ ، وخزانة الأدب : ٢١٦ . القرم : السيد المقدم في المعرفة ، والتجارب . الكتيبة هي فرقة من الجيش . المزدحم : هو المكان الذي تجتمع به الناس كثيراً ، وتتسابق على التقدم فيه ، والمقصود منه هنا ساحة الحرب . تغم الأمور أي تضيم عليهم . الصليل : صوت السيوف . وذات اللجم : الخيل

السبيل والسائلين » فيجب أن يحمل قوله : « والصابرين » على من لم يذكر ، ليكون فيه فائدة . وإن كان ذلك وجهاً مليحاً .

والقراءة بالرفع أجود ، وأقوى ، لأنه اسم (ليس) مقدم قبل الخبر لفائدة في الخبر ، ولأنه قرأ « ليس البرُّ بأن » ذكره الفراء .

وقوله : « أولئك الذين صدقوا » معناه الذين جمعوا العمل بهذه الخصال الموصوفة : هم الموصوفون بأنهم صدقوا على الحقيقة ، لأنهم عملوا بموجب ما أقرّوا به . « أولئك هم المتقون » يعني اتقوا ـ بفعلْ هذه الخصال ـ نار جهنم .

واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن المعني بها أمير المؤمنين (ع) ، لأنه لا خلاف بين الأمة أن جميع هذه الخصال كانت جامعة فيه . ولم تجتمع في غيره قطعاً ، فهو مراد بالآية بالاجماع . وغيره مشكوك فيه غير مقطوع عليه . وقال الزجاج ، والفراء : هذه الآية تتناول الانبياء المعصومين ، لأنهم الذين يجمعون هذه الصفات .

الاعراب :

ومن قرأ « ليس البرّ » بالرفع ، جعل البر اسماً ، وجعل (أن) في موضع نصب ، ومن نصب جعل « أن تولوا » في موضع رفع ، وقدم الخبر . ومثله قوله تعالى : « ما كان حجتهم إلا أن قالوا » (١) « وما كان قولهم » (٢) « وما كان جواب قومه (٣) . « فكان عاقبتهما » (٤) وما أشبه ذلك .

قوله تعالى :

يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا كُتبَ عليكُمُ القِصاصُ في القتلَى الحرُ بالحرِّ والعبدُ بالعبدِ والأنثى بالأُنثى فمَنْ عُفيَ له من أخيهِ شيءٌ فاتِّباعٌ بالمعروفِ وأداءٌ إليه باحسانٍ ذلكَ تخفيفٌ من ربّكم ورحمةٌ فمن اعتدَى

« ١ » سورة الجاثية آية : ٢٤ . « ٢ » سورة آل عمران آية : ١٤٧ .
« ٣ » سورة الاعراف آية ٨١ . « ٤ » سورة الحشر آية : ١٧ .

بعدَ ذلكَ فلهُ عذابٌ أليمٌ (١٧٨) آية بلا خلاف .

معنى قوله : كتب : فرض . وأصل الكتب : الخط الدّال على معنى الفرض . وقيل : لأنه ، مما كتبه الله في اللوح المحفوظ على جهة الفرض ، قال الشاعر : (١)

كتب القتل والقتال علينا   وعلى المحصنات جرّ الذيول (٢)

وقال النابغة الجعدي :

يا بنت عمي كتاب الله أخرجني   عنكم فهل امنعنّ الله ما فعلا (٣)

ومنه الصلاة المكتوبة أي المفروضة . فان قيل : كيف قيل : كتب عليكم بمعنى فرض ، والأولياء مخيرون : بين القصاص ، والعفو ، وأخذ الدية ؟ قلنا عنه جوابان :

أحدها ـ انه فرض عليكم ذلك إن اختار أولياء المقتول القصاص . والفرض قد يكون مضيقاً ويكون مخيراً فيه . والثاني ـ فرض عليكم ترك مجاوزة ما حد لكم الى التعدي فيما لم يجعل لكم .

اللغة :

والقصاص : الأخذ من الجاني مثل ما جنى ، وذلك لأنه تال لجنايته . وأصله التلو ، من قص الأثر : وهو تلو الأثر . والقصاص ، والمقاصة ، والمعاوضة ، والمبادلة نظائر . يقال : قصّ يقصّ قصّا ، وقصصاً . وأقصه به إقصاصاً . واقتصّ اقتصاصاً . وتقاصّوا تقاصاً . واستقص : اذا طلب القصاص استقصاصاً . وقاصه مقاصّة وقصاصاً . وقصّ الشيء بالمقص يقصه قصاً . وقص الحديث يقصه قصصاً . وكذلك قص أثره قصصاً : اذا اقتفى أثره . والقص والقصص : عظم الصدر من الناس ،

« ١ » هو عمر بن أبي ربيعة ، أو عبد الله بن الزبير الأسدي

« ٢ » ديوان عمر ، والبيان ، والتبيين ٢ : ٢٣٦ ، والكامل لابن الاثير ٢ : ١٥٤ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٥٨ ، وانساب الاشراف ٥ : ٢٦٤ . والاغاني ٩ : ٢٢٩ .

« ٣ » اللسان (كتب) ، وأساس البلاغة (كتب) والمقاييس ٥ : ١٥٩ . ورواية الأساس (اخرني) بدل (أخرجني) .

وغيرهم . والقصة : الخصلة من الشعر . والقصة من القصص معروفة . والقصة الجص . والقصاص : التقاص من الجراحات والحقوق شيء بشيء . والقصيص : نبات ينبت في أصول الكمأة . واقصت الشاة ، فهي مقص اذا استبان ولدها . وأصل الباب التلو .

وقوله تعالى : « الحر بالحر » فالحر نقيض العبد ، والحر من كل شيء : أعتقه . والحر : ولد الحية ، وولد الظبية ، وفرخ الحمام . واحرار البقول : ما يؤكل غير مطبوخ . والحر : نقيض البرد ، حر النهار يحر حراً . والحرير : ثياب من إبريسم . والحريرة : دقيق يطبخ باللبن . والحرة : أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار . وتحرير الكتابة : إقامة حروفها . والحرورية : منسوب الى حرور : قرية كان أول مجتمعهم بها ، فالمحرر المختص بخدمة الكنيسة ما عاش ، ومنه قوله « ما في بطني محرراً » (١) وأصل الباب الحر خلاف البرد . ومنه الحرير ، لأنه يستدفأ به .

قوله : « من عفي له من أخيه شيء » معناه ترك ، من عفت المنازل اذا تركت حتى درست . والعفو عن المعصية : ترك العقاب عليها . وقيل : معنى العفو هاهنا ترك القود بقبول الدية من أخيه ، فالأخ يجمع أخوة اذا كانوا لأب ، وإذا لم يكونوا لأب ، فهم أخوان ، ذكر ذلك صاحب العين ، ومنه قوله : « فاصلحوا بين أخويكم » (٢) ومنه الاخاء ، والتآخي . والأخوة قرابة الأخ . والتآخي اتخاذ الأخوان . وبينهما إخاء وأخوة . وآخيت فلاناً موآخاة ، وإخاء . وأصل الباب الأخ من النسب ، ثم شبه به الاخ من الصداقة .

المعنى :

والهاء في قوله : « من أخيه » تعود الى أخي المقتول ـ في قول الحسن ـ . وقال غيره : تعود الى أخي القاتل ، فان قيل : كيف يجوز أن تعود الى أخي القاتل وهو في تلك الحال فاسق ؟ قيل عن ذلك ثلاثة أجوبة :

« ١ » سورة آل عمران آية : ٣٥ .

« ٢ » سورة الحجرات آية : ١٠ .

أحدهـا ـ إنه أراد أخوة النسب ، لا في الدين ، كما قال « وإلى عاد أخاهم هوداً » (١) . والثاني ـ لأن القاتل قد يتوب فيدخل في الجملة ، وغير التائب على وجه التغليب . الثالث ـ تعريفه بذلك على أنه كان أخاه قبل أن يقتـله ، كما قال : « إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » (٢) يعني الذين كانوا أزواجهن . وقال جعفر بن مبشر عن بعضهم : إن هذه الآية منسوخة بقوله « النفس بالنفس » (٣) قال : وليست عندي كذلك ، لأن الله تعالى إنمـا أخبرنا أنه كتبها على اليهود قبلنا ، وليس في ذلك ما يوجب أنه فرض علينا ، لأن شريعتهم منسوخة بشريعتنا . والذي أقوله : إن هذه الآية ليست منسوخة ، لأن ما تضمنته معمول عليه ولا ينافي قوله تعالى : : « النفس بالنفس » لأن تلك عامة ، ويمكن بناء تلك على هذه ، ولا تناقض ولا يحتاج الى أن ينسخ إحداها بالأخرى . وقال قتادة : نزلت هذه الآية ، لأن قوماً من أهل الجاهلية كانت لهم حولة (٤) على غيرهم من أهل الجاهلية ، فكانوا يتعدون في ذلك ، فلا يرضون بالعبد إلا الحرّ ، ولا بالمرأة إلا الرجل ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك .

وقوله : « فاتباع بالمعروف » يعني العافي ، وعلى المعفو عنه « أداء اليـه باحسان » وبه قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد ، والشعبي ، والربيع ، وابن زيد ، وهو المروي عن أبي عبد الله (ع) . وقال قوم : هما على المعفو عنه .

والاعتداء هو القتل بعد قبول الدية على قول ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد ، والربيع ، وابن زيد ، وهو المروي عن أبي جعفر ، وأبي عبد الله (ع) . وقال بعضهم « من اعتدى » بعد البيان في الآية ، فقتل غير قاتل وليه أو بعد قبول

« ١ » سورة الاعراف آية : ٦٤ ، سورة هود آية : ٥٠ .

« ٢ » سورة البقرة آية : ٢٣٢ .

« ٣ » سورة المائدة آية : ٤٨ .

« ٤ » الحولة : هي المنكر ، ويمكن أن يكون معناه الحق الذي حل أجله ، ويكون المعنى لهم عليهم حق قصاص حال ، وعلي الأول لهم عليهم قود بمنكر قد فعلوه ، ويريدون الاقتصاص منهم .

الدية « فله عذاب أليم » وهذا ايضاً جيـد تحتمله الآية .

الاعراب :

وقوله : « فاتباع » رفـع بأنه إبتداء لخبر محذوف ، كأنه قيل : فحكمه اتباع ، أو فعليه اتباع . وكان يجوز النصب في العربية . على تقدير فاليتبع اتباعاً ، ولم يقرأ به .

اللغة :

والاداء ، قال الخليل : أدّى فلان يؤدّي ما عليه إداء وتأدية . ويقال : فلان آدّى للامانة من غيره . والأداة من أدوات الحرب . وأصل الباب التأدية تبليغ الغاية .

المعنى :

وقوله تعالى : « تخفيف من ربكم » معناه : أنه جعل لـكم القصاص ، أو الدية ، أو العفو ، وكان لأهل التوراة قصاص ، وعفو ، ولأهل الانجيل عفو ، أو دية . ويجوز قتل العبد بالحر ، والانثى بالذكر إجماعاً ، ولقوله : « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنـا لوليه سلطاناً » (١) ولقوله : « النفس بالنفس » (٢) . وقوله : في هذه الآية « الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والانثى بالانثى » لا يمنع من ذلك ، لأنه تعالى لم يقل : ولايقتل الانثى بالذكر ، ولاالعبد بالحر . فاذا لم يكن ذلك في الظاهر ، فما تضمنته الآية معمول به ، وما قلناه مثبت بما تقدم من الأدلة . فأما قتل الحر بالعبد ، فعندنا لايجوز ، وبه قال الشافعي ، وأهل المدينة . وقال أهل العراق : يجوز. ولا يقتل والد بولد عندنا ، وعند أكثر الفقهاء . وعنـد مالك يقتل به على بعض الوجوه . وأما قتل الوالدة بالولد ، فعندنا تقتل . وعند جميع الفقهاء انها جارية مجرى

« ١ » سورة الاسرى آية : ٣٣ . « ٢ » سورة المائدة آية : ٤٨ .

الأب . فأما قتل الولد بالوالد فيجوز إجماعاً . ولا يقتل مولى بعبده . ويجوز قتل الجماعة بواحد إجماعاً إلا أن عندنا يرد فاضل الدية ، وعندهم لا يرد شيء على حال . واذا اشترك بالغ مع طفل . أو مجنون في قتل ، فعندنا لا يسقط القود عن البالغ ، وبه قال الشافعي . وقال أهل العراق : يسقط . ودية القصاص في قود النفس الف دينار ، أو عشرة آلاف درهم ، أو مأة من الابل ، أو مأتان من البقر ، أو الف شاة ، أو مأتا حلة . ولا يجبر القاتل على الدية ـ عندنا ـ . وان رضي ، فهي عليه في ماله . وقال الحسن : يجبر على العفو عن القصاص ، والدية على العاقلة . والقتل بالحديد عمداً يوجب القود إجماعاً . فأما غير الحديد ، فكل شيء يغلب على الظن أن مثله يقتل فانه يجب القود عندنا ، وعند أكثر الفقهاء . والذي له العفو عن القصاص كل من يرث الدية إلا الزوج ، والزوجة . وهم لا يستثنون بها إلا أبا حنيفة : قال : اذا كان للمقتول ولد صغار وكبار ، فللكبار أن يقتلوا ، ويحتج بقاتل علي (ع) . وقال غيره : لا يجوز حتى يبلغ الصغار . وعندنا أن لهم ذلك إذا ضمنوا حصة الصغار من الدية إذا بلغوا ، ولم يرضوا بالقصاص . واذا اجتمع مع القصاص حدود ، فان كان حد لله ، فالقتل يأتي عليه . وإن كان حق لآدمي كحد القذف ، أقيم عليه الحد ثم يقتل . وقال أهل المدينة : القتل يأتي على الكل . ويقتل الرجل بالمرأة اذا رد أولياؤها نصف الدية . وخالف جميع الفقهاء في ذلك . وما قلنا ، قول علي (ع) وقول الحسن البصري . وشرح مسائل الديات ذكرناها في النهاية ، والمبسوط ، لا يقتضي ذكرها هاهنا .

قوله تعالى :

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

(١٧٩) آية بلا خلاف .

المعنى :

أكثر المفسرين على أن قوله : « ولكم في القصاص حياة » المراد به القصاص

في القتل . وإنما كان فيه حياة من وجهين :

أحدها ـ ما عليه أكثر المفسرين كمجاهد ، وقتادة ، والربيع ، وابن زيد : أنه إذا هم الانسان بالقتل فذكر القصاص ، ارتدع ، فكان ذلك سبباً للحياة .

الثاني ـ قال السدي : من جهة أنه لا يقتل إلا القاتل دون غيره . خلاف فعل الجاهلية الذين كانوا يتفانون (١) بالطوائل ، والمعنيان جميعاً حسنان . وقال أبو الجوزاء : معناه أن القران (٢) حياة بالقصاص ، أراد به القران . وهذا ضعيف ، لأنه تأويل خلاف الاجماع ، ولأنه لا يليق بما تقدم ، ولا يشاكله ، وهو قوله : « كتب عليكم القصاص في القتلى » ، فكأنه قال بعده ولكم فيه حياة . ونظير هذه الآية قولهم : القتل أنفى للقتل . وبينهما من التفاوت في الفصاحة ، والبلاغة ما بين السماء والأرض وقيل : الفرق بينهما من أربعة أوجه :

أحدها ـ أنه أكثر فائدة . وثانيها ـ أنه أوجز في العبارة . وثالثها ـ أنه أبعد عن الكلفة بتكرير الجملة . ورابعها ـ أنه أحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة .

أما كثرة الفائدة ، ففيه ما في قولهم : (القتل أنفى للقتل) وزيادة معان حسنة : منها إبانة العدل ، لذكره القصاص . ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه ، لذكر الحياة . ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به .

وأما الايجاز في العبارة ، فان الذي هو نظير (القتل أنفى للقتل)قوله تعالى : « في القصاص حياة » وهو عشرة أحرف . والأول أربعة عشر حرفاً . وأما بعد التكلف ، فهو أن في قولهم : (القتل أنفى للقتل) تكرير غيره أبلغ منه . ومتى كان التكرير كذلك ، فهو مقصر في باب البلاغة . وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة ، فهو مدرك بالحس ، وموجود باللفظ ، فان الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام الى الهمزة ، لبعد الهمزة من اللام . وكذلك الخروج من الصاد

« ١ » في المطبوعة « يتغابون » .

« ٢ » هكذا في المطبوعة ولم أجد قول لأبي الجوزاء في هذا الموضع في ما حضرني من التفاسير ، ولم أجد في كتب اللغة القصاص بمعنى القران ، الا أن يكون ـ بفتح القاف ـ

الى الحاء أعدل من الخروج من الألف الى اللام . فباجماع هــذه الأمور التي ذكرناها كان أبلغ منه وأحسن . وإن كان الأول حسناً بليغاً وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء ، فقال :

أبلـغ أبا مالك عني مغلغـلة   وفي العتاب حياة بين أقوام (١)

وهذا وإن كان حسناً ، فبينه وبين لفظ القرآن : ما بين أعلى الطبقة وأدناها . وأول ما فيه أنه استدعاء الى العتاب . وذلك استدعاء الى العدل . وفي هذا إبهام . وفي الآية بيان عجيب .

اللغة :

وقوله : « يا أولى الألباب » فالألباب : العقول وهو مأخوذ من النخلة على وجه التشبيه به . واللب : العقل . لبَ الرجل يلبّ : إذا صار لبيباً . ولبّ بالمكان ، وألبّ به لباً ، وإلباباً : اذا أقام به . ولُب كل شيء خالصه . قال صاحب العين : اللبّ : البال . تقول : الأمر منه في لبب رخيّ أي في بال رخي . واللبب من الرمل : شبيه حقف بين معظم الرمل ، وجلد الأرض . وتلبب بالثياب إذا جمعها . ويشبه به المتسلح بالسلاح . واللبة من الصدر : موضع القلادة . والتلابيب : مجمـع ما في موضع اللبب من ثياب الرجل . تقول : أخـذ فلان بتلابيب فلان . وأصل الباب لب الشيء : داخله : الذي تركبه القشرة ، وتلزمه . ومنه لبيك وسعديك أي ملازمة لأمرك وإسعاداً لك .

المعنى :

وقوله تعالى : « لعلكم تتقون » قد بينا فيما مضى أن لعل معناه لكي وقيل في معناه هاهنا قولان :

« ١ » اللسان (غلل) أنشده بن بري . مغلغلة : رسالة محمولة من بلد الى بلد والعتاب هو الملاومة ولا تكون الا بين اثنين فصاعداً . وانما قال : حياة ، لأنه يخفف من الغيظ ، وقد يبطل العتاب حرباً يقتل فيها الألوف . فكأنه يقول اوصل هذه الرسالة التي هي عتاب ، والعتاب حياة لقومي ولقومك .

[الأول] لكي تتقوا القتل بالخوف من القصاص . ذكره ابن زيد .

الثاني ـ قال الجبائي ، وغيره : لتتقوا ربكم باجتناب معاصيه . وهذا أعم فائدة ، لأنه يدخل فيه اتقاء القتل ، وغيره .

وفي الآية دلالةعلى فساد قول المجبرة ؛ لأن فيها دلالة على أنه أنعم على جميع العقلاء ، ليتقوا ربهم ،وفي ذلك دلالة على أنه أراد منهم التقوى وإن عصوا ، وإنما خص الله تعالى بالخطاب أولي الالباب ، لانهم المكلفون المأمورون ، ومن ليس بعاقل لا يصح تكليفه ، ولا يحسن ، فلذلك خصهم بالذكر .

قوله تعالى :

كُتِبَ عَلَيكُم إذا حَضَرَ أَحدَكُمُ الموتُ إن تَرَكَ خيراً الوَصِيَّةُ لِلوالِدَينِ والأَقرَبِينَ بِالمعروفِ حَقّاً على المتَّقِينَ (١٨٠)

آية بلا خلاف .

المعنى :

هذا ابتداء قصة ،ولابد فيه من واو العطف ، بان يقال : وكتب، لأنه حذف اختصاراً وقد بينا فيما مضى : أن معنى كتب فرض . وهاهنا معناه الحث والترغيب دون الفرض ، والايجاب . وفي الآية دلالة على أن الوصية جائزة للوارث ، لأنه قال للوالدين ، والأقربين . والوالدان وارثان بلا خلاف إذا كانا مسلمين حرّين غير قاتلين . ومن خص الآية بالكافرين ، فقد قال : قولا بلا دليل ، ومن ادعى نسخ الآية فهو مدع لذلك ، ولا يسلم له نسخها . وبمثل ماقلناه قال محمد بن جرير الطبري سواء ، فان ادعوا الاجماع على نسخها ، كان ذلك دعوى باطلة ونحن نخالف في ذلك . وقد خالف في نسخ الآية طاووس ، فانه خصها بالكافرين ، لمكان الخبر ولم يحملها على النسخ . وقد قال أبو مسلم محمد بن بحر : إن هذه الآية مجملة ، وآية المواريث مفصلة ، وليست نسخاً ، فمع هذا الخلاف كيف يدعى الاجماع على نسخها .

ومن ادعى نسخها ، لقوله (ع) : لا وصية لوارث ، فقد أبعد ، لأن هـذا اولا خبر واحد لا يجوز نسخ القرآن به إجماعاً . وعندنا لا يجوز العمل به في تخصيص عموم القرآن . وادعاؤهم أن الأمة أجمعت على الخبر دعوى عارية من برهان . ولو سلمنا الخبر جاز أن نحمله على أنه لا وصية لوارث فيما زاد على الثلث ، لأنا لو خلينا وظاهر الآية لأجزنا الوصية بجميع ما يملك للوالدين والاقربين ، لـكن خص مازاد على الثلث لمكان الاجماع .

وأما من قال : إن الآية منسوخة بآية الميراث فقوله بعيد عن الصواب . لأن الشيء إنما ينسخ غيره : إذا لم يمكن الجمع بينهما ، فأما اذا لم يكن بينهما تناف ولا تضاد بل أمكن الجمع بينهما ، فلا يجب حمل الآية على النسخ ، ولا تنافي بين ذكر ما فرض الله للوالدين وغيرهم من الميراث ، وبين الامر بالوصية لهم على جهة الخصوص ، فلم يجب حمل الآية على النسخ . وقول من قال : حصول الاجماع على أن الوصية ليست فرضاً يدل على أنها منسوخة باطل ، لأن إجماعهم على أنها لا تفيد الفرض ، لا يمتنع من كونها مندوباً إليها ومرغّباً فيها ، ولأجل ذلك كانت الوصية للوالدين ، والاقربين الذين ليسوا بوارث ثابتة بالآية ولم يقل أحد أنها منسوخة في خبرهم(١) . ومن قال : إن النسخ من الآية ما يتعلق بالوالدين ، وهو قول الحسن والضحاك ، فقد قال قولا ينافي ما قاله مدعي نسخ الآية — على كل حال — ومـع ذلك فليس الأمر على ما قال ، لأنه لا دليل على دعواه . وقال طاووس : إذا وصى لغير ذي قرابة لم تجز وصيته . وقال الحسن : ليست الوصية إلا للأقربين وهـذا الذي قالاه عندنا وإن كان غير صحيح ، فهو مبطل قول من يدعي نسخ الآية . وإنما قلنا أنه ليس بصحيح ، لأن الوصية لغير الوالدين ، والأقربين عندنا جائزة . ولا خلاف بين الفقهاء في جوازها . والوصية لا تجوز بأكثر من الثلث إجماعاً ، والأفضل أن يكون بأقل من الثلث ، لقوله (ع) والثلث كثير ، وأحق من وصّي له من كان

« ١ » نسب الخبر اليهم مع أنهم يروونه عن النبي (ص) ، لأنه لا يسلم صحته .

أقرب الى الميت إذا كانوا فقراء ـ بلا خلاف ـ وإن كانوا أغنياء ، فقال الحسن وعمرو بن عبيد : هم أحق بها . وقال ابن مسعود ، وواصل ألأحقّ بها الأجوع ، فالأجوع من القرابة .

وقوله تعالى : « إن ترك خيراً » يعني مالا . واختلفوا في مقداره الذي يجب الوصية عنده ، فقال الزهري : كلما وقع عليه اسم مال من قليل أو كثير . وقال ابراهيم النخعي : الف درهم الى خمسمائة . وروي عن علي (ع) أنه دخل على مولى لهم في مرضه ، وله سبع مائة درهم أو ستمائة ، فقال : ألا أوصي ، فقال : لا إنما قال الله تعالى : « إن ترك خيراً » وليس لك كبير مال . وبهذا نأخذ ، لأن قوله حجة عندنا .

الاعراب :

والوصية في الآية مرفوعة بأحد أمرين :

أحدها ـ بـ (كتب)، لأنه لم يسم فاعله . الثاني ـ أن يكون العامل فيه الابتداء وخبره للوالدين ، والجملة في موضع رفع على الحكاية بمنزلة قيل لكم : الوصية للوالدين . وقيل في إعراب (إذا) والعامل فيه قولان : أحدهما ـ كتب على معنى اذا حضر أحدكم الموت أي عند المرض . والوجه الآخر قال الزجاج ، لأنه رغب في حال صحته أن يوصي ، فتقديره كتب عليكم الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف في حال الصحة قائلين : اذا حضرنا الموت فلفلان كذا .

المعنى :

المعروف هو العدل الذي لا يجوز أن ينكر ولا حيف فيه ولا جور والحضور وجود الشيء بحيث يمكن أن يدرك . وليس معناه في الآية اذا حضره الموت أي إذا عاين الموت ، لأنه في تلك الحال في شغل عن الوصية . لكن المعنى كتب عليكم أن توصوا وأنتم قادرون على الوصية ، فيقول الانسان : إذا حضرني الموت أي اذا أنامت ، فلفلان كذا .

والحق هو الفعل الذي لا يجوز إنكاره وقيل ما علم صحته سواء كان قولا أو فعلا أو اعتقاداً وهو مصدر حقّ يحق حقاً وانتصب في الآية على المصدر وتقديره أحق حقاً وقد استعمل على وجه الصفة ، ، بمعنى ذي الحق ، كما وصف بالعدل « على المتقين » معناه على الذين يتقون عقاب الله باجتناب معاصيه ، وامتثال أوامره .

قوله تعالى :

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) آية بلا خلاف .

الهاء في قوله : « فمن بدله » عائدة على الوصية . وانما ذكّر حملا على المعنى ، لأن الايصاء والوصية واحد . والهاء في قوله : « فانما إثمه » عائدة على التبديل الذي دلّ عليه قوله : « فمن بدله » . وقال الطبري : الهاء تعود على محذوف ، لأن عودها على الوصية المذكورة لا يجوز ، لأن التبديل إنما يكون لوصية الموصي . فأما أمر الله عز وجل بالوصية ، فلا يقدر هو ، ولا غيره أن يبدله قال الرماني : وهذا باطل ، لأن ذكر الله الوصية إنما هو لوصية الموصي ، فكأنه قيل : كتب عليكم وصية مفروضة عليكم ، فالهاء تعود الى الوصية المفروضة التي يفعلها الموصي .

وقوله تعالى : « فمن بدله » فالتبديل : هو تغيير الشيء عن الحق فيه . فأما البدل ، فهو وضع شيء مكان آخر . ومن أوصى بوصية في ضرار فبدلها الوصي ، لا يأثم . وقال ابن عباس : من وصى في ضرار لم تجز وصيته لقوله « غير مضار »(١). والوصي إذا بدّل الوصية لم ينقص من أجر الموصي شيء ، كما لو لم تبدّل ، لأنه لا يجازى أحد على عمل غيره ، لكن يجوز أن يلحقه منافع الدعاء ، والاحسان الواصل الى الموصى له ، على غير وجه الأجر له ، لكن على وجه الجزاء لغيره ممن وصل إليه ذلك الأحسان ، فيكون ما يلحق المحسن إليه من ذلك أجراً له ، يصح

« ١ » سورة النساء آية : ١١ .

بما يصل الى المحسن إليه من المنفعة . وفي الآية دلالة على بطلان مذهب من قال : إن الطفل يعذب بكفر أبويه ، لأن الله تعالى بين وجه العدل في هذا . وقياس العدل في الطفل ذلك القياس ، فمن هناك دل على الحكم فيه . وفيها ايضاً دلالة على بطلان قول من يقول : إن الوارث اذا لم يقبّض دين الميت أنه يؤخذ به في قبره أو في الآخرة ، لما قلنا من أنه دلّ على أن العبد لا يؤآخذ بجرم غيره وأن لا إثم عليه بتبديل غيره . وكذلك لو قضى عنه الوارث من غير أن يوصي به الميت لم يزل عقابه بقضاء الوارث عنه إلا أن يتفضل باسقاطه عنه .

وقوله تعالى : « إن الله سميع عليم » معناه سميع لما قاله الموصى من العدل ، أو الجنف ، عليم بما يفعله الوصي من التبديل أو التصحيح ، فيكون ذكر ذلك داعياً الى طاعته .

قوله تعالى :

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢) آية بلا خلاف .

القراءة

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم « موص » بالتخفيف . الباقون بالتشديد . وهما لغتان : وصى ، وأوصى بمعنى واحد .

المعنى :

فان قيل : كيف قال « فمن خاف من موص » لما قد وقع ، والخوف إنما يكون لما لم يقع ؟ قيل فيه قولان :

أحدها ـ إنه خاف أن يكون قد زلّ في وصيته ، فالخوف المستقبل ، وذلك الخوف هو أن يظهر ما يدل على أنه قد زلّ ، لأنه من جهة غالب الظن .

والثاني ـ لما اشتمل على الواقع ، وما لم يقع جاز فيه « خاف » ذلك فيأمره

عما فيه الصلاح ، وما وقع رده الى العدل بعد موته . والجنف : الجور ، وهو الميل عن الحق . وقال الحسن : هو أن يوصي من غير القرابة ، قال : فمن أوصى لغير قرابته رد الى أن يجعل للقرابة الثلثان ، ولمن أوصى له الثلث . وهـذا باطل عندنا ، لأن الوصية لا يجوز صرفها عن من وصي له . وإنما قال الحسن ذلك لقوله إن الوصيـة للقرابة واجبة . وعندنا إن الامر بخلافه على ما بيناه .

اللغة :

وقال صاحب العين : الجنف : الميل في الكلام والأمور كلها . تقول : جنف علينا فلان ، وأجنف في حكمه ، وهو مثل الحيف إلا ان الحيف من الحاكم خاصه ، والجنف عام ، ومنه قوله تعالى : « غير متجانف » (١) أي متمايل : متعمد . ورجل أجنف : في أحد شقيه ميل على الآخر . وقال ابن دريد : جنف يجنف جنفاً إذا صدّ عن الحق وأصل الباب : الميل عن الاستواء . قال الشاعر في الجنف :

هم المولى وإن جنفوا علينا وإنا من لقائهم لزور (٢)

المعنى :

واذا جنف الموصي في وصيته ، فللوصي أن يردها الى العدل ، وهو المروي عن أبي عبد الله (ع) . وبه قال الحسن ، وقتادة ، وطاووس . وقال قوم ، واختاره الطبري : ان قوله « فمن خاف من موص » في حال مرضه الذي يريد أن يوصي فيه ، ويعطي بعضاً ، ويضر ببعض ، فلا إثم أن يشير عليه بالحق ، ويرده الى الصواب ويسرع في الاصلاح بين الموصي ، والورثة ، والموصى له حتى يكون الكل راضين ،

« ١ » سورة المائدة آية : ٣ .

« ٢ » قائله عامر الخصفي ، من بني خصفة ، ابن قيس عيلان ، مجاز القرآن لابي عبيدة : ٦٦ ، ٦٧ ، ومشكل القرآن : ١١٩ ، واللسان (جنف) (ولي) . قوله : هم المولى : أي هم أبناء عمنا ، أقام المفرد مقام الجمع ، أراد الموالي . وان جنفوا : وان جاروا ومالوا عن الحق . والزور : جمع أزور ، وهو الغضب والانحراف . يقول : هم أبناء عمنا وان مالوا عن الحق وانا لنكره لقاءهم .

ولا يحصل جنف ، ولا ظلم ، ويكون قوله « فأصلح بينهم » يريد فيما يخاف من حدوث الخلاف فيه ـ فيما بعد ـ ويكون قوله « فمن خاف » على ظاهره ، فيكون مترقباً غيرواقع . وهذا قريب ايضاً،غير أن الأول أصوب ، لأن عليه أكثر المفسرين، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) . وإنما قيل للمتوسط بالاصلاح ليس عليه إثم ولم يقل فله الأجر على الاصلاح ، لأن المتوسط إنما يجري أمره في الغالب على أن ينقص صاحب الحق بعض حقه بسوآله إياه ؛ فاحتاج الى أن يبين الله لنا أنه لا إثم عليه في ذلك اذا قصد الاصلاح . والذي اقتضى قوله « غفور رحيم » انه اذا كان يغفر المعصية ، فانه لا يجوز أن يوآخذ بما ليس بمعصية ممـا بين أنه لا إثم عليه .

والضمير في قوله « بينهم » عائد على معلوم بالدلالة عليه عند ذكر الوصي ، والاصلاح ، لأنـه قد دلّ على الموصى لهم ومن ينازعهم وأنشد الفراء ـ في مثل « فأصلح بينهم » :

أعمى إذا ما جارتي خرجت حتى يواري جارتي الخدر
ويصمّ عمّا كان بينهما سمعي وما بي غيره وقر (١)

أراد بينها وبين زوجها ، وإنما ذكرها وحدها، وأنشد أيضاً :

وما أدري إذا يممت وجهاً أريـد الخير أيهما يليني
هل الخير الذي أنا أبتغيـه أم الشر الذي لا يأتليني (٢)

فكنى في البيت الأول عن الشر ، وإنما ذكر الخير وحده . وقيل : بل يعود

« ١ » أمالي الشريف المرتضى ١ : ١٢٣،٣٤ . أعمى : أي أغض بصري . والضمير في بينهما عائد على الزوج والزوجة . يقول لا أنظر الى جارتي الا وهي مستترة ولا أبوح بسرها مع زوجها وكل ما أسمعه منهما فأجعل نفسي كأني لم أسمعه

« ٢ » لم أجد هذين البيتين فيما حضرني من المصادر . في المطبوعة « هل » ساقطة ، « أنهما » بدل « أيهما » .

على مذكور ، هم الوالدان والأقربون .

والضمير في قوله « فلا إثم عليه » عائد على الوصي - في قول الحسن - ويجوز أن يعود على المصلح المذكور في (من) .

وقوله تعالى : « جنفاً » وإنما يريد بالجنف : الميل عن الحق عن جهة الخطأ ، لأنه لا يدري أنه لا يجوز ، والاثم : أن يتعمد ذلك ، وهو معنى قول ابن عباس ، والحسن ، والضحاك ، والسدي . وروي ذلك عن أبي جعفر . والجنف في الوصية : أن يوصي الرجل لابن ابنته ، وله أولاد . أو يوصي لزوج بنته ، وله أولاد ، فلا يجوز رده على وجه عندنا . وخالف فيه ابن طاووس ، وكذلك إن وصى للبعيد دون القريب لا تردّ وصيته . وخالف فيه الحسن .

قوله تعالى :

يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الَّذينَ من قبلكم لعلكم تتقون (١٨٣) آية بلا خلاف .

هذه الآية ظاهرها يتوجه الى من كان على ظاهر الايمان . فأما الكافر ، فلا يعلم بهذا الظاهر أنه مخاطب بالصيام . وقوله « كتب » معناه فرض على ما بيناه فيما مضى .

اللغة :

والصيام ، والصوم : مصدر صام يصوم صوماً قال النابغة :

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وخيل تعلك اللجما (١)

وقال صاحب العين : الصوم ، والصمت واحد كقوله تعالى « إني نذرت للرحمن صوماً » أي صمتاً . والصوم قيام بلا عمل . صام الفرس على آريه : اذا لم يعلف .

« ١ » ديوانه : ١٠٦ « ملحق » ، واللسان « صوم » ، « علك » وهو من قصيدته الشهيرة التي أولها :

بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما

وصامت الريح : اذا ركدت . وصامت الشمس : حين تستوي في منتصف النهار . وصامت الفرس : موقفه . والصوم ذرق النعام . والصوم : شجر . وأصل الباب : الامساك ، فالصوم : الصمت ، لأنه إمساك عن الكلام .

المعنى :

والصوم في الشرع هو الامساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص ممن هو على صفات مخصوصة في زمان مخصوص . ومن شرط انعقاده النية .

وقوله « كما كتب على الذين من قبلكم » قيل فيه ثلاثة أقوال : أحسنها : انه كتب عليكم صيام أيام ، كما كتب عليهم صيام أيام . وهو اختيار الجبائي ، وغيره ، ويكون الصيام رفعاً ، لأنه ما لم يسمّ فاعله ، ويكون موضع (كما) نصب على المصدر . والمعنى فرض عليكم فرضاً كالذي فرض على الذين من قبلكم . ويحتمل أن يكون نصباً على الحال من الصيام . وتقديره كتب عليكم مفروضاً أي في هذه الحال .

والثاني - ما قاله الشعبي ، والحسن : انه فرض علينا شهر رمضان كما فرض شهر رمضان على النصارى . وإنما زادوا فيه وحوّلوه الى زمان الربيع .

والثالث - ما قاله الربيع ، والسدي : إنه كان الصوم من العتمة إلى العتمة لا يحلّ بعد النوم مأكل ، ولا مشرب ، ولا منكح ، ثم نسخ . والأول هو المعتمد . وقال مجاهد . وقتادة : المعني بالذين من قبلكم أهل الكتاب .

وقوله « لعلكم تهتدون » أي لعلكم تتقون المعاصي بفعل الصوم - في قول الجبائي - وقال السدي : لتتقوا ما حرم عليكم من المأكل والمشرب . وقالت فرقة : معناه لتكونوا أتقياء بما لطف لكم في الصيام ، لأنه لو لم يلطف به لم تكونوا أتقياء . وإنما قلنا : الأول هو المعتمد ، لأنه يصح ذلك في اللغة ، إذا كان فرض عليهم صيام أيام كما علينا صيام أيام وإن اختلف ذلك بالزيادة والنقصان .

قوله تعالى :

أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ

تَطوَّعَ خيراً فهو خيرٌ لَهُ وأنْ تَصوموا خيرٌ لكُمْ إنْ كُنتمْ تَعلمونَ (١٨٤) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابن عامر ، ونافع « فدية طعام مساكين » على إضافة الفدية وجمع المساكين . الباقون « فدية » منون « طعام مسكين » على التوحيد . والقراءتان متقاربتا المعنى ، لأن المعنى لكل يوم يفطر طعام مسكين . والقراءتان يفيدان ذلك .

الاعراب :

قوله تعالى : « أياماًمعدودات »منصوب بأحد شيئين : أحدهما - على الظرف ، كأنه قيل : الصيام في أيام معدودات . وهو الذي اختاره الزجاج . الثاني - أن يكون قد عدي الصيام إليه كقولك : اليوم صمته . وقال الفراء : هو مفعول ما لم يسمى فاعله كقولك : أعطي زيد المال . وخالفه الزجاج ، قال ، لأنه لا يجوز رفع الأيام ، كما لا يجوز رفع المال . وإذا كان المفروض في الحقيقة هو الصيام دون الأيام ، فلا يجوز ما قاله الفراء إلا على سعة في الكلام .

وقال عطا ، وقتادة : الأيام المعدودات كانت ثلاثة أيام من كل شهر ، ثم نسخ . وكذلك روي عن ابن عباس . وقال ابن أبي ليلى : المعني به شهر رمضان وإنما كان صيام ثلاثة أيام من كل شهر تطوعاً .

وقوله تعالى : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ارتفع عدّة على الابتداء ، وتقديره فعليه عدة من أيام أخر . وروي عن أبي جعفر (ع) أن شهر رمضان كان صومه واجباً على نبي دون أمته . وإنما أوجب على أمة نبينا محمد (ص) فحسب . وإنما قال « أخر » ولا يوصف بهذا الوصف إلا جمع المؤنث التي كل واحدة أنثى - والأيام جمع يوم وهو مذكر - حملا له على لفظ الجمع ، لأن الجمع يؤنث كما يقال جائت الأيام ومضت الأيام . و « أخر » لا يصرف ، لأنه

معدول عن الألف واللام ، لأن نظائرها من الصغر والكبر لايستعمل إلا بالألف واللام ، لا يجوز نسوة صغر ، ويجوز في العربية « فعدة » على معنى ، فليعد عدة من أيام أخر بدلا مما أفطر .

المعنى :

وهذه الآية فيها دلالةعلى أن المسافر ، والمريض يجب عليهما الافطار ، لأنه تعالى أوجب عليهما القضاء مطلقاً ، وكل من أوجب القضاء بنفس السفر والمرض أوجب الافطار وداود أوجب القضاء ، وخيرّ في الافطار ، فان قدّروا في الآيـة فأفطر ، كان ذلك خلاف الآية ، وبوجوب الافطار في السفر قال عمر بن الخطاب ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو هريرة ، وعروة ابن الزبير ، وأبو جعفر محمد بن علي بن الحسين ؛ وروى سعيد بن جبير عن قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس : قال : الافطار في السفر عزيمة . وروى يوسف ابن الحـــكم ، قال : سألت ابن عمر عن الصوم في السفر قال : أرأيت لو تصدقت على رجل بصدقة فردها عليك ألا تغضب ، فانها صدقة من الله تصدق بها عليكم ، وروى عبد الملك بن حميد قال قال أبو جعفر : كان أبي لا يصوم في السفر وينهى عنـه ، وروي عن عمر، أن رجلا صام في السفر ، فأمره أن يعيـد صومه ، وروى عطا عن المحرز بن أبي هريرة قال : كنت مع أبي في سفر في شهر رمضان ، فكنت أصوم ويفطر ، فقال أبي أما أنك اذا أقمت قضيت ، وروى عاصم مولى قومه : أن رجلا صام في السفر فأمره عروة أن يقضي ، وروى الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ابن عوف قال قال رسول الله (ص) : الصائم في السفر كالمفطر في الحضر . وروي عن معاذ أن النبي (ص) قدم المدينة ، فكان يصوم عاشوراء ، وثلاثة أيام من كل شهر ثم نسخ ذلك بشهر رمضان في قوله : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » واختار الطبري هذا الوجه قال ، لأنه لم ينقطع العذر برواية صحيحة أنه كان هاهنا صوم متعبد به فنسخه الله بشهر رمضان .

اللغة :

وأصل السفر الكشف تقول : سفر يسفر سفراً : اذا كشف . وأسفر لونه إسفاراً ، وانسفرت الابل : اذا انكشفت داهية انسفاراً . وسافر سفراً ، وسفرت الريح السحاب إذا قشعته قال العجاج :

سفر الشمال الزّبرج المزبرجا (١)

الزبرج السحاب الرقيق ، ومنه السفر ، لأنه يظهر به مالم يكن ظهر ، وينكشف به ما لم يكن انكشف ، والسفرة طعام السفر ، وبه سميت الجلدة التي يحمل فيها الطعام سفرة ، والمسفرة : المكنسة ، والسفير الداخل بين اثنين للصلح ، والسفير : ورق الشجر إذا سقط ، وسفر فلان شعره اذا استأصله عن رأسه ، ومنه قوله تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة » (٢) أي مشرقة مضيئة « والصبح اذا أسفر » (٣) اذا أضاء . والاسفار جمع سفر « بايدي سفرة » (٤) أي كتبة .

وقوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه » يقال : طاق يطوق طوقاً وطاقة وهي القوة ، وأطاقه إطاقة ايضاً إذا قوي عليه ، وطوّقه تطويقاً : ألبسه الطوق ، وهو معروف من ذهب كان أو فضة كأنه يكسيه قوة بما يعطيه من الجلالة ، وكل شيء استدار فهو طوق ، كطوق الرحا الذي يدير القطب مشبه بالطوق المعروف في الصورة ، وتطوقت الحية على عنقها : أي صارت كالطوق فيه ، والطاقة : شعبة من ريحان أو شعر ونحو ذلك ، والطاق : عقد البناء حيث ما كان ، والجمع الا طواق ، وذلك لقوته . وطوقه الأمر إذا جعله كالطوق في عنقه .

المعنى :

قال الحسن وأكثر أهل التأويل : إن هذا الحكم كان في المراضع ، والحوامل ، والشيخ

« ١ » اللسان (سفر) ، (زبرج) . سفر : كشف . الشمال : ريح الشمال . الزبرج ـ بكسر الزاء وسكون الباء وكسر الراء ـ : السحاب الرقيق فيه حمرة ، وقيل : النمر بسواد وحمرة في وجهه . وقيل : هو الخفيف الاحمر .

« ٢ » سورة عبس آية : ٣٨ .   « ٣ » سورة المدثر آية : ٣٤ .

« ٤ » سورة عبس آية ١٥ .

الكبير ، فنسخ من الآية المراضع ، والحوامل وبقي الشيخ الكبير . وقال أبوعبدالله (ع) ذلك في الشيخ الكبير يطعم لكل يوم مسكيناً . منهم من قال : نصف صاع وهم أهل العراق . وقال الشافعي : مد عن كل يوم . وعندنا إن كان قادراً فمدان ، وإن لم يقدر إلا على مد أجزاه . وقال السدي : لم ينسخ ، وإنما المعنى وعلى الذين كانوا يطيقونه .

وقوله تعالى : « فمن تطوع خيراً » يعني أطعم أكثر من مسكين في قول ابن عباس ، وعمل برّاً في جميع الدين في قول الحسن ، وهو أعم فائدة . ومنهم من قال: من جمع بين الصوم ، والصدقة ذهب إليه ابن شهاب . والهاء في قوله يطيقونه ـ عند أكثر أهل العلم ـ عائدة على الصوم ، وهو الأقوى ، وقال قوم : عائدة على الفداء ، لأنه معلوم وإن لم يجر له ذكر . والمعني بقوله « الذين يطيقونه » قيل فيه ثلاثة أقوال :

أولها ـ أنه سائر الناس من شاء صام ، ومن شاء أفطر وافتدى لكل يوم إطعام مسكين حتى نسخ ذلك ـ في قول ابن عباس ، والشعبي .

الثاني ـ قال الحسن وعطا : إنه في الحامل ، والمرضع ، والشيخ الكبير ، فنسخ من الآية الحامل ، والمرضع ، وبقي الشيخ الكبير . وقال السدي : إنه فيمن كان يطيقه إذا صار الى حال العجز عنه . « ومن » في قوله : « فمن تطوع » الظاهر ، والأليق أنها للجزاء . ويحتمل أن تكون بمعنى الذي . وما روي في الشواذ من قراءة من قرأ « يطوقونه » قيل فيه قولان :

أحدهما ـ يكلفونه على مشقة فيه ، وهم لا يطيقونه لصعوبته .

الثاني ـ أن يكون معناه يلزمونه ، وهم الذين يطيقونه ، فيؤول الى معنى واحد . ومن قرأ « فدية طعام مساكين » على إضافة الفدية ، وجمع المساكين : عن ابن عامر ونافع ، فان معنى قراءته تؤول الى قراءة من ينوّن « فدية طعام مسكين » ،

لأن المعنى : لكل يوم يفطر طعام مسكين . والأول يفيد هذا ايضاً ، لأنه إذا قيل : إطعام مساكين للأيام بمعنى لكل يوم مسكين ، صار المعنى واحداً .

وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة : إن القدرة مع الفعل ، لأنه لو كانت الاستطاعة مع الفعل الذي هو الصيام ، لسقطت عنه الفدية ، لأن إذا صام لم يجب عليه فدية .

وقوله : « وإن تصوموا خير لكم » رفع (خير) ، لأنه خبر المبتدأ . وتقديره وصومكم خير لكم ، كأن هذا مع جواز الفدية ، فأما بعد النسخ ، فلا يجوز أن يقال : الصوم خير من الفدية مع أن الافطار لا يجوز أصلا .

قوله تعالى :

شَهرُ رَمَضانَ الَّذي أُنزِلَ فيهِ القرآنُ هُدىً للنّاسِ وَبيِّناتٍ مِنَ الهُدى وَالفُرقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهرَ فَليَصُمهُ وَمَنْ كانَ مَريضاً أو على سَفرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيامٍ أُخرَ يُريدُ اللهُ بِكُمُ اليُسرَ وَلا يُريدُ بِكُمُ العُسرَ وَلِتُكمِلوا العِدَّةَ وَلِتُكبِّروا اللهَ على ما هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشكُرونَ (١٨٥) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ أبو بكر عن عاصم « ولتكملوا » بتشديد الميم . الباقون بتخفيفها . قال أبو العباس : أكملت وكمّلت بمعنى واحد إلا أن في التشديد مبالغة . ومن قرأ بالتخفيف فلقوله « اليوم أكملت لكم دينكم » (١) .

اللغة :

الشهر : معروف ، وجمعه : الأشهر . والشهور والشهرة : ظهور الأمر في

« ١ » سورة المائدة آية : ٤ .

شنعة . وشهرت الحديث أظهرته . وشهر فلان سيفه : اذا انتضاه . والمشهر : الذي أتى عليه شهر . وأشهرت المرأة : اذا دخلت في شهر ولادتها . وأتان شهيرة : أي عريضة ضخمة . والمشاهرة : المعاملة شهراً بشهر . وسمى الشهر شهراً لاشتهاره بالهلال . فأصل الباب الظهور .

وقال ابن دريد : الرمض : شدة وقع الشمس على الرمل وغيره ، والأرض رمضاء . ورمض يومنا رمضاً : إذا اشتد حره . ورمضان من هذا اشتقاقه ، لأنهم سمّوا الشهور بالازمنة التي فيها ، فوافق رمضان أيام رمض الحر ، وقد جمعوا رمضان رمضانات . قال صاحب العين : والرمض حرقة غيظ تقول : أرمضني هذا الأمر ، ورمضت له . والرمض : مطر يكون قبل الخريف . وأصل الباب شدة الحر .

الاعراب :

وشهر رمضان رفع لأحد ثلاثة أشياء :

أولها ـ أن يكون خبر ابتداء محذوف يدل عليه « أياماً معدودات » وتقديره هي شهر رمضان .

الثاني ـ على ما لم يسم فاعله ، ويكون بدلا من الصيام ، وتقديره « كتب عليكم الصيام » « شهر رمضان » .

الثالث ـ أن يكون مبتدأ وخبره « الذي أنزل فيه القرآن » ويجوز في العربية شهر رمضان بالنصب من وجهين : أحدهما ـ صوموا شهر رمضان . والآخر ـ على البدل من أيام .

المعنى :

وقوله « أنزل فيه القرآن » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن : إن الله تعالى أنزل جميع القرآن في ليلة القدر إلى السماء الدنيا ، ثم أنزل على النبي (ص) بعد ذلك

نجوماً . وهو المروي عن أبي عبد الله (ع) .

والثاني ـ أنه ابتدء إنزاله في ليلة القدر من شهر رمضان . فأن قيل كيف يجوز أنزاله كله في ليلة ، وفيه الاخبار عما كان ، ولا يصلح ذلك قبل أن يكون ؟ قلنا : يجوز ذلك في مثل قوله : «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » (١) وقوله : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » (٢) على اذا كان وقت كذا أنزل « لقد نصركم الله » كما قال تعالى « ونادى أصحاب الجنة » (٣) أي إذا كان يوم القيامة « نادى أصحاب الجنة أصحاب النار » .

الاعراب :

وقوله تعالى : « هدى للناس » موضعه نصب على الحال ، كأنه قال : أنزل فيه القرآن هادياً للناس . ولا يحتمل سواه ، لقوله « وبيّنات من الهدى » .

اللغة :

والقرآن إشتقاقه قرأ يقرأ قراءة ، وأقرأه إقراء . وقال صاحب العين : رجل قارء : أي عابد ناسك ، وفعله التقري والقراءة ، وأقرأت المرأة : اذا حاضت . وقرأت الناقة : اذا حملت . والقرأ : الحيض ، وقد جاء بمعنى الطهر . وأصل الباب الجمع ، لقولهم ما قرأت الناقة سلا قط : أي ما جمعت رحمها على سلا قط . وفلان قرأ ، لأنه جمع الحروف بعضها الى بعض . والقرء الحيض ، لاجتماع الدم في ذلك الوقت . والفرقان : هو الذي يفرق بين الحق ، والباطل . والمراد به القرآن هاهنا .

المعنى :

وقوله : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » قيل في معناه قولان :

« ١ » سورة آل عمران آية : ١٢٣ . « ٢ » سورة التوبة آية : ٢٦ .
« ٣ » سورة الاعراف آية : ٤٣ .

أحدها ـ من شاهد منكم الشهر مقيما. والثاني ـ من شهده بان حضره، ولم يغب، لانه يقال: شاهد: بمعنى حاضر. وشاهد: بمعنى مشاهد. وروي عن ابن عباس، وعبيدة السلماني، ومجاهد، وجماعة من المفسرين، ورووه عن علي (ع) أنهم قالوا: من شهد الشهر بأن دخل عليه الشهر، كره له أن يسافر حتى يمضي ثلاث وعشرون من الشهر إلا أن يكون واجباً كالحج، أو تطوعاً كالزيارة، فان لم يفعل، وخرج قبل ذلك كان عليه الافطار، ولم يجزه الصوم.

وقوله تعالى: «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» ناسخ الفدية ـ على قول من قال بالتخيير ـ وناسخ للفدية ايضاً في المراضع والحوامل ـ عند من ذهب اليه ـ وبقي الشيخ الكبير، له أن يطعم، ولم ينسخ. وعندنا أن المرضعة والحامل اذا خافا على ولدها أفطرتا وكفّرتا، وكان عليهما القضاء فيما بعد اذا زال العذر. وبه قال جماعة من المفسرين، كالطبري وغيره.

وقوله: «ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر» قد بينا أنه يدلّ على وجوب الافطار ـ في السفر ـ، لأنه أوجب القضاء بنفس السفر، والمرض. وكل من قال ذلك أوجب الافطار. ومن قدر في الآية أو على سفر فأفطر فعدة من أيام أخر، زاد في الظاهر ما ليس فيه. فان قيل: هذا كقوله «فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام» (١) ومعناه فحلق. قلنا: إنما قدرنا هناك فحلق للاجماع على ذلك، وليس هاهنا إجماع، فيجب أن لا يترك الظاهر، ولا يزاد فيه ما ليس فيه.

اللغة:

وقوله تعالى: «يريد الله بكم اليسر» قال صاحب العين: الارادة: أصلها الواو، لأنك تقول: راودته على أن يفعل كذا وكذا، مراودة. ومنه راد، يرود، روادا، فهو رايد بمعنى الطالب شيئاً. ويقال أرود فلان إروادا: إذا رفق

(١) سورة البقرة آية: ١٩.

في مشي أو غيره . ومنه رويداً فلاناً : أي امهله يتفسح منصرفاً . ومنه ارتاد ارتياداً كقولك : طلب طلباً ، والرود : الميل . وفي المثل (الرائد لا يكذب أهـله) أي الطالب صلاحهم لا يكذبهم ، لأنه لو كذبهم غشهم . وأصل الباب الطلب . والارادة بمنزلة الطلب للمراد ، لأنها كالسبب له .

واليسر ضد العسر . يقال : أيسر إيساراً ، ويسره تيسيراً ، وتيسر تيسراً ، وتياسر تياسراً ، واستيسر استيساراً . واليسار : اليـد اليسرى . واليسار : الغنى ، والسعة . واليسر : الجماعة الذين يجتمعون على الجزور في الميسر ، والجمع : الايسار . وفرس حسن التيسور : اذا كان حسن السمن (١) . وأصل الباب السهولة .

والعسر ضد اليسر . وعسر الشيء عسراً . ورجل عسر بيّن العسر . ورجل أعسر : يعمل بشماله . وأعسر الرجل إعساراً : اذا افتقر . والعسير الناقة التي اعتاصت فلم تحمل من سنتها . وبعير عسران اذا رُكب قبل أن يُراض . وأصل الباب الصعوبة .

وقوله تعالى : « ولتكملوا العدة » يقال : كمل يكمل كمالا ، وأكمل إكمالا ، وتكامل تكاملا ، وكمله تكميلا ، واستكمل استكمالا ، وتكمل تكملا . وأصل الباب الكمال ، وهو التمام .

الاعراب :

وعطف باللام في قوله تعالى : « ولتكملوا العدة » على أحد أمرين :

أحدها ـ عطف جملة على جملة ، لأن بعده محذوفاً ، كأنه قال : ولتكملوا العدة شرع ذلك أو أريد . ومثله قوله تعالى : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين » (٢) أي أريناه . هذا قول الفراء .

الثاني ـ أن يكون عطفاً على تأويل محذوف دلّ عليه ما تقدم من الكلام ، لأنه لما قال : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » دلّ على أنه فعل ذلك ليسهل عليكم ، فجاز « ولتكملوا العدة » عطفاً عليه . قال الشاعر :

« ١ » حسن ساقطة من المطبوعة ، السمن ـ بكسر السين وفتح الميم .
« ٢ » سورة الانعام آية : ٧٥ .

يارب غيرّ آيهن مع البلى ... إلا رواكد جمرهنّ هباء

ومشجج أمّا سواء قذاله ... فبدا وغيّب ساره المعزاءُ (١)

فعطف على تأويل الكلام الأول كأنه قال: بها رواكد، ومشجج. وهذا قول الزجاج وهو الأجود، لأن العطف يعتمد على ما قبله، لا على ما بعده. وعطف الظرف على الاسم في قوله: « ومن كان مريضاً أو على سفر » جائز، لأنه معنى الاسم، وتقديره أو مسافراً، ومثله قوله: « دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً » كأنه قال مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً.

المعنى:

واليسر المذكور في الآية: الافطار في السفر ـ في قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك.

والعسر: الصوم فيه وفي المرض. والعدة: المأمور باكمالها، والمراد بها: أيام السفر، والمرض الذي أمر بالافطار فيها وقال الضحاك، وابن زيد: عدة ما أفطروا فيه.

وقوله « ولتكبّروا الله » المراد به تكبير ليلة الفطر عقيب أربع صلوات: المغرب، والعشاء الآخرة، وصلاة الغداة، وصلاة العيد ـ على مذهبنا ـ. وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم، وسفيان، وابن زيد: التكبير يوم الفطر.

وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة من ثلاثة أوجه:

أحدها ـ قوله « هدى للناس » فعمّ بذلك كل إنسان مكلف، وهم يقولون ليس يهدي الكفار.

« ١ » اللسان (شجج) ذكر البيت الثاني فقط. غير: بدل. آيهن جمع آية وهي العلامة. والرواكد هي حجارة توضع تحت القدر. مشجج: مضروب. قذال: مجمع عظم الرأس بدا ظهر وبان. ساره: جميعه. المعزاء: الارض الصلبة ذات الحجارة. يقول رب لا تترك لهن علامة، وافنهن جميعاً سوى حجارة الموقد، ومكسرات الرأس، واجعل أرضهن صلبة وفيها حجارة قد رماها العدو حتى غطت عليهن جميعاً.

الثاني ـ قوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » والمجبرة تقول : قد أراد تكليف العبد مالا يطيق مما لم يعطه عليه قدرة ، ولا يعطيه ، ولا عسر أعسر من ذلك .

الثالث ـ لو أن إنساناً حمل نفسه على المشقة الشديدة التي يخاف معها التلف في الصوم لمرض شديد لكان عاصياً ، ولكان قد حمل نفسه على العسر الذي أخبر الله أنه لا يريده بالعبد . والمجبرة تزعم أن كلما يكون من العبد من كفر أو عسر أو غير ذلك من أنواع الفعل يريده الله .

مسائل من أحكام الصوم

يجوز قضاء شهر رمضان متتابعاً ، ومتفرقاً ، فالتتابع أفضل . وبه قال مالك ، والشافعي . وقال أهل العراق : هو مخير . ومن أفطر في شهر رمضان متعمداً بالجماع في الفرج لزمه القضاء ، والكفارة ـ عندنا ـ والكفارة : عتق رقبة ، فان لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فان لم يستطع فاطعام ستين مسكيناً . وبه قال أبو حنيفة ، والشافعي . وقال مالك هو بالخيار . وفي أصحابنا من قال بذلك . والاطعام لكل مسكين نصف صاع ـ عندنا ـ وبه قال أبو حنيفة ، فان لم يقدر فمد . وبه قال الشافعي ، ولم يعتبر العجز . فان جامع ناسياً ، فلا شيء عليه . وقال مالك : عليه القضاء . ومن أكل متعمداً أو شرب في نهار شهر رمضان لزمه القضاء ، والكفارة ـ عندنا ـ وهو قول أبي حنيفة ومالك . وقال الشافعي : لا كفارة عليه ، وعليه القضاء والناسي لا شيء عليه ـ عندنا ـ وعند أهل العراق ، والشافعي . وقال مالك عليه القضاء . ومن أصبح جنباً متعمداً من غير ضرورة لزمه ـ عندنا ـ القضاء والكفارة . وقال ابن حي عليه القضاء استحباباً . وقال جميع الفقهاء لا شيء عليه . ومن ذرعه القيء ، فلا شيء عليه ، فان تعمده كان عليه القضاء . وبه قال أبو حنيفة والشافعي ومالك . وقال الأوزاعي : إن غلبه ، فعليه القضاء بلا كفارة . وإن

استدعاه فعليه القضاء، والكفارة. ومن أكل حصى أو نوى متعمداً فعليه القضاء، والكفارة. وبه قال مالك والأوزاعي. وقال أهل العراق عليه القضاء بلا كفارة. وقال ابن حي لا قضاء ولا كفارة.

واذا احتلم الصبي يوم النصف من شهر رمضان صام ما بقي، ولا قضاء عليه فيما مضى، ويمسك بقية يومه تأديباً، فان أفطر فيه فلا قضاء عليه. وبه قال أهل العراق. وقال مالك: أحب الي أن يقضي ذلك اليوم، وليس بواجب. وقال الاوزاعي: يصوم ما بقي، ويقضي ما مضى منه.

وحكم الكافر اذا أسلم حكم الصبي اذا احتلم في جميع ذلك. والمجنون، والمغمى عليه في الشهر كله لاقضاء عليه ـ عندنا ـ بدلالة قوله تعالى: «فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر» وإنما أراد من شهد الشهر وهو ممن يتوجه اليه الخطاب، والمجنون والمغمى عليه ليس بعاقل يتناوله الخطاب. وقوله «ومن كان مريضاً أو على سفر» المراد به إذا كان مريضاً عاقلا، يشق عليه الصوم، أو يخاف على نفسه منه، فيلزمه «عدة من أيام أخر». وقال أهل العراق: إن لم يفق المجنون في جميع الشهر، فلاقضاء عليه، وان أفاق في بعضه فعليه قضاؤه كله.

وأما المغمى عليه في الشهر كله، فعليه قضاؤه، لأنه بمنزلة المريض. وقال حسن بن صالح، ومالك: المجنون، والمغمى عليه سواء، عليه قضاء الشهر كله إن جن في الشهر كله، وأغمي عليه فيه. وقال الأوزاعي: المجنون، والمغمى عليه سواء، لا قضاء على واحد منهما ما مضى من الشهر، ويقضي ما بقي منه، فان أفاق بعد ما خرج الشهر كله فلا قضاء عليه. وهذا مثل ما قلناه. وقال الشافعي: يقضي المغمى عليه، ولا يقضي المجنون.

والحامل، والمرضع، والشيخ الكبير اذا أفطروا، قال أهل العراق: في الحامل، والمرضع يخافان على ولدهما: يفطران، ويقضيان يوماً مكانه، ولاصدقة عليهما، ولا كفارة، وبه قال قوم من أصحابنا. وقال مالك الحامل تقضي، ولا تطعم والمرضع: تقضي، وتطعم لكل يوم مداً. وقال الشافعي في رواية المزني:

عليهما القضاء في الوجهين ، وتطعم لكل يوم مدّاً ، وهو مذهبنا ، والمعمول عليه . وفي روايـة البزنطي عن الشافعي مثل قول مالك . والشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم يفطر ويتصدق مكان كل يوم نصف صاع في قول أهل العراق ، وهومذهبنا . وقال الشافعي : مدّ لكل يوم . وقال مالك : يفطر ولا صدقة عليـــه . والسفر الذي يوجب الافطار : ما كان سفراً حسناً ، وكان مقداره ثمانية فراسخ : أربعة وعشرين ميلا . وعند الشافعي : ستة عشر فرسخاً . وعند أبي حنيفة : أربعة وعشرون فرسخاً . وقال داود : قليله ، وكثيره يوجب الافطـار . والمرض الذي يوجب الافطـار : ما يخاف معه التلف أو الزيادة المفرطة في مرضه . وروي أنه كل مرض لا يقدر معه على القيام مقدار صلاته ، وبه قال الحسن ، وعبيدة السلماني ، وفي ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف .

ومن قال : إن قوله تعالى : « ولتكملوا العدة » يدل على أن شهر رمضان لا ينقص أبداً ، فقد أبعد من وجهين :

[الاول] ، لأن قوله « ولتكملوا العدة » معناه ولتكملوا عدة الشهر سواء كان الشهر تامّاً أو ناقصاً .

والثاني ـ أن ذلك راجع الى القضاء ، لأنه قال عقيب ذكر السفر ، والمرض : « فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة » يعنى عدة ما فاته ، وهذا بيّن .

قوله تعالى :

وإذا سألكَ عِبادي عنّي فانّي قَريبٌ أُجيبُ دَعوةَ الدّاعِ إذا دَعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يَرشُدونَ (١٨٦) آية بلا خلاف .

النزول :

روي عن الحسن : أنّ سائلا سأل النبي (ص) أقريب ربّنا فتناجيه أم بعيد فتناديه ، فنزلت الآية . قال قتادة : نزلت جواباً لقوم سألوا النبي (ص) كيف تدعو .

المعنى :

وقوله تعالى : « وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب » معناه : إن اقتضت المصلحة إجابته ، وحسن ذلك ، ولم تكن فيه مفسدة (١) . فأما أن يكون قطعاً لكل من يسأل فلابد أن يجيبه ، فلا . على أن الداعي لا يحسن منه السؤال إلا بشرط ألاّ يكون في إجابته مفسدة ، لا له ، ولا لغيره ، وإلاّ كان الدعاء قبيحاً . ولا يجوز أن يقيد الاجابة بالمشيئة بأن يقول : إن شئت ، لأنه يصير الوعد به لا فائدة فيه ، فمن أجاز ذلك فقد أخطأ . فان قيل : إذا كان لا يجيب كل من دعا ، فما معنى الآية ؟ قلنا معناه أن من دعا ـ على شرائط الحكمة التي قدمناها ، واقتضت المصلحة إجابته ـ أجيب لا محالة ، بان يقول : اللهم إفعل بي كذا إن لم يكن فيه مفسدة لي أو لغيري في الدين (٢) أو دنيوي . هذا في دعائه .

وفي الناس من قال : إن الله وعد باجابة الدعاء عند مسألة المؤمنين دون الكفار ، والفاسقين . والمعتمد هو الاول . فان قيل : إذا كان ما تقتضيه الحكمة لابد أن يفعل به ، فلا معنى للدعاء ! قلنا عنه جوابان :

أحدها ـ أن ذلك عبادة كسائر العبادات . ومثله قوله : « رب احكم بالحق » .

والثاني ـ انه لا يمتنع أن تقتضي المصلحة إجابته اذا دعا . ومتى لم يدع لم تقتض الحكمة إجابته .

فان قيل : هل يجوز أن تكون الاجابة غير ثواب ؟ قلنا فيه خلاف . قال

« ١ » في المطبوعة « فئة » .

« ٢ » هكذا في المطبوعة والأولى أن يكون « في أمر ديني » .

أبو علي لا يكون إلا ثواباً ، لأن من أجابه الله ، يستحق المدح في دين المسلمين ، فلا يجوز أن يجيب كافراً ، ولا فاسقاً . وكان أبو بكر بن الأخشاد يخبر ذلك في العقل على وجه الاستصلاح له . وهذا الوجه أقرب الى الصواب .

والدعاء : طلب الطالب للفعل من غيره . ويكون الدعاء لله على وجهين :

أحدهما ـ طلب في مخرج اللفظ ،والمعنى على التعظيم والمدح ، والتوحيد : كقولك : يا ألله لا إله إلا أنت ، وقولك: ربّنا لك الحمد .

الثاني ـ الطلب لأجل الغفران أو عاجل الانعام كقولك : أللهم اغفر لي وارحمني ، وارزقني ، وما أشبه ذلك .

وقوله : « فاني قريب » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ إني قريب الاجابة : سريع الاجابة ، فجاز ذلك لمشاكلة معنى قريب لسريع .

الثاني ـ قريب ـ ، لأنه يسمع دعاءهم كما يسمعه القريب المسافة منهم ، فجاز لفظة قريب ، فحسن البيان بها . فأما قريب المسافة ، فلا يجوز عليه تعالى ، لأنه من صفات المحدثات .

اللغة :

وقوله « أجيب دعوة الداعي إذا دعاني » فالاجابة من الجواب ، وهو القطع . يقال : جاب البلاد يجوب جوباً اذا قطع . ومنه قوله تعالى : « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » (١) أي قطعوه . وأجاب الله دعاءه إجابة ، وأجاب فلان عن السؤال جواباً . وأجاب الظلام اذا قطعه . واستجاب له استجابة . وجاوبه مجاوبة ، وتجاوب تجاوباً ، وانجاب السحاب : اذا انقشع . وأصل الباب القطع ، فاجابة السائل: القطع بما سأل ، لأن سؤاله على الوقف أيكون أم لا يكون .

« ١ » سورة الفجر آية : ٩ .

الاعراب :

وقوله تعالى « فليستجيبوا لي » هذه لام الأمر ، لابد منها للغائب . وأما للحاضر (١) ، فيجوز فيه إثباتها وإسقاطها . كقولك قم ولتقم . والأصل فيها أن تكون مكسورة . ويجوز فيها السكون إذا اتصلت بحرف واحد كالفاء فأما ثم ، فالوجه معها الكسر ، لأنها منفصلة وإنما جاز فيها السكون دون لام كي لأنه لما كان عملها التسكين جاز فيها ، لايذانه بعملها .

المعنى :

وقال أبو عبيدة : استجاب ، وأجاب بمعنى واحد . وأنشد لكعب بن سعد الغنوي :

وداع دعا يا من يجيب الى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب (٢)

أي لم يجبه . وقال المبرد : هذا لا يجوز ، لأن في الاستجابة معنى الاذعان ، وليس ذلك في الاجابة . وقوله « لعلهم يرشدون » في لعل جوابان :

أحدهما ـ ليرشدوا ، فتكون دالة على العوض في الاجابة من الله تعالى للعبد .

الثاني ـ على الرجاء والطمع ، لأن يرشدوا ، ويكون متعلقاً بفعل العباد .

والرشد : نقيض الغي . يقال : رشد يرشد رشداً ، ورشيد رشدراً ، وأرشده إرشاداً واسترشد إسترشاداً ، وهو لرشدة خلاف لزنية . وأصل الباب إصابة الخير ، فمنه الارشاد : الدلالة على وجه الاصابة للخير . وروى عن أبي عبدالله (ع) أنه قال : « وليؤمنوا بي » أي وليتحققوا أني قادر على إعطائهم ما سألوا .

قوله تعالى :

أُحِلَّ لَكُمْ لَيلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ

« ١ » في المطبوعة « قانا الحاضر » وهو تحريف .

« ٢ » أمالي القالي ٢ : ١٥١ . والأصمعيات : ٦١٤ ، واللسان « جوب » وهو من قصيدة يرثي بها أخاه أبا المغوار .

لَكُمْ وأنتمْ لِباسٌ لهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتم تَخْتانون أنفُسكم فتابَ عليكم وعفا عنكم فالآنَ باشِروهُنَّ وابتغوا ما كتبَ اللهُ لكم وكلوا واشربوا حتّى يَتبيّنَ لكمُ الخيطُ الأبيضُ منَ الخيطِ الأسودِ منَ الفجرِ ثُمَّ أتموا الصِّيامَ إلى الليلِ ولا تُباشِروهُنَّ وأنتمْ عاكفونَ في المساجدِ تلكَ حدودُ اللهِ فلا تقربوها كذلكَ يُبيِّنُ اللهُ آياتِهِ للناسِ لعلَّهمْ يتَّقونَ (١٨٧) اية واحدة بلا خلاف .

المعنى :

الرفث الجماع هاهنا بلا خلاف ، وفي قراءة ابن مسعود « فلا رفوث » ، وقيل : أصله فاحش القول فكنّي به عن الجماع قال العجاج :

عن اللّغا ورفث التكلم (١)

والرفث والترفث : قول الفحش يقال رفث يرفث رفثاً . وروى عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) كراهية الجماع في أول ليلة من كل شهر ، إلا أول ليلة من شهر رمضان لمكان الآية والأشبه أن يكون المراد بليلة الصيام ليالي الشهر كله . وإنما ذكر بلفظ التوحيد ، لأنه اسم جنس يدلّ على التكثير .

ومعنى قوله : « هنّ لباس لكم » أنهن يصرن بمنزلة اللباس ، كما قال النابغة الجعدي :

« ١ » ديوانه : ٥٩ من رجز له طويل ، حمد فيه الله ومجده بقوله :

فالحمد لله العلي الأعظم ذي الجبروت والجلال الافخم

الى أن قال :

ورب أسراب حجيج كظم عن اللغا ورفث التكلم

والاسراب : القطيع من القطا أو الظباء أو الشاء أو النساء . يقصد به الحجاج . والكظم ـ بفتح الكاف والظاء ـ السكوت عن الكلام وحبس النفس في الصدر . اللغا : مالا يعتد به من الكلام . رفث التكلم : عطف بيان على اللغا .

اذا ما الضجيع ثنى عطفه   تثنت عليه فكانت لباسا (١)

وقال قوم : معناه هنّ سكن لـكم ، كما قال : « وجعلنا الليل لباساً » (٢) أي سكناً . واللباس الثياب التي من شأنها أن تستر الأبدان ، ويشبه بها الأغشية فيقال لبّس السيف بالحلية .

وقوله تعالى: « علم الله إنكم كنتم تختانون أنفسكم » معناه أنهم كانوا لما حرم عليهم الجماع في شهر رمضان بعد النوم . خالفوا في ذلك فذكرهم الله بالنعمة في الرخصة التي نسخت تلك الفريضة . فان قيل : أليس الخيانة انتقاض الحق على جهة المساترة ، فكيف يساتر نفسه ؟ قلنا عنه جوابان :

أحدها ـ أن بعضهم كان يساتر بعضاً فيه فصار كأنه يساتر نفسه ، لأن ضرر النقص والمساترة داخل عليه .

الثاني ـ أنه يعمل عمل المساتر له فهو يعمل لنفسه عمل الخائن له .

ويقال : خانه يخونه خوناً وخيانة ، وخونه تخويناً ، واختانه اختياناً ، وتخوّنه تخوناً ، والتخون : التنقص ، والتخون : تغيير الحال الى مالا ينبغي « وخاينة الاعين » : (٣) مشارفة النظر الي مالا يحل . وأصل الباب منع الحق .

وقوله تعالى : « فتاب عليكم » أي قبل توبتكم على مابيناه فيما تقدم . وقوله تعالى : « وعفا عنكم » فيه قولان :

أحدها ـ غفر ذنبكم . الثاني ـ أزال تحريم ذلك عنكم ، وذلك عفو عن تحريمه عليهم . وقوله تعالى : « فالآن باشروهن » أي جامعوهن ، ومعناه الاباحة دون الأمر ، والمباشرة إلصاق : البشرة بالبشرة ، وهي ظاهر أحد الجلدين بالآخر .

وقوله تعالى : « وابتغوا ما كتب الله لكم » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ قال الحسن ، وغيره : يعني طلب الولد .

---

(١) الشعر والشعراء : ٢٢٥ ، ومجاز القرآن لابي عبيدة : ٦٧ . وتأويل مشكل القرآن : ١٠٧ ، وفي بعضها (تداعت) بدل (تثنت) .

(٢) سورة عم آية : ١٠ .   (٣) سورة المؤمن آية : ١٩ .

الثاني ـ قال قتادة : يعني الحلال الذي بيّنـه الله في الكتاب ، والابتغاء : الطلب للبغية ، وقوله « وكلوا واشربو » إباحة للأكل والشرب « حتى يتبيّن » أي يظهر ، والتبين : تميز الشيء الذي يظهر للنفس على التحقيق « الخيط الأبيض من الخيط الأسود » يعني بياض الفجر من سواد الليل . وقيل : خيط الفجر الثاني مما كان في موضعه من الظلام . وقيل النهار من الليل ، فأول النهار طلوع الفجر الثاني . لأنه أوسع ضياء . قال أبو داوود (١) .

فلما أضاءت لنا سدفـة　　ولاح من الصبح خيط أنارا (٢)

وروي عن حذيفة ، والأعمش ، وجماعة ; أن الخيط الأبيض : هو ضوء الشمس ، وجعلوا أول النهار طلوع الشمس ، كما أن آخره غروبها بلا خلاف في الغروب . وأكثر المفسرين على القول الأول ، وعليه جميع الفقهاء ، لا خلاف فيه بين الأمة اليوم .

اللغة :

والخيط في اللغة معروف يقال خاط يخيط خياطة ، فهو يخيط ، وخيّطه تخييطاً . والخيط : القطيع من النعام . ونعامة خيطاء : قيل : خيطها طول قصبتها ، وعنقها . وقيل : اختلاط سوادها ببياضها ، وكلاهما يحتمل ، فالأول ، لأنه كالخيط الممدود . والثاني ـ لأنه كاختلاط خيوط بيض بسود . والمخيط الابرة . ونحوها مما يخاط به . والابيض نقيض الاسود . والبياض ضد السواد يقال : أبيض ، وابياض بيضاضاً وبيّضه تبييضاً ، وتبيّض تبيضاً . وبيضة الطير ، وبيضة الحديد ، وبيضة الاسلام مجتمعه ، وابتاضوهم أي استأصلوهم ، لأنهم اقتلعوا بيضهم وأصل الباب البياض . واسودّ ، واسوادّ اسوداداً ، وسوده تسويداً ، وتسود تسوداً ، وساوده

« ١ » هو أبو داود : الايادي .

« ٢ » اللسان (خيط) والأصمعيات : ٢٨ ورواية الأصمعيات (خير أنارا) في المطبوعة (غدوة) بدل (سدفة) ومعناهما متقارب لأن السدفة : ظلمة الليل في لغة نجد والضوء في لغة قيس . وهي أيضا اختلاط ضوء والظلمة جميعاً .

سواداً : أي ساده سواداً ، لأن الخفاء فيه كخفاء الشخص في سواد الليل . وسواد العراق : سمي به لكثرة الماء ، والشجر الذي تسود به الأرض . وسواد كل شيء شخصه . والأسود من الحية يجمع أساود . وسويداء القلب ، وسوداؤه دمه الذي فيه في قول : ابن دريد . وقيل حبة القلب ، لأنه في سواد من الظلمة . وساد سؤدداً ، فهو سيد ، لأنه ملك السواد الأعظم ، والمسود : الذي قد ساده غيره .

المعنى :

وقوله « من الفجر » يحتمل معنيين :

أحدهما ـ أن يكون بمعنى التبعيض ، لأن المعنى من الفجر ، وليس الفجر كله . هذا قول ابن دريد .

الثاني ـ بمعنى تبين الخيط ، كأنه قال : الخيط الذي هو الفجر .

وقوله : « ثم أتموا الصيام الى الليل » قد بينا حقيقة الصيام فيما مضى . والليل هو بعد غروب الشمس ، وعلامة دخوله على الاستظهار سقوط الحمرة من جانب المشرق ، وإقبال السواد منه ، وإلا فاذا غابت الشمس مع ظهور الآفاق في الأرض المبسوطة وعدم الجبال ، والروابي ، فقد دخل الليل .

وقوله تعالى : « ولا تباشروهن » قيل في معناه قولان هاهنا :

قال ابن عباس ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم : أراد به الجماع .

وقال ابن زيد ، ومالك : أراد الجماع ، وكلما كان دونه من قبلة ، وغيرها . وهو مذهبنا .

وقوله تعالى : « وأنتم عاكفون في المساجد » فالاعتكاف ـ عندنا ـ هو اللبث في أحد المساجد الأربعة : المسجد الحرام أو مسجد النبي (ص) أو مسجد الكوفة أو مسجد البصرة ، للعبادة من غير اشتغال بما يجوز تركه من أمور الدنيا . وله شرائط ـ ذكرناها في كتب الفقه ـ وأصله اللزوم . قال الطرماح :

فبات بنات الليل حولي عكفاً   عكوف البواكي بينهن صريع (١)

وقال الفرزدق :

ترى حولهن المعتفين كأنهم   على صنم في الجاهلية عكف (٢)

اللغة :

وقوله تعالى : « تلك حدود الله » . فالحدّ على وجوه :

أحدها ـ المنع ، يقال : حدّه عن كذا حدّا أي منعه . والحدّ حدّ الدار . والحدّ الفرض من حدود الله أي فرائضه ، الحد الجلد للزاني ، وغيره . والحد : حد السيف ، وما أشبهه . والحد في الحلق : الحدة . والحد : الفرق بين الشيئين . والحد منتهى الشيء . وحد الشراب : صلابته . وإحداد المرأة على زوجها : امتناعها من الزينة والطيب . وإحداد السيف : إشحاذه . وإحداد النظر الى الشيء التحديق إليه . والحديد معروف ، وصانعه الحداد . والحداد السجان . والاستحداد حلق الشيء بالحديد . وحاددته : عاصيته ، ومنه قوله تعالى « ان الذين يحادّون الله ورسوله » (٣) وأصل الباب المنع . والحدّ : نهاية الشيء التي تمنع أن يدخله ما ليس منه ، وأن يخرج عنه ما هو منه .

أحكام الاعتكاف :

ولا يجوز الاعتكاف إلا بصوم ، وبه قال أبو حنيفة ، وأصحابه ، ومالك ابن أنس . وقال الشافعي يصح بلا صوم ، وبه قال الحسن إلا أن يشرط . وعندنا

« ١ » ديوانه : ١٥٣ ، واللسان (بني) وروايته (تظل) بدل « فبات » و « قتيل » بدل « صريع ». بنات الليل : الهموم . وقيل الاحلام . والأول أليق في هذا . كأنه يقول : ان الهموم تراكمت علي . كتراكم النساء على القتيل .

« ٢ » ديوانه : ٥٦١ ، والنقائض : ٥٦٣ . في المطبوعة « العقين » بدل « المعتفين » والمعتفون : الذين جاؤا يطلبون الرزق ، يصفهم : جمعاً قد وقفوا ينتظرون الطعام والعطاء متلهفين . وهو ليس بذم لهم بل مدح بالمعطي لهم .

« ٤ » سورة المجادلة آية ٥ ، ٢٠ .

لا يكون أقل من ثلاثة أيام ، وبه قال أهل المدينة . وقال أهل العراق : الاعتكاف جائز في كل مسجد يصلى فيه جماعة . وقال مالك : لا إعتكاف إلا في موضع يصلى فيه الجمعة من المصر . وقال أهل العراق : المرأة تعتكف في مسجد بيتها . وقال مالك : لا تعتكف إلا في مسجد جماعة . وقال الشافعي : المرأة والعبد يعتكفان ، وكذلك المسافر حيث شاءوا . وقد بينا ما عندنا في ذلك . ولا فرق بين الرجل والمرأة فيه . وقال مالك : لا يكون الاعتكاف أقل من عشرة أيام . وعند أهل العراق يكون يوماً .

ومسائل الاعتكاف قد بيناها في النهاية ، والمبسوط في الفقه ، فلا نطول بذكرها . والمختلف فيها ذكرناه في مسائل الخلاف .

سبب النزول :

وقيل أن هذه الآية نزلت في شأن أبي قيس بن صرمه ، فكان يعمل في أرض له ، فأراد الأكل ، فقالت امرأته : يصلح لك شيئاً فغلبت عيناه ، ثم قدمت إليه الطعام ، فلم يأكل ، فلما أصبح لاقى جهداً ، فأخبر رسول الله (ص) بذلك ، فنزلت هذه الآية .

وروي أن عمراً أراد أن يوقع زوجته في الليل ، فقالت : إني نمت فظن أنها تعتل عليه ، فوقع عليها ، ثم أخبر النبي (ص) بذلك من الغد ، فنزلت الآية فيهما .

المعنى :

وقوله تعالى : « كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » يعني ما بين لهم من الأدلة على ما أمرهم به ، ونهاهم عنه ، لكي يتقوا معاصي ، وتعدي حدوده التي أمرهم الله بها ، ونهاهم عنها ، وأباحهم إياها . وفي ذلك دلالة على أنه تعالى : أراد التقوى من جميع الناس : الذين بين لهم هذه الحدود . وروي عن أبي عبد الله (ع) أنها نزلت في خوات بن جبير مثل قصة أبي قيس بن صرمه . وأنه كان ذلك يوم

الخندق . وروي عن أبي جعفر (ع) حديث أبي قيس سواء .

قوله تعالى :

وَلا تأكلوا أموالَكمْ بينكمْ بالْباطلِ وتُدْلوا بها إلى الحكامِ لتأكلوا فَريقاً مِن أموالِ الناسِ بالاثم وأنتم تَعلمونَ (١٨٨) آية

المعنى :

قوله تعالى : «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» قيل في معناه قولان :

أحدها - أن يكون ذلك على جهة الظلم ، نحو الخيانة ، والسرقة ، والغصب ، ويكون التقدير لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل كأكل مال نفسة بالباطل ، ومثله «ولا تلمزوا أنفسكم»(١) ومعناه لا يلمز بعضكم بعضاً . وقوله : «ولا تقتلوا أنفسكم» (٢) والمعنى لا يقتل بعضكم بعضا .

الثاني - لا تأكلوه على وجه الهزء واللعب ، مثل ما يوجد في القمار والملاهي ونحوها ، لأن كل ذلك من أكل المال بالباطل . وقال أبو جعفر (ع) «لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» يعني باليمين الكاذبة يقتطعون بها الأموال ، وقال أبو عبدالله (ع) : علم الله أنه سيكون في هذه الأمة حكام يحكمون بخلاف الحق ، فنهى الله المؤمنين أن يتحاكموا إليهم ، وهم يعلمون أنهم لا يحكمون بالحق .

وقوله تعالى : « وتدلوا بها الى الحكام » فالحكم هو الخبر الذي يفصل به بين الخصمين يمنع كل واحد من منازعة الآخر . وقيل في معناه قولان :

أحدها - قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : إنه الوديعة وما تقوم به بيّنة .

الثاني - قال الجبائي : في مال اليتيم الذي في يد الأوصياء ، لأنه يدفعه إلى

« ١ » سورة الحجرات آية : ١١ .

« ٢ » سورة النساء آية : ٢٨ .

الحاكم إذا طوالب به ، ليقتطع بعضه ، ويقوم له في الظاهر حجة .

اللغة :

يقال أدلى فلان بالمال الى الحاكم إذا دفعه إليه . وأدلى فلان بحقه وحجته : اذا هو احتج بها وأحضرها ، ودلوت الدلو في البئر أدلوها : إذا أرسلتها في البئر ، وأدليتها إدلاء : اذا انتزعتها من البئر ، ومنه قوله تعالى : « فأدلى دلوه » (١) أي انتزعها . وقال صاحب العين : أدليتها اذا أرسلتها أيضاً . وأدلى الانسان شيئاً في مهوى ، ويتدلى هو بنفسه . والدالية معروفة .

الاعراب :

وموضع « تدلو » يحتمل أمرين :

أحدها ـ أن يكون جزماً على النهى ، وعطفاً على قوله : « لا تأكلوا » .

والثاني ـ أن يكون نصباً على الظرف ، ويكون نصبها باضمار أن كقول الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم (٢)

لا تجمع بينهما . والأول أجود .

المعنى :

وقيل في اشتقاق « تدلو » قولان : أحدها ـ أن التعلق بسبب الحكم كتعلق الدلو بالسبب الذي هو الحبل . والثاني ـ أنه يمضي فيه من غير تثبت ، كمضى الدلو في الارسال من غير تثبت . والباطل هو ما تعلق بالشيء على خلاف ماهو به ، خبراً كان أو اعتقاداً أو تخيلا أو ظناً . والفريق : القطعة المعزولة من الشيء . والاثم الفعل الذي يستحق به الذم .

وقوله : « وأنتم تعلمون » معناه إنكم تعلمون أن ذلك التفريق من المال

« ١ » سورة يوسف آية : ١٩ .

« ٢ » مر تخريجه في ١ : ١٩٠ .

ليس بحق لكم لأنه أشد في الزجر . وفي الآية دلالة على أن تفرقة الحاكم بشهادة الزور غير جائزة ، ولا يستباح به النكاح لأحد الشاهدين كما لا يحل ذلك في المال .

قوله تعالى :

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

البيوت والسيوح والغيوب والجيوب ـ بكسر أولها ـ شامي والكسائي ، والأعشى لا يكسرون ، الغيوب ، ويكسرها حمزة ، ويحيي إلا الجيوب . ويكسرها ابن كثير إلا الجيوب والغيوب . وابن فليح يكسرها كلها . وقالون يكسر منها البيوت فقط . وأبو عمرو يضمها كلها .

اللغة :

الأهلة جمع هلال وسمي الهلال ، لرفع الصوت بذكره عند رؤيته ، ومنه أهل بالحج : اذا رفع الصوت بالتلبية . واختلف أهل العلم الى كم يسمى هلالا ، فقال قوم : يسمى ليلتين هلالا من الشهر . ومنهم من قال : يسمى هلالا ثلاث ليال ، ثم يسمى قمراً . وقال الأصمعي : يسمى هلالا حتى يحجر . وتحجيره : أن يستدير بخطة دقيقة . ومنهم من قال : يسمى هلالا حين يبهر ضوءه سواد الليل ، فاذا غلب ضوءه ، سمي قمراً . وذلك لا يكون إلا في الليلة السابعة . وقال الزجاج : يسمى هلالا لليلتين . واسم القمر الزبرقان ، واسم دارته الهالة . والفخت اسم ضوءه ، أو ظلمته على خلاف فيه . واسم ظله السمر . ومنه قيل : سمار الذين يتحدثون بالليل . وإنما

اقتصر في جمعه على أهلّة ، وهو لأدنى العدد ، دون الفعل الذي هو للجمع الكثير ، استثقالا له في التضعيف ، كما قالوا ، فيما ليس بمضعّف : حمار وأحمرة وحمر .

المعنى :

فان قيل عما كان وقع السؤال من حال الأهلة قيل عن زيادتها ونقصانها ، وما وجه الحكمة في ذلك ، فاجيب بأن مقاديرها تحتاج إليه الناس في صومهم ، وفطرهم ، وحجهم و عدد نسائهم ، ومحلّ ذنوبهم ، وغير ذلك . وفيها دلالة واضحة على أن الصوم لا يثبت بالعدد ، وأنه يثبت بالهلال ، لأن العدد لو كان مراعى ، لما أحيل في مواقيت الناس في الحج على ذلك بل أحيل على العدد .

اللغة :

وقوله تعالى : « قل هي مواقيت » والميقات : هو مقدار من الزمان ، جعل علماً لما يقدر من العمل ، ومنه قوله تعالى : « الى يوم الوقت المعلوم » (١) والتوقيت : تقدير الوقت . وقت توقيتاً ، ومنه قوله تعالى : « واذا الرسل أقتت » (٢) وكلما قدرت غاية ، فهو موقت . والميقات : منتهى الوقت ، ومنه قوله تعالى : « فتم ميقات ربه » (٣) فالآخرة ميقات الخلق . والاهلال : ميقات الشهر . وإنما لم يصرف مواقيت ، وصرف قوارير ، لان قوارير فاصلة في رأس آية ، فصرفت لتجري على طريقة واحدة في الآيات ، كالقوافي ، وليس ذلك تنوين الصرف .

المعنى

وقوله تعالى « وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتقى » قيل في معناه وجهان :

أحدهما ـ « ولكن البرّ من اتقى » كما قلنا في قوله « ولكن البرّ من آمن بالله » .

« ١ » سورة الحجر آية : ٣٨ ، وسورة ص آية ٨١ .

« ٢ » سورة المرسلات آية : ١١ .　　　« ٣ » سورة الاعراف آية : ١٤١ .

والثاني - على وقوع المصدر موقع الصفة ، كأنه قال : ولكن البار « من آمن بالله » . وقيل في معنى الآية قولان :

أحدهما - أنه كان قوم من الجاهلية إذا أحرموا ، نقبوا في ظهر بيوتهم نقباً ، يدخلون منه ويخرجون ، فنهوا عن التدين بذلك ، وأمروا أن يأتوا البيوت من أبوابها . في قول ابن عباس ، والبراء ، وقتادة ، وعطا . و [الثاني] - قال قوم ، واختاره الجبائي : إنه مثل ضربه الله لهم . « وأتوا البيوت من أبوابها » أي أتوا البر من وجهه الذي أمر الله به ، ورغب فيه ، وهذا الوجه حسن .

وروى جابر عن أبي جعفر محمد بن علي (ع) في قوله : « وليس البرّ بأن تأتوا البيوت » الآية ، قال : يعني أن يأتي الأمر من وجهه أي الأمور . وروى أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) مثل قول ابن عباس سواء . وقال قوم : أراد بالبيوت النساء ، لأن المرأة تسمى بيتاً على ما بيناه فيما مضى ، فكأنه نهى عن إتيان النساء في أدبارها ، وأباح في قبلهنّ . والأولان أقوى وأجود .

والباب : هو المدخل ، تقول منه : بوب تبويباً إذا جعله أبواباً . والبوّاب : الحاجب ، لأنه يلزم الباب . والبابة القطعة من الشيء كالباب من الجملة .

فان قيل أي تعلق لقوله : « وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها » بسؤال القوم عن الأهلة ؟ قلنا : لأنه لما بين ما فيه من وجه الحكمة ، اقتضى لتعلموا على أمور مقدره ، ولتجري أموركم على استقامة فانما البرّ أن تطيعوا أمر الله .

ومن كسر (الباء) من البيوت ، فلاستثقال الخروج من الضم الى الياء . ومن ضم غيوب وكسر البيوت ، فلأن الغين لما كان مستعلياً ، منع الكسر ، كما منع الامالة .

وأما الحج ، فهو قصد البيت الحرام ، لاداء مناسك مخصوصة بها في وقت مخصوص . والبرّ : النفع الحسن . والظهر : الصفيحة المقابلة لصفيحة الوجه .

وقوله : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » يعني واتقوا ما نهاكم الله عنه ،

وزهدكم فيه، لكي تفلحوا بالوصول الى ثوابه الذي ضمنه للمتقين.

قوله تعالى:

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) آية بلا خلاف.

المعنى:

القتال هو المقاتلة، وهو محاولة الفاعل لقتل من يحاول قتله، والتقاتل محاولة كلّ واحد من المتعاديين قتل الآخر. والخطاب بقوله «وقاتلوا» متوجه الى المؤمنين. ولو قال: «تقاتلوا» لكان أمراً للفريقين. وذهب الحسن، وابن زيد، والربيع، والجبائي: الى أن هذه الآية منسوخة، لأنه قد وجب علينا قتال المشركين وإن لم يقاتلونا بقوله «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» (١) وقوله: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» (٢). وروي عن ابن عباس، ومجاهد، وعمر بن عبدالعزيز: أنها غير منسوخة. وقال بعضهم: أمروا بقتال المقاتلين دون النساء: وقيل: إنهم أمروا بقتال أهل مكة. والأولى حمل الآية على عمومها إلا من أخرجه الدليل.

وقوله «تعتدوا» قيل فيه ثلاثة أقوال: أحدها ـ لا تعتدوا بالقتال بقتال من لم تؤمروا بقتاله. الثاني ـ لا تعتدوا الى النساء، والصبيان، ومن قد أعطيتموه الأمان. الثالث ـ لا تعتدوا بالقتال على غير الدين. فان قيل: إذا كان الاعتداء في قتال من لم يقاتلهم فكيف يجوز أن يؤمروا به فيما بعد؟ قيل: إنما كان اعتداء من أجل أنه مجاوزة لما حده الله لهم مما فيه الصلاح للعباد، ولم يكن فيما بعد على ذلك، فجاز الأمر به.

وقوله: «في سبيل الله» يعني دين الله، وهو الطريق الذي بيّنه للعباد، ليسلكوه على ما أمرهم به ودعاهم إليه.

«١» سورة التوبة آية: ٦. «٢» سورة البقرة آية: ١٩٣.

وقوله: « لا يحب المعتدين » معناه لا يريد ثوابهم، ولا مدحهم، كما يحب ثواب المؤمنين. وقد بينا فيما مضى أن المحبة هي الارادة. وإنما قلنا إنها من جنس الارادة، لأن الكراهه تنافيها، ولا يصح إجتماعهما، ولأنها تتعلق بما يصح حدوثه لا كالارادة، فلا يصح أن يكون محباً للايمان كارهاً له، كما بينا في أن يكون مريداً له وكارها. وتعلق المحبة بأن يؤمن، كتعلق الارادة بأن يؤمن. وإنما اعتيد في المحبة الحذف، ولم يعتد ذلك في الارادة، فيقال: الله يحب المؤمن، ولا يقال: الله يريد المؤمن. وقوله: « لا يحب المعتدين » ظاهره يقتضي أنه يسخط عليهم، لأنه على وجه الذم لهم إذ لا يجوز أن يطلق على من لا ذنب له من الاطفال، والمجانين.

والاعتداء مجاوزة الحق. وأصله المجاوزة، يقال: عدا اذا جاوز حدّه في الاسراع.

وروي عن أئمتنا (ع) أن قوله تعالى: « وقاتلوا في سبيل الله » ناسخ لقوله: « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (١) وكذلك قوله: « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » (٢) ناسخ لقوله « ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم » (٣).

قوله تعالى:

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)

آية واحدة بلا خلاف.

« ١ » سورة النساء آية: ٩٠.

« ٢ » سورة البقرة آية: ١٩١.

« ٣ » سورة الاحزاب آية: ٤٨

القراءة :

قرأ حمزة ، والكسائي ، « ولا تقتلوهم » «حتى يقتلوكم » « فان قتلوكم » كله بغير ألف . الباقون بألف في جميع ذلك .

المعنى :

والمعنى لا تبدؤهم بقتل ولا قتال حتى يبدؤكم . إلا أن القتل نقض بنية الحياة ، والقتال محاولة القتل ممن يحاول القتل .

وقوله : « واقتلوهم » أمر للمؤمنين بقتل الكفار « حيث ثقفتموهم » .

الاعراب :

ويجوز في حيث ثلاثة أوجه : ضم الثاء ، وفتحها ، وكسرها ، فالضم لشبهها بالغاية ، نحو قبل وبعد ، لأنه منع الاضافة الى المفرد مع لزوم معنى الاضافة له ، فجرى لذلك مجرى قبل وبعد في البناء على الضم ، ولا يجب مثل ذلك في (إذ) لأنها مبنية على الوقف ، كما أنّ (مذ) لا يجب فيها ما يجب في منذ . والفتح ، لأجل الياء ، كما فتحت (أين ، وكيف) والكسر فعلى أصل الحركة ، لالتقاء الساكنين . وإنما كتبت بغير ألف ـ في الثلاث والكلام(٢) في المصحف للايجاز ، كما كتبوا الرحمن بلا ألف . وكذلك صالح وخالد ، وما أشبهها ، من حروف المدّ واللين ، لقوتها على التغيير .

اللغة :

وقوله « ثقفتموهم » تقول : ثقفته أثقفه ثقفاً : اذا ظفرت به ، ومنه قوله : « فأما تثقفنهم في الحرب » (١) وثقفت الشيء ثقافة : اذا حذقته ، ومنه اشتقاق الثقافة بالسيف ، وقد ثقف ثقافة فهو ثقف . والثقاف حديدة تكون مع القواس ، والرّماح يقوم بها المعوج . وثقف الشيء ثقفاً : إذا لزم ، وهو ثقف اذا كان سريع

« ١ » سورة الانفال آية : ٥٨ . « ٢ » هكذا في المطبوعة . وفي العبارة سقط .

التعلم . وثقفته تثقيفاً : إذا قومته . وأصل الباب : التثقيف التقويم .

المعنى :

وقوله « والفتنة أشد من القتل » قال الحسن ، وقتادة ، ومجاهد ، والربيع ، وابن زيد ، وجميع المفسرين : إنها الكفر . وأصل الفتنة الاختبار ، فكأنه قال : والكفر الذي يكون عند الاختبار أعظم من القتل في الشهر الحرام ووجه قراءة من قرأ « ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه » أنه جاء في كلام العرب إذا قتل بعضهم ، قالوا : قتلنا ، فتقديره حتى يقتلوا بعضكم .

ومعنى قوله « وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » أي أخرجوهم من مكة كما أخرجوكم منها . وروى أن هذه الآية نزلت في سبب رجل من الصحابة قتل رجلا من الكفار في الشهر الحرام ، فعابوا المؤمنين بذلك فبيّن الله تعالى أن الفتنة في الدين أعظم من قتل المشركين في الشهر الحرام وإن كان محظوراً لا يجوز .

قوله تعالى :

فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢)

معنى قوله تعالى : « فان انتهوا » يعني عن كفرهم بالتوبة منه ، في قول مجاهد ، وغيره من المفسرين . والانتهاء الامتناع يقال : نهى نهياً ، وأنهى إنهاء ، وتناهى تناهياً ، والنهي الزجر عن الفعل بصيغة (لا تفعل) والأمر الدعاء الى الفعل بصيغة (افعل) مع اعتبار الرتبة . والنهي الغدير يكون له الحاجز يمنع الماء أن يفيض ، فالنهي بمنزلة المنع . ونهاية الشيء غايته . ونهية الوتد: الفرض ، وهو الحزّ في رأسه الذي يمنع الحبل أن ينسلخ ، لأنه ينهاه عن ذلك . والنهى : جمع نهية . وهي العقل . والتنهية وجمعها تناهي ، وهي مواضع تنهبط . ويتناهى إليها ماء السماء . والانهاء إبلاغ الشيء نهايته . وفي الآية دلالة على أنه يقبل توبة القاتل عمداً ، لأنه بيّن أنه يقبل توبة المشرك ، وهو أعظم من القتل ، ولا يحسن أن يقبل التوبة من الأعظم ، ولا يقبل من الأقل ، فان قيل فما معنى جواب الشرط ، والله غفور

رحيم وإن لم ينتهوا ، الجواب : إن معناه فان الله غفور لهم رحيم بهم ، ويجوز فان الله يغفر لهم ، لأنه غفور رحيم ، واختصر الكلام لدلالة ما تقدم على أنه في ذكرهم وإن الذي اقتضى انتهاءهم إنما هو ذكر المغفرة لهم ، فكان الدلالة عليها بغير إفصاح عنها أحسن لما في ذلك من الايجاز ، والاحالة على الاستدلال لتمكين الاشعار لمتضمن الكلام ، والمغفرة : تغطيه الذنب بما يصير به بمنزلة غير الواقع في الحكم .

قوله تعالى :

وَقاتِلوهم حتى لا تكونَ فِتنةٌ ويكونَ الدِّينُ لِلّهِ فانِ انتهَوا فَلا عُدوانَ إلاّ على الظّالمينَ (١٩٣) آية .

المعنى :

هذه الآية ناسخة للأولى التي تضمنت النهي عن القتال عند المسجد الحرام حتى يبدءوا بالقتال فيه ، لأنه أوجب قتالهم على كل حال حتى يدخلوا في الاسلام في قول الجبائي ، والحسن ، وغيره ، وعلى ما حكيناه عن ابن عباس ، وعمر ابن عبد العزيز : أن الأولى ليست منسوخة ، فلا تكون هذه ناسخة بل تكون مؤكدة ، والفتنة الشرك في قول ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، والربيع ، وابن زيد ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) . وإنما سمي الكفر فتنة ، لأن الكفر يؤدي الى الهلاك كما تؤدي الفتن الى الهلاك ، ولأن الكفر إظهار الفساد عند الاختبار ، والفتنة إنما هي الاختبار . والدين هاهنا قيل في معناه قولان :

أحدها ـ الاذعان لله بالطاعة كما قال الأعشى :

هو دانَ الرباب إذ كرِهو الدّ ين دِراكا بغزوة وصيال (١)

« ١ » ديوانه : ١١ ، رقم القصيدة ١ . قيل : انه قالها في مدح الأسود بن المنذر اللخمي أخي النعمان بن المنذر لأمه ، وأم الأسود من تيم الرباب . وقيل : انه قالها في مدح المنذر بن الأسود لما غزا الحليفين ، أسداً وذبيان ، ثم أغار على ـ رهط الأعشى ـ بني ساعدة بن ضبة بن ثعلبة وكان الأعشى غائباً ، فلما قدم وجد الحي مباحاً فأتاه ، فأنشده ، وسأله أن يهبه الأسرى ، ففعل .

والثاني ـ الاسلام دون الكفر . وأصل الدين العادة في قول الشاعر : (١)

تقول إذا درأتُ لها وضيني   أهذا دينه أبداً وديني (٢)

وقال آخر :

كدينك من أم الحويرث قبلها   وجارتها أم الرباب بما سل (٣)

وقد استعمل بمعنى الطاعة في قوله تعالى : « ماكان ليأخذ أخاه في دين الملك » (٤) واستعمل بمعنى الاسلام ، لأن الشريعة فيه يجب أن تجري على عادة قال الله تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام » (٥) .

وقوله : « فان انتهوا » معناه امتنعوا من الكفر وأذعنوا بالاسلام ، « فلا عدوان إلا على الظالمين » أي فلا قتل عليهم ، ولا قتل إلا على الكافرين المقيمين على الكفر ، وسمي القتل عدواناً مجازاً من حيث كان عقوبة على العدوان ، والظلم ، كما قال : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه » (٦) وكما قال « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٧) وكما قال : « وإن عاقبتم فعاقبوا » (٨) وحسن ذلك لازدواج الكلام ، ومزاوجته هاهنا على المعنى ، لأن تقديره « فان انتهوا » عن العدوان ، « فلا عدوان إلا على الظالمين » . فان قيل : أيجوز أن تقول لا ظلم إلا على الظالمين كما جاز « لا عدوان إلا على الظالمين » ؟ قلنا : على القياس لا يجوز ، لأن ذلك مجاز ، والمجاز لا يقاس عليه ـ عند المحصلين ـ لئلا تلتبس الحقيقة بالمجاز . وإنما جاز في المزاوجة ، لأن الكلام

ـ والرباب ـ بكسر الراء ـ بنو عبد مناة بن أد ، وهم تيم وعدي وعوف وثور ، اجتمعوا فتحالفوا مع بني عمهم ضبة تيم بن أد ، فجاءوا برب (تمر مطبوخ) فغمسوا أيديهم فيه ، فسموا الرباب .

وقوله : دان الرباب أي أذلهم وحملهم على الطاعة . وقوله : دراكا أي تتابعاً .

« ١ » هو المثقب العبدي .

« ٢ » اللسان (دين) ، (درأ) ، (وضن) وروايته (دأبه) بدل (دينه) . ردأت لها وضيني : أي وضعت عنها حملها ، والوضين هو المنسوج من أي شيء كان .

« ٣ » لم أجد هذا البيت فيما حضرني من المصادر .

« ٤ » سورة يوسف آية : ٧٦ .   « ٥ » سورة آل عمران آية : ١٩ .

« ٦ » سورة البقرة آية : ١٩٤ .   « ٧ » سورة الشورة آية : ٤٠ .

« ٨ » سورة النحل آية : ١٢٦ .

معه أبلغ ، وأبلغ ، كما قال عمرو بن شاس الأسدي :

جزينا ذوى العدوان بالأمس فرضهم قصاصاً سواء حذوك النعل بالنعل (١)

وأصل الظلم الانتقاص . من قوله تعالى « ولم تظلم منه شيئاً » (٢) وحقيقة ما قدمنا ذكره من أنه ضرر محض لا نفع فيه يوفي عليه عاجلا ولا آجلا ولا هو واقع على وجه المدافعة .

قوله تعالى :

أَلشَّهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ والحُرُمَاتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعتدى عَليكُمْ فَاعْتدوا عليهِ بِمثلِ ما اعْتدى عَليكُمْ واتَّقوا اللهَ واعْلموا أنَّ اللهَ مَعَ المتَّقينَ (١٩٤) آية واحدة بلا خلاف .

أشهر الحرم أربعة : رجب ، وهو فرد وثلاثة أشهر سرد : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم . والمراد هاهنا : ذو القعدة ، وهو شهر الصّد عام الحديبة . وإنما سمي الشهر حراماً ، لأنه كان يحرم فيه القتال ، فلو أن الرجل يلقى قاتل أبيه أو ابنه لم يعرض له بسبيل وسمي ذو القعدة ، لقعودهم فيه عن القتال .

الاعراب :

والشهر مرتفع بالابتداء ، وخبره بالشهر الحرام ، وتقديره : قتال الشهر الحرام أي في الشهر الحرام ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . ويحتمل أن يكون تقديره : الشهر الحرام على جهة العوض لما فات من الحج في السنة الأولى .

المعنى :

وقوله : « والحرمات قصاص » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ « الحرمات قصاص » بالمراغمة بدخول البيت في الشهر الحرام . قال

« ١ » تفسير الطبري ٣ : ٥٧٣ .

« ٢ » سورة الكهف آية : ٣٣ .

مجاهد : لأن قريشاً فخرت بردها رسول الله (ص) - يوم الحديبة - محرماً - في ذي القعدة - عن البلد الحرام ، فأدخله الله عز وجل مكة في العام المقبل في ذي القعدة ، فقضى عمرته ، وأقصه بما حيل بينه وبينه يوم الحديبية ، وهو معنى قول قتادة ، والضحاك ، والربيع ، وابن زيد .

وروي عن ابن عباس ، وأبي جعفر محمد بن علي (ع) مثله .

والقول الثاني - « والحرمات قصاص » بالقتال في الشهر الحرام أي لا يجوز للمسلمين إلا قصاصاً . وقال الحسن : إن مشركي العرب قالوا لرسول الله (ص) : أنهيت عن قتالنا في الشهر الحرام ، قال نعم ، فأراد المشركين أن يغزوه في الشهر الحرام ، فيقاتلوه ، فأنزل الله تعالى : « الشهرالحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص » أي إن استحلوا منكم في الشهر الحرام شيئاً ، فاستحلوا منهم مثل ما استحلوا منكم . وبه قال الزجاج ، والجبائي .

وإنما جمع الحرمات لأحد أمرين : أحدهما - إنه يريد حرمة الشهر ، وحرمة البلد ، وحرمة الاحرام .

الثاني - كل حرمة تستحل ، فلا يجوز إلا على وجه المجازاة . وفي الناس من قال : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « قاتلوا المشركين كافة » (١) وقال آخرون ليست منسوخة ، لأنه يجوز اجتماعه مع تلك الفريضة - وهو الأولى - لأنه لا دلالة على نسخها .

والحرام : هو القبيح الممنوع من فعله . والحلال : المطلق المأذون فيـــه . والقصاص الأخذ للمظلوم من الظالم ، من أجل ظلمه إياه . فان قيل : كيف جاز قوله : « إن الله لا يحب المعتدين » مع قوله « فاعتدوا عليه » (٢) قلنا الثاني ليس باعتداء على الحقيقة ، وإنما هو على وجه المزاوجه ، ومعناه المجازات على ما بينا . والمعتدي مطلقاً لا يكون إلا ظالماً لضرر قبيح ، وإذا كان مجازاً فانما يفعل ضرراً

« ١ » سورة التوبة آية : ٣٧ .

« ٢ » سورة البقرة آية : ١٩٤ .

حسناً . فان قيل : كيف قال بمثل ما اعتدى عليكم ، والأول جور ، والثاني عدل ؟ قلنا ، لأنه مثله في الجنس وفي مقدار الاستحقاق ، لأنه ضرر ، كما أن الأول ضرر ، وهو على مقدار ما يوجبه الحق في كل جرم .

وقيل إنّ عداء واعتدى لغتان بمعنى واحد ، ومثله قرب واقترب ، وجلب واجتلب . وقال قوم : في افتعل مبالغة ليس في فعل .

ومعنى قوله : « واعلموا أن الله مع المتقين » يعنى بالنصرة لهم ، كأنه قال : « إن الله مع المتقين » بالنصرة أو إن نصرة الله معهم . وأصل (مع) المصاحبة في المكان أو الزمان .

قوله تعالى :

وأَنفِقُوا في سَبِيلِ اللهِ وَلا تُلقُوا بِأَيدِيكُمْ إلى التَّهلُكةِ وأَحسِنُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحسِنِينَ (١٩٥) آية بلا خلاف .

المعنى :

أمر الله تعالى جميع المكلفين المتمكنين من الانفاق في سبيل الله : أن ينفقوا في سبيله ، وسبيل الله : هو كل طريق شرعه الله تعالى لعباده ، ويدخل فيه الجهاد ، والحج ، وعمارة القناطر ، والمساجد ، ومعاونة المساكين ، والأيتام ، وغير ذلك ، والانفاق : هو إخراج الشيء عن ملك مالكه إلى ملك غيره ، لأنه لو أخرجه الى هلاك لم يسم إنفاقاً .

وقوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » معناه لا تطرحوا أنفسكم في الهلاك ، بأن تفعلوا ما يؤدي إليه . وحقيقة الالقاء تصيير الشيء الى جهة السفل . وإنما يقال : ألقى عليه مسألة مجازاً ، كما يقال : طرح عليه مسألة .

الاعراب :

والباء في قوله بأيديكم يحتمل وجهين : أحدهما ـ أن تكون زائدة كقولك

تعلقت زيداً ، وتعلقت بزيدوجذبت الثوب ، وجذبت بالثوب ، وعلمته ، وعلمت به . قال الشاعر :

ولقد ملأت على نصيب جلده بمساءة إن الصديق يعاتب (١)

والمراد ملأت جلده مساءة . والثاني ـ أن يكون على أصل الكلام من وجهين: أحدها ـ أن كل فعل متعد إذا كني عنه أو قدر على المصدر دخلته الباء ، كقولك ضربته ثم تكني عنه فتقول فعلت به . والآخر أن تقول : أوقعت الضرب به فجاء على أصل الأفعال المتعدية .

والوجه الآخر : أنه لما كان معناه : لا تهلكوا أنفسكم بايديكم ، فدخلت الباء ليدل على هذا المعنى ، وهو خلاف أهلك نفسه بيد غيره .

المعنى :

وقيل في معنى الآية وجوه : أحدها ـ قال الحسن ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وهو المروى عن حذيفة ، وابن عباس : إن معناها « لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » بالامتناع من الانفاق في سبيل الله . الثاني ـ ما روي عن البراء ابن عازب ، وعبيدة السلماني : لا تركبوا المعاصي باليأس من المغفرة . الثالث ـ ما قال البلخي ، من أن معناها : لاتتقحموا الحرب من غير نكاية في العدو ، ولا قدرة على دفاعهم . الرابع ـ ما قاله الجبائي لا تسرفوا في الانفاق الذي يأتي على النفس . والأولى حمل الآية على عمومها في جميع ذلك .

اللغة :

والتهلكة ، والهلاك واحد . وقيل : التهلكة : ما أهلكهم الله عنده . وأصل الهلاك الضياع ، وهو مصدر ضاع الشيء بحيث لا يدري أين هو ، ومنه يقال للكافر : هالك ، وللميت : هالك ، وللمعذب : هالك . والهلوك : المهواة البعيدة ، لأن الذي يهوي فيها هالك . والهلوك : الفاجرة . والهلوك : المتحيرة ، تشبيهاً بالهلوك : الفاجرة

« ١ » لم أجد هذا البيت الا في مجمع البيان وروايته (يعاقب) بدل (يعاتب) .

التي تمايل في مشيتها ، تقول : هلك يهلك هلكا ، وهلاكا ، وأهلكه إهلاكا ، وتهالك تهالكا ، واهتلك اهتلاكا : إذا ألقى نفسه في المهالك . واستهلكه استهلاكا ، وانهلك انهلاكا . إذا حمل نفسه على الأمر الصعب . والهالكي : الحداد . وأصل ذلك أن بني الهالك بن عمر ، كانوا قيونا ، فسمي بذلك كل قين : هالكياً . والتهلكة : كلما كان عاقبته الى الهلاك . والهالك : الفقير الذي بمضيعة .

والاحسان : هو الافضال الى المحتاج ، في قول زيد بن أسلم . وحدّ الاحسان هو إيصال النفع الحسن إلى الغير ، وليس المحسن من فعل الفعل الحسن ، لأن الله تعالى بفعل العقاب وهو حسن ، ولا يقال : إنه محسن به ، ولا يسمى مستوفي الدين محسناً ، وإن كان حسناً ، فان أطلق ذلك في موضع ، فعلى وجه المجاز . وإنما اعتبرنا أن يكون النفع حسناً ، لأن من أوصل نفعاً قبيحاً الى غيره لا يقال : إنه محسن اليه . وقد بينا حقيقة المحبة ، فيما مضى ، فلا وجه لاعادته ، ومحبة الله للمحسنين : إرادة الثواب بهم والمنفعة لهم . وقال عكرمة : أحسنوا الظن بالله يراكم . وقال ابن زيد : أحسنوا بالعود على المحتاج « إن الله يحب المحسنين » وروى عن أبي عبد الله (ع) أنه قال : لو أن رجلا أنفق ما في يديه في سبيل من سبل الله ما كان أحسن ولا وفق لقوله « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » يعني المقتصدين .

قوله تعالى :

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ

عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) آية واحدة بلا خلاف .

المعنى :

وروي عن الشعبي : أنه قرأ « والعمرة لله » رفعاً ، وذهب إلي أنها ليست واجبة ، كما قال أهل العراق . وعندنا ، وعند الشافعي : أنها واجبة ، كوجوب الحج .
والقرّاء كلهم على النصب ، والعمرة عطفاً على قوله « وأتموا الحج » وتقديره ، وأتموا العمرة لله . وأمر الله تعالى جميع من توجه إليه وجوب الحج أن يتم الحج والعمرة . وقيل في إتمام الحج والعمرة أقوال :

أحدها ـ أنه يجب أن يبلغ آخر أعمالها بعد الدخول فيهما وهو قول مجاهد ، وأبي العباس المبرد ، وأبي علي الجبائي .

والثاني ـ قال سعيد بن جبير ، وعطا ، والسدي : إنّ معناه إقامتهما الى آخر ما فيهما ، لأنهما واجبان .

الثالث ـ قال طاووس : أتمامهما إفرادهما .

الرابع ـ قال قتادة : الاعتمار في غير أشهر الحج . وأصح الاقوال الأول .

والحج هو القصد الى البيت الحرام ، لاداء مناسك مخصوصة بها في أوقات مخصوصة . ومناسك الحج تشتمل على المفروض ، والمسنون . والمفروض يشتمل على الركن ، وغير الركن ، فأركان الحج أوّلا : النية ، والاحرام ، والوقوف بعرفة ، والوقوف بالمشعر ، وطواف الزيارة ، والسعي بين الصفا والمروة . والفرائض التي ليست بأركان : التلبية ، وركعتا طواف الزيارة ، وطواف النساء ، وركعتا الطواف له . والمسنونات : الجهر بالتلبية واستلام الأركان ، وأيام منى ، ورمى الجمار ، والحلق أو التقصير ، والأضحية إن كان مفرداً . وإن كان متمتعاً فالهدي واجب عليه ، وإلا فالصوم الذي هو بدل عنه ، وتفصيل ذلك ذكرناه في النهاية ، والمبسوط ، والجمل والعقود ، لا نطول بذكره . وفي هذه المناسك خلاف كثير ـ بين الفقهاء ـ ذكرناه

في مسائل الخلاف .

والعمرة واجبة كوجوب الحج ، وبه قال الحسن ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وعطا ، وابن جبير ، وعمرو بن عبيد ، وواصل بن عطا ، والشافعي . وقال ابراهيم النخعي ، والشعبي ، وسعيد بن جبير ، وأهل العراق : إنها مسنونة . وعن ابن مسعود فيه خلاف ، فمن قال : إنها غير واجبة قال : لأن الله تعالى أمر باتمام الحج والعمرة ، ووجوب الاتمام لا يدل على أنه واجب قبل ذلك ، كما أن الحج المتطوع به يجب إتمامه وإن لم يجب الدخول فيه . قالوا : وإنما علينا وجوب الحج بقوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت » (١) . وهذا ليس بصحيح ، لأنا قد بينا أن معنى أتموا الحج والعمرة أقيموها ، وهو المروي عن علي (ع) وعن علي بن الحسين مثله ، وبه قال مسروق ، والسدي .

والعمرة هي الزيارة في اللغة . وفي الشرع عبارة عن زيارة البيت لاداء مناسك مخصوصة أي وقت كان من أيام السنة . وأفعال العمرة الواجبة : النية ، والاحرام ، والطواف ، والصلاة عند المقام ، والسعي بين الصفا والمروة ، وطواف النساء . وفي بعض ذلك خلاف ذكرناه في الخلاف .

وقوله « فان أحصرتم » فيه خلاف ، قال قوم : فان منعكم خوف ، أو عدو ، أو مرض ، أو هلاك بوجه من الوجوه ، فامتنعتم لذلك . وقال آخرون : إن منعكم حابس قاهر . فالأول قول مجاهد ، وقتادة ، وعطا ، وهو المروي عن ابن عباس . وهو المروي في أخبارنا . والثاني ذهب اليه مالك بن أنس . فالأول أقوى لما روي في أخبارنا ، ولأن الاحصار هو أن يجعل غيره بحيث يمتنع من الشيء . وحصره منعه ، ولهذا يقال : حصر العدو ، ولا يقال : أحصر .

اللغة :

واختلف أهل اللغة في الفرق بين الاحصار ، والحصر ، فقال الكسائي ،

« ١ » سورة آل عمران آية : ٩٧ .

وأبو عبيدة ، وأكثر أهل اللغة : إن الاحصار المنع بالمرض ، أو ذهاب النفقـــة . والحصر بحبس العدوّ وقال الفراء : يجوز كل واحد منهما مكان الآخر . وخالف في ذلك أبو العباس ، والزجاج ، واحتج المبرد بنظائر ذلك . كقولهم حبسه أي جعله في الحبس وأحبسه أي عرّضه للحبس ، وقتله : أوقع به القتل ، وأقتله : عرّضه للقتل ، وقبره : دفنه في القبر ، وأقبره : عرضه للدفن في القبر ، فكذلك حصره : حبسه أي أوقع به الحصر ، وأحصره : عرّضه للحصر . ويقال : أحصره إحصاراً . إذا منعه ، وحصره يحصره حصراً إذا حبسه ، وحصر حصراً : إذا عيي في الكلام . وحاصره محاصرة : إذا ضيق عليه في القتال . والحصر الضيق . هذا حصر شديد . والحصر : الذي لا يبوح بسره ، لأنه قد حبس نفسه عن البوح به . والحصير : الملك . والحصير : المحبس ، ومنه قوله تعالى : « وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » « (١) والحصور : الذي لا إربة له في النساء . والحصور : الهيوب المحجم عن الشيء . والحصر البخيل لحبسه رفده ، وأصل الباب : الحبس .

الأعراب :

وقوله : « فما استيسر من الهدي » موضع (ما) رفع ، كأنه قال : فعليه « ما استيسر من الهدي » . ويجوز النصب وتقديره : فليهدي ما استيسر من الهدي . والرفع اقوى لكثرة نظائره ، كقوله « ففدية من صيام » وقوله « فعدّة من أيام أخر » (٢) وقوله « فصيام ثلاثة أيام » .

المعنى :

وفي معنى « ما استيسر » خلاف ، فروي عن علي (ع) ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة : أنه شاة . وروي عن ابن عمر ، وعائشة : أنه ما كان من الابل والبقر دون غيره ، ووجّها التيسر على ناقة دون ناقة ، وبقرة دون بقرة . والأول هو المعمول عليه عندنا .

« ١ » سورة الاسراء آية : ٨ .　　« ٢ » سورة البقرة آية : ١٨٤ ، ١٨٥

اللغة :

وفي اشتقاق الهدي ، وأصله قولان :

أحدها ـ أنه من الهدية ، يقال منه : أهديت الهدية إهداء ، وأهديت الى البيت الهدي إهداء ، فعلى هذا يكون هدياً لأجل التقرب به الى الله باخلاص الطاعة فيه ، على ما أمر به .

الثاني ـ من هديته هدى : اذا سقته الى طريق الرشاد ، وواحد الهدي هدية ، وروى أبو عبيدة عن أبي عمرو : أنه لا يعرف له نظير إلا جدية السرج وجدي ، وقال المبرد : وهو مطرد في الأجناس ، كتمرة وتمر ، وشرية وشري ، وهو الحنظل .

وقوله « ولا تحلقوا رؤوسكم » معناه لا تزيلوا شعور رؤوسكم : يقال حلق يحلق حلقاً ، وحلق تحليقاً ، وانحلق انحلاقاً . والحلق : مجرى الطعام ، والشراب في المري . والحلقة : حلقة القوم ، وحلقة الحديد ، والحلقة السلاح ، ويقال أيضاً بالتخفيف . وحلق الطائر في الهواء إذا ارتفع ، وهوى من حالق أي من علو الى سفل . وحلق ضرع الناقة إذا ارتفع لبنها . وحلاق المنية ، وجاء بالحلق اذا جاء بالمال الكثير . والمحلق : محلق الشعر كالموسى . وحُلوق الأرض مجاريها في أوديتها . والمحلق : موضع حلق الرأس بمنى . وأصل الباب الاستمرار .

والرؤوس جمع رأس يقال : رأس يرأس رآسة ، وترأس ترأساً ، ورأسه ترئيساً . والرأس أعلى كل شيء ، والرّواسي العظيم الرأس فوق قدره ، وكلبة رؤس : وهي التي تساور رأس الصيد . وسحابة رأيسة : وهي التي تتقدم السحاب . ورجل مرءوس إذا أصابه البرسام في رأسه . ورأس فلان فلاناً إذا ضربه على رأسه . وأصل الباب الرأس .

وقوله : « حتى يبلغ الهدي محلّه » معناه حتى ينتهى إليه ، يقال : بلغ يبلغ بلوغاً ، وأبلغه إبلاغاً ، وبلغه تبليغاً ، وبالغ مبالغة ، وتبالغ تبالغاً ، وتبّلغ تبّلغاً ، وبلغ الرجل بلاغة اذا صار بليغاً . والبلغة : القوت . وأصل الباب البلوغ ، وهو

الانتهاء ، فنه البلاغة ، لأنها تبلغ بالمعنى الى القلب .

المعنى

وقيل في محل الهدي قولان: أحدها ـ ما روى عن ابن عباس ، وابن مسعود ، والحسن ، وعطا : أنه الحرم فاذا ذبح به يوم النحر أحلّ .

والثاني ـ قال مالك: إنه الموضع الذي صدّ فيه ، وهو المكان الذي يحلّ نحره فيه قال ، لأن النبي (ص) نحر الهدي ، وأمر أصحابه فنحروا بالحديبية . وعندنا : أن الأول حكم المحصر بالمرض ، والثاني حكم المحصور بالعدوّ ، وروي أيضاً أن محله منى إن كان في الحج ، وإن كان في العمرة فمكة .

وقوله تعالى : « فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه » فالأذى كلما تأذيت به ورجل آذٍ إذا كان شديد التأذي تقول : آذى يأذى أذى . وأصله الضرر بالشيء ، وروى أصحابنا أن هذه الآية نزلت في إنسان يعرف بكعب بن عجرة . وروى أيضاً ذلك أصحاب التأويل في أنه كان قد قمل رأسه فأنزل الله فيه هذه الآية ، لكنها محمولة على جميع الأذى .

وقوله « ففدية من صيام أو صدقة أو نسك » فالذي رواه أصحابنا أن الصيام ثلاثة أيام أو صدقة ستة مساكين . وروي عشرة مساكين . والنسك شاة . وفيه خلاف بين المفسرين . وروي عن كعب بن عجرة الانصاري ، ومجاهد ، وعلقمة ، وابراهيم ، والربيع ، واختاره الجبائي : مثل ماقلناه : إن الصوم ثلاثة أيام والاطعام لستة مساكين . وقال الحسن وعكرمة : صوم عشرة أيام أو إطعام عشرة مساكين لكل مسكين نصف صاع بلا خلاف . ولم يختلفوا في النسك أنه شاة . والنسك : جمع نسيكة ، ويجمع أيضاً نسائك ، كصحيفة وصحائف وصحف .

وقوله « فاذا أمنتم » معناه أمنتم أن يحصركم العدوّ أو أمنتم المرض « فمن تمتع بالعمرة الى الحج » ، ففرض المتمتع ـ عندنا ـ هو اللازم لكل من لم يكن من حاضري المسجد الحرام ، وحدّ حاضري المسجد الحرام : من كان على إثني عشر ميلا

من كل جانب الى مكة ، ثمانية وأربعين ميلا ، فما خرج عنه فليس من الحاضرين ، لا يجوز له مع الامكان غير التمتع ، وعند الضرورة ، يجوز له القران والافراد . ومن كان من حاضري المسجد الحرام ، لا يجوز له التمتع ، وإنما فرضه القران أو الافراد على ما نفسره في القران والافراد ، وسياق المتمتع أن يحرم من الميقات في أشهر الحج وهي : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة ، ثم يخرج الى مكة ، فيطوف بالبيت ، ويسعى بين الصفا والمروة ، ويقصر ، ثم ينشىء إحراماً آخر بالحج من المسجد الحرام ، ويخرج الى عرفات ، ويقف هناك ، ويفيض الى المشعر ، ويغدوا منها الى منى ، ويقضي مناسكه هناك ، ويدخل في يومه الى مكة ، فيطوف بالبيت طواف الزيارة ، ويسعى بين الصفا والمروة ، ويطوف طواف النساء ، وقد أحل من كل شيء ويعود الى منى ، فبيت ليالي بها ، ويرمي الجمار في ثلاثة أيام ـ على ما شرحناه في النهاية ، والمبسوط ـ وفي بعض ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف . وللمفسرين في التمتع أربعة أقوال : فالأول رواه أنس بن مالك : أن النبي (ص) أهل بعمرة وحجة ، وسموه قارناً ، وأنكر ذلك ابن عمر ، والثاني روى ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب وعطا ، واختاره الجبائي : وهو أن يعتمر في أشهر الحج ثم يأتي مكة ، فيطوف ، ويسعى ، ويقصر ثم يقيم حلالا الى يوم التروية ، أو يوم قبله ، فيهل فيه بالحج من مكة ، ثم يحج . وهذا مثل ما قلناه سواء . وقال البلخي : إن هذا الضرب كرهه عمر ، ونهى عنه ، وكرهه ابن مسعود . الثالث ـ هو الناسخ للحج بالعمرة رواه جابر بن عبد الله ، وأبو سعيد الخدري : أن رسول الله (ص) أمرهم ـ وقد أهلوا بالحج ، لا ينوون غيره ـ أن يعتمروا ثم يحلوا الى وقت الحج . هذا عندنا جائز أن يفعل . وروي عن أبي ذر : أنها كانت لأصحاب النبي (ص) خاصة . وكذلك يقولون : إن عمراً أنكر هذه المتعة .

الرابع ـ قال ابن الزبير : إن المحصر اذا دخل مكة بعد فوت الحج ، تمتع بالعمرة ، لأنه يحل بها الى وقت الحج ، وكذلك من اعتمر في غير أشهر الحج ثم حج تلك السنة ، فهو المتمتع ، ولا هدي عليه . وهذا عندنا فاسد بما قدمناه .

وقوله تعالى : « فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام في الحج وسبعة إذا رجعتم » فالهدي واجب على المتمتع بلا خلاف،لظاهر التنزيل ،على خلاف فيه أنه نسك أو جبران ، فعندنا أنه نسك ، وفيه خلاف فان لم يجد الهدي ولا ثمنه ، صام ثلاثة أيام في الحج ، وعندنا أن وقت صوم الثلاثة أيام : يوم قبل التروية، ويوم التروية ، ويوم عرفة ، فان صام في أول العشرة جاز ذلك رخصة . وإن صام يوم التروية ويوم عرفة قضى يوماً آخر بعد التشريق فان فاته يوم الترويه صام بعد القضاء من التشريق ثلاثة أيام متتابعات ، وروي عن ابن عباس ، وابن عمر ، والحسن،ومجاهد: أنه يجوز ما بين إحرامه في أشهر الحج الى يوم عرفة . واستحبوا أن يكون يوماً قبل التروية ، ويوم عرفة . ووقت صوم السبعة أيام إذا رجع الى أهله ، وبه قال عطا ، وقتادة . وقال مجاهد : إذا رجع عن حجه في طريقه . فأما أيام التشريق،فلا يجوز صومها عندنا،وبه قال جماعة من المفسرين،واختاره الجبائي، لنهي النبي (ص) عن صوم أيام التشريق . وروي عن ابن عمر،وعائشة جواز ذلك.

وقوله : « تلك عشرة كاملة » اختلفوا في معناه ، فقال الحسن ، والجبائي ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) أن المعنى كاملة من الهدي أي اذا وقعت بدلا منه ، استكملت ثوابه .

الثاني ـ ما ذكره الزجاج ، والبلخي أنه لازالة الايهام لئلا يظن أن (الواو) بمعنى (أو) فيكون كأنه فصيام ثلاثة أيام في الحج أو سبعة أيام اذا رجعتم ، لأنه اذا استعمل (أو) بمعنى (الواو) جاز أن يستعمل (الواو) بمعنى (أو) كما قال : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » والمراد « أو» فذكر ذلك لارتفاع اللبس .

والثالث ـ قاله المبرد : إنه أعاد ذلك للتأكيد قال الشاعر :

ثلاث واثنتان فهن خمس وسادسة تميل الى شمام (١)

«١» في مجمع البيان نسبه الى جرير ولم أجد في ديوانه . في المطبوعة « سمام » بدل « شمام » « واثنان » بدل « اثنتان » .

اللغة :

وتقول : ثلثت القوم أثلثهم ، فأنا ثالثهم ، وربما قالوا : ثلثت الرجلين أي صرت لهما ثالثاً . والثلث جزء من ثلاثة . والمثلث : شكل على ثلاثة أضلاع . والمثلوث: ما أخذ ثلثه . والثلاثاء : اليوم الثالث من الأحد . والثلاثي : ما نسب الى ثلاثة أشياء ، وأصله الثلاثة من العدد .

وأهل الرجل : زوجته . والمتأهل : المتزوج . وأهل الرجل : أخص الناس به . وأهل البيت : سكانه . وأهل الاسلام : من تدين به . وأهل القرآن : من يقرأه ، ويقوم بحقوقه . وأهلته لهذا الأمر أي جعلته أهلاً له . والأهلي : خلاف البري . وقولهم مرحباً وأهلا أي اختصاصاً بالتحية ، والتكرمة .

المعنى :

وقد بينا أن (أهل حاضري المسجد الحرام) من كان من بينه وبينها إثناعشر ميلا من أربع جوانبها . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : إنهم أهل الحرم ، فروي في أخبارنا أيضاً ذلك . وقال مكحول ، وعطا : من بين مكة ، والمواقيت . وقيل : هم أهل الحرم ، ومن قرب منزله منها ، كأهل عرفة ، ذهب اليه الزهري ومالك .

اللغة :

وقوله تعالى : « واعلموا أن الله شديد العقاب » تقول : عقب الشيء يعقب بمعنى خلف بعد الأول . وأعقب إعقاباً ، وتعقب الرأي تعقباً . « والعاقبة للمتقين »(١) أي الآخرة . ونرد على أعقابنا أي نعقب بالشر بعد الخير . والعقبة : ركوب أعقبه المشي . « له معقبات » (٢) : ملائكة الليل تخلف ملائكة النهار . وعقب الانسان:

« ١ » سورة الاعراف آية : ١٢٧ .

« ٢ » سورة الرعد آية : ١٢ .

نسله ، وعقبة ، مؤخر قدمه . والعقبة : المصعد في الجبل . والعقب : الصعب . والعقاب: الطائر . واليعقوب : ذكر القبج . «ولا معقب لحكمه »أي لا رادّ لقضائه . وأصل الباب : العقب : الخلف بعد الأول .

قوله تعالى :

أَلحجُّ أشهرٌ معلومَاتٌ فمنْ فَرَضَ فِيهنَّ الحجَّ فَلا رَفَثَ ولا فُسوقَ وَلا جِدالَ في الحجِّ وما تَفعلوا مِنْ خَيرٍ يَعلمهُ اللهُ وتزوَّدُوا فإنَّ خيرَ الزَّادِ التقوى واتَّقون يا أولي الألبابِ (١٩٧) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو « فلا رفث ولا فسوق » بالرفع ، « ولا جدال » بالنصب . الباقون بالنصب فيهنّ تقدير الآية : أشهر الحجّ أشهر معلومات ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف اليه مقامه . وأشهر الحجّ ـ عندنا ـ شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة ، على ما روي عن أبي جعفر (ع) وبه قال ابن عباس ، وابن عمر ، وابراهيم ، والشعبي ، ومجاهد ، والحسن ، واختاره الجبائي . وقال عطا ، والربيع ، وابن شهاب ، وطاووس : أشهرالحجّ شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة. وروي ذلك في أخبارنا ، وإنما كانت هذه أشهر الحج ، لأن الاحرام بالحج لا يصح أن يقع إلا فيها ـ بلا خلاف ـ وعندنا ـ أن الاحرام بالعمرة التي يتمتع بها لا يقع أيضاً إلا فيها . ومن قال : إن جميع ذي الحجة من أشهر الحج ، قال : لأن جميع ذي الحجة يصح أن يقع فيه شيء من أفعال الحج ، مثل صوم الثلاثة أيام ، فانه يصح أن يقع في جميع ذي الحجة ، وكذلك يصح أن يقع ذبح الهدي فيه . وقال قوم : إن المعنى واحد في قول الفريقين . وقال آخرون : هو مختلف من حيث أن الثاني معناه : أن العمرة لا ينبغي أن تكون في الأشهر الثلاثة على الكمال ، لأنها أشهر الحج ، والأول على أنها لا ينبغي أن تكون في شهرين وعشر من الثالث ،

فقد روي عن ابن عمر: ان تفصلوا بين الحج والعمرة ، فتجعلوا العمرة في غير أشهر الحج ،أتم لحج أحدكم وأتم لعمرته . وروي ذلك عن القاسم بن محمد عن ابن شهاب عن عبدالله ، وابن سيرين . وقد بينا مذهبنا في ذلك . فان قيل كيف جمع شهرين ، وعشرة أيام ثلاثة أشهر ؟ قلنا : لأنه قد يضاف الفعل الى الوقت وإن وقع في بعضه . ويجوز أن يضاف الوقت اليه كذلك ، كقولك : صليت صلاة يوم الجمعة ، وصلاة يوم العيد وإن كانت الصلاة في بعضه . ويقال أيضاً : قدم زيد يوم كذا ، وخرج يوم كذا وإن كان قدومه أو خروجه في بعضه ، فكذلك جاز أن يقال : شهر الحج ذو الحجة ، وإن كان في بعضه ، وإنما يفرض فيهن الحج ،بأن يحرم فيهن بالحج ـ بلا خلاف ـ أو بالعمرة التي يتمتع بها بالحج ـ عندنا خاصة ـ وفي الاحرام بالحج وافقنا فيه ابن عباس ، والحسن ، وقتادة . وقال ابن عمر ، ومجاهد : إنما يفرض فيهن بالتلبية . وقال بعض المتأخرين : يفرض بالعزم على أعمال الحج .

الاعراب :

ولا يجوز نصب أشهر ـ في العربية ـ على ما بيناه من المعنى من أن تقديره أشهر « الحج أشهر معلومات » أو وقت « الحج أشهر معلومات » وقد أجازوا الحج شهر ذي الحجة ، لأنه معرفة كما تقول العرب : المسلمون جانب ، والكفار جانب بالرفع، فاذا أضافوا نصبوا ، فقالوا : المسلمون جانب أرضهم ، والكفار جانب بلادهم . وانما جاز ذلك ، لأن النكرة لما جاءت على شرط الخبر : في كونه نكرة من حيث كانت الفائدة فيه ، رفعت بأنها خبر الابتداء فلما صارت معرفة ، والخبر يطلب النكرة نصبت ليصح تقدير الاستقرار الذي هو نكرة كأنك قلت : الكفار مستقرون جانب بلادهم ، ففائدة الأول من جانب ، وفائدة الثاني في مستقر .

المعنى :

وقوله تعالى : « فلا رفث » فالرفث هاهنا ـ عند أصحابنا ـ كناية عن الجماع وهو قول ابن مسعود ، وقتادة . وأصله الافحاش في النطق كما قال العجاج :

عن الآغا ورفث التكلم (١)

وقيل الرفث بالفرج : الجماع ، وباللسان : المواعدة للجماع ، وبالعين : الغمز للجماع . وقال ابن عباس ، وابن عمر وعطا : المراد هاهنـا : المواعدة للجماع ، والتعريض للنساء به . وقال الحسن : الجمـاع ، والتعرض له بمواعدة أو مداعبـة كله رفث .

وقوله تعالى : « ولا فسوق » روى أصحابنا : أنه أراد الكذب . والأولى أن نحمله على جميع المعاصي التي نهي المحرم عنها ، وبه قال ابن عمر . وقال الحسن : المعاصي نحو القذف وشبهه ، وقال ابن عباس ومجاهد وعطا : هو جميـع المعاصي مثل ما قلناه . وقال بعضهم لا يجوز أن يكون المراد إلا ما نهي عنه المحرم هاهنـا ، مما هو حلال له في غير الاحرام ، لاختصاصه بالنهي عنه وهذا غلط ، لأنـه تخصيص للعموم بلا دليل ، وقد يقول القائل : ينبغي أن تقيد لسانك في رمضان لئلا يبطل صومك ، فيخصه بالذكر لعظم حرمته .

وقوله : « ولا جدال في الحج » فالذي رواه أصحابنا : أنه قول : لا والله وبلى والله صادقاً ، وكاذباً . وللمفسرين فيه قولان :

أحدها ـ قال ابن عباس ، وابن مسعود ، والحسن : أنه لا مراء بالسباب والأعصاب على جهة المحك ، واللجاج .

الثاني ـ قال مجاهد والسدي : إنه لا جدال في أن الحج قد استدار (٢) في ذي الحجة ، لأنهم كانوا ينسون الشهور فيقدمون ويؤخرون ، فربما اتفق في غيره .

اللغة :

وأما اشتقاقه في اللغة فالجدال والمجادلة ، والمنازعة ، والمشاجرة ، والمخاصمة

« ١ » مر تخريجه في ٢ : ١٣٢ .

« ٢ » في المطبوعة (استداد) ومعنى استدار : أي يدور معه كيف دار .

واجد ، وتقول : جدلت الحبل أجدّله وأجدِله جدلا : إذا فتلته ، وجادلت الرجل مجادلة وجدالا : إذا خاصمته ، وتجادلا تجادلا . وجدلته تجديلا : إذا ألقيتـــه على الأرض . وتجدّل تجدّلا وانجدل انجدالا . والجديل : زمام البعير . والجدول : نهر صغير . والمجدل : القصر . والجدالة : الأرض ذات الرمل الرقيق . والأجـدل : الصقر ، وكل مفتول : مجدول . وغلام جادل : إذا ترعرع واشتد . والجديلة : شريحة الحمام . ورجل أجدل المنكب : فيه تطأطؤ ، بخلاف الاشراف من المناكب . وأصل الباب : الفتل ، والجدال : القتال .

الاعراب :

ومن نصب (الثلاثة) أخرج اللفظ مخرج عموم النفي للمبالغة في معنى النفي . ومن رفع بعضاً ونصب بعضاً ، فلاختلاف المعنى ، لأن الأول على معنى النهي ، والثاني بمعنى الاخبار عن زمان الحج : قد استدار في ذي الحجة ، فكان أحقّ بالنصب ، لعموم النفي . فأما الأول ، فقد يقع من الخاطىء ، فلا يصح فيه عموم النفي . هذا قول النحويين . والصحيح أن الكل معناه النهي ، وان خرج مخرج النفي ، والاخبار . والمراد به النهي بلا خلاف .

المعنى :

وقوله تعالى : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » معناه وما تفعلوا من خير يجازكم الله العالم به ، لأن الله عالم على كل حال ، إلا أنه جعل « يعلمه » في موضع يجازيه للمبالغة في صفة العدل ، لأنه يعاملكم معاملة من يعلمه إذا ظهر منكم ، فيجازي به ، وذلك تأكيد أن الجزاء لا يكون إلا بالفعل دون ما يعلم أنه يكون منهم قبل أن يفعلوه .

وقوله : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ قال الحسن ، وقتادة ، ومجاهد : أن قوماً كانوا يرمون بأزوادهم ، ويتسمون بالمتوكلة ، فقيل لهم تزودوا من الطعام ، ولا تلقوا كلكم على الناس ،

وخير الزاد مع ذلك التقوى .

والثاني ـ « تزودوا » من الأعمال الصالحات « فان خير الزاد التقوى » ، فذكر ذلك في الحج ، لأنه أحق شيء بالاستكثار من أعمال البر فيه ، والزاد : الطعام الذي يتخذ للسفر . والمزود : وعاء يجعل فيه الزاد . وكل من انتقل بخير من عمل أو كسب ، فقد تزود منه تزوداً .

وقوله : « واتقون يا أولي الألباب » يعني ياذوي العقول ، لأن اللب العقل ، وإنما سمي لباً لأنه أفضل مافي الانسان . وأفضل كل شيء لبه .

قوله تعالى :

لَيسَ عَليكُمْ جُناحٌ أنْ تَبتغوا فَضلاً مِنْ ربِّكُمْ فاذا أفَضتُمْ مِنْ عرَفاتٍ فاذْكروا اللهَ عندَ المَشعَرِ الحرامِ واذْكروهُ كما هداكُمْ وإنْ كُنتمْ مِنْ قَبلهِ لَمِنَ الضّالّينَ (١٩٨) آية واحدة بلا خلاف .

هذه الآية فيها تصريح بالاذن في التجارة ، ونحوها في حال الاحرام ، لأنهم كانوا يتحرجون بذلك في صدر الاسلام ، على قول ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وعطاء والحسن ، وقتادة ، وهو المروي عن أبي جعفر ، وأبي عبدالله (ع) .

اللغة والاعراب :

والجناح هو الجرح في الدين ، وهو الميل عن الطريق المستقيم ، وأصله الميل ـ على ما مضى القول فيه ـ .

وقوله : « فاذا أفضتم من عرفات » يعني دفعتم من عرفة الى المزدلفة عن اجتماع ، كفيض الاناء عن امتلائه ، تقول : فاض الماء يفيض فيضاً : إذا انصب عن امتلاء ، وأفاض إفاضة في الحديث : إذا اندفع فيه . واستفاض الخبر إذا شاع . والافاضة الضرب بالقداح . وفيض الصدر بما فيه : البوح به . والافاضة : امتلاء الحوض حتى يفيض . ورجل فياض : جواد . ودرع مفاضة ، وفيوض إذا كانت واسعة(١) .

« ١ » في المطبوعة « سابغة » والصحيح ما أثبتناه .

وفيض البصرة : نهرها . وأصل الباب : الفيض : الانصباب عن الامتلاء .

و « عرفات » صرفت وإن كان فيها التعريف ، والتأنيث ، لأنها على حكاية الجمع ، كما يجب أن يحكى المذكر إذا سمي به الجمع ، ويجوز فيها ترك الصرف تشبيهاً بالواحد فيسقط التنوين ويسقط الاعراب كما كان في الجمع كقول امرىء القيس :

تنوّرْتها من أذرعاتَ وأهلها بيثرب أدنى دارها نظرٌ عالي (١)

والأول اختيار النحويين ، وقد أجاز بعضهم فتح التاء بغير تنوين على قياس طلحة ، وأنشدوا البيت على ثلاثة أوجه (أذرعات) ـ منوناً مكسوراً ـ ومجروراً بلا تنوين ـ ومفتوحاً بلا تنوين ـ . وأنكر الزجاج الوجه الثالث .

والمشعر هو معلم المتعبد . وقال المبرد : المشعر ـ بفتح الميم والعين ـ مكان الشعر ، كالمدخل لمكان الدخول . والمشعر ـ بكسر الميم ـ الحديدة التي يشعر بها أي يعلم بها . فكسرت ، لانها آلة كالمخرز ، والمقطع ، والمخيط . وقال : الكسائي : لا فرق بين الفتح والكسر .

المعنى :

و « المشعر الحرام » هو المزدلفة : وهو جُمع بلا خلاف . وسميت عرفات عرفات ، لأن إبراهيم (ع) عرفها بما تقدم له من النعت لها ، والوصف ، على ماروي عن علي (ع) وابن عباس . وقال عطا ، والسدي ، وقد روي ذلك في أخبارنا : أنها سميت بذلك ، لأن آدم وحواء اجتمعا فيه ، فتعارفا بعد أن كانا افترقا . وقيل: سميت عرفات لعلوّه وارتفاعه ، ومنه عرف الديك .

ووجه التشبيه في قوله « واذكروه كما هداكم » أن الذكر بالشكر ، والثناء يجب أن يكون بحسب الانعام ، والهداية في العظمة لأنه يجب أن يكون الشكر

« ١ » ديوانه ١٤٠ . وهو من قصيدته الرائعة المشهورة . والضمير في تنورتها عائد للمرأة التي يذكرها ، وتنور النار : رآها من بعيد ، جعل المرأة تضيء له كما تضيء النار المشبوبة .

وأذرعات : بلد في الشام ، ويثرب : مدينة الرسول « ص » .

يقول : لاح لي نورها وأنا في أذرعات وهي بيثرب ثم يقول : قرب مكانها مني نظر نظرته نحو جو السماء .

كالنعمة في عظم المنزلة كما يجب أن يكون على مقدارها لو صغرت النعمة ، ولا يجوز التسوية في الشكر بين من عظمت نعمته ومن صغرت .

الاعراب :

وقوله : « وإن كنتم من قبله لمن الضالين » معنى (إن) هاهنا المخففة من الثقيلة بدلالة دخول لام الابتداء معها ، وإذا خففت لم تعمل وجاز دخولها على الاسم ، والفعل ، كقوله تعالى : « وإن كل لما جميع لدينا محضرون » (١) . وأما « كنتم » فلا موضع لها من الاعراب ، لأنها بعد حرف غير عامل . وليس « لان » موضع كما ليس لها موضع في الابتداء . وإنما هذه الواو عطف جملة على جملة .

وروى جابر عن أبي جعفر (ع) قال : « لا جناح عليكم أن تبتغوا فضلامن ربكم » معناه أن تطلبوا المغفرة .

قوله تعالى :

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) آية بلا خلاف .

المعنى :

قيل في معنى هذه الآية قولان :

أحدها ـ قال ابن عباس ، وعائشة ، وعطا ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، والربيع ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) : أنه أمر لقريش وخلفائهم ، لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفة ، ولا يفيضون منها ، ويقولون : نحن أهل حرم الله لا نخرج عنه ، فكانوا يقفون بجمع ويفيضون منه ، دون عرفة ، فأمرهم الله تعالى أن يفيضوا من عرفة بعد الوقوف بها .

والثاني ـ قال الضحاك ، والجبائي وحكاه المبرد ، لكنه اختار الأول ، لأنه

« ١ » سورة يس آية ٣٢ .

خطاب لجميع الحاج أن يفيضوا من حيث أفاض إبراهيم (ع) من المزدلفة . والأول إجماع ، وهذا شاذ ، وليس لأحد أن يقول على الوجه الآخر : كيف يقال لإبراهيم وحده الناس ، وذلك أن هذا جائز كما قال : « الذين قال لهم الناس » (١) وإنما كان واحداً بلا خلاف : وهو نعيم بن مسعود الاشجعي ، وذلك مستعمل . وقيل إن إبراهيم لما كان إماماً ، كان بمنزلة الأمة التي تتبع في سنة .

فان قيل : إذا كانت (ثم) للترتيب ، فما معنى الترتيب هاهنا ؟ قلنا : الذي رواه أصحابنا أن هاهنا تقديماً وتأخيراً . وتقديره « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » « فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » . وقال قوم: المعنى « ثم أفيضوا » من المزدلفة . والذي أجاب به المتأولون : أن قالوا : رتبت الافاضة بعد المعنى الذي دل الكلام الأول عليه ، كأنه قيل : أحرموا بالحج على ما بين لكم « ثم أفيضوا » يامعشر قريش « من حيث أفاض الناس » بعد الوقوف بعرفة . وهذا قريب مما قلناه . وإنما عدل الذي تأوله على الافاضة من المزدلفة ، لأنه رآه بعد قوله ، فاذا أفضتم من عرفات ، قال : فأمروا أن يفيضوا من المزدلفة بعد الوقوف بها ، كما أمروا في عرفة ، وقد بينا ترتيب الكلام في التأويل المختار . والاستغفار هو طلب المغفرة ، كما أن الاستخبار : طلب السؤال . والمغفرة : التغطية للذنب بايجاب المثوبة . وقيل في معنى الاستغفار قولان : أحدهما ـ الحض عليه في تلك المواطن الشريفة ، لأنها خليقة بالاجابة . الثاني ـ استغفروه لما سلف من مخالفتكم في الوقوف والافاضة ، كما سنه الله تعالى للناس عامة . والفرق بين غفور وغافر أن في غفور مبالغة لكثرة المغفرة ، فأما غافر ، فيستحق الصفة فيه بوقوع الغفران . والعفو هو المغفرة . وقد فرق بينهما بأن العفو ترك العقاب على الذنب ، والمغفرة تغطية الذنب بايجاب المثوبة . ولذلك كثرت المغفرة في صفات الله تعالى ، دون صفات العباد ، فلا يقال: استغفر السلطان كما يقال : استغفروا الله .

« ١ » سورة آل عمران آية ١٧٢ .

قوله تعالى :

فاذا قَضيتُمْ مَناسِكَكُمْ فاذكرُوا اللهَ كذِكرِكُمْ آباءَكُمْ أوْ أَشدَّ ذِكراً فمِنَ النّاسِ مَنْ يَقولُ ربَّنا آتِنا في الدُّنيا وَما لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خلاقٍ (٢٠٠) آية بلا خلاف .

المعنى :

قوله تعالى : « فاذا قضيتم » معناه فرغتم منها . وأصل القضاء : فصل الأمر على أحكام . وقد يفصل بالفراغ منه كقضاء المناسك وقد يفصل بالعمل له على تمام كقوله « فقضاهن سبع سموات في يومين » (١) وقد يفصل بالاخبار على القطع كقوله تعالى : «وقضينا الى بني اسرائيل » (٢) وقد يفصل بالحكم كقضاء القاضي على وجه الالزام بالقهر .

والمناسك المأمور بها هاهنا جميع أفعال الحج المتعبد بها في قول الحسن وغيره من أهل العلم ـ وهوالصحيح ـ وقال مجاهد: هي الذبائح .

وقوله « فاذكروا الله» فالذكر هو العلم وقيل:هو حضورالمعنى للنفس بالقول أو غيره مما هو كالعلة ، لحضوره بها . وقيل : المراد به هاهنا التكبير أيام منى لأنه الذكر الذي يختصه بالترغيب فيه على غيره من الاوقات . وقيل أيضاً : إنه سائر الدعاء لله تعالى في ذلك الموطن ، لأنه أفضل من غيره ـ وهو الأقوى ـ لأنه أعم .

وقوله : « كذكركم آباءكم » معناه ما روي عن أبي جعفر « ع » أنهم كانوا يجتمعون ، يتفاخرون بالآباء ، وبمآثرهم ، ويبالغون فيه . وقوله « أو أشد ذكراً » إنما شبه الأوجب بما هو دونه في الوجوب ، لأمرين : أحدهما ـ أنه خرج على حال لأهل الجاهلية كانت معتادة :أن يذكروا آباءهم بأبلغ الذكر على وجه التفاخر ، فقيل : اذكروا الله كالذكر الذي كنتم تذكرون به آباءكم في المبالغة ، أو أشد ذكراً

« ١ » سورة حم السجدة آية ١٢ .
« ٢ » سورة الاسراء آية : ٤ .

بما له عليكم من النعمة . هذا قول أنس ، وأبي وائل ، والحسن ، وقتادة . والثاني ـ قال عطا : أذكروه بالاستغاثة به ، كذكركم آباءكم : الصبي لأبيه إذا قال : يا أباه . والأول هو المعتمد .

الاعراب :

وإنما نصب « ذكراً » ولم يخفض كما يخفض في قولهم هذا الذكر أشد ذكر ، لأن فيه ضميراً منهم نظير قولك : هم أشد ذكراً ، وفي أشد ضميرهم ، ولو قلت مررت به أشد ذكراً لكان منصوباً على الحال فأما الذكر ، فعلى التمييز .

المعنى :

فان قيل : الأمر بالذكر هاهنا بعد قضاء المناسك أو معه ؟ قيل : أجاز أبو علي الوجهين ، واستشهد بقولهم : إذا وقفت بعرفات فادع الله ، وإذا حججت فطف بالبيت .

والخلاق : النصيب من الخير ، وأصله التقدير ، فهو النصيب من الخير على وجه الاستحقاق .

قوله تعالى :

وَمِنهُم مَنْ يَقولُ رَبَّنا آتِنا في الدُّنيا حَسنةً وَفي الآخرة حَسنةً وَقِنا عَذابَ النّارِ (٢٠١) آية واحدة .

الاعراب :

« ربّنا » منصوب ، لأنه منادى وتقديره : يا ربّنا . وإنما حذف حرف النداء ، لما كان أصله تنبيه المنادى ، ليقبل عليك ، وكان الله عزّ وجل لا يغيب عنه شيء ـ تعالى عن ذلك ـ ، سقط حرف النداء للاستغناء عنه . فأما يا ألله اغفرلي ، فيجوز أن يخرج مخرج التنبيه للتأكيد : أن يقبل عليك برحمته ، ولأنك تسأله سؤال المحتاج أن ينبه على حالة ، لأن ذلك أبلغ في الدعاء ، وأحسن في المعنى .

اللغة :

والفرق بين القول والكلام : أن القول يدلّ على الحكاية ، وليس كذلك الكلام ، نحو قال : الحمد لله ، فاذا أخبرت عنه بالكلام قلت تكلم بالحق ، والحكاية تكون على ثلاثة أوجه : حكاية على اللفظ والمعنى ، وحكاية على اللفظ فقط ، وحكاية على المعنى فقط ، فالأول نحو « أتوني أفرغ عليه قطراً » (١) إذا حكاه من يعرف لفظه ومعناه . الثاني ـ إذا حكاه من يعرف لفظه دون معناه . الثالث ـ نحو أن يقول : أتوني أفرغ عليه نحاساً ، فيكون حكاه على معناه دون لفظه .

المعنى :

وقوله « آتنا » معناه : أعطنا ، فالاتيان الاعطاء . وأصله الأتي ، والمجيء ، فأتى إذا كان منه المجيء ، فآتى إذا حمل غيره على المجيء ، كما يقال : أتاه ما يحب ، وآتاه غيره ما يحب .

والحسنة التي سألوها قيل في معناها قولان :

أحدها ـ قال قتادة ، والجبائي ، وأكثر المفسرين : إنه نعم الدّنيا ، ونعم الآخرة .

الثاني ـ قال الحسن : العبادة في الدنيا ، والجنة في الآخرة ، وسميت نعمة الله حسنة ، لأنها مما تدعو إليه الحكمة . وقيل : الطاعة والعبادة حسنة ، لأنها مما يدعو إليه العقل .

اللغة :

وقوله تعالى : « وقنا عذاب النار » فالوقاء : الحاجز الذي يسلم به من الضرر . يقال وقاه يقيه وقاء ، ووقاية . وتوقى هو توقية وأصل الوقاء الحجز بين الشيئين . وأصل قنا : أوقنا مثل احملنا ، فذهبت الواو لسقوطها في يقي ، لوقوعها بين ياء وكسرة ثم أتبع سائر تصاريف الفعل ما لزمته العلة ، وسقط ألف الوصل للاستغناء

(١) سورة الكهف آية : ٩٧ .

عنها بتحرك ما بعدها ، وحذفت الياء ، للوقف الذي هو نظير الجزم .

والفائدة في الاخبار عنهم بهذا الدعاء ، الاقتداء بهم فيه ، لأنه لما حذّر من الدعاء الأول رغّب في الثاني .

قوله تعالى :

أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)

آية بلا خلاف .

الاعراب :

« أولئك » رفع بالابتداء وخبره لهم نصيب. ومعناه أولئك لهم نصيب من كسبهم باستحقاقهم الثواب عليه .

اللغة :

والنصيب : الحظ ، وجمعه أنصباء وأنصبة . وحدّ النصيب الجزء الذي يختص به البعض من خير أو شر .

والكسب : الفعل الذي يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر . وتقول : نصب ينصب نصباً ، ونصب نصباً من التعب ، وأنصبنى هذا إنصاباً . وانتصب الشيء انتصاباً . وناصبه العداوة مناصبة . والنصب إقامتك الشيء . والنصب : الرفع . نصب القوم السير : إذا رفعوه . وكل شيء رفعته ، فقد نصبته ، ومنه نصب الحرف ، لأن الصوت يرفع فيه الى الغار الأعلى . والنصب بتغير الحال من مرض أو تعب . والنصب : جمع أنصاب وهي حجارة كانت تنصب في الجاهلية ، ويطاف بها ، ويتقرب عندها وهي التي ذكرها الله تعالى في قوله : « وما ذبح على النصب » (١) وقال : « والأنصاب والأزلام » (٢) . وأنصاب الحرم حدوده ، وهي حجارة تنصب ، ليعرف بها

« ١ » سورة المائدة آية : ٤ .

« ٢ » سورة المائدة آية : ٩٣ .

الحرم . ونصاب السكين ، بغيره معروف ، وفلان في نصاب صدق : في حسب ثابت . والنصبة : السارية . والمنصب الذي ينصب عليه القدور . وكل شيء استقبلت به شيئاً، فقد نصبته . وأصل الباب القيام .

وقوله تعالى : « والله سريع الحساب » يعني في العدل من غير حاجة الى خط ولا عقد ، لأنه (عز وجل) عالم به . وإنما يحاسب العبد مظاهرة في العدل ، وإحالة على ما يوجبه الفعل من خير أو شر . والسرعة هو العمل القصير المدة . تقول : سرع سرعة ، وأسرع في المشي إسراعاً ، وسارع اليه مسارعة ، وتسرّع تسرّعاً ، وتسارع تسارعاً ، وأقبل فلان في سرعان قومه أي في أوائلهم المتسرعين . واليسروع : دويبة تكون في الرمل . وأصل الباب : السرعة .

وتقول من الحساب : حسب الحساب يحسبه حسباً ، وحسب الشيء حسباناً ، وحاسبه محاسبة ، وحساباً ، وتحاسبوا تحاسباً ، واحتسب احتساباً ، وأحسبني من العطاء إحساباً ، أي كفاني « وعطاءحساباً» (١) أي كافياً . والحسبان سهام صغار . وقيل منه « ويرسل عليها حسباناً من السماء » (٢) . وقيل عذاباً . والمحسبة وسادة من أدم . والحسبة غبرة مثل كدرة . وحسب الرجل مآثر آبائه . وأفعل ذلك بحسب ما أوليتني . وحسبي أي يكفيني « ويرزق من يشاء بغير حساب » (٣) أي بغير تضييق «والشمس والقمر بحسبان » (٤) أي قدّر لها مواقيت معلومة لايعدونها. والتحسيب : دفن الميت بحب الحجارة(٥) وأصل الباب : الحساب ، والحسبان : الظن ، لأنه كالحساب في الاعتداد به ، والعمل به على بعض الوجوه . وروي عن علي (ع) أنه قال : معناه إنه يحاسب الخلق دفعة كما يرزقهم دفعة .

قوله تعالى :

وَاذكروا اللهَ في أيامٍ مَعدُوداتٍ فَمن تَعجَّلَ في يَومَينِ فَلا

« ١ » سورة النبأ آية : ٣٦ .　　　　« ٢ » سورة الكهف آية : ٤١ .
« ٣ » سورة البقرة آية : ١١٢ .　　　　« ٤ » سورة الرحمن آية : ٥ .
« ٥ » هكذا في المطبوعة وفي لسان العرب (حسب) التحسيب دفن الميت في الحجارة .

إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى واتَّقُوا اللّهَ وَاعْلَموا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرونَ (٢٠٣) آية بلا خلاف .

المعنى :

هذا أمر من الله تعالى للمكلفين أن يذكروا الله في الأيام المعدودات : وهي أيام التشريق : ثلاثة أيام بعد النحر ، وهو قول ابن عباس ، والحسن ومالك . والأيام المعلومات : عشر ذي الحجة ، وهو قول ابن عباس أيضاً ، وذكر الفراء : أن المعلومات: هي أيام التشريق ، والمعدودات العشر . وفيه خلاف ذكرناه في اختلاف الفقهاء . وسميت معدودات لأنها قلائل ، كما قال : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة » (١) أي قليلة . والجمع بالألف والتاء يصلح للقليل والكثير ، والقليل أغلب عليه . وأنكر الزجاج ما روي في قول حسان :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما (٢)

من أنه عيب عليه ، وزعم أن الخبر موضوع ، وقال الألف والتاء يصلح للكثير قال الله تعالى : « وهم في الغرفات آمنون » (٣) وقال : « إن المتقين في جنات وعيون » (٤) وإنما احتمل هذا الجمع القليل والكثير ، لأن جمع السلامة على طريقة واحدة لا يتميز فيه قليل من كثير ، وكان القليل أغلب عليه ، لشبهه بالتثنية . والآية تدل على وجوب التكبير في هذه الأيام ، وهو أن يقولوا : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد . وبه قال الحسن والجبائي ، وزاد أصحابنا على هذا القدر : الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا ،

« ١ » سورة يوسف آية : ٢٠ .

« ٢ » ديوانه : ٦٩ . الجفنات جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة ، والغر : البيض . وهذا البيت قيل ان حسان قد فاز به في بعض السنين بسوق عكاظ وقد أعابته الخنساء في الجفنات لانها جمع قلة وفي الغر لأنه لا يدل على أن القصاعي ممتلأة طعاماً ، وعلى قوله : يقطرن ، ولم يقل يجرين .

« ٣ » سورة سبأ آية : ٣٧ . « ٤ » سورة الحجر آية : ٤٥ .

ورزقنا من بهيمة الانعام . وأول التكبير ـ عندنا ـ لمن كان بمنى ، عقيب الظهر من يوم النحر الى الفجر يوم الرابع من النحر : عقيب خمسة عشرة صلاة ، وفي الأمصار عقيب الظهر من يوم النحر الى عقيب الفجر يوم الثاني من التشريق : عقيب عشر صلوات ، واختار الجبائي من صلاة الغداة من يوم عرفة الى صلاة العصر آخر يوم التشريق . وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف .

وقوله تعالى : «فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه» . المعني في ذلك الرخصة في جواز النفر في اليوم الثاني من التشريق وإن أقام الى النفر الاخير ، وهو اليوم الثالث من التشريق ، كان أفضل ، فان نفر في الأول ، نفر بعد الزوال الى الغروب ، فان غربت فليس له أن ينفر . وقال الحسن إنما له أن ينفر بعد الزوال الى وقت العصر ، فان أدركته صلاة العصر ، فليس له أن ينفر إلا يوم الثالث وليس للامام أن ينفر في النفر الأول ، وبه قال الحسن .

وقوله تعالى : «فلا إثم عليه» قيل فيه قولان : أحدهما ـ لا إثم عليه لتكفير سيآته بما كان من حجه المبرور وهو معنى قول ابن مسعود . الثاني ـ قال الحسن : لا إثم عليه في تعجّله ولا تأخره . وإنما نفى الاثم ، لئلا يتوهم ذلك متوهم في التعجّل ، وجاء في التأخر على مزاوجة الكلام كما تقول : إن أظهرت الصدقة ، فجائز . وإن أسررتها ، فجائز ، والاسرار أفضل .

وقوله تعالى : «لمن اتقى» قيل فيه قولان : أحدهما ـ لما قال «فلا إثم عليه» دل على وعده بالثواب ، فقيد ذلك بالتقوى لله تعالى ، لئلا يتوهم أنه بالطاعة في النفر فقط . والثاني ـ أنه لا إثم عليه في تعجّله إذا لم يعمل لضرب من ضروب الفساد ، ولكن لاتباع إذن الله فيه . وقالوا : معنى تجديد الأمر بالتقوى هاهنا التحذير من الاتكال على ما سلف من أعمال البرّ في الحج ، فبين أن عليهم مع ذلك ملازمة التقوى ، ومجانبة المعاصي .

وروى أصحابنا : أن قوله «لمن اتقى» متعلق بالتعجّل في اليومين ، وتقديره «فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه» «لمن اتقى» الصيد الى انقضاء النفر الأخير

وما بقي من إحرامه ، ومن لم يتقها ، فلا يجوز له النفر في الأول ، وهو اختيار الفراء ، والمروي عن ابن عباس ، وروي عن أبي عبدالله (ع) في قوله تعالى « فمن تعجل في يومين » أي من مات في هذين اليومين ، فقد كفر عنه كل ذنب . ومن تأخر أي أنسىء أجله ، فلا إثم عليه بعدها إذا اتقى الكبائر .

الاعراب :

والعامل في اللام في قوله « لمن اتقى » قيل فيه قولان : أحدهما ـ ذلك « لمن اتقى » فحذف ذلك لأن الكلام الأول دلّ على وعدٍ للعامل . والثاني ـ أن يكون العامل معنى « لا إثم عليه » ، لأنه قد تضمن معنى جعلناه « لمن اتقى » .

اللغة :

وقوله تعالى : « واتقوا الله » معناه اجتنبوا معاصي الله ، « واعلموا أنكم إليه تحشرون » أي تحققوا أنكم بعد موتكم تردون الى الله ، فيجازيكم على أعمالكم .

تقول : حشر يحشر حشراً ، فالحشر : جمع القوم من كل ناحية الى مكان . والمحشر : مجتمعهم : وهو المكان الذي يحشرون فيه ، وحشرتهم السّنة : إذا أجحفت بهم ، لأنها تضمهم من النواحي الى المصر . وسهم حشر : خفيف لطيف ، لأنه ضامر باجتماعه . ومنه أذن حشره : لطيفة ضامرة . وحشرات الأرض : دوابها الصغار ، والواحدة حشرة ، لاجتماعها من كل ناحية . ودابّة حشور : إذا كان ملزّزة الخلق شديدة . ورجل حشور : إذا كان عظيم البطن . وحشرت السنان ، فهو محشور : إذا رققته وألطفته . وأصل الباب الاجتماع .

قوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعجِبُكَ قَولُهُ فِي الحَياةِ الدُّنيا وَيُشهِدُ اللهَ عَلى ما في قَلبِهِ وَهوَ أَلَدُّ الخِصامِ (٢٠٤) آية واحدة .

قال الحسن : المعني بهذه الآية المنافق . وقال قوم : المعني : بها المرائي . وقيل:

إنها نزلت في الأخنس بن شريق ذكره السدي وغيره .

اللغة :

والاعجاب هو السرور بالشيء سرور العجب بما يستحسن . ومنه العجب بالنفس، والسرور بها سرور العجب من الشيء استحسانا له ، وذلك إذا تعجب من شدة حسنه . وتقول : عجب عجباً ، وتعجب تعجباً ، وعجبه تعجيباً ، وأعجبه إعجاباً ، واستعجب استعجاباً أي اشتد تعجبه . والعجاب : العجيب ، وأعجبني هذا : إذا كان حسناً جداً . والمعجب بنفسه أو بالشيء معروف . وقال الأزهري : العجب كل شي غير مألوف ، وعجب الذنب : العظم الذي ينبت عليه شعر الذنب في المعز ، ورأيت أعجوبة وأعاجيب . وأصل الباب العجب .

وقوله تعالى : « في الحياة الدنيا » أي وقت الحياة الدنيا فالحيّ هو من لا يستحيل ، وهو على ماهو عليه أن يكون عالماً قادراً .

وقوله : « ويشهد الله على ما في قلبه » فأصل الاشهاد : هو الاقرار بالشيء ليشهد به المقر عنده . والمراد في الآية : من يقرّ بالحق ، ويقول : ألاهم اشهد عليّ ، وضميره على خلافه .

وقوله تعالى : « وهو ألدّ الخصام » يقال لدّه يلدّه لدّاً : إذا غلبه في الخصومة ، ولدّه يلدّه : إذا أوجره في أحد خقي فمه . ولدّت تلدّ لدّاً وهو شدة الخصومة . وجانبا كل شيء لديداه ، فمنه لديدي الوادي . ولديدي العنق : صفحتاه . ولدّه عن كذا : إذا حبسه . والتلدّد : التلفت عن تحير وأصل الباب اللديد : الجانب .

والخصام : هو المخاصمة . تقول : خاصمه يخاصمه مخاصمة ، وخصاماً ، وتخاصماً ، واختصما اختصاماً ، واستخصمهم استخصاماً . والخُصم طرف الراوية الذي بحيال العزلاء (١) من مأخرها ، وطرفها الأعلى وهو العصم . والأخصام من

« ١ » في المطبوعة « الراية الذي بحبال العولاء » وهو تصحيف .

كل شيء جوانبه ، كجوانب الخوالق الذي فيه العرى ، يحمل به . وأصل الباب الخصومة .

المعنى :

ومعنى « ألدّ » في الآية : هو الشديد الجدل بالخصومة الى ما يريد ، قال الشاعر :

ثم أردّي وبهم من تُردي تلدّ أقران الخصوم اللدّ (١)

وقال الزجاج : الخصام جمع خصم . والمعنى هو أشد المخاصمين خصومة . وقال غيره : هو مصدر . ومعنى الآية أنه تعالى وصف المنافقين ، فقال : « ومن الناس من يعجبك » يا محمد « قوله » في الظاهر ، وباطنه بخلافه « ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام » جدل مبطل .

ومن قرأ « ويشهد الله » ـ بفتح الياء ـ معناه أنه تعالى يشهد عليه بنفاقه ، وإظهاره خلاف ما يبطن . والقراءة العامة هي الأولى .

قوله تعالى :

وإذا تَوَلَّى سَعى في الأَرْضِ لِيُفسِدَ فِيها وَيُهلِكَ الحَرْثَ والنَّسلَ واللهُ لا يُحِبُّ الفَسادَ (٢٠٥) آية واحدة .

في قوله تعالى : « وإذا تولى » ضمير عمن تقدم ذكره وهو « من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » والتولّي : هو الانحراف ، والزوال عن الشيء الى خلاف جهته . والسعي هو الاسراع في المشي وقيل : إنه العمل ، وقال الاعشى :

وسعى لكندة غير سعي مواكل قيسٌ فضرّ عدوّها وبنى لها (٢)

« ١ » معاني القرآن للفراء ١ : ١٢٣ قدم البيت الثاني على الأول ، واللسان « لدد » ذكر البيت الثاني فقط . ورواية اللسان « ألد » بدل « تلد » . ورواية معاني القرآن :

ألد أقران الرجال اللد

وفي تفسير الطبري ٤ : ٢٣٥ كالذي ذكره الشيخ سواء .

« ٢ » ديوانه : ٣١ . رقم القصيدة : ٣ .

أي عمل لها . وقوله : « في الأرض » دخلت الألف واللام في الأرض ، لتعريف الجنس ، لأن الأرض وإن كانت واحدة بعينها فلو خلق الله مثلها ، لكانت أرضاً ، كما أن الشمس ، والقمر كذلك ، وفارق ذلك زيداً وعمراً - في أسماء الأعلام - وامتناع دخول الألف واللام عليهما ، لأن الله تعالى لو خلق مثل زيد لم يجب أن يكون زيداً ، على أن الأرضين السبعة كما قال تعالى : « خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » (١) فعلى هذا لا يتوجه السؤال .

والافساد : هو عمل الضرر بغير استحقاق ، ولا وجه من وجوه المصلحة .

والاهلاك : العمل الذي ينفي الانتفاع .

وقوله : « ليفسد فيها » نصب باضمار (أن) ويجوز إظهارها ، فتقول : لأن يفسد فيها ، ولا يجوز إظهارها في قوله : « ما كان الله ليذر المؤمنين » (٢) . وإنما جاز حذفها في « ليفسد » لدلالة الكلام عليها مع كونها في حروف الاضافة حتى حذفت في قولهم : غلام زيد ، وما أشبهه مع كثرته في الكلام ، وجاز إظهارها، لأنه الأصل من غير مانع في الاستعمال ، وإنما امتنع في قوله : « ليذر » لما يرجع الى المعنى ، لأن معناه كمعنى (ما كان زيد ليفعل) أي ما كان فاعلا ، فلما تضمن غير المعنى الذي توجبه صورته لم يتصرف في لفظه ، ولأنه لما كان محمولا على تأويل معنى لم يذكر ، حمل أيضاً على تأويل لفظ لم يذكر . والفرق بين دخول اللام فيها أن اللام دخلت في « ليفسد » على إضافة السعي الى الفساد ، على أصل الاضافة في الكلام . ودخولها في « ليذر » فانما هو لتأكيد النفي بتحقيق تعلقه بالخبر كما دخلت الباء في (ليس زيد بقائم) ، لأن النفي لما كان للخبر وولي حرف النفي الاسم ، دخلت الباء ، لتدل على اتصاله في المعنى بحرف النفي .

اللغة :

والحرث : الزرع . والنسل : العقب من الولد . وقال الضحاك : الحرث : كل

« ١ » سورة الطلاق آية : ١٢ .

« ٢ » سورة آل عمران آية : ١٧٩ .

نبات ، والنسل : كل ذات . ويقال : نسل ينسل نسولاً : إذا خرج ، فسقط . ومنه نسل وبر البعير أو شعر الحمار أو ريش الطائر . والنسالة : قطعة من الوبر ، قال الله تعالى : « الى ربهم ينسلون » (١) أي يسرعون ، لأنه إسراع الخروج بحدة . والنسل : الولد ، ما نسل بعضه من بعض . والناس نسل آدم ، لخروجهم من ظهره . والنسل والنسلان : عدو من عدو الذئب فيه اضطراب . والنسيلة : فتيلة السراج ، وأصل الباب النسول : الخروج . وحكى الزجاج : أن الحرث : الرجال ، والنسل : الأولاد . وذكر الأزهري : أن الحرث : النساء ، والنسل الأولاد ، لقوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » (٢) .

المعنى :

وقوله تعالى : « والله لا يحب الفساد » يدل على فساد قول المجبرة : إن الله تعالى يريد القبائح ، لأن الله تعالى نفى عن نفسه محبة الفساد . والمحبة هي الارادة ، لأن كل ما أحب الله أن يكون ، فقد أراد أن يكون ، وما لا يحب أن يكون لا يريد أن يكون . ومعنى الآية : إذا خرج هذا المنافق من عندك يا محمد غضبان ، عمل في الأرض بما حرم الله عليه وحاول معصيته ، وقطع الطريق ، وأفسد النسل ، والحرث على عباده . « والله لا يحب الفساد » .

قوله تعالى :

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) آية بلا خلاف .

المعنى :

قيل في المعنى بهذه الآية قولان : أحدهما ـ قال ابن عباس : إنه كل منافق . والثاني ـ قال السدي : إنه الأخنس بن شريق ، والاتقاء طلب السلامة بما يحجز

« ١ » سورة يس آية : ٥١ .

« ٢ » سورة البقرة آية ٢٢٣ .

من المخافة ، واتقاء الله إنما هو اتقاء عذابه .

وقوله : « أخذته العزة » قيل في معناه قولان : أحدهما - قال الحسن أخذته العزة الى الاثم ، كما تقول : أخذت فلانـاً (١) بأن يفعل : أي دعوته الى أن يفعل (٢) .

ومعنى قوله : « وإذا قيل له اتقي الله أخذتـه العزة بالاثم » هو الاشعار بالدليل على نفاقه ، لفضيحته بذلك عند المؤمنين - على ما قاله قتادة - ، ويجوز أن يكون الذمّ له على تلك الحال القبيحة .

وقوله : « ولبئس المهاد » الوطأ . فان قيل : كيف قيل لجهنم مهاد . قلنا عنه جوابان :

أحدهما - قال الحسن : معناه القرار هاهنا ، والقرار كالوطأ في الثبوت عليه .

الثاني - لأنها بدل من المهاد كما قال تعالى : «فبشرهم بعذاب أليم» (٣) لأنه موضع البشرى بالنعيم على جهة البدل منه .

اللغة :

والمهاد في اللغة : الوطأ من كل شيء تقول : مهدت الفراش تمهيداً ، وكل شيء وطأته فقد مهدته ، وتمهد الشيء : إذا يوطأ ، وكذلك امتهد امتهاداً ، ومهد الصبي معروف ، وجمع المهاد ، مُهد ، وثلاثة أمهدة « والأرض مهاداً » (٤) لأجل التوطأة للنوم ، والقيام عليها ، وأصل الباب التوطأة .

والأخذ : ضد الاعطاء . والعزة : القوة التي يمتنع بها من الذلة .

المعنى :

فمعنى الآية : أن هذا المنافق الذي نعتّه لك بأنه يعجبك قوله في الحياة الدنيا

« ١ » في المطبوعة « قد كنا » وهو تصحيف .

« ٢ » ذكر قولا واحداً ولم يذكر الثاني وفي مجمع البيان ذكر القولين ونقل القول الثاني عن الحسن ، وأطلق هذا ولم يذكر قائله ، راجع صفحة : ٣٠١ من مجمع البيان طبع صيدا .

« ٣ » سورة آل عمران آية ٢١ .　　« ٤ » سورة النبأ آية : ٦ .

« إذا قيل له اتق الله » في سعيك في الأرض بالفساد وإهلاك الحرث والنسل ، دخلته عزة وحمية ، فقال تعالى : فكفاه عقوبة من ضلاله أن يصلى نار جهنم ، فانها بئس المهاد لمن يصلاها .

قوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشري نَفسهُ ابْتغاءَ مَرْضاتِ اللهِ واللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (٢٠٧) آية بلا خلاف .

النزول :

قال قتادة : نزلت هذه الآية في المهاجرين والأنصار . وقال عكرمة : نزلت في أبي ذرّ الغفاري : جندب بن السكن ، وصهيب بن سهان ، لأن أهل أبي ذر أخذوا أبا ذر ، فانفلت منهم ، فقدم على النبي (ص) ، فلما رجع مهاجراً عرضوا له ، وكان بمر الظهران ، فانفلت أيضاً منهم حتى قدم النبي (ص) ، فلما رجع مهاجراً عرضوا له ، فانفلت حتى نزل على النبي (ص) . فأما صهيب ، فانه أخذه المشركون من أهله فافتدى منهم بماله ثم خرج مهاجراً ، فأدركه منقذ بن ظريف بن خدعان ، فخرج له مما بقي من ماله ، وخلّى سبيله .

وروي عن أبي جعفر (ع) أنه قال : نزلت في علي (ع) حين بات على فراش رسول الله (ص) لما أرادت قريش قتله ، حتى خرج رسول الله (ص) وفات المشركين أغراضهم ، وبه قال عمر بن شبه .

المعنى :

وروي عن علي (ع) ، وابن عباس : أن المراد بالآية : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وقال الحسن : هي عامة في كل من يبيع نفسه لله بأن يقيم نفسه في جهاد عدوّه ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر وغير ذلك مما أمر الله به ، وتوعّد على خلافه .

وقوله تعالى: « يشري نفسه » معناه يبيع نفسه، وقد بينا فيما مضى أن الشراء يكون بمعنى البيع، كما قال: « وشروه بثمن بخس » (١) أي باعوه وقال الشاعر: (٢)

وشريت برداً ليتني　　　من بعد برد كنت هامه (٣)

أي بعت. والشراء استبدال العوض بالثمن. وشرى باع واشترى ابتاع. وشرا هاهنا مجاز، لأن أصله في الأثمان من العين، والورق، لذلك لا يقال: باع متاعه إذا تصدق به، لأن الأظهر إذا أطلق أنه باعه بالثمن.

وقوله تعالى: « ابتغاء مرضات الله » معناه طلب مرضات الله، ومثله « حذر الموت » (٤) قال الشاعر: (٥)

وأغفرُ عوراءَ الكريم ادّخاره　　　وأعرض عن شتم اللئيم تكرما (٦)

ولا يجوز قياساً على ذلك فعله زيداً أي لزيد. ويجوز فعله خوفاً، لأن في ذكر المصدر دليلا على العرض الداعي الى الفعل، وليس كذلك ذكر زيد، والمرضاة والرضى واحد وهو ضد السخط.

قوله تعالى: « والله رؤف بالعباد » قد بينا فيما مضى معنى الرؤف، والخلاف فيه، ومعناه ذو رحمة واسعة بعبده الذي شرى نفسه له في جهاد من جاهد في أمره من أهل الشرك، والفسوق. وإنما ذكر الرؤوف بالعباد هنا للدلالة على أنه انما رغّب العبد في بيع نفسه بالجهاد في نفسه رأفة به، وحسن نظر له، ليبتليه من الثواب المستحق على عمله ما لا يجوز أن يصل إليه في جلالته إلا بتلك المنزلة.

« ١ » سورة يوسف آية: ٢٠.

« ٢ » هو يزيد بن مفرغ الحميري.

« ٣ » مر تخريجه في ١: ٣٤٨. وروايته هناك « من قبل » بدل « من بعد » والبيت مروي بالوجهين.

« ٤ » سورة البقرة آية: ١٩.

« ٥ » هو حاتم.

« ٦ » ديوانه: ٢٤، ونوادر أبي زيد: ١١، والخزانة ١: ٤٩١. وغيرها وفي البيت اختلاف كثير في الرواية، والشاهد فيه عندهم نصب « ادخاره » على أنه مفعول له.

قوله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين (٢٠٨) آية واحدة .

القراءة :

قرأ أهل الحجاز ، والكسائي « السلم » ـ بفتح السين ـ . الباقون ـ بكسرها ـ

اللغة :

قال الأخفش : السلم ـ بكسر السين ـ : الصلح ، وبفتحها ، وفتح اللام : الاستسلام . وقال الزجاج : السلم جميع شرائعه . ويقال : السلم ، والسلم معناها الاسلام ، والصلح . وفيه ثلاث لغات : كسر السين ، وفتحها مع تسكين اللام ، وفتحها . وقال أبو عبيدة : السلم ـ بكسر السين ـ والاسلام واحد ، وهو في موضع آخر المسالمة ، والصلح .

المعنى :

وقال ابن عباس ، والسدي ، والضحاك ، ومجاهد : معنى السلم هاهنا الاسلام ، وبه قال قتادة . وقال الربيع : معناه ادخلوا في الطاعة ، وهو اختيار البلخي قال : لأن الخطاب للمؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » واختار الطبري الوجه الأول ، والأمران جميعاً عندنا جائزان محتملان ، وحملها على الطاعة أعم ، ويدخل فيه ما رواه أصحابنا من أن المراد به الدخول في الولاية ، قال أبو علي : من قرأ بفتح السين ، ذهب إلى أن معناه : المسالمة ، والصلح ، وترك الحرب باعطاء الجزية . ومن كسرها ، اختلفوا منهم من حمله على الاسلام ، ومنهم من حمله على الصلح أيضاً .

اللغة :

وقوله تعالى : « كافة » معناه جميعاً ، وهو نصب على الحال من ضمير المؤمنين . وقيل من حال السلم ، واشتقاقه في اللغة مما يكف الشيء في آخره ، من ذلك كفة القميص ، يقال لحاشية القميص : كفة . وكل مستطيل ، لحرفه كفة . ويقال في كل مستدير : كفة ، نحو كفة الميزان . وإنما سميت كفة الثوب ، لأنها تمنعه أن ينتشر . وأصل الكف : المنع ، ومنه قيل لطرف اليد : كف ، لأنها يكف بها عن سائر البدن : وهي الراحة مع الأصابع ، ومن هذا قيل : رجل مكفوف أي قد كف بصره أن يبصر ، وكفّ من الشيء يكف كفاً : اذا انقبض عنه . وكل شيء جمعته ، فقد كففته . واستكفّ السائل : إذا بسط كفه يسأل . واستكف القوم بالشيء : إذا أحدقوا به . وتكفف السائل : اذا مدّ كفه للسؤال . ولقيته كفة لكفة : إذا لقيته مفاجأة . والمكفوف : الأعمى . والكفف : دارات الوسم . والكفة : مايصاد به الظباء : كالطوق .

المعنى :

فمعنى الآية على هذا : ابلغوا في الاسلام إلى حيث تنتهي شرائعه ، فتكفوا من أن تعدوا شرائعه . وادخلوا كلكم حتى يكف عن عدد واحد لم يدخل فيه . وقيل : معنى الآية : أن قوماً من اليهود أسلموا وأقاموا على تحريم السبت ، وتحريم لحم الابل ، فأمرهم الله تعالى أن يدخلوا في جميع شرائع الاسلام . وقال بعض أهل اللغة : جائز أن يكون أمرهم وهم مؤمنون أن يدخلوا في الايمان : أي يقيموا على الايمان كما قال: « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله رسوله »(١) وكلا القولين جائز .

وقوله « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » أي لا تتبعوا آثاره ، لأن تركَكم شيئاً من شرائع الاسلام اتباع الشيطان . وخطوات : جمع خطوة وفيها ثلاث لغات : خطوات ـ بضم الطاء ، وفتحها ، واسكانها .

« ١ » سورة النساء آية : ١٣٥ .

وقوله تعالى : « إنه لكم عدو مبين » عداوته للمؤمنين . وإبانة عداوته لنا هو أن يدعوها لمن يراه من الملائكة ، والجن ، ونحن وإن لم نشاهده ، فقد علمنا معاداته لنا ، ودعاءه إيانا الى المعاصي ، فجاز أن يسمى ذلك إبانة . وقال الجبائي : أبان عداوته لآدم والملائكة (ع) ، فكان بذلك مبيناً لعداوته إيانا .

قوله تعالى :

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ البَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) آية واحدة .

المعنى واللغة :

أنزل الله تعالى هذه الآية ، وقد علم أنه سيزل الزالّون من الناس ، فتقدم في ذلك ، وأوعد فيه ، لكي تكون الحجة على خلقه . يقال : زلّ يزل زلاً ، وزللاً ، ومزلاً ، وزلولاً . ومعنى الآية « فان زللتم » بمعنى تنحيتم عن القصد ، والشرائع ، وتركتم ما أنتم عليه من الدين « من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز » في نعمته « حكيم » في أمره ، لا تعجزونه ، وحكيم فيما شرع لكم من دينه ، وفطركم عليه ، وفيما يفعل بكم من عقوبة على معاصيكم إياه بعد إقامة الحجة عليكم . وذكر جماعة من أهل التأويل : أن « البينات » هم محمد (ص) والقرآن ، ذهب اليه السدي ، وابن جريج ، وغيرهما . وقيل : زلّ في الآية : مجاز تشبيهاً بمن زلّ عن قصد الطريق ، وحقيقته : عصيتم الله فيما أمركم به أو نهاكم عنه . والأولى أن يكون ذلك حقيقة بالعرف .

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة : أن الله يريد القبيح ، لأنه لو أراده لما صح وصفه بأنه حكيم . فان قيل : سواء زلّ العباد أو لم يزلوا ، وجب أن يعلم أن الله عزيز حكيم فما معنى الشرط ؟ قيل ، لأن معنى « عزيز » هو القادر الذي لا يجوز عليه المنع من عقابكم « حكيم » في عقوبته إياكم ، فكأنه قال : فاعلموا أن العقاب واقع بكم لا محالة ، لأنه عزيز لا يجوز أن يحول بينه وبين عقوبتكم حائل ،

ولم يمنعه مانع « حكيم » في عقوبته إياكم ، وذلك أن حري لهم وصفه بأنه عزيز أنه قدير لا يمنع ، لأنه قادر لنفسه . و « حكيم » معناه عليم بتدبير الأمور . ويقال : « حكيم » في أفعاله بمعنى محكم لها وأصل العزة الامتناع ، ومنه أرض عزاز : إذا كانت ممتنعة بالشدة وأصل الحكمة المنع من قول الشاعر :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم   إني أخاف عليكم أن أغضبا (١)

ومنه حكمة الدابة

قوله تعالى :

هَلْ يَنظُرونَ إلاَّ أنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ وَالملائكةُ وقُضيَ الأمْرُ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمورُ (٢١٠) آية واحدة .

القراءة :

قرأ أبو جعفر « والملائكة » بالخفض . الباقون بضمها . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي « ترجع الأمور » بفتح التاء . الباقون بضمها .

المعنى :

الظلل : جمع ظلة . ومعنى الآية أن يأتيهم عذاب الله ، وما توعدهم به على معصيته ، كما قال : « فآتاهم اللهمن حيث لم يحتسبوا » (٢) أي آتاهم خذلانه إياهم . والمختار عند أهل اللغة الرفع في « الملائكة » عطفاً على الله ، كأنه قال : وتأتيهم الملائكة . ومن كسر عطف على ظلل ، وتقديره في ظلل من الغمام ، وظلل من الملائكة .

وقوله : « وقضى الأمر » أي فزع لهم مما كانوا يوعدون به .

« ١ » قائله جرير ، ديوانه ١: ٢٣ ، واللسان « حكم » .

« ٢ » سورة الحشر آية : ٢ .

وقوله : « والى الله ترجع الأمور » لا يدلّ على أن الأمور ليست إليه الآن وفي كل وقت . ومعنى الآية الاعلام في أمر الحساب ، والثواب ، والعقاب أي إليه ، فيعذب من يشاء ، ويرحم من يشاء ، فلا حاكم سواه . ويحتمل أن يكون المراد : أنه لا أحد ممن يملك في دار الدنيا إلا ويزول ملكه ذلك اليوم .

وشبهت الأهوال بالظلل من الغمام ، كما قال : « موج كالظلل » (١) ومعنى الآية : ما ينظرون ـ يعني المكذبين بآيات الله ـ محمداً وما جاء به من القرآن والآيات إلا أن يأتيهم أمر الله وعذابه « في ظلل من الغمام والملائكة » ، فهل بمعنى (ما) ، كما يقول القائل : هل يطالب بمثل هذا إلا متعنّت أي ما يطالب . وينظرون ـ في الآية ـ بمعنى ينتظرون . وقد يقال : أتى وجاء فيما لا يجوز عليه المجيء ، والذهاب ، يقولون أتاني وعيد فلان ، وكلام فلان ، وكل ذلك لا يراد به الاتيان الحقيقي قال الشاعر :

أتاني كلام من نصيب يقوله ... وماخفت ياسلاّم أنك عائبي (٢)

وقال آخر :

أتاني أصرهم وهم بعيد ... بلادهم بلاد الخيزران (٣)

فكأن المعنى في الآية : إن الناس في الدنيا يعتصم بعضهم ببعض ، ويفزع بعضهم الى بعض في الكفر والعصيان ، فاذا كان يوم القيامة انكشف الغطاء ، وأيقن الشاك ، وأقرّ الجاحد ، وعلم الجاهل ، فلم يعصم أحد من الله أحداً ، ولم يكن له من دون الله ناصر ، ولا من عذابه دافع ، وعلم الجميع أن الأمر كله لله .

قوله تعالى :

سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢١١) آية واحدة .

« ١ » سورة لقمان آية : ٣٢ .

« ٢ » البيت في نوادر أبي زيد : ٤٦ ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ١٤٦ .

« ٣ » البيت للنابغة الجعدي اللسان (خزر) في المطبوعة (بارض) بدل (بلاد) .

القراءة :

أهل الحجاز يقولون : سل بغير همز . وبعض بني تميم يقولون : اسأل بالهمز ، وبعضهم يقولون : اسل بالالف وطرح الهمز ـ والأولى أحسنها لأنها خط المصحف .

المعنى :

وفي الآية تنبيه وتقريع للكفار من بني إسرائيل ، ونظيره قول الرجل في صاحبه إذا فزّعه وربحه وأراد أن يلزمه الحجة ، ويبين عن كفرانه للنعمة ليوقع به العقوبة ـ لمن بحضرته ـ : سله كم أعددت له وحذرته .

والآيات البينات ماذكرها الله تعالى : من قلب عصا موسى حية ، ويده البيضاء ، وفلقه البحر ، وتغريق عدوهم من فرعون وأصحابه ، وتظليله عليهم الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وذلك من آيات الله التي أتى بها بني اسرائيل ، فخالفوا جميع ذلك ، وقتلوا أنبياءه ، ورسله ، وبدّلوا عهده ، ووصيته إليهم .

وقوله : « ومن يبدّل نعمة الله » معناه : يغير يعني بها الاسلام ، وما فرض فيه من شرائع دينه بعد ما عهد إليه وأمره به من الدخول في الاسلام ، والعمل بشرائعه ، فيكفر به ، فانه يعاقبه بما أوعده على الكفر به من العقوبة « والله شديد العقاب » . وقال الزجاج فيه حذف وتقديره شديد العقاب له ، ويجوز أن يكون معناه : شديد العقاب لكل من يستحقه ، فيدخل فيه هذا المذكور ، فأما أن يكون على معنى شديد العقاب لغيره ، فلا يجوز إذا لم يكن المذكور مدخل فيه . وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة : من أنه ليس لله على الكافر نعمة ، لأنه حكم عليهم بتبديل نعم الله ، كما قال : « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون »(١) وقال : « بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار » (٢) .

« ١ » سورة النحل آية : ٨٣ .

« ٢ » سورة ابراهيم آية ; ٢٨ .

قوله تعالى :

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحياةُ الدُّنيا وَيَسخَرُونَ مِنَ الَّذينَ آمَنُوا والَّذينَ اتَّقَوْا فَوْقَهم يَومَ القِيامةِ واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيرِ حِسابٍ (٢١٢) آية واحدة .

المعنى :

إنما ترك التأنيث في قوله زيّن والفعل فيها مسند الى الحياة وهي المرتفعة به ، لأنها لم يسم فاعلها لشيئين :

أحدها ـ أن تأنيث الحياة ليس بحقيقي ، وما لا يكون تأنيثه حقيقياً ، جاز تذكيره ، كقوله تعالى : « فمن جاءه موعظة من ربه » (١) وقوله : « قد جاءكم بصائر » (٢) « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » (٣) .

والثاني ـ أنه لما فصل بين الفعل والفاعل بغيره ، جاز ترك التأنيث ، وقد ورد ذلك في التأنيث الحقيقي ، وهو قولهم حضر القاضي اليوم إمرأة ، فاذا جاز ذلك في التأنيث الحقيقي ، ففيما ليس بحقيقي ، أجوز ، وقد قيل : إنما ترك التأنيث في هذا الموضع ، لأنه قصد بها المصادر ، فترك لذلك التأنيث . وقيل في معنى تزيين الحياة الدنيا قولان :

أحدها ـ قال الحسن ، والجبائي ، وغيرهما ـ أن المزين لهم إبليس وجنوده ، لانهم الذين يغوون ، ويقوّون دواعيه ، ويحسنون فعل القبيح ، والاخلال بالواجب ويسوّفون لهم التوبة ، فأما الله تعالى ، فلا يجوز أن يكون المزين له ، لأنه زهّد فيها ، فأعلم أنها متاع الغرور ، وتوعّد على ارتكاب القبائح فيها .

والقول الثاني ـ إن الله تعالى خلق فيها الأشياء المعجبة ، فنظر إليها الذين كفروا بأكثر من مقدارها ، كما قال : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين

« ١ » سورة البقرة آية : ٢٧٥ . « ٢ » سورة الانعام آية : ١٠٤ .
« ٣ » سورة هود آية : ٦٧ .

والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث » (١) وإنما أراد بذلك ما جبل الخلق عليه من الميل الى هذه الاشياء ، لا أنه حسن جميعها ، ولم يقبح شيئاً منها ، وكلاهما جائزان حسنان .

والتزيين ، والتحسين واحد ، والزين : خلاف الشين ، والزينة : اسم جامع لكل ما يتزين به ، وهذا أمر زاين له أي مزين له .

وقوله : « ويسخرون من الذين آمنوا » معناه : أن قوماً من المشركين كانوا يسخرون من قوم من المسلمين ، لأن حالهم في ذات اليد كانت قليلة ، فأعلم الله تعالى : أن الذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ، لأن المسلمين في عليين ، والفجار في الجحيم ، كما قال تعالى : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » (٢) ثم أخبر عن المؤمنين أنهم يضحكون منهم -في الآخرة - ، فقال : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » (٣) .

وقوله : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » قيل فيه خمسة أقوال :

أحدها - أن معناه : أنه يعطيهم الكثير الواسع الذي لا يدخله الحساب من كثرته .

الثاني - أنه ليس يرزق المؤمن على قدر إيمانه ، ولا الكافر على قدر كفره في الدنيا ، ولكن الرزق في الآخرة على قدر العمل ، وما يتفضل الله به ، ويضاعف به عن رجل على المؤمنين ما يشاء من فضله زيادة على كفايته .

الثالث - أنه يعطي عطاء لا يأخذه بذلك أحد ، ولا يسأله عنه سائل ، ولا يطالب عليه بجزاء ، ولا مكافاة ، ولا يثبت ذكره مخافة الاعدام ، والاقلال ، لأن عطيته ليست من أصل ينقص ، بل خزائنه لا تفنى ، ولا تنفد (جل الله تعالى) .

والرابع - قال قطرب معناه : أنه يعطي العدد من الشيء ، لا مما يضبط بالحساب ، ولا يأتي عليه العدد ، لأن ما يقدر عليه غير متناه ، ولا محصور ، فهو

« ١ » سورة آل عمران آية : ١٤ « ٢ » سورة المطففين آية : ٢٩ .

« ٣ » سورة المطففين آية : ٣٤ .

يعطى الشيء لا من عدد أكثر منه ولا ينقص منه كالمعطى من الآدميين الألف من الألفين والعشرة من المأة .

والخامس ـ قال بعضهم : إنما عنى بذلك إعطاء أهل الجنة ، لأن الله تعالى يعطيهم ما لا يتناهى ، ولا يأتي عليه الحساب ، فكل ذلك حسن جائز ، وإنما قال : « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » ولا فضل للكفار في الآخرة لأمرين :

أحدهما ـ أن أحوالهم في الآخرة فوق حال هؤلاء الكفار في الدنيا .

والثاني ـ أن يكون محمولا على قوله تعالى « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً » (١) وكما قال حسان يعني رسول الله وأبا جهل .

فشركما لخيركما الفداء (٢)

ومعنى « يسخرون من الذين آمنوا » أي يهزؤن بهم في زهدهم في الدنيا ، لأنهم يوهمهم أنهم على حق ، ويفهم عنهم أن اعتقادهم بخلاف ذلك .

قوله تعالى :

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ أبو جعفر المدني « ليحكم » ـ بضم الياء ـ الباقون بفتحها .

« ١ » سورة الفرقان آية : ٢٤ .

« ٢ » انظر ١ : ١٠١ من هذا الكتاب

المعنى :

معنى قوله : « كان الناس أمة واحدة » أهل ملة واحدة كما قال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة　　وهل يأثمن ذو أمّة وهو طائع (١)

أي ذو ملة ودين . وأصل الأمة الأمّ من قولك : أمّ يؤم أمّاً : إذا قصده . وهي على أربعة أوجه :

فالأمة : الملة ، والأمة : الجماعة ، والأمة : المنفرد بالمقابلة ، والأمة : القابلة .

واختلفوا في الدين الذي كانوا عليه ، فقال ابن عباس ، والحسن ، واختاره الجبائي : إنهم كانوا على الكفر . وقال قتادة ، والضحاك : كانوا على الحق ، فاختلفوا . فان قيل : إذا كان الزمان لا يخلوا من حجة كيف يجوز أن يجتمعوا كلهم على الكفر ، قلنا : يجوز أن يقال ذلك على التغليب لأن الحجة إذا كان واحداً أو جماعة يسيرة ، لا يظهرون خوفاً وتقية ، فيكون ظاهر الناس كلهم الكفر بالله ، فلذلك جاز الاخبار به على الغالب من الحال ، ولا يعتد بالعدة القليلة .

وقوله : « وأنزل معهم الكتاب بالحق » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ بما فيه من البيان عن الحق من الباطل . الثاني ـ أن معناه : بأنه حق للاستصلاح به على ما توجبه الحكمة فيه .

وقوله : « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » فحقيقته ، ليحكم منزل الكتاب ، لأن الله هو الحاكم بما أنزل فيه ، فهو مجاز ـ في قول الجبائي ـ قال : إلا أنه جعل اللفظ على الكتاب تفخيماً له ، لما فيه من البيان . ويجوز أن يكون في يحكم ضمير اسم الله ، فيكون حقيقة . ومن ضم الياء قراءته لا شبهة فيها . والمعنى ليحكم الناس أو العلماء بما فيه من الحق .

وقوله تعالى : « وما اختلف فيه » الهاء عائدة على الحق . وقيل على الكتاب . والأول أصح ، لأن اختلافهم في الحق قبل إنزال الكتاب . فان قيل : إذا كانوا مختلفين على إصابة بعضهم له ، فكيف يكون الكفر عمهم به ؟ قلنا : لا يمتنع

« ١ » ديوانه : ٤٠ ، واللسان (أمم) من قصيدته في اعتذاره للنعمان .

أن يكون الكل كفاراً ، وبعضهم يكفر من جهة الغلوّ ، وبعضهم من جهة التقصير كما كفرت اليهود ، والنصارى في عيسى (ع) ، فقالت النصارى : هو ربّ ، فغالوا . وقصّرت اليهود ، فقالوا : كذاب متخرص . فان قيل : كيف يكون الكل كفاراً مع قوله : «فهدى الله الذين آمنوا» ؟ قلنا : لا يمتنع أن يكونوا كلهم كانوا كفاراً ، فلما بعث الله اليهم بالأنبياء مبشرين ، ومنذرين اختلفوا ، فآمن قوم ، ولم يؤمن آخرون .

وروي عن أبي جعفر (ع) أنه قال : كانوا قبل نوح أمة واحدة على فطرة الله ، لا مهتدين ، ولا ضلالاً ، فبعث الله النبيين .

الاعراب :

وقوله تعالى : « بغياً بينهم » نصب على المفعول له ، كأنه قال للبغي بينهم ـ على قول الأخفش ، والزجاج ـ . وقال بعضهم : الاستثناء متعلق بثلاثة أشياء ، كأنه قال : « وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه » ، ما اختلفوا فيه إلا من بعد ما جاءتهم البينات ، ما اختلفوا فيه إلا بغياً بينهم . إلا أنه حذف الثاني لدلالة الأول عليه . قال الرماني : والصحيح الأول ، لأنه لا يحكم بالحذف مع استقامة الكلام من غير حذف إلا لعذر .

المعنى :

وقوله : « فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه » معناه : هداهم للحق ، وهو الذي اختلفوا فيه . وقيل في معنى باذنه قولان :

أحدها ـ بلطفه ، ولابد من محذوف على هذا التأويل ، أي فاهتدوا باذنه ، لأن الله عز وجل ، لا يفعل الشيء باذن أحد يأذن له فيه ، ولكن قد يجوز أن يكون على جهة التفسير للهدى ، كأنه قال : هداهم بأن لطف لهم ، وهداهم بأن أذن لهم . وقال الجبائي : لابد من أن يكون على حذف (فاهتدوا) باذنه .

والقول الثاني ـ هداهم بالحق بعلمه ، والاذن بمعنى العلم معروف في اللغة قال

الحارث بن حلزّة :

آذنتنا ببينها أسماء (١)

أي أعلمتنا . وهو قول الزجاج ، وغيره من أهل اللغة . فإن قيل : إذا كانوا إنما هدوا للحق من الاختلاف فلم قيل : للاختلاف من الحق ؟ قيل : لأنه لما كانت العناية بذكر الاختلاف ، كان أولى بالتقديم ، ثم تفسيره بـ (من) . وقال الفراء هو من المقلوب نحو قول الشاعر :

كانت فريضة ما تقول كما   كان الزناء فريضة الرجم (٢)

وإنما الرجم فريضة الزنا . وكما قال الآخر :

إن سراجاً لكريم مفخرة   تحلى به العين إذا ما تجره (٣)

وإنما يحلى هو بالعين . قال غيره إنما يجوز القلب في الشعر للضرورة . ووجه الكلام على ما بيناه واضح . فان قيل : ما الهدى الذي اختص به من يشاء ؟ قيل فيه ثلاثة أقوال : قال الجبائي : اختص به المكلفين دون غيرهم ممن لا يحتمل التكليف ، وهو البيان ، والدلالة والثاني ـ قال : ويجوز أن يكون هداهم على طريق الجنة ، ويكون للمؤمنين خاصة . وقال ابن الأخشاد ، والبلخي : يجوز أن يكون هداهم باللطف ، فيكون خاصاً لمن علم من حاله أنه يصلح به . ولا يجوز أن يكون المراد بالهداية هاهنا الارشاد الى الدين ، ونصب الدلالة عليه ، لأنه تعالى لا يخص بذلك قوماً دون قوم ، بل لا يصلح التكليف من دونه . وقد بين الله تعالى : أن اختلافهم كان بعد أن جاءتهم البينات فعم بذلك جميعهم ، فلو أراد الله بقوله « فهدى الله الذين آمنوا » بالبينات ، لكان متناقضاً ـ اللهم ـ إلا أن يحمل ذلك على أنه أضاف اليهم الهداية ، من حيث كانوا هم المنتفعين بها ، والمتبعين لها ، فكأنهم كانوا هم المخصوصين بها كما قال : « هدى للمتقين » (٤) وقوله تعالى : « إنما تنذر من اتبع الذكر » (٥)

« ١ » انظر ١ : ٣٨٠ من هذا الكتاب .

« ٢ » انظر ٢ : ٧٩ .   « ٣ » انظر ٢ : ٧٩ .

« ٤ » سورة البقرة آية : ٢ .   « ٥ » سورة يس آية : ١١ .

« وإنما أنت منــذر من يخشاها » (١) وإن كان منــذراً لجميعهم ، والذي يقوى ذلك قوله : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » (٢) فبين أنه هداهم . وإنما لم يهتدوا ، فكيف يجوز أن تحمل الهداية على نصب الدلالة ، وإقامة الحجة على قوم دون قوم . والفرق بين : هدى المؤمنين الى الايمان ، وبين أنعم عليهم بالايمان ، قال الجبائي : إن الهدى للأيمــان غير الايمان ، والانعام بالايمان هو نفس الايمان . والصحيح أنه هداه بالايمان يجري مجرى قوله : أنعم عليه بالايمان لأنه يراد بذلك التمكين منه . والاقتدار عليه والدعاء إليه ولا يراد به نفس الايمان .

وقوله : « والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » أي الى طريق الدين الواضح .

واختلفوا في الامة المعنية بهذه الآية ، فقال ابن عباس ، وقتادة : هم الذين كانوا بين عاد ، ونوح ، وهم عشر فرق كلهم كانوا على شريعة من الحق ، فاختلفوا بعد ذلك . فالتقدير ـ على قول هؤلاء ـ كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين . وقال مجاهد : المراد بالآية آدم ، فبعث النبيين الى ولده ، لما اختلفوا . وقال أبي بن كعب ، والربيع : كان الناس أمة حين استخرجوا من ظهر آدم ، فأقروا له بالعبودية ، واختلفوا فيما بعد ، فبعث الله اليهم النبيين . وقال ابن عباس في رواية أخرى : كانوا أمة واحدة على الكفر ، فبعث الله النبيين . وقال السدي : كانوا على دين واحد من الحق ، فاختلفوا ، فبعث الله النبيين . وقال الربيع والطبري : الكتاب الذي اختلفوا فيه التوراة . وقال آخرون كل كتاب أنزل الله مع النبيين .

قوله تعالى :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ

« ١ » سورة النازعات آية : ٤٥ .

« ٢ » سورة حم السجدة آية : ١٧ .

الرَّسولُ والَّذينَ آمنوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ ألا إنَّ نَصْرَ اللهِ قَريبٌ (٢١٤) آية واحدة .

القراءة والنزول :

قرأ نافع « حتى يقول الرسول » بضم اللام . الباقون بنصبها .

ذكر السدي ، وقتادة ، وغيرهما من أهل التفسير : أن هذه الآية نزلت يوم الخندق لما اشتدت المخافة ، وحوصر المسلمون في المدينة ، ، واستدعاهم الله الى الصبر ، ووعدهم بالنصر .

الاعراب واللغة :

وقال الزجاج : معنى (أم) هاهنا بمعنى (بل) . وقال غيره : هي بمعنى الواو . وإنما حسن الابتداء بـ (أم) لاتصال الكلام بما تقدم ، ولو لم يكن قبله كلام ، لما حسن . والفرق بين (أم حسبتم) وبين (أحسبتم) أن (أم) لا تكون إلا متصلة لكلام ، معادلة للألف ، أو منقطعة ، فالمعادلة نحو (أزيد في الدار أم عمرو) فالمراد أيهما في الدار ، والمنقطعة نحو قولهم : (إنها لابل أم شاء يافتى) ، وأما الألف ، فتكون مستأنفة . وإنما لم يجز في (أم) الاستئناف ، لأن فيها معنى (بل) كأنه قيل : (بل حسبتم) . وحسبت ، وظننت وخلت نظائر .

وقوله تعالى : « ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم » معناه ولما تمتحنوا ، وتبتلوا بمثل ما امتحنوا ، فتصبروا كما صبروا . وهذا استدعاء الى الصبر وبعده الوعد بالنصر .

والمثل ، والشبه واحد ، يقال : مَثل ومِثل ، مثل شبه وشِبه . و « خلوا » معناه مضوا .

وقوله : « مستهم » فالمس ، واللمس واحد . والبأساء ضد النعماء ، والضراء ضد السراء .

وقوله : « زلزلوا » معناه هاهنا : أزعجوا بالمخافة من العدو . والزلزلة : شدة

الحركة . والزلزال : البلبلة المزعجة بشدة الحركة ، والجمع زلازل ، ويقال : زلزل الأرض يزلزلها زلزالاً ، وتزلزل تزلزلاً ، مثل تدكدك تدكدكاً ، وأصله زلّ ، وإنما ضوعف ، مثل صرصر ، وصلصل .

وقوله : « حتى يقول الرسول » من نصب اللام ، ذهب الى تقدير : الى أن يقول الرسول ، فيكون على معنى الاستقبال إذا قدرت معها (أن) ، وهو يشبه الحكاية ، كأنك تقدر حالا ، ثم استأنف غيره فعلا ، كما تستأنف عن حال كلامك . ويوضح ذلك (كان زيد سيقول كذا وكذا) . وانما قدرت بكان زيد وقتاً ، ثم يستأنف عنه فعلا ، فكذلك « زلزلوا » قد دلّ على وقت ، ثم استأنف بعده الفعل .

ومن رفع ، فعلى الحال للفعل المذكور ، والحال لكلام المتكلم ، وذلك القول قد يكون في حال الزلزلة . فأما الغاية فلا يكون إلا بعد تقضيها وإن كان متصلا بها ، والرفع يوجب التأديـة بمعنى : أن الزلزلة أدت الى قول الرسول . فأما النصب ، فيوجب الغاية ، فقد حصل الفرق بين الرفع والنصب من ثلاث جهات :

الأول ـ أن أحدها على الحال ، والآخر على الاستقبال . والثاني ـ أن أحدها قد انقضى ، والآخر لم ينقض . والثالث ـ أن أحدها على الغاية ، والآخر على التأدية . ومعنى الغاية في الآية أظهر ، لأن النص جاء عند قول الرسول ، فلذلك كان الاختيار في القراءة النصب .

المعنى :

فان قيل: ما معنى قول الرسول والمؤمنين : «متى نصر الله»؟ قلنا : قال قوم : معناه الدعاء لله بالنصر ، ولا يجوز أن يكون معناه الاستبطاء لنصر الله على كل حال لأن الرسول يعلم : أن الله لا يؤخره عن الوقت الذي توجبه الحكمة . وقال قوم : معناه الاستبطاء لنصر الله . وذلك خطأ ، لا يجوز مثله على الأنبياء (ع) إلا أن يكون على الاستبطاء لنصره لما توجبه الحكمة من تأخره . والنصر ضد الخذلان . والقريب ضد البعيد . والقرب والدنوّ واحد . ومن قال : إن ذلك على وجه الاستبطاء قواه بما بعده من قوله « ألا إن نصر الله قريب » .

اللغة :

وأصل (لما) (لم)فزيد عليها (ما) فغيرت معناها ، كما غيرت في (لو لما زيد عليها (ما) إذا قلت : (لوما) فصارت بمعنى هلا . والفرق . بين (لم) و (لما) أن (لما) يصح أن يوقف عليها ، مثل قولك : أقدم زيد ؟ فيقول : لما ، ولا يجوز (لم) ، وفي (لما) توقع لأنها عقيبة (قد) ، إذا انتظر قوم ركوب الأمير ، قلت : قد ركب ، فان نفيت هذا قلت : لما يركب ، وليس كذلك (لم) ، ويجمعهما نفي الماضي .

قوله تعالى :

يَسألونَكَ ماذا يُنْفِقونَ قُلْ ماأَنْفَقْتُم مِنْ خَيْرٍ فَلِلوَالِدَيْنِ والأَقْرَبينَ وَاليَتامَى والمَساكِينِ وَابْنِ السَّبيلِ وَما تَفْعَلوا مِنْ خَيْرٍ فَإنَّ اللهَ بِهِ عَليمٌ (٢١٥) آية واحدة .

المعنى :

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها : أن الآية الأولى فيها دعاء الى الصبر على الجهاد في سبيل الله ، وفي هذه بيان لوجه النفقة في سبيل الله ، وكل ذلك دعاء الى فعل البرّ .

والنفقة : إخراج الشيء عن الملك ببيع ، أو هبة ، أو صلة ، أو نحوها ، وقد غلب في العرف على إخراج ما كان من المال : من عين ، أو ورق .

وقوله « يسألونك » خطاب للنبي (ص) بأن القوم يسألونه ، والسؤال : طلب الجواب بصيغة مخصوصة في الكلام .

وذكر السدي : أن هذه الآية منسوخة بفرض الزكاة . وقال الحسن : ليست منسوخة ، وهو الأقوى ، لأنه لا دليل على نسخها .

والجواب المطابق لقوله : « يسألونك ماذا ينفقون » أن يقول : قل النفقة

التي هي خير ، وإنما عدل عنه لحاجة السائل الى البيان الذي يدل عليه ، وعلى غيره ، وذلك يحسن من الحكماء اذا أرادوا تعليم غيرهم ، وتبصيرهم أن يضمنوا الجواب مع الدلالة على المسؤول عنه الدلالة على ما يحتاج إليه السائل في ذلك المعنى مما أغفله أو حذف السؤال عنه لبعض الأسباب المحسنة له . فأما الجدل الذي يضايق فيه الخصم ، فالأصل فيه التحقيق ، بأن يكون الجواب على قدر السؤال من غير زيادة ولا نقصان ، ولا عدول عما يوجبه نفس السؤال ، لأن كل واحد من الخصمين قد حل محل النظير للآخر .

ولا يجوز إعطاء الزكاة للوالدين ، وكل من تلزمه نفقته ـ وبه قال الحسن ـ والآية عامة في الزكاة وفي التطوع ـ وبه قال الحسن ـ غير أنها فيمن تلزمه النفقة عليه ، خاصة بالنفقة .

الاعراب :

وموضع (ما) في قوله : « ماذا ينفقون » من الاعراب يحتمل وجهين : الرفع ، والنصب ، الرفع على ما الذي ينفقون ، فيكون المعنى الذي ، وينفقون صلة ، والنصب بمعنى أي شيء ينفقون ، فيكون (ذا) و (ما) بمنزلة شيء واحد . والمساكين جمع مسكين وهو المحتاج .

المعنى :

ومعنى قوله : « فان الله به عليم » اي ما تفعلوا من خير فان الله يجازي عليه من غير أن يضيع منه شيء ، لأنه عليم لا يخفى عليه شيء . قال مجاهد : معنى « يسألونك ماذا ينفقون » إنهم سألوا مالهم في ذلك ، فقال الله تعالى : « قل ما أنفقتم من خير » الآية . وقال قتادة : أهمتهم النفقة ، فسألوا عنها النبي (ص) فأنزل الله « قل ما أنفقتم من خير » الآية .

قوله تعالى :

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا

شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢١٦) آية واحدة .

المعنى :

معنى قوله تعالى : « كتب عليكم القتال » فرض عليكم القتال ، وهذه الآية دالة على وجوب الجهاد ، وفرضه ، وبه قال مكحول ، وسعيد بن المسيب ، وأكثر المفسرين ، غير أنه فرض على الكفاية . وحكي عن عطا : أن ذلك كان على الصحابة ، والصحيح الأول ، لحصول الاجماع عليه اليوم ، وقد انقرض خلاف عطا .

اللغة :

وقوله : « وهو كره لكم » يقال : كره كراهة ، وأكرهه إكراهاً : إذا أجبره ، وتكره تكرهاً ، واستكره استكراهاً ، وكرهه تكريهاً . والكراهة : المشقة التي يحمل عليها ، والكره : المشقة من غير أن يحمل عليها . وقيل : هما لغتان ، مثل ضعف ، وضعف . وجمل كره : شديد الرأس ، لأنه لا ينقاد إلا على كره ، والكريهة : الشديد في الحرب ، لأنه يدخل فيها على كره . وكراهية (١) الدهر : نوازله ، وكرهت الأمر كراهة وكراهية ومكرهة ، وكره إلي هذا الأمر تكريهاً : أي صيره إلي بحال كريهة . والكرهاء : صفحة الوجه ، لأن الكره يظهر فيها .

المعنى ، واللغة ، والاعراب :

فان قيل : كيف كره المؤمنون الجهاد ، وهو طاعة لله ؟ قيل عنه جوابان : أحدها - أنهم يكرهونه كراهية طباع والثاني - أنه كره لكم قبل أن يكتب عليكم ، وعلى الوجه الأول يكون لفظ الكراهة مجازاً ، وعلى الثاني حقيقة . وقوله : « عسى » معناه الطمع ، والاشفاق من المخاطب ، ولا يكون إلا مع مثلة في الأمر . وقيل : معناها هاهنا قد ، وإنما قال : « عسى » وقال في موضع آخر :

« ١ » في المطبوعة (كراية) .

« فهل عسيتم » فجمع ، لأنه استغنى في الغائب عن الجمع كما استغني عن علامة الضمير في اللفظ ، وليس كذلك المخاطب ، فجرى في كل غائب على التوحيد ، لامتناعه من من التصريف . وتقول : عسى أن يقوموا ، فاذا قلت : عسيتم أن تقوموا جمعت .

وفي قوله « وهو كره لكم » حذف ـ في قول الزجاج وغيره ـ لأن تقديره وهو ذو كره لكم ، ويجوز أن يكون معناه :وهومكروه لكم ، فوقع المصدر موقع إسم المفعول ، ومثله قولهم : رجل رضى بمعنى ذو رضى ، ويجوز أن يكون بمعنى مرضي .

وقوله : « وهوشرّ لكم » فالشر السوء ، وهو ضد الخير ، تقول : شرّ يشرّ شرارة . وشرار النار ، وشررها لهبها ، وشررت اللحم والثوب تشريراً : إذا بسطته ، ليجف ، وكذلك أشررته إشراراً ، وأشررت الكتاب : إذا أظهرته ، وشرّة الشباب : نشاطه ، وإنما قال الله تعالى : « والله يعلم » ، تنبيهاً على أنه يعلم مصالحكم ، وما فيه منافعكم ، فبادروا الى ما يأمركم به وإن شق عليكم .

والفرق بين الشهوة ، والمحبة واضح ، لأن الصائم في شهر رمضان يشتهي شرب الماء ، ولا يكون مآخذاً به ، ولا يحبه كما لا يريده ، ولو أراده وأحبه ، لكان مذموماً ، ويكون مفطراً ـ عند كثير من الفقهاء ـ .

وقوله : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » يدل على فساد قول المجبرة ، لأنه تعالى إنما رغبهم في الجهاد ، لما علم من مصالحهم ، ومنافعهم ، فيدبرهم لذلك ، لا لكفرهم وفسادهم يتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قوله تعالى :

يَسألونَكَ عَنِ الشَّهرِ الحرامِ قتالٍ فيهِ قُلْ قتالٌ فيهِ كبيرٌ وصدٌّ عن سَبيلِ اللهِ وَكفرٌ بهِ والمسجدِ الحَرامِ وإخراجُ أهلهِ منهُ أكبرُ عِندَ اللهِ والفتنةُ أكبرُ مِنَ القتلِ وَلا يَزالونَ يُقاتِلونَكُمْ حتىَّ يَرُدّوكُمْ عَنْ دينكم إنْ استطاعُوا وَمَنْ يَرتَدِدْ منكمْ عَنْ

دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) آية واحدة بلا خلاف .

اختلفوا في : من السائل عن هذا السؤال : أهم أهل الشرك ، أم أهل الاسلام ، فقال الحسن ، وغيره : هم أهل الشرك على جهة العيب للمسلمين باستحلالهم القتال في الشهر الحرام ، وبه قال الجبائي ، وأكثر المفسرين . وقال البلخي : هم أهل الاسلام ، سألوا عن ذلك ليعلموا كيف الحكم فيه .

الاعراب :

وقوله تعالى : « قتال فيه » مجرور على البدل من الشهر ، وهو من بدل الاشتمال ، ومثله قوله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود » (١) وقال الأعشى :

لقد كان في حول ثواءٍ ثويته تقضّي لبانات ويسأم سائم (١)

والذي يشتمل عليه المعنى هو أحوال الشيء ، وما كان منه بمنزلة أحواله مما يغلب تعلق الفعل به ، فلا يجوز رأيت زيداً لونه ، لأن لونه يجوز أن يرى كما يجوز أن يرى نفسه ، ويجوز سرق زيد ثوبه ، لأن تعلق السرقة إنما هي بالملك دون النفس في غالب الأمر ، ويجوز أن تقول : رأيت زيداً مجيئه ، ولا يجوز رأيت زيداً إياه ، لأنه يجري مجرى حاله .

وقوله تعالى : « وصدّ عن سبيل الله » رفع بالابتداء ، وما بعده معطوف عليه ، وخبره « أكبر عند الله » هذا قول الزجاج . وقال أبو علي الفارسي : لا يخلو

« ١ » سورة البروج آية : ٥ .

« ٢ » ديوانه : ٧٧ رقم القصيدة : ٩ . يهجو بها يزيد بن مسهر الشيباني ومعنى البيت يعلم من البيت قبله الذي هو مطلع القصيدة وهو :

هريرة ودعها وان لام لائم غداة غد أم أنت للبين واجم

وهريرة قد ذكرها في قصيدة قبل دالية .

أن يكون ارتفاع قوله : « وصدّ عن سبيل الله وكفر » من أن يكون بالعطف على الخبر الذي هو « كبير » كأنه قال : قتال فيه كبير وصدّ وكفر: أي القتال ، قد جمع أنه كبير ، وأنه صدّ ، وكفر . ويكون مرتفعاً بالابتداء ، وخبره محذوف لدلالة « كبير » المتقدم عليه ، كأنه قال : والصد كبير ، كقولك : زيد منطلق وعمرو ، أو يكون مرتفعاً بالابتداء ، والخبر المظهر ، فيكون الصدّ ابتداء ، وما بعد من قوله : « وكفر به وإخراج أهله » مرتفع بالعطف على الابتداء ، والخبر قوله : « أكبر عند الله » قال : ولا يجوز الوجهان الأولان ـ وقد أجازهما الفراء ـ أما الوجه الأول ، فلأن المعنى يصير : قل : قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله كبير ، والقتال وإن كان كبيراً ، ويمكن أن يكون صداً ، لأنه ينفر الناس عنه ، فلا يجوز أن يكون كفراً ، لأن أحداً من المسلمين لم يقل ذلك ، ولم يذهب إليه ، فلا يجوز أن يكون خبر المبتده شيئاً لا يكون المبتدأ . ويمنع من ذلك أيضاً قوله بعد : « وأخراج أهله منه أكبر عند الله » ومحال أن يكون إخراج أهله منه أكبر من الكفر ، لأنه لا شيء أعظم منه ، ويمتنع الوجه الثاني أيضاً ، لأن التقدير : فيه يكون قتال فيه كبير وكبير الصدّ عن سبيل الله والكفر به ، وكذلك مثله الفراء ، وقدره ، فاذا صار المعنى : وإخراج أهل المسجد الحرام أكبر عند الله من الكفر ، فيكون بعض خلال الكفر أعظم منه كله ، واذا كان كذلك امتنع كما امتنع الأول وإذا امتنع هذان ثبت الوجه الثالث ، وهو أن يكون قوله « وصدّ عن سبيل الله » ابتداء « وكفر به وإخراج أهله » معطوفاً عليه « وأكبر » خبراً .

المعنى :

فيكون المعنى : « وصدّ عن سبيل الله » أي منعهم لكم أيها المسلمون عن سبيل الله ، وعن المسجد الحرام ، وإخراجكم منه ـ وأنتم ولاته ، والذين هم أحق به منهم ـ وكفر بالله أكبر من قتاله في الشهر الحرام . قال الرماني ، والفراء : إن التخلص من التأويل الذي أن تقول : إخراج أهله منه أكبر من القتل فيه ، لا من الكفر ، لأن المعنى في إخراج أهله منه إخراج النبي (ص) والمؤمنين عنه . قال :

وأما التأويل الأول ، فلا يجوز إلا أن يجعل « كفر به » يعني بالمسجد الحرام ، لانتهاك حرمته . قال : والتأويل الأول أجود .

وهذا القتال في الشهر الحرام هو ما عابه المشركون على المسلمين ، من قتل عبد الله بن جحش ، وأصحابه عمر بن الحضرمي ، لما فصل من الطائف ، في عير - في آخر جمادى الآخر - وأخذهم العير ، وهو أول من قتل من المشركين - فيما روي ، وأول فيء أصابه المسلمون .

وأما قوله تعالى : « والمسجد الحرام » فقال الفراء : إنه محمول على قوله : يسألونك عن القتال ، وعن المسجد الحرام هذا لفظه . قال أبو علي الفارسي : وهذا أيضاً يمتنع ، لأنه لم يكن السؤال عن المسجد الحرام ، وإنما السؤال عن قتال ابن جحش الحضرمي وأصحابه الذين عابهم المشركون وعيّروهم ، فقالوا إنكم استحللتم الشهر الحرام ، وهو رجب بقتلهم فيه ، فكان السؤال عن هذا ، لا عن المسجد الحرام وإذا لم يجز هذا الوجه ، لم يجز حمله على المضمر المجرور ، لأن عطف المظهر على المضمر غير جائز ، لأنه ضعيف جداً ، فيكون محمولا على الضمير في به ، لأن المعنى ليس على كفر بالله أو بالنبي (ص) ، والمسجد ، فثبت (١) أنه معطوف على (عن) من قوله : « وصد عن سبيل الله والمسجد الحرام » ، لأن المشركين صدّوا المسلمين عنه ، كما قال : « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام » ، (٢) فكما أن المسجد الحرام محمول في هذه الآية على (عن) المتصلة بالصدّ - بلا إشكال - كذلك في هذه الآية ، وهو قول أبي العباس ، أيضاً قال الرماني : ما ذكره الفراء ، واختاره الحسن ليس يمتنع ، لأن القوم لما استعظموا القتال في الشهر الحرام ، وكان القتال عند المسجد الحرام يجري مجراه في الاستعظام جمعوهما لذلك في السؤال ، وإن كان القتال إنما وقع في الشهر الحرام خاصة ، كأنهم قالوا : قد استحللت الشهر الحرام ، والمسجد الحرام . وظاهر الآية يدل على أن القتال في الشهر الحرام كان محرماً لقوله :

« ١ » في المطبوعة « بيت » .

« ٢ » سورة الحج آية : ٢٥ .

« قل قتال فيه كبير » وذلك لا يقال إلا فيما هو محرم ، محظور .

اللغة :

والصدّ ، والمنع ، والصدف واحد . صدّ يصدّ صدوداً إذا صدف عن الشيء لعدوله عنه ، وصددته عن الشيء ، أصده صداً إذا عدّلته عنه ، ومنه قوله تعالى : « اذا قومك منه يصدون » (١) قرىء بالضم ، والكسر . قال أبو عبيدة : يصُدّون يعرضون ، ويصِدّون : يضجون ، وذلك لأنهم ، يعدلون الى الصحيح . والصديد : الدم المختلط بالقيح يسيل من الجرح . والصدد : ما استقبلك وصار في قبالتك ، لأنه يعدل (٢) الى مواجهتك . والصدان : ناحيتا الشعب أو الوادي . والصداد : ضرب من الجردان يعدل لشدة تحرزه . والصداد : الوزغ (٣) ، لأنه يعدل عنه استقذاراً له ، وأصل الباب العدول .

المعنى :

وقوله : « والفتنة أكبر من القتل » معناه الفتنة في الدين ، وهي الكفر أعظم من القتل في الشهر الحرام . وقال قتادة وغيره ، واختاره الجبائي : إن القتال في الشهر الحرام وعند المسجد الحرام منسوخ بقوله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » (٤) وبقوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » (٥) وقال عطا : هو باق (٦) على التحريم . وروى أصحابنا : أنه على التحريم فيمن يرى لهذه الأشهر حرمة ، فانهم لا يبتدءون فيه بالقتال ، وكذلك في الحرم ، وإنما أباح تعالى للنبي (ص) قتال أهل مكة وقت الفتح ، ولذلك قال (ص) : إن الله أحلها في هذه الساعة ، ولا يحلها لأحد بعدي الى يوم القيامة . ومن لا يرى ذلك ، فقد نسخ في جهته وجاز قتاله أي وقت كان .

« ١ » سورة الزخرف آية : ٥٧ .
« ٢ » في المطبوعة « بعدك » .
« ٣ » في المطبوعة « الورع » .
« ٤ » سورة البقرة آية : ١٩٣ .
« ٥ » سورة التوبة آية : ٦ .
« ٦ » في المطبوعة « فاق » .

وقوله : « يردوكم » قال الجبائي : هو مجاز هاهنـــا ، لأن حقيقته : حتى ترتدّوا بالجائهم إياكم الى الارتداد ،والأولى أن يكون حقيقة ذلك بالعرف .

اللغة :

وقوله تعالى : « ولا يزالون » فالزوال : العدول . ولا يزال موجوداً ، وما زال : أي مادام ، وزال الشيء عن مكانه يزول زوالا ، وأزلته عنه ، وزلته ، وزالت الشمس زوالا ، وزيالا ، وزالت الخيل بركبانها زيالا ، ورجل زول ، وامرأة زولة ، وهو الظريف الركبين (١) وأصل الباب الزوال .

وقوله : « ومن يرتدد منكم عن دينه » ، فهو على إظهار التضعيف ، لسكون الثاني . ويجوز « يرتدّ » - بفتح الدال - على التحريك ، لالتقـاء الساكنين ، والفتح أجود .

وقوله : « فأولئك حبطت أعمالهم » معناه : أنها صارت بمنزلة مالم يكن ، لايقاعهم إياها على خلاف الوجه المأمور به ، وليس المراد أنهم استحقوا عليها الثواب ثم انحبطت ، لأن الاحباط - عندنا - باطل على هذا الوجه . ويقال : حبط عمل الرجل يحبط حبطاً وحبوطاً ، وأحبطه الله إحباطاً ، والحبط : فساد ، يلحق الماشية في بطونها ، لأكل الحباط ، وهو ضرب من الكلاء . يقال : حبطت الابل تحبط حبطاً اذا أصابها ذلك .

وروي عن عطا عن ابن عباس : أن المسجد الحرام الحرم كله .

قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨) آية واحدة بلا خلاف .

« ١ » الركبين - بفتح الراء والباء - أصل الفخذين .

النزول والاعراب :

ذكر جندب بن عبد الله ، وعروة بن الزبير : أن هذه الآية نزلت في قصة عبد الله بن جحش وأصحابه لما قاتلوا في رجب ، وقتل واقد التميمي بن الحضرمي ، ظنّ قوم أنهم إن سلموا من الاثم فليس لهم أجره ، فأنزل الله الآية فيهم ـ بالوعد ـ .

وخبر « إن الذين آمنوا » الجملة التي هي قوله : « أولئك يرجون رحمة الله » أولئك ابتداء ، ويرجون خبره ، والجملة خبر (إنّ) .

اللغة :

وقوله : « والذين هاجروا » فالهجر ضد الوصل ، تقول : هجره يهجره هجراً ، وهجراناً : اذا قطع مواصلته . والهجر : مالا ينبغي من الكلام ، تقول : هجر المريض يهجر هجراً ، لأنه قال مالا ينبغي أن يهجر من الكلام ، وما زال ذلك هجيراه أي دأبه (١) . والهاجرة : نصف النهار ، وهجر القوم تهجيراً : اذا دخلوا في الهاجرة . وسمي المهاجرون لهجرتهم قومهم ، وأرضهم . وأهجرت الجارية إهجاراً : إذا شبت شباباً حسناً ، فهي مهجرة ، ويقال ذلك للناقة ، والنخلة . والهجار : حبل يشد به يد الفحل الى إحدى رجليه ، لأنه يهجر بذلك التصرف وأصل الباب الهجر : قطع المواصلة .

وقوله تعالى : « وجاهدوا » تقول : جهدت الرجل جهداً : إذا حملته على مشقة ، وجاهدت العدوّ مجاهدة إذا حملت نفسك على المشقة في قتاله . واجتهدت رأيً : اذا حملت نفسك على المشقة في بلوغ صواب الرأي . والجهاد : الأرض الصلبة ، وأصل الباب الجهد : الحمل على المشقة .

وقوله تعالى : « في سبيل الله » يعني قتال العدوّ ، ويدخل في ذلك مجاهدة النفس .

وقوله « أولئك يرجون » فالرجاء الأمل ، رجا يرجو رجاءً ، وترجّى

« ١ » هجيراه ـ بكسر الهاء والجيم مع تشديد الجيم ـ في المطبوعة (أي داته) .

ترجياً ، وارتجى ارتجاء ، والرجا ـ مقصوراً ـ ناحية كل شيء ، ويثنى رجوان وجمعه أرجاء ، ومنه أرجاء البئر نواحيه ، وقوله تعالى « مالكم لا ترجون لله وقاراً (١) أي لا تخافون ، قال أبو ذؤيب :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عواسل (٢)

أي لم يخف ، وذلك أن الرجاء للشيء الخوف من أن لا يكون ، فلذلك سمي الخوف باسم الرجاء ، وأصل الباب الأمل ، وهو ضد اليأس .

المعنى :

وفي الآية دلالة على أن من مات مصراً على كبيرة لا يرجو رحمة الله لامرين:

أحدهما ـ أن ذلك دليل الخطاب ، وذلك غير صحيح عند أكثر المحصلين .

والثاني ـ أنه قد يجتمع ـ عندنا ـ الايمان والهجرة والجهاد مع ارتكاب الكبيرة ، فلا يخرج من هذه صورته عن تناول الآية له ، وإنما ذكر المؤمنين برجاء الرحمة وإن كانت هي لهم لا محالة ، لأنهم لا يدرون ما يكون منهم من الاقامة على طاعة الله أو الانقلاب عنها الى معصيته ، لأنهم لا يدرون كيف تكون أحوالهم في المستقبل . وقال الجبائي : لأنهم لا يعلمون أنهم أدوا كما يجب لله عليهم ، لأن هذا العلم من الواجب ، وهم لا يعلمونه إلا بعلم آخر ، وكذلك سبيل العلم في أنهم لا يعلمونه إلا بعلم غيره ، وهذا يوجب أنهم لا يعلمون إذاً كما يجب لله عليهم . وقال ابن الاخشاد : لانه لا يتفق للعبد التوبة من كل معصية ، واستدل على ذلك باجماع الأمة على أنه ليس لأحد غير النبي (ص) . ومن شهد له عليه ، فلا .

ويمكن في الآية وجه آخر ـ على مذهبنا ـ وهو أن يكون رجاهم لرخصة الله في غفران معاصيهم التي لم يتفق لهم التوبة عنها ، واخترموا دونهم ، فهم يرجون أن يسقط الله عقابها عنهم تفضلا . فأما الوجه الاول ، فانما يصح على مذهب من

« ١ » سورة نوح آية : ١٣ .

« ٢ » اللسان (رجا) ، (خالف) في المطبوعة (عوامل) بدل (عواسل) أي دخل عليها وأخذ عسلها . ويروى « وحالفها » أي لزمها .

يجوز أن يكفر المؤمن بعد إيمانه أو يفعل في المستقبل كبيرة يحبط ثواب إيمانه، وهذا لا يصح على مذهبنا في الموافات وما قاله الجبائي يلزم عليه وجوب مالا نهاية له، لأنه إذا وجب عليه أن يعلم أنه فعل ما وجب عليه بعلم آخر، وذلك العلم مما وجب عليه أيضاً فيجب ذلك بعلم آخر، وفي ذلك التسلسل.

وإنما ضم الى صفة الايمان غيره في اعتبار الرجاء للرحمة ترغيباً في كل خصلة من تلك الخصال، لأنها من علامات الفلاح. فأما الوعد، فعلى كل واحدة منها إذا سلمت مما يبطلها. وقال الحسن: الرجاء، والطمع هاهنا على الايمان إذا سلم العمل. وذكر الجبائي: أن هذه الآية تدل على أنه لا يجوز لأحد أن يشهد لنفسه بالجنة، لأن الرجاء لا يكون إلا مع الشك، وقد بين الله تعالى: أن صفة المؤمن الرجاء للرحمة، لا القطع عليها لا محالة.

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها هو أنه لما ذكر في الأولى العذاب، ذكر بعدها آية الرحمة، ليكون العبد بين الخوف والرجاء إذ ذلك أوكد في الاستدعاء، وأحق بتدبير الحكماء.

وكتبت «رحمة الله» بالتاء في المصحف على الوصل، والأقيس بالهاء على الوقف، كما كتب «يدع الداع» (١) و «يقضي بالحق» (٢) «واضرب لهم مثلا» (٣) كل ذلك على الوقف.

قوله تعالى:

يَسألونَكَ عن الخَمْرِ والمَيْسرِ قُلْ فِيهما إثْمٌ كبيرٌ وَمَنافِعُ للناسِ وإثْمُهما أكبرُ مِنْ نَفْعِهِما وَيَسألونَكَ ماذا يُنفقونَ قُلِ العَفْوَ كذلِكَ يُبينُ اللهُ لَكمُ الآياتِ لَعلكمْ تتفكرونَ (٢١٩)

«١» سورة القمر آية ٦.
«٢» سورة المؤمن آية: ٢٠.
«٣» سورة الكهف آية: ٣٢.

القراءة :

قرأ أهل الكوفة إلا عاصم « إثم كثير » بالثاء . الباقون بالباء ، وقرأ أبو عمرو وحده « قل العفو » بالرفع . الباقون بالنصب .

اللغة :

قال أكثر المفسرين : الخمر عصير العنب إذا اشتدّ . وقال جمهور أهل المدينة : ما أسكر كثيره فهو خمر ، وهو الظاهر في رواياتنا .

وأما اشتقاقه في اللغة : تقول خمرت الدابة أخمرهـا خمراً إذا سقيتها الخمر ، وخمرت العجين والطين أخمره خمراً : إذا تركته فلم تستعمله حتى يجود . وأخمر القوم إخماراً : اذا تواروا في الشجر . ويقال لما سترك من شجر : خمرى(١) ، مقصوراً ، واختمرت المرأة ، وخمرت إذا لبست الخمار : وهي المقنعة . وخامره الحزن مخامرة إذا خالطه . وخمر الأناء وغيره تخمراً : إذا غطّيته ، واستخمرت فلاناً : اذا استعبدته . والخمار بخار يعقبه شرب الخمر . والمخامرة : المقاربة . والخمر : ما وارك من الشجر ، وغيره . والخمر : شبيه بالسجادة . والمخمرة من الغنم : سوداء ورأسها أبيض . ودخل في خمار الناس : إذا دخل في جماعة ، نخفي فيهم ، وأصل الباب الستر .

والميسر : قال ابن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن سيرين : هو القمار كله وهو الظاهر في رواياتنا .

واشتق الميسر من اليسر ، وهو وجوب الشيء لصاحبه ، من قولهم : يسر لي هذا الشيء : إذا وجب لي ، فهو تيسر لي يسراً ، وميسراً ، والياسر : الواجب بقداح وجب لك أو غير ذلك . وقيل للمقامر : ياسر ، ويسر ، قال النابغة :

أو ياسر ذهب القداح بوفره   أسفاً تآكله الصديق مخلّع(٢)

«١» في المطبوعة (ضرأ) وهو تصحيف .

«٢» لم أجد هـذا البيت في شعر النابغة ، وهو موجود في تفسير الطبري ٤ : ٣٢٢ . الياسر : المقامر . القداح : تستعمل في لعب القمار الوفر : المال الكثير . مخلع : قد لعب في القمار مرة بعد مرة . وكأنه يصف لاعب قمار قد خسر ماله الواسع وقد أسف عليه عندما رأى أصدقاءه الذين يلعبون دائما قد أخذوه منه وتقاسموه .

يعني القامر . وقيل أخذ من التجزءة ، لأن كل شيء جزّأته ، فقد يسرته ، والياسر : الجازر . والميسر : الجزور . وقيل الميسر مأخوذ من اليسر ، وهو تسهل الشيء ، لأنهم كانوا مشتركون في الجزور ، ليسهل أمرها إلا أنه المعنى الجهة : القمار .

المعنى :

وقوله : « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » فالنفع التي في الخمر : ما كانوا يأخذونه في أثمانها ، وربح تجارتها ، وما فيهما من اللذة بتناولها : أي فلا تغترّوا بالنفع فيها ، فالضرر أكثر منه . وقال الحسن ، وغيره : هذه الآية تدل على تحريم الخمر ، لأنه ذكر أن فيها إثماً ، وقد حرم الله الاثم بقوله : « قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم » (١) على أنه قد وصفها بأن فيها إثماً كبيراً والكبير يحرم بلا خلاف .

وقال قوم : المعنى وإثمهما بعد تحريمهما أكبر من نفعهما قبل تحريمهما . وقال آخرون : المعنى إن الاثم بشرب هذه ، والقمار بها أكبر وأعظم ، لأنهم كانوا إذا استكروا وثب بعضهم على بعض ، وقاتل بعضهم بعضاً . وقال قتادة : لا تدل الآية على تحريمها ، وإنما تدل الآية التي في المائدة في قوله : « إنما الخمر والميسر » (٢) الى آخرها . ووجهه قتادة على أنه قد يكثر فيهما « إثم كبير » .

وقوله : « يسألونك ماذا ينفقون » قال السدي : نسخته آية الزكاة . وقال مجاهد : هو فرض ثابت . وقال قوم : هو أدب من الله ثابت غير منسوخ ، وهو الأقوى ، لأنه لا دليل على نسخها .

و « العفو » هنا قيل في معناه ثلاثة أقوال :

قال ابن عباس ، وقتادة : هو ما فضل عن الغنى .

وقال الحسن ، وعطا : هو الوسط من غير إسراف ولا إقتار .

وقال مجاهد : هو الصدقة المفروضة .

« ١ » سورة الاعراف آية : ٣٢ .

« ٢ » آية : ٩٣ .

وروي عن أبي جعفر (ع) أن العفو : ما فضل عن قوت السنة ، فنسخ ذلك بآية الزكاة . وروي عن أبي عبد الله (ع) أن العفو هاهنا : الوسط . والعفو مأخوذ من الزيادة ومنه قوله : « حتى عفوا » (١) أي حتى زادوا على ما كانوا عليه من العدد قال الشاعر :

ولكنا نُعضُّ السيف منها باسبق عافيات الشحم كوم (٢)

أي زايدات الشحم . وقال قوم : هو مأخوذ من الترك من قوله : « فمن عفي له من أخيه شيء » ٣) أي ترك له ، فيكون العفو المتروك غنى عنه ، ومن رفع معناه ما الذي ينفقون ، وفي الأول كأنه قال : أي شيء ينفقون ، فقالوا : العفو . وإنما وحد الكاف في كذلك ، وإن كان الخطاب لجماعة ، لأحد أمرين : أحدها ـ في تقدير كذلك أيها السائل . والثاني ـ أن يكون الخطاب للنبي (ص) ويدخل فيه الأمة ، كما قال : « يا أيها النبي اذا طلقتم النساء » (٣) .

وقوله : « لعلكم تتفكرون » أي لكي تتفكروا ، وهي لام الغرض . وفي ذلك دلالة على أن الله تعالى أراد منهم التفكر سواء تفكروا أو لم يتفكروا .

قوله تعالى :

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

آية واحدة .

الاعراب والمعنى :

العامل في الضرف من قوله : « في الدنيا والآخرة » يحتمل أمرين :

« ١ » سورة الاعراف آية : ٩٤ .

« ٢ » قائله لبيد بن ربيعة ، ديوانه : ١٩ رقم القصيدة : ٣ في المطبوعة « يعض السيف منا » وهو خطأ ، لأن هذا البيت من قصيدة يفتخر بها في كرمهم : يقول :

« ٣ » سورة البقرة آية : ١٨٧ .

« ٤ » سورة الطلاق آية : ١ .

أحدها ـ « يبين » على قول الحسن · والثاني ـ « يتفكرون » في قول غيره · وأجاز الزجاج الوجهين معاً .

وكيفية فكرهم في الدنيا والآخرة ، قال قتادة : يتفكرون في أن الدنيا دار بلاء ، وفناء ، والآخرة دار جزاء وبقاء .

اللغة :

وقوله تعالى : « ويسألونك عن اليتامى » ، فهو جمع يتيم ، والفعل منه يتم ييتم يتماً ، كقولك : نكر نكراً . وحكى الفراء : يتم ييتم يتماً ، كشغل شغلا .

وقوله : « وإن تخالطوهم » فالمخالطة : مجامعة يتعذر معها التمييز ، كمخالطة الخل للماء ، والماء للماء وما أشبه ذلك ، تقول : خلط يخلط خلطاً ، وخالطه خلاطاً ومخالطة ، واختلاطا ، وتخالطوا تخالطاً ، وخلطه تخليطاً ، وتخلّط تخلطاً . وأخلط الفرس : إذا قصّر في جريه · واستخلط الفحل : اذا خالط ثيله حياء الناقة (١) والخلاط : الجنون ، لاختلاط الأمور على صاحبه . والخليطان : الشريكان ، لاختلاط أموالها . والخليط : القوم أمرهم واحد . والخِلاط : داء في الجوف . ورجل خَلِط : متحبب الى الناس ، لطلبه الاختلاط بهم ·

المعنى :

ومعنى الآية الاذن لهم فيما كانوا متحرّجون منه من مخالطة الأيتام في الأموال : من المأكل ، والمشرب والمسكن ، ونحو ذلك ، فأذن الله لهم في ذلك إذا تحرّوا (٢) الاصلاح بالتوفير على الأيتام ـ في قول الحسن ، وغيره ـ وهو المروي في أخبارنا .

الاعراب :

وقوله : « فاخوانكم » رفع على فهم (٣) أخوانكم خالطموهم أو لم تخالطوهم ،

« ١ » في المطبوعة « ثيله حال الناقه » وهو تصحيف .

« ٢ » في المطبوعة « اذا انحروا » وهو تصحيف .

« ٣ » في المطبوعة « فهو » .

وقوله : « فان خفتم فرجالا أو ركباناً » (١) نصب على فصلّوا (٢) وهو حال الصلاة خاصه لا حال معنى فأنتم رجال أو ركبان ، كيف تصرفت الحال . ويجوز - في العربية - فأخوانكم على النصب على تقدير : فاخوانكم تخالطون ، والوجه الرفع ، لما بيناه .

اللغة :

وقوله : « ولو شاء الله لأعنتكم » معناه : التذكير بالنعمة في التوسعة على ما توجبه الحكمة مع القدرة على التضييق الذي فيه أعظم المشقة ، والاعنات : الحمل على مشقة لا تطاق فعلا . وعنت العظم عنتاً اذا أصابه وهن أو كسر ، وأعنته إعناتاً إذا عسفه (٣) بالحمل على مكروه لا يطيقه . وعنت عنتاً إذا اكتسب مأثماً ، وتعنته تعنتاً إذ لبس عليه في سؤاله له . والاكمة العنوت : هي الطويلة من الآكام ، وأصل الباب المشقة .

المعنى :

وقال البلخي : في هذه الآية دلالة على فساد قول من قال : إنه تعالى لا يقدر على الظلم ، لأن الاعنات - بتكليف مالا يجوز في الحكمة - مقدور له ، إذ لو يشاء لفعله .

وقال الجبائي : لو أعنتهم لكان جائزاً حسناً ، لكنه تعالى وسع على العباد ، لما في التوسعة من تعجيل النعمة . وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة (٤) في البدل ، وتكليف مالا يطاق ، أما البدل ، فلأنهم يذهبون الى النهي عن الكفر الموجود في حالة بأن يكون الايمان بدلا منه ، وهذا أعظم ما يكون من الاعنات ، لأنه أمر له (٥) بالمحال ، وهو ليكن منك الايمان بدلا من الكفر الموجود في

« ١ » سورة البقرة آية : ٢٣٩ .
« ٢ » في المطبوعة « فضلوا » بتشد الضاد .
« ٣ » عسفه : ظلمه ، والعسف الظلم .
« ٤ » في المطبوعة « بطلان » ساقطة .
« ٥ » في المطبوعة « أمر » ساقطة .

الحال ، وكذلك النهي فيما لم يكن منك ما هو كائن من الكفر الموجود في الحال كل ذلك محال ، وكذلك الأمر بالايمان ، من لم يقدر على الايمان ، فاذا لم يفعله عُذّب بأشد العذاب ، وإذا لم يكلف من الممكن ما فيه مشقة وشدة ، للمظاهرة على عباده بالنعمة ،لم يجز أن يكلف ما ليس عليه قدره ، لأنه أسوء تناقض المظاهرة بالنعمة .

وقوله : «إن الله عزيز حكيم» أي يفعل بعزته ما يحب ، لا يدفعه عنه دافع . «حكيم» ذو حكمة فيما أمركم به من أمر اليتامى وغيره .

قوله تعالى :

وَلا تَنكِحوا المُشرِكاتِ حتّى يُؤمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤمِنةٌ خَيرٌ مِن مُشرِكةٍ وَلَو أَعجَبَتكُم وَلا تُنكِحوا المُشرِكينَ حَتّى يُؤمِنوا وَلَعَبدٌ مُؤمِنٌ خَيرٌ مِن مُشرِكٍ وَلَو أَعجَبَكُم أُولئِكَ يَدعونَ إلى النّارِ واللهُ يَدعو إلى الجَنّةِ والمَغفِرَةِ بإذنِهِ وَيُبيِّنُ آياتِهِ لِلنّاسِ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرونَ (٢٢١) آية واحدة .

اللغة :

نكح ينكح نكحاً ونكاحاً : إذا تزوج ، وأنكح غيره إنكاحاً : إذا زوّجه وتناكحوا تناكحاً ، وناكحه مناكحة قال الاعشى :

ولا تقربنّ جارة إن سرّها　　　　عليك حرام فانكحن أو تأبدا (١)

أي تعفف وأصل الباب التزويج .

المعنى :

وهذه الآية على عمومها ـ عندنا ـ في تحريم مناكحة الكفار ، وليست منسوخة ولا مخصوصة . وقال ابن عباس في رواية شهر بن حوشب عنه قال : فرق

(١) ديوانه : ١٣٧ رقم القصيدة ١٧ . التأبد : التعزب أبداً وهو الابتعاد عن النساء . يقول : لا تتزوج جارتك وتزوج غيرها أو استعفف ولا تقترب من النساء .

عمر بين (١) طلحة وحذيفة وبين إمرأتيهما اللتين كانتا عندهما (٢) وقال غيره عن ابن عباس، وإليه ذهب الحسن، ومجاهد والربيع : هي عامة إلا أنها نسخت بقوله : « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب »، وقال قتادة، وسعيد بن جبير : هي على الخصوص. وإنما اختير ما قلناه لأنه لا دليل على نسخها، ولا على خصوصها، وسنبين وجه الآية في المائدة اذا انتهينا إليها.

فأما المجوسية، فلا يجوز نكاحها إجماعاً. والذي لايجوز : أن يتزوج مسلمة إجماعاً، وامراحاً واجباراً (٣).

وقوله « ولأمة مؤمنة خير من مشركة » فالأمة : المملوكة. يقال أقرت بالأموة أي بالعبودية وأميت فلانة، وتأميتها اذا جعلتها أمة قال الراجز :

يرضون بالتعبيد والتآمي (٤)

وجمع أمة إماء وآم وأصل الباب العبوديه، وأصل أمة فعلة بدلالة قولهم أماء وآم في الجمع نحو أكة وأكام وآكم. والفرق بين « ولو أعجبكم » وبين إن أعجبكم : أن لو للماضي وإن للمستقبل وكلاهما يصح في معنى الآية، ولا يجوز نكاح الوثنية إجماعاً، لأنها تدعو الى النار كما حكاه الله تعالى، وهذه العلة بعينها قائمة في الذمية من اليهودية والنصارى، فيجب أن لا يجوز نكاحها. وفي الآية دلالة على جواز نكاح الأمة المؤمنة مع وجود الطول، لقوله « ولأمة مؤمنة خير من مشركة» فأما الآية التي في النساء، وهي قوله : « ومن لم يستطع منكم طولا » (٥) فانما هي على التنزيه دون التحريم، ومتى أسلم الزوجان معاً ثبتا على النكاح - بلا خلاف - وبه قال الحسن. وإن أسلمت قبله طرفة عين، فقد وقعت الفرقة - عند الحسن،

« ١ » في المطبوعة «عمر بن طلحة » وهو تحريف.

« ٢ » في المطبوعة « وحذيفة وامرأتهما اللتين كانتا عنهما أبين» وهوتحريف فاحش.

« ٣ » هكذا في الأصل ولم أجد لها مخرجاً مقطوعاً به، ولعلها : اجماعاً وقولا وأخباراً أي اجماعاً على الفتوى، وأقوال المفسرين والأخبار المأثورة.

« ٤ » قائله رؤبة. اللسان « أما » في المطبوعة « ترضون » بدل « يرضون ».

« ٥ » سورة النساء آية : ٢٤.

وكثير من الفقهاء ، وعندنا ينتظر عدتها فان أسلم الزوج بنينا أن الفرقة لم تحصل ، ورجعت إليه ، وإن لم يسلم بنينا أن الفرقة وقعت حين الاسلام غير أنه لا يمكن من الخلو بها . فان أسلم الزوج وكانت ذمية استباح وطؤها بلا خلاف . وإن كانت وثنية انتظر إسلامها ما دامت في العدة ، فان أسلمت ثبت عقده عليها ، وإن لم تسلم بانت منه .

فان قيل : كيف قيل للكافر الموحد مشرك ! قيل فيه قولان :

أحدها ـ أن كفره نعمة الله بمنزلة الاشراك في العبادة في عظم الجرم .

والآخر ذكره الزجاج ـ وهو الأقوى ـ ، لأنه اذا كفر بالنبي (ص) فقد أشرك فيما لا يكون إلا من عند الله ، وهو القرآن بزعمه أنه من عند غيره .

وقوله « باذنه » معناه أحد أمرين : أحدها ـ باعلامه . والآخر ـ بأمره ، وهو قول الحسن ، وأبي علي وغيرها .

قوله تعالى :

وَيَسأَلونَكَ عَنِ المَحيضِ قُلْ هُوَ أذىً فاعْتَزِلوا النِّساءَ في المَحيضِ وَلا تَقرَبوهُنَّ حتىَّ يَطْهُرْنَ فَاذا تَطَهَّرْنَ فَأْتوهُنَّ مِنْ حَيثُ أمَرَكُمُ اللهُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرينَ (٢٢٢) آية واحدة .

القراءة :

قرأ أهل الكوفة إلا حفصا (حتى يطهرن) بتشديد الطاء والهاء . الباقون بالتخفيف .

المعنى :

قيل : إنما سألوا عن المحيض ، لأنهم كانوا على تجنب أمور : من مواكلة الحائض ، ومشاربتها حتى كانوا لا يجالسونها في بيت واحد ، فاستعلموا ذلك ،

أواجب هو أم لا ؟ في قول قتادة ، والربيع ، والحسن ، وقال مجاهد : كانوا على استجازة إتيانهن في الأدبار أيام الحيض ، فلما سألوا عنه ، بين تحريمه ، والأول — عندنا — أقوى .

اللغة :

والمحيض مصدر حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحيضاً ، فهي حائض . والمرة حيضة (١) وجمعه حيض وحيضات . ونساء حيض . والمستحاضة : التي عليها الدم فلا رواق (٢) وأصل الباب الحيض : مجيء الدم لأتى على عادة معروفة .

أحكام الحيض ، والاستحاضة :

وصفة الحيض : هو الدم الغليظ الأسود الذي يخرج بحرارة . وأقل الحيض ثلاثة أيام ، وأكثره عشرة ، وهو قول الحسن ، وأهل العراق . وقال الشافعي ، وأكثر أهل المدينة : أقل الحيض يوم وليلة ، وأكثره خمسة عشر يوماً . وحكي أن قوماً قالوا : ليس له وقت محدود : إنما هو ما رأت دم الحيض . وأقل الطهر عشرة أيام ، وخالف الجميع وقالوا : خمسة عشر يوماً . والاستحاضة : دم رقيق أصفر بارد . وحكم الاستحاضة حكم الطهر في جميع الاحكام إلا في تجديد الوضوء — عند كل صلاة — ووجوب الغسل عليها على بعض الوجوه — عندنا — .

وقوله : « أذى » معناه : قذر ونجس — في قول قتادة والسدي — .

وقوله : « فاعتزلوا النساء في المحيض » معناه : اجتنبوا الجماع في الفرج ، وبه قال ابن عباس ، وعائشة ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد . ومافوق المئزر أودونه ، عن شريح ، وسعيد بن المسيب . وعندنا : لا يحرم منها غير موضع الدم فقط . ومن وطىء الحائض في أول الحيض ، كان عليه دينار ، وإن كان في وسطه ، فنصف دينار ، وفي آخره ربع دينار . وقال ابن عباس : عليه دينار ، ولم يفصل . وقال الحسن : يلزمه رقبة أو بدنة أو عشرون صاعاً .

---

(١) في المطبوعة « والمرأة حيضة » وهو تصحيف .

(٢) هكذا في المطبوعة .

اللغة :

ويقال : عزله يعزله عزلا ، واعتزل اعتزالاً ، وعزّله تعزيلا . والأعزل: الذي لا سلاح معه . وعزلا المزادة : مخرج الماء من أحد جوانبها ، والجمع عزال . وكل شيء نحّيته عن موضع، فقد عزلته عنه ، ومنه عزل الوالي. وأنت عن هذا بمعزل : أي منتحى . والأعزل من السماكين : الذي نزل به القمر . والمعزال من الناس : الذي لا ينزل مع القوم في السفر ، لكنه ينزل ناحية ، وأصل الباب الاعتزال ، وهو التنحي عن الشيء .

المعنى :

وقوله : « حتى يطهرن » بالتخفيف معناه : ينقطع الدم عنهن . وبالتشديد معناه : يغتسلن ـ في قول الحسن ، والفراء ـ وقال مجاهد ، وطاووس: معنى تطهّرن : توضأن ، وهو مذهبنا .

والفرق بين (طهرت) و (طهّرت) أن فُعل لا يتعدّى ، لأن ما كان على هذا البناء لا يتعدّى ، وليس كذلك فعّل . ومن قرأ بالتشديد قال : كان أصله « يتطهرن » فأدغمت التاء في الطاء .

وعندنا يجوز وطيء المرأة إذا انقطع دمها ، وطهرت وإن لم تغتسل إذا غسلت فرجها . وفيه خلاف ، فمن قال : لا يجوز وطؤها إلا بعد الطهر من الدم ، والاغتسال: تعلق بالقراءة بالتشديد ، فانها تفيد الاغتسال ، ومن قال : يجوز ، تعلق بالقراءة بالتخفيف وأنها لا تفيد الاغتسال . وهو الصحيح . ويمكن في قراءة التشديد أن تحمل على أن المراد به توضأن على ما حكيناه عن طاووس ، وغيره . ومن استعمل قراءة التشديد يحتاج أن يحذف القراءة بالتخفيف أو يقدر محذوفاً تقديره حتى يطهرن ويتطهرن ، وعلى ما قلناه لا يحتاج اليه .

وقوله : « فاذا تطهرن » معناه : اغتسلنا ، وعلى ما قلناه : حتى يتوضأن .

وقوله : « فأتوهن من حيث أمركم الله » صورته صورة الأمر ، ومعناه

الاباحة، كقوله : «فاذا حللتم فاصطادوا» (١) «وإذا قضيت الصلاة فانتشروا» (٢) وقوله : «من حيث أمركم الله» معناه من حيث أمركم الله بتجنبه في حال الحيض، وهو الفرج، على قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والربيع . وقال السدي، والضحاك : من قبل الطهر دون الحيض . وعن ابن الحنفية من قبل النكاح دون الفجور، والأول أليق بالظاهر . ويحتمل أن يكون من حيث أباح الله لكم دون ما حرمه عليكم من إتيانها وهي صائمة أو محرمة أو معتكفة، ذكره الزجاج . وقال الفراء : لو أراد الفرج لقال في حيث، فلما قال : «من حيث» علمنا أنه أراد من الجهة الذي أمركم الله بها .

وقال غيره : إنما قال : «من حيث» ولم يقل في حيث، لأن (من) لابتداء الغاية في الفعل، نحو قولك : ائت زيداً من مأتاه أي من الوجه الذي يؤتى منه .

وقوله : «يحب التوابين ويحب المتطهرين» قال عطا : المتطهرين بالماء . وقال مجاهد : المتطهرين من الذنوب، والأول مروي في سبب نزول هذه الآية، والمعنى يتناول الأمرين . وإنما قال : «المتطهرين» ولم يقل المتطهرات، لأن المؤنث يدخل في المذكر، لتغليبه عليه .

قوله تعالى :

نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) آية واحدة بلا خلاف .

قيل في معنى قوله : «حرث لكم» قولان :

أحدها ـ أن معناه : مزرع أولادكم، كأنه قيل : محترث لكم، في قول ابن عباس، والسدي، وإنما الحرث : الزرع في الاصل .

والقول الثاني : نساؤكم ذو حرث لكم، فأتوا موضع حرثكم أنى شئتم،

(١) سورة المائدة آية : ٣ .
(٢) سورة الجمعة آية : ١٠ .

ذكره الزجاج . وقيل : الحرث كناية عن النكاح على وجه التشبيه .

وقوله : « أنى شئتم » معناه : من أين شئتم ـ في قول قتادة ، والربيع ـ وقال مجاهد : معناه كيف شئتم . وقال الضحاك معناه متى شئتم ، وهذا خطأ عند جميع المفسرين ، وأهل اللغة ، لأن (أنى) لا يكون إلا بمعنى من أين ، كما قال : « أنى لك هذا قالت هو من عند الله » (١) . وقال بعضهم : معناه من أي وجه واستشهد بقول الكميت بن زيد :

أنى ومن أين آبك الطرب من حيث لا صبوة ولا ريب(٢)

وهذا لا شاهد فيه ، لأنه يجوز أن يكون أتى به ، لاختلاف اللفظين ، كما يقولون : متى كان هذا وأي وقت كان ، ويجوز أن يكون بمعنى كيف . وتأول مالك ، فقال : « أنى شئتم » تفيد جواز الاتيان في الدبر ، ورواه عن نافع عن أبي عمرو ، وحكاه زيد بن أسلم عن محمد بن المنكدر ، وروي من طرق جماعة عن ابن عمر ، وبه قال أكثر أصحابنا ، وخالف في ذلك جميع الفقهاء ، والمفسرين ، وقالوا : هذا لا يجوز من وجوه :

أحدها ـ أن الدبر ليس بحرث ، لأنه لا يكون فيه الولد . وهذا ليس بشيء لأنه لا يمتنع أن تسمى النساء حرثاً ، لانه يكون منهن الولد ، ثم يبيح الوطء فيما لا يكون منه الولد ، يدل على ذلك أنه لا خلاف أنه يجوز الوطء بين الفخذين وإن لم يكن هناك ولد .

وثانيها ـ قالوا : قال الله : « فأتوهن من حيث أمركم الله » وهو الفرج ، والاجماع على أن الآية الثانية ليست بناسخة للأولى . وهذا أيضاً لا دلالة فيه ، لأن قوله : « من حيث أمركم الله » معناه : من حيث أباح الله لكم ، أو من الجهة التي شرعها لكم ، على ما حكيناه عن الزجاج ، ويدخل في ذلك الموضعان معاً .

« ١ » سورة آل عمران آية : ٣٧ .

« ٢ » الهاشميات : ٤١ . قوله « آبك » معترضة بين كلامين ، كما تقول : « ويحك » وهي بمعنى ويلك . وقيل : أن آبك بمعنى راجعك الطرب .

وثالثها ـ قالوا : إن معناه : من أين شئتم : أي أتوا الفرج من أين شئتم ، وليس في ذلك إباحة لغير الفرج . وهذا ايضاً ضعيف ، لأنا لانسلم أن معناه الفرج ، بل عندنا معناه : ائتوا النساء ، أو أتوا الحرث من أين شئتم ، ويدخل فيه جميع ذلك .

ورابعها ـ قالوا : قوله في المحيض « قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض » فاذا حرم للاذى في الدم ، والأذى بالنجو أعظم منه . وهذا أيضاً ليس بشيء ، لأن هذا حمل الشيء على غيره من غير علة ، على أنه لا يمتنع أن يكون المراد بقوله : « قل هو أذى » غير النجاسة ، بل المراد أن في ذلك مفسدة ، ولا يجوز أن يحمل على غيره إلا بدليل يوجب العلم على أن الأذى بمعنى النجاسة حاصل في البول ، ودم الاستحاضة ومع هذا ، فليس بمنهي عن الوطىء في الفرج .

ويقال : أن هذه الآية نزلت رداً على اليهود ، وأن الرجل إذا أتى المرأة من خلف في قبلها خرج الولد أحول ، فأكذبهم الله في ذلك ، ذكره ابن عباس ، وجابر ، ورواه أيضاً أصحابنا . وقال الحسن : أنكر اليهود إتيان المرأة قائمة ، وباركة ، فأنزل الله إباحته بعد أن يكون في الفرج ، وهو السبب الذي روي ، ولا يمنع أن يكون ما ذكرناه مباحاً ، لأن غاية ما في السبب أن تطابقه الآية ، فأما أن لا تتعداه ، فلا يجب عند أكثر المحصلين (١) .

وقوله : « وقدموا لأنفسكم » أي قدموا الأعمال الصالحة التي أمر الله بها عباده ، ورغبهم فيها ، فتكون ذخراً عند الله .

ووجه اتصال قوله : « وقدموا لانفسكم » بما قبله : أنه لما قدم الأمر بعد أشياء قيل : « قدموا لأنفسكم » بالطاعة فيما أمرتم به ، واتقوا مجاوزة الحد فيما بين لكم ، وفي ذلك الحث على العمل بالواجب الذي عرفوه ، والتحذير من مخالفة ما ألزموه .

وقوله : « وبشر المؤمنين » فالبشارة : الدلالة على ما يظهر به السرور في

« ١ » في المطبوعة « المحطين » .

بشر الوجه .

وقوله : « أنكم ملاقوه » أي اتقوا من معاصيه التي نهاكم عنها ، واتقوا عذابه ، واعلموا أنكم ملاقوا عذابه إن عصيتموه ، وملاقوا ثوابه إن أطعتموه ، وإنما أضافه اليه على ضرب من المجاز ، كما يقول القائل لغيره : ستلقى ما عملت ، وإنما يريد جزاء ما عملت ، فيسمي الجزاء باسم الشيء .

قوله تعالى :

وَلا تَجْعَلوا اللهَ عُرْضَةً لأيْمانِكُمْ أنْ تَبَرُّوا وَتُصْلِحوا بَيْنَ النّاسِ وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ (٢٢٤) آية واحدة بلا خلاف .

المعنى :

قيل في معنى قوله : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » ثلاثة أقوال :

أحدها ـ أن العرضة : علة ، كأنه قال لا تجعلوا اليمين بالله علة مانعة من البرّ ، والتقوى : من حيث تتعمدوا ، لتعتلوا بها ، وتقولوا : قد حلفنا بالله ، ولم تحلفوا به ، هذا قول الحسن ، وطاووس ، وقتادة ، وأصله ـ في هذا الوجه ـ الاعتراض به بينكم وبين البرّ والتقوى ، للامتناع منهما ، لأنه قد يكون المعترض بين الشيئين مانعاً من وصول أحدهما الى الآخر ، فالعلة مانعة كهذا المعترض . وقيل : العرضة : المعترض ، قال الشاعر :

لا تجعليني عرضة اللوائم

الثاني ـ « عرضة » : حجة ، كأنه قال لا تجعلوا اليمين بالله حجة في المنع « أن تبروا وتتقوا » بأن تكونوا قد سلف منكم يمين ثم يظهر أن غيرها خير منها ، فافعلوا الذي هو خير ، ولا تحتجوا بما سلف من اليمين ، وهو قول ابن عباس ، ومجاهد ، والربيع ، والأصل في هذا القول والأول واحد ، لأنه منع من جهة الاعتراض بعلة أو حجة . وقال بعضهم : إن أصل عرضة : قوة ، فكأنه قيل : ولا تجعلوا الحلف بالله قوة لأيمانكم في ألا تبرّوا وأنشد لكعب بن زهير :

من كل نّضاحة الذّفرى إذا عرقت عُرضتها طامس الاعلام مجهول (١)

وعلى هذا يكون الأصل العرض ، لأن بالقوة يتصرف في العرض والطول ، فالقوة : عرضة لذلك .

الثالث ـ بمعنى : ولا تجعلوا اليمين بالله مبتذلة في كل حق وباطل ، لأن تبرّوا في الحلف بها ، واتقوا المآثم فيها ، وهو المروي عن عائشة ، لأنها قالت : لا تحلفوا به وإن بررتم ، وبه قال الجبائي ، وهو المروي عن أئمتنا (ع) وأصله على هذا معترض بالبذل : لا تبذل يمينك في كل حق وباطل . فأما في الأصل ، فمعترض بالمنع أي لا يعترض بها مانعاً من البرّ ، والتقوى ، فتقدير الأول : لا تجعل الله مانعاً من البرّ والتقوى باعتراضك به حالفاً ، وتقدير الثاني : لا تجعل الله مما تحلف به دائماً باعتراضك بالحلف في كل حق وباطل ، لأن تكون من البررة ، والأتقياء .

اللغة :

واليمين ، والقسم ، والحلف واحد . واليمنية : ضرب من برود اليمن . وأخذ يمنة ، ويسرة . ويُمن يمن يمناً ، فهو ميمون . ويمن ، فهو ميمن : إذا أتى باليمن ، والبركة . وتيمن به تيمناً ، وتيامن تيامناً . واليمين خلاف الشمال ، وأصل الباب اليمن ، والبركة .

المعنى :

وقوله : « أن تبروا » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ « أن تبروا » : لأن تبروا على معنى الاثبات .

الثاني ـ أن يكون على معنى لدفع أن تبروا ، أو لترك أن تبروا ـ في قول

« ١ » ديوانه : ٩ ، واللسان « عرض » . نضح الرجل بالعرق نضحاً : نض بـه حتى سال سيلا ، ونضاحة : شديدة النضح . والذفرى : الموضع الذي يعرق خلف الاذن ، وهومن كل حيوان حتى الانسان وهو العظم الشاخص خلف الاذن . والطامس : الدارس الذي أمحي أثره . والاعلام : أعلام الطريق . وأرض مجهولة . اذا كان لا أعلام فيها ولا جبال . يقول : اذا نزلت هذه المجاهل ، عرفت حينئذ قوتها وشدتها وصبرها على العطش والسير في الملوات .

أبي العباس .

الثالث ـ على تقدير : ألاّ تبروا ، وحذفت (لا) لأنه في معنى القسم كما قال امرؤ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولوقطعوا رأسي لديك وأوصالي(١)

أي لا أبرح ، هذا قول أبي عبيد ، وأنكر أبو العباس هذا ، لأنه لما كان معه (أن) ، بطل أن يكون جواباً للقسم ، وإنما يجوز (والله أقم) في القسم بمعنى لا أقوم ، لأنه لو كان إثباتاً ، لقال لأقومن ، باللام والنون . والمعنى في قول أبي العباس ، وأبي عبيد واحد ، والتقدير مختلف ، فحمله أبو العباس على ماله نظير من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وأنكر قياسه على ما يشبهه .

الإعراب :

وفي موضع أن تبروا ثلاثة أقوال :

قال الخليل ، والكسائي : موضعه الخفض بحذف اللام مع أن خاصة .

الثاني ـ قال سيبويه ، وأكثر النحويين : إن موضعه النصب ، لأنه لما حذف المضاف وصل الفعل وهو القياس .

الثالث ـ قال قوم : موضعه الرفع على « أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » أولى ، وحذف ، لأنه معلوم المعنى ، أجاز ذلك الزجاج وإنما حذف اللام جاز مع (أن) ،ولم يجزمع المصدر ، لأن (أن) يصلح معها الماضي ، والمستقبل ، نحو قولك جئتك أن ضربت زيداً ، وجئتك أن تضرب زيداً ، والمصدر ليس كذلك ، كقولك : جئتك لضرب زيد ، فمعنى ذلك : أنه لما وصل بالفعل ، احتمل الحذف كما يحتمل (الذي) وإذا وصل بالفعل من حذف ضمير المفعول ،مالا يحتمله الألف واللام إذا وصل بالاسم ، نحو الذي ضربت زيد : يريد ضربته . فأما الضاربه أنا زيد ، فلا يحسن إلا بالهاء ، وذلك لأن الفعل أثقل ، فهو بالحذف أولى . ويجوز أن

(١) ديوانه : ١٤١ .

يكون لما صلح للأمرين كثير في الاستعمال ، فكان بالحذف أولى مما قل منه .
وقال الزجاج إنما جاز حذف اللام مع (أن) ، ولم يجز مع المصدر ، لأن (أن) إذا وصلت ، دل بما بعدها على الاستقبال ، والمعنى تقول : جئتك أن ضربت زيداً ، وجئتك أن تضرب زيداً ، فلذلك جاز حذف اللام ، فاذا قلت : جئتك ضرب زيد ، لم يدل الضرب على مضي ولا إستقبال .

المعنى :

فاذا حلف لا يعطي من معروفه ، ثم رأى أن برّه خيراً ، أعطاه ، ونقض يمينه . وعندنا لا كفارة عليه ، وإنما جاز ذلك ، لأنه لا يخلو من أن يكون حلف يميناً جائزة أو غير جائزة ، فان كانت جائزة ، فهي مقيدة بأن لا يرى ما هو خير ، فليس في هذا مناقضة للجائزة ، وإن كانت غير جائزة ، فنقضها غير مكروه .

وقوله : « والله سميع عليم » معناه : أنه سميع ليمينه ، عليم بنيته فيه ، وفي ذلك تذكير ، وتحذير .

قوله تعالى :

لا يُؤآخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغوِ في أَيمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلوبُكُمْ واللهُ غَفورٌ حَليمٌ (٢٢٥) آية .

المعنى :

اختلفوا في يمين اللغو في هذه الآية ، فقال ابن عباس ، وعائشة ، والشعبي : هو ما يجري على عادة اللسان : من لا والله ، وبلى والله من غير عقد على يمين يقتطع بها مال ، يظلم بها أحد ، وهو المروي عن أبي جعفر ، وأبي عبد الله (ع) . وقال الحسن ، ومجاهد ، وابراهيم : هي يمين الظانّ ، وهو يرى أنه حلف ، فلا إثم عليه ، ولا كفارة . روي أيضاً عن ابن عباس ، وطاووس : أنها يمين الغضبان ، لا يؤاخذ بالحنث فيها ، وبه قال سعيد بن جبير ، إلا أنه أوجب فيها الكفارة . وقال مسروق

كل يمين ليس له الوفاء بها ، فهي لغو ولا يجب فيها كفارة . وقال الضحاك : روي ايضاً عن ابن عباس : أن لغو اليمين ما يجب فيه الكفارة . وروي عن إبراهيم : أنها يمين الناسي إذا حنث . وقال زيد بن أسلم : هو قول الرجل : أعمى الله بصري ، أو أهلك الله مالي ، فيدعو على نفسه .

اللغة :

وأصل اللغو : هو الكلام الذي لا فائدة فيه ، وكل يمين جرت مجرى مالا فائدة فيه حتى صارت بمنزلة ما لم يقع ، فهي لغو ، ولا شيء فيها ، وهو اختيار الرماني . تقول : لغا يلغو لغواً : إذا أتى بكلام . وألغى إلغاء : إذا أطرح الكلام ، لأنه لا فائدة فيه . وقوله : « والغوا فيه » معناه : ارفعوا الصوت بكلام لا فائدة فيه . والحساب الذي يلغى : أي يطرح ، لأنه بمنزلة كلام لا فائدة فيه . ولاغية : كلمة قبيحة فاحشة ، ومنه اللغا ، لأنها كلام لا فائدة فيه عند غير أهله ، وهو مشتق من لغا الطائر ، وهو منطقه ، وقال ابن صفير المازني :

باكرتم بسباء جونٍ ذارعٍ   قبل الصباح وقبل لغو الطائر (١)

المعنى :

الأيمان على ضربين : أحدها لا كفارة فيها . والثاني ـ يجب فيها الكفارة ، فما لا كفارة فيه : هو اليمين على الماضي إذا كان كاذباً فيه ، مثل أن يحلف أنه ما فعل ، وكان فعل أو (٢) أن يحلف أنه فعل ، وما كان فعل ، فهاتان لا كفارة فيهما ـ عندنا ـ وكذلك إذا حلف على مال ، ليقتطعه كاذباً ، فلا كفارة عليه ، ويلزمه الخروج مما حلف عليه ، والتوبة ، وهي اليمين الغموس ، وفي هذه أيضاً خلاف ، ومنها أن يحلف على أمر فعل ، أو ترك ، وكان خلاف ما حلف عليه أولى

« ١ » اللسان (لغا) في المطبوعة (بسبأ) بدل (بسباء) و (الصياح) بدل (الصباح) و « رزاع » بدل « ذارع » وكل ذلك تحريف . باكرتم بسباء : أي بشرب الخمرة .
« ٢ » في المطبوعة « أو » ساقطة .

من المقام عليه ، فليخالف ، ولا كفارة عليه ـ عندنا ـ وفيه خلاف عند أكثر الفقهاء . وما فيه كفارة ، فهو أن يحلف على أن يفعل ، أو يترك وكان الوفاء به إمّا واجباً أو ندباً أو كان فعله ، وتركه سواء ، فمتى خالف كان عليه الكفارة ، وقد بينا أمثلة ذلك في النهاية في الفقه . وقال الحسن : الأيمان على ثلاثة أقسام : منها أن يحلف على أمر ، وهو يرى أنه على ما حلف ، فهذا هو اللغو ، لا عقوبة فيه ، ولا كفارة . ومنها : أن يحلف على أمر ، وهو يعلم أنه كاذب ، فهذا آثم فاجر عليه التوبة ، ولا كفارة عليه . ومنها أن يحلف : لا يفعل كذا ، فيفعل ، أو يحلف : ليفعلن ، ولا يفعل ، ففي ذلك الكفارة . وكان يقول : إذا حلف على مملوك ، أو على حرّ ، فقال : والله لتأكلن من هذا الطعام ، فلم يأكل ، فعليه الكفارة . وقال : اليمين على أربعة أوجه ـ في قول أكثر الفقهاء : اثنتان : لا كفارة فيها ، واثنتان : فيها الكفارة ، فالأول ـ قول الرجل : والله ما فعلت ، وقد فعل ، وقوله : والله لقد فعلت ، وما فعل ، فهاتان لا كفارة فيهما ، لأنه لا حنث فيهما . والثاني ـ قول الحالف : والله لا فعلت ، ثم يفعل . وقوله : والله لأفعلن ، ثم لا يفعل ، فهاتان فيهما الكفارة . وقد بينا الخلاف في خلاف الفقهاء .

اللغة :

والفرق بين اللغا ، واللغو ، أن اللغا : الذكر بالكلام القبيح . لغيت ألغي لغاً ، قال العجاج :

وربّ أسراب حجيج كظّم   عن اللغا ورفث التكلم (١)

وجواب اليمين على أربعة أقسام : اللام ، وما ، وإنّ ، ولا ، نحو : والله لآتينك ، والله ما فعلت ، والله إنه لكاذب ، والله لا كلمته .

وقوله : « والله غفور حليم » فالحلم الامهال بتأخير العقاب (٢) على الذنب ، تقول : حلم حلماً ، وتحلّم تحلماً ، وحلّمه تحليماً . وحلم في نومه حلماً : إذا رأى

« ١ » مر تخريجه في ٢ : ١٣٢ .

« ٢ » في المطبوعة « العقل » .

الأحلام ، ومنه « أضغاث أحلام » (١) . والحلم الرؤيا في النوم ، ومنه الاحتلام . والحَلَم : ما عظم من القردان ، والواحد حَلَمة ، لأنه كحلمة (٢) الثدي ، وحلمة الثدي ، لأنها تحلم المرتضع . والحلمة : شجرة السعدان ، وهي من أفضل المرعى . وتحلمت الضباب : إذا سمنت لأنه يكسبها دعة كدعة الحلم . والحلام : الجدي ، وأصل الباب الحلم : الأناة . وأما حَلِم الاديم اذا نغل (٣) فلأنه وقع فيه الحلم .

قوله تعالى :

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) آية واحدة بلا خلاف .

اللغة :

قوله : « يؤلون » معناه : يحلفون ـ بلا خلاف بين أهل التأويل ـ وهو المروي عن سعيد بن المسيب وهو مأخوذ من الألية قال الشاعر :

كفينا من تغيّب من نزار وأحنثنا إليّة مقسمينا (٤)

ويقال : ألى الرجل ـ من إمرأته ـ يؤلي إيلاء ، وألية ، وألوّة ، وهو الحلف قال الأعشى :

إني أليت على حلفة ولم أقلها سحر الساحر (٥)

وجمع أليّة : ألايا ، وأليّات ، كعشية ، وعشايا ، وعشيات ، فأما جمع ألوّة ، فألايا ، كركوبة وركائب ، وجمع ألية : آلاء كصحيفة ، وصحائف ، ومنه ائتلى يأتلي

« ١ » سورة يوسف آية : ٤٤ .

« ٢ » في المطبوعة « كجلمة » .

« ٣ » حلم ـ بفتح الحاء وكسر اللام ـ ونغل الاديم : فسد في دباغته .

« ٤ » تفسير الطبري ٤ : ٤٥٦ وروايته « في تراب » بدل « من نزار » وفي مجمع البيان طبع صيدا ١ : ٣٣٢ « من نزار » كما ذكر الشيخ سواء . وقد اعترف محقق الطبري أنه بدل « من » بـ « في » وكانت في المخطوطة والمطبوعة عنده « من » .

« ٥ » ديوانه : ١٤٣ رقم القصيدة : ١٨ . وروايته « ولم اقله عثر العاثر » بدل « ولم أقلها سحر الساحر » .

اءتلاء ، وفي التنزيل « ولا يأتل أولوا الفضل منكم » (١) ، وتقول : لا تألوا أليا ، وألوّ ، نحو العتي ، والعتوّ . وما ألوت جهداً ، ولا ألوته نصحاً ، أوغشا ، ومنه قوله : « لا يألونكم خبالا » (٢) ، وقال الشاعر :

نحن فصلنا جهدنا لم نأتله

أي لم نقصر . وأصل الباب التقصير ، فإنه لا يألوا جهداً ، ومنه الألية : اليمين ، لأنها لنفي التقصير . وعود ألوة ، وألوة : أجود العمود ، لأنه خالص .

المعنى :

والايلاء في الآية : المراد به : اعتزل النساء ، وترك جماعهن على وجه الاضرار بهن ، وكأنه قيل : « للذين يألون » أن يعتزلوا نساءهم « تربص أربعة أشهر » منهم ، واليمين التي يكون بها الرجل مؤلياً : هي اليمين بالله عزّ وجلّ ، أو بشيء من صفاته التي لا يشركه فيها غيره ، على وجه لا يقع موقع اللغو الذي لا فائدة فيه ، ويكون الحلف على الامتناع من الجماع على جهة الغضب ، والضرار ، وهو المروي عن علي (ع) ، وابن عباس ، والحسن . وقال ابراهيم ، وابن سيرين ، والشعبي : في الغضب . وقال سعيد بن المسيب : هو في الجماع ، وغيره من الضرار ، نحو الحلف ألاّ يكلمها .

اللغة :

والتربصّ بالشيء انتظارك به خيراً ، أو شراً يحل ، وتقول : تربصت بالشيء تربصاً ، وربصت به ربصاً ، ومنه قوله : « فتربصوا به حتى حين » (٣) و « نتربص به ريب المنون » (٤) قال الشاعر :

تربص بها ريب المنون لعلّها تطلّق يوماً أو يموت حليلها (٥)

ومالي على هذا الأمر ربصة : أي تلبث ، وأصله الانتظار .

وقوله : « فان فاءوا » معناه : فان رجعوا ، ومنه قوله : « حتى تفيء الى أمر

« ١ » سورة النور آية : ٢٢ . « ٢ » سورة آل عمران آية : ١١٨ .
« ٣ » سورة المؤمن آية ٢٥ . « ٤ » سورة الطور آية : ٣٠ .
« ٥ » اللسان (ربص) في المطبوعة (خليلها) بدل « حليلها » . والمعنى فيهما واحد .

الله » (١) أي ترجع من الخطأ الى الصواب . والفرق بين الفيء والظل : ما قال المبرد : إن الفيء ما نسخ الشمس ، لأنه هو الراجع ، وأما الظل : فما لا شمس فيه . وكل فيء ظل ، وليس كل ظل فيء ، ولذلك أهل الجنة في ظل ، لا في فيء ، لأنه لا شمس فيها ، كما قال الله تعالى : « وظل ممدود » (٢) . وجمع الفيء أفياء ، تقول: فاء الفيء : إذا تحول عن جهة الغداة برجوع الشمس عنه . وتفيأت في الشجر ، وفيأت الشجرة . والفيء : غنائم المشركين ، أفاء الله علينا فيهم ، لأنه من رجع الشيء الى حقه ، والفيء الرجوع عن الغضب . إن فلاناً لسريع الفيء من غضبه .

المعنى :

فان قيل : ما الذي يكون المولى به فايئاً ؟ قيل ـ عندنا ـ : يكون فايئاً بأن يجامع ، وبه قال ابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن المسيب . وقال الحسن ، وابراهيم ، وعلقمة : يكون فايئاً بالعزم في حال العذر إلا أنه ينبغي أن يشهد على فيئه ، وهذا يكون ـ عندنا ـ للمضطر الذي لا يقدر على الجماع ، ويجب على الفايء ـ عندنا ـ الكفارة ، وبه قال ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وقتادة ، ولا عقوبة عليه ، وهو المروي عن أبي جعفر ، وأبي عبدالله (ع) . وقال الحسن ، وابراهيم : لا كفارة عليه ، لقوله : « فان فاؤوا فان الله غفور رحيم » : أي لا يتبعه بكفارة ، ولا عقوبة .

الاعراب :

ويجوز في « تربص أربعة أشهر » ثلاثة أوجه : الجر بالاضافة ، وعليه جميع القراء . ويجوز النصب ، والرفع في العربية « تربص أربعة أشهر » كما قال : « ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً » (٣) أي يكفتهم (٤) أحياء ، وأمواتاً ، و « تربص أربعة أشهر » كقوله : « فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله » (٥)

« ١ » سورة الحجرات آية : ٩ .
« ٢ » سورة الواقعة آية : ٣٠ .
« ٣ » سورة المرسلات آية : ٢٥ ـ ٢٦ .
« ٤ » في المطبوعة يكفيهم
« ٥ » سورة النور آية : ٦ .

ومثله « فجزاء مثل ما قتل من النعم » (١) . وإنما جعل اختصاص الايلاء بحال الغضب ، لأن مدة التربص جعل فسحة للمرأة في التخلص من المضارة ، فاذا لم يكن ضرار لم يصح إيلاء . ومن لم يخص بحال الغضب ، حمله على عموم الايلاء ، وهو الأقوى . ومتى حلف بغير الله في الايلاء ، فلا تنعقد يمينه ، ولا يكون مؤلياً . وقال الجبائي : إذا حلف بما يلزمه فيه عزم ، نحو الصدقة ، أو الطلاق ، أو العتاق ، فهو إيلاء ، وإلا ، فهو لغو ، نحو قوله : وحياتك ، وما أشبهه . وقال الشافعي : لا إيلاء إلا بالله ، كما قلناه . ومتى حلف ألا يجامع أقل من أربعة أشهر ، لا يكون مؤلياً ، لأن الايلاء على أربعة أشهر ، أو أكثر . ومتى حلف ألا يقربها ، وهي مرضعة خوفاً من أن تحبل ، فيضر ذلك بولدها ، لا يلزمه حكم الايلاء ، وهو المروي عن علي (ع) ، وبه قال الحسن ، وابن شهاب . ويجوز أن يكون في الآية تقديم ، وتأخير ، ويكون تقديره « للذين يؤلون » « تربص أربعة أشهر » « من نسائهم » . ويجوز أن يكون معناه : « للذين يؤلون من » أجل « نسائهم تربص أربعة أشهر » كما تقول : غضبت لفلان : أي من أجل فلان . وإذا مضت أربعة أشهر لم تبن منه إلا بطلاق ، ويلزمه الحاكم ، إما الرجوع والكفارة ، وإما الطلاق ، فان امتنع حبسه حتى يفيء ، أو يطلق . وفيه خلاف .

قوله تعالى :

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) آية واحدة .

المعنى :

عزيمة الطلاق في الحكم ـ عندنا ـ أن يعزم ، ثم يتلفظ بالطلاق ، ومتى لم يتلفظ بالطلاق بعد مضي أربعة أشهر ، فان المرأة لا تبين منه إلا أن تستدعي ، فان استدعت ، ضرب الحاكم مدة أربعة أشهر ثم توقف بعد أربعة أشهر ، فيقال له : فيء

« ١ » سورة المائدة آية ٩٨ .

أو طلق ، فان لم يفعل ،حبسه حتى يطلق ، ومثل هذا قال أهل المدينة غير أنهم قالوا : متى امتنع من الطلاق والفيأة ، طلق عنه الحاكم طلقة رجعية . وقال أهل العراق : الايلاء : أن يحلف ألاّ يجامعها أربعة أشهر فصاعداً ، فاذا مضت أربعة أشهر فلم يقربها ، بانت منه بتطليقة لا رجعة له عليها ، وعليها عدة ثلاث حيض ، يخطبها في العدة ، ولا يخطبها غيره ، فان فاء قبل أربعة أشهر : أي إن جامع ، كفر يمينه ، وهي امرأته . وقال الحسن ، وقتادة ، وابن مسعود ، وابراهيم ، وابن عباس ، وحماد : هو مضي أربعة أشهر قبل أن يفيء من غير عذر .

اللغة :

والعزم : هو العقد على فعل شيء في مستقبل الوقت . والعزم على الشيء هو إرادته له : إذا كانت مقدمة للفعل بأكثر من وقت واحد ، وتكون متعلقة بفعل العازم ، ولا يدخل بينهما ، وبين الفعل سهو ، ولا نسيان . يقال : عزم عزماً : إذا عقد على أن يفعل الشيء ، واعتزم اعتزاماً . وعزمت عليك لتفعلن : أي أقسمت . وعزم الراقي : كأنه أقسم على الداء . ورجل ماضي العزم : حاد في أمره . وما لفلان عزيمة : أي ما يثبت على أمر ، لتلونه ، ومنه قوله : « فاصبر كما صبر ألو العزم من الرسل » (١) . وعزائم القرآن التي تقرأ على ذوي الآفات ، لما يرجى من البرء بها . وأصل الباب العزم على العقد على الشيء .

والطلاق : حل عقدة النكاح بما يوجبه في الشريعة . تقول : طلقت تطلق طلاقاً ، فهي طالق ـ بلا علامة التأنيث ، حكاه الزجاج . وقال قوم : لأنه يختص بالمؤنث . قال الزجاج : هذا ليس بشيء ، لأن في الكلام شيئاً كثيراً يشترك فيه المؤنث ، والمذكر ـ بلا علامة التأنيث ـ نحو قولهم : بعير ضامر ، وناقة ضامر ، وبعير ساعل ، وناقة ساعل . وزعم سيبويه ، وأصحابه : أن هذا واقع على لفظ التذكير صفة للمؤنث ، لأن المعنى : هي طالق حقيقة ـ عندهم ـ أنه على جهة

« ١ » سورة الاحقاف آية : ٣٥

النسب ، نحو قولهم : إمرأة مذكار ، ورجل مذكار ، ورجل مئناث ، وامرأة مئناث ، ومعناه : ذات ذُكرانٍ ، وذات أناث ، وكذلك مطفل: ذات طفل ، وكذلك طالق: ذات طلاق . فان أجريته على الفعل قلت طالقة ، قال الشاعر :

أيا جارتا بيني فانك طالقه ! كذاكِ أمور الناس غاد وطارقه(١)

تقول : طلقها ، وتطلق تطلقاً ، وأطلق إطلاقاً ، واستطلق استطلاقاً ، وانطلق انطلاقاً ، وتطلقت المرأة عند الولادة ، فهي مطلوقة إذا تمخضت . والطلق : الشوط من الجري . والطلق : قيد من قدّم أو عقب (٢) تقيد به الابل . ورجل طلق الوجه : بهلول ضحاك . ويوم طلق إذا لم يكن فيه حرّ ، ولا قرّ . والطليق : الأسير يخلى عنه ورجل طلق اليدين : سمح بالعطاء . والطلق : الحبل الشديد الفتل ، يقوّم قيّام . وأصل الباب الانطلاق ، والطلاق ، لانطلاق المرأة فيه على عقدة النكاح .

المعنى :

والطلاق بعد الايلاء ، والايقاف يكون واحدة رجعية ، وبه قال سعيد بن المسيب ، وابن عمر . وقال الحسن وابن مسعود ، وابن عباس : تكون بائنة .

وقوله : «فان الله سميع عليم» فيه دلالة على الأخذ بالفيء أو الطلاق ، لأنه بمعنى . أن الله يسمع قوله ، ويعلم ضميره . وقيل : بل هو راجع الى يسمع الايلاء ، ويعلم بنيته ، وكلاهما يحتمل في اللغة ـ على قول الزجاج ـ وحقيقة السميع : هو من كان على صفة يجب لأجلها أن يدرك المسموعات إذا وجدت . وهو يرجع الى كونه حياً لا آفة به (٣) . والسامع : هو المدرك . والله تعالى يوصف بما لم يزل بأنه

«١» قائله الاعشى . ديوانه : ٢٦٣ رقم القصيدة : ٤١ واللسان «طلق» قالها لأمرأته الهزانية حين فارقها بيني : فارقي . غاد : يأتي غدوة في الصباح . والطارق : الذي يطرق أي يأتي ليلا .

«٢» هكذا في المطبوعة وفي اللسان (طلق) الطلق ـ بالتحريك ـ قيد من جلود ، والطلق ـ بالتحريك ـ قيد من أدم .

«٣» في المطبوعة (لا حربه) بدل (حياً لا آفة به) .

سميع ، ولا يوصف فيما لم يزل بأنه سامع ، وإنما يوصف بأنه سامع إذا وجدت المسموعات . وإنما ذكر عقيب الأول « أن الله غفور رحيم » لأنه لما أخبر عن المولى أنه يلزمه الفيء ، أو الطلاق بين أنه إن فاء « فان الله غفور رحيم » بأن يقبل رجوعه ، ولا يتبعه بعقاب ما ارتكبه . وذكر هاهنا أنه « سميع عليم » لما أخبر عنه بايقاع الطلاق ، وكان ذلك مما يسمع ، أخبر أنه لا يخفى عليه ، وأنه يسمعه ، لأنه على صفة يوجب إدراكه لذلك ، وأنه عالم ببيانه ، فلا الذي ذكر في الآية الأولى يليق بهذه الآية ، ولا الذي ذكرها هنا يليق هناك ، وذلك من عظم فصاحة القرآن ، وجلالة مواقعه .

قوله تعالى :

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) آية بلا خلاف .

المعنى :

القرؤ : الطهر ـ عندنا ـ وبه قال زيد بن ثابت ، وعائشة ، وابن عمر ، وسالم ، وأهل الحجاز . وروي عن ابن عباس ، وابن مسعود ، والحسن ، وبه قال أهل العراق ، ورووه عن علي (ع) أنه الحيض .

اللغة :

وأصل القرء يحتمل وجهين في اللغة :

أحدهما ـ الاجتماع ، فمنه قرأت القرآن ، لاجتماع حروفه ، ومنه قولهم :

ما قرأت الناقة سلاً قط : أي لم تجمع رحمها على ولد قط . قال عمرو بن كلثوم :

ذراعي عيطلٍ أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا (١)

ومنه أقرأت النجوم : إذا اجتمعت في الافول ، فعلى هذا ، يقال : أقرأت المرأة : إذا حاضت ، فهي مقرىء ، في قول الأصمعي ، والأخفش ، والكسائي والفراء ، وأنشدوا له :

قروؤ كقروؤ الحائض

فتأويل ذلك : إجتماع الدم في الرحم . ويجيء على هذا الأصل أن يكون القرأ : الطهر ، لاجتماع الدم في جملة البدن ، هذا قول الزجاج .

والوجه الثاني ـ أن يكون أصل القرء : وقت الفعل الذي يجرى على آخر عادة ، في قول أبي عمرو بن العلاء ، وقال : هو يصلح للحيض ، والطهر ، يقال : هذا قارىء الرياح أي وقت هبوبها قال الشاعر :

شنئت العقر عقر بني شليل إذا هبت لقارئها الرياح (٢)

أي لوقت شدة بردها ، وقال آخر :

رجا أياس أن تؤوب ولا أذى إياساً لقرؤ الغائبين يؤوب (٣)

أي لحين الغائبين ، فعلى هذا يكون القرؤ الحيض ، لأنه وقت اجتماع الدم في الرحم على العادة المعروفة فيه ، ويكون الطهر ، لأنه وقت ارتفاعه على عادة جارية فيه ، قال الأعشى في الطهر :

وفي كل عام أنت جاشم غزوة تشد لاقصاها عزيم عزائكا

« ١ » اللسان (عطل) (قرأ) وقد رواه الجوهري برواية أخرى وهي :

ذراعي عيطل أدماء بكر تربعت الأماعز والمتونا

وفي المطبوعة « اللوم » بدل « اللون » وهو تصحيف ، والعيطل : طويل العنق من الابل وغيرها . والأدماء من الأبل البيضاء ، وكذلك هجان اللون أي بيض اللون . ولم تقرأ جنينا : أي لم تجمع رحمها على جنين ، وهو الولد .

« ٢ » قائله مالك ابن الحرث الهذلي ، ديوان الهذليين ٣ : ٨٣ . واللسان (قرأ) شنئت : أي كرهت ، والعقر : اسم مكان . وشليل : هو جد جرير بن عبدالله البجلي .

« ٣ » لم أجد هذا البيت فيما حضرني من المصادر .

مورثة مالا وفي الحمد رفعة   لما ضاع فيها من قروء نسائكا(١)

والذي ضاع هاهنا الاطهار ، لأنه بعد غيبته ، فيضيع بها طهر النساء ، فلا يطأهن ، والوقت الجاري في الفعل على عادة راجع الى معنى الاجتماع ، وذلك ، لاجتماع الفعل مع الوقت الدائر ، فالاجتماع أصل الباب . وأخذ القرؤ من الوقت رداً له الى فرع ، وكلا الأمرين يحتمل في اللغة .

المعنى ،

ومن خفف الهمزة في « قروء » قال : قرؤ ، ومثله « من يعمل سوءاً » (٢) واستشهد أهل العراق بأشياء يقوى أن المراد الحيض ، منها قوله (ع) في مستحاضة سألته : دعي الصلاة أيام أقرائك . واستشهد أهل المدينة بقوله : « فطلقوهن لعدتهن » (٣) أي طهر لم يجامع فيه كما يقال لغرّة الشهر ، وتأوله غيرهم : لاستقبال عدتهن ، وهو الحيض .

فان قيل : لو كان المراد ـ في الأقراء في الآية ـ الاطهار ، لوجب استيفاء الثلاثة أطهار بكمالها ، كما أن من كانت عدتها بالأشهر ، وجب عليها ثلاثة أشهر على الكمال ، وقد أجمعنا على أنه ـ لو طلقها في آخر يوم الطهر الذي ما قربها فيـــه ، لا يلزمها أكثر من طهرين آخرين ، وذلك دليل على فساد ما قلتموه ! قلنا : تسمى القرآن الكاملان ، وبعض الثالث ثلاثة أقراء ، كما تسمى الشهران وبعض الثالث : ثلاثة أشهر قال الله تعالى : « الحج أشهر معلومات » (٤) وإنما هي شوال ، وذي القعدة ، وبعض من ذي الحجة . وروي عن عائشة أنها قالت : الأقراء الاطهار .

وقوله : « ولا يحلّ لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن » قيل في معناه ثلاثة أقوال : أحدها ـ قال إبراهيم : الحيض . وثانيها ـ قال قتادة : الحبل . وثالثها ـ

« ١ » ديوانه : ٩١ رقم القصيدة : ١١ يمدح بها هوذة بن علي الحنفي ، ومعنى البيتين : لك في كل عام غزوة ، تجمع لها صبرك وجلدك ، فتعودمنها بالغنيمة والمجد الذي يعوضك عما فاتت من البعد عن نسائك .

« ٢ » سورة النساء آية : ١٠٩ ، ١٢٢ .

« ٣ » سورة الطلاق آية : ١   « ٤ » سورة البقرة آية : ١٩٧ .

قال ابن عمر ، والحسن : هو الحبل ، والحيض ، وهو الأقوى لأنه أعم . وإنما لم يحل لهن الكتمان ، لظلم الزوج بمنعه المراجعة ـ في قول ابن عباس ـ . وقال قتادة : لنسبة الولد الى غيره ، كفعل الجاهلية .

اللغة :

وإنما قال : « ثلاثة قروء » ولم يقل : ثلاثة أقرء على جمع القليل ، لأنه لما كانت كل مطلقة يلزمها هذا ، دخله معنى الكثرة فأتى ببناء الكثرة ، للاشعار بذلك ، فالقروء كثيرة إلا أنها ثلاثة في القسمة . ووجه آخر ـ أن بناء الكثير فيه أغلب في الاستعمال ، لأنه على قياس الباب في جمع فعل الكثير ، فأما القليل ، فقياسه ، أفعل دون أفعال ، فصار بمنزلة مالا يعتد به فجاء مجيء قولهم : ثلاثة شسوع ، فاستغني فيه ببناء الكثير عن القليل . ووجه ثالث ـ أن يذهب مذهب الجنس نحو قولهم : ثلاثة كلاب يعنون ثلاثة من الكلاب إذا أريد رفع الايهام .

المعنى :

والشرط بقوله : « إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » معناه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فهذه صفته فيما يلزمه ، لا أنه يلزم المؤمن دون غيره . وخرج ذلك مخرج التهديد . « وبعولتهن أحق بردهن » يعني أزواجهن أحق برجعتهن ، وذلك يختص بالرجعيات وإن كان أول الآية عاماً في جميع المطلقات الرجعية والبائنة . وسمي الزوج بعلا ، لأنه عال على المرأة بملكه لزوجيتها .

اللغة :

تقول : بعل يبعل بعولة ، وهو بعل . وقوله « أتدعون بعلا » (١) أي رباً ، لأنه بمعنى من سميتموه باستعلاء الربوبية تخرصاً ، وقيل أنه صنم . والبعل النخل يشرب بعروقه ، لأنه مستعل على شربه ، وبعل الرجل بأمره إذا ضاق به ذرعاً ،

« ١ » سورة الصافات آية : ١٢٥ .

لأنه علاه منه ماضاق به صدره . وبعل الرجل في معنى بطر ، لأنه استعلى معظماً ، وكبراً . وامرأة بعلة : لا تحسن لبس الثياب ، لأن الحيرة تستعلي عليها ، فتدهشها . وبعل الرجل يبعل بعلا إذا دهش دهشاً .

المعنى :

وقوله : « ولهن مثل الذي عليهن » قال الضحاك : لهن من حسن العشرة بالمعروف على أزواجهن مثل ماعليهن من الطاعة فيما أوجبه الله عليهن لهم . وقال ابن عباس : لهن على أزواجهن من التصنع والتزين مثل ما لأزواجهن عليهن . وقال الطبري : لهن على أزواجهن ترك مضارتهن ، كما أن عليهن لأزواجهن .

وقوله : « وللرّجال عليهن درجة » قيل معناه : فضيلة منها الطاعة ، ومنها أن يملك التخلية ، ومنها زيادة الميراث [على قسم] (١) المرأة ، والجهاد . هذا قول مجاهد ، وقتادة . وقال ابن عباس : منزلة في الأخذ عليها بالفضل في المعاملة حتى قال : ما أحب أن استوفي منها جميع حقي ، ليكون لي عليها الفضيلة .

اللغة :

وتقول : رجل بين الرجولة أي القوة ، وهو أرجلهما أي أقواهما ، وفرس رجيل قوي على المشي . والرّجل معروفة ، لقوتها على المشي . ورجل من جراد أي قطعة منه تشبيهاً بالرجل ، لأنها قطعة من الجملة . والراجل الذي يمشي على رجله . وارتجل الكلام ارتجالا ، لأنه قوي عليه من غير ركوب فكرة ، ولا روية . وترّجل النهار ، لأنه قوي ضياؤه بنزول الشمس الى الأرض . ورجّل شعره إذا طوله ، لأنه قوي بكثرته من غير أن يركب بعضه بعضاً ، فيقلّ في رأي العين . والمرجل معروف . وأصل الباب : القوة .

والدرجة : المنزلة ، تقول : درجت الشيء أدرجه درجاً ، وأدرجته إدراجاً ، ودرج القوم قرناً بعد قرن أي فنوا . وأدرجه الله إدراجاً ، لأنه كطي الشيء

« ١ » مابين القوسين من مجمع البيان ، لأن الجملة لا تتم بدونه .

بمنزلة بعد منزلة والدرج سفيط للطيب ، لأنه بمنزلة ما يدرج فيه . ومدرجة الطريق : قارعته . وأصل الباب الطي ، فالدرجة منزلة من منازل الطي ، ومنه الدرجة التي يرتقى فيها .

المعنى :

وقيل إن في الآية نسخاً ، لأن التي لم يدخل بها ، لا عدة عليها بقوله : « يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات » الى قوله : « فما لكم عليهن من عدة تعتدونها » (١) ولأن الحامل عدتها وضع ما في بطنها بقوله « وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن » . (٢)

قوله تعالى :

الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعروفٍ أَوْ تَسْريحٌ بِإِحسانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَنْ يَخافا أَلاَّ يُقيما حُدودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقيما حُدودَ اللهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فيما افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدودُ اللهِ فَلا تَعْتَدوها وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ (٢٢٩) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ حمزة ، وأبو جعفر « إلا أن يخافا » بضم الياء ، والباقون بفتحها .

المعنى :

قيل في معنى قوله : « الطلاق مرتان » قولان :

أحدها ـ ما قال ابن عباس ، ومجاهد : إن معناه البيان عن تفصيل الطلاق في السنة ، وهو أنه إذا أراد طلاقها فينبغي أن يطلقها في طهر لم يقربها فيه بجماع ،

« ١ » سورة الاحزاب آية : ٤٩ .   « ٢ » سورة الطلاق آية : ٤ .

تطليقة واحدة، ثم يتركها حتى تخرج من العدة ، أو حتى تحيض وتطهر ، ثم يطلقها ثانية .

والثاني ـ ما قاله عروة ، وقتادة : إن معناه البيان عن عـــدد الطلاق الذي يوجب البينونة ، مما لا يوجبها . وفي الآية بيان أنه ليس بعد التطليقتين إلا الفرقة البائنة . وقال الزجاج : في الآية حذف ، لأن التقدير : الطلاق الذي يملك فيــه الرجعة مرتان ، بدلالة قوله : « فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » . والمرتان معناه : دفعتان .

اللغة :

وتقول مرَّ يمر مراً واستمر استمراراً ، وأمرَّه إمراراً وتمرَّر تمرراً ، ومرَّره تمريراً . والمر : خلاف الحلو ، ومنه المرارة ، لأن فيها المرة . والمرة مزاج من أمزجة البدن . والمرة شدة الفتل ، لاستمراره على إحكام . والمرير : الحبل المفتول . وفي التنزيل « ذو مرة فاستوى » (١) أي ذو قوة وشدة . والمرّ الذي يعمل به في الطين وأصل الباب المرور : خلاف الوقوف .

وقوله « فامساك بمعروف » رفع ، ومعناه : فالواجب إمساك عليـه ، وكان يجوز النصب على فليمسك إمساكا ، والامساك خلاف الاطلاق . تقول أمسك إمساكا ، وتمسك تمسكاً ، وتماسك تماسكاً ، وامتسك امتساكاً ، ومسك تمسيكاً ، واستمسك استمساكاً . وفلان ممسك : أي بخيل ، ومابفلان مُسكة ، ولا تماسك : إذا لم يكن فيه خير ، لأنه منحل عن ضبط شيء من أموره . والمسك : الاهاب ، لأنه يمسك البدن باحتوائه عليه . والمسك السواء (٢) ، وسمي باستمساكه في اليد .

المعنى :

وقوله : « معروف » أي على وجه جميل سائغ (٣) في الشرع لا على وجه الاضرار بهن .

« ١ » سورة النجم آية : ٦ .

« ٢ » في مجمع البيان : السواد ، وفي لسان العرب : السوار .

« ٣ » في المطبوعة (سايع) .

وقوله : « أو تسريح باحسان » قيل فيه قولان :

أحدهما ـ أنها الطلقة الثالثة ، وروي عن النبي (ص) أن رجلا سأله ، فقال : الطلاق مرتان فأين الثالثة ؟ فأجابه: أو تسريح باحسان . وقال السدي ، والضحاك : هو ترك المعتدة حتى تبين بانقضاء العدة ، وهو المروي عن أبي جعفر ، وأبي عبدالله (ع) .

اللغة :

والتسريح مأخوذ من السرح ، وهو الانطلاق . تقول : سرح تسريحاً ، وسرّح الماشية في الرعي سرحاً : إذا أطلقها ترعى : والسرحان : الذئب ، لاتباعه السرح . والسرحة : الشجرة المرتفعة ، لانطلاقها في جهة الطول . والمسرّح : المشط ، لاطلاق الشعر به . وسرحت الماشية : إذا انطلقت في المرعى . وسرحت العبد إذا أعتقته . والسرح : الجراد ، لانطلاقه في البلاد ، والسريحة : القطعة من القد يشد بها نقال الابل ، وكل شيء قددته مستطيلا ، فهو سريح .

النزول :

وروي أن هذه الآية نزلت في ثابت بن قيس ، وزوجته ، وردت عليه حديقته ، وطلقها باذن النبي (ص) رواه ابن جريج .

المعنى ، والحجة ، والاعراب :

وقوله : « إلا أن يخافا » معناه : إلا أن يظنا وقال الشاعر :

أتاني كلام عن نصيب بقوله ... وما خفت ياسلاّم أنك عائبي (١)

يعني ما ظننت وأنشد الفراء :

إذا مت فادفني الى جنب كرمة ... تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلات فانني ... أخاف إذا مامت ألا أذوقها (٢)

« ١ » مر تخريجه في ٢ : ١٨٩ . من هذا الكتاب .

« ٢ » قائلهما أبو محجن الثقفي ، ديوانه : ٢٣ ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ١٤٦ وغيرها كثير ، وخبر أبي محجن في الخمر مشهور .

ومن ضم الياء ، فتقديره : إلا أن يخافا على أن لا يقيما حدود الله . وقال أبو عبيدة « إلا أن يخافا » معناه : يوقنا ، « فان خفتم » معناه فان أيقنتم وقال أبو علي الفارسي : خاف فعل يتعدى الى مفعول واحد ، وذلك المفعول تارة يكون (أن) وصلتها ، وأخرى غيرها ، فأما تعديه الى غير (أن) فنحو قوله : « تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » (١) . وتعديته الى (أن) كقوله : « تخافون أن يتخطفكم الناس » (٢) وقوله : « أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله » (٣) فان عديته الى مفعول بأن ضعفت العين ، أو اجتلبت حرف الجر كقولك : خوّفت ضعف الناس قولهم ، وحرف الجر كقوله :

لو خافك الله عليه حرّمه

ومن ذلك قوله : « إنما الشيطان يخوف أولياءه » (٤) فيخوف قد حذف معه مفعول يقتضيه تقديره يخوف المؤمنين بأولياءه ، فحذف المفعول ، والجار ، فوصل الفعل الى المفعول الثاني ، ألا ترى أنه لا يخوف أولياءه على حدّ قولك خوّفت اللصّ ، وإنما يخوف غيرهم مما لا استنصار لديهم ، ومثله فاذا خفت عليه بمنزلة المحذوف من قوله : « أولياءه » فاذا كان تعدي هذا الفعل على ماوصفنا ، فقول حمزة « إلا أن يخافا » ، مستقيم لأنه لما بني الفعل للمفعول به اسند الفعل إليه ، فلم يبق شيء يتعدى إليه ، وأما (أن) من قوله : « ألاّ يقيما حدود الله » ، فان الفعل يتعدى إليه بالجارّ ، كما تعدى بالجارّ في قوله :

لو خافك الله عليه حرمه

وموضع أن في الآية جر بالجارّ المقدر ، على قول الخليل ، والكسائي . ونصب ، في قول سيبويه ، وأصحابه ، لأنه لما حذف الجارّ ، وصل الفعل الى المفعول الثاني ، مثل استغفر الله ذنباً ، وامرأتك الخير ، فقوله مستقيم على ما رأيت . فان قال قائل : لو كان يخافا كما قد أخبره ، لكان ينبغي أن يكون فان خيفا ! قيل لا يلزمه هذا السؤال لأمرين :

« ١ » سورة الروم آية ٢٨ .
« ٢ » سورة الانفال آية : ٢٦ .
« ٣ » سورة النور آية : ٥٥ .
« ٤ » سورة آل عمران آية : ١٧٥ .

أحدها ـ أن يكون انصرف من الغيبة الى الخطاب ، كما قال : « الحمد لله »(١) ثم قال : « إياك نعبد » (٢) ، وقال : « ما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » (٣) ونظائر ذلك كثيرة .

والآخر ـ أن يكون الخطاب في قوله : « فان خفتم » مصروفاً الى الولاة ، والفقهاء الذين يقومون بامور الكافة ، وجاز أن يكون الخطاب للكثرة في من جعله انصرافاً من الغيبة الى الخطاب ، لأن ضمير الاثنين في « يخافا » ليس يراد به اثنان مخصوصان ، وإنما يراد كل من كان هذا شأنه ، فهذا حكمه .

وأما من قرأ بالفتح ، فالمعنى أنه إذا خاف : من كل واحد من الزوج والمرأة « ألا يقيما حدود الله » حل الافتداء ، ولا يحتاج في قولهم الى تقدير الجار ، لأن الفعل يقتضي مفعولا يتعدى إليه ، كما اقتضى في قوله : « فلا تخافوهم وخافون »(٤) ولابدّ من تقدير الجار في قراءة من ضم الياء ، لأن الفعل قد استند الى المفعول ، فلا يتعدى الى المفعول الآخر إلا بالجار . قال أبو علي : فأما ما قاله الفراء في قول حمزة « إلا أن يخافا » من أنه اعتبر قراءة عبدالله « إلا أن تخافوا » فلم ينصبه ، لأن الخوف في قول عبد الله واقع على (أن) . وفي قراءة حمزة على الرجل ، والمرأة ، وحال الخوف التي معه .

المعنى :

« ألا يقيما حدود الله » قال ابن عباس وعروة والضحاك : هو نشوز المرأة بغضا للزوج . وقال الشعبي هو نشوزها ونشوزه ، والذي روي عن أبي عبد الله (ع) أنه إذا خاف أن تعصي الله فيه بارتكاب محضور ، واخلال بواجب ، وألا تطيعه فيما يجب عليها ، فحينئذ يحل له أن يخلعها ، ومثله روي عن الحسن . وقيل : إن الخوف من الاخلال بالحقوق التي تجب لكل واحد منهما على صاحبه ، وحسن العشرة وجميل الصحبة .

« ١ ، ٢ » سورة الفاتحة آية : ١ ، ٤ . « ٣ » سورة الروم آية : ٣٩ .
« ٤ » سورة آل عمران آية : ١٧٥ .

فان قيل كيف قال : « فلا جناح عليهما » ، وإنما الأباحة لأخذ الفدية ! قيل لأنه لو خص بالذكر لأوهم أنها عاصية ، وإن كانت الفدية له جائزة ، فبين الاذن لهما لئلا يوهم أنه كالزنا المحرم على الآخذ ، والمعطي . وذكر الفراء وجهين :

أحدهما ـ أنه قال : هو كقوله « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » (١) وإنما هو من الملح دون العذب ، فجاز الاتساع ، وهذا هو الذي يليق بمذهبنا ، لأن الذي يبيح الخلع ـ عندنا ـ هو ما لولاه ، لكانت المرأة به عاصية .

والوجه الثاني ـ على قوله (ص) : إن أظهرت الصدقة ، فحسن وإن أسررت فحسن ، وإنما على مزاوجة الكلام كقوله « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه » (٢) والثاني ليس بعد ، وإن الفدية الجائزة في الخلع ـ فعندنا ـ إن كان البغض منهـــا ، وحدها وخاف منها العصيان ، جاز أن يأخذ المهر فما زاد عليه ، وإن كان منهما ، فيكون دون المهر . ورووا عن علي (ع) فقط ، ولم يفصلوا ، وبه قال الربيع ، وعطاء والزهري ، والشعبي . وقال ابن عباس ، وابن عمر ، ورجا بن حوة ، وابراهيم ، ومجاهد : إنه يجوز الزيادة على المهر ، والنقصان ، ولم يفصلوا ، والآية غير منسوخة عند أكثر المفسرين ، ابن عباس والحسن ، وجميع أهل العلم إلا بكر بن عبدالله ، فانه زعم أنها منسوخة بقوله « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » (٣) الآية . والخلع بالفدية على ثلاثة أوجه :

أحدها ـ أن تكون المرأة عجوزاً وذميمة ، فيضاربها ليفتدي بها ، فهذا لا يحل له الفدي ، لقوله « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » (٤) الآية .

والثاني ـ أن يرى الرجل إمرأته على فاحشة ، فيضاربها لتفتدي بخلعها ، فهذا يجوز ، وهو معنى قوله « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » (٥) والوجه الثالث :

« أن يخافا ألا يقيما حدود الله » لسوء خلق أو لقلة نفقة من غير ظـلم ، أو

« ١ » سورة الرحمن آية : ٢٢ .
« ٢ » سورة البقرة آية : ١٩٤ .
« ٣ ، ٤ » سورة النساء آية : ١٩
« ٥ » سورة النساء آيه : ١٨ .

نحو ذلك فيجوز الفدية لهما جميعاً على ما فصلناه .

واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، لا يقع ، لأنه قال : « مرتان » ثم ذكر الثالثة على الخلاف في أنها قوله : « أو تسريح باحسان » أو قوله : « فان طلقها » ومن طلق بلفظ واحد لا يكون أتى بالمرتين ، ولا بالثالثة كما أنه لو أوجب في اللعان أربع شهادات : ولو أتى بلفظ واحد لما وقع موقعه . وكما لو رمى تسع حصيات في الجمار دفعة واحدة ، لم يكن مجزياً له ، فكذلك الطلاق ، ومتى ادعوا ، في ذلك خبراً ، فعليهم أن يذكروه ليتكلم عليه ، فأما مسائل الخلع ، وفروعه ، وشروطه فقد ذكرناها في النهاية ، والمبسوط ، فلا معنى للتطويل بذكرها هاهنا لأن المطلوب هاهنا معاني القرآن ، وتأويله دون مسائل الفقه .

قوله تعالى :

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) آية واحدة بلا خلاف .

المعنى :

قوله : « فان طلقها فلا تحل له من بعد » المعني فيه التطليقة الثالثة على ما روي عن أبي جعفر (ع) وبه قال السدي ، والضحاك ، والزجاج ، والجبائي ، والنظام . وقال مجاهد : هو تفسير لقوله : « أو تسريح باحسان » (١) فانه التطليقة الثالثة ، وهو اختيار الطبري .

وصفة الزوج الذي تحل المرأة ، للزوج الأول أن يكون بالغاً ، ويعقد عليها عقداً صحيحاً دائماً ويذوق عسيلتها ، بان يطأها وتذوق هي عسيلته ـ بلا

« ١ » سورة البقرة آية : ٢٢٩

خلاف بين أهل العلم ـ فلا يحل لأحد أن يتزوجها في العدة ، وأما العقود الفاسدة أو عقود الشبهة فانها لا تحل للزوج الاول ، ومتى وطأها بعقد صحيح في زمان يحرم عليه وطؤها مثل أن تكون حائضاً ، أو محرمة ، أو معتكفة ، فانها تحلّ للأول لأن الوطىء قد حصل في نكاح صحيح ، وإنما حرم الوطىء لأمر ، ضار عليه ، هذا عند أكثر أهل العلم . وقال مالك :الوطىء في الحيض لا يحل للأول وإن وجب به المهر كله ، والعدة .

الاعراب :

وموضع (أن) في قوله : « فلا جناح عليهما أن يتراجعا » خفض ، وتقديره في أن يتراجعا ـ عند الخليل ، والكسائي ، والزجاج ـ وقال الفراء : موضعه النصب ، واختاره الزجاج ، وباقي النحويين . وقال الفراء : الخفض لا أعرفه ، وموضع (أن) الثانية في قوله : « أن يقيما حدود الله » نصب ـ بلا خلاف بـ (ظنا) ، وإنما جاز حذف (في) من أن يتراجعا ولم يجز من التراجع ، لأنه إنما جاز مع (أن) لطولها بالصلة ، كما جاز (الذي ضربت زيد) ، لطول الذي بالصلة ، ولم يجز في المصدر ، كما لم يجز في اسم الفاعل نحو (زيد ضارب عمرو) وتريد ضاربه .

المعنى :

وقوله : « فان طلقها » الثانية يعنى به الزوج الثاني وذلك يدل على أن الوطء بعقد لا تحل للزوج الأول ، لأن الطلاق لا يلحق نكاح شبهة . والراجع المذكور هاهنا ، هو بعقد مستأنف ، ومهر جديد ، بلا خلاف .

القراءة :

وقوله : « يبينها » قرأ المفضل عن عاصم بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه . الباقون بالياء ، الكناية عن الله .

المعنى :

قوله : « لقوم يعلمون » إنما خص العلم بذكر البيان وإن كان بياناً لغيرهم ، لأنهم الذين ينتفعون ببيان الآيات ، فصار غيرهم بمنزلة من لم يعتد به . ويجوز أيضاً أن يكونوا خصّوا بالذكر تشريفاً لهم ، كما قال : « من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال » (١) .

والحدود : المراد بها ما تقدم بيانها من أحكام الطلاق ، والايلاء ، والخلع ، وغير ذلك .

وقوله : « إن ظنّا أن يقيما حدود الله » لا يدل على وجوب الاجتهاد في الشريعة ، لأنه لا يمنع من تعلق أحكام كثيرة - في الشرع - في الظن ، وإنما فيه دلالة على ، من قال : لا يجوز : أن يعمل في شيء من الدين إلا على اليقين ، فأما الظن ، فلا يجوز أن يتعلق فيه شيء من الأحكام ، فالآية تبطل قوله .

وقوله : « فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره » يدل على أن النكاح بغير ولي جائز ، وأن المرأة يجوز لها العقد على نفسها ، لأنه أضاف العقد إليها دون وليها .

قوله تعالى :

وَإذا طَلَّقتمُ النِّساءَ فَبلَغنَ أَجلَهُنَّ فَامسِكوهُنَّ بِمَعروفٍ أو سَرِّحوهُنَّ بِمَعروفٍ وَلا تُمسِكوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدوا وَمَنْ يَفعلْ ذَلكَ فَقدْ ظَلمَ نَفسَهُ وَلا تَتَّخِذوا آياتِ اللهِ هُزواً وَاذْكروا نِعمةَ اللهِ عَليكمْ وَما أَنْزلَ عَليكمْ مِنَ الكِتابِ وَالحِكمةِ يَعِظُكمْ بِهِ وَاتَّقوا اللهَ وَاعْلموا أَنَّ اللهَ بِكلِّ شَيءٍ عَليمٍ (٢٣١) آية واحدة بلا خلاف .

قوله : « فبلغن أجلهنّ » معناه : انقضى عدتهنّ بالأقراء ، أو الأشهر ،

« ١ » سورة البقرة آية : ٩٨ .

أو الوضع . والمعنى : إذا بلغن قرب انقضاء عدّتهن ، لأن بعد انقضاء العدة ليس له إمساكها ، والامساك ها هنا المراجعة قبل انقضاء العدة ، وبه قال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وقد يقال لمن دنا من البلد : فلان قد بلغ البلد . والمراد «بالمعروف» هذا الحق الذي يدعو إليه العقل ، أو الشرع للمعرفة بصحته ، بخلاف المنكر الذي يزجر عنه العقل ، أو السمع لاستحالة المعرفة بصحته ، فما يجوز المعرفة بصحته : معروف ، وما لا يجوز المعروف بصحته منكر .

والمراد به ها هنا أن يمسكها على الوجه الذي أباحه الله له : من القيام بما يجب لها من النفقة ، وحسن العشرة ، وغير ذلك ، ولا يقصد الاضرار بها .

وقد بينا أن التسريح أصله إرسال الماشية في المرعى ومنه قوله : «حين تريحون وحين تسرحون» (١) .

وقوله : «ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا» معناه : لا تراجعوهن لا لرغبة فيهن بل لطلب الاضرار بهن إما في تطويل العدة ، أو طلب المفاداة أو غير ذلك ، فان ذلك غير جائز .

وقوله : «ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه» فالظلم الضرر الذي ليس لأحد أن يضرّ به .

وقوله : «ولا تتخذوا آيات الله هزواً» يعني ما ذكره من الاحكام في الطلاق بما يجوز فيه المراجعة ، وما لهم على النساء من التربص حتى لعرا أو رفعوه مما ليس لهم عن ذلك (٢) وروي عن أبي الدرداء وأبي موسى الأشعري : أنهم قالوا : كان الرجل يطلق أو يعتق ثم يقول : إنما كنت لاعباً ، فلذلك قال رسول الله (ص) : من طلق لاعباً ، أو أعتق لاعباً ، فقد جاز عليه .

وقوله : «واعلموا أن الله بكل شيء عليم» معناه : التنبيه على أنه لا يسقط الجزاء على عمل من أعمالهم ، لخفائه عنه ، لأنه «بكل شيء عليم» والأجل هو

«١» سورة النحل آية : ٦ .

«٢» هكذا في المطبوعة ، ولم نتمكن من تصحيحها بما يناسب ، وهي كما ترى .

انقضاء مدة الانتظار . والامساك هاهنا : المنع من الذهاب والتسريح : الارسال بتركهن بانقضاء العدة .

قوله تعالى :

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) آية واحدة بلا خلاف .

النزول :

قال قتادة ، والحسن : إن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع الى الزوج الأول ، فانه طلقها ، وخرجت من العدة ثم أرادا أن يجتمعا بعقد آخر على نكاح آخر ، فمنعها من ذلك ، فنزلت فيه الآية . وقال السدي : نزلت في جابر بن عبد الله عضل بنت عم له . والوجهان لا يصحان على ـ مذهبنا ـ ، لأن عندنا أنه لا ولاية للأخ ، ولا لابن العم عليها وإنما هي ولية نفسها ، فلا تأثير لعضلها .

المعنى ،

والوجه في ذلك أن تحمل الآية على المطلقين ، لأنه خطاب لهم بقوله « وإذا طلقتم النساء » نكاية قال : « فلا تعضلوهن » بأن تراجعوهن عند قرب انقضاء عدتهن ؛ ولا رغبة لكم فيهن ، وإنما تريدون الاضرار بهن ، فان ذلك مما لا يسوغ في الدين ، والشرع ، كما قال في الأولى : « ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا » ولا يطعن على ذلك قوله : « أن ينكحن أزواجهن » ، لأن المعنى فيه من يصيروا

أزواجهن ، كما أنهم لابد لهم من ذلك إذا حملوا على الزوج الأول ، لأن بعد انقضاء العدة لا يكون زوجاً ، ويكون المراد من كان أزواجهن ، فما لهم إلا مثل ما عليهم . ويجوز أن يحمل العضل في الآية على الجبر ، والحيلولة بينهن ، وبين التزويج دون ما يتعلق بالولاية ، لأن العضل هو الحبس .

اللغة :

وقيل : إن العضل مأخوذ من المنع . وقيل : إنه مأخوذ من الضيق ، قال أوس بن حجر :

وليس أخوك الدائم العهد بالذي يذمك إن ولّى ويرضيك مقبلا
ولكنه النائي إذا كنت آمنا وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا (١)

وتقول : عضل المرأة يعضلها اذ منعها من التزويج ظلماً . وفي بعض اللغات يعضلها ـ بكسر الضاد ـ في المضارع . وأعضل الداء الأطباء إذا أعياهم أن يقوموا به ، لأنه امتنع عليهم بشدة ، وهو داء عضال . والأمر المعضل : الذي يغلب الناس ، لامتناعه بصعوبته . وعضلت عليه إذا ضيقت عليه بما يحول بينه ، وبين ، ما يريد ظلماً ، لأنك منعته بالضيق عليه مما يريد . وعضلت المرأة بولدها إذا عسرت ولادتها وكذلك أعضلت ، وأعسرت ، لأن الولد امتنع من الخروج عسراً . وفلان عضلة من العضل : أي داهية من الدواهي ، لأنه امتنع بدهائه . وعضل الوادي بأهله : إذا ضاق بأهله : وعضلة الساق : لحمة مكتنزة . وأصل الباب المنع . وقيل أصله التضييق .

الاعراب ، والمعنى :

موضع (أن) من قوله : « أن ينكحن أزواجهن » جر عند الخليل ، والكسائي ، وتقديره : من أن ، ونصب عند غيرها بالفعل .

وقوله : « ذلك يوعظ به » إعاقال بلفظ التوحيد وإن كان الخطاب للجميع

« ١ » ديوانه رقم القصيدة ٣١ .

لأحد ثلاثة أوجه :

أحدها - أن (ذا) لما كان منها ما يستعمل الكاف معه كثيراً ، صار بمنزلة شيء واحد . ولا يجوز على ذلك (أيها القوم هذا غلامك) . وقال الفراء : توهم أن الكاف من (ذا) ، وأنكر ذلك الزجاج ، وقال : ليس في أفصح اللغات بناء على توهم خطأ . والوجه ما قلناه من التشبيه مما جعلت الكلمتان فيه بمنزلة شيء واحد .

والوجه الثاني - على تقدير : ذلك أيها القبيل .

والوجه الثالث - أن يكون خطاباً للرسول (ص) .

وقوله : « والله يعلم » معناه أنه يعلم من مصالح العباد مالا يعلمون .

وقوله « من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر » (من) في موضع رفع بـ (يوعظ) ، وإنما خص المؤمن بالوعظ لأحد ثلاثة أقوال :

أحدها - لأنهم المشفقون بالوعظ ، فنسب اليهم ، كما قال « هدى للمتقين »(١) و « إنما أنت منذر من يخشاها » (٢) .

والثاني - لانهم أولى بالاتعاض .

الثالث - إنما يلزمه الوعظ بعد قبوله الايمان واعترافه بالله تعالى .

قوله تعالى :

وَالوالِداتُ يُرضِعنَ أَولادَهُنَّ حَولَينِ كامِلَينِ لِمَن أَرادَ أَن يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَعَلى المَولودِ لَهُ رِزقُهُنَّ وَكِسوَتُهُنَّ بِالمَعروفِ لا تُكَلَّفُ نَفسٌ إِلّا وُسعَها لا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا مَولودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلى الوارِثِ مِثلُ ذٰلِكَ فَإِن أَرادا فِصالًا عَن تَراضٍ مِنهُما وَتَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيهِما وَإِن أَرَدتُم أَن تَستَرضِعوا أَولادَكُم فَلا جُناحَ عَلَيكُم إِذا سَلَّمتُم ما آتَيتُم

« ١ » سورة البقرة آية : ٢ . « ٢ » سورة النازعات آية : ٤٥ .

بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)
آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابن كثير ، وأهل البصرة ، وقتيبة : « لا تضار » - بتشديد الراء - ورفعها . وقرأ أبو جعفر بتخفيفها وسكون . الباقون بتشديدها وفتحها . وقرأ ابن كثير « ما آتيتم » قصرا ، وكذلك « ما آتيتم من ربا » في الروم (١) .

قوله : « يرضعن أولادهن حولين كاملين » في حكم الله الذي أوجبه على عباده ، فحذف للدلالة عليه .

الثاني - لأنه وقع موقع يرضعن ، صرفا في الكلام مع رفع الاشكال . ولو كان خبراً لكان كذباً ، لوجود والوالدات يرضعن أولادهن أكثر من حولين ، وأقل منهما .

وفي الآيه بيان لأمرين : أحدهما مندوب ، والثاني فرض ، فالمندوب : هو أن يجعل الرضاع تمام الحولين ، هي التي تستحق المرضعة الأجر فيهما ، ولا تستحق فيما زاد عليهما ، وهو الذي بينه الله تعالى بقوله : « فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن » (٢) ، فتثبت المدة التي تستحق بها الأجرة على ما أوجبه الله في هذه الآية .

اللغة :

تقول : رُضع يرضَع ، ورضِع يرضع رضاعة ، وأرضعته أمه إرضاعاً ، وارتضاعاً ، واسترضع استرضاعاً ، وراضعه رضاعاً ، ومراضعة . ولئيم راضع ، لأنه يرضع لبن ناقته من لؤمه ، لألا يسمع الضيف صوت الشخب . والرضعتان : الثنيتان : مقدمتا الاسنان ، لأنه يشرب عليهما اللبن . وأصل الباب الرضع : مص الثدي ،

« ١ » سورة البقرة آية : ٣٩ ، سورة الروم آية : ٥ .
« ٢ » سورة الطلاق آية : ٦ .

لشرب اللبن منه . ومعنى « حولين » سنتان ، وهو مأخوذ من الانقلاب في قولك : حال الشيء عما كان عليه يحول ، فالحول ، لأنه انقلب عن الوقت الأول الى الثاني ، ومنه الاستحالة في الكلام ، لانقلابه عن الصواب . وقيل أخذ من الانتقال من قولك : تحول عن المكان . وإنما قال : « كاملين » فان كانت التثنية تأتي على استيفاء المدة ، لرفع التوهم ، وإنه على طريقة التغليب ، كقولهم : سرنا يوم الجمعة . وإن كان السير في بعضه . وقد يقال : أقمنا حولين ، وإن كانت الاقامة في حولين ، وبعض آخر (١) فهو لرفع الايهام الذي يعرض في الكلام .

المعنى :

فان قيل : هل يلزم في كل مولود قيل : فيه خلاف : قال ابن عباس : لا ، لأنه يعتبر ذلك بقوله : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » (٢) فان ولدت المرأة لستة أشهر ، فحولين كاملين ، وإن ولدت لسبعة أشهر ، فثلاثة وعشرون شهراً ، وإن ولدت لتسعة أشهر ، فاحد وعشرين شهراً تطلب بذلك التكملة لثلاثين شهراً في الحمل والفصال الذي سقط به الفرض ، وعلى هذا تدل أخبارنا ، لأنهم رووا : أن ما نقص عن إحدى وعشرين شهراً فهو جور على الصبي . وقال الثوري : هو لازم في كل ولد إذا اختلف والداه ، رجعا الى الحولين من غير نقصان ، ولا زيادة ، ولا يجوز لهما غير ذلك ، والرضاع بعد الحولين لا حكم له في التحريم - عندنا - وبه قال ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأكثر العلماء ، وروي عن عائشة أن رضاع الكثير يؤثر . وقال أبو علي الجبائي لم يقم بهذا حجة ولا نزل له ظاهر القرآن .

وقوله : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » معناه أنه يجب على الأب إطعام أم الولد وكسوتها ما دامت في الرضاعة اللازمة إذا كانت مطلقة ، وبه قال الضحاك والثوري وأكثر المفسرين .

« ١ » هكذا في المطبوعة ولعل الاصح (حول وبعض من آخر) .

« ٢ » سورة الاحقاق آية : ١٥ .

اللغة ، والحجة :

يقال كساه يكسوه كسوة : إذا ألبسه الثياب واكتسى هو اكتساء : إذا لبس ، واكتست الأرض بالنبات إذا تغطت به ، وكسوته مدحاً أو ذماً : إذا أثنيت عليه أو ذممته . والكساء معروف ، وأصل الباب الكسوة : اللباس .

وقوله : « لا تكلف نفس إلا وسعها » يدل على فساد قول المجبرة : في حسن تكليف مالا يطاق لأنه إذا لم يجز أن يكلف مع عدم الجدة لم يجز أن يكلف مع عدم القدرة ، لأنه إنما لم يحسن في الأول من حيث أنه لا طريق له الى إداء ما كلفه من غير جدة ، فكذلك لا سبيل له الى إداء ما كلف الى الطاعة مع عدم القدرة ، ولا ينافي ذلك قوله : « فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » (١) لأنه ليس المراد نفي القدرة وإنما معناه : أنه يثقل عليهم كما يقول القائل : لا أستطيع أن أنظر الى كذا معناه : أنه يثقل عليّ ، ويقال : كلف وجهه كلفاً ، وبخدّه كلف أي أثر ، والكلف بالشيء الايلاع به ، لأنه لزوم يظهر أثره عليه ، وكلف كلفا : إذا أحب . وتكلف الأمر تكلفاً : تحمله . وكلفه تكليفاً : ألزمه . وأصل الباب الكلف : ظهور الأثر .

وقوله : « لا تضار والدة بولدها » أصله تضارر ـ بكسر الراء الأولى ـ وقيل ـ بفتحها ـ وأسكنت وأدغمت في الراء بعدها . ومن فتحها بالتقاء الساكنين ، وهو الأقوى فيما قبله فتحة أو ألف نحو عضّ (٢) ولا تضار زيداً . وقال بعضهم : لا يجوز ألاّ تضارر بفتح الراء الأولى ، لأن المولود لا يصح منه مضارة ، لأن الأفصح لو كان كذلك الكسر . قال الرماني : غلط في الاعتلالين أما الأول ، فلأنه ينقلب عليه في تضارّ إذا المضارة من إثنين في الحقيقة ، وإن لم يسم الفاعل . ولأنه إنما يرجع ذلك الى الزوج ، والمرأة الأولى والولد . وأما الأفصح ، فعلى خلاف ما ذكر ، لأن الفتح لغة أهل الحجاز ، وبني أسد ، وكثير من العرب ، وهو القياس ، لأنه إذا جاز مدّ بالضم للاتباع ، كانت الفتحة بذلك أولى ، لأنها أخف ، ولأنه يجوز مدّ بالفتح طلباً للخفة ، فاذا اجتمع الاتباع والاستخفاف كان أولى ، وقوله : إن

« ١ » سورة الاسرى آية ٤٨ : ، وسورة الفرقان آية ٩ « ٢ » هكذا في المطبوعة .

الفتحة في تضار : هي الفتحة في الراء الاولى ، دعوى منه لا دليل عليها . ويدل على صحة ما قلناه : قوله : « من يرتد منكم » (١) « ولا يضار كاتب » (٢) كل ذلك بالفتح دون الكسر .

المعنى :

وإنما قيل : « يضار » والفعل من واحد لانه لما كان معناه المبالغة كان بمنزلته من إثنين ، وذلك لانه يضره إن رجع عليه ، منه ضرورة ، فكأنه قيل : لا تضار والدة من الزوج بولدها . ولو قيل في ولدها لجازفي المعنى ، وكذلك فرض الوالد . وعن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) أي لا يترك جماعها خوف الحمل لاجل ولدها المرتضع « ولا مولود له بولده » يعني لا تمنع نفسها من الأب خوف الحمل ، فيضر ذلك بالأب وقيل : « لا تضار والدة بولدها » بأن ينزع الولد منها ، ويسترضع إمرأة أخرى مع إجابتها الى الرضاع باجرة المثل « ولا مولود له » بولده أي لا تمتنع هي من الارضاع إذا أعطيت أجرة مثلها ، والأولى حمل الآية على عموم ذلك . وقيل : معناه أن على الوالدة ألا تضار بولدها فيما يجب عليها من تعاهده ، والقيام بأمره ، ورضاعه ، وغذاءه . وعلى الوالد ألا يضار بولده فيما يجب عليه من النفقة عليه ، وعلى أمه ، وفي حفظه ، وتعاهده .

وقوله : « وعلى الوارث مثل ذلك » قال الحسن ، وقتادة ، والسدي : الوارث للولد . وقال قبيضة بن ذؤيب : هو الوالد ، والأول أقوى . فان قيل : أعلى كل وارث له ، أم على بعضهم ؟ قيل : ذكر أبو علي الجبائي : أن على كل وارث نفقة الرضاع الأقرب فالأقرب يؤخذ به . وأما نفقة مابعد الرضاع ، فاختلفوا ، فعندنا يلزم الوالدين — وإن عليا — النفقة على الولد وإن نزل ، ولا يلزم غيرهم . وقال قوم : يلزم العصبة دون الأم ، والأخوة من الأم ، ذهب اليه عمر ، والحسن .

وقيل : على الوارث من الرجال ، والنساء على قدر النصيب من الميراث ، ذكره قتادة ، وعموم الآية يقتضيه ، غير أنا خصصناه بدليل . وقال أبو حنيفة ،

« ١ » سورة المائدة آية : ٥٧ . « ٢ » سورة البقرة آية : ٢٨٢ .

وأبو يوسف ، ومحمد : على الوارث ممن كان ذا رحم محرم دون من كان ذا رحم ليس بمحرّم ، كابن العم وابن الأخت ، فأوجبوا على ابن الأخت ولم يوجبوه على ابن العم وإن كان وارثه في تلك الحال ، وكذلك العمة وابن العمة حكا ذلك أبو علي الجبائي ، والبلخي . وقال سفيان « وعلى الوارث » : أي الباقي من أبويه ، وهذا مثل ما قلناه . وقد روي في أخبارنا : أن على الوارث كائناً من كان النفقة ، وهو ظاهر القرآن ، وبه قال قتادة ، وأحمد واسحاق ، والحسن وإبراهيم .

اللغة :

والميراث : تركة الميت ، تقول : ورث يرث إرثاً ، ووأرثه ميراثاً ، وتوارثوا توارثاً ، وورّثه توريثاً . وأورثه الحي ضعفاً . والتراث : الميراث . وورّثت النار ، وأورثتها : إذا حركت جمرها ، ليشتعل ، لأنه تظهر فيه النار عن الأول ، كظهور الميراث في الثاني عن الأول .

المعنى :

وقوله : « مثل ذلك » يعني من النفقة ، وبه قال ابراهيم . وقال الضحاك : من ترك المضارة . والمفهوم من الكلام ، وعند أكثر العلماء : الأمران معاً ، وهو أليق بالعموم .

وقوله : « فان أرادا فصالا » فالفصال : الفطام ، لانفصال المولود عن الاغتذاء بثدي أمه الى غيره من الاغتذاء .

فان قيل : أي فصال ذاك أقبل الحولين أم بعدهما ؟ قيل : فصال الحولين ، لأن الفرض معلوم (١) إذا تنازعا رجعا إليه ، فأما بعد الحولين ، فلا يجب على واحد منهما اتباع الآخر في دعائه . وبه قال مجاهد ، وقتادة ، وابن شهاب ، وسفيان وابن زيد . وروي عن ابن عباس : أنه إذا تراضيا على الفصال قبله أو بعده مضى ، فان لم يتراضيا رجعا الى الحولين .

« ١ » في المطبوعة (مفلوجة) .

اللغة :

وأصل الباب الفرق ، يقال : فصل يفصل فصلا ، وفاصله مفاصلة ، وتفاصلوا تفاصلا ، واستفصلوا استفصالا وانفصل انفصالا ، وفصّله تفصيلا ، وتفصل تفصلا . وفواصل القلادة : شذر بين نظم الذهب. والفصل : القضاء بين الحق ، والباطل ، وهو الفيصل . وفصيلة الرجل بنو أبيه ، لانفصالهم من أصل واحد . والفصيل : الواحد من أولاد الابل ، لأنه فصل عن أمه والفصيلْ : حائط قصير دون السور .

المعنى :

وقوله : « فلا جناح عليهما » يعني لا حرج ، على قول ابن عباس ، وهو مأخوذ من « جنحوا للسلم » (١) أي مالوا . والجناح : الميل عن الاستقامة .

وقوله : « إذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف » معناه على قول مجاهد ، والسدي : أجر الأم بمقدار ما أرضعت أجرة المثل . وقال سفيان : أجرة المسترضعة . وقال ابن شهاب : سلّمتم الاسترضاع . وقال ابن جريج : أجرة الأم والنظير .

وقوله : « أن تسترضعوا أولادكم » معناه : لأولادكم ، وحذفت اللام لدلالة الاسترضاع عليه من حيث أنه لا يكون إلا للأولاد ، ولا يجوز : دعوت زيداً ، تريد لزيد ، لأنه يجوز أن يكون المدعو ، والمدعو له ، إذ معنى دعوت زيداً لعمرو ، خلاف دعوت زيداً فقط ، فلا يجوز للالباس .

وفي الآية دلالة على أن الولادة لستة أشهر تصح ، لأنه إذا ضم الى الحولين كان ثلاثين شهراً ، وروي عن علي (ع) وابن عباس ذلك .

الاعراب :

ومن رفع « لا تضار » فعلا استئناف النفي . وقال الكسائي ، والفراء : هو منسوق على « لا تكلف » . قال الرماني هذا غلط ، لأن النسق بـ (لا) إنما هو على إخراج الثاني مما دخل فيه الأول ، نحو ضربت زيداً لا عمراً ، فأما أن يقوم زيد

« ١ » سورة الانفال آية : ٦٢ .

لا يقعد عمرو ، فلا يجوز على النسق ، ولكن يرفع على استئناف النفي بـ (لا) ، فكذلك « لا تضار » مستأنف في اللفظ متصل في المعنى ، وقوله : « وان تصبروا وتتقوا » (١) إنما جاز في موضع الجزم للاتباع ، وليس ذلك في « لا تضار » .

اللغة :

والوسع : الطاقة مأخوذ من سعة المسلك الى العرض ، فيتمكن لذلك . ولو ضاق لأعجز عنه ، والسعة فيه بمنزلة القدرة ، فلذلك قيل : الوسع بمعنى الطاقة .

وقوله : « وتشاور » فالتشاور مأخوذ من الشور ، وهو اجتناء العسل ، تقول : شرت العسل ، وأنا اشوره شوراً ، واشيره إشارة : إذا اجتنيته من مكانه . والمشورة : استخراج الرأي من المستشار ، لأنه يجتنى منه(٢) . وشاوره مشاورة ، وأشار عليه إشارة ، واستشار استشارة . واستشار العسل : إذا اجتناه وأشار الى الشيء إشارة : إذا أومىء اليه ، والمشيرة الاصبع الذي تسمى السبابة لأنه يشار بها الشباب ، وغيره . والشابة : الهيبة ، واللباس الحسن لأنه مما يشاب اليه لحسنه والتشوير : استخراج سير الدابة كالاحسان .

قوله تعالى :

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) آية واحدة بلا خلاف .

المعنى :

هذه الآية ناسخة لقوله : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية

« ١ » سورة آل عمران آية : ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٨٦ .

« ٢ » في المطبوعة (يخشى منه) .

لأزواجهم متاعاً الى الحول غير اخراج » (١) وإن كانت مقدمة عليه في التلاوة وعدة كل متوفى عنها زوجها : أربعة أشهر وعشراً سواء كانت مدخولا بها ، أو غير مدخول ، حرة كانت أو أمة ، فان كانت حبلى ، فعدتها أبعد الأجلين ، من وضع الحمل أو مضى الأربعة أشهر ، وعشرة أيام ، وهو المروى عن علي (ع) ، ووافقنا في الأمة الأصم ، وخالف باقي الفقهاء في ذلك ، وقالوا : عدتها نصف عدة الحرة : شهران وخمسة أيام ، وإليه ذهب قوم من أصحابنا ، وقالوا في عدة الحامل : إنها بوضع الحمل ، وإن كان بعد على المغتسل ، وروي ذلك عن عمر ، وأبي مسعود البدري ، وأبي هريرة . وعندنا أن وضع الحمل يختص بعدة المطلقة . والذي يجب على المعتدة في عدة الوفاة اجتنابه في قول ابن عباس ، وابن شهاب : الزينة ، والكحل بالاثمد ، وترك النقلة عن المنزل . وقال الحسن في احدى الروايتين عن ابن عباس : إن الواجب عليها الامتناع من الزواج لا غير . وعندنا أن جميع ذلك واجب .

الاعراب :

وقوله : « والذين » رفع بالابتداء « ويتوفون منكم » في صلة الذين « ويذرون أزواجاً » عطف عليه ، وخبر الذين قيل فيه أربعة أقوال :

أولها ـ أن تكون الجملة على تقدير « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً» أزواجهم « يتربصن » .

الثاني ـ على تقدير « يتربصن » بعدهم أزواجهم .

الثالث ـ أن يكون الضمير في يتربصن لما عاد الى مضاف في المعنى ، كان كان بمنزلته على تقدير « يتربصن » أزواجهم : هذا قول الزجاج والأول قول أبي العباس ، والثاني قول الأخفش ونظير قول الزجاج أن تقول : إذا مات ، وخلف ابنتين ، يرثان الثلثين ، المعنى يرث إبنتاه الثلثين .

الرابع ـ أن يعدل عن الاخبار عن الأزواج ، لأن المعنى عليه ، والفايدة

« ١ » سورة البقرة آية : ٢٤٠ .

فيه ذهب إليه الكسائي ، والفراء ، وأنكر ذلك أبو العباس ، والزجاج ، لأنه لا يكون مبتدأ لا خبر له ، ولا خبر إلا عن مخبر عنه ، وأنشد الفراء (١) :

لعلّي إن مالت بي الريح ميلة   على ابن أبي ديان أن يتندما (٢)

المعنى لعل إبن أبي ديّان أن يتندم ، وهذا يجوز على حذف أن يتندم لأجلي وقال أيضاً :

نحن بما عندنا وأنت بما   عندك راض والرأي مختلف (٣)

وقال أبو عبيدة : نظير الآية قول شدّاد بن عنتر :

فمن يك سائلا عني فإني   وجروة لا ترود ولا نعار

جروة اسم فرسه وإنما حذف الخبر من الأول ، لأن خبر الثاني يدل عليه ، لأنه أراد فإني حاضر ، وفرسي حاضرة لا ترود ، ولا نعار ، فدل بقوله : لا ترود ولا نعار : على أنها حاضرة بتوعد وتتهدد في قول أبي العباس .

وقوله : « يذرون » يتركون وترك ماضيه يترك تركاً . وتقول ذره تركاً وكذلك يدع ليذر سواء ، والعلة في ذلك أنهم كرهوا الواوات في أول الكلام حتى أنهم لم يلحقوها ، أو على جهة الزيادة أصلا ، ففي رفض وذر : دليل على الكراهة لها أصلية ، وليس بعد الضعف إلا الاتباع فلما ضعفت أصلية امتنعت زيادة ، فان قيل كيف قال وعشراً بالتأنيث وإنما العدة على الأيام والليالي ، ولذلك لم يجز أن تقول : عندي عشر من الرجال والنساء . قيل لتغليب الليالي على الأيام إذا اجتمعت في التاريخ ، وغيره ، لأن ابتداء شهور الأهلة الليالي منذ طلوع الهلال فلما كانت الأوائل غلبت ، لأن الأوائل أقوى من الثواني وقال الشاعر :

« ١ » قائله ثابت قطنة التمكي ، واسمه ثابت بن كعب ، ذهبت عينه في الحرب فكان يحشوها بقطنة ، وهو شاعر فارسي من شعراء خراسان في عهد الدولة الاموية قال فيه حاجب الفيل :

لا يعرف الناس منه غير قطنته   وما سواها من الأنساب مجهول

« ٢ » تاريخ الطبري ٨ : ١٦٠ ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ١٥٠ وهو من قصيدة يرثي بها يزيد بن المهلب ، لما قتل في سنة ١٠٢ في خروجه على يزيد بن عبد الملك بن مروان .

« ٣ » مر تخريجه في ١ : ١٧٢ ، ٢٠٣ .

أقامت ثلاثاً بين يوم وليلة وكان النكير أن تضيف وتجأرا (١)

معنى تضيف تميل وحكى الفراء : صمنا عشراً من شهر رمضان ولو أضاف الى الأيام فقال عشرة أيام ، لم يجز إلا التذكير ، وإنما جاز في الأول لأنه بمعنى عشر من رمضان وقع العمل في نهاره .

اللغة :

وقوله : « فاذا بلغن أجلهن » يقال : أجله تأجيلا : إذا أخره ، والآجل نقيض العاجل ، وتأجل تأجلا واستاجله استئجالا ، وأجلوا ما لهم يأجلونه أجلا : إذا حبسوه في المرعى ، لأنهم أخروه فيه والأجل : غاية الوقت في محل الدين وغيره ، لتأخره الى ذلك الوقت وأجل الشيء يأجل وهو آجل نقيض العاجل . لتأخره عن وقت غيره ، وفعلته من أجل كذا أي لعاقبة كذا وهي متأخرة عن وقت الفعل الذي دعت .إليه والأجل : القطيع من نفر الوحش ، وجمعه آجال ، وقد تأجل الصوار أي صار قطيعاً لتأخر بعضه عن بعض ، وآجل عليهم شرّاً آجلا أي خبأه ، لأنه أعقبهم شرّاً ، وهو متأخر عن وقت فعله . والآجلة الآخرة ، والعاجلة الدنيا . والمأجل شبه حوض واسع يؤجّل فيه ماء البئر أياماً ، ثم يفجر في الزرع ، وهو بالفارسية : (كرجه) وذلك لتأخر الماء فيه .

وقوله : « والله بما تعملون خبير » فالخبير : العالم ، لأنه عالم بمخبر الخبر . والخبار : الأرض السهلة فيها حجارة ، وأحفار . وأخبرت بالشيء إخباراً ، لأنه تسهيل لطريق العلم به ، واستخبره استخباراً ، وتخبر تخبراً ، وخبره تخبيراً ، وأخبره إخباراً ، وتخبر القوم : بينهم خبرة : إذا اشتروا شاة ، فذبحوها ، واقتسموا لحمها ، والشاة : خبيرة . والمخبرة : المزادة العظيمة . والخابرة : أن يزرع على النصف ، أو الثلث ، أو نحوه . والاكار : الخبير . والمخابرة : المؤاكرة ، وذلك لتسهيل الزراعة . وأصل الباب السهولة .

« ١ » اللسان ضيف . قائله النابغة الجعدي . في المطبوعة (تجأوا) بدل (تجأرا) وهو تحريف .

المعنى :

وقوله : « فاذا بلغن أجلهن » أي انقضت هذه المدة ، وهي الأربعة أشهر وعشراً « فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف » أي لا جناح عليكم أن تتركوهن إذا انقضت هذه المدة أن يتزوجن ، وأن يتزين زينة لا ينكر مثلها . وهو معنى قوله « بالمعروف » .

قوله تعالى :

ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم (٢٣٥) آية في الكوفي .

المعنى :

قال ابن عباس : التعريض المباح في العدة هو قول الرجل : أريد التزويج ، وأحب امرأة من حالها ، ومن أمرها ، وشأنها ، فيذكر بعض الصفة التي هي عليها ، هذا قول ابن عباس . وقال القاسم بن محمد ، وعامر تقول : إنك لنافقة ، وإنك لعجبة جميلة ، وإن قضى الله شيئاً كان .

اللغة :

والخطبة : الذكر الذي يستدعي به الى عقدة النكاح ، والخطبة : الوعظ المتسق على ضرب من التأليف . وقيل : الخطبة : ماله أول ، وآخر ، مثل الرسالة . والخطبة

للحال نحو الجلسة ، والقعدة ، تقول : خطب المرأة يخطبها خطبة ، لأنه خاطب في عقد النكاح . وخطب خطبة ، لأنه خاطب بالزجر ، والوعظ على ضرب من تأليف اللفظ المخصوص . وخاطب مخاطبة ، وخطاباً ، وتخاطبوا تخاطباً . والخطب: الأمر العظيم . والخطبان : الحنظل الذي تشتدّ خضرته حتى تستحيل الى الغبرة ، والصفرة. وأصل الباب الخطاب .

والفرق بين التعريض ، والكناية أن التعريض : تضمين الكلام دلالة على شيء ليس فيه ذكر له ، والكناية : العدول عن الذكر الأخص بالشيء الى ذكر يدل عليه ، فالأول كقول القائل : ما أقبح البخل ، يعرض بأن المخاطب بخيل ، ولعن الله الملحدين ، يعرض له بالالحاد . والثاني كقولك : زيد ضربته ، كنيت عنه بالهاء الموجودة في (ضربته) .

وقوله : « أو أكننتم في أنفسكم » فالاكنان : إسرار العزم على النكاح دون إظهاره على قول ابن زيد ، ومجاهد . وقال قوم : هو معنى التعريض بالخطبة إن شئت أظهرته ، وان شئت أضمرته . وتقول : كننت الشيء : إذا سترته ، أكنه كنّاً وكنوناً وأكننته إكناناً إذا أضمرته ، لأنك سترته في نفسك . واستكن الرجل ، وأكنن إذا صار في كنّ ، لأنه صار فيما يستره . والكنانة الجعبة غير أنها صغيرة تتخذ للنبل . والكنة : امرأة الابن أو ابن الأخ . والجمع كنائن . وسمي الكانون كانوناً ، لأنه يحتاج إليه في وقت الاكتنان من البرد ، ومنه قوله : « كأنهن بيض مكنون » (١) « وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » (٢) وأصل الباب الكنّ : الستر .

والفرق بين الاكنان والكن : أن الاكنان : الاضمار في النفس ، ولا يقال كننته في نفسي . وقيل : كننته معناه صنته كما قال : « كأنهن بيض مكنون » .

« ١ » سورة الصافات آية : ٤٩ .

« ٢ » سورة النمل آية ٧٤ ، وسورة القصص آية : ٦٩ .

المعنى :

وقوله : « لا تواعدوهن سراً » قال الحسن ، وإبراهيم ، وأبو مجيلة : السرّ المنهي عنه هاهنا الزنا . وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والشعبي : هو العهد على الامتناع من تزويج غيرك . وقال مجاهد : هو أن تقول لها لا تفوتيني بنفسك ، فاني ناكحك . وقال ابن زيد : هو اسرار عقدة النكاح في العدة .

اللغة :

والسرّ في اللغة على ثلاثة أوجه : الاخفاء في النفس ، والشرف في الحسب ، يقال : فلان في سرّ قومه إذا كان في شرفهم ، وصميمهم . والجماع في الفرج قال الشاعر :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وألا يشهدالسر أمثالي (١)

وقال رؤبة :

فعفّ عن أسرارها بعد العسق ولم يضعها بين فرك وعشق (٢)

العشق اللصوق وقال الحطيئة :

ويحرم سرُّ جارتهم عليهم ويأكل جارهم أنف القصاع (٣)

وقوله : « إلا أن تقولوا قولا معروفاً » يعني التعريض الذي أباحه الله تعالى . و (إلا) بمعنى (لكن) لأن ما قبلها هو المنهي عنه ، وما بعدها هو المأذون فيه ، وتقديره : ولكن قولوا قولا معروفاً .

وقوله : «ولا تعزموا عقدة النكاح : تقديره على عقدة النكاح ، وحذفت على ،

« ١ » قائله امرء القيس ديوانه : ١٥٩ وروايته (وألا يحسن السر) بدل (وألا يشهدالسر) .
« ٢ » ديوانه : ١٠٤ ، واللسان « عسق » ، « عشق » ، « فرك » ، « سرر » . الأسرار جمع سر . والعسق مصدر « عسق به يعسق » لزمه وأولع به . والفرك ـ بكسر الفاء وسكون الراء ـ بغضة الرجل امرأته أو بالعكس ، وامرأة فارك ، وفروك : تكره زوجها وقد روى « العشق » .
« ٣ » اللسان (أنف) . أنف كل شيء : طرفه ، وأوله .

لدلالة العزم عليها ، لأنه لا يكون إلا على معزوم عليه ، كما قيل : ضربه الظهر والبطن أي على الظهر والبطن .

والعقد : الشد ، تقول : عقد يعقد عقداً ، وأعقدت العسل إعقاداً ، واعتقد صحة الأمر اعتقاداً ، وتعاقدوا على الأمر تعاقداً ، وعاقده معاقدة ، وعقّد كلامه تعقيداً ، وتعقد تعقداً ، وانعقدا نعقاداً ، وعقدالعبد، لانه كعقد الحبل في التوثيق . والعقد : السمط من الجوهر . والعقد : الرمل للتداخل . وعقد اليمين : خلاف اللغو . وناقة عاقد أي لاقح ، لأنها تعقد بذنبها ، فيظهر أنها قد لقحت .

المعنى :

وقوله : «حتى يبلغ الكتاب أجله» معناه انقضاء العدة بلاخلاف . والكتاب الذي يبلغ أجلههوالقرآنومعناه :فرض الكتابأجله . ويجوزأن يكون الكتاب نفسه هو الفرض ، ذكره الزجاج ، ووجه ثالث أن يكون ذلك على وجه التشبيه بكتاب الدين ، ذكره الجبائي .

وقوله : « والله غفور حليم » قد بينا أن الحلم من الله هو إمهال العقوبة المستحقة . وقال أبو علي الجبائي هو كل فعل يضاد حدوث العقوبة في الانسان ، وهو من الانسان ترك العقاب . والله تعالى لا يجوز عليه الترك ، فهو ما وصفنا من نعمه التي تضاد عقوبته .

قوله تعالى :

لا جُناحَ عَليكمْ إنْ طَلَّقتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمسُّوهُنَّ أو تَفرِضوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعوهُنَّ على المُوسِعِ قَدَرُهُ وَعلى المُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالمَعْروفِ حَقّاً على المُحسنينَ (٢٣٦) آية بلا خلاف .

القراءة :

قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف « تماسوهن » بضم التاء وبألف هاهنا

موضعان ، وموضع في الأحزاب ، وقرأ أبو جعفر وأهل الكوفة إلا أبا بكر ، وابن ذكوان « قدره » بفتح الدال في الموضعين . الباقون باسكانها .

المعنى :

المفروض صداقها داخلة في دلالة الآية وإن لم يذكر ، لأن التقدير مالم تمسوهن ممن قد فرضتم لهن أو لم تفرضوا لهن فريضة ، لأن أو تنبيء عن ذلك ، لأنه لو كان على الجمع لكان بالواو .

والفريضة المذكورة في الآية : الصداق ، بلا خلاف ، لأنه يجب بالعقد للمرأة ، فهو فرض لوجوبه بالعقد .

ومتعة التي لم يدخل بها ولا يسمى لها صداق على قدر الرجل ، والمرأة ، قال ابن عباس ، والشعبي ، والربيع : خادم أو كسوة أو رزق ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) . وقيل مثل نصف صداق تلك المرأة المنكوحة ، حكي ذلك عن أبي حنيفة وأصحابه . وفي وجوب المتعة لكل مطلقة خلاف . قال الحسن وأبو العالية : المتعة لكل مطلقة إلا المختلعة ، والمبارية ، والملاعنة . وقال سعيد بن المسيب : المتعة التي لم يسم لها صداق ، خاصة ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) . وقد روي أيضاً أنها لكل مطلقة ، وذلك على وجه الاستحباب . والمتعة للتي لم يدخل بها ولم يعرض لها يجبر عليها السلطان ، وهو قول أهل العراق . وقال أهل المدينة وشريح يؤمر لها ، ولا يجبر عليها .

اللغة :

والموسع : الغني في سعة من ماله لعياله . والمقتر : الذي في ضيق لفقره ، تقول : أقتر الرجل إقتاراً : إذا أقل ، فهو مقتر أي مقل ، وقترت الشيء أقتره قتراً ، وأقترته إقتاراً ، وقترته تقتيراً : إذا ضيقت الانفاق منه . والقتار : دخان الشحم على النار ، ونحوه ، لغلبته بالاضافة الى بقيته . والقتر : الغبار . والقترة : مايغشي الوجه

من غير الموت ، والكرب ، لأنه كالقتار أو كالغبار يغشى الوجه ، وفي التنزيل « ترهقها قترة » (١) والقتير : مسامير الدروع ، لقلتها وصغرها . والقتير ابتداء الشيب ، لقلته . ويجوز أن يكون مشبهاً بالدخان أول ما يرتفع . والقترة ناموس الصائد ، لأنها كالقتار باخفائه إياها . ورجل قاتر : حسن الأخذ من ظهر البعير لا يعقره لقلة ما يأخذ منه ، وأصل الباب الاقلال . وابن قترة : حية خبيثة لا ينجو سليمها .

المعنى :

والمتوفى عنها زوجها إذا لم يفرض لها صداق عليها العدة - بلا خلاف - ولها الميراث إجماعاً . وقال الحسن والضحاك وأكثر الفقهاء . لها صداق مثلها . وحكى الجبائي عن بعض الفقهاء : أنه لا مهر لها ، وهو الذي يليق بمذهبنا ، ولا نص لأصحابنا فيها .

الاعراب ، والمعنى :

ويحتمل نصب « متاعاً » وجهين : أحدهما - أن يكون حالا من قدره ، لأنه معرفة ، والعامل فيه الظرف . والثاني - على المصدر ، والعامل فيه « ومتعوهن » .

ويحتمل نصب حقا وجهين : أحدهما - أن يكون حالا من « بالمعروف حقا » والعامل فيه معنى عرف حقا . الثاني - على التأكيد، لجملة الخبر كأنه قيل : أخبركم به حقا كأنه قيل : إيجاباً « على المحسنين » وإنما خص التي لم يدخل بها بالذكر في رفع الجناح دون المدخول بها بالذكر وإن كان حكمها واحداً لأمرين : أحدهما - لأزالة الشك في الحرج على هذا الطلاق . والثاني - لأن له أن يطلق أي وقت شاء ، وليس كذلك حكم المدخول بها ، لأنه يجب أن يطلقها للعدة .

« وقدره » على تقدير أعطوهن قدر الوسع كما يقال : أخذ صدقاتهن لكل أربعين شاة بالرفع ، والنصب . وقال الشاعر في تسكين الدال :

« ١ » سورة عبس آية : ٤١ .

وما صبَّ رجلي في حديد مجاشع مع القدر إلا حاجة لي أُريدها (١)

وقال آخر :

ألا يالقومي للنوائب والقـدر ! وللأمر يأتي المرءَ من حيث لا يدري! (٢)

قال أبو زيد : قدر القوم : أمرهم يقدرونه قدراً ، وهذا قدر هذا أي مثله ، وقدر الله الرزق يقدره . وروى السكوني يقدره قدراً . وقدرت الشيء بالشيء أقدره قدراً . وقدِرت على الأمر أقدر عليه قدرة ، وقدوراً ، وقدارة . ونسأل الله خير القدر . وقال أبو الصقر : هذا قدر هذا ، وأحمل قدر ما تطيق . قال أبو الحسن : هو القدَر ، والقدر . وخذ منه بقدَر كذا ، وقدر كذا : لغتان فيـــه . وقوله : « فسالت أودية بقدرها » وقدرها (٣) .

الحجة :

ومن قرأ « تمسوهن » بلا الف ، فلقوله تعالى : « ولم يمسسني بشر » (٤) فانه من جاء على (فعل) ، وكذلك قوله : « لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان » (٥) ومن قرأ « تماسوهن بالف » ، لأن (فاعل) ، و (فعل) قد يراد بكل واحد منهما ما يراد بالآخر ، نحو طابقت النعل وعاقبت اللصّ ولا يلزم على ذلك في آية الظهار « من قبل أن يتماسّا » (٦) لأن المماسة محرمة في الظهار على كل واحد من الزوجين للآخر ، فلذلك لم يجز إلا « من قبل أن يتماسا » . وفي الآية دليل على أن العقد بغير مهر صحيح ، لأنه لو لم يصح لما جاز فيه الطلاق ، ولا وجبت المتعة .

« ١ » قائله الفرزدق ديوانه : ٢١٥ ، واللسان (صبب) ، (قدر) ، ومقاييس اللغة ٥ : ٦٢ والاساس (صبب) ، واصلاح المنطق : ١٠٩ .

« ٢ » البيت لهدبة بن خشرم . اللسان (قدر) في المطبوعة (بالقوم) بدل (لقومي) و (للام) بدل (للامر) .

« ٣ » سورة الرعد آية : ١٩ وقد قرأت الآية « بقدرها » بفتح الدال ، وبسكونها . وخط المصحف بالسكون .

« ٤ » سورة آل عمران آية : ٤٧ . « ٥ » سورة الرحمن آية : ٧٤ .

« ٦ » سورة المجادلة آية : ٣ ، ٤ .

قوله تعالى :

وإنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبلِ أنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصفُ ما فَرَضْتُمْ إلاَّ أنْ يَعفونَ أو يَعفوَ الَّذي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ وأنْ تَعفوا أقربُ للتَّقوى وَلا تَنسَوُا الفضلَ بَينكُمْ إنَّ اللهَ بِما تَعملونَ بَصيرٌ (٢٣٧) آية واحدة بلا خلاف .

روى سعيد بن المسيب : أن هذه الآية ناسخة لحكم المتعة في الآية الأولى . قال البلخي : وهذا ليس بصحيح ، لأن الآية الأولى تضمنت حكم من لم يدخل بها ، ولم يسم لها مهراً إذا طلقها ، وهذه تضمنت حكم التي فرض لها صداق إذا طلقت قبل الدخول ، وأحد الحكمين غير الآخر . والذي قاله سعيد بن المسيب متوجه على ما قدمناه في الآية من أن دليلها يتناول التي فرض لها المهر . وإن حملنا قوله : « ومتعوهن » على عمومه لزم أن تمتع كل مطلقة وإن سمي لها مهراً . وإن قلنا : لا متعة للمفروض لها الصداق ، فلا يلزم نسخ الآية أو تخصيصها إن نزلت معها . وقال جميع أهل التأويل : إنه إذا طلق الرجل من سمي لها مهراً معلوماً قبل أن يدخل بها ، فانه يستقر لها نصف المهر ، فان كانت ما قبضت شيئاً وجب عليه تسليم نصف المهر ، وإن كانت قد سلمت جميع المهر ، وجب عليها ردّ نصف المهر ، ويستقر لها النصف الآخر .

اللغة :

والنصف : هو سهم من اثنين ، تقول : نصفه ينصفه ، وانتصف انتصافاً ، ونصفه تنصيفاً ، وأنصفه إنصافاً ، وتناصفوا تناصفاً ، وناصفه مناصفة ، وتنصف تنصفاً . والنصف : المرأة بين المسنه والحدثة ، لأنها على نصف المسنة . والناصف : الخادم ، هو ينصف الملوك أي يخدمهم ، لأنه يعطيهم النصف من نفسه قسراً وذلا .

والانصاف ، لأنه كالنصف في العدل . والنصيف : الخمار ، لأنه كالنصف في أنه وسط بين الصغير ، والكبير ، ويقال له : نصيفة . ومنتصف الطريق : وسطه . والمنصف من الشراب الذي طبخ حتى ذهب نصفه . والنصيف : مكيال ، لأنه على النصف بالتعديل بين الكبير والصغير .

المعنى :

وقوله : « أن يعفون » معناه : أن يصح عفوها ، من الحرار البالغات غير المولى عليها ، لفساد عقلها ، فتترك ما يجب لها من نصف الصداق ، وهو قول ابن عباس ، ومجاهد ، وجميع أهل العلم .

وقوله : « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » قال مجاهد ، والحسن ، وعلقمة : إنه الولي ، وهو المروي عن أبي جعفر ، وأبي عبد الله (ع) ، غير أنه لا ولاية لأحد ـ عندنا ـ إلا الأب أو الجد على البكر غير البالغ ، فأما من عداهما ، فلا ولاية له إلا بتولية منهما ، روي عن علي (ع) . وعن سعيد بن المسيب ، وشريح ، وحماد ، وابراهيم ، وأبي حذيفة ، وابن شبرمة : أنه الزوج ، وروي ذلك أيضاً في أخبارنا غير أن الأول أظهر ، وهو المذهب ، وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف ، وقوينا ما أخبرناه هناك .

والألف واللام في قوله « عقدة النكاح » بدل من الاضافة ، فمن جعل الزوج قال : تقديره : الذي بيده عقدة نكاحه ، ومن جعل الولي ، قال : تقدير الذي بيده عقدة نكاحها ، ومثله قوله تعالى : « فان الجنة هي المأوى » (١) ومعناه : هي مأواه وقراره وقال النابغة :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الناس والأحلام غير عوازب (٢)

« ١ » سورة النازعات آية : ٤١ .

« ٢ » ديوانه : ٤٥ من قصيدته في مدح عمرو بن الحارث الأصغر الأعرج الغساني وذلك حين فر من النعمان بن المنذر الى الشام . والضمير في « لهم » عائد الى ملوك غسان من بني جفنة . والشيمة : الخلق ، والطبيعة .

معناه وأحلامهم غير عوازب . ومن جعل العفو للزوج قال : له أن يعفو عن جميع نصفه . ومن جعله للولي : قال أصحابنا له أن يعفو عن بعضه ، وليس له أن يعفو عن جميعه ، فان امتنعت المرأة من ذلك لم يكن لها ذلك إذا اقتضت المصلحة ذلك ، عن أبي عبد الله (ع). واختار الجبائي أن يكون المراد به الزوج ،قال : لأنه ليس للولي أن يهب مال المرأة ، وقوله : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » خطاب للزوج والمرأة ، قال لأنه ليس للولي أن يهب مال المرأة .

وقوله : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » خطاب للزوج ، والمرأة جميعاً ـ في قول ابن عباس ـ وقيل : للزوج وحده عن الشعبي ، وإنما جمع لأنه لكل زوج وقول ابن عباس أقوى لأنه العموم . وإنما كان العفو أقرب للتقوى من وجهين :

أحدهما ـ لانقاء ظلم كل واحد صاحبه مما يجب من حقه .

الثاني ـ أنه أدعى الى اتقاء معاصي الله ، للرغبة فيما رغب فيه من العفو عماله .

الاعراب :

وقوله : « فنصف مافرضتم » رفع على :عليكم نصف مافرضتم ، وكان يجوز أن ينصب في العربية على فأدوا نصف ما فرضتم .

وقوله : « ولا تنسوا الفضل بينكم » الواو مضمومة ، لأنها واو الجمع ، وقياسها أن تكون مع ضم ما قبلها ، فاذا لم يوصل اليه جعل الضم منها ، وكان يجوز فيها الكسر ، ومثله « اشتروا الضلالة » (١) على ضعف فيه ، وقد مضى ذكره .

المعنى :

والذي يوجب المهر كاملا الجماع ، وهو المراد بالمسيس ، وقال أهل العراق : وهو الخلوة التامة إذا أغلق الباب وأرخى الستر ، وقد روى ذلك أصحابنا غير أن هذا يعتبر في حق الثيب .

« ١ » سورة البقرة آية : ١٦ ، ١٧٥ .

قوله تعالى :

حافِظوُا على الصَّلوَاتِ والصَّلاةِ الوُسطى وَقومُوا لله قانِتينَ (٢٣٨) آية .

اللغة :

الحفظ ضبط الشيء في النفس ، ثم يشبه به ضبطه بالمنع من الذهاب . والحفظ خلاف النسيان تقول : حفظ حفظاً ، وحافظ محافظة ، وحفاظاً ، واحتفظ به احتفاظاً ، وتحفظ تحفظاً ، واستحفظ استحفاظاً ، وأحفظه إحفاظاً : إذا أغضبه ، لأنه حفظ عليه ما يكرهه . ومنه الحفيظة : الحمية . والحافظ : خلاف المضيع . والحفيظ : الموكل بالشيء ، لأنه وكل به ليحفظه وأهل الحفاظ : أهل الذمام ، ومنه قوله : «فما أرسلناك عليهم حفيظاً » (١) .

المعنى :

ومعنى الآية الحث على مراعاة الصلوات ، ومواقيتهن ، وألا يقع فيها تضييع وتفريط .

وقوله « والصلاة الوسطى » هي العصر فيما روي عن النبي (ص) وعلي (ع) وابن عباس ، والحسن . وقال زيد بن ثابت ، وابن عمر : إنها الظهر ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) . وقال قبيصة بن ذؤيب : هي المغرب ، وقال جابر ابن عبد الله هي الغداة . وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف . وروي عن ابن عمر أنه قال : واحدة من الخمس غير متميزة . وقال الحسين بن علي المغربي : المعني فيها صلاة الجماعة ، لأن الوسط العدل ، فلما كانت صلاة الجماعة أفضلها خصت بالذكر ، وهذا وجه مليح غير أنه لم يذهب إليه أحد من المفسرين ، فمن جعلها العصر قال : لأنها بين صلاتي النهار ، وصلاتي الليل ، وإنما حض عليها ، لأنها وقت شغل الناس في غالب الأمر ، ومن قال : إنها الظهر قال : لأنها وسط النهار ، وقيل : هي أول صلاة فرضت ، فلها بذلك فضل . ومن قال : هي المغرب قال : لأنها وسط في الطول ، والقصر من بين الصلوات ، فهي أول صلاة الليل الذي رغب في الصلاة

« ١ » سورة النساء آية : ٧٩ ، وسورة الشورى آية : ٤٨ .

فيه ، وأما من قال هي الغداة قال : لأنها بين الظلام والضياء ، وصلاة لا تجمع مع غيرها . وقد جمع النبي (ص) بين الظهر والعصر بعرفة ، وجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة ، فهذه متواخية وتلك مفردة .

وقوله : « وقوموا لله قانتين » قال ابن عباس ، والحسن : معناه طائعين . وقال عبد الله بن مسعود : ساكتين ، لأنهم نهوا بذلك عن الكلام في الصلاة . وقال مجاهد : معناه خاشعين فنهوا عن العبث ، والتلفت في الصلاة . وقال ابن عباس في رواية : داعين ولذلك قال هي صلاة الصبح ، لأنه لا صلاة فرض فيها قنوت إلا هي . وعن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) مثل ذلك إلا أنهما قالا : القنوت في كل ركعتين قبل الركوع .

اللغة ، والاعراب :

وأصل القنوت الدوام على أمر واحد . وقيل أصله الطاعة . وقيل أصله الدعاء في حال القيام . وقال الرماني والوجه الأول أحسن بصرفه في الباب ، لأن المداوم على الطاعة قانت ، وقال المداوم في صلاته على السكوت إلا عن الذكر المشروع له ، وكذلك المداوم . ويقال : فلان يقنت عليه أي يدعوا عليه دائماً .

والصلاة الوسطى مخفوظة بالعطف على الصلوات وكان يجوز النصب على « والصلاة الوسطى » لخصوها بالمحافظة . ومن حمل الصلاة الوسطى على صلاة الجماعة جعل قوله : « على الصلوات » على عمومه . ومن حملها على واحدة من الصلوات على الخلاف فيه اختلفوا ، فمنهم من قال أراد بقوله « على الصلوات » ما عدا هـذه الصلاة وإلا كان يكون عطف الشيء على نفسه ، ومنهم من قال لا يمتنع أن يريد بالأول جميع الصلوات ، وخص هذه بالذكر تعظيما لها وتأكيداً لفضلها .

قوله تعالى :

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) آية .

اللغة :

معنى قوله : « فرجالا » أي على أرجلكم ، لأن الراجل : هو الكائن على رجله واقفاً كان ، أو ماشياً . وأحد الرجال : راجل وجمعه رجّال ، مثل تاجر وتجّار ، وصاحب ، وصحّاب ، وقائم ، وقيام . وواحد الركبان : راكب ، وجمعه ركبان ، وركاب ، كفارس ، وفرسان . وتقول : ركب يركب ركوباً ، وأركبه إركاباً ، وارتكب ارتكاباً ، وتراكب الشيء تراكباً ، وتركب تركيباً ، وركبه تركيباً ، واستركب استركاباً . وكل شيء علا شيئاً ، فقد ركبه . وركبه الدين ، ونحوه . والركبة معروفة ، لروب البدن لها . وركبة البعير في يده . والركاب : المطي . وركاب السرج ، لأنه يركب . والركبان : أصلا الفخذين الذين عليهما لحم الفرج لركوبه إياهما . وفرس أركب ، والانثى ركبي : إذا عظمت ركبتيهما وهو عيب . وأركب المهر : إذا أمكن أن يركب . ورجل مركب : الذي يغزوا على فرس غيره . والراكبة : فسيلة تتعلق بالنخلة لا تبلغ الأرض . وركبت الرجل أركبه ركباً : إذا ضربته بركبتك . والركوب : كل دابة تركب ، ومنه قوله : « فمنها ركوبهم » (١) وأصل الباب الركوب : العلو على الشيء .

المعنى :

والعامل في قوله : « فرجالا » محذوف ، وتقديره : فصلوا رجالا أو ركباناً .

وصلاة الخوف من العدو : ركعتان كيف توجه إنما يجعل السجود أخفض من الركوع ـ في قول ابراهيم ، والضحاك ـ فان لم يستطع ، فليكن بتكبيرتين . وروي أن علياً (ع) صلى ليلة الهرير خمس صلوات بالايماء وقيل بالتكبير . وإن النبي (ص) صلى يوم الاحزاب إيماء . وروي أنه قضاها بعد أن فاتت بالليل . وقال ابن عباس والحسن : يجوز في صلاة الخوف ركعة واحدة . وقال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد : يجوز أن يصلي الخائف ماشياً . وقال أهل العراق : لا يصلي ماشياً ، لأن المشي

« ١ » سورة يس آية : ٧٢ .

حمل . والذي نقوله : إن الخائف إن صلى منفرداً صلاة شدة الخوف صلى ركعتين يومىء إيماء ، ويكون سجوده أخفض من ركوعه ، وإن لم يتمكن كبر عن كل ركعة تكبيرة ، وهكذا صلاة شدة الخوف إذا صلوها جماعة ، وإن صلوا جماعة غير صلاة شدة الخوف ، فقد بينا الخلاف فيه وكيفية فعلها في خلاف الفقهاء .

والذكر في الآية قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ أنه الصلاة ، أي فصلوا صلاة الأمن كما علمكم الله ، هذا قول الحسن ، وابن زيد .

الثاني ـ اذكروه بالثناء عليه ، والحمد له كما علمكم ما لم تعلموا من أمر دينكم ، وغير ذلك من أموركم . والأولى حمل الآية على عمومها في الأمرين .

قوله تعالى :

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) آية واحدة بلا خلاف .

قرأ نافع ، وابن كثير ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم « وصية » بالرفع . الباقون بالنصب .

المعنى :

هذه الآية منسوخة الحكم بالآية المتقدمة ، وهي قوله : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً » بلا خلاف في نسخ العدة إلا أبا حذيفة ، فانه قال : العدة أربعة أشهر وعشراً ، وما زاد الى الحول يثبت بالوصية والنفقة ، فان امتنع الورثة من ذلك كان لها أن تتصرف في نفسها ، فأما حكم الوصية ، فعندنا باق لم ينسخ وإن كان على وجه الاستحباب . وحكي عن ابن

عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد : أنها منسوخة بآية الميراث ، وقد بينا فساد قولهم : لا وصية لوارث . فأما آية الميراث ، فلا تنافي الوصية ، فلا يجوز أن تكون ناسخة لها ، وقد مضى الكلام في خبر الدين (١) في الآية المتقدمة ، فلا وجه لاعادته .

المعنى ، والاعراب :

ومن نصب « وصية » فانه يحتمل قوله : « وصية » أمرين :

أحدها ـ فليوصوا وصية لأزواجهم ، فينصب على المصدر .

الثاني ـ كتب الله عليهم وصية لأزواجهم ، فينصب على أنه مفعول به .

والمصدر المنصوب يدل على فعل الأمر المأخوذ منه ، أما دلالته على فعله ، فلأنه مشتق منه ، وأما دلالة نصبه على الأمر منه ، فلغلبة الباب في الأمر ، فأما دلالته على كتب ، فلأن ما أمر الله به ، فقد كتبه . والنصب يدل على الأمر به . والرفع يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها ـ فعليهم وصية لأزواجهم . الثاني ـ فلأزواجهم وصية كما تقول : لزيد مال . الثالث ـ كتب عليهم وصيـة لأزواجهم . وقال بعضهم : لا يجوز غير الرفع ، لأنه ، لا يمكن الوصية بعد الوفاة ، لأن الفرض كان لهن أوصى أو لم يوص . قال الرماني : وهذا غلط ، لأن المعنى والذين يحضرهم الوفاة منكم ، فلذلك قال : « يتوفون منكم » على لفظ الحاضر الذي يتطاول على نحو قولك : الذين يصلون ، فليعرضوا عن الذكر فيما يشغلهم . فأما قوله : الفرض كان لهم ، فان لم يوصوا فقال قتادة والسدي : إنما كان لهن بالوصية على أنه لو كان على ما زعم ، لم ينكر أن يوجبه الله على الورثة إن فرط الزوج في الوصية .

وقوله : « متاعا الى الحول » نصب ، والعامل فيه أحد أمرين :

أحدها ـ جعل الله لهن ذلك متاعا ، لأن ما قبله دل عليه .

والثاني ـ متعوهن متاعاً . وقوله غير إخراج نصب بأحد الشيئين : أحدها ـ بأن يكون صفة لمتاع . والثاني ـ أن يكون مصدراً كأنه قيل : لا إخراجاً . قال

« ١ » في تفسير آية : ٢٣٤ . وفي المطبوعة (جر الدين) وهو تصحيف .

الفراء : هو كقولك : جئتك عن رغبة اليك فكأنه قال : متعوهن مقاماً في مساكنهن ، فيكون مصدراً وقع موقع الحال . ويجوز أن يكون بمعنى الاقامة في مساكنهن . وقال الحسن ، والسدي : قوله : « فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف » دليل على سقوط النفقة ، والسكنى بالخروج ، لأنه إنما جعل لهن ذلك بالاقامة الى الحول ، فان خرجن قبله بطل الحق الذي وجب بالاقامة . وإنما يحتاج الى هذا التخريج من يوجب النفقة للمعتدة عن الوفاة . فأما من قال : لا نفقة لها ، ولا سكنى ، فلا يحتاج الى ذلك ، وهو مذهبنا ، لأن المتوفى عنها زوجها لا نفقة لها ، وإذا قلنا القرآن لا ينسخ بالسنة ، قلنا : النفقة هاهنا على وجه الاستحباب أو أنها تثبت بالوصية ، لأنا بينا أن الوصية غير منسوخة .

قوله تعالى :

وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)

آية بلا خلاف .

المعنى :

قال سعيد بن المسيب الآية منسوخة بقوله : « فنصف ما فرضتم » وعندنا أنها مخصوصة بتلك إن نزلا معاً . وإن كانت تلك متأخرة فالأمر على ما قال سعيد ابن المسيب : إنها منسوخة ، لأن عندنا لا تجب المتعة إلا للتي لم يدخل بها ولم يسم لها مهر . وإن سمي لها مهر ، فلها ما سمي وإن لم يدخل بها فان فرض لها مهراً كان لها نصف مهرها ، ولا متعة لها في الحالين ، فلابد من تخصيص هذه الآية . وقال سعيد ابن جبير وأبو العالية والزهري : المتعة واجبة لكل مطلقة ، وبه قال أبو حنيفة . وقال الحسن : هي للمطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها صداق مثل ما قلناه . وقال عطا ، ومجاهد : هي للمدخول بها ، وحكى أبو علي : للمطلقة البائنة .

وإنما كرر ذكر المتعة هاهنا وقد تقدم ذكرها قبل هذه الآية ، لأنه ذكر في غيرها خاصاً وذكر فيها عاماً فدخل فيه الأمة ، وغيرها ، والمتعة في الموضع الذي يجب

على قدر الرجل بظاهر الآية ، لأنه قال : « وعلى الموسع قدره » : مثلها وإن كان فوق قدره حكاه البلخي .

وقوله : « بالمعروف » معناه بالمعروف صحته ، لأنه عدل بين الافراط ، والتقصير . وقال الضحاك : على قدر الميسرة ، وإنما خص المتاع بالمتقين وإن كان واجباً على الفاسقين ، تشريفاً لهم بالذكر اختصاصاً ، وجعل غيرهم على وجه التبع ، كما قال : « هدى للمتقين » (١) وقيل : لأنه أخرج الكلام مخرج من لا يعتد بغيرهم لاحتقارهم ، وجلالة المتقين بالتقوى ، ولأنه إذا وجب على المتقين ، فهو واجب على جميع المتعبدين ، لأن التقوى واجب على المكلفين ، وهذا إنما يدل على أنه واجب بشريطة التقوى . فأما إذا وجب على التقي والفاجر ، فالجواب هو الأول .

الاعراب :

وقوله : « حقاً على المتقين » نصب على المصدر ، وقع موقع الحال ، والعامل فيه « بالمعروف » كأنه قيل : عرف حقاً ، ويجوز أن يكون العامل فيه الظرف . ويجوز أن يعمل فيه معنى الجملة ، كأنه قيل : أحق ذلك حقاً وكان يجوز أن يرفع على أنه صفة لمتاع .

المعنى :

والمتاع : النفقة مقدار ما تقيم في العدة على قول الجبائي ؛ وعلى ما قلناه قدر ما يوصي به لها بالمعروف الذي لا يضرّ بباقي الورثة .

قوله تعالى :

كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) آية .

التشبيه بقوله : « كذلك يبين الله » وقع على البيان الذى تقدم في الأحكام والحجاج والمواعظ والآداب وغير ذلك مما يحتاج الناس الى عمله ، والعمل عليه في

« ١ » سورة البقرة آية : ٢ .

أمر دينهم ودنياهم شبه البيان الذي يأتي بالبيان الماضي ، والبيان : هو الأدلة التي يفرق بها بين الحق ، والباطل . وعبر عنه بأنه فعل يظهر به أمر على طريقة حسنة ، وليس كلما يظهر به غيره ما لا يأتيه . وقد يكون ذلك بكلام فاسد يفهم به المراد ، فلا يستحق صفة بيان. والآية هي العلامة فيما كان من الأمور العظيمة ، لأن في الآية تفخيما ليس في العلامة . وقوله : « لعلكم تعقلون » معناه : لكي تعقلوا آيات الله بالبيان عنها . والعقل مجموع علوم ضرورية يميز بها بين القبيح ، والحسن ، ويمكن معها الاستدلال بالشاهد على الغائب .

قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ على النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) آية واحدة بلا خلاف .

المعنى :

معنى « ألم تر » ألم تعلم ، لأن الرؤية مشتركة بين العلم ـ وهي رؤية القلب ـ وبين رؤية القلب . وقيل في معنى قوله : « وهم ألوف » قولان :

أحدها ـ أن معناه : الكثرة ، فكأنه : وهم أكثر الناس ، ذهب إليه ابن عباس ، والضحاك ، والحسن . وقال ابن زيد : معناه هم مؤتلفوا القلوب ، لم يخرجوا عن تباغض . ومن قال : المراد به العدد الكثير ، اختلفوا ، فقال ابن عباس : كانوا أربعين ألفاً . وقال قوم : أربعة آلاف . وقال آخرون : ثمانية آلاف وقال السدي : بضعة وثلاثون ألفاً . والذي يقضي به الظاهر : أنهم أكثر من عشرة آلاف ، لأن بناء (فعول) للكثير ، وهو ما زاد على العشرة . فأما ما نقص ، فيقال فيه : آلاف على وزن (أفعال) نحو عشرة آلاف ولا يقال : عشرة ألوف . وقال الحسن ،

وأكثر المفسرين : كانوا فرّوا من الطاعون الذي وقع بأرضهم . وقال الضحاك : فرّوا من الجهاد .

ومعنى الآية : الحضّ على الجهاد ، بأنه لا ينفع ـ من الموت ـ فرار ، ومن أمر الله ، لأنه يجوز أن يعجله على جهة العقاب ، كما عجله لهؤلاء ، للاعتبار . وفي الآية دليل على من أنكر عذاب القبر والرجعة معاً ، لأن الاحياء في القبر ، وفي الرجعة مثل إحياء هؤلاء الذين أحياهم للعبرة .

وقوله : « فقال لهم الله موتوا » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ أن معناه أماتهم الله ، كما يقال : قالت السماء ، فهطلت ، وقلت برأسي كذا ، وقلت بيدي ، وذلك لما كان القول في الأكثر استفتاحاً للفعل ، كالقول الذي هو تسمية ، وما جرى مجراها مما كان يستفتح بهالفعل ، صار معنى قالت السماء ، فهطلت أي استفتحت الهطلان ، وصار بمنزلة استفتاح الافعال فلذلك صارت أماتتهم بمنزلة استفتاح الأفعال .

الثاني ـ أن يكون أحياهم عند قول سمعته الملائكة بضرب من العبرة . ويجوز ـ عندنا ـ أن يكونوا أحيوا في غير زمان نبي . وقالت المعتزلة : لا يجوز أن يكون ذلك إلا في زمان نبي ، لأن المعجزة لا يجوز ظهورها إلا للدلالة على صدق نبي ، تكون له آية . وقد بينا فساد ذلك في غير موضع ، وأنه تجوز المعجزات على دين من الصادقين : من الأئمة ، والأولياء وإن لم يكونوا أنبياء . وروي عن ابن عباس : أنه مرّ بهم نبيّ ، فدعا الله تعالى ، فأحياهم .

وقوله : « إن الله لذو فضل على الناس » إنما ذكر ، واتصل بما تقدم ، لأنه لما ذكر النعمة عليهم بما آتاهم من الآية العظيمة في أنفسهم ليلزموا سبيل الهدى ، ويتجنبوا طرق الردى ذكر عندذلك ماله على الناس من الانعام مع ماهم من الكفران .

قوله تعالى :

وَقَاتِلوا في سَبيلِ اللهِ وَاعْـلَموا أَنَّ اللهَ سَميعٌ عَليمٌ (٢٤٤)

آية بلا خلاف .

المعنى :

قيل فيمن يتوجه إليه هذا الخطاب قولان :

أحدها ـ أنه متوجه الى الصحابة بعد ما ذكرهم بحال من فرّ من الموت ، فلم ينفعه الفرار ، حضهم على الجهاد ، لئلاّ يسلكوا سبيلهم في الفرار من الجهاد ، كما فرّ أولئك من الديار .

الثاني ـ الخطاب للذين جرى ذكرهم على تقدير ، وقيل لهم : قاتلوا في سبيل الله . والقول الأول أظهر ، لأن الكلام على وجهه ، لا محذوف فيه .

وقوله : « واعلموا أن الله سميع عليم » معناه هاهنا : أنه « سميع » لما يقوله المنافق « عليم » بما يحبه المنافق ، فاحذروا حاله . وقيل : « سميع » لما يقوله المتعلل « عليم » بما يضمر ، فاياكم والتعلل بالباطل . وقيل : « سميع » لقولكم إن قلتم كقول من قبلكم « عليم » بضمائركم .

وسبيل الله الذي أمر بالقتال فيها : قتل في دين الله ، لاعزازه ، والنصر له ، وقتل في طاعة الله ، وقتل في جهاد أعداء المؤمنين .

اللغة :

والقتل : نقض البنية التي تحتاج إليها الحياة . والقتال : هو تعرض كل واحد منهما للقتل . والفرق بين سميع وسامع : أن سامعاً يقتضي وجوه السمع ، وسميع لا يدل عليه ، وإنما معناه : أنه من كان على صفة لأجلها يسمع المسموعات اذا وجدت ولذلك يوصف تعالى فيما لم يزل بأنه سميع ، ولا يوصف بأنه سامع إلا بعد وجود المسموعات .

قوله تعالى :

مَنْ ذَا الَّذي يُقرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثيرةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسِطُ وَإِلَيهِ تُرْجَعونَ (٢٤٥)

آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ أبو عمرو ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي « فيضاعفه » بالرفع . وقرأ عاصم بالألف ، والنصب . وقرأ ابن كثير « فيضعّفه » بالتشديد ، والرفع . وقرأ ابن عامر بالتشديد والنصب .

المعنى ، واللغة :

والقرض الذي دعا الله إليه قال ابن زيد هو الجهاد ، وقال في البر من النفل . والقرض : هو قطع جزء من المال بالاعطاء على أن يردّ بدل منه . وقوله : « يقرض الله » مجاز (١) في اللغة لأن حقيقته أن يستعمل في الحاجة ، وفي هذا الموضع يستحيل ذلك ، فلذلك كان مجازاً ، وقد يستعمل القرض في غير الحاجة قال أمية بن أبي الصلت :

لا تخلطن خبيثات بطيبة ... واخلع ثيابك منها وانج عريانا
كل امرىء سوف يجزى قرضه حسناً ... أو سيئاً ومديناً كالذي دانا (٢)

فهذا يبين أن القرض من غير عوز ، وقال آخر :

وإذا جوزيت قرضاً فاجزه ... إنما ليس الفتى غير الجمل (٣)

والقرض القطع بالناب . قرض يقرض قرضاً : إذا قطع الشيء بنابه ، وقرّض تقريضاً ، وتقرّض تقرضاً ، واقترض المال اقتراضاً . والقرض ما أعطيته لتكافاه ، أو يرد بعينه . واقترض اقتراضاً ، واستقرض استقراضاً ، وتقارضا الثناء : إذا أثنى كل واحد منهما على صاحبه ، وكذلك قارضه الثناء . وانقرضوا انقراضاً : إذا هلكوا . والدنيا قروض : أي يتقارضها الناس من بينهم بالمكافاة . وقرض الشيء

« ١ » في المطبوعة (محله) وهو تحريف .
« ٢ » اللسان (قرض) ذكر البيت الثاني فقط وروايته (أو مديناً مثل ما دانا) بدل (ومديناً ....) .
« ٣ » قائله لبيد . اللسان (قرض) وروايته (انما يجزى الفتى ليس الجمل) .

يقرضه قرضاً . والشعر قريض . ومنه قوله : « تقرضهم ذات الشمال » (١) أي تقطعهم بمرورها عليهم والمقراض : الجلم الصغير ، وقراضات الثوب ما ينفيه الجلم .

الاعراب ، واللغة :

وقوله : « فيضاعفه » من رفع عطفه على قوله : « يقرض » ومن نصب ، فعلى جواب الاستفهام بالفاء . والاختيار الرفع لأن فيه معنى الجزاء ، وجواب الجزاء بالفاء لا يكون إلا رفعاً « ويضاعفه » أكثر في الاستعمال ، وإنما شدد أبو عمرو « يضعف لها العذاب ضعفين » (٢) ولم يشدد « فيضاعفه » لأن المضاعفة عنده لما لا يحد . والتضعيف للمحدود ، وتقول : ضعفت القوم أضعفهم ضعفاً : إذا كثرتهم ، فصرت مع أصحابك على الضعف منهم ، وضعف الشيء : مثلاه في المقدار . وأضعفت الشيء إضعافاً ، وضعّفته تضعيفاً ، وضاعفته مضاعفة ، وهو الزيادة على أصل الشيء حتى يصير مثلين أو أكثر . وتضاعف الشيء تضاعفاً وضعف ضعفاً . والضعف خلاف القوة ، لأنه قطع القوة عن التمام . وضعف الشيء مثله في المقدار إذا زيد عليه ، فكل واحد منهما ضعف . والتضعيف : تكرير الخوف ، واستضعفت الرجل استضعافاً ، وأصل الباب الضعف . وهو زيادة المثل .

وقوله : « والله يقبض ويبسط » قال الحسن ، وابن زيد في الرزق ، وحكى الزجاج : أنه يقبض الصدقات ويبسط الجزاء عليها عاجلا ، وآجلا عليها .

والقبض خلاف البسط والقبض ضم الكف على الشيء قبضه قبضا وتقبّض عنه تقبّضا : إذا اشمأز منه ، لأنه ضم نفسه عن الانبساط إليه . وانقبض انقباضاً ، وقبضت الرجل تقبيضا : إذا أعطيته لانضمام كفه على ما أخذه . ورجل قبيض : إذا كان منكمشا سريعاً لتجمعه للاسراع . وراع قبضة : إذا كان لا يتفسح في رعيه ، لانقباضه . والتقبض : التشنج . وقبض الانسان : إذا مات . والملك قابض الارواح .

والبسط خلاف القبض تقول : بسط يبسط بسطاً ، وانبسط انبساطاً ، وبسطه تبسيطاً ، وتبسّط تبسطاً . والبساط ـ بكسر الباء ـ ما بسطته . والبساط ـ بفتح الباء ـ الأرض الواسعة ، وناقة بسط : معها ولدها لانبساطه . والبسطة : الفضيلة في

« ١ » سورة الكهف آية : ١٧ .

« ٢ » سورة الاحزاب آية : ٣٠ .

الجسم أو المال ، ونحو ذلك « وزاده بسطة في العلم ، والجسم » (١) وكتب (بصطة) بالصاد ، وبسطة بالسين ، لأن القلب على الساكن أقوى منه على المتحرك .

المعنى :

ومعنى « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » التلطف في الاستدعاء الى أعمال البرّ والانفاق في سبيل الخير .

وجهلت اليهود لما نزلت هذه الآية ، فقالوا أالله يستقرض منا فنحن أغنياء وهو فقير الينا ! فأنزل الله تعالى « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء » (٢) ذكره الحسن والهاء في قوله : « وإليه ترجعون » عائدة الى الله . ومعناه الى الله ترجعون في الآخرة . وقيل الى التراب الذي خلقكم منه ذكره قتادة .

قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة

قرأ نافع عسيتم بكسر السين . الباقون بفتحها .

اللغة :

الملأ : الجماعة الأشراف من الناس وروي أن رجلا من الأنصار قال يوم

« ١ » سورة البقرة آية : ٢٤٧ . « ٢ » سورة آل عمران : ١٨١ .

بدر : إن قتلنا الا عجاز صلعا (١) ، فقال النبي (ص) : أولئك الملا من قريش لو رأيتهم في أنديتهم لهبتهم ، ولو أمروك لأطعتهم ، ولاحتقرت فعالك عند فعالهم . وتقول ملأت الاناء أملأه ملاء إذا أترعته ، لأنه يجتمع فيه مالا يكون معه مزيد عليه ، وامتلأ امتلاء : إذا طفح ، ومالأت الرجل : إذا عاونته ممالأة . وتمالؤوا عليّ : إذا تعاونوا . وملوء الرجل ملاءة ، فهو مليء بالأمر : إذا أمكنه القيام به . ووعاء ملآن والانثى ملآى ، والجمع : ملاء . والملأ : الجماعة من الناس يستجمعون للمشاورة . والجميع الاملاء قال الشاعر :

وقالت لنا الاملاء من كل معشر　　وخير أقاويل الرجال سديدها

والاملاء : الربطة وأصل الباب الاملاء ، وهو الاجتماع فيما لايحتمل المزيد ، ومنه شاب مالىء العين أي قد اجتمع له من الحسن في العين ما ليس عليه مزيد . والملأ : الخلق ، لأن جميع أفعال صاحبه تجرى عليه .

المعنى :

وقال السدي : إن النبي الذي قالت له بنوا إسرائيل ما حكاه يقال : شمعون سمته أمه بذلك لأن الله سمع دعاءها فيه . وقال قتادة : هو يوشع بن نون . وقال وهب بن منبة : هو شمويل ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) . وكان سبب سؤالهم هذا استذلال الجبابرة لهم من الملوك الذين كانوا في زمانهم إياهم على قول وهب ، والربيع . وقال السدي : قتال العمالقة . وإنما سألوا ملكا ، ليكون آمراً عليهم تنتظم به كلمتهم ، وتجتمع أمورهم ، ويستقيم حالهم في جهاد عدوهم .

الاعراب ، واللغة :

وأكثر النحويين على الجزم في « نقاتل » مع النون ، وقالوا : لا يجوز غير

« ١ » هكذا في المطبوعة ، وفي مجمع البيان (ان قتلنا عجايز صلعاً) . ورواه لسان العرب في (صلع) ، قال : وفي حديث بدر ماقتلنا الا عجائز صلعاً : أي مشايخ صلعا . وفي (ملأ) قال : ويروى أن النبي (ص) سمع رجلا من الانصار — وقد رجعوا من غزوة بدر — يقول : ما قتلنا الا عجائز صلعا ، فقال (ص) : أولئك الملأ من قريش لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعالك .

الجزم . وأجاز الزجاج الرفع على ضعف فيه على تقرير : فانا نقاتل في سبيل الله . ولو كان بالتاء لجاز الرفع على أن يكون صفة للملك . والجزم على الجواب ، كما قال « فهب لي من لدنك وليا يرثني » (١) بالجزم ، والرفع . ولو كان (نقاتل معه) لحسن الرفع أيضاً لعائد الذكر ، ولا يجوز أن تقول : الذي مررت زيد ، تريد : به . ودخلت (أن) في قوله : « مالنا ألاّ نقاتل في سبيل الله » ، وأسقطت في قوله : « ومالكم لا تؤمنون بالله » (٢) لأحد ثلاثة أشياء :

أولها ـ دخلت (أن) لتدل أن فيه معنى : ما منعنا من أن نقاتل ، كما دخلت الباء في خبر هل لما تضمنت معنى ما قال الفرزدق يهجو جريراً ، ويذكر أن أباه كان ينكح اتاناً (٣) .

يقول إذا اقلولى عليها وأقردت ألا هل أخو عيش لذيذ بدائم (٤)

معنى اقلولى : علاها ، ومعنى أقردت : ذلت .

وأما سقوطها في الموضع الآخر ، فعلى الأصل كأنه قيل : ما لنا غير مقاتلين ، كما قال : « فما لهم عن التذكرة معرضين » (٥) هذا قول الفراء .

الثاني ـ أن تكون (أن) زائدة في قول الأخفش ، وهو ضعيف ، لأنه لا يجوز الحمل على الزيادة لا لضرورة .

الثالث ـ على حذف الواو كأنه قال : ومالنا ولأن نقاتل ، كما قالوا : إياك أن تتكلم بمعنى إياك وأن تتكلم . قال الرماني : وهذا ليس بالوجه ، لأنه لا يحكم أحد بالحذف ، ولا بالزيادة إلا عند الضرورة قال الشاعر :

فبح بالسرائر في أهلها وإياك في غيرهم أن تبوحا (٦)

فالآية مستغنية عن الواو مثل البيت سواء قال الشاعر :

فاياك المحاين أن تحينا

« ١ » سورة مريم آية : ٤ . « ٢ » سورة الحديد آية : ٨ .

« ٣ » في المطبوعة « اناناً » بدل « اتانا » .

« ٤ » ديوان جرير ٢ : ١٢٨ ، واللسان « قرد » ورواية الديوان « ليس ذو » بدل « هل أخو » ورواية اللسان « تقول » بدل « يقول » .

« ٥ » سورة المدثر آية : ٤٩ « ٦ » معاني القرآن للفراء ١ : ١٦٥

فانما هو على احذر المحاين لا على إضمار (أن) . وقال المبرد في (ما) وجه آخر ، وهو أن يكون جحداً ، ويكون تقديره : مالنا ترك القتال . وعلى الوجه الأول (ما) استفهام ، وإنما جاز ، مالك أن تقوم ، ولم يجز مالك أن قمت ، لأن المنع إنما يكون على الاستئناف ، تقول : منعه أن يقوم ، ولا يجوز أن يقوم منعه أن قام ، كذا قال الفراء في الكلام حذف ، وتقديره : « وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » فسأل ، فبعث ، فوجب عليهم القتال « فلما كتب » « تولوا » ، وإنما وجب أن يكون محذوفاً ، لأن الكلام لا يدل عليه إلا من جهة الذكر له أو الحذف منه ، فأما ما يدل عليه الكلام من غير جهة الذكر له ، أو الحذف منه ، فليس بمحذوف نحو قد ُعرف زيد ، فانه يدل على أنه عرفه عارف ، وليس بمحذوف ، لأنه لم يدل عليه من جهة الذكر له ولا الحذف منه .

وعسيتم ـ بكسر السين ـ لغة ، والفتح أكثر . وقوله : « إلا قليلا » لا يجوز فيه الرفع ، لأنه استثناء بعد موجب ، وكذلك قوله : « فشربوا منه إلا قليلا » لا يجوز فيه الرفع .

قوله تعالى :

وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعثَ لَكُمْ طالوتَ مَلِكاً قالوا أَنَّى يَكونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المالِ قالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَزادَهُ بَسْطَةً في العِلْمِ وَالجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ واللهُ واسِعٌ عَليمٌ (٢٤٧) آية واحدة بلا خلاف .

المعنى :

قال السدي ، ووهب بن منبه : إنما أنكروا أن يكون طالوت ملكاً ، لأنه لم يكن من سبط النبوة ، ولا سبط المملكة بل كان من أجمل سبط في بني اسرائيل .

وقوله : « إن الله اصطفاه » معناه اختاره في قول ابن عباس ، وابن زيد ، وأصله الصفوة من الادناس .

وقوله : « وزاده بسطة في العلم والجسم » قيل في معناه قولان :

قال الحسن : زيادة في العلم وعُظماً في الجسم . وقال الجبائي : كان اذا قام الرجل ، فبسط يده رافعاً لها نال رأسه .

اللغة :

يقال : جسم يجسم جسامة يعني ضخم ضخامة . ورجل جسيم : عظيم الخلق . وجسمه تجسيما ، وتجسم تجسما . وهو أجسم منه أي أضخم . وأصل الباب الضخم . والجسم : هو الذاهب في الجهات الثلاثة : الطول والعرض والعمق .

الاعراب والمعنى :

وإنما لم يصرف (طالوت) ، وصرف (جاموس) إذا سميت به ، وإن كانا أعجميين ـ في قول الزجاج ـ لأنه لما كان يدخله الألف واللام نكر ، نحو قولهم : الجاموس . وكلما أعرب في حال تنكيره فانه لا يعتد بالعجمة فيه ، لأنه بمنزلة ما أصله عربي فأما ما أعرب في حال تعريفه ، فليس كذلك ، لأنه لم يستعمل إلا على احدى الحالين دون الأخرى ، فنقل لذلك .

وقوله : « والله واسع عليم » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ واسع الفضل ، فحذف ، كما حذف في قولهم : فلان كبير أي كبير القدر . الثاني ـ واسع بمعنى : موسع أي يوسع على من يشاء من نعمه ، كما جاء (أليم) بمعنى : مؤلم . والثالث ـ واسع بمعنى ذو سعة نحو « عيشة راضية » أي ذات رضى ، وهم ناصب أي ذو نصب . وتامر ، ولابن ، أي ذو تمر وذو لبن . ويجيء باب في فاعل بمعنى ذو كذا . وقوله : « عليم » أي عليم بمن ينبغي أن يؤتيه الفضل إما للاستصلاح ، وإما للامتحان . قال البلخي : وفي الآية دلالة على فساد قول من قال بأن الامامة وراثة ، لان الله تعالى رد عليهم ما أنكروه من التعليل

عليهم من ليس من أهل النبوة ، ولا المملكة ، وبين أنه يجب بالعلم والقوة لا بالوراثة . وقال أصحابنا فيها دلالة على أن من شرط الامام أن يكون أعلم رعيته وأفضلهم في خصال الفضل ، لأن الله تعالى عال تقديمه عليهم بكونه أعلم وأقوى فلولا أنه شرط وإلا لم يكن له معنى .

قوله تعالى :

وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) آية .

المعنى :

قال الحسن : وجه الآية في التابوت أن الملائكة كانت تحمله بين السماء والارض يرونه عياناً وقال ابن عباس ووهب: إن الله انتزعه من أيدي أعدائهم الذين نهبوه منهم ، فرد عليهم « تحمله الملائكة » وقيل : إن التابوت كان في أيدي أعداء بني إسرائيل من العمالقة الذين غلبوهم عليه ـ على قول ابن عباس ، ووهب ـ ، وروي ذلك عن أبي عبد الله (ع) . وقال قتادة : كان في برية التيه : خلفه هناك يوشع ابن نون . وقال وهب بن منبه : كان قدر التابوت نحواً من ثلاث أذرع في ذراعين . وروي عن علي (ع) . أنه قال : السكينة التي كانت فيه ريح هفافة لها وجه كوجه الانسان . وقال مجاهد لها رأس كرأس الهرة ، وروي ذلك في أخبارنا . وقال وهب : روح من الله تكلمهم بالبيان عند وقوع الاختلاف . وقال عطا : كان فيه آية يسكنون إليها .

والسكينة مصدر وقع موقع الاسم نحو القضية والبقية والعزمة وأخذ من معنى السكون لأن نفوسهم تسكن إليه والبقية التي ترك آل موسى ، وآل هارون . قال

ابن عباس ، وقتادة ، والسدي : إنها عصا موسى ورصاص للألواح ، وهو المروي عن أبي جعفر . وقال أبو جعفر التابوت هو الذي وضعت أم موسى فيه موسى حين ألقته في اليم . وأقوى هذه الأقوال أن يحمل على أنه كان فيهما يسكنون إليه ، ويجوز أن يكون ذلك عصا موسى والرصاص ، وغير ذلك مما اختلفوا فيه بعد أن يكون فيه ما تسكن النفس إليه ، لأنه تعالى بين أن فيه سكينة ، وهي فعيلة من السكون ، ولا يقطع بشيء من ذلك إلا بدليل يوجب العلم . وقال الحسن : كان فيه التوراة وشيء من ثياب موسى .

اللغة :

وفي التابوت لغتان فلغة جميع العرب إلا الأنصار : التابوت بالتاء . والأنصار تقول : التابوه بالهاء . ويقال : بقي بقاء وأبقاه إبقاء واستبقاه استبقاء وتبقاه تبقياً وتباقى تباقياً وباقاه مباقاة . ومنه بقايا الخراج . وأصل الباب البقاء : خلاف الفناء . وقوله : « تحمله الملائكة » تقول : حمل يحمل حملا واحتمل احتمالا وتحامل تحاملا . وتحمل تحملا وحمّله تحميلا وحامله محاملة . وانحمل انحمالا واستحمل استحمالا . والحمل من الضأن : الخروف . والحمل : السحاب الكثير الماء . والحمل : ما في البطن . والحمل : ما على الظهر . والحمالة علاّقة السيف . والمحمل : الذي يركبه الناس والحمالة الدية ، يتحملها قوم عن قوم والحميل : الكفيل ، والحميل الغريب لأنه يحمل على القوم وليس منهم . وحميل السيل : غثاؤه . وامرأة حامل : حبلى لحملها الولد . وحملت فلاناً على فلان : إذا حرشته عليه ، لأنك حملته على مكروهه . والحمولة الابل لأنها يحمل عليها الأثقال . وأصل الباب الحمل : كون الشيء على الشيء وقوله : « إن كنتم مؤمنين » معناه إن كنتم مصدقين ولا يجوز أن يكونوا على تثبيت الايمان لهم ، لأنهم كفروا حين ردّوا على نبيهم . وقيل : إن كنتم مؤمنين كما تزعمون .

قوله تعالى :

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ

فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ « غرفة » ـ بالفتح ـ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع . الباقون بالضم ، وهما لغتان .

اللغة :

قوله : « فلما فصل » معناه قطع ، والفصل : القطع . يقال فصل اللحم عن العظم أي قطعه فأبانه عنه ، وفصل الصبي فصلاً : إذا قطعه عن اللبن . وقول فصل أي يفصل بين الحق والباطل . والجنود جمع جند قال السدي : كانوا ثمانين ألف مقاتل ، والاجناد جمع القلة . وجنّد الجنود تجنيداً أي جمعهم . والجند الأرض الغليظة وكل صنف من الخلق : جند على حدة . وفي الحديث : الأرواح جنود مجندة . وأصل الباب الجند : الغليظ من الأرض .

المعنى :

قوله : « إن الله مبتليكم بنهر » فمعنى الابتلاء هاهنا تمييز الصادق من الكاذب في قوله ـ على قول الحسن ـ . وقال وهب بن منبه : السبب الذي لأجله ابتلوا بالنهر شكايتهم قلة المياه ، وخوف التلف من العطش . والنهر الذي ابتلوا به ، قال ابن عباس ، والربيع ، وقتادة : هو نهر بين الأردن ، وفلسطين . وروي عن ابن عباس

أيضاً أنه نهر فلسطين . وقوله : « فمن شرب منه » الهاء عائدة على النهر في اللفظ ، وهو في المعنى الماء .

وقوله : « فليس مني » معناه ليس على ديني ، ولا من أهل ولايتي ، فحذف ودلت من عليه .

اللغة :

ويقال : طعم الماء كما يقال طعم الطعام وأنشدوا .

وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا بردا

والغرفة بالفتح المرة من الغرف . والغرفة بالضم ملء الكف من الماء ، فالغرفة اسم للماء المغروف والغرفة إسم للفعل . وقال بعضهم الاختيار الضم لأنه لو جاء على معنى المرة ، لكان اغترافة . وهذا ليس بشيء ، لأنه إذا كان المعنى واحداً جاز اغترافة ، لأنه الأصل وجاز غرفة ، لأنه أخف ، وكلاهما حسن . ويقال غرف يغرف غرفاً واغترف اغترافاً والمغرفة الآلة التي يغرف بها . وغرف غروف أي كبير والغريف : ماء في الاجمة ، لأنه يغرف من بين القصب . ومزادة غرفية مدبوغة بالغرف : وهو جنس من الدباغ . والغريف شجر مجتمع من أي شجر كان . والغرفة العلية . وأصل الباب الغرف .

المعنى :

وقال ابن عباس ، وقتادة ، والربيع : من استكثر من ذلك الماء عطش ، ومن لم يشرب إلا غرفة روي . وقال الفراء ، والحسن ، وقتادة ، والربيع : والذين جازوا النهر مع طالوت كان عددهم مثل عدد أهل بدر ، وهم ثلاثة وبضعة عشر ، وهم المؤمنون خاصة . وقال ابن عباس ، والسدي : جاوزه الكافر ، والمؤمن إلا أن الكافرين انخزلوا عنهم ، وبقي المؤمنون على عدد أهل بدر . وهذا قوي ، لقوله تعالى: « فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه » ، فلما رأوا كثرة جنود جالوت قال الكفار منهم « لا طاقة لنا اليوم بجالوت » وقال المؤمنون حينئذ الذين عدتهم عدّة أهل

بدر « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » قال البلخي : ويجوز أن يكونوا كلهم مؤمنين ، غير أن بعضهم أشد إيقاناً وأقوى اعتقاداً ، وهم الذين قالوا : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » .

اللغة :

وتقول : جاز الشيء يجوزه : إذا قطعه . وأجازه إجازة : إذا استصوبه . والشيء يجوز : إذا لم يمنع منه دليل . واجتاز فلان اجتيازاً ، واستجاز فعل كذا استجازة . وتجوّز في كلامه تجوّزاً . وتجاوز عن ذنبه تجاوزاً . وجاوزه في الشيء تجاوزه ، وجوّزه تجويزاً . وجوز كل شيء وسطه بمجاز الطريق ، وهو وسطه الذي يجاز فيه . وقيل هذا اشتقاق الجوزاء ، لأنها تعرض جوز السماء أي وسطها ، وأما الجوز المروف ، ففارسي معرّب . والجواز الصك للمسافر . والمجاز في الكلام ، لأنه خروج عن الآجل الى ما يجوز في الاستعمال . وأصل الباب الجواز : المرور من غير شيء يصد ، ومنه التجاوز عن الذنب ، لأن المرور عليه بالصفح .

المعنى :

وقوله : « وقال الذين يظنون » قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال الذين يستيقنون ، ذهب إليه السدي قال دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنوا بالفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرد

أي أيقنوا وقيل إنه استعارة فيما يكفي فيه الظن حتى يلزم العمل ، فكيف المعرفة ، فجاء على وجه المبالغة في تأكد لزوم العمل .

الثاني ـ يحدثون نفوسهم وهو أصل الظن ، لأن حديث النفس بالشيء قد يكون مع الشك ومع العلم إلا أنه قد على ركبت ما كان مع الشك .

الثالث ـ يظنون أنهم ملاقوا الله بالقتل في تلك الواقعة .

وقوله : « كم من فئة » الفئة : الطائفة من الناس ، والجمع : فئين وفئات . ولا يجوز في عدة إلا عدات ، لأن نقص عدة من أوله . وليس كذلك فئة ، وما نقص

من أوله يجري في الباب على اطراد بمنزلة غير المنقوص ، فأما فئة ومئة . وثبة وعزة ، فان النقص فيه على غير اطراد ، كما يكون في عدة ، وصلة ، وزنة ، وصفة ، وجهة . وتقول فأوت رأسه بالسيف إفاءة وفأواً : إذا قطعته وانفاء الشيء إنفاءً : إذا تقطع وأصل الباب القطع ، فمنه الفئة ، لأنهم قطعة من الناس .

وقوله : « غلبت » تقول : غلب يغلب غلباً وغالبه مغالبة وتغالبوا تغالباً . وتغلب تغلباً وغلبه تغليباً . وأشد أغلب : إذا كان غليظ العنق . ورجل أغلب كذلك ، لأنه من إمارة الغلب . واغلولب العشب إذا كثر لأنـــه غلب على غيره بكثرته . وأصل الباب الغلب : القهر .

المعنى :

وقوله : « باذن الله » معناه بنصر الله على قول الحسن ، لأن الله إذا أذن في القتال نصر فيه على الوجه الذي أذن فيه ويجوز في (كم) الجر والنصب وإن كان على معنى الخبر في قول الفراء . وفي الآية حذف لدلالة (١) ما بقي عليه وهو فأتاهم التابوت بالصفة التي وعدوا بها ، فصدقوا لأن قوله « فصل طالوت بالجنود » بعد تلك المنازعة منهم ينبيء أن الآية أتتهم ، فانقادوا لأجلها .

قوله تعالى :

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَجُنودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرينَ (٢٥٠)

آية بلا خلاف .

اللغة :

البروز الظهور للقتال ، ومنه البراز ، وهي الأرض : الفضاء . تقول : برز يبرز بروزاً ، وبارزه مبارزة ، وتبارز تبارزاً ، وبرّز تبريزاً ، وتبرّز تبرزاً . ورجل

« ١ » في المطبوعة الا له

برز ، وامرأة برزة أي ذو عفة وفضل ، لظهور ذلك فيها . والجنود الجموع التي تعدّ للقتال واحدها جند ، مأخوذ من الجند وهو الغلظ .

وقوله : « ربنا افرغ » فالافراغ : صب السيال على جهة اخلاء المكان منه(١) وأصله الخلو . وإنما قيل « افرغ علينا صبراً » تشبيهاً بتفريغ الاناء من جهة أنه نهاية ما توجبه الحكمة ، كما أنه نهاية ما في الواحد من الآنية . وتقول فرغ يفرغ فراغا ، وأفرغ إفراغاً ، وفرّغ تفريغاً وتفرّغ تفرغاً ، واستفرغ استفراغا ، وافرغت افتراغاً : إذا صببت عليك الماء . وقوله : « سنفرغ لكم أيها الثقلان »(٢) معناه سنعمد ، لأنه عمل مجرد من غير شاغل ، ومنه قوله : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا »(٣) أي خالياً من الصبر والفرغ مفرغ الدلو ، وهو خرقة الذي يأخذ الماء ، لأنه يفرغ منه الماء « وأفرغ علينا صبراً » أي صبّ . ودرهم مفرغ أي مصبوب في قالب . وضربة فريغة : واسعة . وفرغ الاناء ، وفرغ الرجل من عمله . وأصل الباب الفراغ الخلوّ .

وقوله : « وثبت أقدامنا » تثبيت الأقدام يكون بشيئين : أحدهما ـ بتقوية قلوبهم . والثانية ـ بالقاء الرعب في قلوب أعدائهم حتى يظهر منهم الخور في قتالهم وقيل باختلاف كلمتهم حتى يقع التخاذل منهم ، وكذلك الصبر ، لأنه من فعل العبد كما أن الثبوت في الحرب من فعله ، لأنه يجازى عليه ، فأما النصر ، ففعل الله تعالى، والصبر : حبس النفس عما تنازع إليه من الفعل . وهاهنا حبسها عما تنازع إليه من الفرار من القتال . والتثبيت تمكين الشيء في مكانه بلزومه إياه . وقد يقال ثبت يثبت ثبوتاً ، وأثبته إثباتاً وتثبت تثبتاً ، واستثبت استثباتاً ، وثبته تثبيتاً . ورجل ثبت المقام : إذا كان شجاعاً لا يبرح موقفه ، ومنه فأثبت فيه الرمح أي نفذ فيه ، لأنه يلزم فيه . وأثبت حجته إذا أقامها . والقول الثابت الصحيح يلزم العمل عليه ، ومنه قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » أي يؤدبهم به ليلزموا طريق

« ١ » في المطبوعة (على جهة الاخلار منه المكان) .

« ٢ » سورة الرحمن آية : ٣١ .

« ٣ » سورة القصص آية : ١٠ .

الحق فيه . وفلان ثبت أي ثقة مأمون فيما روى . وأثبت الحسنات في الدفتر ، لأنك ضبطه ، وأصل الباب اللزوم .

وقوله : « فانصرنا » النصر : هو المعونة على العدو ، ويكون ذلك بأشياء منها بزيادة القوة ، ومنها الرعب من الملاقاة ، ومنها الاطلاع على العورة ، ومنها تخيل الكثرة ، ومنها اختلاف الكلمة التي تقع بلطف في إعطاء النصر ، والفرق بين النصر واللطف : أن كل نصر من الله ، فهو لطف ، وليس كل لطف نصراً ، لأن اللطف يكون في إحدى طاعاته بدلا من معصيته ، وقد يكون في فعل طاعة من النوافل فأما العصمة فلا تكون إلا من معصية .

قوله تعالى :

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ داودُ جالوتَ وآتاهُ اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشاءُ وَلَولا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ على العالَمينَ (٢٥١) آية .

القراءة :

قرأ نافع ، وأبان عن عاصم « دفاع الله » الباقون « دفع » بلا ألف .

المعنى :

في الآية حذف وتقديره فاستجاب لهم ربهم ، فهزموهم بنصره لهم ، لأن ذكر الهزيمة (١) بعد سؤال النصرة دليل على أنه كان على معنى الاجابة .

اللغة :

والهزم : الدفع ، تقول : هزم القوم في الحرب يهزمهم هزماً : إذا دفعهم بالقتال هرباً منه ، وانهزموا انهزاماً ، وتهزم السقاء : إذا يبس ، فتصدع لاندفاع بعضه على بعض ، والاهتزام الذبح تقول العرب : اهتزموا شاتكم قبل أن تهزل فتهلك ،

« ١ » في المطبوعة « الهزبة » .

لدفع صاعها بتذكيتها . والهزمة : دفعك الشيء بقوة حتى تدخل عن موضعه في الجسد ، وزمزم هزمة ، جبرئيل لاسماعيل (ع) والمهزم خشبة يحرك بها الجمر ، لأنها يرفع بها بعضه عن بعض ، وهزمة الرعد صوته ، وأصابتهم هازمة من هوازم الدهر أي داهية كاسرة ، لأنها كهازمة الجيش في البلية ، وهزمت عليك أي عطفت عليك .

المعنى :

فالأولى أن يكون القوم هزموهم حقيقة لأنهم سنوا الهزيمة بأن فعلوا ما يلجئهم اليها وقال الجبائي :ذلك مجاز ، لأنهم لم يفعلوا هزيمتهم ، كما يقال : اخرجه من منزله إذا ألجأه الى الخروج ، ولم يفعل خروجه ، وهذا ليس بصحيح ، لأنه ليس معنى هزمه فعل هزيمته ، ليكون إذا صرف عن ذلك الى معنى غيره يكون مجازاً في العبارة بل معناه ما قلناه .

وقوله : « باذن الله » يحتمل أمرين : أحدهما ـ بأمر الله . والثاني بعلم الله . وقيل : إن سبب قتل داود جالوت كان أن جالوت طلب البراز ، فخرج إليه داود (ع) فرماه بحجر مقلاع فوقع بين عينيه وخرج من قفاه ، فأصاب جماعة كثيرة من أهل عسكره فقتلهم ، وانهزم القوم عن آخرهم ، ذكر ذلك وهب بن منبه وغيره من المفسرين .

وقوله : « وآتاه الله الملك والحكمة » قيل في معناه قولان : أحدهما ـ أنه جمع له الملك والنبوة في حالة واحدة . والآخر ـ أنه اختصه من علم السمع بحكمة لم يؤتها غيره .

وقوله : « وعلّمه مما يشاء » معناه أنه علمه أمور الدين وما يشاء من أمور الدنيا ، منها صنعة الدرع وعمل السرد ، ذكره الزجاج ، والطبري . فان قيل : ما الفائدة في قوله : « وعلمه مما يشاء » إذا كنا لا ندري ما الذي شاء من ذلك ؟ قيل هو تعالى وإن لم يشرح لنا ما علمه فقد بين لنا أنه خصه من العلم بعد علم الدين بما لم يؤته غيره ، لأن غيره من المؤمنين إنما نعلم ما دله الله عليه من أمر دينه

ودنياه ، وكان داود مساوياً لهم في ذلك إن لم يكن أكثرهم علماً فيه ، لأنه كان مؤمناً مثلهم ، وكان معهم في أمورهم ، فلما بين لنا أنه « آتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » بعد قتل جالوت ، علمنا أنه كان خصه بما ذكره من الملك والحكمة ، وخصه منه بما لم يخص به أحداً سواه .

وقوله : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ يدفع الله بالبر عن الفاجر الهلاك ، هذا قول علي (ع) وهو المروي عن أبي جعفر محمد بن علي (ع) ، وبه قال مجاهد . الثاني ـ يدفع باللطف للمؤمن والرعب في قلب الفاجر . أن يعم الأرض الفساد . الثالث ـ قال الحسن ، والبلخي : يزغ الله بالسلطان فلا يزغ بالقرآن ، لأنه يغنيه على دفع الأشرار عن ظلم الناس ، لأنه يريد منه المنع من الظلم والفساد ، كان مؤمناً أو فاسقاً .

اللغة :

وأصل الدفع : الصرف عن الشيء ، دفع دفعاً ، ودافع مدافعة ودفاعاً ، واندفع اندفاعاً ، وتدافع تدافعاً ، وتدفع تدفعاً ، ودفعه تدفيعاً ، واستدفع استدفاعاً . والضيف المدفع ، لتدافع الحي به لاحتقاره . والدفاع السيل لتدافع بعضه على بعض . والدفعة اندفاع الشيء جملة . ورجل مدفع أي عن نسبه .

الحجة :

وقال الحسن : لم يكن داود نبياً قبل قتله جالوت ، لأنه لا يجوز أن يترأس من ليس بنبي على نبي لأنه قلب ما يوجبه تدبير الحكماء ، لأن النبي يوثق بظاهره وباطنه ولا يخبر إلا بالحق ولا يدعو إلا الى حق ، وليس كذلك من ليس بنبي من أهل العقل .

ومن قرأ « دفاع » بألف فوجهه : أن الله لما أعان أولياءه على مدافعة أعدائه حتى هزموهم ، حسن إضافة الدفاع إليه ، لما كان من معونته ، وإرادته له .

وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة : إنه ليس لله على الكافر نعمه ، لأنه قال : « إن الله لذوفضل على الناس » فعم الجميع بالنعمة ولم يخص ، « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » ويفسد به أيضاً قولهم :في الارادة وأن جميع ماأعطى الله الكفار إنما هو ليكفروا لا ليؤمنوا ، وما روي أن طالوت هم بقتل داود لما رأى أن وجوه الناس أقبلت عليه بقتله جالوت رواية شاذة ، فان صحت دلت على أن طالوت لم يكن نبياً ، ولا إماماً ، لأن النبي أو الامام لابد أن يكون معصوماً .

قوله تعالى :

تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) .

الآيات المذكورة في هذه الآية المراد بها ما تقدم ذكره من إماتة ألوف من الناس دفعة واحدة بخلاف ما جرت به العادة ثم أحياهم في مقدار ساعة ، ومن تمليك طالوت وقد كان من الخاملين الذين لا تنقاد لهم النفوس بما جعله له من الآية علماً على تمليكه ، ومن نصرة أصحاب طالوت مع قلة عددهم ، وضعفهم على جالوت وجنوده مع قوتهم وكثرة عددهم وشدة بطشهم حتى قهروهم واستعلوا عليهم ، وكل ذلك مما لا يقدر عليه غير الله تعالى فهو دلالة عليه .

وقوله : « وانك لمن المرسلين » دليل على نبوته على وجوه : منها ما في الاحياء بما تقدم من الدلالة على النبوة . ومنها أنه يجب التصديق بتلك الأمور لنبوته (ع) . ومنها أنه أوحي إليه به ، كما أوحي الى المرسلين ، لأنه سنة الله عز وجل في مثله . ومنها الاستدعاء الى القيام بما أرسل به بعد قيام الحجة عليه . ومنها أنه كما نصب تلك الآيات جملك من المرسلين لما في ذلك من الحكمة التي تدعو الى صلاح المكلفين . وإنما صارت الأخبار بذلك دلالة على النبوة من جهة أنها أخبار عن عيون لم تشهدها ولا خالط أهل المعرفة بها ، ومتى قال قائل : إنه أخذها عن أهل العلم بالأخبار ، فان قوله يبطل ، لأنه لوكان كذلك لم يتكلم بخروجه عن العادة كخروج أن يصير انسان من أعلم الناس بصناعة لم يشهدها ولا خالط

أهلها ، ولأن في أنبيائه تثبت معجزة من غير تلك الجهة ، وهو المنع من الازاحة مع توفر الاسباب الداعية الى الحديث به ، ولا نشر له وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

اللغة :

والرسالة تحمل جملة من الكلام لهـا فائدة الى المقصود بالدلالة . والحق هو وقوع الشيء موقعه الذي هو له من غير تغيير عنه بما لا يجوز فيه . والتلاوة : ذكر الكلمة بعد الكلمة من غير فاصلة ، لأن التالي للشيء يليه من غير فصل بغيره . والاصل : التلوّ وهو ايقاع الشيء بعد الشيء الذي يليه .

قوله تعالى :

تِلكَ الرُّسُلُ فضَّلنا بَعضَهُم على بَعضٍ منهم مَنْ كلَّمَ اللهُ وَرَفعَ بعضَهُم دَرَجاتٍ وآتَينا عيسَى ابنَ مَريَمَ البَيِّناتِ وأيَّدْناهُ بِروحِ القُدُسِ وَلَو شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الَّذينَ مِن بَعدِهِمْ مِنْ بَعدِ ما جاءَتهُمُ البيِّناتُ ولكنِ اخْتَلَفوا فمِنْهُم مَنْ آمَنَ وَمِنهُم مَنْ كَفَرَ ولوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلوا وَلكنَّ اللهَ يَفعلُ ما يُريدُ (٢٥٣) آية واحدة بلا خلاف .

إنما ذكر الله تعالى تفضيل بعضهم على بعض ، لامور : منها أن لا يغلط غالط منهم ، فيسوّي بينهم في الفضل . كما استووا في الرسالة ، وثانيها أن يبين أن تفضيل محمد (ص) كتفضيل من مضى من الأنبياء بعضهم على بعض . وثالثها ـ أن الفضيلة قد تكون بعد إداء الفريضة . والمراد الفضيلة المذكورة هاهنا ما خص كل واحد منهم من المنازل الجليلة التي هي أعلى من منزلة غيره ، نحو كلامه لموسى بلا سفير ، وإرساله محمداً (ص) الى الكافة من الناس المكلفين والجن المتعدين ، هـذا قول مجاهد .

ويحتمل فضلناهم بأعمالهم التي استحقوا بها الفضيلة على غيرهم . والفرق بين الابتداء بالفضيلة وبين المحاباة ان المحاباة اختصاص البعض بالنفع على ما توجبه الشهوة دون الحكمة ، وليس كذلك الابتداء بالفضيلة ، لأنه قد يكون للمصلحة التي لولاها لفسد التدبير وأدى الى حرمان الثواب للجميع . فمن حسن النظر لهذا الانسان تفضيل غيره عليه إذا كان في ذلك مصلحة له فهذا وجه تدعو إليه الحكمة وليس كالوجه الأول الذي انما تدعو إليه الشهوة .

وقوله : «وأيدناه بروح القدس» معناه قويناه . والروح : جبريل . والقدس الله – على قول الحسن – وقال ابن عباس : روح القدس : الاسم الذي كان يحيي به الموتى . والضمير في قوله : «من بعدهم» عائد على الرسل . وقال قتادة ، والربيع : على عيسى وموسى (ع) . وجاز بلفظ الجميع ، لأن ذكرهم قد يغني عن ذكر المتبعين لهم . كما يقال : خرج الأمير فانكوا في العدو نكاية عظيمة .

وقوله : «ولوشاء الله ما اقتتلوا» إخبار عن قدرته على إلجائهم على الامتناع من الاقتتال ، أو بأن يمنعهم من ذاك . هذا قول الحسن وغيره . وجملته انه أخبر انه قادر على أن يحول بينهم ، وبين الاقتتال بالالجاء والاضطرار . ومثله «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» «ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً» فان جميع ذلك دلالة على قدرته عليهم . ولا يدل قوله «ولو شاء الله ما اقتتلوا» على أنه قد شاء اقتتالهم ، لأنه إذا احتمل الكلام وجهين : أحدهما – يجوز عليه والآخر لا يجوز عليه ، وجب حمله على ما يجوز عليه ، دون مالا يجوز عليه ، فلذلك كان تقدير الكلام ولو شاء الله امتناعهم بالالجاء ما اقتتلوا . ونظيره قول القائل ولو شاء السلطان الاعظم ، لم يشرب النصارى الخمر في سلطانه ولا نكحت المجوس الامهات والبنات وليس في ذلك دليل على أنه قد شاءه وإنما كرر قوله : «ولو شاء الله ما اقتتلوا» لاختلاف المعنى . فمعنى الأول لو شاء الله ما اقتتلوا قتالهم ، ويجوز أن يكون لتأكيد البينة على هذا المعنى . وقال قوم : الأول معناه لو شاء الله ما اقتتل

المحقون ، والمبطلون بأن يحول بينهم ، و بينهم . والثاني لو شاء الله ما اقتتل المحقون فيما بينهم والمبطلون فيما بينهم .

قوله تعالى :

يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا أَنفِقوا مِمّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبلِ أَنْ يأْتيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ ولا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ وَالكافِرونَ هُمُ الظّالمونَ (٢٥٤) آية واحدة .

القراءة :

قرأ أبو عمرو وابن كثير « لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » بالنصب فيها أجمع . الباقون بالضم .

المعنى :

قولة « يا أيها الذين آمنوا » خطاب للمؤمنين يأمرهم بالانفاق مما رزقهم . والانفاق المامور به على وجه الفرض هاهنا الزكاة وغيرها دون الفعل لأن ظاهر الامر الايجاب في قول الحسن . قال : لأنه مقرون بالوعيد . وقال ابن جريج : يدخل في الخطاب الزكاة ، والتطوع . وهو أقوى ، لانه أعم . وبه قال البلخي . وليس في الآية وعيد على ترك النفقة . وانما فيها إخبار عن عظم أهوال يوم القيامة وشدائدها . وقوله : « من قبل أن يأتي يوم » يعنى يوم القيامة .

اللغة :

« لا بيع فيه » البيع هو استبدال المتاع بالثمن . تقول: باع يبيع بيعاً ، وابتاع ابتياعاً ، واستباع استباعة ، وبايعه مبايعة ، وتبايعوا تبايعاً ، والبيع : نقيض الشراء والبيع أيضاً الشراء لانه تارة عقد على الاستبدال بالثمن ، وتارة على الاستبدال بالمتاع . والبيعة الصفقة على ايجاب البيع . والبيعة الصفقة على ايجاب الطاعة . والبيعان البائع

والمشتري . والبيعة كنيسة النصارى وجمعها بيع .

وقوله : «لا خلة ». فالخلة خالص المودة. والخلل: الانفراج بين الشيئين. وخللته بالخلال أخله خلا : إذا صككته به واختلت حاله اختلالا ، لانحرافه بالفقر . وتخلل الطرق تخللا إذا قطع فرجة بعد فرجة . وأخل به إخلالا ، وخاله يخاله مخالة : إذا صافاه المودة . والخلّ معروف لتخلله بحدتـه ، ولطفه فيما ينساب فيه . والخل : الرجل الخفيف الجسم . والخل : الطريق في الرمل . والخل : عرق في العنق يتصل بالرأس . والخليل : الخالص المودة من الخلة ، لأنه من تخلل الاسرار بينهما . وقيل لأنه يمتنع من الشوب ـ في المودة بالنقيصة ـ والخليل أيضاً : المحتاج من الخلة . والخلة : جفن السيف . وفي فلان خلة : أي خصلة . والخلة خلاف الحصن لأنه مرعى بتخلله الماشية للاعتداء به . وخلل أصابعه تخليلا . وقوله تعالى : « فترى الودق يخرج من خلاله » (١) وقوله : « فجاسوا خلال الديار » (٢) والخلال : البلج . وأصل الباب : الخلل : الانفراج .

المعنى :

وقوله : « ولا شفاعة » وإن كان على لفظ العموم فالمراد به الخصوص بلا خلاف ، لأن عندنا قد تكون شفاعة في اسقاط الضرر . وعند مخالفينا في الوعيـد قد يكون في زيادة المنافع فقد أجمعنا على ثبوت شفاعة وإنما تنفي نحن الشفاعة قطعاً عن الكفار . ومخالفونا عن كل مرتكب كبيرة إذا لم يتب منها .

وقوله : « والكافرون هم الظالمون » إنما ذم الله تعالى الكافر بالظلم وإن كان الكفر أعظم منه لأمرين :

أحدها ـ للدلالة على أن الكافر قد ضر نفسه بالخلود في النار ، فقد ظلم نفسه .

« ١ » سورة النور آية : ٤٣ ، وسورة الروم آية : ٤٨ .
« ٢ » سورة الاسرى آية : ٥ .

والآخر ـ أنه لما نفى البيع في ذلك اليوم والخلة والشفاعة ، قال وليس ذلك بظلم منا ، بل الكافرون هم الظالمون ، لأنهم عملوا ما استحقوا به حرمان الثواب .

قوله تعالى :

أَللّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مافي السَّماواتِ وَمافي الأَرْضِ مَنْ ذا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ (٢٥٥) آية واحدة (١) .

الاعراب :

« الله » رفع بالابتداء « ولا إله إلا هو الحي القيوم » خبره . والكلام مخرجه مخرج النفي أن يصح إله سوى الله . وحقيقة الاثبات الآله واحد هوالله . كأنه قيل الله الآله دون غيره . وارتفع هو في لا إله إلا هو على أحد وجهين :

أحدهما ـ بالابتداء كأنه قال ما إله إلا الله .

والثاني ـ أن يكون بدلا كأنه قال ما إله ثابتاً إلا الله . ويجوز في العربية لا إله إلا الله بالنصب على الاستثناء . وفيه دلالة على الامر باخلاص العبادة لله تعالى .

اللغة ، والمعنى

والحي هو من كان على صفة لا يستحيل معها كونه عالماً قادراً ، وان شئت قلت : هو من كان على صفة يجب لأجلها أن يدرك المدركات ، إذا وجدت . والقيوم أصله قيووم على وزن فيعول . إلا أن الياء الساكنة إذا كانت بعدها واو متحركة قلبت ياء وأدغمت فيها قياساً مطرداً . والقيام أصله قيوام على وزن فيعال .

وقيل في معنى القيوم ، أربعة أقوال :

« ١ » وفي مجمع البيان والمصحف الهاشمي آيتان ، وفي أكثر التفاسير آية واحدة .

أحدها ـ قال الحسن إنه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها من حيث هو عالم لا يخفى عليه شيء منه .

الثاني ـ قال سعيد بن جبير : إن معناه الدائم الوجود .

الثالث ـ قال قتادة : معناه : القائم بتدبير خلقه .

الرابع ـ قال قوم : إن معناه العالم بالامور من قولهم : فلان قيوم هذا الكتاب أي هو عالم به . وكل هذه الوجوه تحتمل . وقال أمية بن أبي الصلت :

لم تخلق السماء والنجوم والشمس معها قمر يقوم

قدره المهيمن القيوم والحشر والجنة والجحيم

إلا لأمر شأنه عظيم (١)

وقوله : « لا تأخذه سنة ولا نوم » فالسنة النوم بلا خلاف قال عدي ابن الرقاع :

وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم (٢)

فالسنة الثقلة من النعاس ، تقول : وسن فلان وسناً إذا أخذته سنة النعاس ، وقد علته وسنة ، ورجل وسنان ووسن ، وامرأة وسنانة ، ووسنى ، وأصل الباب : النعاس . والنوم الاستثقال في النوم ، تقول نام ينام نوماً وأنامه إنامة ، ونومه تنويماً وتناوم تناوماً ، واستنام إليه : إذا استانس إليه ، واطمأن الى ناحيته ، لأن حاله معه كحالة النائم في المكان أنساً به وأصل الباب النوم خلاف اليقظة .

وقوله : « ما في السماوات وما في الأرض » معناه أن أحداً ممن له شفاعة لا يشفع إلا بعد أن يأذن الله له في ذلك ويأمره به ، فأما أن يبتدىء أحد بالشفاعة من غير إذن ، كما يكون فيما بيننا ، فليس ذلك لأحد .

« ١ » ديوانه : ٥٧ ، وتفسير أبي حيان ٢ : ٢٧٧ ورواية أبي حيان (قمر يعوم) بدل (قمر يقوم) وفي تفسير الطبري قد اجتهد محققه فأخطأ ، لأنه اثبت (والجسر) بدل (والحشر) راجع صفحة ٣٨٨ من المجلد الخامس في تفسير الطبري .

« ٢ » الشعر والشعراء : ٦٠٢ ، واللسان « وسن » ، « رنق » .

وقوله : « يعلم مابين أيديهم وما خلفهم » قال : ابن جريج ومجاهد والسدي : معناه ما مضى من الدنيا وما خلفهم من الآخرة .

وقوله : « ولا يحيطون بشيء من علمه » معناه من علومه ، كقول القائل : أللهم اغفر لنا علمك فينا ، فاذا ظهرت آية يقولون قدرة الله أي مقدور الله وقوله : « وسع كرسيه » قال ابن عباس كرسيه : علمه وهو المروي عن أبي جعفر ، وأبي عبدالله (ع) . وقال الحسن : الكرسي هو العرش . وقيل : هو سرير دون العرش وقد روي ذلك عن أبي عبد الله (ع) . وقيل : أصل ملكه . وكل ذلك محتمل . أما العلم ، فلأنه يقال للعلماء الكراسي ، لأنهم المعتمد كما يقال : هم أوتاد الأرض ، وهم الأصل الذي يعتمد عليه . ويقال لكل أصل يعتمد عليه . كرسي قال الشاعر :

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسيّ بالاحداث حين تنوب (١)

أي علماء بحوادث الامور . وقال آخر :

نحن الكراسي ما تعدّ هوازن أفعالنا في النائبات ولا أسد

وقال آخر :

مالي بأمرك كرسي كاتمه وهل بكرسي علم الغيب مخلوق

وكل شيء تراكب فقد تكارس تكارساً ، ومنه الكراسة لتراكب بعض ورقها على بعض قال العجّاج :

ياصاح هل تعرف رسما مكرّساً قال نعم أعرفه وأبلسا (٢)

أي تكارس عليه التراب ، فغطاه ، والكرس البعر والبول : إذا تلبد بعضه على بعض ، والأكارس الجموع الكثيرة ، لا واحد له ، لأنه بكثرته بمنزلة ما تراكب بعضه على بعض . ورجل كروس شديد الرأس ، لأنه تضاعف القوى كتراكب الشيء بعضه على بعض ، والكرياس : كنيف في أعلى السطح بقناة الى الارض ، لتراكب

« ١ » أساس البلاغة (كرس) .

« ٢ » ديوانه ١ : ٣١ ، والكامل ١ : ٢٥٢ ، واللسان (بلس) ، (كرس) . يقال : ابلس الرجل أي سكت عما في نفسه ، وانكر وتحير ، ولم ينطق . وقد مر في ١ : ١٥٣

بعض ابنيته على بعض ، وسمي الكرسي بذلك ، لتركيب بعضه على بعض . ويقال : كرسي الملك من مكان كذا الى مكان كذا أي ملكه تشبيهاً بالكرسي المعروف . وكرس يكرس كرساً ، وأكرس إكراساً ، وتكارس تكارساً ، وتكرّس تكرساً ، وكرّسه تكريساً ، وأصل الباب الكرس : تراكب الشيء بعضه على بعض .

والوجه في خلق الكرسي إذا قلنا : أنه جسم هو أن الله تعبد تحمله الملائكة والتعبد عنده كما تعبد البشر بزيادة ، ولم يخلقه ليجلس عليه ، كما تقول المجسمة . واختاره الطبري ، لأنه عزّ وجل يتعالى عن ذلك ، لأن ذلك من صفات الاجسام ولو احتاج الى الجلوس عليه ، لكان جسما ومحدثاً وقد ثبت قدمه .

وقوله : «ولا يؤوده حفظهما » أي لا يثقله ، والهاء في يؤوده راجعة الى الله وقيل إنها عائدة الى الكرسي . والأود مصدر ، آده يؤوده أوداً وأياداً إذا أثقله وجهده ، وأودت العود فأنا آوده أوداً ، فانآد ومعناه عجته فانعاج ، لأنه اعتمد عليه بالثقل حتى مال ، والأود ، والأوداء على وزن اعوج وعوجاء والمعنى واحد والجمع الأود بوزن العوج وأصل الباب الثقل .

وقوله : « وهو العلي العظيم » فالعلي يعنى بالاقتدار ونفوذ السلطان . ويقال علا بالاقتدار ، ولا يقال رفيع ، لأن الرفعة من المكان ، والعلوّ منقول الى معنى الاقتدار يوضح ذلك قولهم : علا قرنه بمعنى اقتدر ولا يقال ارتفع عليه بمعنى اقتدر وكذلك استعلى عليه بالحجة ، ولا يقال ارتفع عليه بالحجة . وتقول : علا يعلو علوّاً وأعلى إعلاء وعلّى تعلية واستعلى استعلاء . وتعلى تعلياً . وتعالى تعالياً واعتلاه اعتلاء ، وعالى معالاة . والعلوّ ـ بضم العين وكسرها ـ نقيض السفل ، والعلوّ التجبر ، ومنه قوله تعالى : « إن فرعون علا في الأرض » (١) أي تجبر ، لأنه طلب الاستعلاء على الناس بالسلطان والقهر . والله العالي والمتعالي أي القادر القاهر ، لأنه عال بالاقتدار ، لأنه لا يعجزه شيء والعالية : القناة المستقيمة ، لاستمرارها في جهة العلوّ . وفلان من علية الناس أي من أشرافهم ، لأنه علا بشرفه . والعلية : الغرفة

« ١ » سورة القصص آية : ٤ .

وأصل الباب العلوّ . والعظيم معناه عظيم الشأن بأنه قادر ، ولا يعجزه شيء ، وعالم لا يخفى عليه شيء ، فلا نهاية لمقدوره ومعلومه ، وقال قوم : العظيم بمعنى المعظم كما قالوا في الخمر العتيقة معتقة ، والأول أقوى لأن على هذا كان يجب ألا يوصف بانه عظيم فيما لم يزل وقد علمنا خلافه .

قوله تعالى :

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) آية واحدة .

المعنى :

قيل في معنى قوله : « لا إكراه في الدين » أربعة أقوال : أولها ـ قال الحسن وقتادة والضحاك : إنها في أهل الكتاب خاصة الذين يؤخذ منهم الجزية . الثاني ـ قال السدي وابن زيد : إنها منسوخة بالآيات التي أمر فيها بالحرب نحو قوله : « واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » (١) وقوله : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » (٢) . الثالث ـ قال ابن عباس وسعيد بن جبير : إنها نزلت في بعض أبناء الانصار وكانوا يهوداً فاريد إكراههم على الاسلام . الرابع ـ قيل « لا إكراه في الدين » أي لا تقولوا لمن دخل فيه بعد حرب إنه دخل مكرها ، لأنه إذا رضي بعد الحرب ، وصح اسلامه فليس بمكره ، فان قيل كيف تقولون « لا إكراه في الدين » وهم يقتلون عليه ! قلنا المراد بذلك لا إكراه فيما هو دين في الحقيقة ، لأن ذلك من أفعال القلوب إذا فعل لوجه بوجوبه ، فأما ما يكره عليه من إظهار الشهادتين ، فليس بدين ، كما أن من أكره على كلمة الكفر لم يكن كافراً .

وقوله : « قد تبين الرشد من الغي » معناه قد ظهر بكثرة الحجج ، والآيات

« ١ » سورة النساء آية : ٨٨ .

« ٢ » سورة محمد آية : ٤ .

الدالة لانضمام ما أتى الرسول فيه الى ما في الفعل منه والالف واللام في قوله « في الدين » يحتمل أمرين :

أحدهما - أن يكون مثل قوله « فان الجنة هي المأوى » (١) بمعنى هي مأواه فكذلك « لا إكراه في الدين » أي في دينه ، لأنه قد تقدم ذكر الله كأنه قال : « لا إكراه في دين » الله .

والثاني - لتعريف دين الاسلام .

اللغة ، والمعنى :

والغي ضد الرشد ، تقول غوى يغوي غياً وغواية : إذا سلك خلاف طريق الرشد ، وغوى : إذا خاب قال الشاعر :

ومن يغو لا يعدم على الغي لائما (٢)

أي من يخب . وغوى الفصيل يغوي غياً : إذا قطع عن اللبن حتى يكاد يهلك وقوله : « رب بما أغويتني » (٣) يحتمل أمرين : أحدهما - خيبتني . الثاني - بما حكمت بغوايتي ، ومنه قوله : « أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك » (٤) والأصل الغي سلوك طريق الهلاك .

وقوله : « ومن يكفر بالطاغوت » قيل فيه خمسة أقوال : أحدها - ما روي عن عمر ، ومجاهد ، وقتادة : أنه الشيطان الثاني - قال سعيد بن جبير : هو الكاهن . الثالث - قال أبو العالية : هو الساحر . والرابع - قال قوم : هم مردة الجن والانس . الخامس - قال بعضهم : هي الاصنام . وأصل طاغوت من الطغيان ، ووزنه فعلوت نحو جبروت ، وتقديره : طيغوت إلا أن لام الفعل قلبت الى موضع العين ، كما قيل صاعقة

« ١ » سورة النازعات آية : ٤١ .

« ٢ » قائله المرقش الاصغر وصدره :

من يلق خيراً يحمد الناس أمره

العقد الفريد ٢ : ١٧٦ ، ٣ : ٧٧ ، ٥ : ٣٣٩ .

« ٣ » سورة الحجر آية : ٣٩   « ٤ » سورة القصص آية : ٣٦ .

وصاعقة ، ثم قلبت الفاً لوقوعها في موضع حركة ، وانفتاح ما قبلها .

ومعنى ﴿ يؤمن بالله ﴾ يصدّق بالله .

وقوله ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ فالعروة الوثقى الايمان بالله ، عن مجاهد ، وجرى ذلك مجرى المثل لحسن البيان باخراج مالا يقع به الاحساس إلى ما يقع به(١) والعروة : عروة الدّلو ونحوه لانها متعلقة ، وعروت الرجل ، أعروه عرواً : إذا الممت به متعلقاً بسبب منه ، واعتراه (٢) يعتريه : إذا تعلق به ، وعرته الحمى تعروه : إذا علقت به وعرّاه يعريه إذا اتخذ له عروة . وأصل الباب التعلق . وقال الازهري العروة : كل نبات له أصل ثابت ، كالشيح والقيصوم ، وغيره . شبهت عرى الاشياء في لزومها .

وقوله: « لاانفصام لها » أي لاانقطاع لها ـ في قول السدي ـ . والانكسار ، والانفصام والانصداع والانقطاع نظائر . قال اعشى بني ثعلبة .

ومبسمها عن شتيت النبـا ت غير أكس ولامنفصم (٣)

وانفصم انفصاماً : إذا انصدع ، وفصمته تفصمه فصما : إذا صدعته من غير أن تكسره ، وأصل الباب : الفصم ، كصدع الزجاج .

قوله تعالى :

﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ الى النُورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلى الظُّلُماتِ أُولئكَ أَصحابُ النّارِ هُمْ فيها خالِدونَ (٢٥٧) آية .

المعنى ، واللغة :

معنى ﴿ ولي الذين آمنوا ﴾ نصيرهم ، ومعينهم في كل مابهم إليه الحاجة (٤) ، مما

« ١ » به ساقطة من المطبوعة .

« ٢ » في المطبوعة اعتراهم .

« ٣ » ديوانه : ٣٥ رقم القصيدة ٤ . الشتيت : المتفرق المفلج من الاسنان الكس : قصر الاسنان . في المطبوعة « عرائس » بدل « غير أكس » وروايته : (منقضم) .

« ٤ » هذا ما استنبطناه وفي المطبوعة (كلما تهم اليه الحاجة) .

فيه صلاح لهم في دينهم ودنياهم وإنما يوصف بالولي من كان أولى بغيره وأحق بتدبيره . ومنه الوالي ، لأنه يلي للقوم بالتدبير والأمر ، والنهي ، ومنه المولى من فوق ، لأنه يلي أمر العبد بسد الخلة ، وما به إليه الحاجة ، ومنه المولى من أسفل لأنه يلي أمر المالك بالطاعة ، والمولى ابن العم لأنه يلي أمره بالنصرة لتلك القرابة ، وولي اليتيم لأنه يلي أمر ماله بالحفظ له والقيام عليه . والولي في الدين وغيره ، لأنه يلي أمره بالنصرة والمعونة لما توجبه الحكمة ، والمعاقدة لجميع هذه المواضع الأولى والأحق ملحوظ فيه . وولّى : إذا ادبر عن الشيء لأنه زال عن أن يليه بوجهه واستولى على الشيء : إذا احتوى عليه ، لأنه وليه بالقهر . والله تعالى يتولى المؤمنين على ثلاثة أوجه : يتولاهم بالمعونة على إقامة الحجة ، ويتولاهم بالنصرة لهم في الحرب حتى يغلبوا ، ويتولاهم بالمثوبة على الطاعة .

وقوله ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ . ومعناه : من ظلمات الكفر إلى نور الايمان ، لأن الكفر كالظلمة في المنع من إدراك الحق كما أن الظلمة مانعة من إدراك البصر . وقال قتادة : يخرجهم من ظلمة الضلالة إلى نور الهدى ، وهذا قريب من الأول ، ووجه إخراج الله تعالى المؤمنين من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الايمان باهدائهم إليه ، ونصب الادلّة لهم ، وترغيبهم فيه ، وفعله بهم من الالطاف ما يقوّي دواعيهم إلى الايمان ، فاذا اختاروا هم الايمان ، فكأن الله أخرجهم منها ، ولم يجز أن يقال : إنه أخرج الكفار من الظلمات إلى النور من حيث قدّرهم على الايمان ، ودعاهم إليه ورغّبهم فيه ، كما فعل بالمؤمنين ، لانهم لم يختاروا الايمان ، فلم يجز أن يقال : إنه أخرجهم منه لأنه توهم أنهم فعلوا الايمان . وقوله : ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ إنما أضاف إخراجهم « من النور » الذي هو الايمان إلى الكفر إلى الطاغوت ، لما كان ذلك باغوائهم ، ودعائهم ، وإنما كفروا عند ذلك ، فأضاف ذلك إليهم ، فهو عكس الأول . فان قيل : كيف « يخرجونهم من النور » وما دخلوا فيه ؟

قلنا عنه جوابان :

أحـدهما ـ إن ذلك يجري مجرى قولهم : أخرجني والدي من ميراثه . ولم يدخل فيه ، وإنما ذلك لأنه لو لم يفعل ما فعل ،لدخل فيه ، فهو لذلك بمنزلة الداخل فيه الذي أخرج منه . قال الغنوي :

فان تكن الأيام أحسن مرة إليّ فقدعادت لهنّ ذنوب (١)

ولم يكن لها ذنوب قبل ذلك .

والوجه الثاني ـ قال مجاهد : إنه في قوم ارتدّوا عن الاسلام ، والاول أليق بمذهبنا ، لأن عندنا لا يجوز أن يرتد المؤمن على الحقيقة ، وإنما قال « يخرجونهم » على لفظ الجمع . فان كان الطاغوت واحداً لأنه في معنى جميع كما قال العباس بن مرداس :

فقلنا : أسلموا انّا أخوكم فقدبرئت من الاحن الصدور (٢)

وإنما جاز ذلك في الخفض ، لأن كل واحد يقوم مقام الآخر فصار ذكر واحد ينوب عن جميعه ، فأما ما يميز بالخلقة وصار بمنزلة الاشياء المختلفة فقياسه أن يجمع ، كرجل ورجال . وإنما حسن في الطاغوت ، لأن جميعه يجري مجرى واحد في الضلال .

وفي الآية دليل على فساد قول المجبرة في المخلوق ، والارادة ، لأنه تعالى نسب الاخراج من نور الهدى إلى ظلمة الكفر والضلال إلى الطاغوت منكراً لتلك الحال ، ولم يكن لينكر شيئاً أراده ولا يعيب شيئاً عنه فعله (تعالى الله) عن ذلك .

قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ

« ١ » قائله كعب الغنوي من قصيدة يرثي بها أخاه أبا المغوار . العقد الفريد ٣ : ٢١٧ . وروايته « لقد » بدل « فقد » .

« ٢ » سيرة ابن هشام ٤ : ٩٥ ، واللسان « أخو » ومجاز القرآن ١ : ٩٧ من قصيدة له في يوم حنين ، وفي هزيمة هوازن يذكر قارب بن الاسود وفراره من بني أبيه . والاحن جمع احنة : وهي الحقد .

إبراهيمُ رَبيَ الَّذي يُحيي وَيميتُ قالَ أنا أُحيي وأُميتُ قالَ إبراهيم فإنَّ الله يأتي بالشمس مِنَ المشرقِ فأتِ بها مِنَ المغربِ فَبُهِتَ الَّذي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهدي القَومَ الظالمينَ ﴾ (٢٥٨) آية.

القراءة :

قرأ أهل المدينة « أنا أحيي وأميت » باثبات الألف إذا كان بعدها همزة مضمومة أو مفتوحة. فان كان بعدها همزة مكسورة حذفوها إجماعاً.

المعنى :

قال مجاهد، وقتادة والربيع : إن المحاج لأبراهيم كان نمرود بن كنعان (١) وهو أول من تجبر في الأرض بادعاء الربوبية. وقوله : ﴿ ألم تر إلى ﴾ دخلت إلى الكلام للتعجب من حال الكافر المحاج بالباطل، كما يقولون : أما ترى إلى فلان كيف يصنع، وفيه معنى هل رأيت كفلان في صنيعه كذا، وإنما دخلت (إلى) لهذا المعنى من بين حروف الجر، لأن إلى لما كانت نهاية صارت بمنزلة هل انتهت رؤيتك إلى من هذه صفته لتدل على بعد وقوع مثله على التعجب منه، لأن التعجب إنما يكون مما استبهم شبيه بما لم يجز عادة به، وقد صارت إلى هاهنا بمنزلة كاف التشبيه من حروف الاضافة، لما بينا من العلة إذ كان ماندر مثله كالذي يبعد وقوعه.

وقوله : ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ معناه أعطاه والهاء في « آتاه » قال الحسن وأبو علي: إنها كناية عن المحاج لابراهيم. وقال أبو حذيفة والبلخي إنها عائدة إلى إبرهيم.
فان قيل : كيف يجوز أن يؤتي الله الكافر الملك ؟ قيل : الملك على وجهين :

أحدهما ـ يكون بكثرة المال واتساع الحال، فهذا يجوز أن ينعم الله (عزّ وجلّ) به على أحد من مؤمن وكافر، كما قال في قصة بني إسرائيل : « وجعلكم

---

(١) ابن كوش بن سام بن نوح. وقيل : انه نمروذ بن فالخ بن عامر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح.

ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » (١).

والثاني ـ ملك بتمليك الأمر والنهي والتدبير لأمور الناس ، فهذا لايجوز أن يجعله الله لأهل الضلال لما فيه من الاستفساد بنصب من هذا سبيله للناس ، لأنه لا يصح مع علمه بفساده إرادة الاستصلاح به كما يصح منا فيمن لا يعلم باطن حاله ممن يؤمن علينا . ومن قال الهاء كناية عن إبراهيم (ع) لم يتوجه عليه السؤال، لأنه تعالى لم يؤت الكافر الملك ، وإنما آتى نبياً مرسلا .

وقوله ﴿ إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ﴾ معناه يحيي الميت ويميت الحي ، فقال الكافر عند ذلك : أنا أحيي وأميت ، يعني أحييه بالتخلية من الحبس ممن وجب عليه القتل وأميت بالقتل من شئت ممن هو حي ، وهذا جهل منه ، لأنه اعتمد في المعارضة على العبارة فقط دون المعنى ، عادلا عن وجه الحجة بفعل الحياة للميت أو الموت للحي على سبيل الاختراع كما يفعله الله (تعالى) من إحياء من قتل أو مات ودفن وذلك معجز لا يقدر عليه سواه ، فقال إبراهيم ﴿ إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ ولم يكن ذلك انتقالا من إبراهيم من دليل إلى دليل آخر من وجهين :

أحدهما ـ أن ذلك يجوز من كل حكيم بعد تمام ما ابتدأ به من الحجاج ، وعلامة تمامه ظهوره من غير اعتراض عليه بشبهة لها تأثير عند التأمل ، والتدبر لموقعها من الحجة المعتمد عليها .

الثاني ـ أن إبراهيم إنما قال ذلك ليتبين أن من شأن من يقدر على إحياء الأموات وإماتة الأحياء ، أن يقدر على الاتيان بالشمس من المشرق ، فان كنت قادراً على ذلك فأت بها من المغرب « فبهت الذي كفر » وإنما فعل ذلك ، لأنه لو تشاغل معه بأني أردت اختراع الحياة والموت من غير سبب ولا علاج لاشتبه على كثير ممن حضر ، فعدل إلى ما هو أوضح وأكشف ، لأن الأنبياء (ع) إنما بعثوا للبيان والايضاح ، وليس أمورهم مبنية على بناء الخصمين إذا تحاجا ، وطلب

---

(١) سورة المائدة آية ٢٢ .

كل واحد غلبة خصمه ، فلذلك فعل إبراهيم (ع) ما فعل وقد روي عن أبي عبد الله (ع) أن إبراهيم قال له : احيي من قتلته إن كنت صادقا ، ثم استظهر عليه بما قال .

اللغة :

والشمس معروفة وجمعها شموس ، وقد شمس يومنا يشمس شموساً ، فهو شامس : إذا اشتدت شمسه ، وكذلك أشمس . وشمس الفرس شماساً ، فهو شموس ، إذا اشتد نفوره ، لأنه كاشتداد الشمس في اليوم ما يكون من زيادة حرّها ، وتوقدّها . وشمس فلان إذا اشتدت عداوته . قال الشاعر :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم   وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا(١)

والشمس في القلادة وغيرها : دائرة مشرقة كالشمس . وشمس الشيء تشميساً إذا ألقاه في الشمس ، وتشمس تشمساً : إذا قعد في الشمس .

المعنى :

وقوله : ﴿ فبهت الذي كفر ﴾ معناه تحير عند الانقطاع بما بان من ظهور الحجة . فان قيل هلاّ قال لابراهيم . فليات ربك بها من المغرب؟ قلنا عن ذلك جوابان :

أحدهما ـ أنه لما علم بما رأى من الآيات منه أنه لو اقترح ذلك لفعل الله ذلك فتزداد نصيحته ، عدل عن ذلك ، ولو قال ذلك واقترح لأتى الله بالشمس من المغرب تصديقاً لابراهيم (ع) .

والجواب الثاني ـ أنه (تعالى) حظله عن التلبيس والشبهة .

اللغة :

وفي بهت ثلاث لغات : بُهت على لفظ القرآن ، وبَهُت وبَهت على وزن ظرف وحذر ، وحكي بهت على وزن ذهب والبهت : الحيرة عند استيلاء الحجة ، لأنها كالحيرة للمواجهة بالكذب ، لأن تحير المكذب في مذهبه كتحير المكذوب عليه ،

---

(١) قائله الأخطل . اللسان « شمس » .

ومنه قوله : ﴿أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ (١) كأنه قال أتأخذونه ادعاء للكذب فيه . وفي إبراهيم خمس لغات إبراهيم ، وابراهام ، وابراهم ، وابراهَم ، وابراهِم باسقاط الياء وتعاقب الحركات الثلاث عليه .

المعنى :

وقوله ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ لا يعارض قوله : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾(٢) لأن الهدى يتصرف على وجوه وأصله واحد وهو الدلالة على الطريق المؤدي إلى البغية والله (تعالى) قد هدى جميع المكلفين بأن دلهم على طريق الحق وخص المؤمنين في هدايته لهم بالمعونة على سلوك طريق الحق ، لأنه بمنزلة الدلالة على طريق الحق والله (تعالى) لا يهدي للمعونة على بلوغ البغية في فساد القوم الظالمين . وفي الآية دلالة على فساد (٣) قول من يقول : المعارف ضرورة ، لأنها لو كانت ضرورة لما حاج إبراهيم الكافر ، ولا ذكر له الدلالة على إثبات الصانع ، وفيها دلالة على فساد التقليد وحسن المحاجة والجدال ، لأنه لو كان ذلك غير جائز لما فعل إبراهيم (ع) ذلك .

قوله تعالى :

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٥٩) آية واحدة .

«١» النساء آية : ١٩ . «٢» حم السجدة آية : ١٧ .

«٣» «على فساد» ساقطة من المطبوعة .

القراءة :

قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، ويعقوب . والكسائي عن أبي بكر ﴿ يتسن ﴾ بحذف الهاء وفي الوقف باثباتها بلا خلاف . قرأ ابن عامر وأهل الكوفة ﴿ ننشزها ﴾ بالزاي الباقون بالراء . وقرأ حمزة والكسائي ﴿ قال اعلم ﴾ بهمزة موصولة الباقون بقطعها .

الاعراب :

هذه الآية معطوفة على الآية الأولى وتقديره أرأيت ك ﴿ الذي حاج إبراهيم في ربه ﴾ وك ﴿ الذي مر على قرية ﴾ وموضع الكاف نصب بـ (تر) ومعناه التعجب منه لأن كلما خرج في بابه يعظمه عن حد نظائره مما يتعجب منه نحو (ما أجهله) أي قد خرج بعظم جهله عن حد نظائره ، وكذلك لو قلت : هل رأيت كزيد الجاهل ، لدللت على مثل الأول في التعجب ، لما بينا إلا أن (ما أفعله) صيغة موضوعة للتعجب ، وليس كذلك هل رأيت لأنها في الأصل للاستفهام ، ونحو قولك : هل رأيت في الدنانير مثل هذا الدينار فهذا استفهام محض لا تعجب فيه ، لأن أمثاله كثير ، فلم يخرج بعظم حاله عن حد نظائره ، كما خرج الأول بعظم جهله . وقيل : الكاف زائدة للتوكيد ، كما زيدت في ليس كمثله شيء والأول الوجه ، لأنه لا يحكم بالزيادة إلا للضرورة .

المعنى :

وقال قتادة والربيع : الذي مر على قرية هو عزير ، وروي ذلك عن أبي عبد الله (ع). وقال وهب بن منبه: هو أرميا ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) . وقال ابن إسحاق : هو الخضر ، والقرية التي مر عليها . قال وهب بن منبه ، وقتادة ، والربيع هي بيت المقدس لما خر به بخت نصر ، وقال ابن زيد : هي القرية التي خرج منها الألوف ﴿ حذر الموت ﴾ . وقوله : ﴿ وهي خاوية ﴾ معناه خاليه . وقال ابن عباس ، والربيع ، والضحاك خراب . قال قوم : معناه وهي قائمة على أساسها وقد وقع

وقد وقع سقفها . وأصل الخواء (١) الخلاء قال الراجز :

يبدو خواء الارض من خوليه (٢)

والخواء : الفرجة بين الشيئين يخلو ما بينهما . وخوت الدار فهي خاوية . تخوي خواء . إذا بادأهلها بخلوها منهم والخوى: الجوع، خوى يخوى خوى : بخلو البطن من الغذاء . والتخوية التفريج بين العضدين والجبينين يخلو ما بينها بتباعدها. والتخوية تمكين البعير انفسه في بروكه ، لأنه تفحصه الأرض بخلوها مما يمنع من تمكنه . واخواء النجم : سقوطه من غير مطر بخلوه من المطر . خوى النجم واخوى . وخوى المنزل إذا تهدم ، لانه بتهدمه يخلو من أهله وأصل الباب الخلو .

وقوله: ﴿ على عروشها ﴾ يعني على أبنيتها ومنه « وما كانوا يعرشون »(٣) أي يبنون . ومنه عريش مكة : أبنيتها وخيامها ، وكل بناء : عرش ، عرش يعرِش ويعرُش عرشاً : إذا بنى . والعرش البيت ، وجمعه عروش لارتفاع أبنيته . والعرش : السرير ، لارتفاعه على غيره . وعرش الرجل : قوام أمره وعرش البيت: سقفه ، لارتفاعه . والتعريش جعل الخشب تحت الكرم ليمتد عليه . تقول : عرشته تعريشاً . وعرشته أعرشه عرشاً . وذلك ، لارتفاعه في امتداده على الخشب الذي تعمده . والتعريش رفع الحمار رأسه شاحيا فاه على عانته ، عرش بعانته تعريشاً . والعريش ظلة من شجر أو نحوه ، لارتفاعه على ما يستره . وعرش البئر طيّها بالخشب بعد طيها بالحجارة . والعرشان من الفرس : آخر شعر العرف لارتفاع العرف على العنق . وثل عرشه : إذا قتله . وأصل الباب : الارتفاع .

والقرية أصلها من قريت الماء : إذا جمعته ، سميت بذلك لاجتماع الناس فيها للاقامة بها .

المعنى :

وقوله « انّى يحيي هذه الله بعد موتها » معناه كيف ، وذلك يدل على أن

(١) في المطبوعة (الخوأ) (٢) في المطبوعة (خو)

(٣) سورة الاعراف آية : ١٣٦ .

« انى » . في قوله ﴿ فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ (١) معناه كيف شئتم دون ماقاله بعضهم من أن معناه حيث شئتم ، لان معناه هاهنا لا يكون إلا على كيف. ولقائل أن يقول : إن اللفظ مشترك . وإنما يستفاد بحسب مواضعه . وقال الزجاج: معناه من أين في الموضعين .

وقوله ﴿ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ﴾ قال أبو علي لا يجوز أن يكون الذي أماته ثم أحياه نبيا لأن الله تعالى تعجب منه ولولا ذلك ، لجاز أن يكون نبيا على أنه شك في ذلك قبل البلوغ لحال التكليف ، ثم نبي في ما بعده ، وعلى هذا لا يمتنع أن يكون نبياً في ما تقدم . والأول أقوى ، وأقرب . ويجوز هذه الآية أن تكون في غير زمان نبي . وقال الجبائي : لا يجوز ذلك لأن المعجزات لا تجوز إلا للأنبياء لأنها دالة عليهم . فلو وقعت المعجزة في غير زمن نبي لم يكن وقوعها دليلا على النبوة ، وهذا ليس بصحيح ـ عندنا ـ لأن المعجزات تدل على صدق من ظهرت على يده ، وربما كان نبياً وربما كان إماماً أو ولياً لله . وما روي أن الحياة جعلت في عينيه أولا ، ليرى كيف يحيي الله الموتى لا يجوز ، لأن الرأي هو الانسان بكماله غير أنه يجوز أن يكون أول ما نفخ فيه الروح عيناه ، وتكون الحياة قد وجدت في جميع الروح ، ولم يحصل في البدن من الروح إلا ما في العينين دون ما في البدن .

اللغة ، والمعنى :

وقوله : ﴿ مئة عام ﴾ معناه مئة سنة ، والعام جمعه أعوام ، وهو حول يأتي بعد شتوة وصيفة ، لأن فيه سبحاً طويلاً بما يمكن من التصرف فيه . والعوم : السباحة . عام في الماء يعوم عوماً : إذا سبح . والسفينة تعوم في جريها . والابل تعوم في سيرها ، لأنها تسبح في السير بجريها . والاعتيام : اصطفاء خيار مال الرجل ليجري (٢) في أخذه له شيئاً بعد شيء كالسابح في الماء الجاري

(١) سورة البقرة آية ٢٠٥ (٢) في المطبوعة (لا يجري)

واعتام الموت النفوس أولاً أولاً ، لأنه يجري في أحدها حالاً بعد حال كجري السابح في الماء ، وأصل الباب السبح .

وقوله : ﴿ ثم بعثه ﴾ يعني أحياه. وقوله : ﴿ كم لبثت ﴾ موضع نصب بلبثت ، كأنه قيل : أمائة سنة لبثت أو أقل أو أكثر ؟ فقال ﴿ لبثت يوماً أو بعض يوم ﴾ لأن الله تعالى أماته في أول النهار وأحياه بعد مائة سنة في آخر النهار ، فقال : « يوما » ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال « أو بعض يوم » . واللبث المكث ، لبث لبثاً فهو لابث وتلبث تلبثاً إذا تمكث ولبثه تلبيثا ، وأصل الباب المكث .

وقوله : ﴿ فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ معناه لم تغيره السنون . وقيل : كان زاده عصيراً وتيناً وعنباً ، فوجد العصير حلواً ، والتين ، والعنب كما جناه لم يتغير ، أو هو مأخوذ من السنة ، والاصل فيه على قولهم : سانيته مساناة اذا عاملته سنة سنة أن يكون في الوصل لم يتسن ، نحو لم يتعد ، والأصل الواو ، بدليل قولهم سنوات فاذا وقف جاء بهاء السكت ، ويجوز أن يكون على قولهم : سانهة وسنهات ، وا كتريت مسانهة . والهاء على هذا أصلية مجزومة بلم ، ولا يجوز أن يكون من الأسن ، لأنه لو كان منه لقيل لم يتأسن . قال الزجاج لا يجوز أن يكون من قوله : « من حمأ مسنون » (١) لأن معنى مسنون منصوب على سنة الطريق قال الشاعر :

ليست بسنهاء ولا رُجَّبِيَّة ولكن عرايا في السنين الجوائح (٢)

فجعل الهاء أصلية . والسنهاء : النخلة القديمة ؛ لأنه قد مرت عليها سنون

---

(١) سورة الحجر آية : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣

(٢) قائله سويد بن الصامت الانصاري وقيل احيحة بن الجلاح . اللسان (عرا) ، (خور) ، (رجب) ، (قرح) ، (سنه) وأمالي القالي ١ : ٢١ . الرجبية ـ بضم الراء وتشديد الجيم المفتوحة أو فتحها بغير تشديد ـ : نسبة شاذة الى رجبة ـ ضم فسكون ـ : البناء تحت النخلة الكريمة لدعمها اذا خيف عليها لكثرة حملها . والعرايا جمع عرية وهي التي يوهب ثمرها في عامها . الجوائح : السنين المجدبة .

كثيرة . وإنما علم بأنه مات مائة سنة بشيئين :

أحدهما ـ باخبار من اراه المعجزة في نفسه وحماره وطعامه ، وشرابه من تقطع أوصاله ، ثم اتصال بعضها الى بعض حتى رجع الى حاله التى كان عليها في أول أمره .

والآخر ـ بالآيات الدالة على ذلك لما رجع الى وطنه فرأى ولد ولده شيوخاً وقد كان خلف أباهم شبابا الى غير ذلك من الأمور التى تغيرت ، والاحوال التى تقلبت مع تظاهر الأخبار عما يسألْ عنه أنه كان في مائة سنة .

وقوله : ﴿ ولنجعلك آيـة للناس ﴾ قيل بعث وأولاد أولاده شيوخ . وروي عن علي (ع) أن عزيراً خرج من أهله وامرأته حامل وله خمسون سنة . فأماته الله مائة سنة ، ثم بعثه فرجع إلى أهله ابن خمسين سنة وله ابن له مائة سنة ، فكان ابنه أكبر منه ، وذلك من آيات الله . وقيل : لتتعظ أنت ويتعظ الناس بك ، فيكون الاعتبار عاماً . ودخلت الواو في الكلام لا تصال اللام بفعل محذوف كأنه قال : ولنجعله آية للناس . فعلنا ذاك ، لأن الواو لو سقطت اتصلت اللام بالفعل المتقدم .

وقوله : ﴿ وانظر الى حمارك ﴾ فالحمار يقال للوحشي والأهلي لأن الحمرة أغلب على الوحشي ثم صار لكل حمار تشبيهاً بالوحشي ، والحمرة لون أحمر تقول : احمر احمراراً واحمارا حميراراً والمحمر: فرس هجين ، لأنه كالحمار في التقصير ، وحمارة القيظ : شدة حره ، وحمار السرج الذي يركبه السرج وحمر فو الفرس يحمر حمرا إذا انتن . والحمارة حجارة عريضة توضع على اللحد لركوب التراب عليها كالحمار وجمعها حمائر . وما يخفى على الاسود والاحمر أي العرب والعجم ، لأن السواد أغلب على لون العرب كما الحمرة أغلب على العجم . وموت أحمر ! شديد مشبه بحمرة النار في شدة الايقـاد . وعبث حمر شديد ، وأصل الباب الحمرة . ومنه الحمرة طائر كالعصفور ، لأنه تغلب عليه الحمرة .

وقوله : ﴿ وانظر الى العظام كيف ننشزها ﴾ فمن قرأ بالراء غير المعجمة

ذهب إلى النشور ، وهو الحياة بعد الموت . نشر الميت: إذا عاش ونشره الله وأنشره : إذا أحياه . ومنه قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ (١) وقوله : « ثم إذا شاء أنشره » (٢) والنشر خلاف الطي . يقال : نشرت الثوب وغيره أنشره نشراً وانتشر انتشاراً . والنشر إذاعة الحديث والنشر : الرائحة الطيبة ، وربما قيل في الخبيثة . والنشر نحت (٣) العود بالمنشار . والنشر نبات الربيع . والنشر : اكتساء البازي ريشاً واسعاً طويلاً . والنشرة عن المريض الرقية حتى يفيق والتناشر : عرض كتابة الغلمان على المعلم ينشرونه عليه أي يرونه إياه ، وذلك لبسط الكتاب بين يديه . وأصل الباب الانبساط . ومن قرأ بالزاء فمعناه يرفع بعضها إلى بعض وأصل النشوز : الارتفاع فمنه النشز المرتفع من الارض . ومنه نشوز المرأة رفعها عن طاعة زوجها .

وقوله : ﴿ ثم نكسوها لحماً ﴾ معناه نغطيها باللحم كما نغطي باللباس . وإنما قيل ذلك لأجل التفصيل الذي كان عليه ، فوصله الله عز وجل حتى صار كجزء . منه قال الجعدي (٤) :

فالحمد لله إذ لم يأتني أجلي   حتى اكتسيت من الاسلام سربالا (٥)

فجعل الاسلام غطاء للكفر كما يجعل غطاء للمعصية قوله ﴿ فلما تبين له ﴾ أي ظهر . « قال اعلم » فمن قطع الهمزة جعل ذلك أخباراً عن نفسه ومن وصلها احتمل أمرين :

أحدها ـ أن يكون ذلك أمراً من الله له . والثاني ـ أن يكون تذكيراً للنفس بالواجب وأخرجه مخرج الأمر لها كأنه قال : يا أيها الانسان . وفي الآية دليل على بطلان قول من قال : المعارف ضرورة ، لأنه لما شك أراه الله الآيات التي

« ١ » سورة المؤمنون آية : ١٤ .   « ٢ » سورة عبس آية : ٢٢ .

« ٣ » في المطبوعة (حت) .

« ٤ » هو النابغة الجعدي . وقيل : انـه للبيد بن ربيعة العامري . وقيل : لقردة بن نفاثة السلولي .

« ٥ » ديوان النابغة : ٨٦ .

استبصر بها ولو كان مضطراً إلى المعرفة بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز لم يحتج إلى دليل يعلم به ما هو مضطر إليه وكان يقال : ان عند الموت لم تحصل له المعارف الضرورية كما يحصل لمن لا يريد الله إعادته إلى التكليف فتكون الاماتة كالنوم . والمعلوم خلافه .

قوله تعالى :

﴿ وَإذ قالَ إبراهيمُ رَبِّ أرِني كيفَ تُحيي الموتى قالَ أوَلمْ تُؤمنْ قالَ بَلى وَلكنْ ليطمَئِنَّ قلبي قالَ فَخذْ أربعةً مِنَ الطيرِ فَصُرهُنَّ إليكَ ثمَّ اجعلْ على كلِ جَبلٍ منهنَّ جُزءً ثمَّ ادعُهنَّ يأتينكَ سَعياً وَاعلمْ أنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيمٌ ﴾ (٢٦٠) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ حمزة وحده « فصرهن » بكسر الصاد . الباقون بضمها .

الاعراب :

العامل في قوله « وإذ » يحتمل أن يكون أحد شيئين : أحدهما ـ ما قال الزجاج : واذكر إذ قال . والثاني ـ ألم تر إذ قال عطفا على « ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه » .

المعنى :

وقيل في سبب سؤال إبراهيم أن يريه كيف يحيي الموتى ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال الحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وأبو عبد الله الصادق (ع) : أنه رأى جيفة قد مزّقها السباع تأكل منها سباع البرّ وسباع الهواء ودواب البحر فسأل الله (تعالى) أن يريه كيف يحييها وقال ابن اسحاق كان سبب ذلك منازعة نمرود له في الاحياء ، وتوعده إياه بالقتل إن لم يحيي الله الميت بحيث يشاهده ، ولذلك قال

ليطمئن قلبي إلى أنه لا يقتلني الجبار ، وقال قوم إنما سأل ذلك لقومه ، كما سأل موسى الرؤية ، لقومه . وقال قوم : إنما سأله ، لأنه أحب أن يعلم ذلك علم عيان بعد أن كان عالماً به من جهة الاستدلال . وهو أقوى الوجوه . وقال قوم : إنما سأل ذلك ، لأنه كان شاكاً فيه . وروي فيه رواية ، فهذا باطل ، لأن الشك في أن الله قادر على احياء الموتى كفر لا يجوز على الأنبياء ، لأنه تعالى لا يجوز أن يبعث إلى خلقه من هو جاهل بما يجوز عليه وما لا يجوز . والذي يبين ذلك أن الله تعالى لما قال له « أولم تؤمن » فقرر أنه قال إبراهيم « بلى ولكن ليطمئن قلبي » فبين أنه عارف بذلك مصدق به ، وإنما سأل تخفيف المحنة بمقاساة الشبهات ، ودفعها عن النفس .

والالف في قوله « أولم تؤمن » ألف إيجاب قال الشاعر :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح (١)

أي قد آمنت لا محالة، فلم تسأل ذا، فقال: « ليطمئن قلبي » وقوله ﴿ليطمئن قلبي﴾ معناه لزداد يقيناً إلى يقينه ، وهو قول الحسن ، وقتادة، وسعيد بن جبير، والربيع، ومجاهد، ولا يجوز « ليطمئن قلبي » بالعلم بعد الشك الذي قد اضطرب به لما بيناه، ولكن يجوز أن يطلب علم البيان بعد علم الاستدلال . وقيل معناه « ليطمئن قلبي » بأن لا يقتلني الجبار .

اللغة والمعنى :

ويقال : اطمأن يطمئن اطمئناناً : إذا تواطأوا المطمئن من الارض ما انخفض وتطامن ، واطمأن إليه إذا وثق به ، لسكون نفسه إليه ، ولتوطي حاله بالأمانة عنده ، وأصل الباب التوطئة .

وقوله : ﴿قال فخذ أربعة من الطير﴾ قيل أنها الديك ، والطاووس ، والغراب ، والحمام . أمر أن يقطعها ويخلط ريشها بدمها ، ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ،

(١) مر تخرجه ١ : ١٣٢ ـ ٤٠٠ .

هذا قول مجاهد ، وابن جريج ، وابن زيد ، وابن اسحاق ، والطير معروف يقال : طار يطير طيراناً وأطاره اطارة وطيره تطييراً ، وتطاير تطايراً وطايره مطايرة ، واستطار استطارة ، فأما تطير تطيراً فمن الطيرة لأنه زجر الطير بما يكره ، وتطاير الشيء إذا تفرق في الهواء ، وطائر الانسان : عمله الذي قلّده من خير أو شر ، لأنه كطائر الزجر في البركة أو الشؤم قال الله (تعالى) ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ (١) والمطير ضرب من الوشي لأن عليه تماثيل الطيور . وفجر مستطير أي منتشر في الأفق كانتشار الطيران . وغبار مستطار ، كذا كلام العرب للفرق وفرس مطار وهو الحديد الفؤاد لأنه طيار في جريه وأصل الباب الطيران .

وقوله ﴿ فصرهن ﴾ فمن قرأ بضم الصاد احتمل معنيين :

أحدهما ـ يقطعهن على قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومجاهد . وقال توبة بن الحمير :

فأدنت لي الاسباب حتى بلغتها بنهضي وقد كان ارتقائي يصورها (٢)

أي يقطعها .

والثاني ـ أن معناه أضممهن إليك على قول عطا وابن زيد من صاره يصوره صوراً : إذا أماله . قال المعلى (٣) العبدي :

وجاءت خلعة دهس صفايا يصور عنوقها أحوى زنيم (٤)

معناه أن هذه الغنم يعطف عنوقها هذا التيس الأحوى ، ومن قال بالكسر احتمل ذلك أيضاً الوجهين اللذين ذكرناهما في الضم وقال بعض بني سليم :

« ١ » سورة الأسرى آية : ١٣ .

« ٢ » بنهضي أي بنهوضي .

« ٣ » هو المعلى بن جمال العبدي . في المطبوعة (المعلم) بدل (المعلى) .

« ٤ » اللسان : (ظأب) (ظاب ، (صور) (دهس) (خلم) (صوع) (عشق) (زنم) وفي بعض الروايات (يصوع) بدل (يصور) . الخلمة ـ بكسر الخاء وضمها ـ : خيار المال . والدهس جمع دهساء وهي من المعزى السوداء المشربة حمرة لا تغلو . الأحوى من المعزى : التيس الذي تضرب حمرته الى السواد . والزنيم الذي له زنمتان في حلقه .

وفرع يصير الجيد وحف كأنه على الليت قنوان الكروم الدوالح(١)

معناه يميل الجيد. وإذا كان بمعنى قطعهن فاليك من صلة خذ (٢). وإذا كان بمعنى أملهن يجوز أن يكون إلى متعلقاً به(٣). ويجوز أن يكون متعلقاً بصرهن، وهو الاقوى على قول سيبويه لأنه أقوى كذا قال أبو علي الفارسي وإذا كان بمعنى أملهن إليك وقطعهن ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾. والصور العطف يقال صاره يصوره صورا إذا عطفه. قال الشاعر:

وما يقبل الاحياء من حب خندف ولكن أطراف الرياح يصورها

والصور التقطيع. صاره يصوره. والصور: ميل لأنه انقطاع إلى الشيء بالميل إليه ومنه الصورة لتقطيعها بالتأليف على بعض الأمثلة صور يصور تصويراً وتصور تصورا والصوار: القطيع من بقر الوحش، لانقطاعه بالانفراد عن غيره. والصور: النخل الصغار، والصور: قرن ينفخ فيه لاجتماع الصورة به. ويجوز للانقطاع إليه بالدعاء إليه والصور: جمع صورة. والصوار. النفحة من المسك وأصل الباب القطع. وقال الفراء: صاره يصيره بمعنى قطعه من المقلوب من صراه يصرية وأنشد:

يقولون ان الشام يقتل أهله فمن لي إذا لم آته بخلود

تعرب آبائي فهلا صراهم من الموت أن لم يذهبوا وجدودي(٤)

قال المبرد لا يجوز ذلك، لأن سيبويه قال: إن كل واحد من اللفظين إذا تصرف في بابه لم يكن أحدهما أصلا للآخر: نحو جذب يجذب جذباً، فهو جاذب،

«١» اللسان: (صير) ومعاني القرآن للفراء ١: ١٧٤. الفرع: الشعر التام. الوحف: الاسود الحسن الكثير. الليت: العنق. قنوان جمع قنو ـ بكسر وسكون ـ عذق النخل بما فيه من الرطب واستعاره هنا لعناقيد العنب. والدوالح جمع دالح وهو المثقل بالحمل ـ هنا ـ وأصله في ما يمشي. يقال بعير دالح.

«٢» في المطبوعة (خذ) غير منقطة.

«٣» في المطبوعة (عليه) بدل (به).

«٤» في المطبوعة (فمن ان انه بخلود) و (يعرب) بدل (تعرب) اللسان: (شأم) ـ ذكر البيت الاول فقط ـ. ومعاني القرآن للفراء ٤ : ١٧٤ تعرب القوم: سكنوا البادية.

وجبذ يجبذ جبذا فهو جابذ فلذلك لما تصرف صاره يصيره صيراً كما ينصرف صراه يصريه صرياً ، لم يكن أحدهما أصلا للآخر ، ولكن المقلوب نحو قسى لأن بابه على تأخير السين نحو قوس ، واقواس وقويس .

المعنى :

وقوله ﴿ ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ ﴾ قال ابن عباس ، والحسن وقتادة : إنها كانت أربعة . وقال ابن جريج ، والسدي : كانت سبعة . وقال مجاهد، والضحاك كل جبل على العموم بحسب الامكان ، كأنه قيل كل فرقة على جبل يمكنك التفرقة عليه . وروي عن أبي جعفر ، وأبي عبدالله (عليهما السلام) (١) أنها كانت عشرة . وفي رواية أخرى أنها كانت سبعة ، والفرق بين الجزء والسهم أن السهم من الجملة ما انقسمت عليه ، وليس كذلك الجزء نحو الاثنين وهو سهم من العشرة لأنها تنقسم عليه ، وليس كذلك الثلاثة وهو جزء منها لأنه بعض لها فان قيل : كيف أجيب ابراهيم إلى آيات الآخرة دون موسى في قوله ﴿ رب أرني أنظر إليك ﴾ . (٢) قيل عنه جوابان :

أحدهما - أنه سأل آية لا يصح معها بقاء التكليف من وقوع الضرورة التي لا يعترضها الشكوك بوجه من الوجوه ، وابراهيم إنما سأل في شيء خاص يصح معه التكليف .

والقول الآخر - أن الأحوال قد تختلف فيكون الأصلح الاصوب في بعض الأوقات الاجابة ، وفي وقت آخر المنع فيما لم يتقدم فيه إذن . فان قيل : كيف قال : ﴿ ثم ادعهن ﴾ ودعاء الجماد قبيح ؟ قلنا إنما أراد بذلك الاشارة إليها والايماء لتقبل عليه إذا أحياها الله . فأما من قال أنه جعل على كل جبل طيراً ثم دعاها فبعيد ، لأن ذلك لا يفيد ما طلب ، لأنه إنما طلب ما يعلم به كونه قادراً على إحياء الموتى ، وليس في مجيء طير حي بالايماء إليه ما يدل عليه . وفي الكلام حذف ، فكأنه قال : فقطعهن

« ١ » في المطبوعة زياده عنها في هذا الموضع .

« ٢ » سورة الاعراف آية : ١٤٢ .

واجعل على كل جبل منهن جزأ فان الله يحييهن ، فاذا أحياهن فادعهن يأتينك سعياً ، فيكون الايماء إليها بعد أن صارت أحياء ، لأن الايماء إلى الجماد لا يحسن ، فان قيل : إذا أحياها الله كفى ذلك في باب الدلالة ، فلا معنى لدعائها ، لأن دعاء البهائم قبيح ؟ قلنا : وجه الحسن في ذلك أنه يشير إليها ، فسمي ذلك دعاء لتأتي إليه فيتحقق كونها أحياء ويكون ذلك أبهر في باب الاعجاز . وقال الطبري معنى الدعاء ههنا الاخبار عن تكوينها أحياء كما قال ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ (١) وقوله : ﴿ أتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ .

اللغة :

والجبل وتد من أوتاد الأرض معروف . وجبل فلان على كذا أي طبع عليه وأجبل القوم أجبالاً : إذا صاروا في الجبال وتجبلوا إذا دخلوها ، ورجل ذو جبلة إذا كان غليظ الجسم ، لأنه كالجبل في الغلظ . والجبلة الأمة من الناس وأجبل الحافر : إذا أفضى إلى صلابة لا يمكنه الحفر فيه ، ومنه أجبل الشاعر إذا صعب عليه القول ، والجزء : بعض . الجزأ جزأته تجزئة إذا بعضته ، والجزء الاجتزاء بالرطب عن الماء جزأت الوحشية جزوء لاكتفائها بالجزء الذي في الرطب منه والجزاء نصاب السكين وأصل الباب الجزء البعض .

قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبعَ سَنابِلَ في كلِ سُنبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنَ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَليمٌ ﴾ (٢٦١) آية واحدة بلا خلاف .

هذه الآية متصلة بقوله : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ ومابينهما الاعتراض بالاستدعاء إلى الحق مما أمر الله بالحجج والعبر التي ذكرها من احياء

(١) سورة البقرة آية ٦٥ .

الموتى لابراهيم ومن حجاجه للذي ادعى أنه رب العباد إلى غير ذلك مما تقدم ذكره مع البيان عنه وقال الربيع والسدي الآية تدل على أن النفقة في سبيل الله بسبعمائة مائة ضعف لقوله « سبع سنابل » فأما غيرها فبالحسنة عشرة . وقد بينا في ماتقدم أبواب البر كلها من سبيل الله فيمكن أن يقال ذلك عام في جميع ذلك . والذي ذكرناه مروي عن أبي عبد الله (ع) واختاره الجبائي : فان قيل هل رئي في سنبلة مائة حبة حتى يضرب المثل بها ؟ قيل عنه ثلاثة أجوبة : أولها ـ أن ذلك متصور فشبه لذاك وإن لم ير كما قال امرؤ القيس :

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وقال تعالى ﴿ طلعها كأنه رؤس الشياطين ﴾ (١)

الثاني ـ أنه قد رئي ذلك في سنبل الدخن . الثالث ـ أن السنبلة تنبت مائة حبة فقيل فيها على ذلك المعنى ـ كما يقال ـ في هذه الحبة حب كثير والاول هو الوجه. والوعد بالمضاعفة لمن أنفق في سبيل الله ـ في قول ابن عباس ـ وقال الضحاك ولغيرهم من المطيعين . وقوله : « انبتت » فالنبت الحشيش وكلما ينبت من الارض يقال فيه نبت نبتاً . ونباتاً . وأنبته الله إنباتاً : ونبته تنبيتاً قال (تعالى) : ﴿ والله أنبتكم من الارض نباتاً ﴾ (٢) على تقدير فنبتم نباتاً وانه لحسن النبت . والمنبت الاصل . فلان في منبت صدق أي في أصل كريم ، لأنه يخرج منه كما يخرج النبات .والنبوت : شجر الخشخاش .وأنبت الغلام : إذا راهق واستبان شعر عانته . والسنبلة على وزن فنعله لقولهم أسبل الزرع بمعنى سنبل إذا صار فيه السنبل . والاصل فيه الاسبال ، وهو ارسال الستر ونحوه . فمنه أسبل الزرع ، لأنه استرسل بالسنبل كما يسترسل الستر في الاسبال فيطول ، لأنه صار فيه حب مستور كما يستر بالاسبال . فأما السبيل الطريق ، فلأنه يرسل فيه المار به .

والمائة : عدد معروف يجمع على مئات ومئين (٣) . ويقال أمأت الغنم إذا بلغت مائة . وأمأيتها أنا أي وفيتها مائة . والمأي (٤) النميمة بين القوم

« ١ » سورة الصافات آية : ٦٥ . « ٢ » سورة نوح آية : ١٧ .

« ٣ » في المطبوعة (مييب وميون) . « ٤ » في المطبوعة (والثاني) .

مأيت بينهم أمأي إذا دببت بينهم بالشر .

وقوله ﴿ واسع عليم ﴾ معناه واسع القدرة لا يضيق عنه ما شاء من الزيادة « عليم » بمن يستحق الزيادة ـ على قول ابن زيد ـ ويحتمل أن يكون المراد « واسع » الرحمة لا يضيق عن مضاعفة « عليم » بما كان من النفقة .

وقوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتبِعونَ ما أَنفَقوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلا هُمْ يَحزَنونَ ﴾ (٢٦٢) آية بلا خلاف .

الاعراب :

« الذين » رفع بالابتداء . و« ينفقون » خبره و « أموالهم » نصب لأنه مفعول به .

اللغة والمعنى :

والانفاق إخراج الشيء عن الملك . وقوله « في سبيل الله » قال ابن زيد : هو الجهاد . وقال الجبائي : أبواب البر كلها ، وهو الصحيح عندنا . والمروي عن أبي عبد الله (ع) .

وقوله : « ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا » فالمن هو ذكر ما ينغص المعروف كقول القائل : أحسنت إلى فلان ونعشته وأغنيته وما أشبه ذلك مما ينغص النعمة

وأصل المن : القطع ومنه قولهم : حبل منين أي ضعيف ، لأنه مقطع ومنيته أي قطعته ومنه قوله : « فلهم أجر غير ممنون » (١) أي غير مقطوع وسمي ما يكدر النعمة والمعروف بأنه منّة لأنه قطع الحق الذي يجب به . والمنة : النعمة العظيمة سميت بذلك لأنها تجل عن قطع الحق بها لعظمها . ومنه قوله : « يمنون

(١) سورة التين آية : ٦ .

عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان» (١) أنعم عليكم . والمنة : القوة في القلب والمن : الذي يقع من السماء ، والمن الذي يوزن به ، لأنه يقطع على مقدار مخصوص .

وقوله : « ولا أذى » فهو نحو قولهم أنت أبداً فقير ، ومن أبلاني بك وأراحني الله منك ، وما أشبه ذلك مما يؤذي قلب المعطى وقوله « لهم أجرهم عند ربهم » والأجر هو النفع المستحق بالعمل « ولا خوف عليهم » فالخوف يوقع الضرر الذي لا يؤمن وقوعه .

« ولا هم يحزنون » فالحزن الغم الذي يغلظ على النفس . ومنه الحزن : الأرض الغليظة . وقيل في معناه قولان :

أحدهما ـ لا خوف عليهم لفوت الاجر . والثاني ـ لا خوف عليهم لاهوال الآخرة . وقيل أنه دليل على أن الوعد بشرط لأنه مضموم الكلام . لأن تقديره في المعنى ان لم يتبعوا ما أنفقوا منا ولا أذى ، فلهم من الاجر كذا ، وليس في الآية ما يدل على صحة القول بالاحباط أصلا ، لأن الوعد متى كان مشروطاً بأن لا يتبع بالمن والاذى فمتى اتبع بهما لم يحصل الشرط الذي يوجب استحقاق الثواب فلم يحصل شيء أصلا ثم انحبط ، وإنما كان فيه لبس لو ثبت استحقاقهم بنفس الانفاق فاذا اتبع بالمن انحبط ذلك . وهذا ليس في الآية .

وروي عن النبي (ص) أنه قال : المنان : بما يعطي لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم . وقال الضحاك لأن يمسك ماله خير له من أن ينفقه ثم يتبعه مناً وأذى .

قوله تعالى :

﴿قَولٌ مَعروفٌ وَمَغفرةٌ خَيرٌ من صَدقةٍ يَتبعُها أذىً وَاللهُ غَنيٌ حَليمٌ﴾ (٢٦٣) آية بلا خلاف .

« ١ » سورة الحجرات : ١٧ .

القول المعروف معناه ما كان حسناً جميلاً لا وجه فيه من وجوه القبح ، وهو أن تقول للسائل قولا معروفاً عليه حسناً من غير صدقة تعطيها إياه . وقال الحسن: وهو قول حسن لاعتراف العقل به ، وتقبله إياه دون إنكاره له . والمغفرة ههنا قيل في معناها ثلاثة أقوال .

أولها ـ ستر الخلة على السائل . الثاني ـ قال الحسن : المغفرة له بالعفو عن ظلمه . الثالث ـ قال الجبائي : معناه أي سلامته في المعصية لأن حالها كحال المغفرة في الامان من العقوبة .

اللغة :

وقوله . « والله غني حليم » فالغني هو الحي الذي ليس بمحتاج ، ومعناه ههنا غني عن كل شيء من صدقة وغيرها . وإنما دعاكم إليها لينفعكم بها . وقال الرماني : الغني الواسع الملك فالله غني لأنه مالك لجميع الأشياء لأنه قادر عليها لا يتعذر عليه شيء منها . والغنى ضد الحاجة . تقول : غني يغنى غنى وأغناه اغتناء واستغنى استغناء وغنى غناء وتغنى تغنياً . والغناء ممدود : الصوت الحسن . ويقال فيه أغنية وأغاني والغنى : الكفاية للغنى به عن غيره . والمغنى المنزل غني بالدار : إذا أقام بها ومنه قوله « كان لم تغن بالامس » (١) والغانية : الشابة المتزوجة لغناها بزوجها عن غيره . وهي أيضاً العفيفة لغناها بعفتها . والغنية الاستغناء . والحلم : الامهال بتأخير العقوبة للانابة ، ولو وقع موقع حليم حميد أو عليم ، لماحسن لأنه تعالى لما نهاهم أن يتبعوا الصدقة بالمن ، بين أنهم إن خالفوا ذلك فهو غني عن طاعتهم حليم . في أن لا يعاجلهم بالعقوبة .

قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا لا تُبطلوا صَدقاتكُمْ بالمنِّ والاذى كالَّذي يُنفقُ مالَهُ رِئاءَ النّاسِ وَلا يُؤمنُ باللهِ وَاليومِ الآخرِ فَمثلهُ كَمثل

« ١ » سورة يونس آية ٢٤ .

صفوانٍ عليه تُرابٌ فأصابَهُ وابلٌ فتركه صلداً لا يقدرونَ على شيءٍ مِمّا كسبوا والله لا يهدي القومَ الكافرينَ ﴾ (٢٦٤) آية بلا خلاف .

المعنى :

ضرب الله (تعالى) هذه الآية مثلا لعمل المنافق والمنّان جميعاً ، فانهما إذا فعلا فعلاً لغير وجه الله أو قرنا الانفاق بالمن والأذى ، فانهما لا يستحقان عليه ثواباً . وشبه ذلك بالصفا الذي أزال المطر ما عليه من التراب ، فانه لا يقدر أحد على ردّ ذلك التراب عليه فكذلك إذا رفع المنان صدقته وقرن بها المن فقد أوقعها على وجه لا طريق له إلى استدراكه ، وتلا فيه لوقوعة على الوجه الذي لا يستحق عليه الثواب فان وجوه الافعال تابعة للحدوث ، فاذا فاتت فلا طريق إلى تلافيها وليس فيها ما يدل على أن الثواب الثابت المستقر يزول بالمن فيما بعد ولا بالرياء الذي يحصل فيما يتجدد فليس في الآية ما يدل على ما قالوه .

وقوله : « رئاء الناس» إنما جمع بين همزتين ولم يجمع في ذوائب جمع ذؤابة ، لوقوع الألف في الجمع بين الهمزتين ، فلم يجز ذؤائب (١) ، فأما الواحد فاجتمع لخفته وهما أيضاً مفتوحان فهو أخف لها .

وقوله : ﴿ كالذي ينفق ماله رئاء الناس ﴾ يدخل فيه المؤمن والكافر إذا أخرجا الانفاق للرياء . وقوله : « ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » صفة للكافر خاصة « مثله كمثل صفوان » يعني الحجارة الصلبة « عليه تراب » .

اللغة :

فالتراب والترب واحد يقال ترب الرجل إذا افتقر ، لأنه لصق بالتراب للفقر ومنه قوله : « مسكيناً ذا متربة » (٢) لأنه قعد على التراب للفقر وأترب الرجل إذا استغنى لأنه كثر ماله حتى صار كالتراب . والترب الذي ينشأ معك . وقيل فيه

(١) في المطبوعة (فلم يجز ذوائب) والصحيح ماذكرنا .
(٢) سورة البلد آية : ١٦ .

أقوال : منها للعبهم بالتراب إذ هم صبيان أقران . ومنها ـ لأنهم خرجوا إلى عفر التراب في وقت من الزمان . ومنها ـ لانهم على الا شتباه كالتراب . وقوله : « عرُباً أترابا » (١) أي أشباه أمثال . والترائب (٢) عظام الصدر واحدها تريبة . قيل لأنها متشابهة كالأتراب أو كتشابه التراب . ومنه قوله : « من بين الصلب والترائب » (٣) .

وقوله : ﴿ فأصابه وابل ﴾ فالوا بل : المطر الشديد الوقع ، يقال وبلت السماء تبل وبلا : إذا اشتد وقع المطر .

وقوله : ﴿ فأخذناه أخذاً وبيلا ﴾ (٤) أي شديداً . والوبيل : المرعى الوخيم . والوبال : سوء العاقبة . والموبل : المغلظ القلب . والوبيلة : الحزمة من الحطب لأنها مشدودة . والوبيل : العصا الغليظة . والوابلة : طرد العضد في الكتف . وأصل الباب الشدة . والصفوان واحده صفوانة مثل مرجان ومرجانة وسعدان وسعدانه وقال الكسائي : جمع صفوان صفي . وأنكر ذلك المبرّد وقال : إنما هو صفاه وصفي مثل عصا وعصّي وقفاً وقفي وكذلك ذكران وصفران ـ بكسر الصاد ـ وإنما هو جمع صفا نحو خرب وخربان ، وورل* وورلان . وقال معنى صفا وصفوان واحد .

وقوله : ﴿ فتركه صلداً ﴾ فالصلد : الحجر الأملس الصلب قال الشاعر :

ولست بجلب جلب ريح وقرّة ولا بصفا صلد عن الخير معزل (٥)

وقال رؤبة .

« ١ » سورة الواقعة آية : ٣٧ .

« ٢ » في المطبوعة (التربية)* ورل : دابة على خلقة الضب الا أنه أعظم منه . والجمع اورال وورلان وارؤل .

« ٣ » سورة الطارق آية : ٧ . « ٤ » سورة المزمل آيه : ١٦ .

« ٥ » البيت لتأبط شراً . اللسان (جلب) وروايته (جلب ليل) بدل (جلب ريح) وفي اللسان (عزل) كما هنا . الجلب ـ بكسر الجيم أو ضمها مع سكون اللام ـ : السحاب المعترض تراه كأنه جبل . ويقال هو السحاب الرقيق . والقرة ـ بكسر القاف ـ والقر ـ بضم القاف ـ البرد الشديد .

لما رأتني خلق المموه   براق أصلاد الجبين الأجله (١)

والصلد الذي لا ينبت شيئاً من الأرض لأنه كالحجر الصلد ، والصلد : البخيل وصلد الزند صلوداً إذا لم يور ناراً وفرس صلود : إذا أبطأ عرقه . وقدر صلود إذا أبطأ غليها . وأصل الباب ملاسة في صلابة ويقال صلد يصلد صلداً فهو صلد .

وقوله : ﴿ والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ معناه أنه لا يهديهم إلى طريق الجنة على وجه الانابة لهم ويحتمل لا يهديهم بمعنى لا يقبل أعمالهم كما يقبل أعمال المهتدين من المؤمنين ، لأن أعمالهم لا يقع على وجه بها المدح .

قوله تعالى :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ واللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢٦٥) آية .

القراءة :

قرأ عاصم وابن عامر بربوة ـ بفتح الراء ـ الباقون بضمها . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع (أكلها) باسكان الكاف الباقون بالتثقيل .

المعنى :

وهذا مثل ضربه الله لمن أنفق ماله ابتغاء مرضاة الله أي طلباً لرضاه . وقوله : « وتثبيتاً من أنفسهم » بقوة اليقين والبصيرة في الدين في قول ابن زيد ، والسدي ، وأبي صالح والشعبي . الثاني ـ قال الحسن ومجاهد : معناه أنهم يتثبتون أين يضعون صدقاتهم . الثالث ـ قال أبو علي : معناه توطيناً لنفوسهم على الثبوت على طاعة الله واعترض على قول مجاهد بأنه لم يقل تثبيتاً . وهذا ليس بشيء لأنه لا يجوز أن يقول القائل يثبتوا أنفسهم تثبيتاً إذا كانوا كذلك فهم لا يتثبتون أين يضعون

(١) ديوانه : ١٦٥ من قصيدة مر الاستشهاد ببعض أبياتها في ١ : ٢٨ - ٣٠٤ .

الصدقات . وقوله : « كمثل جنة بربوة » إنما خصت بالربوة لأنها إذا كانت بربوة فتثبتها أحسن وربيعها أكثر كما قال الاعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل (١)

فخص بها الحزن لما بيناه .

اللغة :

والربو : الزيادة يقال ربا الشيء يربو إذا زاد . وأصابه ربو : إذا أصابه نفس في جوفه ، لزيادة النفس على عادته . والربوة : العلو من الأرض لزيادته على غيره بارتفاعه . والربا في المال : المعاملة على أن يأخذ أكثر مما يعطي للزيادة على مايفرض يقال ربا المال يربو رباً وأربى صاحبه فهو مرب . وأصل الباب الزيادة . وفي الربوة ثلاث لغات ـ فتح الراء وضمها وكسرها ـ . وفيها أربع لغات أخر رباوة ورباوة ورباوة وربا . فتلك سبع لغات .

المعنى واللغة :

وقال ابن عباس ، والضحاك ، والحسن ، ومجاهد ، والسدي ، والربيع : الربوة والرابية المرتفع من الارض « فأتت أكلها » فالفرق بين الاكل والاكل ان الاكل بالفتح المصدر والاكل بالضم الطعام الذي يؤكل « ضعفين » يعني مثلين في قول الزجاج لأن ضعف الشيء مثله زائداً عليه وضعفاه مثلاه زائدين عليه . وقال قوم : ضعف الشيء مثلاه . وقوله « فطل » قال الحسن والضحاك والربيع وقتادة هو اللين من المطر . وإنما ذكر الطل ههنا لتشبيه أضعاف النفقة به كثرت أو قلت : إذ كان خيرها لا يختلف على حال في قول الحسن وقتادة . وإنما قيل لما مضى ﴿ فان لم يصبها وابل فطل ﴾ لأن فيه إضمار (كان) كأنه قيل : فان يكن لم يصبها وابل ، فطل . ومثله قد أعتقت عبدين فان لم أعتق اثنين فواحداً بقيمتها .

---

(١) ديوانه ٥٧ رقم القصيدة ٦. الرياض جمع روضة وهي البستان . والحزن ضد المنخفض من الارض . ورياض الحزن أطيب من رياض المنخفضات لأن الريح تهب عليها فتهيج رائحتها . مسبل أي منزل للماء .

والمعنى ان أكن لم أعتق قال الشاعر :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة　　ولم تجدي من أن تقري بها بدا(١)

كأنه قال : أكن لم تلدني لئيمة . والطل المطر الصغار القطر يقال : أطلت السماء فهي مطلة . وروضة طلة ندية . والطل : إبطال الدم بأن لا يثار بصاحبه . طل دمه فهو مطلول لأنه بمنزلة ما جاء عليه الطل ، وأذهبه كأنه قيل غسله . والطل والطلل ما شخص من الدار ، لأنه كموضع الندى بالطل لطهارة الناس له خلاف المستوى ، والقفر ، لأن الخصب حيث تكون الأبنية . وصار الطلل اسماً لكل شخص . والاطلال : الاشراف على الشيء والطل : الشحم ، ما بالناقة طل أي مابها طرق . وطلة الرجل امرأته . وأصل الباب الطل : المطر .

وقوله : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ معناه عالم بأفعالكم ، فيجازيكم بحسنها وفي ذلك ترغيب وترهيب .

قوله تعالى :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الانهارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢٦٦) آية واحدة بلا خلاف .

المعنى :

معنى قوله : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة ﴾ التقدير (على) مثل ضربه الله في الحسرة بسلب النعمة فقيل هو مثل للمرائي في النفقة ، لأنه ينتفع بها عاجلا وتنقطع عنه آجلا في أحوج مايكون إليه .هذا قول السدي وقال مجاهد : هو مثل للمفرط في طاعة الله بملاذ الدنيا يحصل في الآخرة على الحسرة العظمى . وقال ابن عباس : هو مثل الذي يختم عمله بفساد .

(١) قائله زائدة بن صعصعة الفقعسي وقد مر في ١ : ٢٨٩ — ٣٥٢ .

اللغة :

وقوله : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة ﴾ فأتى بمستقبل ثم عطف عليه بماض في قوله « وأصابه الكبر » قال الفراء يجوز ذلك في يود لأنها تلتقي مرة بـ (أن) ومرة بـ (لو) فجاز أن يقدر أحداهما مكان الاخرى ، لاتفاق المعنى ، فكأنه قال أيود أحدكم لو كانت له جنة من نخيل وأعناب وأصابه الكبر . قال الرماني : وعندي أنه قد دل بأن على الاستقبال ، وبتضمين الكلام معنى لو على التمني ، كأنه قيل أيحب ذلك متمنياً له . والتمني يقع على الماضي والمستقبل ألا ترى أنه يصح أن يتمنى أن كان له ولد . ويصح أن يتمنى أن يكون له ولد . والمحبة لا تقع إلا على المستقبل ، لأنه لايجوز أن يقال أحب أن كان لي ولد ويجوز أحب أن يكون لي ولد . والفرق بين المودة والمحبة أن المودة قد تكون بمعنى التمني نحو قولك : أود لو قدم زيد بمعنى أتمنى لو قدم ، ولا يجوز أحب لو قدم . وقوله أن تكون له جنة ، فالجنة : البستان الكثيرة الشجر لأن الشجر يجنه بكثرته فيه . والنخل معروف . وقيل : إنه مأخوذ من نخل المنخل ، لاستخلاصه كاستخلاص اللباب بالنخل . والنخل والنخيل جمع نخلة . وهي شجرة التمر . وقوله : ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية (١) وقوله ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ (٢) فذكر على اللفظ وأنث على المعنى . والنخل نخل الدقيق نخلته نخلا . ومنه المنخل ، لأنه آلة النخل والنخالة معروفة والنخل نخل السماء بالثلج أو ما صغر من القطر والانتخال الاختيار والتنخل (٣) : التخير وأصل الباب النخل : الدقيق . والعنب : ثمر الكرم معروف ورجل عانب وعنب . والعناب معروف. والعناب ما تقطعه الخائنه مشبه بالعنب في التعلق . ورجل عناب : عظيم الانف مشبه بعنقود العنب في التعلق والعظم . وأصل الباب العنب . وقوله : « من تحتها الانهار » وتحت نقيض فوق وفي الحديث

« ١ » سورة الحاقة آية : ٧ .　« ٢ » سورة القمر آية ٢٠ .

« ٣ » في المطبوعة : (التنخر) .

« لا تقوم الساعة حتى يظهر التحوت » أي الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يشعر بهم ذلاً .

والانهار جمع نهر وهو المجرى الواسع من مجاري الماء قال الشاعر :

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها   يرى قائم من دونها ماوراءها (١)

معناه وسّعت فتقها كالنهر .

وقوله : ﴿ فيها من كل الثمرات ﴾ فالثمرة: طعام الناس من الشجر . وقوله : ﴿ وأصابه الكبر ﴾ فالاصابة الوقوع على المقصود . والمراد ههنا : لحقه الكبر ، والكبر حال زائدة على مقدار آخر. والمراد ههنا :الشيخوخة. والفرق بين الكبير والكثير أن الكثير مضمن بعدد وليس كذلك الكبير نحو دار واحدة كبيرة . ولا يجوز كثيرة . والذرية : الولد من الناس . والضعفاء : جمع ضعيف ، والضعف نقصان القوة . وقوله : ﴿ فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ﴾ فالعصر عصر الثوب ونحوه من كل شيء رطب عصرته أعصره عصراً فهو معصور ، وعصير . واعتصرته اعتصاراً ، وتعصر تعصراً ، وعصّره تعصيراً . وانعصر انعصاراً . والعصر الدهر . وفي التنزيل « والعصر إن الانسان لفي خسر » (٢) والعصر العشي . ومنه صلاة العصر لأنها تعصر أي تؤخر كما يؤخر الشيء بالتعصر فيه . والعصر النجاة من الجدب ومنه قوله تعالى: ﴿ فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ (٣) لأنه كعصر الثوب في الخروج من حال إلى حال . والعصر : العطية . والاعتصار : الالتجاء . والمعتصر : الملجأ . والاعصار : غبار يلتف بين السماء والارض كالتفاف الثوب في العصير . والمعصر فوق الكاعب . والمعصرات السحاب . ومنه قوله ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ﴾ (٤) والعصرة : الدينة يقال هو لأموالنا عصرة : أي دينة . وأصل الباب : عصر الثوب . والاحراق إحراق النار أحرقته بالنار فاحترق احتراقاً وحرّقته تحريقاً وتحرق تحرقاً والحرق حكّ البعير أحد نابيه بالآخر يكون وعيداً وتهديداً

« ١ » انظر ١ : ٢٦ ، ٢ : ٥٧ .
« ٢ » سورة العصر آية : ١ — ٢ .
« ٣ » سورة يوسف آية : ٤٩ .
« ٤ » سورة النبأ آية : ١٤ .

من خول الابل ، لالتهابه غضبا كالتهاب الاحراق . والحرق : حك الحديدة بالمبرد حرقت الحديدة أحرقها حرقاً : إذا بردتها للتفريق بالاحراق . والحرق : قطع عصبة في الورك لاتلتئم كما لا يرجع ماأحرق ، يقال حرق الورك فهو محروق والحرق : الثوب يقع فيه الحرق من دق القصار لأنه كالاحراق بالنار في أنه لا يرجع إلى الحال . ومنه ريش حرق لأنه كالمنقطع بالاحراق . والحرّاق : ما اقتبست به النار للاحراق . والحرقة ما يجده من حدة لأنه كالاحراق بالنار . والحرّاقات : سفن يتخذ منها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر وأصل الباب الاحراق . والفكر: جولان القلب بالخواطر يقال: أفكر إفكاراً وفكّر تفكيراً وتفكر تفكراً ورجل فكير كثير الفكر . وقوله : ﴿ فاحترقت ﴾ فالاحتراق : افتراق الاجزاء بالنار والبيان : هو الدلالة على مابيناه ـ في مامضى ـ وقال الرماني : البيان اظهار المعنى بما يتميز به من غيره على جهة الصواب . ولا يقال للحن من الكلام بيان وإن فهم به المراد ، لأن البيان على الاطلاق ممدوح . وللحن عيب لكن يقال قد أبان عن مراده مجازاً .

قوله تعالى :

﴿ ياأيها الَّذينَ آمَنوا أَنفقوا مِنْ طَيباتِ ما كَسبتُمْ ومِمّا أَخرَجنا لَكُمْ مِنَ الأرضِ وَلا تَيمموا الخَبيثَ مِنهُ تُنفِقونَ وَلستُمْ بآخِذيهِ إلا أنْ تُغمِضوا فيهِ وَاعلموا أنَّ اللهَ غَنيٌّ حَميدٌ ﴾ (٢٦٧) آية .

المعنى :

هذا خطاب للمؤمنين دون سائر الناس وقال الحسن ، وعلقمة : كل شيء في القرآن « يا أيها الذين آمنوا » فانما أنزل بالمدينة وكلما فيه « يا أيها الناس » أنزل بمكة وقوله : ﴿ أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾ يدخل فيه الزكاة المفروضة وغيرها من أنواع النفقة . وقال عبيدة السلماني ، والحسن : هي مختصة بالزكاة . وقال الجبائي : هي في التطوع ، لأن الفرض من الصدقة له مقدار من القيمة إن

قصر كان ديناً عليه إلى أن يؤديه على التمام . فأما إذا كان مال المزكي كله ردياً فجاز له أن يعطي منه ولا يدخل في ما نهي عنه ، لأن تقدير ما جعله الله للفقير في مال الغني تقدير حصة الشريك ، فليس لأحد الشريكين أن يأخذ الجيد ويعطي صاحبه الردي لما فيه من الوكس فاذا استوى في الرداوة جاز له إعطاء الردي ، لأنه حينئذ لم يبخسه حقاً هو له كما يبخسه في الأول وقوله : ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ روي عن علي (ع) ، والبراء بن عازب ، والحسن ، وقتادة : أنها نزلت لأن بعضهم كان يأتي بالحشف فيدخله في تمر الصدقة فنزلت فيه الآية . قال ابن زيد : الخبيث الحرام . والأول أقوى ، لأنه قال : ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض﴾ ثم قال : « ولا تيمموا الخبيث » يعني من الذي كسبتم إذ أخرجه الله من الأرض . والحرام وإن كان خبيثاً فليس من ذلك غير أنه يمكن أن يراد به ذلك لأنه لاينافي السبب . وروي عن أبي عبدالله (ع) أنها نزلت في أقوام لهم أموال من ربا الجاهلية كانوا يتصدقون منها ، فنهى الله عن ذلك وأمر بالصدقة من الحلال . ويقوي الوجه الاول قوله : ﴿ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾ والاغماض لا يكون في شيء ردي متسامح في أخذه دون ما هو حرام . وفي الفقهاء من استدل بهذه الآية على أن الرقبة الكافرة لا تجزي في الكفارة وضعفه قوم وقالوا : العتق ليس بانفاق . والاولى أن يكون ذلك صحيحاً لأن الانفاق يقع على كل مايخرج لوجه الله عتقاً كان أو غيره. اللغة والتيمم : التعمد تيممت الشيء تيمماً . ومنه قوله : ﴿فتيمموا صعيداً طيباً﴾ (١) أي تعمدوا ، وقال خفاف :

فعمداً على عين تيممت مالكا (٢)

وقال آخر :

يممته الرمح شزراً ثم قلت له   هذي المروءة لا لعب الزحاليق (٣)

« ١ » سورة النساء آية : ٤٢ ، وسورة المائدة آية : ٧ .

« ٢ » اللسان (عمد) وصدره :

ان تك خيلي قد أصيب صميمها

« ٣ » قائله : عامر بن مالك . والزحاليف لغة في الزحاليق واحدها زحلوقة وهي أثر تزلج الصبيان من فوق طين أو رمل .

واليم : لجة البحر ، لأنه يتعمد به البعيد من الأرض ، ويم الرجل : إذا غرق في البحر ، ويم الساحل إذا طما عليه يم البحر فغلب عليه . واليمامة ، واليمام : الحمام الطورانية تتعمد إلى أوكارها بحسن هدايتها . وقال الخليل : أممته قصدت أمامه ويممته : تعمدته من أي جهة كان . وقال غيره : هما سواء . والخبيث : الرديء من كل شيء ، خبث خبثاً وتخبّث تخبثاً وتخابث تخابثاً وخبثه تخبيثاً . والخبثة : الريبة ، وخبث الفضه ما نقاه الكير لأنه ينفي الرديء وأصله الرداءة .

الاعراب واللغة :

وقوله : ﴿ ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ إنما فتحت (أن) في قول الفراء من أجل (إلا) إذ وقعت عليها . وهي في موضع خفض في الاصل عنده (إن) لأن الكلام في معنى الجزاء وهو إن أغمضتم بعض الاغماض أخذتموه ، ومثله ﴿ إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله ﴾ (١) وأنكر ذلك أبو العباس وقال : (أن) هذه التي بمعنى المصدر مفتوحة على كل حال وذلك نحو أن تأتيني خير لك . وإنما المعنى ولستم بآخذيه إلا لاغماضكم فيه . والاغماض في البيع الحط من الثمن لعيب فيه ، أغمض إغماضاً وذلك لاخفاض بعض الثمن بالحط له . والغموض : الخفاء . غمض يغمض غموضاً فهو غامض . والتغميض إطباق الجفن وغمض العين . والغمض المطمئن من الأرض حتى يغيب من فيه وأصل الباب : الخفاء .

المعنى :

وقيل في معنى ﴿ إلا أن تغمضوا فيه ﴾ قولان قال البراء بن عازب إلا أن تتساهلوا فيه . وقال ابن عباس ، والحسن وقتادة إلا أن تحطّوا من الثمن فيه . وقال الزجاج : ولستم بآخذيه إلا بوكس فكيف تعطونه في الصدقة قال الطرماح ابن حكيم :

« ١ » سورة البقرة آية : ٢٢٩ .

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيم　　رجال يرضون بالاغماض (١)

أي بالوكس قوله : ﴿ واعلموا ان الله غني حميد ﴾ ههنا معناه أنه غني عن صدقاتكم وإنما دعاكم إليها لنفعكم ، فأما « حميد » ففيه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ أنه مستحق للحمد على نعمه . الثاني ـ موجب للحمد على طاعته . والثالث ـ قال الحسن : معناه مستحمداً إلى خلقه بما يعطون من النعم لعباده أي مبتدع لهم إلى ما يوجب لهم الحمد . وحميد في هذا الموضع أليق من حليم كما أن حليماً أليق بالآية المتقدمة من حميد ، لما بيناه وإنما قلنا ذلك لأنه لما أمرهم بالانفاق من طيب ما كسبوه بين أنه غني عن ذلك وأنه يحمدهم على ما يفعلونه إذا فعلوه على ما أمرهم به ومعناه أنه يجازيهم عليه .

قوله تعالى :

﴿ الشَّيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقرَ وَيأمُرُكُمْ بالفَحشاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغفِرَةً منهُ وَفضلاً وَاللهُ واسعٌ عَليمٌ ﴾ (٢٦٨) آية واحدة بلا خلاف .

المعنى :

معنى الآية الوعد من الشيطان أنكم متى أخرجتم من أموالكم الصدقة وأديتم الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم افتقرتم . ويأمركم أيضاً بالفحشاء من المعاصي وترك طاعته . والله (تعالى) يعد بالمغفرة منه والستر عليكم ، والصفح عن العقوبة « وفضلاً » يعني ويعدكم أن يخلف عليكم خيراً من صدقتكم ويتفضل عليكم ويسبغ عليكم في أرزاقكم قال ابن عباس : اثنان من الله ، واثنان من الشيطان . فاللذان من الشيطان الوعد بالفقر والامر بالفحشاء . واللذان من الله المغفرة على المعاصي والفضل في الرزق .

« ٢ » ديوانه : ٨٦ من قصيدة يمجد بها قومه ، وقبله :

انا معشر شمائلنا الصبر اذا الخوف مال بالاخفاض

نصر للذليل في ندوة الحي مرائيب للثأى المنهاض .

من يرم جمعهم يجدهم مراجيح حماة للعزل الاحراض

اللغة والمعنى :

والفقر : الحاجة وهو ضد الغنى يقال : أفقره الله إفقاراً وافتقر افتقاراً وتفاقر تفاقراً ، لأن الفقر بمنزلة كسر الفقار في تعذر المراد . والفقار : عظام منتظمة في النخاع تسمى خرز الظهر واحدها فقرة . والافقار : إعارة الدابة لتركب ثم ترد . والافقار : دنو الصيد . والفاقرة الداهية ، لأنها تكسر الفقار . ومنه قوله: « تظن أن يفعل بها فاقرة » (١) وأصل الباب الفقار : خرز الظهر . وتقول وعدته الخير ، ووعدته بالخير والأصل فيه تعديته بغير حرف الاضافة إلا أنه كثر استعماله في التعدي بحرف الاضافة حتى صار أصلا فيه لكثرته . وأمرته بالخير أكثر في الكلام وإنما يجوز أمرته الخير في الشعر وقوله : ﴿ والله واسع عليم ﴾ حكى البلخي أنه بغير واو في مصاحف أهل الشام ولم يقرأ به أحد فان صح فهو دلالة على نقصان الحروف من كثير من القرآن على ما اختلفوا فيه . والفرق بين الوعد والوعيد أن الوعيد في الشر خاصة ، والوعد بالتقييد للخير والشر معاً غير أنه إذا أطلق لم يكن إلا في الخير ، وكذلك إذا أبهم التقييد كقولك وعدته باشياء لأنه بمنزلة المطلق . وحدّ الوعد : هو الخبر بفعل الخير في المطلق . والوعيد : هو الخبر بفعل الشر . والأمر هو قول القائل لمن هو دونه : افعل ، مع إرادة المأمور به ، فان انضم إليه الزجر عن الاخلال به كان مقتضياً للايجاب . وقال ابن مسعود للشيطان لمة وللملك لمة . ومثله روي عن أبي عبد الله (ع) فلمة الشيطان وعده بالفقر وأمره بالفاحشة ولمة الملك أمره بالانفاق ونهيه عن المعاصي . وقال أبو مسلم والازهري الفحشاء البخل والفاحش البخيل قال طرفة :

عقيلة مال الفاحش المتشدد (٢)

« ١ » سورة القيامة آية : ٢٥ .

« ٢ » هو طرفة بن العبد البكري . معلقته ، واللسان : (فحش) وصدره :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي

وقال الحسين بن علي المغربي والذي يقوي قوله ما أنشده أبو حيرة الراحل من طي :

فد أخذ المجد كما أرادا ليس بفحاش يضن الزادا

وقال الرماني : والله ما قالاه بعيد . والفحشاء المعاصي في أغلب الاستعمال ومعنى البيت الذي أنشداه أن الفاحش هو سيء الرد بسؤاله وضيفانه وذلك من البخل لا محالة قال كعب :

أخي ما أخي لا فاحش عند بيته ولا برم عند اللقاء هبوب (١)

فتلخيص معنى الآية أن الشيطان يحملكم على أن تؤدوا في الصدقة رديء المال يخوفكم الفقر باعطاء الجيد ـ والفَقر والفُقر لغتان ـ ويعدكم الفقر : معناه بالفقر فحذف الباء وعدّى الفعل فنصب قال :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نشب

وقوله : ﴿والله واسع عليم﴾ معناه واسع يعطي من سعة مقدوراته « عليم »حيث يضع ذلك ويعلم الغيب والشهادة .

قوله تعالى :

﴿يؤْتي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيراً كَثِيراً وَما يَذَّكَّرُ إلا أُولوا الالباب (٢٦٩) آية .

القراءة والمعنى :

قرأ يعقوب « ومن يؤت » ـ بكسر التاء ـ الباقون بالفتح قيل في معنى الحكمة في الآية وجوه قال ابن عباس وابن مسعود : هو علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله . وقال ابن

« ١ » هكذا في المطبوعة . وفي أمالي القالي ٢ : ١٤٦ : ولا ورع عند اللقاء هبوب وفي مجمع البيان : عند اللقاب هبوب .

زيد : هو علم الدين . وقال السدي : هو النبوة . وقال مجاهد الاصابة . وقال ابراهيم النخعي : الفهم . وقال الربيع : الخشية . وقال قوم : هو العلم الذي تعظم منفعته وتجل فائدته وهو جميع ما قالوه . وقال قتادة : والضحاك ، وفي رواية عن مجاهد : هو القرآن ، والفقه . وهو المروي عن أبي عبد الله (ع) وإنما قيل للعلم : حكمة لأنه يمتنع به من القبيح لما فيه من الدعاء إلى الحسن ، والزجر عن القبيح . وقال الجبائي : هو ما آتاه الله أنبياءه وأممهم من كتبه وآياته ودلالاته التي يدلهم بها على معرفتهم به وبدينه وذلك تفضل منه يؤتيه من يشاء . وقوله : ﴿ وما يذّكر إلا أولوا الألباب ﴾ وكل مكلف ذو لب لأنه إنما يطلق عليهم هذه الصفة لما فيها من المدحة فلذلك عقد التذكر بهم وهم الذين يستعملون ما توجبه عقولهم من طاعة الله في كل ما أمر به ودعا إليه و« يؤت» جزم بـ (من) والجواب «فقد أوتي خيراً كثيراً» ومن قرأ يؤت بكسر التاء على ما روي عن يعقوب ذهب إلى أن معناه ومن يؤته الحكمة ، وإنما حذف الهاء في الصلة ويكون (من) على هذا المعنى « الذي » لا معنى الجزاء .

قوله تعالى :

﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإنّ اللّه يعلمه وما للظالمين من أنصار ﴾ (٢٧٠) آية بلا خلاف .

(ما) في قوله وما أنفقتم بمعنى الذي وما بعده صلتها والعائد إليها الهاء في قوله : « فان الله يعلمه » لأنها لا يجوز أن تعود على النفقة ، لأنها مؤنثة ، ولا على النفقة والنذر ، لأن ذلك يوجب التثنية . والمراد بالانفاق ههنا ما يخرجه في طاعة الله : واجباتها ومندوباتها .

وقوله : ﴿ أو نذرتم من نذر ﴾ فالنذر هو عقد الشيء على النفس فعل شيء من البرّ بشرط ، ولا ينعقد ذلك إلا بقوله لله عليّ كذا ، ولا يثبت بغير هذا اللفظ . وأصل النذر الخوف لأنه يعقد ذلك على نفسه خوف التقصير في الأمر ومنه

تذر الدم : العقد على سفكه للخوف من مضرة صاحبه قال الشاعر :

هم ينذرون دمي وأنذر إن لقيت بأن أشدا

ومنه الانذار : الاعلام بموقع العدو ، للخوف منه ليتقى يقال : نذرت النذر أنذره نذراً وجمعه نذور وقوله : ﴿ فان الله يعلمه ﴾ معناه يجازي عليه لأنه عالم به ، فدل بذكر العلم على تحقيق الجزاء إيجازاً للكلام وقوله ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ وعيد للظالمين وهم الفاعلون لضرر يستحق عليه الذم . والمراد بالظالمين ههنا الذين كانوا انفاقهم على غير الوجه المأذون لهم فيه من رباً أو ضرار أو شقاق أو من مال مغصوب أو مأخوذ من غير وجهه . وسمي ذلك ظلماً ، لأنه وضع فيه في غير موضعه ، والأنصار جمع نصير مثل شريف وأشراف ، وباب فعيل يجمع على فعلاء مثل عليم وعلماء وكريم وكرماء ، وقد ورد فيه فعال مثل نصير ونصار . والنصير : هو المعين على العدو ، فعلى هذا لا تدل الآية على أنه لا شفاعة لمرتكبي الكبائر لأن أحداً لا يقول أن لهم معيناً على عدوهم بل إنما تقول لهم من يسأل في بابهم على وجه التضرع ولا يسمى ذلك نصر على حال .

قوله تعالى :

إِنْ تُبدوا الصدَقاتِ فَنِعِمّا هِيَ وَإِنْ تُخْفوها وَتؤتُوها الفقراءَ فَهوَ خيرٌ لكمْ وَيُكفِّرُ عنكمْ من سيئاتِكم وَاللهُ بِما تَعملونَ خبيرٌ ﴾

(٢٧١) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف فنعما ـ بفتح النون وكسر العين ـ وقرأ ابن كثير ، وورش ، ويعقوب ، وحفص ، والاعشى والبرجمي ـ بكسر النون والعين ـ وقرأ أهل المدينة ـ إلا ورشاً ـ وأبو عمر ، وأبو بكر ـ إلا الأعشى ـ والبرجمي ـ بكسر النون وسكون العين ـ وكذلك في النساء في قوله : « نعما يعظكم

به » وقرأ ابن عامر وحفص « ويكفر » بالياء والرفع . وقرأ أهل المدينة ، وحمزة والكسائي وخلف عن أبي بكر بالنون والجزم . الباقون بالنون والرفع .

المعنى الاعراب :

قال أبو علي الفارسي : المعنى في قوله ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي ﴾ إن في نعم ضمير الفاعل و « ما » في موضع نصب وهي تفسير الفاعل المضمر قبل الذكر والتقدير نعم شيئاً ابدؤاها . فالابداءهو المخصوص بالمدح إلا أن المضاف حذف واقيم المضاف إليه الذي هوضمير الصدقات مقامه ، فالمخصوص بالمدح هوالابداء بالصدقات لأن الصدقات تدل على ذلك قوله : ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ أي الاخفاء خير لكم . فكما أن هو ضمير الاخفاء وليس بالصدقات كذلك ينبغي أن يكون ضمير الابداء مراداً وإنما كان الاخفاء ـ والله أعلم ـ خيراً لأنه أبعد من أن يشوب الصدقة مراءاة للناس وتصنع لهم فيخلص لله (تعالى) ولم يكن المسلمون إذ ذاك ممن يسبق إليهم ظنه في منع واجب . والفرق بين الصدقة والزكاة أن الزكاة لا تكون إلا فرضاً والصدقات قد تكون فرضاً ، وقد تكون نفلا . واختلفوا في الصدقة التي إخفاؤها أفضل . فقال ابن عباس ، وسفيان ، واختاره الجبائي : انها صدقة التطوع ، لأنها أبعد من الرياء فأما الصدقة الواجبة فاظهارها عندهم أفضل لأنه أبعد من التهمة . وقال يزيد بن أبي حبيب : الصدقات على أهل الكتاب إظهارها أولى ، وهي على المسلمين إخفاؤها أفضل . وقال الحسن ، وقتادة : الاخفاء في كل صدقة من زكاة وغيرها أفضل ، وهو الأقوى لأنه عموم الآية وعليه تدل أخبارنا وقد روي عن أبي عبد الله (ع) أن الاخفاء في النوافل أفضل . وقال أبو القاسم الابداء خير . والمفسرون على خلافه .

اللغة :

والاخفاء : هو الستر تقول أخفيت الشيء أخفيه إخفاء : إذا سترته : والخفي الاظهار خفيته أخفيه خفياً إذا أظهرته لأنه إظهار يخفى قال الشاعر :

فان تدفنوا الداء لا نخفه　　وأن تبعثوا الحرب لا نقعد (١)

والخفاء : الغطاء والخوافي من ريش الطائر ما دون القوادم لأنها يخفى بها والخفية عريش الاسد لأنه يختفي فيها تقول : اختفى اختفاء وخفى تخفية وتخفى تخفياً واستخفى استخفاء وأصل الباب الستر . والابداء والاظهار والاعلان نظائر والاخفاء والاسرار والاغماض نظائر . تقول بدا الشيء يبدو : إذا ظهر، وابديته : إذا أظهرته .

الاعراب والقراءة :

وضعف النحويون بأجمعهم قراءة أبي عمرو ، وقالوا لا يجوز إسكان العين مع الادغام وإنما هو إخفاء يظن السامع أنه إسكان . وإنما لم يجز الاسكان مع الادغام لأنه جمع بين ساكنين في غير حروف المد واللين في نحو دابة وغيرذلك . وقد أنشد سيبويه في الجمع بين ساكنين مثل اجتماعهما في نعما قول الشاعر :

كأنها بعد كلال الزاجر　　ومسحه مر عقاب كاسر (٢)

وأنكره أصحابه . ومن رفع يكفر عطفه على موضع (ما) بعد الفاء ومن جزم فعلى موضع الفاء . ومثل الاول قوله : ﴿ ومن يضلل الله فلا هادي له ويذرهم﴾ ونظير الثاني « فأصدق وأكن » فمن اختار الجزم فلانه أبين في الاتصال بالجزاء ومن رفع فلانه أشكل بما دخلت له الفاء إذ كانت إنما دخلت لاستقبال الكلام بعدها وإن كان في معنى الجواب . ومن قرأ بالياء فمعناه « ويكفر الله » وقوله : « من

« ١ » قاله امرؤ القيس بن عابس الكندي . ديوان امرئ القيس : ٣٤٣ ، واللسان (خفا) وروايته (فان تكتموا السر لا نخفه) .

(٢) اللسان (كسر) في المطبوعة (كانه) بدل (كأنها) و (مر) ساقطة . وأنشده سيبويه : ومسح مر عقاب كاسر .

سيئاتكم » دخلت من للتبعيض لأنه إنما يكفر بالطاعة ـ غير التوبة ـ الصغائر . هذا على مذهب من يقول بالصغائر والاحباط . فأما على مذهبنا فانما كان كذلك لأن اسقاط العقاب كله تفضل ، فله أن يتفضل باسقاط بعضه دون بعض فلو لم يدخل من لا فاداته يسقط جميع العقاب . وقال قوم من زائدة والذي ذكرناه أولى لأنه لا حاجة بنا إلى الحكم بزيادتها مع امكان حملها على فائدة ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ معناه أنه تعالى بما تعملونه في صدقاتكم من إخفائها وإعلانها عالم خبير به لا يخفى عليه شيء من ذلك فيجازي على جميعه بحسبه . وروي عن النبي (ص) أنه قال لابن العاص « نعما بالمال الصالح للرجل الصالح » فاختار أبو عبيد لأجل هذه الرواية قراءة أبي عمرو وقال الزجاج هذه رواية غير مضبوطة ولا يجوز عند البصريين ذلك لأن فيه جمعا بين ساكنين من غير حرف مد ولين وفي نعم ثلاث لغات نعم ونعم ونعما .

قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢٧٢) آية واحدة .

المعنى :

قيل في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها قولان : أحدهما ـ ما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ليس عليك هداهم بمنع المشركين الاقرباء من الصدقة ليدخلوا في الاسلام فعلى هذا معناه الاباحة . الثاني ـ قال الحسن ، وأبو علي الجبائي ، والزجاج : « ليس عليك هداهم » بالحمل على النفقة في وجوه البر فعلى هذا معناه التسلية والتقدير ليس عليك أن تهدي الناس إلى نيل الثواب ، والجنة وإنما عليك أن تهديهم إلى الايمان بأن تدلهم عليه لأنه (عليه السلام) كان يغتم إذا لم يؤمنوا

ولم يقبلوا منه لعلمه بما يصيرون إليه من العقاب فسلاه الله بهـذا القول . وإنه لا ينبغي ترك مواساة ذوي القربى من أهل الشرك ليدخلوا في الاسلام فيكون ذلك مبيحاً للصدقة المندوبة عليهم . وقال ابن عباس ، وابن الحنفية ، وسعيد بن جبير : نزلت هذه الآية لأنهم كانوا يتقون الصدقة على المشركين حتى نزلت « ليس عليك هداهم » وقوله . « ولكن الله يهدي من يشاء » إنما علق الهداية بالمشيئة لمن كان في المعلوم أنه يصلح باللطف وليس كل أحد يصلح به فلذلك جاء الاختصاص بالمشيئة . وقال أبو علي الجبائي : الهداية في الآية هو إلى طريق الجنة وذلك يختص بالمؤمنين المستحقين للثواب والأول اختيار البلخي وابن الاخشاد والزجاج وأكثر أهل العلم .

وقوله : ﴿ وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ معناه فلهذا يجب ألا تمنوا بالصدقة والانفاق : إذ كان لأنفسكم من حيث هو ذخر لكم ولابتغاء وجه الله الذي هو يوفر به الجزاء لكم فهو من كل وجه عائد عليكم وليس كتمليك الله لعباده إذ نفعه راجع عليهم كيف تصرفت الحال بهم ، فلذلك افترق ذكر العطية منه (تعالى) ، والعطية من غيره . ومعنى قوله « إلا ابتغاء وجه الله » إلا ابتغاء رضوان الله . واستدل بذلك على حسن باطن المعنيين بالآية . وانهم كانوا ينفقونه لوجه الله خالصاً . وقيل معناه وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، فكيف يضيع سعيكم وإنفاقكم . وقيل في ذكر الوجه قولان :

أحدهما ـ لتحقيق الاضافة إليه ، لأن ذكره يزيل الابهام انه له أو لغيره ، لأنك إذا اختصصت ذكر الوجه ومعناه التبيين ، دل على أنك أردت الاختصاص وإزالة الابهام ، ورفع الاشتراك وحققت الاضافة .

والثاني ـ لأشرف الذكرين في الصفة لأنه إذا قلت : فعلته لوجه زيد فهو أشرف في الذكر من فعلته[لزيد] .لأن وجه الشيء في الاصل أشرف ما فيه ثم كثر حتى صار يدل على شرف الذكر في الصفة فقط من غير تحقيق وجه ألا ترى أنك تقول : وجه هذا الأمر كذا وهذا أوجه الرأي وهذا أوجه الدليل فلا تريد تحقيق الوجه

وإنما يريد أشرف ما فيه من أجل شدة ظهوره وشدة بيانه .

قوله تعالى :

﴿ لِلفقراءِ الَّذينَ أُحصِرُوا في سَبيلِ اللهِ لا يَستطيعونَ ضَرباً في الأرضِ يَحسبُهمُ الجاهِلُ أغنياءَ مِنَ التَّعففِ تَعرفُهُمْ بسيماهُمْ لا يَسألونَ النَّاسَ إلحافاً وما تُنفقوا مِنْ خيرٍ فَإنَّ اللهَ بهِ عَليمٌ ﴾

(٢٧٣) آية واحدة .

قرأ حمزة وعاصم وابن عامر « يحسبهم » ـ بفتح السين ـ الباقون بكسرها . قال مجاهد ، والسدي : الفقراء مذكورون في الآية هم فقراء المهاجرين . وقال أبو جعفر (ع) نزلت في أصحاب الصفّة . والعامل في الفقراء محذوف وتقديره النفقة للفقراء وقد تقدم ما يدل عليه . وقال بعضهم هو مردود على اللام الاولى في قوله : ﴿ وما تنفقوا من خير فلانفسكم ﴾ قال الرماني هذا لا يجوز لأن بدل الشيء من غيره لا يكون إلا والمعنى يشتمل عليه . وليس كذلك ذكر النفس ههنا ، لأن الانفاق لها من حيث هو عائد عليها ، وللفقراء من حيث هو . واصل إليهم وليس من باب « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » لأن الأمر لازم للمستطيع خاصة ولا يجوز أن يكون العامل فيه « تنفقوا » لأنه لا يفصل بين العامل والمعمول فيه بما ليس منه كما لا يجوز كانت الحمى تأخذ .

اللغة :

وقوله : ﴿ الذين احصروا ﴾ فالاحصار منع النفس عن التصرف لمرض أو حاجة أو مخافة والحصر هو منع الغير وليس كالأول ، لأنه منع النفس . وقال قتادة وابن زيد : منعوا أنفسهم من التصرف في التجارة للمعاش خوف العدو من الكفار . وقال السدي : منعهم الكفار والخوف منهم ، ولو كان الأمر على ما ذكر لكان

حصروا لأن الذي يمنعه العدو محصور والذي يمنع نفسه محصر ، ويحسبهم - بفتح السين وكسرها - لغتان ومعناه يظنهم ولا يعرف حالهم « أغنياء من التعفف » وقوله : ﴿ لا يستطيعون ضرباً في الأرض ﴾ ليس معناه أنهم لا يقدرون وإنما معناه أنهم ألزموا أنفسهم أمر الجهاد فمنعهم ذلك من التصرف كقولك : أمرني الوالي أن أقيم ، فما أقدر أن أبرح معناه ألزمت نفسي طاعته لا أني لا أقدر عليه . وتقول ضربت في الأرض ضرباً ومضرباً إذا سرت فيها وضرب الجرح إذا آلم ضرباناً وضرباً ، وضرب الفحل الناقة : إذا طرقها ضرباً والضريب . الجليد تقول : ضربت الأرض وجلدت . رواه الكسائي . وقوله : « تعرفهم بسيماهم » فالسيما العلامة .

المعنى :

وقال مجاهد : معناه ههنا التخشع . وقال السدي ، والربيع : علامة الفقر وأصل سيما الارتفاع لأنها علامة رفعت للظهور . ومنه السؤم في البيع : وهو الزيادة في مقدار الثمن ، للارتفاع فيه عن الحد . ومنه سوم الخسف للتوقع فيه بتحميل ما يشق . ومنه سوم الماشية إرسالها في المرعى . وقوله : « لا يسألون الناس إلحافاً » لا يدل على أنهم كانوا يسألون غير إلحاف - في قول الفراء ، والزجاج ، والبلخي ، والجبائي - وإنما هو كقولك ما رأيت مثله . وأنت لم ترد أن له مثلاً ما رأيته وإنما تريد أنه ليس له مثل فيرى . وقال الزجاج معناه لم يكن سؤال ، فيكون إلحاح كما قال امرؤ القيس :

على لاحب لا يهتدى بمناره　　إذا سافه العود النباطي جرجرا (١)

والمعنى لا منار به فيهتدى بها ، وإنما وجهوه على ذلك ، لأن في الكلام

« ١ » ديوانه : ٨٩ . اللاحب : الطريق الواضح . والمنار : العلامة توضع لارشاد المسافرين . سافه : شمه . العود : الجمل المسن الضخم . جرجر : رغا وضج . وقد مر صدره في ١ : ١٨٩ - ٢٨٩ - ٤٤٤ في المطبوعة وآمالي المرتضى ١ : ٢٢٨ الدباني بدل (النباطي)

دليلاً عليه ، لأنه (تعالى) وصفهم بالتعفف والمعرفة بسيماهم دون الافصاح بسؤالهم لأنهم لو أفصحوا به لم يحسبهم الجاهل أغنياء ، لأنه إنما يجهل ما ينال بالاستدلال وإنما جاز هذا الاختصاص بالذكر لأن المعنى نفي صفة الذم عنهم . وقوله : « إلحافاً » قال الزجاج هو مأخوذ من اللحاف لاشتماله على وجوه الطلب في المسألة كاشتمال اللحاف في التغطية وقال غيره : لأنه يلزم لزوم اللحاف في غير وقته . وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة في الاستطاعة ، لأنه تعالى إذا عذر من لا يستطيع للمخافة كان من لا يستطيع لعدم القدرة أعذر . وقوله ﴿ وما تنفقوا من خير فان الله به عليم ﴾ معناه يجازيكم عليه كما قال ﴿ وما تنفقوا من خير يعلمه الله ﴾ .

قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموالَهُمْ بِاللَّيلِ وَالنَّهارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلا هُمْ يَحزَنُونَ ﴾

(٢٧٤) آية .

ذكر ابن عباس أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب (ع) كانت معه أربعة دراهم فانفقها على هذه الصفة بالليل والنهار . وفي السر والعلانية . وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) وروي عن أبي ذر (ره) والأوزاعي إنها نزلت في النفقة على الخيل في سبيل الله . وقيل هي في كل من أنفق ماله في طاعة الله على هذه الصفة وإذا قلنا أنها نزلت في علي (ع) فحكمها سار في كل من فعل مثل فعله . وله فضل الاختصاص بالسبق إلى ذلك . ونزول الآية من جهته . وقيل في قسمة الأموال في الانفاق على الليل والنهار والاسرار والاعلان أفضل من الانفاق على غير ذلك الوجه قولان : قال ابن عباس : إن هذا كان يعمل به حتى نزل فرض الزكاة في براءة . والثاني ـ ان الافضل موافقة هذه الصفة التي وصفها الله . وهو الأقوى لأنه الظاهر ، وقال الرماني ، ومن تابعه من المعتزلة لا يجب هذا الوعد

إذا ارتكب صاحبها الكبيرة من الجرم كما لا يجب إن ارتد عن الايمان إلى الكفر وإنما يجب لمن أخلصها مما يفسق بها وهذا عندنا ليس بصحيح ، لأن القول بالاحباط باطل ومفارقة الكبيرة بعد فعل الطاعة لا تحبط ثواب الطاعة بحال . وإنما يستحق بمعصيته العقاب ولله فيه المشيئة ، فأما الارتداد فعندنا أن المؤمن على الحقيقة لا يجوز أن يقع منه كفر ، ومتى وقع ممن كان على ظاهر الايمان ارتداد علمنا أن ما كان يظهره لم يكن إيماناً على الحقيقة ، وإنما قلنا ذلك لأنه لو كان إيماناً لكان مستحقاً به الثواب الدائم فاذا ارتد فيما بعد استحق بارتداده عقاباً دائماً فيجتمع له استحقاق الثواب الدائم والعقاب الدائم وذلك خلاف الاجماع وقوله : « الذين رفع بالابتداء » وما بعده صلة له وخبره « فلهم أجرهم عند ربهم » وإنما دخل الفاء في خبر الذين لأن فيها معنى الجزاء ، لأنه يدل على أن الأجر من أجل الانفاق في طاعة الله . ولا يجوز أن يقال زيد فله درهم لأنه ليس فيه معنى الجزاء وإنما رفع ﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ونصب « لاريب فيه » لأجل تكرير (لا) في جواب إذا قال الشاعر :

وما صرمتك حتى قلت معلنة　　لا ناقة لي في هذا ولا جمل

فأما « لا ريب فيه » ، فجواب (هل) من ريب فيه ، فقيل لا ريب فيه على عموم النفي كما أن السؤال على استغراق الجنس بمن فالاعتماد في أحدهما على عموم النفي وفي الآخر على اشتمال النفي على شيئين قد توهم إثبات أحدهما . والانفاق إخراج ما كان من المال عن الملك ولهذا لا يصح في صفة الله (تعالى) الانفاق : وهو موصوف بالاعطاء لعباده ما شاء من نعمه لأن الاعطاء إيصال الشيء إلى الآخذ له والسر : إخفاء الشيء في النفس فأما اخفاؤه في خباء ، فليس بسر في الحقيقة ، ومنه السّرار والمسّارة لأن كل واحد منهما يخفي الشيء عن غيره إلا عن صاحبه ، والعلانية ، نقيض السر وهو إظهار الشيء وإبرازه من النفس .

قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧٥) آية .

المعنى :

أصل الربا : الزيادة من قولهم ربا الشيء يربو ربواً إذا زاد . والربا : هو الزيادة على رأس المال . في نسيئة أو مماثلة وذلك كالزيادة على مقدار الدين للزيادة في الأجل أو كاعطاء درهم بدرهمين أو دينار بدينارين ، والمنصوص عن النبي (ص) تحريم التفاضل في ستة أشياء الذهب ، والفضة ، والحنطة ، والشعير ، والتمر ، والملح . وقيل : الزبيب : فقال النبي (ص) فيها مثلاً بمثل يداً بيد من زاد أو استزاد ، فقد أربى . هذه الستة أشياء لاخلاف في حصول الربا فيها ، وباقي الأشياء عند الفقهاء مقيس عليها . وفيها خلاف بينهم ، وعندنا أن الربا في كل ما يكال أو يوزن إذا كان الجنس واحداً ، منصوص عليه . والربا محرم متوعد عليه كبيرة بلا خلاف ، بهذه الآية ، وبقوله : ﴿ يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ (١) وقوله : ﴿ لايقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة : إن قيامهم على هذه الصفة يكون

---

(١) سورة البقرة آية : ٧٨ ـ ٧٩ .

يوم القيامة: إذا قاموا من قبورهم، ويكون ذلك إمارة لأهل الموقف على أنهم أكلة الربا. وقوله: «يتخبطه الشيطان» مثل عند أبي علي الجبائي لا حقيقة على وجه التشبيه بحال من تغلب عليه المرة السوداء، فتضعف نفسه ويلج الشيطان بأغوائه عليه فيقع عند تلك الحال ويحصل به الصرع من فعل الله. ونسب إلى الشيطان مجازاً لما كان عند وسوسته. وكان أبو الهذيل وابن الاخشاد يجيزان أن يكون الصرع من فعل الشيطان في بعض الناس دون بعض قالا. لأن الظاهر من القرآن يشهد به، وليس في العقل ما يمنع منه وقال الجبائي: لا يجوز ذلك، لأن الشيطان خلق ضعيف لم يقدره الله على كيد البشر بالقتل والتخبيط ولو قوي على ذلك لقتل المؤمنين الصالحين والداعين إلى الخير، لأنهم أعداؤه، ومن أشد الأشياء عليه. وفي ذلك نظر وأصل الخبط: الضرب على غير استواء، خبطته أخبطه خبطاً. والخبط ضرب البعير الأرض بيديه والتخبط المس بالجنون أو التخبيل، لأنه كالضرب على غير استواء في الادهاش. والخبطة البقية من طعام أو ماء أو غيره لأنه كالصبة من الدلو وهي الخبطة به، والخبط: ورق تعلفه الابل. والخباط: داء كالجنون، لأنه اضطراب في العقل كالاضطراب في الضرب. والخبطة كالزكمة، لأنها تضرب بالانحدار على اضطراب. والخباط سمة في الفخذ لأنها تضرب فيه على اضطراب ومعنى قوله: ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ إن المشركين قالوا: الزيادة على رأس المال بعد مصيره على جهة الدين كالزيادة عليه في ابتداء البيع وذلك خطأ، لأن أحدهما محرم والآخر مباح، وهو أيضاً منفصل منه في العقد، لأن الزيادة في أحدهما لتأخير الدين وفي الآخر لأجل البيع. والفرق بين البيع والربا: أن البيع ببدل لأن الثمن فيه بدل المثمن. والربا ليس كذلك وإنما هو زيادة من غير بدل للتأخير في الأجل أو زيادة في الجنس ﴿وقد أحل الله البيع وحرم الربا﴾ وقوله: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف﴾ قال أبو جعفر من أدرك الاسلام وتاب مما كان عمله في الجاهلية، وضع الله عنه ما سلف. وقال السدي: له ما أكل، وليس عليه ردّ ما سلف، فأما مالم

يقبض بعد ، فلا يجوز له أخذه . وله رأس المال . وقال الطبري : الموعظة التذكير والتخويف الذي ذكره الله وخوفهم به من آي القرآن وأوعدهم عليه إذا أكلوا الربا من أنواع العقاب . وقوله : « وأمره إلى الله » معناه بعد مجيء الموعظة والتحريم ، وبعد انتهاء أكله إلى الله (تعالى) عصمته ، وتوفيقه إن شاء عصمه عن أكله وثبته في انتهائه عنه ، وإن شاء خذله . ويحتمل أن يكون أراد ، فله ما سلف يعني من الربا المأخوذ دون العقاب الذي استحقه .

اللغة :

وقوله : ﴿ وأمره إلى الله ﴾ معناه في جواز العفو عنه إن لم يتب وكل شيء قدمته امامك فهو سلف .والسلوف التقدم يقال : سلف يسلف سلوفاً ومنه الأمم السالفة أي الماضية . والسالفة أعلى العنق. والاسلاف الاعطاء قبل الاستحقاق تقول أسلفت المال إسلافاً ، وسلافة الخمر : صفوها لأنه أول ما يخرج من عصيرها والسلفة :جلد رقيق يجعل بطانة للخفاف . وسلف الرجل : المتزوج باخت امرأته والسلفة ما تدخره المرأة لتتحف به زائراً، وأصل الباب التقدم . وقوله : « ومن عاد» فالعود هو الرجوع تقول عاد يعود عوداً إذا رجع .وعيادة المريض :المصير إليه لتعرف خبره . والعود : من عيدان الشجر ، لأنه يعود إذا قطع ومنه العود الذي يتبخر به . والعود : المسن من الابل . والمعاد كل شيء إليه المصير . فالآخرة معاد الناس أي مرجع . وقوله : « لرادك إلى معاد » (١) يعني مكة بأن يفتحها عليه .

والاعادة : فعل الشيء ثانية وهو المبدىء المعيد . والعادة تكرر الشيء مرة بعد مرة . وتعود الخير عادة . والعيد كل يوم مجمع عظيم ، لأنه يعود في السنة أو في الاسبوع . والعائدة الصله لأنها تعود بنفع على صاحبها وأصل الباب الرجوع .

« ١ » سورة القصص آية : ٨٥ .

تقول : عاد عوداً واعتاد اعتياداً واستعاد استعادة وعوّد تعويداً ، وتعود تعوداً ، وعاود معاودة .

المعنى :

ومعنى الآية ومن عاد لأكل الربا بعد التحريم . وقال ماكان يقوله قبل مجيء الموعظة من أن البيع مثل الربا ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ لأن ذلك لا يصدر إلا من كافر ، لأن مستحل الربا كافر بالاجماع فلذلك توعده بعذاب الأبد . والخلود والوعيد في الآية يتوجه إلى من أربى ، وإن لم يأكله وإنما ذكر الله الذين يأكلون الربا لأنها نزلت في قوم كانوا يأكلونه ، فوصفهم بصفتهم وحكمها سائر في جميع من أربى . والآية الأخرى التي ذكرناها وتبين معناها فيما بعد تبين ما قلناه وعليه أيضاً الاجماع وقيل في علة تحريم الربا أن فيه تعطيل المعايش والاجلاب والمتاجر إذا وجد المربي من يعطيه دراهم وفضلا بدراهم . وقال أبو عبد الله (ع) إنما شدد في تحريم الربا لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف قرضاً أو رفداً وأما ذكر الموعظة ههنا وأنها في قوله : ﴿ قد جاءتكم موعظة من ربكم ﴾ لامرين : أحدهما ـ أن كل تأنيث ليس بحقيقي جاز فيه التذكير والتأنيث فجاء القرآن بالوجهين معاً . والثاني ـ أنه ذكر ههنا لوقوع الفصل بين الفعل والفاعل بالضمير وأنث في الموضع الذي لم يفصل . والربا محرم في النقد والنسيئة بلا خلاف وكان بعض من تقدم يقول لا ربا إلا في النسيئة والذي كان يربيه أهل الجاهلية أن يؤخروا الدين عن محله إلى محل آخر بزيادة فيه وهذا حرام بلا خلاف . ومسائل البيع الصحيح منها والفاسد وفروعها بيناها في النهاية والمبسوط وكذلك مسائل الصرف فلا نطول بذكرها في هذا الكتاب .

قوله تعالى :

﴿ يَمحقُ اللهُ الرّبا ويربي الصّدقاتِ واللهُ لا يُحبُّ كل كفّار

أثيم ﴾ (٢٧٦) آية واحدة

اللغة :

المحق : نقصان الشيء حالا بعد حال . محقه الله يمحقه محقاً ، فانمحق وامتحق أي هلك وتلف بذهابه حالا بعد حال . والمحاق آخر الشهر لامحاق الهلال فيه . والشيء محيق بمعنى ممحوق وأصل الباب المحق فان قيل بأي شيء « يمحق الله الربا ويربي الصدقات ؟» قلنا : يمحقه بأن ينقصه حالا بعد حال . وقال البلخي محقه في الدنيا بسقوط عدالته والحكم بفسقه وتسميته بالفسق .

المعنى :

وقوله ﴿ ويربي الصدقات ﴾ معناه يزيدها بما يثمر المال في نفسه وبالاجر عليه وذلك بحسب الانتفاع بها وحسن النية فيها ووجه زيادته على المستحق بالعمل تفضل بالوعد به وقد روي عن النبي (ص) أن الله يقبل الصدقة ، ولا يقبل منها إلا الطيب ويربيها لصاحبها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد ، وذلك قوله : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ وقوله : ﴿ والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ إنما لم يقل كل كافر مع دخول الكفار في الكافر لأن كل كفار كافر وليس كل كافر كفار للدلالة على أن مستحل الربا في قوله « إنما البيع مثل الربا » مع أنه كافر كفار ، ويجوز للدلالة على صفات الذم إذ قد يتوهم أن الكفار من استكثر من كفر نعمة إنسان لا يبلغ به استحقاق العقاب ويجوز أن يكون من باب الاختصاص لعظم المنزلة في الأمر الذي تعلق به الذكر « والاثيم » هو المتمادي في الأثم . والآثم : الفاعل للاثم وإنما قال لا يحبه ولم يقل يبغضه لأنه إذا لم يحب المكلف فهو يبغضه فقولك لايحبه الله من صفات الذم كما أن قولك لم ينصف في المعاملة من صفات الذم .

قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحاتِ وأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتوا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجرُهُمْ عِندَ رَبهِمْ وَلا خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلا هُمْ يَحزَنونَ﴾ (٢٧٧) آية واحدة .

المعنى :

إن قيل: إذا كان الثواب يستحق بخلوص الايمان فلم يشرط غيره من الخصال ؟ قلنا : لم يذكر ذلك ليكون شرطاً في استحقاق الثواب على الايمان وإنما بين أن كل خصلة من هذه الخصال يستحق به الثواب ونظير ذلك ما ذكره في آية الوعيد في قوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ﴾ (١) فانما بين أن كل خصلة من هذه الخصال يستحق بها العقاب لأن من المعلوم أن من دعا مع الله إلهاً آخر لا يحتاج إلى شرط عمل آخر استحق العقاب وإن كان الوعيد إنما يتوجه عليه بمجموع تلك الخصال لكان فيه تسهيل لكل واحد منها وليس التقييد في آيتي الوعيد يجري مجرى قوله : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾ (٢) من قبل أن هذا معلق بحكم يجب بوجوبه ويرتفع بارتفاعه باجماع وليس كذلك ذكر هذه الخصال. وهذه الآية تدل على أن أفعال الجوارح ليست من الايمان وإن الايمان هو التصديق بما وجب لأنها لو كانت من الايمان ، لكان قوله « إن الذين آمنوا » قد اشتمل عليها فلا معنى لذكرها بواو العطف إذ لا يعطف الشيء على نفسه . فان قيل ذلك يجري مجرى قوله : ﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ﴾ (٣) وقوله :

« ١ » سورة الفرقان آية : ٦٨ . « ٢ » سورة النور آية : ٤ .
« ٣ » سورة محمد آية : ١ ، وسورة النحل آية : ٨٨ .

﴿ الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ (١) قلنا والخلاف في هاتين كالخلاف في تلك لأنا لا نقول إن التكذيب بالآيات هو الكفر نفسه وإنما نقول هو دلالة على الكفر وكذلك الصد عن سبيل الله كما نقول : إن قول النبي (ص) فلان كافر يدل على كفره . وإن لم يكن ذلك كفراً وقال قوم : من المرجئة إن الوعد بهذه الخصال يدل على بطلان التحابط ، لأنه تعالى ضمن الثواب بنفس فعل هذه الخصال ، ولم يشرط ألا يأتي بما يحبطها فان قيل لابد أن يكون ذلك مشروطاً كما أن الوعيد على الكفر لابد أن يكون مشروطاً بارتفاع التوبة منه ، لأن كل واحد من الأمرين إنما يستحق بخلوه مما ينافيه وإذا اتبع بكبيرة لم يخلص كما لم يخلص ما اتبع بتوبة . قلنا : إنما شرطنا الوعيد على الكفر بعدم التوبة لمكان الاجماع ، لا لأن التوبة تسقط العقاب على الكفر ، وإنما وعد الله (تعالى) تفضلا باسقاط العقاب على المعاصي بالتوبة منها ، وليس مثل ذلك موجوداً في آية الوعد لأنه ليس على شرط انتفاء الكبيرة إجماع ، والعمل هو التغيير للشيء بالاحداث له أو فيه فاذا قيل : عمل فلان الصالحات كان معناه أحدثها وإذا قيل : عمل الموازين والخوض والسروج والصفر وغير ذلك ، كان المراد أنه أحدث فيها ما تتغير به صورتها .

قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا اتقوا اللهَ وذَروا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنتُمْ مُؤمنينَ ﴾ (٢٧٨) آية واحدة .

النزول :

ذكر السدي وابن جريج وعكرمة أن هذه الآية نزلت في بقية من الربا كانت للعباس ومسعود وعبدياليل وحبيب وربيعة . وبني عمرو بن عمير وروي عن أبي جعفر (ع) أن الوليد بن المغيره كان يربي في الجاهلية وكان بقي له بقايا على

(١) سورة البقرة آية : ٣٩ ، وسورة المائدة آية : ١١ ، ٨٩ وسورة الحج آية : ٥٧ وسورة الحديد آية : ١٩ ، وسورة التغابن آية : ١٠ .

ثقيف فأراد خالد بن الوليد المطالبة بها بعد أن أسلم فنزلت هذه الآية في المنع من ذلك .

المعنى :

ومعنى « ذروا مابقي من الربا » ظاهره تحريم مابقي ديناً من الربا وإيجاب أخذ رأس المال دون الزيادة على جهة الربا . وقوله : « إن كنتم مؤمنين » قيل فيه قولان : أحدهما ـ من كان مؤمناً فهذا حكمه . والثاني ـ إذ كنتم مؤمنين . والأول هو الأقوى .

اللغة :

ومعنى « ذروا » اتركوا . ولم يستعمل منه وذر ، ولا واذر لكراهتة الواو مبتدأة لأنها لم تزد أولاً في كلامهم كزيادة اختيها الياء والهمزة . قال الخليل : إذا التقت واوان في أول الكلمة أشبه بنباح الكلب فرفضوا ذلك إلا فيما هو عارض لا يعتد به فاستعملوا يذر ، لأنه لا تظهر فيه الواو ، ومثله يدع . فأما وعد فجاء على الأصل . فان قيل: لم جاز وصف المبهم بالوصول ، ولم يحسن بالمضاف فجاز أن يقول : « ياأيها الذين آمنوا » ولم يحسن (يا أيها غلام زيد) قلنا : لأن المبهم حقه أن يوصف بالجنس المعرّف بالالف واللام ، لأنه إذا عرض فيه تنكير بطلت دلالته على الجنس ، فاحتيج إلى وصفه بالجنس لذلك . فان قيل : هلا جاز (يا أيها غلام الرجل) كما جاز (نعم غلام الرجل) إذ المضاف إلى الجنس يقوم مقام الجنس . قيل : لأنه لا يجوز في الاسماء التامة أن تكون ثلاثة أسماء بمنزلة إسم واحد منها . وقد جعل (يا أيها الرجل) بمنزلة اسمين ضم أحدها إلى الآخر نحو (حضرموت) ليكون بذلك أشد اتصالاً بالموصوف من سائر الصفات ، فلم يجز في المضاف لما يجب له من شدة الاتصال وجاز في نعم ، لأنه على الانفصال .

قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ لَمْ تَفعلوا فَأْذَنوا بِحرب مِنَ اللهِ وَرَسولِهِ وَإِنْ تُبتمْ فَلكم رُؤسُ أموالِكم لا تَظلمونَ وَلا تُظلمونَ ﴾ (٢٧٩) آية.

القراءة :

قرأ « فآذنوا » من الرباعي ممدودة حمزة وعاصم : من آذنت أي أعلمت . الباقون (فأذنوا) .

المعنى :

والتقدير فيقوله : « فان لم تفعلوا » يعني ترك ما بقي من الربا أو تجنب مابقي من الربا ، لأن ما تقدم دلّ عليه . وقال ابن عباس ، وقتادة ، والربيع : من عامل بالربا استتابه الامام فان تاب ، وإلا قتله . وقال البلخي : لو اجتمع أهل قرية على اظهار المعاملة بالربا ، لكان على الامام محاربتهم ، وإن كانوا محرمين له ، ولو فعل الواحد بعد الواحد ، والأكثر منكر لفعله لم يقتل الواحد ، لكن يقام عليه من الحكم ما يستحقه . وعندنا أنه يؤدبه الامام ثلاث مرات بما يرتدع معه عن فعل مثله فان عاد رابعاً قتله .

اللغة :

ومعنى قوله : « فاذنوا » ممدوداً : علموا غيركم . ومن قرأ بالقصر فهو من أذنت به آذن اذناً إذا علمت به . وقوله : « بحرب من الله » فالحرب : القتال . والحرب : الشدة . والحربة:التي يطعن بها من آلة الحرب . والتحريب : التحريش . لأنه حمل على ماهو كالحرب من الأذى . والمحراب : مقام الامام ، لأنه كموضع الحرب في شدة التحفظ . والحربا : المسمار الذي يجمع حلقتي الدرع . والحرباء : دويبة

أكبر من المطاءة ، لأنه ينتصب على الشجرة كمصلوب أخذ من الحرب لشدة طلبه للشمس تدور معها كيفما دارت . وأصل الباب الشدة . ومعنى قوله : ﴿ وإن تبتم ﴾ يعني من الربا لأن الكلام يدل عليه ، فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون بأخذ الزيادة على رأس المال ولا تظلمون بالنقصان . وروي في الشواذ « لا تظلمون ولا تظلمون » والمعنى واحد وإنما فيه تقديم وتأخير وموضع (لا تظلمون) نصب على الحال . وتقديره فلكم رؤس أموالكم غير ظالمين ولا مظلومين :

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ كَانَ ذو عُسرَةٍ فَنظِرَةٌ إلى مَيسرةٍ وَإنْ تَصدَّقوا خَيرٌ لَكمْ إنْ كُنتُمْ تَعلمونَ ﴾ (٢٨٠) .

معنى قوله : « وإن كان ذو عسرة أي من غرمائكم إن كان معسراً . وارتفع ذو عسرة لأحد وجهين :

أحدهما ـ حذف الخبر ، وتقديره وإن كان ذو عسرة غريماً لكم . الثاني ـ أن تكون كان التامة المكتفية باسمها وتقديره وإن وقع ذو عسرة أو وجد ذو عسرة وكان يجوز وإن كان ذا عسرة على تقدير وإن كان الذي عليه الدين ذا عسرة . وروي ذلك في قراءة أبي. وقوله : ﴿ فنظرة ﴾ معناه فعليكم نظرة ، وهل الانظار واجب في كل دين أو في دين الربا فقط . قيل فيه ثلاثة أقوال :

أولها ـ قال شريح ، وإبراهيم في دين الربا خاصة . والثاني ـ قال ابن عباس ، والضحاك ، والحسن : في كل دين . وهو قول أبي جعفر ، وأبي عبد الله (ع) . الثالث ـ بالآية يجب في دين الربا وبالقياس في كل دين ، واستدل على أنه يجب في كل دين بأنه لا يخلو أن يجب في ذمته أو في رقبته أو عين ماله ، فلو كان في رقبته لكان إذا مات بطل وجوبه ، ولو كان في عين ماله كان إذا هلك بطل وجوبه فصح أنه في ذمته ، ولا سبيل له عليه في غير ذلك من حبس أو نحوه .

وقرأ نافع (ميسرة) ـ بضم السين ـ الباقون بفتحها ، وهما لغتان :

ومعناه إلى أن يوسع عليه . وقال أبو جعفر (ع) إلى أن يبلغ خبره الامام فيقضي عنه من سهم الغارمين إذا كان أنفقه في معروف .

وقوله : ﴿ وإن تصدقوا خير لكم ﴾ معناه على المعسر بما عليه من الدين خير لكم . وقيل إن معناه وإن تصدقوا بجميع المال على الفقراء . والاول أليق بما تقدم . وروي عن ابن عباس ، وعمر أن آخر ما نزل من القرآن آي الربا . وروي عن مجاهد (ميسره) بالهاء في الوصل مضافاً إلى الهاء . ولم يجز ذلك البصريون لأنه ليس في الكلام مفعله . والاعسار الذي يجب فيه الانظار قال الجبائي : التعذر بالاعدام أو بكساد المتاع ونحوه . وروي عن أبي عبد الله (ع) هو إذا لم يقدر على ما يفضل عن قوته وقوة عياله على الاقتصاد . وروي عن عطا (فناظرة) وهو شاذ ، وهو مصدر نحو قوله : « ليس لوقعتها كاذبة » (١) « وتظن أن يفعل بها فاقرة » (٢) وكذلك العاقبة والعافية .

قوله تعالى :

﴿ وَاتقوا يَوماً تُرجعونَ فيهِ إلى اللهِ ثمَّ تُوفّى كلّ نَفسٍ ما كسبتْ وَهمْ لا يُظلمونَ ﴾ (٢٨١) آية واحدة .

القراءة والنزول :

قرأ أبو عمرو ، وحده (ترجعون) بفتح التاء الباقون بضمها . قال ابن عباس وعطية والسدي : هذه الآية آخر ما نزلت من القرآن . وقال جبريل (ع) ضعها في رأس الثمانين والمائتين من البقرة .

المعنى :

وقيل في معنى ترجعون فيه إلى الله قولان :

أحدها ـ ترجعون فيه إلى جزاء الله . الثاني ـ ترجعون فيه إلى ملك الله

« ١ » سورة الواقعة آية : ٢ . « ٢ » سورة القيامة آية : ٢٥ .

لنفعكم وضركم دون غيره ممن كان ملكه إياه في دار الدنيا . وقوله﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت ﴾قيل فيه وجهان : أحدهما ـ توفى جزاء ما كسبت من الاعمال . الثاني ـ توفى بما كسبت من الثواب أو العقاب ، لأن الكسب على وجهين : كسب العبد لفعله وكسبه لما ليس من فعله ككسبه المال وقوله : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ معناه لا ينقصون ما يستحقونه من الثواب ولا يزداد عليهم فيما يستحقونه من العقاب والآية تدل على أن الجزاء لا يكون إلا على الكسب لأنه لو كان خاصاً لجرى مجرى توفى كل نفس ما قالت وليس مفهومه كذلك لأنه عام فيما يجازي به العبد وموضع « ثم توفى كل نفس ما كسبت » نصب بانه عطف على صفة يوماً إلا أنه حذف منه فيه لدلالة الأول عليه .

قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا إذا تَدايَنتُمْ بدينٍ إلى أَجلٍ مُسمىً فاكتبوهُ وَليكتب بينكمْ كاتبٌ بالعدلِ وَلا يَأبَ كاتِبٌ أنْ يَكتبَ كما عَلمَهُ اللهُ فَليكتبْ وَليملل الَّذي عَليهِ الحقُّ وَليتقِّ اللهَ رَبهُ وَلا يبخسْ منهُ شَيئاً فان كانَ الَّذي عَليهِ الحقُّ سَفيهاً أو ضَعيفاً أو لا يَستطيعُ أنْ يُملَّ هُوَ فَليملل وَليّهُ بالعدلِ وَاستشهدُوا شَهيدينِ مِنْ رِجالكمْ فَانْ لم يَكونا رَجلينِ فَرَجلٌ وَامرأتانِ مِمّنْ تَرضونَ مِنَ الشُهداءِ أنْ تضلَّ إحداهُما فَتُذكِّرَ إحداهُما الاخرى وَلا يأبَ الشُّهداءُ إذا ما دُعوا وَلا تَسأَموا أنْ تَكتبوهُ صغيراً أو كبيراً إلى أَجلهِ ذلكمْ أقسطُ عندَ اللهِ وَأقومُ للشهادةِ وَأدنى ألاَّ تَرتابوا إلا أنْ تَكونَ

تِجارةً حاضِرةً تُديرونَها بينكُم فليسَ عليكُم جُناحٌ ألاّ تكتبوها وأشهِدوا إذا تبايعتُم ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيدٌ وإنْ تفعلوا فإنّه فُسوقٌ بِكُم واتقوا اللهَ ويُعلمكُمُ اللهُ واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾ (٢٨٢) آية واحدة .

القراءة :

قرأ حمزةوحده « ان تضل احداهما » بكسر الالف . الباقون بفتحها . وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو « فتذكر » بالتخفيف والنصب . وقرأ حمزة بالتشديد ، والرفع . وقرأ ﴿ تجارة حاضرة ﴾ بالنصب عاصم . الباقون بالرفع .

المعنى :

قوله : « إذا تداينتم » معناه تعاملتم بدين . وإنما قال : « بدين » وإن كان تداينتم أفاده لأمرين :

أحدهما ـ أنه على وجه التأكيد كما تقول ضربته ضرباً . والثاني ـ أن تداينتم يكون بمعنى تجازيتم من الدين الذي هو الجزاء فاذا قال : بدين اختص بالدين خاصة « إلى أجل مسمى » معناه معلوم وقوله : « فاكتبوه » ظاهره الأمر بالكتابة . واختلفوا في مقتضاه ، فقال أبوسعيد الخدري ، والشعبي ، والحسن : هو مندوب إليه . وقال الربيع ، وكعب : هو على الفرض . والاول أصح ، لاجماع أهل عصرنا على ذلك . ولقوله تعالى « فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أوتمن أمانته » ومفهومه فان أمنه فيما له أن يأمنه . وقال ابن عباس : هذه الآية في السلم خاصة . وقال غيره : حكمها في كل دين من سلم أو تأخير ثمن في بيع . وهو الأقوى لآية العموم . فأما القرض فلا مدخل له فيه لأنه لا يجوز مؤجلا وقوله : ﴿ ولا يأب

كاتب ﴾ ظاهره النهي عن الامتناع من الكتابة ، والنهي يقتضي تحريم الامتناع . وقال عامر الشعبي هو فرض على الكفاية كالجهاد ، وهو اختيار الرماني ، والجبائي وجوز الجبائي أن يأخذ الكاتب والشاهد الأجرة على ذلك . وعندنا لا يجوز ذلك. والورق الذي يكتب فيه على صاحب الدين دون من عليه الدين. ويكون الكتاب في يده لأنه له . وقال السدي واجب على الكاتب في حال فراغه . وقال مجاهد وعطا هو واجب إذا أمر . وقال الضحاك نسختها قوله : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » .

وقوله : ﴿ أن يكتب كما علّمه الله فليكتب ﴾ يعني الكاتب ﴿ وليملل الذي عليه الحق ﴾ أمر لمن عليه الحق بالاملال وهو والاملاء بمعنى تقول أمليت عليه وأمللت عليه بمعنى واحد . وقوله : ﴿ وليتق الله ربه ﴾، معناه لا يملل إلا الحق الذي عليه والاملال المراد به الندب لأنه لو أملأ غيره وأشهد هو كان جائزاً بلا خلاف .

وقوله : ﴿ ولا يبخس منه شيئاً ﴾ أي لا ينقص منه شيئاً والبخس النقص ظلماً . وقد بخسه حقه يبخسه بخساً إذا نقصه ظلماً ومنه قوله تعالى « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » أي لا تنقصوهم ظالمين لهم ومنه قوله ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ أي ناقص عن حقه والبخس فقأ العين لأنه إدخال نقص على صاحبها وتباخس القوم في البيع إذا تغابنوا وقوله : ﴿ فان كان الذي عليه الحق سفيهاً ﴾ قال مجاهد السفيه : الجاهل . وقال السدي الصغير وأصل السفه الخفة ومن ذلك قول الشاعر :

مشين كما اهتزت رماح تسفهت أعاليها مرّ الرياح النواسم (١)

أي استخفتها الرياح وقال الشاعر :

نخاف أن يسفه أحلامنا فنحمل الدهر مع الخامل

أي تخف أحلامنا فالسفيه الجاهل ، لأنه خفيف العقل بنقصه . وقوله : « أو ضعيفاً » قال مجاهد والشعبي : هو الاحمق . وقال الطبري : هو العاجز عن الاملاء بالعي أو بالخرس « أو لا يستطيع أن يمل » قال ابن عباس : هو العي الاخرس . وقيل : المجنون . والهاء في قوله « وليه » عائدة إلى السفيه - في قول

« ١ » اللسان (سفه) .

الضحاك ، وابن زيد ـ الذي يقوم مقامه . وقال الربيع : ترجع إلى ولي الحق . والاول أقوى . وإذا أشهد الولي على نفسه فلا يلزمه المال في ذمته بل يلزم ذلك في مال المولى عليه . وقوله : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » يعني من رجال الأحرار المسلمين دون الكفار والعبيد ـ في قول مجاهد ـ والحرية ليست عندنا شرطاً في قبول الشهادة وإنما الاسلام شرط من العدالة . وبه قال شريح والبتى ، وأبو ثور ، ومثله قوله : ﴿ وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ﴾ (١) وقوله : « فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » يحتمل رفعه أربعة أوجه :

أحدها ـ فليكن رجل وامرأتان . الثاني ـ فليشهد رجل وامرأتان . الثالث ـ فالشاهد رجل وامرأتان . الرابع ـ فرجل وامرأتان يشهدون وكل ذلك حسن . وكان يجوز أن ينصب رجلا وامرأتين بمعنى واستشهدوا رجلا وامرأتين . وقوله : « أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى » يحتمل وجهين :

أحدها ـ قال الربيع والسدي والضحاك وأكثر المفسرين إنه من الذكر الذي هو ضد النسيان . وقال سفيان بن عيينة : هو من الذكر . ومعناه أن تجعلها كذكر من الرجال . ومعنى أن تضل لأن تضل أو من أجل أن . فان قيل لم قال « إن تضل » وإنما الاشهاد ، للاذكار لا للضلال قيل عنه جوابان :

أحدها ـ قال سيبويه أنه لما كان الضلال سبب الاذكار قدّم لذلك وجاز لتعلق كل واحد منهما بالآخر في حكم واحد فصار بمنزلة ما وقع الاشهاد للمرأتين من أجل الضلال ، كما وقع من أجل الاذكار وكثيراً في السبب والمسبب أن يحمل كل واحد منهما على الآخر ، ومثله أعددت الخشبة أن تميل الحائط فأدعمه وإنما أعددته في الحقيقة للدعم ولكن حمل عليه الميل لأنه سببه .

الثاني ـ قال الفراء إنه بمعنى الجزاء على أن تذكر احداهما الأخرى إن ضلت إلا أنه لما قدّمت (أن) اتصلت بما قبلها من العامل فانفتحت . ومثله يعجبني أن سأل السائل فيعطى . وإنما يعجبك الاعطاء دون المسألة . ومثله قوله : « ولولا أن

« ١ » سورة النور آية : ٣٢ .

تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا » (١) ومعناه ولولا أن يقولوا أن اصابهم مصيبة ، وإنما قدّم وأخر . قال الرماني قول سيبويه في هذا أقوى لما في الثاني من الدعوى لاخراج الجزاء إلى المصدر لغير فائدة .

وأنكر بعضهم قراءة حمزة « إن تضل » ـ بكسر الهمزة ـ وقال الرماني : لا معنى لهذا الانكار ، لأن عليها إجماع الأمة وتسليم القراءة بهاولها وجه صحيح في العربية . وقال أبو علي الفارسي إن حمزة جعل إن للجزاء ، والفاء في قوله « فتذكر » جواب الجزاء ، ويكون موضع جوابه رفعاً بكونها وصفاً للمنكرين وهما المرأتان في الآيوقوله : ﴿ فرجل وامرأتان ﴾خبر ابتداء محذوف ، وتقديره فمن يشهد رجل وامرأتان ، وانفتحت اللام في هذه القراءة لالتقاء الساكنين ، وموضعهما الجزم ولو كسرت ، لكان جائزاً وقال قوم : غلط سفيان بن عيينة في تأويله ، لأن احداهما إذا نسيت لم تجعلها الأخرى ذكراً وهذا ليس بشيء ، لأن المعنى تذكرها تصير معها بمنزلة الذكر لأن بعدها من النسيان إذا اجتمعا بمنزلة بعد الذكر ، فان قيل : فلم قال« فتذكر إحداهما الأخرى » فكرر لفظ إحداهما ، ولو قال فتذكرها الأخرى لقام مقامه مع اختصاره . قيل قال الحسين بن علي المغربي : إن تضل إحداهما يعني إحدى الشهادتين أي تضيع بالنسيان فتذكر أحدى المرأتين الأخرى ، لئلا يتكرر لفظ إحداهما بلا معنى ويؤيد ذلك أنه يسمى ناسي الشهادة ضالاً . ويجوز أن يقال : ضلت الشهادة إذا ضاعت كما قال تعالى : « قالوا ضلوا عنا » (٢) أي ضاعوا منا ويحتمل أن يكون إنما كرر لئلا يفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول فان ذلك مكروه غير جيد ، فعلى هذا يكون احداهما الفاعلة والاخرى مفعولاً بها . وقوله : ﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ قيل في معنى ما دعوا إليه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ لاثبات الشهادة في الكتاب وتحملها ذهب إليه ابن عباس ، وقتادة ،

« ١ » سورة القصص آية : ٤٧ .

« ٢ » سورة الاعراف آية ٣٦ ، وسورة المؤمن آية : ٧٣ .

والربيع . الثاني ـ قال مجاهد ، وعامر ، وعطا ذلك إذا دعوا لاقامتها . الثالث ـ في رواية عن ابن عباس ، والحسن ، وأبي عبد الله (ع) لاقامتها وإثباتها . وهو أعم فائدة . وقال الطبري : لا يجوز إلا إذا دعوا لاقامتها ، لأن قبل أن يشهدوا لا يوصفون بأنهم شهداء . وهذا باطل لأنه تعالى قال : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » فسماهما شاهدين قبل إقامة الشهادة .

اللغة :

وقوله : ﴿ ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ﴾ فالسأم : الملل ، سئم يسأم سأماً إذا مل من الشيء وضجر منه قال زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش　　ثمانين حولا لا أبالك يسأم (١)

والصغير : خلاف الكبير صغر الشيء يصغر صغراً ، وصغره تصغيراً واستصغره إستصغاراً وتصاغر تصاغراً . وصغر يصغر صغراً وصغاراً : إذا رضي بالضيم ، لأنه رضي باستصغاره . وتصاغرت إليه نفسه ذلاً ومهانة . والاصغار حنين الناقة الخفيض والاكبار حنينها الكبير . والهاء في قوله : « أجله » يحتمل أن تكون عائدة إلى أجل الدين . وهو الاقوى . والثاني إلى أجل الشاهد . أي الوقت الذي تجوز فيه الشهادة . وقوله : « ذلكم أقسط عند الله » معناه أعدل والقسط : العدل تقول : أقسط إقساطاً ، فهو مقسط إذا عدل ومنه قوله : « إن الله يحب المقسطين » والقسط : الحصة تقول أخذ فلان قسطه أي حصته . وقد تقسطوا الشيء بينهم أي اقتسموه على القسط أي على العدل . وكل مقدار قسط لأنه عدل غيره بالمساواة له . والقسوط : الجور لأنه عدول عن الحق قسط يقسط قسطاً ، فهو قاسط إذا جاز عن الحق . وقوله تعالى : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » (٢) والرجل القسطاء : التي في ساقها أعوجاج لعدوله عن الاستقامة .

« ١ » من معلقته الشهيرة : ديوانه ٩ .

« ٢ » سورة الجن آية : ١٥ .

المعنى :

وقوله : « وأقوم للشهادة » معناه أصح لها مأخوذ من الاستقامة . وقوله : « وأدنى ألا ترتابوا » أي أقرب ألا تشكوا بأن ينكر من عليه الحق . وقيل : بالا ترتابوا بالشاهد أن يضل ، وقوله : « إلا أن تكون تجارة حاضرة » فمن رفع احتمل رفعه أمرين :

أحدهما ـ أن تكون (كان) تامة بمعنى وقع ، فيكون اسم كان ، ويحتمل أن تكون ناقصة ويكون اسمها والخبر تديرونها . ومن نصب معناه أن تكون التبايع تجارة أو التجارة تجارة . وقوله : ﴿ واشهدوا إذا تبايعتم ﴾ قال الضحاك : الاشهاد : فرض في التبايع وبه قال أصحاب الظاهر واختاره الطبري . وقال الحسن ، والشعبي ذو ندب . وهو الصحيح وبه قال جميع الفقهاء . وقوله « ولا يضار » أصله يضار ـ بكسر الراء ـ عند الحسن ، وقتادة ، وعطا ، وابن زيد ، وقيل : المضارة وهو أن يشهد الشاهد بما لم يستشهد فيه ، ويكتب الكاتب بما لم يمل عليه . ذهب إليه الحسن ، وطاووس ، وهو الاقوى . بدلالة قوله « وإن تفعلوا » يعني المضارة « فانه فسوق بكم » أي معصية في قول ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك . ومن دعا الشاهد وهو مشغول ، فتأخر لا يكون فاسقاً بلا خلاف . وقال ابن مسعود ، ومجاهد ـ بفتح الراء ـ ومعناه لا يدعى الكاتب ، والشاهد ، وهو مشغول على وجه الاضرار به . ومعنى قوله : « صغيراً أو كبيراً » معناه هو في العادة صغير جرت العادة بكتب مثله ، ولا يريد بذلك ما قدره حبة أو قيراط ، لأن ذلك لم تجر العادة بكتب مثله ، والاشهاد عليه وليس في الآية ما يدل على أنه لا يجوز الحكم بالشاهد واليمين ، لأن الحكم بالشاهد والمرأتين أو بالشاهدين لا يمنع من قيام الدلالة على جواب الحكم بالشاهد مع اليمين . ولا يكون ذلك نسخاً لذلك ، لأنه ليس بمناف للمذكور في الآية والحكم بالشاهد والمرأتين يختص بما يكون مالا أو المقصد به المال فأما الحدود التي هي حق الله وحقوق الآدميين وما يوجب القصاص ، فلا يحكم

فيها بشهادة رجل وامرأتين ، وكذلك عندنا في الشاهد ، واليمين حكم الشاهد والمرأتين سواء . وقدبسطنا مسائل الشهادات ، وفروعها ، وما يقبل منها وما لا يقبل وأحكام شهادة النساء والعبيد وغير ذلك في كتابينا النهاية ، والمبسوط ، فلا معنى للتطويل بذكرها ههنا . وقوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ معناه اتقوا معاصيه وعقابه . وقوله : « ويعلمكم الله » معناه يعلمكم ما فيه صلاح دينكم ودنياكم وما ينبغي لكم فعله ، وما يحرم عليكم . والله عليم بذلك وبما سواه من المعلومات فلذلك ، قال « بكل شيء عليم » .

الاعراب :

وقال أبو علي الفارسي « ان تضل احداها فتذكر إحداها الاخرى » لا يكون متعلقاً بقوله : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » « ان تضل احداها » ولكن يتعلق بأن يفعل مضمر دل عليه هذا الكلام ، لأن قوله : « فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » يدل على قولك واستشهدوا رجلاً وامرأتين ، فتعلق (ان) إنما هو بهذا الفعل المدلول عليه . قال ويجوز أن تتعلق (ان) باحد ثلاثة أشياء .

أحدها ـ المضمر الذي دل عليه قوله : « واستشهدوا شهيدين » . الثاني ـ الفعل الذي هو فليشهد رجل وأمرأتان . الثالث ـ الفعل الذي هو خبر المبتدأ ، وتقديره فرجل وامرأتان يشهدون ، فيكون يشهدون خبر المبتدأ . قال وقوله : « ممن ترضون من الشهداء » فيه ذكر يعود إلى الموصوفين الذين هم « فرجل وامرأتان » ، ولا يجوز أن يكون فيه ذكر لشهيدين المتقدم ذكرهما لاختلاف إعراب الموصوفين ألا ترى أن شهيدين منصوبان ، ورجل وامرأتان اعرابهم الرفع ، فاذا كان كذلك علمت أن الوصف الذي هو ظرف إنما هو وصف لقوله : « فرجل وامرأتان » دون من تقدم ذكرها من الشاهدين ، والشرط وجزاؤه وصف للمرأتين ، لأن الشرط ، والجزاء جملة يوصف بها كما يوصل بها في قوله : « الذين إن مكناهم .... الآية » (١) .

« ١ » سورة الحج آية ٤١ .

اللغة :

وأما إحدى فهو مؤنث الواحد والواحد الذي مؤنثه إحدى إنما هو اسم وليس . بوصف ولذلك جاء احدى على بناء لا يكون للصفات أبداً كما كان الذي هو مذكره كذلك وقال أحمد بن يحيى قالوا : هو إحدى الاحد ، وواحد الأحدين وواحد الآحاد وأنشد :

عدّونى الثعلب فيما عدّوا حتى استثاروا بي أحدى الأحد
ليثاً هزبرا ذا سلاح معتدى (١)

المعنى :

وقوله : ﴿ الا أن تكون تجارة حاضرة ﴾ إستثناء من جملة ما أمر الله بكتابته والاشهاد عليه عند التبايع فاستثنى منه يداً بيد فانه لا يحتاج إلى الكتابة ولا الاشهاد عليه ، والأول يحتاج إليه على خلاف، في كونه ندباً أو وجوباً كما ذكرناه . وقيل في البقرة خمسمائة حكم وفي هذه الآية أربعة عشر حكماً أولهـا قوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » والثاني ـ « وليكتب بينكم كاتب بالعدل » الثالث ـ « ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله والرابع ـ « وليملل الذي عليه الحق » وهو أقداره إذا أملاه . الخامس ـ « وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً » . أي لا يخون ، ولا ينقصه . السادس ـ « فان كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو » أي لا يحسن « فليملل وليه بالعدل » السابع ـ « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » والثامن ـ « فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى » التاسع ـ « ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا » والعاشر ـ « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله » أي لا تضجروا . والحادي عشر ـ « ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة

(١) هكذا في المطبوعة . ولم نجدها في مصادرنا ـ وهي كما ترى .

تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها » الثاني عشر ـ « واشهدوا إذا تبايعتم » الثالث عشر ـ « ولا يضار كاتب ولا شهيد » الرابع عشر ـ « وإن تفعلوا فانه فسوق بكم » وقال قوم : فيها إحدى وعشرون حكماً : « إذا تداينتم » حكم « فاكتبوه » حكم « ولا يبخس » حكم « فان كان الذي عليه الحق سفيهاً » حكم « أو ضعيفاً » حكم « أو لا يستطيع » حكم « فليملل وليه » حكم « بالعدل » حكم « واستشهدوا شهيدين » حكم « فرجل وامرأتان » حكم « ممن ترضون من الشهداء » حكم « ولا يأب الشهداء » حكم « ولا تسأموا » حكم « إلا أن تكون تجارة حاضرة » حكم « واشهدوا إذا تبايعتم » حكم « ولا يضار كاتب » حكم « ولا شهيد » حكم .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٢٨٣) آية بلا خلاف .

القراءة واللغة :

قرأ أبو عمرو وابن كثير « فرهن » على وزن فعل . الباقون « فرهان » على فعال . الرهن مصدر رهنت الشيء أرهنه رهناً وأرهنته إرهاناً . والأول أفصح قال الشاعر في أرهنت :

فلما خشيت أظافيره　　نجوت وأرهنته مالكا (١)

وقال الازهري :

أرهنت في الشيء إذا سلفت فيه .

« ١ » قيل ان البيت لهمام بن مرة ، وفي الصحاح لعبد الله بن همام السلولي . اللسان (رهن) وروايته (اظافيرهم) بدل (اظافيره) . في المطبوعة (نجرت) بدل نجوت .

قال الشاعر:

عيدية أرهنت فيها الدنانير (١)

وأرهنتة إرتهاناً وتراهنوا تراهناً. وراهنه مراهنة واسترهنه استرهاناً. والانسان رهين عمله. وكل شيء يحتبس غيره فهو رهينة ومرتهنة. وأصل الباب الرهن: حبس الشيء بما عليه وواحد الرهن رهان. وهو جمع الجمع نحو ثمار وثمر في قول الكسائي، والفراء. وقال أبو عبيدة: واحده رهن نحو سقف وسقف. وقيل لا يعرف في الاسماء فعل وفعل غير هذين. وزاد بعضهم قلب النخلة وقلب. فأما (رهان) فهو جمع رهن، وهو على القياس نحو حبل وحبال، وفعل وفعال، وكبش وكباش، وإنما اختار أبو عمرو: فرهن لأنه موافق لخط المصحف، ولغلبة الاستعمال في الرهان في الخيل، واختاره الزجاج أيضاً. ومن اختار (رهان) فلا طراده في باب الجمع. وكل حسن. وارتفع (فرهن) بأنه خبر ابتداء محذوف تقديره فالوثيقة رهن ويجوز فعليه رهن. ولو قرىء «فرهناً» بالنصب بمعنى فارتهنوا رهناً جاز في العربية، ولكن لم يقرأ به أحد. وشاهد الرهن قول قعنب بن أم صاحب:

بانت سعاد وأمسى دونها عدن وغلقت عندها من قبلك الرهن (٢)

المعنى:

ومن شرط صحة الرهن أن يكون مقبوضاً لقوله: «فرهان مقبوضة» فان لم يقبض لم ينعقد الرهن. ومسائل الرهن ذكرناها في النهاية والمبسوط مستوفاة فلا فائدة للتطويل بذكرها ههنا. ويجوز أخذ الرهن في الحضر مع وجود الكاتب، لما روي أن النبي (ص) اشترى طعاماً نساء ورهن فيه درعاً. وقوله (ع) لا يغلق الرهن. معناه أن يقول الراهن إن جئتك بفكاكه إلى شهر وإلا فهو لك بالدين. وهذا باطل بلا خلاف.

---

(١) اللسان (عود) وصدره: ظلت تجوب بها البلدان ناجية.

(٢) اللسان (رهن).

وقوله : « ولا تكتموا الشهادة » يعني بعد تحملها « ومن يكتمها فانه آثم قلبه » إنما أضاف إلى القلب مجازاً ، لأنه محل الكتمان ، وإلا فالآثم هو الحي .

وقوله : « فان أمن بعضكم بعضاً » معناه ان أئمنه فلم يقبض منه رهناً « فليؤد الذي أوتمن أمانته » يعني الذي عليه الدين « وليتق الله ربه » أن يظلمه أو يخونه « والله بما تعملون عليم » بما تسرونه وتكتمونه .

ودل قوله : ﴿ فان أمن بعضكم بعضاً ﴾ على أن الاشهاد والكتابة في المداينة ليس بواجب ، وإنما هو على جهة الاحتياط . وقد روي عن ابن عباس ، ومجاهد وغيرهما ﴿ فان لم تجدوا كتاباً ﴾ يعني ما تكتبون فيه من طرس أو غيره . والمشهور هو الاول الذي حكيناه عن قراء أهل الامصار ، وحكي عن بعضهم أنه قرأ « فانه آثم قلبه » بالنصب فان صح فهو من قولهم : سفهت نفسك وأثمت قلبك .

قوله تعالى :

﴿ للهِ ما في السماواتِ وما في الأرضِ وإن تُبدوا ما في أنفسكمْ أو تُخفوهُ يُحاسِبْكم بهِ اللهُ فيغفرُ لمنْ يَشاءُ ويُعذّبُ منْ يَشاءُ واللهُ على كلِ شيءٍ قديرٌ ﴾ (٢٨٤) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة :

قرأ « فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » بالرفع عاصم ، وابن عامر على الاستئناف في قول المبرد . ويجوز أن يكون محمولا على تأويل « يحاسبكم » لأنه لو دخلته الفاء كان رفعاً ، فيكون فيه على هذا معنى الجواب . وقرأ الباقون على الجزم : عطفاً على « يحاسبكم » وهو جواب الشرط ، وكان يجوز أن يقرأ فيغفر بالنصب على مصدر الفعل الأول وتقديره إن يكن محاسبة ، فيغفر لمن يشاء . وروي ذلك عن ابن عباس .

المعنى :

واللام في قوله : « لله » لام الملك ومعناه ان لله تصريف السماوات والأرض وتدبيرها لقدرته على ذلك وليس لأحد منعه منه وإنما ذكر قوله : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ﴾ لأن المعنى فيه كتمان الشهادة . ويحتمل أن يريد جميع الاحكام التي تقدمت في السورة . خوفهم الله من العمل بخلافها . وقال قوم هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ (١) ورووا في ذلك خبراً ضعيفاً ، وهذا لا يجوز لأمرين :

أحدهما ـ أن الاخبار التي لا تتضمن معنى الأمر والنهي والاباحة لا يجوز نسخها ، وهذا خبر محض خال من ذلك .

الثاني ـ لا يجوز تكليف نفس ما ليس في وسعها على وجه ، فينسخ . ويجوز أن تكون الآية الثانية بينت الاولى وأزالت توهم من صرف ذلك إلى غير وجهه ، فلم يضبط الرواية فيه ، وظن أن ما يخطر للنفس أو تحدث نفسه به مما لا يتعلق بتكليفه فان الله يؤاخذه به . والأمر بخلاف ذلك ، وإنما المراد بالآية ما يتناوله الأمر والنهي من الاعتقادات والارادات وغير ذلك مما هو مستور عنا . فأما مالا يدخل في التكليف فخارج عنه لدلالة العقل . ولقوله (ع) تجوز لهذه الأمة عن نسيانها وما حدثت به أنفسها . وقوله : ﴿ فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ معناه من يستحق العقاب بأنه إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه . وذلك يقوّي جواز العفو عقلاً ، وإنما يقطع على عقاب بعض العصاة لدليل ، وهم الكفار ـ عندنا ـ فأما من عداهم فلا دليل يقطع به على أنهم معاقبون لا محالة . والآيات التي يستدلون بها نبين الوجه فيها إذا انتهينا إليها إن شاء الله .

قوله تعالى :

﴿ آمَنَ الرَّسولُ بما انزلَ إليهِ مِنْ رَبهِ والمؤمنونَ كلٌ آمنَ

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (٢٨٥) آية .

القراءة :

قرأ حمزة والكسائي وخلف « وكتابه » : الباقون « وكتبه » على الجمع فمن وحد احتمل وجهين :

أحدهما ـ أن يكون أراد به القرآن لاغير . والثاني ـ أن يكون أراد جنس الكتاب ، فيوافق قراءة من قرأ على الجمع في المعنى . وقرأ يعقوب « لا يفرق » بالياء رداً على الرسول حسب . الباقون بالنون رداً على الرسول والمؤمنين وهذا أليق بسياق الآية .

المعنى والاعراب :

وقوله : ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ معناه يقولون ذلك على الحكاية كما قال « والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا » (١) أي يقولون اخرجوا . والمعنى إنا لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعض ، كما فعل اليهود ، والنصارى . وقوله : « سمعنا وأطعنا » تقديره سمعنا قوله وأطعنا أمره وقبلنا ما سمعنا ، لأن من لا يقبل ما يسمع يقال له أصم كما قال تعالى ﴿ صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ (٢) وإنما حذف لدلالة الكلام عليه لأنهم مدحوا به ، وكان اعترافاً منهم بما يلزمهم مثل ما قبله . وقوله : « غفرانك » نصب على أنه نزل من الفعل المأخوذ منه كأنه قيل : اللهم اغفر لنا غفرانك فاستغنى بالمصدر عن الفعل في الدعاء فصار بدلا منه معاقباً له . وقال بعضهم معناه نسألك غفرانك والاول أقوى ، لأنه على الفعل الذي أخذ منه أولى من حيث كان يدل عليه بالتضمين نحو (حمداً وشكراً) أي أحمد حمداً ، وأشكر شكراً .

« ١ » سورة الانعام آية : ٩٣ . « ٢ » سورة البقرة آية : ـ ١٧١ .

وأجاز الزجاج والفراء غفرانك بالرفع بمعنى غفرانك بغيتنا وأنشد الزجاج :

ومن يغترب عن قومه لا يزل يرى　　مصارع مظلوم مجراً ومسحبا
وتدفن منه الصالحات وإن يسيء　　يكن ما أساء النار في رأس كبكبا(١)

وقوله : ﴿ وإليك المصير ﴾ معناه وإلى جزائك المصير فجعل مصيرهم إلى جزائه مصيراً إليه كقول ابراهيم : « إني ذاهب إلى ربي سيهدين » (٢) ومعناه إلى ثواب ربي أو إلى ما أمرني به ربي .

قوله تعالى :

﴿لا يُكلفُ اللهُ نَفساً إلا وُسعها لها ما كسبتْ وعليها ما اكتسبت رَبّنا لا تؤاخذنا إنْ نَسينا أو أخطأنا رَبّنا ولا تَحملْ علينا إصراً كما حَملته على الَّذينَ منْ قبلنا رَبّنا ولا تُحملنا ما لا طاقةَ لنا بهِ واعفُ عنّا واغفرْ لنا وارْحمنا أنْتَ موْلانا فانصُرنا على القومِ الكافرينَ﴾ (٢٨٦) آية .

المعنى :

في هذه الآية دلالة واضحة على بطلان مذهب المجبرة في تجويزهم تكليف الله العبد ما لا يطيقه لأنه صريح بأنه لا يكلفهم إلا ما يطيقونه لأن الوسع هو ما يتسع به قدرة الانسان وهو فوق المجهود واستفراغ القدرة . يقول القائل : ليس هذا

(١) البيتين للاعشى ديوانه ١١٣ رقم القصيدة ١٤ . واللسان (كبب) وفي الديوان هكذا :

متى يغترب عن قومه لا يجد له　　على من له رهط حواليه مغضبا
ويحطم بظلم لا يزال يرى له　　مصارع مظلوم مجراً ومسحبا
وتدفن منه . . . .

مجر ومسحب مصدر ميمي من جر وسحب . كبكب : جبل .

(٢) سورة الصافات آية : ٩٩ .

في وسعي . أي لا أقدر عليه وإن قدرتي لا تتسع لذلك . ومن قال : معناه لا يكلف الله نفساً إلا ما يحل لها من قولهم لا يسعك هذا أي لا يحل لك أن تفعله كان ذلك خطأ ، لأن رجلا لو قال لعبده : أنا لا آمرك إلا بما أطلقت لك أن تفعله كان ذلك خطأ وعياً ، لأن نفس أمره اطلاق . وكأنه قال : أنا لا أطلق لك إلا ما أطلق. ولا آمرك إلا بما آمرك . وقوله : « لها ما كسبت » معناه لها ثواب ما كسبت من الطاعات وعليها جزاء ما كسبت من المعاصي والقبائح . ويجوز أيضاً أن يسمى الثواب والعقاب كسباً من حيث حصلا بكسبه . وقوله : ﴿لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ إنما جاز الرغبة إليه تعالى في ذلك وإن علمنا أنه لا يؤاخذ بذلك ، ولم يجز أن يقول: لا تجر علينا لأمرين أحدهما ـ أن قوله : لا تجر علينا يدل على تسخط الداعي ، وليس كذلك « لا تؤاخذنا إن نسينا » لأن الانسان قد يتعرض للنسيان ، فيقع منه الفعل الذي فيه جناية على النفس ، ويحسن الاعتذار بالنسيان ، فيجري الدعاء مجرى الاعتذار إذا قال العبد لسيده لا تؤاخذني بكذا فاني نسيت ، فلحسن الاعتذار حسن الدعاء به . والثاني ـ « إن نسينا » . بمعنى تركنا لشبهة دخلت علينا .

والنسيان بمعنى الترك معروف . نحو قوله : « نسوا الله فنسيهم » (١) أي تركوا عبادته ، فترك ثوابهم . وقال الجبائي معناه ما تركناه لخطأ في التأويل واعتقدنا صحته لشبهة وهو فاسد . فأما لا تجر علينا ، فلا يقال إلا لمن اعتيد منه الجور ، ولا يجوز أن يؤاخذ أحد أحداً بما نسيه عند أكثر أهل العدل إلا ما يحكى عن جعفر بن ميسر من أن الله تعالى يؤاخذ الانبياء بما يفعلونه من الصغائر على وجه السهو والنسيان لعظم اقدارهم . وقال كان يجوز أن يؤاخذ الله العبد بما يفعله ناسياً أو ساهياً ، ولكن تفضل بالعفو في قوله : ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ ذكر ذلك البلخي ، وهذا غلط ، لأنه كما لم يجز تكليف فعله ولا تركه لم

« ١ » سورة التوبة آية : ٦٨ .

يجز أن يؤاخذ به ، ولا يشبه ذلك المتولد الذي لا يصح تكليفه بعد وجود سببه ؛ لأنه يجوز أن يتعمده بأن يتعمد سببه ؛ وليس كذلك مايفعله على جهة السهو والنسيان .

اللغة ، والمعنى :

وقوله : ﴿ ولا تحمل علينا إصرا ﴾ قيل في معنى الاصر قولان :

أحدها ـ لا تحمل علينا عهداً فنعجز عن القيام به . ذهب إليه ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد .

الثاني ـ قال الربيع ، ومالك : معناه لا تحمل علينا ثقلا والاصر في اللغة الثقل قال النابغة :

يا مانع الضيم إن يغشى سراتهم والحامل الاصر منهم بعد ماغرقوا(١)

وكلما عطفك على شيء ، فهو إصر من عهد أو رحم ، وجمعه إصار . تقول أصره ياصره إصراً . والاسم الاصر قال الحطيئة :

عطفوا عليّ بغير آ صرة فقد عظم الاواصر(٢)

وقال النابغة :

ايابن الحواضن والحاضنات أينقض أصرك حالا فحالا (٣)

أي عهدك . والا يصر : حبيل قصير يشد به أسفل الخباء إلى وتد لأنه يعطف به . والاصرة : صلة الرحم للعطف بها والماصر حبل على طريق أو نهر تحبس به السفن أو السابلة لتؤخذ منهم العشور وكلأ آصر أي يحبس من ينتهي إليه لكثرته . والاصار : كساء يحتش فيه الحشيش . وأصل الباب العطف ، فالاصر : الثقل لأنه يعطف حامله بثقله عليه . وقوله : ﴿ لا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ قيل

« ١ » في المطبوعة (فيامانم) بدل (يامانم) و (والخامل) بدل (والحامل) .
« ٢ » اللسان (أصر) .
« ٣ » في المطبوعة (انتقض) بدل (اينقض) .

فيه قولان :

أحدها ـ ما يثقل علينا من نحو ما كلف بني إسرائيل من قتل أنفسهم وبتيه أربعين سنة وغير ذلك كما يقول القائل لا أطيق أنظر إلى فلان ولا أسمع كلامه .

الثاني ـ مالا طاقة لنا به من العذاب في دار الدنيا . وقوله . ﴿أنت مولانا﴾ معناه أنت ولينا أي أولى بالتصرف فينا ، وقال الحسن هذا على وجه التعليم للدعاء ، ومعناه قولوا ربنا لا تؤاخذنا . والثاني ـ أنه على وجه الحكاية أي يقولون ربنا . والفرق بين أخطأ وخطىء أن أخطأ قد يكون على وجه الاثم ، وغير الاثم فأما خطىء فاثم لا غير قال الشاعر :

والناس يلحون الامير إذا هم خطئوا الصواب ولا يلام المرشد(١)

« ١ » قائله عبيدة بن الابرص الاسدي . ديوانه : ٥٤ ، وحماسة البحتري : ٢٣٦ ، واللسان (أمر) ورواية الديوان :

والناس يلحون الامير اذا غوي خطب الصواب ولا يلام المرشد

سورة آل عمران

مائتا آية في الكوفي

روي عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وجميع المفسرين أن هذه السورة مدنية وقيل ان من أولها إلى راس نيف وستين آية نزلت في قصة وفد نجران لما جاوءا يحاجون النبي (ص) في قول ابن اسحق والربيع.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَم (١) اللهُ لا إِلَهَ إلا هوَ الحيُّ القَيومُ ﴾ (٢) آيتان في الكوفي وآية واحدة في ما عداه.

القراءة واللغة :

وقرأ أبو جعفر والاعشى والبرجمي (ألم) بسكون الميم (الله) بقطع الهمزة وقرأ عمر بن الخطاب « الحي القيام » وهي لغة أهل الحجاز. ويقولون في الصوّاغ صيّاغ. الباقون (قيوم) وإنما فتحت الميم من (ألم الله) لأحد أمرين :

أحدها ـ استثقالاً للكسر بعد الياء الساكنة، فصرف إلى الفتح، لأنه أخف كما فعلوا في (كيف) (وأين). وقال الزجاج، والفراء : ألقي عليها حركة الهمزة وهي الفتحة من قولك : الله. وقال المبرد : هذا لا يجوز لأنها ألف وصل تسقط في الدرج، فلا يجوز ذلك كما لا يجوز في(إن الكافرون) الفتح على الفاء

حركة الهمزة . قال الفراء : والفرق بين ذلك وبين الهجاء أنه لما كان ينوي به الوقف قوي عما بعده الاستيناف ، فكانت الهمزة في حكم الثبات كما كانت في انصاف البيوت . نحو قول الشاعر :

ولا يبادر في الشتاء وليدتي القدر تنزلها بغير جعال (١)

وأجاز الأخفش الكسر ، وخالفه الزجاج ، وقال : لا يجوز لأن قبل الهمزة ياء ساكنة قبلها كسرة ، فلم يجز غير الفتح ، كما لا يجوز في كيف . ويمكن الفرق بينهما بأن كيف موصولة وهذا مفصول جاز أن ينوي به الوقف . وقد بينا معنى (الله) وهو أنه الذي تحق له العبادة .

اللغة والمعنى :

وقوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ معناه لا تحق العبادة لسواه ، وإنما كان كذلك لأنه الذي يقدر على أصول النعم التي يستحق بها العبادة ، ولأن نعمة كل منعم فرع على نعمه ، فصار لا تحق العبادة لسواه . و﴿الحي﴾ : هو الذي لا يستحيل لما هو عليه من الصفة كونه عالماً قادراً . قال الرماني : والعالم : مدرك لمعلومه والمدرك : هو المتبين للشيء على ما هو به من أي وجه صح تبيينه ، فالرأي مدرك وكذلك العالم إلا أنه قد كثرت صفة الادراك على ما طريقه الاحساس من العباد ، وهذا القول منه يدل على أنه كان يذهب مذهب البغداديين : في أن وصف القديم بأنه مدرك يرجع إلى كونه عالماً من أن يكون له صفة زائدة . وهذا بخلاف مذهب شيخه ابي علي ، والبصريين . « والقيوم » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ القائم بتدبير عباده في ما يضرهم وينفعهم ، وهو قول مجاهد ، والربيع ، والزجاج ، بدلالة قوله : « قائماً بالقسط » (٢) و « قائم على كل نفس بما كسبت » (٣) .

« ١ » اللسان (جعل) في المطبوعة (وليدنا) بدل (وليدتي) الجعال ، والجعالة ـ بضم الجيم وكسره ـ ما تنزل به القدر من خرقة وغيرها ، والجمع جعل مثل كتاب وكتب .

« ٢ » سورة آل عمران آية : ١٨ . « ٣ » سورة الرعد آية : ٣٥ .

الثاني ـ حكي عن محمد بن جعفر بن الزبير، واختاره الجبائي أنه الدائم. وأصل الوصف بقيوم الاستقامة. فعلى قول مجاهد يكون لاستقامة التدبير، وعلى القول الآخر لاستقامة الصفة بالوجود من حيث لا يجوز عليه التغيير بوجه من الوجوه كما يجوز على ما يحول ويتبدل. وتقول هذا معنى قائم في النفس أي موجود على الاستقامة دون الاضطراب. وأصل « قيوم » قيووم على وزن فيعول فقلبت الواو الأولى ياء، لأن ما قبلها ياء ساكنة، وأدغمت نحو سيد وميت. ولا يجوز أن يكون وزنه فعولاً لأنه لو كان كذلك لكان قووما. فوصف الله تعالى بالحي القيوم يتضمن أنه يستحق العبادة من حيث أن هذه الصفة دلت على أنه القادر على ما يستحق به العبادة دون غيره، لأن صفة قيوم صفة مبالغة لا تجوز إلا لله على المعنيين معاً من معنى الموجود أو [القائم على] عموم الخلق بالتدبير.

قوله تعالى:

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ (٣) آية.

قيل في معنى قوله: « نزل عليك الكتاب بالحق » وجهان:

أحدها ـ بالصدق في ياره وجميع دلالاته التي تقوم مقام الخبر في تعلقها بمدلولها على ما هو به، ففي ذلك معنى التصديق.

والثاني ـ بالحق أي بما توجبه الحكمة من الانزال كما أتى بما يوجبه الحكم من الارسال وهو حق من الوجهين. وقوله: ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ نصب على الحال ومعناه لما قبله من كتـ رسول في قول مجاهد وقتادة والربيع وجميع المفسرين. وإنما قيل لما قـ يديه، لأنه ظاهر له كظهوره لما بين يديه.

وقيل في معنى « مصدقاً » ههنا قولان:

أحدها ـ « مصدقاً لما بين يديه » وذلك لموافقته ما تقدم الخبر به وفيه آية تدل على صحة نبوة النبي (ص) من حيث لا يكون ذلك إلا من عند علام الغيوب.

الثاني ـ مصدقاً أنه يخبر بصدق الانبياء في ما أتوا به خلاف من يؤمن ببعض، ويكفر ببعض. والتوراة ماخوذة من وريت بك زنادي إذا ظهر به الخبر كما يتقدح بالزناد النار فالاصل الظهور، فهي تورية لظهور الحق. وقيل في وريها أقوال: أحدها ـ قال البصريون تورية فوعلة فقلبت (الواو) الأولى (تاءً) لئلا يجتمع واوان في أول الكلمة نحو حوقلة ودوخلة. والثاني ـ قال الكوفيون: تفعلة على وزن تثقلة وتثقلة، وهو قليل جداً لا يكاد يعرف تفعلة في الكلام. الثالث ـ قال بعضهم هو تفعلة إلا أنه صرف إلى الفتح استثقالا للكسر في المعتل وهو بناء يكثر نحو توفية وتوقية وتوصية، وما أشبه ذلك. قال الزجاج: وهذا رديء لأنه يجيء منه في توفية توفاة وهذا لا يجوز. والانجيل مأخوذ من النجل، وهو الاصل وقال الزجاج وزنه أفعيل من النجل باجماع أهل اللغة فسمي انجيلا لأنه أصل من أصول العلم.

قوله تعالى:

﴿ مِنْ قَبلُ هُدىً لِلنّاسِ وَأنزلَ الفُرقانَ إنَّ ألّذينَ كفروا بآياتِ اللهِ لَهمْ عذابٌ شديدٌ واللهُ عزيزٌ ذو انتقام ﴾ (٤).

المعنى:

قوله: « من قبل » أي من قبل إنزال الكتاب فلما قطعه عن الاضافة بناه على الضم. وقوله: « هدى للناس » أي بياناً ودلالة لهم، وفي ذلك دلالة على أن الله تعالى هدى الكافر إلى الايمان، كما هدى المؤمن بقوله «للناس»، بخلاف ما تقوله المجبرة: إن الله ما هدى الكافر. وموضع (هدى) نصب على الحال من الكتاب وقوله: ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ يعني به القرآن وإنما كرر ذلك لما اختلفت دلالات صفاته وإن كانت لموصوف واحد لأن لكل صفة منها فائدة غير الأخرى لأن الفرقان هو الذي يفرق به بين الحق والباطل فيما يحتاج إليه من أمور الدين في الحجج،

والاحكام ، وذلك كله في القرآن وقيل أراد بالفرقان النصر ووصفه بالكتاب يفيد ان من شأنه أن يكتب . وقد بينا لذلك نظائر في الشعر وغيره في ما تقدم . وقوله : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ﴾ قرن بالوعيد لما بين الله الحجج الدالة على توحيده ، وصفاته : أعقب ذلك بوعيد من يخالف في ذلك ويجحده ليتكامل به التكليف . وقوله : ﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾ معناه أنه قادر لا يتمكن أحد من منعه من عذاب من يريد عذابه لأنه « عزيز ذو انتقام » وإنما كان منيعاً لأنه قادر لنفسه لا يعجزه شيء .

اللغة :

وأصل الاعزاز الامتناع ، ومنه أرض عزاز ممتنعة السكون لصعوبتها ،ومنه قولهم من عز ، بز : أي من غلب سلب لأن الغالب يمتنع من الضيم ، والنقمة ، العقوبة : نقم ينقم نقماً ونقمة ويقال نقمت ، ونقمت عليه أي أردت له عقوبة ، وانتقم منه انتقاماً أي عاقبه عقاباً وأصل الباب : العقوبة . ومنه النعمة خلاف النقمة .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخفَى عَلَيهِ شَيءٌ في الأَرضِ وَلا في السماءِ ﴾ (٥) آية .

المعنى :

لما ذكر الله تعالى الوعيد على الاخلال بمعرفته مع نصب الادلة على توحيده وصفاته اقتضى أن يذكر أنه لا يخفى عليه شيء في الارض ، ولا في السماء ، فيكون في ذلك تحذير من الاغترار بالاستسرار بمعصيته ، لأن المجازي لا تخفى عليه خافية، فجرى ذلك موصولا بذكر التوحيد في أول السورة ، لأنه من الصفات الدالة على

مالا تحق إلا له . فان قيل لم قال : ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ ولم يقل لا يخفى عليه شيء على وجه من الوجوه إذ كان أشد مبالغة ؟ قيل : ليعلمنا أن الغرض علم ما يستسر به في الأرض أو في السماء . ولأن الافصاح بذكر ذلك أعظم في النفس وأهول في الصدر مع الدلالة على أنه عالم بكل شيء إلا أنه على وجه التصرف في العبارة عن وجوه الدلالة . فان قيل : لم قال « لا يخفى عليه شيء » ولم يقل عالم بكل شيء في الأرض والسماء ؟ قيل لأن الوصف بأنه « لا يخفى عليه شيء » يدل على أنه يعلمه من كل وجه يصح أن يعلم منه مع ما فيه من التصرف في العبارة ، وإنما قلنا : لا يخفى عليه شيء من حيث كان عالماً لنفسه . والعالم للنفس يجب أن يعلم كل مايصح أن يكون معلوماً . وما يصح أن يكون معلوماً لا نهاية له ، فوجب أن يكون عالماً به وإنما يجوز أن يعلم الشيء من وجه دون وجه ، ويخفى عليه شيء من وجه دون وجه من كان عالماً بعلم يستفيده : ـ العلم حالا بعد حال ـ . فأما من كان عالماً لنفسه ، فلا يجوز أن يخفى عليه شيء بوجه من الوجوه .

قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٦) آية واحدة .

اللغة :

التصوير : جعل الشيء على صورة لم يكن عليها . والصورة : هيئة يكون عليها الشيء بالتأليف . والفرق بين الصورة والصيغة أن الصيغة : عبارة عما وضع في اللغة لتدل على أمر من الأمور ، وليس كذلك الصورة ، لأن دلالتها على جعل جاعل قياسية . والارحام : جمع رحم وأصله : الرحمة ، وذلك لأنها مما يتراحم به ويتعاطف يقولون : وصلتك رحم . وأصل الصورة : الميل يقولون صاره يصوره : إذا أماله ، فهي صورة لأنها مائلة إلى بنية بالشبه لها .

المعنى :

وقوله : ﴿ كيف يشاء ﴾ معناه كيف يريد والمشيئة هي الارادة ومعنى « يصوركم في الارحام كيف يشاء » من ذكر أو أنثى أو أبيض أو أسود أو تام أو ناقص إلى غير ذلك ما تختلف به الصور ، وفيه حجة على النصارى في ادعائهم إلهية المسيح وذلك أن الله تعالى صوره في الرحم كما شاء ، فهو لذلك عبد مربوب وقوله : ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ معناه أنه تعالى لما ذكر ما يدل عليه من قوله : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ ذكر الدليل والمدلول عليه وإنما ذكر « العزيز الحكيم » تحذيراً بعد ذكر الدليل ليعلم أنه عزيز لا يتهيأ لأحد منعه من عقوبة من يريد عقابه حكيم في فعل العقاب وفي جميع أفعاله .

قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذي أَنزَلَ عَلَيكَ الكِتابَ مِنهُ آياتٌ مُحكَماتٌ هُنَّ أُمّ الكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمّا الَّذينَ في قُلوبِهِمْ زَيغٌ فَيَتَّبِعونَ ما تَشابَهَ مِنهُ ابْتِغاءَ الفِتنَةِ وَابتِغاءَ تَأويلِهِ وَما يَعلَمُ تَأويلَهُ إلا اللهُ وَالراسِخونَ في العِلمِ يَقولونَ آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إلا أُولوا الأَلبابِ ﴾ (٧).

المعنى :

قوله : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ فالمحكم هو ما علم المراد بظاهره من غير قرينة تقترن إليه ولا دلالة تدل على المراد به لوضوحه ، نحو قوله : « إن الله لا يظلم

الناس شيئاً » (١) وقوله : « لا يظلم مثقال ذرة » (٢) لأنه لا يحتاج في معرفة المراد به إلى دليل . والمتشابه : مالا يعلم المراد بظاهره حتى يقترن به ما يدل على المراد منه . نحو قوله : « وأضله الله على علم » (٣) فانه يفارق قوله : « وأضلهم السامري » (٤) لأن اضلال السامري قبيح وإضلال الله بمعنى حكمه بأن العبد ضال ليس قبيح بل هو حسن . واختلف أهل التأويل في المحكم ، والمتشابه على خمسة أقوال :

فقال ابن عباس : المحكم الناسخ ، والمتشابه المنسوخ .

الثاني ـ قال مجاهد : المحكم ما لا يشتبه معناه ، والمتشابه ما اشتبهت معانيه . نحو قوله : « وما يضل به إلا الفاسقين » (٥) ونحو قوله : « والذين اهتدوا زادهم هدى » (٦) .

الثالث ـ قال محمد بن جعفر بن الزبير ، والجبائي : إن المحكم مالا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما يحتمل وجهين فصاعداً .

الرابع ـ قال ابن زيد : إن المحكم : هو الذي لم تتكرر ألفاظه . والمتشابه هو المتكرر الألفاظ .

الخامس ـ ما روي عن جابر أن المحكم : ما يعلم تعيين تأويله ، والمتشابه مالا يعلم تعيين تأويله . نحو قوله : «يسألونك عن الساعة أيان مرساها» (٧) .

وقوله : ﴿هن أم الكتاب﴾ معناه أصل الكتاب الذي يستدل به على المتشابه ، وغيره من أمور الدين . وقيل في توحيد أم الكتاب قولان : أحدهما ـ أنه قدر تقدير الجواب على وجه الحكاية كأنه قيل : ما أم الكتاب ؟ فقيل هن أم الكتاب كما يقال : من نظير زيد ؟ فيقال : نحن نظيره . الثاني ـ أن يكون ذلك

« ١ » سورة يونس آية : ٤٤ . « ٢ » سورة النساء آية : ٣٩ .
« ٣ » سورة الجاثية آية : ٢٢ . « ٤ » سورة طه آية : ٨٥ .
« ٥ » سورة البقرة آية : ٢٦ . « ٦ » سورة محمد آية : ١٧ .
« ٧ » سورة الاعراف آية : ١٨٦ ، وسورة النازعات آية : ٤٢ .

مثل قوله : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » (١) بمعنى الجميع آية ولو أريد أن كل واحد منهما آية على التفصيل ، لقيل آيتين . فإن قيل : لم أنزل في القرآن المتشابه ؟ وهلا أنزله كله محكما ! قيل للحث على النظر الذي يوجب العلم دون الاتكال على الخبر من غير نظر ، وذلك أنه لو لم يعلم بالنظر أن جميع ما يأتي به الرسول حق يجوز أن يكون الخبر كذباً ، وبطلت دلالة السمع ، وفائدته ، فلحاجة العباد إلى ذلك من الوجه الذي بيناه ، أنزل الله متشابهاً ، ولولا ذلك لما بان منزلة العلماء ، وفضلهم على غيرهم ، لأنه لو كان كله محكماً لكان من يتكلم باللغة العربية عالماً به ، ولا كان يشتبه على أحد المراد به فيتساوى الناس في علم ذلك ، على أن المصلحة معتبرة في انزال القرآن ، فما أنزله متشابهاً لأن المصلحة اقتضت ذلك ، وما أنزله محكما فلمثل ذلك . والمتشابه في القرآن يقع فيما اختلف الناس فيه من أمور الدين : من ذلك قوله تعالى « ثم استوى على العرش » (٢) فاحتمل في اللغة أن يكون كاستواء الجالس على السرير واحتمل أن يكون بمعنى الاستيلاء نحو قول الشاعر :

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق (٣)

وأحد الوجهين لا يجوز عليه تعالى لقوله : « ليس كمثله شيء » (٤) وقوله « لم يكن له كفواً أحد » .

والآخر يجوز عليه ، فهذا من المحكم الذي يرد إليه المتشابه . ومن ذلك قوله : « ربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا به » (٥) فاحتمل ظاهره تكليف المشاق ، واحتمل تكليف مالا يطاق وأحدهما لا يجوز عليه تعالى « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (٦)

« ١ » سورة المؤمنون آية : ٥١ .

« ٢ » سورة الاعراف آية : ٥٣ ، وسورة يونس آيه : ٣ ، وسورة الفرقان آية ٥٩ ، وسورة ألم السجدة آية : ٤ ، وسورة الحديد آية : ٤ .

« ٣ » مر تخريجه في ١ : ١٢٥ .

« ٤ » سورة الشورى آية : ١١ .   « ٥ » سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

« ٦ » سورة البقرة آية : ٢٨٦ ، وسورة الطلاق آية : ٧ .

فرددنا إليه المتشابه ومن ذلك قوله : « قل كل من عند الله » (١) فرددناه إلى المحكم الذي هو قوله : « ويقولون هومن عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (٢) ومن ذلك قوله : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » (٣) متشابه ، وبين المراد بالمحكم الذي هو قوله : « وما الله يريد ظلماً للعالمين » (٤) ومن ذلك اعتراض الملحدين في باب النبوة بما يوهم المناقضة كقوله : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ (٥) فقال اليومان والاربعة واليومان ثمانية ثم قال « هو الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام » فأوهموا أن ذلك مناقضة وليس الأمر على ما ظنوه لأن ذلك يجري مجرى قول القائل : سرنا من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام وسرنا إلى الكوفة في خمسة عشر يوماً فالعشرة داخلة في الخمسة عشر ولا يضاف فيقال : عشرة ، وخمسة عشر خمسة وعشرون يوماً كان فيها السير ، فكذلك خلق الله الارض في يومين وقضاهن سبع سماوات في يومين وتمم خلقهن في ستة أيام . وتقديره خلق الارض في يومين من غير تتميم وجعل فيها رواسي وما تم به خلقها في أربعة أيام فيها اليومان الاولان كما يقال: جعل الدور في شهرين وفرغ منهن في أربعة أشهر. فيكون المحكم قد أبان عن معناه أنه على جهة خلق الأرض في يومين من غير تتميم ، وليس على وجه التضاد على ما ظنوه .

فان قيل : كيف يكون المحكم حجة مع جواز تقييده بما في العقل ؟ وفي ذلك إمكان كل مبطل أن يدعيه فتذهب فائدة الاحتجاج بالمحكم ؟ قلنا : لا يجب ذلك من قبل أن التقييد بما في العقل إنما يجوز فيما كان رداً إلى تعارف من جهة

« ١ » سورة النساء آية : ٧٧ . « ٢ » سورة آل عمران آية : ٧٨ .
« ٣ » سورة التكوير آية : ٢٩ ، وسورة الدهر آية : ٣٠ .
« ٤ » سورة آل عمران آية : ١٠٨ . « ٥ » سورة حم السجدة آية : ٩ ـ ١٢ .

العقول دون مالا يتعارف في العقول بل يحتاج إلى مقدمات لا يتعارفها العقلاء من أهل اللغة ، والمراعى في ذلك أن يكون هناك تعارف من جهة العقل تقتضيه الحكمة دون عادة أو تعارف شيء لأن الحجة في الأول دون الثاني ، ومن جهة التباس ذلك دخل الغلط على كثير من الناس .

فان قيل : كيف عددتم من جملة المحكم قوله : « ليس كمثله شيء » مع الاشتباه فيه بدخول الكاف ؟ قلنا إنما قلنا انه محكم لأن مفهومه ليس مثله شيء على وجه من الوجوه دون أن يكون عند أحد من أهل التأويل ليس مثل مثله شيء فدخول الكاف وإن اشتبه على بعض الناس لم دخلت فلم يشتبه عليه المعنى الأول الذي من أجله كان محكماً . وقد حكينا فيما مضى عن المرتضى (ره) علي بن الحسين الموسوي أنه قال : الكاف ليست زائدة وإنما نفى أن يكون لمثله مثل فاذا ثبت ذلك علم أنه لا مثل له ، لأنه لو كان له مثل لكان له أمثال ، فكان يكون لمثله مثل ، فاذا لم يكن له مثل مثل دل على أنه لا مثل له غير أن هذا تدقيق في المعنى ، فتصير الآية على هذا متشابهة ، لأن ذلك معلوم بالادلة . وقد يكون الشيء محكماً من وجه ومتشابهاً من وجه كما يكون معلوماً من وجه ، ومجهولا من وجه ، فتصح الحجة به من وجه المعلوم دون المجهول .

الاعراب :

و(أخر) لا ينصرف لأنه معدول عن الالف واللام وهو صفة . وقال الكسائي : لأنه صفة . قال المبرد : هذا غلط ، وقال (لُبد) صفة وكذلك (حُطم) وهما منصرفان قال الله تعالى « أهلكت مالا لُبدا » (١) وحكي عن أبي عبيدة أنه قال: لم يصرفوا (أخر) لأن واحده لا ينصرف في معرفة ولا نكرة . قال المبرد : وهذا غلط ، لأنه يلزم أن لا يصرف غضاباً وعطاشاً ، لأن واحده غضبان وعطشان . وهو لا ينصرف .

(١) سورة البلد آية : ٦ .

اللغة والمعنى :

وقوله : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ يعني ميل يقال : أزاغه الله إزاغة أي أماله إمالةقال تعالى « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » (١) ومنه قوله : «لا تزغ قلوبنا » (٢) والتزايغ التمايل في الاسنان . والمعنى إن الذين في قلوبهم ميل عن الحق اما بشك أو جهل فان كليهما زيغ « يتبعون ما تشابه منه » ومعناه يحتجون به في باطلهم « ابتغاء الفتنة » ومعناه طلباً للفتنة « وابتغاء تأويله » والتأويل : التفسير وأصلهالمرجع ، والمصير من قولهم: آل أمرهإلى كذا يؤول أولا : إذاصار إليه.وأولتهتأويلا إذا صيرتهإليه . وقوله : «وأحسن تأويلا»(٣)قيلمعناهأحسن جزاء ، لأنأمر العباد يؤولإلى الجزاء . وأصل الباب : المصير « وما يعلم تأويله» يعني تفسيره « إلا الله والراسخون في العلم » يعني الثابتون فيه تقول : رسخ الشيء رسوخاً إذا ثبت في موضعه . وأرسخته إرساخاً ، كما أن الخبر يرسخ في الصحيفة ، ورسخ الغدير إذا ذهب ماؤه ، فنضب ، لأنه ثبت وحده من غير ماء ، وأصل الباب الثبوت .

النزول :

وقال الربيع : نزلت هذه الآية في وفد نجران ، لما حاجّوا النبي (ص) في المسيح ، فقالوا : أليس هو كلمة الله وروح منه ؟ فقال بلى ، فقالوا : حسبنا ، فأنزل الله تعالى ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ ثم أنزل ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (٤) وقال قتادة : بل كل من احتجبالمتشابهلباطله ، داخل فيه ،فمنهم الحرورية والسبابية ، وغيرهم .

« ١ » سورة الصف آية : ٥ . « ٢ » سورة آل عمران آية : ٨ .
« ٣ » سورة النساء آية : ٥٨ ، وسورة الاسرى آية : ٣٥ .
« ٤ » سورة آل عمران آية : ٥٩ .

المعنى والاعراب اللغة :

وقوله : « ابتغاء الفتنة » قال السدي : الفتنة ههنا الشرك . وقال مجاهد : اللبس . وقيل الضلال عن الحق ، وهو أعم فائدة . وأصل الفتنة : التخليص من قولهم فتنت الذهب بالنار : إذا أخلصته ، فالذي يبتغي الفتنة ، يبتغي التخليص إلى الضلال بما يورده من الاشياء . وقوله : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ قيل في معناه قولان : أحدهما ـ ما يعلم تأويل جميع المتشابه « إلا الله » ، لأن فيه مايعلم الناس ، وفيه مالا يعلمه الناس من نحو تعيين الصغيرة عند من قال بهـا ، ووقت الساعة ، ومابيننا وبينها من المدة . هذا قول عائشة . والحسن ، ومالك ، واختاره الجبائي ، وأكثر المتأولين . وعندهم أن الوقف على قوله « إلا الله » ويكون قوله: « والراسخون في العلم يقولون آمنا به » مستأنفاً والتأويل على قولهم : معناه المتأول ، كما قال تعالى « هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويـــله » يعني الموعود به . والوجه الثاني ـ ما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والربيع « وما يعـــلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » يعلمونه قائلين آمنا كما قال الشاعر :

والريح تبكي شجوة   والبرق يلمع في الغمامة

يعني والبرق أيضاً يبكيه لامعاً في غمامة . وقوله : ﴿ كل من عند ربنا ﴾ حذف المضاف من « كل » عند البصريين، لأنه اسم دال على المضاف كثير في الكلام فلا يجيزون « إنا كل فيها » على الصفة ويجيزه الكوفيون ، لأنه إنما حذف عندهم لدلالته على المضاف فقط إسماً كان أو صفة .وإنما بني قبل على الغاية ،ولم يبن كل ، وإن حذف من كل واحد منهما المضاف ، لأن قبل ظرف يعرف ، وينكر ، ففرق بين ذلك بالبناء الذي يدل على تعريفه بالمضاف ، والاعراب الذي يدل على تنكيره بالانفصال ، وليس كذلك كل لأنه معرفة في الافراد دون نكرة فأما (ليس غير) فشبه بحسب لما فيه من معنى الأمر .

وقوله تعالى :

﴿ رَبَّنا لا تُزِغْ قلوبَنا بَعدَ إذْ هَدَيتنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحمةً إنكَ أنتَ الوَهّابُ ﴾ (٨) آية .

المعنى :

هذه حكاية عن الراسخين في العلم الذين ذكرهم في الآية الاولى . القائلين « آمنا به كل من عند ربنا » القائلين « ربنا لا تزغ قلوبنا » وقيل في معنى لا تزغ قلوبنا قولان :

أحدها ـ « لا تزغ قلوبنا » عن الحق بمنع اللطف الذي يستحق معه أن تنسب قلوبنا إلى الزيغ . والثاني ـ قال أبو علي معناه لا تزغ قلوبنا عن الثواب بعد أن دعوتنا إليه ودللتنا عليه ، ولا يجوز أن يكون المراد لا تزغ قلوبنا عن الايمان ، لأنه تعالى كما لا يأمر بالكفر كذلك لا يزيغ عن الايمان . فان قيل : هلا جاز على هذا أن يقولوا : ربنا لا تظلمنا ، ولا تجر علينا ؟ قلنا لأن في تجر علينا تسخط السائل لاستعماله ممن جرت عادته بالجور ، وليس كذلك « لا تزغ قلوبنا » على معنى سؤال اللطف ، وان كان لايجوز في حكمته تعالى منع اللطف . كما لايجوز فعل الجور وذلك بمنزلة سؤال الملائكة في قولهم «فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم » (١) والله لايجوز عليه خلف الوعد ، كما لا يجوز عليه فعل الجور يبين ذلك قوله : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (٢) ومعناه فلما مالوا عن الحق نسب الله قلوبهم إلى الزيغ ، لما كانت عليه . وإنما أضاف الزيغ إلى القلب ، وإن كان المراد به الجملة لأن القلب أشرف الاعضاء ، وهو محل السرور ، والغم فلذلك خص بالذكر .

« ١ » سورة المؤمن آية : ٧ ـ ٨ . « ٢ » سورة الصف آية : ٥ :

اللغة :

وقوله : ﴿ وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ فالهبة مصدر وهبه يهبه هبة ، فهو واهب . والشيء موهوب وتواهب الناس بينهم تواهباً واستوهبه استيهاباً . وأصل الباب الهبة ، وهي تمليك الشيء من غير مثامنة . والهبة والنحلة والصلة نظائر . ومعنى من لدنك من عندك وفي لدن خمس لغات : لدن ، ولدن - بضم اللام والدال - ولدن - بفتح اللام وتسكين الدال ، وكسر النون - ولد - بحذف النون - .

قوله تعالى :

﴿ رَبَّنا إنكَ جامِعُ النّاسِ لِيوم لا رَيب فيهِ إنَّ اللّهَ لا يُخلفُ الميعاد ﴾ (٩) آية بلا خلاف .

معنى الآية ﴿ ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ للجزاء « إن الله لا يخلف الميعاد » في وعد ولا وعيد « فاغفر لنا » فان قيل هل في قوله : « إن الله لا يخلف الميعاد » متصل بالدعاء على جهة الحكاية أو استئناف . قلنا عنه جوابان :

أحدها - أنه متصل بالدعاء ، لأن حمل الكلام على الاتصال إذا صح المعنى أولى من حمله على الانفصال ، لأن الاتصال أقرب إلى التشاكل ، وأبعد من التنافر . الثاني - أنه على الاستئناف لأنه لو كان على الاتصال لقال انك لا تخلف الميعاد ، فاختار أبو علي الجبائي هذا الوجه ، وأجاز الزجاج الأمرين . وقد يجوز حمل الكلام تارة على المخاطبة وتارة على الغيبة تصرفاً في الكلام ، كما قال : « حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة » (١) والآية دالة على أنه لا يخلف وعده ، ولا وعيده ، ولا ينافي ذلك ما يجوزه من العفو عن فساق أهل الملة ، لأن ما يجوز العفو عنه إذا عفا كشف ذلك عندنا أنه ما عناه بالخطاب ، وإنما الممنوع منه أن يعميه بالخطاب وبأنه لا يعفو عنه ثم يعفو ، فيكون ذلك خلفاً في الوعيد وذلك لا يجوز عليه تعالى .

---

(١) سورة يونس آية : ٢٣ .

والميعاد، والوعد إذا اطلقا تناولا الخير، والشر. يبين ذلك قوله : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً ﴾ (١) ولا يجوز أن يقال وعد بالخير فأما وعد بالشر، فيجوز. واللام في قوله : « ليوم لا ريب فيه » معناه في يوم وإنما جاز ذلك لما دخل الكلام من معنى اللام وتقديره جامع الناس للجزاء في يوم لا ريب فيه، فلما حذف لفظالجزاء دخلت على مايليه فأغنيت عن في لأن حروف الاضافة متآخية، لما يجمعها من معنى الاضافة. وقدكان يجوز فتح أن في قوله : « إن الله لا يخلف » على تقدير « جامع الناس ليوم لا ريب فيه » لـ « إن الله لا يخلف الميعاد» ولم يقرأ به.

قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النّارِ﴾ (١٠) آية واحدة بلا خلاف.

المعنى :

إن قيل كيف تتصل هذه الآية بما قبلها ؟ قلنا : اتصال الوعيد بالدعاء، للاخلاص منه خوفاً من استحقاق المتوعد به، والفرق بين « لن تغني عنهم من الله» وبين لن تغنيهم عن الله شيئاً. أن لن تغنيهم عن الله لا يدل على الوعيد كما يدل « لن تغني عنهم من الله » لأن تقديره من عذاب الله. ومعنى من ههنا يحتمل أمرين : قال أبو عبيدة معناها : عند. وقال المبرد : من ههنا على أصلها، لابتداء الغاية. وتقديره « لن تغني عنهم » غناء ابتداء الشيء الذي خلقه، ولا يكون الغناء إلا منه، فمن هذه تقع على ما هو أول الغناء وآخره والوقود : الحطب، والوقود اللهب. وهو إيقاد النار. والغنى ضد الحاجة. وبمعنى « لن تغني عنهم من الله » أنه إن يكون شيء تبقى الحاجة إلى الله تعالى بل الحاجة باقية على كل حال.

« ١ » سورة الاعراف آية : ٤٣.

قوله تعالى :

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١١) آية بلا خلاف .

اللغة :

الدأب : العادة ، يقال دأب يدأب دأْباً ودؤباً إذا اعتادالشيء وتمرن عليه . قال امرؤ القيس :

كدأبك من أم الحويرث قبلها　　وجارتها أم الرباب بمأسل (١)

أي كعادتك من أم الحويرث .

المعنى :

ومعنى قوله : « كدأب آل فرعون » كعادتهم في التكذيب بالحق وقيل في الكفر وقيل في قبح الفعل وقيل في تكذيب الرسل وكل ذلك متقارب في المعنى . وقال قوم : معناه كدأب آل فرعون في عقاب الله إياهم على ما سلف من ذنوبهم ، ومعاصيهم ، والكاف في قوله : « كدأب آل فرعون» متصلة بمحذوف. وتقديره عادتهم كدأب آل فرعون . وموضع الكاف رفع لأنها في موضع خبر الابتداء ، ولا يجوز أن يعمل فيها كفروا ، لأن صلة الذي قد انقطعت بالخبر ، وهو« لن تغني عنهم أموالهم»ولا أولادهم ولكن يجوز نصبه بـ (وقود النار) ، لأن فيه معنى الفعل على تقدير تتقد النار باجسادهم كما تتقد باجسام آل فرعون

---

(١) ديوانه : ١٢٥ . معلقته المشهورة وقبله :

وان شفائي عبرة مهراقة　　فهل عند رسم دارس من معول

مر في ٢ : ١٤٨ برواية : (كدينك) بدل (كدابك) وقد استشهد به الشيخ (قده) على ان الدين هو العادة .

فهذا تقديره في المعنى . وقوله : « فأخذهم الله بذنوبهم » بمعنى عاقبهم الله بذنوبهم وسمى المعاقبة مؤاخذة لأنها أخذ بالذنب والاخذ بالذنب عقوبة والذنب والجرم واحد تقول أذنب يذنب اذناباً فهو مذنب والذنب التلو للشيء ذنبه يذنبه ذنباً إذا تلا والذنوب الدلو لأنها تالية للحبل في الجذب والذنوب النصيب لأنه كالدلو في الانعام قال الشاعر :

لنا ذنوب ولكم ذنوب فان أبيتم فلنا قليب (١)

والذنوب : الفرس الوافر شعر الذنب . وأصل الباب : التلو ، فالذنب الجرم لما يتلوه من استحقاق الذم كما قيل العقاب ، لأنه يستحق عقيب الذنب .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (١٢) آية .

القراءة ، والحجة :

قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً سيغلبون ، ويحشرون بالياء ، فيهما : الباقون بالتاء . من اختار التاء ، فلقوله : « قد كان لكم آية في فئتين » فأجري جميعه على الخطاب . ومن اختار الياء ، فللتصرف في الكلام والانتقال من خطاب المواجه إلى الخبر بلفظ الغائب . وقيل : إن الخطاب لليهود . والاخبار عن عبدة الأوثان لأن اليهود أظهروا ، الشماتة بما كان من المشركين يوم أحد ، فقيل لهم سيغلبون يعني المشركين . وعلى هذا لا يجوز إلا بالياء . وقيل التاء في عموم الفريقين . ومثله قال زيد المال ماله . وقال المال مالي . وقل له ستخرج وسيخرج . وكل ذلك جائز حسن .

---

(١) اللسان : (ذنب) . وروايته : (لها ذنوب) بدل (لنا ذنوب) و (القليب) بدل (قليب) .

النزول :

وقال ابن عباس، وقتادة وابن اسحاق : إن هذه الآية نزلت لما هلكت قريش يوم بدر، فجمع النبي (ص) اليهود بسوق قينقاع فدعاهم إلى الاسلام وحذرهم مثل ما نزل بقريش من الانتقام، فقالوا : لسنا كقريش الاغمار الذين لا يعرفون القتال، لئن حاربتنا لتعرفن البأس . فانزل الله «قل للذين كفروا سيغلبون ويحشرون» الآية .

المعنى :

ومعنى «وبئس المهاد» قال مجاهد : بئس ما مهدوا، لأنفسهم . وقال الحسن : معناه بئس القرار، وقيل بئس الفراش الممهد لهم، وقال البلخي : لا يجوز الوعد، والوعيد بغير شرط، لأن فيه بأساً من الايمان أو الكفر وذلك بمنزلة الصد عنه . وتأول الآية على حذف الشرط، فكأنه قال : وبئس المهاد لمن مات على كفره غير تائب منه . وقال الرماني : وهذا لا يصح من قبل أن السورة قد دلت على معنى الوعد من غير شرط يوجب الشك، فلو كان في قطع الوعيد بأس بمنزلة الصد عن الايمان لكان في قطع الوعد بأمان ما يوجب الاتكال عليه دون ما يلزم من الاجتهاد . والذي يخرجه من ذلك أن العقاب من أجل الكفر كما أن الثواب من أجل الايمان . وهذا ليس بشيء، لأن للبلخي أن يشرط الوعد بالثواب بانتفاء ما يبطله من الكبائر، كما أنه شرط الوعيد بالعقاب بانتفاء ما يزيله من التوبة، فقد سوى بين الأمرين . وقال البلخي والجبائي : قوله : «وبئس المهاد» مجاز كما قيل للمرض : شر، وإن كان خيراً من جهة أنه حكمة، وصواب، فقيل لجهنم «بئس المهاد» لعظيم الآلام، لأن أصل نعم وبئس : الحمد، والذم إلا أنه كثر استعماله في المنافع، والمضار حتى سقط عن اسم مجاز . وإن كان مغيراً عن أصله . وفي الآية دلالة على صحة نبوة النبي (ص) لأنها تضمنت الخبر عما يكون من

غلبة المؤمنين للمشركين . وكان الأمر على ما قال ، ولا يكون ذلك على الاتفاق، وكما أنه بين أخباراً كثيرة من الاستقبال ، فكان كما قال ، فكما أن كل واحد منهما كان معجزاً ، لأنه من علام الغيوب اختص به الرسول ليبينه من سائر الناس كذلك هذه الآية .

قوله تعالى :

﴿ قَدْ كانَ لَكُمْ آيةٌ في فِئَتينِ التقتا فِئةٌ تُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ وأُخرى كافِرَةٌ يَرونَهم مثليهم رأيَ العينِ واللهُ يؤيدُ بنصرهِ مَنْ يَشاءُ إنَّ في ذلكَ لَعبرةً لأُولي الأبصار ﴾ (١٣) آية واحدة .

القراءة ، والحجة :

قرأ أهل المدينة ، وأبان عن عاصم ، وابن شاهي عن حفص « ترونهم » بالتاء الباقون بالياء . من قرأ بالياء ، فلأن الخطاب لليهود والخبر عن غيرهم ممن حضر بدراً . ومن قرأ بالتاء وجه الخطاب إلى الجميع .

اللغة ، والمعنى ، والاعراب :

الآية : العلامة ، والدلالة على صدق النبي (ص) . والفئة الفرقة من فأوت رأسه بالسيف إذا فلقته . وقال ابن عباس : ههنا هم المؤمنون من أهل بدر ومشركوا قريش ، وبه قال الحسن ، ومجاهد . وقوله : ﴿ فئة ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب : الرفع على الاستئناف بتقدير منهم فئة كذا ، وأخرى كذا . ويجوز الجر على البدل . ويجوز النصب على الحال كقول كثير :

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت (١)

أنشد بالرفع والجر وقال ابن مفرغ :

---

(١) ديوانه ١ : ٤٦ ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ١٩٢ وهو من قصيدته التائية المشهورة في المطبوعة (هي) بدل (رمى) .

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل رماها صائب الحدثان
فأما التي صحت فأزد شنوءة وأما التي شلت فأزد عمان (١)

وقال آخر :

إذا مت كان الناس نصفين شامت وآخر مثن بالذي كنت أصنع

ولا يجوز أن تقول مررت بثلاثة صريع وجريح بالجر ، لأنه لم يستوف العدة ولكن يجوز بالرفع على تقدير منهم صريع ومنهم جريح . فان قلت : مررت بثلاثة صريع ، وجريح ، وسليم ، جاز فيه الرفع والجر ، فان زدت فيه اقتتلوا جاز فيه الأوجه الثلاثة . ولم يقرأ إلا بالرفع .

المعنى :

وقال ابن مسعود ، والحسن : الفئة : المسلمة هي التي كانت ترى الكافرة مثليهم . وقال السدي : رأى المشركون المسلمين مثل عددهم ، لأنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر فرأوهم أضعاف ذلك . وهذا يحتمل على قراءة من قرأ بالياء ، فأما من قرأ بالتاء ، فلا يحتمل ذلك إلا أن يكون الخطاب لليهود الذين ما حضروا وهم المعنيون بقوله : « مثل الذين كفروا » وهم يهود بني قنيقاع فكأنه قيل لهم ترون المشركين مثلي المسلمين مع أن الله ظفرهم بهم ، فلا تغتروا بكثرتكم . واختار البلخي هذا الوجه واختلفوا في عدة المشركين يوم بدر ، فروي عن علي (ع) وابن مسعود أنهم كانوا ألفاً . وقال عروة بن الزبير ، وقتادة ، والربيع كانوا بين تسعمائة إلى الألف وأما عدة المسلمين، فثلاثمائة وبضعة عشر في قول قتادة ، والربيع، وأكثر المفسرين . وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) . ومعنى «يرونهم

---

(١) الوحشيات لأبي تمام : ١٨٣ ، وخزانة الأدب ٢ : ٣٧٨ . وازد شنوءة: قبيلة كانت مع أهل الشام في حرب صفين ، وازد عمان : قبيلة كانت مع أهل العراق ورواية الشعر

فكنتم كذي رجلين : رجل صحيحة ورجل بهـا ريب من الحدثان

مثليهم » يحتمل وجوهاً أحدها ـ ما روي عن ابن مسعود ، وغيره من أهل العلم أن الله قلل المشركين يوم بدر في أعين المسلمين لتقوى قلوبهم فرأوهم مثلي عدتهم . وقال الفراء يحتمل ثلاثة أمثالهم كما يقول القائل إلى الف واحتاج إلى مثليه أي مضافاً إليه لا بمعنى بدلا منه ، فكذلك ترونهم مثليهم مضافاً إليهم فذلك ثلاثة أمثالهم ، وأنكر هذا الوجه الزجاج ، لمخالفته لظاهر الكلام . وما جاء في الآية الأخرى في الانفال من تقليل الاعداد . فان قيل كيف يصح تقليل الاعداد مع حصول الرؤية وارتفاع الموانع وهل هذا إلا ما تقوله المجبرة من أنه يجوز أن يكون بحضرتنا أشياء تدرك بعضها دون بعض بحسب ما يفعل فينا من الادراك وهذا عندنا سفسطة تقليل في المشاهدات ؟ قلنا : يحتمل أن يكون التقليل في أعين المؤمنين بأن يظنونهم قليلي العدد ، لأنهم أدركوا بعضهم دون بعض ، لأن العلم بما يدركه الانسان جملة غير العلم بما يدركه مفصلا ، ولهذا : إذا رأينا جيشاً كبيراً أو جمعاً عظيما ندرك جميعهم ، ونتبين أطرافهم ومع هذا نشك في أعدادهم حتى يقع الخلف بين الناس في حزر عددهم ، فعلى هذا يكون تأويل الآية . وقد ذكر الفراء عن ابن عباس أنه قال : رأى المسلمون المشركين مثليهم في الحزر بستمائة وكان المشركون سبعمائة وخمسين . فأما قوله في الأنفال : « وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم » (١) فلا ينافي هذا لأن هذه آية للمسلمين أخبرهم بها وتلك آية لأهل الكفر حجة عليهم . على أنك تقول في الكلام إني لأرى كثيركم قليلا أي تهونون علي لأني أرى الثلاثة اثنين ذكره الفراء ، وهو جيد . وقيل : الوجه في تقليل الكفار في أعين المؤمنين أن يكون أقوى لقلوب المؤمنين ، فلا يفزعوا ، ولا يفشلوا ، ويتجرأوا على قتالهم . والوجه في تقليل المؤمنين في أعين الكفار إذا رأوهم قليلين استهانوا بهم واستحقروهم فلم يأخذوا إهبتهم ولم يستعدوا كل الاستعداد فيظفر بهم المؤمنون ، وهو جيد أيضاً . وقال البلخي إنما قال مثليهم وهم كانوا ثلاثة أمثالهم لأنه أقام الحجة عليهم بأنهم وإن كانوا ثلاثة أمثالهم فلم يخرجوا من أن يكونوا

(١) سورة الانفال آية : ٤٥ .

مثليهم . والمعتمد ما قلناه أولا .

اللغة والمعنى :

وقوله : ﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء ﴾ فالأيد القوة ومنه قوله : « داود ذا الأيد » (١) وتقول : اده أئيده أيداً ، كقولك بعته أبيعه بيعاً بمعنى قويته. وأيدته أؤيده تأييداً . والنصر : المعونة على الاعداء ، وهو على وجهين : نصر بالغلبة ، ونصر بالحجة ، ولو هزم قوم من المؤمنين ، لجاز أن يقال : هم المنصورون بالحجة ومحمودوا العاقبة ، وان سرعدوهم بظفر العاجل .

والآية التي ذكرها الله تعالى كانت في الفئتين من وجهين :

أحدهما ـ غلبة القليل العدد في نفسه للكثير في ذلك بخلاف ما تجري به العادة بما أمدهم الله به من الملائكة وقوى به نفوسهم من تقليل العدة . والثاني ـ بالوعد المتقدم بالغلبة لاحدى الطائفتين لا محالة . وقوله : ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الابصار ﴾ معناه لأولي العقول ، كما يقال له بصر بالأمور ، وليس المراد بالابصار الحواس التي يشترك فيها سائر الحيوان . والعبرة الآية تقول : اعتبرت بالشيء عبرة واعتباراً والعبور : النفوذ عبرت النهر أعبره عبوراً : إذا قطعته . والمعبرة : السفينة التي يعبر فيها . والعبارة الكلام ، يعبر بالمعنى إلى المخاطب ، فالعبارة تفسير الرؤيا . والتعبير وزن الدنانير ، وغيرها . والعبرة : الدمعة من العين . وأصل الباب العبور النفوذ .

قوله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ

---

(١) سورة ص آية : ١٧ .

مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا وَاللهُ عِندهُ حُسنُ المآب﴾ (١٤) آية واحدة بلا خلاف .

المعنى ، واللغة :

قيل في المزين لحب الشهوات ثلاثة أقوال : قال الحسن : زينه الشيطان ، لأنه لا أحد أشد ذماً لها من خالقها . الثاني ـ ما قاله الزجاج : انه زينه الله بما جعل في الطباع من المنازعة ، كما قال تعالى « إنا جعلنا ما على الارض زينة لها » (١) الثالث ـ ما قاله أبو علي أنه زين الله عز وجل ما يحسن منه ، وزين الشيطان ما يقبح منه .

والشهوات : جمع شهوة وهي توقان النفس إلى الشيء يقال : اشتهى يشتهي شهوة ، واشتهاء وشهاه تشهية ، وتشهى تشهياً . والشهوة من فعل الله تعالى لا يقدر عليها أحد من البشر ، وهي ضرورية فينا ، لأنه لا يمكننا دفعها عن أنفسنا .

والقناطير : جمع قنطار . واختلفوا في مقدار القنطار ، فقال معاذ بن جبل ، وابن عمر ، وأبي بن كعب ، وأبو هريرة : هو ألف ومأتا أوقية . وقال ابن عباس ، والحسن ، والضحاك : هو ألف ومأتا مثقال . وروي عن الحسن أيضاً أنه ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم . وقال قتادة : ثمانون ألفاً من الدراهم أو مائة رطل . وقال مجاهد ، وعطا : سبعون ألف دينار . وقال أبو نضر هو ملء مسك ثور ذهباً . وبه قال الفراء : وهو المروي عن أبي جعفر . وقال الربيع وابن أنس : هو المال الكثير . ومعنى المقنطرة : المضاعفة ـ على قول قتادة ـ وقال الفراء : هي تسعة قناطير ، وقيل هي كقولك دراهم مدرهمة أي مجعولة كذلك . وقال السدي مضروبة دراهم أو دنانير . والقنطرة : البناء المعقود للعبور والقنطر الداهية . وأصل الباب القنطرة المعروفة . والقنطار لأنه مال عظيم كالقنطرة . والذهب ، والفضة معروفان .

---

(١) سورة الكهف آية : ٧ .

وتقول فضضته تفضيضاً . وفض الجمع يفضه فضاً إذا فرقه . ومنه قوله : « لانفضوا من حولك » (١) وفضضت الخاتم كسرته ولا يفضض الله فاك أي لا يكسره . وافتضضت الماء : إذا شربته . وأصل الباب التفرق .

والخيل : الافراس سميت خيلا ، لاختيالها في مشيها . والاختيال : من التخيل ، لأنه يتخيل به صاحبه في صورة من هو أعظم منه كبراً . والخيال كالظل ، لأنه يتخيل به صورة الشيء تقول : خلت زيداً أخال خيلاناً إذا خشيته لأنه يتخيل إلى النفس أنه هو . والاخيل : الشقراق وهو طائر الغالب عليه الخضرة مشرب حمرة ، لأنه يتخيل مرة أخضر ومرة أحمر . وأصل الباب التخيل : التشبه بالشيء ، ومنه أخال عليه الأمر يخيل إذا اشتبه عليه ، فهو مخيل .

وقوله : «المسومة » قيل في معناه أربعة أقوال قال سعيد بن جبير وابن عباس والحسن والربيع هي الراعية وقال مجاهد وعكرمة والسدي : هي الحسنة ، وقال ابن عباس في رواية ، وقتادة : المعلمة . وقال ابن زيد : هي المعدة للجهاد فمن قال : هي الراعية ، فمن قولهم : اسمت الماشية وسومتها إذا رعيتها . وسامت ، فهي سائمة إذا كانت راعية ، ومنه تسيمون : أي ترعون . ومن قال : الحسنة فمن السيما مقصور . ويقال فيه سيميا أيضاً وهو الحسن . قال الشاعر :

غلام رماه الله بالحسن يافعاً   له سيمياء لا يشق على البصر

ومن قال المعلمة ، فمن السيماء التي هي العلامة كقوله تعالى : « يعرف المجرمون بسيماهم » ومن قال المعدة للجهاد ، فهو راجع إلى العلامة لأنها معدة بالعلامة وأصل الباب العلامة . وقوله : « والانعام » فهي الابل ، والبقر ، والغنم من الضان والمعز ولا يقال لجنس منها على الانفراد نعم إلا الابل خاصة لأنه غلب عليها في التفصيل والجملة . والحرث : الزرع . وقوله : ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ فالمتاع : ما يستنفع به مدة ثم يفنى . وقوله : ﴿ والله عنده حسن المآب ﴾ فالمآب :

« ١ » سورة آل عمران آية : ١٦٠ .

المرجع من آب يؤوب أوباً وإياباً وأوبة ، ومآباً إذا رجع وتأوب تأوباً : إذا ترجع وأوبه تأويباً : إذا رجعه . وأصل الباب الأوب الرجوع .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١٥) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة والمعنى :

قرأ عاصم وحده في رواية أبي بكر ورضوان ـ بضم الراء ـ الباقون بكسرها فالضم لغة قيس ، وتميم . والكسر لغة أهل الحجاز . قيل في آخر الاستفهام بقوله أؤنبئكم قولان :

أحدها ـ ان اخره عند قوله بخير من ذلكم ، ثم استأنف للذين اتقوا . الثاني ـ عند قوله : « عندربهم » ثم استانف جنات على تقدير الجواب ، كأنه قيل: ماهو ذلك الخير ، فقيل هو جنات . ومثله : « قل أؤنبئكم بشر من ذلكم النار »(١) أي هي النار ، ويجوز في إعراب جنات في العربية الرفع ، والجر ، فالجر على أن يكون في آخر الكلام عند ربهم . ولا يجوز الجر على الوجه الآخر للفصل باللام ، كما لا يجوز أمرت لك بالفين ولاخيك مأتين حتى تقول بمائتين ولو قدمت فقلت ومأتين لاخيك جاز ، ولا يجوز النصب في جنات على موضع الباء فيما لم يكن الباء فيه زائدة كما لا يحسن مررت برجل زيداً ويحسن خشنت بصدره وصدر زيد ، لأن الباء زائدة ، ولا يجوز أن تكون زائدة في بخير لأن نبأت لا يجوز الاقتصار فيه على المفعول الثاني دون الثالث ، لأنه بمعنى أعلمت ، ولا يجوز أعلمت زيداً

(١) سورة الحج آية : ٧٢ .

أخاك حتى تقول خيراً من عمرو ، أو نحوه . وقد تقدم تفسير الجنات والأنهار . وقوله : ﴿ خالدين ﴾ نصب على الحال ومعنى تأويل قوله : « وأزواج مطهرة » فلا معنى لاعادته . والرضا والمرضاة : معنى واحد . ومعنى قوله : « للذين اتقوا » يعني ما حرم عليهم – في قول الحسن – . فان قيل ما تقولون أنتم لأنكم تقولون إن من لا يتقي جميع ما حرم عليه إذا كان عارفاً بالله ومصدقاً لجميع ما وجب عليه موعود له بالجنة ؟ قلنا : نقول إن هذه الآية تدل على أن من اتقى جميع ما حرم عليه ، فله الجنة ، وما وعد بها من غير أن يقترن بها شيء من استحقاق العقاب قطعاً . ومن ليس معه إلا التصديق بجميع ما وجب عليه وقد أخل بكثير من الواجبات وارتكب كثيراً من المحظورات فانا نقطع على استحقاقه الثواب مع استحقاقه للعقاب ونجوز فعل العقاب به ونجوز العفو عنه مع القطع على وجوب الثواب له ، ففارق المتقي على ما تراه .

قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١٦) آية بلا خلاف .

الاعراب :

موضع الذين يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب الجر . والرفع ، والنصب ، فالجر للاتباع ، للذين اتقوا والرفع على تقديرهم الذين يقولون . والنصب على المدح وتقديره أعني .

اللغة :

وقوله : ﴿ فاغفرلنا ذنوبنا ﴾ فالمغفرة هي الستر للذنب برفع التبعة ، والذنب ، والجرم بمعنى واحد وإنما الفرق بينهما من جهة الأصل ، لأن أصل الذنب الاتباع ،

فالذنب ما يتبع عليه العبد من قبيح عمله كالتبعة والجرم أصله القطع ، فالجرم القبيح الذي ينقطع به عن الواجب ، والفرق بين القول ، والكلام أن القول فيه معنى الحكاية وليس كذلك الكلام .

المعنى :

وقوله : ﴿ وقنا عذاب النار ﴾ قيل في معنى هذه المسألة قولان :

أحدها ـ مسألة الله ما هو من حكمه نحو قوله : « فاغفر للذين تابوا » والفائدة في هذا الدعاء التعبد بما فيه مصلحة للعباد . الثاني ـ مسألة الله عز وجل مالا يجوز أن يعطيه العبد إلا بعد المسألة لأنه لا يكون لطفاً إلا بعد المسألة وعلى مذهبنا وجه حسن السؤال إن العفو تفضل من الله لا يجب عند التوبة ، ويجوز أيضاً العفو مع عدم التوبة ، فيكون وجه السؤال « اغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار » ان منا مصرين ولم نتب .

قوله تعالى :

﴿ الصابرِينَ وَالصادِقينَ وَالقانِتينَ وَالمنفقينَ وَالمستغفرِينَ بالأسحارِ ﴾ (١٧) .

الاعراب ، واللغة ، والمعنى :

الصابرين نصب على المدح وكذلك باقي الصفات ، ويجوز أن تكون جراً صفات « للذين اتقوا » ومعنى الصابرين : الحابسين نفوسهم بمنعها عما حرم الله (تعالى) عليها ، فالصابر الممدوح : هو الحابس نفسه عن جميع معاصي الله ، والمقيم على ما أوجب عليه من العبادات ، والصادقين هم المخبرون بالشيء على ما هو به وهي أيضاً صفة مدح « والقانتين » قال قتادة : هم المطيعون . وقال الزجاج : هم الدائمون على العبادة ، لأن أصل القنوت الدوام . « والمنفقين » : الذين يخرجون ما أوجب الله عليهم من الزكوات ، وغيرها من الحقوق . ويدخل في ذلك المتطوعون

بالانفاق فيما رغب الله في الانفاق فيه . « والمستغفرين بالاسحار » قال قتادة : هم المصلون بالاسحار . وقال أنس بن مالك : هم الذين يسألون المغفرة ، وهو الأظهر . والأول جائز أيضاً ، لأنه قد تطلب المغفرة بالصلاة ، كما تطلب بالدعاء .

اللغة :

والاسحار : جمع سحر ، وهو الوقت الذي قبل طلوع الفجر . وأصله : الخفاء ، وسمي السحر ، لخفاء الشخص فيه . ومنه السحر ، لخفاء سببه . ومنه السحر الرئة لخفاء موضعها . والمسحر الذي يأكل الطعام لخفاء مسالكه .

وروي عن أبي عبد الله أن من استغفر الله سبعين مرة في وقت السحر ، فهو من أهل هذه الآية .

قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللهُ أنهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ وَالملائكةُ وَأولوا العِلمِ قائماً بالقسطِ لا إِلَهَ إلا هُوَ العزيزُ الحكيمُ (١٨) ﴾ .

المعنى :

حقيقة الشهادة الاخبار بالشيء عن مشاهدة أو ما يقوم مقام الشهادة من الدلالات الواضحة ، والحجج اللائحة على وحدانيته من عجيب خلقه ، ولطيف حكمته في ما خلق . وقال أبو عبيدة : معنى « شهد الله » قضى الله « أنه لا إله إلا هو والملائكة » شهود « وأولوا العلم » وحكى عمرو بن عبيد عن الحسن ، وروي ذلك في تفسيرنا أن في الآية تقديماً ، وتأخيراً . وتقديرها « شهد الله أنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط » أي بالعدل ، وشهد الملائكة أنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط ، وشهد أولوا العلم أنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط . وأولوا العلم : هم المؤمنون .

القراءة، والحجة، والاعراب :

وقرأ أبو المهلب عمر بن محارب بن دثار « شهداء لله » على وزن فعلاء جمع شهيد ، نصب على الحال برده على ما قبله من الكلام كأنه قال : الذين يقولون ربنا إننا آمنا شهداء لله أنه لا إله إلا هو ، وهي جائزة غير أنها شهادة لم يوافق عليها أحد من قراء الامصار ، ذكر ذلك البلخي . و(إن) الأولى ، والثانية تحتمل أربعة أوجه من العربية ، فتحها جميعاً وكسرها جميعاً ، وفتح الأولى وكسر الثانية ، وكسر الأولى وفتح الثانية . فمن فتحهما أوقع الشهادة على أن الثانية وحذف حرف الاضافة من الأولى ، وتقديره « شهد الله أنه لا إله إلا هو » « إن الدين عند الله الاسلام » (١) وقال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون نصبها على البدل من شيئين .

أحدها ـ من قوله « إنه لا إله » وتقديره شهد الله « إن الدين عند الله الاسلام » ويجوز بدل الشيء من الشيء وهو هو .

والثاني ـ أن يكون بدل الاشتمال ، لأن الاسلام يشتمل على التوحيد والعدل وغير ذلك . ومن كسرها اعترض بالأولى للتعظيم لله عز وجل به كما قيل لبيك إن الحمد . وكسر الثانية على الحكاية ، لأن في معنى شهد معنى قال . وقال المؤرخ : شهد بمعنى قال بلغة قيس عيلان .

الثالث ـ من فتح الأولى وكسر الثانية ـ وهو أجودها ، وعليه أكثر القراء ـ أوقع الشهادة على الأولى واستأنف الثانية وهي أحسن الوجوه وأظهرها .

الرابع ـ من كسر الأولى ، فعلى الاعتراض ، ثم فتح الثانية بايقاع الشهادة عليها . وهو المروي عن ابن عباس ، وقيل في نصب قائماً قولان :

أحدها ـ أنه حال من اسم الله على تقدير شهد الله قائماً بالقسط .

الثاني ـ على الحال من هو وتقديره لا إله إلا هو قائماً بالقسط . وقال مجاهد:

« ١ » سورة آل عمران آية : ١٩ .

معنى قائماً بالقسط أي قائماً بالعدل كما تقول : قائماً بالتدبير أي يجريه على الاستقامة فكذلك يجري التدبير على الاستقامة والعدل في جميع الامور .

قوله تعالى :

﴿ إنَّ الدينَ عِندَ اللهِ الاسلام وَما اخْتلفَ الّذينَ أوتوا الكتابَ إلا مِنْ بَعدِ ما جاءَهُمُ العِلمَ بَغياً بَينهم وَمَنْ يكفرُ بآياتِ الله فانَّ اللهَ سَريعُ الحسابُ ﴾ (١٩) آية .

القراءة ، واللغة ، والمعنى :

قرأ «أن الدين» بفتح الهمزة الكسائي وحكي ذلك عن ابن مسعود . الباقون بكسرها وقد بينا الوجه فيه . معنى الدين ههنا الطاعة فمعناه ان الطاعة لله عزوجل هي الاسلام . قال الاعشى :

هودان الرباب إذ كرهوا الد　　ين دراكا بغزوة وصيال (١)

ومعناه ذللهم للطاعة إذ كرهوا الطاعة ، والدين الجزاء . من قولهم كما تدين تدان أي كما تجزي تجزى . ومنه قوله : « مالك يوم الدين » أي يوم الجزاء ، وسميت الطاعة ديناً ، لأنها للجزاء ، ومنه الدين ، لأنه كالجزاء في وجوب القضاء . والاسلام أصله السلم ، فأسلم معناه دخل في السلم كقولهم أقحط بمعنى دخل القحط وأربع دخل في الربيع ، وأصل السلم السلامة ، لأنه انقياد على السلامة ، ويصلح أن يكون أصله التسليم ، لأنه تسليم ، لأمر الله ، والتسليم من السلامة ، لأنه تأدية الشيء على السلامة من الفساد والنقصان ، فالاسلام : هو تأدية الطاعات على السلامة من الادغال ، والاسلام ، والايمان عندنا وعند المعتزلة بمعنى واحد غير أن عندهم أن فعل الواجبات من أفعال الجوارح من الايمان (وعندنا أن أفعال

---

(١) انظر ٢ : ٤٤٧ .

الواجبات من أفعال الجوارح من الايمان) (١) وعندنا أن أفعال الواجبات من أفعال القلوب ـ التي هي التصديق ـ من الايمان ، فأما أفعال الجوارح ، فليست من الايمان ، وإن كانت واجبة . وقد بينا ذلك في ما مضى وسنبينه إن شاء الله .

والاسلام : يفيد الانقياد لكل ما جاء به النبي (ص) من العبادات الشرعية وترك النكير عليه ، والاستسلام له ، فاذا قلنا : دين المؤمن هو الايمان ، وهو الاسلام ، فالاسلام هو الايمان . ونظير ذلك قولنا : الانسان ، والانسان حيوان على الصورة الانسانية ، فالحيوان على الصورة الانسانية بشر .

وقوله : ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب﴾ قال الربيع : المراد بالكتاب: التوراة . وقال محمد بن جعفر بن الزبير : هو الانجيل . وقال الجبائي : خرج مخرج الجنس ، ومعناه كتب الله المتقدمة التي بين فيها الحلال والحرام .

والاختلاف ذهاب أحد النفيسين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر فهذا الاختلاف في الأديان . فأما الاختلاف في الاجناس ، فهو امتناع أحد الشيئين أن يسد مسد الآخر فيما يرجع إلى ذاته . والبغي : طلب الاستعلاء بالظلم وأصله من بغيت الحاجة إذا طلبتها ، وليس في الآية ما يدل على أن الذين اختلفوا بغياً كانوا معاندين ، لأن البغي قد يحمل على العدول عن طريق العلم ، كما يحمل على عناد أهل العلم . ولأنه قد يقع الخلف بينهم وإن كانوا بأجمعهم مبطلين ، كاختلاف اليهود والنصارى في المسيح ، فنسبه النصارى إلى الآلهية ، واليهود إلى الفرية .

الاعراب ، والمعنى :

والعامل في « بغياً بينهم » يحتمل أمرين: أحدهما ـ (اختلف) هذا المذكور ، وتقديره : وما اختلف فيه بغياً بينهم إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم ، هذا قول الاخفش وقال الزجاج : نصبه محذوف دل عليه اختلف المذكور ، وتقديره اختلفوا بغياً بينهم . وقوله : ﴿ ومن يكفر بآيات الله ﴾ معناه : من يجحد آيات الله

« ١ » ما بين القوسين زائد حسب ما يظهر .

يعني أدلته وبيناته « فان الله سريع الحساب » وفي الآخر سريع الحساب للجزاء .

قوله تعالى :

﴿فانْ حاجوكَ فَقلْ أسلمتُ وَجهيَ للهِ وَمَنِ اتبعن وَقُلْ لِلذينَ أوتوا الكتابَ وَالأميينَ ءَأسلمتمْ فَانْ أسلموا فَقدِ اهتدوا وَإنْ تولّوا فانما عَليكَ البلاغُ وَاللهُ بَصيرٌ بالعبادِ﴾ (٢٠) آية بلا خلاف .

المعنى :

المعني بقوله : « فان حاجوك » نصارى نجران - على قول جميع المفسرين - فان قيل : لم قال : « ومن اتبعن » ولم يؤكد الضمير ، فلم يقل : اسلمت أنا ولا يجوز أن يقول القائل قمت وزيد إلا بعد أن يقول قمت أنا وزيد ؟ قيل : إنما جاز ههنا لطول الكلام ، فصار طوله عوضاً من تأكيد الضمير المتصل ، ولو قال اسلمت وزيد لم يجز حتى يقول : أسلمت أنا وزيد ، فاذا قال : أسلمت اليوم بانشراح صدري ومن جاء معي حسن . فان قيل ما الحجة في قوله : « فقل اسلمت وجهي لله » ؟ قلنا فيه وجهان :

أحدهما - أنه أراد إلزامهم على - ما أقروا به من أن الله خالقهم - اتباع أمره في « ألا تعبدوا إلا إياه » (١) فلذلك قال : « اسلمت وجهي لله » أي انقدت لأمره في اخلاص التوحيد له .

الثاني - أنه ذكر الأصل الذي يلزم جميع المكلفين الاقرار به لأنه لا ينتقض في ما يحتاج إلى العمل عليه في الدين الذي هو طريق النجاة من العذاب إلى النعيم ، ومعنى قوله : « وجهي » يريد نفسي وإنما أضاف الاسلام إلى الوجه ، لأنه لما كان وجه الشيء أشرف ما فيه ذكر بدلا منه ليدل على شرف الذكر . ومثله « كل شيء هالك إلا وجهه » (٢) أي إلا هو . وقوله : ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾

(١) سورة الاسرى آية : ٢٣ .	(٢) سورة القصص آية : ٨٨ .

يعني اليهود والنصارى ، « والاميين » الذين لا كتاب لهم على قول ابن عباس وغيره . من أهل التأويل ، وهم مشركوا العرب ، كما قال : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم » (١) وقال : « النبي الأمي » (٢) أي الذي لا يكتب . وإنما قيل لمن لا يكتب أمي ، لأنه نسب إلى ما عليه الأمة في الخلقة لأنهم خلقوا لا يكتبون شيئاً . وإنما يستفيدون الكتابة .

وقوله : ﴿ ومن اتبعن ﴾ من حذف الياء اجتزاء بالكسرة وإنما حذفها حمزة ، والكسائي وعاصم ، وحذف الياء في أواخر الآي أحسن لأنها تشبه القوافي . ويجوز في وسط الآي أيضاً وأحسنها ما كان قبلها نون مثل قوله : «ومن اتبعن » ، فان لم يكن نون ، فانه يجوز أيضاً نحو قولك هذا غلام ، وما أشبه ذلك . والاجود أن تقول هذا غلامي وإن شئت أسكنت الياء . وإن شئت فتحتها . وقوله : ﴿ ءأسلمتم ﴾ أمر في صورة الاستفهام ، وإنما كان كذلك ، لأنه بمنزلة طلب الفعل ، والاستدعاء إليه فذكر ذلك للدلالة على أمرين من غير تصريح به ليقر المأمور به بما يلزمه فيه ، كما تقول لمن توصيه بما هو أعود عليه : أقبلت هذا . ومعناه اقبل ، ومثله قوله تعالى : « فهل أنتم منتهون » (٣) معناه انتهوا ، وأقروا به . وتقول لغيرك : هل أنت كاف عنا . ومعناه اكفف . ويقول القائل لغيره : أين أنت ، ومعناه اثبت مكانك لا تبرح .

وقوله : ﴿ فان اسلموا فقد اهتدوا ﴾ معناه اهتدوا إلى طريق الحق « وإن تولوا » معناه كفروا ، ولم يقبلوا واعرضوا عنه « فانما عليك البلاغ » ومعناه عليك البلاغ ، فقط دون ألا يتولوا ، لأنه ليس عليك ألا يتولوا . وقوله : « والله بصير بالعباد» معناه ههنا لا يفوته شيء من أعمالهم التي يجازيهم بها ،لأنه بصير بهم أي عالم بهم وبسرائرهم وظواهر أعمالهم ، لا يخفى عليه خافية . وقيل معناه يعلم ما يكون منك في التبليغ ، ومنهم في الايمان ، والكفر .

« ١ » سورة الجمعة آية : ٢ .
« ٢ » سورة الاعراف آية : ١٥٦، ١٥٧ .
« ٣ » سورة المائدة آية : ٩٤ .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢١) آية واحدة .

القراءة :

قرأ حمزة ونصير « ويقاتلون الذين يأمرون » بالف لأن في مصحف عبدالله « وقاتلوا » والأجود ما عليه الجماعة .

المعنى :

وقوله : « إن الذين يكفرون » معناه يجحدون « آيات الله » يعني حججه وبيناته « ويقتلون النبيين » روى أبو عبيدة بن الجراح قال : قلت يارسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة قال : رجل قتل نبياً أو رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر ، ثم قرأ رسول الله « ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم » ثم قال يا أبا عبيدة ، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عُباد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ، ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار في ذلك اليوم ، وهم الذين ذكرهم الله . واستدل الرماني بذلك على جواز انكار المنكر مع خوف القتل ، وبالخبر الذي رواه الحسن عن النبي (ص) أنه قال : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر يقتل عليها . وقال عمرو بن عبيد : لا نعلم عملا من أعمال البشر أفضل من القيام بالقسط يقتل عليه . وهذا الذي ذكروه غير صحيح ، لأن من شرط إنكار المنكر ألا يكون فيه مفسدة ، وألا يؤدي إلى قتل المنكر ، ومتى أدى ذلك إلى قتله ، فقدانتفى عنه الشرطان معاً فيجب أن يكون قبيحاً ، والاخبار

التي رووها أخبار آحاد لا يعارض بها على أدلة العقول على أنه لا يمتنع أن يكون الوجه فيها وفي قوله : « ويقتلون الذين يأمرون بالقسط » هو من غلب على ظنه أن انكاره لا يؤدي إلى مفسدة فحسن منه ذلك بل وجب وإن تعقب ـ في مابعد ـ القتل ، لأنه ليس من شرطه أن يعلم ذلك بل يكفي فيه غلبة الظن .

وقوله : ﴿ بغير حق ﴾ لا يدل على أن قتل النبيين يكون بحق بل المراد بذلك أن قتلهم لا يكون إلا بغير حق ، كما قال : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به » (١) . والمعنى ان ذلك لا يكون عليه برهان كما قال امرؤ القيس :

على لاحب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود الديا في جرجرا (٢)

وتقول : لاخير عنده يرجى . وأنت تريد لاخير عنده أصلا . وكذلك أراد امرؤ القيس أنه لا منار هناك ، فيهتدى به قال أبو ذؤيب :

متفلق انشاؤها عن قاني كالقرط صاو غبره لا يرضع

أي ليس له بقية لبن فيرضع ، ومعنى صاو في البيت صوت يابس النخلة .

وقوله : ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ معناه الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وقوله : « فبشرهم بعذاب أليم » إنما خاطبهم بذلك وإن كان الخبر عن أسلافهم من حيث رضواهم بافعالهم ، فاجملوا معهم على تقدير فبشر أخلافهم بأن العقاب لهم ، وكأسلافهم . فان قيل لم جاز أن تقول إن الذي يقوم ، فيكرمك ، ولم يجز ليت الذي يقوم فيكرمك ؟ قلنا : لأن دخول الفاء لشبه الجزاء ، لأن الذي يحتاج إلى صلة فصلتها قامت مقام الشرط ، فلذلك دخل الفاء في الجواب كما دخل في جواب الشرط ، وليت تبطل معنى الجزاء وليس كذلك أن لأنها بمنزلة الابتداء .

قوله تعالى :

﴿ أولـئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما

« ١ » سورة المؤمنون آية : ١١٨ . « ٢ » مر تخريجه في ٢ : ٣٥٦ .

لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٢٢) آية بلا خلاف .

المعنى :

حبوط العمل ـ عندنا ـ هو إيقاعه على خلاف الوجه المأمور به ، فاذا أوقعه كذلك لم يستحق عليه الثواب ، فجاز لذلك أن يقال : أحبط عمله ، ومتى أوقعه على الوجه المنهي عنه ، استحق مع ذلك العقاب ، وليس المراد بذلك بطلان مايستحق عليه من الحمد والثناء . ولا بطلان الثواب بما يستحق من العقاب ، لأن الثواب إذا ثبت فلا يزول على وجه بما يستحق صاحبه من العقاب ، لأنه لا تنافي بين المستحقين ، ولا تضاد . وأما حبوطها في الدنيا ، فلأنهم لم ينالوا بها مدحاً ولا ثناء .

وأصل الحبوط مأخوذ من قولهم : حبطت بطون الماشية : إذا فسدت من مآكل الربيع . فعلى ما حررناه إنما تبطل الطاعة حتى تصير بمنزلة ما لم تفعل إذا وقعت على خلاف الوجه المأمور به وعند المعتزلة ، ومن خالفنا في ذلك أن أحدهما يبطل صاحبه إذا كان ما يستحق عليه من الثواب أو العقاب أكثر مما يستحق على الآخر فانه يبطل الاقل على خلاف بينهم في أنه يتحبط على طريق الموازنة أو غير الموازنة ، قال الرماني : والفرق بين حبوط الفريضة وحبوط النافلة أن النافلة من الفاسق لابد عليها من منفعة عاجلة ، لأن الله رغب فيها إن أقام على فسقه أو لم يقم . والترغيب من الحكيم لا يكون إلا لمنفعة ، فأما الفريضة من الفاسق ، فلانتقاض المضرة التي كان يستحقها على ترك المضرة ، وهذا ـ على مذهبنا ـ لا يصح على ما فصلناه ، ولا على مذهب شيوخه ، لأن المستحق على النوافل لا يكون إلا ثواباً والثواب لا يصح فعله في دار التكليف ، فكيف يصح ما قاله . وقوله : ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ يدل على أنه تعالى لا ينصر كافراً لأنه لو نصره ، لكان أعظم ناصر والله تعالى نفى على وجه العموم أن يكون لهم ناصر ، ولأن مفهوم الكلام أنه لا ينفعهم نصر لكفرهم .

قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣) آية بلا خلاف .

المعنى :

معنى « ألم تر » ألم تعلم « إلى الذين أوتوا » معناه الذين أعطوا « نصيباً » أي حظاً وإنما قيل « أوتوا نصيباً » منه ، لأنهم يعلمون بعض مافيه «من الكتاب» قال ابن عباس ، والزجاج ، والجبائي : إنه التوراة دعي إليها اليهود فأبوا لعلمهم بلزوم الحجة عليهم بما فيه من الدلالة على نبوة نبينا (ص) وتصديقه . والثاني ـ قال الحسن ، وقتادة : دعوا إلى القرآن ، لأن ما فيه موافق ما في التوراة في أصول الديانة وأركان الشريعة . وفي الصفة التي تقدمت البشارة بها .

والحكم الذي دعوا فيه إلى الكتاب يحتمل ثلاثة أشياء : أحدها ـ أن يكون نبوة النبي (ص) . والثاني ـ أن يكون أمر إبراهيم فان دينه الاسلام . والثالث ـ أن يكون حداً من الحدود ، لأنهم نازعوا في ذلك ، وليس في القرآن دليل على تعيين ذلك وإنما هو محتمل لكل واحد منها .

والفرق بين الدعاء إلى الشيء والأمر به أن الأمر له صيغة مخصوصة وفيه زجر عن المخالفة عند من قال : إنه يقتضي الايجاب . والدعاء قد يكون بالخبر وغيره من الدلالات على معنى الخبر وإنما دعوا إلى المحاكمة لتظهر الحجة فأبوا إلا المخالفة . والحكم هو الخبر الذي يفصل الحق من الباطل بامتناعه من الالباس وهو مأخوذ من الحكمة . وهو الخبر الذي توجب صحته الحكمة . وإنما يقال حكم بالباطل لأنه جعل موضع الحق باطلا بدلا منه . وقولهم ليس هذا حكم كذا معناه ليس هذا حقه فانما دعوا إلى كتاب الله ليفصل الحق من الباطل فيما اختلفوا فيه . ومعنى

قوله : ﴿ يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾ فالتولي عن الشيء هو الاعراض عنه ، فليس على وجه التكرار لأن معناه يتولى عن الداعي ، وهو معرض عما دعا إليه ، لأنه قد كان يمكنه أن يتولى عنه وهو متأمل لما دعا إليه ، فلما لم يفعل كان العيب له ألزم والذم على ما فعل أعظم .

قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنهمْ قالوا لَنْ تَمسنا النّارُ إلا أياماً مَعدُودات ٍ وَغَرّهم في دينهم ما كانوا يَفترونَ ﴾ (٢٤) آية بلا خلاف .

المعنى :

الايام المعدودات قيل فيها قولان :

أحدها ـ هي الايام التي عبدوا فيها العجل وهي أربعون يوماً . ذكره قتادة ، والربيع ، والحسن إلا أن الحسن قال : سبعة أيام . والثاني ـ قال الجبائي : أرادوا أياماً منقطعة لانقضاء العذاب فيها وانقطاعه .

اللغة :

وقوله : ﴿ وغرهم في دينهم ﴾ فالغرور الاطماع في مالا يصح . غره يغره غروراً ، فهو مغرور واعتره اغتراراً . والغرور : الشيطان ، لأنه يغر الناس . والغار : الغافل ، لأنه كالمغتر . والغرارة : الدنيا ، لأنها تغر أهلها . والغر : الغمر الذي لم يجرب الامور ، ومصدره الغرارة ، لأن من شأنه أن يقبل الغرور . والغرر : الخطر الذي يقدم فيه على مالا ينبغي ، لأنه كحال الغرور في الطمع المذموم . والغرارة : الوعاء ، لأنها تغر بعظمها وخفاء ما فيها . والغر : آثار طي الثوب . أطوه على غره أي على آثار طيه . والغرغرة : التغرغر في الحلق . والغرغرة : حكاية صوت الراعي . والغر : زق الطائر فرخه . غره يغره غراً : إذا زقه وذلك ، لأنه كالغرغرة في الحلق.

والغُرة : الجبهة . وأصل الباب الغرور الطماع في غير مطمع .

وقوله : ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ فالافتراء : الكذب ، وفرى فلان كذباً يفريه فرية ، والفري : الشق ، فريت الأديم فرياً ، وفرية . مفرية : مشقوقة . وقد تفرو بجورها أي تشق . والفري : الاصر العظيم ، لأنه يشق على النفس . وأصل الباب: الفري : الشق . ومنه الافتراء ، لأنه يشق على النفس .

المعنى :

والافتراء الذي غرهم قيل فيه قولان : أحدهما ـ قوله : « نحن أبناء الله وأحباؤه » في قول قتادة ، وقال مجاهـد غرهم قوله : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ وليس في الآية ما يدل على خلاف ما نذهب إليه من جواز العفو واخراج المعاقبين من أهل الملة من النار من حيث أن الله ذمهؤلاء بأنه لا تمسهم النار إلا أياماً معدودات . وذلك انا لا نقول أن الايام التي يعاقب فيها الفاسق بعدد أيام عصيانه بل إنما نقول: إن عقاب من ثبت دوام ثوابه لا يكون إلا منقطعاً وإن لم يحط العلم مقداره . والله تعالى عاب أهل الكتاب بذلك من حيث قطعوا على ماقالوه وحكموا به وذلك بخلاف ما قلناه .

قوله تعالى :

﴿ فَكيفَ إذا جَمعناهُمْ ليومٍ لا رَيبَ فيهِ وَوُفِّيتْ كلُّ نفسٍ ما كسبتْ وَهُم لا يُظلمونَ ﴾ (٢٥) آية بلا خلاف .

« كيف » موضوعة للسؤال عن الحال . ومعناها هنا التنبيه بصيغة السؤال عن حال من يساق إلى النار . وفيه بلاغة ، واختصار شديد ، لأن تقديره أي حال يكون حال من اغتر بالدعاوي الباطلة حتى أداه ذلك إلى الخلود في العقوبة ؟ ونظيره قول القائل : أنا أكرمك وإن لم تجئني فكيف إذا جئتني ؟ معناه فكيف إكرامي لك إذا جئتني . والتقدير : كيف حالهم إذا جمعناهم ؟ لأنه خبر ابتداء محذوف .

وقوله : ﴿ ليوم لا ريب فيه ﴾ معناه لجزاء يوم . واللام يدل على هـــذا التقدير . ولو قال : جمعناهم في يوم لما دل على ذلك . ومثله جئته ليوم الخميس أي لما يكون في يوم الخميس . وقال الفراء . معناه في يوم .

وقوله : ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ قيل في معناه قولان : أحدهما ـ « وفيت كل نفس ما كسبت » من ثواب أو عقاب . الثاني ـ ما كسبت من ثواب أو عقاب بمعنى اجتلبت بعملها من الثواب أو العقاب ، كما تقول كسب فلان المال بالتجارة والزراعة . فان قيل : كيف قال : « وفيت كل نفس ما كسبت » وما كسبت ، لا نهاية له ، لأنه دائم وما لا نهاية له لا يصح فعله ؟ قلنا : معناه أنه توفى كل نفس ما كسبت حالا بعد حال ، فأما أن يفعل جميع المستحق فمحال لكن لا ينتهي إلى حد ينقطع ولا يفعل فيما بعده . « وهم لا يظلمون » معناه لا يبخسون ، فلا يبخس المحسن جزاء إحسانه ، ولا يعاقب مسيء فوق جزائه .

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤتي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴾ (٢٦) آية واحدة .

اللغة :

قيل في زيادة الميم في اللهم قولان : أحدهما ـ قال الخليل : إنها عوض من ياء التي هي أداة للنداء بدلالة أنه لا يجوز أن تقول غفر اللهم لي ، ولا يجوز أيضاً مع (يا) في الكلام . والثاني ـ ما قاله الفراء : إنها الميم في قولك يا الله أمنا بخير فألقيت الهمزة وطرحت حركتها على ما قبلها . ومثله هلم وإنما هي هل أم ، قال : وما قاله الخليل لا يجوز لأن الميم إنما تزاد مخففة في مثل فم وابنم ، ولأنها قد اجتمعت مع (يا) في قول الشاعر :

وما عليك أن تقولي كلما سبحت أو صليت يا اللهما
أردد علينا شيخنا مسلما (١)

قال الرماني : لا يفسد قول الخليل بما قاله ، لأنها عوض من حرفين فشددت كما قيل قمتن وضربتن لما كانت النون عوضاً من حرفين في قمتم ، وذهبتم ، فأما قمن وذهبن فعوض من حرف واحد ، وأما البيت فانما جاز فيه لضرورة الشعر ، وأما هل ، فلا تدخل على (أم) بوجه من الوجوه . والاصل في (ها) أنها للتنبيه دخلت على (لم) في قول الخليل .

الاعراب :

وقوله : ﴿ مالك الملك ﴾ أكثر النحويين على أنه منصوب بأنه منادى مضاف وتقديره يامالك الملك . وقال الزجاج : يحتمل هذا ويحتمل أيضاً أن يكون صفة من اللهم ، لأن اللهم منادى ، والميم في آخره عوض من ياء في أوله ثم وصفه بعد ذلك كما تقول يازيد ذا الحجة .

المعنى :

ومعنى الآية قيل فيه أربعة أقوال :

أحدها ـ أن الملك ههنا النبوة ذكره مجاهد . و[الثاني] قال الزجاج : مالك العباد ، وما ملكوا . و [الثالث] قال قوم : مالك أمر الدنيا والآخرة . والرابع : انه أفاد صفة لا تجوز الاله من أنه مالك كل ملك .

وقوله : ﴿ تؤتي الملك من تشاء ﴾ تقديره من تشاء أن تؤتيه وتنزع الملك ممن تشاء أن تنزعه ، كما تقول : خذ ما شئت واترك ماشئت . ومعناه ما شئت أن تتركه .

(١) اللسان (أله) ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ٢٠٣ وغيرها من كتب اللغة والنحو والادب ، وروايتها مختلفة .

اللغة :

والنزع : قلع الشيء عن الشيء ، نزع ينزع نزعاً . ومنه قوله : « والنازعات غرقا » قال أبو عبيدة هي النجوم تنزع أي تطلع والنزع الشبه للقوم نزع إلى أخواله أي نزع إليهم بالشبه ، فصار واحداً منهم بشبهه لهم . والنزاع : الحنين إلى الشيء والمنازعة : الخصومة . والنزوع عن الشيء الترك له . والنزع : ذهاب الشعر عن مقدم الرأس . والمنزعة : آلة النزع . وأصل الباب النزع : القلع .

المعنى :

وقال البلخي والجبائي لايجوز أن يعطي الله الملك للفاسق لأنه تمليك الأمر العظيم من السياسة والتدبير مع المال الكثير ، لقوله : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ (١) والملك من أعظم العهود ، ولا ينافي ذلك قوله : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ﴾ (٢) لأمرين : أحدهما ـ قال مجاهد الهاء كناية عن إبراهيم والملك المراد به النبوة والتقدير أن آتى الله إبراهيم النبوة . والثاني ـ أن يكون المراد بالملك المال دون السياسة ، والتدبير فان قيل : ما الفرق بين تمليك الكافر العبيد والاماء وبين تمليكه السياسة والتدبير : قيل : لأن لا يجعل للجاهل أن يسوس العالم ، وهذا الذي ذكره البلخي بعينه يُستدل به على الامام يجب أن يكون معصوماً ، ولا يكون في باطنه كافراً ، ولا فاسقاً .

فان قيل : إن ذلك عادة وجاز أن يكلفنا الله اختياره على ظاهر العدالة فاذ أبان فسقه انخلعت إمامته وإنما لا يجوز أن يختار الله (تعالى) من في باطنه فاسق ، لأنه يعلم البواطن لما جاز منا أن نختاره ؟ قلنا عن ذلك جوابان :

أحدها ـ أن الامام ـ عندنا ـ الله (تعالى) يختاره ، فوجب أن يكون

---

(١) سورة البقرة آية : ١٢٤ .

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٨ .

مأمون الباطن على ما قلتموه . وما الفرق بين أن يختار من في باطنه فاسق وبين أن يكلفنا ذلك مع علمه بأنا لا نختار إلا الفاسق .

والجواب الثاني ـ أنه إذا كانت علة الحاجة إلى الامام ارتفاع العصمة فلو كان الامام غير معصوم لاحتاج إلى امام آخر وأدى ذلك إلى التسلسل وذلك باطل .

وقوله : ﴿ بيدك الخير ﴾ معناه إنك قادر على الخير وإنما خص الخير بالذكر وإن كان بيده كل شيء من خير أو شر ، لأن الغرض ترغيب العبد ، وإنما يرغب في الخير دون الشر ، وقال الحسن ، وقتادة : هذه الآية نزلت جواباً لما سأل الله النبي (ص) أن يجعل لأمته ملك فارس والروم فأنزل الله الآية .

قوله تعالى :

﴿ تُولِجُ الليلَ في النَّهارِ وتُولِجُ النَّهارَ في الليلِ وَتُخرِجُ الحيَّ مِنَ الميتِ وَتُخرِجُ الميت مِنَ الحيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشاءُ بغير حسابٍ ﴾ (٢٧) آية بلا خلاف .

القراءة واللغة :

قرأ بتشديد الياء « من الميت » نافع وحمزة والكسائي وحفص الباقون بالتخفيف .

الايلاج : الادخال يقال : أولجه ايلاجاً ، وولج ولوجاً . ومنه قوله : «حتى يلج الجمل في سم الخياط » (١) والوليجة بطانة الرجل لأنه يطلعه على داخل أمره . ومنه قوله : ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ (٢) والتولج كناس الظبي لأنه يدخله ليأوي إليه والولجة شيء يكون بين يدي فناء القوم لأنه مدخل إلى أفنائهم وأصل الباب الدخول .

---

(١) سورة الاعراف آية : ٢٩ . (٢) سورة التوبة آية : ١٧ .

المعنى :

قيل في معنى الآية قولان : أحدهما ـ ما روي عن ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، والضحاك ، وابن زيد : انه يجعل ما نقص من أحدهما زيادة في الآخر . وقال الجبائي : معناه يدخل أحدهما في الآخر باتيانه بدلا منه في مكانه .

وقوله : ﴿ وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ يخرج الحي من النطفة ، وهي ميتة ، والنطفة من الحي وكذلك الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، هذا قول عبد الله بن مسعود ، ومجاهد ، والضحاك ، والسدي ، وقتادة ، وابن زيد .

الثاني ـ ما قاله الحسن وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) أنه إخراج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . والفرق بين تخفيف الياء وتشديدها أن الميت بالتخفيف الذي قد مات وبالتثقيل الذي لم يمت قال المبرد : ولا خلاف بين علماء البصريين أنهما سواء وأنشد لابن الرعلاء الغساني :

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الاحياء
انما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرخاء (١)

فجمع بين اللغتين وإنما كرر في عدة مواضع في القرآن لما فيه من عظم المنفعة وجزيل الفائدة .

وقوله : ﴿ بغير حساب ﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال : أولها ـ قال الحسن والربيع : بغير نقصان ، لأنه لا نهاية لما في مقدوره فما يوجد منه لا ينقصه ، ولا هو على حساب جزء من كذا وكذا جزءاً منه ، فهو بغير حساب التجزئة . الثاني ـ بغير حساب التقتير كما يقال فلان ينفق بغير حساب ، لأن من عادة المقتر ألا ينفق إلا

(١) اللسان (موت) وروايته (شقياً) بدل (كئيباً) .

بحساب ذكره الزجاج . الثالث ـ ماقاله الجبائي : ان معناه بغيرحساب الاستحقاق، لأنه تفضل وذلك ، لأن النعيم منه بحساب ومنه بغير حساب فأما العقاب فجميعه بحساب .

قوله تعالى :

﴿لا يَتَّخذِ المؤمنونَ الكافِرينَ أولياءَ مِنْ دونِ المؤمنينَ وَمنْ يَفعلْ ذلكَ فَليسَ منَ اللهِ في شيءٍ إلا أنْ تَتقوا منهمْ تُقاةً وَيُحذركمُ اللهُ نَفسهُ وَإلى اللهِ المصيرُ﴾ (٢٨) آية واحـدة .

القراءة ، والحجة :

قال الفراء ، والحسن ،ومجاهد : « تقية » وبه قرأ يعقوب. الباقون «تقاة» وأمال « تقاة » الكسائي . وقرأ حمزة ، ونافع بين بين . الباقون بالتفخيم ، وهو الأجود ، لأن فيه حرفاً مستعلياً ، وهو القاف . ومن أمال ، ليؤذن أن الالف منقلبة من الياء . معنى قوله : ﴿ يتخذ المؤمنون ﴾ نهي للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء يعني أنصاراً ، وكسر الذال لالتقاء الساكنين ، ولو رفع ، لكان جائزاً بمعنى لا ينبغي لهم أن يتخذوا .

المعنى :

وقوله : ﴿ من دون المؤمنين ﴾ من لابتداء الغاية . وتقدير الآية لا تجعلوا ابتداء الولاية مكاناً دون المؤمنين لأن مكان المؤمن الأعلى ومكان الكافر الأدنى ، كما تقول زيد دونك ولست تريد أنه في موضع مسفل ، وأنك في موضع مرتفع لكن جعلت الشرف بمنزلة الارتفاع والخيانة كالاستفال . وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز ملاطفـة الكفار . قال ابن عباس : نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونـكم لا يألونـكم

خبالا ﴾ (١) وقال: ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ﴾ (٢) وقال: ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ (٣) وقال ﴿ واعرض عن الجاهلين ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ﴾ (٦) وكل ذلك يدل على أنه ينبغي أن يعاملوا بالغلظة والجفوة دون الملاطفة، والملاينة إلا ما وقع من النادر لعارض من الأمر.

النظم:

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه (تعالى) لما بين عظيم آياته بما في مقدوراته مما لا يقدر عليه سواه، دل على أنه ينبغي أن تكون الرغبة في ما عنده وعند أوليائه من المؤمنين دون أعدائه الكافرين، فنهى عن اتخاذهم أولياء دون أهل التقوى الذين سلكوا طريق الهدى. والولي هو الأولى، وهو أيضاً الذي يلي أمر من ارتضى فعله بالمعونة والنصرة. وتجري على وجهين:

أحدهما ـ المعين بالنصرة. والآخر ـ المعان فمن ذلك قوله: «الله ولي الذين آمنوا» أي معينهم بنصرته، والمؤمن ولي الله أي معان بنصرة الله. وقوله: «ومن يفعل ذلك» يعني من اتخذ الكافرين أولياء «فليس من الله في شيء» أي ليس هو من أولياء الله الصالحين والله بريء منهم «إلا أن تتقوا منهم تقاة» فالتقية الاظهار باللسان خلاف ما ينطوي عليه القلب للخوف على النفس إذا كان ما يبطنه هو الحق فان كان ما يبطنه باطلا كان ذلك نفاقاً.

اللغة:

وقوله: ﴿ تقاة ﴾ أصله وقاة فابدلت الواو المضمومة تاء استثقالا لها، لأنهم

(١) سورة آل عمران آية: ١١٨.
(٢) سورة المجادلة آية: ٢٢.
(٣) سورة الانعام آية ٦٨.
(٤) سورة الاعراف آية: ١٩٨.
(٥) سورة التوبة آية: ٧٤.
(٦) سورة المائدة آية: ٥٤.

يفرون منها إلى الهمزة تارة وإلى التاء أخرى فأما التاء فلقربها من الواو مع أنها من حروف الزيادة . وأما الهمزة فلأنها نظيرتها في الطرف الآخر من مخارج الحروف مع حسن زيادتها أولا ، ووزن تقاة فعله مثل تودة ، وتخمة ونكاة ، وهي مصدر اتقى تقاة ، وتقية ، وتقوى ، واتقاء .

حكم التقية :

والتقية ـ عندنا ـ واجبة عند الخوف على النفس وقد روي رخصة في جواز الافصاح بالحق عندها . روى الحسن أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله (ص) فقال لاحدهما أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أفتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم ، ثم دعا بالآخر فقال أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال : نعم ، فقال له أفتشهد أني رسول الله ؟ قال إني أصم ـ قالها ثلاثاً كل ذلك تقية ـ فتقول ذلك فضرب عنقه فبلغ ذلك (١) فقال أما هذا المقتول فمضى على صدقه وتقيته وأخذ بفضله فهنيئاً له . وأما الآخر فقبل رخصة الله ، فلا تبعة عليه فعلى هذا التقية رخصة والافصاح بالحق فضيلة . وظاهر أخبارنا يدل على أنها واجبة ، وخلافها خطأ .

وقوله : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ يعني اياه فوضع نفسه مكان إياه ، ونفسه يعني عذابه ، وأضافه إلى نفسه على وجه الاختصاص ، والتحقيق كما لو حققه بصفة بأن يقول يحذركم الله المجازي لكم . وقوله : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ معناه إلى جزاء الله المصير أي المرجع .

قوله تعالى :

﴿ قُل اِنْ تخفوا ما في صُدورِكُمْ أو تُبدوهُ يَعلمهُ اللهُ وَيَعلمُ ما في السَّموات وَما في الأرضِ وَاللهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ ﴾ (٢٩) آية واحدة .

« ١ » يعني رسول الله (ص) .

النظم :

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها . أنه لما تقدم النهي عن اتخاذ الكفار أولياء خوفوا من الاعلان بخلاف الاظهار في ما نهوا عنه بأن الله (تعالى) يعلم الأسرار كما يعلم الاعلان .

اللغة :

والصدر معروف . والصدر : أعلى مقدم كل شيء . والصدر : الانصراف عن الماء بعد الري . تقول : صدرت الابل عن الماء فهي صادرة . والمصدر : الحوض الذي تصدر عنه الابل . والتصدير : حزام الرجل لميله إلى الصدور . والصدار : شبيه بالفقيرة تلبسها المرأة لأنه قصير يغطي الصدر وما حاذاه وكذلك الصدرة . وأصل الباب الصدر المعروف .

وقوله : ﴿ يعلمه الله ﴾ جزم ، لأنه جواب الشرط ، وان كان الله يعلمه كان أو لم يكن ، ومعناه يعلمه كائناً . ولا يصح وصفه بذلك قبل أن يكون . والمعنى : وما تفعلوا من خير يجاز الله عليه ، لأنه يعلمه ، فلا يذهب عليه شيء منه وإنما قال : « ويعلم ما في السماوات وما في الارض » ليذكر بمعلومات الله على التفصيل بعلم الضمير وإنما رفعه على الاستئناف . وقوله : ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ معناه التحذير من عقاب من لا يعجزه شيء أصلا من حيث أنه قادر على كل شيء يصح أن يكون مقدوراً له .

قوله تعالى :

﴿ يَومَ تَجِدُ كُلُّ نَفسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيرٍ مُحضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سوءٍ تَوَدُّ لو أنَّ بَينَها وَبَينَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفسَهُ وَاللهُ رَؤُفٌ بالعِبادِ ﴾ (٣٠) آية بلا خلاف .

الاعراب :

قيل في انتصاب يوم ثلاثة أوجه : أحدها ـ أنه منصوب بـ (يحذركم) الله أي يحذركم نفسه يوم تجد . الثاني ـ بالمصير وتقديره وإلى الله المصير يوم تجد . الثالث ـ إذكر يوم تجد . وقوله : « ما عملت » معنى (ما) ههنا الذي لأنه عمل فيها (تجد) وتكون في موضع نصب . ويحتمل أيضاً أن تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر ، وتقديره : يوم تجد كل نفس عملها ، بمعنى جزاء عملها . وقوله : « وما عملت » يجوز أن تكون (ما) بمعنى الذي ، ويقوي ذلك قوله : « تود » بالرفع ويجوز أن يكون بمعنى الجزاء ، وتود على هذا يحتمل أن يكون مفتوحاً أو مكسوراً . والرفع جائز على ضعف .

المعنى :

ومعنى تجد النفس عملها يحتمل أمرين : أحدها ـ جزاء عملها من الثواب أو العقاب . الثاني ـ تجد بيان عملها بما ترى من صحائف الحسنات ، والسيئات . وحكم الآية جار على فريقين ولي الله وعدوه ، فأحدها يرى حسناته ، والآخر يرى سيئاته . ويحتمل أيضاً أن يكون متناولا لمن جمع بين الطاعة والمعصية ، فان من جمع بينها فانه يرى استحقاقه للعقاب على معاصيه حاصلا ، فانه يود أيضاً أنه لم يكن فعلها . والامد الغاية التي ينتهي إليها قال الطرماح :

كل حي مستكمل عدة العمر ومود إذا انقضى أمده

أي غاية أجله . فان قيل كيف يتصل التحذير بالرأفة ؟ قيل : قال الحسن : إن من رأفته بهم أن حذرهم نفسه ، وقد بينا أن معنى قوله « ويحذركم الله نفسه» عذابه . وفسرنا معنى رؤوف في ما مضى . وإن معناه رحيم بعباده .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣١) آية .

النزول:

قيل : إن هذه الآية نزلت في قوم من أهل الكتاب ، قالوا : نحن الذين نحب ربنا فجعل الله تصديق ذلك اتباع رسله . هذا قول الحسن وابن جريج . وقال محمد بن جعفر بن الزبير : إنها نزلت في وفد نجران من النصارى .

اللغة :

والمحبة : هي الارادة إلا أنها تضاف إلى المراد تارة ، وإلى متعلق المراد أخرى نحو أن تقول : أحب زيداً واحب إكرام زيد ، ولا تقول في الارادةذلك لأنك تقول : أريد إكرام زيد ، ولا تقول أريد زيداً . وإنما كان كذلك لقوة تصرف المحبة في موضع مثل الطباع الذي يجري مجرى الشهوة ، فعوملت تلكالمعاملة في الاضافة ومحبة الله للعبد هي ارادته لثوابه ومحبة العبد لله هي ارادته لطاعاته .

القراءة ، والحجة ، والاعراب :

وقوله : ﴿ فاتبعوني ﴾ أثبتت الياء فيه بلا خلاف ، لأنها في وسط آية وحذفت من قوله : « فاتقوا الله وأطيعون »لأنها رأس آية نوي بها الوقف لتشاكل رءوس الآي ، لأن سبيلالفواصل سبيل القوافي . وقيل أحببت فلاناً ، فهو محبوب ، فجاء مفعول للاستغناء به عن حببت حتى صار ذلك مهملا ، وقدجاء على الأصل قول عنترة :

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم (١)

وقد حكى الزجاج عن الكسائي (حببت) من الثلاثي ، وأجاز القراءة بفتح

« ١ » معلقته الشهيرة وغيرها .

التاء غير أنه قال هذه لغة قد ماتت . وقوله : ﴿ ويغفر لكم ﴾ لا يجوز في القياس إدغام الراء في اللام كما جاز إدغام اللام في الراء في هل رأيت ، لأن الراء مكررة ، ولا يدغم الزائد في الناقص للاخلال به ، وقياسها في ذلك قياس الضاد ، لأنه يجوز هل ضربت بالادغام ولا يجوز انقض له إلا بالاظهار لما في الضاد من الاستطالة ، وقال الزجاج : روي عن أبي عمرو إدغام الراء في اللام ، وغلط عليه لأنه خطأ فاحش باجماع علماء النحويين : الموثوق بهم ، وأجاز الفراء إدغامها في اللام كما يجوز إدغام الياء في الميم .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ أطيعوا اللهَ وَالرَّسولَ فإنْ تَولوا فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافِرينَ ﴾ (٣٢) آية بلا خلاف .

قال محمد بن جعفر بن الزبير : نزلت هذه الآية في وفد نجران ، وفيها دلالة على بطلان مذهب المجبرة ، لأنه قال لا يحب الكافرين ومعنى لا يحبهم لا يريد ثوابهم من أجل كفرهم ، فاذن لا يريد كفرهم ، لأنه لو أراده لم يكن نفي محبته لكفرهم ، والطاعة إتباع الداعي فيما دعا إليه بأمره أو إرادته ، ولذلك قد يكون الانسان مطيعاً للشيطان فيما يدعوه إليه ، وإن لم يقصد أن يطيعه ، لأنه إذا مال معما يجده في نفسه من الدعاء إلى المعصية ، فقد أطاع الداعي إليها . فإن قيل ما الفرق بين الطاعة وموافقة الارادة ؟ قيل : موافقة الارادة قد تكون طاعة ، وقد تكون غير طاعة إذا لم تقع موقع الداعي إلى الفعل نحو ارادتي ، لأن يتصدق زيد بدرهم من غير أن يشعر بذلك ، فلا يكون بفعله مطيعاً لي ولو فعله من أجل إرادتي لكان مطيعاً وكذلك لو أحسن بدعائي إلى ذلك فمال معه . وقوله : ﴿ إن الله لا يحب الكافرين ﴾ معناه أنه يبغضهم ولا يريد ثوابهم ، فدل بالنفي على الاثبات وكان ذلك أبلغ ، لأنه لو قال إنه يبغضهم لجاز أن يتوهم أنه يبغضهم من وجه ويحبهم من وجه كما يعلم الشيء من وجه ، ويجهل من وجه ، فاذا قيل لا يعلمه

لم يحتمل الوجوه .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصطفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبراهيمَ وَآلَ عِمران على العالمينَ ﴾ (٣٣) آية واحدة .

معنى اصطفى : اختار واجتبي وأصله من الصفوة ، وهـذا من حسن البيان الذي يمثل فيه المعلوم بالمرئي وذلك أن الصافي هو النقي من شائب الكدر فيما يشاهد فمثل به خلوص هؤلاء القوم من الفساد لما علم الله ذلك من حالهم لأنهم كخلوص الصافي من شائب الادناس . فان قيل : بماذا اختارهم أباختيار دينهم أو بغيره ؟ قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ بمعنى أنه اختار دينهم واصطفاه ، كما قال : « واسأل القرية »(١) وهذا قول الفراء :

و [الثاني] قال الزجاج واختاره الجبائي : انه اختيارهم للنبوة على عالمي زمانهم .

الثالث ـ قال البلخي : بالتفضيل على غيرهم بما رتبهم عليه من الامور الجليلة، لما في ذلك من المصلحة .

والاصطفاء هو الاختصاص بحال خالصة من الادناس . ويقال ذلك على وجهين . يقال : اصطفاه لنفسه أي جعله خالصاً له يختص به . والثاني ـ اصطفاه على غيره أي اختصه بالتفضيل على غيره وهو معنى الآية فان قيل : كيف يجوز اختصاصهم بالتفضيل قبل العمل ؟ قيل : إذا كان في المعلوم أن صلاح الخلق لا يتم إلا بتقديم الاعلام لذلك بما قدم من البشارة بهم ، والاخبار بما يكون من حسن أفعالهم والتشويق إليهم بما يكون من جلالتهم إلى غيره من الآيات التي تشهد لهم ، والقوى في العقول والافهام التي كانت لهم، وجب في الحكمة تقديم ذلك لما فيه

---

(١) سورة يوسف آية : ٨٢ .

من حسن التدبير .

فان قيل : من آل ابراهيم ؟ قيل : قال ابن عباس ، والحسن : هم المؤمنون الذين على دينه ، فيكون بمعنى اختصهم بمزية كانت منهم على عالمي زمانهم . وقيل : آل عمران هم آل ابراهيم كما قال : « ذرية بعضها من بعض » فهم موسى وهرون ابنا عمران . وقال الحسن : آل عمران المسيح ، لأن أمه مريم بنت عمران . وفي قراءة أهل البيت « وآل محمد على العالمين » . وقال أيضاً : إن آل إبراهيم : هم آل محمد الذين هم أهله . وقد بينا فيما مضى أن الآل بمعنى الأهل . والآية تدل على أن الذين اصطفاهم معصومون منزهون ، لأنه لا يختار ولا يصطفي إلا من كان كذلك ، ويكون ظاهره وباطنه واحداً ، فاذاً يجب أن يختص الاصطفاء بآل إبراهيم وآل عمران من كان مرضياً معصوماً سواء كان نبياً أو إماماً .

قوله تعالى :

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٤) .

اللغة ، والاعراب :

وزن ذرية فعلية ، مثل قمرية . ويحتمل أن يكون على وزن فعلولة . وأصله ذرورة إلا أنه كره التضعيف ، فقلبت الراء الأخيرة ياء ، فصار ذروية وقلبت الواو للياء التي بعدها ياء وادغمت احداهما في الاخرى ، فصار ذرية . قال الزجاج : والاول أجود وأقيس . ويحتمل نصبها وجهين :

أحدهما ـ أن يكون حالا والعامل فيهما اصطفى . والثاني ـ أن يكون على البدل من مفعول اصطفى .

المعنى :

ومعنى قوله : ﴿بعضها من بعض﴾ أي في الاجتماع على الصواب . قال الحسن:

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » (١) في الاجتماع على الهدى . وبه قال قتادة . الثاني ـ قال الجبائي وغيره : إنه في التناسل إذ جميعهم ذرية آدم ، ثم ذرية نوح ، ثم ذرية إبراهيم ، وهو المروي عن أبي عبدالله (ع) ، لأنه قال الذين اصطفاهم الله بعضهم من نسل بعض . وقوله : ﴿ والله سميع عليم ﴾ قيل فيه قولان: أحدهما ـ أنه سميع لما تقوله الذرية عليم بما تضمره ، فلذلك فضلها على غيرها لما في معلومه من استقامتها في قولها ، وفعلها . والثاني ـ سميع لما تقوله امرأة عمران من قوله : « اني نذرت لك ما في بطني محرراً » عليم بما تضمره ليدل على أنه لا يضيع لها شيء من جزاء عملها ونبه بذلك على استحسان ذلك منها ، لأن قول القائل قد علمت ما فعلت يجري في الوعد والوعيد معاً على حد واحد .

قوله تعالى :

﴿ إذْ قالتِ امرأةُ عِمرانَ ربِّ إني نَذَرتُ لكَ ما في بَطني مُحرَّراً فتقبلْ مِني إنكَ أنتَ السَّميعُ العَليمُ ﴾ (٣٥) آية واحدة بلا خلاف .

الاعراب ، والمعنى :

امرأة عمران المذكورة في الآية هي أم مريم بنت عمران أم المسيح ، وقيل أن اسمها كانت حنّة . و (إذ) تدل على ما مضى . وقيل فما يتعلق به (إذ) أربعة أقوال :

أحدها ـ قال الاخفش والمبرد: أنه اذكر إذ قالت .

الثاني ـ قال الزجاج : انه متعلق باصطفى آل عمران إذا قالت .

الثالث ـ يتعلق بسميع عليم إذ قالت ، فيعمل فيه معنى الصفتين على تقدير مدرك لنيتها وقولها إذ قالت ذكره الرماني .

الرابع ـ قال أبو عبيدة : ان (إذ) زائدة ، فلا موضع لها من الاعراب

(١) سورة التوبة آية : ٧٢ .

وهذا خطأ عند البصريين. وقوله: ﴿ نذرت لك ما في بطني محرراً ﴾ فالنذر قد بيناه فيما مضى، وهو قول القائل: لله عليّ كذا وكذا. وقيل في معنى (محرراً) ثلاثة أقوال: أحدها ـ قال الشعبي: معناه مخلصاً للعبادة. وقال مجاهد: خادماً للبيعة. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: عتيقاً من الدنيا لطاعة الله.

اللغة:

ومعنى (محرر) في اللغة يحتمل أمرين: أحدها ـ معتق من الحرية. تقول: حررته تحريراً: إذا أعتقته أي جعلته حراً. الثاني ـ من تحرير الكتاب وهو اخلاصه من الضرر والفساد. وأصل الباب الحرارة، لأن الحر يحمي في مواضع الانفة. فالمحرر يخلص من الاضطراب كما يخلص حرارة النار الذهب ونحوه من شائبة الفساد، وهو نصب على الحال من (ما) وتقديره نذرت لك الذي في بطني محرراً والعامل فيه نذرت.

وقوله: «فتقبل مني» فأصل التقبل المقابلة، وذلك للاعتداد بالشيء فيما يقابل بالجزاء عليه. وتقبل الصنيع مشبه بتقبل الهدية من جهة أخذه دون رده.

وقوله ﴿ إنك أنت السميع العليم ﴾ معناه السميع لما أقول العليم بما أنوي، فلهذا صحت الثقة لي.

قوله تعالى:

﴿ فَلما وَضعتها قالت رَبِّ إني وَضعتها أُنثى وَاللهُ أعلمُ بما وَضعت وَليسَ الذَّكرُ كالانثى وَإني سَميتُها مَريمَ وَإني أُعيذُها بكَ وَذُرِّيتها مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ ﴾ (٣٦) آية بلا خلاف.

القراءة، والمعنى:

قرأ «والله أعلم بما وضعتُ» ابن عامر، وأبو عمرو عن عاصم، ويعقوب

بمعنى قولي « فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها انثى » قيل : فيه قولان : أحدهما ـ الاعتذار من العدول عن النذر ، لأنها انثى . الثاني ـ تقديم الذكر في السؤال لها بانها انثى وذلك ان عيب الانثى أفظع ، وهو إليها أسرع ، وسعيها أضعف ، وعقلها أنقص فقدمت ذكر الانثى ليصح القصد لها في السؤال على هذا الوجه .

وقوله : « وليس الذكر كالانثى » اعتذار بأن الأنثى لا تصلح لما يصلح له الذكر ، وإنما كان يجوز لهم التحرير في الذكور دون الاناث ، لأنها لا تصلح لما يصلح له الذكر من التحرير لخدمة المسجد المقدس ، لما يلحقها من الحيض والنفاس ، والصيانة عن التبرج للناس . وقال قتادة : لم يكن التحرير إلا للغلمان فيما جرت به العادة . والهاء في قوله : « وضعتها » يحتمل أن يكون كناية عن (ما) في قوله « نذرت لك ما في بطني » وجاز ذلك لوقوع (ما) على مؤنث . ويحتمل أن يكون كناية عن معلوم قد دل عليه الكلام .

اللغة :

وأصل الوضع : الحط . وضعه يضعه وضعاً . ووضعت بمعنى ولدت أي وضعت الولد . ومنه الموضع : مكان الوضع . والتواضع : خلاف التكبر لأنه وضع العبد من نفسه . والضعة : الخساسة لأنها تضع من قدر صاحبها . والوضيعة : ذهاب شيء من رأس المال . والمواضعة : المواهبة في التباع لوضع ما ينفق عليه في ذلك . والايضاع في السير : الرفق فيه لأنه حط عن شدة الاسراع . ومنه قوله تعالى : « ولأوضعوا خلالكم » (١) وأصل الباب : الحط .

المعنى :

فان قيل هل يجوز أن تقول : والله أعلم بأن الجسم محدث من زيد العالم به ، كما قالت : « والله أعلم بما وضعت » ؟ قيل : لا يجوز لأن علم كل واحد منهما يجوز أن ينقلب عنه إلى خلافه ، وليس كذلك بأنه يعلم الله ، وأفعل من كذا إنما يقال للمبالغة في الصفة . ومن ضم التاء جعل ذلك من كلام أم مريم على وجه

(١) سورة التوبة آية : ٤٨ .

التسبيح والانقطاع إليه تعالى كما يقول القائل : قد كان كذا وكذا ، وأنت تعلم لا على وجه الاعلام بل على ما قلناه . واسكان التاء أجود لامرين : أحدهما ــ أن قولها « إني وضعتها انثى » قد أغنى عن ذلك . والثاني ـ أنه كان يجب أن تقول وأنت أعلم ، لأنها تخاطب الله تعالى .

وقوله : « وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » قيل في معناه قولان : أحدهما ـ الاستعاذة من طعن الشيطان للطفل الذي له يستهل صارخاً، فوقاها الله عز وجل وولدها عيسى منه بحجاب على ما رواه أبو هريرة عن النبي (ص) الثاني ـ قال الحسن انها استعاذت من إغواء الشيطان .

اللغة :

والرجيم بمعنى الموجود بالشبهة وأصل الرجم : الرمي بالحجارة رجم يرجم رجماً والرجم القذف بالغيب لأنه رمى العبد به . ومنه « لارجمنك وأهجرني مليا »(١) والرجم الاخبار عن الظن لأنه رمى بالخبر لاعن يقين . ومنه « رجماً بالغيب » (٢) والرجوم النجوم ، لأن من شأنها أن يرمى بها الشياطين ومنه قوله : « وجعلناها رجوماً للشياطين » (٣) . والرجام القبور التي عليها الحجارة . والمراجمة المباراة في الكلام ، والعمل له من كل واحد من النفيسين لرمي صاحبه بما يكيده وأصل الباب الرمي .

قوله تعالى :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى

(١) سورة مريم آية : ٤٦ . (٢) سورة الكهف آية : ٢٣ .
(٣) سورة الملك آية : ٥ .

لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرزُقُ مَن يَشاءُ بِغَيرِ حِسابٍ﴾ (٣٧) آية واحدة بلا خلاف .

القراءة ، والمعنى ، واللغة :

قرأ أهل الكوفة « كفلها » بالتشديد . الباقون بالتخفيف . والتخفيف أليق بقوله « أيهم يكفل مريم » (١) وقرأ أهل الكوفة إلا أبابكر (زكريا) مقصوراً . الباقون بالمد . ونصب (زكرياء) مع المد أبو بكر . الباقون بالرفع .

قوله : « فتقبلها ربها بقبول حسن » معناه رضيها في النذر الذي نذرته بالاخلاص للعبادة في بيت المقدس ، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك المعنى . وإنما جاء مصدر تقبلها على القبول دون التقبل ، لأن فيه معنى قبلها . وقال أبو عمرو : لا نظير للقبول في المصادر ، ففتح فاء الفعل والباب كله مضموم الفاء كالدخول ، والخروج ، وقال سيبويه : جاءت خمسة مصادر على فعول : قبول ، ووضوح ، وظهور ، وولوغ ، ووقود إلا أن الاكثر في وقود الضم إذا أريد المصدر . وأجاز الزجاج في القبول الضم .

وقوله : « وأنبتها نباتاً حسناً » معناه أنشأها إنشاء حسناً في عذابها وحسن تربيتها . والكفل تضمن مؤنة الانسان كفلته أكفله كفلا فأنا كافل : إذا تكلفت مؤنته . ومنه « وكفلها زكريا » ومن قرأ بالتثقيل فمعنا كفلها الله زكريا والكفيل : الضامن . والكفل : مؤخر العجز . والكفل من الرجال الذي يكون في مؤخر الحرب همته الفرار . والكفل النصيب .

ومنه قوله : ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ (٢) وقوله : ﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ﴾ (٣) وأصل الباب التأخر فمنه الكفالة الضمان . وفي زكريا ثلاث لغات : المد ، والقصر . وقد قرىء بها وزكريّ بالياء المشددة وأحكامها مختلفة

« ١ » سورة آل عمران آية : ٤٤ . « ٢ » سورة الحديد آية : ٢٨ .
« ٣ » سورة النساء آية : ٨٤ .

في الجمع . والتثنية ، فمن مد قال في التثنية : زكرياوان . وفي الجمع زكرياوون . ومن قصر قال في التثنية زكريان . وفي الجمع زكريون . والذي بالياء زكريان في التثنية ، وزكريون في الجمع ، وزكرياء بالمد لا يجوز صرفه لأن فيه ألفي التأنيث . ومن قال : لأنه أعجمي معرفة يلزمه إذا نكر أن يصرفه ، وهـذا لا يجوز . وأما زكري ، فانه ينصرف لأنه بنأ النسب خرج إلى شبه العربي كما خرج مدائني إلى شبه الواحد على قول المبرد . والمحراب : مقام الامام من المسجد وأصله أكرم موضع في المجلس وأشرفه قال عدي بن زيد العبادي :

كدمى العجاج في المحاريب أو كالـ ... بيض في الروض زهره مستنير(١)

وقيل هو المكان العالي ذكره الزجاج قال الشاعر :

ربة محراب إذا جئتهـا ... لم ألقها أو أرتقي سلما (٢)

وقوله : « وجد عندها رزقاً » ، فالرزق هو ما للانسان ، الانتفاع به على وجه ليس لأحد منعه .

المعنى :

وقيلَ إنه كان فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف في قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن اسحق . وقال : تكلمت في المهد ، ولم تلقم ثدياً قط ، وإنما كان يأتيها رزقها من الجنة ، وهذه تكرمة من الله تعالى لها . وعندنا يجوز فعل ذلك بالأولياء والصالحين ، وإن لم يكونوا أنبياء . ومن منع منه قالوا فيه قولين : أحدهما ـ أن ذلك كان آية لدعوة زكريا لها بالرزق في الجملة . والثاني ـ قال قوم : هو تأسيس لنبوة المسيح ، والأول قول الجبائي . واختار وجهاً آخر أن يكون الله (تعالى) سخر لهـا بعض عباده أن يأتيها به بلطفه على مجرى

(١) ديوانه في شعراء الجاهلية : ٤٥٥ . يصف نساء يقول : هن كتماثيل العاج في محاريب المعابد . والبيض : يعني بيض النعام . والروض جمع روضة وهي البستان .

(٢) قائله وضاح اليمني اللسان (حرب) . وقد استشهد به على أن المحراب صدر البيت وأكرم موضع فيه ، والجمع المحاريب .

العادة، ولا يكون معجزاً، وهذا خلاف جميع أقوال المفسرين، لأنهم كلهم قالوا لما رأى زكريا ذلك قال: الذي يقدر على أن يأتي مريم بالرزق يقدر أن يخلق الولد من امرأة عاقر، فهنالك سأله أن يرزقه ولداً. ويحتمل ايصال قوله: «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» بما تقدم من وجهين: أحدهما - أن يكون حكاية لقول مريم. والثاني - أن يكون استئنافاً من الله الاخبار به. والأولى أن يكون على الاستئناف، لأنه ليس من معنى الجواب عما سئلت عنه في شيء. وقال الحسن: هو على الحكاية. وقوله: «بغير حساب» معناه بغير حساب الاستحقاق على العمل، لأنه تفضل يبتدىء الله به من يشاء من خلقه. ويحتمل أن يكون المراد بغير تقتير كما يحسب الذي يخاف الاملاق. وقد بينا فيما مضى معنى (أنى) وأن معناه من أين لك. وقال قوم معناه كيف لك. والأول أظهر.

قوله تعالى:

﴿هُنالِكَ دَعا زَكَرِّيا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيبةً إنكَ سَميع الدُّعاءِ﴾ (٣٨) آية واحدة.

اللغة والمعنى:

معنى هنالك: عند ذلك. والأصل فيه الظرف من المكان نحو رأيته هنا وهناك، وهنالك، والفصل بينهما، القرب والبعد، فهنا للقريب وهنالك للبعيد، وهناك لما بينهما. وقال الزجاج: ويستعمل في الحال كقوله من ههنا قلت: كذا أي من هذا الوجه. وفيه معنى الاشارة كقولك: ذا، وذاك. وزيدت اللام لتأكيد التعريف، لأن الأصل في زيادتها التعريف إلا أنها كسرت لالتقاء الساكنين كما كسرت في ذلك. ولا يجوز إعرابها، لأن فيها معنى الحرف.

ومعنى الآية عند ذلك الذي رأى من فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف على خلاف ما جرت به العادة، طمع في رزق الولد من العاقر

على خلاف مجرى العادة ، فسأل ذلك . وزكريا (ع) وإن كان عالماً بأنه تعالى يقدر على خلق الولد من العاقر ، وإن لم تجربه العادة ، فانه كان يجوز ألا يفعل ذلك لبعض التدبير ، فلما رأى خرق العادة بخلق الفاكهة في غير وقتها قوي ظنه أنه يفعل ذلك: إذا اقتضت المصلحة ، وقوي في نفسه ما كان علمه ، كما أن ابراهيم وإن كان عالماً بأنه (تعالى) يقدر على إحياء الميت سأل ذلك مشاهدة لتأكد معرفته وتزول عنه خواطره . وقال الجبائي: إن الله تعالى كان أذن له في المسألة وجعل وقته الذي أذن له فيه الوقت الذي رأى فيه المعجزة الظاهرة فلذلك دعا .

وقوله : ﴿ قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾ فالهبة تمليك الشيء من غير ثمن تقول : وهب يهب ، فهو واهب والشيء موهوب ، وتواهبوا الأمر بينهم تواهباً ، واستوهبه استيهاباً . وقوله من لدنك معناه من عندك وإنما بني ولم يبن عند ، لأنه استبهم استبهام الحروف ، لأنه لا يقع في جواب أين كما يقع عند نحو قوله أين زيد فتقول عندك ، ولا تقول لدنك . « ذرية » تقع على الجمع ، والواحد . وقيل أن المراد ههنا واحد لقوله « فهب لي من لدنك ولياً » (١) وأما بمعنى الجمع ، فمثل قوله : « ذرية من حملنا من نوح » (٢) وقوله : « طيبة » قال السدي معناه مباركة . وإنما انث طيبة ، وهو سأل ولداً ذكراً على تأنيث الذرية كما قال الشاعر :

أبوك خليفة ولدته أخرى ... وأنت خليفة ذاك الكمال (٣)

وقال آخر :

فما تزدري من حية جبلية ... سكات إذا ما عاض ليس بأدردا (٤)

فجمع التأنيث ، والتذكير في بيت واحد مرة على اللفظ ، ومرة على المعنى .

---

(١) سورة مريم آية : ٤ . (٢) سورة الاسراء آية : ٣ .

(٣) اللسان : (خلف) ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ٢٠٨ .

(٤) اللسان : (سكت) ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ٢٠٨ . الحية الجبلية لسمها أشد . وحية سكوت وسكات ـ بضم السين ـ : اذا لم يشعر الملسوع بها حتى تلسعه . والأدرد : الذي سقطت أسنانه ، فلم يبق في فمه سن . يصف رجلا داهية شبهه بالحية الجبلية السكوت .

وإنما يجوز هذا في أسماء الأجناس دون الاعلام نحو طلحة، وحمزة، وعنترة، لا يجوز أن تقول جاءت طلحة من قبل أن التذكير الحقيقي يغلب على تأنيث اللفظ فأما قوله:

وعنترة الفيحاء جاءت ملاماً　　كأنك فند من عماية أسود

فانما أراد شفة عنترة، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. وقوله: ﴿إنك سميع الدعاء﴾ معناه سامع الدعاء بمعنى قابل الدعاء. ومنه قول القائل: سمع الله لمن حمده أي قبل الله دعاه وأصل السمع ادراك المسموع وإنما قيل للقابل سامع لأن من كان أهلا أن يسمع منه فهو أهل أن يقبل منه خلاف من لا يعتد بكلامه فكلامه بمنزلة ما لم يسمع.

قوله تعالى:

﴿فَنادَتهُ الملائكةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصلي في المحرابِ إنَّ اللهَ يُبشركَ بيحيى مُصدقاً بكلمةٍ مِنَ اللهِ وَسَيداً وَحصوراً وَنَبِيّاً مِن الصالحينَ﴾

(٣٩) آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ حمزة والكسائي وخلف «فناداه الملائكة» على التذكير، والامالة. الباقون على التأنيث، فالاول على المعنى، والثاني على اللفظ. وقرأ حمزة وابن عامر «إن الله» بكسر الهمزة على الحكاية. الباقون بفتحها على اعمال المناداة، وتقديره نادته بأن الله. وقرأ حمزة والكسائي «يبشرك» بفتح الياء وتخفيف الشين وضمها. الباقون بضم الياء وتشديد الشين.

المعنى واللغة:

وقال السدي الذي نادى زكريا جبريل وحده، فعلى هذا يكون ذهب مذهب

الجمع كما يقولون : ذهب في السفن وإنما خرج في سفينة وخرج على البغال وإنما ركب بغلا واحداً . وقال غيره : ناداه جماعة من الملائكة كأنه قيل : النداء جاء من قبل الملائكة وإنما جاز ذلك لعادة جارية نحو قولهم : ناداه أهل العسكر ، وناداه أهل البلد . وقوله : ﴿ وهو قائم يصلي ﴾ جملة في موضع الحال . وقوله : ﴿ إن الله يبشرك ﴾ في بشره من البشرى ثلاث لغات : بشره يبشره وبشره يبشره بشراً ، وأبشره بشاراً عن أبي العباس . وقرأ حميد « يبشرك » من أبشر ، وكل ذلك لظهور السرور في بشرة الوجه . وقيل إن المثقل من البشارة ، والمخفف من السرور ، والمعنيان متقاربان . وأنشد الاخفش :

وإذا لقيت الباهشين إلى الندى غبراً أكفهم بقاع ممحل
فاعنهم وابشر بما بشروا به وإذا هم نزلوا بضنك فانزل(١)

قال الزجاج هذا على بشر يبشر إذا فرح . وأصل هذا كله أن بشرة الانسان تنبسط عند السرور . وقوله : ﴿ بيحيى ﴾ قال قتادة سمي يحيى ، لأن الله تعالى أحياه بالايمان سماه الله بهذا الاسم قبل مولده .

وقوله : ﴿ مصدقاً ﴾ نصب على الحال من يحيى « بكلمة » يعني المسيح (ع) في قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والربيع ، والضحاك ، والسدي وجميع أهل التأويل إلا ما حكي عن أبي عبيدة أنه قال « بكلمة » أي بكتاب الله كما يقولون أنشدني فلان كلمة فلان أي قصيدته وإن طالت ، وإنما سمي المسيح كلمة الله لامرين :

أحدهما ـ أنه كان بكلمة الله من غير أب من ولد آدم .

والثاني ـ لأن الناس يهتدون به في الدين كما يهتدون بكلام الله .

وقوله : ﴿ وسيداً ﴾ يعني مالكاً لمن يجب عليه طاعته ، ومن ذلك سيد الغلام

« ١ » قائله عبد قيس بن خفاف البرجمي . اللسان : (كرب) ، (بشر) ، (يسر) ، معاني القرآن للفراء ١ : ٢١٢ والبيتان من قصيدة ينصح بها ولده جبيل . ورواية المصادر مختلفة . البهش : الفرح . بهش الى الشيء : فرح به وأسرع اليه . الندى : الكرم . الممحل : المجدب . الضنك : الضيق .

يعني مالكه ، ولا يقال سيد الثوب بمعنى مالك الثوب ، لأنه لا يتصور هناك وجوب طاعته . وأصل السواد الشخص ، فقيل سيد القوم بمعنى مالك السواد الاعظم ، وهو الشخص الذي تجب طاعته لمالكه ، وهذا إذا قيل مضافاً أو مقيداً فأما إذا اطلق فلا ينبغي إلا لله تعالى ، لأنه المالك لجميع الخلق . وقيل : معناه ههنا وسيداً في العلم والعبادة في قول قتادة .وقال الجبائي:معناه وسيداً للمؤمنين بالرياسة لهم . وقال الضحاك: سيداً في الحلم والتقى . وقيل سواد الانسان لشخصه ، لأنه يستر به لستر سواد الظلمة بتكاثفه ، وتسوله .« وحصورا » معناه الممتنع من الجماع . ومنه قيل للذي يمتنع أن يخرج مع ندمائه شيأ للنفقة حصور قال الأخطل :

وشارب مربح بالكاس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسوار (١)

يعني معربد ويقال للذي يكتم سره حصور ويقال : حصر في قراءته إذا امتنع بالانقطاع فيها . ومنه حصر العدو منعه الناس من التصرف . وقال عبدالله : الحصور العنين . وقال سعيد بن المسيب إنما كان معه مثل هدب الثوب . وقال الحسن ، وقتادة هو الذي لا يأتي النساء ، وهو المروي عن أبي عبد الله (ع) ،وقال بعضهم هو الذي لا يبالي ألا يأتي النساء . وقوله : « ونبيا من الصالحين » (من) ههنا لتبيين الصفة ليس المراد به التبعيض ، لأن النبي لا يكون إلا صالحاً .

قوله تعالى :

﴿قالَ رَبِّ أنى يَكونُ لي غُلامٌ وَقدْ بَلغنيَ الكِبرُ وَامرأتي عاقِرٌ قالَ كذلكَ اللهُ يَفعلُ ما يشاءُ﴾ (٤٠) .

« ١ » ديوانه : ١١٦ ، واللسان : (حصر) ، (سأر) ، (سور) ، وطبقات فحول الشعراء : ٤٣٢ ، ومجاز القرآن ١ : ٩٢ . المربح : المعطي الربح للتاجر . يريد أنه يغلي بثمن الخمر ولا يبالي بما يبذل فيها . والسوار : الذي تسور الخمر في دماغه فيعربد على رفاقه .

المعنى :

إن قيل لم راجع هذه المراجعة مع ما بشره الله تعالى بأنه يهب له ذرية طيبة ، وبعد أن سأل ذلك ؟ قيل : إنما راجع ليعرف على أي حال يكون ذلك أيرده إلى حال الشباب وامرأته ، أم مع الكبر ، فقال الله (تعالى) « كذلك الله يفعل ما يشاء » أي على هذه الحال ، وتقديره كذلك الأمر الذي أنت عليه « يفعل الله ما يشاء » هذا قاله الحسن . وقيل في وجه آخر ، وهو أنه قال على وجه الاستعظام لمقدور الله والتعجب الذي يحدث للانسان عند ظهور آية عظيمة من آيات الله ، كما يقول القائل : كيف سمحت نفسك باخراج الملك النفيس من يدك تعجباً من جوده ، واعترافاً بعظمه . وقال بعضهم : إن ذلك إنما كان للوسوسة التي خالطت قلبه من قبل الشيطان حتى خيلت إليه أن النداء كان من غير الملائكة.وهذا لا يجوز ، لأن النداء كان على وجه الاعجاز على عادة الملك فيما يأتي به من الوحي عن الله ، والانبياء (ع) لا يجوز عليهم تلاعب الشيطان بهم حتى يختلط عليهم طريق الافهام ، فلا يعرفوا نداء ملك من نداء شيطان أو انسان .

اللغة :

والغلام : هو الشباب من الناس . يقال : غلام بين الغلومية والغلومة والغلمة . والاغتلام : شدة طلب النكاح . والغيلم (١) منبع الماء من الآبار ، لأنه طلب الظهور . وغلم الاديم جعله في غلمة ليتفسخ عنه صوفه ، لأنه طلب لتقطعه . وقوله : ﴿ وقد بلغني الكبر ﴾ والمراد بلغت الكبر ، لأن الكبر بمنزلة الطالب له ، فهو يأتيه بحدوثه فيه . والانسان أيضاً يأتيه بمرور السنين عليه ، كما يقول القائل : يقطعني الثوب . وإنما هو يقطع الثوب . ولا يجوز أن يقول بلغني البلد بمعنى بلغت البلد ، لأن البلد لا يأتيه أصلا . وقوله : ﴿ وامرأتي عاقر ﴾ فالعاقر من النساء التي لا تلد . يقال : امرأة عاقر ، ورجل عاقر . وقال عامر بن الطفيل :

« ١ » الضفدع . ذكر السلحفاة . الشاب الكثير الشعر .

لبئس الفتى ان كنت أعور عاقرا   جباناً فما عذري لدى كل محضر (١)

وذلك لأنه كالذي حدث به عقر يقعده عما يحاول من الامر . وعقر كل شيء أصله . وعقر العاقر المصدر . والعقر : دية فرج المرأة : إذا غصبت نفسها وبيضة العقر آخر بيضة . والعقر : الجرح . والعقر : محلة القوم . والعاقر معروف . والعقار الخمر . والمعاقرة إدمان شربها مع أهلها . وأصل الباب : العقر الذي هو أصل كل شيء ، فعقر العاقر لانقطاع أصل النسل .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (٤١) .

الآية : العلامة وإنما سأل العلامة ، والآية لوقت الحمل الذي سأل ربه ليتعجل السرور به في قول الحسن ، فجعل الله تعالى آيته في امساك لسانه ، فلم يقدر أن يكلم الناس إلا إيماء من غير آفة حدثت في لسانه ، كما يقال في مريم « ثلاث ليال سويا » هذا قول الحسن ، وقتادة ، والربيع ، وأكثر المفسرين .

اللغة :

وفي وزن « آية » ثلاثة أقوال :

أحدها ـ فعلة إلا أنه شذ من جهة إعلال العين مع كون اللام حرف علة . وإنما القياس في مثله أعلال اللام نحو حياة ونواة . ونظيرها راية وطاية ، وشذ ذلك ، للاشعار بقوة اعلال العين .

الثاني ـ فعلة آية إلا أنها قلبت كراهية التضعيف نحو طاي في طي .

« ١ » ديوانه : ١١٩ ؛ ومجاز القرآن ١ : ٩٢ في المطبوعة (اغدر) بدل (اعور) . وعامر بن الطفيل أحد العوران . ذهبت عينه يوم فيف الريح وأما عقمه، فقد قال : مالي ولد واني لعاهر الذكر ، واني لأعور البصر .

الثالث ــ فاعلة منقوصة وهذا ضعيف ، لأنهم صغر وهاأيية ولو كانت فاعلة لقالوا أوية إلا أنه يجوز على ترخيم التصغير نحو فطيمة . « والرمز » الايماء بالشفتين . وقد يستعمل في الايماء بالحاجبين ، والعينين واليدين . والاول أغلب . قال جؤية بن عائذ :

وكان تكلم الابطال رمزا وغمغمة لهم مثل الهرير (١)

يقال منه : رمز يرمز رمزاً . ويقال : ارتمز : إذا تحرك . واصله الحركة .

المعنى، واللغة:

وقال مجاهد : الرمز تحريك الشفتين . وقال قتادة الرمز الاشارة . وقوله : ﴿ واذكر ربك كثيراً ﴾ معناه أنه لما منع من كلام الناس عرف أنه لا يمنع من الذكر لله والتسبيح له ، وذلك أعظم الآيـة وأبين المعجزة . وقوله : ﴿ سبح ﴾ معناه ههنا صل يقال فرغت من سبحتي أي من صلاتي . وأصل التسبيح التعظيم لله وتنزيهه عما لا يليق به . والعشي من حين زوال الشمس إلى غروب الشمس في قول مجاهد . قال الشاعر :

فلا الظل من برد الضحى يستطيعه ولا الفي من برد العشي تذوق

والعشاء من لدن غروب الشمس إلى أن يولي صدر الليل . والعشاء طعام العشي . والعشا ضعف العين والتعاشي : التعامي ، لابهام أنه بمنزلة من هو في ظلمة لا يبصر وأصل الباب الظلمة . والابكار من حين طلوع الفجر إلى وقت الضحى . وأصله التعجيل بالشيء يقال : أبكر ابكاراً وبكر يبكر بكوراً . وقال عمر بن أبي ربيعة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر (٢)

وقال جرير :

ألا بكرت سلمى فجذ بكورها وشق العصا بعد اجتماع أميرها(٣)

« ١ » لم نجد هذا البيت . في المطبوعة (كأن) بدل (وكان) والصحيح ما ذكرنا .

« ٢ » ديوانه مطلع قصيدته الرائية المشهورة وتتمه البيت: غداة غدأم رائح فمهجر .

« ٣ » ديوانه : ١٣٦ . يجيب حكيم بن معية الربعي، وكان هجا جريراً . شق العصا :التفرق .

ويقال في كل شيء تقدم : بكر ومنه الباكورة أول ما يجيء من الفاكهة .

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قالَتِ الملائِكَةُ يا مَريمُ إنَّ اللهَ اصطفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصطفاكِ على نساء العالمين ﴾ (٤٢) آية واحدة .

العامل في (إذ) يحتمل أن يكون أحد شيئين :

أحدهما ـ سميع عليم إذ قالت امرأة عمران . وإذ قالت الملائكة يكون عطفاً على (إذ) الاولى .

الثاني ـ اذكر إذ قالت ، لأن المخاطب في حال تذكير وتعريف . وقوله : ﴿ اصطفاك على نساء العالمين ﴾ يحتمل وجهين : قال الحسن وابن جريج على عالمي زمانها . وهو قول أبي جعفر (ع) ، لأن فاطمة سيدة نساء العالمين. وروي عن النبي (ص) أنه قال : فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين . وقال أيضاً (ع) حسبك من نساء العالمين بأربع مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد (ص) .

الثاني ـ ما قاله الزجاج ، واختاره الجبائي : إن [illegible] اختارك على نساء العالمين بحال جليلة من ولادة المسيح عيسى (ع) .

وقوله : ﴿ وطهرك ﴾ في معناه قولان :

أحدهما ـ قال الحسن ، ومجاهد : طهرك من الكفر .

والثاني ـ ذكره الزجاج أن معناه طهرك من سائر الادناس : الحيض ، والنفاس ، وغيرها . وإنما كرر لفظ اصطفاك ، لأن معنى الأول اصطفاك بالتفريغ لعبادته بما لطف لك حتى انقطعت إلى طاعته وصرت متوفرة على اتباع مرضاته ومعنى الثاني اصطفاك بالاختيار لولادة نبيه عيسى (ع) على قول الجبائي . وقال أبو جعفر (ع) اصطفاها أولا من ذرية الانبياء وطهرها من السفاح . والثاني ـ

اصطفاها لولادة عيسى (ع) من غير فحل. وفي ظهور الملائكة لمريم قالوا قولين: أحدها ـ أن ذلك معجزة لزكريا (ع)، لأن مريم لم تكن نبية، لقول الله تعالى «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم» (١). والثاني ـ أن يكون ذلك برهاناً لنبوة عيسى (ع) كما كان ظهور الشهب والغمامة وغير ذلك معجزة للنبي (ص) قبل بعثته، فالاول قول الجبائي، والثاني قول ابن الاخشاد. ويجوز عندنا أن يكون ذلك معجزة لها وكرامة، وإن لم تكن نبية لأن اظهار المعجزات ـ عندنا ـ تجوز على يد الأولياء، والصالحين، لأنها إنما تدل على صدق من ظهرت على يده سواء كان نبياً أو إماماً أو صالحاً، على أنه يحتمل أن يكون الله تعالى قال ذلك لمريم على لسان زكريا (ع). وقد يقال: قال الله لها، وإن كان بواسطة كما تقول: قال الله للخلق كذا وكذا وإن كان على لسان النبي (ص)، ولا يحتاج مع ذلك إلى ماقالوه.

قوله تعالى:

﴿ يا مَريَمُ اقْنُتي لِرَبِّكِ وَاسجدي وَارْكَعي مَعَ الرّاكِعينَ ﴾

(٤٣) آية واحدة بلا خلاف.

قيل في معنى قوله: «اقنتي» ثلاثة أقوال:

أحدها ـ قال سعيد بن جبير أن معناه اخلصي لربك العبادة. الثاني ـ قال قتادة معناه ادِيمي الطاعة. الثالث ـ قال مجاهد اطلبي القيام في الصلاة. وأصل القنوت الدوام على الشيء وقوله: ﴿واسجدي﴾ وأصل السجود الانخفاض الشديد للخضوع قال الشاعر:

فكلتاهما خرت واسجد راسها كما سجدت نصرانة لم تحنف (٢)

وكذلك القول في الركوع إلا أن السجود أشد انخفاضاً. وقد بينا فيما

---

(١) سورة يوسف آية: ١٠٩ وسورة النحل آية: ٤٣ وسورة الانبياء آية: ٧.

(٢) مر تخريجه في ١: ٢٨١.

مضى حقيقته . وإنما قدم ذكر السجود في الآية على الركوع ، لأن النية به التأخير والتقدير اركعي واسجدي ، لأن الواو لا توجب الترتيب ، لأنها نظيرة التثنية إذا اتفقت الاسماء والصفات . تقول جاءني زيد وعمرو ، ولو جمعت بينهما في الخبر لقلت جاءني الزيدان . وقوله : ﴿ مع الراكعين ﴾ فيه قولان : أحدهما ـ أن معناه افعلي مثل فعلهم . الثاني ـ قال الجبائي : أي في صلاة الجماعة .

قوله تعالى :

﴿ ذَلكَ من أنبـاءِ الغيبِ نُوحيهِ اليكَ وَما كُنتَ لدَيهمْ إذْ يُلقونَ أقلامَهم أيهم يَكفلُ مَريمَ وَما كُنتَ لدَيهم إذْ يختصمونَ ﴾ (٤٤) آية .

المعنى ، واللغة :

ذلك إشارة إلى الاخبار عما تقدم من القصص . وفيه احتجاج على المشركين ، من حيث أنه جاء بما لا يعلم إلا من أربعة أوجه : إما مشاهدة الحال ، أو قراءة الكتب ، أو تعليم بعض العباد ، أو بوحي من الله . وقد بطلت الأوجه الثلاثة للعلم بأنها لم تكن حاصلة للنبي (ص) ، فصح أنه على الوجه الرابع : بوحي من الله (تعالى) . والايحاء : هو القاء المعنى إلى صاحبه فقوله : « نوحيه اليك » أي نلقي معناه اليك . والايحاء : الارسال إلى الانبياء تقول : أوحى الله إليه أي أرسل إليه ملكا . والايحاء الالهام ومنه قوله تعالى « وأوحى ربك إلى النحل » (١) أي ألهمها وقوله : « بأن ربك أوحى لهـا » (٢) معناه ألقى إليها معنى ما أراد فيها . قال العجاج :

---

(١) سورة النحل آية : ٦٨ .

(٢) سورة الزلزال آية : ٥ .

أوحى لها القرار فاستقرت (١)

والايحاء الايماء قال الشاعر :

فأوحت إلينا والانامل رسلها

ومنه قوله: « فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا» (٢) أي أشار إليهم ، والوحي : الكتاب . يقال : وحى يحي وحياً أي كتب ، لأن به يلقي المعنى إلى صاحبه قال رؤبة :

لقدر كان وحاه الواحي

وقال :

في سور من ربنا موحية

وقال آخر :

من رسم آثار كوحي الواحي

وأصل الباب القاء المعنى إلى صاحبه . وقوله : « أوحيت إلى الحواريين»(٣) أي ألقى إليهم وألهمهم إلهاماً . ومنه قوله : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » (٤) أي يلقون إليهم وقوله : « وأوحي إلي هذا القرآن » (٥) أي ألقي إلي . والغيب : خفاء الشيء عن الادراك . تقول غاب عني كذا يغيب غيباً وغياباً . والغائب : نقيض الحاضر .

وقوله : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ قيل فيه قولان :

أحدهما ـ التعجب من حرصهم على كفالتها ، لفضلها . ذكره قتادة ، لأنه

---

(١) ديوانه : « واللسان (وحى) من رجز يذكر فيه ربه ويثني عليه بآلائه ، أوله :

الحمد لله الذي استقلت ... باذنه السماء واطمأنت

باذنه الأرض وما تعتت ... أوحى لها القرار فاستقرت

وشدها بالراسيات الثبت ... رب البلاد والعباد القنت

وفي أحد روايتي اللسان (وحى لها) بدل (أوحى لها) .

(٢) سورة مريم آية : ١١ .

(٣) سورة المائدة آية : ١١٤ .

(٤) سورة الانعام آية : ١٢١ .

(٥) سورة الانعام آية : ١٩ .

قال : فشاح القوم عليها ، فقال زكريا : أنا أولى ، لأن خالتها عندي . وقال القوم : نحن أولى لأنها بنت إمامنا ، لأن عمران كان إمام الجماعة .

الثاني ـ التعجب من تدافعهم لكفالتها ، لشدة الأزمة التي لحقتهم حتى وفق لها خير الكفلاء بها زكريا (ع) . وفي الآية حذف وتقديرها « إذ يلقون أقلامهم » لينظروا « أيهم يكفل مريم » أي أيهم أحق بكفالتها . والأقلام معناها ههنا القداح وذلك أنهم ألقوها تلقاء الجرية ، فاستقبلت عصا زكريا جرية الماء مصعدة . وانحدرت أقلام الباقين ، فقرعهم زكريا في قول الربيع ، وكان ذلك معجزة له (ع) . والقلم : الذي يكتب به . والقلم : الذي يجال بين القوم ، كل إنسان وقلمه ، وهو القدح . والقلم : قص الظفر قامته تقليماً . ومقالم الرمح كعوبه . والقلامة هي المقلومة عن طرف الظفر وأصل الباب قطع طرف الشيء .

وقوله : ﴿ وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ فيه دلالة على أنهم قد بلغوا في التشاح عليها إلى حد الخصومة ، وفي وقت التشاح قولان :

أحدهما ـ حين ولادتها وحمل أمها إياها إلى الكنيسة تشاحوا في الذي يحضنها ويكفل بتربيتها ، وهو الأكثر . وقال بعضهم إنه كان ذلك بعد كبرها وعجز زكريا عن تربيتها .

و (إذ) الأولى متعلقة بقوله : « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم » والثانية بقوله : « يختصمون » على قول الزجاج .

قوله تعالى :

﴿ إذْ قالتِ الملائكةُ يا مَريمُ إنَّ اللهَ يُبشركِ بكلمةٍ منهُ اسمهُ المسيحُ عيسى ابنُ مَريمَ وَجيهاً في الدُّنيا والآخرةِ وَمِنَ المقرَّبينَ (٤٥)

آية عند الجميع .

العامل في (إذ) يحتمل أمرين أحدهما ـ وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة . الثاني ـ يختصمون « إذ قالت الملائكة » : «إن الله يبشرك» فالتبشير إخبار المرء بما يسر

من الأمر سمي بذلك لظهور السرور في بشرة وجهه عند إخباره بما يسره ، لأن أصله البشرة وهي ظاهر الجلد . وقوله : ﴿ بكلمة منه ﴾ هو المسيح سماه الله كلمة على قول ابن عباس وقتادة وذلك يحتمل ثلاثة أوجه : سمي بذلك ، لأنه كان بكلمة الله من غير والد وهو قوله : « كن فيكون » (١) . الثاني ـ لأن الله تعالى بشر به في الكتب السالفة ، كما تقول : الذي يخبرنا بأمر يكون [إذا خرج موافقاً لأمره] (٢) قد جاء في قول لي وكلامي . فمن البشارة به في التوراة آتانا الله من سيبنا ، فأشرق من ساعيرواستعلن من جبال فاران . وساعير هو الموضع الذي بعث منه المسيح (ع) . الثالث ـ لأن الله يهدي به كما يهدي بكلمته . والقول الثاني مما قيل في الكلمة : أنها بمعنى البشارة كأنه قيل ببشارة منه : ولد اسمه المسيح والتأويل الأول أقوى ، لقوله : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » (٣) ، ولأنه معلوم من دين المسلمين أن كلمة الله المسيح (ع) . وإنما ذكر الضمير في اسمه وهو عائد إلى الكلمة ، لأنه واقع على مذكر ، فاذا ذكر ذهب إلى المعنى ، وإذا أنث ذهب إلى اللفظ . وقيل في تسمية المسيح مسيحاً : قولان :

أحدها ـ قال الحسن ، وسعيد : لأنه مُسح بالبركة . وقال آخرون : لأنه مُسح بالتطهر من الذنوب . وقال الجبائي سمي بذلك ، لأنه مُسح بدهن زيت بورك فيه . وكانت الانبياء تتمسح به . فان قيل : يجب على ذلك أن يكون الانبياء كلهم يسمون مسيحاً ؟ قلنا : لا يمتنع أن يختص بذلك بعضهم ، وإن كان المعنى في الجميع حاصلا ، كما قالوا في ابراهيم خليل الله . وأصله ممسوح عدل عن مفعول إلى فعيل . وقوله : ﴿ وجيهاً ﴾ نصب على الحال . ومعنى الوجيه الكريم على من يسأله

« ١ » سورة البقرة آية : ١١٨ وسورة آل عمران آية : ٤٧ وسورة الانعام آية : ٧٣ وسورة النحل : ٤٠ وسورة مريم آية : ٣٥ وسورة يس آية : ٨٢ وسورة المؤمن آية : ٦٨ .

« ٢ » ما بين القوسين من مجمع البيان وكان في المطبوعة نقص في هذا الموضع كما أن الجملة التي بعدها لا تقرأ .

« ٣ » سورة آل عمران : ١٧٠ .

لأنه لا يرده لكرم وجهه عنده ،خلاف من يبذل وجهه للمسألة فيرد ، يقال منه وجه الرجل يوجه وجاهة، وله جاه عند الناس وجاهة أي منزلة رفيعة . قوله : « ومن المقربين » معناه إلى ثواب الله وكرامته ، وكذلك التقرب إلى الله إنما هو التقرب إلى ثوابه وكرامته . وفي الآية دلالة على تكذيب اليهود في الفرية على أم المسيح وتكذيب النصارى في ادعاء إلهيته على ما ذكره محمد بن جعفر بن الزبير وغيره .

قوله تعالى :

﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٤٦) آية .

الاعراب :

موضع « ويكلم الناس في المهد » نصب على الحال عطفاً على (وجيهاً)ومكلما وكذلك عطف عليه (وكهلا) بالنصب . ويجوز عطف الفاعل على الفعل لتقارب معنيهما قال الشاعر :

بات يغشاها بعضب باتر   يقصد في أسوقها وجائر(١)

أي ويجور وقال آخر :

يا ليتني علقت غير خارج   قبل الصباح ذات خلق بارج
أم صبي قد حبا أو دارج (٢)

أي أو درج ويجوز في قوله : « وكهلا » أن يكون معطوفاً على الظرف من قوله : « في المهد » .

اللغة :

والمهد مضجع الصبي في رضاعه في قول ابن عباس ، مأخوذ من التمهيد .

(١) معاني للقرآن للفراء ١ : ٢١٣ وأمالي ابن الشجري ٢ : ١٦٧ وخزانة الادب ٢ : ٣٤٥ واللسان (كهل) ورواية البيت مختلفة . بعضها (بت أعشيها ...) .

(٢) هكذا في المطبوعة ورواية اللسان (درج) :

يا ليتني قد زرت غير خارج   أم صبي قد حبا ودارج

والكهل : من كان فوق حال الغلومة ، ودون الشيخوخة . ومنه اكتهل النبت : إذا طال ، وقوي . ومنه الكاهل فوق الظهر إلى ما يلي العنق والمرأة كهلة . قال الراجز :

ولا أعود بعدهـا كريا   امارس الكهلة والصبيا (١)

وقيل الكهولة بلوغ أربع وثلاثين سنة . وقال مجاهد : الكهل : الحليم وأصل الباب العلو ، فالكهل لعلو سنه ، أو لعلو منزلته .

المعنى :

ووجه كلامه في المهد تبرئة لأمه مما قذفت به ، وجلالة له بالمعجزة التي ظهرت فيه . فان قيل : فما معنى « وكهلا » وليس بمنكر الكلام من الكهل ؟ قيل فيه ثلاثة أوجه :

أحدها ـ يكلمهم كهلا بالوحي الذي يأتيه من قبل الله . الثاني ـ انه يبلغ حال الكهل في السن ، وفي ذلك أيضاً إعجاز لكون المخبر على ما أخبر به . الثالث ـ أن المراد به الرد على النصارى بما كان منه من التقلب في الأحوال ، لأنه مناف لصفة الاله . فان قيل كيف جحدت النصارى كلام المسيح في المهد وهو معجزة عظيمة ؟ قلنا : لأن في ذلك ابطال مذهبهم ، لأنه قال : «إني عبدالله» (٢) فاستمروا على تكذيب من أخبر أنه شاهده كذلك . وفي ظهور المعجزة في تلك الحال قيل فيه قولان :

أحدها ـ إنها كانت مقرونة بنبوة المسيح ، لأنه كمل عقله في تلك الحال حتى عرف الله بالاستدلال ، ثم أوحى إليه بما تكلم به ، هذا قول أبي علي الجبائي . وقال ابن الاخشاذ : إن كل ذلك كان على جهة التأسيس لنبوته ، والتمكين لها بما يكون دالا عليها ، وبشارة متقدمة لها . ويجوز ـ عندنا ـ الوجهان . ويجوز

---

(١) قائله عذافر الفقيمي أمالي القالي ٢ : ٢١٥ وشرح أدب الكاتب لابن السيد : ٢١٧ ، ٣٨٩ ، واللسان (كهل) ، (كرا) ، (شعفر) ، (أمم) وغيرها كثير . كريا : مكاري وكان عذافر يكرى ابله الى مكة فأكر معة ـ رجل من أهل البصرة ـ بعيراً يركبه هو وزوجته وفي الطريق قال بهما رجز طويل

(٢) سورة مريم آية : ٣٠ .

أيضاً أن يكون ذلك معجزة لمريم تدل على براءة ساحتها مما قذفت على ما بينا جوازه فيما مضى .

قوله تعالى :

﴿ قالتْ رَبِّ أنّى يَكونُ لي وَلدٌ وَلمْ يَمسسني بَشرٌ قالَ كذلِكِ اللهُ يَخلقُ ما يَشاءُ إذا قَضى أمراً فإنّما يقولُ لهُ كُنْ فَيكون ﴾ (٤٧)

آية واحدة .

المعنى :

إن قيل كيف سألت مريم عن خلق الولد من غير مسيس مع أنها لا تنكر ذلك في مقدور الله تعالى ؟ قلنا : فيه وجهان : أحدهما ـ أنها استفهمت أيكون ذلك ، وهي على حالتها من غير بشر أم على مجرى العادة من بشر ، كما يقول القائل : كيف تبعث بفلان في هذا السفر ، وليس معه ما يركبه معناه ، لأنه قوي أم هناك مركوب ؟ الثاني ـ ان في البشرة : التعجب مما خرج عن المعتاد فتعجبت من عظم قدرة الله كما يقول القائل عند الآية يراها : ما أعظم الله ، وكما يقول القائل لغيره كيف تهب ضيعتك ، وهي أجل شيء لك . وليس يشك في هبته وإنما يتعجب من جوده . وقوله : ﴿ قال كذلك الله ﴾ حكاية ما قال لها الملك . وقوله : « كن فيكون » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ أنه على جهة المثل لأن منزلة جميع ما يريد احداثه من جسم أو عرض كثر ذلك أو قل ، فانما هو بمنزلة قول القائل : كن ، في أنه يكون بغير علاج ، ولا معاناة ، ولا تكلف سبب ، ولا أداة ، ولا شغل ببعض عن بعض ، ولا انتهاء فيه إلى حد لا يمكن ضعفه ، ولا زيادة عليه .

الثاني ـ ان معناه أن الله تعالى جعل (كن) علامة للملائكة فيما يريد إحداثه

لما فيها من اللطف ، والاعتبار . ويمكن الدلالة على الأمور المقدورة لله تعالى . وقول من قال ان قوله : « كن » سبب للحوادث التي يفعلها الله تعالى فاسد من وجوه :

أحدها ـ ان القادر بقدرة يقدر على أن يفعل من غير سبب ، فالقادر للنفس بذلك أولى . ومنها أن « كن » محدثة فلو احتاجت إلى « كن » أخرى لتسلسل ، وذلك فاسد . ولو استند ذلك إلى كن قديمة ، لوجب قدم المكون ، لأنه كان يجب أن يكون عقيبه ، لأن الفاء توجب التعقيب وذلك يؤدي إلى قدم المكونات .

ومنها أنه لو ولدت لولدت من فعلنا كالاعتماد . وإنما استعمل القديم لفظة الأمر فيما ليس بأمر هاهنا ليدل بذلك على أن فعله بمنزلة فعل المأمور في أنه لا كلفة على الآمر ، فكذلك هذا لا كلفة على الفاعل ، وذلك على عادة العرب في جعلهم وقوع الشيء عقيب الارادة بمنزلة الجواب عن السؤال قال الشاعر :

وقالت لنا العينان سمعاً وطاعة وحدرتا كالدر لما يثقب (١)

فجعل انحدار الدمع قولا على الوجه الذي بيناه . وقوله : ﴿ كن فيكون ﴾ ههنا لا يجوز فيه إلا الرفع ، لأنه لا يصلح أن يكون جواباً للأمر في كن لأن الجواب يجب بوجود الاول نحو اتني فاكرمك وقم فاقوم معك . ولا يجوز قم فيقوم ، لأنه بتقدير قم فانك إن تقم يقم . وهذا لا معنى له ، ولكن يجوز الرفع على الاختيار انه سيقوم ويجوز في قوله : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (٢) النصب ، لأنه معطوف على « أن نقول » كأنه قيل أن نقول فيكون .

قوله تعالى :

﴿ وَيُعلمهُ الكتابَ وَالحِكمةَ وَالتوراةَ وَالانجيلَ ﴾ (٤٨) .

« ١ » مر تخريجه في ١ : ٤٣١ .

« ٢ » سورة النحل آية : ٤٠ .

القراءة ، والحجة :

قرأ أهل المدينة ، وعاصم ، ويعقوب « ويعلمه » بالياء الباقون بالنون . فمن قرأ بالياء حمله على « يخلق ما يشاء » ويعلمه . ومن قرأ بالنون حمله على قوله : « نوحيه إليك » . والنون أفخم في الاخبار ، لأن الياء حكاية عن الملك .

المعنى ، والاعراب :

ومعنى قوله : « ويعلمه الكتاب » قال ابن جريج : الكتابة بيده . وقال أبو علي : كتاب آخر غير التوراة ، والانجيل نحو الزبور أو غيره . فان قيل : لم أفرد التوراة والانجيل بالذكر مع دخولها في الحكمة ؟ قيل : إنما أفردهما بالذكر تنبيهاً على فضلهما مع جلالة موقعهما كما قال : « وملائكته ورسله وجبريل وميكال » (١) وموضع يعلمه من الاعراب يحتمل أن يكون نصباً بالعطف على وجيهاً . ويحتمل أن يكون لا موضع له من الاعراب ، لأنه عطف على جملة لا موضع لها ، وهي قوله : « كذلك الله يخلق ما يشاء » . وقال بعضهم : هو عطف على « نوحيه إليك » قال الرماني : هذا لا يجوز ، لأنه يخرجه من معنى البشارة بمريم . وإنما هو محمول على مشاكلته لا على جهة العطف عليه . وعد أهل الكوفة التوراة والانجيل ، ولم يعدوا رسولا إلى بني اسرائيل لتنكب الاستئناف بأن المفتوحة . والاستئناف بذكر المنصوب كثير في الكلام . وأما أهل المدينة فانما طلبوا تمام صفة المسيح ، لأن تقديره ومعلماً كذا ورسولا إلى كذا .

قوله تعالى :

﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ

(١) سورة البقرة آية : ٩٨ .

اللهِ وَأبرئُ الاكمهَ وَالابرَصَ وَأحيي الموتى باذنِ اللهِ وَأنبّئكم بما تأكلونَ وما تدخرونَ في بيوتِكم إنَّ في ذلكَ لآيةً لكم إن كنتم مؤمنينَ (٤٩) آية .

القراءة :

قرأ أهل المدينة ويعقوب «طائراً بأذن الله» الباقون . « طيراً » وهو الاجود ، لأنه إسم جنس وطائر صفة . وقرأ نافع وحده « إني أخلق » بكسر الهمزة . الباقون بفتحها .

الاعراب ، والحجة :

يحتمل نصب قوله : « ورسولا » وجهين :

أحدها ـ بتقدير ويجعله رسولا فحذف لدلالة الاشارة عليه . والثاني ـ أن يكون نصباً على الحال عطفاً على وجيهاً ، لا أنه في ذلك الوقت يكون رسولا بمعنى أنه يرسل رسولا . وقال الزجاج وجهاً ثالثاً بمعنى يكلمهم رسولا في المهد بـ «أني قد جئتكم بآية من ربكم» ولو قرئت (إني) بالكسر (قد جئتكم) كان صواباً . والمعنى يقول« إني قد جئتكم بآية من ربكم »أي بعلامة تدل على ثبوت رسالتي . وموضع « إني أخلق »يحتمل أن يكون خفضاً ورفعاً ، فن قرأبا لخفض فعلى البدل من آية بمعنى جئتكم بأني أخلق لكم من الطين . والرفع أريد به الآية إني أخلق من الطين . وجائز أن يكون (إني أخلق لكم) مخبرهم بهذه الآية ما هي أي أقول لكم « إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير » .

المعنى :

والمراد بالخلق التقدير دون الاحداث ، يقال في التفسير أنه صنع من الطين كهيئة الخفاش ، ونفخ فيه فصار طائراً . وجاز أن يقول فيه للفظ الطين . وقال في

موضع آخر .« فينفخ فيها فتكون طائراً باذني » (١) للفظ الهيئة .

اللغة :

والطين معروف . ومنه طنت الكتاب طيناً أي جعلت عليه طيناً ، لأختمه . وطينت البيت تطييناً . والطيانة : حرفة الطيان والطينة : قطعة من طين يختم بها الصك ونحوه . والهيأة : الحال الظاهرة هاء فلان يهاء هيئة . ومن قرأ (هيئت) معناه تهيأت لك فأما « هيت لك » فهلم لك والهيء : الحسن الهيئة من كل شيء . والمهاياة : أمر يتهايا عليه القوم فيتراضون به . وقوله : «فانفخ فيه » النفخ معروف تقول نفخ ينفخ نفخاً ، وانتفخ انتفاخاً ، ونفخه نفخاً . والنفاخة للماء ، والنفخة نحو الورم في البطن . والنفخة : نفخة الصور يوم القيامة . والمنفاخ كير الحداد . وأصل الباب نفخ الريح التي تخرج من الفم .

المعنى :

ومعنى « أنفخ فيه » يعني أنفخ فيه الروح وهو جسم رقيق كالريح ، وهو غير الحياة ، لأن الجسم إنما يحيا بما يفعله الله تعالى فيه من الحياة ، لأن الأجسام كلها متماثلة يحيي الله منها ما يشاء . وإنما قيد قوله : « فيكون طيراً بأذن الله » ولم يقيد قوله : « أخلق من الطين كهيئة الطير » بذكر إذن الله لينبه بذكر الاذن أنه من فعل الله دون عيسى . وأما التصوير والنفخ ، ففعله ، لأنه مما يدخل تحت مقدور القدر ، وليس كذلك انقلاب الجماد حيوانًا فانه لا يقدر على ذلك أحد سواه تعالى . وقوله : ﴿ وأحيي الموتى بأذن الله ﴾ على وجه المجاز إضافة إلى نفسه وحقيقته ادعوا الله باحياء الموتى فيحييهم الله فيحيون باذنه .

اللغة والمعنى :

وقوله : « وأبرىء الأكمه » فالبرء والشفاء والعافية نظائر في اللغة .

---

(١) سورة المائدة آية : ١١٣ .

والأكمه الذي يولد أعمى في قول قتادة ، وأبي علي وقال الحسن ، والسدي : هو الاعمى . والكمه عند العرب العمى كمه يكمه كمهاً قال سويد بن أبي كاهل :

كمهت عيناه حتى ابيضتا فهو يلحي نفسه لما نزع (١)

والابرص معروف . وقوله : ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴾ أي أخبركم وأعلمكم بالذي تأكلونه ، فتكون (ما) بمعنى الذي ويحتمل أن تكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر ، ويكون تقديره أخبركم بأكلكم . والأول أجود لقوله : «وماتدخرون» ويحتمل أن يكون المراد أيضاً وادخاركم . والاذخار الافتعال من الذخر ذخرت أذخر ذخراً وأذخرت اذخاراً . وأصل الباب الذخر ، وهو خبء الشيء لتأتيه . وإنما أبدلت الدال من الذال في « تدخرون » لتعديل الحروف أو أبدلت الدال من الذال بوجهين الجهر واختلاف المخرج ،فبدل ذلك بالدال ، لأنها موافقة للتاء بالمخرج والدال بالجهر ، فلذلك كان الاختيار ، وكان يجوز تذخرون بالذال على الأصل ونظير ذلك في التعديل بين الحروف وازدجر ، فمن اضطر ، واصطبر ، لموافقة الطاء للضاد والضاد بالاستعلاء والاطباق ، ولم يجز إدغام الزاي في الدال ، لأنها من حروف الصفير . ولكن يجوز مزجر . ولم يدغم الضاد في الطاء لأن فيها استطالة . والمجهور من الحروف : كل حرف اشبع الاعتماد عليه في موضعه ومنع النفس أن يجري معه . والمهموس : كل حرف أضعف الاعتماد عليه في موضعه وجرى معه النفس . وقوله : ﴿ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ وإن كانت آية للجميع ، لأن معناه « إن كنتم مؤمنين » بالله إذ كان لا يصح العلم بمدلول المعجزة إلا لمن آمن بالله ، لأن العلم بالمرسل قبل العلم بالرسول . وإنما يقال هي آية للجميع بأن يقدموا قبل ذلك الاستدلال على التوحيد . وأيضاً بأن من استحق وصفه بأنه مؤمن علم أن ذلك من آيات الله عز وجل .

« ١ » اللسان (كمه) وروايته (لما) بدل (حتى) وكذلك رواية المفضليات : ٤٠٥ .
يلحى نفسه أي يلومها . لما نزع يعني لما ترك .

قوله تعالى :

﴿ وَمُصدِّقاً لما بَينَ يَديَّ مِنَ التَّوراةِ وَلأُحلَّ لَكم بَعض الّذي حُرِّمَ عَليكمْ وَجئتُكم بآيةٍ مِنْ رَبِّكم فاتّقوا اللهَ وَأطيعونِ ﴾ (٥٠) آية واحدة .

الاعراب :

ومصدقاً نصب على الحال وتقديره قد جئتكم مصدقاً ، لأن أول الكلام يدل عليه ونظيره جئته بما يجب ومعرفاً له ، وليس عطفاً على وجيهاً ولا رسولا لقوله « لما بين يدي » ولم يقل لما بين يديه .

المعنى :

وقوله : ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ فانما أحل لهم لحوم الابل والثروب وأشياء من الطير والحيتان ، مما كان محرماً في شرع موسى (ع) ولم يحل لهم جميع ما كان محرماً عليهم من الظلم ، والغصب ، والكذب ، والعبث وغير ذلك ، فلذلك قال « بعض الذي حرم عليكم » وبمثل هذا قال قتادة والربيع ، وابن جريج ووهب ابن منبه ، وأكثر المفسرين . وقال أبو عبيدة أراد كل الذي حرم عليكم واستشهد على ذلك بقول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها   أو يعتلق بعض النفوس حمامها (١)

قال معناه أو يعتلق نفسي حمامها . وأنكر الزجاج تأويله . وقال : هو خطاء من وجهين :

أحدهما ـ أن البعض لا يكون بمعنى الكل . والآخر ـ أنه لا يجوز تحليل

---

(١) اللسان (بعض) ذكر العجز فقط .

المحرمات أجمع ، لأنه يدخل في ذلك الكذب ، والظلم ، والكفر قال : ومعنى البيت أو يعتلق نفسي حمامها ، كما يقول القائل : بعضنا يعرفك يريد أنا أعرفك ، وهذا أيضاً إنما هو تبعيض صحيح . ووجه الآية ما ذكره أبو علي ، وجماعة من المفسرين أن قوماً من اليهود حرموا على نفوسهم أشياء ما حرمها الله عليهم ، فجاء بتحليل ذلك . قال الرماني : تأويل الآية على ما قالوه ، لكنه لا يمتنع أن يوضع البعض في موضع الكل اذا كانت هناك قرينة تدل عليه ، كما يجوز وضع الكل في موضع البعض بقرينة .

قوله : ﴿ ولأحل لكم ﴾ معطوف على معنى الكلام الأول ، لأن معناه جئتكم لأصدق ما بين يدي من التوراة ، ولأحل لكم ، كما يقول القائل : جئته معتذراً ولأجتلب عطفه . والاحلال هو الاطلاق في الفعل بتحسينه ، والتحريم هو حظر الفعل بتقبيحه . والفرق بين التصديق ، والتقليد أن التصديق لا يكون إلا فيما يبرهن عند صاحبه . والتقليد يكون فيما لم يتبرهن ، ولهذا لم نكن مقلدين للنبي (ص) وإن كنا مصدقين له .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدُوهُ هذا صِراطٌ مُستقيمٌ ﴾

(٥١) آية .

قوله : ﴿ إن الله ربي وربكم ﴾ استئناف كلام ، لأنه رأس آية ، وعليه جميع العلماء . وكان يجوز أن تفتح الهمزة على قوله : « وجئتكم » بـ « أن الله ربي وربكم » . والفرق بين قوله « إن الله ربي وربكم » وقوله « ربنا » أن الأول آكد في إقراره بالربوبية ، لأنه ذكر على التفصيل ، فهو أبعد من الغلط في التأويل ، لأن لقائل أن يقول الذكر قد يجوز في الجملة على التغليب كما يغلب التذكير على التأنيث في الجملة دون التفصيل .

والربوبية هي تنشئة الشيء حالا بعد حال حتى يبلغ حد الكمال في التربية ،

فلما كان الله تعالى مالكاً لانشاء العالم كان رباً ، ولا تطلق هـذه الصفة إلا عليه تعالى ، لأن اطلاقها يقتضي الملك بجميع الخلق ، فأما إجراؤها على غيره ، فعلى وجه التقييد ، كقولك رب الدار ، ورب الضيعة . وقالوا في وصف قوم من العلماء : هم أرباب البيان يراد بهشدة اقتدارهمعليه . وقوله : « هذا صراط مستقيم » فالاستقامة استمرار الشيء في جهة واحدة ، ونظيرها الاستواء : خلاف الاعوجاج ، فلذلك قيل للطريق المؤدي إلى المراد الموصل إلى الحق : طريق الاستقامة ، لأنه يفضي بصاحبه إلى غرضه ، وقد استوفينا معناه في سورة الحمد . وقد يوصف الدليل بأنه طريق مستقيم ، لأنه يؤدي إلى الحق اليقين . وفي الآية حجة على النصارى بما قاله المسيح مما يقرون به أنه في الانجيل من نحو هذا الكلام ، لأن فيه أذهب إلى إلهي ، وإلهكم ، كقوله ههنا : « إن الله ربي وربكم » .

قوله تعالى :

﴿ فَلما أَحسَّ عيسى منهمُ الـكفرَ قالَ مَنْ أَنصاري الى اللهِ قالَ الحَـوارِيّونَ نَحنُ أَنصارُ اللهِ آمنا باللهِ وَاشهدْ بأنا مُسلمون ﴾ (٥٢) آية .

اللغة :

الاحساس هو الوجود بالحاسة ، أحس يحس إحساساً . والحس القتل ، لأنه يحس بألمه ، ومنه قوله : « إذ تحسونهم » باذنه » (١) والحس : العطف ، لاحساس الرقة على صاحبه . والأصل فيه إدراك الشيء من جهة الملابسة . ومعنى الآية : فلما علم عيسى منهم الكفر ، قال : « من أنصاري إلى الله » . والانصار جمع نصير مثل شريف وأشراف ، وشهيد وأشهاد . وإنما لم يحمل على ناصر لأنه يجب أن يحمل على نظيره من فعيل وأفعال .

« ١ » سورة آل عمران آية : ١٥٢ .

المعنى :

وقوله : « من أنصاري إلى الله » قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ من أعواني على هؤلاء الكفار إلى معونة الله أي مع معونة الله في قول السدي ، وابن جريج . وإنما جاز أن تكون (إلى) بمعنى (مع) لما دخل الكلام من معنى الاضافة ومعنى المصاحبة ، ونظيره (الذود إلى الذود إبل) أي مع الذود . ومثله « ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم » (١) أي مع أموالكم ، وقولك : قدم زيد ومعه مال ، فلا يجوز فيه إلى وكذلك قدم إلى أهله ، لا يجوز فيه مع ، لاختلاف المعنى .

الثاني ـ قال الحسن من أنصاري في السبيل إلى الله ، لأنه دعاهم إلى سبيل الله .

الثالث ـ قال الجبائي: من أنصاري لله ، كما قال : « هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق » (٢) ووجه ذلك أن العرض يصلح فيه اللام على طريق العلة وإلى طريق النهاية . فان قيل عيسى إنما بعث بالوعظ دون الحرب لم استنصر عليهم ؟ قلنا : للحماية من الكافرين الذين أرادوا قتله عند اظهار الدعوة ـ في قول الحسن ومجاهد ـ وقال آخرون : يجوز أن يكون طلب النصرة للتمكين من إقامة الحجة وإنما قاله ليتميز الموافق من المخالف . وقوله : ﴿ قال الحواريون ﴾ اختلفوا في تسميتهم حواريين على ثلاثة أقوال قال سعيد بن جبير : سموا بذلك لنقاء ثيابهم . الثاني ـ قال ابن جريج عن أبي أرطاء أنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب . الثالث ـ قال قتادة ، والضحاك : لأنهم خاصة الأنبياء يذهب إلى نقاء قلوبهم كنقاء الابيض بالتحوير . وقد روي عن النبي (ص) أنه قال : الزبير ابن عمتي وحواري من أمتي .

« ١ » سورة النساء آية : ٢ .

« ٢ » سورة يونس آية : ٣٥ .

اللغة :

وأصل الحواري الحور ، وهو شدة البياض . ومنه الحواري من الطعام لشدة بياضه . ومنه الأحور ، والحوراء لنقاء بياض العين ، ومنـــه الحواريات نساء الانصار لبياضهن . قال أبو جلدة اليشكري (١) :

فقل للحواريات يبكين غيرنا　　ولا تبكنا إلا الكلاب النوابح(٢)

وقال بعض بني كلاب :

ولـكنه ألقى زمام قلوصــه　　ليحيا كريمـاً أو يموت حوارياً

أي ناصراً لرفاقه غير خاذلهم . والمحور : الحديدة التي تدور عليها البكرة ، لأنها تنصقل حتى تبيض وحار يحور : إذا رجـع ، لانقلابه في الطريق الذي جاء فيه كانقلاب المحور بالتحوير .

المعنى :

وفي الآية حجة على من زعم أن المسيح والذين آمنوا به ، كانوا نصارى فبين الله تعالى أنهم كانوا مسلمين كما بين ذلك في قصة ابراهيم (ع) حيث قال « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما » .

قوله تعالى :

﴿ رَبَّنا آمنا بما أنزلتَ واتبعنا الرَّسولَ فاكتُبنا مَعَ الشاهدين ﴾

(٥٣) آية واحدة بلا خلاف .

« ١ » هو أبو جلدة بن عبيد بن منقذ اليشكري من شعراء الدولة الاموية ، وكان من أخص الناس بالحجاج ثم فارقه وخرج مع ابن الاشعث، وصار من أشد الناس تحريضاً على الحجاج .

« ٢ » اللسان (حور) ، والاغاني ١١ : ٣١١ وحماسة بن الشجري : ٦٥ وهو من أبيات قالها في التحريض على قتال أهل الشام .

هذا حكاية لقول الحواريين حيث قالوا « آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » . قالوا « ربنا » ومعناه ياربنا ونصبه ، لأنه نداء مضاف . « آمنا » أي صدقنا . وإنما لم يقل رب العباد آمنا للاختصاص بما أنعم به عليهم من الايمان الذي أجابوا إليه دون غيرهم ممن عدل عنه . وإنما قال « ربنا آمنا » على لفظ الخطاب ولم يعدل إلى لفظ الغائب ، فكان أبلغ في التعظيم ، كما تقول السمع والطاعة للملك، فيكون أفخم من أن يقال : لك أيها الملك ، لأن المشاهدة أغنت عن التصريح بالخطاب وصار كالاستدلال له مع الغنى عنه وليس كذلك استعماله مع الحاجة إليه ، لأنه لا يدل على ابتداء له . فان قيل لم حذف (يا) من ياربنا آمنا ، ولم يحذف من « ياعبادي لا خوف عليكم » (١) ؟ قلنا حذف للاستغناء عن تنبيه المدعو ، وليس كذلك الثاني لأنه بشارة للعباد ينبغي أن يعد بها لأن سماعها مما يسر . وقوله : ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ فالاتباع سلوك طريقة الداعي على الاجابة إلى ما دعا إليه ، وليس كل إجابة اتباعاً ، لأن اجابة الدعاء يجوز على الله تعالى ولا يجوز عليه الاتباع . وقوله : ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قيل معناه قولان :

أحدهما ـ اثبت اسماءنا مع اسمائهم لنفوز بمثل ما فازوا ، ونتال من الكرامة مثل ما نالوا ، ونستمتع بالدخول في جملتهم والانضمام إليهم . الثاني ـ يصل ما بيننا وبينهم بالخلة على التقوى ، والمودة على سلوك طريق الهدى ، وتجنب طريق الردى، وعلى هذا يكونون فيه بمنزلة من كتب عليهم . وحقيقة الشاهد المخبر بالشيء عن مشاهدة ، وقد يتصرف فيه ، فيقال : البرهان شاهد بحق أي هو بمنزلة المخبر به عن مشاهدة . ويقال هذا شاهد أي معد للشهادة والمراد في الآية الشاهدين بالحق المنكرين للباطل .

قوله تعالى :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيرُ الماكرينَ ﴾ (٥٤) آية .

---

(١) سورة الزخرف آية ٦٨ .

المعنى :

قيل في معنى الآية قولان :

أحدها ـ قال السدي مكروا بالمسيح بالحيلة عليه ، لقتله « ومكر الله بردهم » بالخيبة ، لالقائه شبه المسيح على غيره . الثاني ـ « مكروا » باضمار الكفر « ومكر الله » بمجازاتهم عليه بالعقوبة . والمكر ، وإن كان قبيحاً فانما أضافه تعالى إلى نفسه لمزاوجة الكلام ، كما قال : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (١) وليس باعتداء وإنما هو جزاء ، وهذا أحد وجوه البلاغة ، لأنه على أربعة أقسام :

أحدها ـ المزاوجة نحو « ومكروا ومكر الله » . والثاني ـ المجانسة نحو قوله : « يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار » (٢) . الثالث ـ المطابقة نحو قوله: « ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً » (٣) بالنصب على مطابقة الجواب للسؤال . والرابع ـ المقابلة نحو قوله : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة » (٤) قال الشاعر :

واعلم وأيقن ان ملكك زائل   واعلم بأن كما تدين تدان (٥)

أي كما تجزي تجزى . والأول ليس بجزاء وأصل المكر الالتفاف ، فمنه المكر ضروب من الشجر مثل الدعل ونحوه ، لالتفافه . والممكورة من النساء الملتفة والمكر طين أحمر شبيه بالمغرة . وثوب ممكور إذا صبغ بذلك الطين . والمكر الاحتيال

« ١ » ـ سورة البقرة آية ١٩٤ .   « ٢ » سورة النور آية : ٣٧ .

« ٣ » سورة النحل آية : ٣٠ .   « ٤ » ـ سورة القيامة آية ٢٢ ـ ٢٥ .

« ٥ » اللسان (زنا) ، (دان) وجمهرة الامثال للعسكري : ١٦٩ وغيرها وقد نسبه في اللسان الى خلو يلد بن نوفل الكلابي . وقيل : هو لبعض الكلابيين . وقيل : ليزيد بن الصعق الكلابي . وقد مر البيت في ١ : ٣٦ وروايته هناك (بأنك ما تدين تدان) .

وروايته اللسان :

يا حار ايقن أن ملكك زائل   واعلم بأن كما تدين تدان

وحار : ترخيم حارث • والمخاطب هنا الحارث بن أبي شمر الغساني وكان قد اغتصب ابنة الشاعر فخاطبه في قصيدة منها هذا البيت •

على العبد ، لالتفاف المكروه عليه . وحد المكر : خبء يختدع به العبد لايقاعه في الضر . والفرق بين المكر والحيلة أن الحيلة قد تكون ، لاظهار ما تعسر من الفعل من غير قصد إلى الاضرار بالعبد . والمكر حيلة على العبد توقعه في مثل الرهق .

قوله تعالى :

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » (٥٥) آية .

الاعراب :

العامل في (إذ) يحتمل أحد أمرين .

أحدها ـ قوله : « ومكروا ومكر الله » «إذ قال» . والآخر ذاك « إذ قال يا عيسى » وعيسى في موضع الضم ، لأنه منادا مفرد ، ولكن لا يبين فيه لأنه منقوص ، وعيسى لا ينصرف لاجتماع العجمة والتعريف على قول الزجاج ، لأنه حمل الألف على حكم الملحق بخرج ولم يحملها على التأنيث ، فأما الألف في زكريا ، فلا يكون إلا للتأنيث ، لأنه لا مثال له في الاصول . وإذا عرب جرى على قياس كلامهم في أن الالف الزائدة لا تخلو أن تكون للتأنيث أو للالحاق ، فاذا بطل أحدها صح أنها للآخر . وإنما وجب ذلك ، لأنه يجري مجرى الاعراب بالعوامل ، فأما الاشتقاق ، فلا يجب ، لأنه تصريف من أصل المشتق ، وليس العربي بأصل للعجمي ، وذلك نحو العيس وهو بياض الابل والعوس وهو السياسة لو كان عربياً ، لصلح أخذه من أحد الاصلين . وإذا أخذ من أحدها

امتنع من الآخر ، فلذلك إذا أخذ من العجمي امتنع من العربي .

وقوله : ﴿ إني متوفيك ﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ــ قابضك برفعك من الارض إلى السماء من غير وفاة موت في قول الحسن وابن جريج وابن زيد . الثاني ــ متوفيك وفاة نوم في قول ابن عباس ووهب ابن منبة . والثالث ــ ان فيه تقديماً وتأخيراً ، ومعناه إني رافعك ، ومتوفيك فيما بعد ذكره الفراء . وقوله : « ورافعك » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ رافعك في السماء فجعل ذلك رفعاً إليه للتفخيم واجراءه على طريق التعظيم . والآخر ــ مصيرك إلى كرامتي كما يقال رفع إلى السلطان ، ورفع الكتاب إلى الديوان . وقال ابراهيم « إني ذاهب الى ربي » (٦) . وإنما ذهب من العراق إلى الشام . وإنما أراد إلى حيث أمرني ربي بالمضي إليه . وقوله : ﴿ ومطهرك ﴾ قيل فيه قولان :

أحدهما ــ مطهرك باخراجك من بين الارجاس ، لأن كونه في جملتهم بمنزلة التنجيس له بهم ، وإن كان عليه السلام طاهراً في كل حال ، وإنما ذلك على ازالته عن مجاورة الانجاس . والثاني ــ قال أبو علي : تطهيره: منعه من كفر يفعلونه بالقتل الذي كانوا هموا به لأن ذلك نجس طهره الله منه . وقوله : ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة يحتمل أن يكون جعلهم فوقهم بالحجة والبرهان ، ويحتمل أن يكون ذلك بالعز والغلبة ، وقال الحسن ، وقتادة ، والربيع : المعني بهذه الآية أهل الايمان . وما جاء به دون الذين كذبوه أو كذبوا عليه . وقال ابن زيد : المعني به النصارى ، وهم فرق اليهود من حيث كانوا اليهود أذل منهم إلى يوم القيامة ، ولهذا زال الملك عنهم وإن كان ثابتاً في النصارى في بلاد الروم وغيرها ، فهم أعز منهم وفوقهم . وقال الجبائي فيه دلالة على أنه لا يكون لليهود مملكة إلى يوم القيامة كما للروم . والوجه الأول أقوى ، لأنه أظهر إذا كان على جهة

الترغيب في الحق ، وقوله : ﴿ ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ وجه اتصاله بالكلام كأنه قال أما الدنيا فأنتم فيها على هذه الحال ، وأما الآخرة فيقع فيها التوفية للحقوق على التمام والكمال . وإنما عدل عن الغيبة إلى الخطاب في قوله : « ثم إلي مرجعكم » لتغلب الحاضر على الغائب لما دخل معه في المعنى كما يقول بعض الملوك : قد بلغني عن أهل بلد كذا جميل ، فأحسن إليكم معشر الرعية .

وقوله تعالى :

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٥٦) آية واحدة بلا خلاف .

معنى قوله «فأما» تفصيل الجمل على قولك فيجازي العباد أما المؤمن فبالثواب وأما الكافر فبالعقاب . وقوله : « فأعذبهم » فالعذاب : استمرار الآلام لأن أصله استمرار الشيء ، فمنه العذوبة لاستمرار العذب في الحلق ، ومنه العذبة لاستمرارها بالحركة . وقوله « شديداً » فالشدة صعوبة بالانتقام . والقوة : عظم القدرة ، فالشدة نقيض الرخاوة . والقوة نقيض الضعف ، فشدة العذاب قد تكون بالتضعيف ، وقد تكون بالتحبيس . وقوله : ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ فعذابهم في الدنيا اذلالهم بالقتل ، والأسر ، والسبي ، والخسف ، والجزية ، وكلما فعل على وجه الذلة والاهانة . وفي الآخرة عذاب الأبد . والفرق بين الآخرة والانتهاء أن الآخرة قد تكون بعد العمل ، فأما الانتهاء فجزء منه لا يكون بعد كماله هذا إذا اطلق فان اضيف فقيل آخر العمل فمعناه انتهاء العمل . وقوله : ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ فالنصرة هي المعونة على العدو خاصة . والمعونة هي زيادة في القوة وقد تكون على العدو ، وغير العدو .

قوله تعالى :

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٧) آية واحدة بلا خلاف .

قرأ « فيوفيهم » بالياء حفص ورويس . الباقون بالنون .

فان قيل : لم كرر الوعد ههنا وقد ذكر في غير هذا الموضع من القرآن ؟ قلنا : ليس ذلك بتكرير في المعنى ، لأن معنى ذلك آمنوا بك يا عيسى وعملوا الصالحات فيما دعوتهم إليه من الهدى ، لأنه تفصيل ما أجمل في قوله : « ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » وقوله : « وعملوا الصالحات » ليس بتقييد للوعد بكل واحدة من الخصلتين على اختلاف فائدة الصفتين ، وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة في أن الله تعالى يريد الظلم ، لأنه قال : « لا يحب الظالمين » وإذا لم يحب الظالم لم يحب فعل الظلم ، لأنه إنما لم يجز محبة الظالم لظلمه .

والمحبة هي الارادة ، وفي الآية دلالة على أنه لا يجازي المحسن بما يستحقه المسيء ولا المسيء بما يستحقه المحسن ، لأن ذلك ظلم . ومعنى التوفية في الآية مساواة مقدار الاستحقاق لأن المقدار لا يخلو أن يكون مساوياً أو زائداً أو ناقصاً ، والزيادة على مقدار الاستحقاق لا يجوز أن يعطي ثواب العمل من ليس بعامل لكن تجوز الزيادة على وجه التفضل ، فأما التوفية ، فواجبة في الحكمة والنقصان لا يجوز ، لأنه ظلم . وفي الآية دلالة على بطلان القول بالتحابط ، لأنه تعالى وعد بتوفية الاجور ولم يشرط الاحباط ، فوجب حمل الكلام على ظاهره .

قوله تعالى :

« ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ » (٥٨)

آية واحدة .

المعنى :

«ذلك» اشارة إلى الاخبار عن عيسى ، وزكريا ، ويحيى ، عن الحواريين ، واليهود من بني إسرائيل ، وهو في موضع نصب بما تقدم .و«نتلوه عليك» لما فيه من الآية لمن تذكر في ذلك واعتبر به . والذكر وإن كان حكمة فانما وصفه بأنه حكيم من حيث لما كان ما فيه من الدلالة بمنزلة الناطق بالحكمة حسن وصفه بأنه حكيم من هذه الجهة ، كما وصفت الدلالة بأنها دليل لما فيها من البيان ، وذلك لأنــــه الناطق بالبيان .

الاعراب :

وموضع « نتلوه » من الاعراب يحتمل أمرين :

أحدهما ـ أن يكون رفعاً بأنه خبر ذلك ، والثاني ـ ألاّ يكون له موضع،لأنه صلة ذلك وتقديره : الذي نتلوه عليك من الآيات ، ويكون موضع «من الآيات» رفعاً بأنه خبر ذلك. ذكره الزجاج وأنشدوا في مثله :

عدس ما لعباد عليك إمارة ... أمنت وهذا تحملين طليق (١)

بمعنى والذي تحملين طليق .

المعنى :

وقيل في معنى قوله : « نتلوه عليك » قولان :

أحدهما ـ نكلمك به ، ويكون وضع « نتلوه »موضع نكلم كما يقول القائل: انشأ زيد الكتاب وتلاوة عمرو ، فالتلاوة تكون اظهار الكلام على جهة الحكاية الثاني ـ « نتلوه عليك » بأمرنا جبريل أن يتلوه عليك على قول الجبائي ، والذكر حصول ما به يظهر المعنى للنفس ويكون كلاماً وغير كلام من بيان أو خاطر على

« ١ » البيت مشهور في كتب النحو .

البال، وليس إذا ظهر الشيء للنفس دل على صحته، لأن الضدين قد يظهران ولا يجوز صحتهما معاً.

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٥٩) آية.

قال ابن عباس، والحسن وقتادة: هذه الآية نزلت في وفد نجران: السيد والعاقب، قالا للنبي (ص) هل رأيت ولداً من غير ذكر، فأنزل الله تعالى الآية. والمثل ذكر سائر يدل على أن سبيل الثاني سبيل الأول، فذكر الله آدم بأن انشأه من غير والد يدل على أن سبيل الثاني سبيل الأول في باب الامكان، والقدرة. وفي ذلك دلالة على [بطلان قول] من حرم النظر، لأن الله تعالى احتج به على المشركين ولا يجوز أن يدلهم إلا بما فيه دليل فقياس خلق عيسى من غير ذكر كقياس خلق آدم بل هو فيه أوجب، لأنه في آدم من غير أنثى، ولا ذكر. ومعنى « خلقه » أنشأه، ولا موضع له من الاعراب، لأنه لا يصلح أن يكون صفة لآدم من حيث هو نكرة، ولا يكون حالا له، لأنه ماض فهو متصل في المعنى غير متصل في اللفظ من علامات الاتصال من اعراب أو مرتبة كالصلة. وقوله: ﴿كن فيكون﴾ قد بينا معناه فيما مضى وأنه اخبار عن سرعة الفعل وتيسره من غير مشقة ولا إبطاء. وقيل إنه يفعله عند قوله: « كن » ويكون ذلك علامة للملائكة على ما يريد الله إنشاءه. وقوله: « فيكون » رفع لا يجوز فيه النصب على جواب الأمر في كن، لأن جواب الشرط غيره في نفسه أو معناه نحو اتني فاكرمك واتني فتحسن إلي، فهذا يجوز، لأن تقديره فانك إن تأتني تحسن إلي، ولا يجوز تقدير (أن)، فيكون بالنصب، لأن تقديره كن فانك أن تكن. فهذا لا يصح، لأن الجواب هو الشرط على معناه، ولكن يجوز الرفع على فهو يكون.

قوله تعالى :

﴿ ألحقُّ مِنْ رَبكَ فلا تَكنْ مِنَ الممترينَ ﴾ (٦٠) آية .

الإعراب :

الحق رفع بأنه خبر ابتداء محذوف وتقديره ذلك الاخبار في أمر عيسى الحق من ربك ، فحذف ، لتقدم ذكره وأغنى بشاهد الحال عن الاشارة إليه كما تقول الهلال أي هذا الهلال .

المعنى واللغة :

وقوله : ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ يحتمل أمرين :

أحدها ـ أن يكون خطاباً للنبي (ص) والمراد به غيره ، كما قال . « ياأيها النبي إذا طلقتم النساء » (١) . والآخر ـ « فلا تكن من الممترين » أيها السامع للبرهان من المكلفين كائناً من كان .

والامتراء الشك ، ومثله المرية وأصله الاستخراج مرى الضرع يمريه مرياً : إذا استخرج اللبن منه يمسحه ليدر ، وكذلك الريح تمري السحاب مرياً .فالامتراء شك كحال المستخرج لما لا يعرف . وإنما قال : « الحق من ربك » ولم يقتصر على قوله : « ذلك الحق » « فلا تكن من الممترين » لأن في هذه الآية دلالة على أنه الحق ، لأنه من ربك ، ولو قال ذلك الحق « فلا تكن من الممترين » لأن في هذه الآية دلالة على أنه الحق ، لأنه من ربك . ولو قال : ذلك الحق فلا تكن (٢) لم يفد هذه الفائدة . والفرق بين قوله : « فلا تكن من الممترين » وبين قوله : فلا تكن ممترياً أن ذلك أبلغ في النهي ، لأنه اشارة إلى قوم قد عرفت حالهم في النقص والعيب .

---

(١) سورة الطلاق آية : ١ .
(٢) هكذا في المطبوعة وفيه تكرار كما ترى .

قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (٦١) آية بلا خلاف .

المعنى :

الهاء في قوله : « فيه » يحتمل أن تكون عائدة إلى أحد أمرين :

أحدهما ـ إلى عيسى في قوله : « إن مثل عيسى عند الله » في قول قتادة .

الثاني ـ أن تكون عائدة على الحق في قوله « الحق من ربك » . والذين دعاهم النبي (ص) في المباهلة نصارى نجران ، ولما نزلت الآية أخذ النبي (ص) بيد علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، ثم دعا النصارى إلى المباهلة ، فاحجموا عنها ، وأقروا بالذلة والجزية . ويقال : إن بعضهم قال لبعض إن باهلتموه اضطرم الوادي ناراً عليكم ولم يبق نصراني ولا نصرانية إلى يوم القيامة .

وروي أن النبي (ص) قال لأصحابه : مثل ذلك . ولا خلاف بين أهل العلم أنهم لم يجيبوا إلى المباهلة .

اللغة ، والمعنى :

« وتعالوا » أصله من العلو ، يقال منه تعاليت أتعالى تعالياً : إذا جئت وأصله المجيء إلى الارتفاع إلا أنه كثر في الاستعمال حتى صار لكل مجيء وصار تعالى بمنزلة هلم . وقيل في معنى الابتهال قولان :

أحدهما ـ الالتعان بهله الله أي لعنه وعليه بهلة الله . الثاني « نبتهل » ندعوا بهلاك الكاذب . وقال لبيد :

نظر الدهر إليهم فابتهل (١)

أي دعا عليهم بالهلاك كاللعن ، وهو المباعدة من رحمة الله عقاباً على معصيته فلذلك لا يجوز أن يلعن من ليس بعاص من طفل أو بهيمة أو نحو ذلك ، وقال أبو بكر الرازي : الآية تدل على أن الحسن والحسين ابناه ، وأن ولد البنت ابن على الحقيقة . وقال ابن أبي علان : فيها دلالة على أن الحسن والحسين كانا مكلفين في تلك الحال ، لأن المباهلة لا تجوز إلا مع البالغين .

واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن أمير المؤمنين (ع) كان أفضل الصحابة من وجهين :

أحدهما ـ أن موضوع المباهلة ليتميز المحق من المبطل وذلك لا يصح أن يفعل إلا بمن هو مأمون الباطن مقطوعاً على صحة عقيدته أفضل الناس عند الله .

والثاني ـ أنه (ص) جعله مثل نفسه بقوله : « وأنفسنا وأنفسكم » لأنه أراد بقوله « أبناءنا » الحسن والحسين (ع) بلا خلاف . وبقوله : « ونساءنا ونساءكم » فاطمة (ع) وبقوله : « وأنفسنا » أراد به نفسه ، ونفس علي (ع) لأنه لم يحضر غيرهما بلا خلاف ، وإذا جعله مثل نفسه ، وجب ألا يدانيه أحد في الفضل ، ولا يقاربه . ومتى قيل لهم أنه أدخل في المباهلة الحسن والحسين (ع) مع كونهما غير بالغين وغير مستحقين للثواب ، وإن كانا مستحقين للثواب لم يكونا أفضل الصحابة . قال لهم أصحابنا : إن الحسن والحسين (ع) . كانا بالغين مكلفين، لأن البلوغ وكمال العقل لا يفتقر إلى شرط مخصوص ، ولذلك تكلم عيسى في المهد بما دل على كونه مكلفاً عاقلا ، وقد حكيت ذلك عن امام من أئمة المعتزلة مثل ذلك وقالوا أيضاً أعني أصحابنا : إنهما كانا أفضل الصحابة بعد أبيهما وجدهما ، لأن كثرة الثواب ليس بموقوف على كثرة الافعال ، فصغر سنهما لا يمنع من أن يكون

« ١ » ديوانه قصيدة ٣٩ البيت ٨١ ، وأمالي الشريف المرتضى ١ : ٤٥ وأساس البلاغة (بهل) وصدره :

في قروم سادة من قومه

معرفتها وطاعتها لله ، وإقرارها بالنبي (ص) وقع على وجه يستحق به من الثواب ما يزيد على ثواب كل من عاصرها سوى جدها وأبيها . وقد فرغنا الكلام في ذلك واستقصيناه في كتاب الامامة .

قوله تعالى :

﴿ إنَّ هذا لَهو القصصُ الحقُّ وما مِنْ إلـهٍ إلاَّ اللهُ وإنَّ اللهَ لَهوَ العزيزُ الحكيمُ ﴾ (٦٢) آية .

المعنى ، واللغة :

إن قيل : لم قال : « إن هذا لهو القصص » مع قيام الحجة ، وشهادة المعجزة له ؟ قلنا : معناه البيان عن أن مخالفتهم له بعد وضوح أمره يجري مجرى العناد فيه ، وكذلك قوله : « وما من إله إلا الله » . والقصص : الخبر الذي تتابع فيه المعاني وأصله اتباع الأثر ، وفلان يقص أثر فلان أي يتبعه . وقوله : ﴿ وما من إله إلا الله ﴾ دخول (من) فيه تدل على عموم النفي لكل إله غير الله . ولو قال : ما إله إلا الله لم يفد ذلك وإنما أفادت (من) هذا المعنى ، لأن أصلها لابتداء الغاية فدلت على استغراق النفي من ابتداء الغاية إلى انتهائها . ولا يجوز جر اسم الله على البدل من إله ، لأن ذلك لا يحسن في الكلام ، لأن (من) لا تدخل في الايجاب وما بعد (إلا) هنا إيجاب ، ولا تدخل أيضاً على المعرفة للعموم ، ولا يحسن إلا رفعه على الموضع ، كأنه قيل ما لكم إله إلا الله . وما لكم مستحق للعبادة إلا الله قال الشاعر :

ابني لبيني لستم بيد　　　الا يد ليست لها عضد

أنشدوه بالجر ، فعلى هذا يجوز ما جاءني من رجل إلا زيد ، وليس هو وجه الكلام ، ولكنه يتبعه وإن لم يصلح إعادة العامل فيه ، كما يقال : اختصم زيد وعمرو ، ولا يجوز واختصم عمرو ، وقوله : « وإن الله لهو العزيز الحكيم » معناه

لا أحد يستحق إطلاق هذه الصفة إلا هو ، فوصل ذلك بذكر التوحيد في الالهية لأنه حجة على صحته من حيث لو كان إله آخر ، لبطل إطلاق هذه الصفة .

الاعراب :

وموضع هو من الاعراب يحتمل أمرين :

أحدهما ـ أن يكون فصلا ، وهو الذي تسمية الكوفيون عماداً ، فلايكون له موضع من الاعراب ، لأنه في حكم الحرف ويكون القصص خبر إن . والآخر ـ أن يكون إسماً موضعه رفع بالابتداء والقصص خبر إن والجملة خبر إن .

قوله تعالى :

﴿ فإنْ تَوَلوا فإنَّ اللهَ عليمٌ بالمفسدينَ ﴾ (٦٣) .

اللغة والمعنى :

التولي عن الحق هو اعتقاد خلافه بعد ظهوره ، لأنه كالادبار عنه بعد الاقبال . وتولى عنه خلاف تولى إليه . والاصل واحد كما أن رغب عنه خلاف رغب فيه . وهو الزوال بالوجه عن جهته إلى غيره ، فأصل التولي كون الشيء يلي غيره من غير فصل بينه وبينه ،فقيل تولى عنه أي زال عن جهته . وقوله : ﴿ فان الله عليم بالمفسدين ﴾ إنما خص المفسدين بأنه عليم بهم على جهة التهديد لهم ، والوعد بما يعلمه مما وقع من إفسادهم كما يقول القائل أنا أعلم بسر فلان ، وما يجري إليه من الفساد . والافساد إيقاع الشيء على خلاف ما توجبه الحكمة ، وهو ضد الاصلاح ، لأنه ايقاع الشيء على مقدار ما توجبه الحكمة . والفرق بين الفساد والقبيح : أن الفساد تغيير عن المقدار الذي تدعو إليه الحكمة بدلالة أن نقيضه الصلاح ، فاذا قصر عن المقدار أو أفرط لم يصلح ، فاذا كان على المقدار صلح ، وليس كذلك القبيح ، لأنه ليس فيه معنى المقدار . وإنما القبيح ما تزجر عنه الحكمة كما أن الحسن ما تدعو إليه الحكمة .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ يا أيها الـكتابِ تعالوا الى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألاّ نعبدَ إلاّ اللهَ ولا نُشركَ بهِ شيئاً ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً مِنْ دُونِ اللهِ فانْ تولّوا فقولوا اشْهدوا بأنا مُسلمونَ ﴾ (٦٤) آيه واحدة .

النزول :

قيل في من نزلت هذه الآية ثلاثة أقوال :

أحدها ـ ذكره الحسن ، والسدي ، وابن زيد ، ومحمد بن جعفر بن الزبير : أنهم نصارى نجران . والثاني ـ قال قتادة ، والربيع ، وابن جريج : أنهم يهود المدينة ، وقد روى ذلك أصحابنا . ووجه هذا القول أنهم أطاعوا الاحبار طاعة الأرباب ، فسلكوا بهم طريق الضلال . ويدل على ذلك قوله : (عز وجل) « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » (١) وروي عن أبي عبدالله (ع) أنه قال ما عبدوهم من دون الله وإنما حرموا لهم حلالا وأحلوا لهم حراماً ، فكان ذلك اتخاذ الارباب من دون الله . الثالث ـ ذكره أبو علي الجبائي أنها في الفريقين من أهل الكتاب على ظاهر الكلام .

المعنى ، والاعراب ، واللغة :

وقوله : ﴿ إلى كلمة سواء ﴾ فسواء إسم وليس بصفة وإنما جر سواء بتقدير ذات سواء في قول الزجاج . وكان يجوز نصبه على المصدر ، وموضع « أن لا » خفض على البدل من (كلمة) . وقال الرماني : إنما أجراه على الاول ، وهو الثاني ولا يجوز في مثل قولك مررت برجل سواء عليه الخير والشر غير الرفع لأمرين : أحدها ـ أن رفع الثاني بتقدير محذوف ، كأنه قال هي « ألا نعبد إلا

(١) سورة التوبة آية : ٣٢ .

الله » ، فيكون سواء من صفة الكلمة في اللفظ ، والمعنى . ويجوز أن يكون موضعه خفضاً على البدل من الكلمة، وتقديره تعالوا إلى ألا نعبد إلا الله ، وكذلك جاء مالا يصلح للأول على الاستئناف ، نحو « الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد » (١) وكذلك « أم حسب الذين اجترحوا السيئآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم » (٢) . الثاني ـ أن يقع بمعنى المصدر في موضع الصفة الجارية بتقدير (كلمة) مستوية « بيننا وبينكم » فيها الامتناع من عبادة غير الله . وإنما جاز ، لأن لا نعت بغير معنى الكلمة ، فصار بمنزلة إضمار الكلمة . والفرق بين كلمة عدل وكلمة سواء [أن « كلمة سواء »] بمعنى مستوية وأن عدل بمعنى عادلة فيما يكون منها ، كما تقول رجل عدل أي عادل ، فأما كلمة مستوية فمستقيمة ، كما يقال : الرجل مستو ـ في نفسه ـ غير مائل عن جهته ، فلذلك فسر سواء على الوجهين ، فكان يجوز في العربية الجزم في « ألا نعبد إلا الله » على طريق النهي ، كقولك اتني وقت يأتي الناس لا تجيء في غير ذلك من الأوقات ، ويجوز فيه الرفع أيضاً بمعنى الحكاية على أن تقول « لا نعبد إلا الله » وأجاز الفراء الجزم عطفاً على موضع (أن) لأنها في موضع جواب الامر على تقدير « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً » كما تقول : تعالوا لا نقل إلا خيراً ، وهذا لا يجوز عند البصريين ، لأن (أن) لا توافق معنى الجواب كالفاء في قوله : «فأصدق وأكن من الصالحين»(٣) كما توافقه « إذا » في قوله : « وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون » (٤) واللام في قوله : « فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » إنما اتصل بما قبله على تقدير : قابلوا إعراضهم عن الحق بخلافه للانكار عليهم وتجديداً للاقرار به عند صدهم أي أقيموا على إسلامكم ، وقولوا لهم : « اشهدوا بأنا مسلمون » مقيمون على الاسلام .

« ١ » سورة الحج آية : ٢٥ .
« ٢ » سورة الجاثية آية : ٢٠ .
« ٣ » سورة المنافقين آية : ١٠ .
« ٤ » سورة الروم آية ٣٦ .

قوله تعالى :

﴿ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تحاجّونَ في إبراهيمَ وما أُنزلتْ التوراةُ والانجيلُ إلاَّ مِنْ بعدهِ أفلا تعقلونَ ﴾ (٦٥) آية واحدة .

النزول :

روي عن ابن عباس ، والحسن ، وقتادة والسدي أن أحبار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله (ص) فتنازعوا في ابراهيم ، فقالت اليهود : ما كان إلا يهودياً . وقالت النصارى ما كان إلا نصرانياً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

اللغة :

وقوله : « لم تحاجون » فالحجاج ، والمحاجة واحد ، وهو الجدال أما بحجة أو شبهة ، وقد يسمى الجدال بابهام الحجة حجاجاً ، وعلى ذلك كان أهل الكتاب في ادعائهم لابراهيم ، لأنهم أوهموا صحة الدعوى من غير سلوك لطريق الهدى ولا تعلق بما يظن به صحة المعنى . وأما الحجة فهو البيان الذي يشهد لصحة المقالة ، وهي والدلالة بمعنى واحد . والفرق بين الحجاج والجدال أن الحجاج يتضمن اما بحجة أو شبهة أو ابهام في الحقيقة ، لأن أصله من الجدل ، وهو شدة الفتل .

المعنى :

وقوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ معناه أفلا تعقلون فساد هذه الدعوى إذ العقل يمنع من الاقامة على دعوى بغير حجة ، فكيف بما قد علم ، وظهر فساده بالمناقضة . وفي ذلك دلالة على أن العاقل لا يعذر في الاقامة على الدعوى من غير حجة ، لما فيه من البيان عن الفساد والانتقاض . ولأن العقل طريق العلم ، فكيف يضل عن الرشد من قد جعل الله إليه السبيل ! .

قوله تعالى :

﴿ ها أنتمْ هؤلاءِ حاججتمْ فيما لَكمْ بهِ علمٌ فلمَ تُحاجّون فيما ليسَ لكمْ بهِ علمٌ واللهُ يعلمُ وأنتمْ لا تعلمونَ ﴾ (٦٦) آية واحدة .

القراءة :

قرأ أهل المدينة وأبو عمرو « ها أنتم » بتخفيف الهمزة حيث وقع الباقون بتخفيفها (١) وكلهم أثبت الالف قبل الهمزة إلا ابن عامر عن قنبل فانه حذفها .

المعنى واللغة :

« ها » للتنبيه وإنما نبههم على أنفسهم وان كان الانسان لا ينبه على نفسه وإنما ينبه على ما أغفله من حاله ، لأن المراد بذلك تنبيههم بذكر ما يعلمون على مالا يعلمون ، فلذلك خرج التنبيه على النفس ، والمراد على حال النفس . ولو جاء على الاصل ، لكان لابد من ذكر النفس للبيان ، ففيه مع ذلك ايجاز . وقد كثر التنبيه في هذا ولم يكثر في ها أنت ، لأن ذا مبهم من حيث يصلح لكل حاضر والمعنى فيه على واحد بعينه مما يصلح له فقوى بالتنبيه ، لتحريك النفس على طلبه بعينه ، وليس كذلك أنت ، لأنه لايصلح لكل حاضر في الجملة ، وإنما هو للمخاطب . إن قيل أين خبر أنتم في « ها أنتم » ؟ قيل : يحتمل أمرين :

أحدها ـ حاججتم على أن يكون « هؤلاء » تابعاً عطف بيان .

والثاني ـ أن يكون الخبر « هؤلاء » على معنى هؤلاء بمعنى الذين وما بعده صلة له . فان قيل : ما الذي حاجوا فيه مما لهم به علم ؟ قلنا : أما الذي لهم به علم فما وجدوه في كتبهم ، لأنهم يعلمون أنهم وجدوه فيها وأما الذي ليس لهم به علم

« ١ » هكذا وجدناه في الاصل وهو كما ترى . وفي مجمع البيان . قرأ أهل الكوفة (ها أنتم) بالمد والهمزة وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو غير مد ولا همزة الا بقدر خروج الالف الساكنة . وقرأ ابن عامر بالمد دون الهمزة .

فشأن إبراهيم على قول السدي وأبي علي . وقوله : « والله يعلم » يعني شأن ابراهيم وكلما ليس عليه دليل ، لأنه علام الغيوب العالم بغير تعليم « وأنتم لا تعلمون » ذلك فينبغي أن تلتمسوا حقه من باطله من جهة عالم به . قال أبو علي الفارسي : وجه قراءة إبن كثير أنه أبدل من الهمزة هاء والتقدير أأنتم ، فابدل من همزة الاستفهام هاء ، وذلك جائز . قال : ولا يجوز على هذا أن تكون (ها) للتنبيه . وحذف الألف منها في مثل هلم ، لأن الحذف إنما يجوز إذا كان فيها تضعيف

قوله تعالى :

﴿ ماكانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ولكنْ كانَ حنيفاً مُسلماً وما كانَ مِنَ المشركينَ ﴾ (٦٧) آية .

المعنى :

ذكر الحسن ، وقتادة ، وعامر ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) : أن اليهود قالت : كان ابراهيم يهودياً ، وقالت النصارى كان نصرانياً ، فاكذبهم الله في ذلك بانزال هذه الآية . فان قيل : هل كان الله تعبد باليهودية والنصرانية ثم نسخها أم لا ؟ قلنا : كان الذي بعثه الله به شرع موسى ثم شرع عيسى ثم نسخها فأما اليهودية والنصرانية فصفتا ذم قد دل القرآن والاجماع على ذلك ، لأن موسى لم يكن يهودياً ، وعيسى لم يكن نصرانياً ، لقوله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » واليهودية ملة محرفة عن شرع موسى وكذلك النصرانية محرفة عن شرع عيسى . وقيل في أصل الصفة بيهود قولان :

أحدهما - أنهم ولد يهود . والآخر - أنه مأخوذ من هاد يهود إذا رجع .

وفي النصارى قولان :

أحدهما - أنه مأخوذ من ناصرة قرية بالشام . والآخر - أنه من نصر المسيح . وكيف تصرفت الحال فقد صارتا صفتي ذم تجريان على فرقتين ضالتين .

فان قيل : إن كان ابراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، لأن التوراة والانجيل أنزلا بعده ، فيجب أن لا يكون مسلماً ، لأن القرآن أيضاً أنزل بعده ؟ قلنا : لا يجب ذلك ، لأن التوراة والانجيل أنزلا من بعده من غير أن يكون فيها ذكر له بأنه كان يهودياً أو نصرانياً . والقرآن أنزل من بعده وفيه الذكر له بأنه كان حنيفاً مسلماً . وقيل في معنى الحنيف قولان :

أحدهما ـ المستقيم الدين ، لأن الحنف هو الاستقامة في اللغة . وإنما سمي من كان معوج الرجل أحنف على طريق التفاؤل كما قيل للضرير إنه بصير . والثاني ـ إن الحنيف هو المائل إلى الحق في الدين فيكون مأخوذاً من الحنف في القدم ، وهو الميل . فان قيل : هل كان إبراهيم على جميع ما نحن عليه الآن من شرع الاسلام ؟ قلنا : هو (ع) كان مسلماً ، وإن كان على بعض شريعتنا ، لأن في شرعنا تلاوة الكتاب في صلاتنا وما أنزل القرآن إلا على نبينا ، وإنما قلنا : إنه مسلم باقامة بعض الشريعة ، لأن أصحاب النبي (ص) كانوا مسلمين في الابتداء قبل استكمال الشرع . وقد سماه الله تعالى مسلماً ، فلا مرية تبقى بعد ذلك .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٨) آية واحدة .

المعنى :

معنى قوله : « إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي » أي أحقهم بنصرته بالمعونة أو الحجة ، لأن الذين اتبعوه في زمانه تولوه بالنصرة على عدوه حتى ظهر أمره ، وعلت كلمته . وسائر المؤمنين يتولونه بالحجة بما كان عليه من الحق وتبرئته من كل عيب ، فالله تعالى ولي المؤمنين ، لأنه يوليهم النصرة ، والمؤمن ولي الله لهذا المعنى بعينه . وقيل ، لأنه يولي صفاته التعظيم . ويجوز ،

لأنهم يتولون نصرة ما أمر به من الدين . وقيل والله ولي المؤمنين ، لأنه يتولى نصرهم . والمؤمنون أولياء الله ، لأنهم يتولون نصر دينه الذي أمرهم به .

اللغة :

«وأولى» الذي هو بمعنى أفعل من غيره لا يجمع ولا يثنى ، لأنه يتضمن معنى الفعل والمصدر على تقدير يزيد فضله على فضله في أفضل منه . ومعنى قولنا: هذا الفعل أولى من غيره أي بأن يفعل . وقولنا زيد أولى من غيره معناه : أنه على حال هو بها أحق من غيره . وقوله : « للذين اتبعوه » فالاتباع جريان الثاني على طريقة الاول من حيث هو عليه كالمدلول الذي يتبع الدليل في سلوك الطريق أو في التصحيح ، لأنه إن صح الدليل صح المدلول عليه لصحته ، وكذلك المأموم الذي يتبع الامام .

فان قيل : لم فصل ذكر النبي (ص) من ذكر المؤمنين ؟ قلنا : يحتمل أمرين : أحدهما ــ أنه بمعنى والذين آمنوا به ، فتقدم ذكره ليدخل في الولايـــة ويعود إليه الكناية . والثاني ــ أن اختصاصه بالذكر بالحال العليا في الفضل .

قوله تعالى :

﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦٩) .

اللغة :

معنى ودت : تمنت وإذا كانت بمعنى التمني ، فهي تصلح للماضي والحاضر والمستقبل فلذلك جاز بـ (لو) وليس كذلك المحبة والارادة ، لأنهما لا يتعلقان إلا بالمستقبل فلا يجوز أن يكون بمعنى أرادت « لو يضلونكم » كما يجوز ودت « لو يضلونكم » ، لأن الارادة تجري مجرى الاستدعاء إلى الفعل أو مجرى العلة

في ترتيب الفعل ، فأما التمني ، فهو تقدير شيء في النفس يستمتع بتقريره . والفرق بين وّد لو يضله، وبين ود أن يضله : أنّ (أن) للاستقبال وليس كذلك (لو) وقوله : ﴿ لو يضلونكم ﴾ فالاضلال : الاهلاك بالدخول في الضلال . وأصل الضلال الهلاك من قوله : « أئذا ضللنا في الارض » (١) أي هلكنا .

المعنى :

وقوله : ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ قيل فيه قولان :

أحدها ـ أن المؤمنين لا يقبلون ما يدعونهم إليه من ترك الاسلام إلى غيره من الاديان فيحصل عليهم حينئذ الاثم والوبال ، والاستدعاء إلى الضلال .

والثاني ـ « وما يضلون إلا أنفسهم » بفعل الضلال كما يقال ما أهلك إلا نفسه أي لا يعتد بهلاك غيره في عظم هلاكه .

اللغة :

والفرق بين أضله عن الطريق وبين أخرجه عن الطريق : أن أضله عنه يكون بالاستدعاء إلى غيره دون فعل الضلال . واخرجه عنه قد يكون بفعل الخروج منه .

والفرق بين الاضلال والاستدعاء إلى الضلال أن الاضلال لا يكون إلا إذا قبل المدعو ، فأما الاستدعاء إلى الضلال ، فيكون ، قبل المدعو أم لم يقبل . وحقيقة الاضلال : الدعاء إلى الضلال الذي يقبله المدعو . وقال بعضهم : إنه لا يصح إضلال أحد بغيره . وإنما يقال ذلك على وجه المجاز ذهب إلى أنه يفعل فعل الضلال في غيره ، لأنه لا يوصف بأنه مضل لغيره إلا إذا أضل المدعو باغوائه . قال الرماني : وهذا غير صحيح ، لأنه يذم بالاستدعاء إلى الضلال الذي يقبله المدعو أكثر مما يذم بالاستدعاء إلى الضلال الذي لا يقبله المدعو ، فلذلك فرق بين الاستدعاءين فوصف أحدهما بالاضلال ولم يوصف الآخر .

« ١ » سورة الم السجدة آية : ١٠ .

قوله تعالى :

﴿ يا أهلَ الـكتابِ لِمَ تكفرونَ بآياتِ اللهِ وأنتمُ تشهدَونَ ﴾

(٧٠) آية واحدة بلا خلاف .

اللغة :

قوله : « يا أهل » نصب ، لأنه منادى مضاف . وقوله : « لم » أصله لما ، لأنها (ما) التي للاستفهام دخلت عليها اللام وإنما حذفت لاتصالها بحرف الاضافة مع وقوعها ظرفا تدل عليها الفتحة . وكذلك قياسها مع سائر حروف الاضافة مثل « فيم تبشرون » (١) « وعم يتساءلون » (٢) وإنما حذفت الالف من (ما) في الاستفهام ، ولم تحذف من (ما) في الصلات لأن الظرف أقوى على التغيير من وسط الاسم كما يقوى على التغيير بالاعراب ، والتنوين . والالف في الصلة بمنزلة حرف في وسط الاسم ، لأنه لا يتم إلا بصلته ، وليس كذلك الاستفهام ، لأن الالف فيه منتهى الاسم ، و (لم) أصلها (لما) وهي مخالفة عند البصريين لـ (كم) على ما قاله الكسائي أن اصلها كما ، لأن (كم) مخالفة (لما) في اللفظ ، والمعنى : أما في اللفظ ، فلأنه كان يجب أن تبقى الفتحة لتدل على الالف ، كما بقيت في (لم) ونحوه ، والامر بخلافه . وأما في المعنى ، فلأن (كم) سؤال عن العدد ، و (ما) سؤال عن الجنس ، فليست منها في شيء ، ولا لكاف التشبيه في (كم) معنى ، ويلزمه في متى أن تكون أصلها (ما) إلا أنهم زادوا التاء ، لأنه تغيير من غير دليل ، فاذا لم يمنع في أحدها لم يمنع في الآخر . وإنما بني على نظيره في حذف الالف ، فلذلك يلزمه أن يبنى على نظيره في زيادة التاء قبل الالف ، نحو (رهبوتى خير من رحموتى) قال الزجاج : قول الكسائي في هذا لا يعرج عليه .

« ١ » سورة الحجر آية : ٥٤ . « ٢ » سورة النبأ آية : ١ .

المعنى :

وقوله : ﴿ لم تكفرون بآيات الله ﴾ معناه لم تجحدون آيات الله. « وأنتم تشهدون » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ وأنتم تشهدون بما يدل على صحتها من كتابكم الذي فيه البشارة بها في قول قتادة والربيع والسدي .

والثاني ـ وأنتم تشهدون بمثلها من آيات الانبياء التي تقرون بها . والشهادة الخبر بالشيء عن مشاهدة : إما للخبر به ، وإما لما يظهر به ظهوره بالمشاهدة . فاذا شهد بالاقرار ، فهو مشاهدة المخبر به ، وإذا شهد بالملك ، فهو يظهر به ظهوره بالمشاهدة . وإنما قيل : شهد بالباطل ، لأنه يخبر عن مشاهدة في دعواه . وقوله : ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ فيه حذف ، وتقديره « وأنتم تشهدون » ما عليكم فيه الحجة فحذف للايجاز مع الاستغناء عنه بالتوبيخ الذي تضمنه الكلام . والحجة في ذلك من وجهين :

أحدها ـ الاقرار بما فيه من البشارة من الكتاب . والثاني ـ الاقرار بمثله من الآيات .

قوله تعالى :

﴿ يا أَهلَ الـكِتابِ لِمَ تَلبسونَ الحقَّ بالباطلِ وَتكتمونَ الحقَّ وَأنتمْ تَعلمونَ ﴾ (٧١) آية بلا خلاف .

المعنى :

قيل في معنى قوله : « لم تلبسون الحق بالباطل » ثلاثة أقوال :

أحدها ـ بتحريف التوراة والانجيل في قول الحسن وابن زيد .

الثاني ـ قال ابن عباس ، وقتادة : باظهار الاسلام ، وإبطان النفاق ، وفي قلوبهم من اليهودية والنصرانية مأمناً ، لأنهم يداعوا إلى اظهار الاسلام في صدر

النهار والرجوع عنه في آخره لتشكيك الناس فيه .

الثالث ـ بالايمان بموسى ، وعيسى ، والكفر بمحمد (ص) .

والحق الذي كتموه ـ في قول الحسن ، وغيره من المفسرين ـ : هو ما وجدوه من صفة النبي (ص) والبشارة به في كتبهم على وجه العناد من علمائهم . وقوله : ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ فيه حذف وتقديره وأنتم تعلمون الحق ، لأن التقريع قد دل على أنهم كتموا الحق وهم يعلمون أنه حق . ولو كتموه وهم لا يعلمون أنه حق لم يلائم معنى التقريع الذي دل على أنهم كتموا الحق وهم يعلمون أنه حق ولم يلائم معنى التقريع الذي دل عليه الكلام . وقيل أيضاً : وأنتم تعلمون الأمور التي يصح بها التكليف . والأول أصح ، لما بيناه من الذم على الكتمان .

فان قيل : إذا كانوا يعلمون الحق في الدين ، فقد صح كونهم معاندين فلم ينكر مذهب أصحاب المعارف الذين يقولون أن كل كافر معاند ؟ قلنا : هذا في قوم مخصوصين يجوز على مثلهم الكتمان ، فأما الخلق الكثير ، فلا يصح ذلك منهم ، كما يجوز الكتمان على القليل ، ولا يجوز على الكثير فيما طريقه الاخبار . على أن في الآية ما يدل على فساد قول أصحاب المعارف . وهو الاخبار بأنهم كتموا الحق الذي علموا ، فلو اشترك الناس فيه ، لما صح الكتمان كما لا يصح في ما يعلمونه من المشاهدات والضروريات ، لاشتراكهم في العلم به . وقوله : ﴿ وتكتمون الحق ﴾ رفع ، لأنه معطوف على قوله : « تلبسون » وكان يجوز النصب ، فتقول : وتكتموا الحق على الصرف ، كما لو قلت لم تقوم و تقعد كان جائزاً أي لم تجمع الفعلين وأنت مستغن باحدهما عن الآخر .

قوله تعالى :

﴿ وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهلِ الكِتابِ آمنوا بالذي أُنزِلَ على الذينَ آمنوا وَجهَ النَّهارِ وَاكفروا آخرَهُ لَعلَّهمْ يَرجعونَ ﴾ (٧٢) آية

اللغة :

الطائفة الجماعة . وقيل في أصلها قولان :

أحدهما ـ أنه كالرفقة التي من شأنها أن تطوف البلاد في السفر الذي يقع عليه الاجتماع . والآخر ـ أنها جماعة يستوي بها حلقة يطاف حولها . وإنما دخلت هاء التأنيث فيها لمعنى المضاعفة اللازمة كما دخلت في الجماعة ، لأن في أصل التأنيث معنى التضعيف من أجل أنه مركب على التذكير .

المعنى :

وفي قوله : « آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره » ثلاثة أقوال :

أولها ـ أظهروا الايمان لهم في أول النهار وارجعوا عنه في آخره ، فانه أحرى أن ينقلبوا عن دينهم .

الثاني ـ آمنوا بصلاتهم إلى بيت المقدس في أول النهار ، واكفروا بصلاتهم إلى الكعبة في آخره ليرجعوا بذلك عن دينهم .

الثالث ـ أظهروا الايمان في صدر النهار لما سلف لكم من الاقرار بصفة محمد (ص) ، ثم ارجعوا في آخره لتوهموهم أنه كان وقع عليكم غلط في صفته . والوجه الأول قول أكثر أهل العلم . ووجه النهار هو أوله عند جميع المفسرين ، كقتادة ، والربيع ، ومجاهد . وانما سمي أول النهار بأنه وجهه لأحد أمرين :

أحدهما ـ لأنه أول ما يواجه منه كما يقال ، لأول الثوب وجه الثوب . الثاني ـ لأنه كالوجه في أنه أعلاه وأشرف ما فيه قال ربيع ابن زياد :

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار (١)

« ١ » اللسان (وجه) والاغاني ١٦ : ٢٧ ، ومجاز القرآن ١ : ٩٧ ، وحماسة أبي تمام ٣ : ٢٦ وخزانة الادب ٣ : ٥٣٨ من أبيات قالها لما قتل حميمه مالك بن زهير ، وقد استعد لطلب ثأره وبعده : ـ

وقيل في معنى البيت : انه كان من عادتهم أن لا تنوح نساؤهم على قتلاهم إلا بعد أن يؤخذ بثاره ، فاراد الشاعر أن يبين أنهم أخذوا بثار مالك بأن النساء ينحن عليه . ولذلك قال في البيت الذي بعده :

يجد النساء حواسراً يندبنه

وقوله : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ فيه حذف وتقديره : لعلهم يرجعون عن دينهم في قول ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد .

قوله تعالى :

« وَلا تؤمنوا إلاَّ لِمَنَ تَبعَ دينكمْ قُلْ إنَّ الهُدى هُدَى اللهِ أنْ يُؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتُمْ أو يُحاجُّوكمْ عِندَ رَبِّكمْ قُلْ إنَّ الفضلَ بيدِ اللهِ يُؤتيهِ مَن يَشاءُ واللهُ واسِعٌ عليمٌ » (٧٣) آية .

المعنى ، والاعراب :

قال الحسن : القائلين « لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » هم يهود خيبر ليهود المدينة . وقال قتادة ، والربيع ، والسدي ، وابن زيد : هم بعض اليهود لبعض . وقيل في معنى الآية ستة أقوال :

أحدها ـ قال الحسن ، ومجاهد : أعرض بقوله : « قل إن الهدى هدى الله » وتقديره : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » ولا تؤمنوا « أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم » ولا تؤمنوا «أن يحاجوكم عند ربكم » لأنه لا حجة لهم . وقال أبوعلي الفارسي . وتقديره ولا تصدقوا بـ « أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم » « إلا لمن تبع دينكم » .

يجد النساء حوسراً يندبنه ... يبكين قبل تبلج الاسحار
قد كن يخبأن الوجوه تستراً ... فاليوم حين برزن للنظار
يخمشن حرات الوجوه على امرئ ... سهل الخليقة طيب الاخبار

الثاني ـ قال السدي ، وابن جريج : هو على الاتصال بالهدى دون الاعتراض، والمعنى « قل إن الهدى هدى الله أن » لا « يؤتى أحد مثل ما أوتيتم » أيها المسلمون ، كقوله « يبين الله لكم أن تضلوا » (١) وأن لا « يحاجوكم عند ربكم » لأنه لا حجة لهم .

الثالث ـ قال الكسائي ، والفراء : « أو يحاجوكم عند ربكم » بمعنى حتى « يحاجوكم عند ربكم » على التبعيد كما يقال لا تلتقي معه أو تقوم الساعة .

الرابع ـ قال أبو علي : « قل إن الهدى هدى الله » فلا تجحدوا « أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم » .

الخامس ـ قال الزجاج : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » لئلا تكون طريقاً لعبدة الأوثان إلى تصديقه .

السادس ـ « أو يحاجوكم عند ربكم » ان اعترفتم به ، فيلزمكم العمل به منهم، لاقراركم بصحته .

وفي دخول اللام في قوله : « إلا لمن » قيل فيه قولان :

أحدها ـ أن تكون زائدة كاللام في قوله : « ردف لكم » (٢) أي ردفكم بمعنى لا تصدقوا إلا من تبع دينكم . قال المبرد : إنما يسوغ ذلك على تقدير المصدر بعد تمام الكلام ، فأما قام لزيد بمعنى قام زيد ، فلا يجوز ، لأنه لا يحمل على التأويل إلا بعد التمام .

والقول الآخر ـ لا تعترفوا بالحق « إلا لمن تبع دينكم » فتدخل للتعدية ، وقال أبو علي الفارسي لا يجوز أن يتعلق اللام في قوله : « لمن تبع دينكم » بقوله : « ولا تؤمنوا » ، لأنه قد تعلق به حرف الجر في قوله : « بأن يؤتى » كما لا يتعلق مفعولان بفعل واحد . فان قيل : لم جاز حذف (لا) من قوله تعالى « أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم » على قول من قال ذلك ؟ قلنا : الدلالة عليها كالدلالة في

« ١ » سورة النساء آية : ١٧٥ .

« ٢ » سورة النمل آية : ٧٢ .

جواب القسم ، نحو والله أقوم أي لا أقوم قال امرؤ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعـدا　　ولوقطعوا رأسي لديك وأوصالي(١)

أي لا أبرح . والدليل عليه في الآية اتصاله بالعرض في اختصاص أهل الايمان ، ، فلا يتبعه في المعنى إلا على « أن لا » « يؤتى أحد مثل ما أوتيتم » وكذلك « يبين الله لـكم أن تضلو » (٢) لأن البيان لا يكون طريقاً إلى الضلال. وقال المبرد تقديره كراهة« أن تضلوا » ، وكراهة « ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم» فحمله على الأكثر ، لأن حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أكثر من حذف (لا) . وقوله : ﴿ والله واسع عليم ﴾ معناه واسع الرحمة عليم بالمصلحة ، فمن صلح له ذلك من غيركم فهو يؤتيه تفضلا عليه .

قوله تعالى :

« يَختصُّ برحمتهِ مَن يَشاءُ وَاللهُ ذُو الفضلِ العظيمُ » (٧٤) آية .

اللغة :

الاختصاص :انفراد بعض الاشياء بمعنى دون غيره ، كالانفراد بالملك أو الفعل أو العلم أو السبب أو الطلب أو غير ذلك . ويصح الانفراد بالنفس وغير النفس ، وليس كذلك الاختصاص ، لأنه نقيض الاشتراك . والانفراد نقيض الازدواج . والفرق بين الاختصاص ، والخاصة : أن الخاصة تحتمل الاضافة وغير الاضافة ، لأنها نقيض العامة ، فأما الاختصاص ، فلا يكون إلا على الاضافة ، لأنه اختصاص بكذا دون كذا .

المعنى :

وقيل في معنى الرحمة ههنا قولان :

« ١ » مر البيت في ٢ : ٢٢٧ .

« ٢ » سورة النساء آية : ١٧٥ .

أحدها ـ قال الحسن ، ومجاهد ، والربيع ، والجبائي : إنها السورة وقال ابن جريج : هي القرآن ، والاسلام . ووجه هذا القول أنه يختصهم بالاسلام بما لهم من اللطف فيه . وفي الآية دلالة على أن النبوة ليست مستحقة بالافعال ، لأنها لو كانت جزاء ، لما جاز أن يقول يختص بها من يشاء ، كما لا يجوز أن يختص بعقابه من يشاء من عباده . فان قيل اللطف مستحق ، وهو يختص به من يشاء من عباده؟ قلنا : لأنه قد يكون لطفاً على وجه الاختصاص دون الاشتراك وليس كذلك الثواب .

اللغة

وقوله : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ ، فالفضل الزيادة عن الاحسان وأصله على الطلاق الزيادة يقال في بدنه فضل أي زيادة . والفاضل : الزائد على غيره في خصال الخير ، فأما التفضل ، فزيادة النفع على مقدار الاستحقاق ثم كثر استعماله حتى صار لكل نفع قصد به فاعله أن ينفع صاحبه .

وقوله تعالى :

« وَمِنْ أَهلِ الكِتابِ مَنْ إنْ تأْمَنهُ بِقنطارٍ يُؤدِّهِ إليكَ وَمِنهم مَنْ إنْ تأمَنهُ بِدينارٍ لا يؤدِّهِ إليكَ إلاَّ ما دُمتَ عليهِ قائماً ذلِكَ بأنهم قالوا لَيسَ عَلينا في الأُمِّيِّينَ سَبيلٌ وَيقولونَ على اللهِ الكذبَ وهُمْ يَعلمون » (٧٥) آية بلا خلاف .

القراءة ، والحجة :

قرأ أبو عمرو « يؤده إليك » باسكان الهاء . الباقون باشباعها .

قال الزجاج : هذا غلط من الراوي كما غلط في « بارئكم » (٤) باسكان

« ١ » سورة البقرة آية : ٥٤ .

الهمزة ، وإنما كان أبو عمرو يختلس الحركة فيما رواه الضباط عنه كسيبويه وغيره . وإنما لم يجز حذف الحركة ، كما لم يجز في هذا غلامِ فاعلم ، لأنه لما حذفت الياء تركت الكسرة لتدل عليها .

المعنى ، واللغة :

والقنطار: قد ذكرنا الخلاف في مقداره ، فانه على قول الحسن ألف ومأتا مثقال . وفي قول أبي نضرة ملأ مسك ثور ذهباً . وقيل سبعون ألفاً عن مجاهد . وعن أبي صالح أنه مئة رطل . والفرق بين « تأمنه بقنطار » وتأمنه على قنطار أن معنى الباء الصاق الأمانة ، ومعنى على استعلاء الأمانة ، وهما يتعاقبان في هذا الموضع ، لتقارب المعنى ، كما يقال : مررت به ومررت عليه . وقوله : ﴿ إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ « إلا ما دمت عليه قائماً » بالتقاضي والمطالبة في قول قتادة ، ومجاهد و [الثاني] قال السدي إلا ما دمت عليه قائماً بالاجتماع معه ، والملازمة . ومعناه إلا ما دمت عليه قائماً على رأسه .

ودِمت ودُمت لغتان مثل مت ومت لكن من كسر الدال والميم قال في المستقبل : تدام وتمات ، وهي لغة ازد السراة ، ومن جاورهم .

وقوله : « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال قتادة والسدي : قالت اليهود ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل ، لأنهم مشركون . و [الثاني] قال الحسن وابن جريج : لأنهم تحولوا عن دينهم الذي عاملناهم عليه وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم . وقوله : ﴿ وهم يعلمون ﴾ معناه يعلمون هذا الكذب على الله تعالى ، فيقدمون عليه ، والحجة قائمة عليهم فيه . وقال قوم : قوله : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده

إليك » يعني النصارى ، لأنهم لا يستحلون أموال من خالفهم ، وعنى بقوله : « ومنهم من إن تأمنه بدينار » اليهود لأنهم يستحلون مال كل من خالفهم في حل السبت . وعلى هذا يسقط سؤال من يقول أي فائدة في ذكر ذلك ، لأن من المعلوم في كل حال من كل أمة أن فيها من يؤدي الامانة وفيها من لا يؤديها ، فلا فائدة في ذلك ؟ فإن هذا ميز بين الفريقين . ومن قال بالأول يمكنه أن يقول فائدة الآية القطع على أن فيهم هؤلاء ، وهؤلاء وسائر الناس يجوز أن لايكون فيهم إلا أحد الفريقين ، فلذلك فائدة بينة . ويمكن أيضاً أن تكون الفائـدة أن هؤلاء لا يؤدون الأمانة لاستحلالهم ذلك بقوله : « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل » وسائر الفرق وإن كان منهم من لا يؤدي الامانة ، لا نعلم أنه يستحلها وذلك فائدة .

قوله تعالى :

﴿ بَلى مَنْ أوفى بِعهدِهِ وَاتَّقى فإنَّ اللهَ يُحبُّ المتقينَ ﴾ (٧٦) آية .

الهاء في قوله : « بعهده » يحتمل أن تكون عائدة على اسم الله في قوله : « ويقولون على الله الكذب » ويحتمل أن تكون عائـدة على (من) في قوله : « بلى من أوفى بعهده » لأن العهد يضاف إلى الفاعل ، والمفعول . تقول هـذا عهد فلان الذي عُهد إليه به ، وهذا عهد فلان الذي عهده إلى غيره . ووفى وأوفى لغتان ، فأهل الحجاز يقولون أوفيت وأهل نجد يقولون وفيت . وقوله : « بلى » يحتمل معنيين :

أحدها ـ الاضراب عن الأول على وجه الانكار للاول وعلى هذا الوجه « من أوفى بعهده » تكون مكتفية ، نحو قولك : ماقدم فلان ، فتقول بلى أي بلى قد قدم . وقال الزجاج : بلى ههنا وقف تام لأنهم لما قالوا « ليس علينا في الاميين سبيل » قيل « بلى » أي بلى عليهم سبيل .

والثاني ـ الاضراب عن الأول والاعتماد على البيان الثاني وعلى هذا الوجه

لا تكون مكتفية ، نحوان تقول قد قدّم زيد ، حدساً لغواًمن القول، بلى لو كان متيقناً لعمل على قوله . فكذلك الآية تدل على ماتقدم على إدعائهم خلاف الصواب في التقوى فقيل : « بلى » للاضراب عن الأول ، والاعتماد على البيان الثاني . والفرق بين بلى ونعم أن بلى جواب النفي ، نحو قوله . « ألست بربكم قالوا بلى » (١) فأما أزيد في الدار فجوابه ، نعم ، أو ، لا . وإنما جاز إمالة بلى لمشابهتها الاسم من وجهين .

أحدهما ـ أنه يوقف عليها في الجواب ، كما يوقف على الاسم نحو من رأيت من النساء ، فيقول الحبلى ، وكذلك إذا قال أليس زيد في الدار قلت بلى . ولأنها على ثلاثة أحرف وهي أصل العدة التي يكون عليها الاسم ولذلك خالفت (لا) في الامالة .

وإنما قال « فان الله يحب المتقين » ولم يقل فان الله يحبه فيرد العامل إلى اللفظ ، لابانة الصفة التي تجب بها محبة الله وإن كان فيه معنى فان الله يحبهم .

قوله تعالى :

﴿ إنَّ الذينَ يَشترون بِعهدِ اللهِ وَأيمانِهمْ ثمناً قليلاً أولئكَ لا خَلاقَ لَهمْ في الآخرةِ وَلا يُكلمهمُ اللهُ وَلا يَنظرُ إليهمْ يومَ القيامةِ وَلا يُزكيهمْ وَلهمْ عذابٌ أليمٌ ﴾ (٧٧) آية واحدة .

النزول :

اختلفوا في سبب نزول هذه الآية ، فقال مجاهد ، وعامر الشعبي : إنها نزلت في رجل حلف يميناً فاجرة في تنفيق سلعته . وقال ابن جريج : إنها نزلت في الأشعث بن قيس وخصم له في أرض قام ليحلف عند رسول الله ، فنزلت الآية فنكل الاشعث ، واعترف بالحق ، ورد الأرض . وقال عكرمة نزلت في جماعة من

« ١ » سورة الاعراف آية : ١٧١ .

اليهود : حي بن أحطب ، وكعب بن الأشرف ، وأبي رافع ، وكنانة بن أبي الحقيق . وقال الحسن كتبوا كتاباً بأيديهم ثم حلفوا أنه من عند الله فيما ادعوا من أنه ليس علينا في الاميين سبيل .

المعنى :

وعهد الله هو ما يلزم الوفاء به . ويستحق بنقضه الوعيد . وهو ما أخذه على العبد وأوجبه عليه بما جعل في عقله من قبح تركه ، وذلك في كل واجب عليه ، فانه يلزم بنقضه الوعيد إلا أن يتوب أو يجتنب الكبيرة . والعهد : هو العقد الذي تقدم به إلى العبد بما يجده في عقله من الزجر عن خلاف الحق ، والدعاء إلى التمسك به ، والعمل عليه ، وإنما وصف ما اشتروه من عرض الدنيا بأنه ثمن قليل مع ماقرن به الوعيد لأمرين :

أحدهما ـ لأنه قليل في جنب ما يؤدي إليه من العقاب والتنكيل . والثاني ـ هو أنه مع كونه قليلا ، الاقدام فيه على اليمين مع نقض العهد عظيم . وقوله : « أولئك لا خلاق لهم » معناه لا نصيب وافر لهم . وقيل في أصل الخلاف قولان :

أحدهما ـ الخلق : التقدير ، فيوافق معناه ، لأن النصيب : الوافر من الخير بالتقدير لصاحبه يكون نصيباً له . والآخر ـ من الخلق ، لأنه نصيب مما يوجبه الخلق الكريم . وقوله : ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ « لا يكلمهم » بما يسرهم بل بما يسوءهم وقت الحساب لهم ، لأن الغرض إنما هو الوعيد ، فلذلك تبعه معنى لا يكلمهم بما يسر مع أن ظاهر قوله : « ثم أن علينا حسابهم » (١) أنه يكلمهم بما يسوءهم في محاسبته لهم ، هذا قول أبي علي . الثاني ـ لا يكلمهم أصلا ، وتثبت المحاسبة بكلام الملائكة لهم (ع) بأمر الله إياهم ، فيكون على العادة في احتقار إنسان على أن يكلمه الملك لنقصان المنزلة . وقوله :

(١) سورة الغاشية آية : ٢٦ .

﴿ ولا ينظر إليهم ﴾ أي لا يرحمهم ، كما يقول القائل لغيره : انظر إلي يريد ارحمني وفي ذلك دلالة على أن النظر مع تعديته بحرف (إلى) لا يفيد الرؤية ، لأنه لا يجوز حملها في الآية على أنه لا يراهم بلا خلاف . وقوله : ﴿ ولا يزكيهم ﴾ معناه لا يحكم بزكاتهم دون أن يكون معناه لا يفعل الايمان الذي هو الزكاء لهم ، لأنهم في ذلك ، والمؤمنين سواء ، فلو أوجب ما زعمت المجبرة ، لكان لا يزكيهم ، ولا يزكي المؤمنين أيضاً في الآخرة وذلك باطل .

قوله تعالى :

« وَإِنَّ مِنهُمْ لَفَرِيقاً يَلوونَ أَلسِنَتَهُمْ بِالكِتابِ لِتَحسَبُوهُ مِنَ الكِتابِ وَما هُوَ مِنَ الكِتابِ وَيَقولونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَما هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقولونَ على اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعلَمون » (٧٨) آية .

اللغة ، والمعنى ، والاعراب

« وان منهم » الكناية بالهاء والميم راجعة على أهل الكتاب في قوله : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار » في قول جميع المفسرين : الحسن وغيره . وقوله : « يلوون ألسنتهم » قال مجاهد ، وقتادة ، وابن جريج ، والربيع : معناه يحرفونه بالتغيير والتبديل . وأصل اللي : الفتل من قولك لويت يده إذا فتلتها قال الشاعر :

لوى يده الله الذي هو غالبه (١)

ومنه لويت العمود إذا ثنيته وقال الآخر :

---

(١) قائله فرعان بن الاعرف السعدي التميمي ، في ولده منازل يدعو عليه . لان منازل ضرب والده عندما تزوج على امه . وصدره :

تخون مالي ظالماً ولوى يدي !

وهو من أبيات يقولها في ابنه منازل لان منازل عق اباه وهو فرعان وضربه لانه تزوج على أمه امرأة شابة ، فغضب لأمه ثم استاق مال أبيه واعتزل مع أمه فقال فيه الأبيات .

فلو كان في ليلى سدى من خصومة   للويت أعناق الخصوم الملاويا (١)

ومنه لويت الغريم لياً وليانا إذا مطلته حقه قال الشاعر :

تطيلين لياني وأنت مليـة   واحسن ياذات الوشاح التقاضيا

فقيل لتحريف الكلام بقلبه عن وجهه : ليّ اللسان به ، لأنه فتله عن جهتـه . وقوله : ﴿ لفريقاً ﴾ نصب بأنه اسم (ان) واللام لام التأكيد ويجوز دخولها على اسم (ان) إذا كان مؤخراً ، فان قدم لم يجز دخولها عليه ، لا تقول : ان لزيداً في الدار . وإنما امتنع ذلك لئلا يجتمع حرفا التأكيد ، لأن (ان) للتأكيد واللام للتأكيد أيضاً فلم يجز الجمع بينهما لئلا يتوهم اختلاف المعنى ، كما لم يجز دخول التعريف على التعريف ، والتأنيث على التأنيث ، فأما قولهم : جاءني القوم كلهم أجمعون ، فكل تأكيد للقوم وأجمعون تأكيد لكل . وقوله : ﴿ لتسحبوه من الكتاب ﴾ معناه لتظنوه . والفرق بين حسبت وزعمت : أن زعمت يحتمل أن يكون يقيناً أو ظناً ، وحسبت لا يحتمل اليقين أصلا . وقوله : ﴿ ألسنتهم ﴾ جمع لسان على التذكير كحمار وأحمرة . ويقال ألسن على التانيث كعناق وأعنق .

المعنى :

وقوله : « وما هو من عند الله » دلالة على أن المعاصي ليست من عند الله بخلاف ما تقوله المجبرة . ولا من فعله ، لأنها لو كانت من فعله ، لكانت من عنده ، وليس لهم أن يقولوا إنها من عنده خلقاً وفعلا ، وليست من عنده انزالا ولا أمراً ، وذلك أنها لو كانت من عنده فعلا أو خلقاً ، لكانت من عنـده على آكد الوجوه فلم يجز إطلاق النفي بأنها ليست من عند الله . وكما لا يجوز أن تكون من عند الله من وجه من الوجوه ، لاطلاق النفي بأنه ليس من عند الله ، فوجب العموم فيها باطلاق النفي .

(١) قائله مجنون بني عامر ، ولم نجده في ديوانه ، وهو في اللسان (شدا) ، (شذا) ، (لوى) والاغاني ٢ : ٣٣ . وغيرها .

فان قيل : أليس الايمان عندكم من عنده ، ومع ذلك ليس من عنده من كل الوجوه ، فهلا جاز مثل ذلك في تأويل الآية ؟ قيل : لا يجوز ذلك ، لأن اطلاق النفي يوجب العموم ، وليس كذلك اطلاق الاثبات ألا ترى أنك تقول : ماعندي طعام ، فانما تنفي القليل ، والكثير ، وليس كذلك إذا قلت عندي طعام ، لأنه لا يجب أن يكون عندك جميع الطعام فبان الفرق بين النفي والاثبات .

قوله تعالى :

﴿ ماكانَ لِبشرٍ أنْ يُؤتيهُ اللهُ الكتابَ والحكمَ والنُّبوة ثمَّ يقولَ للنّاسِ كونوا عِباداً لي مِنْ دُونِ اللهِ ولكنْ كونوا رَبّانيينَ بما كنتُمْ تعلمونَ الكتابَ وبما كنتُمْ تَدْرُسونَ ﴾ (٧٩)

آية واحدة .

القراءة والنزول :

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو « تعلمون » مخففاً الباقون بالتشديد . روي عن ابن عباس أنه قال : سبب نزول هذه الآية أن قوماً من اليهود قالوا للنبي (ص) أتدعونا إلى عبادتك كما دعا المسيح النصارى فنزلت الآية .

اللغة ، والمعنى :

وقوله : ﴿ لبشر ﴾ فانه يقع على القليل والكثير وهو بمنزلة المصدر مثل الخلق وغيره، تقول: هذا بشر وهؤلاء بشر كما تقول : هذا خلق وهؤلاء خلق . وإنما وقع المصدر على القليل ، والكثير ، لأنه جنس الفعل كما وجب في اسماء الاجناس كالماء والتراب ونحوه وقوله : « أن يؤتيه الله الكتاب » معناه أعطاه « الكتاب ، والحكم والنبوة »، أن « يقول للناس : كونوا عباداً لي من دون الله ولكن» يقول لهم :

« كونوا ربانيين » . وحذف يقول لدلالة الكلام عليه . ومعناه في قول الحسن : علماء فقهاء . وقالو سعيد بن جبير : حكماء أتقياء . وقال ابن أبي رزين : حكماء علماء . وقال الزجاج : معناه معلمي الناس . وقال غيره : مدبري أمر الناس في الولاية بالاصلاح .

اللغة :

وفي أصل رباني قولان :

أحدها ـ الربان وهو الذي يرب أمر الناس بتدبيره له وإصلاحه إياه ، يقال رب أمره يربه ربابة ، وهو ربان : إذا دبره ، وأصلحه ، ونظيره نعس ينعس ، فهو نعسان . وأكثر ما يجيء فعلان من فعل يفعل ، نحو عطش يعطش ، فهو عطشان ، فيكون العالم ربانياً ، لأنه بالعلم يدبر الأمر ويصلحه الثاني ـ إنه مضاف إلى علم الرب تعالى ، وهو على الدين الذي أمر به إلا أنه غير في الاضافة ، ليدل على هذا المعنى ، كما قيل : بحراني ، وكما قيل للعظيم الرقبة : رقباني ، وللعظيم اللحية : لحياني. وكما قيل لصاحب القصب : قصباني ، فكذلك صاحب علم الدين الذي أمر به الرب رباني .

الحجة ، والمعنى :

ومن قرأ بالتخفيف أراد بما كنتم تعلمونه أنتم . ومن قرأ بالتشديد أراد تعلمونه، لسواكم . وقوله : « وبما كنتم تدرسون » يقوي قراءة من قرأ بالتخفيف. والتشديد أكثر فائدة ، لأنه يفيد أنهم علماء ، وأنهم يعلمون غيرهم . والتخفيف لا يفيد أكثر من كونهم عالمين . وإنما دخلت الباء في قوله : « بما كنتم تعلمون » لأحد ثلاثة أشياء :

أحدها ـ كونوا معلمي الناس بعلمكم ، كما تقول : انفعوهم بمالكم .

الثاني ـ كونوا ممن يستحق أن يطلق عليه صفة عالم بعلمه على جهة المدح له

باخلاصه مما يحبطه .

الثالث ـ كونوا ربانيين في علمكم ودراستكم ووقعت الباء في موضع في .

قوله تعالى :

﴿ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٨٠) آية .

القراءة ، والحجة :

قرأ عاصم وحمزة وابن عامر « ولا يأمركم » بنصب الراء . الباقون برفعها فمن نصب عطف على ما عملت فيه (أن) على تقدير « ما كان لبشر أن يؤتيه الله» كذا « ولا يأمركم » بكذا ومن رفع استأنف الكلام ، لأنه بعد انقضاء الآية ، وتمامها .

المعنى :

وفي الآية دلالة على أن الانبياء لا يجوز أن يقع منهم ما ذكره دون أن يكون ذلك اخباراً عن أنه لا يقع منهم ، لأنها خرجت مخرج التنزيه للنبي عن ذلك كما قال : « ما كان لله أن يتخذ من ولد » (١) ومعناه لا يجوز ذلك عليه ، وكذلك قوله : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله » (٢) يدل على أن ذلك غير جائز عليه ، ولو جاز أن يحمل على نفي الوقوع دون الامتناع ، لجاز أن يحمل على التحريم دون الانتفاء ، لأن اللفظ يصلح له ، لولا ما قارنه من ظاهر التعظيم للانبياء ، والتنزيه لهم عن الدعاء إلى الفساد أو اعتقاد الضلال ، ويجب حمل الكلام على ظاهر الحال إلا أن يكون هناك ما يقتضي صرفه عن ظاهره ، على أنه لو حمل على النفي لما كان فيه تكذيب للمخالف . والآية خرجت مخرج التكذيب لهم في

(١) سورة مريم آية : ٣٥ .　　(٢) سورة المؤمنون آية : ٩٢ .

دعواهم أن المسيح أمرهم بعبادته .

والالف في قوله : « أيأمركم » ألف انكار وأصلها الاستفهام . وإنما استعملت في الانكار ، لأنه مما لو أقر به المخاطب به ، لظهرت صحته وبان سقوطه ، فلذلك جاء الكلام على السؤال ، وإن لم يكن الغرض تعرف الجواب . وإنما لم تجز العبادة إلا لله تعالى ، لأنها تستحق باصول النعم من خلق القدرة ، والحياة ، والعقل ، والشهوة ، وغير ذلك مما لا يقدر عليه سواه . وليس في الآية ما يدل على أن في أفعال الجوارح كفراً ، لأن قوله : « أيأمركم بالكفر » معناه الامر باعتقاد أن الملائكة والنبيين أرباب ، وذلك كفر لا محالة . ولم يجر في الآية ، لتوجيه العبادة إليهم ذكر ، فأما من عند غير الله فانا نقطع على أن فيه كفراً هو الجحد بالقلب ، لأن نفس هذا الفعل كفر ، فسقطت شبهة المخالف .

قوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١) .

القراءة ، والمعنى :

قرأ نافع « لما آتيناكم » على الجمع . الباقون على التوحيد بالتاء . وقرأ حمزة « لما » بكسر اللام . الباقون بفتحها . التقدير اذكروا « إذ أخذ الله ميثاق النبيين » لأن (إذ) لما مضى ومعنى أخذ الميثاق من النبيين بنصرة من لم يلقوه ولم يدركوا زمانه هو أنهم ينصرونه بتصديقه عند قومهم ، ويأمرونهم بالاقرار به ، كما قيل : إنما أخذ الله ميثاق النبيين الماضين بتصديق محمد (ص) ، هذا قول علي (ع)

وعبد الله بن عباس (ره) ، وقتادة والسدي ، وقال طاوس : أخذ الميثاق الأول من الانبياء لتؤمنن بالآخر . وروي عن أبي عبد الله (ع) أنه قال تقديره : وإذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين بتصديق كل أمة نبيها ، والعمل بما جاءهم به ، وإنهم خالفوهم فيما بعد ، وما وفوا به وتركوا كثيراً من شريعته ، وحرفوا كثيراً منه .

الاعراب ، والحجة ، والمعنى :

وقوله : ﴿ لما آتيتكم من كتاب ﴾ قيل في معنى (ما) في لما وجهان :

أحدها ـ أنها بمعنى الذي وتقديره الذي آتيتكموه من كتاب ، لتفعلن لاجله كذا . الثاني ـ أنها بمعنى الجزاء ، وتقديره ، لان آتيكم شيئاً « من كتاب ، وحكمة ثم جاءكم رسول » ، « لتؤمنن به » ، لأجله . وتقديره أي شيء آتيتكم . ومهما آتيتكم . ويكفي جواب القسم من جواب الجزاء ، كقوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » (١) وفي معنى (من) قولان :

أحدها ـ أنها للتبيين لـ (ما) كقولك ما عندك من ورق وعين .

الثاني ـ أن تكون زائدة ، وتقديره الذي آتيتكم : كتاب وحكمة ، فيكون في موضع خبر (ما) ، وأنكر هذا القول أكثر النحويين ، لأن (من) لا تزاد إلا في غير الواجب من نحو النفي والاستفهام ، والجزاء . والأول أصح ، لأنه لا يجوز أن يحكم بزيادة حرف أو لفظ مع إمكان حمله على فائدة . واللام في قوله : « لما » لام الابتداء . واللام في قوله : « لتؤمنن به » لام القسم ، كما تقول لعبد الله : والله لتأتينه . وقال قوم : اللام الأول خلف من القسم يجاب بجوابه ، نحو لمن قدم ما أحسن ، ولمن أتاك لأتيته ، وأنكر هذا القائل أن تكون الثانية تأكيداً للأولى ، لوقوع (ما) و (لا) في جوابها ، كما تقع في جواب القسم . والقول الأول أصح ، لأن فيه افصاحاً بالقسم ، نحو لزيد والله ما ضربته والقول

---

(١) سورة الزمر آية : ٦٥ .

الثاني ـ صواب على تقدير آخر ، وان يكون اللام خلفاً من القسم ، كافياً منه ، فلا يحتاج إلى ذكره معه ومن ذكره معه لم يجعله خلفاً منه ، لأنه أضعف منه ، والخلف أقوى من الدال الذي ليس بخلف ، لأنه بمنزلة الاصل الموضوع للمعنى يفهم به من غير واسطة . ومن كسر اللام في قوله : « لما » يحتمل أمرين :

أحدها ـ أن يكون على التقديم والتأخير . والثاني ـ بمعنى أخذ الله ميثاقهم لذلك . وقال بعضهم القراءة بالكسر لا تجوز ، لأنه ليس كل شيء أوتي الكتاب وهذا غلط من وجهين :

أحدها ـ أنه أوتي الكتاب لعلمه به مهتدياً بما فيه ، وان لم ينزل عليه . والآخر ـ أنه يجوز ذلك على التغليب بالذكر في الجملة ، لأنه بمنزلة من أوتي الكتاب بما أوتي من الحكم والنبوة . فان قيل لم لا يجوز أن يكون (لما) آتيتكم من كتاب وحكمة)، بمعنى لتبلغن ما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم يحذف ؟ قيل لأنه لا يجوز الحذف في الكلام من غير دليل ينبيء عن المراد . ومن زعم أن الدليل على حذف الفعل لام القسم ، فقد غلط ، لأنها لام الابتداء التي تدخل على الاسماء ، نحو « لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » (١) .

المعنى واللغة :

وقيل في معنى قوله : « وأخذتم على ذلكم اصري » قولان :

أحدها ـ وقبلتم على ذلك عهدي . والثاني ـ « وأخذتم على ذلكم اصري » من المتبعين لكم كما يقال : أخذت بيعتي أي قبلتها ، وأخذتها على غيرك بمعنى عقدتها على غيرك . والاصر العقد ، وجمعه اصار وأصله العقد ومنه المأصر ، لأنه عقد يحبس به عن النفوذ إلا باذن . ومنه الأصر الثقل ، لأنه عقد يثقل القيام به . ومنه قولهم مالك اصرة تأصرني عليك أي عاطفة تعطفني عليك من عقد جوار

---

(١) سورة الاعراف آية : ١٧ .

أو نحوه . وقوله : ﴿ فاشهدوا ﴾ معناه فاشهدوا على أممكم بذلك « وأنا معكم من الشاهدين » عليكم ، وعليهم روي ذلك عن علي بن أبي طالب عليه السلام .

قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعدَ ذلكَ فاولئكَ هُمُ الفاسِقونَ ﴾ (٨٢) آية .

المعنى :

التولي عن الايمان بالنبي (ص) كفر ــ بلا خلاف ــ وإنما قال «فاولئك هم الفاسقون » ولم يقل الكافرون ، لأن تقدير الكلام فأولئك هم الفاسقون في كفرهم أي المتمردون فيه بخروجهم إلى الأفحش منه ، وذلك أن أصل الفسق الخروج عن أمر الله إلى حال توبقه ، فلذلك قيل للخارج عن أمر الله إلى أفحش منازل الكفر ، فاسق .

الاعراب :

وموضع (هم) من الاعراب يحتمل أمرين :

أحدهما ــ أن يكون رفعاً بأنه مبتدأ ثان والفاسقون خبره . والجملة خبر أولئك . والآخر ــ أنه لا موضع له ، لأنه فصل جاء ليؤذن أن الخبر معرفة أو ما قارب المعرفة ويسمي الكوفيون ذلك عماداً . وقوله : ﴿ فمن تولى ﴾ وإن كان شرطاً وجزاء في المستقبل فان الماضي يدخل فيه من وجهين :

أحدهما ــ أن يكون تقديره فمن يصح أنه تولى ، كما قال : « إن كان قميصه قد من قبل فصدقت » (١) أي إن يصح أن « قميصه قد من قبل فصدقت » والآخر مساواة الماضي للمستقبل ، فيدخل في دلالته . وإنما جاز جواب الجزاء بالفاء ولم يجز بـ (ثم) ، لأن الثاني يجب بوجوب الأول بلا فصل ، فلذلك جاء

(١) سورة يوسف آية : ٢٦ .

بالفاء دون (ثم) ، لأنها للتراخي بين الشيئين ، وذلك نحو قولك إن تأتني ، فلك درهم ، فوجوب الدرهم بالاتيان عقيبه بلا فصل . وإنما جاز وقوع الماضي موقع المستقبل في الجزاء ولم يجز في قام زيد غداً ، لأن حرف الجزاء ، لما كان يعمل في الفعل قوي على نقله من الماضي إلى الاستقبال ، وليس كذلك (غد) وما أشبهه مما يدل على الاستقبال ، لأنه نظير الفعل في الدلالة من غير عمل يوجب القوة ، فلذلك جرى على المناقضة .

قوله تعالى :

﴿ أفغير دينِ اللهِ تبغونَ ولهُ أسلمَ منْ فيالسماواتِ والارضِ طوعاً وكرهاً وإليه تُرجعونَ ﴾ (٨٣) . آية .

القراءة ، والحجة ، والاعراب :

قرأ أهل البصرة ، وحفص يبغون بالياء . الباقون بالتاء . وقرأ يعقوب وحفص وإليه يرجعون بالياء . وكسر يعقوب الجيم ، وفتح الياء . فمن قرأ بالياء أراد الاخبار عن اليهود وغيرهم من المشركين والتاء لجميع المكلفين . ومن قرأ بالتاء فيهما ، فعلى الخطاب ، فيهما . قوله : « أفغير دين الله » عطف جملة على جملة مثلها لو قيل أو غير دين الله يبغون إلا أن الفاء رتبت . كأنه قيل أبعد تلك الآيات غير دين الله تبغون أي تطلبون .

المعنى :

وقوله : ﴿ وله أسلم من في السماوات والارض طوعاً وكرهاً ﴾ قيل في معناه ستة أقوال :

أولها ـ قال ابن عباس : أسلم من في السماوات والارض بالحالة الناطقة عنه الدالة عليه عند أخذ الميثاق عليهم .

الثاني ـ قول أبي العالية ، ومجاهد : ان معناه « أسلم » أي بالاقرار بالعبودية وإن كان فيهم من أشرك في العبادة ، كقوله : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » (١) وقوله : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله » (٢) ومعناه ما ركب الله في عقول الخلائق من الدعاء إلى الاقرار بالربوبية ليتنبهوا على ما فيه من الدلالة .

الثالث ـ قال الحسن : « وله أسلم من في السماوات والارض طوعاً وكرهاً » قال : أكره أقوام على الاسلام وجاء أقوام طائعين .

الرابع ـ قال قتادة : أسلم المؤمن طوعاً ، والكافر كرهاً عند موته ، كما قال : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » (٣) واختاره البلخي . ومعناه التخويف لهم من التأخر عما هذه سبيله .

الخامس ـ قال عامر ، والشعبي والزجاج ، والجبائي أن معنان : استسلم بالانقياد والذلة ، كما قال تعالى : « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » (٤) أي استسلمنا ، ومعناه الاحتجاج به .

وسادسها ـ قال الفراء والأزهري إنما قال « طوعاً وكرهاً » لأن فيهم من أسلم ابتداء رغبة في الاسلام ، وفيهم من أسلم بعد أن قوتل وحورب ، فسمي ذلك كرهاً مجازاً وإن كان الاسلام وقع عنده طوعاً .

وقوله : « طوعاً وكرهاً » نصب على أنه مصدر ، وقع موقع الحال ، وتقديره طائعاً أو كارهاً ، كما تقول أتاني ركضاً أي راكضاً . ولا يجوز أن تقول أتاني كلاماً أي متكلماً ، لأن الكلام ليس بضرب من الاتيان والركض ضرب منه .

قوله : « إليه ترجعون » معنا تردون إليه للجزاء فاياكم ومخالفة الاسلام فيجازيكم بالعقاب . قال الله تعالى : « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (٥) .

---

(١) سورة الزخرف آية : ٨٧ .　(٢) سورة لقمان آية : ٢٥ .
(٣) سورة المؤمن آية : ٨٥ .　(٤) سورة الحجرات آية : ١٤ .
(٥) سورة آل عمران آية : ٨٥ .

النزول :

وروي عن أبي عبد الله (ع) أنها نزلت في الحارث بن سويد بن الصامت. وكان ارتد بعد قتله المحذر بن ديار البلوي غدراً في الاسلام، وهرب وحديثه مشروح ثم ندم، فكاتب قومه سلوا رسول الله (ص) هل لي توبة، فنزلت الآيات إلى قوله: «إلا الذين تابوا»، فرجع فأسلم.

قوله تعالى:

﴿ قُلْ آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (٨٤) آية.

المعنى :

قيل في تأويل هذه الآية قولان:

أحدها ـ أن معناها الانكار على الكفار ما ذهبوا إليه من الايمان ببعض النبيين دون بعض، فأمر الله تعالى النبي (ص)، والمؤمنين أن يقولوا: إنا نؤمن بجميع النبيين، ولا نفرق بين أحد منهم. الثاني ـ أن معناها موافقة ما تقدم الوعد به من إيمان النبي الامي بجميع من تقدم من النبيين على التفصيل. وقال له في أول الآية (قل) خطاباً للنبي (ص) فجرى الكلام على التوحيد، وما بعده على الجمع. وقيل في ذلك قولان:

أحدها أن المتكلم قد يخبر عن نفسه بلفظ الجمع للتفخيم كما قال تعالى: «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» (١). والثاني ـ أنه أراد دخول الأمة في الخطاب الأول، والأمر بالاقرار. ويجوز أن يقال: في الواحد

(١) سورة الاعراف آية: ١٠.

المتكلم ، فعلنا ولا يجوز للواحد المخاطب فعلتم . والفرق بينهما : أن الكلام بالجملة الواحدة يصح بجماعة مخاطبين ، ولا يصح الكلام بالجملة الواحدة بجماعة متكلمين . فلذلك جاز في فعلنا في الواحد للتفخيم ، لأنه لا يصح أن يكون خطاباً للجماعة فلم يصرف عنهم . بغير قرينة لما يدخله من الالباس في مفهوم العبارة . وقوله : « وما أنزل علينا » في الاخبار عن المسلمين إنما جاز ذلك ، وإن كان قد أنزل على النبي (ص) ، لأن التقدير أنزل علينا على لسان نبينا كما تقول: أمرنا به ونهينا عنه ـ على لسان نبينا ـ ، ومثل ذلك ما قاله في سورة البقرة من قوله : « قولوا آمنا بالله وما أنزل علينا » (١) وقال بعضهم : لا يجوز أن يكون ذلك إلا إخباراً عن النبي (ص) الذي أنزل عليه ، وهذا غلط ، لأن الآية الأخرى تشهد بخلافه . فان قيل : ما معنى قوله : « ونحن له مسلمون » بعد الاقرار بالايمان على التفصيل ؟ قيل : معناه ونحن له مستسلمون بالطاعة في جميع ما أمر به ، ودعا إليه . ولأن أهل الملل المخالفة ، تعترف بصفة مؤمن ، وينتفي من صفة مسلم .

قوله تعالى :

« وَمن يَبتغِ غيرَ الاِسلام ديناً فَلن يُقبلَ مِنهُ وَهُوَ في الآخرةِ مِنَ الخاسرينَ » (٨٥) آية واحدة .

اللغة ، والنزول ، والمعنى :

الابتغاء : الطلب تقول : بغى فلان كذا أي طلبه ، ومنه بغى فلان على فلان : إذا طلب الاستعلاء عليه ظلماً ومنه البغي : الفاجرة ، لطلبها الزنى . ومنه ينبغي كذا ، لأنه حقيق بالطلب . والاسلام : هو الاستسلام لأمر الله بطاعته فيما دعا إليه ، فكل ذلك اسلام ، وان اختلفت فيه الشرائع ، وتفرقت المذاهب ، لأن مبتغيه ديناً ناج ، ومبتغي غيره ديناً هالك . والايمان ، والاسلام واحد ،

« ١ » سورة البقرة آية : ١٣٦ .

لأن « من يبتغي غير الاسلام ديناً » فهو مبطل ، كما أن من يبتغي غير الايمان ديناً ، فهو مبطل ، وذلك كمن يبتغي غير عبادة الآله ديناً ، فهو كافر ، ومن يبتغ غير عبادة الخالق ديناً ، فهو كافر . والآله هو الخالق .

وقال عكرمة : إن قوماً من اليهود قالوا : نحن المسلمون ، فأنزل الله تعالى « ولله على الناس حج البيت » (١) فأمرهم بالخروج إلى الحج الذي هو من فرض الاسلام ، فقعدوا عنه وبان انسلاخهم من الاسلام ، لمخالفتهم له فأنزل الله تعالى « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » فالخسران ذهاب رأس المال . ويقال : خسر نفسه أي أهلك نفسه . وقيل خسر عمله أي أبطل عمله بأن أوقعه على وجه يقبح لا يستحق عليه الثواب . وكل واحد منها خسر لذهاب رأس المال .

قوله تعالى :

﴿ كيفَ يَهدي اللهُ قوماً كفروا بَعدَ إيمانِهمْ وَشهدوا أنَّ الرَّسولَ حقٌّ وَجاءَهُمْ البيناتُ واللهُ لا يَهدي القومَ الظالمينَ ﴾ (٨٦) آية .

النزول :

قال الحسن : نزلت هذه الآية في أهل الكتاب الذين كانوا يؤمنون بالنبي (ص) قبل مبعثه بما يجدونه في كتبهم من صفاته ودلائله ، فلما بعثه الله جحدوا ذلك ، وانكروه . . وقال مجاهد ، والسدي : نزلت في رجل من الانصار يقال له الحارث بن سويد ارتد عن الاسلام ، ثم تاب ، وحسن إسلامه فقبل الله إسلامه بقوله : « إلا الذين تابوا » فيما بعد تمام الآية . وكذلك رويناه عن أبي عبد الله (ع) وقيل نزلت في قوم أرادوا من النبي (ص) أن يحكم لهم بالاسلام ،

(١) سورة آل عمران آية : ٩٧ .

وفي قلوبهم الكفر ، فاطلعه الله على أسرارهم وما في ضمائرهم .

اللغة ، والمعنى :

وقوله « كيف » أصلها للاستفهام ، والمراد بها هاهنا إنكار أن تقع هذه الهداية من الله تعالى . وإنما دخل (كيف) معنى الانكار مع أن أصلها الاستفهام ، لأن المسئول يسأل عن أغراض مختلفة ، فقد يسأل للتعجيز عن إقامة البرهان ، وقد يسأل للتوبيخ مما يظهر من معنى الجواب في السؤال ، وقد يسأل لما يظهر فيه من الانكار ، فالأصل فيه الاستفهام ، لكن من شأن العالم إذا أورد مثل هذا أن يصرف إلى غير الاستعلام إلا أنه يراد من المسئول طلب الجواب ، فان قيل كيف خص هؤلاء المذكورون بمجيء البينات مع أنها قد جاءت كل مكلف للايمان قيل عنه جوابان :

أحدها - لأن البينات التي جاءتهم هي ما في كتبهم من البشارة بالنبي (ص) .
الثاني - للتبعيد من حال الهداية والتفحيش لتجويزها في هذه الفرقة . وقوله : « والله لا يهدي القوم الظالمين » فالهداية ههنا تحتمل ثلاثة أشياء .

أولها سلوك طريق أهل الحق المهتدين بهم في المدح لهم والثناء عليهم .

الثاني - في اللفظ الذي يصلح به من حسنت نيته . وكان الحق معتمده ، وهو أن يحكم لهم بالهداية .

الثالث - في ايجاب الجواب الذي يستحقه من خلصت طاعته ، ولم يحبطها بسوء عمله . فان قيل كيف أطلق قوله : « والله لا يهدي القوم الظالمين » مع قوله « فأما ثمود فهديناهم » قلنا : لأنه لا يستحق اطلاق الصفة بالهداية إلا على جهة المدحة كقوله أولئك الذين هدى الله . فأما بالتقييد ، فيجوز لكل مدلول إلى طريق الحق اليقين .

وليس في الآية ما يدل على صحة الاحباط ، للايمان ولا إحباط المستحق عليه من الثواب ، لأنه لم يجر لذلك ذكر . وقوله : ﴿ كفروا بعد ايمانهم ﴾ يعني بعد

إظهارهم الايمان وشهادتهم أن الرسول حق ، وإن كانوا في باطنهم منافقين . وليس فيها أنهم كانوا في باطنهم مؤمنين مستحقين للثواب ، فزال ذلك بالكفر فلا متعلق بذلك في صحة الاحباط .

قوله تعالى :

﴿أولئكَ جزاؤُهم أنَّ عليهم لعنةَ الله والملائكةِ والنّاسِ أجمعينَ﴾ (٨٧) آية .

إن قيل : إذا كان لعن الملائكة والناس أجمعين تابعاً للعن الله ، فهلا اقتصر عليه في الذكر ؟ قيل الوجه في ذلك أن لا يوهم أن لعنهم لا يجوز إلا لله عز وجل كما لا يجوز أن يعاقبهم إلا الله أو من يأمرهم بذلك . وليس في قوله : « والناس أجمعين » دلالة على أنه يجوز للكافر أن يلعن نفسه ، لأن لعنه لنفسه دعاء عليها بالابعاد من رحمة الله . وذلك يوجب رغبته فيما دعا به ، ولا يجوز لأحد أن يرغب في أن يعاقبه الله ، لأن ذلك ينافي الزجر به والتحذير منه . وأما رغبة المؤمن في أن يعاقب الله الكافر فجائز حسن ، لأنه لا ينافي زجره بل هو أبلغ في زجره ، فان قيل : لم قال : « والناس أجمعين » ومن وافق الكافر في مذهبه لا يرى لعنه ؟ قيل عن ذلك ثلاثة أجوبة :

أحدها ـ إن له أن يلعنه ، وإنما لا يفعله لجهله بأنه يستحق اللعن . ويصح منه معرفة الله ، ومعرفة استحقاق اللعن لكل كافر ، فحينئذ يعلم أن له أن يلعنه وإنما لا يصح أن يلعن الكافر مع اعتقاده أنه لا يستحق اللعن ، لأنه لو صح ذلك لأدى إلى أن يصح أن يلعن نفسه لمشاركته له فيما استحق به اللعن . وقد بينا فساده .

والثاني ـ أن ذلك في الآخرة ، لأن بعضهم يلعن بعضاً . وقد استقرت عليهم لعنة الجميع ، وإن كانت على التفريق .

والثالث ـ أن يحمل لفظ الناس على الخصوص ، فيحمل على ثلاثة فصاعداً ،

فلذلك قال : « أجمعين » وكان يجوز أن يرفع « والملائكة والناس أجمعين » لأن الأول تقديره عليهم أن يلعنهم الله ، فيحمل الثاني على معنى الأول ، كما قال الشاعر :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبدرب أخا عون بن مخراق(١)

والاتباع أجود ليكون الكلام على نسق واحد ، وإنما ذكر وعيد الكفار ههنا مع كونه مذكوراً في مواضع كثيرة في القرآن ، للتأكيد وتغليظاً في الزجر لأنه لما جرى ذكر الكافر عقب ذلك بلعنه ، ووعيده ، كما إذا جرى ذكر المؤمن عقب ذلك بالرحمة ليكون أرغب له في فعل الطاعة والتمسك بالايمان .

قوله تعالى :

﴿ خالدينَ فيها لا يُخففُ عَنهمُ العذابُ وَلا هُمْ يُنظرونَ ﴾ (٨٨) آية .

اللغة :

الخلود في اللغة هو طول المكث ، ولذلك يقال خلده في السجن وخلد الكتاب في الديوان . وقيل للأثافي : خوالد ما دامت في موضعها ، فاذا زالت لا تسمى خوالد . والفرق بين الخلود والدوام : أن الخلود يقتضي (في) كقولك خلد في الحبس ولا يقتضي ذلك الدوام ، ولذلك جاز وصفه تعالى بالدوام دون الخلود . إلا أن خلود الكفار المراد به التأبيد بلا خلاف بين الأمة .

المعنى :

وقوله : « فيها » الهاء راجعة إلى اللعنة . ومعنى خلودهم فيها استحقاقهم لها دائماً مع ما توجبه من أليم العقاب ، فأما من ليس بكافر من فساق أهل الصلاة

« ١ » مر تخريجه في ١ : ٢٠٧ .

فلا يتوجه إليه الوعيد بالخلود ، لأنه لا يستحق إلا عقاباً منقطعاً به مع ثبوت استحقاقه للثواب الدائم ، لأنه لو كان كذلك لأدى إلى اجتماع استحقاق الثواب الدائم ، والعقاب الدائم لشخص واحد . والاجماع بخلافه . والاحباط ـ عندنا ـ باطل ، فلا يمكن أن يقال يحبط أحدهما الآخر ، وإنما حسن العقاب الدائم على المعاصي المنقطعة ، كما حسن الثواب الدائم على الطاعة المنقطعة ، فلا يجوز أن يستحق الدوام على الأصغر ، ولا يستحق على الأكثر ، فلما كانت نعم الله تعالى أعظم النعم كانت معاصيه أعظم المعاصي ، وكانت طاعته أصغر منها . وأيضاً ، فانه يحسن الذم للدائم على المعاصي المنقطعة فالعقاب يجري مجراه .

اللغة :

وقوله : ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ فالتخفيف هو تغيير الشيء عن حال الصعوبة إلى السهولة ، وهو تسهيل لما فيه كلفة ومشقة وأصله من خفة الجسم ضد ثقله . ومنه تخفيف المحنة معناه تسهيلها .وقوله : ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ معناه لا يمهلون وإنما نفى إنظارهم للانابة لما علم من حالهم أنهم لا ينيبون كما قال : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » (١) على أن التبقية ليست واجبة . وإن علم أنه لو بقاه لتاب وأناب عند أكثر المتكلمين . ومن قال يجب تبقيته متى علم أنه لو بقاه لآمن ، فجوابه هو الأول . وقيل في الفرق بين الانظار والامهال أن الانظار تأخير العبد لينظر في أمره . والامهال تأخيره لتسهيل ما يتكلفه من عمله .

قوله تعالى :

﴿ إلاَّ الَّذينَ تابوا مِنْ بَعدِ ذلكَ وَاصلحوا فانَّ اللهَ غفورٌ رَحيمٌ ﴾ (٨٩) آية .

« ١ » سورة الانعام آية : ٢٨ .

المعنى :

إن قيل إذا كانت التوبة من الذنب لا تصلح إلا بعد فعله ، فلم قال : « من بعد ذلك » ؟قيل فائدته أنه يفيد معنى تابوا منه ، لأن توبتهم من غيره لا تنفع في التخلص منه ، كما لا تنفع التوبة من الكبير في التخلص من الصغير ، فأما من قال : إن التوبة من معصية لا تصح مع الاقامة على معصية أخرى ، فانه يقول ذلك على وجه التأكيد ، فان قيل : إذا كانت التوبة وحدها تسقط العقاب وتحصل الثواب فلم شرط معها الاصلاح ؟قيل الوجه في ذلك إزالة الابهام لئلا يعتقد، أنه إذا حصل الايمان ، والتوبة من الكفر لا يضر معه شيء من أفعال القبائح ، كقوله : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » (١) فذكر مع الايمان عمل الصالحات ، لازالة الايهام بأن من كان مؤمناً في الحكم ، لم يضره مع ذلك ما عمله من المعاصي . وقبول التوبةواجب ، لأنها طاعة واستحقاق الثواب بها ثابت عقلا، فأما سقوط العقاب عندها ، فانما هو تفضل من الله ، ولولا أن السمع ورد بذلك ، وإلا ، فلا دلالة في العقل على ذلك . وقوله : « فان الله غفور رحيم » دخلت الفاء لشبهه بالجزاء ، إذا كان الكلام قد تضمن معنى إن تابوا « فان الله غفور رحيم » أي يغفر لهم وليست في موضع خبر الذين ، لأن الذين في موضع نصب بالاستثناء من الجملة الأولى التي هي قوله : « أولئك عليهم لعنة الله .... » الآية ، وذكر المغفرة في الآية دليل على أن اسقاط العقاب بالتوبة تفضل ، لأنه لو كان واجباً لما استحق بذلك الاثم بأنه غفور ، لأنه لا يقال هو غفور إلا فيما له المؤاخذة ، فأما مالا يجوز المؤاخذة به فلا يجوز تعليقه بالمغفرة .

قوله تعالى :

﴿ إنَّ الذينَ كفروا بَعدَ إيمانهمْ ثمَّ ازدادُوا كفراً لَنْ تُقبلَ

---

(١) سورة حم السجدة آية : ٨ .

تَوبتهمْ وَأولئكَ هُمُ الضّالونَ ﴾ (٩٠) آية بلا خلاف .

المعنى :

قيل في المعني بهذه الآية أربعة أقوال :

أحدها ـ قال ابن عباس هي فرقة ارتدت ثم عزمت على إظهار التوبة على جهة التورية ، فاطلع الله نبيه على ذلك بانزال هذه الآية . وقال أبو العالية لم تقبل توبتهم من ذنوب أصابوها مع الاقامة على كفرهم . وقال قتادة : هم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى « ثم ازدادوا كفراً » بمحمد (ص) « فلن تقبل توبتهم » عند حضورموتهم . وقال الحسن : هم اليهودوالنصارى كفروا بالنبي(ص) « فلن تقبل توبتهم » التي كانت في حال إيمانهم ، فان قيل : لمَ لم تقبل التوبة من هذه الفرقة ؟ قيل : لأنها كفرت بعد إيمانها ثم ازدادت كفراً إلى انقضاء أجلها ، فحصلت على ضلالتها ، فلم تقبل منها التوبة الاولى في حال كفرها بعد إيمانها ، ولا التوبة الثانية في حال الجائها . وقيل : إنما لم تقبل توبتهم ، لأنهم لم يكونوا فيها مخلصين بدلالة قوله : « وأولئك هم الضالون » . وقال الطبري : إنه لا يجوز تأويل من قال لن تقبل توبتهم عند حضور موتهم . قال : لأنه لا خلاف بين الأمة أن الكافر إذا أسلم قبل موته بطرفة عين في أن حكمه حكم المسلمين في وجوب الصلاة عليه ومواريثه ودفنه في مقام المسلمين واجراء جميع أحكام الاسلام عليه ، ولو كان إسلامه غير صحيح ، لما جاز ذلك . وهذا الذي قاله ليس بصحيح ، لأنه لا يمتنع أن نتعبد باجراء احكام الاسلام عليه وان كان اسلامه على وجه من الالجاء لا يثبت معه استحقاق الثواب عليه ، كما أنا تعبدنا باجراء أحكام الاسلام على المنافقين وإن كانوا كفاراً . وإنما لم يجز قبول التوبة في حال الالجاء إليه ، لأن فعل الملجأ كفعل المكره في سقوط الحمد والذم . وقد قال الله تعالى : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن » (١) . وقال :

« ١ » سورة النساء آية : ١٧ .

« فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » (١) فأما إذا عاد في الذنب ، فلا يعود إليه العقاب الذي سقط بالتوبة ، لأنه إذا تاب منه صار بمنزلة ما لم يعمله ، فلا يجوز عقابه عليه كما لا يجوز عقابه على ما لم يعمله سواء قلنا أن سقوط العقاب عند التوبة كان تفضلا أو واجباً . وقد دل السمع على وجوب قبول التوبة وعليه إجماع الأمة . وقال تعالى « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » (٢) وقال : « غافر الذنب وقابل التوب » (٣) وغير ذلك من الآي .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِلْءُ الأرضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٩١) آية .

اللغة :

الملء أصله الملأ ، وهو تطفيح الأناء . ومنه الملأ الاشراف ، لأنهم يملأون العين هيبة وجلالة . ومنه رجل مليء بالامر ، وهو أملأ به من غيره . والملأ اسم للمقدار الذي يملأ . والملأ بفتح الميم مصدر ملأت الأناء ملأ . ومثله الرعي بكسر الراء : النبات ، وبفتح الراء مصدر رعيته . قال الزجاج : ومن قال : هما سواء فقد غلط .

الاعراب :

وقوله : ﴿ ذهباً ﴾ نصب على التميز . والتميز على ضربين تميز المقادير وتميز الاعداد وكله مستحق النصب لاشتغال العامل بالاضافة أو ما عاقبها من النون

« ١ » سورة المؤمن آية : ٨٤ ـ ٨٥ .

« ٢ » سورة الشورى آية ٢٥ .　　« ٣ » سورة المؤمن آية : ٣ .

الزائدة ، فجرى ذلك مجرى الحال في اشتغال العامل بصاحبها ، ومجرى المفعول في اشتغال العامل عنه بالفاعل . ومثل ذلك ، عندي ملء زق عسلا وقدر نحي سمناً .

المعنى :

وقوله : ﴿ ولو افتدى به ﴾ فالفدية البدل من الشيء في إزالة الاذية . ومنه قوله : « وفديناه بذبح عظيم » (١) لأنه بدل منه في ازالة الذبح عنه ، ومنه فداء الاسير بغيره ، لأنه بدل منه في إزالة القتل والاسر عنه . وقيل في معنى الافتداء ههنا قولان :

أحدها ـ البيان عن أن ما كلفه في الدنيا يسير في جنب ما يبذله في الآخرة من الفداء الكثير لو وجد إليه السبيل ، قال قتادة يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الارض ذهباً ، لكنت تفتدي به ، فيقول : نعم ، فيقال لقد سئلت أيسر من ذلك ، فلم تفعل .

والثاني ـ ما حكاه الزجاج أنه لو افتدى به في دار الدنيا مع الاقامة على الكفر لم يقبل منه . وقيل في دخول الواو في قوله « ولو افتدى به » قولان قال : قوم : هي زائدة اجاز ذلك الفراء . والمعنى لو افتدى به . قال الزجاج : وهذا غلط ، لأن الكلام يجب حمله على فائدة إذا أمكن ، ولا يحمل على الزيادة . والثاني ـ أنها دخلت لتفصيل نفي القبول بعد الاجمال ، وذلك أن قوله « فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهباً » قد عم وجوه القبول بالنفي ثم أتى بالتفصيل ، لئلا يتطرق عليه سوء التأويل ، ولو قيل : بغير واو لم يكن قد عم النفي وجوه القبول ، فقد دخلت الواو لهذه الفائدة من نفي التفصيل بعد الجملة ، فأما الواو في قوله « وليكون من الموقنين » فانها عاطفة على محذوف في التقدير ، والمعنى « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والارض » ليعتبر « وليكون من الموقنين » (٢) .

---

(١) سورة الصافات آية : ٧ .
(٢) سورة الانعام آية : ٧٥ .

قوله تعالى :

﴿ لَن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبونَ وما تنفقوا مِنْ شيءٍ فانَّ اللهَ بهِ عليمٌ ﴾ (٩٢) آية واحدة .

المعنى :

قيل في معنى البر قولان :

أحدهما ـ البر من الله بالثواب في الجنة . الثاني ـ البر بفعل الخير الذي يستحقون به الأجر . وقال السدي وعمرو بن ميمون : البر الجنة .

فان قيل : كيف قال « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » والفقير لا يجب عليه الصدقة وينال الجنة ، وان لم ينفق ؟ قلنا : الكلام خرج مخرج الحث على الصدقة إلا أنه على ما يصح ويجوز من إمكان النفقة ، فهو مقيد بذلك في الجملة إلا أنه اطلق الكلام للمبالغة في الترغيب فيه . ويجوز « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » في سبل الخير من الصدقة من وجوه الطاعة . وقال الحسن : هي الزكاة الواجبة وما فرض تعالى في الأموال خاصة . والأولى أن تحمل الآية على الخصوص بأن يقول : هي متوجهة إلى من يجب عليه إخراج شيء أوجبه الله عليه دون من لم يجب عليه ، ويكون ذلك أيضاً مشروطاً بأن لا يعفو الله عنه ـ على مذهبنا في جواز العفو ـ أو يقول « لن تنالوا البر » الكامل الواقع على أشرف الوجوه « حتى تنفقوا مما تحبون » . وقوله : ﴿ فان الله به عليم ﴾ إنما جاء على جهة جواب الشرط وإن كان الله يعلمه على كل حال ، لامرين :

أحدها ـ لأن فيه معنى الجزاء ، فتقديره « وما تنفقوا من شيء فان الله » يجازيكم به قل أو كثر ، لأنه عليم به لا يخفى عليه شيء منه .

الثاني ـ فانه يعلمه الله موجوداً على الحد الذي تفعلونه من حسن النيـة أو قبحها .

اللغة :

والفرق بين البر ، والخير : أن البر هو النفع الواصل إلى الغير مع القصد إلى ذلك ، والخير يكون خيراً ، وان وقع عن سهو . وضد البر العقوق . وضد الخير الشر ، فبذلك بين الفرق بينهما .

النظم :

ووجه إتصال هذه الآية بما قبلها أنه تعالى لما ذكر في الآية الاولى « فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهباً ولو افتدى به » وصل ذلك بقوله « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » لئلا يؤدي امتناع غناء الفدية إلى الفتور في الصدقة ، وما جرى مجراها من وجوه الطاعة .

قوله تعالى :

﴿ كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاً لِبني إسرائيلَ إلا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسهِ من قَبلِ أنْ تُنزَّلَ التوراة قُلْ فأتوا بالتوراةِ فاتلوها إنْ كنتُمْ صادِقينَ ﴾ (٩٣) آية واحدة .

النظم :

وجه اتصال هذه الآية بما تقدم أنه تعالى ، لما ذكر الانفاق مما يحب ، ومن جملة ما يحب الطعام ، فذكر حكمه ، وأنه كان مباحاً حلالا « لبني إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه » .

النزول ، والقصة ، والمعنى :

وكان سبب نزول هـذه الآية أن اليهود أنكروا تحليل النبي (ص) لحوم الابل ، فبين الله تعالى أنها كانت محللة ، لابراهيم ، وولده إلى أن حرمها إسرائيل على نفسه ، وحاجهم بالتوراة ، فلم يجسروا على إحضار التوراة لعلمهم بصدق النبي (ص) فيما أخبر أنه فيها .

وكان إسرائيل وهو يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم نذر إن برأ من النساء أن يحرم أحب الطعام والشراب إليه وهو لحوم الابل وألبانها ، فلما برأ وفى لله بنذره . وقال ابن عباس والحسن: إن اسرائيل أخـذه وجع العرق الذي يقال له النساء ، فنذر إن شفاه الله أن يحرم العروق ولحم الابل [على نفسه]، وهو أحب الطعام إليه.

فان قيل : كيف يجوز للانسان أن يحرم على نفسه شيئاً ، وهو لا يعلم ماله فيه من المصلحة مماله فيه المفسدة ؟ قلنا : يجوز ذلك إذا أذن الله له في ذلك وأعلمه، وكان الله أذن لاسرائيل في هذا النذر ، فلذلك نذر . وفي الناس من استدل بهذه الآية على أنه يجوز للنبي (ص) أن يجتهد في الأحكام ، لأنه إذا كان أعلم ورأيه أفضل كان اجتهاده أحق وهذا الذي ذكروه إن جعل دليلا على أنه كان يجوز أن يتعبد النبي بالاجتهاد، كان صحيحاً ، وإن جعل دليلا على أنه كان متعبداً به ، فليس فيه دليل عليه ، لأنا قد بينا أن اسرائيل ما حرم ذلك إلا باذن الله ، فمن أين إن ذلك كان محرماً له من طريق الاجتهاد ، فأما من امتنع من جواز تعبد النبي (ص) بالاجتهاد ، بأن ذلك يؤدي إلى جواز مخالفة أمته له إذا اداهم الاجتهاد إلى خلاف اجتهاده فقد أبعد ، لأنه لا يمتنع أن يجتهـد النبي (ص) الاجتهاد إلى خلاف ما أدى اجتهاد الأمة إليه ، فوجب اتباعه ولا يلتفت إلى اجتهاد من يخالفه ، كما أن الأمة يجوز أن تجمع على حد عن اجتهاد ، وإن لم يجز مخالفتها فبطل قول الفريقين .

قوله تعالى :

« فَمَنِ افترى على اللهِ الكَذِبَ مِنْ بَعدِ ذلكَ فاولئكَ هُمُ

الظالمونَ » (٩٤) .

اللغة :

الافتراء : اقتراف الكذب وأصله قطع ما يقدر من الأدم ، يقال فرى الاديم يفريه فرياً : إذا قطعه ، فقيل للكذب الفرية ، لأنه يقطع به على التقدير من غير تحقيق .

المعنى :

فان قيل : كيف قال : « افترى على الله الكذب » وعلى للاستعلاء ، فما معناها هاهنا ؟ قلنا : معناها إضافته الكذب إليه من جهة أنه أمر بما لم يأمر به الله فأوجب ما لم يوجبه ، وكذب عليه بخلاف كذب له ، لأن كذب عليه يفيد أنه كذب فيما يكرهه ، وكذب له قد يجوز فيما يريده . فان قيل كيف قيد وعيد المفتري على الله الكذب بـ « من بعد ذلك » وهو يستحق الوعيد بالكذب عليه على كل حال ؟ قلنا : المراد به البيان أنه يلزم من بعد إقامة الحجة على العبد فيه ، لأنه لو كذب على الله (عز وجل) فيما ليس بمحجوج فيه لجرى مجرى كذب الصبي الذي لا يستحق الوعيد به . وإنما وصف المفتري على الله كذباً بأنه ظالم ، من حيث كان ظالماً لنفسه ، ولمن استدعى إلى مذهبه فيما يكذب به ، لأن ذلك الكذب يستحق به العقاب .

والظلم والجور واحد وإن كان أصلها مختلفاً ، لأن أصل الظلم النقصان للحق . والجور العدول عن الحق ، ولذلك قيل في ضد الظلم الانصاف . وفي ضد الجور العدل . والانصاف هو إعطاء الحق على التمام .

قوله تعالى :

« قُلْ صَدَقَ اللهُ فاتبعوا مِلةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ مِنَ

المشركينَ ﴾ (٩٥) آية .

المعنى :

معنى قوله : « قل صدق الله » البيان عن أن الخبر بأن « كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » صدق ، لأن الله تعالى أخبر به .
وقوله : ﴿ فاتبعوا ﴾ فالاتباع إلحاق الثاني بالأول لما له به من التعلق فالقوة للاول ، والثاني يستمد منه ، فهم يلحقون بابراهيم (ع) لتمسكهم بملته والتابع ثان متدبر بتدبير الأول متصرف بتصريفه في نفسه ، والصحيح أن شريعة نبينا ناسخة لشريعة كل من تقدم من الانبياء ، وأن نبينا لم يكن متعبداً بشريعة من تقدم . وإنما وافقت شريعته شريعة إبراهيم ، فلذلك قال الله تعالى « فاتبعوا ملة إبراهيم » وإلا فالله هو الذي أوحى بها إليه وأوجبها عليه ، وكانت شريعة له . فان قيل إذا كانت الشرائع بحسب المصالح ، فكيف رغب في شريعة الاسلام بأنها ملة إبراهيم ؟ قلنا : لأن المصالح إذا وافقت ما تميل إليه النفس ويتقبله العقل بغير كلفة كانت أحق بالرغبة ، كما أنها إذا وافقت الغنى بدلا من الفقر ، كانت أعظم في النعمة ، وكان المشركون يميلون إلى اتباع ملة إبراهيم ، فلذلك خوطبوا بذلك . والحنيف : المستقيم الدين الذي على شريعة إبراهيم في حجه ونسكه وطيب مأكله ، وتلك الشريعة هي الحنيفية . وأصل الحنف الاستقامة وإنما وصف المائل القدم بالاحنف تفاؤلا بها . وقيل أصله الميل وإنما قيل الحنيف بمعنى المائل إلى الحق فيما كان عليه إبراهيم من الشرع .

قوله تعالى :

﴿ إنَّ أوَّلَ بيتٍ وضع للنَّاسِ للذي ببكة مُباركاً وَهُدىً لِلعالمينَ ﴾ (٩٦) آية بلا خلاف

المعنى ، واللغة ، والاعراب :

أول الشيء ابتداؤه ، ويجوز أن يكون المبتدأ له آخر ، ويجوز أن لا يكون له آخر ، لأن الواحد أول العدد . ولا نهاية ، لآخره ، ونعيم أهل الجنة له أول ، ولا آخر له ، فعلى هذا إنما كان أول بيت ، لأنه لم يكن قبله بيت يحج إليه .

وروي عن علي (ع) أنه قال : أول بيت وضع للعبادة البيت الحرام . وقد كانت قبله بيوت كثيرة . وقيل أول بيت رغب فيه ، وطلب به البركة مكة . وقال مجاهد : لم يوضع قبله بيت . وإنما دحيت الأرض من تحتها . وبه قال قتادة . وروى أصحابنا : أن أول شيء خلق الله من الارض موضع الكعبة ، ثم دحيت الأرض من تحتها . وبكة قيل معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال ابن شهاب وضمرة بن ربيعة : بكة هو المسجد ، ومكة الحرم كله تدخل فيه البيوت ، وهو قول أبي جعفر (ع) وقال أبو عبيدة ، بكة هي بطن مكة ، وقال مجاهد : هي مكة .

وأصل بكة من البك ، وهو الزحم تقول بكه يبكه بكاً إذا زحمه وتباك الناس بالموضع إذا ازدحموا ، فبكة مزدحم الناس للطواف . وهو ما حول الكعبة من داخل المسجد الحرام ، ومنه البك : دق العنق ، لأنه فكه بشدة زحمة ، فقيل : سميت بكة ، لأنها تبك أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم لم يمهلوا . وأما مكة ، فقال الزجاج يجوز أن يكون اشتقاقها كاشتقاق بكة . وابدلت الميم من الباء ، كقولهم : ضربة لازب ولازم ، ويجوز أن يكون من قولهم : امبك الفصيل مافي ضرع الناقة إذا مص مصاً شديداً حتى لا يبقى منه شيئاً ، فسميت مكة بذلك لازدحام الناس فيه . قال والأول أحسن ، ويقال مك المشاش مكاً إذا تمشش بفيه .

ونصب قوله : « مباركا » يحتمل أمرين :

أحدها ـ أن يكون حالا من الضمير الذي فيه . الثاني ـ على الظرف من بكة على معنى الذي استقر ببكة مباركا . وعلى هذا القول لا يكون قد وضع قبله بيت

كما يجوز في التقدير الأول . وقوله : « وهدى للعالمين » معناه أنه دلالة لهم على الله من حيث هو المدبر لهم بما لا يقدرون عليه من أمن الوحش فيه حتى يجتمع الكلب والظبي ، فلا يعدو عليه وحتى يأنس الطير فلا يمتنع منه كما يمتنع من غيره إلى غير ذلك من الآثار والبينة فيه مع البركة التي يجدها من حج إليه مع ماله من الثواب الجزيل عليه . وأصل البركة الثبوت من قولك برك بركا وبروكا إذا ثبت على حاله ، فالبركة ثبوت الخير بنموه وتزايده ومنه البركاء : الثبوت في الحرب . ومنه البركة شبه حوض يمسك الماء ، لثبوته فيه . ومنه قول الناس : تبارك الله ، لثبوته لم يزل ، ولا يزال وحده ، ومنه البرك الصدر ، لثبوت الحفظ فيه .

وقوله تعالى :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٩٧) آية .

القراءة :

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر « حج البيت » بكسر الحاء . الباقون بفتحها فمن فتح أراد المصدر الجاري على فعله ، ومن كسر أراد الاسم .

المعنى :

الآيات التي بمكة أشياء ، منها ماقال مجاهد في مقام إبراهيم ، وهو أثر قدميه داخلة في حجر صلد بقدرة الله تعالى ، ليكون ذلك علامة يهتدى بها ، ودلالة يرجع إليها مع غير ذلك من الآيات التي فيه من أمن الخائف ، وإمحاق الجمار على كثرة الرامي . وامتناع الطير من العلو عليه . واستشفاء المريض من ماء به . ومن تعجيل العقوبة لمن انتهك فيه حرمة على عادة كانت جارية . ومن إهلاك أصحاب الفيل

لما قصدوا ، لتخريبه . وروي عن ابن عباس أنه قرأ « آية بينـة مقام إبراهيم » فجعل مقام إبراهيم هو الآية . والأول عليه القراء ، والمفسرون . وقوله : « مقام إبراهيم » رفع بأنه خبر ابتداء محذوف . وتقديره هي مقام إبراهيم وغير مقام إبراهيم ، وقيل التقدير منها مقام إبراهيم . وقوله : ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾ قيل فيه قولان :

أحدها ـ الدلالة على ما عطف عليه قلوب العرب في الجاهلية ، من أمر من جنى جناية ، ثم لاذ بالحرم ، ومن تبعة تلحقه أو مكروه ينزل به . فأما في الاسلام فمن جنى فيه جناية أقيم عليه الحد إلا القاتل ، فانه يخرج منـه ، فيقتل في قول الحسن ، وقتادة . وعندنا أنه إذا قتل في الحرم قتل فيه .

الثاني ـ أنه خبر ، والمراد به الأمر ، ومعناه أن من وجب عليه حد ، فلاذ بالحرم والتجأ إليه ، فلا يبايع ولا يشاري ولا يعامل حتى يخرج من الحرم ، فيقام عليه الحد ـ في قول ابن عباس وابن عمر ـ وهو المروي عن أبي عبد الله وأبي جعفر (ع) وأجمعت الصحابة على أن من كانت له جناية في غيره ثم عاذ به أنـــه لا يؤاخذ بتلك الجناية فيه . وأجمعوا أيضاً أن من أصاب الحد فيه أنه يقام عليه الحد فيه . وإنما اختلفوا فيما به يخرج ليقام عليه الحد .

وروي عن أبي جعفر (ع) أنه قال : من دخله عارفاً بجميع ما أوجب الله عليه ، كان آمنا في الآخرة من أليم العقاب الدائم

والسبيل الذي يلزم بها الحج ، قال ابن عباس ، وابن عمر : هي الزاد ، والراحلة. وقال ابن الزبير ، والحسن : ما يبلغه كائناً ما كان . وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف . وعندنا هو وجود الزاد والراحلة ونفقة من تلزمه نفقته والرجوع إلى كفاية عند العود إما من مال أو ضياع أو عقار أو صناعة أو حرفـة مع الصحة والسلامة وزوال الموانع وإمكان المسير .

وقوله : ﴿ ومن كفر ﴾ معناه من جحد فرض الحج فلم يره واجباً في قول

ابن عباس ، والحسن ، والضحاك . فأما من تركه وهو يعتقد فرضه ، فانه لايكون كافراً وإن كان عاصياً . وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة إن الاستطاعة مع الفعل ، لأن الله تعالى أوجب الحج على المستطيع . ومن لا يستطيع ، فلا يجب عليه وذلك لا يكون إلا قبل فعل الحج . وقال قوم : معنى « ومن كفر » يعني ترك الحج والسبب في ذلك أنه لما نزل قوله : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً » (١) قالت اليهود نحن المسلمون فأنزل الله هذه الآية فامرهم بالحج إن كانوا صادقين فامتنعوا ، فقال الله تعالى ومن ترك من هؤلاء فهو كافر ، والله غني عن العالمين .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تَكفرون بآياتِ اللهِ واللهُ شهيدٌ على ما تَعلمون ﴾ (٩٨) آية .

المعنى :

قوله : « يا أهل الكتاب » خطاب لليهود والنصارى . وإنما أجرى عليهم أهل الكتاب مع أنهم لا يعملون به ، ولم يجز ذلك في أهل القرآن حتى يقال ، فيمن لا يعمل بالقرآن أنه من أهل القرآن لأمرين :

أحدهما ـ أن القرآن اسم خاص لكتاب الله ، فأما الكتاب فيجوز أن يراد به يا أهل الكتاب المحرف عن جهته ، والآخر ـ الاحتجاج عليهم بالكتاب ، لاقرارهم به ، كأنه قيل يامن يقر بأنه من أهل كتاب الله « لم تكفر بآيات الله » وآيات الله المراد بها ههنا معجزات نبينا محمد (ص) التي كانت له ، والعلامات التي وافقت في صفته ، مما تقدمت به البشارة ، وخاطبهم الله في هذه بأن قال له « قل لم تكفرون بآيات الله » على وجه التلطف في استدعائهم إلى الحق ، وتوجيه الخطاب إليهم . وقال في موضع آخر « يا أهل الكتاب لم تكفرون » (٢) على وجه الاهانة

« ١ » سورة آل عمران آية : ٨٥ .

« ٢ » سورة آل عمران آية : ٧٠ .

لهم لصدهم عن الحق بتوجيه الخطاب إلى غيرهم وإنما جاء لفظ التوبيخ في الآية على لفظ الاستفهام ، لأنه كسؤال التعجيز عن إقامة البرهان ، فكذلك سؤال التوبيخ سؤال تعجيز عن إقامة العذر كأنه قيل : هات العذر في ذلك إن أمكنك ، كما قيل له هات البرهان إن كنت محقاً في قولك ومذهبك .

اللغة :

وأصل لم لما وحذفت الالف في الاستفهام منها ، ولم تحذف في الخبر لأنها في الاستفهام ظرف يقوى فيه التغيير قياساً على حروف الاعراب ونحوها ، وأما الخبر فانها تقع وسطاً إذا كانت موصولة ، لأن تمامها أخر صلتها والجزاء يجري مجرى الصلة ، لأن (ما) فيه عاملة .

قوله تعالى :

﴿ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تَصدّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ مَنْ آمنَ تَبغونها عِوجاً وأنتمْ شُهداءُ وما اللهُ بغافلٍ عما تعملونَ ﴾ (٩٩) آية بلا خلاف .

المعنى :

قوله : « لم تصدون » معناه لم تمنعون ، لأن الصد المنع . وقيل في كيفية صدهم عن سبيل الله قولان :

أحدها ـ أنهم كانوا يغزون بين الأوس ، والخزرج ، بتذكيرهم الحروب التي كانت بينهم حتى تدخلهم العصبية وحمية الجاهلية فينسلخون عن الدين ـ هذا قول زيد بن اسلم ـ وقال الآية في اليهود خاصة . وقال الحسن الآية في اليهود والنصارى معاً ومعناها لم تصدون بالتكذيب بالنبي (ص) وإن صفته ليست في كتبهم ولا تقدمت البشارة به عندهم وقوله : « من آمن » موضعه النصب بأنه

مفعول تصدون . وقوله : ﴿ تبغونها عوجاً ﴾ الكناية راجعة إلى السبيل ، ومعناه تطلبون لهـا عوجا يعني عدو لا عن طريق الحق ، وهو الضلال كأنه قال تبغونها ضلالا

اللغة :

والعوج ـ بفتح العين ، هو ميل كل شيء منتصب ، نحو القناة والحائط ، وبكسر العين ـ إنمـا هو الميل عن الاستواء في طريق الدين ، وفي القول ، وفي الارض . ومنه قوله : « لا ترى فيها عوجا » (١) وقال عبد بني الحسحاس :

بغاك وما تبغيـــه حتى وجدته   كأنك قد واعدته أمس موعدا (٢)

أي طلبك وما تطلبه هذا في بغيت الحاجة فأما بغى عليه ، فمعناه تطاول بظلمه له . وتقول : إبغني كذا بكسر الهمزة أي أطلبه لي . وإذا قلت : أبغني بفتح الهمزة ، فمعناه أعني على طلبه . ومثله إحملني وأحملني والمسنى وألمسني . واحلب لي واحلبني أي أعني على الحلب . وأصل ذلك ابغ لي غير أنه حذفت اللام لكثرة الاستعمال .

المعنى :

وقوله : ﴿ وأنتم شهداء ﴾ قيل فيه قولان :

أحدهما ـ « أنتم شهداء » على بطلان صدكم عن دين الله ، وتكون الآية مختصة بقوم معاندين ، لأنهم جحدوا ما علموه ويجوز أن تكون في الجميـــع ، لاقرارهم بأنه لا يجوز الصد عن دين الله ، فلذلك صح ما ألزموا .

الثاني ـ « وأنتم شهداء » أي عقلاء كما قال الله تعالى « أو القى السمع وهو شهيد » (٣) أي وهو عاقل ، وذلك أنه يشهد الدليل الذي يميز به الحق من الباطل

(١) سورة طه آية : ١٠٧ .
(٢) ديوانه : ٤١ وروايته (الا) بدل (حتى) وقد ذكره ابن هشام في المغنى ١ : ١١١ ، وقال : الا بمعنى حتى .
(٣) سورة ق آية : ٣٧ .

فيما يتعلق بالدين ويؤديه إليه .

قوله تعالى :

﴿ يا أيُّها ٱلذينَ آمنوا إنْ تطيعوا فريقاً مِنَ ٱلذينَ اوتوا الكتابَ يردّوكم بعدَ إيمانكم كافرينَ ﴾ (١٠٠) آية .

النزول :

قال زيد بن أسلم والسدي أن هذه الآية نزلت في الأوس والخزرج لما أغرى قوم من اليهود بينهم ليفتنوهم عن دينهم .

اللغة ، والاعراب ، والمعنى :

وقوله : « إن تطيعوا » فالطاعة موافقة الارادة الجاذبة للفعل بالترغيب فيه ، والاجابة موافقة الارادة الداعية إلى الفعل ولذلك يجوز أن يكون الله تعالى مجيباً للعبد إذا فعل ما دعا العبد به ، ولم يجز أن يكون مطيعاً له . و (يا) حرف النداء وأي هو المنادى . و (ها) للتنبيه وهو اسم مبهم يحتاج أن يوصف بالواحد والجميع لشدة إبهامه من حيث ، لا يوقف عليه دون ما يوضحه . ولم يجز مثل ذلك في هذا ، وإن كان اسماً مبهما ، لأنه يدخله التثنية ، والجمع ، نحو هؤلاء وهذان وليس كذلك أي .

فان قيل لم جاز صفة المبهم بالموصول ولم يجز بالمعطوف ؟ قيل : لأن الموصول بمنزلة اسم واحد لنقصانه عن التمام إلا بصلته ، فعومل لذلك معاملة المفرد ، وليس كذلك المعطوف ، لأنه اسم تام ، فلذلك لم يجز يا أيها الطويل والقصير على الصفة ، وجاز يا أيها الذي أكرم زيداً على الصفة ، ويجوز يا أيها الطويل والقصير على أن يكون القصير منادا أيضاً ويجوز أن تقول يا هذا وتقف عليه . ولا يجوز أن تقول يا أيها وتقف ، وإن كانا مبهمين لايحتاجان إلى صلة ، لأن أي وصلة إلى نداء

ما فيه الألف واللام ، كما أن الذي وصلة إلى صفة المعرفة بالجملة ، ولذلك جاز النصب في يا هذا الكريم ، ولم يجز في يا أيها الكريم . ومعنى الآية النهي عن طاعة الكفار وبيان أن من أطاعهم يدعوه ذلك إلى الارتداد عن دينه بعد أن كان مؤمناً ورجوعه كافراً .

قوله تعالى :

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١٠١) آية .

النزول :

روي عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية أنه كانت بين الأوس ، والخزرج حرب في الجاهلية كل شهر ، فبينما هم جلوس إذ ذكروا ما كان بينهم حتى غضبوا ، فقام بعضهم إلى بعض بالسلاح فنزلت هذه الآية وما بعدها . وقال الحسن نزلت في مشركي العرب .

المعنى واللغة :

« وكيف » موضوعة للاستفهام ، ومعناها ههنا التعجب وإنما استعملت في ذلك ، لأنها طلب للجواب عما حمل على الفساد فيما لا يصح فيه الاعتذار . والتعجب هو حدوث إدراك ما لم يكن يقدر لخفاء سببه ، وخروجه عن العادة في مثله ، ولذلك لم يجز في صفة القديم ، ولكن يجوز في وصفه تعجيب العباد من بعض الأمور . وصيغة التعجب في اللغة ما أفعله ، وأفعل به إلا أنه قد يجيء كلام متضمن بمعنى التعجب ، وإن لم يكن في الأصل مما وضع له . وقوله : ﴿ وفيكم رسوله ﴾ خطاب للذين عاصروه ، فأما اليوم ، فقد قال الزجاج : يجوز أن يقال : فينا رسول الله ، ويراد به أن آثاره قائمة فينا ، وأعلامه ظاهرة ، وذلك بمنزلة لو كان

موجوداً فينا . وقوله : ﴿ ومن يعتصم بالله ﴾ معناه يمتنع والعصم : المنع . تقول عصمه يعصمه عصماً ، ومنه قوله : « لا عاصم اليوم من أمر الله » (١) أي لا مانع. والعصم : الأوعال لامتناعها بالجبال . والمعصم لأنه يمتنع والعصام : الحبل ، والسبب ، لأنه يعتصم به .

قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا اتَّقوا اللهَ حَقَّ تقاته وَلا تَموتنَّ إلاَّ وَأنتمْ مُسلمونَ ﴾ (١٠٢) آية بلا خلاف .

المعنى :

ذكر ابن عباس وطاوس أن هذه الآية محكمة غير منسوخة . وقال قتادة ، والربيع ، والسدي ، وابن زيد : هي منسوخة بقوله . «فاتقوا الله ما استطعتم » (٢) وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) لأنهم ذهبوا إلى أنه يدخل فيه القيام بالقسط في حال الخوف ، والامن ، وأنكر أبوعلي الجبائي نسخ الآية وذلك، لأن من اتقى جميع معاصيه ، فقد اتقى الله حق تقاته . ومثل هذا لا يجوز أن ينسخ ، لأنه إباحة لبعض المعاصي . قال الرماني : والذي عندي أنه إذا وجه على « اتقوا الله حق تقاته » بأن تقوموا له بالحق في الخوف والامن لم يدخل عليه ما ذكره أبو علي . وهذا صحيح ، لأنه لا يمتنع أن يكون أوجب عليهم أن يتقوا الله على كل حال ثم أباح ترك الواجب عند الخوف على النفس ، كما قال « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » (٣) وأنكر البلخي أيضاً نسخ الآية وقال : لأن في ذلك ايجاب الأمر بما لا يستطاع . قال الرماني : وهذا أيضاً لا يلزم ، لأن « ما استطعتم » إنما هو من غير تحمل مشقة بتحريم التقية .

« ١ » سورة هود آية : ٤٣ . « ٢ » سورة التغابن آية : ١٦ .
« ٣ » سورة النحل آية : ١٠٦ .

وقيل في معنى قوله : « حق تقاته » قولان :

أحدهما - قال ابن مسعود ، والحسن ، وقتادة : إن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى ، وهو المروي عن أبي عبد الله (ع) . وقال الجبائي : هو أن يتقي جميع معاصيه . وظاهر الآية يقتضي أنه خطاب للمؤمنين خاصة ، ويجوز أن يحمل من جهة المعنى على جميع المكلفين على التغليب ، لأنه معلوم أنه يجب عليهم من ذلك مثل ما يجب على المؤمنين من اتقاء جميع معاصي الله .

اللغة :

وقوله : « تقاته » هو من وقيت . قال الزجاج : يجوز فيه ثلاثة أوجه تقاة ووقاة واقاة وحمله على قياس وجوه وأجوه وإن كان هذا المثال لم يجيء منه شيء على الأصل نحو تخمة ونكاة ونقاة غير أنه حمله على الاكثر من نظائره وجعل اختصاص هذا البناء في الاستعمال ، لا يمنع من حمله على نظيره في القياس ، لأن بازاء قوة الاستعمال قوة النظير في الباب .

المعنى ، واللغة :

وقوله : ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ معناه لا تتركوا الاسلام وإنما قال : « فلا تموتن » بلفظ النهي عن الموت من حيث أن الموت لابد منه ، فكأنه قال كونوا على الاسلام ، فاذا ورد عليكم الموت صادفكم على الاسلام ، فالنهي في الحقيقة عن ترك الاسلام ، لئلا يهلكوا بالاقتطاع عن التمكين منه بالموت إلا أنه وضع كلام موضع كلام على جهة تصرف الابدال ، لحسن الاستعارة ، وزوال اللبس ، لأنه لما كان يمكنهم أن يفارقوه بالاسلام فترك الاسلام صار بمنزلة ماقد دخل في إمكانهم . ومثله قولهم لا أراك ههنا أي لا تكونن ههنا ، فان من كان ههنا رأيته إلا أن هذا خرج مخرج النهي لغير المنهي عنه فتباعد عن الأصل ، فالاول أحسن لأنه أعدل . وروي عن أبي عبد الله (ع) « وأنتم مسلمون »

بالتشديد ، ومعناه إلا وأنتم مستسلمون لما أتى به النبي (ص) ومنقادون له .

قوله تعالى :

﴿ واعتَصِموا بِحَبلِ اللهِ جميعاً وَلا تَفرقوا وَاذكروا نِعمةَ اللهِ عَليكُمْ إذ كنتُم أعداءً فَألفَ بينَ قُلوبكُمْ فأصبحتُمْ بنعمتِهِ إخواناً وَكنتم على شَفا حُفرةٍ منَ النّارِ فأنقذكُمْ منها كذلكَ يُبينُ اللهُ لكُمْ آياتِهِ لَعلكُم تَهتدونَ ﴾ (١٠٣) آية .

المعنى ، واللغة ، والاعراب :

ومعنى قوله : «واعتصموا » امتنعوا بحبل الله واستمسكوا به أي بعهدالله، لأنه سبب النجاة كالحبل الذي يتمسك به للنجاة من بئر أو نحوها . ومنه الحبل الأمان ، لأنه سبب النجاة . ومنه قوله : « إلا بحبل من الله وحبل من الناس» (١) ومعناه بأمان ، قال الاعشى :

وإذا تجوزها حبال قبيلة أخذت من الأخرى إليك حبالها(٢)

ومنه الحبل الحمل في البطن وأصله الحبل المفتول قال ذو الرمة :

هل حبل خرقاء بعد اليوم مرموم أم هل لها آخر الايام تكليم

وفي معنى قوله : « بحبل الله » قولان قال أبو سعيد الخدري عن النبي(ص) أنه كتاب الله . وبه قال ابن مسعود ، وقتادة والسدي . وقال ابن زيد « حبل الله» دين الله أي دين الاسلام . وقوله : « جميعاً » منصوب على الحال . والمعنى اعتصموا بحبل الله مجتمعين على الاعتصام به . وقوله : « ولا تفرقوا » أصله ولا تتفرقوا ،

«١» سورة آل عمران آية : ١١٢ .

«٢» ديوانه : ٢٤ رقم القصيدة ٣ في المطبوعة (أجوزها) بدل(تجوزها) وهو أيضاً في اللسان (حبل) ومشكل القرآن : ٣٥٨ وغيرها كما أثبتناه . والبيت من قصيدته في قيس ابن معد يكرب . يصف ناقة يقول : لاتحتاج الى حث بل هي سريعة الجري عارفة طرق القبائل .

فحذفت احدى التائين ، لاجتماع المثلين . والمحذوفة الثانية ، لأن الأولى علامة الاستقبال ، وهو مجزوم بالنهي وعلامة الجزم سقوط النون . وقال ابن مسعود وقتادة : معناه ولا تفرقوا عن دين الله الذي أمر فيه بلزوم الجماعة والائتلاف على الطاعة .وقال الحسن : معناه ولا تفرقوا عن رسول الله (ص). وقوله : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء﴾ معناه ما كان بين الأوس والخزرج من الحروب التي تطاولت مئة وعشرين سنة إلى أن ألف بين قلوبهم بالاسلام ، وزالت تلك الاحقاد، هذا قول ابن اسحاق . وقال الحسن : هو ما كان من مشركي العرب من الطوائل . وقوله : ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ معنى الشفا الحرف ، لأن شفا الشيء حرفه ، ويثنى شفوان ، لأنه من الواو ، وجمعه اشفاء . ولا يجوز فيه الامالة . وإنما قال : « فانقذكم منها » وإن لم يكونوا فيها ، لأنهم كانوا بمنزلة من هو فيها من حيث كانوا مستحقين لدخولها . وإنما أنقذهم النبي (ص) بدعائهم إلى الاسلام ، ودخولهم فيه ، فصاروا بمنزلة الخارج منها .

وأصل الاخ أن الاخ مقصده مقصد أخيه ، وكذلك في الصداقة أن تكون إرادة كل واحد منهما موافقة الاخر يقولون : يتوخى فلان شأن فلان أي يقصده في سيره ، ويقولون : خذ على هذا الوخي أي على هذا القصد . وقوله : ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ الكاف في موضع نصب ، والمعنى مثل البيان الذي تلي عليكم « يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » معناه لتهتدوا وتكونوا على رجاء هداية . والهاء في قوله فأنقذكم منها كناية عن الحفرة فترك شفا ، وردت الكناية على الحفرة . ومثل ذلك قول العجاج :

طول الليالي أسرعت في نقضي   طوين طولي وطوين عرضي

فترك الطول وأخبر عن الليالي . فان قالوا إذا كان الله هو الذي ألف بين قلوبهم وأنقذهم من النار ، فقد صح أن أفعال الخلق فعل له وخلق من خلقه ؟ قيل : لا يجب ذلك ، لأنا نقول أن النبي (ص) ألف بين قلوب العرب وأنقذهم من

---

(١) سورة البقرة آية : ٢ .

النار ، ولا يجب من ذلك أن تكون أفعالهم أفعالا للنبي (ص) ، ولا مشاركا لهم .
ومعنى ألف بين قلوبهم وأنقذهم من النار أنه دعاهم إلى الايمان وبين لهم وهداهم ، ورغبهم وحذرهم ، فلما كان إسلامهم ونجاتهم بمعونته ودعائه ، كان هو المؤلف لقلوبهم ، والمنقذ لهم من النار على هذا المعنى ، لا أنه صنع أفعالهم ، وأحدثها .
فان قيل : فقد فعل الله مثل ذلك بالكافرين هلا قلتم أنه ألف بينهم ؟ قلنا : لا نقول ذلك وإن كان فعل بهم في الابتداء مثل الذي فعل بالمؤمن ، لأنه لم يوجد منهم إيمان ، فلا يجوز إطلاق ذلك عليهم ، ولما وجد من المؤمن ذلك جاز إضافة ذلك إلى الله تعالى وجرى ذلك مجرى قوله « هدى للمتقين » أنه اضيف إلى المتقين من حيث اهتدوا به . وان كان هداية للكافرين أيضاً . ويجوز أن يقال : ألف الله بين الكفار ، فلم يأتلفوا وانقذهم ، فلم يستنقذوا ، فيقيد ذلك ، كما قال : « وأما ثمود ، فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » (١) ولا يجوز أن يقال : هدى الله ثمود ويسكت . ومثل ذلك لو أن إنساناً اعطى ولدين له مالا وأمرهما بالتجارة وبين لهما وجوه المكاسب فكسب أحدهما مالا واستغنى ، وضيع الآخر ، فافتقر جاز أن يقال أن فلاناً أغنى ولده الغني ، ولا يجوز أن يقال اغنى ولده الفقير على أنا لا نقول ان الله تعالى فعل بالكافر جميع ما فعل بالمؤمن ، لأن الذي سوى بينهما ما يتعلق بازاحة العلة في التكليف من الاقدار والاعلام والدلالة ، وما به يتمكن من فعل الايمان ، فأما الالطاف التي يفعلها الله بالمؤمن بعد إيمانه التي علمها له بعد الايمان ولم يعلمها للكافر ، فلا نقول أنه فعل بالكافر مثلها ، ولا يمتنع أن تكون هذه الزيادة من الالطاف مشروطة بحال الايمان ، فالاطلاق لا يصح على كل حال .

قوله تعالى :

﴿ وَلتَكنْ مِنكمْ امةٌ يَدعونَ الى الخيرِ يأمرونَ بالمعروفِ

---

(١) سورة حم السجدة آية : ١٧ .

وَيَنهونَ عنِ المنكرِ وَاولئكَ هُمُ المفلحونَ ﴾ (١٠٤) آية .

الاعراب ، والمعنى :

قوله : « ولتكن » أمر واللام لام الأمر وإنما سكنت مع الواو ولم يكن لام الاضافة لأن تسكين لام الامر يؤذن بعملها أنه الجزم ، وليس كذلك لام الاضافة . ولم يسكن مع ثم ، لأن ثم بمنزلة كلمة منفصلة . وقوله : ﴿ منكم أمة ﴾ « من » ههنا للتبعيض على قول أكثر المفسرين ، لأن الأمر بانكار المنكر ، والامر بالمعروف متوجه إلى فرقة منهم غير معينة ، لأنه فرض على الكفاية فأي فرقة قامت به سقط عن الباقين . وقال الزجاج التقدير « وليكن » جميعكم و (من) دخلت لتخص المخاطبين من بين سائر الاجناس ، كما قال : « فاجتنبوا الرجس من الاوثان » (١)
وقال الشاعر :

أخو رغائب يعطيها ويسلبها   يأبى الظلامة منه النوفل الزفر (٢)

لانه وصفه باعطاء الرغائب ، والنوفل الكثير الاعطاء للنوافل . والزفر : الذي يحمل الأثقال ، فعلى هذا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر من فرض الاعيان لا يسقط بقيام البعض عن الباقين . وهو الذي اختاره الزجاج ، وبه قال الجبائي ، واختاره .

اللغة :

والأمة في اللغة تنقسم خمسة أقسام :

أحدها ـ الجماعة . والثاني ـ القامة . والثالث ـ الاستقامة . والرابع ـ النعمة والخامس القدوة . والأصل في ذلك كله القصد من قولهم : أمه يؤمه . أمّا إذا

---

(١) سورة الحج آية : ٣٠ .

(٢) قائله أعشى باهلة اللسان (زفر) وأمالي الشريف المرتضى ٢ : ٢١ وهو من قصيدة من المراثي المفضلة المشهورة بالبلاغة والبراعة وروايته (يسألها) بدل (يسلبها) .

قصده ، فالجماعة سميت أمة لاجتماعها على مقصد واحد . والأمة : القدوة ، لأنه تأتم به الجماعة . والأمة النعمة ، لأنها المقصد الذي هو البغية . والامة القامة ، لاستمرارها في العلو على مقصد واحد . والمعروف هو الفعل الحسن الذي له صفة زائدة على حسنه . وربما كان واجباً أو ندباً ، فان كان واجباً فالأمر به واجب . وان كان ندباً فالامر به ندب . والمنكر هو القبيح فالنهي عنه كله واجب . والانكار هو إظهار كراهة الشيء لما فيه من وجه القبح ، و نقيضه الاقرار وهو إظهار تقبل الشيء من حيث هو صواب حسن .

المعنى :

والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان بلا خلاف وأكثر المتكلمين يذهبون إلى أنه من فروض الكفايات . ومنهم من قال من فروض الاعيان ، وهو الصحيح على ما بيناه . واختلفوا ، فقال جماعة ان طريق وجوب انكار المنكر العقل ، لأنه كما تجب كراهته وجب المنع منه إذا لم يمكن قيام الدلالة على الكراهة . وإلا كان تاركه بمنزلة الراضي به . وقال آخرون وهو الصحيح عندنا : إن طريق وجوبه السمع وأجمعت الأمة على ذلك ، ويكفي المكلف الدلالة على كراهته من جهة الخبر وما جرى مجراه وقد استوفينا ما يتعلق بذلك في شرح جمل العلم . فان قيل هل يجب في إنكار المنكر حمل السلاح ؟ قلنا : نعم إذا احتيج إليه بحسب الامكان ، لأن الله تعالى قد أمر به ، فاذا لم ينجح فيه الوعظ والتخويف ، ولا التناول باليد وجب حمل السلاح ، لأن الفريضة لا تسقط مع الامكان إلا بزوال المنكر الذي لزم به الجهاد إلا أنه لا يجوز أن يقصد القتال إلا وغرضه إنكار المنكر . وأكثر أصحابنا على أن هذا النوع من إنكار المنكر لا يجوز الاقدام عليه إلا باذن سلطان الوقت . ومن خالفنا جوز ذلك من غير الاذن مثل الدفاع عن النفس سواء . وقال البلخي : إنما يجوز لسائر الناس ذلك إذا لم يكن إمام ، ولا من نصبه ، فأما مع وجوده ، فلا ينبغي ، لأحد أن يفعل ذلك إلا عند الضرورة . وقوله :

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ معناه هم الفائزون بثواب الله ، والخلاص من عقابه .

قوله تعالى :

﴿ وَلا تكونوا كالّذينَ تفرقوا وَاختلفوا مِنْ بَعدِ ماجاءَهُمُ البيِّنات وَأولئكَ لَهمْ عذابٌ عَظيمٌ ﴾ (١٠٥) آية .

المعنى :

قال الحسن ، والربيع : المعني بهذا التفرق في الآية اليهود والنصارى ، فكأنه قال يا أيها المؤمنون « لاتكونوا كالذين تفرقوا » يعني اليهود والنصارى . وقوله : ﴿ من بعد ما جاءهم البينات ﴾ معناه من بعد ما نصبت لهم الادلة ولا يدل ذلك على عناد الجميع ، لأن قيام البينات إنما يعلم بها الحق إذا نظر فيها واستدل بها على الحق ، فان قيل إذا كان التفرق في الدين هو الاختلاف فيه ، فلم ذكر الوصفان ؟ قلنا : لأن معنى « تفرقوا » يعني بالعداوة واختلفوا في الديانة ، فمعنى الصفة الأولى مخالف لمعنى الصفة الثانية ، وفيمن نفى القياس ، والاجتهاد من استدل بهذه الآية على المنع من الاختلاف جملة في الاصول والفروع ، واعترض من خالف في ذلك بأن قال لا يدل ذلك على فساد الاختلاف في مسائل الاجتهاد ، كما لا يدل على فساد الاختلاف في المسائل المنصوص عليها ، كاختلاف حكم المسافر والمقيم في الصلاة والصيام ، وغير ذلك من الأحكام ، لأن جميعه مدلول على صحته إما بالنص عليه وإما بالرضى به ، وهذا ليس بشيء ، لأن لمن خالف في ذلك أن يقول : الظاهر يمنع من الاختلاف على كل حال إلا ماأخرجه الدليل ، وما ذكره أخرجناه بالاجماع فالاجود في الطعن أن يقال : وقد دل الدليل على وجوب التعبد بالقياس والاجتهاد ! قلنا : إن يخص ذلك أيضاً ويصير الكلام في صحة ذلك أو فساده ، فالاستدلال بالآية إذاً صحيح على نفي الاجتهاد . وقوله : « جاءهم البينات » إنما حذفت منه علامة التأنيث إذا تقدم ، فكذلك لا يلحقه علامة التأنيث لشبهها علامة التثنية والجمع .

قوله تعالى :

﴿ يَومَ تَبيضُّ وُجوهٌ وَتسودُّ وُجوهٌ فَاما الَّذينَ اسوَدَّتْ وُجوهُهمْ اكفرتمْ بَعدَ إيمانكمْ فَذوقوا العذابَ بِما كنتم تكفرونَ ﴾

(١٠٦) آية بلا خلاف .

الاعراب :

العامل في قوله : « يوم » قوله « عظيم » وتقديره عظيم عذابهم يوم تبيض وجوه . ولا يجوز أن يكون العامل فيه عذاب موصول ، قد فصلت صفته بينه ، وبين معموله ، لكن يجوز أن تعمل فيه الجملة ، لانها في معنى يعذبون يوم تبيض وجوه ، كما تقول المال لزيد يوم الجمعة فالعامل الفعل والجملة خلف منه .

المعنى :

والمعني بهذه الآية الذين كفروا بعد إيمانهم . وقيل فيهم أربعة أقوال :

أحدها ـ قال الحسن : الذين كفروا بعد اظهار الايمان بالنفاق .

الثاني ـ قال قتادة الذين كفروا بالارتداد .

الثالث ـ قال أبي بن كعب : إنهم جميع الكفار ، لاعراضهم عما يوجبه الاقرار بالتوحيد حين أشهدهم الله على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا .

الرابع ـ ذكره الزجاج وأبو علي الجبائي . الذين كفروا من أهل الكتاب بالنبي (ص) بعد إيمانهم به أي بنعته وصفته قبل مبعثه ، وهذا الوجه ، والوجه الأول يليق بمذهبنا في الموافاة ، فأما الارتداد عن الايمان الحقيقي ، فلا يجوز عندنا على ما مضى في غير موضع .

فان قيل إذا كان « الذين اسودت وجوههم » كفاراً « والذين ابيضت وجوههم » مؤمنين هلاّ دل ذلك على أنه لا واسطة بين الكفر ، والايمان من

الفسق ؟ قلنا : لا يجب ذلك ، لأن ذكر اسوداد الوجوه وابيضاضها لا يمنع أن يكون هناك وجوه أخر مغبرة أو نحوها من الألوان أو يكون أدخلوا في جملة الكفار الذين اسودت وجوههم على التغليب لاعظم الصفتين كما يغلب المذكر على المؤنث ، وليس ذكر اليوم بأنه تسود فيه وجوه وتبيض وجوه بمانع من أن يكون فيه وجوه عليها الغبرة ، كما أن القائل إذا قال هذا يوم يعفو فيه السلطان عن قوم ويعاقب فيه قوماً لا يدل على أنه ليس هناك من لا يستحق واحداً من الأمرين على أن الآية تدل على أن « الذين اسودت وجوههم » هم المرتدون ، لأنه قال « أكفرتم بعد إيمانكم » وليس كل الكفار هذه صورتهم ، جاز لنا إثبات فاسقين مثل ذلك ، وليس قوله : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » يجري مجرى قوله : « وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا » (١) لأن ذاك إنما ذكر على وجه المثل ، كأنه قال حال الذي يبشر بالانثى بمنزلة حالة من اسود وجهه ، لما حدث فيه من التغير : وإن لم يسود في الحقيقة . وعرفنا عن ذلك دليل ، وليس في هذه الآية ما يدلنا على العدول عن ظاهرها .

وجواب أما في قوله : « فأما الذين اسودت » محذوف وتقديره « فأما الذين اسودت وجوههم » فيقال لهم « أكفرتم بعد ايمانكم » فحذف لدلالة اسوداد الوجوه على حال التوبيخ حتى كأنه ناطق به ، وقد يحذف القول في مواضع كثيرة استغناء بما قبله من البيان ، كقوله : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا » (٢) أي يقولون ربنا لدلالة تنكيس الرأس من المجرم على سؤال الاقالة . وقيل في قوله تعالى « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا » (٣) معناه يقول « ربنا تقبل منا » ومثله « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم » (٤) أي يقولون « سلام عليكم » ونظائر ذلك كثيرة جداً .

« ١ » سورة النحل آية ٦٨ .　　« ٢ » سورة الم السجدة آية : ١٢ .
« ٣ » سورة البقرة آية : ١٢٧ .　　« ٤ » سورة الرعد آية : ٢٥ .

قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابيضتْ وُجوهُهمْ ففي رَحمةِ اللهِ هُمْ فيهـا خالِدونَ (١٠٧) .

إن قيل : لم ذكر تعالى حال الكافرين وحال المؤمنين ولم يذكر حال الفاسقين ؟ قلنا : ليقابل اسوداد الوجوه لابيضاض الوجوه بالعلامتين ، وحال الفاسقين موقوفة على دلالة أخرى وآية أخرى . وقوله : « ففي رحمة الله » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ انهم في ثواب الله وان الرحمة هي الثواب .

والثاني ـ انهم في ثواب رحمة الله ، فحذف ، كما قال: «واسأل القرية» (٥) ذكره الزجاج . والاول أجود ، لأن الرحمة ههنا هي الثواب وإذا صح حمل الكلام على ظاهره من غير حذف كان أولى من تقدير محذوف منه من غير ضرورة . والآية تدل على أن ثواب الله تفضل ، لأن رحمة الله إنما هي نعمته ، وكل نعمة فانه يستحق بها الشكر ، وكل نعمة تفضل ، ولو لم تكن تفضلا لم تكن نعمة . وقيل في وجه كونه تفضلا قولان :

أحدها ـ إنما كان تفضلا ، لأن السبب الذي هو التكليف تفضل .

والثاني ـ إنه تفضل لأنه بمنزلة انجاز الوعد في أنه تفضل مستحق ، لأن المبتدىء به قد كان له أن لا يفعله ، فلما فعله وجب عليه الوفاء به ، لأنه لا يجوز الخلف ، وهو مع ذلك تفضلا ، لأنه جر إليه تفضل ، واختار الرماني هذا الوجه . وإنما كرر الظرف في قوله : « ففي رحمة الله هم فيها خالدون » لأمرين :

أحدها ـ للتأكيد ، والثاني ـ للبيان عن صحة الصفتين أنهم في رحمة الله ، وانهم فيها خالدون ، وكل واحدة قائمة بنفسها .

« ١ » سورة الصافات آية : ٧ .

قوله تعالى :

﴿ تلكَ آياتُ اللهِ نتلوها عليكَ بالحقِّ وَما اللهُ يريدُ ظلماً للعالمينَ ﴾ (١٠٨) آية بلا خلاف .

المعنى :

قال الفراء معنى « تلك آيات الله نتلوها عليك » أي مواعظه وحججه ومعنى « نتلوها » أي نقرأها عليك . والفرق بين تلك ، وهذه أن تلك إشارة إلى ماهو بعيد فجازت الاشارة بها إليه لانقضاء الآية وصلح هذه لقربها في التلاوة ، ولو كانت بعيدة لم يصلح أحدهما مكان الآخر . وإنما قال « آيات الله نتلوها عليك بالحق » فقيده (بالحق) ، لأنه لما حقق الوعيد بأنه واقع لا محالة نفى عنه حال الظلم كعادة أهل الخير ، ليكون الانسان على بصيرة في سلوك الضلالة مع الهلاك أو الهدى مع النجاة ، ومعنى « نتلوها عليك بالحق » أي معاملتي حق ، ويحتمل أن يكون المراد « نتلوها » المعنى الحق ، لأن معنى التلاوة حق من حيث يتعلق معتقدها بالشيء على ما هو به .

اللغة ، والمعنى :

والفرق بين تلوت عليه ، وتلوت لديه أن عليه يدل على إقرار التلاوة ، لأن معنى عليه استعلاء الشيء ، فهي تنبيء عن استعلائه بالظهور للنفس ، كما يظهر لها بعلو الصوت وليس كذلك لديه ، لأن معناه عنده . وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة : أن الله تعالى يريد الظلم ، لأنه لو أراد ظلم بعضهم لبعض ، لكان قد أراد ظلمهم وكذلك لو أراد ظلم الانسان لغيره ، لجاز أن يريد أن يظلمه هو ، لأنه لا فرق بينهما في القبح ، ويدل أيضاً على أنه لا يفعل ظلمهم ، لأنه لا يفعل مالا يريده .

وقوله : ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ فيه نفي لإرادة ظلمهم على كل حال بخلاف ما يقولونه .

قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مافي السماواتِ وما في الارضِ وإلى الله تُرجع الأُمورِ ﴾

(١٠٩) آية .

النظم

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ، وجه اتصال الدليل بالمدلول عليه ، لأنه لما قال : « وما الله يريد ظلماً للعالمين » وصله بذكر غناه عن الظلم إذ الغني عنه العالم بقبحه ، ومعناه لا يجوز وقوعه منه .

المعنى :

وقوله : ﴿ وإلى الله ترجع الامور ﴾ لا يدل على أن الامور كانت ذاهبة عنه ، لأمرين :

أحدها ـ لأنها بمنزلة الذاهبة بهلاكها وفنائها ثم اعادتها ، لأنه تعالى يعيدها للجزاء على الاعمال والعوض على الآلام .

والثاني ـ لأنه قد ملك العباد كثيراً من التدبير في الدنيا فيزول جميع ذلك في الآخرة ويرجع إليه كله . وقوله : « ولله مافي السماوات » معناه ولله ملك مافي السماوات . والملك : هو ماله أن يتصرف فيه . ولا يجوز أن يقول مكان ذلك ولله خلق ما في السماوات ، لأن ذلك يدخل فيه معاصي العباد ، والله تعالى منزه عنها والآية خرجت مخرج التعظيم لله تعالى ، وذكر عظيم المدح .

وفي وقوع المظهر بموقع المضمر في قوله : « وإلى الله ترجع الامور » فيه قولان :

أحدها ـ ليكون كل واحد من الكلامين مكتفياً بنفسه .

والثاني ـ لأن المظهر في اسم الله تعالى أفخم في الذكر من المضمر وصفة ملكه موضع تفخيم ، وليس كقول الشاعر (١)

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا (٢)

لأن البيت مفتقر إلى الضمير والآية مستغنية عنه وإنما احتاج البيت إليه ، لأن الخبر الذي هو جملة لا يتصل بالمخبر عنه إلا بضمير يعود إليه . (وما) تقع على ما يعقل وما لا يعقل إذا ذهب به مذهب الجنس ، فما يعقل داخل فيه حقيقة ولو قال بدلا منه ولله من في السماوات بلفظة (من) لما دخل فيه إلا العقلاء أو الكل على جهة التغليب دون الحقيقة .

قوله تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١٠) آية واحدة .

النظم :

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها اتصال المدح على الفعل الذي تقدم به الأمر ، لأنه قد تقدم إيجاب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ثم مدح على قبوله والتمسك به ، ويجوز أيضاً أن يكون اتصال التعظيم لله تعالى بمدح المطيعين له في الاشياء التي بيست ، لأنهم بلطف الله تعالى أطاعوا .

---

(١) هو عدي بن زيد . وقيل انه ينسب الى ولده سوادة بن عدي . ونسبه بعضهم لامية بن أبي الصلت .

(٢) حماسة البحتري : ٩٨ وشعراء الجاهلية : ٤٦٨ وسيبويه ١ : ٣٠ وخزانة الادب ١ : ١٨٣ ، ٣ : ٥٣٤ ، ٤ : ٥٥٢ وأمالي بن الشجري ١ : ٢٤٣ ، ٢٨٨ وشرح شواهد المغني ٢٩٦ وهو من أبيات متفرقة في هذه الكتب وغيرها من الحكم في التأمل في الحياة والموت .

المعنى :

وقوله : ﴿ كنتم خير أمة ﴾ إنما لم يقل أنتم لأحد أمور :

أحدها ـ قال الحسن أن ذلك لما قد كان في الكتب المتقدمة ما يسمع من الخير في هذه الأمة من جهة البشارة . وقال نحن آخرها وأكرمها على الله . وكذلك روي عن النبي (ص) أنه قال (أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله) فهو موافق لمعنى أنتم خير أمة إلا أنه ذكر « كنتم » لتقدم البشارة به ، ويكون التقدير « كنتم خير أمة » في الكتب الماضية فحققوا ذلك بالافعال الجميلة .

الثاني ـ أن كان زائدة ودخولها وخروجها بمعنى، إلا أن فيها تأكيد وقوع الأمر لا محالة ، لأنه بمنزلة ما قد كان في الحقيقة ، كما قال « واذكروا إذ أنتم قليل » (١) وفي موضع آخر « واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم » (٢) ونظيره قوله : « وكان الله غفوراً رحيما » لأن مغفرته المستأنفة كالماضية في تحقيق الوقوع لا محالة .

الثالث ـ أن (كان) تامة ههنا ومعناه حدثتم خير أمة ويكون خير أمة نصباً على الحال .

والرابع ـ « كنتم خير أمة » في اللوح المحفوظ .

والخامس ـ كنتم مذ أنتم ليدل على أنهم كذلك مذ أول أمرهم . واختلف المفسرون في المعني بقوله : « كنتم خير أمة » فقال قوم : هم الذين هاجروا مع النبي (ص) ذكره ابن عباس ، وعمر بن الخطاب ، والسدي . وقال عكرمة : نزلت في ابن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل . وقال الضحاك : هم أصحاب رسول الله (ص) خاصة . وقال مجاهد معناه « كنتم خير أمة » إذا فعلتم ، ما تضمنته الآية من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . والايمان بالله والعمل بما أوجبه . وقال الربيع : معناه « كنتم خير أمة » ، لأنه لم

---

(١) سورة الانفال آية : ٢٦ .

(٢) سورة الاعراف آية : ٨٥ .

يكن أمة أكثر استجابة في الاسلام ، من هذه الأمة . فان قيل : لم قيل للحسن معروف مع أن القبيح أيضاً يعرف أنه قبيح ، ولا يجوز أن يطلق عليه اسم معروف ؟ قلنا : لأن القبيح بمنزلة مالا يعرف لخموله وسقوطه . والحسن بمنزلة النبيه الذي يعرف بجلالته وعلو قدره . ويعرف أيضاً بالملابسة الظاهرة والمشاهدة فأما القبيح ، فلا يستحق هذه المنزلة . وقوله : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ معناه لو صدقوا بالنبي (ص) وقوله : « منهم المؤمنون » يعني معترفون بما دلت عليه كتبهم في صفة نبينا (ص) ، والبشارة به . وقيل : إنها تناولت من آمن منهم كعبد الله بن سلام ، وأخيه ، وغيرهما . وقوله : ﴿ وأكثرهم الفاسقون ﴾ يعني من لم يؤمن منهم ، وإنما وصفهم بالفسق دون الكفر الذي هو أعظم ، لأن الغرض الاشعار بأنهم خرجوا بالفسق عما يوجبه كتابهم من الاقرار بالحق في نبوة النبي (ص) . وأصل الفسق الخروج . ووجه آخر وهو أنهم في الكفار بمنزلة الفساق في العصاة بخروجهم إلى الحال الفاحشة التي هي أشنع وأفظع من حال من لم يقدم إليه ذكر فيه ، وليس في الآية ما يدل على أن الاجماع حجة على مابيناه في أصول الفقه . وتلخيص الشافي ، وجملته أن هذا الخطاب لا يجوز أن يكون المراد به جميع الأمة ، لأن أكثرها بخلاف هذه الصفة بل فيها من يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف . ومتى كان المراد بها بعض الأمة ، فنحن نقول ان في الامة من هذه صفته ، وهو من دل الدليل على عصمته ، فمن أين لو أنا ، فرضنا فقدهم ، لكان إجماعهم حجة واستوفينا هناك ما تقتضيه الأسئلة والجوابات ، فلا نطول بذكره ههنا .

قوله تعالى :

﴿ لَنْ يَضرُّوكم إلاَّ أذىً وإن يُقاتِلوكم يُولوكُمُ الادبارَ ثمَّ لا يُنصرونَ ﴾ (١١١) آية .

النظم :

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها اتصال البشارة بالغلبة بما تقدم من الأمر

بالمحاربة ، لأنه قد تقدم الأمر بانكار المنكر ، فالفريضة اللازمة إذلم تترك إلا بالمحاربة .

المعنى ، والاعراب :

والأذى المذكور في الآية هو أن يسمعوا منهم كذباً على الله يدعونهم به إلى الضلالة في قول الحسن ، وقتادة يقول أهل الحجاز آذيتني إذا أسمعته كلاماً يثقل عليه . وقال البلخي ، والطبري الاستثناء منقطع ههنا ، لأن الأذى ليس من الضرر في شيء ، وهذا ليس بصحيح ، لأنه إذا أمكن حمله على الاستثناء الحقيقي لم يجز حمله على المنقطع . والمعنى في الآية لن يضروكم إلا ضرراً يسيراً ، فالأذى وقع موقع المصدر الأول . وإذا كان الأذى ضرراً فالاستثناء متصل . والمنقطع لا يكون فيه الثاني مخصصاً للأول ، كقولك مافي الدار أحد إلا حماراً ، وكقولك ما زاد إلا مانقص وما نفع إلا ما ضر . وقوله : ﴿ وإن يقاتلوكم ﴾ جزم ، لأنه شرط « ويولوكم » جزم لأنه جزاء . وقوله : ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ رفع على الاستئناف ، ولم يعطف ليجري الثاني على مثال الأول ، لأن سبب التولية القتال . وليس كذلك منع النصر ، لأن سببه الكفر . والرفع أشكل برؤس الآي المتقدمة ، وهو مع ذلك عطف جملة على جملة وفي الآيـــة دلالة على النبوة ، لوقوع مخبرها على ما تضمنته قبل وقوع مخبرها ، لأن يهود المدينة من بني قريظة وبني النضير ، وبني قينقاع ويهود خيبر الذين حاربوه (ص) والمسلمين ما قاتلوهم قط إلا ولوا الأدبار منهزمين .

قوله تعالى :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ أَينَما ثُقِفُوا إلا بِحَبلٍ مِنَ اللهِ وَحَبلٍ مِنَ النّاسِ وَباءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيهِمُ المَسكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

كانوا يَكفرونَ بآياتِ اللهِ وَيقتلونَ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ ذلكَ بما عَصوا وكانوا يَعتدونَ ﴾ (١١٢) آية بلا خلاف .

المعنى ، واللغة ، والاعراب :

قال الحسن : المعني بقوله : « ضربت عليهم الذلة » اليهود أذلهم الله عز وجل ، فلا عز لهم ولا منعة ، وأدركتهم هذه الأمة . وإن المجوس لتجبيهم الجزية «وضربت» مأخوذ من الضرب، وإنما قيل ضربت ، لأنها ثبتت عليهم كما ثبتت بالضرب كما أخذت منه الضريبة ، لأنها تثبت على صاحبها كما تثبت الضرب . وقوله : «أينما ثقفوا » أي أينما وجدوا ، يقال : ثقفته أي وجدته ، ولقيته . فان قيل : كيف جاز عقابهم على مالم يفعلوه من قتل الانبياء . وإنما فعله أسلافهم دونهم . قلنا : عنه جوابان :

أحدهما ـ أنهم عوقبوا على رضاهم بذلك . وأجرى عليهم صفة القتل لعظم الجرم في رضاهم به ، فكأنهم ، فعلوه على نحو « يذبح أبناءهم » وإنما أمر به .

والثاني ـ أن تكون الصفة تعم الجميع ، فيدخلوا في الجملة ويجري عليهم الوصف على التغليب كما يغلب المذكر على المؤنث إذا اجتمعا ، فكذلك غلب القاتل على الراضي . وقوله : ﴿ إلا بحبل من الله ﴾ فالحبل هو العهد من الله ، وعهد من من الناس على وجه الذمة ، وغيرها من وجوه الأمان في قول ابن عباس ، والحسن ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، والربيع . وسمي العهد حبلا ، لأنه يعقد به الأمان كما يعقد بالحبل من حيث يلزم به الشيء كما يلزم بالحبل . وقال الاعشى :

فاذا تجوزها حبال قبيلة أخذت من الأخرى اليك حبالها(١)

والعامل في الباء من قوله « إلا بحبل من الله » يحتمل أن يكون العامل محذوفا والمعنى إلا أن تعتصموا بحبل من الله على قول الفراء وأنشد :

---

(١) ديوانه : ٢٤ رقم القصيدة ٣ انظر ٢ : ٥٤٥ من هذا الكتاب فتم تخريج البيت .

رأتني بحبليها فصدت مخافة وفي الحبل روعاء الفؤاد فروق (١)

أراد رأتني أقبلت بحبليها فحذف العامل في الباء وقال آخر : (٢)

قريب الخطو يحسب من رآني ولست مقيداً أني بقيد (٣)

قال الرماني ، علي بن عيسى ماذكره الفراء ضعيف من وجهين :

أحدهما ـ حذف الموصول وذلك لا يجوز عند البصريين في شيء من الكلام لأنه إذا احتاج إلى صلة تبين عنه فالحاجة إلى البيان عنه بذكره أشد . وإنما يجوز حذف الشيء للاستغناء بدلالة غيره عليه ، فلو دل دليل عليه لحذف مع صلته ، لأنه معها بمنزلة شيء واحد . والوجه الآخر أن الكلام إذا صح معناه من غير حذف لم يجز تأويله على الحذف . وقوله ﴿ إلا بحبل ﴾ قيل في هذا الاستثناء قولان :

أحدهما ـ أنه منقطع ، لأن الدلالة لازمة لهم على كل حال ، فيجري مجرى قوله : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً » (٤) فعامل الاعراب موجود والمعنى على الانقطاع . ومثله «لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاما»(٥)

____

« ١ » قائله حميد بن ثور الهلالي ديوانه : ٣٥ ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ٢٣٠ ، واللسان (نسم) ، (فرق) ، (حبل) ورواية الديوان :

جئت بحبليها فردت مخافة إلى النفس روعاء الجنان فروق

ورواية اللسان مختلفة ففي مادة (حبل) مثل التبيان وفي مادة (فرق) :

رأتني مجليها فصدت مخافة وفي الخيل روعاء الفؤاد فروق

وفي مادة (نسم) :

رأتني بنسعيها فردت مخافتي الى الصدر روعاء الفؤاد فروق

« ٢ » هو أبو الطمحان القيني ، حنظلة بن الشرقي من بني كنانة بن القين وهو أحد المعمرين . وقيل انه لعدي بن زيد . وقيل المسحاج بن سباع الضبي .

« ٣ » كتاب المعمرين : ٥٧ ومعاني القرآن للفراء ١ : ٢٣٠ ، والاغاني طبعة دار الثقافة ـ بيروت ـ ٢ : ٣١٣ ، ٣١ ، وطبعة ليدن ١٢ : ٢٤٧ وحماسة البحتري : ٢٠٢ وامالي القالي ١ : ١١٠ وأمالي الشريف المرتضى ١ : ٤٦ ، ٢٥٧ واللسان (ختل) وغيرها كثير .

« ٤ » سورة النساء آية : ٩١ .

« ٥ » سورة الواقعة آية : ٢٥ . وكان في المطبوعة « لا يسمعون فيها لغواً الا قيلا سلاماً » والآيات التي يحتمل أن يستشهد بها الشيخ اثنتان الاولى هي التي أثبتناها ، والثانية في سورة مريم آية : ٦٢ وهي « لا يسمعون فيها لغواً الا سلاماً » . ولا يوجد في القرآن آية مطابقة لما في المطبوعة الا بزيادة أو نقيصة .

وكل انقطاع فيه فانما هو لازالة الايهام الذي فيه يلحق الكلام فقوله : « لا يسمعون فيها لغواً » قد يتوهم أنه من حيث لا يسمعون فيها كلاماً ، فقيل لذلك « إلا قيلا سلاما » وكذلك « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً » قد يتوهم أنه لا يقتل مؤمن مؤمناً على وجه ، فقيل لذلك « إلا خطأ » . وكذلك « ضربت عليهم الذلة » قد يتوهم أنه من غير جواز موادعة ، فقيل إلا بحبل من الله .

الثاني ـ أن الاستثناء متصل ، لأن عز المسلمين عز لهم بالذمة ، وهذا لا يخرجه من الذلة في أنفسهم . وقوله : « وباؤا بغضب من الله » أي رجعوا بغضب الله الذي هو عقابه ولعنه . وقوله : ﴿ وضربت عليهم المسكنة ﴾ قيل اريد بالمسكنة الذلة لأن المسكين لا يكون إلا ذليلا فسمي الذليل مسكيناً . وقيل ، لأن اليهود أبداً يتفاقرون وان كانوا أغنياء لما رماهم الله به من الذلة . وقد بينا فيما تقدم أن قوله: « ويقتلون الانبياء بغير حق » (١) لا يدل على أن قتلهم يكون بحق وإنما المراد أن قتلهم لا يكون إلا بغير حق ، كما قال « ومن يدع مع الله الهاً آخر لا برهان له به » والمراد ان ذلك لا يكون إلا بغير برهان وكقول امرىء القيس :

على لاحب لا يهتدى بمناره (٢)

ومعناه لا منار هناك فيهتدى به وقوله : ﴿ يعتدون ﴾ قد بينا فيما تقدم معنى الاعتداء وهو أن معناه تجاوز الحد مأخوذ من العدوان .

قوله تعالى :

﴿ لَيسوا سَواءً مِنْ أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمةٌ يَتلونَ آياتِ اللهِ آناءَ الليلِ وَهُم يَسجدونَ ﴾ (١١٣) آية .

« ١ » سورة آل عمران آية ٢١ و سورة البقرة آية ٦١ ولكن هناك في الآيتين (النبيين) وفي هذه الآية (الأنبياء) .

« ٢ » أنظر ٢ : ٣٥٦

النزول :

قال ابن عباس ، وقتادة ، وابن جريج سبب نزول هذه الآية أنه لما أسلم عبد الله بن سلام وجماعة معه قالت أحبار اليهود ما آمن بمحمد إلا أشرارنا ، فأنزل الله تعالى « ليسوا سواء » إلى قوله : « وأولئك من الصالحين » .

اللغة ، والاعراب ، والمعنى :

فان قيل لم ذكر مع سواء أحد الفريقين دون الآخر ، ولا يجوز مثله أن يقول سواء علي قيامك حتى يقول أم قعودك قلنا عنه جوابان :

أحدهما ـ أنه محذوف لدلالة ما تقدم من الكلام عليه ، كما قال أبو ذؤيب :

عصاني إليها القلب إني لأمرها مطيع فما أدري أرشد طلابها ؟

ولم يقل أم غي ، لأن الكلام يدل عليه ، لأنه كان يهواها فما يبالي أرشد أم غي طلابها . وقال آخر :

أراك فلا أدري أهم هممته وذو الهم قدماً خاشع متضائل

ولم يقل أم غيره ، لأن حاله في التغير ينبيء أن الهم غيره أم غيره مما يجري مجراه ، وهذا قول الفراء ، وضعفه الزجاج ، وقال ، ليس بنا حاجة إلى تقدير محذوف ، لأن ذكر أهل الكتاب قد جرى في قوله : « يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء » فتبين أن فيهم غير المؤمنين ، فلا يحتاج أن يقدر وأمة غير قائمة .

الثاني ـ أن يكون ليسوا سواء منهم الجواد ، والشجاع ، فعلى القول الأول يكون رفع أمة على معنى الفعل ، وتقديره لا يستوي أمة هادية وأمة ضالة ، وعلى القول الثاني يكون رفعها بالابتداء . وقال الطبري لا يجوز الاقتصار في سواء على أحد الذكرين دون الآخر . وإنما يجوز في ما أدري وما أبالي . قال الرماني : وهذا غلط ، لأنه ذهب عليه الفرق بين الاقتصار والحذف لأن الحذف لابد فيه من خلف يقوم مقامه . والاقتصار ليس كذلك ، لأنه كالاقتصار على أحد المفعولين

في أعطيت ، وحذفه في حسبت مرتجلا أي لما . والخلف فيه دلالة الحال ، فأما أعطيت زيداً ، فلا محذوف فيه ، لأنه ليس معه خلف يقوم مقامه .

وقوله : ﴿ قائمة ﴾ فيه أربعة أقوال : قال الحسن وابن جريج معناه عادلة . وقال ابن عباس ، وقتادة ، والربيع : معناه ثابتة على أمر الله . وقال السدي معناه قائمة بطاعة الله وقال الاخفش ، والزجاج : معناه ذو أمة مستقيمة ، وهذا ضعيف لأنه عدول عن الظاهر في أمة والحذف لا دلالة عليه . وقوله : ﴿ أناء الليل ﴾ قيل في واحده قولان :

أحدهما ـ اني مثل نحي .

والثاني ـ اني مثل معي . وحكى الاخفش أنو ، والجمع أناء . قال الشاعر :

حلو ومر كعطف القدح مرته   بكل اني حداه الليل ينتعل (١)

وروي ينتشر . وقال الحسن ، والربيع ، وعبد الله بن كثير معناه ساعات الليل . وقال ابن مسعود يريد صلاة العتمة ، لأن أهل الكتاب لا يعلمونها ، وقال الثوري عن منصور هو الصلاة بين المغرب والعشاء . وقال السدي يعني جوف الليل . وقوله : ﴿ وهم يسجدون ﴾ فيه قولان :

أحدهما ـ السجود المعروف في الصلاة .

الثاني ـ قال الفراء ، والزجاج معناه يصلون . وبه قال البلخي ، وغيره ، لأن القراءة لا تكون في السجود ، ولا في الركوع ، وهذا ترك للظاهر ، وعدول عنه . ومعنى الآية يتلون آيات الله أناء الليل وهم مع ذلك يسجدون ، فليست الواو حالا وإنما هي عطف جملة على جملة ، والضمير في قوله (ليسوا) عائد على أهل الكتاب ، لتقدم ذكرهم ، وقال أبو عبيدة هو على لغة أكلوني البراغيث . ومثله قوله :

« ١ » قائله المتنخل الهذلي وقد نسبه بعضهم الى المتنخل السعدي .
ديوان الهذليين ٢ : ٣٥ ومجاز القرآن ١ : ١٠٢ وسيرة بن هشام ٢ : ٢٠٦ ورواية اللسان (اني) والازهري عن ابن الانباري :

السالك الثغر مخشياً موارده   بكل اني قضاه الليل ينتعل

وفي الديوان (حذاه) بدل (حداه) فقط .

« عموا وصموا كثير منهم » (١) وقال الشاعر :

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي فأعرضن عني بالخدود النواضر (٢)

قال الرماني ، وهذا غلط ، لأن هذه اللغة ردية في القياس والاستعمال أما القياس ، فلان الجمع عارض ، والعارض لا يؤكد علامته ، لأنه بمنزلة مالا يعتدبه، في سائر أبواب العربية وليس كالثابت للزومه فتقدم له العلامة لتؤذن به قبل ذكره ومع ذلك فجائز تركها فيه ، فكيف بالعارض ، ولزوم الفعل للفاعل يغني عن التثنية والجمع فيه ، فلا يدخل جمع على جمع كما لا يدخل تعريف على تعريف . وأما الاستعمال ، فلان أكثر العرب على خلافه .

قوله تعالى :

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١١٤)

آية واحدة .

المعنى :

هذه الآية فيها صفة الذين ذكرهم في الآية التي قبلها في قوله : « أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون » فأضاف إلى ذلك أنهم مع ذلك يصدقون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وقد بينا أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ، وأنه ليس طريق وجوبها العقل ، وإنما طريق وجوبها السمع ، وعليه إجماع الأمة . وإنما الواجب بالعقل كراهة المنكر ، فقط غير أنه إذا ثبت بالسمع وجوبه ، فعلينا إزالة المنكر بما يقدر عليه من الأمور الحسنة دون القبيحة ، لأنه لا يجوز إزالة قبيح بقبيح آخر ، وليس لنا أن نترك أحداً

---

(١) سورة المائدة آية : ٧٤ .

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك ١ : ٣٩٩ وغيرها من كتب النحو كثير .

يعمل بالمعاصي إذا أمكننا منعه منها سواء كانت المعصية من أفعال القلوب مثل اظهار المذاهب الفاسدة أو من أفعال الجوارح ، ثم ننظر ، فان أمكننا إزالته بالقول ، فلا نزيد عليه ، وان لم يمكن إلا بالمنع من غير إضرار لم نزد عليه ، فان لم يتم إلا بالدفع بالحرب ، فعلناه على ما بيناه فيما تقدم ، وان كان عند أكثر أصحابنا هذا الجنس موقوف على السلطان أو اذنه في ذلك . وانكار المذاهب الفاسدة ، لا يكون إلا باقامة الحجج والبراهين والدعاء إلى الحق ، وكذلك إنكار أهل الذمة فأما الانكار باليد ، فقصور على من يفعل شيئاً من معاصي الجوارح ، أو يكون باغياً على إمام الحق ، فانه يجب علينا قتاله ودفعه حتى يفيء إلى الحق ، وسبيلهم سبيل أهل الحرب ، فان الانكار عليهم باليد والقتال حتى يرجعوا إلى الاسلام أو يدخلوا في الذمة . وقوله : ﴿ ويسارعون في الخيرات ﴾ يحتمل أمرين :

أحدهما ـ أنهم يبادرون إليها خوف الفوات بالموت .

والثاني ـ يعملونها غير متثاقلين فيها لعلمهم بجلالة موقعها ، وحسن عاقبتها .

اللغة :

والفرق بين السرعة والعجلة ان السرعة هي التقدم فيما يجوز أن يتقدم فيه وهي محمودة وضدها الابطاء وهو مذموم . والعجلة هي التقدم فيما لا ينبغي أن يتقدم فيه وهي مذمومة وضدها الاناة وهي محمودة .

قوله تعالى :

« وَما يَفعلوا مِن خَيرٍ فَلَن يُكفَروهُ وَاللهُ عَليم بالمتقينَ »

(١١٥) آية بلا خلاف .

القراءة والحجة والاعراب :

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر بالياء فيها . الباقون بالتاء إلا أبا عمرو ، فانه

كان بخير ، ووجه القراءة بالياء أن يكون كناية عمن تقدم ذكره من أهل الكتاب ليكون الكلام على طريقة واحدة ، ووجه التاء أن يخلطهم بغيرهم من المكلفين ، ويكون خطاباً للجميع في أن حكمهم واحد .

وإنما جوزي بـ (ما) ولم يجاز بـ (كيف) لأن (ما) أمكن من (كيف) لانها تكون معرفة ونكرة ، لانها للجنس و (كيف) لاتكون إلا نكرة ، لأنها للحال ، والحال لا تكون إلا نكرة ، لأنها للفائدة

اللغة والمعنى :

وقوله : ﴿ فلن يكفروه ﴾ مجاز كما أن الصفة لله بأنه شاكر مجاز . وحقيقته أنه يثيب على الطاعة ثواب الشاكر على النعمة ، فلما استعير للثواب الشكر واستعير لنقيضه من منع الثواب الكفر ، لأن الشكر في الاصل هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم ، والكفر ستر النعمة من المنعم عليه بتضييع حقها . ومعنى الآية فلن يمنعوا ثوابه ، وسمي منع الجزاء كفراً ، لأنه بمنزلة الجحد له بستره ، لأن أصل الكفر الستر ، ولذلك قيل لجاحد نعم الله ومن جرى مجراه في الامتناع من القيام بحقها : كافر ، فالكافر هو المضيع لحق نعمة الله بما يجري مجرى الجحود .

وقوله : ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ إنما خص المتقين بالذكر ، لأن الكلام اقتضى ذكر جزاء المتقين ، فدل على أنه لا يضيع شيء من عملهم ، لأن المجازي به عليم ، وأنهم أمر أمرهم الفجار تعويلا على ماذكره في غيرها من أي الوعيد .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ ﴾ (١١٦) آية .

المعنى :

لما ذكر تعالى أن عمل المتقين لن يضيع ، وأنهم يجازون به ، استأنف حكم

الكافرين ، وبين انه « لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم » شيئاً من الله وإنما خص الأموال ، والاولاد بالذكر في أنهم لا يغنون عن الكافر شيئا وإن كان لا يغني عنهم غير هؤلاء أيضاً شيئا ، لأنها معتمد ما يقع به الاعتداد ، ومما يعول عليه الانسان ويرجوه للشدائد ويفيد النفي العام ، لأنه إذا لم يغن عنه من هو حقيق بالفناء لمع من لا يعجزه شيء ففناء من دونه أبعد .

اللغز :

وقوله : ﴿ وأولئك أصحاب النار ﴾ إنما سموا أصحاب النار ، للزومهم فيها كما يقال هؤلاء أصحاب الصحراء إذا كانوا ملازمين لها ، وقد يقال أصحاب المقار بمعنى ملاكه وأصحاب الرجل أتباعه وأعوانه وأصحاب العالم من يعني به الآخذون عنه ، والمتعلمون عنه ، فالاضافة مختلفة . ومعنى « لن تغني عنهم » أي لن تدفع عنهم ضرر الولاء النازل بهم ولو قيل أغناه كذا عن كذا أفاد أن أحد الشيئين صار بدلا من الآخر في نفي الحاجة ، والغنى الاختصاص بما ينفي الحاجة ، فان اختص بمال ينفي الحاجة ، فذلك غنى . وكذلك الغنى بالجاه والاصحاب وغير ذلك ، فأما الغنى في صفت الله فاختصاصه بكونه قادراً على وجه لا يعجزه شيء ، وقولنا فيه: أنه غنى معناه أنه لايجوز عليه الحاجة .

وأصل النار النور ، وهو مصدر . والنار جنس تجري مجرى الوصف في تضمنه معنى الأصل وزيادة عليه ، لأنها جسم لطيف فيه حرارة ونور . ومنه امرأة نوار أي نافرة عن الشر عفيفة ، لأنها كالنار في الامتناع . ومنه المنار الاعلام ، لأنها كالنور في البيان . ومنه المنارة التي يسرج عليها .

قوله تعالى :

﴿ مَثلُ ما يُنفقون في هذهِ الحياةِ الدُّنيا كمثلِ ريحٍ فيها صِرٌّ أَصابَتْ حرثَ قومٍ ظَلموا أنفسهمْ فاهلكتهُ وما ظَلمهمُ اللهُ ولـكنْ

أنفسهم يظلمون ﴾ (١١٧) آية .

النزول :

قيل ان هذه الآية نزلت في أبي سفيان ، وأصحابه يوم بدر ، لما تظاهروا على النبي (ص) في الانفاق . وقيل بل نزلت في نفقة المنافقين مع المؤمنين في حروب المشركين على وجه النفاق للمؤمنين .

المعنى :

والمثل الشبه الذي يصير كالعلم لكثرة استعماله فيما مشبه به ، فلما كان إنفاق المنافق والكافر ضائعاً ، ويستحق عليه العقاب والذم أشبه الحرث المهلك ، فلذلك ضرب به المثل . وفي الآية حذف ، وتقديرها مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك « ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم » فحذف الاهلاك لدلالة آخر الكلام عليه وفيه تقدير آخر : مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح ، فيكون تشبيه ذلك الانفاق بالمهلك من الحرث بالرياح .

اللغة :

والريح جمعه رياح ومنه الروح ، لدخول الريح الطيبة على النفس ، وكذلك الارتياح . والتروح الراحة من التعب ، لأنه بمنزلة الروح الذي يدخل على النفس بزوال التعب . ومنه الاستراحة ، والمراوحة ، لأنها تجلب الريح . ومنه الروح ، لأنها كالريح في اللطافة ومنه الرائحة ، لأن الريح تحملها إلى الحس ، ومنه الرواح ، لأنه رجوع كالريح ، للاستراحة .

وقوله : «فيها صر» قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والربيع ، والسدي ، وابن زيد ، والضحاك : هو البرد وأصله الصوت من الصرير . قال الزجاج : الصر صوت لهب النار التي كانت في تلك الريح ويجوز أن يكون الصر صوت الريح الباردة

الشديدة ، وذلك من صفات الشمال ، فانها توصف بان لها قعقعة .

المعنى :

وقوله : ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ نفي للظلم عن الله تعالى يعني في نفي استحقاقهم للثواب ، واستحقاقهم للعقاب ، وإن ذلك ليس بظلم منه تعالى « ولـكن أنفسهم يظلمون » بذلك . وإنما وصفهم بأنهم ظلموا أنفسهم ، لأمرين :

أحدهما ـ أن ظلمهم اقتضى هلاك حرثهم عقوبة لهم ، لأنه لو هلك على جهة الابتلاء والمحنة لم يعتد بعاجل المضرة ، للعوض الموفى عليه في العاقبة .

الثاني ـ أن يكونوا ظلموا أنفسهم بأن زرعوا في غير موضع الزرع أو في غير وقت الزراعة ، فجاءت الريح فأهلكته تأديباً من الله لهم في وضع الشيء غير موضعه الذي هو حقه .

وقوله تعالى :

﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١١٨)

آية بلا خلاف .

المعنى :

ذكر ابن عباس ، والحسن : أن قوماً من المؤمنين خافوا بعض المشركين من اليهود ، والمنافقين المودة لما كان بينهم في الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك بهذه الآية . والبطانة معناها ههنا خاصة الرجل الذين يستبطنون أمره ويسمون دخلاء أي لا تجعلوا من هذه صفته من غير المؤمنين .

اللغة ، والاعراب :

والبطن خلاف الظهر ، فمنه بطانة الثوب خلاف ظهارته ، لأنها تلي بطنه . وبطانة الرجل خاصته ،لأنها بمنزلة مايلي بطنه من ثيابه في القرب منه ، ومنه البطنة وهو امتلاء البطن بالطعام . والبطان حزام البعير ، لأنه يلي بطنه .

وقوله ﴿ من دونكم ﴾ (من) تحتمل وجهين :

أحدها ـ أن تكون دخلت للتبعيض ، والتقدير لا تتخذوا بعض المخالفين في الدين بطانة .

والثاني ـ أن يكون دخولها لتبيين الصفة كأنه قيل : لا تتخذوا بطانة من المشركين . وهو أعم وأولى ، لأنه لا يجوز أن يتخذ مؤمن كافراً بطانة على حال وقال بعضهم إن (من) زائدة ، وهذا ليس بجيد ، لأنه لا يجوز أن يحكم بالزيادة مع صحة حملها على الفائدة .

وقوله : ﴿ لا يألونكم خبالا ﴾ معناه لا يقصرون في أمركم خبالا من قولهم ما ألوت في الحاجة جهداً ، ولاأألو الأمر ألوا أي لا أقصر جهداً . وقال الشاعر :

جهراء لا تألو إذا هي أظهرت   بصراً ولا من عيلة تغنيني (١)

أي لا تقصر بصراً ولا تبصر ، لأنها جهراء تطلب ذلك ، فلا تجده . ومنه الالية اليمين . ومنه قوله : «ولا يأتل أولو الفضل منكم» (٢) معناه لا يقصر، وقيل لا يحلف . والأصل التقصير والخبال معناه النكال . وأصله الفساد يقال في قوائمه خبل ، وخبال أي فساد من جهة الاضطراب . ومنه الخبل الجنون ، لأنه فساد العقل ، ورجل مخبل الرأي أي فاسد الرأي . ومنه الاستخبال طلب إعادة المال لفساد الزمان .

« ١ » قائله أبو العيال الهذلي . ديوان الهذليين ٢ . ٢٦٣ ، واللسان (ألا) و (جهر) وهو من شعر في مقارضة بينه وبين بدر بن عامر الهذلي . الجهراء : هي التي لا تبصر في الشمس .
« ٢ » سورة النور آية : ٢٢ .

المعنى :

وقوله : ﴿ ودوا ﴾ معناه أحبوا « ما عنتم » معناه إدخال المشقة عليكم . وقال السدي : معناه « ودوا » ضلالكم عن دينكم ، لأن الحمل بالضلال مشقة . وقيل معناه «ودوا » أن يفتنوكم في دينكم أي يحملونكم على المشقة ذكره ابن جريج .

اللغة :

وأصل العنت المشقة : عنت الرجل عنتاً إذا دخلت عليه المشقة . ومنه أكمة عنوت أي صعبة المسالك لمشقة السلوك فيها . وفلان يعنت فلاناً أي يحمله على المشقة الشديدة في ما يطالبه به . ومنه قوله تعالى : «ولو شاء الله لأعنتكم » (١) .

الاعراب ، والمعنى :

وموضع ودوا يحتمل أن يكون نصباً لأنه صفة لبطانة ويجوز أن يكون له موضع من الاعراب ، لأنه استئناف جملة . وقوله : ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ أي ظهر منها ما يدل على البغض « وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات » يعني العلامات « إن كنتم تعقلون» يعني موضع نفعه لكم ومبلغ عائدته عليكم . وقيل : معناه « إن كنتم تعقلون » الفصل بين ما يستحقه الولي والعدو .

قوله تعالى :

﴿ ها أنتمْ أولاءِ تُحبونهم وَلا يُحبونكمْ وتؤمنونَ بالكتابِ كلِّهِ وَإذا لَقوكم قالوا آمنا وَإذا خَلوا عَضّوا عليكمُ الأناملَ مِنَ الغيظِ قُلْ مُوتوا بِغيظكم إنَّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصدُورِ ﴾ (١١٩) آية بلا خلاف .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٠ .

المعنى، واللغة، والاعراب :

هذا خطاب للمؤمنين أعلمهم الله تعالى أن منافقي أهل الكتاب لا يحبونهم وأنهم هم يصحبون هؤلاء المنافقين بالبر والنصيحة، كما يفعله المحب، وإن المنافقين على ضد ذلك، فأعلمهم الله ما يسره المنافقون في باطنهم، وذلك من آيات النبي(ص) قال الفراء : العرب إذا جاءت إلى اسم مكنى قد وصف بهذا، وهذان، وهؤلاء، فرقوا بين (ها) وبين (ذا) فجعلوا المكنى منهما في جهة التقريب، لا غير يقولون : أين أنت، فيقول القائل : هأنذا، ولا يكادون يقولون ها أنا. ومثله في التثنية والجمع. ومثله قوله : « ها أنتم أولاء تحبونهم » وربما أعادوها فوصلوها بذا، وهذان وهؤلاء، فيقولون ها أنت هذا قائماً، وها أنتم هؤلاء. قال الله تعالى : « ها أنتم هؤلاء جادلتم » (١) فان كان الكلام على غير تقريب أو كان على خبر يكتفي كل واحد منهما بصاحبه بلا فعل، والتقريب لابد فيه من فعل لنقصانه وأحبوا أن يفرقوا بين معنى التقريب، وبين معنى الاسم الصحيح، قال الازهري : يحتمل أولا أن يكون منادى كأنه قال يا أولاء. وقال نحاة البصريين (ها) للتنبيه. وأنتم مبتدأ وأولاء خبره ويحبونهم حال. وقال الفراء : يحبونهم خبر. وقال الزجاج : يجوز أن يكون أولاء بمعنى الذين ويحبونهم صلة ويكون التقدير الذين يحبونهم. ويجوز أن يكون حالا بمعنى « ها أنتم أولاء » محبين لهم. ويكون « أنتم » مبتدأ وأولاء خبره. ويحبونهم حالا والمعنى انظروا إلى أنفسكم محبين لهم ولا يجوز أن تقول : ها قومك أولاء، كما جاز « ها أنتم أولاء »، لأن المضمر أحق بـ (ها) التي للتنبيه، لأنه كالمبهم في عموم مايصلح له. وليس كذلك الظاهر. وقال الفراء : إنما ذاك على جهة التقريب في المضمر، والاعتماد على غيره في الخبر. قال الحسن بن علي المغربي أولاء يعني به المنافقين، كما تقول ما أنت زيداً يحبه، ولا يحبك. وهذا مليح غير أنه يحتاج أن يقدر عامل في أولاء ينصبه، يفسره قوله :

---

(١) سورة النساء آية : ١٠٨ .

« يحبونهم » لأنه مشغول لا يعمل فيما قبله كقوله : « والقمر قدرناه » (١) في من نصبه وأولاء للرجال ، وللنساء أولات . وهو مبني على الكسر . وكان الأصل السكون والألف قبلها ساكنة فحرك لالتقاء الساكنين على أصل الكسرة . وقوله: ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ الكتاب واحد في موضع الجمع ، لأنه أريد به الجنس ، كما يقال كثر الدرهم في أيدي الناس ويحتمل أن يكون مصدراً من قولك كتبت كتاباً . والمراد بالكتاب ههنا كتب الله التي أنزلها على أنبيائه وفي إفراده ضرب من الايجاز ، واشعار بالتفصيل في الاعتقاد ، لأنهم يؤمنون بها في الجملة . والتفصيل من حيث يؤمنون بما أنزل على ابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد (ص) وسائر الانبياء . وقوله : « وإذا لقوكم قالوا آمنا » معناه إذا رأوكم قالوا صدقنا « وإذا خلوا » مع أنفسهم «عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » فالعض بالاسنان . ومنه العض علف الامصار ، لأن له مضغة في العض يسمن عليها المال . ومنه رجل عض : لزاز الخصم ، لأنه يعض بالخصومة . وكذلك رجل عض فحاش ، لأنه يعض بالفحش والأنامل أطراف الأصابع في قول قتادة ، والربيع ، وأصلها النمل المعروف ، فهو مشبه به في الرقة ، والتصرف بالحركة . ومنه رجل نمل أي نمام ، لأنه ينقل الاحاديث الكرهة كنقل النملة في الخفاء والكثرة . وواحد الأنامل أنملة . قال الزجاج ولم يأت على هذا المثال ما يعني به الواحد إلا شذ ، فأما الجمع ، فكثير نحو أفلس وأكعب وقوله : ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ معناه الامر بالدعاء عليهم . وإن كان لفظه لفظ الأمر ، كأنه قال قل : أماتكم الله بغيظكم وفيه معنى الذم لهم ، لأنه لا يجوز أن يدعا عليهم هذا الدعاء إلا وقد استحقوه بقبيح ما أتوه .

قوله تعالى :

﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ

« ١ » سورة يس آية : ٣٩ .

مُحِيطٌ ﴾ (١٢٠) آية بلا خلاف .

قرأ عمرو ، ونافع ، وابن كثير « لا يضركم » خفيفة . الباقون مشددة الراء . وهما لغتان ضاره يضيره ، وضره يضره ضراً بمعنى واحد . قوله : « إن تمسسكم » حسنة فالمراد بالحسنة ههنا ما أنعم الله عليهم به من الألفة والغلبة باجتماع الكلمة ، والمراد بالسيئة المحنة باصابة العدو منهم لاختلاف الكلمة ، وما يؤدي إليه من الفرقة هذا قول الحسن ، وقتادة والربيع وابن جريج .

وقوله : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا ﴾ يعني تتقوا الله بامتناع معاصيه ، وفعل طاعاته « لا يضركم كيدهم » فالكيد المكر الذي يغتال به صاحبه من جهة حيلة عليه ليقع في مكروه به ، وأصله المشقة تقول : رأيت فلاناً يكيد بنفسه أي يقاسي المشقة في سياق المنية ، ومنه المكايدة لايراد ما فيه المشقة . والمكيدة الحيلة لايقاع ما فيه المشقة . وقوله : ﴿ لا يضركم ﴾ مبني على الضم نحو مذ ولو فتح أو كسر لكان جائزاً في العربية وزعم بعضهم أنه رفع على حذف الفاء بتقدير ، فلا يضركم وأنشد :

فان كان لا يرضيك حتى تردني الى قطري لا أخالك راضيا (١)

وهذا ضعيف ، لأن الحذف إنما يجوز ، لضرورة الشعر والقرآن لا يحمل على ضرورة الشعر . وقوله : ﴿ إن الله بما تعملون محيط ﴾ معناه عالم به من جميع جهاته مقتدر عليه .

قوله تعالى

« وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (١٢١) آية .

---

(١) قائله سوار بن المضرب السعدي التميمي . نوادر أبي زيد : ٤٥ ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ٢٣٢ ، وحماسة ابن الشجري : ٥٤ ، ٥٥ .

المعنى ، واللغة ، والاعراب

قال ابن عباس ، وقتادة والربيع ، والسدي ، وابن اسحق ، وهو قول أبي جعفر (ع) : كان غدو النبي (ص) مبوئاً للمؤمنين يوم أحد ، وقال الحسن ومجاهد : كان يوم الاحزاب .

النبوئة اتخاذ المواضع لصاحبه وأصلها اتخاذ منزل تسكنه ، تقول بوأته منزله أبوئه تبوئة ، ومنه المباءات المراح ، لأنه رجوع إلى المستقر المتخذ وأبأت الابل أبيئها اباءة إذا رددتها إلى المباءة . ومنه بوأت بالذنب أي رجعت به محتملا له .

وقوله : « والله سميع عليم » قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها انه تهدد والمراد « سميع » لما يقول المنافقون « عليم » بما يضمرون .

الثاني ـ « سميع » لما يقوله النبي (ص) للمؤمنين « عليم » بما يضمره تزكية له (ص) .

الثالث ـ « سميع » ما يقوله المشيرون عليك « عليم » بما يضمرونه ، لأنهم اختلفوا ، فمنهم من أشار بالخروج ، ومنهم من أشار بالمقام . وفيه تزكية للزاكي وتهدد للغاوي . ومعنى « تبوىء المؤمنين » مثل تبوىء للمؤمنين حذف اللام ، كما قال « ردف لكم » (١) ويجوز ردفكم ، فاذا عداه ، فمعناه رتب المؤمنين على مواضعهم قدمة . وإذا لم يتعد فمعناه تتخذ لهم مواضع . ومثله قول الشاعر :

استغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل(٢)

ومعناه من ذنب ، والعامل في (إذ) محذوف ، وتقديره واذكر إذ غدوت من أهلك فحذف لدلالة الكلام عليه ولا يجوز أن يكون العامل غدوت ، لأنه مضاف إليه بمنزلة الصلة له .

« ١ » سورة النمل آية ٧٢ .

« ٢ » معاني القرآن للفراء ١ ٢٣٣ وسيبويه ١ : ١٧ والخزانة ١ : ٤٨٦ وهو من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها .

قوله تعالى :

﴿ إذ همّتْ طائفتانِ منكم أنْ تفشلا واللهُ وليُّهما وعلى اللهِ فليتوكلِ المؤمنونَ ﴾ (١٢٢) آية .

التقدير واذكر « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » وقال الزجاج العامل في (إذ) « همت أن تفشلا » والمعنى كانت التبوئة في ذلك الوقت . والطائفتان : هما بنو سلمة وبنو حارثة حيان من الأنصار في قول ابن عباس ، وجابر بن عبدالله ، والحسن وقتادة ، ومجاهد ، والربيع ، والسدي ، وابن اسحاق ، وابن زيد ، وأبي جعفر وأبي عبدالله (ع) .وقال الجبائي : هما قوم من المهاجرين ، والانصار. والفشل الجبن في قول ابن عباس تقول فشل يفشل فشلا . والجبن ليس من فعل الانسان وتحقيقه على هذا همت بحال الفشل إلا أنه وضع كلام موضع كلام . وليس في الآية أن همها بالفشل كان معصية ، لأنه قد يكون من غير عزم على حال الفشل بل بحديث النفس به ، ومن قال كان معصية قال هي صغيرة ، لقوله « والله وليها » وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال فينا نزلت وما أحب أنها لم تكن ، لقوله : « والله وليها » وكان سبب همهم بالفشل في قول السدي ، وابن جريج أن عبدالله ابن أبي بن سلول دعاها إلى الرجوع إلى المدينة عن لقاء المشركين يوم أحد فهما به ولم يفعلاه . وقال أبو علي : بل كان ذلك باختلافهم في الخروج إلى العدو أو المقام حتى هموا بالفشل . والتاء مدغمة في الطاء في قوله : « إذ همت طائفتان » لأنها من مخرجها فصارت بمنزلتها مع مثلها نحو همت تفعل ومثله « وقالت طائفة »(١) ويجوز أيضاً إدغام الطاء في التاء إلا انك تبقي الاطباق نحو « احطت بما لم تحط »(٢) والأول أحسن .

«١» سورة الاحزاب آية : ١٣ .

«٢» سورة النمل آية : ٢٢ .

قوله تعالى :

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (١٢٣) آية .

النزول واللغة :

هذه الآية نزلت في وصف مامن الله تعالى على المؤمنين من النصر والامداد بالملائكة وظفر المؤمنين بالمشركين مع قلة المؤمنين وقوة المشركين . فانه روي عن ابن عباس (ره) أنه قال كان المهاجرون يوم بدر سبعة وسبعين رجلا والانصار مئتين وستة وثلاثين رجلا الجميع ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا . وكان المشركون نحواً من ألف رجل .

وبدر ما بين مكة والمدينة وقال الشعبي سمي بدراً لأن هناك ماء لرجل يسمى بدراً ، فسمي الموضع باسم صاحبه . وقال الواقدي عن شيوخه إنما هو اسم للموضع كما يسمى كل بلد باسم يخصه من غير أن ينقل إليه اسم صاحبه .

وقوله : ﴿ وأنتم أذلة ﴾ جملة في موضع الحال . والذلة الضعف عن المقاومة ، وضدها العزة ، وهي القوة على الغلبة ، ويقال للجمل المنقاد من غير صعوبة : ذلول لانقياده انقياد الضعيف ، فأما الذليل فانما ينقاد على مشقة . ومنه تذليل الطريق ، ونحوه ، وهو توطئة الأصل . وفيه الضعف عن المقاومة . وقوله: « أذلة » جمع ذليل وفعيل قياسه أن يجمع على فعلاء إذا كان صفة ، مثل ظريف وظرفاء ، وكريم وكرماء، وعليم وعلماء ، وشريك وشركاء ، فجمع على أفعلة كراهية التضعيف ، فعدل إلى جمع الاسماء نحو قفيز وأقفزة ، فقيل ذليل وأذلة وعزيز وأعزة .

المعنى :

ووصفهم الله بأنهم أذلة لأنهم كانوا ضعفاء قليلي العدد قليلي العدة . وروي عن بعض السلف الصالح أنه قرأ « وأنتم ضعفاء » قال ولا يجوز وصفهم بأنهم أذلة ،

وفيهم رسول الله (ص).

وكان صاحب راية رسول الله (ص) يوم بدر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). وصاحب راية الانصار سعد بن عبادة. وقوله. «فاتقوا الله» معناه اتقوا معاصيه واعملوا بطاعته. ويجوز أن يكون المراد اتقوا عقاب الله بترك المعاصي، والعمل بطاعته، لأن أصل الاتقاء هو الحجز بين الشيئين بما يمنع من وصول أحدهما إلى الآخر كما تقول اتقاه بالترس أو غيره، ووجه ادخال هذه الآية وهي متعلقة بقصة بدر بين قصة أحد أن الله تعالى وعد المؤمنين النصر يوم أحد إن صبروا وثبتوا أن يمدهم بالملائكة كما نصرهم يوم بدر، وأمدهم بالملائكة فلما لم يصبروا وتركوا مراكزهم أصاب العدو منهم ما هو معروف.

قوله تعالى:

«إذْ تَقولُ للمؤمنينَ ألنْ يَكفيكمْ أن يُمدَّكم رَبكمْ بثلاثة آلاف ٍ منَ الملائكةِ مُنزلينَ» (١٢٤) آية بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وحده منزلين بتشديد الزاي الباقون بالتخفيف. التقدير اذكروا «إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم» وفيه إخبار أن النبي (ص) قال لقومه: ألن يكفيكم يوم بدر بأن أمدكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين، ثم قال «بلى إن تصبروا و تتقوا ويأتوكم من فورهم هـذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين» يعني يوم أحد. وقال ابن عباس، والحسن وقتادة، ومالك بن ربيعة وغيرهم: ان الامداد بالملائكة كان يوم بدر. وقال ابن عباس لم يقاتل الملائكة (ع) إلا يوم بدر، وكانوا في غيره من الايام عدة ومدداً. وقال الحسن: كان جميعهم خمسة آلاف. وقال غيره: كانوا ثمانية آلاف.

اللغة:

وقوله: «ألن يكفيكم» فالكفاية مقدار يسد به الخلة تقول: كفاه يكفيه كفاية، فهو كاف: إذا قام بالأمر، واستكفيتـه أمراً فكفاني، واكتفى به اكتفاء.

وكفاك هذا الأمر أي حسبك . والفرق بين الاكتفاء والاستغناء ، أن الاكتفاء هو الاقتصار على ماينفي الحاجة والاستغناء الاتساع فيما ينفي الحاجة ، فلذلك يوصف تعالى بأنه غني بنفسه لاتساع مقدوره من حيث كان قادراً لنفسه لا يعجزه شيء .

وقوله : « أن يمدكم » فالامداد هو إعطاء الشيء حالا بعد حال . والمعنى في الآية ان الله أعطاهم القوة في أنفسهم ثم زادهم قوة بالملائكة والمد في السير هو الاستمرار عليه . وامتد بهم السير : إذا طال ، واستمر ، ومددت الشيء إذا جذبته . والمد زيادة الماء تقول : مد الماء وأمد الجرح وامددت العسكر . والمادة زيادة مستمرة ، والمدة أوقات مستمرة إلى غاية . والمداد ما يكتب به . والمد مكيال مقداره ربع الصاع .

قوله تعالى :

﴿ بَلى إِنْ تَصبروا وتتّقوا وَيأتوكُمْ مِنْ فَورِهِمْ هَذا يُمْدِدكُمْ رَبكُمْ بِخَمسةِ آلافٍ مِنَ المَلائكةِ مُسومينَ ﴾ (١٢٥) آية .

القراءة والمعنى :

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم « مسومين » بكسر الواو . الباقون فتحها . والقراءة بالكسر أقوى ، لأن الأخبار وردت بأنهم سوموا خيلهم بعلامة جعلوها عليها . وقال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك : كانوا علموا بالصوف في نواصي الخيل وأذنابها . وروى هشام عن عروة قال : نزلت الملائكة يوم بدر على خيل بُلق وعليهم عمائم صفر . قال السدي ، وغيره من أهل التأويل : معنى « مسومين » معلمين .

اللغة ، والمعنى :

ومن قرأ بالفتح أراد معنى مرسلين من الابل السائمة يعني المرسلة في المرعى

والسيما العلامة قال الله تعالى « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » (١) فالتسويم العلامة قال الشاعر :

مسومين بسيما النار أنفسهم   لا مهتدين ولا بالحق راضينا

وأصل الباب السوم في المرعى ، وهو الاستمرار فيه فمنه السيماء ، لأنهم كانوا يعلمونها : إذا أرسلت في المرعى لئلا تختلط ، ومنه السوم في البيع ، ومنه سوم الريح استمرارها في هبوبها . ومنه سوم الخسف ، لأنه استمرار في إلزام الشر .

وقوله : «من فورهم » قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والربيع ، والسدي وابن زيد : معناه من وجههم . وقال مجاهد والضحاك وأبو صالح من غضبهم ، فعلى القول الأول إنما هو فور الانتداب لهم ، وهو ابتداؤه ، وعلى القول الثاني فور الغضب ، وهو غليانه .

وأصل الفور فور القدر ، وهو غليانها عند شدة الحمى ، فمنه فورة الغضب ، لأنه كفور القدر بالحمى ، ومنه جاء فلان على الفور أي على أشد الحمى ، لعمله قبل أن تبرد نفسه . ومنه فارت العين بالماء أي جاشت به ومنه الفوارة ، لأنها تفور بالماء كما تفور القدر بما فيها . فان قيل : كيف قال في الآية الأولى ان الامداد بثلاثة آلاف ، وفي هذه بخمسة آلاف . وهذا ظاهر التناقض ؟ ! قلنا : لا تناقض في ذلك لأن في الآية الأولى وعد الله المؤمنين على لسان نبيه بأن يمدهم بثلاثة آلاف منزلين ثم قال « بلى إن تصبروا وتتقوا » يعني تصبروا على الجهاد ، والقتال ، وتتقوا معاصي الله « ويأتوكم من فورهم » وهذا يعني ان رجعوا إليكم ، لأن الكفار في غزاة أحد بعد انصرافهم ندموا لم لم يعبروا على المدينة وهموا بالرجوع ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه أن يأمر أصحابه بالتهيؤ للرجوع إليهم . وقال لهم « ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » (٢) ثم قال إن صبرتم على الجهاد وراجعتم الكفار ، أمدكم الله بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، فأخذوا في

(١) سورة الفتح آية : ٢٩ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٤٠ .

الجهاز فبلغ ذلك قريشاً فخافوهم أن يكون قد التأم اليهم من كان تأخر عنهم وانضم إليهم غيرهم ، فدسوا نعيم بن مسعود الاشجعي حتى قصدهم بتعظيم أمر قريش واسرعوا . والقصة معروفة ولذلك قال قوم من المفسرين : ان جميعهم ثمانية آلاف وقال الحسن جميعهم خمسة آلاف منهم الثلاثة آلاف المنزلين على أن الظاهر يقتضي أن الامداد بثلاثة آلاف كان يوم بدر ، لأن قوله : « إذ تقول للمؤمنين » متعلق بقوله : « ولقد نصركم الله ببدر » « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين » ثم استأنف حكم يوم أحد ، فقال : « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم » يعني رجعوا عليكم بعد انصرافهم أمدكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . والقصة في ذلك معروفة على مابيناه ، وعلى هذا لا تنافي بينها ، وهذا قول البلخي رواه عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال : لم يمدوا يوم أحد ولا بملك واحد . فان قيل لم لم يمدوا بالملائكة في سائر الحروب ؟ قلنا : ذلك تابع للمصلحة فاذا علم الله المصلحة في إمدادهم أمدهم .

قوله تعالى :

﴿ وَما جَعلهُ اللهُ إلاَّ بُشرى لَكُمْ وَلِتطمئِن قُلوبُكمْ بهِ وَما النَّصرُ إلا مِنْ عِندِ اللهِ العزيزِ الحكيمِ ﴾ (١٢٦) آية .

الهاء في قوله : « وما جعله الله » عائدة على ذكر الأمداد والوعد فيعود على معلوم بالدلالة عليه غيرمذكور باسمه لأن يمدد يدل على الذكر للامداد ومثله « إذعرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب » (١) أي الشمس . وقال لبيد :

حتى إذا ألقت يداً في كافر　　وأجن عورات الثغور ظلامها (٢)

أي القت الشمس فرد الضمير إلى معلوم ليس بمذكور . وقال قوم : ان الضمير

---

(١) سورة ص آية : ٣٢ .

(٢) دائرة المعارف لوجدي . وغيرها . الكافر : الليل والاجنان : الستر . والثغر : موضع المخافة .

راجع إلى الامداد نفسه . والاول أقوى لأن البشرى في صفات الانزال وذلك يليق بذكر الامداد . والفرق بين قوله : «ولتطمئن قلوبكم به » وقوله واطمئنانا لقلوبكم، أن الوعد في أحدها اطمئنان ، وفي الآخر سببه الاطمئنان ، فهو أشد في تحقيق الكلام من أجل دخول اللام . وقوله : « وما النصر إلا من عند الله » معناه أن الحاجة لازمة في المعونة وان امدهم بالملائكة فانهم لا يستغنون عن معونته طرفة عين في تقوية قلوبهم وخذلان عدوهم بضعف قلوبهم إلى غير ذلك من الأمور التي لا قوام لهم إلا بها ولا متكل لهم إلا عليها . فان قيل : كيف قال« وما النصر إلا من عند الله» وقد ينصر المؤمنون بعضهم بعضاً وبعض المشركين بعضا ؟ قلنا : لأن نصر بعض المؤمنين بعضاً من عند الله لأنه بمعونته وحسن توفيقه ، وأما نصر المشركين بعضهم ، لبعض ، فلا يعتد به ، لأنه بخذلان الله من حيث أن عاقبته إلى شر مآل من العقاب الدائم . وقوله : « العزيز الحكيم » معناه ههنا العزيز في انتقامه من الكفار بأيدي المؤمنين ، الحكيم في تدبيره للعالمين ليعلمهم بأن حربهم للمشركين يجري على اعزاز الدين ، والحكمة في تدبير المكلفين ومعنى العزيز المنيع باقتداره .

قوله تعالى :

﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾

(١٢٧) آية .

المعنى :

قوله : « ليقطع طرفاً من الذين كفروا » يحتمل أن يتصل بثلاثة أشياء :

أحدها ـ « وما النصر إلا من عند الله ليقطع طرفاً من الذين » .

الثاني ـ بقوله ولقد نصركم الله ببدر ليقطع طرفاً .

الثالث ـ ذلك التدبير ليقطع طرفاً .

واليوم الذي قطع فيه الطرف من الذين كفروا: هو يوم بدر بقتل صناديدهم ورؤسائهم وقادتهم إلى الكفر في قول الحسن، والربيع، وقتادة. وقال السدي: هو يوم أحد قتل منهم ثمانية عشر رجلا. وإنما قال: «ليقطع طرفاً» منهم ولم يقل ليقطع وسطاً منهم، لأنه لا يوصل إلى الوسط منهم إلا بعد قطع الطرف ومثله «قاتلوا الذين يلونكم» (١) والمراد بالآية ليقطع قطعة منهم.

اللغة:

وقوله: «أو يكبتهم» فالكبت الخزي. ومعناه أو يخزيهم في قول الربيع، وقتادة. وقال الخليل: الكبت صرع الشيء على وجهه كبتهم الله فانكبتوا. وحقيقة الكبت شدة وهن يقع في القلب فربما صرع الانسان لوجهه للخور الذي يدخله. وقوله: «فينقلبوا» أي فيرجعوا «خائبين» الخائب المنقطع عما أمل، ولا تكون الخيبة إلا بعد الأمل، لأنها امتناع نيل ما أمل. واليأس قد يكون قبل الأمل ويكون بعده. واليأس والرجاء نقيضان يتعاقبان كتعاقب الخيبة والظفر، يقال: خاب يخيب خيبة وخيبه الله تخييباً. والخيبة حرمان المراد.

قوله تعالى:

﴿ ليسَ لكَ مِنَ الأَمرِ شيءٌ أو يَتوبَ عليهمْ أو يُعذّبهمْ فإنهمْ ظالِمونَ ﴾ (١٢٨) آية بلا خلاف.

القصة، و المعنى:

روي عن أنس بن مالك وابن عباس، والحسن، وقتادة، والربيع: انه لما كان من المشركين يوم أحد من كسر رباعية النبي (ص) وشجه حتى جرت الدماء على وجهه، قال كيف يفلح قوم نالوا هذا من نبيهم، وهو مع ذلك حريص على

---

(١) سورة التوبة آية: ١٢٤.

دعائهم إلى ربهم ، فنزلت هذه الآية ، فأعلمه الله أنه ليس إليه فلاحهم وأنه ليس إليه إلا أن يبلغ الرسالة ويجاهد حتى يظهر الدين . وكان الذي كسر رباعيته وشجه في وجهه عتبة بن أبي وقاص ، فدعا (ع) عليه الا يحول عليه الحول حتى يموت كافراً ، فمات كافراً قبل حول الحول . وقيل : انه هم بالدعاء عليهم ، فنزلت الآية تسكيناً له ، فكف عن ذلك . وقال أبو علي الجبائي : انه استأذن ربه يوم أحد في الدعاء عليهم ، فنزلت الآية ، فلم يدع عليهم بعذاب الاستئصال وإنما لم يؤذن فيه لما كان في المعلوم من توبة بعضهم ، وإنابته ، فلم يجز أن يقتطعوا عن التوبة بعذاب الاستئصال . فان قيل كيف قال « ليس لك من الأمر شيء » مع أن له أن يدعوهم إلى الله ويؤدي إليهم ما أمره بتبليغه ؟ قيل : لأن معناه ليس لك من الأمر شيء في عقابهم أو استصلاحهم حتى تقع إنابتهم ، فجاء الكلام على الايجاز ، لأن المعنى مفهوم لدلالة الحال عليه وأيضاً فانه لا يعتد بما له في تدبيرهم مع تدبير الله لهم ، فكأنه قال ليس لك من الأمر شيء على وجه من الوجوه .

وقوله : « أو يتوب عليهم » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ أو يلطف لهم بما يقع معه توبتهم ، فيتوب عليهم بلطفه لهم .

والآخر ـ أو يقبل توبتهم إذا تابوا ، كما قال تعالى « غافر الذنب وقابل التوب » (١) ولا تصح هذه الصفة إلا لله عز وجل ، لأنه يملك الجزاء بالثواب ، والعقاب . فان قيل : كيف قال « أو يعذبهم » مع ما في المعلوم من أن بعضهم يؤمن ؟ قيل : لأنهم يستحقون ذلك باجرامهم بمعنى أنه لو فعل بهم لم يكن ظلماً ، وان كان لا يجوز أن يقع لوجه آخر يجري مجرى تبقيتهم لاستصلاح غيرهم . وقيل في نصب « أو يتوب عليهم » وجهان :

أحدها ـ أنه بالعطف على « ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم » « أو يتوب عليهم أو يعذبهم » ويكون « ليس لك من الأمر شيء » اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه كما تقول : ضربت زيداً فافهم ذاك وعمراً .

---

(١) سورة المؤمن آية : ٣ .

الثاني ـ أن تكون أو بمعنى إلا أن، كأنه قال: ليس لك من الأمر شيء» إلا أن يتوب الله عليهم أو يعذبهم فيكون أمرك تابعاً لأمر الله برضاك بتدبيره فيه قال امرؤ القيس :

فقلت له : لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا(١)

أراد إلا أن نموت أو حتى نموت.

قوله تعالى :

﴿ وَللهِ مافي السماوات وَما في الأَرضِ يَغفرُ لمن يَشاءُ وَيعذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾ (١٢٩) آية بلا خلاف .

عموم قوله : « ولله ما في السماوات وما في الارض يقتضي أن له تعالى ملك ما في السماوات ، وما في الارض ، وأن له التصرف فيهما كيف شاء بلا دافع ، ولا مانع ، غير أنه لابد من تخصيص هذا العموم من حيث أنه ينزه عن الصاحبة والولد على كل وجه . واوجه ما قلناه . وانما ذكر لفظ (ما) لأنها أعم من (من) لأنها تتناول ما يعقل ، وما لا يعقل ، لأنها تفيد الجنس ولو قال من في السماوات ومن في الارض لم يدخل فيه إلا العقلاء إلا أن يحمل على التغليب وذلك ليس بحقيقة . وقوله : « يغفر لمن يشاء » دليل على أن حسن العفو عن مستحق العذاب ، وان لم يتب لأنه لم يشترط فيه التوبة . وقوله : « ويعذب من يشاء » يعني ممن يستحق العذاب ، لأن من لا يستحق العذاب لا يشأ عذابه ، لأنه ظلم يتعالى الله عن ذلك وفي ذلك دلالة على جواز العفو بلا توبة ، لأنه علق عذابه بمشيئته ، فدل على أنه لو لم يشأ ، لكان له ذلك ، ولا يلزم على ما قلناه الشك في جواز غفران عقاب الكفار ، لأن ذلك أخرجناه من العموم بدلالة إجماع الأمة على أنه لايغفر

---

(١) ديوانه : ٨٩ يقول : انا نطلب الملك فان وصلنا اليه والا نبقى في طلبه حتى نموت دونه وهذا عذرنا .

الشرك . وبقوله : « ان الله لا يغفر أن يشرك به » (١) ولولا ذلك لكنا نجوز العفو عنهم أيضاً ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه لما قال ليس لك من الأمر شيء عقب ذلك بأن الأمر كله لله في السماوات والارضين .

قوله تعالى :

« يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا لا تأكلوا الرِّبا أَضعافاً مُضاعَفةً وَاتَّقوا اللهَ لَعلَّكم تُفلِحونَ » (١٣٠) آية .

النظم ، المعنى :

لما ذكر الله تعالى أن له عذاب من يشاء ، والعفو عمن يشاء ، وصل ذلك بالنهي عما لو فعلوه لا ستحقوا عليه العقاب ، وعذبوا عليه ، وهو الربا ، والربا المنهي عنه قال عطا ، ومجاهد : هو ربا الجاهلية ، وهو الزيادة على أصل المال بالتأخير عن الأجل الحال . ويدخل فيه كل زيادة محرمة في المعاملة من جهـــة المضاعفة ، ووجه تحريم الربا هو المصلحة التي علمها الله تعالى . وقيل فيه وجوه على وجـه التقريب : منها للفصل بينه وبين البيع . ومنها ـ أنه مثال العدل يدعو إليه ويحض عليه . ومنها ـ أنه يدعو إلى مكارم الاخلاق بالاقراض وانظار المعسر من غير زيادة . وهذا الوجه روي عن أبي عبد الله (ع) . وقوله : « أضعافاً مضاعفة » قيل في معناه ههنا قولان :

أحدها ـ للمضاعفة بالتأخير أجلا بعد أجل كلما أخر عن أجل إلى غيره زيد عليه زيادة على المال .

الثاني ـ « أضعافاً مضاعفة » أي يضاعفون في أموالكم . وقيل في تكرير تحريم الربا ههنا مع ما تقدم في قوله : « وأحل الله البيع وحرم الربا » (٢) وغير ذلك قولان :

---

(١) سورة النساء آية : ٤٧ ، ١١٥ . (٢) سورة البقرة آية : ٢٧٥ .

أحدها ـ للتصريح بالنهي عنه بعد الاخبار بتحريمه لما في ذلك من تصريف الخطر له وشدة التحرز منه .

الثاني ـ لتأكيد النهي عن هذا الضرب منه الذي يجري على الاضعاف المضاعفة .
وقوله : « واتقوا الله » معناه اتقوا معاصيه . وقيل : اتقوا عذابه بترك معاصيه « لعلكم تفلحون » ، لكي تنجحوا بادراك ما تأملونه ، وتفوزوا بثواب الجنة ، لأن (لعل) وان كان للشك ، فان ذلك لا يجوز على الله تعالى . وقد بينا لذلك نظائر فيما مضى .

قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٣٢) آيتان بلا خلاف .

المعنى :

فان قيل : كيف قال « واتقوا النار التي أعدت للكافرين » وعندكم يجوز أن يدخلها الفساق أيضاً . وعند المعتزلة كلهم يدخلها الفساق قطعاً . وهلا قال: أعدت للجميع ؟ قلنا أما على ما نذهب إليه ، ففائدة ذلك اعلامنا أنها أعدت للكافرين قطعاً . وذلك غير حاصل في الفساق ، لأنا نجوز العفو عنهم . ومن قال أعدت للفساق قال اضيفت إلى الكافرين ، لأنهم أحق بها . وان كان الجميع يستحقونها ، لأن الكفر أعظم المعاصي فاعدت النار للكافرين . ويكون غيرهم من الفساق تبعاً لهم في دخولها . فان قيل : فعلى هذا هل يجوز أن يقال : ان النار أعدت لغير الكافرين من الفاسقين ؟ قلنا عن ذلك أجوبة :

أحدها ـ قال الحسن يجوز ذلك ، لأنه من الخاص الذي معه دلالة على العام ، كما قال : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم

بعد إيمانكم » (١) وليس كل من دخل النار كفر بعد إيمانه . ومثله قوله : « كلما القي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » (٢) وليس كل الكفار يقول ذلك . ومنه قوله: « فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين » (٣) وليس كل الكفار سووا الشياطين برب العالمين .

والثاني ـ أنه لا يقال أعدت لغيرهم من الفاسقين ، لأن اعدادها للكافرين من حيث كان عقابهم هو المعتمد وعقاب الآخرين له تبع ، كما قال : « وجنة عرضها السماوات والارض أعدت للمتقين » (٤) ولا خلاف أنه يدخلها الاطفال والمجانين إلا أنهم تبع للمتقين ،لأنه لولاهم لم يدخلوها . ولا يقال : إن الجنة أعدت لغير المتقين .

الثالث ـ أن تكون هذه النار ناراً مخصوصة فيها الكفار خاصة دون الفساق وان كان هناك نار أخرى يدخلها الفساق ، كما قال : « لا يصلاها إلا الاشقى الذي كذب وتولى » (٥) وكما قال : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » (٦) وهذا قول أبي علي . واستدل البلخي بهذه الآية على أن الربا كبيرة ، لأن تقديره « واتقوا النار التي أعدت للكافرين » ان يأكلوا الربا ، فيستحقونها . والاجماع حاصل على أن الربا كبيرة ، فلا يحتاج إلى هذا التأويل ، لأن الآية يمكن أن يقول قائل : إنها بمعنى الزجر والتحذير عن الكفر ، فقط .

وقوله : « أعدت » فالاعداد هو تقديم عمل الشيء لغيره مما هو متأخر عنه وقد قدم فعل النار ليصلاها الكفار . والاعداد والايجاد والتهيئة والتقدمة متقاربة المعنى وقوله : « واطيعوا الله والرسول » : أمر بالطاعة لله ورسوله . والوجه في الأمر بالطاعة لله ورسوله مع أن العقل دال عليه يحتمل أمرين :

أحدها ـ أن يكون ذلك تأكيداً لما في العقل ، كما وردت نظائره ، كقوله:

« ١ » سورة آل عمران آية : ١٠٦ .　　« ٢ » سورة الملك آية : ٨ .

« ٣ » سورة الشعراء آية : ٩٤ ـ ٩٨　　« ٤ » سورة آل عمران آية : ١٣٣

« ٥ » سورة الليل : ١٥ ـ ١٦ .　　« ٦ » سورة النساء آية : ١٤٤ .

« ليس كمثله شيء » (١) « ولا تدركه الابصار » (٢) وغير ذلك .

والثاني - لاتصاله بأمر الربا الذي لاتجب الطاعة فيه إلا بالسمع ، لأنه ليس مما يجب تحريمه عقلا كما يجب تحريم الظلم بالعقل ، فان قيل : إذا كانت طاعة الرسول طاعة الله فما وجه التكرار ؟ قلنا عنه جوابان :

أحدها - المقصود بها طاعة الرسول فيما دعا إليه مع القصد لطاعة الله تعالى .

الثاني - ليعلم أن من أطاعه فيما دعا إليه كمن أطاع الله ، فيسارع إلى ذلك بأمر الله . والطاعة موافقة الارادة الداعية إلى الفعل بطريق الرغبة ، والرهبة . ولذلك صح أن يجيب الله تعالى عبده ، وان لم يصح منه أن يطيعه ، لأن الاجابة إنما هي موافقة الارادة مع القصد إلى موافقتها على حد ما وقعت من المريد . وقوله : « لعلكم ترحمون » يحتمل أمرين :

أحدها - لترحموا . وقد بينا لذلك نظائر .

والثاني - ان معناه ينبغي للعباد أن يعملوا بطاعة الله على الرجاء للرحمة بدخول الجنة ، لئلا يزلوا فيستحقوا الاحباط والعقوبة أو يوقعوها على وجه لا يستحق به الثواب ، بل يستحق به العقاب . وفيها معنى الشك ، لكنه للعباد دون الله تعالى .

النظم :

وقيل في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها قولان :

أحدها - لاتصال الأمر بالطاعة بالنهي عن أكل « الربا أضعافاً مضاعفة » كأنه قال وأطيعوا الله فيما نهاكم عنه من أكل الربا ، وغيره لتكونوا على سبيل الهدى .

الثاني - قال ابن اسحاق : انه معاتبة للذين عصوا رسول الله (ص) ، بما أمرهم به يوم أحد : من لزوم مراكزهم ، فخالفوا واشتغلوا بالغنيمة إلا

« ١ » سورة الشورى آية : ١١   « ٢ » سورة الانعام آية ١٠٣ .

طائفة منهم قُتلوا . وكان ذلك سبب هزيمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله .

قوله تعالى :

﴿ وَسارِعوا إلى مغفرةٍ مِنْ رَبكمْ وَجنةٍ عرضُها السماواتُ وَالارض اُعدّتْ لِلمتقينَ ﴾ (١٣٣) آية .

قرأ نافع وابن عامر « سارعوا » بلا واو ، والباقون بالواو ، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام بلا واو . وفي مصاحف أهل العراق بالواو ، والمعنى واحد، وإنما الفرق بينهما استئناف الكلام إذا كان بلا واو ، ووصلها بما تقدم إذا قرىء بواو ، لأنه يكون عطفاً على ما تقدم . وفي هذه الآية الامر بالمبادرة إلى مغفرة الله باجتناب معصيته وإلى الجنة التي عرضها السماوات والارض بفعل طاعتــه . واختلفوا في قوله « عرضها السماوات والارض » فقال ابن عباس ، والحسن : معناه عرضها كعرض السماوات السبع ، والارضين السبع إذا ضم بعض ذلك إلى بعض ، واختاره الجبائي ، والبلخي . وإنما ذكر العرض بالعظم دون الطول ، لأنه يدل على أن الطول أعظم ، وليس كذلك لو ذكر الطول بدلا من العرض . ومثل الآية قوله : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة» (١) ومعناه إلا كبعث نفس واحدة . وقال الشاعر :

كأن عذيرهم بجنوب سلي نعام قاق في بلد قفار (٢)

أي عذير نعام وقال آخر :

« ١ » سورة لقمان آية : ٢٨ .

« ٢ » قائله شفيق بن جزء بن رياح الباهلي وقد نسبه بعضهم لاعشى باهلة . ونسب أيضاً للنابغة خطا . اللسان (فوق) (سلل) ، ومعجم البلدان (سلى) ، والكامل للمبرد ٢ : ١٩٦ . وكان شفيق قد اغار على بني ضبة بروضة سلى ، وروضة ساجر فهزم أهلها . وهما روضتان لعكل . وضبة وعدي وتيم وعكل حلفاء متجاورون فلما هزموا قال بهم شفيق أبيات منها هـذا البيت . والعذير : الحال المقاقات : صوت الطائر اذ كان مذعوراً والقفار : المكان الذي ليس به انس وكأنه يقول هزمنام شرهزيمة وكانت حالهم مثل حال الطائر الذي في أرض قفرة اذا أتاه الصياد

حسبت بغام راحلتي عناقا ... وما هي ويب غيرك بالعناق (١)

أي صوت عناق . وقال أبو مسلم : معناه ثمنها لو بيعت كثمن السماوات والأرض لو بيعا . كما يقال عرضت هذا المتاع للبيع . والمراد بذلك عظم مقدارها ، وجلالة قدرها ، وانه لا يوازيها شيء وإن عظم ، وهذا مليح غير أن فيه تعسفاً شديداً . فان قيل إذا كانت الجنة عرضها السماوات والارض فأين تكون النار ؟ ! الجواب أنه روي عن النبي (ص) أنه لما سئل عن ذلك ، فقال : (سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل) وهذه معارضة فيها إسقاط المسألة ، لأن القادر على أن يذهب بالليل حيث شاء قادر على أن يذهب بالنهار حيث شاء

وروي أنه سئل عن ذلك ابن عباس ، وغيره من الصحابة ، فان قيل فان الجنة في السماء ، كيف يكون لها هذا العرض؟ قيل له يزادفيها يوم القيامة. ذكره أبو بكر أحمد بن علي على تسليم انها في السماء ويجوز أن تكون الجنة مخلوقة في غير السماوات والارض . وفي الناس من قال : ان الجنة والنار ماخلقتا بعد وإنما يخلقها الله على ما وصفه . وقال البلخي المراد بذلك وصفها بالسعة والعظم ، كما يقول القائل في دار واسعة هذه دنيا وغرضه بذلك وصفه لها بالكبر وقوله : « اعدت للمتقين » معنى المتقين المطيعين لله ورسوله لاجتنابهم المعاصي وفعلهم الطاعات . ويجوز لاحتجازهم بالطاعة من العقوبة . وإنما أضيفت إلى المتقين ، لأنهم المقصودون بها ، وان دخلها الاطفال ، والمجانين ، فعلى وجه التبع ، وكذلك حكم الفساق لو عفي عنهم .

وفيمن تكلم في أصول الفقه من استدل بقوله : « وسارعوا إلى مغفرة » على أن الأمر يقتضي الفور دون التراخي ، لأنه تعالى أمر بالمسارعة والمبادرة إلى مغفرة وذلك يقتضي التعجيل . ومن خالف في تلك ، قال: المسارعة إلى مايقتضي

« ١ » قائله ذو الخرق الطهوري أو الطهوي انظر الاختلاف في اسمه في المؤتلف والمختلف ١١٩ ، وخزانة الادب ١ : ٢٠ ، ٢١ ونوادر أبي زيد : ١١٦ ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ٦١ ـ ٦٢ ، واللسان (ويب) ، (عنق) ، (عقا) ، (بغم) وغيرها وهو من أبيات يقولها لذئب قد تبعه في طريقه والعناق هي انثى المعز . والبغام صوت الظبية أو الناقة واستعاره هنا للمعز.

الغفران واجبة وهي التوبة ، ووجوبها على الفور . فمن أين أن جميع المأمورات كذلك .

قوله تعالى :

﴿ الذينَ يُنفقونَ في السراءِ وَالضراءِ وَالكاظمينَ الغيظَ وَالعافينَ عَنِ النّاسِ وَاللهُ يُحبُّ المحسنينَ ﴾ (١٣٤) آية .

المعنى :

« الذين » في موضع الجر ، لأنه صفة المتقين ، فذكر الله صفاتهم التي تعلو بها درجاتهم منها: أنهم يتقون عذاب الله بفعل طاعته ، والانتهاء عن معصيته . وانهم ينفقون في السراء ، والضراء وقد بينا فيما تقدم معنى الانفاق . وقيل في معنى السراء والضراء . قولان :

أحدهما ـ قال ابن عباس في اليسر ، والعسر ، فكأنه قال في السراء بكثرة المال ، والضراء بقلته .

الثاني ـ في حال السرور ، وحال الاغتمام . أي لا يقطعهم شيء من ذلك عن انفاقه في وجوه البر ، فيدخل فيه اليسر والعسر . وإنما خصا بالذكر في التأويل الأول ، لأن السرور بالمال يدعو إلى الظن به . كما يدعو ضيقه إلى التمسك به خوف الفقر ، لانفاقه . وقوله تعالى : « والكاظمين الغيظ » أي المتجرعين له ، فلا ينتقمون ممن يدخل عليهم الضرر بل يصبرون على ذلك ، ويتجرعونه .

اللغة :

وأصل الكظم شد رأس القربة عن ملئها . تقول : كظمت القربة إذا ملأتها ماء ثم شددت رأسها . وفلان كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئاً حزناً . ومنه قوله : « وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » (١) أي ممتلىء حزناً . وكذلك إذا

(١) سورة يوسف آية : ٨٤ .

امتلأ غضباً لم ينتقم ، وكظم البعير ، والناقة إذا لم تجر . والكظامة القناة التي تجري تحت الأرض ، سميت بذلك ، لامتلائها بالماء كامتلاء القربة المكظومة . ويقال: أخذ بكظمه أي بمجرى نفسه ، لأنه موضع الامتلاء بالنفس . وكظامة الميزان المسمار الذي يدور فيه اللسان ، لأنه يشده ويعتمد عليه . والفرق بين الغيظ ، والغضب أن الغضب ضد الرضا ، وهو ارادة العقاب المستحق بالمعاصي ، ولعنه . وليس كذلك الغيظ ، لأنه هيجان الطبع بكره مايكون من المعاصي ، ولذلك يقال غضب الله على الكفار ، ولا يقال اغتاظ منهم .

المعنى :

وروي عن النبي (ص) أنه قال :(مامن جرعة يتجرعها الرجل أو الانسان أعظم أجراً من جرعة غيظ في الله) وفي الآية دلالة على جواز العفو عن المعاصي وإن لم يتب ، لأنها دلت على الترغيب في العفو من غير ايجاب له باجماع المسلمين . وقوله « والله يحب المحسنين » معناه يريد اثابتهم وتنعيمهم . والمحسن يحتمل أمرين :

أحدهما ـ من هو منعم على غيره على وجه عار من وجوه القبح . ويحتمل أن يكون مشتقاً من الافعال الحسنة التي منها الاحسان إلى الغير ، وغير ذلك من وجوه الطاعات والقربات .

قوله تعالى :

﴿ وَالذينَ إذا فعلوا فاحِشةً أو ظَلموا أنفسهم ذَكروا اللهَ فاستغفروا لِذنوبهم وَمَن يَغفرُ الذُّنوبَ إلاّ اللهُ وَلم يُصرُّوا على مافعلوا وَهُمْ يَعلمونَ ﴾ (١٣٥) آية بلا خلاف .

الاعراب :

قوله « والذين » يحتمل أن يكون موضعه جراً بالعطف على المتقين ،

فيكون من صفتهم ما تضمنه على قول الحسن ، ويحتمل أن يكون رفعاً على الاستئناف ، ويكون عطف جملة على جملة ، فيكون من صفة فرقة غير الأولى ، ويجوز أن يرجع إلى الأولى في الموضع على المدح .

المعنى :

وقوله : « إذا فعلوا فاحشة » يحتمل أن يكون أراد غير الظلم ، ولذلك عطف عليه بقوله : « أو ظلموا أنفسهم » حتى لا يكون تكراراً . وقال الرماني : أراد بالفاحشة الكبيرة ، وبـ « ظلموا أنفسهم » الصغيرة . وقال مجاهد : هما ذنبان وأصل الفاحشة الفحش ، وهو الخروج إلى عظم القبح في العقل أو رأي العين فيه . وكذلك قيل للطويل المفرط أنه الفاحش الطول ، وأفحش فلان في كلامه إذا أفصح بذكر الفحش . وقال جابر والسدي : الفاحشة ههنا : الزنا أو ما جرى مجراه من الكبير . وقوله : « ذكروا الله » في معناه قولان :

أحدها ـ ذكروا وعيد الله ، فيكون من الذكر بعد النسيان . والمدح على أنهم تعرضوا للذكر .

والآخر ـ انهم ذكروا الله بأن قالوا : اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، فانا تبنا نادمين عليها مقلعين عنها وقال ابن مسعود ، وعطا ابن أبي رياح : كانت بنو اسرائيل إذا أذنب الواحد منهم ذنباً أصبح مكتوباً على بابه كفارة ذنبك اجدع اذنك اجدع انفك ، فسهل الله ذلك على هذه الأمة بأن جعل توبتها الاستغفار بدلا منه منة منه تعالى . وقوله : ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾ الرفع محمول على المعنى . وتقديره : وهل يغفر الذنوب إلا الله أو هل رئي أحد يغفر الذنوب إلا الله . فان قيل : كيف قال : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » وقد يغفر بعضنا لبعض اساءته إليه ؟ قلنا عنه جوابان :

أحدها ـ أنه أراد بذلك غفران الكبائر العظام ، لأن الاساءة من بعضنا لبعض صغيرة بالاضافة إلى ما يستحق من جهته .

والثاني ـ أنه لا يغفر الذنب الذي يستحق عليه العقاب إلا الله تعالى .

وقوله : ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا ﴾ فالاصرار هو المقام على الذنب من غير اقلاع منه بالتوبة في قول قتادة وقال الحسن : هو فعل الذنب من غير توبة والأول أقوى ، لأنه نقيض التوبة . وأصله الشد من الصرة والصر شدة البرد ، والاصرار إنما هوارتباط الذنب بالاقامة عليه . وماقاله الحسن هو في حكم الاصرار .

وقوله : « وهم يعلمون » ههنا يحتمل أمرين :

أحدهما ـ وهم يعلمون الخطيئة ذاكرين لها غير ساهين ، ولا ناسين . قال الجبائي ، والله عز وجل يغفر للعبد ما نسيه من ذنوبه ، وان لم يتب منه بعينه ، كما يغفر له ما تاب منه ، لأنه قد فعل في حال النسيان جميع ماعليه .

والثاني ـ وهم يعلمون الحجة في أنها خطيئة . وأما من اجتهد في الاحكام فأخطأ على مذهب من يقول بالاجتهاد ، فلا اثم عليه ، وكذلك من تزوج بذات محرم من الرضاع أو النسب وهو لا يعلم ، أو غير ذلك ، فلا إثم عليه بلا خلاف لأنه لم يعلم ذلك ، فاقدم عليه ، ولا يلزم على ذلك أن يكون الكافر معذوراً بكفره إذا لم يعلمه قبيحاً ، لأن الكافر له طريق إلى العلم به ، وكذلك نقول : إن من أسلم في دار الحرب ، وخرج فاستحل في طريقه الخمر أو لحم الخنزير قبل أن يعلم تحريمها من الشرع ، فلا اثم عليه ، لأنه في تلك الحال لا طريق له إلى العلم بقبحه .

قوله تعالى :

﴿ أُولَئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجرِي مِنْ تَحتِها الأَنهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعمَ أَجرُ العامِلِينَ ﴾ (١٣٦) آية واحدة .

قوله : « أولئك » اشارة إلى من تقدم وصفهم من المتقين الذين ينفقون في السراء والضراء ، ويكظمون الغيظ ، ويعفون عن الناس ، « وإذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » ، فقال هؤلاء : « لهم جنات

تجري من تحتها الانهار خالدين فيها » وقد مضى تفسير ذلك أجمع فيما مضى ثم قال «ونعم أجر العاملين » يعني ما وصفه من الجنات وأنواع الثواب ، والمغفرة بستر الذنب حتى تصير كأنها لم تعمل في زوال العار بها والعقوبة بها ، والله تعالى متفضل بذلك لأنا بينا أن اسقاط العذاب(١) عندالتوبة تفضل منه تعالى ، فأمااستحقاق الثواب بالتوبة فواجب عقلا لا محالة ، لأنه لو لم يكن مستحقاً لذلك لقبح تكليفه التوبة لما فيها من المشقة والكلفة .

قوله تعالى :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فسيروا في الأرضِ فانظروا كيف كانَ عاقِبةُ المُكذِّبينَ ﴾ (١٣٧) آية .

المعنى :

معنى قوله : « قد خلت من قبلكم سنن » أي سنن من الله تعالى في الأمم السالفة إذ (٢) كذبوا رسله وجحدوا نبوتهم بالاستئصال ، والاجتياح ، كعاد، وثمود ، وقوم صالح ، وقوم لوط الذين أهلكهم الله بأنواع العذاب من الاستئصال (٣) فبقيت (٤) لهم آثار في الديار فيها أعظم الاعتبار والاتعاظ ـ على قول الحسن ، وابن اسحاق ـ فأمر الله أن يسيروا في الارض ، ويتعرفوا أخبارهم ، وما نزل بهم ليتعظوا بذلك ، وينتهوا عن مثل ما فعلوه . وقال الزجاج : معناه « قد خلت من قبلكم » أهل « سنن » في الشر .

اللغة والمعنى :

والسنة : الطريقة المجعولة ليقتدى بها ، فمن ذلك سنة رسول الله (ص) .

«١» في المخطوطة (أ) : العقاب .
«٢» في المطبوعة ومخطوطة (أ) : (اذا) .
«٣» في المخطوطة (أ) ساقط سطر من هذا الموضع
«٤» في المطبوعة (وبقيت) .

وقال لبيد :

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها (١)

وقال سليمان بن قتة : (٢)

وإن الألى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا(٣)

سنة الله عز وجل الاهلاك للامم الضالة بهذه المنزلة . وأصل السنة الاستمرار في جهة .سن الماء سناً : إذا صبه حتى يفيض من الاناء . وسنه بالمسن إذا أمره عليه لتحديده . وفلان مسنون الوجه أي مستطيله . وقوله : « من حمأ مسنون » قيل معناه متغير ، لاستمرار الزمان به حتى تغير . ومنه السن واحد الاسنان ، لاستمرارها على منهاج . والسنان ، لاستمرار الطعن به . والسنن استمرار الطريق . والخلو : الانفراد ، فمنه الخلاء ، لانفراد المكان . ومنه التخلية لانفراد الشيء بها عن صاحبه . ومنه الخلية من النوق التي خلا ولدها بذبح أو موت ، لانفرادها عنه . والخلية من السفن التي تخلى تسير في نفسها . ومنه الخلا مقصور : الحشيش اختليته إذا قطعته ، لانفراده بالقطع . ومنه المخلاة . ومن ذلك المخالاة المخادعة ، لانفراد صاحبها بمن يخاليه يوهمه التخصص به ، فمعنى « خلت » انفردت بالهلاك دون من بقي . وقوله : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة ﴾ فالعاقبة هو ما يؤدي إليها السبب المتقدم ، وليس كذلك الآخرة ، لأنه قد كان يمكن أن تجعل هي الأ . العدة للمكذبين يريد به الجاحدين البعث ، والنشور ، والثواب ، والعقاب الدافعين لمن يخبر بذلك بالرد بالتكذيب ، فجازاهم الله تعالى في الدنيا بعذاب الاستئصال ، ولهم في الآخرة عظيم النكال .

« ١ » البيت من معلقته الشهيرة البارعة يذكر بها قومه وفضلهم . يقول : هذه الصفات الحميدة ـ التي تقدم وصفها ـ هي سنة آبائهم ...

« ٢ » (قتة) أمه وهو مولى لتيم قريش ، وهو من التابعين . وزعم بعضهم أنه (سليمان ابن ضبيب المحاربي) وهو خطأ .

« ٣ » تاريخ الطبري ٧ : ١٨٤ ، وانساب الاشراف ٥ : ٣٣٩ وأمالي الشجري ١ : ١٣١ ، واللسان (أسي) وغيرها . وهذا البيت أنشده مصعب بن الزبير قبل مقتله .

وقوله تعالى:

﴿هذا بيانٌ للنّاسِ وهُدىً وموعِظةٌ للمتقين﴾ (١٣٨) آية اجماعاً.

قال الحسن وقتادة: قوله: «هذا» إشارة إلى القرآن، ووصفه بأنه بيان، لأنه دلالة للناس، وحجة لهم، والبيان هو الدلالة. وقال ابن اسحاق هو إشارة إلى ما تقدم ذكره في قوله: «قد خلت من قبلكم سنن....» الآية أي هذا الذي عرفتكم بيان للناس، وهو اختيار البلخي، والطبري. والفرق بين البيان، والهدى ـ على ما قاله الرماني ـ أن البيان إظهار المعنى للنفس كائناً ما كان. والهدى: بيان لطريق الرشد، ليسلك دون طريق الغي. والموعظة ما يلين القلب ويدعو إلى التمسك، بما فيه من الزجر عن القبيح، والدعاء إلى الجميل. وقيل الموعظة: هو ما يدعو (١) بالرغبة، والرهبة إلى الحسنة بدلا من السيئة. والهدى المذكور في الآية يحتمل معنيين:

أحدهما ـ أن يكون عبارة عن اللطف الذي يدعو إلى فعل الطاعة بدلا من المعصية، لأنه بمنزلة الارشاد.

والآخر ـ الدلالة على طريق الرشد. وإنما أضيف إلى المتقين، وان كان هدى لجميع المكلفين، لأنهم المنتفعون به دون غيرهم. ولا يجوز ان يقال: القرآن هدى وموعظة للفاجرين إلا بتفسير وبيان، لأن في (٢) ذلك إيهاماً، لانتفاعهم به فان قيد بأنه دلالة لهم وداع لهم إلى فعل الطاعة، وذكر ما يزيل الايهام كان جائزاً. وينبغي أن يتبع في ذلك ما ورد به القرآن.

قوله تعالى:

﴿ولا تَهِنوا ولا تَحزنوا وأنتمُ الأعلونَ إنْ كنتمْ مُؤمنينَ (١٣٩) إنْ يمسسكمْ قرحٌ فقدْ مسَّ القومَ قرحٌ مثلُهُ وتلكَ الأيامُ

---

(١) في المخطوطة أ (بالموعظة ما يدعو) باسقاط هو

(٢) في المخطوطة (أ) لأن ذلك باسقاط في.

نُداوِلها بَينَ النّاسِ وَلِيعلمَ اللهُ الّذينَ آمنوا وَيتّخذ مِنكمْ شُهداءَ وَاللهُ لا يُحبُّ الظالمين ﴾ (١٤٠) آيتان .

القراءة ، واللغة :

قرأ أهل الكوفة إلا حفصاً « قرح » بضم القاف . الباقون بفتحها . والفرق بينهما أن القرح ـ بفتح القاف ـ الجراح ، والقرح ـ بالضم ـ ألم الجراح على قول أكثر المفسرين . وقيل هما لغتان .

المعنى ، والنزول :

وقال ابن عباس ، والحسن ، والربيع : القرح ما أصاب المسلمين يوم أحد وأصاب المشركين يوم بدر . وقال الزهري ، وقتادة ، وابن أبي نجيح : هذه الآية نزلت تسلية للمسلمين لما نالهم يوم أحد من القتل ، والجراح ، وكان سبب نزول الآية ما قدمنا ذكره من أن الله تعالى أراد أن يرعب الكفار ، فأمر المسلمين أن يتبعوا المشركين على ما بهم من الجراح ، والألم وحثهم على ذلك ونهاهم عن الوهن والحزن ، ووعدهم بأنهم الاعلون إن تمسكوا بالايمان ، لأن المشركين كانوا هموا بالعود إلى المدينة ، والغارة فيها ، فلما بلغهم عزيمة المسلمين على تتبعهم خافوهم . وقال بعضهم لبعض يوشك أن يكون انضم إليهم من كان قعد عنهم ، وأعانهم أحلافهم من بني قريظة ، والنضير فدسوا نعيم بن مسعود الأشجعي وبذلوا له عشر قلائص على أن يثبط المسلمين عن تتبعهم ، ويقول : إنهم تجمعوا وانضم إليهم حلفاؤهم ، وهم يريدونكم ولا طاقة لكم بهم ، وأسرعوا السير إلى مكة فأوحى الله بذلك إلى النبي (ص) وأعلمه ما قالوا لنعيم ، فلما قال لهم ما قال ، قال المسلمون : « حسبنا الله ونعم الوكيل » وفيهم نزلت الآية (١) « الذين قال لهم الناس ان

« ١ » في المخطوعة (أ) زيادة : وهي قوله تعالى .

الناس قد جمعوا لكم » إلى قوله : « والله ذو فضل عظيم » (١) وما بعده . وإنما قال : « إن كنتم مؤمنين » مع أنهم كانوا مؤمنين للبيان عن ان الايمان يوجب تلك الحال ، وتقديره إن من كان مؤمناً يجب عليه ألا يهن ولا يحزن ، لثقته بالله . ويحتمل أيضاً أن يكون معناه إن كنتم مصدقين بوعدي لكم بنصرتي إياكم حتى تستعلوا على عدوكم ، وتظفروا بهم .

اللغة ، والاعراب ، والمعنى :

والوهن الضعف ، وهن يهن وهنا ، فهو واهن : إذا ضعف . وأوهنه يوهنه ايهاناً . وتوهن توهناً ، ووهنه توهيناً . والوهن : ساعة تمضي من الليل . والواهن عرق مستبطن حبل العاتق إلى الكتف .

وقوله : ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ جملة في موضع الحال ، كأنه قال لا تحزنوا عالين أي منصورين على عدوكم ، ويحتمل أن لايكون لها موضع من الاعراب ، لأنها اعتراض بوعد مؤكد ، وتقديره « ولا تهنوا ولا تحزنوا » « إن كنتم مؤمنين » « وأنتم » مع ذلك « الاعلون » .

وأصل الاعلون الأعلوون ، فحذفت احدى الواوين استثقالا ، وهي الاصلية وبقيت واو الجمع ، لأنها لمعنى . فأما في التثنية فتقول : إنما الاعليان ، فتقلب الواو ياء ، ولا تحذفها ، لأنه ليس هناك ضرورة .

وقوله : « ان يمسسكم » فالمس هو اللمس بعينه ، وقيل الفرق بينهما أن اللمس لصوق باحساس والمس لصوق فقط (٢) وقال ابن عباس : معناه إن يصبكم (٣).

وقوله : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ قال الحسن ، وقتادة ، والربيع ، والسدي ، وابن اسحاق : يصرفها مرة لفرقة ، ومرة عليها ، والدولة : الكرة

« ١ » سورة آل عمران آية : ١٧٣ .

« ٢ » في المطبوعة الواو ساقطة . « ٣ » في المخطوطة أن التهكم .

لفرقة بذيل المحبة .وادال الله فلاناً من فلان : إذا جعل الكرة له (١) عليه . وقال الحجاج : إن الارض ستدال منا كما ادلنا منها ، « ونداولها » إنما هو بتخفيف المحنة تارة وتشديدها أخرى بدليل « إن الله لا يحب الظالمين » ولو كانت المداولة بالنصر لا محالة ، للمؤمنين تارة وللكافرين تارة ، لكان محبهم من حيث هو ناصر لهم ، والعامل في قوله ، وليعلم الله يحتمل أمرين :

أحدهما ـ ان يكون محذوفاً يدل عليه أول الكلام ، وتقديره وليعلم الله الذين آمنوا نداولها .

الثاني ـ أن يعمل فيه « نداولها » الذي في اللفظ ، وتقديره نداولها بين الناس لضروب من التدبير « وليعلم الله الذين آمنوا » وخبر ليعلم يحتمل أمرين :

أحدهما ـ أن يكون محذوفاً وتقديره « وليعلم الله الذين آمنوا » متميزين بالايمان من غيرهم ، ولا يكون على هذا يعلم بمعنى يعرف ، لأنه ليس المعنى على تعرف الذوات بل المعنى على أن يعلم تميزها بالايمان .

والثاني ـ « وليعلم الله الذين آمنوا » بما يظهر من صبرهم على جهاد عدوهم أي يعاملهم معاملة من يريد أن يعرفهم الله بهذه الحال . وقال أبو علي : معناه وليصبروا فعبر عن الصبر بالعلم . وقال البلخي « وليعلم الله » ايمانكم موجوداً أي تفعلونها ، فيعلمه الله كذلك . ومعنى قوله : « ويتخذ منكم شهداء » فيه قولان :

أحدهما ـ قال الحسن ، وقتادة ، وابن اسحاق ، ليكرم بالشهادة من قتل يوم أحد .

الثاني ـ ويتخذ منكم شهداء على الناس بما يكون منهم من العصيان ، لما لكم فيه من التعظيم ، والتبجيل ـ هذا قول البلخي والجبائي ـ والأول أقوى لأنه في ذكر القتل ، فان قيل لم جعل الله مداولة الايام بين الناس ، وهلا كانت ابداً لأولياء الله دون أعدائه ؟ قلنا ذلك تابع للمصلحة ، وما تقتضيه الحكمة أن يكونوا تارة في

« ١ » في المخطوطة (الحكم له) .

شدة وتارة في رخاء فيكون ذلك داعياً لهم إلى فعل الطاعة ، واحتقار الدنيا الفانية المنتقلة من قوم إلى قوم حتى يصير الغني فقيراً ، والفقير غنياً ، والنبيه خاملا ، والخامل نبيهاً ، فتقل حينئذ الرغبة فيها والحرص على جمعها ، ويقوي الحرص على غيرها مما نعيمه دائم ، وسروره غير منقطع . وقوله : «والله لا يحب الظالمين» (١) معناه لا يريد منافعهم ، وعلى مذهبنا ينبغي أن يكون ذلك مخصوصاً بالكفار ، لأنهم إذا كانوا مؤمنين ، فلهم ثواب . والله تعالى لابد أن يريد فعل ذلك بهم ويحتمل أن يكون المراد بذلك « لا يحب الظالمين » إذا كانوا مؤمنين محبة خالصة لا يشوبها إرادة عقابهم ، لأن ذلك يختص من لا عقاب عليه .

انتهى المجلد الثاني و يليه المجلد الثالث

وأوله :

﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ... ﴾ (١٤١)

---

(١) وقوله ساقطة من المطبوعة .

الفهـــــارس

الآيات المستشهد بها

الاحاديث

الردود

الامثال

المباحث اللغوية

الخطأ والصواب

المواضيع

وثمة فهارس مهمة اخرناها إلى آخر الكتاب منها :

فهرس آيات الاحكام ، فهرس القوافي ،فهرس الاعلام ، فهرس الامكنة . .الخ .

فهرس الايات المستشهد بها

٢ ـ فهرس الاحاديث

صفحة

صفحة

فهرس الردود

صفحة

صفحة

٤ ـ الامثال

٥ ـ المباحث اللغوية

٦ ـ الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	٥	معنياً	معيناً
١٩	١٩	قبلاك	قبلتك
٣٠	عنوان	وأرسلنا منكم ١٥٠	كما أرسلنا فيكم ١٥١
٣٦	٢٠	من الجوع	من الخوف والجوع
٣٨	٤	يقدورن	يقدرون
٤٢	١٥	زيذ	زيد
٦٨	حاشية	نسختين	نسختان
١٥٠	٨	المشركين	المشركون
١٧٤	١٣	حبسانا	حسبانا
١٧٨	١٧	الخحومة	الخصومة
٢٠٣	٩	والثوت	والثوب
٢١٤	٢٠	الضرف	الظرف
٢٢٣	٨	اللفضين	اللفظين
٢٣٧	١٨	[illegible]	ورووه
٢٥٩	٨	ووأرثه	وأورثه
٣١٥	٩	فان	وان
٣٣٢	٣	بسبعمائة مائة	بسبعمائة
٣٣٩	١٤	ولرابية	والرابية
٤٧٦	عنوان	ربنا آمنا (٥٣)	ومكروا ومكر (٤٥)
٤٨٤	عنوان	كمن	فمن
٤٨٨	عنوان	ياأيها ٤٩	يا أهل ٦٤

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٨٨	٢	يا أيها	يا أهل
٥٠٧	٧	يجتع	يجتمع
٥١١	٢	وقالوا	وقال
٥١٢	عنوان	يتخذوا	تتخذوا
٥١٨	٢١	يتبع	يبتغ
٥٦٥	١٠	يأمرون	ويأمرون
٥٦٧	١٧	أمر أمرهم	أمرهم أمر
٥٧٢	١٧	قاوا	قالوا
٥٩٧	١٢	ذ	إذ

٧ — المواضيع

التبيان
في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي
٣٨٥-٤٦٠ هـ

تحقيق وتصحيح
أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الثالث

دار
إحياء التراث العربي

قوله تعالى :

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ ﴾ (١٤١) آية .

المعنى ، واللغة :

قيل في معنى قوله : « وليمحص الله » أربعة أقوال :

أحدها ـ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي : ليبتلي ، « ويمحق الكافرين » ينقصهم في قول ابن عباس ، وقال غيره يهلكهم ، وقال الفراء : معنى « وليمحص الله » يعني ذنوب المؤمنين . وقال الزجاج : يخلصهم من الذنوب وهذا قريب من قول الفراء : وقال الرماني معناه «وليمحص الله الذين آمنوا» ينجيهم من الذنوب بالابتلاء ويهلك الكافرين بالذنوب عند الابتلاء . وأصل التمحيص التخليص في قول أبي العباس تقول محصت الشيء أمحصه محصاً : إذا خصلته . وقال الخليل : المحص الخلوص من العيب ، محصته محصاً أي خلصته من كل عيب ، ومحص الجمل : إذا ذهب وبره يمحص . وجبل محص أي ملص ، ومحص الظبي ، يمحص إذا عدا عدواً شديداً محصاً ، ويستحب أن تمحص قوائم الفرس أي تخلص من الرهل . وتقول : اللهم محص عنا ذنوبنا أي اذهبها عنا ، لأنه تخليص الحسنات بتكفير السيئات . ويقال تمحص الفرس : إذا ذهب شحمه الرديء ، وبقي لحمه ، وقوته بالضمور . وأصل المحق فناء الشيء حالا بعد حال ، ولهذا دخله معنى النقصان . وأمحق الشيء امحاقاً . والمحاق : آخر الشهر إذا أمحق الهلال ، فلم ير ، لذهاب ضوئه حالا بعد حال . وامتحق الشيء وتمحق : إذا ذهبت بركته بنقصانها حالا بعد حال . ومحقه تمحيقاً . وإنما قابل بين التمحيص ، والمحق ، لأن محص هؤلاء باهلاك ذنوبهم نظير محق أولئك باهلاك أنفسهم ، وهذه مقابلة في المعنى . وقيل في تمحيص المؤمنين بالمداولة قولان :

أحدها ـ لما في تخليتهم مع تمكين الكافرين منهم من التعريض للصبر الذي يستحقون به عظيم الأجر ، ويحط كثيراً من الذنوب .

الثاني ـ لما في ذلك من اللطف الذي يعصم من اقتراف المعصية .

قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدخلوا الجَنَّةَ وَلما يَعلمْ اللهُ الَّذينَ جاهَدوا مِنكمْ وَيَعلمَ الصابِرينَ ﴾ (١٤٢) آية بلا خلاف .

القراءة والمعنى والاعراب :

قرأ الحسن « ويعلم الصابرين » بكسر الميم . الباقون بفتحها . ووجه قراءة الحسن أنه عطف على ، ولما يعلم الله كأنه قال ، ولما يعلم الله ويعلم الصابرين .وقوله: « أم حسبتم » معناه : أحسبتم « ان تدخلوا الجنة » وقيل معنى (أم) معنى بل على جهة الانكار ، لأن يحسبوا ذلك الحسبان ، كما يقال : قد صممت على الخلاف أم تتوهم الاهمال ، والفرق بين لم ولما أن لما جواب ، لقول القائل : قد فعل فلان يريد به الحال ، فجوابه (لما فعل) وإذا قال : فعل فجوابه (لم يفعل) ، فلما كانت (لما) مؤكدة بحرف كانت جواباً لما هو مؤكد بحرف . وأيضاً ، فانه يجوز الوقف على (لما) في مثل أن يقول القائل : قد جاء فلان ، فيجيبه آخر فيقول : لما أي لما يجيء ، ولا يجوز ذلك في (لم) . ومعنى « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » أي لما يعلم الله جهادكم يعني أنهم لايدخلون الجنة إلا بفعل الجهاد ، لأنه من أعظم أركان الشرع . وقوله : « ويعلم الصابرين » نصب على الصرف عن العطف إذ ليس المعنى على نفي الثاني ، والاول ، وإنما هو على نفي اجتماع الثاني والاول ، نحو قولهم : لا يسعني شيء ويعجز عنك . وقال الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم (١)

وانما جاز « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » على معنى نفي الجهاد دون

« ١ » قائله أبو الاسود الدؤلي ، ونسب للمتوكل الكناني معجم البلدان ٧ : ٣٨٤ ، والاغاني ١١ : ٣٩ طبعة بولاق . والبيت من الأبيات الحكمية المشهورة وقبله :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فاذا انتهت عنه فأنت حكيم

العلم ، لما فيه من الايجاز في انتفاء الجهاد ، لأنه لو كان لعلمه . وتقديره ولما يكن المعلوم من الجهاد الذي أوجب عليكم ، لأن المعنى مفهوم لا يشتبه .

قوله تعالى :

﴿ وَلقدْ كنتمْ تمنونَ الموتَ مِنْ قَبلِ أنْ تلقوهُ فَقـدْ رَأيتموهُ وَأنتمْ تنظرونَ ﴾ (١٤٣) آية .

المعنى :

قال الحسن ، ومجاهد ، والربيع ، وقتادة ، والسدي : كانوا يتمنون الموت بالشهادة بعد بدر قبل أحد ، فلما رأوه يوم أحد أعرض كثير منهم عنه ، فانهزموا فعاتبهم الله على ذلك . وقوله : « فقد رأيتموه » فيه حذف ومعناه رأيتم أسباب الموت ، لأن الموت لا يرى كما قال الشاعر :

ومحلما يمشون تحت لوائه والموت تحت لواء آل محلم

أي أسباب الموت . وقال البلخي : معنى « رأيتموه » أي علمتم ، وأنتم تنظرون أسباب الموت من غير أن يكون في الأول حذف . فان قيل هل يجوز أن يتمنى قتل المشركين لهم لينالوا منزلة الشهادة ؟ قلنا : لا ، لأن قتل المشركين لهم معصية ، ولا يجوز تمني المعاصي ، كما لا يجوز إرادتها ، ولا الأمر بها . فاذا ثبت ذلك ، فتمنيهم الشهادة بالصبر على الجهاد إلى أن يقتلوا . وقال الجبائي : إنما تمنوا الموت دون القتل إذا كانوا مجاهدين . قال الازهري قوله : « رأيتموه وأنتم تنظرون » معناه وأعينكم صحيحة ، كما يقول القائل رأيت كذا ، وليس في عينك سوء . والفرق بين التمني والارادة أن الارادة من أفعال القلوب ، والتمني هو قول القائل : ليت كان كذا وليت لم يكن كذا . وقوله : «وأنتم تنظرون » بعد قوله « فقد رأيتموه » يحتمل أمرين :

أحدها ـ أن يكون تأكيداً للرؤية ، كما تقول : رأيته عياناً ورأيته بعيني

وسمعته باذني ، لئلا يتوهم رؤية القلب ، وسمع العلم .

والثاني - أن يكون معناه وأنتم تتأملون الحال في ذلك كيف هي ، لأن النظر هو تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلباً لرؤيته ، وليس معناه الرؤية على وجه الحقيقة .

قوله تعالى :

﴿ وَما مُحمدٌ إلا رَسولٌ قَدْ خَلتْ مِن قَبلِهِ الرُّسُلُ أفَإنْ ماتَ أو قُتِلَ انقَلبتُمْ على أعقابِكُمْ وَمَنْ يَنقلِبْ على عَقبيهِ فَلنْ يَضرَّ اللهَ شَيئاً وَسَيجزي اللهُ الشاكرينَ ﴾ (١٤٤) آية بلا خلاف .

القصة ، والنزول :

قال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، ومجاهد : إن سبب نزول هذه الآية انه لما ارجف بان النبي (ص) قتل يوم أحد واشيع ذلك ، قال ناس لو كان نبياً ما قتل . وقال آخرون نقاتل على ما قاتل عليه حتى نلحق به . وكان سبب انهزامهم وتضعضعهم اخلال الرماة بمكانهم من فم الشعب ، وكان النبي (ص) نهاهم عن الاخلال به ، وحذرهم من الانصراف عن الشعب مخافة أن يخرج منه كمين عليهم ، فلما انهزم المشركون في الجولة الأولى ، فتبعوهم المسلمون ، وتواقعوا في غنائمهم فقال الموكلون بالشعب : يغنمون ولا نغنم ، فقال لهم رئيسهم : الله الله لا تفعلوا فان النبي (ص) أمرنا ألا نبرح ، فلم يقبلوا منه وانصرفوا ، وثبت رئيسهم مع إثني عشر رجلا ، فقتلوا ، خرج عليهم خالد بن الوليد في مأتي فارس من الشعب ، وكان كامنا فيه . وكان ذلك سبب هزيمة المسلمين ، وإصابة رباعية النبي (ص) وجرحه . وكان الذي جرحه وكسر رباعيته عتبة بن أبي وقاص ، وقيل إن عبد الله ابن قمية ضربه على حبل عاتقه ، ومضى إلى المشركين ، وقال قتلت محمداً وشاع ذلك فأنزل الله هذه الآية .

فان قيل : كيف دخل الاستفهام على الشرط . وإنما هو كغيره من الانقلاب والتقدير أتنقلبون إن مات أو قتل؟ قيل : لأنه لما انعقد الشرط به صار جملة واحدة وخبراً واحداً بمنزلة تقديم الاسم قبل الفعل في الذكر إذا قيل أزيد قام ، وكذلك تقديمه في القسم ، والاكتفاء بجواب الشرط من جواب القسم ، كما قال الشاعر : (١)

حلفت له إن تدلج الليل لا يزل أمامك بيت من بيوتي سائر (٢)

أي حلفت له لا يزال امامك بيت وأجاز الفراء في مثله أفان مات أو قتل » تنقلبون بالرفع ، والجزم ومعنى « انقلبتم على أعقابكم » أي ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم ، لأن الرجوع عن الحق إلى الباطل بمنزلة رجوع القهقرى في القبح ، والتنكيل (٣) بالنفس فجرى كالمثل في هذا المعنى . والالف في قوله : « أفان » ألف انكار بصورة ألف استفهام ، لأن التقرير به يظهر ما فيه من المنكر ، فلذلك أخرج مخرج الاستفهام مع أن معناه الانكار . ومثله أتختار الفساد على الصلاح والخطأ على الصواب . وقوله : ﴿ أفان مات أو قتل ﴾ يدل على أن الموت غير القتل لأنه لو كان هو إياه لما عطف به عليه ، لأن الشيء لا يعطف على نفسه . والقتل هو نقض بنيه الحياة . والموت : في الناس من قال : هو معنى يضاد الحياة . وفيهم من قال : هو افساد البنية التي تحتاج الحياة إليها بفعل معان فيه تضاد المعاني التي تحتاج إليها الحياة . وقوله : « ومن ينقلب على عقبيه » أي من يرتد ويرجع عن الاسلام « فلن يضر الله شيئا » لأنه لا يجوز عليه المضار بل مضرته عائدة عليه ، لأنه يستحق العقاب الدائم . وقوله : « وسيجزي الله الشاكرين » معناه يثيب

« ١ » هو الراعي .

« ٢ » معاني القرآن للفراء ١ : ٦٩ ـ ٢٣٦ والمعاني الكبير : ٨٠٥ . وخزانة الأدب ٤ . ٤٥٠ . ورواية المعاني الكبير (عائر) بدل (سائر) وقال : أي بيت هجاء عائر . من قولهم : عار الفرس : اذا ذهب وجاء متردداً ويقال : قصيدة عائرة أي سائرة في كل وجـه . ادلج : سار في أول الليل .

« ٣ » في المخطوطة (والسيل) والصحيح ما في المطبوعة

الله الشاكرين على شكرهم لنعم الله واعترافهم بها . ووجه اتصال هذا بما قبله اتصال الوعد بالوعيد ، لأن قوله : « فلن يضر الله شيئاً » دليل على معنى الوعيد ، لأن معناه أنما يضر نفسه باستحقاقه العقاب « وسيجزي الله الشاكرين » بما يستحقونه من الثواب .

قوله تعالى :

﴿ وَما كانَ لِنفسٍ أنْ تَموتَ إلا باذنِ اللهِ كِتاباً مُؤَجلاً وَمن يردْ ثوابَ الدُّنيا نُؤتهِ مِنها وَمنْ يُردْ ثوابَ الآخِرةِ نُؤتهِ مِنها وَسنجزي الشاكرينَ ﴾ (١٤٥) آية بلا خلاف .

المعنى ، والاعراب ، واللغة :

قيل في السبب الذي اقتضى قوله : « وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله » قولان :

أحدها ـ التسلية عما يلحق النفس بموت النبي (ص) من جهة أنه باذن الله عز وجل .

الثاني ـ للحض على الجهاد من حيث لا يموت أحد إلا باذن الله تعالى .

وقوله : « إلا باذن الله » يحتمل أمرين :

أحدها ـ إلا بعلمه . والثاني إلا بأمره . وقال أبو علي : الآية تدل على أنه لا يقدر على الموت غير الله ، كما لا يقدر على ضده من الحياة إلا الله ، ولو كان من مقدور غيره لم يكن باذنه ، لأنه عاص لله في فعله .

وقوله : « كتاباً مؤجلا » نصب على المصدر بفعل محذوف دل عليه أول الكلام مع العلم بأن كلما يكون فقد كتبه الله ، فتقديره كتب الله ذلك « كتاباً مؤجلا » . ويجوز أن يدل على الفعل المحذوف مصدره المنتصب به . وقوله : «ومن

يرد ثواب الدنيا نؤته منها » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ من عمل للدنيا لم نحرمه ما قسمنا له فيها من غير حظ في الآخرة ـ في قول ابن اسحاق ـ أي فلا يغتر بحاله في الدنيا .

[الثاني] ـ (١)من أراد بجهاده ثواب الدنيا أي النصيب من الغنيمة في قول أبي علي الجبائي .

الثالث ـ من يرد ثواب الدنيا بالتعرض له بعمل النوافل مع مواقعة الكبائر جوزي بها في الدنيا من غير حظ في الآخرة لاحباط عمله بفسقه على مذهب من يقول بالاحباط ، ومن يرد بعمله ثواب الآخرة نؤته إياها . و (من) في قوله : « منها » تكون زائدة . ويحتمل أن تكون للتبعيض ، لأنه يستحق الثواب على قدر عمله . وإنما كرر قوله : « وسنجزي الشاكرين » هاهنا ، وفي الآية الأولى ، لأمرين :

أحدها ـ للتأكيد ليتمكن المعنى في النفس .

الثاني ـ « وسنجزي الشاكرين » من الرزق في الدنيا ، عن ابن اسحاق لئلا يتوهم ان الشاكر يحرم ما يعطاه الكافر مما قسم له في الدنيا . وقال الجبائي : في الآية دلالة على أن اجل الانسان إنما هو أجل واحد . وهو الوقت الذي يموت فيه ، لأنه لا يقتطع بالقتل عن الأجل الذي أخبر الله أنه اجل لموته . وقال ابن الاخشاذ : لا دليل فيه على ذلك ، لأن للانسان أجلين أجل يموت فيه لا محالة ، وأجل هو موهبة من الله تعالى له ، ومع ذلك فلن يموت إلا عند الأجل الذي جعله الله أجلا لموته . والأقوى الأول ، لأن الاجل عبارة عن الوقت الذي يحدث فيه الموت أو القتل ، وبالتقدير لا يكون الشيء أجلا كما لا يكون بالتقدير ملكا ، وقد بينا في شرح الجمل ذلك مستوفى .

« ١ » في المطبوعة (الثاني) ساقطة .

قوله تعالى:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦) آية بلا خلاف.

القراءة واللغة:

قرأ ابن كثير «كاين» على وزن كاعن. الباقون «كأين» مشددة على وزن كعين. ومعناها واحد، وهو بمعنى كما قال جرير:

وكائن بالاباطح من صديق　　يراني لو اُصبت هوالمصابا (١)

وقال آخر:

وكائن رددنا عنكم من مدجج　　يجيء أمام الالف يردي مقنعا (٢)

ومثل المشدد قول الشاعر:

كاين في المعاشر من اناس　　اخوهم فوقهم وهم كرام

وأصل كاين (أي) دخلت عليها كاف التشبيه، كما أن أصل (كذا) (ذا) دخلت عليها كاف التشبيه. وانما غيرت في اللفظ لتغيرها في المعنى، لأنها نقلت إلى معنى (كم) في التكثير. ومن خفف فلكراهية التضميف، كما خفف لا سيما. وقرأ أهل الكوفة، وابن عامر (قاتل) الباقون (قتل) فمن قرأ (قتل) نفى الوهن عمن بقي. ومن قرأ (قاتل) نفاه عمن ذكر.

المعنى، واللغة:

وقوله: ﴿ربيون﴾ قيل في معناه أقوال.

أحدها ـ قال ابن عباس، والحسن: علماء فقهاء. وقال مجاهد، وقتادة:

---

(١) ديوانه ١: ٩.　(٢) الكامل للمبرد: ١٠٧٢.

جموع كثيرة . وقال الاخفش : هم منسوبون إلى الرب . ومعناه المتمسكون بعبادة الله . وقال غيره : منسوبون إلى علم الرب . وقال الزجاج : الربو عشرة آلاف ،وهو المروي عن أبي جعفر (ع) ، وارتفاعه يحتمل أمرين :

أحدها ـ على مذهب الحسن في أنه لم يقتل نبي قط في معركة فيرتفع بأنه لم يسم فاعله في(قتل)، وعلى مذهب ابن اسحاق ، وقتادة ، والربيع ، والسدي : رفع بالابتداء ، فقدم عليه الخبر بمعنى قتل ، ومعه ربيون كثير ، فعلى هذا يكون النبي المقتول ، والذين معه لا يهنون ، وذلك أن يوم أحد كان أرجف بأن النبي (ص) قتل ، فبين الله تعالى أنه لو قتل لما أوجب ذلك أن تهنوا وتضعفوا ، كما لم يهن من كان مع الانبياء بقتلهم . وهو المروي عن أبي جعفر (ع) .

والوهن هو الضعف وإنما قال :فما وهنوا ، وما ضعفوا من حيث أن الوهن انكسار الجد بالخوف ، ونحوه .والضعف : نقصان القوة وقوله : « وما استكانوا » معناه ما ظهروا الضعف . وقيل معناه ما خضعوا ، لأنه يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريد ، فلم يهنوا بالخوف ، ولاضعفوا بنقصان العدة ، ولا استكانوا بالخضوع. وقال ابن اسحاق : فما وهنوا بقتل نبيهم ، ولا ضعفوا عن عدوهم ، ولا استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن دينهم . وقال الزجاج معنى ما وهنوا ما فتروا ، وما ضعفوا وما جبنوا عن قتال عدوهم . وما استكانوا ما خضعوا . وقال الازهري : الاستكانة أصلها من الكنية ، وهي الحالة السيئة يقال بات بكنية يعني بيتة سوء ، ومجيئةسوء أي بحال سوء .وقوله : «والله يحب الصابرين » معناه يريد ثواب من صبر في جنبه في امتثال أمره ، والقيام بواجباته التي من جملتها الجهاد في سبيل الله .

قوله تعالى :

﴿ وَما كانَ قولهم ْ إلا أن ْ قالوا رَبّنا اغفر ْ لنا َذنوبَنا وَإسرافَنا في أمر ْنا َوثبت ْ أقدامَنا َوانصرنا على القوم ِ الكافرينَ ﴾ (١٤٧) آية

المعنى والغرض :

هذا إخبار عن الربيين الذين ذكرهم في الآية الاولى بأنهم كانوا يقولون في أكثر أحوالهم « ربنا اغفر لنا ذنوبنا » لأن من المعلوم أنهم قد كانوا يقولون أقوالا غير هذا ، لكن لما كان هذا هو الأكثر لم يعتد بذلك . وقيل : معناه وما كان قولهم حين قتل نبيهم إلا هذا القول انقطاعاً إلى الله وطلباً لمغفرته . وقوله : « اغفر لنا ذنوبنا » أي استرها علينا بترك عقابنا ، ومجازاتنا عليها « واسرافنا في امرنا » فالاسراف هو مجاوزة المقدار الذي تقتضيه الحكمة . والاسراف مذموم ، كما أن الاقتار مذموم ، كما قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » (١) وكما قال « والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (٢) والاسراف ، والافراط بمعنى ، وضدها التقصير والتقتير. وقيل الاسراف مجاوزة الحق إلى الباطل بزيادة أو نقصان . والأول أظهر . وأصل الاسراف مجاوزة الحد يقال : سرفت القوم إذا جاوزتهم ، وأنت لا تعرف مكانهم وسرفت الشيء إذا نسيته لانك جاوزته إلى غيره بالسهو عنه . ويقال: أصنع من سرفة ، وهي دويبة صغيرة تنقب الشجر ، وتبني فيه بيتاً .

إن قيل : كيف قوبل الذنوب والاسراف في الامر ؟ قلنا : قال الضحاك : هو بمنزلة اغفر لنا الصغير والكبير من خطايانا .

الاعراب ، والمعنى :

و«قولهم» نصب بأنه خبر (كان) والاسم (أن قالوا) ، وانما اختير ذلك ، لأن ما بعد الايجاب معرفة ، فهو أحق بأن يكون الاسم ، كقول الشاعر :

وقد علم الاقوام ما كان داءها بثهلان إلا الخزيُ ممن يقودها (٣)

« ١ » سورة الاسرى آية : ٢٩ . « ٢ » سورة الفرقان آية : ٦٧ .

« ٣ » سيبويه ١ : ٢٤ ولم ينسبه . يصف كتيبة منهزمة يقول : لم يكن سبب انهزامها الا جبن من يقودها ، فجعل الخزي كناية عن الجبن .

ويجوز الرفع على أنه اسم (كان) وقد قرىء به في الشواذ. ومثله قوله: « ما كان حجتهم إلا أن قالوا » (١) « وما كان جواب قومه إلا أن قالوا »(٢) وقوله: « وثبت أقدامنا » أي أعنا وألطف لنا بما تثبت معه أقدامنا وإن كان ثبوت القدم من فعل العباد لكن لما كان بلطفه ومعونته جاز نسبته إليه مجازا.

قوله تعالى:

﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنيا وَحُسنَ ثَوابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحسنِينَ﴾ (١٤٨) آية.

المعنى، واللغة:

قوله: « فآتاهم الله » يعني من تقدم ذكره من الربيين الذين وصفهم. وقال الجبائي: يعني به المسلمين الذين صفتهم ما تقدم ذكره أي أعطاهم الله ثواب الدنيا قال قتادة، والربيع: هو نصرهم على عدوهم حتى ظفروا بهم، وقهروهم. « وثواب الآخرة »: الجنة. وزاد ابن جريج الغنيمة. ويجوز أن يكون ما آتاهم الله في الدنيا من الظفر والنصر وأخذ الغنيمة ثواباً مستحقاً لهم على طاعاتهم، لأن في ذلك تعظيما لهم وتبجيلا، ولذلك تقول: إن المدح على أفعال الطاعة والتسمية بالاسماء الشريفة بعض الثواب، ويجوز أن يكون الله تعالى أعطاهم ذلك تفضلا منه تعالى، أو لما لهم فيه من اللطف، فتكون تسميته بأنه ثواب مجازاً. وحد الثواب هو النفع الخالص المستحق الذي يقارنه تعظيم وتبجيل، والعوض هو النفع المستحق الخالي من التعظيم والتبجيل، والتفضل هو النفع الذي ليس بمستحق ولا معه تعظيم وتبجيل. وانما جاز تأخير الثواب المستحق مع ثبوت الاستحقاق له عقيب الطاعة لامرين:

أحدها ـ قال أبو علي: لأنه يوفر عليه ما يفوته في زمان التكليف إلى خير الثواب. وقال الرماني: لأنه إذا أخر عظم ما يستحقه بالتأخر على ما كان

(١) سورة الجاثية آية: ٢٤. (٢) سورة الاعراف آية: ٨١.

لو قدم ، لأنه إذا استحق مثلا مائة جزء عاجلا ، فاذا أخر استحق مائة وعشرة أو مائة وجزء . وقيل في وجه حسن تأخيره أنه لو كان عقيب الطاعة لأدى إلى أن يكون المكلف ملجأ إلى فعل الطاعة ، لأن المنافع الكثيرة تلجىء إلى الفعل كما أن دفع المضار العظيمة تلجىء إلى مثله ، وذلك ينافي التكليف . وقوله : «والله يحب المحسنين » أي يريد ثوابهم وتعظيمهم وتبجيلهم والفرق بين الاحسان والانعام أن الاحسان قد يكون إنعاماً بأن يكون نفعاً للمنتفعين به ، وقد يكون احساناً بأن يكون فعلا حسناً ، ومن القسم الأخير يقال هو تعالى محسن بفعل العقاب ، ولا يقال محسن من القسم الأول . ويقال هو محسن بفعل الثواب على الوجهين معاً (١) .

قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا إنْ تُطيعوا الَّذينَ كَفروا يَرُدُّوكُمْ على أعقابِكُمْ فَتنقلبوا خاسِرينَ (١٤٩) بَلِ اللهُ مَولاكُمْ وَهُوَ خَيرُ النَّاصِرينَ ﴾ (١٥٠) آيتان بلا خلاف .

المعنى :

هذا خطاب للمؤمنين حذرهم الله من أن يطيعوا الكفار ، وبين أنهم إن أطاعوهم ردوهم كافرين . والمعني بـ « الذين كفروا » قيل فيهم قولان :

أحدها ـ قال الحسن، وابن جريج إنهم اليهود ، والنصارى أي إن تستنصحوهم وتقبلوا رأيهم يردوكم خاسرين . وقال السدي : أراد إن تطيعوا أبا سفيان وأصحابه يرجعوكم كافرين . والطاعة موافقة الارادة المرغبة في الفعل ، وبالترغيب ينفصل من الاجابة ، وإن كان موافقة الارادة حاصلة . وفي الناس من قال : الطاعة هي موافقة الأمر ، والاول أصح ، لأن من فعل ما يقتضي العقل وجوبه أو حسنه يقال : إنه

« ١ » في المخطوطة ساقط (معاً) .

مطيع لله ، وان لم يكن هناك أمر على أن من امتثل الأمر إنما سمي مطيعاً لموافقة الارادة المرغبة من حيث أن الأمر لا يكون أمراً إلا بارادة المأمور به ، والطاعة تكون بمتابعة الواجب والندب معاً ، لأن الارادة تتناولهما .

الاعراب ، والحجة ، واللغة ، والمعنى :

وقوله :﴿ إن تطيعوا ﴾ جزم بأنه شرط . وقوله : « يردوكم » جزم بأنه جواب الشرط . وقوله : « فتنقلبوا » جزم بالعطف عليه . وقوله : « خاسرين » نصب على الحال . وقوله : « بل الله »، فحقيقة (بل)الاضراب عن الأول إلى الثاني سواء كانا موجبين أو نفيين أو احداهما موجباً والآخر نفياً تقول : جاء زيد بل عمرو ، وما جاء زيد بل عمرو لم يجيء ، وما أتى زيد بل خالد .

فان قيل : كيف عطف ببل وهي لا تشرك الثاني مع الأول في المعنى ؟ قلنا : لأن الاضراب عن الاول كالبدل ، ولذلك وجب العطف بالاشراك في الاعراب كما يجب في البدل غير أن البدل لم يحتج إلى حرف ، لأن الثاني هو الأول أو في تقدير ما هو كالأول ، و (لكن) للاستدراك أيضاً ، وهو يقتضي نفياً إما متقدماً أو متأخراً كقولك ما جاءني زيد ، لكن عمرو ، وجاء زيد لكن عمرو لم يأت ، وبهذا فارقت بل . وقوله : « بل الله » كان يجوز النصب في (الله) قال الفراء : على معنى أطيعوا الله مولاكم ، لأن قبله« إن تطيعوا »ثم أضرب عن الأول وأوجب الثاني بل أطيعوا الله(مولاكم). والرفع يحتمل أن يكون على الابتداء ومولاكم خبره، ويحتمل أن يكون مولاكم مبتدأ ، و (الله) خبره ، وقد قدم عليه . ومعنى مولاكم أي هو أولى بطاعتكم ونصرتكم . وقيل معناه وليكم بالنصرة بدلالة قوله :« هو خير الناصرين » والأصل فيه ، ولي الشيء الشيء من غير فصل بينه وبينه ، فالولاية إيلاء النصرة ، ويجوز لأنه يتولى فعل النصرة ، وان لم يكله إلى غيره ، لأن من فعل شيئاً فقد تولى فعله . فان قيل : كيف قال : « وهو خير الناصرين » مع أنه لا يعتد بنصر غير الله مع نصرته ؟ قيل : معناه إنه إن اعتد بنصرة غير الله فنصرة

الله خير منها ، لأنه لا يجوز أن يغلب ، وغيره يجوز أن يغلب ، وان نصر فالثقة بنصرة الله تحصل ، ولا تحصل بنصرة غيره .

قوله تعالى :

﴿ سَنُلقي في قُلوبِ ٱلذينَ كفروا الرُّعبَ بما أشركوا باللهِ مالم يُنزّلْ بهِ سُلطاناً وَمأواهُمُ النّارُ وبِئس مَثوى الظالمينَ ﴾ (١٥١)

ـ آية بلاخلاف ـ .

ذكر ابن اسحاق أنه لما نال المسلمين ما نالهم يوم أحد بمخالفـة الرماة أمر نبيهم (ص) ، وكان من ظهور المشركين عليهم ماكان عرفهم الله عز وجل الحـال في ذلك ثم وعدهم بالنصر لهم ، والخذلان ، لأعدائهم بالرعب . وذكر السدي : أن أبا سفيان وأصحابه هموا بالرجوع بعد أحد لاستئصال المسلمين عند أنفسهم ،فالقى الله الرعب في قلوبهم حتى انقلبو خائبين عقوبـة على شركهم « بالله ما لم ينزل به سلطانا » يعني برهاناً .

اللغة ، والحجة :

فالسلطان معناه هاهنا الحجة ، والبرهان . وأصله القوة ، فسلطان الملك قوته . والسلطان : البرهان لقوته على دفع الباطل . والسلطان : التوكيل على المطالبة بالحق ، لأنه تقوية عليه ، والتسليط على الشيء : التقوية عليـه مع الاغراء به . والسلاطة : حدة اللسان مع شدة الصخب للقوة على ذلك مع إثبات (١) فعـله : والسليط : الزيت لقوة اشتعاله بحدته . والالقاء حقيقته في الاعيان ، كقوله : « وألقى الالواح » (٢) واستعمل في الرعب مجازاً ، ومثل قوله : « وألقيت عليك محبة مني » (٣) ، وقوله : « ومأواهم النار » أي مستقرهم وفي الآية دلالة على

« ١ » في المخطوطة (ايثار)
« ٢ » سورة الاعراف آية : ١٤٩ .
« ٣ » سورة طه آية : ٣٩ .

فساد التقليد ، لأنه لا برهان مع صاحبه على صحة مذهبه ، فكل من قال بمذهب لا برهان عليه ، فبطل بدلالة الآية . وقوله : « وبئس مثوى الظالمين » فالمثوى : المنزل ، وأصله الثواء ، وهوطول الاقامة ثوى يثوي ثواء : إذا طال مقامه وأثواني فلان مثوى أي أنزلني منزلا وربة البيت : أم مثواه . والثوي : الضيف لأنه مقيم مع القوم . وانما قيل لجهنم « بئس مثوى الظالمين » وبئس للذم ، كما أن نعم للحمد لامرين :

أحدهما ـ إن الضرر تنفر منه النفس كما ينفر العقل من القبيح فجرى التشبيه على وجه المجاز ـ هذا قول أبي علي ـ . وقال البلخي: لأن الذم يجري على النقص كما يجري على القبيح حقيقة فيهما ، نحو قولهم : الاخلاق المحمودة والاخلاق المذمومة وروي عن النبي (ص) أنه قال : (نصرت بالرعب مسيرة شهر)وقد رعبته رعباً أي أفزعته ، والاسم الرعب ورعبت الأناء إذا ملأته ، فهو مرعوب .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٥٢) آية .

المعنى ، والقصة :

ذكر ابن عباس ،والبراء بن عازب ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، والربيع ، وابن اسحاق : أن الوعد المذكور كان يوم أحد ، لأن المسلمين كانوا يقتلون المشركين قتلا ذريعاً حتى أخل الرماة بمكانهم الذي أمرهم النبي (ص) بملازمته ، فحينئذ حمل خالد بن الوليد من وراء المسلمين ، وتراجع المشركون ، وقتل من المسلمين

سبعون رجلا ثم هزموا ، وقدنادى مناد قتل محمد ثم من الله على المسلمين ، فرجعوا وقويت نفوسهم ، ونزل الخذلان بعدوهم ، حتى ولوا عنهم ، ومعنى « تحسونهم » تقتلونهم .

اللغة :

والحس هو القتل على وجه الاستئصال قال جرير :

تحسهم السيوف كما تسامى حريق النار في أجم الحصيد(١)

وأصله الاحساس . ومنه قوله : « هل تحس منهم من أحد » (٢) وقوله : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » (٣) أي وجده من جهة الحاسة ، وحسه يحسه: إذا قتله ، لأنه أبطل حسه بالقتل ، والتحسس طلب الاخبار . وفي التنزيل « يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » (٤) وذلك لأنه طلب لهما بحاسة السمع . والمحسة التي ينفض بها التراب عن الدابة ، لأنه يحس بها من جهة حكها لجلدها .

وقوله : « باذنه » معناه بعلمه . ويجوز أن يكون المراد بلطفه ، لأن أصل الاذن الاطلاق في الفعل ، فاللطف تيسر (٥) له ، كما أن الاذن كذلك إلا أن اللطف تدبير يقع معه الفعل لا محالة اختياراً كما يقع في أصل الاذن اختياراً .

المعنى :

قال أبو علي قوله : « إذ تحسونهم » يعني يوم بدر « حتى إذا فشلتم » يوم أحد «من بعد ماأراكم ماتحبون» يوم بدر . والأولى أن يكون هذا حكاية عن يوم أحد على ما بيناه . وقوله : « حتى إذا فشلتم » معناه جبنتم عن عدوكم وكععتم

« ١ » ديوانه ١ : ٤٧ من قصيدة يمدح بها الحجاج .

« ٢ » سورة الكهف آية : ٩٩ . « ٣ » سورة آل عمران آية : ٥٢ .

« ٤ » سورة يوسف آية : ٨٧ . « ٥ » في المخطوطة (تفسير) .

« وتنازعتم » في الأمر يعني اختلفتم « من بعد ما أراكم ما تحبون » معناه أنهم أعطوا النصر، فخالفوا في ما قيل لهم من لزوم فم الشعب . واختلفوا ، فعوقبوا بأن ديل عليهم في قول الحسن . وقوله : « منكم من يريد الدنيا » أي منكم من قصده الغنيمة في حربكم« ومنكم من يريد الآخرة » أي بثبوته في موضعه بقصده بجهاده إلى ما عند الله في قول ابن مسعود ، وابن عباس ، والربيع .

الاعراب ، والمعنى :

فان قيل أين جواب « حتى إذا » ؟ قلنا :فيه قولان :

أحدها ـ إنه محذوف ، وتقديره امتحنتم .

والآخر ـ على زيادة الواو والتقديم والتأخير ، وتقديره حتى إذا تنازعتم في الأمر ، فشلتم ـ في قول الفراء ـ ، كما قال«فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم » (١)ومعناه ناديناه ، والواو زائدة . ومثله« حتى إذا فتحت ياجوج وما جوج .... واقترب » (٢) ومعناه اقترب . ومثله قوله : « حتى إذا جاؤها وفتحت » (٣) وأنشد :

حتى إذا قملت بطونكم ورأيتم ابناءكم شبوا
قلبتم ظهر المجن لنا ان اللئيم العاجز الخب (٤)

والبصريون لا يجيزون زيادة الواو ويتأولون جميع ما استشهد به على الحذف لأنه أبلغ في الكلام ، وأحسن من جهة الايجاز . وقوله : « ثم صرفكم عنهم »قيل في إضافة انصرافهم إلى الله مع أنه معصية قولان :

« ١ » سورة الصافات : آية ١٠٣ ـ ١٠٥ .

« ٢ » سورة الانبياء : آية ٧٦ ـ ٧٧ .

« ٣ » سورة الزمر : آية ٧٣ .

« ٤ » قائلها الاسود بن يعفر النهشلي وهو في اكثر الكتب غير منسوب معاني القرآن: للفراء ١ : ١٠٧ ، ٢٣٨ واللسان : (قمل) وتأويل مشكل القرآن ٢٠ ، ٣٨١ . المعاني الكبير: ٥٣٣ واللسان : (وقب)قملت بطونكم : كثرت قبائلكم . المجن : الترس . الخب : المخادع .

أحدهما - إنهم كانوا فريقين منهم من عصى بانصرافه ، ومنهم من لم يعص ، لأنهم قلوا بعد انهزام تلك الفرقة ، فانصرفوا باذن الله بأن التجأوا إلى أحد ، لأن الله إنما أوجب ثبات المائة للمئتين فاذا نقصوا ، لا يجب عليهم ذلك . وجاز أن يذكر الفريقين في الجملة بأنه صرفهم ، وبأنهم عفا عنهم ، ويكون على ما بيناه في التفصيل هذا قول أبي علي . وقال البلخي « ثم صرفكم عنهم » معناه لم يأمركم بمعاودتهم من فورهم « ليبتليكم » بالمظاهرة في الانعام عليكم ، والتخفيف عنكم . وقوله : « ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون » فاذ تصعدون متعلق بقوله : « ولقد عفا » في قول الزجاج . وقال الجبائي قوله : « ولقد عفا عنكم » خاص لمن لم يعص بانصرافه ، والأولى أن يكون عاماً في جميعهم ، لأنه لا يمتنع أن يكون الله عفا لهم عن هذه المعصية . وقال البلخي : معناه « ولقد عفا عنكم » بتتبعهم بعد أن كان أمرهم بالتتبع لهم ، فلما بلغوا حمراء الاسد أعفاهم من ذلك ، ولا يجوز أن يكون ، صرفهم فعل الله ، لأنه قبيح والله تعالى لا يفعل القبيح .

قوله تعالى :

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥٣) آية .

القراءة ، والحجة ، واللغة ، والمعنى :

النقدير اذكروا « إذ تصعدون » ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله : « ولقد عفا عنكم ... إذ تصعدون » ، والقراء كلهم على ضم التاء من الاصعاد . وقرأ الحسن بفتح التاء والعين من الصعود ، وقيل : الاصعاد في مستوى الارض ، والصعود في

ارتفاع يقال أصعدنا من مكة إذا ابتدأنا السفر منها وكذلك أصعدنا من الكوفة إلى خراسان على قول الفراء ، والمبرد ، والزجاج . ووجه ذلك أن الاصعاد إبعاد في الارض كالابعاد في الارتفاع ، وعلى ذلك تأويل « تصعدون » أي أصعدوا في الوادي يوم أحد عن قتادة ، والربيع . وقال ابن عباس والحسن انهم صعدوا في أحد في الجبل فراراً ، فيجوز أن يكون ذلك بعد أن أصعدوا في الوادي . وقوله « ولا تلوون على أحد » معناه لاتعرجون على أحد . وقوله : « والرسول يدعوكم في أخراكم » قال ابن عباس والسدي ، والربيع : إن النبي (ص) كان يدعوهم ، فيقول : ارجعوا أي عباد الله ارجعوا أنا رسول الله . وقوله : « فأثابكم غماً بغم» في معناه قولان :

أحدها ـ إنه إنما قيل في الغم ثواب ، لأن أصله ما يرجع من الجزاء على الفعل طاعة كان أو معصية ثم كثر في جزاء الطاعة كما قال الشاعر :

وارانى طرباً في إثرهم طرب الواله أو كالمختبل

فعلى هذا يكون الغم عقوبة لهم على فعلهم ، وهزيمتهم . والثاني ـ أن يكون وضع الشيء مكان غيره كما قال « فبشرهم بعذاب أليم » (١) أي ضعه موضع البشارة ، كما قال الشاعر :

أخاف زياداً أن يكون عطاؤه اداهم سودا او محدرجة سمرا (٢)

أراد بقوله سودا قيودا . وقيل في معنى قوله : « غماً بغم » قولان :

أحدها ـ غماً على غم ، كما يقال : نزلت ببني فلان وعلى بني فلان . وقال قتادة ، والربيع: الغم الأول : القتل والجراح . والثاني : الارجاف بقتل محمد (ص) .

والقول الثاني ـ غماً بغم أي مع غم كما يقال : ما زلت بزيد حتى فعل أي

---

(١) سورة الانبياء : ٣ ، والتوبة آية : ٣٥ ، والانشقاق آية : ٢٤ .

(٢) قائله الفرزدق . ديوانه : ٢٢٧ ، والنقائض : ٦١٨ وطبقات فحول الشعراء : ٢٥٦ ، وتاريخ الطبري ٦ : ١٣٩ ، ومعاني القرآن للفراء ١ : ٢٣٩ . وروايته مختلفة . وفي أغلب المصادر هكذا :

ولما خشيت أن يكون عطاؤه . . . . . .

مع زيد . وقال الحسن غما يوم أحد بعد غم يعني يوم بدر . أي كله للاستصلاح وان احتلف الحال . وقال الحسين بن علي المغربي : معنى « غما بغم » يعني غم المشركين بما ظهر من قوة المسلمين على طلبهم على حمراء الاسد ، فجعل هذا الغم عوض غم المسلمين بما نيل منهم. وقوله : ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾ معناه مافاتكم من الغنيمة « ولا ما أصابكم » من الهزيمة في قول ابن زيد . واللام في قوله : « لكيلا تحزنوا على مافاتكم » يحتمل أن يكون متعلقاً بقوله : « عناعنكم » « لكيلا تحزنوا على ما فاتكم » ويحتمل أن يتعلق بـ « أثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم » من الغنيمة ولا ما أصابكم من الشدة في طاعة الله ، لأن ذلك يؤديكم إلى مضاعفة الغم عليكم .

وقوله : ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ فيه تجديد تحذير بأنه لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد .

قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيكُمْ مِنْ بَعدِ الغَم أمنةً نُعاساً يَغشى طائفةً مِنكُمْ وَطائِفةٌ قد أَهمَّتهم أَنفسهم يَظنونَ باللهِ غَيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية يَقولونَ هَل لَنا مِنَ الأمرِ مِنْ شَيءٍ قُلْ إنَّ الأمرَ كلهُ للهِ يُخفونَ في أنفسهم مالا يُبدونَ لكَ يَقولونَ لو كانَ لَنا مِنَ الامرِ شَيءٌ ما قُتلنا ههنا قُل لو كُنتم في بُيوتكمْ لَبرزَ الَّذينَ كُتبَ عَليهمُ القتلُ إلى مَضاجعهم وَليبتلي اللهُ ما في صُدورِكُمْ وَليمحصَ ما في قُلوبكم وَاللهُ عَليمٌ بذاتِ الصُّدورِ ﴾ (١٥٤) آية بلا خلاف .

القراءة والمعنى والحجة والاعراب والقصة :

قرأ حمزة ، والكسائي : تغشي بالتاء الباقون بالياء . فمن قرأ بالتذكير أراد

النعاس ، ومن أنث أراد الامنة ، ومثله « ألم يك نطفة من مني يمنى » (١) «وان شجرة الزقوم طعام الاثيم كالمهل يغلي» (٢) بالتاء، والياء . وقرأ أبو عمرو ، وحده « إن الامر كله » بالرفع . الباقون بالنصب ، ووجه الرفع أنه على الابتـداء ، كما قال : « وكل اتوه داخرين » (٣) ويكون (لله) خبره ، لأنه لما وقع الأمر في الجواب اُديت صورته في الاسم ثم جاءت الفائدة في الخبر ، ولأنه نقيض بعض ، فكما يجوز الرفع في (بعض) يجوز في (كل) نحو إن الأمر بعضه لزيد . والنصب على أنه تأكيد للامر « وامنة » منصوب ، لأنه مفعول به ، ونعاساً بدلا منـه ، والنعاس هو الامنة .

وهذه الأمنة التي ذكرها الله في هذه الآية نزلت يوم أحد في قول عبدالرحمن ابن عوف وأبي طلحة ، والزبير بن العوام ، وقتادة ، والربيع ، وكان السبب في ذلك توعد المشركين لهم بالرجوع ، فكانوا تحت الجحف متهيئين للقتال فأنزل الله تعالى الأمنة على المؤمنين ، فناموا دون المنافقين الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم أو يغيروا على المدينة لسوء الظن ، فطير عنهم النوم على ما ذكره ابن اسحاق وابن زيد ، وقتادة ، والربيع . وقوله : « يغشى طائفة منكم » يعني النعاس يغشى المؤمنين « وطائفة قد اهمتهم » القراء على الرفع . والواو واو الحال كأنه قال : يغشى النعاس طائفة في حال ما أهمت طائفة منهم أنفسهم . ورفعه بالابتداء ، والخبر يظنون ، ويصلح أن يكون الخبر « قد أهمتهم أنفسهم » والجملة في موضع الحال . ولا يجوز النصب على أن يجعل واو العطف كما تقول ضربت زيداً وعمراً كلمته . والتقدير وأهمت طائفة أهمتهم أنفسهم .

المعنى :

وقوله : ﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شيء ﴾ قيل في معناه قولان :

---

(١) سورة القيامة آية : ٢٧ . (٢) سورة الدخان : ٤٣ ـ ٤٥ .
(٣) سورة النمل آية : ٨٧ .

أحدهما - قال الحسن أخرجنا كرهاً ، ولو كان الأمر إلينا ما خرجنا . وذلك من قبل عبد الله بن أبي بن سلول، ومعتب بن قشير على قول الزبير بن العوام، وابن جريج .

والآخر - أي ليس لنا من الظفر شيء كما وعدنا على وجه التكذيب بذلك « يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك » أي من الشك ، والنفاق ، وتكذيب الوعد بالاستعلاء على أهل الشرك ذكره الجبائي . وقوله : « وليبتلي الله ما في صدوركم» يحتمل أمرين :

أحدهما - ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر لكم مظاهرة في العدل عليكم وإخراج مخرج كلام المختبر لهذه العلة ، لأنه تعالى عالم بالاشياء قبل كونها ، فلا يبتلي ليستفيد علماً .

والثاني - ليبتلي أولياء الله ما في صدوركم إلا أنه اضيف الابتلاء إلى الله عز وجل تفخيما لشأنه . وقوله : ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ يحتمل أمرين : أحدهما - لو تخلفتم لخرج منكم الذين كتب عليهم القتل ولم يكن لينجيه قعودكم - عن أبي علي - .

الثاني - لو تخلفتم لخرج المؤمنون ، ولم يتخلفوا بتخلفكم ذكره البلخي ، ولا يوجب ذلك أن يكون المشركون غير قادرين على ترك القتال من حيث علم الله منهم ذلك ، وكتبه ، لأنه كما علم أنهم لا يختارون ذلك بسوء اختيارهم علم انهم قادرون . ولو وجب ذلك لوجب أن لا يكون تعالى قادرا على ما علم أنه لا يفعله وذلك كفر بالله .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوا مِنكُمْ يَوْمَ ٱلتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٥٥) آية .

المعنى ، واللغة :

روي عن عمر بن الخطاب ، وقتادة ، والربيع : ان المعني بالمتولي في هذه الآية هم الذين ولوا الدبر عن المشركين بأحد . وقال السدي : هم الذين هربوا إلى المدينة فيوقت الهزيمة. وقوله : ﴿ إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ قيلفي الكسب الذي أداهم إلى الفرار الذي اقترفوه قولان :

أحدها ـ محبتهم للغنيمة مع حرصهم على تبقية الحياة ، وفي ذلك الوجه عما يؤدي إلى الفتور فيما يلزم من الأمور على قول الجبائي .

والثاني ـ ذكره الزجاج ، استزلهم بذكر خطايا سلفت لهم ، فكرهوا القتل قبل اخلاص التوبة منها ، والخروج من المظلمة فيها . وقوله : ﴿ولقد عفا الله عنهم ﴾ يحتمل أمرين :

أحدها ـ قال ابن جريج ، وابن زيد : حلم عنهم إذ لم يعاجلهم بالعقوبة به ، ليدل على عظم تلك المعصية .

والآخر ـ عفا لهم تلك الخطيئة ليدل على أنهم قد أخلصوا التوبة . وقوله: ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ فحلمه تعالى عنهم هو امهاله بطول المدة بترك الانتقام مع ما فعل بهم من ضروب الانعام .

وأصل الحلم الاناة ، وهي ترك العجلة ، فالامهال بفعل النعمة بدلامن النقمة كالاناة بترك العجلة . ومنه الحلم في النوم ، لأن حال السكون والدعة كحال الاناة . ومنه الحلمة : رأس الثدي ، لخروج اللبن الذي يحلم الصبي .

وذكر البلخي أن الذين بقوا مع النبي (ص) يوم أحد فلم ينهزموا ثلاثة عشر رجلا : خمسة من المهاجرين : علي (ع) وأبو بكر ، وطلحة ، وعبد الرحمن ابن أبي عوف ، وسعد بن أبي وقاص، والباقون من الانصار . فعلي وطلحة ، لا خلاف فيها . والباقون فيهم خلاف . وأما عمر ، فروي عنه أنه قال : رأيتني

أصعد في الجبل كأني أروى(١). وعثمان انهزم، فلم يرجع إلا بعد ثلاثة [أيام](٢) فقال له النبي (ص): لقد ذهبت فيها عريضة. وفي الآية دليل على فساد قول المجبرة: من أن المعاصي من الله، لأنه تعالى نسب ذلك في الآية إلى استزلال الشيطان.

قوله تعالى:

﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا لا تكونوا كالَّذينَ كفروا وَقالوا لإِخوانهم إذا ضَربوا في الأرضِ أو كانوا غُزىً لَو كانوا عِندَنا ما ماتوا وَما قُتلوا لِيجعلَ اللهُ ذلكَ حَسرةً في قُلوبهمْ وَاللهُ يُحيي وَيُميتُ وَاللهُ بما تَعملونَ بَصيرٌ﴾ (١٥٦) آية.

المعنى، واللغة، والاعراب:

هذا خطاب متوجه إلى المؤمنين الذين نهاهم الله أن يكونوا مثل الذين كفروا، وقالوا لاخوانهم،، وهم عبد الله بن أبي بن سلول، وأصحابه - في قول السدي ومجاهد - : «إذا ضربوا في الارض» أي سافروا فيها لتجارة أو طلب معيشة - في قول ابن اسحاق، والسدي - ، فأصله الضرب باليد. وقيل الأصل في الضرب في الارض الايغال في السير «أو كانوا غزىً» أي جمع غاز كما قالوا: شاهد وشهد، وقائل وقول، قال رؤبة:

فاليوم قد نهنهني تنهنهي   وأول حلم ليس بالمسفه
وقوّل: الاده فلاده (٣)

«١» اروى: ضأن الجبل. ج أروية - بضم الهمزة وكسرها - .

«٢» (ايام) ساقطة من المطبوعة

«٣» ديوانه: ١٦٦ ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ١٠٦، واللسان: (قول)، (ده) وخزانة الأدب ٣: ٩٠ وغيرها وهو من قصيدة يذكر فيها شبابه. نهنهت فلاناً عن الشيء -

ويجوز فيه غزاة كقاض ، وقضاة . وغزاء ممدود كخارب وخراب ، وكاتب وكتاب . ويجوز ﴿قالوا لاخوانهم إذا ضربوا في الارض﴾ ولا يجوز أكرمتك إذا زرتني على أن توقع إذا موضع إذ ، لأمرين :

أحدهما ـ لأنه متصل بـ « لا تكونوا » كهؤلاء إذا ضرب اخوانكم في الأرض .

الثاني ـ لأن (الذي) إذا كان مبهاغير موقت يجري مجرى ما في الجزاء ، فيقع الماضي فيه موقع المستقبل ، نحو « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله » (١) معناه يكفرون ، ويصدون . ومثله « إلا من تاب وآمن » (٢) معناه إلا من يتوب . ومثله كثير . ويجوز لأكرمن الذي أكرمك إذا زرته ، لابهام الذي ، ولا يجوز لأكرمن هذا الذي أكرمك إذا زرته ، لتوقيت الذي من أجل الاشارة إليه بهذا ولأنه دخله معنى كلما ضربوا في الأرض ، فلا يصح على هذا المعنى إلا باذا دون إذ قال الشاعر :

وإني لآتيكم تشكر ما مضى من الأمر واستيجاب ما كان في غد(٣)

أي ما يكون في غد ، وهذا قول الفراء واللام في قوله : « ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » متعلقة بـ « لا تكونوا » كهؤلاء الكفار في هذا القول منهم ، « ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » دونكم .

والثاني ـ قالوا ذلك ليجعله حسرة على لام العاقبة ـ وهذا قول أبي علي ـ والحسرة عليهم في ذلك من وجهين :

أحدهما ـ الخيبة فيما أملوا من الموافقة لهم من المؤمنين ، فلما لم يقبلوا منهم ،

ـ فتنهنه زجرته فانزجر . والأول : الزجوع وقد اختلف في تفسير (الا ده فلا ده) . قال أبو عبيدة : ان لم يكن هذا ، فلا ذا وقال ابن قتيبة : ان لم يكن هذا الأمر لم يكن غيره . ويروي أهل العربية ان الدال مبدلة من ذال . قال بعضهم : هذا مثل يضرب للرجل يطلب شيئاً فاذا منعه ، طلب غيره . وقال الأصمعي : لا أدري ما أصله . قال بعضهم : (ده) كلمة فارسية .

« ١ » سورة الحج : آية ٢٥ . « ٢ » سورة مريم : آية ٦٠ .

« ٣ » انظر ١ : ٣٥١ .

كان ذلك حسرة في قلوبهم .

والآخر - ما فاتهم من عز الظفر والغنيمة . وقوله : « والله يحيي ويميت » معناه ههنا الاحتجاج على من خالف أمر الله في الجهاد طلباً للحياة ، وهرباً من الموت ، لأن الله تعالى إذا كان هو الذي يحيي ويميت لم ينفع (١) الهرب من أمره بذلك خوف الموت ، وطلب الحياة « والله بما يعملون بصير » أي مبصر . ويحتمل أن يكون بمعنى عليم . وفيه تهديد ، لأن معناه أن الله يجازي كلا منهم بعمله ان خيراً فخيراً وان شراً فشراً .

قوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١٥٧) آية .

المعنى ، والاعراب :

إن قيل كيف قال : « لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون » مع تفاوت ما بينها ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول الانسان للدرة (٢) خير من البعرة ؟! قيل : إنما جاز ذلك لأن الناس يؤثرون حال الدنيا على الآخرة حتى أنهم يتركون الجهاد في سبيل الله محبة للدنيا ، والاستكثار منها ، وما جمعوا فيها .

فان قيل أين جواب الجزاء بـ (إن) ؟ قيل : استغني عنه بجواب القسم في قوله : « لمغفرة من الله ورحمة خير » وقد اجتمع شيئان كل واحد منهما يحتاج إلى جواب ، فكان جواب القسم أولى بالذكر - لأن له صدر الكلام - مما يذكر في حشوه .

فان قيل : لم شرط « لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون » وهو خير كيف

« ١ » في المخطوطة (لم يمنع) .
« ٢ » في المخطوطة (الذرة) .

تصرفت الحال ؟ قلنا : لأنه لا يكون « لمغفرة » بالتعرض للقتل في سبيل الله خيراً من غير أن يقع التعرض لذلك لاستحالة استحقاقها بما لم يكن منه ، لأنه لم يفعل .

فان قيل : لم جاز جواب القسم مع الماضي في الجزاء دون المستقبل في نحو قولهم لئن قتلتم لمغفرة خير ؟ قلنا : لأن حرف الجزاء إذا لم يعمل في الجواب لم يحسن أن يعمل في الشرط ، لأن إلغاءه من أحدهما يوجب ألغاءه من الآخر كما أن اعماله في أحدهما يوجب اعماله في الآخر لئلا يتنافر الكلام بالتفاوت .

فان قيل : لم أعملت (ان) ولم تعمل (لو) وكل واحدة منهما تعقد الفعل بالجواب ؟ قلنا : لأن (ان) تنقل الفعل نقلين الى (١) الاستقبال ، والجزاء ، وليس كذلك (لو) لأنها لما مضى .

ان قيل : كيف وجب بالتعرض للقتل المغفرة وإنما تجب بالتوبة ؟ قلنا : لأنه يجب به تكفير الصغيرة مع أنه لطف في التوبة من الكبيرة . ومعنى الآية أن المنافقين كانوا يثبطون المؤمنين عن الجهاد ، على ما تقدم شرحه في هذه السورة فبين الله تعالى لو انكم إن قتلتم أو متم من غير أن تقتلوا « لمغفرة من الله ورحمة » تنالونها « خير مما يجمعون » من حطام الدنيا ، والبقاء فيها ، وانتفاعكم في هذه الدنيا ، لأن جميع ذلك إلى زوال .

قوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (١٥٨) آية .

اللغة ، والاعراب ، والمعنى :

اللام في قوله : ﴿ ولئن متم أو قتلتم ﴾ يحتمل أمرين :

أحدها ـ أن يكون خلفاً من القسم ، ويكون اللام في قوله : « لالى الله » جواباً كقولك : والله ان متم أو قتلتم لتحشرون إلى الله .

« ١ » في المطبوعة (في) بدل (الى)

والثاني ـ أن تكون مؤكدة لما بعدها ، كما تؤكد (ان) ما بعدها ، وتكون الثانية جواباً لقسم محذوف ، والنون مع لام القسم في فعل المضارع لابد منها ، لأن القسم أحق بالتأكيد من كلما تدخله النون من جهة أن ذكر القسم دليل أنه من مواضع التأكيد فاذا جازت في غيره من الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والعرض ، والجزاء مع ما اذ كان ذكر القسم قد أنبأ أنه من مواضع التأكيد ، لزمت فيه ، لأنه أحق بها من غيره (١) . والفرق بين لام القسم ولام الابتداء : أن لام الابتداء تصرف الاسم إليه ، فلا يعمل فيه ما قبلها نحو (قد علمت لزيد خير منك) (وقد علمت بأن زيداً ليقدم) . وليس كذلك لام القسم ، لأنها لا تدخل على الاسم ، ولا تكسر لها لام (إن) نحو قد علمت ان زيداً ليقومن ، ويلزمها النون في المستقبل . والفرق بين (أو) و (أم) أن (أم) استفهام ، وفيها معادلة الالف نحو (أزيد في الدار أم عمرو) وليس ذلك في (أو) ولهذا اختلف الجواب فيهما ، فكان في (أم) بالتعيين وفي (أو) بـ (نعم) أو (لا)

ومعنى الآية الحث على الجهاد وترك التقاعد . ويقال أن الله يحشر العباد ليجزي كل واحد على ما يستحقه : المحسن على احسانه والمسيء على اساءته سواء قتل أو مات كيف تصرفت به الحال .

قوله تعالى :

﴿ فَبِما رَحمةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لهمْ وَلو كُنتَ فَظّاً غليظَ القلبِ لانفضّوا مِنْ حولِكَ فاعفُ عَنهمْ وَاستغفرْ لهمْ وَشاوِرهمْ في الامرِ فاذا عَزمتَ فَتوكلْ على اللهِ إنَّ اللهَ يُحبُّ المتوكلينَ ﴾ (١٥٩) آية .

« ١ » في المخطوطة (لم لان الاخر من تفسير) بدل (فيه لانه أحق بها من غير) وقد أثبتنا ما في المطبوعة لأنه أوضح .

الاعراب والمعنى :

قوله : ﴿ فبما رحمة من الله ﴾ معناه فبرحمة ، وما زائدة باجماع المفسرين ذهب إليه قتادة ، والزجاج ، والفراء وجميع أهل التأويل . ومثله قوله : « عما قليل ليصبحن نادمين » فجاءت (ما) مؤكدة للكلام وسبيل دخولها لحسن النظم ، كدخولها لاتزان الشعر ، وكل ذلك تأكيد ليتمكن المعنى في النفس ، فجرى مجرى التكرير . قال الحسن بن علي المغربي عندي أن معنى (ما) أي وتقديره فبأي رحمة من الله ، وهذا ضعيف . ورحمة مجرورة بالباء ، ولو رفعت كان جائزاً على تقدير فبما هو رحمة . والمعنى ان لينك لهم مما يوجب دخولهم في الدين ، لأنك تأتيهم بالحجج والبراهين مع لين خلق .

اللغة ، والمعنى :

وقوله : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ فالفظ الجافي ، والغليظ القلب القاسي ، يقال فيه فظظت تفظ فظاظة ، فأنت فظ ، وهو على وزن فعل إلا أنه ادغم كضب . وأصل الفظاظة الجفوة . ومنه الفظاظة . ومنه الفظاظ : خشونة الكلام . والافتظاظ : شرب ماء الكرش لجفائه على الطباع .

وقوله : ﴿ فظاً غليظ القلب ﴾ انما جمع بين الصفتين مع اتفاقهما في المعنى ، لازالة التوهم أن الفظاظة في الكلام دون ما ينطوي عليه القلب من الحال ، وهو وجه من وجوه التأكيد إذ يكون لازالة الغلط في التأويل ، ولتمكين المعنى في النفس بالتكرير ، وما يقوم مقامه .

وقوله : ﴿ وشاورهم في الامر ﴾ أمر من الله تعالى لنبيه أن يشاور أصحابه يقال شاورت الرجل مشاورة وشواراً وما يكون عن ذلك اسمه المشورة . وبعضهم يقول المشورة . وفلان حسن الشورة ، والصورة أي حسن الهيئة واللباس وإنه لشير صير ، وحسن الشارة ، والشوار : متاع البيت . ومعنى شاورت فلاناً أي

أظهرت ما عندي في الرأي ، وما عنده (١) . وشرت الدابة أشورها : إذا امتحنتها فعرفت هيئتها في سيرها . وقيل في وجه مشاورة النبي (ص) إياهم مع استغنائه بالوحي عن تعرف صواب الرأي من العباد ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال قتادة ، والربيع ، وابن اسحاق أن ذلك على وجه التطييب لنفوسهم ، والتألف لهم ، والرفع من أقدارهم إذ كانوا ممن يوثق بقوله : « ويرجع إلى رأيه » .

والثاني ـ قال سفيان بن عيينه : وجه ذلك لتقتدي به أمته في المشاورة ولا يرونها منزلة نقيصة كما مدحوا بأن أمرهم شورى بينهم .

الثالث ـ قال الحسن ، والضحاك : انه للامرين ، لاجلال الصحابة واقتداء الأمة به في ذلك . وأجاز أبو علي الجبائي : أن يستعين برأيهم في بعض أمور الدنيا. وقال قوم : وجه ذلك أن يمتحنهم فيتميز الناصح في مشورته من الغاش النية .

وقوله : « فاذا عزمت فتوكل على الله » فالتوكل على الله هو تفويض الأمر إليه للثقة بحسن تدبيره ، وأصله الاتكال . وهو الاكتفاء في فعل ما يحتاج إليه بمن يسند إليه . ومنه الوكالة ، لأنها عقد على الكفاية بالنيابة والوكيل هو المتكل عليه بتفويض الأمر إليه . وقوله : « إن الله يحب المتوكلين » معناه يريد ثوابهم على توكلهم واسنادهم أمورهم إلى الله تعالى .

قوله تعالى :

﴿ إِنْ يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذا الَّذي يَنصُرُكُمْ مِنْ بَعدِهِ وَعَلى اللهِ فَليَتَوكَّلِ المُؤمِنونَ ﴾ (١٦٠)

ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

معنى هذه الآية الترغيب في طاعة الله التي يستحق بها النصرة ، والتحذير

(١) في المخطوطة ساقطة جملة (في الرأي وما عنده) .

من معصيته التي يستحق بها خذلانه مع ايجاب التوكل عليه الذي يؤمن معه أن يكلهم إلى أنفسهم فيهلكوا ، ولأنه إذا نصرهم الله فلا أحد يقدر على مغالبتـه ؛ وإذا خذلهم فلا أحد يقدر على نصرتهم بعده . و (من) في قوله : « فمن ذا الذي ينصركم من بعده » معناها التقرير بالنفي في صورة الاستفهام أي لا ينصركم أحد من بعده ، كما تقول من يعد لك إن فسقك الامام . وإنما تضمن حرف الاستفهام معنى النفي ، لأن جوابه يجب أن يكون بالنفي ، فصار ذكره يغني عن ذكر جوابه . وكان أبلغ لتقرير المخاطب فيه . قال أبو علي الجبائي :وفي الآية دليل على أن من غلبه أعداء الله من الباغين لم ينصره الله ، لأنه لو نصره لما غلبوه ، وذلك بحسب ما في المعلوم من مصالح العباد من تعريض المؤمنين لمنازل الأبرار بالصبر على الجهاد مع خوف القتل من حيث لم يجمل على أمان من غلبة الفجار ، وهـذا إنما هو في النصر بالغلبة ، فاما النصر بالحجة ، فان الله تعالى نصر المؤمنين من حيث هداهم إلى طريق الحق بما نصب لهم من الأدلة الواضحة والبراهين النيرة ، ولولا ذلك لما حسن التكليف . قال البلخي : المؤمنون منصورون أبداً إن غلبوا ، فهم المنصورون بالغلبة ، وان غلبوا ، فهم المنصورون بالحجة . قال الجبائي : والنصر بالغلبة ثواب، لأنه لا يجوز أن ينصر الله الظالمين من حيث لا يريد استعلاءهم بالظلم على غيرهم . وقال ابن الاخشاد : ليس بثواب كيف تصرفت الحال ، لأن الله قد أمرنا أن ننصر الفئة المبغي عليها . وقال البلخي لا يجوز أن ينصر الله الكافر على وجـــه . فأما الخذلان فعقاب بلا خلاف . والخذلان هو الامتناع من المعونة على العدو في وقت الحاجة إليها ، لأنه لو امتنع إنسان من معونة بعض الملوك على عدوه مع استغنائه عنها لم يكن خاذلا ، وكذلك سبيل المؤمن المغلوب في بعض الحروب ليس يحتاج إلى المعونة مع الاستفساد بها بدلا من الاستصلاح ، فلذلك لم يكن ما وقع به على جهة الخذلان .

قوله تعالى :

﴿ وما كانَ لِنبيٍّ أنْ يَغلَّ وَمَنْ يَغللْ يَأتِ بما غَلَّ يومَ القيامةِ ثمَّ تُوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ وَهمْ لا يُظلمونَ ﴾ (١٦١) - آية - .

القراءة ، والمعنى ، والحجة ، والنزول ، واللغة :

قرأ ابن كثير وابن عمرو ، وعاصم « يغل » بفتح الياء وضم الغين . الباقون بضم الياء وفتح الغين . فمن قرأ بفتح الياء وضم الغين ، فمعناه ما كان لنبي أن يخون يقال من الغنيمة غل يغل : إذا خان فيها . ومن الخيانة أغل يغل قال النمر بن تولب :

جزى الله عنا حمزة ابنة نوفل جزاء مغل بالامانة كاذب
بما سألت عني الوشاة ليكذبوا عليّ وقد أوليتها في النوائب(١)

[ويقال من] (٢) الخيانة غل يغل ، ومن قرأ بضم الياء وفتح الغين أراد ، وما كان لنبي أن يخون أي ينسب إليه الخيانة . ويحتمل أن يكون أراد ما كان لنبي أن يخان بمعنى يسرق منه . ويكون تخصيص النبي بذلك تعظيما للذنب . قال أبو علي الفارسي : لا يكاد يقال : ما كان لزيد أن يضرب ، فهذه حجة من قرأ بفتح الياء . وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير : سبب نزول هذه الآية أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر من المغنم ، فقال بعضهم لعل النبي (ص) أخذها . وقال الضحاك إنما لم يقسم للطلائع من المغنم ، فعرفه الله الحكم . وروي عن الحسن أنه قال : معنى يُغل يُخان . وقال بعضهم : هذا غلط ، لأنه لا يجوز أن يخان أحد نبياً كان أو غيره ، فلا معنى للاختصاص . وهذا الطعن ليس بشيء لأن وجه اختصاصه بالذكر لعظم خيانته على خيانة غيره ، كما قال : « اجتنبوا الرجس من الاوثان »(٣) وإن وجب اجتناب جميع الارجاس ، وقد يجوز أن يخص النبي بالذكر ، لأنه القائم

« ١ » الصحاح للجوهر (غلل) .
« ٢ » مابين القوسين ساقط من المطبوعة .
« ٣ » سورة الحج : آية ٣٠

بأمر الغنائم ، فيكون بمنزلة ما كان لأحد أن يغل . وأصل الغلول هو الغلل ، وهو دخول الماء في خلل الشجر تقول : انغل الماء في أصول الشجر ينغل انغلالا ، فالغلول الخيانة ، لأنها تجري في الملك على خفي من غير الوجه الذي يحل كالغلل ، وانما خصت الخيانة بالصفة دون السرقة ، لأنه يجري إليها بسهولة ، لأنها مع عقد الامانة. ومنه الغل الحقد ، لأن العداوة تجري به في النفس كالغلل . ومنه الغل. ومنه الغليل : حرارة العطش . والغلة ، لأنها تجري في الملك من جهات مختلفة ، والغلالة ، لأنها شعار تحت البدن والغلالة مسمار الدرع . وقوله : ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ يأتي به حاملا له على ظهره ، كما روي عن النبي (ص) أنه كان إذا غنم مغنماً بعث منادياً ألا لا يغلن أحد مخيطا فما دونه ، ألا لا يغلن أحد بعيراً فيأتي به على ظهره له رغاء ، ألا لا يغلن أحد فرساً فيأتي به يوم القيامة على ظهره له حمحمة ـ في قول ابن عباس ، وأبي هريرة وأبي حميد الساعدي ، وعبدالله بن انيس وابن عمر ، وقتادة ـ وذلك ليفضح به على رؤوس الاشهاد . قال البلخي : يجوز أن يكون ما تضمنه الخبر على وجه المثل كأن الله تعالى إذا فضحه يوم القيامة جرى ذلك مجرى أن يكون حاملا له وله صوت .

الثاني ـ يأتي به يوم القيامة ، لأنه لم يكفر عنه ، كما تكفر الصغائر ، فهو يعاقب عليه .

وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة : إن الله تعالى لو عذب الأنبياء والمؤمنين لم يكن ظلماً لهم ، لأنه قد بين أنه لو لم يوفها ما كسبت ، لكان ظلماً لها .

قوله تعالى :

﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٦٢) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى ، والنزول :

قيل في معنى الآية ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال الحسن ، والضحاك معناها ، أفمن اتبع رضوان الله في ترك الغلول كمن باء بسخط من الله في فعل الغلول ، وهو اختيار الطبري قال : لأنه أشبه بما تقدم .

الثاني ـ قال ابن اسحاق « أفمن اتبع رضوان الله » في العمل بطاعته على ما كره الناس « كمن باء بسخط من الله » في العمل بمعصيته على ما أحبوا .

الثالث ـ قال الزجاج ، وأبوعلي : « أفمن اتبع رضوان الله » بالجهاد في سبيله « كمن باء بسخط من الله » بالفرار منه رغبة عنه .

وسبب نزولها أن النبي (ص) لما أمر بالخروج إلى أحد قعد عنه جماعة من المنافقين ، فأنزل الله فيهم هذه الآية .

اللغة :

« ورضوان الله » ـ بكسر الراء وضمها ـ لغتان ، وقرأ بالضم حفص عن عاصم على ما حكيناه عنه ، فالضم على وزن الكفران . والكسر على وزن حسبان . وباء معناه رجع تقول : باء بذنبه يبوء بوءاً إذا رجع به . وبوأته منزلا أي هيأته، لأنه يرجع إليه ، لأنه مأواه . والبواء قتل الجاني بمن قتله . والسخط من الله من هو إرادة العقاب بمستحقه ، ولعنه وهو مخالف للغيظ ، لأن الغيظ هو هيجان الطبع وانزعاج النفس ، ولا يجوز اطلاقه على الله تعالى . والمصير : هو المرجع . والفرق بينهما أن المرجع هو انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها . والمصير : انقلاب الشيء إلى خلاف الحال التي هو عليها نحو مصير الطين خزفاً ، ولم يرجع خزفاً ، لأنه لم يكن قبل ذلك خزفاً ، فأما مرجع الفضة خاتماً فصحيح ، لأنه قد كان قبل خاتماً وأما مرجع العباد إلى الله ، فلأنهم ينقلبون إلى حال لا يملكون فيها لأنفسهم شيئاً ، كما كانوا قبل ما ملكوا .

قوله تعالى :

﴿هُمْ دَرجاتٌ عِندَ اللهِ وَاللهُ بَصيرٌ بِما يَعملونَ﴾ (١٦٣) ـ آية ـ

المعنى :

قيل معنى قوله : « هم درجات عند الله » أن تقديره المؤمنون ذووا درجة رفيعة عند الله . والكفار ذووا درجة خسيسة . وقيل في معناه قولان :

أحدها ـ اختلاف مراتب كل فريق من أهل الثواب ، والعقاب ، لأن النار أدراك لقوله : « إن المنافقين في الدرك الاسفل من النار » (١) والجنة طبقات بعضها أعلى من بعض ، كما روي أن أهل الجنة ليرون أهل عليين (٢) ، كما يرى النجم في أفق السماء .

والثاني ـ اختلاف مرتبتي أهل الثواب ، والعقاب بما لهؤلاء من النعيم ، والكرامة ولأولئك من العذاب والمهانة . وعبر عن ذلك بدرجات مجازاً . فان قيل كيف قال : « هم درجات » وانما لهم درجات قيل ، لأن اختلاف أعمالهم قد ميزهم بمنزلة المختلفي الذوات كاختلاف مراتب الدرجات لتبعيدهم من استواء الاحوال ، فجاء هذا على وجه التجوز ، كما قال ابن هرمة ـ انشده سيبويه ـ :

أنصب للمنيـــة تعتريهم رجالي أم هم درج السيول (٣)

وقوله : ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ معناه عليم . وفيه تحذير من أن يتكل على الاسرار في الأعمال ظناً بأن ذلك يخفى على الله ، لأن أسرار العباد عند الله علانية . وفيه توثيق بأنه لا يضيع للعامل لربه شيء لأنه لا يخفى عليه جميعه .

« ١ » سورة النساء : آية ١٤٤ .

« ٢ » في المخطوطة (أ) كما روي أن أهل الجنة ليرون أهل النار يطلعون عليهم فيرونهم كما يرى النجم في افق السماء . والاصح ما في المطبوعة .

« ٣ » سيبويه ١ : ٢٠٦ ، واللسان (درج) ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ١٠٧ والخزانة ١ : ٢٠٣ وقد رواه بعضهم :

أرجماً للمنون يكون قومي لريب الدهر أم درج السيول

اللغة ، والحجة :

وأصل الدرجة الرتبة ، فمنه الدرج ، لأنه يطوى رتبة بعد رتبة يقال : أدرجه إدراجاً . والدرجان مشي الصبي لتقارب الرتب ، درج يدرج درجاً ودرجاناً. والدرج معروف . والترقي في العلم درجة بعد درجة أي منزلة بعد منزلة كالدرجة المعروفة . فان قيل هلا كان القرآن كله حقيقة ، ولم يكن فيه شيء من المجاز ، فان الحقيقة أحسن من المجاز ؟ قلنا : ليس الأمر على ذلك فان المجاز في موضعه أولى، وأحسن من الحقيقة لما فيه من الايجاز من غير اخلال بمعنى ، وهي المبالغة بالاستعارة التي لا تنوب منابها الحقيقة ، لأن قولهم إذ هو الشمس ضياء أبلغ في النفوس من قولهم هو كالشمس ضياء ، كذلك الجزاء بالجزاء أحسن من الجزاء بالابتداء ، لأنه أدل على تقابل المعنى بتقابل اللفظ ، فكذلك « هم درجات » أولى وأبلغ من هم أهل درجات ، للايجاز من غير اخلال .

قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ على المؤمنين إذ بَعثَ فيهم رَسُولا مِن أنفسهم يَتلو عَليهم آياتهِ وَيُزكيهم وَيُعلمهمُ الكِتابَ وَالحِكمةَ وَإنْ كانوا مِنْ قَبلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ (١٦٤) ـ آية ـ .

اللغة ، والمعنى :

قوله : « لقد من الله » معناه أنعم الله . وأصل المن القطع . منه يمنه مناً : إذا قطعه . « ولهم أجر غير ممنون » (١) أي غير مقطوع . والمن النعمة ، لأنه يقطع بها عن البلية . ويقول القائل : من علي بكذا أي استنقذني به مما أنا فيه . والمن تكدير النعمة ، لأنه قطع لها عن وجوب الشكر عليها . والمنة القوة ، لأنه

« ١ » سورة حم السجدة : آية ٨ وسورة الانشقاق : آية ٢٥ .

يقطع بها الاعمال . وفي تخصيص المؤمن بذكر هذه النعمة وإن كانت نعمة على جميع المكلفين قيل فيه من حيث أنها على المؤمنين أعظم منها على الكافرين ، لأنها نعمة عليهم من حيث هي نفع في نفسها . وفيما يؤدي إليه من الايمان بها ، والعمل بما توجبه أحكامها ، فالمؤمن يستحق اضافتها إليه من وجهين ، لما بيناه من حالها ، ونظائر ذلك قد بيناه مثل قوله : « هدى للمتقين » وغير ذلك وإنما أضافه إلى المتقين من حيث أنهم المنتفعون بها دون غيرهم . وقوله : « إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ من أنفسهم ليكون ذلك شرفاً لهم ، فيكون ذلك داعياً لهم إلى الايمان .

الثاني ـ من أنفسهم ، لسهولة تعلم الحكمة عليهم ، لأنه بلسانه .

الثالث ـ من أنفسهم ، ليتيسر عليهم علم أحواله من الصدق والأمانة والعفة والطهارة . وقال الزجاج : منّ عليهم إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم من الأميين، لا يتلو كتاباً ولا يخط بيمينه ، فنشأ بين قوم يخبرونه ويعرفونه بالصدق والأمانة وأنه لم يقرأ كتاباً ولا لقنه ،فتلا عليهم أقاصيص الأمم السالفة ، فكان ذلك من أدل دليل على صدقه فيما أتى به . وقوله : « يتلو عليهم آياته » معناه يقرأ عليهم ما أنزله عليه من آيات القرآن « ويزكيهم » يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها ـ يشهد لهم بأنهم أزكياء في الدين ، فيصيروا بهذه المنزلة الرفيعة في الخلق .

الثاني ـ يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين سالكين سبيل المهتدين .

الثالث ـ قال الفراء يأخذ منهم الزكاة التي يطهرهم بها . وقوله : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ يعني القرآن ، وهو الحكمة . وإنما كرره بواو العطف لأمرين :

أحدها ـ قال قتادة : الكتاب القرآن ، والحكمة السنة .

والثاني ـ لاختلاف فائدة الصفتين ، وذلك أن الكتاب ذكر للبيان أنه مما يكتب ويخلد ليبقى على الدهر ، والحكمة البيان عما يحتاج إليه من طريق المعرفة .

وقوله : ﴿ وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ يعني أنهم كانوا كفاراً . وكفرهم هو ضلالهم فأنقذهم الله بالنبي (ص) .

قوله تعالى :

﴿ أَوَلما أصابَتكم مُصيبةٌ قد أَصبتُم مِثليها قُلتم أَنّى هذا قُل هُوَ مِن عِندِ أنفسكم إنَّ الله على كلّ شيء قدير ﴾ (١٦٥) - آية واحدة - .

المعنى :

إنما دخلت الواو في « أولما أصابتكم » لعطف جملة على جملة إلا أنه تقدمها ألف الاستفهام ، لأن له صدر الكلام . وإنما اتصل الواو الثاني بالأول ليدل على تعلقه به في المعنى ، وذلك أنه وصل التقريع على الخطيئة بالتذكير بالنعمة لفرقة واحدة . والمصيبة التي أصابت المسلمين هو ما أصابهم يوم أحد ، فانه قتل منهم سبعون رجلا وكانوا هم أصابوا من المشركين يوم بدر مثليها ، فانهم كانوا قتلوا من المشركين سبعين وأسروا منهم سبعين في - قول قتادة ، والربيع ، وعكرمة ، والسدي - فقال الزجاج : لأنهم أصابوا يوم أحد منهم مثلهم ، ويوم بدر مثلهم ، فقد أصابوا مثليهم . وهذا ضعيف ، لأنه خلاف لأهل السير ، لأنه لا خلاف أنه لم يقتل من المشركين مثل من قتل من المسلمين بل قتل منهم نفر يسير ، فحمله على ما قاله ترك الظاهر . وقوله : حكاية عن المسلمين « أنى هذا » أي من أين هـذا . وقوله : « قل هو من عند أنفسكم » قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها - قال قتادة، والربيع : لأنهم اختلفوا في الخروج من المدينة للقتال يوم أحد وكان دعاهم النبي (ص) إلى أن يتحصنوا بها ويدعوا المشركين إلى أن يقصدوهم فيها ، فقالوا كنا نمتنع من ذلك في الجاهلية ، ونحن في الاسلام ، وأنت يارسول الله نبينا أحق بالامتناع وأعز .

والثاني - روي عن علي (ع) وعبيدة السلماني أن الحكم كان في أسرى بدر

القتل ، فاختاروا هم الفداء ، وشرط عليهم أنكم إن قبلتم الفداء قتل منكم في القابل بعدتهم ، فقالوا رضينا بذلك ، فانا نأخذ الفداء وننتفع به . وإذا قتل منا فيما بعد كنا شهداء . وهو المروي عن أبي جعفر (ع) .

الثالث ـ لخلاف الرماة يوم أحد لما أمرهم به النبي (ص) من ملازمة موضعهم. وقوله : « إن الله على كل شيء قدير » معناه ههنا أنه على كل شيء قدير يدبركم بأحسن التدبير من النصر مع طاعتكم وتركه مع المخالفة إلى ما وقع به النهي ، وهذا جواب لقوله : « أنى هذا » وقد تقدم الوعد بالنصرة ، وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة : بان المعاصي كلها من فعل الله ، لأنه تعالى قال « قل هو من عند أنفسكم » ولو لم يكن فعلوه ، لما كان من عند أنفسهم كما أنه لو فعله الله ، لكان من عنده .

قوله تعالى :

﴿ وَما أَصابَكُمْ يَومَ التقى الجمعانِ فَبإذنِ اللهِ وَليعلمَ المؤمنينَ ﴾ (١٦٦) ـ آية ـ .

المعنى :

قوله : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان ﴾ يعني يوم أحد وما دخل عليهم من المصيبة بقتل من قتل من المؤمنين . وقوله : « فباذن الله » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ بعلم الله . ومنه قوله : « فأذنوا بحرب من الله » (١) معناه اعلموا ومنه قوله : « وآذان من الله » (٢) أي إعلام . ومنه « أذناك ما منا من شهيد » (٣) يعني أعلمناك .

الثاني ـ أنه بتخلية الله التي تقوم مقام الاطلاق في الفعل برفع الموانع ،

« ١ » سورة البقرة : آية ٢٧٩ . « ٢ » سورة التوبة : آية ٣ .
« ٣ » حم السجدة : آية ٤٧ .

والتمكين من الفعل الذي يصح معه التكليف . ولا يجوز أن يكون المراد به بأمر الله ، لأنه خلاف الاجماع ، لأن أحداً لا يقول : إن الله يأمر المشركين بقتل المؤمنين ، ولا انه يأمر بشيء من القبائح ، ولأن الأمر بالقبيح قبيح ، لا يجوز أن يفعله الله تعالى . . ويمكن أن يحمل مع تسليم أنه بأمر الله بأن يكون ذلك مصروفاً الى المنهزمين المذورين بعد اخلال من أخل بالشعب ، وضعفهم عن مقاومة عدوهم ، وان حمل على الجميع أمكن أن يكون ذلك بعد تفرقهم وتبدد شملهم وانفساد نظامهم ، لأن عند ذلك أذن الله في الرجوع وألا يخاطروا بنفوسهم وقوله : « وليعلم المؤمنين » ليس معناه أن الله يعلم عند ذلك ما لم يكن عالماً به ، لأنه تعالى عالم بالاشياء قبل كونها وإنما معناه ، وليتميز المؤمنون من المنافقين إلا أنه أجرى على المعلوم لفظ العلم مجازاً على المظاهرة في المجازاة بالقول على مايظهر من الفعل من جهة أنه ليس يعاملهم بما في معلومه أنه يكون منهم إن بقوا ، بل يعاملهم معاملة من كأنه لا يعلم ما يكون منهم حتى يظهر . ليكونوا على غاية الثقة بأن الله إنما يجازي بحسب ما وقع من الاحسان أو الاساءة .

فان قيل : هل يجوز أن يقول القائل : المعاصي تقع باذن الله ، كما قال : « ما أصابكم » من ايقاع المشركين بكم « باذن الله » ؟ قلنا : لا يجوز ذلك لأن الله تعالى إنما خاطبهم بذلك على وجه التسلية للمؤمنين ، فدل ذلك على أن الاذن المراد به التمكين ليتميزوا بظهور الطاعة منهم . وليس كذلك قولهم : المعاصي باذن الله ، لأنه لما عري من تلك القرينة صار بمعنى اباحة الله ، والله تعالى لا يبيح المعاصي، لأنها قبيحة ، ولأن إباحتها تخرجها من معنى المعصية . والفاء انما دخلت في قوله: « فبأذن الله » لأن خبر (ما) التي بمعنى الذي يشبه جواب الجزاء ، لأنه معلق بالفعل في الصلة كتعليقه بالفعل في الشرط ، كقولك الذي قام فمن أجل أنه كريم أي ، لأجل قيامه صح أنه كريم . ومن أجل كرمه قام . وقد قيل أن (ما) هي بمعنى الجزاء ، ولا يصح ههنا لأن الفعل بمعنى المضي .

قوله تعالى :

﴿ وَلِيعلمَ الَّذينَ نافَقوا وَقيلَ لَهمْ تَعالوا قاتِلوا في سَبيلِ اللهِ أو ادْفعوا قالوا لو نَعلمُ قِتالاً لاتَّبعناكُمْ هُمْ لِلكفرِ يَومئذٍ أقربُ مِنهمْ للايمانِ يَقولونَ بأفواهِهمْ ماليسَ في قُلوبهمْ واللهُ أعلمُ بما يَكتمونَ ﴾ (١٦٧) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

قوله : « وليعلم الذين نافقوا » عطف على قوله : « وليعلم المؤمنين » وقيل في خبر ليعلم قولان :

أحدهما ـ أنه مكتف بالاسم ، لأنه بمعنى ليعرف المنافقين .

والثاني ـ أنه محذوف ، وتقديره : وليعلم المنافقين متميزين من المؤمنين . وقوله : ﴿وقيل لهم : تعالوا قاتلوا في سبيل الله﴾ روي أن القائل لهم ذلك كان عبد الله بن عمرو بن خزام يذكرهم الله ويحذرهم أن يخذلوا نبيه عند حضور عدوه ـ في قول ابن اسحاق والسدي ـ وقوله : « أو ادفعوا » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال السدي، وابن جريج :ادفعوا بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا .

الثاني ـ قال ابن عون الانصاري : معناه رابطوا بالقيام على الخيل إن لم تقاتلوا معنا . وقوله : ﴿ قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ﴾ قال ابن اسحاق ، والسدي ان القائل لذلك عبد الله بن أبي بن سلول ، انخزل يوم أحد بثلاثمائة نفس ، قال لهم علام نقتل أنفسنا ارجعوا بنا ، وقالوا للمؤمنين لا يكون بينكم قتال ، ولو علمنا أنه يكون قتال لخرجنا معكم وأضمروا في باطنهم عداوة النبي (ص) ، والمؤمنين ، فقال الله تعالى : « هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان » لأنهم بهذا الاظهار إلى الكفر أقرب منهم للايمان إذ كانوا قبل ذلك في ظاهر أحوالهم إلى الايمان أقرب

حتى هتكوا أنفسهم عنـد من كانت تخفى عليه حالهم من المؤمنين الذين كانوا يحسنون الظن بهم ، وليس المراد أن بينهم وبين المؤمنين قرباً يوجب دخول لفظة أفعل بينهم . وانما هومثل قول القائل : ـ وهو صادق ـ لمن هو كاذب : أنا أصدق منك ، وإن لم يكن بينهما مقاربة في الصدق . وقوله : ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴾ انما ذكر الأفواه ، وإن كان القول لا يكون إلا بالأفواه لامرين :

أحدها ـ للتأكيد من حيث يضاف القول إلى الانسان على جهة المجاز ، فيقال : قد قال كذا : إذا قاله غيره ورضي به ، وكذلك « يكتبون الكتاب بأيديهم » (١) أي يتولونه على غير جهة الأمر به .

والثاني ـ لأنه فرق بذكر الأفواه بين قول اللسان وقول الكتاب .

وقوله : ﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾ يعني أعلم من الكافرين الذين قالوا : لا يكون قتال ، وما كتموه في نفوسهم من النفاق .

قوله تعالى :

﴿ الَّذينَ قالوا لأخوانِهم وَقعدوا لَو أَطاعُونا ما قُتلوا قُل فادرأوا عَن أَنفسكمُ الموتَ إن كنتمُ صادقينَ ﴾ (١٦٨) ـ آية ـ .

الاعراب :

موضع الذين يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب :

أحدها ـ أن يكون نصباً على البدل من الذين نافقوا .

الثاني ـ الرفع على البدل من الضمير في يكتمون .

الثالث ـ الرفع على خبر الابتداء ، وتقديره : هم « الذين قالوا لأخوانهم »

« ١ » سورة البقرة : آية ٧٩ .

المعنى :

والمعني بهذا الكلام والقائلون لهذا القول عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين قالوه في قتلى يوم أحدمن أخوانهم ـ علىقول جابر بن عبد الله ، وقتادة، والسدي ، والربيع ـ وقوله :﴿قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ معناه ادفعوا قال الشاعر :

تقول إذا درأت لها وضيني أهذا دينه أبداً وديني (١)

فان قيل كيف يلزمهم دفع الموت عن أنفسهم بقولهم أنهم لو لم يخرجوا لم يقتلوا ؟ قيل لأن من علم الغيب في السلامة من القتل يجب أن يمكنه أن يدفع عن نفسه الموت فليدفعه ، فهو أجدى عليه .

فان قيل : كيف كان هذا القول منهم كذباً مع أنه اخبار على ما جرت به العادة ؟ قلنا : لأنهم لايدرون لعلهم لو لم يخرجوا لدخل المشركون عليهم في ديارهم ، فقتلوهم هـذا قول أبي علي وقال غيره معنى « إن كنتم صادقين » أي محقين في تثبيطكم من الجهاد فراراً من القتل .

قوله تعالى :

﴿ وَلا تَحسبنَّ الَّذينَ قُتلوا في سَبيلِ اللهِ أمواتاً بَل أحياءٌ عِندَ رَبهم يُرزَقونَ ﴾ (١٦٩) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

ذكر ابن عباس ، ، وابن مسعود ، وجابر بن عبدالله عن النبي (ص) أنه قال لما أصيب أخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر ترد انهار الجنة، وتأكل من ثمارها . قال البلخي : وهذا ضعيف ، لأن الأرواح جماد لا حياة فيها،

---

(١) انظر ٢ : ١٤٨ .

ولو كانت حية لاحتاجت إلى أرواح أخر وأدى إلى مالا يتناهى فضعف الخبر من هذا الوجه . وفي الناس من قال : إن تأويل الآية اخبار عن صفة حال الشهداء في الجنة من حيث فسد القول بالرجعة ، وهذا ليس بشيء لأنه خلاف الظاهر ، ولأن أحداً من المؤمنين لا يحسب أن الشهداء في الجنة أموات ، وأيضاً ، فقد وصفهم الله بأنهم أحياء فرحون في الحال ، لأن نصب فرحين هو على الحال . وقوله : ﴿ لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ يؤكد ذلك ، لأنهم في الآخرة قد لحقوا بهم ، ومعنى الآية النهي عن أن يظن أحد أن المقتولين في سبيل الله أموات . والخطاب للنبي (ص) ، والمراد به جميع المكلفين ، كما قال : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء » وأنه ينبغي أن يعتقد أنهم « أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله » وبهذا قال الحسن ، وعمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء واختاره الجبائي ، والرماني ، وأكثر المفسرين . وقال بعضهم وذكره الزجاج : المعنى ولا تحسبنهم أمواتاً في دينهم بل هم أحياء في دينهم ، كما قال : « أو من كان ميتاً فاحييناه » الآية (١) وقال البلخي معناه : لا تحسبنهم كما يقول الكفار أنهم لا يبعثون بل يبعثون ، وهم «أحياء عند ربهم يرزقون فرحين» . وقال قوم : إن أرواحهم تسرح في الجنة وتلتذ بنعيمها ، فهم « أحياء عند ربهم » وقوله : « عند ربهم » قيل في معناه قولان : أحدهما ـ أنهم بحيث لا يملك لهم أحد نفعا ولا ضرا إلا ربهم وليس المراد بذلك قرب المسافة لأن ذلك من صفة الاجسام وذلك مستحيل عليه تعالى .

والوجه الآخر ـ عند ربهم أحياء من حيث يعلمهم كذلك دون الناس ـ ذكره أبو علي ـ .

الاعراب :

وقوله : « بل أحياء » رفع على أنه خبر الابتداء ، وتقديره بل هم أحياء ، ولا يجوز فيه النصب بحال ، لأنه كان يصير المعنى بل احسبنهم أحياء ، والمراد بل

« ١ » سورة الانعام : آية ١٢٢ .

اعلمهم احياء .

المعنى والحجة :

فان قيل لم لا يجوز أن يكون المعنى بل أحياء على معنى أنهم بمنزلة الأحياء كما يقال لمن خلف خلفاً صالحاً أو ثناء جميلا : ما مات فلان بل هو حي ؟ قلنا : لا يجوز ذلك لأنه انما جاز هذا بقرينة دلت عليه من حصول العلم بأنه ميت فانصرف الكلام إلى أنه بمنزلة الحي ، وليس كذلك الآية لأن إحياء الله لهم في البرزخ جائز مقدور والحكمة تجيزه .

فان قيل أليس في الناس من أنكر الحديث من حيث أن الروح عرض لا يجوز أن يتنعم ؟ قيل : هذا ليس بصحيح ، لأن الروح جسم رقيق هوائي مأخوذ من الريح . والدليل على ذلك أن الروح تخرج من البدن وترد إليه وهي الحساسة الفعالة دون البدن ، وليست من الحياة في شيء ، لأن ضد الحياة الموت وليس كذلك الروح ـ هذا قول الرماني سؤاله وجوابه ـ . وفي الآية دليل على أن الرجعة الى دار الدنيا جائزة لاقوام مخصوصين ، لأنه تعالى أخبر أن قوماً ممن قتلوا في سبيل الله ردهم الله أحياء كما كانوا ، فأما الرجعة التي يذهب إليها أهل التناسخ ، ففاسدة ، والقول بها باطل لما بيناه في غير موضع ، وذكرنا جملة منه في شرح جمل العلم فمن أراده وقف عليه من هناك ان شاء الله . وقال أكثر المفسرين الآية مختصة بقتلى أحد . وقال أبو جعفر (ع) ، وكثير من المفسرين: انها تتناول قتلى بدر وأحد معاً .

قوله تعالى ·

﴿ فَرِحينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضلِهِ وَيَستَبْشِرونَ بِأَلَّذينَ لَمْ يَلحَقوا بِهِمْ مِنْ خَلفِهِمْ أَلا خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلا هُمْ يَحزَنونَ ﴾ (١٧٠) ـ آية ـ .

الإعراب :

قوله : « فرحين » نصب على الحال من « يرزقون » وهو أولى من رفعه على بل أحياء لأن النصب ينبيء عن اجتماع الرزق والفرح في حال واحدة ، ولو رفع على الاستئناف لكان جائزاً . وقال الفراء : يجوز نصبه على القطع عن الأول .

المعنى ، واللغة :

وقوله : ﴿ بما آتاهم الله من فضله ﴾ معناه بما أعطاهم الله من ضروب نعمه ، ومعنى يستبشرون أي يسرون بالبشارة وأصل الاستفعال طلب الفعل فالمستبشر بمنزلة من طلب السرور في البشارة ، فوجده . وأصل البشارة من البشرة وذلك لظهور السرور بها في بشرة الوجه . ومنه البشر لظهور بشرته . ومعنى قوله : ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم ﴾ أي هم بمنزلة من قد بشر في صاحبه بما يسر به . ولأهل التأويل فيه قولان :

أحدها ـ قال ابن جريج ، وقتادة : يقولون : اخواننا يقتلون كما قتلنا فيصيبون من كرامة الله ما أصبنا .

والآخر ـ أنه يؤتى الشهيد بكتاب فيه ذكر من يقدم عليه من اخوانه يبشر ذلك فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقدومه في الدنيا ـ ذكره السدي ـ وقال الزجاج : معناه أنهم لم يلحقوا بهم في الفعل إلا أن لهم فضلا عظيما بتصديقهم وإيمانهم .

ولحقت ذلك والحقت غيري ، مثل علمت وأعلمت ، وقيل لحقت وألحقت لغتان بمعنى واحد مثل بان وأبان ، وعلى ذلك : إن عذابك بالكفار ملحق أي لاحق على هذا أكثر نقاد الحديث . وروى بعض الثقات ملحق بنصب الحاء ذكره البلخي .

وقوله : ﴿ ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ قيل في موضع أن قولان :

أحدها ـ انه خفض بالباء وتقديره بان لا خوف ، هذا قول الخليل ،

والكسائي والزجاج .

الثاني ـ ان يكون موضعه نصباً على أنه لما حذف حرف الجر نصب بالفعل كما قال الشاعر :

أمرتك الخير (١)

أي بالخير في قول غيرهم .

قوله تعالى :

﴿ يَستبشرونَ بنعمةٍ مِن اللهِ وَفضلٍ وَإنّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المؤمنينَ ﴾ (١٧١) ـ آية ـ .

القراءة :

قرأ الكسائي ﴿ وإن الله ﴾ ـ بكسر الالف ـ الباقون بفتحها على معنى وبأن الله ، ورجح هذه القراءة أبو علي الفارسي . والكسر على الاستئناف . وفي قراءة عبد الله « والله لا يضيّع أجر المؤمنين » . وهو يقوي قراءة من قرأ بالكسر . قوله : « يستبشرون » .

المعنى :

يعني هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله الذين وصفهم بانهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله ، وانهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ،فوصفهم ههنا بانهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل . وفضل الله وان كان هو النعمة قيل في تكراره ههنا قولان :

أحدها ـ لأنها ليست نعمة مضيقة على قدر الكفاية من غير مضاعفة السرور واللذة .

« ١ » انظر ٢ : ٣٤٨ فقد مر البيت هناك كاملا .

والآخر - للتأكيد لتمكين المعنى في النفس ، والمبالغة . والنعمة هي المنفعة التي يستحق بها الشكر إذا كانت خالية من وجوه القبح ، لأن المنفعة على ضربين :

أحدهما - منفعة اغترار ، وحيلة ، و [الثاني] - منفعة خالصة من شائب الاساءة . والنعمة : تعظيم بفعل غير المنعم ، كنعمة الرسول على من دعاه إلى الاسلام فاستجاب له ، لأن دعاءه له نفع من وجهين :

أحدهما - حسن النية في دعائه إلى الحق ليستجيب له .

والآخر - قصده الدعاء إلى حق من يعلم انه يستجيب له المدعو وانما يستدل بفعل غير المنعم على موضع النعمة في الجلالة وعظم المنزلة .

وقوله : ﴿ وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ وان كانوا هم علموا ذلك فانما ذكر الله انهم يستبشرون بذلك، لأن ما يعلمونه في دار التكليف يعلمونه بدليل . وما يعلمونه بعد الموت يعلمونه ضرورة . وبينهما فرق واضح ، لأن مع العلم الضروري يتضاعف سرورهم ، ويشتد اغتباطهم .

قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٧٢) - آية واحدة -.

سبب النزول والقصة :

ذكر ابن عباس والسدي ، وابن اسحاق ، وابن جريج ، وقتادة : ان سبب نزول هذه الآية ان أبا سفيان: صخر بن حرب ، وأصحابه لما انصرفوا عن أحد ، ندموا . وقال بعضهم لبعض : لا محمداً قتلتم ولا الكواعب اردفتم فارجعوا فاغيروا على المدينة ، واسبوا ذراريهم . وقيل : إن بعضهم قال لبعض : إنكم قتلتم عدوكم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم . ارجعوا فاستأصلوهم . فرجعوا الى حمراء الاسد وسمع بهم النبي (ص) فدعا أصحابه إلى الخروج ، وقال : لا يخرج معنا

إلا من حضرنا أمس للقتال ، ومن تأخر عنا ، فلا يخرج معنا . وروي أنه (ص) أذن لجابر وحده في الخروج . ـ وكان خلفه أبوه على بناته يقوم بهن ـ فاعتل بعضهم بأن قال : بنا جراح ، وآلام فأنزل الله تعالى « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » وقيل نزلت فيهم أيضاً « ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون » (١) ثم استجابوا على ما بهم إلى اتباعهم وألقى الله الرعب في قلوب المشركين ، فانهزموا من غير حرب . وخرج المسلمون إلى حمراء الاسد . وهي على ثمانية أميال من المدينة .

الاعراب ، واللغة :

وموضع « الذين » يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب : الجر ـ على أن يكون نعتاً للمؤمنين ـ والرفع ـ على الابتداء ـ وخبر الذين الجملة ـ والنصب ـ على المدح ـ وقوله : ﴿ من بعد ما أصابهم القرح ﴾ معناه من بعد ما نالهم الجراح وأصله الخلوص من الكدر . ومنه ماء قراح أي خالص . والقراح من الارض : ما خلص طينه من السبخ ، وغيره . والقريحة خالص الطبيعة . واقترحت عليه كذا أي اشتهيته عليه لخلوصه على ما تتوق نفسه إليه، كأنه قال : استخلصته . وفرس قارح أي طلع نابه لخلوصه ببلوغ تلك الحال عن نقص الصغار ، وكذلك ناقة قارح أي حامل . فالقرح الجراح ، لخلوص ألمه إلى النفس .

وأجاب ، واستجاب بمعنى واحد . وقال قوم : استجاب : طلب الاجابة . واجاب : فعل الاجابة . وقوله : « للذين أحسنوا » فالاحسان هو النفع الحسن . والافضال : النفع الزائد على أقل المقدار . وقوله : « واتقوا » معناه اتقوا معاصي الله «أجر عظيم» معناه ههنا الذين فعلوا الحسن الجميل من طاعة النبي(ص) ، والانتهاء إلى قوله . وقوله : « منهم » معناه تبيين الصفة لا التبعيض .

---

(١) سورة النساء : آية ١٠٣ .

قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾(١٧٣) - آية بلا خلاف -

المعنى :

وقيل في المعني بقوله : « الناس » الأول ثلاثة أقوال :

أولها - قال ابن عباس ، وابن اسحاق : انهم ركب دسهم أبو سفيان إلى المسلمين ليجبنوهم عند منصرفهم من أحد لما أرادوا الرجوع إليهم وقال السدي : هو اعرابي ضمن له جعل على ذلك . وقال الواقدي هو نعيم بن مسعود الاشجعي وهو قول أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) . وقوله : « إن الناس قد جمعوا لكم » المعني به أبو سفيان وأصحابه - في قول أكثر المفسرين - وقال مجاهد : انما كان ذلك في بدر الصغرى وهي سنة أربع وكانت أحد في سنة ثلاث من الهجرة . وإنما عبر بلفظ الجميع عن الواحد في قوله : « قال لهم الناس » لأمرين :

أحدهما - ان تقديره جاء القول من قبل الناس ، فوضع كلام موضع كلام - ذكره الرماني - .

والثاني - إن الواحد يقوم مقام الناس ، لأن « الانسان » إذا انتظر قوماً فجاء واحد منهم ، قد يقال : جاء الناس إما لتفخيم الشأن ، وأما لابتداء الاتيان . وقوله : « فاخشوهم » حكاية عن قول نعيم بن مسعود للمسلمين . يعني اخشوا أبا سفيان ، وأصحابه فبين الله تعالى ان ذلك القول زادهم ايماناً وثباتاً على دينهم ، واقامة على نصرة نبيهم . وقالوا عند ذلك « حسبنا الله ونعم الوكيل » ومعناه كافينا الله .

اللغة ، والقصة :

وأصله من الحساب ، لأن الكفاية بحسب الحاجة ، وبحساب الحاجة . ومنه

الحسبان وهو الظن . والوكيل : الحفيظ . وقيل : هو الولي . وأصله القيام بالتدبير. والمتولي للشيء قائم بتدبيره ، والحافظ له يرجع إلى هذا المعنى . ومعنى الوكيل في صفات الله المتولي للقيام بتدبير خلقه ، لأنه مالكهم رحيم بهم . والوكيل في صفة غيره : انما يعقد بالتوكيل . وقال قوم من المفسرين : إن هذا التخويف من المشركين كان في السنة المقبلة ، لأن أبا سفيان ، لما انصرف يوم أحد ، قال موعدكم البدر في العام المقبل . فقال النبي (ص) لمن حضره : قولوا نعم . فلما كان العام المقبل خرج النبي (ص) باصحابه ، وكان أبو سفيان كره الخروج ، فدسّ من يخوف النبي (ص) وأصحابه لم يسمعوا منهم ، وخرجوا إلى بدر فلما لم يحضر أحد من المشركين ، رجعوا ، وكانوا صادفوا هناك تجارة اشتروها فربحوا فيها ، وكان ذلك نعمة من الله . وروى ذلك أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) .

قوله تعالى :

﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٧٤) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى ، واللغة ، والاعراب :

الانقلاب ، والرجوع ، والمصير واحد . وقد فرق بينهما بأن الانقلاب هو المصير إلى ضد ما كان قبل ذلك كانقلاب الطين خزفاً . ولم يكن قبل ذلك خزفاً والرجوع هو المصير إلى ما كان قبل ذلك وقوله : « بنعمة من الله وفضل » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ ان النعمة العافية . والفضل : التجارة . والسوء : القتل ـ في قول السدي ، ومجاهد ـ وقال الزجاج : النعمة ههنا الثبوت على الايمان في طاعة الله وفضل الربح في تجارتهم ، لأنه روي أنهم اقاموا في الوضع ثلاثة أيام فاشتروا أدماً وزبيباً ربحوا فيه : وقال قوم : إن أقل ما يفعله الله بالخلق فهو نعمة ، وما زاد عليه

فهو الموصوف بأنه فضل . والفرق بين النعمة والمنفعة أن النعمة لا تكون نعمة إلا إذا كانت حسنة ، لأنه يستحق بها الشكر ولا يستحق الشكر بالقبيح . والمنفعة قد تكون حسنة وقد تكون قبيحة مثل ان يغصب مالا ينتفع به - وإن كان قبيحاً - وقوله : ﴿لم يمسسهم سوء﴾ موضعه نصب على الحال . وتقديره : فانقلبوا بنعمة من الله وفضل سالمين . والعامل فيه « فانقلبوا » والمعني بالآية الذين أمرهم الله تعالى بتتبع المشركين إلى حمراء الاسد ، فلما بلغوا إليها وكان المشركون أسرعوا في المضي إلى مكة رجع المسلمون من هناك من غير أن يمسهم قتل ولا جراح غانمين سالمين ، وقدامتثلوا ما أمرهم الله تعالى به . واتبعوا رضوانه « والله ذو فضل عظيم » أي ذو إحسان عظيم على عباده ديني ودنيوي .

قوله تعالى :

﴿إنَّما ذلكُمُ الشَّيطان يُخوِّفُ أولياءَهُ فلا تخافوهُمْ وَخافونِ إنْ كنتم مُؤمنينَ﴾ (١٧٥) - آية -.

معنى الآية انما ذلك التخويف الذي كان من نعيم بن مسعود من فعل الشيطان ، وباغوائه ، وتسويله . يخوف أولياءه المؤمنين . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يخوف المؤمنين بالكافرين . وقال الزجاج ، وأبو علي الفارسي ، وغيرهما من أهل العربية : إن تقديره يخوفكم أولياءه . أي من أوليائه بدلالة قوله : « فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » أي إن كنتم مصدقين بالله فقد أعلمتكم أني انصركم عليهم ، فقد سقط عنكم الخوف . ومثله قوله : « لينذر باساً شديداً من لدنه » (١) ومعناه لينذركم بأساً والتقدير لينذركم ببأس شديد ، فلما حذف الجار نصبه . وقيل : إن « يخوف » يتعدى إلى مفعولين ، لأنك تقول : خفت زيداً وخوفت زيداً عمراً . ويكون في الآية حذف أحد المفعولين ، كما قلناه في

« ١ » سورة الكهف : آية ٢ .

قولهم : فلان يعطي الدراهم ويكسو الثياب . وقال بعضهم : هذا لا يشبه الآية ، لأنه انما أجازوا حذف المفعول الثاني في أعطى الدراهم ، لأنه لايشتبه أن الدراهم هي التي اعطيت. وفي الآية تشتبه الحال في من المخوف ومن المخوّف وقال قوم : «يخوف اولياءه» أي انما خاف المنافقون ومن لا حقيقة لايمانه . وقال الحسن ، والسدي : يخوف أولياءه المنافقين ، ليقعدوا عن قتال المشركين ويخوف يتعدى إلى مفعولين كما يتعدى ، يعطي لأن أصله خاف زيد القتال . وخوفته القتال . كما تقول عرف زيد أخاك وعرفته أخاك . فان قيل : كيف يكون الاولياء على المفعول الثاني وانما التخويف من الاولياء لغيرهم ؟ قيل : ليس التقدير هكذا . وانما هو على (خاف المؤمنون أوليـاء الشيطان) . وهو خوفهم أولياءه . قال الرماني : وغلط من قدر التقدير الأول . وقوله : « فلا تخافوهم » يعني لا تخافوا المشركين . وانما قال : (ذلك)وهي انما يشار بها إلى ماهو بعيد لأنه أراد ذلك القول تقدم من المخوف لهم من قوله : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » .

قوله تعالى :

﴿ ولا يَحزُنك الَّذينَ يُسارعونَ في الكفرِ إنَّهم لَنْ يَضرّوا اللهَ شيئاً يُريدُ اللهُ أنْ لا يَجعلَ لَهمْ حظّاً في الآخرةِ ولَهمْ عَذابٌ عَظيمٌ ﴾ (١٧٦) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة :

قرأ نافع في جميع القرآن « يحزنك » ـ بضم الياء ـ إلا قوله : « لا يحزنهم الفزع الاكبر » (١) . الباقون بفتح الياء في جميع القرآن . وقرأ أبو جعفر عكس ما قرأ نافع . فانه فتح في جميع القرآن إلا قوله « لا يحزنهم » فانـه ضم الياء

« ١ » سورة الانبياء : آية ١٠٣ .

وحكى البلخي عن ابن أبي محيص الضم في الجميع .

اللغة :

قال سيبويه: تقول : فتن الرجل ، وفتنته . وحزن ، وحزنته . وزعم الخليل أنك حيث قلت فتنته ، وحزنته ، لم ترد أن تقول : جعلته حزيناً وجعلته فاتناً . كما انك حين قلت: أدخلته جعلته داخلا ، ولكن أردت أن تقول : جعلت فيه حزناً ، وفتنة. فقلت فتنته كما قلت كحلته أي جعلت فيه كحلا . ودهنته جعلت فيه دهناً . فجئت بفعلته - على حده - ولم ترد بفعلته ههنا نفس قولك حزن وفتن ولو أردت ذلك لقلت أحزنته وأفتنته .وفتن من فتنته مثل حزن من حزنته قال : وقال بعض العرب : أفتنت الرجل وأحزنته إذا جعلته حزيناً ، وفاتناً ، فغيره إلى أفعل - هذا حكاه أبوعلي الفارسي حجة لنافع - وقال قوله : « لا يحزنهم » إنما ضم على خلاف أصله لعله اتبع أثراً أو أحب الأخذ بالوجهين :

المعنى :

والمعني بقوله: « الذين يسارعون في الكفر » - على قول مجاهد - وابن اسحاق - المنافقون . وفي قول أبي علي الجبائي : قوم من العرب ارتدوا عن الاسلام . فان قيل : كيف قال : « يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة » والارادة لا تتعلق بألا يكون الشيء وإنما تتعلق بما يصح حدوثه ؟ قلنا : عنه جوابان :

أحدهما - قال ابن اسحاق : « يريد الله » أن يحبط أعمالهم بما استحقوه من المعاصي والكبائر .

والثاني - ان الله يريد أن يحكم بحرمان ثوابهم الذي عرضوا له بتكليفهم ، وهو الذي يليق بمذهبنا ، لأن الاحباط عندنا ليس بصحيح فان قيل كيف قال : « يريد الله » وهذا إخبار عن كونه مريداً في حال الاخبار ، وإرادة الله تعالى لعقابهم تكون يوم القيامة ، وتقديمها على وجه يكون عزماً وتوطيناً للنفس

لا (١) يجوز عليه تعالى ؟ قلنا: عنه جوابان :

أحدها ـ قال أبو علي : معناه أنــه سيريد في الآخرة حرمانهم الثواب ، لكفرهم الذي ارتكبوه .

والثاني ـ أن الارادة متعلقة بالحكم بذلك ، وذلك حاصل في حال الخطاب . وقال الحسن : يريد بذلك فيما حكم من عدله . وقوله : « يسارعون في الكفر » أي يبادرون إليه . والسرعة وإن كانت محمودة في كثير من المواضع ، فأنها مذمومة في الكفر . والعجلة مذمومة على كل حال إلا في المبادرة إلى الطاعات . وقيل : إن العجلة هي تقديم الشيء قبل وقته ، وهي مذمومة على كل حال ، والسرعة فعل لم يتأخر فيه شيء عن وقته ، ولا يقدم قبله ، ثم بين تعالى أنهم لمسارعتهم إلى الكفر لا يضرون الله شيئا ، لأن الضرر يستحيل عليه تعالى . وانما يضرون أنفسهم بأن يفوتوا نفوسهم الثواب ، ويستحقوا العظيم من العقاب ، ففي الآية تسلية للنبي(ص) عما يناله من الغم باسراع قوم إلى الكفر بأن وبال ذلك عائد عليهم ، ولا يضرون الله شيئاً .

قوله تعالى :

﴿ إنَّ ٱلَّذينَ ٱشْتروا الـكفرَ بالايمانِ لَنْ يَضرُّوا اللهَ شَيئاً وَلهمْ عَذابٌ أليمٌ ﴾ (١٧٧) ـ آية ـ .

المعنى :

استأنف الله تعالى بهذه الآية الاخبار بأن من اشترى الكفر بالايمان بمعنى استبدل الكفر بالايمان . وقد بينا فيما مضى أن تسمية ذلك شراء مجاز لكن لمـــا فعلوا الكفر بدلا من الايمان شبه ذلك بشراء السلعه بالثمن وبين أن من فعل ذلك لا يضر الله شيئاً ، لأن مضرته عائدة عليه على ما بيناه . وانما كرر « لن يضروا

« ١ » في المطبوعة (ولا) .

الله » في هذه الآية ، لأنه ذكر في الآية الأولى ـ على طريقة العلة ـ لما يجب من التسلية عن المسارعة إلى الضلالة ، وذكر في هذه الآية على وجه العلة لاختصاص المضرة للعاصي دون المعصى .

اللغة :

والفرق بين المضرة والاساءة أن الاساءة لا تكون إلا قبيحة ، والمضرة قد تكون حسنة إذا كانت لطفاً ، أو مستحقة أو فيها نفع يوفى عليها أو دفع ضرر أعظم منها كفعل العقاب ، وضرب الصبي للتأديب ، وغير ذلك .

الاعراب :

وقوله : ﴿ شيئاً ﴾ نصب على أنه وقع موقع المصدر ، وتقديره « لن يضروا الله شيئاً » من الضرر . ويحتمل أن يكون نصباً بحذف الباء كأنه قال بشيء مما يضر به ، كما يقول القائل : ما ضررت زيداً شيئاً من نقص مال ، ولا غيره .

قوله تعالى :

﴿ وَلا يَحسبنَّ الَّذينَ كفروا أنَّما نُملي لهمْ خيرٌ لأنفسهمْ إنَّما نُملي لهمْ لِيزدادوا إثماً ولهمْ عذابٌ مُهينٌ ﴾ (١٧٨) ـ آية واحدة بلا خلاف ـ .

القراءة ، والاعراب :

قرأ حمزه « ولا تحسبن » بالتاء وفتح السين . الباقون بالياء ، وهو الأقوى ، لأن حسبت يتعدى إلى مفعولين (وأن) على تقدير مفعولين ، لأن قوله : « أنما نملي لهم خير لأنفسهم » سدمسد المفعولين لأنه لا يعمل في (أنما) إلا ما يتعدى إلى مفعولين : نحو حسبت وظننت واخواتها . وحسبت يتعدى إلى مفعولين أومفعول

يسد مسد المفعولين نحو حسبت أن زيداً منطلق وحسبت أن يقوم عمرو . فقوله: « أنما نملي لهم خير لأنفسهم » سد مسد المفعولين اللذين يقتضيهما « يحسبن » وكسر (إن) مع القراءة بالياء ضعيف وقرىء به . ووجه ذلك قال أبو علي الفارسي (إن) يتلقى بها القسم كما يتلقى بلام الابتداء ، ويدخل كل واحد منهما على الابتداء والخبر فكسر (إن) بعد « يحسبن » وعلق عنها الحسبان ، كما يعلق باللام ، فكأنه قال : لا يحسبن الذين كفروا للآخرة خير لهم . ومن قرأ بالتاء فعلى البدل ، كقوله : « هل ينظرون إلا الساعة ان تأتيهم بغتة » (١) وكما قال الشاعر :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما (٢)

وقال الفراء : يجوز أن يكون عمل فيه « يحسبن » مقدرة تدل عليها الاولى . وتقديره : ولا تحسبن الذين كفروا يحسبون انما نملي لهم وهكذا في قوله : « هل ينظرون » ويجوز كسر (انما) مع التاء في (يحسبن) وهو وجه الكلام ، لتكون الجملة في موضع الخبر : نحو حسبت زيداً انه كريم . غير انه لم يقرأ به أحد من السبعة . وقوله : « إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً » معنى اللام ههنا للعاقبة وليست بلام الغرض . كأنه قال : إن عاقبة أمرهم ازدياد الاثم كما قال : « فالتقطه آل فرعون

« ١ » سورة الزخرف : آية ٦٦ .

« ٢ » قائله عبدة بن الطبيب أمالي السيد المرتضى ١ : ١١٤ ، والاغاني ١٢ : ١٤٨ والحماسة شرح التبريزي ٢ : ٢٨٥ ، ٢٨٦ وغيرها وهو من أبيات قالها في قيس بن عاصم ومطلعها :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

وقيس بن عاصم رجل حليم شريف في قومه ، وكان الاحنف بن قيس يقول : انما تعلمت الحلم من قيس بن عاصم . وقال ابن الاعرابي : قيل لقيس بماذا سدت ? فقال : بثلاث : بذل الندى وكف الأذى ، ونصر المولى . قال التبريزي في شرحه لهذا البيت : يروى (هلك) بالنصب وبالرفع ، فاذا نصبته كان (هلكه) في موضع البدل من (قيس) و (هلك) ينتصب على أنه خبر (كان) كأنه قال : فما كان هلك قيس هلك واحد من الناس بل مات لموته خلق كثير . واذ رفعته كان (هلكه) في موضع المبتدأ (وهلك واحد) في موضع الخبر . والجملة في موضع النصب على انها خبر كان .

ليكون لهم عدواً وحزناً » (١) وكما قال : « وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله » (٢) وكقوله : « لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم إذا ضربوا في الارض ... » إلى قوله : « ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » (٣) وما قالوا ذلك ليكون حسرة وإنما كان عاقبته كذلك وقال الشاعر :

وأمُ سماك فلا تجزعي		فللموت ماتلد الوالده (٤)

وقال آخر :

أموالنا لذوي الميراث نجمعها		ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال :

وللمنايا تربي كل مرضعة		وللخراب يجد الناس بنيانا

وقال آخر :

لدوا للموت وابنوا للخراب		[فكلكم يصير إلى ذهاب]

ويقول القائل : ما تزيدك موعظتي الا شراً ، وما أراها عليك إلاوبالا . ولا يجوز أن يحمل ذلك على لام الغرض والارادة ، لوجهين :

أحدهما ـ ان ارادة القبيح قبيحة ولا نجوز ذلك عليه تعالى .

والثاني ـ لو كانت اللام لام الارادة لكان الكفار مطيعين لله من حيث فعلوا ما أراده الله وذلك خلاف الاجماع . وقد قال الله تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » (٥ وقال : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله » (٦) وقال أبو الحسن الاخفش والاسكافي : في الآية تقديم وتأخير . وتقديره ولا تحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم ليزدادوا إثماً أنما نملي لهم خير لأنفسهم . وهذا ضعيف ،

« ١ » سورة القصص : آية ٨ .		« ٢ » سورة الزمر : آية ٨ .

« ٣ » سورة آل عمران : آية ١٥٦ .

« ٤ » العجز في الذيل من سمط اللآلي : ٩٢ وهو مثل سائر ينسب لشتيم بن خويلد الفزاري، ولسماك بن عمرو الباهلي .

« ٥ » سورة الذاريات : آية ٥٦ .		« ٦ » سورة النساء : آية ٦٣ .

لأنه كان يجب لو كان على التقديم ، والتأخير أن تكون انما الاخيرة مفتوحة الهمزة لأنها معمول تحسبن ـ على هذا القول ـ وأن تكون الاولى مكسورة ، لأنها مبتدأة في اللفظ والتقديم والتأخير لا يغير الاعراب عن استحقاقه وذلك خلاف ما عليه جميع القراء ، فانهم أجمعوا على كسر الثانية . والاكثر على فتح الاولى . ويمكن أن يقال : ـ نصرة لأبي الحسن ـ أن يكون التقدير ولا تحسبن الذين كفروا قائلين: إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ، بل فليعلموا أنما نملي لهم خير لأنفسهم . فيكون الحسبان قد علق ، ولم يعمل . وتكون إنما الثانية كسرت ، لأنها بعد القول . وتكون في موضع نصب بالقول المقدر وتكون أنما الاولى منصوبة بالعلم المقدر الذي بيناه . وعلى هذا يجوز أن يكون الوعد عاماً ، ويكون الوعيد المذكور مشروطاً بالمقام على الكفر . وعلى الوجه الأول الذي حملنا اللام على العاقبة لابد من تخصيصها بمن علم منه انه لا يؤمن ، لأنه لو كان فيهم من يؤمن لما توجه إليهم هذا الوعيد المخصوص وقال البلخي : معناه لا تحسبن الذين كفروا ان املاءنا لهم رضاء بافعالهم ، وقبول لها بل هو شر لهم ، لأنا نملي لهم وهم يزدادون إثماً يستحقون به عذاباً أليما . ومثله : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس » (١) أي ذرأنا كثيراً من الخلق سيصيرون إلى جهنم بسوء فعالهم و « ما » في قوله : « إنما » تحتمل أمرين :

أحدها ـ أن تكون بمعنى الذي والتقدير : إن الذي نمليه خير لأنفسهم .

والآخر ـ أن يكون ما نملي بمنزلة الاملاء فتكون مصدراً . وإذا كانت كذلك فلا تحتاج إلى عائد يعود إليها . والاملاء : طول المدة . « فنملي لهم » معناه نطول أعمارهم . ومنه قوله : « واهجرني مليا » (٢) أي حيناً طويلا . ومنه قوله : عشت طويلا ، وتمليت حينا . والملاُ : الدهر والملوان : الليل والنهار ، لطول تعاقبها . واملاء الكتاب وانما أنكر تعالى أن يكون الاملاء خير لهم ـ وان

« ١ » سورة الاعراف : آية ١٧٨ . « ٢ » سورة مريم : آية ٤٦ .

كانت نعمة دنيوية ـ من وجهين :

أحدها ـ قال الجبائي : أراد خير من القتل في سبيل الله ، كشهداء أحد

الثاني ـ قال البلخي : لاتحسبن ان ذلك خير استحقوه بفعلهم ، أي لاتغتروا بذلك فتظنوا انه لمنزلة لهم ، لأنهم كانوا يقولون : إنه تعالى لو لم يرد ما هم عليه ، لم يمهلهم .

قوله تعالى :

﴿ ماكانَ اللهُ لِيذرَ المؤمنينَ على ما أنتم عليهِ حتى يميزَ الخبيثَ مِن الطيبِ وَماكانَ اللهُ لِيطلعكمْ على الغيبِ ولكنَّ اللهَ يجتبي مِنْ رُسُلهِ مَنْ يَشاءُ فآمِنوا باللهِ وَرُسُلهِ وَلِنْ تُؤمنوا وَتتقوا فلكمْ أجرٌ عَظيمٌ ﴾ (١٧٩) ـ آية بلا خلاف ـ .

قرأ حمزة والكسائي « يميز » ـ بالتشديد ـ الباقون بالتخفيف . يقال : مازه يميزه ، وميزه يميزه ـ لغتان ـ .

ومعنى الآية لم يكن الله ليدع المؤمنين على ما أنتم عليه ، فلا يميز المؤمن من المنافق ، والكافر «حتى يميز الخبيث من الطيب» . وقيل في معنى الخبيث ههنا : قولان :

أحدها ـ قال مجاهد ، وابن اسحاق ، وابن جريج : هو المنافق . قالوا : كما ميز المؤمن من المنافق يوم أحد . بالامتحان على ما مضى شرحه .

الثاني ـ قال قتادة ، والسدي : حتى يميز المؤمن من الكافر .

وسبب نزول الآية ما قاله السدي : إن المشركين قالوا : إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ، ومن يكفر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال قوم : إن كان يعلم المنافقين ، فما حاجته إلى اختبارهم ؟ فأنزل الله تعالى انه يميزهم . وذلك يكون : تارة باختبارهم ، وتارة بتعيينهم .

والتمييز بين الكافر وبين المؤمن أو المنافق والمؤمن بالامتحان والاختبار في

تكليف الجهاد ، ونحوه : مما يظهر به حالهم ، وتنكشف ضمائرهم وقيل : بالدلالات، والعلامات التي يستدل بها عليهم من غير نص اعلام لهم فان قيل : هل اطلع نبيه (ص) على الغيب ؟ قلنا : عن ذلك جوابان :

أحدها ـ قال السدي : لا ، ولكنه اجتباه ، فجعله رسولا وقال ابن اسحاق: ولكن الله اجتبى رسوله باعلامه كثيراً من الغايبات . وهذا هو الأليق بالآية . وقال الزجاج قوله : ﴿ ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ سببه أن قوماً قالوا : هلا جعلنا الله أنبياء ؟ فأخبر الله تعالى أنه « يجتبي من رسله من يشاء » و(من) في الآية لتبيين الصفة لا للتبعيض، لأن الأنبياء كلهم مجتبون .

قوله تعالى :

﴿ وَلا تَحسبنَّ الَّذينَ يَبخلونَ بما آتاهمُ اللهُ مِنْ فَضلهِ هُوَ خَيراً لَهمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهمْ سَيطوَّقونَ ما بَخلوا بهِ يَومَ القِيامةِ وَللهِ ميراثُ السماواتِ وَالارضِ وَاللهُ بما تَعملونَ خَبيرٌ ﴾ (١٨٠) .

قرأ حمزة « ولا تحسبن » بالتاء المعجمة من فوق الباقون بالياء ، وهو الأقوى ، لأن عليه أكثر القراء ، فمن قرأ بالتاء ، فالتقدير على قراءته ولا تحسبن بخل الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم . وجاز حذف البخل مع الفصل لدلالة يبخلون عليه ، كما يقال من كذب كان شراً له . والمعنى كان الكذب شراً له . قال الشاعر :

إذا نُهي السفيه جرى إليه وخالف والسفيه إلى خلاف (١)

ومعناه خالف إلى السفه . قال الزجاج : إنما تكون هو ، وهما ، وهم ، وأنا وأنت ، ونحن فصولا مع الافعال التي تحتاج إلى اسم وخبر ، ولم يذكر سيبويه الفصل مع الابتداء ، والخبر . قال : ولو تأول متأول قوله الفصل هاهنا أنه يدل

(١) معاني القرآن للفراء ١ : ١٠٤ - ٢٤٩ . آمالي ابن الشجري ١ : ٦٨-١١٣-٣٠٥ و ٢ : ١٣٢-٢٠٩ والانصاف : ٦٣ والخزانة : ٣٨٣ .

على أنه جائز في المبتدأ والخبر كان جائزاً . قال : والقراءة بالياء عندي هو الاجود ويكون الاسم محذوفاً ، قال : والقراءة بالتاء لا تمتنع مثل قوله : « واسأل القرية »(١) وتقديره ولا تحسبن بخل الباخلين خيراً .

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها ما قاله السدي : إن المعنى بخلوا أن ينفقوا في سبيل الله كما بخلوا بمنع الزكاة . وقيل إنها نزلت في أهل الكتاب بخلوا أن يبينوه للناس ـ على قول ابن عباس ـ والوجه الأول أظهر لأن أكثر المفسرين على أنها نزلت في مانعي الزكاة ، وهو قول أبي جعفر (ع) وقوله : « هو خيراً لهم » فلفظة « هو » فصل ، بين الاسم ، والخبر على تقدير ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله البخل هو خيراً لهم فيمن قرأ بالياء وقوله : « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ رواه ابن مسعود عن النبي (ص) أنه شجاع أقرع يطوقونه ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) . وقال ابراهيم النخعي : انهم يطوقون طوقاً من نار . وقال أبو علي : هو كقوله : « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم » (٢) وقال البلخي معناه سيجازون كأنهم طوقوا . وقوله . « ولله ميراث السماوات والارض » معناه أنه يبطل ملك كل شيء إلا ملك الله ، فيصير كالميراث لصحة الملك الثاني بعد زوال الأول وإن لم يكن في صفات الله على جهة الانتقال ، لأنه لم يزل مالكاً (عزوجل) والبخل هو منع الواجب لأنه تعالى ذم به وتوعد عليه ، وأصله في اللغة مشقة الاعطاء ، وإنما يمنع الواجب لمشقة الاعطاء .

قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ

(١) سورة يوسف : آية ٨٢ .

(٢) سورة التوبة : آية ٣٦ .

سَنَكْتُبُ ما قالوا وَقَتْلَهُمُ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ وَنقولُ ذُوقوا عَذابَ الحريقِ ﴾ (١٨١) ـ آية بلا خلاف ـ.

قرأ حمزة وحده « سيكتب » بضم الياء . الباقون بالنون . ذكر الحسن وقتادة : أن الذين نسبوا الله تعالى إلى الفقر وأنفسهم إلى الغناء هم قوم من اليهود لما نزل قوله : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ (١) قالوا إنما يستقرض الفقير من الاغنياء، فهو فقير ونحن أغنياء ، والقائل لذلك حيي بن أخطب وفنحاص اليهودي . وقال أبو علي الجبائي : هم قوم من اليهود ، وانما قالوا ذلك من جهة ضيق الرزق . وقيل : انهم قالوا ذلك تمويهاً على ضعفائهم لا أنهم اعتقدوا أن الله فقير على الحقيقة . وقيل : انهم عنوا بذلك إله محمد الذي يدعي أنه رسوله دون من يعتقدون هم أنه على الحقيقة .

فان قيل : كيف الحكاية عنهم بأنهم قالوا ذلك ، وإنما قالوه على جهة الالزام دون الاعتقاد ؟ قلنا : لأنه إلزام باطل من حيث لا يوجبه الاصل الذي الزموا عليه، لأنه إنما قال تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » على وجه التلطف في الاستدعاء إلى الطاعة ، وحقيقته أن منزلة ما ينفقون في وجوه البر كمنزلة القرض الذي يرجع إليكم ويضاعف به الأجر لكم مع أنهم أخرجوا ذلك مخرج الاخبار عن الاعتقاد .

وفي الآية دلالة على أن الرضا بقبيح الفعل يجري مجراه في عظم الجرم ، لأن اليهود الذين وصفوا بقتل الانبياء لم يتولوا ذلك في الحقيقة ، وإنما ذموا به ، لأنهم بمنزلة من تولاه في عظم الاثم . وقوله : ﴿ سنكتب ماقالوا ﴾ قيل في معناه قولان :

أحدها ـ انه يكتب في صحائف أعمالهم ، لأنه أظهر في الحجة عليهم وأجرى ان يستحيوا من قراءة ما أثبت من فضائحهم ـ على قول الجبائي ـ .

« ١ » سورة البقرة : آية ٢٥٤ وسورة الحديد : آية ١١ .

الثاني ـ قال البلخي سيحفظ ما قالوا حتى يجـازوا به أي هو بمنزلة ماقد كتب في أنه لايضيع منه شيء . والأول أظهر . وقوله : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ يعني المحرق ، والفائدة فيه ان يعلم أنه عذاب بالنار التي تحرق ، وهي الملتهبة ، لأن ما لم يلتهب لا يسمى حريقاً ، وقد يكون العذاب بغير النار . وقوله : « ذوقوا » يفيد أنكم لاتتخلصون من ذلك كما يقول القائل : ذق هـذا البلاء يعني انك لست بناج منه .

قوله تعالى :

﴿ ذلكَ بما قدَّمتْ أيديـكم وَأنَّ اللهَ ليسَ بظلامٍ لِلعبيدِ ﴾ (١٨٢) ـ آية ـ .

المعنى :

قوله : « ذلك » اشارة إلى ما تقدم ذكره من قوله : « ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم » ومعناه بما جنيتموه على أنفسكم ، فان الله لايظلم أحداً من عبيده ، ولا يبخسهم حقهم .

وفيها دلالة على بطلان مذهب المجبرة ، لأنها تدل على أنه لو وقع العقاب من غير جرم سلف من العبد ، لكان ظلماً وذلك بخلاف ما يذهبون إليـه من أن الله تعالى يعذب الاطفال من غير جرم . فان قيل : لم نفى كثرة الظلم على وجه لا يدخل فيه القليل ، وهلا نفى على وجـه العموم كقوله : « لا يظلم مثقال ذرة » (١) وكقوله : « لا يظلم الناس شيئاً » (٢) وقوله : « ولا يظلمون فتيلا » (٣) و « نقيرا » ؟ قيل : لأنه خرج مخرج الجواب لمن توهم مذهب المجبرة فدل على أنه لو كان على ما يذهبون إليه ، لكان ظلاماً للعبيد ، وما هو بظلام لهم . فان قيل : لم

« ١ » سورة النساء : آية ٣٩ . « ٢ » سورة يونس : آية ٤٤ .
« ٣ » سورة النساء : آية ٤٨ وسورة الاسرى : آية ٧١ .

أضيف التقديم إلى أيديهم وإنما هو لهم في الحقيقة ؟ قيل : لأنه إذا أضيف على هذه الطريقة كان أبعد من توهم الفساد في معنى الاضافة إذ قد يضاف الفعل إلى الانسان على معنى أنه أمر به ودعا إليه . كما قال : « يذبح أبناءهم » (١) وإذا ذكرت اليد دل على تولي الفعل نحو قوله « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاماً » (٢) .

الاعراب :

« وان الله » انما فتح ان لأنه معطوف على ما عملت فيه الباء ، وتقديره وبأن الله ليس بظلام للعبيد أي ذلك العذاب بما سلف من الاجرام وبامتناع ظلم الله للعباد ، فموضع أن جر وموضع الباء في قوله : « بما » رفع ، لأنها في موضع خبر ذلك وهي متصلةبالاستقرار كأنه قيل ذلكمستقر بما قدمت أيديكم ، كما يقول القائل : عقابك بما كسبت يداك .

قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٨٣) ـ آية ـ .

المعني بقوله : « الذين قالوا » هم الذين وصفهم الله بقوله : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير .الذين قالوا إن الله عهد إلينا » .

الاعراب والمعنى :

والذين في موضع خفض رداً على قوله : « الذين قالوا إن الله فقير » ومعنى قولهم « إن الله عهد إلينا » أي أوصانا في كتبه ، وعلى ألسن أنبيائه ألا نصدق

« ١ » سورة القصص : آية ٤ . « ٢ » سورة يس : آية ٧١ .

لرسول فيما يقوله : من أنه جاء به من عند الله من أمر ونهي ، وغير ذلك ، فالعهد : العقد الذي يتقدم به للتوثق ، وهو كالوصية . وقوله : « حتى يأتينا بقربان تأكله النارُ » معناه حتى يجيئنا بما يقرب به العبد إلى الله من صدقة وبر . وقربان مصدر على وزن عدوان ، وخسران تقول قربت قرباناً . وأما قوله : « تأكله النار » فلأن أكل النار ما قربه أحدهم لله في ذلك الزمان كان دليلا على قبول الله له ، ودلالة على صدق المقرب فيما أدعى أنه حق فيما نوزع فيه ــ في قول ابن عباس ، والضحاك ــ ، فقال الله تعالى لنبيه (ص) قل لهم يامعشر من يزعم أن الله عهد إليه ألا يؤمن لرسول حتى يأتيه بقربان تأكله النار ، قل : قد جاءكم رسل من الله من قبل . المعنى جاء أسلافكم بالبينات يعني بالحجج الدالة على صدق نبوتهم ، وحقيقة قولهم : وقد ادعيتم أنه يدل على تصديق من أتى به والاقرار بنبوته من أكل النار قربانه ، فلم قتلتموه إن كنتم صادقين ؟ يعني قتلتموهم وأنتم مقرون بأن الذين جاءوكم به من ذلك حجة لهم عليكم إن كنتم صادقين فيما عهد إليكم مما ادعيتموه وأضاف القتل إليهم وإن كان أسلافهم تولوه لأنهم رضوا بأفعالهم فنسب ذلك إليهم كما بيناه فيما تقدم في قوله تعالى : « ويقتلون النبيين بغير الحق » (١) فاراد الله أن يعلم المؤمنين ان هؤلاء معاندون متعنتون ، وإلا فهم عالمون بصفات النبي (ص) وما ذكره الله تعالى في التوراة وانه صادق فيما يدعيه ، وإنما لم ينزل الله ما طلبوه لأن المعجزات تابعة للمصالح وليست على الاقتراحات والتعنت . فان قيل هلا قطع الله عذرهم بالذي سألوا من القربان الذي تأكله النار ؟ قيل : له لا يجب ذلك لأن ذلك اقتراح في الأدلة على الله والذي يلزم من ذلك أن يزيح علتهم بنصب الادلة على ما دعاهم إلى معرفته .

قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤُا بِالْبَيِّنَاتِ

« ١ » سورة البقرة : آية ٦١ .

وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (١٨٤) ـ آية واحدة ـ .

القراءة ، والحجة :

قرأ ابن عامر وحده وبالزبر وكذلك هو في مصاحف أهل الشام . الباقون بحذف الباء ، فمن حذف فلأن واو العطف أغنت عن تكرار العامل ومن أثبتها فانما كرر العامل تأكيداً ، وكلاهما جيدان .

اللغة ، والمعنى :

وهذه الآية فيها تسلية للنبي (ص) عما كان يصيبه من الأذى من اليهود وأهل الشرك بتكذيبهم إياه بأن قال فقد كذب أسلافهم من رسل الله من جاءهم بالبينات والحجج القاطعة ، والأدلة الواضحة . والزبر جمع زبور وهو البينات وكل كتاب فيه حكمة فهو زبور . ومنه قول امرئ القيس :

لمن طلل ابصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يمان (١)

ويقال زبرت الكتاب إذا كتبته ، فهو مزبور وزبرت الرجل أزبره : إذا زجرته والزبرة : القطعة العظيمة من الحديد ، ومنه قوله : « آتوني زبر الحديد » (٢) والزبير : الحماة . والزبرة مجتمع الشعر على كتف الأسد . وزبرت البئر إذا أحكمت طيها بالحجارة ، فهو مزبور وما لفلان زبر أي عقل ، والكتاب المراد به التوراة والانجيل ، لأن اليهود كذبت عيسى ، وما جاء به من الانجيل وحرفت ما جاء به موسى من صفة النبي (ص) ، وبدلت عهده إليهم فيه . والنصارى أيضاً جحدت ما في الانجيل من نعته وغيرت ما أمرهم فيه به . وقوله : « المنير » معناه الذي ينير ، فينير الحق لمن اشتبه عليه ، وهو حجة له . وإنما هو من النور ، والاضاءة يقال : قد أنار لك هذا الأمر بمعنى أضاء لك وينير انارة فهو منير ، وهذا قول

« ١ » ديوانه : ٢١٠ وروايته (الزبور في العسيب اليماني) . الزبور الكتاب المزبور أي المكتوب بالمزبر وهو القلم . العسيب اليماني : سعف النخل .

« ٢ » سورة الكهف : آية ٩٧ .

الحسن وابن جريج والضحاك ، وأكثر المفسرين . فان قيل : لم جمع بين الزبر والكتاب ومعناها واحد ؟ قلنا : لأن أصلها مختلف ، فهو زبور لما فيه من الزجر عن خلاف الحق ، وهو كتاب ، لأنه ضم الحروف بعضها إلى بعض ، وسمي زبور داود لكثرة ما فيه من المواعظ والزواجر . فان قيل : كيف قال « فان كذبوك ، فقد كذب رسل من قبلك » وهم وان لم يكذبوه أيضاً ، فقد كذب رسل من قبله؟ قلنا : لأن المعنى فقد جروا على عادة من قبلهم في تكذيب أنبيائهم إلا أنه ورد على وجه الايجاز كما تقول : إن أحسنت إليّ فقد طالما أحسنت .

قوله تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١٨٥) ـ آية بلا خلاف ـ .

لا يجوز أن يجعل (ما) في (إنما) بمعنى الذي وترفع أجوركم ، لأن يوم القيامة يصير من صلة توفون وتوفون من صلة الذين فلا يأتي ما في الصلة بعد أجوركم . وأجوركم خبر ، ومعنى الآية إن مصير هؤلاء المفترين على الله من اليهود المكذبين برسوله الذين وصفهم ، ومصير غيرهم من جميع الخلق إليه تعالى من حيث حتم الموت على جميعهم ، فقال لنبيه (ص) لا يحزنك قولهم وتكذيبهم وافتراء من افترى منهم على الله وعليك ، وتكذيب من تقدمك من الرسل . فان مرجعهم إلي وأوفي كل نفس منهم جزاء عمله ، فقال : توفون أجوركم يعني أجور أعمالكم إن خيراً فخيراً وثواباً . وإن شراً فشراً وعقاباً ، وهو نصب على أنه مفعول به . وقوله : « فمن زحزح عن النار » معناه نحي عن النار ، وأبعد منها « وادخل الجنة فقد فاز » أي نجا وظفر بعظيم الكرامة . وكل من لقي ما يغتبط به فقد فاز ، ومعنى « فاز » تباعد من المكروه ، ولقي ما يحب . والمفازة : مهلكة . وإنما سموها مفازة

أي منجاة كما سموا اللديغ سليما، والاعمى بصيراً . وظاهر الآية يدل على أن كل نفس تذوق الموت ، وإن كانت مقتولة ـ على قول الرماني ـ ونحن وإن قلنا : إن الموت غير القتل ، فلابد أن نقول : إن المقتول يختار الله أن يفعل فيه الموت إذا كان في فعله مصلحة . وقوله : « وما الحيـاة الدنيا إلا متاع الغرور » معناه وما لذات الدنيا ، وشهواتها ، ومافيها من زينتها إلا امتعة متعكموها الغرور ، والخداع : المضمحل الذي لا حقيقة له عند الاختبار والامتحان ، لأنكم تلتذون بما يمتعكم الغرور من دنياكم ، ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب ، فلا تركنوا إليه ، ولا تسكنوا ، فانما هي غرور وإنما أنتم منها في غرور . وقال عكرمة : متاع الغرور ، القوارير ، وهي في الأصل كل متاع لابقاء له ، وإنما وصفت الحياة الدنيا بأنهـا متاع الغرور مع كشفها عن حالها ، لأنها بمنزلة من يغتر بالمحبوب ويبذل ما فيـه الفرح والسرور ، ليوقع في بلية تؤدي إلى هلكة ، مبالغة في التحذ يرمنها ـ على ما بيناه ـ وفي الآية دلالة على أن أقل نعيم من الآخرة خير من نعيم الدنيا بأسره ولذلك قال(ص) : (موضع سوط في الجنة خيرمنالدنيا ، وما فيها) واستدل بهذه الآية على أن القتل هو الموتعلى الحقيقة .ومنهم من قال في المقتول : موت ، وقتل وللمخالف أن يقول : يمكن أن تكون الآية مخصوصة بمن يموت ، ولا يقتل كما قال : « كل نفس بما كسبترهينة » (١) وهيمختصةبالعقلاء البالغين ، ويمكن أن يكون المراد كل نفس تعدم الحياة ، فيكون ذلك على وجه الاستعارة . ذكره البلخي . وقوله : « ذائقة الموت » مجاز ، لأن الموت لا يذاق في الحقيقة ، لأن ذلك مشهور في كلامهم يقولون : ذاق الموت ، وشرب بـكأس المنون ، لأنـه بمنزلة مايذاق بذوق شـدائده . والفرق بين الذوق وإدراك الطعم أن الذوق تقريب جسم المذوق إلى حاسة الذوق ، والادراك للطعم هو وجدانه (٢) وإن لم يكن هناك احساس ، ولذلك يوصف تعالى بأنه مدرك للطعم ولا يوصف

« ١ » سورة المدثر : آية ٣٨ .　　« ٢ » في المخطوطة : (هو وجدك به ...)

بأنه ذائق له . ويقولون : ذقته فلم أجد له طعماً أي لا بس في فلم أحس له طعماً .

قوله تعالى :

﴿ لَتبلوُنَّ في أموالكُمْ وَأنفسكُمْ وَلَتسمعُنَّ مِنَ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ مِنْ قَبلكُمْ وَمِنَ الَّذينَ أشركوا أذىً كثيراً وَإنْ تَصبروا وَتَتَّقوا فانَّ ذلكَ مِنْ عَزمِ الأُمورِ ﴾ (١٨٦) – آية – .

قوله : « لتبلون » معناه لتختبرن أي توقع عليكم المحن ، وتلحقكم الشدائد في أنفسكم ، وأموالكم من قبل الكفار نحو ما نالهم من الشدائد في أنفسهم يوم أحد ، ونحو ما كان الله يفعل بهم من الفقر وشدة العسر ، وانما فعله ليصبروا وسماه بلوى مجازاً ، لأن حقيقته لا تجوز عليه تعالى ، لأنها التجربة في اللغة . ويتعالى الله عن ذلك ، لأنه عالم بالاشياء قبل كونها . وإنما فعله ليتميز المحق منكم من غيره – هذا قول أبي علي الجبائي – وقال البلخي : معناه لتبلون بالعبادات في أنفسكم كالصلاة والصيام وغيرها . وفي أموالكم من الانفاق في سبيل الله والزكوات ، ليتميز المطيع من العاصي . واللام لام القسم . والنون دخلت مؤكدة ، وضمت الواو لسكونها ، وسكون النون . ولم تنصب لأنها واو الجمع فرقا بينها وبين واو الاعراب . ويقال للواحد ، لتبلين يارجل وللاثنين لتبليان . ويفتح الياء في لتبلين في الواحد عند سيبويه لسكونها وسكون النون . وفي قول غيره تبنى على الفتح لضم النون إليها ، كما يبنى ماقبل هاء التأنيث . وللمرأة لتبلين وللمرأتين لتبليان وللنساء لتبتلينان . زيدت الالف لاجتماع النونات وقوله : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً » يعني ما سمعوه من اليهود ومن كفار مكة وغيرهم من تكذيب النبي (ص) ومن الكلام الذي يغمهم ويكرثهم ثم بين تعالى بقوله : « وإن تصبروا وتتقوا » إنكم ان صبرتم على ذلك وتمسكتم بالطاعة ولم تجزعوا عنده جزعاً يبلغ الاثم ، « فان ذلك من عزم الامور » ومعناه من جزم الامور ، أي

ما بان رشده وصوابه . ووجب على العاقل العزم عليه . وأذى مقصور . ويكتب بالياء يقال أذي يأذى أذى : إذا سمع ما يسوءه وقد آذاني فلان يؤذيني إيذاءاً وتأذيت به تأذياً . وقال عكرمة وغيره : إن هذه الآيات كلها نزلت في فنحاص اليهودي سيد بني قينقاع حين كتب النبي (ص) إليه يستمده ، فقال فنحاس : قد احتاج ربكم أن نمده . وهو القائل : « إن الله فقير ونحن أغنياء » (١) ونزلت فيه أيضاً « لا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم » (٢) وقال الزهري : الآية نزلت في كعب بن الاشرف ، وكان يهجو النبي (ص) ، والمؤمنين ويحرض المشركين عليهم حتى قتله محمد بن مسلمة غيلة . والبلوى التي ابتلوا بها ، قال الحسن : هي فرائض الدين من الجهاد في سبيل الله ، والنفقة في طاعة الله ، والتمسك بما يجب لله في كلما أمر به ودعا إليه .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذ أَخذَ اللهُ مِيثاقَ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلناسِ وَلا تَكتُمونَهُ فَنَبَذوهُ وَراءَ ظُهورِهِم وَاشتَروا بِهِ ثَمَناً قَليلاً فَبِئسَ ما يَشتَرونَ ﴾ (١٨٧) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة والحجة :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم « ليبيننه للناس ولا يكتمونه » بالياء فيها . الباقون بالتاء فيها ، فمن قرأ بالياء ، فلانهم غيب . ومن قرأ بالتاء حكى المخاطبة التي كانت في وقت أخذ الميثاق « ولتبيننه » لجماعة الرجال وللواحد تفتح النون .

« ١ » سورة آل عمران : آية ١٨١ .

« ٢ » سورة آل عمران : آية ١٨٠ .

المعنى :

والمعني به اذكروا « إذا أخذ الله » منهم الميثاق ليبينن أمر نبوة النبي (ص) ولا يكتمونه « فنبذوه وراء ظهورهم » أي رموا به في قول ابن عباس ، ولم يعملوا به وإن كانوا مقرين به . ويقال لمن يطرح الشيء ولا يعبأ به رميته بظهر ، قال الفرزدق :

تميم بن قيس لا تكونن حاجتي بظهر ولا يعيا عليّ جوابها (١)

أي لا تتركنها ، لا تعبأ بها ، فاخبر الله تعالى عما حمل اليهود الذين كانوا رؤساء على كتمان أمر النبي (ص) ، فقال : « واشتروا به ثمناً قليلا » أي قبلوا على ذلك الرشا ، وقامت لهم بذلك رئاسة اكتسبوها فذلك حملهم على الكفر بما يخفونه، ثم ذم تعالى أفعالهم بقوله : « فبئس ما يشترون » لأن ما يكون عاقبتـــه الهلاك والعقاب الدائم ، وان كان نفعاً عاجلا ، فهو بئس الشيء . وقال ابن عباس وسعيد ابن جبير وعكرمة والسدي وابن جريج ان المعني بهـذه الآية فنحاص اليهودي ، وأصحابه الذين كتموا أمر النبي (ص) وما بينـــه الله في التوراة . وقال قتادة وكعب وعبد الله بن مسعود هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم كافة ، فمن علم شيئاً فليعلمه وإياكم وكتمان العلم ، فان كتمانه هلاك . وقال الجبائي : المعني بالآية اليهود والنصارى . وقال الحسن « لتبيننه ولا تكتمونه » معناه لتكلمن بالحق ولتصدقنه بالعمل . والميثاق الذي ذكره الله في الآية هو الأيمان التي أخذهـا عليهم أنبياؤهم ليبينن ما في كتبهم من الاخبار والآيات الدالة على نبوة النبي (ص) ولا يكتمونه. والهاء في « ليبيننه » عائدة على محمد (ص) في قول سعيد بن جبير والسدي ، فيعود

« ١ » ديوانه ١ : ٩٥ وروايته :

تميم بن زيد لا تهونن حاجتي لديك ولا يعيا علي جوابها

وفي اللسان وفي الاغاني الصدر كما في الديوان والعجز هكذا : (بظهر فلا يخفى علي جوابها) ومعناه أي لا تجبني بجواب لا أدري ما هو .

على معلوم غير مذكور . وقال الحسن وقتادة: هي عائدة على الكتاب فيدخل فيه بيان أمر النبي (ص) لأنه في الكتاب

قوله تعالى :

«لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (١٨٨)

ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة والحجة والاعراب :

قرأ أهل الكوفة ويعقوب « لا تحسبن » بالتاء وفتح الباء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء ، وضم الباء . الباقون بالياء وفتح الباء . « وتحسبنهم » الاخير بالتاء بلا خلاف . قال أبو علي من قرأ بالياء ، لم يوقع يحسبن على شيء ، (والذين) رفع بأنه فاعل (لا تحسبن) قال : ووجه قراءة ابن كثير وأبي عمرو في أن لم يعديا (حسبت) إلى مفعوليه ان (يحسب) في قوله: « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » لما جعل بدلا من الأول وعدّي إلى مفعوليه استغنى بها في تعدية الأول إليهما كما استغنى في قول الشاعر :

بأي كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عاراً علي وتحسب

فاكتفى بتعدية أحد الفعلين إلى المفعولين عن تعدية الآخر إليهما . فان قال قائل : كيف يستقيم تقدير البدل ، وقد دخل الفاء بينهما ، ولا يدخل بين البدل والمبدل منه الفاء ؟ والجواب أن الفاء زائدة ، يدلك على ذلك أنها لا يجوز أن تكون التي تدخل على الخبر ، لأن ما قبل الفاء ليس بمبتدأ ، فتكون الفاء خبره ، ولا تكون العاطفة ، لأن المعنى « لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا » ويحبون أنفسهم « بمفازة من العذاب » فاذا كان ذلك لم يجز تقدير العطف ، لأن الكلام

لم يستقل بعد فيستقيم فيه تقدير العطف . وأما قوله : ﴿ فلا تحسبنهم ﴾ فان فعل الفاعل الذي هو يحسبون تعدى إلى ضميره ، وحذفت واو الضمير لدخول النون الثقيلة . وقوله : ﴿ بمفازة من العذاب ﴾ في موضع المفعول الثاني ، وفيه ذكر المفعول الأول. وفعل الفاعل في هذا الباب يتعدى إلى ضمير نفسه نحو ظننتني أخاه ، لأن هذه الأفعال لما كانت تدخل على الابتداء والخبر أشبهت (إن) واخواتها في دخولهن على الابتداء والخبر كدخول هذه الافعال عليها ، وذلك نحو قولك : ظننتني ذاهباً ، كما تقول : إني ذاهب ، ولو قلت أظن نفسي تفعل ، لم يجز كما يجوز أظننتني فاعلا . وقال أبو سعيد الخدري ، وأبو وهب ، والزجاج : المعني بهذه الآية قوم من أهل الكتاب دخلوا على النبي (ص) وخرجوا من عنده ، فذكروا لمن كان رآهم في ذلك الوقت أن النبي (ص) قد أتاهم باشياء قد عرفوها ، فحمدهم من شاهدهم من المسلمين على ذلك ، وأظهروا خلاف ما أبطنوا ، وأقاموا فيما بعد على الكفر ، فأعلم الله تعالى نبيه أنهم ليسوا بمفازة أي ليسوا ببعد من العذاب . وقيل معناه ليسوا بمنجاة من العذاب ، ووقعت ، « فلا تحسبنهم » مكررة لطول القصة كما يقولون : لا تظنن زيداً إذا جاءك كلمك بكذا وكذا ، فلا تظننه صادقاً ، فيعيد فلا تظننه توكيداً ، واعلاماً ان ذلك يتعلق بالأول ، ولولم يكرر كان جائزاً، لكن مع التأكيد أوضح . وقوله : « ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » قال البلخي : إنهم قالوا : « نحن أبناء الله وأحباؤه » (١) وأهل الصوم والصلاة وليسوا بأولياء الله، ولا أحباؤه ، ولا أهل الصلاة والصيام ، ولكنهم أهل شرك ونفاق . وهو المروي عن أبي جعفر (ع) . وقال قوم : « يحبون أن يحمدوا » على أنهم أبطلوا أمر محمد (ص) ، وكذبوا ما أبطلوه ، ولا لهم قدرة على ذلك .

النزول ، والمعنى :

وروي عن ابن عباس ، وسعيد أن الآية نزلت في اليهود حيث كانوا يفرحون

« ١ » سورة المائدة : آية ٢٠ .

باجلال الناس لهم ونسبهم إياهم إلى العلم . وقال الضحاك ، والسدي : نزلت في اليهود حيث فرحوا بما أثبتوا من تكذيب النبي (ص) . وقال سعيد بن جبير : فرحوا بما آتى الله آل ابراهيم . وقال ابن عباس : إن النبي (ص) سألهم عن شيء ، فكتموه ففرحوا بكتمانهم ، وأقوى هذه الأقوال أن يكون قوله : « لا تحسبن الذين يفرحون » يعني بها من أخبر الله عنهم أنه أخذ ميثاقهم ليبيننّ للناس أمر محمد (ص) ، ولا يكتمونه ، لأن قوله : « لا تحسبن الذين يفرحون » في سياق الخبر عنهم وشبيه بقصتهم مع أن أكثر أهل التأويل عليه . وقال الجبائي : الآية في المنافقين ، لأنهم كانوا يعطون المؤمنين شيئاً يستعينون به على الجهاد لا على وجه القربة إلى الله بل على وجه الرياء ويفرحون بذلك ، ويريدون مع ذلك أن يحمدوا على ذلك ويعتقد أنهم فعلوه لوجه القربة ، فقال : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » بمنزلة المؤمنين الذين يعملون الافعال لله على وجه القربة إليه . وقال : « فلا تحسبنهم » مع ذلك بمنجاة « من العذاب » بل « لهم عذاب أليم » يعني مؤلم فحسبان الثاني متعلق بغير ما تعلق به الأول ، فلذلك كرر . فان قيل : أين خبر « لا تحسبن » الاولى ؟ قلنا: عنه جوابان :

أحدها ـ « بمفازة من العذاب» ، لأنهامكررة لطول الكلام . وقيل : الفاء زائدة على هذا ، وهو قول الزجاج .

والثاني ـ ان الخبر محذوف ، كأنه قال ناجين ، ودلّ الخبر الاخير عليه . فان قيل : كيف يجوز أن يذم بالفرح وليس من فعل الانسان ؟ قلنا ذم بالتعرض له على جهة الاشر والبطر كما قال : « لا يحب الفرحين » .

قوله تعالى :

﴿ ولله مُلكُ السماواتِ وَالأرضِ وَاللهُ على كلّ شيءٍ قديرٌ ﴾

(١٨٩) ـ آية بلا خلاف ـ .

معنى الآية الاخبار من الله تعالى بأنه مالك ما في السماوات، وما في الارض بمعنى أنه يملك تدبيرها، وتصريفها على ما شاء من جميع الوجوه ليس لغيره الاعتراض عليه في ذلك وانه المقتدر على جميع ذلك «وهو على كل شيء قدير»، وفي الآية تكذيب لمن قال: «إن الله فقير ونحن أغنياء» (١) لأن من ملك ما في السماوات والارض لا يكون فقيراً. وفي قوله: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ تنبيه على أنه قادر على إهلاك من يقول هذا القول جهلا منه وعناداً، لكنه يحلم عنه ويؤخر عذابه لضرب من المصلحة وقوله: «على كل شيء قدير» خرج مخرج المبالغة، وهو أخص من قوله: «بكل شيء عليم» لأن أفعال العباد لا توصف بالقدرة عليها، وفرق الرماني بين أن يقال هو قادر على أفعال العباد، وبين قادر على فعلهم، فقال قادر عليها يحتمل مالا يحتمل قادر على فعلهم، لأنه يفيد أنه قادر على تصريفه كما يقولون فلان قادر على هذا الحجر أي قادر على رفعه، ووضعه، وفلان قادر على نفسه أي قادر على ضبطها، ومنعها مما تنازع إليه، فعلى هذا جائز أن يقال انه قادر على أفعال العباد بمعنى أنه قادر على المنع منها، والتمكين منها دون ما يستحيل من القدرة على ايجادها.

قوله تعالى:

﴿إنَّ في خَلقِ السماواتِ والارضِ وَاختلافِ الليلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الالبابِ﴾ (١٩٠) - آية -.

في هذه الآية دلالة على وجوب النظر والفكر، والاعتبار بما يشاهد من الخلق والاستدلال على الله تعالى، ومدح لمن كانت صفته هذه، ورد على من أنكر وجوب ذلك، وزعم أن الايمان لا يكون إلا تقليداً وبالخبر، لأنه تعالى أخبر عما في خلق السماوات والارض، واختلاف الليل والنهار من الدلالات عليه

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٨١.

وعلى وحدانيته ، لأن من فكر في السماوات وعظمها وعجائب ما فيها من النجوم والافلاك ، ومسير ذلك على التقدير الذي تسير عليه ، وفكر في الأرض وما فيها من ضروب المنافع ، وفي اختلاف الليل والنهار ومجيئهما بالأوقات والازمنة التي فيها المصالح ، واتساق ذلك وانتظام بعضها إلى بعض ، وحاجة بعضها إلى بعض حتى لو عدم شيء منه لم يقم ما سواه [مقامه] (١) علم أن ذلك لا يكون إلا من مدبر قادر عليم حكيم واحد ، لأنه لو كان قادراً ، ولم يكن عالماً بالعواقب لما أغنت القدرة شيئاً ، ولو كان عالماً غير حكيم في فعله لما أغنى العلم شيئاً ، ولو كانا اثنين ما انتظم تدبير ، ولا تم خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، كما قال تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (٢) فكيف ينسب إلى الفقر من كان جميع ما في السماوات والارض بيده ، أم كيف يكون غنياً من كان رزقه بيد غيره إذا شاء رزقه وإذا شاء حرمه ، ويدل على أن خالق الجسم لا يشبهه ، لأنه لو أشبهه ، لكان محدثاً مثله ، ويدل على أنه قديم ، لأنه لو كان محدثاً لاحتاج إلى محدث ولأدى ذلك إلى مالا يتناهى ويدل أيضاً على أنه قادر على جميع الاجناس ، لأنه من قدر على الجسم يقدر على سائر الاجناس ، ووجه الدلالة من خلق السماوات والارض على الله هو ان الانسان إذا فكر ورأى عظمها ، وثقل الأرض ، ووقوفها على غير عمد يقلها ، وحركة السماوات حولها لا على شيء يدعمها ، علم أن الممسك لذلك هو الذي لا يشبه الاجسام ولا المحدثات ، لأنه لو اجتمع جميع الخلق على أن يمسكوا جسما خفيف المقدار ، ويقلوه في الجو من غير أن يدعموه لما قدروا عليه ، فعلم حينئذ ان الذي يقدر عليه مخالف لجميع الاشياء وعلم أيضاً أنها لو كانت السماوات والارض معتمدة على غيرها لكان ذلك الغير يحتاج إلى ما يعتمد عليه وفي ذلك اثبات مالا يتناهى من الاجسام ، وذلك محال فهذا أحد وجوه دلالة السماوات والأرض ، وهو أحد

« ١ » هكذا في المخطوطة (أ) وفي المطبوعة ما بين القوسين ساقط ، والمخطوطة (ب) ناقصة في هذا المكان أوراقاً كثيرة .

« ٢ » سورة الانبياء : آية ٢٢ .

ما قال « إن في ذلك لآيات لاولي الالباب »ووجه الدلالة من اختلاف الليل والنهار هو أن جميع الخلق لو اجتمعوا على أن يأتوا بالليل بدلا من النهار ، أو النهار بدلا من الليل أو ينقصوا ، أو يزيدوا من أحدهما في الآخر لما قدروا عليه ، كما قال : ﴿ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ الآية (١) وقوله : « لاولي الالباب » معناه لذوي (٢) العقول . واللب : العقل سمي به لأنه خير ما في الانسان واللب من كل شيء خيره ، وخالصه . فان قيل : فما وجه الاحتجاج بخلق السماوات [والأرض](٣)على الله ولم يثبت بعد انها مخلوقة قيل عنه ثلاثة أجوبة :

أولها ـ على تقدير اثبات كونها مخلوقة قبل الاستدلال به لأن الحجة به قامت عليه من حيث أنها لم تنفك من المعاني المحدثة .

الثاني ـ أن الغرض ذكر ما يوجب صحة الذي تقدم ثم يترقى من ذلك إلى تصحيح ما يقتضيه على مراتبه ، كالسؤال عن الدلالة على النبوة فيقع الجواب بذكر المعجزة دون ما قبلها من الرتبة .

الثالث ـ أن تعاقب الضياء والظلام يدل على حدوث الاجسام .

قوله تعالى :

﴿ الذينَ يذكرونَ اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جُنوبِهم ويتفكرونَ في خلقِ السماواتِ والأرضِ ربّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سُبحانكَ فقنا عذابَ النّارِ ﴾ (١٩١) ـ آية بلا خلاف ـ

« ١ » سورة القصص : آية ٧١ ـ ٧٢ .

« ٢ » في المخطوطة زيادة (والفكر) في هذا الموضع .

« ٣ » في المطبوعة ما بين القوسين ساقط .

موضع (الذين)خفض ،لأنه نعت «لأولي الالباب » أي فهؤلاء يستدلون على توحيد الله بخلقه السماوات والارض ، وأنهم يذكرون الله في جميع أحوالهم قياماً وقعوداً ، وهو نصب على الحال . وقوله : ﴿وعلى جنوبهم﴾ أي ومضطجعين، وانما عطف على قياماً وقعوداً ، لأن معناه يدل على الحال ، لأن الظرف يكون حالا للمعرفة كما يكون نعتاً للنكرة ، لأنه من الاستقرار (كما تقول : مررت برجل على الحائط أي مستقراً على الحائط ، ومررت برجل في الدار مثله ، كما تقول أنا أصير إلى فلان ماشياً ، وعلى الخيل ، ومعناه وراكباً ، كما) (١) قال : « إذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً » (٢) ومعناه مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً فبين تعالى أن هؤلاء المستدلين على حقيقة توحيد الله يذكرون الله في سائر الأحوال . وقال قوم : « يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم » أي يصلون على قدر إمكانهم في صحتهم وسقمهم ، وهو المروي في أخبارنا ، ولا تنافي بين التأويلين ، لأنه لا يمتنع أن يصفهم بأنهم يفكرون في خلق السماوات والارض في هذه الاحوال ومع ذلك يصلون على هذه الأحوال في أوقات الصلوات ، وهو قول ابن جريج وقتادة . وقوله : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ انما قال هذا ولم يقل هذه ولا هؤلاء ،لأنه أراد به الخلق كأنه قال ما خلقت هذا الخلق باطلا (٣) أي يقولون « ربنا ما خلقت هذا باطلا » بل خلقته دليلا على وحدانيتك وعلى صدق ما أتت به أنبياؤك ، لأنهم يأتون بما يعجز عنه جميع الخلق . وقوله : ﴿ سبحانك﴾ معناه براءة لك من السوء وتنزيهاً لك من أن تكون خلقتها باطلا قال الشاعر :

أقول لما جاءني فخره ـ سبحان من علقمة الفاخر (٤)

« ١ » مابين القوسين ساقط من المخطوطة (أ) .

« ٢ » سورة يونس : آية ١٢ .

« ٣ » في المخطوطة نقص سطر في هذا الموضع .

« ٤ »قائله اعشى بني تغلب . ديوان الاعشى الكبير : ١٤٣ ، القصيدة ١٨ ، واللسان (سبح) .

وقال آخر :

سبحانه ثم سبحانا يعود له   وقبلنا سبح الجودي والجمد (١)

وقوله : ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ أي فقد صدقنا رسلك بأن لك جنة ونارا فقنا عذاب النار . ووجه اتصال قوله «فقنا عذاب النار» بما قبله قيل فيه قولان : أحدها ـ كأنه قال : « ما خلقت هذا باطلا » بل تعريضاً للثواب بدلا من العقاب « فقنا عذاب النار » بلطفك الذي نتمسك معه بطاعتك .

الثاني ـ اتصال الدعاء الذي هو طاعة لله بالاعتراف الذي هو طاعة له .

وفي الآية دلالة على أن الكفر والضلال وجميع القبائح ليست خلقاً لله ، لأن هذه الاشياء كلها باطلة بلا خلاف . وقد نفى الله تعالى بحكايته عن أولي الالباب الذين رضي أقوالهم بأنه لاباطل فيما خلقه ، فيجب بذلك القطع على أن القبائح كلها من فعل غيره ، وأنه لا يجوز اضافتها إليه تعالى .

قوله تعالى :

﴿ رَبَّنا إنكَ مَنْ تُدخلِ النَّارَ فقدْ أخزَيتهُ وما لِلظالمينَ مِنْ أنصارٍ ﴾ (١٩٢) ـ آية ـ .

وهذه أيضاً حكاية عن أولي الألباب الذين وصفهم بانهم أيضاً يقولون ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ أي من ناله عذاب النار وما فيها من الذل والمهانة فهو المخزى . وقال ابن جريج ، وقتادة ، وأنس بن مالك ، وسعيد بن المسيب : الاخزاء يكون بالتأبيد فيها . وقال جابر بن عبد الله : إن الخزي يكون بالدخول فيها . وروى عنه عمرو بن دينار وعطا أنه قال : وما أخزاه من أحرقه بالنار إن دون ذا لخزياً ، وهذا هو الأقوى ، لأن الخزي إنما هو هتك المخزى ، وفضيحته ، ومن عاقبه الله على ذنوبه ، فقد فضحه وذلك هو

« ١ » اللسان : (سبح) نسبه لأمية .

الخزي ، ولا ينافي ذلك ما نذهب إليه من جواز العفو عن المذنبين ، لأنه تعالى إذا عفا عن العاصي لا يكون أخزاه وان أدخله النار ثم أخرجه منها بعد استيفاء العقاب ، فعلى قول من قال : الخزي يكون بالدوام لا يكون أخزاه ، ومن قال يكون بنفس الدخول ، له أن يقول : إن ذلك وإن كان خزياً ، فليس مثل خزي الكفار ، وما يفعل بهم من دوام العقاب ، وعلى هذا يحمل قوله تعالى : ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ﴾ (١) وقوله : ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ معناه ليس للظالمين من يدفع عنهم على وجه المغالبة والقهر ، لأن الناصر هو الذي يدفع عن المنصور على وجه المغالبة ولا ينافي ذلك الشفاعة في أهل الكبائر لأن الشفاعة هي مسألة وخضوع وضرع إلى الله تعالى ، وليست من النصرة في شيء وقوله (ص) (يخرجون من النار بعد ما يصيرون حمماً وفحماً) صريح بوقوع العفو عن مرتكبي الكبائر وتأول الرماني الخبر تأويلين :

أحدها ـ أنه لولا الشفاعة ، لواقعوا كبيرة يستوجبون بها الدخول فيها ، فيخرجون بالشفاعة على هـذا الوجه ، كما يقال أخرجتني من السلعة إذا كان لولا مشورته ، لدخل فيها بابتياعه إياها .

الثاني ـ لولا الشفاعة ، لدخلوها بما معهم من الصغيرة ثم أخرجوا عنهـا إلى الجنة . والأول فاسد ، لأنه مجاز . والثاني ـ ليس بمذهب لأحـد من القائلين بالوعيد لأن الصغيرة تقع مكفرة لا عقاب عليها فكيف يدخل بها النار .

قوله تعالى :

﴿ رَبَّنا إننا سَمِعنا مُنادياً يُنادي للإيمانِ أنْ آمنوا بربكُمْ فآمنّا رَبَّنا فاغفرْ لنا ذُنوبنا وَكفر عَنا سَيئاتِنا وَتوفَّنا مَعَ الابرارِ ﴾ (١٩٣)

ـ آية بلا خلاف ـ .

« ١ » سورة التحريم : آية ٨ .

في هذه الآية أيضاً حكاية عمن تقدم وصفهم بأنهم أولوا الالباب وغير ذلك من الأوصاف التي مضت بأنهم يقولون: ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للايمان ﴾ واختلفوا فيمن المنادي ههنا، فقال محمد بن كعب القرظي وقتادة: هو القرآن. وقال ابن جريج وابن زيد: هو رسول الله (ص)، وهو الذي اختاره الجبائي، واختار الطبري الأول قال: لأنه ليس كل أحد سمع قول النبي (ص) ولا رآه ولا عاينه وسمع دعاءه إلى الله تعالى. والقرآن سمعه من رآه ومن لم يره كما قال تعالى مخبراً عن الجن انهم قالوا: ﴿ سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد ﴾ وهذا الذي ذكره ليس بطعن، لأنه إذا بلغه دعوة النبي (ص) جاز أن يقول ﴿ سمعنا منادياً ﴾ وإن كان فيه ضرب من التجوز، وقال قتادة سمعوا دعوة من الله فأجابوها وأحسنوا فيها وصبروا عليها. وقوله: ﴿ سمعنا منادياً ﴾ يعني نداء مناد لأن المنادي لا يسمع وقوله: ﴿ للايمان ﴾ معناه إلى الايمان، كما قال: ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ (١) ومعناه إلى هذا قال الراجز:

أوحى لها القرار فاستقرت وشدها بالراسيات الثبت (٢)

يعني أوحى إليها. ومنه قوله: ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ (٣) أي إليها، فمعنى الآية ﴿ ربنا اننا سمعنا ﴾ داعياً يدعو إلى الايمان والتصديق بك، والاقرار بوحدانيتك، واتباع رسولك واتباع أمره ونهيه، فصدقنا بذلك يا ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ ومعناه استرها علينا، ولا تفضحنا بها في القيامة على رؤوس الاشهاد بعقوبتك، لكن كفرها عنا ﴿ وكفر عنا سيئآتنا ﴾ معناه امحها بفضلك ورحمتك ايانا ﴿ وتوفنا مع الابرار ﴾ معناه واقبضنا إليك إذا قبضتنا في جملة الابرار، واحشرنا معهم.

«١» سورة الاعراف: آية ٤٢. «٢» انظر ٢: ٤٥٩ تعليقة ١.
«٣» سورة الزلزال: آية ٥.

اللغة، والمعنى :

والابرار جمع بر، وهم الذين بروا الله بطاعتهم إياه حتى أرضوه، فرضي عنهم . وقال الحسن : هم الذين لا يؤذون الذر وأصل البر الاتساع، فالبر الواسع من الارض خلاف البحر والبر صلة الرحم والبر: العمل الصالح . والبر : الحنطة والابرار على الخصم الزيادة عليه . وابترّ من أصحابه إذا انفرد منهم .

فان قيل : إذا كان النداء إنما هو تنبيه المنادى ليقبل بوجهه على المكلم له، فما معنى ربنا ؟ قلنا : الأصل في النداء تنبيه المنادى ثم استعمل في استفتاح الدعاء اقتضاء للاجابة واعترافاً بالتفضل، ولا يجوز فتح (أن) بعد ربنا بايقاع النـــداء عليه، لأن بعده لا يكون إلا جملة ولا يقع فيه مفرد، لأنه لا يجوز ربنا ادخالك النار من أخزيته، لأنه ابتداء لا خبر له . فان قيل : ما معنى قوله : « وكفر عنا» وقد أغني عنه قوله : « فاغفر لنا » قلنا : عنه جوابان :

أحدها ـ اغفر لنا ذنوبنا ابتداء بلا توبة، وكفر عنا إن تبنا .

والثاني ـ اغفر لنا بالتوبة ذنوبنا، وكفر عنا باجتناب الكبائر السيئآت، لأن الغفران قد يكون ابتداء ومن سبب والتكفير لا يكون إلا عند فعل من العبد وقوله : « ان آمنوا » تحتمل ان أمرين :

أحدها ـ أن تكون بمعنى أي على ما ذكره الرماني .

والثاني ـ أن تكون الناصبة للفعل، لأنه لا يقع في مثله دخول الباء نحو بأن آمنوا .

قوله تعالى :

﴿ رَبَّنا آتِنا ما وَعَدْتَنا على رُسُلِكَ وَلا تُخزنا يَومَ القيامةِ إنكَ لا تُخلفُ الميعادَ ﴾ (١٩٤) ـ آية بلا خلاف ـ .

فهذه أيضاً حكايــة عمن تقدم وصفهم بأنهم يقولون أعطنا ما وعدتنا على

لسان رسلك من الثواب ولا تخزنا . والمخزي في اللغة المذل المحقور بأمر قد لزمه بحجة تقول أخزيته أي ألزمته حجة أذللته معها ، والخزي والانقماع والارتداع متقاربة المعنى ، والخزاية شدة الاستحياء . وقوله ﴿ إنك لا تخلف الميعــاد ﴾ استئناف كلام ولذلك كسرت (إن) والمعنى انك وعدت الجنة لمن آمن بك ، وإنك لا تخلف الميعاد . فان قيل : ما وجه مسألتهم لله أن يؤتيهم ما وعدهم ، والمعلوم أن الله ينجز وعده ، ولا يجوز عليه الخلف في الميعاد ؟ قيل عن ذلك أجوبة :

أحدها ـ ما اختاره الجبائي ، والرماني ان ذلك على وجه الانقطاع إليه والتضرع له والتعبد له كما قال : ﴿ رب احكم بالحق ﴾ (١) وقوله : ﴿ لا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ (٢) وأمثال ذلك كثيرة .

والثاني ـ قال قوم إن ذلك خرج مخرج المسألة ومعناه الخبر ، وتقدير الكلام ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار ، لتوفينا ماوعدتنا به على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة لأنهم علموا ان ماوعد الله به فلابد من أن ينجزه

والثالث ـ قال قوم : معناه المسألة والدعاء بأن يجعلهم ممن آتاهم ما وعدهم من الكرامة على ألسن رسله ، لا أنهم كانوا قد استحقوا منزلة الكرامة عند الله في أنفسهم ثم سألوه أن يؤتيهم ما وعدهم بعد علمهم باستحقاقهم عند أنفسهم ، لأنه لو كان كذا ، لكانوا زكوا أنفسهم وشهدوا لها أنهم ممن قد استوجب كرامة الله ، وثوابه ، ولا يليق ذلك بصفة أهل الفضل من المؤمنين .

والرابع ـ قال قوم إنما سألوا ذلك على وجه الرغبة منهم إليه تعالى أن يؤتيهم ما وعدهم من النصر على أعدائهم من أهل الكفر وإعلاء كلمة الحق على الباطل فيجعل ذلك لهم لأنه لا يجوز أن يكونوا مع ما وصفهم الله به غير واثقين ولا على غير يقين ان الله لا يخلف الميعاد فرغبوا إليه في تعجيل ذلك ، ولكنهم

---

(١) سورة الانبياء : آية ١١٢ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

كانوا وعدوا النصر ولم يوقت لهم في ذلك وقت فرغبوا إليه تعالى في تعجيل ذلك لهم لما لهم فيه من السرور بالظفر وهو اختيار الطبري . وقال الآية مختصة بمن هاجر من أصحاب النبي (ص) من وطنه وأهله مفارقاً لأهل الشرك بالله إلى رسول الله (ص) وغيرهم من تباع رسول الله (ص) الذين رغبوا إليه تعالى في تعجيل نصرهم على أعدائهم وعلموا انه لا يخلف الميعاد ذلك غير أنهم سألوا تعجيله وقالوا لا صبر لنا على اناتك وحلمك وقوى ذلك بما بعد هذه الآية من قوله : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا ... » الآيات بعدها وذلك لا يليق إلا بما ذكره ، ولا يليق بالأقاويل الباقية وإلى هذا أومأ البلخي ، لأنه قال في الآية الأخرى :انها والتي بعدها في الذين هاجروا إلى النبي (ص) . وفي الآية دلالة على أنه يجوز أن يدعو العبد بما يعلم أنه يفعله مثل أن يقول رب احكم بالحق . وقوله : « فاغفر لنا ذنوبنا » خلاف ما يقوله المجبرة ، ولا يلزم على ذلك جواز التعبد بأن يدعو بما يعلم أنه لا يكون مثل أن يقول لا يظلم ، لأن في ذلك تحكما على فاعله وتجبراً عليه في تدبيره ، ولو سوى بينهما كان جائزاً كما قلنا في قوله : ﴿لا تحملنا مالاطاقة لنا به﴾ (١) على أحد الوجهين وقوله : « انك لا تخلف الميعاد » فيه اعتراف بأنه لا يخلف الميعاد بعد الدعاء بالايجاز لئلا يتوهم عليهم تجويز الخلف على الله تعالى .

قوله تعالى :

﴿فاستجابَ لهمْ ربهمْ أني لاأُضيعُ عملَ عاملٍ منكمْ منْ ذكرٍ أو أنثى بعضكمْ منْ بعضٍ فالّذينَ هاجروا وأُخرجوا منْ ديارهمْ وأُوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأُكفرنّ عنهمْ سيئاتِهمْ ولأُدخلنّهمْ

« ١ » سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

جَنات ٍ تَجري مِن تَحتها الانهارُ ثَواباً مِنْ عِندِ الله ِوَاللهُ عِندهُ حُسنُ الثواب ِ﴾ (١٩٥) ـ آية بلا خلاف ـ .

قرأ حمزة والكسائي وخلف « وقتلوا وقاتلوا» بتقديم المفعولين على الفاعلين الباقون « قاتلوا وقتلو » بتقديم الفاعلين على المفعولين ،وشدد التاء من (قتلوا) ابن كثير وابن عامر . وقرأ عمر بن عبد العزيز « وقَتَلوا » بلا الف « وقتِلوا » وقال الطبري القراءة بتقديم المفعولين لا تجوز ، وهذا خطأ ظاهر ، لأن من اختار اسم الفاعلين على المفعولين ، وجه قراءته أن القتال قبل القتل . ومن قدم المفعولين على الفاعلين وجه قراءته يحتمل أمرين :

أحدهما ـ أن يكون المعطوف بالواو ويجوز أن يكون أولا في المعنى . وان كان مؤخراً في اللفظ ، لأن الواو ، لا يوجب الترتيب وهي تخالف الفاء في هذا المعنى ، وهكذا خلافهم في سورة التوبة .

والثاني ـ أن يكون لما قتل منهم قاتلوا ولم يهنوا ولم يضعفوا لمكان من قتل منهم كما قال تعالى ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ (١) وقوله : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني ﴾ أي بأني وحذف الباء ، ولو قرىء بكسر الهمزة كان جائزاً على تقدير : قال لهم « إني لا أضيع عمل عامل منكم » ومعنى قوله : « فاستجاب »أجابهم ربهم يعني الداعين بما تقدم وصف الله إياهم وأجاب واستجاب بمعنى قال الشاعر :

وداع دعا يامن يجيب إلىالندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب (٢)

أي لم يجبه .« بأني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » من زائدة كما يقال كان من الحديث ومن الأمر ومن القصة .ومن ههنا أحسن ، لأن حرف

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٤٦ .

(٢) قائله كعب بن سعد الغنوي الاصمعيات : ٩٨ والقصيدة مشهورة ، يرثي بها أخاه أبا المغوار منها أبيات متفرقة . وقد مر هذا البيت في ١ : ٨٤ .

النفي قد دخل في قوله : « لا أضيع » وقال قوم : من ههنا ليست زائدة ، لأنها دخلت لمعنى ولا يصلح الكلام إلا بها ، لأنها للترجمة والتفسير عن قوله : « منكم » بمعنى لا أضيع عمل عامل منكم من الذكور والاناث ، قالوا ولا تكون من زائدة إلا في موضع جحد. وقوله : ﴿ لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ لم يدركه الجحد لانك لا تقول لا أضرب غلام رجل في الدار ، ولا في البيت ، فيدخل ولا ، لأنه لم ينله الجحد ولكن (من) مفسرة . وقوله : « لأكفرن عنهم سيئاتهم » معناه لأذهبنها واسقط عقابها ، وهذه الآية ، والتي قبلها ـ في قول البلخي ـ نزلت في المتبعين للنبي (ص) والمهاجرين معه ثم هي في جميع من سلك سبيلهم واتبع آثارهم من المسلمين . وقوله : « لأكفرن عنهم سيئاتهم » أي لأغطينها وأمحونها وأحطنها عنهم بما ينالهم من ألم الهجرة والجهاد واحتمال تلك الشدائد في جنب الله . وحمل السيئات على الصغائر . وقوله : « ثواباً من عند الله » نصب على المصدر ذكر على وجه التأكيد ، لأن معنى « ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار » (١) لأثيبنهم ، ومثله « كتاب الله عليكم » لأن قوله : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » (٢) معناه كتب الله عليكم « وكتاب الله عليكم » مؤكد ومثل ذلك « صنع الله الذي » (٣) لأن قوله : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب » (٤) قد علم منه أن ذلك صنع الله . وقوله : « من ذكر أو أنثى » روي انه قيل لرسول الله (ص): ما بال الرجال يذكرون ، ولا تذكر النساء في الهجرة ، فأنزل الله هذه الآية روي ذلك عن مجاهد ، وعمرو بن دينار ، ويقال ان القائل لرسول الله (ص) كانت أم سلمة (رض) . وقوله : « بعضكم من بعض » قال أبو علي : يحتمل أمرين :

أحدها ـ أن يريد بقوله : « بعضكم » العاملين « من بعض » يعني بعض العمل الذي أمرتم به .

« ١ » سورة المائدة : آية ١٣ . « ٢ » سورة النساء : آية ٢٢ .

« ٣ ، ٤ » سورة النمل : ٨٨ .

والثاني - أن يكون عنى بقوله : « بعضكم من بعض » أن ذكور المؤمنين وأناثهم مستوون في أن لا يضيع الله لأحد منهم عملا ، وان يجازيهم على طاعاتهم ، فأناث المؤمنين بعض المؤمنين ، وكذلك ذكورهم ، فبعضهم كبعض في هذا الباب . وقال الطبري « بعضكم » يعني الذين يذكرونني « قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم » من بعض في النصرة ، والملة ، والدين ، وحكم جميعكم فيما أفعل بكم حكم أحدكم في « أني لا أضيع عمل عامل » ذكر منكم ولا أنثى . والاضاعة : الاهلاك . ضاع الشيء يضيع : إذا هلك . وأضاعه اضاعة وضيعه تضييعاً ، ومنه الضيعة : القرية . وقوله : ﴿ فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ﴾ يعني الذين هاجروا عن قومهم من أهل الكفر في الله إلى اخوانهم المؤمنين « وأخرجوا من ديارهم » هم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة « وأوذوا في سبيلي » بمعنى أوذوا في طاعتي وعبادتي ، وديني . وذلك هو سبيل الله « وقاتلوا » يعني في سبيل الله « وقتلوا » فيها « لأكفرن عنهم سيئاتهم » يعني لأمحونها عنهم ، ولأتفضلن عليهم بعفوي ورحمتي ، ولأغفرنها لهم . وذلك يدل على أن إسقاط العقاب تفضل على كل حال . « ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثواباً » يعني جزاء لهم على أعمالهم « والله عنده حسن الثواب » معناه أن عنده من حسن الجزاء على الاعمال مالا يبلغه وصف واصف مما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر .

قوله تعالى :

﴿ لا يَغرنَّكَ تَقلبُ الَّذينَ كفروا في البلادِ (١٩٦) مَتاعٌ قليلٌ ثمَّ مَأواهمْ جَهنَّمُ وَبئسَ المهادِ ﴾ (١٩٧) - آيتان بلا خلاف .

المعنى :

هذا خطاب للنبي (ص) . وقيل في معناه قولان :

أحدها - ان ذلك على وجه التأديب والتحذير ، لأن النبي لا تجوز عليه

المعاصي لمكان التحذير من الله والتخويف، كما قال ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾(١)

الثاني ـ ان الخطاب وان توجه إليه، فالمراد به جميع المؤمنين، وتقديره لا يغرنكم أيها المؤمنون ما ترون ان قوماً من الكفار كانوا يتجرون ويربحون في الاسفار التي كانوا يسافرونها، ويسلمون فيها لكونهم في الحرم، فأعلم الله تعالى أن ذلك مما لا ينبغي أن يغبطوا به، لأن مأواهم ومصيرهم بكفرهم إلى النار، ولا خير بخير بعده النار. وقوله: «متاع قليل» معناه ذلك الكسب، والربح الذي يربحونه متاع قليل وسماه متاعاً، لأنهم متعوا به في الدنيا، والمتاع النفع الذي تتعجل به اللذة اما بوجود اللذة أو بما يكون به اللذة نحو المال الجليل، والملك، وغير ذلك من الاولاد والاخوان. ووصفه بالقلة لسرعة زواله وانقطاعه، وذلك قليل بالاضافة إلى نعيم الآخرة. والمهاد الموضع الذي يسكن فيه الانسان ويفترشه. ووصفه بأنه بئس المهاد على ضرب من المجاز، لما فيه من أنواع العذاب، لأن الذم انما هو على الاساءة كقولك: بئس الرجل ـ هذا قول أبي علي الجبائي ـ وقال البلخي: هو حقيقة لأنه على وجهين:

أحدها ـ من جهة النقص.

والآخر ـ من جهة الاساءة، وهو معنى قول السدي، وقتادة، وأكثر المفسرين. والغرور ايهام حال السرور فيما الأمر بخلافه في المعلوم، وليس كل ايهام غروراً، لأنه قد يتوهمه مخوفاً فيحذر منه، فلا يقال غرّه. والفرق بين الغرر والخطر ان الغرر قبيح، لأنه ترك الحزم فيما يمكن أن يتوثق منه، والخطر قد يحسن على بعض الوجوه، لأنه من العظم من قولهم: رجل خطير أي عظيم، وبني المضارع مع النون الشديدة، لأنه بمنزلة ضم اسم إلى اسم للتأكيد.

قوله تعالى:

﴿لـكِنِ ٱلَّذِينَ اتقوا رَبَّهم لهمْ جَناتٌ تجرِي مِنْ تَحتها

«١» سورة العنكبوت: آية ٦٥.

الانهارُ خالدينَ فيها نُزُلاً مِنْ عِندِ اللهِ وَما عِندَ اللهِ خَيرٌ للابرارِ ﴾ (١٩٨) - آية - .

قرأ أبو جعفر (لكن) بتشديد النون وفتحها - ههنا وفي (الزمر) - وقرأ أبو عمرو والكسائي ، وحمزة في أكثر الروايات (الاشرار ، والابرار ، والقرار) بالامالة . الباقون - بالتفخيم - والامالة في فتحة الراء حسنة ، لأن الراء المكسورة تغلب المفتوحة كما غلبت المستعلي في قولهم : قارب وطارد ، وقادرفيمن أماله ، فاذا غلبت المستعلي ، فان تغلب الراء المفتوحة أولى ، لأنه لا استعلاء في الراء ،وإنما هو حرف من مخرج اللام فيه تكرير . ومن لم يمل ، فلأن كثيراً من الناس لا يميل شيئاً من ذلك .

لما أخبر الله تعالى عما للكفار من سوء العاقبة وأنواع العذاب بشر المؤمنين بما أعدلهم من الجزاء عند الله وجزيل الثواب ، فقال : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم ﴾ بفعل الطاعات، وترك المعاصي ﴿لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نزلا من عند الله ﴾ يعني ثواباً من عند الله ، وهو نصب على المصدر على وجه التأكيد ، لأن خلودهم فيها انزالهم فيها ، كأنه قال: نزلوها نزلا ، وهو بمعنى أنزلوها انزالا . ويحتمل أن يكون نصباً على التفسير ، كقولك : هو لك هبة . وواحد الابرار بار : مثل صاحب، وأصحاب . ويجوز أن يكون بر وأبرار - على فعل وأفعال - تقول : بررت والدي ، فانا بر . وأصله برر لكن ادغمت الراء للتضعيف . وقوله : « وما عند الله خير » يعني من الحبا والكرامة ، وحسن المآب خير للابرار مما يتقلب فيه الذين كفروا ، لأن ما يتقلبون فيه زائل فان قليل ، وما عند الله دائم غير زائل . وقد بينا معنى (لكن) فيما مضى ، وانها للاستدراك بها خلاف المعنى المتقدم من اثبات بعد نفي أو نفي بعد اثبات . فقوله : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ يتضمن معنى فما لهم كبير نفع ، فجاء على ذلك ، ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات ﴾ وقوله : ﴿ تجري من تحتها الانهار ﴾ معناه تجري من تحت شجرها .

ويقال انها تجري معلقة من غير أخدود لها . روي ذلك عن عبد الله بن مسعود ، ثم قال : ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها (١) ، وقوله في الفاجرة : إن الموت خير لها يعني إذا كانت تدوم على فجورها .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهلِ الكتابِ لمَنْ يُؤمِنُ باللهِ وَما أُنزِلَ إليكُمْ وَما أُنزِلَ إليهِمْ خاشِعينَ للهِ لا يَشترونَ بآياتِ اللهِ ثمناً قليلاً أُولئكَ لهمْ أجرهُمْ عِندَ رَبهِمْ إنَّ اللهَ سَريعُ الحسابِ ﴾ (١٩٩) ـ آية بلا خلاف ـ .

النزول :

اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية ، فقال جابر بن عبد الله ، وسعيد بن المسيب ، وقتادة ، وابن جريج إن النبي (ص) لما بلغه موت النجاشي ، دعا له واستغفر له ، وصلى عليه ، وقال للمؤمنين : صلوا عليه ، فقالوا نصلي على رجل ليس بمسلم ؟ وقال قوم منافقون : نصلي على علج بنجران ؟ فنزلت هذه الآية ، فالصفات التي فيهـا صفات النجاشي . وقال ابن زيد وفي رواية عن ابن جريج وابن اسحاق إنها نزلت في جماعة من اليهود وكانوا أسلموا ، منهم : عبد الله بن سلام ، ومن معه . وقال مجاهد : إنها نزلت في كل من أسلم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهو أولى ، لأنه عموم الآية ، ولا دليل يقطع به على ما قالوه على انهـا لو نزلت في النجاشي أو من ذكر ، لم يمنع ذلك من حملها على عمومها ، في كل من أسلم من أهل الكتاب ، لأن الآية قد تنزل على سبب وتكون عامة في كل من تتناوله .

المعنى :

وإنما خصوا بالوعيد ، ليبين ان جزاء أعمالهم موفر عليهم ، لا يضرهم كفر

« ١ » في المطبوعة : (فيها) .

من كفر منهم فتأويل الآية «وان من أهل الكتاب» : التوراة والانجيل «لمن يؤمن بالله» أي يصدق بالله ويقر بوحدانيته ، «وما أنزل إليكم» أيها المؤمنون من كتابه ووحيه على لسان نبيه محمد (ص) ، «وما أنزل إليهم» يعني إلى أهل الكتاب من الكتب «خاشعين» يعني خاضعين بالطاعة مستكينين له بها متذللين قال ابن زيد : الخاشع : المتذلل الخائف . « لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا » معناه لا يحرفون ما أنزل الله في كتبه من أوصاف محمد (ص) فيبدلونه ، ولا غير ذلك من أحكامه ، وحججه لغرض من الدنيا خسيس يعطونه على التبديل ، وابتغاء الرئاسة على الجهال ، كما فعله غيرهم ممن وصفه بقوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » (١) وقال : « اولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة » (٢) لكن ينقادون للحق ، ويعملون بما أمرهم الله به مما أنزل إليهم ، وينتهون عما نهاهم عنه ثم قال : « أولئك » يعني هؤلاء الذين يؤمنون « بالله . وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ... لهم أجرهم عند ربهم » يعني لهم عوض أعمالهم وثواب طاعاتهم فيما يطيعونه فيها مذخور عند ربهم حتى يوفيهم يوم القيامة « إن الله سريع الحساب» وصفه بالسرعة لأنه لا يؤخر الجزاء عمن يستحقه لطول الحساب ، لأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم قبل أن يعملوها وبعد أن عملوها ، فلا حاجة به إلى احصاء ، عدد فيقع في الاحصاء ابطاء وقال الجبائي : لأنه قادر على أن يكلمهم في حال واحدة كل واحد بكلام يخصه . لأنه قادر لنفسه و « خاشعين » نصب على الحال ، ويمكن أن يكون حالا من الضمير في « يؤمن » وهو عائد إلى قوله : « لمن يؤمن بالله » ويمكن أن يكون حالا من قوله: (إليهم) وقال الحسن : الخشوع : الخوف اللازم للقلب من الله . وأصل الخشوع : السهولة : والخشعة ، سهولة الرمل كالربوة . والخاشع من الارض : الذي لا يهتدى له ، لأن الرمل يعفي اثاره .

« ١ » سورة البقرة : آية ١٦ .　　« ٢ » سورة البقرة : آية ٨٦ .

ومنه قوله : « خاشعة أبصارهم » (١) « وخشعت الاصوات للرحمن » (٢) والخاشع : الخاضع ببصره . والخشوع : التذلل خلاف التصعب .

قوله تعالى :

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنوا اصْبروا وَصابروا وَرابِطوا وَاتَّقوا اللهَ لَعلَّكُمْ تُفلحونَ ﴾ (٢٠٠) ـ آية بلا خلاف ـ .

اختلفوا في تأويل هذه الآية ، فقال قوم : معنى اصبروا اثبتوا على دينكم وصابروا الكفار ورابطوهم يعني في سبيل الله ذهب إليه الحسن ، وقتادة ، وابن جريج ، والضحاك وقال آخرون : معناها « اصبروا » على دينكم « وصابروا » الوعد الذي وعدتكم به « ورابطوا » عدوّي وعدوكم ذهب إليه محمد بن كعب القرظي . وقال آخرون « اصبروا » على الجهاد « وصابروا عدوكم ورابطوا »الخيل عليه ذهب إليه زيد بن أسلم . وقال آخرون :رابطوا الصلوات أي انتظروها واحدة بعد واحدة ، لأن المرابطة لم تكن حينئذ وهذا مروي عن علي (ع) ذهب (٣) إليه أبو سلمة بن عبد الرحمن ، وجابر بن عبد الله وأبو هريرة والأولى أن تحمل الآية على عمومها في الصبر على كل ما هو من الدين ، فعلا كان أو تركا .

وأصل الرباط ارتباط الخيل للعدو ، والربط الشد ، ومنه قولهم : ربط الله على قلبه بالصبر ، ثم استعمل في كل مقيم في ثغر يدفع عمن وراء من أرادهم بسوء وينبغي (٤)أن يحمل قوله رابطوا أيضاً على المرابطة لما عند الله لأنه العرف في استعمال الخبر ، وعلى انتظار الصلاة واحدة بعد أخرى . وقوله : « واتقوا الله » معناه اتقوا ان تخالفوه فيما يأمركم به لكي تفلحوا [وتفوزوا] (٥) بنعيم الابد وتنجحوا بطاعتكم من الثواب الدائم .

---

(١) سورة القلم : آية ٤٣ .
(٢) سورة طه : آية ١٠٨ .
(٣) في المخطوطة (وذهب) .
(٤) في المطبوعة (ينبغي) باسقاط الواو .
(٥) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

وروي عن أبي جعفر (ع) انه قال اصبروا على المصائب ، وصابروا على عدوكم ، ورابطوا عدوكم . وانما جمع بين « اصبروا وصابروا » من أن المصابرة من الصبر ، للبيان عن تفصيل (١) الصبر الذي يعني به في الذكر لأن المصابرة صبر على جهاد العدو يقابل صبره لأن المفاعلة بين اثنين .

وإنما وصف (أي) بالموصول ولم يوصف بالمضاف ، لأن (الذي) يجري مجرى الجنس ، لأن فيه الالف واللام بمنزلة قوله يا أيها المؤمنون ، ولا يجوز يا أيها أخو زيد ، لأنه لا يصح فيه الجنس .

« ١ » في المطبوعة (تفضيل) .

سورة النساء

مائة وسبعون آية كوفي . وخمس وسبعون بصري

وهي مدنية كلها

وقد روي عن بعضهم أنه قال : كلما في القرآن من قوله : ﴿يا أيها الناس﴾ نزل بمكة ، والأول قول قتادة ، ومجاهد ، وعبد الله بن عباس بن أبي ربيعه ، وقال بعضهم : ان جميعها نزلت بالمدينة إلا آية واحدة وهي قوله . ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها﴾ (١) فأنها نزلت بمكة حين أراد النبي (ص) أن يأخذ مفاتيح الكعبة من عثمان بن طلحة ويسلمها إلى عمه العباس

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى :

﴿يا أَيُّها النَّاسُ اتقوا رَبَّكُمْ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَها وَبَثَّ مِنهما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقوا اللهَ الَّذي تَساءَلونَ بِهِ وَالارحامَ إنَّ اللهَ كانَ عَليكُمْ رَقيباً﴾ (١) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة والحجة :

قرأ أهل الكوفة ﴿تساءلون به﴾ بتخفيف السين ، الباقون بتشديدها، وقرأ حمزة وحده « والأرحام » بجر الميم ، الباقون بفتحها . فمن قرأ من أهل الكوفة

« ١ » سورة النساء : آية ٥٧ .

«تساءلون به» بالتخفيف فوجهه ان أصله تتساءلون، فحذف احدى التاءين وهي الاصلية، لأن الاخرى للمضارعة، وانما حذفوها لاستثقالهم إياها في اللفظ فحذفت لأن الكلام غير ملتبس. ومن شدد أدغم احدى التاءين في السين، لقرب مكان هذه من هذه.

المعنى :

ومعنى «تساءلون به» تطلبون حقوقكم به «والارحام» القراءة المختارة عند النحويين النصب في الارحام على تقدير: واتقوا الارحام. وتكون (١) معطوفة على موضع «به» ذكره أبو علي الفارسي، فأما الخفض فلا يجوز عندهم إلا في ضرورة الشعر كما قال الشاعر أنشده سيبويه :

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا   فاذهب فما بك والايام من عجب

فجرّوا الايام عطفاً على موضع الكاف في «بك» وقال آخر :

نعلق في مثل السواري سيوفنا   ومابينها والكعب غوط نفانف(٢)

فعطف الكعب على الهاء والالف في (بينها) وهو ظاهر على مكنى وقال آخر :

وان الله يعلمني ووهباً   وانا سوف نلقاه سِوانا

فعطف وهباً على الياء في يعلمني، ومثل ذلك لا يجوز في القرآن والكلام. قال المازني: لأن الثاني في العطف شريك للأول، فان كان الأول يصلح أن يكون شريكا للثاني جاز وإن لم يصلح أن يكون الثاني شريكا له لم يجزء قال: فكما لا تقول: مررت بزيد وذاك (٣) لا تقول مررت بك وزيد. وقال أبو علي الفارسي: لأن المخفوض حرف متصل غير منفصل فكأنه كالتنوين في الاسم فقبح أن يعطف باسم

« ١ » في المطبوعة : (أو يكون) .

« ٢ » قائله مسكين الدارمي معاني القرآن للفراء ١ :٢٥٣، والانصاف : ١٩٣ والخزانة ٣٣٨٢ . السواري جمع سارية وهي الاسطوانة والغوط : المطمئن من الارض . والنفانف جمع نفنف وهو الهواء بين الشيئين والبيت كناية عن طول قامتهم

« ٣ » في النسخ المخطوطة والمطبوعة (كذلك) والظاهر ما ذكرنا .

يقوم بنفسه على اسم لا يقوم بنفسه . ويفسد من جهة المعنى من حيث ان اليمين بالرحم لا يجوز ، لأن النبي (ص) قال : (لا تحلفوا بآبائكم) فكيف تساءلون به وبالرحم على هذا وقال اسماعيل بن اسحاق : الحلف بغير الله أمر عظيم ، وان ذلك خاص لله تعالى ، وهو المروي في أخبارنا .وقال ابراهيم النخعي وغيره : انه من قولهم : نشدتك بالله وبالرحم . وقال ابن عباس ، والسدي ، وعكرمة ، والحسن ، والربيع ،والضحاك ، وابن جريج ، وابن زيد ، وقتادة : المعنى والارحام فصلوها . وهذه الآية خطاب لجميع المكلفين من البشر .

وقوله : ﴿ واتقوا ربكم ﴾ فيه وعظ بان يتقى عصيانه بترك (١) ما أمر به وارتكاب مانهى عنه . وحذر من قطع الارحام لما أراد من الوصية بالاولادوالنساء والضعفاء ، فأعلمهم انهم جميعاً من نفس واحدة ، فيكون ذلك داعياً لهم إلى لزوم أمره وحدوده في ورثتهم ومن يخلفون بعدهم ، وفي النساءوالايتام عطفاً لهم عليهم . ثم اخبر تعالى انه خالق الخلق من نفس واحدة فقال : « الذي خلقكم من نفس واحدة » والمراد بالنفس ههنا آدم عند جميع المفسرين : السدي وقتادة ومجاهد وغيرهم . وقوله : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ يعني حواء . روي انها خلقت من ضلع من أضلاع آدم ، ذهب إليه أكثر المفسرين . وقال أبو جعفر (ع): خلقها من فضل الطينة التي خلق منها آدم ، ولفظ النفس مؤنث بالصيغة ، ومعناه التذكير ههنا ، ولو قيل نفس واحد لجاز .

المعنى ، واللغة :

وقوله: ﴿ وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ﴾ معنى بث نشر ، يقال : بث الله الخلق . ومنه قوله : « كالفراش المبثوث » (٢) وذلك يدل على بث . وبعض العرب يقول أبث الله الخلق ، ويقال بثثتك سري ، وابثثتك سري لغتان .

وقوله : ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ أي حافظاً تقول رقب يرقب رقاباً وانما

«١» في المطبوعة : (يقول) . «٢» سورة القارعة : آية ٤ .

قال : « كان عليكم » ولفظ كان يفيد الماضي لأنه أراد أنه كان حفيظاً على من تقدم زمانه من عهد آدم وولده إلى زمان المخاطبين ، وانه كان عالماً بما صدر منهم ، لم يخف عليه منه شيء . والرقيب الحافظ في قول مجاهد . وقال ابن زيد : الرقيب العالم ، والمعنى متقارب ، يقال : رقب يرقب رقوباً ورقباً ورقبة . قال أبو داود :

كمقاعد الرقباء للضرباء أيديهم نواهد (١)

وقيل في معنى « الذي تسألون به » قولان :

أحدها ـ قال الحسن ومجاهد وابراهيم : هو من قولهم : اسألك بالله والرحم ، فعلى هذا يكون عطفاً على موضع به كأنه قال : وتذكرون الارحام في التساؤل .

الثاني ـ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك والربيع وابن زيد وهو المروي عن أبي جعفر (ع) : واتقوا الارحام أن تقطعوها ، فعلى هذا يكون معطوفا على اسم الله تعالى ، ووجه النعمة في الخلق من نفس واحدة انه أقرب إلى أن يتعطفوا ويأمن بعضهم بعضاً ويحامي بعضهم عن بعض ، ولا يأنف بعضهم عن بعض ، لما بينهم من القرابة والرجوع إلى نفس واحدة ، لأن النفس الواحدة ههنا آدم (ع) باجماع المفسرين : الحسن وقتادة والسدي ومجاهد . وجاز من نفس واحدة لأن حواء من آدم على ما بيناه ، فرجع الجميع إلى آدم وانما أنث النفس والمراد بها آدم لأن لفظ النفس مؤنثة ، وان عني بها مذكر كما قال الشاعر :

أبوك خليفة ولدته أخرى   وأنت خليفة ذاك الكمال (٢)

فانث على اللفظ ، وقد حكينا عن أكثر المفسرين : ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي وابن اسحاق : ان حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم . وروي عن النبي (ص) انه قال : (المرأة خلقت من ضلع ، وانك ان أردت أن تقيمها كسرتها وان تركتها وفيها عوج استمتعت بها) . وروي عن أبي جعفر (ع)

« ١ » مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ١١٣ ، واللسان (رقب) وهو من أبيات في نعت الثور الابيض . الرقباء جمع رقيب وهو أمين أصحاب الميسر يحفظ ضربهم بالقداح . والضرباء جمع ضريب وهو : الضارب بالقداح . وقيل أن الضمير في (أيديهم) يعود الى الضرباء . وقيل انه يعود الى الرقباء ، وهو الأصح .

« ٢ » انظر ٢ : ٤٤٩ تعليقة ٣ .

أن حوّاء خلقت من فضل طينة آدم (ع) .

قوله تعالى :

﴿ وَآتوا اليتامى أموالهمْ وَلا تَتبدَّلوا الخبيثَ بالطيبِ وَلا تأكلوا أموالهمْ إلى أموالِكمْ إنَّهُ كانَ حُوباً كبيراً ﴾ (٢) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

هذا خطاب لأوصياء اليتامى ، أمرهم الله بأن يعطوا اليتامى أموالهم إذا بلغوا الحلم وأونس منهم الرشد ، وسماهم يتامى بعد البلوغ ، وايناس الرشد مجازاً ، لأن النبي (ص) قال : (لا يتم بعد احتلام) كما قالوا في النبي (ص) إنه يتيم أبي طالب بعد كبره يعنون انه رباه . وقوله . ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ معناه : لا تستبدلوا ما حرمه الله عليكم من أموال اليتامى بما أحله الله لكم من أموالكم ، واختلفوا في صفة التبديل فقال بعضهم كان أوصياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم والرفيع منه ويجعلون مكانه الردىء الخسيس ، ذهب إليه ابراهيم النخعي ، والسدي ، وابن المسيب ، والزهري ، والضحاك ، وقال قوم : معناه « ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » بأن تتعجلوا الحرام قبل أن يأتيكم الرزق الحلال الذي قدر لكم . ذهب إليه أبو صالح ، ومجاهد . وقال ابن زيد : معناه ما كان أهل الجاهلية يفعلونه ، من أنهم لم يكونوا يرزقون النساء ولا الصغار بل يأخذه الكبار. وأقوى الوجوه الوجه الأول ، لأنه ذكر عقيب مال اليتامى وإن حمل على عموم النهي عن التبديل بكل مال حرام كان قوياً . وقوله : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ يعني أموال اليتامى مع أموالكم والتقدير : ولا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم فتأكلوها جميعاً ، فأما خلط مال اليتيم بمال نفسه إذا لم يظلمه فلا بأس به بلا خلاف

قال الحسن لما نزلت هذه الآية كرهوا مخالطة اليتامى ، فشق ذلك عليهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ (١) وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) . وقوله : ﴿ انه كان حوباً كبيرا ﴾ يعني إن أكلكم أموال اليتامى مع أموالكم حوب كبير ، أي اثم كبير في قول ابن عباس ومجاهد . والهاء في قوله : «انه» دالة على اسم الفعل الذي هو الاكل. والحوب الاثم، يقال : حاب يحوب حوباً وحياباً والاسم الحوب . وقرأ الحسن حوباً : ذهب إلى المصدر . ويقال : تحوّب فلان من كذا إذا تحرج منه. ويقال نزلنا بحوبة من الارض وبحيب من الارض يعني بموضع سوء . وحكى الفراء عن بني أسد ان الحائب القاتل . وقال الشاعر :

إيهاً تطيع ابن عبس انها رحم   حبتم بها فاناختكم بجعجاع (٢)

أي أثمتم والحوبة الحزن ، والتحوب التحزن ، والتحوب التأثم ، والتحوب الهيباح الشديد ، والحوباء الروح والكبير العظيم

قوله تعالى :

﴿ وَإنْ خِفتمْ ألاَّ تُقسطوا في اليتامى فانْكحوا ما طابَ لكمْ مِنَ النساءِ مَثنى وَثلاثَ وَرُباعَ فانْ خِفتمْ ألاَّ تَعدِلوا فَواحِدةً أو ما مَلكتْ أيمانكمْ ذلكَ أدنى ألاَّ تعولوا (٣) وَآتوا النساءَ صَدقاتِهنَّ نِحلةً فانْ طِبنَ لكمْ عَنْ شيءٍ منهُ نَفساً فكلوهُ هَنيئاً مَريئاً ﴾ (٤) ـ آيتان ـ .

« ١ » سورة آل عمران : آية ٢٢٠ .

« ٢ » اللسان (حوب) نسبه الى النابغة وفي (جعع) نسبه الى نهيكة الفزاري ورواية البيت فيها :

صبراً بغيض بن ريث انها رحم ....

النزول ، والمعنى :

واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية على ستة أقوال :

أولها ـ ماروي عن عائشة انها قالت : نزلت في اليتيمة التي تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها ، ويريد أن ينكحها بدون صداق مثلها ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لها صداق مهر مثلها ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب مما سواهن من النساء إلى الاربع « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » من سواهن «أوما ملكت ايمانكم» ومثل هذاذكر في تفسير أصحابنا . وقالوا : انهامتصلة بقوله : ﴿ ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون ان تنكحوهن ﴾(١) ﴿ فان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ الآية وبه قال الحسن والجبائي والمبرد .

والثاني ـ قال ابن عباس وعكرمة : ان الرجل منهم كان يتزوج الاربع والخمس والست والعشر ويقول ما يمنعني أن أتزوج كما تزوج فلان فاذا فني ماله مال على مال اليتيم فانفقه،فنهاهم الله تعالى عن أن يتجاوزوا بالاربع إن خافوا على مال اليتيم وإن خافوا من الاربع أيضاً أن يقتصروا على واحدة .

والثالث ـ قال سعيد بن جبير والسدي وقتادة والربيع والضحاك . وفي احدى الروايات عن ابن عباس قالوا : كانوا يشددون في أمر اليتامى ولا يشددون في النساء ، ينكح أحدهم النسوة فلايعدل بينهن ، فقال الله تعالى كما تخافون ألا تعدلوا في اليتامى فخافوا في النساء ، فانكحوا واحدة إلى الاربع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة .

والرابع ـ قال مجاهد : ان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى معناه : ان تحرجتم

(١) سورة النساء : آية ١٢٦ .

من ولاية اليتامى وأكل أموالهم إيماناً وتصديقاً فكذلك تحرجوا من الزنا ، وانكحوا النكاح المباح من واحدة إلى أربع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة .

والخامس - قال الحسن : ان خفتم ألا تقسطوا في اليتيمة المربّاة في حجركم فانكحوا ما طاب لكم من النساء مما أحل لكم من يتامى قراباتكم مثنى وثلاث ورباع، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت ايمانكم . وبه قال الجبائي وقال : الخطاب متوجه إلى أولياء اليتيمة إذا أراد أن يتزوجها إذا كان هو وليها كان له أن يزوجها قبل البلوغ وله أن يتزوجها .

والسادس - قال الفراء : المعنى ان كنتم تتحرجون من مؤاكلة اليتامى فاحرجوا من جمعكم بين اليتامى ، ثم لا تعدلون بينهن . وقوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم ﴾ جواب لقوله : ﴿ وان خفتم ألا تقسطوا ﴾ على قول من قال ماروبناه أولا عن عائشة وأبي جعفر (ع) . ومن قال : تقديره : ان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا في النساء الجواب قوله : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » والتقدير : فان خفتم ألا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء ، فلا تتزوجوا منهن إلا من تأمنون معه الجور ، مثنى وثلاث ورباع ، وان خفتم أيضاً من ذلك فواحدة ، فان خفتم من الواحدة فماملكت ايمانكم ، فترك ذكر قوله فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء لدلالة الكلام عليه وهو قوله : ﴿ فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت ايمانكم ﴾ ومعنى « ألا تقسطوا » أي لا تعدلوا ولا تنصفوا ، فالاقساط هو العدل والانصاف والقسط هو الجور . ومنه قوله : ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾ (١) وقد بيناه فيما مضى . واليتامى جمع لذكران اليتامى واناثهم في هذا المعنى .

المعنى ، واللغة ، والاعراب

وقال الحسين بن علي المغربي : معنى ما طاب أي بلغ من النساء كما يقال : طابت الثمرة إذا بلغت ، قال : والمراد المنع من تزويج اليتيمة قبل البلوغ لئلا يجري

(١) سورة الجن : آية ١٥ .

عليها الظلم ، فان البالغة تختار لنفسها ، وقيل : معنى « ما طاب لكم من النساء » من أحل لكم منهن دون من حرم عليكم ، وانما قال : « ما طاب » ولم يقل : من طاب وان كان من لما يعقل وما لما لا يعقل لأن المعنى : انكحوا الطيب أي الحلال هذه العدة ، لأنه ليس كل النساء حلالا ، لأن الله حرم كثيراً منهن بقوله : « حرمت عليكم أمهاتكم »(١) الآية. هذا قول الفراء. وقال مجاهد : فانكحوا النساء نكاحاً طيباً. وقال المبرد : «ما» ههنا للجنس كقول القائل : ما عندك ؟ فتقول: رجل أو امرأة ، فالمعني بقوله : ما طاب الفعل دون اعيان النساء واشخاصهن ، لأن الاعيان لا تحرم ولا تحال ، وإنما يتناول التحريم والتحليل التصرف فيها ، وجرى ذلك مجرى قول القائل : خذ من رقيقي ما أردت : إذا أراد خذ منهم ارادتك ولو أراد خذ الذي تريد لم يجز إلا أن يقول خذ من رقيقي من أردت وكذلك قوله : « أو ما ملكت ايمانكم » معناه أو ملك ايمانكم ، ومعنى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع» فلينكح كل واحد منكم مثنى وثلاث ورباع ، كما قال : «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة» (٢) معناه : فاجلدوا كل واحد منهم ثمانين جلدة . وقوله : { مثنى وثلاث ورباع } بدل من (ما طاب) وموضعه النصب وتقديره : اثنين اثنين ، وثلاثاً وثلاثا ، واربعاً اربعا ، إلا انه لا ينصرف لعلتين ، احداهما: انه معدول عن اثنين اثنين وثلاث ثلاث في قول الزجاج ، وقال غيره : لأنه معدول ولأنه نكرة ، والنكرة أصل للاشياء ، وقال غيرهم : هو معرفة، وهذا فاسد عند البصريين ، لأنه صفة للنكرة في قوله : « اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع »(٣) والمعنى اولي اجنحة ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة . وقال الفراء لأنه معدول، لأنه يقع على الذكر والانثى ، ولأنه مضاف الى ما يضاف إليه الثلاث ، فكأن لامتناعه من الاضافة كان فيه الالف واللام . قال الشاعر :

« ١ » سورة النساء : آية ٢٢٠ . « ٢ » سورة النور : آية ٤ .

« ٣ » سورة فاطر : آية ١٢ .

ولكنما اهلي بواد أنيسه　　　ذئاب تبغي الناس مثنى وموحدا(١)

ومن قال: انه اسم للعدد معرفة استدل بقول تميم بن أبي مقبل:

ترى النعرات الزرق تحت لبانه　　　احاد ومثنى أصعقتها صواهله (٢)

فرد احاد ومثنى على النعرات وهي معرفة، وقد يجيء منكراً مصروفاً كما قال الشاعر:

قتلنا به من بين مثنى وموحد　　　باربعة منكم وآخر خامس (٣)

وترك الصرف أكثر قال صخر الغي:

منت لك أن تلاقيني المنايا　　　احادَ احادَ في شهر حلال (٤)

وقد تقع هذه الالفاظ على الذكر والانثى، فوقوعها على الانثى مثل الآية التي نحن في تفسيرها، ووقوعها على الذكر قوله: «اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع» لأن المراد به الجناح وهو مذكر، ويقال: احاد وموحد وثنى ومثنى، وثلاث ومثلث، ورباع ومربع، ولم يسمع في ما زاد عليه مثل خماس ولا المخمس ولا السداس والسباع إلا بيت للكميت فانه يروى في العشرة عشار، وهو قوله:

«١» قائله ساعدة بن جؤية الهذلي. اللسان (بغى) وروايته (سباع) بدل (ذئاب).

«٢» معاني القرآن ١: ٢٥٥، ٣٤٥، واللسان (نعر)، (صعق)، (قرد)، (ثنى) وروايته في (فرد) فراد، بدل، احاد. وأضعفتها، بـــدل أصعقتها وفي (نعر) و (صعق) الخضر، بدل، الزرق.

النعرات جمع نعرة وهي ذبابة تسقط على الدواب فتؤذيها وأصعقتها صواهله أي قتلتها صهيله.

«٣» معاني القرآن للفراء ١: ٢٥٤ وروايته:

وان الغلام المستهام بذكره　　　قتلنا به من بين مثنى وموحد

باربعـــة منكم وآخر خامس　　　وساد مع الاظلام في رمح معبد

ولم يعرف لهما قائل. والبيت في المتن كما ترى ملفق منهما. وساد - بالتنوين - بمعنى سادس.

«٤» نسبة محمود محمد شاكر في تفسير الطبري ٧: ٥٣٥ الى عمرو ذي الكلب وخطأ من نسبه الى غيره، وهذا خطأ منه لا محالة لأن رواية القدماء أكثرها اذا لم تكن جميعها تنسبه الى صخر الغي. وقـــد اعترف هو أن الطبري روايتـــه كذلك. وفي بعض الروايات (في شهر حلال). منت لك. أي قدرت لك نيتك أن تلقاني في شهر حلال، أو حرام على اختلاف الرواية.

فلم يستريثوك حتى رميت فوق الرجال خصالا عشارا (١)

يريد عشراً . وقال صخر السلمي في ثنا وموحد :

واقد قتلتكم ثناء وموحداً وتركت مرة مثل امس الدابر (٢)

ولم يرد أنه قتل الثلاثة ، وانما أراد انه قتل نفراً كثيراً منهم واحداً بعد واحد واثنين بعد اثنين ، وقوله : « فواحدة » نصب على انه مفعول به ، والتقدير : فان خفتم ألا تعدلوا فيما زاد على الواحدة فانكحوا واحدة ، ولو رفع كان جائزاً ، وقد قرأ به أبو جعفر المدني ، وتقديره : فواحدة كافية ، أو فواحدة مجزية ، كما قال : ﴿ فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ﴾ (٣) ومن استدل بهذه الآية على أن نكاح التسع ، جائز فقد اخطأ ، لأن ذلك خلاف الاجماع ، وأيضاً فالمعنى : فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى ان امنتم الجور وإما ثلاث ان لم تخافوا ذلك أو رباع ان امنتم ذلك فيهن ، بدلالة قوله : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » لأن معناه فان خفتم في الثنتين فانكحوا واحدة ، ثم قال : فان خفتم أيضاً في الواحدة فما ملكت ايمانكم . على أن مثنى لا يصح إلا لاثنين اثنين ، أو اثنتين اثنتين على التفريق في قول الزجاج ، فتقدير الآية « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث » [فثلاث] (٤) بدلا من مثنى ورباع بدلا من ثلاث ، ولو قيل بـ (أو) لظن أنه ليس لصاحب مثنى ثلاث ، ولا لصاحب الثلاث رباع . ومن استدل بقوله : « فانكحوا » على وجوب التزويج من حيث أن الامر يقتضي الايجاب ، فقد اخطأ ، لأن ظاهر الأمر وإن اقتضى الايجاب ، فقد ينصرف عنه بدليل ، وقد قام الدليل على أن التزويج ليس بواجب على أن الغرض بالآية النهي عن العقد

---

(١) مجاز القرآن ١ : ١١٦ ، والاغاني ٣ : ١٣٩ واللسان (عشر) استراثه : استبطأه ، وعشار أي عشراً عشراً .

(٢) مجاز القرآن ١ : ١١٥ ، والاغاني ١٣ : ١٣٩ . وروايته فيهما (المدبر) بدل (الدابر) .

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

(٤) اثبتنا ما بين القوسين لعدم استقامة المعنى بدونه .

على من يخاف ألا يعدل بينهن ، والتقدير : وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ، فتحرجتم فيهم ، فكذلك فتحرجوا في النساء ، فلا تنكحوا إلا ما أمنتم الجور فيه (١) منهن ، مما أحللته لكم منهن ، من الواحدة الى الأربع ، وقد يراد بصورة الأمر ما يراد بالنهي (٢) أو التهديد كقوله : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٣) وقال : « ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » (٤) والمراد بذلك كله التهديد والزجر ، فكذلك معنى الآية النهي ، وتقديرها : فلا تنكحوا إلا ما طاب لكم من النساء على ما بيناه .

وقوله : ﴿ ذلك ادنى ألا تعولوا ﴾ اشارة الى العقد على الواحدة مع الخوف من الجور فيما زاد عليها ، أو الاقتصار على ما ملكت أيمانكم ، ومعنى « أدنى » أقرب « ألا تعولوا » وقيل في معنى « ألا تعولوا » ثلاثة أقوال :

أحدها ـ وهو الاقوى والاصح ـ أن معناه : ألا تجوروا ، ولا تميلوا يقال منه : عال الرجل يعول عولا وعيالة إذا مال وجار ، ومنه عول الفرائض ، لأن سهامها إذا زادت دخلها النقص ، قال أبو طالب :

بميزان قسط وزنه غير عائل (٥)

وقال أبو طالب أيضاً :

بميزان قسط لا يخيس شعيرة   له شاهد من نفسه غير عائل (٦)

وروي : لا يضل شعيرة ، وبهذا قال ابراهيم ، وعكرمة ، والحسن ، ومجاهد، وقتادة ، وأبو مالك ، والربيع بن أنس ، والسدي ، وابن عباس ، واختاره الطبري، والجبائي . وقال قوم : معناه : ألا تفتقروا ، وهذا خطأ ، لأن [العول] (٧) الحاجة ، يقال منه : عال الرجل يعيل عيلة إذا احتاج ، كما قال الشاعر :

« ١ » في المطبوعة : (الا ما أمنتم به الجور فيه ..) .
« ٢ » في المطبوعة : (ما يراد النهي ..) وفي المخطوطة : (ما يراد به النهي ..) .
« ٣ » سورة الكهف : آية ٢٩ .
« ٤ » سورة النحل : آية ٥٥ وسورة الروم : آية ٣٤ .
« ٥ ـ ٦ » سيرة ابن هشام ١ : ٢٩٦ . وفي البيت رواية أخرى هي (بميزان صدق) .
« ٧ » أثبتنا ما بين القوسين لعدم تمامية المعنى الا به .

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل (١)

أي : متى يفتقر . وقال ابن زيد : معناه : ألا تكثر عيالكم ، وهذا أيضاً خطأ ، لأن المراد لو كان ذلك لما أباح الواحدة ، وما شاء من ملك الايمان ، لأن اباحة كل ما ملكت اليمين أزيد في العيال من أربع حرائر ، على أن من كثرة العيال يقال : أعال يعيل فهو معيل ، إذا كثر عياله وعال العيال : إذا مانهم ، ومنه قوله : ابدأ بمن تعول . وحكي الكسائي ، قال : سمعت كثيراً من العرب يقول : عال الرجل يعول إذا كثرعياله .وقوله : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » فصدقاتهن: جمع صدقة، يقال: هوصداق المرأة،وصدقةالمرأة ، و صُدقة المرأة،وصداق المرأة،والفتح اقلها . ومن قال : صُدقة المرأة قال : صدقاتهن ، كما تقول : غرفة وغرفات ، ويجوز صدقاتهن ، بضم الصاد وفتح الدال ، وصدقاتهن ، ذكره الزجاج . ولا يقرأ من هذه إلا بما قرىء به صدقاتهن،لأن القراءة سنة متبعة .وقوله: « نحلة» نصب على المصدر،ومعناه،قال بعضهم:فريضة،وقال بعضهم ديانة، كما يقال: فلان ينتحل كذا وكذا، أي يدين به ، ذكره الزجاج ، وابن خالويه . قال بعضهم : هي نحلة من الله لهن ، أن جعل على الرجل الصداق ولم يجعل على المرأة شيئاً من الغرم ، وذلك نحلة من الله تعالى للنساء . ويقال : نحلت الرجل : إذا وهبت له نحلة ونحلا ، ونحل جسمه ونحل : إذا دق ، وسمي النحل نحلا لأن الله نحل الناس منها العسل الذي يخرج من بطونها ، والنحلة عطية عليك على غير جهة المثامنة ، والنحلة الديانة ، والمنحول من الشعر ما ليس له ، واختلفوا في المعنيّ بقوله « وآتوا النساء » فقال ابن عباس ، وقتادة ، وابن جريج ، وابن زيد ، واختاره الطبري ، والجبائي ، والرماني ، والزجاج : المراد به الازواج ، أمرهم الله تعالى باعطاء المهر إذا دخل بها كلا ، إذا سمّى لها ، فأما غير المدخول بها إذا طلقت فان لها نصف المسمى ، وإن لم يكن سمى،

---

(١) قائله أحيحة بن الجلاح الأوسي . معاني القرآن للفراء ١ : ٢٥٥ ، والكامل لابن الأثير ١ : ٢٧٨ ، واللسان (عيل) من قصيدة قالها في حرب بين قومه وبين الخزرج ، وفي معاني القرآن بدل (وما) في الموضعين (ولا) .

فلها المتعة على ما بيناه فيما مضى .

وقال أبو صالح : هذا خطاب للأولياء ، لأن الرجل منهم كان إذا زوج أيمة أخذ صداقها دونها ، فنهاهم الله عن ذلك ، وأنزل هذه الآية .

وروى هذا أبوالجارود ، عن أبي جعفر (ع) ، وذكر المعمر بن سليمان، عن أبيه ، قال : زعم حضرمي ان اناساً كانوا يعطي هذا الرجل أخته ، ويأخذ أخت الرجل ، ولا يأخذون كثيرمهر ، فنهى الله عن ذلك ، وأمر باعطاءصداقهن، وأول الأقوال أقوى ، لأن الله تعالى ابتدأ ذكر هـــذه الآية بخطاب الناكحين للنساء ، ونهاهم عن ظلمهن والجور عليهن ، ولا ينبغي أن يترك الظاهر من غير حجة ولا دلالة ، وقوله : ﴿ فان طبن لكم عن شيء منه نفساً ﴾ اختلفوا فيمن المخاطب به ،فقال عكرمة ،وابراهيم، وعلقمة ، وقتادة ،وابن عباس ، وابن جريج ، وابن زيد : الخطاب متوجه الى الازواج ، لأن أناساً كانوا يتأثمون أن يرجع أحدهم في شيء مما ساق إلى امرأته ، فأنزل الله هذه الآية . وقال أبو صالح : المعني به الاولياء ، لأنه حمل أول الآية أيضاً عليهم ، على ما حكيناه عنه ، والأول هو الأولى ، لأنا بينا أن الخطاب متوجه إلى الازواج الناكحين ، فكذلك آخر الآية . ومعنى « فان طبن لكم عن شيء منه نفساً » إن طابت لكم أنفسهن بشيء ، ونصبه على التمييز ، كما يقولون : ضقت بهذا الأمر ذرعاً ، وقررت به عيناً ، والمعنى ضاق به ذرعي وقرت به عيني ، كما قال الشاعر :

إذا التياز ذو العضلات قلنا　　« اليك اليك » ضاق بها ذراعا(١)

وإنما هو على ذرعا وذراعا ، لأن المصدر والاسم يدلان على معني واحد ، فنقل صفة الذراع الى رب الذراع ، ثم أخرج الذراع مفسرة لموقع الفعل ، ولذلك وحد النفس لما كانت مفسرة لموقع الخبر ،والنفس المراد به الجنس ، يقع على الواحد

(١) قائله القطامي ، ديوانـــه : ٤٤ . واللسان (تيز) ومعاني القرآن ١ : ٢٥٦ . والتياز : الكثير اللحم . وقوله (اليك اليك) أي : خذها .

والجمع ، كما قال الشاعر :

بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب (١)

ولم يقل : فجلودها ، ولو قال : ﴿ فان طبن لكم عن شيء منه ﴾ أنفساً لجاز ، وكذلك ضقت به أذرعاوذراعا . فأما قوله : ﴿ بالأخسرين أعمالا ﴾ (٢) إنما جمع لئلا يوهم أنه عمل يضاف الى الجميع ، كما يضاف القتل إلى جماعة إذا رضوا به ، ومالأوا عليه . ومثل الآية : أنت حسن وجهاً ، فالفعل للوجه ، فلما نقل الى صاحب الوجه ، نصب الوجه على التمييز . وقوله : ﴿ فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ فهنيئاً مأخوذ من هنأت البعير بالقطران ، وذلك إذا جرب فعولج به ، كما قال الشاعر :

متبذلا تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب (٣)

فالهني شفاء من المرض ، كما أن الهناء شفاء من الجرب . ومعنى ﴿ فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ أي دواء شافياً ، يقال منه : هنأني الطعام ومرأني : إذا صار لي دواء وعلاجاً شافياً ، وهنيني ومريني بالكسر ، وهي قليلة ، ومن قال : هناني يقول في المستقبل : يهناني، ويمراني، ومن يقول : هنأني ، يقول يهنئني، ويمرئني، فاذا أفردوا قالوا: قد أمراني هذا الطعام ، ولا يقولون : أهناني ، والمصدر منه هنأ ، مرأ ، وقد مرؤ هذا الطعام مرأ ، ويقال : هنأت القوم إذا علتهم ، وهنأت فلاناً المال إذا وهبته له ، أهنؤه هنأ ، ومنه قولهم : انما سميت هانياً لتهنا ، أي : لتعطي ، ومعنى قوله : ﴿ فان طبن لكم عن شيء منه ﴾ يعني من المهر ، و«من» ههنا ليست للتبعيض وانما معناه لتبيين الجنس، كما قال ﴿ فاجتنبوا الرجس من الاوثان ﴾ (٥)

«١» قائله علقمة بن عبدة (علقمة الفحل) ديوانه : ٢٧ ، وشرح المفضليات : ٧٧٧ ، وسيبويه ١ : ١٠٧ من قصيدة في الحارث بن جبلة بن أبي شمر الغساني حين أسر أخاه شأساً ، فرحل اليه علقمة يطلب فكه . وقوله : (بها جيف الحسرى) الضمير راجع الى المطلوب في البيت السابق ، وهي آثار الطريق ، والصليب الودك الذي يسيل من جلودها بعد موتها .

«٢» سورة الكهف : آية ١٠٤ .

«٣» قائله دريد بن الصمة . اللسان (نقب) والأغاني ١٠ : ٢٢ ، والشعر والشعراء ٣٠٢ . والنقب ـ بضم النون وسكون القاف وفتحها ـ جمع نقبة ، أول الجرب حين يبدو .

«٤» سورة الحج : آية ٣٠ .

ولو وهبت له المهر كله لجاز ، وكان حلالا بلا خلاف . واستدل أبو علي بهذه الآية على أن لولي اليتيمة الذي هو غير الأب أن يزوج اليتيمة ، أو يتزوجها قبل أن تحيض ، أو يكمل عقلها ، بأن (١) قال الخطاب في قوله : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ﴾ متوجه إلى الاولياء الذين كانوا يتحرجون من العقد على اليتامى اللائي لهم عليهن ولاية ، خوفا من الجور ، فقال الله لهم : ان خفتم من العقد على أربع فعلى ثلاث ، أو اثنتين ، أو واحدة ، أو ما ملكت أيمانكم من سواهن ، ثم أمرهم باعطائهن المهر ، ثم قال : ﴿ فان طبن لكم ﴾ يعني الأزواج الذين هم الاولياء ، « عن شيء » من ذلك ، « فكلوه هنيئاً مريئاً » وهذا الذي قاله ليس بصحيح ، لأنه لا يسلم له أولا أنه خطاب للأولياء ، فما الدليل على ذلك ثم إن عندنا وعند الشافعي ليس لأحد من الأولياء أن يزوج الصغيرة إلا الأب (٢) خاصة فكيف يسلم له ما قاله ؟ ومن قال : يجوز ذلك ، قال : يكون العقد موقوفا على بلوغها ورضاها ، فان لم ترض كان لها الفسخ ، فعلى كل حال لا يصح ماقاله .

قوله تعالى :

﴿ وَلا تُؤتوا السفهاءَ أموالـكُمْ التي جَعلَ اللهُ لـكُمْ قِياماً وَارزقوهُمْ فيها وَاكسوهُمْ وَقولوا لهمْ قَولاً مَعروفاً ﴾ (٥) ـ آية ـ .

القراءة ، والمعنى :

قرأ نافع ، وابن عباس ، قيما بغير الف . اختلف أهل التأويل فيمن المراد بالسفهاء المذكورين في الآية ، فقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، والسدي ، والضحاك ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو مالك : إنهم النساء والصبيان ، وهو الذي رواه أبو الجارود ، عن أبي جعفر (ع) وقال سعيد بن جبير ، والحسن

« ١ » في المطبوعة : فان ، وقد صححنا على المخطوطة .
« ٢ » في المطبوعة : الى الأب ، وهو تحريف .

وقتادة ، في روايـــة أخرى عنهم : أنهم الصبيان الذين لم يبلغوا فحسب ، وقال أبو مالك ، معنـــاه : لا تعط ولدك السفيه مالك فيفسده الذي هو قيامك وقال ابن عباس في رواية أخرى : إنها نزلت في السفهاء وليس لليتامى في ذلك شيء ، وبه قال ابن زيد ، وقال ابوموسى الاشعري ثلاثة يدعون فلا يستجيب الله لهم : رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ، وقال : اللهم خلصني منهـا ، ورجل أعطى مالا سفيهاً ، وقد قال الله : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » ، ورجل له على غيره مال فلم يشهد عليه . وقد روي عن أبي عبد الله (ع) ان السفيه شارب الخمر ، ومن جرى مجراه ، وقال المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، قال : زعم حضرمي أن المراد به النساء خاصة ، وروي ذلك عن مجاهد ، والضحاك ، وابن عمر ، والأولى حمل الآية على عمومها في المنع من اعطاء المال السفيه ، سواء كان رجلا أو امرأة بالغاً أو غير بالغ .

والسفيه هو الذي يستحق الحجر عليه ، لتضييعه ماله ، ووضعـه في غير موضعه ، لأن الله تعالى قال عقيب هـــذه الاوصاف : «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم » فامر الأولياء بدفع الأموال إلى اليتامى إذا بلغوا ، وأونس منهم رشـــد ، وقد يدخل في اليتامى الذكور والاناث ، فوجب حملها على عمومها .

اللغة :

فأما من حمل الآية على النساء خاصة ، فقوله ليس بصحيح ، لأن فعيلة لا يجمع فعلاء ، وانما يجمع فعايل وفعيلات ، كغريبة وغرايب وغريبات ، وقد جاء : فقيرة وفقراء ، ذكره الرماني . فأما الغرباء فجمع غريب

المعنى :

وقوله : « أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم »

اختلفوا في معناه . فقال ابن عباس ، وأبو موسى الاشعري ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد ، وحضرمي معناه : لا تؤتوا يا أيها الرّشد السفهاء من النساء والصبيان ـ على ما ذكرنا من اختلافهم ـ « أموالكم التي جعل الله لكم » يعني أموالكم التي تملكونها ، فتسلطوهم عليها ، فيفسدوها ، ويضيعوها ، ولكن « ارزقوهم فيها » إن كانوا ممن يلزمكم نفقته ، واكسوهم « وقولوا لهم قولا معروفا ». وقال السدي : معناه : لا تعط امرأتك وولدك مالك ، فيكونوا هم الذين ينفقون ويقومون عليك، واطعمهم من مالك ، واكسهم . وبه قال ابن عباس ، وابن زيد . وقال سعيد ابن جبير : يعني بـ « أموالكم » أموالهم ، كما قال : « ولا تقتلوا أنفسكم » (١) قال : واليتامى لا تؤتوهم أموالهم ، « وارزقوهم فيها واكسوهم » . والاولى حمل الآية على الامرين ، لأن عمومه يقتضي ذلك ، فلا يجوز أن يعطى السفيه الذي يفسد المال ، ولا اليتيم الذي لم يبلغ ، ولا الذي بلغ ولم يؤنس منه الرشد ، ولا أن يوصى إلى سفيه ، ولا يختص ببعض دون بعض ، وإنما يكون اضافة مال اليتيم إلى من له القيام بأمرهم ، على ضرب من المجاز ، أو لأنه أراد : لا تعطوا الأولياء ما يخصهم لمن هو سفيه (٢) ويجري ذلك مجرى قول القائل لواحدٍ : يافلان أكلتم أموالكم بالباطل ، فيخاطب الواحد بخطاب الجميع ، ويريد به أنك وأصحابك أو قومك أكلتم ، ويكون التقدير في الآية : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » التي بعضها لكم ، وبعضها لهم ، فيضيعوها .

اللغة :

وقوله : ﴿ التي جعل الله لكم قياماً ﴾ معناه : ماجعله قوام معايشكم ومعايش سفهائكم ، التي بها تقومون قياماً ، وقيما ، وقواماً ، بمعنى واحد . وأصل القيام : القِوام ، فقلبت الواو ياء للكسرة التي قبلها ، كما قالوا : صمت صياماً ، وحلت

(١) سورة النساء : آية ٢٨ .

(٢) هكذا في المطبوعة والمخطوطة ، وهي كما ترى

حيالا ، ومنه : فلان قوام أهله ، وقيام أهله . ومنه : قوام الأمر وملاكه ، وهو اسم . والقيام مصدر .

المعنى :

وبهذا التأويل قال أبو مالك،والسدي ، ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وابن زيد . وقوله : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ اختلفوا في تأويله ، فمن قال : عنى بقوله : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ﴾ يعني أموال أولياء السفهاء ، فانهم قالوا : معناه : وارزقوا أيها الناس سفهاءكم ، من نسائكم وأولادكم من أموالكم ، طعامهم ، وما لابد لهم منه . ذهب إليه مجاهد ، والسدي ، وغيرهما ممن تقدم ذكره . ومن قال : إن الخطاب للاولياء ، بأن لا يؤتوا السفهاء أموالهم ، يعني أموال السفهاء ، حمل قوله : « وارزقوهم فيها واكسوهم » على أنه من أموال السفهاء ، يعني ما لابد منه من مؤنهم ، وكسوتهم ، وإذا حملنا الآية على عمومها ، على ما بيناه ، فالتقدير : وارزقوا أيها الرّشد من خاص أموالكم من يلزمكم النفقة عليه ، مما لابد منه من مؤنة وكسوة ، ولا تسلموا إليه إذا كان سفيهاً ، فيفسد المال . ويا أيها الاولياء ، أنفقوا على السفهاء من أموالهم ، التي لكم الولاية عليها ، قدر ما يحتاجون إليه من النفقة والكسوة . وقوله : ﴿ وقولوا لهم قولا معروفا ﴾ قال مجاهد ، وابن جريج . قولوا لهم ، يعني للنساء والصبيان ، وهم السفهاء ، « قولا معروفا » في البر والصلة . وقال ابن زيد : ان كان السفيه ليس من ولدك ، ولا يجب عليك نفقته ، فقل له قولا معروفا ، مثل : عافانا الله وإياك ، بارك الله فيك . وقال ابن جريج : معناه : يامعاشر ولاة السفهاء ، قولوا قولاً معروفاللسفهاء ، وهو : إن صلحتم ورشدتم ، سلمنا إليكم أموالكم ، وخلينا بينكم وبينها ، فاتقوا الله في أنفسكم وأموالكم ، وما أشبه ذلك ، مما هو واجب عليكم ، ويحثكم على الطاعة ، ، وينهاكم عن المعصية . وقال الزجاج : معناه : علموهم مع إطعامكم إياهم وكسوتكم إياهم ، أمر دينهم .

وفي الآية دلالة على جواز الحجر على اليتيم إذا بلغ ، ولم يؤنس منه الرشد ، لأن الله تعالى منع من دفع المال إلى السفهاء ، وقد بينا أن المراد به أموالهم على بعض الأحوال .

وفي الآية دلالة على وجوب الوصية ، إذا كان الورثة سفهاء ، لأن ترك الوصية بمنزلة إعطاء المال في حال الحياة إلى من هو سفيه ، وإنما سمي الناقص العقل سفيهاً (١) ، وان لم يكن عاصياً ، لأن السفه هو خفة الحلم ، ولذلك سمي الفاسق سفيهاً ، لأنه لا وزن له عند أهل الدين (٢) ، والعلم فثقل الوزن وخفته ككبر القدر وصغره .

قوله تعالى :

﴿ وَابتلوا اليتامى حتى إذا بَلغوا النكاحَ فانْ آنستمْ منهمْ رُشداً فادفعوا إليهمْ أموالهمْ وَلا تَأكلوها إسرافاً وَبداراً أن يَكبروا وَمَنْ كانَ غنياً فليستعففْ وَمن كانَ فقيراً فليأكلْ بالمعروفِ فاذا دَفعتمْ إليهمْ أموالهمْ فأشهدوا عليهمْ وكفى بالله حسيباً ﴾ (٦) - آية بلا خلاف - .

المعنى :

هذا خطاب لأولياء اليتامى ، أمر الله تعالى بأن يختبروا عقول اليتامى في أفهامهم ، وصلاحهم في أديانهم ، وإصلاحهم أموالهم . وهو قول قتادة ، والحسن ، والسدي ، ومجاهد ، وابن عباس ، وابن زيد . وقد بينا أن الابتلاء معناه الاختبار فيما مضى . وقوله : « حتى إذا بلغوا النكاح » معناه : حتى يبلغوا الحد الذي يقدرون على مجامعة النساء وينزل ، وليس المراد الاحتلام ، لأن في الناس من

(١) (سفيهاً) ساقطة من المطبوعة .

(٢) عند (أهل الدين) ساقطة من المطبوعة .

لا يحتلم ، أو يتأخر احتلامـه ، وهو قول أكثر المفسرين : مجاهد ، والسدي ، وابن عباس ، وابن زيد . ومنهم من قال : إذا كمل عقله ، واونس منه الرشد ، سلم إليه ماله ، وهو الاقوى . ومنهم من قال : لا يسلم إليه حتى يكمل له خمس عشرة سنة ، وإن كان عاقلا ، لأن هـذا حكم شرعي ، وبكمال العقل تلزمه المعارف لا غير ، وقال أصحابنا : حد البلوغ إما بلوغ النكاح ، أو الانبات في العانة ، أو كمال خمس عشرة سنة . وقوله : « فان آنستم منهم رشداً » معناه : فان وجدتم منهم رشدا وعرفتموه ، وهو قول ابن عباس .

اللغة :

تقول : آنست من فلان خيراً إيناساً وأنست به أنساً : إذا ألفته . وفي قراءة عبد الله : فان أحسيتم يعني أحسستم ، أي وجدتم ، والاصل فيه : أبصرتم . ومنه قوله : « آنس من جانب الطور ناراً » (١) أي أبصر ، ومنه أخذ انسان العين ، وهو حدقتها التي يبصر بها .

المعنى :

واختلفوا في معنى الرشد (٢) ، فقال السدي ، وقتادة : معناه عقلا وديناً وصلاحاً . وقال الحسن (٣) ، وابن عباس : معناه : صلاحاً في الدين ، وإصلاحاً للمال . وقال مجاهد ، والشعبي : معناه العقل . قال : لا يدفع إلى اليتيم ماله ، وإن أخذ بلحيته ، وإن كان شيخاً ، حتى يؤنس منه رشده : العقل . وقال ابن جريج : صلاحاً ، وعلماً بما يصلحه .

والاقوى أن يحمل على أن المراد به العقل ، وإصلاح المال ، على ما قال ابن عباس ، والحسن ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) ، للاجماع على أن من يكون كذلك لا يجوز عليه الحجر في ماله ، وان كان فاجراً في دينه ، فاذا كان ذلك اجماعا

« ١ » سورة القصص : آية ٢٩ .

« ٢ » (واختلفوا في معنى الرشد) ساقطة من المطبوعة .

« ٣ » (الحسن) ساقط من المطبوعة .

فكذلك إذا بلغ ، وله مال في يدوصي أبيه أو في يد حاكم قد ولي ماله ، وجب عليه أن يسلم إليه ماله ، إذا كان عاقلا ، مصلحاً لما له ، وإن كان فاسقاً في دينه . وفي الآية دلالة على جواز الحجر على العاقل ، إذا كان مفسداً في ماله ، من حيث أنه إذا كان عند البلوغ يجوز منعه المال إذا كان مفسداً له ، فكذلك في حال كمال العقل إذا صار بحيث يفسد المال ، جاز الحجر عليه ، وهو المشهور في أخبارنا .

ومن الناس من قال : لا يجوز الحجر على العاقل ، ذكرناه في الخلاف .

وقوله : ﴿ فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا ﴾ فهو خطاب لأولياء اليتيم ، أمرهم الله تعالى إذا بلغ اليتيم ، وأونس منه الرشد ، على ما فسرناه ، أن يسلم إليه ماله ، ولا يحبسه عنه . وقوله : ﴿ ولا تأكلوها اسرافاً ﴾ معناه بغير ما أباحه الله لكم . وقال الحسن ، والسدي : الاسراف في الاكل . وأصل الاسراف تجاوز الحد المباح إلى ما لم يبح ، وربما كان ذلك في الافراط ، وربما كان في التقصير ، غير أنه إذا كان في الافراط يقال منه : أسرف يسرف إسرافاً ، وإذا كان في التقصير يقال : سرف يسرف سرفاً ، يقال : مررت بكم فسرفتكم ، يريد : فسهوت عنكم ، واخطأتكم ، كما قال الشاعر :

اعطوا هنيدة يحدوها ثمانية ما في عطائهم منّ ولا سرف (١)

يعني لا خطأ فيه ، يريد أنهم يصيبون مواضع العطاء فلا يخطونها . وقوله : « وبداراً أن يكبروا » فالبدار والمبادرة مصدران ، فنهى الله تعالى أولياء اليتامى أن يأكلوا أموالهم اسرافاً بغير ما أباح الله لهم أكله ، ولا مبادرة منكم بلوغهم ، وإيناس الرشد منهم ، حذراً أن يبلغوا ، فيلزمكم تسليمه إليهم ، وبه قال ابن عباس ، وقتادة ، والحسن ، والسدي ، وابن زيد .

(١) قائله جرير ديوانه ٢ : ١٥ واللسان (هند) و (سرف) وهو من قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك ، ويهجو آل المهلب . قوله : (هنيدة) اسم لكل مئة من الابل ، و(هنيدة) لا يصرف ولا يدخل عليه الالف واللام ولا يجمع وليس له واحد من جنسه . و (ثمانية) أي ثمانية من العبيد . وكان في المخطوطة والمطبوعة (عطاءكم) وهو مناسب في المعنى ولكن لم أجد أحداً يرويه الا (عطائهم) .

وأصل البدار الامتلاء . ومنه البدر القمر ، لامتلائه نوراً ، والبدرة : لامتلائها بالمال ،والبيدر : لامتلائه بالطعام، وموضع «أن» نصب بالمبادرة ، والمعنى: لا تأكلوها مبادرة كبرهم . وقوله : ﴿ ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » يعني : من كان غنياً من ولاة أموال اليتامى فليستعفف بماله عن أكلها ، وبه قال ابن عباس ، وابراهيم . وقوله : ﴿ ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ قال عبيدة : معناه القرض ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع)، ألا ترى أنه قال : ﴿ فاذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ﴾

« ومن كان فقيراً » فاختلفوا في الوجه الذي يجوز له أكل مال اليتيم به إذا كان فقيراً ، وهو المعروف ،فقال سعيد بن جبير ، وعبيدة السلماني ، وأبو العالية، وأبو وائل ، والشعبي ، ومجاهد ، وعمر بن الخطاب : هو أن يأخـذه قرضاً على نفسه فيما لابد له منه ، ثم يقضيه ، وبينا أنه المروي عن أبي جعفر (ع) . وقال الحسن ، وإبراهيم ، ومكحول، وعطاء بن أبي رباح : يأخذ ماسد الجوعة ، ووارى العورة ، ولا قضاء عليه ، ولم يوجبوا أجرة المثل ، لأن أجرة المثل ربمـا كانت أكثر من قدر الحاجة . والظاهر في أخبارنا أن له أجرة المثل ، سواء كان قدر كفايته ، أو لم يكن . وسئل ابن عباس عن ولي يتيم له إبل هل له أن يصيب من ألبانها ؟ فقال : إن كنت تلوط حوضها ، وتهنأ جرباها ، فأصبت من رسلها ، غير مضر بنسل ولا ناهكه في الحلب .

معنى تلوط حوضها : تطينه ، وتهنأ جرباها ، معناه : تطليها بالهناء ، وهو الخضخاض ، ذكره الازهري ، والرسل اللبن ، والنهك : المبالغة في الحلب .

واختلفوا في هل للفقير من ولي اليتيم أن يأكل من ماله هو وعياله ، فقال عمرو بن عبيد : ليس له ذلك ، لقوله : « فليأكل بالمعروف » فخصه بالأكل ، وقال الجبائي : له ذلك لأن قوله : « بالمعروف » يقتضي أن يأكل هو وعياله ، على ما جرت به العادة في أمثاله ، وقال إن كان المال واسعاً كان له أن يأخذ قدر كفايته ، له ولمن يلزمه نفقته من غير اسراف ، وإن كان قليلا كان له أجرة المثل

لا غير ، وإنما لم يجعل له أجرة المثل إذا كان المال كثيراً ، لأنه ربما كان أجرة المثل أكثر من نفقته بالمعروف ، وعلى ما قلناه من أن له أجرة المثل سقط هذا الاعتبار وقوله : ﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ﴾ خطاب لأولياء اليتامى ، إذا دفعوا أموال اليتامى إليهم ، أن يحتاطوا لأنفسهم بالاشهاد عليهم ، لئلا يقع منهم جحود ، ويكونوا أبعد من التهمة ، وسواء كان ذلك في أيديهم ، أو استقرضوه ديناً على نفوسهم ، فان الاشهاد يقتضيه الاحتياط ، وليس بواجب . وقوله : ﴿ كفى بالله حسيباً ﴾ معناه : كفى الله ، والباء زائدة ، وقال السدي : معناه : شهيدا هٰهنا ، وقيل : معناه : وكفى بالله كافياً من الشهود ، ولأن أحسبني معناه : كفاني ،

والمعنى : وكفى بالله شهيداً في الثقة بإيصال الحق إلى صاحبه والمحسب من الرجال المرتفع النسب . والمحسب ، المكفي . وولي اليتيم المأمور بابتلائه ، وهو الذي جعل إليه القيام به ، من وصي ، أو حاكم ، أو أمين ، ، ينصبه الحاكم . وأجاز أصحابنا الاستقراض من مال اليتيم إذا كان ملياً ، وفيه خلاف .

قوله تعالى :

﴿ للرجالِ نصيبٌ مما تركَ الوالدانِ وَالاقربونَ وَللنساءِ نصيبٌ مما تركَ الوالدانِ وَالاقربونَ مما قلَّ منهُ أو كثرَ نصيباً مَفروضاً ﴾ (٧) ـ آية بلا خلاف ـ .

النزول :

اختلفوا في سبب نزول هذه الآية ، فقال قتادة ، وابن جريج ، وابن زيد : إن أهل الجاهلية كانوا يورثون الذكور دون الاناث ، فنزلت هذه الآية رداً لقولهم . وقال الزجاج : كانت العرب لا تورث إلا من طاعن بالرماح ، وذاد عن الحريم والمال ، فنزلت هذه الآية رداً عليهم ، وبين أن للرجال نصيباً مما ترك الوالدان والاقربون ، « وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا » يعني حظاً مفروضاً ، قال الزجاج : مفروضاً . نصب على الحال ،

وقال غيره : هو إسم في موضع المصدر ، كقولك قسما واجباً ، وفرضاً لازماً ، ولو كان إسماً ليس فيه معنى المصدر ، لم يجز قولك : عندي حق درهماً ، ويجوز : لك عندي درهم هبة مفترضة (١) وأصل الفرض الثبوت ، والفرض : الحز في سية القوس حيث يثبت الوتر ، والفرض : ما أثبته على نفسك من هبة أو صلة ، والفرض : إيجاب الله عز وجل على العبد ما يلزمه فعله لاثباته عليه ، والفرض : جند يفترضون ، والفرض : ما أعطيت من غير قرض ، لثبوت تمليكه ، والفرض : ضرب من التمر . والفارض المسنة ، والفرضة : حيث ترمي (٢) السفن من النهر وكل ضخم فارض ، والفرق بين الفرض والوجوب أن الفرض هو الايجاب ، غير أن الفرض يقتضي فارضاً فرضه ، وليس كذلك الواجب لأنه قد يجب الشيء في نفسه من غير إيجاب موجب ، ولذلك صح وجوب الثواب والعوض على الله تعالى ، ولم يجز فرضه عليه . وأصل الوجوب الوقوع ، يقال : وجب الحائط وجوباً فهو واجب ، إذا وقع ، وسمعت وجبة أي وقعة كالهدة ، ومنه « وجبت جنوبها »(٣) أي وقعت لجنوبها ، ووجب الحق وجوبا ، إذا وقع سببه ، كوجوب رد الوديعة ، وقضاء الدين ، ووجوب شكر المنعم ، ووجوب الأجر ، وإنجاز الوعد ، ووجب القلب وجيباً إذا خفق من فزع وقعة كالهدة .

وفي الآية دليل على بطلان القول بالعصبة ، لأن الله تعالى فرض الميراث للرجال والنساء ، فلو جاز أن يقال : النساء لا يرثن في موضع ، لجاز لآخرين أن يقولوا : والرجال لا يرثون ، والخبر المدعى في العصبة خبر واحد ، لا يترك له عموم القرآن ، لأنه معلوم ، والخبر مظنون ، وقد بينا ضعف الخبر في كتاب تهذيب الأحكام ، فمن أراده وقف عليه من هناك .

وفي الآية أيضاً دلالة على أن الانبياء يورثون ، لأنه تعالى عم الميراث للرجال والنساء ، ولم يخص ، نبياً من غيره ، وكما لا يجوز أن يقال : النبي لا يرث ،

« ١ » في المطبوعة : مقبوضة . « ٢ » في المطبوعة : ترقا .

« ٣ » سورة الحج : آية ٣٦ .

لأنه خلاف الآية ، فكذلك لا يجوز أن يقال : لا يورّث ، لأنه خلافها ، والخبر الذي يروون أنه قال : نحن معاشر الانبياء لا نورّث ، ما تركناه صدقة ، خبر واحد ، وقد بينا ما فيه ، في غير موضع ، وتأولناه ، بعد تسليمه .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾ (٨) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

هذه الآية عندنا محكمة ، وليست منسوخة ، وهو قول ابن عباس ، وسعيد ابن جبير ، والحسن ، وابراهيم ، ومجاهد ، والشعبي ، والزهري ، ويحي بن يعمر ، والسدي ، والبلخي ، والجبائي ، والزجاج ، وأكثر المفسرين والفقهاء . وقال سعيد ابن المسيب ، وأبو مالك ، والضحاك ، هي منسوخة ، وإرزاق من حضر قسمة الميراث من هذه الأصناف ، ليس بواجب ، بل هو مندوب إليه ، وهو الذي اختاره الجبائي ، والبلخي ، والرماني ، وجعفر بن مبشر ، وأكثر الفقهاء والمفسرين . وقال مجاهد : هو واجب ، وحق لازم ما طابت به أنفس الورثة . وكل من ذهب إلى أنها منسوخة قال : إن الرزق ليس بواجب ، وكذلك من قال انها في الوصية .

واختلفوا فيمن المخاطب بقوله : « فارزقوهم » فقال أكثر المفسرين : إن المخاطب بذلك الورثة ، أمروا بأن يرزقوا المذكورين ، إذا كانوا لا سهم لهم في الميراث ، وقال آخرون إنها تتوجه إلى من حضرته الوفاة ، وأراد الوصية ، فأنه ينبغي له أن يوصي لمن لا يرثه من هؤلاء المذكورين ، بشيء من ماله . وروي هذا القول الأخير عن ابن عباس ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، وسعيد ابن المسيب ، واختار الطبري هذا الوجه ، والوجه الاول روي عن ابن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وأبي موسى الاشعري ، وابن سيرين ، والحسن ، وسعيد بن جبير . قال سعيد بن جبير : إن كان الميت أوصى لهم بشيء أنفذت وصيته ، وإن

كان الورثة كباراً أرضخوا لهم ، وإن كانوا صغاراً قال وليهم : إني لست أملك هذا المال ، وليس لي ، إنما هو للصغار ، فذلك قوله : ﴿ وقولوا لهم قولا معروفا ﴾ وبه قال السدي ، وابن عباس . واختلفوا فيمن المامور [بقول] (١) المعروف ، فقال سعيد بن جبير : أمر الله أن يقول الولي الذي لا يرث ، للمذكورين قولا معروفا ، ويقول : إن هذا لقوم غيب أو يتامى صغار ، ولكم فيـه حق ، ولسنا نملك أن نعطيكم منـــه . وقال قوم : المأمور بذلك الرجل الذي يوصي في ماله ، والقول المعروف : أن يدعو لهم بالرزق والغنى ، وما أشبه ذلك . وروي عن ابن عباس ، وسعيدبن المسيب ، وابن زيد : أن الآية في الوصية ، على أن يوصوا للقرابة ، ويقولوا لغيرهم قولا معروفا . ومن قال إنها على الوجوب ، قال : لا يعطي من مال اليتيم شيئاً ، ويقول قولا معروفا ، ذهب إليه ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، والسدي . وروى ابن عُليّة ، عن عبيدة ، أنه ذبح شاة من مال اليتيم ، وقسمه بينهم ، وقال : كنت أحب أن يكون من مالي لولا هذه الآية . وعمل ابن سيرين في مال اليتيم ما عمل عبيدة ، وأقوى الأقوال أن يكون الخطاب متوجهاً إلى الوراث البالغين ، لأن فيه أمراً بالرزق لمن حضر ، ولم يخاطب الله من لا يملك أن يخرج من مال غيره شيئاً ، فكأن الله تعالى حث هؤلاء ، ورغبهم في أن يجعلوا للحاضرين شيئاً مما يحقهم (٢) ، ويقولوا لهم قولا معروفا ، فيصير رداً جميلا ، من غير تأفف ، ولا تضجر ، وكذلك لو قلنا إنها متوجهـة إلى الموصي ، لكان محمولا على أنه يستحب له أن يوصي لهؤلاء بشيء من ماله ، مالم يزد على الثلث ، فان لم يختر ذلك قال لهم قولا جميلا ، لا يتألمون منه ، ولا يغتمّون به .

وفي الآية حجة على المجبرة ، لأنه تعالى قال : « فارزقوهم » وفيه دلالة على أن الانسان يرزق غيره على معنى التمليك ، وأن الله لا يرزق حراماً ، لأنه لو رزقه لخرج برزقه إياه من أن يكون حراماً ، ومثله قوله : « وهو خير الرازقين » .

« ١ » في المطبوعة : لقوله المعروف ، وفي المخطوطة : لقوله بالمعروف ، وكلاهما تحريف .

« ٢ » هكذا في المطبوعة والمخطوطة والأولى : مما يلحقهم .

قوله تعالى:

﴿ وَلْيخشَ الَّذينَ لو تَركوا مِنْ خلفهم ذُريةً ضِعافاً خافوا عَليهمْ فَلْيتقوا اللهَ وَلْيقولوا قولاً سَديداً ﴾ (٩) ـ آية بلا خلاف ـ.

المعنى:

قيل في معنى الآية أربعة أقوال:

أحدها ـ النهي عن الوصية بما يجحف بالورثة، ويضرّ بهم، هـذا قول ابن عباس، في بعض الروايات، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، والضحاك، ومجاهد.

الثاني ـ قال الحسن: كان الرجل يكون عند الميت فيقول: أوص بأكثر من الثلث من مالك، فنهاه الله عن ذلك.

الثالث ـ روي عن ابن عباس: أنه خطاب لولي مال اليتيم، يأمره بأداء الأمانة فيه، والقيام بحفظه، كما لو خاف على مخلفيه، إذا كانوا ضعافاً، وأحب أن يفعل بهم.

الرابع ـ قال مقسم: هي في حرمان ذوي القربى أن يوصي لهم، بأن يقول الحاضر للوصية: لا توص لأقاربك، ووفر على ورثتك.

اللغة:

والذرية: على وزن فعلية، منسوبة إلى الذر، ويجوز أن يكون أصلها ذرورة، لكن الراء أبدلت ياء، وأدغمت الواو فيها، وهي بضم الذال، ويجوز فيها كسرها، وقد قرىء به في الشواذ، ومن كسر الذال فلكسرة الراء، كما قالوا في عَتي عِتي، وعِصي، وضعاف: جمـع ضعيف وضعيفة، كقولك: ظريف وظريفة وظراف، وخبيث وخباث، ويجمع أيضاً ضعفاء. وأصل الضعاف من الضعف، وهو النقص في القوة، ومنه المضاعف، لأنه ينفي الضعف، ومنه الضعف. وقوله: ﴿ فليتقوا الله ﴾ يعني: فليتقوا معاصيه، ﴿ وليقولوا قولا سديدا ﴾

وهو السليم من خلل الفساد ، وذلك الحق بالدعاء إلى العدل في القسم بما لا يجحف بالورثة ، ولا يحرم ذوي القربي ، وأصل السديد من سد الخلل ، تقول : سددته أسده سدا ، والسداد : الصواب ، والسداد ـ بكسر السين ـ من قولهم : فيه سداد من عوز ، وسدد السهم : إذا قومه ، والسُّد الردم ، والسدة في الأنف .

المعنى :

ومعنى الآية ، أنه ينبغي للمؤمن الذي لو ترك ذرية ضعافا بعد موته ، خاف عليهم الفقر والضياع ، أن يخشى على ورثة غيره من الفقر والضياع ، ولا يقول لمن يحضر وصيته أن يوصي بما يضر بورثته ، وليتق الله في ذلك ، وليتق الاضرار بورثة المؤمن ، ، وليقل قولا سديدا ، ولذلك نهى النبي (ص) أن يوصى بأكثر من الثلث ، وقال : « والثلث كثير » وقال لسعد « لأن تدع ورثتك أغنياء أحب الي من أن تدعهم عالة يتكففون الناس بأيديهم » .

قوله تعالى :

﴿ إنَّ الَّذينَ يأكلونَ أموالَ اليتامى ظُلماً إنَّما يأكلونَ في بُطونهمْ ناراً وَسَيصلونَ سَعيراً ﴾ (١٠) ـ آية ـ .

القراءة والحجة :

قرأ ابن عامر ، وأبو بكر ، عن عاصم : وسيصلون ـ بضم الياء ـ الباقون ، بفتحها ، والفتح أقوى ، لقوله : « لايصلاها إلا الاشقى » (١) وقوله : « إلا من هو صال الجحيم » (٢) ومن ضم الياء ذهب إلى أصلاه الله إذا أحرقه بالنار .

المعنى :

وإنما علق الله تعالى الوعيد في الآية لمن يأكل أموال اليتامى ظلماً ، لأنه قد

« ١ » سورة الليل : آية ١٥ . « ٢ » سورة الصافات : آية ١٦٣ .

يأكله على وجه الاستحقاق ، بأن يأخذ منه أجرة المثل ، على ما قلناه . أو يأكل منه بالمعروف على ما فسرناه ، أو يأخذه قرضاً على نفسه ، فان قيل : إذا أخذه قرضاً على نفسه ، أو أجرة المثل ، فلا يكون أكل مال اليتيم ، وإنما أكل مال نفسه . قلنا : ليس الامر على ذلك ، لأنه يكون أكل مال اليتيم ، لكنه على وجه التزم عوضه في ذمته ، أو استحقه بالعمل في ماله ، فلم يخرج بذلك من استحقاق الاسم بأنه مال اليتيم ، ولو سلم ذلك ، لجاز أن يكون المراد بذلك ضربا من التأكيد وبيانا ، لأنه لا يكون أكل مال اليتيم إلا ظلماً . ونصب ظلماً على المصدر، وتقديره : إن من أكل مال اليتيم فانه يظلمه ظلماً . وقوله : ﴿ إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾ قيل في معناه وجهان :

أحدها ـ ما قاله السدي من أن من أكل مال اليتيم ظلماً يبعث يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ، ومن مسامعه ، ومن أذنيه وأنفه وعينيه ، يعرفه من رآه . بأكل مال اليتيم .

الثاني ـ أنه على وجه المثل ، من حيث أن فعل ذلك يصيّر إلى جهنم، فتمتلىء بالنار أجوافهم ، عقابا على ذلك الأكل منهم ، كما قال الشاعر :

وان الذي اصبحتم تحلبونه   دم غير أن اللون ليس باحمرا

يصف أقواماً أخذوا الابل في الدية ، يقول : فالذي تحلبون من ألبانها ليس لبناً ، إنما هو دم القتيل .

اللغة :

وقوله : ﴿ وسيصلون سعيراً ﴾ فالصلا لزوم النار ، للاحراق ، أو التسخن ، أو الانضاج ، يقال : صلي بالنار يصلى صلا بالقصر ، قال العجاج :

وصاليات للصلا صليّ (١)

ويقال الصلا بالكسر والمد ، قال الفرزدق :

---

(١) ديوانه : ٦٧ من ارجوزته المشهورة .

وقاتل كلب الحي عن نار أهله ليربض فيها والصّلا متكنف (١)

واصطلى صلى بالنار اصطلاء ، وأصليته النار اصلاء ، إذا ألقيته فيها . وفي التنزيل : « فسوف نصليه ناراً » (٢) والصالي بالشر الواقع فيه قال الشاعر :

لم اكن من جناتها علم الله وإني بحرها اليوم صالي (٣)

ومنه شاة مصلية ، أي مشوية . والسعير بمعنى مسعورة ، مثل كف خضيب ، بمعنى مخضوبة ، والسعر اشعال النار تقول سعرتها أسعرها سعراً . ومنه قوله : « وإذا الجحيم سعرت » (٤) واستعرت النار في الحطب استعاراً ، واستعرت الحرب والشر استعاراً ، ومنه سعر السوق ، لاستعارها به في النّفاق .

المعنى :

وأكل مال اليتيم على وجه الظلم ، وغصبه متساويان في توجه الوعيد إليه ، ولا يدل على مثل ذلك في غير مال اليتيم ، لأن الزواجر عن مال اليتيم أعظم . وقال الجبائي : هما سواء ، ومن غصب من مال اليتيم خمسة دراهم فأن الوعيد يتوجه إليه وقال الرماني : لا يتوجه إليه ، لأن أقل المال مئتا درهم . وقال الجبائي : يلزمه كما يلزم مانع الزكاة . وقال الرماني : هذا ليس بصحيح ، لأنه يجوز أن يكون منع الزكاة أعظم ، وما قلناه أولا أولى بعموم الآية . وقوله : لا يسمى المال إلا مئتا درهم دعوى محضة ، لا برهان عليها .

قوله تعالى :

﴿ يُوصيكمُ اللهُ في أولادِكم للذَّكرِ مِثلُ حظِّ الانثيينِ فانْ

« ١ » ديوانه : ٥٦ والنقائض ٥٦١ واللسان (صلا) والمعنى : ان الكلب يزاحم أهل الحي على النار وهم متجمعون ـ متكنفون ـ عليها من شدة البرد .

« ٢ » سورة النساء : آية ٢٩ .

« ٣ » قائله الحارث بن عباد البكري الاصمعيات ٦٧ القصيدة ١٧ وحماسة البحتري ٣٣ والكامل لابن الاثير ١ : ٢٢٠ وخزانة الادب ١ : ٢٢٥ وغيرها . وقدمر البيت في ١ : ١٩٥ من هذا الكتاب .

« ٤ » سورة التكوير : آية ١٢ .

كنَّ نساءً فوقَ اثنتينِ فلهنَّ ثلثا ما تركَ وإنْ كانتْ واحدةً فلها النصفُ ولأبويهِ لكلِّ واحدٍ منهما السدسُ مما تركَ إنْ كانَ لهُ ولدٌ فإنْ لم يكنْ لهُ ولدٌ وورثهُ أبواهُ فلأمهِ الثلثُ فإنْ كانَ لهُ إخوةٌ فلأمهِ السدسُ مِنْ بعدِ وصيةٍ يُوصي بها أو دينٍ آباؤكمْ وأبناؤكمْ لا تدرُونَ أيُّهمْ أقربُ لكمْ نفعاً فريضةً مِنَ اللهِ إنَّ اللهَ كانَ عليماً حكيماً ﴾ (١١) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة والحجة :

قرأ ابن عامر، وابن كثير، وأبو بكر، عن عاصم : يوصى ـ بفتح الصاد ـ الباقون بكسرها ، وهو الاقوى ، لقوله : « مما ترك إن كان له ولد » فتقدم ذكر الميت ، وذكر المفروض مما ترك (١) ، ومن فتحها فلأنه ليس لميت معين ، وإنما هو شائع في الجميع .

سبب النزول والقصة :

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان :

أحدها ـ قال السدي ، وابن عباس : إن سبب نزولها ، أن القوم لم يكونوا يورثون النساء والبنات والبنين الصغار ، ولم يورثوا إلا من قاتل وطاعن ، فأنزل الله الآية ، وأعلمهم كيفية الميراث . وقال عطاء ، عن ابن عباس ، وابن جريج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، إنهم كانوا يورثون الولد ، وللوالدين الوصية ، فنسخ الله ذلك . وقال محمد بن المنكدر ، عن جابر ، قال : كنت عليلا مدنفا ، فعاده النبي (ص) ، ونضح الماء على وجهه فأفاق ، وقال : يارسول الله ، كيف أعمل

---

(١) في المطبوعة (ما ترك) .

في مالي : فأنزل الله الآية . وروي عن ابن عباس أنه قال : كان المال للولد ، والوصية للوالدين والأقربين، فنسخ (١) ذلك بهذه الآية.

المعنى :

وهذه الآية عامة في كل ولد يتركه الميت ، وان المال بينهم للذكر مثل حظ الانثيين ، وكذلك حكم البنت والبنتين .والبنت (٢) لها النصف ، ولهما الثلثان على كل حال ، إلا من خصه الدليل من الرق ، والكفر ، والقتل ، فانه لا خلاف أن الكافر ، والمملوك ، والقاتل عمداً ، لا يرثون ، وإن كان القاتل خطأ ، ففيه الخلاف وعندنا يرث من المال دون الدية. فأما المسلم فانه عندنا يرث الكافر ، وفيه خلاف، ذكرناه في مسائل الخلاف ، والعبد لا يورث لأنه لا يملك شيئاً ، والمرتد لا يرث وميراثه لورثته المسلمين ، وهذا قول علي (ع) . وقال سعيد بن المسيب : نرثهم ولا يرثونا وبهقالمعاوية ،والحسن، وعبدالله بن معقل ، ومسروق وقوله (ص) « لا يتوارث أهل ملتين » معناه : لا يرث كل واحد منهما صاحبه ، فاذا نقول : المسلم يرث الكافر ، والكافر لا يرث المسلم ، فلم تثبت حقيقة التوارث بينهما . ومعنى « يوصيكم الله » فرض عليكم ، لأن الوصية من الله فرض ، كما قال : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به » (٣) يعني فرض ، عليكم ، ذكره الزجاج، وإنما لم يعد قوله : «يوصيكم » إلى(مثل)فينصبه، لأنه كالقول في حكاية الجملة بعده ، والتقدير : قال الله : « في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين » ولأن الغرض بالآية الفرق بين الموصى به والموصى له ، في نحو أوصيت زيداً بعمرو . وقوله : ﴿ فان كن نساء فوق اثنتين ﴾ فالظاهر يقتضي أن الثنتين لا يستحقان الثلثين ، وإنما يستحق الثلثان إذا كن فوق اثنتين ، لكن أجمعت الأمة أن حكم البنتين حكم من زاد عليهما من البنات ، فتركنا له الظاهر . وقال أبو العباس المبرد ،

« ١ » في المطبوعة (فنسخ بهذه الآية) باسقاط ذلك .

« ٢ » (والبنت) ساقطة من المطبوعة .

« ٣ » سورة الانعام : آية ١٥١ .

واختاره إسماعيل بن اسحاق القاضي : إن في الآية دليلا على أن للبنتين الثلثين، لأنه إذا قال : ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ وكان أول العدد ذكراً وأنثى ، للذكر الثلثان وللأنثى الثلث علم من ذلك أن للبنتين الثلثين ، وأعلم الله أن ما فوق البنتين لهن الثلثان . وحكى الزجاج عمن قال : ذلك معلوم ، بقوله تعالى : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ (١) فجعل للاخت النصف، كما جعل للبنت النصف، ثم قال : ﴿ فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان ﴾ (٢) فأعطيت البنتان الثلثين (٣) ، كما أعطيت الاختان الثلثين وأعطي جملة الأخوات الثلثين ، فكذلك جملة البنات . وذكر عن ابن عباس : أن البنتين بمنزلة البنت ، وإنما استحق الثلثين الثلاث بنات فصاعداً . وحكى النظام ، في كتاب النكت ، عن ابن عباس : أن للبنتين نصفاً وقيراطاً ، قال : لأن للبنت الواحدة النصف ، وللثلاث بنات الثلثين ، فينبغي أن يكون للبنتين ما بينهما ، ثم يشتركان في النصف وقيراط بالسوية . وقوله : ﴿ وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾ يدل على أن فاطمة (ع) كانت مستحقة للميراث ، لأنه عام في كل بنت ، والخبر المدعي في أن الأنبياء لا يورثون خبر واحد ، لا يترك له عموم الآية لأنه معلوم لا يترك بمظنون . وقوله: ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ﴾ ليس في ذلك خلاف ، وكذلك إن كان واحد من الابوين مع الولد ، كان له السدس بالتسمية ، بلا خلاف ، ثم ينظر ، فان كان الولد ذكراً ، كان الباقي للولد واحداً كان أو أكثر ، بلا خلاف ، وكذلك إن كانوا ذكوراً وإناثاً فالمال بينهم ، « للذكر مثل حظ الأنثيين » وإن كانت بنتاً كان لها النصف ، ولأحد الأبوين السدس ، والباقي عندنا يرد على البنت وأحد الأبوين على قدر سهامها ، أيهما كان ، لأن قرابتهما سواء ، ومن خالفنا يقول : إن كان أحد الأبوين اباً كان الباقي له ، لأنه عصبة وإن كانت أماً ففيهم من يقول بالرد على البنت وعلى الأم ومنهم من يقول : الباقي لبيت المال ،

« ١ ، ٢ » سورة النساء : آية ١٧٥ .

« ٣ » في المخطوطة والمطبوعة (فأعطيت البنتين الثلثان) وهو لحن .

وإنما رددنا عليها لقوله : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ (١) وههنا هما متساويان ، لأن البنت تتقرب بنفسها إلى الميت ، فكذلك أحد الأبوين ، والخبر المدعى في أن ما أبقت الفرائض فلأولي عصبة ذكر ، خبر ضعيف ، بينا وجهه في تهذيب الاحكام ، لا يخص به عموم القرآن . وقوله ﴿ فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ﴾ فمفهومه أن الباقي للأب وليس فيه خلاف ، فان كان في المريضة زوج كان له النصف ، وللأم الثلث بالظاهر ، وما بقي فللأب . ومن قال : للأم ثلث ما يبقي ، فقد ترك الظاهر ، وبمثل ما قلناه قال ابن عباس ، فان كان بدل الزوج زوجة ، كان الأمر مثل ذلك ، للزوجة الربع ، وللأم الثلث ، والباقي للأب ، وبه قال ابن عباس ، وابن سيرين .

قوله : ﴿ فان كان له إخوة فلأمه السدس ﴾ ففي أصحابنا من يقول : إنما يكون لها السدس إذا كان هناك أب لأن التقدير : فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فان كان له إخوة وورثه أبواه فلأمه السدس ، ومنهم من قال : إن لها السدس مع وجود الاخوة ، سواء كان هناك أب أو لم يكن ، وبه قال جميع الفقهاء ، غير أنا نقول : إن كان هناك أب ، كان الباقي للأب ، وإن لم يكن أب كان الباقي رداً على الأم ، ولا يرث ـ أحد من الاخوة والأخوات مع الأم شيئاً ، سواء كانوا من قبل أب وأم أو من قبل أب ، أو من قبل أم ـ على حال ، لأن الأم أقرب منهم بدرجة ، ، ولا يحجب عندنا من الاخوة إلا من كان من قبل الأب والأم ، أو من قبل الأب ، فأما من كان من قبل الأم فحسب ، فانه لا يحجب على حال ، ولا يحجب أقل من أخوين ، أو أخ وأختين ، أو أربع أخوات ، فأما الأختان فلا يحجبان على حال ، وخالفنا جميع الفقهاء في ذلك فأما الأخوان(٢) فلا خلاف أنه تحجب بهما الأم عن الثلث إلى السدس ، إلا ما قال إبن عباس : أنه لا يحجب بأقل من ثلثة ، لقوله : « إخوة » والثلاثة أقل الجمع ، وحكي عن

«١» سورة الانفال : آية ٧٥ .

«٢» في المطبوعة (الاخوات) .

ابن عباس أيضاً : أن ما يحجبه الاخوة من سهم الأم من الثلث إلى السدس ، يأخذه الاخوة دون الأب ، وذلك خلاف ما أجمعت الأمة عليه ، لأنه لاخلاف أن أحداً من الاخوة لا يستحق مع الابوين شيئاً ، وإنما قلنا إن اخوة بمعنى أخوين للاجماع من أهل العصر على ذلك ، وأيضاً فانه يجوز وضع لفظ الجمع في موضع التثنية إذا اقترنت بهدلالة ، كما قال : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ (١) ويقول القائل : ضربت الرجلين أرؤسهما ، ومن أخويك ظهورهما .

فان قيل : لم حجب الاخوة الأم من غير أن يرثوا مع الأب ؟ قلنا : قال قتادة : معونة للأب ، لأنه يقوم بنفقتهم ، ونكاحهم ، دون الأم ، وهذا بعينه رواه أصحابنا ، وهو دال على أن الاخوة من الأم لا يحجبون ، لأن الأب لا يلزمه نفقتهم على حال ، وقوله : ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً ﴾ معناه : لا تعلمون أيهم أقرب لكم نفعاً في الدين والدنيا ، والله يعلمه ، فاقسموه على ما بيّنه من يعلم المصلحة فيه . وقال بعضهم : الأب يجب عليه نفقة الابن إذا احتاج إليها ، وكذلك الابن يجب عليه نفقة الأب مع الحاجة ، فهما في النفع في هذا الباب سواء ، لا تدرون أيهم أقرب نفعاً . وقيل : لا تدرون أيكم يموت قبل صاحبه ، فينتفع الآخر بماله .

فان قيل : كيف قدم الوصية على الدين في هذه الآية وفي التي بعدها ، مع أن الدين يتقدم عليها بلا خلاف ؟ قلنا : لأن (أو) لا توجب الترتيب ، وإنما هي لأحد الشيئين ، فكأنه قال : من بعد أحد هذين ، مفرداً أو مضموماً إلى الآخر كقولهم : جالس الحسن أو ابن سيرين ، أي جالس أحدهما مفرداً أو مضموماً إلى الآخر ويجب البدأة بالدين ، لأنه مثل رد الوديعة التي يجب ردها على صاحبها ، فكذلك حال الدين ، وجب رده أولاً ، ثم يكون بعده (٢) الوصية ، ثم الميراث . وما قلناه اختاره الجبائي ، والطبري ، وهو المعتمد عليه في تأويل الآية . وقوله :

---

(١) سورة التحريم : آية ٤ .

(٢) في المطبوعة (هذه) بدل (بعده)

﴿ فريضة من الله ﴾ نصب على الحال من قوله : ﴿ لأبويه ﴾ وتقديره : فلهؤلاء الورثة ما ذكرناه مفروضاً ، فـ « فريضة » مؤكدة لقوله : « يوصيكم الله » هذا قول الزجاج ، وقال غيره : هو نصب على المصدر من قوله : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ﴾ فرضاً مفروضاً . وقال غيره : يجوز أن يكون نصباً على التمييز من قوله : ﴿ فلأمه السدس ﴾ فريضة ، كما تقول : هو لك صدقة ، أو هبة .

والثلث ، والربع ، والسدس ، يجوز فيه التخفيف والتثقيل ، فالتخفيف لثقل الضمة ، وقال قوم : الأصل فيها التخفيف ، وإنما ثقل للاتباع ، قال الزجاج : هذا خطأ لأن الكلام وضع على الايجاز بالتخفيف عن التثقيل .

وقوله : ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ قيل (١) في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال سيبويه : كان القوم شاهدوا علماً : وحكمة ، ومغفرة ، وتفضلا ، فقيل لهم : ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ لم يزل على ما شاهدتم عليه (٢) .

والثاني ـ قال الحسن : كان الله عليما بالأشياء قبل حدوثها ، حكيما فيما يقدره ويدبره منها .

الثالث ـ قال بعضهم : الخبر عن هذه الأشياء بالمضي ، كالخبر بالاستقبال والحال ، لأن الأشياء عند الله على كل حال فيما مضى وما يستقبل .

وإنما قال في تثنية الأب والأم : أبوان تغليباً للفظ الأب ، ويقال أيضاً للأم أبة ، ولا يلزم على ذلك أن يقال : في إبن وإبنة : إبنان ، لأنه يوهم ، فان لم يوهم جاز ذلك ذكره الزجاج .

قوله تعالى :

﴿ وَلَكُمْ نِصفُ ما تركَ أزواجُكم إنْ لم يكنْ لهنَّ ولدٌ فانْ كانَ لهنَّ ولدٌ فلكمُ الربُعُ مما تركنَ منْ بعدِ وصيةٍ يُوصينَ بها أو

« ١ » المطبوعة (فيدخل) بدل (قيل) .
« ٢ » هكذا في المخطوطة والمطبوعة والعبارة فيها ما ترى .

دَينٍ وَلهنَّ الرُبعُ مما تركتمْ إنْ لمْ يَكنْ لكمْ وَلدٌ فإنْ كانَ لكمْ وَلدٌ فلهنَّ الثمنُ مما تركتمْ مِنْ بَعدِ وَصيةٍ تُوصُونَ بها أو دَينٍ وَإنْ كانَ رَجلٌ يُورثُ كلالةً أو امرأةٌ وَلهُ أخٌ أو أختٌ فلكلِّ واحدٍ منهما السدسُ فإنْ كانوا أكثرَ مِنْ ذلكَ فهمْ شُركاءُ في الثلثِ مِنْ بَعدِ وَصيةٍ يُوصى بها أو دَينٍ غيرَ مُضارٍ وَصيةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَليمٌ حَليمٌ ﴾ (١٢) ـ آية بلا خلاف ـ .

قوله : ﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ﴾ لا خلاف أن للزوج نصف ماتترك الزوجة إذا لم يكن لها ولد ، فإن كان لها ولد فله الربع أيضاً بلا خلاف سواء كان الولد منه أو من غيره ، وإن كان ولد لا يرث لكونه مملوكا ، أو كافراً ، أو قاتلا، فلا يحجب الزوج من النصف إلى الربع ، ووجوده كعدمه . وكذلك حكم الزوجة ، لها الربع إذا لم يكن للزوج ولد ، على ماقلناه في الزوجة سواء ، فإن كان له ولد ، كان لها الثمن ، وما تستحقه الزوجة إن كانت واحدة فهو لها ، وإن كن اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً لم يكن لهن أكثر من ذلك بلا خلاف ، ولا يستحق الزوج أقل من الربع في حال من الأحوال ، ولا الزوجة أقل من الثمن على وجه من الوجوه ، ولا يدخل عليهما النقصان ، وكذلك الأبوان لا ينقصان في حال من الأحوال من السدسين ، لأن العول عندنا باطل على ما بيناه في مسائل الخلاف . وكل من ذكر الله له فرضاً ، فانما يستحقه إذا أخرج من التركة الكفن ، والدين ، والوصية ، فان استغرق الدين المال لم تنفذ الوصية ، ولا ميراث ، وإن بقي نفذت الوصية ، ما لم تزد على ثلث ما يبقي بعد الدين ، فان زادت ردت إلى الثلث . وقوله : ﴿ وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت ﴾ يعني من الأم ، بلا خلاف .

الاعراب :

« وكلالة » نصبه يحتمل أمرين :

أحدها ـ على أنه مصدر وقع موقع الحال ، وتكون كان تامة ، وتقديره : يورث متكلل النسب كلالة .

والثاني ـ بأن يكون خبر كان ، ذكره الرماني ، والبلخي ، وتقديره «فان كان » (رجل)إسم كان ويورث : صفته . وكلالة خبره . والأول هو الوجه ، لأن (يورث)هو الذي اقتضى ذكر الكلالة ، كما تقول : يورث هذا الرجل كلالة ، بخلاف من يورث ميراث الصلب ، ويورث كلالة عصبة وغير عصبة .

المعنى :

واختلفوا في معنى الكلالة ، فقال أبو بكر وعمر ، وابن عباس ، وابن زيد ، وقتادة ، والزهري ، وابن اسحاق : هو ما عدا الوالد والولد (١) . وروي عن ابن عباس في رواية أخرى ، أن الكلالة ماعدا الوالد (٢) ، وورّث الاخوة من الأم السدس مع الأبوين ، وهذا خلاف إجماع أهل الاعصار . وقال ابن زيد : الميت يسمى كلالة . وقال جابر ، وابن زيد : من عدا الوالد والولد من الورثة يسمى كلالة ، فعلى هذا يسمى الزوج والزوجة كلالة ، وقال قوم : الكلالة هو الميت الذي لا ولد له ، ولا والد .

وعندنا أن الكلالة هم الاخوة والأخوات ، فمن ذكر في هذه الآية هو من كان من قبل الأم ، ومن ذكر في آخر السورة فهو من قبل الأب والأم ، أو من قبل الأب .

اللغة :

وأصل الكلالة : الاحاطة ، فمنه الاكليل ، لاحاطته بالرأس ، ومنه الكل

« ١ ، ٢ » في المخطوطة (ما عدا الولد) في الموضعين .

لاحاطته بالعدد ، والكلالة لاحاطتها بأصل النسب الذي هو الولد والوالد ، ومنه الكلال ، لأنه تعب قد أحاط .

وقال أبو مسلم : أصلها من كلّ إذا أعيا ، فكأنه تناول الميراث من بُعدٍ على كلال وإعياء . وقال الحسين بن علي المغربي : أصله عندي ما تركه الانسان وراء ظهره ، مأخوذاً من الكلالة ، وهي مصدر الأكل ، وهو الظهر ، وقال : قرأت على أبي أسامة في كتاب الجيم ، لأبي عمرو الشيباني : تقول العرب : ولاني فلان أكله على وزن أظله ، أي : ولاني ظهره ، قال وهذا الاسم تعرفه العرب ، وتخبر به عن جملة النسب والوراثة ، قال عامر بن الطفيل :

وأني وان كنت ابن فارس عامر　　　وفي السر منها والصريح المهذب

فما سودتني عامر عن كلالة　　　أبى الله ان أسمو بأم ولا أب (١)

هكذا أنشده الرازي في كتابه ، وينشد عن وراثة . وقال زياد بن زيد العذري :

ولم أرث المجد التليد كلالة　　　ولم يأن مني فترة لعقيب

والكل الثقل ، ويقولون لابن الأخ ومن يجري مجراه ، ممن يعال على وجه التبرع : هذا كلي ، ومن قال : إن الأب لا يدخل في الكلالة استدل بقول الشاعر :

فان أبا المرء أحمى له　　　ومولى الكلالة لا يغضب (٢)

فأفرد الأب من الكلالة . ولا خلاف أن الاخوة والأخوات من الأم يتساوون في الميراث .

الاعراب :

وقوله : «وصية» نصب على المصدر بقوله : «يوصيكم الله» وصية وقال الفراء : نصب بقوله : «فلكل واحد منها السدس» وصية كما تقول : لك درهمان نفقة إلى أهلك ، والأول

«١» اللسان (كال) .　　　«٢» اللسان (كل) .

أعم فائدة، وأولى. وقوله: « والله عليم حليم » معناه ههنا: عليم بمصالح خلقه، حليم بامهال من يعصيه، فلا يغتر مغتر بامهاله. وقوله: « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة » ثم قال: « وله أخ أو أخت » ولم يقل: لهما، كما تقول: من كان له أخ أو أخت فليصله، ويجوز: فليصلها، ويجوز: فليصلهما، فالاول يرد الكناية إلى الأخ، والثاني على الاخت، والثالث عليهما، كل ذلك حسن. وقوله: « غير مضار » نصب على الحال، يعني: يوصي بذلك غير مضار. وقال الزجاج: يجوز أن يكون نصباً على أنه مفعول به. وحكى البلخي عن أبي عبيدة، وذكره الزجاج: « يورث » بكسر الراء، قال: ومعناه من ليس بولد ولا والد، ومن نصب الراء أراد المصدر.

المعنى:

ومسائل المواريث وفروعها بسطناها في النهاية والمبسوط، وأوجزناها في الايجاز، في الفرائض، لا نطول بذكرها في الكتاب، غير أنا نعقد ههنا جملة تدل على المذهب فنقول: الميراث يستحق بشيئين: نسب وسبب، فالسبب الزوجية، والولاء، والولاء على ثلاثة أقسام: ولاء العتق، وولاء تضمن الجريرة، وولاء الامامة، ولا يستحق الميراث بالولاء إلا مع عدم ذوي الانساب. والميراث بالزوجية ثابت مع جميع الورّاث، سواء ورثوا بالفرض أو بالقرابة، ولا ينقص الزوج عن الربع في حال، ولا يزاد على النصف، والزوجة لا تزاد على الربع، ولا تنقص من الثمن على وجه.

والميراث بالنسب يستحق على وجهين: بالفرض، والقرابة، فالميراث بالفرض لا يجتمع فيه إلا من كانت قرباه واحدة إلى الميت، مثل البنت أو البنات مع الوالدين أو أحدهما، فانه متى انفرد واحد منهم أخذ المال كله، بعضه بالفرض، والباقي بالرد، وإذا اجتمعا أخذ كل واحد منهم ما سمي له، والباقي يرد عليهم، إن

فضل . على قدر سهامهم ، وان نقص ، لمزاحمة الزوج أو الزوجة لهم ، كان النقص داخلا على البنت أو البنات ، دون الأبوين ، أو أحدهما ، ودون الزوج والزوجة . ولا يجتمع مع الاولاد ، ولا مع الوالدين ، ولا مع أحدهما أحد ممن يتقرب لهما ، كالكلالتين فانهالا تجتمعان مع الأولاد ، ذكوراً كانوا أو إناثاً ، ولا مع الوالدين ، ولا مع أحدهما أباً كان أو أماً ، بل تجتمع كلالة الأب وكلالة الأم ، فكلالة الأم إن كان واحداً كان له السدس ، وإن كانا إثنين فصاعداً كان لهم الثلث ، لا ينقصون منه ، والباقي لكلالة الأب ، فان زاحمهم الزوج أو الزوجة دخل النقص على كلالة الأب دون كلالة الأم ، ولا تجتمع كلالة الأب والأم مع كلالة الأب خاصة ، فان اجتمعا كان المال لكلالة الأب والأم ، دون كلالة الأب ، ذكراً كان أو أنثى ، أو ذكوراً ، أو أناثاً ، أو ذكوراً وأناثاً (١) ومن يورث بالقرابة دون الفرض لا يجتمع إلا [مع] (٢) من كانت قرباه واحدة ، وأسبابه ودرجته متساوية ، فعلى هذا لا يجتمع مع الولد للصلب ولد الولد ، ذكراً كان ولد الصلب أو أنثى ، لأنه أقرب بدرجة ، وكذلك لا يجتمع مع الأبوين ولا مع أحدهما من يتقرب بهما من الاخوة والأخوات ، والجد والجدة على حال ، ولا يجتمع الجد والجدة مع الولد للصلب ، ولا مع ولد الولد وإن نزلوا ، ويجتمع الأبوان مع ولد الولد وإن نزلوا ، لأنهم بمنزلة الولد للصلب ، إذا لم يكن ولد الصلب ، والجد والجدة يجتمعان مع الاخوة والأخوات ، لأنهم في درجة واحدة (٣) والجد من قبل الأب بمنزلة الأخ من قبله ، والجدة من قبله بمنزلة الأخت من قبله ، والجد من قبل الأم بمنزلة الأخ من قبلها ، والجدة من قبلها بمنزلة الأخت من قبلها ، وأولاد الاخوة والأخوات يقاسمون الجد والجدة ، لأنهم بمنزلة آبائهم ، ولا يجتمع مع الجد والجدة من يتقرب بهما من العم والعمة ، والخال والخالة ، ولا الجد الاعلى ،

« ١ » (أو ذكوراً وأناثاً) ساقطة من المطبوعة .

« ٢ » (مع) ساقطة من المطبوعة .

« ٣ » في المطبوعة (د ج والجد) باسقاط واحدة والتأنيث من درجة .

ولا الجدة العليا ، وعلى هذا تجري جملة المواريث ، فان فروعها لا تنحصر ، وفيما ذكرناه تنبيه على ما لم نذكره .

وأما المسائل التي اختلف قول الصحابة فيها ، فقد ذكرناها في خلاف الفقهاء، فلا وجه لذكرها ههنا ، لأنه يطول به الكتاب .

قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الانهارُ خالدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الفوزُ العظيمُ (١٣) وَمَنْ يَعصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتعدَّ حُدودَهُ يُدخِلْهُ ناراً خالداً فيها وَلَهُ عَذابٌ مُهينٌ ﴾ (١٤) ـ آيتان بلا خلاف ـ .

القراءة ، والحجة :

قرأ نافع ، وابن عامر : ندخله بالنون في الموضعين ، الباقون بالياء ، فمن قرأ بالياء فلأن ما تقدم لفظ الغائب ومن قرأ بالنون عدل عن خطاب الغائب إلى الاخبار عن الله بنون العظمة ، كما قال : « بل الله مولاكم » (١) وقال بعده : « سنلقي » فعدل عن الغائب .

المعنى ، والاعراب :

قال الفراء ، والزجاج : معنى « تلك » هذه ، كأنه قال هذه حدود الله واختلفوا في معنى الحدود ، فقال السدي : تلك شروط الله ، وقال ابن عباس : تلك طاعة الله ، وقال قوم : تلك فرائض الله وأمره ، وقال قوم : تلك تفصيلات الله لفرائضه ، وهو الأقوى ، لأن أصل الحد هو الفصل ، مأخوذاً من حدود الدار التي تفصلها من غيرها ، فمعنى الآية : هذه القسمة التي قسمها الله لكم ، والفرائض التي فرضها لأحيائكم من

« ١ » سورة آل عمران : آية ١٥٠ .

أموالكم حدود الله ، يعني فصول بين طاعة الله ومعصيته على ما قال ابن عباس ، والمعنى تلك حدود طاعة الله ، وإنما اختص لوضوح المعنى للمخاطبين .

فان قيل : إذا كان ما تقدم ذكره دل على أنها حدود الله ، فما الفائدة في هذا القول ؟ قلنا عنه جوابان :

أحدهما ـ للتأكيد ، والثاني ـ أن الوجه في إعادته ما علق به من الوعد والوعيد الصريح .

فان قيل : لم خصت الطاعة في قسمة الميراث بالوعد ، مع أنه واجب في كل طاعة إذا فعلت لوجه الوجوب ؟ قلنا : للبيان عن عظم موقع هذه الطاعة ، مع التذكير بما يستحق عليها ترغيباً فيها بوعد مقطوع . وقوله : ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ﴾ نصب على الحال . قال الزجاج والتقدير : يدخلهم مقدرين الخلود فيها ، والحال يستقبل فيها ، كما تقول : مررت برجل معه باز ، صائداً به غدا ، أي يقدّر الصيد به غدا . وقوله : ﴿ وذلك الفوز العظيم ﴾ معناه الفلاح العظيم ، فوصفه بأنه عظيم ولم يبين بالاضافة إلى ماذا ، لأن المراد به أنه عظيم بالاضافة إلى منفعة الخيانة في التركة ، من حيث كان أمر الدنيا حقيراً بالاضافة إلى أمر الآخرة . وقوله : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ﴾ معناه يعصي الله فيما بينه من الفرائض ، وأموال اليتامى ، « ويتعد » معناه : يتجاوز ما بين له ، « يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » وخالداً نصب على أحد وجهين :

أحدهما ـ أن يكون حالا من الهاء في يدخله .

والآخر ـ أن يكون صفة لنار في قول الزجاج ، كقولك : زيد مررت بدار ساكن فيها ، على حذف الضمير ، والتقدير : ساكن هو فيها ، لأن إسم الفاعل إذا جرى على غير من هو له لم يتضمن الضمير كما يتضمنه الفعل لو قلت : يسكن فيها . واستدلت المعتزلة بهذه الآية على أن فاسق أهل الصلاة مخلد في النار ، ومعاقب لا محالة ، وهذا لا دلالة لهم فيه من وجوه ، لأن قوله : « ويتعد حدوده » إشارة

إلى من يتعدى جميع حدود الله ، ومن كان كذلك فعندنا يكون كافراً ، وأيضاً فلا خلاف أن الآية مخصوصة بصاحب الصغيرة ، وإن كان فعل المعصية ، وتعدى حداً فانه خارج منها ، فان جاز لهم إخراج الصغيرة منها لدليل ، جاز لنا أن نخرج من يتفضل الله عليه بالعفو ، أو يشفع فيه النبي (ص) . وأيضاً فان التائب لابد من إخراجه من هذه الآية لقيام الدلالة على وجوب قبول التوبة ، فكذلك يجب أن يشترط من يتفضل الله باسقاط عقابه ، فان قالوا : قبول التوبة واجب ، والعفو ليس بواجب ، قلنا : قبول التوبة واجب إذا حصلت ، وكذلك سقوط العقاب واجب إذا حصل العفو ، فان قالوا : يجوز أن لا يختار الله العفو ، قلنا : وكذلك يجوز ألا يختار العاصي التوبة ، فانجعلوا الآية دالة على أن الله لايختار العفو ، جاز لغيرهم أن يجعل الآية دالة على أن العاصي لا يختار التوبة ، على أن هذه الآية معارضة بآيات كثيرة ، في وقوع العفو ، كقوله : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (١) على ما سنبينه فيما بعد . وقوله : « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » (٢) وقوله : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » (٣) فانشرطوا في آياتنا التوبة ، شرطنا في آياتهم إرتفاع العفو ، والكلام في ذلك مستقصىً في الوعيد ، لا نطول بذكره هذا الكتاب . ويمكن ـ مع تسليم ذلك ـ أن تحمل الآية على من يتعدى الحدود مستحلا لها ، فانه يكون كافراً ، ويتناوله الوعيد ، على أن عند كثير من المرجئةالعموم لاصيغة له ، فمن أين ان « من » يفيد جميع العصاة ؟ وما المنكر أن تكون الآية مختصة بالكفار .

قوله تعالى :

﴿ واللائي يأتينَ الفاحشةَ مِنْ نسائِكم فاستشهدوا عليهن أربعةً منكم فانْ شَهدوا فأمسكوهُنَّ في البيوتِ حتى يتوفاهنَّ الموتُ

« ١ » سورة النساء : آية ٤٧ ، ١١٥ . « ٢ » سورة الزمر : آية ٥٣ .

« ٣ » سورة الرعد : آية ٧ .

أو يَجعلَ اللهُ لَهنَّ سَبيلاً ﴾ (١٥) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

قال أكثر المفسرين ، كالضحاك ،وابن زيد ، والجبائي ،والبلخي ، والزجاج، ومجاهد ، وابن عباس ، وقتادة ، والسدي : إن هذه الآية منسوخة ، لأنه كان الفرض الأول أن المرأة إذا زنت وقامت عليها البينة بذلك ، أربعة شهود ، أن تحبس في البيت أبداً حتى تموت ، ثم نسخ ذلك بالرجم في المحصنين ، والجلد في البكرين . واللاتي جمع التي ، وكذلك اللواتي، قال الشاعر :

من اللواتي والتي واللاتي زعمن أن كبرت لداتي (١)

ويجمع اللاتي باثبات الياء وبحذفها ، قال الشاعر :

من اللات لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البري المغفلا (٢)

وقوله : ﴿ أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾ قيل في معنى السبيل ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال ابن عباس ، وعبد الله بن كثير ، أنه الجلد للبكر مائة ،وللثيب المحصن الرجم ، وإذا جلد البكر فانه ينفى سنة عندنا ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف .

و [الثاني] ـ قال الجبائي : النفي يجوز من طريق اجتهاد الامام ، وأما من وجب عليه الرجم فانه يجلد أولا ثم يرجم عند أكثر أصحابنا ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، وعبادة بن الصامت ، وجماعة ذكرناهم في الخلاف . وفي أصحابنا من يقول : ذلك يختص الشيخ والشيخة ، فاذا لم يكونا كذلك فليس عليهما غير الرجم ، وأكثر الفقهاء على أنهما لا يجتمعان ، وثبوت الرجم معلوم من جهة التواتر على وجه لا يختلج فيه شك ، وعليه اجماع الطائفة ، بل اجماع الأمة ، ولم يخالف فيه إلا الخوارج ، وهم لا يعتد بخلافهم . وقوله : « يأتين الفاحشة » يعني بالفاحشة ،

(١) اللسان (لتا) والصحاح ، والتاج . ومجاز القرآن ١ : ١١٩ وخزانة الادب وغيرها ولم يعرف قائله .

(٢) نسبه أبو عبيدة الى عمر بن أبي ربيعة ولم نجده في ديوانه ، ونسب الى الحارث بن خلد في بعض النسخ . مجاز القرآن ١ : ١٢٠ .

وحذف الباء كما يقولون : أتيت أمراً عظيما ، أي : بأمر عظيم ، وتكلمت كلاماً قبيحاً ، أي بكلام قبيح . وقال أبو مسلم : « واللاتي يأتين الفاحشة » قال : هما المرأة تخلوا بالمرأة في الفاحشة المذكورة عنهن ، « أو يجعل الله لهن سبيلا » فالتزويج والاستغناء بالحلال ، وهذا قول مخالف للاجماع ، ولما عليه المفسرون ، فانهم لا يختلفون أن الفاحشة المذكورة في الآية الزنا ، وأن هذا الحكم منسوخ ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) وأبي عبد الله (ع) . ولما نزل قوله : « الزانية والزاني » (١) قال النبي (ص) : قد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر ، جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب الجلد ثم الرجم .

قوله تعالى :

﴿ وَاللذانِ يأتيانِها منكمْ فآذوهُما فانْ تابا وَأصلحا فأعرِضوا عَنهما انَّ الله كانَ توّاباً رَحيماً ﴾ (١٦) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة ، واللغة :

قرأ ابن كثير : « واللذان » بتشديد النون ، وكذلك : « هذان » « وفذانك » ، ووافقه أبو عمرو في : فذانك . الباقون بالتخفيف ، قال أبو علي : من شدد النون فوجهه أنه عوض من الحذف الذي لحق الكلمة ، لأن قولهم : (ذا) قد حذف لامها ، وقد حذف الياء من اللذان في التثنية ، لأن أصله اللذيان ، فعوض عن ذلك التشديد ، وفي العرب من يقول : اللذ بلا ياء ، وفي التثنية اللذا ، وفي الجمع اللذو ، وللمرأة اللت ، واللتا ، واللات ، بلا ياء ، وطي تقول مكان الذي : ذو ، ومكان التي : ذات .

المعنى :

والمعني بقوله : « اللذان » فيه ثلاثة أقوال :

« ١ » سورة النور : آية ٢ .

أولها ـ قال الحسن ، وعطا : الرجل والمرأة ، وقال السدي وابن زيد : هما البكران من الرجال والنساء ، وقال مجاهد : هما الرجلان الزانيان ، قال الرماني : قول مجاهد لايصح ، لأنه لو كان كذلك لم يكن للتثنية معنى ، لأنه إنما يجيء الوعد والوعيد بلفظ الجمع ، لأنه لكل واحد منهم ، أو بلفظ الواحد لدلالته على الجنس الذي يعم جميعهم ، وأما التثنية فلافائدة فيها ، قال : والأول أظهر . قال أبو مسلم : هما الرجلان يخلوان بالفاحشة بينهما ، وروي عن النبي (ص) أنه قال : السحاق زناء النساء بينهن ، ومباشرة الرجل للرجل زناء ، ومباشرة المرأة للمرأة زناء ، قال : ولا يعرف في كلام العرب جمع بين الذكر والأنثى في لفظ التذكير إلا إذا تقدمه ما يدل عليه ، كقوله : « إن المسلمين والمسلمات » ، ثم قال : « أعد الله لهم » (١) وإلى هذا التأويل في معنى الرجلين ذهب أهل العراق ، فلا يحدون للوطي ، وهذا قول بعيد ، والذي عليه جمهور المفسرين أن الفاحشة الزنا ، وأن الحكم المذكور في الآية منسوخ بالحد المفروض في سورة النور ، ذهب إليه الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد ، والضحاك ، والبلخي ، والجبائي ، والطبري ، والزجاج ، وغيرهم . وبعضهم قال : نسخها الحدود بالرجم أو الجلد .

وقوله : « فآذوهما » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال ابن عباس : هو التعيير باللسان ، والضرب بالنعال . وقال قتادة ، والسدي ، ومجاهد : هو التعيير والتوبيخ ، فإن قيل : كيف ذكر الاذى بعد الحبس ؟ قلنا : فيه ثلاثة أوجه :

أحدها ـ قال الحسن إن هذه الآية نزلت أولا ، ثم أمر بأن توضع في التلاوة بعد ، فكان الأذى أولا ، ثم الحبس ، بعد ذلك ، ثم (٢) نسخ الحبس بالجلد أو بالرجم .

الثاني ـ قال السدي : انه في البكرين خاصة ، دون الثيبين ، والأولى في

(١) سورة الاحزاب : آية ٣٥ .

(٢) (ثم) ساقطة من المطبوعة .

الثيبين دون البكرين .

والثالث ـ قال الفراء : هذه الآية نسخت الاولى ، قال أبو علي الجبائي : في الآية دلالة على نسخ القرآن بالسنة ، لأنها نسخت بالرجم أو الجلد ، والرجم ثبت بالسنة ، ومن خالف في ذلك يقول : هذه الآية نسخت بالجلد في الزنا ، وأضيف إليه الرجم زيادة لا نسخاً ، فلم يثبت نسخ القرآن بالسنة . فأما الأذى المذكور في الآية ، فليس بمنسوخ ، فان الزاني يؤذى ويعنف ، ويوبخ على فعله ، ويذم . وإنما لا يقتصر عليه ، فزيد في الأذى إقامة الحد عليه ، وإنما نسخ الاقتصار عليه .

قوله تعالى :

﴿ إنَّما التوبةُ على اللهِ للَّذينَ يَعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثمَّ يَتوبونَ مِنْ قَريبٍ فأولئكَ يَتوبُ اللهُ عَليهمْ وَكانَ اللهُ عَليماً حَكيماً (١٧)

ـ آية واحدة ـ .

المعنى :

التوبة هي الندم على القبيح مع العزم على ألا يعود إلى مثله في القبح ، وفي الناس من قال : يكفي الندم على ما مضى من القبيح ، والعزم على ألا يعود إلى مثله ، والاول أقوى ، لاجماع الأمة على أنها إذا حصلت على ذلك الوجه أسقطت العقاب ، وإذا حصلت على الوجه الثاني ففي سقوط العقاب عنها خلاف ، وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية أن التوبة إنما يقبلها ممن يعمل السوء بجهالة ، وقيل في معنى بجهالة أربعة أقوال :

أحدها ـ قال مجاهد ، وقتادة ، وابن عباس ، وعطاء وابن زيد : هو أن يفعلوها على جهة المعصية لله تعالى ، لأن كل معصية لها جهالة ، لأنه يدعو اليها الجهل ، ويزينها للعبد ، وإن كانت عمدا .

الثاني ـ بجهالة ، أي بحال كحال الجهالة ، التي لا يعلم صاحبها ما عليه في

مثلها من المضرة .

الثالث ـ قال الفراء : معنى « بجهالة » أي لا يعلمون كنه مافيه من العقوبة ، كما يعلم الشيء ضرورة .

الرابع ـ « بجهالة » أي وهم يجهلون أنها ذنوب ومعاصي، اختاره الجبائي، قال: يفعلونها بجهالة إما بتأويل يخطئون فيه ، أو بان يفرطوا في الاستدلال على قبحها ، قال الرماني: هذا ضعيف ، لأنه تأويل بخلاف ما أجمع عليه المفسرون ، قال أبو العالية : إن أصحاب رسول الله (ص) كانوا يقولون : كل ذنب أصابه عبد فبجهالة ، وقال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله (ص) على ذلك ، وأيضا فانه يوجب أن من علم أنها ذنوب أن لا يكون له توبة ، لأن قوله : « انما التوبة » يفيد أنها لهؤلاء دون غيرهم ، وظاهر الآية يدل على أن الله يقبل التوبة من جميع المعاصي كفراً كان أو قتلا أوغيرها من المعاصي ، ويقربه أيضاً قوله : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ... » إلى قوله : « إلا من تاب » (١) فاستثنى من القتل ، كما استثنى من الزنا والشرك ، وحكي عن الحسن أنه قال : لا يقبل الله توبة القاتل . وروي أنه إنما قال ذلك لرجل كان عزم على قتل رجل على أن يتوب فيما بعد ، فأراد صده عن ذلك . وقولة « فأولئك يتوب الله عليهم » بعد قوله « ثم يتوبون من قريب » معناه إن الله يقبل توبتهم إذا تابوا وأنابوا ، وقوله : « من قريب » حث على أن التوبة يجب أن تكون عقيب المعصية ، خوفا من الاخترام، وليس المراد بذلك أنها لو تأخرت لما قبلت . وقال الزجاج : معناه ثم يتوبون قبل الموت ، لأن ما بين الانسان وبين الموت قريب ، والتوبة مقبولة قبل اليقين بالموت . وقال الحسن ، والضحاك ، وابن عمر : القريب ما لم يعاين الموت . وقال علي (ع) ، وقد قيل له : فان عاد ؟ قال : يغفر الله له ويتوب ، مراراً ، قيل : إلى متى ؟ قال : حتى يكون الشيطان هو المحسور . وقال السدي ، وابن عباس : في حال الصحة قبل الموت . وقوله : « وكان الله عليما حكيما » معناه ههنا : وكان الله

---

(١) سورة الفرقان : آية ٦٨ ـ ٧٠ .

عليما بتوبتهم إن تابوا ، وإصرارهم إن أصروا ، حكيما في مؤاخذتهم إن لم يتوبوا. وروي عن النبي (ص) أنه قال : لما هبط إبليس قال : وعزتك وعظمتك ، لا أفارق ابن آدم حتى تفارق روحه جسده ، فقال الله : وعزتي وعظمتي لا أحجب التوبة عن عبدي حتى يغرغر .

قوله تعالى :

﴿ وَليست التوبةُ للّذينَ يَعملونَ السيئاتِ حتى إذا حَضرَ أَحدَهُمُ الموتُ قالَ إني تبتُ الآنَ وَلا الّذينَ يَموتونَ وَهُمْ كفارٌ أولئكَ اعتدنا لَهمْ عَذاباً أليماً ﴾ (١٨) ـ آية واحدة ـ .

المعنى :

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يقبل التوبة من الذي يعمل المعاصي حتى إذا حضره الموت قال : إني تبت الآن ، وأجمع أهل التأويل على أن الآية تناولت عصاة أهل الصلاة ، إلا ماحكي عن الربيع أنه قال : إنها في المنافقين ، وهذا غلط لأن المنافقين كفار ، وقد بين الله الكفار بقوله . ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ وقال الربيع أيضاً : إن الآيـة منسوخة بقوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (١) . وهذا خطأ لأن النسخ لا يدخل في الخبر الذي يجري هذا المجرى ، ومن جوز العفو بلا توبة يمكنـه أن يقول : إن التوبة التي وعد الله باسقاط العقاب عندها قطعا متى حصلت في هـــذا الوقت لا يسقط العقاب ، ولا يمنع ذلك من أن يتفضل الله باسقاط العقاب ابتداء بلا توبة ، كما لو خرج من دار الدنيا من غير توبة أصلا ، لم يمنع ذلك من جواز العفو عنه ، فليس في الآية ما ينافي القول بجواز العفو من غير توبة . وقال جميــــع المفسرين ، كابن عباس ، وابن عمر ، وابراهيم ، وابن زيد ، وغيرهم : إن الذين يحتضرون لا تقبل لهم توبة ، غير إن الذين يحضرون الميت لا يعرفون تلك الحال معرفة يمكن

(١) سورة النساء : آية ٤٧ .

بها الاشارة إليها . فان قيل : فلم لم تقبل التوبة في الآخرة ؟ قيل : لرفع التكليف ، وحصول الالجاء إلى فعل الحسن دون القبيح ، والملجأ لا يستحق بفعله ثواباً ولا عقاباً ، لأنه يجري مجرى الاضطرار . وحكي الرماني عن قوم أنهم قالوا بتكليف أهل الآخرة ، وان التوبة إنما لم يجب قبولها ، لأن صاحبها هناك في مثل حال المتعوذ بها ، لا المخلص فيها ، وهذا خطأ ، لأن الله تعالى يعلم أسرارهم كما يعلم إعلانهم . وقوله : ﴿ أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ معناه أعددنا ، وقال قوم: التاء بدل من الدال ، وقال آخرون هو أفعلنا من العتاد ، ومعناه اعددنا ، وعتاد الرجل : عدّته ، وهو الأصل . والشيء العتيد هو المعد ، والعتيدة : طبلة معدة للطيب ، ومعنى إعداد العذاب لهم ، إنما هو بخلق النار التي هي مصيرهم . والاليم بمعنى المؤلم . وليس في الآية مايمنع من جواز العفو عن مرتكبي الكبائر بلاتوبة ، لأن قوله : ﴿ أولئك ﴾ يحتمل أن يكون راجعاً إلى الكفار لأنه جرى ذكر الكفار وهم أقرب إلى أولئك من ذكر الفساق ، ويحتمل أن يكون التقدير : أعتدنا لهم عذاباً ، إن لم نشأ العفو عنهم ، وتكون الفائدة فيه إعلامهم ما يستحقونه من العذاب ، وألا يأمنوا أن يفعل بهم ذلك ، وإن كان تعالى يعلم هل يعفو أو لا يعفو .

قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا لا يحلُّ لكُمْ أن تَرِثوا النساءَ كرهاً وَلا تَعضلوهُنَّ لتذهبوا ببعضِ ما آتيتموهُنَّ إلا أنْ يأتينَ بفاحشةٍ مُبينةٍ وَعاشِروهُنَّ بالمعروفِ فانْ كرهتموهُنَّ فعسى أنْ تكرَهوا شيئاً وَيجعلَ اللهُ فيهِ خيراً كثيراً ﴾ (١٩) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة واللغة :

قرأ ﴿ بفاحشة مبينة ﴾ بفتح الياء ، ابن كثير ، وأبو بكر ، عن عاصم . الباقون بالكسر ، وهو الأقوى ، لأنه لا يقصد إلى إظهارها . وقرأ حمزة والكسائي

«كرهاً» بضم الكاف هنا وفي التوبة والأحقاف، وافقها في الأحقاف عاصم، وابن عامر، إلا الحلواني، ويعقوب.

الكَره والكُره لغتان، مثل الشهد والشُّهد، والضعف والضعف، والفقر والفقر.

المعنى:

هذا الخطاب متوجه إلى المؤمنين، نهاهم الله أن يرثوا النساء كرها، واختلفوا في معنى ذلك، فقال الزهري، والجبائي، وغيرهما، وروي ذلك عن أبي جعفر(ع): هو أن يحبس الرجل المرأة عنده، لا حاجة له اليها، وينتظر موتها حتى يرثها. فنهى الله (تعالى) عن ذلك. وقال الحسن، ومجاهد: معناه ما كان يعمله أهل الجاهلية، من أن الرجل اذا مات، وترك امرأته قال وليه: ورثت امرأته، كما ورثت ماله، فان شاء تزوجها بالصداق الأول، ولا يعطيها شيئاً، وإن شاء زوجها وأخذ صداقها، وروى ذلك أبو الجارود، عن أبي جعفر(ع). وقال مجاهد: إذا لم يكن الولي ابنها قال أبو مجلز: وكان أولى بالميراث أولى بها من ولي نفسها. وقوله: ﴿ولا تعضلوهن﴾ قيل فيمن عني بهذا النهي أربعة أقوال:

أحدها ـ قال ابن عباس، وقتادة، والسدي، والضحاك: هو الزوج أمره الله بتخلية السبيل إذا لم يكن له فيها حاجة، ولا يمسكها إضراراً بها، حتى تفتدي ببعض مالها.

والثاني ـ قال الحسن: هو الوارث، نهي عن منع المرأة من التزويج، كما يفعل أهل الجاهلية على ما بيناه.

والثالث ـ قال مجاهد: المراد الولي.

الرابع ـ قال ابن زيد: المطلق يمنعها من التزويج، كما كانت تفعل قريش في الجاهلية، ينكح الرجل منهم المرأة الشريفة، فاذا لم توافقه فارقها، على أن لا تتزوج إلا باذنه، فيشهد عليها بذلك، ويكتب كتاباً، فاذا خطبها خاطب، فان أعطته

وأرضته ، أذن لهـا وإن لم تعطه عضلها ، فنهى الله عن ذلك . والأول أظهر الاقاويل .

اللغة :

والعضل هو التضييق بالمنع من التزويج ، وأصله الامتناع ، يقال : عضلت الدجاجة ببيضتها : إذا عسرت عليها ، ومنه العضلة : لصلابتها ، ومنه الداء العضال إذا لم يبرء ، وعضل الفضا بالجيش الكثير إذا لم يمكن سلوكه لضيقه .

المعنى :

وقوله: ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قيل فيه قولان :

أحدها ـ قال الحسن ، وأبو قلابه ، والسدي : يعني الزنا ، وقالوا إذا أطلع منها على زنية فله أخذ الفدية .

والثاني ـ قال ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة : هو النشوز ، والأولى حمل الآية على كل معصية ، لأن العموم يقتضي ذلك ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) واختاره الطبري .وقوله : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ قال السدي : معناه خالطوهن ، وخالقوهن ، من العشرة التي هي المصاحبة بما أمركم الله به من المصاحبة ، بأداء حقوقهن التي أوجبها على الرجال ، أو تسريح باحسان . وقوله : ﴿ فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ يعني في إمساكهن على كره منكم « خيراً كثيراً » من ولد يرزقكم ، أو عطفكم عليهن بعد الكراهية ، وبه قال ابن عباس ، ومجاهد .

الاعراب :

والهاء في فيه ، يحتمل أن ترجع إلى الشيء في قوله : ﴿ أن تكرهوا شيئاً ﴾ ويحتمل أن تكون راجعة إلى الذي يكرهونه . وقوله : ﴿ ولا تعضلوهن ﴾ يحتمل أن يكون جزماً بالنهي ، ويحتمل أن يكون نصباً بالعطف على قوله : ﴿ لا يحل لكم

أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن ﴾ وفي قراءة عبد الله : ﴿ ولا أن تعضلوهن ﴾ باثبات أن .

النزول :

وقيل في سبب نزول هذه الآية أن أبا قيس بن الأسلت لما مات عن زوجته كبشة بنت معن بن عاصم ، أراد ابنه أن يتزوجها ، فجاءت إلى النبي (ص) فقالت: يانبي الله : لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح ، فنزلت هذه الآية، ذكره أبو جعفر عليه السلام ، وغيره .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ (٢٠) ـ آية ـ .

المعنى :

أخذ مال المرأة ، وإن كان محرماً على كل حال من غير أمرها ، فانما خص الله تعالى الاستبدال بالنهي ، لأن مع الاستبدال قد يتوهم جواز الاسترجاع ، من حيث أن الثانية تقوم مقام الأولى ، فيكون لها ماأعطيته الأولى ، فبين الله تعالى أن ذلك لا يجوز . والمعنى : إن أردتم تخلية المرأة سواء استبدل مكانها أو لم يستبدل . وقوله : ﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً ﴾ معناه : ليس ما آتيتموهن موقوفاً على التمسك بهن ، دون تخليتهن ، فيكون إذا أردتم الاستبدال جاز لكم أخذه ، بل هو تمليك صحيح ، لا يجوز الرجوع فيه . والمراد بذلك ما أعطى المرأة مهراً لها ، ويكون دخل بها ، فأما إذا لم يدخل بها ، وطلقها ، جاز له أن يسترجع نصف ما أعطاها ، فأما ما أعطاها على وجه الهبة ، فظاهر الآية يقتضي أنه لايجوز له الرجوع في شيء منه . لكن علمنا بالسنة أن ذلك سائغ له ، وإن كان مكروهاً .

اللغة :

والقنطار المال الكثير ، واختلفوا في مقداره ، فقال بعضهم هو ملء جلد ثور ذهباً ، وقال آخرون : هو دية الانسان ، وغير ذلك من الاقوال التي قدمنا ذكرها فيما مضى . وأصل ذلك مأخوذ من القنطرة ، ومنه القِنطر الداهية ، لأنها كالقنطرة في عظم الصورة ، وإحكام البنية . ويقال : قنطر في الأمر يقنطر : إذا عظمه ، بتكثير الكلام فيه ، من غير حاجة إليه . وقوله : « أتأخذونه بهتاناً » قيل في معناه قولان :

أحدهما - يعني بهتاناً ظلماً كالظلم بالبهتان ، وقيل بطلاناً كبطلان البهتان .

الثاني - بهتاناً أي بأن تبهتوا أنكم ملكتموه فتسترجعوه (١) وأصل البهتان الكذب الذي يواجه به صاحبه على وجه المكابرة ، وأصله التحير ، ومنه قوله : « فبهت الذي كفر » (٢) أي تحير عند انقطاع حجته ، فالبهتان كذب يحير صاحبه . ونصب بهتاناً على أنه حال في موضع المصدر ، والمعنى أتأخذونه مباهتين وآثمين . وقوله : « مبيناً » أي ظاهراً لا شك فيه .

قوله تعالى :

﴿ وَكَيفَ تأخذُونهُ وَقدْ أفضى بَعضكم الى بَعضٍ وَأخذنَ منكمْ ميثاقاً غليظاً ﴾ (٢١) - آية بلا خلاف - .

المعنى :

قيل في نسخ هذه الآية ، والتي قبلها ، ثلاثة أقوال :

أحدها - أنها محكمة ليست منسوخة ، لكن للزوج أن يأخذ الفدية من المختلعة ، لأن النشوز منها ، فالزوج في حكم المكره لا المختار للاستبدال ، ولا

« ١ » في المطبوعة (لتستوجبوه) .

« ٢ » سورة البقرة : آية ٢٥٨ .

يتنافى حكم الآيتين ، فلا يحتاج إلى نسخ احداها بالاخرى .

الثاني ـ قال بكر بن عبد الله المري : هي محكمة ، وليس للزوج لأجل ظاهرها أن يأخذ من المختلعة شيئاً ، ولا من غيرها .

الثالث ـ قال ابن زيد ، والسدي : هي منسوخة بقوله : ﴿ إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ (١)

وقيل في معنى الافضاء قولان :

أحدهما ـ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي : هو كناية عن الجماع .

الثاني ـ أنه الخلوة ، وإن لم يجامع ، فليس له أن يسترجع نصف المهر ، وإنما يجوز ذلك فيمن لم يدخل بها بالخلوة معها . وكلاهما قد رواه أصحابنا ، واختلفوا فيه ، والاول هو الأقوى .

اللغة والمعنى :

والافضاء إلى الشيء هو الوصول إليه بالملابسة له ، قال الشاعر :

بلىً وثاي أفضى الى كل كتيبة بدا سيرها من ظاهر بعد باطن(٢)

أي وصل البلى والفساد إلى الحزز ، والفضاء السعة ، فضا يفضو فضواً وفضاء إذا اتسع ، ومنه : تمر فضا ، مقصور أي مختلط ، وقوله : ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ قيل في معناه أربعة أقوال :

أحدها ـ قال الحسن ، وابن سيرين ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، والفراء ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) أنه قوله : ﴿ إمساك بمعروف أو تسريح باحسان ﴾ (٣) وقال مجاهد ، وابن زيد ، هو كلمة نكاح ، التي يستحل بها الفرج .

الثالث ـ قول النبي (ص) : (أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن

« ١ » سورة البقرة : آية ٢٢٩ .

« ٢ » لم يعرف قائله . وهو في تفسير الطبري ٨ ـ ١٢٤ مشوه محرف ولم نجده في مصادرنا .

« ٣ » سورة البقرة : آية ٢٢٩ .

بكلمة الله) .

الرابع ـ قال قتادة . كان يقال للناكح في صدر الاسلام الله عليك لتمسكن بمعروف أو لتسرحن باحسان ، وهذا الكلام وإن كان ظاهره للاستفهام ، فالمراد به التوبيخ ، والتهديد ، كما يقول القائل لغيره : كيف تفعل هذا وأنا غير راض به ، على وجه التهدد له .

قوله تعالى :

﴿ وَلا تَنكِحوا ما نكحَ آباؤكُمْ مِنَ النساءِ إلا ما قدْ سَلفَ إنهُ كانَ فاحشةً وَمَقتاً وَساءَ سَبيلاً ﴾ (٢٢) ـ آية ـ .

المعنى :

قيل في معنى الآية قولان :

أحدها ـ قال ابن عباس ، وقتادة ، وعطاء ، وعكرمة : إنه حرّم عليهم ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من نكاح امرأة الأب .

والثاني ـ أن يكون «ما نكح» بمنزلة المصدر ، والتقدير : ولا تنكحوا نكاح آبائكم ، أي مثل نكاح آبائكم ، فعلى هذا يدخل فيه النهي عن حلائل الاباء ، وكل نكاح كان لهم فاسداً ، وهو اختيار الطبري وقال : إن هذا الوجه أجود ، لأنه لو أراد حلائل الآباء لقال : لا تنكحوا من نكح آباؤكم ، وهذا ليس بطعن ، لأنه ذهب به مذهب الجنس ، كما يقول القائل : لا تأخذ ما أخذ أبوك من الاماء ، فيذهب به مذهب الجنس ثم يفسره بـ (من) . وقوله : ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ معنى إلا لكن ، وكذلك كل استثناء منقطع ، كقول القائل : لا تبع من متاعي إلا ما بعت ، أي لكن ما بعت فلا جناح عليك فيه ، وقيل في معنى الآية قولان :

أحدها ـ « إلا ما قد سلف » فانكم لا تؤخذون به .

الثاني ـ حكاه بعضهم : « إلا ما قد سلف » فدعوه ، فهو جائز لكم ، قال

البلخي : وهذا لا يجوز بالاجماع . والهاء في قوله : « إنه كان فاحشة » يحتمل أن تكون عائدة إلى النكاح بعد النهي ، ويحتمل أن تكون عائدة على النكاح الذي كان عليه أهل الجاهلية قبل ، ولا يكون ذلك إلا وقد قامت عليهم الحجة بتحريمه ، من جهة الرسل ، فالأول اختاره الجبائي ، وهو الأقوى ، وتكون « إلا ماقد سلف » فالسلامة منه الاقلاع عنه بالتوبة والانابة ، قال البلخي : وليس كل نكاح حرمه الله زنا ، لأن الزنا هو فعل مخصوص ، لا يجري على طريقة لازمة ، وسنة جارية ، ولذلك لا يقال للمشركين في الجاهلية : أولاد زنا ، ولا لأولاد أهل الذمة والمعاهدين : أولاد زنا ، إذا كان ذلك عقداً بينهم يتعارفونه .

اللغة ، والاعراب ، والمعنى

والمقت ، هو بغض عن أمر قبيح ركبه صاحبه ، وهو مقيت ، وقد مقت إلى الناس مقاتة ، ومقته الناس مقتاً ، فهو ممقوت . وقيل إن ولد الرجل من امرأة أبيه كان يسمي المقتي ، قال المبرد : كان زائدة ، والتقدير : إنه فاحشة . وقال الزجاج : هذا ليس بصحيح ، لأنها لو كانت زائدة لم تعمل ، كما قال الشاعر :

فكيف إذا حللت ديار قوم وجيران لنا كانوا كرام

لما كانت زائدة لم تعمل في الخبر . قال الرماني : هي كقوله « وكان الله غفوراً رحيما » فدخلت كان لتدل على أنه قبل تلك الحال كذا ، وقال الجبائي : معناه أنه كان فيما مضى أيضا فاحشة ومقتا ، وكان قد قامت الحجة عليهم بذلك . وكل من عقد عليها الأب من النساء تحرم على الابن ، دخل بها الأب ، أو لم يدخل ، بلاخلاف ، فان دخل بها الأب على وجه السفاح فهل تحرم على الابن ففيه خلاف ، وعموم الآية يقضي بأنها تحرم عليه ، لأن النكاح يعبر به عن الوطي ، كما يعبر به عن العقد ، فيجب أن يحمل عليهما ، وأمرأة الأب وإن علا تحرم على الابن وإن نزل ، بلا خلاف . وقوله : « وساء سبيلا » أي قبح ذلك السبيل الذي سلكوه سبيلا ، وهو نصب على التمييز .

قوله تعالى:

﴿ حُرِّمتْ عَليكمْ أمَّهاتكمْ وبناتكمْ وأخواتكمْ وعماتكمْ وَخالاتكمْ وَبَناتُ الاخِ وَبَناتُ الاُختِ وأمَّهاتكمُ اللاتي أرضعنكمْ وأخواتكمْ مِنَ الرَّضاعةِ وأمهاتُ نسائكمْ وَربائبكمُ اللاتي في حُجورِكمْ مِنْ نِساءِكمُ اللاتي دَخلتمْ بِهنَّ فانْ لمْ تَكونوا دَخلتمْ بِهنَّ فلا جُناحَ عَليكمْ وَحلائلُ أبنائكم الَّذينَ مِنْ أصلابِكمْ وَأنْ تَجمعوا بَينَ الاُختينِ إلاَّ ما قدْ سَلفَ إنَّ اللهَ كانَ غفوراً رَحيماً ﴾ (٢٣) ـ آية بلا خلاف ـ.

المعنى:

في الناس من اعتقد أن هذه الآية وما يجري مجراها، كقوله: «حرمت عليكم الميتة» (١) مجملة لا يمكن التعلق بظاهرها في تحريم شيء، وإنما يحتاج إلى بيان قالوا: لأن الأعيان لا تحرم ولا تحل، وإنما يحرم التصرف فيها، والتصرف يختلف، فيحتاج إلى بيان التصرف المحرم، دون التصرف المباح، والأقوى أنها ليست مجملة، لأن المجمل هو مالا يفهم المراد بعينه بظاهره، وليست هذه الآية كذلك لأن المفهوم من ظاهرها تحريم العقد عليهن، والوطي، دون غيرهما من أنواع الفعل، فلا يحتاج إلى البيان مع ذلك، وكذلك قوله: «حرمت عليكم الميتة» المفهوم الأكل، والبيع، دون النظر إليها، أو رميها، وما جرى مجراها كيف وقد تقدم هذه الآية ما يكشف عن أن المراد ما بيناه من قوله: «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم» فلما قال. بعده: «حرمت عليكم أمهاتكم» كان المفهوم

(١) سورة المائدة: آية ٤.

أيضاً تحريم نكاحهن ، وقد استوفينا ذلك في العدة في أصول الفقه ، فلا نطول بذكره ههنا .

قال ابن عباس : حرّم الله في هذه الآية سبعاً بالنسب ، وسبعاً بالسبب ، فالمحرمات من النسب الأمهات ، ويدخل في ذلك أمهات الأمهات وإن علون ، وأمهات الآباء مثل ذلك ، والبنات ، ويدخل في ذلك بنات الأولاد وأولاد البنين وأولاد البنات وإن نزلن ، والأخوات ، سواء كن لأب وأم أو لأب أو لأم ، وكذلك العمات والخالات ، وإن علون ، من جهة الأب كن أو من جهة الأم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت وإن نزلن .

والمحرمات بالسبب الأمهات من الرضاعة ، والأخوات أيضاً من الرضاعة ، وكل من يحرم بالسبب يحرم مثله بالرضاع ، لقوله (ص) : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وأمهات النساء يحرمن بنفس العقد ، وإن لم يدخل بالبنت ، على قول أكثر الفقهاء ، وبه قال ابن عباس ، والحسن ، وعطاء ، وقالوا : هي مبهمة ، وخصوا التقييد بقوله : « وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن » ورووا عن علي (ع) ، وزيد بن ثابت ، أنه يجوز العقد على الأم ما لم يدخل بالبنت ، وجعلوا قوله : « من نسائكم اللاتي دخلتم بهن » راجعاً إلى جميع من تقدم من أمهات النساء ، والربائب .

اللغة :

والربائب : جمع ربيبة ، وهي بنت الزوجة من غيره ، ويدخل فيه أولادها وإن نزلن ، وسميت بذلك لتربيته إياها ، ومعناها مربوبة ، نحو قتيلة في موضع : مقتولة ، ويجوز أن تسمى ربيبة سواء تولى تربيتها وكانت في حجره ، أو لم تكن ، لأنه إذا تزوج بأمها سمي هو رابها ، وهي ربيبته ، والعرب تسمي الفاعلين والمفعولين بما يقع بهم ، ويوقعونه ، يقولون : هذا مقتول ، وهذا ذبيح ، وإن لم يقتل بعد ولم يذبح ، إذا كان يراد قتله أو ذبحه ، وكذلك يقولون : هذه

أضحية لما أعـد للتضحية ، وكذلك : هـذه قتوبة ، وحلوبة ، أي ممـا يقتب ، ويحلب فمن قال : إنه لا تحرم بنت الزوجة إلا إذا تربت في حجره فقد أخطأ على ما قلناه ويقال لزوج المرأة : ربيب ابن امرأته ، يعنى به رآبه ، نحو : شهيد ، بمعنى شاهد ، وخبير ، بمعنى خابر ، وعليم ، بمعنى عالم .

الاعراب :

وقوله : ﴿ من نسائكم اللاتي دخلتم بهن﴾ قال المبرد : «اللاتي دخلتم بهن» نعت للنساء اللواتي من أمهات الربائب لا غير قال : لاجماع الناس على أن الربيبة تحل إذا لم يدخل بأمها ، وإن من أجاز أن يكون قوله : ﴿ من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ﴾ هولأمهات نسائكم فيكون معناه: أمهات نسائكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فيخرج أن يكون اللاتي دخلتم بهن لأمهات الربائب ، قال الزجاج :لأن الخبرين إذا اختلفا لم يكن نعتها واحداً ، لا يجيز النحويون : مررت بنسائك ، وهربت من نساء زيد الظريفات ، على أن يكون (الظريفات) نعتاً لهؤلاء النساء ، وهؤلاء النساء . وقال: من اعتبر الدخول بالنساء ، لتحريم أمهاتهن يحتاج أن يقدر : أعني ، فيكون التقدير : وأمهات نسائكم أعني اللاتي خلتم بهن ، وليس بنا إلى ذلك حاجة .

المعنى :

والدخول المذكور في الآية قيل فيه قولان :

أحدها ـ قال ابن عباس : هو الجماع ، واختاره الطبري .

الثاني ـ قال عطاء : وما جرى مجراه من المسيس ، وهو مذهبنا ، وفيه خلاف بين الفقهاء . وقوله : ﴿ وحلائل أبناءكم الذين من أصلابكم ﴾ يعني نساء البنين للصلب ، دخل بهن البنون أو لم يدخلوا ، ويدخل في ذلك أولاد الأولاد من البنين والبنات ، وإنما قال « من أصلابكم » لئلا يظن أن امرأة من يتبنى به تحرم عليه . وقال عطاء : نزلت الآية حين نكح النبي (ص) إمرأة زيـد بن حارثة ، فقال

المشركون في ذلك ، فنزلت : « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » وقال : «وما جعل أدعياءكم أبناءكم » (١)وقال : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » (٢) فأما حلائل الأبناء من الرضاعة فحرمات بقوله (ص) : « يحرم من الرضاع مايحرم من النسب » .

وإنما سميت المرأة حليلة لأمرين :

أحدهما ـ لأنها تحل معه في فراش .

الثاني ـ لأنه يحل له وطؤها . وقوله : « وأن تجمعوا بين الأختين » فيه تحريم الجمع بينهما في عقد واحد ، وتحريم الجمع بينهما في الوطي بملك اليمين ، فاذا وطأ إحداهما لم تحل له الأخرى حتى يخرج تلك من ملكه ، وهو قول الحسن ، وأكثر المفسرين والفقهاء . وروي عن ابن عباس أنه أجاز الجمع بينهما بملك اليمين ، وتوقف فيها علي وعثمان ، وباقي الصحابة حرموا الجمع بينهما . وروي عن علي (ع) أنه قال : حرمتها آية ، وأحلتها أخرى ، وأنا أنهى عنها نفسي ، وولدي ، فغلب التحريم . ومن أجاز الجمع بينهما في الوطي بملك اليمين ـ على ما يذهب إليه داود وقوم من أهل الظاهر ـ فقد أخطأ في الأختين ، وكذلك في الربيبة وأم الزوجة ، لأن قوله : « وأمهات نسائكم » يدخل فيه المملوكة ، والمعقود عليها ، وكذلك قوله : « من نسائكم اللاتي دخلتم بهن » يتناول الجميع ، وكذلك قوله : « وأن تجمعوا بين الاختين » عام في الجميع على كل حال ، في العقد والوطي ، وإنما أخرجنا جواز ملكهما بدلالة الاجماع ، ولا يعارض ذلك قوله : « أو ماملكت أيمانكم » لأن الغرض بهذه الآية مدح من يحفظ فرجه إلا عن الأزواج ، أو ملك الايمان ، فأما كيفية ذلك فليس فيه ، ويمكن الجمع بينهما بأن يقال : « أو ماملكت أيمانكم » إلا على وجه الجمع بين الأم والبنت ، أو الاختين

والسابعة قوله : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم ﴾ وهي امرأة الأب ، سواء

«١» سورة الاحزاب : آية ٤ . «٢» سورة الاحزاب : آية ٤٠ .

دخل بها أو لم يدخل ، ويدخل في ذلك نساء الأجداد وإن علوا ، من قبل الأب والأم بلا خلاف . وقوله : « إلا ما قد سلف » استثناء منقطع ، وتقديره : لكن ما سلف لا يؤاخذكم الله به ، وليس المراد أن ماسلف حال النهي تجوز استدامته ، بلا خلاف . وقيل إن إلا بمعنى سوى . وقوله : « وأن تجمعوا » (أن) في موضع الرفع ، والتقدير : حرمت عليكم هذه الأشياء ، والجمع بين الأختين ، وكل من حرمه الله في هذه الآية فانما هو على وجـــه التأبيد ، مجتمعات ومنفردات ، إلا الأختين فانها تحرمان على وجه الجمع دون الانفراد .

ويمكن أن يستدل بهذه الآية على أنه لا يصح أن يملك واحدة من ذوات الانساب المحرمات ، لأن التحريم عام ، وبقوله (ص) « يحرم من الرضاع مايحرم من النسب » على أنه لايصح ملكهن من جهة الرضاع ، وإن كان فيه خلاف . وأما المرأة التي وطؤها بلا تزويج ، ولاملك ، فليس في الآية ما يدل على أنه يحرم وطي أمها وبنتها ، لأن قوله : « وأمهات نسائكم » وقوله : « من نسائكم اللاتي دخلتم بهن » يتضمن إضافة الملك ، إما بالعقد أو بملك اليمين ، فلا يدخل فيه من وطأ من لا يملك وطأها ، غير أن قوماً من أصحابنا ألحقوا ذلك بالموطوءة بالعقد والملك بالسنة والأخبار المروية في ذلك ، وفيه خلاف بين الفقهاء .

وأما الرضاع فلا يحرم عندنا إلا ما كان خمس عشرة رضعة متواليات ، لا يفصل بينهن برضاع امرأة اخرى ، أو رضاع يوم وليلة ، أو ما أنبت اللحم وشد العظم . وفي أصحابنا من حرم بعشر رضعات . ومتى دخل بين الرضاع رضاع امرأة أخرى ، بطل حكم ما تقدم . وحرّم الشافعي بخمس رضعات ، ولم يعتبر التوالي . وحرّم أبو حنيفة بقليله وكثيره ، وهو اختيار البلخي . وفي أصحابنا من ذهب إليه . واللبن عندنا للفحل ، ومعناه إذا أرضعت امرأة بلبن فحل لها صبيانا كثيرين ، من أمهات شتى ، فانهم جميعهم يصيرون أولاد الفحل ، ويحرمون على جميع أولاده الذين ينتسبون إليه ولادة ورضاعاً ، ويحرمون على أولاد المرضعة الذين ولدتهم ، فأما

من أرضعته بلبن غير هذا الفحل ، فانهم لا يحرمون عليهم ، وكذلك إن كان للرجل امرأتان ، فأرضعتا صبيين لأجنبيين ، حرم التناكح بين الصبيين . وخالف في هذه ابن علية .

ولا يحرم من الرضاع عندنا إلا ماوصل إلى الجوف من الثدي من المجرى المعتاد الذي هو الفم ، فأما ما يوجر به ، أو يسعط ، أو ينشق ، أو يحقن به ، أو يحلب في عينه ، فلا يحرم بحال . ولبن الميتة لا حرمة له في التحريم ، وفي جميع ذلك خلاف .ولا يحرم من الرضاع إلا ما كان في مدة الحولين ، فأما ما كان بعده فلا يحرم بحال .

فأما الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها فحرم بالسنة ،ويجوز عندنا نكاح العمة والخالة على المرأة ، ونكاح المرأة على العمة والخالة لايجوز إلا برضاء العمة والخالة ، وخالف فيه جميع الفقهاء . والمحرمات بالنسب ومن يحرم بالسبب على وجه التأبيد يسمون مبهمات ، لأنه يحرم من جميع الجهات ، مأخوذ من البهيم الذي لا يخالط معظم لونه لون آخر ، يقال : فرس بهيم لاشية فيه ، وبقرة بهيم ، والجمع بهم .

وقوله : ﴿ إن الله كان غفوراً رحيما ﴾ اخبار أنه كان غفوراً حيث لم يؤآخذهم بما فعلوه من نكاح المحرمات ، وأنه عفى لهم عما سلف ، ولا يدل على أنه ليس بغفور فيما بعد ، لأن ذلك معلوم بدلالة أخرى ، وفي الناس من قال :كان زائدة ، وقد بينا أن هذا ضعيف ، لأنها تكون عبثاً ولغواً ، وذلك لا يجوز .

قوله تعالى :

﴿ وَالمحصناتُ مِنَ النساءِ إلاَّ ما مَلكتْ أيمانكم كِتابَ اللهِ عَليكمْ وَأُحلَّ لَكمْ ماوَراءَ ذلكم أنْ تَبتغوا بأموالكم مُحصنينَ غيرَ مُسافحينَ فما اسْتمتعتمْ بهِ مِنهنَّ فآتوهُنَّ أُجورَهُنَّ فَريضةً وَلا جُناحَ عَليكمْ

فيما تَراضيتُمْ بهِ مِنْ بَعدِ الفريضةِ إنَّ اللهَ كانَ عليماً حكيماً ﴾ (٢٤)

ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة :

قرأ الكسائي : « المحصنات » « ومحصنات » ، بكسر الصاد حيث وقع ، إلا قوله : « والمحصنات من النساء » ههنا فانه فتح الصاد . وقرأ أهل الكوفة إلا أبو بكر ، وأبو جعفر : « وأحل لكم » ـ بضم الهمزة ، وكسر الحاء ـ الباقون : بفتحها . وقرأ أهل الكوفة إلاحفصا : « أحصن » بفتح الهمزة والصاد ، الباقون بضم الهمزة وكسر الصاد .

المعنى :

قيل في معنى قوله : « والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم » ثلاثة أقوال :

أحدها ـ وهو الأقوى ـ ما قاله علي (ع) ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو قلابة ، وابن زيد ، عن أبيه ، ومكحول ، والزهري ، والجبائي : أن المراد به ذوات الأزواج إلا ما ملكت أيمانكم ، من سبي من كان لها زوج . وقال بعضهم ، مستدلا على ذلك بخبر أبي سعيد الخدري ، أن الآية نزلت في سبي أوطاس ، ومن خالفهم ضعف هذا الخبر بأن سبي أوطاس كانوا عبدة الأوثان ، دخلوا في الاسلام .

الثاني ـ قال أبي بن كعب ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وابن مسعود ـ في رواية أخرى عنه ـ وسعيد بن المسيب ، والحسن ، وابراهيم : إن المراد به ذوات الأزواج إلا ما ملكت أيمانكم ممن قد كان لها زوج ، لأن بيعها طلاقها . وقال ابن عباس : طلاق الأمة ست : سبيها طلاقها ، وبيعها ، وعتقها ، وهبتها ، وميراثها ، وطلاقها . وحكي عن علي (ع) ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف : أن السبي خاصة طلاقها ، قالوا لأن النبي (ص) خير بريرة بعد أن أعتقتها عائشة ،

ولو بانت بالعتق لما صح . وزعم هؤلاء أن طلاقها كطلاق الحرة .

الثالث ـ قال أبو العالية . وعبيدة ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، واختاره الطبري : ان المحصنات العفائف ، إلا ما ملكت أيمانكم بالنكاح ، أو بالثمن ملك استمتاع بالمهر والبينة ، أو ملك استخدام بثمن الأمة .

اللغة والاعراب

وأصل الاحصان المنع . وسمي الحصن حصناً لمنعه من أراده من أعدائه ، والدرع الحصينة أي المنيعة ، والحصان الفحل من الأفراس لمنعه صاحبه من الهلاك ، والحصان العفيفة من النساء ، لمنعها فرجها من الفساد . ومنه قوله : « التي أحصنت فرجها » (١) وكذلك أحصنها الزوج ، وبناء حصين ممتنع ، وحصنت المرأة تحصن حصانة ، والحاصن : العفيفة ، قال العجاج :

وحاصن من حاصنات ملس من الأذى ومن قراف الوقس (٢)

وقال أبو علي الفارسي ، قال سيبويه : حصنت المرأة حصناً وهي حصان ، مثل : جبنت جبناً فهي جبان ، وقالوا حصناً ، كما قالوا : علما قال الازهري : يقال للرجل إذا تزوج : أحصن فهو محصن ، كقولهم : ألفج فهو ملفج إذا أعدم وافتقر ، وأسهب فهو مسهب ، إذا أكثر الكلام . وكلام العرب كله على أفعل فهو مفعل ، بكسر العين ، مثل أسمع فهو مسمع ، وأعرب فهو معرب ، وأفصح فهو مفصح ، إلا ما ذكرناه والاحصان على أربعة أقسام :

أحدها ـ يكون بالزوجة ، كقوله : « والمحصنات من النساء » .

والثاني ـ بالاسلام ، كقوله : « فاذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات » (٣) .

« ١ » سورة التحريم : آية ١٢ .

« ٢ » ديوانه ٧٨ ، واللسان (قنس) ، (وقس) ، (حصن) ومجاز القرآن ١٢٢:١ ورواية اللسان (عن) بدل (من) في العجز في الموضعين .

« ٣ » سورة النساء : آية ٢٥ .

والثالث – بالعفة كقوله : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء » (١) .

الرابع – يكون بالحرية ، كقوله : « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » (٢) وقوله : « كتاب الله عليكم » يحتمل نصبه وجهين :

أحدهما – أن يكون مصدراً جرى على غير فعله وفيه معناه ، كأنه قال : حرم الله ذلك كتاباً من الله ، أو كتب كتاباً ، كما قال : « صنع الله الذي أتقن كل شيء » (٣) فنصبه بقوله : « وترى الجبال تحسبها جامـدة وهي تمر مر السحاب » (٤) فكان ذلك دلالة على أنه قد صنعها فنصب على أنه مصدر ، وقال الشاعر :

ورضت فذلت صعبة أي اذلال(٥)

لأن معنى رضت أذللت ، قال الزجاج : ويجوز أن يكون منصوباً على جهة الأمر ، ويكون « عليكم » مفسراً ، والمعنى : الزموا كتاب الله .

الثاني – على الاغراء ، والعامل محذوف ، لأن عليكم لا يعمل فيما قبله : وأنشد :

يا أيها المائح دلوى دونكا   إني رأيت الناس يحمدونكا(٦)

والمعنى هذا دلوي دونكا ، وهو معنى قول الزجاج .

المعنى :

وقوله : ﴿ وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا باموالكم ﴾ قيل في معناه أربعة أقوال :

« ١ » سورة النور : آية ٤ .   « ٢ » سورة المائدة : آية ٦ .

« ٣ ، ٤ » سورة النمل : آية ٨٨ .

« ٥ » قائله امرؤ القيس . ديوانه : ١٦١ . وصدره :

وصرنا الى الحسنى ورق كلامنا

« ٦ » البيت لجاهلي من بني أسيد بن عمر بن تميم . معاني القرآن ١ : ٢٦٠ ، وخزانة الادب ٣ : ١٧ .

أحدها ـ قال عبيدة السلماني ، والسدي : أحل لكم ما دون الخمس ، أن تبتغوا بأموالكم على وجه النكاح .

الثاني ـ قال عطاء أحل لكم ما وراء ذوات المحارم من أقاربكم .

الثالث ـ قال قتادة : ﴿ ماوراء ذلكم ﴾ مما ملكت أيمانكم .

الرابع ـ ما وراء ذوات المحارم إلى الأربع ، أن تبتغوا بأموالكم نكاحا ، أو بملك يمين ، وهذا الوجه أولى ، لأنه حمل الآية على عمومها في جميع ماذكر الله ، ولا تنافي بين هذه الاقوال .

ومن فتح الهمزة حمله على أقرب المذكورين في قوله : ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ ومن ضم حمله على ﴿ حرمت ﴾ وموضع ﴿ أن تبتغوا ﴾ نصب ، ويحتمل نصبه على وجهين :

أحدها ـ على البدل من ما .

والثاني ـ على حذف اللام من « لأن تبتغوا » ، ومن قرأ بالضم جاز عنده الرفع والنصب ، وقوله : ﴿ محصنين ﴾ أي عاقدين التزويج ، غير مسافحين : عافين للفروج ، قال مجاهد ، والسدي : معناه غير زانين وأصله : صب الماء ، تقول : سفح الدمع إذا صبه ، وسفح الجبل أسفله ، لانه مصب الماء منه ، وسافح إذا زنا لصبه الماء باطلا . وقال الزجاج : المسافح والمسافحة الزانيان غير ممتنعين من أحد ، فاذا كانت تزني بواحد فهي ذات خدن ، فحرم الله الزنا على كل حال ، على السفاح واتخاذ الصديق . وقوله : ﴿ فما استمتعتم به منهن ﴾ قال الحسن ، ومجاهد ، وابن زيد : هو النكاح ، وقال ابن عباس ، والسدي : هو المتعة إلى أجل مسمى ، وهو مذهبنا ، لأن لفظ الاستمتاع إذا أطلق لا يستفاد به في الشرع إلا العقد المؤجل ، ألا ترى أنهم يقولون : فلان يقول بالمتعة ، وفلان لا يقول بها ، ولا يريدون إلا العقد المخصوص ، ولا ينافي ذلك قوله : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم » (١) لأنا نقول : إن هذه زوجة ، ولا يلزم أن يلحقها

---

(١) سورة المؤمنون : آية ٥ ـ ٦ وسورة المعارج آية ٢٩ ـ ٣٠ .

جميع أحكام الزوجات ، من الميراث ، والطلاق ، والايلاء ، والظهار ، واللعان ، لأن أحكام الزوجات تختلف ، ألا ترى أن المرتدة تبين بغير طلاق ، وكذلك المرتد عندنا ، والكتابية لا ترث ، وأما العدة فانها تلحقها عندنا ، ويلحق بها أيضاً الولد ، فلا شناعة بذلك ، ولو لم تكن زوجة لجاز أن يضم ما ذكر في هذه السورة إلى ما في تلك الآية ، لأنه لا تنافي بينهما ، ويكون التقدير : إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم أو ما استمتعتم به منهن وقد استقام الكلام . وروي عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب وسعيد بن جبير : أنهم قرأوا « فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى » وذلك صريح بما قلناه ، على أنه لو كان المراد به عقد النكاح الدائم لوجب لها جميع المهر بنفس العقد ، لأنه قال : ﴿ فآتوهن أجورهن ﴾ يعني مهورهن ، عند أكثر المفسرين ، وذلك غير واجب بلا خلاف ، وإنما يجب الأجر بكماله في عقد المتعة . وفي أصحابنا من قال : قوله : ﴿ أجورهن ﴾ يدل على أنه أراد المتعة ، لأن المهر لا يسمى أجراً ، بل سماه الله صدقة ونحلة ، وهذا ضعيف ، لأن الله سمى المهر أجراً في قوله ﴿ فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن ﴾(١) وقال : ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن﴾(٢) ومن حمل ذلك كله على المتعة كان مرتكباً لما يعلم خلافه ، ومن حمل لفظ الاستمتاع على الانتفاع فقد أبعد ، لأنه لو كان كذلك لوجب أن لا يلزم من لا ينتفع بها شيء من المهر ، وقد علمنا أنه لو طلقها قبل الدخول لزمه نصف المهر ، وإن خلا بها خلوة تامة لزمه جميع المهر عند كثير من الفقهاء ، وإن لم يلتذ ولم ينتفع .

وأما الخبر الذي يروونه أن النبي (ص) نهى عن المتعة ، فهو خبر واحد لا يترك له ظاهر القرآن ، ومع ذلك يختلف لفظه وروايته فتارة يروون أنه نهى عنها في عام خيبر ، وتارة يروون أنه نهى عنها في عام الفتح ، وقد طعن أيضاً في طريقه بما هو معروف ، وأدل دليل على ضعفه قول عمر : (متعتان كانتا على عهد رسول الله (ص) أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما) فأخبر أن هذه المتعة كانت على

« ١ » سورة النساء : آية ٢٥ . « ٢ » سورة المائدة : آية ٦ .

عهد رسول الله (ص) ، وأنه الذي نهى عنها، لضرب من الرأي . فان قالوا . إنما نهى لأن النبي (ص) كان نهى عنها ، قلنا : لو كان كذلك لكان يقول : متعتان كانتا على عهد رسول الله (ص) فنهى عنها ، وأنا أنهى عنهما أيضاً ، فكان يكون آكد في باب المنع ، فلما لم يقل ذلك دل على أن التحريم لم يكن صدر عن النبي (ص) ، وصح ما قلناه . وقال الحكم بن عتيبة ، قال علي (ع) لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنا إلا شقي . وذكر البلخي ، عن وكيع ، عن اسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن عبد الله بن مسعود : قال كنا مع النبي (ص) ونحن شباب ، فقلنا يارسول الله ألا نستخصي ، قال : لا ، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب ، إلى أجل. وقوله : ﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ قال الحسن ، وابن زيد : أي تراضيتم به من حط بعض الصداق أو تأخيره ، أو هبة جميعه . وقال السدي وقوم من أصحابنا : معناه : لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من استئناف عقد آخر بعد انقضاء المدة التي تراضيتم عليها ، فتزيدها في الأجر وتزيدك في المدة . وفي الآية دلالة على جواز نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، لأن قوله : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ عام في جميعهن ، ومن ادعى نسخه فعليه الدلالة ، وما يروى من قوله(ص) : ﴿ لا تنكح المرأة على عمتها ولا خالتها ﴾ خبر واحد لا ينسخ به القرآن ، ولو كان معلوماً لما جاز أن ينسخ به القرآن عند أكثر الفقهاء ، لأن نسخ القرآن لا يجوز عندهم بالسنة ، وادعاؤهم الاجماع على الخبر غير مسلم ، لأنا نخالف فيه . وقوله : ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ معناه عليما بما يصلح أمر الخلق ، حكيما فيما فرض لهم من عقد النكاح الذي به حفظت الأموال ، والانساب . قال البلخي : والآية دالة على أن نكاح المشركين ليس بزنا ، لأن قوله : ﴿والمحصنات من النساء ﴾ المراد به ذوات الازواج من أهل الحرب ، بدلالة قوله : ﴿ إلا ما ملكت أيمانكم ﴾ بسبيهن ولا خلاف أنه لا يجوز وطي المسبية إلا بعد استبرائها بحيضة .

قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنكِحَ المحصناتِ المؤمناتِ فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴾ (٢٥) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة ، واللغة :

قرأ أهل الكوفة إلا حفصاً ﴿ فإذا أحصن ﴾ ـ بضم الهمزة وكسر الصاد ـ الباقون بفتحها ، وقرأ « المحصنات » ـ بكسر الصاد ـ الكسائي وحده ، قوله : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا ﴾ معناه : من لم يجد منكم طولا . وقيل في معنى الطول قولان :

أحدها ـ قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد : هو الغنى ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) .

والثاني ـ قال ربيعة ، وجابر ، وعطاء ، وابراهيم : أنه الهوى ، قال : إذا هوي الأمة فله أن يتزوجها وإن كان ذا يسار . وقال الحسن ، والشعبي : لا يجوز ذلك ، والقول الأول هو الصحيح ، وعليه أكثر الفقهاء . والطول الغنى ، وهو مأخوذ من الطول خلاف القصر ، فشبه الغنى به ، لأنه ينال به معالي الأمور ، وقولهم ليس فيه طائل ، أي : لا ينال به شيء من الفوائد ، والتطول الافضال

بالمال ، والتطاول على الناس الترفع عليهم ، وكذلك الاستطالة ، وتقول : طال فلان طولا ، أي كأنه فضل عليه في القدرة ، وقد طالت طولك وطيلك أي طالت مدتك، قال الشاعر :

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطيل (١)

والطول الحبل .

المعنى :

وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز نكاح الأمة الكتابية ، لأنه قيد جواز العقد على الاماء إذا كن مؤمنات ، وهو قول مالك بن أنس ، ومجاهد ، وسعيد بن عبد العزيز ، وأبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم ، والحسن ، والطبري ، وقال أبو ميسرة ، وأبو حنيفة ، وأصحابه : يجوز ذلك ، لأن التقييد هو على جهة الندب دون التحريم ، والأول أقوى ، لأنه الظاهر ، وما قالوه عدول عنه . ومنهم من قال: لأن التأويل : من فتياتكم المؤمنات دون المشركات من عبدة الأوثان ، بدلالة الآية التي في المائدة ، وهي قوله تعالى : « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » (٢) وهذا ليس بشيء ، لأن الكتابية لا تسمى مؤمنة . ومن أجاز العقد على الكتابية له أن يقول : آية المائدة مخصوصة بالحرائر منهن دون الاماء ، وظاهر الآية يقتضي أن من وجد الطول من مهر الحرة ونفقتها ، ولا يخاف العنت ، لا يجوز له تزويج الأمة ، وإنما يجوز العقد عليها مع عدم الطول ، والخوف من العنت . وهو مذهب الشافعي ، غير أن أكثر أصحابنا قالوا : ذلك على وجه الأفضل ، لا أنه لو عقد عليها وهو غني كان العقد باطلا ، وبه قال أبو حنيفة ، وقوّوا ذلك بقوله : « ولأمة مؤمنة خير من مشركة » (٣) إلا أن من شرط صحة العقد على الأمة عند أكثر الفقهاء ، أن لا تكون عنده حرة ، وهكذا عندنا ، إلا أن ترضى الحرة

« ١ » قائله القطامي ديوانه : ٣٢ وجمهرة الاشعار : ٣١٣ والطيل جمع طيلة وهي الدهر .

« ٢ » سورة المائدة : آية ٦ . « ٣ » سورة البقرة : آية ٢٢١ .

بأن يتزوج عليها أمة ، فان أذنت كان العقد صحيحاً عندنا ، ومتى عقد عليها بغير إذن الحرة كان العقد على الأمة باطلا . وروى أصحابنا أن الحرة تكون بالخيار بين أن تفسخ عقد الأمة ، أو تفسخ عقد نفسها ، والاول أظهر ، لأنه إذا كان العقد باطلا لا يحتاج إلى فسخه ، فأما تزويج الحرة على الأمة، فجائز ، وبه قال الجبائي . وفي الفقهاء من منع منه ، غير أن عندنا لا يجوز ذلك إلا باذن الحرة ، فان لم تعلم الحرة بذلك كان لها أن تفسخ نكاحها ، أو نكاح الأمة ، وفي الناس من قال : في عقده على الحرة طلاق الأمة . وقوله : « من فتياتكم المؤمنات » فالفتى الشاب ، والفتاة الشابة ، والفتاة الأمة ، وإن كانت عجوزاً لأنها كالصغيرة في أنها لا توقر توقير الكبيرة ، والفتوّة حال الحداثة ، ومنه الفتيا ، تقول : أفتى الفقيه . يفتي لأنه يسأله مسألة في حادثة .

وقوله : « والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض » قيل في معناه قولان :

أحدهما - كلكم ولد آدم .

والثاني - كلكم على الايمان . ويجوز أن تكون الأمة أفضل من الحرة ، وأكثر ثواباً عند الله ، وفي ذلك تسلية لمن يعقد على الأمة ، إذا جوّز أن تكون أكثر ثواباً عند الله ، مع اشتراكهم بأنهم ولد آدم ، وفي ذلك صرف عن التغاير بالأنساب . ومن كره نكاح الأمة قال : لأن الولد عندنا يلحق بالحرية في كلا الطرفين .

وقوله : « فانكحوهن باذن أهلهن » أي اعقدوا عليهن باذن أهلهن ، وفيه دلالة واضحة على أنه لا يجوز نكاح الأمة بغير اذن وليها الذي هو مالكها . وقوله : « وآتوهن أجورهن » معناه : اعطوا مالكهن مهورهن ، لأن مهر الأمة لسيدها ، « بالمعروف » وهو ما وقع عليه العقد والتراضي . وقوله : « محصنات غير مسافحات » يعني بالعقد عليهن ، دون السفاح معهن ، « ولا متخذات أخدان » وقد بينا الفرق بين الخدن والسفاح فيما مضى ، والخدن هو الصديق يكون للمرأة ، يزني بها سراً ، كذا كان في الجاهلية ، والسفاح ما ظهر منه ، وكان

فيهم من يحرم ما ظهر من الزنا ، ولا يحرم ماخفي منه ، ذكر ذلك ابن عباس ، وغيره من المفسرين . وخدن الرجل وخدينه صديقه .

وقوله : ﴿ فاذا أحصن ﴾ من قرأ بالضم ، قال : معناه تزوجن ، ذكر ذلك ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة . ومن فتح الهمزة قال : معناه أسلمن ، روي ذلك عن عمر ، وابن مسعود ، والشعبي ، وابراهيم ، والسدي . وقال الحسن : يحصنها الزوج ، ويحصنها الاسلام ، وهو الأولى ، لأنه لا خلاف أنه يجب عليها نصف الحد إذا زنت ، وإن لم تكن ذات زوج ، كما أن عليها ذلك وان كان لها زوج ، لأنه وإن كان لها زوج لا يجب عليها الرجم ، لأنه لا يتبعض ، فكان عليها نصف الحد خمسين جلدة . على أن قوله : « فعليهن نصف ما على المحصنات » يعني نصف ما على الحرائر ، وليس المراد به ذوات الأزواج ، فالاحصان المذكور للأمة التزويج ، والمذكور للمحصنات الحرية ، وبينا أنه يعبر به عن الأمرين . وقال بعضهم : إذا زنت الأمة قبل أن تتزوج ، فلا حد عليها ، وإنما عليها نصف الحد إذا تزوجت بظاهر الآية .

وقوله : ﴿ ذلك لمن خشي العنت منكم ﴾ ، فالعنت معناه ههنا الزنا في قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعطية العوفي ، والضحاك ، وابن زيد . وقال قوم: هو الضرر الشديد في الدين أو الدنيا ، مأخوذ من قوله : « ودوا ماعنتم » (١) والأول أقوى ، وقوله : « وإن تصبروا خير لكم » يعني : عن نكاح الاماء ، في قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، وعطية . وأكمة عنوت صعبة المرتقى . ومتى اجتمع عند الرجل حرة وأمة كان للحرة يومان وللأمة يوم ، وعندنا أن بيع الأمة طلاقها ، إلا أن يشاء المشتري إمضاء العقد ، وكذلك الهبة ، وكل ما ينتقل به الملك من الميراث ، والسبي ، وغيره . فأما عتقها فانه يثبت به لها الخيار ، كما ثبت لبريره ، ومتى كانت تحت الزوج الحر أو عبد لغيره ، لم يكن للمولى التفرقة بينهما ، فان كانا جميعاً له كان التفرقة إلى المولى .

(١) سورة آل عمران : آية ١١٨ .

واستدلت الخوارج على بطلان الرجم بهذه الآية ، قالوا : لما قال الله تعالى: ﴿ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ ، وكان الرجم لا يمكن تبعيضه ، دل على أنه لا أصل له ، وعلى ما بيناه من أن المراد فعليهن نصف ما على الحرائر دون ذوات الأزواج ، يسقط هذا السؤال . ويدل على أن الاحصان يعبر به عن الحرية زائداً على ما تقدم ، قوله في أول الآية : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم ﴾ ولا شك أنه أراد الحرة أو العفائف، لأن التي لها زوج لا يمكن العقد عليها ، وجد طولها أو لم يجد ، وقوله : ﴿ والذين يرمون المحصنات ﴾ يدل عليه أيضاً ، لأن المراد به المسلمة الحرة ، سواء كانت ذات زوج أو لم تكن ، بلا خلاف . والرجم معلوم من دين المسلمين بالتواتر فانهم لا يختلفون أنه (ص) رجم ماعز بن مالك الأسلمي ، ورجم يهودياً ويهودية ، وعليه جميع الفقهاء من عهد الصحابة إلى يومنا هذا ، بخلاف الخوارج لا يلتفت إليه . وفي الناس من قال : إن قوله : « أن ينكح المحصنات » المراد به الحرائر دون أن يكون مختصاً بالعفائف ، لأنه لو كان مختصاً بالعفائف لما جاز العقد على من ليس كذلك ، لأن قوله : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة » إلى قوله : « وحرم ذلك على المؤمنين » (١) منسوخ بالاجماع ، وبقوله : « فانكحوا ما طاب » (٢) وبقوله : « وانكحوا الأيامى » (٣) ويمكن أن يخص بالعفائف على الأفضل دون الوجوب ، وقوله : « فعليهن » معناه لازم لهن نصف ما يلزم المحصنات ، دون أن يكون ذلك واجباً عليهن ، وقوله : « وان تصبروا » في موضع رفع ، والتقدير والصبر عن نكاح الأمة خير لكم . وفي الآية تقديم وتأخير ، لأن التقدير : «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم » أي فلينكح مما ملكت أيمانكم ﴿ من فتياتكم المؤمنات بعضكم من بعض والله أعلم بايمانكم ﴾ ذكره الطبري وهو جيد مليح .

« ١ » سورة النور : آية ٣ .
« ٢ » سورة النساء : آية ٣ .
« ٣ » سورة النور : آية ٣ .

قوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٦) ـ آية بلا خلاف ـ .

الاعراب :

اللام في قوله : ﴿ ليبين لكم ﴾ للنحويين فيه ثلاثة أقوال :

أولها ـ قال الكسائي ، والفراء ، والكوفيون : إن معناها (أن) ، وإنما لا يجوز ذلك في أردت وأمرت لأنها تطلب الاستقبال ، لا يجوز أردت أن قمت ، ولا أمرت أن قمت فلما كانت (أن) في سائر الافعال تطلب الاستقبال ، استوثقوا له باللام ، وربما جمعوا بين اللام وكي لتأكيد الاستقبال ، قال الشاعر :

أردت لكيما لا ترى لي عثرة ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل (١)

وقال الفراء : ربما جاء مع غير الارادة والأمر ، أنشدني بن الجراح :

أحاول إعنا اتي بما قال أم رجا ليضحك مني أو ليضحك صاحبه(٢)

ومعناه : رجا أن يضحك ، ومثله : ﴿ وأمرنا لنسلم ﴾ (٣) وفي موضع آخر : ﴿ أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ (٤) وربما جمعوا بين اللام وكي وأن ، قال الشاعر :

أردت لكيما أن تطير بقربتي فتتركها شناً ببيداء بلقع (٥)

« ١ » معاني القرآن ١ : ٢٦٢ أنشده أبو ثروان . وفي شواهد الهمع ٢ : ٥ روايته (تراني عشيرتي) بدل (ترى لي عثرة) .

« ٢ » معاني القرآن ١ : ٢٦٢ ، قائله أبو الجراح الانفي من بني انف الناقة . وكان في المخطوطة والمطبوعة هكذا

أحاول اعدائي بما قال أم رجا فيضحك مني أو ليضحك صاحبه

« ٣ » سورة الانعام : آية ٧١ . « ٤ » سورة الانعام : آية ١٤ .

« ٥ » لم يعرف قائله . معاني القرآن ١ : ٢٦٢ والانصاف : ٢٤٢ والخزانة ٣ : ٥٨٦ . والعيني (هامش الخزانة) ٤ : ٤٠٥ ، وحاشية الصبان ٣ : ٢٨٠ . قوله (أن تطير) كناية عن الهرب ، والشن : الخلق البالي ، والبيداء : المفازة المهلكة ، والبلقع : الارض القفراء .

ولا يجوز في الظن أن تقع اللام بمعنى أن ، لأن الظن يصلح معه الماضي والمستقبل ، نحو : ظننت أن قمت ، وظننت أن تقوم ، ولا يجوز : ظننت لتقوم بمعنى : ظننت أن تقوم .

الثاني ـ قال الزجاج لا يجوز أن تقع اللام بمعنى أن ، واستشهد بقول الشاعر :

أردت لكيما يعلم الناس إنها   سراويل سعد والوفود شهود

فلو كانت بمعنى أن لم تدخل على كي ، كما لا تدخل أن على كي ، قال : الرماني: ولقائل أن يقول : إن هذه لام الاضافة مردودة إلى أصلها ، فلا يجب وقوع أن موقعها ، ومذهب سيبويه وأصحابه أن اللام دخلت في هذا على تقدير المصدر ، أي : ارادة للبيان لكم ، نحو قوله : ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ (١) ﴿ وردف لكم بعض الذي تستعجلون ﴾ (٢) ومعناه : إن كنتم تعبرون الرؤيا ، قال كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما   تمثل لي ليلى بكل سبيل

أي : إرادتي لهذا .

الثالث ـ ضعف هذين الوجهين بعض النحويين ، بأن جعل اللام بمعنى (أن) لم تقم به حجة قاطعة ، وحمله على المصدر يقتضي جواز ضربت لزيد بمعنى ضربت زيداً ، وهذا لا يجوز ، ولكن يجوز في التقديم ، نحو لزيد ضربت وللرؤيا تعبرون ، لأن عمل الفعل في التقديم يضعف ، كعمل المصدر في التأخير ، ولذلك لم يجز إلا في المتصرف ، فأما « ردف لكم » فعلى تأويل : ردف ما ردف لكم ، وعلى ذلك يريد ما يريد لكم ، وكذلك قوله : « وأمرنا لنسلم » (٣) أي أمرنا بما أمرنا لنسلم ، فهي تجري بهذا على أصولها ، وقياس بابها . وقال قوم معناه : يريد الله هذا من أجل أن يبين لكم ، كما قال : « وأمرت لأعدل بينكم » (٤) معناه : وأمرت بهذا من أجل ذلك ، وإنما لم يجز أن يراد الماضي لأمرين :

أحدها ـ أن الارادة لاستدعاء الفعل ، ومحال أن يستدعي ماقد فعل ، كما

---

(١) سورة يوسف : آية ٤٣ .
(٢) سورة النمل : آية ٧٢ .
(٣) سورة الانعام : آية ٧١ .
(٤) سورة الشورى: ١٥ .

أنه محال أن يؤمر بما قد وقع ، لأنه لا يحسن أن يقول : إفعل أمس ، أو أريد أمس .

والثاني ـ أن بالارادة يقع الفعل على وجه دون وجه ، من حسن أو قبيح ، أو طاعة أو معصية ، وذلك محال فيما مضى .

المعنى :

وقوله : « ويهديكم سنن الذين من قبلكم » قيل فيه قولان :

أحدها ـ « يهديكم سنن الذين من قبلكم » من أهل الحق ، لتكونوا على الاقتداء بهم في اتباعه لما لكم فيه من المصلحة .

الثاني ـ « سنن الذين من قبلكم » من أهل الحق ، وغيرهم ، لتكونوا على بصيرة فيما تفعلون أو تجتنبون من طرائقهم ، وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة ، لأن الله تعالى بين أنه يريد أن يتوب على العباد ، وهم يزعمون أنه يريد منهم الاصرار على المعاصي . وقال أبو علي الجبائي : في الآية دلالة على أن ماذكر في الآيتين من تحريم النكاح أو تحليله ، قد كان على من قبلنا من الأمم ، لقوله تعالى : « ويهديكم سنن الذين من قبلكم » أي في الحلال والحرام . قال الرماني: لا يدل ذلك على اتفاق الشريعة ، وإن كنا على طريقتهم في الحلال والحرام ، كما لا يدل عليه وإن كنا على طريقتهم في الاسلام ، وهذا هو الأقوى .

قوله تعالى :

﴿ وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتوبَ عَليكمْ وَيُرِيدُ الَّذينَ يَتَّبِعونَ الشهواتِ أَنْ تَميلوا مَيلاً عَظيماً (٢٧) ـ آية ـ .

المعنى :

معنى الآية الاخبار من الله تعالى أنه يريد من المواجهين بها ، أن يتوب

عليهم ، بمعنى أن يقبل توبتهم ، عما سلف من آثامهم ، ويتجاوز عما كان منهم في الجاهلية ، من استحلالهم ماهو حرام عليهم من حلائل الآباء والأبناء ، وغير ذلك مما كانوا يستحلونه ، وهو حرام عليهم . إن قيل : لم كرر قوله : « والله يريد أن يتوب عليكم » ؟مع ما تقدم من قوله : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم » قلنا عنه جوابان :

أحدهما ـ أنه لما قال في الأول ، وتقديره : يريد الله ليتوب عليكم أتى في الثاني بـ (أن) ليزول الايهام أنه يريد ليتوب ، ولا يريد (٣) أن يتوب علينا .

والآخر ـ أن يبين أن ارادته منا خلاف إرادة أصحاب الأهواء لنا ، لنكون على بصيرة من أمرنا ، وجاء الثاني على التقابل ، بأن الله يريد شيئاً ويريدون خلافه .

والمعني : بقوله : « ويريد الذين يتبعون الشهوات » قيل فيه أربعة أقوال :

الأول ـ قال ابن زيد : كل مبطل ، لأنه يتبع شهوة نفسه في باطله .

الثاني ـ قال مجاهد : يعني به : الزناة .

الثالث ـ قال السدي : هم اليهود والنصارى .

الرابع ـ اليهود خاصة ، لأنهم يحلون نكاح الأخت من الأب ، والأول أقوى ، لأنه أعم فائدة ، وأوفق لظاهر اللفظ . وقوله : « أن تميلوا ميلا عظيما » معناه أن تعدلوا عن الاستقامة بالاستكثار من المعصية ، وذلك أن الاستقامة هي المؤدية إلى الثواب ، والفوز بالسلامة من العقاب ، وأما الميل عن الاستقامة فيؤدي إلى الهلاك واستحقاق العقاب . فان قيل : ما معنى إرادتهم الميل بهم ؟ قيل قد يكون ذلك لعداوتهم ، وقد يكون لتمام الأنس بهم في المعصية ، فبين الله أن إرادته لهم خلاف ارادتهم منهم ، وليس في الآية مايدل على أنه لا يجوز اتباع داعي الشهوة في شيء البته ، لأنه لا خلاف أن اتباع الشهوة فيما أباحه الله تعالى جائز ، وإنما المحظور من

---

(١) في المخطوطة (ولأنه يريد) بدل (ولا يريد) .

ذلك ما يدعو إلى ما حرمه ، لكن لا يطلق [على] (١) صاحبه بأنه متبع للشهوة ، لأن إطلاقه يفيد اتباع الشهوة فيما حرم عليه .

قوله تعالى :

﴿يُرِيدُ اللهُ أن يُخفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسانُ ضَعِيفاً﴾ (٢٨)

ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى واللغة :

معنى قوله : « يريد الله أن يخفف عنكم » ههنا أي في نكاح الاماء ، لأن الانسان خلق ضعيفاً في أمر النساء ، هذا قول مجاهد ، وطاووس ، وزيد . وأصل التخفيف خفة الوزن ، والتخفيف على النفس بالتيسير ، كخفة الحمل بخفة الوزن ، ومنه الخفافة النعامة السريعة ، لأنها تسرع أسراع الخفيف الحركة ، والخفوف السرعة ، ومنه الخف الملبوس لأنه يخف به التصرف ، ومنه خفّ البعير . والمراد بالتخفيف ههنا تسهل التكليف ، بخلاف التصعب فيه ، فتحليل نكاح الاماء تيسير بدلا من تصعيب ، وكذلك جميع مايسره الله لنا إحساناً منه إلينا ، ولطفا بنا . فأن قيل : هل يجوز التثقيل في التكليف ، مع خلق الانسان ضعيفاً عن القيام به بدلا من التخفيف ؟ قيل : نعم إذا أمكنه القيام به ، وإن كان فيه مشقة ، كما ثقل التكليف على بني اسرائيل في قتل أنفسهم ، غير أن الله لطف بنا فكلفنا ما يتم به صلاحنا ، بدلا من فسادنا . وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة : ان الله يكلف عباده مالا يطيقون ، لأن ذلك مناف لارادة التخفيف عنهم في التكليف ، من حيث أنه غاية التثقيل . وقوله : « وخلق الانسان ضعيفاً » أي يستميله هواه .

قوله تعالى :

﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا لا تأكلوا أموالكمْ بَينكم بالباطلِ إلاَّ

« ١ » في المخطوطة والمطبوعة (لصاحبه) بدل (على صاحبه) .

أنْ تكونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنكمْ وَلا تَقتلوا أنفسكمْ انَّ اللهَ كان بِكمْ رَحيماً ﴾ (٢٩) - آية واحدة بلا خلاف - .

القراءة ، والاعراب :

قرأ أهل الكوفة : « تجارة » نصباً ، الباقون : بالرفع ، فمن رفع ذهب إلى أن معناه : إلا أن تقع تجارة ، ومن نصب فمعناه : إلا أن تكون الأموال تجارة ، أو أموال تجارة ، وحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، ويكون الاستثناء منقطعاً ، ويجوز أن يكون التقدير : إلا أن تكون التجارة تجارة ، كما قال الشاعر :

إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعا (١)

وتقديره : إذا كان اليوم يوماً ذا كواكب ، ذكره أبو علي النحوي . وقال الرماني التقدير : إلا أن تكون الاموال تجارة ، ، ولم يبين . والقول ماقال أبوعلي ، لأن الأموال ليست تجارة . ومن شأن خبر كان أن يكون هو إسمها في المعنى . وقيل : الرفع أقوى ، لأنه أدل في الاستثناء على الانقطاع ، فان التحريم لأكل المال بالباطل على الاطلاق . وفي الناس من زعم أن نصبه على قول الشاعر :

إذا كان طعناً بينهم وعناقا (٢)

أي إذا كان الطعن طعناً . قال الرماني : وهذا ليس بقوي ، لأن الاضمار قبل الذكر ليس يكثر في مثل هذا ، وإن كان جائزاً ، فالرفع يغني عن الاضمار فيه .

المعنى :

وفي معنى قوله : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » قولان :

أحدها - قال السدي : بالربا ، والقمار ، والبخس ، والظلم ، وهو المروي عن

---

(١) لم يعرف قائله معاني القرآن للفراء ١ : ١٨٦ وسيبويه ١ : ٢٢ وصدره : ولله قومي أي قوم لحرة

(٢) لم يعرف قائله معاني القرآن ١ : ١٨٦ وصدره : أعيني هلا تبكيان عفاقا .
وعفاق : اسم رجل .

أبي جعفر (ع) :

الثاني ـ قال الحسن : بغير استحقاق من طريق الأعواض . وكان الرجل يتحرج أن يأكل عند أحد من الناس بعد مانزلت هذه الآية ، إلى أن نسخ ذلك بقوله في سورة النور : «ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ....» إلى قوله : « جميعاً أو أشتاتاً » (١) والأول أقوى ، لأن ما أكل على وجه مكارم الأخلاق فليس هو أكل بالباطل . وقيل : معناه التخاون ، ولذلك قال : « بينكم » .

وقوله : « إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » فيه دلالة على بطلان قول من حرم المكاسب ، لأنه تعالى حرم أكل الأموال بالباطل ، وأحله بالتجارة على طريق المكاسب . ومثل قوله : « وأحل الله البيع وحرم الربا » (٢) وقيل في معنى التراضي بالتجارة قولان :

أحدها ـ إمضاء البيع بالتفرق ، أو بالتخاير بعد العقد في قول شريح ، وابن سيرين ، والشعبي ، لقوله (ص) : البيعان بالخيار مالم يتفرقا أو يكون بيع خيار . وربما قالوا : أو يقول أحدها للآخر اختر ، وهو مذهبنا .

الثاني ـ إمضاء البيع بالعقد ـ على قول مالك بن أنس ، وأبي حنيفة ، وأبي يوسف ، ومحمد ـ بعلة رده إلى عقد النكاح ، ولا خلاف أنه لا خيار فيه بعد الافتراق ، وقيل : معناه إذا تغابنوا فيه مع التراضي فانه جائز .

وقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال عطاء ، والسدي ، وأبو علي الجبائي ، والزجاج : لا يقتل بعضهم بعضاً من حيث كانوا أهل دين واحد ، فهم كالنفس الواحدة ، كما يقول القائل : قتلنا ورب الكعبة ، ومعناه قتل بعضنا ، لأنه صار كالقتل لهم ، ومثله قوله : « فاذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم » (٣) .

الثاني ـ قال البلخي : فيه نهي عن قتل نفسه في حال غضب ، أو زجر ،

« ١ » سورة النور : آية ٦١ .
« ٢ » سورة البقرة : آية ٢٧٥ .
« ٣ » سورة النور : آية ٦١ .

والأول أقوى ، لأنه أكثر وأغلب ، وأيضاً فانه إذا حرم عليه قتل غيره من أهل دينه ، لأنه بمنزلة قتل نفسه ، فقد حرم عليه قتل نفسه .

الثالث ـ قال قوم : معناه : لاتقتلوا أنفسكم ، بأن تهلكوها بارتكاب الآثام ، والعدوان في أكل المال بالباطل ، وغيره من ارتكاب المعاصي ، التي تستحقون بها العقاب . وروي عن أبي عبد الله (ع) : أن معناه لا تخاطروا بنفوسكم في القتال ، فتقاتلون من لا تطيقونه .

وقوله : « إن الله كان بكم رحيماً » قال ابن عباس : كان صلة ، والمعنى إن الله غفور رحيم ، ويحتمل أن يكون المراد : « إن الله كان بكم رحيماً » حيث كلفكم الامتناع من أكل المال بالباطل الذي يؤدي إلى العقاب ، وحرم عليكم قتل نفوسكم التي حرمها عليكم ، ويعلم انه رحيم فيما بعد بدليل آخر .

قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَفعلْ ذلكَ عُدواناً وَظُلماً فَسوفَ نُصليهِ ناراً وَكانَ ذلكَ على اللهِ يَسيراً ﴾ (٣٠) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

قيل في تعليق الوعيد والاشارة بقوله : «ومن يفعل ذلك عدوانا وظلماً....» الآية ، أربعة أقوال :

أولها ـ وهو أقواها ـ انه على أكل الاموال بالباطل ، وقتل النفس بغير حق ، والوعيد بكل واحدة من الخصلتين ، لأن الوعيد ذكر عقيب ذكر النهي عن الأمرين ، وهو اختيار الطبري .

الثاني ـ قال عطاء : هو على قتل النفس المحرمة خاصة .

الثالث ـ على فعل كلما نهى الله عنه ، من أول السورة .

الرابع ـ أنه راجع إلى قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا

النساء كرهاً » (١) لأن ما قبله مقرون بالوعيد .

وقوله : ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ معناه : أنه قادر على إنجاز الوعيد ، لا يمكن صاحبه الامتناع منه ، ولا الهرب منه ، فيتعذر الايقاع به ، فيجب أن تنزلوا الوعيد منزلته ، وتكونوا على بصيرة فيه ، غير مغترين بأمر يصرف عنه ، وإنما قيد قوله : « ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً » لأن من وقع منه قتل النفس على وجه السهو والخطأ في خلاف المراد ، لم يتناوله الوعيد ، وكذلك إذا أكل من أموال الناس على وجه مباح ، لم يتوجه إليه الوعيد . والعدوان تجاوز ما أمر الله به ، والظلم أن يأخذه على غير وجه الاستحقاق ، وأصله وضع الشيء في غير موضعه . وفي المرجئة من قال : إنما قيد بذلك لأن المراد من استحل أكل المال بالباطل ، واستحل أيضاً قتل النفوس ، وذلك لا يكون إلا كافراً ، فلذلك هدده بالوعيد المخصوص ، فأما إذا فعل ذلك محرماً له ، فانه يجوز أن يعفو الله عنه ، فلا يتناوله الوعيد قطعاً على كل حال ، ولو لم تحمل الآية على المستحلين ، لأمكننا أن نخص الآية بمن لا يعفو الله عنه ، كما أنهم لابد لهم أن يخصوها بمن لم يتب من ذلك ولا تكون معصية صغيرة ، فليس في الآية ما يمنع من القول بجواز العفو .

وإنما قال : ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ وإن كان يسيراً عليه الآن وفي مستقبل الاوقات ، ليعلم أن الأوقات متساوية في ذلك على كل حال ، ولا يجوز أن يقال قياساً على ذلك وكان الله قديماً ، لأن قولنا قديم أغنى عن كان ، إذ لم يختص بالحال بل أفاد الوجود في الأزل ، فلا معنى لادخال كان فيه . واليسير السهل ، يقال : يسر الشيء إذا سهل فهو يسير ، وعسر فهو عسير ، إذا لم يتسهل .

قوله تعالى :

﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً ﴾ (٣١) ـ آية ـ .

« ١ » سورة النساء : آية ١٩ .

القراءة ، والحجة :

قرأ نافع ، وأبو بكر ، عن عاصم : مدخلا ـ بفتح الميم ـ الباقون بضمها ، وهو الأقوى ، لأنه من ادخلوا والآخر جائز ، لأن فيه معنى : فيدخلون ، وليس كقول الشاعر :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا   بالخير صبحنا ربي ومسانا (١)

ويروى بفتح الميم فيها ، أنشده البلخي في البيت ، لأنه ليس فيه فعل ، ولكن قد حكي بالفتح على التشبيه بالأول ، ويحتمل أن يكون من قرأ بفتح الميم أراد : مكاناً كريماً ، كما قال : « ومقام كريم » (٢) وقرأ المفضل ، عن عاصم « يكفر » « ويدخلكم » بالياء فيها ، الباقون بالنون ، وهو الأجود ، لأنه وعد على وجه الاستئناف ، فالاحسن ألا يعلق بالأول من جهة ضمير الغائب ، واختاره الاخفش ، ومن قرأ بالياء رده إلى ذكر الله في قوله : « إن الله كان بكم رحيماً » .

المعنى :

والمعاصي وإن كانت كلها عندنا كبائر ، من حيث كانت معصية لله تعالى ، فانا نقول : إن بعضها أكبر من بعض ، ففيها إذاً كبير بالاضافة إلى ماهو أصغر منه . وقال ابن عباس : كلما نهى الله عنه فهو كبير . وقال سعيد بن جبير : كلما أوعد الله عليه النار فهو كبير ، ومثله قال أبو العالية ، ومجاهد ، والضحاك . وعند المعتزلة أن كل معصية توعد الله تعالى عليها بالعقاب ، أو ثبت ذلك عن النبي (ص) أو كان بمنزلة ذلك ، أو أكبر منه ، فهو كبير ، وما ليس ذلك حكمه فانه يجوز أن يكون صغيراً ، ويجوز أن يكون كبيراً ، ولا يجوز أن يعين الله الصغائر ، لأن في تعيينها الاغراء بفعلها ، فمن المعاصي المقطوع على كونها كبائر : قذف المحصنات ،

---

(١) قائله أمية بن أبي الصلت . ديوانه : ٦٢ ومعاني القرآن للفراء ١ : ٢٦٤ ، والخزانة ١ : ١٢٠ ، واللسان (مسى) .

(٢) سورة الشعراء : آية ٥٩ . وسورة الدخان : آية ٢٦ .

وقتل النفس التي حرم الله ، والزنا ، والربا ، والفرار من الزحف في قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، والضحاك ، ومثله عن أبي عبد الله (ع) ، وزاد : وعقوق الوالدين ، والشرك ، وإنكار الولاية . وقال ابن مسعود : كلما نهى الله عنه ، من أول السورة إلى رأس الثلاثين ، فهو كبير . وروي عن النبي (ص) أنه قال : عقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، كبير .

فعلى مذهب المعتزلة : من اجتنب الكبائر ، وواقع الصغائر ، فان الله يكفر الصغائر عنه ، ولا يحسن مع اجتناب الكبائر عندهم المؤآخذة بالصغائر ، ومتى آخذه بها كان ظالماً . وعندنا أنه يحسن من الله تعالى ان يؤآخذ العاصي بأي معصية فعلها ، ولا يجب عليه إسقاط عقاب معصية لمكان اجتناب ما هو أكبر منها ، غير أنا نقول : إنه تعالى وعد تفضلا منه أن من اجتنب الكبائر فانه يكفر عنه ما سواها ، بأن يسقط عقابها عنه تفضلا ، ولو أخذه بها لم يكن ظالماً ، ولم يعين الكبائر التي إذا اجتنبها كفر ما عداها ، لأنه لو فعل ذلك لكان فيه إغراء بما عداها ، وذلك لا يجوز في حكمته تعالى . وقوله : « إن تجتنبوا كبائر » معناه من تركها جانباً والمدخل الكريم : هو الطيب الحسن المكرم بنفي الآفات والعاهات عنه .

قوله تعالى :

﴿ وَلا تَتمنوا ما فَضَّلَ اللهُ بهِ بَعضَكمْ على بَعضٍ لِلرجالِ نَصيبٌ مِما اكْتسبوا وَلِلنساءِ نَصيبٌ مِما اكْتسبنَ وَاسْألوا اللهَ مِنْ فَضلهِ إنَّ اللهَ كانَ بكلِّ شَيءٍ عَليماً ﴾ (٣٢) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة :

قرأ ابن كثير ، والكسائي « وسلوا » بغير همزة ، وكذلك كلما كان أمر للمواجه في جميع القرآن ، الباقون بالهمزة ، ولم يختلفوا في : « وليسألوا ما انفقوا »(١)

(١) سورة الممتحنة : آية ١٠ .

لأنه أمر لغائب . قال أبو علي الفارسي · كلاهما جيد ، إن ترك الهمزة واثباتها .

النزول :

وقيل في سبب نزول هذه الآية أن أم سلمة قالت : (يارسول الله لا نغزو مع الرجال ، ولنا نصف الميراث ، ياليت كنارجالا ، فكنا نقاتل معهم) فنزلت هذه الآية ، في قول مجاهد . وقال الزجاج : قال الرجال : ليتنا كنا فضلنا في الآخرة على النساء ، كما فضلنا عليهن في الدنيا ، وبه قال السدي .

اللغة :

والتمني هو قول القائل : ليت كان كذا لمالم يكن ، وليت لم يكن كذا لما كان . وفي الناس من قال : هو معنى في القلب . وقال الرماني : هو ما يجب على جهة الاستمتاع به ، ومن قال : هو معنى في القلب قال : ليس هو من قبيل الشهوة ،ولا من قبيل الارادة ، لأن الارادة لا تتعلق إلا بما يصح حدوثه ، والتمني قد يتعلق بما مضى ، والشهوة أيضاً كالارادة في أنها لا تتعلق بما مضى .

المعنى :

وظاهر الخطاب يقتضي تحريم تمني ما فضل الله به بعضنا على بعض وقال الفراء : هو على جهة الندب والاستحباب ، والاول هو حقيقة التمني ، والذي قلناه هو قول أكثر المفسرين ، ووجه تحريم ذلك أنه يدعو الى الحسد ، وأيضاً فهو من دنايا الاخلاق ، وأيضاً فان تمني الانسان لحال غيره قد يؤدي الى تسخط ما قسم الله له ، ولايجوز لأحدأن يقول ليت مال فلان لي ، وإنما يحسن أن يقول: ليت مثله لي . وقال البلخي: لايجوز للرجل أن يتمنى أن كان امرأة ، ولا للمرأة أن تتمنى لوكانت رجلا ، بخلاف ما فعل الله ، لأن الله لا يفعل من الأشياء إلا ما هو أصلح ، فيكون قد تمنى ما ليس بأصلح ، أو ما يكون مفسدة . ويمكن أن يقال : إن ذلك يحسن بشرط أن لا يكون مفسدة ، كما يقول في حسن السؤال سواء .

وقوله : ﴿ وللرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ قيل في معناه أقوال :

أحدها ـ أن لكل واحد حظاً من الثواب على حسب ما كلفه الله من الطاعات بحسن تدبيره ، فمتى فعل ذلك استحق به علوّ المنزلة ، فلا تتمنوا خلاف هذا التدبير ، لما فيه من حرمان الحظ الجزيل .

الثاني ـ أن كل أحد إنما له جزاء ما اكتسب ، فلا يضيعه بتمني ما لغيره ، مما يؤدي إلى إبطال عمله ، فكأنه قيل : لا تضيع ما هو لك ، بتمني ما لغيرك .

والثالث ـ أن لكل فريق من الرجال والنساء نصيباً مما اكتسب من نعيم الدنيا ، بالتجارات والزراعات وغير ذلك من أنواع المكاسب ، فينبغي أن يقنع ويرضى بما قسم له . وروي عن ابن عباس أنه قال : ذلك في الميراث ، للرجال نصيب منه ، وللنساء نصيب منه .

والأجوبة الأولى أقرب ، لأن الميراث ليس مما يكتسبه الرجال والنساء ، وإنما هو شيء يورثهم الله تعالى ، والآية تضمنت أن لهم نصيباً مما اكتسبوا ، وذلك لا يليق إلا بما تقدم .

وقوله : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ معناه : إن احتجتم إلى ما لغيركم ، فاسألوا الله أن يعطيكم مثل ذلك من فضله ، بشرط أن لا يكون فيه مفسدة لكم ولا لغيركم ، لأن المسألة لا تحسن إلا كذلك ، وقال سعيد بن جبير : واسألوا الله العبادة ، وبه قال السدي ، ، ومجاهد .

وقوله : ﴿ إن الله كان بكل شيء عليماً ﴾ معناه : إنه قسم الأرزاق على ما علمه من الصلاح للعباد ، بدلا من الفساد ، فينبغي أن ترضوا بما قسمه ، وتسألوه من فضله ، غير منافسين لغيركم في عطيته .

قوله تعالى :

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ

عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾

(٣٣) _ آية بلا خلاف _ .

القراءة ، والإعراب ، والحجة :

قرأ أهل الكوفة « عقدت » بغير ألف ، الباقون بألف ، فمن قرأ باثبات الالف ، قال : لأن المعاقدة تدل على عقد الحلف باليمين من الفريقين ، وقال بعضهم إنه يعني عن ذلك جميع الأيمان ، قال الرماني : هذا خطأ ، لأنها قد تجمع لردها على أحد الفريقين الحالف بها ، قال أبو علي الفارسي : الذكر الذي يعود من الصلة إلى الموصول ينبغي أن يكون منصوباً ، فالتقدير : والذين عاقدتم أيمانكم ، فجعل الأيمان في اللفظ هي المعاقدة ، والمعنى على الحالفين الذين هم أصحاب الأيمان ، فالمعنى : والذين عاقدت حلفهم أيمانكم ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، فعاقدت أشبه بهذا المعنى ، لأن لكل نفس من المعاقدين يميناً على المحالفة . ومن قال : « عقدت أيمانكم » كان المعنى : عقدت حلفهم أيمانكم ، فحذف الحلف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، والأولون حملوا الكلام على المعنى ، حيث كان من كل واحد من الفريقين يمين ، ومن قال : « عقدت » حمل على اللفظ ، لفظ الأيمان ، لأن الفعل لم يسند إلى أصحاب الأيمان في اللفظ ، وإنما أسند إلى الأيمان .

المعنى واللغة :

ومعنى الآية : جعلنا الميراث لكل من هو مولى الميت ، والموالي المذكورون في الآية ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : هم العصبة ، وقال السدي : هم الورثة ، وهو أقواها ، والتقدير ولكلكم جعلنا ورثة مما ترك الوالدان والأقربون ، ثم استأنف : والذين .

وأصل الموالي من ولي الشيء يليه ولاية ، وهو الاتصال للشيء بالشيء ، من غير فاصل ، والمولى على وجوه : فالمولى المعتق ، والمولى المعتق ، والمولى العصبة ،

والمولى إبن العم ،والمولى الحليف ، والمولى الولي ، والمولى الأولى بالشيء والأحق. فالمعتق مولي النعمة بالعتق ، والمعتق لأنه مولى النعمة ، والمولى الورثة ، لأنهم أولى بالميراث ، والمولى الحليف ، لأنه يلي المحالف أمره بعقد اليمين ، والمولى إبن العم ، لأنه يلي النصرة لتلك القرابة ، والمولى الولي ، لأنه يلي بالنصرة . وفي التنزيل : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم ﴾ (١) أي لا ناصر لهم ، وهو ناصر المؤمنين ، والمولى السيد . لأنه أولى بمن يسوده . قال الاخطل :

فاصبحت مولاها من الناس كلهم وأحرى قريش أن تهاب وتحمدا

والمولى الأولى والأحق ، ومنه قوله (ع) : (أيما امرأة نكحت بغير إذن مولاها فنكاحها باطل) أي بغير إذن من هو أولى بها وأحق . وقال الفضل ابن العباس في المولى بمعنى ابن العم :

مهلا بني عمنا مهلا موالينا لاتظهرون لنا ما كان مدفونا(٢)

والمراد بقوله : ﴿ والذين عاقدت أيمانكم ﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، وعامر ، والضحاك : إنهم الحلفاء .

الثاني ـ قال الحسن ، وسعيد بن المسيب : هم رجال كانوا يتبنون ، على عادة الجاهلية . ليجعل لهم نصيب من الوصية ، ثم هلكوا ، فذهب نصيبهم بهلاكهم .

الثالث ـ في رواية أخرى عن ابن عباس ، وابن زيد انهم قوم آخى بينهم رسول الله (ص) . والاول أقوى وأظهر في أقوال المفسرين .

وقال أبو مسلم : أراد بذلك عقد المصاهرة والمناكحة . وقال أبو علي : الحليف لم يؤمر له بشيء أصلا ،لأنه عطف على قوله « ترك الوالدان والأقربون» أي : وترك الذين عاقدت أيمانكم ، فآتوا كلا نصيبه من الميراث . وهذا ضعيف لأنه

« ١ » سورة محمد : آية ١١ .

« ٢ » مجاز القرآن لابي عبيدة ١ : ١٢٥ والكامل للمبرد ٢ : ٢٧٩ والحماسة للبحتري ١ : ١٢١ واللسان (ولي) وقد روي :

لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

يفيد التكرار ، لأن قوله . « الوالدان والأقربون » عام في كل أحد . وعلى ما قال المفسرون، يكون قوله : ﴿ ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان ﴾ إذا كانوا مناسبين له ، ثم استأنف حكم الحلفاء ، فقال: «فآتوهم نصيبهم». فان قيل: بم يتصل قوله: « مما ترك الوالدان » وما العامل فيه ؟ قيل فيه قولان :

أحدها - يتصل بـ «موالي» على جهة الصفة، والعامل الاستقرار ، كأنه قال : موالي مما خلف الوالدان والأقربون ، والذين عاقدت أيمانكم من الورثة .

الثاني - يتصل بمحذوف ، والتقدير : موالي يعطون مما ترك الوالدان والأقربون ، والذين عاقدت أيمانكم من الميراث . وقال أبو علي الجبائي تقديره : ولكل شيء مما ترك الوالدان والأقربون وارث من الميراث . قال الرماني : وهذا لا يجوز ، لأنه فصل بين الصفة والموصوف بما عمل في الموصوف ، نحو : لكل رجل - جعلت درهماً - فقير .

والنصيب الذي أمر به للحليف قيل فيه قولان :

أحدها - قال ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وعامر ، والضحاك : انه نصيب على ما كانوا يتوارثون بالحلف في الجاهلية ، ثم نسخ ذلك بقوله : « وألوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » .

الثاني - في رواية أخرى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، والسدي : انه النصيب من النصرة والنصيحة دون الموارثة ، فعلى هذا الآية غير منسوخة . وروي عنه أنه قال : لا حلف في الاسلام ، فأما ما كان في الجاهلية فلم يزده الاسلام إلا شدة . وقوله : ﴿ إن الله كان على كل شيء شهيداً ﴾ أي : شاهداً ، وذلك دال على أنه عالم به ، لأنه لا يشهد إلا بما علم .

قوله تعالى :

﴿ الرِّجالُ قَوّامُونَ على النساءِ بما فَضَّلَ اللهُ بعضَهم على بعضٍ وبما انفقوا مِنْ أموالِهمْ فالصالحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلغيبِ بما حفظَ اللهُ واللاتي تخافونَ نُشوزَهُنَّ فَعِظوهُنَّ واهجروهُنَّ في المضاجعِ

وَاضرِبُوهُنَّ فانْ أطعنكمْ فلا تَبغوا عليهنَّ سَبيلاً ـ إنَّ الله كانَ عَلياً كبيراً ﴾ (٣٤) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة والنزول :

قرأ أبو جعفر المدني : « بما حفظ الله » ـ بالنصب ـ ومعناه : بالذي حفظ الله ، ويحتمل أن يكون معناه : بحفظ الله وهو ضعيف ، لأنه يكون حذف الفاعل وهو ضعيف .

وسبب نزول هذه الآية ما قاله الحسن ، وقتادة ، وابن جريج ، والسدي : أن رجلا لطم امرأته فجاءت إلى النبي (ص) تلتمس القصاص ، فنزلت الآية : « الرجال قوّامون على النساء » .

المعنى واللغة :

والمعنى : ﴿ الرجال قوّامون على النساء ﴾ بالتأديب والتدبير لما «فضل الله» الرجال على النساء في العقل والرأي . وكان الزهري يقول : ليس بين الرجل وامرأته قصاص فيما دون النفس . ويقال : رجل قيم ، وقوّام ، وقيام . ومعناه : إنهم يقومون بأمر المرأة بالطاعة لله ولهم . وقوله : ﴿ فالصالحات قانتات ﴾ قال قتادة : وسفيان : معنى ﴿ قانتات ﴾ مطيعات لله ولأزواجهن . وأصل القنوت دوام الطاعة ، ومنه القنوت في الوتر لطول القيام . وقوله : « حافظات للغيب بما حفظ الله » معناه : قال قتادة ، وعطاء ، وسفيان : حافظات لما غاب عنه أزواجهن من ماله ، وما يجب من رعايته وحاله ، وما يلزم من صيانتها نفسها له ، « وبما حفظ الله » قال عطاء ، والزجاج : أي بما حفظهن الله في مهورهن ، وألزم الزوج النفقة عليهن . وقال بعضهم : معناه ، والله أعلم : بالشيء الذي يحفظ أمر الله ، ودين الله . وقوله : « واللاتي تخافون » قيل فيه قولان :

أحدها ـ تعلمون ، لأن خوف النشز للعلم بموقعه ، فلذلك جاز أن توضع

مكان تعلم ، كما قال الشاعر :

ولا تدفنني بالفلاة فانني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها(١)

وقال آخر :

أتاني كلام عن نصيب يقوله وما خفت ياسلام انك عائبي (٢)

وقال الفراء : معناه : ما ظننت ، ومنه قوله (ص) : أمرت بالسواك حتى خفت أن أدرد .

الثاني ـ الخوف الذي هو خلاف الأمن ، كأنه قال : تخافون نشوزهن لعلمكم بالأحوال المؤذنة به ، ذكره محمد بن كعب . ومعنى النشوز ههنا : قال ابن عباس ، والسدي ، وعطاء ، وابن زيد : انه معصية الزوج ، وأصله الترفع على الزوج بخلافه ، مأخوذاً من قولهم : هو على نشز من الارض ، أي ارتفاع ، يقال : نشزت المرأة تنشز وتنشز ، قرىء بها : « وإذا قيل انشزوا فانشزوا » (٣) فالنشوز يكون من قبل المرأة خاصة ، والشقاق منهما . وقوله : « فعظوهن » أي خوفوهن بالله ، فان رجعن وإلا فاهجروهن في المضاجع . وقيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، والسدي : هجر الكلام . وقال سعيد بن جبير : هو هجر الجماع . وقال مجاهد ، والشعبي ، وابراهيم : هو هجر المضاجعة ، وهو قول أبي جعفر (ع) . وقال : يحول ظهره إليها . وقال بعضهم : « اهجروهن » اربطوهن بالهجار ، من قولهم : هجر الرجل البعير إذا ربطه بالهجار ، وقال امرؤ القيس :

رأت هلكاً بنجاف الغبيط فكادت تجد لذاك الهجارا (٤)

« ١ » انظر ٢ : ٢٤٤ تعليقة ٢ .

« ٢ » انظر ٢ : ١٨٩ ، ٢٤٤ .

« ٣ » سورة المجادلة : آية ١١ .

« ٤ » ديوانه : ١١١ واللسان (هلك) . الهلاك : الفراغ . نجاف الغبيط : مدرعة البرذعة. الهجار : حبل يسوى له عروتان في طرفيه ثم تشد احداهما في رسغ رجل الفرس وتزر وكذلك الاخرى .

وهذا تعسف في التأويل ، ويضعفه قوله : « في المضاجع » ولا يكون الرباط في المضجع . وأما الضرب فانه غير مبرّح بلا خلاف قال أبو جعفر (ع): هو بالسواك . والمضاجع جمع مضجع ، وأصله الاستلقاء ، يقال : ضجع ضجوعاً واضطجع اضطجاعاً إذا استلقى للنوم ، وأضجعته إذا وضعت جنبه بالارض ، فكل شيء أملته فقد أضجعته . وقوله : ﴿ فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن ﴾ أي لا تطلبوا ، تقول : بغيت الضالة إذا طلبتها ، قال الشاعر يصف الموت :

بغاك وما تبغيه حتى وجدته كأنك قد واعدته أمس موعدا(١)

وأصل الهجر الترك عن قلى ، تقول : هجرت فلاناً أي تركت كلامه عن قلى ، والهجر القبيح من الكلام ، لأنه مهجور ، والهجار حبل يشد به البعير ، لأنه يهجر به التصرف ، والهاجرة نصف النهار ، لأنه وقت يهجر فيه العمل . وقوله : « إن الله كان علياً كبيرا » أي متعالياً عن أن يكلف إلا بالحق ، ومقدار الطاقة ، وقد قيل : معناه إنه قادر عليه ، قاهر له ، وليس المراد به علوّ المكان ، لأن ذلك يستحيل عليه تعالى . والكبير السيد ، يقال : لسيد القوم كبيرهم ، والمعنى : فان استقمن لكم فلا تطلبوا العلل في ضربهن ، وسوء معاشرتهن ، فان الله تعالى قادر على الانتصاف لهن .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾ (٣٥) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى واللغة

قوله : ﴿ وإن خفتم ﴾ في معناه قولان :

«١» قائله سحيم بن الحسحاس ديوانه: ٤١ وروايته (الا وجدته) بدل (حتى وجدته).

أحدها ـ إن علمتم .

الثاني ـ الخوف الذي هو خلاف الأمن ، وهو الأصح ، لأنه لو علم الشقاق يقيناً لم يحتج إلى الحكمين ، فان أريد به الظن كان قريباً مما قلناه . والشقاق الخلاف ، والعداوة ، واشتقاقه من الشق ، وهو الجزء الباين ، ومنه إسم المتشاقين ، لأن كل واحد منهما في شق أي في ناحية ، ومنه المشقة في الأمر ، لأنه يشق على النفس ، فأمر الله متى خيف ذلك بين الزوجين أن يبعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، والحكم القيم بما يسند إليه .

والمامور ببعث الحكمين قيل فيه قولان :

أحدها ـ قال سعيد بن جبير ، والضحاك ، وأكثر الفقهاء ، وهو الظاهر في اخبارنا : انه السلطان الذي يترافعان إليه .

والثاني ـ قال السدي : انه الرجل والمرأة ، وقيل : أيهما كان ناب عن الآخر ، وهو اختيار الطبري . واختلف الفقهاء في الحكمين هل هما وكيلان ، أو هما حكمان ، فعندنا أنهما حكمان ، وقال قوم : هما وكيلان ، واختلفوا هل للحكمين أن يفرقا بالطلاق إن رأياه أم لا ؟ فعندنا ليس لهما ذلك إلا بعد أن يستأمراها ، أو كان اذن لهما في الأصل في ذلك ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، عن أبيه . ومن قال : هما وكيلان ، قال : لهما ذلك ، ذهب إليه سعيد بن جبير ، والشعبي ، والسدي ، وابراهيم ، وشريح ، ورووه عن علي (ع) .

وقوله : ﴿ إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ معناه يوفق الله بينهما ، والضمير في بينهما عائد على الحكمين ، والمعنى : إن أرادا إصلاحاً في أمر الزوجين يوفق الله بينهما . وبه قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والسدي . وأصل التوفيق الموافقة ، وهي المساواة في أمر من الأمور . والتوفيق هو اللطف الذي يتفق عنده فعل الطاعة ، والتوفيق بين نفسين هو الاصلاح بينهما ، والاتفاق في الجنس والمذهب المساواة بينهما ، والاتفاق في الوقوع كرمية من غير رام لمساواتها نادراً .

وقوله : ﴿ إن الله كان عليماً خبيراً ﴾ يعني بما يريد الحكمان من الاصلاح

أو الافساد . وقيل معناه أنه عالم بما تعبدكم به ، لعلمه بما فيه صلاحكم في دينكم ودنياكم . « وشقاق بينهما » إنما أضافه إلى البين لأن البين قد يكون اسماً كما قال : « لقد تقطع بينكم » (١) ممن قرأ بالرفع .

قوله تعالى :

﴿ وَاعبدُوا اللهَ وَلا تُشرِكوا بِهِ شَيئاً وَبالوالدينِ إحساناً وَبذي القربى وَاليتامى وَالمساكينِ وَالجارِ ذي القربى وَالجارِ الجُنبِ وَالصاحبِ بالجنبِ وَابنِ السبيلِ وَما مَلكتْ أيمانكمْ إنَّ اللهَ لا يُحبُّ مَنْ كانَ مُختالاً فَخوراً ﴾ (٣٦) ـ آية ـ .

المعنى :

هذا خطاب لجميع المكلفين ، أمرهم الله بأن يعبدوه وحده ، ولا يشركوا بعبادته شيئاً سواه « وبالوالدين إحساناً » نصب على المصدر ، وتقديره : وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً ، ويحتمل أن يكون نصباً على تقدير : واستوصوا بالوالدين إحساناً ، لأن قوله : « اعبدوا الله » بمنزلة استوصوا بعبادة الله ، وأن تحسنوا إلى ذي قرباكم ، وإلى اليتامى الذين لا أب لهم ، والمساكين وهم الفقراء ، والجار ذي القربى ، يعني الجار القريب .

اللغة :

وأصل الجار العدول ، جاوره مجاورة وجواراً ، فهو مجاور له وجار له ، لعدوله إلى ناحيته في مسكنه ، والجور الظلم ، لأنه عدول عن الحق ، ومنه جار السهم إذا عدل عن قصده ، وجار عن الطريق إذا عدل عنه ، واستجار بالله ، لأنه

« ١ » سورة الانعام : آية ٩٤ .

يسأله المدول به عن النار، وجوار الذمة، لأنه عدول بها إلى ناحية صاحبها.

«والجار الجنب» أصل الجنب التنحية، جنبت فلاناً عن كذا فتجنب أي نحيته، ومنه قوله: «واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام» (١) والجانبان الناحيتان، لتنحي كل واحدة عن الأخرى، ومنه جنب الانسان وكل حيوان، والاجتناب الترك للشيء، والجار الجنب معناه الغريب الأجنبي، لتنحيه عن القرابة، قال علقمة بن عبدة:

فلا تحرمني نائلا عن جنابة فاني امرؤ وسط القباب غريب (٢)

أي عن غربة. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد: الجار ذي القربى القريب في النسب، والجار الجنب: الغريب، أي عن غربة. وروي عن النبي (ص) أنه قال: الجيران ثلاثة، جار له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الاسلام. وجار له حقان: حق الجوار، وحق الاسلام. وجار له حق الجوار، المشرك من أهل الكتاب.

المعنى واللغة:

«والصاحب بالجنب» قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها ـ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والضحاك: هو الرفيق.

الثاني ـ قال عبد الله بن مسعود، وعلي (ع) وابراهيم، وابن أبي ليلى: الزوجة.

الثالث ـ قال ابن زيد، وابن عباس،، في رواية أخرى عنه: إنه المنقطع اليك رجاء رفدك. وقيل إنه في جميع هؤلاء، وهو أعم فائدة.

وقال الزجاج. الجار ذي القربى الذي يقاربك ويعرفك وتعرفه، والجـــار

(١) سورة ابراهيم: آية ٣٥.

(٢) ديوانه: ١٠٧ والمفضليات ٧٨٩ والكامل المبرد ٤٣٧، واللسان (جنب).

الجنب البعيد . وروي أن حدّ الجوار إلى أربعين داراً. وروي إلى أربعين ذراعاً.

﴿ وابن السبيل ﴾ معناه صاحب الطريق ، وقيل في المراد به ههنا قولان :

أحدهما ـ قال مجاهد ، والربيع : إنه المسافر .

الثاني ـ قال قتادة ، والضحاك : انه الضيف ، وقال أصحابنا : يدخل فيه الفريقان . « وما ملكت أيمانكم » يعني المماليك من العبيد والاماء ، أمر الله بالاحسان إلى هؤلاء أجمع . وقوله : « إن الله لا يحب من كان مختالا » فالمختال الصلف التياه ، والاختيال هو التطاول ، وإنما ذكره الله ههنا وذمه ، لأنه أراد بذلك من يختال فيأنف من قراباته وجيرانه إذا كانوا فقراء ، لكبره وتطاوله ، فأما الاختيال في الحرب فممدوح ، لأن في ذلك تطاولا على العدو واستخفافاً به .

وأصل المختال من التخيل ، وهو التصور ، فالمختال لأنه يتخيل بحاله مرح البطر ، ومنه الخيل ، لأنها تختال في مشيها ، أي تتبختر، والخيال ، لأنه يتخيل به صاحبه ، والأخيل الشقراق ، لأنه يتخيل في لونه الخضرة من غير خلوصها ، والخول الحشم ، وخلته راكباً خيلاناً أي تخيلته ، والخال المختال ، والخال أخ الأم ، « والفخور » هو الذي يعدد مناقبه كبراً وتطاولا ، وأما الذي يعددها اعترافا بالنعم فيها فهو شكور غير فخور . وروي عن المفضل عن عاصم أنه قرأ : « والجار الجَنب » ـ بفتح الجيم ـ قال أبو الحسن: هو لغة في الجنب ، قال الراجز:

الناس جنب والامير جنب

يعني ناحية : قال أبو علي الفارسي : يحتمل أمرين :

أحدهما ـ أن يريد الناحية ، والتقدير : ذي الجنب ، فحذف المضاف ، لأن المعنى مفهوم ، لأن الناحية لا تكون هي الجار .

والثاني ـ أن يكون وصفاً ، مثل : ضرب وندب وفسل ، فهذا وصف جرى على موصوف .

قوله تعالى :

﴿ الَّذينَ يَبخلونَ وَيأمُرونَ النّاسَ بالبُخلِ وَيكتمونَ ما آتاهمُ

اللهُ مِنْ فَضلِهِ وَاعتدنا للكافرينَ عذاباً مُهيناً ﴾ (٣٧) - آية - .

القراءة :

قرأ حمزة ، والكسائي ههنا وفي الحديد : « بالبخل » بفتح الباء والخاء . الباقون بضم الباء وتسكين الخاء . فمن نصب قال : لأنه مصدر بخل يبخل بخلا، الباب كله هكذا ، ومن اختار الضم وتسكين الخاء فلأنه نقيض الجود فحمل على وزنه ، فهما لغتان . وحكي لغة ثالثة « بالبخل » - بفتح الباء وسكون الخاء .

الاعراب :

وقوله : « الذين » يحتمل أن يكون موضعه نصباً من وجهين ، ورفعاً من وجهين ، فأحد وجهي النصب أن يكون بدلا من « من » في قوله : « لا يحب من كان » . والثاني - على الذم . وأحد وجهي الرفع - على الاستئناف بالذم ، ويكون خبره «إن الله لا يظلم » (١) والآية الثانية عطفاً عليها . والوجه الثاني - على البدل من الضمير في « فخور» . والبخل أصله مشقة الاعطاء .

المعنى واللغة :

وقالوا في معناه ههنا قولان :

أحدها - أنه منع الواجب ، لأنه إسم ذم لا يطلق إلا على مرتكب كبيرة .

والثاني - هو منع مالا ينفع منعه ، ولا يضر بذله ، ومثله الشح ، وضده الجود ، والأول أليق بالآية ، لأنه تعالى نفى محبته عمن كان بهذه الصفة ، وذلك لا يليق إلا بمنع الواجب . قال الرماني : معناه منع الاحسان لمشقة الطباع ، ونقيضه الجود وهو بذل الاحسان لانتفاء مشقة الطباع ، وقال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي، وابن زيد : إن الآية نزلت في اليهود ، إذ بخلوا باظهار ما علموه و كتموه من صفة محمد (ص) . وقال الجبائي ، والبلخي : الآية في كل من كان بهذه الصفة،

---

(١) سورة النساء : آية ٤ .

وإنما ذكروا بالكفر لكتمانهم نعمة الله عليهم. والآمر بالبخل يتناوله الوعيد، كما أن من فعل البخل يتناوله الوعيد. وقيل: معنى «يكتمون ما آتاهم الله من فضله» يجحدون اليسار والثروة اعتذاراً في البخل، وقوله: «وأعتدنا» قد فسرناه فيما مضى وهو أن معناه أعددناه، وجعلناه ثابتاً لهم «وللكافرين» يعني الجاحدين ما أنعم الله عليهم «عذاباً مهيناً» أي يهينهم ويذلهم.

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤمِنُونَ بِاللهِ ولا بِاليَومِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً﴾ (٣٨)

ـ آية بلا خلاف ـ.

الاعراب:

قوله: «والذين» عطف على «الذين» في الآية الأولى. واعرابه يحتمل ما قلناه في الآية الأولى سواء. وقال الزجاج وغيره: المعني بهذه الآية المنافقون. وقال مجاهد: المعني بها اليهود، والأول أقوى وأظهر، لأن الرياء ضرب من النفاق وواو العطف يقوي ذلك، لأنه لو أراد الموصوفين في الآية الأولى لقال: «الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس»، مع أنه قد ورد عطف الصفات بالواو لموصوف واحد على ما بيناه فيما مضى، غير أن الأجود ما قلناه.

المعنى واللغة:

فذم الله تعالى بهذه الآية من ينفق ماله رئاء الناس دون أن ينفقه لوجهه وطلب رضاه، ولا يؤمن بالله أي لا يصدق به، «ولا باليوم الآخر» الذي فيه الثواب والعقاب. ثم قال: «ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً» معناه من قبل من الشيطان، وأطاعه فيما يدعوه إليه فبئس القرين قرينه. والقرين أصله

الاقتران، ومنه قرن الثور لاقتران بعض ببعض، والقرن أهل العصر من الناس، وقرنة الشيء حرفه، والقرن المقاوم في الحرب، «وما كنا له مقرنين» (١) أي مطيقين، والقرين الصاحب المألوف. قال عدي بن زيد:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدي (٢)

ويمكن الانسان الانفكاك من مقارنة الشيطان بالمخالفة له، فلا يعتد بالمقارنة. وقال أبو علي: لا يمكن ذلك، لأنه يقرن به الشيطان في النار فلا يمكنه الانفكاك منه، وقوله: «فساء قريناً» نصب على التفسير، كقوله: «ساء مثلا»، وتقديره: ساء مثلا مثل الذين، وتقول: نعم رجلا، وتقديره نعم الرجل رجلا.

قوله تعالى:

﴿ وَماذا عَليهِمْ لو آمنوا باللهِ وَاليومِ الآخرِ وَانفقوا ممـا رَزَقهمُ اللهُ وَكانَ اللهُ بِهمْ عَليماً ﴾ (٣٩) - آية واحدة بلا خلاف -.

المعنى والاعراب:

معنى قوله: «وماذا عليهم..» الآية الاحتجاج على المتخلفين عن الايمان بالله واليوم الآخر بما عليهم فيه ولهم، وذلك أنه يجب على الانسان أن يحاسب نفسه فيما عليه وله، فاذا ظهر له ما عليه في فعل المعصية من استحقاق العقاب اجتنبها، وما له في تركها من استحقاق الثواب عمل في ذلك من الاختيار له، أو الانصراف عنه. وفي ذلك دلالة على بطلان قول المجبرة في أن الكافر لا يقدر على الايمان، لأن الآية نزلت على أنه لا عذر للكفار في ترك الايمان، ولو كانوا غير قادرين لكان فيه أوضح العذر لهم، ولما جاز أن يقال: «وماذا عليهم لو آمنوا بالله» لأنهم لا يقدرون عليه، كما لا يجوز أن يقال لأهل النار: ماذا عليهم لو خرجوا منها

---

(١) سورة الزخرف: آية ١٣.

(٢) ديوانه في شعراء الجاهلية: ٤٦٦، وقد شاعت روايته على ألسن الناس:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

إلى الجنة ، من حيث لا يقدرون عليه ، ولا يجدون السبيل إليه ، ولذلك لا يجوز أن يقال للعاجز : ماذا عليه لو كان صحيحاً ، ولا للفقير : ماذا عليه لو كان غنياً .

وموضع « ذا » يحتمل من الاعراب وجهين :

أحدها ـ أن يكون رفعاً ، لأنه في موضع الذي ، وتقديره : ما الذي عليهم لو آمنوا .

الثاني ـ لا موضع له ، لأنه مع (ما) بمنزلة إسم واحد ، وتقديره : وأي شيء عليهم لو آمنوا بالله ، ففي الآية تقريع على ترك الايمان بالله واليوم الآخر ، وتوبيخ على الانفاق مما رزقهم الله في غير أبواب البر وسبيل الخير على وجه الاخلاص ، دون الرياء . وقوله ﴿ وكان الله بهم عليماً ﴾ معناه ههنا ان الله بهم عليم ، يجازيهم بما يسرون من قليل أو كثير ، فلا ينفعهم ما ينفقونه على جهة الرياء .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (٤٠) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة ، والحجة ، والاعراب :

قرأ : ﴿ وإن تك حسنة ﴾ بالرفع ابن كثير ، ونافع . الباقون بالنصب ، فمن نصب معناه : وإن تك زنة الذرة حسنة ، أو : وإن تك فعلته حسنة ، ومن رفع ذهب إلى أن كان تامة ، وتقديره : وإن تحدث حسنة . وأصل (تك) تكون ، فحذفت الضمة للجزم ، والواو لسكونها وسكون النون ، لكثرة الاستعمال ، وقد ورد القرآن باثباتها ، قال الله تعالى : ﴿ إن يكن غنيــاً أو فقيراً ﴾ (١) فاجتمع في النون أنها ساكنة وأنها تشبه حروف اللين ، فحذفت لكثرة الاستعمال ، كما قالوا لا أدر ، ولم ابل ، والأجود : لم أبال ، ولا أدري « ويؤت » بغير ياء ، سقطت الياء

« ١ » سورة النساء : ١٣٤ .

للجزم بالعطف على ﴿ يضاعفها ﴾ . ولدن في موضع خفض . وفيها لغات ، يقال : لدُ ولدن ولداً ولدا ، والمعنى واحد ، ومعناه من قبله ، ولدن لما يليك ، وعند يكون لما يليك ولما بعد منك ، تقول : عندي مال وإن كان بينك وبينه بعد ، فإذا أضفته إلى نفسك فقلت : من لدني ومن لدنا زدت فيها نوناً أخرى ، وأدغموا الأولى منها ليسلم سكون النون ومثله قالوا في (من) ، إذا أضافوه قالوا : مني ومنا . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : ﴿ يضعفها ﴾ مشدده ، الباقون : ﴿يضاعفها﴾ من المضاعفة . والظلم هو الألم الذي لا نفع فيه يوفي عليه ، ولا دفع مضرة أعظم منه عاجلا ولا آجلا ، ولا هو مستحق ، ولا هو واقع على وجه المدافعة .

اللغة :

وأصله وضع الشيء في غير موضعه ، وقيل : أصله الانتقاص ، من قوله : ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ (١) أي لم ينقص . والظلم انتقاص الحق ، والظلمة انتقاص النور بذهابه ، والظلم الثلج ، لانتقاصه بالجمود ، وشبه به ماء الأسنان ، وفي المثل (من أشبه أباه فما ظلم) ، وسقاء مظلوم إذا شرب منه قبل أن يدرك ، والظليم ذكر النعام ، لأنه يضع الشيء في غير موضعه من حيث (٢) يحضن غير بيضه . وأصل المثقال الثقل ، فالمثقال مقدار الشيء في الثقل ، والثقل ما ثقل من متاع السفر ، والمثقل الذي أثقله المرض ، والثقيل البطيء في عمله ﴿ مثقال ذرة ﴾ : مقدار ذرة في الزنة . والذرة النملة الحمراء في قول ابن عباس ، وابن زيد ، وهي أصغر النمل ، وهي من ذررت الشيء أذره ذرّاً إذا بدّدته سحوقاً .

المعنى :

وفي الآية دلالة على أن منع الثواب ظلم لأنه لو لم يكن ذلك ظلماً لما كان لهذا الكلام معنى على هذا الترتيب . وفيه أيضاً دلالة على أنه قادر على الظلم ، لأنها

« ١ » سورة الكهف : آية ٣٣ .

« ٢ » (من حيث) ساقطة من المطبوعة .

صفة تعظيم وتنزيه عن فعل ما يقدر عليه من الظلم ، ولو لم يكن قادراً عليه لما كان فيه مدحة ، غير أنه وإن كان قادراً عليه فانه لا يفعله لعلمه بقبحه ، وبأنه غني عنه ، ولأنه لو فعل لكان ظالماً ، لأن الاشتقاق يوجب ذلك وذلك منزه عنه تعالى .

قوله تعالى :

﴿ فَكيفَ إذا جِئنا مِنْ كلِّ أمةٍ بشهيدٍ وَجِئنا بكَ على هؤلاءِ شَهيداً ﴾ (٤١) ـ آية ـ .

الاعراب :

« كيف » لفظها لفظ الاستفهام ، ومعناها ههنا التوبيخ ، والتقدير فكيف يكون حال هؤلاء يوم القيامة ، وحذف لدلالة الكلام عليه . والعامل في « كيف » الابتداء المحذوف ، لأن التقدير : كيف حالهم ، على ما بيناه . وإنما جاز خروج كيف عن الاستفهام إلى التوبيخ لأنه يقتضي إقرار العبد على نفسه بما كان من قبيح عمله ، كما يقتضي الجواب في الاستفهام ، ولا يجوز أن يكون العامل في « كيف » « جئنا » لاضافة « إذا » إليه والمضاف إليه لا يعمل فيما قبله كما لا تعمل الصلة فيما قبل الموصول ، لأنه من تمام الاسم .

المعنى :

والشهادة تقع يوم القيامة من كل نبي بأنه بلغ قومه ما تقوم به عليهم الحجة ، وأنه أدى ما تقوم به الحجة عليها من مراد الله ، هذا قول عبد الله ، وابن جريج ، والسدي . وقال الجبائي : يشهد عليهم باعمالهم . وقال الزجاج ، والطبري : يشهد لهم وعليهم بما عملوه ، ووجه حسن الشهادة ما في ذلك من اقامة الحجة عليهم ، فيستجيبون عند تصور تلك الحال من خزي ذلك المقام ، وفي ذلك أكبر الاتعاظ . وروي عن ابن مسعود أنه قرأ على النبي (ص) سورة النساء فلما بلغ « فكيف

إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » فاضت عيناه وقوله : « وجئنا بك » يعني محمداً (ص) « على هؤلاء » يعني على أمته . وقال السدي : إن أمة نبينا تشهد للأنبياء بالأداء والتبليغ ، ويشهد النبي لأمته بتصديقهم في تلك الشهادة ، كما قال : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (١) .

قوله تعالى :

﴿ يَومَئذٍ يَودُّ ٱلذينَ كفروا وَعَصوا الرَّسولَ لو تُسوَّى بهم الارضُ وَلا يَكتمونَ اللهَ حَديثاً ﴾ (٤٢) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة ، والحجة :

قرأ حمزة ، والكسائي : « تسوى » مفتوحة التاء خفيفة السين . وقرأ نافع وابن عامر ـ بفتح التاء وتشديد السين ـ الباقون بضم التاء وتخفيف السين . وقال الطبري : الاختيار فتح التاء ، لموافقته لقوله : « ياليتني كنت تراباً » (٢) ولم يقل : كوّنت . وقال الرماني هذا ليس بشيء ، لأن التمني فيه معنى الفعل ، وبضم التاء أبين وليس كذلك الآخر ، لأنه بمنزلة التمني لأن يكون معدوماً لم يوجد قط . قال أبو علي : من قرأ بضم التاء أراد : لو جعل هو والأرض سواء ، ومن فتح التاء أراد : تتسوى ، وإنما أدغم التاء في السين ، قال : وفي هذا تجوز ، لأن الفعل مسند إلى الأرض وليس ذلك المراد ، لأنه لا فائدة لهم أن تصير الأرض مثلهم . وإنما ودّوا أن يتستوّوا هم بما لا يتسوى بهم ، ومن فتح التاء وخفض السين أراد هذا ، غير أنه حذف إحدى التائين وهي الأصلية دون التي للمضارعة .

المعنى :

ومعنى الآية الاخبار من الله تعالى أن الكفار يوم القيامة يودون ـ لعلمهم

---

(١) سورة البقرة : آية ١٤٣ . (٢) سورة النبأ : آية ٤٠ .

بما يصيرون إليه من العذاب والخلود في النار ـ أنهم لن يبعثوا أو أنهم كانوا والارض سواء . وروي في التفسير أن البهائم يوم القيامة تصير ترابا ، فيتمنى عند ذلك الكفار أنهم صاروا كذلك ترابا ،وهذا لايجيزهإلا من قال : إن العوض منقطع ، فأما من قال :هو دائم لم يصحح هذا الخبر . وقوله : « وعصوا الرسول » ضموا الواو لأنها واو الجمع ، وحركت لالتقاء الساكنين . وقوله : « لو استطعنا » كسرت على أصل الحركة ، لالتقاء الساكنين . وإنما وجب لواو الجمع الضم لأنها لما منعت مالها من ضم ما قبلها ، جعلت الضمة عند الحاجة إلى حركتها فيها . والعامل في « يومئذ » ﴿ يود الذين ﴾ وإنما عمل في ﴿ يومئذ ﴾ ما بعد ﴿ إذ ﴾ ولم يجز مثل ذلك في ﴿ إذا جئنا من كل أمة ﴾ لأنه لما أضيف ﴿ يوم ﴾ إلى ﴿ إذ ﴾ بطلت إضافته إلى الجملة ، وجاء التنوين ليدل على تمام الاسم. يبين ذلك قوله : ﴿ من عذاب يومئذ ببنيه ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ لا ينافي قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ (٢) لأنه قيل في معنى الآية سبعة أقوال :

أحدها ـ قال الحسن إن الآخرة مواطن ، فموطن ﴿ لا تسمع إلا همساً ﴾(٣) أي صوتاً خفياً ، وموطن يكذبون فيقولون : ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ (٤) ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ وموطن يعترفون بالخطأ بأن يسألوا الله أن يردهم إلى دار الدنيا .

الثاني ـ قال ابن عباس : إن قوله : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ داخل في التمني بعد ما نطقت جوارحهم بفضيحتهم ، فكأنهم لما رأوا المؤمنين دخلوا الجنة كتموا فقالوا : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فختم الله أفواههم ، وأنطق جوارحهم بما فعلوه،فحينئذ تمنوا أن يكونوا ﴿تسوى بهم الأرض ولايكتمون الله حديثاً ﴾ فتمنوا الأمرين وقال الفراء : تقديره : ﴿ يومئذ يود الذين كفروا

« ١ » سورة المعارج : آية ١٢ . « ٢ » سورة الانعام : آية ٢٣ .
« ٣ » سورة طه : آية ١٠٨ . « ٤ » سورة النحل : آية ٢٨ .

وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض ﴾ ويودون لا يكتمون الله حديثاً .

الثالث ـ قال أبو علي : انه لا يمتد بكتمانهم ، لأنه ظاهر عند الله لا يخفى عليه شيء منه .

الرابع ـ لم يقصدوا الكتمان، لأنهم إنما أخبروا على ما توهموا ، ولا يخرجهم من أن يكونوا كذبوا .

والخامس ـ قال بعضهم: إن قوله : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾(١) انما معناه : أوجبوا العذاب بمثل حال الكاذب في الاقرار ، كما يقال : كذب عليك الحج ، قال الشاعر :

كذب العتيق وماء شن بارد إن كنت سائلتي غبوقاً فاذهبي

وقال الرماني : هذا التأويل ضعيف ، لأنه يجري مجرى اللغز .

والسادس : قال الحسين بن علي المغربي : تمنوا أن يكونوا عدماً ، وتم الكلام ثم استأنف فقال : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ أي لا تكتمه جوارحهم وإن كتموه هم .

السابع ـ قال البلخي : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ على ظاهره لا يكتمون الله شيئاً ، لأنهم ملجأون إلى ترك القبائح والكذب . وقوله : ﴿ ما كنا مشركين ﴾ أي عند أنفسنا ، لأنهم كانوا يظنون في الدنيا أن ذلك ليس بشرك من حيث يقربهم إلى الله تعالى .

قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا لا تَقربوا الصَّلاةَ وَأَنتم سُكارى حتى تَعلموا ما تَقولونَ ولا جُنباً إلا عابري سَبيلٍ حتى تَغتسلوا وَإنْ كنتمْ مَرضى أو على سَفرٍ أو جاءَ أحدٌ مِنكمْ مِنَ الغائطِ أو لامَستمْ النساءَ

(١) سورة الانعام : ٢٤ .

فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً ﴾ (٤٣) ـ آية بلاخلاف ـ .

القراءة والمعنى :

قرأ حمزة ، والكسائي : « أو لمستم النساء » بغير ألف ، الباقون «لامستم» بألف ، فمن قرأ « لامستم » بالف قال : معناه الجماع : وهو قول علي (ع) ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو علي الجبائي ، واختاره أبو حنيفة . ومن قرأ بلا الف أراد اللمس باليد وغيرها بما دون الجماع ، ذهب إليه ابن مسعود ، وعبيدة ، وابن عمر ، والشعبي ، وابراهيم ، وعطاء ، واختاره الشافعي . والصحيح عندنا هو الأول ، وهو اختيار الجبائي ، والبلخي ، والطبري ، وغيرهم . والملامسة واللمس معناهما واحد ، لأنه لا يلمسها إلا وهي تلمسه ، وقيل : ان الملامسة بمعنى اللمس ، كما قيل : عافاه الله ، وعاقبت اللص .

النزول :

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان :

أحدهما ـ قال ابراهيم : إنها نزلت في قوم من الصحابة أصابهم جراح .

والثاني ـ قالت عائشة نزلت في قوم من الصحابة أعوزهم الماء .

المعنى واللغة :

وظاهر الخطاب متوجه إلى المؤمنين كلهم بأن لا يقربوا الصلاة وهم سكارى ، يعني في حال سكرهم ، يقال : قرب يقرب متعد ، وقرب يقرب لازم ، وقرب الماء يقربه إذا ورده . وقيل في معنى السكر المذكور في الآية قولان :

أحدهما ـ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابراهيم : إنه السكر من الشراب ، وقال مجاهد ، والحسن ، وقتادة نسخها تحريم الخمر .

الثاني ـ قال الضحاك هو سكر النوم خاصة . وأصل السكر من السكر ، وهو سد مجرى الماء ، يقال سكره يسكره ، وإسم الموضع السكر والسكر ، لانسداد طريق المعرفة به . سكر يسكر سكراً وأسكره إسكاراً ، وسكرة الموت غشيته . فان قيل : كيف يجوز نهي السكران في حال سكره مع زوال عقله ، وكونه بمنزلة الصبي والمجنون ؟ قلنا عنه جوابان :

أحدهما ـ إنه قد يكون سكران من غير أن يخرج من نقص العقل إلى مالا يحتمل الامر والنهي .

الثاني ـ إنما نهوا عن التعرض للسكر مع أن عليهم صلاة يجب أن يؤدوها في حال الصحو . وقال أبو علي : فيه جواب ثالث وهو أن النهي إنما دل على أن عليهم أن يعيدوها إن صلوها في حال السكر .

فان قيل : كيف يسوغ تأويل من ذهب إلى أن السكران مكلف أن ينتهي عن الصلاة في حال سكره ؟ مع أن عمل المسلمين على خلافه ، لأن من كان مكلفاً تلزمه الصلاة ،قلنا عنه جوابان :

أحدهما ـ أنه منسوخ .

والآخر ـ إنه نهي عن الصلاة مع الرسول (ص) في جماعة .

وقوله : ﴿ ولا جنبـــاً إلا عابري سبيل ﴾ يقال رجل جنب إذا أجنب ، ورجل جنب أي غريب ، ولا يثنى ولا يجمع ، ويجمع أجناباً أي غرباء ، وإنما نصب لأنه عطف على قوله : « وأنتم سكارى » وهي جملة في موضع الحال . وقيل في معناه قولان .

أحدهما ـ قال علي (ع) ، وابن عباس ، وسعيدبن جبير ، ومجاهد ، والحكم ، وابن كثير ، وابن زيد : إلا مسافرين فلكم أن تتيمموا .

الثاني ـ قال ابن عباس في رواية أخرى ،وجابر ، والحسن ، وسعيدبن جبير ، وابراهيم ، والزهري ، وعطاء ، والجبائي : ان معناه لا تقربوا مواضع الصلاة من المساجد إلا مجتازين ، وهو قول أبي جعفر (ع) ، وحذف لدلالة الكلام عليه ،

وهو الأقوى ، لأنه تعالى بين حكم الجنب في آخر هذه الآية إذا عدم الماء ، فلو حملناه على ذلك لكان تكراراً ، وإنما أراد أن يبين حكم الجنب في دخول المساجد في أول الآية ، وحكمه إذا أراد الصلاة مع عدم الماء في آخرها .

وقوله : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر ﴾ فالمرض الذي يجوز معه التيمم مرض الجراح ، والكسير ، وصاحب القروح ، إذا خاف من مس المـاء في قول ابن مسعود ، والضحاك ، والسدي ، وابراهيم ، ومجاهد ، وقتادة . وقال الحسن ، وابن جبير : هو المرض الذي لا يستطيع معه تناول الماء ، ولا يكون هناك من يناوله . وكان الحسن لا يرخص للجريح التيمم ، والمروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) جواز التيمم عند جميع ذلك . وقوله : « أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط » يعني الحدث المخصوص ، وأصله المطمئن من الأرض ، يقال : غائط وغيطان ، والتغوط كناية عن الحدث في الغائط ، والغوطة موضع كثيرالماء والشجر بدمشق ، وقوله : « أو لامستم النساء » قد فسرناه ، وعندنا المراد به الجماع . وقوله « فتيمموا صعيداً طيباً » فالتيمم التعمد ، ومثله التأمم قال الأعشى :

تيممت قيساً وكم دونـه من الأرض من مهمه ذي شزن(١)

يعني تعمدت ، وقال سفيان : معنى تيمموا تعمدوا وتحروا ، والصعيد وجه الارض من غير نبات ولا شجر ، في قول ابن زيد قال ذو الرمة :

كأنه بالضحى ترمي الصعيد به دبابة في عظام الراس خرطوم(٢)

ومنه قوله : ﴿ فتصبح صعيداً زلقا ﴾ (٣) فبين أن الصعيد قد يكون زلقا . والصعدات الطرقات ، قال الزجاج : لا أعلم خلافاً بين أهل اللغة بأن الصعيد وجه الارض ، سواء كان عليه تراب أو لم يكن ، وهذا يدل على ما نقوله من أن التيمم يجوز بالحجارة سواء كان عليها تراب أو لم يكن ﴿ وطيباً ﴾ أي طاهراً ،

---

(١) ديوانه : ١٩ القصيدة : ٢ . (٢) ديوانه : ٥٧١ .

(٣) سورة الكهف آية ٤١ .

وقال سفيان : يعني حلالا . وأصل الصعيد من الصعود ، وهو ما تصعد على وجه الأرض من ترابها ، والاصعاد في الماء بخلاف الانحدار ، والصعود عقبة يشق صعودها ، ومنه قوله : « سأرهقه صعوداً » (١) وقيل : انه جبل في النار يؤخذ بصعوده ، والصعدة هي القناة التي نبتت مستوية ، لأنها تصعد في نباتها على استقامة ، والصعداء تنفس بتوجع .

وقوله : ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ قيل في صفة التيمم ثلاثة أقوال :

أحدها ـ ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين ، ذهب إليه ابن عمر ، والحسن ، والشعبي ، والجبائي ، وأكثر الفقهاء ، وبه قال قوم من أصحابنا .

الثاني ـ ضربة للوجه وضربة لليدين إلى الزندين ، ذهب إليه عمار بن ياسر ، ومكحول ، واختاره الطبري ، وهو مذهبنا إذا كان التيمم بدلا من الجنابة ، وان كان بدلا من الوضوء فيكفيه ضربة واحدة يمسح بها الوجه إلى طرف أنفه واليدين إلى الزندين .

الثالث ـ قال أبو اليقظان ، والزهري : انه إلى الابطين ، وقال قوم انه جائز أن يضرب بيديه على الرمل فيمسح بها وجهه ، وإن لم يعلق بها شيء ، وبه نقول . ويجوز للجنب أن يتيمم عندنا ، وعند أكثر الفقهاء وأهل العلم . وبه قال عمار بن ياسر ورواه عن النبي (ص) . وروي عن عمر ، وابن مسعود ، وابراهيم : أنه لا يجوز للجنب أن يتيمم ، لقوله : ﴿ ولا جنباً إلا عابري سبيل ﴾ وقد بينا نحن أن المراد بذلك النهي عن دخول المساجد ، فكأنه قال : ولا تقربوا المساجد للصلاة وأنتم سكارى « ولا جنباً إلا عابري سبيل » لأن من لم يكن له طريق غير المسجد ، أو أصابه الاحتلام في المسجد جاز له أن يجتاز فيه ، ولا يلبث فيه .

والسكران الذي زال عقله لا تصح صلاته ، ويجب عليه قضاؤها ، ولا يصح منه شيء من العقود ولا رفعها ، كالنكاح ، والطلاق ، والعتق ، والبيع ، والشراء ، وغير ذلك . وقضاء الصلاة يلزمه إجماعا ، وأما ما يلزم به الحدود والقصاص فعندنا أن

(١) سورة المدثر : آية ١٧ .

جميع ذلك يلزمه ، إن سرق قطع ، وإن قذف جلد ، وإن زنا حد ، وغير ذلك ، لاجماع الفرقة المحقة على ذلك ، ولعموم الآية المتناولة لذلك ، ولا يلزم على ذلك تكليف من قطع رجل نفسه الصلاة قائماً ، لأن ذلك تكليف مالا يطاق ، وإيجاب قضاء الصلاة على السكران ليس كذلك ، وكذلك إقامة الحدود ، لأن ذلك تابع للشرع ، وفيه خلاف .

ويجوز أن يصلي صلوات الليل والنهار عندنا بتيمم واحد ، وهو كالوضوء في هذا الباب ، ما لم يحدث ، أو يتمكن من استعمال الماء ، وبه قال الحسن ، وعطاء ، وأبو حنيفة وأصحابه ، وقال إبن عمر ، والشعبي ، وقتادة ، وابراهيم ، والشافعي يجب التيمم لكل صلاة ، ورووا ذلك عن علي (ع) ، وذلك عندنا محمول على الاستحباب .

ولا يجوز التيمم عندنا إلا عند تضيق الوقت ، والخوف من فوته ، واختار ذلك البلخي . وقال الشافعي: لايجوز إلا بعد دخول الوقت ، وقال أبو حنيفة : يتيمم أي وقت شاء ، وإن كان قبل الوقت فهو كالوضوء . ومسائل التيمم استوفيناها في المبسوط ، والنهاية ، ولا نطول بذكرها ههنا .

وقوله : ﴿ إن الله كان عفواً غفورا ﴾ أي يقبل منكم العفو ، ويغفر لكم ، لأن قبوله التيمم بدلا من الوضوء تسهيل علينا . وقيل : يعفو بمعنى يصفح عنكم الذنوب ، ويغفرها أي يسترها عليكم .

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً ﴾ (٤٥) ـ آيتان ـ .

القراءة والنزول :

في الكوفي جعلوا ﴿ السبيل ﴾ آخر الأولى . وآية واحدة في غير الكوفي .

ذكر ابن عباس ، وقتادة ، وعكرمة : أن الآية نزلت في قوم من اليهود ، وكانوا يستبدلون الضلالة بالهدى ، لتكذيبهم بالنبي (ص) بدلا من التصديق به ، مع قيام الحجة عليهم بما ثبت من صفته عندهم ، فكأنهم اشتروا الضلالة بالهدى . وقال أبو علي الجبائي ، وغيره : كانت اليهود تعطي أحبارها كثيراً من أموالهم على ما كانوا يصفونه لهم ، فجعل ذلك اشتراء منهم . وقال الزجاج : كانوا يأخذون الرشا .

المعنى :

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها التأكيد للأحكام التي يجب العمل بها ، بالتحذير ممن يدعو إلى خلافها ، ويكذب بها . وقوله : ﴿ ألم تر ﴾ قال الزجاج ، معناه : ألم تخبر في جميع القرآن ؟ وقال غيره : ألم تعلم ؟ وقال الرماني ، معناه : رؤية البصر ، والمرئي هو الذين ، وإنما دخلت (إلى) ، لأن الكلام يتضمن معنى التعجب ، كقولك : ألم تر إلى زيد ما أكرمه ؟ تقديره : ألم تر عجباً بانتهاء رؤيتك إلى زيد ؟ ثم بين ذلك بقوله : ما أكرمه ، ومثله قوله : ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل﴾(١) . كأنه قال : ألم تر عجباً بانتهاء رؤيتك إلى تدبير ربك كيف مدّ الظل ؟ قال : ومن فسره على : ألم تخبر ، ألم تعلم ، فانما ذهب إلى ما يؤول المعنى إليه ، لأن الخبر والعلم لا يصلح فيهما (إلى) كما يصلح مع الرؤية . وقوله : ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ معناه : يريد هؤلاء اليهود أن تضلوا ، معشر المؤمنين ، أي تزلوا عن قصد الطريق ، ومحجة الحق ، فتكذبوا بمحمد فتكونون ضلالا ، وفي ذلك تحذير للمؤمنين أن يستنصحوا أحداً من أعداء الاسلام في شيء من أمورهم لدينهم ودنياهم ، ثم

(١) سورة الفرقان : آية ٤٥ .

بين تعالى أنه أعلم منكم بعداوة اليهود لـكم أيها المؤمنون ، فانتهوا إلى طاعتي ، وامتثال أوامري فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم ، فاني أعلم بباطنهم منكم ، وما هم عليه من الغش، والحسد ، والعداوة . وقيل معناه : والله يجازيهم على عداوتهم، كقولك : إني أعلم ما تفعل أي اجازيك عليه .

وقوله : ﴿ وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ﴾ معناه : إن ولاية الله لكم ، ونصرته إياكم ، تغنيكم عن غيره من هؤلاء اليهود ومن جرى مجراهم ، ممن تطمعون في نصرته . ودخلت الباء في قوله : « بالله » لأحد أمرين :

أحدهما ـ للتأكيد ، لأن الاسم في « كفى الله » كان يتصل اتصال الفاعل ، فلما دخلت الباء صار يتصل اتصال المضاف واتصال الفاعل ، ليعلم أن الكفاية منه ليست كالكفاية من غيره في المرتبة ، وعظم المنزلة ، فضوعف لفظها لمضاعفة معناها .

الثاني ـ لأنه دخله معنى : اكتفوا بالله ، ذكره الزجاج ، وموضعه رفع بلا خلاف .

اللغة :

والعداوة الابعاد من حال النصرة ، وضدها الولاية ، وهي التقرب من حال النصرة ، وأما البغض فهو إرادة الاستخفاف والاهانة ، وضده المحبة وهي إرادة الاعظام والكرامة . والكفاية بلوغ الغاية في مقدار الحاجة ، كفى يكفي كفاية فهو كاف ، والاكتفاء الاجتزاء بشيء دون شيء ، ومثله الاستغناء ، والنصرة الزيادة في القوة للغلبة ، ومثلها المعونة ، وضدها الخذلان ، ولا يكون ذلك إلا عقوبة ، لأن منع المعونة مع الحاجة عقوبة .

قوله تعالى :

﴿ مِنَ الَّذينَ هادوا يُحرِّفونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِه وَيَقولونَ سَمِعنا وَعَصينا وَاسمَعْ غيرَ مُسمعٍ وَراعِنا لَيّاً بِألسنتِهم وَطعناً في الدينِ

وَلو أنهمْ قالوا سَمِعنا وَأطعنا وَاسْمعْ وَانْظرنا لـكانَ خيراً لهمْ وأقومَ وَلـكنْ لعنهمُ اللهُ بكفرهمْ فلا يُؤمِنونَ إلاَّ قليلاً ﴾ (٤٦) ـ آية . بلا خلاف ـ .

المعنى والاعراب :

قيل في معنى قوله : ﴿ من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ﴾ قولان :

أحدها ـ قال الفراء ، والزجاج ، والرماني : ان يكون تبييناً للذين « أوتوا نصيباً من الكتاب » ويكون العامل فيه « أوتوا » وهو في صلة الذين ، ويجوز ألا يكون في الصلة ، كما تقول : انظر إلى النفر من قومك ما صنعوا .

الثاني ـ أن يكون على الاستئناف ، والتقدير : « من الذين هادوا » فريق ﴿ يحرفون الكلم ﴾ كما قال ذو الرمة :

فضلوا ومنهم دمعه سابق له وآخر يثني دمعة العين بالمهل (١)

وأنشد سيبويه :

وما الدهر إلا تارتان فمنها أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

وقال آخر :

لو قلت ما في قومها لم تيثم يفضلها في حسب وميسم (٢)

أي أحد يفضلها وقال النابغة :

كأنك من جمال بني أقيش يقعقع خلف رجليه بشن (٣)

يريد كأنك جمل من جمال بني أقيش .

« ١ » ديوانه : ٤٨٥ ، وروايته (عبرة) بدل (دمعة) . (بالهمل) بدل (بالمهل) .

« ٢ » قائله حكيم بن معية انظر الخزانة ٢ : ٣١١ .

« ٣ » ديوانه : ٥٨ ، وسيبويه ١ : ٣٧٥ ، ومجاز القرآن ١ : ١٠١ . الشن : القربة البالية .

قال الفراء : المحذوف ﴿ من ﴾ والتقدير : من الذين هادوا من يحرفون الكلم كما يقولون : منا يقول ذاك ومنا لا يقوله ، قال : والعرب تضمر (من) في مبتدأ الكلام بمن ، لأن من بعض لما هي منه ، كما قال : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ (١) وقال : ﴿ وان منكم إلا واردها ﴾ (٢) وأنشد بيت ذي الرمة الذي قدمناه ، قال : ولا يجوز إضمار (من) في شيء من الصفات على هذا المعنى إلا في من لما قلناه ، وضعف البيت الذي أنشدناه : (لو قلت مافي قومها لم تيثم) وهي لغة هوازن ، وتأثم رواية أخرى . وقال انما جاز في (في) لأنك تجد (في) تضارع معنى (من) لأنه بعض ما أضيف ، لأنك تقول : فينا الصالحون وفينادون ذلك ، كأنك قلت : منا ، ولا يجوز : في الدار يقول ذاك ، وتريد : من يقول ذاك ، لأنه إنما يجوز إذا أضفت (في) إلى جنس المتروك . وقال أبو العباس ، والزجاج ما قاله الفراء لايجوز ، لأن (من) تحتاج إلى صلة أو صفة تقوم مقام الصلة ، فلا يحسن حذف الموصول مع بقاء الصلة ، كما لا يحسن حذف بعض الكلمة ، وإنما قال : ﴿ من الذين هادوا ﴾ لأنه ليس جميع اليهود حرّفوا ، وإنما حرّف أحبارهم وعلماؤهم .

وقوله : ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ يعني يغيرونها عن تأويلها ، والكلم جمع كلمة . وقال مجاهد : يعني بالكلم التوراة .

وقوله : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ يعني اليهود يقولون : سمعنا قولك يامحمد ، ويقولون سراً عصينا .

وقوله : ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ اخبار من الله تعالى عن اليهود الذين كانوا حوالي المدينة في عصره ، لأنهم كانوا يسبون رسول الله (ص) ويؤذونه بالقبيح من القول ، ويقولون له : اسمع منا غير مسمع ، كما يقول القائل لغيره إذا سبه بالقبيح : اسمع لا أسمعك الله ، ذكره ابن عباس ، وابن زيد . وقال مجاهد ، والحسن : ان تأويل ذلك اسمع غير مقبول منك ، أي غير مجاب .

« ١ » سورة الصافات : آية ١٦٤ . « ١ » سورة مريم : آية ٧١ .

وقوله : ﴿ وراعنا ليّاً بالسنتهم ﴾قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها - أن هذه اللفظة كانت سباً في لغتهم ، فأعلم الله نبيه ذلك ونهاهم عنها .

الثاني - انها كانت تجري منهم على وجه الاستهزاء والسخرية .

الثالث - انها كانت تجري منهم على حدّ الكبر ، كما يقول القائل : انصت لكلامنا ، وتفهم عنا . وانما راعنا من المراعاة التي هي المراقبة. وقوله : « ليّاً بالسنتهم » يعني تحريكا منهم ألسنتهم بتحريف منهم لمعناه إلى المكروه .

اللغة :

وأصل اللي الفتل ، تقول : لويت العود ألويه ليّاً ، ولويت الغريم إذا مطلته، واللوى من الرمل - مقصور - مسترقه ، ولواء الجيش ممدود ، واللوية ماتتحف به المرأة ضيفها لتلوي بقلبه إليها ، وألوى بهم الدهر إذا أفناهم ، ولوي البقل إذا اصفر ولم يستحكم يبسه .

واللسان آلة الكلام ، واللسان اللغة ، ومنه قوله . «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » (١) ولسن فلان فلاناً بلسنه إذا أخذه بلسانه ، ورجل لسن : بين اللسن . ولسان الميزان ، ولسان القوم : متكلمهم ، وشيء ملسن إذا كان طرفه كطرف اللسان . وقوله : « وطعناً في الدين » فالاصل الطعن بالرمح ونحوه . والطعن باللسان كالطعن بالرمح . ومنه تطاعنوا في الحرب . وأطعنوا مطاعنة وطعاناً، وطعن يطعن ويطعن طعناً . وقوله : « ولو أنهم قالوا » يعني هؤلاء اليهود «سمعنا» يا محمد قولك « وأطعنا » أمرك ، وقبلنا ما جئتنا به « واسمع » منا « وانظرنا » بمعنى انتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا « لكان خيراً لهم وأقوم » يعني أعدل وأصوب في القول ، مأخوذاً من الاستقامة ، ومنه قوله : « وأقوم قيلا » (٢) بمعنى وأصوب . وقوله : « ولكن لعنهم الله بكفرهم » يعني أبعدهم الله من ثوابه . ثم أخبر تعالى ، فقال : « فلا يؤمنون » في المستقبل « إلا قليلا » منهم فانهم آمنوا .

« ١ » سورة ابراهيم : آية ٤ . « ٢ » سورة المزمل : آية ٦ .

وقال البلخي : معناه لا يؤمنون إلا ايماناً قليلا كما قال الشاعر :

فالفيته غير مستعتب　　　ولا ذاكر الله إلا قليلا (١)

يريد إلا ذكراً قليلا . وسقط التنوين من ذاكر لاجتماع الساكنين . وقال أبو روق : إلا قليلا ايمانهم قولهم : الله خالقنا ورازقنا ، وليس لمن الله لهم بمانع لهم من الايمان ، وقدرتهم عليه ، لأنه إنما لعنهم الله لما كفروا فاستحقوا ذلك ، ولو تركوا الكفر وآمنوا ، لزال عنهم استحقاق اللعن .

قوله تعالى :

﴿يا أيُّها الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ آمِنوا بما نزَّلنا مُصدِّقاً لِما مَعكُمْ مِنْ قَبلِ أنْ نطمسَ وُجوهاً فنرُدَّها على أُدبارِها أو نَلعنهُمْ كما لَعنّا أصحابَ السبتِ وَكانَ امرُ اللهِ مَفعولاً﴾ (٤٧) ـ آية ـ .

المعنى :

هذه الآية خطاب لأهل الكتاب : اليهود ، والنصارى أمرهم الله بأن يؤمنوا بالنبي (ص) وما أنزل عليه من القرآن ، وغيره من الاحكام مصدقاً لما معهم من التوراة والانجيل اللذين تضمنا صفة النبي (ص) وصحة ما جاء به . وقوله : ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾ قيل في معناه أربعة أقوال :

أحدها ـ قال ابن عباس وعطية العوفي وقتادة : معناه نمحو آثارها حتى تصير كالقفا . ونجعل عيونها في قفاها ، فتمشي القهقرى .

الثاني ـ قال الحسن ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن أبي نجيح ، والسدي ، ورواه أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) : أن معناه نطمسها عن الهدى ، فنردها على أدبارها في ضلالتها ذماً لها (٢) بأنها لا تصلح أبداً ، وهم وإن كانوا في

(١) انظر ٢ . ٧٦ تعليقة ٢ ، ٣ .

(٢) في المخطوطة (ومآبها) .

الضلالة في الحال فتوعدهم بأنهم متى لم يؤمنوا بالنبي (ص) ازدادوا بذلك ضلالا إلى ضلالتهم وإياساً لهم أن يؤمنوا فيما بعد .

الثالث ـ قال الفراء ، واختاره البلخي ، والحسين بن علي المغربي : إن معناه نجعل في وجوههم الشعر كوجه القرود .

الرابع ـ قال قوم : معناه أن يردهم إلى الشام من الحجاز الذي هو مسكنهم ، وهو أضعف الوجوه ، لأنه ترك للظاهر ، وخلاف أقوال المفسرين : والأدبار : جمع دبر .

فان قيل : كيف يجوز تأويل من قال نجعلها كالاقفاء وهذا لم يجز على ماتوعد به ؟ قيل عنه جوابان :

أحدها ـ لأنه آمن جماعة من أولئك الكفار كعبد الله بن سلام وثعلبة بن شعبة وأسد بن ربيعة ، وأسد بن عبيد ، ومخيرق (١) ، وغيرهم . وأسلم كعب في أيام عمر حين سمع هـــذه الآية ، فأما من لم يؤمن منهم فانه يفعل به ذلك في الآخرة على أنه تعالى قال : أو نلعنهم ، والمعنى أنه يفعل أحدها ، ولقد لعنهم الله بذلك . وقوله : « كما لعنا أصحاب السبت » يعني المسخ الذي جرى عليهم ، ذكره البلخي .

والجواب الثاني ـ أن الوعيد يقع بهم في الآخرة ، لأن الله تعالى لم يذكر أنه يفعل بهم ذلك في الدنيا تعجيلا للعقوبة ذكره البلخي أيضاً ، والجبائي .

اللغة :

والطمس هو الدثر ، وهو عفو الأثر ، والطامس ، والداثر ، والدارس بمعنى واحد . وطمست أعلام الطريق تطمس طموساً : إذا دثرت ، قال كعب بن زهير :

من كل نضاحة الذفرى إذا عرقت   عرضتها طامس الاعلام مجهول(٢)

« ١ » في المطبوعة : (وثعلبة بن سعنة) ، (وأسد بن سعنه) ، (وأسد بن عبيد) ، (ومخبرق) .

« ٢ » ديوانه : ٩ . نضح الرجل العرق سال منه . الذفرى : الموضع الذي يعرق من البعير خلف الأذن ، والاعلام : أعلام الطريق .

والعين التي هي الجارحة عبارة عن الشق بين الجفنين . والادبار جمع دبر ، وأصله من الدّبر يقولون دبره يدبره دبراً فهو دابر : إذا صار خلفه . والدبر : خلاف القبل . والدابر : التابع . ومنه قوله : « والليل إذا أدبر » (١) أي تبع النهار . فأما أدبر فمعناه ولّى . والدبور : الريح ، لأنها تدبر الكعبة إلى جهة المشرق . والدبار الهلاك . ودابرة الطائر : الاصبع التي من خلف . والدبر : النحل. والدبر : المال الكثير ، والتدبير ، لأنه احكام ادبار الأمور ، وهي عواقبها .

المعنى :

وقوله : ﴿ أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ قال السدي ، وقتادة ، والحسن : معناه نمسخهم قردة وإنما كنى عنهم بقوله : « أو نلعنهم » بعد أن خاطبهم بقوله : « يا أيها الذين » لأمرين :

أحدهما ـ التصرف في الخطاب ، والانتقال من مواجهة إلى كناية كما قال : « حتى إذا كنتم في الفلك » فخاطب ثم قال : « وجرين بهم » (٢) فكنى .

والثاني ـ أن يعود الضمير على أصحاب الوجوه ، لأنه بمنزلة المذكور . وقوله : « وكان أمر الله مفعولا » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ ان كل أمر من أمور الله من وعد أو وعيد أو مخبر خبر فانه يكون على ما أخبر به ، ذكره الجبائي .

والثاني ـ ان معناه « وكان أمر الله مفعولا » أي الذي يأمر به بقوله : « كن » وذلك يدل على أن كلامه محدث . وقال البلخي : معناه أنه إذا أرادشيئاً من طريق الاجبار . والاضطرار كان واقعاً لا محالة · لا يدفعه دافع ، كقبض الارواح ، وقلب الارض وارسال الحجارة ، والمسخ وغير ذلك ، فأما ما يأمر به على وجه الاختيار ، فقد يقع ، وقد لا يقع . ولا يكون في ذلك مغالبة له لأنه تعالى لو أراد إلجاءه إلى ما أمره به لقدر عليه .

« ١ » سورة المدثر : آية ٣٣ . « ٢ » سورة يونس : آية ٢٢ .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (٤٨) ـ آية واحدة بلا خلاف ـ .

قال الفراء قوله : « أن يشرك » في موضع النصب ، وتقديره « إن الله لا يغفر » الشرك قال : ويحتمل أن يكون موضعه الجر وتقديره لا يغفر الذنب مع الشرك . وقال قوم : الفرق بين قوله : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » ، وبين قوله : « إن الله لا يغفر » الشرك به من وجهين :

أحدها ـ أن ﴿ أن ﴾ تدل على الاستقبال .

والآخر ـ ذكره الرماني أنها تدل على وجه الفعل في الارادة ، ونحوها . إذ كان قد يريد الانسان الكفر مع ظنه أنه ايمان ، كما يريد النصارى عبادة المسيح . ولا يجوز ارادته أن يكفر مع التوهم انه ايمان وكذلك لا يريد الضر مع التوهم أنه نفع ، ولا يجوز ارادته أن يضر مع التوهم أنه نفع ، وكذلك أمره بالخطأ مع التوهم أنه صواب ، ولا يجوز أمره أن يخطيء مع التوهم أنه صواب ، وهذا عندي ليس بصحيح ، لأن الشرك مذموم على كل حال سواء علمه فاعله كذلك ، أو لم يعلم . ألا ترى أن النصارى يستحقون اللعنة والبراءة على ما يعتقدونه من التثليث وإن اعتقدوا هم صحته ، فالفرق الاول هو الجيد وظاهر الآية يدل على أن الله تعالى لا يغفر الشرك أصلا ، لكن أجمعت الامه على أنه لا يغفره مع عدم التوبة ، فأما إذا تاب منه فانه يغفره ، وإن كان عندنا غفران الشرك مع التوبة تفضلا ، وعند المعتزلة هو واجب ، وهذه الآية من آكد ما دل على أن الله تعالى يعفو عن المذنبين من غير توبة ووجه الدلالة منها أنه نفى أن يغفر الشرك إلا مع التوبة وأثبت أنه يغفر ما دونه ، فيجب أن يكون مع عدم التوبة ، لأنه إن كان ما دونه ، لا يغفره إلا مع التوبة ، فقد صار ما دون الشرك مثل الشرك ، فلا معنى

للنفي ، والاثبات . وكان ينبغي أن يقول : « إن الله لا يغفر » المعاصي إلا بالتوبة ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول الحكيم أنا لا أعطي الكثير من مالي تفضلا، واعطي القليل إذا استحق علي ، لأنه كان يجب أن يقول : أنا لا أعطي شيئاً من مالي إلا إذا استحق علي كيف وفي الآية ذكر العظيم الذي هو الشرك ، وذكر ماهو دونه ؟ والفرق بينهما بالنفي والاثبات ، فلا يجوز ألا يكون بينهما فرق من جهة المعنى . فان قيل : نحن نقول : إنه يغفر ما دون الشرك من الصغائر من غير توبة . قلنا : هذا فاسد من وجهين :

أحدهما ـ انه تخصيص ، لأن ما دون الشرك يقع على الكبير والصغير . والله تعالى أطلق أنه يغفر ما دونه ، فلا يجوز تخصيصه من غير دليل .

الثاني ـ ان الصغائر تقع محبطة فلا يجوزا لمؤاخذة بها عند الخصم وما هذا حكمه لا يجوز تعليقة بالمشيئة وقد علق الله تعالى غفران ما دون الشرك بالمشيئة ، لأنه قال : « لمن يشاء » فان قيل : تعليقه بالمشيئة يدل على أنه لا يغفر مادون الشرك قطعاً . قلنا : المشيئة دخلت في المغفور له لا فيما يغفر ، بل الظاهر يقتضي انه يغفر ما دون الشرك قطعاً ، لكن لمن يشاء من عباده ، وبذلك تسقط شبهة من قال القطع على غفران ما دون الشرك من غير توبة ، اغراء بالقبيح الذي هو دون الشرك ، لأنه إنما يكون اغراء لو قطع على أنه يغفر ذلك لكل أحد . فأما إذا علق غفرانه لمن يشاء ، فلا اغراء لأنه لا أحد إلا وهو يجوز أن يغفر له ، كما يجوز أن يؤاخذ به فالزجر حاصل على كل حال ، ومتى عارضوا هذه الآية بآيات الوعيد كقوله: « ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً » (١) وقوله : « ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها » (٢) وقوله : « إن الفجار لفي جحيم » (٣) كان لنا أن نقول : العموم لا صيغة له ، فمن أين لكم أن المراد به جميع العصاة ثم نقول نحن نخص آياتكم بهذه الآية ونحملها على الكفار . فمتى قالوا لنا : بل نحن نحمل

« ١ » سورة الفرقان : آية ١٩ . « ٢ » سورة النساء : آية ١٣ .
« ٣ » سورة الانفطار : آية ١٤ .

آياتكم على أصحاب الصغائر. فقد تعارضت الآيات ووقعنا وجوزنا العفو بمجرد العقل، وهو غرضنا وقد استوفينا ما في ذلك في الاصول في باب الوعيد من أراده وقف عليه من هناك. وقوله: «ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً» معناه من يشرك بالله، وقد كذب، لأنه يقول: إن عبادته يستحقها غير الله. وذلك افتراء، وكذب. وقوله: «إثماً عظيماً» نصب على المصدر فكأنه قال: افترى، وأثم «اثماً عظيماً»، لأن افترى بمعنى أثم، فلذلك نصب المصدر به. وقال ابن عمر: لما نزل قوله: «إن الله يغفر الذنوب جميعاً» ظن أنه تعالى يغفر الشرك أيضاً، فأنزل الله هذه الآية. وقال ابن عمر: ما كنا نشك معشر أصحاب رسول الله(ص) في قاتل المؤمن، وآكل مال اليتيم وشاهد الزور، وقاطع الرحم، حتى نزلت هذه الآية فامسكنا عن هذه الشهادة. وهذا يدل على أن الصحابة كانت تقول بما نذهب إليه من جواز العفو عن فساق أهل الملة من غير توبة، بخلاف ما يذهب إليه أصحاب الوعيد من المعتزلة، والخوارج، وغيرهم.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٤٩) - آية بلا خلاف -.

المعنى:

قد فسرنا معنى «ألم تر إلى الذين» فيما مضى، وأن معناه ألم تعلم في قول أكثر أهل العلم، واللغة، وقال بعضهم: معناه ألم تخبر وفيه سؤال على وجه الاعلام. وتأويله اعلم قصتهم ألم ينتـه علمك إلى هؤلاء الذين يزكون أنفسهم؟ وقيل في معناه قولان:

أحدها - قال الحسن، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر (ع): انهم اليهود، والنصارى في قوله: «نحن ابناء الله وأحباؤه»(١)

(١) سورة المائدة: آية ٢٠.

« وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم » (١) قال الزجاج : اليهود جاءوا إلى النبي (ص) بأولادهم الاطفال ، فقالوا يامحمد أعلى هؤلاء ذنوب ؟ فقال (ص) : لا ، فقالوا : كذلك نحن ما نعمل بالليل يغفر بالنهار ، وما نعمل بالنهـــار يغفر بالليل ، فقال الله تعالى : « بل الله يزكي من يشاء » وقال : مجاهد ، وأبو مالك : كانوا يقدمونهم في الصلاة ويقولون : هؤلاء لا ذنب لهم . وقال ابن عباس : كانوا يقولون : أطفالنا يشفعون لنا عند الله .

الثاني ـ روي عن عبد الله بن مسعود انه تزكية الناس بعضهم بعضاً لينالوا بذلك مالا من مال الدنيا ،فأخبر الله تعالى أنه الذي يزكي من يشاء . وتزكيتهم أنفسهم هو أن يقولوا : نحن أزكياء .

اللغة والاعراب والنظم :

والزكا النمو يقال زكاالزرع يزكو . وزكا الشيء : إذا نما في الصلاح وقوله: « ولا يظلمون فتيلا » قال الزجاج : لا يظلمون مقدار فتيل . فيكون نصبه على أنه مفعول ثان : كقولك : ظلمته حقه أي انتقصته حقه . قال الرماني : ويحتمل أن يكون نصباً على التمييز كقولك : تصببت عرقاً . وقيل في معنى الفتيل ههنا قولان :

أحدها ـ هوقول ابن عباس في رواية وقول عطاء ابن أبي رياح ، ومجاهد، وقتادة ، والضحاك ، وعطية : إنه الذي في شق النواة . وقال الحسن : الفتيل ما في بطن النواة ، والنقير : ما في ظهرها ، والقمطير قشرها .

الثاني ـ مافتلت بين اصبعيك من الوسخ . في رواية أخرى عن ابن عباس ، وأبي مالك ، والسدي : والفتل : لي الشيء يقال . فتلت الحبل أفتله فتلا ، وانفتل فلان في صلاته . والفتيلة معروفة . و اقة فتلاء . إذا كان في ذراعيهافتل عن الجنب. والفتيل في معنى المفتول .

---

(١) سورة البقرة : آية ١١١ .

ووجه اتصال قوله : « ولا يظلمون فتيلا » بما قبله أنه لما قال : « بل الله يزكي من يشاء » نفى عن نفسه الظلم لئلا يظن أن الامر بخلافه .

قوله تعالى :

« انْظُرْ كَيفَ يَفتَرُونَ على اللهِ الكَذِبَ وَكَفى بِهِ إثماً مُبيناً » (٥٠) ـ آية بلا خلاف ـ .

اللغة :

النظر هو الاقبال على الشيء بالبصر ومن ذلك النظر بالقلب ، لأنه إقبال على الشيء بالقلب ، فكذلك النظر بالرحمة ، و نظر الدهر إلى الشيء : إذا أهلكه ، والنظر إلى الشيء تلمسه والنظر إليه بالتأميل له . والانتظار : الاقبال على الشيء بالتوقع له . والانظار التأخير إلى وقت . والاستنظار سؤال الانظار . والمناظرة : اقبال كل واحد على الآخر بالمحاجـــة . والنظير مثل الشيء لا قباله على نظيره بالمماثلة . والفرق بين النظر بالعين ، وبين الرؤية أن الرؤية هي إدراك المرئي ، والنظر إنما هو الاقبـال بالبصر نحو المرئي ، ولذلك قد ننظر ولا نراه ، كما يقولون : نظرت إلى الهلال فلم أره ، ولذلك يجوز أن يقال في الله أنه رائي . ولا يجوز أن يقال ناظر . وقوله : « كيف يفترون » فالافتراء والاختلاق متقاربان ، والفرق بينهما أن الافتراء هو القطع على كذب أخبر به ، واختلق قد ر كذباً اخبر به ، لأن الفري القطع ، والخلق التقدير .

المعنى :

وافتراؤهم الكذب على الله ههنا المراد به تزكيتهم لأنفسهم بانا « أبناء الله وأحباؤه » وأنه « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » ذكره ابن جريج وقوله : « وكفى به إثماً مبيناً » معناه تعظيم اثمه وإنما يقال كفى به في المعظم على جهة المدح أو الذم ، كقولك : كفى بحال المؤمن نبلا وكفى بحال الكافر إثمـــاً

كأنه قيل : ليس يحتاج إلى حال أعظم منـه في المدح أو الذم . كما يقال ليس يحتاج إلى أكثر مما به . ويحتمل أن يكون معناه كفى هذا إثماً أي ليس يقصر عن منزلة الاثم .

قوله تعالى :

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ (٥١) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

قيل في المعني بهذه الآية قولان :

أحدها ـ قال ابن عباس ، وقتادة : هم جماعة من اليهود منهم : حي بن أخطب وكعب بن الاشرف ، وسلام بن أبي الحقيق ، والربيع بن الربيع(١) . قالوا لقريش : أنتم أهدى سبيلا ممن آمن بمحمد .

الثاني ـ قال عكرمة إن المعني به كعب بن الاشرف ، لأنه قال هذا القول ، وسجد لصنمين كانا لقريش . وقيل في معنى الجبت ، والطاغوت خمسة أقوال :

أحدها ـ قال عكرمة : إنهما صنمان . وقال أبو علي : هؤلاء جماعة من اليهود آمنوا بالاصنام التي كانت تعبدهـا قريش ، والعرب مقاربة لهم ليعينوهم على محمد (ص) .

الثاني ـ قال ابن عباس : الجبت الاصنام . والطاغوت: تراجمة الاصنام الذين يتكلمون بالتكذب عنها .

الثالث ـ إن الجبت الساحر . والطاغوت الشيطان ، قاله ابن زيد . وقال مجاهد : الجبت : السحر .

---

(١) في المخطوطة (الربيع) باسقاط (ابن الربيع) وفي مجمع البيان (أبو رافع) .

الرابع ـ قال سعيد بن جبير، وأبو العالية : الجبت : الساحر . والطاغوت: الكاهن .

والخامس ـ في رواية عن ابن عباس والضحاك : ان الجبت حي بن أخطب ، والطاغوت كعب بن الاشرف ، لأنهما جاءا إلى مكة ، فقال لهما أهل مكة : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم ، فأخبرونا عنا وعن محمد (ص) ، فقالا : ما أنتم وما محمد ؟ قالوا : نحن ننحر الكوماء ونسقي اللبن على الماء ، ونفك العناة ، ونصل الارحام، ونسقي الحجيج . ومحمد مذبوز قطع أرحامنا ، واتبعه سراق الحجيج بنو غفار فقالا : أنتم خير منه ، وأهدى سبيلا فانزل الله هذه الآية . وقال الزجاج ، والفراء ، والبلخي : هما كل معبود من دون الله تعالى .

اللغة :

ووزن طاغوت فعلوت على وزن رهبوت . قال الخليل : هو من طغا وقلبت اللام إلى موضع العين كما قيل : لاث في لايث . وشاك في شايك . وهذا تغيير لا يقاس عليه ، لكنه يحمل على النظير . والجبت لا تصريف له في اللغة العربية . وقيل : هو الساحر بلغة حبش عن سعيد بن جبير : والسبيل المذكور في الآية هو الدين . وإنما سمي سبيلا ، لأنه كالسبيل الذي هو الطريق في الاستمرار عليه ليؤدي إلى الغرض المطلوب . ونصبه على التمييز كقولك هو أحسن منك وجهاً وأجود منك ثوباً لأنك في قولك : هذا أجود منك قد أبهمت الشيء الذي فضلته به إلا أن تريد ان جملته أجود من جملتك فتقول هذا أجود منك وتمسك .

قوله تعالى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾

(٥٢) ـ آية بلا خلاف ـ .

النزول :

قوله : « او لئك » اشارة إلى الذين ذكرهم في الآيةالاولى . وقال قتادة : لما قال كعب بن الاشرف ، وحي بن أخطب « هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » وهما يعلمان أنهما كاذبان . أنزل اللههذه الآية «أولئك الذين لعنهم اللهومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » فالوعيد فيها على ما تقدم من القول على جهة العناد، لأنها اشارة إلى ما تقدم من صفتهم الدالة على عنادهم .

اللغة والمعنى :

﴿ أولئك ﴾لفظ جمع ،وواحده ذا في المعنى كما قالوا : نسوة في جماعةالنساء . وللواحدة امرأة . وغلب على أولاء (ها) التي للتنبيه . وليس ذلك في أولئك ، لأن في حرف الخطاب تنبيهاً للمخاطبإذ كان الكاف انما هو حرف لحق ، لتنبيه المخاطب ، فصار معاقباً للهاء التي للتنبيه في أكثر الاستعمال . واللعنة : الابعاد من رحمة الله عقابا على معصيته ، فلذلك لا يجوز لعن البهائم ، ولا من ليس بعاقل من المجانين ، والاطفال ، لأنه سؤال العقوبة لمن لا يستحقها . فمن لعن حية أو عقرباً أو نحو ذلك مما لا معصية له فقداخطأ ،لأنه سأل الله عز وجلمالا يجوز فيحكمته . فان قصد بذلك الابعاد لا على وجه العقوبة ،كان ذلك جائزاً . فان قيل : كيف قال : « فلن تجد له نصيراً » مع تناصر أهل الباطل على باطلهم ؟ قلنا : عنهجوابان:

أحدهما ـ « فلن تجد له نصيراً » ينصره من عقاب الله الذي يحله به مما قد أعده له ، لأنه الذي يحصل عليه وما سواه يضمحل عنه .

الثاني ـ « فلن تجد له نصيراً » ، لأنه لا يعتد بنصرة ناصر له مع خذلان الله إياه .

قوله تعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ المُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ﴾ (٥٣) ـ آية ـ .

النظم والاعراب :

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها اتصال الصفة بالبخل ، والصفة بالحسد والجهل ، لأن قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ يدل على أنهم حسدوا المؤمنين وأنهم يعملون أعمال الجاهلين ، إلا أن الكلام خرج مخرج الاستفهام ، للتوبيخ ، والتقريع بتلك الحال . وجاءت أم ههنا غير معادلة للالف لتدل على اتصال الثاني بالاول . والمعنى بل ألهم نصيب من الملك ؟ وتسمى أم هذه المنقطعة عن الالف لأنها بخلاف المتصلة بهـا على المعادلة . ومثله « ا لم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه » (١) وقال بعضهم: إن الالف محذوفة ، لأن أم لا تجيء مبتدأة على تقدير أهم أولى بالنبوة « أم لهم نصيب من الملك » فيلزم الناس طاعتهم . وهذا ضعيف ، لأن حذف الالف إنما يجوز في ضرورة الشعر بالاجماع ولا ضرورة في القرآن . « وإذاً » لم تعمل في يؤتون لأنها إذا وقعت بين الفاء ، والفعل ، جاز أن تقدر متوسطة فتلغى كما تلغى (أرى) (٢) إذا توسطت أو تأخرت ، لأن النية به التأخير . والتقدير أم لهم نصيب من الملك فلا يؤتون الناس نقيراً اذاً ، وكذلك إذا كان معها واو ، نحو « وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا » (٣) ويجوز أن تقدر مستأنفة ، فتعمل مع حرف العطف . و (اذن) لا تعمل إلا بشروط أربعة : أن تكون جوابا لكلام ، وأن تكون مبتدأة في اللفظ ، ولا يكون ما بعدها متعلقاً بما قبلها ، ويكون الفعل بعدها مستقبلا . ومتى نقص واحد من هذه الشروط لم تعمل .

المعنى واللغة :

وقوله : ﴿ لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ اخبار من الله تعالى عن لومهم ، وبخلهم

« ١ » سورة ألم السجدة : آية ١ ، ٢ ، ٣ .　　« ٢ » أي (أرى) القلبية .

« ٣ » سورة الاسرى آية ٧٦ .

أي لا يؤتونهم نقيراً . وقيل في معنى النقير ههنا ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال ابن عباس ، وقتادة ، والسدي ، وعطاء ، والضحاك ، وابن زيد : إنه النقطة التي في ظهر النواة . وقال مجاهد : هو الحبة التي في بطن النواة . وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن النقير ما نقر الرجل باصبعه ، كما ينقر الدرهم . والنقر : النكت ومنه المنقار ، لأنه ينقر به . والناقور : الصور ، لأن الملك ينقر فيه بالنفخ المصوت . والنقرة : حفرة في الارض أو غيرها ، والنقير : خشبة تنقر وينبذ فيها . والمناقرة : مراجعة الكلام . وانتقر : اختص كما يختص بالنقر واحداً واحداً . والمنقر : المقلع عن الشيء ، لأنه كما يقلع في النقر ، ثم يعود إليه .

ومعنى ﴿ أم لهم نصيب من الملك ﴾ ما يدعيه اليهود أن الملك يعود إليهم . وقوله : « فاذا لا يؤتون الناس » يعني العرب . وذكر الزجاج في معناه وجهين :

أحدها ـ بل لهم نصيب ، لأنهم كانوا أصحاب بساتين وأموال ، وكانوا في غاية البخل .

والثاني ـ أنهم لو أعطوا الملك ، ماأعطوا الناس نقيراً من بخلهم اختاره البلخي وبه قال السدي ، وابن جريج .

قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَحسدُونَ النّاسَ على ما آتاهمُ اللهُ مِنْ فَضلِهِ فَقدْ آتينا آلَ إبراهيمَ الكِتابَ والحِكمةَ وآتيناهُمْ مُلكاً عَظيماً ﴾ (٥٤) ـ آية ـ .

المعنى :

المعني بقوله : ﴿ أم يحسدون الناس ﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والسدي ، وعكرمة : إنه النبي (ص) ، وهو قول أبي جعفر (ع) ، وزاد فيه وآله .

الثاني ـ قال قتادة : هم العرب (١) : محمد (ص) وأصحابه ، لأنـه قد جرى ذكرهم في قوله : « يقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » ذكره الجبائي .

والفضل المذكور في الآية قيل فيه قولان :

أحدها ـ قال الحسن، وقتادة ، وابن جريج: النبوة . وهو قول أبي جعفر (ع) قال وفي آله الامامة .

الثاني ـ قال ابن عباس : والضحاك والسدي ما أباحه الله للنبي من نكاح تسعة .

اللغة :

والحسد تمني زوال النعمة عن صاحبها لما يلحق من المشقة في نيله لهـا ، والغبطة : تمني مثل النعمة ، لأجل السرور بها لصاحبها ، ولهذا كان الحسدمذموماً والغبطة غير مذمومة . وقيل : إن الحسد من افراط البخل ، لأن البخل مع النعمة، لمشقة بذلها . والحسد تمني زوالها لمشقة نيل صاحبها لها بالعمل فيها على المشقة بنيل النعمة . ثم قال «فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاعظيماً» فما حسدوهم على ذلك فكيف حسدوا محمداً وآله ما أعطاهم الله إياه .

المعنى :

والملك المذكور في الآية ههنا قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال ابن عباس : هو ملك سليمان ، وبه قال عطية العوفي .

الثاني ـ قال السدي : هو ما أحل لداود من النساء تسع وتسعون امرأة ، ولسليمان مئة لأن اليهود عابت النبي (ص) بكثرة النساء فبين الله ان ذلك وأكثر منه كان في آل ابراهيم .

الثالث ـ قال مجاهد ، والحسن : إنه النبوة . وقال أبو جعفر (ع) : انه الخلافة ، من أطاعهم ، أطاع الله ومن عصاهم عصى الله .

---

(١) في المخطوطة (الذين م محمد ...) .

قوله تعالى :

﴿ فَمِنهم مَنْ آمنَ بهِ ومنهم مَنْ صَدَّ عنهُ وكفى بجهنَّمَ سَعيراً ﴾ (٥٥) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

الضمير في قوله : ﴿فمنهم من آمن﴾ يحتمل أن يكون عائداً إلى أحدأمرين: أحدها ـ قال مجاهد ، والزجاج ، والجبائي : إن من أهل الكتاب من آمن بمحمد (ص) لتقدم الذكر في «يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم » (١) .

الثاني ـ فمن أمة ابراهيم من آمن بابراهيم ، ومنهم من صدّ عنه . كما أنكم في أمر محمد (ص) كذلك . وليس في ذلك توهين لأمره كما ليس فيه توهين لأمر ابراهيم . واتصال الكلام على هذا الوجه ظاهر وعلى الوجه الأول تقديره وقع (٢) هذا كله « فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه » وقال قوم : « فمنهم من آمن » بداود وسليمان « ومنهم من صدّ عنه » وليس في الآية دلالة على أن ما تقدم من الوعيد إنما صرف عنهم لأيمان هذا الفريق ، لأنه قال في الآخرة « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » (٣) وقال بعضهم : فيه دلالة على ذلك ، ولذلك قال : « وكفى بجهنم سعيرا » أي ان كان صرف بعض العقاب ، فكفى بجهنم استغراقا بالعذاب .

اللغة :

وسعير بمعنى مسعورة وترك ـ لأجل الصرف ـ التأنيث للمبالغة في الصفة كما قالوا : كف خضيب ولحية دهين . وتركت علامة التأنيث ، لأنها لما كان دخولها فيما

« ١ » سورة النساء : آية ٤٦ .
« ٢ » في المخطوطة (ومم) بدل (وقع) .
« ٣ » سورة آل عمران : آية ١٠٦ .

ليست له ، للمبالغة نحو رجل علامة كان سقوطها فيما بقي له للمبالغة فحسن هذا التقابل في الدلالة . والسعر : ايقاد النار ومنـــه قوله : « وإذا الجحيم سعرت » (١) واستعرت النار والحرب والشر استعاراً . واسعرتها اسعاراً . وسعرتها تسعيراً . والسعر : سعر المتاع وسعروه تسعيراً وذلك لاستعار السوق بحالها في البيع . والساعور كالتنور في الارض . والمسعور : الذي قد ضربته السموم ، والعطش . وزيدت الباء في قوله : « وكفى بجهنم » لتأكيد الاختصاص ، لأنه يتعلق به من وجهين : وجه الفعل في كفى جهنم كفولك : كفى الله ، ووجه الاضافة في الكفاية بجهنم . وعلى ذلك قيل : كفى بالله للدلالة على أن الكفاية تضاف إليه من أوكد الوجوه ، وهو وجه الفعل ، ووجه المصدر .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (٥٦) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى واللغة :

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن من جحد معرفته وكذّب أنبياءه ، ودفع الآيات التي تدل على توحيده ، وصدق نبيه أنه سوف يصليه ناراً لتدل على أن ذلك يفعله بهم في المستقبل ، ولم يكن دخولها للشك ، لأنه تعالى عالم بالأشياء لا يخفى عليه أمر من الأمور . ومعنى نصليه ناراً : نلزمه إياها تقول : أصليته النار : إذا القيته فيها ، وصليته صلياً : إذا شويته : وشاة مصلية أي مشويه . والصلا الشواء . وصلي فلان بشر فلان . وصلي برجل سوء .

وقوله : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال :

(١) سورة التكوير : آية ١٢ .

أحدها ـ قال الرماني : إن الله يجدد لهم جلوداً غير الجلود التي احترقت وتعدم المحترقة على ظاهر القرآن من أنها غيرها ، لأنها ليست بعض الانسان . قال قوم هذا لا يجوز ، لأنه يكون عذب من لا يستحق العذاب . قال الرماني : لا يؤدي إلى ذلك ، لأن ما يزاد لا يألم ، ولا هو بعض لما يألم ، وإنما هو شيء يصل به الألم إلى المستحق له . وقال الجبائي : لا يجوز أن يكون المراد ان يزاد جلداً على جلده ، كلما نضجت لأنه لو كان كذلك لوجب أن يملأ جسد كل واحد من الكفار جهنم إذا أدام الله العقاب ، لأنه كلما نضجت تلك الجلود زاد الله جلداً آخر ، فلابد أن ينتهي إلى ذلك .

والجواب الثاني ـ اختاره البلخي والجبائي ، والزجاج : ان الله تعالى يجددها بان يردها إلى الحالة التي كانت عليها غير محترقة ، كما يقال جئتني بغير ذلك الوجه وكذلك ، إذا جعل قميصه قباء جاز أن يقال جاء بغير ذلك اللباس أو غير خاتمه فصاغه خاتماً آخر جاز أن يقال هذا غير ذلك الخاتم ، وهذا هو المعتمد عليه .

والثالث ـ قال قوم : إن التبديل إنما هو للسرابيل التي ذكرها الله في قوله : « سرابيلهم من قطران» (١) فأما الجلود فلو عذبت ثم أوجدت ، لكان فيه تفتير عنهم ، وهذا بعيد ، لأنه ترك للظاهر وعدول بالجلود إلى السرابيل ، ولا نقول إن الله تعالى يعدم الجلود بل على ما قلناه يجددها ويطريها بما يفعل فيها من المعاني التي تعود إلى حالتها ، فأما من قال : إن الانسان غير هذه الجملة ؛ وأنه هو المعذب ، فقد تخلص من هذا السؤال . ويقوّي ماقلناه ان أهل اللغة يقولون : أبدلت الشيء بالشيء إذا أزلت عيناً بعين ، كما قال الراجز :

عزل الامير بالامير المبدل

وبدلت ـ بالتشديد ـ إذا غيرت هيئة ، والعين واحدة . يقولون : بدّلت جبتي قميصاً : إذا جعلتها قميصاً ذكره المغربي ، وقال البلخي : ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يخلق الله لهم جلداً آخر فوق جلودهم ، فاذا احترق التحتاني أعاده الله .

« ١ » سورة ابراهيم : آية ٥٠ .

وهكذا يتعقب الواحد الآخر قال : ويحتمل أن يخلق الله لهم جلداً لا يألم يعذبهم فيه ، كما يعذبهم في سرابيل القطران .

فان قيل : كيف قال : ﴿ ليذوقوا العذاب ﴾ مع أنه دائم لازم ؟ قيل : لأن احساسهم في كل حال كاحساس الذائق في تجدد الوجدان من غير نقصان ، لأن من استمر على الأكل ، لا يجد الطعم ، كما يجد الطعم من يذوقه . وقوله : « إن الله كان عزيزاً حكيماً » معناه أنه قادر قاهر لا يمتنع عليه انجاز ما توعد به أو وعد ، وحكيم في فعله لا يخلف وعيده ، ولا يفعل إلا قدر المستحق به فينبغي للعاقل أن يتدبره ، ويكون حذره منه على حسب علمه به ولا يغترّ بطول الامهال، والسلامة من تعجيل العقوبة .

قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ (٥٧) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

لما ذكر الله تعالى في الآية الأولى ما توعد به الكفار والجاحدين لآياته تعالى ، وعد في هذه الآية المصدقين به تعالى ، والعاملين الأعمال الصالحات ، وهي الحسنات التي هي طاعات الله ، وصالح يجري على وجهين :

أحدهما ـ على من يعمل الطاعة .

الثاني ـ على نفس العمل ويقال : رجل صالح ، ومعناه ذو عمل صالح ، ويقال: عمل صالح ، فيجري عليه الوصف بأنه صالح . وعدهم بأن سيدخلهم جنات وهي جمع جنة وهي البستان التي يجنها الشجر « تجري من تحتها الانهار » وفيه محذوف، لأن التقدير تجري من تحتها مياه الأنهار ، لأن الماء هو الجاري دون الأنهار

غير أنه بعرف الاستعمال سقط عنه اسم مجاز ، كما سقط في قولهم : هـذا شعر امرىء القيس وان كان المراد انه حكاية عنه ، فأما قوله : « واسأل القرية » مجاز لا محالة ، لأنه لا بد فيه من تقدير أهلها ، وقوله : « خالدين فيها أبـداً لهم فيها أزواج مطهرة » يعني من النفاس والحيض ومن جميع الأقذار ، والادناس .

اللغة :

والطهارة نقيض النجاسة . والنجاسة في الاصل هي ما كان نتناً نحو الجيف ، وغيرها ، وشبه بذلك نجاسة الحكم تبعاً للشريعة كما يقال في الخمر : إنهـا نجسة . وقوله : « ويدخلهم ظلا ظليلا » فالظل أصله الستر من الشمس قال رؤبة : كل موضع يكون فيه الشمس ، فتزول عنـه ، فهو ظل وفيء . وما سوى ذلك فظل ، لا يقال فيه فيء . والظل : الليل ، لأنه كالستر من الشمس . والظلة : السترة ، وظل يفعل كذا : إذا فعله نهاراً ، لأنه في الوقت الذي يكون للشمس ظل . والاظلال الدنو ، لأن الشيء بدنوه ، كأنه قد ألقى عليك ظله . والاظل : باطن منسم البعير ، لأن المنسم يستره . والظليل: هو الكنين ، لأنه لا شمس فيه ولا سموم . قال الحسن : ربما كان ظل ليس بظليل ، لأنه يدخله الحر والسموم ، فلذلك وصف ظل الجنـة بأنه ظليل . ومنه قوله : « وظل ممدود » (١) لأنه ليس كل ظل ممدوداً . وروي أن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ، لا يقطعها وهي شجرة الخلد . وقيل : إنما قال « ظلا ظليلا » فرقا بينه وبين «ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب » (٢) وقيل يدخلهم ظلا ظليلا في الموقف حيث لا ظل إلا ظل عرشه .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الامانات إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ

« ١ » سورة الواقعة : آية ٣١ .

« ٢ » سورة المرسلات آية ٣١ ـ ٣٢ .

بينَ النّاسِ أنْ تحكموا بالعدلِ إنّ اللهَ نِعما يَعظكُمْ بهِ إنّ اللهَ كانَ سَميعاً بَصيراً ﴾ (٥٨) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

قيل في المعني بهذه الآية ثلاثة أقوال :

أولها ـ ما قال ابن عباس ، وأبي بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) ، وأبي عبد الله (ع) : إن كل مؤتمن على شيء يلزمه رده .

الثاني ـ قال زيد بن أسلم ، ومكحول ، وشهر بن حوشب : إن المراد به ولاة الأمر وهو اختيار الجبائي ، وروي ذلك عن أبي جعفر أيضاً وأبي عبدالله(ع) وقالوا : أمر الله الأئمة كل واحد منهم أن يسلم الأمر إلى من بعده ، وعلى الوجه الأول يدخل هذا فيه ، لأن ذلك من جملة ما ائتمنه الله عليه . ولذلك قال أبو جعفر (ع): إن اداء الصلاة والزكاة والصوم والحج من الأمانة ، ويكون الأمر للآمر بأداء الأمانة من الغنائم والصدقات ، وغير ذلك مما يتعلق به حق الرعية .

الثالث ـ قال ابن جريج : نزلت في عثمان بن طلحة. أمر الله تعالى نبيه أن يرد إليه مفاتيح الكعبة ، والمعتمد هو الأول ، وإن كان الاخير روي أنه سبب نزول الآية ، غير أنه لا يقصر عليه .

اللغة والمعنى :

تقول : أديت الشيء أؤديه تأدية ، وهو المصدر الحقيقي ، ولو قلت : أديت أداء كان جائزاً يقام الاسم مقام المصدر . ويقال : أدوت للصيد آدو له ادواً : إذا ختلته ، لتصيده . وأدى اللبن يأدي : إذا حمض . وقوله : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » أمر الله تعالى الحكام بين الناس أن يحكموا بالعدل لا بالجور « ان الله نعما يعظكم به» معناه نعم الشيء شيئاً يعظكم الله به من أداء الامانة وكتبت (ما) في (نعما) موصولة، لأنها بمنزلة الكافة في (إنما) ، و(ربما) ، غير انها في نعما

اسم يعود إليه الضمير في (به)فتقديره نعم شيئاً يعظكم به أو نعم وعظاً يعظكم به ، ولا يجوز إسكان العين مع الميم في نعما لأنه جمع بين ساكنين ، ولكن يجوز اختلاس الحركة من غير اشباع الكسرة ، كالاختلاس في « يأمركم » و بارئكم » وعلى هذا تحمل قراءة أبي عمر . وقال الزجاج : اجتماع الساكنين فيه ينكره جميع البصريين .

والسميع : هو من كان على صفة يجب لاجلها أن يسمع المسموعات إذا وجدت والبصير من كان على صفة يجب لاجلها أن يبصر المبصرات إذا وجدت . والسامع هو المدرك للمسموعات . والمبصر هو المدرك للمبصرات . ولذلك يوصف تعالى فيما لم يزل بأنه سميع بصير ، ولا يوصف بأنه سامع مبصر إلا بعد وجود المبصرات والمسموعات .

وقوله : ﴿ إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ اخبار بأنه كان سميعاً بصيراً فيما مضى . وذلك يرجع إلى كونه حياً لا آفة به فاذا كان لا يجوز خروجه عن كونه حياً ، فلا يجوز خروجه عن كونه سميعاً بصيراً .

قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وَأطيعوا الرَّسولَ وَأولي الامرِ مِنكمْ فانْ تَنازَعتمْ في شيءٍ فَردُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسولِ إن كنتم تؤمِنونَ باللهِ وَاليومِ الآخرِ ذلكَ خيرٌ وَأحسنُ تأويلاً ﴾ (٥٩)

ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين يأمرهم أن يطيعوه ويطيعوا رسوله ويطيعوا أولي الأمر منهم ، فالطاعة هي امتثال الأمر . فطاعة الله هي امتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه . وطاعة الرسول كذلك امتثال أوامره وطاعة الرسول أيضاً هي طاعة الله ، لأنه تعالى أمر بطاعة رسوله ، فمن أطاع الرسول ، فقد أطاع

الله كما قال « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (١) فأما المعرفة بأنه رسول ، فمعرفة بالرسالة ولا يتم ذلك إلا بعد المعرفة بالله ، وليست احداهما هي الأخرى ، وطاعة الرسول واجبة في حياته وبعد وفاته ، لأن بعد وفاته يلزم اتباع سنته ، لأنه دعا إليها جميع المكلفين إلى يوم القيامة ، كما أنه رسول إليهم أجمعين . فأما أولو الأمر ، فللمفسرين فيه تأويلان :

أحدها ـ قال أبو هريرة ، وفي رواية عن ابن عباس ، وميمون بن مهران ، والسدي ، والجبائي ، والبلخي ، والطبري : إنهم الامراء .

الثاني ـ قال جابر بن عبدالله ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وعطاء ، وأبي العالية : انهم العلماء . وروى أصحابنا عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) أنهم الأئمة من آل محمد (ص) فلذلك أوجب الله تعالى طاعتهم بالاطلاق ، كما أوجب طاعة رسوله وطاعة نفسه كذلك . ولا يجوز ايجاب طاعة أحد مطلقاً إلا من كان معصوماً مأموناً منه السهو والغلط ، وليس ذلك بحاصل في الامراء ، ولا العلماء ، وإنما هو واجب في الأئمة الذين دلت الأدلة على عصمتهم وطهارتهم ، فأما من قال المراد به العلماء ، فقوله بعيد ، لأن قوله ﴿وأولي الأمر﴾ معناه أطيعوا من له الأمر ، وليس ذلك للعلماء ، فان قالوا : يجب علينا طاعتهم إذا كانوا محقين ، فاذا عدلوا عن الحق فلا طاعة لهم علينا . قلنا : هذا تخصيص لعموم ايجاب الطاعة لم يدل عليه دليل . وحمل الآية على العموم ، فيمن يصح ذلك فيه أولى من تخصيص الطاعة بشيء دون شيء كما لا يجوز تخصيص وجوب طاعة الرسول وطاعة الله في شيء دون شيء . وقوله : ﴿فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ فمعنى الرد إلى الله هو إلى كتابه والرد إلى رسوله هو الرد إلى سنته . وقول مجاهد ، وقتادة ، وميمون بن مهران ، والسدي : والرد إلى الأئمة يجري مجرى الرد إلى الله والرسول ، ولذلك قال في آية أخرى « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » (٢) ولأنه إذا كان

« ١ » سورة النساء : آية ٧٩ . « ٢ » سورة النساء : آية ٨٢ .

قولهم حجة من حيث كانوا معصومين حافظين للشرع جروا مجرى الرسول في هذا الباب . وقوله : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي تصدقون بها . ﴿ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ ذلك اشارة إلى الرد إلى الله وإلى الرسول ﴿وأحسن تأويلا﴾ قال قتادة ، والسدي ، وابن زيد : أحمد عاقبة . وقال مجاهد : معناه أحسن جزاء .

وهو من آل يؤول إذا رجع والمآل المرجع والعاقبة مآل ، لأنها بمنزلة ماتفرقت عنه الاشياء ثم رجعت إليه . وتقول: إلى هذا يؤول الأمر أي يرجع . وقال الزجاج : أحسن من تأويلكم أنتم إياه من غير رد إلى أصل من كتاب الله وسنة نبيه ، وهذا هو الأقوى ، لأن الرد إلى الله والرسول والأئمة المعصومين أحسن من تأويل بغير حجة .

واستدل جماعة بهذه الآية على أن الاجماع حجة بأن قالوا : إنما أوجب الله الرد إلى الكتاب والسنة بشرط وجود التنازع ، فدل على أنه إذا لم يوجد التنازع ، لا يجب الرد ، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة ، وهذا إن استدل به مع فرض أن في الامة معصوماً حافظاً للشرع كان صحيحاً ، وإن فرضوا مع عدم المعصوم كان باطلا ، لأن ذلك استدلال بدليل خطاب ، لأن تعليق الحكم بشرط أو صفة لا يدل على أن ما عداه بخلافه عند أكثر المحصلين ، فكيف يعتمد عليه ههنا ، على أنهم لا يجمعون على شيء إلا عن كتاب أو سنة ، فكيف يقال : إذا أجمعوا لا يجب عليهم الرد إلى الكتاب والسنة ، وهم قد ردوا إليهما على أن ذلك يلزم في كل جماعة ، وإن لم يكونوا جميع الأمة إذا اتفقوا على شيء ألا يجب عليهم الرد إلى الكتاب والسنة ، لأن قوله : ﴿ فان تنازعتم ﴾ يتناول جماعة ولا يستغرق جميع الأمة ، فعلم بذلك فساد الاستدلال بما قالوه . وقد بينا الكلام على ذلك مستوفى في العدة في أصول الفقه .

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ يَزعُمونَ أَنَّهمْ آمَنوا بِما أُنزِلَ إليكَ وَما

أُنزِلَ مِنْ قَبلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتحاكَموا إلى الطاغوتِ وَقدْ أُمِروا أَنْ يَكفروا بهِ وَيُريدُ الشَّيطانُ أنْ يضلَّهم ضَلالاً بَعيداً ﴾ (٦٠)

ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى واللغة :

عجب الله تعالى نبيه (ص) في هذه الآية ممن يزعم أنه آمن بما أنزل على محمد (ص) ، وما أنزل من قبله بأن قال ألم ينته علمك إلى هؤلاء الذين ذكرنا وصفهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمرهم الله أن يكفروا به . وقال الحسن ، والجبائي : نزلت الآية في قوم منافقين احتكموا إلى الأوثان بضرب القداح . وقد بينا معنى الطاغوت فيما تقدم . وقيل في معناه ههنا قولان :

أحدهما ـ أنه كاهن تحاكم إليه رجل من المنافقين ، ورجل من اليهود هذا قول الشعبي ، وقتادة . وقال السدي اسمه أبو بردة .

الثاني ـ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والربيع ، والضحاك : إنه كعب ابن الاشرف رجل من اليهود ، فاختار المنافق التحاكم إلى الطاغوت ، وهو رجل يهودي . وقيل : كعب بن الاشرف ، لأنه يقبل الرشوة ، واختار اليهودي التحاكم إلى محمد نبينا (ص) لأنه لا يقبل الرشوة . ومعنى الطاغوت ذو الطغيان ـ على جهة المبالغة في الصفة ـ فكل من يعبد من دون الله فهو طاغوت ، وقد تسمى به الأوثان كما تسمى بأنها رجس من عمل الشيطان ، ويوصف به كل من طغى ، بأن حكم بخلاف حكم الله تعالى غير راض بحكمه تعالى . وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) أن الآية في كل من يتحاكم إلى من يحكم بخلاف الحق ، و(زعم) ، يحتاج إلى اسم ، وخبر ، « وانهم » في الآية نائب عن الاسم ، والخبر ، لأنها على معنى الجملة ، ومخرج المفرد ، وليس بمنزلة ظننت ذلك ، لأنه على معنى المفرد ومخرج المفرد ، لأن قولك : زعمت أنه قائم يفيد ما يفيد هو قائم ، وكذلك ظننت ذاك ، لأنه

يدل دلالة الاشارة إلى ما تقدر علمه عند المخاطب .

وقوله : ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً ﴾ يدل على بطلان قول المجبرة : إن الله تعالى يفعل المعاصي ويريدها ، لأن الله تعالى نسب إضلالهم إلى أنه بارادة الشيطان على وجه الذم لهم ، فلو أراد تعالى أن يضلهم بخلق الضلال فيهم، لكان ذلك أوكد وجوه الذم في إضلالهم .

وأصل الضلال الهلاك بالعدول عن الطريق المؤدي إلى البغية ، لأنه ضد الهدى الذي هو الدلالة على الطريق المؤدي إلى البغية ، وله تصرف كثير يرجع إلى هذه النكتة ذكرناه فيما مضى . وأضله الله معناه : سماه الله ضالا أو حكم عليه به ، كما يقال أكفره بمعنى سماه بالكفر ، ولا يجوز أن يقال أكفره الله بمعنى أنه دعاه إلى الكفر ، لأنه منزه عن ذلك ، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قوله تعالى :

﴿ وَإذا قيلَ لَهمْ تَعالوا إلى ما أنزلَ اللهُ وَإلى الرَّسُولِ رَأيتَ المنافِقينَ يَصدّونَ عَنكَ صُدوداً ﴾ (٦١) ـ آية ـ .

قال ابن جريج : الداعي إلى حكم الرسول هو المسلم الذي يدعو المنافق إلى حكم الرسول (ص) . وقال قتادة : هو يهودي دعا المنافق إلى حكم الرسول ، لعلمه أنه لا يجور في الحكم « وتعالوا » أصله من العلو وهو تفاعلوا ، منه كقولك : توافقوا ، فاذا قلت لغيرك : تعال ، فمعناه ارتفع علي ـ وان كان في انخفاض من الارض ـ لأنه جعله كالرفيع بكونه فيه ، ويجوز أن يكون أصله للمكان العالي حتى صار لكل مكان . وقوله : ﴿ يصدون عنك صدوداً ﴾ قيل في سبب صد المنافقين عن النبي (ص) قولان :

أحدها ـ لعلمهم بأنه لا يأخذ الرشا على الحكم وأنه يحكم بمر الحق .

والثاني ـ لعداوتهم للدين .

وصددت الأصل فيه ألا يتعدى ، لأنك تقول : صددت عن فلان أصد

بمعنى أعرضت عنه ، ويجوز صددت فلاناً عن فلان - بالتعدي - لأنه دخله معنى منعته عنه . ومثله رجعت أنا ورجّعت غيري ، لأنه دخله معنى رددته ، فلذلك جاز رجعته ، « وصدوداً » نصب على المصدر على وجه التأكيد للفعل ، كقوله : « وكلم الله موسى تكليما » (١) ومعنى ذلك أنه ليس ذلك على بيان كالكلام بل كله في الحقيقة . وقيل في معنى « تكليما » أنه كله تكليما شريفاً عظيماً ويمكن مثله في الآية . ويكون تقديره رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً عظيما .

قوله تعالى :

﴿ فكَيفَ إذا أَصابَتهمْ مُصيبةٌ بما قَدَّمتْ أَيديهمْ ثمَّ جاؤُكَ يَحلفونَ باللهِ إنْ أَردنا إلا إحساناً وَتوفيقاً ﴾ (٦٢) - آية - .

الاعراب:

قيل في موضع كيف من الاعراب قولان :

أحدها - انه رفع بتقدير : فكيف صنيعهم إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، كأنه قال الاساءة صنيعهم بالجرأة في كذبهم أم الاحسان بالتوبة من جرمهم .

والثاني - انه نصب وتقديره : كيف يكونون أمصرين أم تائبين يكونون؟ ويجوز الرفع على معنى كيف بك . كأنه قال أصلاح أم فساد ؟

المعنى :

وقيل في معنى المصيبة في الآية قولان :

أحدها - ذكره الزجاج : ان بعض المنافقين أظهر أنه لا يرضى بحكم رسول الله (ص) ، فقتله عمر ، ثم جاء إخوانه من المنافقين يطالبون بدمه «يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً » كذباً وزوراً .

« ٣ » سورة الانفطار : آية ١٤ .

الثاني ـ ان أصابتهم نقمة من الله لم ينيبوا تائبين من المعصية بل يزدادون جرأة بحلفهم كاذبين بالله عز وجل . وقال الحسين بن علي المغربي : الآية نزلت في عبد الله بن أبي وما أصابه من الذل عند مرجعهم من غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع حين نزلت سورة المنافقين ، فاضطر إلى الخشوع والاعتذار ، وذلك مذكور في تفسير سورة المنافقين أو مصيبة الموت لما تضرع إلى رسول الله (ص) في الاقالة والاستغفار واستوهبه ثوبه ، ليتقي به النار يقولون : ما أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً أي بكلامه بين الفريقين المتنازعين في غزوة بني المصطلق . وقوله : ﴿ فاعرض عنهم ﴾ يأساً منهم ﴿ وعظهم ﴾ ايجاباً للحجة عليهم « وقل لهم في أنفسهم قولا بليغاً » فيه دلالة على فضل البلاغة وحث على اعتمادها . وقوله : « إن أردنا إلا احساناً وتوفيقاً » معناه قيل فيه قولان :

أحدهما ـ أي ما اردنا بالمطالبة بدم صاحبنا إلا احساناً إلينا ، وما وافق الحق في أمرنا .

الثاني ـ ما أردنا بالعدول عنك في المحاكمة إلا توفيقاً بين الخصوم ، واحسانا بالتقريب في الحكم دون الحمل على مرّ الحق . كل ذلك كذب منهم وافك .

ان قيل كيف يقتضي الانتقام منهم الاعتذار لما سلف من جرمهم ؟ قلنا : عنه جوابان :

أحدهما ـ للتقريع بتعجيل العقاب على ما ارتكبوا من الآثام .

الثاني ـ ان الانتقام قد يكون اقصاء النبي (ص) واذلاله إياهم ، وتخويفه بالنفي أو القتل ان لم ينتهوا عن قبائحهم ـ هذا قول الجبائي ـ والحلف : القسم . ومنه الحلف ، لتحالفهم فيه على الامر . وحليف الجود ونحوه ، لأنه كالحلف في اللزوم ، أو حلف الغلام إذا قارب البلوغ .

قوله تعالى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ (٦٣) ـ آية ـ .

المعنى :

﴿ أولئك ﴾ اشارة إلى المنافقين الذين تقدم وصفهم ، وإنما قال : يعلم ما في قلوبهم وإن كان معلوماً ذلك بدلالة العقل لأمرين :

أحدها ـ تأكيداً لما علمناه .

والثاني ـ انه يفيد أنه لا يغني عنهم كتمان ما يضمرونه شيئاً من العقاب ، لأن الله يعلم ما في قلوبهم من النفاق . وكذلك كل ما ذكره الله مما هو معلوم عند المخاطب . إنما الفائدة في مقارنته بما ليس بمعلوم على جهة الاحتجاج به ، أو غيره من الوجوه . وقوله : ﴿ فأعرض عنهم وعظهم ﴾ جمع بين معنى الاعراض والاقبال .
وقيل في معناه ثلاثة أوجه :

أحدها ـ فأعرض عنهم بعداوتك لهم ، وعظهم .

الثاني ـ فأعرض عن عقابهم وعظهم .

الثالث ـ قال الجبائي : أعرض عن قبول الاعتذار منهم . وقوله : « وقل لهم في أنفسهم قولا بليغاً » قال الحسن : القول البليغ الذي أمر به في الآية أن يقول : إن أظهرتم ما في قلوبكم قتلتكم ، فهذا يبلغ من نفوسهم كل مبلغ . وقال الجبائي : خوفهم بمكاره تنزل بهم في أنفسهم إن عادوا لمثل ما فعلوه . ويجوز أن يكون المراد ازجرهم عما هم عليه بأبلغ الزجر .

اللغة :

وأصل البلاغة البلوغ ، تقول : بلغ الرجل بالقول يبلغ بلاغة ، فهو بليغ : إذا كان بعبارته يبلغ كثير ما في قلبه . ويقال : أحمق بليغ ،وبلغ ومعناه .أنه أحمق يبلغ حيث يريد . وقيل :معناه قد بلغ في الحماقة . وفي الآية دلالة على فضل البلاغة ، وأنها أحد أقسام الحكمة ، لما فيها من بلوغ المعنى الذي يحتاج إلى التفسير باللفظ الوجيز مع حسن الترتيب .

قوله تعالى :

﴿ وَما أرسلنا مِنْ رَسولٍ إلا لِيطاعَ باذنِ اللهِ وَلو أنَّهمْ إذ ظَلموا أنفسهم جاؤكَ فاسْتغفروا اللهَ وَاستغفرَ لَهمُ الرَّسولُ لوَجدوا اللهَ تواباً رَحيماً ﴾ (٦٤) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

« ما » في قوله : « وما أرسلنا » نافية فلذلك قال : « من رسول » ، لأن (من) لا تزاد في الايجاب ، وزيادتها تؤذن باستغراق الكلام كقولك : ما جاءني من أحد . والتقدير في الآية : وما أرسلنا رسولا إلا ليطاع ، فيمتثل ما نأمره به . والذي اقتضى ذكر طاعة الرسول إعراض هؤلاء المنافقين ـ الذين تحاكموا إلى الطاغوت ـ عن طاعته ، وهم يزعمون أنهم يؤمنون به حتى كأنه قد قيل لهم : من الايمان أن لا تطيعوه في كل ما يدعو إليه ، فبين الله تعالى أنه كغيره من الرسل الذي ما أرسل إلا ليطاع . وقوله : « باذن الله » معناه بأمر الله الذي دل على وجوب طاعتهم ، والاذن على وجوه : يكون بمعنى اللطف ، كقوله : « وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله » (١) ومنها الأمر مثل هذه الآية . ومنها التخلية نحو « وما هم بضارّين به من أحد إلا باذن الله » (٢) وقوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » معناه إذ بخسوها حقها بادخال الضرر عليها بفعل المعصية من استحقاق العقاب ، وتفويت الثواب بفعل الطاعة .

الاعراب والمعنى :

وموضع « أنهم » رفع . والمعنى لو وقع مجيئهم في وقت ظلمهم مع استغفارهم « لوجدو الله تواباً رحيماً » و (لو) موضوعة للفعل ، لما فيها من معنى الجزاء تقول : لو كان كذا ، لكان كذا . ولا يقع بعدها إلا (أن) . وإنما اجيز في (أن)

« ١ » سورة يونس : آية ١٠٠ . « ٢ » سورة البقرة : آية ١٠٢ .

خاصة أن تقع بعدها ، لأنها كالفعل في إفادة معنى الجملة . وفتحت (ان) لأنها مبنية على (لو) بترتيبها على نحو ترتيبها بعد العامل فيها . وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة : من أن الله تعالى يريد أن يعصي الانبياء قوم ويطيعهم آخرون ، لأنه تعالى بين أنه ما أرسلهم إلا ليطاعوا ، واللام لام الغرض ومعناه إلا وأراد من المبعوث إليهم أن يطيعوا . وذلك خلاف مذهبهم . وفيها أيضاً دلالة على أن من كان مرتكباً لكبيرة يجب أن يستغفر الله فان الله سيتوب عليه ويقبل توبته ، ولا ينبغي لأحد أن يستغفر مع كونه مصراً على المعصية بل ينبغي أن يتوب ويندم على ما فعل ويعزم على أن لا يعود إلى مثله ثم يستغفر باللسان ليتوب الله عليه . وقوله : « لوجدوا الله » يحتمل أمرين :

أحدها ـ لوجدوا مغفرة الله لذنوبهم ورحمته إياهم .

والثاني ـ لعلموا الله تواباً رحيماً . والوجدان قد يكون بمعنى الادراك ، فلا يجوز عليه تعالى أنه تعالى غير مدرك في نفسه . وذكر الحسن في هذه الآية : أن اثني عشر رجلا من المنافقين اجتمعوا على أمر من النفاق وائتمروا به فيما بينهم ، فاخبره الله بذلك ، وقد دخلوا على رسول الله ، فقال رسول الله : إن اثني عشر رجلا من المنافقين اجتمعوا على أمر من النفاق ، وائتمروا به فيما بينهم ، فليقم أولئك فليستغفروا ربهم ، وليعترفوا بذنوبهم حتى اشفع لهم . فلم يقم أحـــد . فقال رسول الله (ص) : ألا تقومون ؟ ـ مراراً ـ . ثم قال : قم يافلان وأنت يافلان ، فقالوا يارسول الله نحن نستغفر الله ونتوب إليه ، فاشفع لنا . قال الآن أنا كنت في أول أمركم أطيب نفساً بالشفاعة ، وكان الله تعالى أسرع إلى الاجابة أخرجوا عني ، فأخرجوا عنه حتى لم يرهم .

قوله تعالى :

« فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنونَ حتى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَينهمْ ثمَّ لا يَجِدوا في أنفسهمْ حَرَجاً مما قَضيتَ وَيُسلموا تَسليماً » (٦٥) ـ آية ـ .

قيل في معنى دخول (لا) في أول الكلام قولان :

أحدهما ـ أنها رد لكلام . كأنه قيل لا الامر كما يزعمون من الايمان وهم على تلك الحال من الخلاف ، ثم استؤنف قوله : « وربك لايؤمنون حتى ... » .

الثاني ـ انها توطئة للنفي الذي يأتي فيما بعد ، لأنه إذا ذكر في أول الكلام وآخره كان أوكد وأحسن ، لأن النفي له صدر الكلام . وقد اقتضى القسم أن يذكر في الجواب .

النزول :

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان :

أحدهما ـ أنها نزلت في الزبير ورجل من الانصار تخاصما إلى النبي (ص) في سراح من الحرة كانا يسقيان منه نخلا لهما ، فقال النبي (ص) اسق يازبير ثم ارسل إلى جارك ، فغضب الانصاري ، وقال : يارسول الله ان كان ابن عمتك ؟ ! فتلون وجه رسول الله حتى عرف ان قد ساءه ، ثم قال يازبير احبس الماء إلى الجدد(١) أو إلى الكعبين ، ثم خل سبيل الماء ، فنزلت الآية . وقال أبو جعفر (ع) كانت الخصومة بين الزبير ، وحاطب بن أبي بلتعة روي ذلك عن الزبير وأم سلمة . وذهب إليه عمر بن شبه ، والواقدي . وقال قوم وهو اختيار الطبري : إنها نزلت في المنافق واليهودي اللذين احتكما إلى الطاغوت . قال : لأن سياق الكلام بهذا أشبه .

اللغة والمعنى :

وقوله : ﴿ فيما شجر بينهم ﴾ معناه فيما وقع بينهم من الاختلاف . تقول شجر يشجر شجراً وشجوراً وشاجره في الأمر : إذا نازعه فيه مشاجرة ، وشجاراً وتشاجروا فيه : تشاحوا . وكل ذلك لتداخل كلام بعضهم في بعض كتداخل الشجر بالتفافه . وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة ، لأنه إذا وجب الرضى بفعل النبي (ص) فالرضا بفعل الله تعالى أولى ، ولو كان خلق الكفر والمعاصي لوجب على الخلق الرضا به . وذلك خلاف الاجماع . وقيل في معنى الحرج قولان :

« ١ » أراد ما رفع من اعضاد المزرعة لتمسك الماء كالجدار . وورواية ، قال له : « احبس الماء حتى يبلغ الجدى ـ بضم الميم وتشديد الدال ـ » وهي المسناة ـ عن لسان العرب : (جدد) ـ .

أحدها ـ قال مجاهد هو الشك . وقال الضحاك : الاثم . وأصل الحرج الضيق فكأنه قال ضيق شك أو اثم وكلاهما يضيق الصدر . ومعنى الآية أن هؤلاء المنافقين لا يؤمنون حتى يحكموا النبي (ص) فيما وقع بينهم من الاختلاف ، ثم لا يجدوا حرجاً مما قضى به أي لا تضيق صدورهم به ، ويسلموا لما يحكم به لا يعارضونه بشيء فحينئذ يكونون مؤمنين . و « تسليما » مصدر مؤكد والمصادر المؤكدة بمنزلة ذكرك للفعل ثانياً كأنك قلت : سلمت تسليماً ومن حق التوكيد أن يكون محققاً لما تذكره في صدر كلامك ، فاذا قلت : ضربت ضرباً ، فمعناه أحدثت ضرباً احقه حقاً ولا أشك فيه . ومثله في الآية انهم يسلمون من غير شك يدخلهم فيه . وقال أبو جعفر (ع) : لما حكم النبي (ص) للزبير على خصمه ، لوى شدقه وقال لمن سأله عمن حكم له ، فقال : لمن يقضي ؟ لابن عمته . فتعجب اليهودي وقال : إنا آمنا بموسى فأذنبنا ذنباً فأمرنا الله تعالى بأن نقتل أنفسنا ، فقتلناها فأجلت عن سبعين ألف قتيل . وهؤلاء يقرون بمحمد (ص) ويطؤون عقبه ولا يرضون بقضيته ، فقال ثابت بن الشماس لو أمرني الله أن أقتل نفسي لقتلتها فأنزل الله « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم .... » إلى قوله : « إلا قليل منهم » يعني ابن الشماس ذكره السدي .

قوله تعالى :

﴿ وَلو أنا كتبنا عَليهم أنِ اقتلوا أنفسكم أو اخرُجوا مِنْ ديارِكُمْ ما فَعلوه إلا قَليلٌ مِنهمْ وَلو أنّهمْ فَعلوا ما يُوعظونَ بهِ لَكانَ خيراً لَهمْ وَأشدَّ تثبيتاً ﴾ (٦٦) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة ، والحجة :

قرأ ابن عامر وحده « إلا قليلا » بالنصب ، وكذلك هو في مصاحف أهل الشام . الباقون بالرفع . وقيل : إن النصب قراءة أبي ، فمن رفع فعلى البدل من

المضمر كأنه قال : ما فعله إلا قليل منهم . وهذا يجوز في النفي دون الاثبات ، لأنه لا يجوز أن يقول فعله إلا قليل منهم ، لأن الفعل ليس للقليل في الاثبات كما هو لهم في النفي .وقال الكسائي : ارتفع بالتكرار . والمعنى ما فعلوه ما فعله إلا قليل . ومن نصب فانه قال : الاستثناء بعد تمام الكلام ، لأن قوله : « ما فعلوه » كلام تام كما أن قولك فعل القوم كلام تام . فاستثنى بعده ، ولم يجعل ما بعد إلا عليه الاعتماد .والوجه الرفع ، لأن الفعل لهم .فهو أدل على المعنى . وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي « ان اقتلوا » بضم النون وبضم الواو في قوله : « أو اخرجوا » وقرأ عاصم وحمزة بكسرهما وكسر النون .وضم الواو أبو عمرو . فمن ضمهما فلان الثالث مضموم أتبع الضمة . ومن كسرهما فعلى أصل الحركة لالتقاء الساكنين . وأبو عمرو ضم الواو تشبيهاً بواو « اشتروا الضلالة » (١). « ولا تنسوا الفضل بينكم » (٢) .

المعنى :

ومعنى قوله : ﴿ولو أنا كتبنا عليهم﴾ أي لو أنا ألزمناهم وأوجبنا عليهم «أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم » أي لو كتبنا عليهم ذلك ـ كما أوجبنا على قوم موسى وقتلوا أنفسهم وأخرجهم إلى التيه ـ ما فعله هؤلاء للمشقة التي فيه مع أنه كان ينبغي أن يفعلوه ، لما لهم فيه من الحظ ، لأنا لم نكن لنأمرهم به إلا لما تقتضيه الحكمة ، وما فيه من المصلحة مع تسهيلنا تكليفهم وتيسيرنا عليهم ، فما يقعدهم عنه مع تكامل أسباب الخير فيه وسهولة طريقه ؟ ولو فعلوا ما يوعظون به أي ما يؤمرون به ، لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً . وقيل في معناه قولان :

أحدهما ـ ان البصيرة أثبت من اعتقاد الجهالة لما يعتري فيها من الحيرة واضطراب النفس الذي يتميز من حال المعرفة بسكون النفس إليه .

الثاني ـ ان اتباع الحق أثبت منفعة لأن الانتفاع بالباطل يضمحل بما يعقب

(١) سورة البقرة : آية ١٦ ، ١٧٥ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٣٧ .

من المضرة وعظيم الحسرة . فالاول لأجل البصيرة . والثاني لأجل دوام المنفعة . وقال البلخي معنى الآية أنه لو فرض الله عليهم قتل أنفسهم كما فرض على قوم موسى عندما التمسوا أن يتوب عليهم أو الخروج من ديارهم ما فعلوه . فاذا لم يفرض عليهم ذلك ، فليفعلوا ما أمروا به مما هو أسهل عليهم منه ، فان ذلك خير لهم وأشد تثبيتاً لهم على الايمان . وفي الدعاء اللهم ثبتنا على ملة رسولك . ومعناه اللهم الطف لنا ما نثبت معه على التمسك بطاعة رسولك والمقام على ملته .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذاً لآتيناهُمْ مِنْ لَدُنا أجراً عَظيماً (٦٧) وَلَهَدَيناهُمْ صِراطاً مُستقيماً ﴾ (٦٨) - آيتان بلا خلاف - .

قيل : ان « إذاً » دخلت ههنا لتدل على معنى الجزاء ، كأنه قال ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً جزاء على فعلهم [ومعنى] «إذاً» جواب وجزاء وهي تقع متقدمة ومتأخرة ومتوسطة وإنما تعمل متقدمة خاصة إلا أن يكون الفعل بعدها للحال نحو إذاً أظنك خارجاً. وتلغى اذاً عن العمل من بين أخواتها لأنها تشبه أظن في الاستدراك بها تقول : زيد في الدار أظن فتستدرك بها بعد ما مضى صدر الكلام على اليقين . وكذلك يقول القائل : أنا أجيئك فتقول: وأنا أكرمك اذن . أردت أن تقول : وأنا أكرمك ثم استدركته باذن . ولدن مبنية ولم تبن عند ، لأنها أشد إبهاما إذا كانت تقع في الجواب نحو أين زيد ، فتقول : عند عمرو ، فلا يقع لدن هذا الموقع ، فجرت لشدة الابهام مجرى الحروف . ومعنى (لدنا) ههنا من عندنا . وإنما ذكر « من لدنا » تأكيداً للاختصاص ، بأنه مالا يقدر عليه إلا الله ، لأنه قد يؤتي بما يجريه على يد غيره . وقد يؤتي بما يختص بفعله . وذلك أشرف له وأعظم في النعمة ولأنه متحف بما لا يقدر عليه غيره . وقوله : « ولهديناهم » معناه ولفعلنا من اللطف بهم ما يثبتون معه على الطاعة ، ولزوم الاستقامة وإنما لم يفعل بهم هذا اللطف مع الحال التي هم عليها ، لأنه يخرجهم

من معنى اللطف حتى يصيروا بمنزلة من لا لطف له على وجه . ومثله « اهدنا الصراط المستقيم » أي ثبتنا بلطفك على الصراط المستقيم . وقال أبو علي : معناه الأخذ بهم على طريق الجنة في الآخرة . قال : ولا يجوز أن يكون المراد بالهداية ههنا الارشاد إلى الدين لأنه تعالى وعد بهذا من يكون مؤمناً مطيعاً . ولا يكون كذلك إلا وقد اهتدى ، فان قيل : لم جاز أن يمنعوا اللطف لسوء فعلهم . ولم يجز أن يمنعوا لسوء فعل غيرهم إذ قد صاروا بمنزلة من لا لطف لهم ؟ قلنا : لأنهم يؤتون في معاصيهم من قبل أنفسهم ولا يجوز أن يؤتوا فيها من قبل غيرهم ولو جاز ذلك لجاز أن يقتطعوا عن التوبة بالقتل فيكونوا قد أوتوا في معاصيهم من قبل المتقطع لهم وتكون التخلية فيه بمنزلة الاماتة . والواجب في هذا ان يمنع غير هذا المكلف من سوء الفعل الذي فيه ارتفاع اللطف . فان كان لطف هذا المكلف متعلقاً بفعل غيره، وقد علم انه لا يفعله ، لم يحسن تكليف هذا المكلف لأنه ان منع هذا من الايمان ، فسد ، وان ترك وسوء الفعل فسد . واللام في قوله : « ولهديناهم صراطاً مستقيما» لام الجواب التي تقع في جواب (لو) كما تقع في جواب القسم . كما قال امرؤ القيس:

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما ان من حديث ولا صال(١)

والفرق بين لام الجواب ولام الابتداء ان لام الابتداء لا تدخل إلا على الاسم المبتدأ إلا في باب (ان) خاصة فانها تدخل على الفعل لمضارعته الاسم . يبين ذلك قولك : قد علمت ان زيداً ليقوم . وقد علمت ان زيـداً ليقومن فتكسر (ان) الأولى وتفتح الثانية .

وقوله : ﴿ صراطاً ﴾ نصب على أنه مفعول ثان ، لأنه في معنى مفعول كسوته ثوباً ، أي فاكتسى ثوباً . فكذلك ولهديناهم فاهتدوا صراطاً .

قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسولَ فاولئكَ مَعَ الَّذينَ أنعمَ اللهُ

---

(١) ديوانه : ١٦١ حلفة فاجر : قسم فاسق . صال : مستدفىء بالنار . في المطبوعة (حويث) بدل (حديث) .

عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً (٦٩) ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴾ (٧٠) - آيتان - .

المعنى واللغة والنزول :

لما جرى ذكر الطاعة فيما تقدم والحض عليها اقتضى ذكر طاعة الله ، وطاعة الرسول ، والوعد عليها . وقيل : إنه وعد بأمر مخصوص على الطاعة من مرافقة النبيين ومن ذكر معهم وهو أعم فائدة . ومعنى قوله : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ﴾ انه يستمتع برؤية النبيين وزيارتهم ، والحضور معهم . فلا ينبغي أن يتوهم من أجل أنهم في أعلى عليين انه لا يراهم .

وقال الحسن ، وسعيد بن جبير ، ومسروق ، وقتادة ، والربيع ، والسدي ، وعامر : إن سبب نزول هذه الآية ان بعض الناس توهم ذلك ، فحزن له ، وسأل النبي (ص) عن ذلك ، فأنزل الله الآية .

وقيل في معنى الصدّيق قولان :

أحدها - المداوم على ما يوجبه التصديق بالحق .

الثاني - ان الصديق هو المتصدق بما يخلص له من عمل البر . والاول أظهر .

والشهداء جمع شهيد . وهو المقتول في سبيل الله . وفي تسميته شهيداً قولان :

أحدها - لأنه قام بشهادة الحق حتى قتل في سبيل الله .

والآخر - انه من شهداء الآخرة بما ختم له من القتل في سبيل الله . وليست الشهادة هي القتل ، لأنها معصية ، ولكنها حال المقتول في اخلاص القيام بالحق لله مقراً به ، وداعياً إليه . وقيل : الشهادة هي الصبر على ما أمره الله به من قتال عدوه والانقياد له . فأما الصبر على الألم بترك الأنين فليس بممنوع ، بل هو مباح إذا لم يقل ما يكرهه الله . وقال الجبائي : الشهداء جمع شهيد . وهم الذين جعلهم الله شهداء في الآخرة . فهم عدول الآخرة . وهذا على مذهبه بعيد ، لأن أهل الجنة

كلهم عدول عنده ، لأن من ليس بعدل لا يدخل الجنة . والله تعالى وعد من يطيعه ويطيع رسوله بأنه يحشره مع هؤلاء . فينبغي أن يكونوا غير الموعود لهم . وإلا يصير تقديره إنهم مع نفوسهم .

والصالح : من استقامت نفسه بحسن عمله . والمصلح المقوم لعمل يحسنه . ويقال : الله يصلح في تدبير عباده . بمعنى أنه يحسن تدبير عباده . ولا يوصف بانه صالح .

الاعراب :

وقوله : ﴿ وحسن أولئك رفيقاً ﴾ نصب على التمييز . ولذلك لا يجمع . وهو في موضع رفقاء . وقيل إنه لم يجمع ، لأن المعنى ، حسن كل واحد منهم رفيقاً كما قال : « يخرجكم طفلا » (١) وقال الشاعر :

نصبن الهوى ثم ارتمين قلوبنا باسهم أعداء وهن صديق (٢)

ومن قال : « رفيقاً » نصب على التمييز ، قال : لأنه قد سمع حسن أولئك من رفقاء ، وكرم زيد من رجل . وقال قوم : هو نصب على الحال ، فانه قد تدخل (من) في مثله . فاذا سقطت (من) فالحال هو الاختيار ، لأنه من أسماء الصفات كأسماء الاجناس . ويكون التوحيد لما دخله من معنى حسن كل واحد منهم مرافقاً . ونظيره : لله درهم فارساً ، أي حال الفروسية .

اللغة :

والرفيق : مشتق من الرفق في العمل . وهو الارتفاق فيه . ومنه الترفق في

(١) سورة الحج : آية ٥ ، وسورة المؤمن : آية ٦٨ .

(٢) قائله جرير . ديوانه ٢ : ٢٠ الطبعة الاولى . المطبعة العلمية بمصر وروايته (دعون) بدل (نصبن) وفي المطبوعة (باعين) بدل (بأسهم) وأثبتناهـا كما في جميع المصادر . طبقات فحول الشعراء : ٣٥١ ، واللسان (صدق) والعقد الفريد ٧ : ٤٨ وروايتة (بعثن) بدل (نصبن) وما بعده .

وما ذقت طعم العيش منذ نأيتم وما ساغ لي بين الجوانح ريق

السير ، ونحوه . ومنه المرافقة . والمرفق من اليد – بكسر الميم – لأنه يرتفق به . ويقال أيضاً في العمل نحو قوله : « ويهيء لكم من أمركم مرفقاً » (١) أي رفقاً يصلح به أمركم . والمرفق : – بفتح الميم – من مرافق الدار . والرفقة : الجماعة في السفر ، لارتفاق بعضهم ببعض . وقوله : « ذلك الفضل » اشارة إلى الثواب بالكون مع النبيين ، والصديقين . والتقدير ذلك هو الفضل من الله . وهو وإن كان مستحقاً ، فلم يخرج من أن يكون تفضلا ، لأن سببه الذي هو التكليف ، تفضل . والفضل : هو الزائد على المقدار إلا أنه قد كثر على ما زاد من الانتفاع . وكل ما يفعله تعالى فهو فضل ، وتفضل ، وافضال ، لأنه زائد على مقدار الاستحقاق الذي يجري على طريق المساواة . وقوله : « وكفى بالله عليماً » انما ذكر ، ليعلم انه لا يضيع عنده شيء من جزاء الاعمال . من حيث كان تعالى : عالماً به ، وبما يستحق عليه . وتقديره ، وكفى بالله عليما بكنه الجزاء على حقه ، وتوفير الحظ فيه . ودخلت الباء في اسم الله زائدة للتوكيد . والمعنى كفى الله . ووجه التأكيد أن اتصال الاسم بالعمل من جهة بنائه عليه وجه من وجوه الاتصال واتصاله بالباء وجه آخر من وجوه الاتصال ، فاذا اجتمعا كان أوكد . ووجه آخر هو أن معناه اكتفى العباد بالله . ووجه ثالث وهو أنه توطئة لباب سير بزيد وأكرم بزيد من جهة أن موضعه رفع ، وفيه حرف من حروف الجر . والكفاية مقدار مقاوم للحاجة . ولا يخلو المقدار من أن يكون فاضلا أو مقصراً أو كافياً ، فهذه الأقسام الثلاثة متقابلة .

قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا خُذوا حِذرَكُمْ فانفروا ثباتٍ أو انْفروا جَميعاً ﴾ (٧١) – آية – .

المعنى واللغة :

هذا خطاب للمؤمنين الذين صدقوا بالله ، وبرسوله . ومعناه أيقنوا بالله ،

« ١ » سورة الكهف : آية ١٦ .

ورسوله . أمرهم الله أن يأخذوا حذرهم . وقيل في معناه : قولان :

أحدها ـ قال أبو جعفر (ع) وغيره : خذوا سلاحكم ،فسمي السلاح حذراً لأن به يتقى الحذر .

الثاني ـ احذروا عدوكم باخذ السلاح . كما يقال للانسان خذ حذرك . بمعنى احذر . والحذر والحذر لغتان . مثل الاذن والاذن . والمثل المثل . ثم أمرهم بان ينفروا . والنفور : الفزع نفر ينفر نفوراً : إذا فزع . ونفر إليه : إذا فزع من أمر إليه . والمعنى انفروا إلى قتال عدوكم . ومنه النفر : جماعة تفزع إلى مثلها . والنفير إلى قتال العدو . ونفر الحاج يوم الثاني والثالث من التشريق ، لأنهم يفزعون إلى الاجتماع للرجوع إلى الاوطان . والمنافرة : المحاكمة للفزع إليها فيما يختلف فيه وقيل : إنما كانت ، لأنهم يسألون الحاكم أينا أعز نفراً . ونفره تنفيراً . ونافره منافرة . وتنافروا تنافراً . واستنفره استنفاراً . وقوله : « ثبات » قال ابن عباس، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي : إن معناه انفروا فرقة بعد فرقة ، أو فرقة في جهة وفرقة في جهة . أو انفروا جميعاً من غير تفرق بالاوقات ، والجهات . والثبات جمع ثبة وهي جماعات في تفرقة أي يأتون متفرقين . وقال أبو جعفر : الثبات: السرايا والجميع العسكر . قال أبو ذؤيب :

فلما اجتلاها بالايام تحيرت ثبات عليها ذلها واكتئابها (١)

يصف العاسل ، وتدخينه على النحل . والايام ـ بكسر الهمزة على وزن لجام ـ الدخان ويجمع ثبة على ثبين ، أيضاً . قال زهير :

وقد اغدوا على ثبة كرام نشاوى واجدين لما نشاء (٢)

وانما جاز أن يجع ثبة ثبون ـ وان كان هذا الجمع يختص ما يعقل ـ للعوض من النقص الذي لحقه ، لأن أصله ثبوة ؛ ومثله عضين وسنين وعرين . فان صغرت

« ١ » ـ اللسان (جلا) . البيت لأبي ذؤيب يصف النحل والعاسل . وفي رواية (اجتلاها) بدل جلاها . يعني جلا العاسل النحل عن مواضعها بالأيام وهو الدخان .

« ٢ » ـ ديوانه: ٧٢ . مجاز القرآن لابي عبيدة : ١٣٢ واللسان : (ثبا) ، (نشو) .

قلت ثبيات (١) وسنيات ، لأن النقص قد زال . وقيل : ان الثبة عصبة منفردة من (عصب). وتقول ثبيت على الرجل اثبي تثبية : إذا اثنيت عليه. وذكرت محاسنه في حال حياته . وتصغير ثبة ثبية . فأما ثبة الحوض ، فهي وسطه . الذي يثوب إليه الماء . وهي من ثاب يثوب ، لأن تصغيرها ثويبة . [وقوله : « أو انفروا جميعاً » وقد مضى معناه] (٢) .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً ﴾ (٧٢) - آية - .

قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن جريج ، وابن زيد : نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يثبطون الناس عن الجهاد . فاذا أصابتهم مصيبة فيه ، من قتل أو هزيمة ، قالوا قول الشامت بهم في تلك الحال : قد أنعم الله علينا إذ لم نكن معهم شهداء أي حضوراً . وقال أبو جعفر (ع): من يتمنى التأخر عن جماعة المسلمين ، لا يكون إلا كافراً . فقوله : « وان منكم لمن ليبطئن » خطاب للمؤمنين . وانما أضاف المنافقين إليهم لأمرين :

أحدها ــ ان من عدادكم ودخلائكم .

الثاني ــ أي منكم في الحال الظاهرة ، أو حكم الشريعة من حقن الدم ، ونحو ذلك من الموارثة ، والمناكحة . واللام الاولى لام الابتداء بدلالة دخولها على الاسم ، والثانية لام القسم بدلالة دخولها على الفعل مع نون التأكيد . وتقديره إن منكم لمن حلف بالله ليبطئن . وانما جاز صلة « من » بالقسم ، ولم يجز بالامر والنهي لأن القسم خبر يوضح الموصول ، كما يوضح الموصوف في قولك : مررت برجل لتكرمنه ، لأنـــه خصصه بوقوع الاكرام به في المستقبل من كل رجل غيره . وليس كذلك

---

(١) ــ في المخطوطة زيادة : « على الاصل اثنى ثبية » ــ في هذا الموضع .

(٢) ــ مابين القوسين ساقط من المطبوعة وهو موجود في المخطوطة .

الامر في قولك : مررت برجل أضربه ، لأنه لا يتخصص بالضرب في الامر كما ، تخصص في الخبر . قال : الفراء تدخل اللام في النكرات وفي من وما والذى . فاذا جئت بالمعرفة الموقتة ، لم يجز ادخال اللام فيها . لا تقول إن عبد الله ليقومن وان زيداً ليذهبن ، لأن زيداً ، وعبد الله ، لا يحتاجان إلى صلة . والابطاء : اطالة مدة العمل لقلة الانبعاث . وضده الاسراع . وهو قصر مــدة العمل ، للتدبير فيه . والاناة : اطالة الاحكام الذي لا سبيل إليه إلا بالتثبت فيه . وضدها العجلة وهي قصر المدة من غير إحكام الصنعة تقول : بطؤ في مشيه يبطؤ بطاء : إذا ثقل وتباطأ تباطياً وبطأه تبطياً واستبطأ استبطاء وأبطأ إبطاء : إذا تأخر .

قوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيقولَنَّ كأَنْ لم تكنْ بينكمْ وَبينَهُ مَودَّةٌ ياليتني كنتُ معهم فأفوزَ فوزاً عظيماً ﴾ (٧٣)

ـ آية بلا خلاف ـ .

المعني بهذه الآية المنافقون الذين وصفهم الله بانهم يفرحون بتأخرهم عن المؤمنين إذا اصيبوا ، وانهزموا . فاخبر عنهم انه إذا أصاب المؤمنين فضل من الله بان يظفروا أو يقهروا العدو ، بانهم يتمنون الكون معهم ، فيفوزوا فوزاً عظيماً . وانما ذمهم الله بهذا التمني لأحد أمرين :

أحدها ـ لانهم قالوه على وجه ايثار الغنيمة لا على حال المثوبة من جهة الله لشكهم في الجزاء من الله .

الثاني ـ قال قتادة وابن جريج انهم قالوا : ذلك على جهة الحسد للمؤمنين . والاصابة : ملامسة المرمي لما وقعت به الرمية . فاذا قيل : أصاب ـ مطلقاً ـ فمعناه أصاب الغرض . ويجوز أن ينفى فيقال : لم يصب . يعني الغرض ، وان أصاب غيره . وقوله : « كان لم تكن بينكم وبينه مودة » قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ انه اعتراض بين القول ، والتمني ، ولا يكون له موضع من الاعراب . وتقديره ليقولن: ياليتني كنت معهم ، فأفوز فوزاً عظيماً . كأن لم يكن بينكم وبينه مودة .

الثاني ـ أن يكون اعتراضاً وموضعه التقديم . وتقديره فان أصابتكم مصيبة ، قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً كأن لم يكن بينكم ، وبينه مودة . واختار هذا الوجه أبو علي النحوي .

الثالث ـ أن يكون في موضعه على موضع الحال . كما تقول : مررت بزيد كأن لم يكن بينك وبينه معرفة فضلا عن مودة . والزجاج أجاز الوجوه الثلاثة .

المعنى :

وفي معنى الآية قولان :

أحدها ـ قال الجبائي :المعنى ليقولن لهؤلاء الذين أقعدهم عن الجهاد ، كأن لم يكن بينكم وبينه أي وبين محمد (ص) مودة ، فيخرجكم لتأخذوا من الغنيمة ، ليبغضوا إليهم رسول الله (ص) .

الثاني ـ انه يقول قول الممنوع بالعداوة . وانما أتى من جهله بتلك الحال . وهو الاظهر . والمعنى كأنه لم يعاقدكم على الايمان ولم يظهر لكم مودة على حال تخاطبون بذلك من اقعدوه عن الخروج ، ثم يقول من قبل نفسه : ياليتني كنت معهم . وقال الحسين بن علي المغربي : المعنى ليس يتمنون الكون معهم في الخير ، والشر ، كأهل المودات ، وانما يتمنون ذلك عند الغنيمة كالبعداء يذمهم بسوء العهد مع سوء الدين .

وانما نصب جواب التمني بالفاء ، لأنه مصروف عن العطف محمول على تأويل المصدر . وتقديره ياليتني كان لي حضور ، معهم ففوز . ولو كان على العطف ، لكان ياليتني كنت معهم ففزت . وقرأ أبو جعفر المدني ، وحفص ، ورويس ، والبرجمي: «كان لم تكن» ـ بالتاء ـ لأن لفظة المودة مؤنثة . ومن قرأ بالياء ، فلان التأنيث

ليس بحقيقي ، ومع ذلك قد وقع فصل بين الفعل ، والفاعل .

قوله تعالى :

﴿ فَليقاتِلْ في سَبيلِ اللهِ الَّذينَ يَشرونَ الحَياةَ الدُّنيا بالآخرةِ وَمَنْ يُقاتِلْ في سَبيلِ اللهِ فَيقتَلْ أو يَغلِبْ فَسوفَ نُؤتيهِ أجراً عَظيماً ﴾ (٧٤) ـ آية ـ .

لما أخبر الله تعالى في الآية الاولى ان قوماً من المنافقين يثبطون المؤمنين عن جهاد العدو والقتال في سبيل الله ، حث في هذه الآية على الجهاد ، بأن قال : لا تلتفتوا إلى تثبيط المنافقين ، وقاتلوا في سبيل الله بأمين للدنيا بالآخرة ، إذ لكم بذلك أعظم الأجر وأكبر الحظ . وقال الزجاج : فليكن من الذين يقاتلون في سبيل الله أو عمن كان بينه وبينكم عقد مودة. ومعنى ﴿ يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة . وبيعهم إياها بالآخرة هو استبدالهم إياها بالآخرة ببذلهم أنفسهم ، وأموالهم في سبيل الله ، وبتوطين أنفسهم على الجهاد في طاعة الله .

يقال : شريت بمعنى بعت . واشتريت : ابتعت . ويشرون : يبيعون ـ في قول الحسن ، والسدي ، وابن زيد ، وجميع أهل اللغة ـ . قال يزيد بن مفرغ :

وشريت بردا ليتني من بعد برد كنت هامة

وبرد اسم غلامه . وشريته بمعنى بعته . وفي الآية حذف . والتقدير يشرون الحياة الدنيا بالحياة الآخرة . كأنه قال : يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية . ويجوز يبيعون الحياة الدنيا بنعيم الآخرة ، ثم قال : ﴿ ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب ﴾ .

فالوعد على القتال ، لا على القتل ، والغلبة . وقوله : « فيقتل » عطف على يقاتل . ولذلك جزمه والجواب قوله : « فسوف نؤتيه » وإنما قال : أو يغلب ، لأن الوعد على القتال حتى ينتهي إلى تلك الحال ، لأنه أعظم الجهاد . وعليه أعظم الأجر .

والاجر العظيم هو أعلى أثمان العمل. وذلك أن ثمن العمل على ثلاثة أوجه. ثمن أعلى، وثمن أدنى، وثمن أوسط بينهما فالله تعالى يثامن عليه بالثمن الاعظم الأعلى، فلذلك حسن وصف الاجر بالعظم من غير تقييد له، إذ كان لا ثمن أعظم مما يثامن الله عليه في ذلك العمل.

قوله تعالى:

﴿ وَما لكُمْ لا تُقاتلونَ في سَبيلِ اللهِ وَالمستضعفينَ مِن الرِجالِ وَالنساءِ وَالوالدانِ الّذينَ يَقولونَ رَبّنا أخرجنا مِنْ هذهِ القريةِ الظالمِ أهلها وَاجعلْ لنا مِنْ لدنكَ وَليّاً وَاجعلْ لنا مِنْ لدنكَ نصيراً ﴾ (٧٥) ـ آية ـ .

المعنى والاعراب:

معنى قوله: «وما لكم» أي شيء لكم. و «لا تقاتلون» في موضع الحال كأنه قال: أي شيء لكم تاركين، أي في حال ترك القتال مع هذه الامور التي تقتضي الحرص على الجهاد، أي لا عذر لكم ألا تقاتلوا في سبيل الله، ومثله قوله: «فما لهم عن التذكرة معرضين» (١) وقوله: «والمستضعفين» خفض بالعطف على ما عملت فيه (في) وتقديره في المستضعفين. وقيل في معناه قولان:

أحدها ـ وعن المستضعفين، فوقع (في) موقع (عن) فاذا ذكرت (عن) فلصرف الأذى عنهم إذ كانت لما عدا الشيء وإذا ذكرت (في) فلأن القتال مضمن بهم، لخلاصهم، إذا كانت في الوعاء.

الثاني ـ ان يكون على محذوف، وتقديره وفي اعزاز المستضعفين، وقد قال المبرد: هو عطف على اسم الله بتقدير، وسبيل المستضعفين «من الرجال والنساء والولدان».

---

(١) سورة المدثر: آية ٥٠.

اللغة والمعنى :

والولدان جمع ولد على مثال خرب وخربان، وبرق وبرقان ، وورل وورلان، مثل ولد وولدان ، وهو من ابنية الكثير ، والاغلب على بابه فعال نحو جبال وجمال . وقوله : « الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » قال ابن عباس والحسن وابن أبي نجيح ، والسدي ومجاهد وابن زيد : إنها مكة ، لأن أهل مكة كانوا قد اجتهدوا أن يفتنوا قوماً من المؤمنين عن دينهم ، والأذى لهم وكانوا مستضعفين في أيديهم . وقال تعالى « مالكم » لا تسعون في خلاصهم . وهم يسمون كلَ مدينة قرية ، وإنما جاز أن يجري صفة ظالم على الأول وهو في المعنى للثاني ، لأنها قوية في العمل لقربها من الفعل متمكنة من الوصف بأنها تصرف تصرفه في التأنيث والتذكير والتثنية ، والجمع ، خلاف باب أفعل منك ، فلذلك جاز مررت برجل ظالم أبوه ، ولم يجز مررت برجل خير منه أبوه . والولي القيم بالأمر حتى يستنقذهم من أمر أعدائهم ، لأنه يتولى الأمر بنفسه ، ولا يكله إلى غيره . وحكى أبو علي ان منهم سلمة بن هشام ، والوليد بن الوليد ، وعياش بن أبي ربيعة وأبو جندل بن سهيل ، وانما قال : ﴿ يقولون...الظالم أهلها ﴾ وان كان فيهم الولدان لا ينطقون تغليباً للاكثر ، كقولك قال أهل البصرة ، وإن كان قولا لبعضهم .

قوله تعالى :

﴿ اَلَّذينَ آمنوا يُقاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ وَالَّذينَ كفروا يُقاتِلونَ في سبيلِ الطاغوتِ فَقاتِلوا أولياءَ الشيطانِ إنَّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضَعيفاً ﴾ (٧٦) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الذين صدّقوا بالله ، ورسوله يقاتلون في سبيل الله ، وفي معنى سبيل الله قولان :

أحدها ـ طاعة الله ، لأنها تؤدي إلى ثواب الله في جنته التي أعدها لأوليائه .

الثاني ـ قال أبو علي : إنه دين الله الذي شرعه الذي يؤدي إلى ثوابه ورحمته . وتقديره في نصرة دين الله ، ثم قال : « والذين كفروا » يعني الذين جحدوا آيات الله الدالة على توحيده، ونبوة نبيه. وقوله: « يقاتلون في سبيل الطاغوت » قد فسرناه فيما مضى . فقال قوم: هو الشيطان. وقال آخرون : هو ما عبد من دون الله . والاول قول الحسن والشعبي . والثاني حكاه الزجاج .

وقال أبو العالية : هو الكاهن . وهو يؤنث ويذكر قال الله تعالى : « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به »(١) فذكره وقال : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها » (٢) فأنث قال أبو عبيدة هو ههنا في موضع جماعة ، كما قال : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير »(٣) وكان المراد به الجنس . وقوله : « فقاتلوا أولياء الشيطان » يقوي قول من قال : المراد بالطاغوت الشيطان . وقوله : « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » إنما دخلت (كان) ههنا مؤكدة لتدل على ان الضعف لكيد الشيطان لازم في جميع الاوقات فيما مضى ، والحال ، والمستقبل . وليس هو عارضاً في حال دون حال .

والكيد السعي في فساد الحال على وجه الاحتيال تقول كاده يكيده كيداً ، فهو كائد له . إذا عمل في ايقاع الضرر به على وجه الحيلة عليه . وانما وصف تعالى كيد الشيطان ، بالضعف لامرين :

أحدها ـ لضعف نصرته ، لاوليائه بالاضافة إلى نصرة الله المؤمنين ـ ذكره الجبائي ـ وقال الحسن : أخبرهم أنهم سيظهرون عليهم ، فلذلك كان ضعيفاً .

الثاني ـ لضعف دواعي أوليائه إلى القتال بانها من جهة الباطل إذ لا نصير لهم . وانما يقاتلون بما تدعو إليه الشبهة . والمؤمنون يقاتلون بما تدعو إليه الحجة .

« ١ » سورة النساء : آية ٥٩ .　　« ٢ » سورة الزمر : آية ١٧ .

« ٣ » سورة المائدة : آية ٤ .

قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ قيلَ لَهمْ كفوا أيديكمْ وأقيموا الصلاةَ وَآتوا الزَّكاةَ فلما كُتِبَ عَليهمُ القِتالُ إذا فَريقٌ مِنهمْ يَخشونَ الناسَ كَخشيةِ اللهِ أو أشدَّ خَشيةً وَقالوا رَبَّنا لِمَ كَتبتَ عَلينا القِتالَ لَولا أخرتَنا إلى أجلٍ قريبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنيا قَليلٌ وَالآخِرةُ خَيرٌ لِمنْ اتقى وَلا تُظلمونَ فَتيلاً﴾ (٧٧) ـ آية بلا خلاف ـ .

القراءة ، والحجة :

قرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف ، والحلواني عن هشام ولا يظلمون بالياء . الباقون بالتاء . فمن قرأ بالياء حمل الكلام على لفظ الغيبة ومن قرأ بالتاء فعلى المواجهة .

النزول :

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان :

أحدها ـ قال ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدي : انها نزلت في ناس من الصحابة استأذنوا النبي (ص) قال ابن عباس: منهم عبد الرحمن ابن عوف . وهم بمكة في قتال المشركين . فلم يأذن لهم : فلما كتب عليهم القتال . وهم بالمدينة قال فريق منهم ما حكاه الله في الآية . فان قيل : كيف يجوز ذلك ، والله تعالى يقول : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » فأمرهم باقامة الصلاة وايتاء الزكاة ، ولم تكن الزكاة فرضت بمكة ؟ قيل : قد قال البلخي في ذلك: إنه يجوز أن يكون قوم من المنافقين عرضوا على رسول الله (ص) ذلك والاقوى عندي أن يكون الله قال ذلك على وجه الندب ، والاستحباب دون الزكاة المقدرة على وجه مخصوص .

الثاني ـ قال مجاهد : نزلت في اليهود . نهى الله هذه الأمة أن يصنعوا مثل صنيعهم .

المعنى :

قوله : ﴿ ألم تر ﴾ معناه ألم ينته علمك إلى هؤلاء تعجيباً من ذلك . ولو قال : ألم تر هؤلاء أو ألم تعلم هؤلاء لم يظهر فيه معنى التعجب منهم كما يظهر بـ (إلى) ، لأنها تؤذن بحال بعيدة قد لا ينتهي إليها ، لبعدها ، لما فيها من العجب الذي يقع بها . وقوله : ﴿ الذين قيل لهم كفوا أيديكم ﴾ يعني حين طلبوا القتال وقيل لهم : اقتصروا على اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ فلما كتب عليهم القتال ﴾ يعني الجهاد ﴿ إذا فريق منهم ﴾ يعني جماعة ﴿ يخشون الناس كخشية الله ﴾ قال الحسن : هو من صفة المؤمنين لما طبعوا عليه من البشرية والخوف ، لا على وجه كراهة المخالفة . وقال أبو علي : هو من صفة المنافقين ، لأنهم كانوا كذلك حرصاً منهم على الدنيا والبقاء فيها والاستكثار منها وقال يخشون القتل من قبل المشركين كما يخشون الموت من قبل الله . وقوله : ﴿ أو أشد خشية ﴾ ليس معنى (أو) ههنا الشك ، لأن ذلك لا يجوز عليه تعالى . وقيل في معناها قولان :

أحدها ـ أنها دخلت للابهام على المخاطب . والمعنى أنهم على احدى الصفتين . وهذا أصل (أو) وهو معنى واحد على الابهام .

الثاني ـ على طريق الاباحة نحو قولك : جالس الحسن أو ابن سيرين . ومعناه إن قلت يخشون الناس كخشية الله فأنت مصيب ، وان قلت يخشونهم أشد من ذلك فأنت مصيب لأنه قد حصل لهم مثل تلك الخشية وزيادة . وقولهم : « لم كتبت علينا القتال » معناه ألزمتنا وأوجبت علينا .

وقوله : ﴿ لولا أخرتنا ﴾ معناه هلا أخرتنا « إلى أجل قريب » وهو إلى أن نموت بآجالنا فأعلمهم الله تعالى أن متاع الدنيا قليل ، وأن الآخرة خير لأهل التقي وأعلمهم أن آجالهم لا تخطئهم « ولا يظلمون فتيلا » أي لا يبخسون هذا

القدر ، وكيف ما زاد عليه . والفتيل : ماتفتله بيدك من الوسخ ثم تلقيه في قول ابن عباس . وقيل : هو ما في شق النواة ، لأنه كالخيط المفتول في شق النواة .

قوله تعالى :

﴿ أينما تكونوا يُدرِكْكُمُ الموتُ وَلو كنتم في بروج مُشيدةٍ وَإنْ تُصبهمْ حسنةٌ يقولوا هذه مِنْ عِندِ اللهِ وَإنْ تُصبهمْ سيئةٌ يقولوا هذه مِنْ عِندكَ قُلْ كلٌّ مِنْ عِندِ اللهِ فما لِهؤلاءِ القومِ لا يكادونَ يفقهونَ حديثاً ﴾ (٧٨) ـ آية بلا خلاف ـ

اللغة والمعنى :

أعلمهم الله تعالى في هذه الآية أن الآجال لا تخطئهم ، ولا تنفعهم الخشية من القتل ولو كانوا في بروج مشيدة ، وأينما كانوا من المواضع أدركهم الموت بمعنى أصابهم . « وأينما » كتبت موصولة . وفي قوله : « ان ماتوعدون » مفصولة ، لأن الأولى زائدة .

والثاني ـ بمعنى الذي ففصلت هذه كما تفصل الاسماء ، ووصلت تلك كما توصل الحروف . وقيل في معنى البروج ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال مجاهد ، وابن جريج : هي القصور .

الثاني ـ قال السدي ، والربيع : هي قصور في السماء باعيانها . وقال الجبائي : هي البيوت التي تكون فوق الحصون . وأصل البروج الظهور . يقال تبرجت المرأة : إذا أظهرت محاسنها . والبرج ـ في العين ـ اتساعها لظهورها بالاتساع . والمشيدة : المزينة بالجص . وهو الشيد . قال الجبائي : معناه المجصصة . وقال الزجاج ، وغيره : معناه المطولة في ارتفاع . وقال قوم : المشدد ، والمخفف سواء إلا من جهة تكثير العمل . وقال آخرون : المشيدة بالتشديد ـ المطولة . والمشيدة بالتخفيف ـ المطلية بالجص والنورة . والشيد رفع البناء . تقول شاد بناءه يشيده شيداً : إذا رفعه .

والشيد : الجص ، لأنه مما يرفع به البناء . ويجوز أشاد الرجل بناءه . فأما بالذكر فتقول أشاد بذكره لا غير : إذا رفع منه .

وقوله : ﴿ وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عنـــد الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ حكاية عن المنافقين ، وصفتهم . في قول الحسن ، وأبي علي وأبي القاسم . وقال الزجاج : قيل : هو في صفة اليهود . وبه قال الفراء . وذلك أن اليهود ، لما قدم النبي (ص) المدينة ، فكانوا إذا زكت ثمارهم ، واخصبوا ، قالوا هذا من عند الله . فإذا أجدبوا ، وخاست ثمارهم ، قالوا هذا لشؤم محمد (ص) . وفي معنى الحسنة ، والسيئة ههنا قولان :

قال ابن عباس ، وقتادة ، وأبو العالية : هو السراء والضراء والبؤس . والرخاء ، والنعمة والمصيبة ، والخصب ، والجدب . وقال الحسن ، وابن زيد : هو النصر ، والهزيمة . وقوله : ﴿ من عندك ﴾ قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال ابن زيد : معناه بسوء تدبيرك .

والثاني ـ قال الجبائي ، والبلخي ، والزجاج . أي بشؤمك الذي لحقنا كما حكي عن قوم موسى ﴿ وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ فأمر الله تعالى نبيه أن يقول : إن جميع ذلك من عند الله ، ثم قال : « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » قال الفراء :(مال) كثرت في الكلام حتى توهموا أن اللام متصلة بما ، وانها حرف واحد ، ففصلوا اللام بما خفضت في بعض المواضع ، ووصلوها في بعض المواضع . والاتصال الوجه . والوقف على اللام ، لا يجوز ، لأنهـــا لام الخفض . والمعنى أي شيء لهؤلاء القوم ، لا يفقهون حديثاً ، أي لا يفهمون معناه. تقول: فقه الرجل يفقه فقهاً والاسم الفقيه : وصار بعرف الاستعمال علماً على علم الفقهاء من علوم الدين . وفقه الرجل يفقه فقهاً : إذا صار فقيهاً . وأفقهته : أفهمته والتفقه: تعلم الفقه وتفاقه: إذا تعاطى ليرى انه فقيه . وليس هو كذلك . ومثله تعالم وقيل : معنى الحديث ههنا القرآن . وقوله : ﴿ لا يكادون ﴾ معناه لا يقاربون فيه معنى الحديث الذي هو القرآن ، لأنهم بعيدون منه باعراضهم عنه ، وكفرهم به ولا

يفهمون ان ما ذكرناه من السراء ، والضراء ، والشدة والرخاء على ما وصفناه .

قوله تعالى :

﴿ما أصابكَ مِنْ حسنةٍ فمنَ اللهِ وما أصابكَ مِنْ سيئةٍ فمن نفسكَ وأرسلناكَ لِلناسِ رسولاً وكفى باللهِ شهيداً﴾ (٧٩) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

قال الزجاج : هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وآله . والمراد به الامة . كما قال ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ (١) فان المراد به الامة . وقال قوم : المخاطب به الانسان ، كأنه قال : ما أصابك أيها الانسان ـ في قول قتادة ، والجبائي ـ . وقيل في معنى الحسنة والسيئة ههنا قولان :

أحدها ـ قال ابن عباس ، والحسن : الحسنة ما أصابه يوم بدر من الظفر ، والغنيمة . والسيئة ما أصابه يوم أحد من كسر رباعيته (ص) ، والهزيمة . وقال الجبائي : معناها النعمة ، والمصيبة . ويدخل في النعمة نعمة الدنيا ، والدين . وفي المصيبة مصائب الدنيا ، والدين إلا ان أحدها من عمل العبد للطاعة ، وما جر إليه ذلك العمل .

والآخر ـ من عمل العبد للمعصية وما جرّ إليه عمله لها . وهذا يوافق الاول الذي حكيناه عمن تقدم .

والثاني ـ ان الحسنة ، والسيئة : الطاعة ، والمعصية ـ ذكره أبو العالية ، وأبو القاسم ـ ويكون المعنى ان الحسنة التي هي الطاعة باقدار الله ، وترغيبه فيها ، ولطفه لها . والسيئة بخذلانه على وجه العقوبة له على المعاصي المقدمة . وسماه سيئة كما قال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٢) والتقدير ما أصابك من ثواب حسنة

(١) ـ سورة الطلاق : آية ١ . (٢) ـ سورة الشورى : آية ٤٠ .

فمن الله ، لأنه الذي عرضك للثواب ، وأعانك عليها . وما أصابك من عقاب سيئة فمن نفسك ، لأنه تعالى نهاك عنها ، وزجرك عن فعلها . فلما ارتكبتها كنت الجاني على نفسك . وانما احتاج إلى التقدير ، لأن ما أصابك ليس هو ما أصبته . ويجوز أن يكون المراد بالسيئة ما يصيبهم في دار الدنيا من المصائب ، لأنه لا يجوز أن يكون ذلك عقابا أو بعض ما يستحقونه . وقوله : « فمن نفسك » معناه فبذنبك في قول الحسن ، وقتادة ، والسدي ، وابن جريج ، والضحاك . قال البلخي : مصيبة هي كفارة ذنب صغير ، أو عقوبة ذنب كبير . ويحتمل أن يكون المراد أو تأديب وقع لأجل تفريط . فان قيل : كيف عاب قول المنافقين في الآية الاولى ، لما قالوا إذا أصابتهم حسنة انها من عند الله ، وإذا أصابتهم سيئة ، قالوا هذه من عندك . وقد اثبت مثله في هذه الآية ؟ قلنا عنه جوابان :

أحدهما ـ ان ذلك على وجه الحكاية . والتقدير يقولون : ما أصابك من حسنة ، فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك . ويكون (يقولون) محذوفا ، لدلالة سياق الكلام عليه .

الثاني ـ ان معناها مختلف . فالاول عند أكثر أهل العلم ان المراد به النعمة ، والمصيبة من الله تعالى . وفي الآية الثانية المراد به الطاعة ، والمعصية . فلما اختلف معناها ، لم يتناقضا . ويكون وجه ذكر هذه الآية عقيب الاولى ألا يظن ظان ان الطاعات والمعاصي من فعل الله ، لما قال في الآية الاولى : ﴿ قل كل من عند الله ﴾ وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة ، لأنه تعالى قال : « فمن نفسك » فأضاف المعصية إلى العبد ونفاها عن نفسه تعالى . ولو كانت من خلقه ، لكانت منه على أوكد الوجوه . ولا ينافي ذلك قوله في الآية الاولى « كل من عند الله » لأنا بينا وجه التأويل فيه . قال الرماني : وفي الآية دلالة على أنه تعالى ، لا يفعل الالم إلا على وجه اللطف ، أو العقاب دون العوض فقط ، لأن المصائب إذا كانت كلها من قبل ذنب العبد ، فهي اما عقوبة ، واما من قبل تأديب المصلحة .

وقوله : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ معناه من الحسنة ارسالك يا محمد (صلى

الله عليه وآله) ومن السيئة خلافك يامحمد (ص) وكفى بالله شهيداً لك وعليك . والمعنى وكفى الله . وقوله : ﴿ ما أصابك من حسنة ﴾ معنى « من » هنا للتبيين ولو قال : إن أصابك من حسنة كانت زائدة لا معنى لها .

الاعراب والحجة:

﴿ ورسولا ﴾ نصب بارسلناك، وانما ذكره تأكيداً لأن أرسلناك دل على أنه رسول ، « وشهيداً » نصب على التمييز ، لأنك إذا قلت كفى الله ولم تبين في أي شيء الكفاية كنت مبهماً . وقوله : «وما أصابك من سيئة فمن نفسك» دخلت الفاء في الجواب لأن معنى (ما) من وادخل من على السيئة ، لأن ما نفي و (من) يحسن ان تزاد في النفي مثل ما جاءني من أحد .

قوله تعالى :

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسولَ فقدْ أطاعَ اللهَ وَمَنْ تولى فما أرسلناكَ عَليهمْ حَفيظاً ﴾ (٨٠) ـ آية ـ .

بين الله تعالى بهذه الآية أن طاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم طاعة الله . وانما كان كذلك ، لأن طاعة الرسول بأمر الله ، فهي طاعة الله على الحقيقة ، وبارادته وان كانت أيضاً طاعة للنبي من حيث وافقت ارادته المستدعية للفعل . فأما الامر الواحد ، فلا يكون من آمرين كما لا يكون فعل واحد من فاعلين .

وقوله : ﴿ ومن تولى ﴾ أي اعرض ولم يطع « فما أرسلناك عليهم حفيظاً » وقيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال ابن زيد : حافظاً لهم من التولي حتى يسلموا .

والثاني ـ حافظاً لأعمالهم التي يقع الجزاء عليها ، لأن الله تعالى هو المجازي عليها .

الثالث ـ قال أبو علي : حافظاً لهم من المعاصي حتى لا تقع . قال ابن زيد :

هذا أول ما بعث، كما قيل له: « ان عليك إلا البلاغ » (١) ثم أمر فيما بعد بالجهاد ووجه جواب الجزاء في قوله: « فما أرسلناك عليهم حفيظاً » من المعاصي حتى لا تقع -في قول أبي علي- وعلى القول الآخر لأنك لم ترسل عليهم حفيظاً لاعمالهم التي يقع الجزاء عليها، فتخاف أن لا تقوم بها. وفي الآية دلالة على ان الرسول لا يأمر بالخطأ، لأن الله تعالى جعل طاعته طاعة نفسه. والله لا يأمر بالخطأ بلا خلاف.

النظم :

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها انه لما ذكر الحسنة التي هي نعمة من الله، بين أن منها ارسال نبي الله ثم بين أن منها طاعة الرسول التي هي طاعة الله. فهو في ذكر نعم الله جملة، ومفصلة. وفيها تسلية للنبي (ص) في تولي الناس عنه وعن الحق الذي جاء به، مع تضمنها تعظيم شأنه بكون طاعته طاعة الله.

قوله تعالى :

﴿ وَيقولونَ طاعةٌ فاذا بَرزوا مِنْ عِندكَ بيَّتَ طائفةٌ منهم غيرَ الَّذي تَقولُ وَاللهُ يكتبُ ما يُبيِّتونَ فاعرضْ عَنهمْ وَتوكلْ على اللهِ وَكفى باللهِ وَكيلاً ﴾ (٨١) - آية بلا خلاف - .

قرأ أبو عمرو بادغام التاء في الطاء. وبه قرأ حمزة: والباقون بالاظهار والفتح. وفرق الكسائي بين بيت طائفة فاظهر في الفعل وادغم في الاسم إذا قال بيتت طائفة. قال المبرد، والزجاج: لا وجه لذلك، بل هما سواء. وانما حسن ادغام التاء في الطاء، لقرب مخرجها. ولم يجز إدغام الطاء في التاء، لما فيها من الاطباق. وكذلك يجوز إدغام الباء في الميم في « تكتب ما يبيتون » ولا يجوز ادغام الميم في الباء نحو « لا اقسم بهذا البلد » لأنه يخل باذهاب الغنة في ذلك، ولا يخل

« ١ » سورة الشورى : آية ٤٨ .

بها في الاول . ويحتمل رفع طاعة وجهين :

أحدها ـ أمرنا طاعة .

والثاني ـ منا طاعة . قال الزجاج : الاول أحسن ، لأنه أجمع . ويجوز طاعة « نصباً » على معنى نطيع طاعة . ولم يقرأ به . ومن القائلون لهذا القول ؟ قيل فيه قولان :

[أحدها] ـ قال الحسن ، والسدي ، والضحاك: هم المنافقون .

الثاني ـ انهم الذين حكي عنهم انهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية

وقوله : ﴿ فاذا برزوا من عندك ﴾ يعني خرجوا من عندك بيت طائفة منهم يعني دبر جماعة منهم ليلا . قال المبرد : التبييت كل شيء دبر ليلا . وقال الجبائي معناه دبروه في بيوتهم وهذا بعيد لا وجه له في اللغة . قال الرماني : وفيه معنى الاخفاء في النفس ، وكذلك لا يوصف تعالى به . قال عبيدة بن همام : (١)

أتوني فلم أرض ما بيتوا وكانوا أتوني بشيء نُكر
لأنكح أيمهم منذراً وهل يُنكح العبد حر لحر ؟! (٢)

ومعنى « بيت طائفة منهم غير الذي تقول » [أي غير ما تقول بأن اضمروا الخلاف فيما أمرتهم به أو نهيتهم عنه ـ هذا قول ابن عباس ، وقتادة : والسدي .وقال الحسن : قدرت طائفة منهم](٣)غير الذي تقول على جهة التكذيب .

وقوله : ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ فيه قولان :

الاول ـ نكتبه في اللوح المحفوظ ليجازوا به .

الثاني ـ قال الزجاج : يكتب بان ينزله اليك في الكتاب . ثم أمر الله نبيه

« ١ » قيل هو أخو بني العدوية من بني مالك بن حنظلة من بني تيم وقيل : عبيد بن همام التغلبي وقيل غير ذلك .

« ٢ » مجاز القرآن ١ : ١٣٣ ، الحيوان ٤ : ٣٧٦ الكامل للمبرد ٢ : ٣٥ ، ١٠٦، الازمنة والامكنة للمرزوقي ١ : ٢٦٣ ، ديوان الأسود بن يعفر النهشلي : أعشى بني نهشل في ديوان الاعشيين : ٢٩٨ ، واللسان (نكر) .

« ٣ » ما بين القوسين ساقط من المطبوعة . وهو في المخطوطة .

بالاعراض عنهم ،وألّا تسميهم باعيانهم ابقاء عليم ، وبستر أمورهم إلى أن يستقر أمر الاسلام . وأمره بان يتوكل عليه « وكفى بالله وكيلا » يعني حفيظاً ، لمـــا يجب تفويضه إليه من التدبير . وأصل الوكيل القائم بما فوض إليه من التدبير . ومعنى بيت اضمر . وأصله إحكام الامر ليلا من البيات .

قوله تعالى :

﴿أفلا يَتدّبرونَ القرآنَ وَلو كانَ مِنْ عِندِ غَيرِ اللهِ لوَجدوا فيهِ اختلافاً كثيراً﴾ (٨٢) - آية - .

المعنى :

هذه الآية تدل على أربعة أشياء :

أحدها - على بطلان التقليد ، وصحة الاستدلال في اصول الدين ، لأنه حث ودعا إلى التدبر . وذلك لا يكون إلا بالفكر والنظر .

والثاني - يدل على فساد مذهب من زعم ان القرآن ، لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول له من الحشوية ، والمجبرة ، لأنه تعالى حث على تدبره ، ليعلموا به .

الثالث - يدل على أنه لو كان من عند غير الله ، لكان على قياس كلام العباد من وجود الاختلاف فيه .

الرابع - تدل على أن المتناقض من الكلام ليس من فعل الله ، لأنه لو كان من فعله ، لكان من عنده ، لا من عند غيره .

اللغة :

والتدبر : هو النظر في عواقب الامور . وأصله الدبر . والتدابر : التقاطع ، لأن كل واحد يولي الآخر دبره ، بعداوته له . ودبر القوم يدبرون دباراً : إذا هلكوا ، لأنهم يذهبون في جهة الادبار عن الغرض . وادبر القوم : إذا ولى أمرهم

عن الرشد . والدبر : النحل . والدبر :المال الكثير . والتدبير : اصلاح الامر لعاقبة . وفي الحديث « لا تدابروا » أي لاتكونوا أعداء .والفرق بين التدبر والتفكر ان التدبر تصرف القلب بالنظر في العواقب ، والتفكر تصرف للقلب بالنظر في الدلائل. والاختلاف : هو امتناع أحد الشيئين أن يسد مسد الآخر فيما يرجع إلى ذاته كالسواد الذي لا يسد مسد البياض ، وكذلك الذهاب في الجهات المختلفة جهة الخلف ، والقدام واليمين ، والشمال . وقيل في معنى الاختلاف ههنا ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال أبو علي من جهة بليغ ، ومرذول . وقال الزجاج : الاختلاف في الاخبار بما يسرون .

الثالث ـ قال قتادة ، وابن زيد : اختلاف تناقض من جهة حق ، وباطل . والاختلاف على ثلاثة اضرب : اختلاف تناقض ، واختلاف تفاوت ، واختلاف تلاوة . وليس في القرآن اختلاف تناقض ، ولا اختلاف تفاوت ، لأن اختلاف التفاوت هو في الحسن والقبيح ، والخطأ والصواب ، ونحو ذلك مما تدعو إليه الحكمة أو يصرف عنه . وأما اختلاف التلاوة ، فهو ماتلاءم في الحسن ، فكله صواب ، وكله حق . وهو اختلاف وجوه القراءات واختلاف مقادير الآيات والسور واختلاف الاحكام في الناسخ والمنسوخ . ومن اختلاف التناقض ما يدعو فيه أحد الشيئين إلى فساد الآخر . وكلاهما باطل . نحو مقدارين وصف أحدهما بأنه أكبر من الآخر ووصف الآخر بأنه أصغر منه ، فكلاهما باطل إذ هو مساو له . وفي الناس من قال : انتفاء التناقض عن القرآن إنما يعلم انه دلالة على أنه من فعل الله ، لما أخبرنا الله تعالى بذلك . ولولا أنه تعالى أخبر بذلك كان لقائل أن يقول(١) : إنه يمكن أن يتحفظ متحفظ في كلامه ويهذبه تهذيباً ، لا يوجد فيه شيء من التناقض وعلى هذا لا يمكن أن يجعل ذلك جهة اعجاز القرآن قبل أن يعلم صحة السمع ، وصدق النبي (ص) .

« ١ » في المطبوعة (يكون) بدل (يقول) .

قوله تعالى:

﴿ وَإذا جاءَهُمْ أمرٌ مِنَ الأمْنِ أو الخوفِ أذاعوا بهِ وَلو رَدُّوهُ إلى الرَّسولِ وَإلى أولي الأمرِ مِنهم لعلمهُ الَّذينَ يَستنبطونَهُ مِنهمْ وَلولا فَضلُ اللهِ عَليكمْ وَرَحمتهُ لاتَّبعتمُ الشيطانَ إلا قليلا ﴾ (٨٣) - آية -.

أخبر الله تعالى عن المنافقين، الذين تقدم وصفهم بأنهم إذا جاءهم «أمر من الامن أو الخوف» وهو ما كان يرجف به من الاخبار في المدينة: اما من قبل عدو يقصدهم أو يظهر المؤمنين على عدوهم، أو هلاك بعض أعدائهم وهو الامن. والاول: الخوف اذاعوا به، وتحدثوا به من غير أن يعلموا صحته، فكره تعالى ذلك، لأن من فعل هذا لايخلو كلامه من الكذب. ولما يدخل على المؤمنين به من الخوف ومعنى اذاعوا به: أعلنوه، وأفشوه في قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن جريج وأصله اشاعة الخبر في الجماعة.

اللغة:

يقال: اذاعه اذاعة واذاعوا به قال الشاعر:

اذاع به في الناس حتى كأنه　　بعلياء نار أوقدت بثقوب (١)

وأصل الاذاعة التفريق. قال تبع: لما ورد المدينة:

ولقد شربت على براجم شربة　　كادت بباقية الحياة تذيع (٢)

أي تفرق. وبراجم: ماء بالمدينة كان يشرب منه، فنشبت (٣) بحلقه

(١) قائله أبو الاسود الدؤلي. اللسان (ذيع) ومجاز القرآن ١: ١٣٣ والاغاني ١٢: ٣٠٥.

(٢) لم نجده في مصادرنا.

(٣) في المطبوعة (فنشبت) وفي مجمع البيان (فتشبثت). وقد أثبتنا ما في المخطوطة.

علقة . وذاع الخبر ذيعاً . ورجل مذياع : لا يستطيع كتمان خبر . واذاع الناس بما في الحوض : إذا شربوه . وكذلك اذاعوا بالمتاع : إذا ذهبوا به . واذاعة السر : اظهاره . والاذاعة ، والاشاعـة ، والافشاء ، والاعلان ، والاظهار ، نظائر وضده الكتمان ، والاسرار ، والاخفاء .

المعنى :

ثم قال : ﴿ ولو ردوه إلى الرسول ﴾ بمعنى لو ردوه إلى سنته « وإلى أولي الامر منهم » . قال أبو جعفر (ع) : هم الأئمة المعصومون. وقال ابن زيد ، والسدي ، وأبو علي : هم امراء السرايا ، والولاة ، وكانوا يسمعون باخبار السرايا ولا يتحققونه فيشيعونه ولا يسألون أولي الامر . وقال الحسن ، وقتادة ، وابن جريج ، وابن أبي نجيح ، والزجاج : هم أهل العلم ، والفقه الملازمين للنبي (ص) ، لأنهم لو سألوهم عن حقيقة ما أرجفوا به ، لعلموا به . قال الجبائي : هذا لا يجوز ، لأن أولي الامر من لهم الامر على الناس بولاية والاول أقوى ، لأنه تعالى بين أنهم متى ردوه إلى أولي العلم علموه . والرد إلى من ليس بمعصوم ، لا يوجب العلم لجواز الخطأ عليه بلا خلاف سواء كانوا امراء السرايا ، أو العلماء . وقوله : « يستنبطونه » قال ابن عباس ، وأبو العالية : معناه يتحسسونه . وقال الزجاج : يستخرجونه .

اللغة والاعراب والمعنى :

والاستنباط ، والاستخراج ، والاستدلال ، والاستعلام ، نظائر ، وأصل الاستنباط الاستخراج . يقال لكل ما استخرج حتى تقع عليه رؤية العين ، أو معرفة القلب: قد استنبط . والنبط الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفر . وانبط فلان أي استنبط الماء من طين حر . ومنه اشتقاق النبط ، لاستنباطهم العيون . والضمير في قوله : « منهم » يحتمل أن يعود إلى أحد أمرين :

أحدها ـ وهو الاظهر انه عائد إلى أولي الامر .

والآخر ـ إلى الفرقة المذكورة من المنافقين ، أو الضعفة .

وقوله : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ معناه لولا اتصال مواد الالطاف من جهة الله ، «لا تبعتم الشيطان إلا قليلا » وقيل فيما وقع الاستثناء منه : أربعة أقوال :

أحدها ـ « لا تبعتم الشيطان إلا قليلا » منكم ، فانه لم يكن يتبع الشيطان . ويكون الفضل ههنا بالنبي (ص) ،والقرآن ـ في قول الضحاك ـ ، وهو اختيار الجبائي .

الثاني ـ لا تبعتم الشيطان إلا قليلا من الاتباع . ويكون الفضل على جملة اللطف ، لأن ذلك لم يكن يزكو به أحد منهم .

الثالث ـ قال الحسن ، وقتادة . وذكره الفراء ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا .

الرابع ـ قال ابن عباس ، وابن زيـــد : اذاعوا به إلا قليلا وهو اختيار الكسائي والفراء والمبرد والبلخي والطبري . وتقديره يستنبطونه منهم إلا قليلا . قال المبرد : لأن العلم بالاستنباط في الناس أقل . وليس كذلك الاذاعة . وغلط الزجاج النحويين في ذلك .وقال : كل هذه الاقوال جائزة . وقال قوم حكاه الطبري: ان مخرجه الاستثناء . وهو دليل الجمع ، والاحاطة . والمعنى انه لولا فضل الله لم ينج أحد من الضلالة . فجعل قوله : « إلا قليلا » دليلا على الاحاطة كما قال الطرماح يمدح يزيد بن المهلب :

قليل المثالب والقادحة (١)

والمعنى انه لا مثالب .

« ١ » ديوانه : ١٣٩ وصدره :

أشم كثير يدي النوال

يدي ـ بضم الياء وكسر الدال وتشديد الياء ـ أو ـ بفتح الياء وكسر الدال وتشديد الياء ـ جمع (يد) .

قوله تعالى :

﴿ فَقاتِلْ في سَبيلِ اللهِ لا تُكلَّفُ إلا نَفسكَ وَحرِّضْ المؤمنينَ عسى اللهُ أنْ يكفَّ بأسَ الَّذينَ كفروا وَاللهُ أشدُّ بأساً وَأشدُّ تنكيلاً ﴾ (٨٤) ـ آية بلا خلاف ـ .

هذا خطاب للنبي (ص) خاصة أمره الله أن يقاتل في سبيل الله وحده بنفسه . وقوله : « لا تكلف إلا نفسك » ومعناه لا تكلف إلا فعل نفسك ، لأنه لا ضرر عليك في فعل غيرك فلا تهتم بتخلف المنافقين عن الجهاد فعليهم ضرر ذلك ، وليس المراد لا يأمر أحداً بالجهاد . وإنما أراد ماقلناه ألا ترى أنه قال «وحرّض المؤمنين» على القتال يعني حثهم على الجهاد . وفي ذلك دلالة على أنه لا يجوز أن يؤاخذ الله الأطفال بكفر آبائهم ويؤيده قوله : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » لأن مفهوم هذا الكلام أنه لا يجوز أن تؤخذ بذنب غيرك . والفاء في قوله : « فقاتل في سبيل الله » قيل في معناه قولان :

أحدها ـ أن يكون جواباً لقوله : ﴿ ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ (١) هكذا ذكره الزجاج ، لأنه محمول على المعنى من حيث دل على معنى إن أردت الفوز ، فقاتل .

الثاني ـ أن يكون متصلا بقوله : ﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله ﴾ (٢) فقال في سبيل الله . كذا ذكره الزجاج ووجهه لاحظ لك في ترك القتال فتتركه ، ثم وضع فقاتل موضع فتتركه . وقوله : « وحرّض المؤمنين » معناه حثهم « عسى الله أن يكف » قال الحسن ، والبلخي ، والزجاج : إن (عسى) من الله واجب ووجه ذلك ان اطماع الكريم انجاز وإنما الاطماع تقوية أحد الامرين على الآخر دون قيام الدليل على التكافؤ في الجواز . وخرج (عسى) في هذا من معنى الشك

« ١ » سورة النساء آية : ٧٤ . « ٢ » سورة النساء آية : ٧٥ .

كخروجها في قول القائل : أطع ربك في كل ما أمرك به ، ونهاك عنه عسى (١) ان تفلح بطاعتك . ومعنى « أن يكف بأس الذين كفروا » ان يمنع شدة الكفار ، ثم قال : « والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » فالبأس : الشدة (٢) في كل شيء ومعنى التنكيل قال الحسن ، وقتادة : هو العقوبة . وقال أبو علي الجبائي : هو الشدة بالأمور الفاضحة (٣) ونكل به ، وشوه به ، وندد به نظائر . وأصله النكول : وهو الامتناع للخوف . نكل عن اليمين ، وغيرها ينكل نكولا . والنكال : ما يمتنع به من الفساد خوفاً من مثله من العذاب . والنكل القيد .

قوله تعالى :

﴿مَنْ يَشفع شَفاعةً حَسنةً يكن لهُ نَصيبٌ مِنها وَمنْ يَشفع شَفاعةً سَيئةً يكن لهُ كفلٌ مِنها وَكانَ اللهُ على كل شيءٍ مُقيتاً﴾ (٨٥) ـ آية ـ .

المعنى واللغة :

قيل في معنى الشفاعة ههنا قولان :

أحدها ـ قال أبو علي : الشفاعة الحسنة : الدعاء للمؤمنين . والشفاعة السيئة : الدعاء عليهم ، لأن اليهود كانت تفعل ذلك فتوعدهم الله تعالى عليه . وقال الحسن ، ومجاهد ، وابن زيد : الشفاعة هي مسألة الانسان في صاحبه أن يناله خير بمسألته . وقال الازهري معنى « من يشفع شفاعة حسنة » من يزد عملا إلى عمل . والشفع : الزيادة . سئل ثعلب عن اشتقاق الشفعة ، فقال : الزيادة وهو أن يشفعك في ما تطلبه حتى تضمه إلى ما عندك ، فتشفعه أي تزيده بها إن كان واحداً ، فضممت إليه ما زاد صار شفعاً .

(١) (عسى) ساقط من المطبوعة .
(٢) في المطبوعة (الشهرة) بدل (الشدة) وهو تحريف .
(٣) في المخطوطة (بالامر القاصم) .

وعندنا ان حقيقة الشفاعة هي المسألة في اسقاط الضرر . وانما تستعمل في مسألة المنافع مجازاً ، لأن أحداً لا يقول : إنا نشفع في النبي (ص) إذا سألنا الله أن نزيد في كراماته ، ولو كان الامر على ما قاله الحسن ، ومجاهد ، لكنا شافعين فيه . ووجه اتصال هذا الكلام بما تقدم ، انه لما قيل « لا تكلف إلا نفسك » عقب ذلك بان لك مع هذا في دعاء المؤمنين إلى الحق ما للانسان في شفاعة صاحبه بخير يصل إليه ، لئلا يتوهم ان العبد من أجل انه لا يؤخذ بعمل غيره ، لا يتزيد فعله بعمل غيره .

الثاني ـ ان الشفاعة تصير الانسان شفعاً لصاحبه في جهاد عدوه من الكفار. والكفل : قال الحسن ، وقتادة : هو الوزر ، وهو قول أبي جعفر (ع) . وقال السدي ، والربيع ، وابن زيد : هو النصيب . ومنه قوله : « يؤتكم كفلين من رحمته » وأصل الكفل (١) : المركب الذي يهيأ كالسرج للبعير من كسا ، أوخرق أو نحوه حول السنام . وانما قيل كفل ، واكتفل البعير ، لأنه لم يستعمل الظهر كله . وانما استعمل نصيب منه . وقال الازهري : الكفل الذي لا يحسن ركوب الفرس . وأصله الكفل : وهو ردف العجز . ومنه الكفالة بالنفس ، وبالمال . والكفل المثل . والمقيت : قيل في معناه خمسة أقوال .

قال السدي ، وابن زيد ، والكسائي : هو المقتدر .

والثاني ـ قال ابن عباس ، واختاره الزجاج : إنه الحفيظ .

والثالث ـ قال مجاهد : هو الشهيد .

والرابع ـ المقيت : الحسيب عنه .

والخامس ـ قال الجبائي : هو المجازي كأنه قال : وكان الله على كل شيء من الحسنات ، والسيئات مجازياً . وأصل المقيت : القوت ، قاته يقوته قوتاً : إذا أعطاه ما يمسك رمقه . والمقيت : المقتدر لاقتداره على ما يمسك رمقه . يقال منها قات الرجل يقيت اقاتة حكاه الكسائي وينشد للزبير بن عبدالمطلب عم النبي (ص) :

« ١ » في المطبوعة (وأهله) بدل (وأصل) .

وذي ضغن كففت النفس عنه وكنت على مساءته مقيتا (١)

فهذه لغة قريش. وقال كثير:

وما ذاك عنها عن نوال اناله ولا انني منها مقيت على ود

أي مقتدر فأما قول اليهودي:

ألي الفضل أم علي إذا حو سبت اني على الحساب مقيت (٢)

قيل: ومعناه موقوف. أي كما ان من يحتاج إلى القوت موقوف على سدّ خلته. ويحتمل معنى مقيت أي مقتدر على الحساب بتوجيهه إلى انه لي أو علي بحسب عملي. وقال ابن كثير: المقيت الواصب وهو القائم على كل شيء بالتدبير. وأقوى الوجوه معنى المقتدر بدلالة البيت الذي للزبير بن عبد المطلب.

قوله تعالى:

« وَإذا حُييتمْ بتحيةٍ فَحَيُّوا باحسنَ مِنها أو رُدّوها إنّ اللهَ كانَ على كلِّ شيءٍ حَسيباً » (٨٦) - آية بلا خلاف -.

هذا خطاب من الله تعالى لجميع المكلفين، يأمرهم إذا دعى لهم انسان بطول الحياة، والبقاء والسلامة، ان يحيوهم باحسن من ذلك أو يردوا عليهم مثله. قال النحويون: أحسن ههنا صفة لا ينصرف، لأنه على وزن افعل وهو صفة لا تنصرف والمعنى حيوا بتحية أحسن منها. والتحية: مفعلة من حييت. ومعناها ههنا السلام قال السدي: وابن جريج وعطا، وإبراهيم: إنه إذا سلم عليك واحد من المسلمين، فسلم عليه باحسن مما سلم عليك. أو رد عليه مثل ما قال. وذلك إذا قال السلام عليك، فقل أنت وعليك السلام ورحمة الله أو تقول كما قال لك. وقال قتادة، وابن عباس، ووهب: فحيوا باحسن منها أهل الاسلام، أو ردوها على أهل الكفر

---

(١) البيت مختلف في نسبته فقيل انه لابي قيس بن رفاعة. وقيل لاحيحة بن الجلاح الانصاري. اللسان (قوت) وطبقات فحول الشعراء: ٢٤٢ - ٢٤٣ والدر المنثور ٢: ١٨٨.

(٢) ديوانه: ١٤ والاصمعيات: ٨٥ ومجاز القرآن ١: ١٣٥ وطبقات فحول الشعراء: ٢٣٧. واللسان (قوت).

والاول أقوى ، لأنه روي عن النبي (ص) ، انه قال : إذا سلم عليكم أهل الكتاب، فقولوا وعليكم . وقال الحسن ، وجماعة من متقدمي المفسرين : إن السلام تطوع . والرد فرض ، لقوله : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها أو ردوها ﴾ وذلك أمر يقتضي الايجاب .

وقوله : ﴿ إن الله كان على كل شيء حسيباً ﴾ قيل في معنى الحسيب قولان:

أحدها ـ قال مجاهد : ، وابن أبي نجيح : معنى حسيب حفيظ وقال قوم: معناه ههنا من قولهم : احسبني الشيء يحسبني احساباً بمعنى كفاني . ومنه قولهم: حسبي كذا وكذا أي كفاني . وقال بعضهم : الحسيب في هذا الموضع فعيل من الحساب الذي هو بمعنى الاحصاء يقال منه : حاسبت فلاناً على كذا وكذا وهو حسيبه وذلك إذا كان صاحب حسابه . قال الزجاج : معناه يعطي كل شيء من العلم والحفظ والجزاء مقدار ما يحسبه أي يكفيه . ومنه قوله : « عطاء حسابا »(١) أي كافياً . وسمي الحساب حساباً ، لأنه يعلم به ما فيه الكفاية وذكر الحسن : انه دخل على النبي (ص) رجل ، فقال : السلام عليكم ، فقال النبي (ص) : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم دخل آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فقال النبي (ص) : وعليك السلام ورحمة الله ، وبركاته ، ثم دخل آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله، وبركاته ، فقال النبي (ص) : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . قال بعضهم يارسول الله كيف هذا فقال النبي (ص) الاولان بقيا من التحية بقية فرددتها . وهذا لم يبق منها شيئاً فرددت عليه ما قال (٢) .

قوله تعالى :

﴿ اللهُ لا إِلهَ إِلا هُوَ لَيجمعنَّكم إلى يَومِ القيامةِ لا رَيبَ فيهِ وَمَنْ أصدقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً ﴾ (٨٧) ـ آية بلا خلاف ـ .

« ١ » سورة النبأ : آية ٣٦ .

« ٢ » في المطبوعة سقط فظيع في هذا الحديث وقد أثبتنا ما في المخطوطة .

قد بينا فيما تقدم معنى الله . وهو الذي تحق له العبادة . وانه من كان قادراً على خلق اصول النعم التي يستحق بها العبادة . وليس هو عبارة عمن يستحق العبادة ، لأنه لو كان كذلك، لما كان تعالى إلهاً فيما لم يزل . وإذا ثبت انه موصوف به فيما لم يزل ، دل على ان المراد ماقلناه . وإذا ثبت ذلك ، فقد بين تعالى بهذه الآية انه لا يستحق العبادة سواه . وقوله : « ليجمعنكم إلى يوم القيامة » اللام في ليجمعنكم لام القسم كقولك : والله ليجمعنكم . وقيل في معناه قولان :

أحدهما ـ ليبعثنكم من بعد مماتكم ، ويحشرنكم جميعاً إلى موقف الحساب الذي يجازي فيه كلا بعمله ، ويقضي فيه بين أهل طاعته ، ومعصيته .

الثاني ـ قال الزجاج : معناه ليجمعنكم في الموت وفي قبوركم . وقوله : « لا ريب فيه » معناه لا شك فيما أخبركم به . من قوله : اني جامعكم يوم القيامة . وقيل في تسمية ذلك اليوم بالقيامة قولان :

أحدهما ـ لأن الناس يقومون من قبورهم .

الثاني ـ انهم يقومون للحساب . قال الله تعالى « يوم يقوم الناس لرب العالمين » (٣) وقوله : «ومن أصدق من الله حديثاً » تقرير في صورة الاستفهام ومعناه لا أحد أصدق من الله في الخبر الذي يخبر به من حيث لا يجوز عليه الكذب في شيء من الاشياء ، لأنه لا يكذب إلا محتاج يجتلب به نفعاً ، أو يدفع به ضرراً . وهما يستحيلان عليه تعالى . فاذاً يستحيل عليه الكذب . وأنما يجوز ذلك على من سواه . فلذلك كان تعالى أصدق القائلين . ونصب حديثاً على التمييز كما تقول : من أحسن من زيد فهما أو خلقا ؟

قوله تعالى :

﴿ فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون

---

(١) سورة المطففين : آية ٦ .

أنْ تَهدوا مَنْ أضلَّ اللهُ وَمَنْ يُضلِل اللهُ فلنْ تجدَ لهُ سبيلاً ﴾ (٨٨)
ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى والنزول :

خاطب الله تعالى بهذه الآية المؤمنين ، فقال : ما شأنكم أيها المؤمنون في أهل النفاق فرقتين مختلفتين « والله أركسهم بما كسبوا » يعني بذلك والله ردهم إلى أحكام أهل الشرك في اباحة دمائهم ، وسبي ذراريهم « بما كسبوا » يعني بما كذبوا الله ورسوله ، وكفروا بعد إسلامهم . والاركاس : الرد . ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فاركسوا في حميم النار انهم كانوا عصاة وقالوا الافك والزورا(١)

قال الفراء : يقال منه أركسهم ، وركسهم وقد ذكر أنها في قراءة عبد الله وأبي (والله ركسهم)بغير الف . وفيمن نزلت هذه الآية قيل فيه خمسة أقوال :

أحدها ـ قال قوم نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله (ص) في الذين تخلفوا عن رسول الله يوم أحد ، وانصرفوا إلى المدينة . وقالوا لرسول الله وأصحابه لو نعلم قتالا لاتبعناكم . ذكر ذلك زيد بن ثابت .

والثاني ـ قال مجاهد ، وأبو جعفر (ع) ، والفراء : إنها نزلت في اختلاف كان بين أصحاب رسول الله (ص) في قوم كانوا قدموا المدينة من مكة ، واظهروا للمسلمين أنهم مسلمون ، ثم رجعوا إلى مكة ، لأنهم استوخموا المدينة ، واظهروا لهم الشرك ، ثم سافروا ببضائع المشركين إلى اليمامة . فاراد المسلمون أن يأخذوهم وما معهم فاختلفوا . وقال قوم : لا نفعل ذلك (٢) لأنهم مؤمنون . وقال آخرون: هم مرتدون . فأنزل الله فيهم الآية .

الثالث ـ قال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك : بل كان اختلافهم في قوم

---

(١) ديوانه : ٣٦ ، وهو هكذا :

اركسوا في جهنم أنهم كانوا عتاة تقول افكاً وزورا

وهو في الدر المنثور ٢ : ١٩١ هكذا :

اركسوا في جهنم انهم كانوا عتاة يقولوا ميناً وكذبا وزورا

(٢) في المطبوعة (ذلك) ساقطه .

من أهل الشرك كانوا أظهروا الاسلام بمكة ، وكانوا يعينون المشركين على المسلمين، فقال قوم : دماؤهم ، وأموالهم حلال وقال آخرون : لا بل هو حرام .

الرابع ـ قال السدي نزلت في قوم كانوا بالمدينة أرادوا الخروج عنهم نفاقا. وقالوا للمؤمنين أصابنـــا جدب وخصاصة نخرج إلى الظهر حتى نتماثل ، ونرجع ، فقال قوم : هم منافقون . وقال آخرون : هم مؤمنون .

والخامس ـ قال ابن زيد : بل نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله في قصة أهل الافك عبد الله بن أبي ، وأصحابه ، لما تكلموا في عائشة .

الاعراب :

وقوله : ﴿ فئتين ﴾ يحتمل نصبه أمرين :

أحدها ـ قال بعض البصريين هو نصب على الحال كقولك : مالك قائماً . ومعناه مالك في حال القيام . وقال الفراء : هو نصب على فعل مالكم ولا ينافي (١) كان المنصوب في مالك : معرفة ، أو نكرة . ويجوز أن تقول مالك السائر معنا ، لأنه كالفعل الذي ينصب بكان ، وأظن ، وما أشبهها قال : وكل موضع صلحت فيه فعل ويفعل من المنصوب ،جاز نصب المعرفة ، والنكرة . كما تنصب كان وأظن، لأنها نواقص في المعنى . وان ظننت انهن تامات . واختلفوا في معنى اركسهم ، فقال ابن عباس : معناه ردهم . وفي رواية أخرى عنـه : أوقعهم . وقال قتادة : اهلكهم [وقال السدي : معناه أضلهم بما كسبوا . ومعناه أيضاً اهلكهم] (٢) وقوله : ﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجـــد له سبيلا ﴾ معناه أتريدون أيها المؤمنون أن تهدوا إلى الاسلام من أضله الله . ويحتمل معنيين:

أحدها ـ أن من وجده الله ضالا ، وسماه بأنه ضال ، وحكم به من حيث ضل بسوء اختياره .

---

(١) في المطبوعة (تبالي) بدل (ينافي) .
(٢) مابين القوسين ساقط من المطبوعة .

والثاني ـ أضله الله بمعنى خذله . ولم يوفقه كما وفق المؤمنين ، لأنهم لما عصوا وخالفوا استحقوا هذا الخذلان عقوبة لهم على معصيتهم ، فيريدون الدفاع عن قتالهم مع ما حكم الله بضلالهم وخذلانهم . وقال الجبائي : المعنى ومن يعاقبه الله على معاصيه ، فلا تجد له طريقاً إلى الجنة . وطعن على الأول من قول البغداديين ان المراد به التسمية ، والحكم بأن قال : لو أراد ذلك ، لقال : ومن ضلل الله وهذا ليس بشيء ، لأنهم يقولون : أكفرته وكفرته ، وأكرمته وكرمته : إذا سميته بالكفر أو الكرم قال الكميت :

فطائفة قد أكفروني بحبكم وطائفةقالوا مسيءومذنب (١)

ويحتمل أن يكون المراد وجدهم ضلالا ، كما قال الشاعر :

هبوني امرأ منكم أضل بعيره

أي وجده ضالا ، ثم قال لهم أليس الله قال «ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً » (٢) أترى أراد أن الشيطان يخلق فيهم الضلالة ؟ بل إنما أراد يدعوهم إليها ولا خلاف أن الله تعالى لا يدعو إلى الضلالة ، ويقوي قول من قال : المراد به التسمية . قوله :﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ﴾ وإنما أراد ان تسموهم مهتدين لأنهم كانوا يزعمون أنهم مؤمنون فحينئذ رد الله عليهم ، فقال : لا تختلفوا في هؤلاء ، وقولوا باجمعكم: إنهم منافقون . ولم يكونوا يدعونهم إلى الايمان ، فخالفهم أصحابهم ، فعلم ان الصحيح ما قلناه ، ثم أخبر الله تعالى فقال : « ومن يضلل الله» يعني من خذله « فلن تجد له سبيلا » يا محمد ولا طريقاً . ومن قال من المجبرة : إن قوله : « أركسهم بما كسبوا » يدل على أنه أوقعهم في النفاق . فقولهم باطل ، لأنه قال : بما كسبوا ، فبين انه فعل بهم ذلك على وجه الاستحقاق . وذلك لا يليق إلا بما قدمناه ، لأنه لو أوقعهم في النفاق (٣) لمعصية تقدمت ، لكان يجب أن

« ١ » خزانة الادب ٤ : ٢٣٦ . « ٢ » سورة النساء : آية ٥٩ .
« ٣ » (في النفاق) ساقط من المطبوعة .

يكون أوقعهم فيهـا لمعصية أخرى . وذلك يؤدي إلى مالا يتناهى أو ينتهي إلى معصية ابتدأهم بها وذلك ينافي قوله : « بما كسبوا » والفئة الفرقة من الناس . مأخوذ من فأيت رأسه إذا شققته والفأو : الشعب من شعاب الجبل . والركس : الرد إلى الحالة الاولى . ومنه قيل للعذرة ، والروث : ركس .

قوله تعالى :

﴿ وَدّوا لو تكفرونَ كما كفروا فتكونونَ سواءً فلا تتخذوا منهمْ أولياءَ حتى يُهاجِروا في سَبيلِ اللهِ فانْ تولوا فَخذُوهُمْ وَاقتلوهُمْ حَيثُ وَجدْتموهُمْ وَلا تَتخذوا مِنهمُ وَلِيًّا وَلا نَصيراً ﴾ (٨٩) ـ آية ـ .

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن هؤلاء المنافقين أنهم يودّون ويتمنون أن تكفروا أي تجحدوا وحدانية الله تعالى وتصديق نبيكم كما جحدوا ،هم « فتكونون سواء » يعني مثلهم كفاراً تستوون أنتم ، وهم في الكفر بالله ، ثم نهاهم أن يتخذوا منهم أولياء ، ويستنصحوهم ، بل ينبغي أن يتهموهم ، ولا ينتصحوهم ، ولا يستنصروهم ، ولا يتخذوا منهم ولياً ناصراً ، ولا خليلا مصافياً « حتى يهاجروا في سبيل الله » ومعناه حتى يخرجوا من دار الشرك . ويفارقوا أهلها المشركين « في سبيل الله » يعني في ابتغاء دين الله . وهو سبيله ، فيصيروا عند ذلك مثلكم ، لهم مالكم ، وعليهم ماعليكم ـ وهو قول ابن عباس ـ ثم قال : « فان تولوا » يعني هؤلاء المنافقين عن الاقرار بالله ، ورسوله ، وعن الهجرة من دار الشرك ، ومفارقة أهله « فخذوهم » أيها المؤمنون « واقتلوهم حيث وجدتموهم » أي أصبتموهم من أرض الله .

﴿ ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ﴾ يعني ولا تتخذوا منهم خليلا ولا ولا ناصراً ينصركم على أعدائكم ـ وهو قول ابن عباس والسدي ـ .

قوله تعالى :

﴿ إلا ٱلَّذينَ يَصلونَ إلى قَومٍ بَينكُمْ وَبَينهمْ ميثاقٌ أو جاؤكُمْ حَصرتْ صُدورُهمْ أنْ يُقاتِلوكُمْ أو يُقاتِلوا قَومَهمْ وَلو شاءَ اللهُ لَسلطهمْ عَليكمْ فَلقاتَلوكُمْ فانِ اعتزلوكُمْ فَلمْ يُقاتِلوكُمْ وَالقوا اليكُمُ السلَمَ فما جعلَ اللهُ لكُمْ عَليهمْ سَبيلاً ﴾ (٩٠) ـ آية بلا خلاف ـ .

لما أمر الله تعالى المؤمنين بقتال الذين لا يهاجرون عن بلاد الشرك حيث وجدوهم ، وألا يتخذوا منهم ولياً ولانصيراً استثنى من جملتهم من وصل منهم إلى قوم بينكم وبينهم موادعة ، وعهد وميثاق ، فدخلوا فيهم وصاروا منهم . ورضوا بحكمهم فان لمن وصل إليهم ودخل فيهم راضياً بحكمهم حكمهم في حقن دمائهم بدخوله فيهم . والمعني بقوله : « إلا الذين يصلون » بنو مدلج ، وكان سراقة بن مالك بن جعشم (١) المدلجي جاء إلى النبي (ص) بعد أحد ، فقال له : أنشدك الله والنعمة . وأخذ منه ألا يغزو قومه ، فان أسلمت قريش أسلموا ، لأنهم كانوا في عقد قريش ، فحكم الله فيهم ما حكم في قريش ، وحرم منهم ما حرم منهم ، ففيهم نزلت هذه الآية ـ على ما ذكره بن شبة ـ . وقال أبو جعفر (ع) قوله تعالى : « إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق » قال : هو هلال بن عويمر السلمي . واثق عن قومه ألا تخيف يا محمد من أتاك ولا نخيف من أتانا . وبمثل هذا التأويل قال السدي ، وابن زيد ، وعكرمة وقال أبو عبيدة « يصلون » بمعنى ينتسبون إليهم . والعرب تقول قد اتصل الرجل : إذا انتمى إلى قوم وقال الاعشى يذكر امرأة انتسبت إلى قومها :

إذا اتصلت قالت : ابكر بن وائل وبكر سبتها والانوف رواغم (٢)

وقد ضعف هذا الجواب ، لأن تعيين الانتساب لو أوجب أن يكون حكم

---

(١) في المخطوطة (ابن جعيشم) وفي مجمع البيان (ابن خثعم) وقد أثبتنا ما في المطبوعة والطبري وأكثر التفاسير ، وكتب الرجال .

(٢) ديوانه : ٨١ رقم القصيدة ٩ . ومجاز القرآن ١ : ١٣٦ ، واللسان (وصل) .

المنتسب حكم من انتسب إليه ممن بينهم وبينهم ميثاق ، لوجب ألا يقاتل النبي(ص) قريشاً ، لما بينهم وبين المؤمنين من الانتساب . وحرمة الايمان أعظم من حرمة الموادعة . فان قيل : هذه الآية منسوخة قيل : لعمري إنها منسوخة لكن لاخلاف أنها نسخت بقوله في سورة براءة « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وبراءة نزلت بعد فتح مكة ، فكان يجب ألا يقاتل قريشاً على دخول مكة وقد علمنا خلافه وقوله : « أو جاؤكم حصرت صدورهم » قال عمر بن شبة يعني به أشجع فانهم قدموا المدينة في سبعمائة يقودهم مسعود بن دخيلة فأخرج إليهم النبي (ص) احمال التمر ضيافة . وقال : نعم الشيء الهدية أمام الحاجة . وقال لهم : ماجاءكم ؟ قالوا : قربت دارنا منك ، وكرهنا حربك ، وحرب قومنا ، يعنون بني ضمرة الذين بينهم وبينهم عهد لقلتنا فيهم ، فنزلت الآية . وقوله : « جاؤكم حصرت صدورهم » معناه قد حصرت ، لأنه في موضع الحال والماضي إذا كان المراد به الحال قدّر معه قد، كما يقولون : جاء فلان ، وذهب عقله . والمعنى قد ذهب عقله . وسمع الكسائي من العرب من يقول : أصبحت نظرت إلى ذات التنانير بمعنى قد نظرت . وانما جاز ذلك ، لأن قد تدني الفعل من الحال . وقرأ الحسن ، ويعقوب « حصرة صدورهم » منصوباً على الحال . وأجاز يعقوب الوقف بالهاء . وهو صحيح في المعنى وقراءة القراء بخلافه . ومعنى « حصرت صدورهم » ضاقت عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم وكل من ضاقت نفسه عن شيء من فعل أو كلام يقال : قد حصر . ومنه الحصر في القراءة وما قلناه معنى قول السدي وغيره . وقوله : « ولو شاء الله لسلطهم عليكم » مثل قوله : « ولو شاء الله لاعنتكم »(١) ومعناه الاخبار عن قدرته على ذلك لو شاء لكنه لا يشاء ذلك ، بل يلقي في قلوبهم الرعب حتى يفزعوا ، ويطلبوا الموادعة ، والمسالمة ، ويدخل بعضهم في حلف من بينكم وبينهم ميثاق وفي ذمتهم ، ثم قال : « فان اعتزلوكم » يعني هؤلاء الذين أمرنا بالكف عن قتالهم من المنافقين بدخولهم في أهل عهدكم أو بمصيرهم إليكم « حصرت

(١) سورة البقرة : آية ٢٢٠ .

صدورهم »، فلم يقاتلوكم « وألقوا اليكم السلم » يعني صالحوكم، واستسلموا، كما يقول القائل: أعطيتك قيادي والقيت إليك خطامي إذا استسلم له وانقاد لامره، فكذلك قوله: « والقوا اليكم السلم » يريد به الصلح وقال أكثر المفسرين: البلخي والطبري والجبائي، وغيرهم: إن المراد به الاسلام. قال الطرماح:

وذاك ان تميما غادرت سلما للأسد كل حصان وعثة اللبد(١)

يعني استسلاماً. وقال: « فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » يعني إذا استسلموا لكم فلا طريق لكم على نفوسهم، وأموالهم. قال الربيع: السلم هاهنا الصلح، ثم نسخ ذلك بقوله: « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » (٢) الآية. وبه قال عكرمة والحسن قالا. نسخت هذه الآية إلى قوله: « سلطاناً مبيناً » وقوله: في الممتحنة: « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم » إلى قوله: « الظالمون » (٣) نسخت هذه الاربع آيات بقوله: في براءة الآية التي تلوناها، وبه قال قتادة وابن زيد:

قوله تعالى:

﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً ﴾ (٩١) ـ آية بلا خلاف ـ.

النزول

قيل في الذين نزلت فيهم هذه الآية ثلاثة أقوال:

« ١ » ديوانه: ١٤٥ من قصيدته التي هجا بها الفرزدق الحصان: المرأة العفيفة. وعثة: كثيرة اللحم لبدة ـ بكسر فسكون ـ كساء يفرش للجلوس عليه.

« ٢ » سورة التوبة: آية ٦. « ٣ »: آية ٨.

أحدها ـ قال ابن عباس ، ومجاهد : نزلت في ناس كانوا يأتون النبي (ص) فيسلمون رياء ، ثم يرجعون إلى قريش ، ويرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا ، فأمر الله بقتالهم إن لم يعتزلوا ، ويصلحوا .

الثاني ـ قال قتادة : نزلت في حي كانوا بتهامة قالوا : يانبي الله لا نقاتلك، ولا نقاتل قومنا . وأرادوا أن يأمنوا قومهم ويأمنوا نبي الله فأبى الله عليهم ذلك . فقال : « كلما ردوا إلى الفتنة » يعني إلى الكفر «اركسوا فيها » يعني وقعوا فيها .

الثالث ـ قال السدي : نزلت في نعيم بن مسعود الاشجعي ، وكان يأمن في المسلمين بنقل الحديث بين النبي (ص) ، والمشركين ، فنزلت هذه الآية ، وقال مقاتل : نزلت في أسد وغطفان .

المعنى :

وقال أبو العالية معنى قوله : « كلما ردوا إلى الفتنة اركسوا فيها » يعني كلما ابتلوا بها عموا فيها . وقال قتادة : كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه . والفتنة في اللغة هي الاختبار . والاركاس : الرجوع . فمعنى الكلام كلما ردوا إلى الاختبار ، ليرجعوا إلى الكفر والشرك رجعوا إليه . وقوله : « فان لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم » معناه وان لم يعتزلوكم أيها المؤمنون هؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم وهم كلما دعوا إلى الشرك أجابوا إليه

﴿ ويلقوا إليكم السلم ﴾ يعني ولم يستسلموا لكم فيعطوكم المقادة ويصالحوكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ يعني حيث أصبتموهم . ثم قال : «وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً » يعني حجة ظاهرة . وقال السدي ، وعكرمة : السلطان الحجة

وقال أبو علي : نزلت في قوم كانوا يظهرون الاسلام ، فاذا اجتمعوا مع قريش اظهروا لهم الكفر . وهو قوله : ﴿ كلما ردوا إلى الفتنة ﴾ يعني الكفر ﴿ اركسوا فيها ﴾ بمعنى وقعوا فيها ، فما داموا مظهرين للاسلام وكافين عن قتال المسلمين ، فلا

يتعرض لهم. ومتى لم يظهروا الاسلام ،وجب قتالهم على ماذكره الله ،ثم قال قوم : الآية منسوخة وان من لم يحارب مع المؤمنين ، وجب قتاله . واختار هو أنهـا غير منسوخة . قال : لأنه لا دليل على ذلك .

قوله تعالى :

﴿ وَما كانَ لمؤمنٍ أنْ يقتل مُؤمِناً إلاَّ خطأً وَمَنْ قتلَ مُؤمناً خطأً فتحريرُ رَقبةٍ مُؤمنةٍ وَديةٌ مُسلمةٌ إلىأهلهِ إلا أنْ يَصَّدَّقوا فانْ كانَ مِنْ قَومٍ عَدوٍّ لكُمْ وَهُوَ مُؤمنٌ فتحريرُ رَقبةٍ مُؤمنةٍ وَإنْ كانَ مِنْ قَومٍ بَينكُمْ وَبينهمْ مِيثاقٌ فديةٌ مُسلمةٌ إلى أهلهِ وَتحريرُ رَقبةٍ مُؤمنةٍ فَمنْ لمْ يَجدْ فصيامُ شهرينِ مُتتابعينِ تَوبْةً مِنَ اللهِ وَكانَ اللهُ عَليماً حَكيماً (٩٢) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى والاعراب :

قوله : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ﴾ معناه لم يأذن الله ، ولا أباح لمؤمن أن يقتل مؤمناً فيما عهده إليه ، لأنه لو أباحه وأذن فيه ما كان خطأ . والتقدير إلا أن يقتله خطأ ، فأن حكمه هكذا على ما ذكر . فذهب إلى هذا قتادة وغيره .

وقوله : ﴿ إلاخطأ ﴾ استثناء منقطع ـ في قول أكثر المفسرين ـ وتقديره إلا أن المؤمن قد يقتل المؤمن خطأ ، وليس ذلك مما جعل الله له ، ومثله قول الشاعر :

من البيض لم تظعن بعيداً ولم تطأ على الارض إلا ريط برد مرجل (١)

والمعنى لم تطأ على الارض إلاأن تطأ ذيل البرد ، وليس ذيل البردمن الارض.

(١) قائله جرير ديوانه : ٤٥٨، والنقائض : ٧٠٦ ، ومجاز القرآن ١ : ١٣٧ .

وقد ذكرنا لذلك نظائر فيما مضى ، ولا نطول باعادتها . وتقدير الآية : إلا أن المؤمن قد يقتل المؤمن خطأ وليس ذلك مما جعل الله له . وقال قوم : الاستثناء متصل والمعنى : لم يكن للمؤمن أن يقتل متعمداً مؤمناً . ومتى قتله متعمداً لم يكن مؤمناً فان ذلك يخرجه من الايمان ، ثم قال : « إلا خطأ » ومعناه إن قتله له خطأ لا يخرجه من الايمان . ثم أخبر تعالى بحكم من قتل من المؤمنين مؤمناً خطأ ، فقال : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ». ومعناه فعليه تحرير رقبة مؤمنة . يعني مظهرة للايمان وظاهر ذلك يقتضي أن تكون بالغة ليحكم لها بالايمان وذلك في ماله خاصة . « ودية مسلمة إلى أهله » تؤديها عنه عاقلته إلى أولياء المقتول إلا أن يصدق أولياء المقتول حينئذ تسقط عنهم . وموضع (أن) من قوله : « إلا أن يصدقوا » نصب ، لأن المعنى فعليه ذلك إلا أن يصدقوا

النزول :

وقيل : إن الآية نزلت في عياش ابن أبي ربيعة المخزومي : أخي أبي جهل ، لأنه كان أسلم ، وكان قد قتل رجلا مسلماً بعد اسلامه ، وهو لا يعلم باسلامه . وهذا قول مجاهد ، وابن جريج ، وعكرمة ، والسدي . وقالوا : المقتول هو الحارث بن يزيد بن أبي نبشية العامري . ولم يعلم أنه اسلم ، وكان أحد من رده عن الهجرة ، وكان يعذب عياشاً مع أبي جهل ، قتله بالحرة بعد الهجرة . وقيل : قتله بعد الفتح وقد خرج من مكة وهو لا يعلم باسلامه . ورواه أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) . وقال ابن زيد : نزلت في رجل قتله أبو الدرداء ، كان في سرية فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة ، فوجد رجلا من القوم في غنم له ، فحمل عليه بالسيف فقال: لا إله إلا الله ! فبدر فضربه ثم جاء بغنمه إلى القوم ثم وجـــد في نفسه شيئاً فأتى رسول الله (ص) فذكر ذلك له ، فقال له النبي (ص) : ألا شققت عن قلبه فقال: ما عسيت أن أجد ! هل هو إلا دم أو ماء ؟ فقال النبي (ص) فقد أخبرك بلسانه فلم تصدقه قال كيف بي يارسول الله؟ قال : فكيف بلا إله إلا الله ؟! قال فكيف بي

يارسول الله ؟ قال : وكيف بلا إ آله إلا الله ؟! حتى تمنيت أن يكون ذلك اليوم مبتدأ إيماني ، ثم نزلت هذه الآية والذي ينبغي أن يعول عليـه ان ما تضمنته الآية حكم من قتل خطأ ويجوز في سبب نزول الآية كل واحد مماقيل .

المعنى :

وقال ابن عباس ، والشعبي ، وابراهيم ، والحسن ، وقتادة : الرقبة المؤمنة لا تكون إلا بالغة قد آمنت وصامت وصلت . فأما الطفل فانه لا يجزي ولا الكافر .

وقال عطاء : كل رقبة ولدت في الاسلام فهي تجزي . والاول أقوى ، لأن المؤمن على الحقيقة لا يطلق إلا على بالغ عاقل مظهر للايمان ملتزم لوجوب الصوم والصلاة ، إلا أنه لاخلاف أن المولود بين مؤمنين يحكم له بالايمان ، فبهذا الاجماع ينبغي أن يجزي في كفارة قتل الخطأ .

وأما الكافرة والمولود بين كافرين فانه لا يجزي بحال .

والدية المسلمة إلى أهل القتيل هي المدفوعة إليهم موفرة غير منتقصة حقوق أهلها منها « إلا أن يصدقوا » معناه يتصدقوا فادغمت التاء في الصاد لقرب مخرجها وفي قراءة أبي « إلا أن يتصدقوا » .

وقوله : ﴿ فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ يعني إن كان هذا القتيل الذي قتله المؤمن خطأ من قوم هم أعداء لكم مشركون وهو مؤمن ، فعلى قاتله تحرير رقبة مؤمنة . واختلفوا في معناه ، فقال قوم: إذا كان القتيل في عداد قوم أعداء وهو مؤمن بين أظهرهم لم يهاجر ، فمن قتله فلا دية له . وعليه تحرير رقبة مؤمنة ، لأن الدية ميراث ، وأهله كفار لا يرثونه . هذا قول ابراهيم ، وابن عباس ، والسدي ، وقتادة ، وابن زيد ، وابن عياض . وقال آخرون: بل عنى به أهل الحرب من يقدم دار الاسلام فيسلم ثم يرجع إلى دار الحرب إذا مر بهم جيش من أهل الاسلام فهرب قومه وأقام ذلك المسلم فيهم فقتله المسلمون ،

وهم يحسبونه كافراً . ذكر ذلك عن ابن عباس في رواية أخرى .

وقوله : ﴿ فان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ ومعناه إن كان القتيل الذي قتله المؤمن خطأ من قوم بينكم وبينهم أيها المؤمنون ميثاق أي عهد وذمة وليسوا أهل حرب لكم « فدية مسلمة إلى أهله » تلزم عاقلة قاتله . وتحرير رقبة على القاتل كفارة لقتله . واختلفوا في صفة هذا القتيل الذي هو من قوم بيننا وبينهم ميثاق أهو مؤمن أم كافر ؟ فقال قوم : هو كافر إلا أنه يلزم قاتله دية ، لأن له ولقومه عهداً . ذهب إليه ابن عباس ، والزهري ، والشعبي ، وابراهيم النخعي ، وقتادة ، وابن زيد . وقال آخرون : بل هو مؤمن ، فعلى قاتله دية يؤديها إلى قومه من المشركين ، لأنهم أهل ذمة .

روي ذلك أيضاً عن ابراهيم والحسن . وهو المروي في أخبارنا . إلا أنهم قالوا : يعطي ديته ورثته المسلمين دون الكفار . والميثاق هو العهد . وقد بيناه فيما مضى . والمراد ههنا الذمة ، وغيرها من العهود وبه قال السدي والزهري ، وابن عباس والخطأ هو ان تريد شيئاً فتصيب غيره . وهو قول ابراهيم ، وأكثر الفقهاء . والدية الواجبة في قتل الخطأ مئة من الابل ان كانت العاقلة من أهل الابل — بلا خلاف — وان اختلفوا في أسنانها فقائل يقول . هي أرباع : خمس وعشرون حقة ، وخمس وعشرون جذعة ، وخمس وعشرون ابنة مخاض ، وخمس وعشرون بنت لبون . روي ذلك عن علي (ع) . وقال آخرون : هي أخماس : عشرون حقة ، وعشرون جذعة ، وعشرون بنت لبون ، وعشرون بنو لبون ، وعشرون بنت مخاض . وينسب ذلك إلى ابن مسعود . وروى الأمرين معا أصحابنا . وقال قوم : هي أرباع غير أنها ثلاثون حقة ، وثلاثون بنت لبون ، وعشرون بنت مخاض ، وعشرون بنو لبون . روي ذلك عن عثمان وزيد بن ثابت . قال الطبري : هذه الروايات متكافئة . والاولى التخيير . ولا يحمل على العاقلة صلح ، ولا اقرار ، ولا ما كان دون الموضحة . وأما الدية من الذهب فالف دينار ، ومن الورق عشرة آلاف درهم . وقال بعضهم : اثني عشر ألفاً والاول عندنا هو الاصح . ودية عمد الخطأ مئة من

الابل مغلظة اثلاثاً ـ وروي أرباعاً ـ ثلث بنت لبون ، وثلث حقة ، وثلث جذعة . وتستأدى في سنين . ودية الخطأ في ثلاث سنين . ودية العمد إذا تراضوا بها في سنة . وأما دية أهل الذمة فقال قوم : هي دية المسلم سواء . ذهب إليه أبو بكر ، وعثمان ، وابن مسعود ، وابراهيم ، ومجاهد ، والزهري ، وعامر الشعبي ، واختاره الطبري ، وأبو حنيفة وأصحابه. وقال قوم : على النصف من دية المسلم. ذهب إليه عمرو بن شعيب رواه عن عمر بن الخطاب وبه قال عمر بن عبد العزيز . وقال قوم : هي على الثلث من دية المسلم ذهب إليه سعيد بن المسيب ، والشافعي غير أنها أربعة آلاف واختلاف الفقهاء قد ذكرناه في الخلاف . وأما دية المجوسي فلا خلاف أنها ثمانمئة وكذلك عندنا دية اليهودي والنصراني . ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيماً ﴾ يعني فمن لم يجد الرقبة المؤمنة كفارة عن قتله المؤمن لاعتباره فعليه صيام شهرين متتابعين . واختلفوا في معناه : فقال قوم : مثل ما قلناه ذهب إليه مجاهد . وقال آخرون : « فمن لم يجد » الدية فعليه . صوم الشهرين عن الدية والرقبة . وتأويل الآية فمن لم يجد رقبة مؤمنة ولا دية يسلمها إلى أهلها فعليه صوم شهرين متتابعين ، ذهب إليه مسروق والاول هو الصحيح ، لأن دية قتل الخطأ على العاقلة ، والكفارة على القاتل باجماع الأمة على ذلك . وصفة التتابع في الصوم أن يتابع الشهرين لا يفصل بينهما بافطار يوم . وقال أصحابنا : إذا صام شهراً وزيادة ثم أفطر اخطأ وجاز له البناء .

وقوله : ﴿ توبة من الله ﴾ نصب على القطع . ومعناه رجعة من الله لكم إلى التيسير عليكم بتخفيفه عنكم ما خفف عنكم من فرض تحرير الرقبة المؤمنة بايجاب صوم الشهرين المتتابعين توبة « وكان الله عليماً حكيماً » معناه لم يزل الله عليما بما يصلح عباده فيما يكلفهم من فرائضه حكيماً بما يقضي فيهم . ويدبره . وقال الجبائي: انما قال : ﴿ توبة من الله ﴾ تعالى بهذه الكفارة التي يلتزمها بدرء عقاب القاتل . وذمه لأنه يجوز أن يكون عاصياً في السبب ، وإن لم يكن عاصياً في القتل من حيث أنه رمى في موضع هو منهي عنه بأن يكون رجمة ، وإن لم يقصد القتل وهـذا

ليس بشيء لأن الآية عامة في كل قاتل خطأ، وما ذكره ربما اتفق في الآحاد. والزام دية قتل الخطأ العاقلة ليس هو مؤاخذة البريء بالسقيم، لأن ذلك ليس بعقوبة بل هو حكم شرعي تابع للمصلحة. ولو خلينا والعقل ما أوجبناه. وقيل: إن ذلك على وجه المواساة والمعاونة.

قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ (٩٣) ـ آية بلا خلاف ـ.

المعنى:

أخبر الله تعالى في هذه الآية ان من يقتل مؤمناً متعمداً يعني قاصداً إلى قتله ان جزاؤه جهنم خالداً فيها أي مؤبداً في جهنم وغضب الله عليه. وقد بينا ان غضب الله هو ارادة عقابه، والاستخفاف به. «ولعنه» معناه أبعده من ثوابه ورحمته «وأعد له عذاباً عظيماً» يعني لا يعلمون قدر مبلغه لكثرته واختلفوا في صفة قتل العمد، فعندنا أن من قصد قتل غيره بما يقتل مثله في غالب العادة سواء كان بحديدة حادة كالسلاح أو مثقلة من حديد أو خنق أو سم أو إحراق أو تغريق أو موالاة ضرب بالعصا حتى يموت أو بحجارة ثقيلة فان جميع ذلك عمد يوجب القود، وبه قال ابراهيم، وعبيد بن عمير، والشافعي، وأصحابه، واختاره الطبري. وقال قوم: لا يكون قتل العمد إلا ما كان بحديد. ذهب إليه سعيد ابن المسيب، وابراهيم، والشافعي في رواية أخرى، وطاووس وأبو حنيفة وأصحابه غير أن عندنا أنه إذا قتله بغير حديدة فلا يستقاد منه إلا بحديدة. وقال الشافعي يستقاد منه بمثل ما قتل به. فأما القتل شبيه العمد فهو ان يضربه بعصا أو غيرها مما لم تجر العادة بحصول الموت عنده، فاذا مات منه، كان شبيه العمد، وفيه الدية مغلظة في مال القاتل خاصة لا يلزم العاقلة. وقد بينا اختلاف الفقهاء في مسائل

الخلاف في هذه المسألة . واستدلت المعتزلة بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة مخلد في نار جهنم ، وأنه إذا قتل مؤمناً ، فانه يستحق الخلود ، ولا يعفى عنه بظاهر اللفظ . ولنا أن نقول : ما أنكرتم أن يكون المراد بالآية للكفار ومن لا ثواب له أصلا . فأما من هو مستحق للثواب ، فلا يجوز أن يكون مراداً بالخلود أصلا ، لما بيناه فيما مضى من نظائره . وقد روى أصحابنا أن الآية متوجهة إلى من يقتل المؤمن لايمانه ، وذلك لا يكون إلا كافراً . وقال عكرمة ، وابن جريج : إن الآية نزلت في انسان بعينه ارتد ثم قتل مسلماً ، فانزل الله تعالى فيه الآية ، لأنه كان مستحلا لقتله . على أنه قد قيل : إن قوله : « خالداً فيها » لا يفهم من الخلود في اللغة الا طول اللبث ، فأما البقاء ببقاء الله ، فلا يعرف في اللغة ، ثم لا خلاف أن الآية مخصوصة بمن لا يتوب ، لأنه إن تاب فلابد من العفو عنه اجماعاً ، وبه قال مجاهد . وقال ابن عباس : لا توبة له ولا إذا قتله في حال الشرك ثم أسلم وتاب . وبه قال ابن مسعود ، وزيد بن ثابت والضحاك . ولا يعترض على ماقلناه قول من يقول ان قاتل العمد لا يوفق للتوبة ، لأن هذا القول إن صح فانما يدل على أنه لا يختار التوبة . ولا ينافي ذلك القول بأنها لو حصلت ، لا زالت العقاب . وإذا كان لابد من تخصيص الآية واخراج التائبين عنها ، جاز لنا أن نخرج منها من يتفضل الله عليه بالعفو على أن ظاهر الآية يتضمن أن جزاءه جهنم فمن أين أن ذلك لابد من حصوله ، وان العفو لا يجوز حصوله ؟ وهذا قول أبي مجلز وأبي صالح . ولا يدفع ذلك قوله : « وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » لأن ذلك اخبار عن انه مستحق لذلك ، فمن أين حصوله لا محالة ؟ وقال الجبائي : الجزاء عبارة عما يفعل ، وما لا يفعل لا يسمى جزاء . ألا ترى أن الأجير إذا استحق الاجرة على من استأجره ، لا يقال في الدراهم التي مع المستأجر انها جزاء عمله ؟ ! وانما يسمى بذلك إذا أعطاه إياها . وهذا ليس بشيء ، لأن الجزاء عبارة عن المستحق سواء فعل ، أو لم يفعل الا ترى أنا نقول : جزاء من فعل الجميل أن يقابل عليه بمثله ، وان كان ما فعل بعد ؟ وانما يراد أنه ينبغي أن يقابل بذلك . ونقول:

من استحق عليه القود ، أو حد من الحدود إن جزاء هذا أن يقتل ، أو يقام عليه الحد . ولو كان الامر على ما قالوه ، لوجب ألا يكون الخلود في النار جزاء للكفار ، لأنه لم يقع بعد ، ولا يصح أن يقع ، لأن ما يوجد منه لا يكون إلا متناهياً وانما لم يقل في الدراهم ، إنها جزاء لعمله ، لأن ما يستحقه الاجير في الذمة لا يتعين في دراهم معينة . وللمستأجر أن يعطيه منها ، ومن غيرها . فلذلك لم توصف هـذه المعينة بانها جزاء للعمل ، ثم لنا أن نعارض بآيات الغفران ، كقوله : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (١) وقوله : « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » (٢) وقوله : « إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » (٣) . وإذا تعارضا ، وقفا وبقينا على جواز العفو عقلا . وقال الجبائي والبلخي : الآية نزلت في أهل الصلاة . لأنه تعالى بين في الآية الأولى حكم قتل الخطأ من الدية ، والكفارة . وذلك يختص أهل الصلاة ، ثم عقب ذلك بذكر قتل العمد منهم . وهذا ليس بصحيح ، لأن لزوم الدية في الخطأ يتناول المسلم ، والمعاهد . وأما الكفارات فان عندنا تلزمهم أيضاً لأنهم متعبدون بالشرائع . ولو سلمنا ان الآية الاولى تختص المسلمين ، لم يلزم ان تختص الثانية بهم ، بل لا يمتنع ان يراد بها الكفار على وجه الخصوص أو الكفار ، والمسلمين على وجه العموم . غير انا قد علمنا انه لا يجوز ان يراد بها من هو مستحق الثواب ، لأن الثواب دائم . ولا يجوز مع ذلك أن يستحق العقاب الدائم مع ثبوت بطلان الاحباط ، لاجماع الآية على خلافه .

قوله تعالى :

« يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا إذا ضَربتُمْ في سَبيلِ اللهِ فَتبينوا وَلا تَقولوا لِمَنْ ألقى إليكمُ السلمَ لَستَ مُؤمناً تَبتغونَ عَرضَ الحياةِ الدُّنيا

---

(١) ـ سورة النساء : آية ٤٧ـ١١٥ .

(٢) ـ سورة الزمر : آية ٥٣ .

(٣) ـ سورة الرعد : آية ٧ وسورة حم السجدة : آية ٤٣ .

فَعِندَ اللهِ مَغانِمُ كثيرةٌ كذلكَ كنتمْ مِنْ قَبلُ فمنَّ اللهُ عَليكمْ فتبيّنوا إنَّ اللهَ كانَ بما تَعملونَ خَبيراً ﴾ (٩٤) ـ آية ـ .

القراءة ، والحجة :

قرأ أهل المدينة ، وابن عباس ، وخلف (السلم) بغير الف . الباقون بالف . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما فتثبتوا (بالثاء) من الثبوت في الموضعين ههنا وفي الحجرات الباقون (فتبينوا) من التبين . وقرىء من طريق النهرواني لست مؤمناً ـ بفتح الميم الثانية ـ الباقون بكسرها وبه قرأ أبو جعفر محمد بن علي (ع) على ما حكاه البلخي . فمن قرأ بالثاء من الثبوت . فانما أراد التثبت الذي هو خلاف العجلة . ومن قرأ بالياء والنون ، أراد من التبيين الذي هو النظر ، والكشف عنه حتى يصح . والمعنيان متقاربان ، لأن المثبت متبين ، والمتبين مثبت . ومن قرأ (السلم) بلا الف أراد الاستسلام . ومنه قوله : « والقوا إلى الله يومئذ السلم » (١) أي استسلموا . وقوله : « ورجلا سلما » أي مستسلماً . وروى أبان عن عاصم بكسر السين . والمعنى خلاف الحرب . ومن قرأ بالف ذهب إلى التحية . ويحتمل أن يكون المراد لا تقولوا لمن اعتزلكم وكف عن قتالكم : لست مؤمناً . قال أبو الحسن : يقولون : انما فلان سلام إذا كان لا يخالط أحداً .

المعنى :

خاطب الله تعالى بهذه الآية المؤمنين الذين إذا ضربوا في الارض بمعنى ساروا فيها للجهاد وأن يتأنوا في قتال من لا يعلمون كفره ، ولا ايمانه ، وعن قتل من يظهر الايمان وان ظن به الكفر باطناً . ولا يعجلوا حتى يبين لهم أمرهم فانهم ان بادروا ربما أقدموا على قتل مؤمن . ولا يقتلوا من استسلم لهم ، وكف عن قتالهم ، واظهر انه اسلم . وألا يقولوا لمن هـذه صورته : لست مؤمناً ، فيقتلوه طلب عرض

(١) سورة النحل : آية ٨٧ .

« الحياة الدنيا » يعني متاع الحياة الدنيا الذي لابقاء له . فان عند الله مغانم كثيرة وفواضل جسيمة فهو خير لكم إن أطعتم الله فيما أمركم به ، وانتهيتم عما نهاكم عنه .

النزول :

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال عمر بن شبة : نزلت في مرداس رجل من غطفان ، غشيتهم خيل المسلمين ، فاستعصم قومه في الجبل ، وأسهل هو مسلماً مستسلماً ، فاظهر لهم اسلامه ، فقتلوه ، وأخذوا ما معه . وقال أبو عمر والواقدي ، وابن اسحاق نزلت في عامر بن الاضبط الاشجعي لقيته سرية لأبي قتادة فسلم عليه فشد محلم بن جثامة فقتله لاحنة كانت بينهم ، ثم جاء النبي (ص) وسأل ان يستغفر له فقال النبي (ص) لا غفر الله لك . وانصرف باكياً فما مضت عليه سبعة أيام حتى هلك فدفن ، ثم لفظته الارض فجاؤا إلى النبي (ص) وأخبروه فقال (ع) : إن الارض تقبل من هو شر من محلم صاحبكم ، لكن الله أراد أن يعظم من حرمتكم ، ثم طرحوه بين صد في جبل ، والقوا عليه الحجارة ، فنزلت الآية . وقال ابن عباس : لحق ناس رجلا في غنيمة له ، فقال السلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غنمه . فنزلت الآية . قال ابن عباس : فكان الرجل يسلم في قومه ، فاذا غزاهم أصحاب النبي (ص) ، وهرب أصحابه وقف ، وأظهر تحية الاسلام (السلام عليكم) فيكفون عنه ، فلما خالف بعضهم ، وقتل من أظهر ذلك نزلت فيه الآية وبه قال السدي : وقال الرجل السلام عليكم ، أشهد ان لا إله إلا الله ، وان محمداً رسول الله . فشد عليه أسامة بن زيد وكان أمير القوم ، فقتله ، فنزلت الآية . وقال قوم : كان صاحب السرية المقداد . وقال آخرون : ابن مسعود . وكل واحد من هذه الاسباب يجوز أن يكون صحيحاً ، ولا يقطع بواحد منها بعينه . والذي يستفاد من ذلك أن من اظهر الشهادتين لا يجوز لمؤمن أن يقدم على قتله ، ولا إذا أظهر ما يقوم مقامها من تحية الاسلام

المعنى :

وقوله . ﴿ كذلك كنتم من قبل ﴾ اختلفوا في معناه ، فقال قوم : كما كان هذا الذي قتلتموه بعدما القى إليكم السلام مستخفياً من قومه بدينه خوفاً على نفسه منهم ، كنتم أنتم مستخفين بدياناتكم من قومكم حذراً على أنفسكم فمن الله عليكم ، ذهب إليه سعيد بن جبير وقال ابن زيد معناه كما كان هذا المقتول كافراً فهداه الله ، كذلك كنتم كفاراً ، فهداكم الله . وبه قال الجبائي . وقال المغربي : معناه كذلك كنتم أذلاء آحاداً إذا صار الرجل منكم وحده ، خاف أن يختطف .

وقوله : ﴿ فمن الله عليكم ﴾ قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال سعيد بن جبير : فمن الله عليكم باظهار دينه ، واعزاز أهله حتى أظهرتم الاسلام بعد ما كنتم تكتمونه من اهل الشرك . وقال السدي : معناه تاب الله عليكم « فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » معناه انه كان عليماً بما تعملونه قبل أن تعملوه . قال البلخي في الآية دلالة على أن المجتهد لا يضل ، لأن النبي (ص) لم يضلل مقداداً ولا تبرأ منه . ومن قرأ « لست مؤمناً » بفتح الميم الثانية ، قال : معناه لا تقولوا لمن استسلم لكم لسنا نؤمنك . وهو وجه حسن .

قوله تعالى :

﴿ لا يَستوي القاعِدونَ مِنَ المؤمنينَ غيرُ أولي الضررِ وَالمجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ بأموالهمْ وَأنفسهم فَضَّلَ اللهُ المجاهدينَ بأموالهمْ وَأنفسهمْ على القاعِدينَ دَرَجةً وَكُلاً وعدَ اللهُ الحسنى وفضَّلَ اللهُ المجاهِدينَ على القاعِدينَ أجراً عَظيماً (٩٥) دَرَجاتٍ منهُ وَمَغفرةً وَرَحمةً وَكانَ اللهُ غَفوراً رَحيماً ﴾ (٩٦) ـ آيتان ـ .

القراءة ، والحجة :

قرأ أهل المدينة وابن كثير غير أولي الضرر - نصباً - الباقون بالرفع . فمن رفع جعله نعتاً للقاعدين . ومن نصبه فعلى الاستثناء . وهو اختيار أبي الحسن الاخفش .

المعنى :

بين الله بهذه الآية انه « لا يستوي » ومعناه لايعتدل « القاعدون » يعني المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من أهل الايمان بالله وبرسوله . المؤثرون الدعة والرفاهية على مقاساة الحر والمشقة بلقاء العدو ، والجهاد في سبيله إلا أهل الضرر منهم بذهاب أبصارهم ، وغير ذلك من العلل التي لاسبيل لأهلها إلى الجهاد للضرار الذي بهم « والمجاهدون في سبيل الله » ومنهاج دينه لتكون كلمة الله هي العليا والمستفرغون وسعهم في قتال أعداء الله ، وأعداء دينهم « باموالهم » انفاقاً لها فيما يوهن كيد أعداء أهل الايمان . وقال قوم : إن قوله : « غير أولي الضرر » نزل بعد قوله : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » فجاء عمر بن أم مكتوم ، وكان أعمى فقال : يارسول الله كيف وأنا أعمى ، فابرح حتى نزل قوله : « غير أولي الضرر » . ذكر ذلك البراء بن عازب ، وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت . وهو يقوي قراءة من قرأ بالنصب .

الاعراب والمعنى :

« والقاعدون » رفع بيستوي ويستوي ههنا يقتضي فاعلين ، فصاعداً وقوله : « والمجاهدون » معطوف عليه . والتقدير لا يستوي القاعدون إلا أولي الضرر والمجاهدون . وقال الفراء : الرفع أجود لاتصال « غير » بقوله : « القاعدون » والاستثناء كان يجب أن يكون بعد تمام الكلام بقوله : « لا يستوي القاعدون .... والمجاهدون غير أولي الضرر » قال ويجوز خفضه نعتاً للمؤمنين وما قرىء به .

والأول أقوى . ويحتمل النصب على الحال كقولك : جاء زيد غير مريب . فان قيل: أيجوز أن يساوي أهل الضرر المجاهدين على وجه ، فان قلتم: لا، فقد صاروا مثل من ليس من أولي الضرر ؟ قلنا : يجوز أن يساووهم بأن يفعلوا طاعات أخر تقوم مقام الجهاد ، فيكون ثوابهم عليهم مثل ثواب الجهاد . وليس كذلك من ليس بأولي الضرر ، لأنه قعد عن الجهاد ، بلا عذر . وظاهر الآية يمنع من مساواته على وجه . وقال ابن عباس لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر ، والخارجين إلى بدر ثم قال : ﴿ وفضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ قال ابن جريج وغيره معناه فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم درجة على القاعدين من أهل الضرر ثم قال : ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ يعني وعـــد الله الحسنى المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والقاعدين أولي الضرر . والمراد بالحسنى ههنا الجنة في قول قتادة وغيره من المفسرين . وبه قال السدي . وقوله : ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ معناه فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير أولي الضرر أجراً عظيماً . وقوله : ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما ﴾

قال قتادة هو كما يقال : الاسلام درجة ، والفقه درجة ، والهجرة درجة ، والجهاد في الهجرة درجة ، والقتل في الجهاد درجة . وقال عبد الله بن زيد : معنى الدرجات هي التسع درجات التي درجها في سورة براءة . وهي قوله : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله (ص) ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيض الكفار ولا ينالون من عدو نيلا ﴾ إلى قوله : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ (١) قال : هذه التسع درجات . وقال قوم: المراد بالدرجات ههنا الجنة . واختاره الطبري. ﴿ ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ معناه لم يزل الله غفاراً للذنوب صافحاً لعبيده عن العقوبة . رحيماً بهم متفضلا عليهم . فان

«١» : آية ١٢٠ ، ١٢١ .

قيل : كيف قال في أول الآية ﴿ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ ثم قال في آخرها ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات ﴾ وهذا ظاهر التناقض ؟! قلنا عنه جوابان :

أحدهما - أن في أول الآية فضل الله المجاهدين على القاعدين أولي الضرر درجة وفي آخرها فضلهم على القاعدين غير أولي الضرر درجات ولا تناقض في ذلك، لأن قوله : ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ يدل على أن القاعدين لم يكونوا عاصين مستخفين . وان كانوا تاركين للفضل .

والثاني -قال أبو علي الجبائي : أراد بالدرجة الأولى علو المنزلة وارتفاع القدر على وجه المدح لهم كما يقال : فلان أعلى درجة عند الخليفة من فلان يريدون بذلك أنه أعظم منزلة . وبالثانية أراد الدرجات في الجنة التي تتفاضل بها المؤمنون بعضهم على بعض على قدر استحقاقهم ، ولا تنافي بينهما . وقال الحسين بن علي المغربي انما كرر لفظ التفضيل ، لأن الاول أراد تفضيلهم في الدنيا على القاعدين والثاني أراد تفضيلهم في الآخرة بدرجات النعيم .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾ (٩٩) - ثلاث آيات - .

هذه الآية نزلت في قوم أظهروا للنبي (ص) الاسلام بمكة ، فلما هاجر

النبي (ص) وهاجر أصحابه فتنوهم آباؤهم عن دينهم فافتتنوا وخرجوا مع المشركين يوم بدر فقتلوا كلهم. وقيل: انهم كانوا خمسة نفر. قال عكرمة: هم قيس بن الفاكة بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الاسود بن أسد، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو العاص بن ميتة بن الحجاج، وعلي بن أميـة بن خلف. وذكر أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) مثله، فانزل الله فيهم الآيات. وقال (ع): ان الذين توفاهم الملائكة يعني قبض أرواحهم « ظالمي أنفسهم » نصب على الحال يعني في حال هم فيها ظالموا نفوسهم بمعنى بخسوها حقها من الثواب وأدخلوا عليها العقاب بفعل الكفر. وقالت لهم الملائكة « فيم كنتم » أي في أي شيء كنتم من دينكم على وجه التقرير لهم والتوبيخ لفعلهم ﴿ قالوا كنا مستضعفين في الارض ﴾ يستضعفنا أهل الشرك بالله في أرضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوتهم، ويمنعونا من الايمان بالله واتباع رسوله على جهة الاعتذار فقالت لهم الملائكة « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » يعني فتخرجوا من أرضكم وداركم وتفارقوا من يمنعكم من الايمان بالله وبرسوله إلى أرض يمنعكم أهلهـا من أهل الشرك، فتوحدوه وتعبدوه وتتبعوا نبيه ثم قال تعالى « فأولئك مأواهم جهنم » يعني مسكنهم جهنم «وساءت» يعني جهنم لأهلها الذين صاروا إليها « مصيراً » وسكناً ثم استثنى من ذلك المستضعفين الذين استضعفهم المشركون ﴿ من الرجال والنساء والولدان ﴾ وهم الذين يعجزون عن الهجرة لاعسارهم وقـلة حيلتهم « ولا يهتدون سبيلا » يعني في الخلاص من مكة. وقيل معناه لا يهتدون لسوء معرفتهم بالطريق من أرضهم إلى أرض الاسلام استثنوا من جملة من أخبر أن مأواهم جهنم للعذر الذي هم فيه.

ونصب المستضعفين بالاستثناء من الهاء والميم في قوله: « مأواهم جهنم » فقال تعالى « فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم » يعني لعل الله أن يعفو عنهم لما هم عليه من الفقر ويتفضل عليهم بالصفح عنهم في تركهم الهجرة من حيث لم يتركوها اختياراً « وكان الله عفواً غفوراً » ومعناه لم يزل الله ذا صفح بفضله عن ذنوب عباده بترك عقوبتهم على معاصيهم « غفوراً » ساتراً عليهم ذنوبهم بعفوه

لهم عنها . قال ابن عباس كنت أنا وأمي من المستضعفين. قال عكرمة وكان العباس منهم وكان النبي (ص) يدعو في دبر صلاة الظهر اللهم خلص الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن ربيعه وضعفة المسلمين من أيدي المشركين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . وبالجملة التي ذكرناها قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، وقتادة، والضحاك، وابن وهب، وابن جبير .

وقوله : ﴿ توفاهم ﴾ يحتمل أن يكون فعلا ماضياً ويكون موضعه الفتح لأن الماضي مبني على الفتح . والثاني أن يكون رفعاً والمعنى تتوفاهم وقد حذف أحد التائين وقد بينا فيما مضي أن (عسى) من الله معناه الوجوب قال المغربي : ذكر (عسى) ههنا تضعيف لأمر غيرهم كما يقول القائل ليت من أطاع الله سلم، فكيف من عصاه . ومثله قول الشاعر :

ولم تر كافر نعمى نجا … من السوء ليت نجا الشاكر

والتوفي هو الاحصاء قال الشاعر :

إن بني أدرد ليسوا من أحد … ليسوا إلى قيس وليسوا من أسد

ولا توفاهم قريش في العدد

بمعنى أحصاهم . والملائكة تتوفى. وملك الموت يتوفى . والله يتوفى . ومايفعله ملك الموت والملائكة يجوز أن يضاف إلى الله إذا فعلوه بأمره وما تفعله الملائكة جاز أن يضاف إلى ملك الموت، إذا فعلوه بامره .

قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُهاجر في سَبيلِ اللهِ يَجدْ في الارضِ مُراغماً كثيراً وَسعةً وَمَنْ يَخرجْ مِنْ بَيته مُهاجراً إلى اللهِ وَرسوله ثُمَّ يُدركهُ الموتُ فَقدْ وَقعَ أجرُهُ على اللهِ وَكانَ اللهُ غَفوراً رَحيماً ﴾ (١٠٠)

- آية - .

أخبر الله تعالى في هذه الآية ان من يفارق وطنه، ويخرج من أرض الشرك وأهله هرباً بدينه إلى أرض الاسلام وأهلها والمهاجر في سبيل الله يعني منهاج دين الله وطريقه الذي شرعه لخلقه يجد في الارض مراغماً كثيراً (يجد) مجزوم ، لأنه جواب الشرط .

اللغة :

والمراغم المضطرب في البلاد والمذهب يقال منه : راغم فلان قومه مراغماً ومراغمة قال الفراء : هما مصدران ومنه قول النابغة الجعدي :

كطود يلاذ بأركانه عزيز المراغم والمهرب(١)

وقال الشاعر :

إلى بلد غير داني المحل بعيد المراغم والمضطرب

والمراغم مأخوذ من الرغام وهو التراب ومعنى راغمت فلاناً هجرته . ولم أبال رغم أنفه أي وان لصق بالتراب أنفه .

المعنى :

واختلف أهل التأويل في معناه ، فقال ابن عباس : المراغم التحول من أرض إلى أرض وبه قال الضحاك ، والربيع ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد . وقال السدي يعني معيشة . وقال ابن زيد يعني مهاجراً . وقال ابن عباس يعني سعة في الرزق . وبه قال الربيع بن أنس والضحاك . وقال قتادة : سعة من الضلالة إلى الهدى . وقال يزيد بن أبي حبيب : ان أهل المدينة يقولون من خرج فاصلا من أهله يريد الغزو وجب سهمه لقوله : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ﴾ وقوله : « وسعة » يحتمل أمرين : أحدهما ـ السعة في الرزق . الثاني ـ السعة مما كان فيه من تضيق المشركين عليهم في أمر دينهم بمكة ، ثم أخبر تعالى أن من خرج مهاجراً

« ١ » ديوانه : ٢٢ ومجاز القرآن ١ : ١٣٨ واللسان (رغم) .

من أرض الشرك فاراً بدينه إلى الله ورسوله وأدركه الموت قبل بلوغه دار الهجرة وأرض الاسلام « فقد وقع أجره على الله » يعني ثواب عمله وجزاء هجرته عليه تعالى « وكان الله غفوراً » يعني ساتراً على عباده ذنوبهم بالعفو عنهم « رحيماً » بهم رفيقاً.

النزول :

وقيل في سبب نزول الآية ان الله لما أنزل ان الذين « توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » كتب المسلمون بالآيات وبعثوها إلى أخوانهم من أهل مكة فخرج حينئذ منها جماعة ، فقالوا : لم يبق لنا عذر فهاجروا . وقال سعيد بن جبير وعكرمة والضحاك والسدي وابن زيد وابن عباس ورواه أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) أنها نزلت في ضمرة بن العيص بن ضمرة بن زنباع أو العيص بن ضمرة وكان مريضاً فأمر أهله أن يفرشوا له على سريرة ويحملوه إلى رسول الله (ص) قال ففعلوا فأتاه الموت بالتنعيم ، فنزلت فيه الآية . وبه قال قتادة وقال : قال ضمرة وأنا أعرف الطريق ولي سعة في المال أخرجوني فأخرج ، فمات . وقال عمر بن شبة : هو أبو أمية ضمرة بن جندب الخزاعي . وقال الزبير بن بكار : هو خالد بن حزام أخو حكيم بن حزام خرج مهاجراً فمات في الطريق . قال عكرمة وخرج جماعة من مكة مهاجرين فلحقهم المشركون وفتنوهم عن دينهم فافتتنوا ، فأنزل الله فيهم « ومن الناس من يقول أمنا بالله فاذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » (١) وكتب بها المسلمون من المدينة إليهم ثم نزل فيهم « ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم » .

قوله تعالى :

﴿ وَإذا ضَربتمْ في الارضِ فليسَ عليكمْ جُناحٌ أنْ تَقصروا مِنَ الصَّلاةِ إنْ خفتمْ أنْ يَفتنكمُ الَّذينَ كفروا إنَّ الكافرينَ كانوا لكمْ

---

(١) سورة العنكبوت : آية ١٠ .

عدواً مبيناً ﴾ (١٠١) ـ آية بلا خلاف ـ .

معنى قوله : ﴿ وإذا ضربتم في الارض ﴾ إذا سرتم فيها فليس عليكم جناح يعني حرج ولا اثم ان تقصروا من الصلاة يعني من عددها فتصلوا الرباعيات ركعتين. وظاهر الآية يقتضي أن التقصير لا يجوز إلا إذا خاف المسافر ، لأنه قال « ان خفتم أن يفتنكم » ولا خلاف اليوم أن الخوف ليس بشرط ، لأن السفر المخصوص بانفراده سبب للتقصير . والظاهر يقتضي ان التقصير جائز لا اثم فيه . ويقتضي ذلك انه يجوز الاتمام ، وعندنا وعند كثير من الفقهاء أن فرض المسافر مخالف لفرض المقيم ، وليس ذلك قصراً ، لاجماع أصحابنا على ذلك . ولما روي عن النبي (ص) انه قال :فرض المسافر ركعتان غير قصر. وأما الخوف بانفراده فعندنا يوجب القصر. وفيه خلاف وقد روي عن ابن عباس أن صلاة الخائف قصر من صلاة المسافر . وانها ركعة ن ركعة . وقال قوم : معنى قوله : « ليس عليكم جناح أن تقصروا » يعني من حدود الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا . وهو الذي رواه أصحابنا في صلاة شدة الخوف . وأنه يصلي إيماء والسجود اخفض من الركوع . فان لم يقدر فان التسبيح المخصوص يكفي عن كل ركعة . ثم أخبر تعالى أن الكافرين يعني الجاحدين لتوحيد الله ونبوة نبيه فقد أبانوا عداوتهم لكم بمناصبتهم لكم الحرب على عبادتكم الله تعالى ، وتركم عبادة الاوثان .

وفي قصر الصلاة ثلاث لغات تقول : قصرت الصلاة أقصرها وهي لغة القرآن . وقصرتها تقصيراً ، واقصرتها إقصاراً .

واختلف أهل التأويل في قصر الصلاة فقال قوم : هي قصر من صلاة الحاضر ما كان يصلي أربع ركعات أذن له في قصرها ، فيصليها ركعتين . ذهب إليه يعلى ابن أمية ، وعمر بن الخطاب . وإن يعلى قال لعمر كيف نقصر الصلاة وقد أمنا فقال عمر : عجبت مما عجبت منه، فسألت النبي (ص) عن ذلك فقال : صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته . وبه قال ابن جريج وقتادة . وفي قراءة أبي « وإذا ضربتم

في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا » ولا يقرأ « إن خفتم » ومعنى هذه القراءة الا يفتنكم الذين كفروا وحذف (لا) كما حذف في قوله : « يبين الله لكم أن تضلوا » (١) ومعناه ألا تضلوا . وقال قوم : القصر لا يجوز إلا مع الخوف روي ذلك عن عائشة ، وسعد بن أبي وقاص. وقال قوم : عنى بهذه الآية قصر صلاة الخوف في غير حال المسايفة ، وفيها نزلت . ذهب إليه مجاهد وغيره . وقال آخرون : عنى بها قصر الصلاة صلاة الخوف في حال غير شدة الخوف . وعنى به قصر الصلاة من صلاة السفر لا من صلاة الاقامة ، لأن صلاة السفر عندهم ركعتان تمام غير قصر ، كما قلناه ـ ذهب إليه السدي ، وابن عمر ، وسعيد بن جبير ، وجابر بن عبد الله ، وكعب ـ وكان من أصحاب النبي (ص) قطعت يده يوم اليمامة وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن ثابت ، وابن عباس ، وثعلبة ابن زهدم اليربوعي وكان من الصحابة ـ وأبو هريرة . وروي عن ابن عباس في رواية اخرى إن القصر المراد به صلاة شدة الخوف تقصر من حدودها وتصليها إيماء وهو مذهبنا . وأما حدّ السفر الذي يجب فيه التقصير فعندنا انه ثمانية فراسخ. وقال أبو حنيفة ، وأصحابه : مسيرة ثلاثة أيام . وقال الشافعي ستة عشر فرسخاً ثمانية وأربعين ميلا . وقال قوم : يجب في قليل السفر وكثيره . بينا الخلاف فيه في كتاب الخلاف .

وانما قال في الاخبار عن الكافرين انهم عدو ، ولم يقل أعداء لأن لفظة فعول وفعيل تقع على الواحد والجماعة ، وفتنت الرجل أفتنه فهو مفتون لغة أهل الحجاز وتميم وربيعة . وأهل نجد كلهم وأسد يقولون : أفتنت الرجل فهو فاتن . وقد فتن فتوناً : إذا دخل في الفتنة .

قوله تعالى :

« وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ معك

« ١ » سورة النساء : آية ١٧٥ .

وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ (١٠٢) ـ آية واحدة بلا خلاف ـ .

قوله ﴿ إذا كنت فيهم ﴾ معناه في الضاربين في الارض من أصحابك يامحمد الخائفين عدوهم أن يفتنوهم ،فأقمت لهم الصلاة يعني أتممت لهم الصلاة بحدودها وركوعها وسجودها ، ولم تقصرها القصر الذي يجب في صلاة شدة الخوف من الاقتصار على الايماء . فلتقم طائفة من أصحابك الذين كنت فيهم معك في صلاتك وليكن سائرهم في وجه العدو . ولم يذكر ما ينبغي أن تفعله الطائفة غير المصلية لدلالة الكلام عليه «وليأخذوا أسلحتهم » قال قوم : الفرقة المامورة بأخذ السلاح هي المصلية مع رسول الله (ص) والسلاح مثل السيف يتقلد به والخنجر يشده إلى درعه وكذلك السكين ونحو ذلك من سلاحه وهو الصحيح . وقال ابن عباس الطائفة المأمورة بأخذ السلاح هي التي بازاء العدو دون المصلية ، فاذا سجدوا يعني الطائفة التي قامت معك مصلية بصلاتك ، وفرغت من سجودها فليكونوا من ورائكم يعني فليصيروا بعد فراغهم من سجودهم مصافين للعدو . وعندنا انهم يحتاجون أن يتموا صلاتهم ركعتين ، والامام قائم في الثانية ثم ينصرفون إلى موضع أصحابهم ويجيء الآخرون فيستفتحون الصلاة فيصلي بهم الامام الركعة الثانية ، ويطيل تشهده حتى يقوموا فيصلوا بقية صلاتهم ثم يسلم بهم الامام . ومن قال : إن صلاة الخائف ركعة ، قال : الأولون إذا صلوا ركعة فقد فرغوا . وكذلك الفرقة الثانية .

وروى ذلك أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) . ورواه مسلمة عن أبي عبدالله (ع) وهذا عندنا انما يجوز في صلاة شدة الخوف . وفي الناس من قال : ان النبي (ص) يسلم بهم ثم يقومون فيصلون تمام صلاتهم . وقد بينـــا اختلاف الفقهاء في مسائل الخلاف في صلاة الخوف . وقوله : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » يعني الطائفة الثانية يأخذون السلاح والحذر في حال الصلاة . وذلك يبين ان المأمورة بأخـــذ السلاح في الأول هم المصلون دون غيرهم . وقوله : « ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم » معناه تمنى الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم وتشتغلون عن أخذها تأهبـاً للقتال وعن أمتعتكم التي بها بلاغكم في أسفاركم فتسهون عنها « فيميلون عليكم ميلة واحدة » معناه يحملون عليكم ، وأنتم متشاغلون بصلاتكم عن أسلحتكم ، وأمتعتكم حملة واحدة فيصيبون منكم غرة فيقتلونكم ، ويستبيحون عسكركم ، وما معكم . والمعنى لاتشاغلوا باجمعكم بالصلاة عند مواقفة العدو ، فتمكنوا عدوكم من أنفسكم ، وأسلحتكم ، ولكن أقيموها على ما بينت . وخذوا حذركم باخذ السلاح . ومن عادة العرب أن يقولوا : ملنا عليهم بمعنى حملنا عليهم . قال العباس بن عبادة بن نصلة الانصاري لرسول الله (ص) ليلة العقبة الثانية : والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن غداً على أهل منى باسيافنا فقال رسول الله (ص) لم نؤمر بذلك يعني في ذلك الوقت وقوله : « ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم » معناه لا جرم عليكم ولا اثم إن كان بكم أذى من مطر يعني إن نالكم من مطر ، وأنتم مواقفو عدوكم ، أو كنتم مرضى يعني أعلاء ، أو جرحى ان تضعوا أسلحتكم إذا ضعفتم عن حملهـا ، لكن إذا وضعتموها ، فخذوا حذركم . يعني احترسوا منهم أن يميلوا عليكم وأنتم غافلون غارون ، ثم قال : « إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً » يعني عذاباً مذلا يبقون فيه أبداً . وقيل « وان كنتم مرضى » نزلت في عبد الرحمن بن عوف وكان جريحاً . ذكره ابن عباس .

واللام في قوله : « فلتقم » لام الأمر وهي تجزم الفعل . ومن حقها أن

تكون مكسورة إذا ابتدىءبها . وبنو سليم يفتحونها . يقولون : ليقم زيد . كما تنصب تميم لام كي يقولون جئت لآخذ حقي . فاذا اتصلت بما قبلها من الواو والفاء جاز تسكينها وكسرها . ذكره الفراء .

وقال : « طائفة أخرى » ولم يقل : آخرون ، ثم قال : « لم يصلوا فليصلوا معك » ولم يقل : فلتصل معك حملا للكلام تارة على اللفظ وأخرى على المعنى كما قال : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » (١) ولو قال : اقتتلتا لكان جائزاً ومثله « فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة » (٢) وفي قراءة أبي : حق عليه الضلالة ومثله « نحن جميع منتصر » (٣) ولم يقل منتصرون ومثله كثير . وفي الآية دلالة على نبوة النبي (ص) . وذلك ان الآية نزلت والنبي (ص) بعسفان والمشركون بضجنان، فتواقفوا فصلى النبي (ص) بأصحابه صلاة الظهر بتمام الركوع والسجود فهم بهم المشركون أن يغيروا عليهم ، فقال بعضهم : لهم صلاة أخرى أحب إليهم من هذه يعنون العصر ، فأنزل الله عليه الآية فصلى بهم العصر صلاة الخوف ، ويقال : إنه كان ذلك سبب اسلام خالد بن الوليد ، لأنه كان هم بذلك فعلم أنه ما أطلع النبي (ص) على ما هموا به غير الله تعالى فأسلم وفي الناس من قال : من حكم صلاة الخوف اختص به النبي (ص) وقال آخرون ـ وهو الصحيح ـ انه يجوز لغيره .

قوله تعالى :

﴿ فاذا قَضيتمُ الصَّلاةَ فاذكروا اللهَ قياماً وَقعوداً وَعلى جُنوبكمْ فاذا اطمأننتمُ فاقيموا الصَّلاةَ إنّ الصَّلاةَ كانتْ على المؤمنينَ كتاباً مَوقوتاً ﴾ (١٠٣) ـ آية ـ .

المعنى :

معنى الآية انكم أيها المؤمنون إذا فرغتم من صلاتكم ـ وأنتم مواقفو

« ١ » سورة الحجرات : آية ٩ .
« ٢ » سورة الاعراف : آية ٢٩ .
« ٣ » سورة القمر : آية ٤٤ .

عدوكم ـ التي بيناها لكم ﴿ فاذكروا الله قياماً وقعوداً ﴾ أي في حال قيامكم وفي حال قعودكم ، ومضطجعين على جنوبكم . والجنب : الجانب تقول نزلت جنبه أي جانبه بالتعظيم له والدعاء لأنفسكم بالظفر على عدوكم لعل الله أن يظفركم بهم. وينصركم عليهم . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ (١) . وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين . وقوله : ﴿فاذا اطمأننتم فاقيموا الصلاة» اختلفوا في تأويله ، فقال قوم معناه إذا استقررتم في أوطانكم وأقمتم في أمصاركم «فأقيموا الصلاة» يعني أتموا التي أذن لكم في قصرها في حال خوفكم في سفركم وضربكم في الارض . ذهب إليه مجاهد ، وقتادة وقال آخرون معناه إذا استقررتم بزوال الخوف من عدوكم ، وحدوث الامن لكم ، فأقيموا الصلاة أي فأتموا حدودها بركوعها ، وسجودها . ذهب إليه السدي ، وابن زيد ، ومجاهد في رواية أخرى . وهو اختيار الجبائي ، والبلخي والطبري . وأقوى التأويلين قول من قال : إذا زال خوفكم من عدوكم ، وأمنتم فأتموا الصلاة بحدودها غير قاصرين لها عن شيء من حدودها ، لأنه تعالى عرف عباده الواجب عليهم من فرض صلاتهم بهاتين الآيتين في حالين :

احداها ـ حال شدة الخوف أذن لهم فيها بقصر الصلاة على ما بيناه من قصر حدودها ، والاقتصار على الايماء .

والثانية ـ حال غير شدة الخوف امرهم فيها باقامة حدودها وإتمامها على مامضى من معاقبة بعضهم بعضاً في الصلاة خلف أئمتها ، لأنه قال : « وإذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة » فلما قال : « فاذا اطمأننتم فاقيموا الصلاة » كان معلوماً انه يريد إذا اطمأننتم من الحال التي لم تكونوا فيها مقيمين صلاتكم فأقيموا الصلاة بجميع حدودها غير قاصرين لها .

وقال ابن مسعود نزلت الآية في صلاة المرضى .والظاهر بغيره أشبه . وقوله : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ اختلفوا في تأويله ، فقال قوم :

(١) سورة الانفال : آية ٤٦ .

معناه ان الصلاة كانت على المؤمنين فريضة مفروضة ، ذهب إليه عطية العوفي ، وابن عباس ، وابن زيد ، والسدي ، ومجاهد ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) وأبي عبد الله (ع) . وقال آخرون : كانت على المؤمنين فرضاً واجباً . ذهب إليه الحسن ، ومجاهد ، في رواية ، وابن عباس في رواية وأبو جعفر في رواية أخرى عنه ، والمعنيان متقاربان بل هما واحد . وقال آخرون : معناه كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً يعني منجماً يؤدونها في انجمها ذهب إليه ابن مسعود وزيد بن أسلم وقتادة . وهذه الأقوال متقاربة ، لأن ما كان مفروضاً فهو واجب وما كان واجباً اداؤه في وقت بعد وقت فمفروض منجم . واختار الجبائي والطبري القول الأخير قال : لأن موقوتاً مشتق من الوقت فكأنه قال : هي عليهم فرض في وقت وجوب أدائها .

قوله تعالى :

﴿ وَلا تَهِنوا في ابتغاءِ القومِ إنْ تكونوا تَألمونَ فانهم يألمونَ كما تألمونَ وَترجونَ مِنَ اللهِ مالا يَرجونَ وَكانَ اللهُ عليماً حَكيماً ﴾ (١٠٤) ـ آية بلا خلاف ـ .

المعنى :

معنى قوله : ﴿ ولا تهنوا ﴾ لا تضعفوا يقال وهن فلان في الأمر يهن وهناً ووهوناً . وقوله في ابتغاء القوم يعني في طلب القوم . والقوم هم أعداء الله وأعداء المؤمنين من أهل الشرك « إن تكونوا » أيها المؤمنون « تألمون » مما ينالكم من الجراح منهم في الدنيا « فانهم » يعني المشركين « يألمون » أيضاً مما ينالهم منكم من الجراح والاذى مثل ما تألمون أنتم من جراحهم واذا هم « وترجون » أنتم أيها المؤمنون « من الله » الظفر عاجلا والثواب آجلا على ما ينالكم منهم « مالا يرجون » هم على ما ينالهم منكم يقول : فأنتم إن كنتم مؤمنين من ثواب الله لكم

على مايصيبكم منهم بما هم مكذبون به فأولى وأحرى أن تصبروا على حربهم وقتالهم منهم على قتالكم وحربكم . وهوقول قتادة ، والسدي، ومجاهد ، والربيع ،وابن زيد، وابن عباس ، وابن جريج .

النزول :

وقال ابن عباس ، وعكرمة : الآية نزلت في أهل أحـــد لما أصاب المسلمين ما أصابهم وصعد النبي (ص) الجبل وجاء أبو سفيان وقال يامحمد (ص) يوم لنا ويوم لكم ، فقال رسول الله (ص) أجيبوه ، فقال المسلمون لاسواء لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النــار ، فقال أبو سفيان عزّى لنا ولا عزّى لكم ، فقال النبي (ص) قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . قال أبو سفيان اعل هبل ، فقال النبي (ص) قولوا له : الله أعلى وأجل ، فقال أبو سفيان موعدنا وموعدكم بدر الصغرى ، ونام المسلمون وبهم الكلوم وفيهم نزلت « ان يمسسكم قرح فقد ... » الآية . وفيهم نزلت « إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون » لأن الله تعالى أمرهم على ما بهم من الجراحات يتبعوهم وأراد بذلك ارهاب المشركين فخرجوا إلى بعض الطريق وبلغ المشركين ذلك فأسرعوا حتى دخلوا مكة .

المعنى واللغة :

وقال بعضهم معنى « وترجون من الله مالا يرجون » أي تخافون من جهته مالا يخافون كما قال : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله » (١) بمعنى لا يخافون . وقال قوم لا يعرف في كلام العرب الرجاء بمعنى الخوف إلا إذا كان في الكلام جحد سابق كما قال : « ما لكم لا ترجون لله وقاراً » (٢) بمعنى لا تخافون لله عظيمة . وقال الشاعر :

« ١ » سورة الجاثية : آية ١٣ .

« ٢ » سورة نوح : آية ١٣ .

لا ترتجى حين تلاقي الزائدا أسبعة لاقت معاً أو واحد (١)

وقال أبو ذؤيب الهذلي :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عوامل (٢)

قال : الفراء : نوب و نوب ، وهو النحل . ولا يجوز أن تقول رجوتك بمعنى خفتك . وانما استعمل الرجاء بمعنى الخوف لأن الرجاء أمل قد يخاف ألا يتم . وهي لغة حجازية . قال الكسائي: لم أسمعها إلا بتهامة ويذهبون معناها إلى قولهم : ما أبالي وما أحفل قال الشاعر :

لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلما على أي جنب كان لله مصرعي

أي ما أبالي . وقوله : « كان الله عليماً » يعني بمصالح خلقه حكيماً في تدبيره أياهم وتقديره أحوالهم .

قوله تعالى :

﴿ إنا أنزلنا إليكَ الـكتابَ بالحقّ لِتحكُمَ بينَ الناسِ بما أراكَ اللهُ وَلا تكن للخائنينَ خصيماً (١٠٥) وَاستغفرِ الله إنَّ اللهَ كانَ غفوراً رَحيماً ﴾ (١٠٦) ـ آيتان ـ .

المعنى :

خاطب الله بهذه الآية نبيه (ص) ، فقال : « إنا أنزلنا إليك » يا محمد (ص) « الكتاب » يعني القرآن « بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » يعني بما أعلمك الله في كتابه « ولا تكن للخائنين خصيماً » نهاه أن يكون لمن خان مسلماً أو معاهداً في نفسه أو ماله خصيماً يخاصم عنه ، ويدفع من طالبه عنه بحقه الذي خانه فيه . ثم أمره بأن يستغفر الله في مخاصمته عن الخائن مال غيره « إن الله كان غفوراً

« ١ » معاني القرآن ١ : ٢٨٦ واللسان (رجا) .

« ٢ » ديوانه ١٤٣ ، ومعاني القرآن ١ : ٢٨٦ ، والصحاح للجوهري (رجا) ويروى (عواسل) .

رحيماً » يصفح عن ذنوب عباده ويسترها عليهم ، ويترك مؤآخذتهم بها . وعندنا أن الخطاب وإن توجه إلى النبي (ص) من حيث خاصم من رآه على ظاهر الايمان والعدالة ، وكان في الباطن بخلافه فلم يكن ذلك معصية ، لأنه (ع) منزه عن القبائح فانما ذكر ذلك على وجه التأديب له في أن لا يبادر فيخاصم ويدفع عن خصم إلا بعد أن يبين الحق منه . والمراد بذلك امته عليه السلام . على أنا لا نعلم أن ماروي في هذا الباب وقع من النبي (ص) ، لأن طريقه الآحاد ، وليس توجه النهي إليه بدال على أنه وقع منه ذلك المنهي قال « لئن أشركت ليحبطن عملك » (١) ولا يدل ذلك على وقوع الشرك منه . وقال قوم من المفسرين : انه لم يخاصم عن الخصم وإنما هم به فعاتبه الله على ذلك .

القصة والنزول :

والآية نزلت في بني أبيرق كانوا ثلاثة أخوة بشر وبشير ومبشر وكان بشر يكنى أبا طعمة فنقبوا على عم قتادة بن النعمان وأخذوا له طعاماً وسيفاً ، ودرعاً فشكى ذلك إلى ابن أخيه قتادة وكان قتادة بدريا فجاء إلى رسول الله (ص) فذكر له القصة ، وكان معهم في الدار رجل يقال له لبيد بن سهل وكان فقيراً شجاعاً مؤمناً ، فقال بنو ابيرق لقتادة هذا عمل لبيد بن سهل ، فبلغ لبيداً ذلك ، فاخذ سيفه وخرج إليهم . وقال يابني ابيرق أترموني بالسرق وأنتم أولى به مني ، وأنتم المنافقون تهجون رسول الله وتنسبون إلى قريش لتبنين ذلك أو لأضعن سيفي فيكم فداروه . وقالوا : ارجع رحمك الله فأنت بريء من ذلك . وبلغهم ان قتادة مضى إلى رسول الله (ص) فمشوا إلى رجل من رهطهم يقال له أسير بن عروة ، وكان منطيقاً لسناً فأخبروه ، فمشى أسير إلى رسول الله (ص) في جماعة ، فقال : يارسول الله (ص) إن قتادة بن النعمان رمى جماعة من أهل الحسب منا بالسرق واتهمهم بما ليس فيهم وجاء قتادة إلى النبي (ص) فأقبل

(١) سورة الزمر : آية ٦٥ .

عليه النبي (ص) ، وقال عمدت إلى أهل بيت حسب ونسب رميتهم بالسرق وعاتبه فاغتم قتادة ورجع إلى عمه ، فقال: ليتني مت ولم أكن كلمت رسول الله (ص) فقد قال لي ما كرهت ، فقال عمه الله المستعان ، فنزلت هذه الآية ﴿ ومن يكسب خطيئة أو اثماً ثم يرمي به بريئاً ﴾ (١) يعني لبيد بن سهل حين رماه بنو ابيرق بالسرق «فقد احتمل بهتاناً واثماً مبيناً » إلى قوله : ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ (٢) فبلغ ذلك بني ابيرق فخرجوا من المدينة ، ولحقوا بمكة وارتدوا فلم يزالوا بمكة مع قريش فلما فتح مكة هربوا إلى الشام فانزل الله فيهم ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ﴾ (٣) إلى آخر الآيات . ولما مضى إلى مكة نزل على سلامة بنت سعد ابن شهيد امرأة من الانصار كانت ناكحاً في بني عبد الدار بمكة فهجاها حسان ، فقال :

وقد أنزلته بنت سعد وأصبحت ينازعها جلد استها وتنازعه

ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتم وفينا نبي عنده الوحي واضعه(٤)

فحملت رحله على رأسها وألقته بالابطح وقالت . ما كنت تأتيني بخير أهديت إلي شعر حسان . ونزل فيه قوله : ﴿ ومن يشاقق الرسول ﴾ (٥) هذا قول مجاهد ، وقتادة بن النعمان ، وابن زيد ، وعكرمة ، إلا أن قتادة ، وابن زيد ، وعكرمة قالوا : إن بني ابيرق طرحوا ذلك على يهودي يقال له زيد بن السمين ، فجاء اليهودي إلى رسول الله (ص) وبمثله قال ابن عباس . وقال ابن جريج : هذه الآيات كلها نزلت في أبي طعمة بن أبي ابيرق إلى قوله : ﴿ إن الله لا يغفر ان يشرك به . ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٦) وقال : رمى بالدرع في دار أبي مليك ابن عبد الله الخزرجي فلما نزل القرآن لحق بقريش ، وقال الضحاك : نزلت في

« ١ ، ٢ » سورة النساء : آية ١١١ .
« ٣ ، ٥ » سورة النساء : آية ١١٤ .
« ٤ » ديوانه : ٢٧١ .
« ٦ » سورة النساء : آية ٤٧ ، ١١٥ .

رجل من الانصار استودع درعاً فجحد صاحبها فخونه رجال من أصحاب النبي (ص) فغضب له قوم فأتوا نبي الله ، فقالوا : أخونوا صاحباً ، وهو أمين مسلم ؟ فعذره النبي (ص) وكذب عنه . وهو يرى أنه بريء مكذوب عليه ، فأنزل الله فيه الآيات . واختار الطبري هذا الوجه وقال : لأن الخيانة إنما تكون في الوديعة فأما السارق فلا يسمى خائناً فحمله عليه أولى وكل ذلك جائز .

قوله تعالى :

﴿وَلا تجادلْ عَنِ الّذينَ يَختانونَ أنفسهم إنَّ اللهَ لا يحبُّ مَنْ كانَ خَوّاناً أثيماً﴾ (١٠٧) - آية - .

نهى الله تعالى نبيه (ص) أن يجادل عن الذين يختانون أنفسهم بمعنى يخونون أنفسهم فيجعلونها خونة بخيانتهم ما خانوا من الأموال . وهم الذين تقدم ذكرهم من بني ابيرق فقال : لا تخاصم عنهم فيما خانوا فيه ثم أخبر ﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ يعني من كان صنعته خيانة الناس في أموالهم (أثيماً) يعني مأثوماً وبمثله قال من تقدم من المفسرين قال قتادة : وفيهم نزلت الآيات إلى قوله : ﴿ومن يشاقق الرسول﴾ .

قوله تعالى :

﴿يَستخفونَ مِنَ الناسِ وَلا يَستخفونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعهمْ إذْ يُبيّتونَ مالا يَرضى مِنَ القولِ وَكانَ اللهُ بما تَعملونَ مُحيطاً﴾ (١٠٨) - آية - .

معنى يستخفون يكتمون فأخبر الله تعالى ان هؤلاء الخائنين يكتمون خيانتهم من الناس الذين لا يقدرون لهم على شيء إلا الذكر لهم بقبيح ما أتوه من فعلهم وتشنيع ما ركبوه إذا اطلعوا منهم على ذلك حياء منهم وحذراً من قبح

الاحدوثة ولا يستخفون من الله الذي هو معهم بمعنى أنه مطلع عليهم لا يخفى عليه شيء من أمرهم وبيده العقاب . والنكال وتعجيل العذاب فهو أحق بأن يستحيا منه وأولى بأن يعظم من أن يراهم حيث يكرهه إذ يبيتون مالا يرضى من القول معناه حين يسرون ليلا مالا يرضى من القول فيغيرونه عن وجهه . ويكونون فيه. والتبييت هو كل كلام أو أمر أصلح ليلا وأصله من فكرهم فيه ليلا . وقال الشاعر :

أتوني فلم أرض ما بيتوا وكانوا أتوني بشيء نكر (١)

وحكي عن بعض طيء ان التبييت في لغتهم التبديل . وأنشد الاسود بن عامر بن جوين الطائي في معاتبة رجل :

وبيت قولي عبـــد المليك قاتلك الله عبداً كنوداً (٢)

يعني بدلت قولي . وروي عن الاعمش عن أبي رزين : ان معنى « يبيتون مالا يرضى » يؤلفون مالا يرضى يعني في رمي البريء بجرم السقيم . والمعنى متقارب، لأن التأليف والتشويه والتغيير عما هو عليه وتحويله عن معناه إلى غيره واحد والمعني بالآية الرهط الذين مشوا إلى رسول الله (ص) في مسألة المدافعة عن بني ابيرق ، والجدال عنه « وكان الله بما تعملون محيطاً » يعني يعلم ما يعلمه هؤلاء المستخفون من الناس وتبييتهم مالا يرضى من القول وغيره من أفعالهم « محيطاً » بمعنى عالماً محصياً لا يخفى عليه شيء منه حافظاً لجميعه ليجازيهم عليه ما يستخفونه قال الزجاج : الذي بيتوه قولهم إن اليهودي سارق الدرع وعزمهم على أن يحلفوا انهم ما سرقوا وان يمينهم تقبل دون يمين اليهودي ، لأنه مخالف الاسلام .

قوله تعالى :

﴿ ها أنتمْ هؤلاءِ جادلتم عَنهم في الحياةِ الدُّنيا فمنْ يُجادل الله

«١» مر تخريجه في ٣ : ٢٠٩ . «٢» لم نجده في مصادرنا .

عَنهم يَومَ القيامة أمْ مَنْ يَكونُ عَليهم وَكيلاً ﴾ (١٠٩) ـ آية بلا خلاف ـ .

ها أنتم (ها) للتنبيه واعيدت مع (أولاء) والمعنى ها أنتم الذين جادلتم ، لأن (هؤلاء ، وهذا) يكون في الاشارة للمخاطبين التي أنفسهم بمنزلة الذين . وقد يكون لغير المخاطبين بمنزلة الذين ، قال يزيد بن مفرغ :

نجوت وهذا تحملين طليق (١)

أي والذي تحملين طليق . قال الزجاج هؤلاء بمعنى الذين ، لأن المخاطب المواجه لا يحتاج إلى الاشارة إلى نفسه . وقال المغربي : هؤلاء كناية عن اللصوص الذين يجادل عنهم . وهو غير أنتم ولذلك حسن التكرير . ومعنى الآية ها أنتم الذين جادلتم . والجدال أشد الخصومة مأخوذ من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله . ورجل مجدول شديد . والأجدل الصقر ، لأنه أشد الطيور . والمعنى يا معاشر من جادل عن بني أبيرق في الحياة الدنيا . والهاء والميم في عنهم كناية عن الخائنين ، فمن يجادل الله عنهم . معناه من ذا يخاصم الله عنهم يوم تقوم الساعة يوم يقوم الناس من قبورهم إلى محشرهم فيدافع عنهم ما الله فاعل بهم . والمعنى إنكم إن دافعتم في عاجل الدنيا فانهم سيصيرون في الآخرة إلى من لا يدافع عنده عنهم أحد فيما يفعل بهم من العذاب وأليم النكال .

وقوله : ﴿ أم من يكون عليهم وكيلا ﴾ معناه ومن ذا الذي يكون وكيلا على هؤلاء الخائنين يوم القيامة يتوكل عنهم في خصومة الله عنهم يوم القيامة . وقد بينا أن الوكالة هي القيام بأمر من يوكل له .

---

(١) قائله يزيد بن مفرغ الحميري . حاشية الصبان ١ : ١٦٠ قطر الندى ١٠٦ ، وأكثر كتب النحو وصدره :

عدس ما لعباد عليك امارة

وهو من قصيدة هجا بها عباد بن زياد بن أبي سفيان فسجنه وأطال سجنه فكلم فيه معاوية فوجه بريداً يقال له حمحام فأخرجه وقدمت له فرس (وقيل بغلة) فنفرت فقال: عدس ... الخ وعدس صوت يزجر به البغل .

قوله تعالى :

﴿ وَمنْ يَعمَلْ سوءاً أوْ يظلِمْ نَفسَهُ ثُمّ يَستغفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غفوراً رَحيماً ﴾ (١١٠) ـ آية ـ

[المعنى] :

المعنى من يعمل ذنباً ، وهو السوء ، أو يظلم نفسه باكتساب المعاصي التي يستحق بها العقوبة « ثم يستغفر الله » يعني يتوب اليه مما عمل من المعاصي ، ويراجعه « يجد الله غفوراً رحيما » ومعناه يعلمه ساتراً عليه ذنبه بصفحه له عن عقوبة جرمه « رحيما » به .

واختلفوا فيمن عنى بهذه الاية ، فقال قوم : عنى بها الخائنين الذين وصفهم في الآية الاولى .

وقال آخرون : عنى الذين كانوا يجادلون عن الخائنين . قال لهم : « ها أنتم جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا » . والاولى حمل الآية على عمومها في كل من عمل سوءاً أو ظلم نفسه ، وان كان سبب نزولها فيمن تقدم ذكره من الخائنين أو المجادلين . وبه قال أكثر المفسرين : الطبري ، والبلخي ، والجبائي ، وابن عباس ، وعبدالله ابن معقل ، وابو وائل ، وغيرهم .

قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَكسبْ إثماً فانمّا يَكسبُهُ على نَفسهِ وكانَ اللّه عليماً حكيماً ﴾ (١١١) .

[المعنى] :

المعنى من يأت ذنباً على عمد منه ومعرفة فانما يجترح وبال ذلك الذنب ،

وضره وخزيه وعاره على نفسه دون غيره من سائر خلق الله .

والمعنى ولا تجادلوا أيها الناس الذين يجادلون عن هؤلاء الخونة ـ فانكم وإن كنتم لهم عشيرة وقرابة ـ فيما أتوه من الذنب ، ومن التبعة التي يتبعون بها ، فانكم متى دافعتم عنهم أو خاصمتم بسببهم كنتم مثلهم ، فلا تدافعوا عنهم ولا تخاصموا « وكان الله عليما حليما » يعني عالماً بما تفعلون أيها المجادلون عن الخائنين أنفسهم ، وغير ذلك من أفعالهم وافعال غيرهم « حكيما » في أفعاله من سياستكم وتدبيركم ، وتدبير جميع خلقه .

وقيل : إنها نزلت في بني أبريق . وفي الآية دلالة على أنه لا يؤخذ أحد بجرم غيره ، ولا يعاقب الاولاد بذنوب الآباء على مايذهب اليه قوم من أهل الحشو. ومثله قوله : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » (١) .

قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ (١١٢) — آية بلا خلاف — .

[اللغة ، والمعنى] :

الخطيئة ، والخطيء : الأثم العمد ، تقول : خطيء يخطأ : إذا تعمد الذنب ، وأخطأ يخطأ : إذا لم يتعمد . قال الزجاج : لما سمى الله تعالى المعاصي بأنها خطيئة ووصفها دفعة أخرى بأنها إثم ، فصل بينهما ههنا حتى يدخل الجنسان فيه . وقال غيره : المعنى من يعمل خطيئة ، وهي الذنب ، أو إثما ، وهو مالا يحل من المعصية ، وفرق بين الخطيئة والاثم ، لأن الخطيئة قد تكون عمداً وغير عمد ، والاثم لا يكون إلا عمداً . فبين تعالى أن من يفعل خطيئة على غير عمد منه لها مما يلزمه

( ) سورة الأنفال ، آية ١٦٤ .

فيه الغرامة ، وان لم يكن إثم فيه ، أو آثماً فيه على عمد منه ، وهو مايستحق به العقاب « ثم رمى به بريئاً » يعني أضافه إلى من هو بريء منه « فقد احتمل بهتاناً » يعني فقد تحمل بفعله ذلك فرية وكذباً « وإثماً مبيناً » يعني وجرماً عظيماً .

والبهتان : الكذب الذي تتحير فيـــه من عظمه وبيانه . يقال : بهت فلان : إذا كذب . وبهت يبهت : إذا تحير ، قال الله تعالى : « فبهت الذي كفر » (١) وإنما قال « به » وقد ذكر الخطيئة والاثم قال الفراء : لأنه يجوز أن يكنى عن الفعلين أحدهما مؤنث والآخر مذكر بلفظ التذكير والتوحيد ثم ولو كثر لجازت الكناية بالتوحيد ، لأن (الافاعيل) تقع على فعل واحد ، فكذلك جاز ، فان شئت جعلتها لواحد ، وإن شئت جعلت الهاء للاثم خاصة كما قال : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها » (٢) فجعله للتجارة . وفي قراءة عبد الله « وإذا رأوا لهوا أو تجارة » فجعله للتجارة في تقديمها وتأخيرها . ولو ذكر على نية اللهو لجاز وقد جاء مثنى ، قال تعالى : « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » (٣) وفي قراءة أبي « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهم » . وفي قراءة عبدالله بن مسعود مثله ، لأنه في مذهب الجمع كما يقول : أصبح الناس صائماً ومفطراً ، فأدى اثنان عن الجمع . وقال الزجاج : المعنى ثم يرمي بذلك بريئاً . قال رؤبة :

فيه خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق (٤)

أي كأن ذلك . واختلفوا فيمن عنى به بقوله : « بريئاً » بعد إجماعهم على أن الرامي ابن أبيرق ، فقال قوم : البريء رجل مسلم يقال له : لبيد بن سهل . وقال آخرون : بل هو رجل يهودي يقال له زيد بن السمين . وقـــد ذكرناه فيما مضى . وبالاخير قال ابن سيرين ، ورواه ابو الجارود عن ابي جعفر (ع) .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٥٧ .
(٢) سورة الجمعة ، آية ١١ .
(٣) سورة النساء ، آية ١٣٤ .
(٤) انظر ١ : ٢٩٦ .

قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طائِفَةٌ مِنهمْ أَنْ يضلوكَ وما يُضلّونَ إلاّ أنفُسَهُمْ وما يضرّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وأنْزَلَ عَلَيكَ الكتابَ والحِكمَةَ وعلمكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعلَمْ وكانَ فضلُ اللَّهِ عَلَيكَ عظيماً ﴾ (١١٣) - آية - .

معنى الآية أنه لولا أنه تعالى تفضل عليك يا محمد فعصمك بتوفيقه وبيانه لك أمر هذا الخائن حتى كففت عن الجدال عنه « لهمت طائفة » ومعناه لقد همت فرقة منهم ، بتقدير (قد) ذكره الفراء . ويعني بالفرقة التي همت من الخائنين أنفسهم « أن يضلوك » بمعنى يزلوك عن الحق ، ويخطئوك . وقيل : يهلكوك بتلبيسهم أمر الخائن عليك وشهادتهم عندك بانه بريء مما ادعي عليه ، ثم قال تعالى : « وما يضلون » هؤلاء الذين هموا باضلالك عن الواجب في أمر هذا الخائن « إلا انفسهم » . واضلالهم انفسهم كان بأن الله لما كان قد بين لهم ماينبغي أن يعملوا عليه من المعاونة على البر والتقوى ، والاّ يتعاونوا على الاثم والعدوان؛ فلما عدلوا عن ذلك وتعاونوا على الاثم والعدوان ، فكانوا بذلك مضلين انفسهم عن طريق الحق .

وقوله : « وما يضرونك من شيء » يعني هؤلاء الذين هموا بازلالك ، لا يضرونك ، لان الله قد يثبتك ويسددك في أمورك ، ويبين لك أمر الحق والبطل .

« وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة » معناه ومن فضل الله عليك يا محمد ، ما تفضل به عليك ، انزاله عليك الكتاب الذي هو القرآن ، وفيه تبيان كل شيء وهدىً وموعظة وانزل عليك الحكمة مضافة الى الكتاب ، وهي بيان ماذكره في الكتاب مجملا من أحكام الكتاب : من الحلال والحرام ، والامر والنهي « وعلمك

ما لم تكن تعلم » من خبر الاولين والآخرين وما كان وما هو كائن · وكل ذلك من فضل الله ·

وقوله : « وكان فضل الله عليك عظيماً » يعني لم يزل فضل الله عليك يامحمد عظيماً ، فاشكره على ما أولاك من نعمه واحسانه · قال الجبائي : وفي الآية دلالة على أن التسمية بالضلال لا تسمى اضلالاً ، لانه لوكان ذلك صحيحاً ، لكانوا قد اضلوا النبي (ص) حيث نسبوه الى الضلال وقد نفى الله عنه ذلك . وهذا ليس بصحيح لامرين :

أحدهما — انهم ما سموه بهذا الفعل ضالاً ، وانما قصدوا التمويه ، والتلبيس عليه ، فلما كشف الله تعالى ذلك بطل غرضهم .

والثاني — ان من قال : إن الضلال يكون بمعنى التسمية لم يقل : إنه لايكون إلا كذلك ، لان الاضلال على وجوه مختلفة : بمعنى التسمية ، وغير ذلك مما بيناه فيما تقدم . والاضلال يكون بمعنى الدفن قال النابغة :

وآب مضلوه بغير جلية وغود رباجولان جرم ونائل(١)

يعني دافنوه ·

قوله تعالى :

﴿ لاخير في كثيرٍ من نجواهم إلاّ من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين النّاس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة اللّه فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ (١١٤) — آية بلا خلاف — .

﴿ القراءة والحجة ﴾ :

قرأ « فسوف يؤتيه » — بالياء — ابو عمرو ، وحمزة ، وقتيبة ، وخلف ·

(١) انظر ١ : ١٩٤ .

الباقون بالنون من قرأ بالياء حمله على قوله : « ومن يفعل » . ومن قرأ بالنون حمله على المعنى .

أخبر الله تعالى : أنه لا خير في كثير من نجوى الناس جميعاً . والنجوى هو ما ينفرد به الاثنان أو الجماعة سراً كان أو جهراً . ويقال : نجوت الشيء : إذا خلصته والقيته . يقال : نجوت الجلد : إذا القيته عن البعير ، وغيره قال الشاعر :

فقلت انجوا عنها نجا الجلد إنه سيرضيكما منها سنام وغاربه (١)

ونجوت فلاناً : اذا استنكهته قال الشاعر :

نجوت مجالداً فوجدت منه كريح الكلب مات حديث عهد (٢)

ونجوت الوتر واستنجيته إذا خلصته كما قال الشاعر :

فتبازت فتبازخت لهـا جلسة الاعسر يستنجي الوتر (٣)

وأصله كله من النجوة ، وهو ما ارتفع من الارض ، قال الشاعر يصف سيلا :

فمن بنجوته كمن بعقوته والمستكن كمن يمشي بقرواح (٤)

ويقول : ما أنجا فلان شيئاً وما نجا شيئاً منذ أيام إذا لم يتغوط . والتقدير في الآية « لا خير في كثير » مما يديرونه بينهم من الكلام « إلا » كلام « من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » .

[الاعراب] :

قال الزجاج يحتمل موضع من نصبا وأن يكون خفضاً ، فالخفض على إلا في نجوى من أمر بصـدقة أو معروف أو اصلاح . والنصب على أن يكون إستثناء منقطعاً بمعنى لكن كأنه قال : لكن من أمر بصدقة أو معروف ففي نجواه خير . وطعن بعضهم على الوجه الأول بأن قال لا يجوز أن يعطف بالا على الهاء والميم في مثل هـذا الموضع من أجل أنه لم ينله الجحد . وقال الفراء : يحتمل الخفض على

(١) لسان العرب : (نجا) (٢) انظر ا : ٢١٨ ، اللسان (نجا)
(٣) اللسان « نجا » وروى . جلسة الجازر . قائله عبد الرحمن بن حسان .
(٤) قائله عبيد بن الابرص . مرقي ا : ٢١٨ . اللسان نجا

تقدير لاخير فى كثير من نجواهم إلا فيمن أمر بصدقة فيكون النجوى على هذا هم الرجال المتناجون كما قال : ﴿ مايكون من نجوى ثلاثة الاهو رابعهم ﴾ (١) وكما قال : « واذهم نجوى » (٢) والنصب على أن يجعل النجوى فعلا فيكون نصباً ، لانه حينئذ يكون استثناء منقطعاً ، لان (من) خلاف النجوى ومثله قول الشاعر :

وقفت فيهـا أُصيلالاً أسائلها　　أعيت جواباً وما بالدار من أحد (٣)
إلا الأواري لاياما ُابينهـا　　والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

ويحتمل وجهاً ثالثاً أن يكون رفعاً كما قال الشاعر :

وبلدة ليس بها أنيس　　إلا اليعافيروالاالعيس (٤)

واقوى الوجوه أن تجعل (من) في موضع خفض بالرد على النجوى ، ويكون بمعنى المتناجين ، خرج مخرج السكرى والجرحى ، ويكون التقدير لا خير فى كثير من نجواهم يعني من المتناجين يا محمد إلا فيمن أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ، فان أولئك فيهم الخير .

وقوله : « ومن يفعل ذلك » اشارة الى ماتقدم من الامر بالصدقة والمعروف والاصلاح بين الناس ابتغاء مرضاة الله يعني طلب مرضاة الله و نصب ابتغاء على أنه مفعول له وتقديره لابتغاء مرضاة الله ، وهو في معنى المصدر ، لأن التقدير ومن يتبع ذلك ابتغاء مرضاة الله. وقوله : « فسوف نؤتيه أجراً عظيما » يعني ثواباً جزيلا فى المستقبل .

قوله تعالى

« وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبيلِ المؤمنينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلّى وَنُصلِهِ جَهَنَّمَ

(١) سورة المجادلة ، آية ٧ .　　(٢) سورة الاسرى ، آية ٤٧ .
(٣) أنظر ١ : ٤٤ (وأصيلالا) فيها روايتان أخريان : أصيلانا وأصيلاكي . والبيتان للنابغة من معلقته المشهورة .　　(٤) أنظر ١ : ١٥١ ومعاني الفراء ١ : ٢٨٨ .

وَساءَتْ مَصِيراً » (١١٥) آية بلا خلاف .

المعنى :

معنى يشاقق الرسول يباين الرسول معادياً له ، فيفارقه على العداوة ، لأن المشاقة هي المباينة على وجه العداوة « من بعد ما تبين له الهدى » معناه من بعد ما تبين له وظهر أنه رسول الله ، وأن ما جاء به من عند الله حق ، وهدى موصل الى الصراط المستقيم بما معه من الآيات والمعجزات مثل القرآن وغيره . وقوله : « ويتبع غير سبيل المؤمنين » معناه ويتبع غير سبيل من صدقه وسلك منهاجا غير منهاجهم « نوله ماتولى » معناه نجعل ناصره ما استنصره واستعان به من الأوثان والاصنام وهي لاتغنيه ولا تدفع عنه من عذاب الله شيئاً « ونصله جهنم » أي ونجعله صلى نار جهنم معناه نحرقه بها وقد بينا معنى الصلى فيما تقدم « وساءت مصيرا » يعني موضعاً يصير اليه من صار اليه .

[القراءة] :

وقرأ أبو عمرو وحمزة وابو بكر الا البرجمي ، والداجوي عن هشام، وابو جعفر من طريق النهرواني قوله « ونصله ، ونوده » « ولا يؤده » حيث وقع بسكون الهاء فيهن ، قال الزجاج يقول في ذلك كسر الهاء ، واثبات الياء وضم الهاء ، واشباعها بالواو وبكسر الهاء بلا ياء . ولايجوز اسكان الهاء بلا كسر ، لان الهاء من حقها أن تكون معها ياء فحذف الياء. واثبات الياء وضم الهاء ضعيف ، ولايجوز حذف الياء إلا اذا كان هناك كسرة يدل عليها النزول والمعنى . ونزلت هذه الآية في الخائنين الذين ذكرهم الله في قوله : « ولا تكن للخائنين خصيماً » لما أبى التوبة أبو طعمة بن الابيرق ولحق بالمشركين من عبدة الاوثان بمكة مرتدا مفارقا رسول الله (ص) وهو قول مجاهد وقتادة ، واكثر المفسرين . وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام .

وقد استدل خلق من المتكلمين ، والفقهاء بهذه الآية على أن الاجماع حجة،

بأن قالوا : توعد الله على اتباع غير سبيل المؤمنين كما توعد على مشاقة الرسول (ص) فلولا أن اتباعهم واجب لم يجز ذلك ، وهذا ليس بصحيح من وجوه :

أحدها ـ أن الآية نزلت في من تقدم ذكره وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فيجب أن يتناوله ويتناول كل من يجري مجراه من المرتدين ومخالفي الاسلام .

والثاني ـ أن من أصحابنا من قال : لانسلم أنه أراد بـ (من) في هذه الآية الاستغراق ، ولا بلفظة (سبيل) جميع السبل ، ولا بـ (المؤمنين) جميع المؤمنين ، فمن أين لهم وجوب الاستغراق . وإذا احتمل التخصيص ، جاز لنا أن نحمل على سبيل الايمان الذي من خالفه كان كافراً ، أو المؤمنين أراد به الأئمة المعصومين ، ولو جاز حملها على العموم ، لوجب حملها على أهل جميع الأعصار على وجه الجمع دون أهل كل عصر ، لأن العموم يقتضي ذلك ، فاذا خصوا بأهل كل عصر ، خصصنا ببعض أهل العصر على أنه إنما حرم اتباع غير سبيل المؤمنين ، فمن أين وجوب اتباع سبيلهم ، ولم لا يجوز أن يكون اتباع غير سبيلهم محصوراً . واتباع سبيلهم موقوفاً على الدليل ، ويجوز أن يكون أيضاً محظوراً مثله أو مباحاً أو مندوبا ، فمن أين الوجوب مع احتمال جميع ذلك على أنه لو سلم جميع ذلك ، لكان يجب علينا اتباع إذا كانوا مؤمنين ، لأنه هكذا أوجب ، فمن أين انهم لا يخرجون عن كونهم مؤمنين . ووجوب الاتباع تابع لكونهم مؤمنين ، فيحتاجون الى دليل آخر في أنهم لا يخرجون عن كونهم مؤمنين غير الآية على أن ظاهر الآية يتضمن أن من شاق الرسول واتبع غيرسبيل المؤمنين يتناوله الوعيد ، فمن أين أنه إذا انفرد احدهما عن الآخر يتناوله الوعيد . ونحن إنما نعلم تناول الوعيد على مشاقة الرسول (ص) بانفرادها بدليل غير الآية ، فعلى من خالف أن يقول : إن اتباع غيرسبيل المؤمنين يتناوله الوعيد بدليل غير الآية . وقد استوفينا ما في هذه الآية في أصول الفقه ، وغيره من كتبنا مشروحا لا نطول بذكره ها هنا .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشرَكَ بهِ وَيَغْفِرُ ما دونَ ذلكَ لِمَن يَشاءُ وَمَنْ يُشرِكَ باللهِ فَقدْ ضَلَّ ضلالاً بعيداً ﴾ (١١٦) آية بلاخلاف

اخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لايغفر الشرك ، وأنه يغفر ما دونه ، وقد بينا الاستدلال بذلك على ما نذهب اليه من جواز العفو عن مرتكبي الكبائر من أهل الصلاة ، وإن لم يتوبوا فيما مضى ، فلا وجه لاعادته وقيل أنه عنى بهذه الآية أباطمة الخائن حين أشرك ومات على شركه بالله ، غير أن الآية وإن نزلت بسببه ، فعندنا وعند جميع الأمة أن الله لا يغفر لمن أشرك به بلا توبة : لتناول العموم لهم ، فان قيل : فعلى هذا من لم يشرك بالله بان لا يعبد معه سواه ، وإن كان كافراً بالنبي (ص) من اليهود النصارى ينبغي أن يكون داخلا تحت المشيئة ، لأنه مما دون الشرك ! قلنا : ليس الامر على ذلك لأن كل كافر مشرك ، لأنه إذا جحد نبوة النبي اعتقد أن ما ظهر على يده من المعجزات ليست من فعل الله ، ونسبها الى غيره ، وان الذي صدقه بها ليس هو الله ، ويكون ذلك اشراكا معه على أن الله تعالى أخبر عنهم بأنهم قالوا : ـ يعني النصارى ـ « المسيح ابن الله ، وقالت اليهود عزير بن الله » (١) وذلك هو الشرك بالله تعالى على أنه لولم يكونوا داخلين في الشرك لخصصناهم من جملة من تناولتهم المشيئة لاجماع الأمة على أن الله تعالى لايغفر الكفر على وجه الا بتوبة .

وقوله : « ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً » يعني من يجعل في عبادته مع الله شريكا ، فقد ذهب عن طريق الحق وزال عن قصد السبيل ذهاباً بعيداً ، لأنه باشراكه مع الله في عبادته فقد أطاع الشيطان ، وسلك طريقه وترك طاعة ربه .

---

(١) سورة التوبة ، آية ٣١ .

قوله تعالى :

﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثاً وإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَاناً مُرِيداً ﴾ (١١٧) آية ـ اختلفوا في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال :

فقال أبو مالك ، والسدي ، وابن زيد ، والزجاج : ان المراد بذلك آلهتهم ، واللات ، والعزى ، ومنات ، وساف ، ونائله سماهن إناثاً بتسمية المشركين اياها بأسماء الاناث .

الثاني ـ قال ابن عباس ، وقتادة ، والحسن : معناه إن يدعون من دونه الا اناثاً يقول ميتاً ليس فيه روح ، قال الحسن : الاناث كل شيء ميت ليس فيه روح ، مثل خشبة يابسة أو حجر يابس . وقال الزجاج : لان الموات يخبر عنها بلفظ التأنيث كما يعبر عن المؤنث تقول: الاحجار تعجبني ولا تقول يعجبوني .

الثالث ـ قال الحسن في رواية أخرى : إن أهل الأوثان كانوا يسمون أوثانهم أناثاً ، وكان لكل حي صنم يسمونها أنثى .

الرابع ـ قال مجاهد : الاناث هي الاوثان . وروي عن عروة عن أبيه أن في مصحف عائشة الا أوثاناً وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأها إلا وثناً جمع وثن كأنه جمع وثناً، وثناً ، ثم قلب الواو همزة مضمومة مثل وجوه وأوجه وقتت واقتت . وقرأ بعضهم أنثاً جمع أناث مثل ثمار وثمر والقراءة المشهورة أناثاً ، وعليه القراء من أهل الامصار .

الخامس ـ قال الحسين بن علي المغربي : إلا اناثاً معناه ضعافاً عاجزين لاقدرة لهم يقولون : سيف أنيث وميناثة بالهاء وميناث أي غير قاطع . قال صخر الغي :

فتخبره بأن العقل عندي   جراز لا أفل ولا أنيث

وأنث في أمره : اذالان ، وضعف والانيث المخنث ، وقال الكميت :

وشذبت عنهم شوك كل قتادة   بفارس يخشاها الانيث المغمز

قال الازهري : والاناث الموات . وقوله : (وان يدعون الا شيطانا مريداً)
المعنى إن هؤلاء الذين يعبدون غير الله ليس يعبدون الا الجمادات ، والا الشيطان
المريد وهو المتمرد على الله في خلافه فيما أمر به ونهى عنه وهو ابليس ، وبه قال قتادة
واكثر المفسرين « ويدعون » معناه يعبدون ، لأنهم ، إذا دعوا الله مخلصين ،
فقد عبدوه ، ومثله قوله : « ادعوني استجب لكم » (١) اي اعبدوني بدلالة قوله:
« ان الذين يستكبرون عن عبادتي » (١) قال الزجاج : المريد هو الخارج عن
الطاعة يقال حائط ممرّد أي مملس وشجرة مرداء إذا تناثر ورقها ومنه سمي أمرد
ومن لا لحية له أي أملس موضع اللحية ، ويقال مرد الرجل يمرد مروداً ومرادة :
إذا عتا وخرج عن الطاعة .

قوله تعالى :

﴿ لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ﴾ (١١٨) آية .

معنى لعنه الله ابعده الله من ثوابه ، واخزاه واقصاه والهاء في (لعنه) الله
كناية عن الشيطان والتقدير ، وان يدعون إلا شيطاناً مريداً قد لعنه الله وابعده
من كل خير .

وقوله : « وقال لأتخذن » يعني بذلك ان الشيطان المريد قال لربه (عزوجل)
اذ لعنه : لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً يعني قسما معلوماً وبه قال الضحاك. واتخاذ
الشيطان النصيب من عباد الله يكون باغوائه اياهم عن قصد السبيل ، ودعائه اياهم
الى طاعته ، وتزيينه لهم الضلال والكفر ، فمن أجاب دعاءه واتبعه ، فهو من نصيبه
المعلوم ، وحظه المقسوم ، وانما اخبر بذلك ليعلم الذين شاقوا الرسول من بعد ماتبين
له الهدى انهم من نصيب الشيطان الذي لعنه الله. والمفروض: الموقت. والمعنى هاهنا

(١) سورة المؤمن آية ٦٠ .

ما افترضه عليهم من طاعتي والفرض: القطع والفريضة الثلمة تكون في النهر والفريضة: كل ما أمر الله به والزمه وقوله: « وقد فرضتم لهن فريضة » (١) أي قطعة من المال وفرضت للرجل: إذا جعلت له قطعة من مال الفيء والفرض التمر قال الشاعر:

إذا اكلت سمكا وفرضاً ذهبت طولا وذهبت عرضاً (٢)

وإنما سمي التمرة رضاً لانه يؤخذ في فرائض الصدقة يقال: سقاها بالفراض والفرض والفرض الحز يكون في المسواك يشد فيه الخيط، والفرض في القوس: الحز يشد فيه الوتر.

قوله تعالى:

﴿ ولاضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن اذان الانعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً (١١٩) يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غروراً (١٢٠) أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً (١٢١) ثلاث آيات.

[المعنى]:

قوله: « ولاضلنهم » إخبار عن الشيطان المريد الذي وصف صفته في الآية الاولى انه قال لربه: « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً. ولاضلنهم » ومعناه ولاصدن النصيب المفروض الذي اتخذه من عبادك عن محجة الهدى إلى الضلال ومن الاسلام إلى الكفر « ولا منينهم » ومعناه أوهمهم انهم ينالون في الآخرة حظاً لأزيغنهم بما أجعل في أنفسهم من الاماني عن طاعتك وتوحيدك الى طاعتي والشرك بي « ولآمرنهم فليبتكن اذان الانعام » يعني لامرن النصيب المفروض من

(١) سورة البقرة، آية ٢٧٧.

(٢) لسان العرب (فرض).

عبادك بعبادة غيرك من الانداد والاوثان ينسكوا له ويحرموا يحللوا ويشرعوا غير الذي شرعه الله لهم فيتبعوني ويخالفوك .

[اللغة] :

والتبتيك : القطع تقول بتكت الشيء ابتكه تبتيكا : إذا قطعته . وبتكه وبتك مثل قطعه وقطع وسيف باتك : قاطع والمراد في هذا الموضع قطع اذن البحيرة، ليعلم انها بحيرة . واراد الشيطان بذلك دعاءهم إلى البحيرة فيستجيبون له ، ويعملون بها طاعة له . قال قتادة : البتك قطع اذان البحيرة والسائبة لطواغيتهم وقال السدي : كانوا يشقونها . وبه قال عكرمة وقوله : « ولامرنهم فليغيرن خلق الله » اختلفوا في معنـــاه فقال ابن عباس ، والربيع بن انس عن انس : انه الاخصاء وكرهوا الاخصاء في البهائم وبه قال سفيان ، وشهر بن حوشب ، وعكرمة وابو صالح وفي رواية أخرى عن ابن عباس فليغيرن دين الله وبه قال إبراهيم ومجاهد وروي ذلك عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهم السلام قال مجاهـــد : كذب العبد يعني عكرمة في قوله : إنه الاخصاء وإنمــا هو تغيير دين الله الذي فطر الناس عليه في قوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » (١) وهو قول قتادة ، والحسن والسدي ، والضحاك ، وابن زيد . وقال قوم : هو الوشم . روي ذلك عن الحسن والضحاك وابراهيم ايضاً وعبـــد الله . وقال عبدالله : لعن الله الواشمات والموتشمات والمتفلجات المغيرات خلق الله وقال الزجاج : خلق الله تعــالى الانعام ليأكلوها ، فحرموها على انفسهم وخلق الشمس والقمر والحجارة مسخرة للناس ينتفعون بها ، فعبدها (٢) المشركون وأقوى الاقوال من قال : فليغيرن خلق الله بمعنى دين الله بدلالة قوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » ويدخل في ذلك جميع ماقاله المفسرون ، لانه إذا كان ذلك خلاف الدين فالآية تتناوله ، ثم اخـــبر تعالى عن حال نصيب الشيطان المفروض الذين شاقوا

---

(١) سورة الروم : آية ٣ .   (٢) في الاصل (فعبدوها)

« الله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى » (١) فقال ومن يتبع الشيطان فيطيعه في معصية الله وخلاف امره « فقد خسر خسراناً مبيناً » معناه هلك هلاكاً ظاهراً ، وبخس نفسه حظها خسراناً مبينا عن عطيه وهلاكه ، لأن الشيطان لا يملك له نصيراً من الله إذا أراد عقابه ، ثم اخبر تعالى الشيطان أنه يعد من يتبعه ويمنيهم فيعدهم النصر ممن ارادهم ، ويمنيهم الظفر على من أرادهم بمكروه ، ثم قال تعالى : « وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » يعني باطلا وسماه غروراً ، لانهم كانوا يظنون أن ذلك حق ، فلما بان لهم أنه باطل ، كان غروراً وقوله : « اولئك مأواهم جهنم » إشارة الى هؤلاء الذين اتخذوا الشيطان ولياً من دون الله مأواهم يعني مصيرهم الذين يصيرهم اليه جهنم ولا يجدون عنها محيصاً يعني لا يجدون عنها معدلا إذا حصلوا فيها .

[اللغة] :

يقول حاص فلان عن هذا الامر يحيص حيصاً وحوصاً : اذا عدل عنه ومنه حديث ابن عمر (بعثنا رسول الله (ص) سرية ، كنت فيهم فلقينا المشركين فحصنا حيصة) وقال بعضهم : فجاضوا جيضة وهما بمعنى واحد ، غير انه لا يقرأ إلا بالصاد والحاء وحصت احوص حوصاً وحياصاً إذا خطت يقال حص عين صقرك ، اي خط عينه والحوص في العين مؤخرها . والخوص غورها .

قوله تعالى :

﴿ وَالذينَ آمَنوُا وعَملوُا الصالِحاتِ سَنُدخِلُهم جَناتٍ تجري مِن تحتِها الانهارُ خالِدينَ فيها أبداً وَعدَ الله حقّاً وَمَنْ اصدَقُ مِن الله قيلاً ﴾ (١٢٢) .

(١) سورة النساء آية ١١٤ .

آية ـ لما ذكر الله تعالى حكم من يشاقق الرسول ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، وذكر ان من يشرك به لا يغفر له وبين حكم من يتبع الشيطان ويكون من نصيبه ، ذكر في هذه الآية حكم من يؤمن به ويوحده ، ويقر بنبيه ويصدقه ويضيف الى ذلك عمل الصالحات ، وانه سيدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار ثواباً على اعمالهم ، وجزاء إيمانهم ، ويخلدهم فيها « وخالدين » نصبٌ على الحال والمعنى انهذه الحال ستدوم لهم ، وتتأبد ، وان ذلك وعد حق من الله لهم وقوله : « وَمن اصدق من الله قيلا » صورته صورة الاستفهام والمراد به التقرير والانكار والمعنى لا أحد اصدق من الله قيلاً أي قولا ووعداً ، لانه لايجوز عليه خلف الميعاد ولا الاخلال عما يجب عليه من الثواب . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قوله تعالى :

﴿ ليسَ بِامانِيكُمْ ولا امانيِّ اَهل الكِتابِ مَن يَعمَلْ سُوءً يُجز به ولا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلياً وَلا نَصيراً ﴾ (١٢٣) . آية

المعنى :

في (ليس) ضمير والتقدير ليس الثواب بامانيكم ، ولا أماني أهل الكتاب والاماني يخفف ويثقل فيقال باماني واماني على وزن افاعيل وفعالل كقراقير وقراقر . واختلفوا في من عنى بهذه الآية فقال مسروق تفاخر المسلمون ، وأهل الكتاب ، فقال المسلمون نحن اهدى منكم . وقال أهل الكتاب : نحن اهدى منكم . فانزل الله تعالى : « ليس بامانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءً يجز به » فقال أهل الكتاب نحن وأنتم سواء فانزل الله تعالى « ومن يعمل من الصالحات من ذكر وانثى وهو مؤمن » (١) ففلج المسلمون . ذهب الى ذلك قتادة والسدي ، والضحاك وابو

(١) في المطبوعة (ففنج) .

صالح . وقال مجاهد معناه ليس بامانيكم يعني أهل الشرك من قريش ، لانهم قالوا : لا نبعث ولا نعذب ، ولا اماني أهل الكتاب انهم خير من المسلمين ، ولا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ذهب اليه ابن زيد وهذا الوجه أقوى لانه لم يجر لاماني المسلمين ذكر وقد جرى ذكر اماني الكفار في قوله : « ولامنينهم » يعني الذي يتخذهم الشيطان نصيباً مفروضاً » ويقوي ذلك أن الله تعالى قد وعد المؤمنين بقوله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » بادخال الجنة والخلود فيها . وتلك غاية أماني المسلمين ، فكيف ينفي بعد ذلك امانيهم ؟ .

وقوله : «ومن يعمل سوءً يجز به » اختلفوا في تأويله فقال قوم : إنه يريد بذلك جميع المعاصي صغائرها وكبائرها وإن من ارتكب شيئاً منها ، فان الله يجازيه عليها . اما في الدنيا أو في الآخرة ذهب اليه قتادة وعائشة ، ومجاهد . وقال آخرون : من يعمل سوءً من أهل الكتاب ، نجزيه ذهب اليه ، الحسن . قال : كقوله : « وهل نجازي الا الكفور » (١) وبه قال ابن زيد والضحاك وهو الذي يليق بمذهبنا ، لانا نقطع على ان الكفار لا يغفر لهم على حال والمسلمون يجوز أن يغفر لهم مايستحقونه من العقاب ، فلا يمكننا القطع على أنه لابد أن يجازي بكل سوءٍ . وقال قوم : معنى السوء هاهنا الشرك فمعنى الآية من يعمل الشرك يجزبه (٢) ذهب اليه ابن عباس وسعيد بن جبير . وروى أبو هريرة انه لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين ، فشكوا إلى رسول الله (ص) فقال (ص) : فادفموا وتشددوا ، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها او الشوكة يشاكها . وقيل لبعض الصحابة : أليس بعرض ، اليست تصيب اللاواء ؟ . قال : بلى فهو ما تجزون به .

وقوله : « ولا تجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » معناه ولا يجد الذي يعمل سوءً من معاصي الله ، وخلاف أمره ولياً يلي أمره وينصره ويحامي عنه ، ويدفع عنه ما ينزل به من عقوبة الله ، « ولا نصيراً » يعني ناصراً ينصره مما يحل به من عقاب الله ، واليم عذابه . واستدلت المعتزلة على المنع من غفران معاصي أهل

(١) سورة سبأ ، آية ١٧ (٢) في المطبوعة (ينجز به) .

الصلاة بهذه الآية . قالوا : لأنه تعالى بين أنه يجازي على كل سيئة ، وذلك يمنع من جواز العفو قلنا : قد تكلمنا على نظير ذلك فيما مضى بما يمكن اعتماده ها هنا منها انا لا نسلم انها تستغرق جميع من فعل السوء ، بل في أهل التأويل من قال : المراد به الشرك . وهو ابن عباس وقد قدمناه ، ثم لا خلاف أن الآية مخصوصة ، لأن التائب ومن كانت معصيته صغيرة ، لا يتناوله العموم ، فاذا جاز لهم تخصيص الفريقين ، جاز لنا أن نخص من يتفضل الله عليه بالعفو . وهذا واضح وقد بينا الجواب عما يزاد على ذلك من الاسئلة بما فيه كفاية فيما مضى وفي كتاب شرح الجمل ، لانطول بذكره هاهنا .

قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أو أنثى وَهوَ مُؤمِنٌ فأُولئك يَدخُلونَ الجنةَ ولا يُظلمونَ نَقيراً ﴾ (١٢٤) آية .

[القراءة] :

قرأ ابن كثير وابو عمرو ، وابو بكر ، الا الكسائي وابو جعفر وروم « يُدخَلون » بضم الياء وفتح الخاء هاهنا وفي مريم والمؤمن . وافقهم رويس الا في هذه السورة .

[المعنى] :

وعد الله تعالى بهذه الآية جميع المكلفين من الذكور والاناث إذا عملوا الاعمال الصالحات ، وهم مؤمنون مقرون بتوحيد الله وعدله ، مصدقون بنبيه (ص) ، عاملون لما اتى به بأنه يدخلهم الجنة ويثيبهم فيها ، ولا يبخسهم شيئاً مما يستحقونه من الثواب ، وان كان مقدار نقير في الصغر ، وهي النقطة التي في ظهر النواة ، وقيل منها تنبت النخلة .

ومن ضم الياء وفتح الخاء ، فلانه قال : « ولايظلمون » فضم الياء ، ليزدوج الكلام ، ولأنهم لا يدخلونهـا حتى يدخلوها . ومن فتح الياء ، فلأنهم إذا ادخلوا الجنة ، فقد دخلوها . فان قيل ظاهر الآية يقتضي انه لا يثيب الا من آمن وعمل الصالحات فمن انفرد بالايمان ، لايستحق الثواب ، وكذلك من فعل بعض الصالحات قلنا : ظاهر العموم مخصوص بلا خلاف لانه لو آمن بالله واليوم الآخر واخترم عقيبه ، لا خلاف انه يدخل الجنة ، فكذلك إذا اخل ببعض الصالحات أو ارتكب معصية ، فانا نعلم دخوله الجنة بدليل آخر على أن (من) في قوله : « من الصالحات » يقتضي أنه لو فعل بعض الصالحات لأدخل الجنة ، لانها للتبعيض . وانما تقتضي الاستغراق إذا حملت على ان معناها بيان الصفة ، فاذا احتمل الظاهر ما قلناه ، سقطت المعارضة فاما من قال : ان (من) زائدة فلايعول على قوله ، لانه إذا امكن حمل الكلام على فائدة ، لم يجز أن يحمل على الزيادة . وبما قلناه في معنى النقير ، قال مجاهد وعطية والسدي وغيرهم .

قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ ابراهِيمَ خَلِيلا ﴾ (١٢٥) آية.

قضى الله تعالى في هذه الآية للاسلام بالفضل على سائر الملل بقوله : ومن أحسن ديناً ايها الناس وهو في صورة الاستفهام. والمراد به التقرير. والمعنى من احسن ديناً وأصوب طريقاً ، واهدى سبيلا ممن اسلم وجهه لله يعني استسلم وجهه لله . والوجه يراد به هاهنـا نفسه وذاته كما قال : « كل شيء هالك الا وجهه » (١) فانقاد له بالطاعة ولنبيه (ص) بالتصديق « وهو محسن » بمعنى وهو فاعل للفعل الحسن مما امره الله به « واتبع ملة ابراهيم حنيفا » يعني واتبع الذي كان عليه (ابراهيم) ؛

(١) سورة القصص ، آية ٨٨ .

وامر به نبيه من بعده، وأوصاهم به من الاقرار بتوحيده، وعدله وتنزيهه عما لا يليق به «حنيفاً» يعني مستقيما على منهاجه وسبيله. وقد بينا فيما مضى معنى الحنيف، فلا فائدة في إعادته، وبمثل ذلك قال الضحاك، وغيره من المفسرين.

وقوله: «واتخذ الله ابراهيم خليلا» ومعنى الخليل يحتمل أمرين:

احدها - المحبة، مشتقاً من الخلة بضم الخاء والمعنى اتخذ الله ابراهيم محباً وتكون خلة ابراهيم: موالاته لاولياء الله ومعاداته لاعدائه. وخلة الله له نصرته على من اراده بسوء مثل ما اراد نمرود من احراقه بالنار، فانقذه الله منها، وأعلى حجته عليه. وكما فعل بملك مصر حين راوده عن اهله، وجعله اماماً لمن بعده من عباده، وقدوة لهم.

والثاني - ان يكون ذلك مشتقاً من الخلة التي هي الفقر بفتح الخاء - كما قال زهير يمدح هرم بن سنان:

وان أتاه خليل يوم مسألة يقول لاغائب مالي ولا حرم(١)

ويروى يوم مسغبة وهو الاظهر وانما انشد البلخي يوم مسألة، وهو بخلاف الروايات. وقال آخر:

واني وان لم تسعفاني بحاجة إلى آل ليلى مرة لخليلي (٢)

أي لمحتاج. وقيل: انه أصاب أهل ناحية ابراهيم (ع) جدب، فارتحل الى خليل له من أهل مصر يلتمس طعاما لاهله من قبله، فلم يصب عنده حاجته، فلما قرب من أهله مر بمفازة ذات رمل لينة فملأ غرائره (٣) من ذلك الرمل لئلا يغم أهله برجوعه بغير ميرة (٤)، فيظنوا ان معه طعاماً فحول الله تعالى غرائره دقيقاً، فلما وصل إلى اهله قام أهله، ففتحوا الغرائر فوجدوا دقيقاً، فعجنوا منه، فخبزوا فاستيقظ

(١) اللسان: (حرم) و (واخال). رفع (يقول) مع انه جواب الجزاء على التقديم كأنه قال: ان اتاه خليل. أجاز ذلك سيبويه.
(٢) لم أجد البيت في مصادرنا.
(٣) الغرائر جمع غرارة - بكسر الغين - وهي الجوالق التي يوضع فيها الدخن والقمح.
(٤) الميرة الطعام أو جلبه.

ابراهيم فسألهم من اين خبزوا ؟ فقالوا من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك(١) المصري فقال : لا بل من عنـد خليلي الله (عز وجل) فسماه الله خليلا . فهـذا ما روي وهو من آيات الانبياء (ص) فاما الاشتقاق فالخلة بضم الخاء : الصداقة . والخلة بفتح الخاء : الحاجة ، واستعمل في الحاجة ، للاختلال الذي يلحق الفقير فيما يحتاج اليه . والخلة بمعنى الصداقة ، فلان كل واحـــد منهما يسد خلل صاحبه في المودة ، والحاجة . وقيل : لانه يطلعه على اسراره فكانه في خلل قلبه والخلل : كل فرجه تقع في شيء والخلال : هو ما يتخلل به لانه يتبع به الخلل بين الاسنان . قال الشاعر :

ونظرن من خلل الستور باعين مرضى مخالطها السقام صحاح

يعني نظرن من الفرج التي في الستور وقولهم : لك خلة من خلال . تأويله إني أخلي لك من رأيي ، اوىما عندي عن خلة من خلال ومعنى أخلي أخلل . فابدل من إحدى اللامين ياء . ويجوز أن يكون أخلي من الخلوة ، والخلوة والخلل يرجعان الى معنى واحد . والخل : الطريق في الرمل إذا انفرجت منه فرجة فصارت طريقاً . والخل ما يؤكل معروف. واختار الفراء والبلخي أن يكون من الخلة التي هي الفقر قال : ويخالف المحبة ، لان المحبة من الله لعبده هي الثناء عليه ومـدحه له ، ولانه يحب الانسان ما ليس من جنسه ، ولا يخاف إلا ما هو من جنسه . وعلى ما بيناه ، لا يمنع ذلك وإن كان فيه بعض التجوز . وقال الازهري : الخليل الذي خص بالمحبة يقال : دعا فلان نخلل أي خص . واختار الجبائي هـذا الوجه وقال : كل نبي فهو خليل الله ، لأنه خصه بما لم يخص به غيره . والخلة : الخصلة ، وجمعها خلال . وانما خص الله تعالى ابراهيم بأنه خليله من الفقر ، وان كان الخلق كلهم فقراء إلى رحمته تشريفاً له بالنسبة اليه ، واختصاصه به من حيث انه فقير اليه لا يرجو لسد خلته سواه . وخص ابراهيم من بين سائر الانبياء بانه خليل الله على المعنيين ، كما خص موسى بانه كليم الله ومحمد (ص) بانه حبيب الله ، وعيسى بانه روح الله ولا يلزم على ذلك

(١) في المطبوعة (خليك) .

تسمية عيسى بانه ابن الله ، لان هذه اللفظة لا تستعمل حقيقتها إلا في من خلق من مائه أو ولد على فراشه ، ومجازها في من يجوز ذلك فيه . ولذلك لا يجوز أن يتخذ الشاب شيخاً ابناً ، وان جاز ان يتبنى بصبي ، ولا يجوز أن يتخذ البهيمة ابناً ، لما لم يجز أن تكون مخلوقة من مائه على وجه .

والحنيفية التي أمر الله نبيه بأن يتبع ابراهيم فيها عشرة اشياء : خمسة في الرأس وخمسة فى الجسد . فالتي فى الرأس : المضمضة . والاستنشاق ، والسواك ، وقص الشارب ، والفرق لمن يكون طويل الشعر ، والتي فى الجسد : فالاستنجاء ، والختان ، وحلق العانة ، ونتف الابط وقص الاظفار وجميع ذلك مستحب الا الختان والاستنجاء ، فانهما واجبان . وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف . وقال الجبائي كلما كان تعبدالله به ابراهيم ، فانه تعبد به النبي (ص) وأمته وزاده اشياء لم يتعبد بها ابراهيم (ع) وعموم الآية يقتضي ماقاله ، وإن كان ذلك شرعا لنبينا من حيث اعلمه الله ذلك ، وتعبده به بوحي من جهته .

قوله تعالى :

﴿ وَلِلّهِ ما في السماواتِ وَما في الارضِ وَكانَ اللّهُ بكل شَيءٍ مُحيطاً ﴾ (١٢٦) . آية

لمـــا ذكر الله تعالى انه اتخذ ابراهيم خليلا لطاعته ربه واخلاصه له العبادة ، ومسارعته الى رضاه ، بين ذلك بفضله لا من حاجة الى خلته فقال : وكيف يحتاج الى خلته من له ما فى السماوات والارض من قليل وكثير ملكا ، ومع ذلك مستغن عن جميع خلقه . وجميع الخلق يحتاجون اليه فكيف يحتاج الى خلة ابراهيم ، لكنه اتخذه خليلا لمسارعته الى رضاه وامتثاله ما يأمره به .

« وكان الله بكل شيء محيطاً » يعني لم يزل الله عالماً بجميـع ما فعل عباده ان كان محسناً اثابه ، وان كان مسيئاً عاقبه ان شاء .

قوله تعالى :

﴿ وَيَستفتونَكَ في النساءِ قُلِ اللهُ يُفتيكُم فيهِنَّ وما يُتلى عَليكم في الكتابِ في يَتامى النساءِ اللاتي لا تُؤتونَهنَّ ما كُتِبَ لَهنَّ وتَرغبونَ أن تَنكِحوهُنَّ والمستضعفينَ مِنَ الولدانِ وَان تَقوموا لليَتامى بالقِسطِ وما تَفعلوا مِن خَيرٍ فان اللهَ كانَ به عليما ﴾ (١٢٧) آية بلا خلاف .

[المعنى] :

يسألك يا محمد ، اصحابك ان تفتيهم في أمر النساء ، والواجب لهن وعليهن . واكتفى بذكر النساء من ذكر شأنهن لدلالة الكلام على المراد « قل الله يفتيكم فيهن » يعني قل يا محمد ، انه يفتيكم فيهن يعني في النساء ومايتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن .

[الاعراب] :

واختلفوا في اعراب (ما يتلى) . قال الزجاج والفراء معاً : يحتمل ان يكون موضع (ما) رفعاً والتقدير في قول الزجاج ، والذي يتلى عليكم في الكتاب أيضاً يفتيكم فيه . وقال الفراء تقديره الله يوصيكم فيهن وما يتلى عليكم . وقالا جميعاً يجوز ان يكون موضع (ما) خفضاً بالعطف على فيهن إلا ان الزجاج ضعف هذا وقال : هذا بعيد لان عطف المظهر على المضمر لا يجوز . وقال الفراء : يجوز على تقدير فيهن وما يتلى عليكم .

واختلفوا في تأويل « وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن » فقال قوم : الذي يتلى عليكم هو آيات الفرائض التي في أول السورة . روى ذلك سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان اهل الجاهلية

لا يورثون المولود حتى يكبر ، ولا يورثون المرأة ، فانزل الله آية الميراث أول السورة ، وهو معنى « اللاتي لاتؤتونهن ما كتب لهن » . وبه قال مجاهد : وروي ذلك عن ابي جعفر (ع) . وقال قوم : كان الرجل تكون في حجره اليتيمة بها دمامة ، ولها مال ، فكان يرغب عنها ان يتزوجها ويحبسها لما لها طمعاً أن تموت فيرثها ، فنزلت الآية . ذهب اليه عائشة ، وقتادة والسدي وابو مالك وابراهيم قال السدي : كان جابر بن عبدالله الانصاري ثم السلمي له بنت عم عمياء ذميمة قد ورثت عن أبيها مالا ، فكان جابر يرغب عن نكاحها ، ولا ينكحها مخافة أن يذهب الزوج بما لها فسأل النبي (ص) عن ذلك وقال : اترث إذا كانت عمياء؟ فقال (ص) : نعم فانزل الله فيه هذه الآية . وقال قوم : معناه يفتيكم فيهن وفيما يتلى عليكم في آخر السورة من قوله : « يستفتونك قل الله يفتيكم » في الكلالة ذهب اليه ابن جبير وقالت عائشة : كان الرجل تكون في حجره اليتيمة تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها ، فنهى الله عن ذلك في قوله : « وإن خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا » من غيرهن « ماطاب لكم » قالت : وقوله : « وما يتلى عليكم » هو ما ذكره في أول السورة من قوله : « وان خفتم الا تقسطوا » . فعلى هذه الاقوال (ما) في موضع خفض بالعطف على الهاء والنون في قوله : « فيهن » والتقدير قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم ، وعلى ما قال الفراء : قل الله يفتيكم فيهن ما يتلى عليكم في الكتاب وقال آخرون : نزلت الآية في قوم من اصحابه (ص) سألوه عن أشياء من أمر النساء ، وتركوا المسألة عن أشياء أخر كانوا يفعلونها ، فأفتاهم الله فيما سألوه عنه ، وفيما تركوا المسألة عنه ذهب اليه محمد بن أبي موسى . ويكون معنى قوله : وما يتلي عليكم في الآية التي بعدها وقيل : هم اليتامى الصغار من الذكور والاناث . وما بعدها قوله : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو اعراضاً » والذي سألوا عنه ، فأجيبوا ما كتب الله لهن من الميراث في آية الميراث . واختار الطبري أن يكون المراد به آيات الفرائض قال : لأن الصداق ليس مما كتب الله للنساء الا بالنكاح ، فما لم تنكح فلا صداق

لها عند احد .

وقوله : « والمستضعفين من الولدان » في موضع جر وتقديره وفي المستضعفين من الولدان . وقيل هم اليتامى الصغار من من الذكور والاناث ، لانهم كانوا لا يورثون الصغار من الذكور حتى يبلغ .

« وان تقوموا لليتامى » والمعنى وفي ان تقوموا لليتامى بالقسط على ما قاله في قوله : « وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى » : فأمرهم أن يؤتوا المستضعفين من الولدان حقوقهم من الميراث ، ويعدلوا فيهم ، ويعطوهم ما فرضه الله لهم في كتابه . وبه قال السدي ، وابن زيد ، ومجاهد ، وابن عباس .

وقوله : « وترغبون ان تنكحوهن » معناه ترغبون عن أن تنكحوهن . وقال الحسن في قوله : « والمستضعفين من الولدان » قال : يعني في يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن أي الا يأكلوا اموالهم إلا بالقسط ، يعني بالعدل . وقال عبيدة السلماني فيما رواه ابن سيرين عنه ان معنى « وترغبون ان تنكحوهن » ترغبون فيهن . وفي رواية ابن عون عن ابن شيرين يرغبون عنهن. وقال الحسن : يرغبون عنهن وكان عيينة بن حضن يقول : يامحمد أتعطي الوالدن المال ؟ وانما يأخذ المال من يقاتل ويحوز الغنيمة ، فنزل قوله : « والمستضعفين من الولدان » .

وقوله : « وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما » المعنى مهما فعلتم ، أيها المؤمنون من عدل في أمر اليتامى التي أمركم الله أن تقوموا ، فيهن بالقسط ، وأنتهيتم فيه إلى أمره وإلى طاعته ، فان الله كان به عالماً لم يزل وقيل معنا إن الله سيجازيكم عليه كما يقول القائل أنا أعرف لك ما تفعله بمعنى اجازيك عليه .

قوله تعالى :

﴿ وان امرأةٌ خافَتْ من بَعلِها نُشوُزاً أو اعراضاً فَلا جُناح عليهما ان يُصلِحا بَينهما صُلحاً والصُلحُ خَير واحضرَت الانفسُ

الشحّ وان تُحسنوا وتتقوُا فانّ اللهَ كانَ بماتعملوُنَ خبيراً ﴾ (١٢٨) آية .

[القراءة والحجة] :

قرأ اهل الكوفة أن يصلحا بضم الياء وكسر اللام وبسكون الصاد . الباقون يصالحا بتشديد الصاد فمن شدد الصاد ، قال معناه يتصالحا ويكون قوله : (صلحاً) اسما لا مصدراً ومن قرأ بخلافه قال : هو مصدر .

[المعنى] :

يقول الله تعالى : « وان امرأة خافت » ومعناه علمت « من بعلها » ، أي زوجها « نشوزاً » يعني استعلاءً بنفسه عنها الى غيرها . وارتفاعا بها عنها : إما لبغضه ، واما لكراهة منه شيئاً منها إما دمامتها ، واما سنها وكبرها ، أو غيرذلك « او اعراضاً » يعني انصرافا بوجهه او ببعض منافعه التي كانت لها منه « فلا جناح عليهما » أي لا حرج عليهما ان يصالحا بينهما صلحاً بان تترك المرأة له يومها ، او تضع عنه بعض ما يجب لها . من نفقة او كسوة ، وغير ذلك تستعطفه بذلك ، وتستديم المقام في حباله ، والتمسك بالعقد الذي بينها وبينه من النكاح ، ثم قال : « والصلح » بترك بعض الحق استدامة للخدمة ، وتمسكا بعقد النكاح خير من طلب الفرقة ، وقال بعضهم : الصلح خير من النشوز ، والاعراض والأول أشبه . هذا إذا كان بطيبة من نفسها ، فان لم يكن كذلك ، فلا يجوز له الا ما يسوغ في الشرع من القيام بالكسوة والنفقة ، والقسمة وإلا يطلق . وبهذه الجملة قال علي عليه السلام ، وعمر وابن عباس ، وسعد بن جبير وعائشة وعبيدة السلماني ، وابراهيم والحكم وقتادة ، ومجاهد وعامر الشعبي والسدي ، وابن زيد وقال ابن عباس : خشيت سودة بنت زمعة ان يطلقها رسول الله (ص) فقالت لا تطلقني واجلسني مع نسائك ولا تقسم لي ، فنزلت « وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً او اعراضاً » وقال سعيد بن المسيب عن سليمان بن يسار . ان رافع بن خديج كانت تحته امرأة قد علا من سنها ، قال

أبو جعفر (ع) هي بنت محمد بن مسلمة ، فتزوج عليها شابة فآثر الشابة عليها ، فأبت الاولى أن تقر على ذلك ، فطلقها تطليقة حتى إذا بقي من أجلها يسيراً قال : إن شئت راجعتك وصبرت على الاثرة ، وان شئت تركتك حتى يخلو أجلك ، ثم طلقها الثانية، وفعل فيها ما فعل اولا ، قالت : بل راجعني واصبر على الاثرة ، فراجعها . فذلك الصلح الذي بلغنا أن الله أنزل فيه « وان امرأة خافت . . الآية » .

وقوله : « واحضرت الانفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً » واختلفوا في تأويله فقال بعضهم واحضرت الانفس النساء الشح على انصبائهن من انفس ازواجهن واموالهم واياميهن منهم . ذهب اليه ابن عباس وسعد بن جبير وعطا ، وابن جريج والسدي . ويزعم انهـا في سورة بنت زمعة ، ورسول الله (ص) لانها كانت كبرت ، فاراد رسول الله (ص) ان يطلقها ، فاصطلحا على ان يمسكها ويجعل يومها لعائشة ، فشحت بمكانهـا من رسول الله (ص) . وقال آخرون : واحضرت انفس كل واحد من الرجل والمرأة الشح بحقه قبل صاحبه . وهو اعم فيكون شح المرأة بترك حقها من النفقة والقسمة وغير ذلك وشح الرجل إنفاقه على التي لا يريدها ، وبذلك قال ابن وهب ، وابن زيد . والشح : افراط في الحرص على الشيء ويكون بالمال وبغيره من الاعراض يقال : هو شحيح بمودتك اي حريص على دوامها ولا يقال في ذلك بخيل والبخل يكون بالمـال خاصة . قال الشاعر :

لقد كنت في قوم عليك اشحة　　بفقدك إلا ان من طاح طائح
يودون لو خاطوا عليك جلودهم　　وهل يدفع الموت النفوس الشحائح(١)

فان قيل : قوله : « وإن امرأة خافت » ليس فيـه ان الرجل نشز على امرأة والخوف ليس معه يقين قلنا : عنه جوابان :

احدها ـ إن الخوف في الآيه بمعنى العلم وتقديره ، وإن امرأة علمت .

(١) مجمع البيان ٢ : ١١٩ ـ طبع صيدا ـ العقد الفريد ٣ : ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

والثاني - انها لا تخاف النشوز من الرجل إلا وقد بدأ منه ما يدل على النشوز والاعراض من أمارات ذلك ودلائله . وقوله : « وإن امرأة خافت » ارتفعت المرأة بفعل مضمر دل عليه ما بعد الاسم ، وتقديره وإن خافت امرأة خافت والتفرقة بين ان التي للجزاء (١) والفعل الماضي قال الزجاج هو جيد ، ولا يجوز ذلك في الفعل المستقبل . لا تقول : ان امرأة تخف ، (ان) لا تفصل بينها وبين ما يجزم ويجوز ذلك في ضرورة الشعر قال الشاعر :

فمتى واغل بنهم يحيوه ويعطف عليه كاس الساقي (٢)

وانما جاز في الماضي مع الاختيار ، لان (ان) غير عاملة في لفظه وان لم تكن من (٣) حروف الجزاء ، فجاز أن يفرق بينها وبين الفعل ، وغير ان يقبح فيه الفصل مع الماضي والمستقبل لا تقول : متى زيد جاءني اكرمته ، ويجوز ان تقول : إن الله أمكنني فعلت .

وقوله : « وان تحسنوا » خطاب للرجال يعني ان تفعلوا الجميل بالصبر على من تكرهون من النساء ، وتتقوا من الجور عليهن في النفقة والعشرة بالمعروف ، فان الله عالم بذلك . وكان عالماً بما تعملون فيما قبل فيجازيكم على ذلك .

قوله تعالى :

﴿ وَلَنْ تَستطيعوا ان تَعدلوا بَينَ النساء وَلَو حَرصتُم فلا تَميلوا كُلَّ الميل فَتذَرُوها كالمُعلقةِ وَان تُصلحوا وَتَتقوا فانَّ اللهَ كانَ غفوراً رحيما ﴾ (١٢٩) آية بلاخلاف .

---

(١) في المطبوعة (التي الجزاء) . (٢) لسان العرب : (وغل) ومجمع البيان ٢ : ١١٩ الواغل : الداخل على القوم في طعامهم - وقيل : في شرابهم - دون أن يدعوه أو ينفق معهم : وفي رواية أخرى : وتعطف على كف الساقي .

(٣) في المطبوعة (وان أم حروف الجزاء) .

المعنى] :

نفى الله تعالى فى هذه الآية ان يقدر احد من عباده على التسوية بين النساء والازواج في حبهن والميل إليهن حتى لا يكون ميله الى واحدة منهن الا مثل ما يميل الى الاخرى . لان ذلك تابع لما فيه من الشهوة ، وميل الطبع . وذلك من فعل الله تعالى ، ولا صنع للخلق فيه ، وان حرص على ذلك كل الحرص . وليس يريد بذلك نفي القــدرة على التسوية بينهن في النفقة ، والكسوة والقسمة ، لانه لو كان كذلك لما امر الله تعالى بالتسوية في جميع ذلك ، لانه تعالى لا يكلف العبــد مالا يطيقه . كما قال : « لا يكلف الله نفساً الا وسعها » (١) وقال : « لا يكلف الله نفساً الا ما اتاها » (٢) ولا تجوز المناقضة فى كلامه تعالى . ولو حملنا على انه نفى الاستطاعة في التسوية بينهن في النفقة ، جاز أن يكون المراد به ان ذلك لا يخف عليكم بل يثقل ويشق عليكم تسويتهن ، لميلكم الى بعضهن ، فأباح الله تعالى حينئذ ورخص ان يفضل بعضهن على بعض في ما زاد على الواجب من القسمة والنفقة ، ولا يؤاخذه بذلك .

وقوله : « فلا تميلوا كل الميل » معناه فلا تعدلوا باهوائكم عمن لم تملكوا محبته منهن كل الميل حتى يحملكم ذلك على أن تجوروا على صواحبها في ترك أداء الواجب لهن عليــكم من حق القسمة ، والنفقة والكسوة ، والعشرة بالمعروف ، « فتذروها كالمعلقة » ، يعني تذروا التي لا تميلون اليها كالمعلقة يعني كالتي هي لا ذات زوج ، ولا هي ايم . وبه قال مجاهد وعبيدة ، والحسن وابن عبـاس ، وقتادة وابن زيد والضحاك وسفيان ، والطبري والجبائي والبلخي وغيرهم . وهو المروي عن ابي جعفر (عليه السلام) وابى عبد الله (عليه السلام) . وروى ابو مليكة أن الآية نزلت في عائشة وروى ابو قـلابة عن رسول الله (ص) انه كان يقسم بين نسائه ويقول : اللهم هـذه قسمتي في ما املك فلا تلمنى فيما تملك ، ولا املك وقوله : « وان تصلحوا » يعني في القسمة بين الازواج والتسوية بينهن في النفقة ،

(١) سورة البقرة ، آية ٢٨٦ . (٢) سورة الطلاق ، آية ٧ .

والكسوة والعشرة بالمعروف ، وتتركوا الميل (١) الذي نهاكم الله عنه ، من تفضيل واحدة على الاخرى في ذلك ، « فان الله كان غفوراً رحيما » تستر عليكم مامضى منكم من الحيف في ذلك اذا تبتم ، ورجعتم الى الاستقامة والتسوية بينهن ، ويرحمكم بترك المؤاخذة على ذلك ، وكذلك كان يفعل فيما مضى مع غيركم يعني في قبول التوبة من (٢) كل تائب مقلع نادم على ما فرط وروي عن علي (عليه السلام) انه كان له امرأتان ، فكان إذا كان يوم واحدة لا يتوضأ في بيت الاخرى . وروي عن جعفر بن محمد عن ابيه عن ابائه (عليهم السلام) ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان يقسم بين نسائه في مرضه ، فيطاف [به] (٣) بينهن ، وكان معاذ بن جبل له امرأتان ماتتا في الطاعون أقرع بينهما ايهما تدفن قبل الأخرى ؟ .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِن سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً ﴾ (١٣٠) آية .

[المعنى] :

إن الزوجين اللذين تقدم ذكرهما ، متى أبى كل واحد منهما مصالحة الآخر فان تطالب المرأة بنصيبها من القسمة والنفقة والكسوة ويمتنع الزوج من اجابتها الى ذلك ، لميله إلى الاخرى ومحبته لها ، أو لصغر سنها أو جمالها ويتفرقا حينئذ بالطلاق ، فان الله يغني كل واحد منهما من سعته يعني من فضله ورزقه « وكان الله واسعاً حكيما » يعني كان لم يزل هكذا واسع الفضل على عباده ، رحيما في مايدبرهم به وفي الآية دليل على ان الارزاق كلها بيدالله وهو الذي يتولاها

(١) المطبوعة (وكل) (٢) من ساقطة المطبوعة

(٣) - (به) ساقطة من المطبوعة والتصحيح عن مجمع البيان والسياق يقتضي ذلك أيضاً .

لعباده وإن كان ربما أجراها على يدي من يشاء من عباده وقال ابن عباس : « كلا من سعته » يعني من رزقه وهذه الجملة بها قال مجاهد وجميع المفسرين .

قوله تعالى :

﴿ وَلِلّهِ مافي السَّماواتِ وما في الارضِ وَلَقَدْ وَصينا الذينَ أُوتوا الكِتابَ من قبلِكُم وإياكُمْ ان اتَّقوا اللهَ وإن تَكْفُروا فان للهِ ما في السَّماواتِ وما في الارضِ وكانَ اللهُ غَنِياً حَميداً (١٣١) وَلِلّهِ ما في السَّماواتِ وما في الارضِ وَكَفى باللهِ وَكيلا (١٣٢) انْ يَشأْ يُذهِبكُمْ أيُّها الناسُ وَيأتِ باخرينَ وكانَ اللهُ على ذلِكَ قَديراً (١٣٣) مَنْ كانَ يُريدُ ثَوابَ الدُّنيا فَعِنْدَ اللهِ ثَوابُ الدُّنيا وَالآخرة وكانَ اللهُ سميعاً بصيراً ﴾ (١٣٤) اربع آيات .

لما ذكر الله تعالى قوله : وأن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته بين في هـذه الآية بان له ملك ما في السموات وما في الارض ، لايتعذر عليه إغناء كل واحد من الزوجين عند التفرق،وإيناسه من وحشته ثم رجع إلى توبيخ من سعى في أمر بني أبيرق وتعنيفهم ، ووعيد من فعل فعل المرتد منهم ، فقال : ولقد وصينا أهل التوراة والانجيل وهم الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أي وأمرناكم أيضاً أيها الخلق « ان اتقوا الله » والتقدير بان اتقوا الله وأحذروا أن تعصوه ، وتخالفوا أمره ونهيه « وإن تكفروا » يعني تجحدوا وصيته إياكم أيها المؤمنون ، فتخالفوها ، « فان لله ما في السموات وما في الارض » يعني له ملك ما فيها ، فلا يستحضر بخلافكم وصيته ولا ان تكونوا أمثال اليهود والنصارى ، بل تضرون أنفسكم بما يحل بكم من عقابه ، وغضبه « وكان الله غنياً » لم يزل ، غير محتاج إلى خلقه وإن الخلق

هم المحتاجون إليه « حميداً » يعني مستوجب الحمد عليكم بصنائعه الحميدة إليكم ، والائه الجميلة ، فاستدعوا ذلك باتقاء معاصيه ، والمسارعة إلى طاعته فيما يأمركم به وهذه الجملة مروية عن علي (عليه السلام) وهو قول جميع المفسرين ، ثم قال : « ولله ما في السموات وما في الارض » بمعنى له ملك ما فيها ، وهو القيم بجميعه والحافظ له لا يغرب عنه علم شيء ولا يؤوده حفظه وتدبيره « وكفى بالله وكيلا » يعني كفى الله حافظاً . فان قيل لم كرر قوله : « ولله ما في السموات وما في الارض » الآيتين ، احداها عقيب الاخرى ؟ قلنا : لاختلاف الخبرين : الاول في الآية الاولى عن حاجة الخلق إلى بارئه ، وغناه تعالى عن خلقه ، وفي الثانية حفظ الله تعالى إياهم وعلمه بهم ، وتدبيره لهم فان قيل : هلا قال : وكان الله غنياً حميداً أو كفى به وكيلا ؟ قيل : ما ذكره في الآية الاولى يصلح ان يختم به وصف الله تعالى بالغناء وأنه محمود ، ولم يذكر فيها ما يقتضي وصفه بالحفظ والتدبير ، فلذلك كرر قوله : « ولله ما في السموات » .

وقوله : « ان يشأ يذهبكم » معناه ، ان يشأ الله ايها الناس ان يهلككم ، ويفنيكم ويأت بقوم آخرين غيركم ينصرون نبيه محمد (ص) ويؤازرونه ، كان الله تعالى على ذلك قديراً ، فوبخ تعالى بهذه الآيات الخائنين الذين خانوا الدرع (١) وساعدوهم على ذلك ، ودافعوا عنهم وحذر أصحاب النبي (ص) أن يكونوا مثلهم وان يفعلوا فعل المرتد منهم في ارتداده ولحاقه بالمشركين وبين أن من فعل ذلك لايضر إلا نفسه ، لانه المحتاج إليه (تعالى) وغناه عنه (عز وجل) وعن جميع الخلق وروي عن النبي (ص) انه لما نزلت هذه الآية ضرب بيده على ظهر سلمان ، فقال : هم قوم هذا رواه ابو هريرة عن النبي (ص) ، ثم أخبر (تعالى) من كان ممن أظهر الايمان بمحمد (ص) من أهل النفاق الذين يبطنون الكفر ، ويظهرون الايمان . يريد ثواب الدنيا يعني عرض الدنيا باظهاره بلسانه في الايمان ، « فعند الله ثواب الدنيا » يعني جزاؤه في الدنيا منها ، وثوابه فيها هو ما يأخذ من الفيء والغنيمة إذا شهد مع

(١) ـ انظر تفسير آية (١٠٥) من سورة النساء .

المسلمين الحرب ، وأمنه على نفسه وما له وذريته . وأما ثوابه في الآخرة فنار جهنم . « وكان الله سميعاً بصيراً » يعني انه كان لم يزل على صفة يجب ان يسمع المسموعات إذا وجدت، ويبصر المبصرات إذا وجدت. وهذه الصفة هي كونه حياً لا آفة فيه والصفة حاصلة له في الازل والافات مستحيلة عليه ، فوجب وصفه بانه سميع بصير وانما ذكر ها هنا ذلك، ليبين ان ما يقوله المنافقون اذا لقوا المؤمنين فان الله يسمعه ويعلمه وهو قولهم : إنا مؤمنون بصيراً بما يضمرونه وينطوون عليه من النفاق . وموضع كان في قوله : « من كان » جزم ، لانه شرط والجواب الفاء . وارتفعت (يريد) لانه ليس فيها حرف عطف كما قال : « من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها » (١) وقال : « من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها » (٢) جزم ، لأنه جواب الشرط .

قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذينَ آمنوا كونوا قوّامين بالقسطِ شهداء لِله وَلو عَلى انفسكم أو الوالِدين والاقربينَ ان يَكنْ غنياً أو فقيراً فاللهُ اولى بِهما فَلا تتّبعوُا الهوى ان تَعدِلوا وَان تَلوُوا او تُعرِضُوا فانّ اللهَ كانَ بِما تَعملوُنَ خبيراً ﴾ (١٣٥) آية .

القراءة والحجة :

قرأ ابن عامر وحمزه (وإن تلوا) بضم اللام ، بعدها واو واحدة ساكنة . الباقون يسكنون اللام بواوين بعدها أولها مضمومة . حجة من قرأ بواو واحدة أن قال : إن ولاية الشيء اقبال عليه وخلاف الاعراض عنه . والمعنى ان تقبلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً فيجازي المحسن المقبل باحسانه ، والمسيء المعرض

(١) سورة هود ، آية ١٥ . (٢) سورة الشورى ، آية ٢٠ .

باعراضه وتركه الاقبال على ما يلزمه ان يقبل عليه قال : ولو قرأت بالواوين ، لكان فيه تكرار ، لان اللي كالاعراض ألا ترى ان قوله : « لووا رؤسهم ورايتهم يصدون » (١) معناه أعراض منهم ، وترك الانقياد للحق ومثله « لياً بالسنتهم » (٢) معناه انحراف وأخذ فيما لا ينبغي ان يأخذوا به . وحجة من قرأ بالواوين من لووا ان تقول لا يمتنع ان تتكرر اللفظتان المختلفتان بمعنى واحد على وجه التأكيد ، كقوله : « فسجد الملائكة كلهم اجمعون » وكقول الشاعر :

وهند اتى من دونها النأي والبعد (٣)

وقول آخر :

والفى قولها كذباً ومينا

وقالوا : أيضا يجوز ان يكون تلوا كان أصله تلووا ، و ان الواو التي هي عين همزت لانضمامها ، كما همزت في قوله : (أدروا) والقيت حركة الهمزة على اللام التي هي فاء ، فصار تلوا أجاز ذلك الزجاج والفراء وأبو علي الفارسي .

[المعنى واللغة :

ومعنى الآية ان الله تعالى لما حكى عن الذين سعوا إلى رسول الله في امر بني أبيرق وقيامهم لهم بالعذر ، وذبهم عنهم من حيث كانوا أهل فقر وفاقة ، أمر الله المؤمنين ان يكونوا « قوامين بالقسط » يعني بالعدل والقسط ، والاقساط : العدل يقال : أقسط الرجل إقساطاً إذا عدل وأتى بالقسط وقسط يقسط قسوطاً : إذا أجار وقسط البعير يقسط قسطاً إذا يبست يده ويد قسط ، أي يابسة « شهداء لله » وهو جمع شهيد ونصب شهداء على الحال من الضمير في قوله : (قوامين) وهو ضمير الذين آمنوا وقوله : «ولو على انفسكم» يعني ولو كانت شهادتكم على انفسكم أو على والديكم أو على أقرب الناس اليكم ، فقوموا فيها بالقسط والعدل ، وأقيموها على صحتها ، وقولوا فيها الحق ، ولا تميلوا فيها لغنى غني ، ولا فقر فقير ، فتجوروا ، فان الله قد سوى بين الغني والفقير فيما ألزمكم من أقامة الشهادة لكل واحد منها بالعدل ، وهو

(١) سورة المنافقون آية ٥ . (٢) سورة النساء آية ٤٥ .

(٣) قائله الحطيئة صدر البيت : الا حبذا هند وأرض بها هند

تعالى أولى بهما وأحق ، لانه مالكهما والههما دونكم وهو اعلم بما فيه مصلحة كل واحد منهما في ذلك ، وفي غيره من الامور كلها منكم ، فلا تتبعوا الهوى في الميل في شهادتكم إذا قمتم بها لغني أو فقير الى احدهما ، فتعدلوا عن الحق أي تجوزوا عنه وتضلوا ولكن قوموا بالقسط ، وأدوا الشهادة على ما امركم الله عز وجل بادائها بالعدل لمن شهدتم عليه وله ، فان قيل كيف تكون شهادة الانسان على نفسه حتى يامر الله تعالى بذلك ، قلنا : بان يكون عليه حق لغيره ، فيقر له ولا يجحده ، فادب الله تعالى المؤمنين أن يفعلوا ما فعله الذين عذروا بني أبيرق في سرقتهم ما سرقوا ، وخيانتهم ما خانوا واضافتهم ذلك الى غيرهم فهذا اختيار الطبري. وقال السدي: انها نزلت في النبي (ص) وقد اختصم اليه رجلان غني وفقير ، فكان ضلعه (١) مع الفقير ، لظنه أن الفقير لا يظلم الغني ، فابى الله تعالى إلا القيام بالقسط في أمر الغني والفقير قال : « ان تكن غنياً او فقيراً فالله أولى بهما » وهذا الوجه فيه بعد ، لانه لا يجوز على النبي (ص) في الحكم ان يميل إلى احد الخصمين سواء كان غنياً أو فقيراً فان ذلك ينافي عصمته وقال ابن عباس : أمر الله سبحانه المؤمنين أن يقولوا الحق ولو على أنفسهم ، او ابنائهم ، ولا يحابوا غنياً لغناه ، ولا مسكيناً لمسكنته وهذا هو الاولى ، لانه أليق بالظاهر من غير عدول عنه .

وفي الاية دلاله على جواز شهادة الوالد لولده والولد لوالده ، وكل ذي قرابة لمن يقرب منه ، فقال ابن شهاب : كان سلف المسلمين على ذلك حتى دخل الناس فيما بعدهم ، وظهرت فيهم امور حملت الولاة على اتهامهم ، فتركت شهادة من يتم إذا كان من اقربائهم وجاز ذلك من الولد والوالد والأخ والزوج والمرأة وبمعنى قول ابن عباس ، قال قتاده ، وابن زيد .

وقوله: « فالله اولى بهما » إنما ثنى ، ولم يقل به لانه أراد (فالله اولى بغناء الغني وفقر الفقير) لان ذلك منه تعالى وقال قوم : لم يقصد غنياً بعينه ، ولا فقيراً بعينه

وهو مجهول وما ذلك حكمه جاز الردّ عليه التوحيد والتثنية والجميع . وفي قراءة ابي « فالله اولى بهم » وقال قوم : (او) بمعنى الواو في هذا الموضع ، فلذلك ثنى وقال آخرون : جاز تثنية قوله « بها » ، لانها قدذكرا ، كما قيل : وله اخ أوأخت فلكل واحد منها وقيل جاز ذلك ، لانه أضمر فيه (من) كانه قال : وله أخ او اخت إن يكون من خاصم غنياً او فقيراً ، بمعنى غنيين أو فقيرين « فالله اولى بها » .

وقوله : « فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا » يحتمل ثلاثة اوجه :

احدها ـ لا تتبعوا الهوى في ان تعدلوا عن الحق ، فتجوروا بترك إقامة الشهادة بالحق .

والثاني ـ ان يكون التقدير لا تتبعوا اهوآء أنفسكم هرباً من ان تعدلوا في إقامة الشهادة .

والثالث ـ فلا تتبعوا الهوى ، لتعدلوا ، كما يقال : لا تتبع هواك لترضي ربك ، بمعنى انهاك عنه كيما ترضى ربك بتركه . ذكره الفراء والزجاج .

وقوله : « وإن تلووا أو تعرضوا » اختلفوا في تأويله فقال قوم : معناه وان تلووا ايها الحكام في الحكم لاحد الخصمين على الاخر ، أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً وحملوا الاية على انها نزلت في الحكام ذهب اليه السدي على ما قال : إنها نزلت في النبي (ص) وروي عن ابن عباس أنه قال : هما الرجلان يجلسان بين يدي القاضي ، فيكون لي القاضي واعراضه لاحدهما على الاخر وقال اخرون : معناه وان تلووا ايها الشهداء في شهادتكم ، فتحرفوها ، فلا تقيموها أو تعرضوا عنها ، فتتركوها ذهب اليه ابن عباس ومجاهد وقال مجاهد : معنى تلووا تبدلوا الشهادة أو تعرضوا أي تكتموها وهوقول ابي جعفر (ع) وبه قال ابن زيد والضحاك وأولى التأويلين قول من قال : إنه لي الشهادة لمن شهد له أو عليه بان يحرفها بلسانه أو يتركها ، فلا يقيمها ، ليبطل بذلك شهادته وأعراضه عنها فلو ترك اقامتها فلا يشهد بها . وسياق الآية يدل على ما قال ابن عباس وقوله : « فان الله كان بما تعملون خبيراً » معناه انه كان عالماً بما يكون منهم من اقامة الشهادة ، وتحريفها والاعراض عنها ، واللي

هو المطل لما يجب من الحق قال الاعشى :

يلويني ديني النهـــار واقتضي　　ديني إذا رقدالنعاس الرقدا (١)

قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا امنُوا بالله وَرَسُوله والكتاب الذي انزلَ من قَبل وَمَن يَكفر بالله وَملائكته وَكتبه وَرُسله وَاليوم الآخر فقد ضَلّ ضلالاً بَعيداً ﴾ (١٣٦) آية .

[القراءة والحجة] :

قرأ ابن كثير وأبو عمر وابن عامر والكسائي عن أبي بكر « الكتاب الذي نزل والكتاب الذي أنزل » بضم النون ، والهمزه وكسر الزاء الباقون بفتحها ، فمن فتحها حمله على قوله : « أنا نحن نزلنا الذكر » وقوله : « وانزلنا اليك الذكر » ومن ضمها حملها على قوله : « وانبين للناس ما نزل اليهم » وقوله : « يعلمون انه منزل » وكل جيد سايغ .

قيل في تأويل أمر من آمن ـ آمن يؤمن ـ بالله ورسوله ثلاثة اقوال :

احدها ـ وهو المعتمد عليه عندنا واللايق بمذهبنا ان المعنى يأيها الذين آمنوا في الظاهر بالاقرار بالله ورسوله ، وصدقوها ، آمنوا بالله ورسوله في الباطن ، ليطابق باطنكم ظاهركم ويكون الخطاب خاصا بالمنافقين الذين كانوا يظهرون خلاف ما يبطنون . والكتاب الذي نزل على رسوله هوالقران امرهم بالتصديق به والكتاب الذي انزل من قبل ، يعني التوراة والانجيل امرهم بالتصديق بها ، وانها من عنـد الله .

والثاني ـ ما اختاره الجبائي والزجاج والبلخي ان يكون ذلك خطاباً لجميع المؤمنين

(١) ديوانه من قصيدة قالها لكسرى حين اراد منهم رهائن لما أغار الحارث بن وعلة على بعض السواد ورقها : ٣٤ . يلويني : يمطلني .

الذين هم مؤمنون على الحقيقة ظاهراً أو باطناً أمرهم الله تعالى أن يؤمنوا به في المستقبل بان يستديموا الايمان ، ولا ينتقلوا عنه ، لان الايمان الذي هو التصديق لا يبقى وانما يستمر بان يجدده الأنسان حالا بعد حال وهذا أيضاً وجه جيد .

الثالث ـ ما اختاره الطبري من ان ذلك خطاب لأهل الكتاب اليهود والنصارى امرهم الله (تعالى) بان يؤمنوا بالنبي (ص) ، والكتاب الذي أنزل عليه كما آمنوا بما معهم من الكتب : التوراة والانجيل ويكون قوله : « والكتاب الذي نزل من قبل » اشارة الى ما معهم من الانجيل والتوراة ويكون وجه أمرهم بالتصديق لهما وان كانوا مصدقين بهما ، لاحد امرين :

احدها ـ ان التوراة والانجيل اذا كان فيهما صفات النبي (ص) ، وما ينبيء عن صدق قوله وصحة نبوته فمن لم يصدق النبي (ص) ، ولم يصدق الكتاب الذي أنزل معه ، لايكون مصدقاً بما معه ، لان في تكذيبه ، تكذيب مامعه من التوراة والانجيل ، فيجب عليه أن يصدق النبي (ص) ويقر بما انزل عليه ، ليكون مصدقاً بما معه ، ومعترفاً به . والثاني ـ أن يكون متوجهاً إلى اليهود الذين آمنوا بالتوراة دون الانجيل والقران ، فيكون الله أمرهم بالاقرار بمحمد (صلى الله عليه وآله) وبما انزل من قبل يعني الانجيل . وذلك لايصح الا بالاقرار بعيسى (عليه السلام) أيضاً وانه نبي من قبل الله وقوله : « ومن يكفر بالله وملئكته وكتبه ورسله واليوم الاخر » . معناه ان من كفر بمحمد (ص) فيجحد نبوته ويجحد ما انزله الله عليه ، فكانه جحد جميع ذلك ، لأنه لا يصح ايمان احد من الخلق الا بالايمان بما امره الله بالايمان به ، والكفر بشيء منه كفر بجميعه فكذلك قال : « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » فعقب خطابه لاهل الكتاب وأمره اياهم بالايمان بمحمد (ص) تهديداً لهم ، وان كانوا مقرين بوحدانية الله تعالى والملائكة والكتب والرسل ، واليوم الآخر سوى محمد (صلى الله عليه واله) وما جاء به من القران فبين لهم ان من جحد محمداً بنبوته لاينفعه الايمان بشيء سواه ، ويكون وجوده وعدمه سواء وقوله : « فقد ضل ضلالا بعيداً » معناه فقد ذهب عن قصد السبيل وجاز

عن محجة الطريق ألى المهالك ضلالا ذهاباً ، وجوراً بعيداً .

قوله تعالى :

﴿ إنَّ الذينَ آمنوا ثُمَّ كَفروا ثُم آمنوا ثُمّ ازدادُوا كُفراً لَم يَكن اللهُ لِيغفِرَ لَهم ولا لِيهدِيَهم سَبيلا ﴾ (١٣٧) آية واحدة .

[المعنى] :

قيل في المعني بهذه الآية ثلاثة اقوال:

[الأول] قال قتادة عني بذلك الذين امنوا بموسى ، ثم كفروا بان عبدوا العجل ، ثم آمنوا يعني النصاري بعيسى ، ثم كفروا به ، ثم ازدادوا كفراً بنبوة محمد (ص) وقال الزجاج والفراء : آمنوا بموسى، و كفروا بعزير ، ثم امنوا بعزير ، ثم كفروا بعيسى ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد (ص) .

والثاني ـ قال مجاهد وابن زيد يعني بذلك أهل النفاق أنهم آمنوا ، ثم ارتدوا ثم آمنوا ، ثم ارتدوا ، ثم ازدادوا كفراً بموتهم على كفرهم .

والثالث ـ قال ابو العالية : هم اليهود والنصارى أذنبوا ذنباً في شركهم ، ثم تابوا فلم تقبل توبتهم ، ولو تابوا من الشرك لقبل منهم واقوى الاقوال عندنا قول مجاهد ، لان المؤمن على الحقيقة عندنا لا يجوز أن يكفر ، لان الايمان يستحق عليه الثواب الدائم والكفر يستحق عليه العقاب الدائم بلا خلاف فيها والاحتياط عندنا باطل ، فلو اجزنا الارتداد بعد الايمان الحقيقي لادى إلى اجتماع استحقاق الثواب الدائم والعقاب الدائم والاجماع بخلافه واختار الطبري الوجه الاول وقال الجبائي والبلخي يجوز ان تكون الآية نزلت في قوم كانوا آمنوا ثم ارتدوا ، ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم أزدادوا كفراً وقوله :

« لم يكن الله ليغفر » معناه لم يكن الله ليغفر لهم بالايمان الثاني الكفر

المتقدم ، لانه لما ارتد فيما بعد ، دلّ على ان ما تقـدم ، لم يكن ايماناً فلا يستحق به غفر ان عقاب الكفر المتقدم وهو الذي اختاره الزجاج وقال البلخي والزجاج : لم يكن الله ليغفر لهم إذا لم يتوبوا منه وهذا الذي ذكروه لا يصح ، لان الكفر على كل حال ولو مرة واحدة ، لا يغفر الله الا بالتوبه ، فلا معنى لنفي الغفران عن كفر بعد إيمان تقدمه كفر تقدمه ايمان .

وقوله : « ولا ليهديهم سبيلا » معناه لا يهديهم سبيل الجنة والثواب فيها ، لانهم غير مستحقين له ويحتمل ان يكون المراد بذلك أنه لا يلطف لهم فيما بعد بل يخذلهم عقوبة لهم على كفرهم المتقدم . ولا يجوز ان يكون المراد به أنه لا ينصب لهم الدلالة ، لأن نصب الأدلة قد تقدم في التكليف الاول والرّدعندنا على ضربين : احدهما ـ لا يستتاب ويقتل على كل حال وهو من ولد على فطرة الاسلام بين مسلمين متى كفر فانه يقتل على كل حال . والآخر وهو من كان كافراً فاسلم ، ثم ارتدفانه يستتاب ثلاثاً فان تاب والا قتل ، ولا يستتاب اكثر من ذلك . وبه قال علي عليه السلام وابن عمر . وقال قوم : يستتاب ابداً . ذهب اليه ابراهيم وغيره . واختاره الطبري . والمرأة تستتاب على كل حال فان تابت ، والا خلدت في السجن ولا تقتل بحال وفي ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف .

قوله تعالى :

﴿ بَشرِ المُنافِقينَ بِأنَّ لَهم عَذاباً اليماً (١٣٨) الذينَ يَتخذُونَ الـكافِرين أولياءَ منْ دونِ المُؤمِنينَ ايبتغونَ عِندَهُمُ العزَّةَ فان العزةَ لله جَميعاً ﴾ (١٣٩) ايتان بلا خلاف .

المعنى :

معنى قوله « بشر المنافقين » جعل موضع بشارتهم لهم العذاب والعرب تقول: تحيتك الضرب وعقابك السيف ، أي بدلا من ذلك. قال الشاعر :

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

امر الله (تعالى نبيه) ان يبشر المنافقين بان لهم عذاباً أليما وهو المؤلم الموجع على نفاقهم ، ثم وصف هؤلاء المنافقين فقال : « الذين يتخذون » أهل الكفر بالله ونبيه اولياء يعني انصاراً وأحلافاً من دون المؤمنين يعني من غيرهم ، ثم قال : « يبتغون عندهم العزة » معناه يطلبون عندهم المنفعة والقوة باتخاذهم اولياء من دون اهل الايمان به (تعالى) ، ثم أخبر ان العزة باجمعها له (تعالى) وان هؤلاء الذين يطلبون من جهتهم العزة والمنعة ، لامنعة عندهم ، بل النصر والمنعة من عندالله الذي له العزة والمنعة الذي يعز من يشاء ، ويذل من يشاء . واصل العزة الشدة ومنه قيل للارض الصلبة الشديدة : عزاز ويقال : استعز المريض اذا اشتد مرضه وتعزز اللحم : إذا اشتدومنه قيل : عز عليّ ان يكون كذا ، اي اشتد عليّ ومنه قولهم : « من عزّ بزّ » أي من غلب سلب . وقولهم : عزّ الشيء معناه صعب وجوده واشتد حصوله .

قوله تعالى :

﴿ وَقَد نَزَّلَ عَلَيكُم فِي الكِتابِ ان إذا سَمِعتُم آياتِ اللهِ يُكفَرُ بِها وَيُستَهزأُ بِها فلا تَقعُدُوا مَعهُم حَتَّى يَخُوضُوا في حَديثٍ غَيرِه انكُم إذاً مِثلهم انَّ اللهَ جامِعُ المنافِقِينَ وَالكافِرِينَ في جَهنَّمَ جَميعاً ﴾ (١٤) آية .

قرأ عاصم ويعقوب « وقد نزل » بفتح النون والزاي وتشديده . الباقون بضم النون وكسر الزاي والمنزل في الكتاب .

قوله تعالى :

﴿ وَإذا رَأيتَ الذينَ يَخوضونَ في آياتِنا فاعرِض عَنهُم حَتى يَخوضوا في حَديثٍ غيرِهِ الى قَولِهِ . . . الظالِمينَ ﴾ .

اعلم الله تعالى في هذه الآية المؤمنين ان المنافقين يهزءون بكتاب الله الذي هو القرآن ، وأمرهم ان لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا ، يعني يأخذوا في حديث غير القرآن ، ثم قال : انكم ان جالستموهم على الخوض في كتاب الله والهزء به ، فانتم مثلهم ، وانما حكم بأنهم مثلهم متى رضوا بما هم فيه ، ولم ينكروا عليهم مع القدرة على الانكار ، ولم يظهروا كراهية ، فانهم متى كانوا راضين بالكفر ، كانوا كفاراً ، لان الرضاء بالكفر كفر . وفي الآية دلالة على وجوب انكار المنكر مع القدرة على ذلك ، وزوال العذر عنه . وإن من ترك ذلك مع القدرة عليه كان مخطئاً آثماً . وكذلك فيها دلالة على انه لايجوز مجالسة الفساق ، والمبتدعين من اي نوع كان . وبه قال جماعة من المفسرين . ذهب اليه ابو وائل ، وابراهيم وعبدالله . وقال ابراهيم : من ذلك إذا تكلم الرجل في مجلس بكذب ، يضحك منه جلساؤه ، فسخط الله عليهم . وبه قال عمر بن عبد العزيز وقيل : إنه ضرب صائماً كان قاعداً مع قوم يشربون الخمر . وقال ابن عباس : امر الله بذلك الانفاق ، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، والمراء والخصومة . وبه قال الطبري والجبائي والبلخي وجماعة من المفسرين. قال ابو علي الجبائي : اما الكون بالقرب منهم بحيث يسمع صوتهم ولا يقدر على انكاره ، فليس بمحظور ، وانما المحظور مجالستهم من غير اظهار كراهية ما سمعه أو يراه . وقوله : « إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » ومعناه ان الله يجمع الفريقين من اهل الكفر ، والنفاق في القيامة في النار . والعقوبة فيها كما اتفقوا في الدنيا على عداوة المؤمنين ، والمؤازرة عليهم . قال الجبائي : في الآية دلالة على بطلان قول الاصم ، ونفاة الاعراض وقولهم : انه ليس ها هنا غير الاجسام ، لانه

قال : « حتى يخوضوا في حديث غيره » فأثبت غيراً لما كانوا فيه . وذلك هو العرض .

قوله تعالى :

﴿ الذينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُم فَإِن كَانَ لَكُم فَتحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَم نَكُن مَعَكُم وَإِن كَانَ لِلكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَم نَستَحوِذ عَلَيكُم وَنَمنَعكُم مِنَ المُؤمِنِينَ فَاللهُ يَحكُمُ بَينَكُم يَومَ القِيَامَةِ وَلَن يَجعَلَ اللهُ لِلكَافِرِينَ عَلَى المُؤمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ (١٤١) آية بلا خلاف .

(الذين) في موضع خفض صفة للمنافقين والكافرين في قوله : « إن الله جامع المنافقين والكافرين » .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين اي ينتظرون بهم فان فتح الله على المؤمنين فتحاً من عدوهم ، فأفاء عليهم فيئاً من الغنائم ، قالوا لهم الم نكن معكم نجاهد عدوكم ونغزوهم معكم ، فاعطونا نصيبنا من الغنيمة ، فانا شهدنا القتال وان كان للكافرين نصيب أي حظ باصابتهم من المؤمنين ، وليس المراد بذلك ان لهم نصيباً من الله ، لانه (تعالى) لم يجعل لهم غلبة المسلمين ، ولا اباح لهم شيئاً من اموالهم ، بل حظر ذلك عليهم . وقوله : « قالوا » يعني قال المنافقون للكافرين : الم نستحوذ عليكم بمعنى الم نغلب عليكم ؟ في قول السدي . وقال ابن جريج : معناه ألم نبين لكم انا على ما انتم عليه والاستحواذ الغلبة ومنه قوله : « استحوذ عليهم فأنساهم ذكر الله » ومعناه غلب عليهم . يقال منه : حاذ عليه يحوذ . واستحاذ يستحيذ . وحاذ يحيذ . قال العجاج يصف ثوراً وكلاماً :

يحوذهن وله حوذي (١)

وانشده ابو عبيد والاصمعي بالزاي يحوزهن وله حوزي والمعنيان

(١) اللسان (حوذ) . ديوانه : ٧١ ومجاز القرآن لابي عبيده ١ : ١٤١ وبعده :
خوف الخلاط فهو اجنبي　　كما يحوذ الفئة الكمي

متقاربان . وقال لبيد في صفة عيرواتن على احاذ .

إذا اجتمعت واحوذ جانبيها   واوردها على عوج طوال (١)

العوج الطوال القوائم . وقيل : هي النخيل الطوال . فمعنى احوذ جانبيها لم يشذ منها شيء . والاحوذ : الجاد المنكمش الخفيف في اموره كلهـا . وكان القياس يقتضي أن يقول : استحاذ ، لان الواو إذا كانت عين الفعل وكانت محركة بالفتح ، وما قبلها ساكن تقلب حركتها الى فاء الفعل ، وقلبوها الفاً اتباعا لحركة ما قبلهـا . كقولهم : استحاذ واستبان واستنار واستعاذ بالله وها هنا تركت على الاصل وهي لغة القرآن . وقوله : « ونمنعكم من المؤمنين » يعني يقول المنافقون الكافرون منعنا المؤمنين منكم بتخذيلنا اياهم ، واطلاعنا اياكم على اخبارهم ، وكوننا عيونا لكم حتى انصرفوا عنكم وغلبتموهم . وقوله : « فالله يحكم بينكم يوم القيامة » اخبار منه (تعالى) انه الذي يحكم بين الخلائق يوم القيامة ويفصل بينهم بالحق ، وينصر المؤمنين « ولا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا » اي بالغلبة والقهر . وان حملناه على دار الدنيا يمكن حمله على انه لا يجعل لهم عليهم سبيلا بالحجة ، وان جاز ان يغلبوهم بالقوة ، لكن المؤمنين منصورون بالحجة والدلالة . وبالتـأويل الاول قال علي (عليه السلام) : والسدى وابو مالك وابن عباس . قال السدى : السبيل ـ هاهنا ـ الحجة . وبالثـاني قال : الزجاج والجبائي والبلخي . وقال الجبائي : ولو حملنا ذلك على الغلبة ، كان أيضاً صحيحاً ، لان غلبة الكفار للمؤمنين ليس مما فعله الله ، لان ذلك قبيح ، والله لا يفعل القبيح . وليس كذلك غلبة المؤمنين للكفار ، لانه حسن وطاعة ، فكان ذلك منسوباً الى الله (تعالى) .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا الى

---

(١) اللسان (حوذ) . القصيدة : ١٧ وبعده :

رفعن سرادقاً في يوم ريح   يصفق بين ميل واعتدال

الصلاةِ قامُوا كُسالى يُراۤؤُنَ الناسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ قليلاً (١٤٢) مُذَبْذَبينَ بينَ ذلك لا الى هؤلاءِ وَلا الى هؤلاءِ وَمَن يُضلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبيلاً ﴾ (١٤٣) آيتان .

ـ قد بينا ـ في اوّل البقرة معنى الخداع من المنافقين ، ومن الله (تعالى) وجملته ان الخداع من المنافقين اظهارهم الايمان الذي حقنوا به دماءهم واموالهم ، كما حقن المؤمنون على الحقيقة . وقال : الحسن والزجاج والازهري ان معناه يخادعون نبي الله فسماه خداعا لله للاختصاص ، كما قال : إن الذين يبايعونك انما يبايعون الله فسمى مبايعة النبي (ص) مبايعة لله ، للاختصاص ، لانه بأمره . ومعنى الخداع من الله يحتمل امرين :

احدهما ـ ان يجازيهم على خداعهم فسمى الجزاء باسم الشيء ، للازدواج ، كما قال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » والجزاء ليس بسيئة . وقال : « ومكروا ومكر الله » والله لا يمكر ، غير انه يجازي عليه .

والثاني ـ ما حكم الله فيهم من منع دمائهم بما اظهروه من الايمان بلسانهم مع علمه بباطنهم ، واعتقادهم الكفر استدراجاً منه لهم في الدنيا حتى يلقوه يوم القيامة ، فيوردهم بما ابطنوا هم نار جهنم . وقال السدي : يعطيهم الله نوراً يوم القيامة يمشون به مع المسلمين ، كما كانوا في الدنيا ، ثم يسلبهم ذلك النور ، ويضرب بينهم بسور ، فذلك هو الخداع منه (تعالى) . وبه قال ابن جريج ، والحسن وغيرهم من المفسرين : على ما بيناه فيما مضى . وقوله : « وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس » يعني ان المنافقين لا يعملون شيئاً من اعمال العبادات التي اوجبها على المؤمنين على وجه القربة الى الله ، لانهم غير موقنين بها ، ولا ان لهم عليها ثواباً أو عقاباً وانما يفعلون ذلك إبقاءً على انفسهم ، وحذراً من المؤمنين أن يقتلوهم ، ويسلبوا اموالهم ، فهم إذا قاموا الى الصلاة ، قاموا كسالى اليها رياءً للمؤمنين ،

ليحسبوهم المؤمنون منهم ، وليسوا منهم ، لأنهم لا يعتقدون فرضها . وبه قال قتادة وابن زيد . وقوله : « ولا يذكر الله إلا قليلاً » إنما وصف ما استثناه من ذكرهم لله بالقلة من حيث أنهم لا يقصدون به وجه الله ، ولا التقرب اليه ، لا ان شيئاً من ذكر الله يوصف بانه قليل ، بل يوصف جميعه بانه كثير ، قال الحسن : وصفه بالقلة، لانه كان لغير الله . وقال قتادة : لانه لم يقبله الله وكلما رده الله ، فهو قليل ، وما قبله فهو كثير . وقال الجبائي : لأنهم . إذا قاموا الى الصلاة ، لم يذكروا غير تكبيرة الاحرام .

وقوله : « مذبذبين » في موضع نصب على الحال . ومعناه أنهم يقومون الى الصلاة يعني المنافقين مترددين ، لا الى هؤلاء يعني المؤمنين فيفعلونه ، فيستحقون به الثواب ولا الى هؤلاء يعني الكفار فيجاهرون بالكفر ، بل بين ذلك يظهرون الايمان ، فيجري عليهم حكم أهله ، ويبطنون الكفر فيستحقون به عقاب أهله . واصل التذبذب التحرك والاضطراب . قال النابغة :

الم تر ان الله اعطاك سورة يرى كل ملك دونها يتذبذب (١)

وقال الحسن بن علي المغربي : مذبذبين مطرودين من هؤلاء ، ومن هؤلاء ، من الذب الذي هو الطرد . وصف الله تعالى هؤلاء المنافقين بالحيرة في دينهم ، وانهم لا يرجعون إلى صحة فيه ، لا مع المؤمنين على بصيرة ، ولا مع الكفار على جهالة . وقال ابن عمر عن رسول الله (ص) ان مثلهم مثل الشاة العائرة بين الغنمين تتحير ، فتنظر إلى هذه والى هذه ، لا تدري ايهما تتبع . وبهذه الجملة قال السدي وقتادة ومجاهد وابن جريج وابن زيد وغيرهم من المفسرين . وقوله : « ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » يحتمل امرين :

احدها ـ من يضله الله عن طريق الجنة ، فلن تجد له سبيلا الى طريق الجنة .

والثاني ـ من يجد له عقوبة على معاصيه عن طريق الرشاد والاسلام ، ولم

---

(١) ـ مر في ١ : ١٩

يوفقه ، لحرمانه نفسه التوفيق بسوء اختياره ، فلن تجد له سبيلا يعني طريقاً الى الحق يفضيه اليه .

قوله تعالى :

﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَتـخذوا الـكافِرينَ أولياءَ من دُونِ المُؤمنينَ أتريدونَ ان تَجعلوا لِلهِ عَليكمُ سُلطاناً مُبيناً ﴾ (١٤٤) آية .

هذا خطاب للمؤمنين نهاهم الله ان يتخذوا الكافرين اولياء وانصاراً من دون المؤمنين ، فيكونون مثلهم في ركوب مانهاهم الله عنه من موالاة اعدائه « اتريدون ان تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً » يعني حجة ظاهرة . قال عكرمة : كل ما في القرآن من ذكر سلطان ، فمعناه حجة . وبه قال مجاهد والزجاج . وهو يذكر ويؤنث وقيل للامير سلطان ، لان معناه ذو الحجة ومعنى الاية النهي عن اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين . فمن فعل ذلك ، فقد جعل لله على نفسه الحجة ، وتعرض لغضبه وعقابه وفي الآية دلالة على أنه لايجوز أن يبتدىء الله الخلق بالعذاب ، ولا يعاقب الاطفال بذنوب الآباء ، لانه لو كان ذلك شائعاً ، لما قال للمؤمنين : « تجعلون لله عليكم سلطاناً مبيناً » يعني باتخاذكم الكفار أولياء من دون المؤمنين ، لان ذلك دلالة على انه لم يكن له ذلك ، وانه لاكان له حجة على الخلق لولا معاصيهم ومخالفتهم له تعالى .

قوله تعالى :

﴿ انَّ المُنافقينَ في الدَّركِ الاسفَلِ مِنَ النارِ وَلن تَجدَ لَـهُم نَصيراً (١٤٥) الا الذينَ تابُوا وَاصلَحوا واعتصموا باللهِ وَاخلَصوا دينهم لِلهِ فَاُولئكَ مَعَ المُؤمنينَ وَسوفَ يُؤتي اللهُ المُؤمنينَ اجراً عظيماً ﴾ (١٤٦) آيتان بلا خلاف .

[القراءة والحجة] :

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر ، الا العلمي (الدرك) بسكون الراء الباقون بفتحها وهما الغتان مثل نهر ونهر وشمع وشمع فمن فتح الراء قال في الجمع : إدراك في القلة والكثرة ومن سكنها قال إدراك وفي الكثير الدرك والتسكين لغة وليس يسكن من المفتوح ، لان مثل ذلك لا يجوز تسكينه ، فلا يسكن جمل وجبل وانما هما لغتان مثل شمع وشمع ونهر ونهر . قالوا بفتح الراء افصح ، سمع من العرب من يقول : أعطني دركاً اصل به حبلي ، يعني ما يصل به حبله الذي عجز عن بلوغ الركية .

[المعنى] :

ومعنى الاية الاخبار من الله أن المنافقين في الطبق الاسفل من النار . قال عبد الله : المنافقون في توابيت من حديد مغلقة عليهم في النار وبه قال ابو هريرة ، وابن عباس . قال ابن جريج : قال عبد الله بن كثير وأبو عبيدة ، سمعنا ان جهنم إدراك منازل . وليس يمتنع ان يجعل الله قوماً من الكفار في الدرك الاسفل ، كفرعون وهامان وأبي جهل ، فان هؤلاء اعظم كفراً من المنافقين وليس في اخبار الله ان المنافقين هناك ما يمنع أن يكون غيرهم فيه أيضاً ، و ن تفاضلوا في العقاب قال ابن جريج : هذه الايات نزلت في عبد الله بن ابي واصحابه . قال البلخي يجوز أن يكون الأدراك منازل بعضها أسفل من بعض بالمسافة ، ويجوز أن يكون ذلك اخباراً عن بلوغ الغاية في العقاب والاهانة ، كما يقال بلغ فلاناً السلطان الحضيض ، وبلغ فلاناً العرش . ويريدون بذلك علو المنزلة وانحطاطها لا المسافة .

وقوله : « ولن تجد له نصيراً » معناه لا تجد يامحمد ، لهؤلاء المنافقين إذا جعلهم الله في اسفل طبقة من النار ناصراً ينصرهم ، فينقذهم من عذابه ، ويدفع عنهم أليم عقابه ، ثم استثنى فقال : « الا الذين تابوا » فاستثنى منهم التائبين من نفاقهم إذا اصلحوا نياتهم ، واخلصوا الدين لله ، وتبرؤا من الآلهة والأنداد ، واعتصموا يعني تمسكوا بكتاب الله وصدقوا رسله ، فانهم إذا فعلوا ذلك فانهم

يكونون مع المؤمنين في الجنة ، ومحل الكرامة ، ويسكنهم مساكنهم وما وعدهم من الجزاء على توبتهم ، وسوف يؤتي الله المؤمنين اجراً عظيما . فكان تقدير الآية إن الذين راجعوا الحق ، واقروا بوحدانية الله ، وتصديق رسوله ، وما جاء به من عند الله ، واصلحوا اعمالهم فعملوا بما امرهم الله به وادوا فرضه وانتهوا عما نهاهم ، وانزجروا عن معاصيه ، وتمسكوا بعهدالله وميثاقه ، فقطع حينئذ انه تعالى يؤتي المؤمنين ، أي يعطيهم أجراً ، يعني ثواباً عظيما ، ودرجات في الجنة كما اعطى من مات على النفاق منازل في النار في اسفل طبقة منها . وهذه الجملة معنى قول حذيفة بن اليمان ، وجميع المفسرين .

« وسوف يؤت الله » كتبت في المصحف بلا ياء تخفيفاً ومثله « يوم يأت لا تكلم » وقوله : « ما كنا نبغ » وغير ذلك . وكان الكسائي يثبت الياء في الوصل دون الوقف ، ثم رجع عنه . وابو عمرو يثبتها في الوصل واهل المدينة يثبتونها في الحالين

قوله تعالى :

﴿ ما يَفعلُ اللهُ بِعَذابِكم ان شَكرتُم وآمَنتُم وَكانَ اللهُ شاكِراً عَليماً ﴾ (١٤٧) آية .

خاطب الله (تعالى) بهذه الآية المنافقين الذين تابوا وآمنوا ، واصلحوا اعمالهم ، فقال : إن انتم تبتم الى الله وراجعتم الحق الواجب لله عليكم ، وشكرتموه على نعمه واخلصتم عبادته ، واعتصمتم به وتركتم رياء الناس ، وآمنتم برسوله محمد (ص) وصدقتم به ، واقررتم بما جاء به من عند الله ما يصنع بعذابكم ، أي لا حاجة بالله الى عذابكم ، وجعلكم في الدرك الاسفل من جهنم ، لانه لا يجتلب بعذابكم نفعاً ، ولا يدفع عن نفسه ضرراً ، لانهما مستحيلان عليه .

« وكان الله شاكراً » يعني لم يزل الله مجازيا للشاكر على شكره في جميع

عباده علما بما يستحقونه على طاعاته من الثواب ، ولا يضيع عنـده شيء منه ، ولا يفوته شيء من معاصي من عصاه ، فيجازي بذلك من يشاء منهم على سوء أفعالهم جزآءً بمـا كسبوه . وبه قال قتـادة وغيره من المفسرين . والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من تعظيم المنعم ، وذلك لا يجوز الشكر منه بمعنى الجزاء عليه كما قال : « ومكروا ومكر الله » « وجزاء سيئة سيئة مثلها » والجزاء ليست سيئة ولكن اطلق ذلك لازدواج الكلام .

قوله تعالى :

﴿ لا يُحب اللّه الجهر بالسوءِ مِنَ القولِ الا مَن ظُـلِمَ و كانَ اللّه سميعاً عليماً ﴾ (١٤٨) آية بلا خلاف .

[القراءة والحجة] :

القراء ضم الظاء في قوله : « الا من ظلم » وكسر اللام . وقرأ زيد بن اسلم والضحاك بن مزاحم (ظلم) بفتح الظاء واللام . فمن ضم الظاء ، اختلفوا في تأويله فقال قوم : معنى ذلك لا يحب الله ان يجهر احـد بالدعاء على احـد ، وهو الجهر بالسوء إلا من ظلم فيدعو على ظالمـه ، لا يكره ذلك . وذلك انه رخص له فيه . ذهب اليه ابن عباس وقتادة والحسن .

[الاعراب]:

و (من) على قول ابن عباس في موضع رفـع ، لانه وجهه إلى ان الجهر بالسوء في معنى الدعاء . واستثنى المظلوم منه وقال الزجاج : وجه الرفع أن يكون بدلا من احد وتقديره لا يحب الله أن يجهر احد بالسوء إلا من ظلم وقال الفراء تقديره لا يحب الله أن يجهر بالسوء الا المظلوم ، فـلا حرج عليه في الجهر اما بان يدعو عليه ، أو بان يخبر بما فعله به ، ويذمه عليه . وبه قال الجبائي قال : ولا يجوز

لمن ليس بمظلوم أن يذكر احداً بسوء لان الله (تعالى) أمره بالستر عليه والكتمان ، وانما يجب عليه أن ينكر عليه فيما بينه وبينه على وجه لا يفضحه ، وانما جاز ذلك للمظلوم ، لانه خصم يجوز له ان يدعي على خصمه ما ظلمه فيه ، فان أقام بذلك بينة استوفى له حقه ، والا ابطل دعواه . وقال بعض النحويين : هـذا خطأ في العربية ، لان من لا يجوز أن يكون رفعاً بالجحد لانها في صلة أن ، ولم ينله الجحد ، فلا يجوز العطف عليه . لا يجوز أن يقول : لا يعجبني أن يقوم الازيد . ويحتمل أن يكون (من) نصباً في تأويل ابن عباس .

[المعنى] :

وقوله : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » يكون كلاماً ، ثم قال : « الا من ظلم فلا حرج عليه » فيكون (من) استثناء من الفعل ، وان لم يكن قبل الاستثناء شيء ظاهر يستثنى منه ، كما قال : « لست عليهم بمسيطر الا من تولى وكفر » . وكقولهم : إني لاكره الخصومة والمراء ، اللهم إلا رجلا يريد الله بذلك . ولم يذكر فيه شيء من الاشياء ذكره المراء . وقال آخرون : معناه لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم فيخبر بما ينل منه . ذهب اليه مجاهد قال مجاهد : هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن اليه فقد رخص له أن يقول ذلك فيه وروي عن أبي عبد الله انه قال : هو الضيف ينزل بالرجل ، فلا يحسن ضيافته ، جاز أن يقول ذلك فيه . وقال آخرون : الا من ظلم فانتصر من ظلمه ، فان ذلك قد أذن له فيه ، ذهب اليه السدي وهو المروي عن ابي جعفر (ع) و (من) على هـذا يكون في موضع نصب على انقطاعه من الاول . ومن شان العرب ان تنصب مابعد الا في الاستثناء المنقطع . فالمعنى على هذا القول سوى قول ابن عباس : لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ، لكن من ظلم فلا حرج عليه ان يخبر بما ينل منه ، ينتصر ممن ظلمه . ومن فتح الظاء قال تأويله : لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ، الا من ظلم ، فلا بأس أن يجهر له بالسوء من القول . ذهب اليه ابن زيد قال :

يجهر له بالسوء حتى يفزع . (ومن) على هذا القول في موضع نصب والمعنى لا يحب الله الجهر أن يجهر أحد لاحد من المنافقين بالسوء من القول إلا من ظلم منهم فاقام على نفاقه ، فانه لا بأس بالجهر بالسوء من القول . قال الزجاج : وفيه وجه آخر لم يذكره النحويون وهو أن يكون الا من ظلم ، لكن الظالم اجهروا له بالسوء من القول ، وهو استثناء ليس من الاول . وهـذا الذي ذكره هو قول ابن زيد بعينه . وقال الفراء : موضع (من) نصب في القراءتين معاً . ويجوز الرفع على تقدير لا يحب الله أن يجهر بالسوء الا المظلوم . وقال البلخي : كان الضحاك يقول : فيه تقديم وتأخير والتقدير ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وامنتم إلا من ظلم بفتح الظاء ثم قال : لا يحب الله الجهر بالسوء من القوم على كل حال . قال البلخي : ويجوز أن يكون (إلا) بمعنى الواو ، كانه قال : لا يحب الله الجهر بالسوء ، ولا من ظلم ، فانه لا يحب الجهر بالسوء منه . وقال قطرب : يجوز أن يكون المراد به المكره في قوله : « الا من ظلم » لانه إذا اكره على الجهر بالسوء من القول ، فلا شيء عليه . والقراءة المعروفة أولى بالصواب ، لان هذه شاذة .

والتأويل فيه لا يحب الله ان يجهر احد لاحد بالسوء من القول إلا من ظلم ، فلا حرج عليه أن يخبر بما اسيء اليه . وتكون (من) في موضع نصب لانقطاعها عما قبلها ، فانه لا اسماء قبله يستثنى منها . وهو مثل قوله : « لست عليهم بمسيطر الا من تولى وكفر » وقوله : « وكان الله سميعاً عليماً » يعني سميعاً لما يجهرون من سوء القول لمن يجهرون له ، وغير ذلك من كلامكم واصواتكم عليماً بما تخفون من سوء قولكم وكلامكم لمن يخفون له به فلا يجهرون يحصي ذلك كله عليكم فيجازي على ذلك كل المسيء باساءته . والمحسن باحسانه .

قوله تعالى :

﴿ ان تُبدوا خَيراً أو تُخفوهُ أو تَعفوا عَن سُوءٍ فَانّ اللّهَ كانَ عَفواً قَديراً ﴾ (١٤٩) آية .

[المعنى] :

هذا خطاب لجميع المكلفين . يقول الله لهم : « ان تبدوا » بمعنى ان تظهروا (خيراً) اي حسناً جميلا من القول لمن احسن اليكم شكراً على إنعامه عليكم ، أو تخفوه أي تتركوا اظهاره ، فلا تبدوه ، « أو تعفوا عن سوء » معناه أو تصفحوا عمن اساء اليكم عن اساءته ، فلا تجهروا له بالسوء من القول الذي أذنت لكم أن تظهروه ، وتجهروا به ، « فان الله كان عفواً » يعني لم يزل كان صفوحاً عن خلقه يصفح لهم عن معاصيه « قديراً » يعني قادراً على الانتقام منهم . وانما أراد بذلك انه مع صفحه قادراً على الانتقام ، ليكون اعظم للمدح ليحث بذلك الخلق على العفو عمن أساء اليهم . إذا قدروا على الانتقام منهم ، والمكافات لهم . ولا يجهروا له بالسوء من القول مع القدرة عليه ، ويتأدبوا في ذلك بأدب الله تعالى . وروى عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله (ص) : (ان الله عفو يحب العفو) .

قوله تعالى :

﴿ انَّ الذين يَكفرونَ باللّهِ وَرُسلهِ وَيُريدونَ ان يفرقوا بينَ اللّهِ وَرسلهِ وَيقولونَ نومِن ببعضٍ وَنَكفر ببعض و يريدونَ ان يتخذوا بَينَ ذلكَ سبيلاً (١٥٠) أولئكَ هم الكافرونَ حقاً واعتدنا للكافرينَ عذاباً مهيناً ﴾ (١٥١) آيتان .

[المعنى] :

معنى الآية الاخبار من الله تعالى « إن الذين يكفرون » ومعناه يجحدون بالله ورسله من اليهود والنصارى « ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله » أي

يكذبوا رسل الله الذين أرسلهم إلى خلقه وأوحى اليهم ويزعمون انهم كاذبون على الله . وذلك معنى إرادتهم التفريق بين الله ورسله « ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض » ومعناه أنهم يقولون نصدق بهذا ونكذب بهذا ، كما فعلت اليهود صدقوا موسى ومن تقدمه من الانبياء ، وكذبوا عيسى ومحمداً (ص) وكما فعلت النصارى صدقت عيسى ومن تقدمه من الانبياء ، وكذبوا محمداً (ص) « ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا » ، يعني يريد المفرقون بين الله ورسله الزاعمون انهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض أن يتخذوا بين قولهم : نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض سبيلا يعني طريقاً إلى الضلالة التي أحدثوها ، والبدعة التي ابتدعوها يدعون جهال الناس اليه ، ثم اخبر عن حالهم فقال : « أولئك هم الكافرون حقاً » أي هؤلاء الذين أخبر عنهم بانهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، وتفريقهم بين الله ورسله هم الكافرون حقاً فاستيقنوا ذلك ولا ترتابوا بدعواهم انهم يقرون بما زعموا انهم فيه مقرون من الكتب والرسل ، فانهم يكذبون في دعواهم هذه ، لأنهم لو كانوا صادقين في ذلك ، لصدقوا جميع رسل الله ، لانه لا يصح أن يكونوا عارفين بالله ورسوله مع جحودهم ، لنبوة بعض الانبياء على ما يذهب اليه في الموافات . وعند من قال بالاحباط لا يمتنع أن يكونوا عارفين بالله ، وبعض رسله فاذا كفروا ببعضهم ، انحبط ما معهم من الثواب على ايمانهم وهذا لا يصح على مذهبنا في بطلان الاحباط فالصحيح إذا ما قلناه .

وقوله : « واعتدنا » معناه أعددنا للكافرين يعني الجاحدين الذين ذكرهم ولغيرهم من اصناف الكفار (عذاباً) في الاخرة « مهيناً » يهينهم ويذلهم مخلدون في ذلك وقال قتادة والسدي ومجاهد نزلت في اليهود والنصارى وانما قال : إن هؤلاء هم الكافرون حقاً ، وإن كان غيرهم أيضاً كافراً حقاً على وجه التأكيد لئلا يظن أنهم ليسوا كفاراً لقولهم : نؤمن ببعض ونكفر ببعض وقيل إنه قال ذلك استعظاماً لكفرهم ، كما قال إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم إلى

قوله : « أولئك هم المؤمنون حقاً » وقد يكون مؤمناً حقاً من لم يلحق هـذه الخصال بلا خلاف .

قوله تعالى :

﴿ والذينَ آمَنوا باللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَم يُفَرِّقوا بَينَ احدٍ منهم أولئكَ سَوفَ نؤتيهم اجورَهُم وكانَ اللهُ غفوراً رَحيماً ﴾ (١٥٢) آية بلا خلاف .

[القراءة والحجة] :

قرأ يؤتيهم بالياء حفص الباقون بالنون حجة حفص قوله : « سوف يؤت الله المؤمنين » ومن قرأ نؤتيهم ـ بالنون ـ فلقوله : « واتيناه اجره » وقوله : « أولئك سنؤتيهم اجراً » وغير ذلك من الآي .

[المعنى] :

لما ذكر الله تعالى حكم من فرق بين الله ورسله ، والايمان ببعض دون بعض ، وانهم الكافرون ، وانه أعدلهم العذاب المهين ، اخبر عقيبه عمن آمن بالله ورسله ، وصدقهم وأقر بنبوتهم ، ولم يفرقوا بين احـد منهم ، بل آمنوا بجميعهم ، فان الله (تعالى) سيؤتيهم أجورهم بمعنى سيعطيهم ثوابهم الذي استحقوا على ايمانهم بالله ورسله ، والاقرار بهم ، وإنه يعطيهم جزاء هم على ذلك . « وكان الله غفوراً رحيما » ومعناه يغفر لمن هذه صفته ما سلف له من المعاصي والآثام ، ويسيرها عليهم ، ويترك العقوبة عليها ، فانه لم يزل كان غفوراً رحيما أي متفضلا عليهم بالهداية إلى سبيل الحق موفقاً لهم لما فيه خلاص رقابهم من عقاب النار .

قوله تعالى :

﴿ يَسئلكَ اهل الـكتاب ان تُنزلَ عَليهم كِتاباً من السماءِ فَقد سَئلوا موسى اكـبر من ذلِكَ فقالوا : ارِنا اللهَ جَهرَةً فاَخـذَتـهُـمُ الصاعِقة بظلمهم ثُمَّ اتخذوا العجل مِن بَعدِ ما جاءتهـُم البيناتُ فَعفونا عَن ذلكَ وَاتَينا مُوسى سُلطاناً مُبيناً ﴾ (١٥٣) آية بلا خلاف .

هـذا خطاب للنبي (ص) يسألـك يامحمد اهـل الكتاب يعني اليهود أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، واختلفوا في الكتاب الذي سأل اليهود محمد (ص) أن ينزل عليهم من السماء فقال قوم : سألوا ان ينزل كتابا من السماء مكتوبا ، كما جاء موسى بني اسرائيل بالتوراة مكتوبة من عند الله في الألواح . ذهب اليه السدي ومحمد بن كعب القرطي ، فانزل الله فيهم هذه الآية إلى قوله : « على مريم بهتانا عظيما » وقال اخرون : بل سألوه أن ينزل عليهم كتابا خاصا لهم ذهب اليه قتادة . وقال آخرون : بل يسألون أن ينزل على رجال منهم بأعيانهم كتبا بالامر بتصديقه ، واتباعـه ذكر ذلـك ابن جريج ، واختاره الطبري وقال الزجاج : ذلك حين سألوا فقالوا : « لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه » وقال الجبائي : كان سؤالهم على وجه التعنت والافكان فيما أنزله الله من القران دلالة واضحة على نبوته .

وقوله : « فقد سألوا موسى اكبر من ذلك » فانه توبيخ من الله تعالى ، سئل انزال الكتاب عليهم ، وتفريع منه لهم بقوله لنبيه (ص) : يامحمد لا يعظمن عليك مسألتهم ، إياك ذلك فانهم من جهلهم بالله عز وجل وجرأتهم عليه ، واغترارهم بحلمه ، لو أنزلت عليهم الكتاب الذي سألوه لخالفوا امر الله ، كما خالفوا بعـد أحياء الله اوائلهم من صعقتهم ، فعبدوا العجل ، واتخذوه آلهاً فعبدوه من دون خالقهم وبارئهم الذي أراهم قدرته ، وعظمته وسلطانه بما أراهم ، ثم قص من قصتهم وقصة موسى

ماقص ، فقال « فقد سألوا موسى اكبر من ذلك » يعني سأل اسلاف هؤلاء اليهود موسى (ع) اعظم مما سألوك فقالوا أرنا الله جهرة أي عيانا نداينه وننظر اليه . وقد بينا معنى الجهرة فيما مضى . وحكي عن ابن عباس أنه قال : فيه تقديم وتأخير ، وتقديره إنما قالوا جهرة أرنا الله : وهو الذي اختاره أبو عبيدة . وقال غيره : أراد رؤية بالبصر ظاهرة منكشفة ، لان من علم الله فقدرآه . وهو اختيار الزجاج لقوله تعالى : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » وقول ابن عباس يدل على انه كان يذهب إلى استحالة الرؤية عليه تعالى ، لان على تأويله بنفس سؤال الرؤيه ، اخذتهم الصاعقة دون رؤية مخصوصة على ما يذهب اليه من قال بالرؤية . وقوله « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » يعني فصعقوا بظلمهم انفسهم عن سؤالهم موسى أن يريهم الله ، لان ذلك مما هو مستحيل عليه (تعالى) وفي ذلك دلالة واضحة على استحالة الرؤية عليه (تعالى) واستعظام لتجويزها ، لانهم كانوا يكفرون به ويجحدونه ولم ينزل عليهم الصاعقة ، فلما سألوا الرؤية أنزلها عليهم . وفي ذلك دلالة على أن اصل كل تشبيه تجويز الرؤية عليه تعالي على قول ابي علي . وقد بينا معنى الصاعقة فيما مضى ، فلا نطول باعادته .

وقوله : « ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات » معناه ، ثم اتخذ هؤلاء الذين سألوا موسى ماسألوا من رؤية الله بعد ما احياهم وبعثهم من صعقتهم ـ العجل الذي كان السامري أضلهم به . وقـد بينا فيما مضى السبب الذي من اجله اتخذوا العجل ، وكيف كان أمرهم . وقوله : « من بعـد ماجاءتهم البينات » معناه من بعـد ما جاءت هؤلاء الذين سألوا موسى البينات من الله ، ومن الدلالات الواضحات بان الرؤية مستحيلة عليه ، ومنها اصعاق الله اياهم عند مسألتهم موسى يريدون ان يريهم ربهم جهرة ، ثم احياؤه اياهم بعد مماتهم مع غيره من الآيات التي أراهم الله دلالة على ذلك ، فقال الله مقبحاً فعلهم ، وموضحاً عن جهلهم ونقص عقولهم باقرارهم للعجل بانه الههم ، وهم يرونه عياناً ، وينظرون اليه ، فعكفوا على

عبادته مصدقين بالآهيته ثم قال تعالى : « فعفونا عن ذلك » ومعناه عفونا للـذين عبدوا العجل عن عبادتهم بعد ان اراهم الله آية على أنهم لايرون ربهم . وقوله : « واتينا موسى سلطاناً مبيناً » معناه اعطينا موسى حجة ظاهرة تبين عن صدقه وحقيقة نبوته ، وتلك الحجة هي الآيات التي اتاه الله اياها .

قوله تعالى :

﴿ وَرَفَعنا فَوقَهُم الطور بِميثاقهم وَقُلنا لَهُمُ ادخلوا الباب سُجداً وَقُلنا لَهم لا تَعدوا في السبتِ وَاَخذنا مِنهم ميثاقاً غليظاً ﴾ (١٥٤)

ـ آية اجماعا ـ .

[القراءة والحجة] :

قرأ أهل المدينة (لا تعدوا) بتسكين العين وتشديد الدال والجمع بين ساكنين بمعنى لا تعتدوا ، ثم ادغم التاء في الـدال فصارت دالا مشددة مضمومة ، كما قرأ ن قرأ (يهتدي) بتسكين الهاء ـ وقووا ذلك بقوله : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت » فجاء في هذه القصة افتعلوا وقال : « لا تعتدوا فان الله لايحب المعتدين » وقرأ الباقون بتسكين العين ـ من عدوت في الامر : إذا تجاوزت الحق فيه أعدو عدوانا وعداءً وعدواً قال ابو زيد : عـدا على اللص : اشد العدو . والعدو والعداء والعدوان اي سرقك وظلمك . وعدت عينه عن ذلك اشد العدو وتعدو وحجتهم قوله : إذ يعـدون في السبت في هـذه القصة وقوله : فاولئك هم العادون .

[المعنى] :

معنى قوله : « ورفعنا فوقهم الطور » يعني الجبل لما امتنعوا من العمل بما في التوراة وقبول ما جاءهم به موسى بميثاقهم يعني بما اعطوا الله من الميثاق والعهد،

ليعملن بما في التوراة . « وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً » يعني باب حطة حين امرهم الله ان يدخلوا فيه سجوداً ، فدخلوا على استاههم يزحفون . وقلنا لهم : « لا تعدوا في السبت » اي لا تتجاوزوا في يوم السبت ما أبيح لكم الى ما حرم عليكم . قال قتادة : امرهم الله ان لا يأكلوا الحيتان يوم السبت ، ولا يعرضوا لها . واحل لهم ماعداه . وقوله : « واخذنا ـ منهم ميثاقاً غليظاً » يعني عهداً مؤكداً بأنهم يعملون ما أمرهم الله به وينتهون عما نهاهم الله عز وجل عنه . وقد بينا فيما مضى السبب الذي من أجله كانوا أمروا بدخول الباب سجداً ، وما كان من أمرهم في ذلك . قال ابن عباس : رفع الله فوقهم الجبل ، فقيل لهم : إما ان تأخذوا التوراة بما فيها ، أو يلقى عليكم الجبل . وقال ابو مسلم : رفع الله الجبل فوقهم ظلالاً لهم من الشمس بميثاقهم أي بعهدهم جزاء لهم على ذلك . والاول قول اكثر المفسرين .

قوله تعالى :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِم قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِم فَلا يُؤمِنونَ الا قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِم وَقَولِهِم عَلَى مَريَمَ بُهتاناً عَظِيماً ﴾ (١٥٦) ـ آيتان ـ .

[المعنى] :

المعنى في قوله : « بما نقضهم » قولان :

احدها ـ قال الفراء والزجاج وغيرهما : «إن (ما) زائدة» . وتقديره فبنقضهم .

والثاني ـ انها بمعنى شيء . وتقديره فبشيء ونقضهم ، بدل منه ومجرور به .

مثله قوله : « مثلا ما بعوضة » (١) وفيه القولان . والتقدير فبنقض هؤلاء الذين وصفهم من اهل الكتاب وميثاقهم يعني عهودهم التي عاهدوا الله عليها أن يعملوا بما في التوراة « وكفرهم بآيات الله » يعني جحودهم بايات الله . وهي اعلامه ، وادلته التي احتج بها عليهم في صدق انبيائه ، ورسله « وقتلهم الانبياء بغير حق » يعني وقتلهم الانبياء بعد قيام الحجة عليهم بصدقهم بغير حق يعني بغير استحقاق منهم ، لكبيرة أتوها ولا خطيئة استوجبوا بها القتل . وقتل الانبياء ، وان كان لا يكون إلا بغير حق ، فانما اكده بقوله : « بغير حق » ومعناه ما قدمنا القول فيه أنه لا يكون ذلك إلا بغير حق ، كما قال : « ومن يدع مع الله الهاً آخر لا برهان له به » والمعنى إن هذا لا يكون عليه برهان . ومثله قول الشاعر :

على لاحب لايهتدى بمناره(٢)

وانما اراد لا منارها هناك يهتدى به . وقد استوفينا ما في ذلك فيما مضى « وقولهم قلوبنا غلف » تقديره يقولون : قلوبنا عليها غشاوة وأغطية لا نفقه ما تقول ، ولا نعلق له ، فاكذبهم الله في ذلك وقال الفراء والزجاج : معناه قلوبنا أوعية للعلم لانفقة ما تقول . وقد بينا معنى الغلف فيما مضى . قوله : « بل طبع الله عليها بكفرهم » والمعنى كذبوا في قولهم قلوبنا غلف ما هي بغلف ، ولا عليها اغطية ، بل طبع الله عليها بكفرهم . وقد بينا معنى الطبع فيما مضى . وهو أنه السمة والعلامة وسم الله تعالى وعلّم على قلوب قوم من الكفار الذين علم من حالهم أنهم لا يؤمنون فيما بعد ، وجعل ذلك عقوبة لهم على كفرهم الذي ارتكبوه في الحال تعرفه الملائكة . وقوله : « فلا يؤمنون إلا قليلا » معناه فلا يصدقون الا تصديقا قليلا . وإنما وصفه بالقلة لانهم لم يصدقوا على ما أمرهم الله به لكن صدقوا ببعض الانبياء ، وبعض الكتب وكذبوا بالبعض ، فكان تصديقهم بما صدقوا به قليلا ، لانهم ، وان صدقوا به من وجه ، فهم يكذبون به من وجه آخر . ويجوز

(١) سورة البقرة ، آية ٢٦ .
(٢) انظر ١ : ١٨٩ - ٢٧٩ - ٤٤٤

أن يكون الاستثناء من الذين نفى الله عنهم الايمان فكانه علم انه يؤمن منهم جماعة قليلة فيما بعد ، فاستثناهم من جملة من اخبر عنهم أنهم لا يؤمنون . وبهذه الجملة قال جماعة المفسرين : قتادة وغيره . واختلفوا في قوله : « فبما نقضهم » هل هو متصل بما قبله من الكلام او منفصل منه ، فقال قتادة هو منفصل وقال لما ترك القوم أمر الله ،وقتلوا رسله وكذبوا بآياته ونقضوا ميثاقه طبع الله على قلوبهم بكفرهم ، ولعنهم وقال قوم : بل هو متصل بما قبله . قالوا : معناه فأخذتهم الصاعقة بظلمهم بنقضهم ميثاقهم ، وبكفرهم بايات الله ، وبقتلهم الأنبياء بغير حق ، وبكذا وكذا أخذتهم الصاعقة ، فتبع الكلام بعضه بعضا . ومعناه مردود على أوله ، وجوابه قوله «فبظلم» من الذين قالوا الزجاج هو بدل من قوله : « فبما نقضهم » واختار الطبري الاول ، وأنه منفصل من معنى ما قبله والمعنى . فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بايات الله وبكذا وكذا لعناهم ، وغضبنا عليهم ، فترك ذكر لعناهم لدلالة قوله : « بل طبع الله عليها بكفرهم » على معنى ذلك من حيث كان من طبع على قلبه ، فقد لعن وسخط عليه قال : وانما قلنا ذلك ، لأن الذين اخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى ، الذين قتلوا الانبياء ، والذين رموا مريم بالبهتان العظيم ، وقالوا قتلنا عيسى ، كانوا بعد موسى بدهر طويل ، ومعلوم أن الذين اخذتهم الصاعقة لم تأخذهم عقوبة على رميهم مريم بالبهتان ، ولا لقولهم : أنا قتلنا المسيح فبان بذلك أن الذين قالوا هذه المقالة غير الذين عوقبوا بالصاعقة .

وقوله : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما » معناه وبكفر هؤلاء الذين وصفهم ، وقولهم على مريم بهتاناً يعني رميهم لها بالزنا ، وهو البهتان وبفريتهم عليها ، لأنهم رموها وهي بريئة بغير بينة ولا برهان به بل هتوها بباطل القول . وهو قول ابن عباس والسدي والضحاك .

قوله تعالى :

﴿ وقولهم انا قَتلنـا المسيح عيسى بن مَريَم رَسُولَ اللهِ وما قَتلوهُ وما صَلبوهُ ولكن شُبِّه لَهم وَانَّ الذينَ اختلَفوا فيهِ لَفي شَكٍّ منه ما لَهم بِهِ مِن عـِلمٍ الا اتباعَ الظنِّ وما قَتلوهُ يَقيناً بَل رَفَعهُ اللهُ اليه وَكانَ اللهُ عَزيزاً حكيماً ﴾ (١٥٧) آية .

[المعنى] :

هـذه الآية عطف على ما قبلها وتقديره ، فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بايات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم : قلوبنا غلف وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، أنزلنا من العذاب ، وأوجبنا لهم من العقاب ، لان اخبارهم انهم قتلوا المسيح يقينـاً ، وما قتلوه ، كفر من حيث هو جرأة على الله في قتل أنبيـائه ، ومن دلت المعجزات على صدقه ، ثم كذبهم الله في قولهم : إنا قتلناه فقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

واختلفوا في كيفية التشبيه الذي شبه لليهود في أمر عيسى فقال وهب بن منبه : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فاحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صيرهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم سحرتمونا ليبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً ، فقال عيسى لاصحابه : من يشري نفسه منكم اليوم بالجنـة ، فقال رجل منهم : انا ، فخرج اليهم فقال : أنا عيسى ، وقد صيره الله على صورة عيسى ، فاخذوه وقتلوه ، وصلبوه . فمن ثم شبه لهم ، وظنوا انهم قد قتلوا عيسى ، وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ، ورفع الله عيسى من يومه ذلك . وبه قال قتادة والسدي وابن اسحاق ومجاهد وابن جريج ، وان اختلفوا في عـدد الحواريين ، ولم يذكر احـد غير وهب ان شبهه ألقي على جميعهم ، بل قالوا : ألقي شبهه على

واحد ، ورفع عيسى من بينهم قال ابن اسحاق : وكان اسم الذي القي عليه شبهه سرجس ، وكان احد الحواريين ، ويقال : إن الذي دلهم عليه وقال هذا عيسى أحد الحواريين أخذ على ذلك ثلاثين درهما ، وكان منافقاً ، ثم انه ندم على ذلك فاختنق حتى قتل نفسه ، وكان اسمه بودس زكريا بوطا ، وهو ملعون في النصارى، وبعض النصارى يقول : إن بودس زكريا بوطا هو الذي شبه لهم فصلبوه ، وهو يقول : لست بصاحبكم الذي دللتكم عليه . قال الطبري : الاقوى قول ابن المنبه ، وهو ان سبعة عشر القي على جماعتهم شبه عيسى ، لانه لو كان ألقي على واحد منهم مع قول عيسى ايكم يلقى عليه شبهي وله الجنة ، ثم رأوا عيسى قد رفع من بين أيديهم لما اشتبه عليهم ، وما اختلفوا فيه ، وان جاز أن يشتبه على أعدائهم من اليهود الذين لم يكونوا يعرفونه ، لكن لما ألقي شبهه على جميعهم ، فكان يرى كل واحد بصورة عيسى ، فلماقتل واحد منهم اشتبه الحال عليهم . وهذا الذي ذكره قريب . وقال الجبائي : وجه التشبيه ان رؤساء اليهود اخذوا إنساناً فقتلوه وصلبوه على موضع عال ، ولم يمكنوا احداً من الدنو منه فتغيرت حليته وتنكرت صورته . وقالوا : قتلنا عيسى ، ايوهموا بذلك على عوامهم ، لانهم كانوا احاطوا بالبيت الذي فيه عيسى فلمادخلوه كان رفع عيسى من بينهم ، فخافوا أن يكون ذلك سبب إيمان اليهود به ، ففعلوا ذلك . والذين اختلفوا غير الذين صلبوا من صلبوه ، وهم باقي اليهود ، فان قيل : هل يجوز أن يلقي الله شبه زيد على عمر حتى لا يفصل الناظر اليهما بينهما ، كما كان يفصل قبل القاء الشبه ؟ قيل : ذلك مقدور لله بلا خلاف ، ويجوز ان يفعله عندنا تغليظاً للمحنة ، وتشديداً للتكليف ، وان كان ذلك خارقاً للعادة ، يجوز أن يجعل ذلك معجزة أو كرامة ، لبعض اوليائه الصالحين ، أو الأئمة المعصومين (ع) . وعند المعتزلة لايجوز ذلك الا على يدي الانبياء أو في وقتهم ، لانه لايجوز خرق العادة عنهم إلا على يده . وقد قيل : إن اصحاب عيسى (ع) تفرقوا عنه حتى لم يبق غير عيسى ، وغير الذي القي شبهه عليه ، فلذلك

اشتبه على النصارى ، فان قيل : كيف يجوز من الخلق العظيم ان يخبروا بالشيء على خلاف ما هو به ، وقد علمنا كثرة اليهود والنصارى ، ومع كثرتهم اخبروا ان عيسى صلب وقتل ، فكيف يجوز ان يكونوا مع كثرتهم كذابين ؟ ولئن جاز هذا لم نثق بشيء من الاخبار اصلا ويؤدي ذلك إلى قول السمنية ! قلنا : هؤلاء القوم دخلت عليهم الشبهة ، لان اليهود لم يكونوا يعرفون عيسى ، وانما اخبروا انهم قتلوا واحداً ، وقيل لهم انه عيسى ، فهم في ذلك صادقون ، وان لم يكن المقتول عيسى . وأما النصارى فاشتبه عليهم ، لانه كان ألقي شبهه على غيره ، فلما رأوا من هو في صورته مقتولا ، ظنوا انه عيسى ، فلم يخبر احد من الفريقين بما ظن ان الامر على ما اخبر به ، فلا يؤدي ذلك الى بطلان الاخبار بحال .

وقوله : « وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً » يعني به الذين أحاطوا بعيسى واصحابه حيث أرادوا قتله لأنهم كانوا قد عرفوا عدة من في البيت ، فلما دخلوا عليهم فقدوا واحداً منهم ، فالتبس عليهم أمر عيسى بفقدهم واحداً من العدة ، وقتلوا من قتلوا على شك منهم في أمر عيسى . هذا على قول من قال : لم يتفرق أصحابه حتى دخل عليهم اليهود واما من قال تفرقوا عنه ، فانه يقول : اختلافهم كان بأن عيسى هل كان في من بقي في البيت أو كان في الذين خرجوا . فاشتبه الامر عليهم . قال الزجاج : وجه اختلاف النصارى أن منهم من ادعى انه اله لا يقتل ، ومنهم من قال قتل ، فكذب الله الجميع . وقوله : « إلا اتباع الظن » استثناء منقطع . وتقديره لم يكن لهم بمن قتلوه علم لكنهم اتبعوه ظناً منهم انه عيسى ، ولم يكن به .

وقوله : « وما قتلوه يقيناً » معناه وما قتلوا ظنهم الذي اتبعوا المقتول الذي قتلوه ، وهم يحسبونه عيسى يقيناً إنه عيسى ، ولا انه غيره ، لكنهم كانوا منه على ظن وشبهة ، كما يقول القائل : ما قتلت هذا الامر علما ، وما قتلته يقيناً : إذا تكلم فيه بالظن على غير يقين . فالهاء في (قتلوه) عائدة على الظن . وقال ابن عباس وجويبر

وما قتلوا ظنهم يقيناً . وحكي الزجاج عن قومهم : أن الها، راجعة إلى عيسى (ع) . نفى الله عنه القتل على وجه التحقيق واليقين . وقال السدي : وما قتلوا أمره يقينا إن الرجل هو عيسى (ع) وقوله : « بل رفعه الله اليه » يعني بل رفع الله المسيح اليه ، ولم يقتلوه ، ولم يصلبوه ، لكن الله رفعه وطهره من الذين كفروا وقوله : « كان الله عزيزاً حكيما » معناه لم يزل الله عزيزاً منتقما من اعدائه كانتقامه من الذين اخذتهم الصاعقة بظلمهم ، وكلعنه من نقض ميثاقه وفعل ما قصه الله ، حكيما في افعاله وتدبيراته وتصريفه خلقه في قضائه ، واحذروا أيها السائلون محمداً ان ينزل عليكم كتابا من السماء ـ حلول عقوبته بكم ، كما حل باوائلكم الذين فعلوا فعلكم في تكذيبهم رسلي وأفترائهم على اوليائي . وبه قال ابن عباس .

وقوله : « بل رفعه الله » .

[القراءة والحجة] :

في القراء من ادغم اللام في الراء وعليه الاكثر . وهو الأقوى لقرب مخرج اللام من مخرج الراء . وهو أقوى من ادغام الراء في اللام ، لان في الراء تكويراً فهو يجري مجرى الحرفين . ومن لم يدغم قال : لأنه من كلمتين . وقال الفراء : لا يجوز غير الادغام . وقال سيبويه : الادغام اجود وتركه جائز وهي لغة حجازية .

وقوله : « بل رفعه الله اليه » معناه انه رفعه إلى الموضع الذي يختص الله (تعالى) بالملك ، ولم يملك احداً منه شيئا . وهو السماء ، لانه لا يجوز ان يكون المراد انه رفعه إلى مكان هو (تعالى) ، فيه لان ذلك من صفات الاجسام (تعالى الله عن ذلك) وعلى هذا يحمل قوله حكاية عن ابراهيم « إني ذاهب الى ربي » يعني الى الموضع الذي امرني به ربي ومثل قوله : « ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله » يعني مهاجراً الى الموضع الذي أمره الله بالهجرة اليه .

قوله تعالى :

﴿ وَان مِن اهلِ الـكتابِ الا لَيُؤمننّ به قَبلَ موته وَيَومَ القيامَة يَكونُ عَليهم شَهيداً ﴾ (١٥٨) آية .

معنى (ان) معنى (ما) النافية وموضعها الرفع وهي مثل قوله : « وإن منكم إلا واردها » أي ما منكم احدإلا واردها . ومعنى الآية الاخبار منه (تعالى) بأنه إلا ليؤمنن به يعني بعيسى قبل موته واختلفوا في الهاء إلى من ترجع فقال قوم : هي كناية عن عيسى ، كانه قال : لا يبق احد من اليهود الا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى بأن ينزله الله إلى الارض إذا اخرج المهـدي (عج) وانزله الله لقتل الدجال ، فتصير الملل كلها ملة واحـدة وهي ملة الاسلام الحنيفية دين ابراهيم (ع) . ذهب اليه ابن عباس وأبو مالك والحسن وقتادة ، وابن زيد وذلك حين لا ينفعهم الايمان . واختاره الطبري . قال : والآية خاصة لمن يكون في ذلك الزمان وهو الذي ذكره علي بن ابراهيم في تفسير أصحابنا . وروى شهر بن حوشب عن محمد بن علي بن الحنفية ان الحجاج سأله عن هذه الآية وقال : نرى اليهود تضرب رقبته ، فـلا يتكلم بشيء فقال : حدثني محمد بن علي أن الله يبعث اليه ملكا ينفضه ويضرب رأسه ودبره ، ويقول له : كذبت عيسى ، فيؤمن حينئذ ويقول : كذبت عيسى ويعترف به . فقال الحجاج : عمن ؟ فقال : عن محمد بن علي فقال له ، جئت بها من عين صافية . فقيل لشهر ما أردت بذلك ؟ قال : اردت ان اغيظه وذكره البلخي مثل ذلك وضعف هذا الوجه الزجاج وقال : الذين يبقون إلى زمن نزول عيسى (ع) من أهل الكتاب قليل . والآية تقتضي عموم إيمان أهل الكتاب أجمع قال : إلا ان تحمل على ان جميعهم يقول : ان عيسى الذي ينزل لقتل الدجال نحن نؤمن به فعلى هذا يجوز . واختار الوجه الثاني وقال قوم : الهاء كناية عن الكتابي ، وتقديره أنه لا يكون احد من أهل الكتاب يخرج من دار الدنيا إلا ويؤمن بعيسى عند

موته إذا زال تكليفه ، وتحقق الموت ، ولكن لا ينفعه الايمان حينئذ ذهب اليه ابن عباس في رواية أخرى ، ومجاهد . قال ابن عباس : لو ضربت رقبته لم تخرج نفسه حتى يؤمن . وبه قال عكرمة والضحاك . وفي رواية عن الحسن وقتادة وقال قوم : الهاء كناية عن محمد (ص) والتقدير وليس من أهل الكتاب إلا من يؤمن بمحمد (ص) قبل موت الكتابي ذهب اليه عكرمة وطعن الطبري على هذا الوجه بان قال : لو كان ذلك صحيحاً لما جاز اجزاء احكام الكفار عليهم إذا ماتوا من ترك الصلاة عليهم . ومنع المدافنة والموارثة . وغير ذلك . ووجب اجراء حكم الاسلام عليهم . وهذا الذي ذكره ليس بشيء لان ايمانهم بمحمد (ص) انما يكون في حال زوال التكليف ، فلا حكم لذلك الايمان . وذلك مثل إيمان فرعون حين غرق وقال : « امنت انه لا اله إلا الذي امنت به بنو اسرائيل » فقال الله تعالى له : « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » فكذلك إيمان هؤلاء لا يعتد به ، وانما يضعف هذا الجواب من حيث انه لم يجر لمحمد (ص) ذكر فيما تقدم ، ولا هاهنا ضرورة موجبة لرد الكناية عليه . وما هذه صورته لا تجوز الكناية عنه . وانما قلناه في قوله : حتى توارت بالحجاب إنها كناية عن الشمس للضرورة ، لانه يتحمل سواها . وقد جرى ذكر عيسى والكتابي فأمكن ان يكون كناية عن كل واحد منهما ، فلا يجوز العدول عنه . وقوله : « ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » قال قتادة وابن جريج : يكون عيسى عليهم شهيداً على أنه قد بلغ رسالة ربه ، واقر على نفسه بالعبودية مكذباً من كذبه ومصدقاً من صدقه .

قوله تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (١٥٩) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً

اليماً ﴾ (١٦٠) آيتان ـ هاتان الآيتان معطوفتان على ما تقدم .

قال الزجاج : قوله : « فبظلم » بدل من قوله : « فبما نقضهم ميثاقهم » والعامل في الباء قوله : « حرمنا عليهم طيبات » لما طال الكلام أجمل (تعالى) ما ذكره هاهنا في قوله : فبظلم واخبر انه حرم على اليهود الذين نقضوا ميثاقهم الذين واثقوا الله عليه ، وكفروا باياته ، وقتلوا أنبياءه ، وقالوا البهتان على مريم وفعلوا ما فعلوا مما وصفه الله في كتابه طيبات من المأكل وغيرها ، وكانت لهم حلالا ، عقوبة لهم بظلمهم الذي أخبر الله عنه لانهم لما فعلوا ما فعلوا ، اقتضت المصلحة تحريم هذه الاشياء عليهم . وهو قول مجاهد واكثر المفسرين . وقوله : « وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » يعني بمنعهم عباد الله عن دينه وسبيله التي شرعها لعباده صداً كثيراً ، وكان صدهم عن سبيل الله بقولهم على الله الباطل ، وادعاؤهم ان ذلك عن الله ، وتبديلهم كتاب الله وتحريفهم معانيه عن وجوهه . ومن أعظم ذلك جحدهم نبوة محمد (ص) وتركهم بيان ما قد عملوا من أمره من جهل امره من الناس . وهو قول مجاهدوغيره . وقوله : « وأخذهم الربا » يعني على رؤوس أموالهم بتأخيرهم له عن محله إلي محل آخر وقد نهوا عنه يعني عن الربا ، وأكلهم اموال الناس بالباطل يعني بغيراستحقاق ، ولا استيجاب . وهو ما كانوا يأخذونه من الرشا على الاحكام ، كما قال تعالي : « واكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون » ومنه ما كانوا يأخذونه من اثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بايديهم ، ويقولون هذا من عند الله ، وما اشبه ذلك من المآكل الخسيسة الخبيثة ، فعاقبهم الله تعالى على جميع ذلك بتحريم ما حرم عليهم من الطيبات . وقوله : « واعتدنا للكافرين منهم عذاباً » معناه وجعلنا للظالمين أنفسهم بكفرهم بالله ، وجحدهم رسوله محمد (صلى الله عليه وآله) من هؤلاء اليهود العذاب الاليم . وهو المؤلم الموجع يصلونها في الاخرة عدة لهم . قال ابو علي : حرم الله (تعالي) هذه الطيبات على الظالمين منهم عقوبة لهم على ظلمهم ومن لم يكن ظالماً منهم نسخه منهم اما على لسان عيسى أو على لسان محمد (ص)

نبينا وهو ما حرمه من كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير ، وغيرذلك مما ذكره في قوله : « وعلى الذين هاد واحرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلى قوله . . . ذلك خزيناهم ببغيهم » فهذا البغي هو الظلم الذي ذكره هاهنا .

قوله تعالى :

﴿ لَـكِن الراسـخونَ في العِـلمِ منـهم وَالمؤمنونَ يؤمنونَ بِما أُنزِلَ اليكَ وَما أُنزِلَ مِن قَبلكَ وَالمُقيمينَ الصلاة وَالمؤمنونَ باللهِ وَاليومِ الآخرِ اولئكَ سَنُؤتيهم اجراً عظيماً ﴾ (١٦١) آية .

استثنى الله تعالى من اليهود الذين وصف صفتهم فيما مضى من الآيات في قوله : يسألك أهـل الكتاب إلى ماهنا من هداه الله لدينه ، ووفقه لرشده فقال : « لكن الراسخون » وهم الذين رسخوا في العلم وثبتوا فيه . وقـد مضى معنى الرسوخ فيما مضى في العلم الذي جاء به الانبياء ، واحكام الله التي ادوها إلى عباده ، والمؤمنون بالله ورسوله منهم يؤمنون بالقرآن الذي أنزله الله اليك يامحمد (ص) وبالكتب التي انزلها على من قبلك من الانبياء ، والرسل ، ولا يسألونك ما يسأل هؤلاء الجهال من انزال كتاب من السماء ، لانهم قـد علموا صدق قولك بما قرأوا من الكتب التي انزلها على الانبياء ، ووصفك فيها وأنه يجب عليهم اتباعك ، فلا حاجة بهم إلى ان يسألوك معجزة اخرى ، ولا دلالة غير ما علموا من امرك بالعلم الراسخ في قلوبهم وهو قول قتادة والمفسرين . وقوله : « والمقيمين الصلاة » اختلفوا هل هم الراسخون في العلم أو غيرهم ؟ فقال قوم : هم هم . واختلف هؤلاء في إعرابه ومخالفته لاعراب الراسخين فقال قوم منهم : هو غلط من الكتب وانما هو ، لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون والمقيمون الصلاة ذكر ذلك حماد بن سلمة عن الزبير . قال : قلت لابان بن عثمان بن عفان : ما شانها كتبت لكن الراسخون في العلم

منهم والمؤمنون والمقيمين الصلاة فقال : قال : إن الكاتب لما كتب لكن الراسخون في العلم منهم إلى قوله : من قبلك قال : ما اكتب ؟ قيل له : اكتب والمقيمين الصلاة . وروى عروة بن الزبير قال : سألت عائشة عن قوله : « والمقيمين الصلاة » ، وعن قوله : « والصابئون » وعن قوله : « ان هذان » فقالت : يابن اخي هـذا عمل الكتاب أخطأوا في الكتابة وفي مصحف ابن مسعود (والمقيمون الصلوة) وقال الفراء أو الزجاج وغيرهما من النحويين : هو من صفة الراسخين ، لكن لما طال ، واعترض بينهما كلام نصب المقيمين على المدح وذلك سائغ في اللغة كما قال في ألايات التي تلوناها ، وفي قوله : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء » وقال اخرون : هو من صفة الراسخين في العلم هاهنـا ، وان كان الراسخون في العلم من المقيمين . قالوا : وموضع (المقيمين) خفض عطفاً على ما في قوله : يؤمنون بمـا أنزل اليك وما انزل من قبلك ، ويؤمنون بالمقيمين الصلاة . والمعنى يؤمنون باقام الصلاة وقوله : والمؤتون الزكاة . قالوا : عطف على قوله : « والمؤمنون » وقال آخرون المقيمون الصلاة هم الملائكة . واقامتهم للصلاة تسبيحهم ربهم ، واستغفارهم لمن في الارض . ومعنى الكلام والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزله من قبلك ، وبالملائكة . واختاره الطبري . قال لانه في قراءة أبي كذلك ، وكذلك هو في مصحفه . فلما وافق مصحفه لمصحفنا دلك على انه ليس بغلط . وقال اخرون : المعنى المؤمنون يؤمنون بما انزل اليك ، وما انزل من قبلك ، ويؤمنون بالمقيمين الصلاة ، وهم الائمة المعصومون ، والمؤتون الزكاة ، كما قال : يؤمن بالله ، ويؤمن للمؤمنين . وانكروا النصب على المدح . قالوا : وانما يجوز ذلك بعـد تمام خبره قالوا وخبر الراسخين قوله : « اولئك سنؤتيهم اجراً عظيما » فلا يجوز نصب المؤمنين على المدح في وسط الكلام قبل تمام الخبر . واختار الزجاج ذلك . قال : يجوز أن تقول مررت بزيد كريم . بالجر والنصب والرفع : النصب على المـدح ، والخفض على الصفة ، والرفع على تقدير هو الكريم . وانشد في النصب على المدح

بيت خرنق :

لا يبعـــدن قومي الذين		هم سم العداة وافة الجزر
النازلـين بكل معـترك		والطيبون معاقد الازر

على معنى اذكر النازلين وهم الطيبون . ولو نصب لكان جائزاً . وقال قوم المعنى لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلاة قالوا فموضعه خفض . وقال: قوم : المعنى يؤمنون بما أنزل . اليك وإلى المقيمين الصلاة وهذان الوجهان الأخيران ضعيفان عند النحويين ، لانه لا يكاد يعطف ظاهر على مكنى .

قوله : « اولئك سنؤتيهم اجراً عظيما » إشارة الى هؤلاء الذين وصفهم الله فاخبر أنه سيعطيهم أجراً أي ثواباً ، وجزاء على ما كان منهم من طاعة الله واتباع أمره من الخلود في الجنة . وقيل من جملة الراسخين : عبد الله بن سلام وابن يامين وابن صوريا ، واسد وثعلبة ، وسلام وغيرهم من علماء اليهود الذين آمنوا بالنبي (ص) .

قوله تعالى :

﴿ إنا أوحينـا اليكَ كما أوحينا الى نوحٍ والنبيينَ مِـنْ بَعـدهِ وَاوحينا الى ابراهيمَ واسماعيلَ وَاسحقَ وَيعقوبَ وَالاسباطِ وَعيسى وَايوبَ وَيونسَ وَهارونَ وَسليمانَ وَاتينا داوُدَ زَبوراً ﴾ (١٦٢) آية .

[القراءة والحجة] :

قرأ حمزة وخلف (زبوراً) بضم الزاي . الباقون بفتحها حيث وقعت من ضم الزاي احتمل ذلك وجهين : احدهما أن يكون جمع زبر ، فاوقع على المزبور الزبر . كما قيل : ضرب الامير ونسج اليمن . كما يسمى المكتوب الكتاب ، ثم جمع الزبر على زبور لوقوعه موقع الاسماء التي ليست مصادر ، كما يجمع الكتاب كتب ، فلما استعمل استعمال الأسماء ، قالوا : زبور والوجه الآخر ان يكون جمع زبور بحذف الزيادة على زبور ، كما قالوا : ظريف وظروف ، وكروان وكروان ، وورشان

وورشان ونحو ذلـك مما يجمع بحذف الزيادة يدل على قوة هـذا ان التكسير مثل التصغير . وقد اطرد هـــذا الحذف في ترخيم التصغير نحو ازهرو زهير ، وحارث وحريث وثابت وثبيت والجمع مثله في القياس ، وإن كان اقل منه في الاستعمال ، ومن فتح الزاي أراد الكتاب المنزل على داود (ع) كما سمى المنزل على موسى التوراة ، والمنزل على عيسى الانجيل ، والمنزل على محمد (ص) الفرقان .

[المعنى] :

قال الحسين بن علي المغربي : زبور جمع زبور ومثله تخوم وتخوم وعذوب وعذوب قال : ولا يجمع فعول - بفتح الفاء - على فعول - بضم الفاء - إلا هذه الثلاثة فيما عرفنا . والزبر احـكام العمل في البئر خاصة يقال : بئر مزبورة : اذا كانت مطوية بالحجارة . ويقال : ما لفلان زبر اي عقل . وزبر الحديد : قطعة واحـدها زبرة . ويقول زبرت الكتاب ازبره زبراً مثل اذبره ذبراً - بالذال المعجمة - .

[المعنى] :

هذا خطاب من الله للنبي (ص) يقول الله : إنا اوحينا إليك يا محمد أي ارسلنا اليك رسلنا بالنبوة كما أرسلنا إلى نوح وسائر الانبياء الذين سميناهم لك من بعد والذين لم نسمهم لـك . وقيل : إن هذه الآية نزلت على النبي (ص) لان بعض اليهود لمـا فضحهم الله بالآيات - التي انزلها على رسوله (ص) من عند قوله : « يسألك أهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء ، وما بعده » فتلا ذلك عليهم رسول الله ، قالوا : ما انزل الله على بشر من شيء بعد موسى ، فأنزل الله هـــذه الآيات تكذيباً لهم ، واخبر نبيه والمؤمنين بها انه قد انزل على من بعد موسى من الذين سماهم في هذه الآية وعلى من لم يسمهم وهو قول ابن عباس . وقال آخرون بل قالوا لما انزل الله الايات التي قبل هـذه في ذكرهم : ما انزل الله على بشر من

شيء ، ولا على عيسى . ذهب اليه محمد بن كعب القرطي وفيم نزل قوله : « وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء » والاسباط في ولد اسحاق كالقبائل في اولاد اسماعيل . وقد بعث منهم عدة رسل : كيوسف وداود وسليمان ، وموسى وعيسى ، فيجوز أن يكون أراد بالوحي اليهم الوحي إلى الانبياء منهم ، كما تقول : أرسلت الى بني تميم ، وإن ارسلت إلى وجوههم وليس يصح عندنا ان الاسباط الذين هم اخوة يوسف ، كانوا انبياء .

قوله تعالى :

﴿ وَرُسُلاً قَـد قَصَصناهُمْ عَليكَ مِن قَبلُ وَرُسُلاً لم نَقصصهم عَليكَ وَكَلمَ اللهُ مُوسى تَكليما ﴾ (١٦٤) آية بلا خلاف .

[الاعراب والمعنى] :

يحتمل نصب (ورسلا) امرين :

احدها ـ على قول الفراء ـ انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح ، والى رسل قد قصصناهم عليك ، ورسل لم نقصصهم عليك . فلما حذف الى نصب رسلا . وقال الزجاج : تقديره انه لما قال : « إنا اوحينا » كان معناه ارسلناك رسولا عطف على ذلك ، فقال : ورسلا . وتقديره وارسلنا رسلا ، فعطف الرسل على معنى الاسماء قبلها في الاعراب كما قال الشاعر :

أوحيت بالخبز له ميسرا والبيض مطبوخاً معاً والسكرا
لم يرضه ذلك حتى يشكرا

والوجه الثاني ـ أن يكون نصباً بفعل يفسره ما بعده ، ويتلوه ، وهو اختيار الزجاج . وتقديره وقصصنا عليك رسلا قد قصصناهم عليك ، كما قال : « والظالمين اعدلهم » والتقدير واعد للظالمين اعد لهم عذاباً اليما .

وقرأ ابي ورسل ـ بالرفع ـ لما كان في الفعل عائد اليهم ، وهو قوله :

« وقد قصصنا هم عليك » وقوله :

« وكلم الله موسى تكليما » نصب تكليما على المصدر وفائدة وكلم الله موسى بلا واسطة خصوصاً من بين سائر الانبياء كلهم الله بواسطة الوحي وقيل : إنما قال ذلك ، ليعلم ، ان كلام الله من جنس هذا المعقول الذي يشقق من التكلم على خلاف ما يقول المبطلون . وقيل انما اتى بالمصدر تاكيداً . وقيل : إنما أراد بذلك تعظيم كلامه ، كانه قال : كلم الله موسى تكليما شريفا كما قال : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » يريد بذلك تعظيم ما غشيهم من الاهوال .

فاما قول من قال : إن الله كلم موسى باللغات كلها التي لم يفهمها ، فلما كان آخر شيء كلمه بكلام فهمه ، فان ذلك لا يجوز عليه تعالى ، لان خطاب من لا يفهم خطابه عبث يجري مجرى قبح خطاب العربي بالزنجية ، والله (يتعالى عن ذلك) قال البلخي : وفي الآية دلالة على أن كلام الله محدث من حيث انه كلم موسى خاصة دون غيره من الانبياء ، وكلمه في وقت دون وقت ، ولو كان الكلام قديماً ومن صفات ذاته لم يكن في ذلك اختصاص ومن فصل بين التكليم والتكلم ، فقد ابعد لان المكلم لغيره لا يكون الامتكلما ، وإن كان يجوز ان يكون متكلما وان لم يكن مكلما فالمكلم يجمع الامرين .

قوله تعالى :

﴿ رُسُلاً مُبشرينَ وَمُنذرينَ لِئلا يَكونَ للناسِ عَلى اللهِ حجة ، بَعدَ الرُسُلِ وَكانَ اللهُ عَزيزاً حَكيما ﴾ (١٦٥) آية بلا خلاف .

نصب (رسلا) على القطع من اسماء الانبياء الذين ذكر اسماءهم (مبشرين) نصب على الحال . والتقدير أرسلت هؤلاء الانبياء رسلا إلى خلقي وعبادي مبشرين بثوابي من اطاعني وصدق رسلي (ومنذرين) يعني مخوفين من عقابي من عصاني وخالف أمري ، وكذب رسلي « لئلا تكون للناس على الله حجة بعد الرسل » وقال

ابو علي : ذلك مخصوص بمن علم الله من حاله أن له في بعثه الانبياء لطفاً ، لانه إذا كان كذلك متى لم يبعث اليهم نبياً يعرفهم ما فيه لطفهم ، كان في ذلك اتم الحجة عليه (تعالى) وذلك يفسد قول من قال : في مقدوره من الاطف مالو فعله بالكافر لآمن به ، لانه لو كان الامر على ما قالوه ، لكانت لهم الحجة بذلك على الله (تعالى) قائمة . فاما من لم يعلم من حاله ان له في انفاذ الرسل اليه لطفاً ، فالحجة قائمة عليه بالعقل ، وأدلته على توحيده ، وصفاته وعدله ، ولو لم تقم الحجة بالعقل ولا قامت إلا بانفاذ الرسل ، لفسد ذلك من وجهين :

أحدهما ـ ان صدق الرسل لا يمكن العلم به الا بعد تقدم العلم بالتوحيد والعدل فان كانت الحجة ، لم تقم عليه بالعقل فكيف الطريق له إلى معرفة النبي (ص) وصدقه .

والثاني ـ انه لو كانت الحجة لا تقوم الا بالرسول لا حتاج الرسول أيضاً إلى رسول آخر حتى تقوم عليه الحجة . والكلام في رسوله كالكلام في هذا الرسول ويؤدي ذلك إلى مالا يتناهى . وذلك فاسد فمن استدل بهذه الآية على ان التكليف ، لا يصح بحال الا بعد انفاذ الرسل ، فقد ابعد على ما قلناه . وقوله : « وكان الله عزيزاً حكيما » معناه انه مقتدر على الانتقام ممن يعصيه ويكفر به لا يمنعه منه مانع لعزته حكيم فيما امر به خلقه وفي جميع افعاله .

قوله تعالى :

﴿ لٰكِن اللهُ يَشهَدُ بِما أُنزِلَ اليكَ أَنزَلَهُ بِعلمهِ وَالملائكة يَشهدونَ وَكفى باللهِ شَهيداً ﴾ (١٦٦) آية .

قال الزجاج : الرفع مع تخفيف (لكن) والنصب مع تشديده جائز ، لكن لم يقرأ بالتشديد احد .

ومعنى « لكن الله يشهد » أي يبين ما تشهد به ويعلم مع ابانته انه حق .

« والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً » دخلت الباء مؤكدة . والمعنى اكتفوا بالله في شهادته والمعنى في الآية ان هؤلاء اليهود الذين سألوك ان ينزل عليهم كتابا من السماء وقالوا لك ما أنزل الله على بشر من شيء ، قد كذبوا ليس الامر كما قالوا ، لكن الله يشهد بتنزيل ما انزله اليك من كتابه ووحيه انزل ذلك إليك ، وهو عالم بانك خيرته من خلقه وصفوته من عباده يشهد لك بذلك ملائكته ، فلا يحزنك تكذيب من كذبك ، وخلاف من خالفك « وكفاك بالله شهيداً » أي حسبك بالله شاهداً على صدقك ، دون ما سواه . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في جماعة من اليهود كان النبي (ص) دعاهم إلي اتباعه ، واخبرهم أنهم يعلمون حقيقة نبوته فجحدوا نبوته ، وانكروا معرفته ، فأنزل الله فيهم هـــذه الآية تسلية للنبي (ص) وتعزية له عن تكذيب من كذبه . ومن استدل بهذه الآية على انه تعالى عالم بعلم ، فقد اخطأ لان ، قوله بعلمه معناه ، وهو عالم به . ولو كان المراد بذلك ذاتا اخرى ، لوجب أن يكون العلم آلة في الانزال ، كما يقولون كتبت بالقلم ، وقطعت بالسكين ، ونجرت بالفاس . ولا خلاف ان العلم ليس بآلة في الانزال . وقال الزجاج معناه إنزال القرآن الذي علمه فيه . وهو اختيار الازهري .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الذينَ كفروا وَصَدُّوا عَنْ سَبيلِ اللهِ قَد ضَلوا ضَلالاً بعيداً ﴾ (١٦٧) آية

المعنى :

ان الذين جحدوا نبوتك بعـــد علمهم بها من أهل الكتاب الذين ذكر قصتهم ، وانكروا ان الله تعالى أوحى اليك وانزل كتابه عليك ، وصدوا عن سبيل الله يعني عن الدين الذي بعثك به الي خلقه . وهو الاسلام بقولهم للذين يسألونهم

عن صحة نبوتك ما نجد صفة محمد (ص) في كتبنا ، وادعاؤهم عهد إليهم ان النبوة لاتكون إلا في ولد هارون . ومن ذرية داود ، وما اشبه ذلك فقد ضلوا ضلالا بعيداً يعني جاروا عن قصد الطريق جوراً شديداً ، وزالوا عن المحجة التي هي دين الله الذي ارتضاه لعباده وبعثك به الى خلقه زوالا بعيدا ، ابعدوا من الرشاد.

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الذينَ كَفَروا وَظَلموا لَم يَكنِ اللهُ لِيَغفِرَ لَهم وَلا لِيَهدِيَهم طَريقاً (١٦٨) الا طَريقَ جَهنَمَ خالِدينَ فيها أبداً وَكانَ ذلكَ عَلى اللهِ يَسيراً ﴾ (١٦٩) آيتان.

هذا خبر من الله تعالى بان الذين جحدوا رسالة محمد (صلى الله علية وآله) كفروا بالله ، وجحدوه بجحودهم رسالة نبيه وظلموا نبيه بتكذيبهم اياه ، ومقامهم على الكفر على علم منهم بظلمهم عباد الله ، وحسداً للعرب ، وبغياً على رسوله « لم يكن ليغفر لهم » يعني لم يكن الله ليعفو عن ذنوبهم بترك عقابهم عليها ، لكنه تعالى يفضحهم بها (جل ثناؤه) بعقوبته إياهم عليه ، ولا ليهديهم طريقاً يعني لا يهديهم لطريق الجنة ، لان الهداية إلى طريق الايمان قد سبقت ، وقد عمم الله أيضاً بها جميع المكلفين . ويحتمل أن يكون المراد لم يكن الله يفعل بهم ما يؤمنون عنده في المستقبل عقوبة لهم على كفرهم الماضي ، واستحقاقهم حرمان ذلك ، وانه يخذلهم عن ذلك حتى يسلكوا طريق جهنم ، ويكون المعنى لم يكن الله ليوفقهم للاسلام ، لكنه يخذلهم عنه الى طريق جهنم جزاء لهم على مافعلوه من الكفر خالدين فيها مقيمين ابداً « وكان ذلك على الله يسيراً » المعنى وكان تخليد هؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم في جهنم على الله يسيراً ، لانه تعالى إذا أراد ذلك به لم يقدر على الامتناع منه ، ولا يصعب عليه عقاب من يعصيه ، فلذلك كان يسيراً عليه .

قوله تعالى :

﴿ يا أُيها الناسُ قَد جاءَكمُ الرَّسولُ بالحق مِن رَبكم فآمنوا خَيراً لكُم وان تَكفروا فانَّ لِلهِ ما في السماواتِ وَالارضِ وَكانَ اللهُ عَليما حَكيما ﴾ (١٧٠) آية بلا خلاف .

خاطب الله بهذه الآية جميع الكفار الذين لم يؤمنوا بالنبي (ص) من مشركي العرب ، وجميع اصناف الكفار ، وبين انه قد جاءهم الرسول ـ يعني محمد (صلى الله عليه وآله) ـ بالحق من ربكم ـ يعني بالاسلام الذي ارتضاه الله لعباده ديناً من ربكم . يعنى من عند ربكم « فامنوا خيراً لكم » معناه صدقوه وصدقوا ما جاءكم به من عند ربكم من الدين فان الايمان بذلك خير لكم من الكفر « وان تكفروا » اي تجحدوا نبوته وتكذبوا رسالته وبما جاء به من عند الله فان ضرر ذلك يعود عليكم دون الله تعالى الذي له ملك السماوات ، لا ينقص كفركم بما كفرتم به من امره ، وعصيانكم فيما عصيتموه فيه من ملكه وسلطانه شيئاً . « وكان الله عليما » بما انتم صائرون اليه من طاعته أو معصيته « حكيما » في امره اياكم ونهيه عما نهاكم عنه وفي غير ذلك من تدبيره فيكم ، وفي غيركم من خلقه .

[الاعراب] :

واختلفوا في نصب « خيراً لكم » فقال الخليل ، وجميع البصريين : إن ذلك محمول على المعنى ، لانك إذا قلت : انته خيراً لك ، فانت تدفعه عن امر ، وتدخله في غيره ، كانك قلت : انته وات خيراً لك ، وادخل فيما هو خير لك وانشد الخليل وسيبويه قول عمر بن ابي ربيعة :

فواعديه سرحتي مالك او الربا بينهما اسهلا

وتقديره وأتني مكاناً اسهلا وقال الكسائي : انتصب بخروجه من الكلام . قال :

وهـــذا تفعله العرب في الكلام التام ، نحو قولك لتقو من خيراً لك ، وانته خيراً لك ، فاذا كان الكلام ناقصاً ، لم يخبر غير الرفع تقول ان تنته خير لك ، وان تصبروا خير لكم . وقال الفراء انتصب ذلـك لانه متصل بالامر وهو من صفته . الا ترى انك ، تقول : انته هو خير لك ؟ فلما اسقطت هو اتصل بما قبله ، وهو معرفة فانتصب وقال ابو عبيدة : انتصب ذلك على اضمار كان ، كانه قال : فامنوا يكن الايمان خيراً لكم . قال : وكـذلك كل امر ونهي قال الفراء : يلزم على ذلك ما يبطله . ألا ترى انك تقول : اتق الله تكن محسناً ، ولا يجوز ان تقول : اتق الله محسناً باضمار كان ، ولا يصلح ان تقول : انصرنا اخانا ، وانت تريد تكن اخانا . وقال قوم . انتصب ذلك بفعل مضمر اكتفى في ذلك المضمر بقوله : لا تفعل ذلك وافعل صلاحا لك .

قوله تعالى :

﴿ يا أهلَ الـكتابِ لا تَغلوا في دينـكُمْ ولا تَقولوا على اللهِ الا الحقَّ انَّما المسيحُ عيسى بن مَريَمَ رَسُولَ اللهِ وَكَلِمَتُـهُ القاها الى مَريَمَ وَرُوحٌ مِنـهُ فامِنوا باللهِ وَرُسله ولا تَقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لَـكُمْ انَّما اللهُ الهٌ واحدٌ سُبحانَـهُ ان يَكونَ لَه وَلَدٌ لهما في السماواتِ وَما في الارضِ وكَفى باللهِ وَكيلاً ﴾ (١٧١) آية واحدة .

هذا خطاب من الله تعالى لاهل الكتاب الذي هو الانجيل وهم النصارى نهاهم الله (تعالى) ان يغلوا في دينهم بان يجـاوزوا الحق فيه ، ويفرطوا في دينهم ، ولا يقولوا في عيسى غير الحق ، فان قولهم في عيسى أنه ابن الله قول بغير الحق ، لانه (تعالى) لم يتخذ ولداً فيكون عيسى أو غيره من خلقه ابناً له ، ونهاهم أن يقولوا على الله . الا الحق ، وهو الاقرار بتوحيده ، وانه لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد . واصل الغلو في كل شيء تجاوز حده يقال : غلا فلان في الدين يغلو غلواً . وغلا

بالجارية عظمها ولحمها : إذا انسرعت الشباب ، وتجاوزت لذاتها . يغلو بها غلواً وغلاء قال الحارث بن خالد المخزومي :

خمصانة قلق موشحها رود الشباب غلا بها عظم (١)

وقوله : انما المسيح عيسى بن مريم ، فأصل المسيح الممسوح - نقل من مفعول إلى فعيل. سماه الله بذلك لتطهيره إياه من الذنوب ، وقيل مسح من الذنوب والادناس التي تكون في الادميين كما يمسح الشيء من الاذى الذي يكون فيه . وهو قول مجاهد . وقال ابو عبيدة : هذه الكلمة عبرانية أو سريانية مشيحاً ، فعربت فقيل المسيح ، كما عرب سائر أسماء الانبياء في القرآن ، نحو اسماعيل واسحاق وموسى وعيسى . وقال قوم ليس هذا مثل ذلك ، لان اسماعيل واسحاق وما اشبهها اسماء لاصفات . والمسيح صفة ولا يجوز ان تخاطب العرب وغيرها من اجناس الخلق في صفة شيء إلا بما يفهم ، فعلم بذلك انها كلمة عربية وقال ابراهيم : المسيح الصديق واما المسيح الدجال فانه ايضاً بمعنى الممسوح العين صرف من مفعول إلى فعيل فمعنى المسيح في عيسى (ع) الممسوح البدن من الادناس والآثام . ومعنى المسيح في الدجال الممسوح العين اليمنى أو اليسرى كما روى عن النبي (ص) في ذلك . وقوله: رسول الله اخباره منه (تعالى) ان المسيح أرسله الله وجعله نبياً . وقوله : « كلمته القاها الى مريم » فانه يعني بالكلمة الرسالة التي امر الله ملائكته أن يأتي بها بشارة من الله (تعالى) لها التي ذكرت في قوله : « قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه » يعني برسالة منه وبشارة من عنده وقال قتادة والحسن : هو قوله : « كن فكان » واختار الطبري الاول وقال الجبائي : ذلك مجاز ، وانما اراد بالكلمة انهم يهتدون بعيسى ، كما يهتدون بكلامه . وكذلك يحيون به في دينهم كما يحيي الحي بالروح ، فلذلك سماه روحا .

---

(١) - اللسان (غلا) - مجاز القرآن ١ : ١٤٣ وفي الأغاني (نما) بدل (غلا) . خمصانة بفتح الخاء وضمها - ضامرة البطن . رؤد الشباب : شابة حسنة .

وقوله : « القاها الى مريم » فمعناه اعلمها بها وأخبرها كما يقال القيت اليك كلمة حسنة بمعنى أخبرتك بها ، وكلمتك بها . وقال الجبائي : معنى القاها الى مريم خلقه في رحمها .

وقوله : « وروح منه » اختلفوا فيه على ستة اقوال :

فقال قوم : معناه ونفخة منه وسماه روحا ، لانه حدث عن نفخة جبرائيل في درع مريم بامر الله له بذلك ، ونسب الى الله ، لانه كان بامره . وانما سمي النفخ روحا ، لانهـــا ريح تخرج من الروح . واستشهدوا على ذلك قول ذي الرمة ـ واسمه غيلان ـ في صفة نار نفخها .

فلما بدت كفنتها وهي طفلة | بطلساء لم تكمل ذراعا ولا شبراً .
وقلت له :ارفعهـــا اليك واحيها | بروحك واقتتها لها قيتة قدراً
وظاهر لها من يابس الشخت ، واستعن | عليها الصبا واجعل يديك لهاستراً (٢).

معنى احيها بروحك اي بنفخك .

وقال بعضهم : معناه انه كان انساناً باحياء الله اياه بتكوينه بلا واسطة من جماع ، ونطفة على مجرى العادة .

وقال قوم : قوله : « وروح منه » معناه ورحمة منه . كما قال في موضع : « وايدهم بروح منه » ومعناه ورحمة منه . قال : فجعل الله عيسى رحمة على من اتبعه ، وآمن به وصدقه ، لانه هداهم الى سبيل الرشاد .

وقال آخرون : معنى ذلك وروح من الله خلقها فصورها ، ثم أرسلهـا الى مريم ، فدخلت في فيها فصيرها الله تعالى روح عيسى ذهب اليه ابو العالية عن أبي ابن كعب .

---

(١) ـ ديوانه . واللسان (روح) يصف ناراً طلساء خرقة اقتتها . . . : (نفخ بها برفق) الشخت : الدقيق من كل شيء .

وقال بعضهم : ان معنى الروح ـ ها هنا ـ القوة التي كان بها يحيي الموتى قال الراجز :

اذ عرج الليل بروح الشمس

وقال قوم : معنى الروح ها هنا جبرائيل . قالوا : والروح معطوفة به على ما في قوله من ذكر الله تعالى . والمعنى إن القاء الكلمة الى مريم كان من الله تعالى ثم من جبرائيل . وقوله : « فامنوا بالله ورسله » أمرٌ من الله اياهم بتصديق الله تعالى ، والاقرار بوحدانيته ، وتصديق رسله فيما جاؤا به من عند الله ، وفيما اخبرهم به أن الله لا شريك له ، ولا صاحبة ولا ولدا .

وقوله : « ولا تقولوا ثلاثة انتهوا » نهي لهم عن أن يقولوا الارباب ثلاثة ، وانما رفع ثلاثة بمحذوف دلّ عليه ظاهر الكلام . وتقديره ولا تقولوا : هم ثلاثة . وانما جاز ذلك ، لان القول حكاية ومثل ذلك قوله : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم » (١) وكذلك كلما ورد من مرفوع بعد القول لا رافع معه ففيه اضمار اسم رافع لذلك الاسم ، ثم قال متوعداً لهم على عظيم قولهم الذي قالوه في الله : انتهوا أيها القائلون الله ثالث ثلاثة عما تقولون من الزوج والشرك بالله ، والانتهاء عن ذلك خير لكم من قولكم لما لكم عند الله من العقاب العاجل لكم على قولكم ذلك ان أقمتم عليه ، ولم ترجعوا إلى الحق .

ووجه النصب في « انتهوا خير لكم » ما قلناه في قوله آمنوا خيراً لكم ، فلا وجه لاعادته .

وقوله : « انما الله اله واحد » معناه الاخبار من الله (تعالى) ان الذي يحق له العبادة واحد ، لان من كان له ولد ، لا يكون آلهاً وكذلك من كان له صاحبة لا يجوز ان يكون إلهاً معبوداً ، ولكن الله الذي له الالوهية والعبادة إله واحد ، ومعبود واحد لا ولد له ، ولا والد ، ولا صاحبة ، ولا شريك ، ثم نزه تعالى نفسه وعظمها ورفعها عما قاله المبطلون الكافرون فقال : « سبحانه ان يكون

(١) سورة الكهف ، آية ٢٣ .

له ولد » ولفظة سبحان تفيد التنزيه عما لا يليق به من الولد والصاحبة ، لان من يملك ما في السماوات والارض وما بينهما وله التصرف فيهما ، وفيهم عيسى وامه ، وهم عبيده ، وهو رازقهم وخالقهم ، وهم أهل الحاجة إليه والفاقة ، فكيف يكون المسيح ابناً له ، وهو إما في الارض أو في السماء . وهو تعالى يملك جميع ذلك ، ويحتمل أن يكون في موضع نصب لانه يصلح أن يقال عن ان يكون او من ان يكون ، فاذا حذف حرف الجر كانت في موضع نصب . وكان الكسائي يقول هو في موضع خفض . والاول قول الفراء وغيره .

وقوله : « وكفى بالله وكيلا » معناه حسب ما في السموات وما في الارض بالله قيما ومدبراً ، ورازقاً من الحاجة معه إلى غيره ومعنى كفى بالله اكتفوا بالله . وقد شبهت النصارى قولها : انه ثلاثة أقانيم جوهر واحد بقولنا : سراج واحد ، ثم نقول . انه ثلاثة اشياء دهن وقطن ونار وللشمس انها شمس واحدة ، ثم نقول انها جسم وضوء وشعاع . قال البلخي ، وهـــذا غلط ، لانا وان قلنا إنه سراج واحد ، لا نقول هو شيء واحد ، ولا الشمس انها شيء واحد بل نقول هو أشياء على الحقيقة ، كما نقول عشرة واحدة ، وانسان واحد ، ودار واحدة ، وشهر واحد ، وهي اشياء متغايرة . فان قالوا : إن الله شيء واحد حقيقة كما انه إله واحد ، فقولهم بعد ذلك انه ثلاثة مناقضة لا يشبه ما قلناه . وان قالوا : هو اشياء ، وليس بشيء واحـد دخلوا في قول المشبهة ، وتركوا القول بالتوحيد . والعجب أنهم يقولون : إن الأب له ابن والابن لا اب له ، ثم يزعمون ان الذي له ابن هو الذي لا اب له ، ويقولون إن من عبد الانسان ، فقد اخطأ وضل ، ثم يزعمون أن المسيح إله انسان ، وانهم يعبدون المسيح . وقد تكلمنا على ما نعقل من مذاهبهم في الاقانيم والاتحاد والنبوة في كتاب شرح الجمل بما لا مزيد عليه لا نطول بذكره هاهنا .

قوله تعالى :

﴿ لَن يَستنكفَ المسيح ان يكونَ عبداً للهِ وَ الملائكةُ المقرَّبون وَمَن يَستنكف عَن عِبادَتهِ وَيَستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً ﴾ (١٧١) آية .

معنى « لن يستنكف المسيح » لم يأنف . وأصله في اللغة من نكفت الدمع : إذا نحيته باصبعك من خدك . قال الشاعر :

فباتوا فلولا ما تذكر منهم　　من الحلف لم ينكف لعينيك مدمع

فتأويل « لن يستنكف » لن ينقبض ولن يمتنع . فمعنى الآية « لن يستكبر المسيح ان يكون عبداً » بمعنى من ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون . ومعناه ولا يستنكف الملائكة أيضاً ، ولا يأنفون ، ولا يستكبرون من الاقرار لله بالعبودية ، والاذعان له بذلك « المقربون » الذين قربهم ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه . وقال الضحاك : المقربون معناه انه قربهم إلى السماء الثانية . وقوله : « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر » معناه من يأنف من عبادة الله ، ويتعظم عن التذلل والخضوع له ، والطاعة له من جميع خلقه « فسيحشرهم » . ومعناه فسيبعثهم يوم القيام جميعاً يجمعهم لموعدهم عنده . ومعنى إليه إلى الموضع الذي لا يملك التصرف فيه سواه ، كما يقال صار أمر فلان إلى القاضي أي لا يملكه غير القاضي ، ولا يراد بذلك المكان الذي فيه القاضي . واستدل قوم بهذه الآية على ان الملائكة أفضل من الانبياء ، قالوا : لا يجوز أن يقول القائل : لا يأنف الأمير أن يركب الحيّ ولا غلامه . وانما يجوز أن يقال : لا يأنف الوزير أن يركب الحيّ ولا الامير ، فيعطف بعالي الرتبة على الادون ، ولا يعطف بالادون على الاعلى . وهذا الذي ذكروه لادلالة فيه من وجوه :

احدها ـ ان يكون هذا القول متوجهاً إلى قوم اعتقدوا أن الملائكة أفضل من الانبياء ، فاجرى الكلام على اعتقادهم ، كما يقول القائل لغيره : لا يستنكف ابي من

من كذا ، ولا ابوك . وإن كان القائل يعتقد أن اباه أفضل .

الثاني ـ انه لا تفاوت بين الانبياء والملائكة التفاوت البعيد كتفاوت الامير والحارس ، وما يجري مجرى ذلك . ويجوز أن يقدم الفاضل ويؤخر المفضول . ألا ترى أنك تقول : لا يستنكف الامير فلان من كذا ، ولا الامير فلان ؟ وان كان الاول افضل .

والثالث ـ انه اخر ذكر الملائكة ، لان جميع الملائكة اكثر ثواباً لا محالة من المسيح منفرداً فمن اين ان كل واحد منهم افضل من المسيح ، أو غيره من الانبياء ؟

قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (١٧٢) آية .

أخبر الله تعالى في هـذه الاية ووعد ان الذين يقرون بوحدانيته تعالى ، ويعترفون بربوبيته ، ويخضعون لعبادته ؛ ويعملون الاعمال الصالحات التي أمر الله بها ، وبعث بها رسله انه يوفيهم اجورهم . ومعناه يؤتيهم جزاء أعمالهم الصالحة وافياً تاماً ، ويزيدهم من فضله يعني يزيدهم ماكان وعدهم به من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب عليها من الفضل ، والزيادة هو ما لم يعرفهم مبلغه لانه (تعالى) وعد على الحسنة عشر أمثالها من الثواب ، والزيادة على ذلك تفضل من الله عليهم ، وإن كان كل ذلك من فضله إلى عباده . وقـد روي ان الزيادة إلى سبعين ضعفاً وإلى سبعمائة وإلى الفين وكل ذلك جائز على ما يختاره الله ويفعله .

وقوله « وأما الذين استنكفوا واستكبروا » معناه أن الذين يأنفون عن الاقرار بتوحيد الله ، ويتعظمون عن الاعتراف بعبوديته ، والاذعان له بالطاعـة ،

واستكبروا عن التذلـل له ، وتسليم ربوبيته يعذبهم عـذاباً اليا أي مؤلماً موجعاً ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً . وانما رفـع ولا يجدون بالعطف على ما بعدفيعذبهمولو جزم علىموضع ما بعدالفاء ، كان جائزاً يعني ولا يجد المستنكفون والمستكبرون لانفسهم ولياً ينجيهم من عذابه ، وناصراً ينقذهم من عقابه .

قوله تعالى :

﴿ ياأَيُّها الناسُ قد جآءَكم بُرهانٌ مِن رَبِكم وَانزَلنا اليكم نوراً مُبيناً ﴾ (١٧٣) ـ آية بلا خلاف ـ

هذا خطاب من الله (تعالى) لجميع الخلق من الناس المكلفين من سائر اصناف الملل الذين قص قصصهم في هذه السورة من اليهود والنصارى والمشركين « قد جاءكم » يعني أتاكم حجة من الله تبرهن لـكم عن صحة ما أمركم به ، وهو محمد (صلى الله عليه واله) جعله الله حجة عليكم ، وقطع به عذركم ، « وانزلنا إليكم نوراً مبيناً » يعني وانزلنا اليكم معه نوراً مبيناً يعني بين لـكم المحجة الواضحة ، والسبل الهادية إلى ما فيه لـكم النجاة من عذاب الله والیم عقابه ، وذلك النور هو القرآن الذي أنزله الله على محمد (ص) وهو قول مجاهـد ، وقتادة والسدي وابن جريج ، وجميع المفسرين . وانما سماه نوراً لما فيه من الدلالة على ما امرالله به ونهى عنه والاهتداء به تشبيها بالنور الذي يهتدي به في الظلمات وفي الآية دلالة على أن كلام الله محدث ، لانه وصفه بالانزال فلو كان قديماً ، لما جاز ذلك عليه .

قوله تعالى :

﴿ فَاما الذينَ آمنوا باللهِ وَاعتصموا به فسيُدخلهم في رَحمةٍ مِنهُ وَفضل وَيهديهم اليه صِراطاً مُستقيماً ﴾ (١٧٤) آية .

هذا اخبار من الله ووعد منه لمن صدق الله وأقر بوحدانيته ، واعترف بما بعث به نبيه محمداً صلى الله عليه وآله من أهل الملل ، واعتصم به وتمسك بالنور الذي أنزله إلى نبيه . قال ابن جريج الهاء في (به) كناية عن القرآن ، فسيدخلهم في رحمة منه معناه ستنالهم رحمته التي تنجيهم من عقابه ، وتوجب لهم ثوابه ، وجنته ، ويلحقهم ما لحق أهل الايمان به ، والتصديق لرسله ، « ويهديهم اليه صراطاً مستقيما » يعني يوفقهم لاصابة فضله الذي تفضل به على أوليائه ويسددهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته واقتفاء اثارهم واتباع دينهم . وذلك هو الصراط المستقيم . وهو الاسلام الذي ارتضاه الله ديناً لعباده .

ونصب « صراطاً مستقيما » على القطع من الهاء في قوله (إليه) ويحتمل أن يكون المراد بقوله : « ويهديهم اليه » يعني إلى ثوابه .

قوله تعالى :

﴿ يَستفتونَكَ قل اللهُ يُفتيكم في الكلالةِ ان امرؤٌ هلكَ ليس لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ اختٌ فلها نصف ما تَركَ وَهوَ يَرثها ان لَم يَكن لها وَلَدٌ فان كانتا اثنتين فلهما الثلثانِ مما تَركَ وان كانوا اخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثلُ حظ الانثيين يُبينُ اللهُ لكمُ ان تَضلوا وَاللهُ بِكل شيء عليمٌ ﴾ (١٧٥) آية آخر السورة .

[النزول] :

روى البراء بن عازب قال : آخر سورة نزلت كاملة براءة . وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » وقال جابر بن عبد الله : نزلت في المدينة وقال ابن سيرين : نزلت في مسير كان فيه رسول الله (ص)

واصحابه . واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال سعيد بن المسيب : سأل عمر النبي (ص) عن الكلالة ، فقال : اليس قد بين الله ذلك ؟ قال : فنزلت « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » وقال جابر بن عبد الله : اشتكيت وعندي تسع اخوات لي أو سبع ، فدخل عليّ النبي (ص) فنفخ في وجهي ، فافقت . فقلت : يا رسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلثين ؟ قال : أحسن . قلت : الشطر . قال : احسن ، ثم خرج وتركني ، ورجع الي فقال : يا جابر اني لااراك ميتاً من وجعك هذا ، وان الله عز وجل قد أنزل في الذي لاخواتك فجعل لهن الثلثين . قال : وكان جابر يقول: نزلت هذه الآية فيّ . وقال قتادة : إن اصحاب رسول الله (ص) همهم شأن الكلالة ، فانزل الله (عز وجل) ، فيها هذه الآية .

[المعنى] :

معنى يستفتونك يسألونك يا محمد ان تفتيهم في الكلالة . وحذف اقتصاراً لما دل الجواب عليه . والاستفتاء والاستقضاء واحد . يقال : قاضيته وفاتيته . قال الشاعر :

تعالوا نفاتيكم أأعيا وفقعس إلى المجد أدنى ام عشيرة حاتم

هكذا انشده الحسين بن علي المغربي . وقد فسرنا معنى الكلالة وذكرنا اختلاف العلماء في ذلك فأغنى عن الاعادة . وقوله : « أن امرؤ هلك ليس له ولد » قال السدي : معناه مات ليس له ولد ذكر وانثى ، (وله اخت) يعني وللميت اخت لأبيه وامه ، فلها نصف ما ترك ، فان لم يكن أخت لاب وأم ،، وكانت اختاً لاب قامت مقامها ، والباقي عندنا رد على الاخت سواء كان هناك عصبة ، او لم يكن . وقال جميع الفقهاء : إن الباقي للعصبة ، وإن لم يكن هناك عصبة ، وهم العم وبنو العم ، واولاد الاخ . قال فمن قال : الرد على ذوي الارحام ، رد على الاخت الباقي وهو اختيار الجبائي ، وأكثر اهل العلم . وقال زيد بن ثابت ، والشافعي وجماعة : إن الباقي لبيت المال يرثه جميع المسلمين . وقوله : « وهو يرثها إن لم يكن لها ولد » يعني إن كانت الأخت هي

الميتة ، ولها أخ من أب وأم ، أو من اب فالمال كله له بلا خلاف إذا لم يكن هناك ولد ، سواء كان ولدها ذكراً ، أو انثى ، فان كان ولدها ذكراً ، فالمال له بلا خلاف ويسقط الأخ ، وإن كانت بنتاً كان لها النصف بالتسمية بلا خلاف والباقي رد عليها ، لانها اقرب دون الأخ ، ولأن الله (تعالى) انما قال : « وهو يرثها » يعني الاخ إذا لم يكن لها ولد. والبنت [ولد] (١) بلا خلاف ومن خالف في تسمية البنت ولداً فقد اخطأ . ذكر ذلك البلخي واستدل على ذلك بان قال : لو مات وخلف بنتاً وأبوين إن للابوين الثلث ، مع قوله : « ولابويه لكل واحد منهما السدس ان كان له ولد » وإنما أراد الولد الذكر . وهـذا الذي ذكره خطأ ، لانه خلاف لاهل اللغة . لانه لاخلاف في تسمية البنت بانها ولد ، ولانه قال : « يوصيكم الله في أولادكم » ثم فسر الاولاد فقال : « للذكر مثل حظ الانثيين » فلو كان الولد لايقع على الانثى ، لكان المـال بينهم بالسوية ، وذلك خلاف القرآن . على انا نخالف في المسألة التي ذكرها ، فنقول لـلابوين السدسان ، وللبنت النصف والباقي رد عليهم على قـدر سهامهم ، فنجعل الفريضة من خمسة ومن رد الباقي على الأب فانما يرده بالتعصيب ، لا لان البنت لا تسمى ولداً ، فبان بطلان ما قاله . ومن خالفنا من الفقهاء في مسألة الأخ والبنت ، يقول : الباقي للاخ ، لقوله (ع) : (ما ابقت الفرائض فـلاولى عصبته) ذكر هذا الخبر عندنا ضعيف ، لانه أولا خبر واحد . وقد طعن على صحته . ضعفه أصحاب الحديث بما ذكرناه في مسائل الخلاف ، وتهذيب الاحكام ، وغير ذلك من كتبنا . وما هذه صفته لا يترك له ظاهر القران . وقوله : « فان كانتا اثنتين » يعني ان كانت الأختان اثنتين ، فلها الثلثان . وهذا لاخلاف فيه والباقي على ما بيناه من الخلاف في الأخت الواحدة . عندنا ، رد عليها دون عصبتها ، ودون ذوي الأرحام ، وإذا كان هناك عصبة ، رد الفقهاء الباقي عليهم ، وإن لم يكن رد على ذوي الارحام . من قال بذلك فرد على الأختين ، لانها أقرب ، ومن لم يقل بذلك رد على بيت المال . فان كانت احدى الاختين لاب وام ، والاخرى لاب ، فللاخت للاب والام النصف ،

(١) ـ ساقطة من المطبوعة .

بلا خلاف . والباقي رد عليها عندنا ، لانها تجمع السببين ولا شيء للاخت لـلاب ، لانها انفردت بسبب واحد وعند الفقهاء لهـا السدس تكملة الثلثين والباقي على ما بيناه من الخلاف ، وإن كانوا أخوة رجالا ونساء يعني يكون الورثة أخوة رجالا ونساء للاب ، والام ، أوللاب فللذكر مثل حظ الانثيين . بلا خلاف فان كان الذكور منهم للاب والام والاناث للاب ، انفرد الذكور بجميع المال بلا خلاف . وإن كان الاناث للاب والام والذكور للاب كان للاناث الثلثان ما سمي بلا خلاف والباقي عندنا ، رد عليهن لما بيناه من اجتماع السببين لهن . وعند جميع الفقهاء ان الباقي للاخوة من الأب ، لانهم عصبة . وقد قلنا ما عندنا في خبر العصبة ويمكن ان يحمل خبر العصبة مع تسليمه على من مات ، وخلف زوجاً أو زوجة وأخا لاب وأم ، وأخاً للاب أو ابن اخ لاب وأم ، أو ابن أخ لأب أو ابن عمّ لاب وامّ ، وابن عمّ لاب فان للزوج سهمه المسمى والبـاقي لمن يجمع كلالة الاب والام دون من يتفرد بكلالة الأب .

وقوله : « يبين الله لـكم أن تضلوا » قال الفراء : معناه ائلا تضلوا . قال القطامي :

رأينا مارأى البصراء فيها   فآلينا عليها ان تباعا (١)

والمعنى الا تباعا . وقال الزجاج والبصريون : لا يجوز إضمار لا . والمعنى يبين الله لكم كراهة أن تضلوا . وحذف كراهة ، لدلالة الكلام عليه. قالوا : وانما جاز الحذف في قوله : « وسل القرية » والمعنى وسل اهل القرية ، لانه بقي المضاف فدل على المحذوف . فاما حذف (لا) وهي حرف جاء لمعنى النفي ، فلا يجوز ، لكن قد تدخل في الكلام مؤكدة وهي لغو كقوله : « لئلا يعلم أهل الكتاب » والمراد لئن يعلم . ومثله قول الشاعر :

وما الوم البيض الا تسخرا   إذا راين الشمط القفندرا (٢)

---

(١) ــ ديوانه : ٤٣ يصف ناقته .   (٢) ــ أنظر ١ : ٤٥

والمعنى وما الوم البيض ان تسخر ومثله قوله : « لا اقسم بهذا البلد » (١) « ولا اقسم بيوم القيامة » (٢) والمعنى أقسم . ولا يجوز على القياس على ذلك أن تقول : لأ أخلف عليك وتريد أخاف عليك ، لان (لا) إنما تلغى إذا مضى صدر الكلام على غير النفي ، فاذا بنيت الكلام على النفي ، فقد نقضت الايجاب وانما جاز الغاء (لا) في اول السورة ، لان القرآن كله كالسورة الواحدة ألا ترى أن جواب الشيء فيه يقع وبينهما سور ؟ كما قال تعالى جواباً لقوله : « وقالوا يا ايهـــا الذين نزل عليه الذكر انك لمجنون » (٣) فقال : « نون والقـــلم وما يسطرون . ما انت بنعمة ربك بمجنون » (٤) وبينهما سور كثيرة . ذكره الزجاج . وقوله : « إن امرؤ هلك » قال الفراء (هلك) في موضع جزم . ومثله قوله : « وان احـد من المشركين استجارك » (٥) ولو كان موضعها يفعل كان جزماً . وقال الزجاج : جاز مع ان تقديم الاسم قبل الفعل ، لانّ (ان) لا تعمل في الماضي ، ولانها (ام) في الجزاء قال : والتقدير ان هلك امرؤ هلك . وانشد الفراء :

صعدة قد نبتت في حائر		اينما الريح تميلهـــا تمل

فجزم تميلها . وقد حال بينها وبين اينما بالاسم وهو الريح . وقال عمر : سألت رسول الله (ص) عن الكلالة ، فقال : ألم تسمع الآية التي انزلت في الصيف . وفي خبر آخر ـ تكفيك آية الصيف .

وقوله : « امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك » يمنع أن يكون الاخت ترث مع البنت ، لانه شرط في ميراثها عـدم الولد . والبنت ولد بلا خلاف بين أهل اللغـة . وما روي عن النبي (ص) أن الاخوات مع البنات عصبة خبر واحد ، لا يلتفت اليه ، لأنه يخالف نص القرآن . وبما قلناه قال ابن عباس ، لانه لم يجعل الاخوات مع البنات عصبة .

---

(١) ـ سورة البلد ، آية ١ .		(٢) ـ سورة القيامة ، آية ١ .
(٣) ـ سورة الحجر ، آية ٦ .		(٤) ـ سورة القلم ، آية ١ـ٢ .
(٥) سورة التوبة ، آية ٧ .

وموضع (ان) في قوله (ان تضلوا) نصب في قول الاكثر ، لاتصالها بالفعل وفي قول الكسائي : خفض ، لان تقديره عنده لئلا تتولوا ، فان قيل : ما وجه قوله : « اثنتين » مع أن قوله : « فان كانتا » قد دل على الثنتين ؟ قيل : يحتمل امرين :

احدها ـ ان يكون ذلك تاكيداً للمضمر يقول القائل : فعلت أنا .

والثاني ـ ان يبين بذلك ان المطلوب في ذلك العدد ، لاغيره من الصفات من صغر او كبر أو عقل أو عدمه ، وغير ذلك من الصفات ، بل متى جعل العدد ثبت ما ذكره من الميراث .

وقوله : « والله بكل شي عليم » معناه عالم بكل شيء من مصالح عباده في قسمته مواريثهم ، وغيرها من جميع الاشياء ، لا يخفى عليه شيء من جميعه .

سورة المائدة

هي مدنية

في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة .

وقال جعفر بن مبشر : هي ـ مدنية إلا آية منها نزلت في حجة الوداع وهي قوله : « اليوم اكملت لكم دينكم » وهي كلها مدنية بمعنى انها نزلت بعد الهجرة .

وقال الشعبي: نزل قوله : « اليوم اكملت » والنبي (صلى الله عليه وآله) واقف على راحلته في حجة الوداع .

وقال عبد الله بن عمر آخر سورة نزلت المائدة . وهي مائة وعشرون آية كوفي واثنتان وعشرون في المدنيتين . وثلاثة وعشرون بصري .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى :

﴿ يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وانتم حرم ان الله يحكم ما يريد ﴾(١) آية بلا خلاف .

هـذا خطاب من الله (تعالى) للمؤمنين المعترفين بوحدانيته تعالى المقرين له بالعبودية المصدقين لرسوله (ص) في نبوته ، وفيما جاء به من عنـد الله من شريعة الاسلام ، أمرهم الله بايفاء العقود وهي العهود التي عاهـدوها مع الله وأوجبوا على انفسهم حقوقاً ، والزموا نفوسهم بها فروضاً امرهم الله تعالى بالاتمام بالوفاء والكمال لما لزمهم يقال : أوفى بالمعهود به وأوفى به لغة أهل الحجاز ۰ وهي لغة القرآن ، واختلف اهل التـأويل في العقود التي امر الله (تعالى) بالوفاء بها في هـذه الآية بعد اجمـــاعهم على ان المراد بالعقود العهود ، فقال قوم : هي العقود التي كان اهل الجاهلية عاقد بعضهم بعضاً على النصرة والمؤازرة ۰ والمظاهرة على من حاول ظلمهم او بغاهم سوءً وذلك هو معنى الحلف ۰ ذهب اليه ابن عباس ومجـــاهد ، والربيع ابن أنس والضحاك وقتادة والسدي وسفيان الثوري ۰

والعقود جمع عقد ۰ وأصله عقد الشيء بغيره ۰ وهو وصله به ، كما يعقد الحبل إذا وصل به شيئاً ۰ يقال منه : عقد فلان بينه وبين فلان عقداً فهو يعقده ۰ قال الحطيئة :

قوم إذا عقـدوا عقـداً لجارهم   شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا (١)

وذلك إذا واثقه على امر عاهده على عهد بالوفاء له بما عاقده عليه من امان ، أو ذمة أو نصرة ، أو نـكاح أو غيره ذلك . قال قتادة : هي عقود الجاهلية الحلف. ويقال : اعقدت العسل فهو عقيد ومعقد وروى بعضهم عقدت ، العسل والكلام وأعقدت ۰ وقال آخرون : هي العهود التي أخذ الله على عباده بالايمان به ، وطاعته فيما أحل لهم أو حرم عليهم ۰ روي ذلك عن ابن عباس وقال : هو ما أحل وحرم وما فرض ، وما حـــد في القرآن كله ، فلا تغدوا أو لا تنكثوا ، ثم سدد فقال :

---

(١) ديوانه : ٦ مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ١٤٥ اللسان (كرب) من قصيدته التي قالها في الزبرقان بن بدر وبغيض بن عامر من بني أنف الناقة . العناج : خيط يشد في اسفل الدلو . الكرب : الحبل .

« والذين ينقضون عهد الله من بعـــد ميثاقه الى قوله : سوء الدار » . وبه قال أيضاً مجاهـد : وقال قوم : بل العقود التي يتعاقدها الناس بينهم ويعقدها المرء على نفسه كعقـد الايمان ، وعقد النكاح ، وعقد العهد ، وعقد البيع ، وعقد الحلف . ذهب اليه عبد الله بن عبيدة وابن زيد ، وهو عبد الرحمن بن زيد بن اسلم عن ابيه . وقال اخرون : ذلك امر من الله لاهل الكتاب بالوفاء بما أخـذ به ميثاقهم من العمل بما في التوراة والأنجيل في تصديق محمد (صلى الله عليه واله) وما جاء به من عند الله . ذكر ذلـك ابن جريج وأبو صالح . وقال الجبائي : أراد به الوفاء بالايمان فيما يجوز الوفاء به . فاما ما كان يميناً بالمعصية ، فعليه حنثه وعليه الكفارة . وعندنا ان اليمين في معصية لا تنعقد ، ولا كفارة في خلافها . وأقوى هـذه الاقوال ما حكيناه عن ابن عباس أن معناه أوفوا بعقود الله التي أوجبها عليكم ، وعقدها فيما أحـل لـكم وحرم ، وألزمكم فرضه . وبين لكم حدوده . ويدخل في جميع ذلك ما قالوه إلا ما كان عقداً على المعاونة على أمر قبيح . فان ذلك محظور بلا خلاف .

وقوله : « احلت لكم بهيمة الانعام » اختلفوا في تأويل بهيمة الانعام في هـذه الآية فقال قوم : هي الانعام كلها : الابل والبقر ، والغنم . ذهب اليه الحسن وقتادة والسدي والربيع والضحاك . وقال اخرون : أراد بذلـك اجنة الأنعام التي توجد في بطون امهاتها إذا ذكيت الامهات . وهي ميتة . ذهب اليه ابن عمر وابن عباس . وهو المروي عن ابي عبد الله . والأولى حمل الآية على عمومها في الجميع .

والانعام جمع نعم ، وهو اسم لـلابل ، والبقر والغنم خاصة عند العرب كما قال تعالى : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » ثم قال : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » ففصل جنس النعم من غيرها من اجناس الحيوان وأما بهائمها فانها أولادها . وقال الفراء بهيمة الانعام : وحشها كالظباء ، وبقر الوحش ، والحمر الوحشية . وانما سميت بهيمة الانعام ، لان كل حي لا يميز ، فهو بهيمة الانعام ، لانه ابهم عن ان يميز .

وقوله: « الا ما يتلى عليكم » اختلفوا في المراد بقوله « الا ما يتلى عليكم » فقال بعضهم: أراد بذلك أحلت لكم أولاد الابل، والبقر والغنم إلا ما بين الله تعالى فيما يتلى عليكم بقوله: « حرمت عليكم الميته والدم .... الآية » ذهب اليه مجاهد وقتادة وقال: الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه. وبه قال السدي وابن عباس. وقال اخرون: استثنى من ذلك الخنزير روي ذلك أيضاً عن ابن عباس، والضحاك. والاول أقوى، لان قوله: « إلا ما يتلى عليكم » يجب حمله على عمومه في جميع ما حرم الله (تعالى) في كتابه. والذي حرمه هو ما ذكره في قوله: « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ..... إلى آخر الآية » والخنزير وإن كان محرماً، فليس من بهيمة الانعام، فتى حملناه عليه كان الاستثناء منقطعاً، ومتى خصصنا بالميتة والدم، كان الاستثناء متصلا. وإن حملناه على الكل نكون غلبنا حكم الميتة وما ذكر بعده، فيكون الاستثناء أيضاً حقيقة ومتصلا. واختار الطبري تخصيصه بالميتة والدم، وما أهل لغير الله به. قال الحسين ابن علي المغربي إلا ما يتلى معناه من البحيرة والسائبة والوصيلة فلا تكون المحرم، واستثنى هاهنا ما حرمه (تعالى) فلا يليق بذلك.

وقوله: « غير محلي الصيد وانتم حرم » اختلفوا في تأويله فقال بعضهم: معناه أوفوا بالعقود غير محلين الصيد وانتم حرم أحلت لكم بهيمة الانعام. ويكون فيه التقديم والتاخير، فغير يكون منصوباً على هـذا الحال مما في قوله: « اوفوا بالعقود » من ذكر الذين آمنوا. وتقدير الكلام أوفوا أيها الذين آمنوا بعقود الله التي عقدها عليكم في كتابه لا محلين الصيد، وانتم حرم. وقال اخرون: معنى ذلك احلت لكم بهيمة الانعام الوحشية من الظباء، والبقر والحمر غير محلي الصيد غير مستحلين اصطيادهم، وانتم حرم، وإلا ما يتلى عليكم (فغير) على هذا منصوب على الحال من الكاف، والميم الاين في قوله: « أحلت لكم بهيمة الانعام » والتقدير أحلت لكم ياأيها الذين آمنوا بهيمة الانعام، لا مستحلي اصطيادها في حال إحرامكم وقال اخرون: معناه أحلت لكم بهيمة الانعام كلها إلا ما يتلى عليكم. بمعنى إلا

ما كان منها وحشياً ، فانه صيد ، ولا يحل لكم وانتم حرم . والتقدير على هذا أحلت لكم بهيمة الانعام كلها إلا ما بين لكم من وحشها غير مستحلي اصطيادها في حال إحرامكم ، فتكون (غير) منصوبة على الحال من الكاف والميم في قوله : إلا ما يتلى عليكم . ذهب إلى ذلك الربيع ، والحرم جمع حرام . وهو المحرم قال الشاعر :

فقلت لها حيي اليك فانني　　حرام وإني بعد ذاك لبيب

أي واني ملب .

وقوله : « إن الله يحكم ما يريد » معناه إن الله يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل ما يريد تحليله ، وتحريم ما يريد تحريمه ، وايجاب ما يريد ايجابه . وغير ذلك من احكامه وقضاياه ، فافعلوا ما أمركم به ، وانتهوا عما نهاكم عنه .

[الاعراب] :

(وما) في قوله : « إلا ما يتلى عليكم » في موضع نصب بالاستثناء . وقال الفراء يجوز أن يكون موضعها الرفع . كما تقول جاءني القوم ، إلا زيداً وإلا زيد قال الزجاج : وهذا لا يجوز إلا أن تكون إلا بمعنى غير ، فتكون صفة . فأما بمعنى الاستثناء ، فلا يجوز . وقوله عليه السلام : (ذكاة الجنين ذكاة امه عندنا) معناه انه إذا ذكيت الام وخرج الولد ميتاً ، قد اشعر واوبر ، جاز أكله . وبه قال الشافعي وأهل المدينة وقال ابوحنيفه : معناه انه يذكى كما تذكى امه وهو اختيار البلخي .

قوله تعالى :

﴿ يا ايها الذينَ آمنوا لاتحلوا شعائرَ اللهِ وَلاالشهرَ الحرام وَلا الهَدي وَلا القلائدَ وَلا آمينَ البيتَ الحرامِ يبتغونَ فضلاً مِن رَبهم وَرضواناً وإذا حللتم فاصطادوا وَلا يَجرِمَنكمْ شنآنُ قومٍ ان صدوكم عن المسجدِ الحرامِ ان تعتدوا وَتعاوَنوا عَلى البرِّ وَالتقوى وَلا

تَعاوَنوا عَلى الاثْمِ وَالعدوانِ وَاتّقوا اللهَ انَّ اللهَ شَديدُ العقابِ ﴾ (٢) آية .

[القراءة] :

قرأ أبو بكر عن عاصم ، وابو جعفر واسماعيل المسيبي (شنئآن) بسكون النون الاولى في الموضعين. الباقون بفتحها وقرأ ابن كثير وأبو عمر (وان صدوكم) بكسر الهمزة الباقون بفتحها .

[المعنى] :

هذا خطاب من الله (تعالى) للمؤمنين ينهاهم ان يحلوا شعائر الله . واختلفوا في معنى شعائر الله على سبعة اقوال :

فقال بعضهم : معناه لا تحلوا حرمات الله ، ولا تعدوا حدوده ، وحملوا الشعائر على المعالم . وارادوا بذلك معالم حدود الله وأمره ونهيه ، وفرائضه ذهب اليه عطا وغيره .

وقال قوم : معناه لا تحلوا حرم الله وحملوا شعائر الله على معالم حرم الله من البلاد . ذهب اليه السدي .

وقال اخرون : معنى شعائر الله مناسك الحج . والمعنى لا تحلوا مناسك الحج ، فتضيعوها . ذهب اليه ابن جريج ، ورواه عن ابن عباس .

وقال ابن عباس : كان المشركون يحجون البيت ، ويهدون الهدايا ، ويعظمون حرمة المشاعر ، ويتجرون في حججهم ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم ، فنهاهم الله عن ذلك .

وقال مجاهد : شعائر الله الصفا والمروة والهدي من البدن ، وغيرها . كل هذا من شعائر الله .

وقال الفراء كانت عامة العرب لا ترى الصفا والمروة من الشعائر ، ولا يطوفون بها ، فنهاهم الله عن ذلك وهو قول ابي جعفر (عليه السلام) .

وقال قوم : معناه لا تحلوا ما حرم الله عليكم في إحرامكم . روي ذلك عن ابن عباس في رواية اخرى .

وقال الجبائي الشعائر : العلامات المنصوبة للفرق بين الحل ، والحرم نهاهم الله أن يتجاوزوها إلى مكة بغير إحرام . وقال الحسين بن علي المغربي : المعنى لا تحلوا الهدايا المشعرة . وهو قول الزجاج واختاره البلخي . وأقوى الاقوال قول عطا من أن معناه ، لا تحلوا حرمات الله ، ولا تضيعوا فرائضه لان الشعائر جمع شعيرة وهي . على وزن فعيلة ، واشتقاقها من قولهم : شعرفلان بهذا الامر : إذا علم به ، فالشعائر المعالم من ذلك ، وإذا كان كذلك ، وجب حمل الآية على عمومها ، فيدخل فيه مناسك الحج ، وتحريم ما حرم في الاحرام ، وتضييع ما نهى عن تضييعه واستحلال حرمات الله ، وغير ذلك من حدوده وفرائضه وحلاله وحرامه ، لان كل ذلك من معالمه ، فكان حمل الآية على العموم اولى .

وقوله : « ولا الشهر الحرام » معناه ولا تستحلوا الشهر الحرام بقتالكم فيه اعداءكم من المشركين ، كما قال : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير » وهو قول ابن عباس وقتادة . والشهر الحرام الذي عناه الله هاهنا قال قوم : هو رجب ، وهو شهر كانت مضر تحرم فيه القتال . وقال قوم : هو ذو العقدة . ذكره عكرمة . وقال ابو علي الجبائي : هو اشهر الحرام كلها ، نهاهم الله عن القتال فيها . وهو اليق بالعموم . وبه قال البلخي .

وقوله : « ولا الهدي ولا القلائد » فالهدي جمع واحده هدية واصله هدية وهو ما هداه الانسان من بعير او بقرة أو شاة أو غير ذلك إلى بيت الله تقربا به إلى الله (تعالى) وطلباً لثوابه يقول الله : لا تستحلوا ذلك فتغصبوه أهله عليه ، ولا تحولوا بينهم وبين ما اهدوا من ذلك إلى بيت الله ان يبلغوه محله من الحرم ، ولكن

خلوهم حتى يبلغوا به المحل الذي جعله عز وجل له . وهو كعبته . قال ابن عباس : والهدي يكون هدياً قبل ان يقلد ما جعله على نفسه أن يهديه ويقلده . وقوله : « ولا القلائد » معناه ولا تحلوا القلائد . واختلفوا في معناه فقال بعضهم : عنى بالقلائد الهدي . وانما كرر ، لانه أراد المنع من حل الهدي الذي لم يقلد ، والهدى الذي قلد . وهو قول ابن عباس . وقال آخرون : يعني بذلك القلائد التي كان المشركون يتقلدونها إذا أرادوا الحج مقبلين إلى مكة من لحاء السمر ، وإذا خرجوا منها إلى منازلهم منصرفين منها الى المشعر . ذهب اليه قتادة وقال كان في الجاهلية إذا خرج الرجل من أهله يريد الحج تقلد من السمر ، فلا يعرض له أحد وإذا رجع تقلد قلادة شعر ، فلا يعرض له احد . وقال عطا : كانوا يتقلدون من لحاء شجر الحرم يأمنون به إذا خرجوا من الحرم . وقال الفراء : كان اهل الحرم يتقلدون بلحاء الشجر ، واهل غير الحرم يتقلدون بالصوف والشعر وغيرهما ، فنزلت « لا تحلوا شعائر الله ... » وقال مجاهد : وهو اللحا في رقاب الناس . والبهائم امن لهم . وهو قول السدي . وقال ابن زيد : إنما عنى بالمؤمنين نهاهم أن ينزعوا شيئاً من شجر الحرم يتقلدون به ، كما كان المشركون يفعلونه في جاهليتهم . ذهب اليه عطا في رواية والربيع بن أنس . وقال ابو علي الجبائي : القلائد هو ما قلده الهدي ، نهاهم عن حلها ، لانه كان يجب أن يتصدق بها . قال : ويحتمل أن تكون عبارة عن الهدي المقلد . والأقوى أن يكون المراد بذلك النهي عن حل القلائد ، فيدخل فيه الانسان والبهيمة إذ هو نهي عن استحلال حرمة المقلد ، هو هدياً كان ذلك أو انساناً .

قوله : « ولا آمين البيت الحرام » معناه ، ولا تحلوا قاصدين البيت الحرام. يقال : أممت كذا : إذا قصدته وعمدته . وبعضهم يقول يممته قال الشاعر :

إني كذاك إذا ما ساءني بلد   يممت صدر بعيري غيره بلدا (١)

والبيت الحرام بيت الله بمكة . وهو الكعبة .

---

(١) مجاز القرآن لابي عبيدة ١ : ١٤٦ .

وقوله : « يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » معناه يلتمسون أرباحاً في تجارتهم من الله « ورضوانا » يعني وان ترضى عنهم منسكهم . نهى الله تعالى ان يحل ويمنع من هـذه صورته . فاما من قصد البيت ظالماً لأهله ، وجب منعه ودفعه عنهم .

[النزول] :

وقال ابو جعفر (عليه السلام) : نزلت هذه الآية في رجل من بني ربيعة يقال له : الحطم . قال السدي : أقبل الحطم بن هند البكري حتى أتى النبي (صلى الله عليه وآله) وحده ، وخلف خيله خارجة من المدينة ، فدعاه فقال : الام تدعو فاخبره وقد كان النبي (ص) قال : لاصحابه : يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان ، فلما أخبره النبي (صلى الله عليه وآله) قال : انظروا لعلي اسلم ولي من اشاوره ، فخرج من عنده فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لقد دخل بوجه كافر ، وخرج بعقب غادر ، فمر بسرح من سرح المدينة فساقه وانطلق به ، وهو يرتجز ويقول :

قد لفها الليل بسواق حطم　　ليس براعي ابل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم　　باتوا نياماً وابن هند لم ينم
بات يقاسيها غلام كالزلم　　خدلج الساقين ممسوح القدم(١)

ثم اقبل من عام قابل حاجا قـد قلد هدياً ، فاراد رسول الله (صلى الله عليه واله) أن يبعث اليه ، ونزلت هذه الآية « ولا آمين البيت الحرام » هـذا قول ابن جريج ، وعكرمة والسدي وقال ابن زيد : نزلت يوم الفتح في ناس يأمون البيت من

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٣٠٨ الاغاني ١٤ : ٤٤ اللسان (حطم) وقبل هذا الرجز قوله هذا أوان الشد فاشتدي زيم . حطم السائق الذي يسير بأقصى سرعة : الوضم : خشبة القصاب التي يقطع عليك اللحم الزلم : قدح الميسر . خدلج الساقين : ممتلىء الساقين . ممسوح القدم : قدمه مستو . وقد جاء في صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مسيح القدمين .

المشركين يهلون بعمرة . فقال المسلمون : يارسول الله (ص) إنما هؤلاء مشركون ، مثل هؤلاء دعنا نغير عليهم ، فانزل الله تعالى الآية قال ابن عباس : ذلك في كل من توجه حاجا . وبه قال الضحاك والربيع بن انس

[النسخ] :

واجمعوا على انه نسخ من حكم هـــذه الآية شيء إلا ابن جريج فانه قال : لم ينسخ منها شيء ، لانه لا يجوز أن يبتدأ المشركون في أشهر الحرم بالقتال إلا إذا قاتلوا . وهو المروي عن ابي جعفر (ع) وقال الشعبي : لم ينسخ من المائدة غير هذه الآية وقال أبو ميسرة : في المـائدة ثمانية عشر فريضة ليس منها شيء منسوخ . واختلفوا فيمانسخ منه فقال بعضهم : نسخ جميعها ذهب إليه الشعبي وقال : لم ينسخ من المـائدة غير هذه الآية لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ، ولا الهدي ، ولا القلائد . وبه قال مجاهد : قال : نسخها قوله : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وبه قال قتادة والضحاك وحبيب بن ابي ثابت وابن زيد . وقال اخرون : نسخ منها قوله : « ولا الشهر الحرام ، امين البيت الحرام » ذكر ذلك عن ابن ابي عروبة عن قتادة وقال : نسخها قوله : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وقوله : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله » وقوله : « انما المشركون نجس فـلا يقربوا المسجدالحرام . . . . الآية » في السنةالتي نادى علي (عليه السلام) فيها بالاذان . وبه قال ابن عباس وقال قوم : لم ينسخ منه إلا القلائد . وروي ذلك عن ابن ابي نجيح عن مجاهد . وأقوى الأقوال قول من قال : نسخ منها « ولا الشهر الحرام ولا القلائد ولا امين البيت الحرام » لاجمـــاع الامة على أنه (تعالى) أحل قتال أهل الشرك في أشهر الحرام وغيرها من شهور السنة . واجمعوا أيضاً على أن مشركا لوقلد لحا جميع أشجار الحرم عنقه او ذراعه ، لم يكن ذلك أماناً له من القتل إذا لم يتقدم له امان .

[المعنى] :

وقوله : « ولا آمين البيت » ظاهره يحتمل المسلم والمشرك لعموم اللفظ ، لكن خصصنا المشركين بقوله : « اقتلوا المشركين . . . الآية » ويحتمل أيضاً أن يكون مخصوصاً بأهل الشرك . وعليه اكثر المفسرين . فان كان مخصوصاً بهم ، فلا شك أيضاً أنه منسوخ بما قد مناه من الآية والاجماع . وقوله : « يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً » معناه يلتمسون ويطلبون الزيادة ، والارباح في التجارة ورضوان الله عنهم وألا يحل بهم ما حل بغيرهم من الامم بالعقوبة في غالب دنياهم . وهو قول قتادة وقال : هي للمشركين يلتمسون فضل الله ، ورضوانه بما يصلح لهم دنياهم . وبه قال ابن عباس والربيع بن انس ومجاهد وفي الآية دلالة على جواز حمل المتاع للتجارة في الحج . وقوله : إذا حللتم ، فاصطادوا فأهل الحجاز يقولون : حللت من الاحرام أحل ، والرجل حلال . وكذلك سعد بن بكر وكذا يقولون : حرم الرجل فهو حرام : إذا صار محرماً ، وقوم حرمٌ واسد وقيس وتميم يقولون : أحلّ من احرامه ، فهو مُحلّ وأحرم فهو محرمٌ . معناه إذا حللتم من إحرامكم ، فاصطادوا الصيد الذي نهيتكم أن تحلوه ، وأنتم حرم . وهو بصورة الامر . ومعناه الاباحة . وتقديره لا حرج عليكم في اصطياده فاصطادوه ان شئتم حينئذ لأن السبب المحرم قد زال . وهو قول جميع المفسرين : مجاهد وعطا ، وابن جريج وغيرهم .

وقوله : « ولا يجرمنكم » قال ابن عباس : ولا يحملنكم شنآن قوم . وهو قول قتادة . واختلف اهل اللغة في تأويلها ، فقال الاخفش ، وجماعة من البصريين ، لا يحقن لكم ، مثل قوله : « لا جرم ان لهم النار » ومعناه حق ان لهم النار . وقال الكسائي والزجاج معناه : لايحملنكم وقال بعض : الكوفيين معناه لايحملنكم . قال : يقال : جرمني فلان على أن صنعت كذا أي حملني عليه . وقال الفراء : معناه لا يكسبنكم شنآن قوم . واستشهد الجميع بقول الشاعر :

ولقد طعنت اباعيينة طعنة   جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا(١)

(١) قائله أبو أسماء بن الضريبة . مجاز القرآن لابي عبيدة ١ : ١٤٧ اللسان : (جرم)

فمنهم من حمل قوله : جرمت على ان معناه حملت ۰ ومنهم من حمله على أن معناه أحقت الطعنة ، لفزارة الغضب ۰ ومنهم من قال : معناه كسبت فزارة أن يغضبوا وقال المغربي : معناه قطعت فزارة وليس من هذا في شيء ۰ وسمع الفراء من العرب من يقول : فلان جريمة أهله أي كاسبهم ۰ وخرج يجرمهم أي يكسبهم ۰ والأقاويل متقاربة المعاني ۰ وقراءة القراء المعروفين « لا يجر منكم » ـ بفتح الياء من جرمته ۰ وقرأ يحيى بن وثاب ، والاعمش « يجر منكم » بضم الياء من أجرمته فهو مجرمني . وقيل : هما لغتان . والاولى أفصح ، وأعرف ، وأجاز أبو علي الفارسي معنى جرم كسب . قال : وهو فعل يتعدى الى مفعولين مثل كسب يدل على ذلك قول الشاعر في صفة عقاب :

جريمة ناهض في رأسه نيق   يرى لعظام ماجمعت صليباً

معناه تكسب لفرخها . جريمة ناهض يحتمل تقريرين :

احدهما ـ جريمة قوت ناهض اي كاسب قوته ، كما قالوا ضارب قداح ، وضريب قداح وعريف وعارف .

والآخر ـ أن تقدر حذف المضاف ، وتضيف جريمة الى ناهض . والمعنى كاسب ناهض ، فجرم يستعمل في الكسب وما يريد من سعي الانسان عليه .

وأما جرم فمعناه اكتسب الاثم قال الله تعالى : « إنا من المجرمين منتقمون » وقال: « فعلي إجرامي » ومعناه فعلي عقوبة إجرامي أو اثم إجرامي . ومعنى « لا يجرمنكم شنآن قوم » لا تكتسبوا لبغض قوم عدواناً ، ولا تقتنوه ، فمن فتح أن أوقع النهي في اللفظ على الشنآن . والمعنى بالنهي المخاطبون ، كما قالوا : لا أرينك هاهنا ولا تمونن إلا وانتم مسلمون .

[الاعراب] :

وكذلك قوله : لا يجرمنكم شقاقي ان يصيبكم المفعول الثاني واسماء المخاطبين المفعول الاول ، كما أن المفعول الاول في الآية الأخرى المخاطبون . والثاني قوله : « أن

تعتدوا » ولفظ النهي واقع على الشقاق . والمعني بالنهي المخاطبون . قال الزجاج : موضع (ان) الأولى نصب بانه مفعول له . وتقـديره لا يحملنكم بغض قوم لان صدودكم عن المسجد يعني النبي (ص) واصحابه ، لما صدوهم عن مكة . وموضع ان الثانية مفعول به ومعناه لا يكسبنكم بغض قوم أي بغضكم قوماً الاعتداء عليهم ، لصدهم عن المسجد الحرام .

وقوله : « شنئآن قوم » معناه بغض قوم في قول ابن عباس ، وقتادة وابن زيد ، وغيرهم يقول : شنئت الرجل اشناه شنئاً وشنأناً وشناً ومنشأة : إذا أبغضته وذهب سيبويه الى أن ما كان من المصادر على فعلان لم يتعد فعله إلا أن يشذ شيء نحو شنيته شنأً ولا يجوز أن يكون شنيته يراد به حـذف الجر ، كقول سيبويه في فرقته وحذرته أن اصله حذرت منه لان اسم الفاعل منه على فاعل ، نحو شاني و « ان شانئك هو الابتر » وقال الشاعر :

بشانيك الضراعة والكلول

قال ابوعلي : هذا يقوي أنه مثل علم يعلم ، فهو عالم ، ونحوه من التعدي وأيضاً ، فان شنيت في المعنى بمنزلة أبغضت ، فلما كان معناه عدي كما عدي أبغضت كما أن الرفث لما كان بمعنى الافضاء عدي بالجار ، كما عـدي الافضاء به . وقال سيبويه : قالوا : لويته حقه لياناً على فعلان ، فيجوز أن يكون شنان فيمن أسكن النون مصدراً كالليان فيكون المعنى لا يحملنكم بغض قوم ، لو فتح النون . قال ابو عبيدة : « شنأن قوم » بغضاء وهي متحركة الحروف مصدر شنيت ، وبعضهم يسكنون النون الاولى وانشد للاحوص :

وما العيش الا ما تلذ وتشتهي　　وان عاب فيه ذو الشنان وفندا

فحـذف الهمزة قال أبو علي : ويجوز أن يكون خففها . وقال أبو عبيدة : وشنيت أيضاً بمعنى أقررت به ، وبؤت به وانشد للعجاج .

زلّ بنو العوام عن آل الحـكم　　وشنؤا الملك لملك ذو قـدم

وقال الفرزدق :

ولو كان هـذا الامر في جاهلية   شنئت به أوغصّ بالمـاء شاربه

قال ابو علي : وقـــد جاء فعلان مصدراً ووصفاً وهما جميعاً قليلان . فما حل مصدراً ما حكاه سيبويه من قولهم : خمصان وندمان . وانشد ابو زيد ما ظاهره أن يكون فعلان منه صفة وهو :

لما استمر بها شيحان منبجح   بالبين عنك بها مولاك شنآنا

[اللغة] :

حكي أبو زيد في مؤنث شنآن شنآنى . ويقرب أن يكون شيحان فعلان . وفي الحـديث (ثم اعرض وأشاح) قال ابو علي : وترك صرف شيحان في البيت مع أنه لا فعلى له . ويجوز أن يكون ، لانه اسم علم . ويجوز أن يكون على قول من يجوز ترك صرف ما ينصرف في الشعر . فاما الشنان قال ابو علي : فعلان يجيء على ضربين :

احدها ـ اسم ، والاخر ـ صفة فالاسم على ضربين :

احدها ان يكون مصدراً ، كالنقران والغليان ، والطوفان والغشيان . وعامة ذلك يكون معناه التحرك والتقلب . والاسم الذي ليس بمصدر نحو الورشان والعلجان . وأما مجيئه فنحو الزفيان والقطوان والصميان ، وكبش اليان ونعجة اليانة ، وكباش الي ، ومثله حمار قطوان واتان قطوانة من قطا يقطوقطواً وقطواً : إذا قارب بين خطوه . ومن خفف النون ذهب الى انه مصدر ، مثل ليان . ومعنى الاية لا يحملنكم بغض قوم أي بغضكم قوماً لصدهم إياكم ومن اجل صدهم اياكم ان تعتدوا فاضيف المصدر الي المفعول وحذف الفاعل كقوله : من دعاء الخير وسؤال نعجتك وقوله : ان صدوكم من كسر الهمزة ذهب الى ان (ان) للجزاء يقوي ذلك ان في قراءة ابن مسعود ان يصدوكم فتى ؟ قيل كيف تكون للجزاء والصد ماض ، لانه كان سنة الحديبية من المشركين للمسلمين ، وما يكون ماضياً لا يكون شرطاً ؟ قيل :

ذكر ابو علي ان الماضي قد يقع في الجزاء لا ان المراد بالماضي الجزاء ، لكن على انه إن كان مثل هـــذا الفعل ، فيكون اللفظ على ما مضى والمعنى على مثله ، كانه يقول : إن وقع مثل هذا الفعل يقع منكم كذا . وعلى ذلك حمل قول الشاعر :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة　　ولم تجدي من أن تقري به بدأ (١)

إن قد أغنى عنه ما تقدم من قوله : « لا يجر منكم » والمعنى إن صدوكم قوم عن المسجد الحرام ، فلا تكسبوا عدوانا . ومن فتح الهمزة ، فلانه مفعول له والتقدير لا يجرمنكم شنأن قوم ، لان صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، فان الثانية في موضــع نصب بأنه المفعول الثاني . والأولى منصوبة ، لأنه مفعول له وقوله : « ان تعتدوا » معناه إن تجاوزوا حكم الله فيهم إلى ما نهاكم عنه . وذكر انها نزلت في النهي عن الطلب بدخول الجاهلية . ذهب اليه مجاهد وقال : هذا غير منسوخ . وهو الاولى . وقال غيره هو منسوخ ذهب اليه ابن زيد . وإنما قلنا : إنه غير منسوخ ، لان معناه لا تتعدوا الحق فيما امرتكم به . وإذا احتمل ذلك ، لم يجز أن يقال هو منسوخ إلا بحجة .

وقوله : وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ليس بعطف على أن تعتدوا ، فيكون في موضع نصب ، بل هو استئناف كلام أمر الله تعالى الخلق بان يعين بعضهم بعضاً على البر وهو العمل بما امرهم الله به ، واتقاء ما نهاهم عنه ، ونهاهم ان يعين بعضهم بعضاً على الاثم . وهو ترك ما أمرهم به ، وارتكاب ما نهاهم عنه من العدوان ، ونهاهم ان يجاوزوا ما حد الله لهم في دينهم ، وفرض لهم في أنفسهم وبه قال ابن عباس وابو العالية وغيرهما من المفسرين .

وقوله : « واتقوا الله ان الله شديد العقاب » أمر من الله ، ووعيد وتهديد لمن اعتدى حدوده ، وتجاوز أمره بقول الله : اتقوا الله . ومعناه احذروا معاصيه وتعدي حدوده فيما امركم به ونهاكم عنه ، فتستوجبوا عقابه متى خالفتم وتستحقوا

(١) انظر ١ : ٢٨٩ ـ ٣٥٢ .

اليم عقابه ، ثم وصف عقابه بالشدة فقال : إن الله شديد العقاب لمن يعاقبه من خلقه ، لأنه نار لا يطفى حرها ، ولا يخمد جمرها ، ولا يسكن لهيبها (نعوذ بالله منها) .

قوله تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) آية بلاخلاف .

[اللغة] :

بين الله (تعالى) في هذه الآية ما استثناه في قوله : « احلت لكم بهيمة الانعام إلا ما يتلى عليكم » فهذا مما تلاه علينا فقال مخاطباً للمكلفين : « حرمت عليكم الميتة » وأصله الميتة مشدد غير انه خفف ، ولو قرئ على الاصل كان جائزاً إلا انه لم يقرأ به احد هاهنا إلا أبا جعفر المدني يقال : ميت بمعنى واحد . وقال بعضهم الميت لما لم يمت والميت لما قد مات وهذا ليس بشيء لان ميت يصلح لما قد مات ، ولما سيموت . قال الله (تعالى) : « انك ميت وانهم ميتون » وقال الشاعر في الجمع بين اللغتين :

ليس من مات فاستراح بميت   انما الميت ميت الاحياء

فجعل الميت مخففاً من الميت وقال بعضهم : الميتة كلما له نفسٌ سائلة من دواب

البر ، وطيره مما اباح الله اكلها أهليهاووحشيها فارقها روحها بغير تذكية . وقدروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه سمى الجراد والسمك ميتـاً فقال : ميتتان مباحان : الجراد ، والسمك .

وقوله : « والدم » تقديره ، وحرم عليكم الدم . وقيل : إنهم كانوا يجعلون في المباعر يشوونها ويا كلونها ، فاعلم الله تعالى ان الدم المسفوح أي المصبوب حرام ، فاما المتلطخ باللحم ، فهو كاللحم ، وما كان منه كاللحم مثل الكبد فهو مبـاح . وأما الطحال ، فهو محرم عندنا . وقد روي كراهته عن « علي عليه السلام ، وابن مسعود واصحابهما » وعند جميع الفقهاء أنه مباح . وانما شرطنا في الدم المحرم ما كان مسفوحا ، لانه (تعالى) بين ذلك في آية اخرى فقال : « او دماً مسفوحاً » .

وقوله : « ولحم الخنزير » معناهوحرم عليكم لحم الخنزير اهليه وبريه ، فالميتة والدم مخرجها في الظاهر مخرج العموم . والمراد بها الخصوص . ولحم الخنزير على ظاهره في العموم . وكذلك كل ما كان من الخنزير حرام كلحمه من الشحم والجلد ، وغير ذلك وقوله : « وما اهل لغير الله به » موضع ما رفع وتقديره وحرم عليكم ما أُهلّ لغير الله به . ومعنى أُهلّ لغير الله به ما ذبح للاصنام والأوثان أي ذكر اسم غير الله عليه ، لان الاهلال رفع الصوت بالشيء . ومنه استهلال الصبي وهو صياحـه إذا سقط من بطن امه . ومنه إهلال المحرم بالحج أو العمرة : إذا لبّى به . قال ابن احمر :

يهل بالفر قــد ركباننا   كما يهل الراكـب المعتمر

فما تقرب به من الذبح لغير الله اوذكر عليه غير اسمه حرام ، وكل ما حرم اكله مما عددناه يحرم بيعه وملكه ، والتصرف فيه .

والخنزير يقــع على الذكر والانثى . وفي الاية دلالة على ان ذبائح من خالف الاسلام ، لا يجوز اكله ، لانهم يذكرون عليه اسم غير الله لانهم يعنون بذلك من ابد شرع موسى ، أو اتخذ عيسى ابناً ، وكذب محمد بن عبد الله (ص) وذلـك غير الله ، فيجب أن لا يجوز أكل ذبيحته . فاما من اظهر الاسلام ، ودان بالتجسيم ،

والصورة وقال بالجبر والتشبيه أو خالف الحق ، فعندنا لا يجوز اكل ذبيحته . فأما الصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين وموارثته ، فأنه يجري عليه ، لان هذه الأحكام تابعة في الشرع لاظهار الشهادتين . واما مناكحته فلا تجوز عندنا . وقال البلخي حاكياً عن قوم : إنه لا يجوز أجراء شيء من ذلك عليهم . وحكى عن آخرين أنه يجري جميع ذلك عليهم ، لانها تجري على من اظهر الشهادتين دون المؤمنين على الحقيقة ، وكذلك أجريت على المجانين ، والاطفال . فأما التسمية على الذبيحة ، فعندنا واجبة من تركها متعمداً ، لايجوز اكل ذبيحته ، وان تركها ناسياً ، لم يكن به بأس . وكذلك إن ترك استقبال القبلة متعمداً لم يحل أكل ذبيحته ، وان تركه ناسياً ، لم يحرم . . . وفي ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف .

والمنخنقة قال السدي : هي التي تدخل رأسها بين شعبتين من شجرة فتختنق وتموت . وقال الضحاك : هي التي تخنق وتموت . وقال قتادة : هي التي تموت في خناقها . وقال ابن عباس : هي التي تختنق ، فتموت . وحكي عن قتادة ان أهل الجاهلية كانوا يخنقونها ، ثم يأكلونها . والاولى حمل الآية على عمومها في جميع ذلك وهي التي تختنق حتى تموت ، سواء كان في وثاقها أو بادخال رأسها في موضع لا تقدر على التخلص أو غير ذلك ، لان الله (تعالى) وصفها بأنها المنخنقة ، ولو كان الامر على ما حكي عن قتادة ، لقال : « والمخنوقة » .

وقوله : « والموقوذة » يعني التي تضرب حتى تموت : يقال : وقذها أقذها وقذاً وأوقذها يوقذها إيقاذاً : إذا أثخنتها ضرباً . قال الفرزدق :

شفارة تقذ الفصيل برجلها فطارة لقوادم الابكار

وهو قول ابن عباس ، وقتادة والضحاك والسدي :

وقوله : « والمتردية » يعني التي تقع من جبل ، أو تقع في بئر أو من مكان عالٍ ، فتموت . وهو قول ابن عباس . وقتادة والسدي ، والضحاك ومتى وقع في بئر ولا يقدر على موضع ذكاته ، جاز أن يطعن ويضرب بالسكين في غير المذبح حتى

يبرد ، ثم يؤكل . وقوله : « والنطيحة » يعني التي تنطح أوتنطح ، فتموت والنطيحة بمعنى المنطوحة ، فنقل من مفعول الى فعيل ، فان قيل : كيف تثبت فيها الهاء ، وفعيل إذا كان بمعنى مفعول مثل لحية دهين ، وعين كحيل و كف خضيب ، بلا هاء التأنيث في شيء من ذلك ؟ قيل : اختلف في ذلك فقال : بعض البصريين اثبت فيها الهاء أعني في النطيحة ، لانها جعلت كالاسم ، مثل الطويلة والظريفة فوجه . هذا تأويل النطيحة الي معنى الناطحة . ويكون المعنى حرمت عليكم النـاطحة التي تموت من نطاحها . وقال بعض الكوفيين : إنما يحذف الهاء من فعيلة بمعنى مفعولة إذا كانت صفة لاسم قـد تقدمها ، مثل كف خضيب ، وعين كحيل ، فاما إذا حـذف الـكف والعين والاسم الـذي يكون فقيل نعتاً له واجتزوا بفعيل أثبتوا فيه هـاء التأنيث ، ليعـلم بثبوتها فيه أنها صفة للمؤنث دون المـذكر فيقول : راينا كحيلة وخضيبة وا كيلة السبع ، فلذلك دخلت الهاء في النطيحة ، لا نها صفة المؤنث . والقول بأن النطيحة بمعنى المنطوحة هو قول اكثر المفسرين : ابن عباس ، وابو ميسرة والضحاك ، والسدي وقتادة ، لانهم اجمعوا على تحريم الناطحة والمنطوحة إذا ماتا .

وقوله : « وما اكل السبع » موضع (ما) رفع وتقديره وحرم عليكم ما اكل السبع بمعنى ما قتله السبع . وهو قول ابن عباس ، والضحاك وقتادة ، وهو فريسة السبع .

وقوله : « إلا ما ذكيتم » معناه إلا ما ادركتم ذكاته ، فذكيتموه من هـذه الاشياء التي وصفها . وموضع (ما) نصب بالاستثناء . واختلفوا في الاستثناء إلى ماذا يرجع فقال قوم : يرجـع إلى جميع ما تقدم ذكره من قوله : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع » الا ما لا يقبل الذكاة من الخنزير والدم . وهو الاقوى . ذهب اليه علي (عليه السلام) وابن عباس قال : وهو أن تدركه تتحرك أذنه اوذنبه ، أو تطرف عينه . وهو المروى عن ابي جعفر وابي عبد الله (ع) وبه قال الحسن وقتادة

وإبراهيم وطاووس ، وعبيد بن عمير والضحاك ، وابن زيد وقال اخرون : هو استثناء من التحريم ، لا من المحرمات ، لان الميتة لا ذكاة لها ، ولا الخنزير قالوا : والمعنى حرمت عليكم الميتة والدم وسائر ما ذكر إلا ما ذكيتم مما احله الله لكم بالتذكية ، فانه حلال لكم . ذهب اليه مالك وجماعة من أهل المدينة ، والجبائي وسئل مالك من الشاة يخرق جوفها السبع حتى يخرج أمعاءها فقال لا أرى ان تذكى ولا يؤكل أي شيء يذكى منها . وقال كثير من الفقهاء إنه يراعي أن يلحق فيه حياة مستقرة ، فيذكى ويجوز أن يؤكل وما يعلم أنه لاحياة فيه مستقرة ، فلا يجوز بحال . واختار الطبري الأقل . وقال : كل ما أدرك ذكاته مما ذكر من طير أو بهيمة قبل خروج نفسه ومفارقة روحه جسده ، فحلال اكله إذا كان مما أحله الله لعباده واختار البلخي ، والجبائي الاول ، فان قيل : فما وجه تكرير قوله : « وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة » وجميع ما عدد تحريمه في هذه الآية وقد افتتح الآية بقوله : « حرمت عليكم الميتة » والميتة تعم جميع ذلك وان اختلفت أسباب موته من خنق أو ترد أو نطح أو اهلال لغير الله به أو اكيل سبع . وانما يكون لذلك معنى على قول من يقول : إنها ، وان كانت فيها حياة إذا كانت غير مستقرة ، فلا يجوز أكلها . قيل : الفائدة في ذلك ان الذين خوطبوا بذلك لم يكونوا يعدون الميت إلا مامات حتف انفه من دون شيء من هذه الاسباب ، فاعلمهم الله ان حكم الجميع واحد ، وان وجه الاستباحة هو التذكية المشروعة . وقال السدي إن ناساً من العرب كانوا يأكلون جميع ذلك ، ولا يعدونه ميتاً . انما يعدون الميت الذي يموت من الوجع .

والتذكية : هو فري الاوداج والحلقوم إذا كانت فيه حياة ، ولا يكون بحكم الميت . واصل الذكاء في اللغة تمام الشي فمن ذلك الذكاء في السن ، والفهم وهو تمام السن . قال الخليل : الذكاء أن تأتي في السن على قروحه ، وهو سن في ذات الحافر ، هي البزولة في ذات الخف ، وهي الصلوغه في ذات الظلف . وذلك تمام استكمال القوة . قال الشاعر :

يفضله اذا اجتهدا عليها   تمام السن منه والــذكاء

وقيل جرى المذكيات غلاب اي جرى المسار التي قد أسنت ومعنى تمام السن النهاية في الشباب ، فاذا نقص عن ذلك أو زاد ، فلا يقال له الذكاء . والذكاء في الفهم أن يكون فهما تاماً سريع القبول وذكيت النار إنما هو من هـذا تأويله أتممت اشعالها فالمعنى على هذا ما ذكيتم أي ما ادركتم ذبحه على التمام .

وقوله : « وما ذبح على النصب » فالنصب : الحجارة التي كانوا يعبدونها وهي الاوثان . واحدها نصب ، ويجوز أن يكون واحداً ، وجمعه أنصاب . (وما) ،وضعه رفـع عطفاً على ما تقدم . وتقديره وحرم عليكم ما ذبح على النصب . وبه قال مجاهـد و ابن جريج ، وقتادة . وقال ابن جريج : النصب ليست اصناما الصنم يصور وينقش ، وهذه حجارة تنصب ثلثمائة وستون حجراً . ومنهم من يقول ثلثمائة منها لخزاعـه ، فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت ، وشرحوا اللحم ، وجعلوه على الحجارة . فقال المسلمون : كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم فنحن أحق أن نعظمه ، فانزل الله « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها .... الاية » وقوله : « وان تستقسموا بالازلام ذلـكم فسق » موضع (ان) رفـع . وتقديره ، وحرم عليكم الاستقسام بالازلام . وواحد الأزلام زلم وزلم قال الراجز :

بات يراعيها غلام كالزلم

وهي سهام كانت للجاهلية مكتوب على بعضها أمرني ربي ، وعلى بعضها نهاني ربي ، فاذا أرادوا سفراً أو أمراً يهتم به . ضربوا تلك القداح فان خرج السهم الذي عليه أمرني ربي ، مضى لحـاجته وإن خرج الذي عليه نهاني ربي ، لم يمض ، وإن خرج ما ليس عليه شيء أعادوها فبين الله (تعالى) أن ذلك حرام العمل به .

والاستقسام الاستفعال من قسمت أمري أي قلبته ودبرته قال الراعي :

وتركت قومي يقسمون امورهم   اليـك أم يتلبثون قليلا

وقيل : معناه طلب قسم الأرزاق بالقداح التي كانوا يتفاءلون بها في اسفارهم وابتداءات أمورهم قال الشاعر يفتخر بقوة عزيمته وانه لا يلتفت إلى ذلك .

أولم اقسم فتربثني القسوم (١)

وبه قال ابن عباس ، وقتادة وسعيد بن جبير ، ومجاهد والسدي قال مجاهد : هي سهام العرب ، وكعاب فارس والروم كانوا يتقامرون بها .

وقوله : « ذلكم فسق » معنى هذه الاشياء التي ذكرها فسق يعني خروج من طاعة الله الى معصية وهو قول ابن عباس ، وأصله من فسقت الرطبة : إذا خرجت من قشرها . قال الزجاج : ولو كان بعض هذه المرفوعات نصباً بتقدير وحرم الله الدم ولحم الخنزير ، لكان جائزاً إلا انه لم يقرأ به احد والقراءة متبعة ، لا يجوز خلاف ما قرىء به .

وقوله : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » نصب اليوم على الظرف . والعامل فيه يئس ذو والفسق اليوم . وليس يراد به يوماً بعينه ومعناه الآن يئس الذين كفروا من دينكم ، كما يقول القائل : أنا اليوم قد كبرت ، وهذا لا يصلح إلى اليوم يريد الآن .

ويئس على وزن فعل ييأس على وزن يفعل - بفتح العين ، وروي بكسرها - وقيل : يئس على وزن لعب بكسر اللام ، والعين - وذكر يأيس .

والمعنى ان الله قد حول الخوف الذي كان يلحقكم منكم اليهم ، ويئسوا من بطلان الاسلام ، وجاءكم ما كنتم توعدون به من قوله « ليظهره على الدين كله . والدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه وأمرهم بالقيام به . ومعنى يئس انقطع طمعهم من دينكم أن تتركوه ، وترجعوا منه إلى الشرك . وبه قال ابن عباس والسدي وعطا . وقيل : إن اليوم الذي ذكر هو يوم عرفة من حجة الوداع بعد دخول العرب كلها في الاسلام . ذهب اليه مجاهد ، وابن جريج وابن زيد . وقيل : يوم جمعة ، لما نظر

---

(١) في المطبوعة « فتوثبني » بدل « فتربثني » . الطبري ٩ - ٥١٠ مجاز القرآن لابي عبيدة ١ : ١٥٢ . قسوم جمع قسم : الحظ الربث حبسك الانسان عن حاجته .

النبي (صلى الله عليه واله) فلم ير الا مسلماً موحداً ، أو لم ير مشركا .

وقوله « فلا تخشوهم » هذا خطاب المؤمنين نهاهم الله ان يخشوا ويخافوا من الكفار أن يظهروا على دين الاسلام ، ويقهروا المسلمين ويردوهم عن دينهم ، ولكن اخشوني وخافوني إن خالفتم امري وارتكبتم معصيتي ان احل بكم عقابي وأنزل عليكم عذابي وهو قول ابن جريج ، وغيره .

وقوله : « اليوم اكملت لكم دينكم » في تأويله ثلاثة اقوال :

احدها ـ قال ابن عباس ، والسدي واكثر المفسرين إن معناه أكملت لكم فرائضي وحدودي وأمري ونهيي وحلالي وحرامي بتنزيلي ما انزلت ، وتبياني ما بينت لكم ، فلا زيادة في ذلك ، ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا اليوم . وكان ذلك اليوم عام حجة الوداع قالوا : ولم ينزل بعد هذا على النبي (ص) شيء من الفرائض في تحليل شيء ، ولا تحريمه وأنه (عليه السلام) مضى بعد ذلك بأحدى وثمانين ليلة . وهو اختيار الجبائي والبلخي ، فان قيل : أكان دين الله ناقصاً في حال حتى أتمه ذلك اليوم ؟ قيل : لم يكن دين الله ناقصاً في حال ، ولا كان إلا كاملا ، لكن لما كان معرضاً للنسخ ، والزيادة فيه . ونزول الوحي لم يمتنع أن يوصف غيره بانه أكمل منه ، حين أمن جميع ذلك فيه . وذلك يجري مجرى وصف العشرة بانها كاملة العدد ، ولا يلزم أن توصف بانها ناقصة ، لما كان عدد المئة اكثر منها ، واكمل . فكذلك ما قلناه . وقال الحكم وسعيد بن جبير وقتادة معناه أكملت لكم حجكم وأفردتكم بالبلد الحرام تحجون دون المشركين ، ولا يخالطكم مشرك وهو الذي اختاره الطبري قال لان الله قد انزل بعد ذلك قوله : « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » وقال الفراء هي آخر آية نزلت . وهذا الذي ذكره لو صح لكان ترجيحاً لكن فيه خلاف . وقال الزجاج : معنى اكملت لكم الدين كفيتكم خوف عدوكم وأظهرتكم عليهم ، كما تقول : الآن كمل لنا الملك . وكمل لنا ما نريد أي كفينا ما كنا نخافه . وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) أن الآية نزلت بعد أن نصب النبي (ص) علياً علماً للامة يوم غدير خم منصرفه عن حجة الوداع ، فأنزل

الله يومئذ « اليوم اكملت لكم دينكم » .

وقوله : « واتممت عليكم نعمتي » خاطب الله (تعالى) جميع المؤمنين بأنه أتم نعمته عليهم باظهارهم على عدوهم المشركين ، ونفيهم إياهم عن بلادهم ، وقطعه طمعهم من رجوع المؤمنين ، وعودهم إلى ملة الكفر ، وانفراد المؤمنين بالحج والبلد الحرام .

و: قال ابن عباس وقتادة والشعبي .

وقوله : « ورضيت لكم الاسلام ديناً » معناه رضيت لكم الاستسلام لأمري والانقياد لطاعتي على ما شرعت لكم من حدوده ، وفرائضه ومعالمه ديناً يعني بذلك طاعة منكم لي . فان قيل : أو ما كان الله راضياً الاسلام ديناً لعباده الايوم أنزلت هذه الاية ؟ قيل : لم يزل الله راضياً لخلقه الاسلام ديناً ، لكنه لم يزل يصف نبيه محمد (صلى الله عليه واله) واصحابه في درجات الاسلام ، ومراتبه درجة بعد درجة ، ومرتبة بعد مرتبة ، وحالا بعد حال حتى اكمل لهم شرائعه وبلغ بهم أقصى درجاته ، ومراتبه ، ثم قال : حين أنزلت هذه الآية « ورضيت لكم الاسلام ديناً » فالصفة التي لها اليوم والحال التي انتم عليها ، فالزموه ، ولا تفارقوه . قال ابن عباس وعمر وعامر الشعبي وقتادة ، كان ذلك يوم الجمعة . وقال الطاووس بن شهاب ، وشهر ابن خوشب ، واكثر المفسرين نزلت هذه الآية يوم عرفة حجة الوداع . وروى حنش عن ابن عباس ، قال : ولد النبي (ص) يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، وأنزلت المائدة يوم الاثنين ، وانزلت « اليوم اكملت لكم دينكم يوم الاثنين » ورفع الذكر يوم الاثنين . وقال الربيع بن أنس : نزلت في المسير من حجة الوداع . وقوله : « فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم » معناه من دعته الضرورة في مجاعة لان المخمصة شدة ضمور البطن

لاثم أي غير مائل إلى إثم .

والمخمصة مفعلة ، مثل المجنبة والمنجلة من خمص البطن وهو طيه ، واضطماره من الجوع ، وشدة السغب ها هنا دون أن يكون مخلوقاً كذلك . قال النابغة الذبياني

في صفة امرأة بخمص البطن :

والبطن ذو عكن خميصٌ لين　　والنحر ينفجه بثدي مقعد(١)

ولم يرد بذلك وصفها بالجوع ، لكن أراد وصفها بلطافة طيّ ماعلا الاوراك والانخاذ من جسدها ، لان ذلك المحمود من النساء . فاما الاضطمار من الضر فكقول أعشى ثعلبة :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم　　وجاراتكم غبرٌ تبتْنَ خماصاً(٢)

يعني يبتن مضطمرات البطن من الجوع . وقال بعض نحوي البصريين : المخمصة المصدر من خمصه الجوع . وغيره يقول : هو اسم للمصدر ، وكذلك تقع المفعلة اسماً في المصادر للتأنيث ، والتذكير : والذي قلناه هو قول ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد .

وقوله : « غير متجانف لأثم » نصب على الحال . والمتجانف المّايل للأثم المنحرف اليه . ومعناه في هذا الموضع المتعمد له القاصد اليه من جنف القوم : إذا مالوا . وكل اعوج ، فهو اجنف .

والمعنى فمن اضطر الى أكل الميتة ، وما عددّ الله تحريمه عند المجاعة الشديدة غير متعمد الى ذلك ، ولا مختار له ، ولا مستحل له على كل حال ، فان الله أباحه له . تناول ذلك مقـــدار ما يمسك رمقه ، لا زيادة عليه . وهو قول أهل العراق . وقال أهل المدينة : يجوز أن يشبع منه عند الضرورة . وما قلناه قول ابن عباس ، ومجاهد وقتادة . قال قتادة : « غير متجانف لأثم » أي غير عاص بان يكون باغياً أو محاربا أو خارجا في معصية . وقال ابن زيد : لا تأكل ذلك ابتغاء الأثم ولا جرأةً عليه .

وقوله : « فانّ الله غفورٌ رحيمٌ » في الكلام متروك دلّ ما ذكر عليه ، لان المعنى فمن اضطر في مخمصة الى ماحرمت عليه مما ذكرت في هذه الآية غير متجانف لأثم ، فاكله لدلالة الكلام عليه .

ومعنى « فان الله غفورٌ رحيمٌ » ان الله لمن أكل ماحرمت عليه بهذه الآية

(١) ـ ديوانه : ٦٦ واللسان : (قعد) . العكن : اطواء البطن . تنفجه : ترفعه .
(٢) ديوانه : ١٠٩ . ومجاز القرآن ١ : ١٥٣ .

أكله في مخمصة متجانف ، لأثم غفور لذنوبه أي ساتر عليه أكله ، ويعفو عن مؤاخذته به ، وليس يريدأن يغفر له عقاب ذلك ، لانه اباحه له ، فلا يستحق عليه العقاب وهو رحيم أي رفيق بعباده . لان رحمتـــه ورفقه أنه أباح لهم أكل ما حرم عليهم في حال الخوف على النفس وروى المثنى قال : قلنا يارسول الله (ص) إنا بارض يصيبنا فيها مخمصة ، فما يصلح لنا من الميتة ؟ قال : إذا لم تصطبحوا أو تغتبقوا أو تحتفئوا بها بقـلا ، فشأنكم بها . وقال الحسن : يأكل منها مسكته .

وذكر في تحتفئوا خمس لغات : تحتفئوا بالهمزة وتحتفوا ـ بحذفها ـ وتحتفيوا ـ بقلبها ياء ـ وتحتفوا وتحفوا ـ بالتخفيف ـ والحفا أصل البردي كانوا يقشرونه ويأكلونه في المجاعة ، فمع وجود ذلك لا يجوز اكل الميتة .

وقوله : « فان الله غفور رحيم » عقيب قوله : « فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لأثم » لا يدل على ان له أن يعاقبهم على فعل المباح ، لان الوجه في ذلك أنه أراد أن يصف نفسه بمغفرة الذنوب وسترها ، والصفح عنها ليدل بذلك على أنه أحرى ألا يؤخـذ بفعل المباحات التي ليست بذنوب ، كما قال : « إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم » فدل على أن ما يفعله من المغفرة أو العقوبة صواب وحكمة ، ليكون أعم في الدلالة على استحقاقه الاوصاف المحمودة . واجاز بعضهم أن يكون ذلـك ثواباً لبعض المكلفين قدمه ، كما انه يجوز ان تكون الحدود عقاباً لهم قدمه فلا شبهة في ذلك .

قوله تعالى :

﴿ يسئلونَكَ ماذا اُحِلَّ لَهم قُل اُحِلَّ لَكم الطيباتُ وَماعلمتم مِنَ الجوارحِ مُكلبينَ تعلمونَهنَّ ممـــا عَلمكم اللهُ فكلوا مِما امسكنَ عَليكم وَاذكروا اسمَ اللهِ عَليهِ وَاتقوا اللهَ انَّ اللهَ سَريعُ الحساب ﴾ (٥)

ـ آية بلا خلاف ـ .

موضع (ما) رفع ويحتمل أن يكون وحدها اسما وخبرها قوله : (ذا) واحل من صلة ذا . وتقديره أي شيء الذي احل لهم ؟ ويحتمل أن يكون ما وذا اسما واحداً ، ورفع بالابتداء وتقديره أي شيء احل لهم ؟ واحل لهم خبر الابتداء . فمعنى الآية يسألك يا محمد اصحابك ما الذي احل لهم اكله من المطاعم ، فقل لهم : احل لكم الطيبات منها وهي الحلال الذي أذن لكم ربكم في أكله من الذبائح على قول الطبري والجبائي ، وغيرهما وقال البلخي : الطيبات هو ما يستلذ به . قال قوم : واحل لكم ايضاً مع ذلك صيد ما علمتم من الجوارح وهي الكواسب من سباع الطير ، والبهائم ولا يجوز أن يستباح عندنا أكل شيء مما اصطاده الجوارح من السباع سوى الكلب إلا ما ادرك ذكاته . وسميت الطير جوارح ، لجرحها أربابها وكسبها اياهم أقواتهم من الصيد يقال منه : جرح فلان أهله خيراً إذا كسبهم خيراً . وفلان جارحة أهله يعني كاسبهم ، ولا جارحة لفلانة أي لا كاسب لها قال اعشى بني ثعلبة :

ذات خد منضج ميسمها تذكر الجارح ما كان اجترح

يعني اكتسب . وقوله : « وما علمتم » تقديره وصيد ما علمتم من الجوارح وحذف لدلالة الكلام عليه ، لان القوم على ما روي كانوا سألوا رسول الله (ص) حين أمرهم بقتل الكلاب عما يحل لهم اتخاذه منها ، وصيده ، فأنزل الله (تعالى) فيما سألوا عنه هذه الآية ، فاستثنى (عليه السلام) مما كان حرم اتخاذه منها ، وأمر بقتله كلاب الصيد ، وكلاب الماشية ، وكلاب الحرث وأذن في اتخاذ ذلك ذكرت ذلك سلمى ام رافع عن أبي رافع . قال جاء جبرائيل إلى النبي (ص) يستأذن عليه ، فاذن له فقال : قد اذنا لك يارسول الله فقال : اجل ولكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب . قال ابو رافع : فأمرني رسول الله (صلى الله عليه واله) أن أقتل كل كلب بالمدينة ، فقتلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها ، فتركته رحمة لها . وجئت إلى رسول الله (ص) فاخبرته ، فأمرني فرجعت ، وقتلت الكلب ، فجاؤا فقالوا : يارسول الله ما يحل لنا من هذه الامة التي أمرت بقتلها ، فسكت رسول الله (ص)

فأنزل الله « يسألونك ماذا احل لهم قل احل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين » وبه قال عكرمة ومحمد بن كعب القرظي واختلفوا في الجوارح التي ذكر الي الاية : بقوله : « وما علمتم من الجوارح مكلبين » فقال قوم : هو كل ما علم ذو صيد فيتعلمه بهيمة كانت او طائراً . ذهب اليه الحسن ، ومجاهد وخثيمة بن عبد الرحمن . ورووه عن ابن عباس ، وطاووس وعلي بن الحسين وابي جعفر (ع) وقالوا : الفهد والبازي من الجوارح . وقال قوم : عنى بذلك الكلاب خاصة دون غيرها من السباع . ذهب اليه الضحاك والسدي وابن عمر وابن جريج . وهو الذي رواه أصحابنا عن ابي عبد الله (عليهما السلام) فاما ماعدا الكلاب ، فما ادرك ذكاته ، فهو مباح ، وإلا فلا يحل أكله . ويقوي قولنا قوله تعالى : « مكلبين » وذلك مشتق من الكلب ومن صاد بالباز والصقر لا يكون مكلباً .

وقوله : « مكلبين » نصب على الحال وتقديره وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح مكلبين أي في هذه الحال . يقال : رجل مكلب وكلاب إذا كان صاحب صيد بالكلاب . وفي ذلك دليل على أن صيد الكلب الذي لم يعلم ، حرام إذا [لم](١) تدرك ذكاته .

وقوله : « تعلمونهن مما علمكم الله » معناه تؤدبون الجوارح ، فتعلمونهن طلب الصيد لكم بما علمكم الله من التأديب الذي أدبكم به . وقال بعضهم : معناه كما علمكم الله . ذهب اليه السدي . وهذا ضعيف لأن من المعنى الكاف لا يعرب في اللغة ، ولا بينهما تقارب ، لان الكاف للتشبيه ومن للتبعيض واختلفوا في صفة التعلم للكلب فقال بعضهم : هو ان يستشلي لطلب الصيد إذا أرسله صاحبه ، ويمسك عليه إذا أخذه ، فلا يأكل منه ويستجيب له إذا دعاه . فاذا توالى منه ذلك كان معلما . ذهب إليه ابن عباس وعطا وابن عمر والشعبي وطاووس وابراهيم والسدي . قال عطا : إذا أكل منه فهو ميتة . وقال ابن عباس : إذا اكل الكلب من الصيد ، فلا تأكل منه فانما امسك على نفسه . وهو الذي دلت عليه أخبارنا . غير أنهم اعتبروا ان يكون

(١) ـ (لم) ساقطة من المطبوعة .

اكل الكلب للصيد دائما . فأما إذا كان نادراً ، فـلا بأس باكل ما أكل منه . وقال ابو يوسف ، ومحمد : حد التعليم أن يفعل ذلـك ثلاث مرات . وقال قوم : لاحد لتعليم الكلاب ، فاذا فعل ما قلناه ، فهو معـلم . وقد دل على ذلك رواية اصحابنا ، لانهم رووا أنه إذا أخـذ كلب مجوسي فعلمه في الحال ، فاصطاد به ، جاز أكل ما يقتله . وقد بينا أن صيد غير الكلب ، لا يحل أكله الا ما أدرك ذكاته . فلا يحتاج أن تراعي كيف تعلمه ، ولا اكله منه . ومن أجاز ذلـك أجاز أكل ما اكل منه البازي والصقر . ذهب اليه عطا وابن عباس والشعبي وابراهيم ، وقالوا : تعلم البازي هو أن يرجع إلى صاحبه . وقال قوم : جوارح الطير والسباع سواء في ذلـك ما أكل منه ، وما لا يؤكل . روي ذلـك عن النبي (ص) والشعبي وعكرمة ، وابن جريج . وقال قوم : تعليم كل جارحة من البهائم والطير واحد وهو أن يشلى على الصيد ، فيستشلي ، ويأخذ الصيد ، ويدعوه صاحبه ، فيجيب ، فاذا كان كذلك كان معلما اكل منه أو لم يأكل . روي ذلك عن سلمان رواه قتادة عن سعيد بن المسيب ، عن سلمان ، قال : وان اكل ثلثه فكل . وبه قال سعد بن ابي وقاص . وقال لو لم يبق إلا جذية ، جاز أكلها وبه قال ابو هريرة ، وابن عمر . وقد بينا مذهبنا في ذلك وهو الذي رواه عدي بن حاتم عن النبي (صلى الله عليه واله) .

وقوله : « فكلوا مما امسكن عليكم » يقوي قول من قال : ما أكل منه الكلب لا يجوز أكله ، لانه أمسك على نفسه . ومن شرط استباحة ما يقتله الكلب أن يكون صاحبه سمى عند إرساله ، فان لم يسم لم يجزله اكله إلا إذا ادرك ذكاته وحده أن يجده يتحرك : عينه أو أذنه أو ذنبه ، فيذكيه حينئذ بفري الحلقوم والاوداج ، واختلفوا في (من) [من] قوله : « مما امسكن عليكم » فقال قوم : هي زائدة ، لان جميع ما يمسكه ، فهو مباح . وتقديره فكلوا ما امسكن عليكم . وجرى ذلك مجرى قوله : « يكفر عنكم من سيئاتكم » وقوله : « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » وتقديره وينزل من السماء جبالا فيها برد . وقال بعضهم : وينزل من

السماء من جبال فيها من برد أي من السماء من برد يجعل الجبال من برد في السماء ويجعل الانزال منها وانكر قوم ذلك وقالوا (من) للتبعيض ويقوي قولهم : قد كان من مطر وكان من حديث . يقول هل كان من مطر ، وهل كان من حديث عندكم ونكفر عنكم من سيئاتكم ما يشاؤه ويريده . وقوله : « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » يجيز حذف (من) برد ولا يجيز حذفها من الجبال . ويقول : المعنى وينزل من السماء من امثال جبال برداً ، ثم أدخلت في من البرد مفسر عنده عن أمثال الجبـــال . وقد أقيمت الجبال مقام الامثال . والجبال هي جبال فلا يجيز حذف (من) من الجبال ، لانها دالة على أن في السماء الذي أنزل منه البرد أمثال جبال برد ، لا جبال برد . واجاز حذف (من) من برد ، لان البرد مفسر من الامثال ، كما يقال : عندي رطلان زيتاً ، ومن زيت . وليس عندك الرطلان وانما عندك المقدار ، فمن تدخل في المفسر وتخرج منه ، وكذلك عندهذا القائل من السماء من امثال جبال ، وليس بجبال . وقال : فان كان أنزل من جبال في السماء من برد جبالاً ، ثم حذف الجبال الثانية فالجبال الأولى في السماء جاز كما يقال : أكلت من الطعام يريد اكلت من الطعام طعاماً ، ثم يحذف الطعام ، ولا يحذف (من) . والاقوى أن تكون من في الآية للتبعيض ، لان ما يمسكه الكلب من الصيد ، لا يجوز أكل جميعه لان في جملته ما هو حرام من الدم ، والفرث والغدد ، وغير ذلك مما لا يجوز أكله ، فاذا قال : فكلوا مما امسكن عليكم ، أفاد ذلك بعض ما أمسكن ، وهو الذي أباح الله أكله من اللحم ، وغيره . وقوله : « ونكفر عنكم من سيئاتكم » قد بينا الوجه فيه وسنبين الوجه في قوله : « من السماء جبال فيهـا من برد » إذا انتهينا اليه ان شاء الله .

وقوله : « واذكروا اسم الله عليه » صريح في وجوب التسمية عندالارسال . وهو قول ابن عباس والسدي وغيرها . وقوله : « واتقوا الله » معناه واجتنبوا ما نهاكم عنه ، فلا تقربوه ، واحذروا معاصيه في ارتكاب ما نهـاكم عنه في أن تأكلوا من صيد الكلب غير المعلم ، أو مما لم يمسكه عليكم ، أو تأكلوا ممـا لم يسمّ

الله عليه من الصيد ، والذبائح مما صاده اهل الاوثان والاصنام « ان الله سريع الحساب » معناه التخويف بأنه سريع حسابه لمن حاسبه على نعمه ، لا يشغله حساب بعض عن بعض . ومتى غاب الكلب والصيد عن العين ، ثم رآه ميتاً لا يجوز أن يأكله ، لانه يجوز أن يكون مات من غير قتل الصيد . وفي الحديث : (كل ما أصميت ولا تأكل ما أنميت) فمعنى اصميت أن تصطاد بكلب أو غيره ، فمات وأنت تراه مات بصيدك . واصل الصميان السرعة والخفة : ومعناه هاهنا ما أسرع فيه الموت وأنت تراه . ومعنى ما أنميت ماغاب عنك فلا تدري مات بصيدك أو بعارض آخر يقال نمت الرمية : إذا مضت والسهم فيها . وأنميت الرمية : إذا رميتها ، فمضيت ، والسهم فيها قال امرؤ القيس :

فهو لا تنمي رميته   ماله لا عد من نفره

وقال الحارث بن وعلة الشيباني :

قالت سليمى قد غنيت فتى   فالآن لا تصمي ولا تنمي

أي عشت ومتى اخذ الكلب الصيد ومات في يده من غير أن يجرحه ، لم يجز أكله . واجاز قوم ذلك . والاول أحوط . وكلّ من لا تؤكل ذبيحته من أجناس الكفار ، لا يؤكل صيده أيضاً . فأما الاصطياد بكلابه المتعلمه فجائز إذا صاده المسلم .

قوله تعالى :

﴿ اليوم أُحِلَّ لَكُمُ الطيباتِ وَطعامُ الذين أُوتوا الكتابِ حِلّ لَكُم وَطعامُكُم حِلّ لَهم وَالمحصناتُ مِنَ المُؤمناتِ وَالمحصنات مِنَ الذينَ اوتوا الكتابَ من قبلِكُم إذا اتيتموهُنَّ اجورهن مُحصنينَ غَير مُسافِحينَ وَلا مُتخذي اخدانٍ وَمن يكفُر بالايمانِ فقد حَبطَ عَمله

وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرينَ ﴾ (٥) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه أحلّ للمؤمنين الطيبات ، وهي الحلال على ما بينا القول فيه في الآية الاولى ، دون ما حرم في الآية المتقدمة . وقيل : معنى الطيبات ما يستلذ ويستطاب . وظاهر الآية على هذا يقتضي تحليل كل مستطاب إلا ما قام دليل على تحريمه .

وقوله : « وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم » رفع بالابتداء « وحل لكم » خبره وذلك يختص عند اكثر اصحابنا بالحبوب ، لا نها المباحة من أطعمة اهل الكتاب ، فاما ذبائحم وكل مائع يباشرونه بايديهم فانه نجس ولا يحل استعماله وتذكيتهم لا تصح لان من شرط صحتها التسمية ، لقوله : ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وهؤلاء لايذكرون اسم الله . وإذا ذكروه قصدوا بذلك اسم من ابد شرع موسى أو عيسى أو اتخذ عيسى ابناً . وكذب محمداً (صلى الله عليه وآله) وذلك غير الله . وقد حرم الله ذلك بقوله : « وما اهل لغير الله به » على مامضى القول فيه واكثر المفسرين على أن قوله : « وطعام الذين اوتوا الكتاب » المراد به ذبائحهم وبه قال قوم من اصحابنا : فمن ذهب اليه الطبري والبلخي والجبائي واكثر الفقهاء ، ثم اختلفوا ، فمنهم من قال : أراد بذلك ذباحة كل كتابي ممن أنزل عليه التوراة والانجيل ، أو ممن دخل في ملتهم ودان بدينهم ، وحرم ما حرموا ، وحلل ما حللوا . ذهب اليه ابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن المسيب ، والشعبي وابن جريج ، وعطاوالحكم وقتادة . واجازوا ذبائح نصارى بني تغلب وقال آخرون: إنما عنى به الذين أنزلت التوراة والانجيل عليهم ، ومن كان دخيلا فيهم من سائر الامم ، ودان بدينهم ، فلا تحل ذبائحهم . حكي ذلك الربيع عن الشافعي من الفقهاء. وروي تحريم ذبائح نصارى تغلب عن علي (عليه السلام) ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . وقال مجاهد ، وابراهيم وابن عباس وقتادة والسدي والضحاك ، وابن زيد وابو الدرداء إن اطعام الذين اوتوا الكتاب ذبائحهم وغيرها من الاطعمة.

وبه قال الطبري والجبائي والبلخي وغيرهم .

وقوله : « وطعامكم حل لهم » فيه بيان إن طعامنا ايضاً حل لهم ، فان قيل فما معنى ذلك ، وهم لا يستحلون طعامنا بتحليلنا لهم ذلك ؟ قلنا عنه جوابان :

احدهما ـ ان الله بين بذلك أنه حلال لهم ذلك سواء قبلوه ، أو لم يقبلوه .

والثاني ـ أن يكون حلال للمسلمين بذله لهم ، ولو كان محرماً عليهم ، لما جاز لمسلم بذله اياه .

وقوله : « والمحصنات من المؤمنات » معناه واحل لكم العقد على المحصنات يعني العفائف من المؤمنات . وقيل هن الحرائر منهن ، ولا يدل ذلك على تحريم من ليس بعفيفة ، لان ذلك دليل خطاب يترك لدليل يقوم على خلافه ، ولا خلاف أنه لو عقد على من ليس بعفيفة ، ولا امة كان عقده صحيحا غير مفسوخ ، وان كان الاولى تجنبه . وكذلك لو عقد على أمة بشرط جواز العقد على الأمة على ما مضى القول فيه . واختلف المفسرون في المحصنات التي عنا هن ها هنا فقال بعضهم عنى بذلك الحرائر خاصة : فاجرة كانت أوعفيفة وحرموا إماء اهل الكتاب بكل حال لقوله : « ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات فما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات » . ذهب اليه مجاهد وطارق بن شهاب ، وعامر الشعبي والحسن وقتادة . وقال اخرون : أراد بذلك العفائف من الفريقين : حرائر كن او إماء ، وأجازوا العقد على الامة الكتابية . روى ذلك أيضاً عن مجاهد ، وعامر الشعبي وسفين وابراهيم والحسن بن ابي الحسن وقتادة في رواية ، ثم اختلفوا في المحصنات من الذين أوتوا الكتاب ، فقال قوم : هو عام في العفائف منهن : حرة كانت أو أمة ، حربية كانت اوذمية . وهو قول من قال المراد بالمحصنات العفائف . وقال اخرون : أراد الحرائر منهن : حربيات كن أوذميات . وعلى قول الشافعي المراد بذلك من كان من نساء بني اسرائيل دون من دخل فيهن من سائر الملل . وقال قوم : أراد بذلك الذميات منهن . ذهب اليه ابن عباس . واختار الطبري أن يكون المراد بذلك الحرائر

من المسلمات والكتابيات . وعندنا لا يجوز العقد على الكتابية نكاح الدوام ، لقوله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، » ولقوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » فاذا ثبت ذلك ، قلنا في قوله : « والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب » تأويلان .

احدهما ـ ان يكون المراد بذلك اللائي أسلمن منهن . والمراد بقوله : « والمحصنات من المؤمنات » من كن في الاصل مؤمنات . ولدن على الاسلام قيل : إن قوماً كانوا يتحرجون من العقد على الكافرة إذا اسلمت فبين الله بذلك انه لا حرج في ذلك ، فلذلك أفردهن بالذكر حكي ذلك البلخي .

والثاني ـ أن يخص ذلك بنكاح المتعة أو ملك اليمين ، لانه يجوز عندنا وطؤهن بعقد المتعة ، وملك اليمين على أنه روى أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) أن ذلك منسوخ بقوله : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » روى عن ابي عبد الله (ع) انه قال : هو منسوخ بقوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » وقوله : « وإذا آتيتموهن اجورهن » يعني مهورهن . وهو عوض الاستمتاع بهن . وهو قول ابن عباس ، وجميع المفسرين .

وقوله : « محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان » نصب على الحال وتقديره أحل لكم المحصنات من الفريقين ، وانتم محصنون غير مسافحين ، ولا متخذي أخدان يعني اعفاء غير مسافحين بكل فاجرة ، وهو الزنا ، ولا متخذي اخدان يعني اعفاء غير مسافحين ، ولا متخذي أخدان ، ولا متفردين ببغية واحدة ، خادنها وخادنته اتخذها لنفسه صديقة يفجر بها . وقد بينا معنى الاحصان ووجوهه ، ومعنى السفاح والخدن في سورة النساء ، فلا وجه لاعادته وبذلك قال ابن عباس وقتادة والحسن .

وقوله : « ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الاخرة من الخاسرين » يعني من يجحد ما أمر الله الاقرار به ، والتصديق به من توحيد الله ، ونبوة نبيه ،

والاقرار بما جاء به فقد حبط عمله يعني الاعمال التي يعملها ، ويعتقدها قربات إلى الله ، فانها تنحبط ، ولا يستحق عليها ثواباً ، بل يستحق عليها العقاب ، « وهو في الآخرة من الخاسرين » يعني الها لكين الذين غبنوا نفوسهم حظها من ثواب الله بكفرهم ، واستحقاقهم العقاب على جحدهم التوحيد ، والاسلام . وقال قوم : إن قوله : « ومن يكفر بالأيمان » عنى به اهل الكتاب ، لان قوماً تحرجوا من نكاح نساء أهل الكتاب ، واكل طعامهم وما بين الله في هذه الآية . ذهب اليه قتادة وابن جريج ومجاهد وابن عباس . فان قيل ما معنى « ومن يكفر بالايمان » قيل : الايمان هو الاقرار بتوحيد الله ، وصفاته ، وعدله ، والاقرار بالنبي (صلى الله عليه واله) وما جاء به من عند الله . فمن جحد ذلك أو شيئاً منه كان كافراً بالايمان . وقد حبط عمله الذي يرجو به الفوز والنجاة . وهو في الاخرة من الخاسرين . وقال مجاهد : معناه من يكفر بالله . قال البلخي لا يعرف تأويل مجاهد في اللغة .

قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم الى الصلاةِ فاغسلوا وُجوهكُم وَايديكُم الى المرافقِ وَامسحوا برؤسِكم وَارجُلكم الى الكعبين وان كُنتم جُنباً فاطّهروا وَان كنتم مَرضى او عَلى سَفر أو جاءَ احدٌ منكم مِن الغائطِ اولامَستمُ النِساءَ فَلَم تجدوا ماءً فتيمموا صَعيداً طَيباً فامسحوا بوُجوهِكم وَايديكم منهُ ما يُريد الله ليجعلَ عَليكم مِن حَرج وَلكن يُريد لِيُطهركم وَليتمّ نعمتهُ عَليكم لعلكم تشكرونَ ﴾ (٦) ـ آيه بلا خلاف ـ

[القراءة]

قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص ويعقوب ، والاعشى إلا النقار « وارجلكم » ـ بالنصب ـ الباقون بالجر وقرأ لمستم بـلا الف حمزة والكسائي

وخلف الباقون لامستم بالف هاهنا وفي النساء هذا خطاب للمؤمنين أمرهم الله إذا أرادوا القيام إلى الصلاة، وهم على غير طهر، أن يغسلوا وجوههم، ويفعلوا ما أمرهم الله به فيها. وحذف الارادة، لان في الكلام دلالة عليه، ومثله « فاذا قرأت القران فاستعذ بالله » ومعناه وإذا اردت قراءة القرآن فاستعذ، وإذا قمت فيهم فاقمت لهم الصلاة ومعناه فاردت أن تقيم لهم الصلاة. ثم اختلفوا هل يجب ذلك كلما أراد القيام إلى الصلاة او بعضها او في اي حال هي ؟ فقال قوم : المراد به إذا اراد القيام اليها، وهو على غير طهر. وهو الذي اختاره الطبري والبلخي والجبائي والزجاج وغيرهم. وهو المروي عن ابن عباس، وسعد بن ابي وقاص، وابي موسى الاشعري وأبي العالية، وسعيد بن المسيب وجابر بن عبد الله، وابراهيم والحسن والضحاك، والاسود والسدي، وغيرهم. وقال آخرون : معناه إذا قمتم من نومكم إلى الصلاة ذهب اليه زيد ابن اسلم والسدي وقال آخرون : المراد به كل حال قيام الانسان إلى الصلاة، فعليه ان يجدد طهر الصلاة. ذهب اليه عكرمة. وقال : كان علي يتوضأ عند كل صلاة، ويقرأ هذه الآية. وقال ابن سيرين إن الخلفاء كانوا يتوضؤن لكل صلاة. والاول هو الصحيح عندنا. وما روي عن علي (عليه السلام) في تجديد الوضوء عند كل صلاة محمول على الندب. وقال قوم : كان الفرض أن يتوضأ لكل صلاة، ثم نسخ ذلك بالتخفيف، وهو المروي عن ابن عمر انه حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب أن عبد الله بن حنظلة بن ابي عامر الغسيل حدثها أن النبي صلى الله عليه وآله أمر بالوضوء عند كل صلاة، فشق ذلك عليه فأمر بالسواك ورفع عنه الوضوء إلا من حدث، فكان عبد الله يرى أن فرضه عليه، فكان يتوضأ وروى سليمان بن بريدة عن ابيه قال : كان رسول الله (صلى الله عليه واله) يتوضأ لكل صلاة، فلما كان عام الفتح صلى الصلوات بوضوء واحد. فقال عمر : يارسول الله صنعت شيئاً ما كنت تصنعه ! قال : عمداً فعلته ياعمر. وقال الحسين بن علي المغربي : معنى إذا قمتم إذا عزمتم عليها وهممتم بها. قال الراجز للرشيد :

ما قاسم دون الفتى ابن امه وقد رضيناه فقم فسمه

فقال : ياأعرابي ، ما رضيت ان تدعونا إلى عقد الامر له قعوداً حتى أمرتنا بالقيام ، فقال : قيام عزم لا قيام جسم . وقال حريم الهمداني :

فحدثت نفسي أنها أو خيالها اتانا عشاء حين قمنا لنهجعاً

أي حين عزمنا للهجوع . وأقوى الاقوال ما حكيناه أولا من ان الفرض بالوضوء يتوجه إلى من اراد الصلاة وهو على غير طهر ، فأما من كان متطهراً ، فعليه ذلك استحباباً . وما روي عن النبي (ص) والصحابة في تجديد الوضوء ، فهو محمول على الاستحباب في جميع الأحوال ، لاجماع أهل العصر على أن الفرض في الوضوء كان في كل صلاة ، ثم نسخ ، فعلمنا بذلك أن ما روي من تجديد الوضوء ، كان على وجه الاستحباب . وقال قوم : إن الله (تعالى) أنزل هذه الآية أعلاماً للنبي (صلى الله عليه واله) أنه لا وضوء عليه إلا إذا قام إلى الصلاة دون غيرها من الاعمال ، لانه كان إذا أحدث امتنع من الاعمال حتى يتوضأ فأباح الله له بهذه الآية أن يفعل ما بداله من الاعمال بعد الحدث إلى عمل الصلاة ، توضأ أو لم يتوضأ . وأمره بالوضوء للصلاة . روى ذلك عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن عبدالله بن علقمة عن ابيه قال : كان رسول الله (صلى الله عليه واله) إذا بال لم يرد جواب السلام حتى يتطهر للصلاة ، ثم يجيب حتى نزلت هذه الآية .

وقوله : « فاغسلوا وجوهكم » امر من الله بغسل الوجه واختلفوا في حد الوجه الذي يجب غسله ، فحده عندنا من قصاص شعر الرأس إلى محاذي شعر الذقن طولا وما دخل بين الوسطى والابهام عرضاً ، وما خرج عن ذلك فلا يجب غسله . وما نزل من الشعر عن المحادر ، فلا يجب غسله . وقال بعضهم : ما ظهر من بشرة الانسان من قصاص شعر رأسه منحدراً إلى منقطع ذقنه طولا ، وما بين الاذنين عرضاً . قالوا والاذنان وما بطن من داخل الفم والانف والعين ، فليس من الوجه ، ولا يجب غسل ذلك ، ولا غسل شيء منه . واما ما غطاه الشعر كالذقن ، والصدغين ،

فان امرار الماء على ما علا الشعر عليه يجزي من غسل ما بطن منه من بشرة الوجه ، لان الوجه عندهم ما ظهر لعين الناظر من ذلك يقابلها دون غيره . وهـذا بعينه مذهبنا . إلا ما خرج عن الابهام والوسطى إلى الاذن ، فانه لايجب غسله . ذهب إلى ماحكيناه إبراهيم ، ومغيرةوالحسنوابن سيرين ، وشعبة والزهريوربعية وقتادة ، والقاسم بن محمد وابن عباس ، وابن عمر . قال ابن عمر : الاذنان من الرأس . وبه قال قتادة والحسن ، ورواه أبو هريرة عن النبي (صلى الله عليه واله) وقال آخرون : الوجه كل ما دون منابتشعر الرأس إلى منقطع الذقن طولا ، ومن الاذنالى الاذن الأخرى عرضاً ما ظهر من ذلك لعين الناظر ، وما بطن منه من منابت شعر اللحية ، والعارضين ، وما كان منه داخل الفم والأنف ، وما أقبل من الاذنين على الوجه . وقالوا : يجب غسل جميع ذلك ومن ترك شيئاً منه لم تجزه الصلاة . ذهب اليه ابن عمر في رواية نافع عنه ، وابوموسىالأشعري ، ومجاهد وعطا والحكم ، وسعيد بن جبير وطاووس ، وابن شيرين والضحاك ، وانس بن مالك وام سلمة ، وابو ايوب وابو امامة ، وعمار بن ياسر وقتادة كلهم قالوا بتخليل اللحية ، فاما غسل باطن الفم ، فذهب اليه مجاهد ، وحماد وقتادة . واما من قال : ما أقبل من الاذنين يجب غسله ، وما أدبر يجب مسحه فالشعبي . وقد بينا مذهبنا في ذلك . والذي يدل على صحة ذلك أن ماقلناه مجمع على انه منالوجه . ومن ادعى الزيادة فعليه الادلة . واستوفينا ذلك في مسائل الخلاف وتهذيب الاحكام .

وقوله : « وايديكم إلى المرافق » منصوب بالعطفعلى الوجوه الواجب غسلها . ويجبعندنا غسل الأيدي منالمرافق ، وغسلالمرافق معها إلى رؤوس الاصابع ، ولا يجوزغسلها من الاصابع إلى المرافق (وإلى) في الآيةبمعنى مع كقوله : « تاكلوا اموالهم الى اموالكم » وقوله : « من انصاري إلى الله » وأراد بذلك (مـع) قال امرؤ القيس :

له كفل كالدعص لبده الندى ... الي حارك مثل الرتاج المضبب

وقال النابغة الجعدي :

ولوح ذراعين في بركة		الى جؤجؤ رهل المنكب

اراد مع حارك ومع رهل . وطعن الزجاج على ذلك فقال : لو كان المراد بالى مـــع ، لوجب غسل اليد إلى الكتف ، لتناول الاسم له . وانما المراد بالى الغاية والانتهاء ، لكن المرافق يجب غسلها مع اليدين . وهذاالذي ذكره ليس بصحيح ، لانا لو خلينا وذلـك ، لقلنا بما قاله . لـكن خرجنا بدليل . ودليلنا على صحة ما قلناه : اجماع الامة على أنه متى بدأ من المرافق كان وضوءه صحيحاً وإذا جعلت غاية ففيه الخلاف . واختلف أهل التأويل في ذلـك ، فقال مالك بن أنس : يجب غسل اليدين إلى المرفقين ، ولا يجب غسل المرفقين . وهو قول زفر . وقال الشافعي : لا أعلم خلافاً في ان المرافق يجب غسلها . وقال الطبري : غسل المرفقين ، وما فوقها مندوب اليه غير واجب . وانما . اعتبرنا غسل المرافق ، لاجماع الأمة على أن من غسلها صحت صلاته . ومن لم يغسلها ، ففيه الخلاف . والمرافق جمع مرفق . وهو المكان الذي يرتفق به ، ويتكأ عليه على المرفقة وغيرها .

وقوله : « وامسحوا برؤسكم » اختلفوا في صفة المسح ، فقال قوم : يمسح منه ما يقع عليه اسم المسح ، وهو مذهبنا . وبه قال ابن عمر ، والقاسم بن محمد ، وعبد الرحمن بن ابي ليلى ، وابراهيم والشعبي وسفيان . واختاره الشافعي واصحابه والطبري . وذهب قوم إلى انه يجب مسح جميع الرأس ذهب اليه مالك . وقال ابو حنيفة ، وابو يوسف ومحمد : لا يجوز مسح الرأس باقل من ثلاثة أصابع . وعنه روايتان فيها خلاف ، ذكرناها في الخلاف . وعندنا لا يجوز المسح إلا على مقـدم الرأس . وهو المروي عن ابن عمر والقاسم بن محمد ، واختاره الطبري . ولم يعتبر احد من الفقهاء ذلك . وقالوا : أي موضـع مسح أجزاه وإنما اعتبرنا المسح ببعض الرأس ، لدخول الباء الموجبة ، للتبعيض لان دخولها في الموضع الذي يتعدى الفعل فيه بنفسه لا وجه له غير التبعض وإلا كان لغواً . وحملها على الزيادة لا يجوز مـع

إمكان حملها على فائدة مجددة ، فان قيل : يلزم على ذلك المسح ببعض الوجه في التيمم قلنا كذلك نقول ، لانا نقول بمسح الوجه من قصاص الشعر إلى طرف الانف ومن غسل الرأس ، فانه لا يجزيه عن المسح عندنا وخالف جميع الفقهاء في ذلك ، وقالوا يجزيه لانه يشتمل عليه . وهذا غير صحيح ، لان حد المسح هو إمرار العضو الذي فيه نداوة على العضو الممسوح من غير أن يجري عليه الماء . والغسل لا يكون الا بجريان الماء عليه ، فمعناها مختلف ، وليس إذا دخل المسح في الغسل يسمى الغسل مسحاً ، كما أن العمامة لا تسمى خرقة ، وان كانت تشتمل على خرق كثيرة .

وقوله : « وارجلكم الى الكعبين » عطف على الرؤوس فمن قرأ بالجر ذهب إلى انه يجب مسحهما كما وجب مسح الرأس ، ومن نصبهما ذهب إلى انه معطوف على موضع الرؤوس ، لان موضعها نصب لوقوع المسح عليها ، وانما جر الرؤوس لدخول الباء الموجبة للتبعيض على ما بيناه فالقراءتان جميعاً تفيدان المسح على ما نذهب اليه . وممن قال بالمسح ابن عباس والحسن البصري وابو على الجبائي ومحمد بن جرير الطبري ، وغيرهم ممن ذكرناهم في الخلاف ، غير أنهم أوجبوا الجمع بين المسح والغسل المسح بالكتاب ، والغسل بالسنة وخيرة الطبري في ذلك . وأوجبوا كلهم استيعاب جميع الرجل ظاهراً وباطناً . وعندنا أن المسح على ظاهرهما من رؤوس الأصابع إلى الكعبين . وهما الناتئان في وسط القدم على ما استدل عليه . وقال عكرمة عن ابن عباس : الوضوء غسلتان ومسحتان . وبه قال أنس بن مالك . وقال عكرمة ليس على الرجلين غسل إنما فيهما المسح . وبه قال الشعبي : ألا ترى أن التيمم يمسح ما كان غسلا ويلغي ما كان مسحاً . وقال قتادة افترض الله مسحتين وغسلتين . روى أوس ابن أبي أوس قال : رأيت النبي (صلى الله عليه وآله) توضأ ومسح على نعليه ، ثم قام فصلى . وروى حذيفة قال : أتى رسول الله (ص) سباطة قوم ، فبال عليها قائماً ، ثم دعا بماء ، فتوضأ ومسح على نعليه . وروى حبة الغربي قال : رأيت علي ابن ابي طالب (عليه السلام) شرب في الرحبة قائماً ، ثم توضأ ومسح على نعليه . وروي عن ابن عباس أنه وصف وضوء رسول الله (صلى الله عليه وآله) فمسح

على رجليه . وعنه أنه قال : إن كتاب الله المسح ويأبى الناس الا الغسل . وعن أمـــير المؤمنين علي (عليه السلام) أنه قال ما نزل القرآن إلا بالمسح . فان قيل : القراءة بالجر ليست على العطف على الرؤوس في المعنى . وانما عطف عليها على طريق المجاورة ، كما قالوا : حجر ضب خرب ، وخرب ، من صفات الحجر لا الضب وكما قال الشاعر :

كان بثيراً في عرانين وبله كبير اناس في بجاد مزمل

والمزمل من صفة الكبير لا البجاد . وقال الاعشى :

لقدكان في حول ثواء ثويته تقضى لبانات ويسام سائم

قلنا : هذا لا يجوز من وجوه :

احدها ـ ما قال الزجاج أن الاعراب بالمجاورة ، لا يجوز في القرآن ، وانما يجوز ذلك في ضرورة الكلام والشعر .

والثاني ـ أن الاعراب بالمجاورة لايكون مع حرف العطف فاما قول الشاعر :

فهل انت ان ماتت اتانك راحل الى آل بسطام بن قيس فخاطب

قالوا : جر مع حرف العطف الذي هو الفاء ، فانه يمكن أن يكون أرادالرفع وانمـــا جر الراوي وهما . ويكون عطفاً على راحل يكون قد أقوى لان القصيدة مجرورة . وقال قوم : أراد بذلك الامر وإنما جر لاطلاق الشعر .

والثالث ـ أن الاعراب بالمجـــاورة إنما يجوز مع ارتفاع اللبس . فاما مع حصول اللبس ، فلايجوز ، ولايشتبه على احد أن خرب من صفة حجر ، لا الضب. وكذلك قوله : مزمل من صفة الكبير لا البجاد . وليس كذلك في الآية ، لان الأرجل يمكن أن تكون ممسوحة ومغسولة ، فاما قول الشاعر : ثواءٍ ثويته ، فانما جره بالبدل من الحول والمعنى لقدكان في ثواءٍ ثويته تقضى لبانات . وهو من بدل الاشتمال ، كقوله : « قتل اصحاب الاخدود النار » . وقول الشاعر :

لم يبق الا اسير غـــير منفلت وموثق في عقال الاسر مكبول

فليس خفض موثق على المجاورة ، لان معنى البيت لم يبق غير اسير فالا بمعنى

غير وهي تعاقبهـــا في الاستثناء . فقوله غير موثق عطف المعنى على موضع اسير . وتقديره لم يبق غير اسير وغير منفلت . واما قوله : « وحور عين » في قراءة من جرها ، فليس بمجرور على المجاورة ، بل يحتمل امرين :

احدها ـ أن يكون عطفاً على قوله : « يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب واباريق وكأس من معين » الى قوله : « وحور عين » عطف على اكواب . وقولهم : انه لا يطاف إلا بالكاس غير مسلم ، بل لا يمتنع أن يطاف بالحور العين كما يطاف بالكاس وقد ذكر في جملة مايطاف به الفاكهة واللحم .

والثاني ـ أنه لما قال : « اولئك المقربون في جنات النعيم » عطف بحور عين على جنات النعيم فكانه قال : هم في جنات النعيم . وفي مقاربة أو معاشرة حور عين . ذكره أبو علي الفارسي ، فأما من قال : الرجلان ممسوحان ويراد بالمسح الغسل ، فقوله : يبطل بما قلناه من أن المسح غير الغسل . واستشهادهم بقولهم : تمسحت للصلاة وأنهم سموا الغسل مسحاً . وقوله : « فطفق مسحاً بالسوق والاعناق » ، وانه أراد غسلها باطل بما قدمناه ، ولانه لو كان ذلك محتملا لغة ، لما احتمل شرعاً ، لان الشرع فرق بين الغسل والمسح ، ولذلك قالوا بعض اعضاء الطهارة مغسولة ، وبعضها ممسوحة . وفلان يرى غسل الرجلين ، وفلان يرى مسحهما ، ولانه لا خلاف أن الرأس ممسوح مسحاً ليس بغسل ، فلا بد ان يكون حكم الرجلين حكمه ، لكونهما معطوفتين عليه . وقولهم : تمسحت للصلاة ، فلأنهم لما أرادوا أن يخبروا بلفظ مختصر عن جميع أفعال الصلاة ، لم يجز أن يقولوا اغتسلت للصلاة ، لان في الطهارة ما ليس بغسل . واستطالوا أن يقولوا أغتسلت وتمسحت للصلاة قالوا : بدلا من ذلك تمسحت توسعاً ، ومجازاً . وقوله : « فطفق مسحاً بالسوق » فاكثر المفسرين على ان المراد به فطفق ضرباً . ذهب اليه الفراء وأبو عبيدة . وقال آخرون : أراد المسح في الحقيقة ، وأنه كان مسح أعراقها وسوقها . وانما حمل على الغسل شاذ منهم ومن قال القراءة تقتضي المسح غير أنه المسح على الخفين ، فقوله باطل ، لان الخف

لا يسمى رجلا في لغة ولا شرع . والله (تعالى) أمر بايقاع الفرض على ما يسمى رجلا في الحقيقة . واما القراءة بالنصب ، فقد بينا أنها معطوفة على موضع الرؤوس لان موضعها النصب ، والحكم فيها المسح والعطف على الموضع جائز ، لانهم يقولون : لست بقائم ولا قاعداً . ويقولون حسبت بصدره وصدر زيد وان زيداً في الدار وعمرو ، فيرفع عمرو بالعطف على الموضع . وقال الشاعر :

معاوي اننا بشر فاسجح　　فلسنا بالجبال ولا الحديدا

وقال اخر :

هـل انت باعث دينار لحاجتنا　　او عبد رب اخاعون بن مخراق

وانما نصب عبد رب ، لان التقدير باعث ديناراً ، فحمله على الموضع ، وقـد سوغوا العطف على المعنى ، وان كان اللفظ لا يقتضيه قال الشاعر :

جئني بمثل بني عمرو لقومهم　　أو مثل اسرة منظور بن سيار

لما كان معنى جئني هات مثلهم ، أو اعطني مثلهم . قال : أو مثل بالنصب عطفاً على المعنى ، وعطف الأرجل على الايدي لا يجوز ، لان الكلام متى حصل فيه عاملان : قريب وبعيد لا يجوز إعمال البعيد دون القريب مـع صحة حمله ، عليه . لا يجوز أن يقول القائل : ضربت زيداً وعمراً وأكرمت خالداً وبكراً . ويريد بنصب بكر العطف على زيد أو عمرو المضروبين ، لان ذلـك خروج عن فصاحة الكلام ، ودخول في معنى اللغو وبمثل ما قلناه ورد القران واكثر الشعر قال الله تعالى : « وانهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله احداً » ولو اعمل الاول ، لقال : كما ظننتموه . وقال « آتوني افرغ عليه قطراً » ولو أعمل الاول ، لقال أفرغـه . وقال : « هاؤم اقرأوا كتابيه » ولو اعمل الاول لقال : هاؤم اقرأوه . وقال الشاعر :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه　　وعزة ممـطول معنى غريمهـا

ولو أعمل الاول ، لقال : فوفاه غريمه . فأما قول أمرىء القيس :

فلو انمـا أسعى لادنى معيشة　　كفاني ولم اطلب قليل من المال

فانما أعمل الاول للضرورة ، لانه لم يجعل القليل مطلوباً وانما كان المطلوب عنده الملك . وجعل القليل كافياً . ولو لم يرد هـذا ونصب ، لفسد المعنى . فاما من نصب بتقدير واغسلوا أرجلكم ، كما قالوا :

متقلداً سيفاً ورمحاً و علفتها تبناً وماء بارداً

فقد اخطأ ، لان ذلك إنما يجوز إذا استحال حمله على اللفظ . فاما إذا جاز حمله علي ما في اللفظ ، فـلا يجوز هذا التقدير . ومن قال يجب غسل الرجلين ، لانها محدودتان كاليدين ، فقوله ليس بصحيح ، لانا لا نسلم ان العلة في كون اليدين مغسولتين كونها محـدودتين . وانما وجب غسلها ، لانها عطفاً على عضو مغسول . وهو الوجه . فكذلك إذا عطف الرجلين على ممسوح هو الرأس ، وجب أن يكونا ممسوحين . والكعبان عندنا هما الناتئان في وسط القـدم . وبه قال محمد بن الحسن وإن أوجب الغسل . وقال اكثر المفسرين والفقهاء : الـكعبان هما عظما الساقين يدل على ماقلناه أنه لو أراد ما قالوا ، لقال إلى الكعاب ، لان في الرجلين منها أربعة . وايضاً فكل من قال : يجب مسح الرجلين ، ولا يجوز الغسل قال الكعب هو ما قلناه ، لان من خالف في أن الكعب ما قلناه على قولين : قائل يقول بوجوب الغسل ، وآخر يقول بالتخيير . قال الزجاج : كل مفصل للعظام فهو كعب .

وفي الآية دلالة على وجوب الترتيب في الوضوء من وجهين :

احدها ـ ان الواو يوجب الترتيب لغة على قول الفراء وأبي عبيد وشرعا على قول كثير من الفقهاء ، ولقوله (عليه السلام) : ابدأوا بما بدأ الله به .

والثاني ـ ان الله أوجب على من يريد القيام الى الصلاة إذا كان محدثاً أن يغسل وجهه أولا ، لقوله : « إذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا » والفاء توجب التعقيب والترتيب بلا خلاف ، فاذا ثبت أن البـداءة بالوجه هو الواجب ، ثبت في باقي الاعضاء ، لان أحـداً لا يفرق ويقويه قوله (عليه السلام) للاعرابي ـ حين علمه الوضوء ، فقال : هذا وضوء لايقبل الله الصلاة إلا به ، فان كان رتب فقد بين انه الواجب الذى لا يقبل الله الصلاة إلا به ، وان لم يرتب لزم أن يكون من رتب ،

لا يجزيه وقد اجتمعت الامة على خلافه . وفي الآية دلالة على أن من مسح على العمامة أو الخفين لا يجزيه ، لان العمامة لا تسمى رأساً . والخف لا يسمى رجلا كما لا يسمى البرقع ومايستر اليدين وجهاً ولا يداً . وما روي من المسح على الخفين أخبار احاد لا يترك لها ظاهر القرآن . على أنه روي عن علي (عليه السلام) أنه قال : نسخ ذلك بهذه الآية وكذلك قال لمن قال : اقبل المائدة أو بعدها . وفي الآية دلالة على وجوب النية في الوضوء ، لانه قال : إذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا . وتقديره فاغسلوا للصلاة كما يقول القائل : إذا أردت لقاء عدوك ، فخذ سلاحك بمعنى فخذ سلاحك للقائه ولا يمكن أن يكون غاسلا هذه الاعضاء للصلاة إلا بنية . وقوله : « وان كنتم جنباً فاطهروا » معناه وإن أصابتكم جنابة وأردتم القيام الى الصلاة فاطهروا بالاغتسال . والجنابة تكون بشيئين :

احدهما ـ بإنزال الماء الدافق في النوم أو اليقظة . وعلى كل حال بشهوة كان أو بغير شهوة .

والآخر ـ بالتقاء الختانتين وحده غيبوبة الحشفة أنزل أو لم ينزل ، والجنب يقع على الواحد والجماعة والاثنين ، والمذكر والمؤنث مثل رجل عدل ، وقوم عدل ، ورجل زور وقوم زور ، ونحو ذلك وهو بمنزلة المصدر قال الزجاج : تقديره ذو جنب . ويقال أجنب الرجل وجنب واجتنب والفعل الجنابة وقد حكي في جمعه أجناب والأول أظهر . واصل الجنابة البعد قال علقمة :

فلا تحرمني نائلا عن جنابة — فاني امرؤ وسط القباب غريب

وقوله : « وان كنتم مرضى او على سفر أو جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء » معناه وان كنتم مرضى يعني ان كنتم جرحى أو مجدرين أو مرضى يضركم استعمال الماء وكنتم جنباً أو على غير وضوء قد بينا ذلك في سورة النساء وقوله : « أو على سفر » معناه وإن كنتم مسافرين وأنتم جنباً وجاء أحد منكم من الغائط معناه أو جاء أحد منكم من الغائط قد قضى حاجته فيه ، وهو مسافر أو لا مستم النساء معناه أو جامعتم النساء ، وانتم مسافرون . وقد بينا اختلاف الفقهاء في اللمس ، وبينا أصح الأقوال في ذلك ، فلا وجه لاعادته ، فان قيل : ما معنى

تكرير قوله : لا مستم النساء إن كان معنى اللمس الجماع مع انه قد تقدم ذكر الواجب عليه لقوله : « وان كنتم جنباً فاطهروا » قلنا وجه ذلك أن المعني في قوله: « وان كنتم جنباً » غير المعني الذي الزمه الله بقوله : او لا مستم النساء ، لانه (تعالى) بين الحكم بقوله : « وان كنتم جنباً فاطهروا » معناه إذا كنتم واجدين للماء ممكنين لا ستعماله ، ثم بين حكمه إذا عدم الماء ، أو لا يتمكن من استعماله أو هو مسافر غير مريض مقيم ، فاعلمه أن التيمم هو فرضه ، وهو طهارته . وقد بينا حكم التيمم ومعناه و كيفيته فيما مضى .

وقوله : « فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه » قد بينا جميع ذلك فيما مضى . جملته أنه يقول : أيها المؤمنون إذا قمتم الى الصلاة ، وانتم على غير طهر ، ولم تجدوا ماء ، ولا تتمكنون من استعماله ، فاقصدوا وجه الارض طاهراً نظيفاً غير نجس ، ولا قذر « فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه » يعني مما يعلق بايديكم منه يعني من الصعيد وقد بينا كيفية التيمم ، وأنه من قصاص الشعر الى طرف الانف ، ومن الزند الى اطراف الاصابع في اليدين . وقد بينا اختلاف المفسرين والفقهاء في ذلك ، فلا معنى لا عادته . وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » معناه ما يريد الله مما فرض عليكم من الوضوء إذا قمتم الى الصلاة والغسل من الجنابة والتيمم صعيداً طيباً عند عدم الماء أو تعذر استعماله ، ليلزمكم في دينكم من ضيق ، ولا لنفتنكم فيه ، وهو قول علي (عليه السلام) ومجاهد وجميع المفسرين . وقوله : « ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » معناه لكن يريد الله ليطهركم بما فرض عليكم من الوضوء والغسل من الاحداث والجنابة أن ينظف بذلك اجسامكم من الذنوب . واللام في قوله : « ليطهركم » دخلت لتبيين الارادة والمعنى ارادته لتطهيركم كما قال الشاعر :

اريد لا نسى ذكرها فكأنما   تمثل لي ليلى بكل سبيل

روي ما قلناه عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي امامة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : إن الوضوء يكفر ما قبله وقوله : « وليتم نعمته

عليكم » معناه ويريد الله مع تطهيركم من ذنوبكم بطاعتكم اياه فيما فرض عليكم من الوضوء والغسل إذا قمتم الى الصلاة مع وجود الماء ، والتيمم مع عـــدمه ، أن يتم نعمته باباحته لكم التيمم ، وتصييره لكم الصعيد الطيب طهوراً رخصة منه لكم في ذلك مع سوابغ نعمه التي أنعم بها عليكم « لعلكم تشكرون » معناه ولتشكروا الله على نعمه التي أنعم بها عليكم بطاعتكم اياه فيما امركم به ونهاكم عنه .

قوله تعالى :

﴿ وَاذكروا نِعـمَةَ اللهِ عليكم وَميثاقَهُ الذي واثَقكم به إذ قُلتم سمعنا وَاَطعنـا وَاتّقوا اللهَ إنَّ اللهَ عَليمٌ بِذاتِ الصدور ﴾ (٧) آية بلا خلاف .

في هـذه الآية اذكار بنعم الله تعالى عليهم برسوله (صلى الله عليه واله) وميثاقه الذي واثقهم به عنـدما ضمنوا لرسول الله (ص) السمع والطاعـة ، ثم حذرهم ان ينقضوا ذلك بقلوبهم ، واعلمهم أنه عليم بذات الصدور .

والميثاق الذي واثقهم به قال البلخي : والجبائي هو ما أخذ عليهم رسول الله (صلى الله عليه واله) عنـد اسلامهم وبيعتهم بأن يطيعوا الله في كل ما يفرضه عليهم مما ساءهم أو سرهم . قال الجبائي : هو مبايعتهم له ليلة العقبة وبيعة الرضوان وهو قول ابن عباس وقال اخرون : هو ما اخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم (ع) واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟ قالوا : بلى . ذهب اليه مجاهد . والصحيح قول ابن عباس لامرين :

احدها ـ ان الخبر مروي في أخـذ الميثاق على من استخرج من صلب ادم (ع) ضعيف تحيله العقول .

والثاني ـ أن الله (تعالى) ذكر بعقب تذكيره المؤمنين ميثاقه الذي واثق به اهل التوراة بعـدما أنزل كتابه على نبيه موسى (ع) فيما أمرهم به ونهاهم عنه ،

فقال : « ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً » الايات بعدها منبهاً بذلك أصحاب رسول الله محمد (صلى الله عليه واله) على مواضع حظوظهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه وتعريفهم سوء عاقبة هل الكتاب في تضييعهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه وما ضيعوا من ميثاقه الذي واثقهم به في أمره ونهيه زاجراً لهم عن نكث عهده لئلا يحل بهم ما حل بمن تقدم من الناكثين عهده من اهل الكتاب . وقال ابو الجارود عن ابي جعفر (ع) - الميثاق هو ما بين لهم في حجة الوداع من تحريم كل مسكر وكيفية الوضوء على ما ذكره الله وغير ذلك ونصب امير المؤمنين (عليه السلام) اماماً للخلق وهذا داخل فيما حكيناه عن ابن عباس إذ هو بعض ما أمر الله به

قوله تعالى :

﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا كونوا قَوامينَ لِلّهِ شُهداءَ بالقِسطِ وَلا يَجرِمَنَّكُم شَنآنُ قَومٍ عَلى ان لا تَعدِلوا اعدلوا هُوَ اقرَبُ للتقوى وَاتقوا اللهَ انَّ اللهَ خَبيرٌ بِما تَعملونَ ﴾ (٨) آية - بلا خلاف - .

هذا خطاب للمؤمنين امرهم الله تعالى ان يكونوا قوامين بالقسط أي قائمين بالعدل يقومون به ، ويدومون عليه شهداء لله أي مبينون عن دين الله ، لان الشاهد يبين ما شهد عليه .

و « قوامين » نصب بانه خبر كان (شهداء) نصب على الحال .

وقوله : « ولا يجرمنكم » قد فسرناه فيما مضى . قال الكسائي : وابو عبيدة معناه لا يحملنكم بغض قوم على الا تعدلوا يقال : جرمني فلان على أن فعلت كذا أي حملني عليه وقال الفراء يجرمنكم يكسبنكم يقال : جرمت على أهلي أي كسبتهم . وفلان جريمة أهله أي كاسبهم قال الكسائي : وفيه لغتان جرمت اجرم جرماً وأجرمت اجرم أجراماً . وشنآن قال الكسائي : معناه البغض وفيه لغتان : فتح

النون الاولى وجزمها . وقد بينا اختلاف القراء فيه . قال الزجاج : من حرك النون اراد بغض قوم . ومن سكن اراد بغيض قوم . وحكى ايضاً جرم واجرم لغتين وقيل اجرمته ادخلته في الجرم كما قيل أثمته ومعناه ادخلته في الاثم والمعنى لا يحملنكم شنآن قوم اي بغض قوم ألا تعدلوا في حكمكم فيهم ، وسيرتكم بينهم ، فتجوروا عليهم . وقال عبد الله بن كثير : نزلت هذه الآية في يهود حين مضى النبي (ص) إلى حصن بني قريظة يستعينهم في دية فهموا أن يقتلوه ، فنزلت هذه الآية ، ثم أمرهم بعد النهي عن الجور أن يفعلوا العدل مع كل أحد ولياً كان أو عدواً ، فان فعل العدل أقرب لكم أيها المؤمنون إلى التقوى ، ثم حذرهم تعالى فقال « واتقوا الله » أي خافوا عقابه باجتناب معاصيه وفعل طاعاته ، فان الله خبير أي عالم باعمالكم والكناية في قوله : « هو أقرب للتقوى » كناية عن العدل أي العدل أقرب للتقوى ، ولو لم يكن هو في الكلام ، لكان أقرب نصباً ، كما قال : انتهوا خيراً لكم وكنى عن الفعل في هذا الموضع بهو .

قوله تعالى :

﴿ وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنوا وَعَملوا الصالِحاتِ لَهم مَغفرةٌ وَاجرٌ عَظيمٌ ﴾ (٩) ـ آية بلا خلاف ـ .

وعد الله تعالى في هذه الآية الذين صدقوا بوحدانية الله وأقروا بنبوة نبيه محمد (صلى الله عليه واله) وعملوا الصالحات ان لهم مغفرة اووعدهم مغفرة ووقعت الجملة موقع المفرد كما قال الشاعر :

وجدنا الصالحين لهم جزاء　　وجنات وعيناً سلسبيلا

وتكون الجملة التي هي لهم مغفرة في موضع النصب ، ولذلك عطف في البيت وعينا ، فنصب على الموضع ، ويحتمل أن يكون موضع (لهم مغفرة) في موضع الرفـــع ، ويكون الموعود به محذوفاً ، ويكون التقدير لهم مغفرة وأجر عظيم فيما

وعدهم أولهم مغفرة وأجر عظيم هو الجنة . وهو معنى قول الحسن والجبائي والوعد ، هو الخبر الذي يتضمن النفع من المخبر . والوعيد : هو الخبر الذي يتضمن الضرر من المخبر . وتقول : وعدته خيراً وأوعدته شراً والا يماد مطلقاً يكون في الشر . والوعـد مطلقاً في الخير ، فاذا قيدته بذكر الخير او الشر ، قلت فيهما معاً وعـدته وأوعـدته معاً فيما حكاه الزجاج . والمغفرة اصلها التغطية ومعناها تكفير السيئة . والتكفير ايضاً : التغطية ومنه تكفر في السلاح : اذا تغطى به قال لبيد :

في ليلة كفر النجوم غمامها

والاجر المـذكور في الآية هو الثواب الذي وعد الله المؤمنين به على فعلهم الطاعات . والفرق بين الثواب والاجر في العرف أن الثواب هو الجزاء على الطاعات . والاجر قد يكون مثل ذلك وقد يكون في المعنى المعاوضة على المنافع بمعنى الاجر .

قوله تعالى :

﴿ وَالذينَ كَفروا وَكَذّبوا بآياتِنا اولئكَ أصحابُ الجحيم ﴾ (١٠) ـ آية ـ .

قوله : « والذين كفروا » معناه جحدوا توحيـد الله ، وصفاته وعدله ، وانكروا نبوة نبيه ، والاعتراف بما جاء به من عنـد الله ، وكذبوا بآيات الله أخبر الله عنهم أنهم اصحاب الجحيم . وجحيم اسم من اسماء جهنم ، فعلى هذا قوله ، « والذين » في موضع رفع على الابتداء « وكفروا » في صلة الذين وكذبوا باياتنا عطف على ما في الصلة . وقوله : اولئك اصحاب الجحيم جملة في موضع خبر الذين .

وحد الكفر عندنا كل معصية يستحق بها عقاب دائم ، لان ما ليس بكفر من المعاصي لا يستحق عليه إلا عقاب منقطع ، ثم ينقسم قسمين فان كان كفر ردة ، تعلقت عليه أحكام من منع الموارثة من المسلم والصلاة عليه ، والدفن في مقابر المسلمين ، وغير ذلك . وان كان كافر ملة بأن يكون مظهراً للشهادتين لم يجر عليه شيء من هـذه الاحكام . وقال قوم : إن الكفر أعظم الأجرام ، لانه جحد انعم الله ،

و نعمته أعظم النعم، ويستحق عليها أعظم الشكر ، فيجب أن يكون كفرها وجحدها أعظم الاجرام والمكذب بآيات الله ، وان يعلمها ايات ، فهو كافر إذا كان له سبيل إلى معرفتها . ومعنى أصحاب الجحيم أنهم يخلدون في النار ، لان المصاحبة تقتضي الملازمة كما يقال اصحاب الصحراء بمعنى الملازمين لها .

قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (١١) ـ آية بلا خلاف ـ .

هذا خطاب للمؤمنين ذكرهم الله نعمته عليهم حين هم قوم أن يبسطوا اليهم أيديهم . واختلفوا في الباسطين أيديهم على خمسة اقوال :

فقال مجاهد وقتادة وابو مالك : هم اليهود هموا بأن يقتلوا النبي (ص) لما مضى إلى بني قريظة يستعين بهم على دية مقتولين من بني كلاب بعد بئر معونة كانا وفدا على النبي (صلى الله عليه واله) فلقيهما عمرو بن أمية الضمري فقال : أمسلمين ؟ فقالا : بل رافدين ، فقتلهما ، فقال له النبي (ص) قتلت قتيلين قبل أن يبلغا الماء والله لا دينهما . ومضى إلى يهود بني قريظة يستعين بهم .

وقيل : كان يستقرض لأجل الدية لانه كان يحملها ، فهمت بنو قريظة بالفتك به وبقتله ، فأعلم الله تعالى النبي (ص) ذلك فانصرف عنهم .

وقال الحسن : إنما بعثت قريش رجلا ليفتك بالنبي (صلى الله عليه واله) فاطلع الله نبيه على امره ومنعه الله منه ، لانه دخل على النبي (ص) وسيفه مسلول فقال له : أرنيه فأعطاه اياه ، فلما حصل في يده قال : ما الذي يمنعني من قتلك ؟ فقال النبي (صلى الله عليه واله) الله يمنعك فرمى بالسيف وأسلم . واسم الرجل عمرو بن وهب الجمحي بعثه صفوان بن أمية ليغتاله (صلى الله عليه واله) بعد بدر ،

فاعلمه الله ذلك . وكان ذلك سبب إسلام عمرو بن وهب .

وقال الواقدي . غزا رسول الله (ص) جمعاً من بني ذبيان ومحارب بذي أمر فتحصنوا برؤوس الجبال ، ونزل رسول الله (ص) بحيث يراهم ، فذهب لحاجته فاصابه مطر فبل ثوبه ، فنشره على شجرة واضطجع تحته بعيداً من أصحابه ، والاعراب ينظرون اليه فاخبروا سيدهم دعثور بن الحارث المحاربي فجاء حتى وقف على رأسه بالسيف مشهوراً ، فقال : يامحمد (ص) من يمنعك مني اليوم ؟ فقال : الله ودفع جبرائيل في صدره ووقع السيف من يده ، فأخذه رسول الله (ص) ، وقام على رأسه وقال : من يمنعك مني اليوم ؟ فقال : لا احد وانا اشهد ان لا اله إلا الله ، وان محمداً رسول الله (ص) فنزلت الآية .

وقال ابو علي الجبائي المعني بذلك ما لطف الله (تعالى) المسلمين من كف أعدائهم عنهم حين هموا باستئصالهم باشياء شغلهم بها من الامراض والقحط ، وموت الاكابر ، وهلاك المواشي وغير ذلك من الاسباب التي انصرفوا عندها عن قتل المؤمنين :

وقال ابن عباس . كانت اليهود دعوا رسول الله (ص) إلى طعام لهم ، وعزموا على الفتك به ، فأعلم الله ذلك نبيه (ص) فلم يحضر .

وقال أخرون : نزلت الآية فيما عزم المشركون على الايقاع بالنبي (ص) وأصحابه يوم بطن النخلة إذا دخلوا في الصلاة ، فاعلمه الله ذلك ، فصلى بهم صلاة الخوف . وانما جعل الله تخليص النبي مما هموا به نعمة على المؤمنين من حيث كان إمامهم وسيدهم ، وكان مبعوثاً اليهم بما فيه مصالحهم ، فبقاؤه بينهم نعمة على المؤمنين ، فلذلك اعتد به عليهم . وقال قوم : هو مردود على قوله : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » ومعناه جملة الظاهر .

[اللغة] :

والذكر هو حضور المعنى للنفس يقال: ذكر يذكر ذكراً . واذكره إذكاراً وتذاكروا تذاكراً . وذاكره مذاكرة . وذكره تذكيراً . واستذكر استذكاراً وادكر ادكاراً . وقد يستعمل الذكر بمعنى القول ، لأن من شأنه أن تذكر به المعنى . والتذكر هو طلب

المعنى لا طلب القول. والفرق بين الذكر والعلم ان الذكر ضده الجهل. وقد يجمع الذكر للشيء والجهل به من وجه واحد. ومحال ان يجتمع العلم به والجهل به من وجه واحد والفرق بين الذكر والخاطر أن الخاطر مرور المعنى على القلب. والذكر حصول المعنى في النفس وايضاً الذكر يجري على نقيض النسيان، لانه يستعمل بعدما نسيه. وليس كذلك الخاطر.

والهم بالامر هو حديث النفس بفعله. يقال: هم بالامر يهم هما. ومنه الهم. وهو الفكر الذي يغم. وجمعه هموم واهتم اهتماماً. وأهمه الأمر إذا عني به، فحدث نفسه به والفرق بين الهم بالشيء والقصد اليه انه قد يهم بالشيء قبل أن يريده ويقصده بان يحدث نفسه به وهو مع ذلك يميل في فعله ثم يعزم اليه ويقصد اليه.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٢) ـ آية بلا خلاف ـ.

الميثاق: اليمين المؤكدة، لانه يستوثق بها من الأمر، فاخذ الله ميثاقهم باخلاص العبادة له، والايمان برسله. وما يأتون به من شرايع دينه.

وقوله: «بعثنا منهم اثني عشر نقيباً» فالنقيب فيه أربعة أقوال:

قال الحسن: هو الضمين وقال الربيع: هو الامين.

وقال قتادة: هو الشهيد على قومه. وقال قوم: هو الرئيس من العرفاء.

[اللغة]:

واصل النقيب في اللغة النقب وهو الثقب الواسع. وقال ابو مسلم: هو فعيل بمعنى مفعول كانه اختير ونقر عليه، فقيل نقيب، لانه ينقب عن احوال

القوم ، كما ينقب عن الاسرار . ومنه نقاب المرأة . ومنه المناقب وهي الفضائل . والنقب : الطريق في الجبل . ويقال نقب الرجل على القوم ينقب نقبا : إذا صار نقيباً . ونكب عليهم ينكب نكابة : إذا صار منكباً . وهو عون العريف . وقد نقب نقابة . والنقبة سراويل بغير رجلين لاتساع نقبه تلبسة المرأة . وأول الجرب النقبة وجمعها النقب . والنقب قال الشاعر :

متبذلا تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب

ويقال : كلب نقيب إذا نقب حنجرته ، لئلا يرتفع صوته في نباحه يفعل ذلك البخلاء ، لئلا يطرقهم ضيف بسماع نباح الكلاب . ومنه نقبت الحائط : إذا بلغت في النقب آخره .

وفي معنى قوله : « اثني عشر نقيباً » قولان :

احدهما - قال الحسن والجبائي : أنه اخذ من كل سبط منهم ضميناً بما عقد عليهم بالميثاق من امر دينهم .

الثاني قال مجاهد والسدي : إنهم بعثوا إلى الجبارين ، ليقفوا على آثارهم ويرجعوا بذلك إلى موسى ، فرجعوا ينهون قومهم عن قتالهم لما رأوا من شدة بأسهم ، وعظم خلقهم إلى اثنين منهم .

وقال البلخي : يجوز أن يكون النقباء رسلا ويجوز ان يكونوا قادة . وقوله : « بعثنا » لا يدل على أنهم رسل ، كما اذا قال القائل : الخليفة بعث الامير أو القضاة لا يفيد أنهم رسل ، بل يفيد أنه ولاهم وقلدهم . والغرض بذلك إعلام النبي (ص) أن هؤلاء الذين هموا بقتل النبي (ص) صفاتهم وأخلاقهم أخلاق أسلافهم الغدر ، ونقض العهد .

وقوله : « وقال الله اني معكم » معناه ناصركم على عدوكم وعدوي الذي أمرتكم بقتالهم إن قاتلتموهم ، ووفيتم بعهدي وميثاقي الذي أخذته عليكم . وفي الكلام حذف ، وتقديره وقال الله : إني معكم . وإنما حذف استغناء بقوله : « ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل » ثم ابتدأ تعالى قسما ، لئن أقمتم الصلاة معشر بني إسرائيل

« وآتيتم الزكاة » أي اعطيتموها « وآمنتم برسلي » معناه وصدقتم بما اتاكم به رسلي من شرائع ديني وقال الربيع بن أنس : هذا الخطاب من الله للنقباء وقال غيره : هو خطاب لنبي اسرائيل . والتقدير ان موسى (ع) قال لهم عن الله تعالى : إن الله ناصركم على عدوكم ما اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي « وعزرتموهم » قيل معناه قولان :

احدهما ـ قال مجاهد والسدي : معناه نصرتموهم وهو اختيار الزجاج .

الثاني ـ قال عبد الرحمن بن زيد : معناه ونصرتموهم وأطعتموهم . وبه قال أبو عبيدة . والعزز ـ في اللغة ـ : الرد والمنع في قول الفراء تقول : عزرت فلاناً : إذا أدبته ، وفعلت به ما يردعه عن القبيح . وقال تعالى : « وتعزروه وتوقروه » ومعناه تنصروه . وإلا كان تكراراً . وهو اختيار الطبري وأنشد أبو عبيدة في التعزير بمعنى التوقير قول الشاعر :

وكم من ماجد لهم كريم　　ومن ليث يعزر في الندي (١)

أي يعظم . وهو قول أبي علي .

وقوله : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً » معناه وانفقتم في سبيل الله ، وجهاد عدوه وعدوكم قرضاً حسناً . وقيل : معناه بطيبة نفس . وقيل معناه الا يتبعه من ولا اذى . وقيل من الحلال دون الحرام . وانما قال : قرضاً ، ولم يقل إقراضاً ، لانه رده إلى قرض قرضاً ، كما قال : « انبتكم من الارض نباتاً » (٢) ولم يقل إنباتاً ويقال : اعطيته عطاء . وقال امرؤ القيس :

ورضت فذلت صعبة اي إذلال (٣)

لان فيه معنى اذللت .

وقوله : « لا كفرن عنكم سيئاتكم » اللام جواب القسم . وهو قوله : « لئن اقمتم الصلاة » فالأولى لام القسم والثانية جوابه . وقال قوم : كل واحد منها

---

(١) ـ مجاز القرآن لابي عبيدة ١ : ١٥٧ وتفسير الطبري ١٠ : ١٢٠ . الندي مجلس القوم ماداموا مجتمعين فيه .

(٢) سورة نوح ، آية ١٧ .　　(٣) ديوانه : ١٤١ . راض الدابة علمها السير .

قسم . وصحيح الأول ، لان الكلام لم يتم في قوله : « لئن اقمتم الصلاة واتيتم الزكوة » ومعنى « لا كفرن » لا عطين بعفوي وصفحي عن عقوبتكم على مامضى اجرامكم ، ولا دخلنكم مع ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار والجنات البساتين والكفر معناه الجحود ، والتغطية والستر . قال لبيد :

في ليلة كفر النجوم غمامها (١)

وقوله تجري من تحتها يعني من تحت اشجار هذه الجنات الانهار .

وقوله : فمن كفر بعد ذلك منكم يعني من جحد منكم يامعشر بني اسرائيل ما أمرته به ، فتركه أو ركب ما نهيته عنه بعد اخذي الميثاق عليه ، فقد ضل يعني أخطأ قصد الطريق الواضح ، وزال عن منهاج السبيل القاصد . والضلال هو الركوب على غير هدى . وسواء السبيل يعني وسطه .

قوله تعالى :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣) ـ آية بلا خلاف ـ .

[القراءة] :

قرأ حمزه والكسائي قسية بلا الف ـ وقرأ الباقون قاسية ـ بالف .

[المعنى] :

المعني بالآية تسلية النبي (ص) فقال الله له : لا تعجبن من هؤلاء اليهود الذين هموا ان يبسطوا ايديهم اليك وإلى اصحابك ونكثوا العهد الذي بينك

---

(١) ـ انظر ١ : ٦٠

وبينهم ، وغدروا بك ، فان ذلك من عادتهم ، وعادات اسلافهم ، لاني اخذت ميثاق سلفهم على عهد موسى على طاعتي ، وبعثت منهم اثني عشر نقيباً ، فنقضوا ميثاقي ، ونكثوا عهدي ، فلعنتهم بنقضهم ميثاقهم . وفي الكلام محذوف اكتفى بدلالة الظاهر عليه . والمعنى فمن كفر بعدذلك منكم ، فقد ضل سواء السبيل ، فنقضوه ، فلعنتهم فبما نقضهم ذلك لعناهم فا كتفى بقوله : فبما نقضهم من ذكر فنقضوا .

(وما) زائدة والتقدير فبنقضهم (وما) مؤكدة . وهو قول قتادة وجميع المفسرين ومثله قول الشاعر :

لشيء ما يسود من يسود

والهاء والميم كنايتان عن بني اسرائيل واللعن هو الطرد للسخطعلى العبد ، وهو الابعاد من رحمة الله على جهة العقوبة . وقال الحسن : هو المسخ الذي كان فيهم حين صاروا قردة ، وخنازير . ومعنى جعلنا ـ هاهنا ـ قال البلخي : سميناها بذلك عقوبة على كفرهم ، ونقض ميثاقهم . قال : ويجوز أن يكون المراد ان الله بكفرهم لم يفعل بهم اللطف الذي تنشرح به صدورهم كما يفعل بالمؤمن . وذلك مثل قولهم : افسدت سيفك : إذا تركت تعاهـــده حتى صدىء . ويقولون : جعلت اظافيرك سلاحك : إذا لم تقصها . ويشهد للاول قوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن » وأرادبذلك انهم سموالله شركاء . وقال ابو علي : هو البيـــان عن حالهم ، وجفا قلوبهم عن الايمان بالله ورسوله ، كما يقال : جعلته فاسقاً مهتوكا : إذا أبان عن حاله للناس .

و معنى قاسية . أي يابسة يقال للرحيم : لين القب ، ولغـير الرحيم : قاسي القلب . والقاسي والقاسح ـ بالحاء ـ الشديد الصلابة . ويقال : قسا يقسو قسوة ومنه « فهي كالحجارة أو أشد قسوة » وقسية أشد مبالغـــة . وقاسية أعرف وأكثر في الاستعمال . وقال ابو عبيدة : قاسية معناه فاسدة من قولهم : درهم قسي أي زائف قال أبو زبيد :

لهـــا صواهـل في صم السلام كما صاح القسيات في ايدي الصياريف

يصف وقـع المساحي في الحجارة . وقال ابو عباس : الدرهم انما سمي قسياً اذا كان فاسداً لشدة صوته بالقسي الذي فيه ، فهو راجع الى الاول . وقال الراجز :

وقـد قسوت وقسا لداتي

وقوله : « يحرفون الكلم » فالتحريف يكون بأمرين : بسوء التاويل ، وبالتغيير والتبديل ، كما قال تعالى : « ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله » بعـــد قوله : « وان منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » والكلم جمع كلمة .

وقوله : « ونسوا حظاً مما ذكروا به » معناه تركوا نصيباً مما ذكروا به يعني مما أنزل على موسى . وهو قول الحسين والسدي وابن عباس .

وقوله : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم » معنـــاه على خيانة منهم وفاعله في اسماء المصادر كثير ، نحو عافاه الله عافية . « والمؤتفكات بالخاطئة » و « اهلكوا بالطاغيـــة » ويقال : قائلة بمعنى القيلولة . كل ذلك بمعنى المصدر وراغية الابل وثاغية الشاة . ويقال : رجل خائنة قال الشاعر :

حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن للغـــدر خائنة مغل الاصبـع

فخائنة على وجه المبالغة ، كما قالوا : رجل نسابة ، لانه يخـــاطب رجلا . ومعناه لا تخن ، فتغلل اصبعك في المتاع أي تدخلها الخيانة ، ومغل بدل من خائنة . ويجوز أن يكون على خائنة معناه على فرقة خائنة .

وقوله : « الا قليلا منهم » نصب على الاستثناء من الهاء والميم في قوله : « على خائنة منهم » .

وقوله : « فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين » قال قتـــادة : هو

منسوخ بقوله : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » وقال ابو علي بقوله : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » وقال البلخي : يجوز أن يكون أمر بالعفو والصفح بشرط التوبة أو بذل الجزية ، لانهم إذا بذلوا الجزية لا يؤاخذون بشيء من كفرهم . وهو قول الحسن ، وجعفر بن مبشر . واختار الطبري هذا . فعلى هذا لا يكون منسوخا وقوله : « يحرفون الكلم » لا يدل على أنه جعل قلوبهم قاسية ، ليحرفوا بل يحتمل امرين :

احدها ـ ان يكون كلاماً مستأنفاً ويكون التمام عند قوله : « قاسية » ثم أخبر عنهم بأنهم يحرفون الكلام عن مواضعه .

الثاني ـ أن يكون ذلك حالا ، لقوله : « فبما نقضهم ميثاقهم يحرفون » اي يحرفون الكلم ناسين لحظوظهم « لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية » .

قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ الذينَ قالوا انا نَصارى اَخذنا ميثاقَهمُ فَنسوا حَظا مِما ذكروا به فَاغرينا بينهم العَداوَةَ وَالبغضاءَ الى يَوم القيامَة وَسوفَ يُنبئهمُ اللّهُ بما كانوا يَصنعونَ ﴾ (١٤) ـ آية بلا خلاف ـ .

قوله : « ومن الذين قالوا إنا نصارى » انما لم يقل : من النصارى لما قاله الحسن : من أنه اراد تعالى بذلك أن يدل على أنهم ابتدعوا النصرانية التي هم عليها اليوم ، وتسموا بها .

وقوله : « اخذنا ميثاقهم » يعني بتوحيد الله عز وجل ، والاقرار بنبوة المسيح ، وجميع انبياء الله وانهم كلهم عبيد الله لا يذكر . وقال ابو علي : معناه تركوا العمل به ، فكان كالذي لا يذكر .

وقوله : « مما ذكروا به » يعني فيما أنزله الله على موسى وعيسى في التوراة والانجيل ، والكتب المتقدمة .

وقوله : « فأغرينا بينهم » قال مجاهد وقتادة وابن زيد والسدي والجبائي :
معناه بين اليهود والنصارى . وقال الربيع والزجاج والطبري :
معناه بين النصارى . وهو ما وقع بينهم من الخلاف نحو الملكية ، وهم الروم والنسطورية ، واليعقوبية من العداوة . وأصل الاغراء تسليط بعضهم على بعض . وقيل : معناه التحريش . وأصله اللصوق . يقال : غريت بالرجل غرى - مقصور وممدود - ومعناه لصقت به . قال كثير :

إذا قيل مهلا قالت العين بالبكا   غراء ومدتها حوافل تهمل

واغريت زيداً بكذا حتى غرى به . ومنه الغراء الذي يغرى به للصوق والاغراء بالشيء معناه الالصاق من جهة التسليط . وانما أغرى بينهم بالاهواء المختلفة في الدين في قول إبراهيم . وقيل . بالقاء البغضاء بينهم - عن الحسن وقتادة - وقيل : يامر بعضهم أن يعادي بعضاً في قول ابي علي فكأنه يذهب إلى ما تقدم من الامر لهم بمعاداة الكفار . والذي يقوله أن الوجه في اغراء الله فيما بينهم أنه امر النصارى بمعاداة اليهود فيما يفعله اليهود من القبيح في التكذيب بالمسيح ، وشتم امه ، والقذف لها والفرية عليها ، واضافتها اليه تعالى ، ووصفها بما لا يليق ، وامر اليهود بمعاداة النصارى في اعتقادهم التثليث ، وان المسيح ابن الله وغير ذلك من اعتقاداتهم الفاسدة ، نقضوا هذا الميثاق واعرضوا عنه حتى صار بمنزلة المنسي فكان في ذلك أمر كل واحد منهما بالطاعة ، فان قيل يمنع من ذلك قوله : « فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء » فجعل اغراءه لهم بالعداوة جوابا لقوله : « فنسوا حظا مما ذكروا به » لان الفاء تدل على الجواب . واذا كانت جواباً ، وجب أن يكون (تعالى) إنما أغرى بينهم ، لاجل نسيانهم للحظ الذي ذكروا به ، وانه عاقبهم بهذا الاغراء ، وليس في الامر والنهي والعبادات عقوبات - بلا خلاف - فدل جوابه بالفاء في قوله : « فأغرينا » عقيب قوله : « فنسوا حظاً » على أنه عاقب بالاغراء لا على ما قلتموه ؟ قيل : قوله « فنسوا حظاً مما ذكروا به » جوابه وانه فعل هذا الاغراء ؛ لاجل نسيانهم . غير أنه ليس بعقوبة ، وان كان جواباً . فكما

لاجل نسيانهم . غير أنه ليس بعقوبة ، وان كان جواباً . فكان الاغراء إنما وقع بينهم من أجل نسيانهم لحظهم من قبل أنهم نسوا ما ذكروا به من معرفة التوحيد ، والتدين به ، فصاروا إلى القول بالاتحاد والشرك والفرية عليه (تعالى) فلاجل ذلك أمر الله أضدادهم بمعاداتهم ، واغرائهم بهم . فان قيل : فان الله (تعالى) ذكر النصارى في هذه الآية بنسيان حظهم ثم أجاب بالفاء في قوله : « فأغرينا بينهم » وليس يصح على هذا أن يكون أغرى بينهم من اجل ما فعله النصارى من الكفر ، لانه إذا أمر اليهود بمعاداة النصارى ، لاجل نسيان النصارى وكفرهم فانما هذا عن امر الله اليهود بهم ، وليس باغراء بعضهم ببعض ، وقوله : « فأغرينا بينهم » يدل على ان الله بعث كل واحد من الفريقين على صاحبه ، وهذا يوجب خلاف قولكم ؟ ! قيل : الامر على ما قلتم من أن امر اليهود بمعاداة النصارى هو إغراء لهم بهم ، وليس باغراء بين النصارى ، لكنه تعالى قد ذكر اليهود فيما تقدم من هذه السورة ، وتكذيبهم ، وفريتهم على الله ، ثم ذكر النصارى ، فلما جمع بين الفريقين في الذكر في هذه السورة ، وان لم يجمعهم في هذه الآية ، جاز ان يذكر انه اغرى بينهم العداوة بان امر كل واحد منها بمعاداة عدوه فيما عصى فيه . وصح الاغراء بينهم والقاء العداوة والتباعد والمنافرة ، وصح أن يجعل ذلك جواباً . وقد قال البلخي جواباً آخر : وهو ان يكون الاغراء بين النصارى خاصة بعضهم لبعض على ظاهر الآية ، وهو أن الله تعالى نصب الادلة على ابطال قول كل فرقة من فرق النصارى ، فاذا عرفت طائفة منها فساد مذهب الأخرى فيما نصب الله لها من الادلة ، وان جهلت فساد مقالة نفسها لتفريطها في ذلك ، وسوء اختيارها ، فجاز على هذا أن يضاف الاغراء في ذلك إلى الله من حيث انه امر كل فرقة منها بمعاداة الاخرى على ما تعتقده ، وان أمرها ايضاً بأن تترك ما هي متمسكة به لفساده وهذا واضح بحمد الله ، فان قيل : أيجوز على هذا ان يقال ان الله اغرى بين المؤمنين والكفار العداوة ؟ قلنا : اما اغراء المؤمن بالكافر فصحيح ، واما اغراء الكافر بالمؤمن ، فليس بصحيح ، لان ما عليه المؤمنون حق ، وما عليه الكفار ، باطل . وإنما يقال : إن الله اغرى بين

قوم وقوم إذا كان على بطلان قول كل طائفة منها دليل يدل على فساد قول من يخالفها فعلى هـذا لا يصح إطلاق القول بما قالوه ، ومتى قيد القول على ما بيناه ، جاز ، وأن لم يخبر مع الاطلاق .

وقوله : « وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » لما قال (تعالى) لنبيه : « فاعف عنهم واصفح » بين انه من وراء الانتقام منهم ، وانه سيجازيهم عند ورودهم عليه ، بما كانوا يصنعون في الدنيا من نقض الميثاق ، ونكث العهد ويعاقبهم على ذلك بحسب استحقاقهم .

قوله تعالى :

﴿ يا اهلَ الـكتابِ قَد جاءَكم رَسولُنا يُبَينُ اللهُ لكم كَثيراً مما كنتم تخفونَ مِن الـكتابِ وَيعفو عن كَثيرٍ قَد جاءَكم مِنَ اللهِ نورٌ وَكتابٌ مُبينٌ يَهدي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبعَ رِضوانهُ سُبُلَ السلامِ وَيُخرجُهم مِنَ الظلماتِ الى النورِ باذنهِ وَيَهديهم الى صراطٍ مُستقيم ﴾ (   )

آيتان كوفي وثلاث بصري ومدني . هـذا خطاب لأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين عصوا الرسول فيما أمرهم به ، ودعاهم اليه ، فقال لهم قد جاءكم رسولنا محمد (صلى الله عليه واله) يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب أي يبين للناس ما كنتم تخفونه . وقال ابن عباس وقتادة : إن مما بينه رجم الزانين ، وأشياء كانوا يحرفونها بسوء التأويل . وانما لم يقل : يا أهل الكتابين ، لأن الكتاب اسم جنس . وفيه معنى العهد ، وهو أو جزوا حسن في اللفظمن حيث كانوا ، كأنهم أهل كتاب واحـد . والوجه في تبيين بعضه ، وترك بعضه أنه يبين ما فيه دلالة على نبوة النبي (ص) من صفاته ، ونعته ، وبشارته به ، وما يحتاج إلى علمه من غير ذلك مما تتفق له الأسباب التي يحتاج معها إلى استعلام ذلك ، كما اتفق في الرجم

وما عدا هذين مما ليس في تفصيله فائدة يكفي ذكره في الجملة .

وقوله : « ويعفو عن كثير » معناه يترك كثيراً لا يأخذكم به ، ولا يذكره لأنه لم يؤمر به على قول ابي علي وقال الحسن : ويصفح عن كثير بالتوبة منه . ومعنى النور في الآية يحتمل امرين :

احدهما ـ أنه النبي (صلى الله عليه واله) في قول الزجاج

والاخر ـ هو القرآن على قول ابي علي وانما سمي نوراً ، لانه يهتدى به كما يهتدى بالنور ، ويجب ان يتبع لانه نور مبين عن الحق من الباطل في الدين . والاولى ان يكون كناية عن النبي ، لأن قوله : « وكتاب مبين » المراد به القرآن ،

وقوله : « يهدي به الله » يعني يفعل اللطف المؤدي الى سلوك طريق الحق يعني بالنبي (صلى الله عليه واله) او الكتاب « من اتبع رضوانه » يعني رضا الله والرضوان والرضا من الله ضد السخط . وهو ارادة الثواب لمستحقه وقال قوم : هو المدح على الطاعة والثناء . وقال الرماني : هو جنس من الفعل يقتضي وقوع الطاعة الخالصة مما يبطلها ، ويضاد الغضب . قال لان الرضا بما كان يصح ، وارادة ما كان لا يصح إذ قد يصح أن يرضى بما كان ، ولا يصح أن يريد ما كان . وهذا الذي ذكره ليس بصحيح ، لان الرضا عبارة عن ارادة حدوث الشيء من الغير ، غير انها لا تسمى بذلك إلا إذا وقع مرادها ، ولم يتخللها كراهة ، فتسميتها بالرضا ، وقوفة على وقوع المراد إلا أن بعد وقوع المراد بفعل ارادة هي رضا لما كان فسقط ما قاله .

وقوله : « سبل السلام » السبل جمع سبيل . وفي السلام قولان :

احـــدهما ـ هو الله في قول الحسن والسدي ـ والمعنى دين الله . وقال : « هو الله الذي لا اله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن »

الثاني ـ قال الزجاج : إنه السلامة من كل مخافة ومضرة إلا ما لا يعتد به ، لانه يؤول إلى نفع في العاقبة .

وقوله : « يخرجهم من الظلمات الى النور باذنه » معناه من الكفر الى الايمان ، لان الكفر يتحير فيه صاحبه كما يتحير في الظلام ، ويهتدي بالايمان إلى النجاة كما

يهتدي . بالنور وقوله : « باذنه » معناه بلطفه .

وقوله : « يهديهم الى صراط مستقيم » معناه يرشدهم إلى طريق الحق . وهو دين الحق . وقال الحسن : هو الذي يأخذ بصاحبه حتي يؤديه إلى الجنة . وبه قال أبو علي . ومعنى « صراط مستقيم » طريق مستقيم وهو دين الله القويم الذي لا اعوجاج فيه .

قوله تعالى :

﴿ لَقد كَفَرَ الذينَ قالوا انَّ اللهَ هُوَ المسيحُ ابنُ مَريمَ قُل فَمن يَملكُ مِنَ اللهِ شيئاً إن ارادَ ان يُهلِكَ المسيحَ بنَ مَريَمَ وَامّهُ وَمَن في الارضِ جَميعاً وَللهِ مُلكُ السماواتِ وَالارض وَما بينهما يَخلقُ ما يَشاءُ وَاللهُ على كُلِ شيءٍ قدير ﴾ ( ) آية بلا ـ خلاف ـ

اللام في قوله : « لقد كفر » جواب للقسم وتقديره أقسم لقد كفر الذين قالوا . وانما كفروا بقولهم : إن الله هو المسيح بن مريم على وجه التدين به ، لانهم لو قالوه على وجه الحكاية منكرين لذلك لم يكفروا به . وانما كانوا بذلك كافرين من وجهين :

احدهما ـ انهم كفروا بالنعمة من حيث أضافوها إلى غير الله ممن ادعوا الهيته .

والثاني ـ كفر صفة لانهم وصفوا المسيح وهو محدث بصفات الله تعالى ، فقالوا : هو إله واحد فكل جاهل بالله كافر ، لانه لما ضيع حق نعمة الله ، كان بمنزلة من أضافها إلى غيره ومعنى من يملك من الله شيئاً من يقدر ان يدفع من أمر الله شيئاً ، من قولهم : ملكت على فلان أمره : إذا اقتدرت عليه حتى لا يمكنه انفاذ شيء من امره الا بك . وتقديره من يملك من امره شيئاً . ووجه الاحتجاج بذلك انه لو كان المسيح إلهاً ، اقدر على دفع أمر الله اذا اتى باهلاكه واهلاك غيره ، وليس

بقادر عليه لاستحالة القدرة على مغالبة القديم (تعالى) إذ ذلك من صفات المحتاج الذليل .

وقوله : « ولله ملك السموات والأرض وما بينهما » انها لم يقل وما بينهن مع ذكر السموات على الجمع ، لأنه أراد به النوعين أو الصنفين كما قال الشاعر :

طرفاً فتلك هما همي اقريها　　قلصاً لواقح كالقسي وحولا

فقال : طرفاً ، ثم قال : فتلك هما همي . فان قيل : كيف حكى عنهم ان الله هو المسيح بن مريم . وعندهم هو ابن الله ؟ قلنا : لأنهم زعموا انه اله . وهـذا الاسم انما هو للاله بمنزلة ذلك ، كما لو قال الدهري : إن الجسم قديم لم يزل ، وان لم يذكره بهذا الذكر .

قوله تعالى :

﴿ وقالَتِ اليهودُ وَالنصارى نحنُ ابناءُ اللهِ وَاحباؤُهُ قل فَلِمَ يُعذِبُكم بِذنوبِكم بَل انتم بَشرٌ مِمن خَلقَ يَغفرُ لِمن يَشاءُ وَيُعذبُ مَن يَشاءُ وَلِلهِ مُلكُ السماواتِ وَالارضِ وَما بينهما وَاليهِ المصير ﴾ ( )

ـ آية بلا خلاف ـ .

روي عن ابن عباس أن جماعة من اليهود قالوا للنبي حين حذرهم بنقمات الله وعقوباته ، فقالوا : لا تخوفنا فاننا ابناء الله واحباؤه وقال السدي : إن اليهود تزعم ان الله عز وجل أوحى الى بني اسرائيل إن ولدك بكر من الولد . وقال الحسن : انما قالوا ذلك على معنى قرب الولد من الوالد . واما قول النصارى ، فقيل فيه : إنهم تأولوا ما في الأنجيل من قول عيسى اذهب الى ابي وأبيكم . وقال قوم : لما قالوا : المسيح ابن الله أجرى ذلك على جميعهم ، كما يقولون : هذيل شعراء أي منهم شعراء وكما قالوا في رهط مسيلمة قالوا : نحن انبياء أي قال قائلهم . وكما قال جرير :

ندسنا ابا مندوسة القين بالقنى

فقال : ندسنا . وانما النادس رجل من قوم جرير .

وقوله : « واحباؤه » جمع حبيب ، فقال الله لنبيه محمد (صلى الله عليه واله) قل لهؤلاء المفترين على ربهم : « فلم يعذبكم بذنوبكم » فلاي شيء يعذبكم بذنوبكم إن كان الأمر على ما زعمتم ، فان الأب يشفق على ولده . والحبيب على حبيبه ، لا يعذبه وهم يقرون بأنهم معذبون ، لانهم لو لم يقولوا به ، كذبوا بكتبهم وأباحوا الناس ارتكاب فواحشهم . واليهود تقرانهم يعذبون أربعين يوماً . وهي عدد الايام التي عبدوا فيها العجل .

وقوله : « بل انتم بشر » معناه قل لهم : ليس الامر على ما زعمتم انكم ابناء الله واحباؤه ، بل انتم بشر ممن خلق من بني آدم ان أحسنتم جوزيتم على إحسانكم مثلهم ، وإن اسأتم ، جوزيتم على إساءتكم ، كما يجازى غيركم . وليس لكم عند الله إلا ما لغيركم من خلقه .

وقوله : « يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » فانه وان علق العذاب بالمشيئة ، فالمراد به المعصية ، لانه تعالى لا يشاء العقوبة إلا لمن كان عاصياً ، فكان ذكرها أوجز وأبلغ ، لما في ذلك من رد الامر الى الله الذي يجازي به على وجه الحكمة . وانما هذا وعيد من الله لهؤلاء اليهود والنصارى المتكلين على منازل أسلافهم في الجنان عندهم . فقال الله تعالى : لا تغتروا بذلك فانهم نالوا ما نالوا بطاعتي وايثار رضاي ، لا بالاماني . وقال السدي : معنى « يغفر لمن يشاء » يعني يهدي من يشاء في الدنيا فيغفر له ، ويميت من يشاء على كفره ، فيعذ به .

وقوله تعالى : « ولله ملك السموات والارض » معناه انه يملك ذلك وحده لاشريك له يعارضه ، فقد وجب اليأس مما قدروا من كل جهة ، وأنه لا منجي لهم الا بالعمل بطاعة الله واجتناب معاصيه . وقال أبو علي : ذلك بأنه يملك السموات ، والارض ومابينهما على أنه لا ولد له ، لان المالك لذلك لاشبه له ، ولان المالك لا يملك ولده لخلقه له .

وقوله : « واليه المصير » معناه انه يوؤل اليه امر العباد في أنه لا يملك ضرهم ،

(١) ـ في المطبوعة (يجزيها) .

ولا نفعهم غيره ــ عز وجل ــ ، لانه يبطل تمليكه لغيره ذلك اليوم كما ملكهم في دار الدنيا كما يقال : صار أمرنا الى القاضي لا على معنى قرب المكان ، وإنما يراد بذلك أنه المتصرف فينا والآمر لنا دون غيره .

قوله تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢١) ــ آية بلاخلاف ــ

هــذا خطاب لليهود والنصارى ناداهم الله خصوصاً لينبههم على ما يذكر لهم .

وقوله (قد جاءكم رسولنا يبين لكم) يدل على أنه اختصه من العلم بما ليس مع غيره « على فترة من الرسل » يعني على انقطاع من الرسل . وفيه دلالة على أن زمان الفترة : لم يكن فيه نبي . والفترة انقطاع ما بين النبيين عند جميع المفسرين . والأصل فيها الانقطاع عما كان عليه من الجد فيه من العمل ، يقال : فتر عن عمله وفترته عنه . وفتر الماء إذا انقطع عما كان عليه من البرد الى السخونة . وامرأة فاترة الطرف أي منقطعة عن حدة النظر . وفتور البدن كفتور الماء ، والفتر ما بين السبابة والابهام إذا فتحا . وقال الحسن : كانت هذه الفترة بين عيسى ومحمد (ص) ستمائة سنة وقال قتادة خمسمائة وخمسين سنة . وقال الضحاك أربعمائة سنة وبضعاً وستين سنة .

وقوله (أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) يدل على بطلان مذهب

المجبرة في القدرة ، لان الحجة بمنع القدرة أوكد من الحجة بمنع اللطف ، وتكون الحجة في ذلك لمن علم الله أن بعثة الأنبياء مصلحة لهم ، فاذا لم يبعث ، تكون لهم الحجة ، فاما من لا يعلم ذلك فيهم ، فلا حجة لهم ، وان لم يبعث اليهم الرسل •ومعنى « أن تقولوا » ألا تقولوا «ما جاءنا من بشير ولا نذير» • على قول الفراء وغيره من الكوفيين ، كقوله تعالى : « يبين الله لكم أن تضلوا » ومعناه ألا تضلوا •وقال البصريون : معناه كراهة أن تضلوا ، وكراهة أن تقولوا ، وحذفت كراهة • كما قال « واسأل القرية » وإنما أراد أهلها • وأن « تقولوا » في موضع نصب عند أكثر البصريين وقال الخليل والكسائي : موضعه الجر وتقديره لئلا تقولوا • والبيان الذي أتاهم به النبي (ص) هو دين الاسلام الذي ارتضاه الله • وهو بيان نفس الحق من الباطل ، وما يجب •

والبشير هو المبشر لكل مطيع بالثواب • والنذير هو المنذر المخوف كل عاص لله بالعقاب ليتمسك المطيع بطاعته ، ويجتنب العاصي لمعصيته • والجملة التي ذكرناها قول ابن عباس وقتادة وجميع المفسرين •

قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٢) آية بلا خلاف

في هذه الآية اعلام من الله تعالى للنبي (ص) قديم تمادي هؤلاء اليهود في الغي وبعدهم من الحق وسوء اختيارهم لانفسهم وشدة خلافهم لانبيائهم مع

كثرة نعم الله عليهم وتتابع أياديه وآلائه عليهم ، مسلياً بذلك نبيه (ص) من مقاساتهم في ذات الله . فقال : فاذكر يا محمد إذ قال موسى لهم (يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم) وأياديه لديكم وآلائه عليكم . وهو قول ابن عباس وابن عيينة .

وقوله (إذ جعل فيكم أنبياء) يعني ان موسى ذكر قومه بنعمه عليهم ، وبلائه لديهم فقال لهم (اذكروا نعمة الله عليكم) إذ فضلكم بأن جعل فيكم أنبياء يخبرونكم بأنباء لغيب ، ولم يعط ذلك غيركم في زمانكم هذا . وقيل ان الأنبياء الذين ذكرهم الله أنهم جعلوا فيهم هم الذين اختارهم موسى إلى الجبل : وهم السبعون الذين ذكرهم الله تعالى فقال (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) [1] وقال قوم : هم الأنبياء الذين كانوا بعد موسى (ع) .

وقوله (وجعلكم ملوكاً) معناه سخر لكم من غيركم خدماً يخدمونكم . وقال قتادة : لأنهم أول من سخر لهم الخدم من بني اسرائيل ، وملكوا . وقال قوم : كل من ملك بيتاً أو خادماً أو امرأة ولا يدخل عليه إلا بأمره فهو ملك ــ كائناً من كان ــ ذهب اليه عمرو بن العاص وزيد بن اسلم والحسن والفراء قال : هؤلاء إنما خاطبهم موسى بذلك لأنهم كانوا يملكون الدور والخدم ولهم نساء وأزواج . وبه قال الحسن وابن عباس ومجاهد . وروي عن النبي (ص) . وقال السدي جعلهم ملوكاً يملك الرجل منهم نفسه وأهله وماله . وقال الزجاج : جعلكم الله تملكون أمركم ولا يغلبكم عليه غالب . وقال البلخي :

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٥٤ .

ليس ينكر أن يكون الله جعل لهم الملك والسلطان ووسع عليهم التوسعة التي يكون الانسان بها ملكاً . وقال المؤرج : معناه ـ بلغة كنانة وهذيل ـ جعلكم أحراراً . وقال أبو علي : الملك هو الذي له ما يستغني به عن تكلف الاعمال وتحمل المشاق ، والتسكع في المعاش . وقال ابن عباس ، ومجاهد : جُعلوا ملوكاً بالمن والسلوى والحجر والغمــام . وزاد الجبائي : وبغير ذلك من الاموال . وقال قوم : ملكوا أنفسهم بالتخلص من الغيظ .

وقوله : (وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين) يعني أعطاكم ما لم يعط أحداً من عالمي زمانهم . وهو قول الحسن والبلخي . وقال أبو علي : أعطاكم ما لم يعط أحداً من العالمين أي من اجتماع هذه الامور وكثرة الأنبياء فيهم ، والآيات التي جاءتهم ، إنزال المن والسلوى عليهم . وهو قول الفراء والزجاج . وقال ابن عباس ومجاهد والحسن : هذا خطاب موسى لامته ـ وهو الأظهر ـ وقال سعيد بن جبير ، وأبو مالك : هو خطاب من الله لامة محمد (ص) . وإنما قلنا : أن الاول أولى لأن الله أخبر حاكياً عن موسى (ع) أنه قال لهم « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً) ثم عطف على ذلك قوله : (وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين) فالعدول عن ذلك من غير ضرورة لا يجوز .

وقوله : « أنبياء » لا ينصرف في معرفة ولا نكرة لان علامة التأنيث فيها لازمة مثل حمراء تأنيث أحمر . ويخالف ذلك علامة التأنيث في طلحة وقائمة تأنيث قائم فلذلك انصرف هذا في النكرة دون المعرفة .

قوله تعالى :

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢٣) آية بلا خلاف

هذه حكاية عن موسى (ع) أنه خاطب قومه وأمرهم بالدخول الى الارض المقدسة وهي : بيت المقدس على قول ابن عباس ، وابن زيد ، والسدي وأبي علي . وقال الزجاج والفراء : هي دمشق وفلسطين وبعض الاردن . قال الفراء بتشديد النون ـ وقال قتادة : هي الشام . وقال مجاهد هي أرض الطور .

والمقدسة في اللغة : المطهرة . وقيل : إنها طهرت من الشرك وجعلت مسكناً وقراراً للأنبياء والمؤمنين ، والاصل التقديس ، وهو التطهير ، ومنه قيل للسطل الذي يتطهر منه : القدس . وقيل : بيت المقدس لانه يطهر من الذنوب . ومنه تسبيح الله وتقديسه سبوح قدوس ، وهو تنزيهه عما لا يجوز عليه من نحو الصحابة والولد والظلم والكذب .

وقوله : « كتب الله لكم » يعني في اللوح المحفوظ . فان قيل : كيف كتب الله لهم مع قوله « فانها محرمة عليهم » ؟ قلنا عنه جوابان :

أحدهما ـ قال ابن اسحاق : إنها كانت هبة من الله لهم ثم حرمهم إياها .

والثاني ـ إن ظاهر ذلك يقتضي العموم بأن الله كتب لهم ، فلما قال «إنها محرمة عليهم أربعين سنة » استثنى ذلك من جملته .

ويحتمل أن يكون المراد انها يدخلها قوم منهم . وقيل : ان القوم الذين كتب لهم دخولها غير الذين حرم عليهم ، والذين كتب لهم دخولها مع يوشع بن

نون بعد موت موسى بشهرين .

وقوله « ولا ترتدوا على أدباركم » فيه قولان :

أحدهما ـ لا ترجعوا عن طاعة الله الى معصيته ـ في قول أبي علي .

الثاني ـ لا ترجعوا عن الارض التي أمرتم بدخولها .

وقوله « فتنقلبوا خاسرين » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ أنه كان فرض عليهم دحولها كما فرضت الصلاة والصوم والزكاة والحج ، فلما لم يفعلوا فقد خسروا الثواب . هذا قول قتادة والسدي .

والثاني ـ أنه أراد بذلك خسران حظهم كالخسران في البيع بذهاب رأس المال .

وخاسرين نصب على الحال ، والعامل فيه « فتنقلبوا » دون قوله « ولا ترتدوا » .

قوله تعالى :

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٤) آية بلا خلاف

هذه حكاية من الله عن قوم موسى لما أمرهم بدخول الأرض المقدسة ، انهم قالوا : إن في الارض قوماً جبارين ، ونصب (جبارين) بـ (أن) و (فيها) خبر (إن) قدم على الاسم . والجبار هو الذي لا ينال بالقهر وأصله ـ في النخل ـ ما فات اليد طولاً والجبار من الناس هو الذي يجبرهم على ما يريد .

وقال ابن عباس : بلغ من جبرية هؤلاء القوم أنه لما بعث موسى من قومه

اثنى عشر نقيباً ليخبروه خبرهم ، رآهم رجل من الجبارين يقال له عوج فأخذهم في كمه مع فاكهة كان حملها من بستانه وأتى بهم الملك فنثرهم بين يديه وقال معجباً للملك منهم : هؤلاء يريدون قتالنا ؟! فقال الملك : ارجعوا إلى صاحبكم فاخبروه خبرنا .

وقال قتادة ومجاهد مثله . قال مجاهد كانت فاكهتهم لا يقدر على حمل عنقود لهم خمسة رجال بالخشب . ويدخل في قشر نصف رمانة خمسة رجال . وان موسى كان طوله عشرة أذرع وله عصا طولها مثل ذلك ونزا من الارض مثل ذلك ، فبلغ كعب عوج بن عوق فقتله . وقيل كان سريره مئة ذراع .

وأصل الجبار من الاجبار على الامر وهو الاكراه عليه . والجبر جبر العظم وهو كالاكراه على الصلاح . قال العجاج :

قد جبر الدين الاله فجبر وعوّر الرحمن من ولى العور (١)

أي أصلحه ولأمه كجبر العظم كرهاً . والجبّار هدر الارش لأن فيه معنى الكره . والجبار في صفات الله صفة التعظيم ، لانه يفيد الاقتدار ، وتقول : لم يزل الله جباراً بمعنى أن ذاته تدعو العارف بها إلى تعظيمها . والفرق بين الجبار والقهار أن القهار هو الغالب لمن ناوأه أو كان في حكم المناوىء بمعصيته إياه ، ولا يوصف فيما لم يزل بأنه قهار . والجبار في صفة المخلوقين صفة ذم ، لانه يتعظم بما ليس له من العظمة . فان العظمة لله تعالى .

وقوله (وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها) يعني هؤلاء الجبارين « فان

---

(١) لسان العرب (جبر) ، (عور) ، والعور هنا بمعنى قبح الامر وفساده ، تقول : عورت عليه أمره أي أفسدته عليه .

يخرجوا منها فانا داخلون » تمام الحكاية عن قوم موسى .

قوله تعالى :

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ (٢٥) وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٦) آيتان في البصري وآية عند الباقين .

هذا إخبار من الله تعالى عن رجلين من جملة النقباء الذين بعثهم موسى لتعرف خبر القوم . وقيل هما يوشع بن نون ، وكالب ، وقيل كلاب بن يوفنا ، في قول ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة والربيع . وقال الضحاك : هما رجلان كانا في مدينة الجبارين وكانا على دين موسى (ع) . وقوله « من الذين يخافون » قال قتادة : يخافون الله ـ عز وجل ـ وقال أبو علي يخافون الجبارين أي لم يمنعهم الخوف من الجبارين أن قالوا الحق « أنعم الله عليهما » بالتوفيق للطاعة . وقال الحسن : أنعم الله عليهما بالاسلام . وكان سعيد بن جبير يقرأ « يخافون » بضم الياء . وروي تأويل ذلك عن ابن عباس : انهما كانا من الجبارين أنعم الله عليهما بالاسلام .

وقوله : « ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون » اخبار عن قول الرجلين انهما قالا ذلك . وإنما صار الظفر بدخول باب مدينة الجبارين لما رأوا من رعبهم وما ألقى الله في قلوبهم من حكمة بأنه كتبها لهم ، وما تقدم من وعد موسى (ع) إياهم بأنهم إن دخلوا الباب غلبوا .

وقوله « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » معناه فتوكلوا على الله في

نصره إياكم على الجبارين إن كنتم مؤمنين بالله ، وبما آتاكم به رسوله من عنده •

قوله تعالى :

قَالُوا يَامُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ (٢٧) آية بلا خلاف .

هذا إخبار عن قوم موسى أنهم قالوا : لا ندخل هذه المدينة ما دام الجبارون فيها ، لانهم جبنوا وخافوا من قتال الجبارين لعظم أجسامهم وشدة بطشهم ، ولم يثقوا بوعد نبيهم بالنصر لهم عليهم والغلبة لهم •

وقوله « فاذهب أنت وربك » إنما أبرز الضمير ليصح العطف عليه ، لانه لا يجوز العطف على الضمير قبل أن يؤكد • وإنما جاز في قوله « فاجمعوا أمركم وشركاءكم » (١) ذلك ، لأن ذكر المفعول صار عوضاً عن المنفصل مثل (لا) في « لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا » (٢) وإنما لم يقرن قوله (اذهب أنت وربك فقاتلا » بالنكير ــ إذ الذهاب لا يجوز عليه تعالى ــ لأمرين :

أحدهما ــ لأن الكلام كله يدل على الانكار عليهم والتعجب من جهلهم في تلقيهم أمر نبيهم بالردّ له والمخالفة عليه •

الثاني ــ لانهم قالوا ذلك على المجاز بمعنى وربك معين لك ــ على ما ذكره البلخي ــ والأول أقوى لأنه أظهر من أولئك الجهال • وإنما يتأول على ما قاله البلخي لو كانوا ممن لا يجوز عليهم مثل ذلك • وقال الحسن : هذا القول منهم يدل على أنهم كانوا مشبهة وأنهم كفروا بذلك بالله • وقال أبو علي : إن كانوا قالوه على وجه الذهاب من مكان الى مكان فهو كفر ، لان

(١) سورة يونس آية ٧١ (٢) سورة الأنعام آية ١٤٨

ذلك جل بالله تعالى . وإن قالوه على وجه الخلاف فهو فسق .

فان قيل : هل يجوز وصفه تعالى بالقتال كما قال « قاتلهم الله أنى يؤفكون) [1] ؟

قلنا : هذا مجاز ، والمعنى إن عداوته لهم عداوة المقاتل ، وانه يحل بهم ما يحله بالمقاتل المستعلي بالاقتدار وعظم السلطان ، وليس كذلك قول هؤلاء الجهال .

قوله تعالى :

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٨) آية بلا خلاف.

في هذه الآية إخبار من الله تعالى عما قاله موسى (ع) عقيب ما كان من قومه من الخلاف وقلة القبول على نبيهم ، وخرج ذلك مخرج الغضب منه على قومه لما كان من عصيانهم إياه . ومثل ذلك لا يخرج إلا على غضب .

وقوله « لا أملك إلا نفسي وأخي » مجاز ، لأن الانسان لا يصح أن يملك نفسه ، لأن الأصل في الملك القدرة ، والمالك هو القادر ، ومحال أن يقدر الانسان على نفسه ، ثم من حق المملوك أن يكون مقدوراً عليه أو في حكم المقدور عليه في أن له أن يصرفه تصريف المقدور عليه كملك الانسان للمال والعبد ونحوه ، فلا يجوز على هذا أن يملك نفسه . ومعنى الآية أنه لما ملك تصريف نفسه في طاعة الله جاز أن يصف نفسه بأنه يملكها ، لانه مما يجوز أن يملكه . وقوله : « وأخي » لأنه كان أيضاً طائعاً له فيما يأمره به ، فكان كالقادر عليه . ويحتمل موضعه أربعة أوجه :

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣١ وسورة ٦٥ المنافقون آية ٤ .

أحدها ــ الرفع على موضع (إن) وتقدره : إني لا أملك إلا نفسي وأخي لا يملك الا نفسه •

الثاني ــ الرفع أيضاً بالعطف على الياء في (إني) •

الثالث ــ النصب بالعطف على الياء في (إني) •

الرابع ــ النصب بالعطف على نفسي •

وقوله « فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » قيل في الوجه الذي سأل الفرق بينه وبينهم قولان :

أحدهما ــ أن يحكم ويقضي بما يدل على بعدهم عن الحق وذهابهم عن الصواب فيما ارتكبوا من العصيان ولذلك ألقوا في التيه • هذا قول ابن عباس والضحاك •

الثاني ــ قال أبو علي إنما دعا بأن يفرق بينه وبينهم في الآخرة بأن يكون هؤلاء في النار ، وأن يكون هؤلاء في الجنة • ولو دعا بالهلاك في الدنيا لأهلكهم الله •

وقال قوم : إنما سأل أن ينصره الله عليهم حتى يرجعوا الى الحق • وقال البلخي معناه باعد ، وافصل • وحكي عن المؤرج ان معناه : اقض ــ بلغة مدين ــ والفرق الذي يدل على المباعدة مثل قول الراجز :

يا رب فافرق بينه وبيني   أشدّ ما فرّقت بين اثنين

وقوله « الفاسقين » ــ في الآية ــ لا يدل على ان ما وقع منهم كان فسقاً لا كفراً ، لأن الكفر قد يوصف بالفسق ، لأن الفسق هو الخروج من الطاعة الى المعصية على وجه التمرد ، ويكون ذلك في الكفر قال الله تعالى « إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » [1] وكان بذلك كافراً بلا خلاف •

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٥٠ •

قوله تعالى :

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٩) آية

هذه الآية إخبار من الله ، وخطاب لموسى (ع) أنَّ قومه قد حرم عليهم دخول بلد الجبارين أربعين سنة ، وفي كيفية التحريم قولان :

أحدهما ـ قول أكثر المفسرين : أنه تحريم منع كما قال الشاعر :

جالت لتصرعني فقلت لها اقصري ... اني امرؤ صرعي عليك محرم

يعني دابته التي هو راكبها ويريد بذلك إني فارس لا يمكنك أن تصرعني . وقال أبو علي : يجوز أن يكون المراد به تحريم تعبد ـ والأول هو الأظهر ـ وقال البلخي : يجوز أن يكونوا أمروا بأن يطوفوا فيه أربعين سنة يتيهون في الأرض يعني في المسافة التي بينهم وبينها . وقال الربيع : وكان مقداره ستة فراسخ . وقال مجاهد ، والحسن : كانوا يصبحون حيث أمسوا . ويمسون حيث أصبحوا . وقال الحسن : لم يمت موسى (ع) في التيه . وروي عن ابن عباس أنه مات في التيه على علم منه فيه . وأما هارون فانه مات قبل موسى في التيه ، وكان أكبر من موسى . واستخلف موسى يوشع بعده . وقال : إن الله بعثه نبياً . وفي دخوله أيضاً مدينة الجبارين خلاف .

وأصل التيه التحير الذي لا يهتدى لأجله للخروج عن الطريق الى الغرض المقصود . وأصله الحيرة . يقال : تاه يتيه تيهاً : إذا تحير . وتيهته ، وتوهته ، والياء أكثر . والتيهاء ـ من الارض ـ هي التي لا يهتدى فيها . يقال : أرض تيه وتيهاء . قال الشاعر :

تيه أتاويه على السقاط

فان قيل : يجوز على جماعة ــ عقلا ــ كثيرين أن يسيروا في فراسخ يسيرة فلا يهتدوا للخروج منها ؟ قلنا عنه جوابان :

أحدهما ــ قال أبو علي : يكون ذلك بأن تحول الأرض التي هم عليها إذا ناموا فيردهم الى المكان الذي ابتدؤا منه •

الثاني ــ أن يكون بالاشتباه • والاسباب المانعة من الخروج عنها إما بأن يمحو العلامات التي يستدل بها أو بأن يلقى شبه بعضها على بعض ، ويكون ذلك معجزة خارقة للعادة •

وقيل : إن التيه كان عقوبة لهم بعدد الايام التي عبدوا فيها العجل عن كل يوم سنة • ومن قال هذا قال : لم يكن موسى وهارون فيها ، أو كانا فيها غير متوهين ،كماكان ابراهيم في نار نمرود غير متألم بها •

وقوله : (أربعين سنة) نصبه يحتمل أمرين :

أحدهما ــ على قول الربيع بـ « محرمة » حرمها عليهم أربعين سنة •

والثاني ــ «يتيهون» على قول الحسن وقتادة ، لانهما قالا : إنه ما دخلها أحد منهم • وقيل : انه دخلها يوشع بن نون وكالب بن يوفنا بعد موت موسى بشهرين • قالوا لانه لا خلاف بين المفسرين أن دخولها كان محرم عليهم على طريق التأبيد • وإنما دخلها أولادهم مع يوشع وكالب بن يوفنا • وقوله : « فلا تأس على القوم الفاسقين » خطاب لموسى (ع) أمره الله أن لا يحزن على هلاكهم لفسقهم • والاسى : الحزن يقال أسى يأسى أسى أي حزن قال امرؤ القيس :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم　　　يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقال الزجاج : هو خطاب للنبي (ص) •

قوله تعالى :

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ آدَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٠) آية بلا خلاف

وجه إتصال هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى أراد أن يبين أن حال اليهود في الظلم ونقض العهد وارتكاب الفواحش من الامور كحال ابن آدم قابيل في قتله أخاه هابيل ، وما عاد عليه من الوبال بتعديه . فأمر نبيه أن يتلو عليهم اخبارهما وفيه تسلية للنبي (ص) لما ناله من جهلهم بالتكذيب في جحوده وتبكيت اليهود .

وقوله : « إذ قربا قرباناً » متعلق بنبأ ، وتقديره : اقرأ عليهم خبر ابني آدم وما جرى منهما إذ قربا قرباناً . والقربان يقصد به القرب من رحمة الله من أعمال البر وهو على وزن فعلان من القرب ، كالفرقان من الفرق ، والعدوان من العدو ، والشكران من الشكر ، والكفران من الكفر .

قال ابن عباس وعبدالله بن عمر ، ومجاهد ، وقتادة ، وأكثر المفسرين : إن المتقربين كانا ولدي آدم لصلبه : قابيل ، وهابيل . وقال الحسن ، وأبو مسلم محمد بن بحر ، والزجاج : هما من بني اسرائيل ، لأن علامة تقبل القربان لم تكن قبل ذلك . وكان سبب قبول قربان أحدهما . ورد الآخر أحد أمرين :

أحدهما ــ أنه رد قربان أحدهما لأنه كان فاجراً فاسقاً . وقبل قربان هابيل لانه كان متقياً مطيعاً ، ولذلك قال الله (إنما يتقبل الله من المتقين) .

الثاني ــ انه قرّب بشر ماله وأخسه . وقرب الآخر بخير ماله ، وأشرفه .

فتقبل الأشرف ، ورد الاخس .

وقال قوم ان سبب القربان أنه لم يكن هناك فقير فمن أراد القربان أخرج من ماله ما أحب ، ففعلا ذلك ، فأكلت النار قربان أحدهما دون الآخر ، ولم يكن ذلك عن أمر الله . وقال أكثر المفسرين ورواه أبو جعفر وغيره من المفسرين : أنه ولد لكل واحد من قابيل وهابيل اخت توأم له فأمر آدم كل واحد بتزويج اخت الآخر . وكانت اخت قابيل أحسن من الاخرى ، فارادها ، وحسد أخاه عليها ، فقال آدم قربا قرباناً ، فأيكما قبل قربانه فهي له ، وكان قابيل صاحب زرع فعمد الى اخبث طعام . وعمد هابيل الى شاة سمينة ولبن وزبد ، فصعدا به الجبل فأتت النار فأكلت قربان هابيل ، ولم تعرض لقربان قابيل . وكان آدم غائباً عنهما بمكة ، فقال قابيل لا عشت يا هابيل في الدنيا ، وقد تقبل قربانك ولم يتقبل قرباني . وتريد أن تأخذ اختي الحسناء . وآخذ اختك القبيحة ، فقال له هابيل : ما حكاه الله تعالى ، فشدخه بحجر فقتله ، ثم حمله على عاتقه وكان يضعه على الارض ساعة ويبكي ويعود يحمله كذلك ثلاثة أيام إلى أن رأى الغرابين .

وقوله : « لأقتلنك » معناه قال الذي لم يتقبل قربانه : و « قال إنما يتقبل الله » يعني الذي تقبل قربانه ، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه .

وقيل في علامة القبول قولان :

قال مجاهد كانت النار تأكل المردود . وقال غيره بل كانت العلامة في ذلك ناراً تأتي فتأكل المتقبل ولا تأكل المردود .

وقال قوم في الآية دلالة على ان طاعة الفاسق غير متقبلة لكنها تسقط عقاب تركها . واما النافلة فيصل اليه ضرب من النفع بها . وتقبل الطاعة إيجاب الثواب عليها ــ وهذا الذي ذكروه غير صحيح ــ لأن قوله « إنما يتقبل الله

من المتقين » : معناه إنما يستحق الثواب على الطاعات من يوقعها لكونها طاعة فاما إذا فعلها لغير ذلك فانه لا يستحق عليها ثواباً . فاذا ثبت ذلك ، فلا يمتنع أن تقع من الفاسق يوقعها على الوجه الذي يستحق عليها الثواب فيستحق الثواب ولا تحابط عندنا بين ثوابه وما يستحق عليه العقاب . والاتقاء يكون لكل شيء يمتنع منه غير أنه لا يطلق اسم المتقين إلا على المتقين للمعاصي خاصة بضرب من العرف ، لأنه أحق ما يجب أن يخاف منه كما لا يطلق خالق إلا على الله ـ عز وجل ـ لأنه أحق بهذه الصفة من كل فاعل ، لان جميع أفعاله تقع على تقدير وترتيب وقوله : « إنما يتقبل الله من المتقين » يعني القرابين إنما

قوله تعالى :

لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٣١) آية

يتقبلها الله من الذين يتقون معاصي الله خوف عقابه دون من لا يتقيها .

في هذه الآية إخبار عن ولد آدم المقتول ، وهو هابيل أنه قال لاخيه حين هدّده بالقتل لما تقبل قربانه ولم يتقبل قربان أخيه ، فقال « لئن بسطت إلي يدك » ومعناه لئن مددت إلي يدك . والبسط هو المد وهو ضدّ القبض « لتقتلني » معناه لأن تقتلني ما أنا باسط يدي اليك لأن أقتلك .

فان قيل لم قال ذلك وقد وجب بحكم العقل الدفع عن النفس وإن أدّى إلى قتل المدفوع ؟! قلنا : عنه جوابان :

أحدهما ـ أن معناه لئن بدأتني بقتل لم أبدأك لا على أني لا ادفعك عن نفسي إذا قصدت قتلي هذا قول ابن عباس وجماعة ، وقيل : إنه قتله غيلة بأن ألقى عليه وهو نائم صخرة شدخه بها .

الثاني ــ قال الحسن ، ومجاهد ، والجبائي : إنه كان كتب عليهم إذا أراد الرجل قتل رجل تركه ولم يمتنع منه . وكان عمرو بن عبيد يجيز الوجهين وهو الأقوى لأن كلا الامرين جائز .

فان قيل كيف يجوز الوجه الاخير وفيه اطماع في النفس ؟!

قلنا : ليس فيه شيء من ذلك لأنه يجري مجرى قول القائل لغيره لئن ظلمتني لم أظلمك ، ولئن قبحت في أمري لم أقبح في أمرك بل في ذلك غاية الزجر والردع عن القبيح ، لأن القبيح منفر عن نفسه صارف عن فعله .

وقوله : « إني أخاف الله رب العالمين » يعني أخاف الله في ابتداء مدي اليك يدي لقتلك « رب العالمين » يعني رب الخلائق .

واللام في قوله « لئن » لام القسم وتقديره أقسم « لئن بسطت إلي يدك » وجوابه « ما أنا بباسط » ولا تقع (ما) جواباً للشرط والفرق بينهما أن لـ (ما) صدر الكلام والقسم لا يخرجها عن ذلك كما جاز ان يكون جواب القسم بـ (أن) ولام الابتداء ، ولم يجز بالفاء لأن المقسم عليه ليس يجب بوجوب القسم وإنما القسم يؤكده ، وجواب الشرط يجب بوجوبه ، واذا اجتمع القسم والجزاء كان جواب القسم أولى من جواب الجزاء ، لانه لما تقدم وصار الجزاء في حشو الكلام غلبه على الجواب فصار له واكتفى به من جواب الجزاء لدلالته عليه .

وروى غياث بن ابراهيم عن ابي اسحق الهمداني عن علي (ع) أنه قال : لما قتل ابن آدم (ع) اخاه بكا وقال :

تغيرت البلاد ومن عليها　　فوجه الارض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم　　وقل بشاشة الوجــه المليح

فأجاب آدم (ع) :

أيا هابيل قد قتلا جميعاً وصار الحي بالموت الذبيح
وجاء بشرة قد كان فيه على خوف فجاء بها يصيح

قولـه تعـالى :

إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٣٢)

في هذه الآية إخبار عن ابن آدم (ع) المقتول أنه قال : لا أبدأك بالقتل لأني « أريد أن تبوء باثمي » ومعناه أن ترجع ، وأصله الرجوع الى المنزل يقال : باء إذا رجع الى المباءة وهي المنزل « وباءوا بغضب من الله » (١) أي رجعوا • والبواء الرجوع بالقود ، وهم في هذا الأمر بواء أي سواء ، لانهم يرجعون فيه الى معنى واحد • وقال الشاعر :

ألا تنتهي عنـا ملـوك وتتقي محارمنا لا يبؤؤ الدم بالدم (٢)

أي لا يرجع الدم بالدم • وقوله « باثمي واثمك » معناه اثم قتلي ان قتلتني ، واثمك الذي كان منك قبل قتلي ـ هذا قول ابن عباس، وابن مسعود والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، ومجاهد ـ وقال مجاهد معناه خطيأتي ودمي ، ذهب الى ان المعنى مثل إثمي • وقال الجبائي ، والزجاج • وإثمك الذي من أجله لم يتقبل قربانك • ويجوز أن يريد باثمي الأول اثم قتلي ان قتلتني

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦١ وسورة ٣ آل عمران آية ١١٢ •

(٢) اللسان (بوء) وفيه روايتان : لا يبأء ، لا يبؤء •

واثمك الذي قتلتني ، فاضافه تارة الى المفعول واخرى الى الفاعل ، لأنه مصدر يصح ذلك فيه ، كما تقول ضربُ زيدٍ عمراً وضَربُ عمروٍ زيدٌ فتضيفه تارة الى الفاعل واخرى الى المفعول •

فان قيل : كيف جاز أن يريد منه الاثم وهو قبيح ؟

قلنا : المراد بذلك عقاب الاثم ، لأن الرجوع بالاثم رجوع بعقابه ، لأنه لا يجوز لأحد أن يريد معصية الله من غيره كما لا يجوز أن يريدها من نفسه ، وهو قول أبي علي وغيره • وقال قوم : التقدير إني أريد أن لا تبوء باثمي كما قال « يبين الله لكم أن تضلوا » ومعناه ألا تضلوا • وهذا وجه يحتمله الكلام لكن الظاهر خلافه ، وإنما يحمل على ذلك إذا دل الدليل على أنه لا يجوز أن يريد من غيره الاثم • وليس ههنا ما يدل عليه والكلام يدل على أنه أراد العقاب لامحالة لو أراد الاثم • وقوله « فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » لا يدل على فساد القول بالارجاء ، لان ظاهره يقتضي أنه يستحق بذلك النار والعذاب ، وان ذلك جزاءه وليس في ذلك ما يمنع من جواز اسقاطه بغير توبة فينبغي أن لا يمنع منه •

وفي الآية دلالة على أن الوعيد بالنار قد كان في زمن آدم بخلاف ما يدعيه جماعة من اليهود والنصارى •

قوله تعالى :

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٣) آية بلا خلاف

قيل في معنى « طوّعت له نفسه » ثلاثة أقوال :

احدها ـ شجعته نفسه على قتل أخيه في قول مجاهد . وقال قتادة زيّنت له نفسه قتل أخيه . وقال قوم : معناه ساعدته نفسه على قتل اخيه ، فلما حذف حرف الجر نصب قوله « قتل أخيه » .

ومن قال معناه زيّنت نصبه كأنه مفعول به . يقال طاع لهذه الظبية اصول الشَجرة ، وطاع لفلان كذا أي أتاه طوعاً ، ويقال أيضاً انطاع . ولا يقال اطاعته نفسه ، لأن (أطاع) يدل على قصد لموافقة معنى الأمر ، وليس كذلك طوّع ، لأنه بمنزلة انطاع له اصول الشجرة . وفي الفعل ما يتعدى الى نفس الفاعل نحو حرك نفسه ، وقتل نفسه . وفيه ما لا يتعدى نحو أمرَ ونهى ، لأن الأمر والنهي لا يكون إلا ممن هو أعلى لمن هو دونه .

وقال ابن عباس وابن مسعود وأبو مالك وأبو جعفر (عليه السلام) : إنه قتله بصخرة شدخ رأسه بها ، وقال مجاهد : لم يدر كيف يقتله حتى ظهر له ابليس فعلمه ذلك ، ظهر في صورة طير ، فأخذ طيراً آخر وترك رأسه بين حجرين فشدخه ، وقابيل ينظر اليه ففعل مثله . وقيل هو أول قتل كان في الناس . وقوله : « فأصبح من الخاسرين » لا يدل على أنه قتله ليلاً ، لأن معناه صار من الخاسرين بقتله ليلاً أو نهاراً ، لأنه يحسن في هذا أن يقال : أصبح ، لأنه بمنزلة الأمر الذي بيّت ليلاً ، فكانت ثمرته الوبال والخسران . والمعنى ـ ههنا ـ ذهاب رأس المال بهلاك نفسه . وذلك أعظم الخسران كما قال تعالى « خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » فمعنى الآية أصبح من الذين باعوا الآخرة بالدنيا ، فخسروا في ذلك وخابت صفقتهم .

قولــه تعــالى :

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّادِمِينَ (٣٤)

آية بلا خلاف

قرأ الحسن (يا ويلتني) مضاف ، وهما لغتان يقال يا ويلتا ويا ويلتي ذكره الأزهري .

قيل : إنه كان أول ميت من الناس فلذلك لم يدر كيف يواريه وكيف يدفنه حتى بعث الله غرابين أحدهما حي والآخر ميت ، وقيل كانا حيين فقتل أحدهما صاحبه ثم بحث الحي الأرض فدفن فيه الغراب الميت ، ففعل به مثل ذلك قابيل ، وهو قول ابن عباس وابن مسعود وابن مالك ومجاهد والضحاك وقتادة . وفي ذلك دلالة على فساد ما قال الحسن وأبو علي وأبو مسلم إنهما كانا من بني اسرائيل ، لأنه لم يكن الناس الى زمان بني اسرائيل ، لا يدرون كيف يدفنون ميتهم ، قال الرماني ولا يجوز أن يكون الغراب مكلفاً ، لأن المعلوم من دعوة الرسول أن المكلفين هم الملائكة والانس والجن ، والمعلوم ضرورة أنه لا مطيع لله أحد إلا من هذه الثلاثة أصناف ، وأيضاً فقد بعث الله النبي (ص) الى كل مكلف سوى الملائكة ولا يقول أحد : إنه مبعوث الى الغربان . ومعنى « فبعث الله غراباً » ألهمها ذلك . وقال الزجاج أكرم الله

المقتول بأن بعث غراباً حثا عليه التراب ليريه كيف يواري سوأة أخيه . وقال قوم : كان ملكاً في صورة الغراب . وقال أبو علي يجوز أن يكون الغراب قد زاد الله في عقله ما عقل أمر الله لا على وجه التكليف كما نأمر صبياننا وأولادنا فيفهمون عنا .

ومعنى « سوءة أخيه » قيل فيه قولان : أحدهما ــ قال أبو علي : إنه جيفة أخيه ، لأنه كان تركه حتى أنتن فقيل لجيفته سوءة . وقال غيره : معناه عورة أخيه والظاهر يحتمل الأمرين . وأصل السوء التكره تقول ساءه يسوءه إذا أتاه بما يكرهه .

وروى الحسن عن النبي (ص) (أن الله ضرب لكم مثلاً ابني آدم فخذوا من خيرهما ودعوا شرهما) .

وقوله « قال يا ويلتا » فيه حذف لأن تقديره ليريه كيف يواري سوأة أخيه فواراه قال والقائل أخاه يا ويلتاه . وقال الزجاج الوقف في غير القرآن عليها يا ويلتاه ، والنداء لغير الآدميين نحو « يا حسرتا على العباد » (١) . و « يا ويلتا أألدُ وأنا عجو » (٢) . وقال يا ويلتا وإنما وقع في كلام العرب على تنبيه المخاطب وان الوقت الذي يدعي هذه الأشياء هو وقتها . والمعنى يا ويلتا تعالي فانه من ابانك أي قوله : مني الويل وكذلك يا عجبا : المعنى يا أيها العجب هذا وقتك . وقال سيبويه : الويل كلمة تقال عند الهلكة . وقيل الويل وادٍ في جهنم وقوله « أعجزت » يقال عجزت عن الأمر أعجز عجزاً ومعجزة .

---

(١) سورة يس آية ٣٠ . (٢) سورة هود آية ٧٢ .

وقوله « فأصبح من النادمين » قيل كانت توبته غير صحيحة ، لانها لو كانت صحيحة لاستحق عليها الثواب . وقال أبو علي : ندم على قتله على غير الوجه الذي يكون الندم توبة لانه ندم لانه لم ينتفع به وناله ضرر بسببه من أبيه واخوته . ولو كان على الوجه الصحيح لقبل الله توبته . وعلى مذهبنا كان يستحق الثواب لو كانت صحيحة ، وإن لم يسقط العقاب .

قوله تعالى :

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٥) آية عند الجميع

قرأ أبو جعفر والزبير (من أجل) ذلك بفتح النون واسكان الهمزة ومثله (قد أفلح) وما أشبهه . الباقون يقطعون الهمزة بفتح النون بنقل الحركة من الهمزة الى ما قبلها . ومن اسكنها تركها على أصلها .

ومعنى (من أجل) من جراء ذلك وجريرته . وقال الزجاج : معناه من جناية ذلك . يقال أجلت الشيء أجلاً إذا اجنيته . قال الخواني :

وأهل خباء صالح ذات بينهم　　قد احتربوا في عاجل أنا آجله [(١)]

(١) اللسان (أجل) وروايته (كنت بينهم) بدل (ذات بينهم) وفي الصحاح مثل هنا وقائله خوات بن جبير .

أي جانيه وقيل جارّه عليهم . قال عدي بن زيد :

أجل ان الله قـد فضلكم   فوق من احكأ صلباً بارزا [١]

وأصله الجرّ . ومنه الاجل الوقت الذي يجرّ اليه العقد الأول ومنه الآجل نقيض العاجل . ومنه (أجل) بمعنى نعم ، لأنه انقياد الى ما يجرّ اليه ومنه الآجال القطيع من بقر الوحش ، لأن بعضها ينجر الى بعض .

و « ذلك » اشارة الى قتل أحد ابني آدم أخاه ظلماً . حكمنا الى بني اسرائيل أنه من قتل منهم نفساً بغير نفس أو فساد كان منها في الارض فاستحقت بذلك قتلها . وفسادها في الارض إنما يكون بالحرب لله ولرسوله واخافة السبيل ـ على ما سنبينه فيما بعد ـ وهو قول الضحاك وجميع المفسرين . واختلفوا في تأويل قوله (من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) على ستة أقوال :

أحدها ـ قال الزجاج : معناه إنه بمنزلة من قتل الناس جميعاً في أنهم خصومه من قبل ذلك الانسان .

والثاني ـ قال أبو علي : إن عليه مثل مأثم كل قاتل من الناس لأنه سنّ القتل وسهله لغيره ، فكان بمنزلة المشارك فيه . ومثله قوله (ع) : (من سَنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيمة ، ومن سن سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها) .

الثالث ـ قال الحسن وقتادة ومجاهد : إن معناه تعظيم الوزر والمأثم

---

(١) اللسان (أجل) .

وتقديره يا ابن آدم انك لو قتلت الناس جميعاً كان لك من عملك ما تفوز به وتنجو من النار ؟! ــ والله ــ كذبتك نفسك والشيطان ، فكذلك قتلك ظلماً الانسان أي كنت تستحق الخلود في النار كما كنت تستحقه بقتل الناس جميعاً .

الرابع ــ قال ابن عباس : معناه من شد على عضد نبي أو امام عدل ، فكأنما أحيا الناس جميعاً . ومن قتل نبياً أو إماماً عدلاً ، فكأنما قتل الناس جميعاً .

الخامس ــ قال ابن مسعود وغيره من الصحابة : معناه (من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً) عند المقتول « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » عند المستنقذ .

السادس ــ قال ابن زيد معناه انه عليه من القود والقتل مثل ما يجب عليه لو قتل الناس جميعاً . وقوله : (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) قال مجاهد معناه من نجاها من الهلاك مثل الغرق والحرق . وقال الحسن وابن زيد معناه من عفا عن دمها وقد وجب القود عليها . وقال أبو علي معناه من زجر عن قتلها بما فيه حياتها على وجه يقتدى به فيها بأن يقتدى به فيها بأن يعظم تحريم قتلها كما حرمه الله . فلم يقدم عليه فقد حيّ الناس بسلامتهم منه وذلك احياؤه إياها . وهو اختيار الطبري والله تعالى هو المحيي للخلق لا يقدر على ذلك غيره تعالى . وإنما قال : (أحياها) على وجه المجاز بمعنى نجاها من الهلاك كما حكى عن نمرود ابراهيم « أنا أحيي وأميت » فاستبقا واحداً وقتل الآخر . قوله (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) قسم من الله تعالى أن رسله أتت بني اسرائيل الذين ذكر قصصهم وأخبارهم بالآيات الواضحة والحجج الدالة على صدق رسله وصحة ما أتوا به ثم أخبر أن

كثيراً منهم يعني من بني اسرائيل لمسرفون بعد مجيىء رسل الله اليهم ومعنى (لمسرفون) لعاملون بمعاصي الله ، ومخالفون أمره ونهيه باتباعهم غير رسل الله . والاسراف الخروج عن التقصير والاقتصاد وضده التقطير . والاقتصاد هو التعديل بلا إسراف ولا اقتار وقد يمدح بالاقتصاد . وقال أبو جعفر (ع) : المسرفون هم الذين يستحلون المحارم ويسفكون الدماء .

قوله تعالى :

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٦) آية بلا خلاف

المحارب عندنا هو الذي أشهر السلاح وأخاف السبيل سواء كان في المصر أو خارج المصر ، فان اللص المحارب في المصر وغير المصر سواء . وبه قال الاوزاعي ومالك والليث بن سعد وابن لهيعة والشافعي والطبري . وقال قوم : هو قاطع الطريق في غير المصر ذهب اليه أبو حنيفة وأصحابه وهو المروي عن عطاء الخراساني . ومعنى (يحاربون الله) يحاربون أولياء الله ويحاربون رسوله (ويسعون في الارض فساداً) وهو ما ذكرناه من أشهار السيف واخافة السبيل . وجزاءهم على قدر الاستحقاق إن قتل قتل وان أخذ المال وقتل قتل وصلب وان أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف . وان اخاف السبيل فقط فانما عليه النفي لا غير هذا مذهبنا . وهو المروي عن أبي جعفر

عليه السلام وأبي عبدالله (ع) وهو قول ابن عباس وابي مجلز وسعيد بن جبير ، والسدي ، وقتادة ، والربيع وابراهيم ــ على خلاف عنه ــ وبه قال أبو علي الجبائي والطبري وحكي عن الشافعي أنه إن أخذ المال جهراً كان للامام صلبه حياً وان لم يقتل .

« وان يقتلوا » في موضع رفع وتقديره إنما جزاؤهم القتل ، والصلب أو القطع من موضع الخلاف ، ومعنى (إنما) ليس جزاؤهم الا هذا قال الزجاج : اذا قال جزاؤك عندي درهم جاز أن يكون معه غيره ، فاذا قال انما جزاؤك درهم كان معناه ما جزاؤك إلا درهم .

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس والضحاك ، نزلت في قوم كان بينهم وبين النبي (ص) موادعة فنقضوا العهد ، وأفسدوا في الارض ، فخير الله نبيه في ما ذكر في الآية ، وقال الحسن وعكرمة نزلت في أهل الشرك . وقال قتادة ، وأنس وسعيد بن جبير والسدي : انها نزلت في العرنيين والعكليين حين ارتدوا وأفسدوا في الارض فأخذهم النبي (ص) وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمل أعينهم (١) وفي بعض الاخبار أحرقهم بالنار .

ثم اختلفوا في نسخ هذا الحكم الذي فعله بالعرنيين ، فقال البلخي وغيره نسخ ذلك بنهيه عن المثلة . ومنهم من قال : حكمه ثابت في نظرائهم لم ينسخ . وقال آخرون لم يسمل النبي (ص) أعينهم وإنما أراد أن يسمل فأنزل الله آية المحاربة ، والذي نقوله : إن عندنا ان كان فيهم طليعة لهم حتى يقتلوا قوماً

---

(١) سمل أعينهم أي فقأها بحديدة محماة .

سملت عين الربيئة [١] وأجري على الباقين ما ذكرناه . وقال قوم : الامام مخير فيه ذهب اليه ابن عباس في رواية ومجاهد والحسن وسعيد بن المسيب ، وعطا وابراهيم في رواية عنه . فمن قال بالاول ، ذهب الى أن (أو) في الآية تقتضي التفصيل ومن قال بالثاني ذهب الى انها للتخيير .

ومعنى قوله : « وأرجلهم من خلاف » معناه أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى . ولو كان موضع (من) (على) أو (الباء) لكان المعنى واحداً .

وقوله « أو ينفوا من الارض » في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ــ أنه يخرج من بلاد الاسلام ينفى من بلد الى بلد إلا أن يتوب ويرجع وهو الذي نذهب اليه . وبه قال ابن عباس ، وأنس بن مالك ، ومالك ابن أنس ، والحسن والسدي والضحاك ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، والربيع ابن أنس ، والزهري . وقال أصحابنا لا يمكن أيضاً من دخول بلاد الشرك ، ويقاتل المشركون على تمكينهم من ذلك حتى يتوبوا ويرجعوا الى الحق . وقال الفراء النفي أن يقال : من قتله فدمه هدر .

والثاني ــ انه ينفى من بلد الى بلد غيره ذهب اليه سعيد بن جبير في رواية أخرى ، وعمر بن عبدالعزيز .

الثالث ان النفي هو الحبس ذهب اليه أبو حنيفة وأصحابه .

أصل النفي الاهلاك ومنه النفي الاعدام ، فالنفي الاهلاك بالاعدام . ومنه النفاية لردىء المتاع . ومنه النفي ، وهو ما تطاير من الماء عن الدلو ، قال الراجز :

---

(١) ربيئة القوم عينهم الذي يطلعهم على أخبار العدو . يقف على مرتفع عال ويرقب حركات العدو .

كــأن متنيــه من النفيِّ　　　مواقع الطير على الصفيِّ (١)

والنفي الطرد قال أوس بن حجر :

ينفون عن طرق الكــرام　　　كما ينفى المطارق ما يلي الفرد

وقوله « ذلك لهم خزي في الدنيا » معناه أن فعل ما ذكرناه من الاحكام خزي في الدنيا ، والخزي الفضيحة يقال خزي يخزى خزياً إذا افتضح وخزى يخزى خزاية إذا استحيا وخزوته اخزوه خزواً إذا سسته ومنه قول لبيد :

واخزها بالبر لله الاجــل (٢)

« ولهم في الآخرة عذاب عظيم » معناه زيادة على ذلك وهذا يبطل قول من قال اقامة الحدود تكفير للمعاصي لانه يقال مع اقامة الحدود عليهم بين ان لهم في الآخرة عذاباً عظيما ومعنى ان لهم في الآخرة عذاباً عظيما انهم يستحقون ذلك ولا يدل على انه يفعل بهم ذلك لا محالة لانه يجوز أن يعفو الله عنهم ويتفضل عليهم باسقاط عقابهم •

---

(١) اللسان (نفي) وروايته :

كــأن متنيــه من النفي
من طول اشرافي على الطوي
مواقع الطير على الصــفي

(٢) اللسان (خزا) وقبله :

أكذب النفس اذا حدثتها　　　ان صدق النفس يزدي بالامل
غير أن لا تكذبنها في التقى　　　واخزهــا بالبر لله الأجــل

قولــه تعــالى :

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٧) آية بلاخلاف

قال الزجاج يحتمل الذين ان يكون في موضع الرفع بالابتداء وخبره فاعلموا ان الله غفور رحيم والمعنى غفور رحيم لهم والمعنى لكن التائبون من قبل القدرة عليهم فالله غفور رحيم . ويجوز أن يكون في موضع نصب بالاستثناء من قوله (فاعلموا أن الله غفور رحيم) ..

لما بين الله حكم المحارب ــ على ما فصلنــاه ــ استثنا من جملتهم من يتوب مما ارتكبه قبل أن يؤخذ ، ويقدر عليه لأن توبته بعد حصوله في قبضة الامام ، وقيام البينة عليه بذلك لا ينفعه ، ووجب اقامة الحد عليه .

واختلفوا فيمن تدرأ عنه التوبة الحدود : هل هو المشرك أو من كان مسلماً من أهل الصلوة ؟ فقال الحسن ، وقتادة ، ومجاهد والضحاك : هو المشرك دون من كان مسلماً . فأما من أسلم ، فانه لم يؤاخذ بما جناه إلا أن يكون معه عين مال قائمة فانه يجب عليه ردها وما عداه يسقط . وأما علي (ع) فانه حكم بذلك فيمن كان مسلماً وهو حارثة بن بدر ، لانه كان قد خرج محارباً ثم تاب فقبل علي (ع) توبته . وجعل له أماناً على يد سعيد بن قيس . وحكم به أبو موسى الاشعري في فلان المرادي جاء تائباً بعد كونه محارباً فقبل توبته . وأبو هريرة في علي الاسدي وبه قال السدي ومالك بن أنس إلا أن مالكاً قال يؤخذ بالدم اذا طالب به وليه . وقال الليث بن سعيد لا يؤاخذ به وقال الشافعي تضع توبته عنه حدّ الله الذي وجب لمحاربته ، ولا يسقط عنه

حقوق بني آدم وهو مذهبنا ، فعلى هذا إن أسقط الآدمي حق نفسه ويكون ظهرت منه التوبة قبل ذلك لا يقاصّ عليه الحد ، وإن لم يكن ظهرت منه التوبة أقيم الحد ، لأنه محارب فيتحتم عليه الحد . وهو قول أبي علي . ولا خلاف أنه إذا اصيب المال بعينه في يده أنه يرد الى أهله . فاما المشرك المحارب فمتى أسلم وتاب سقطت عنه الحدود ، سواء كان ذلك منه قبل القدرة عليه أو بعدها بلا خلاف .

فاما السارق إذا قدر عليه بعد التوبة وتكون التوبة منه بعد قيام البينة فانه لا يسقط عنه الحد . وإن كان قبل قيام البينة اسقطت عنه . وقال قوم : لا تسقط التوبة الحد عن السارق ــ ولم يفصل . وادعي في ذلك الاجماع . قالوا لأن الله جعل هذا الحكم للمحارب بالاستثناء بقوله : « فاعلموا أن الله غفور رحيم » ولم يكن غير المحارب في معناه فيقاص عليه ، لأن ظاهر هذا التفرد وليس كذلك هو في المحارب الممتنع بفئة وفي الآية حجة على من قال لا تصح التوبة مع الاقامة على معصية أخرى يعلم صاحبها أنها معصية ، لأنه تعالى علق بالتوبة حكماً لا يحل به الاقامة على معصية هي السكر أو شرب نبيذ التمر على غير التأويل باجماع المسلمين .

قولـه تعـالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣٨) آية بلا خلاف

خاطب الله في هذه الآية المؤمنين وأمرهم أن يتقوه ومعناه أن يتقوا معاصيه ويجتنبوها ويبتغوا اليه معناه يطلبون إليه الوسيلة وهي القربة في

قول الحسن ومجاهد وقتادة وعطا والسدي وابن زيد وعبدالله بن كثير وأبي وابل . وهي على وزن (فعيلة) من قولهم توسلت اليك أي تقربت قال عنترة ابن شداد :

إن الرجال لهم اليك وسيلة أن يأخذوك فلجلجي وتخضبي

وقال الآخر :

اذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعـاد التصافي بيننا والوسائل

يقال منه سلت أسال أي طلبت وهما يتساولان أي يطلب كل واحد منهما من صاحبه . والأصل الطلب والوسيلة التي ينبغي أن يطلب مثلها .

فان قيل كيف قال تعالى « اتقوا الله » وهو غاية التحذير مع أنه تعالى رغب في الدعاء إليه وهما كالمتنافرين ؟ قيل إنما قال ذلك لئلا يكون المكلف على غرور من أمره بكثرة نعم الله عليه فيظن أنها موجبة للرضاء عنه فحقيقة الدعاء اليه باتقائه من جهة اجتناب معاصيه والعمل بطاعته . فان قيل هل يجوز أن يتقى المعاقب من أجل عقابه كما يحمد المحسن من أجل إحسانه . قلنا : لا لأن أصل الاتقاء الحجز بين الشيئين لئلا يصل أحدهما الى الآخر من قولهم اتقاه بالترس . ومنه اتقاه بحقه ، فالطاعة له تعالى حاجزة بين العقاب وبين العبد أن يصل إليه . وأما حمد الانسان ، فمجاز لأن المحمود في الحقيقة يستحق الولاية والكرامة .

وقوله : « وجاهدوا في سبيله » أمر منه تعالى بالجهاد في دين الله ، لأنه وصلة وطريق الى ثوابه . ويقال لكل شيء وسيلة الى غيره هو طريق إليه فمن ذلك طاعة الله فهي طريق الى ثوابه . والدليل على الشيء طريق الى العلم به والتعرض للشيء طريق الى الوقوع فيه واللطف طريق الى طاعة الله والجهاد

في سبيل الله قد يكون باللسان واليد والقلب والسيف والقول والكتاب .

وقوله : (لعلكم تفلحون) يحتمل أمرين :

أحدهما ـ اعملوا لتفلحوا ومعناه ويكون غرضكم الصلاح فهذا يصح مع اليقين .

الثاني ـ اعملوه على رجاء الصلاح به فهذا مع الشك في خلوصه مما يحبطه وهذا الوجه لا يصح إلا على مذهب من قال بالاحباط . فاما من لا يقول به فلا يصح ذلك فيه غير أنه يمكن أن يقال الشك فيه يجوز أن يكون في هل أوقعه على الوجه المأمور به أم لا ؟ لأنه لا حال إلا وهو يجوز أن يكون فرط فيما أمر به «والمفلحون» هم الفائزون بما فيه غاية صلاح أحوالهم .

قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٩) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠) آيتان بلاخلاف

أخبر الله تعالى في هذه الآية « ان الذين كفروا لو أن لهم ما في الارض جميعاً ومثله معه » وافتدوا بجميع ذلك من العذاب الذي يستحقونه على كفرهم « ما تقبل منهم » .

والذين في موضع نصب بان وخبر (ان) الجملة في (لو) وجوابها .

وقوله : « ولهم عذاب أليم » يحتمل أمرين :

أحدهما ـ أن يكون في موضع الحال .

والثاني ـ أن يكون عطفاً على الخبر ، ولا يجوز أن يكون خبراً من « يريدون » أن يخرجوا من النار ، وما هم بخارجين منها » . و (لو) في موضع الحال كما تقول مررت بزيد لو رآه عدوه لرحمه ، لأنه في موضع معتمد الفائدة مع أن الثاني في استئناف (إنه) ولا يحكم بقطع الخبر ، وإنما اجيبت (لو) بـ (ما) ولم يجز أن يجاب (أن) بـ (ما) لأن (ما) لها صدر الكلام وجواب (لو) لا يخرجها من هذا المعنى كما لا يخرجها جواب القسم ، لأنه غير عامل . و (أن) عاملة فلذلك صلح أن يجاب بـ (لا) ولم يصلح بـ (ما) كقولك إن تأتي لا يلحقك سوء ، ولا يجوز (ما) لأن (لا) تنفي عما بعدها ما وجب لما قبلها في أصل موضوعها كقولك قام زيد لا عمرو و (ما) تنفي عما بعدها ما لم يجب لغيرها ، فلذلك كان لها صدر الكلام . وإنما نفى الله أن يقبل منهم فدية من غير تقييد بالتوبة ، لأمرين :

أحدهما لأنهم لا يستحقون هذه الصفة لو وقعت منهم التوبة مع البيان عن أن الآخرة لا تقبل فيها توبة .

الثاني ان ذلك مقيد بدليل العقل والسمع الذي دل على وجوب اسقاط العقاب عند التوبة كقوله « غافر الذنب وقابل التوب » [1] وعندنا أنه لم يقيده بالتوبة لأن التوبة لا يجب اسقاط العقاب عندها عندنا وإنما يتفضل الله بذلك عند التوبة فأراد الله أن يبين أن الخلاص من عقابه الذي استحق على الكفر به ومعاصيه لا يستحق على وجه . وإنما يكون ذلك تفضلا على كل حال .

واللام في قوله : « ولهم عذاب اليم » لام الملك لأن حقيقتها الاضافة

(١) سورة غافر آية ٣ .

على معنى الاختصاص غير أنها إذا اضيفت تصح أن يكون فعلاً إلى ما يصح أن يكون فاعلاً فالاضافة بمعنى اضافة الفعل الى الفاعل نحو « إن قام زيد » ويجوز أن يكون على معنى المفعول بقرينة ككلام زيد ونحوه • وقوله : « لو أن لهم ما في الأرض جميعاً » يدل على أنه ليس لهم ما في الارض جميعاً ، لأنه لو كان لهم لكان الأبلغ أن يقال يسلبون النعمة به من غير فدية تسقط عنهم شيئاً من العقوبة • وقوله : « يريدون أن يخرجوا من النار » في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ــ قال أبو علي معناه يتمنون أن يخرجوا منها فجعل الارادة ههنا تمنياً •

وقال الحسن معناه الارادة على الحقيقة ، لأنه قال كلما رفعتهم النار بلهبها رجوا أن يخرجوا منها ، وهو قوله : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها » (١) • وقال بعضهم معناه يكادون أن يخرجوا منها ، إذا رفعتهم بلهبها كما قال ــ عز وجل ــ « جداراً يريد أن ينقض » (٢) أي يكاد ويقارب •

فان قيل كيف يجوز أن يريدوا الخروج من النار مع علمهم بأنهم لا يخرجون ؟ قلنا : لأن العلم بأن الشيء لا يكون لا يصرف عن إرادته • كما أن العلم بأنه يكون لا يصرف عن إرادته وإنما يدعو الى الارادة حسنها أو الحاجة اليها كما أن المراد بهذه المنزلة • فان قيل : هل يجوز أن يطمعوا في الخروج من النار كما قال الحسن · قلنا الخروج منها الى غير عذاب يجري مجرى عذابها فلا يجوز لعلمهم بأن العذاب دائم لا يفتر عنهم فان كان معه العلم بأنهم لا يخرجون منها لم يجز أن يطمعوا في الخروج ، لأن العلم ينافي

(١) سورة الم السجدة آية ٢٠ •　(٢) سورة الكهف آية ٧٨ •

الطمع ولا ينافي الارادة كما لا يطمع العاقل في أن يعود في الدنيا شاباً كما كان . وقال أبو علي : إنما يتمنون الخلاص منها قبل دخولها ، لما في التمني من التروح ، وليس ذلك من صفة أهلها . ولا يجوز أن يقال في الكلام يريدون أن يستخرجون من النار كما جاز (علم أن سيكون منكم مرضى)[1] لأن أن المخففة من الشديدة لتحقيق كائن في الحال أو الماضي أو المستقبل ، وليس في الارادة تحقيق وقوع المراد لا محالة ، كما ليس في الأمر تحقيق وقوع المأمور به ، فلذلك لم يجز أمرته أن سيقوم ، وجاز أمرته أن يقوم . قوله « وما هم بخارجين منها » يعني من جهنم « ولهم عذاب مقيم » أي دائم ثابت لا يزول ولا يحول ، كما قال الشاعر :

فان لكم بيوم الشعب مني عـذاباً دائماً لـكم مقيماً

وروي أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس يا أعمى القلب يا أعمى البصر تزعم ان قوماً يخرجون من النار وقد قال الله تعالى : « وما هم بخارجين منها » ! فقال ابن عباس ويحك أو ما فقهت هذه الكفار ؟!.

قوله تعالى :

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤١) آية بلا خلاف

وقوله « والسارق والسارقة » قال سيبويه الأجود فيه النصب ومثله « الزانية والزاني » . وبالنصب قرأ عيسى بن عمر وهو بخلاف ما عليه القراء لا يجوز أن يقرأ به والوجه الرفع . ومثله « اللذان يأتيانها منكم فآذوهما » .

(١) سورة المزمل آية ٢٠ .

ويحتمل رفعهما شيئين :

أحدهما ـ قال سيبويه إنه على تفسير فرض فيما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة . ومنه « واللذان يأتيانها منكم » (١) .

الثاني ـ قال المبرد والفراء لأن معناه الجزاء وتقديره من سرق فاقطعوه ، وله صدر الكلام . وقال الفراء ولو أردت سارقاً بعينه لكان النصب الوجه ويفارق ذلك قولهم زيداً فاضربه ، لأنه ليس فيه معنى الجزاء .

وظاهر قوله « والسارق والسارقة » يقتضي عموم وجوب القطع على كل من يكون سارقاً أو سارقة ، لأن الألف واللام إذا دخلا على الاسماء المشتقة أفادا الاستغراق إذا لم يكونا للعهد دون تعريف الجنس ـ على ما ذهب اليه قوم ـ . وقد دللنا على ذلك في أصول الفقه . فأما من قال القطع لا يجب إلا على من كان سارقاً مخصوصاً من مكان مخصوص مقداراً مخصوصاً وظاهر الآية لا ينبىء عن تلك الشروط ، فيجب أن تكون الآية مجملة مفتقرة الى بيان ، فقوله فاسد لأن ظاهر الآية يقتضي وجوب القطع على كل من يسمى سارقاً وإنما يحتاج الى معرفة الشروط ليخرج من جملتهم من لا يجب قطعه فأما من يجب فانا نقطعه بالظاهر ، فالآية مجملة فيمن لا يجب قطعه دون من يجب قطعه فسقط ما قالوه .

وقوله « فاقطعوا أيديهما » أمر من الله بقطع أيدي السارق والسارقة . والمعنى ايمانهما . وإنما جمعت أيدي لأن كل شيء من شيئين ، فتثنيته بلفظ الجمع كما قال ـ عز وجل ـ : « فقد صغت بكما » (٢) وقال الفراء كلما

(١) سورة النساء آية ١٥ .

(٢) سورة التحريم آية ٤ .

كان في البدن منه واحد فتثنيته بلفظ الجمع لأن أكثر أعضائه فيه منه اثنان ، فحمل ما كان فيه الواحد على مثل ذلك ، فقيل قلوبهما وظهورهما • كما قيل عيونهما وأيديهما • وقال الفراء إنما فعلوا ذلك للفصل بين ما في البدن منه واحد وبين ما في البدن منه اثنان ، فجعل ما في البدن منه واحد تثنيته وجمعه بلفظ واحد ولم يثن أصلا ، لأن الاضافة تدل عليه ، ولأن التثنية جمع ، لأنه ضم شيء الى شيء • وإن ثني جاز قال الشاعر :

ظهراهما مثل ظهور الترسين

فجمع بين الأمرين • وإنما اعتبرنا قطع الايمان ، لاجماع المفسرين على ذلك • كالحسن والسدي والشعبي وغيرهم • وفي قراءة ابن مسعود « والسارقون والسارقات فاقطعوا ايمانهما » والنصاب الذي يتعلق القطع به قيل فيه ستة أقوال :

أولها ــ على مذهبنا ، وهو ربع دينار • وبه قال الاوزاعي والشافعي ، لما روي عن النبي (ص) أنه قال القطع في ربع دينار •

الثاني ــ ثلاثة دراهم وهو قيمة المجن • ذهب اليه مالك بن أنس •

الثالث ــ خمسة دراهم روي ذلك عن علي (ع) وعن عمر ، وانهما قالا : لا يقطع الخمس إلا في خمسة دراهم وهو اختيار أبي علي ، قال : لأنه بمنزلة من منع خمسة دراهم من الزكوة في أنه فاسق •

الرابع ــ قال الحسن : يقطع في درهم ، لأن ما دونه تافه •

الخامس ــ عشرة دراهم ذهب اليه أبو حنيفة وأصحابه لما رووا أنه كان قيمة المجن عشرة دراهم •

السادس ــ قال أصحاب الظاهر وابن الزبير يقطع في القليل والكثير •

ولا يقطع إلا من سرق من حرز . والحرز يختلف ، فلكل شيء حرز يعتبر فيه حرز مثله في العادة . وحدّه أصحابنا بأنه كل موضع لم يكن لغيره الدخول اليه والتصرف فيه إلا باذنه فهو حرز . وقال أبو علي الجبائي الحرز أن يكون في بيت أو دار مغلق عليه وله من يراعيه ويحفظه .

ومن سرق من غير حرز لا يجب عليه القطع . قال الرماني ، لأنه لا يسمى سارقاً حقيقة وإنما يقال ذلك مجازاً كما يقال سرق كلمة أو معنى في شعر لأنه لا يطلق على هذا اسم سارق على كل حال . وقال داود : يقطع اذا سرق من غير حرز .

وكيفية القطع عندنا يجب من أصول الأصابع الأربعة ويترك الابهام والكف ــ وهو المشهور عن علي (ع) : وقال أكثر الفقهاء : إنه يقطع من الرسغ . وهو المفصــل بين الكف والساعد . وقالت الخوارج يقطع من الكتف . وأما الرّجل فعندنا تقطع الأصابع الأربعة من مشط القدم ويترك الابهام والعقب .

دليلنا أن ما قلناه مجمع على وجوب قطعه . وما قالوه ليس عليه دليل . ولفظ اليد يطلق على جميع اليد الى الكتف ولا يجب قطعه ــ بلا خلاف إلا ما حكيناه عمن لا يعتد به . وقد استدل قوم من أصحابنا على صحة ما قلناه بقوله « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » (١) وإنما يكتبونه بالاصابع . ــ والمعتمد ما قلناه ــ وعليه اجماع الفرقة المحقة .

ومتى تاب السارق قبل أن يرفع الى الامام . وظهر ذلك منه ثم قامت عليه البينة ، فانه لا يقطع . غير أنه يطالب بالسرقة وإن تاب بعد قيام البينة

(١) سورة البقرة آية ٧٩ .

عليه وجب قطعه على كل حال . وقال الفقهاء يجب قطعه على كل حال . فان كان تاب كان قطعه امتحاناً ، وان لم يكن تاب كان عقوبة وجزاء . ومتى قطع فانه لا يسقط عنه رد السرقة سواء كانت باقية أو هالكة ، فان كانت باقية ردها ـ بلا خلاف ـ وإن كانت هالكة رد عندنا قيمتها . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يجمع عليه القطع والغرامة معاً ، فان قطع سقطت الغرامة وان غرم سقط القطع . وقد دللنا على صحة ما قلناه ـ في مسائل الخلاف ـ ومتى سرق بعد قطع اليد دفعة ثانية قطعت رجله اليسرى حتى يكون من خلاف . فان سرق ثالثة حبس عندنا . وبه قال الحسن . وقال أبو علي تقطع اليد الاخرى ، فان سرق في الحبس قتل عندنا . ولا يعتبر ذلك أحد من الفقهاء . وظاهر الآية يقتضي وجوب قطع العبد والأمة إذا سرقا لتناول اسم السارق والسارقة لهما .

وقوله : « جزاءً بما كسبا » معناه استحقاقاً على فعلهما « نكالاً من الله » أي عقوبة على ما فعلاه . قال زهير :

ولولا أن ينال أبا طريفٍ عذاب من خزيمة أو نكال

أي عقوبة . ونصبه يحتمل أمرين :

أحدهما ـ مفعول له وتقديره لجزاء فعلهما .

الثاني ـ نصب على المصدر الذي دل عليه فاقطعوا لأن معنى فاقطعوا : جازوهم ونكلوا بهم . وقال الازهري معناه لينكل غيره نكالاً عن مثل فعله يقال نكل ينكل إذا جبن ، فهو ناكل « والله عزيز حكيم » أي مقتدر لا يغالب « حكيم » فيما يأمر به من قطع السارق والسارقة ، وفي غيره من الافعال .

قولــه تعــالى :

فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٤٢) آية بلاخلاف

أخبر الله تعالى أن من تاب وأقلع وندم على ما كان منه من فعل الظلم بالسرقة وغيرهما وفعل الفعل الجميل الصالح « فان الله يتوب عليه » ومعناه يقبل توبته باسقاط العقاب بها عن المعصية التي تلب منها . ووصف الله تعالى بانه يتوب على التائب فيه فائدة عظيمة ، لأن في ذلك ترغيباً للعاصي في فعل التوبة ، ولذلك قال تعالى واصفاً نفسه بأنه تواب رحيم . ووصف العبد بأنه تواب معناه أواب وهي صفة مدح من أجل المدح على التوبة التي يسقط العقاب عندها . ولا خلاف في سقوطه عندها وهي الندم على ما مضى من القبيح أو الاخلال بالواجب والعزم على ترك الرجوع الى مثله في القبح . وفي الناس من قال يكفي الندم مع العزم على ترك المعاودة . والذي ذكرناه أولى ، لأن سقوط العذاب عنده مجمع عليه . وان اختلفوا هل هو واجب أو تفضل ؟ وما قالوه فيه خلاف . ويمكن التوبة من الحسن إلا أن حسنه لا يدعو الى التوبة منه كما يدعو قبح القبيح الى التوبة منه لكن قد يتوب الانسان منه لقبحه فيما يتوهمه أو لمضرة تلحقه به . ولا يجوز التوبة من الحسن كيف تصرفت الحال لانه تحريم لمــا ليس بحرام ، وتقبيح لما ليس بقبيح . ويمكن أن تكون التوبة من القبيح معصية لله كالذي يتوب من الالحاد ويدخل في النصرانية .

وقال مجاهد : ان الحدّ كفارة . وهذا غير صحيح ، لأن الله تعالى دل

على معنى الأمر بالتوبة . وإنما يتوب المذنب من ذنبه . والحد من فعل غيره . وأيضاً فمتى كان مصراً كان اقامة الحد عليه عقوبة . والعقوبة لا تكفر الخطيئة . كما لا يستحق بها الثواب . وقوله « إن الله غفور رحيم » يدل على ما نذهب اليه من أن قبول التوبة واسقاط العقاب عندنا تفضل من الله ، فلذلك صح وصفه بأنه غفور رحيم . ولو كان الغفران واجباً عند التوبة لم يلق به غفور رحيم .

قوله تعالى :

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٣)

قيل فيمن يتوجه هذا الخطاب اليه قولان :

أحدهما ـ انه متوجه الى النبي (ص) والمراد به امته كما قال « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء » .

والثاني ـ أنه متوجه الى كل مكلف من الناس وتقديره : ألم تعلم يا انسان . واتصال هذا الخطاب بما قبله اتصال الحجاج والبيان عن صحة ما تقدم من الوعد والوعيد . وما ذكره من الأحكام .

والمعنى ألم تعلم يا انسان « ان الله له ملك السموات والأرض » يعني له التصرف فيهما من غير دافع ولا منازع « يعذب من يشاء » إذا كان مستحقاً للعقاب « ويغفر لمن يشاء » إذا عصاه ولم يتب ، لأنه إذا تاب ، فقد وعد بأنه لا يؤاخذ به بعد التوبة . وعند المخالفة يقبح مؤاخذته بعدها . فعلي الوجهين معاً لا يعلق ذلك بالمشيئة . وفي ذلك دلالة علي أنه قادر علي

أن يعاقب على وجه الجزاء ، لأنه لو لم يكن قادراً عليه لما كان فيه وجه مدح « والله على كل شيء قدير » معناه ههنا أن من ملك السموات والأرض وقدر على هذه الاجسام والاعراض التي يتصرف فيها ويديرها ، فهو لا يعجزه شيء لقدرته على كل جنس من أجناس المعاني . وقوله « على كل شيء قدير » عام في كل ما يصح أن يكون مقدراً له تعالى . ولا يحتاج الى أن يقيد بذكر ما تصح القدرة عليه لأمرين :

أحدهما ـ ظهور الدلالة عليه ، فجاز ألا يذكر في اللفظ .

والآخر ـ أن ذلك خارج مخرج المبالغة كما يقول القائل أتاني أهل الدنيا . ولعله لم يجئه الا خمسة فاستكثرهم .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ ٱللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤٤)

هذا خطاب للنبي (ص) نهاه الله أن يحزنه الذين يسارعون في الكفر أي يبادرون فيه . و (يحزنك) ـ بفتح الياء وضمها ـ لغتان . وقد قرىء بهما . وقد قدمنا ذكره مستوفى .

من المنافقين « الذين قالوا آمنا » يعني صدقنا « بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » يعني لم تصدق قلوبهم « ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك » وقف ههنا . و « سماعون » فيه مبالغة من سامع مثل جابر وجبار . وقيل في رفع « سماعون » قولان :

أحدهما ـ قال سيبويه رفع على الابتداء والخبر « من الذين هادوا » كما تقول من قومك عقلاء .

الثاني ـ قال الزجاج : على أنه خبر الابتداء . وتقديره : المنافقون هم ، واليهود سماعون للكذب . وقيل في معنى ذلك قولان :

أحدهما ـ « سماعون » كلامك للكذب عليك سماعون كلامك « لقوم آخرين لم يأتوك » ليكذبوا عليك اذا رجعوا اليهم أي هم عيون عليك . وقيل انهم كانوا رسل أهل خيبر لم يحضروا . فلهذا جالسوك ، هذا قول الحسن والزجاج وأبو علي .

الثاني ـ قال أهل التفسير « سماعون للكذب » قابلون له كما يقال لا تسمع من فلان أي لا تقبل منه ، ومنه سمع الله لمن حمده « سماعون لقوم آخرين» ارسلوا بهم في قضية زان محصن . فقالوا لهم : إن أفتاكم محمد (ص) بالجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فلا تقبلوه ، لأنهم قد كانوا حرفوا حكم الجلد الذي في التوراة الى جلد أربعين ، وتسويد الوجه والاشهار على حمار . هذا قول ابن عباس ، وجابر ، وسعيد بن المسيب والسدي ، وابن زيد .

وقال قتادة : إنما كان ذلك في قتيل منهم قالوا : إن أفتاكم بالدية فاقبلوه وإن أفتاكم بالقود فاحذروه • وقال أبو جعفر (ع) نزلت الآية في أمر بني النضير وبني قريظة وقوله : «يحرفون الكلم» قيل في معنى (تحريفهم) قولان :

أحدهما ـ تحريف كلام النبي (ص) بعد سماعه ، للكذب « يقولون إن أوتيتم هذا » أي دين اليهود فاقبلوه « وإن لم تؤتوه فاحذروا » أن تقبلوا خلافه ـ في قول الحسن وابي علي •

الثاني ـ جعلهم بدل رجم المحصن جلد أربعين تغييراً لحكم الله ـ في قول المفسرين •

وقوله : « من بعد مواضعه » لأن المعنى من بعد استقراره في مواضعه ، ومضي الايام عليه • وقال الزجاج من بعد أن فرض فروصه ، وأحلّ حلاله ، وحرم حرامه • ولو قال مكان « بعد مواضعه » عن مواضعه لجاز ، لأن معناهما متقارب ، هذا كما يقول القائل : أتيتك عن فراغي من الشغل ، وبعد فراغي منه ، ولا يجوز قياساً على ذلك أن تقول بدل قولك : رميت عن القوس ، رميت بعد القوس ، ولا في قولك : جاء زيد بعد عمرو ، أن تقول : عن عمرو ، لأن المعنى يختلف • وذلك أن (عن) لما عدا الشيء الذي هو كالسبب له ، و (بعد) إنما هي لما تأخر عن كون الشيء ، فما صح معنى السبب ومعنى التأخر جاز فيه الأمران ، وما لم يصح إلا أحد المعنيين لم يجز إلا أحد الحرفين •

وقوله : « ومن يرد الله فتنته » في الفتنة ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال الزجاج معناه من يرد فضيحته باظهار ما ينطوي عليه •

الثاني ـ قال السدي من يرد الله هلاكه •

الثالث ـ قال الحسن وأبو علي والبلخي من يرد الله عذابه من قوله « يوم هم على النار يفتنون » أي يعذبون . وقوله « ذوقوا فتنتكم » أي عذابكم . وقوله « ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات » يعني الذين عذّبوا .

وأصل الفتنة التخليص من قولهم : فتنت الذهب في النار أي خلصته من الغش والفتنة الاختبار تسمى بذلك لما فيها من تخليص الحال لمن أراد الاضلال . وإنما أراد الحكم عليه بذلك بايراد الحجج . ففيه تمييز وتخليص لحالهم من حال غيرهم من المؤمنين . ومن فسّره على العذاب فلأنهم يحرقون كما يحرق خبث الذهب فهم خبث كلهم . ومن فسّره على الفضيحة فلما فيها من الدلالة عليهم التي يتميزون بها من غيرهم . وقوله : « أُولئك لم يرد الله أن يطهر قلوبهم » قيل فيه قولان :

أحدهما ـ قال أبو علي وغيره لم يرد الله أن يطهرها من الحرج والضيق الدال على دنس الكفر عقوبة لهم .

الثاني ـ قال البلخي وغيره : لم يرد أن يطهرها من الكفر بالحكم بأنها بريئة منه ممدوحة بضده كما يطهر قلوب المؤمنين بذلك . ولا يجوز أن يكون المراد بذلك الذين لم يرد الله منهم الايمان ، لأنه لو لم يكن مريداً منهم الايمان ، لم يكن مكلفاً لهم ، لأن التكليف هو إرادة ما فيه المشقة والكلفة ، ولأن الله أمرهم بالايمان ـ بلا خلاف ـ والأمر لا يكون أمراً إلا بارادة المأمور به على ما بين في غير موضع .

وقوله : « لهم في الدنيا خزي » يعني لهؤلاء الكفار والمنافقين الذين ذكرهم في الآية ، فبين أن لهم خزياً من عذاب الله في الدنيا . وهو ما كان يفعله بهم من الذل والهوان ، والبغض والزام الجزية على وجه الصغار « ولهم

في الآخرة عذاب عظيم » مضافاً الى عذاب الدنيا وخزيها .

وقال أبو جعفر (ع) وجماعة من المفسرين ذكرنا أسماءهم : إن امرأة من خيبر ـ في شرف منهم ـ زنت وهي محصنة فكرهوا رجمها ، فأرسلوا الى يهود المدينة يسألون النبي (ص) طمعاً أن يكون أتى برخصة ، فسألوه ، فقال: هل ترضون بقضائي ؟ قالوا : نعم ، فأنزل الله عليه الرجم ، فأبوه . فقال جبرائيل : سلهم عن إبن صوريا ، ثم اجعله بينك وبينهم ، فقال : تعرفون شاباً أبيضاً أعوراً أمرداً يسكن فدكاً يقال له ابن صوريا ؟ قالوا : نعم هو أعلم يهودي على ظهر الأرض بما أنزل الله على موسى . قال : فارسلوا اليه فأسلوا فأتى ، فقال له رسول الله (ص) : أنت عبد الله بن صوريا . قال : نعم . قال : أنت أعلم اليهود قال : كذلك يقولون . قال رسول الله (ص) : فاني أناشدك الله الذي لا إله إلا هو القوي إله بني اسرائيل الذي أخرجكم من أرض مصر ، وفلق لكم البحر فأنجاكم وأغرق آل فرعون ، وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المنّ والسلوى ، وأنزل عليكم كتابه فيه حلاله وحرامه ، هل تجدون في كتابكم الذي جاء به موسى الرجم على من أحصن ؟ قال عبدالله بن صوريا : نعم ، والذي ذكرتني لولا مخافتي من رب التوراة أن يهلكني إن كتمت ما اعترفت لك به ، فأنزل الله فيه « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير » (١) فقام ابن صوريا فوضع يديه على ركبتي رسول الله (ص) ثم قال : هذا مقام العائذ بالله وبك أن تذكر لنا الكثير الذي أمرت أن تعفو عنه ، فأعرض النبي (ص) عن ذلك ، ثم سأله ابن صوريا عن نومه وعن شبه الولد بأبيه وأمه وما حظ الأب من

(١) سورة ٤ النساء آية ١٦ .

أعضاء المولود ؟ وما حَظّ الام ؟ فقال : تنام عيناي ولا ينام قلبي ، والشبه يغلبه أي المائين علا ، وللأب العظم والعصب والعروق ، وللام اللحم والدم والشعر . فقال : أشهد أن أمرك أمر نبي ، وأسلم ، فشتمه اليهود . فقال المنافقون لليهود : إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوه وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا . وهو قوله : « يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه » يعني الجلد « وان لم تؤتوه فاحذروا » وسلاه عن ذلك بقوله : « لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » فلما أرادوا الانصراف تعلقت قريظة بالنضير ، فقالوا يا أبا القاسم ـ وكانوا يكرهون أن يقولوا يا محمد لئلا يوافق ذلك ما في كتابهم من ذكره ـ هؤلاء أخواننا بنوا النضير اذا قتلوا منا قتيلاً لا يعطونا القود وأعطونا سبعين وسقاً من تمر ، وإن قتلنا منهم قتيلاً أخذوا القود ومعه سبعون وسقاً من تمر ، وإن أخذوا الدية أخذوا منا مئة وأربعين وسقاً . وكذلك جراحاتنا على أنصاف جراحاتهم ، فأنزل الله تعالى « وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط » (١) فحكم بينهم بالسواء ، فقالوا : لا نرضى بقضائك ، فأنزل الله « أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » (٢) .

ثم قال « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله » شاهداً لك بما يخالفونك . ثم فسر ما فيها من حكم الله فقال « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » الآية «فان تولوا» يعني بني النضير ، لما قالوا لا نقبل حكمك « يصيبهم ببعض ذنوبهم » وهو إجلاؤهم من ديارهم .

(١) سورة ٥ المائدة آية ٥٣ .

(٢) سورة ٥ المائدة آية ٤٦ .

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية . وقال السيدي نزلت في ابي لبابة الانصاري لقوله لبني قريظة حين حاصرهم النبي (ص) : إنما هو الذبح فلا تنزلوا على حكم سعد .

وقال عكرمة وعامر الشعبي : نزلت في رجل من اليهود قتل رجلا من أهل دينه فقال القاتل لحلفائهم من المسلمين سلوا لي محمداً (ص) فان بعث بالدية اختصمنا اليه وان كان يأمرنا بالقتل لم نأته . وقال أبو هريرة : نزلت في عبدالله بن صوريا ، وذلك أنه ارتد بعد إسلامه على ما وصفناه عن أبي جعفر (ع) وقال ابن جريج ومجاهد : نزلت في المنافقين وهم السماعون لقوم آخرين والأصح من هذه الأقوال أنها نزلت في ابن صوريا على ما قدمناه عن أبي جعفر (ع) وهو اختيار الطبري لأنه رواه أبو هريرة والبراء بن عازب وهما صحابيان .

قوله تعالى :

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٥﴾ آية

قرأ السحت ــ بضم السين والحاء ــ ابن كثير وأهل البصرة والكسائي وأبو جعفر (ع) الباقون باسكان الحاء .

وقوله : « سماعون للكذب » وصف لهؤلاء اليهود الذين تقدم وصفهم . ورفعه كما رفع سماعون الأول سواء ، لانه صفة بعد صفة . وقد يجوز

النصب في الموضعين على القطع لكن لم يقرأ به ، وقد فسرنا معنى الكذب .

وقوله : « أكالون للسحت » معناه أنه يكثر أكلهم للسحت ، وهو الحرام .

وروي عن النبي (ص) أنه قال : (السحت الرشوة في الحكم) وفي السحت لغتان ضم الحاء وإسكانها . وقد قرىء بهما على ما بيناه ، فالسحت اسم للشيء المسحوت وليس بمصدر ، والمصدر بفتح السين . وقال الحسن سمعوا كذبه وأكلوا رشوته . وقال ابن مسعود وقتادة وابراهيم ومجاهد والضحاك والسدي : السحت الرشى وروي عن علي (ع) أنه قال : (السحت الرشوة في الحكم ومهر البغي وعسب الفحل ، وكسب الحجّام ، وثمن الكلب ، وثمن الخمر ، وثمن الميتة ، وحلوان الكاهن والاستعجال في المعصية) . وروي عن ابي هريرة مثله . وقال مسروق سألت عبدالله عن الجور في الحكم قال : ذلك الكفر ، وعن السحت فقال الرجل يقضي لغيره الحاجة فيهدي له الهدية .

وأصل السحت الاستئصال اسحت الرّجل إسحاتاً وهو أن يستأصل كل شيء يقال : سحته وأسحته اذا استأصله . وأذهبه . قال الفرزدق :

وعض زمان يابن مروان لم يدع   من المال إلا مسحتاً أو مجلف [(١)]

ويقال للحالق : اسحت أي استأصل ، ومنه قوله : « فيسحتكم بعذاب » [(٢)] أي يستأصلكم به وفلان مسحوت المعدة اذا كان أكولاً شرهاً .

---

(١) اللسان (جلف) . عض زمان : ساء زمان . المسحت الشيء المهلك والمجلف ــ بضم الميم وتشديد اللام ــ الشيء الذي بقي منه بقية قليلة لا يعتنى بها . (٢) سورة طه آية ٦١ .

وقد اسحت ماله إذا أفسده وأذهبه ، ففي اشتقاق السحت أربعة أقوال : قال الزجاج لانه يعقب عذاب الاستئصال والبوار • وقال أبو علي هو حرام لا بركة فيه لأهله ، لأنه يهلك هلاك الاستئصال • وقال الخليل هو القبيح الذي فيه العار نحو ثمن الكلب والخمر فعلى هذا يسحت مروّة الانسان • وقال بعضهم حرام يحمل عليه الشره ، فهو كشره المسحوت المعدة •

وقوله : « فان جاؤك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم » قال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وابن شهاب : خيره الله تعالى في الحكم بين اليهود في زناء المحصن ، وفي رواية اخرى عن ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد أنه خيره في الحكم بينهم في قتيل قتل من اليهود • وكلا القولين قد رواه أصحابنا على ما قدمناه • وروي أن علياً (ع) دخل في بيت المال فأفرط فيه ثم قال لا أمسي وفيك درهم ثم أمر رجلا فقسمه بين الناس ، فقيل له لو عوضته شيئاً ، فقال إن شاء لكنه سحت وفي اختيار الحكام ، والأئمة الحكم بين أهل الذمة إذا احتكموا اليهم قولان :

أحدهما ـ قال ابراهيم والشعبي وقتادة وعطاء والزجاج ، والطبري ، وهو المروي عن علي (ع) والظاهر في رواياتنا أنه حكم ثابت والتخيير حاصل •

وقال الحسن وعكرمة ، ومجاهد ، والسدي ، والحكم ، وجعفر بن مبشر ، واختاره الجبائي : أنه منسوخ بقوله « وان احكم بينهم بما أنزل الله » (١) فنسخ الاختيار وأوجب الحكم بينهم بالقسط ، وهو العدل يقال أقسط إقساطاً إذا عدل « إن الله يحب المقسطين » يعني العادلين ، وقسط يقسط قسوطاً اذا جار • ومنـه قوله : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم

---

(١) سورة المائدة آية ٥٢ •

حطباً » [٢] أي الجائرون وقوله : « وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » أي لا يقدرون لك على ضر في دين ، ولا دنياً ، فدع النظر ان شئت وإن حكمت فاحكم بما أنزل الله •

قولــه تعــالى :

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ ٱلتَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٦)

آية بلاخلاف

المعنى كيف يحكمك هؤلاء اليهود يا محمد بينهم ، فيرضوا بك حكماً ، وعندهم التوراة فيها حكم الله التي أنزلها على موسى التي يقرون بها أنها كتابي وجه التعجب للنبي (ص) وفيه تقريع لليهود الذين نزلت فيهم فكأنه قال الذي أنزلته على نبيي وإنه الحق وإن ما فيه حكم من حكمي لا يتناكرونه ويعلمونه ، وهم مع ذلك يتولون : أي يتركون الحكم بـه جرأة علي كيف تقرون أيها اليهود بحكم نبيي محمد مع جحدكم نبوته ، وتكذيبكم إياه وأنتم تتركون حكمي الذي تقرون به أنه واجب وأنه حق من عند الله •

وقوله : « فيها حكم الله » قال أبو علي فيه دليل على أنه لم ينسخ لأنه لو نسخ لم يطلق عليه بعد النسخ أنه حكم الله كما لا يطلق أن حكم الله تحليل الخمر أو تحريم السبت • وقال الحسن « فيها حكم الله » بالرجم • وقال قتادة وعصياناً لي •

« فيها حكم الله » بالقود •

(٢) سورة الجن آية ١٥ •

فان قيل كيف يقولون « فيها حكم الله » وعندكم أنها محرّفة مغيرة ؟ :
قلنا : على ما قال الحسن وقتادة لا يتوجه ، لأنها وإن كانت مغيرة محرّفة لا يمتنع أن يكون فيها هذان الحكمان غير مبدّلين ، وهو رجم المحصن ووجوب القود • ويحتمل أن يكون المراد بذلك فيها حكم الله عندهم ، لأنهم لا يقرون بأنها مغيرة بل يدعون أنها هي التي أنزلت على موسى (ع) بعينها •

والحكم هو فصل الأمر على وجه الحكمة فيما يفصل به ، وقد يفصل بالبيان أنه الحق وقد يفصل بالزام الحق والأخذ به كما يفصل الحكام بين الخصوم بما يقطع الخصومة وتثبت القضية • وقوله : « ثم يتولون » فالتولي هو الانصراف عن الشيء والتولي عن الحق : الترك له • وهو خلاف التولي اليه ؛ لأن الاقبال عليه والتولي له فالله صرف النصرة والمعونة اليه ومنه تولي الله للمؤمنين •

وقوله : « من بعد ذلك » قال عبدالله بن كثير : إشارة الى حكم الله في التوراة • وقال قوم هو إشارة الى تحكيمك ، لأنهم ليسوا منه على ثقة ، وإنما طلبوا به الرخصة • وقوله : « وما اولئك بالمؤمنين » قيل في معناه قولان: أحدهما ــ وما هم بالمؤمنين بحكمك أنه من عند الله مع جحدهم نبوتك والعدول عما يعتقدونه حكماً لله فيه لا على من يقرون بنبوته ، فبين أن حالهم ينافي حال المؤمن به • والثاني ــ قال أبو علي أن من طلب غير حكم الله من حيث لم يرض به فهو كافر بالله وهكذا هؤلاء اليهود •

قولـه تعـالى :

إِنَّـا أَنْزَلْنَا ٱلتَّوْرٰيةَ فِيـهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَـا

ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَٱلرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحبارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ ٱللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحكُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٧) آية عند الجميع

قرأ « اخشوني » بياء في الوصل أهل البصرة وأبو جعفر ، واسماعيل ، ويقف يعقوب بالياء .

أخبر الله تعالى أنه الذي أنزل التوراة فيها هدى أي بيان أن أمر النبي حق وأنّ ما سألوك عنه في حكم الزانيين حق ، والقود حق « ونور » يعني فيها جلاء ما أظلم عليهم وضياء ما التبس عليهم « يحكم بها النبيون الذين اسلموا » يعني يحكم بالتوراة النبيون الذين أذعنوا بحكم الله وأقرّوا به . وقال الحسن وقتادة وعكرمة والزهري والسدي : إن النبي (ص) داخل في ذلك ، بل قال أكثرهم : هو المعني بذلك لما حكم في رجم المحصن ، ولا يدل ذلك على أنه كان متعبداً بشرع موسى (ع) لأن الله تعالى هو الذي أوجب عليه بوحي أنزل عليه لا بالرجوع الى التوراة فصار ذلك شرعاً له وإن وافق ما في التوراة وإنما نبه اليهود بذلك على صحة نبوته من حيث علم ما هو من غامض علم التوراة ومما قد التبس على كثير منهم وهو قد عرف ذلك من غير قراءة كتبهم ، والرجوع الى علمائهم ، فلم يكن ذلك إلا باعلام الله له ذلك وذلك من دلائل صدقه (صلى الله عليه وآله) .

وقوله : « للذين هادوا » العامل في (الذين) أحد شيئين :

أحدهما (يحكم) في قول الزجاج وابي علي وجماعة من أهل التأويل ٠

والثاني ــ قال قوم العامل (أنزلنا) كأنه قال أنزلناها للذين هادوا ٠

والربانيون ٠ قد فسرناه فيما مضى (١) وهو جمع رباني وهم العلماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم ، قال السدي : عنا به ابن صوريا ٠ وقال الباقون ــ وهو الأولى ــ إنه على الجمع ، والاحبار جمع حبر ، وهو العالم مشتق من التحبير وهو التحسين فالعالم يحسّن الحسن ويقبّح القبيح ، وقال الفراء أكثر ما سمعت فيه حبر بالكسر ٠ وقوله « بما استحفظوا » معناه بما استودعوا ٠ والعامل في الباء أحد سببين :

أحدهما ــ « الاحبار » كأنه قال العلماء بما استحفظوا ٠

والثاني ــ (يحكم) بما استحفظوا ٠

وقوله : « وكانوا عليه شهداء » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ قال ابن عباس شهداء على حكم النبي (ص) في التوراة ٠

الثاني ــ شهداء على ذلك الحكم أنه الحق من عند الله ٠

وقوله : « فلا تخشوا الناس واخشوني » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ لا تخشوهم يا علماء اليهود في كتمان ما أنزلت ذهب اليه السدي ٠

الثاني ــ لا تخشوهم في الحكم بغير ما انزلت بل اخشوني فان النفع والضر بيدي « ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا » معناه لا تأخذوا بترك الحكم الذي أنزلته على موسى (ع) أيها الاحبار خسيساً ٠ وهو الثمن القليل ٠ وإنما

(١) في تفسير آية ٧٩ من سورة آل عمران المجلد الثاني ص١١٠ــ١١١ ٠

نهاهم عن أكل السحت على تحريفهم كتاب الله وتغييرهم حكمه، وهو قول ابن زيد والسدي .

وقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون » معناه من كتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكماً بين عباده ، فأخفاه وحكم بغيره : من رجم المحصن والقود « فاولئك هم الكافرون » .

واختلفوا هل الآية على عمومها أم لا ؟ فقال ابن مسعود والحسن وابراهيم هي على عمومها . وقال ابن عباس : هي في الجاحد لحكم الله . وقيل في اليهود خاصة في قول الجبائي ، لأنه قال لا حجة للخوارج فيها من حيث هي خاصة في اليهود . وقال البلخي يجوز أن تكون (من) بمعنى (الذي) وتكون للعهد ، وهو من تقدم ذكره من اليهود . ويحتمل أن يكون خرج مخرج الشتم لا على وجه المجازاة كما يقول القائل : من فعل كذا فهو الذي لا حسب له ولا أصل ، ولا يريد أنه استحق الدّناءة بالفعل الذي ذكروا أنه إنما كان غير حسيب من أجل فعله وإنما يريدون الشتم وإن كان قد يفعل ذلك لعارض الحسيب العظيم الهمة . واختار الرماني قول ابن مسعود غير أنه قال الحكم هو فصل الأمر على وجه الحكمة عند الحاكم بخلاف ما أنزل الله ، لأنه بمنزلة من قال الحكمة خلاف ما أنزل الله . والأولى أن تقول هي عامة فيمن حكم بغير ما أنزل الله مستحلا لذلك ، فانه يكون كافراً بذلك ــ بلا خلاف ــ ومتى لم يكن كذلك فالآية خاصة على ما قاله ابن عباس في الجاحدين أو ما قاله أبو علي في اليهود .

وروى البراء بن عازب عن النبي (ص) أن هذه الآيات الثلاث : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون . ومن لم يحكم بما أنزل الله

فاولئك هم الظالمون • ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون » في الكفار خاصة ، وبه قال ابن مسعود وأبو صالح • وقال ليس في أهل الاسلام منها شيء وبه قال الضحاك وأبو مجلز وعكرمة وقتادة • وقال الشعبي : نزلت « الكافرون » في المسلمين « والظالمون » في اليهود « والفاسقون » في النصارى وقال عطا وطاووس أراد به كفراً دون كفر ، وظلماً دون ظلم ، وفسقاً دون فسق • ورووه عن ابن عباس • وقال ابراهيم هي عامة في بني اسرائيل وغيرهم من المسلمين ، وبه قال الحسن : وقد بينا الأقوى من هذه الأقاويل •

قوله تعالى :

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٤٨) آية بلا خلاف

قرأ الكسائي «والعين بالعين والأنف بالأنف والاذن بالاذن والسن بالسن» بالرفع فيهن • وروي ذلك عن النبي (ص) وأنه كان يقرأ به • وقرأ نافع « الاذن » بسكون الذال حيث وقع • وقرأ نافع وعاصم وحمزة وخلف ويعقوب « والجروح قصاص » بالنصب •

قوله « وكتبنا » أي فرضنا عليهم يعني اليهود الذين تقدم ذكرهم « فيها » يعني في التوراة « أن النفس بالنفس » ومعناه إذا قتلت نفس نفساً أخرى متعمداً أنه يستحق عليها القود إذا كان القاتل عاقلاً مميزاً ، وكان

المقتول مكافياً للقاتل • أما بأن يكونا مسلمين حرين أو كافرين أو مملوكين ، فأما أن يكون القاتل حراً مسلماً والمقتول كافراً أو مملوكاً فان عندنا لا يقتل • وفيه خلاف بين الفقهاء • وإن كان القاتل مملوكاً أو كافراً أو المقتول مثله أو فوقه فانه يقتل به ــ بلا خلاف ــ •

وقوله : « والعين بالعين والأنف بالأنف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص » من نصب جميع ذلك عطفه على المنصوب بواو الاشتراك ثم استأنف ، فقال والجروح قصاص • ومن نصب الجروح عطفها على ما قبلها من المنصوبات • ومن لم ينصب غير النفس فعلى أن ذلك هو المكتوب عليهم • ثم ابتدأ ما بعده بياناً مبتدأ • ويحتمل أن يكون الواو عاطفة جملة على جملة ولا يكون الاشتراك فيمن نصب • ويحتمل أن يكون حمل على المعنى ، لأن التقدير قلنا لهم « ان النفس بالنفس » فحمل « العين بالعين » على المعنى دون اللفظ • ويحتمل أن يكون عطف على الذكر المرفوع في الظرف الذي هو الخبر ، وإن لم يؤكد المعطوف عليه بضمير منفصل ، كما قال « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا » (١) فلم يؤكد كما أكد في قوله : « يراكم هو وقبيله » (٢) ذكر الوجوه الثلاثة الزجاج ، وأبو علي الفارسي ومن نصب الجميع جعل الكل فيما كتب عليهم •

هذا وإن كان إخبار من الله أنه ما كتب عليهم في التوراة فانه لا خلاف أن ذلك ثابت في هذا الشرع ويراعى في قصاص الاعضاء ما يراعى في قصاص النفس من التكافؤ • ومتى لم يكونا متكافئين ، فلا قصاص على الترتيب

(١) سورة ٦ الأنعام آية ١٤٨ •

(٢) سورة ٧ الأعراف آية ٢٦ •

الذي رتبناه في النفس سواء • وفيه أيضاً خلاف ، ويراعى في الاعضاء التساوي أيضاً ، فلا تقلع العين اليمنى باليسرى ، ولا تقطع اليمين باليسار • وتقطع الناقصة بالكاملة • فمن قطع يمين غيره وكانت يمين القاطع شللاً • قال أبو علي : يقال له إن شئت قطعت يمينه الشلاء أو تأخذ دية يدك • وقد ورد في أخبارنا أن يساره تقطع إذا لم يكن للقاطع يمين ، فأما عين الأعور ، فانها تقلع بالعين التي قلعها سواء كانت المقلوعة عوراء أو لم تكن • وان قلعت العين العوراء كان فيها كمال الدية إذا كانت خلقة أو ذهبت بآفة من الله أو يقلع احدى عيني القالع ويلزمه مع ذلك نصف الدية • وفي ذلك خلاف ذكرناه في الخلاف •

وأما الجروح ، فانه يقتص منها إذا كان الجارح مكافياً للمجروح على ما بيناه في النفس ، وتقتص بمثل جراحته الموضحة بالموضحة والهاشمة بالهاشمة والمنقلة بالمنقلة (١) ولا قصاص في المأمومة وهي التي ام الرأس ولا الجايفة ، وهي التي تبلغ الجوف ، لأن في القصاص منها تعزيراً بالنفس • ولا ينبغي أن يقتص من الجراح إلا بعد أن تندمل من المجروح ، فاذا اندمل اقتص حينئذ

(١) الموضحة هي الجراح التي بلغة العظم فأوضحت عنه •

(الهاشمة) قيل : شجة تهشم العظم • وقيل : هي التي هشمت العظم ولم يتباين فراشه • وقيل هي التي هشمت العظم فنقش واخرج ، فتباين فراشه • و (المنقلة) ــ بكسر القاف وتشديده ــ هي التي تنقل العظم أي تكسره حتى يخرج منها فراش العظم وهي قشور تكون على العظم دون اللحم • وفيها أقوال أخر وروايات في الشرع من شاء فليراجع كتب الفقه الإستدلالية •

من الجارح . وإن سرت الى النفس كان فيها القود . وكسر العظم لا قصاص فيه ، وإنما فيه الدية . وكل جارحة كانت ناقصة فاذا قطعت كان فيها حكومة . ولا يقتص لها الجارحةالكاملة كيد شلاء وعين لا تبصر وسن سوداء متآكلة [١]، فان جميع ذلك حكومة لا تبلغ دية تلك الجارحة . وقد روي أن في هذه الأشياء مقدراً وهو ثلث دية العضو الصحيح . وتفصيل أحكام الجنايات والديات استوفيناه في النهاية والمبسوط في الفقه لا نطول بذكره ههنا .

وقوله : « فمن تصدق به فهو كفارة له » الهاء في « كفارة له » يحتمل عودها الى أحد أمرين :

أحدهما ــ وهو الأقوى ــ ما قاله عبدالله بن عمر والحسن وقتادة وابن زيد وابراهيم ــ على خلاف عنه ــ والشعبي بخلاف عنه : إنها عائدة على المتصدق من المجروح أو ولي المقتول ، لانه إذا تصدق بذلك على الجارح لوجه الله كفَّر الله عنه بذلك عقوبة ما مضى من معاصيه .

الثاني ــ على المتصدق عليــه لأنه يقوم مقام أخذ الحق عنه ذهب اليه ابن عباس ومجاهد ، وإنما رجحنا الأول ، لأن العائد يجب أن يرجع الى مذكور ، وهو من تصدق ، والمتصدق عليه لم يجر له ذكر ، ومعنى « من تصدق » به عفا عن الحق واسقط .

فان قيل : هل يكفر الذنب إلا التوبة أو اجتناب الكبيرة ؟

قلنا : على مذهبنا يجوز أن يكفر الذنب شيء من أفعال الخير ، ويجوز أن يتفضل الله باسقاط عقابها . وقال قوم : يجوز أن يكفر بالطاعة الصغيرة

---

(١) (المتآكلة) هي السن المحتكة اما من الكبر أو من عاهة فيها وهي أيضاً السن التي قد ذهب منها شيء وبقي منها بقية .

حتى يسقط بها .

وقوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون » قد بينا أن في الناس من قال ذلك يختص باليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله في التوراة من القود والرجم . ويمكن أن يحمل على عمومه في كل من لم يحكم بما أنزل الله وحكم بخلافه بأنه يكون ظالماً لنفسه بارتكاب المعصية الموجبة للعقاب . وهذا الوجه يوجب أن ما تقدم ذكره من الأحكام يجب العمل به في هذا الشرع وإن كان مكتوباً في التوراة .

قوله تعالى :

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ

(٤٩) آية عند الجميع

قوله : (وقفينا) معناه أتبعنا يقال : قفاه يقفوه وقفواً ومنه قافية الشعر لأنها تتبع الوزن ومنه القفا ، ويثنى قفوان ، واستقفاه إذا قفا أثره ليسلبه . والقفي الضيف ، لأنه يقفى بالبر واللطف . وقوله « على آثارهم » فالآثار جمع أثر وهو العمل الذي يظهر للحس ، وآثار القوم ما أبقوا من أعمالهم ، ومنه المأثرة ، وهي المكرمة التي يأثرها الخلف عن السلف ، لأنها عمل يظهر نصاً المنفس ، والأثير الكريم على القوم لأنهم يؤثرونه بالبر ، ومنه الايثار بالاختيار ، لأنه اظهار أحد العملين على الآخر واستأثر فلان بالشيء إذا

اختاره لنفسه . والهاء والميم في قوله : « آثارهم » قيل فيمن يرجع اليهقولان :

أحدهما ــ اختاره البلخي والرماني : انهما يرجعان الى النبيين الذين أسلموا ، وقد تقدم ذكرهم . وقال أبو علي يعودان على الذين فرض عليهم الحكم الذي مضى ذكره ، لأنه أقرب . والأول أحسن في المعنى . وهــذا أجود في العربية .

وقوله : « بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة » نصب مصدقاً على الحال . والمعنى أنه يصدق على ما مضى من التوراة الذي أنزلها الله على موسى ويؤمن بها . وإنما قال لما مضى قبله بين يديه لانه إذا كان ما يأتي بعده خلفه ، فالذي مضى قبله قدامه وبين يديه .

وقوله (وآتيناه الانجيل) يعني عيسى أنزلنا عليه الانجيل « فيه » يعني في الانجيل « هدىً » يعني بيان ، وحجة « ونور » سماه نوراً لما فيه من الاهتداء به كما يهتدى بالنور و « هدىً » رفع بالابتداء « وفيه » خبره قدّم عليه . و « نور » عطف عليه و « مصدقاً لما بين يديه من التوراة » نصب على الحال وليس ذلك بتكرير لأن الأول حال لعيسى (ع) وأنه يدعوا الى التصديق بالتوراة . والثاني ــ أن في الانجيل ذكر التصديق بالتوراة وهما مختلفان و « هدى » في موضع نصبٍ بالعطف على « مصدقاً » . و (موعظة) عطف على « هدىً للمتقين » . وإنما اضافه الى المتقين ، لأنهم المنتفعون بها . وقد مضى مثل ذلك فيما مضى . والمتقون هم الذين يتقون معاصي الله وترك واجباته خوفاً من عقابه والوعظ والموعظة هو الزجر عما كرهه الله الى ما يحبه الله والتنبيه عليه .

قولــه تعــالى :

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٠) آية

قرأ حمزة (وليحكم) بكسر اللام ، ونصب الميم • الباقون بجزم الميم وسكون اللام على الأمر •

حجة حمزة أنه جعل اللام متعلقة بقوله « وآتيناه الإنجيل » لأن إيتاءه الانجيل انزال ذلك عليه ، فصار كقوله « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس » (١) وحجة من جزم الميم انه جعله أمراً بدلالة قوله : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » فكما أمر النبي (ص) بالحكم بما أنزل عليه كذلك أمر عيسى (ع) بالحكم بما أنزل الله في الانجيل • وفي معنى الأمر قولان :

أحدهما ــ وقلنا : « ليحكم أهل الانجيل » فيكون على حكاية ما فرض عليهم وحذف القول لدلالة ما قبله في قوله وقفينا ، وآتينا كما قال : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم » (٢) أي يقولون سلام عليكم •

الثاني ــ أنه استأنف الأمر لأهل الانجيل على غير حكاية ، لأن أحكامه كانت حينئذ موافقة لأحكام القرآن • ولم تنسخ بعد ــ هذا قول ابي علي ــ والأول أقوى ــ وهو اختيار الرماني •

وقوله : « بما أنزل الله فيه » يعني الانجيل ، وهو يذكر ويؤنث ،

(١) سورة ٤ النساء آية ١٠٤ •

(٢) سورة ١٣ الرعد آية ٢٥ •

والانجيل إفعيل من النجل وهو الأصل ، والنجل النزّ من الماء . والنجل الولد . والنجل القطع . ومنه سمي المنجل . وقرأ الحسن (أنجيل) بفتح الهمزة وهو شاذ وهو ضعيف . لأنه ليس في كلام العرب شيء على وزن (أفعيل) وإنما جزمت لام الامر ونصبت لام كي ، لأن لام الأمر توجب معنى لا يكون للاسم فأوجبت إعراباً لا يكون للاسم ولام كي يقدر بعدها (أن) بمعنى الاسم . وقوله : « ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون » قيل فيه قولان :

أحدهما ــ قال أبو علي ان (من) بمعنى الذي وهو خبر عن قوم معرفين ، وهم اليهود الذين تقدم ذكرهم .

والثاني ــ قال غيره ان ذلك خرج مخرج المجاراة والمعنى أن من لم يحكم بما أنزل الله من المكلفين فهو فاسق ، لأن اطلاق الصفة يدل على أنه ذهب الى ان الحكمة في خلاف ما أمر الله به ، فلهذا كان كافراً .

وقال ابن زيد : الفاسقون ــ ههنا ــ وفي أكثر القرآن بمعنى الكاذبين كقوله « إن جاءكم فاسق » (١) يعني كاذب .

قوله تعالى :

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ

(١) سورة ٤٩ الحجرات آية ٦ .

فِي مَآ آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥١﴾ آية بلا خلاف

هذا خطاب للنبي (ص) بأنه تعالى أنزل إليه الكتاب يعني القرآن « بالحق مصدقاً » نصب على الحال يصدق ما بين يديه من الكتاب يعني التوراة والانجيل وما فيهما من توحيد الله وعدله والدلالة على نبوته (ع) والحكم بالرجم والقود على ما تقدم ذكره . وفيه دلالة على أن ما حكا الله أنه كتبه عليهم في التوراة حكم بأنه يلزمنا العمل به ، لأنه جعل القرآن مصدقاً لذلك ومهيمناً عليه .

وقيل في معنى (المهيمن) خمسة أقوال : أحدهما ــ قال ابن عباس والحسن وقتادة ، ومجاهد : معناه أمين عليه وشاهد . وقال قوم : مؤتمن . وقال آخرون : شاهد . وقال آخرون : حفيظ . وقال بعضهم : رقيب . والأصل فيه (مؤيمن) فقبلت الهزة هاء ، كما قيل في أرقت الماء : هرقت . هذا قول ابي العباس والزجاج وقد صُرّف ، فقيل (هيمن) الرجل إذا ارتقب ، وحفظ وشهد ، يهيمن هيمنة فهو مهيمن . وقال بعضهم مهيمناً ــ بفتح الميم الثانية ــ وهو شاذ . وفي معنى المهيمن ههنا قولان :

قال ابن عباس ، والحسن ، وأكثر المفسرين : إنه صفة للكتاب . الثاني ــ قال مجاهد هو صفة النبي (ص) والأول أقوى ، لأجل حرف العطف ، لأنه قال : « فأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » ثم قال : « ومهيمناً » ولا يجوز أن يعطف على حال لغير الأول . لا تقول ضربت هند زيداً قاعداً وقائمة ، ولو قلت قائمة بلا واو لكان جائزاً . ويجوز

أن يكون عطفاً على مصدقاً ويكون مصدقاً حالاً للنبي (ص) والأول أظهر .

وقوله « فاحكم بينهم بما أنزل الله » قال ابن عباس ، والحسن ، ومسروق : يدل على أن أهل الكتاب إذا ترافعوا الى الحكام يجب أن يحكموا بينهم بحكم القرآن وشريعة الاسلام ، لأنه أمر من الله تعالى بالحكم بينهم والأمر يقتضي الايجاب . وقال أبو علي ذلك نسخ بالتخيير في الحكم بين أهل الكتاب والاعراض عنهم والترك . وقوله : « ولا تتبع أهواءهم » نهي له (ص) عن اتباع أهوائهم في الحكم ، ولا يدل ذلك على أنه كان اتبع أهواءهم ، لأنه مثل قوله « لئن اشركت ليحبطن عملك » [1] ولا يدل ذلك على أن الشرك كان وقع منه .وقوله « عما جاءك من الحق » أي لا تتبع أهواءهم عادلاً عما جاءك من الحق .

وقوله « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » فالشرعة والشريعة واحد وهي الطريقة الظاهرة . والشريعة هي الطريق الذي يوصل منه الى الماء الذي فيه الحياة فقيل الشريعة في الدين أي الطريق الذي يوصل منه الى الحياة في النعيم ، وهي الامور التي تعبد الله — عز وجل — بها من جهة السمع قال الشاعر :

اتنسونني يوم الشريعة والقنا بصفين في لباتكم قد تكسرا

يريد شريعة الفرات والأصل فيه الظهور اشرعت القنا اذا أظهرته . وشرعت في الأمر شروعاً إذا دخلت فيه دخولاً ظاهراً ، والقوم في الأمر شرع سواء أي متساوون . والمنهاج الطريق المستمر يقال : طريق نهج ومنهج أي بين قال الراجز :

---

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٦٥ .

من يك ذا شك فهذا فلج ماء رواء وطريق نهج (١)

وقال المبرد : الشرعة ابتداء الطريق ، والمنهاج الطريق المستمر قال : وهذه الألفاظ إذا تكررت فلزيادة فائدة منه . ومنه قول الحطيئة :

ألا حبذا هنـد وأرض هنـد وهند أتى من دونها النأي والبعد (٢)

قال فالنأي لما قل بعده والبعد لما كثر بعده فالنأي للمفارقة ، وقد جاء بمعنى واحد . قال الشاعر :

حييت من طلل تقادم عهده أقوى واقفر بعـد أم الهيثم

واقفر وأقوى معناهما خلا

وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والضحاك « شرعة ومنهاجاً » أي سنة وسبيلا والشرعة التي جعلت « لكل » قيل فيه قولان : احدهما ــ قال مجاهد شريعة القرآن لجميع الناس لو آمنوا به . الثاني ــ قال قتادة وغيره واختاره الجبائي أنه شريعة التوراة وشريعة الانجيل وشريعة القرآن . وقوله « منكم » قيل في المعنى به قولان :

أحدهما أمة نبينا وأمم الأنبياء قبله على تغليب المخاطب على الغائب .

الثاني ــ أنه أراد امة نبينا وحده ، وهو قول مجاهد . والاول أقوى لانه تعالى بين أنه جعل لكل شرعة ومنهاجاً غير شرعة صاحبه ويقوي ذلك قوله « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » ولو كان الأمر على ما قال مجاهد لما كان لذلك معنى ، لأنه تعالى قد جعلهم أمة واحدة بأن أمرهم بالدخول

(١) مجاز القرآن لابي عبيدة ١ : ١٦٨ واللسان (روى) . وقد رواه الطبري (من يك في شك) .

(٢) اللسان « نأى » .

فيها والانقياد لها • وقوله « ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة » قيل في معناه أقوال :

أحدها قال الحسن والجبائي انه اخبار عن القدرة كما قال « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » (١) •

الثاني قال البلخي معناه لو شاء الله لفعل ما يختارون عنده الكفر ، لكنه لا يفعله ، لأنه مناف للحكمة ولا يلزم على ذلك أن يكون في مقدوره ما يؤمنون عنده فلا يفعله ، لأن ذلك لو كان مقدوراً لوجب أن يفعله ما لم يناف التكليف •

الثالث قال قوم : لو شاء الله لجمعهم على ملة واحدة في دعوة جميع الأنبياء والأول أصح لأن دعوة الأنبياء تابعة للمصالح ، فلا يمكن جمع الناس على شريعة واحدة مع اختلاف المصالح •

الرابع قال الحسين بن علي المغربي : معناه لو شاء الله ألا يبعث اليهم نبياً ، فيكونون متعبدين بما في العقل ويكونون أمة واحدة • وأقوى الوجوه أولها •

وقوله « ولكن ليبلوكم فيما أتاكم » معناه ليختبركم بما كلفكم من العبادات وهو عالم بما يؤل اليه أمركم ، لأنه عالم لنفسه وقد فسرنا معنى البلوى فيما مضى • « فاستبقوا الخيرات » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ بادروا فوت الحظ بالتقدم في الخير •

الثاني ــ بادروا الفوت بالموت ذكره الجبائي •

---

(١) سورة ٣٢ حم السجدة آية ١٣ •

وقوله « الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » أي الى الله مرجعكم يعني الى الموضع الذي لا يملك أحد فيه لكم ضراً ولا نفعاً غيره فجعل رجوعهم الى هذا الحد بالموت رجوعاً اليه تعالى وبين أنه يعلمهم ما كانوا يختلفون فيه في الدنيا من أمر دينهم وأنه يحكم في ذلك بينهم بالحق •

قوله تعالى :

وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥٢﴾ آية بلا خلاف

موضع « أن احكم » نصب والعامل فيها وانزلنا والتقدير وأنزلنا اليك أن احكم بينهم بما انزل الله • ويجوز أن يكون موضعها رفعاً وتقديره ومن الواجب أن احكم بينهم بما أنزل الله • ووصلت أن بالامر ولا يجوز صلة الذي بالامر لأن (الذي) اسم ناقص مفتقر الى صلة في البيان عنه فتجري مجرى صفة النكرة ولذلك لابد لها من عائد يعود اليها وليس كذلك « ان » لانها حرف ، وهي مع ما بعدها بمنزلة شيء واحد فلما كان في فعل الأمر معنى المصدر جاز وصل الحرف به على معنى مصدره •

وانما كرر الأمر بالحكم بينهم ، لامرين :

أحدهما ـ أنهما حكمان أمر بهما جميعاً لانهم احتكموا اليه في زناء المحصن ثم احتكموا اليه في قتيل كان منهم ذكره أبو علي وهو المروي عن

ابي جعفر (ع) .

الثاني ـ ان الأمر الاول مطلق والثاني دل على أنه منزل .

وقوله « ولا تتبع أهواءهم » نهي له (ص) أن يتبع أهواءهم فيحكم بما يهوونه .

وقوله « واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك » في مه قولان :

أحدهما ـ قال ابن عباس احذرهم ان يضلوك عن ذلك الى ما يهوون من الأحكام اطماعاً منهم في الاستجابة الى الاسلام .

الثاني ـ قال ابن زيد احذرهم ان يضلوك بالكذب عن التوراة بما ليس فيها فاني قد بينت لك حكمها . وقال الشعبي الآية وان خرجت مخرج الكلام على اليهود فان المجوس داخلون فيها .

وقوله « فان تولوا » معناه فان أعرضوا عن حكمك بما أنزل الله « فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم » قيل في معناه أربعة أقوال :

أحدها ـ قال الجبائي انه وان ذكر لفظ الخصوص فان المراد به العموم كما قد يذكر العموم ويراد به الخصوص .

الثاني ـ انه على تغليظ العقاب أي يكفي أن يؤخذوا ببعض ذنوبهم في اهلاكهم والتدمير عليهم .

الثالث ان يعجل بعض العقاب بما كان من التمرد في الاجرام لان ذلك من حكم الله في العباد .

الرابع ـ قال الحسن : ان المراد به اجلاء بني النضير بنقض العهد وقتل بني قريظة وقوله « وان كثيراً من الناس لفاسقون » معناه تسلية للنبي (ص) عن اتباع هؤلاء القوم الى اجابته والاقرار بنبوته بأن قليلا من الناس الذين

يؤمنون ، وان الاكثرهم الفاسقون ، فلا ينبغي ان يعظم ذلك عليك .

قولــه تعــالى :

أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًـا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٣) آية بلا خلاف

قرأ (تبغون) بالتاء ابن عامر وحده الباقون بالياء . من قرأ بالتاء فعلى معنى قل لهم ، ومن قرأ بالياء ، فلأن ما قبله على لفظ الغيبة وهو قوله « وان كثيراً من الناس لفاسقون » فحملوا عليه . والكناية في قوله « افحكم الجاهلية تبغون » قيل فيها قولان :

أحدهما ــ إنها كناية عن اليهود في قول مجاهد ، وأبو علي قال أبو علي لأنهم كانوا إذا وجب الحكم على ضعفائهم ألزموهم إياه . واذا وجب على أقويائهم بالغنى والشرف في الدنيا لم يأخذوهم به ، فقيل لهم « أفحكم الجاهلية » يعني عبدة الأوثان « تبغون » وأنتم أهل كتاب .

الثاني ــ انها كناية عن كل من طلب غير حكم الله أي انما خرج منه الى حكم الجاهلية . وكفى بذلك خزياً أن يحكم بما يوجبه الجهل دون ما يوجبه العلم .

ونصب « أفحكم الجاهلية يبغون » وهو مفعول به ومعنى تبغون تطلبون يقال بغى يبغي بغياً اذا طلبه والبغاة هم الذين يطلبون التآمر على الناس والترأس بغير حق والبغي الفاجرة لانها تطلب الفاحشة ، ومنه قوله « ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله »[1] أي من طلب عليه الاستعلاء

(١) سورة الحج آية ٦٠ .

بالظلم . وقوله «ومن أحسن من الله حكما» نصب على التمييز أي فصلا بين الحق والباطل من غير محاباة ، ولا مقاربة لأنه لا يجوز للحاكم أن يحابي في الحكم بأن يعمل على ما يهواه بدلا مما يوجبه العدل وقد يكون حكم أحسن من حكم بأن يكون أولى منه وأفضل منه وكذلك لو حكم بحق يوافق هواه كان ما يخالف هواه أحسن مما يوافقه وقوله « لقوم يوقنون » معناه عند قوم يوقنون بالله وبحكمه فاقيمت اللام مقام (عند) هذا قول ابي علي ، وهذا جائز إذا تقاربت المعاني ولم يقع اللبس لأن حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (٥٤) آية

قوله « بعضهم أولياء بعض » إخبار منه تعالى ان الكفار يوالي بعضهم بعضاً وقوله « ومن يتولهم منكم » يعني من استنصرهم واتخذهم أنصاراً فانه منهم أي محكوم له بحكمهم في وجوب لعنه والبراءة منه ويحكم بأنه من أهل النار . وقوله « ان الله لا يهدي القوم الظالمين » معناه لا يهديهم الى طريق الجنة لكفرهم ، واستحقاقهم العذاب الدائم بل يضلهم عنها الى طريق النار ، هذا قول ابي علي . وقال غيره : معناه لا يحكم لهم بحكم المؤمنين في المدح والثناء والنصرة على الأعداء .

قولـه تعـالى :

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾

(٥٥) آية بلا خلاف

هذا خطاب للنبي (ص) أعلمه الله أنه يرى الذين في قلوبهم مرض أي شك ونفاق « يقولون » في موضع الحال ، وتقديره قائلين نخشى أن تصيبنا دائرة • والذين يخشون أن تصيبهم دائرة قيل فيه قولان :

أحدهما ـ قال مجاهد وقتادة والسدي وأبو علي الجبائي : إنهم قوم من المنافقين •

وقال عطية بن سعد وعبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت : إنه عبدالله ابن ابي بن سلول •

و « الدائرة » الدولة التي تحول الى من كانت له عمن هي في يديه ، قال الشاعر :

ترد عنك القـدر المقدروا ودائرة الدهر أن تدورا (١)

يعني دول الدهر الدائرة من قوم الى قوم •

وقوله « فعسى الله أن يأتي بالفتح » عسى موضوعة في اللغة للشك وهي من الله تعالى تفيد الوجوب ، لأن الكريم اذا أطمع في خير يفعله ، فهو بمنزلة

(١) مجاز القرآن ١ : ١٦٩ وتفسير الطبري ١٠ : ٤٠٤ •

الوعد به في تعلق النفس به وإرجائها له ، ولذلك حق لا يضيع ومنزلة لا تخيب• والفتح القضاء والفصل ــ وهو قول قتادة ــ ومنه قوله « افتح بيننا وبين قومنا بالحق » [٢] وقال أبو علي هو فتح بلاد المشركين على المسلمين وقال السدي : هو فتح مكة • ويقال للحاكم الفتاح ، لأنه يفتح الحكم ويفصل به الأمر • وقوله « أو أمر من عنده » قيل فيه ثلاثة أقوال :

قال السدي : هو تجديد أمر فيه إذلال المشركين وعز للمؤمنين ، وقيل هو الجزية •

وقيل : هو اظهار نفاق المنافقين مع الأمر بقتلهم في قول الحسن والزجاج •

وقال أبو علي : هو أمر دون الفتح الأعظم أو موت هذا المنافق ، لأنه إذا أتى الله المؤمنين ذلك ندم المنافقون والكفار على تقويتهم بأنفسهم ذلك ، وكذلك إذا ماتوا أو تحققوا ما يصيرون اليه من العقاب ندموا على ما فعلوه في الدنيا من الكفر والنفاق •

قوله تعالى :

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٦) آية

قرأ ابن كثير ، وعامر ، ونافع « يقول » بلا واو • الباقون بالواو ، وكلهم قرأ بضم اللام إلا أبا عمرو ، فانه فتحها • من نصب اللام فالمعنى عسى

(٢) سورة ٧ الأعراف آية ٨٨ •

أن يقول ، ومن رفعه فعلى الاستئناف .

فان قيل كيف يجوز النصب ولا يجوز أن يقول الذين آمنوا ؟

قيل : قال أبو علي الفارسي يحتمل ذلك أمرين غير هذا :

أحدهما ــ أن يحمل على المعنى ، لأنه إذا قال عسى الله أن يأتي بالفتح وكأنه قال عسى أن يأتي الله بالفتح ، « ويقول الذين آمنوا » كما قال « فاصدق وأكن » كأنه قال : أصدق وأكن ، وقد جاء مثله نحو قوله « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم [١] وقال « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » [٢] .

ووجه آخر وهو : أن يبدل (أن يأتي) من اسم الله اسم كما أبدلت (أن) من الضمير الذي في قوله « وما أنسانية إلا الشيطان أن أذكره » [٣] فاذا أبدلته فكأنك قلت عسى أن يأتي الله بالفتح ، ويقول الذين آمنوا . وأما من رفع فلانه عطف جملة على جملة ، ولم يجعلها عاطفة على مفرد . ويقوى الرفع قراءة من قرأ بلا واو وأما إسقاط الواو وإثباتها فجميعاً حسنان : أما الحذف فلان في الجملة المعطوفة ذكراً في المعطوف عليها وذلك أن من وصف بقوله «يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصينا دائرة » الى قوله « نادمين » هم الذين قال فيهم « أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم حبطت أعمالهم » فلما صار في كل واحدة من الجملتين ذكر فيما تقدم من الأخرى حسن عطفها بالواو وبغير الواو ، كما أن قوله « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢١٦ . (٢) سورة ٤ النساء آية ٨٣ .

(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٦٤ .

خمسة سادسهم كلبهم »[١] لما كان في كل واحدة من الجملتين ذكر ما تقدم اكتفى بذلك عن الواو . ويدل على حسن اثبات الواو قوله « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » .

وقوله « ويقول الذين آمنوا » أي الذين صدقوا بالله ورسوله ظاهراً وباطناً تعجباً من نفاق المنافقين « أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم » في معاونتكم على أعدائكم ونصرتكم « حبطت أعمالهم » أي ضاعت أعمالهم التي عملوها ، لانهم اوقعوها على خلاف الوجه المأمور به ، لأن ما فعلوه فعلوه على وجه النفاق دون التقرب به الى الله . وقوله « فأصبحوا خاسرين » ليس المراد به معنى الصباح ، وإنما معناه صاروا خاسرين ، ومثل ذلك قولهم : ظل فلان يفعل كذا ، وبات يفعل كذا ، وليس بمراد وقت بعينه ، وإنما وصفهم بالخسران ، لأنهم فوتوا نفوسهم الثواب واستحقوا عوضاً منه العقاب فأي خسران أعظم من ذلك .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٧) آية

قرأ نافع وأهل المدينة « يرتدد » بدالين ، وبه قرأ ابن عامر ، وكذلك

(١) سورة الكهف آية ٢٢ .

هو في مصاحفهم • الباقون بدال واحدة مشددة ، وكذلك هو في مصاحفهم • من أظهر ولم يدغم قال : لأن الحرف المدغم لا يكون إلا ساكناً ولا يمكن الادغام في الحرف الذي يدغم حتى يسكن ، لان اللسان يرتفع عن المدغم والمدغم فيه ارتفاعة واحدة ، فاذا لم يسكن لم يرتفع اللسان ارتفاعة واحدة ، واذا لم يرتفع كذلك لم يمكن الادغام ، فاذا كان كذلك لم يسغ الادغام في الساكن لأن المدغم إذا كان ساكناً والمدغم فيه كذلك التقى ساكنان ، والتقاء الساكنين في الوصل في هذا النحو ليس من كلامهم فأظهر الحرف الاول في حركة وأسكن الثاني من المثلين ، وهذه لغة أهل الحجاز ، فلم يلتق الساكنان •

وحجة من أدغم أنه لما اسكن الحرف الاول من المثلين للادغام لم يمكنه أن يدغمه في الثاني والثاني ساكن فحرك المدغم فيه لالتقاء الساكنين وهذه لغة بني تميم • وفي القرآن نظيره قال الله تعالى : « ومن يشاقق الرسول » (١) وقال : « ومن يشاقق الله ورسوله » (٢) •

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على أربعة أقوال :

فقال الحسن وقتادة والضحاك وابن جريج إنها نزلت في ابي بكر •

الثاني ــ قال السدي : نزلت في الانصار •

الثالث ــ قال مجاهد : نزلت في أهل اليمن ، وروي ذلك عن النبي (ص) واختاره الطبري لمكان الرواية • وروي أنهم قوم أبي موسى الأشعري • وكانت وفودهم قد أتت أيام عمر ، وكان لهم في نصرة الاسلام أثر • وقال أبو جعفر وأبو عبدالله (ع) وروي ذلك عن عمار وحذيفة ، وابن عباس : أنها نزلت في أهل البصرة ومن قاتل علياً (ع) فروي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال :

---

(١) سورة ٤ النساء آية ١١٤ • (٢) سورة ٨ الانفال آية ١٣ •

يوم البصرة « والله ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم » وتلا هذه الآية . ومثل ذلك روى حذيفة ، وعمار وغيرهما . والذي يقوي هذا التأويل أن الله تعالى وصف من عناه بالآية بأوصاف وجدنا أمير المؤمنين (ع) مستكملا لها بالاجماع ، لأنه قال : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين » وقد شهد النبي (ص) لأمير المؤمنين (ع) بما يوافق لفظ الآية في قوله وقد ندبه لفتح خيبر بعد فرار من فر عنها واحداً بعد واحد (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه) فدفعها الى أمير المؤمنين ، فكان من ظفره ما وافق خبر الرسول (ص) . ثم قال « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » فوصف من عناه بالتواضع للمؤمنين والرفق بهم ، والعزة على الكافرين . والعزيز على الكافرين هو الممتنع من أن ينالوه مع شدة نكايته فيهم ووطأته عليهم ، وهذه أوصاف أمير المؤمنين (ع) التي لا يدانى فيها ولا يقارب . ثم قال « يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » فوصف ـ جل اسمه ـ من عنا بهذا الجهاد وبما يقتضي الغلبة فيه ، وقد علمنا أن أصحاب الرسول (ص) بين رجلين : رجلاً لا عناء له في الحرب ولا جهاد . والآخر له جهاد وعناء ، ونحن نعلم قصور كل مجاهد عن منزلة أمير المؤمنين (ع) في الجهاد ، فانهم مع علو منزلتهم في الشجاعة وصدق البأس لا يلحقون منزلته ولا يقاربون رتبته لانه عليه السلام المعروف بتفريج الغمم ، وكشف الكرب عن وجه الرسول (ص) وهو الذي لم يحم قط عن قرن ، ولا نكص عن هول ، ولا ولىّ الدبر ، وهذه حالة لم تسلم لأحد قبله ولا بعده فكان (ع) بالاختصاص بالآية أولى لمطابقة أوصافه لمعناها .

فاما من قال أنها نزلت في أبي بكر فقوله بعيد من الصواب ، لأنه تعالى إذا كان وصف من أراده بالآية بالعزة على الكافرين وبالجهاد في سبيله مع اطراح خوف اللوم كيف يجوز أن يظن عاقل توجه الآية الى من لم يكن له حظ في ذلك الموقف لأن المعلوم أن أبا بكر لم يكن له نكاية في المشركين ، ولا قتيل في الاسلام ، ولا وقف في شيء من حروب النبي (ص) موقف أهل البأس والفناء ، بل كان الفرار شيمته ، والهرب ديدنه ، وقد انهزم عن النبي (ص) في مقام بعد مقام ، فانهزم يوم أحد ويوم حنين ، وغير ذلك ، فكيف يوصف بالجهاد في سبيل الله ـ على ما يوصف في الآية ـ من لا جهاد له جملة . وهل العدول بالآية عن أمير المؤمنين (ع) مع العلم الحاصل بموافقة أوصافه لها الى غيره إلا عصبية ظاهرة . ولم يذكر هذا طعناً على أبي بكر (رضى الله عنه) ولا قدحاً فيه ، لان اعتقادنا فيه أجمل شيء ، بل قلنا أليس في الآية دلالة على ما قال .

ومعنى « أذلة على المؤمنين » أي أهل لين ورقة « أعزة على الكافرين » أي أهل جفاة وغلظة . والذل بكسر الذال غير الذل بضمها ، لأن الأول اللين والانقياد والثاني الهوان والاستخفاف . وروي عن علي (ع) وابن عباس (رحمة الله عليه) أن معنى « أذلة » أهل رحمة ورقة . ومعنى « أعزة » أهل غلظة وشدة . وقال الاعمش « أذلة » يعني ضعفاء .

ومحبة الله تعالى لخلقه إرادة ثوابهم وإكرامهم وإجلالهم . ومحبتهم له إرادتهم لشكره وطاعته وتعظيمه . والارتداد ـ عندنا ـ على ضربين : مرتد عن فطرة الاسلام ، فانه يجب قتله ولا يستتاب ، ويقسم ماله بين ورثته وتعتد منه زوجته عدة الوفاة من يوم إرتداده . والآخر من أسلم عن كفر

ثم ارتد فهذا يستتاب ، فان تاب وإلا وجب عليه القتل ، فان لحق بدار الحرب اعتدت منه زوجته عدة الطلاق ، فان رجع الى الاسلام في زمان العدة كان أملك بها ، وإن لم يرجع وانقضت العدة فقد ملكت نفسها ، ولا سبيل له عليها وإن رجع فيما بعد . وأما المرأة فانها تستتاب على كل حال ، فان تابت وإلا حبست حتى تموت . وفي ذلك خلاف قد بيناه في مسائل الخلاف ، فأما من يعتقد الجبر والتشبيه وأزلية صفات قديمة معه تعالى فهو كافر بلا خلاف بين أهل العدل . واختلفوا فمنهم من قال حكمه حكم المرتد يستتاب فان تاب وإلا قتل . ومنهم من قال يستتاب ولا يقتل لانه لم يخرج عن الملة لاقراره بالشهادتين .

وقوله « يجاهدون في سبيل الله » صفة للقوم الذين وعد الله أن يأتي بهم إن ارتدوا . وقوله « ولا يخافون لومة لائم » أي لا يخشون لوم أحد وعذله ولا يصدهم ذلك عن العمل بما أمرهم الله به وذلك اشارة الى هذا النعت الذي نعتهم به « ذلك فضل الله » أي ذلك فضل من الله وتيسر منه ولطف منه ، ومنة من جهته « والله واسع عليم » يعني جواد على من يجود به عليه لا يخاف نفاد ما عنده « عليم » بموضع جوده وعطائه ولا يبذله الا لمن تقتضي الحكمة إعطاؤه .

قوله تعالى :

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ٥٨ آية بلا خلاف

اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية فيه ، فروى أبو بكر الرازي في كتاب

أحكام القرآن على ما حكاه المغربي عنه ، والطبري ، والرماني ، ومجاهد ، والسدي : إنها نزلت في علي (ع) حين تصدق بخاتمه وهو راكع ، وهو قول ابي جعفر وابي عبدالله (ع) وجميع علماء أهل البيت . وقال الحسن والجبائي : انها نزلت في جميع المؤمنين . وقال قوم نزلت في عبادة بن الصامت في تبرئه من يهود بني قينقاع ، وحلفهم الى رسول الله والمؤمنين . وقال الكلبي نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه لما أسلموا فقطعت اليهود موالاتهم ، فنزلت الآية .

واعلم إن هذه الآية من الأدلة الواضحة على إمامة أمير المؤمنين (ع) بعد النبي بلا فصل .

ووجه الدلالة فيها أنه قد ثبت أن الوليّ في الآية بمعنى الأولى والأحق . وثبت أيضاً أن المعني بقوله «والذين آمنوا» أمير المؤمنين (ع) فاذا ثبت هذان الاصلان دل على إمامته ، لأن كل من قال : ان معنى الولي في الآية ما ذكرناه قال إنها خاصة فيه . ومن قال باختصاصها به (ع) قال المراد بها الامامة .

فان قيل دلوا أولا على ان الولي يستعمل في اللغة بمعنى الأولى والاحق ثم على ان المراد به في الآية ذلك ، ثم دلوا على توجهها الى أمير المؤمنين (ع) .

قلنا : الذي يدل على أن الولي يفيد الأولى قول أهل اللغة للسلطان المالك للأمر : فلان ولي الأمر قال الكميت :

ونعم ولي الأمر بعد وليه ومنتجع التقوى ونعم المؤدب

ويقولون : فلان ولي عهد المسلمين إذا استخلف للأمر لأنه أولى بمقام من قبله من غيره وقال النبي (ص) (أيما امرأة نكحت بغير اذن وليها فنكاحها باطل) يريد من هو أولى بالعقد عليها . وقال تعالى : « فهب لي من لدنك

ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب » (١) يعني من يكون أولى بحيازة ميراثي من بني العم . وقال المبرد : الولي والأولى والأحق والمولى بمعنى واحد والأمر فيما ذكرناه ظاهر ، فاما الذي يدل على أن المراد به في الآية ما ذكرناه هو ان الله تعالى نفى ان يكون لنا ولي غير الله وغير رسوله ، والذين آمنوا بلفظة « إنما » ولو كان المراد به الموالاة في الدين لما خص بها المذكورين ، لأن الموالاة في الدين عامة في المؤمنين كلهم . قال الله تعالى « والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » (٢) وإنما قلنا : أن لفظة (إنما) تفيد التخصيص ، لأن القائل ، إذا قال إنما لك عندي درهم فهم منه نفي ما زاد عليه ، وقام مقام قوله : ليس لك عندي إلا درهم . ولذلك يقولون انما النحاة المدققون البصريون ويريدون نفي التدقيق عن غيرهم . ومثله قولهم : إنما السخاء سخاء حاتم يريدون نفي السخاء عن غيره ، قال الاعشى :

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر (٣)

أراد نفي العزة عن من ليس بكاثر . واحتج الانصار بما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال (إنما الماء من الماء) في نفي الغسل من غير انزال . وادعى المهاجرون نسخ الخبر ، فلولا أن الفريقين فهموا التخصيص لما كان الأمر كذلك ولقالوا (إنما) لا تفيد الاختصاص بوجوب الماء من الماء . ويدل أيضاً على أن الولاية في الآية مختصة أنه قال : « وليكم » فخاطب به جميع المؤمنين ودخل فيه النبي (ص) وغيره ثم ، قال ورسوله ، فاخرج

(١) سورة مريم آية ٤ ــ ٥ ، (٢) سورة التوبة آية ٧٢ .

(٣) اللسان (كثر) والاكثر هنا والكاثر بمعنى العدد الكثير وليس هو للتفضيل .

النبي (ص) من جملتهم لكونهم مضافين الى ولايته ، فلما قال « والذين آمنوا » وجب أيضاً أن يكون الذي خوطب بالآية غير الذي جعلت له الولاية . وإلا أدى الى أن يكون المضاف هو المضاف اليه وأدى الى أن يكون كل واحد منهم ولي نفسه ، وذلك محال . واذا ثبت أن المراد بها في الآية ما ذكرناه ، فالذي يدل على أن أمير المؤمنين (ع) هو المخصوص بها أشياء :

منها ــ أن كل من قال : ان معنى الولي في الآية معنى الأحق قال إنه هو المخصوص به . ومن خالف في اختصاص الآية يجعل الآية عامة في المؤمنين وذلك قد ابطلناه .

ومنها ــ ان الطائفتين المختلفتين الشيعة وأصحاب الحديث رووا أن الآية نزلت فيه (عليه السلام) خاصة .

ومنها ــ أن الله تعالى وصف الذين آمنوا بصفات ليست حاصلة إلا فيه ، لأنه قال : « والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» فبين أن المعني بالآية هو الذي أتى الزكاة في حال الركوع . وأجمعت الأمة على أنه لم يؤت الزكاة في حال الركوع غير أمير المؤمنين (ع) ، وليس لأحد أن يقول : إن قوله « وهم راكعون » ليس هو حالاً لـ « يؤتون الزكاة » بل المراد به أن من صفتهم إيتاء الزكاة ، لأن ذلك خلاف لأهل العربية ، لأن القائل إذا قال لغيره لقيت فلانا ، وهو راكب لم يفهم منه الا لقاؤه له في حال الركوب ، ولم يفهم منه أن من شأنه الركوب ، واذا قال : رأيته وهو جالس أو جاءني وهو ماش لم يفهم من ذلك كله إلا موافقة رؤيته في حال الجلوس أو مجيئه ماشياً . واذا ثبت ذلك وجب أن يكون حكم الآية مثل ذلك .

فان قيل : ما انكرتم أن يكون الركوع المذكور في الآية المراد به

الخضوع كأنه قال يؤتون الزكاة خاضعين متواضعين كما قال الشاعر :

ولا تهين الفقير علك أن   تركع يوماً والدهر قد رفعه (١)

والمراد علك أن تخضع ، قلنا الركوع هو التطأطأ المخصوص ، وإنما يقال للخضوع ركوعاً تشبيهاً ومجازاً ، لأن فيه ضرباً من الانخفاض ، يدل على ما قلناه نص أهل اللغة عليه ، قال صاحب العين : كل شيء ينكب لوجهه فتمس ركبتيه الارض أولا تمس بعد أن يطأطيء رأسه فهو راكع قال لبيد :

أخبر أخبار القرون التي مضت   أدب كأني كلما قمت راكع (٢)

وقال ابن دريد : الراكع الذي يكبو على وجهه ، ومنه الركوع في الصلاة قال الشاعر :

وأفلت حاجب فوق العوالي   على شقاء تركع في الظراب (٣)

أي تكبوا على وجهها . وإذا كانت الحقيقة ما قلناه ، لم يجز حمل الآية على المجاز .

فان قيل قوله « الذين آمنوا » لفظ جمع كيف تحملون ذلك على الواحد ؟

قيل : قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع إذا كان معظماً عالي الذكر قال تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٣) وقال : « رب ارجعون »

---

(١) قائله الاضبط بن قريع الاسدي . وهو في اللسان (ركع) . وقد مر في موارد كثيرة من هذا الكتاب .

(٢) اللسان (ركع) وقد مر في ١/١٩٥ .

(٣) اللسان (ركع) وقد مر في ١/١٩٥ .

(٤) سورة الحجر آية ٩ .

وقال « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » [١] ونظائر ذلك كثيرة • وقال : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » [٢] ولا خلاف في أن المراد به واحد ، وهو نعيم بن مسعود الاشجعي • وقال : « أفيضوا من حيث أفاض الناس » [٣] والمراد رسول الله (ص) وقال « الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا » [٤] نزلت في عبدالله بن أبي ابن سلول •

فاذا ثبت استعمال ذلك كان قوله « الذين يقيمون الصلاة » محمولا على الواحد الذي قدمناه •

فان قيل : لو كانت الآية تفيد الامامة لوجب أن يكون ذلك إماماً في الحال ولجاز له أن يأمر وينهى ويقوم بما يقوم به الأئمة •

قلنا : من أصحابنا من قال : إنه كان إماماً في الحال ولكن لم يأمر لوجود النبي*(ص) وكان وجوده مانعاً من تصرفه ، فلما مضى النبي (ص) قام بما كان له • ومنهم من قال ـــ وهو الذي نعتمده ـــ أن الآية دلت على فرض طاعته واستحقاقه للامامة • وهذا كان حاصلا له • وأما التصرف فموقوف على ما بعد الوفاة كما يثبت استحقاق الأمر لولي العهد في حياة الامام الذي قبله وإن لم يجز له التصرف في حياته • وكذلك يثبت استحقاق الوصية للوصي وان منع من التصرف وجود الموصي • وكذلك القول في الأئمة وقد استوفينا الكلام على الآية في كتب الامامة بما لا يحتمل بسطه هاهنا •

فان قيل : أليس قد روي أنها نزلت في عبادة بن الصامت أو عبدالله بن سلام وأصحابه ؟ فما أنكرتم أن يكون المراد بالذين آمنوا هم دون من

(١) سورة ألم السجدة آية ١٣ • (٢) سورة آل عمران آية ١٧٢ •
(٣) سورة البقرة آية ١٩٩ • (٤) سورة آل عمران آية ١٦٨ •

ذهبتم اليه ؟

قلنا : أول ما نقوله : إنا دللنا على أن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين (ع) بنقل الطائفتين ، ولما اعتبرناه من اعتبار الصفة المذكورة في الآية وأنها ليست حاصلة في غيره بطل ما يروى في خلاف ذلك ، على أن الذي روي في الخبر من نزولها في عبادة بن الصامت لا ينافي ما قلناه ، لأن عبادة لما تبرأ من حلف اليهود أعطي ولاية من تضمنته الآية ، فأما ما روي من خبر عبدالله بن سلام فبخلاف ما ذهبوا اليه ، لأنه روي أن عبدالله بن سلام لما اسلم قطعت اليهود حلفه وتبرؤوا منه فاشتد ذلك عليه ، وعلى أصحابه فأنزل الله تعالى الآية تسلية لعبدالله ابن سلام وأصحابه وأنه قد عوضهم من محالفة اليهود ، ولاية الله وولاية رسوله وولاية الذين آمنوا . والذي يكشف عما قلناه أنه قد روي أنها لما نزلت خرج النبي (ص) من البيت ، فقال لبعض أصحابه (هل أعطى أحد سائلاً شيئاً فقالوا : نعم يا رسول الله قد أعطى علي بن أبي طالب السائل خاتمه ، وهو راكع . فقال النبي (ص) الله أكبر قد أنزل الله فيه قرآناً) ثم تلا الآية الى آخرها . وفي ذلك بطلان ما قالوه . وقد استوفينا ما يتعلق بالشبهات المذكورة في الآية في كتاب الاستيفاء وحللناها بغاية ما يمكن ، فمن أراده وقف عليه من هناك . فأما الولي بمعنى الناصر فلسنا ندفعه في اللغة لكن لا يجوز أن يكون مراداً في الآية لما بيناه من نفي الاختصاص .

وإقامة الصلاة إتمامها بجميع فروضها من قولهم فلان قائم بعمله الذي وليه أي يوفي العمل جميع حقوقه ، ومنه قوام الآمر . وفي الآية دلالة على أن العمل القليل لا يفسد الصلاة .

قولــه تعــالى :
﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّى ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴾ (٥٩) آية

قيل في معنى قوله « ومن يتولى الله ورسوله » قولان :

أحدهما ــ قال أبو علي من يتولى القيام بطاعة الله ورسوله ونصرة المؤمنين .

الثاني ــ من يكون ولياً لله ورسوله والمؤمنين : بنصرة دين الله والاخلاص له . ولا يدل ذلك على أن الولاية الأولى هي تولي النصرة من حيث كان في هذه الآية كذلك ، لأنه لا تنافي بين أن تفيد الآية الاولى الطاعة وإن أفادت الثانية تولى النصرة وليس يجب أن تحمل الثانية على الآية الاولى من غير ضرورة .

على أن في أصحابنا من قال : هذه الآية مطابقة للأولى وأنها تفيد وجوب طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة الذين آمنوا ، وهم الذين ذكرهم الله في الآية فعلى هذا زالت الشبهة .

و «من» رفع بالابتداء . والجملة خبر عنه وفي «يتولى» ضمير يعود الى (من) والعائد الى « من » معنى الخبر ، كأنه قال ، فهو غالب وصار هذا الكلام في موضعه ، وهذا العائد في موضع الجواب . ومعنى « من » في الجزاء معنى « إن » فلهذا جزمت الفعل المضارع ، و « لو » لا تجزم لانها للماضي ، وليست بمعنى « إن » وإنما يعرب الفعل المضارع دون الماضي . والفرق بين « من » و « الذي » من ثلاثة أوجه أحدها ــ أن « من » لما يعقل

و « الذي » مشتركة • و « من » في الجزاء لما يستقبل ، وهي في معنى « إن » وليس كذلك « الذي » وثالثها ــ أن « من » تجزم ولا تحتاج في الجزاء والاستفهام الى صلة ولا يكون جوابها إلا بالفعل والفاء •

وقوله : « فان حزب الله هم الغالبون » قال الحسن حزب الله جند الله • وقال غيره انصار الله قال الشاعرة :

وكيف أضوى وبلال حزبي [١]

أي كيف استضام وبلال ناصري • وأصله النائبة من قولهم : حزبه الأمر يحزبه حزباً اذ أنابه ، وكل قوم تشابهت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب • ومنه قوله « اولئك الاحزاب » [٢] « وكل حزب بما لديهم فرحون » [٣] • و « إن حزب الشيطان هم الخاسرون » وتحزب القوم اذا اجتمعوا كالاجتماع على النائبة • وأرض حزبة غليظة وحمار حزابية مجتمع الخلق غليظ •

---

(١) قائلة رؤبة بن العجاج • ديوانه : ١٦ ، ومجاز القرآن ١ : ١٦٩ من ارجوزة يمدح بها بلال بن ابي بردة وقد ذكر نفسه ثم اعترض من يعترضه في الهجاء فقال :

ذاك وان عبى لي المعجبى وطحطح الجد لحاء القشب
القيت أقوال الرجال الكذب وكيف اضوى وبلال حزبي

ورواية الديوان « ولست اضوى » • (طحطح الشيء) : فرقه • و (اللحاء) : المخاصمة و (القشب) ــ بفتح القاف وسكون الشين ــ الكلام المفترى • (٢) سورة ص آية ١٣ •

(٣) سورة المؤمنون آية ٥٤ وسورة الروم آية ٣٢ •

قولـه تعـالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٠) آية

قرأ « والكفار » بالجر أبو عمرو ، ونافع ، والكسائي • والباقون بالنصب ، فمن نصب عطف على « الذين اتخذوا دينكم » وحجتهم في ذلك قوله : « لا يتخذوا المؤمنون الكافرين أولياء » • ومن جر عطف على « من الذين اوتوا الكتاب » أي ومن الكفار أولياء وحجتهم في ذلك أن الحمل على أقرب العاملين أجود ، لانها لغة القرآن وحسن الحمل على الجر ، لان فرق الكفار ثلاث المشرك • والمنافق • والكتابي الذي لم يسلم وقد كان منهم الهزء فساغ لذلك أن يكون الكفار مجروراً وتفسيراً للموصول وموضحاً له • وقد أخبر الله تعالى أن المشركين كان منهم إستهزاء بقولـه « إنا كفيناك المستهزئين » (١) وعن المنافقين في قوله : « واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم إنما نحن مستهزؤن » (٢) واخبر عن الكتابي في هذه الآية • فقال «لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار » وإن وقع على جميع الأصناف ، فهو في من ليس من أهل الكتاب أليق ، وعليه أغلب ، فلذلك أفرد بالذكر • وقال الحسن : المعنى بالكفـار مشركوا العرب ، وإنما دخل غيرهم في الحكم بما صحب الكلام من الدليل

(١) سورة المجادلة آية ١٩ • (٢) سورة البقرة آية ١٤ •

وقال غيره : يدخل فيه جميع أصناف الكفار ، وانما وصفهم الله تعالى بما كانوا عليه من التلاعب بالدين لامرين :

أحدهما — لاغراء المؤمنين بعداوتهم والبراءة منهم .

الثاني — ذماً لهم وتحذيراً من مثل حالهم لأنها حال السفهاء الذين لا خلاق لهم . وقال ابن عباس : كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الاسلام ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما ، فانزل الله هذه الآية ويجوز في « هزواً » أربعة أوجه : الاول «هزؤاً» بضم الزاي وتخفيف الهمزة ، الثاني هزواً بالواو ومن غير همز على التخفيف لأن الهمزة مفتوحة قبلها ضمة كجون ، الثالث هزأ بسكون الزاي والهمز . الرابع هزى على وزن هدى بفتح الزاي واسقاط الهمزة . والهزء السخرية وهو اظهار ما يلهي تعجباً مما يجري . قال الله تعالى : « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن »[1] وقال الشاعر :

ألا هزئت واعجبها المشيب فلا نكر لديك ولا عجيب

ويقال هزىء به يهزأ هزواً وهزؤا واستهزؤا به استهزاءاً . و (اللعب) الأخذ على غير طريق الحق ، ومثله العبث وأصله من لعاب الصبي يقال : لعب يلعب لعباً اذا سال لعابه لانه يخرج الى غير جهته وكذلك اللاعب يمر في غير جهة الصواب .

وقوله : « ان كنتم مؤمنين » : قيل في معناه قولان :

أحدهما — ان كنتم مؤمنين بوعده ووعيده .

الثاني — إن من كان مؤمناً غضب لايمانه على من طعن فيه . وكافاه

(١) سورة الانعام آية ١٠ وسورة الانبياء آية ٤١ .

بما يستحقه من المقت له •

قوله تعالى :

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٦١) آية بلا خلاف

النداء والدعاء بمد الصوت على طريقة يافلان وأصله ندى الصوت وهو بعد مذهبه وضجة جرمه • ومنه قولهم : أناديك ولا أناجيك أي أعالنك النداء ، ولا أسر لك النجوى ، وأصل الباب الندو ، وهو الاجتماع يقال ندى القوم يندون ندواً اذا اجتمعوا في النادي ، ومنه دار الندوة وندى الماء ، لانه يجتمع قليلا قليلا وندى الصوت لانه عن جرم ندي •

أخبر الله تعالى عن صفة الكفار الذين نهى الله المؤمنين عن اتخاذهم أولياء بانهم اذا نادى المؤمنون الى الصلاة ودعوا اليها اتخذوها هزواً ولعباً وفي معنى ذلك قولان :

قال قوم : إنهم كانوا اذا أذن المؤمنون للصلاة تضاحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السخف والجنون تجهيلا لاهلها ، وتنفيراً للناس عنها ، وعن الداعي اليها •

الثاني ــ أنهم كانوا يرون المنادي اليها بمنزلة اللاعب الهازىء بفعلها جهلا منهم بمنزلها وقال أبو ذهيل الجمحي :

وابرزتها من بطن مكة بعدما أصات المنادي بالصلاة فأعتما

وقوله تعالى : « بأنهم قوم لا يعقلون » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ انهم لا يعقلون مالهم في اجابتهم لو أجابوا اليها من الثواب،

وما عليهم في استهزائهم بها من العقاب .

الثاني ـ انهم بمنزلة من لا عقل له يمنعه من القبائح ويردعه عن الفواحش وقال السدي : كان رجل من النصارى بالمدينة فسمع المؤذن ينادي أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله (ص) قال : حرق الكاذب فدخلت خادمة له ليلة بنار وهو نائم وأهله فسقطت شرارة فأحرق البيت واحترق هو وأهله .

قوله تعالى :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٦٢) آية واحدة

أمر الله تعالى نبيه (ص) أن يخاطب أهل الكتاب فيقول لهم « هل تنقمون منا » وقيل في معناه ثلاثة أقوال : أحدها هل تسخطون . الثاني هل تنكرون . والثالث هل تكرهون ، والمعنى متقارب يقول نقم ينقم نقماً ونقم ينقم والاول اكثر قال عبدالله بن قيس الرقيات :

مانقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا (١)

قال ابن عباس : أتى رسول الله (ص) نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع ابن أبي رافع وغيره ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل ، فقال

---

(١) ديوانه : ٧٠ ومجاز القرآن ١ : ١٧٠ واللسان (نقم) من قصيدته التي قالها لعبد الملك بن مروان في خبر ذكره ابو الفرج الاصفهاني في الاغاني ٥ : ٧٦ ـ ٨٠ .

أؤمن « بالله وما أنزل الينــا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيــل ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٢) فلما ذكر عيسى جحدوانبوته ، وقالوا: لا نؤمن به وبمن آمن به ، فانزل الله هذه الآية .

وقوله « وإن اكثركم فاسقون » في موضع نصب ، لانه مصــدر في تقدير بان اكثركم ، ولو استأنفه كان صواباً لكن لم يقرأ به . وقيل في معناه ثلاثة أقوال :

قال الزجاج والفراء هل تكرهون منا إلا ايماننا وفسقكم ، والمعنى ليس هذا مما ينقم .

الثاني ــ قال الحسن : لفسقكم نقمتم ذلك علينا .

الثالث ــ قال أبو علي : نقموافسق اكثرهم ، لانهم لم يتابعوهم عليه. فان قيل كيف قال : « وان اكثركم فاسقون » وهم جميعاً فساق ؟ قلنا عنه ثلاثة اجوبة :

أحدها أنهم خارجون عن أمر الله طلباً للرئاسة وحسداً على منزلة النبوة .

الثاني ــ فاسقون بركوب الاهواء . الثالث ــ على التلطف للاستدعاء.

ومعنى الآية هل تكرهون إلا ايماننا وفسقكم أي انما كرهتم ايماننــا وانتم تعلمون أنا على حق ، لانكم فسقتم بأن اقمتم على دينكم لمحبتــكم الرئاسة وتكسبكم بها الاموال .

فان قيل كيف يعلم عاقل أن دينا مــن الاديان حق فيؤثر الباطل على على الحق ؟!

---

(٢) سورة البقرة آية ١٣٦ .

قلنا : أكثر ما نشاهده كذلك ، من ذلك أن الانسان يعلم ان القتل يورده النار ، فيقتل إما إيثاراً لشفاء غيظ أو لاخذ مال . وكما فعل ابليس مع علمه بأن الله يدخله النار بمعصيته فآثر هواه على القربة من الله وعمل لما يدخله النار . وهذا ظاهر في العادات .

قوله تعالى :

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ ٱللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ (٦٣)

قرأ حمزة « وعبد الطاغوت » بضم الباء وخفض التاء يريد خدم الطاغوت في قول الاعمش ، ويحيى بن رئاب . الباقون بفتح الباء والدال ونصب التاء

قال أبو علي : حجة حمزة أنه حمل على ما عمل فيه (جعل) كأنه قال وجعل منهم من عبد الطاغوت . ومعنى (جعل) خلق ، كما قال « وجعل منها زوجها » (١) وقال « وجعل الظلمات والنور » (٢) قال : وليس (عبد) لفظ جمع لانه ليس في أبنية الجمع شيء على هذا البناء لكنه واحد في موضع جمع كما قال « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (٣) وجاء على (فعل) لأن هذا البناء يراد به الكثرة نحو يقظ وندس و (عبد) في الاصل صفة ، وان

(١) سورة الاعراف آية ١٨٨ . (٢) سورة الانعام آية ١ .
(٣) سورة الرعد آية ٣٤ وسورة النحل آية ١٨ .

كان استعمل استعمال الاسماء ، ولا يزيل ذلك عنه كونه صفة كما لم يزل في الأبرق والأبطح حيث كسر تكسير الاسماء لم يزل عنهما معنى الصفة بدلالة أنهم تركوا صرفهما كما تركوا صرف (أحمر) ولم يجعلوه كأوكل وابدع .

وأما من فتح فانه عطفه على مثال الماضي الذي في الصلة ، وهو قوله « لعنه الله وغضب عليه » وأفرد الضمير في (عبد) وان كان المعنى فيه كثرة لأن الكلام محمول على لفظ (من) دون معناه ، ولو حمل الكلام أو البعض على المعنى لكان صواباً قال الفراء : وقرأ أبي وعبدالله « وعبد الطاغوت » على الجمع ، والمعنى والذين عبد الطاغوت ــ بضم العين والباء ــ مثل ثمار وثمر ، وعبيد وعبد ، على أنه جمع جمع ، ويكون المعنى وجعل منهم عبد الطاغوت كما تقول : جعلت زيداً أخاك أي نسبته اليك ويجوز على هذا رفع الدال على تقدير ، وهم عبد الطاغوت لكن لم يقرأ به أحد . قال : ولو قرأ قارىءوعبد الطاغوت كان صواباً يريد به عبدة الطاغوت ويحذف الهاء للاضافة كما قال الشاعر :

قام ولاها فسقوه صر خدا (٢)

يريد ولاتها وحكي في الشواذ و (عبد الطاغوت) على مالم يسمي فاعله ، ذكره الرماني . قال الطبري هي قراءة أبي جعفر المدني . وحكى البلخي (عابد الطاغوت ، وعبد الطاغوت) مثل شاهد وشهد . وحكى أيضا (عباد الطاغوت) مثل كافر وكفار ، ولا يقرأ بشيء من ذلك . وقال الطبري

(٢) معاني القرآن للفراء ١ : ٣١٤ . والطبري ١ : ٤٤١ (صرخد) موضع في الشام تنسب له الخمرة الجيدة .

عن بريدة الاسلمي انه قرأ (عابد الطاغوت) فهذه ثمانية أوجه ، لكن لا يقرأ إلا بقرائتين أو ثلاثة ، لان القراءة متبوعة يؤخذ بالمجموع عليه ، قال الفراء (عبد) على ما قرأ حمزة إن كانت لغة فهو مثل حذر وحذر ، وعجل وعجل فهو وجه والا فانه أراد قول الشاعر :

أبنى لبيني إن أمــكم ... أمة وإن أباءكم عبد [١]

فحرك وهذا في ضرورة الشعر لا في القراءة وأنشد الاخفش :

أنسب العبـد الى آبائه ... أسود الجلدة من قوم عبد [٢]

أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه (ص) أن يخاطب الكفار ويقول لهم « هل انبئكم » أي هل اخبركم « بشر من ذلك » أي من الذي طعنتم عليه من المسلمين ، ومما رغبتم عنه ونقمتم عليه ، وانما قال « بشـر من ذلك » وان لم يكن من المؤمن شرّ وكذلك قوله « اولئك شر مكانا » على الانصاف في الخطاب والمظاهرة في الحجاج لأن الكفار يعتقدون ان هؤلاء أشرار ، وأن ما فيهم شر فخرج على ما يعتقدونه .

وقوله : « مثوبة » معناها الثواب الذي هو الجزاء ووزنها مفولة مثل مقولة ومجوزة ومضوفة على معنى المصدر وقال الشاعر :

وكنت اذا جاري دعا لمضوفة ... أشمر حتى ينصف الساق مئزري [٣]

---

(١) قائله اوس بن حجر . ديوانه القصيدة : ٥ البيت ٤ ومعـاني القرآن للفراء ١ : ٣١٤ ، ٣١٥ واللسان (عبد) .

(٢) اللسان (عبد) .

(٣) قائله ابو جندب الهذلي . اشعار الهذليين ٣ : ٩٢ ومجاز القرآن لابي عبيدة ١٧٠ واللسان (ضيف) ، (نصف) . المضيفة ، والمضافة: الامر يشفق منه وقد روي البيت بهما جميعاً .

وقال ابو عبيدة هي (مفعلة) مثل مكرهة ومعقلة ومشغلة .

وموضع (من) يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب : أحدها ــ الجر والتقدير بشر من ذلك لمن لعنه الله والرفع على من لعنه الله ، والنصب على أنبئكم من لعنه الله . وقيل في معنى (الطاغوت) قولان :

أحدهما ــ قال الحسن : هو الشيطان ، لانهم أطاعوه طاعة المعبود .

والثاني ــ كل ما دعا الى عبادته من دون الله من الفراعنة ، فشبه به ما عبد من الاصنام ونحوها . قال ابو علي : وهو هاهنا العجل الذي عبدته اليهود ، لأن الكلام كله في صفتهم .

وقوله (أولئك شر مكاناً) يعني هؤلاء الذين وصفهم بأنهم لعنهم وغضب عليهم ، وانهم عبدة الطاغوت شر مكانا يعني في عاجل الدنيا وآجل الآخرة . وهو نصب على التمييز وقوله « وأضل عن سواء السبيل » يعني أجوز عن الطريق المستقيم . وظن بعضهم ان قوله (وجعل منهم القردة جعلهم كذلك والخنازير وعبد الطاغوت) يفيد أنه جعلهم يعبدون الطاغوت ــ يتعالى الله عن ذلك ــ لأنه لو كان جعلهم كذلك لما كان عليهم لوم ، وانما المعنى ما قلناه : من أنه اخبر عمن هو شر ممن عابوه ، وهم الذين لعنهم وغضب عليهم ، ومن جعل منهم القردة والخنازير ، ومن عبد الطاغوت ، لأنه تعالى هو الخالق لهم ، وان كان لم يخلق عبادتهم للطاغوت . وقال ابو علي : هو معطوف على قوله «من لعنه الله وغضب عليه » ومن « عبد الطاغوت » ومن جعل منهم القردة والخنازير وليس بمعطوف على قوله (وجعل منهم القردة والخنازير) فعلى هذا سقطت الشبهة .

قولـه تعـالى :

وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦٤) آية بلا خلاف

آخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين بانهم اذا جاؤا المؤمنين (قالوا آمنا) أي صدقنا (وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) قيل فيه قولان :

أحدهما ــ قال الحسن وابن عباس والسدي وقتادة وأبو علي : وقد دخلوا بالكفر بخلاف ما أظهروه على النبي (ص) وخرجوا به من عنده.

الثاني ــ وقد دخلوا به في احوالهم وقد خرجوا به الى احوال أخر كقولك هو يتقلب في الكفر ويتصرف به ، ومعناه تقريب الماضي من الحال ولهذا دخلت (في) هذا الموضوع . وقال الخليل : ويكون لقوم ينتظرون الخبر كقولك قد ركب الأمير لمن كان ينتظره ، وهو راجع الى ذلك الاصل لانه تقريب من الحال المنتظرة وأصل الدخول الانتقال الى محيط كالوعاء إلا أنه قد كثر حتى قيل دخل في هذا الامر ، ولا يدخل في المعنى ما ليس منه . ودخل في الاسلام . وخرج بالردة منه . وكان ذلك مجاز . وقوله : (جاؤكم) لا يجوز ان يكون عاملاً في « اذا » كما يعمل في « متى » لو قيل: متى جاؤكم ، قالوا آمنا ، لان « اذا » مضافة الى ما بعدها والمضاف اليه لا يعمل في المضاف لانه من تمامه . وليس كذلك « متى »لانها جزاء .

وقوله « والله اعلم بما كانوا يكتمون » معناه ما يكتمونه من نفاقهم اذ اظهروا بألسنتهم ما اضمروا خلافه في قلوبهم فبين الله للناس أمرهم .

قولــه تعــالى :

وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٥) آية بلا خلاف

وصف الله تعالى المنافقين الذين تقدم وصفهم لنبيه (ص) بأنه « ترى كثيراً منهم يسارعون » أي يبادرون في الاثم والعدوان •

قال السدي : الاثم الكفر ، وقال غيره وهو يقع على كل معصية وهو الاولى • والفرق بين الاثم والعدوان أن الاثم الجرم كائنا ما كان ،والعدوان الظلم ، فهم يسارعون في ظلم الناس وفي الجرم الذي يعود عليهم بالوبال والخسران • وقيل ــ العدوان من عدوهم على الناس بما لايحل • وقيل ــ لمجاوزتهم حدود المجاوزتهم حدود الله وتعديتهم اياها • ويقال تأثم اذا تحرج من الاثم • والآثم الفاعل للاثم • والسحت الرشوة في الحكم ــ في قول الحسن ــ وأصله استئصال القطع فيكون من هــذا لانه يقتضي عــذاب الاستئصال ويتكرر لانه يقتضي استئصال المال بالذهاب •

وانما قال « يسارعون » بدل قوله (يعجلون) وان كانت العجلة أدل على الذم لامرين :

أحدهما ــ أنهم يبادرون اليه كالمبادرة الى الحق ، فأفاد « يسارعون » أنهم يعملونه كأنهم محقون فيه •

والآخر ــ لازالة إيهام أن الذم من جهة العجلة • وايجابه في الاثــم والعــدوان •

وقوله « لبئس ما كانوا يعملون » يدل على أن الحمد والذم يكونان

للافعال ، لانه بمنزلة بئس العمل عملهم ، وهذا ذم لذلك العمل إلا انه جرى على طريقة الحقيقة أو طريقة المجاز بدليل آخر يعلم . وقد كثر استعماله حتى قيل الاخلاق المحمودة والاخلاق المذمومة . ونعم ما صنعت وبئس ماصنعت وأصل الذم واللوم واحد إلا أن الذم كثر في نفس العمل دون اللوم ،لانه لا يقال : لمت عمله كما يقال ذممت عمله . و (ما) في قوله « لبئس ما» يحتمل أمرين : أحدهما ــ ان تكون كافة كما تكون في انما زيد منطلق وليتما عمرو قائم ، فلا يكون لها على هذا موضع . الثاني ان تكون نكرة موصوفة كأنه قيل : لبئس شيئاً كانوا يعملون .

قوله تعالى :

لَوْلاَ يَنْهَٰهُمُ ٱلرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ٦٦) آية

معنى « لولا » هاهنا هلا . واصلها ان يمتنع الشيء لوجود غيره . (لو) معناها امتناع الشيء لامتناع غيره . وقال الرماني أصلها التقدير لوجوب الشيء عن الاول فنقلت الى التحضيض على فعل الثاني من أجل الاول . وان لم يذكر ولابد معها من دلالة دخلها معنى : لم لا يفعل .

فان قيل كيف تدخل (لولا) على الماضي وهي للتحضيض وفي التحضيض معنى الامر ؟!

قيل : لانها تدخل للتحضيض والتوبيخ ، فاذا كانت مع الماضي فهي توبيخ كقوله تعالى « لولا جاؤا عليه باربعة شهداء » (١) وقوله « ولولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيراً » (٢) .

(١ ، ٢) سورة ٢٤ النور آية ١٢ ــ ١٣

و « الرباني » العالم بالدين الذي من قبل الرب ، وهو منسوب الى الرب على وجه تغيير الاسم ، كما قالوا روحاني في النسبة الى الروح ، وبحراني في النسبة الى البحر . وقال الحسن « الربانيون » علماء أهل الانجيل والاحبار علماء أهل التوراة . وقال غيره كله في اليهود ، لانه يتصل بذكرهم .

وقوله : « لبئس ما » اللام فيه لام القسم ولا يجوز أن تكون لام الابتداء ، لانها لا تدخل على الفعل الا في باب « أن » خاصة لانها زحلقت عن الاسم الى الخبر لئلا يجمع بين حرفين في موضع واحد بمعنى واحد والصنع والعمل واحد . وقيل الفرق بينهما أن الصنع مضمن بالجودة من قولهم : ثوب صنيع ، وفلان صنيعة فلان اذا استخلصه الى غيره وصنع الله لفلان أي احسن اليه وكل ذلك كالفعل الجيد .

قوله تعالى :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ ٱللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَٱللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ٦٧ ، آية

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن اليهود انها قالت : إن «يد اللهمغلولة» وقيل في معنى (مغلولة) قولان : أحدهما قال أبن عباس وقتادة،والضحاك: إن المراد بذلك أنها مقبوضة من العطاء على وجه الصفة له بالبخل كما قال تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط» (١) وانما قالوا ذلك لما نزل قوله « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » (٢) قالوا : إن رب محمد فقير يستقرض منا فأنزل الله هذه الآية •

الثاني ــ قال الحسن معناه انها مقبوضة عن عذابنا •

وقال البلخي يجوز ان يكون اليهود ، قالوا قولا واعتقدوا مذهباًمعناه يؤدي الى ان الله يبخل في حال ويجود في حال أخرى ، فحكى الله تعالى ذلك على وجه التعجب منهم والتكذيب لهــم • ويجوز أن يكون ذلك على وجه التعجب منهم والتكذيب لهم • ويجوز ان يكونوا قالوا ذلكعلى وجه الهزء حيث لم يوسّع على النبي (ص) وعلى أصحابه • وليس ينبغي أن يتعجب من قوم يقولون لموسى : « إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » ومن اتخذ العجل إلهاً ، ومن زعم أن ربه أبيض الرأس واللحية جالس على كرسي ، كيف يقولون إن الله يبخل مرة ويجود اخرى • وقال الحسين بن علي المغربي حدثني بعض اليهود الثقات منهم بمصر ان طائفة قديمة من اليهود قالت ذلك بهذا اللفظ •

وأما اليد فانها تستعمل على خمسة أوجه : أحدها ــ الجارحة • والثاني ــ النعمة • الثالث ــ القوة • الرابع ــ الملك • الخامس ــ تحقيق إضافة الفعل ،

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٢٩ •

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥ وسورة ٥٧ الحديد آية ١١ •

قال الله تعالى « أولي الأيدي والأبصار »[1] معناه القوى ويقال لفلان على فلان يد أي نعمة وله علي يد أشكرها أي نعمة . وقال الشاعر :

له في ذوي الحاجات أيد كأنها مواقع ماء المزن في البلد القفر

ومثل ذلك يقولون له عليه صنع حسنة . وقوله « الذي بيده عقدة النكاح »[2] معناه من يملك ذلك وقوله « لما خلقت بيدي »[3] أي توليت خلقه . وقوله « غلت أيدهم » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ قال الزجاج وغيره معناه الزموا البخل على مطابقة الكلام الأول فهم أبخل الناس .

الثاني ــ قال الحسن وأبو علي « غلت أيديهم » في جهنم .

وقوله « ولعنوا بما قالوا » أي أبعدوا من رحمة الله وثوابه . وقوله « بل يداه مبسوطتان » تكذيب منه تعالى لما قالوا وإخبار أن يديه مبسوطتان أي نعمه مبسوطة . وقيل في وجه تثنية اليد ثلاثة أقوال :

أحدها ــ أنه أراد نعمة الدنيا ونعمة الدين أو نعمة الدنيا ونعمة الآخرة .

الثاني ــ قال الحسن معناه قوتاه بالثواب والعقاب والغفران والعذاب بخلاف قول اليهود إن يده مقبوضة عن عذابنا .

الثالث ــ أن التثنية للمبالغة في صفة النعمة مثل قولهم : لبيك وسعديك ، وكما يقول القائل : بسط يديه يعطي يمنة ويسرة ولا يريدون الجارحة وإنما يريدون كثرة العطية وقال الاعشى :

---

(١) سورة ص آية ٤٥ . (٢) سورة البقرة آية ٢٣٧ .

(٣) سورة ص آية ٧٥ .

يداك يدا مجد فكف مفيدة وكف إذا ما ضن بالزاد تنفق[١]

وقوله تعالى « ينفق كيف يشاء » معناه يعطي من شاء من عباده ويمنع من شاء منهم ، لأنه متفضل بذلك ويفعل حسب ما تقتضيه المصلحة .

وقوله « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً » أي وسيزدادون عند ذلك طغياناً وكفراً لأن القرآن لا يفعل شيئاً من ذلك ، كما يقول القائل : وعظتك فكانت موعظتي وبالاً عليك . وما زادتك إلا شراً أي انك ازددت عندها شراً . وذلك مشهور في الاستعمال . والطغيان هنا هو الغلو في الكفر .

وقوله « والقينا بينهم العداوة والبغضاء » قيل فيه قولان :

أحدهما ــ إن المراد بذلك بين اليهود والنصارى على ما قلناه في قوله « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء »[٢] هذا قول الحسن ومجاهد . وقد جرى ذكرهم في قوله « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء »[٣] .

الثاني ــ ان الكناية راجعة على اليهود خاصة . والمراد ما وقع بينهم من الخلاف بين الاشمعينية والعنانية وغيرهم من طوائف اليهود ذكره الرماني .

وبماذا القي بينهم العداوة والبغضاء ؟ قيل فيه قولان :

أحدهما ــ قال أبو علي بتعريف اليهود قبح مذهب النصارى في عبادة المسيح وبتعريف النصارى قبح مذهب اليهود في الكفر بالمسيح .

الثاني ــ قال الرماني بوضع البغضاء عقاباً على الاختلاف بالباطل .

وقوله « الى يوم القيامة » فيه دلالة على أنهم لا يجتمعون على مذهب

(١) ديوانه : ١٥٠ (٢) سورة المائدة آية ١٥ .

(٣) سورة المائدة آية ٥٤ .

واحد الى يوم القيامة . ولابد أن يكون ذلك مختصاً بمن يعلم الله من حالهم انهم لا يؤمنون .

وقوله « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ قال الحسن ومجاهد : لحرب محمد (ص) وفي ذلك دلالة ومعجزة ، لأن الله أخبر عن الغيب وكان كما أخبر ، لأن اليهود كانت أشد أهل الحجاز بأساً وأمنعهم داراً حتى أن قريشاً كانت تعتضد بهم والأوس والخزرج تستبق الى محالفتهم والتكثر بنصرتهم ، فأباد الله خضراءهم واقتلع أصلهم فأجلى النبي (ص) بني قينقاع وبني النضير ، وقتل بني قريظة وشرد أهل خيبر وغلب على فدك ودان لــه أهل وادي القرى . فمحى الله آثارهم صاغرين وحقق بخبر نبيه (ص) . وهذه كلمة مستعملة في اللغة في التشاغل بالحرب والاستعداد لها . قال عوف ابن عطية :

إذا ما اجتنينا جنا منهل شببنا لحرب بعليــاء نارا

الثاني ــ قال قتادة : هو عام . والمعنى إن الله أذلهم بذلك لا يغزون أبداً وإنما يطفىء الله بلطفه نار حربهم وما يوقي نبيه (ص) من نقض ما يبرمون . وما يطلعه عليه من أسرارهم ويمن به عليه من النصر والتأييد ، ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود « يسعون في الارض فساداً » يعني بمعصية الله وتكذيب رسله ومخالفة أمره ونهيه ، واجتهادهم في دفع الاسلام ومحو ذكر النبي (ص) من كتبهم ، وذلك هو سعيهم بالفساد ، ثم قال « والله لا يحب المفسدين » يعني لا يحب من كان عاملاً بمعاصيه في أرضه .

قولــه تعــالى : -

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ

سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ (٦٨) آية

قد بينا أن معنى (لو) امتناع الشيء لامتناع غيره . وقال الرماني معناه وجوب المعنى الثاني ، بالأول على جهة التقدير بطريقة لو كان كذا لكان كذا ، فان قطع الأول قطع الثاني بطريقه كقولك وقد كان كذا وكذا ، وقد كان كذا وما كان كذا ، فما كان كذا فنحوه . وما كفَّرنا عنهم سيئاتهم فما آمنوا واتقوا . والفرق بين (لو) و (إن) — مع أن كل واحدة منهما تعلق المعنى الأول — أن « لو » للماضي و « ان » للمستقبل كقولك : ان أتيتني أكرمتك . ولواتيتني لاكرمتك ، فيقدر الاكرام بالاتيان في الماضي . وفي « إن » وعد وليس في « لو » ذلك .

أخبر الله تعالى أن هؤلاء اليهود والكفار لو آمنوا واتقوا معاصيه لكفر عنهم سيئاتهم أي غطاها عليهم وأزال عقابها عنهم وأثابهم على إيمانهم وتقواهم .

« ولأدخلناهم جنات النعيم » اللام لام القسم وأصل التكفير التغطية . ومنه يكفر في السلاح قال الشاعر :

في ليلة كفر النجوم غمامها (١)

وقوله « ولأدخلناهم جنات النعيم » وان كان على لفظ الماضي فالمراد به الاستقبال وإنما كان كذلك ، لانه قدر تقدير الماضي كما قال « ولو ردوا لعادوا » وذلك يدل على أن « لو » أوسع من « ان » .

قوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم

(١) قد مر في ١ : ٦٠ منسوب الى لبيد .

مِن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٩) آية

قد بينا معنى (لو) فيما مضى وإنما فتحت (أنهم) بعدها لأن هذا موضع قد خالف الابتداء بأنه بالفعل أولى فصار بمنزلة العامل الذي يختص بالفعل دون الاسم أو الاسم دون الفعل يبين ذلك امتناع اللام من الدخول على الخبر في (لو) وليس كذلك (حتى) و (الا) • ومعنى « أقاموا التوراة والانجيل » علموا بما فيهما على ما فيهما دون أن يحرفوا شيئاً منهما أو يغيروا أو يبدلوا كما كانوا يفعلون ويحتمل أن يكون معناه بما فيهما بأن أقاموهما نصب أعينهم لئلا يزلوا في شيء من حدودهما •

وقوله « وما أنزل اليهم من ربهم » يحتمل أمرين :

أحدهما ــ قال ابن عباس وأبو علي وغيرهما : المراد به الفرقان •

الثاني ــ قال قوم : كل ما دل الله عليه من امور الدين • وقوله « لاكلوا من فوقهم » بارسال السماء عليهم مدراراً « ومن تحت أرجلهم » باعطاء الأرض خيرها وبركتها وقال قوم « من فوقهم » ثمار النخل والأشجار « ومن تحت أرجلهم » الزرع • والمعنى لو آمنوا لأقاموا في أوطانهم ، وأموالهم وزروعهم ، ولم يجلوا عن بلادهم ، ففي ذلك التأسيف لهم على ما فاتهم والاعتداد بسعة ما كانوا فيه من نعمة الله عليهم ، وهو جواب التبخيل في قولهم « يد الله مغلولة » [١] •

الثاني ــ ان المعنى فيه التوسعة ، كما يقال : هو في الخير من قرنه الى

(١) سورة المائدة آية ٦٧ •

قدمه أي يأتيه الخير من كل جهة يلتمسه منها . واختار الطبري الوجه الأول .

وقد جعل الله التقى من أسباب الرزق فقال « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » (١) وقال « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض » (٢) وقال « استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً » (٣) وقال « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » (٤) .

وقوله « منهم أمّة مقتصدة » يعني من هؤلاء الكفار قوم معتدلون في العمل من غير غلو ولا تقصير . قال أبو علي : وهم الذين أسلموا منهم ، وتابعوا النبي (ص) ، وهو المروي في تفسير أهل البيت .

وقال قوم : نزلت في النجاشي وأصحابه . وحكى الزجاج عن قوم أنهم قالوا : نزلت في قوم لم يناصبوا النبي (ص) مناصبة هؤلاء . والأول أقوى ، لأن الله تعالى لا يجوز أن يسمي الناصب مقتصداً بحال . ويحتمل أن يكون أراد به من يقر منهم بأن المسيح عبدالله ، ولا يدعي فيه الالهية والبنوة . وقال مجاهد : هم مسلموا أهل الكتاب . وبه قال ابن زيد ، والسدي .

واشتقاق المقتصدين من القصد ، لأنه القاصد الى ما يعرف ، فكان خلاف الطالب المتحير في طلبه . والاقتصاد الاستواء في العمل المؤدي الى الغرض . وقوله « وكثير منهم ساء ما يعملون » أخبار منه تعالى أن أكثر هؤلاء اليهود والنصارى . يعملون الاعمال السيئة وهم الذين يقيمون على

(١) سورة ٦٥ الطلاق آية ٢ ـ ٣ . (٢) سورة الاعراف آية ٩٥ .
(٣) سورة نوح آية ١٠ ـ ١٣ (٤) سورة الجن آية ١٦ .

الكفر والجحود بالنبي (ص) وقوله « ساء » معناه قبح و « ما يعملون » يحتمل أن تكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر والتقدير : بئس شيئاً عملهم كما قال : « ساء مثلا القوم الذين كذبوا » . والثاني أن تكون (ما) بمعنى الذي وما بعدها صلة لها والعائد محذوف .

قولــه تعــالى :

يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٧٠) آية بلا خلاف

قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر « رسالاته » على الجمع . الباقون « رسالته » على التوحيد . من قرأ على الجمع ذهب الى أن الأنبياء يبعثون بضروب الرسائل واختلاف العبادات . ومن وحد ، فلأنه يدل على الكثرة .

قيل في سبب نزول هذه الآية أربعة أقوال :

أحدها ــ قال محمد بن كعب القرظي ، وغيره : إن اعرابياً هم بقتل النبي (ص) فسقط السيف من يده وجعل يضرب برأسه شجرة حتى انتثر دماغه .

الثاني ــ أن النبي (ص) كان يهاب قريشاً فأزال الله ــ عز وجل ــ بالآية تلك الهيبة . وقيل كان للنبي (ص) حراس بين أصحابه ، فلما نزلت الآية قال الحقوا بملاحقكم ، فان الله عصمني من الناس .

الثالث ــ قالت عائشة إن المراد بذلك إزالة التوهم أن النبي (ص) كتم شيئاً من الوحي للتقية .

الرابع ــ قال أبو جعفر وأبو عبدالله (عليهما السلام) إن الله تعالى : لما أوحى الى النبي (ص) أن يستخلف علياً كان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعاً لـه على القيام بما أمره بادائه .

والآية فيها خطاب للنبي (ص) وإيجاب عليه تبليغ ما أنزل اليه من ربه وتهديد له إن لم يفعل وانه يجري مجرى إن لم يفعل ولم يبلغ رسالته .

فان قيل كيف يجوز ذلك ؟ ولا يجوز أن يقول : إن لم تبلغ رسالته فما بلغتها لأن ذلك معلوم لا فائدة فيه !

قلنا : قال ابن عباس : معناه إن كتمت آية مما أنزل اليك فما بلغت رسالته والمعنى ان جريمته كجريمته لو لم يبلغ شيئاً مما أنزل اليه في انه يستحق به العقوبة من ربه .

وقوله « والله يعصمك من الناس » معناه يمنعك أن ينالوك بسوء من فعل أو شر أو قهر . وأصله عصام القربة ، وهو وكاؤها الذي يشد به من سير أو خيط . قال الشاعر :

وقلت عليكم مالكاً إن مالكاً سيعصمكم إن كان في الناس عاصم [1]

أي سيمنعكم . وقوله تعالى « إن الله لا يهدي القوم الكافرين » قيل في معناه قولان :

قال الجبائي : إن الله لا يهدي الى الثواب والجنة الكافرين .

وقال الرماني : معنى الهداية ههنا المعونة بالتوفيق والألطاف الى الكفر بل إنما يهديهم الى الايمان والثواب ، لأن من هداه الى غرضه فقد أعانه

(١) مجاز القرآن ١ : ١٧١ والطبري ١٠ : ٤٧٢ .

على بلوغه ، ولا يجوز أن يكون المراد به أنه لا يهديهم الى الايمان ، لأنه تعالى هداهم اليه بأن دلهم عليه ورغبهم فيه وحذرهم من خلافه .

وفي الآية دلالة على صحة نبوة النبي (ص) من وجهين :

أحدهما ــ أنه لا يقدم على الاخبار بذلك محققاً إلا من يأمن أن يكون مخبره على ما هو به ، لأنه لا داعي له الى ذلك غير الصدق .

والثاني ــ أنه لما وقع مخبره على ما أخبر به فيه وفي نظائره دل على أنه من عند علام الغيوب . وحكى البلخي أن بعد قوله تعالى « والله يعصمك من الناس » لم يكن الكفار قادرين على قتل النبي ولا منهيون عن قتله ، لأن مع المنع لا يصح النهي عنه ، قال وإنما هم منهيون عن أسباب القتل التي تقتل غالباً ، لأنهم كانوا قادرين عليها . قال ووجه آخر أنهم كانوا قادرين لكن علم أنهم لا يقتلونه . وأنه يحول بينهم وبين القتل . والأول لا يصح ، لأن القدرة على بعض الاجناس قدرة على كل جنس تتعلق القدرة بها .

قوله تعالى :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٧١)

سبب نزول هذه الآية ما روي عن ابن عباس أنه جاء جماعة من اليهود ، فقالوا : يا محمد ألست تقول : إن التوراة من عند الله ؟ قال بلى . قالوا فانا

نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها فنزلت الآية .

ومعناها أنه تعالى أمر نبيه (ص) أن يقول لأهل الكتاب « لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل » . وقيل في معناه قولان :

أحدهما ــ حتى تقيموهما بالتصديق بما فيهما من البشارة بالنبي (ص) والعمل بما يوجب ذلك فيهما .

الثاني ــ قال أبو علي يجوز أن يكون الأمر باقامة التوراة والانجيل وما فيهما إنما كان قبل النسخ لهما .

وقوله « وما أنزل اليكم من ربكم » يحتمل أمرين :

أحدهما ــ أن يريد به القرآن الذي أنزله على جميع الخلق .

الثاني ــ أن يريد جميع ما نصبه الله من الأدلة الدالة على توحيده وصفاته وصدق نبيه (صلى الله عليه وآله) .

وقوله : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً » والمراد أنهم يزدادون عند نزوله طغياناً وكفراً ، لأن القرآن المنزل لا يزيد شيئاً طغياناً .

فان قيل هذا هو المفسدة بعينه ، لأنهم إذا فسدوا عنده ولولاه لما فسدوا كان ذلك مفسدة .!!!

قيل ليس في الآية أنه لو لم ينزل القرآن لم يكونوا يفعلون الكفر بل لا يمتنع أنه لو لم ينزل القرآن لفعلوا من الكفر ما هو أعظم ، فصار إنزال القرآن لطفاً في استنقاص الكفر وتقليل المفسدة ، فالمفسدة زائلة واللطف حاصل ، على أنه لا يمنع أن يكونوا يفعلون الكفر بعينه لو لم ينزل القرآن

فحقيقة المفسدة اذاً ليست بحاصلة ، لأن حد المفسدة ما وقع عنده الفساد ولولاه لم يقع من غير أن يكون تمكيناً .

والطغيان ههنا تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه وأصله تجاوز الحد . ومنه قوله تعالى : « انا لما طغى الماء » [1] وقوله : « إن الانسان ليطغى » [2] أي يتجاوز الحد في الخروج عن الحق .

وقوله : « فلا تأس على القوم الكافرين » معناه لا تحزن تقول أسى يأسى أساً إذا حزن . قال الشاعر :

وانحلبت عيناه من فرط الأسى [3]

وهذا تسلية للنبي (ص) وليس بنهي عن الحزن ، لأنه لا يقدر عليه لكنه تسلية ونهي عن التعرض للحزن . قال البلخي ذلك يدل على بطلان ما روي من أن النبي (ص) دعا للكفار بالهداية ، لأنه نهاه عن الحزن وأمره بلعنهم ولا يجتمع قول اللهم العنهم ، واهدهم واغفر لهم .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئُونَ وَٱلنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٧٢)

أخبر الله تعالى أن الذين صدقوا الله وأقروا بنبوة نبيه (ص) « والذين هادوا » يعني الذين اعتقدوا اليهودية ونبوة موسى، وتأييد شرعه «والصابئون»

---

(١)　سورة الحاقة آية ١١ .　　(٢)　سورة العلق آية ٦ .

(٣)　قائله العجاج . ديوانه : ٣١ ومجاز القرآن ١ : ١٧١ والكامل للمبرد ١ : ٣٥٢ واللسان (حلب) ، (كرس) .

وهو جمع صابئ ، وهو الخارج عن دين عليه امة عظيمة من الناس الى ما عليه فرقة قليلة ، وهم عباد الكواكب . وعندنا لا يؤخذ منهم الجزية . وعند المخالفين يجرون مجرى أهل الكتاب وصبأ ناب البعير وسن الصبي إذا خرج . وضبأ ــ بالضاد المعجمة ــ معناه اختبأ في الأرض ، ومنه اشتق ضابي البرجمي . و « النصارى » وهم الذين يقرون بالمسيح (ع) وقوله : « من آمن بالله » قيل فيه قولان :

أحدهما ــ يعني الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم المنافقون ذكره الزجاج .

الثاني ــ من دام على الايمان والاخلاص ولم يرتد عن الاسلام .

وقيل في معنى رفع الصابئين ثلاثة أقوال : أحدها ــ قال سيبويه : إنه على التقديم والتأخير والتقدير : ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون كذلك . قال الشاعر :

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق

والمعنى فاعلموا انا بغاة ما بقينا في شقاق وأنتم كذلك . وقال ضابئ البرجمي :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فاني وقيار بها لغريب [1]

والثاني ــ قال الكسائي هو عطف على الضمير في (هادوا) وكأنه قال هادوا هم والصابئون . قال الرماني هذا غلط من وجهين : أحدهما ــ ان الصابئ لا يشارك اليهود في اليهودية . والآخر أنه عطف على الضمير المتصل

(١) قد مر هذا البيت في ١ : ٢٠٣ .

من غير تأكيد بالمنفصل •

والثالث قال الفراء : إنه عطف على ما لا يتبين فيه الاعراب وهو (الذين) ويجوز النسق على مثل (الذين) وعلى المضمر نحو اني وزيد قائمان ، فعطف على موضع (أن) •

وقوله « وعمل صالحاً » فالعمل والفعل واحد • وقال الرماني : فعل الشيء إحداثه وايجاده بعد أن لم يكن وعمله إحداث ما يكون به متغيراً سواء كان إحداثه نفسه أو احداث حادث فيه •

وقوله تعالى « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » مع ما يمر بهم من أجل يوم القيامة لأمرين : أحدهما ـ أن ذلك لا يعتد به لأنه عارض ، ثم يصيرون الى النعيم الدائم • ومنه قوله « لا يحزنهم الفزع الأكبر » (٢) وهو عذاب النار كما يقال للمريض لا بأس عليك • الثاني أن أهوال يوم القيامة إنما تنال الضالين دون المؤمنون • والأول أقوى لعموم قوله : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » (٣) وروي عن النبي (ص) أن الناس يلجمهم العرق • وانهم يحشرون حفاة عراة عزلا ، فقالت عائشة لا يحتشمون من ذلك ، فقال (ص) : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » (٤) فأما قوله « من آمن بالله » وقد ذكر الذين آمنوا ، فلأن المعني بالذين آمنوا ههنا ـ في قول الزجاج ـ المنافقون بدلالة قوله « لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » (٥) والتقدير من

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٣ •

(٣) سورة الحج آية ٢ • (٤) سورة عبس آية ٣٧ •

(٥) سورة المائدة آية ٤٤ •

آمن منهم . وقال قوم : من آمن يرجع الى من عدا الذين آمنوا وحمل « الذين آمنوا » على ظاهره من حقيقة الايمان . ومنهم من قال : يرجع الى الجميع ويكون المعنى في « من آمن » من يستديم على الايمان ويستمر عليه . وقد استوفينا ما يتعلق بذلك في سورة البقرة .

قوله تعالى :

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ (٧٣) آية عند الجميع

اللام في قوله « لقد » لام القسم . أقسم الله تعالى أنه أخذ الميثاق وهو الأيمان المؤكدة التي أخذها أنبياءهم على بني اسرائيل في قول ابي علي . وقال غيره : يجوز أن يكون الميثاق هي الآيات البينة التي قرر بها علم ذلك عندهم . وإنما أخذ ميثاقهم على الاخلاص لتوحيد الله تعالى ، والعمل بما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه والتصديق برسله والبشارة بالنبي الامي والاقرار به ، حسب ما تقدمت صفته عندهم .

ووجه الاحتجاج على أهل الكتاب بما أخذ على آبائهم من الميثاق أنهم قد عرفوا ذلك في كتبهم ، وأقروا بصحته ، فحجته لازمة لهم ، والعمل به واجب عليهم ، وعيب المخالفة يلحقهم كما لحق آباءهم الذين نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم .

وقوله « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم » والهوى هو لطف محل الشيء من النفس مع الميل اليه بما لا ينبغي ، فلذلك غلب على الهوى

صفة الذم ، كما قال تعالى «ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى»[١] ويقال : منه : هوى يهوى ويقال : هوى يهوي هوياً إذا انحط في الهواء وأهوى بيده إذا انحط بها ليأخذ شيئاً . و « امّه هاوية » [٢] أي جهنم ، لأنه يهوي فيها . وهم يتهاوون في الهواء اذا سقط بعضهم في أثر بعض والفرق بين الهوى والشهوة : أن الشهوة تتعلق بالمدركات فيشتهي الانسان الطعام ، ولا يهوى الطعام . وهواء الجو ممدود ، وهوى النفس مقصور . وقوله « وأفئدتهم هواء » [٣] قيل فيه قولان : أحدهما ــ أنها منحرفة لا تعي شيئاً كهواء الجو . والآخر أنه قد أطارها الخوف . ومنه قوله « كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران » [٤] أي استهوته من هوى النفس .

وقوله « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » نصب فريقاً في الموضعين بأنه مفعول به قدم . وإنما قال في الأول « كذبوا » بلفظ الماضي . وفي الثاني « يقتلون » بلفظ المستقبل لأمرين :

أحدهما ــ ليدل بذلك على أن من شأنهم ذلك وعادتهم ففيه معنى كذبوا وقتلوا ويكذبون ويقتلون مع موافقته لرؤوس الآي .

الثاني ــ أن يكون على معنى فريقاً كذبوا ، ولم يقتلوا وفريقاً كذبوا وقتلوا فيكون يقتلون صفة الفريق .

قولــه تعــالى :

وَحسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تابَ ٱللَّهُ

---

(١) سورة النازعات آية ٤٠ ــ ٤١ . (٢) سورة القارعة آية ٩ .

(٣) سورة ابراهيم آية ٤٣ . (٤) سورة الانعام آية ٧١ .

عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

(٧٤) آية بلاخلاف

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي « ألا تكون » بالرفع . الباقون بالنصب . ولم يختلفوا في رفع (فتنة) فمن رفع ، فالمعنى حسبوا فعلهم غير فاتن لهم ، لأنهم كانوا يقولون « نحن أبناء الله وأحباؤه » ومن نصبه فلأن « أن » تنصب الفعل المضارع . وقال أبو علي الفارسي الافعال على ثلاثة أضرب : فعل يدل على ثبات الشيء واستقراره نحو العلم ، وفعل يدل على خلاف الاستقرار والثبات ، وفعل يحتمل الأمرين ، فما كان معناه العلم وقع بعده (أن) الثقيلة ، ولم تقع بعده الخفيفة الناصبة للفعل ، لأن الثقيلة معناها إثبات الشيء واستقراره والعلم بأنه كذلك أيضاً ، فاذا أوقع عليه واستعمل معه كان وقعه ملائماً له . ولو استعملت الناصبة للفعل بعد ما معناه العلم واستقرار الشيء له لتباينا وتدافعا ، فمن استعمال الثقيلة بعد العلم وايقاعه عليها قوله : « ويعلمون أن الله هو الحق المبين » (١) و « ألم يعلم بأن الله يرى » (٢) ، لأن الباء زائدة . وكذلك التبين والتيقن ، وما كان معناه العلم كقوله « ثم بدا لهم من بعد ما رءوا الآيات » (٣) فهذا ضرب من العلم لأنه تبين لأمر قد بان فلذلك كان قسما كما كان علمت قسما في نحو قوله :

ولقد علمت لتأتين منيتي

وكذلك « ثم بدا لهم من بعد ما رءوا الآيات ليسجننه حتى حين (٤) فهو

(١) سورة النور آية ٢٥ . (٢) سورة العلق آية ١٤ .

(٣ ، ٤) سورة يوسف آية ٣٥ .

بمنزلة علموا ليسجننه وعلى ذلك قول الشاعر :

بدا لي أني لست مدرك ما مضى (ولا سابقاً شيئاً اذا كان جائيا)

فأوقع بعدها الشديدة كما يوقعها بعد علمت واما ما كان معناه ما لم يثبت ولم يستقر فنحو (أطمع) و (أخاف) و (اشفق) و (أرجو) فهذا ونحوه لا يستعمل بعده إلا الخفيفة الناصبة للفعل كقوله تعالى : « والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي » [١] وقوله « تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم » [٢] وقوله : « الا أن يخافا الا يقيما حدود الله • فان خفتم ان لا يقيما حدود الله » [٣] وقوله : « فخشينا ان يرهقهما [٤] وقوله « أأشفقتم أن تقدموا » [٥] وكذلك أرجو ، وعسى ، ولعل فأما ما يستعمل في الامرين نحو حسبت وظننت وزعمت فهذا النحو يجعل مرة بمنزلة (أرجو) و (أطمع) من حيث كان أمراً غير مستقر ومرة يجعل بمنزلة العلم من حيث استعمل استعماله • ومن حيث كان خلافه • والشيء قد يجري مجرى الخلاف نحو (عطشان) و (ريان) فاما استعمالهم استعمال العلم ، فلأنهم قد أجابوه بجواب القسم • حكى سيبويه ظننت ليسقيني • وقيل في قوله « وظنوا ما لهم من محيص » [٦] ان النفي جواب الظن كما كان جواباً لعلمت في قوله « علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات » [٧] وكلا الوجهين جاء به القرآن مثل قراءة من نصب قوله « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا » [٨]

(١) سورة الشعراء آية ٨٢ • (٢) سورة الانفال آية ٢٦ •
(٣) سورة البقرة آية ٢٢٩ • (٤) سورة الكهف آية ٨١ •
(٥) سورة المجادلة آية ١٣ • (٦) حم السجدة آية ٤٨ •
(٧) سورة الاسرى آية ١٠٢ • (٨) سورة العنكبوت آية ٤ •

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم » (٩) « ألم أحسب الناس أن يتركوا » (١٠) ومثل قراءة من رفع قوله « آم يحسبون أنا لا نسمع سرهم » (١١) « أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين (١٢) « ايحسب الانسان أن لن نجمع عظامه » (١٣) فهذه مخففة من الشديدة . ومثل ذلك في الظن قوله : « تظن أن يفعل بها فاقرة » (١٤) وقوله « إن ظنا أن يقيما حدود الله » (١٥) ومن الرفع قوله : « وانا ظننا أن لن تقول الانس والجن .. وانهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً » (١) وإن هاهنا الخفيفة من الثقيلة لأن الناصبة للفعل لا تقع بعدها (أن) لاجتماع الحرفين في الدلالة على الاستقبال كما لم تجتمع الناصبة مع السين ، ولم يجتمعا كما لم يجتمع الحرفان بمعنى واحد . ولذلك كانت (ان) في قوله « علم ان سيكون » (٢) المخففة من الشديدة . ومن ذلك قوله « وظنوا أنهم احيط بهم » (٣) فاما قوله : الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم » (٤) وقوله : « ظننت اني ملاق حسابيه » (٥) فالظن هاهنا بمعنى العلم ، وحسن وقوع الخفيفة من الشديدة في قول من رفع وإن كان بعده فعل لدخول (لا) وكونها عوضاً من حذف الضمير معه وايلاء

(٩) سورة الجاثية آية ٢٠ . (١٠) سورة العنكبوت آية ٢ .
(١١) سورة الزخرف آية ٨٠ . (١٢) سورة المؤمنون آية ٥٦ .
(١٣) القيامة آية ٣ . (١٤) سورة القيامة آية ٢٥ .
(١٥) سورة البقرة آية ٢٣٠ .
(١) سورة الجن آية ٥ ــ ٧ . (٢) سورة المزمل آية ٢٠ .
(٣) سورة يونس آية ٢٢ . (٤) سورة البقرة آية ٤٦ .
(٥) سورة الحاقة آية ٢٠ .

ما لم يكن يليه • ولو قلت علمت أن يقول لم يجز حتى يأتي بما يكون عوضاً نحو (قد) و (لا) والسين وسوف ، كما قال « علم ان سيكون » ولا يدخل على ذلك قوله : « وان ليس للانسان الا ما سعى » (٦) فلم يدخل بين (أن) و (ليس) شيء لأن (ليس) ليس بفعل على الحقيقة • وأما (فتنة) فلو نصب لكان صحيحاً في العربية على تقدير : أن لا يكون قولهم فتنة • ولكن لم يقرأ به أحد • قال الرماني : وحد الحسبان هو قوة أحد النقيضين في النفس على الآخر وأصله الحساب ، فالنقيض القوي يحتسب به دون الآخر أي هو فيما يحتسب ولا يطرح ومنه الحسب لانه مما يحسب ولا يطرح لأجل الشرف ومنه قولهم : حسبك أي يكفيك ، لأنه بحساب الكفاية ومنه احتساب الأجر ، لأنه فيما يحتسب ويكفي •

والفتنة هاهنا العقوبة • وقيل البلية ــ في قول السدي وقتادة والحسن ومجاهد ــ وقيل : الشدة • وكل ذلك متقارب • وقال ابن عباس : الفتنة ــ هاهنا ــ الشرك • وأصل الفتنة الاختبار ، ومنه افتتن بفلانة اذا هواها ، لأنه يظهر ما يطوي من خبره بها • وفتنت الذهب في النار اذا خلصته ليظهر خبره في نفسه متميزاً من شائب غيره • وقوله « يوم هم على النار يفتنون» (١) أي يحرقون • فاذا هم خبث كلهم « وفتناك فتوناً » (٢) أي اختبرناك اختباراً أي ليظهر خبرك على خلوص أمرك في طاعتك أو غير ذلك من حالك •

وقوله « فعموا وصموا » معناه عن الحق على وجه التشبيه بالأعمى

---

(٦) سورة النجم آية ٣٩ •

(١) سورة الذاريات آية ١٣ •　(٢) سورة ٢٠ طه آية ٤٠ •

والاصم لانه لا يهدي الى طريق الرشد في الدين كما لا يهتدي هذا الى طريق الرشد في الدنيا لأجل العمى والصمم ، فكذلك اولئك لاعراضهم عن النظر .

وقوله « ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا » إخبار منه تعالى أن هؤلاء الكفار حسبوا أن لا يكون فتنة على ما فسرناها « فعموا وصموا » وقتلوا الأنبياء وكذبوهم ثم أن فريقاً منهم تابوا فتاب الله عليهم « ثم عموا وصموا » يعني عادوا الى ما كانوا عليه . وقيل قوله « ثم عموا وصموا » في الاقرار بالنبي (ص) وقوله : « كثير منهم » قال الزجاج يحتمل رفعه ثلاثة أوجه :

أحدها ــ ان يكون بدلاً من الفاء ، فكأنه لما قال « عموا وصموا » ابدل الكثير منهم أي عمي وصم كثير منهم كما يقول جاءني قومك أكثرهم .

والثاني ــ أن يكون جمع الفعل متقدماً على لغة من قال اكلوني البراغيث ، وذهبوا قومك . قال أبو عمرو الهذلي :

ولكن ديا في ابوه وامه بحوران يعصرن السليط اقاربه [٢]

الثالث ان يكون (كثيراً) خبر ابتداء محذوف والتقدير ذو العمى والصمم « كثير منهم » ثم بين تعالى « إنه بصير » أي عالم « بما يعملون » أي بأعمالهم .

قوله تعالى :

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ
وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ

(٢) اللسان (سلط) ، (ديف) نسبة الى الفرزدق .

مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٥) آية بلاخلاف

اللام في قوله « لقد » لام القسم • أقسم الله تعالى بأنه « كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم » والكفر هو الجحود لما يجب عليه الاقرار به ، والتصديق له • وقال الرماني : هو تضييع حق النعمة بالجحد او ما جرى مجراه في عظم الجرم • ولذلك كان من قتل نبياً فهو كافر وان أقر بجميع نعم الله • وعندنا إن قتل نبي يدل على ان قاتله جاحد لما يجب عليه الاقرار به ، والاعتقاد لتصديقه •

والذين يقولون من النصارى : إن الله هو المسيح بن مريم هم اليعقوبية ، وهم مع ذلك مثلثة ، لأنهم يقولون إن الأب والابن وروح القدس إله واحد • وغيرهم يقولون : إن المسيح ابن الله • ولا يقولون هو الله وأجمعوا على أنه إله •

وقوله : « وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم » اخبار عن المسيح (ع) أنه قال لبني اسرائيل الذين كانوا في زمانه « اعبدو الله ربي وربكم» الذي يملكني وإياكم وإني واياكم عبيده ، ومن خلقني وخلقكم «إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » فالشرك هو الكفر • وإنما يطلق على من أشرك في عبادة الله غيره ، وإنما كان كافراً ، لأنه جحد نعمة الله باضافتها الى غيره ، وزعمه أن غيره يستحق العبادة مع ما ثبت أنه لا يقدر أحد على ما يستحق به العبادة سوى الله تعالى • والشرك أصله الاجتماع في الملك ، فاذا كان الملك بين نفسين ، فهما شريكان وكذلك كل شيء يكون بين نفسين ، ولا يلزم على ذلك ما يضاف الى كل واحد منهما منفرداً كالعبد يكون ملكاً

لله وهو ملك للانسان ، لأنه لو بطل ملك الانسان ، لكان ملكاً لله كما كان ، لم يزد في ملكه شيء لم يكن .

وقوله : « فقد حرم الله عليه الجنة » اخبار من المسيح لقومه أن من يشرك بالله ، فان الله يمنعه الجنة . والتحريم هاهنا هو تحريم منع لا تحريم عبـادة .

وقوله : « ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » معناه أنهم مع حرمانهم الجنة مستقرهم النار ، ولا ناصر لهم يدفع عنهم ويخلصهم مما هم فيه من أنواع العذاب .

قولـه تعـالى :

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ آية بلا خلاف

وهذا قسم آخر من الله بأنه كفر من قال : «إن الله ثالث ثلاثة» والقائلون بهذه المقالة هم جمهور النصارى من الملكانية ، واليعقوبية والنسطورية ، لأنهم يقولون : أب ، وابن ، وروح القدس إله واحد ، ولا يقولون ثلاثة آلهة . ويمنعون من العبارة . وإن كان يلزمهم أن يقولوا إنهم ثلاثة آلهة . وما كان هكذا صح أن يحكى بالعبارة اللازمة . وإنما قلنا : يلزمهم ، لانهم يقولون الابن إله والأب إله وروح القدس إله . والابن ليس هو الأب .

ومعنى « ثالث ثلاثة » أحد ثلاثة . وقال الزجاج ، لا يجوز نصب ثلاثة لكن للعرب فيه مذهب آخر وهو أنهم يقولون رابع ثلاثة ، فعلى هذا يجوز

الجر والنصب ، لأن معناه الذي صير الثلاثة أربعة بكونه فيهم •

ثم أخبر تعالى ، فقال « وما من إله الا إله واحد » أي ليس إلا اله واحد • ودخلت (من) للتوكيد •

وقوله : « وإن لم ينتهوا عما يقولون » أي إن لم يرجعوا ويتوبوا عما يقولون من القول بالتثليث أقسم « ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم » يعني الذين يستمرون على كفرهم والمس ــ هاهنا ــ ما يكون معه احساس وهو حلوله فيه ، لأن العذاب لا يمس الحيوان إلا أحس به ويكون المس بمعنى اللمس ، لأن في اللمس طلباً لاحساس الشيء ، فلهذا اختير هاهنا المس • واللمس ملاصقة معها إحساس وإنما قال « ليمسن الذين كفروا منهم » لأمرين :

أحدهما ــ ليعم الوعيد الفريقين الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، والذين قالوا هو ثالث ثلاثة والضمير عائد الى أهل الكتاب •

الثاني ــ أنه من أقام منهم على الكفر لزمه هذا الوعيد في قول أبي علي ، والزجاج ، وليس في الآية ما يدل على أن في أفعال الجوارح ما هو كفر لأن الذي فيها هو الاخبار عن أن من قال الله ثالث ثلاثة فهو كافر ، وهذا لا خلاف فيه • وليس فيها أن هذا القول بعينه هو كفر أو دلالة على الكفر ، فمن يقول الكفر هو الجحود ، وان الايمان هو التصديق بالقلب يقول إن في أفعال الجوارح ما يدل على الكفر الذي هو الجحود في القلب مثل القول الذي ذكره الله تعالى • ومثل ذلك السجود للشمس وعبادة الاصنام وغير ذلك ، فلا دلالة في الآية على ما قالوه •

قولــه تعــالى :

أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى ٱللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٧٧ آية

الألف في قوله « أفلا » الف إنكار وأصلها الاستفهام ، لأنه لا يصح للسؤال جواب عن مثل هــذا فيكون حينئذ تقريعاً لهم وإنكاراً عليهم ترك التوبة وإنما دخلت « الى » في قوله : « يتوبون الى الله » لأن معنى التوبة الرجوع الى طاعة الله، لأن التائب بمنزلة من ذهب عنها ثم عاد اليها ، وقد بينا فيما مضى أن التوبة طاعة يستحق بها الثواب ، فأما إسقاط العقاب عندها فهو تفضل من الله غير واجب .

والفرق بين التوبة والاستغفار أن الاستغفار طلب المغفرة بالدعاء أو التوبة أو غيرهما من الطاعة . والتوبة الندم على القبيح مع العزم على أن لا يعود إلى مثله في القبيح أو الاخلال بالواجب والاستغفار مع الاصرار على القبيح لا يصح ولا يجوز . وفي الآية تحضيض على التوبة والاقلاع من كل قبيح والانكار لتركها ، وحث على الاستغفار « والله غفور رحيم » إخبار منه تعالى أنه يستر الذنوب ويغفرها رحمة منه لعباده .

قولــه تعــالى :

مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلآيَاتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ٧٨ آية بلاخلاف

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه ليس المسيح بن مريم إلا رسول أرسله الله « قد خلت من قبله الرسل » أي انه رسول ليس بإله كما ان الأنبياء قبله

رسل ليسوا بآلهة • وانه أتى بالمعجزات من قبل الله كما أتوا بها من قبل ربهم ، فمن ادعى له الآلهية فهو كمن ادعى الالهية لجميعهم لتساويهم في المنزلة ومعنى « خلت » مضت • « وأمه صديقة » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ أنها كانت تصدق بآيات ربها ومنزلة ولدها ، وتصدقه فيما أخبرها به بدلالة قوله « وصدقت بكلمات ربها » (١) ذكر ذلك الحسن ، والجبائي •

الثاني ــ لكثرة صدقها وعظم منزلتها فيما تصدق به من أمرها أو سميت صديقة على وجه المبالغة ، كما قيل : رجل سكيت • أي مبالغ في السكوت •

وقوله « كانا يأكلان الطعام » فيه احتجاج على النصارى ، لأن من ولدته النساء ، وكان يأكل الطعام لا يكون إلها للعباد لأن سبيله سبيلهم في الحاجة الى الصانع المدبر ، لأن من فيه علامة الحدث ، لا يكون قديماً • ومن يحتاج الى غيره لا يكون قادراً لا يعجزه شيء وقيل إن ذلك كناية عن قضاء الحاجة لأن من أكل الطعام لابد أن يحدث حدثاً مخصوصاً على مجرى العادة •

وقوله « انظر كيف نبين لهم الآيات » أمر للنبي وامته بأن يفكروا فيما بين الله من الآيات والدلالات لهم على بطلان ما اعتقدوه من ربوبية المسيح ، وبنوته ثم أمره بأن ينظر ثانياً « أنى يؤفكون » أي كيف يؤفكون • وقيل من أين يؤفكون ومعنى « يؤفكون » يصرفون • وقيل يقلبون • والمعنى متقارب ، لأن المعنى انظر كيف يصرفون عن الآيات التي بيناها لهم ويقال : لكل مصروف عن شيء مأفوك عنه ، وقد افكت فلاناً عن كذا أي صرفته عنه صرفاً • فأنا آفكه إفكاً فهو مأفوك وقد أفكت الأرض إذا صرف عنها المطر ،

(١) سورة التحريم آية ١٢ •

والافك الكذب ، لأنه صرف الخبر عن وجهه . والمؤتفكات المنقلبات من الرياح ، وغيرها ، لأنها صرفت بقلبها عن وجهها .

قوله تعالى :

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَٱللهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٧٩) آية

أمر الله تعالى نبيه (ص) أن يقول لهؤلاء النصارى الذين قالوا « إن الله ثالث ثلاثة » : « أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً » أي توجهون عبادتكم الى من لا يقدر على الضر والنفع ، لأن القادر عليهما هو الله تعالى او من يمكنه الله من ذلك . ولو جاز توجيه العبادة الى المسيح الذي لا يملك ذلك لجاز توجيهها الى الاصنام كما يقوله عباد الاصنام . وقد علمنا خلاف ذلك .

والملك : هو القدرة على تصريف ما للقادر عليه أن يصرفه ، فملك الضرر والنفع أخص من القدرة عليهما ، لأن القادر عليهما قد يقدر من ذلك على ماله أن يفعل ، وقد يقدر منه على ما ليس له أن يفعله . والنفع : هو فعل اللذة أو السرور او ما أدى اليهما أو الى واحد منهما مثل الملاذ التي تحصل في الحيوان . والصلة بالمال والوعد باللذة ، فان جميع ذلك نفع ، لأنه يؤدي الى اللذة . والضرر هو فعل الألم أو الغم أو ما أدى اليهما أو الى واحد منهما كالآلام التي توجد في الحيوان والقذف والسب ، لأن جميع ذلك يؤدي الى الآلام والغضب ضرر لأنه من الأسباب المؤدية الى الآلام .

وقوله « والله هو السميع العليم » قيل في معناه هاهنا قولان :

أحدهما ــ أنه ذكر للاستدعاء الى التوبة فهو يسمع قول العبد فيها وما يضمره منها •

والآخر التحذير من الجزاء بالسيئة ، لأنه يعلم الاعمال ويسمع الاسرار والاعلان • وذلك دليل على ملك الجزاء بالثواب والعقاب •

قوله تعالى :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٨٠) آية بلا خلاف

أمر الله تعالى نبيه (ص) أن يخاطب أهل الكتاب ، وهم النصارى هاهنا • وقال قوم : المراد به اليهود والنصارى ، لأن اليهود أيضاً غلوا في تكذيب عيسى ، ومحمد (ص) ويقول لهم « لا تغلوا في دينكم » ومعناه لا تتجاوزوا الحد الذي حده الله لكم الى الازدياد • وضده التقصير وهو الخروج عن الحد الى النقصان • والزيادة في الحد والنقصان معاً فساد أي ودين الله الذي أمر به هو بين الغلو ، والتقصير ، وهو الاقتصاد •

وقوله « ولا تتبعوا أهواء قوم » وقل لهم : لا تسلكوا سبيل الأوائل ، لأن الاتباع هو سلوك الثاني طريقة الأول على وجه الاقتداء به وقد يتبع الثاني الأول في الحق وقد يتبعه في الباطل • وإنما يعلم أحدهما بدليل • والمراد هاهنا النهي عن اتباع سبيلهم الباطل • و (الأهواء) هاهنا المذاهب التي تدعو اليها الشهوة دون الحجة ، لأن قد يستثقل النظر لما فيه من المشقة ، ويميل طبعه الى بعض المذاهب فيعتقده ، وهو ضلال فيهلك به • وقوله :

« قد ضلوا من قبل » فيه قولان :

قال الحسن ، ومجاهد : هم اليهود •

وقال أبو علي هم أسلافهم الذين هم رؤساء ضلالتهم الذين سنوا لهم هذا الكفر من الفريقين اليهود والنصارى « وأضلوا كثيراً » يعني هؤلاء الذين ضلوا من قبل وأضلوا أيضاً كثيراً من الخلق • ونسب الاضلال اليهم ، من حيث كان بدعائهم وإغوائهم •

وقوله « وضلوا عن سواء السبيل » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ ضلوا باضلالهم غيرهم في قول الزجاج •

الثاني ـ وضلوا من قبل ، وضلوا من بعد ، فلذلك كرر • وقيل « وضلوا من قبل » عن الهدى في الدنيا « واضلوا كثيراً » عن طريق الجنة • و « سواء السبيل » معناه مستقيم الطريق • والمعنى فيه الحق من الدين ، لأنه يستقيم بصاحبه الى الجنة ، والخلود في النعيم • وقيل له : سواء لاستمراره على استواء •

قوله تعالى :

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٨١) آية بلاخلاف

قيل في معنى « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل » الآية ثلاثة أقوال :

أحدها ـ إيآسهم من مغفرة الله مع الاقامة على الكفر والمعصية لله ـ عز وجل ـ لدعاء الأنبياء (عليهم السلام) عليهم بالعقوبة ودعوتهم مستجابة مع ما في ذلك من الفضيحة ، وانطواء أولياء الله لهم على العداوة ، والمظاهرة

عليهم في إقامة الحجة .

الثاني ــ قال الحسن ومجاهد وقتادة وأبو مالك لعنوا على لسان داود ، فصاروا قردة وعلى لسان عيسى ، فصاروا خنازير . وانما ذكر عيسى وداود ، لأنهما انبه الأنبياء المبعوثين بعد موسى (ع) ولما ذكر داود أغنى عن ذكر سليمان ، لأن قولهما واحد . وقال أبو جعفر (ع) أما داود فلعن أهل ايلة لما اعتدوا في سبتهم وكان اعتداؤهم في زمانه ، فقال : اللهم البسهم اللعنة مثل الرداء ومثل المنطقة على الحقوين ، فمسخهم الله قردة . وأما عيسى فلعن الذين أنزلت عليهم المائدة ثم كفروا بعد ذلك .

الثالث ــ قال أبو علي الجبائي : إنه إنما أظهر ذلك لئلا يوهموا الناس أن لهم منزلة بولادة الأنبياء تنجيهم من عقوبة المعاصي .

واللعن هو الابعاد من رحمة الله ، فلعنه الله يعني أبعده الله من رحمته الى عقوبته ، ولا يجوز لعن من لا يستحق العقوبة من الاطفال والمجانين والبهائم ، لأنه تعالى لا يبعد من رحمته من لا يستحق الابعاد عنها . وقوله : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » إشارة الى اللعن الذي تقدم ذكره بمعصيتهم واعتدائهم .

فـ (ذا) لما قرب و (ذلك) لما بعد ، لأنه اجتزىء في دلالة الخطاب لما قرب بالاقبال عليه . وفي القريب بالاشارة اليه فلما بعد لم يصلح الاجتزاء فيهما كما يصلح فيما قرب ، فاتى بالكاف للخطاب واكد ذلك باللام وكسرت لالتقاء الساكنين والكاف في ذلك حرف وفي غلامك إسم ، ولهذا لم يؤكد بما يؤكد في غلامك لأنك لا تقول ذلك نفسك . كما تقول في غلامك نفسك . وإنما قال : « بما عصوا وكانوا يعتدون » وإن كان الكفر أعظم الاجرام

ليدل على أن من خلصت معصيته مما يكفرها أو بقته ، وأنهم مع كفرهم قد عصوا بغير الكفر من الجرم الذي فسر في الآية التي بعد •

قوله تعالى :

كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٨٢) آية بلاخلاف

أخبر الله تعالى أن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم لم يكونوا يتناهون عن منكر أي لم يكن ينهى بعضهم بعضاً مثل قولك لا يتضاربون ولا يترامون ولا ينتهون ومعناه لا يكفون عما نهوا عنه •

وقوله : « لبئس ما كانوا يفعلون » وفتحت اللام لام القسم وتقديره اقسم لبئس ما كانوا يفعلون كما فتحت لام الابتداء لأنها لما لم تكن عاملة كـ (لام الاضافة) اختير لها أخف الحركات • ولا يجوز أن تكون لام الابتداء ، لأنها لا تدخل على الفعل الا في باب (أن) ولا تدخل على الماضي • و (ما) في قوله « لبئس ما » قيل فيها قولان : أحدهما ـــ أن تكون (ما) كافة لـ (بئس) كما تكف في (إنما) و (بعدما) و (ربما) والآخر ـــ أن تكون اسماً نكرة كأنه قال : بئس شيئاً فعلوه ، كما تقول بئس رجلا كان عندك •

وفي الآية دلالة على وجوب انكار المنكر ، لأن كل شيء ذم الله عليه فواجب تركه إلا أن يقيد بوقت يخصه ، لأن ظاهر ذلك يقتضي قبحه ، والتحذير منه • والمنكر هو القبيح ، سمي بذلك لأنه ينكره العقل من حيث أن العقل يقبل الحسن ويعترف به ، ولا يأباه وينكر القبيح ويأباه والانكار

ضد الاقرار • فما يقر به العقل هو الحق ، وما ينكره ، فهو الباطل •

وقيل في معنى (المنكر) ــ هاهنا ــ ثلاثة أقوال : أحدها صيد السمك في السبت • والثاني ــ أخذ الرشوة في الحكم • والثالث ــ أكل الربا وأثمان الشحوم • وقال رسول الله (ص) لا قدست أمّة لا تأخذ لضعيفها حقه غير مضيع •

قولــه تعــالى :

تَرَىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ

(٨٣) آية بلاخلاف

هذا خطاب من الله للنبي (ص) يقول له « ترى كثيراً منهم » يعني من هؤلاء اليهود في قول الحسن وأبي علي • وقال غيرهما يعني أهل الكتاب أي « يتولون الذين كفروا » من عبدة الاوثان في قول الحسن وغيره • وقال أبو جعفر يتولون الملوك الجبارين ويزينون لهم أهوائهم ليصيبوا من دنياهم •

فان قيل : كيف يتولى أهل الكتاب عبدة الأوثان مع إكفارهم إياهم على تلك العبادة ؟ ! قلنا لانهم يعملون عمل المتولي بالنصرة والمعاونة والرضا بما يكون منهم من عداوة النبي (ص) ومحاربته • ويجوز أن يكونوا تولوهم على ذلك في الحقيقة ، فيكون على جهة تقييد الصفة •

فان قيل ما الفائدة في اخباره (ص) يراه وهو عالم به؟ قلنا : عنه جوابان :

أحدهما ــ التوبيخ لصاحبه فيقرعون بما هو معلوم من حالهم •

والآخر التنبيه على باطن أمرهم بما يدل عليــه ظاهر حالهم المعلومة

فينكشف باطنهم القبيح .

وقوله « لبئس ما قدمت لهم أنفسهم » قيل في معناه قولان :

أحدهما بئس شيئاً قدموه من العمل لمعادهم في الآخرة في قول أبي علي . واللام لام القسم على ما بيناه .

والثاني ــ أنه يجري مجرى قوله : « سولت لهم أنفسهم » أي قدمت لهم أنفسهم بما بعثهم على تولي الذين كفروا مع مخالفتهم . وقوله : « أن سخط الله عليهم » قيل في موضع « أن سخط الله » قولان :

أحدهما ــ رفع كقولك : ما قدموه لانفسهم سخط الله أي هو سخط الله عليهم وخلودهم في النار بما كان من توليهم ورفعه كرفع (زيد) في قولك : بئس رجلا زيد .

الثاني ــ أنه جر على تقدير لان سخط الله عليهم وحصلوا على الخلود في النار وقال الزجاج : يجوز أن يكون نصباً على تقدير بئس الشيء ذلك ، لأن أكسبهم السخطة عليهم .

قوله تعالى :

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) آية بلا خلاف

قيل في معنى قوله « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم » مع العلم بأنهم لا يؤمنون بالنبي قولان :

أحدهما ــ قال الحسن ومجاهد أنه في المنافقين من اليهود .

الثاني ــ المراد بالنبي موسى (ع) ومعنى (لو) ــ هاهنا ــ النفي

لايمانهم وإن لم يكون حرف نفي لكنه خرج مخرج الحجاج الذي يدل على نفي الايمان • وانما معناه تعليق الثاني بالأول في أنه يجب بوجوبه ، فاذا ظهر أن الثاني لم يجب دل على ان الأول لم يكن قد دخله معنى النفي من هذه الجهة •

فان قيل : إذا كان المؤمن بالله لا يطلق عليه اسم مؤمن إلا وهو مؤمن بالنبي وبما أنزل اليه فلم ذكرا ؟•

قلنا للدلالة على التفصيل لان تلك الصفة وان كانت دالة فانما تدل على طريق الجملة وقوله « ما اتخذوهم أولياء » يعني هؤلاء لو كانوا مؤمنين على الحقيقة لما اتخذوا المشركين أولياء و (ما) يجوز أن تكون جواب (لو) ولا يجوز أن تكون جواب (ان) لأن حرف الجزاء يعمل فيما قبله و (ما) لها صدر الكلام فلا يعمل فيها • وليس كذلك (لم) فلذلك لم يجز ان آتيني ما ضرك ويجوز ان آتيني لم يضرك ، لانه يجوز أن تقول زيدا لم أضرب ولا يجوز أن تقول زيداً ما ضربت وقوله : « ولكن كثيراً منهم فاسقون » إنما وصفهم بالفسق وإن كان الكفر أعظم في باب الذم لامرين :

أحدهما إن معناه خارجون عن أمر الله فهذا المعنى لا يظهر بصفة كافر •

والآخر ان الفاسق في كفره هو المتمرد فيه والكلام يدل على أنهم فاسقون في كفرهم أي خارجون الى التمرد فيه •

قولـه تعـالى :

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ

أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٥﴾

آية بلا خلاف

قيل في سبب نزول هذه الآية قولان :

أحدهما ــ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدي : إنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابه لما اسلموا .

وقال قتادة : نزلت في قوم من أهل الكتاب كانوا على الحق متمسكين بشريعة عيسى (ع) فلما جاء محمد (صلى الله عليه وآله) آمنوا به .

وقال مجاهد : نزلت في الذين جاءوا مع جعفر بن أبي طالب (رحمه الله) مسلمين واللام في قوله « لتجدن » لام القسم . والنون دخلت لتفصل بين الحال والاستقبال ، هذا مذهب الخليل ، وسيبويه وغيرهما . وقوله : « عداوة » منصرف منتصب على التمييز .

وصف الله تعالى اليهود والمشركين بأنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين ، لأن اليهود ظاهروا المشركين على المؤمنين مع أن المؤمنين يؤمنون بنبوة موسى والتوراة التي أتى بها ، فكان ينبغي أن يكونوا الى من وافقهم في الايمان بنبيهم وكتابهم أقرب . وظاهروا المشركين حسداً للنبي (عليه السلام) .

وقوله : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » يعني الذين قدمنا ذكرهم ــ عن المفسرين . وقال الزجاج يجوز أن يكون أراد به النصارى ، لأنهم كانوا أقل مظاهرة للمشركين ، وبه قال الجبائي . وروي عن ابن عباس أنه قال : من زعم أنها في النصارى فقد كذب . وإنما

هم النصارى الأربعون الذين فاضت أعينهم حين قرأ النبي (ص) عليهم القرآن إثنان وثلاثون من الحبشة ، وثمانية من أهل الشام . وسارعوا الى الاسلام ولم يسارع اليهود .

والمودة هي المحبة إذا كان معها ميل الطباع يقال : وددت الرجل أوده ودا ووداداً ومودة : إذا أحببته وودته : إذا تمنيته أوده وداً . ومنه قوله « ودوا لو تدهن فيدهنون » (١) .

وقوله « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبان » فالقسيسون العباد في قول ابن زيد والقس والقسيس واحد إلا أنه قد صار كالعلم على رئيس من رؤساء النصارى في العبادة . ويجمع قسوساً وأصله في اللغة النميمة يقس قساً إذا نم الحديث . قال رؤبة بن العجاج :

يضحكن عن قس الاذى غوافلا لا جعبريات ولا طهاملا (٢)

الطهامل من النساء القباح . ومصدره القسوسة والقسيسة فالقس الذي ينم حاله بالاجتهاد في العبادة . والرهبان جمع راهب ، كراكب وركبان وفارس وفرسان . قال الشاعر :

رهبان مدين لو رأوك تنزلوا والعصم من شعف العقول الفادر (١)

وقيل : إنه يكون واحداً ويجمع رهابين كقربان وقرابين ورهابنة أيضاً قال الشاعر :

---

(١) سورة القلم آية ٩ .

(٢) اللسان (قسس) ، (جعبر) وراينه (يمسين) بدل « يضحكن » .

(١) قائله جرير ديوانه : ٣٠٥ واللسان (ذهب) ، ومعجم البلدان (مدين) .

لو عاينت رهبان دير في القلل لاقبل الرهبان يمشي ونزل [٢]

وكل ذلك من الرهبة التي هي المخافة ورهب يرهب رهباً إذا خاف والترهيب ضد الترغيب . وقوله « وإنهم لا يستكبرون » معناه إن هؤلاء النصارى الذين آمنوا لا يستكبرون عن اتباع الحق والانقياد له كما استكبر اليهود وعباد الأوثان وانفوا من قبول الحق ، وأخبر الله تعالى في هذه الآية عن مجاوري النبي (ص) من اليهود ، ومودة النجاشي وأصحابه الذين أسلموا معه من الحبشة لأن الهجرة كانت الى المدينة وبها اليهود والى الحبشة وبها النجاشي وأصحابه فأخبر عن عداوة هؤلاء ومودة اولئك .

(١) تفسير القرطبي ٦ : ٢٥١ وتفسير الطبري ١٠ : ٥٠٣ .

تم المجلد الثالث من التبيان

ويليه المجلد الرابع وأوله قوله تعالى :

« وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ... (٨٦)

فهارس المجلد الثالث من التبيان

١ ـ فهرس الاحاديث

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

٢ ـ فهرس الردود والاجوبة والادلة

صفحة

صفحة

صفحة

٣ ـ فهرس المباحث اللغوية

صفحة

صفحة

٤ ـ فهرس المواضيع

سورة آل عمران

تم فهرس المجلد الثالث من التبيان

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥-٤٦٠ هـ

تحقيق وتصحيح

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الرابع

دار

إحياء التراث العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما تفضل وأنعم وصلى الله على محمد وآله وسلم

وبعد لقد نفدت الطبعة الأولى من هذا السفر النفيس ورأينا الطلب لم يزل كما هو فعزمنا على إعادته طبعة ثانية متكلين على الله تعالى وحده .

وسوف نعتني بضبط ما فاتنا من الأخطاء إن شاء الله تعالى . وعلينا أن نبذل الجهد ، وعلى الله التوفيق .

أحمد حبيب قصير العاملي

قوله تعـالى :

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ (٨٦) آية بلا خلاف.

هذا وصف للذين آمنوا من هؤلاء النصارى الذين ذكرهم الله أنهم أقرب مودة للمؤمنين بأنهم اذا سمعوا ما أنزل الله من القرآن يتلى « ترى أعينهم تفيض من الدمع » يعني من آمن من هؤلاء النصارى . قال الزجاج وأبو علي : تقديره ومنهم اذا سمعوا ولم يذكر (منهم) لدلالة الكلام عليه وما وصفهم به فيما بعده . وفيض العين من الدمع امتلاؤها منه سيلاً ومنه فيض النهر من الماء وفيض الاناء،وهو سيلانه عن شدة امتلاء،ومنه قول الشاعر:

ففاضت دموعي فظـل الشؤو ن إما وكيفاً وإما انحدارا [1]

وخبر مستفيض أي شائع ، وفاض صدر فلان بسره ، وأفاض القوم من عرفات الى منى اذا دفعوا ، وأفاض القوم في الحديث اذا اندفعوا فيـه ، والدمع الماء الجاري من العين ويشبه به الصافي،فيقال دمعة . والمدامع مجاري الدمع وشجة دامعة تسيل دماً .

وقوله « مما عرفوا من الحق » أي مما علموه من صدق النبي وصحة ما أتى به « يقولون ربنا » في موضع الحال ، وتقديره قائلين « ربنا آمنا » أي صدقنا بما أنزلت « فاكتبنا مع الشاهدين » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ فاجعلنا مع الشاهدين فيكون بمنزلة ما قد كتب ودون .

الثاني ـ فاكتبنا معهم في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ .و(الشاهدين) قال ابن عباس وابن جريج : مع أمة محمد (ص) الذين يشهدون بالحق من

(١) قائله الاعشى . ديوانه : ٣٥ .

قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » [١]
وقال الحسن : هم الذين يشهدون بالايمان . وقال أبو علي الذين يشهدون بتصديق نبيك وكتابك .

قوله تعـالى :

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٧) آية بلا خلاف.

هذا إخبار عن هؤلاء الذين آمنوا من النصارى بأنهم قالوا : « ومالنا » قال الزجاج : وهو جواب لمن قال لهم من قومهم معنفين لهم : لم آمنتم . وقال غيره : قدروا في أنفسهم كأن سائلاً يسألهم عنه ، فاجابوا بذلك .وقوله « لا نؤمن » في موضع نصب على الحال ، وتقديره أي شيء لنا تاركين للايمان أي في حال تركنا للايمان . والايمان هو التصديق عن ثقة ، لأن الصدق راجع الى طمأنينة القلب بما صدق به . والحق هو الشيء الذي من عمل عليه نجا ، ومن عمل على ضده من الباطل هلك . ومعنى (من) ـ هاهنا ـ قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ تبيين الاضافة التي تقوم مقام الصفة ، كأنه قيل : والجائي لنا الذي هو حق .

وقال آخرون : إنها للتبعيض لأنهم آمنوا بالذي جاءهم على التفصيل . ووصف القرآن بأنه (جاء) مجاز ، كما قيل : نزل ، ومعناه نزل به الملك ، فكذلك جاء به الملك . ويقـال : جاء بمعنى حدث نحو « جاءت سكرت الموت » [٢] وجاء البرد والحر .

وقوله « ونطمع » فالطمع تعلق النفس بما يقوى أن يكون من معنى

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٤٣ (٢) سورة ٥٠ ق آية ١٩

المحبوب ، ونظيره الأمل والرجاء فالطمع يكون معه الخوف أو لا يكون • « أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » معناه أن يدخلنا معهم الجنة•والصالح هو الذي يعمل الصلاح في نفسه واذا عمله في غيره فهو مصلح ، فلذلك لم يوصف الله تعالى بأنه صالح ووصف بأنه مصلح •

قوله تعـالى :

فَأَثَابَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٨) آية بلا خلاف •

معنى « فأثابهم الله » جازاهم الله بالنعيم على العمل كما أن العقاب الجزاء بالعذاب على العمل وأصل الثواب الرجوع • ومنه قوله « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » [١] أي هل رجع اليهم جزاء عملهم • وقوله « بما قالوا » يعني قولهم « ربنا آمنا » وقوله « جنات تجري من تحتها الأنهار » إنما ذكرها بلفظ الجمع وإن كانت هي جنة الخلد ، لأنها جنة فيها جنات أي بساتين ، وتذكر بالجمع لتبين عن اختلاف صورها وأحوال أشجارها وأنهارها ووجوه الاستمتاع بها ، ووجه آخر : هو أن يكون جمعها مضافاً اليهم كما يقال لهم جنة الخلد إلا أنها مرة تذكر على طريق الجنس ، ومرة على غير طريق الجنس • وقوله « وذلك جزاء المحسنين » (ذلك) إشارة الى الثواب •

والاحسان هو إيصال النفع الحسن الى الغير ، وضده الاساءة ، وهي إيصال الضرر القبيح اليه ، وليس كل من كان من جهته إحسان فهو محسن مطلقاً ، فالمحسن فاعل الاحسان الخالي مما يبطله ، كما أن المؤمن هو فاعل الايمان الخالص مما يحبطه ، وعندنا لا يحتاج الى شرط خلوه مما يبطله ، لأن الاحباط عندنا باطل ، لكن يحتاج أن يشرط فيه أن يكون خالياً من وجوه

(١) سورة ٨٣ المطففين آية ٣٦ •

القبح .وقوله « وذلك جزاء المحسنين » وإن كان مطلقاً فهو مقيد في المعنى بالمحسنين الذين يجوز عليهم الوعد بالنفع ، لأنه وعد به ، ألا ترى أن الله تعالى يفعل الاحسان وإن كان لا يصح عليه الثواب لأنه مضمن بمن يجوز عليه المنافع والمضار فجزاؤه هذه المنافع العظام دون المضار ، لأنه خرج مخرج استدعاء العباد الى فعل الاحسان .

قوله تعـالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ

(٨٩) آية بلا خلاف .

لما كان أهل الكتاب فريقين أحدهما آمنوا ، والثاني كفروا ، وذكر الوعد للمؤمنين منهم اقتضى أن يذكر الوعيـد لمن كفر منهم وأطلق اللفظ ليكون لهم ولكل من جرى مجراهم ، وإنما شرط في الوعيـد على الكفر بالتكذيب بالآيات وإن كان كل واحد منهما يستحق به العقاب ، لأن صفة الكفار من أهل الكتاب أنهم يكذبون بالآيات ، فلم يصلح ـ هاهنا ـ لو كذبوا لأنهم قد جمعوا الأمرين ، ولأن دعوة الرسول (ص) بوعيد الكفار ظاهرة مع مجيء القرآن به في نحو قوله « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » [١] فلم يقع فيه اشكال لهذا . وقوله « أولئك » يعني هؤلاء الكفار .

و « أصحاب الجحيم » يعني الملازمون لها ، كقولك أصحاب الصحراء وليس كمثل أصحاب الاموال ، لأن معنى ذلك ملاك الأموال . وليس من شرط المكذب أن يكون عالماً أن ما كذب به صحيح بل اذا اعتقد أن الخبر كذب سمي مكذباً ، وإن لم يعلم أنه كذب ، وإنما يستحق الذم ، لأنه جعل

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٧ ، ١١٥ .

له طريق الى أن يعلم صحة ما كذب به • و « الجحيم » النار الشديدة الايقاد وهو إسم من أسماء جهنم ويقال : جحم فلان النار اذا شدد ايقادها ، ويقال أيضاً لعين الاسد : جحمة لشدةايقادها ، ويقال ذلك للحرب أيضاً قال الشاعر:

والحرب لا تبقى لجـا حمها التخيل والمراح
إلاّ الفتى الصبارفي النجـ ـدات والفرس الوقاح[1]

قوله تعـالى :

يَا أيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٩٠) آية بلا خلاف •

هذا خطاب للمؤمنين خاصة نهاهم الله أن يحرموا طيبات ما أحل الله لهم • والتحريم هو العقد على مالا يجوز فعله للعبد ، والتحليل حل ذلك العقد ، وذلك كتحريم السبت بالعقد على أهله ، فلا يجوز لهم العمل فيه ، وتحليله تحليل ذلك العقد بأنه يجوز لهم الآن العمل فيه • والطيبات اللذيذات التي تشتهيها النفوس وتميل اليها القلوب • ويقال : طيب بمعنى حلال • وتقول : يطيب له كذا أي يحل له ، ولا يليق ذلك بهذا الموضوع ، لأنه لا يقال : لا تحرموا حلال ما أحل الله لكم •

والذي اقتضى ذكر النهي عن تحريم الطيبات ــ على ما قال ابن عباس ومجاهد وأبو مالك وقتادة وابراهيم ــ حال الرهبان الذين حرموا على أنفسهم المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة وحبسوا أنفسهم في الصوامع وساحوا في الأرض ، وحرموا النساء ، فهمّ قوم من الصحابة أن يفعلوا مثل ذلك ،فنهاهم الله عن ذلك • وقال أبو علي : نهوا أن يحرموا الحلال من الرزق بما يخلطه من الغصب • واختار الرماني الوجه الأول ، لأن أكثر المفسرين عليه •

(١) انظر ٢ : ٤٣٨ من هذا الكتاب •

وقال السدي : نهاهم الله عما همّ به عثمان بن مظعون من جب نفسه •

وقال عكرمة : هو ما همّت به الجماعة : من تحريم النساء والطعام واللباس والنوم •

وقال الحسن : لا تعتدوا الى ما حرم عليكم وهو أعم فائدة • والاعتداء مجاوزة حد الحكمة الى ما نهى عنه الحكيم ، وزجر عنه إما بالعقل أو السمع، وهو تجاوز المرء ماله الى ماليس له • وقوله « إن الله لا يحب المعتدين » معناه يبغضهم ويريد الانتقام منهم وانما ذكره على وجه النفي لدلالة هذا النفي على معنى الاثبات إذ ذكر في صفة المعتدين ، وكأنه قيل يكفيهم في الهلاك ألا يحبهم الله •

قوله تعـالى :

وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٩١) آية اجماعاً •

سبب نزول هذه الآية والتي قبلها على ما قال عكرمة وأبو قلابة وأبو مالك وابراهيم وقتادة والسدي وابن عباس والضحاك : إن جماعة من الصحابة منهم علي (ع) وعثمان بن مظعون وابن مسعود وعبدالله بن عمر ، همّوا بصيام الدهر وقيام الليل ، واعتزال الناس وجب أنفسهم وتحريم الطيبات عليهم • فروي أن عثمان بن مظعون قال أتيت النبي (ص) فقلت : يارسول الله إئذن لي في الترهب فقال : (لا إنما رهبانية أمتي الجلوس في المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة) فقلت : يا رسول الله أتأذن لي في السياحة قال : (سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله) فقلت : يا رسول الله أتأذن لي في الاختصاء فقال : (ليس منا من خصا واختصا إنما اختصاء أمتي الصوم) •

وقوله « وكلوا » لفظه لفظ الأمر والمراد به الاباحة أباح الله تعالي

للمؤمنين أن يأكلوا مما رزقهم حلالاً طيباً ، فالرزق هو ما للحي الانتفاع به وليس لغيره منعه منه • وقال الرماني : الرزق هو العطاء الجاري في الحكم ومن ذلك قيل : رزق السلطان الجند اذا جعل لهم عطاء جارياً في حكمه في كل شهر أو في كل سنة • قال الرماني : وكلما خلقه الله في الأرض مما يملك، فهو رزق للعباد في الجملة بدلالة قوله « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » (١) ولولا ذلك لجوزنا أن يكون منه ما ليس للانس إلا أنه وإن كان رزقاً لهم في الجملة فتفصيل قسمته على ما يصح ويجوز من الأملاك ، ولا يجوز أن يكون الرزق حراماً ، لأن الله منع منه بالنهي ، فاما البغاة فيرزقون حراماً اذا حكموا بأن المال للعبد ، وهو مغصوب لا يحل ، قال وما افترسه السبع رزق له بشرط غلبته عليه كما أن غنيمة المشركين رزق لنا بشرط غلبتنا عليها ، لأن المشرك يملك ما في يده ، فاذا غلبنا عليه بطل ملكه ، وصار رزقاً لنا في هذه الحال ، قال : وقد أمرنا بأن نمنعه من الانسان مع الامكان ، وأذن لنا أن نمنعه من غيره من نحو الميتة والوحش إن شئنا ويسقط جميع ذلك في حال التعذر علينا •

وعندي أنه لا يجب أن يطلق أن ما يغلب عليه السبع رزق له بل إنما نقول : إن رزقه ما ليس لنا منعه منه فأما مالنا منعه منه إما بأن يكون ملكاً لنا أو أذن لنا فيه ، فلا يكون رزقاً له بالاطلاق ، وقد يسلط الله السبع على بعض المشركين فيكون رزقاً له وعقاباً للمشرك ، والأصل فيه قوله تعالى « وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها » (٢) فمفهوم هذا أنه رزقه بشرط الغلبة عليه •

فان قيل : اذا كان الرزق لا يكون إلا حلالاً فلم قال : (حلالاً) ؟
قيل : ذكر ذلك على وجه التأكيد كما قال «وكلم الله موسى تكليماً» (٣)

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٩ (٢) سورة ١١ هود آية ٦
(٣) سورة ٤ النساء آية ١٦٣

وقد أطلق في موضع آخر على جهة المدح « ومما رزقناهم ينفقون » [١] .

وقوله : « واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » استدعاء الى التقوى بألطف الاستدعاء ، وتقديره أيها المؤمنون بالله لا تضيعوا ايمانكم بالتقصير في التقوى فيكون عليكم الحسرة العظمى واتقوا تحريم ما أحله الله لكم في جميع معاصيه من أنتم به تؤمنون وهو الله تعالى .

وأصل الصفة التعريف ثم يخرج الى غير ذلك من المدح والذم وغير ذلك من المعاني التي تحسن في مخرج الصفة ، فلذلك قال الذي « أنتم به مؤمنون » وفي هاتين الآيتين دلالة على كراهة التخلي والتفرد والتوحش والخروج عما عليه الجمهور في التأهل وطلب الولد وعمارة الأرض .

قوله تعالى :

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٩٢)

آية بلا خلاف .

قرأ « عاقدتم » بالألف ابن عامر ، و « عقدتم » بلا ألف مع تخفيف القاف حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم . والباقون بالتشديد . ومنع من القراءة بالتشديد الطبري ، قال : لانه لا يكون إلاّ مع تكرير اليمين والمؤاخذة تلزم من غير تكرير بلا خلاف . وهذا ليس بصحيح لان تعقيد

(١) سورة ٢ البقرة آية ٣ .

اليمين إن يعقدها بقلبه ولفظه ولو عقد عليها في أحدهما دون الآخر لم يكن تعقيداً ، وهو كالتعظيم الذي يكون تارة بالمضاعفة وتارة بعظم المنزلة . وقال أبو علي الفارسي من شدد احتمل أمرين :

أحدهما ـ أن يكون لتكثير الفعل لقوله « ولكن يؤاخذكم » مخاطباً الكثرة ، فهو مثل « وغلقت الابواب » (١) .

والآخر أن يكون (عقد) مثل (ضعف) لا يراد به التكثير ، كما أن (ضاعف) لا يراد به فعل من اثنين . وقال الحسين بن علي المغربي : في التشديد فائدة ، وهو أنه اذا كرر اليمين على محلوف واحد فاذا حنث لم يلزمه إلا كفارة واحدة . وفي ذلك خلاف بين الفقهاء . والذي ذكره قوي .

ومن قرأ بالتخفيف جاز أن يريد به الكثير من الفعل والقليل إلا ان فعّل يختص بالكثير كما أن الركبة تختص بالحال التي يكون عليها الركوب ، وقالوا : عقدت الحبل والعهد واليمين عقداً ألا ترى أنها تتلقى بما يتلقى به القسم ، قال الشاعر :

قوم اذا عقدوا عقداً لجارهم (٢)

ويقال : أعقدت العسل فهو معقد وعقيد . وحكى أبو اسحاق عقدت العسل . والأول أكثر .

فأما قراءة ابن عامر فيحتمل أمرين :

أحدهما ـ ان يكون عاقدتم يراد به عقدتم كما أن (عافاه الله)و(عاقبت اللص) و (طارقت النعل) بمنزلة فعلت. ويحتمل أن يكون أراد فاعلت الذي يقتضي فاعلين فصاعداً ، كأنه قال يؤاخذكم بما عاقدتم عليه اليمين ، ولما كان عاقد في المعنى قريباً من عاهد عدّاه بـ (على) كما يعدى عاهد بها . قال الله تعالى « ومن أوفي بما عاهد عليه الله » (٣) والتقدير يؤاخذكم بالذي عاقدتم

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٢٣ (٢) اللسان (عقد)
(٣) سورة الفتح آية ١٠

عليه ، ثم قال : عاقدتموه الايمان فحذف الراجع • ويجوز أن يجعل (ما) مع الفعل بمنزلة المصدر فيمن قرأ عقدتم بالتخفيف والتشديد ، فلا يقتضي راجعاً كما لا يقتضيه في قوله « ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » (١) •

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان :

أحدهما ـ قال ابن عباس : إن القوم لما حرموا الطيبات من المآكل والمناكح والملابس حلفوا على ذلك فنزلت الآية •

وقال ابن زيد نزلت في عبدالله بن رواحة كان عنده ضيف فأخرت زوجته عشاه فحلف لا يأكل من الطعام ، وحلفت المرأة لا تأكل إن لم يأكل ، وحلف الضيف لا يأكل ان لم يأكلا ، فأكل عبدالله بن رواحة واكلا معه ، وأخبر النبي (ص) بذلك فقال له : أحسنت • ونزلت هذه الآية • واللغو في اللغة هو مالا يعتد به قال الشاعر :

أو مائـــةتجعـــل أولادها لغواً وعرض المائة الجلمد(٢)

أي الذي يعارضها في قوة الجلمد يعني بالمائة نوقاً أي لا يعتـــد به بأولادها • ولغو اليمين هو الحلف على وجه الغلط من غير قصد مثل قول القائل : لا والله وبلى والله على سبق اللسان ، هذا هو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) وهو قول أبي علي الجبائي • وقال الحسن وأبو مالك : هو اليمين على ما يرى صاحبها أنه على ما حلف ولا كفارة في يمين اللغو عند أكثر المفسرين والفقهاء • وروي عن ابراهيم أن فيها الكفارة بخلاف عنه •

بين الله تعالى بهذه الآية أنه لا يؤآخذ على لغو الأيمان وأنه يؤآخذ بما عقد عليه قلبه ونواه •

وقوله « فكفارته » (الهاء) يحتمل رجوعها الى أحد ثلاثة أشياء . أحدها ـ الى (ما) من قوله بما عقدتم الايمان • الثاني ـ على اللغو • الثالث ـ على حنث اليمين لانه مدلول عليه • والأول هو الصحيح ، وبه قال

(١) سورة البقرة آية ١٠ (٢) اللسان (جلمد) •

الحسن والشعبي وأبو مالك وعائشة • وقوله « إطعام عشرة مساكين » إنما ذكر بلفظ المذكر تغليباً للتذكير في كلامهم لأنه لا خلاف أنه لو أطعم الاناث لأجزاه ، ويحتاج أن يعطي قدر ما يكفيهم • وقد حده أصحابنا أن يعطي كل واحد مدّين أو مدّاً ، وقدره رطلان وربع منفرداً ، أو يجمعهم على ما هذا قدره ليأكلوه • ولا يجوز أن يعطي خمسة ما يكفي عشرة ، وهو قول أبي علي ، وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف •

وهل يجوز اعطاء القيمة ؟ فيه خلاف ، والظاهر يقتضي أنه لا يجزى والروايات تدل على إجزائه ، وهو قول أبي علي وأهل العراق • وانما ذكر الكفارة في الآية ولم يذكر التوبة ، لان المعنى فكفارته الشرعية كذا • واما العقاب فلأنه يجوز أن تكون المعصية صغيرة أو كبيرة فلأجل ذلك لم يبين • وعندنا أن حكم التوبة معلوم من الشرع ، فلذلك لم يذكر •

وقوله « من أوسط ما تطعمون » قيل فيه قولان :

أحدهما ــ الخبز والأدم دون اللحم ، لأن أفضله الخبز واللحم والتمر ، وأوسطه الخبز والزيت أو السمن ، وأدونه الخبز والملح • وبه قال ابن عمر والأسود وعبيدة وشريح •

الثاني ــ قيل : أوسطه في المقدار إن كنت تشبع أهلك أو لا تشبعهم ، بحسب العسر واليسر ، فبقدر ذلك ــ هذا قول ابن عباس والضحاك ــ وعندنا يلزمه أن يطعم كل مسكين مدين ، وبه قال علي (ع) وعمر وابراهيم وسعيد بن جبير والشعبي ومجاهد • وقال قوم : يكفيه مد ــ ذهب اليه زيد ابن ثابت والشافعي والطبري وغيرهم ــ وروي ذلك في أخبارنا •

وقوله « أو كسوتهم » فالذي رواه أصحابنا أنه ثوبان لكل واحد مئزر وقميص ، وعند الضرورة قميص ، وقال الحسن ومجاهد وعطاء وطاوس وابراهيم : ثوب • وقوله « أو تحرير رقبة » فالرقبة التي تجزي في الكفارة

كل رقبة كانت سليمة من العاهة صغيرة كانت أو كبيرة مؤمنة كانت أو كافرة والمؤمنة أفضل ، لأن الآية مطلقة مبهمة . وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف . وما قلناه قول أكثر المفسرين : الحسن وغيره ، ومعنى فتحرير رقبة عتق رقبة. وقيل : تحرير من الحرية أي جعلها حرة قال الفرزدق :

ابني عدانة انني حررتكم فوهبتكم لعطية بن جعال [1]

أي أعتقتكم من ذل الهجاء ولزوم العار . وهذه الثلاثة أشياء مخير فيها بلا خلاف وعندنا أنها واجبة على التخيير . وقال قوم إن الواجب منها واحد لا بعينه . والكفارة قبل الحنث لا تجزي وفيه خلاف .

وقوله « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » يحتمل رفعه أن يكون بالابتداء وخبره فكفارته ، ويجوز أن يكون رفعاً بالخبر ، ويكون تقديره فكفارته صيام . وحد من ليس بواجد هو (من ليس عنده ما يفضل عن قوته وقوت عياله يومه وليلته) وهو قول قتادة والشافعي . وصوم الثلاثة أيام متتابعة ، وبه قال ابن كعب وابن عباس ومجاهد وابراهيم وقتادة وسفيان وأكثر الفقهاء . ويقويه أنه في قراءة ابن مسعود وابي « صيام ثلاثة أيام متتابعات ». وقال مالك والحسن : التتابع أفضل والتفريق يجوز . فاما اذا قال القائل : إن فعلت كذا فلله علي أن أتصدق بمئة دينار ، فان هذا نذر عندنا ، وعند أكثر الفقهاء ، — يلزمه به مئة دينار . وقال أبو علي عليه كفارة يمين — لقوله « ذلك كفارة أيمانكم » وهو عام في جميع الأيمان . وهذا ليس بيمين عندنا بل هو نذر يلزمه الوفاء به لقوله «أوفوا بالعقود»[2] واليمين على ثلاثة أقسام:

أحدها — عقدها طاعة وحلها معصية ، فهذه يتعلق بحنثها كفارة بلا خلاف كقوله : والله لا شربت خمراً ، ولا قتلت نفساً .

الثاني — عقدها معصية وحلها طاعة كقوله : والله لا صليت ولا صمت ، فاذا جاء بالصلاة والصوم ، فلا كفارة عليه — عندنا — وخالف جميع الفقهاء

(١) ديوانه : ٧٢٦ ، والنقائض : ٢٧٥ (٢) سورة ٦ الانعام آية ١

في ذلك واوجبوا عليها عليه الكفارة •

الثالث ــ أن يكون عقدها مباحاً كقوله : والله لا لبست هذا الثوب فمتى حنث تعلق به الكفارة بلا خلاف • وقوله « ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم » معناه حنثتم •

وقوله « واحفظوا ايمانكم » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ احفظوها أن تحلفوا بها ، ومعناه لا تحلفوا •

الثاني ــ احفظوها من الجنث ، وهو الاقوى ، لأن الحلف مباح إلا في معصية بلا خلاف ــ وانما الواجب ترك الحنث ، وذلك يدل على أن اليمين في المعصية غير منعقدة ، لأنها لو انعقدت للزم حفظها ، واذا لم تنعقد لم تلزمه كفارة على ما بيناه •

وقوله « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » معناه إن الله يبين لكم آياته وفرائضه كما بين لكم أمر الكفارة لتشكروه على تبيينه لكم أموركم ونعمه عليكم وتسهيله عليكم المخرج من الاثم بالكفارة • فأما إقسام الأيمان وما ينعقد منها وما لا ينعقد وشرائطها ، فقد بيناها في كتب الفقه مشروحة لا نطول بذكرها الكتاب •

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٣) آية بلا خلاف •

هذا خطاب للمؤمنين أخبرهم الله تعالى أن الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس ، فالخمر عصير العنب المشتد ، وهو العصير الذي يسكر كثيره وقليله • والخمر حرام وتسمى خمراً لأنها بالسكر تغطي على العقل ،

والأصل في الباب التغطية من قول أهل اللغة خمرت الأناء اذا غطيته ، ومنه دخل في خمار الناس اذا خفي فيما بينهم بسترهم له والخمير العجين الذي يغطى حتى يختمر ، وخمار المرأة ، لأنها تغطي رأسها به . وخامره الحزن اذا خالطه منتشراً في قلبه واستخمرت فلاناً أي استعبدته . والاصل فيه أمرته أن يتخذ الخمر ، ثم كثر حتى جرى في كل شيء يأمر به . وعلى هذا الاشتقاق يجب أن يسمى النبيذ وكل مسكر على اختلاف أنواعه خمراً ، لاشتراكها في المعنى وان يجري عليها أجمع جميع أحكام الخمر .

و « الميسر » القمار كله مأخوذ من تيسير أمر الجزور بالاجتماع على القمار فيه والذي يدخل فيه ييسر والذي لا يدخل فيه برم . قال أبو جعفر(ع) ويدخل فيه الشطرنج والنرد وغير ذلك حتى اللعب بالجوز . والأصل فيه اليسر خلاف العسر وسميت اليد اليسرى تفاؤلاً بتيسير العمل بها . وقيل : بل لأنها تعين اليمنى فيكون العمل أيسر ، وذهب يسرة خلاف يمنة .

« والأنصاب » الاصنام واحدها نصب . وقيل لها أنصاب ، لانها كانت تنصب للعبادة وأصله الانتصاب : القيام ، نصب ينصب نصباً . ومنه النصب التعب عن العمل الذي ينتصب له ، ونصاب السكين ، لأنها تنصب فيه ، ومناصبة العدو : الانتصاب لعداوته قال الاعشى :

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه   ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا[1]

و « الأزلام » القداح،وهي سهام كانوا يجيلونها ويجعلون عليها علامات (إفعل ، ولا تفعل) ونحو ذلك على ما يخرج من ذلك في سفر أو إقامة أو غير ذلك من الامور المهمة ، وكانوا يجيلونها للقمار ، واحدها زلم ، وزلم . وقال الاصمعي : كان الجزور يقسمونه على ثمانية وعشرين جزءاً . وقال أبو عمرو : كان عددها على عشرة . وقال أبو عبيدة : لا علم لي بمقدار عدتها ، وقد ذكرت أسماؤها مفصلاً ، وهي عشرة : ذوات الحظوظ منهـا سبعة

(١) ديوانه ٤٦ وروايته (الأوثان) بدل (الشيطان) .

وأسماؤها : الفذ ، والتوءم ، والرقيب ، والحلس ، والنافس ، والمسبل ، والمعلى • والاغفال التي لا حظوظ لها ثلاثة اسماؤها : السفيح ، والمنيح ، والوغد • ذكر القتيبي ذلك •

وقوله « رجس » أي نجس « والرجز » العذاب • ومنه قوله « لئن كشفت عنا الرجز » (١) أي العذاب وقوله « والرجز فاهجر » (٢) يعني الاوثان • ومعناه الرجس فاهجر ، وأصل الرجز تتابع الحركات يقال ناقة رجزاء اذا كانت ترتعد قوائمها في ناحية • وقال الزجاج : يقال : رجس يرجس اذا عمل عملا قبيحاً • والرجس بفتح الراء شدة الصوت ، وسحاب الرجاس ، ورعد رجاس اذا كان شديد الصوت قال الشاعر :

وكل رجاس يسوق الرجسا (٣)

وقوله « من عمل الشيطان » إنما نسبها الى عمل الشيطان وهي أجسام لما يأمر به فيها من الفساد فيأمر بالسكر ليزيل العقل ، ويأمر بالقمار لاستعمال الاخلاق الدنيئة ويأمر بعبادة الأوثان لما فيها من الكفر بالله العظيم ، ويأمر بالأزلام لما فيها من ضعف الرأي والاتكال على الاتفاق • وقوله « فاجتنبوا » أمر بالاجتناب أي كونوا جانبا منه في ناحية « لعلكم تفلحون » ومعناه لكي تفوزوا بالثواب •

وفي الآية دلالة على تحريم الخمر ، وهذه الأشياء الأربعة من أربعة أوجه:

أحدها ـ أنه وصفها بأنها رجس وهي النجس والنجس محرم بلا خلاف •

الثاني ـ نسبها الى عمل الشيطان وذلك لا يكون الا محرماً •

والثالث ـ أنه أمرنا باجتنابه • والامر يقتضي الايجاب •

الرابع ـ أنه جعل الفوز والفلاح باجتنابه •

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٣٣ (٢) سورة ٧٤ المدثر آية ٥

(٣) اللسان (رجس) •

والهاء في قوله « فاجتنبوه » راجعة الى عمل الشيطان ، وتقديره اجتنبوا عمل الشيطان . قال ابن عباس : الرجس ـ هاهنا ـ معناه السخط . وقال ابن زيد : هو الشر .

قوله تعالى :

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩٤) آية بلا خلاف .

قيل في سبب نزول هذه الآية قولان :

أحدهما ـ أنه لاحق سعد بن أبي وقاص رجلا من الانصار ، وقد كانا شربا الخمر فضربه بلحي جمل ففزر أنف سعد بن ابي وقاص ، فنزلت هذه الآية.

الثاني ـ أنه لما نزل قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »(١) قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت هذه الآية .

والشيطان انما يريد إيقاع العداوة والبغضاء بينهم بالاغراء المزين لهم ذلك حتى اذا سكروا زالت عقولهم وأقدموا من المكاره والقبائح على ماكانت تمنعه منه عقولهم . وقال قتادة : كان الرجل يقامر في ماله وأهله فيقمر ، ويبقى حزيناً سليباً فيكسبه ذلك العداوة والبغضاء .

وقوله « ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة » أي يمنعكم من الذكر لله بالتعظيم له والشكر له على آلائه ، لما في ذلك من الدعاء الى الصلاح واستقامة الحال في الدين والدنيا بالرغبة فيما عنده ، والتوسل اليه بالاجتهاد في طاعته التي تجمع محاسن الافعال ومكارم الاخلاق .

وقوله « فهل أنتم منتهون » ؟ صيغته صيغة الاستفهام ومعناه النهي ، وانما جاز ذلك ، لأنه اذا ظهر قبح الفعل للمخاطب صار في منزلة من نهي عنه ،

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٢ .

فاذا قيل له : أتفعله ؟ بعد ما قد ظهر من أمره وصار في محل من عقد عليه باقراره •

فان قيل : ما الفرق بين انتهوا عن شرب الخمر ، وبين لا تشربوا الخمر، قلنا : لأنه اذا قال:انتهوا دل ذلك على أنه مريد لأمر ينافي شرب الخمر• وصيغة النهي إنما تدل على كراهة الشرب ، لأنه قد ينصرف عن الشرب الى أخذ أشياء مباحة ،وليس كذلك المأمور به، لأنه لا ينصرف عنه إلا فيمحذور • والمنهي عنه قد ينصرف عنه الى غير مفروض •

قوله تعالى :

وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٥) آية بلاخلاف •

لما أمر الله تعالى باجتناب الخمر والميسر والانصاب والازلام أمر في هذه الآية بطاعته في ذلك وغيره من أوامر الله تعالى • والطاعة هي امتثال الأمر ، والانتهاء عن المنهي عنه ، ولذلك يصح أن تكون الطاعة طاعة لاثنين بأن يوافق أمرهما وإرادتهما •

وقوله « واحذروا » أمر منه تعالى بالحذر ، وهو امتناع القادر من الشيء لما فيه من الضرر • والخوف هو توقع الضرر الذي لا يؤمن كونه • والجزع مفاجأة الضرر الذي يزعج النفس مثله • والفزع والرعب مثل الجزع•

وقوله « فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين » معناه الوعيد والتهديد كأنهقال : فاعلموا أنكم قد حق لكم العقاب لتوليكم عما أدى رسولنا من البلاغ المبين ، يعني الأداء الظاهر الواضح ، فوضع كلام موضع كلام للايجاز ولو كان على صيغته من غير هذا التقدير لم يصح ، لأن عليهم أن يعلموا ذلك تولوا أو لم يتولوا • و « ما » في قوله : « أنما »كافة

لـ « أن » عن عملها ، وذلك أنها لما كانت من عوامل الاسماء خاصة ثم احتيج الى ادخالها على غيرها زيد عليها (ما) ليعلم تغيرها عن حالها فصارت كافة لها .

قوله تعالى :

لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا ٱتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (٩٦) آية .

قال ابن عباس وابن مالك والبراء بن عازب ومجاهد ، وقتادةوالضحاك: إنه لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة كيف بمن مات من اخواننا وهويشربها، فأنزل الله الآية وبين أنه ليس عليهم في ذلك شيء اذا كانوا مؤمنين عاملين للصالحات ، ثم يتقون المعاصي وجميع ما حرم الله عليهم .

فان قيل لم كرر الاتقاء ثلاث مرات في الآية ؟

قيل : الأول المراد به اتقاء المعاصي . الثاني ــ الاستمرار على الاتقاء . والثالث ــ اتقاء مظالم العباد ، وضم الاحسان الى الاتقاء على وجه الندب واعتبر أبو علي في الثالث الأمرين .

وقوله « والله يحب المحسنين » أي يريد ثوابهم واجلالهم واكرامهم . والاحسان النفع الحسن الواصل الى الغير ، ولا يقال لكل حسن إحسان ، لأنه لا يقال في العذاب بالنار أنه إحسان وان كان حسناً . والصلاح استقامة الحال وهو مما يفعله العبد ،وقد يفعل الله تعالى له الصلاح في دينه باللطف فيه . والايمان هو الاطمئنان الى الصواب بفعله مع الثقة به وهو من أفعال العباد . وعلى هذا يحمل قوله « وآمنوا » والاول على الايمان بالله الذي هو التصديق . وروي أن قدامة بن مظعون شرب الخمر في أيام عمر ، فأراد

عمر أن يقيم عليه الحد فقال « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » فأراد عمر أن يدرأ عنه الحد حين لم يعلم تحريمها . فقال أمير المؤمنين (ع) أديروه على الصحابة ، فان لم يسمع أحداً منهم قرأ عليه آية التحريم ، فأدرؤا عنه ، وان كان قد سمع فاستتيبوه ، وأقيموا عليه الحد، فان لم يتب وجب عليه القتل .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٧) آية واحدة بلاخلاف .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين وقسم منه أنه يبلوهم بشيء من الصيد، لأن اللام في قوله : « ليبونكم » لام القسم والواو مفتوحة لالتقاء الساكنين في قول بعضهم مثل (واو) اغزون . وأما واو « ليبونكم » قال سيبويه هي مبنية على الفتح . وقال الزجاج : فتحت واو « ليبلونكم » لأنها حرف الاعراب الذي تتعاقب عليه الحركات وضمت واو « لتبلون » لأنها واو الجمع ، فصح لالتقاء الساكنين نحو قوله « فلا تخشوا الناس واخشوني »[1] ومعنى « ليبلونكم » ليختبرن طاعتكم من معصيتكم « بشيء من الصيد » وأصله اظهار باطن الحال ومنه البلاء للنعمة لأنه يظهر به باطن حال المنعم عليه في الشكر ، والكفر . والبلاء النقمة ، لانه يظهر به ما يوجبه كفر النعمة . والبلى الخلوقة لظهور تقادم العهد فيه .

وقوله « بشيء من الصيد » قيل في معنى (من) ثلاثة أوجه :

أحدها ــ صيد البر ، دون البحر . والآخر صيد الاحرام دون الاحلال.

(١) سورة ٥ المائدة آية ٤٧ .

الثالث ــ للتجنيس نحو اجتنبوا الرجس من الاوثان ــ في قول الزجاج ــ

وقوله « تناله أيديكم ورماحكم » يعني به فراخ الطيور وصغار الوحش في قول ابن عباس ومجاهد ، وزاد مجاهد : والبيض . والذي تناله الرماح الكبار من الصيد . قال أبو علي : معنى « تناله أيديكم ورماحكم » إن صيد الحرم يقرب من الناس ولا ينفر منهم فيه كما ينفر في الحل ، وذلك آية من آيات الله . وقال الحسن ومجاهد : حرم الله بهذه الآية صيد البرّ كله . وقال أبو علي : صيد الحرم هو المحرم بهذه الآية . وقال الزجاج : بين النبي (ص) تحريم صيد الحرم على المحرم وغيره بهذه الآية ، وهذا صحيح . وصيد غير المحرم إنما يحرم على المحرم دون المحل .

وقوله « ليعلم الله من يخافه بالغيب » معناه لعاملكم معاملة من يطلب أن يعلم ، مظاهرة في العدل . ووجه آخر ــ ليظهر المعلوم ، والأول أحسن . واختار البلخي الوجه الثاني ، قال والله تعالى وان كان عالماً بما يفعلونه فيما لم يزل ، فانه لا يجوز أن يثيبهم ولا يعاقبهم على مايعلم منهم ، وانما يستحقون ذلك اذا علمه واقعاً منهم على وجه كلفهم ، فاذاً لابد من التكليف والابتلاء .

وقوله « من يخافه بالغيب » يعني من يخشى عقابه اذا توارى بحيث لا يقع عليه الحس ــ في قول الحسن ــ تقول : غاب يغيب غياباً فهو غائب عن الحس ، ومنه الغيبة وهي الذكر بظهر الغيب بالقبيح . وقال قوم : معناه من يخاف صيد الحرم في السر كما يخافه في العلانية ، فلا يعرضون له على حال . وقوله « فمن اعتدى بعد ذلك » يعني من تجاوز حد الله بمخالفة أمره وارتكاب نهيه بالصيد في الحرم ، وفي حال الاحرام « فله عذاب أليم » أي مؤلم . قال البلخي : يجوز أن يكون ذلك في النار ، ويجوز أن يكون غير ذلك من صنوف الآلام والعقوبات ، قال سليمان « لاعذبنه عذاباً شديداً » (١) يعني الهدهد ولم يرد عذاب النار .

(١) سورة ٢٧ النحل آية ٢١ .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٨) آية بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة ويعقوب « فجزاء » منونا « مثل » رفع . الباقون بالاضافة . وقرأ ابن عامر وأهل المدينة « أو كفارة » بغير تنوين « طعام » بالخفض . الباقون بالتنوين وأجمعوا على جمع مساكين . وقرأ بعضهم (أو عدل ذلك بالكسر) قال الاخفش : وهو الوجه ، لأن العدل هو المثل . والعدل مصدر عدلت هذا بهذا عدلا حسناً . والعدل أيضا المثل « ولا يقبل منها عدل »[1] أي مثل . قال الفراء : العدل ــ بفتح العين ــ ما عدل الشيء من غير جنسه ــ وبكسر العين ــ المثل ، تقول : عندي غلام عدل غلامك ــ بالكسر ــ لأنه من جنسه وان أردت قيمته دراهم، قلت : عندي عدل غلامك، لأنها من غير جنسه . قال أبو علي الفارسي : حجة من رفع المثل أنه صفة للجزاء والمعنى فعليه جزاء من النعم مماثل المقتول . والتقدير فعليه جزاء أي فاللازم له أو فالواجب عليه جزاء من النعم مماثل ما قتل من الصيد . وقوله « من النعم » على هذه القراءة صفة للنكرة التي هي (جزاء) وفيه ذكر ، ويكون مثل صفة للجزاء لان المعنى عليه جزاء مماثل للمقتول من الصيد من النعم . والمماثلة في القيمة أو الخلقة على اختلاف الفقهاء في ذلك . ولا ينبغي

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٢٣ .

إضافة (جزاء) الى المثل ألا ترى انه ليس عليه جزاء مثل ما قتل في الحقيقة ، وانما عليه جزاء المقتول لاجزاء مثله ، ولا جزاء عليه لمثل المقتول الذي لم يقتله . واذا كان كذلك علمت ان الجزاء لا ينبغي أن يضاف الى (مثل) ولا يجوز أن يكون قوله « من النعم » على هذه القراءة متعلقا بالمصدر كما جاز أن يكون الجار متعلقا به في قوله « وجزاء سيئة سيئة مثلها »[1] بـ (مثلها) لأنك قد وصفت الموصول ، واذا وصفته لم يجز أن تعلق به بعد الوصف شيئا كما انك اذا عطفت عليه أو أكدته لم يجز أن تعلق به شيئا بعد العطف عليه والتأكيد له . فأما في قراءة من أضاف الجزاء الى المثل ، فان قوله « من النعم » يكون صفة للجزاء كما كان في قول من نوّن ، ولم يضف صفة له .

ويجوز فيه وجه آخر لا يجوز في قول من نون ووصف : وهو أن يقدره متعلقا بالمصدر . ولا يجوز على هذا القول أن يكون فيه ذكر كما تضمن الذكر لما كان صفة . وانما جاز تعلقه بالمصدر على قول من أضاف ، لأنك لم تصف الموصول كما وصفته في قول من نون ، فيمتنع تعلقه به .

وأما من أضاف الجزاء الى (مثل) فانه وإن كان جزاء المقتول لاجزاء مثله فانهم قد يقولون : أنا أكرم مثلك . يريدون أنا أكرمك ، وكذلك اذا قال (فجزاء مثل) فالمراد جزاء ما قتل ، فاذا كان كذلك كانت الاضافة في المعنى كغير الاضافة لان المعنى فعليه جزاء ما قتل . ولو قدرت الجزاء تقدير المصدر واضفته الى المثل كما تضيف المصدر الى المفعول به لكان في قول من جر (مثلا) على الاتساع الذي وصفناه ألا ترى أن المعنى « فجزاء مثل » أي يجازى مثل ماقتل ،والواجب عليه في الحقيقة جزاء المقتول لا جزاء مثل المقتول.

خاطب الله بهذه الآية المؤمنين ونهاهم عن قتل الصيد وهم حرم وقوله « وأنتم حرم » قيل فيه ثلاثة أوجه :

أحدها ـ وانتم محرمون لحج أو عمرة .

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠ .

الثاني ـ وانتم في الحرم • يقال : أحرمنا أي دخلنا في الحرم كما يقال أنجدنا واتهمنا •

الثالث ـ وأنتم في الشهر الحرام • يقال أحرم اذا دخل في الشهر الحرام• قال أبو علي : الآية تدل على تحريم قتل الصيد في حال الاحرام بالحج ، والعمرة وحين الكون في الحرم • وقال الرماني : يدل على الاحرام بالحج أو العمرة فقط • والذي قاله أبو علي أعم فائدة ، وأما القسم الثالث فلا خلاف أنه غير مراد •

وقاتل الصيد اذا كان محرما لزمه الجزاء عامداً كان في القتل أو أخطأ أو ناسيا لاحرامه أو ذاكراً • وبه قال مجاهد، والحسن ـ بخلاف عنه ـ وابن جريج ، وابراهيم ، وابن زيد ، وأكثر الفقهاء ، واختاره البلخي والجبائي • وقال ابن عباس وعطاء والزهري واختاره الرماني : انه يلزمه اذا كان متعمداً لقتله ذاكراً لاحرامه ، وهو أشبه بالظاهر • والأول يشهد به روايات أصحابنا •

واختلفوا في مثل المقتول فقال الحسن وابن عباس والسدي ومجاهد وعطاء والضحاك : هو أشبه الاشياء به من النعم : إن قتل نعامة فعليه بدنة ، حكم النبي (ص) بذلك في البدنة • وان قتل أروى [1] فبقرة • وان قتل غزالا أو أرنبا ، فشاة • وهذا هو الذي تدل عليه روايات أصحابنا •

وقال قوم : يقوم الصيد بقيمة عادلة ثم يشترى بثمنه مثله من النعم ثم يهدى الى الكعبة ، فان لم يبلغ ثمن هدي كفّر أو صام ،وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف واختلف من قال بذلك في المكان الذي يقوم فيه الصيد ، فقال ابراهيم ، والنخعي وحماد ، وأبو حنيفة ، وأبو يوسف ، ومحمد : يقوم بالمكان الذي أصاب فيه إن كان بخراسان أو غيره • وقال ابن عامر والشعبي : يقوم بمكة أو منى •

(١) « الاروى » اناث الوعل ، وهو اسم جمعها وواحدها (أريّة) بضم الهمزة وسكون الراء وكسر الواو وفتح الياء المشددة •

وقوله : «يحكم به ذوا عدل منكم» يعني شاهدين عدلين فقيهين يحكمان بأنه جزاء مثل ما قتل من الصيد .

وقوله : « هدياً بالغ الكعبة » فـ (هدياً) نصب على المصدر .ويحتمل ان يكون نصبا على الحال ، و (بالغ الكعبة) صفة له وتقديره يهديه هديا يبلغ الكعبة وقوله « بالغ الكعبة » فهو وان كان مضافا الى المعرفة فالنية فيه الانفصال ، كما تقول هذا ضارب زيد ، فيسن حذف النون ولم يكن قد فعل، فانه يكون نكرة ، والهدي يجب أن يكون صحيحا بالصفة التي تجزي في الاضحية ، وهو قول أبي علي .

وقال الشافعي يجوز في الهدي مالا يجوز في الاضحية . وان قتل طائراً أو نحوه قال أبو علي عليه دم شاة . وعندنا فيه دم . وقال قوم يجوز ان يهدي سخلة أو جديا . والنعم هي الابل والبقر والغنم . وقوله « أو كفارة طعام مسكين » فمن رفع (طعام مساكين) جعله عطفا على الكفارة عطف بيان لان الطعام هو الكفارة ، ولم يضف الكفارة الى الطعام ، لانها ليست للطعام وانما هي لقتل الصيد ، فلذلك لم يضف الكفارة الى الطعام . ومن اضافها الى الطعام ، فلانه لما خير المكفر بين ثلاثة أشياء : الهدى ، والطعام ، والصيام اجاز الاضافة لذلك ، فكأنه قال : كفارة طعام لا كفارة هدي ، ولا كفـارة صيام ، فاستقامت الاضافة لكون الكفارة من هذه الاشياء وقيل في معناه قولان :

أحدهما ـ يقوّم عدله من النعم ثم يجعل قيمته طعاما في قول عطا . وهو مذهبنا .

وقال قتادة : يقوم نفس الصيد المقتول حيا ثم يجعل طعاما .

وقوله : « أو عدل ذلك صياما » نصب صياما على التمييز وفي معناه قولان :

أحدهما ـ لكل مد يقوم من الطعام يوم في قول عطاء . وقال غيره :

عن كل مدين يوم وهو مذهبنا . وقال سعيد بن جبير : يصوم ثلاثة أيام الى عشرة أيام .

وقوله « ليذوق وبال امره » يعني عقوبة ما فعله ونكاله . وقال المغربي: الوبال من الطعام الوبيل الذي لا يستمرى، أو لا يوافق ، وهو قول الازهري قال كثير :

فقد أصبح الراضون إذ أنتم بها مشوم البــلاد يشتكون وبالهــا

وقوله : « عفا الله عما سلف » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ قال الحسن : عفا الله عما سلف من امر الجاهلية .

وقال آخرون : عما سلف من الدفعة الاولى في الاسلام .

وقوله : « ومن عاد فينتقم الله منه » اختلفوا في لزوم الجزاء بالمعاودة على قولين :

أحدهما ــ قال عطاء وابراهيم وسعيد بن جبير ومجاهد : يلزمه الجزاء بالمعاودة وهو قول بعض أصحابنا .

الثاني ــ قال ابن عباس ، وشريح ، والحسن ، وابراهيم ، بخلاف عنه : لا جزاء عليه وينتقم الله منــه ، وهو الظاهر من مذهب أصحابنا ، واختار الرماني الاول.وبه قال أكثر الفقهاء ، قال : لانه لا ينافي الانتقام منه.واختلفوا في (أو) في الآية هل هي على جهة التخيير أم لا ؟ على قولين :

أحدهما ــ قال ابن عباس ، والشعبي ، وابراهيم ، والسدي وهو الظاهر في رواياتنا انه ليس على التخيير لكن على الترتيب . وانما دخلت (أو) لأنه لا يخرج حكمه على أحد الثلاثة ، على انه إن لم يجد الجزاء فالاطعام وان لم يجد الاطعام فالصيام . وفي رواية أخرى عن ابن عباس ، وعطاء والحسن وابراهيم ــ على خلاف عنه ــ واختاره الجبائي ، وهو قول بعض أصحابنا انه على التخيير .

وقوله « والله عزيز ذو انتقام » معناه قادر لا يغالب « ذو انتقام » معناه

ينتقم ممن يتعدا أمره ويرتكب نهيه . وليس في الآية دليل على العمل بالقياس، لان الرجوع الى ذوي عدل في تقويم الجزاء مثل الرجوع الى المقومين في قيم المتلفات ، ولا تعاق لذلك بالقياس .

قوله تعالى :

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٩) آية بلاخلاف .

قال ابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وقتادة ، والسدي ، ومجاهد : الذي أحل من هذه الآية من صيد البحر الطري منه وأما العتيق فلا خلاف في كونه حلالا ، واذا حل صيد البحر حل صيد الانهار ، لأن العرب تسمى النهر بحراً . ومنه قوله « ظهر الفساد في البر والبحر » (١) والاغلب على البحر هو الذي يكون ماؤه ملحا لكن اذا اطلق دخل فيه الانهار بلا خلاف .

وقوله « وطعامه » يعني طعام البحر وقيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال أبو بكر وعمر ، وابن عباس وابن عمر ، وقتادة هو ما قذف به ميتا .

الثاني ـ في رواية أخرى عن ابن عباس وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وقتادة ومجاهد وابراهيم بخلاف عنه انه المملوح،واختار الرماني الاول. وقال لأنه بمنزلة ما صيد منه وما لم يصد منه فعلى هذا تصح الفائدة في الكلام والذي يقتضيه ويليق بمذهبنا القول الثاني ، فيكون قوله « صيد البحر » المراد به ما أخذ طرياً .

---

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٤١ .

وقوله « وطعامه » ما كان منه مملوحا ، لأن ما يقذف به البحر ميتاً لا يجوز عندنا أكله لغير المحرم ولا للمحرم • وقال قوم معنى « وطعامه » ما نبت بمائة من الزرع والثمار حكاه الزجاج •

وقوله « متاعا لكم وللسيارة » نصب متاعا على المصدر لان قوله « أحل لكم » يدل على انه قد متعهم متاعا وقال ابن عباس والحسن وقتادة معناه منفعة للمقيم والمسافر •

وقوله « وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما » يقتضي ظاهره تحريم الصيد في حال الاحرام وأكل ما صاده غيره ، وبه قال علي (ع) وابن عباس وابن عمر وسعيد بن جبير ، وقال عمر وعثمان والحسن ، لحم الصيد لا يحرم على المحرم اذا صاده غيره ، ومنهم من فرق بين ما صيد وهو محرم وبين ماصيد قبل احرامه • وعندنا لا فرق بينهما والكل محرم ، والصيد يعبر به عن الاصطياد فيكون مصدراً ويعبر به عن المصيد ، فيكون اسماً • ويجب أن تحمل الآية على تحريم الجميع • وقوله «واتقوا الله الذي اليه تحشرون» أمر منه تعالى بان يتقي جميع معاصيه ويجتنب جميع محارمه من الصيد في الاحرام وغيره ، لأن اليه الرجوع في الوقت الذي لا يملك أحد فيه الضرر والنفع سواه ، وهو يوم القيامة فيجازي كلاً بعمله : المحسن على إحسانه والمسيء على اساءته •

قوله تعالى :

جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠٠) آية بلاخلاف •

قرأ ابن عامر وحده « قيماً للناس » بلا الف • الباقون قياما بالألف •

قال أبو علي الفارسي : قوله « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس » تقديره جعل الله حج الكعبة أو نصب الكعبة قياما لمعايش الناس أو مكاسب الناس ، لأنه مصدر (قام) كأن المعنى قام بنصبه ذلك لهم ، فاستتبت بذلك معايشهم ، واستقامت أحوالهم به فالقيام كالعياذ والعيال . وعلى هذا لحقته تاء التأنيث في هذه المصادر فجاءت (فعالة) كالزيادة والسياسة والحياكة ، فكما جاءت هذه المصادر على (فعال) أو (فعالة) كذلك حكم القيام أن يكون على (فعال) .

ووجه قراءة ابن عامر أحد أمرين : إما أن يكون جعله مصدراً كالشبع أو حذف الالف وهو يريدها كما يقصر الممدود ، وهذا الوجه انما يجوز في الشعر دون الكلام . وانما أعلوا الواو فقلبوها ياءً لاعتلال الفعل ، ولم يصححوها كما صحت في الحول والعوض ، ألا ترى أنهم قالوا ديمة وديم ، وحيلة وحيل فأعلوها في المجموع لاعتلال آحادها ، فاعلال المصدر لاعتلال الفعل أولى .

والقوام هو العماد تقول : هو قوام الامر وملاكه ، وهو ما يستقيم به أمره وقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها في مصدر (فعل ، يفعل) وهو قام بالأمر قياما كقولك صام صياما . فأما صحة الواو فمن قاومه قواما مثل حاوره حواراً قال الراجز :

قوام دنياً وقوام دين (١)

وتقدير الآية جعل الله حج الكعبة أو نصب الكعبة قياما لمعاش الناس ومصالحهم .

وقوله « والشهر الحرام » معطوف على المفعول الأول لـ (جعل) كما تقول ظننت زيداً منطلقاً وعمراً أي فعل ذلك ليعلموا أن الله يعلم مصالح ما في السماوات والارض ، وما يجري عليه شأنهم في معاشهم وغير ذلك مما يصلحهم

(١) مجاز القرآن ١/١٧٧ .

« وأن الله بكل شيء عليم » بما يقيمهم ، ويصلحهم عليه •

وقيل في قوله « قياماً للناس » ان معناه أمناً لهم • وقيل انه مما ينبغي أن يقيموا به • والاول أقوى • وقال قوم لما كان في المناسك زجراً عن القبيح ودعا الى الحق كان بمنزلة الرئيس الذي يقوم به أمر أتباعه • وقال سعيد بن جبير « قياماً للناس » صلاحاً لهم • وقيل : يقوم به أبدانهم • وقيل « قياماً » يقومون به في متعبداتهم قال مجاهد وعكرمة : سميت الكعبة كعبة لتربيعها •

وقال أهل اللغة وانما قيل كعبة البيت واضيف لأن كعبة تربع اعلاه والكعوبة : النتوء ، فقيل للتربيع كعبة لنتوء زوايا المربع • ومنه كعب ثدي الجارية اذا تنأ ومنه كعب الانسان لنتوئه • وسميت الكعبة حراما لتحريم الله إياها ان يصاد صيدها أو يخلى خلاءها أو يعضد شجرها • وقوله « والشهر الحرام » قال الحسن : هي الاشهر الحرام الاربعة ، فهذا على مخرج الواحد مذهب الجنس • وهي واحد فرد ، وثلاثة سرد ، فالفرد رجب ، والسرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم •

و (القلائد) قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ــ ان الرجل من العرب كان ينتهي به الحال من الضرر والجوع الى ان يأكل العصب فيلقى الهدي مقلداًفلا يعرض له •

الثاني ــ أن من أراد الاحرام تقلد قلادة من شعر أو لحي الشجرة ، فتمنعه من الناس حتى يأتي أهله •

الثالث ــ قال الحسن : القلائد ان يقلد الابل والبقر النعال أو الخفاف، تقور تقويراً ، على ذلك مضت السنة ، فهذا على صلاح التعبد بها ، وهذا هو المعتمد عليه عندنا •

فان قيل : ما معنى قوله « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الارض » بعد قوله « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس » وأي تعلق لها بذلك ؟ وما في ذلك مما يدل على أنه بكل شيء عليم ؟ قيل عن

ذلك ثلاثة أجوبة :

أحدها ـ أنه تعالى لما اخبر بما في هذه السورة من قصة موسى وعيسى وقومهما وبالتوراة والانجيل ، وما فيهما من الاحكام واخبار الامم وفصله ، وذلك كله مما لم يشاهده محمد (ص) ولا قومه ولا أحد في عصره ولا وقفوا على شيء من ذلك ، قال ذلك لتعلموا أن الله تعالى لولا أنه بكل شيء عليم لما جاز أن يخبركم عنهم ، فاخباره بذلك يدل على أنه بكل شيء عليم • وأيضا فان ما جعله الله من البلد الحرام والشهر الحرام من الآيات والاعاجيب دالاً على أنه تعالى لا يخفى عليه شيء ، لأنه جعل البيت الحرام والحرم أمنا،يأمن فيه كل شيء ويسكن قلبه ، فالظبي يأنس بالسبع والذئب ما دام في الحرم ، فاذا خرج عن الحرم خاف وطلبه السبع وهرب منه الظبي حتى يرجع الى الحرم ، فاذا رجع اليه كف عنه السبع ، وهذا من عظيم آيات الله وعجيب دلائله ، وكذلك الطير والحمامة تأنس بالانسان ، فاذا خرج من الحرم خافه ولم يدن من أحد حتى يعود الى الحرم ، والطير يستشفي بالبيت الحرام اذا مرض يسقط على سطح البيت استشفاء به ، فاذا زال عنه المرض لم ير على سطح البيت ولا محاذيه في الهواء إجلالاً له وتعظيماً ، مع أمور كثيرة يطول ذكرها ، فيكون ما دبره الله من ذلك دالاً على أنه عالم بمصالح الخلق وبكل شيء • وأيضا فانه أخبرهم بأنه قد علم قبل أن يخلقهم ما هم صائرون اليه من القتال والغارة والسبي والسلب فجعل من سنن ابراهيم واسماعيل ان من دخل الحرم لم يقتل • وكذلك من عاذ بالبيت • وأن أشهر الحرم لا يجوز فيها قتال وأن من أهدى أو قلد أمن على نفسه ، وكل ذلك يدل على أن من دبره عالم بالعواقب ولا يخفى عليه شيء من الاشياء على وجه من الوجوه •

قوله تعــالى :

إِعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠١) آية

أمر الله تعالى أن يعلم المكلف أنه شديد العقاب، فالعلم ما اقتضى سكون النفس، وان شئت قلت هو اعتقاد الشيء على ما هو به مع سكون النفس الى ما اعتقده، والأول أخص، ولا يجوز أن يحد العلم بأنه المعرفة، لأن المعرفة هي العلم، ولا يحد الشيء بنفسه. والعلم يتناول الشيء على ما هو به وكذلك الرؤية. والفرق بينهما ان العلم يتعلق بالمعلوم على وجوه، والرؤية لا تتعلق إلا على وجه واحد. والعلم محله القلب. والرؤية ليست معنى على الحقيقة وانما تثبت للرائي بكونه رائيا صفة. ومن قال هو معنى قال محلها العين.

وفي الآية دلالة على أن المعرفة بالله وبصفاته ليست ضرورية، لأنها لو كانت ضرورية لما أمرنا بها. وليس لاحد أن يقول انما أمر على جهة التذكير والتنبيه، لان ذلك ترك للظاهر.

والعقاب هو الضرر المستحق على جهة الاهانة والمقارن بالاستخفاف، ولو اقتصرت على ان تقول هو الضرر المستحق أو الضرر الذي يقارنه استخفاف واهانة لكان كافيا لان ماليس بعقاب ليس بمستحق ولا يقارنه استخفاف وإهانة وانما سمي عقابا لانه يستحق عقيب الذنب الواقع من صاحبه.

وقوله «وان الله غفور رحيم» منصوب بـ (إعلموا) وتقديره واعلموا ان الله غفور رحيم، والمغفرة هي ستر الخطيئة برفع عقابها. وأصلها الستر ومنه المغفرة وضم ذكر الرحمة الى المغفرة لبيان سبوغ نعم الله تعالى، وانه اذا أزال العقوبة بالتوبة أوجب الرحمة التي هي المغفرة. وذلك يدل على أن الغفران عند التوبة غير واجب وأنه تفضل وإلا لم يكن كذلك.

قوله تعالى:

مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (١٠٢) آية بلاخلاف.

لما أنذر تعالى في الآية الأولى شدة العقاب وبشّر بالعفو والغفران ذكر في هذه أنه ليس على الرسول إلا البلاغ . وأما القبول والامتثال فانه متعلق بالمكلفين المبعوث اليهم .

وأصل الرسول الاطلاق من قولهم أرسل الطير إرسالاً اذا أطلقه ومنه قولهم : ترسّل في القراءة ترسلاً اذا تثبت . واسترسل الشيء اذا تسلل وانطلق . و رسله مراسلة ، وتراسلوا تراسلاً . والرسل اللبن لاسترساله من الضرع . وفي الحديث (اعطي من رسلها) وقوله : «والمرسلات عرفاً»(١) قيل : هي الخيل . وقيل هي الرياح . والفرق بين الرسول والنبي أن النبي لا يكون الا صاحب المعجز الذي ينبيء عن الله أي يخبر ، والرسول اذا كان رسول الله فهو بهذه الصفة ، وقد يكون الرسول رسولاً لغير الله ، فلا يكون بهذه الصفة . والانباء عن الشيء قد يكون من غير تحميل النبأ . والارسال لا يكون الا بتحميل الرسالة . والبلاغ وصول المعنى الى غيره ، وهو هاهنا وصول الانذار الى نفوس المكلفين . وأصل البلاغ البلوغ تقول : بلغ يبلغ بلوغاً وأبلغه ابلاغاً وتبلّغ تبلغاً وبالغ مبالغة وبلغه تبليغاً ، ومنه البلاغة لأنها إيصال المعنى الى النفس في حسن صورة من اللفظ . وتبالغ الرجل اذا تعاطى البلاغة وليس ببليغ ، وفي هذا بلاغ أي كفاية لأنه يبلغ مقدار الحاجة .

« والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » معناه أنه لا يخفى عليه شيء من احوالكم التي تظهرونها أو تخفونها وتكتمونها وفي ذلك غاية التهديد والزجر.

قوله تعالى :

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠٣)آية

معنى قوله « لايستوي » لايتساوى . والاستواء على أربعة اقسام :

(١) سورة ٧٧ المرسلات آية ١ .

استواء في المقدار • واستواء في المكان •واستواء في الذهاب • واستواء في الانفاق • والاستواء بمعنى الاستيلاء راجع الى الاستواء في المكان ، لأنه تمكن واقتدار وقوله « الخبيث والطيب » قيل في معناهما قولان :

أحدهما ــ الحرام ، والحلال في قول الحسن وأبي علي •

الثاني ــ قال السدي الكافر ، والمؤمن • والخبيث الردي بالعاجلة ويسوى بالآجلة • ومنه خبث الحديد، وهو رديئه بعدمايخلص بالنار جيدةففي الخبيث امتزاج جيدبردىء ولذلكقال « ولو اعجبك كثرة الخبيث »والاعجاب سرور بما يتعجب منه • والعجب والاعجاب والتعجب من أصل واحد •وعجب يعجب عجباً والعجب مذموم ، لانه كبر يدخل النفس بحال يتعجب منها • وعجب الذنب أصله عجوب الرمل أو آخره لانفراده عن جملته كانفراد ما يتعجب منه •

ومعنى الآية أنه لا يتساوى الحرام والحلال وان أعجبك يامحمد كثرة ما تراه من الحرام والمراد به أمته • وقوله « فأتقوا الله » معناه أجتنبوا ما حرمه عليكم « يا اولي الالباب » يعني يا اولي العقول « لعلكم تفلحون » معناه لتفلحوا وتفوزوا بالثواب العظيم الدائم •

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللهُ عَنْهَا وَٱللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠٤) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٥) آيتان بلا خلاف •

قيل في سبب نزول هذه الآية قولان :

أحدهما ــ قال ابن عباس وأنس وابو هريرة والحسن وقتادة وطاوس

والسدي : انه سأل رسول الله (ص) رجل يقال له عبد الله وكان يطعن في نسبه فقال : يا رسول الله من أبي ، فقال له حذافة . فنزلت الآية . وقال أبو هريرة ومجاهد : نزلت حين سألوا عن أمر الحج لما انزل « ولله على الناس حج البيت » فقالوا : في كل عام ؟ قال : لا ولو قلت نعم لوجب. وقال قوم وقع السؤال الاول والثاني في مجلس واحد ، فخاطب الله تعالى بهذه الآية المؤمنين ونهاهم عن مسألة الاشياء التي اذا أبديت وأظهرت ساءت واحزنت من أظهرت له.

يقال بدا يبدو بدوّاً . وابداه إبداء اذا أظهره وبدا له في الامر بدواً وبداً وبداء اذا تغير رأيه ، لأنه ظهر له . والبادية خلاف الحاضرة. والبدو خلاف الحضر من الظهور. وقيل في وزن (اشياء) ثلاثة أقوال :

قال الكسائي : هو أفعال إلا انه لم يصرف ، لأنهم شبهوه بحمراء فالزمه الزجاج ألا يصرف اسماء ولا انباء .

الثاني ـ قال الاخفش والفراءهي (فعلاء) كقولك هين وأهوناء فالزمه المازني وقال : سله كيف يصغرها ؟ فقال الاخفش (أشياء) فقال يجب ان يصغرها شيئات كما يصغر اصدقاء في المؤنث صديقات في المذكر صديقون. قال الزجاج إنما قيل في هين: أهوناء لأن هين أصله(هيين)على وزن فعيل فجمع على أفعلاء كنصب وانصباء .

الثالث ـ قال الخليل وسيبويه : (افعاء) مقلوبة كما قلبوا(انيق) عن انوق ، وقسي عن قؤوس .

وقوله « تسؤكم » معناه تحزنكم . وقوله « عفا الله عنها والله غفور رحيم » قيل فيما يعود الضمير اليه في (عنها) قولان :

احدهما ـ قال قوم على المسألة ، لان قوله « لاتسألوا » دليل عليها فيكون العفو عن مسألتهم التي سلفت منهم .

الثاني ـ على الاشياء التي سألوا عنها من أمور الجاهلية ، وما جرى مجراها مما يسؤهم تشديد المحنة فيها .

وقوله « قد سألهاقوم من قبلكم » قال ابن عباس : سأل قوم عيسى (ع) إنزال المائدة ثم كفروا بها . وقال غيره : هم قوم صالح سألوا الناقة ثم عقروها وكفروا بها . وقال السدي هذا حين سألوا أن يحول لهم الصفا ذهباً . وقال أبو علي : انما كانوا سألوا نبيهم عن مثل هذه الاشياء يعني من آيات ونحوها فلما أخبرهم النبي (ص) قالوا : ليس الامر كذلك ، فكفروا به .

وقال الرماني : السؤال هو طلب الشيء اما بايجاده واما بإحضاره واما بالبيان عنه ، والذي يجوز السؤال عنه هو ما يجوز العمل عليه من أمر دين أو دنيا . وما لا يجوز العمل عليه من أمر دين أو دنيا لا يجوز السؤال عنه ولا يجوز أن يسأل الله تعالى شيئاً إلا بشرط انتفاء وجود القبح عن الاجابة ، فعلى هذا لايجوز أن يسأل الانسان : من أبي لان المصلحة اقتضت ان من ولد على فراش انسان حكم بأنه ولده . وإن لم يكن مخلوقاً من مائه ، فالمسألة بخلافه سفه لايجوز .

قوله تعالى :

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٦) آية بلا خلاف .

هذه الآية من الادلة الواضحة على بطلان مذهب المجبرة من قولهم : من أن الله تعالى هو الخالق للكفر والمعاصي وعبادة الاصنام وغيرها من القبائح ، لانه تعالى نفى أن يكون هو الذي جعل البحيرة أو السائبة أو الوصيلة أو الحام ، وعندهم ان الله تعالى هو الجاعل له والخالق ، تكذيباً لله تعالى وجرأة عليه . ثم بين تعالى أن هؤلاء بهذا القول قد كفروا بالله وأفتروا عليه بأن أضافوا اليه ماليس بفعل له ، وذلك واضح لا إشكال فيه .

ومعنى « ماجعل اللهمن بحيرة » أي ما حرمها على ما حرمها أهل الجاهلية، ولا أمر بها . و (البحيرة)هي الناقة التي تشق أذنها يقال بحرت الناقةأبحرها بحراً ، والناقة مبحورة ، وبحيرة :اذاشققتها شقاًواسعاً ،ومنه البحرلسعته . وكانوا في الجاهلية اذا نتجت الناقة خمسة أبطن وكانآخرها ذكراًبحرواأذنها أي شقوها ، وامتنعوا من ركوبها وذبحها ، ولم تطرد عن ماء ، ولمتمنع من رعي . واذا لقيها المعيي لم يركبها .

و (السائبة) المخلاة وهي المسيبة . وكانوا في الجاهلية اذا نذر إنسان نذراً لقـدوم من سفر أو برء من مرض أو ما أشبه ذلك قال :ناقتي سائبة ، فكانت كالبحيرة فيالتخلية ، وكان اذا أعتقالانسان عبداً ،فقال :هوسائبة لم يكن بينهما عقل ، ولا ولاء ، ولا ميراث .

و (الوصيلة) الانثى منالغنم اذاولدتانثى مع الذكر قالوا: أوصلت أخاها فلم يذبحوه . وقال أهل اللغة : كانت الشاةاذا ولدتانثىفهيلهم، واذا ولدت ذكراً ذبحوه لآلهتهم في زعمهم ، واذاولدت ذكراً وأنثىقالوا :وصلت أخاها فلم يذبحوه لآلهتهم .

و (الحام) الفحل من الابل الذيقد حمى ظهره من أن يركب بتتابـع أولاد تكون من صلبه . وكانت العرباذا أنتجت من صلب الفحلعشرةأبطن قالوا : حمى ظهره فلا يحمل عليه شيءولا يمنع من ماء ولا مرعى . وقالمحمد ابن إسحاق : البحيرة بنت السائبة و (السائبة) هي الناقة اذا تابعت بين عشر أناث ليس فيهن ذكر سيبت فلم يركبوها ولم يجزوا وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف . فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنها ثم يخلى سبيلها مع أمها فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف كما فعل بأمها .

و (الوصيلة) هي الشاة إذا أتأمت عشر أناث متتابعات في خمسةأبطن ليس فيها ذكر جعلت وصيلة ، وقالوا قد وصلت وكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الأناث .

وقوله « ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب »إخبار منه تعالى بأن هؤلاء الذين كفروا يكذبون على الله بادعائهم أن هذه الاشياء من فعل الله أو بأمره •وقوله « واكثرهم لايعقلون »خص الاكثر بأنهم لايعقلون لأنهم أتباع، فهم لايعقلون أن ذلك كـذب وافتراء كما يفعله الرؤساء ـ في قول قتادة والشعبي ـ وقال ابو علي « أكثرهم لايعقلون »ما أحل لهم وما حرم عليهم ، يعني أن المعاند هو الاقل منهم •

قوله تعـالى :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٧)آية بلاخلاف •

أخبر الله تعالى عن الكفار الذين أخبر عنهم أنهم لا يعقلون،والذين جعلوا البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، و« الذين يفترون على الله الكذب » من كفار قريش وغيرهم من العرب بأنه « اذا قيل لهم تعالوا » أي هلموا«الى ما أنزل الله » من القرآن واتباع ما فيه ، والاقرار بصحته « والى الرسول » وتصديقه ،والاقتداء به وبأفعاله « قالوا » في الجواب عن ذلك «حسبنا »أي كفانا «ما وجدنا عليه آباءنا» يعني مذاهب آبائنا • ثم اخبر تعالى منكراًعليهم فقال « أو لو كان آباؤهم لايعلمون شيئاً ولا يهتدون » أي إنهم يتبعون آباءهم في ما كانوا عليه من الشرك وعبادة الأوثان وإن كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الدين ولا يهتدون اليه • وقيل في معنى (لايهتدون)قولان احدهما ـ الذم بأنهم ضلال • والثاني ـ أنهم لايهتـدون الى طريق العـلم بمنزلة العمي عن الطريق •

وفي الآية دلالة على فساد التقليد ، لأن الله تعالى أنكر عليهم تقليد الآباءفدل

ذلك على أنه لايجوز لأحد أن يعمل على شيء من أمر الدين إلا بحجة .

وفيها دلالة على وجوب المعرفة وأنها ليست ضرورية ، لأن الله تعالى بين الحجاج عليهم في هذه الآية ليعرفوا صحة ما دعا الرسول اليه ، ولو كانوا يعرفون الحق ضرورة لم يكونوا مقلدين لآبائهم وكان يجب أن يكون آباؤهم أيضاً عارفين ضرورة ، ولو كانوا كذلك لما صح الاخبار عنهم بأنهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون . وانما نفى عنهم الاهتداء والعلم معاً لان بينهما فرقاً ،وذلك أن الاهتداء لا يكون إلا عن بيان وحجة . والعلم مطلق وقد يكون الاهتداء ضرورة .

قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٨) آية واحدة بلا خلاف .

لما بين الله تعالى حكم الكفار الذين قلدوا آباءهم واسلافهم وركنوا اليهم في أديانهم ، ذكر في هذه الآية أن المكلف انما يلزمه حكم نفسه وأنه لايضره ضلال من ضل اذا كان هو مهتدياً ، حتى يعلم بذلك أنه لا يلزمهم من ضلال آبائهم شيء من الذم والعقاب .

و « أنفسكم » نصب على الاغراء كأنه قال : احفظوا أنفسكم أن تزلوا كما زل غيركم . والعرب تغري بـ (عليك ،واليك ، ودونك ، وعندك)فينصبون الاسماء بها ، ولم يغروا بـ (منك) كما أغروا بـ (اليك) ، لأن (اليك) أحق بالتنبيه من (منك) . والاغراء تنبيه على ما يجب أن يحذر ، ولذلك لم يغروا بـ (فيك)ونحوها من حروف الاضافة . وحكى المغربي :أنه سمع من يغري بـ (وراءك) و (قدامك) .

وليس في الآية ما يدل على سقوط انكار المنكر •وإنما يجوز الاقتصار على الاهتداء بأتباع أمر الله في حال التقية ، هذا قول ابن مسعود ، على أن الانسان إنما يكون مهتدياً اذا اتبع أمر الله في نفسه وفي غيره بالانكار عليه•وروي عن النبي (ص) أنه قال (اذا رأوا الناس منكراً فلم يغيروه عمهم الله بالعقاب)

وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة في تعذيب الاطفال ،لأنه لو كان الامر على ما قالوه لم يأمن المؤمنون أن يؤخذوا بذنوب آبائهم ، وقد بين الله تعالى أن الامر بخلافه مؤكداً لما في العقل •

وقوله «الى الله مرجعكم جميعاً» معناه اليه تعالى مآلكم في الوقت الذي لا يملك أحد الضرر والنفع سواه بخلاف دار الدنيا التي مكن الله تعالى الخلق من الضرر والنفع فيها • وقوله « فينبئكم » معناه يخبركم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا من الطاعات والمعاصي ، ويجازيكم بحسبها ، وفي ذلك غاية الزجر والتهديد •

وقوله « لايضركم » يحتمل أن يكون جزماً لأنه جواب الامر ، وحرك الراء لانها ثقيلة وأولها ساكن ، فلا يستقيم إسكان آخرها ، فيلتقي ساكنان • قال الاخفش : والأجود أن يكون رفعاً على الابتداء ، لأنه ليس بعلة لقوله « عليكم أنفسكم » وإنما أخبر أنه لا يضرهم •

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي

بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ ٱللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ ٱلْآثِمِينَ (١٠٩) آية بلا خلاف.

ذكر الواقدي وابو جعفر (ع)أن سبب نزول هذه الآية ما قال أسامة بن زيد عن أبيه قال : كان تميم الداري وأخوه عدي نصرانيين وكان متجرهما الى مكة ، فلما هاجر رسول الله (ع) الى المدينة قدم ابن أبي مارية مولى عمرو بن العاص المدينة وهو يريد الشام تاجراً فخرج هو وتميم الداري وأخوه عدي حتى اذا كانوا ببعض الطريق مرض ابن أبي مارية فكتب وصية بيده ودسها في متاعه وأوصى اليهما ودفع المال اليهما وقال أبلغا هذا أهلي ، فلما مات فتحا المتاع وأخذا ما أعجبهما منه ثم رجعا بالمال الى الورثة ، فلما فتش القوم المال فقدوا بعض ما كان خرج به صاحبهم ،ونظروا الى الوصية فوجدوا المال فيها تاماً وكلموا تميماً وصاحبه ، فقالا : لا علم لنا به وما دفعه اليناأبلغناه كما هو ، فرفعوا أمرهم الى النبي (ص) فنزلة هذه الآية .

قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم » قيل في معنى الشهادة ـ هاهنا ـ ثلاثة أقوال :

أحدها ـ الشهادة التي تقام بها الحقوق عند الحكام .

الثاني ـ شهادة الحضور لوصيين .

الثالث ـ شهادة أيمان بالله اذا ارتاب بالوصيين من قول القائل : أشهد بالله اني لمن الصادقين . والأول أقوى واليق بالقصة . وفي كيفية الشهادة قيل قولان :

أحدهما ـ أن يقول صحيحاً كان أو مريضاً : اذا حضرني الموت فافعلوا كذا وكذا . ذكره الزجاج .

الثاني ـ اذا حضرت أسباب الموت من المرض .

وقيل في رفع « شهادة » ثلاثة أقوال :

أحدها ـ أن يكون رفعاً بالابتداء وتقديره شهادة بينكم :شهادة اثنين ، ويرتفع (اثنان) بأنه خبر الابتداء ثم حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه. قال أبو علي الفارسي : واتسع في (بين) وأضيف اليه المصدر ، وذلك يدل على قول من يقول : ان الظرف الذي يستعمل يجوز أن يستعمل إسماً في غير الشعر ، كما قال تعالى « لقد تقطع بينكم » (١) فيمن رفع . وجاء في الشعر :

فصادف بين عينيه الجبوبا (٢)

الثاني ـ على تقدير محذوف وهو عليكم شهادة بينكم أو مما فرض عليكم شهادة بينكم ، ويرتفع اثنان بالمصدر ارتفاع الفاعل بفعله .

والثالث ـ ان يكون الخبر « اذا حضر » فعلى هذا لا يجوز أن يرتفع (اثنان) بالمصدر ، لأنه خارج عن الصلة بكونه بعد الخبر ، لكن على تقدير ليشهد اثنان ، ولا يجوز أن يتعلق اذا حضر بالوصية لأمرين :

أحدهما ـ ان المضاف اليه لا يعمل فيما قبل المضاف ، لأنه لو عمل فيما قبله للزم أن يقدر وقوعه في موضعه فاذا قدّر ذلك لزم تقديم المضاف عليه على المضاف ، ومن ثم لم يجز (القتال زيداً) حين يأتي .

والآخر ان الوصية مصدر ، فلا يتعلق به ما يتقدم عليه .

وقوله « اذا حضر أحدكم الموت » يعني قرب أحدكم من الموت كما قال « حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن » (٣) وقال « حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا » (٤) وقال « حتى اذا جاء أحدكم الموت قال رب

---

(١) ٦ الانعام آية ٩٤ .

(٢) قائله أبو خراش الهذلي . اللسان (بين) وصدره :

فلاقته ببلقعة براح

يصف عقابا . والجبوب ـ بفتح الجيم ـ وجه الارض . والبلقع المكان الخالي ، وبراح صفة له . والشاهد ضم النون في (بين) .

(٣) سورة ٤ النساء آية ١٧ (٤) سورة ٦ الانعام آية ٦١

ارجعون »[٣] وكل ذلك يريد به المقاربة . واولا ذلك لما أسند اليه القول بعد الموت .

وقوله « حين الوصية » فلا يجوز أن يحمل على الشهادة ، لأنها اذا عملت في ظرف من الزمان لم تعمل في ظرف آخر منه ؛ ويمكن حمله على أحد ثلاثة أشياء :

أحدها ـ أن تعلقه بالموت كان الموت في ذلك الحين بمعنى قرب منه .

الثاني ـ على حضر أي اذا حضر : هذا الحين .

الثالث ـ أن يحمله على البدل من (اذا) لأن ذلك الزمان في المعنى هو ذلك الزمان ، فيبدله منه ، ويكون بدل الشيء من الشيء اذا كان إياه .وقوله « اثنان ذوا عدل منكم » خبر المبتدإ الذي هو (شهادة)وتقديره شهادة بينكم شهادة اثنين على ما بيناه ، لان الشهادة لا تكون إلا من اثنين وقوله «منكم» صفة لقوله « اثنان » كما ان (ذوا عدل) صفة لهما ، وفي الظرف ضمير .وفي معنى (منكم) قولان :

أحدهما ـ قال سعيد بن المسيب وعبيدة ويحيى بن يعمر ومجاهد وقتادة وابن عباس : أي من المسلمين ، وهو قول أبي جعفر وابي عبدالله(ع).

الثاني ـ قال سعيد بن المسيب وعبيدة ـ في رواية اخرى ـ وعكرمة : إنهما من حي الموصي والاول أظهر وأصح ، وهو اختيار الرماني ، لأنه لاحذف فيه . وقوله « أو آخران من غيركم » تقديره أو شهادة آخرين من غيركم ، وحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه . و (من غيركم) صفة للآخرين . وقيل في معنى « من غيركم » قولان :

أحدهما قال ابن عباس وأبو موسى الاشعري وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير وشريح وابراهيم وابن سيرين ومجاهد وابن زيد واختاره أبو علي الجبائي ، وهو قول أبي جعفر وابي عبدالله (ع) أنهما من غير أهل ملتكم .

(٣) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٠٠ .

الثاني ــ قال عكرمة وعبيدة ــ بخلاف عنه ــ وابن شهاب والحسن : يعني من غير عشيرتكم • قال الحسن لأن عشيرة الموصي أعلم بأحواله من غيرهم ، وهو اختيار الزجاج • قال : لأنه لا يجوز قبول شهادة الكفار مع كفرهم وفسقهم وكذبهم على الله• ومعنى (أو) ــ هاهنا ــ للتفصيل لا للتخيير، لأن المعنى أو آخران من غيركم إن لم تجدوا منكم ، وهو قول ابي عبيدة وشريح ويحيى بن يعمر وابن عباس وابراهيم وسعيد بن جبير والسدي ، وهو قول أبي جعفر وابي عبدالله (ع) • وقال قوم : هو بمعنى التخيير فيمن ائتمنه الموصي من مؤمن أو كافر •

وقوله « ان أتتم ضربتم في الارض » يعني ان انتم سافرتم كما قال « واذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة » [١] •

وقوله « فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة » فيه محذوف ، وتقديره وقد اسنتم الوصية اليهما فارتاب الورثة بهما تحبسونهما• وقوله « تحبسونهما » خطاب للورثة والهاء في (به) تعود الى القسم بالله • والصلاة المذكورة في هذه الآية قيل فيها ثلاثة أقوال :

أولها ــ قال شريح وسعيد بن جبير وابراهيم وقتادة ، وهو قول أبي جعفر (ع) أنها صلاة العصر •

الثاني ــ قال الحسن : هي الظهر أو العصر ، وكل هذا لتعظيم حرمت وقت الصلاة على غيره من الاوقات • وقيل : لكثرة اجتماع الناس كان بعد صلاة العصر •

الثالث ــ قال : ابن عباس صلاة اهل دينهما يعني في الذميين لأنهم لا يعظمون أوقات صلاتنا •

وقوله « فيقسمان بالله » الفاء دخلت لعطف جملة (ان ارتبتم) في قول الآخرين الذين ليسا من أهل ملتنا أو من غير قبيلة الميت فغلب في ظنكم

(١) سورة ٤ النساء آية ١٠٠ •

خيانتهم ، ولا خلاف أن الشاهد لا يلزمه اليمين إلا أن يكونا شاهدين على وصية مستندة اليهما فيلزمهما اليمين لانهما مدعيان . وقوله « لا نشتري به ثمنا » لا نشتري جواب ما يقتضيه قوله « فيقسمان » لان (أقسم)ونحوه يتلقى بما تتلقى به الايمان . ومعنى قوله « لا نشتري به ثمناً » لا نشتري بتحريف شهادتنا ثمنا ، فحذف المضاف وذكر الشهادة ، لأن الشهادة قول كما قال « واذا حضر القسمة أولوا القربى ... » ثم قال « فارزقوهم منه »[1] لما كانت القسمة يراد بها المقسوم ، ألا ترى ان القسمة التي هي افراد الانصباء لا يرزق منه . وانما يرزق من التركة ، وتقديره لا نشتري به ثمنا أي ذا ثمن ، ألا ترى أن الثمن لا يشترى ، وانما الذي يشترى المبيع دون ثمنه ، وكذلك قوله « اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا » [2] أي ذا ثمن . والمعنى انهم آثروا الشيء القليل على الحق ، فاعرضوا عنه وتركوه ، ولا يكون (اشتروا) في الآية بمعنى (باعوا) لأن بيع الشيء اخراج وانفاذ له من البائع ، وليس المعنى ـ هاهنا ـ على الانفاذ وانما هو على التمسك به ، والايثار له على الحق .

وقوله « ولو كان ذا القربى » تقديره ولو كان المشهود له ذا قربى ، وخصَّ ذو القربى لميل الناس الى قراباتهم ، ومن يناسبونه .

وقوله « ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين » معناه انّا أن كتمناها لمن الآثمين . وقال (شهادة الله)فأضاف الشهادة الى الله لأمره بها وباقامتها والنهي عن كتمانها في قوله « ومن يكتمها فانه آثم قلبه» [3] وقوله « وأقيموا الشهادة لله » [4] .

قوله تعالى :

فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّا إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا

(١) سورة ٤ النساء آية ٧
(٢) سورة ٩ التوبة آية ١٠
(٣) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٣
(٤) سورة ٦٥ الطلاق آية ٢

مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّالِمِينَ (١١٠)

آية بلاخلاف •

قرأ حفص والاعشى الا النفار والكسائي عن ابي بكر « استحق » بفتح التاء والحاء • الباقون ــ بضم التاء وكسر الحاء ــ والابتداء على الاول بكسر الهمزة • وقرأ حمزة وأبو بكر إلا الاعشى ــ في غير رواية النفار ــ ويعقوب ، وخلف (الاوّلين) بتشديد الواو ، وكسر اللام وفتح النون على الجمع • والباقون بسكون الواو ، وفتح اللام وكسر النون على التثنية •

وقد ذكرنا سبب نزول الآية عمن رويناه عنه فذكروا أنها نزلت في أمر رسول الله (ص) ان يستحلفوهما (والله ما قبضنا له غير هذا ولا كتمناه) ثم ظهر على إناء من فضة منقوش مذهب معهما ، فقالوا : هذا من متاعه ، فقالا : اشتريناه منه ، فارتفعوا الى رسول الله فنزلت قوله تعالى : « فان عثر على انهما استحقا اثماً فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق •• » فامر رسول الله رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتما وغيبا ، فحلف عبدالله ابن عمر [١] والمطلب بن أبي وداعة [٢] فاستحقا • ثم ان تميما اسلم وتابع رسول الله (ص) وكان يقول : صدق الله ، وبلغ رسول الله ، أنا أخذت الاناء •

ومعنى (عثر) ظهر على ، تقول : عثرت على خيانته وأعثرت غيري على خيانته أي أطلعته • ومنه قوله « وكذلك أعثرنا عليهم » [٣] أي أطلعنا عليهم وأصله الوقوع بالشيء من قولهم : عثر الرجل يعثر عثوراً اذا وقع اصبعه

(١) وقد روي فقام عمر بن العاص ورجل آخر فحلفا •••
(٢) في بعض النسخ (ابن ابي رفاعة) بدل (ابن ابي وداعة) •
(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٢١ •

بشيء صدمته ، وعثر الفرس عثاراً قال الشاعر :

بذات لوث عفرناة اذا عثــرت فالتعس أدنى لها من أن أقول لعا(٤)

وأعثر الرجل يعثر عثراً اذا أطلع على أمر كان خافياً عنه ، لأنه وقع عليه بعد خفائه ، والعثير الغبار الساطع ، لانه يقع على الوجه وغيره ، والعثير الاثر الخفي ، لأنه يوقع عليه من خفاء .

وقوله : « على انهما » يعني على أن الوصيين المذكورين أولا في قوله « اثنان » في قول سعيد بن جبير . وقال ابن عباس : على أن الشاهدين استحقا اثما يعني خانا وظهر وعلم منهما ذلك « فآخران يقومان مقامهما » يعني من الورثة ــ في قول سعيد بن جبير وغيره ــ و« من الذين استحق عليهم الاوليان » قيل في قوله « الاوليان » ثلاثة أقوال :

أحدها ــ قال سعيد بن جبير وابن زيد : الاوليان بالميت . الثاني قال ابن عباس وشريح : الاوليان بالشهادة وهي شهادة الايمان . الثالث قــال الزجاج : الاوليان أن يحلفا غيرهما وهما النصرانيان . ويقال هو الاولى بفلان ثم يحذف فلان فيقال : هو الاولى ، وهذان الاوليان كما يقال هو الاكبر بمعنى الكبير وهذان الاكبران . وفي رفع الاوليان ثلاثة أقوال :

أحدها ــ بانه اسم ما لم يسم فاعله والمعنى استحق عليهم اثم الاولين أي استحق منهم ، فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه .

الثاني ــ بانه بدل من الضمير « في يقومان » على معنى فليقم الاوليان من الذين استحق عليه الوصية وهو اختيار الزجاج .

الثالث ــ بدل من قوله « آخران » . وزعم بعض الكوفيين انه لايجوز إبداله من « آخرين » لتأخر العطف في (فيقسمان) ، لانه يصير بمنزلــة

(٤) قائــله الاعشى ديوانه : ١٣ . (اللوث) . القوة . و (عفرنات ــ بفتح العين والفاء ــ يصف بها الناقة بانها شبه المجنونة في السير . و(التعس) العثور . و (لعا) كلمة تقال للعاثر .

(مررت برجل قام زيد وقعد) قال الرماني : يجوز على العطف بالفاء جملة على جملة • وقال أبو علي الفارسي : ويجوز أن يكون رفعاً بالابتداء وقد أخر • وتقديره فالاوليان بأمر الميت آخران من أهله أو من أهل دينه يقومان مقام الخائنين اللذين عثر عليهما كقولك : تميمي أنا • ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف ، وتقديره فآخران يقومان مقامهما هما الاوليان • واختار أبو الحسن الاخفش أن يكون الاوليان صفة لقوله « فآخران » لانه لما وصف اختص • فوصف لأجل الاختصاص بما توصف به المعارف • واما الجمع فعلى اتباع « الذين » وموضعه الجر وتقديره من الاولين الذين استحق عليهم الايصاء والاثم • وانما قيل لهم الاولين من حيث كانوا أولين في الذكر ألا ترى أنه تقدم « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم » وكذلك « اثنان ذوا عدل منكم » ذكرا في اللفظ ، قبل قوله « أو آخران من غيركم » وحجتهم في ذلك أن قالوا : أرأيت ان كان الاوليان صغيرين أراد انهما اذا كانا صغيرين لم يقوما مقام الكبيرين في الشهادة ولم يكونا لصغرهما اولى بالميت ، وان كانا لو كانا كبيرين كانا أولى به •

وانما قال « استحقا اثماً » لان آخذه انما يأخذه آثم فسمي (اثماً) كما يسمى ما يؤخذ منك بغير حق مظلمة • قال سيبويه : المظلمة اسم ما أخذ منك قهراً ، وكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر • وقيل : معناه استحقا عذاب إثم وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه كما قال « اني أريد أن تبوء باثمي وإثمك » (١) أي بعقاب اثمي وعقاب اثمك • وقيل في معنى (عليهم) ثلاثة أقوال :

أحدها ــ ان تكون (على) بمعنى (من) كأنه • قال من الذين استحق منهم الاثم كما قال « اذا اكتالوا على الناس » (٢) أي من الناس •

الثاني ــ ان يكون المعنى كما تقول : استحق على زيد مال بالشهادة أي

(١) سورة ٥ المائدة آية ٣٢ (٢) سورة ٨٣ المطففين آية ٢

لزمه ووجب عليه الخروج منه ، لان الشاهدين لما عثر على خيانتهما استحق عليهما ما ولياه من أمر الشهادة والقيام بها ووجب عليهما الخروج منها وترك الولاية لها فصار اخراجهما منها مستحقا عليهما كما يستحق على المحكوم عليه الخروج مما وجب عليه .

الثالث ـ أن تكون (على) بمنزلة (في) كأنه استحق فيهم ، وقام (على)مقام (في) كما قام (في) مقام (على) في قوله « ولأصلبنكم في جذوع النخل » [٣] والمعنى من الذين استحق عليهم بشهادة الآخرين اللذين هما من غيرنا .

فان قيل : هل يجوز أن يسند (استحق فيه) الى الاوليان ؟

قلنا لا يجوز ذلك لأن المستحق انما يكون الوصية أو شيء منها ، ولا يجوز أن يستحق الاوليان وهما الاوليان بالميت ، والاوليان بالميت لا يجوز أن يستحقا فيسند (استحق) اليهما .

وقوله « فيقسمان بالله » أي يحلفان بالله . وقوله « لشهادتنا أحق من شهادتهما » جواب القسم في قوله « فيقسمان بالله » وقوله « وما اعتدينا » يعني فيما قلنا من أن شهادتنا أحق من شهادتهما « إنا اذا لمن الظالمين » تقديره إنا ان اعتدينا لمن الظالمين لنفوسنا .

قال الزجاج : هذه الآية أصعب آية في القرآن اعراباً .

فان قيل : كيف يجوز أن يقف أولياء الميت على كذب الشاهدين أو خيانتهما حتى حل لهما أن يحلفا ؟

قيل : يجوز ذلك بوجوه : أحدها ـ أن يسمعا اقرارهما بالخيانة من حيث لا يعلمان أو يشهد عندهم شهود عدول بأنهم سمعوهما يقرّان بأنهما كذبا أو خانا ، أو تقوم البينة عندهما على أنه أوصى بغير ذلك أو على أن هذين لم يحضرا الوصية أو يعرفان بغير ذلك من الاسباب .

(٣) سورة ٢٠ طه آية ٧١ .

قوله تعـالى :

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (١١١) آية بلا خلاف •

قوله « ذلك أدنى » معناه ذلك الاحلاف والاقسام او ذلك الحكم أقرب الى ان يأتوا بالشهادة على وجهها أي حقها وصدقها ، لان اليمين يردع عن أمور كثيرة لا يرتدع عنها مع عدم اليمين •

واختلفوا في ان اليمين هل تجب على كل شاهدين أم لا ؟

فقال ابن عباس : انما هي على الكافر خاصة وهو الصحيح •

وقال غيره : هي على كل شاهدين وصيين اذا ارتيب بهما •

واختلفوا في نسخ حكم الآيتين المتقدمتين مع هذه على قولين :

فقال ابن عباس وابراهيم وأبو علي الجبائي : هي منسوخة الحكم •

وقال الحسن وغيره : هي غير منسوخة • وهو الذي يقتضيه مذهبنا واخبارنا • وقال البلخي : أكثر أهل العلم على أنه غير منسوخ ، لانه لم ينسخ من سورة المائدة شيء، لانها آخر ما نزلت • ووجه قول من قال : هي منسوخة أن اليمين لا يجب اليوم على الشاهدين بالحقوق • وانما كان قبل الامر باشهاد العدول في قوله « واشهدوا ذوي عدل منكم » (١) فنسخت هـذه الآية ودلت على أن شهادة الذمي لا تقبل إلا على الذمي اذا ارتفعا الى حكام المسلمين لان الذمي ليس بعدل ولا ممن يرضى من الشهداء ، وهو قول أبي علي الجبائي • ومن ذهب الى انها منسوخة جعلها بمعنى شهادة الايمان على الوصيين فاذا ظهروا على خيانة منهما مما وجد في أيديهما صارا مدعيين وصار

(١) سورة ٦٥ الطلاق آية ٢ •

الورثة في معنى المنكر فوجبت عليهما اليمين من حيث صارا مدعيين .

وقوله « أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم » يعني أهل الذمة يخافوا أن ترد أيمان على أولياء الميت فيحلفوا على خيانتهم فيفتضحوا ويغرموا وينكشف بذلك للناس بطلان شهادتهم ويسترد منهم ما أخذوه بغير حق ، حينئذ يؤدوا الشهادة على وجهها ويحذروا من الكذب .

وقوله « واتقوا الله واسمعوا » يعني اجتنبوا معاصيه واحذروا ان تحلفوا ايمانا كاذبة أو تخونوا أمانة واسمعوا مواعظ الله « والله لا يهدي القوم الفاسقين » يعني لا يهدي الفاسقين ــ الذين خرجوا من طاعة الله الى معصيته ــ الى الجنة . وقيل ان معنى « لا يهدي » لا يحكم للفاسقين بانهم مهتدين ولا يجري عليهم مثل هذه الصفة لانها صفة مدح .

قوله تعالى :

يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٢) آية واحدة .

في ما ينتصب به قوله « يوم » ؟ قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها ــ انه انتصب بمحذوف تقديره احذروا « يوم يجمع الله الرسل »

الثاني ــ اذكروا يوم يجمع الله .

الثالث ــ قال الزجاج : ينتصب بقوله « اتقوا الله » . وقال المغربي : يتعلق بقوله « لا يهدي القوم الفاسقين » الى الجنة « يوم يجمع الله » ولا يجوز أن ينتصب على الظرف بهذا الفعل ، لانهم لم يؤمروا بالتقوى في ذلك اليوم ، لكن انتصب على انه مفعول به . واليوم لا يتقى ولا يحذر ، وانما يتقى ما يكون فيه من العقاب والمحاسبة والمناقشة كأنه قال اتقوا عقاب يوم ، وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه .

وقوله « ماذا أجبتم » تقرير للرسل في صورة الاستفهام على وجه التوبيخ للمنافقين عند اظهار فضيحتهم وهتك أستارهم على رؤوس الاشهاد •

وقول الرسل « لا علم لنا » قيل فيه ثلاثة أقوال :

أولها ـ قال الحسن والسدي ومجاهد أنهم قالوا ذلك لذهولهم من هول ذلك المقام • فان قيل كيف يجوز ذهولهم مع انهم آمنون لا يخافون ؟ كما قال « لا يحزنهم الفزع الاكبر » (١) وقال « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢) قيل ان الفزع الاكبر دخول جهنم • وقوله « ولا خوف عليهم » هو كقولك للمريض لا خوف عليك ، ولا بأس عليك ، مما يدل على النجاة من تلك الحال ، وخالف أبو علي في هذا ولم يجز الا ما نحكيه عنه •

الثاني ـ قال ابن عباس ، ومجاهد ـ في رواية أخرى ـ ان معناه لاعلم لنا إلا ما علمتنا فحذف لدلالة الكلام عليه •

الثالث ـ قال الحسن في رواية أخرى وابو علي الجبائي : ان معناه لا علم لنا بباطن ما أجاب به أممنا لان ذلك هو الذي يقع عليه الجزاء •

وقال بعضهم معناه لا علم لنا مع علمك أي ليس عندنا شيء مما نعلمه الا وانت عالم به وبكل ما غاب وحضر بدلالة قوله «إنك أنت علام الغيوب »

وقيل في معنى قوله « انك أنت علام الغيوب » انه قال علام للبالغة هاهنا لا للتكثير المعلوم •

قوله تعالى :

إِذ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَإِذْ

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ١٠٣ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٧٠

تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٣) آية بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي وخلف « ساحر » بألف هاهنا وفي أول سورة يونس ، وفي هود ، وفي الصف . وافقهم ابن عامر وعاصم في يونس .

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه من صفة يوم القيامة كما ان ما قبله من صفتها ومن خطاب الرسل بالمسألة والتذكير بالنعمة لتوبيخ من يستحق التوبيخ من اممهم وتبشير من يستحق البشارة منهم .

العامل في (إذ) يحتمل أحد أمرين : أحدهما ــ الابتداء عطفاً على قوله « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم » قال وذلك « اذ قال » فيكون موضعه رفعاً كما يقول القائل كأنك بنا قد وردنا بلد كذا فصنعنا فيه وفعلنا اذ صاح بك صائح فاجبته وتركتني .

الثاني ــ اذكر اذ قال الله . وقال بعضهم ان معناه ماذا أجبتم على عهد عيسى . قال الرماني : هذا غلط،لانه من صفة (يوم القيامة) وعندي لا يمتنع أن يكون المراد بذلك اخبار النبي (ص) اذ قال الله لعيسى بن مريم إذكر ، أي أخبر قومك ما أنعمت به عليك وعلى أمك ، واشكر ذلك اذ أيدتك بروح القدس . وروح القدس هو جبرائيل وحسن قوله « اذ قال » ولم يقل(يقول) لانه عطف على ما قبله لانه قدم ذكر الوقت . وتأييد الله هو ما قواه به وأعانه على أمور دينه ، وعلى رفع ظلم اليهود والكافرين عنه . ووزن « أيدتك » فعلتك من الايد على وزن قربتك . وقال الزجاج : يجوز أن يكون فاعلتك من الايد . وقرأ مجاهد : أيدتك على وزن أفعلتك من الايد . وروح القدس

جبرائيل قال الحسن والقدس هو الله .

وقوله « تكلم الناس في المهد » أي انك تكلم الناس في حال ما كنت صبياً في المهد ــ والمهد حجر أمه ، في قول الحسن ــ وفي حال ماكنت كهلا . قال أبو علي فكان كلم الناس في هذين الوقتين بتبليغه إياهم ما أرسله الله به الى عباده ، وما يدعوهم اليه من طاعة الله وتصديق رسله ، لانه كان بين لهم عند كلامه في المهد « اني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا » (١) فبين لهم في هذا وفي وقت ما صار كهلا ان الله بعثه نبيا ولم يتكلم أحد من الانبياء في المهد سواه ولم يبعث أحد عندما ولد غيره ، فذكره هذه النعمة التي خصه بها ليشكره على ذلك .

ونصب قوله « كهلا » يحتمل أمرين :

أحدهما ــ على ان يكون عطفا على موضع تكلم أي أيدتك صغيراً وكهلا .

الثاني ــ أن يكون عطفاً على موضع في المهد ، أي وتكلمهم كهلا بالرسالة .

وقوله « واذ علمتك الكتاب » يعني واذكر « اذ » . وقيل في معنى (الكتاب) قولان :

أحدهما ــ انه اراد الخط الكتابة .

الثاني ــ الكتب فيكون على طريق الجنس ثم فصله بذكر التوراة والانجيل .

وقوله « والحكمة » يعني العلم بما في تلك الكتب .

وقوله « واذ تخلق من الطين كهيئة الطير » أي واذكر ذلك أيضا كل ذلك تذكير له بنعمه عليه والخلق هو الفعل المقدر على مقدار يعرفه الفاعل ، فعلى هذا جميع أفعاله تعالى توصف بأنها مخلوقة ، لانه ليس فيها شيء على وجه السهو والغفلة ، ولا على سبيل المجازفة . ومعنى ذلك أنه خلق من الطين كهيئة الطير أي تصور الطين بصورة الطير الذي تريد . وسماه خلقاً لانه

(١) سورة ١٩ مريم آية ٣٠ــ٣٢ .

كان يقدره .

وقوله « باذني » أي تفعل ذلك باذني وأمري .

وقوله « فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني » معناه انه نفخ فيها الروح ، لأن الروح جسم ويجوز أن ينفخها المسيح بامر الله . والطير يؤنث ويذكر فمن أنث أراد الجمع ومن ذكر فعلى اللفظ . والطير واحده طائر مثل ضائن وضأن وراكب وركب . وقد قالوا (أطيار) مثل صاحب وأصحاب وشاهد وأشهاد ، ويمكن أن يكون (أطيار) جمع طير مثل ثبت واثبات وبيت وابيات .

قال أبو علي وقد ينفخها في الجسم على ما أخبر الله به جبرائيل ، وعلى ماروي عن النبي (ص) أنه يبعث اليه ملكا عند تمام مئة وعشرين يوما فينفخ فيه الروح ويكتب أجله ورزقه وشقي هو أم سعيد . وبين بقوله « فيكون طيراً باذني » أنه اذا نفخ المسيح (ع) فيها الروح قلبها الله لحماً ودماً ، وخلق فيها الحياة فصارت طائراً باذن الله وإرادته لا بفعل المسيح (ع) فلذلك قال «فيكون طيراً باذني » .

وقوله « وتبريء الاكمه والابرص باذني » معناه إنك تدعوني حتى أبرىء الاكمه ، وهو الذي خلق أعمى . وقال الخليل : يكون الذي عمي بعد ان كان بصيراً والأصل الاول . والأبرص معروف ونسب ذلك الى المسيح لما كان بدعائه وسؤاله .

وقوله « وإذ تخرج الموتى باذني » أي اذكر اذ تدعوني فأحيي الموتى عند دعائك وأخرجهم من القبور حتى يشادهم الناس أحياء . وانما نسبه الى عيسى لما بينا من أنه كان بدعائه .

وقوله « واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات » أي اذكر إذ كففت هؤلاء عن قتلك وإذ أيدتك حين جئتهم بالبينات مع كفرهم وعتوهم مع قولهم ان ما جئت به من الآيات سحر مبين . ويجوز أن يكون كفهم بألطافه التي لا يقدر عليها غيره ، ويجوز أن يكون كفهم بالمنع والقهر كما منع من أراد

قتل نبينا (ص) وقيل لأنه ألقى شبهه على غيره حتى قتلوه ونجا .

ومن قرأ (ساحر) أراد أن عيسى ساحر مبين أي ظاهر بين . والسحر هو الباطل المموه بالحق . وقوله في أول الآيــة « اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك » أي اخبر بها قومك الذين كذبوا عليك ليكون حجة عليهم ، لانهم ادعوا عليه أنه إله وأنه لم يكن عبداً منعما عليه ، ثم عدد النعم نعمة نعمة على ما بينا . وقال الطبري : انما عدد الله تعالى هذه النعم على عيسى (ع) حين رفعه اليه فلذلك قال « إذ قال الله » .

قوله تعـــالى :

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١٤) آية .

التقدير واذكر إذ أوحيت الى الحواريين . وفي معنى « أوحيت » قولان:

أحدهما ــ أن معناه الهمتهم كما قال« وأوحى ربك الى النحل »(١) أي ألهمها . وقيل أمرتهم .

الثاني ــ القيت اليهم بالآيات التي أريتهم إياها كما قال الشاعر :

الحمد لله الذي استقلت باذنه السماء واطمأنت

أوحى لها القرار فاستقرت (٢)

أي القى اليها ويروى وحى لها . والفرق بين أوحى ووحى من وجهين :

أحدهما ــ أن أوحى بمعنى جعلها على صفة كقولك جعلها مستقرة ، ووحى جعل فيها معنى الصفة ، لأن أفعل أصله التعدية . وقال قوم : هما لغتان . وقال البلخي معنى « أوحيت الى الحواريين » أي أوحيت اليك أن تبلغهم أو الى رسول متقدم . وقوله (أوحيت اليهم) يعني أوحيت الى الرسول الذي جاءهم . وفي معنى الآية قولان :

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٨

(٢) انظر ٢/٥٩

أحدهما ـ قال أبو علي إذكر نعمتي عليك اذ أوحيت الى الحواريين الذين هم أنصارك .

الثاني ـ اذكر نعمتي على الحواريين لما في ذلك من العلم بنعم الله خاصة وعامة . وانما حسن الحذف في التذكير بالنعمة للشهرة وعظم المنزلة باجلال النعمة ولذلك يحسن الحذف في الافتخار كقول الأعشى :

إن محـــلا وان مرتحـــلا وإن في السفر أذ مضوا مهلا[٣]

أي لنا محلا . و (الحواريون) قال الحسن هم أنصار عيسى . وقيل : هم وزراؤه على أمره . وقيل : هم خاصة الرجل وخلصائه . ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله للزبير أنه حواري ، ومعناه خالصتي من الناس ، والرفيق الحواري ، لانه أخلص اليه من كل ما يشوبه ، وأصله الخلوص ، ومنه حار يحور أي رجع الى حال الخلوص ، ثم كثر حتى قيل صار لكل راجع وقيل : انهم كانوا قصارين .

قوله تعالى :

إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ قَالَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٥) آية بلا خلاف .

قرأ الكسائي والأعشى إلا النفار « هل تستطيع » بالتاء « ربك » بنصب الباء . الباقون بالياء وضم الباء . وأدغم الكسائي اللام في التاء .

قيل في العامل في (إذ) قولان : أحدهما ـ أوحيت . الثاني ـ اذكر إذ قال الحواريون . وكلاهما يحتمل .

وقيل في معنى قوله « هل يستطيع ربك » ثلاثة أقوال :

(٣) ديوانه القصيدة : ٣٥ صفحة ١٥٥ .

أحدها ـ هل يقدر وكان هذا في ابتداء أمرهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله تعالى ، وما يجوز عليه وما لا يجوز من الصفات ، ولذلك أنكر عليهم نبيهم ، فقال « اتقوا الله ان كنتم مؤمنين » ، لانه لم يستكمل ايمانهم في ذلك الوقت .

الثاني ـ هل يفعل ذلك قاله الحسن ، كما يقول القائل : هل تستطيع أن تنهض أي هل تفعل ، لأن المانع من جهة الحكمة أو الشهوة قد يجعل بمنزلة المنافي للاستطاعة .

الثالث ـ هل يستجيب لك ربك . قال السدي هل يطيعك ربك ان سألته ، فهذا على معنى استطاع وأطاع كقولهم استجاب بمعنى أجاب ، وانما حكى سيبويه استطاع بمعنى أطاع على زيادة السين . ومعنى قراءة الكسائي « هل تستطيع » ان تستدعي اجابة ربك . وأصله هل تستدعي طاعته فيما قبله من هذا ـ هذا قول الزجاج وفيه وجه آخر وهو هل تقدر أن تسأل ربك .

والفرق بين الاستطاعة والقدرة أن الاستطاعة انطياع الجوارح للفعل والقدرة هي ما أوجبت كون القادر قادراً ولذلك يوصف تعالى بأنه قادر ، ولا يوصف بانه مستطيع . والمائدة الخوان لانها تميد بما عليها أي تحركه . قال أبو عبيدة : هي (مفعولة) في المعنى ولفظها (فاعلة) كقوله « عيشة راضية » (١) أي مرضية واصل المائدة الحركة من قولهم ماد يميد ميداً اذا تحرك ، عن الزجاج . ومنه المائد المدار به في البحر ماد يميد ميداً . وماده اذا أعطاه ومنه قول رؤبة :

نهدي رؤوس المترفين الانداد الى أمير المؤمنين الممتاد (٢)

أي المستعطي ومادهم يميدهم ميداً اذا اطعمهم على المائدة ثم كثر حتى

---

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٢١ وسورة ١٠١ القارعة آية ٧

(٢) ديوانه : ٤٠ ومجاز القرآن ١ : ١٨٣ ، واللسان (ميد) .

قيل لكل مطعم . وقوله « قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » معناه اتقوا معاصيه وكثرة سؤال الآيات ، لانكم ان كنتم مؤمنين بالله وبصحة نبوة عيسى ، فقد أغناكم ما عرفتموه عن الآيات واتقوا سؤال نزول المائدة ، فانكم لا تعلمون ما يفعل الله بكم عند هذا السؤال .

قوله تعـالى :

قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٦) آية .

قيل في معنى (الارادة) هاهنا قولان :

أحدهما ـ ان يكون بمعنى المحبة التي هي ميل الطباع .

الثاني ـ ان تكون الارادة التي هي من أفعال القلوب ، ويكون التقدير فيه نريد بسؤالنا هذا ، كأنهم قالوا : نريد السؤال من أجل هذا الذي ذكرناه، وهذه الارادة وان تقدمت المراد بأوقات لا توصف بأنها عزم ، لانها متعلقة بفعل الغير وقوله « تطمئن قلوبنا » يجوز أن يكونوا قالوه وهم مستبصرون في دينهم مؤمنون كما قال ابراهيم (ع) « أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » [١] تحقيقه لنزداد طمأنانية الى ما نحن عليه من المعرفة ، وان كانت المعرفة لا تكون إلا مع الثقة التامة ، فان الدلائل كلما كثرت مكنت في النفس المعرفة .

وقوله « ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليهـا من الشاهدين » يعني الشاهدين لله بتوحيده بالدليل الذي نراه في المائدة والشهادة لك بالنبوة من جهة ذلك الدليل . والصدق هو الاخبار بالشيء على ما هو به والكذب هو الاخبار بالشيء لا على ما هو به .

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٦٠

قوله تعـالى :

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ (١١٧) آية بلاخلاف •

أخبر الله تعالى عن عيسى (ع) أنه سأل ربه أن ينزل عليهمائدة من السماء تكون عيداً لهم لأولهم وآخرهم على ما يقترحه قومه • ورفع (تكون) لانه صفة للمائدة كما قال « فهب لي من لدنك ولياً يرثني » [٢] في قراءة من رفعه لأنه جعله صفة • وفيه محذوف ، لأن تقديره عيداً لنا ولأولنا وآخرنا لتصح الفائدة في تكرير اللام في أولنا وآخرنا ، وقيل في معناه قولان :

أحدهما ــ تتخذ اليوم الذي تنزل فيه عيداً نعظمه نحن ومن يأتي بعدنا ــ في قول السدي وقتادة وابن جريج ــ وهو قول أبي علي •

الثاني ــ يكون ذلك عائدة فضل من الله ونعمة منه تعالى • والاول هو وجه الكلام • وقيل : إنها نزلت يوم الاحد • وقوله « وآية منك » فالآية هي الدلالة العظيمة الشأن في إزعاج قلوب العباد الى الاقرار بمدلولها ، والاعتراف بالحق الذي يشهد به ظاهرها ، فهي دلالة على توحيدك وصحة نبوة نبيك • وقيل في طعام المائدة ثلاثة أقوال :

أولها ــ قال ابن عباس وأبو عبدالرحمن : هو خــبز وسمك ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) قال عطية كانوا يجدون في السمك طيب كل طعام •

---

(٢) سورة ١٩ مريم آية ٤ــ٥

الثاني ـ قال عمار بن ياسر : كان ثمراً من ثمار الجنة .

الثالث ـ قال زادان وابو ميسرة : كان عليها من كل طعام إلا اللحم .

وقوله : « وارزقنا » قيل في معناه ـ هاهنا ـ قولان :

أحدهما ـ واجعل ذلك رزقاً لنا .

الثاني ـ وارزقنا الشكر عليها ـ ذكرهما الجبائي ـ وانما يكون الشكر رزقا منه لنا لأنه لطف فيه ووفق له وإعانة عليه كما يكون المال رزقا لنا اذا ملكنا إياه لا بخلقه له .

وفي الآية دلالة على أن العباد يرزق بعضهم بعضا بدلالة قوله « وأنت خير الرازقين » لانه لو لم يصح ذلك لم يجز (خير الرازقين)كما أنه لما لم يجز أن يكونوا آلهة لم يصح أن يقول أنت خير الآلهة ، وصح « أرحم الراحمين » (٢) و « أحكم الحاكمين » (٣) و « أسرع الحاسبين » (٤) . و « أحسن الخالقين » (٥) .

قوله تعالى :

قَالَ ٱللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ (١١٨) آية بلا خلاف .

قرأ « منزلها » بالتشديد أهل المدينة وابن عامر ، وعاصم . الباقون بالتخفيف .

---

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٥٠ وسورة ٢١ الانبياء آية ٨٣ وسورة ١٢ يوسف آية ٦٤و٩٢ .

(٣) سورة ١١ هود آية ٤٥ وسورة ٩٥ التين آية ٨ .

(٤) سورة ٦ الانعام آية ٦٢ .

(٥) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٤ وسورة ٣٧ الصافات آية ١٢٥ .

من خفف طابق بينه وبين قوله « أنزل علينا » ومن ثقل ، فلأن نزل وأنزل بمعنى قال تعالى « تبارك الذي نزل الفرقان » [١] • وقال « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب » [٢] لما سئل الله عيسى (ع) أن ينزل عليه المائدة تكون عيداً لأولهم وآخرهم ، قال تعالى مجيبا له الى ما التمسه « اني منزلها عليكم » يعني المائدة « فمن يكفر بعد منكم » يعني بعد إنزالها عليكم « فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين » وقيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال قتادة : مسخوا قردة وخنازير،وهو المروي عن أبي عبدالله عليه السلام ولم يمسخ أحد خنازير سواهم •

الثاني ـ أنه أراد به من عالمي زمانهم •

الثالث ـ أنه أراد به جنسا من العذاب لا يعذب به أحداً غيرهم • وانما استحقوا هذا النوع من العذاب بعد نزول المائدة [٣] لانهم كفروا بعدما رؤا الآية التي هي من أزجر الآيات عن الكفر لم يرها غيرهم بعد سؤالهم لها وتعلق سببهم بها فاقتضت الحكمة اختصاصهم بضرب من العذاب عظيم الموقع • كما اختصت آيتهم بضرب من الزجر في عظيم الموقع • وقال الحسن ومجاهد: ان المائدة لم تنزل عليهم ، لانهم استعفوا من نزولها لما سمعوا الوعيد المقرون بها • وقال قوم : هذا غلط من قائله ، لانه تعالى وعد بانزالها ولا خلاف لقوله وأكثر أهل العلم على أنها أنزلت : منهم ابن عمر ، وعمار بن ياسر وأبو عبدالرحمن السلمي ، وقتادة والسدي ، وهو ظاهر القرآن • وأيضا فلا يجوز أن يسأل نبي على رؤوس الملأ آية لايجاب اليها ، لان ذلك ينفر عنه • وقال

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ١ (٢) سورة ١٨ الكهف آية ١
(٣) يقصد بعد نزول المائـدة على بني اسرائيل (الطعام) لا نزول سورة المائدة •

الحسن : انما كان الوعد من الله بانزال المائدة بشرط أن يكون بتقدير اني منزلها عليكم ان تقبلتم الوعيد فيها « فمن يكفر بعد منكم ... » الآية ، وهذا الشرط الذي ذكره لا دليل عليه . والمطلق لا يحمل على المقيد الا بقرينة وقال قوم : انهـا لو نزلت فكفروا لعذبوا وأنزل ذلك في القرآن ولو لم يكفروا لكانت المائدة قائمة للمسلمين الى يوم القيامة . وهذا ليس بصحيح لانه يجوز أن يكون عنى بالعذاب ما يفعله بالآخرة . ويجوز أن يكون عنى عذاب الدنيا ولم يذكره ، لانه ليس بواجب أن يكون كل من اختصه بضرب من العذاب لابد أن يخبرنا عنه في القرآن ، لانه يكون تجويز ذلك على منازل عظيمة في الجملة أهول وأملأ للصدر من ذكره بالتصريح على تفصيل أمره . وأما بقاؤها الى يوم القيامة فلا يلزم لأن وجه السؤال أن يكون يوم نزولها عيداً لهم ولمن بعدهم ممن كان على شريعتهم .

قوله تعـالى :

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ (١١٩) آية بلاخلاف

قوله « واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات » أي اذكر ويحتمل ثلاثة أوجه :

أولها ــ أن يكون معطوفاً على ما قبله ، كأنه قال « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم » ثم قال : وذلك اذ يقول يا عيسى اذكر نعمتي واذ يقول له أأنت قلت للناس .

الثاني ـ قال البلخي : يمكن أن يكون لما رفع الله عيسى اليه قال له ذلك ، فيكون المقال ماضيا •

والثالث ـ ذكره أيضا البلخي أن (إذ) استعملت بمعنى (إذا) فيصح حينئذ أن يكون القول من الله يوم القيامة ، ومثله « ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت » [١] كأنه قال أذ يفزعون ، وقال « ولو ترى اذ الظالمون موقوفون » [٢] كأنه قال اذا وقفوا لان هذا لم يقع بعد ، وقال أبو النجم :

ثم جزاه الله عنـا اذ جزا جنات عدن في العلا لي العلا [٣]

والمعنى اذا جزى ، وقال الاسود (أعشى بني نهشل)

فالآن اذ هازلتهن قائما يقلن ألا لم يذهب المرء مذهبا [٤]

وقال أوس :

الحافظ الناس في تحوط اذا لم يرسلوا تحت مائذ ربعا

وهبت الشـامل البليـل واذ بات كميـع الفتاة ملتفعا [٥]

يقال (اذا) و (اذ) بمعنى واحد ، وقال بعض أهل اليمن :

وندمان يزيد الكـأس طيبا سقيت اذا تغورت النجوم [٦]

فقال (اذا) والمعنى (اذ) لانه انما يخبر عما مضى • وقال أبو عبيدة (اذ) صلة • والمعنى قال الله : يا عيسى • وقد بينا فساد هذا القول فيما مضى فأما لفظ (قال) في معنى يقول فمستعمل كثيراً وان كان مجازاً ، قال الله تعالى

---

(١) سورة ٣٤ سبأ آية ٥١ (٢) سورة ٣٤ سبأ آية ٣١

(٣) اللسان (اذ) ، (طها) • والاضداد لابن الانباري : ١٠٢ وتفسير القرطبي ٦ : ٣٧٥ وتفسير الطبري ١١ : ٢٣٥ •

(٤) ديوان الاعشيين / ٢٩٣ والاضداد لابن الانباري ١٠١ •

(٥) اللسان (اذ) •

(٦) اللسان (ندم) • قائله البرج بن مسهر اليمني •

« ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار » (١) والمراد ينادي . وقد استعمل المستقبل بمعنى الماضي ، قال زياد الاعجم في المغيرة بن المهلب يرثيه بعد موته :

فاذا مررت بقـــبره فانحر به خوص الركاب وكل طرف سابح
وانضـــج جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخـــادم وذبائـــح(٢)

فقال (يكون) ومعناه (كان) لدلالة الكلام عليه ، لانه في مرثية له بعد موته . وقوله « يا عيسى بن مريم » يحتمل عيسى أن يكون منصوبا مثل ما تقول : يا زيد بن عبدالله ، وهو الاكثر في كلام العرب . وانما يجوز ذلك اذا وقع الابن بين علمين ، فأما اذا قلت يا زيد ابن الرجل لم يجز في زيد إلا الضم . ويحتمل أن يكون عيسى في موضع الضم ويكون نداء (ابن) كأنه قال يا عيسى يا ابن مريم .

وقوله «أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » تقريع في صورة الاستفهام والمراد بذلك تقريع وتهديد من ادعى ذلك ، لأنه تعالى كان عالما بذلك هل كان أو لم يكن . ويحتمل وجهاً آخر ـ ذكره البلخي ـ ان الله تعالى أراد أن يعلم عيسى أن قومه اعتقدوا فيه وفي أمه أنهما إلهان كما أن الواحد منا اذا أرسل رسولا الى قوم أن يفعلوا فعلا فأدى الرسالة وانصرف فخالفوا ذلك وعلم المرسل ولم يعلم الرسول جاز أن يقول المرسل للرسول : أأنت أمرتهم بذلك ؟ وغرضه أن يعلمه أنهم خالفوه . وانما قال (إلهين) تغليباً للذكر على الانثى . والغرض بالكلام أن النصارى يعتقدون في المسيح أنه صادق لا يكذب وأنه الذي أمرهم بأن يتخذوه وأمه إلهين، فاذا كذبهم الصادق عندهم الذي ينسبون الامر به اليه كان ذلك آكد في الحجة عليهم وأبلغ في التوبيخ لهم والتوبيخ ضرب من العقوبة . وقيل في قوله تعالى « الهين »

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٣
(٢) الاغاني ١٥ : ٣٠٨ ورواية البيت الاول :
فاذا مررت بقبره فاعقـــر به كوم الهجان وكل طرف سابح

ثلاجة أوجه :

أحدها ــ أنهم لما عظموهما تعظيم الآلهة أطلق ذلك عليهما كما قال « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » (١) وانما أراد تقريعهم على معصيتهم •

والثاني ــ انهم جعلوه إلها وجعلوا مريم والدة له ميزوها من جميع البشر تمييزاً شابهت الالهية وأطلق ذلك ، لانه مستخرج من قصدهم • وان لم يكن صريح ألفاظهم ، على طريقة الالزام لهم •

الثالث ــ انهم لما سمّوه إلها وعظموها هي ، وكانا مجتمعين سماهما إلهين على طريقة العرب كقولهم : القمران للشمس والقمر،والعمران لابي بكر وعمر قال الشاعر :

جزاني الزهدمان جزاء سوء وكنت المرء يجزى بالكرامة(٢)

يريد زهدماً وقيساً ابني حزن القيسين ، وهذا كثير ، وذكر لي بعض النصارى الذي قرأ كتب النصارى عن جاثليق لهم لم يكن في زمانه مثله : أنه سأله عن هذا فقال : كنت شاكا في ذلك الى أن قرأت في كتاب ذكره أن فيما مضى كان قوم يقال لهم المريمية كانوا يعتقدون في مريم أنها آلهة ، فعلى هذا القول أقرب • وورد كما قلناه في الحكاية عن اليهود أنهم قالوا : عزير ابن الله • وقد ذكرناه في سورة التوبة •

وقوله « سبحانك ما يكون لي أن أقول ماليس لي بحق » معناه أنزهك أن يكون معك آلهة وأن يكون للأشياء إله غيرك ، واعترف بأنه لم يكن لي أن أقول هذا القول • وقوله « إن كنت قلته فقد علمته » أي لم أقله لاني لو كنت قلته لما خفي عليك إذ كنت علام الغيوب • وقوله « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » أي تعلم غيبي ولا أعلم غيبك ، لان ما في نفس عيسى وما

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣٣ •

(٢) اللسان (زهدم) نسبة الى قيس بن زهير •

في قلبه هو ما يغيبه عن الخلق ، وانما يعلمه الله ، وسمي ما يختص الله بعلمه بأنه في نفسه على طريق الازدواج في الكلام كما قال « ومكروا ومكر الله»(١) « والله يستهزيء بهم » (٢) « ويخادعون الله وهو خادعهم » (٣) « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٤) « وان عاقبتم فعاقبوا » (٥) وكل ذلك وجه ازدواج الكلام ، ويقوى هذا التأويل قوله « إنك أنت علام الغيوب » لانه علل أنه انما يعلم ما في نفس عيسى ، لانه علام الغيوب ، وعيسى ليس كذلك ، فلذلك لم يعلم ما يختص الله بعلمه .

والنفس في اللغة على ضروب : أحدها ـ نفس الانسان التي بهاحياته، يقولون خرجت نفسه أي روحه وفي نفسى أن افعل أي في روعي . وثانيها أن نفس الشيء ذات الشيء يقولون : قتل فلان نفسه أي ذاته ، وعلى هذا حمل قوله « ويحذركم الله نفسه » (٦) أي ذاته وقيل عذابه . والنفس الهم بالشيء كما يحكى أن سائلا سأل الحسن فقال : ان لي نفسين احداهما تقول لي حج، والآخر تزوج، فقال الحسن : النفس واحدة وانما لك همان همٌّ بكذا وهم بكذا والنفس الأنفة كقولهم : ليس لفلان نفس أي لا أنفة له ، والنفس الارادة يقولون نفس فلان في كذا أي ارادته قال الشاعر :

فنفساي نفس قالت ائت ابن بحدل تجـد فرجا من كـل غمى تهابهـا
ونفس تقول أجهد نجاءك ولا تكن كخاضبة لم يغن عنهـا خضابها (٧)

والنفس أيضاً العين التي تصيب الانسان يقال أصابت فلانا نفس أي عين ومنه قوله (ص) في رقيا (بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل عاهة فيك من كل عين عاين ونفس نافس وحسد حاسد) وقال عبيد الله بن قيس الرقيات :

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤
(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٥
(٣) سورة ٤ النساء آية ١٤١
(٤) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠
(٥) سورة ١٦ النحل آية ١٢٦
(٦) سورة ٣ آل عمران آية ٢٨، ٣٠
(٧) اللسان (نفس) .

تتقي نفسها النفوس عليهـــا فعلى نحرها الرقى والتميم

وقال ابن الاعرابي : النفوس التي تصيب الناس بالنفس ، والنفس أيضاً من الدباغ مقدار الدبغة •

قوله تعــالى :

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٢٠) آية بلا خلاف

هذا اخبار عن عيسى (ع) أنه يقول لله تعالى في جواب ما قرره عليه اني لم أقل للناس الا ما أمرتني به ، من الاقرار لــك بالعبودية وأنك ربي وربهم وإلهي والههم ، وأمرتهم بأن يعبدوك وحــدك ولا يشركوا معك في العبادة • وقال : اني كنت شهيداً أي شاهداً عليهم مادمت فيهم بما شاهدته منهم وعلمته وبما بلغتهم من رسالتك التي حملتنيها وأمرتني بأدائها اليهم ما دمت حياً بينهم « فلما توفيتني » أي قبضتني اليك وأمتني « كنت أنت الرقيب عليهم » والرقيب هو الذي يشاهد القوم ويرقب ما يعملون ويعرف ذلك ، ثم اعترف بأنه تعالى « على كل شيء شهيد » لانه عالم بجميع الاشياء لا يخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء فهو يشهد على العباد بكل ما يعملونه • وفي اخباره تعالى عن المسيح أنه نفى القول الذي أدعوه عليه تأكيد لتبكيت النصارى وتكذيب لهم وتوبيخ على ما أدعوه من ذلك عليه • قال الجبائي وفي الآية دلالة على انه تعالى أمات عيسى (ع) وتوفاه عندما رفعه ، لانه بيّن انه كان شهيداً عليهم • وتوفيه اياه بعد ان كان بينهم انما كان عند رفعه اياه الى السماء عندما أرادوا قتله • وعندي أن الذي ذكره لا يدل على أنه أماته ، لان التوفي هو القبض اليه ولا يستفاد منه الموت الا بشاهد الحال • ولذلك قال تعالى « الله يتوفى الانفس حين موتها

والتي لم تمت في منامها » (١) فبين انه يتوفى التي لم تمت فنفس التوفي لا يفيد الموت بحال .

وقوله « أن اعبدوا الله » يجوز أن تكون (أن) بمعنى (أي) مفسرة في قول سيبويه ، كما قال « وانطلق الملأ منهم أن أمشوا (٢) أي أمشوا ، لانها مفسرة لما قبلها . والمعنى ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله . ويجوز أن تكون (أن) في موضع خفض على البدل من الهاء وتكون (أن) موصولة بـ (أعبدوا الله) . ومعناه الا ما أمرتني به بأن يعبدوا الله ، ويجوز أن تكون موضعها نصبا على البدل من (ما) والمعنى ما قلت لهم شيئا الا أن أعبدوا الله، أي ما ذكرت لهم إلا عبادة الله . وقوله « أن اعبدوا الله ربي وربكم » شاهد بلفظ الانجيل فأنه ذكر في الفصل الرابع من انجيل لوقا ، قال المسيح : مكتوب أن اسجد لله ربك وإياه وحده فأعبد ، وهذا لفظه وهو صريح التوحيد .

قوله تعالى :

إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢١) آية بلا خلاف .

ظاهر هذه الآية يدل على أن عيسى لم يكن أعلمه الله أن الشرك لا يغفر على كل حال، فلذلك قال « ان تعذبهم فانهم عبادك » الذين كفروا بك وجحدوا إلهيتك وكذبوا رسلك « وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » .

وقال البلخي : ان عيسى (ع) أخبر أنه لا علم له بما صنعوا بعده من الكفر به حتى قيل له : ماذا أجبت ؟ قال لاعلم لي ، ثم قال : ان كانوا كفروا فعذبتهم فهم عبادك وان كانوا ثبتوا على ما دعوتهم اليه أو تابوا من كفرهم

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٤٢ .
(٢) سورة ٣٨ ص آية ٦ .

فغفرت لهم فأنت العزيز الحكيم •

ومن ذهب الى أن قول الله « يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس » إخبار عما مضى وأن الله قال ذلك عندما رفعه اليه ، قال : انما عنى عيسى ان تعذبهم بمقامهم على معصيتك فانهم عبادك وان تغفر لهم بتوبة تكون منهم ، لان القوم كانوا في الدنيا لان عيسى لم يشك في الآخرة أنهم مشركون • وقد أنطقعت التوبة ، وانما قال ذلك في الدنيا وجعل قول الله تعالى« هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » جوابا للرسل حين سألهم ماذا أجبتم « قالوا لا علم لنا » فصدقهم الله في ذلك • ومثل ذلك قال عمرو ابن عبيد والجبائي والزجاج وكلهم شرط التوبة • وهذا الذي ذكروه ترك للظاهر وزيادة شرط في ظاهرها ليس عليه دليل • وقوله « ان الله لا يغفر ان يشرك به » (١) انما هو أخبار لامة نبينا بأن لا يغفر الشرك ولا نعلم ان مثل ذلك أخبر به الامم الماضية فلا متعلق بذلك • ويمكن أن يكون الوجه في الآية مع تسليم أن كان عارفا بأن الله لا يغفر أن يشرك به وانه أراد بذلك تفويض الامر الى مالكه وتسليمه الى مدبره والتبري من أن يكون له شيء من أمر قومه ، كما يقول الواحد منا اذا تبرء من تدبير أمر من الامور ويريد تفويضه الى غيره : هذا الامر لا مدخل لي فيه فأن شئت أن تفعله وان شئت ان تتركه مع علمه ان أحدهما لا يكون منه •

وقوله « فانك أنت العزيز الحكيم » معناه انك القادر الذي لا يغالب وأنت حكيم في جميع أفعالك فيما تفعله بعبادك •

وقيل معناه « انك أنت العزيز » القدير الذي لا يفوتك مذنب ولا يمتنع من سطوتك مجرم « الحكيم » فلا تضع العقاب والعفو الا موضعهما • ولو قال : الغفور الرحيم كان فيه معنى الدعاء لهم والتذكير برحمته ، على أن العذاب والعفو قد يكونان غير صواب ولا حكمة فالاطلاق لا يدل على الحكمة والحسن • والوصف بالعزيز الحكيم يشتمل على العذاب والرحمة اذا كانا

---

(١) سورة النساء آية ٤٧ ، ١٥١ •

صوابين . وقال الحسين بن علي المغربي رأيت على باب بمصر في موضع يقال له (بيطار بلال) معروف لوحا قديماً من ساج عليه هذا العشر وفيه (فانك أنت الغفور الرحيم) وتأريخ الدار سنة سبعين من الهجرة أو نحوها واعلها باقية الى اليوم .

فان قيل قول عيسى ان تعذبهم فانهم عبادك يدل على ان الله تعالى له أن يعاقب عبيده من غيرجرم كان منهم لانه علل حسن ذلك بكونهم عبيدا لابكونهم عصاة، وذلك خلاف ماتذهبون اليه؟ قلنا : لا يجوز ان يريد عيسى (ع) بكلامه مايدل على أن الفعل على كونه غيرجائز عليه تعالى . ولا يحسن منه تعالى أيضا أن يترك انكار ذلك فلما علمنا أن الله تعالى لا يجوز ان يعاقب خلقه من غير معصية سبقت منهم من حيث كان ذلك ظلماً محضاً ، علمنا ان عيسى أراد بقوله ذلك « ان تعذبهم فانهم عبادك » الجاحدون لك المتخذون معك إلهاً غيرك لان ما تقدم من الكلام دل عليه فلم يحتج ان يذكره في اللفظ فبطل ما توهموه .

قوله تعالى :

قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢٢) لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٣) آيتان بلا خلاف .

قرأ « يوم ينفع » بفتح الميم نافع . الباقون بضمها .

من رفع (يوما) جعله خبر المبتدأ الذي هو (هذا) وأضاف (يوما) الى (ينفع) . والجملة التي هي من المبتدأ والخبر في موضع نصب بأنه مفعول القول ، كما تقول : قال زيد عمر أخوك . ومن نصب احتمل أمرين :

أحدهما ـ ان يكون مفعول قال وتقديره قال الله هذا القصص ، وهذا الكلام « يوم ينفع الصادقين » فيوم ظرف للقول (وهذا) اشارة الى ماتقدم ذكره من قوله : « اذ قال الله يا عيسى بن مريم » وجاء على لفظ الماضى وان كان المراد به المستقبل ، كما قال « ونادى أصحاب الجنة اصحاب النـار» (١) ونحو ذلك على ما بيناه . وليس ما بعد (قال) حكاية في هذا الوجه كماكان إياها في الوجه الآخر .

ويجوز ان يكون المعنى على الحكاية وتقديره قال الله تعالى « هذا يوم ينفع » أي هذا الذي أقتصصنا به يقع أو يحدث يوم ينفع ، فـ « يوم » خبر المبتدأ الذي هو (هـذا) الامر إشارة الى حـدث . وظروف الزمان تكون اخبارا عن الاحداث . والجملة في موضع نصب بأنها في موضع مفعول ،قال الفراء : (يوم) منصوب لانه مضاف الى الفعل وهو في موضع رفـع بمنزلة (يومئذ) مبني على الفتح في كل حال ، قال الشاعر :

على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألما تصح والشيب وازع(٢)

قال الزجاج هذا خطأ عند البصريين ، لانهم لا يجيزون هذا يوم آتيتك، يريدون هذا يوم اتيانك ، لان (آتيتك) فعل مضارع فالاضافة اليه لا يزيل الاعراب عن جهته ، ولكنهم يجيزون (ذلك يوم يقع زيد أصدقه) لان الفعل الماضي غير مضارع للمتمكن فهي اضافة الى غير متمكن والى غير ما ضارع المتمكن ويجوز (هذا يوم) منونا (ينفع الصادقين) على إضمار هذا يوم ينفع

(١) سورة الاعراف آية ٤٣ .
(٢) قائله النابغة . ديوانه : ٣٨ ومعاني القرآن ١ : ٣٢٧، وسيبويه ١ : ٣٦٩

فيه الصادقين صدقهم كقوله : « وأتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا » والمعنى لا تجزي فيه ، وقال الشاعر :

وما الدهر الا تارتان فمنهما   أموت وأخرى ابتغي العيش اكدح (١)

والمعنى فمنهما تارة أموت فيها .

وقوله « قال الله هذا يوم ينفع الصادقين » يعني يوم القيامة ، ودل على أن قول الله للمسيح « أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » يكون يوم القيامة ، ثم بين ان الصادقين ينفعهم صدقهم وهو ما صدقوا فيه في دار التكليف ، لان يوم القيامة لا تكليف فيه على أحد ، ولا يخبر أحد فيه الا بالصدق ، ولا ينفع الكفار صدقهم الذي يقولونه يوم القيامة اذا أقروا على أنفسهم بسوء أعمالهم ، ثم بين ان « لهم جنات تجري من تحتها الانهار » ، وأنهم « خالدون فيها أبدا » في نعيم مقيم لا يزول ، وان الله قد « رضي عنهم ورضوا » هم عن الله وبين أن ذلك « هو الفوز العظيم » وهو ما يحصلون فيه من الثواب والنجاة من النار ، ثم قال تعالى : « لله ملك السماوات والارض وما فيهن » يعني ان ملك السماوات والارض وما بينهما له بالقدرة على التصرف فيهما وفيما بينهما على وجه ليس لاحد منعه منه ولا معارضته فيه خاصة ، ثم بين انه تعالى : « على كل شيء قدير » مما كان ويكون مما يصح ان يكون مقدورا له .

(١) قائله ابن مقبل . اللسان « كدح » .

٦ ـ سورة الانعام

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم : ان سورة الانعام مكية • وقال يزيد بن رومان بعضها مكي وبعضها مدني • وقال شهر بن خوشب : هي مكية إلا آيتين منها قوله تعالى : « قل تعالوا اتل عليكم ما حرم » والتي بعدها • وروى عن ابن عباس انه قال نزلت سورة الانعام جملة بمكة معها سبعون الف ملك محدقون حولها بالتسبيح والتهليل والتحميد وهي مئة وخمس وستون آية كوفي وست في البصري وسبع في المدنيين • وروي عن ابن عباس أيضا انه قال هي مكية غير ست آيات منها فانها مدنيات • « قل تعالوا اتل » وآيتان بعدها وقوله « وما قدروا الله حق قدره » الى آخرها والآية التي بعدها « ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال اوحي ••• » الى آخرها • وروي عن أنس بن مالك انه قال : قال رسول الله (ص) :مانزل علي سورة من القرآن جملة غير سورة الأنعام وما جمعت الشياطين لسورة من القرآن جمعها لها ولقد بعث بها الي مع جبرائيل مع خمسين ملكا ، أو قال خمسين الف ملك ــ شك الواقدي ــ نزل بهـا وتحفها حتى أقرّها في صدري كما يقر الماء في الحوض وقد اعزني الله واياكم بها عزاً لا يذلنا بعده ابداً فيها دحض حجج المشركين ووعد من الله لا يخلفه • وروي عن كعب الاحبار انه قال : افتتحت التوراة بالحمد لله الذي خلق السماوات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون • وختمت بالحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك الى آخر الآية •

بسم الله الرحمٰن الرحيم

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ

وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)

آية في الكوفي والبصري ، وآيتان في المدنيين ، قوله « والنور » آخر آية

أخبر الله تعالى في هـــذه الآية أن المستحق للحمد من خلق السماوات والارض وجعل الظلمات والنور أي خلقهما لما أشتملا عليه من عجائب الخلق ومتقن الصنع . ثم عجب ممن جعل له شركاء مع ما ترى في السماوات والارض من الدلالة على أنه الواحد الذي لا شريك له ، وقد بينا فيما تقدم وجه دلالة ذلك على أنه واحد ليس بأثنين . وقوله « بربهم يعدلون » أي يجعلون له مثلا يستحق العبادة مأخوذ من قولك : لا أعدل بفلان أحدا ، أي لا نظير له عندي ولا أحد يستحق ما يستحقه . قال الكسائي : يقال عدلت الشيء بالشيء أعدله عدولا اذا ساويته ، وعدل في الحكم يعدل عدلا . وقال الحسن ومجاهـــد : معنى يعدلون يشركون .

وانما ابتدأ تعالى هذه السورة بالحمد احتجاجا على مشركي العرب ، وعلى من كذب بالبعث والنشور فابتدأ ، فقال «الحمد لله الذي خلق السماوات والارض » فذكر أعظم الاشياء المخلوقة ، لان السماء بغير عمد ترونها ، والارض غير مائدة بنا . ثم ذكر الظلمات والنور ، وذكر الليل والنهار ، وهما مما به قوام الخلق . فأعلم الله تعالى أن هذه خلق له ، وأن خالقها لا شيء مثله .

وروي عن أبي عبدالله (ع) أنه قال : ان الانعام نزلت جملة ، وشيعها سبعون الف ملك حين أنزلت على رسول الله (ص) فعظموها ، وبجلوهـــا ، فان اسم الله تعـــالى فيها في سبعين موضعا . ولو يعلم الناس ما في قراءتها من الفضل ما تركوها .

قوله تعـــالى :

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ

ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) آية بلا خلاف.

معنى قوله « هو الذي خلقكم » أي انشأكم ، وأخترعكم « من طين » ومعنـــاه خلق أباكم ــ الذي هو آدم وانتم من ذريته ، وهو بمنزلة الاصل لنا ــ من طين ، فلما كان أصلنا من الطين جاز ان يقول « خلقكم من طين » •

وقوله « ثم قضى » معناه حكم بذلك • والقضاء يكون حكما ،ويكون أمرا ويكون الاتمام والاكمال •

وقوله « أجلا وأجل مسمى عنده » قيل في معنام قولان :

أحدهما ــ قال ابو علي : كتب للمرء أجلا في الدنيا ، وحكم بأنه أجل لنا،وهو الاجل الذي يحيى فيه أهل الدنياالى أن يموتوا ، وهو أوقات حياتهم، لان أجل الحياة،هووقت الحياة ، وأجل الموت هووقت الموت « وأجل مسمى عنده » يعني آجالكم في الآخرة ، وذلك أجل دائم ممدود لا آخر له ، وانما قال له « مسمى عنده » ، لانه مكتوب في اللوح المحفوظ ، في السماء وهو الموضع الذي لا يملك فيه الحكم على الخلق سواه •

وقال الزجاج : أحد الاجلين أجل الحياة ، وهو الوقت الذي تحدث فيه الحياة ، ويحيون فيه « وأجل مسمى عنده » يعني أمر الساعة والبعث • وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك • وقال بعضهم: « قضى أجلا » يعني أجل من مضى من الخلق « وأجل مسمى عنده »أجل الباقين

والذي نقوله : ان الاجل هو الوقت الذي تحدث فيه الحياة أو الموت ولا يجوز ان يكون المقدر أجلا ، كما لا يجوز أن يكون ملكا ، فان سمي ــ ما يعلم الله تعالى أنه لو لم يقتل فيه لعاش اليه ــ أجلا ، كان ذلك مجازا ،لان الحي لا يعيش اليـــه • ولا يمتنع أن يعلم الله من حال المقتول أنه لو لم يقتله القاتل لعاش الى وقت آخر •وكذلك ما روي : أن الصدقة وصلة الرحم تزيد في الاجل ، وما روي في قصة قوم يونس وأن الله صرف عنهم العذاب ،وزاد

في آجالهم ، لا يمنع منه مانع ، وانما منع من التسمية لما قلناه .

وقوله : « ثم أنتم تمترون » خطاب للكفار الذين يشكون في البعث والنشور . احتج الله بهذه الآية على الذين عدلوا به غيره ، فأعلمهم انه خلقهم من طين ، ونقلهم من حال الى حال ، وقضى عليهم الموت ، فهم يشاهدون ذلك ، ويقرون بأنه لا محيص منه . ثم عجبهم من امترائهم أي من شكهم في أنه الواحد القهار على ما يشاء ، وفي أنه لم يعبث بخلقهم وابقائهم واماتتهم بعد ذلك ، وأنه لا بد من جزاء المسيء والمحسن ، ومثله قوله : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم » (١) ان الذي قدر على ذلك قادر على أن يبعثكم بعد أن تكونوا ترابا .

وقوله « وأجل مسمى عنده » رفع على الابتداء وتم الكلام عند قوله : « ثم قضى أجلا » .

قوله تعالى :

وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) آية إجماعاً .

قوله « وهو الله في السماوات وفي الارض » يحتمل معنيين :

أحدهما ـ قال الزجاج والبلخي ، وغيرهما : انه المعبود في السماوات والأرض ، والمتفرد بالتدبير في السماوات وفي الارض ، لان حلوله فيهما أو شيء منهما لا يجوز عليه . ولا يجوز أن تقول هو زيد في البيت ، والدار ، وأنت تريد أنه يدبرهما الا ان يكون في الكلام ما يدل على ان المراد به التدبير كقول القائل : فلان الخليفة في الشرق والغرب ، لان المعنى في ذلك أنه المدبر فيهما .

---

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٥ .

ويجوز ان يكون خبرا بعد خبر، كأنه قال : انه هو الله وهو في السماوات وفي الارض • ومثل ذلك قوله « وهو الذي في السماء إله وفي الارض إله »(١)

والوجه الثاني ـ قال أبو علي : ان قوله « وهو الله » قد تم الكلام ، وقوله « في السماوات وفي الارض » يكون متعلقا بقوله «يعلم سركم وجهركم» في السماوات وفي الارض لأن الخلق إما أن يكونوا ملائكة فهم في السماء أو البشر والجن ، فهم في الارض، فهو تعالى عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه خافية ، ويقوّيه قوله « ويعلم ما تكسبون » أي يعلم جميع ما تعملون من الخير والشر فيجازيكم على حسب أعمالكم ، ولا يخفى عليه شيء منها ، وفي ذلك غاية الزجر والتهديد •

وفي الآية دلالة على فساد قول من قال : إنه تعالى في مكان دون مكان تعالى الله عن ذلك •

قوله تعالى :

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤)

آية بلا خلاف •

في هذه الآية اخبار من الله تعالى أنه لا يأتي هؤلاء الكفار ـ المذكورين في أول الآية ـ من آيات من ربهم ، وهي المعجزات التي يظهرها على رسوله وآيات القرآن التي كان ينزلها على نبيه (ص) « الا كانوا عنها معرضين » لا يقبلونها ، ولا يستدلون بها على ما دلهم الله عليه من توحيده وصدق رسوله محمد (ص) •

قوله تعالى :

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا

(١) سورة ١٠ يونس آية ٢٢ •

به يَستَهزِؤُنَ (٥) آية بلاخلاف .

في هذه الآية اخبار منه تعالى أن الكفار قد كذّبوا بالحق الذي أتاهم به محمد (ص) لما جاءهم بالقرآن ، وسائر أمور الدين ، وانه سوف يأتيهم خبر العذاب الذي ينزله بهم عقوبة على كفرهم ، وهذا العذاب هو الذي كانوا به يستهزؤن : بأخبار رسول الله إياهم به وبنزوله بهم .

فبين أن ذلك سيحل بهم وسيقفون على صحته . ودل ذلك على أنهم كانوا يستهزؤن ، وان كان لم يذكره ههنا وذكره في موضع آخر . ومثل ذلك قول القائل للجاني عليه : سيعلم عملك . وانما يريد ستجازى على عملك .

وقال الزجاج : معنى « أنباء ما كانوا به يستهزؤن » أي تأويله . والمعنى سيعلمون ما يؤل اليه استهزاؤهم .

قوله تعالى :

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٦) آية بلاخلاف .

قوله « ألم يروا » خطاب للغائب وتقديره ألم ير هؤلاء الكفار : ألم يعلموا كم أهلكنا من قبلهم من قرن . ثم قال مكنّاهم في الارض مالم نمكن لكم » فخاطب خطاب المواجه ، فكأنه اخبر النبي (ص) ثم خاطبه معهم ، كما قال : « حتى اذا كنتم في الفلك وجرينا بهم بريح طيبة » (١) فذكر لفظ الغائب بعد

(١) سورة ١٠ يونس آية ٢٢

خطاب المواجه • ومعنى « من قرن » من أمة • قال الحسن : القرن عشرون سنة •وقال ابراهيم : اربعون سنة •وقال ابو ميسرة : هو عشر سنين •وحكى الزجاج والفراء : أنه ثمانون سنة وقال قوم : هو سبعون سنة • وقال الزجاج: عندي القرن هو أهل كل مدة كان فيها نبي أو كان فيها طبقة من أهل العلم ، قلت السنون او كثرت ، فيسمى ذلك قرنا ، بدلالة قوله (ع) :(خيركم قرني) يعني أصحابي (ثم الذين يلونهم) يعني التابعين (ثم الذين يلونهم) يعني تابعي التابعين• قال :وجائز أن يكون القرن جملة الامة ، وهؤلاءقرن فيها•

واشتقاق القرن من الاقتران • وكل طبقة مقترنين في وقت قرن ،والذين يأتوا بعدهم ذووا اقتران : قرن آخر •

وقوله « مكنّاهم في الارض » معناه جعلناهم ملوكا وأغنياء تقول مكنتك ، ومكنت لك واحد •

وقوله « وأرسلنا عليهم السماء مدرارا » معناه أرسلنا عليهم مطرا كثيرا من السماء يقول القائل أصابتنا هذه السماء ، وما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم، يعنون المطر • وقوله « مدراراً » يعني غزيرا دائماً كثيرا • وهو قول ابن عباس وأبي روق • و (مفعال) من ألفاظ المبالغة ، يقال ديمة مدراراً اذا كان مطرها غزيراً حاداً ، كقولهم امرأة مذكار : اذا كانت كثيرة الولادة للذكور ، ومئناث في الاناث •ومفعال لا يؤنث ، يقال : امرأة معطار ومئناث ومذكار ، بغير هاء•

بين الله تعالى أن هؤلاء الذين آتاهم الله هذه المنافع وأجرى من تحتهم الانهار ، ووسع عليهم ، ومكنهم في الارض ، لما كفروا بنعم الله وأرتكبوا معاصيه أهلكهم الله بذنوبهم ، وانه انشأ قوما آخرين بعدهم • يقال : انشأ فلان يفعل كذا أي ابتدأ فيه •

وموضع (كم) نصب بـ (أهلكنا) ، لان لفظ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، فلذلك لا يجوز أن يكون منصوبا بـ (يروا) •

فان قيل : كيف قال : « أو لم يروا) والقوم كانوا غير مقرين بماأخبروا

به من شأن الامم قبلهم ؟ قيل : كان الكثير منهم مقرا بذلك فأنه دعي بهذه الآية الى النظر والتدبر ليعرف بذلك ما عرفه غيره .

قوله تعالى :

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) آية بلاخلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لو نزل على نبيه كتابا يعني صحيفة مكتوبة في قرطاس حتى يلمسوه بأيديهم ويدركوه بحواسهم ، لانهم سألوا النبي (ص) ان يأتيهم بكتاب يقرؤونه من الله الى فلان بن فلان أن آمن بمحمد، وانه لو أجابهم الى ذلك لما آمنوا ، ونسبوه الى السحر لعظم عنادهم وقساوة قلوبهم وعزمهم على أن لا يؤمنون على كل حال . وعرفه أن التماسهم هذه الآيات ضرب من العنت ومتى فعلوا ذلك أصطلمهم واستأصلهم ، وليس تقتضى المصلحة ذلك ، لما علم في بقائهم من مصلحة للمؤمنين، وعلمه بمن يخرج من أصلابهم من المؤمنين وأن فيهم من يؤمن فيما بعد ، فلا يجوز أخترام من هذه صفته ـ عند ابي علي والبلخي .

وقوله « ان هذا الا سحر مبين » معناه ليس هذا الا سحر مبين . واحتج ابو علي بهذه الآية على أنه متى كان فى معلوم الله تعالى انه لو آتاهم الآيات التي طلبوها لآمنوا عندها وجب ان يفعلها بهم، قال: ولولا ذلك كذلك لم يحتج على العباد في منعه اياهم الآيات التي طلبوها أي انما منعتهم اياها لأنهم كانوا لا يؤمنون ، ولو آتاهم إياها لكانوا يقولون انها سحر مبين . وبهذا تبين بطلان قول من قال اللطف ليس بواجب ، وانه يجوز ان يمنعهم الله ما طلبوا وان كانوا يؤمنون لو آتاهم ذلك ويكفرون لو منعهم اياه .

قوله تعالى :

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا

مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩).

آيتان بلاخلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا(لولا) ومعناه: هلا « أنزل عليه » يعنون على محمد « ملك » يشاهدونه فيصدقه . ثم أخبر عن عظم عنادهم انه لو أنزل عليهم الملك على ما اقترحوه لما آمنوا به ، واقتضت الحكمة استئصالهم وألا ينظرهم ولا يمهلهم . وذلك بخلاف ما علم الله تعالى من المصلحة على ما بيناه .

ومعنى « لقضى الامر » أي أتم إهلاكهم وقضي على ضروب كلها ترجع الى معنى تمام الشيء وانقطاعه في قول الزجاج . فمنه « قضى أجلا وأجل مسمى عنده » (١) معناه ثم ختم بذلك وأتمه ، ومنه الامر كقوله « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا اياه » (٢) الا أنه أمر قاطع ومنه الاعلام نحو قوله « وقضينا الى بني اسرائيل » (٣) أي أعلمناهم إعلاماً قاطعا . ومنه الفصل في الحكم نحو قوله « ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم » (٤) أي لفصل الحكم بينهم . ومنه قولهم قضى القاضي . ومن ذلك قضى فلان دينه ، أي قطع ما لغريمه عليه وأداه اليه وقطع ما بينه وبينه وكلما أحكم فقد قضي ، تقول قضيت هذا الثوب وهذه الدار ، أي عملتها وأحكمت عملها ،قال أبوذؤيب

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع (٥)

وقال مجاهد معنى « وقالوا لولا أنزل عليه ملك » يريدون في صورته . قال الله تعالى «ولو أنزلنا ملكا» في صورته «لقضي الأمر» أي لقامت الساعة أو

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢
(٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٢٣
(٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٤
(٤) سورة ٤٢ الشورى آية ١٤
(٥) مر تخريجه في ١/٤٢٩ .

وجب استئصالهم ثم قال « ولو جعلناه ملكا لجعلناه » في صورة رجل ، لان أبصار البشر لا تقدر على النظر الى صورة ملك على هيئته للطف الملك وقلة شعاع أبصارنا وكذلك كان جبرائيل (ع) يأتي النبي (ص) في صورة دحية الكلبي ، وكذلك الملائكة الذين دخلوا على ابراهيم في صورة الاضياف حتى قدم اليهم عجلا جسدا ، لانه لم يعلم أنهم ملائكة ، وكذلك لما تسور المحراب على داود الملكان كانا في صورة رجلين يختصمان اليه . وقال بعضهم: المعنى لو جعلنا مع النبي ملكا يشهد بتصديقه (لجعلناه رجلا) والاول أصح .

وقوله « وللبسنا عليهم ما يلبسون » يقال : لبست الامر على القوم ألبسه اذا شبهته عليه ، ولبست الثوب البسه ، وكان رؤساء الكفار يلبسون على ضعفائهم أمر النبي (ع) ، فيقولون : هو بشر مثلكم ، فقال الله تعالى « ولو أنزلنا ملكا » فرأوا الملك رجلا ولم يعلمهم أنه ملك لكان يلحقهم من اللبس ما يلحق ضعفائهم منهم . واللبوس ما يلبس من الثياب واللباس الذي قد لبس واستعمل .

فان قيل : قوله : انه لو جعل الملك رجلا للبس عليهم يدل على أن له أن يلبس بالاضلال والتلبيس ؟

قلنا : ليس ذلك في ظاهره ، لانه لم يخبر أنه لبس عليهم وانما قال لوجعلته ملكا للبست ولم يجعله ملكا فاذاً ما لبس ، كما قال تعالى « لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء » (١) وليس يجوز عليه اتخاذ الولد ولا الاصطفاء له بحال ، فسقط ما قالوه .

قوله تعالى :

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (١٠) آية بلا خلاف

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٤ .

لما أخبر الله تعالى أنه لو أنزل الآيات التي أقترحوها وآمتنعوا عند ذلك من الإقرار بالله وتصديق نبيه اقتضت المصلحة استئصالهم كما أقتضت المصلحة استئصال من تقدم من الامم الماضيةعندنزول الآيات المقترحة، كما فعل بقوم صالح وغيرهم من أمم الانبياء ، قال ذلك تسلية لنبيه (ع) من استمرارهم على الكفر • ومعنى (الحيق) ما يشتمل على الانسان من مكروه فعله كما قال : « ولا يحيق المكر السيء الا بأهله » (١) أي لاترجع عاقبة مكروهه الا عليهم • والمعنى فحاق بالساخرين منهم : « ما كانوا به يستهزؤن » من وعيد أنبيائهم بعاجل العقاب في الدنيا نحو ما نزل بقوم عاد وثمود وغيرهم من الامم• وقال ابو علي : حاق وحق بمعنى واحد • والمعنى انه لما نزل بهم العذاب حق بذلك الخبر عندهم : الخبر الذي كان أخبرهم به النبي (ص) •

قوله تعالى :

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) آية بلاخلاف •

أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه (ع) ان يأمر هؤلاء الكفار انيسيروا في الارض لينظروا الى آثار تلك الامم فانها مشهورة ومتواتر خبرها معلوم مساكنها واراد بذلك زجر هؤلاء الكفار عن تكذيب محمد (ع) والتحذيرلهم من ان ينزل بهم من العذاب ما نزل بالمكذبين للرسل من قبلهم •

قوله تعالى :

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ

(١) سورة ٣٥ فاطر آية ٤٣ •

فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٣) آيتان بلا خلاف .

أمر الله تعالى نبيه (ع) ان يقول لهؤلاء الكفار مقرعا لهم وموبخاً على كفرهم « لمن ما في السماوات والارض » ثم امره (ع) ان يقول لهم ان ذلك « لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم » واللام لام القسم وتقديره والله ليجمعنكم ولذلك نصب (لام) ليجمعنكم ، لان معنى كتب اليمين . وقال الزجاج يجوز أن يكون (ليجمعنكم) بدلا من الرحمة مفسراً لها ، لأنه لما قال كتب على نفسه الرحمة ، فسر رحمته بأنه يمهلهم الى يوم القيامة . وقال الفراء : يجوز أن يكون قوله « كتب على نفسه الرحمة » غاية ثم استأنف قوله « ليجمعنكم . . . لا ريب فيه » تمام ، ومعنى « كتب على نفسه الرحمة » أي كتب على نفسه ألا يستأصلكم ولا يعجل عقوبتكم بل يعذر وينذر ويجمع آخركم الى أولكم قرناً بعد قرن الى يوم القيامة ، وهو الذي لا ريب فيه .

وفي قوله « ليجمعنكم الى يوم القيامة » احتجاج على من أنكر البعث والنشور فقال ليجمعنكم الى اليوم الذي أنكرتموه كما تقول : جمعت هؤلاء الى هؤلاء ، أي ضممت بينهم في الجمع . وقوله « الذين خسروا أنفسهم » قال الاخفش (الذين) بدل من الكاف والميم . والمعنى ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم الى هذا اليوم الذي يجحدونه ويكفرون به . وقال الزجاج : هو في موضع رفع على الابتداء وخبره « فهم لا يؤمنون » لان (ليجمعنكم) مشتمل على سائر الخلق على الذين خسروا أنفسهم وغيرهم .

وقوله « وله ما سكن في الليل والنهار » أي ما اشتمل عليه الليل والنهار فجعل الليل والنهار كالمسكن لما اشتملا عليه ، لانه ليس يخرج منهما شيء فجمع

كل الاشياء بهذا اللفظ القليل الحروف ، وهذا من أفصح ما يكون من الكلام. وقال النابغة :

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع(١)

فجعل الليل مدركا إذ كان مشتملا عليه .

وفي هذه الآية وفي التي قبلها إحتجاج على الكفار الذين عبدوا من دون الله تعالى ، فقال تعالى : « قل لمن ما في السماوات والارض » ؟ وكانوا لايشركون بالله في خلق السماوات والإرض وما بينهما احداً وانما كانوا يشركون في العبادة ، ويقولون : آلهتهم تقربهم الى الله زلفى ، لا أنها تخلق شيئاً ، ثم قال : « قل لله » فانهم لا ينكرون ذلك ، وهو كقوله « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » (٢) فذكرهم ما هم به مقرون ليتنبهوا ويشهدوا بالحق ويتركوا ما هم عليه ، ومعنى « خسروا أنفسهم » أهلكوها باستحقاق المصير الى العذاب الاليم الدائم، الذي لا ينتفعون معه بنفوسهم إذ كانوا لا يؤمنون. ومن أهلك نفسه فقد خسرها . وانما قال « وله ما سكن في الليل والنهار » لان في الحيوان ما يسكن في الليل ، وفيه ما يسكن بالنهار وخص السكون بالذكر ، لان الساكن أكثر من المتحرك ، ولان الآية العجيبة في قيام الساكن بلا عمد أعظم .

قوله تعالى :

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٤) آية بلاخلاف .

أجمع القراء على ضم الياء وفتح العين من قوله « ولا يطعم » وقرىء في الشواذ

(١) سمط اللالي : ٥٧٠ (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٨٧

بفتح الياء والعين معا . فمن ضم الياء أراد أن غيره لا يطعمه في مقابلة قوله : « وهو يطعم » . ومن فتح الياء أراد أنه نفسه لا يطعم . والمعنى هو يرزق الخلق ولا يرزقه أحد . والطعمة والطعم والاطعام الرزق ، قال امرؤ القيس :

مطعم للصيد ليس له غيرها كسب على كبره (١)

وقال علقمة بن عدي :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمة أني توجه والمحروم محروم (٢)

ألا ترى أنه وضع الحرمان في مقابلة الاطعام ، كما يوضع أبداً مقابلا للرزق . وقيل : إنه ذكر الاطعام ، لان حاجة العباد اليه أشد ، ولان نفيه عن الله أدل على نفي شبهه بالمخلوقين ، لان الاطعام لا يجوز الا على الاجسام .

والاختيار في « فاطر » الخفض لانه من صفة (الله) . والرفع ، والنصب جائزان على المدح . فمن رفع فعلى اضمار (هو) ، وتقديره : هو فاطر السماوات والارض ، وهو يطعم ولا يطعم . ومن نصب فعلى معنى : اذكروا عني .

ومعنى : « فاطر السماوات والارض » خالقهما ، كما قال : « ومالي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون » (٣) أي خلقني . قال ابن عباس : ما كنت أدري ما معنى (فاطر) حتى اختصم الي اعرابيان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها أي ابتدأتها . وأصل الفطر الشق ، ومنه قوله تعالى : « اذا السماء انفطرت » (٤) أي انشقت .

ومعنى «فطر السماوات والارض» خلقهما خلقاً قاطعاً . والإنفطار ، والفطور تقطع وتشقق وفي الآية دلالة وحجة على الكفار ، لان من خلق السماوات والارض وأنشأ ما فيهما ، وأحكم تدبيرهما ، واطعم من فيهما هو الذي ليس كمثله شيء

(١) ديوانه : ١٠٤ ، واللسان (طعم) .
(٢) اللسان : الالف اللينة تفسير (أنى) .
(٣) سورة ٣٦ يس آية ٢٢ (٤) سورة ٨٢ الانفطار آية ١

وان الخلق فقراء اليه وهو الغني القادر القاهر ،فلايجوزلمن عرف ذلك أو جعل له السبيل الى معرفته ان يعبد غيره •

وقوله « وأمرت أن أكون أول من أسلم » معناه أن أكون اول من خضع، وآمن وعرف الحق من قومي ، وأن اترك ماهم عليه من الشرك • ومثله قوله «قل ان كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين » (٣) بأنه لم يكن للرحمان ولد ، يعني من هذه الامة ، لأنه قد عبد الله النبيون والمؤمنون قبله ، ومثله قوله « سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين »(٤) ممن سألك أن تريه نفسك ــ بأنك لا ترى • وقول السحرة « إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا أول المؤمنين (٥) بأن هذا ليس بسحر ، وأنه الحق ، أي أول المؤمنين من السحرة ، ومعنى الولي ــ هاهنا ــ الإله الذي أعبده ليتولاني ، ويحفظني •

وقوله : « وأمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين »أي أمرت بالامرين معاً : أن أكون أول من أسلم من هذه الامة ، وألا أكون من المشركين • والمعنى أمرت بذلك ونهيت عن الشرك ، لان الامر لا يتناول ألا يكون الشيء ، لأنه لا يكون أمرا إلا بارادة المأمور ، والارادة لا تتعلق بألا يكون الشيء • وانما المراد ما قلناه : أنه كره مني الشرك •

قوله تعالى :

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥)

آية بلا خلاف •

أمر الله تعالى نبيه (ص) بهذه الآية أن يقول لهؤلاء الكفار : إنه يخاف

(٣) سورة ٤٣ الزخرف آية ٨١ (٤) سورة ٧ الاعراف آية ١٤٢
(٥) سورة ٢٦ الشعراء آية ٥٢ •

ـ ان عصاه ـ عذابه وعقوبته في يوم عظيم وهو يوم القيامة . ومعنى العظيم ـ هاهنا ـ أنه شديد على العباد ، وعظيم في قلوبهم .

وفي الآية دلالة على ان من زعم أن من علم الله أنه لا يعصى فلا يجوز أن يتوعده بالعذاب . وعلى من زعم أنه لا يجوز أن يقال فيما قد علم الله أنه لايكون أنه لو كان لوجب فيه كيت وكيت ، لانه كان المعلوم لله تعالى أن النبي (ص) لا يعصي معصية يستحق بها العقاب يوم القيامة ، ومع هذا فقد توعده به .

قوله تعالى :

مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)

آية بلاخلاف .

قرأ اهل الكوفة الا حفصاً ، ويعقوب « من يصرف » بفتح الياء وكسر الراء . الباقون بضم الياء وفتح الراء .

وفاعل (يصرف) هو الضمير العائد الى « ربي » من قوله : « إني أخاف ان عصيت ربي » . ويكون حذف الضمير العائد الى العذاب ، والمعنى من يصرف الله عنه ، وكذلك هو في قراءة أبي . قال أبو علي : وليس حذف الضمير بالسهل لانه ليس بمنزلة الضمير الذي يحذف من الصلة اذا عاد الى الموصول ، نحو « أهذا الذي بعث الله رسولا » (١) و « سلام على عباده الذين اصطفى الله » (٢) أي بعثهم الله واصطفاهم ، ولا يعود الضمير المحذوف ـ هاهنا ـ الى موصول ولا الى (من) التي المجزاء ، وانما يرجع الى العذاب من قوله « ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم » ، وليس هذا بمنزلة قوله « والحافظين فروجهم » (٣) لان هذا فعل واحد قد تكرر وعدي الاول فيهما

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٤١ (٢) سورة ٢٧ النمل آية ٥٩
(٣) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٥

الى المفعول ، فعلم بتقدير الاول أن الثاني بمنزلته •

والذي يحسن قراءة من قرأ « يصرف » بفتح الياء أن ما بعده من قوله « فقد رحمه » فعل مسند الى ضمير اسم الله • فقد اتفق الفعلان في الاسناد الى هذا الضمير ، فيمن قرأ « يصرف » بفتح الياء • ويقويه أيضا أن الهاء المحذوفة من (يصرفه) لما كان في حيز الجزاء ، وكان مافي حيزه في أنه لايتسلط على الموصول ، حسن حذف الهاء منه كما حسن حذفها من الصلة •

ومن ضم الياء فالمسند اليه الفعل المبني للمفعول ضمير العذاب المتقدم ذكره ، ويقوي ذلك قوله « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم » (٤) ألا ترى أن الفعل بني للمفعول ، وفيه ضمير العذاب • وقال الزجاج : التقدير من يصرف الله عنه العذاب فيمن فتح الياء • ومن ضم الياء ، فتقديره من يصرف عنه العذاب •

قوله تعالى :

وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١٨) آيتان بلا خلاف •

معنى الآية الاولى أنه لا يملك النفع والضرر الا الله تعالى أو من يملكه الله ذلك • فبين تعالى أنه مالك السوء من جهته « فلا كاشف له الا هو » ولا يملك كشفه سواه مما يعبده المشركون ولا أحد سوى الله ، وأنه إن ناله بخير فهو على ذلك قادر • وقوله يمسسك بضر أو بخير ، معناه يمسك ضره أو خيره • فجعل المس لله على وجه المجاز ، وهو في الحقيقة الخير والضر ، وهو مجاز في الخير والضر أيضاً ، لانهما عرضان لاتصح عليهما المماسة • وأراد

(٤) سورة ١١ هود آية ٨

تعالى بذلك الترغيب في عبادته وحده ، وترك عبادة سواه ، لانه المالك للضر والنفع دون غيره ، وأنه القادر عليهما • والقاهر هو القادر على أن يقهر غيره• فعلى هذا يصح وصفه فيما لم يزل بأنه قاهر • وفي الناس من قال : لايسمى قاهرا الا بعد أن يقهر غيره ، فعلى هذا لا يوصف تعالى فيما لم يزل بذلك • ومثل قوله « فوق عباده » قوله « يد الله فوق أيديهم » (١) والمراد أنه أقوى منهم ، وأنه مقتدر عليهم ، لان الارتفاع في المكان لا يجوز عليه تعالى، لانه من صفات الاجسام • فاذاً المراد بذلك أنه مستعل عليهم ، مقتدر عليهم • وكل شيء قهر شيئاً فهو مستعل عليه ، ولما كان العباد تحت تسخيره وتذليله وأمره ونهيه ، وصف بأنه فوقهم • وقوله « وهو الحكيم الخبير » معناه أنه مع قدرته عليهم لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة ، ولا يفعل ما فيه مفسدة ، أو وجه قبح لكونه عالماً بقبح الاشياء وبأنه غني عنها •

قوله تعالى :

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) آية بلاخلاف •

اختلفوا في الهمزتين اذا كانت الاولى مفتوحة ، والثانية مكسورة من كلمة واحدة نحو (أئنك) و (أاذا) و (أانا) و (أافكا) فقرأ ابن عامر وأهل الكوفة وروح بتحقيق الهمزتين حيث وقع إلا في قوله « أئنكم لتشهدون »

(١) سورة ٤٨ الفتح آية ١٠ •

هاهنا . وفي الاعراف « أئنكم لتأتون الرجال » (١) و « أأن لنا لاجراً » (٢) و (أأما) حيث وقع . و « أأنك لانت يوسف » (٣) و « أأذا ما مت »(٤)وفي العنكبوت « أأنكم لتأتون الفاحشة » (٥) و « أأنا لمغرمون » (٦) في الواقعة. والاستفهامين في الرعد . وبني اسرائيل . والمؤمن . والنحل . وسجدة لقمان. والصافات . والواقعة . والنازعات . وسنذكر الخلاف فيها في مواضعها . الباقون بتحقيق : الاولى وتليين الثانية . وفصل بينهما بألف أهل المدينة . الا ورشاً ، وابو عمرو ، والحلواني عن هشام ، وافقهم الداجوني عن هشام على الفصل في قوله « أإنا لتاركوا آلهتنا » . و « أأذا متنا » في (ق) . وأما قوله « أئنكم » . هاهنا فقرأه ابن عامر وأهل الكوفة الا الكسائي عن أبي بكر وروح بتحقيق الهمزتين إلا أن الحلواني عن هشام يفصل بينهما بألف الباقون بتحقيق الاولى وتليين الثانية . وفصل بينهما بألف أهل المدينة الا ورشاً وأبو عمرو والكسائي عن أبي بكر . وقد روي عن الكسائي عن أبي بكر أنه لا يفصل .

أمر الله تعالى نبيه (ص) أن يقول لهؤلاء الكفار « أي شيء أكبر شهادة « لانهم كانوا مقرين بأنه لا شيء أكبر شهادة من الله ، واذا أقروا بأنه الله حينئذ أمره أن يقول لهم هو الشهيد بيني وبينكم على مابلغتكم ونصحتكم وقررت عندكم من أن إلهكم إله واحد ، وعلى براءتي من شرككم .

والوقوف على قوله « قل الله » وقف تام .

وفي الآية دلالة على من قال : لا يوصف تعالى بأنه شيء . لانه لو كان كما قال لما كان للآية معنى كما أنه لا يجوز أن يقول القائل: أي الناس أصدق؟ فيجاب بـ (جبرائيل) لما لم يكن من جملة الناس بل كان من الملائكة .

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٨٠ (٢) سورة ٧ الاعراف آية ١١٢
(٣) سورة ١٢ يوسف آية ٩٠ (٤) سورة ١٩ مريم آية ٦٦
(٥) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٨ (٦) سورة ٥٦ الواقعة آية ٦٦

فان قيل قوله « أي شيء أكبر شهادة » تمام ، وقوله « قل الله » ابتداء، وليس بجواب ، ولو كان جوابا كان ما بعده من قوله « شهيد بيني وبينكم » لا ابتداء له ولا معنى له ؟!

قيل : لسنا ننكر ذلك ـ الا أن هذا وان كان هكذا لولا أنه متقرراً عند السائل والمسؤل ـ ان الله شهيد ـ ما كان للكلام معنى ، ولكان قوله :« قل أي شيء أكبر شهادة » لغوا وحشوا ، وذلك منزه عن كلامه تعالى .

وقوله : « لانذركم به ومن بلغ » وقف تام . أي من بلغه القرآن الذي أنذرتكم به ، فقد انذرته كما انذرتكم ، وهو قول الحسن رواه عن النبي (ص) : انه قال : (من بلغه أني أدعو الى لا إله الا الله ، فقد بلغه). يعني بلغته الحجة ، وقامت عليه . وقال مجاهد « لانذركم به » يعني اهل مكة . « ومن بلغ » من أسلم من العجم وغيرهم .

وقوله « آلهة أخرى » ولم يقل اخر ، لان الآلهة جمع والجمع يقع على التأنيث ، كما قال : « ولله الاسماء الحسنى » (١) و « قال فما بال القرون الاولى » (٢) ولم يقل الاول . والشاهد : هو المبين لدعوى المدعي . قال الحسن : قال المشركون لرسول الله (ص) : من يشهد لك ؟ فنزلت هذه الآية . وهي قوله : « وأوحي الي هذا القرآن لانذركم به » أي اني أخوفكم به ، لان الانذار هو الاعلام على وجه التخويف . « ومن بلغ » يعني القرآن و (من) في موضع نصب بالانذار . ثم قال موبخا « أئنكم لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى » ثم قال لنبيه : قل أنت يا محمد : لا أشهد بمثل ذلك بل اشهد انه إله واحد « واني بريء مما تشركون » بعبادته مع الله واتخاذه إلهاً .

قوله تعالى :

أَلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٩ (٢) سورة ٢٠ طه آية ٥١

ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) آية بلا خلاف .

« الذين آتيناهم الكتاب » رفع بالابتداء . وقوله « يعرفونه » خبر . وقوله « الذين خسروا أنفسهم » أيضا رفع ، ويحتمل رفعه وجهين :

أحدهما ــ ان يكون نعتاً لـ (الذين) الاولى . ويحتمل ان يكون رفعا على الابتداء وخبره « فهم لا يؤمنون » . فان حملته على النعت كان المعني به أهل الكتاب وان حملته على الابتداء يتناول جميع الكفار .

وقال بعض المفسرين : ما من كافر الا وله منزلة في الجنة وأزواج فان أسلم وسعد صار الى منزله وأزواجه ، وان كفر صار منزله وأزواجه الى من أسلم ، فذلك قوله « الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » (١) وقوله : « الذين خسروا أنفسهم واهليهم يوم القيامة » وهذه الآية لابد أن تكون مخصوصة بجماعة من أهل الكتاب ، وهم الذين عرفوا التوراة والانجيل فعرفوا صحة نبوة محمد (ص) بما كانوا عرفوه من صفاته المذكورة ،ودلائله الموجودة في هذين الكتابين كما عرفوا ابناءهم في أنها صحيحة لامرية فيها ولم يرد أنهم عرفوا بنبوته اضطراراً ، كما عرفوا أبناءهم ضرورة على أن احدا لايعرف أن من ولد على فراشه ابنه على الحقيقة ، لانه يجوز ان يكون من غيره ، وان حكم بأنه ولده لكونه مولوداً على فراشه ، فصار معرفتهم بالنبي (ص) آكد من معرفتهم بابنائهم لهذا المعنى . ولم يكن جميع أهل الكتاب كذلك ، فلذلك خصصنا الآية .

فان قيل : كيف يصح ــ على مذهبكم في الموافاة ــ ان يكونوا عارفين بالله ، وبنبيه ثم يموتون على الكفر ؟ !

قلنا عنه جوابان :

احدهما ــ ان لا يكونوا عارفين بذلك بل يكونوا معتقدين أعتقادتقليد،

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١١ .

ويعتقدون مع ذلـك انهم عالمون به ، فقال الله تعالى « يعرفونه كما يعرفون ابناءهم » فى اعتقادهم ، لانهم يعرفونه على الحقيقة كما قال « ذق إنك أنت العزيز الكريم » (١) يعني عند نفسك ، وقومك •

الثاني ـ ان يكونوا عرفوا ذلك على وجه لايستحق به الثواب ، لانهم يكونون نظروا في الادلة لا لوجه وجوب ذلك عليهم ، فولد ذلك المعرفة لكن لايستحق بها الثواب • وقـد بينا مثل ذلك في عدة مواضع فيما مضى (٢) فسقط السؤال •

وقولـه « الذين خسروا أنفسهم » يعني بكفرهم بمحمد (ص) على وجه المعاندة « فهم لا يؤمنون » وخسرانهم أنفسهم اهلاكهم لها بهذا الكفر ، وتصييرهم لها الى ان لاينتفعون بها • ومن جعل نفسه بحيث لاينتفع بها فقد خسر نفسه •

قوله تعـالى :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ (٢١) آية •

أخبر الله تعالى ان من أفترى على الله الكذب فوصفه بخلاف صفاته ، واخبر عنه بخلاف ما أخبر به عن نفسه ، وعن أفعاله أنه لا أحد أظلم لنفسه منه اذ كان بهذا الفعل قد أهلك نفسه وأوقعها في العذاب الدائم في النار • ثم أخبر أن الظالم لا يفلح أي لا يفوز برحمة الله وثوابه ورضوانه ، ولا بالنجاة من النار ، لان الظلم ـ هاهنا ـ هو الكفر بنبوة محمد (ص) وذلـك لايغفر بلا خلاف •

قوله تعـالى :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٩ (٢) في ١/١٩٢ و٢/٢١ و٤٩٨

شُرَكَاؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) آية •

قرأ يعقوب « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول » بالياء فيهما • الباقون بالنون فيهما من قرأ بالياء رده الى الله تعالى في قوله « على الله كذبا » وتقديره: يوم يحشرهم الله فيقول• ومن قرأ بالنون ابتدأ،وتقدير الآية إذكر يوم نحشرهم جميعا ، يعني يوم القيامة ، لانهم يحشرون فيه جميعا من قبورهم الى موضع الحساب ، وأنه يقول ــ للذين اشركوا بالله ، وعبدوا معه الهاً غيره ــ في هذا اليوم : أين الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي ؟ ! وأين شركائي في زعمكم ؟ ! وإنما يقول هــذا توبيخا لهم وتبكيتا على ما كانوا يدعون أنهم يعبدونه من الاصنام والاوثان ، ويعتقدون أنها شركاء لله ، وأنها تشفع لهم ، يوم القيامة، فاذا لم يجدوا لما كانوا يدعونه صحة ، ولم ينتفعوا بهذه الاوثان ولا بعبادتهم، فيعلمون أنهم كانوا كاذبين في أقوالهم •

قوله تعــالى :

ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)
أُنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)

آيتان بلاخلاف •

قرأ حمزة والكسائي والعليمي، ويعقوب « ثم لم يكن » بالياء • الباقون بالتاء • وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحفص الا ابن شاهين « فتنتهم » بالرفع• الباقون بالنصب • وقرأ حمزة والكسائي وخلف « والله ربنا » بنصب الباء • الباقون بكسرها •

من قرأ بالتاء ورفع الفتنة أثبت علامة التأنيث • وتكون (أن) فى موضع نصب • وتقديره ثم لم تكن فتنتهم الا قولهم • وقد روى شبل عن ابن كثير « تكن » بالتاء « فتنتهم » نصباً مثل قراءة نافع وأبي عمرو عن عاصم• ووجهه

انه أنّث « ان قالوا » لما كان الفتنة في المعنى ، كما قال « فله عشر أمثالها » (١) فأنّث لما كانت الامثال في المعنى الحسنات . ومثله كثير في الشعر ، قال ابوعلي والاول أجود من حيث كان الكلام محمولا على اللفظ . ويقوي قراءة من قرأ : (فتنتهم) بالنصب أن قوله (ان قالوا)أن يكون الاسم دون الخبر أولى لان (أن) اذا وصلت لم توصف ، فأشبهت بامتناع وصفها المضمر ، فكما أن المضمر اذا كان مع المظهر كان (أن يكون) الا سم أحسن ، كذلك اذا كانت (أن) مع اسم غيرها كانت (أن يكون) الاسم أولى .

ومن قرأ (والله ربنا) ـ بكسر الباء ـ فعلى جعل الاسم المضاف وصفاً للمفرد ، لان قوله (والله) جر بواو القسم . ولو أسقطت لقال : (الله)بالنصب ومثله قولهم : رأيت زيداً صاحبنا وبكرا جارك ، ويكون قوله « ما كنا مشركين »جواب القسم .

ومن نصب الباء يحتمل أمرين :

احدهما ـ أن ينصبه بفعل مقدر ، وتقديره : أعني ربنا .

والثاني ـ على النداء . ويكون قد فصل بالاسم المنادي بين القسم والمقسم عليه بالنداء ، وذلك غير ممتنع ، لان النداء كثير في الكلام . وقدحال الفصل بين الفعل ومفعوله في قوله : « انك آتيت فرعون وملأه زينة وأمولا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك » (٢) . والمعنى آتيتهم أموالا ليضلوا ولا يؤمنوا وقد جاء الفصل بين الصلة والموصول ، وهو اشدها قال الشاعر :

ذاك الذي وأبيك يعرف مالك والحق يدفع ترهات الباطل (٣)

وقال ابو عبيدة : من قرأ بالتاء المعجمة من فوقها ونصب « فتنتهم »أضمر في (يكن) إسما مؤنثاً ثم يجيىء بالتاء لذلك الاسم ، وانما جعله مؤنثا لتأنيث (فتنة) قال لبيد :

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠ (٢) سورة ١٠ يونس آية ٨٨

(٣) اللسان (تره) .

فمضى وقــدمها وكانت عادة منه اذا هي عودت أقدامها (٢)

فأنث الاقدام لتأنيث (عادة) • وقوله : « ثم لم تكن فتنتهم » أي لم تكن بليتهم التي ألزمتهم الحجة وزادتهم لائمة الا قولهم •

ومعنى الآية : أنه تعالى لما ذكر قصص هؤلاء المشركين الذين كانوامفتنين بشركهم ، أعلم النبي (ص) أن افتتانهم بشركهم ، وإقامتهم عليه لم يكن الا أن تبرءوا منه ، وقالوا انهم ما كانوا مشركين ، كما يقول القائل اذا رأى إنسان انساناً يحب غاوياً فاذا وقع في هلكة تبرأ منه فيقول له ما كانت محبتك لفلان الا أن انتفيت منه •

فان قيل : كــيف قالوا وحلفوا أنهم ما كانوا مشركين ــ وقــد كانوا مشركين ــ وهل هذا إلا كذب ، والكذب قبيح ولا يجوز من أهل الآخرة أن يفعلوا قبيحا ، لانهم ملجؤن الى ترك القبيح ، لانهم لو صح لم يكونوا ملجئين وكانوا مختارين ، وجب أن يكونوا مزجورين عن فعل القبيح ، وإلا أدى الى اغرائهم بالقبيح وذلك لايجوز ، ولو زجروا بالوعيد عن القبائح لكانوامكلفين ولوجب أن يتناولهم الوعد والوعيد ، وذلك خلاف الاجماع ، وقد وصفهم الله تعالى أيضاًبأنهم كذبوا على انفسهم، فلا يمكن جحد أن يكونوا كاذبين ،فكيف يمكن أن يرفع ذلك ؟ وما الوجه فيه ؟

والجواب عن ذلك من وجوه :

احــدها ــ ما قاله البلخي : إن القوم كذبوا على الحقيقة ، لانهم كانوا يعتقدون أنهم على الحق ، ولا يرون أنهم مشركون ، كالنصارى ومن أشبههم، فقالوا في الموقف ذلك • وقيل : ان يقع بهم العذاب فيعلموا بوقوعه أنهم كانوا على باطل فيقولوا « والله ربنــا ما كنا مشركين » وهم صادقون عند أنفسهم وكذبهم الله في ذلك ، لان الكذب هو الاخبار بالشيء لا على ما هو به ، علم المخبر بذلك أو لم يعلم ، فلما كان قولهم « والله ربنا ما كنا مشركين » كذباً في

(٢) اللسان (قدم) وروايته (عردت) بدل (عودت) •

الحقيقة جاز أن يقال لهم « أنظر كيف كذبوا على أنفسهم » . قال البلخي : ويدل على ذلك قوله « وضل عنهم ما كانوا يفترون » أي ذهب عنهم وأغفلوه، لانهم لم يكونوا نظروا نظراً صحيحا ولم يجاروا في نظرهم الالف والعادة ، فيغلموا في هذا الوقت أن قولهم شرك ، ولو صاروا الى العذاب لعلموا أنهم كانوا مشركين ، واستغنوا بذلك ، لكن هذا القول يكون عند الحشر . وقيل: الجزاء بدلالة أول الآية . وقال مجاهد :قوله « أنظر كيف كذبوا على أنفسهم» تكذيب من الله إياهم .

وقال الجبائي : قولهم « والله ربنا ما كنا مشركين » اخبار منهم أنهم لم يكونوا مشركين عند أنفسهم في دار الدنيا ،لانهم كانوا يظنون انهم على الحق، فقال الله تعالى مكذبا لهم « أنظر » يامحمد « كيف كذبوا على أنفسهم » في دار الدنيا ، لا أنهم كذبوا في الآخرة ، لانهم كانوا مشركين على الحقيقة ،وان آعتقدوا أنهم على الحق . وقوله : « وضل عنهم ما كانوا يفترون » أي ضلت عنهم أوثانهم التي كانوا يعبدونها ويفترون الكذب بقولهم : إنها شفعاؤنا عند الله غدا ، فذهبت عنهم فى الآخرة فلم يجدوها ، ولم ينتفعوا بها .

وقال قوم : انه يجوز أن يكذبوا يوم القيامة للذهول والدهش ، لانهم يصيرون كالصبيان الذين لا تمييز لهم ولا تحصيل معهم ـ اختاره أحمد ابن علي بن الاخشاد . وأجاز النجار أن يكفروا في النار فضلا عن وقوعه قبل دخولهم فيها ، وهذا بعيد . والوجهان الاولان أقرب .

وقيل فيه وجه آخر ، وهو أنهم أملوا أملا فخاب أملهم ولم يقع الامر على ما أرادوا ، لأن من عادة الناس أنهم اذا عوقبوا بعقوبة فتكلموا واستعانوا وصاحوا فان العذاب يسهل عليهم بعض السهولة ، وظنوا أن عذاب الآخرة كذلك ، فقالوا : « والله ربنا ما كنا مشركين » وقالوا « ربنا ظلمنا أنفسنا »(١) وقالوا « ربنا غلبت علينا شقوتنا » (٢) و « قالوا ربنا أرنا اللذين أضلانا من

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٢٢ (٢) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٠٧

الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا » (٣) فأملوا أن يخف عنهم العذاب بمثل هـذا الكلام على عادة الدنيا ، فلم يخف ولم يكن لهم فيه راحـة ، فقال الله « انظر كيف كذبوا على أنفسهم »أي خابوا فيما أملوا من سهولة العذابوذلك مشهور في كلام العرب ، قال الشاعر :

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها مراغمة ما دام للسيف قائم (٤)

وقال آخر :

كذبتم وبيت الله لا تنكحونهـا بني شاب قرناهـا تصروتحلب(٥)

أي كذبكم أملكم • وقال ابو داود الازدي :

قلت لمـا نصلا من فتنـة كذب العير وان كان برح (٦)

والمعنى أمل أنه يتخلص بشيء فكذبه أمـله ، لانه ظن أنه اذا مرّ بارحا وهو أن يأخذ في ناحية الشمال الى ناحية اليمين لم يتهيأ لي طعنه ، فلما قلب رمحه وطعنه قال : كذب العير أي كذب أمله •

و (الفتنة) في الآية معناها المعذرة ــ في قول قتادة ــ لانها اعتذار عن الفتنة ، فسميت باسم الفتنة • وقال قوم : هي المحنة • وقال قوم : تقـديره عاقبة فتنتهم • وفتنتهم يجوزأن تكون بمعنى اغترارهم أي اغتروا بهذا الكذب وظنوا أنه سينجيهم ، وكذبوا على أنفسهم لما رجعت مضرته اليهم صار عليهم وان قصدوا أن يكون لهم •

وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال المعارف ضرورية ، لان الله تعالى أخبر عنهم أنهم قالوا « والله ربنا ما كنا مشركين » فلا يخلو أن يكونواصادقين أو كاذبين ، فان كانوا صادقين لانهم كانوا عارفين في دار الدنيا فقد كذبهم الله في ذلك بقوله « أنظر كيف كذبوا » وان كانوا كاذبين لانهم كانوا عارفين ، فقد وقع منهم القبيح في الآخرة ، وذلك لا يجوز • ومعنى الآية على ما بيناه

(٣) سورة ٤١ حم السجدة آية ٢٩ (٤) مجمع البيان ٢ : ٢٩٠

(٥) قائله الاسدى • اللسان (قرن) •

(٦) اللسان (كذب) •

من أنهم أخبروا أنهم لم يكونوا مشركين عند أنفسهم في دار الدنيا وان الله كذبهم وأنهم كانوا كاذبين على الحقيقة وان أعتقدوا خلافه في الدنيا . فأما معارفهم في الآخرة فضرورية عند البصريين ، وعند البلخي ومن وافقه ، حاصلة على وجه هم ملجؤن اليها ، فعلى الوجهين معا لايجوز أن يقع منهم القبيح لامحالة .

قوله تعالى :

وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاؤُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)

آية بلاخلاف .

قال مجاهد قوله « ومنهم من يستمع اليك » يعني قريشا . وقال البلخي: أي من أهل الكتاب والمشركين من يجالسك ويريد الاستماع منك والاصغاء اليك « وجعلنا على قلوبهم أكنة» لانهم لايفقهوه ، لألفهم الكفر وشدة عداوتهم « حتى اذا جاؤك يجادلونك » أي حتى اذا صار الامر الى الجدال أظهروا الكذب وعاندوا ، فقالوا « ان هذا الا أساطير الاولين » أي ليس هذا إلا أساطير الاولين . وقال قوم : نزلت في النظر بن الحارث بن كلدة . وقال الضحاك : معنى أساطير الاولين أحاديث الاولين وكل شيء في القرآن أساطير، فهو أحاديث .

و (الاكنة) جمع كنان ــ بكسر الكاف ــ وهو كالغطاء والاغطية «وفي آذانهم وقراً » أي ثقلا ، والوقر ــ بكسر الواو ــ الحمل ،يقال وقرت الاذن توقر قال الشاعر :

وكلام سيىء قد وقرت أذني منه وما بي من صمم

ونخلة موقرة وموقر ، ونخيل مواقير . قال يونس سألت رؤبة ، فقال

وقرت أذنه ـ بضم الواو وكسر القاف ـ يوقر ـ بفتح الياء والقاف ـ اذا كان فيها الوقر • وقال أبو زيد : سمعت العرب تقول : أذن موقرة ـ بضم الميم وفتح القاف ـ ومن الحمل يقال : أوقرت الدابة فهي موقرة • ومن السمع وقرت سمعه ـ بتشديد القاف ـ فهو موقر ، قال الشاعر :

وثي هامة قد وقر الضرب سمعها (١)

واساطير واحدها أسطورة، وإسطارة ،مأخوذ من سطر الكتاب، قال الراجز :

اني وأسطار سطرن سطرا لقائل يا نصر نصرا نصرا (٢)

وأسطار جمع سطر • ومن قال في واحده : سطر ، قال في الجمع أسطر، وجمع الجمع أساطير ، ومعناها الترهات البسابس يعني ليس له نظام • وقال الاخفش : آساطير جمع لا واحد له ، نحو (مذاكير وآبابيل) وقال بعضهم : واحد الابابيل إبيل ـ بتشديد الباء وكسر الالف ـ •

ومعنى قوله : « وجعلنا على قلوبهم آكنة أن يفقهوه » قد مضى نظائره • في قوله : « وجعلنا قلوبهم قاسية » (٣) أي منعناهم الالطاف التي تبسط المؤمنين وتبعثهم على الازدياد من الطاعة ، لان الله تعالى لما أزاح علتهم علله بالدعاء والبيان والانذار والترغيب والترهيب فأبوا الا كفراً وعنادا وتمردا على الله وإعراضا عنه وعما دعاهم اليه ، فمنعهم الطافه عقوبة لهم حيث علم أنهم لا ينتفعون بذلك ولا ينتهون الى الحق ، وألفوا الكفر وأحبوه حتى صاروا كالصم عن الحق وصارت قلوبهم كأنها في أكنة فجاز أن يقال في اللغة جعل على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرا ، كما يقول القائل لغيره أفسدت سيفك اذا ترك استعماله حتى يصدي ، وجعلت أظافيرك سلاحاً اذا لم يقلمها • ويقال للرجل اذا آيس من عبده أو ولده بعد الاجتهاد في تأديبه فخلاه واقصاه قد جعلته بحيث لا يفلح

(١) تفسير الطبري ١١ : ٣٠٦ •

(٢) قائله رؤبة ملحقات ديوانه ١٧٤ واللسان والصحاح (نصر) •

(٣) سورة ٥ المائدة آية ١٤ •

أبداً وتركته أعمى أصما ، وجعلته ثوراً وحماراً ، وان كان لم يفعل به شيئاًمن ذلك ولم يرده بل هو مهموم به محب لخلافه ، ولا يجوز أن يكون المرادبذلك أنه كلفهم ما لا يطيقونه ، وذلك لايليق بحكمته تعالى ، ولكانوا غير ملومين في ترك الايمان حيث لم يمكنوا منه ، وكانوا ممنوعين منه ، وكانت الحجة لهم على الله تعالى دون أن تكون الحجة له ، وذلك باطل ، بل لله الحجة البالغة .

قوله « وان يروا كل آية لا يؤمنون بها » أي كل علامة ومعجزة تدلهم على نبوة النبي (ص) لايؤمنون بها لعنادهم . قال الزجاج (أن يفقهوه) في موضع نصب لانه مفعول له ، والمعنى جعلنا على قلوبهم أكنة لكراهة أن يفقهوه فلما حذفت اللام نصب الكراهة ، ولما حذفت الكراهة أنتقل نصبها الى (أن) . قال أبو علي : كانوا اذا سمعوا القرآن من النبي آذوه ورجموه وشغلوه عن صلاته ، فحال الله بينهم وبين استماع ذلك في تلك الحال التي كانوا عازمين فيها على ما ذكرناه بأن ألقى عليهم النوم اذا قعدوا يرصدونه فكانوا ينامون فلا يسمعون قراءته ولا يفقهون أنه قرآن ، ولا يعرفون مكانه ليسلم النبي (ص) من شرهم وأذاهم فجعل منعه إياهم عن استماع القرآن ، وعن التعرف لمكان النبي (ص) لئلا يرجموه ولا يؤذوه « أكنة أن يفقهوه » أنه قرآن وأن محمدا هو الذي يقرأه . وبين أن كل آية يرددها عليهم النبي (ص) من قبل الله لايؤمنون بها ، فلهذا منعهم الله من إستماع القرآن ، لانهم لم يكونوا يسمعونه ليستدلوا به على توحيد الله وصحة نبوة محمد (ص) وانما كانوا يريدون بذلك تعرف مكانه ليؤذوه ويرجموه ،فلهذا منعهم الله من استماع القرآن وفهمه ولو كانوا ممن يؤمن ويقبل ما يردّد عليه من الآيات من قبل الله ويستدلوا بها على نبوة محمد (ص) ما كان الله يمنعهم من سماع ذلك وفهمه .

وقوله « حتى اذا جاءوك يجادلونك » يعني أنهم اذا دخلوا اليه بالنهار انما يجيئون مجيىء مخاصمين مجادلين رادين مكذبين ، ولم يكونوا يجيئون مجيىء من يريد الرشاد والنظر في الدلالة الدالة على توحيد الله ونبوة نبيه (ص)

وكانوا يريدون ذلك بأن يقولوا هذا أساطير الاولين ، يعنون إنه من كلام الاولين وحوادثهم • وفى معنى هذه الآية قوله تعالى في بني اسرائيل : « واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً • وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً » (١) فمعنى الآيتين واحد وسبب نزولهما واحد ، وانما أنزلت هذه الآيات لئلا يمتنع النبي من قراءة القرآن خوفا من أذى الكفار فيفوت المؤمنين سماعه فيغتمون لذلك وتفوتهم مصلحته بل حثه الله على قراءته وضمن له المنع من أذاهم •

وقوله : « وان يروا كل آية لايؤمنوا بها » كالتعليل لجعله قلوبهم في أكنة ، والوقر في آذانهم ، فقال : إنما فعلت هذا لعلمي بأنهم لا يؤمنون وأنه ليس في سماعهم ذلك الا تطرّق الاذى به عليك منهم ، وقولهم « ان هذا الا أساطير الاولين » •

وتحتمل الآية وجهاً آخر وهو : أنه يعاقب الكفار الذين لا يؤمنون بعقوبات يجعلها في قلوبهم من نحو الضيق الذي ذكر أنه يخلقه فيها ، ويجعل هذه العقوبات دلالة لمن شاهد قلوبهم واستماعهم من الملائكة ، وشاهد منها هذه العقوبات ، على أنهم لايؤمنون من غير أن يكون ذلك حائلا بينهم وبين الايمان • ثم أخبر أنها بمنزلة الاكنة على قاوبهم عن فقه القرآن وبمنزلةالوقر في الآذان على وجه التمثيل له بذلك تجوزاً واستعارة • ووجه الشبه بينهما أن من كانت في نفسه هذه العقوبات معلوم أنه لا يؤمن كما أن من على قلبه أكنة لا يؤمن ، وكما سمي الكفر عماً ، سماه باسم العمى على وجه التشبيه •

ويحتمل أيضا أن يكون الكفر الذي في قلوبهم من جحد توحيد الله وجحد نبوة نبيه ، سماه كنا تشبيهاً ومجازاً ، وإعراضهم عن تفهم القرآن والاصغاء اليه على وجه الاستعارة وقراً توسعا ، لان مع الكفر والاعراض لا يحصل الايمان والفهم كما أن مع الكنّ والوقر لا يحصلان ، ونسب هذا

(١) سورة ١٧ الاسراء آية ٤٥ ــ ٤٦

الجعل الى نفسه، لانه الذي شبه أحدهما بالآخر وذلك سائغ في اللغة كمايقول القائل لغيره ـ اذا أثنى على إنسان وذكر فضائله ومناقبه ـ جعلته فاضلاخيراً عدلا ، وان كان لم يفعل به ذلك . وبالعكس من ذلك اذا ذكر مقابحهومخازيه وفسقه يحسن أن يقال له : جعلته فاسقاً شريراً ، وان لم يفعل في الحالين شيئاً من ذلك وكل ذلك مجاز . ومنه قولهم : جعل القاضي فلانا عدلا وجعله ثقة وجعله ساقطافاسقا ، كل ذلك يراد به الحكم عليه بذلك والابانة عن حاله كما قال الشاعر :

جعلتني باخلا كلاب ورب منى ... اني لأسمح كفا منك في اللزب (١)

أي سمتني باخلا . وقوله « ومنهم من يستمع اليك ... » فكنى عنها بلفظ الواحد حملا له على اللفظ ،فلما قال « وجعلنا على قلوبهم أكنة » رده الى المعنى فعامله معاملة الجمع ، لان لفظة (من) تقع على الواحد وعلى الجمع حقيقة .

قوله تعالى :

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) آية بلاخلاف .

وقوله « وهم » كناية عن الكفار الذين تقدم ذكرهم عند أكثر المفسرين: الجبائي والبلخي وغيرهم . وقال قوم : نزلت في أبي لهب ، لانه كان يتبعه في المواسم فينهى الناس عن أذاه وينأى عن اتباعه . والاول أشبه بسياق الآية . وقيل : نزلت في أبي طالب ، وهذا باطل عندنا ، لانه دل الدليل على إيمانه بما ثبت عنه من شعره المعروف وأقاويله المشهورة الدالة على أعترافه بالنبي (ص) . وقال مجاهد : نزلت في قريش .

(١) مجمع البيان ٢ : ٢٨٦ . و (كلاب) اسم قبيلة .

بين الله تعالى أن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم كانوا ينهون عن اتباع القرآن ، وقبوله والتصديق بنبوة نبيه ، ويبعدون عنه ، لان معنى (ينأون) يبعدون الى حيث لا يسمعونه خوفاً من أن يسبق الى قلوبهم الايمان به والعلم بصحته .

وقوله « وان يهلكون الا أنفسهم » معناه ليس يهلكون إلا أنفسهم « وما يشعرون » انهم مايهلكون بنهيهم عن قبوله ، وبعدهم عنه « الا أنفسهم» لانهم لايعلمون اهلاكهم اياها بذلك وإهلاكهم اياها هو مايستحقون به الصيرورة الى العذاب الابدي في النار . وهل هناك هلاك أعظم من ذلك؟ ! . والنأي : البعد « ينأون » أي يتباعدون عنه ، تقول نأيت عن الشيء أنأى نأيا ، اذا بعدت عنه . والنؤي حاجز يجعل حول البيت من الخوف لان لا يدخله الماء من خارج يحفر حفرة حول البيت فيجعل ترابها على شفير الحفيرة ، فيمنع التراب الماء أن يدخل من خارج ، وهو مأخوذ من النأي ، أي تباعد الماء عن البيت .

وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال معرفة الله ضرورة ، وأن من لا يعرف الله ولا يعرف نبيه لا حجة عليه ، لان الله بين أن هؤلاء الكفار قد أهلكوا أنفسهم بنهيهم عن قبول القرآن وتباعدهم عنه وانهم لا يشعرون ولا يعلمون باهلاكهم أنفسهم بذلك، فلو كان من لا يعرف الله ولا نبيه ولا دينه لاحجة عليه ، لكانوا هؤلاء معذورين ولم يكونوا هالكين وذلك خلاف مانطق به القرآن .

قوله تعالى :

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٧) آية بلا خلاف .

قرأ حمزة ويعقوب وحفص « ولا نكذب . . . ونكون » بالنصب فيهما،

وافقهم ابن عامر فى « ونكون » الباقون بالرفع فيهما ، فمن قرأ بالرفع احتملت قراءته أمرين :

أحدهما ـ ان يكون معطوفا على نرد ، فيكون قوله : « نرد ولانكذب ... ونكون » داخلا في التمني ويكون قد تمني الرد وألا يكذب وأن يكون من المؤمنين ، وهو اختيار البلخي والجبائي والزجاج .

والثاني ـ أن يكون مقطوعا عن الاول ، ويكون تقديره يا ليتنا نرد ولا نكذب كما يقول القائل : دعني ولا أعود ، أي فأني ممن لايعود ، فانما يسألك الترك ، وقد أوجب على نفسه ألا يعود ترك أو لم يترك . ولم يقصد أن يسأل أن يجمع له الترك وأن لايعود . وهذا الوجه الذي اختاره أبوعمرو في قراءة جميع ذلك بالرفع ، فالاول الذي هو الرد داخل في التمني وما بعده على نحو دعني ، ولا أعود ، فيكونون قد أخبروا على النيّات أن لا يكذبوا ويكونوا من المؤمنين .

واستدل أبو عمرو على خروجه من التمني بقوله « وإنهم لكاذبون » فقال ذلك يدل على أنهم أخبروا بذلك عن أنفسهم ، ولم يتمنوا ، لان التمني لايقع فيه الكذب وانما يقع في الخبر دون التمني .

ومن نصب « نكذب ... ونكون » أدخلهما في التمني ، لان التمني غير موجب ، فهو كالاستفهام والامر والنهي والعرض ، في إنتصاب ما بعد ذلك كله من الافعال اذا دخلت عليها الفاء أو الواو على تقدير ذكر المصدر من الفعل الاول ، كأنه قال : ياليتنا يكون لنا رد ، وانتفاء للتكذيب وكون من المؤمنين .

ومن نصب « ونكون » فحسب ، ورفع « نرد ولا نكذب » يحتمل أيضاً وجهين :

احدهما ـ أن يكون داخلا في التمني ، فيكون في المعنى كالنصب .

والثاني ـ انه يخبر على النيات أن لا يكذب ردّ أو لم يرد .

ومن نصب « ولا نكذب . . . ونكون » جعلهما جميعا داخلين في التمني كما أن من رفع وعطفه على التمني كان كذلك . فان قيل : كيف يجوز أن يتمنوا الرد الى الدنيا وقد علموا عند ذلك انهم لايردون ؟

قيل عن ذلك أجوبة :

احدها ــ قال البلخي : إنا لانعلم أن أهل الآخرة يعرفون جميع أحكام الآخرة ، وانما نقول : انهم يعرفون الله بصفاته معرفة لا يتخالجهم فيها الشك لما يشاهدونه من الآيات والعلامات الملجئة لهم الى المعارف . وأما التوجع والتأوه والتمني للخلاص والدعاء بالفرج يجوز أن يقع منهم وأن تدعوهم أنفسهم اليه . وقال ابو علي الجبائي والزجاج : يجوز أن يقع منهم التمني للرد ، ولان يكونوا من المؤمنين ، ولا مانع منه . وقال آخرون : التمني قد يجوز لما يعلم انه لا يكون ألا ترى أن المتمني يتمنى أن لايكون فعل ما قد فعله ومضى وقته ، وهذا لا حيلة فيه ، فعلى هذا قوله في الآية الثانية « وانهم لكاذبون » يكون حكاية حال منهم في دار الدنيا ، كما قال : « وكلبهم باسط ذراعيه » (١) وكما قال « وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة » (٢) وانما هو حكاية للحالة الآتية .

وقوله « ولو ترى إذ وقفوا على النار » أمال في الموضعين ابو عمرو وغيره وهي حسنة في أمثال ذلك ، لان الراء بعده الالف مكسورة وهو حرف كأنه مكرر في اللسان فصارت الكسرة فيه كالكسرتين ، فحسن لذلك الامالة . وقوله « إذ وقفوا » يحتمل ثلاثة أوجه :

احدها ــ أن يكون عاينوها ووردوها قبل أن يدخلوها . ويجوز أن يكونوا أقيموا عليها نفسها .

والثاني ــ أن يكونوا عليها وهي تحتهم .

وثالثها ــ أن يكون معناه دخلوها فعرفوا مقدار عذابها كما يقول القائل:

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ١٨ (٢) سورة ١٦ النحل آية ١٢٤

قد وقفت على ما عند فلان ، أي فهمته وتبينته . قال الكسائي : يقال :وقفت الدابة وغيرها اذا حبستها ـ بغير ألف ـ وهي لغة القرآن ، وهو الافصح ، وكذلك وقفت الارض اذا جعلتها صدقة . وقال ابو عمرو ما سمعت احداً من العرب يقول : أوقفت الشيء بالالف الا أني لو رأيت رجلا بمكان ، فقيل له ما أوقفك هاهنا لرأيته حسناً .

وأستدل أبو علي بهذه الآية على ان القدرة قبل الفعل خلافاً للمجبرة بأن قال تمنوا الرد الى دار الدنيا الى مثل الحالة التي كانوا عليها ، ولا يجوز من عاقل أن يتمنى أن يرد الى الدنيا ويخلق فيه القدرة الموجبة للكفر ، لان ذلك لايخلصه من العذاب بل يؤديه الى حالته التي كان عليها . وهذا ضعيف ،لان لقائل أن يقول : إنهم تمنوا الرد ورفع التكذيب وحصول الايمان بأن تحصل لهم قدرة الايمان ، ولا تحصل لهم قدرة التكذيب ، وليس في الآية أنهم سألوا الرد الى الحالة التي كانوا عليها ، فلا متعلق في ذلك .واستدل ايضاً على أنه اذا كان المعلوم من حال الكافر أنه يؤمن وجب تبقيته بأن قال : أخبر الله أنه انما لم يردهم لانهم «لو ردوا لعادوا لما نهو عنه » وظاهر ذلك يقتضى أنه لوعلم أنه لو ردهم لآمنوا ، لوجب أن يردهم ، واذا وجب أن يردهم اذا علم أنهم يؤمنون بأن يجب تبقيتهم اذا علم أنهم يؤمنون أولى . وهذا أيضاً ضعيف ، لان الظاهر أفاد أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وليس فيه أنهم لو ردوا لآمنوا أو ما حكمهم بل هو موقوف على الدلالة ، لانه دليل الخطاب على أن غاية ما فيه أنه يفيد أنه لو علم من حالهم أنه متى ردهم آمنوا يردهم ، فمن أين أن ذلك واجب عليه ؟ !وهل هذا الا كقوله «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» في أنه لا خلاف بين أهل العدل أنه كان يجوز له أن يعذب وان لم يبعث رسولا بأن لاتقتضي المصلحة بعثته ويقتصر بهم على التكليف العقلي، فانهم متى عصوا كان له أن يعذبهم فلا شبهة فى الآية .

قوله تعـالى :

بَلْ بَدا لَهُم مَا كَـانوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِما نُهُوا

عَنْهُ وإِنهُمْ لَكَاذِبُونَ آية(٢٨).

قوله « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل » معناه من عقاب الله فعرفوه معرفة من كانوا يسترونه عنه • وقال قوم : بدآ لبعضهم من بعض ما كان علماؤهم يخفونه عن جهالهم وضعفائهم مما في كتبهم فبدا للضعفاء عنادهم • وقيل : معناه بل بدأ من أعمالهم ما كانوا يخفونه ، فأظهره الله وشهدت به جوارحهم • وقال الزجاج : ظهر للذين آتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفونه من أمر البعث والنشور ،لان المتصل بهذا قوله « وقالوا إن هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » لنجزى على المعاصى •

وقوله : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » قال بعضهم : لو ردوا ولم يعاينوا العذاب لعادوا كأنه ذهب الى أنهم لم يشاهدوا ما يضطرهم الى الارتداع ، وهذا ضعيف ، لان هذا القول يكون منهم بعد أن يبعثوا ويعلموا أمر القيامة ويعاينوا النار بدلالة قوله : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » وهذه الآيات كلها في المعاندين ، لانه قال في أولها « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » ثم قال بعد ذلك « وان يروا كل آية لايؤمنوا بها» وقال ابو علي الجبائي :الآية مخصوصة بالمنافقين وظهرلهم ما كانوا يخفونه من كفرهم الذي كانوا يضمرونه • قال والآية الاولى وان كان ظاهرها يقتضي جميع الكفار والمنافقون داخلون فيهم فيجوز أن يخبر عنهم بهذا الحكم • قال : ويحتمل أن يكون أراد بها الكافرين الذين كان النبي يخوفهم بالعذاب على كفرهم فلم يؤمنوا بذلك لكن دخلهم الشك والخوف وأخفوه عن ضعفائهم وعوامهم ، فاذا كان يوم القيامة ظهر ذلك وان أخفوه في الدنيا فيتمنون حينئذ الرد الى حال الدنيا • وقيل : « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل » معنى « يخفون » يجدونه خافيا • ومعنى « بل بدا »ليس تمنيهم الرجعة واظهار الانابة حقاً للايمان الصحيح ، بل لما شاهدوه من العذاب الاليم •

وقوله « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » معناه إنهم لو ردوا الى حال التكليف والى مثل ما كانوا عليه في الدنيا من المهلة والتمكين من الايمان والتوبة والقدرة على ذلك ، لعادوا لمثل ما كانوا عليه من الكفر الذي نهوا عنه. وقوله تعالى « وانهم لكاذبون » قد بينا ان المراد به الحكاية عن حالهم في الدنيا وأنهم كانوا فيها كاذبين في كفرهم وتكذيبهم رسول الله والقرآن . وقال البلخي هذا الكذب وقع منهم في الحال وان لم يعلموه كذباً ، لانهم أخبروا عن عزمهم أنهم لو ردوا لكانوا مؤمنين . وقد علم الله أنهم لو عادوا الى الدنيا لعادوا الى كفرهم ، وكان إخبارهم بذلك كذبا ، وان لم يعلموه كذلك ، لان مخبَره على خلاف ما أخبروه وهذا الذي ذكروه ضعيف ، لانهم اذا أخبروا عن عزمهم على الايمان ان ردوا أو كانوا عازمين عليه لا يكونون كاذبين، لان مخبر خبرهم العزم ، وهو على ما أخبروا فكيف يكذبون فيه ، والاول أقوى .

فأما الكذب مع العلم بأنه ليس كذلك، فلا خلاف بين أبي علي وأبي القاسم أنه لايجوز أن يقع منهم في الآخرة ، لان أهل الآخرة ملجؤن الى ترك القبيح، لانهم لو لم يكونوا ملجئين لوجب أن يكونوا مزجورين من القبيح بالامر والنهي والثواب والعقاب ، وذلك يوجب أن يكون ذاك التكليف ، ولا خلاف أنه ليس هناك تكليف . وإن لم يزجروا ولم يلجؤا الى تركه كانوا مغريين بالقبيح وذلك فاسد . فاذاً لايجوز أن يقع منهم القبيح بحال .

وقال بعض المفسرين سئل النبي (ص) فقيل له : ما بال أهلَ النار عملوا في عمر قصير بعمل أهل النار فخلدوا في النار ؟ وأهل الجنة عملوا في عمر قصير بعمل أهل الجنة فخلدوا في الجنة ؟ ! فقال : (ان الفريقين كان كل واحد منهما عازماً على أنه لو عاش أبدا عمل بذلك) .

قوله تعالى :

وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) آيتان بلاخلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية عن الكفار الذين ذكرهم في الآية الأولى، وبين أنهم قالوا لما دعاهم النبي (ص) الى الايمان والاقرار بالبعث والنشور وخوفهم من العقاب في خلافه، وحذرهم عذاب الآخرة والحشر والحساب على سبيل الانكار لقوله والتكذيب له « ما هي الا حياتنا الدنيا » وعنوا أنه لاحياة لنا في الآخرة على ما ذكرت، وانما هي هذه حياتنا التي حيينا بها في الدنيا وانا لسنا بمبعوثين الى الآخرة بعد الموت. ثم خاطب نبيه (ص) فقال « ولو ترى اذ وقفوا على ربهم » يعني على ما وعدهم ربهم من العذاب الذي يفعله بالكفار في الآخرة والثواب الذي يفعله بالمؤمنين، وعرفوا صحة ما كان اخبرهم به من الحشر والحساب. وقال لهم ربهم عند مشاهدتهم ووقوفهم عليه «أليس هذا بالحق ؟ قالوا بلى وربنا » مقرين بذلك مذعنين له وان كانوا قبل ذلك في الدنيا ينكرونه، قال حينئذ « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » بذلك. ويحتمل أن يكون معنى « اذ وقفوا على ربهم » أنهم حبسوا ينتظر بهم مايأمر كقول القائل : احبسه على أمره به. وقد ظن قوم من المشبهة أن قوله « اذ وقفوا على ربهم » أنهم يشاهدونه، وهذا فاسد، لان المشاهدة لا تجوز الا على الاجسام أو على ما هو حال في الاجسام، وقد ثبت حدوث ذلك أجمع، فلا يجوز أن يكون تعالى بصفة ما هو محدث. وقد بينا أن المراد بذلك : وقوفهم على عذاب ربهم وثوابه، وعلمهم بصدق ما أخبرهم به في دار الدنيا دون أن يكون المراد به رؤيته تعالى ومشاهدته، فبطل ما ظنوه. وايضا فلا خلاف أن الكفار لا يرون الله، والآية مختصة بالكافرين فكيف يجوز أن يكون

المراد بها الرؤية ! فلا بد للجمع من التأويل الذي بيناه . ويجوز ان يكون المراد بذلك اذا عرفوا ربهم ، لانه سيعرفهم نفسه ضرورة في الآخرة ،وتسمى المعرفة بالشيء وقوفا عليه يقول القائل : وقفت على معنى كلامك ، والمعنى علمته ، واذا كان الكفار لا يعرفون الله في الدنيا وينكرونه ، عرفهم الله نفسه ضرورة ،فذلك يكون وقوفهم عليه ، فاذا عرفوه قال لهم « أليس هذا بالحق» يعني ما وعدهم به ، فيقولون « بلى » لانهم شاهدوا العقاب والثواب ولم يشكوا فيهما .

قوله تعالى :

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى أنه خسر هؤلاء الكفار « الذين كذبوا بلقاء الله » يعني الذين كذبوا بما وعد الله به من الثواب والعقاب وجعل لقاءهم لذلك لقاء له تعالى مجازا ، كما يقول المسلمون لمن مات منهم : قد لقي الله وصار اليه .وانما يعنون : لقي ما يستحقه من الله وصار الى الموضع الذي لا يملك الامر فيه سواه ، كما قال « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » (١) والموت لايشاهد ، وانما أراد انكم كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوا أسبابه ، فقد رأيتم أسبابه وانتم تنظرون ، فجعل لقاء أسبابه لقاءه .

وقوله « حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة » كل شيء أتى فجأة ، فقد بغت يقال : قد بغته الامر يبغته بغتا وبغتة اذا أتاه فجأة قال الشاعر :

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٣

ولكنهم ماتوا ولم أخش بغتة وافظع شيء حين يفجؤك البغت (٢)

وقوله « قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » قد علم أن الحسرة لاتدعى وانما دعاؤها تنبيه للمخاطبين • و (الحسرة) شدة الندم حتى يحسر النادم كما يحسر الذي تقوم به دابته في السفر البعيد • قال الزجاج : العرب اذا اجتهدت في المبالغة في الاخبار عن أمر عظيم يقع فيه جعلته نداء ، فلفظه لفظ ما ينبه ، والمنبه به غيره ، كقوله « يا حسرة على العباد » (٣) وقوله « يا حسرتي على ما فرطت » (٤) و « ياويلتا أألد وأنا عجوز » (٥) و« ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا »(٦) ، فهذا أبلغ من ان يقول : أنا أتحسر على العباد وابلغ من ان يقول : الحسرة علينا في تفريطنا • قال سيبويه : اذا قلت يا عجباه فكأنك قلت احضر وتعال يا عجب ، فانه من أزمانك • وتأويل « يا حسرتنا » اتنبهوا على أنا قد خسرنا • وقوله « على ما فرطنا فيها » يعني قدمنا العجز • وقيل معناه ماضيعنا فيها يعني في الساعة • وانما يحسروا على تفريطهم في الايمان والتأهب لكونها بالاعمال الصالحة •

وقوله « وهم يحملون أوزارهم » يعني ثقل ذنوبهم ، وهذا مثل جائز ان يكون جعل ما ينالهم من العذاب بمنزلة أثقل ما يتحمل ، لان الثقل قد يستعمل في الوزن وقد يستعمل في الحال تقول في الحال : قد ثقل علي خطاب فلان ، ومعناه كرهت خطابه كراهة اشتدت علي • ويحتمل أن يكون المراد بالاوزار العقوبات التي استحقوها بالذنوب والعقوبات قد تسمى اوزاراً ، فبين أنه لثقلها عليهم يحملونها على ظهورهم • وذلك يدل على عظمها • و (الوزر) الثقل في اللغة واشتقاقه من الوزر ، وهو الجبل الذي يعتصم به • ومنه قيل : وزير ،

---

(٢) قائله : يزيد بن ضبة الثقفي • اللسان (بغت) ومجاز القرآن ١ :١٩٣

(٣) سورة ٣٦ يس آية ٣٠ (٤) سورة ٣٩ الزمر آية ٥٦

(٥) سورة ١١ هود آية ٧٢ (٦) سورة ٣٦ يس آية ٥٢

كأنه يعتصم الملك به ، ومنه قوله «واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي»(٣) وقال « وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا » (٤) . وقوله « الاساء ما يزرون » يعني بئس الشيء شيئا يزرونه أي يحملونه ، وقد بينا عمل (بئس ، ونعم)فيما مضى . ومثله « ساء مثلا القوم » (٥) ومعناه ساء مثلا مثل القوم . وقال بعضهم :معنى « يحملون أوزارهم على ظهورهم » وصف افتضاحهم في الموقف بما يشاهدونه من حالهم وعجزهم عن عبور الصراط كما يعبره المخفون من المؤمنين . ومعنى قوله « ألاساء » ما ينالهم جزاء لذنوبهم واعمالهم الردية اذ كان ذلك عذابا ونكالا .

وقوله«يزرون» من وزر يزر وزراً اذا أثم . وقيل أيضا : وزر ، فهو موزور اذا فعل به ذلك . ومنه الحديث في النساء يتبعن جنازة قتيل لهن (أرجعن موزورات غير مأجورات) والعامة تقول ما زورات .

قوله تعالى :

وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) آية بلا خلاف .

قرأ ابن عامر « ولدار الآخرة » بلام واحدة مع تخفيف الدال . وخفض (الآخرة) على الاضافة . الباقون بلامين وتشديد الدال وضم الآخرة . وقرأ اهل المدينة وابن عامر وحفص ويعقوب « تعقلون » بالتاء هاهنا وفي (الاعراف ويوسف) وافقهم يحيى والعليمي في (يوسف) . ومن قرأ بلامين وشددالدال جعل (الآخرة) صفة لـ (وللدار) ، وأجراها في الاعراب مجراها .واستدل على كونها صفة (للدار) بقوله : « وللآخرة خير لك من الاولى » (٦) فاقامتها مقامها يدل على أنها هي وليس غيرها .فيجوز أن يضيف اليها ، وقوّوا ذلك

(٣) سورة ٢٠ طه آية ٢٩ ـ ٣٠
(٤) سورة ٢٥ الفرقان آية ٣٥
(٥) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٦
(٦) سورة ٩٣ الضحى آية ٤

بقوله « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان » (٢) وقوله « تلك الدار الآخرة»(٣) ومن قرأ بلام واحدة وخفف الدال فانه لم يجعل « الآخرة » صفة (للدار)لان الشيء لا يضاف الى نفسه لكنه جعلها صفة للساعة ، وكأنه قال : ولدار الساعة الآخرة ، وجاز وصف الساعة بـ (الآخرة) كما وصف اليوم بالآخر، في قوله : « وارجوا اليوم الآخر » (٤) وحسن اضافة (الدار) الى الآخرة ولم يقبح من حيث استقبح اقامة الصفة مقام الموصوف ،لان الآخرة صارت كالابطح والابرق ،ألا ترى أنه قد جاء «وللآخرة خير لك من الاولى (٥) واستعملت استعمال الاسماء ولم تكن مثل الصفات التي لم تستعمل استعمال الآخرة . ومثل (الآخرة) في انها استعملت استعمال الاسماء قولهم : الدنيا ، لما استعملت استعمال الاسماء حسن أن لا تلحق لام التعريف في نحو قول الشاعر :

في سعي دنيا طال ما قد مدّت

وقال الفراء : جعلت (الدار) هاهنا اسما و (الآخرة) صفتها ، وأضيفت في غير هذا الموضع .ومثله مما يضاف الى مثله قوله :«حق اليقين»(٦) والحق هو اليقين ، ومثله قولهم بارحة الاولى ، ويوم الخميس ، فيضاف الشيء الى نفسه اذا اختلف اللفظ ، واذا اتفق لم يجز ذلك ، لا يقولون حق الحق ولا يقين اليقين ، لانهم يتوهمون اذا اختلفا في اللفظ أنهما مختلفان في المعنى .

بين الله تعالى في هذه الآية أن ما يتمتع به في الدنيا بمنزلة اللعب واللهو، اللذين لا عاقبة لهما في المنفعة ويقتضي زوالهما عن أهلها في أدنى مدة وأسرع زمان ، لانه لاثبات لهما ولا بقاء ، فأما الاعمال الصالحات ، فهي من أعمال الآخرة وليست بلهو ولا لعب . وبين ان الدار الآخرة وما فيها من أنواع النعيم والجنان خير للذين يتقون معاصي الله ، لانها باقية دائمة لا يزول عنهم نعيمها

(٢،٤) سورة ٢٩ العنكبوت آية٦٤،٣٦ (٣) سورة ٢٨ القصص آية ٨٣

(٥) سورة ٩٣ الضحي آية ٤ (٦) سورة ٥٦ الواقعة آية ٥

ولا يذهب عنهم سرورها .

وقوله « أفلا تعقلون » أن ذلك كما وصفت لهم فيزهدوا في شهوات الدنيا ويرغبوا في نعيم الآخرة بفعل ما يؤديهم اليه من الاعمال الصالحة .

ومن قرأ (يعقلون) بالياء ، فلأنه قد تقدم ذكر الغيبة في قوله « للذين يتقون » والتقدير أفلا يعقل الذين يتقون ان الدار الآخرة خير لهم من هذه الدار فيعملوا بما ينالون به من النعيم الدائم . ومن قرأ بالتاء قصد خطاب جميع الخلق المواجهين به .

والعقل هو الامساك عن القبيح وقصر النفس وحبسها على الحسن والحجا أيضا احتباس وتمكث ، قال الشاعر :

فهن يعكفن به اذا حجا (١)

وانشد الاصمعي

حيث يحجا مطرق بالفالق (٢)

حجا أقام بالمكاره ، والحجا مصدر كالشبع ، ومنه الحجيا اللغز للتمكث الذي يلقى عليه حتى يستخرجها . قال أبو زيد : جمع حجى حجيات ، فجاءت الحجيا مصغرة كالثريا والجديا ، والنهى يحتمل أن يكون جمعا بدلالة قوله « لاولي النهى » (٣) لانه اضافه الى الجمع . ويجوز ان يكون مفردا في موضع الجمع ، وهو في معنى ثبات ، وحسن . ومنه النهي ، والنهي والتنهية للمكان الذي ينتهي اليه الماء فينتقع فيه لتسفله ويمنعه ارتفاع ما حوله من أن يسيح فيذهب على وجه الارض .

قوله تعالى :

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ

(١) قائله العجاج . اللسان (حجا) وعجزه (عكف النبيط يلعبون الفنزجا)
(٢) قائله عمار بن أيمن الرياني . اللسان (حجا) .
(٣) سورة ٢٠ طه آية ٥٤ ، ١٢٨ .

وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) آية بلا خلاف •

قرأ نافع والكسائي والاعشى الا النفار « لا يكذبوك » بسكون الكاف وتخفيف الدال ، وهو المروي عن علي (ع) وعن ابي عبد الله (ع) • الباقون بفتح الكاف وتشديد الذال من التكذيب • وقرأ نافع « انه ليحزنك » بضم الياء وكسر الزاي • الباقون بفتحها وضم الزاي • قال أبو علي الفارسي (فعل، وفعلته) جاء في حروف ، والاستعمال في (حزنته) أكثر من (أحزنته) فالي كثرة الاستعمال ذهب عامة القراء • وقال تعالى « اني ليحزنني أن تذهبوا به » (١) ويقال حزن يحزن حزنا وحزنا ، قال تعالى « ولا تحزن عليهم » (٢) ثم قال : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٣) قال سيبويه : قالوا (حزن الرجل ،وحزنته) قال وزعم الخليل : أنك حيث قلت (حزنته) لم ترد ان تقول جعلته حزينا كما أنك حيث قلت أدخلته اردت جعلته داخلا ، ولكنك أردت ان تقول جعلت فيه حزنا كما قلت كحلته أي جعلت فيه كحلا ، ودهنته جعلت فيه دهنا ، ولم يرد بـ (فعلته)هذا تعدية قوله حزن ، ولو أردت ذلك لقلت احزنته ومثل ذلك ستر الرجل وسترت عليه ، فاذا اردت تغيير ستر الرجل قلت أسترت كما تقول فزع وافزعته •

وحجة نافع أنه اراد تغيير (حزن) فنقله بالهمزة • وقال الخليل : اذا أردت تغيير (حزن) قلت (أحزنته) فدل ذلك على أن (أحزن) مستعمل وان كان (حزّنته) اكثر • وحكى أبو زيد : أحزنني الامر احزانا ، وهو يحزنني ،ضموا الياء • وقال سيبويه : قال بعض العرب : افنيت الرجل وأحزنته وارجعته واعورت عينه ، أي جعلته حزينا وفانيا ، فغيروا ذلك كما فعلوا بالباب الاول •

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٣
(٢) سورة ١٥ الحجر آية ٨٨ والنحل ١٦ آية ١٢٧ والنمل ٢٧ آية ٧٠
(٣) سورة ٢ البقرة آية ٣٨ ، ٦٢ ، ١١٢ ، ٢٦٢ ، ٢٧٤ ، و ٥ المائدة آية ٧٢ و ٦ الانعام آية ٤٨ و ٧ الاعراف آية ٣٤ و ١٠ يونس آية ٦٢ وغيرها •

وقوله « قد نعلم انه » انما كسرت الهمزة ، لان في خبرها لاما للتأكيد .

لما علم الله تعالى أن النبي (ص) يحزنه تكذيب الكفار له وجحدهم نبوته سلاه عن ذلك بأن قال « فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون»

ومن قرأ بالتخفيف قال : معناه لايلفونك كاذبا ، كما يقولون : سألته فما ابخلته ، وقاتلته فما أجبنته أي ما وجدته بخيلا ولا جبانا . وقال أبو عبدالله(ع) معنى « لايكذبونك » لا يأتون بحق يبطلون به حقك . وقال الفراء : معنى التخفيف لايجعلونك كذابا ، وانما يريدون أن ما جئت به باطل ، لانهم لم يفتروا عليك كذبا ، فيكذبوا لانهم لم يعرفوه (ص) وانما قالوا : أن ما جئت به باطل لانعرفه من النبوة ، فأما التكذيب بأن يقال له كذبت ، وقال بعض اهل اللغة : هذا المعنى لا يجوز ، لانه لا يجوز أن يصدقوه ويكذبوا ما جاء به ، وهو ان الله ارسلني اليكم وأنزل عليّ هذا الكتاب وهو كلام ربي . ومن قرأ بالتشديد احتمل وجوها :

احدها ــ انهم لايكذبونك بحجة يأتون بها أو برهان يدل على كذبك ، لان النبي (ص) اذا كان صادقا فمحال أن يقوم على كذبه حجة ، ولم يرد أنهم لايكذبونه سفها وجهلا به .

والثاني ــ أنه اراد فانهم لايكذبونك بل يكذبوني لان من كذب النبي (ص) فقد كذب الله ، لان الله هو المصدق له كما يقول القائل لصاحبه: فلان ليس يكذبك ، وانما يكذبني دونك ، يريد ان تكذيبه اياك راجع الى تكذيبي ، لاني أنا المخبر لك وانت حاك عني .

وثالثها ــ ان يكون اراد أنهم لاينسبونك الى الكذب لانك كنت معروفا عندهم بالامانة والصدق فانه (ص) كان يدعى فيهم الامين قبل الوحي ،وكان معروفا بينهم بذلك لكنهم لما أتيتهم بالآيات جحدوها بقصدهم التكذيب بآيات الله وجحدها لا لتكذيبك ، قال أبو طالب :

ان ابن آمنة الامين محمدا

ورابعها ــ ان تكون الآية مخصوصة بقوم معاندين كانوا عارفين بصدقه ولكنهم يجحدونه عنادا وتمردا • وقال الحسن : معناه « نعلم انه ليحزنك الذي يقولون » انك ساحر وانك مجنون فانهم لا يكذبونك ، لان معرفة الله في قلوبهم بانه واحد « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » •

وخامسها ــ قال الزجاج : لا يكذبونك ، لا يقدرون أن يقولوا لك فيما انبأت به بما في كتبهم كذبت • قال أبو علي : يجوز ان يكون المعنى ــ فيمن ثقل ــ قلت له كذبت ، مثل زنّيته وفسّقته اذا نسبته الى الزنا والفسق • و(فعلت) جاء على وجوه نحو خطأته أي نسبته الى الخطأ ، وسقيته ورعيته ، أي قلت له سقاك الله ورعاك ، وقد جاء في هذا المعنى أفعلته ، قالوا : أسقيته ، أي قلت له سقاك الله ، قال الشاعر :

وأسقيته حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه (١)

فيجوز على هذا أن يكون معنى القراءتين واحدا ، وان اختلف اللفظان ، كما تقول : قللت وكثرت وأقللت وأكثرت بمعنى واحد حكاه سيبويه ، وقال الكميت :

فطائفــة قد اكفروني بحبــــكم وطائفة قالوا مسيىء ومذنب (٢)

وحكى الكسائي عن العرب أكذبت الرجل اذا أخبرت انه جاء بكذب ، وكذبته اذا اخبرت انه كذاب بقوله كذبته اذا أخبرت انه جاء بكذب ، كقولهم : اكفرته اذا نسبوه الى الكفر ، وكذبته اخبرته أنه كذاب مثل فسقته اذا اخبرت انه فاسق •

وقوله « ولكن الظالمين » يعني هؤلاء الكفار « بآيات الله » يعني القرآن والمعجزات يجحدون ذلك بغير حجة ، سفها وجهلا وعنادا •

---

(١) مقاييس اللغة ١ : ١٧٢ •
(٢) قد مر هذا البيت في ١ : ١١٦ •

قوله تعالى :

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) آية بلاخلاف .

سلى الله تعالى بهذه الآية نبيه (ص) بان اخبر ان الكفار قد كذبوا رسلا من قبلك ، وصبر الرسل على تكذيبهم وعلى ما نالهم من أذاهم ، وتكذيب الكفار لهم ، حتى اذا جاء نصر الله اياهم على المكذبين ، فمنهم من نصرهم عليهم بالحرب ومكنهم من الظفر بهم حتى قتلوهم ، ومنهم من نصرهم عليهم بان أهلكهم واستأصلهم كما أهلك عادا وثمودا وقوم نوح ولوط ، وغيرهم .

فأمر الله نبيه (ص) بالصبر على كفار قومه وأذاهم الى ان يأتيه نصره كما صبرت الانبياء . وقوله « لا مبدل لكلمات الله » معناه لا أحد يقدر على تكذيب خبر الله على الحقيقة ، ولا على إخلاف وعده فان ما أخبر الله به ان يفعل بالكفار ، فلابد من كونه لا محالة ، وما وعدك به من نصره فلابد من حصوله ، لانه لايجوز الكذب فى اخباره ، ولا الخلف في وعده . وقيل : معناه انه لا مبطل لحججه وبراهينه ولا مفسد لادلته .

وقوله « ولقد جاءك من نبأ المرسلين » معناه انه لاتبديل لخبر الله ولاخلف لذلك ولا تكذيب ، وان ما أخبر الله به ان ينزله بالكفار فانه سيفعل بهم كما فعل بأمم من تقدم من الانبياء الذين أنزل الله عليهم العذاب واستأصلهم بتكذيبهم أنبياءهم وعرفك أخبارهم على صحتها .

قوله تعالى :

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) آية بلا خلاف

خاطب الله تعالى بهذه الآية نبيه (ص) فقال له «ان كان كبر عليك» وعظم عندك « اعراضهم » أي اعراض هؤلاء الكفار عما أتيتهم به من القرآن والمعجزات وامتناعهم من اتباعك والتصديق لك وكنت حزينا لذلك « فان استطعت » وقدرت أو تهيأ لك ان تبتغي نفقا ان تتخذ في جوف الارض مسكنا وهو النفق « في الارض » اذا كان له منفذ « أو سلما في السماء» أو ان تصعد الى السماء بسلم « فتأتيهم بآية » يعني بآية تلجئهم الى الايمان وتجمعهم عليه وعلى ترك الكفر فافعل ذلك . وحذف فافعل لدلالة الكلام عليه ، كما تقول : ان رأيت ان تقوم ومعناه فقم ، وان أراد غير ذلك لم يجز ان يسكت الا بعد ان يأتي بالجواب ، لانه ان اراد ان أردت ان تقوم تصب خيرا فلابد من الجواب ، ولم يرد بذلك آية يؤمنون عندها مختارين ، لانه تعالى فعل بهم الآيات التي تزاح علتهم بها ويتمكنون معها من فعل الايمان لانه لو علم تعالى أنه اذا فعل بهم آية من الآيات يؤمنون عندها مختارين وجب ان يفعلها بهم . وبيّن انه فعل بهم جميع مالا ينافي التكليف وهم لا يؤمنون كما قال « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة » (١) الآية ، وكما قال «ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما اتبعوا قبلتك» (٢) وانما لم يفعل ما يلجئهم الى الايمان ، لان ذلك ينافي التكليف ويسقط استحقاق الثواب الذي هو الغرض بالتكليف ، وانما أراد الله تعالى ان يبين لنبيه (ص) انه لا يستطيع هذا ولا يقدر عليه ، فلا ينبغي ان يلزم نفسه الغم والجزع لكفرهم واعراضهم عن الايمان والتصديق به ، وجعل ذلك عزاء لنبيه (ص) وتسلية له

ثم اخبر انه لو شاء ان يجمعهم على الايمان على وجه الالجاء لكان على ذلك قادرا لكنه ينافي ذلك الغرض بالتكليف ، وجرى ذلك مجرى قوله « ان

(١) سورة ٦ الانعام آية ١١١ (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٤٥

نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين » (٣) فانه أراد بذلك الاخبار عن قدرته وانه لو شاء الجاءهم الى الايمان لكان عليه قادرا . ولا يدل ذلك على أنه لم يشأ منهم الايمان على وجه الاختيار منهم أو لم يشأ ان يفعل ما يؤمنون عنده مختارين ، لان الله تعالى قد شاء منهم الايمان على هذا الوجه وانما أفاد نفي المشيئة لما يلجئهم الى الايمان ، لانه متى ألجأهم اليـــه لم يكن ذلك ايمانا يستحق عليه الثواب ، والغرض بالآية ان يبين تعالى ان الكفار لم يغلبوا الله بكفرهم ولا قهروه بخلافه وانه لو أراد أن يحول بينهم وبينه لفعل، لكنه يريد ان يكون ايمانهم على وجه يستحقون به الثواب ،ولاينافي التكليف .

وقوله « فلا تكونن من الجاهلين » انما هو نهي محض عن الجهل ولا يدل ذلك على ان الجهل كان جائزا منه (ص) بل يفيد كونه قادرا عليه ، لانه تعالى لا يأمر ولا ينهى الا بما يقدر المكلف عليه ، ومثله قوله « لئن اشركت ليحبطن عملك » (٤) وان كان الشرك لايجوز عليه لكن لما كان قادرا عليه جاز أن ينهاه عنه . والمراد هاهنا فلا تجزع ولا تحزن لكفرهم واعراضهم عن الايمان ، وانهم لم يجمعوا على التصديق بك فتكون في ذلك بمنزلة الجاهلين الذين لايصبرون على المصائب ، ويأثمون لشدة الجزع .

والنفق : الطريق النافذ في الارض والنافقاء ممدودا وجر حجر اليربوع يحفره من باطن الارض الى جلدة الارض فاذا بلغ الجلدة أرقها فاذا رابه ريب وقع برأسه هذا المكان وخرج منه ، ومنه سمي المنافق منافقا لانه أبطن غير ما أظهر ، والسلم مشتق من السلامة لانه يسلمك الى مصعدك .

قوله تعـــالى :

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) آية بلاخلاف .

(٣) سورة الشعراء آية ٤ (٤) سورة ٣٩ الزمر آية ٦٥

الوقف عند قوله « الذين يسمعون » ومعنى الآية انما يستجيب الى الايمان بالله وما أنزل اليك من يسمع كلامك ويصغي اليك ، والى ما تقرأ عليه من القرآن وما تبين له من الحجج والآيات ويفكر في ذلك لانه لا يتبين الحق من الباطل الا لمن تفكر فيه واستدل عليه بما يستمع أو يعرف من الآيات والادلة على صحته ، وجعل من لم يتفكر ولم ينتفع بالآيات بمنزلة من لم يستمع كما قال الشاعر :

لقد اسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي(١)

وكما جعله الشاعر بمنزلة الاصم في قوله :

اصم عما ساءه سميع (٢)

وقوله « والموتى يبعثهم الله » معناه ان الذين لا يصغون اليك من هؤلاء الكفار ولا يسمعون كلامك ان كلمتهم ، ولا يسمعون ما تقرأه عليهم وتبينه لهم من حجج الله وآياته ، وينفرون عنه اذا كلمتهم بمنزلة الموتى ، فكما ان الموتى لايستجيبون لمن يدعوهم الى الحق والايمان ،فكذلك هؤلاء الكفار لايستجيبون لك اذا دعوتهم الى الايمان، فكما آيست ان يسمع الموتى كلامك الى ان يبعثهم الله والى ان يرجعوا اليه ، فكذلك فآيس من هؤلاء أن يسمعوا كلامك وأن يستجيبوا لك • وبين أن الموتى اذا بعثهم الله بمعنى أحياهم انهم يرجعون بعد الحشر والبعث الى الموضع الذي لايملك الحكم فيه عليهم غير الله تعالى ، ولا يملك محاسبتهم وضرهم ونفعهم غيره ، فجعل رجوعهم الى ذلك الموضع رجوعا الى الله وذلك مستعمل في اللغة •

وقال مجاهد : « انما يستجيب الذين يسمعون » يعني المؤمنين يسمعون الذكر « والموتى يبعثهم الله » يعني المشركين الصم يبعثهم الله فيحييهم من شركهم حتى يؤمنوا « ثم الينا يرجعون » يوم القيامة •

---

(١) مر هذا البيت في ١ : ٦٤ وهو مشهور •

(٢) انظر ٢ : ٨٠ •

قوله تعالى :

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) .

قرأ ابن كثير « ينزل » بالتخفيف . الباقون بالتشديد .

ومعنى « وقالوا » اخبار عما قاله الكفار من انهم قالوا «لولا» ومعناه : هلا « أنزل عليه آية » يعني الآية التي سألوها واقترحوا أن يأتيهم بها من جنس ما شاءوا لما قالوا « فليأتنا بآية كما أرسل الاولون » (١) يعنون فلق البحر واحياء الموتى . وانما قالوا ذلك حين أيقنوا بالعجز عن معارضته فيما أتى به من القرآن ، فاستراحوا الى أن يلتمسوا مثل آيات الاولين ، فقال الله تعالى « أو لم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب » (٢) وقال هاهنا قل يا محمد « ان الله قادر على ان ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون » ما في إنزالها من وجوب الاستئصال لهم اذا لم يؤمنوا عند نزولها . وما في الاقتصار بهم على ما أوتوا من المصلحة لهم . وبين في آية أخرى انه لو أنزل عليهم ما أنزل لم يؤمنوا ، وهو قوله « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة » الى قوله : « ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله » (٣) ان يكرههم . وقال « وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون » (٤) يعني الآيات التي اقترحوها انما لم نأتهم بها ، لانا لو أتيناهم بها ولم يؤمنوا وجب استئصالهم ، كما وجب استئصال من تقدمهم ممن كذب بآيات الله . وقال في سورة العنكبوت « وقالوا لا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب » (٥) الآية . فبين ان الآيات لا يقدر عليها الا الله ، وقد أتاهم بما فيه

---

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٥

(٢) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٥١ (٣) سورة ٦ الانعام آية ١١١

(٤) سورة ١٧ الاسرى آية ٥٩ (٥) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٥٠ ـ ٥١

كفاية وإزاحة لعلتهم وهو القرآن ، وغيره مما شاهدوه من المعجزات والآيات، ولا يلزم اظهار المعجزات بحسب اقتراح المقترحين ، لانه لو لزم ذلك لوجب اظهارها في كل حال ولكل مكلف وذلك فاسد •

وقد طعن قوم من الملحدين ، فقالوا : لو كان محمد قد أتى بآية لما قالوا له « لولا أنزل عليه آية » ولما قال « ان الله قادر على ان ينزل آية » •

قيل : قد بينا أنهم التمسوا آية مخصوصة وتلك لم يؤتوها وان كان الله تعالى قادرا عليها ،وانمالم يؤتوهالان المصلحةمنعتمن انزالها، وانمااتىبالآيات الاخر التي دلت على نبوته من القرآن وغيره على ما اقتضته المصلحة ، ولذلك قال فيما تلوناه « أو لم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب» فبين ان في انزال الكتاب كفاية ودلالة على صدقه وانه لا يحتاج معه الى أمر آخر فسقط ما قالوه •

قوله تعالى :

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)

آية بلا خلاف •

الوقف عند قوله « أمم أمثالكم » وقف تام •

ابتدأ الله تعالى بهذه الآية فأخبر بشأن سائر الخلق • وبازاحة علة عباده المكلفين في البيان ليعجب عباده في الآية التي بينها من الكفار وذهابهم عن الله تعالى فقال : « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه » فجمع جميع الخلق بهذين اللفظين،لان جميع الحيوان لا يخلو من أن يكون ممايطيربجناحيه أو يدب «الا امم أمثالكم» أي هم اجناس واصناف كل صنف يشتمل على العدد الكثير والانواع المختلفة وان الله خالقها ورازقها ، وانه يعدل عليها فيما يفعله، كماخلقكم ورزقكم وعدل عليكم،وان جميعها دالة وشاهدة على مدبرها وخالقها واتم بعد ذلك تموتون والى ربكم تحشرون • فبين بهذه العبارة أنه لا ينبغي

لهم ان يتعدوا في ظلم شيء منها ، فان الله خالقها وهو الناهي عن ظلمها والمنتصف لها .

وفي قوله : « يطير بجناحيه » أقوال : احدها ـ ان قوله بجناحيه تأكيد كما يقولون : رأيت بعيني ، وسمعت باذني ، وربما قالوا : رأت عيني وسمعت اذني ، كل ذلك تأكيد . وقال الفراء : معنى ذلك انه اراد ما يطير بجناحيه دون ما يطير بغير جناحين ، لانهم يقولون قد مر الفرس يطير طيرا وسارت السفينة تطير طيرا ، فلو لم يقل (بجناحيه) لم يعلم انه قصد الى جنس ما يطيربجناحيه دون سائر ما يطير بغير جناحين . وقال قوم : انما قال «بجناحيه» لان السمك عند اهل الطبع طائر في الماء ، ولا أجنحة لها ، وانما خرج السمك عن الطائر ، لانه من دواب البحر ، وانماأراد ما فى الارض وما في الجو ، ولا حيوانموجود غيرهما . وقال قوم : انما قال ذلك ليدل على الفرق بين طيران الطيوربأجنحتها وبين الطيران بالاسراع تقول : طرت في جناحين، اذا أسرعت، قال الشاعر :

فلو أنها تجري على الارض أدركت ولكنها تهفوا بتمثال طائر

وانشد سيبويه :

فطرت بمنصلي في يعملات دوام الايد يخبطن السريحا (١)

وقال المغربي : أراد ان يفرق بين الطائر الذي هو الفائز الفالجفيالقسم ، وقال مزاحم العقيلي :

وطير بمخراق أشم كأنه سليل جياد لم تنله الزعانف (٢)

أي فوزي واغنمي. وقوله: « ما فرطنا في الكتاب من شيء » قيل «مافرطنا» معناه ما تركنا . وقيل : ما قصرنا . وفي الكتاب قولان :

احدهما ـ انه أراد الكتاب المحفوظ عنده من أجال الحيوان وأرزاقه وآثاره ليعلم ابن آدم ان عمله اولى بالاحصاء والاستقصاء ، ذكره الحسن .

الثاني ـ ما فرطنا في القرآن من شيء يحتاج اليه في أمور الدين والدنيا

(١ ، ٢) اللسان (طير) .

الا وقد بيناه اما مجملا أو مفصلا ، فما هو صريح يفيد لفظا ، وما هو مجمل بيّنه على لسان نبيه وأمر باتباعه في قوله « وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا » (١) ودل بالقرآن على صدق نبوته ووجوب أتباعه ، فاذاً لا يبقى أمر من امور الدين والدنيا الا وهو في القرآن ـ وهذا الوجه اختاره الجبائي ـ وقال البلخي : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » أي لم ندع الاحتجاج بما يوضح الحق ويدعو الى الطاعة والمعرفة ويزجر عن الجهل والمعصية ، وتصريف الامثال وذكر أحوال الملائكة وبني آدم وسائر الخلق من أصناف الحيوان ٠ وكل جنس من الحيوان أمة ، لان الامة الجماعة ويقال للصبيان : أمة وان لم يجب عليهم التكليف ٠

وقوله تعالى : « ثم الى ربهم يحشرون » معناه يحشرون الى الله بعد موتهم يوم القيامة كما يحشر العباد ، فيعوض الله تعالى ما يستحق العوض وينتصف لبعضها من بعض ، فاذا عوضهما ، قال قوم : انها تصير ترابا فحينئذ يتمنى الكافر فيقول « ياليتني كنت ترابا » (٢) وقال قوم : يديم الله أعواضها ويخلقها على أحسن ما يكون من الصور فيسر بها المثابون ويكون ذلك من جملة ما ينعمون به ، ذكره البلخي ٠ وقال قوم : « يحشرون » معناه يموتون ويفنون وهذا بعيد ، لان الحشر في اللغة هو بعث من مكان الى غيره ، وهاهنا لا معنى للحشر الذي هو الفناء وانما معناه انهم يصيرون الى ربهم ويبعثون اليه ٠

واستدل قوم من التناسخية بهذه الآية على ان البهائم والطيور مكلفة ، لانه قال « أمم امثالكم » وهذا باطل ، لانا قد بينا من أي وجه قال : انها «أمم امثالكم » ولو وجب حملها على العموم لوجب ان تكون أمثالنا في كونها ناسا وفي مثل صورنا واخلاقنا ، فمتى قالوا لم يقل امثالنا في كل شيء ، قلنا : وكذلك الامتحان والتكليف ، على انهم مقرون بان الاطفال غير مكلفين ولا ممتحنين ، فما يحملون به أمتحان الصبيان بعينه نحمل بمثله امتحان البهائم ، وكيف يصح

(١) سورة ٥٩ الحشر آية ٧ (٢) سورة ٧٨ النبأ آية ٤٠

تكليف البهائم والطيور وهي غير عاقلة ٠ والتكليف لايصح الا لعاقل ، على ان الصبيان أعقل من البهائم ومع هـذا فليسوا مكلفين ، فكيف يصح تكليف البهائم ؟! واما قوله : « وان من أمة الا خلا فيها نذير » (١) فانه مخصوص بالمكلفين العقلاء من البشر والجن ، والملائكة بدلالة أن الاطفال أمم وليس فيها نذير، واستدل ابو القاسم البلخي بهذه الآية على ان العوض دائم بان قال : بيّن الله تعالى انه يحشر الحيوان كلها ويعوضها ، فلو كان العوض منقطعا لكان اذا أماتها استحقت اعواضا أخر على الموت وذلك يتسلسل ، فدل على انه دائم وهذا ليس بشيء ، لانه يجوز ان يميت الله الحيوان على وجه لايدخل عليهم الالم ، فـلا يستحقون عوضا ثانيا ، فالاولى ان يقول : ان دام دام تفضـلا منه تعالى ٠

وقوله « ولا طائر » فانه جرّ ، عطف على دابة وتقديره ولا من طائر ، وكان يجوز ان يقرأ بالرفع حملا على المعنى ، كما تقول : ما جاءني من رجل ولا امرأة ، وتقديره ما جاءني رجل ولا امرأة ومثله قوله « ولا اصغر من ذلك ولا أكبر » (٢) في موضع بالنصب وفى موضع آخر بالرفع على ما قلناه ٠

قوله تعـالى :

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) آية بلاخلاف ٠

الوقف التام عند قوله « في الظلمات » ٠ وقوله « صم وبكم في الظلمات» يحتمل امرين :

احدهما ـ ان يراد ان هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآيات الله صم وبكم في الظلمات فى الآخرة على الحقيقة عقوبة لهم على كفرهم ، لانه ذكرهم عند ذكر الحشر ٠

---

(١) سورة ٣٥ فاطر آية ٢٤
(٢) سورة ١٠ يونس آية ٦١ وسورة ٣٤ سبأ آية ٣

والثاني ــ ان يكون عنى انهم صم وبكم في الظلمات في الدنيا • فمتى أريد الاول كان ذلــك حقيقة ، لانه تعالى لا يمتنع ان يجعلهم صما بكما في الظلمات ، يضلهم بذلك عن الجنة وعن الصراط الذي يسلكه المؤمنون اليهــا ويصيرهم الى النار • وان أريد به الوجه الثاني ، فانه يكون مجازا وتوسعا • وانما شبههم بالصم والبكم الذين في الظمات ،لان المكذبين بآيات الله لايهتدون الى شيء مما ناله المؤمنون من منافع الدين ولا يصلون الى ذلك ، كما أن الصم البكم الذين في الظلمات لايهتدون الى شيء من منافع الدنيا ولا يصلون اليها، فتشبيههم من هذا الوجه بالصم البكم •

وقال البلخي « صم وبكم في الظلمات » معناه في الجهل والشرك والكفر

وقوله « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم »لايجوز ان يكون على عمومه ، لانا قــد علمنا ان الله تعالى لايشاء ان يضل الانبياء والمؤمنين ولا يهدي الكافرين ، لكن قد بين تعالى في موضع آخر من الذي يشاء ان يضله ، فقال « وما يضل به الا الفاسقين » (١) وقال « ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » (٢) وقال « والذين اهتدوا زادهم هدى » (٣) وقال : « يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام »(٤) وقال « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » (٥) •

وقوله « ومن يشأ الله يضلله » هاهنا يحتمل امرين :

احدهما ــ « من يشأ الله يضلله » أي من يشأ يخذله بأن يمنعه ألطافــه وفوائده ، وذلك اذا واتر عليه الادلة وأوضح له البراهين فأعرض عنها ولم يمعن النظر فيها ، فصار كالاصم الاعمى ، فحينئذ يشاء أن يضله بان يخذله •

والثاني ــ من يشأ الله اضلاله عن طريق الجنة ، ونيل ثوابها يضلله على

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٦ ــ(٢) سورة ١٤ ابراهيم آية ٢٧
(٣) سورة ٤٧ محمد آية ١٧ (٤) سورة ٥ المائدة آية ١٨
(٥) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٦٩ •

وجه العقوبة « ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » ومعناه من يشأ ان يرحمه ويهديه الى الجنة ونيل الثواب يجعله على الصراط الذي يسلكه المؤمنون الى الجنة ، ويعدل الكافرين عنه الى النار ولا يلحق الاضلال الا الكفار والفساق المستحقين للعقاب وكذلك لا يفعل الثواب والخلود في الجنة الا بالمؤمنين ،لانه ثواب لا يستحقه سواهم .

قوله تعالى :

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ ٱللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) آيتان بلا خلاف

قرأ الكسائي وحده « أريتكم » وما جاء منه اذا كان استفهاما بحذف الهمزة التي بعد الراء . والباقون باثباتها ، وتخفيفها الا أهل المدينة ، فانهم جعلوها بين بين ، فان كان غير استفهام اتفقوا على اثبات الهمزة وتخفيفها الا ما رواه ورش في تحقيقها في ستة مواضع ذكرت في باب الهمزة في القراءات . من حقق الهمزة ، فلانه (فعلت) من الرؤية ، فالهمزة عين الفعل ، ومن خفف فانه جعلها بين بين ، وهذا التخفيف على قياس التحقيق ، ومن حذف الهمزة فعلى غير مذهب التخفيف ، لان التخفيف القياس فيها أن تجعل بين بين ، كما فعل نافع ، وهذا حذف ، كما قالوا ، ويلمه ، وكما أنشد احمد بن يحيى :

ان لم أقاتل فالبسوني برقعا

وقال ابو الاسود :

يابا المغيرة رب أمر معضل

وذكر أن عيسى كذلك كان يقرأها ويقوي ذلك قول الراجز :

أريت ان جاءت به أملودا مرجّــلا ويلبس البرودا

وقال الفراء : العرب لها في (أرأيت) لغتان :

احدهما ـ ان يسأل الرجل الرجل أرأيت زيدا بعينك ؟ فهذه مهموزة ، فاذا أوقعتها على الرجل منه قلت : أرأيتك على غير هذه الحال تريد هل رأيت نفسك على غير هذه الحال ثم يثنى ويجمع ، فتقول للرجلين أرايتما كما ، وللقوم أرايتموكم ،وللنسوة أرأيتنكن ، وللمرأة أرأيتك بخفض التاء ولايجوز إلا ذلك .

والآخر ـ ان تقول ارأيتك ، وانت تريد اخبرني ، فتهمزها وتنصب التاء منها وتترك الهمز ان شئت ، وهو اكثر كلام العرب ، وتترك التاء مفتوحة للواحد ،وللجمع مؤنثه ومذكره ، تقول للمرأة :أرايتك زيدا ، وللنساءأرايتكن زيدا ما فعل . وانما تركت العرب التاء ولحدة لانهم لم يريدوا أن يكون الفعل منها واقعا على نفسها ، فاكتفوا بذكرها في الكاف ووجهوا التاء الى المذكر والتوحيد ، اذا لم يكن الفعل واقعا على نفسها .

واختلفوا في هذه الكاف ، فقال الفراء : موضعها نصب وتأويلها رفع ، مثل قولك : دونك زيدا ،فموضع الكاف خفض، ومعناه الرفع ، لان المعنى خذ زيدا . قال الزجاج : هذا خطأ ولم يقله أحد قبله ، قال : لان قولك أرايتك زيدا ما شأنه يصير أرايت قد تعدت الى الكاف والي زيد ، فنصب أرايت اسمين فيصير المعنى : أرايت نفسك زيدا ما حاله . وهذا محال . قال والصحيح الذي عليه النحويون ان الكاف لا موضع لها والمعنى أرايت زيدا ما حاله ، والكاف زيادة في بيان الخطاب ، وهو المعتمد عليه في الخطاب ولذلك تكون التاء مفتوحة في خطاب المذكر والمؤنث والواحد والجمع . فنقول للرجل أرايتك زيدا ماحاله بفتح التاء والكاف وللمرأة أرايتك بفتح التاء وكسر الكاف ، لانها صارت آخر ما في الكلمة ، وللاثنين أرايتكما ، وللجمع أرايتكم ، فتوحد التاء ، فكما وجب ان توحدها في التثنية والجمع ، كذلك وجب ان تذكرها مع المؤنث ، فان عديت الفاعل الى المفعول في هذا الباب صارت الكاف مفعوله تقول : رأيتني عالما بفلان ، فإذاسألت علي هذاالشرط قلت للرجل : أريتك عالما؟ وللاثنين أرأيتماكما

وللجمع أرأيتموكم ، لان هـذا في تأويل أرأيتم أنفسكم ، وللمرأة ارأيتك ، وللثنتين أرايتما كما ، وللجماعة أرايتنكن ، فعلى هذا قياس هذين البابين .

قال ابو علي الفارسي : لايخلو ان يكون الكاف للخطاب مجردا ، ومعنى الاسم مخلوعا منه أو يكون دالا على الاسم مع دلالته على الخطاب ، والدليل على انه للخطاب مجردا من علامة الاسم أنه لوكان اسما وجب ان يكون الاسم الذي بعده في نحو قوله «أرايتك هذا الذي كرمت علي » (١) وقولهم :أريتك زيدا ما صنع هو الكاف في المعنى ، ألا ترى ان (رأيت) يتعدى الى مفعولين يكون الاول منهما هو الثاني في المعنى واذا لم يكن المفعول الذي بعـده هو الكاف في المعنى ، وإنما هو غيره وجب ان يدل ذلك على أنه ليس باسم، واذ لم يكن اسما كان حرفا للخطاب مجردا من معنى الاسمية ، كما أن الكاف في (ذلك وهنالك) للخطاب ومثله التاء في (أنت) لانه للخطاب معرى من معنى الاسم فاذا ثبت انه للخطاب معرى من معنى الاسماء ثبت ان التاء لايجوز أن تكون بمعنى الخطاب ألا ترى أنه لاينبغي ان يلحق الكلمة علامتان للخطاب ، كما لايلحقها علامتان للتأنيث ،ولا علامتان للاستفهام ، فلما لم يجز ذلك افردت التاء في جميع الاحوال لما كان الفعل لابد له من فاعل وجعل في جميع الاحوال على لفظ واحد ، لان ما يلحق الكاف من معنى الخطاب يبين الفاعلين،لتخصيص التأنيث من التذكير والتثنية من الجمع ، فلو لحق علامة التأنيث والجمع التاء لاجتمع علامتان للخطاب بما كان يلحق التاء وما يلحق الكاف وذلك يؤدي الى ما لانظير له فرفض لذلك .

أمر الله تعالى نبيه (ص) بهذه الآية ان يقول لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الاصنام « أرايتكم ان أتاكم عذاب الله » كما اتى الكافرين من قبلكم كعـاد وثمود ، وغيرهم « أواتتكم الساعة » وهي القيامة . قال الزجاج : الساعة اسم للوقت الذي يصعق فيه العباد واسم للوقت الذي تبعث فيه ، والمعنى أرأيتكم

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٦٢ .

الساعة التي وعدتم فيها بالبعث والفناء ، لان قبل البعث يموت الخلق كلهم ، اتدعون فيها ــ لكشف ذلك عنكم ــ هذه الاوثان التي تعلمون أنها لا تقدر أن تنفع أنفسها ولا غيرها ؟ ! أو تدعون لكشف ذلك عنكم الله تعالى الذي هو خالقكم ومالككم ومن يملك ضركم ونفعكم ؟ ودلهم بذلك على انه لاينبغي لهم ان يعبدوا مالايملك لهم نفعا ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرا وان يعبدوا الله وحده الذي هو خالقهم ومالكهم والقادر على نفعهم وضرهم .

وقوله « ان كنتم صادقين » يعني في ان هذه الاوثان آلهة لكم ، فبين الله لهم بذلك انها ليست آلهة وانهم في هذا القول غير صادقين .

وقوله « بل اياه تدعون » معنى (بل) استدراك وايجاب بعد نفي تقول ما جاءني زيد بل عمرو . واعلمهم الله تعالى انهم لا يدعون في حال الشدائد الا إياه ، لانه إذا لحقهم الشدائد والاهوال في البحار والبراري القفار ، التجؤا فيه اليه وتضرعوا لديه ، كما قال « وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين » (١) وفي ذلك أعظم الحجج عليهم ، لانهم عبدوا الاصنام .

وقوله « فيكشف ما تدعون اليه ان شاء » معناه يكشف الضر الذي من اجله دعوتم ، وهو مجاز كقوله « واسأل القرية » ومعناه واسأل اهل القرية .

وقوله « وتنسون ما تشركون » معنى تنسون يحتمل امرين :

احدهما ــ ان يكون بمعنى ما تشركون بالله .

الثاني ــ أنكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من نسيهم ، وهذا الذي أحتج الله به على الكفار دلالة على صحة الاحتجاج في الدين على كل من خالف الحق ، لانه لو كان الاحتجاج لايجوز ولا يفضي الى الحق لما احتج به على عباده فى كتابه . وانما قال : « ان شاء » لانه ليس كلما يدعون لكشفه يكشفه عنهم بل يكشف ما شاء من ذلك مما تقتضيه المصلحة وصواب التدبر ، وتوجبه الحكمة .

---

(١) سورة ١٠ يونس آية ٢٢ .

والاستثناء راجع الى العذاب دون الساعة ، لانها لاتكشف ولا محيص عنها .

قوله تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ(٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٤٣) آيتان

اعلم الله تعالى نبيه (ص) بهذه الآية انه قد ارسل الرسل قبله الى اقوام بلغوا من القسوة الى ان أخذوا بالشدة في أنفسهم واموالهم ليخضعوا ويذلوا لامر الله لان القلوب تخشع والنفوس تضرع عند ما يكون من أمر الله البأساء والضراء . وقال قوم : البأساء الجوع ، والضراء النقص فى الاموال والانفس. والبأساء : من البأس والخوف والضراء من الضر ، وقد يكون البأساء من البؤس ، فأعلمه الله انه ارسل الى أمم واخذها بالبأساء والضراء، فلم تخشع ولم تضرع . وقال : « لعلهم يتضرعون » ومعناه لكي يتضرعوا . وقيل : معناها الترجي للعباد ، كما قال : « لعله يتذكر او يخشى » (١) . قال سيبويه : المعنى اذهبا أنتما على رجائكما ، والله عالم بما يكون من وراء ذلك .

وقوله « فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا » معناه هلا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا « ولكن قست قلوبهم » أي أقاموا على كفرهم . قال الفراء كلما رأيت في الكلام (لولا) ولم تر بعدها اسما، فهي بمعنى (هلا) ، كقوله :« لو لا اخرتني الى أجل قريب » (٢) و « فلولا أن كنتم غير مدينين » (٣) واذا كان بعدها اسم ، فهي بمعنى (لو) التي تكون في جوابها اللام ، و (لوما) فيها ما في (لولا) من الاستفهام والخبر .

وقد اخبر الله في هذه الآية ان الشيطان هو الذي يزين الكفر للكافر بخلاف

---

(١) سورة ٢٠ طه آية ٤٤ .

(٢) سورة ٦٣ المنافقون آية ١٠ (٣) سورة ٥٦ الواقعة آية ٨٦

ما يقول المجبرة من ان الله هو المزين لهم ذلك ، وفيها حجة على من قال : ان الله لم يرد من الكافر الايمان ، وانه ارسل الرسل بينة عليهم ، وعلى من زعم ان أخذه الكافرين بالبأساء والضراء في الدين ليس لما أراد من صلاحهم ، لانه بين الله انما فعل بهم ذلك ليتضرعوا ، وهذه لام الغرض ، لان الشك لايجوز عليه تعالى « ويتضرعون » معناه يتذللون يقال ضرع فلان لفلان اذا بخع له وسأله أن يعطيه ، وفلان ضارع أي نحيف •

قوله تعالى :

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) آيتان

قرأ ابن عامر وابو جعفر ، وورش « فتحنا » وفي الاعراف « لفتحنا » وفي الانبياء « فتحت » وفى القمر « ففتحنا أبواب السماء » بالتشديد فيهن ، وافقهم روح في الانبياء والقمر • والباقون بالتخفيف فيهن •

ومن ثقل أراد التكثير ، ومن خفف أراد الفعل مرة واحدة •

بين الله تعالى بهذه الآية ان هؤلاء الكفار لما لم ينتفعوا بالبأساء والضراء على ما اقتضت مصلحتهم ، ونسوها أي تركوها فصارت في حكم المنسي ابتليناهم بالتوسعة في الرزق ليرغبوا بذلك في نعيم الآخرة ، وينبهوا عليه ، فيطيعوا ويرجعوا عما هم عليه ، فلما لم ينجع ذلك فيهم ولم يرتدعوا عن الفرح بما أوتوا ، ولم يتعظوا ولم ينفعهم الزجر بالضراء والسراء ، ولا الترغيب بالتوسعة والرخاء احللنا بهم العقوبة بغتة أي مفاجأة من حيث لايشعرون « فاذا هم مبلسون » • قال الزجاج : (المبلس) الشديد الحسرة و (البائس) الحزين • وقال البلخي: معنى مبلسون يعني: أذلة خاضعين• وقال الجبائي : معنى (مبلسون) آيسون، وقال الفراء المبلس : المنقطع الحجة ، قال رؤبة :

وحضرت يوم خميس الاخمـاس وفى الوجوه صفرة وابـلاس (١)

وقال مجاهد : الابلاس السكوت مع اكتآب .

وقوله « كل شيء » المراد به التكثير دون العموم ، وهو مثل قوله «وأوتيت من كل شيء » (٢) وكقول القائل : أكلنا عنده كل شيء ورأينا منه كل خير ، وكما يقال هـذا قول اهل العراق ، واهل الحجاز ، ويراد به قول اكثرهم . وقال تعالى : « ولقد أريناه آياتنا كلها » (٣) وكل ذلك يراد به الخصوص ، وموضوعه التكثير ، والتفخيم . واذا علمنا في الجملة بالعقل ان هذه الآيات مخصوصة ، فلا ينبغي ان يعتقد فيها تخصيص شيء بعينه ، وليس علينا اكثر من ان نعتقد أنهم اوتوا خيرا كثيرا ، وفتح عليهم أبواب أشياء كثيرة كانت متغلقة عليهم ، وليس يلزمنا اكثر من ذلك .

فان قيل الذي يسبق الى القلوب غير ما تأولتم عليه وهو ان الله انما فتح عليهم أبواب كل شيء ليفرحوا ويمرحوا ليستحقوا العقاب .

قلنا : الظاهر وان كان كذلك انصرفنا عنه بدليل ، كما انصرفنا عن قوله : « الرحمن على العرش أستوى » (٤) وعن قوله « وجاء ربك » (٥) وعن قوله: « أأمنتم من في السماء » (٦) فكما يجب ان تترك ظاهر هذه الآيات وان كـان ظاهرها التشبيه فكذلك ترك ما ظاهره يوجب اضافة القبيح اليه وينافى عـدله ويعدل الى ما يليق بحكمته وعدله .

وقوله « فقطع دابر القوم الذين ظلموا » معناه أخـذهم الذي يدبرهم ويدبرهم ، لغتان ـ بضم الباء وكسرها ـ وهو الذي يكون في أعقابهم .

وروي عن أبي عبد الله (ع) انه قال : من الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبريا ـ بضم الدال ـ يعني في آخر الوقت ، هذا قول اصحاب الحديث . وقال

---

(١) مجمع البيان ٢ : ٣٠٠ واللسان (بلس) .
(٢) سورة ٢٧ النمل آية ٢٣ .
(٣) سورة ٢٠ طه آية ٥٦ (٤) سورة ٢٠ طه آية ٥
(٥) سورة ٨٩ الفجر آية ٢٢ (٦) سورة ٦٧ الملك آية ١٦ ، ١٧

أبوزيد الا دبريا بفتح الدال والباء • ثم حمد الله تعالى نفسه بأن استأصل ساقتهم وقطع دابرهم بقوله « والحمد لله رب العالمين » لانه تعالى أرسل اليهم وانظرهم بعدكفرهم وأخذهم بالبأساء والضّرّاء ،والنعمةوالرخاء،فبالغ في الانذار والامهال ، فهو محمود على كل حال •

قوله تعـالى :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) آية بلاخلاف.

روي عن ورش : « به انظر » بضم الهاء ء الباقون بكسرها •

قال ابو علي : من كسر الهاء حذف الياء التي تلحق الهاء في نحو به انظر، لالتقاء الساكنين والالف من (انظر) • ومن قرأ بضم الهاء فهو على قول من قال : « فخسفنا بهو وبدار هو » (١) ، فحذف الواو لالتقاء الساكنين ، كما حذف الياء في (بهي) لذلك ، فصار « به انظر » ومما يحسن هذا الوجه ان الضمة فيه مثل الضمة في (ان أقتلوا) أو (انقص) ونحو ذلك •

وقوله : « أرايتم ان أخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم » ثم قال : « يأتيكم به » قال ابو الحسن هو كناية عن السمع او على ما أخذ منكم وقال الفراء : الهاء كناية عن الهدى •

أمر الله تعالى نبيه (ع) ان يقول لهؤلاء الكفار « أرايتم ان اخـذ الله سمعكم » أي أصمكم ، « وأبصاركم » أي أعماكم ، تقول العرب : أخذ الله سمع فلان وبصره ، أي أصـّمه وأعماه « وختم على قلوبكم » بأن سلب مافيها من العقول التي بها يتهيأ لكم ان تؤمنوا بربكم وتتوبوا من ذنوبكم ووسمها

---

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٨١ •

بسمة من يكون خاتمة امره المصير الى عذاب النار ، فلو فعل بكم ، هل من اله غيره يأتيكم بهذا الذي سلبكم الله اياه ؟ ! وهل يقدر على ذلك اله غير الله ؟ ! فبين بهذا انه كما لايقدر على ذلك غير الله فكذلك يجب ان لا يعبدوا سواه : القادر على جميع ذلك .

وقوله « انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » تنبيه للعباد على هذه الآية وعلى أمثالها من الآيات التي بين فيها انه لايستحق العبادة سواه تعالى . ثم بين انهم مع ظهور هذه الآيات يصدفون أي يعرضون عن تأملها ، والتفكر فيها . يقال : صدف عنه ، اذا أعرض .

وفي الآية دليل على ان الله قد مكنهم من الاقبال على ما ورد عليهم من البيان وانه لم يخلق فيهم الاعراض عنه ولا حملهم عليه ، ولا اراده منهم ولا زينه لهم ، لانه لو كان فعل شيئا من ذلك لم يكن لتعجيبه من ذلك معنى .

قوله تعالى :

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَيكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ (٤٧) آية .

أمر الله تعالى نبيه (ع) ان يخاطب كفار قومه ، ويقول لهم أرايتم « ان أتاكم عذاب الله بغتة او جهرة » والبغتة المفاجأة وهو ان يأتيهم العذاب ، وهم غافلون غير متوقعين لذلك « او جهرة » أي وهم شاهدون له ، ومعاينون نزوله . وقال الحسن : (البغتة) ان يأتيهم ليلا و (جهرة) نهارا . ثم قال : « هل يهلك » بهذا العذاب « الا القوم الظالمون » الكافرون الذين يكفرون بالله ويفسدون في الارض . وهل ينجو منه الا المؤمنون العابدون لربهم . ومتى هلك فيهم اطفال او قوم مؤمنون فانما يهلكون امتحانا ويعوضهم الله على ذلك أعواضا كثيرة ، يصغر ذلك في جنبها ، فجعل ذلك تحذيرا من المقام على الكفر وترغيبا في الايمان والنجاة من العذاب .

قوله تعالى :

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) آيتان بلا خلاف .

بين الله تعالى في هاتين الآيتين انه لايبعث الرسل أربابا يقدرون على كل شيء يسألون عنه من الآيات او يخترعونه بل انما يرسلهم لما في ذلك من المصلحة لهم ومنبهين على ما في عقولهم من توحيد الله ، وعدله وحكمته مبشرين بثواب الله لمن آمن به وعرفه ، ومخوفين لمن انكره وجحده . ثم اخبر ان المرسل اليهم مختارون غير مجبرين ولا مضطرين ودل على انه غير محدث لشيء من افعالهم فيهم ، وان الافعال لهم ، هم يكتسبونها بما خلق الله فيهم من القدرة ، وانه قد هداهم ، وبين لهم وبشرهم وانذرهم فمن آمن أثابه ومن عصاه عاقبه . ولو كانوا مجبورين على المعاصي مخلوقا فيهم الكفر ولم يجعل فيهم القدرة على الايمان لما كان للآية معنى .

قوله تعالى :

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) آية بلا خلاف .

امر الله تعالى نبيه محمدا (ص) ان يقول لعباده : « لا اقول لكم عندي خزائن الله » اغنيكم منها « ولا اعلم الغيب » الذي يختص بعلم الله تعالى فاعرفكم مصالح دنياكم ، وانما اعلم قدر ما يعلمني الله من امر البعث والجنة

والنار ، وغير ذلك ، ولا ادعي اني ملك ، لاني انسان تعرفون نسبي ، لا اقدر على ما يقدر عليه الملك ، وما أتبع الا ما يوحي الله به إلي •

وبين لهم ان الملك من عند الله ، والوحي هو البيان الذي ليس بايضاح نحو الاشارة والدلالة ، لان كلام الملك كان له على هذا الوجه • وانما امره بأن يقول ذلك لئلا يدعوا فيه ما أدعت النصارى في المسيح ، ولئلا ينزلوه منزلة خلاف ما يستحقه • ثم امره بأن يقول لهم : « هل يستوي الاعمى والبصير » أي هل يستوي العارف بالله تعالى وبدينه العالم به مع الجاهل به وبدينه ،فجعل الاعمى مثلاللجاهل والبصير مثلاللعارف بالله ونبيه ، هذا قول الحسن والجبائي •

وقال البلخي : معناه هل يستوي من صدق على نفسه واعترف بحاله التي هو عليها من الحاجة والعبودية لخالقه ، ومن ذهب عن البيان وعمي عن الحق « افلا تتفكرون » فتنصفوا من أنفسكم وتعملوا بالواجب عليكم من الاقرار بوحدانيته تعالى ونفي الشركاء والتشبيه عنه، وهذا وان كان لفظه لفظ الاستفهام فالمراد به الاخبار أي انهما لا يستويان •

وقال مجاهد : الاعمى الضال والبصير المهتدي • ثم قال : «افلاتتفكرون» تنبيها لهم على الفكر في ما يدعوهم الى معرفته ويدلهم عليه من آياته وأمثاله التي بينها في كتابه ، للفرق بين الحق والباطل ، والكافر والمؤمن •

وقال الحسن : « لا اقول لكم عندي خزائن الله » يعني خزائن الغيب الذي فيه العذاب لقولهم : أئتنا بعذاب الله ، ولا اعلم الغيب متى يأتيكم العذاب « ولا أقول لكم اني ملك » من ملائكة الله •وانما أنا بشر تعرفون نسبي•ولكني رسول الله يوحى الي ، ولا أتبع الا ما يوحى الي ولا أؤدي الا ما يأمرني بأدائه

واستدل الجبائي والبلخي وغيرهما بهذه الآية على ان الملائكة افضل من الانبياء لانه قال « ولا أقول لكم اني ملك » فلولا ان الملائكة أفضل وأعلى منزلة ما جاز ذلك • وهذا ليس بشيء لان الفضل الذي هو كثرة الثواب لامعنى له هاهنا ، وانما المراد « ولا أقول اني ملك » فاشاهد من امر الله وغيبته عن

العباد ما يشاهده الملائكة المقربون المختصون بملكوت السماوات وان لم يكن في ذلك استحقاق ثواب زائد .

قوله تعالى :

وَأَنْذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) آية بلا خلاف .

امر الله تعالى نبيه (ع) ان ينذر بهذه الآيات أي يخوف بها من هو مقر بالبعث والنشور من المؤمنين ، ومن يقر بذلك من الكفار ويعتقد انه لا معونة عند الشركاء يومئذ ، لان الامر هناك له تعالى وحده . وقد كان خلق من مشركي العرب يعتقدون ذلك ، فأمر الله ان يخص هؤلاء بالانذار ، لان الحجة لهم ألزم وان كانت لازمة للجميع .

وقوله : « يخافون ان يحشروا الى ربهم » أي يعلمون ذلك ، فهم خائفون منه أي عاملون بما يؤديهم الى السلام عنده .

وقال الفراء : يخافون الحشر الى ربهم علما بأنه سيكون فلذلك فسَّره المفسرون يخافون بمعنى يعلمون .

وقال الجبائي : امر الله ان يخوف بالعقاب من هو خائف ، لانه لما أعلمهم ان الله يعذبهم بكفرهم اذا حشروا ، كانوا يخافون الحشر لكونهم شاكين فيما أخبرهم به النبي (ص) من الحشر والعذاب . وكانوا يخافون ذلك لشكهم فيه ، وان كانوا غير مؤمنين . والاول قول البلخي والزجاج .

وقوله : « ليس لهم من دونه ولي » أو من يدفع عنهم ما يريد الله إنزاله بهم من عذابه ، وعقوباته ، ولا شفيع يشفع يدفع بشفاعته عنهم ما يريد الله انزاله بهم من ذلك على ما قالت النصارى انهم ابناء الله واحباؤه .

وقوله : « لعلهم يتقون » أي لكي يتقوا معاصيه . والهاء في قوله «به» قال الزجاج : راجعة الى القرآن . وقال الجبائي : راجعة الى العذاب . وقال

البلخي : راجعة الى الانذار .

قوله تعـالى :

وَلاَ تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ (٥٢) آية بلاخلاف .

قرأ ابن عامر « بالغدوة » هنا وفى الكهف ــ بضم الغين واسكان الدال واثبات واو بعدها . الباقون بفتح الغين والدال واثبات الف بعد الدال .

سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن مسعود وغيره : ان ملأ من قريش ــ وقال الفراء : من الكفار ، منهم عيينةبن حصين الغزاي ــدخلواعلى النبي (ص) وعنده بلال وسلمان وصهيب وعمار ، وغيرهم ، فقال عيينة بن حصين يارسول الله لو نحيت هؤلاء عنك ، لاتاك أشراف قومك ، وأسلموا ، وكان ذلك خديعة منهم له وكان الله تعالى عالما ببواطنهم .

فأمر الله نبيه ان « لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى » يعني انه نهاه عن طردهم لانهم يريدون باسلامهم ودعائهم وجه الله . قال الضحاك : « يدعون ربهم بالغداة والعشى » يعني بذلك الصلاة المفروضة في هذين الوقتين وقال ابراهيم هم اهل الذكر . وقال قوم : الدعاء هاهنا هو التحميد والتسبيح

وقوله : « يريدون وجهه » شهادة للمعنيين بالآية بالاخلاص وانهم يريدون بعبادتهم الله خالصا .

وقال البلخي : قراءة ابن عامر غلط ، لان العرب اذا ادخلت الالف واللام قالوا : الغداة يقولون : رأيتك بالغداة ، ولا يقولون بالغدوة، فاذا نزعوا الالف واللام قالوا رأيتك غدوة . وانما كتبت واو في المصحف ، كما كتبوا الصلاة والزكاة والحياة كذلك .

قال ابو علي الفارسي : الوجه الغداة ، لانها تستعمل نكرة وتتعرف باللام فأما غدوة فمعرفة أبدا ، وهو علم صيغ له • قال سيبويه : غدوة وبكرة جعل كل واحد منهما اسما للجنس كما جعلوا أم حنين اسما لدابة معروفة ، كذلك هذا

ووجه قراءة ابن عامر أن سيبويه قال زعم الخليل أنه يجوز ان تقول أتيتك اليوم غدوة وبكرة ، فجعلها بمنزلة ضحوة •

وقوله « فتطردهم » نصب الدال ، لانه جواب النفي في قوله : « ماعليك من حسابهم » ونصب فيكون لانه جواب لقوله : « ولا تطرد الذين • • • فتكون من الظالمين • • • ما عليك من حسابهم من شيء » قال قوم يعني من حساب رزقهم في الدنيا ليس رزقهم في يدك ولا رزقك في أيديهم ، بل الله رازق الجميع •

وقال الجبائي وهو الاظهر : ما عليك من اعمالهم ، ولا عليهم من أعمالك ، بل كل واحد يؤاخذ بعمله ، ويجازى على فعله ، لا على فعل غيره • وقوله « فتطردهم فتكون من الظالمين » اخبار منه تعالى انه لو طرد كل هؤلاء تقربا الى الكبراء منهم كان بذلك ظالما • والنبي (ص) وان لم يقدم على القبيح جاز ان ينهى عنه ، لانه قادر عليه وان كان النهي والزجر يمتنع منه ، كما قال تعالى « لئن اشركت ليحبطن عملك » وان كان الشرك مأمونا منه •

قوله تعالى :

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ (٥٣) آية بلا خلاف •

معنى الآية انه تعالى اخبر انه يمتحن (١) الفقراء بالاغنياء والاغنياء بالفقراء فيختبر صبر الفقراء على ما يرون من حال الاغنياء ، واعراضهم عنهم الى طاعة الرسل ويختبر شكر الاغنياء واقرارهم لمن يسبقهم من الفقراء ، والموالي والعبيد

(١) في المخطوطة « ابتلى » بدل « يمتحن » •

الى الايمان بالرياسة في الدين والتقدم فيه .

وقوله : « ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » فليس المراد باللام لام الغوص لان الله لو قصد ذلك لكان قد قصد بما فعل ان يقولوا هـذا القول فيكفروا به ويعصوا ويتعالى الله عن ذلك فكيف يقصده ؟ ! وقد عابه من قولهم وهو يعاقبهم عليه وعابهم به ، ولكن اللام لام العاقبة .

والمعنى اني فعلت ذلك بهم ليصبروا ويشكروا ، فكان عاقبة أمرهم ان قالوا «أهؤلاء من الله عليهم من بيننا» ومثله قوله : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » (١) وقال الشاعر :

وام سـماك فـلا تجزعي فللشكل ما تلـد الوالداه (٢)

والذي قال « أهولاء من الله عليهم من بيننا » هو عيينة بن حصين واصحابه وقال الزجاج : أي ليقول الكبراء « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا» أي ليكون ذلك آية بينة انهم اتبعوا الرسول وصبروا على الشدة في حال شديدة .

وقال الجبائي : معنى قوله « فتنا بعضهم ببعض » أي شددنا التكليف على أشراف العرب وكبرائهم بأن امرناهم بالايمان برسول الله وبتقديم هؤلاء الضعفاء على نفوسهم لتقدمهم اياهم فى الايمان ، وكونهم افضل عند الله . وهذا أمر كان شاقاً عليهم ، فلذلك سماه الله فتنة .

وقوله « ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » أي فعلنا هذا بهم ليقول بعضهم لبعض على وجه الاستفهام منه لاعلى وجه الانكار « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » يعني بالايمان اذ رأوا النبي (ص) يقدم هؤلاء عليهم ويفضلهم وليرضوا بذلك من فعل رسول الله ، ولم يجعل هذه الفتنة والشدة في التكاليف ليقولوا ذلك على وجه الانكار ، لان إنكارهم ذلك كفر بالله ومعصية له والله تعالى لايريد ذلك ولا يرضاه ، لانه لو أراد ذلك منهم ، وفعلوه كانوا مطيعين

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٨ (٢) مر هذا البيت في ٣ : ٦٠ وسيأتي في ٥ : ٤٣

له لا عاصين وقد ثبت خلافه .

وقوله : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » معناه ان الله تعالى أعلم بالشاكرين له ولنعمه من خلقه فيجازيهم على ذلك بما يستحقونه من الثواب والتعظيم والاجلال .

والشاكرون المعنيون بالآية هم هؤلاء الضعفاء ويدخل معهم في ذلك سائر المؤمنين .

فان قيل فعلى هذا الوجه الذي ذكرتموه قد وجد من الكفار القول على ما أراده فيجب ان يكونوا مطيعين .

قلنا : ليس في الآية ذلك وأنهم على أي وجه قالوه على وجه الانكار أو على وجه الاستفهام ؟ وانما بين انه فعل بهم ليقولوا ذلك على وجه الاستفهام لا على وجه الانكار ، فان كانوا قالوه على ما أراده الله فهم مطيعون وان قالوه منكرين فهم عصاة ، فلما علمنا أن الله تعالى ذمهم بهذا القول علمنا أنهم لم يقولوه على وجه المراد منهم انما قالوه على خلاف ما أريد منهم .

قوله تعالى :

وَإِذَا جَاءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) آية .

قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب : « انه من عمل . . . فانه غفور رحيم » بفتح الهمزة فيهما وافقهم اهل المدينة في الاولى منهما . الباقون بالكسر فيهما .

قال ابو علي الفارسي من كسر (أنه) الاولى جعلها تفسير للرحمة كما أن قوله « لهم مغفرة واجر كريم » تفسير للوعد . واما كسر (إن) في قوله « فانه غفور رحيم » فلأن ما بعد الفاء حكمه الابتداء ، ومن ثم حمل قوله « ومن عاد

فينتقم الله منه » (١) على أرادة المبتدأ بعد الفاء وحذفه .

ومن فتح (أن) في قوله « انه » فانه جعل (ان) الاولى بدلا من الرحمة كأنه قال كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم . واما فتحها بعد الفاء فانه غفور رحيم ، فعلى انه أضمر له خبرا تقديره ، فله انه غفور رحيم أي فله غفرانه . أو اضمر مبتدأ تكون (أن) خبره ، كأنه قال فأمره انه غفور رحيم

واما قراءة نافع : بفتح الاولى وكسر الثانية فالقول فيهما انه أبدل من الرحمة واستأنف ما بعد الفاء . قال سيبويه : بلغنا ان الاعرج قرأ « انه من عمل . . . فانه غفور رحيم » . ونظيره قول ابن مقبل :

واني اذا ملت ركابي مناخها فاني على حظي من الامر جامح

يريد ان قوله : (واني اذا ملت ركابي) محمول على ما قبله كما ان قوله « انه من عمل » محمول على ما قبله . وقوله : فاني على حظي مستأنف مثل قوله « فانه غفور رحيم » مستأنف به منقطع عما قبله .

قال الفراء : واختاره الزجاج ويجوز ان يحمل (فانه) على التكرار ، قال : لان الكتاب يحتاج الى (ان) مرة واحدة ولكن الخبر هو موضعها فلما دخلت في ابتداء الكلام أعيدت الى موضعها ، كما قال : « أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون »(٢) فلما كان موضع (ان) أيعدكم انكم مخرجون اذا متم دخلت في اول الكلام وآخره . ومثله « كتب عليه انه من تولاه فانه يضله » (٣) ومثله « ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فان له »(٤) قال ولك ان تكسر (ان) بعد الفاء في هذه الاحرف . قال ابو علي هذا غير صحيح ، لان (من) لا يخلو من ان تكون للجزاء الجازم الذي بني اللفظ عليه او تكون موصولة ، ولا يجوز ان يقدر التكرير مع الموصولة فلو كانت موصولة

---

(١) سورة ٥ المائدة آية ٩٨ .
(٢) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٣٥ (٣) سورة ٢٢ الحج آية ٤
(٤) سورة ٩ التوبة آية ٦٤ .

لبقي المبتدأ بلا خبر ، ولا يجوز ذلك في الجزء الجازم ، لان الشرط يبقى بلا جزاء على اثبات الفاء في قوله : (فان له) ويمتنع من ان يكون بدلا لانه لايكون بين المبدل والمبدل منه الفاء العاطفة ولا التي للجزاء ، فان قيل : هي زائدة بقى الشرط بلا جزاء ، فاذا بطل الامران ثبت ما قدمناه •

واما من كسرهما فعلى مذهب الحكاية كأنه لما قال « كتب ربكم على نفسه الرحمة » قال : « انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور رحيم » بالكسر ، ودخلت الفاء جوابا للجزاء •

هذه الآية متصلة بالاولى : نهى الله تعالى نبيه (ع) في الاولى عن ان يطردهم • ثم امره في هذه الآية ان يقول لمن ورد عليه منهم ــ اعني المؤمنين المصدقين بآيات الله وحججه وبراهينه عربيا كان او أعجميا ضعيفا كان أو قويا ــ « سلام عليكم » فيبدأهم بالتحية ، ويبشرهم بالرحمة ويقوي قلوبهم ويعرفهم أن من اذنب منهم ثم تاب، فتوبته مقبولة كل ذلك خلافا على الكافرين فيما أرادوه عليه من طردهم والغلظة عليهم •

وقال محمد بن يزيد : السلام في اللغة أربعة اشياء : احدها ــ سلمت سلاما مصدر • وثانيها ــ السلام جمع سلامة • وثالثها ــ السلام من أسماء الله • ورابعها ــ السلام شجر •

ومعنى السلام الذي هو مصدر سلمت دعاء للانسان ان يسلم في دينه ونفسه ، ومعناه التخلص • والسلام الذي هو اسم الله معناه ذو السلام أي الذي يملك السلام الذي هو تخليص من المكروه • والسلام الذي هو الشجر، فهو شجر عظيم سمي بذلك لسلامته من الآفات • والسلام حجار صلبة لسلامتها من الرخاوة ويسمى الصلح : السلام والسلم والسلم ، لان معناه السلامة من الشر • والسلام دلولها مروة واحدة نحو دلو السقائين • والسلم السبب الى لشيء • والسلم الذي يرتقى عليه لانه يسلمك الى حيث تريد وقوله « من عمل منكم سوءا بجهالة » ليس المراد أنهم يجهلون أنه سوء ، لانه لو أتي

المسلم ما يجهل أنه سوء لكان كمن لم يتعمد سوءا . وتحتمل الآية أمرين :

احدهما ـ انه عمله وهو جاهل بالمكروه فيه أي لم يعرف أن فيه مكروه.

والآخر ـ انه أقدم مع علمه ان عاقبته مكروهة فآثر العاجل ، فجعل جاهلا لانه آثر القليل على الراحة الكثيرة والعاقبة الدائمة .

ويحتمل عندي أن يكون أراد « من عمل منكم سوءا بجهالة » بمعنى أنه لا يعرفها سوءا ، لكن لما كان له طريق الى معرفته وجب عليه التوبة منه ، فاذا تاب قبل الله توبته .

فان قيل : قوله « وأصلح » هل فعل الصلاح شرط في قبول التوبة أولا؟ فان لم يكن شرطا فلم علق الغفران بمجموعهما .

قيل : لاخلاف أن التوبة متى حصلت على شرائطها التي قدمنا ذكرها في غير موضع ، فانه يقبل التوبة ويسقط العقاب ، وان لم يعمل بعدها عملا صالحا غير أنه اذا تاب وبقي بعد التوبة ، فان لم يعمل الصالح عاد الى الاصرار ، لانه لايخلو فى كل حال من واجب عليه أو ندب من تجديد معرفة الله ومعرفة نبيه ، وغير ذلك من المعارف وكثير من أفعال الجوارح ، فاما ان قدرنا اخترامه عقيب التوبة من غير فعل صلاح ، فان الرحمة باسقاط العقاب تلحقه بلا خلاف .

قوله تعالى :

وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)

آية بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة الا حفصا و « ليستبين » بالياء . الباقون بالتاء . وقرأ اهل المدينة « سبيل » بالنصب . الباقون بالرفع .

من قرأ بالتاء ورفع السبيل ، فلأن السبيل يذكر ويؤنث ، فالتذكير لغة تميم ، والتأنيث لغة أهل الحجاز فأنّث ـ هاهنا ـ كما قال

« قل هـذه سبيلي » (١) .

ومن قرأ بالياء فانه ذكّر السبيل ، لانه الطريق . وهو يذكر ، كما قال « وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا » (٢) .

ومن قرأ بالتاء ، ونصب (السبيل) أراد أن يكون خطابا للنبي (ص) كأنه قال : ولتستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين . والنبي (ص) وان كان مستبينا لطريق المجرمين عالما به فيجوز أن يكون ذلك على وجه التأكيد ، ولان يستديم ذلك . ويحتمل أن يكون المراد به الامة ، فكأنه قال ليزداد استبانة ، ولم يحتج ان يقول : ولتستبين سبيل المؤمنين ، لان سبيل المجرمين اذا بانت ، فقد بان معها سبيل المؤمنين ،لانهاخلافها . ويجوز ان يكون المراد ، ولتستبين سبيل المجرمين ولتستبين سبيل المؤمنين ،وحذف احدى الجملتين لدلالةالكلام عليه ، كما قال « سرابيل تقيكم الحر » (٣) ولم يقل تقيكم البرد ، لان الساتر يستر من الحر والبرد ، لـكن جرى ذكر الحر ، لانهم كانوا في مكانهم أكثر معاناة له من البرد ، وكذلك سبيل المجرمين ، خص بالذكر ، لان الكلام في وصفهم ، وترك ذكر المؤمنين لدلالة الكلام عليه . وهذه الآية معطوفة على الآيات التي احتج الله بها على مشركي العرب ، وغيرهم فلذلك قال « وكذلك » أي كما قدمنا « نفصل الآيات » أي نميزها ونبينها ونشرحها لتلزمهم الحجة و « لتستبين سبيل » من عاند بعد البيان أو ذهب عن فهم ذلك بالاعراض عنه لمن أراد التفهم منهم ، ومن المؤمنين ليجانبوها ويسلكوا غيرها .

قوله تعـالى :

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦)

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٨ (٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٤٥

(٣) سورة ١٦ النحل آية ٨١ .

روي عن يحيى بن وثاب أنه قرأ « ضللت » بكسر اللام . والقراء كلهم على فتحها ، وهما لغتان . فمن كسر اللام فتح الضاد من « يضل » . ومن فتح اللام كسر الضاد . فقال « يضل » وقال أبو عبيدة اللغة الغالبة بالفتح .

وروى ابو العالية أن النبي (ص) قرأ هذه الآية عند الكعبة وأظهر لهم المفارقة . وهذه الآية فيها خطاب للنبي (ص) وأمر له بأن يقول للكافرين : ان الله قد نهاني أن اعبد هذه الاوثان التي تعبدونها من دون الله وتدعونها آلهة وأنها تقربكم الى الله زلفى ، وأن يقول لهم اني لا أتبع أهواءكم في عبادة الاوثان ،واني لو فعلت ذلك لكنت قدضللت عن الصواب ، وبعدت عن الرشد ولم أكن من المهتدين الى الخير والصلاح . ومعناه معنى الشرط وتقديره قد ضللت ان عبدتها . وقال الزجاج : « وما انا من المهتدين » أي وما أنا من النبيين الذين سلكوا طريق الهدى .

قوله تعالى :

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧)

آية بلا خلاف.

قرأ اهل الحجاز وعاصم « يقص الحق » من القصص وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد . الباقون ـ بالضاد ـ المعجمة من فوقها من القضاء .وكان ابو عمرو يقوي القراءة بالضاد بقوله « وهو خير الفاصلين » . ويقول الفصل في القضاء لا في القصص ويقوي ذلك بقوله « والله يقضي الحق وهو يهدي السبيل » .

وحجة من قرأ بالصاد قوله : « نقص عليك أحسن القصص » (١) وقوله: « ان هذا لهو القصص » (٢) . وأما الفصل الذي قوى به أبو عمرو قراءته فقد

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٣ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٦٢

جاء الفصل في القول كما جاء في الحكم والقضاء في نحو قوله « انه لقول فصل» (٣) وقال : « احكمت آياته ثم » فصلت » (٤) وقال « نفصل الآيات »(٥) وقال « لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شي »(٦) فذكر في القصص انه تفصيل • والحق في قوله « يقض الحق » يحتمل امرين :

احدهما ــ أن يكون صفة لمصدر محذوف وتقديره يقضي القضاء الحق أو يقص القصص الحق •

والثاني ــ أن يكون مفعولا به يعجل الحق كقول الهذلي :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع (٧)

أي صنعهما داود •

وفي هذه الآية أمر من الله لنبيه ان يقول للكفار انه على بينة من ربه ، أي على أمر بين من معرفة الله وصحة نبوته ، لا متبع للهوى •

وقوله « وكذبتم به » الهاء راجعة الى البيان ، لان البنية والبيان واحد ، وتقديره وكذبتم بالبيان لذي هو القرآن •وقال قوم : بينة من ربي من نبوتي « وكذبتم به » يعني بالله • وعلى الاول يكون تقديره كذبتم بما أتيتكم ، لانه هو البيان •

وقوله : « ما عندي ما تستعجلون به » (ما) بمعنى ليس • والذي استعجلوا به يحتمل امرين :

احدهما ــ العذاب ، كما قال « ويستعجلونك بالعذاب » (٨) •

والثاني ــ أن يكونوا استعجلوا الآيات التي أقترحوها عليه فأعلمهم الله أن ذلك عند الله وأن الحكم له تعالى « يقض الحق وهو خير الفاصلين »وكتبت

(٣) سورة ٨٦ الطارق آية ١٣ (٤) سورة ١١ هود آية ١
(٥) سورة ١٠ يونس آية ٢٤ (٦) سورة ١٢ يوسف آية ١١١
(٧) مر تخريجه في ١ / ٤٢٩ و في ٤ / ٨٨ •
(٨) سورة ٢٢ الحج آية ٤٧ وسورة ٢٩ العنكبوت آية ٥٣ ــ ٥٤ •

يقضى بغير ياء ، لانها اسقطت في اللفظ لالتقاء الساكنين ، كما كتبوا « سندع الزبانية » (٣) بغير واو .

ومن قرأ : بالصاد من القصص حمله على أن جميع ما أنبأ به وأمر به ، فهو من أقاصيص الحق .

وقال الحسن : (البنية) النبوة و (كذبتم به) بالنبوة التي جاءت من عند الله و « ما تستعجلون به » من العذاب جواب لقولهم : « أتنا بعذاب الله » (٤) وفي قراءة ابن مسعود « يقص بالحق » ولم يقرأ به احد .

وقوله « يقضى بالحق » يدل على بطلان قول من يقول : ان الظلم والجور بقضاء الله ، لان ذلك كله ليس بحق .

قوله تعالى :

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) آية .

امر الله تعالى نبيه ان يقول للكفار لو كان « عندي ما تستعجلون به » من كون العذاب وأنزاله بكم برأيي وارادتي لفعلت ذلك بكم ولانزلته عليكم و « لقضي الامر بيني وبينكم » بذلك ولا نفصل ولا نقطع ، ولكن ليس ذلك إلي وانما هو الى الله « والله أعلم بالظالمين » وبمن ينبغي امهاله منهم ومن يجب معالجته بالعقوبة فهو يدبر ذلك بحسب ما يعلم من وجه الحكمة والصواب

قوله تعالى :

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) آية بلا خلاف وهي تمام السبع المثاني .

(٣) سورة ٩٦ العلق آية ١٨ . (٤) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٩

« مفاتح الغيب » معناه الامور التي بها يستدل على الغائب فتعلم حقيقته، يقال : فتحت على الرجل ، أي عرفته أولا ، ويستدل به على آخر ، وجملة يعرف بها التفصيل • ومنه قولهم أفتح عليَّ أي عرفني • قال الزجاج : معناه وعنده الوصلة الى علم الغيب وكل ما لايعلم اذا استعلم •

وروي عن ابن عمر أن رسول الله (ص) قال : مفاتح الغيب خمس لا يعلمها الا الله : ان الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الارحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت •

ومعنى الآية أن الله تعالى عالم بكل شيء من مبتدءات الامور وعواقبها فهو يعجل ما تعجيله أصلح وأصوب ، ويأخر ما تأخيره أصلح واصواب ، وأنه الذي يفتح باب العلم لمن يريد إعلامه شيئا من ذلك من أنبيائه وعباده ، لانه لا يعلم الغيب سواه ، فلا يتهيأ لاحد ان يعلّم العباد ذلك ، ولا أن يفتح لهم باب العلم به الا الله ، وبين أنه يعلم ما في البر والبحر من الحيوان والجماد • وبين أنه ما تسقط من ورقة من شجرة الا يعلمها ولا حبة في جوف الارض وفي ظلماتها الا ويعلمها ولا رطب ولا يابس جميع أصناف الاجسام ، لانها أجمع لا تخلو من احدى هاتين الصفتين •

وقوله : « وما تسقط من ورقة الا يعلمها » المعنى أنه يعلمها ساقطة وثابتة كما تقول : ما يجيئك من أحد الا وأنا أعرفه ، معناه الا وانا أعرفه في حال مجيئه • وقوله : « ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس » خبر على تقدير (من) • ويجوز الرفع فيها على معنى ولا تسقط ورقة ولا حبة • ويجوز ان يرفعه على الابتداء ويقطعه عن الاول ويكون خبره « الا في كتاب مبين » •

وقوله : « في كتاب مبين » يحتمل أمرين :

احدهما ـ ان يكون معناه في علم الله مبين •

وثانيهما ـ ان يكون « في كتاب مبين » ان يكون الله تعالى أثبت ذلك في

كتاب قبل أن يخلقه ، كما قال « ما أصاب من مصيبة في الارض ، ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها » (١) ويكون الغرض بذلك اعلام الملائكة أنه علام الغيوب ليدل على أنه عالم بالاشياء قبل كونها • ويجوز ان يكون المراد بذلك أنه كتب جميع ما يكون ثم امتحن الملائكة بكتبه وتعبدهم باحصائه ، كما تعبد سائر خلقه بما يشاء مما فيه صلاحهم • وقال البلخي : « في كتاب مبين » أي هو محفوظ غير منسي ولا مغفول كما يقول القائل لصاحبه : ما تصنعه عندي مسطر مكتوب • وانما يريد بذلك أنه حافظ له يريد مكافأته عليه ، قال الشاعر :

ان لسلمى عندنا ديوانا

ويجوز أن يكون المراد بذكر الورقة والحبة والرطب والياس التوكيد في الزجر عن المعاصي والحث على البر والتخويف لخلقه بأنه اذا كانت هذه الاشياء التي لا ثواب فيها ولا عقاب عليها محصاة عنده محفوظة مكتوبة ، فأعمالكم التي فيها الثواب والعقاب أولى ، وهو قول الحسن • وقال مجاهد : البر القفار والبحار كل قرية فيها ماء • وعن أبي عبدالله : الورقة السقط والحبة الولد • وظلمات الارض الارحام والرطب ما يبقى ويحيا واليابس ما تغيض •

قوله تعالى :

وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّيكُمْ بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) آية بلا خلاف •

قوله : « وهو » كناية عن الله تعالى • و « الذي » صفة له « يتوفاكم بالليل » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال الجبائي : يقبضكم ، وقال الزجاج : ينيمكم بالليل فيقبضكم

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٢ •

الله اليه ، كما قال : « الله يتوفى الانفس حين موتها » (١) •

وقال البلخي : واختاره الحسين بن علي المغربي « يتوفاكم » بمعنى يحصيكم عند منامكم وأستقراركم ،قال الشاعر :

ان بني الادرم ليسوا من أحد ليسوا من قيس وليسوا من أسد
ولا توفاهم قريش في العدد (٢)

معناه لا تحصيهم في العدد •

وقوله : « ويعلم ما جرحتم بالنهار » أي كسبتم ، تقول فلان جارحةأهله أي كاسبهم ، ومنه قوله : « وما علمتم من الجوارح مكلبين » (٣) أي من الكواسب التي تكسب على أهلها ، وهو قول مجاهد •

وقوله : « ثم يبعثكم فيه » أي في النهار ، فجعل أنتباههم من النوم بعثا « ليقضى أجل مسمى » ليستوفى الاجـل المسمى للحياة الى حين الموت • ثم « اليه مرجعكم » يعني يوم القيامة فيحشرهم الله الى حيث لا يملك فيه الامر سواه •«ثم ينبئكم »يعني يخبركم ويعلمكم « بما كنتم تعملون » في الدنيـا فيجازيكم على أعمالكم ، وفيها دلالة على خزيهم وحاجتهم ، واحتجاج عليهم أنه لا يستحق العبادة سواه اذ هو الفاعل لجميع ما يستحق به العبادة مما عدده والقادر عليه دون من يعبدونه من الاوثان والاصنام •

قوله تعـالى :

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) آيتان

---

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٤٢ •

(٢) مقاييس اللغة ٣ : ٢٧٠ واللسان (وفي) وروايته «الادرد»مع حذف البيت الثاني وجعل الثالث بعد الاول وكذلك في الطبري ١١ : ٤٠٥ •

(٣) سورة ٥ المائدة آية ٥ •

كلهم قرأ « توفته رسلنا » بالتاء الا حمزة فانه قرأ « توفاه » . وحجة من قرأ بالتاء قوله « كذبت رسل من قبلك » (١) وقوله « اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم » (٢) و « جاءتهم رسلهم بالبينات (٣) و « قالت رسلهم » (٤) وحجة حمزة انه فعل متقدم مسند الى مؤنث غير حقيقي . وانما التأنيث للجمع ، فهو مثل قوله « وقال نسوة في المدينة » (٥) وما أشبه ذلك مما يأتيه تأنيث الجمع ، قال وليس ذلك خلافا للمصحف ، لان الالف الممالة تكتب ياء .

وقوله « وهو القاهر » معناه والله المتقدر المستعلي على عباده الذين هو فوقهم لا على أنه في مكان مرتفع فوقهم وفوق مكانهم ، لان ذلك لا يجوز عليه ، لانه صفة للاجسام . ومثله في اللغة أمر فلان فوق أمر فلان ، يراد به أنه أعلى امرا ، وانفذ قولا . ومثله قوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » (٦) والمراد أنه أقوى واقدر منهم وانه القاهر لهم .

وقوله : « ويرسل عليكم حفظة » يعني يرسل عليكم ملائكة يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم ويكتبونها ليعلموا بذلك أن عليهم رقيبا من عند الله ومحصيا عليهم فينزجروا عن المعاصي . ويبين ان هؤلاء الحفظة هم شهداء عليكم بهذه الاعمال يوم القيامة .

وقوله « حتى اذا جاء احدكم الموت » يعني وقت الموت « توفته رسلنا » يعني قبضت الملائكة روح المتوفى ، وهم رسل الله الذين عنا هم الله بهذه الآية . وقال الحسن : « توفته رسلنا » قال هو ملك الموت وأعوانه وأنهم لا يعلمون آجال العباد حتى يأتيهم علم ذلك من قبل الله بقبض أرواح العباد . وقوله :

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ٣٤ (٢) سورة ٤١ حم السجدة آية ١٤
(٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٠٠ ويونس ١٠ آية ١٣ وابراهيم ١٤ آية ٩ الروم ٣٠ آية ٩ وسورة ٣٥ فاطر آية ٢٥ والمؤمن ٤٠ آية ٨٣ .
(٤) سورة ١٤ ابراهيم آية ١٠ (٥) سورة ١٢ يوسف آية ٣٠
(٦) سورة ٤٨ الفتح آية ١٠

« توفته رسلنا » أي تقبضه ، والتوفى هو القبض على ما بيناه • ثم إن هؤلاء الرسل « لا يفرطون » أي لا يقصرون ـ في قول الزجاج ـ ولا يغفلون ، ولا يتوانون • وقال الجبائي : لا يأخذون روحه قبل أجله ويبادرون الى ما أمروا به عن غير تقصير ، ولا تفريط • والمعنى في التوفي ان يعلم العباد أنهم يحصون اذا ماتوا فلا يرون أنهم يهملون اذا ماتوا وأن احـــداً منهم لا يثبت ذكره ليجزى بعمله •

ثم بين ان هؤلاء الذين تتوفاهم رسلنا يردون بعد الوفاة الى الله فيردهم الى الموضع الذي لا يملك الحكم عليهم فيه الا الله ولا يملك نفعهم ولا ضرهم سواه فجعل ردهم الى ذلك الموضع ردا الى الله ، وبين أنه هو «مولاهم الحق » لانه خالقهم ومالكهم ، والقاهر عليهم القادر على نفعهم وضرهم ، ولا يجوز ان يوصف بهذه الصفة سواه ، فلذلك كان مولاهم الحق • وقال البلخي : (الحق) اسم من اسماء الله وهو خفض ، لانه نعت لله ، ويجوز الرفـع على معنى الله مولاهم الحق ، ويجوز ان ينصب على معنى يعني مولاهم ، والقراءة بالخفض•

وقوله : « ألا له الحكم » معناه ألا يعلمون أو ألا يقرون ان الحكم يوم القيامة هو له وحده ؟ ، ولا يملك الحكم فى ذلك اليوم سواه ، كما قد يملك الحكم في الدنيا غيره بتمليك الله اياه •

وقوله : « وهو أسرع الحاسبين » روي أنه تعالى يحاسب عباده على مقدار حلب شاة ، وذلك يدل على أنه لا يحتاج ان يكلفهم مشقة وآلة على ما يقوله المشبهة ، لانه لو كان كذلك لاحتاج ان يتطاول زمان محاسبته أو أنه يشغله محاسبته عن محاسبة غيره • وروي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قيل له : كيف يحاسب الله الخلق وهم لا يرونه ؟ قال : كما يرزقهم ولا يرونه •

والمعنى في الآية أنه تعالى أحصى الحاسبين لما أحصى الملائكة وتوفوا من الانفس لا يخفى عليه من ذلك خافية ولا يحتاج فى عده الى فكر ونظر •

قوله تعالى :

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)

آيتان بلا خلاف .

قرأ يعقوب « قل من ينجيكم » مخففا . الباقون بالتشديد . وقرأ ابو بكر « وخفية » بكسر الخاء — هاهنا — ، وفي الاعراف . وقرأ اهل الكوفة الا ابن شاهي « أنجانا » على لفظ الاخبار عن الواحد الغائب ، وأماله حمزة والكسائي وخلف . الباقون « أنجيتنا » على وجه الخطاب .

وقرأ اهل الكوفة الا العبسى وهشام وأبو جعفر « قل الله ينجيكم » بالتشديد . الباقون بالتخفيف . يقال : نجا زيد ينجو ، قال الشاعر :

❊ نجا سالم والنفس منه لشدقه ❊ (١)

فاذا نقلت الفعل حسن أن تنقله بالهمزة فتقول انجيته ، ويجوز أن تنقله بتضعيف العين ، فتقول نجيته ، ومثله فرحته وأفرحته وعرضّته وأعرضته ، قال الله تعالى « فأنجاه الله من النار » (٢) « فأنجيناه والذين معه » (٣) وقال « ونجينا الذين » (٤) فلما أستوت اللغتان وجاء التنزيل بهما تساوت القراءتان.

ووجه قراءة من قرأ « لئن أنجانا » أنه حمله على الغيبة كقوله « تدعونه ... لئن أنجانا » ، وكذلك ما بعده « قل الله ينجيكم » « قل هو القادر » ، فهذا كله أسماء غيبة فـ (أنجانا) أولى من (انجيتنا) لكونه على ما قبله ، وما

---

(١) اللسان « نجا » نسبه الى الهذلي وروايته :

نجا عامر والنفس منه بشدقه   ولم ينج الا جفن سيف ومئزرا

(٢) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٤   (٣) سورة ٧ الاعراف آية ٦٣، ٧١

(٤) سورة ٤١ حم السجدة آية ١٨

بعده من لفظ الغيبة ، وموضع (يدعونه) نصب على الحال ، وتقديره قل من ينجيكم داعين وقائلين « لئن انجيتنا » . ومن قرأ من الكوفيين « لئن أنجانا » طلب المشاكلة . ومن قرأ بالتاء واجه بالخطاب ولم يراع المشاكلة . ويقوي ذلك قوله في أخرى « لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم» فجاء انجيتنا على الخطاب وبعده اسم غيبة .

وأما إمالة حمزة والكسائي فحسنة ، لان هذا النحو من الفعل اذا كان على أربعة أحرف أستمرت فيه الأمالة ، لانقلاب الالف ياء في المضارع .

ومن قرأ « خفية » بكسر الخاء ، فلأن أبا عبيدة قال « خفية » تخفون في أنفسكم وخفي غيره خفية ، وخفية لغتان ، وحكي خفوة وخفوة بالواو ، كما قالوا احل حبوته وحبيته، ولايقرأ بذلك . فأما قوله « تضرعا وخيفة » ففعلة من الخوف . وانقلبت الواو، للكسرة . والمعنى أدعوا خائفين خافيين، قال الشاعر :

فــلا تقعدن على زخـــــة وتضمر في القلب وجدا وخيفا (١)

يريد جمع خيفة .

أمر الله تعالى نبيه ان يخاطب الخلق ويقول لهم على وجه التقريع لمن يعبد الاصنام منهم ــ « من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » ومعناه شدائد البر والبحر ، تقول العرب لليوم الذي يلقى فيه الشدة : يوم مظلم حتى أنهم يقولون: يوم ذو كواكب أي قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل ، قال الشاعر :

ابني أسد هــل تعلمون بلاءنا اذا كان يوم ذو كواكب أشهب

وقال آخر :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي اذا كان يوم ذو كواكب أشهب (٢)

فمعنا ظلمات البر والبحر شدائدهما . وقوله : « تدعونه . . . وخفية » أي مظهرين الضراعة ، وهي شدة الفقر الى الشيء والحاجة و « تدعونه . . .

(١) قائله صخر الغي . اللسان « زخخ » . الزخ والزخة «بتشديد الخاء»: الحقد والغيظ .

(٢) اللسان « شهب » أنشده سيبويه . في المطبوعة « اشنع » بدل (اشهب)

خفية » أي تدعونه في أنفسكم بما تضمرون من حاجاتكم اليه كما تظهرون ٠

وقوله « لئن أنجيتنا من هذه » أي في شدة وقعوا فيها ، يقولون « لئن أنجيتنا من هذه » لنشكرنك، فأمر الله ان يسألهم على وجه التوبيخ لهم والتقرير بأنه ينجيهم وأنه القادر على نفعهم وضرهم ٠ ثم أعلمهم ان الله الذي أقروا بأنه ينجيهم هو ينجيهم ثم هم يشركون معه الاصنام التي قد علموا أنها من صنعهم وأنها لا تضر ولا تنفع وأنه تعالى على تعذيبهم قادر ٠

قوله تعالى :

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) آية بلا خلاف

هذا أمر من الله تعالى لنبيه (ص) أن يقول لهؤلاء الكفار : ان الله قادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم نحو الحجارة التي أمطرها على قوم لوط ، والطوفان الذي غرق به قوم نوح « أو من تحت أرجلكم » نحو الخسف الذي نال قارون ومن خسف به « أو يلبسكم شيعا » معنى يلبسكم يخلط أمركم خلط اضطراب ، لا خلط اتفاق يقال : لبست عليه الامر ألبسه اذا لم تبينه ، وخلطت بعضه ببعض ، ومنه قوله « وللبسنا عليهم ما يلبسون » (١) ويقال لبست الثوب ألبسه ٠ ومعنى « شيعا » أي يجعلكم فرقا لا تكونون شيعة واحدة فاذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضا وهو معنى قوله « ويذيق بعضكم بأس بعض » وانما يلبسهم الله شيعا بأن يكلهم الى أنفسهم ولا يلطف لهم اللطف الذي يؤمنون عنده ويخليهم من ألطافه بذنوبهم السالفة ، فيلبس عند ذلك عليهم أمرهم ، فيختلفوا حتى يذوق بعضهم بأس بعض ٠ ثم أكد الاحتجاج عليهم ، فقال : « انظر كيف نصرف الآيات » لتفقهوا ٠

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ٩

وقال الحسن : الآية متناولة ، لاهل الكتابين في التهديد بالخسف ، وانزال العذاب « أو يلبسكم شيعا » يتناول أهل الصلاة . وقال : قال رسول الله (ص) : (سألت ربي أن لا يظهر على أمتي أهل دين غيرهم فأعطاني ، وسألته ألا يهلكم جوعا فأعطاني ، وسألته أن لا يجمعهم على ضلالة ، فأعطاني، وسألته أن لا يلبسهم شيعا ، فمنعني ذلك) .

وفي الآية دلالة على أنه تعالى أراد من الكفار الايمان ، لانه قال : فعلت هذا بهم « لعلهم يفقهون » ومعناه لكي يفقهوا ، لأن معنى الشك لا يجوز عليه تعالى . واذا ثبت أنها دخلت للغرض ثبت أنه أراد ان يؤمنوا به ويوحدوه ، ويفقهوا أدلته ويعرفوها .

وروي عن ابي عبد الله (ع) أنه قال معنى « عذابا من فوقكم » السلطان الجائر « ومن تحت أرجلكم » السفلة ، ومن لاخير فيه « أويلبسكم شيعا » قال : العصبية « ويذيق بعضكم بأس بعض » قال سوء الجوار ، ويكون معنى البعث على هذا الوجه التمكين ورفع الحيلولة دون أن يفعل ذلك أو يأمر به ، يتعالى الله عن ذلك .

قوله تعالى :

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)

آية في المدنيين والبصري وآيتان في الكوفي ، آخر الاولى « بوكيل » .

قوله تعالى « وكذب به قومك » أي بما صرف من الآيات التي ذكرها في الآية الاولى ـ في قول البلخي والجبائي ـ وقال الازهري : الهاء راجعة الى القرآن . ثم أخبر تعالى ، فقال « وهو الحق » وأمره أن يقول لقومه « لست عليكم بوكيل » أي لم أؤمر بمنعكم من التكذيب بآيات الله وان أحفظكم من ذلك وان أحول بينكم وبينه ، لان الوكيل على الشيء هو القائم بحفظه ، والذي يدفع الضرر عنه .

وقال البلخي : هذه نزلت بمكة قبل أن يؤمر بالقتال ، ثم امر فيما بعد ذلك . وأمره ان يخبرهم ان « لكل نباء » يخبرهم به « مستقر » وهو وقته الذي يعلمون فيه صحة ما وعدهم به وحقيقته ، وذلك عند كون مخبره ، اما في الدنيا ، واما في الآخرة « وسوف تعلمون » فيه تهديد لهم بكون ما أخبرهم به من العذاب النازل بهم في الدنيا والآخرة ، ووقت كون هذا العذاب هو مستقر الخبر . وقال بعضهم : أنبأه الله بالوقت الذي يظفره فيه بهم . وقال الزجاج يجوز أن يكون اراد وقت الاذن في محاربتهم حتى يدخلوا في الاسلام أو يقبلوا الجزية ان كانوا أهل كتاب .

وقوله : « وكذب به قومك » المراد به الخصوص ، لان فى قومه جماعة صدقوا به ، وهو كما يقول القائل : هؤلاء عشيرتي ، يشير الى جماعة وان لم يكونوا جميع عشيرته .

قوله تعالى :

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (٦٨) آية بلا خلاف

قرأ ابن عامر « واما ينسينك » بتشديد السين . الباقون بالتخفيف .

خاطب الله تعالى نبيه (ص) بهذه الآية ، فقال له « اذا رأيت » هؤلاء الكفار « الذين يخوضون في آياتنا » . قال الحسن ، وسعيد بن جبير : معنى « يخوضون » يكذبون « بآياتنا » وديننا والخوض التخليط في المفاوضة على سبيل العبث واللعب ، وترك التفهم واليقين . ومثله قول القائل : تركت القوم يخوضون ، أي ليسوا على سداد ، فهم يذهبون ويجيئون من غير تحقيق ولا قصد للواجب ـ أمره حينئذ ان يعرض عنهم « حتى يخوضوا في حديث غيره » لان من حاج من هذه حاله وأراد التبيين له فقد وضع الشيء فى غير موضعه

وحط من قدر الدعاء ، والبيان والحجاج . ثم قال له (ص) ان إنساك الشيطان ذلك « فلا تقعد بعد الذكرى » ـ والذكرى والذكر واحد ـ « مع القوم الظالمين » يعني هؤلاء الذين يخوضون في ذكر الله وآياته . ثم رخص للمؤمنين بقوله : « وما على الذين يتقون من حسابهم » (١) بأن يجالسوهم اذا كانوا مظهرين للتكبر عليهم غير خائفين منهم ، ولكن ذكرى يذكرونهم أي ينبهونهم ان ذلك يسوءهم « لعلهم يتقون» ثم نسخ ذلك بقوله « وقد نزل عليكم في الكتاب ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها » الى قوله : « انكم اذا مثلهم » (٢) وبهذا قال سعيد بن جبير والسدي وجعفر بن مبشر ، واختاره البلخي وقال : في أول الاسلام كان ذلك يخص النبي (ص) ورخص المؤمنين فيه ، ثم لما عزَّ الاسلام ، وكثر المؤمنون نهوا عن مجالستهم ونسخت الآية .

واستدل الجبائي بهذه الآية على انه لا يجوز على الائمة المعصومين على مذهبنا التقية . (وقال : لانهم اذا كانوا الحجة كانوا مثل النبي ، وكما لايجوز عليه التقية فكذا الامام ـ على مذهبكم ـ) !

وهذا ليس بصحيح ، لانا لا نجوز على الامام التقية فيما لا يعرف الا من جهته ، كالنبي وانما تجوز التقية عليه فيما يكون عليه دلالة قاطعة موصلة الى العلم ، لان المكلف علته مزاحة في تكليفه ، وكذلك يجوز في النبي (ص) أن لا يبين في الحال ، لامته ما يقوم منه بيان منه أومن الله أو عليه دلالة عقلية ، ولذلك قال النبي (ص) لعمر حين سأله عن الكلالةفقال (يكفيك آية الصيف) وأحال آخر في تعرف الوضوء على الآية ، فأما ما لايعرف الا من جهته ، فهو والامام فيه سواء لايجوز فيهما التقية في شيء من الاحكام .

واستدل الجبائي أيضا بالآية على ان الانبياء يجوز عليهم السهو والنسيان قال بخلاف ما يقوله الرافضة بزعمهم من أنه لايجوز عليهم شيء من ذلك . وهذا ليس بصحيح أيضا لأنا نقول انما لا يجوز عليهم السهو والنسيان فيما يؤدونه عن الله ، فأما غير ذلك فانه يجوز أن ينسوه أو يسهو عنه مما لم يؤد ذلك الى

(١) سورة ٦ الانعام آية ٦٩ (٢) سورة ٤ النساء آية ١٣٩

الاخلال بكمال العقل ، وكيف لا يجوز عليهم ذلك وهم ينامون ويمرضون ويغشى عليهم ، والنوم سهو وينسون كثيرا من متصرفاتهم أيضا وما جرى لهم فيما مضى من الزمان ، والذي ظنه فاسد .

وقال أيضا في الآية دلالة على وجوب انكار المنكر لانه تعالى أمره بالاعراض عنهم على وجه الانكار والازدراء لفعلهم وكل أحد يجب عليه ذلك اقتداء بالنبي .

قوله تعالى :

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) آية بلا خلاف

لهذه الآية تأويلان :

أحدهما ـ قال الجبائي والزجاج واكثر المفسرين ان المراد ليس على المتقين من حساب الكافرين وما يخوض فيه المشركون ، ولا من مكروه عاقبته شيء « ولكن ذكرى » أي نهوا عن مجالستهم ليزدادوا تقى وأمروا ان يذكروهم وينبهوهم على خطأهم لكي يتقي المشركون اذا رأوا أعراض هؤلاء المؤمنين عنهم ، وتركهم مجالستهم فلا يعودون لذلك .

والثاني ـ قال البلخي : ليس على المتقين من الحساب يوم القيامة مكروه ولا تبعة ولكنه أعلمهم بأنهم محاسبون وحكم بذلك عليهم لكي يعلموا أن الله يحاسبهم ، فيتقوا فعلى الاول الهاء والميم كناية عن الكفار وعلى الثاني عن المؤمنين .

و (ذكرى) يحتمل ان يكون في موضع رفع ونصب ، فالنصب على تقدير ذكرهم ذكرى والرفع على وجهين: احدهما ـ ولكن عليكم ان تذكروهم، كما قال: « ان عليك الا البلاغ» (١) والثاني ـ على تقدير ولكن الذي يأمرونهم

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٨

به ذكرى ليتقوا عذاب الله .

وقال أبوجعفر (ع) :لما نزلت « فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين» قال المسلمون كيف نصنع ان كان كلما استهزء المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم فلا ندخل اذا المسجد الحرام ولا نطوف بالبيت الحرام ، فأنزل الله تعالى « وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء » وامرهم بتذكيرهم وتبصيرهم ما أستطاعوا .

قوله تعالى :

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

(٧٠)آية عند الجميع

معنى قوله « ذر » دع يقال : وذر يذر مثل ودع يدع ، فاذا أمرت منه قلت : ذر كما قال « ذرهم يأكلوا » .

وقوله « الذين أتخذوا دينهم لعبا ولهوا » يعني هؤلاء الكفار الذين وصفهم انهم أتخذوا دين الله لعبا ولهوا ، لانه لا معنى لمحاجة من كانت هذه سبيله ، لانه لاعب عابث ، لايصغي لما يقال له ، فالمكلم له والمحتج عليه غير منتفع ولا نافع . وقد قطع الله عذر هؤلاء الذين يذهبون مذهب اللعب بما أدركوه بعقولهم ، وما شاهدوه من آياته « وغرتهم الحياة الدنيا » . ثم امر نبيه (ص) ان يذكر به ، يعني القرآن . وقيل الحساب ، لكي لا تبسل نفس بما كسبت أي تدفع الى الهلكة علي وجه الغفلة وتسلم لعملها غير قادرة علي

التخلص ، قال الشاعر في الغريب المضيّف :

وابسالي بني بغير جرم بعوناه ولا بدم مراق (١)

أي اسلامي اياهم . بعوناه اجترمناه ، والبعو الجناية . وقيل : معنى تبسل ترهن ويسلم لعمله . قال الاخفش : معنى « تبسل » تجازى من ابسل ابسالا ، ومنه قوله « اولئك الذين أبسلوا » (٢) قال الكسائي : « تبسل » تجزى يعني في الكلام . وقال الفراء : معناه يسلم ويقال اعط الراقي بسلته أي أجرته على رقيته . ويقال أسد باسل ، معناه ان معه من الاقدام ما يستبسل له قرنه ، ويقال هذا بسل أي حرام ، وهو بسل أي حلال . وهذا من الاضداد .

« شراب من حميم » قال الضحاك الحميم هو الماء الذي احمي حتى انتهى غليانه .

وقوله : « وان تعدل كل عدل » قال بعضهم ان يفد كل فدية يريد ان يجعلها عدلا لها من قوله « لايقبل منها عدل »(٣) وقال غيره معناه وان تقسط كل قسط لا يقبل منها في ذلك اليوم ، لان التوبة انما هي في الحياة الدنيا . ثم أخبر تعالى انه ليس لهؤلاء الكفار « ولي ولا شفيع » أي لاناصر لهم، ولا من يسأل فيهم واخبر أيضا أن هؤلاء في قوله « اولئك الذين أبسلوا » هم الذين يجازون بما كسبوا وان لهم شرابا من حميم وعقابا أليما بما كانوا يكفرون ، نعوذ بالله منها . وقيل : ما من أمة الا ولهم عيد يلعبون فيه ويلهون ، الا أمة محمد فان أعيادهم صلاة وتكبير ودعاء وعبادة .

قوله تعالى :

قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى

(١) تفسير الطبري ١١ / ٤٤٥ ومجاز القرآن ١ / ١٤٩ واللسان «بسل»
(٢) سورة ٦ الانعام آية ٧٠ (٣) سورة ٢ البقرة آية ١٢٣

الْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٧١) آية بلاخلاف

قرأ حمزة « استهواه الشياطين » بألف ممالة ، الباقون بالتاء المعجمة من فوق قال ابو عبيدة « كالذي استهوته الشياطين » أي استمالت به ، ذهبت به، ومنه « فأزلهما الشيطان عنها » (١) وكذلك هوى وأهوى غيره ، قال تعالى : « والمؤتفكة أهوى » (٢) يقال أهويته واستهويته، كما قال « فأزلهما الشيطان» و « انما استزلهما الشيطان » (٣) ، فكما أن ازله بمعنى استزله كذلك استهواه بمنزلة أهواه ، وكما أن معنى استجابه أجابه في قول الشاعر :

فلم يستجبه عند ذاك مجيب (٤)

وقرأ حمزة هاهنا مثل قراءته « توفاه » وكلا المذهبين حسن •

وقوله : « استهواه » انما هو من قولهم : هوى من حالق اذا تردى منه• ويشبه به الذي زل عن الطريق المستقيم ،كما أن زل انما هو من العباد ،والمكان أمر الله نبيه (ص) والمؤمنين أن يقولوا لهؤلاء الذين يدعونهم الى عبادة الاوثان والاصنام « أندعوا من دون الله مالا ينفعنا » ان عبدناه ، ولا يضرنا ان تركنا عبادته «ونرد على أعقابنا» بعد الهدى والرشاد وبعد معرفتنا بالله وتصديق رسله الى الضلال ، وذلك مثل يقال فيمن رجع عن خير الى شر : رجع على عقبيه ، وكذلك اذا خاب من مطلبه ، يقال رد على عقبيه ، ويصير في الحيرة « كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران » لا يهتدي الى طريق ، ولا معرفة « له أصحاب يدعونه » الى الطريق الواضح وهو الهدى ويقولون له « ائتنا » ولا يقبل منهم ، ولا يصير اليهم غير انه لذهاب عقله من فعل الله ، فيستولي الشيطان حينئذ عليه ، ولا يقبل من أحد لحيرته • شبه الله به الكافر الذي يرجع

(١) سورة ٢ البقرة آية ٣٦ (٢) سورة ٥٣ النجم آية ٥٣
(٣) سورة ٣ آل عمران آية ١٥٥ (٤) انظر ٢ / ١٣١

عن ايمانه وهداه الى الضلال. قال ولا يقدر أحد من الشياطين على اذهاب عقل أحد ، لانهم لو قدروا على ذلك لسلبوا عقول العلماء من حيث انهم أعداؤهم، فلما لم يقدروا على ذلك دلّ على أنه لا يقدر على ذلك الا الله .

ثم أمره الله أن يقول لهؤلاء الكفار « ان هدى الله هو الهدى » أي دلالة الله لنا على توحيده وأمر دينه هو الهدى الذي يؤدي المستدل به الى الفلاح والرشاد في دينه وهو الذي يجب أن يعمل عليه ويستدل به دون ما يدل عليه غيره من سوى أمور الدين . وقوله «وأمرنا لنسلم لرب العالمين »معناه أمرنا أن نسلم امورنا لله رب العالمين وان تفوضها اليه وتتوكل عليه لا على غيره مما يعبده المشركون .

و « حيران » نصب الحال ، وتقديره كالذي استهوته الشياطين في حال حيرته . وقوله « له أصحاب يدعونه الى الهدى » قيل : نزلت في عبد الرحمن ابن أبي بكر ، كان أبواه يدعوانه الى الايمان ويقولان له « ائتنا » ، أي تابعنا في ايماننا « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » تقول العرب : أمرتك ان تفعل وأمرتك لتفعل وأمرتك بأن تفعل ،فمن قال: أمرتك بأن تفعل ، فالباء للالصاق . والمعنى وقع الامر بهذا الفعل . ومن قال أمرتك أن تفعل حذف الباء ، ومن قال أمرتك لتفعل المعنى أمرنا للاسلام . قال الزجاج : يكون اللام لام التعليل والتقدير أمرنا كي نسلم قال الشاعر :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل (١)

أي كي أنسى . وقال الطبري : معناه وأمرنا لنخضع له بالذلة والطاعة ونخلص ذلك له دون ما سواه من الانداد والآلهة .

قوله تعالى :

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

(٧٢) اية بلا خلاف

(١) مر هذا البيت في ٣ / ١٧٤ وهو في مجمع البيان ٢ / ٣١٩

تحتمل هذه الآية وجهين :

احدهما ـ أن يكون التقدير أمرنا لان نسلم ، ولان نقيم الصلاة .

والثاني ـ ان يكون محمولا على المعنى ، لان معنـاه أمرنا بالاسلام ، واقامة الصلاة ، وموضع (أن) نصب ، لان الباء لما أسقطت أفضى الفعل ، فنصب . ويحتمل أن يكون محمولا على قوله « يدعونه الى الهدى ائتنا » وان « أقيموا الصلاة » أي ويدعونه أن أقيموا الصلاة . وهذه الآية موصولة بالتي قبلها أي « أمرنا لنسلم لرب العالمين » وقيل لنا « أقيموا الصلاة واتقوه » اي اتقوا رب العالمين بأن تجتنبوا معاصيه وتتقوا عقابه . ثم بين أنه « هو الذي اليه تحشرون » أي تجمعون اليه يوم القيامة فيجازي كل عامل منكم بعمله ، وتوفى كل نفس بما كسبت .

قوله تعـالى :

وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ (*) قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

آيتان في البصري والمدنيين وآية في الكوفي .

أمر الله تعالى نبيه (ص) أن يقول لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الاصنام ، ويدعون المؤمنين الى عبادتها « وامرنا لنسلم لرب العالمين » الذي خلق السماوات والارض بالحق ، وفي معنى بالحق قولان :

احدهما ـ قال الحسن والبلخي والجبائي والزجاج والطبري : ان معناه خلقهما للحق لا للباطل . ومعناه خلقهما حقا وصوابا لا باطلا وخطأ ، كما قال تعالى : « وما خلقنـا السماء والارض وما بينهما باطلا » (١) وادخلت الباء

(١) سورة ٣٨ ص آية ٢٧

والالف واللام كما أدخلت في نظائرها يقولون : فلان يقول بالحق ، بمعنى أنه يقول الحق ، لا أن الحق معنى غير القول بل التقدير ان خلق الله السماوات والارض حكمة وصواب من حكم الله ، وهو موصوف بالحكمة في خلقهما وخلق ماسواهما من جميع خلقه لا أن هناك حقا سوى خلقهما خلقهما به، وذلك يدل على بطلان ما يقوله المجبرة :ان هذا كله باطل وسفه ،وما يخالف الحكمة هو من فعل الله ، تعالى الله عن ذلك .

والثاني ـ قال قوم : معنى ذلك أنه خلق السماوات والارض بكلامه ، وهو قوله «ائتيا طوعاً أو كرهاً » (٢) قالوا : فالحق هو كلامه واستشهدوا على ذلك بقوله « ويوم يقول كن فيكون قوله الحق » (٣) أن الحق هو قوله وكلامه . قالوا والله خالق الاشياء بكلامه ، وذلك يوجب أن يكون كلامه قديما غير مخلوق ، وقد بينا فساد هذا الوجه فيما تقدم ، والمعتمد الاول .

وقوله « ويوم يقول كن فيكون » نصب (يوم) على وجوه :

احدها ـ على معنى واتقوا « يوم يقول كن فيكون » نسقا على الهاء كما قال : « واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا » (٤) .

والثاني ـ أن يكون على معنى واذكر يوم يقول كن فيكون لان بعده « واذ قال ابراهيم » والمعنى واذكر « يوم يقول كن فيكون » واذكر « اذ قال ابراهيم » وهو الذي أختاره الزجاج .

والثالث ـ أن يكون معطوفا على « السماوات والإرض بالحق »وخلق « يوم يقول كن فيكون » . فان قيل : ان يوم القيامة لم يخلق بعد ؟ قيل : ما أخبر الله بكونه فحقيقة واقع لا محالة وقال قول : التمام عند قوله « كن » وقوله « فيكون قوله الحق » ابتداء أي ماوعدوا به من الثواب وحذروا به من العقاب كائن حق قوله بذلك .

---

(٢) سورة ٤١ حم السجدة آية ١١ (٣) سورة ٦ الانعام آية ٧٣

(٤) سورة ٢ البقرة آية ٤٨

وقوله « كن فيكون » قال قوم هو خطاب للصور • والمعنى ويوم يقول للصور كن فيكون • وقد بينا فيما مضى أن ذلك عبارة عن سرعة الفعل وتيسيره وانه لايتعذر عليه شيء بمنزلة أن يقول كن فيكون ، لا أن هناك أمر على الحقيقة وكيف يكون هناك أمر والامر لايتوجه الا الى الحي القادر؟! والمعدومات والجمادات لايحسن أمرها ولا خطابها • والغرض بالآية الدلالة على سرعة أمر البعث والساعة كأنه قال ويوم يقول للخلق : موتوا فيموتون وانتشروا فينتشرون اي لا يتعذور عليه ولا يتأخر عن وقت ارادته • وقيل « يوم يقول كن فيكون قوله الحق » أي يأمر فيقع امره • والحق من صفة قوله • كما يقول القائل قد قلت ، فكان قولك • والمعنى ليس انك قلت فكان الكلام • وانما المعنى انه كان ما دل عليه القول • وعلى القول الاول يرفع (قوله) بالابتداء و (الحق) خبر الابتداء • وحكي عن قوم من السلف « فيكون » بالنصب باضمار (ان) • وتقديره كن فأن يكون ، وهذا ضعيف •

وقوله « وله الملك يوم ينفخ في الصور » يحتمل نصب « يوم ينفخ » ثلاثة أوجه :

احدها ــ ان يكون متعلقا بـ (له الملك) والتقدير له الملك يوم ينفخ في الصور وانما خص ذلك اليوم بأن الملك له كما خصه في قوله « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » • وقرأ بعضهم « ينفخ » بفتح الياء • و « عالم الغيب والشهادة » فاعل (ينفخ) وهو شاذ ، روي عن ابن عباس ذلك ، والوجه أنه لايبقى ملك من ملكه الله في الدنيا او يغلب عليه بل ينفرد هو تعالى بالملك •

والثاني ــ ان يكون يوم ينفخ بيانا على قوله « يوم يقول كن فيكون »

الثالث ــ ان يكون منصوبا بـ (قوله الحق) • والمعنى وقوله الحق يوم ينفخ ، الصور • والوجه في اختصاص ذلك اليوم بالذكر ما بيناه في الوجه الاول ، لان قوله حق في جميع الاوقات • وفي معنى الصور قولان :

احدهما ــ ما عليه اكثر المفسرين من انه اسم لقرن ينفخ فيه الملك

فيكون منه الصوت الذي يصعق له اهل السماوات واهل الارض ، ثم ينفخ فيه نفخة أخرى للنشور ، وهو الذي اختاره البلخي والجبائي والزجاج والطبري واكثر المفسرين .

والثاني — أنه جمع صورة مثل قولهم سورة وسور اختاره ابو عبيدة .

وقرأ بعضهم في الشواذ في الصور بفتح الواو وذلك يقوي ما قاله ابو عبيدة ، ويكون تقديره يوم ينفخ في الاموات . ويقوي الاول قوله تعالى « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات » ثم قال « ثم نفخ فيه اخرى »(١) ولم يقل فيها أخرى او فيهن وذلك يدل على انه واحد . وروى ابو سعيد الخدري قال قال رسول الله (ص) : كيف انعم وقد التقم صاحب القرن وحنا جنبيه وأصغا سمعه ينتظر ان يؤمر ، فينفخ ؟ ! قالوا : فكيف نقول يارسول الله ؟ قال قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

والعرب تقول نفخ الصور ونفخ في الصور ، قال الشاعر :

لولا ابن جعدة لم يفتح قهندركم   ولا خراسان حتى ينفخ الصور (١)

وروي عن ابن عباس ان الصور يعني به النفخة الاولى . ثم بين انه عالم الغيب والشهادة اي ما يشاهده الخلق وما لايشاهدونه وما يعلمونه ومالا يعلمونه ، ولا يخفى عليه شيء من ذلك . وبين انه الحكيم في أفعاله الخبير العالم بعباده وبأفعالهم ، ورفع عالم الغيب لانه نعت للذي في قوله « وهو الذي خلق السماوات والارض بالحق عالم الغيب والشهادة » ويحتمل ان يكون اسم ما لم يسم فاعله كما يقولون اكل طعامك عبد الله ، فيظهر اسم فاعل الاكل بعد ان قد جرى الخبر بما لم يسم فاعله ، والاول أجود ، فأما من فتح الياء في ينفخ فانه جعل عالم الغيب فاعله مرتفعا به .

قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٦٨ .

إِنِّي أَرٰيكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) آية بلا خلاف •

قرأ اكثر القراء (آزر) بنصب الراء • وقرأ ابو بريد المدني والحسن البصري ويعقوب بالضم • فمن قرأ بالنصب جعل (آزر) في موضع خفض بدلا من أبيه • ومن قرأ بالضم جعله منادى مفردا وتقديره يا آزر •

وقال الزجاج : لاخلاف بين اهل النسب ان اسم ابي ابراهيم تارخ والذي في القرآن يدل على ان اسمه (آزر) وقيل (آزر) ذم في لغتهم كأنه قال : واذ قال ابراهيم لابيه يامخطىء اتتخذ أصناما فعلى هذا قال الزجاج الاختيار الرفع • قال : ويجوز أن يكون وصفا له كأنه قال واذ قال ابراهيم لابيه المخطىء • قال الزجاج : وقيل (آزر) اسم صنم ، فموضعه نصب على اضمار الفعل ، كأنه قال : واذ قال ابراهيم لابيه أتتخذ آزر ، وجعل (أصناما) بدلا من آزر واشباهه • فقال بعد أن قال اتتخذ آزر الها اتتخذ اصناما آلهة • والذي قاله الزجاج يقوي ما قاله أصحابنا ، ان آزر كان جده لامه أو كان عمه ، لان أباه كان مؤمنا من حيث ثبت عندهم أن آباء النبي (ص) الى آدم كلهم كانوا موحدين لم يكن فيهم كافر ، وحجتهم فى ذلك اجماع الفرقة المحقة ، وقد ثبت أن اجماعها حجة لدخول المعصوم فيها ، ولا خلاف بينهم في هذه المسألة • وأيضا روي عن النبي (ص) أنه قال : نقلني الله من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات لم يدنسني بدنس الجاهلية ، وهذا خبر لاخلاف فى صحته ، فبين النبي (ص) أن الله نقله من أصلاب الطاهرين فلو كان فيهم كافر لما جاز وصفهم بأنهم طاهرون ، لان الله وصف المشركين بأنهم أنجاس ، فقال « انما المشركون نجس »(١) ولهم في ذلك أدلة لا نطول بذكرها الكتاب لئلا يخرج عن الغرض •

واختلفوا في معنى (آزر) هل هو اسم أو صفة ، فقال السدي ومحمد

(١) سورة ٩ التوبة آية ٢٩ •

ابن اسحاق وسعيد بن عبد العزيز والجبائي والبلخي : انه اسم أبي ابراهيم، وهو تارخ كما قيل ليعقوب : اسرائيل ، قالوا : ويجوز ان يكون لقباً غلب عليه . وقال مجاهد : ليس آزر أبا ابراهيم وانما هو اسم صنم . وقال قوم هو سب وعبث بكلامهم ، ومعناه معوج . و (اذ) في الآية متعلقة بقوله واذكر « اذ قال ابراهيم لابيه آزر اتتخذ أصناما آلهة » والالف الف انكار لا استفهام وان كان قد خرج مخرج الاستفهام .

وقوله « اني أراك في ضلال مبين » يعني في ضلال عن الصواب وقوله « مبين » يدل على انه قال ذلك منكرا ، والمبين هو البين الظاهر ، والغرض بالآية حث النبي (ص) على محاجة قومه الذين يدعونه الى عبادة الاصنام والازدراء على فعلهم والاقتداء في ذلك بأبيه ابراهيم (ص) وصبره على محاجة قومه العابدين للاصنام ليتسلى بذلك ويقوي دواعيه الى ذلك . والاصنام جمع صنم وهو مثال من حجر او خشب او من غير ذلك في صورة انسان وهو الوثن . وقد يقال للصورة المصورة على صورة الانسان في الحائط وغيره صنم ووثن .

قوله تعالى :

وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ (٧٥) آية بلا خلاف .

معنى قوله « وكذلك نري ابراهيم ملكوت » أي مثل ماوصفنا منقصة ابراهيم من قوله لابيه ما قال نريه « ملكوت السماوات » أي انا كما أريناه أن قومه في عبادة الاصنام ضالون كذلك نريه ملكوت السماوات والارض

وقيل في معنى الملكوت أقوال : قال الزجاج ، والفراء والبلخي والجبائي والطبري وهو قول عكرمة : ان الملكوت بمنزلة الملك غير أن هذه اللفظة ابلغ من الملك ، لان الواو والتاء يزادان للمبالغة . ومثل الملكوت الرغبوت

والرهبوت ووزنه (فعلوت) وفي المثل (رهبوت خير من رغبوت) ومن روى (رهبوتي خير من رحموتي) معناه أن يكون له هيبــة يرهب بها خير من أن يرحم .

وقال مجاهد (ملكوت السماوات والارض) ملكهما بالنبطية .

وقال الضحاك : يعني خلقهما ، وبه قال ابن عباس ، وقتادة . وروي عن مجاهد أيضا أن معناه آيات السماوات والارض . وروي عن مجاهد وابن عباس أيضا أنه أراد بذلك ما أخبر الله عنه أنه أراه من النجوم والشمس والقمر ، حين خرج من المغارة ، وبه قال قتادة . وقال الجبائي : المعنى اناكنا نري ابراهيم ملكوت السماوات والارض والحوادث الدالة على أن الله مالك لها ، ولكل شيء بنفسه ، لا يملكه سواه ، فأجرى الملكوت على المملوك الذي هو في السماوات والارض مجازا .

وقوله « وليكون من الموقنين » أي اريناه ملكوت السماوات ليستدل به على الله وليكون من الموقنين أن الله هو خالق ذلك والمالك له . والموقن هو العالم الذي يتيقن الشيء بعد أن لم يكن مثبتا ، ولهذا لا يوصف تعالى بأنه متيقن كما يوصف بأنه عالم ، لانه تعالى عالم بها فيما لم يزل . وقال أبو جعفر(ع): كشط الله له السموات والارض حتى رآهن وما عليهن من الملائكة وحملة العرش ، وذلك قوله: « وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والارض ».

فان قيل كيف يجوز أن يرى ما تحت الارضين والارض حجاب لما تحتها وكذلك السماء فوقها ؟

قلنا : لا يمتنع أن يجعل الله تعالى منها خروقا ومنافذ ويقوي شعاعه حتى ينفذ فيها فيرى ما فوقها وما تحتها ولا يمنع من ذلك مانع ، ومثل هذا روي عن مجاهد والسدي وسعيد بن جبير وسلمان .

قوله تعـــالى :

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ

قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هٰذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذَا رَبِّي هٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) أربع آيات بلاخلاف .

قرأ ابن ذكوان ، وحمزة والكسائي وخلف ، ويحيى والكسائي عن أبي بكر (رأى) بكسر الراء وامالة الهمزة منه ومن قوله « رأى أيديهم » (١) في هود ، و « رآى قمصه » و « رأى برهان ربه » في يوسف (٢) و « رأى نارا » في طه (٣) و « لقد رأى » في النجم (٤) سبعة مواضع . وهو مالم يقله ساكن ولم يتصل بمكنى ، وافقهم العليمي في « رأى كوكبا » حسب .

وقرأ ابو عمرو ــ بفتح الراء ــ وإمالة الهمزة فيهن . الباقون بفتح الراء والهمزة . فأن لقي (رأى) ساكنا ، وهو ستة مواضع هاهنا : « رأى القمر » و « رأى الشمس » وفي النحل « واذا رأى الذين اشركوا » (٥) وفي الكهف « ورأى المجرمون » (٦) وفى الاحزاب « ولما رأى المؤمنون » (٧) بكسر الراء وكسر الهمزة فيهن حمزة وخلف وبصير وابو بكر الا الاعشى . البرجمي . الباقون بفتح الراء والهمزة فان اتصل رأى بمكنى نحو (رآه ورآك ورآها) فكسر

(١) سورة ١١ هود آية ٧٠ (٢) آية ٢٤ وآية ٢٨ .
(٣) آية ١٠ (٤) آية ١٨ .
(٥) آية ٨٥ ، ٨٦ (٦) آية ٥٤ .
(٧) آية ٢٢ .

الراء واmال الهمزة حيث وقع حمزة والكسائى وخلف ويحيى والكسائي عن أبي بكر •

وقرأ ابوعمرو والداحوني عن ابن ذكوان ــ بفتح الراء وامالة الهمزة ــ الباقون بفتحهما • قال ابو علي الفارسي : وجه قراءة من لم يملها انه ترك الامالة كما تركوا الامالة في قولهم : دعا ، ورمى • فلما لم يمل الالف لم يمل الالف التي قبلها ، كما أمالها من يرى الامالة ليميل الالف نحو الياء •

ومن قرأ بين الفتح والكسر كما قرأ نافع ، فلا يخلو أن يريد الفتحتين اللتين على الراء والهمزة ، او الفتحة التي على الهمزة وحدها ، فان كان يريد فتحة الهمزة فانما أمالها نحو الكسرة ليميل الالف التي في « رأى » نحو الياء كما أمال الفتحة التي على الدال من (هدى) والميم من (رمى) • وان كان يريد أنه أمال الفتحتين جميعا التي على الراء والتي على الهمزة ، فإمالة فتحة الهمزة على ما تقدم ذكره ، واما امالة الفتحة التي على الراء فانما أمالها لاتباعه اياها امالة فتحة الهمزة ، كأنه امال الفتحة كما أمال الالف في قولك : رأيت عمادا ، اذ الفتحة الممالة بمنزلة الكسرة فكما أميلت الفتحة في قولك : من عامر ، لكسرة الراء كذلك أميلت فتحة الراء من (رأى) لامالة الفتحة التي على الهمزة • والتقديم والتأخير في ذلك سواء •

ومن كسر الراء والهمزة فالوجه فيه أنه كسر الراء من (رأى) لان المضارع منه على (يفعل) واذا كان المضارع منه على (يفعل) كان الماضى على (فعل) ألا ترى ان المضارع في الامر العام اذا كان على (يفعل) كان الماضى على فعل• وعلى هذا قالوا : إيت بيتنا ، فكسروا حرف المضارعة • كما كسروا في نحو يحيى ، ويعلم ، ويفهم • وكسروا الياء أيضا في هذه الحروف ، فقالوا : إيتنا ، ولم يكسروها في (يعلم ويفهم) اذا كان الماضى على فعل فيما يترك كسر الراء التي هي فاء ، لان العين همزة • وحروف الحلق اذا جاءت فى كلمة على زنة (فعل) كسرت فيها الفاء لكسر العين فى الاسم والفعل ، نحو قولهم : غير قعر،

ورجل حبر ، وفحل ، وفي الفعل نحو (شهد ولعب ونعم) فكسرة الياء على هذا كسرة مخلصة محضة ، وليست بفتحة ممالة ، واما كسرة الهمزة فأنه يراد به امالة فتحتها الى الكسرة ، لتميل الالف نحو الياء •

ومن ترك الامالة اذا لقيها ساكن ، فانهم كانوا يميلون الفتحة لميل الالف نحو الياء،فلما سقطت الالف بطلت أمالتها بسقوطها، وبطلت بذلك امالة الفتحة نحو الكسرة لسقوط الالف التي كانت الفتحة الممالة لميلها نحو الياء في مثل (رأى الشمس) و (رأى القمر) ونحوهما في جميع القرآن • ومن وافق في بعض ذلك دون بعض أحب الاخذ باللبس •

ووجه قراءة أبي بكر وحمزة في (رأى الشمس) و (رأى القمر) بكسر الراء وفتح الهمزة في جميع القرآن ، أن كسر الراء انما هو للتنزيل الذي ذكرناه ، وهو معنى منفصل من إمالة فتحة الهمزة ، ألا ترى انه يجوز ان يعمل هذا المعنى من لا يرى الامالة كما يجوز ان يعمله من يراها • واذا كان كذلك كان انفصال أحدهما من الآخر سائغا غير ممتنع • فأما رواية يحيى عن أبي بكر ـ بكسر الراء والهمزة معا ـ فانما يريد بكسرة الهمزة إمالة فتحتها ، فوجه كسر الراء قد ذكروا امالة فتحها مع زوال ما كان يوجب امالتها من حذف الالف، فلأن الالف محذوفة لالتقاء الساكنين • وما يحذف لالتقاء الساكنين ينزل تنزيل المثبت • ألا ترى انهم أنشدوا :

ولا ذاكر الله إلا قليلا (١)

فنصب الاسم بعد (ذاكر) وان كانت النون محذوفة لما كان الحذف لالتقاء الساكنين • والحذف لذلك في تقدير الاثبات ، من حيث كان التقاؤهما غير لازم ولذلك لم ترد الالف في نحو (رمت المرأة) ويشهد لذلك أنهم قالوا: شهد ، فكسروا الفاء لكسر العين ، ثم أسكنوا فقالوا ـ شهد ، فأبقوا الكسرة في الفاء مع زوال ما كان أصلها وانشد قول الاخطل :

---

(١) مر تخريجه في ٢ / ٧٢

اذا غاب عنا غاب عنـــا فرأتنا وان شهد أجدى فضله وجداوله (٢)

وقالوا : صعق ، ثم نسبوا اليه فقالوا : صعقي ، فأقرئوا كسرة الفاء مع زوال كسرة العين التي لها كسرت الفاء • وزعم ابو الحسن أن ذلك لغة مع مافيه من وجوه التلبيس وأنها قراءة •

يقال : جنَّ عليه الليل ، وجنه الليل ، وأجنه ، وأجنَّ عليه ، ومع حذف « على » فأجنه بالالف أفصح من جنه الليل • وكل ذلك مسموع ، فلغة أسد جنه الليل ، ولغة تميم أجنه ، والمصدر من جن عليه جنا وجنونا وجنانا وأجن إجنانا • ويقال: أتانا فلان في جن الليل • والجن مشتق من ذلك ، لانهم استجنوا عن أعين الناس ، فلا يُرون ، وكلما توارى عن أبصار الناس ، فان العرب تقول: قد جن • ومنه قول الهذلي :

وماء وردت قبيل الـــكرى وقد جنـــه السدف الادهم (٣)

وقال عبيد :

وخرق تصيح الهام فيه مع الصدى مخوف اذا ما جنه الليل مرهوب(٤)

وتقول : أجننت الميت اذا واريته فى اللحد وجننته وهو مثل جنون الليل فى معنى غطيته وسمي الترس مجنا لانه يجن اي يغطي ، وقال الشاعر :

فلما أجن الليل بتنا كأننا على كثرة الاعداء محترسان

قوله « فلما جن عليه الليل » أي أظلم • وقوله « فلما أفل » معناه غاب يقال : أفل يأفل أفولا ، وتقول اين أفلت عنا ، واين غبت عنا ، قال ذو الرمة :

مصابيح ليست باللواتي تقودها نجوم ولا بالآفات الدوالك (٥)

---

(٢) ديوانه ٦٤

(٣) هكذا في المطبوعة والمخطوطتين وتفسير الطبري ١١ / ٤٧٩ وروي « وماء وردت على خيفة » و « على جفنـــه » و « قبل الصباح » • ديوان الهذليين ٣ : ٥٦ واللسان « سدف » « جنن » •

(٤) ديوانه ٣٨ والطبري ١١ / ٤٧٩ •

(٥) ديوانه :٢٤٥ ومجاز القرآن ١/١٩٩ واللسان والتاج « دلك » ـ

وقوله « رأى القمر بازغا » أي طالعــا ، يقال : بزغت الشمس بزوغا اذا طلعت ، وكذلك القمر ، وقوله للشمس « هذا ربي » وهي مؤنثة معناه هذا الشيء الطالع ربي او على أنه حين ظهرت الشمس وقد كانوا يذكرون الرّب في كلامهم ، فقال لهم هذا ربي ؟ !

وقيل في معنى هذه الآية وجوه أربعة :

الوجه الاول ـ ما قاله الجبائي : ان ما حكى الله عن ابراهيم في هــذه الآية كان قبل بلوغه ، وقبل كمال عقله ولزوم التكليف له ، غير انه لمقاربته كمال العقل خطرت له الخواطر وحركته الشبهات والدواعي على الفكر فيما يشاهده من هذه الحوادث ، فلما رأى الكوكب ـ وقيل : انه الزهرة ـ وبان نوره مع تنبيهه بالخواطر على الفكر فيه وفي غيره ظن انه ربه ، وأنه هو المحدث لما شاهده من الاجسام وغيرها « فلما أفل قال لا أحب الآفلين » لانه صار منتقلا من حال الى حال وذلك مناف لصفات القديم « فلما رأى القمر بازغا » عند طلوعه رأى كبره واشراق ما انبسط من نوره في الدنيا « قال هذا ربي » فلما راعاه وجده يزول ويأفل ، فصار عنده بحكم الكوكب الذي لا يجوز ان يكون بصفة الاله ، لتغيره وانتقاله من حال الى حال ، « فلما رأى الشمس بازغة » أي طالعة قد ملأت الدنيا نورا ورأى عظمها وكبرها « قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت » وزالت وغابت ، فكانت شبيهة بالكوكب والقمر قال حينئذ لقومه « اني بريء ممــا تشركون » فلما أكمل الله عقله ضبط بفكره النظر في حــدوث الاجسام بأن وجودها غير منفكة من المعاني المحدثة ، وأنه لابدّ لها من محدث ، قال حينئذ لقومه « اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض ٠٠٠ » الى آخرها .

والوجه الثاني ـ ما قاله البلخي وغيره : من أن هذا القول كان من ابراهيم في زمان مهلة النظر ، لان مهلة النظر مدة ، الله العالم بمقدارها ، وهي اكثر من

والطبري ١١ : ٤٨٥ والازمنة ٢ : ٤٩ وكتاب القرطين ١ : ٢٦ . يصف الابل بأنها مصابيح اي تصبح في مبركها فلا تقف في الطريق .

ساعة . وقال البلخي : وأقل من شهر ، ولا يدري ما بينهما الا الله ، فلما أكمل الله عقله وخطر بباله ما يوجب عليه النظر وحركته الدواعي على الفكر والتأمل له . قال ما حكاه الله ، لان ابراهيم (ع) لم يخلق عارفا بالله ، وانما اكتسب المعرفة لما أكمل الله عقله ، وخوفه من ترك النظر بالخواطر ، فلما رأى الكوكب ـ وقيل هو الزهرة ـ رأى عظمها واشراقها وما هي عليه من عجيب الخلق ، وكان قومه يعبدون الكواكب ، ويزعمون أنها آلهة ـ قال هذا ربي ؟! على سبيل الفكر والتأمل لذلك ، فلما غابت وأفلت ، وعلم ان الافول لا يجوز على الله علم انها محدثة متغيرة لتنقلها ، وكذلك كانت حاله في رؤية القمر والشمس ، وأنه لما رأى افولهما قطع على حدوثهما واستحالة إلهيتهما ، وقال في آخر كلامه « أني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » وكان هذا القول منه عقيب معرفته بالله وعلمه بأن صفات المحدثين لا تجوز عليه .

فان قيل : كيف يجوز ان يقول : هذا ربي مخبرا ، وهو يجوز أن يكون مخبره لا على ما اخبر ، لانه غير عالم بذلك ، وذلك قبيح في العقول ، ومع كمال عقله لابد أن يلزمه التحرز من الكذب ؟ !

قلنا عن ذلك جوابان :

احدهما ـ انه قال ذلك فارضا مقدرا ، لامخبرا بل على سبيل الفكر والتأمل ، كما يقول الواحد منا لغيره اذا كان ناظرا في شيء ومحتملا بين كونه على إحدى صفتين : انا نفرضه على احداهما لننظر فيما يؤدي ذلك الفرض اليه من صحة او فساد ، ولا يكون بذلك مخبرا ، ولهذا يصح من احدنا اذا نظر في حدوث الاجسام وقدمها ان يفرض كونها قديمة ليتبين ما يؤدي اليه ذلك الفرض من الفساد .

والثاني ـ انه اخبر عن ظنه وقد يجوز ان يكون المفكر المتأمل ظانا في حال نظره وفكره ما لا اصل له ثم يرجع عنه بالادلة والعلم ولا يكون ذلك

منه قبيحا .

فان قيل : ظاهر الآيات يدل على ان ابراهيم ما كان رأى هذه الكواكب قبل ذلك ، لان تعجبه منها تعجب من لم يكن رآها ، فكيف يجوز ان يكون الى مدة كمال عقله لم يشاهد السماء وما فيها من النجوم ؟ !

قلنا : لايمتنع ان يكون ما رأى السماء الا في ذلك الوقت ، لانه روي أن أمه ولدته في مغارة لا يرى السماء ، فلما قارب البلوغ وبلغ حد التكليف خرج من المغارة ورأى السماء وفكر فيها . وقد يجوز أيضا ان يكون رآها غير انه لم يفكر فيها ولا نظر في دلائلها ، لان الفكر لم يكن واجبا عليه ، فلما كمل عقله وحركته الخواطر فكر في الشيء الذي كان يراه قبل ذلك ولم يكن مفكرا فيه .

والوجه الثالث ـ ان ابراهيم لم يقل ما تضمنته الآيات على وجه الشك ولا في زمان مهلة النظر بل كان في تلك الحال عالما بالله وبما يجوز عليه ، فأنه لايجوز ان يكون بصفة الكوكب ، وانما قال ذلك على سبيل الانكار على قومه والتنبيه لهم على ان ما يغيب وينتقل من حال الى حال لايجوز ان يكون إلها معبودا ، لثبوت دلالة الحدث فيه . ويكون قوله « هذا ربي » محمولا على أحد وجهين .

احدهما ـ أي هو كذلك عندكم وعلى مذهبكم كما يقول احدنا للمشبه على وجه الانكار عليه : هذا ربي جسم يتحرك ويسكن وان كان عالماً بفساد ذلك .

والثاني ـ أن يكون قال ذلك مستفهما وأسقط حرف الاستفهام للاستغناء عنه ، كما قال الاخطل :

كذبتك عينك أم رايت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا (١)

وقال آخر :

---

(١) ديوانه ٤١ ، وقد مر في ١ : ٤٠٣ ، ٤٧٥

لعمرك ما أدري وان كنت داريا بسبع رمين الجمر امبثمانيا (١)

وقال ابن أبي ربيعة :

ثم قالوا تحبهـــا قلت بهرا عدد النجم والحصى والتراب (٢)

وقال أوس بن حجر :

لعمرك ما أدري وان كنت داريا شعيب بن سهم أم شعيب بن منقر(٣)

وانما أراد أشعيب بن سهم أم شعيب بن منقر .

فان قيل : حذف حرف الاستفهام انما يجوز اذا كان في الكلام عوضا منه نحو (أم) للدلالة عليه ، ولا يستعمل مع فقد العوض ، وفي الابيات عوض عن حرف الاستفهام ، وليس ذلك في الآية .

قلنا : قد يحذف حرف الاستفهام مع ثبوت العوض تارة وأخرى مـــع فقـــده اذا زال اللبس ، وبيت ابن أبي ربيعة ليس فيه عوض ولا فيه حرف الاستفهام ، وانشد الطبري :

رفوني وقالوا يا خويلــد لا ترع فقلت وانكرت الوجوه هم هم(٤)

أي أهم هم ؟ ، وروي عن ابن عباس في قوله « فلا اقتحم العقبة » أنه قال معناه أفلا اقتحم العقبة ، وحذف حرف الاستفهام . واذا جاز ان يحذفوا حرف الاستفهام لدلالة الخطاب جاز أن يحذفوه لدلالة العقل ، لان دلالة العقل أقوى من غيرها .

والوجه الرابع — أن ابراهيم قال ذلك على وجه المحاجة لقومه بالنظر كما يقول القائل : اذا قلنا : ان لله ولدا لزمنا أن نقول له زوجة ، وان يطأ النساء

(١) تفسير القرطبي ٧ / ٢٧ .
(٢) ديوانه : ١١٧ « طبعة بيروت سنة ١٣١١ هـ » .
(٣) شواهد المغني : ١٥ والكامل للمبرد ١ / ٣٨٤ ، ٢ / ١١٥ والبيان والتبيين ٤ / ٤٠ وسيبويه ١ / ٤٨٥ وتفسير الطبري ١١ / ٤٨٤ وغيرها .
(٤) قائله ابو خراش الهذلي ، ديوان الهذليين ٢ : ١٤٤ واللسان (رفأ) (رفو) والقرطبي ٧ / ٢٦ و (رفوني) اي اسكنوني من الرعب .

وأشباه ذلك ، وليس هذا على وجه الاقرار والاخبار والاعتقاد بذلك ، بل على وجه المحاجة فيجعلها مذهبا ليرى خصمه المعتقد لها فسادها •

وكل هذه الآيات فيها تنبيه لمشركي العرب وزجر لهم عن عبادة الاصنام وحث على الاخذ بدين ابراهيم ابيهم وسلوك سبيله في النظر والفكر والتدين، لانهم كانوا قوما يعظمون أسلافهم وآباءهم فأعلمهم الله تعالى ان اتباع الحق من دين ابيهم الـذي يقرون بفضله اوجب عليهم ان كـان بهم تعظيم الآباء والكراهة لمخالفتهم •

وفي الآية دلالة على ان معرفة الله ليست ضرورية ، لانها لو كانت ضرورية لما احتاج ابراهيم الى الاستدلال على ذلك ،ولكان يقول لقومه : كيف تعبدون الكواكب وانتم تعلمون حدوثها وحدوث الاجسام ضرورة ، وتعلمون ان لها محدثا على صفات مخصوصة ضرورة ، وما كان يحتاج الى تكلف الاستدلال والتنبيه على هذا •

وقوله « لئن لم يهدني ربي » معناه لئن لم يلطف بي ويسددني ويوفقني لاصابة الحق في توحيده « لاكونن من القوم الضالين » الذين ضلوا عن الحق وأخطأوا طريقه، فلم يصيبوا الهدى •وليس الهداية ههنا الادلة، لان الادلة كانت سبقت حال زمان النظر ، فأن التكليف لايحسن من دونها ولا يصح مع فقدها •

وقوله في الشمس « هذا أكبر » يعني من الكواكب وحذف لدلالة الكلام عليه • وقوله « اني وجهت وجهي » معناه أخلصت عبادتي وقصدت بها الى الله الذي خلق السماوات والارض • وفيه اخبار عن ابراهيم واقرار منه واعتراف بأنه (ع) خالف قومه أهل الشرك ، ولم يأخذه في الله لومة لائم ، ولم يستوحش من قول الحق لقلة تابعيه • وقال لهم«اني بريء مما تشركون» مع الله ـ الذي خلقني وخلقكم ـ في عبادته من آلهتكم بل « وجهت وجهي » في عبادتي الي الذي خلق السماوات ولارض الذي يبقى ولا يفني ، الحي

الذي لايموت • واخبر انه يوجه عبادته ويخلصها له تعالى • والاستقامة في ذلك لربه على ما يجب من التوحيد لا على الوجه الذي توجه له من حيث ليس بحنيف • ومعنى الحنيف هو المائل الى الاستقامة على وجه الرجوع فيه • وقوله « وما أنا من المشركين » اني لست منكم، ولا ممن يدين بدينكم ، ويتبع ملتكم أيها المشركون •

قوله تعـالى :

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) آية عند الجميع

قرأ اهـل المدينة وابن ذكوان « أتحاجوني » بتخفيف النون • الباقون بتشديدهـا •

وقرأ الكسائي والعبسي « وقد هداني » بالامالة • الباقون بالتفخيم •

قال ابو علي : من شدد فلا نظر في قوله • ومن خفف فانه حذف النون الثانية لالتقاء الساكنين • والتضعيف يكره ، فيتوصل الى ازالته تارة بالحذف نحو علم أني فلان ، وتارة بالابدال نحو لا املاه عني تفارقا ، ونحو ديوان وقيراط ، فحذفوا الثانية منهما كراهية التضعيف • ولا يجوز ان يكون المحذوفة الاولى ، لان الاستثقال يقع بالتكرير في الامر الاعم وفي الاولى أيضا أنهـا دلالة الاعراب ولذا حذفت الثانية كما حذف الشاعر في قوله :

ليتي أصادفه وافقد بعض مالي (١)

وقال بعضهم حذف هذه النون لغة غطفان • وحكى سيبويه هذه القراءة مستشهدا بها في حذف النونات كراهية التضعيف • واما إمالة (هداني) فحسنة،

(١) قائله زيد الخيل ، اللسان (ليت) وروايته •

كمنية جابر اذ قال ليتي أصادفه وأتلف جلّ مالي

لانه من هدى يهدي ، فهو من الياء • واذا كانوا أمالوا (غزا ، ودعا) ، لانه قد يصير الى الياء في غزي ودعي • فهذا لا اشكال في حسنه •

قوله « وحاجة قومه » يعني في وجوب عبادة الله وترك عبادة آلهتهم وخوّفوه من تركها وان لا يأمن ان تخبله آلهتهم من الاصنام وغيرها ، فقال لهم ابراهيم (ع) « أتحاجوني في الله وقد هداني » بأن وفقني لمعرفته ولطف بي في العلم بتوحيده وترك الشرك واخلاص العبادة له « ولا اخاف ماتشركون به »أي لا اخاف منه ضررا ان كفرت به ولا أرجو نفعا إن عبدته ، لانه بين صنم قد كسر ، فلم يدفع عن نفسه أو نجم دل أفوله على حدوثه ، فكيف تحاجوني وتدعونني الى عبادة من لايخاف ضرره ولا يرجا نفعه « الا أن يشاء ربي شيئا » فيه قولان :

احدهما ـ الا أن يقلبها الله ، فيحييها ويقدرها فتضر وتنفع ، فيكون ضررها ونفعها اذ ذاك دليلا على حدوثها أيضا ، وعلى توحيد الله وأنه المستحق للعبادة دون غيره وانه لاشريك له في ملكه ، ثم أثنى عليه تعالى فأخبر بأنه عالم بكل شيء ، وامرهم بالتذكر والتدبر لما أورده عليهم مما لا يدفعونه ولايقدرون على انكاره ان انصفوا •

الثاني ـ قال الحسن : قوله : « ولا أخاف ما تشركون به » أي لااخاف الاوثان « الا أن يشاء ربي شيئا » استوجبه على الله تعالى ، او يشاء الله ان يدخلني فى ملتكم بالكفر • والاول هو الأجود •

(أتحاجوني) أصله (أتحاجونني) بنونين احداهما للجمع والاخرى لاسمه ، فأدغمت احداهما في الاخرى ، فشددت ومثله (تأمرونني) وقد يخفف مثل هذا في بعض المواضع ، قال الشاعر :

أبا لموت الذي لابد أني ملاق لا أباك تخوفيني

فجاء بنون واحدة وخففها ، والاول أجود واكثر في العربية •

قوله تعـالى :

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) آية بلاخلاف .

في هذه الآية احتجاج من ابراهيم (ع) على قومه وتأكيد لما قـدم من الحجاج لانه قال لهم : وكيف تلزمونني ان اخاف ما أشركتم به من الاوثان المخلوقة وقد تبين حالهم ، وانهم لا يضرون ولا ينفعون ، وانتم لا تخافون من هو القادر على الضرّ والنفع بل تتجرؤن عليه وتتقدمون بين يديه بأن تجعلوا له شركاء في ملـكه وتعبدونهم من دونه ، فأي الفريقين احق بالامن : نحن المؤمنون الذين عرفنا الله بأدلته ووجهنا العبادة نحوه ؟ ام أنتم المشركون بعبادته غيره من الاصنام والاوثان ؟ ولو أطرحتم الميل والحمية والعصبية لما وجدتم لهذا الحجاج مدفعا .

وقوله « مالم ينزل به سلطانا » أي حجة لان السلطان هو الحجة في اكثر القرآن ، وذلك يدل على ان كل من قال قولا واعتقد مذهبا بغير حجة مبطل .

وقوله « ان كنتم تعلمون » معناه ان كنتم تستعملون عقولكم وعلومكم وتحكّمونها على ما تهوونه وتميل اليه أنفسكم .

وفي الآية دلالة على فساد قول من يقول بالتقليد وتحريم النظر والحجاج ، لان الله تعالى مدح ابراهيم لمحاجته لقومه وامر نبيه بالاقتداء به في ذلك فقال « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه » (١) . ثم قال بعد ذلك : « اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » اي بأدلتهم اقتده .

---

(١) آية ٨٣ من هذه السورة .

قوله تعـالى :

أَلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) آية عند الجميع .

تحتمل هذه الآية ان تكون اخبارا عن الله تعالى دون الحكاية عن ابراهيم بأنه قال تعالى : ان من عرف الله تعالى وصدق به وبما أوجب عليه ولم يخلط ذلك بظلم ، فان له الامن من الله بحصول الثواب والامان من العقاب وهو المحكوم له بالاهتداء ـ وهو قول ابن اسحاق وابن زيد والطبري والجبائي وابن جريج ـ وقال البلخي :ان ذلك من قول ابراهيم ، لانه لما قطع خصمه والزمه الحجة أخبر ان الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم فانهم الآمنون المهتدون . قال : وكذلك يفعل من وضحت حجته وانقطع بعد البيان خصمه .

والظلم المذكور في الآية هو الشرك عند أكثر المفسرين : ابن عباس وسعيد ابن المسيب وقتادة ومجاهد وحماد بن زيد وأبيُّ بن كعب وسلمان (رحمة الله عليه) قال أبيُّ ألم تسمع قوله « ان الشرك لظلم عظيم » (١) وهو قول حذيفة .

وروي عن عبد الله بن مسعود انه قال لما نزلت هذه الآية شق على الناس ، وقالوا يا رسول الله وأينا لايظلم نفسه ، فقال :انه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا الى ما قال العبد الصالح « يابني لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم » (٢) .

وقال الجبائي والبلخي واكثر المعتزلة : انه يدخل فيه كل كبيرة تحبط ثواب الطاعة ، قال فان من هذه صورته لايكون آمنا ولا مهتديا . قال البلخي: ولو كان الامر على ما قالوه انه يختص بالشرك لوجب ان يكون مرتكب الكبيرة اذا كان مؤمنا يكون آمنا وذلك خلاف القول بالارجاء .

وهذا الذي ذكروه خلاف أقاويل المفسرين من الصحابة والتابعين . وما

(١ ، ٢) سورة ٣١ لقمان آية ١٣ .

قاله البلخي لايلزم لانه قول بدليل الخطاب لان المشرك غير آمن بل هو مقطوع على عقابه بظاهر الآية ، ومرتكب الكبيرة غير آمن لانه يجوز العفو ، ويجوز المؤاخذة وان كان ذلك معلوما بدليل ، وظاهر قوله « ولم يلبسوا ايمانهم بظلم» وان كان عاما في كل ظلم ، فلنا ان نخصه بدليل أقوال المفسرين وغير ذلك من الادلة الدالة على أنه يجوز العفو من غير توبة • وروي عن علي (ع) : أن الآية مخصوصة بابراهيم • وقال عكرمة مختصة بالمهاجرين • واما الظلم فى أصل اللغة فقد قال الاصمعي هو وضع الشيء في غير موضعه ، قال الشاعر يمدح قوما :

هرت الشقاشق ظلامون للجزر (١)

فوصفهم انهم ظلامون للجزر ، لانهم عرقبوها فوضعوا النحر فى غير موضعه ، وكذلك الارض المظلومة سميت بذلك لانه صرف عنها المطر ، ومنه قول الشاعر :

والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد (٢)

سماها مظلومة لانهم كانوا في سفر فتحوضوا حوضا لم يحكموا صنعته ولم يضعوه في موضعه •

قوله تعـالى :

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرٰهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) آية بلاخلاف •

قرأ اهل الكوفة ويعقوب « درجات من نشاء » الباقون بالاضافة ، من اضاف ذهب الى ان المرفوعة هي الدرجات لمن نشاء ومن نوّن اراد ان المرفوع صاحب الدرجات ، وتقديره نرفع من نشاء درجات ، والدرجات معناها المراتب•

(١) مقاييس اللغة ٣ : ٤٦٩ وصدره : (عاد الاذلة في دار وكان بها) •
(٢) اللسان « بين » ، « ظلم » •

وفي أصل اللغة هي المراقي فشبه علو المنازل بها ٠

أخبر الله تعالى ان الحجج التي ذكرها ابراهيم لقومه آتاه الله اياها واعطاها اياه ، بمعنى انه هداه لها فانه احتج بها بأمر الله ورضيها منه وصوّبه فيها ، ولهذا جعلها حجة على الكفار ٠

وقوله « نرفع درجات من نشاء » من المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويطيعونه ويبلغون من الايمان والدعاء الى الله منزلة عظيمة وأعلا درجة ممن لم يبلغ من الايمـان مثل منزلتهم ، وبين انه حكيم فيما يدبره من أمور عباده عليم بهم وبأعمالهم ، وفي ذلك دلالة على صحة المحاجة والمناظرة في الدين والدعاء الى توحيد الله والاحتجاج على الكافرين ، لأنه تعالى مدح ذلك واستصوبه ٠ ومن حرم الحجاج فقد ردّ صريح القرآن ٠

قوله تعـالى :

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسىٰ وَهٰرُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيىٰ وَعِيسىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذٰلِكَ هُدَى ٱللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا

بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ قُلْ
لَاۤ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) سبع آيات

قرأ حمزة والكسائي وخلف (اليسع) بتشديد اللام ، وفتحها وسكون الياء هاهنا ، وفي (ص) • الباقون بسكون اللام وفتح الياء • قال الزجاج التشديد والتخفيف لغتان • وقال ابو علي الالف واللام ليستا للتعريف بل هما زائدتان وكان الكسائي يستصوب القراءة بلامين ويخطىء من قرأ بغيرهما كأن الاسم عنده (ليسع) ثم يدخل الالف واللام • قال ولو كانت (يسع) لم يجز أن يدخل الالف واللام ، كما لا يدخل فى (يزيد) و (يحيى) • قال الاصمعي فقلت له ، فـ (اليرضع) من الحجارة و (اليعمل) من الابل و (اليحمد) حي من اليمن ، فكأنما ألقمته حجرا ، وبعدها فانا قد سمعناهم يسمعون بـ (يسع) ولم نرهم يسمعون بـ (ليسع) • وقال الفراء : القراءة بالتشديد أشبه بالاسماء العجمية من التخفيف • قال لانهم لايكادون يدخلون الالف واللام في ما لا يجر مثل (يزيد ، ويعمر) الا في الشعر أنشدني بعضهم :

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركاً ... شديدا بأعباء الخلافة كاهله(١)

قال وانما أدخلوا الالف واللام في يزيد لدخولهما في الوليد ، فاذا فعلوا ذلك فقد أمسّوا الحرف مدحا •

قوله (ووهبنا له اسحاق ويعقوب) الهاء في (له) كناية عن ابراهيم(ع) « كلا هدينا » نصب كلا بـ (هدينا) و (نوحا هدينا من قبل) معناه هديناه قبل ابراهيم • وقوله (ومن ذريته داود وسليمان) تقديره وهدينا داود وسليمان

(١) معاني القرآن ١/٣٤٢ وشواهد المغني ٦٠ وخزانة الادب ١/٣٢٧ وتفسير الطبري ١١/٥١١ ، وامالي ابن الشجري ١/١٥٤و٢/٢٥٢، ٣٤٢ • من شعر يمدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان

نسقا على نوح • ويحتمل أن يكون قوله « ومن ذريته » الهاء راجعة الى نوح لان الانبياء المذكورين كلهم من ذريته • قال الزجاج ويجوز أن يكون من ذريته ابراهيم لأن ذكرهما جميعا قد جرى ، وأسماء الانبياء التي جاءت بعد قوله « ونوحا هدينا من قبل » نسق على (نوح) نصب كلها ، ولو رفعت على الابتداء كان صوابا • قال أبو علي الجبائي : الهاء لا يجوز أن تكون كناية عن ابراهيم ، لان فيمن عدد من الانبياء لوطا وهو كان ابن اخته ، وقيل ابن اخيه، ولم يكن من ذريته •

وهذا الذي قاله ليس بشيء ، لانه لا يمنع أن يكون غلب الاكثر • وجميع من ذكر من نسل ابراهيم ، على أنه قال فيما روى عنه ابن مسعود أن الياس : إدريس ، وهو جدّ نوح ، ولم يكن من ذريته ، ومع هذا لم يطعن على قول من قال : إنها كناية عن نوح • وقال ابن اسحاق : الياس هو ابن اخي موسى ويجوز أن تكون الهاء كناية عن ابراهيم ويكون مَنْ سمّاهم الى قوله « وكل من الصالحين » من ذريته ، ثم قال « واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً » فعطفهم على قوله « ونوحا هدينا » •

وفي الآية دلالة على أن الحسن والحسين من ولد رسول الله (ص) ، لأن عيسى جعله الله من ذرية ابراهيم أو نوح ، وإنما كانت أمه من ذريتهما • والوجه في الآيات أن الله تعالى أخبر أنه رفع درجة ابراهيم بما جعل في ذريته من الأنبياء وجزاه بما وصل اليه من السرور والابتهاج عندما أعلمه عن ذلك وبما أبقى له من الذكر الرفيع في الاعقاب ، والجزاء على الاحسان لذة وسرور من أعظم السرور واكثر اللذات إذا علم الانسان بأنه يكون من عقبه وولده المنسوبين اليه أنبياء يدعون الى الله ويجاهدون في سبيله ويكونون ملوكا وخلفاء يطيعون الله ويحكمون بالحق في عباد الله •

ثم اخبر انه جزى نوحا بمثل ذلك على قيامه في الدعاء اليه والجهاد في سبيله • والهداية في الآيات كلها هو الارشاد الى الثواب دون الهداية التي هي

نصب الادلة ، لانه تعالى قال في آخر الايات : « وكذلك نجزي المحسنين » فبين أن ذلك جزاء ولا يليق إلا بالثواب الذي يختص به المحسنون دون الهداية التي هي الدلالة ويشترك فيها المؤمن والكافر ، وهو قول أبي علي الجبائي والبلخي .

وقوله : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » إشارة الى من تقدم ذكره من الانبياء .

وقوله «فان يكفر بها هؤلاء» يعني الكفار الذين جحدوا نبوة النبي(ص) في ذلك الوقت ، « فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » معنى (وكلنا بها) اي وكلنا بمراعاة أمر النبوة وتعظيمها والأخذ بهدي الانبياء قوما ليسوا بها بكافرين . وإنما اضاف ذلك إلى المؤمنين وان كان قد فعل بالكافرين أيضا ازاحة العلة في التكليف من حيث أن المؤمنين هم الذين قاموا بذلك وعملوا به فأضافه اليهم ، كما أضاف قوله « هدى للمتقين » وان كان هداية لغيرهم.

وقيل في المعنيين بقوله « ليسوا بها بكافرين » ثلاثة اقوال : احدها ـ انه عنى بذلك الانبياء الذين جرى ذكرهم آمنوا بما أتى به النبي (ص) في وقت مبعثهم وهو قول الحسن والزجاج والطبري والجبائي . قال الزجاج لقوله تعالى « اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » وذلك اشارة الى الانبياء الذين ذكرهم ووصفهم وامر النبي (ص) بالاقتداء بهداهم .

والثاني ـ انه عنى به الملائكة ، ذهب اليه أبو رجاء العطاردي .

وقال قوم عنى به من آمن من أصحاب النبي (ص) في وقت مبعثه .

وقال الفراء والضحاك : قوله « فان يكفر بها هؤلاء » يعني أهل مكة «فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » يعني أهل المدينة ، والأول أقوى .

وفي الآية دلالة على ان الله تعالى يتوعد من يعلم انه لا يشرك ولا يفسق وان الوعد والوعيد قد يكونان بشرط .

وقوله : « اولئك الذين هدى الله » معناه اولئك الذين حكم الله لهم

بالهدى والرشاد ، وزادهم هدى حين اهتدوا . والمراد به الانبياء الذين تقدم ذكرهم الثمانية عشر . وأمر النبي (ص) بأن يسلك سبيلهم ويأخذ بهداهم في تبليغ الرسالة والصبر على المحن وان يقول لقومه « لا أسألكم عليه اجراً » يعني على الاداء والابلاغ ، ولكنه يذكر به العالمين وينبههم على ما يلزمهم من عبادة الله والقيام بشكره .

وقوله (فبهداهم اقتده) قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب والكسائي عن ابي بكر بحذف الهاء في الوصل واثباتها في الوقف . الباقون باثباتها في الوصل والوقف وسكونها ، إلا ابن ذكوان فانه كسرها ، ووصلها بياء في اللفظ وإلا هشاما فانه كسرها من غير صلة بتاء ، ولا خلاف في الوقف انها بالهاء ساكنة .

قال ابو علي الفارسي الوجه الوقف بالهاء لاجتماع الكثرة ، والجمهور على إثباته ، ولا ينبغي أن يوصل والهاء ثابتة ، لان هذه الهاء في السكت بمنزلة همزة الوصل في الابتداء في أن الهاء للوقف كما أن همزة الوصل للابتداء بالساكن ،فكما لاتثبت الهمزة في الوصل كذلك ينبغي أن لا تثبت الهاء. قال ابو علي وقراءة ابن عامر بكسر الهاء وإشمام الهاء الكسرة من غير بلوغ ياء ليس بغلط ، ووجهها أن يجعل الهاء كناية عن المصدر لا التي تلحق للوقف. وحسن اضماره لذكر الفعل الدال عليه ، ومثل ذلك قول الشاعر :

فجال على وحشية وتخاله   على ظهره سبأ حديداً يمانيا

كأنه قال تخال خيلا على ظهره سبأ حديدا ، ومثل ذلك قول الشاعر :

هذا سراقة للقرآن يدرسه   والمرؤ عند الرشا أن يلقها ذئب(١)

فالهاء كناية عن المصدر ، ويدل يدرسه على الدروس ،ولا يجوز ان يكون ضمير القرآن ، لان الفعل قد تعدى اليه باللام ، فلا يجوز أن يتعدى اليه والى ضميره كما أنك إذا قلت أزيداً ضربته لم ينصب زيدا بضربت لتعديه

(١) اللسان «سرق»

الى الضمير ، وقياسه إذا وقف عليه أن يقول اقتده فيكسر (هاء) الضمير ، كما تقول اشتره في الوقف • وفي الوصل اشتريه لنا يا هذا •

واستدل قوم بقوله (فبهداهم اقتده) على ان النبي (ص) كان متعبدا بشريعة من قبله من الانبياء وهذا لا دلالة فيه ، لان قوله (فبهداهم اقتده) معناه فبأدلتهم اقتده • والدلالة ما اوجبت العلم ويجب الاقتداء بها ، لكونها موجبة للعلم لا غير ولذلك قال تعالى (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده) فنسب الهدى الى نفسه ، فعلم بذلك أنه أراد ما قلناه • وقوله (ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) يدل على أن الهدى في قوله (واجتبيناهم وهديناهم) هداية الثواب على الاعمال الصالحة ، لان الثواب على الاعمال هو الذي ينحبط تارة ويثبت اخرى دون الهداية التي هي الادلة الحاصلة للمؤمن والكافر • وقوله (وكلا فضلنا على العالمين) يعني على عالمي زمانهم الذين ليسوا أنبياء وإنما دخلت (من) في قوله « من آبائهم وذرياتهم » للتبعيض كأنه قال : وبعض آبائهم وبعض ذرياتهم وبعض اخوانهم هديناهم ولو لم تدخل (من) لاقتضى انه هدى جميعهم الهداية التي هي الثواب ، والامر بخلافه • وقوله « اجتبيناهم » معناه اخترناهم •

وقوله (ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) لا يدل على صحة ثواب طاعاتهم التي اشركوا في توجيهها الى غير الله لانهم اوقعوها على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب ، فأما ما تقدم فليس في الآية ما يقتضي بطلانه غير أنا قد عملنا أنه إذا أشرك لا ثواب معه أصلا، لاجماع الامة على أن المشرك لا يستحق الثواب ، فلو كان معه ثواب وقد ثبت أن الاحباط باطل ، لكان يؤدي الى أن معه ثوابا وعقابا ، لانا قد بينا بطلان القول بالتحابط في غير موضع وذلك خلاف الاجماع •

قوله تعالى :

وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) آية بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو «تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا» بالتاء فيهن . الباقون بالياء فيهن . ومن قرأ بالياء حمله على أنه للغيبة بدلالة قوله: « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى يجعلونه » فيحمله على الغيبة لان ما قبله غيبة . ومن قرأ بالتاء حمله على الخطاب يعني قل لهم : « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا » ويقوي القراءة بالتاء ، قوله « وعلمتم ما لم تعلموا » فجاء على الخطاب ، وكذلك ما قبله .

ومعنى « تجعلونه قراطيس » تجعلونه ذوي قراطيس اي تودعونه إياها « وتخفون » أي تكتمونه ، وموضع قوله « تبدونها وتخفون كثيراً » يحتمل أمرين :

احدهما ــ ان يكون صفة القراطيس ، لان النكرة توصف بالجمل .

والآخر ــ أن نجعله حالا من ضمير الكتاب من قوله «تجعلونه قراطيس» على أن تجعل القراطيس الكتاب في المعنى ، لانه مكتوب فيها .

روي أن سبب نزول هذه الآية أن النبي (ص) رأى حبراً من أحبار اليهود سمينا يقال له : ما لك بن الضيف ، وقيل : فنحاص ، فقال له النبي(ص)

أليس في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ؟ فغضب ، وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فلعنته اليهود وتبرأت منه ، فنزلت هذه الآية،ذكر ذلك عكرمة وقتادة ، وقال محمد بن كعب القرطي : نزلت في جماعة من اليهود • وروي مثل ذلك عن ابن عباس • وقال مجاهد نزلت في مشركي قريش ، وروي ذلك عن ابن عباس أيضا ، وهو أشبه بسياق الآية ، لانهم الذين أنكروا أن يكون الله أنزل كتابا على بشر ، دون اليهود والنصارى •

ومعنى قوله « وما قدروا الله حق قدره » أي ما عرفوه حق معرفته وما وصفوه بما هو أهل أن يوصف به « إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » أي ما أرسل الله رسولا ،ولم ينزل على بشر من شيء ،مع أن المصلحة والحكمة يقتضيان ذلك ، ودلت المعجزات الباهرة على بعثة كثير منهم • ثم أمر الله نبيه أن يقول لهم « من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهــدى للناس » فانهم يقرون بذلك ، وان الله أنزله وبعث موسى (ع) نبيا وإن لم يقرّوا بذلك فقد خرجوا من اليهودية الى قول من ينكر النبوات • والكلام على من انكر ذلك أصلا مذكور في النبوات مستوفى لا نطول بذكره هاهنا •

وعلى ما قلناه : من أن الآية متوجهة الى مشركي قريش من حيث أن الله تعالى من أول السورة الى هاهنا في الاخبار عن أوصاف المشركين وعن أحوالهم وكذلك أول الآية في قوله « وما قدروا الله حق قدره » لأنهم كانوا لا يعتقدون التوحيد ويعبدون مع الله الأصنام ، وأهل الكتاب كانوا بخلاف ذلك ، لأنهم كانوا يعتقدون التوحيد فلا يليق بهم ذلك ، وإن كان اليهود عندنا أيضا غير عارفين بالله على وجه يستحقون به الثواب • والقول الآخر أيضا محتمل •

فعلى ما اخترنا يكون قوله « قل من انزل الكتاب » متوجها الى اليهود والنصارى ، لأنهم المقرون بذلك دون قريش ومشركي العرب ، ويجوز أن يكون متناولا للمشركين أيضا ، ويكون على وجه الاحتجاج عليهم ، والتنبيه لهم على ما ظهر من معجزات موسى وظهور نبوته ، وهذا الذي اخترناه قول

مجاهد واختاره الطبري والجبائي •

وقوله « تجعلونه قراطيس » أي تقطعونه فتجعلونه كتبا متفرقة وصحفا تبدون بعضها وتخفون بعضها ، يعني ما في الكتب من صفات النبي (ص) والبشارة به •ثم عطف على ما ابتدأ به من وصف الكتاب الذي جاء به موسى وانه نور وهدى ، فقال « وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » على لسان النبي (ص) ، ثم أجاب عن الكلام الاول ، فقال « قل الله » وهذا معروف في كلام العرب ، لان الانسان اذا أراد البيان والاحتجاج بما يعلم أن الخصم مقرٌ به ولا يستطيع دفعه ذكر ذلك•ثم تولى الجواب عنه بما قد علم أن لاجواب له غيره•

وقوله « ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » يقال مثل هذا لمن قامت عليه الحجة الواضحة التي لا يمكنه دفعها ، وليس على إباحة ترك الدعاء والانذار بل على ضرب من الوعيد والتهديد ، كأنه قال دعهم فسيعلمون عاقبة أمرهم • ويجوز أن يكون أراد : دعهم فلا تقاتلهم ، ولا تعمل على قهرهم على قبول قولك الى أن يؤذن لك فى ذلك ، فيكون إنما أباح ترك قتالهم لا ترك الدعاء والتحذير وترك البيان والاحتجاج « ويلعبون » رفعه لانه لم يجعله جوابا لقوله «ذرهم» ولو جعله جوابا لجزمه ، كما قال «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا»(١) وكان ذلك جوابا وموضع « يلعبون » نصب على الحال ،وتقديره ذرهم لاعبين فى خوضهم • وقال قوم : إن هذه الآية مدنية مع الآيتين اللتين ذكرناهما في أول السورة ، ويجوز أن يكون ذلك بمكة أيضاً •

قوله تعالى :

وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) آية بلا خلاف .

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٣

قرأ أبو بكر وحده « ولينذر » بالياء • الباقون بالتاء • من قرأ بالتاء ، فلقوله «إنما أنت منذر من يخشاها»(١) وقوله «وانذر به الذين يخافون»(٢) ومن قرأ بالياء جعل الكتاب هو المنذر ، لان فيه إنذاراً لانه قد خوّف به في قوله « هذا بلاغ للناس ولينذروا به »(٣) وقوله «إنما انذركم بالوحي»(٤) فلا يمتنع أسناد الانذار اليه على وجه التوسع •

وقوله«وهذا كتاب» إشارة الى القرآن الذي أنزله الله على نبيه محمد(ص) فعطف هذه الآية على ذكره الكتاب الذي جاء به موسى (ع) فلما وصفه قال تعالى « وهذا كتاب أنزلناه مبارك »وانه مصدق لما بين يديه يعني ما مضى من كتب الانبياء كالتوراة والانجيل وغيرهما ، وبين انه انما انزله لتنذر به اهل مكة وهي ام القرى ، ومن حولها •

قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : ام القرى مكة ، ومن حولها اهل الارض كلهم وانما خص اهل مكة بذلك لانها اعظم قدرا لان فيها الكعبة ولان الناس يقصدونها بالحج والعمرة من جميع الآفاق• وإنذاره بالقرآن هو تخويفه إياهم بألوان عذاب الله وعقابه ان اقاموا على كفرهم بالله ولم يؤمنوا به وبرسوله •

وقوله : « والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به » يعني بالقرآن • ويحتمل ان يكون كناية عن محمد (ص) لدلالة الكلام عليه ، وهذا يقوي مذهبنا في انه لا يجوز ان يكون مؤمنا ببعض ما أوجب الله عليه دون بعض • وبين انهم « على صلاتهم » يعني على أوقات صلاتهم « يحافظون » بمعنى يراعون أوقاتها ليؤدّوها في الاوقات ويقوموا باتمام ركوعها وسجودها وجميع فرائضها •

وقيل سميت مكة ام القرى لانها اول موضع سكن في الارض ، وقيل ان الارض كلها دحيت من تحتها فكانت امّا لها • وقال الزجاج سميت بذلك لانها أعظم القرى شأناً •

---

(١) سورة النازعات آية ٤٥
(٢) سورة ٦ الانعام آية ٥١
(٣) سورة ١٤ ابراهيم آية ٥٢
(٤) سورة ٢١ الانبياء آية ٤٥

قوله تعـالى :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٩٣) آية بلا خلاف .

اختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية فقال اكثر المفسرين ان قوله « ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً » نزلت في مسيلمة الكذاب حيث ادعى النبوة . وقال انه يوحى اليه ، وان قوله « من قال سأنزل مثل ما أنزل الله » نزلت في عبد الله بن سعد ابن ابي سرح ، فانه كان يكتب الوحي للنبي (ص) وكان إذا قال له : اكتب عليما حكيما ، كتب غفورا رحيما . وإذا قال : اكتب غفورا رحيما ، كتب حكيما ، وارتد ولحق بمكة . وقال إني انزل مثل ماأنزل الله، ذهب اليه عكرمة وابن عباس ومجاهد والسدي والجبائي والفراء والزجاج وغيرهم .

وقال قوم : نزلت في مسيلمة خاصة .

وقال آخرون: نزلت في ابن ابي سرح خاصة والاول هو المروي عن أبي جعفر (ع) .

وقال البلخي : قوله « ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً او قال اوحي اليّ » هم الذين ادعوا النبوة بغير برهان وكذبوا على الله «ومن قال سأنزل مثل ما انزل الله » هم الذين قالوا « لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين »(١) فادعوا بما لم يفعلوا واعرضوا وبذلوا الانفس والاموال

(١) سورة ٨ الانفال آية ٣١

واستعملوا في اطفاء نور من جاء بالكتاب سائر الحيل • ثم اخبر تعالى عن حال من فعل ذلك ، فقال : «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت» وحذف جواب (لو) وتقديره : ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت لرأيت عذاباً عظيما وكل من كان في شيء كثير يقال له : غمر فلاناً ذلك • ويقال قد غمر فلانا الدين معناه كثر ، فصار فيما يعلم بمنزلة ما يبصر قد غمر وغطى من كثرته وقوله « والملائكة باسطوا أيديهم » معناه باسطوا ايديهم بالعذاب وقيل بقبض ارواح الكفار •

وقوله : « اخرجوا انفسكم اليوم » يحتمل امرين :

احدهما ــ ان يكون تقديره يقولون : اخرجوا انفسكم ، كما تقول للذي تعذبه لازهقن نفسك ولاخرجن نفسك ، فهم يقولون لهم اخرجوا انفسكم على معنى الوعيد والتهديد ، كما يدفع الرجل في ظهر صاحبه ويكرهه على المضي بأن يجره او بغير ذلك ، وهو في ذلك يقول امض الآن لترى ما يحل بك •

والغمرات جمع غمرة ، وغمرة كل شيء كثرته ومعظمه ، وأصله الشيء الذي يغمر الاشياء فيغطيها • وقال ابن عباس غمرات الموت سكراته ، وبسط الملائكة ايديها فهو مدها ، وقال ابن عباس ايضا : البسط الضرب ، يضربون وجوههم وأدبارهم وملك الموت يتوفاهم ، وقال الضحاك : بسطها ايديها بالعذاب •

والثاني ــ ان يكون معناه خلصوا انفسكم اي لستم تقدرون على الخلاص « اليوم تجزون عذاب الهون » اي العذاب الذي يقع به الهوان الشديد ، والهون ــ بفتح الهاء وسكون الواو ــ من الرفق والدعة ، كقوله « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا »(١) وقال الشاعر :

هوناً كما لا يرد الدهر ما فاتا   لا تهلكن أسفاً في أثر من ماتا(٢)

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٣

(٢) قائله ذوجدن الحميري • معجم البلدان (بينون) واللسان (هون) والاغاني ١٦/٧٠ وسيرة ابن هشام ١/٣٩ وتاريخ الطبري ٢/١٨٠ وتفسير الطبري ١١/٥٤١ وغيرها •

وقد روي فتح الهاء في معنى الهوان ، قال عامر بن جوين :

يهين النفوس وهون النفو س عند الكريهـة اغلى لها(٣)

والمعروف ضم الهاء اذا كان بمعنى الهوان . قال ذو الاصبع العدواني :

اذهب اليك فما امي براعية ترعى المخاض ولا اغضي على الهون(٤)

يعني على الهوان ، وعن ابي جعفر (ع) عذاب الهون يعني العطش .

وقوله : « ومن قال سانزل مثل ما انزل الله » في موضع جرّ كأنه قال : ومن اظلم ممن قال ذلك .

قوله تعالى :

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) آية بلا خلاف .

قرأ اهل المدينة والكسائي وحفص « بينكم » بنصب النون . الباقون برفعها . والبين مصدر بان يبين إذا فارق قال الشاعر :

بان الخليط برامتين فودعوا او كلما ظعنوا لبين تجزع(٥)

وقال ابو زيد: بان الحي بينونة وبيناً إذا ضعنوا ، وتباينوا تبايناً اذا كانوا جميعا فتفرقوا ، قال والبين ما ينتهي اليه بصرك من حائط او غيره واستعمل هذا

(٣) وقيل أنه للخنساء . ديوان الخنساء : ٢١٥ والاغاني ١٣ /١٣٦ واللسان « هون » وروايتهم «يوم الكريهة ابقى لها » والطبري ١١/٥٤٢

(٤) أمالي القالي ١/٣٦٦ واللسان «هون» وشرح المفضليات :٣٢٣ وتفسير الطبري ١١/٥٤٢ .

(٥) لم أجده بهذه الرواية وفي اللسان (خلط) أبيات كثيرة تشبهه .

الاسم على ضربين : احدهما ــ ان يكون اسما منصرفا كالافتراق • والآخر ــ ان يكون ظرفا فمن رفعه رفع ما كان ظرفا استعمله اسماً ويدل على جواز كونه اسماً قوله : «هذا فراق بيني وبينك»(٦) وقوله «من بيننا وبينك حجاب »(٧) فلما استعمل اسماً في هذه المواضع جاز ان يسند اليه الفعل الذي هو تقطع في قراءة من رفع • ويدل على ان هذا المرفوع هو الذي استعمل ظرفا انه لا يخلو من ان يكون الذي هو ظرف اتسع فيه او يكون الذي هو مصدر ولا يجوز ان يكون الذي هو مصدر ، لان التقدير يصير لقد تقطع افتراقكم ، وهــذا خلاف المعنى المراد ، لان المراد لقد تقطع وصلكم ، وما كنتم تتألفّون عليه •

فان قيل كيف جاز ان يكون بمعنى الوصل واصــله الافتراق والتباين وعلى هذا قالوا: بان الخليط اذا فارق، وفي الحديث ما بان من الحي فهو ميتة؟!•

قيل : انه لما استعمل مع الشيئين المتلابسين نحو بيني وبينك شــركة ، وبيني وبينه صداقة ورحم صار لذلك بمنزلة الوصلة وعلى خلاف الفرقة فلذلك صار « لقد تقطع بينكم » بمعنى لقد تقطع وصلكم ومثل بين في انه يجري في الكلام ظرفا ثم يستعمل إسماً بمعنى (وسط) ساكن العين ألا ترى أنهم يقولون: جلست وسط القوم ،فيجعلونه ظرفاً لايكون الا كذلك ، وقد استعملوه إسما كما قال الشاعر :

من وسط جمع بني قريظة بعدما هتفت ربيعة يابني خوّات

وحكى سيبويه : هو احمر بين العينين • واما من نصب بينكم ففيه وجهان:

احدهما ــ انه اضمر الفاعل في الفعل ودل عليه ما تقدم من قوله : « وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء » لان هذا الكلام فيــه دلالة على التقاطع والتهاجر وذلك المضمر هو الاصل، كأنه قال لقد تقطع وصلكم بينكم

والثاني ــ ان يكون على مذهب ابي الحسن ان يكون لفظه منصــوبا ومعناه مرفوعاً ، فلما جرى في كلامهم منصوبا ظرفا تركوه على ما يكون عليه

(٦) سورة ١٨ الكهف آية ٧٩ (٧) سورة ٤١ حم السجدة آية ٥

في اكثر الكلام وكذلك تقول في قوله « يوم القيامة يفصل بينكم »(١) وكذلك قوله : « وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك »(٢) فدون في موضع رفع عنده وان كان منصوب اللفظ ، كما تقول منا الصالح ومنا الطالح فترفع .

وقال الزجاج : الرفع أجود وتقديره لقد تقطع وصلكم . والنصب جائز على تقدير لقد تقطع ما كنتم فيه من الشركة بينكم .

وقال الفراء في قراءة عبدالله « لقد تقطع ما بينكم » : وهو وجه الكلام اذا جعل الفعل لـ (بين) ترك نصبا في موضع رفع ، لانه صفة ، فاذا قالوا هذا دون من الرجال ، فلم يضيفوه رفعوه في موضع الرفع . وكذلك تقول بين الرجلين بين بعيد وبون بعيد اذا افردته اجريته في العربية وأعطيته الاعراب . قال مهلهل :

كأن رماحهم اشطان بئر بعيد بين جاليها جرور(٣)

فرفع بين حيث كانت اسماً . وقال مجاهد : معنى تقطع بينكم اي تواصلكم، وبه قال قتادة وابن عباس ، فمعنى الآية الحكاية عن خطاب الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله اندادا وشركاء ، وانه يقول لهم عند ورودهم: « لقد جئتمونا فرادى » وهو جمع فرد ، وفريد ، وفرد ، وفردان قال الازهري لا يجوز فرد على هذا المعنى . والعرب تقول : فرادى وفراد فلا يصرفونها يشبهونها بثلاث ورباع قال الشاعر :

ترى النعرات الزرق تحت لبانه فرادى ومثنى أضعفتها صواهله(٤)

وقال نابغة بني ذبيان :

---

(١) سورة ٦٠ الممتحنة آية ٣ (٢) سورة ٧٢ الجن آية ١١

(٣) اللسان «بين» وأمالي القالي ٢/ ١٣٢ وتفسير الطبري ١١/ ٥٤٩ . «الاشطان» الحبال المحكمة الفتل وجالي البئر جوانبها . و«جرور» صفة للبئر البعيد القعر .

(٤) مر تخريجه في ٣/ ١٠٦ تعليقة ٢ .

من وحش وجرة موشي أكارعه طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد(٥)

وكان يونس يقول : فرادى جمع فرد كما قيل: توآم وتوءم • ومثل الفرادى الردافى والعرابى ، ورجل افرد وامرأة فرداء : إذا لم يكن لها اخ • وقد فرد الرجل فهو يفرد فروداً يراد به تفرّد فهو فارد •

فمعنى قوله « جئتمونا فرادى » اي وحداناً لا مال لكم ولا أثاث ولا رقيق ولا شيء مما كان الله خولكم في الدنيا « كما خلقناكم اول مرة » •

وروي عن النبي (ص) انه قال : (يحشرون حفاة عراة عزلا) والعزل هم الغلف • وروي ان عايشة قالت لرسول الله حين سمعت ذلك وا سوأتاه ينظر بعضهم الى سوءة بعض من الرجال والنساء ، فقال رسول الله : « لكل امريء منهم يومئذ شأن يغنيه »(٦) فيشغل بعضهم عن بعض •

قال الزجاج : يحتمل ان يكون المعنى كما بدأكم اول مرة ، اي كان بعثكم كخلقكم من غير كلفة ولا مشقة •

وقال الجبائي : معناه جئتم فرادى واحدا واحدا « كما خلقناكم اول مرة» اي بلا ناصر ولا معين كما خلقكم في بطون امهاتكم ، ولا احد معكم •

وقوله : « وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » يعني ما ملكناكم في الدنيا مما كنتم تتباهون به في الدنيا وهذا تعبير من الله لهم لمباهاتهم التي كانوا يتباهون في الدنيا باموالهم ، يقال : خولته اي اعطيته • ويقال خال الرجل يخال أشد الخيال بكسر الخاء وهو خائل ومنه قول ابي النجم :

اعطى فلم يبخل ولم يبخل كوم الذرى من خول المخول(٧)

« وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء » يقول تعالى

(٥) ديوانه : ٢٦ واللسان «فرد» • و(وجرة) اسم مكان بين مكة والبصرة قال الاصمعي : هي أربعون ميلاً ليس فيها منزل فهي مرتع للوحوش وقد أكثر الشعراء ذكرها • و(موشى اكارعه) فيها سواد و(طاوي المصير) ضامر البطن • و(المصير) جمع مصران • (٦) سورة ٨٠ عبس آية ٣٧ •

(٧) تفسير الطبري ١١/٥٤٥

لهؤلاء الكفار : ما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء الذين كنتم تزعمون في الدنيا انهم يشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة .

وقال عكرمة : ان الآية نزلت في النظر بن الحارث بن كلدة حيث قال سوف يشفع فيّ اللات والعزى ، فنزلت الآية .

وقوله « لقد تقطع بينكم » اي وصلكم « وضل عنكم ما كنتم تزعمون» اي جار عن طريقكم ما كنتم تزعمون من آلهتكم انه شريك لله تعالى وانه يشفع لكم عند ربكم فلا شفيع لكم اليوم .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) آية بلا خلاف .

في هذه الآية تنبيه لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله آلهة عبدوها ، وحجة عليهم ، وتعريف منه لهم خطأ ما هم عليه من عبادة الاصنام ، بأن قال : إن الذي له العبادة ومستحقها هو الله الذي فلق الحب ، يعني شقه من كل ما ينبت عن النبات ، فأخرج منه الزروع على اختلافها ، « والنوى » من كل ما يغرس مما له نواة فأخرج منه الشجر ، والحب هو جمع حبة ، والنوى جمع نواة ، وذلك لا يقدر عليه إلا الله تعالى القادر بنفسه، لان القادر بقدرة لا يقدر على شق ذلك الا بآلة ، ولا يقدر على انبات شيء واخراج شيء منهما ،فعلم انه من فعل ذلك هو الله الذي لا يشبه شيئا من الاجسام ، ولا يشبهه شيء ، القادر على اختراع الاعيان بلا معاناة ولا مزاولة .

ثم أخبر أنه « يخرج الحيّ من الميت » لان الله تعالى يخلق الحي من النطفة ، وهي موات ، ويخلق النطفة، وهي موات من الحي، وهو قول الحسن وقتادة وابن زيد وغيرهم . وقال الضحاك وابن عباس : معنى « فالق الحب

والنوى » خالقهما . وقال مجاهد وابو مالك : هو الشق الذي في الحبة والنوى . والاول أقوى الاقوال .

وقال قوم : أراد باخراج الحي من الميت إخراج السنبل وهي حي من الحب وهو ميت ، ومخرج الحب الميت من السنبل الحي ، والشجر الحي من النوى الميت ، والنوى الميت من الشجر الحي . والعرب تسمي الشجر مادام غضا قائما بانه حي ، فاذا يبس أو قطع من أصله او قلع سموه ميتا ، ذهب اليه السدي والطبري والجبائي . وما ذكرناه أولاً قول ابن عباس ، وهو الاقوى ، لانه الحقيقة . وما ذكروه مجاز ، وان كان جائزا محتملا .

وقوله « ذلكم الله فأنّى تؤفكون » معناه أن فاعل ذلك كله الله تعالى فأنّى وجوه الصد عن الحق أيها الجاهلون تصدون ، وعن العذاب تصدفون ، أفلا تتدبرون ، فتعلمون أنه لا ينبغي أن يجعل لمن أنعم عليكم ــ فخلق الحب والنوى واخرج من الحي الميت ، ومن الميت الحي ، ومن الحب الزرع ومن النوى الشجر ــ شريك في عبادته مالا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا يبصر .

وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال : إن الله تعالى يحول بين العبد وبين ما دعاه اليه إذ يخلق فيه ما نهاه عنه ، لانه قال : فانّى تؤفكون ، ولو كان شيئا من ذلك لكان هو المؤفك لهم والصارف . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ومعنى قوله «فاني تؤفكون» اي تصرفون عقولكم ، وهو قول الحسن وغيره والافك هو الكذب .

قوله تعالى :

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) آية بلا خلاف .

قرأ أهل الكوفة « جعل الليل » على الفعل . الباقون « جاعل » على الفاعل . من قرأ «جاعل» على وزن فاعل فلأن قبله اسم فاعل ، وهو قوله :

« فالق الحب والنوى ٠٠٠ » و « فالق الاصباح » فقرأ « وجاعل الليل » ليكون (فاعل) المعطوف على (فاعل) المعطوف عليه ، فيكون متشاكلاً ، لان من حكم الاسم ان يعطف على اسم مثله ، لانه به أشبه من الفعل بالاسم، وهذه المشاكلة مراعاة في كلام العرب، ومثله «فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة»(١) وقوله « يدخل من يشاء في رحمته والظالمين »(٢) وقوله « وكلاً ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا» (٣) نصبوا هذا كله ليكون القاريء بنصبها كالعاطف جملة من فعل وفاعل على جملة من فعل وفاعل ، فكما أن الفعل أشبه من المبتدأ بالفعل ، كذلك الاسم بالاسم أشبه من الفعل بالاسم ، ويقوي ذلك قول الشاعر:

للبس عباءة وتقر عيني أحب الي من لبس الشفوف(٤) –

ومن قرأ « وجعل » فلأن اسم الفاعل الذي قبله بمعنى الماضي ، فلما كان (فاعل) بمعنى (فعل) في المعنى عطف عليه بالفعل لموافقته له في المعنى ويدلك على أنه بمنزلة (فعل) أنه نزل منزلته فيما عطف عليه ، وهو قوله « والشمس والقمر حسبانا » ألا ترى أنه لما كان المعنى (فعل) حمل المعطوف على ذلك فنصب الشمس والقمر على (فعل) لما كان فاعل كفعل ٠ ويقوي ذلك قولهم : هذا معطي زيد درهما أمس ، فالدرهم محمولا على (اعطى) ، لان اسم الفاعل اذا كان لما مضى لم يعمل عمل الفعل ، فاذا جعل (معطي) بمنزلة (أعطى) كذلك جعل (فالق) بمنزلة (فلق) لان اسم الفاعل لما مضى ، فعطف على (فعل) لما كان بمنزلته ، ولا يجوز حمل (جاعل) على الليل ، لان اسم الفاعل اذا كان لما مضى لا يعمل عمل الفعل ، وقد أجازه بعض الكوفيين ٠

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٢٩ (٢) سورة ٧٦ الدهر آية ٣١

(٣) سورة الفرقان آية ٣٩

(٤) حاشية الصبان على الاشموني ٣/٣١٣ الشاهد ٨٢٧ ويروى «ولبس» بدل «للبس» ٠

معنى قوله « فالق الاصباح » أي شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل ، وذلك دال على القدرة العجيبة التي لا يقدر عليها غير الله ، ويحتمل أن يكون معناه خالقه على ما حكيناه عن الضحاك وذكره الزجاج ، ورفع « فالق » لانه خبر عن الله تعالى بعد خبر كأنه قال «ان الله فالق الحب والنوى» فالق الاصباح.

ويحتمل أن يكون خبر أبتداء محذوف، فكأنه قال: هو فالق الاصباح. والاصباح مصدر أصبحنا إصباحاً ، والمراد أصبح كل يوم ، فهو في معنى الاصباح . وروي عن الحسن أنه قرأ « فالق الاصباح » بفتح الالف وما قرأ به غيره . ومعنى « وجاعل الليل سكنا » أي تسكنون فيه وتتودعون فيه ، وهو قول مجاهد والضحاك وقتادة وابن عباس وأكثر المفسرين . وروي عن ابن عباس أن معناه ، خالق الليل والنهار . وقوله « والشمس والقمر حسبانا» نصبهما عطفا على موضع الليل ، لان موضعه النصب بأنه مفعول جاعل .

واختلفوا في معناه ، فقال ابن عباس والسدي والربيع وقتادة ، ومجاهد والجبائي : إنهما يجريان في أفلاكهما بحساب ، تقطع الشمس الفلك في سنة ويقطعه القمر في شهر قدره الله تعالىٰ به ، فهو قوله « والشمس والقمر بحسبان »(١) وقوله : « وكل في فلك يسبحون »(٢) .

وقال قتادة معناه انه جعل الشمس والقمر ضياء . والاول أجود لان الله تعالى ذكر بمثل هذا من اياديه عند خلقه وعظيم سلطانه بفلقه الاصباح لهم واخراج النبات والغراس من الحب والنوى ، وعقب ذلك بذكر خلق النجوم للاهتداء بها في البر والبحر ، وكان وصفه اجراء الشمس والقمر بمنافعهم أشبه ، وأنها تجري بحسبان ما يحتاج الخلق اليه في معائشهم ومعاملاتهم : أما الشمس فللزرع والحرث ، واما القمر فللمواعيد وآجال الديون في المعاملات ، وفيها منافع لا يعرف تفصيلها الا الله تعالى ، لانه قال « فالق الاصباح » ذكر

---

(١) سورة ٥٥ الرحمان آية ٥ .
(٢) سورة ٣٦ يس آية ٤٠ وسورة ٢١ الانبياء آية ٣٣

الضياء ولا معنى لتكريره دفعة ثانية . والحسبان جمع حساب على وزن شهبان وشهاب . وقيل في هذا الموضع انه مصدر حسبت الحساب أحسبه حسابا . وحكي عن بعض العرب على ذلك حسبان فلان وحسبته أي حسابه . والحسبان ـ بكسر الحاء ـ جمع حسبانة ، وهي وسادة صغيرة . ونصب حسبانا على تقدير بحسبان ، فلما حذف الباء نصبه . وقال قوم : هو نصب لقوله « وجعل » .

وقوله : « ذلك تقدير العزيز العليم » أي هذا الذي وصفه بأنه فعله من فلقه الاصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ، تقدير الذي عز سلطانه فلا يقدر أحد أراده بسوء او عقاب او انتقام على الامتناع منه ، العليم بمصالح خلقه وتدبيرهم ، لا تقدير الاصنام والاوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تفقه شيئا ولا تعقل .

قوله تعالى :

وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) آية

هذه الآية موصولة بالتي قبلها ، ومعناهما متقارب ، وهو أن الله تعالى عدد نعمه على خلقه وأن من جملتها أنه جعل لهم النجوم بمعنى خلقها ليهتدوا بها في اسفارهم في ظلمات البر والبحر ، وأنه قد فصل آياته لقوم يعلمون . وانما أضاف الآيات الى الذين يعلمون وان كانت آيات لغيرهم ، لانهم المنتفعون بها ، كما قال « هدى للمتقين » وليس في قوله انه خلقها ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ما يدل على أنه لم يخلقها لغير ذلك . قال البلخي : بل يشهد أنه خلقها لأمور جليلة عظيمة . ومن فكر في صغر الصغير منها وكبر الكبير ، واختلاف مواقعها ومجاريها وسيرها ، وظهور منافع الشمس والقمر في نشوء الحيوان والنبات علم أن الامر كذلك . ولو لم يخلقها إلا للاهتداء لما كان

لخلقها صغارا وكبارا ، ولاختلاف سيرها معنى • قال الحسين بن علي المغربي: هذا من البلخي اشارة منه الى دلالتها على الاحكام •

قوله تعالى :

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ(٩٨) آية بلاخلاف

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ، وروح « فمستقر » بكسر القاف • الباقون بفتحها •

قال ابو علي النحوي : قال سيبويه : قالوا : قرّ في مكانه واستقر ، كما قالوا : جلب وأجلب ، يراد بهما شيء واحد ، فكما بني هذا على (أفعلت) بني هذا على (استفعلت) فمن كسر القاف كان المستقر بمعنى القار ، والخبر مضمر ، وتقديره منكم مستقر كقولك : بعضكم مسقر أي مستقر في الارحام• وقال « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق »(١) كما قال « وقد خلقكم أطوارا »(٢) ومن فتح فليس على أنه مفعول ، لان استقر لا يتعدى ، واذا لم يتعد لم يبن منه اسم مفعول ، فاذا له يكن مفعولا كان اسم الفاعل مكانه ، فالمستقر بمنزلة المقر كما أن المستقر بمعني القار ، وعلى هذا ، لايجوز أن يكون خبره المضمر (منكم) كما جاز في قول من كسر القاف ، واذا لم يجز ذلك جعلت الخبر المضمر (لكم) وتقديره : لكم مقر ، ومستودع ، فان استودع فعل يتعدى الى مفعولين تقول : استودعت زيدا ألفا وأودعت زيدا الفا ، فاستودع مثل أودع ، ومثل استجاب واجاب ، فالمستودع يجوز ان يكون الانسان الذي استودع ذلك المكان ، ويجوز أن يكون المكان نفسه • فمن فتح القاف في (مستقر) جعل المستودع مكانا ليكون مثل المعطوف عليه أي فلكم مكان استقرار ومكان استيداع • ومن كسر القاف ، فالمعنى منكم

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٦ (٢) سورة ٧١ نوح آية ١٤

مستقر في الارحام ومنكم مستقر في الاصلاب ، فالمستودع اسم المفعول بـه ليكون مثل المستقر في أنه اسم لغير المكان . قال الزجاج : ويحتمل ان يكون مستقرا في الدنيا موجودا ومستودعا في الاصلاب لم يخلق بعـد . ويحتمل مستقر ـ بكسر القاف ـ في الاحياء ، ومنكم مستودع في الثرى . ورفـع (مستقر ومستودع) على معنى فلكم مستقر ومستودع . ومن كسر فمعناه فمنكم مستقر ومنكم مستودع . وقال الفراء : تقديره ثم مستقر ومستودع .

واختلف المفسرون في قوله «فمستقر ومستودع» فقال عبد الله بن مسعود : المستقر ما في الرحم ، والمستودع حيث يموت ، وبه قال ابراهيم ومجاهد . وقال سعيد ابن جبير : مستودع ما كان في أصلاب الرجال، فاذا قروا في أرحام النساء وعلى ظهر الارض وفي بطونها ، فقد استقروا بـه . وقال ابن عباس ، وروي عن مجاهد ـ في رواية أخرى ـ المستقر الارض، والمستودع عند ربك . وروي عن ابن مسعود ـ في رواية ـ أن مستقرها في الآخرة ومستودعها في الصلب . وقال عكرمة : مستقر في الآخرة ومستودع في صلب لم يخلق سيخلق . وبه قال قتادة والضحاك والسدي وابن زيد . وقال الحسن : المستقر في القبر والمستودع في الدنيا .

ومعنى الآية أن الله تعالى هو الذي أنشأ الخلق ابتداء من نفس واحدة يعني آدم ، منهم مستقر ومستودع ، واذا حمل على العموم ، فانه يتناول كل أحد على تأويل من قال المستقر في القبر والمستودع في الحشر ، وعلى تأويل من قال المستودع من كان في الاصلاب والمستقر من كان في الارحام ، لان كل الخلائق داخلون فيه ، فالأولى حمل الآية على عمومها وهو اختيار الطبري .

وقوله « قد فصـلنا الآيات لقوم يفقهون » معناه قد بينا الحجج وميزنا الآيات والادلة والاعلام ، واحكمناها لقوم يفقهون مواقع الحجج ومواضع العبر ، ويعرفون الآيات والذكر ، وهو قول قتادة والمفسرين .

قوله تعالى :

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) آية .

روى الأعشى والبرجمي « وجنات » بالرفع . الباقون «جنـات» على النصب . وقرأ حمزة والكسائي وخلف « ثمره » و « كلوا من ثمره » وفي (يس) « لتأكلوا من ثمره » بضم الثاء والميم فيهن . الباقون بفتحها . من كسر التاء فلأنها تاء جمع المؤنث في موضع النصب عطفا على قوله « فأخرجنا به نبات كل شيء» فأخرجنابه « جنات» ومن رفع عطفها على القنوان في الاعراب وإن لم يكن من جنسها ، كما قال الشاعر :

ورأيت زوجك في الوغى   متقلدا سـيفا ورمحـا (١)

أي وحاملا رمحا . ومن قرأ « ثمره » بالفتح فيهما فوجهه ان سيبويه يرى ان الثمر جمع ثمرة مثل بقرة وبقر وشجر وشجر وخرزة وخرز ، ويقويه قوله ايضا « ومن ثمرات النخيل والاعناب »(٢) وقد كسّر على (فعال) فقالوا : ثمار كما قالوا أكمة واكام ، وجذبة وجذاب ورقبة ورقاب . ومن جمعها احتمل امرين :

أحدهما ــ أن يكون جمع ثمرة على ثمر ، مثل خشبة وخشب في قوله « كأنهم خشب مسندة » (٣) واكمة واكم في قول الشاعر :

ترى الاكم منه سجداً للحوافر (٤)

---

(١) مر هذا البيت في ١:٢٧٦، ٢٤٢، ٣:٤٦٥   (٢)سورة ١٦ النحل آية ٦٧
(٣) سورة ٦٣ المنافقون آية ٤   (٤)انظر ١/ ١١ تعليقة ٥

ومن المعتل ساحة وسوح ، وقارة وقور ، ولابة ولوب وناقة ونوق .

والثاني ــ أن يكون جمع ثمار على ثمر ، فيكون ثمر جمع الجمع ، وجمعوه على (فعل) كما جمعوه على (فعايل) في قولهم جمال وجمايل .

ومعنى الآية أن الذي يستحق العبادة خالصة لا شريك له فيها سواه هو الذي أنزل من السماء ماء . وأصل الماء ماه إلا أن الهمزة ابدلت من الهاء بدلالة قولهم أمواه في الجمع ومويه في التصغير .

وقوله « فاخرجنا به نبات كل شيء » معناه أخرج بالماء الذي أنزله من السماء من غذاء الانعام والبهائم والطير والوحش وارزاق بني آدم واقواتهم ما يتغذون به ويأكلونه فينبتون عليه وينمون ، ويكون معنى قوله « فأخرجنا به نبات كل شيء » أخرجنا به ما ينبت كل شيء وينمو عليه ويصلح . ويحتمل أن يكون المراد أخرجنا به جميع أنواع النبات فيكون كل شيء هو اصناف النبات . والاول أحسن .

وقوله « فأخرجنا به » يعني من الماء « خضرا » يعني أخضر رطبا من الزرع . والخضر والاخضر واحد يقال : خضرت الارض خضرا وخضارة . والخضرة رطب البقول يقال : نخلة خضرة اذا كانت ترمي ببسرها أخضرا قبل ان ينضج ، وقد اختضر الرجل واغتضر اذا مات شابا مصححا ، ويقال : هو لك خضرا مضرا أي هنيئا مريئا .

وقوله « يخرج منه حبا متراكبا » يعني يخرج من الخضر حبا يعني ما في السنبل من الحنطة والشعير والارز وغيرها من السنابل ، لان حبها يركب بعضه بعضا .

وقوله « ومن النخل من طلعها » إنما خص الطلع بالذكر لما فيه من المنافع العجيبة والاغذية الشريفة التي ليست في شيء من كمام الثمار .

قوله « قنوان دانية » تقديره ومن النخل من طلعها ما قنوانه دانية ، ولذلك رفع القنوان . والقنوان جمع قنو ، كصنوان وصنو ، وهو العذب ، يقال لواحده قنو وقنو ، وقني ويثنى قنوان على لفظ الجمع وقنيان وانما يميز بينهما

بأعراب النون ، ويجمع قِنوان وقُنوان وفي الجمع القليل ثلاثة أقناء ، فالقنوان لغة أهل الحجاز ، والقنوان لغة قيس قال امرؤ القيس :

فأتت اعياله وآدت اصوله   ومال بقنوان من البسر أحمر (١)

وقنيان وقنوان لغة تميم وقوله « دانية » معناه قريبة متهدلة ، وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك . وقال الجبائي دانية أي متدانية في حلوق النخل متكور بها .

وقوله « وجنات » يعني وأخرجنا به أيضا جنات من أعناب يعني بساتين من اعناب .

وقوله « والزيتون والرمان » عطف الزيتون على الجنات على تقدير وأخرجنا الزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه، قال قتادة متشابه ورقه مختلف ثمره . ويحتمل أن يكون المراد مشتبها في الخلق مختلفا في الطعم . وقال الجبائي مشتبها ما كان من جنس واحد ، وغير متشابه اذا اختلف جنسه . والمعنى وشجر الرمان والزيتون ، فاكتفى بذكر ثمره عن ذكر شجره ، كما قال « واسأل القرية » فاكتفى بذكر القرية عن ذكر أهلها لدلالة الحال عليه .

وقوله « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه » الثمر جمع ثمرة ، وهو ما انعقد على الشجر يقال : ثمر الثمر اذا نضج والمراد اذا أطلع ثمره .

وقوله « وينعه » قال بعضهم : اذا فتحت ياؤه فهو جمع يانع مثل صاحب وصحب وتاجر وتجر . وقال آخرون: هو مصدر قولهم ينع الثمر فهو ينع ينعا. ويحكى في مصدره ثلاث لغات يَنْع ويَنْع وينع ، وكذلك نضج ونضج ونضج قال الشاعر :

في قباب حول دسكرة   حولها الزيتون قد ينعا (٢)

(١) ديوانه ٨٤ واللسان (قنا) والطبري ١١ / ٥٧٥ ورواية الديوان :

سواحق جبار أثيث فروعه   وعالين قنوانا من البسر أحمرا

(٢) الحيوان للجاحظ ٤ / ٦ (طبع بيروت) والكامل للمبرد ١ /٢٢٦ ومجاز ــ

وسمع أيضا أينعت الثمرة تونع إيناعا فمعنى « وينعه » نضجه وبلوغه حين يبلغ وفي ينعه لغتان : فتح الياء وضمها ، فالفتح لغة اهل الحجاز والضم لغة نجد . وقال ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك والطبري والزجاج وغيرهم : معنى وينعه ونضجه .

وقوله « إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » يعني في انزال الله الماء من السماء الذي أخرج به نبات كل شيء، والخضر الذي أخرج منه الحب المتراكب وسائر ما عدد في الآية «لآيات» أي دلالات أيها الناس اذا نظرتم فيها أدتاكم الى التصديق بتوحيده وخلع الانداد دونه ، وأنه لا يستحق العبادة سواه ،لان في ذلك بيانا وحججا وبرهانا لقوم يؤمنون ، فتصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء . وانما خصَّ المؤمنين بالذكر ، لانهم المنتفعون بذلك والمعتبرون به ، كما قال « هدى للمتقين » وفي الآية دلالة على بطلان قول من يقول بالطبع، لان من الماء الواحد والتربة الواحدة يخرج الله ثمارا مختلفة وأشجارا متباينة ولا يقدر على ذلك غير الله تعالى .

قوله تعالى :

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) آية بلاخلاف

قرأ أهل المدينة « خرّقوا » بتشديد الراء . الباقون بتخفيفها ، قال أبو عبيدة « وخرقوا له بنين وبنات » أي جعلوا له وأشركوه . يقال : خرق واخترق واختلق بمعنى ، اذا افتعل وافترا وكذب ،قال أحمد بن يحيى : خرّق واخترق، وقال ابو الحسن الخفيفة أحب اليّ ، لانها أكثر .

القرآن ١/٢٠٢ واللسان والتاج (ينع) ، (دسكر) وتفسير القرطبي ٧/٦٧ وقد روى (قد وقعا) بدل (قدينعا) .

وقيل ان المعنى المشركين ادعوا أن الملائـكة بنات الله ، والنصارى المسيح ابن الله واليهود عزير ابن الله ومن شدد كأنه ذهب الى التكثير •

أخبر الله تعالى أن هؤلاء الكفار العادلين عن الحق المتخذين معه آلهـة جعلوا له أندادا وشركاء الجن ، كما قال « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا »(١) وقال « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثا »(٢) وقال « ويجعلون لله البنات »(٣) ووصفهم بالجن لخفائهم عن الابصار وقوله « وجعلوا لله شركاء الجن » أراد به الكفار الذين جعلوا الملائكة بنات الله والنصارى الذين جعلوا المسيح ابن الله ، واليهود الذين جعلوا عزيراً ابن الله ، ولذلك قال « وخرقوا له بنين وبنات » ففصل أقوالهم •

وقيل ان معنى « شركاء الجن » في استعاذتهم بهم •

وقيل ان المعنى ان المجوس تنسب الشرّ الى إبليس وتجعله بذلك شريكا •

والهاء والميم في قوله « وخلقهم » يحتمل أن تكون عائدة الى الـكفار الذين جعلوا لله الجن شركاء • ويحتمل أن تكون عائدة على الجن ، ويكون المعنى « وجعلوا لله شركاء الجن » والله خلق الجن فكيف يكونون شركاء له • وفي نصب الجن وجهان أحدهما ــ ان يكون تفسيرا للشركاء وبدلا منه • والآخر ــ ان يكون مفعولا به ومعناه وجعلوا لله الجن شركاء وهو خالقهم • وروي عن يحيى بن يعمر انه قرأ « وخلقهم » بسكون اللام بمعنى أن الجـن شركاء لله في خلقه إيانا ، وهذه القراءة ضعيفة • والقراءة المعروفة أجود ، لان المعنى وخلقهم بمعنى أن الله خلقهم متفردا بخلقه اياهم •

وقوله « وخرقوا له بنين وبنات » معناه تخرصوا ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد وغيرهم ، فيتلخص الكلام أن هؤلاء الكفار جعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم اياه مع انه المتفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٥٨ (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ١٧
(٣) سورة ١٦ النحل آية ٥٧ •

ولا ظهير « وخرقوا له بنين وبنات » معناه تخرصوا له كذبا بنين وبنات « بغير علم » أي بغير حجة • ويحتمل أن يكون معناه بغير علم منهم بما عليهم عاجلاً وآجلا ويحتمل ان يكون معناه بغير علم منهم بما قالوه وعلى حقيقة ما يقولون، لكن جهلا منهم بالله وبعظمته، لانه لا ينبغي لمن كان الها أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة ولا أن يشركه في خلقه شريك ، ثم نزه نفسه تعالى وأمرنا بتنزيهه عما أضافوه اليه ، وأنه يجلّ عن ذلك ويتعالى عنه ، فقال « سبحانه وتعالى عما يصفون » من ادعائهم له شركاء واختراقهم له بنين وبنات لان ذلك لا يليق بصفته ولا بوحدانيته •

قوله تعـالى :

بَدِيعُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)

آية بلا خلاف.

البديع هو المبدع وهي صفة معدولة عن (مفعل) الى (فعيل) ولذلك تعدى (فعيل) لانه يعمل عمل ما عدل عنه ، فاذا لم يكن معدولا للمبالغة لم يتعد نحو طويل وقصير ، وارتفع بديع ، لانه خبر ابتداء محذوف ، وتقديره هو بديع السموات والارض • ويجوز ان يكون رفعا بالابتداء وخبره (انى يكون له ولد) •

والفرق بين الابتداع والاختراع فعل مالم يسبق الى مثله ، والاختراع فعل مالم يوجد سبب له ، ولذلك يقال : البدعة والسنة ، فالبدعة احداث مالم يسبق اليه مما خالف السنة ، ولا يوصف بالاختراع غير الله ، لان حد ما ابتدىء في غير محل القدرة عليه ، ولا يقدر على ذلك الا القادر للنفس ، لان القادر بقدرة اما ان يفعل مباشرا وحده ما ابتدىء في محل القدرة عليه او متولد وحده ما وقع بحسب غيره ، وهو على ضربين : احدهما تولده في محل القدرة عليه • والآخر انه يتعداه بسبب هو الاعتماد لا غير ، ولا يقدر غير

الله على الاختراع أصلا • فاما الابتداع فقد يقع منه ، لانه قد يفعل فعلا لم يسبق اليه • واما « بديع السماوات والارض » فلا يوصف به غير الله لانه خالقهما على غير مثال سبق •

وقوله « اني يكون له ولد » معناه وكيف يكون له ولد • وقيل : معناه من اين يكون له ولد ؟ ولم تكن له صاحبة ، فالولد هو الحيوان المتكون من حيوان ،فعلى هذا آدم ليس بولد ،لانه لم يتكون عن والد ، والمسيح(ع) ولد ، لان مريم ولدته فهو متكون عنها ، وان لم يكن عن ذكر ، والصاحب هو القرين اللازم ، ولذلك يقال : اصحاب الصحراء ، وفي القرآن اصحاب النار وأصحاب الجنة • ومعناه المقارنون لها • وقد يكون المقارن لما هو من جنسه وما ليس من جنسه ، فيوصف بانه صاحب الا انه لابد من مشاكلته ويقال : صاحب القرآن أي حافظه ، وصاحب الدار مالكها •

وقوله : « وخلق كل شيء » يحتمل امرين :

احدهما ــ ان يكون اراد بـ (خلق) قدر ، فعلى هذا تكون الآية عامة ، لانه تعالى مقدر كل شيء •

ويحتمل ان يكون احدث كل شيء ، فعلى هذا يكون مخصوصا ، لانه لم يحدث اشياء كثيرة من مقدورات غيره ،وما هو معدوم لم يوجد على مذهب من يسميها أشياء • وكقديم آخر ، لانه يستحيل •

وقوله : « وهو بكل شيء عليم » عام ، لان الله تعالى يعلم الاشياء كلها قديمها ومحدثها ، موجودها ومعدومها ، لا تخفى عليه خافية •

قوله تعالى :

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) آية بلا خلاف •

« ذلك » اشارة الى ما تقدم ذكره من وصف الله بانه « بديع السماوات

والارض » وغير ذلك من صفاته تعالى • وانما ادخل فيه الميم ، لانه خطاب لجميع الخلق • « الله ربكم » صفة بعد صفة •

وقوله : « لا إله إلا هو » اخبار بانه لا معبود سواه تحق له العبادة • وبين انه « خالق كل شيء » من اصناف الخلق • وحذف اختصارا ـ في المبالغة ـ لقيام الدلالة على انه لا يدخل فيه مالم يخلقه من اصناف الاشياء من المعدوم ، وافعال العباد والقبائح ،ومثله في المبالغة قوله : « تدمر كل شيء بأمر ربها » (١) • وقوله : « واوتيت من كل شيء » (٢) • ثم امر الخلق بعبادة من كان خالق الاشياء كلها ، والمنعم على خلقه بما يستحق به العبادة : من خلق الحياة والقدرة والشهوة والبقاء ، وغير ذلك • واخبر انه تعالى « على كل شيء وكيل » أي حافظ • والوكيل على الشيء هو الحافظ الذي يحوطه ويدفع الضرر عنه • وانما وصف بانه وكيل مع انه مالك الاشياء ، لانه لما كانت منافعه لغيره لاستحالة المنافع عليه والمضار ، صحة الصفة له من هذه الجهة بانه وكيل ، وكان فيها تذكير بالنعمة مع كونه مالكا من جهة انه قادر عليه له ان يصرف اتم التصريف مما يريده بمنزلة ما يريده الوكيل في ان منافعه تعود على غيره ، ولا يلزم على هذا ان يقال : هو وكيل على القبائح والفواحش ، لانه يوهم انها عرض وانما تدخل في الجملة على طريق التبع ، لانه يجازي عليها بالعذاب المستحق بها •

ورفع « خالق كل شيء » بانه خبر ابتداء محذوف كأنه قيل هو خالق كل شيء ، لانه تقدم ذكره فاستغني عن ذكره • ولا يجوز رفعه على ان خبره « فاعبدوه » لدخول الفاء • وكان يجوز نصبه على الحال لانه نكرة اتصل بمعرفة بعد التمام •

(١) سورة ٤٦ الاحقاف آية ٢٥ (٢) سورة ٢٧ النمل آية ٢٣

قولــه تعــالى :

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٠٣) آية بلاخلاف .

في هذه الآية دلالة واضحة على انه تعالى لايرى بالابصار ، لانه تمدح بنفي الادراك عن نفسه . وكلما كان نفيه مدحا غير متفضل به فاثباته لا يكون الا نقصا ، والنقص لا يليق به تعالى . فاذا ثبت انه لا يجوز ادراكه ، ولا رؤيته ، وهذه الجملة تحتاج الى بيان اشياء :

احدها ــ انه تعالى تمدح بالآية .

والثاني ــ ان الادراك هو الرؤوية .

والثالث ــ ان كلما كان نفيه مدحا لا يكون اثباته الا نقصا . والذي يدل على تمدحه شيآن :

احدهما ــ اجماع الامة ، فانه لا خلاف بينهم في انه تعالى تمدح بهذه الآية ، فقولنا : تمدح بنفي الادراك عن نفسه لا ستحالته عليه . وقال المخالف: تمدح لانه قادر على منــع الابصار من رؤيته ، فالاجمــاع حاصل على ان فيها مدحة .

والثاني ــ ان جميع الاوصاف التي وصف بها نفسه قبل هذه الآية وبعدها مدحة ، فلا يجوز ان يتخلل ذلك ما ليس بمدحة . والذي يدل على ان الادراك يفيد الرؤية ان اهل اللغة لا يفرقون بين قولهم : ادركت ببصري شخصا ، وآنست ، واحسست ببصري . وانه يراد بذلك اجمع الرؤية . فلو جاز الخلاف في الادراك ، لجاز الخلاف فيما عداها من الاقسام .

فاما الادراك في اللغة ، فقد يكون بمعنى اللحوق ، كقولهم : ادراك قتادة الحسن . ويكون بمعنى النضج ، كقولهم ادركت الثمرة ، وادركت القدر ، وادرك الغلام اذا بلغ حال الرجال . وأيضا فان الادراك اذا اضيف

الى واحد من الحواس أفاد ما تلك الحاسة آلة فيه ألا ترى انهم يقولون : ادركته بأذني يريدون سمعته ، وادركته بانفي يريدون شممته وادركته بفمي يريدون ذقته ٠ وكذلك اذا قالوا : ادركته ببصري يريدون رأيته ٠ واما قولهم ادركت حرارة الميل ببصري فغير معروف ولا مسموع ، ومع هذا ليس بمطلق بل هو مقيد ، لأن قولهم حرارة الميل تقييد لان الحرارة تدرك بكل محل فيه حياة، ولوقال ادركت الميل ببصري لما استفيد به الا الرؤية٠ وقولهم ان الادراك هو الاحاطة باطل ، لانه لو كان كذلك لقالوا : أدرك الجراب بالدقيق وأدرك الحب بالماء وأدرك السور بالمدينة لاحاطة جميع ذلك بما فيه ، والامر بخلاف ذلك ٠ وقوله « حتى اذا أدركه الغرق »(١) فليس المراد به الاحاطة بل المعنى حتى اذا لحقه الغـــرق ، كما يقولون أدركت فلانا اذا لحقته ، ومثله « فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون »(٢) أي لملحقون ، والذي يدل على أن المدح اذا كان متعلقا بنفي فاثباته لا يكون الا نقصا ، قوله « لا تأخذه سنة ولا نوم (٣) وقوله « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله » (٤) لما كان مدحا متعلقا بنفي فلو ثبت في حال لكان نقصا٠

فان قيل كيف يتمدح بنفي الرؤية ومع هذا يشاركه فيها ما ليس بممدوح من المعدومات والضمائر ؟

قلنا : انما كان ذلك مدحا بشرط كونه مدركا للأبصار وبذلك يميز من جميع الموجودات لانه ليس في الموجودات ما يدرك ولا يدرك ٠

فان قيل : ولم اذا كان يدرك ولا يدرك يجب ان يكون ممدوحا ؟؟

قلنا : قد ثبت ان الآية مدحة بما دللنا عليه ، ولا بد فيها من وجه مدحة فلا يخلو من أحد وجهين : اما أن يكون وجه المدحة أنه يستحيل رؤيته مع كونه رائيا أو ما قالوه من أنه يقدر على منع الابصار من رؤيته بأن لا يفعل

(١) سورة ١٠ يونس آية ٩٠ (٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٦٢
(٣) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٦ ٠ (٤) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٩٢

فيها الادراك ، وما قالوه باطل لقيام الدلالة على أن الادراك ليس بمعنى الاحاطة ،فاذا بطل ذلك لم يبق الا ماقلناه ،والا خرجت الآية من كونها مدحة .

وقد قيل : ان وجه المدحة في ذلك أن من حق المرئي أن يكون مقابلا أو في حكم المقابل وذلك يدل على مدحته ، وهذا دليل من أصل المسألة لا يمكن ان يكون جوابا فى الآية .

فان قيل : انه تعالى نفى أن تكون الابصار تدركه فمن أين ان المبصرين لا يدركونه ؟

قلنا : الابصار لا تدرك شيئا البتة فلا اختصاص لها به دون غيره ، وأيضا فان العادة ان يضاف الادراك الى الابصار ويراد به ذووا الابصار ، كما يقولون: بطشت يدي وسمعت أذني وتكلم لساني ويراد به أجمع ذووا الجارحة

فان قيل: انه تعالى نفى أن جميع المبصرين لا يدركونه ، فمن أين أن البعض لا يدركونه وهم المؤمنون ؟

قلنا : اذا كان تمدحه في استحالة الرؤية عليه لما قدمناه فلا اختصاص لذلك براء دون رائي ، ولك ان تستدل بأن تقول : هو تعالى نفى الادراك عن نفسه نفيا عاما كما أنه أثبت لنفسه ذلك عاما فلو جاز ان يخص ذلك بوقت دون وقت لجاز مثله في كونه مدركا. واذا ثبت نفي ادراكه على كل حال فكل من قال بذلك قال الر ؤية مستحيلة عليه . ومن أجاز الرؤية لم ينفها نفيا عاما فالقول بنفيها عموما مع جواز الرؤية عليه قول خارج عن الاجماع . فان عورضت هذه الآية بقوله « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة »(١) فانا نبين انه لا تعارض بينهما وانه ليس في هذه الآية ما يدل على جواز الرؤية اذا انتهينا اليها ان شاء الله .

وقوله « وهو اللطيف الخبير » قيل في معنى «اللطيف» قولان :

أحدهما ـ أنه اللاطف لعباده بسبوغ الانعام ، غير انه عدل من وزن

---

(١) سورة ٧٥ القيامة آية ٢٣

(فاعل) الى (فعيل) للمبالغـــة .

الثاني ـ أنه لطيف التدبير ، وحذف لدلالة الكلام عليه .

والخبير هو العالم بالاشياء المتبين لها ، وما ذكرناه من أن معنى الآية نفي الرؤية عن نفسه على كل حال قول جماعة منهم عائشة ، روى مسروق عن عائشة انها قالت : من حدثك أن رسول الله رأى ربه فقد كذب « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار » و «ما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب(١) ولكن رأى جبرائيل في صورته مرتين . وفي رواية أخرى أن مسروقا لما قال لها : هل رأى محمد ربه ؟ قالت : سبحان الله ، لقد وقف شعري مما قلت ، ثم قرأت الآية . وقال الشعبي قالت عائشة من قال : ان أحدا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله ، وقرأت الآية ، وهو قول السدي وجماعة أهل العدل من المفسرين كالحسن والبلخي والجبائي والرماني وغيرهم . وقال أهل الحشو والمجبرة بجواز الرؤية على الله تعالى في الآخرةوتأولوا الآيـــة على الاحاطة وقد بينا فســـــاد ذلك .

قوله تعـــالى :

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ(١٠٤) آية بلاخلاف .

البصائر جمع بصيرة وهي الدلالة التي توجب العلم الذي يبصر به نفس الشيء على ما هو به والمراد ههنا قد جاءكم القرآن الذي فيه الحجج والبراهين ، قال الشـــــــاعر :

جاؤا بصائرهم على أكتافهم ... وبصيرتي يعدو بها عتد وأي(٢)

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٥١

(٢) اللسان (بصر) ، (عتد) ،(وأي) وتفسير الطبري ١٢/٢٤ والبصيرة الدم ، والشاعر يعيّر أخوته لابيه لعدم أخذهم بثأر أبيهم وقد أخذ هو بدم ابيه ويروى(حملوا بصائرهم)و(راحوابصائرهم).والعتد الحاضر المعدللكروب

ونعني بالبصيرة الحجة البينة الظاهرة • وأما الإبصار فهو الادراك ولذلك يوصف تعالى بأنه مبصر كما يوصف بأنه مدرك ويسمى بأنه بصير ، لانه يجب أن يدرك المبصرات اذا وجدت وانما وصفت الدلالة بأنها جائية وان كان لا يجوز أن يقال جاءت الحركة ، ولا جاء السكون ولا الاعتماد ، وغير ذلك من الاعراض لتفخيم شأن الدلالة حيث كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس كما يقال جاءت العافية وانصرف المرض وأقبل السعد وأدبر النحس •

وقوله « فمن أبصر فلنفسه » يعني من تبين بهذه الحجج بأن نظر فيها حتى اوجبت له العلم وتبين بها ، فمنفعة ذلك تعود عليه ولنفسه بما نظر • ومن عمي فلم ينظر فيها وصدف عنها حتى جهل فعلى نفسه لان عقاب تفريطه لازم له وحال به ، فسمي العلم والتبيين إبصارا مجازاً ، وسمي الجهل عمى توسعا • وفي ذلك دلالة على ان الخلق غير مجبرين بل هم مخيرون في أفعالهم •

ثم خاطب الله تعالى نبيه (ص) وأمره بأن يقول لهم « وما أنا عليكم بحفيظ » يعني برقيب على أعمال العباد حتى يجازيهم بها ، في قول الحسن ــ بل هو شهيد عليهم ، لانه يرجع الى الحال الظاهرة التي تقع عليها المشاهدة • قال الزجاج : هذا قبل أن يؤمر بالقتال • ثم أمر أن يمنعهم بالسيف عن عبادة الاوثان •

وهذه الآية فيها أمر من الله لنبيه أن يقول لهؤلاء الكفار : قد جاءكم حجج من الله وهو ما ذكره في قوله « فالق الحب والنوى »(١) الى هاهنا • وما يبصرون به الهدى من الضلال ، فمن نظر وعلم فلنفسه نفع ، ومن جهل وعمي فلنفسه ضَر • ولست أمنعكم منه ولا أحول بينكم وما تحتاجون ، وهو قول قتادة وابن زيد •

قوله تعالى :

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) آية بلا خلاف •

---

(١) آية ٩٥ من هذه السورة •

قرأ ابن كثير وابو عمرو (دارست) بألف وفتح التاء . الباقون بلا الف «درست» بفتح التاء ،الا ابن عامر فانه قرأ «درست» بسكون التاء وفتح السين بمعنى (انمحت) وذكر الاخفش (درست) وهو أشد مبالغة في الامحاء وقيل (درست) على ما لم يسم فاعله . والمعاني متقاربة غير ان هذين لم يقرأ بهما أحد من المعروفين . وفي قراءة عبدالله (درس) أي ليقولوا درس محمد . قال أبو زيد : درست أدرس دراسة وهي القراءة . وانما يقال ذلك اذا قرأت على غيرك . قال الاصمعي أنشدني ابن ميادة :

يكفيك من بعض إزديار الآفاق سمراء مما درس ابن مخراق(١)

يقال درس يدرس مثل داس يدوس . قال : وقال بعضهم : سمراء ناقته ، ودرسها رياضها قال ودرس السورة من هذا أي يدرسها لتخف على لسانه ، والدريس الثوب الخلق ، وأصل الدرس استمرار التلاوة . وقال ابو علي النحوي: من قرأ «دارست» معناه أهل الكتاب وذاكرتهم ، قال وقد يحذف الالف في مثل هذا في المصحف .قال ويقوي ذلكقوله«وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا »(٢) وقالوا « ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون»(٣)ومن قرأ (درست) قال لان أبيًا ولبن مسعودقرءا به فاسندا الفعل فيه الى الغيبة كما اسند الى الخطاب ومعناه درست فتعلمت من أهل الكتاب . وقال المغربي : درست معناه علمت كما قال « ودرسوا ما فيه » (٤) أي علموه فعلى هذا يكون اللام لام الغرض ، كأنه قال فعلنا ذلك ليقولوا علمت . ووجه قراءة ابن عامر انه ذهب الى الدرس الذي هو تعفية الاثر وإمحاء الرسم . واللام من قوله « وليقولوا درست » على ضربين :

من قال (درست) بلا الف ، فالمعنى لكراهة أن يقولوا أو لئلا يقولوا : درست ، كما قال « يبين الله لكم أن تضلوا » (٥) ومعناه لئلا تضلوا وكراهة

(١) اللسان « سمر » (٢) سورة ٢٥ الفرقان آية ٥
(٣) سورة ٢٥ الفرقان آية ٤ (٤) سورة ٧ الاعراف اية ١٦٨
(٥) سورة ٤ النساء اية ١٧٥

ان تضلوا ، والمعنى اني فصلت الآيات وأحكمتها لئلا يقولوا : انها أخبار قد تقدمت وطال العهد بها وباد من كان يعرفها ، كما قالوا « أساطير الاولين »(٦) لان تلك الاخبار لاتخلو من خلل فاذا سلم الكتاب منه لم يكن لطاعن موضع طعن .

والثاني ـ ليقولوا (درست) ذلك بحضرتنا أي ليقروا بورود الآية عليهم فتقوم الحجة عليهم .

وقال الزجاج : اللام لام العاقبة ومن قرأ (دارست) فاللام على قوله كالتي في قوله « ليكون » لهم عدوا وحزنا »(٧) ولم يلتقطوه لذلك لكن كان عاقبته كذلك كما أنه تعالى لم يفصل الآيات ليقولوا دارست ودرست . لكن لما قالوا ذلك أطلق ذلك عليه اتساعا .

وموضع الكاف في وكذلك نصب ، لان المعنى نصرف الآيات في غير هذه السورة مثل التصريف في هذه السورة ، فهو في موضع صفة المصدر كأنه قال تصريفا مثل هذا التصريف . قال الرماني : والتصريف اجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة ليجتمع فيه وجوه الفائدة .

وقال الحسن ومجاهد والسدي وابن عباس وسعيد بن جبير (دارست) أي ذاكرت أهل الكتابين وقارأتهم ، وقوله « ولنبيِّنه لقوم يعلمون » معناه لنبين الذي هذه الآيات دالة عليه لقوم يعلمون ما نورده عليهم من هذه الآيات ، ويعقلون ذلك وهم الذين يلزمهم الاستدلال بذلك على الله وعلى صحة دينه .

وقال قوم « ليقولوا درست » معناه التهديد كما يقول القائل : قل لفلان : يوفينا حقنا وليصنع ما شاء ، وقل للناس الحق وليقولوا ما شاؤا أي ذلك لا يضرك ، ولان ضرره يعود عليهم من العقاب والذم .

---

(٦) سورة ١٦ النحل اية ٢٤

(٧) سورة ٢٨ القصص اية ٨

قوله تعـالى :

إِتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) آية بلا خلاف .

أمر الله تعالى نبيه (ص) أن يتبع ما أوحي اليه من ربه ، والاتباع هو أن ينصرف الثاني بتصريف الاول ، والنبي (ص) كان يتصرف في الدين بتصريف الوحي فذلك كان متبعا ، وكذلك كل متدبر بتدبير غيره فهو متبع له والايحاء هو القاء المعنى الى النفس من جهة يخفى ، وانما أعاد قول « لا إله الا هو » لان المعنى ادعهم الى انه لا اله الا هو ، فعلى هذا ليس بتكرار ، هذا قول الحسن . وقال الجبائي : لانه بمعنى الزمه وحده . وقال غيره : لان معناه اتبع ما أوحي اليك من أنه لا اله الا هو .

وقوله «واعرض عن المشركين» أمر النبي (ص) بالاعراض عن المشركين، ولا ينافي ذلك أمره اياه بدعائهم الى الحق وقتالهم على مخالفتهم لامرين :

أحدهما ــ أنه أمره بالاعراض عنهم على وجه الاستجهال لهم فيما اعتقدوه من الاشـــــــــراك بربهم .

الثاني ــ قال ابن عباس : نسخ ذلك بقوله « اقتلوا المشركين»(١) وأصل الاعراض هو الانصراف بالوجه الى جهة العرض . والعرض خلاف الطول ، ومنه (واعرضت اليمامة) . أي ظهرت كالظهور بالعرض ومنه العارضة لظهور المساواة بها كالظهور بالعرض ، والاعتراض المنع من الشيء بحاجز عنه عرضا ومنه العرض الذي يظهر كالظهور بالعرض ثم لا يلبث . وحدّ أيضا بانه ما يظهر في الوجود ولا يكون له لبث كلبث الجواهر .

---

(١) ســــورة ٩ التوبة آية ٦

قوله تعالى :

وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) آية .

ان قيل : كيف قال تعالى « ولو شاء الله ما أشركوا» والمشيئة لا تتعلق الا بفعل يصح حدوثه ، ولا تتعلق بأن لا يكون الشيء ؟!

قلنا : التقدير لو شاء الله ان يكونوا على غير الشرك قسرا ما أشركوا فمتعلق المشيئة محذوف ، فمراد هذه المشيئة حالهم التي تنافى الشرك قسرا بالاقتطاع عن الشرك عجزا او منعا أو الجاء . وانما لا يشاء الله هذه الحال لانها تنافي التكليف . وانما لم يمنع العاصي من المعصية لانه انما اتى بها من قبل نفسه ، والله تعالى فعل به جميع ما فعل بالمطيع من ازاحة العلة ، فاذا لم يطع وعصى كانت الحجة عليه . وربّما كان في بقائه لطف للمؤمن فيجب تبقيته وليس لاحد ان يقول الآية دالة على انه تعالى لم يرد هدايتهم لانه لو أرادذلك لاهتدوا ، وذلك أنه لو لم يرد أن يهتدوا لم يكونوا عصاة بمخالفة الاهتداء ، لان العاصي هو الذي خالف ما أريد منه ولما صح أمرهم أيضا بالاهتداء .

والفرق بين الحفيظ والوكيل هو أن الحفيظ يحفظهم من أن يزلوا بمنعه لهم ، والوكيل القيم بأمورهم في مصالحهم لدينهم أو دنياهم حتى يلطف لهم في تناول ما يجب عليهم ، فليس بحفيظ في ذاك ولا وكيل في هذا ، فذلك قال تعالى : انه لم يجعل نبيه حفيظا ولا جعله وكيلا عليهم ، بل الله تعالى هو الرقيب الحافظ عليهم والمتكفل بأرزاقهم . وانما النبي (ص) مبلغ منذر ومخوف . وقيل : ان ذلك كان بمكة قبل أن يؤمر بالقتال .

قوله تعـالى :

وَلاَ تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ فَيَسُبُّوا ٱللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَـذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَاكَـانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) آية بلاخلاف .

قرأ الحسن ويعقوب « عدوا» بضم العين والدال وتشديد الواو . والباقون بفتح العين وبسكون الدال . وأصل ذلك من العدوان . و «عدوا» مخففا و« عدوّا » لغتان ، يقال عدا علي عدوا وعدوانا وعداءا اذا ظلم مثل ضرب ضربا . وعدا فلان على فلان أي ظلمه . والاعتداء افتعال من عدا .

نهى الله تعالى المؤمنين أن يسبوا الذين يدعون من دون الله . والسب الذكر بالقبيح ومثله الشتم والذم وهو الطعن فيه بمعنى قبيح ، كما يطعن فيه بالسنان ، وأصله السبب ، فهو تسبب الى ذكره بالعيب .

والمعنى في الآية لا تخرجوا في مجادلتهم ودعائهم الى الايمان ومحاجتهم الى ان تسبوا ما يعبدونه من دون الله ، فان ذلك ليس من الحجاج في شيء ، وهو أيضا يدعوهم الى أن يعارضوكم ويسبوا الله بجهلهم وحميتهم ، فأنتم اليوم غير قادرين على معاقبتهم بما يستحقون ، وهم أيضا لا يتقونكم ، لان الدار دارهم ولم يؤذن لكم في القتال .

وكان سبب نزول الاية ــ في قول الحسن ــ أن المسلمين كانوا يسبون آلهة المشركين من الاوثان ، فاذا سبوها يسب المشركون الله تعالى ، فأنزل الله تعالى الاية . وقال أبو جهل : والله يا محمد لتتركوا سب آلهتنا أو لنسبن الهك الذي بعثك ، فنزلت الآية . وفي ذلك دلالة على ان المحق يلزمه الكف عن سب السفهاء الذين يسرعون الى سبه مقابلة له ، لانه بمنزلة البعث علـى المعصية والمفسدة فيها . وانما قال « يدعون من دون الله » بمعنى يعبدون ،

لان معناه يدعونه إلهاً فلما قال « من دون الله » وهو من صفة الكفار دلّ على هذا المعنى فحذف اختصارا • وانما قال «من دون الله» مع انهم كانوا يشركون في العبادة بين الله وبين الاصنام لامرين :

أحدهما ـ ان ما وجهوه من العبادة الى الاوثان انما هو عبادة لها لا لله ، وليس كالتوجه الى القبلة عبادة لله •

والثاني ـ أن ذلك غير معتد به ، لانهم أوقعوا العبادة على خلاف الوجه المأمور به فما أطاعوا الله بحال ••

وقوله « كذلك زينا لكل أمة عملهم » قيل في معناه أربعة أقوال :

أحدها ـ قال الحسن والجبائي والطبري والرماني : انا كما أمرناكم بحسن الدعاء الى الله تعالى وتزيين الحق في قلوب المدعوين كذلك زينا للامم المتقدمين أعمالهم التي أمرناهم بها ودعوناهم اليها بأن رغبناهم في الثواب ، وحذرناهم من العقاب ويسمى ما يجب على الانسان أن يعمله بأنه عمله كما يقول القائل لولده أو غلامه : اعمل عملك يريد به ما ينبغي له أن يفعله ، لان ما وجد وتقضى لا يصح الامر بأن يفعله •

الثاني ـ زينا الحجة الداعية اليها والشبهة التي من كمال العقل ان يكون المكلف عليها ، لانه متى لم يفعل معنى الشبهة لم يكن عاقلا •

الثالث ـ التزيين المراد به ميل الطبع الى الشيء فهو الى الحسن ليفعل والى القبيح ليجتنب •

والرابع ـ ذكره البلخي أيضا ، وهو أن المعنى ان الله زين لكل امة عملهم من تعظيم من خلقهم ورزقهم وانعم عليهم ، والمحامات عنه وعداوة من عاداه طاعة له ، فلما كان المشركون يظنون شركاءهم هم الذين يفعلون ذلك أو أنهم يقربونهم الى الله زلفى ، حاموا عنهم وتعصبوا لهم وعارضوا من شتمهم بشتم من يعز عليهم ، فهم لم يعدوا فيما صنعوا ما زينه الله لهم في الجملة ، لكن غلطوا فقصدوا بذلك من لم يجب ان يقصدوه فكفروا وضلوا •

وقوله «عدوا» نصب على المصدر ، وقرىء «عدوا» والمعنى جماعة يعني أعداء وعلى هذا يكون نصبا على الحال .

قوله تعالى :

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) آية .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر الا يحيى ونصير وخلف «وما يشعركم انها» بكسر الهمزة . الباقون بفتحها .

وقرأ ابن عامر وحمزة «لا تؤمنون» بالتاء . الباقون بالياء .

و(ما) في قوله «وما يشعركم» استفهام وفاعل (يشعركم) ضمير (ما) ولا يجوز ان يكون نفيا ، لان الفعل فيه يبقى بلا فاعل ، ولا يجوز ان يكون نصبا ويكون الفاعل ضمير اسم الله ، لان التقدير يصير ، وما يشعركم الله انتفاء ايمانهم ، وهذا ليس بصحيح ، لان الله قد أعلمنا أنهم لا يؤمنون بقوله «ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة..» آية (١١١) فالمعنى وما يدريكم ايمانهم اذا جاءت الايات ، فحذف المفعول ، وتقديره وما يدريكم ايمانهم اذا جاءت أي هم لا يؤمنون مع مجيء الآية . ومن كسر الالف فلانه استئناف على القطع بأنهم لا يؤمنون ، ولو فتحت بـ«يشعركم» كان عدوا لهم ، ويجوز فتحها على وجهين : الاول قال الخليل : بمعنى لعلها اذا جاءت لا يؤمنون ، كما يقول القائل : ائت السوق انك تشتري لنا شيئا معناه لعلك ، قال عدي بن زيد :

أعاذل ما يدريك ان منيتي   الى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد(١)

وقال دريد بن الصمة :

---

(١) جمهرة اشعار العرب ١٠٣ واللسان (أنن) وتفسير الطبري ١٢/٤١

ذريني أطوف في البلاد لانني أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا(٢)
وقال آخـــــــــر :
هل أنتم عائجون بنا لأنا نرى العرصـــات أو أثر الخيام(٣)
وقال الفراء : انهم يقولون : لعلك ، ولعنك ، ورعنك ، وعلك ، ورأنك ، ولانك بمعنى واحد . وقال ابو النجم :
قلت لشيبان ادن من لقائه انا نغدى اليوم من شوائه(٤)
الثاني ــ قال الفراء (لا) ــهھناــ صلة كقوله « ما منعك أن لا تسجداذ أمرتك »(٥) والتقدير وما يشعركم انها اذا جاءت يؤمنون ، والمعنى علـــى هذا لو جاءت لم يؤمنوا ومثل زيادة (لا) قول الشاعر :
أبا جوده لاَ النجل واستعجلت به نعم من فتى لا يمنع الجود فاعله
بنصب النجل وجره ، فمن نصب جعلها زيادة ، وتقديره أبا جوده النجل ومن جره أضاف(لا) الى(النجل) ومثله قوله تعالى « وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون» (٦) وهو يحتمل أمرين :
احدهما ــ ان تكون (لا) زائدة و (ان) في موضع رفع بأنه خبر المبتدإ الذي هو (حرام) وتقديره وحرام على قرية مهلكة رجوعهم ، كما قال « فـــلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون »(٧) .
والثاني ــ أن تكون (لا) غير زائدة بل تكون متصلة بأهلكنا ، والتقدير بأنهم لا يرجعون أي أهلكناهم بالاستئصال ، لانهم لا يرجعون الى أهليهم

(٢) تفسير الطبري ٣/٧٨ و ١٢/٤٢ والشعر والشـــعراء ٢١٠ ، ٢١١ ومجاز القرآن ٦/٥٥ واللسان (أنن)
(٣) قائلة جرير ، مجمع البيان (صيدا) ٢:٣٤٨ واللسان (أنن)
(٤) المعاني الكبيرلابن قتيبة٣٩٣وخزانةالاداب٣/٩٥١ والطبري١٢/ ٤٣
(٥) سورة ٧ الاعراف آية ١١ (٦) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٥
(٧) سورة ٣٦ يس آية ٥٠

للاستئصال الواقع بهم • وخبر الابتداء محذوف وتقديره حرام على قرية أهلكناها بالاستئصال بقاؤهم أو حياتهم ونحو ذلك •

من قرأ (يؤمنون) بالياء فلان قوله «وأقسموا» انما يراد به قوم مخصوصون بدلالة « ولو أننا انزلنا اليهم الملائكة ••» الآية (١١١) ، وليس كل الناس بهذا الوصف ، فالمعنى ومايشعركم ايها المؤمنون لعلهم اذا جات الآيات التي اقترحوها لم يؤمنوا •

ومن قرأ بالتاء فانه انصرف من الغيبة الى الخطاب ، ويكون المراد بالمخاطبين في « يؤمنون » هم القوم المقسمون الذين أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون ، ومثله قوله « الحمد لله » ثم قال « اياك نعبد » ونحو ذلك مما ينصرف فيه الى خطاب بعد الغيبة •

وقوله « جهد أيمانهم » أي اجتهدوا في اليمين وبالغوا فيه • والآية التي سألوا النبي (ص) اظهارها قيل فيها قولان :

أحدهما ــ انهم سألوا تحول الصفا ذهبا •

الثاني ــ ما ذكره في موضع آخر من قوله « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا » الى قوله « كتابا نقرؤه »(١) والمعنى ان هؤلاء الكفار أقسموا متحكمين على النبي (ص) وبالغوا في أيمانهم أنهم اذا جاءتهم الآية التي اقترحوها ليؤمنن بهاأي عندها ، فأمر الله نبيه(ص) ان يقول لهم: إنما الآيات عند الله •

فان قيل : كيف قال «الآيات عند الله » وذلك معلوم ؟!

قيل : معناه من أجل أن الآيات عند الله ، ليس لكم أن تتحكموا في طلبها ، لانه لا يجوز أن يتخلف عنكم ولا عن غيركم ما فيه المصلحة في الدين لانه تعالى لا يخل بذلك •

قوله « وما يشعركم » فيه تنبيه على موضع الحجة عليهم من أنه ليس

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٠ ــ ٩٤ •

لهم ان يدعوا ما لا سبيل لهم الى علمه • وقال مجاهد وابن زيد : الخطاب متوجه الى المشركين وقال الفراء وغيره : هو متوجه الى المؤمنين ، لانهم قالوا ظنا منهم أنهم لو اجيبوا الى الآيات لآمنوا •

قوله تعالى :

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) آية بلا خلاف •

أخبر الله تعالى أنه يقلب الله أفئدة هؤلاء الكفار وأبصارهم عقوبة لهم وفي كيفية تقليبها قيل قولان :

قال ابو علي الجبائي : انه يقلبها في جهنم على لهب النار وحر الجمر ، وجمع بين صفتهم في الدنيا وصفتهم في الآخرة ، كما قال « هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية »(١) لان قوله « وجوه يومئذ خاشعة » يعني في الآخرة ، و « عاملة ناصبة » في الدنيا •

الثاني ـ انه يقلبها بالحسرة التي تغم وتزعج النفس • وقوله « كما لم يؤمنوا به أول مرة » قيل فيه قولان :

أحدهما ـ أول مرة أنزلت الآيات ، فهم لا يؤمنون ثاني مرة بما طلبوا من الآيات كما لم يؤمنوا أول مرة بما أنزل من الآيات ، وهو قول ابن عباس وابن زيد ومجاهد •

الثاني ـ روي أيضا عن ابن عباس يعني أول مرة في الدنيا وكذلك لو اعيدوا ثانية ، كما قال تعالى « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » (٢)

والكاف في قوله « كما لم يؤمنوا به أول مرة » قيل فيه قولان :

أحدهما ـ انها دخلت على محذوف كأنه قيل : فلا يؤمنون به ثاني مرة كما لم يؤمنوا به أول مرة •

---

(١) سورة ٨٨ الغاشية آية ١ ـ ٤ (٢) سورة ٦ الانعام آية ٢٨

والثاني ـ انها دخلت على معنى الجزاء كما قال « وجزاء سيئة سيئة مثلها »(٣) •

والهاء في قوله «به» يحتمل ان تكون عائدة على القرآن وما أنزل من الآيات • ويحتمل أن تكون عائدة على النبي (ص) • وقال بعضهم : انها عائدة على التقليب ، لانه الحائل بينهم وبين الايمان •

وهذا خطأ لانه لو حيل بينهم وبين الايمان لما كانوا مأمورين به ، ولان تقليب الابصار لا يمنع من الايمان كما لا يمنع الاعمى عماه من الايمان •

وقوله « ونذرهم في طغيانهم يعمهون » لا يدل على أنه تركهم فيه ليطغوا لانه انما أراد انه خلى بينهم وبين اختيارهم وان لم يرد منهم الطغيان ، كما ان الأئمة والصالحين اذا خلوا بين اليهود والنصارى في دخولهم كنائسهم لا يدل على انهم خلوهم ليكفروا •

وقال الحسين بن علي المغربي قوله «ونقلب أفئدتهم وابصارهم » معناه إنا نحيط علما بذات الصدور ، وخائنة الاعين ـ وهو حشو بين الجملتين ـ وهو ان يختبر قلوبهم فيجد باطنها بخلاف الظاهر •

قوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَٰئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) آية بلا خلاف •

قرأ ابن عامر ونافع وابو جعفر « قبلا » بكسر القاف وفتح الباء • الباقون بضمها،قال أبو زيد: يقال لقيت فلانا قِبَلا و قُبُلا وقَبَلا وقَبيلا ومقابلة كله بمعنى المواجهة فعلى هذا المعنى واحد في اختلاف القراءات •

---

(٣) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠

وقال أبو عبيدة «قِبَلا» أي معاينة ، فعلى هذا من كسر القاف وفتح الباء أراد معناه عيانا ، ومن قرأ بالضم فيهما قيل في معناه ثلاثة أقوال :

احدها ــ قال ابن عباس وقتادة وابن زيد : معناه مقابلة •

الثاني ــ قال مجاهد وعبدالله بن زيد : معناه قبيلا قبيلا أي جماعة جماعة فيكون جمع قبيل ، وقبيل جمع قبيلة نحو سفين وسفينة ويجمع أيضا سفنا •

الثالث ــ قال الفراء انه جمع قبيل بمعنى كفيل نحو رغيف ورغف لقوله « أو تأتي بالله والملائكة قبيلا (١) » أي يضمنون ذلك •

قال أبو على الفارسي : وهذا الوجه ضعيف لانهم اذا لم يؤمنوا مع انزال الملائكة عليهم وكلام الموتى لهم مع ظهوره وبهوره ومشاهدته والضرورة اليه ، فألا يؤمنوا بالمقالة التي هي قول لا يبهر ولا يضطر أجدر ، اللهم الا ان يقال موضع الاية الباهرة انه جمع القبيل الذي هو الكفيل هو حشر كل شيء ، وفي الاشياء المحشورة ما ينطق وما لا ينطق ، فاذا نطق بالكفالة من لا ينطق كان ذلك موضع بهر الاية وكان ذلك قويا • فأما اذا حملت قوله « قبلا » على جمع القبيل الذي هو الصنف ، فان موضع الايات هو حشر جميع الاشياء جنسا جنسا ، وليس في العادة ان يحشر جميع الاشياء الى موضع واحد ، فاذا اجتمعت كذلك كان ذلك باهراً واذا حملت « قبلا » بمعنى مواجهة فانه يكون حالا من المفعول به ، والمعنى حشرناه معاينة ومواجهة ، فيكون في معنى قراءة نافع « قِبَلا » أي معاينة • فأما قوله « العذاب قبلا » فمعناه مواجهة أو جمع قبيل • والمعنى يأتيهم العذاب صنفا صنفا • وقيل فيمن نزلت هذه الاية قولان :

احدهما ــ قال ابن عباس : نزلت فى الكفار أهل الشقاء الذين علم الله انهم لا يؤمنون على حال •

الثاني ــ قال ابن جريج : نزلت في المستهزئين الذين سألوا الآيات •

(١) سورة ١٧ الاسرى ٩٢

أخبر الله تعالى بهذه الآية عن هؤلاء الكفار الذين سألوا الآيات وعلم من حالهم أنهم لا يؤمنون ولو فعل بهم ما فعل حتى لو أنزل عليهم الملائكة وكلمهم الموتى بأن يحييهم الله حتى يكلموهم ، وحشر عليهم كل شيء قبلا ، على المعنى الذي فسرناه من ظهور خرق العادة فيه والمعجزة الباهرة فيه لم يؤمنوا لشدة عنادهم وعتوهم في كفرهم . ثم قال « الا ان يشاء الله » ومعناه احد أمرين :

أحدهما ــ قال الحسن : إلا أن يشاء الله أن يجبرهم على الايمان بأن يمنعهم من اضداد الايمان كلها فيقع منهم الايمان .

الثاني ــ قال أبو علي الجبائي : الا ان يشاء الله ان يلجئهم بأن يخلق فيهم العلم الضروري بانهم ان راموا خلافه منعوا منه كما ان الانسان ملجأ الى ترك قتل بعض الملوك بمثل هذا العلم . وانما قلنا : ذلك ، لان الله تعالى قد شاء منهم الايمان على وجه الاختيار ، لانه أمرهم به وكلفهم اياه ، وذلك لا يتم إلا بأن يشاء منهم الايمان ، ولو أراد الله من الكفار الكفر للزم أن يكونوا مطيعين اذا كفروا ، لان الطاعة هي فعل ما أريد من المكلف . وللزم أيضا أن يصح أن يأمرهم به . و لجاز ان يأمرنا بأن نريد منهم الكفر كما أراد هو تعالى

وفي الآية دلالة على ان ارادة الله محدثة ، لان الاستثناء يدل على ذلك لانها لو كانت قديمة لم يجز هذا الاستثناء ، كما لا يجوز ان يقول القائل: لا يدخل زيد الدار الا أن يقدر الله أو الا ان يعلم الله لحصول هذه الصفات فيما لم يزل .

وقوله « ولكن اكثرهم يجهلون » انما وصف أكثرهم بالجهل مع أن الجهل يعمهم لان المعنى يجهلون انه لو أوتوا بكل آية ما آمنوا طوعا . وفي الآية دلالة على انه لو علم الله انه لو فعل بهم من الآيات ما اقترحوها لآمنوا أنه كان يفعل ذلك بهم وأنه يجب في حكمته ذلك ، لانه لو لم يجب ذلك لما كان لهذا الاحتجاج معنى . وتعليله بأنه انما لم يظهر هذه الايات لعلمه بأنه لو

فعلها لم يؤمنوا ، وذلك يبين ايضا فساد قول من يقول : يجوز ان يكون في معلوم الله ما اذا فعله بالكافر آمن ، لانه لو كان ذلك معلوما لفعله ولآمنوا والامر بخلافـــــــــه •

قوله تعـــالى :

وَكَـذٰلكَ جَعَلْنَا لكلِّ نَبيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْانسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّـكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) آية •

التشبيه في قوله « وكذلك » يحتمل أن يرجع الى أحد أمرين :

أحدهما ــ أن يكون تقديره جعلنا لك عدوا كما جعلنا لمن قبلك مـــن الانبيـــــــــاء •

الثاني ــ جعلنا تمكين من يعادي الانبياء وتخليتنا بينهم وبين اختيارهم كتمكين غيرهم من السفهاء • وانما جعلهم اعداء على أحد معنيين :

أحدهما ــ بأن حكم بأنهم أعداء ، وهو قول ابي علي •

الثاني ــ بأن خلى بينهم وبين اختيارهم ولم يمنعهم من العداوة •

ويجوز ان يكون المراد بذلك أن الله تعالى لما أنعم على انبيائه بضروب النعم وبعثهم الى خلقه وشرفهم بذلك ، حسدهم على ذلك خلق ، وعادوهم عليه ، فجاز أن يقال على مجاز القول بأن الله جعل لهم اعداء كما يقول القائل اذا أنعم على غيره بنعم جزيلة فحسده عليها قوم وعادوه لاجلها : جعلت لك أعداء • وقيل المعنى أمرنا الانبياء بمعاداتهم فكأنما جعلناهم أعداء الانبياء • وهذا القول من الله تعالى تسلية للنبي (ص) في أنه أجراه مجرى غيره مـــن الانبياء ، ولا يجوز على قياس ذلك أن يقو ـل : جعلنا للـــــكافر كفرا ، لان فيـــــه ايهـــــاما •

وقوله « شياطين الانس والجن » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ انه أراد مردة الكفار من الفريقين الانس والجن، وهو قول الحسن وقتادة ومجاهد.

الثاني ـ قال السدي وعكرمة: شياطين الانس الذين يغوونهم، وشياطين الجن الذين هم من ولد ابليس. ويحتمل نصب (عدوا) وجهين:

أحدهما ـ على انه مفعول (جعلنا) وشياطين الانس بدل منه.

الثاني ـ على أنه خبر (جعلنا) في الاصل ويكون هنا مفعول (جعلنا) كأنه قال جعلنا شياطين الانس والجن عدوًّا.

وقوله «يوحي بعضهم الى بعض» معناه يلقي اليه بكلام خفي، وهو الدعاء والوسوسة. وقوله «زخرف القول» معناه هو المزين يقال زخرفه زخرفة اذا زينه و«غرورا» نصب على المصدر.

ثم أخبر الله تعالى أنه لو شاء ربك أن يمنعهم من ذلك ويحول بينهم وبينه لقدر على ذلك، لكن ذلك ينافي التكليف، ولو حال بينهم وبينه لما فعلوه.

ثم أمر نبيه (ص) أن يتركهم وما يفترون أي وما يكذبون بأن يخلي بينهم وبين ما يختارونه ولا يمنعهم منه بالقهر، فان الله تعالى سيجازيهم على ذلك. وهو تهديد لهم كقوله «اعملوا ما شئتم(١)» دون أن يكون ذلك أمرا واجبا أو ندبا أو اباحة كما يقول القائل لصاحبه: دعني واياه، ويريد بذلك التهديد لا غير.

وروي عن أبي جعفر عليه السلام في معنى قوله «يوحي بعضهم الى بعض» ان الشياطين يلقى بعضهم بعضا فيلقي اليه ما يغوي به الخلق، حتى يتعلم بعضهم من بعض.

قوله تعالى:

وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) آية بلا خلاف.

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٤٠

العامل في قوله « ولتصغي » قوله « يوحي » وهي لام الغرض وتقديره يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول ليغرونهم ولتصغي اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وتكون الهاء في قوله « اليه » عائدة الى القول المزخرف ، ولا يجوز أن يكون العامل فيها جعلنا ، لان الله تعالى لا يجوز أن يريد منهم أن تصغى قلوبهم الى الكفر ووحي الشياطين ، اللهم الا ان يجعلها لام العاقبة كما قال « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا »(٢) غير ان هذا غير معلوم أن كل من أرادوا منه الصغو صغى ، ولم يصح ذلك أيضا في قولـه « وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون » لانه غير معلوم حصول جميع ذلك .

وعلى ما قلناه يكون جميع ذلك معطوفا بعضه على بعض ويكون مرادا كله للشياطين . وقال الجبائي : ان هذه لام الامر ، والمراد بها التهديد ، كما قال « واستفزز »(٣) وقال « اعملوا ما شئتم »(٤) قال لان علامة النصـــب والجزم تتفق في سقوط النون في قوله « وليرضوه وليقترفوا » وهذا غـير صحيح ، لانها لو كانت لام الامر لقال «ولتصغ» بحذف الالف وما قاله انما يمكن ان يقال في قوله « وليرضوه وليقترفوا » فأما في قوله « ولتصغى » فلا يمكن ، فبان بذلك أنها لام كي . وقال الزجاج والبلخي : اللام في «ولتصغى» لام العاقبة وما بعده لام الامر الذي يراد به التهديد ، وهذا جائز غير أن فيه تعسفا . ومعنى (صغا) مال و « لتصغى » أي لتميل ، وهو قول ابن عباس وابن زيد ، تقول : صغوت اليه أصغى صغوا وصغوا وصغيت أصغي بالياء أيضا وأصغيت اليه اصغاء بمعنى قول الشاعر :

ترى السفيه به عن كل محكمة زيغ وفيه الى التشبيه اصغاء(٥)

ويقال أصغيت الاناء اذا أملته لتجمع ما فيه فاصله الميل لغرض مـــن الاغـــراض .

---

(٢) سورة ٢٨ القصص آية ٨ (٣)سورة ١٧ الاسرى آية ٦٤
(٤) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٤٠
(٥) اللسان (صغا) وتفسير القرطبي ٧/٦٩ وتفسير الطبري ١٢/٥٨

وقوله « وليقترفوا » عطف على « ولتصغي » والاقتراف اكتساب الاثم، ومعناه وليكتسبوا الاثم ـ في قول ابن عباس وابن زيد والسدي ـ ويقال: خرج يقترف لاهله أي يكتسب لهم • وقارف فلان هذا الامر اذا واقعه وعمله وقرفتني بما ادعيت عليَّ أي رميتني بالريبة ، وقرف القرحة أي أقشر منها ، واقترف كذبا قال رؤبة :

أعيا أقتراف الكذب المقروف يقوي البغي وعفة العفيف(٦)

وأصله اقتطاع قطعة من الشيء ولام كي تنصب باضمار (أن) مثل (حتى) غير أنها قد تظهر مع اللام ، ولا تظهر مع (حتى) لان (حتى) محمولة على التأويل ، ومعناها (الى أن) لما في (حتى) من الاشتراك • وليس في اللام حمل على تأويل حرف آخر • وقال البلخي : الاقتراف الادعاء والتهمة ، يقول الرجل لغيره : أنت قرفتني أي نسبتني الى التهم •

قوله تعالى :

أَفَغَيْرَ ٱللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١١٤) آية بلاخلاف •

قرأ ابن عامر وحفص «منَزّل» بتشديد الزاي • الباقون بالتخفيف من شدد حمله على التكرير بدلالة قوله « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم»(٧) •

ومن خفف فلقوله « انا انزلناه في ليلة مباركة »(٨) وما أشبهها •

امر الله تعالى نبيه أن يقول لهؤلاء الكفار الذين مضى ذكرهم « أفغير

(٦) مجاز القرآن ١/٢٠٥ وتفسير الطبري ١٢/٥٩ •
(٧) سورة ٣٩ الزمر آية ١ ، وسورة ٤٥ الجاثية آية ١ وسورة ٤٦ الاحقاف آية ٢   (٨) سورة ٤٤ الدخان آية ٣

الله ابتغي حكما » أي أطلب سوى الله حاكما ، ونصب أفغير الله بفعل مقدر يفسره (أبتغي) تقديره أأبتغي غير الله أبتغي حكما ، والحكم والحاكم بمعنى واحد ، الا ان الحكم هو من كان أهلا أن يتحاكم اليه فهو أمدح من الحاكم ، والحاكم جار على الفعل ، وقد يحكم الحاكم بغير الحق ، والحَكم لا يقضي الا بالحق لانها صفة مدح وتعظيم •

والمعنى هل يجوز لاحد ان يعدل عن حكم الله رغبة عنه ، لانه لا يرضى به ؟! أو هل يجوز مع حكم الله حكم يساويه في حكمه ؟!

وقوله « وهو الذي » يعني الله الذي « أنزل اليكم الكتاب مفصلا » وانما مدح الكتاب بأنه مفصل ، لان التفصيل تبيين المعاني بما ينفي التخليط المعمي للمعنى ، وينفي ايضا التداخل الذي يوجب نقصان البيان عن المراد • وانما فصل القرآن بالآيات التي تفصل المعاني بعضها من بعض وتخليص الدلائل في كل فن •

وقيل : معنى (مفصلا) أي بما يفصل بين الصادق والكاذب من أمور الدين • وقيل : فصل فيه الحرام من الحلال ، والكفر من الايمان ، والهدى من الضلال ــ في قول الحسن ــ •

وقوله « والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق » لا يجوز ان يكون على عمومه ، لان كثيرا من أهل الكتاب ، بل أكثرهم جهال لا يعرفون • وقوله : أهل الكتاب ، قد يستعمل تارة بمعنى العلم ، وبمعنى الاقرار أخرى ، كما يقال للعلماء بالقرآن : أهل القرآن • ويقال لجميع المسلمين أهل القرآن بمعنى أنهم مقرون به • وقوله « يعلمون أنه منزل من ربك بالحق » قيل في معناه قولان :

احدهما ــ يعلمون ان كل ما فيه بيان عن الشيء على ما هو به ، فترغيبه ، وترهيبه ، ووعده ، ووعيده ، وقصصه ، وأمثاله ، وغير ذلك مما فيه كله بهذه الصفة

والثاني ــ أن معنى «بالحق» البرهان الذي تقدم لهم حتى علموه به •

فان قيل كيف يصح على أصلكم في الموافاة ونفي الاحباط وصف الكفار بأنهم يعلمون الحق وذلك مما يستحق به الثواب ولا خلاف أن الكافر لا ثواب معه ؟! .

قلنا عنه جوابان : أحدهما ـ أن تكون الآية مخصوصة بمن آمن منهم في المستقبل ، فانا نجوز أن يكونوا في الحال عالمين بالله وبأن القرآن حق ثم يظهرون الاسلام فيما بعد فيتكامل الايمان ، لان الايمان لا يحصل دفعة واحدة بل يحصل جزءا فجزءا ، لان أوله العلم بحدوث الاجسام ، ثم ان لها محدثا ، ثم العلم بصفاته ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، ثم العلم بالثواب والعقاب وما يتبعهما ، وذلك يحصل في أوقات كثيرة

والثاني ـ أن يكونوا علموه على وجه لا يستحقون به الثواب لانهم يكونون نظروا في الادلة لا لوجه وجوب ذلك عليهم ، بل لغير ذلك فحصل لهم العلم وان لم يستحقوا به ثوابا .

ويحتمل أن يكون المراد بذلك أنهم يعلمون عند أنفسهم ، لانهم اذا كانوا معتقدين بصحة التوراة وأنها من عند الله ، وفيها دلالة على صحة نبوة النبي (ص) وهم يدعون أن اعتقادهم علم ، فهم اذاً على قولهم عالمون بأن القرآن منزل من ربك بالحق .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله « الذين آتيناهم الكتاب » المؤمنين المسلمين دون أهل الكتاب ، ويكون المراد بالكتاب القرآن لانا قد بينا أن الله سماه كتابا بقوله « الر كتاب احكمت »(١) وبقوله « هو الذي انزل عليك الكتاب »(٢) فعلى هذا سقط السؤال ، لان هذه صفة المؤمنين المستحقين للثواب

وقوله «فلا تكونن من الممترين » معناه لا تكونن من الشاكين .

والامتراء الشك وكذلك المرية ويكون الخطاب للنبي (ص) والمراد به الامة .

وقيل المراد بذلك « فلا تكونن من الممترين » يا محمد في أنهم يعلمون أن ذلك من ربك بالحق .

(١) سورة ١١ هود آية ١ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٧

قوله تعالى :

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١١٥) آية بلا خلاف •

قرأ أهل الكوفة ويعقوب « كلمة » على التوحيد • الباقون « كلمات » جمع كلمة ، والكلمة والكلمات ما ذكره الله من وعده ووعيده وثوابه وعقابه ، فلا تبديل فيه ، ولا تغيير له كما قال « ما يبدل القول لدي »(٣) ، وقال «لا تبديل لكلمات الله»(٤) وكان التقدير ، وتمت ذوات الكلمات ، ولا يجوز أن يعني بالكلمات الشرائع ههنا كما عنى بقوله « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن »(٥) وقوله « وصدقت بكلمات ربها »(٦) لانه قال لا مبدل لكلماته • والشرائع يدخلها النسخ • وقوله « صدقا وعدلا » مصدران ينتصبان في موضع الحال من الكلمة وتقديره صادقة عادلة ، وقال قوم : هما نصبا على التمييز • فمن قرأ (كلمات) فلانه لما كان جمعا في المعنى جمعه • ومن أفرد فلأن الكلمة قد يعنى بها الكثرة ،كما قالوا : قال زهير في كلمته ، يعني في قصيدته وقال قس في كلمته ، يعني خطبته ، فالمفرد يقع على الكثرة فاغنى عن الجمع ومثله « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل »(٧) • وقيل انه أراد به بقوله « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا»(٨) الى آخر الآية فسمى هذا القصص كلمة •

وقال مجاهد في قوله «كلمة التقوى» (٩) قول لا إله الا الله • ومعنى

(٣) سورة ٥٠ ق آية ٢٩ (٤)سورة ١٠ يونس آية ٦٤
(٥) سورة ٢ البقرة آية ١٢٤ (٦) سورة ٦٦ التحريم آية ١٢
(٧) سورة ٧ الاعراف آية ١٣٦ (٨) سورة ٢٨ القصص آية ٥
(٩) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٦

«وتمت كلمات ربك» انها بتمامها موافقة لما توجبه المصلحة من غير زيادةولا نقصان . والتمام والكمال والاستيفاء نظائر . وان جميعه صدق ولا كذب فيه كما يقال : كمل فلان اذا تمت محاسنه .

وفي الآية دلالة على ان كلام الله محدث ، لانه وصفه بالتمام والعدل وذلك لا يكون الا حادثا . والتبديل وضع شيء مكان شيء ، فلا أحد يقدر ان يضع مكان كلمة الله يناقضها به . وقال قتادة : لا مبدل لها فيما حكم به لانه وان أمكن التغيير والتبديل في اللفظ كما بدل أهل الكتاب التوراة والانجيل،فانه لايعتد بذلك، لانه لايقلبه بحق ينقضه . ويجوز أن يكون المراد بقوله «وتمت كلمات ربك» أنها أتتك شيئا بعد شيء حتى كملت .

وقوله «وهو السميع العليم» معناه أنه على صفة يجب ان يسمع المسموعات اذا وجدت عالم بما يكون ظاهرا وباطنا ، فلا يظن ظان أن شيئا من ذلك يخفي عليه تعالى .

قوله تعالى :

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)

آية بلا خلاف .

هذا خطاب من الله لنبيه ولجميع المؤمنين انه من يطع أكثر من في الارض من الكفار ويتبع ما يريدونه يضلوه عن سبيل الله ، لانه كان في ذلك الوقت اكثر أهل الارض كفارا . والطاعة هي امتثال الامر واجابة ما أريد منه اذا كان المريد فوقه ، والفرق بينه وبين الاجابة أن الاجابة عامة في موافقة الارادة الواقعة موقع المسألة ، ولا تكون اجابة الا بأن يفعل لموافقة الدعاء بالامر ، ومن أجله لا يراعي فيها الرتبة .

والفرق بين الاكثر والاعظم أن الاعظم قد يوصف به واحد ، ولا يوصف بالاكثر واحد بحال ، ولهذا يقال في الله تعالى انه عظيم وأعظم من كل شيء ، ولا يقال أكثر وانما يقال أكبر بمعنى أعظم •

وانما قال : أن تطعهم يضلوك ، وان كانت البدأة بالاغواء منهم لامرين :

احدهما - ان المطيع يبتدأ باستشعار الطاعة ، فاذا كان من الداعي أمر بشيء من الاشياء كان اطاعة وصدق بأنه مطيع •

والثاني - ان دعاءهم لا يوصف بأنه اضلال لمن دعوه الا بعد الاجابة فكأنه قال : ان تجبهم تستحق الصفة بأنهم قد أضلوك ، ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الكفار انهم لا يتبعون الا الظن الذي يخطيء ويصيب « وان هم الا يخرصون » ومعناه وما هم الا كاذبين • والخرص الكذب يقال : خرص يخرص خرصا وخروصا ،وتخرص تخرصا واخترص اختراصا وأصله القطع قال الشاعر:

ترى قصد المران تلقى كأنها تذرع خرصان بأيدي الشواطب(١)

يعني جريدا يقطع طويلا ويتخذ منه الحصر ، وهو جمع الخرص • ومنه خرص النخل يخرصه خرصا اذا جزره ، والخريص الخليج ينقطع اليه الماء ، والخريص حبة القرط اذا كانت منفردة ، والخرص العود ، لانقطاعه عن نظائره بطيب ريحه •

وقيل معنى « وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله » يعني في أكل الميتة ، لأنهم قالوا للمسلمين : أتاكلون ماقتلتم ولا تأكلون ماقتل ربكم ؟ ! فهذا إضلالهم • وقال بعضهم قوله « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » مثل قوله « يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » (٢) يعني المتعمدين المتردين •

وفى الآية دلالة على بطلان قول أصحاب المعارف ، وبطلان قولهم ان الله تعالى لا يتوعد من لا يعلم الحق ، لان الله بين في هذه الآية أنهم يتبعون الظن ولا يعرفونه ، وتوعدهم على ذلك • وذلك بخلاف مذهبهم •

(١)قائلة قيس بن الخطيم اللسان (شطب) (٢) سورة٦ الانعام آية١١٢

قوله تعالى :

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) آية بلا خلاف .

خاطب الله تعالى بهذه الآية نبيه (ص) وان عنى به جميع الامة انه تعالى « أعلم من يضل عن سبيله » بمعنى أعرف ، والمعنى انه أعلم به ممن يعلمه ، لانه يعلمه من وجوه تخفى على غيره ، لانه تعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما هو كائن الى يوم القيامة ، وعلى جميع الوجوه التي يصح ان تعلم الاشياء عليها وليس كذلك غيره ، لان غيره لا يعلم جميع الاشياء ، وما يعلمه لا يعلمه من جميع وجوهه . وأما من هو غير عالم أصلا ، فلا يقال الله أعلم منه ،لان لفظة أعلم تقتضي الاشتراك في العلم وزيادة لمن وصف بأنه أعلم ، وهذا لا يصلح في من ليس بعالم أصلا الا مجازا ،ولا يصح أن يقال : هو تعالى أعلم بأن الجسم حادث من كل من يعلم كونه حادثا ، لان هذا قد ذكر الوجه الذي يعلم منه وهو انه حادث ، فان أريد بذلك المبالغة في الصفة ، وأن هذه الصفة فيه أثبت من غيره فجاز أن يقال ذلك .

وذكروا في موضع (من) وجهين من الاعراب :

قال بعضهم : موضعه نصب على حذف الباء وتقديره أعلم بمن يضل ليكون مقابلا لقوله « وهو أعلم بالمهتدين » .

وقال الفراء والزجاج : موضعها الرفع لانها بمعنى(أي) كقوله «لنعلم أي الحزبين »(١) وصفة (أفعل)من كذا لا تتعدى لانها غير جارية على الفعل ،ولا معدولة عن الجارية كعدل ضروب عن ضارب ومنحار عن ناحر . وقال قوم : ان (اعلم) ههنا بمعنى يعلم كما قال حاتم الطائي :

(١) سورة ١٨ الكهف آية ١٢

فخالفت طيء من دوننا خلفا والله أعلم ما كنا لهم خولا(٢)

وقالت الخنساء :

القوم أعلم ان جفنته تغدو غداة الريح أو تسري(٣)

قال الرماني : هذا لا يجوز لانه لا يطابق قوله « وهو أعلم بالمهتدين » فمعنى الآية ان الله تعالى أعلم بمن يسلك سبيل الضلال المؤدي الى الهلاك بالعقاب ، ومن سلك سبيل الهدى المفضي به الى النجاة والثواب •

قوله تعالى :

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)

آية بلا خلاف •

قيل فى دخول الفاء في قوله «فكلوا » قولان :

أحدهما ــ انه جواب لقول المشركين لما قالوا المسلمين : أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم ؟ فكأنه قيل : اعرضوا عن جهلكم فكلوا •

والثاني ــ ان يكون عطفا على ما دل عليه أول الكلام ، كأنه قال : كونوا على الهدى فكلوا مما ذكر اسم الله عليه •

وقوله « فكلوا » ، وان كان لفظه لفظ الامر ، فالمراد به الاباحة ، لان الاكل ليس بواجب ولا مندوب ، اللهم الا ان يكون في الاكل استعانة على طاعة الله ، فانه يكون الاكل مرغبا فيه ، وربما كان واجبا ، فأما ما يمسك الرمق فخارج عن ذلك ، لانه عند ذلك يكون الانسان ملجأ الى تناوله • ومثل هذه الآية في لفظ الامر والمراد به الاباحة قوله « واذا حللتم فاصطادوا »(٤) وقوله « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض» (٥) والاصطياد والانتشار

(٢) تفسير القرطبي ٧/٧٢ وتفسير الطبري ١٢/٦٦

(٣) ديوانها : ١٠٤ وتفسير الطبري ٢/٦٦

(٤) سورة ٥ المائدة آية ٣ (٥) سورة ٦٣ الجمعة آية ١٠

مباحان بلا خـــــلاف .

وقوله « مما ذكر اسم الله عليه » فالذكر المسنون هو قول بسم الله . وقيل كل اسم يختص الله تعالى به أو صفة مختصة كقوله بسم الله الرحمن الرحيم أو بسم القدير أو بسم القادر لنفسه أو العالم لنفسه ، وما يجري مجرى ذلك . والاول مجمع على جوازه والظاهر يقتضي جواز غيره ، ولقوله «قل ادعو الله أو ادعو الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى » . (٦)

وقوله « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » خطاب للمؤمنين وفيه دلالة على وجوب التسمية على الذبيحة ، لان الظاهر يقتضي أن مالا يسمى عليه لا يجوز أكله بدلالة قوله «ان كنتم بآياته مؤمنين» لان هذا يقتضي مخالفة المشركين في أكلهم مالم يذكر اسم الله عليه ، فأما مالم يذكر اسم الله عليه سهوا أو نسيانا فانه يجوز أكله على كل حال . والآية تدل على أن ذبائح الكفار لا يجــوز أكلها ، لانهم لا يسمون الله عليها . ومن سمى منهم لانه لا يعتقد وجوب ذلك بل يعتقد ان الذي يسميه هو الذي أبدى شرع موسى أو عيسى وكذب محمد بن عبدالله ، وذلك لا يكون الله ، فاذا هم ذاكرون اسم شيطان والاسم انما يكون المسمى مخصوص بالقصد . وذلك مفتقر الى معرفته واعتقاده ، والكفار على مذهبنا لا يعرفون الله تعالى ، فكيف يصح منهم تسميته تعالى ؟! وفي ذلك دلالة واضـــحة على ما قلناه .

ومعنى قوله « ان كنتم بآياته مؤمنين» ان كنتم عرفتم الله وعرفتم رسوله وصحة ما أتاكم به من عند الله ، وهذا التحليل عام لجميع الخلق وان خص به المؤمنين بقوله « ان كنتم بآياته مؤمنين » لان ما حلل الله للمؤمنين ،فهو حلال لجميع المكلفين وما حرم عليهم حرام على الجميع .

قوله تعـالى :

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ

---

(٦) سورة ١٧ الاسري آية ١١٠

فَصَّلَ لَكُم مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ(١١٩)

آية بلا خلاف .

قرأ نافع وحفص عن عاصم « وقد فصل لكم ما حرم » بفتح الفاء والصاد والحاء والراء . وقرأ ابن كثير ، وابو عمرو ، وابن عامر (فصل) و (حرم) بضم الفاء والحاء . وقرأ حمزة والكسائي وابو بكر (فصل) بفتح الفاء و (حرم) بضم الحاء . وقرأ أهل الكوفة (ليضلون) بضم الياء وكسر الضاد . الباقون بفتح الياء .

من ضم الفاء والحاء ، فلقوله « حرمت عليكم الميتة والدم .. » الآية(١) فهنا تفصيل هذا العام بقوله (حرم) وكذلك (فصل) لان هذا المفصل هو ذلك المحرم الذي حل في هذه الآية .

ومن فتحهما فلقوله «اتل ما حرم ربكم»(٢) وقوله « فصلنا الآيات»(٣) وكذلك قوله « الذين يشهدون أن الله حرم هذا »(٤) ولانه قال « وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر أسم الله عليه وقد فصل » فينبغي أن يكون الفعل مبنيا للفاعل لتقدم ذكر اسم الله .

ومن فتح الفاء وضم الحاء ، فلقوله « فصلنا الآيات » وقوله « حرمت عليكم الميتة والدم »

وقوله « وما لكم » خطاب للمؤمنين الذين ذكرهم في الآية الاولى ومعناه لم لا تأكلوا ، وقيل بينهما فرق ، لان (لم لا تفعل) أعم من حيث انه قد يكون لحال يرجع اليه وقد يكون لحال يرجع الى غيره ، فأما (مالك أن لا تفعل)

(١) سورة ٥ المائدة آية ٤ (٢) سورة ٦ الانعام آية ١٥٣
(٣)سورة ٦ الانعام آية ٩٧ ، ٩٨ ، ١٢٦ (٤) سورة ٦ الانعام آية ١٥٠

فلحال يرجع اليه . وقيل في معنى (لا) في قوله (أن لا تأكلوا) قولان :

احدهما ـ انها للجحد ، وتقديره أي شيء لكم في أن لا تأكلوا ، اختاره الزجاج وغيره من البصريين .

والثاني ـ أن يكون صلة ، والمعنى ما منعكم ان تأكلوا ، لان (مالك ان لا تفعل) (ومالك لا تفعل) بمعنى واحد . وقال قوم : معناه ليس لكم ان لا تأكلوا مما أمرناكم بأكله على الوصف الذي امرناكم بفعله ، ويجوز حذف (في) من « مالكم الا تأكلوا » ولا يجوز حذفها من مالكم فى ترك الاكل لان (ان) تلزمها الصلة فهي أحق بالاستحقاق من المصدر ، لان المصدر لا تلزمه الصلة ، كما حسن حذف الهاء من صلة (الذي) ولم يحسن من الصفة .

وقوله « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » يعني ما ذكره في مواضع من قوله « حرمت عليكم الميتة » (١) الآية وغيرها .

وقوله « الا ما اضطررتم اليه » معناه الا اذا خفتم على أنفسكم الهلاك من الجوع وترك التناول ، فحينئذ يجوز لكم تناول ما حرمه الله في قوله «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » (٢) وما حرمه في هذه الآية .

واختلفوا في مقدار ما يسوغ له حينئذ تناوله ، فعندنا لا يجوز له ان يتناول الا ما يمسك الرمق . وفي الناس من قال : يجوز له أن يشبع منه اذا اضطر اليه وان يحمل منها معه حتى يجد ما يأكله . وقال الجبائي : في الآية دلالة على أن ما يكره عليه من أكل هذه الاجناس أنه يجوز له أكله ، لان المكره يخاف على نفسه مثل المضطر .

ومن قرأ « ليضلون » بفتح الياء ذهب الى ان المعنى ليضلون بأهوائهم أي يضلون باتباع أهوائهم ، كما قال « واتبع هواه »(٣) أي يضلون في انفسهم من غير ان يضلوا غيرهم من أتباعهم بامتناعهم من أكل ما ذكر اسم الله

(١ ، ٢) سورة ٥ المائدة آية ٤ (٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٥ ، و سورة١٨ الكهف آية ٢٨وسورة ٢٠ طه آية ١٦ وسورة ٢٨ القصص آية٥٠

عليه وغـــــــير ذلك •

ومن قرأ بضم الياء اراد انهم يضلون أشياعهم ، فحذف المفعول بـــه ، وحذف المفعول كثير ، ويقوي ذلك قوله « وما أضلنا الا المجــرمون » (٤) وقوله « ربنا هؤلاء أضلونا »(٥) •

وقوله « وان كثيرا » أوقع (ان) على النكرة ، لان الكلام اذا طـــال احتمل ودل بعضه على بعض •

قوله تعـالى :

وَذَرُوا ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) آية بلا خلاف •

الواو في قوله « وذروا »، واو العطف ولا يستعمل « وذر » لما مضى ولا « واذر » لاسم الفاعل واستغني عنه بـ(ترك) وانما يستعمل منه يذر و (ذر) وامثاله ومثله(يدع) لم يستعمل منه (فَعَل) ولا (فاعل)استغنوا أيضا بـ(ترك) و (تارك) وأشعروا بذلك كراهية الواو فى الابتداء حتى لم يزيدوها هناك أصلا مع زيادتهم أخواتها • والظاهر هو الكائن على وجه يمكن ادراكه ، والباطن هو الكائن على وجه يتعذر ادراكه •

أمر الله تعالى في هذه الآية بترك الاثم مع قيام الدلالة على كونه اثما ، ونهى عن ارتكابه سرا وعلانية ، وهو قول قتادة والربيع بن أنس ومجاهد ، لان الجاهلية كانت ترى ان الزنا اذا أظهر واعلن كان فيه اثم ،فاذا استتر به صاحبه لم يكن اثما ـ ذكره الضحاك ـ وقال الجبائي الظاهر أفعال الجوارح ، والباطن أفعال القلوب •وقال غيره : الظاهر الطواف بالبيت عريانا والباطن الزنا • والاول أعم على ما قلناه ـ ذكره ابن زيد ـ وقال قوم : ظاهر الاثم الزنا ، وباطنه اتخاذ الاخدان ـ ذكره السدي والضحاك ـ وقال سعيد

(٤) سورة ٢٦ الشعراء آية ٩٩　　(٥) سورة الاعراف آية ٣٧

بن جبير ظاهر الاثم امرأة الاب وباطنه الزنا .

أمر الله تعالى باجتناب الاثم على كل حال ، ثم أخبر أن الذين يكسبون الاثم يعني المعاصي والقبائح سيجازيهم الله يوم القيامة بما كانوا يرتكبونه . وقد بينا أن معنى الاقتراف هو معنى الاكتساب . والكسب هو فعل ما يجتلب به نفع الى نفسه أو يدفع به ضرر ، ولذلك يوصف الواحد منا بأنه مكتسب ولا يوصف الله تعالى به ، والكواسب الجوارح من الطير ، لانها تكسب ما ينتفع به .

قوله تعالى :

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) آية بلاخلاف .

نهى الله تعالى في هذه الآية عن أكل مالم يذكر اسم الله عليه ، وذلك صريح في وجوب التسمية على الذبيحة ، لانها لو لم تكن واجبة ، لكان ترك التسمية غير محرم لها . فأما من ترك التسمية ناسيا ، فمذهبنا أنه يجوز أن تؤكل ذبيحته بعد أن يكون معتقدا لوجوبها .

وكان الحسن يقول : يجوز له أن يأكل منها . وقال ابن سيرين : لا يجوز أن يأكل منها . وبه قال الجبائي .

فأما اذا تركها متعمدا فعندنا لا يجوز اكله بحال . وفيه خلاف بين الفقهاء فقال قوم : اذا كان تارك التسمية متعمدا من المسلمين جاز أكل ذبيحته . وقال آخرون لا يجوز أكلها كما قلنا .

وذلك يدل على ان ما يذبحه أهل الكتاب لا يجوز أكله ، لانهم لا يعتقدون وجوب التسمية ولا يذكرونه ، ومن ذكر اسم الله منهم فانما يقصد

به اسم من أبدى شرعهم ، ولم يبعث محمدا صلى الله عليه وآله ، بل كذبه ، وذلك ليس هو الله ، فلا يجوز اكل ذبيحتهم . ولانهم لا يعرفون الله ، فلا يصح منهم القصد الى ذكر اسمه .

فأما من عدا أهل الكتابين فلا خلاف في تحريم ما يذبحونه .

وليست الآية منسوخة ولا شيء منها ، ومن ادعى نسخ شيء منها فعليه الدلالة .

وقال الحسن وعكرمة : نسخ منها ذبائح الذين أوتوا الكتاب بقوله « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم »(١) وعندنا ان ذلك مخصوص بالحبوب دون الذبائح .

وقال قوم : ليس أهل الكتاب داخلين في جملة من يذكر اسم الله على ذبيحته ، وليس واحد من هؤلاء معنيا بالآية ، فلا يحتاج الى النسخ .

وقوله « وانه لفسق » يعني ما لم يذكر اسم الله عليه أي أكله فسق . وحذف لدلالة الكلام عليه .

وقوله « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم » يعني بالشياطين علماءهم ورؤساءهم المتمردين في كفرهم يوحون ويشيرون الى أوليائهم الذين اتبعوهم من الكفار بأن يجادلوا المسلمين في استحلال الميتة . وقال الحسن يجادلونهم بقولهم : ان ما قتل الله أولى بأن يؤكل مما قتله الناس . وقال عكرمة : المراد بالشياطين مردة الكفار من مجوس فارس « الى أوليائهم » من مشركي قريش . وقال ابن عباس : المراد بالشياطين ههنا ابليس وجنوده بأن يوسوسوا اليهم ويوحون الى أهل الشرك بذلك ، وبه قال قتادة . وقال قوم: الذين جادلوا بذلك كانوا قوما من اليهود جادلوا رسول الله (ص) بأن ما قتله الله أولى بالاكل مما قتله الناس . ثم قال تعالى « وان أطعتموهم » ايها المؤمنون فيما يقولونه من استحلال أكل الميتة وغيره « انكم لمشركون » لان من استحل الميتة كافر بالاجماع . ومن اكلها محرما لها مختارا ، فهو فاسق

(١) سورة ٥ المائدة آية ٦

وهو قول الحسن وجماعة من المفسرين . والتقدير في قوله « انكم » فانكم ، لان جواب الشرط لا يكون بـ (أن) بلا فاء . وانما يكون ذلك جواب القسم .

واختلفوا فيما عناه الله تعالى بقوله «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» فقال عطاء : ذلك يختص بذبائح كانت في الجاهلية على الاوثان كانت العرب تذبحها وقريش . وقال ابن عباس ذلك الميتة . وقال قوم :عنى بذلك كل ذبيحة لم يذكر اسم الله عليها . وهذا الوجه أقوى على ما بيناه . ومن حمل الآية على الميتة فقد أبعد ، لان احدا من العرب ما كان يستحل الميتة . وانما ذلك مذهب قوم من المجوس ، فالآية اما أن تكون مختصة بما كانت تذبح للاصنام على ما قاله عطاء،أو عامة في كل مالم يذكر اسم الله عليه الا ما أخرجه الدليل.وقد بينا ان ذلك أعم وأولى بحمل الآية عليه .

قوله تعالى :

أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) آية بلا خلاف .

قرأ أهل المدينة ويعقوب (ميتا) بالتشديد . الباقون بالتخفيف . قال أبو عبيدة الميتة مخففة ومثقلة معناهما واحد ، وانما خفف إستثقالا ، قال ابن الرعلاء الغساني :

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الاحياء
انما الميت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء(١)

وقد وصف الله الكفار بأنهم أموات بقوله «أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون»(٢) وكذلك « أو من كان ميتا فأحييناه » والمعنى من كان ميتا

(١) مر تخريجه في ٢/٤٣٢ ، ٨٤ و ٣/٤٢٨ (٢) سورة ١٦ النحل آية ٢١

بالكفر فصار حيا بالاسلام بعد الكفر ، كالمصر على كفره ؟!

وقوله « وجعلنا له نورا يمشي به في الناس » يحتمل أمرين :

أحدهما ــ أن يراد به النور المذكور في قوله يسعى « نورهم بين أيديهم »(٣) وقوله « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم »(٤)

الثاني ــ أن يراد بالنور الاحكام التي يؤتاها المسلم باسلامه ، لانه اذا جعل الكافر بكفره في الظلمات فالمؤمن بخلافه .

ومن خفف حذف الياء الثانية المنقلبة عن الواو ، أعلت بالحذف كما أعلت بالقلب

اختلفوا فى من نزلت هذه الآية ، فقال ابن عباس والحسن وغيرهما من المفسرين : نزلت في كل مؤمن وكافر . وقال عكرمة : نزلت في عمار بن ياسر وابي جهل ، وهو قوله ابي جعفر(ع). وقال الضحاك : نزلت في عمر بن الخطاب وقال الزجاج : نزلت في النبي(ص) وأبي جهل . والاول أعم فائدة ، لانه يدخل فيه جميع ما قالوه .

بين الله تعالى أن «من كان ميتا » يعني كافرا « فأحييناه » يعني وفقناه للايمان ، فآمن أو صادفناه مؤمناً بأن آمن ، لأن الاحياء بعد الإماتة ــ ههنا ــ هو الاخراج من الكفر الى الايمان عند جميع أهل العلم : كابن عباس والحسن ومجاهد والبلخي والجبائي وغيرهم .

وقوله «وجعلنا له نوراً يمشي به فى الناس» يعني جعلنا له علما ، فسمى العلم نورا وحياة ، والجهل ظلمة وموتا ، لان العلم يهتدى به الى الرشاد ، كما يهتدى بالنور في الظلمات ، وتدرك به الامور كما تدرك بالحياة . والظلمة كالجهل لانه يؤدي الى الحيرة والهلكة ، والموت كالجهل في أنه لا تدرك به حقيقة . وانما قال « كمن مثله في الظلمات » ولم يقل كمن هو في الظلمات ، لان التقدير كمن مثله مثل من في الظلمات ويجوز أن يدل بأن مثله فى الظلمات على أنه في الظلمات الا انه يزيد فائدة أنه ممن يضرب به المثل في ذلك .

(٣ ، ٤) سورة ٥٧ الحديد آية ١٢ــ١٣

وقيل في المراد بالنور الذي يمشي به في الناس قولان :

أحدهما ـ قال الحسن : وهو القرآن . وقال غيره : هو الايمان الذي لطف له به .

ووجه التشبيه في قوله « كذلك زين للكافرين » أي زين لهؤلاء الكفر ، فعملوه كما زين لأولئك الايمان فعملوه ، فشبهت حال هؤلاء في التزيين بحال أولئك فيه ، كما قال « كل حزب بما لديهم فرحون » (١) وانما زين الله تعالى الايمان عند المؤمنين ، وزين الغواة من الشياطين وغيرهم الكفر عند الكافرين وهو قول الحسن وأبي علي والرماني والبلخي وغيرهم .

وفي الآية دلالة على وجوب طلب العلم ، لانه تعالى رغب فيه بأن جعله كالحياة في الادراك بها والنور في الاهتداء به .

قوله تعالى :

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) آية بلاخلاف

معنى قوله « كذلك جعلنا » أي جعلنا ذا المكر من المجرمين ، كما جعلنا ذا النور من المؤمنين ، فكلما فعلنا بهؤلاء فعلنا بأولئك الا أن أولئك اهتدوا بحسن اختيارهم وهؤلاء ضلوا بسوء اختيارهم ، لأن كل واحد منهما جعل بمعنى صار به كذا الا أن الاول باللطف ، والثاني بالتمكين من المكر ، فصار كأنه جعل كذا .

وموضع الكاف في « وكذلك » نصب بالعطف على قوله « كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » والمعنى مثل ذلك الذي قصصنا عليك زين للكافرين عملهم . ومثل ذلك « جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها » وانما خص أكابر المجرمين بهذا المعنى دون الاصاغر ، لانه أحسن في الاقتدار على الجميع ، لان الاكابر اذا كانوا في قبضة القادر فالاصاغر بذلك أجدر .

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٥٤ وسورة ٣٠ الروم آية ٣٢

والاكابر جمع الاسماء ، والكبر جمع الصفات تقول :كبير وأكابر ويجوز آن يكون جمع أكبر على أكابر • وقد قالوا : الاكابرة والاصاغرة ، كما قالوا: الاساورة والاحامرة قال الشاعر :

ان الاحامرة الثلاثة أهلكت ‌ ‌ مالي وكنت بهن قدما مولعا
الخمر واللحم السمين أحبه ‌ ‌ والزعفران فقد أبيت مودعا(١)

وقوله « ليمكروا فيها » اللام لام العاقبة ويسمى لام الصيرورة ، كما قال « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا »(٢) وقال الشاعر :

فاقسم لو قتلوا مالكا ‌ ‌ لكنت لهم حية راصدة
وام سماك فلا تجزعي ‌ ‌ فللموت ماتلد الوالدة(٣)

وليس المراد بها لام الغرض ، لانه تعالى لا يريد أن يمكروا ، وقد قال «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون»(٤) وإرادة القبيح قبيحة، والتقدير وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليطيعوني ويمتثلوا أمري ، وكان عاقبتهم أن مكروا بالمؤمنين وخدعوهم ، فقال الله تعالى « وما يمكرون الا بأنفسهم » لان عقاب ذلك يحل بهم • والمكر هو فتل الشيء الى خلاف الرشد على وجه الحيلة في الامر • والمكر والختل والغدر نظائر • وأصل المكر الفتل • ومنه جارية ممكورة أي مفتولة البدن • ووجه مكر الانسان بنفسه أن وبال مكره يعود عليه ، كأنه قال وما يضرون بذلك المكر الا أنفسهم ، وما يشعرون انهم يمكرون بها ، ولا يصح أن يمكر الانسان بنفسه على الحقيقة ، لانه لا يصح أن يخفي عن نفسه معنى ما يحتال به عليها ويصح أن يخفي ذلك عن غيره •

وفائدة الآية ان أكابر المجرمين لم يمكروا بالمؤمنين على وجه المغالبة لله ، اذ كأنه جعلهم ليمكروا مبالغة في انتفاء صفة المغالبة •

---

(١) قائلة الاعشى • ديوان الاعشيين : ٢٤٧ واللسان « حمر» وتفسير الطبري ١٢/٩٤ وفيه اختلاف كثير في الرواية ، وقد اثبتنا ما في مخطوطة التبيان
(٢) سورة ٢٨ القصص آية ٨ (٣) مر تخريجه في ٣/٦٠ وسيأتي في ٥/٤٣
(٤) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٦ •

قوله تعالى :

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾

قرأ ابن كثير وحفص رسالته على التوحيد ونصب التاء . الباقون على الجمع . ومن وحد ، فلأن الرسالة تدل على القلة والكثرة لكونها مصدرا . ومن جمع ، فلما تكرر من رسل الله وتحميله اياهم رسالة بعد أخرى فاتى بلفظ الجمع .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار أنه اذا جاءتهم آية ودلالة من عند الله تدل على توحيد الله وصدق انبيائه ورسله «قالوا لن نؤمن» اي لا نصدق بها « حتى نؤتي » أي نعطى آية مثل ما أعطي رسل الله حسدا منهم للانبياء (عليهم السلام) . ثم أخبر تعالى على وجه الانكار عليهم بأنه تعالى أعلم منهم ومن جميع الخلق حيث يجعل رسالاته ، لان الرسالة تابعة للمصلحة ، ولا يبعث الله تعالى الا من يعلم ان مصلحة الخلق تتعلق ببعثه دون من لا يتعلق ذلك به. ومن يعلم انه يقوم بأعباء الرسالة دون من لا يقـوم بها . وتوعدهم فقال : «سيصيب الذين أجرموا» أي سينال الذين انقطعوا الى القبيح وأقدموا عليه « صغار عند الله » والصغار الذل الذي يصغر الى الانسان نفسه يقال : صغر يصغر صغارا وصغرا ، وقيل في معنى الصغار عند الله ثلاثة اقوال :

ا ولها ــ صغار أي ذلة من عند الله ، ولا يجوز على هذا أن يقال : زيد عند عمر بمعنى من عنده ، لان حذف (من) تلبيس ــ ههنا ــ .

الثاني ــ قال الفراء اكتسب من ترك اتباع الحق صغارا عند الله .

الثالث ــ قال الزجاج يعني صغار في الآخرة ، وهو أقواها ، لقوله «وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » في دار الدنيا ، و « عند الله » يتعلق بقوله

« سيصيب الذين أجرموا صغار » ويجوز أن يكون متعلقا بـ«صغار»،وتقديره سيصيب الذين أجرموا صغار ثابت لهم عند الله •

ومعنى الآية الانكار لما طلبوا الاحتجاج عليهم فيما جهلوا ، والوعيد على ما فعلوا •

وقوله « رسل الله » اللام مفخمة فى (الله) ولا تفخم من قوله «الله أعلم» لان ما وقع بعد فتح وضم صح تفخيمه ، كقولك من الله ، لانه بمنزلة تفخيم الالف مع هاتين الحركتين في نحو كامل وعالم وترك التفخيم في الثاني كما ترك في الالف مع الكسرة في نحو عائد ، وانما فخمت اللام في تلك المواضع لتعظيم الاسم من غير اخلال بالخروج عن نظيره •

قوله تعالى :

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)

آية بلا خلاف •

قرأ ابن كثير « ضيقا » بتخفيف الياء وسكونها ـ ههنا ـ وفي الفرقان • الباقون بتشديدها وكسرها • وقرأ أهل المدينة وأبو بكر « حرجا » بكسر الراء • الباقون بفتحها • وقرأ ابن كثير « يصعد » بتخفيف الصاد والعين وسكون الصاد من غير الف ، ورواه أبو بكر بتشديد الصاد وألف بعدها وتخفيف العين • الباقون بتشديد الصاد والعين وفتح الصاد من غير الف •

قال ابو علي النحوي : الضيّق والضيق مثل الميّت والميت في أن معناهما واحد • والياء والواو يشتركان في الحذف ، وان لم تعل الياء بالقلب كما أعلت الواو به فاتبعت الياء الواو في هذا ،كما اتبعتها فى قولهم أيسر ، قالوا في آيسار

الجزور اتسر ، فجعلت بمنزلة اتعد . وقال غيره : يجوز أن يكون من ضاق الامر يضيق ضيقا . وقد قرأه من قرأ « ولاتك في ضيق » . ومن فتح الراء من (حرج) جعلها وصفا للمصدر ، لان المصادر قد توصف بمثل ذلك ، كقولهم رجل دنف أي ذو دنف ولا يكون كبطل لان اسم الفاعل في الاكثر من(فَعَّل) انما يجيء على (فَعَل) . ومن كسر الراء فهو مثل دنِف ، وفرق . قال ابو زيد وحرج عليه السحور والسحر : اذا أصبح قبل أن يتسحر وحرج عليه حرجا وهما واحد ، وحرجت على المرأة الصلاة تحرج حرجا ، وحرمت عليها الصلاة تحرم حرما بمعنى واحد ، ويقال حرج فلان يحرج اذا هاب ان يتقدم على الامر أو قاتل فصبر وهو كاره .

وقال غيره : هما بمعنى واحد كالدنَف والدنِف ، والوِحد والوَحد ، والفرِد والفرَد وقيل : الحرج الاثم والحرج الضيق الشديد .

ومن قرأ « يصعد » من الصعود ، فالمعنى أنه في نفوره عن الاسلام ، وثقله عليه بمنزلة من تكلف مالا يطيقه ، كما أن صعود السماء لا يستطاع .

ومن قرأ « يصعد » بتشديد الصاد والعين بلا الف أراد يتصعد فادغم . والمعنى كأنه يتكلف ما يثقل عليه . وكأنه تكلف شيئا بعد شيء كقولك يتصرف ويتحرج وغير ذلك مما يتعاطى فيه الفعل شيئا بعد شيء ويصاعد مثل يصعد ومثل ضاعف وضعف وناعم ونعم .

والضمير في قوله « يشرح صدره للاسلام » يحتمل ان يكون راجعا الى (من) وتقديره أن المهدي يشرح صدر نفسه ، وهو جيد ويكون تقديره : من أراد الله أن يثيبه ويهديه الى طريق الجنة فليطعه . ومن أراد ان يعاقبه فليعصه فالارادة واقعة على فعل العبد بقلبه بالاحراج والضيق . ويقوي ذلك قوله « من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله »(١) فان الطمأنينة الى الايمان فعلهم

(١) سورة ١٦ النحل آية ١٠٦

لا محالة ، لانه ايمان • ثم نسب تعالى شرح صدورهم بالكفر اليهم •

والثاني ـ أن يكون الضمير فيه عائدا أبدا الى اسم الله تعالى وهو الاقوى لقوله « أفمن شرح الله صدره للاسلام » وقوله « ألم نشرح لك صدرك »(٢) وكذلك يكون الضمير في قوله «يشرح صدره للاسلام» عائدا لاسم الله تعالى• والمعنى أن الفعل مستند الى اسم الله في اللفظ وفي المعنى للمشروح صدره ، وانما نسبه الى ضمير اسم الله لانه بقدرته كان وتوفيقه ، كما قال « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى »(٣) ويدل على ان المعنى لفاعل الايمان اسناد هذا الفعل الى الكافر في قوله « ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله» فكما اسند الفعل الى فاعل الكفر كذلك يكون اسناده في المعنى الى فاعل الايمان ، ومعنى شرح الصدر اتساعه للايمان أو الكفر وانقياده له وسهولته عليه ، بدلالة وصف خلاف المؤمن بخلاف الشرح الذي هو اتساع •

وقوله « ومن يرد أن يضله » يعني يعاقبه أو يعدل به عن طريق الجنة يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يفعل ما يعجز عنه ولا يستطيعه لثقله عليه وتكاؤده عليه •

وقوله « يصعد » ويصاعد من المشقة وصعوبة الشيء • ومن ذلك قوله « يسلكه عذابا صعدا »(٤) وقوله « سأرهقه صعودا » (٥) اي سأغشيه عذابا صعودا أي شاقا • ومن ذلك قول عمر : ما يصعدني شيء كما يصعدني خطبة النكاح اي ما يشق علي مشقتها ، فكان معنى يصعد يتكلف مشقة في ارتقاء صعودا • وعلى هذا قالوا : عقبة عنوت وعنتوت ، وعقبة كؤد ، ولا يكون السماء في هذا الموضع ـ على هذا القول ـ هي المظلة للارض لكن كما قال سيبويه : القيدود الطويل في غير سمائه يريد في غير ارتفاع صعدا ، ومثله «قد نرى تقلب وجهك في السماء» (٦) واما قوله « يجعل صدره ضيقا حرجا »

(٢) سورة ٩٤ الانشراح آية ١ (٣) سورة ٨ الانفال آية ١٧ •
(٤) سورة ٧٢ الجن آية ١٧ (٥) سورة ٧٤ المدثر آية ١٧
(٦) سورة ٢ البقرة آية ١٤٤

فانه يحتمل امرين :

احدهما ـ التسمية كقوله « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا» (٧)اي سموهم بذلك فلذلك يسمى القلب ضيقا لمحاولته الايمان وحرجاعنه

والآخر ـ الحكم كقولهم اجعل البصرة بغداد ، وجعلت حسني قبيحا أي حكمت بذلك ولا يكون هذا من الجعل الذي يراد به الخلق ولا الذي يراد به الالقاء كقولك جعلت متاعك بعضه على بعض . وقوله «ويجعل الخبيث بعضه على بعض » (٨)

وقيل في معنى الهداية والاضلال في الآية قولان :

احدهما أنه يريد بالهدى تسهيل السبيل الى الاسلام بالدلائل التي يشرح بها الصدر ، والاضلال تصعيب السبيل اليه بالدلائل التي يضيق بها الصدر، لان حاله أوجبت تغليظ المحنة عليه من غير أن يكون هناك مانع له ولا تدبير غيره أولى منه ، وانما هو حض على الاجتهاد في طلب الحق حتى ينشرح بالدلائل الصدر ، ولا يضيق بدعائها الى خلاف ما سبق من العقد ، والهدى الى ما طلبه طالب الحق ، والاضلال عما طلبه طالب تاكيد الكفر .

والثاني ـ ان يراد بالهداية الهداية الى الثواب وبالاضلال الإضلال عن الثواب والسلوك به الى العقاب ، ويكون التقدير من يرد الله أن يهديه للثواب في الآخرة فيشرح صدره للاسلام في الدنيا بأن يفعل له اللطف الذي يختار عنده الاسلام ، ومن يرد أن يعاقبه ويعدل به عن الثواب الى النار يجعل صدره ضيقا حرجا بما سبق من سوء اختياره للكفر جزاء على فعله ويخذله ويخلي بينه وبين ما يريده من الكفر أو يحكم على قلبه بالضيق والحرج ، أو يسميه بذلك على ما فسرناه . وهذا الاضلال لا يكون الا مستحقا كما أن تلك الهداية لا تكون الا مستحقة ، وقد سمى الله تعالى الثواب هداية في قوله « الحمد لله

---

(٧) سورة ٤٣ الزخرف آية ١٩ (٨) سورة ٨ الانفال آية ٣٨

الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله »(١) وقال « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم » (٢) والهداية بعد القتل انما هي الثواب في الجنة، وقال تعالى «والذين اهتدوا زادهم هدى»(٣) وقال « ومن يؤمن بالله يهد قلبه »(٤) وقال يهدي به الله من اتبع رضوانه»(٥) وقال « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »(٦) وكل ذلك يراد به الثواب وقد سمى العقاب ضلال في قوله « ويضل الله الظالمين »(٧) وقوله « وما يضل به الا الفاسقين»(٨) وهذه الجملة معنى قول أبي علي الجبائي والبلخي ، والاول قول الرماني وقيل أيضا : انما يشرح قلب المؤمن بالآيات والدلائل لكونه طالب للحق ، ولم يفعل ذلك بالكافر لكونه طالبا لتأكيد الكفر وفي هذا الوجه حض على طلب الحق .

والحرج الضيق الشديد ، وقال ابن عباس : أصله الحرجة ، وهي الشجرة الملتفة بالشجر حولها ، فلا يصل اليها الراعي ، فكذلك قلب هذا لا يصل اليه خير ـ في قول عمر ـ وقال ابن عباس لا يصل اليه حكمة .

وقوله « كأنما يصعد في السماء » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ كأنما كلف الصعود الى السماء بالدليل الذي يدعوه الى خلاف مذهبه . وقال سعيد بن جبير : كأنه لا يجد مسلكا الا صعدا .

والثاني ـ كأنما ينزع قلبه الى السماء نبوا عن الحق بأن يتباعد في الهرب.

وفي معنى الرجس قولان :

احدهما ـ قال مجاهد : كلما لا خير فيه . وقال ابن زيد وغيره من أهل اللغة : هو العذاب . ويقال الرجس والنجس لما كان رجسا ، ولقد رجس رجاسة ونجس نجاسة . ووجه التشبيه في قوله « كذلك يجعل الله الرجس على

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٢ (٢) سورة ٤٧ محمد آية ٤ـ٥
(٣) سورة ٤٧ محمد آية ١٧ (٤) سورة ٦٤ التغابن آية ١١
(٥) سورة ٥ المائدة آية ١٨ (٦) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٦٩
(٧) سورة ١٤ ابراهيم آية ٢٧ (٨) سورة ٢ البقرة آية ٢٦

الذين لا يؤمنون » أنه يجعل الرجس على هؤلاء كما يجعل ضيق الصدر في قلوب أولئك وان كل ذلك على وجه الاستحقاق • ولا يجوز أن يكون المراد بالآية ان الله تعالى يجعل سبب الايمان الذي يكون به الايمان ، وسبب الكفر الذي يكون به الكفر ، وانهما جميعا من فعل الله على ما يقوله المجبرة ، وذلك أن الله تعالى أنزل القرآن حجة له على عباده ، لا حجة للعباد عليه ، فلو كان كما قالوه لكانت الحجة عليه لاله على انه لا يجوز ان يكون في كلام الله تعالى مناقضة ، وقد ذكره الله تعالى في مواضع أنه هدى للكفار نحو قوله « وأما ثمود فهديناهم فاستحقوا العمى على الهدى »(١) وقال « وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة »(٢) وقال « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى »(٣) وقال « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها »(٤) فبين بجميع ذلك انه تعالى هدى الكفار كما هدى المؤمنين ، فكيف ينفي ذلك في موضع آخر ، وهل ذلك الا مناقضة وكلام الله منزه عنها ؟ ! ومتى حملنا الآيات على ما قلناه ووفقنا بينها لم يؤد الى المناقضة ولا التضاد ، ويقوي ذلك ان الله اخبر انه يجعل قلب الكافر ضيقا حرجا ونحن نجد كثيرا من الكفار غير ضيقي الصدر بما هم فيه من الكفر بل هم في غاية السرور والفرح بذلك، فكيف يقال ان الله تعالى ضيق صدورهم بالكفر ؟ ! ولا يلزمنا ذلك اذا قلنا ان الله يفعل ذلك بهم على وجه العقوبة لانه تعالى اذا كان يفعل بهم ذلك عقوبة يجوز أن يفعل بهم ذلك اذا أراد عقابهم لا في جميع الاحوال ، ولا يلزم ان يجدوا نفوسهم على ذلك في كل وقت • وأيضا فان سبب القبيح لا يكون الا قبيحا فعلى هذا سبب الكفر يجب ان يكون قبيحا ، لانه موجب له لا يصلح لضده من الايمان ، لانه لو صلح لذلك لم يكن سببا ، والله تعالى لا يفعل

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ١٧ (٢) سورة ٩٠ البلد آية ١٠ــ١١
(٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٤ وسورة ١٨ الكهف آية ٥٦
(٤) سورة ٦ الانعام آية ١٠٤

القبيح • وانما ذكر الله ضيق صدر الكافر ، وهو مما يصح ان يدعا به الى الايمان في بعض الاحوال ، كما يصح أن يدعا بانشراحه في غير تلك الحال • ويقوي ما قلناه قوله « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » وانما أريد بذلك ما يفعله بهم من العقاب والبراءة واللعنة والشتم والاسماء القبيحة مع ما أعد لهم من العقاب • وقال الحسن : معناه انه يكون مقبول الايمان منشرح الصدر ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ، ومعناه انه يثقل عليه ما يدعا اليه من الايمان كانما يصعد الى السماء ، فبذلك صار ضيق الصدر عن الايمان • « ويجعل الله الرجس » يعني رجاسة الكفر على الذين لا يؤمنون •

ووجه آخر في الآية ، وهو أن نحملها على التقديم والتأخير كأنه قال: من يشرح الله صدره للاسلام يرد الله أن يهديه ، ومن يجعل صدره ضيقا حرجا يرد الله أن يضله •

ووجه آخر وهو أن يكون الله تعالى لما دعاهم الى الايمان وأمرهم ففعلوه انشرحت صدورهم ، فنسب شرح ذلك الى الله تعالى، ولما ضاقت صدور الكفار عند دعاء الله واقامة الحجج عليهم وامره اياهم بذلك فضلوا عند ذلك ، صح ان ينسب اضلالهم اليه ، كما يقولون : أضل فلان بعيره اذا ضل عنه ، وهو لم يرد ذلك •

واللام في قوله « للاسلام » يحتمل أمرين :

احدهما ــ أن يكون الله تعالى هداه بالالطاف التي ينشرح بها صدره للتمسك بالاسلام والاستبصار فيه ، ولا يكون فعل ذلك بالكفار وان لم يخل بينهم وبين الايمان ولا منعهم منه ، لانه تعالى قد اعطى الكافر الصحة والسلامة والقوة ، وجميع ما يتمكن به من فعل ما أمره به ، وانما لم يفعل بهم اللطف الذي يؤمنون عنده ، لانهم لما عدلوا عن النظر في آيات الله وحججه خرجوا من أن يكون لهم لطف يختارون عنده الايمان وصاروا مخذولين ،

فخلى الله تعالى بينهم وبين اختيارهم ، فعبر عن ذلك بأنه جعل صدر الكافر ضيقا حرجا .

والثاني ـ ان يكون اللام بمعنى لأجل الشيء وبسببه كما يقول القائل: انما قلت هذا الكلام لزيد ولمراعات عمرو ، المعنى من أجله وبسببه ، فيكون المعنى انه شرح صدره من أجل الاسلام ، لانه فعل اسلاما استحق به شرح الصدر .

قوله تعالى :

وَهٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) آيتان بلا خلاف .

الاشارة بقوله «وهذا صراط ربك مستقيما» يمكن ان تكون الى أحد شيئين:

احدهما ـ ما قال ابن عباس : انه راجع الى الاسلام .

والثاني ـ أن تكون اشارة الى البيان الذي في القرآن ، وأضيف الصراط الى الله في قوله « صرط ربك مستقيما » لانه لما كانت الاضافة فيه انما هي على أنه الذي نصبه ودل به ، وغلب عليه الاستعمال . ولم يجز قياسا على ذلك ان يقال : هذا طريق ربك ، لانه لم تجر العادة باستعماله كما انهم استعملوا قولهم : هذا في سبيل الله ، ولم يقولوا في طريق الله ، لما قلناه .

وقوله « مستقيما » نصب على الحال ومعناه الذي لا اعوجاج فيه .

فان قيل كيف يقال : انه مستقيم مع اختلاف وجوه الادلة ؟!

قلنا : لانها مع اختلافها يؤدي كل واحد منها الى الحق ، وكأنها طريق واحد لسلامة جميعها من التناقض والفساد، وكلها تؤدي من تمسك بها الى الثوب

وقوله « قد فصلنا الآيات » أي بيناها « لقوم يذكرون » وانما أعيد ذكر تفصيل الآيات للاشعار بأن هذا الذي تقدم من الآيات التي فصلها الله عز

وجل للعباد • وقوله « يذكرون » أصله يتذكرون فقلبت التاء ذالا وأدغمت الاولى في الثانية، ولم يجز قلب الذال الى الدال كما جاز في « فهل من مدكر »(١) لانهم لما لم يجيزوا ادغام التاء في الدال ، لانها أفضل منها بالجهر ، قلبت الى الدال لتعديل الحروف وليس كذلك ادغام التاء في الذال • وانما خص الآيات بقوم يتذكرون لانهم المنتفعون بها وان كانت آيات لغيرهم ، كما قال « هدى للمتقين » •

وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال : المعارف ضرورية لانها لو كانت ضرورية لم يكن لتفصيل الآيات ليتذكر بها فائدة •

وقوله « لهم دار السلام » هذه لام الاضافة وانما فتحت مع المضمر وكسرت مع الظاهر لامرين :

احدهما ــ طلبا للتخفيف ، لان الاضمار موضع تخفيف ، وفتحت في الاستغاثة في (يالبكر) تشبيها بالكناية ، ولانه موضع تخفيف بالترخيم وحذف التنوين •

والثاني ــ أن اصلها الفتح ، وانما كسرت مع الظاهر للفرق بينها وبين لام الابتداء •

وقيل في معنا « السلام » ههنا قولان :

احدهما ــ قال الحسن والسدي : انه الله وداره الجنة •

والثاني ــ قال الزجاج والجبائي : انها دار السلامة الدائمة من كل آفة وبلية •

وقوله « عند ربهم » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ مضمون عند ربهم حتى يوصله اليهم •

الثاني ــ في الآخرة يعطيهم اياه •

وقوله « وهو وليهم » يعني الله • وفي معنى (الولي) قولان :

احدهما ــ انه يتولى ايصال المنافع اليهم ودفع المضار عنهم •

---

(١) سورة ٥٤ القمر آية ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٥١

الثاني - ناصرهم على اعدائهم .

وقوله « بما كانوا يعملون » يعني جزاء باعمالهم ، وهو وان كان مطلقا فالمراد بما كانوا يعملونه من الطاعات ، لان من المعلوم ان ما لم يكن طاعة فلا ثواب عليه . ويجوز ايضا ان يكون مقيدا لدلالة قوله « يذكرون » عليه . والموعود بهذا الوعد المتذكر لآيات الله بحقها ، وهو العامل بها .

قوله تعالى :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)

آية بلا خلاف .

قرأ حفص وروح « ويوم يحشرهم » بالياء . الباقون بالنون .

من قرأ بالياء فلقوله « لهم دار السلام عند ربهم . ويوم يحشرهم » والنون كالياء في المعنى ، ويقوي النون قوله « وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا » (١) وقوله «ونحشره يوم القيامة أعمى » (٢) والذي يتعلق به (اليوم) هذا القول المضمر . والمعنى ويوم نحشرهم جميعا نقول « يامعشر الجن قد أستكثرتم من الانس » أي قد استكثرتم ممن أضللتموه من الانس بالاغواء والاضلال. قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد: معناه استكثرتم من اغوائهم واضلالهم « وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض» . وقيل في وجه الاستمتاع من بعضهم ببعض قولان :

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٤٨ (٢) سورة ٢٠ طه آية ١٢٤

احدهما — بتزيين الامور التي يهوونها حتى يسهل عليهم فعلها •

والثاني — قال الحسن وابن جريج والزجاج والفراء وغيرهم : انه اذا كان الرجل أراد ان يسافر فيخاف سلوك طريق من الجن فيقول : اعوذ بسيد هذا الوادي ، ثم يسلك فلا يخاف ، كما قال تعالى « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » (٣) ووجه استمتاع الجن بالانس أنهم اذا اعتقدوا ان الانس يتعوذون بهم،ويعتقدون انهم ينفعونهم ويضرونهم أوأنهم يقبلون منهم إذا أغووهم كان في ذلك تعظيم لهم وسرور ونفع،ذكر ذلك الزجاج والبلخي والرماني • وقال البلخي : ويحتمل ان يكون قوله « استمتع بعضنا ببعض »مقصوراًعلى الانس ،فكأن الانس استمتع بعضهم ببعض دون الجن•

وقوله « بلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا » قيل في معناه قولان :

احدهما — قال الحسن والسدي : انه الموت •

الثاني — الحشر ، لان كل واحد منهما اجل في الحكم ، فالموت اجل استدراك ما مضى ، والحشر أجل الجزاء • وقال ابو علي : في الآية دلالة على انه لا اجل الا واحد ، قال لانه لو كان له اجلان فكان اذا اقتطع دونه بأن قتل ظلما لم يكن بلغ اجله ، والآية تتضمن انهم اجمع يقولون : بلغنا اجلنا الذي اجلت لنا • وقال الرماني وغيره من البغداديين : لاتدل على ذلك ، بل لا يمتنع ان يكون له أجلان : احدهما مايقع فيه الموت ، والآخر ما يقع فيه الحشر ، وما كان يجوز أن يعيش اليه •

وقوله « قال النار مثواكم » جواب من الله تعالى لهم بأن النار مثواهم، وهو المقام ، يقال : ثوى يثوي ثواء ، قال الشاعر :

لقد كان في حول ثواء ثويته تقضي لبانات ويسأم سائم (٤)

ومعنى الآية التقريع للغواة من الجن والانس مع إعترافهم بالخطيئة في

---

(٣) سورة ٧٢ الجن آية ٦ (٤) قائله الاعشى ديوانه : ٥٦ وسيبويه ١/١٢٣ ، وتأويل مشكل القرآن : ٥٩ •

وقت لاينفعهم الندم على ماسلف ، وخاصة اذا كان الجواب لهم بأن مثواهم النار « خالدين فيها » أي مؤبدين فيها ، وهو نصب على الحال ٠

وقوله « الا ما شاء الله » قيل في معنى هذا الاستثناء ثلاثة اقوال :

احدها — « الا ما شاء الله » من الفائت قبل ذلك من الاستحقاق من وقت الحشر الى زمان المعاقبة ، وتقديره : خالدين فيها على مقادير الاستحقاق الا ما شاء الله من الفائت قبل ذلك، لانما فات يجوز اسقاطه بالعفو عنه ٠ والفائت من الثواب لايجوز تركه ، لانه بخس لحقه ، ذكره الرماني والبلخي والطبري والزجاج والجبائي ٠

الثاني — « الا ما شاء الله » من تجديد الخلود بعد احتراقهم وتصريفهم في انواع العذاب فيها ، والتقدير خالدين فيها على صفة واحدة الا ما شاء الله من هذه الامور ٠

الثالث — ما حكي عن ابن عباس ، حكاه الرماني والطبري عنه أنه قال : هذه الآية توجب الوقف في جميع الكفار ، فانه ذهب الى ان وعيدهم بالقطع يدل عليه فيما بعد ، وهو قوله « ان الله لايغفر ان يشرك به » (١) وقال قوم : معنى (ما) (من) وتقديره الا من شاء الله اخراجه من النار من المؤمنين الذين لهم ثواب بعد استيفاء عقابهم ٠

وقوله « ان ربك حكيم عليم » أي هو حكيم فيما يفعله من جزائهم ، وعالم بذلك وبغيره من المعلومات لايخفى عليه شيء منها ٠

قولـــه تعـــالى :

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) آية بلاخلاف ٠

قيل في معنى قوله « نولي بعض الظالمين بعضا » قولان :

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٧ ، ١١٥ ٠

احدهما ــ انا نكل بعضهم الى بعض في النصرة والمعونة في الحاجة، ولا نحول بينهم •

الثاني ــ نجعل بعضهم يتولى القيام بأمر بعض •

وقيل في كيفية تولية الله الظالمين بعضهم بعضاً أقوال :

أحدها ــ بأن حكم ان بعضهم يتولى بعضا فيما يعود عليه بالوبال من الاعمال التي يتفقون عليها •

الثاني ــ بأن يخلي بينهم وبين ما يختارونه من غير نصرة لهم •

وثالثها ــ ما قال قتادة : انه من الموالات والتتابع في النار ، أي يدخل بعضهم عقيب بعض •

ووجه التشبيه في قوله « وكذلك » قال الرماني : اي كذلك المهل بتخلية بعضهم مع بعض للامتحان الذي معه يصح الجزاء على الاعمال ، بجعل بعضهم يتولى أمر بعض للعقاب الذي يجري على الاستحقاق • وقال الجبائي : المعنى إنا كما وكلنا هؤلاء الظالمين من الجن والانس بعضهم الى بعض يوم القيامة وتبرأنا منهم كذلك نكل الظالمين بعضهم إلى بعض يوم القيامة ونكل الاتباع الى المتبوعين ، ونقول للاتباع قولوا للمتبوعين حتى يخلصوكم من العذاب • والغرض بذلـك اعلامهم انه ليس لهم يوم القيامة وليّ يدفع عنهم شيئا من العذاب • وقال غيره : لما حكى الله تعالى ما يجري بين الجن والانس من الخصام والجدال فى الآخرة ، قال الله لهم : النار مثواكم • ثم قال « وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا » أي كما فعلنا بهؤلاء من الجمع بينهم في النار وتولية بعضهم بعضا وجعل بعضهم أولى ببعض ، نفعل مثله بالظالمين جزاء على أعمالهم •

والفرق بين (ذلك) و (ذاك) أن زيادة اللام في (ذلك) قامت مقام هاء التنبيه التي تدخل في ذاك فتقول هذاك ولا تقول هذلك • ولا يجوز إمالة (ذلك) لان (ذا) بمنزلة الحرف ، والاصل في الحروف ألا تمال، لان التصريف انما هو للافعال والاسماء •

وقوله « بما كانوا يكسبون » معناه بما كانوا يكسبونه من المعاصي وان ما يفعله بهم من العقاب جزاء على أعمالهم القبيحة .

قوله تعالى :

يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى انه يخاطب الجن والانس يوم القيامة بأن يقول « يامعشر الجن والانس » والمعشر الجماعة . والفرق بينه وبين المجمع : أن المعشر يقع عليهم هذا الاسم مجتمعين كانوا او مفترقين كالعشيرة ، وليس كذلك المجمع، لانه مأخوذ من الجمع . والجن مشتق من الاجتنان عن العيون وهو اسم علم لجنس مما يعقل متميز عن جنس الانسان والملك . والانس هم البشر .

وقوله « الم يأتكم رسل منكم » احتجاج عليهم بأن الله بعث اليهم الرسل إعذارا وانذارا وتأكيدا للحجة عليهم ، ولا بد أن يكون خطابا لمن بعث الله اليهم الرسل ، فأما اول الرسل فلا يمكن ان يكونوا داخلين فيه ، لانه كان يؤدي الى مالا نهاية لهم من الرسل وذلك محال .

وقوله «منكم » وان كان خطابا لجميعهم ، والرسل من الانس خاصة ، فانه يحتمل ان يكون لتغليب احدهما على الآخر ، كما يغلب المذكر على المؤنث، وكما قال « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » بعدقوله «مرج البحرين يلتقيان»(١) وانما يخرج اللؤلؤ من الملح دون العذب . وكقولهم أكلت خبزا ولبنا وانما شرب اللبن . وكما يقولون : في هذه الدارسرو ، وانما هو في بعضها . وهذا

(١) سورة ٥٥ الرحمن آية ١٩

قول أكثر المفسرين : منهم ابن جريج والفراء والزجاج والرماني والبلخي والطبري • وروي عن ابن عباس انه قال : هم رسل الانس الى غيرهم من الجن كما قال تعالى « وَلَّوْا الى قومهم منذرين » (٢) • وقال الضحاك : ذلك يدل على انه تعالى ارسل رسلا من الجن • وبه قال الطبري واختاره البلخي أيضا ، وهو الاقوى • وقال الجبائي والحسين بن علي المغربي : المعنى « ألم يأتكم » يعني معشر المكلفين والمخلوقين « رسل منكم » يعني من المكلفين •

وهذا اخبار وحكاية عما يقال لهم في وقت حضورهم فى الآخرة ، وليس بخطاب لهم في دار الدنيا ، وهم غير حضور ، فيكون قبيحا ، بل هو حكاية على ما قلناه •

وقوله « يقصون عليكم آياتي » مثل يتلون عليكم دلائلي وبيناتي « وينذرونكم » يعني يخوفونكم « لقاء يومكم هذا » يعني لقاء ما تستحقونه من العقاب في هذا اليوم وحصولكم فيه • ثم أخبر تعالى عنهم انهم يشهدون على أنفسهم بالاعتراف بذلك والاقرار بأن الحياة الدنيا غرتهم ، ويشهدون أيضا بانهم كانوا كافرين في دار الدنيا ، فلذلك كرر الشهادة •

ومعنى غرتهم الحياة الدنيا أي غرتهم زينة الدنيا ولذتها وما يرون من زخرفها وبهجتها •

واستدل بهذه الآية قوم على ان الله لايجوز ان يعاقب الا بعد ان يرسل الرسل ، وان التكليف لايصح من دون ذلك ، وهذا ينتقض بما قلناه من اول الرسل ، وانه صح تكليفهم وان لم يكن لهم رسل ، فالظاهر مخصوص بمن علم الله ان الشرع مصلحة له ، فان الله لايعاقبهم الا بعد ان يرسل اليهم الرسل ويقيم عليهم الحجة بتعريفهم مصالحهم ، فاذا خالفوا بعد ذلك استحقوا العقاب •

---

(٢) سورة ٤٦ الاحقاف آية ٢٩

قوله تعالى :

ذٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) آية بلا خلاف .

موضع (ذلك) من الاعراب يحتمل أمرين :

احدهما ـ أن يكون رفعا كأنه قال : الامر ذلك ، لانه لم يكن (ذلك) إشارة الى ما تقدم ذكره من العقاب والجواب بأن مثواهم النار .

والثاني ـ ان يكون نصبا ، وتقديره فعلناه ذلك لهذا .

وانما جازت الاشارة بذلك الى غير حاضر لان ما مضى صفة حاضرة للنفس فقام مقام حضوره ، ويجوز الاشارة الى هذا الذي تقدم ذكره .

وقوله « ان لم يكن » فـ (ان) هي المخففة من الثقيلة . والمعنى لانه لم يكن ومثلها التي في قول الشاعر :

في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى وينتعل (١)

فـ (أنّ) المفتوحة لابد فيها من إضمار الهاء ، لانه لامعنى لها في الابتداء وانما هي بمعنى المصدر المبني على غيره . والمكسورة لاتحتاج الى ذلك ، لانها يصح ان تكون حرفا من حروف الابتداء فلا تحتاج الى اضمار .

وقوله « بظلم » قيل في معناه قولان :

احدهما ما ذكره الفراء والجبائي : انه بظلم منه على غفلة من غير تنبيه وتذكير ومثله قوله « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون » (٢) .

الثاني ـ بظلم منهم حتى يبعث اليهم رسلا يزجرونهم ويذكرونهم على وجه الاستظهار في الحجة دون ان يكون ذلك واجبا ، لانهم بما فعلوه من الظلم

---

(١) قائله الاعشى ديوانه : ٤٥ القصيدة ٦ وروايته :

فى فتية كسيوف الهند قد علموا أن ليس يدفع عن ذوي الحيلة الحيل

(٢) سورة ١١ هود آية ١١٨ .

قد اسحقوا العقاب •

ومن استدل بذلك على انه لايحسن العقاب الا بعد انفاذ الرسل ، فقد أجبنا عن قوله في الآية الاولى •

قوله تعـالى :

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) آية بلاخلاف •

قرأ ابن عامر « عما تعملون » بالتاء • الباقون بالياء •

ومن قرأ بالياء حمله على الغيبة • ومن قرأ بالتاء حمله على الخطاب للمواجهة• وفي الآية حذف وتقديرها ، ولكل عامل بطاعة الله او معصيته منازل من عمله حتى يجازيه ان خيرا فخيرا ، وان شرا فشرا • وما تقدم من ذكر الغافلين يدل على هذا الحذف •

و (قبل • وبعد) بنيتا عند حذف المضاف في مثل قوله « لله الامر من قبل ومن بعد » (٣) لانهما في حال الاعراب لم يكونا على التمكن التام ، لانه لايدخلهما الرفع في تلك الحال ، فلما انضاف الى هذا النقصان من التمكن بحذف المضاف اليه أخرجا الى البنأ ، وليس كذلك (كل) فانه متمكن على كل حال ولذلك لم يبن •

و (الدرجات) يحتمل أمرين : احدهما ــ الجزاء • والثاني ــ الاعمال فاذا وجهت الى الجزاء كان تقديره : ولكل درجات جزاء من اجل ما عملوا ، واذا حمل على الاعمال كان تقديره : ولكل درجات أعمال من اعمالهم • وانما مثل الاعمال بالدرجات ليبين انه وان عمّ احد قسميها صفة الحسن ، وعم الآخر صفة القبيح ، فليست في المراتب سواء ، وانه بحسب ذلك يقع الجزاء ،فالاعظم من العقاب للاعظم من المعاصي ، والاعظم من الثواب للاعظم من الطاعات •

---

(٣) سورة ٣٠ الروم آية ٤

وقوله « وما ربك بغافل عما يعملون » انما ذكره ليعلموا انه لايفوته شيء منهما ولا من مراتبهما حتى يجازي عليه بما يستحق من الجزاء ، وفيه تنبيه وتذكير للخلق في كل امورهم .

والغفلة ذهاب المعنى عمن يصح ان يدركه . والغفلة عن المعنى والسهو عنه والغروب عنه نظائر ، وضد الغفلة اليقظة ، وضد السهو الذكر ، وضد الغروب الحضور .

قوله تعالى :

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣)

آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى في هذه الآية بأنه الغني . والغني هو الحي الذي ليس بمحتاج . والغني عن الشيء هو الذي يكون وجود الشيء وعدمه وصحته وفساده عنده بمنزلة واحدة ، في انه لايلحقه صفة نقص . و «ذو الرحمة» يعني صاحب الرحمة ، وهو تعالى بهذه الصفة لرحمته بعباده .

ثم اخبره عن قدرته وانه لوشاء ان يذهب الخلق بأن يميتهم ويهلكهم ويستخلف من بعدهم ما يشاء بان ينشيء بعد هلاكهم كما أنشأهم في الاول من ذرية من تقدمهم . وكذلك ينشيء قوما آخرين من نسلهم وذريتهم ، والجواب محذوف والكاف في (كما) في موضع نصب وتقديره ويستخلف من بعدكم ما يشاء مثل ما استخلفكم . وفي ذلك دلالة على انه يصح القدرة على ما علم انه لا يكون لانه بين انه لوشاء لذهب بهم وأتى بقوم آخرين ولم يفعل ذلك ، فدل ذلك على انه يقدر على ما يعلم انه لايفعله .

و (من) في قوله « ويستخلف من بعدكم » للبدل كقولك : اعطيتك من

دينارك ثوبا اي مكان دينارك وبدله ، ومعنى (من) فى قوله « كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » ابتداء الغاية لان التقدير ، ان ابتداء غايتكم من قوم آخرين وقيل في وزن « ذرية » ثلاثة أقوال : اولها ــ فعلية من الذر • الثاني ــ فعيلة على وزن خليفة من ذرأ الخلق يذرأهم • الثالث ــ فعولة من (ذروة) الا أن الهمزة ابدلت واوا ، ثم قلبت ياء ، فيكون بمنزلة عليَّة من علوة • وقرىء في الشواذ (ذرية) بكسر الذال وهما لغتان •

وانشأ الله الخلق اذا خلقه وابتدأه وكل من ابتدأ شيئا فقد انشأه • ومنه قولهم : انشأ فلان قصيدة ، والنشأة الاحداث من الاولاد ، واحدها ناشىء مثل خادم وخدم ، ويقال للجواري أنشاء ، وللذكور نشاء ، قال نصيب :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسي النشأ الصغار (١)

ويقال لهذا السحاب نشؤ حسن ، وهو اول ظهوره في السماء •

قوله تعـالى :

إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)

آية بلا خلاف •

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذي أوعد الخلق به من عقابه على معاصيه والكفر به واقع بهم لان (ما) فى قوله « انما » بمعنى الذي ، وليست كافة مثل قولك : انما قام زيد ، لان خبرها جاء بعدها ، وهو قوله «لآت» وهي في موضع نصب ، والجنس في موضع رفع ، والكافة لاخبر لها ، واللام فى قوله (للآت) لام الابتداء ولا يجوز ان تكون لام القسم ، لان لام القسم لا تدخل على الاسماء ولا الافعال المضارعة الا أن تكون معها النون الثقيلة ، ولا تعلق الفعل في (قد علمت ان زيدا ليقومن) •

(١) اللسان (نشأ) النشأ : الشباب او الشابات •

ومعنى « توعدون » من الايعاد بالعقاب يقال : اوعدته اوعده إيعادا ، وقال الحسن : انما توعدون من مجيء الساعة ، لانهم كانوا يكذبون بالبعث، فعلى هذا يجوز ان يكون المصدر الوعد لاختلاط الخير والشر ، فيكون على التغليب إذ مجيء الساعة خير للمؤمنين وشر على الكافرين ٠

وقال الجبائي : ان معناه « ان ما توعدون » من الثواب والعقاب ، فان الله يأتي به ٠

وقوله « وما انتم بمعجزين » أي لستم معجزين الله عن الاتيان بالبعث والعقاب ، وانما قيل ذلك لان من يعبد الوثن يتوهم انه ينفعه في صرف المكروه عنه جهلا منه ووضعا للامر في غير موضعه ٠ وايضا فانهم يعملون عمل من كان يفوته العقاب لتأخره عنه وطول السلامة بالامهال فيه ٠

قوله تعالى :

قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ(١٣٥)

آية بلاخلاف ٠

قرأ ابو بكر « مكاناتكم » على الجمع ٠ الباقون على التوحيد ،وقرأ حمزة والكسائي يكون بالياء ٠ الباقون بالتاء المعجمة من فوق ٠ ومن قرأ بالياء فلان المصدر المؤنث يجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى ٠ومن قرأ بالتاء فعلى اللفظ ، فمما جاءمنها على اللفظ قوله« فأخذتهم الصيحة»(١) وقوله « قد جاءتكم موعظة من ربكم » (٢) وعلى المعنى قوله « واخذ الذين

---

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٧٣ ، ٨٣ وسورة ٢٣ المؤمنون آية ٤١

(٢) سورة ١٠ يونس آية ٥٧

ظلموا الصيحة » (٣) وقوله « فمن جاءه موعظة » (٤) • ومن وحد « مكانتكم » فلأنه مصدر ، والمصادر في الاكثر لاتجمع • ومن جمع فلأنها قــد تجمع كقولهم : الحلوم والاحلام •

قال ابو عبيدة « مكانتكم » أي على حيالكم • وقال ابو زيد : رجل مكين عند السلطان من قوم مكناء ، وقد مكن مكانة ، كأنه قال : اعملوا على قدر منزلتكم وتمكنكم من الدنيا ، فانكم لن تضرونا بذلك شيئا •

أمر الله تعالى نبيه (ص) ان يخاطب المكلفين من قومه ويأمرهم بأن يعملوا على مكانتهم ، والمكانة الطريقة يقال : هو يعمل على مكانته ومكينته أي طريقته وجهته • وقال ابن عباس والحسن: على ناحيتكم • وقال الجبائي: على حالتكم • وقال الزجاج : يجوز ان يكون المراد على تمكنكم ، وهذا وان كان صيغته صيغة الامر فالمراد به التهديد كماقال « اعملوا ماشئتم » (٥) وانما جاء التهديد بصيغة الامر لشدة التحذير ، أي لو امر بهذا لكان يجوز قبول أمره • ووجه آخر — هو ان التقدير « اعملوا على مكانتكم » ان رضيتم بالعقاب أي انكم في منزلة من يؤمر به ان رضيتم بالعقاب ، فهذا على التبعيد أن يقيموا عليه ، كالتبعيد أن يرضوا • ووجه ثالث هو ان الضرر يخص المقيم على المنكر ، لان غيره بمنزلة الآمن في انه لا يأمره بما يضره •

وقوله « اني عامل » إخبار من الرسول انه عامل بما امر الله تعالى به •

وقوله « فسوف تعلمون » فيه تهديد ، ومعناه فسوف تعلمون جزاء اعمالــكم •

وقوله « من تكون » يحتمل موضع (من) أمرين من الاعراب :

احدهما — الرفع وتقديره أينا يكون له عاقبة الدار •

والثاني — النصب بقوله « يعلمون » ويكون بمعنى الذي •

(٣) سورة ١١ هود آية ٦٧

(٤) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٥ (٥) سورة ٤١ حم السجدة آية ٤٠

وانما قال : ان عاقبة الدار للمؤمنين دون الكافرين وان كان الكفار أيضا لهم عاقبة من حيث يصيرون الى العقاب المؤبد وهي للمؤمنين من حيث يصيرون الى النعيم الدائم ، كما يقول العرب : لهم الكرة ، ولهم الحملة ، لانه اذا فصل قيل : لهم وعلى اعدائهم ٠

وقوله « انه لايفلح الظالمون » أي لايفوز الظالمون بشيء من الثواب والمنافع ، وانما لم يقل (الكافرون) وان كان الكلام في ذكرهم لانه أعم واكثر فائدة ، ولانه اذا لم يفلح الظالم ، فالكافر بذلك اولى ، على ان الكافر يسمى ظالما فيجوز ان يكون عنى به انه لايفلح الظالمون الذين هم الكافرون ، كما قال « والكافرون هم الظالمون » (٦) وقال « ان الشرك لظلم عظيم »(٧)٠

قوله تعـالى :

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) آية بلا خلاف ٠

قرأ الكسائي « بزعمهم » بضم الزاي في الموضعين ٠ الباقون بفتحها٠ وفي الزعم ثلاث لغات : الفتح ، والضم ، والكسر مثل فتك وفتك وفتك ٠ وقبل وقبل وقبل ٠ وَوِدّ ووَدّ ووُدّ ٠ ولم يقرأ بالكسر احد ٠ فالفتح لغة اهل الحجاز ، والضم لغة تميم ، والكسر لغة بعض بني قيس ٠

اخبر الله تعالى عن الكفار الذين تقدم وصفهم أنهم يجعلون شيئا من أموالهم لله وشيئا لشركائهم تقربا اليهما ، من جملة ما خلقه الله واخترعه ، لان الذرأ هو الخلق على وجه الاختراع ، واصله الظهور ، ومنه ملح ذرآني

(٦) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٤ (٧) سورة ٣١ لقمان آية ١٣

وذرأني ، لظهور بياضة • والذرأة ظهور الشيب • قال الراجز :

وقد علتني ذرأةبادي بدي ورثية تنهض في تشددي (١)

يقال : ذرأ الله الخلق يذرأ هم ذرءاً وذروا • ويقال : ذرئت لحيته ذرءاً اذا شابت • ومنه طعنه فأذراه ــ غير مهموز ــ اذا ألقاه ، وذرت الريح التراب تذروه ذروا اذا أبادته ، وذروة كل شيء أعلاه • و (الحرث)الزرع و (الحرث) الارض التي تثار للزرع ، ومنه حرثها يحرثها حرثا ، ومنه قوله « نساؤكم حرث لكم » (٢) لان المرأة للولد كالارض للزرع و (الانعام) المواشي من الابل والبقر والغنم ، مأخوذ من نعمة الوطيء ، ولا يقال لذوات الحافر : أنعام •

وانما جعلوا الاوثان شركاءهم ، لانهم جعلوا لها نصيبا من أموالهم ينفقونه عليها فشاركوها في نعمهم •

وقوله « فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم » قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها ــ قال ابن عباس وقتادة : انه اذا اختلط شيء مما جعلوه لاوثانهم بشيء مما جعلوه لله ردوه الى مالاوثانهم ، واذا اختلط بشيء مما جعلوه لله لم يردوه الى ما لله •

الثاني ــ قال الحسن والسدي : كان اذا هلك الذي لاوثانهم أخذوا بدله مما لله ، ولا يفعلون مثل ذلك في ما لله (عز وجل) •

الثالث ــ قال ابو علي : انهم كانوا يصرفون بعض ما جعلوه لله في النفقة على اوثانهم ، ولا يفعلون مثل ذلك فيما جعلوه للاوثان •

وقوله « ساء ما يحكمون » فيه قولان : احدهما ــ قال الزجاج : تقديره ساء الحكم حكمهم ، فيكون على هذا موضع (ما) رفعا • وقال

(١) تفسير الطبري ١٢/١٧ واللسان والتاج (ذرأ) (بدا)

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٣

الرماني : يجوز ان يكون موضع (ما) نصبا وتقديره ساء حكما حكمهم •

قوله تعـالى :

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) آية بلاخلاف •

قرأ ابن عامر وحده « زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركائهم» بضم الزاي ، ونصب (الاولاد) وخفض « شركائهم » • الباقون بفتح الزاي، « قتل » مفتوح اللام « أولادهم » بجر الدال « شركاؤهم » بالرفع بالتزيين•

فوجه قراءة ابن عامر انه فرق بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول ، والتقدير: قتل شركائهم اولادهم، وشركاؤهم فاعل القتل ، وانما جر بالاضافة ومن اضاف القتل الى الاولاد في القراءة الاخرى يكون الاولاد في موضع النصب ، وهو مفعول به بالقتل وانشدوا فيه بيتا على الشذوذ أنشده بعض الحجازيين ذكره ابو الحسن :

فزججتها بمزجة زج القلوص أبي مزاده (١)

وذلك لايجوز عند اكثر النحويين لان القراءة لايجوز حملها على الشاذ القبيح ، ولانه اذا ضعف الفصل بالظرف حتى لم يجز الا في ضرروة الشعر كقول الشاعر :

كما خط الكتاب بكف يوما يهودي (٢)

فان لايجوز في المفعول به أجدر ، ولم يكن بعد الضعف الا الامتناع•

---

(١) معاني القرآن ١/٣٥٨ وتفسير الطبري ١٢/١٣٨ وخزانة الادب ٢/٢٥١

(٢) قائله ابو حية النمري ألفية ابن عقيل ٢/٦٨ والقرطبي ٧/١١١ وتمامه:

كما خط الكتاب بكف يوما يهودي يقارب او يزل

وقيل انما حمل ابن عامر على هذه القراءة انه وجد (شركائهم) في مصاحف اهل الشام بالياء لا بالواو ، وهذا يجوز فيه قتل اولادهم شركائهم على ايقاع الشرك للاولاد يعني شركائهم في النعم وفي النسب وفي الاولاد ، ولو قيل أيضا زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم على ذكر الفاعل بعد ما ذكر الفعل على طريقة مالم يسم فاعله جاز كما قال الشاعر :

ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح (٢)

أي ليبكه ضارع • ومثله « يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال »(٣) وتقديره كأنه لما قال « زين لكثير من المشركين قتل اولادهم » قال قائل من زينه ؟ قيل زينه شركاؤهم • وقال الفراء تكون « شركائهم » على لغة من قال في عشاء عشاي كما قال الشاعر :

اذا الثريا طلعت عشايا فبع لراعي غنم كسايا

وابو العباس يأبى هذا البيت ، ويقول الرواية الصحيحة بالهمزة •

ووجه التشبيه في قوله « وكذلك زين » أنه كما جعل اولئك في الآية الاولى ما ليس لهم كذلك زين هؤلاء ما ليس لهم ان يزينوه • والشركاء الذين زينوا قتل الاولاد قيل فيهم خمسة اقوال :

احدها ـ قال الحسن ومجاهد والسدي : هم الشياطين زينوا لهم وأد البنات أحياء خوف الفقر والعار •

والثاني ـ قال الفراء والزجاج : هم قوم كانوا يخدمون الاوثان •

والثالث ـ انهم الغواة من الناس •

والرابع ـ قيل : شركاؤهم في نعمهم •

(٢) قائله نهشل بن حرى النهشلي ، وقيل الحارث بن نهيك النهشلي •وقيل ضرار النهشلي ، وقيل مرزرد • وقيل المهلهل • وقيل غير ذلك • شواهدالعيني على الاشموني فى حاشية الصبان ٢/٤٩ الشاهد ٧٥ وغيره •

(٣) سورة ٢٤ النور آية ٣٦

والخامس — شركاؤهم في الاشراك •

وقوله « ليردوهم » فالارداء الاهلاك ، تقول : أراده يرديه إرداء وردي يردي ردى اذا هلك ، وتردّي ترديا ، ومنه قوله « وما يغني عنه ماله اذا تردّى » (١) والمراد به الحجر يتردّى من رأس جبل •

واللام في قوله « ليردوهم » قال قوم هي لام العاقبة ، كما قال «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » (٢) لانهم لم يكونوا معاندين فيقصدوا أن يردوهم ويلبسوا عليهم دينهم ، هذا قول أبي عليّ • وقال غيره : يجوز ان يكون فيهم المعاند ، ويكون ذلك على التغليب •

وقوله « ولو شاء الله ما فعلوه » معناه لو شاء ان يضطرهم الى تركه ، او لو شاء ان يمنعهم منه لفعل ، ولو فعل المنع والحيلولة لما فعلوه ، لكن ذلك ينافي التكليف • ثم أمر نبيه (ص) ان يذرهم اي يتركهم ولا يمنعهم ويخلي بينهم وبينما يكذبون وذلك غاية التهديد كما يقول القائل :دعني وإياه •

قوله تعالى :

وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)

آية بلا خلاف •

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار انهم « قالوا هذه انعام وحرث »يعني الانعام والزرع الذي جعلوهما لآلهتهم وأوثانهم • وقوله « بزعمهم » يدل على أنهم فعلوا ذلك بغير حجة بل بقولهم العاري عن برهان •

وقيل في الانعام الاولى قولان

(١) سورة ٩٢ الليل آية ١١ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٨

احدهما ــ قال الجبائي : التي ذكرها أولا فهو ما جعلوه لاوثانهم كما جعلوا الحرث للنفقة عليهافي خدامها وما ينوب من أمرها • وقيل : قرباناً للاوثان • وأما الانعام التي ذكرت ثانياً ، فهي السائبة والبحيرة والحام، وهو الفحل الذي يخلونه ويقولون : حمى ظهره ، وهو قول الحسن ومجاهد•وأما التي ذكرت ثالثا ــ قيل فيه قولان : أحدهما التي إذا ولّدوها أو ذبحوها أو ركبوها لم يذكروا اسم الله عليها ، وهو قول السدي وغيره •

والثاني قال ابو وائل هي التي لايحجون عليها •

وقوله « حجر » معناه حرام تقول : حجرت على فلان كذا أي منعته منه بالتحريم ، ومنه قوله « حجرا محجورا » (١) والحجر لامتناعه بالصلابة ، والحجر العقل للامتناع به من القبيح ، قال المتلمس :

حنت الى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهاريس(٢)

وقال رؤبة :

وجارة البيت لها حجريّ (٣)

وقال الآخر :

فبت مرتفقاً والعين ساهرة كأن نومي عليّ الليلمحجور(٤)

وقيل : حجر وحرج مثل جذب وجبذ ، وبه قرأ ابن عباس • وبضم الحاء قراءة الحسن وقتادة • ويقال : حِجر وحَجر وحُجر بمعنى المنع بالتحريم ، وحَجر الانسان ، وحِجره بالكسر والفتح • وانما أعيبوا بتحريم ظهور الانعام،

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٢ ، ٥٣ (٢) قائله جرير بن عبد المسيح ، وهو الملتمس • ديوانه القصيدة ٤ ومجاز القرآن ١/٢٠٧ واللسان (دهرس) ومعجم البلدان (نخلة القصوى) وتفسير الطبري١٢/١٤٠ و « الدهاريس » الدواهي (٣) وقيل انه للعجاج • ديوان العجاج : ٦٨ واللسان « حجر »

(٤) نبسه ابن منظور في اللسان (رفق) الى (أعشى باهله) • وهو في الطبري ١٢/١٤١ غير منسوب • ومعنى (مرتفقا) أي متكئا على يده •

والواجب تحريمها عقلا حتى يرد سمع با باحته ، لانهم حرموا ذلك على وجه الكذب على الله ، وانه اوجب ذلك اذا كانت على صفة مخصوصة . وانما أعيبوا بأكلها بعد ذبحها ، وهي حينئذ تجري مجرى الميتة ، وذلك لايعلم تحريمه عقلا، لانهم ادعوا انه على وجه التذكية إفتراء على الله ، فقصدوا به هذا القصد ، ولذلك أعيبوا بتملكها وان كانوا سبقوا اليها ، وانما وجب تحريم الانتفاع باستهلال الانعام ، لان الايلام لايحسن الا مع تضمن العوض الموافي عليه ، وذلك مفتقر الى السمع .

وقوله « افتراء » يعني كذبا ، وفي نصبه قولان : أحدهما ـ قالوا : إفتراء على الله ، الثاني ـ لايذكرون اسم الله افتراء على الله ، كأنه قيل : افتروا بتركهم التسمية الذي أضافوه الى الله إفتراء عليه .

قوله تعالى :

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) آية بلا خلاف .

قرأ ابن كثير « وان يكن » بالياء « ميتة » رفع . وقرأ ابن عامر الا الداحوني عن هشام ، وابو جعفر « تكن » بالتاء « ميتة » رفع . وقرأ ابو بكر عن عاصم الا الكسائي « يكن » باليا « ميتة » نصب . الباقون بالتاء « ميتة » نصب . وجه قراءة الاكثر ان يحمل على (ما) وتقديره وان يكن ما في بطون الانعام ميتة . ووجه قراءة ابن عامر ان يضيف الفعل الى الميتة فيرتفع الميتة به ، فلذلك انث الفعل . ووجه قراءة ابي بكر ان ما في بطون الانعام مؤنث ، لانها من الانعام . ويجوز ان يكون اراد ان تكون الاجنة ميتة. ووجه قراءة ابن كثير ان يضيف الفعل الى الميتة ، لكن لما لم يكن تأنيث الميتة

تأنيث ذوات الفروج ، وتقدم الفعل جاز ان يذكر ، كما قال « فمن جاءه موعظة » (١) و « أخذ الذين ظلموا الصيحة » (٢) وتكون (كان) تامة ، ومعناه وان وقع ميتة .

اخبر الله تعالى فى هذه الآية عن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم أنهم « قالوا ما في بطون هذه الانعام » التي تقدم ذكرها أحياء ، فهو خالص لذكروهم ، ومحرم على ازواجهم الاناث وبناتهم . وقال بعضهم انه يختص بالزوجات ، والاولى عموم النساء تفضيلا للذكور على الاناث . وقيل ان الذكور كانوا القوّام بخدمة الاوثان .

والمراد بما في بطون الانعام قيل فيه ثلاثة أقوال :

احدها ــ قال قتادة المراد به الالبان .

والثاني ــ قال مجاهد والسدي : انه الاجنة .

الثالث ــ ان المراد به الجميع ، وهو أعم .

وقوله « خالصة لذكورنا » معناه لايشركهم فيها أحد من الاناث وليس المراد به تسوية تصفية شيء عن شيء كالذهب الخالص والفضة الخالصة ، ومن ذلك إخلاص التوحيد واخلاص العمل لله .

والهاء في قوله « خالصة » قيل فيها ثلاثة أقوال :

احدها ــ أنها للمبالغة في الصفة كالعلامة والراوية .

الثاني ــ على تأنيث المصدر كالعاقبة والعافية ، ومنه قوله « بخالصة ذكرى الدار » (٣) .

الثالث ــ لتأنيث ما في بطونها من الانعام . ويقال فلان خالصة فلان ومن خلصائه . وحكى الزجاج والفراء : انه قرىء خالصة لذكورنا ، والمعنى ماخلص منها . وقيل أصل (الذكور) من الذكر سمي الذكر بذلك ، لانه أنبه واذكر

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٥ (٢) سورة ١١ هود آية ٦٧

(٣) سورة ٣٨ ص آية ٤٦

من الانثى .

وقوله « وان يكن ميتة » معناه ان كان جنين الانعام ميتة فالذكور والاناث فيه سواء ، فقال الله تعالى « سيجزيهم وصفهم » يعني سيجزيهم جزاء وصفهم، وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه .

وقوله « انه حكيم عليم » معناه انه تعالى حكيم فيما يفعل بهم من العقاب آجلا ،وفي امهالهم عاجلا « عليم » بما يفعلون لايخفى عليه شيء منها .

وقوله « خالصة » رفع بانه خبر الابتداء والمبتدأ قوله « ما في بطون » ولا يجوز عند البصريين النصب ، لان العامل فيه لايتصرف ، فلا يتقدم عليه ، وأجازه الفراء مع قوله انهم لايكادون يتكلمون به ، لايقولون زيد قائما فيها، ولكنه قياس .

وقد عاب الله على الكفار في هذه الآية من أربعة اوجه :

أولها ـ ذبحهم الانعام بغير إذن الله .

وثانيها ـ أكلهم على ادعاء التذكية افتراء على الله .

وثالثها ـ تحليلهم للذكور وتحريمهم على الاناث تفرقة بين ما لايفترق الا بحكم من الله .

ورابعها ـ تسويتهم بينهم في الميتة من غير رجوع الى سمع موثوق .

قوله تعالى :

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (١٤٠) آية بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وابن عامر « قتّلوا » بتشديد التاء . الباقون بالتخفيف . من شدد حمله على التكرار ، كقوله « جنات عدن مفتّحة » (١) . ومن خفف

(١) سورة ٣٨ ص آية ٥٠

فلانه يدل على الكثرة .

اخبر الله تعالى ان هؤلاء الكفار الذين قتلوا أولادهم الاناث خوفا من الفقر وهربا من العار قد خسروا ، ومعناه هلكت نفوسهم باستحقاقهم على ذلك عذاب الابد . والخسران هلاك رأس المال .

وقوله « سفها بغير علم » نصب على انه مفعول له ويجوز ان يكون نصبا على المصدر ، وتقديره سفهوا بما فعلوه سفها خوفا من الفقر وهربا من العار . والسفه خفة الحلم بالعجلة الى مالا ينبغي ان يعجل اليه . واصله الخفة .وضد السفيه الحليم . والفرق بين السفه والنزق ان السفه عجلة يدعو اليها الهوى ، والنزق عجلة من جهة حدة الطبع والغيظ .

وقوله « وحرموا ما رزقهم الله » يعني ما حرموه على نفوسهم من الحرث بزعمهم انه حجر . وقال الحسن : انه راجع الى الانعام . وقال الرماني :لايجوز ذلك لانها محرمة عليهم بحجة العقل حتى يأتي بسمع . والقتل نقض البنية التي تحتاج الحياة اليها والموت ـ عند من أثبته معنى ـ ضد الحياة .

وقوله « افتراء على الله » يعني كذبا . ونصبه على المصدر والعامل فيه قوله « وحرموا » لان ذلك قول منهم أضافوه الى الله . ثم اخبر تعالى انهم قد ضلوا بما فعلوه وجازوا عن طريق الحق وأنهم لم يكونوا مهتدين الى طريق الرشاد والحق .

قوله تعالى :

وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١) آية بلا خلاف

قرأ اهل البصرة وابن عامر وعاصم (حصاده) ـ بفتح الحاء ـ الباقون بكسرها • وهما لغتان • وقال سيبويه : جاءوا بالمصادر حين أرادوا أنتهاء الزمان على مثال (فعال) نحو الضرام والجزاز ، والجداد والقطاف والحصاد • وربما دخلت اللغتان في بعض هذا ، وكان فيه (فِعال وفَعال) •

لما اخبر الله عن هؤلاء الكفار وعن عظيم ما ابتدعوه وافتروا به على الله وشرعوا من الدين ما لم يأذن الله فيه ، عقب ذلك البيان بأنه الخالق لجميع الاشياء فلا يجوز اضافة شيء منها الى الاوثان ، ولا تحليله ، ولا تحريمه الا بأذنه ، فقال « وهو الذي أنشأ جنات معروشات» والانشاء هو احداث الافعال ابتداء لا على مثال سبق ، وهو كالابتداع • والاختراع هو أحداث الافعال في الغير من غير سبب ، والخلق هو التقدير والترتيب • والجنات جمع جنة ، وهي البساتين التي يجنها الشجر من النخل وغيره • والروضة هي الخضرة بالنبات والزهور المشرقة باختلاف الالوان الحسنة •

وقوله « معروشات وغير معروشات » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ ما قال ابن عباس والسدي : المعروشات هو ما عرش الناس من الكروم ونحوها ، وهو رفع بعض اغصانها على بعض « وغير معروشات » ما يكون من قبل نفسه في البراري والجبال •

والثاني ـ قال ابو علي يعرشه أي يرفع له حظائر كالحائط • واصله الرفع ومنه قوله تعالى « خاوية على عروشها » (١) يعني على اعاليها ، وما ارتفع منها لم يندك فيستوي بالارض ، ومنه العرش للسرير لارتفاعه •

(ومعرشات) في موضع النصب ، لانها صفة لـ (جنات) والنخل والزرع معناه وأنشأ النخل والزرع « مختلفا أكله » يعني طعمه ، ونصب مختلفا على الحال ، وانما نصبه على الحال ، وهو يؤكل بعد ذلك بزمان ، لامرين :

احدهما ـ ان معناه مقدرا اختلاف أكله كقولهم : مررت برجل معه صقر

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٩ وسورة ١٨ الكهف آية ٤٣ وسورة ٢٢ الحج آية ٤٥

صايدا به غدا أي مقدرا الصيد به غدا •

الثاني ــ ان يكون معنى (آكله) ثمره الذي يصلح ان يؤكل منه •

« والزيتون والرمان » أي وانشأ الزيتون والرمان • وانما قرن الزيتون الى الرمان ، لانه لما ذكر الكرم والنخل والزرع اقتضى ذكر ما خرج عن ذلك، فقرنا لفضلهما بعدما ذكره• وقيل: لانهما يشتبهان باكتناف الاوراق في اغصانها « متشابها وغير متشابه » معناه متماثلا وغير متماثل • وقيل « متشابها » في النظر « وغير متشابه » في الطعم بل الطعم مختلف •

وقوله « كلوا من ثمره اذا أثمر » المراد به الاباحة لا الامر • وقال الجبائي وجماعة : ان ذلك يدل على جواز الاكل من ثمره، وان كان فيه حق للفقراء•

وقوله « وآتوا حقه يوم حصاده » أمر ايجاب بايتاء الحق يوم الحصاد على طريق الجملة ، والحق الذي يجب اخراجه يوم الحصاد فيه قولان :

احدهما ــ قال ابن عباس ومحمد بن الحنفية وزيد بن أسلم والحسن وسعيد بن المسيب وطاووس وجابر بن عبد الله وبريد وقتادة والضحاك : انه الزكاة العشر ، او نصف العشر •

الثاني ــ روي عن جعفر (ع) عن أبيه (ع) وعطاء ومجاهد وابن عامر وسعيد بن جبير والربيع بن أنس : انه ما ينثر مما يعطي المساكين •

وروي أصحابنا أنه الضغث بعد الضغث والحفنة بعد الحفنة •

وقال ابراهيم والسدي : الآية منسوخة بفرض العشر ونصف العشر ، قالوا : لان الزكاة لاتخرج يوم الحصاد ، وقالوا لان هذه الآية مكية وفرض الزكاة نزل بالمدينة • ولما روي بأن فرض الزكاة نسخ كل صدقة •

قال الرماني : وهذا غلط ، لان يوم حصاده ظرف لحقه ، وليس بظرف الايتاء المأمور به •

وقوله « ولا تسرفوا » قيل في المخاطبين به ثلاثة أقوال :

احدها ــ قال ابو العالية وابن جريح انه يتوجه الي ارباب الاموال ،

لانهم كانوا يعطون شيئا سوى الزكاة يسرفون فيه ، فروي عن ثابت بن شماس انه كان له خمس مئةرأس نخلا فصرمها وتصدق بها ،ولم يترك لاهلهمنهاشيئا فنهى الله عن ذلك ، وبين أنه مسرف ، ولذلك قال النبي (ص) ابدأ بمن تعول.

الثاني ــ قال ابن زيد انه خطاب للسلطان .

الثالث ــ انه خطاب للجميع وهو أعم فائدة .

وقيل : ان السرف يكون في التقصير ، كما يكون في الزيادة قال الشاعر:

اعطوا هنيدة يحدوها ثمانية ما في عطائهم من ولاسرف (١)

معناه ولا تقصير . وقيل ولا إفراط ، لانه لايستكثر كثيرهم . والاسراف هو مجاوزة حد الحق وهو افراط وغلو . وضده تقصير واقتار . ومسرف صفة ذم في العادة .

وينبغي ان يؤدي الحق الذي في الغلات الى امام المسلمين ليصرفه الى اهل الصدقات ولهم ان يخرجوه الى المساكين اذا لم يأخذهم الامام بذلك فأما مقدار ما يجب من الزكاة ، والنصاب الذي يتعلق به وصفة الارض الزكوية فقد بيناه في كتب الفقه مستوفى لانطول بذكره الكتاب .

قوله تعالى :

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢)

آية بلاخلاف.

العامل في قوله « حمولة وفرشا » قوله « انشأ » المتقدم ، كأنه قال وانشأ لكم من الانعام « حمولة وفرشا » . وقيل في معنى : « حمولة وفرشا »

(١) قائله جرير ديوانه ٣٨٩ وطبقات فحول الشعراء : ٣٥٩ واللسان(هند)، « سرف » وتفسير الطبري ٧/٥٧٩ و ١٢/١٧٧ وتفسير القرطبي ٧ / ١١١ ، وهنيدة : اسم لكل مئة من الابل ، وهو ممنوع من الصرف .

ثلاثة أقوال :

أحدها ــ ما روي عن ابن مسعود ، وابن عباس في احدى الروايتين ، والحسن في رواية ــ ومجاهد : ان الحمولة كبار الابل ، والفرش الصغار .

الثاني ــ ما روي عن الحسن ــ في رواية ــ وقتادة والربيع والسدي والضحاك وابن زيد : ان الحمولة ما حمل من الابل والبقر ، والفرش الغنم .

الثالث ــ ما روي عن ابن عباس ــ في رواية ــ ان الحمولة كل ما حمل من الابل والبقر والخيل والبغال والحمير ، والفرش الغنم ، كأنه ذهب الى أنه يدخل فى الانعام ذو الحافر على الاتباع .

و (الحمولة) لا واحد لها من لفظها كالركوبة والجزورة . و (الحمولة) بضم الحاء هي الاحمال ، وهي الحمول . وانما قيل للصغار : فرش ، لامرين:

احدهما ــ لاستواء اسنانها في الصغر والانحطاط ، كاستواء ما يفترش .

الثاني ــ من الفرش وهي الارض المستوية التي يتوطأها الناس .

وقال الجبائي : في التفسير ، وابو بكر الرازي فى احكام القرآن : ان الفرش ما يفترش من البسط ، والزرابي . وهذا غلط قبيح جدا في اللغة .

وقوله « خطوات » يجوز فيه ثلاثة أوجه ــ بضم الخاء والطاء ، وضم الخاء وسكون الطاء ، وضم الخاء وفتح الطاء ــ وفي معناه قولان :

احدهما ــ ما يتخطى بكم الشيطان اليه من تحليل الى تحريم ، ومن تحريم الى تحليل .

الثاني ــ طرق الشيطان ، فانه لا يسعى الا في عصيان .

وقوله « انه » الهاء كناية عن الشيطان « لكم عدو مبين » فيه اخبار من الله ان الشيطان عدو للبشر « مبين » أي ظاهر . وقيل في معنى « مبين »قولان:

أحدهما ــ انه أبان عداوته لكم بما كان منه الى أبيكم آدم حين اخرجه من الجنة

الثاني ــ بين العداوة أي لاظهاره ذلك فى حزبه ، وأوليائه من الشياطين هذا قول الحسن .

قوله تعـالى :

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) آية بلا خلاف

قرأ ابن كثير الا ابن فليح وابن عامر الا الداحوني عن هشام واهل البصرة (المعز) بفتح العين . الباقون بسكونها . قال أبو علي من قرأ بالفتح اراد الجمع بدلالة قوله « من الضأن اثنين » ولو كان واحدا لم يسغ فيه هذا ، ونصب اثنين على تقدير : وانشأ ثمانية ازواج : انشأ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ، ونظير معز جمع ماعز خادم وخدم وطالب وطلب ، وحارس وحرس ، وقال ابو الحسن: هو جمع على غير واحد ، وكذلك المعزى ، وحكى ابو زيد إمعوز وانشد :

* كالتيس في إمعوزه المربل *

وقالوا : المعيز كالكليب ، ومن سكن العين ، فهو أيضا جمع ماعز كصاحب وصحب وتاجر وتجر وراكب وركب . وابو الحسن : يرى هذا الجمع مستمرا، ومن يرده في التصغير الى الواحد ، فيقول في تحقير ركب رويكبون ، وفي تجر: تويجرون ، وسيبويه يراه اسما من أسماء الجمع ، وانشد ابو عثمان حجة لقول سيبويه :

بنيته بعصبة من ماليا أخشى ركيبا او رجيلا عاديا (١)

ـ بالعين والغين ـ عن غير ابي علي فتحقيره له على لفظه من غير ان يرده

---

(١) البيت لـ (أحيحة بن الجلاح) وقد انشده ابو عثمان شاهدا على البيت الذي يأتي بعده من أنه يقال في تصغير (ركب) ركيب ـ بضم الراء وفتح الكاف وتسكين الياء

الى الواحد الذي هو فاعل ــ والحاق الواو والنون أو الياء والنون ، يدلعلى إنه اسم للجمع وأنشد ابو زيد :

واين ركيب واضعون رحالهم الى أهل نار من أناس بأسود (٢)

وقال ابو عثمان البقرة عند العرب نعجة ، والظبية عندهم ماعزة ، الدليل على ذلك قول ذي الرمة :

اذا ما رآها راكب الضيف لم يزل يرى نعجة في مرتع فيثيرها

مولعة خنساء ليست بنعجة يدمّن اجواف المياه وقيرها (٣)

قوله لم يزل يرى نعجة يريد بقرة ، ألا ترى انه قال مولعة خنساء ، والخنس والتوليع إنما يكونان في البقر دون الظباء • وقوله ليست بنعجة معناه انها ليست بنعجة أهلية ، لانه لايخلو من ان يريد أنها ليست بنعجة أهلية ، أو ليست بنعجة ، ولا يجوز ان يريد انها ليست بنعجة ، لانك ان حملته على هذا فقد نفيت ما أوجبه من قوله : لم يزل يرى نعجة ، واذا لم يجز ذلك علمت انه اراد ليست بنعجة أهلية ، والدليل على ان الظبية ماعزة قول أبي ذؤيب •

وعادية تلقى الثياب كأنها تيوس ظباء محصها وانبتارها (٤)

فقوله تيوس ظباء كقوله : تيوس معز ، ولو كانت عندهم ضائنية لقال كأنها كباش ظباء ، والوقير الشاة يكون فيها كلب وحمار في قوله الاصمعي •

قوله « ثمانية ازواج » منصوب ، لانه بدل من « حمولة وفرشا » لدخوله في الانشاء ، وتقديره وأنشأ حمولة وفرشا ثمانية أزواج « من الضأن اثنين » نصب (اثنين) بتقدير انشأ من الضأن اثنين ، ولو رفع على تقدير منها ماعز إثنان كما تقول رأيت القوم منهم قائم وقاعد كان جائزا ، وانما أجمل مافصله في الاثنين للتقدير على شيء منه ، لانه اشد في التوبيخ من ان يكون دفعة واحدة •

---

(٢) انشده شاهدا على ما تقدم على انه يقال في تصغير (راكب) ركيب ، وذلك يدل على ان ركبا مفرد ، وليس جمعا لراكب

(٣) اللسان (نعج) (٤) اللسان « تيس »

وقوله « ثمانية ازواج » يريد ثمانية افراد ، لان كل واحد من ذلك يسمى زوجا ، والانثى زوج ، وانما سمي بذلك ، لانه لايكون زوج الا ومعه آخر له مثل اسمه ، فلما دل على الاثنين من اقرب الوجوه ، وقع على طريقه ، ومنه قول لبيد •

من كل محفوف يظل عصيّه زوج عليه كلة وقرامها (٥)

ومثل ذلك قولهم : خصم للواحد والاثنين ، وقوله « من الضأن اثنين » يعني ذكر وأنثى ، فالضأن الغنم ذوات الاصواف والاوبار ، والمعز الغنم ذوات الاشعار والاذناب القصار ، وواحد الضأن ضائن ، كقولهم تاجر وتجر في قول الزجاج • والانثى ضائنة • وقال غيره : هو جمع لا واحد له ، ويجمع ضئين كقولهم : عبد وعبيد ، ويقال فيه (ضئين) كما يقولون في شعر شعير ، وكذلك ماعز ومعز ، الا أنه يجوز فتحه لدخول حرف الحلق فيه ويجمع مواعز •

وروي عن أبي عبد الله (ع) ان المراد بقوله « من الضأن اثنين » أهلي ووحشي وكذلك المعز والبقر « ومن الابل اثنين » العرابي والبخاتي •

وانما خص هذه الثمانية أزواج ، لانها جميع الانعام التي كانوا يحرمون منها ما يحرمونه مما تقدم ذكره •

فان قيل : اذا كان ما حرموه معلوما فلم عدل بهم فى السؤل الى غيره؟

قيل على وجه المعارضة لهم على طريقة الحجاج أي انكم بمنزلة من قال هذا ، ولذلك وقع السؤال أعلى كذا أم كذا ؟ وان لم يتقدم دعوى أن أحدهما كذا ، لانهم في حكم هذا المدعى •

وقوله « آلذكرين حرم أم » منصوب بـ (حرم) ، والمعنى فى قوله « آلذكرين حرم أم الانثيين » اجاءكم التحريم فيما حرمتم من السائبة والبحيرة والوصيلة والحام من الذكرين أم من الانثيين ، فالالف ألف استفهام والمراد به التوبيخ ، فلو قالوا من قبل الذكر حرم عليهم كل ذكر ، ولو قالوا من قبل

(٥) تفسير الطبري ١١/١٤٣

الانثى حرمت عليهم كل أنثى • ثم قال « اما اشتملت عليه أرحام الانثيين »فلو قالوا ذلك حرم عليهم الذكر والانثى ، لان الرحم يشتمل عليهما ، قال الحسن معناه ما حملت الرحم •

وقوله « نبئوني » بعلم ان كنتم صادقين » في ذلك •

وقوله « آلذكرين » دخلت الف الاستفهام على الف الوصل لئلايلتبس بالخبر ، ولو اسقطت جاز ، لان (أم) تدخل على الاستفهام ، وعلى هذا أجاز سيبويه قول الشاعر ان يكون استفهاما :

فو الله ما ادري وان كنت داريا شعيب بن سهم أم شعيب بن منقر(١)

اجاز تقديره أشعيب • و (ما) في قوله « أما اشتملت » في موضع نصب عطفا على الانثيين ، وانما قال : الانثيين مثنى ، لانه اراد من الضأن والمعز •

قوله تعـالى :

وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ(١٤٤) آية بلاخلاف •

قوله « ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين » تفصيل لتمام الثمانية أزواج التي أجملها في الآية الاولى • وقد بينا معنى قوله « آلذكرين حرم ام الانثيين اما اشتملت عليه أرحام الانثيين » واصل الاشتمال الشمول تقول : شملهم الأمر يشملهم شمولا فهو شامل ، ومنه الشمال لشمولها على ظاهر الشيء

---

(١) مر تخريجه في ٤/١٩٩

وباطنه بقوتها ولطفها والشمول الخمر لاشتمالها على العقل • وقيل : لان لها عصفة كعصفة الشمال •

وقوله « ام كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا » فـ (أم) معادلة لقوله «آلذكرين »وانما قال«أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا »لان طرق العلم اما الدليل الذي يشترك العقل في ادراك الحق بها أو المشاهدة التي يختص بها بعضهم دون بعض ، فاذا لم يكن واحد من الامرين سقط المذهب •

والمعنى أعلمتم ذلك بالسمع والكتب المنزلة فأنتم لاتقرون بذلك أم شافهكم الله بهفعلتموه ؟!فاذا لم يكن واحدمنهماعلم بطلان ما تذهبون اليه •

والوصية مقدمة مؤكدة فيما يفعل او يترك ، يقال : وصاه يوصيه توصية وأوصاه يوصيه إيصاء ، والوصي الموصى اليه •

وقوله « فمن أظلم ممن افترى على الله » يعني من أظلم لنفسه ممن يكذب عليه فيضيف اليه تحريم ما لم يحرمه وتحليل ما لم يحلله « ليضل الناس بغير علم » أي عمل القاصد الى إضلالهم من اجل دعائه الى ما يشك بصحته مما لايؤمن ان يكون فيه هلاكهم وان لم يقصد إضلالهم ، فلذلك قال « ليضل الناس بغير علم » •

ثم أخبر « ان الله لايهدي » الى الثواب « القوم الظالمين » لانهم مستحقون للعقاب الدائم بكفرهم وضلالهم •

قوله تعـالى :

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) آية بلاخلاف .

قرأ ابن كثير وحمزة « تكون » بالتاء « ميتة » بالنصب • وقرأ ابن عامر بالتاء والرفع • الباقون بالياء والنصب •

من قرأ بالياء ونصب الميتة جعل في « تكون » ضميرا ونصب الميتة بأنه خبر كان وتقديره : الا ان يكون ذلك او الموجود ميتة •

ومن قرأ بالتاء ورفع الميتة رفعها بــ (يكون) ويكون من كان التامة دون الناقصة التي تدخل على المبتدأ والخبر ، وهذه القراءة ضعيفة ، لان ما بعده « اودما مسفوحا او لحم خنزير » بالعطف عليه ، فلو كان مرفوعا لضعف ذلك •

ومن قرأ بالتاء ونصب الميتة جعل في (يكون) ضمير العين او النفس ، وتقديره الا أن تكون النفس ميتة ، ونصب الميتة بأنه خبر كان •

أمر الله تعالى نبيه (ص) ان يقول لهؤلاء الكفار انه لايجد فى ما أوحي اليه شيئا محرما الا نحو ما ذكره في المائدة (١) كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، لان جميع ذلك يقع عليه اسم الميتة ، وفي حكمها ، فبين هناك على التفصيل ، وههنا على الجملة وأجود من ذلك ان يقال : ان الله تعالى خص هذه الثلاثة أشياء تعظيما لتحريمها وبيّن ما عداها في موضع آخر • وقيل : انه خص هذه الاشياء بنص القرآن وما عداه بوحي غير القرآن • وقيل :ان ما عداه حرم فيما بعد بالمدينة والسورة مكية •

والميتة عبارة عما كان فيه حياة فقدت من غير تذكية شرعية • والدم المسفوح هو المصبوب ، يقال : سفحت الدمع وغيره أسفحه سفحا اذا صببته، ومنه السفاح الزنا ، لصب الماء صب ما يسفح والسفح والصب والاراقة بمعنى وانما خص المسفوح بالذكر ، لان ما يختلط بالدم منه مما لايمكن تخليصه منه معفو مباح ، وهو قول ابي مجلز ، وعكرمة وقتادة •

وقوله « أو لحم خنزير » فانه وان خص لحم الخنزير بالذكر ، فانجميع

---

(١) آية ٣ من سورة ٥ المائدة ٣/٤٢٨

ما يكون منه من الجلد والشعر والشحم وغير ذلك محرم •

وقوله « فانه رجس » يعني ما تقدم ذكره، فلذلك كنا عنه بكناية المذكر، والرجس العذاب أيضا •

وقوله « أو فسقا » عطف على قوله « او لحم خنزير » فلذلك نصبه ، والمراد بالفسق « ما أهل لغير الله به » يعني « مالم يذكر أسم الله عليه » او تذكر الاصنام والاوثان ، وسمي ما ذكر عليه أسم الوثن : فسقا لخروجه عن أمر الله •

وأصل الإهلال رفع الصوت بالشيء ،ومنه اهل الصبي اذا صاح عند ولادته•

وقوله « فمن اضطر غير باغ ولا عاد » قيل فيه قولان :

أحدهما ـ غير طالب بأكله التلذذ •

والثاني ـ غير قاصد لتحليل ما حرم الله • وروى أصحابنا في قوله « غير باغ » ان معناه ان لايكون خارجا على إمام عادل أي لايعتدى بتجاوز ذلك الى ما حرمه الله • وروى أصحابنا ان المراد به قطاع الطريق ، فانهم غير مرخصين بذلك عل حال •

والضرورة التي تبيح أكل الميتة هي خوف التلف على النفس من الجوع• وانما قال عند التحليل للمضطر « ان ربّك غفور رحيم » لان هذه الرخصة لانه « غفور رحيم » أي حكم بالرخصة كما حكم بالمغفرة • وفي ذلك بيان عن عظم موقع النعمة •

وقد استدل قوم بهذه الآية على إباحة ما عدا هذه الاشياء المذكورة • وهذا ليس بصحيح ، لان ههنا محرمات كثيرة غيرها كالسباع ، وكل ذي ناب وكل ذي مخلب ، وغير ذلك • وكذلك أشياء كثيرة اختص اصحابنا بتحريمها، كالجرى والمار ماهي ، وغير ذلك ، فلا يمكن التعلق بذلك •

ويمكن ان يستدل بهذه الآية عا حريم الانتفاع بجلد الميتة فانه داخل تحت قوله « ان يكون ميتة » ويقويه قوله (عليه السلام) لاينتفع من الميتة

بأهاب ولا عصب • فأما دلالته على ان الشعر والصوف والريش منها والناب والعظم محرم، فلا يدل عليه ، لان مالم تحله الحياة لايسمى ميتة على ما مضى القول فيه •

قوله تعالى :

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ ٱلْحَوَايَا أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)

آية بلاخلاف •

أخبر الله تعالى انه حرم على اليهود في أيام موسى كل ذي ظفر •

واختلفوا في معنى « كل ذي ظفر » فقال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والسدي : انه كل ما ليس بمنفرج الاصابع ، كالابل ،والنعام، والاوز ، والبط •

وقال أبو علي الجبائي : يدخل في ذلك جميع انواع السباع والكلاب والسنانير وسائر ما يصطاد بظفره من الطير •

وقال البلخي : هو كل ذي مخلب من الطائر، وكل ذي حافر من الدواب• ويسمى الحافر ظفرا مجازا ، كما قال الشاعر :

فما رقد الولدان حتى رأيته   على البكر يمريه بساق وحافر (١)

فجعل الحافر موضع القدم • واخبر تعالى انه كان حرم عليهم شحوم البقر والغنم من الثرب، وشحم الكلى، وغير ذلك مما في أجوافها ، واستثنى من ذلك بقوله « الا ما حملت ظهورها » ما حملته ظهورها فانه لم يحرمه ، واستثنى أيضا ما على الحوايا من الشحم ، فانه لم يحرمه •

---

(١) قائله جبيها الاسدي • اللسان (حفر)

واختلفوا في معنى الحوايا ، فقال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وقتادة ومجاهد والسدي : هي المباعر . وقال ابن زيد : هن بنات اللبن . وقال الجبائي : الحوايا الامعاء التي عليها الشحم من داخلها .

وحوايا جمع حوية وحاوية . وقيل في واحده حاوياء ـ في قول الزجاج ـ على وزن راضعات ورواضع ، وضاربة وضوارب ، ومن قال : حوِيّة قال وزنه فعائل مثل سفينة وسفائن في الصحيح ، وهي ما يجري في البطن فاجتمع واستدار ، ويسمى بنات اللبن والمباعر والمرابض وما فيها الامعاء بذلك .

واستثنى أيضا من جملة ما حرم « ما اختلط بعظم » وهو شحم الجنب والإلية ، لانه على العصص ـ في قول ابن جريج والسدي ـ وقال الجبائي : الإلية تدخل في ذلك ، لانها لم تستثن وما اعتد بعظم العصص .

وموضع (الحوايا) من الاعراب يحتمل أمرين :

احدهما ـ قول اكثر اهل العلم : انه رفع عطفا على الظهور على تقدير : وما حملت الحوايا .

الثاني ـ نصب عطفا على ما في قوله « الا ما حملت » فأما قوله « أو مااختلط بعظم » فيكون نسقاً على ما حرم لاعلى الاستثناء . والتقدير ـ على هذا القول ـ حرمنا عليهم شحومهما أو الحوايا او ما اختلط بعظم الا ما حملت الظهور ، فانه غير محرم . و (أو) دخلت على طريق الاباحة كقوله « ولا تطع منهم آثما او كفورا » (١) والمعنى إعص هذا وآعص هذا ، فان جميعهم اهل ان يعصى ، ومثله جالس الحسن أو ابن سيرين اي جالس أيهما شئت .

وهذه الاشياء وإن كان الله تعالى حرمها على اليهود في شرع موسى ، فقد نسخ تحريمها على لسان محمد (صلى الله عليه وآله) وأباحها ، وتدعي النصارى ان ذلك نسخ في شرع عيسى (ع) ولسنا نعلم صحة ما يقولونه .

وقوله « ذلك جزيناهم ببغيهم » معناه انا حرمنا ذلك عليهم عقوبة لهم

(١) سورة ٧٦ الدهر آية ٢٤

على بغيهم •

فان قيل : كيف يكون التكليف عقابا ، وهو تابع للمصلحة ، ومع ذلك فهو تعريض للثواب ؟ ؟

قلنا : إنما سماه عقوبة ، لان عظيم ما أتوه من الاجرام والمعاصي اقتضى تحريم ذلك وتغير المصلحة ، وحصول اللطف فيه ، فلذلك سماه عقوبة ، ولولا عظم جرمهم لما اقتضت المصلحة ذلك •

وقوله« وإنا لصادقون » يعني فيما أخبرنا به من تحريم ذلك على اليهود فيما مضى • وان ذلك عقوبة لاوائلهم ومصلحة لمن بعدهم الى وقت النسخ • وحكي عن ابن علية أنه كان يقول : ان ما يذبحه اليهود لايجوز أكل شحمه وان جاز أكل لحمه ، لان الشحوم كانت حراما عليهم • وعندنا ان ما يذبحه اليهود لايجوز استباحة شيء منه ، وهو بمنزلة الميتة غير ان الذي ذكره غير صحيح ، لانه يلزم عليه انه لو نحر اليهود جملا ان لايجوز اكله ، لانه كان حراما عليهم ، وذلك باطل عنده •

قوله تعالى :

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) آيه بلاخلاف •

المعنى بقوله « فان كذبوك » قيل فيه قولان :

احدهما ــ قال مجاهد والسدي : انهم اليهود ، لانهم زعموا أنهم حرموا الشروب ،لان اسرائيل حرمها على نفسه ،فحرموها هم اتباعا له دون ان يكون الله حرم ذلك على لسان موسى •

الثاني ــ انه يرجع الى جميع المشركين في قول الجبائي وغيره على ظاهر الآية ، فقال الله لنبيه « فان كذبوك » يا محمد في اني حرمت ذلك على اليهود على لسان موسى « فقل » لهم « ربكم ذو رحمة واسعة » واقتضى ذكر الرحمة

أحد امرين :

الاول ــ انه برحمته أمهلهم مع تكذيبهم ،بالمؤاخذة عاجلا ــ في قول أبي علي الجبائي ــ .

الثاني ــ انه ذكر ذلك ترغيبا لهم في ترك التكذيب وتزهيدا فى فعله وانما قابل بين لفظ الماضى في قوله « كذبوك » بالمستقبل في قوله « فقل » لتأكيد وقوع القول بعد التكذيب اذ كونه جوابا يدل على ذلك . و (ذو) بمعنى صاحب . والفرق بينهما ان احدهما يصح ان يضاف الى المضمر ، ولا يصح في الآخر ، لان (ذو) وصلة الى الصفة بالجنس ، ولذلك جعل ناقصا لايقوم بنفسه دون المضاف اليه ، والمضمر ليس بجنس ولا يصح ان يوصف به .

وقوله « لايرد بأسه » معناه لايمكن احدا أن يرده عنهم ، وهو أبلغ من قوله بأسه نازل بالمجرمين ،لانه دل على هذا المعنى وعلى ان أحدا لايمكنه ردّه . وقوله « عن القوم المجرمين » معناه ان أحدا لايتمكن من ردّ عقاب الله عن العصاة المستحقين للعقاب مع انه تعالى ذو رحمة واسعة .

قوله تعالى :

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) آية بلاخلاف .

اخبر الله تعالى نبيه (ص) بأن هؤلاء المشركين سيحتجون في إقامتهم على شركهم ، وعلى تحريمهم ما أحله الله من الانعام التي تقدم وصفها بأن يقولوا : لو شاء الله ان لانفعل نحن ذلك ولا نعتقده ولا آباؤنا ، او أراد منا خلاف ذلك « ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا » شيئا من ذلك . فكذّبهم

الله تعالى بذلك في قوله « كذلك كذب الذين من قبلهم » ومعناه مثل هذا التكذيب الذي كان من هؤلاء ــ في انه منكر ــ « كذب الذين من قبلهم » وانما قال كذلك لتقضي الخبر ، ولو قال (كذا) لجاز ، لانه قريب بعد الاول، و (كذلك) أحسن ، لان ما فيه من تأكيد الاشارة تغني عن الصفة •

وحكي انه قرىء « كذب الذين » بالتخفيف ، فمن خفف اراد ان هؤلاء كاذبون كما كذب الذين من قبلهم على الله بمثله • ومن قرأ بالتشديد ، فلأنهم بهذا القول كذبوا رسول الله لانهم قالوا له : ان الله أراد منا ذلك وشاءه ، ولو أراد غيره لما فعلناه ، مكذبين للرسول (ص) كما كذب من تقدم انبياءهم فيما أتوا به من قبل الله •

ثم بيّن بقوله « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » أن ما قالوه باطل وكذب على الله لانه لو كان صحيحا لما رده عليهم •

ثم أكد تكذيبهم بقوله « ان تتبعون الا الظن » أي ليس يتبعون إلا ظنا من غير علم « وان انتم الا تخرصون » يعني تكذبون ، والخرص الكذب كقوله « قتل الخراصون » (١) •

وفى هذه الآية أدلّ دلالة على ان الله تعالى لايشاء المعاصي والكفر ، وتكذيب ظاهر لمن أضاف ذلك الى الله مع قيام ادلة العقل على انه تعالى لايريد القبيح ،لان إرادة القبيح قبيحة ، وهو لايفعل القبيح ، ولان هذه صفة نقص، فتعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا •

وقوله « حتى ذاقوا بأسنا » معناه حتى ذاقوا عذابنا ، واراد به حلول العذاب بهم فجعل وجدانهم لذلك ذوقا مجازا • وجاز قوله « ما أشركنا ولا آباؤنا » ولم يجز ان يقال : قمنا وزيد ، لان العطف على المضمر المتصل لايحسن الا بفصل ، فلما فصلت (لا) حسن ، كما حسن : ما قد قمنا ولا زيد كان كذلك،لان الضمير المتصل يغيّر له الفعل في (فعلت) فيصير كجزء منه•

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ١٠

فان قيل : انما أنكر الله تعالى عليهم هذا القول ، لانهم جعلوا هذا القول حجة في إقامتهم على شركهم ، فأعلم الله عزّ وجل ان « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » ولم ينكر عليهم انهم قالوا الشرك بمشيئة الله ،ولو كان منكرا لذلك ، لقال : كذلك كذب الذين ــ بتخفيف الذال ــ •

قلنا : لايجوز ذلك ، لانه تعالى بيّن انهم كذبوا في هذا القول بقوله « وان أنتم الا تخرصون » أي تكذبون ، فاما كذبوا فقد حكينا أنه قرىء ــ بالتخفيف ــ ومن شدد الذال ، فلأن تكذيب الصادق كذب ، وهو يدل على الامرين ، فان قالوا : انمــا عابهم ، لانهم كانوا متهزئين بهــذا القول لا معتقدين ولا متديّنين • قلنا : المعروف من مذهبهم خلافه ، لانهم كانوا يعتقدون ان جميع ما يفعلونه قربة الى الله ، وان الله تعالى اراده واخبر عنه ، فكيف يكونون متهزئين ، على أن الهازىء بالشيء لايسمى كاذبا ، فكيف سماهم الله كاذبين ؟ على انه اذا كان كل ما يجري بمشيئته فلا يجب ان ينكر على احد ما يعتقده ، لانه اعتقد ما شاء الله • ومن فعل ما شاء كان مطيعا له، لان الطاعة هي امتثال الامر والمراد منه • وهذا باطل بالاجماع •

فان قيل : انما عاب الله المشركين بهذه الآية ، لانهم قالوا ذلك حدسا وظنا لاعن علم ، وذلك لايدل على انهم غير صادقين ، وقد يجوز ان يكون الانسان صادقا فيما يخبر به ويكون قوله صادرا عن حدس وعن ظن •

قلنا : لو كان الامر على ما قلتم لما كانوا كاذبين اذا كان مخبر ما أخبروا به على ما أخبروا ، وقد كذبهم الله في اخبارهم بقوله « كذلك كذب الذين من قبلهم » وبقوله « ان انتم الا تخرصون » على ان من ظن شيئا فاخبر عنه لايوصف بأنه كاذب وان كان على خلاف ما ظنه فكيف اذا كان على ما ظنه •

قوله تعــالى :

قُلْ فَلِلّٰهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدٰيكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)

آية بلاخلاف •

امر الله تعالى نبيه (ص) ان يقول لهؤلاء الكفار الذين احتجوا بما قالوه ان الله لو شاءمنهم ذلك لماكان لله الحجة البالغة يعني الحجة التي احتج بها على الكافرين في الآية الاولى ، وجميع ما احتج به على عباده في صحة دينه الذي كلفهم اياه • ومعنى (البالغة) التي تبلغ قطع عذر المحجوج وتزيل كل لبس وشبهة عمن نظر فيها واستدل أيضا بها • وانما كانت حجة الله صحيحة بالغة ، لانه لايحتج الا بالحق وما يؤدي الى العلم • وقوله « ولو شاء لهداكم اجمعين » يحتمل امرين :

احدهما ـ لو شاء لألجأ الجميع الى الايمان غير ان ذلك ينافي التكليف •

الثاني ـ انه لو شاء لهداهم الى نيل الثواب ودخول الجنة ، وبيّن بذلك قدرته على منافعهم ومضارهم ، وبيّن انه لم يفعل ذلك ، لانه يوجب زوال التكليف عنهم والله تعالى اراد بالتكاليف تعريضهم للثواب الذي لايحسن الابتداء به ، ولو كان الامر على ما قالته المجبرة من ان الله تعالى شاء منهم الكفر لكانت الحجة للكفار على الله من حيث فعلوا ما شاء الله ، وكان يجب ان يكونوا بذلك مطيعين له ولا تكون الحجة عليهم من حيث انه خلق فيهم الكفر وأراد منهم الكفر ، فأي حجة مع ذلك •

قوله تعالى :

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

آية بلا خلاف .

معنى هذه الآية ان الحجاج بأن الطريق الموصل الى صحة مذهبهم غير منسدّ اذ لم يثبت من جهة حجة عقل ولا سمع • وما لم يصح ان يثبت من

أحد هذين الوجهين باطل لامحالة ، لان مالايصح ان يعلم فاسد لامحالة •

امر الله تعالى نبيه (ص) ان يقول لهؤلاء الكفار الذين تقدم وصفهم « هلموا » ومعناه هاتوا • وهلم كلمة موضوعة للجماعة بني مع (ها) فصار بمنزلة الصوت نحو (صه) قال الاعشى :

وكان دعا قومـه دعوة   هلمّ الى أمركم قد ُصرِم (١)

ومن قال : هلموا ، فانه لم يبنه مع (ها) بل قدره على الانفصال • والاول أفصح ، لانها لغةالقرآن ،وهي لغة اهل الحجاز • واهل نجد يقولون: هلم وهلما وهلموا وهلمي وهلميا وهلمن ، قال سيبويه أصله (ها) ضم اليه (لم) فبني فقيل : هلم ، وهات فصل ولم يتصل بما يبنى معه ، فلذلك لابد ان يقال للجماعة : هاتوا • و (هلم) لفظ يتعدى تارة ، واخرى لايتعدى، فاذا كانت بمعنى (هاتوا) فانها تتعدى مثل قوله « هلمّ شهداءكم » واذا كانت بمعنى (تعالوا) نحو « هلم الينا » (٢) فانها لاتتعدى ونظيره : عليك زيدا يتعد الى واحد ، وعليّ زيدا يتعدى الى اثنين بمعنى أولني زيدا ،ومثله من الفعل : رجع ورجعته ، ولا يجوز في (هلم) الضم والكسر ، كما يجوز في َو ُرد : َو َرد • قال الزجاج : لانها لاتتصرف على طريقة : َفعَل َيفعَل، مع ما اتصلت بها من هاء •

ومعنى الآية هاتوا شهداءكم الذين يشهدون بصحة ما تّدعون من ان الله حرم هذا الذي ذكرتموه •وقوله «فانشهدوا فلاتشهد معهم » فان قيل كيف دعاهم الى الشهادة مع أنهم اذا شهدوا لم تقبل شهادتهم ؟ ؟ !

قلنا عنه جوابان أحدهما ــ قال أبو علي: لانهم لم يشهدوا على الوجه دعوا ان ُيشهِدوا بيّنة عادلة تقوم بها الحجة •

الثاني ــ شهداء من غيرهم ، ولن يجدوا ذلك ، ولو وجدوه ما وجب

---

(١) ديوانه ٣٤ ، ومجاز القرآن ٢٠٨/١ وتفسير الطبري ١٢ / ١٥٠ ، واللسان والتاج (ربع)   (٢) سورة ٣٣ الاحزاب آية ١٨

قبول شهاداتهم ، لانها لاترجع الا الى دعوى مجردة • ولكن المذهب مع هذه الحال أبعد عن الصواب ، لانهم لايجدون من يشهد لهم • وهو قول الحسن•

وقوله « ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا » نهى من الله لنبيه والمراد به أمته ان يعتقدوا مذهب من اعتقد مذهبه هوى ، ويمكن اتخاذ المذهب هوى من وجوه

احدها ــ هوى من سبق اليه فقلده فيه •

والثاني ــ ان يدخل عليه شبهة فيتخيله بصورة الصحيح مع ان في عقله ما يمنع منه • ومنها ــ ان يقطع النظر دون غايته ، للمشقة التي تلحقه فيعتقد المذهب الفاسد • ومنها ــ ان يكون نشأ على شيء وألفه واعتاده فيصعب عليه مفارقته • وكل ذلك متميز مما استحسنه بعقله •

وانما قال « الذين كذبوا بآياتنا والذين لايؤمنون بالآخرة » وكلهم كفار ليفصل وجوه كفرهم ، لان منه ما يكون مع الاقرار بالآخرة كحال اهل الكتاب ، ومنه ما يكون مع الانكار كحال عبدة الاوثان • وقوله « وهم بربهم يعدلون » معناه يعدلون به عن الحق لاتخاذهم مع الله شركاء واضافتهم اليه ما لم يقله وافترائهم عليه •

وفي الآية دلالة على فساد التقليد لانه لو كان التقليد جائزا لما طالب الله الكفار بالحجة على صحة مذهبهم ، ولما كان عجزهم عن الاتيان بها دلالة على بطلان ما ذهبوا اليه •

قوله تعالى :

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) آية بلاخلاف .

لما حكى الله تعالى عن هؤلاء القوم انهم حرموا مالم يحرمه الله وأحلوا ما حرمه ، قال لنبيه « قل » لهم « تعالوا » حتى أبيّن لكم ما حرمه الله . و (تعالوا) معناه أدنوا ، وهو مشتق من العلو ، وتقديره كأن الداعي في المكان العالي ، وان كانا في مستوى من الارض كما يقال للانسان : ارتفع الى صدر المجلس .

وقوله « اتل » مشتق من التلاوة مثل القراءة . والمتلو مثل المقروء ، فالمتلو هو المقروء الاول ، والتلاوة هي الثاني منه على طريق الاعادة ، وهو مثل الحكاية والمحكي . وقوله « اتل » مجزوم بأنه جواب الامر ، وعلامة الجزم فيه حذف الواو ، ومن شأن الجازم أن يأخذ الحركة اذا كانت على الحرف ، فان لم يكن هناك حركة أخذ نفس الحرف .

وقوله « ما حرم ربكم » (ما) في موضع نصب بـ (أتل) وهي بمعنى الذي ، وتقديره أتل الذي حرم ربكم عليكم : ان لاتشركوا به شيئا ، ويجوز ان يكون نصبا بـ (حرّم) وتقديره أي شيء حرم ربكم ، لان (أتلو) بمنزلة أقول .

وقوله « ان لاتشركوا به شيئا » يحتمل موضع (ان) ثلاثة اوجه من الاعراب:

احدها ـ الرفع على تقدير ذلك ان لاتشركوا به شيئا .

والثاني ـ النصب على تقدير أوصى ان لاتشركوا به شيئا .

وقيل فيه وجه رابع ـ ان يكون نصبا بـ (حرّم) وتكون (لا) زائدة ، وتقديره حرم ربكم ان تشركوا به شيئا ، كما قال « مامنعك ان لاتسجد » (١) ونظائر ذلك قد قدمنا طرفا منها . وموضع تشركوا يحتمل امرين ، احدهما ـ

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١١

النصب بـ (ان) • الثاني ــ الجزم بـ (لا) على النهي •

وقال ابو جعفر عليه السلام : ادنى الشرك الرياء •

وقوله « وبالوالدين احسانا » العامل فيه (أمر) أي امر بالوالدين إحسانا ، واوصى بالوالدين احسانا • ودليله من وجهين : احدهما ــ ان في (حرم كذا) معنى اوصى بتحريمه، وامر بتجنبه • الثاني « ذلكم وصاكم به» •

وقوله « ولا تقتلوا اولادكم من املاق » عطف بالنهي على الخبر ، لان قوله « ولاتقتلوا » نهي ، وقوله اوصى ألا تشركوا به شيئا ،وأوصى بالوالدين احسانا خبر ، وجاز ذلك كما جاز في قوله « قل اني امرت ان اكون اول من أسلم ولا تكونن من المشركين » (٢) وقال الشاعر :

حج وأوصى بسليمى الا ْعبُدَ ان لاترى ولا تكلم أحــدا
ولا تمش بفضاء بَعْـــدا ولا يزل شرابها مبردا (٣)

والاملاق : الافلاس من المال والزاد يقال : املق إملاقا ومنه الملق لانه اجتهاد في تقرب المفلس للطمع في العطية •

وقال ابن عباس وقتادة والسدي وابن جريج والضحاك : الاملاق الفقر، نهاهم الله ان يقتلوا أولادهم خوفا من الفقر • وقال « نحن نرزقكم واياهم» وقوله « ولا تقربوا الفواحش » نهي عن الفواحش وهي القبائح • وقيل : الفاحش العظيم القبح ، والقبيح يقع على الصغير والكبير ، لانه يقال القرد قبيح الصورة ولا يقال فاحش الصورة • وضد القبيح الحسن وليس كذلك الفاحش • قال الرماني ويدخل في الآية النهي عن الصغير ، لان قرب الفاحش عمل الصغيرمن القبيح • وقوله « ما ظهر منها وما بطن » قيل في معناه قولان:

أحدهما ــ قال ابن عباس والضحاك والسدي : كانوا لايرون بالزنا بأسا سرا ، ويمنعون منه علانية ، فنهى الله عنه في الحالتين •

(٢) سورة ٦ الانعام آية ١٤

(٣) مجاز القرآن ١/٣٦٤ وتفسير الطبري ١٢/٢١٦ •

الثاني ـ لئلا يظن ويتوهم ان الاستبطان جائز .

وقال ابو جعفر (عليه السلام) ما ظهر هو الزنا ، وما بطن المخالّة .
وقيل معناه ما علن وما خفي يعني من جميع أنواع الفواحش وهو اعم فائدة.

وقوله « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق » فالنفس المحرم قتلها هي نفس المسلم والمعاهد دون الكافر الحربي ، والحق الذي يستباح به قتل النفس المحرمة ثلاثة اشياء : قود بالنفس الحرام ، والزنا بعد احصان ، والكفر بعد الايمان .

وقوله « ذلكم وصاكم به » خطاب لجميع الخلق « لعلكم تعقلون » معناه لكي تعقلوا عنه ما وصاكم به فتعملوا به .

قوله تعالى :

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) آية بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة الا أبا بكر « تذكرون » بتخفيف الذال حيث وقع . الباقون بالتشديد . قال سيبويه : ذكرته ذكرا مثل شربا ، قال ابو علي : (ذكر) فعل يتعدى الى مفعول واحد ، كقوله « فاذكروني اذكركم » (١) فاذا ضاعفت العين تعدى الى مفعولين كقولك ذكرته اباه قال الشاعر :

يُذَكِّرُنيك حنين العجول ونوح الحمامة تدعو هديلا

فان نقله بالهمزة كان كنقله بالتشديد ، وتقول : ذكرته فتذكر ، لان تذكر مطاوع (فعل) كما تفاعل مطاوع فاعل ، قال تعالى « اذا مسهم طائف

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٥٢

من الشيطان تذكروا » (٢) وقد تعدى تفعلت قال الشاعر :

تذكرت أرضا بهـا أهلها أخوالها فيها وأعمامها

وأنشد ابو زيد :

تذكرت ليلى لات حين أذكارها وقد حني الاضلال ضلا بتضلال

فقال اذكارها ، كما قال « وتبتل اليه تبتيلا » (٣) ونحو ذلك مما لايحصى مما لايجيء المصدر على (فعلة) ، وجاء المصدر على (فعلى) بالف التأنيث، فقالوا ذكرى وقالوا في الجمع الذكر ، فجعلوه بمنزلة (سدرة ، وسدر) وقالوا : الدكر بالدال غير المعجمة حكاه سيبويه ، والمشهور بالذال .

فمن قرأ بتشديد الذال اراد يتذكرون ويأخذون به ، ولا يطرحونه وادغم التاء في الذال ، والمعنى يتذكرون ، كما قال « والنهار خلفة لمن أراد ان يذكر » (٤) أي يتفكر وقال « اولا يذكر الانسان » (٥) معناه اولا يتفكر ، وقال « ولقد صرفناه بينهم ليذكروا » (٦) أي ليتفكروا فيه .

ومن قرأ ـ بتخفيف الذال ـ أراد لكي يذكروه ولا ينسوه فيعملوا به. والقراءتان متقاربتان غير ان هذا حذف التاء الاولى ، والاولون أدغموا التاء في الذال . والمعنى فيها لعلكم تتذكرون .

هذه الآية عطف على ما حرم الله في الآية الاولى واوصى به ، فنهى في هذه الآية ان تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن ، والمراد بالقرب التصرف فيه ، وانما خص اليتيم بذلك وان كان واجبا في كل احد ، لان اليتيم لما كان لايدفع عن نفسه ولا له والد يدفع عنه ، فكان الطمع في ماله أقوى تأكد النهي فى التصرف في ماله .

وقوله « الا بالتي هي أحسن » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

---

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ٢٠٠

(٣) سورة ٧٣ المزمل آية ٨ (٤) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٢

(٥) سورة ١٩ مريم آية ٦٧ (٦) سورة ٢٥ الفرقان آية ٥٠

احدها ـ حفظه عليه الى ان يكبر فيسلم اليه .

وقيل معناه تثميره بالتجارة في قول مجاهد والضحاك والسدي .

والثالث ـ ما قاله ابن زيد : ان يأخذ القيم عليه بالمعروف دون الكسوة.

وقوله « حتى يبلغ أشده » اختلفوا في حد الاشد ، فقال ربيعة وزيدبن أسلم ومالك وعامر الشعبي : هو الحلم . وقال السدي : ثلاثون سنة .وقال قوم : ثماني عشرة سنة . لانه اكثر ما يقع عندهم البلوغ واستكمال العقل .

وقال قوم قوم : انه لاحد له وانما المراد به حتى يكمل عقله ولا يكون سفيها يحجر عليه . والمعنى حتى يبلغ اشده فيسلم اليه ماله او يأذن فيالتصرف في ماله ، وحذف لدلالة الكلام عليه . وهذا أقوى الوجوه .

وواحد الاشد قيل فيه قولان :

احدهما ـ شد مثل اضر جمع ضر ، واشد جمع شد . والشد القوة ، وهو استحكام قوة شبابه وسنه ، كما شد النهار ارتفاعه . وحكى الحسين بن علي المغربي عن أبي اسامة ان واحدة شدة . مثل نعمة وانعم . وقال بعض البصريين : الاشد واحـد مثل الافك . ومن قال ان واحـده شد استدل بقول عنترة :

عهدي به شد النهار كأنما خضب البنان ورأسه بالعظلم (١)

هكذا رواه المفضل الضبي . وقال الآخر :

يطيف به شد النهـار ظعينه طويلة اتقاء اليدين سحوق (٢)

وقوله « واوفوا الكيل والميزان بالقسط » أمر من الله بتوفية كيل مايكال وتوفية وزن ما يوزن بالقسط يعني بالعدل وفاء من غير بخس .

وقوله « لاتكلف نفسا الا وسعها » معناه هنا انه لما كان التعويل في الوزن والكيل على التحديد من اقل القليل يتعذر ، بين انه لايلزم في ذلك الاجتهاد في التحرز .

---

(١) ديوانه ٢٧ وتفسير الطبري ١٢ : ٢٢٢ (٢) تفسير الطبري ١٢ :٢٢٢

وقوله « واذا قلتم فأعدلوا » يعني قولوا الحق • ولو كان على ذي قرابة لكم • وانما خص القول بالعدل دون الفعل ، لان من جعل عادته العدل في القول دعاه ذلك الى العدل في الفعل ، لان ذلك من آكد الدواعي اليه والبواعث عليه •

وقوله « وبعهد الله اوفوا » قيل في معنى العهد هاهنا قولان :

احدهما ــ كل ما أوجبه على العبد فقد عهد اليه بايجابه عليه وتقديم القول فيه والدلالة عليه •

الثاني ــ قال ابو علي عهد الله الحلف بالله ، فاذا حلف في غير معصية الله وجب عليه الوفاء • وقوله « ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » قيل في معناه قولان :

احدهما ــ لئلا تغفلوا عنه فتتركوا العمل به والقيام بما يلزم منه •

الثاني ــ لتتذكروا كل ما يلزمكم بتذكر هذا فتعملوا به •

قوله تعالى :

وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٥٣)

آية بلاخلاف •

قرأ الكسائي وحمزة « وان هذا » بكسر الهمزة • الباقون بفتحها • وكلهم شدد النون الا ابن عامر فأنه خففها • وكلهم سكن الياء من (صراطي) الا ابن عامر فانه فتحها• وبه قرأ يعقوب • وقرأ ابن كثير وابن عامر«سراطي» بالسين • الباقون بالصاد الا حمزة ، فانه قرأ بين الصاد والزاي • وروى ابن فليح والبزي الا القواس « فتفرق » بتشديد التاء • ووجهه ان أصله(فتتفرق) فأدغم احدهما في الاخرى •

ومن فتح (أنّ) احتمل ذلك وجهين :

احدهما ـ ان يكون عطفا على « ان لاتشركوا » •

والثاني ـ ولان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه •

ومن كسر (انّ) احتمل ايضا وجهين : احدهما ـ عطفه على « اتل ما حرم ربكم » واتل « ان هذا » بمعنى اقول • والثاني ـ استأنف الكلام•

ومن خفف (ان) فأن المخففة في قوله تتعلق بما تتعلق به المشددة •

وموضع (هذا) رفع بالابتداء وخبره (صراطي) وفي (ان) ضمير القصة والشأن • وعلى هذه الشريطة تخفف ، وليست المفتوحة كالمكسورة اذا خففت • والفاء فيقوله « فاتبعوه » على قول من كسر (ان) عاطفةجملة على جملة •وعلى قول من فتح زائدة ونصب « مستقيما » على الحال • والفائدة ان هذا صراطي وهو مستقيم، فاجتمع لهالامران ، ولو رفع مستقيم، لما أفاد ذلك •

وانما سمى الله تعالى ان مابيّنه وذكره من الواجب والمحرم صراط وطريق لان امتثال ذلك على ما أمر به يؤدي الى الثواب في الجنة ، فهو طريق اليها ، والى النعيم فيها وقوله « فاتبعوه » أمر من الله تعالى باتباع صراطه وما شرعه للحق • وطريق اتباع الشرع ـ وفيه الحرام والحلال والمباح ـ هو اعتقاد ذلك فيه ، والعمل على ما ورد الشرع به ، فيفعل الواجب والندب ، ويجتنب القبيح ، ويكون مخيرا في المباح • ولا يجب فعل جميعه ، لان ذلك خلاف الاتباع • وانما قيل لاعتقاد صحة الشرع اتباع له ، لانه تعالى اذا حظرشيئا أو حظر تركه كان حكمه ، ووجب اتباعه في انه محرم وواجب ، وكذلك الندب والمباح •

وقوله « ولا تتبعوا السبل » يعني سبل الشيطان واتباع اهل البدعمن اليهود والنصارى وغيرهم ، فنهى تعالى عن اتباع ذلك فان اتباع غير سبيله تصرف عن اتباع سبيله ، ولا يمكن ان يجتمعا « ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » معناه امركم به وأوصاكم بأمتثاله لكي تتقوا عقابه باجتناب معاصيه•

وانما اتى بلفظة (لعل) لان المعنى انكم تعاملون في التكليف والجزاء معاملة الشك للمظاهرة في العدل .

قوله تعـالى :

ثمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) آية بلا خلاف

قيل في معنى قوله « ثم آتينا موسى الكتاب » مع ان كتاب موسى قبل القرآن و (ثم) تقتضي التراخي قولان :

احدهما ـ ان فيه خذفا ، وتقديره : ثم اتل « آتينا موسى الكتاب » وقال ابو مسلم عطفه على المنن التي امتنّ بها على ابراهيم من قوله « ووهبنا له اسحاق » ألى قوله « الى صراط مستقيم » واستحسنه المغربي .

وقوله « تماما على الذي أحسن » قيل فيه خمسة أقوال :

احدها ـ قال الربيع والفراء : تماما على احسانه اي احسان موسى كأنه قال ليكمل احسانه الذي يستحق به كمال ثوابه في الآخرة .

الثاني ـ قال مجاهد : تماما على المحسنين . وقيل في قراءة عبد الله « تماما على الذين أحسنوا » كأنه قيل اتماما للعنة على المحسنين الذين هو أحدهم .

الثالث قال ابن زيد : تماما على احسان الله الى انبيائه .

الرابع ـ قال الحسن وقتادة : لتمام كرامته في الجنة على احسانه في الدنيا .

الخامس ـ قال ابو علي : تماما على احسان الله الى موسى بالنبوة ، وغيرها من الكرامة . وقال أبو مسلم تماما على الذي احسن ابراهيم ، فجعل ما اعطى موسى منّة على ابراهيم واجابة لدعوته بما تقدم من احسانه وطاعته ، وذلك اذ يقول ابراهيم « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » (١) .

وقوله « تماما على الذي » يقتضي مضاعفة (عليه) . ولو قال : تماما ،

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٨٤

لدل على نقصانه قبل تكميله . وقوله « أحسن » في موضع خفض عند الفراء، زعم ان العرب تقول مررت بالذي خير منك ، وبالذي أخيك . ولا يقولون: بالذي قائم ، لانه نكرة وأنشد عن الكسائي :

ان الزبيري الذي مثل الحكم مشى بأسلابك في اهل العلم (٢)

قال الزجاج : أجمع البصريون على انه لايجوز ذلك ، لان (الذي) يقتضي صلة ، ولا يصح ان يوصف الا بعد تمام صلته .

وقوله « وهدى ورحمة » صفتان للكتاب الذي أنزله على موسى ،ومعناه حجة ورحمة « وتفصيلا لكل شيء » مثل ذلك . وقوله « لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون » معناه لكي يؤمنوا بجزاء ربهم ، فسمى الجزاء لقاء الله تفخيما لشأنه وتعظيما له مع الاختصار والايجاز . و (تماما) و (تفصيلا) نصب على انه مفعول له ، وتقديره إنا فعلنا للتمام والتفصيل لكل ما شرعنا له . وروي في الشواذ (أحسن) رفعا وتقديره على الذي هو أحسن .

قوله تعالى :

وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٥٥) آية بلا خلاف .

قوله « وهذا » اشارة الى القرآن ، وصفه بأنه كتاب انزله الله وانما وصفه بأنه كتاب وان لم يكن قرآنا من اجل انه يكتب ، لانه لما كان التقييد بالكتاب من اكثر ما يحتاج اليه في الدلائل والحكم ، وصف بهذا الوصف ، لبيان انه مما ينبغي ان يكتب ، لانه اجل الحكم ، وذكر في هذا الموضع بهذا الذكر ليقابل ما تقدم من ذكر كتاب موسى (ع) .

وقوله « مبارك » فالبركة ثبوت الخير بزيادته ونموه ، واصله الثبوت، ومنه (تبارك) أي تعالى بصفة اثبات لا اول له ولا آخر ، وهذا تعظيم

(٢) معاني القرآن ١/٣٦٥ وتفسير الطبري ١٢ / ٢٣٤ .

لايستحقه غير الله تعالى • ورفعه بأنه صفة للكتاب ، ولو نصب على الحال كان جائزا غير أن الرفع يدل على لزوم الصفة للكتاب ، والنصب يجوز ان يكون لحالة عارضة في وقت الفعل •

وقوله « فاتبعوه » امر من الله باتباعه وتدبر ما فيه وامتثاله •

وقوله « واتقوا » أمر منه تعالى باتقاء معاصيه ، وتجنب مخالفة كتابه •

وقوله « لعلكم ترحمون » أي لكي ترحموا ، وانما قال « اتقوا لعلكم ترحمون » مع انهم اذا أتقوا رحموا لامحالة لامرين :

احدهما ـ اتقوا على رجاء الرحمة ، لانكم لاتدرون بما توافون في الآخرة •

الثاني ـ أتقوا لترحموا ، ومعناه ليكن الغرض بالتقوى منكم طلب ما عند الله من الرحمة والثواب •

قوله تعالى :

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) آية بلا خلاف •

العامل في (أن) قوله « أنزلناه » وتقديره لان لاتقولوا ، فحذف (لا) لظهور المعنى فى انه أنزله لئلا يكون لهم حجة بهذا ، وحذف (لا) في قول الفراء ، وقال الزجاج : تقديره كراهة ان تقولوا ، ولم يجز حذف (لا) ههنا ، واذا كان يجوز حذف المضاف في غير (ان) فهو مع (أن) اجدر ، لطولها بالصلة ، و (ان) اذا كانت بمعنى المصادر تعمل ، ولا تعمل اذا كانت بمعنى (أي) لان هذه تختص بالفعل ، والاخرى تدخل للتفسير ، فتارة تفسير جملة من ابتداء وخبر ، وتارة جملة من فعل وفاعل •

وقوله « انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا » معنى (انما) الاختصاص ، وانما كان كذلك ، لان (أن) كانت تحقيقا بتخصيص المعنى مما خالفه ، فلما صحبتها (ما) ممكنة لها ظهر هذا المعنى فيها •

والمعني « بالطائفتين من قبلنا » اليهود والنصارى ـ في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وابن جريج وقتادة والسدي ـ وانما خصا بالذكر لشهرتهما ولظهور أمرهما •

وقوله « وان كنا عن دراستهم لغافلين » اللام في قوله « لغافلين » لام الابتداء ، ولا يجوز ان يعمل ما قبلها فيما بعدها الا في باب (إنّ) خاصة لانها زحلقت معها عن الاسم الى الخبر للفصل بين حرفين بمعنى واحـد ، وتقدير الآية : انا أنزلنا الكتاب الذي هو القرآن لئلا يقولوا : انما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى ، ولم ينزل علينا ، ولو أريد مناما أريد ممن قبلنا لانزل الينا كتاب كما أنزل على من قبلنا « وان كنا عن دراستهم لغافلين» وتقديره وان كنا غافلين عن تلاوة كتبهم يعني الطائفتين اللتين أنزل عليهم الكتاب ، لانهم كانوا أهله دوننا •

قوله تعـالى :

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) آية بلاخلاف•

هذه الآية عطف على ما قبلها والتقدير : انا أنزلنا القرآن المبارك لئلا يقولوا : انه ما انزل علينا الكتاب ، كما أنزل على من قبلنا ، او يقولوا : لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم في المبادرة الى قبوله والتمسك به ، كما يقول القائل : لو أتيت بدليل لقبلته منك • ومثل هذا يستبق الى النفس •

وقوله « أهدى منهم » فلا دلالهم بالاذهان والافهام • وقد يكون العارف بالشيء أهدى اليه من عارف آخر ، بأن يعرفه من وجوه لايعرفها الآخر ،وبأن

يكون ما يعرفه به أثبت مما يعرفه به الآخر •

قال الرماني : والفرق بين الهداية والدلالة ان الهداية مضمنة بأنها نصبت ليهتدي بها صاحبها ، وليس كذلك الدلالة ، قال : ولذلك كثر تصرفها في القرآن ، كما كثر تصرف الرحمة ، لانها على المحتاج • وهذا فرق غير صحيح لان الدلالة أيضا لاتسمى دلالة الا اذا نصبت ليستدل بها ، ولذلك لايقال : اللص دل على نفسه اذا فعل آثار امكن ان يستدل بهـا على مكانه ، ولم يقصد ذلـك •

وقوله « لو أنا » فتحت (ان) بعد (لو) مع انه لايقع فيه المصدر ، لان الفعل مقدر بعد (لو) كأنه قيل : لو وقع الينا أنا أنزل هذا الكتاب علينا، الا أن هذا الفعل لايظهر من اجل طول (ان) بالصلة ، ولا يحذف مع المصدر الا في الشعر قال الشاعر :

لو غيركم علق الزبير بحبله　　أدى الجوار الى بني العوام

فقال الله لهم « فقد جاءكم بينة من ربكم » يعني حجة واضحة « وهدى ورحمة » وادلة مؤدية الى الحق ، ورحمة منه تعالى وانعام « فمن أظلم ممن كذب بآيات الله » يعني فمن أظلم لنفسه ممن كذب بآيات الله « وصدف عنها » أي اعرض عنها غير مستدل بها ولا مفكر فيها • وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي .

فان قيل كيف قال « فمن أظلم ممن كذب بآيات الله » بأن يجحدها ، ولو فرضنا انه ضم الى ذلك قتل النفوس وانتهاك المحارم كان اظلم ؟ •

قلنا عنه جوابان :

احدهما ـ للمبالغة لخروجه الى المنزلة الداعية الى كل ضرب من الفاحشة•

والآخر ـ انه لاخصلة ممن ظلم النفس اعظم من هذه الخصلة •

ثم قال تعالى « سنجزي الذين يصدفون » أي يعرضون « عن آياتنا سوء العذاب » أي شديده « بما كانوا يصدفون » أي جزاء بما كانوا يعرضون

وهو ما أعد الله للكفار نعوذ بالله .

فان قيل: فهل للذين ماتوا قبل من خوطب بهذه الآية ان يقولوا هذا القول؟

قيل : لا ، ليس له ذلك ، لان عذره كان مقطوعا بعقله ، وبما تقدم من الاخبار والكتب وهؤلاء أيضا لو لم يأتهم الكتاب والرسول لم يكن لهم حجة، لكن فعل الله تعالى ما علم ان المصلحة تعلقت به لهؤلاء ، ولو علم ذلك فيمن تقدم ، لانزل عليهم مثل ذلك ، لكن لما لم ينزل عليهم علمنا ان ذلك لم يكن من مصلحتهم .

قوله تعالى :

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَـٰئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) آية .

قرأ حمزة والكسائي « يأتيهم الملائكة » بالياء . الباقون بالتاء .

وقد مضى الكلام في أمثال ذلك فيما مضى ، فلا وجه للتطويل باعادته .

قوله « هل ينظرون » ما ينتظرون ، يعني هؤلاء الكفار الذين تقدم ذكرهم . وقال ابو علي : معناه هل تنتظر انت يامحمد واصحابك الا هذا ؟ وهم وان انتظروا غيره فذلك لايعتد به في جنب ما تنتظرونه من الاشياء المذكورة لعظم شأنها ، وهو مثل قوله «ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى»(١)، وتكلمت ولم تتكلم بما لايعتد به .

وقوله « الا أن يأتيهم الملائكة » يعني لقبض ارواحهم . وقال مجاهد وقتادة والسدي : تأتيهم الملائكة ، لقبض ارواحهم « او يأتي ربك » أي يوم

(١) سورة ٨ الانفال آية ١٧ .

القيامة « او يأتي بعض آيات ربك » ، كطلوع الشمس من مغربها •

وقوله « او يأتي ربك » قيل في معناه قولان :

احدهما ــ او يأتي امر ربك بالعذاب • وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه ، ومثله «وجاء ربك»(٢) وقوله « ان الذين يؤذون الله ورسوله»(٣) يعني يؤذون اولياء الله •

الثاني ــ او يأتي ربك بعظم آياته فيكون (يأتي) به على معنى الفعل المعتدي ، ومثل ذلك قول الناس: اتانا الروم يريدون أتانا حكم الروم وسيرتهم•

وقوله « يوم يأتي بعض آيات ربك لاينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل » • قيل في الآيات التي تحجب من قبول التوبة ثلاثة أقوال :

احدها ــ قال الحسن ، وروي عن النبي (ص) انه قال (بادروا بالاعمال قبل ستة :طلوع الشمس من مغربها ،والدابة ، والدجال ،والدخان ،وخويصة احدكم ــ اي موته ــ وامر القيامة) يعني القيامة •

الثاني ــ قال ابن مسعود : طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض ، وهو قول ابي هريرة .

الثالث ــ طلوع الشمس من مغاربها رواها جماعة عن النبي (ص) •

وقوله « او كسبت في ايمانها خيرا » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

احدها ــ الابهام في احد الامرين :

الثاني ــ التغليب ، لان الاكثر ممن ينتفع بايمانه حينئذ من كان كسب في ايمانه خيرا قبل •

الثالث ــ انه لاينفعه ايمانه حينئذ وان اكتسب فيه خيرا الا أن يكون ممن آمن قبل ــ في قول السدي ــ ومعنى كسب الخير في الايمان عمل النوافل والاستكثار من عمل البر بعد اداء الفرائض • والاول عندي أقواها،

(٢) سورة ٨٩ الفجر آية ٢٢

(٣) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٥٧

لان المعنى انه لاينفع نفسا ايمانها الا اذا كانت آمنت قبل ، فانها اذا آمنت قبل نفعها ايمانها بانفراده او اذا ضمت الى ايمانها افعال الخير ، فان ذلك ينفعها أيضا ، فانه ازداد خيرا .

وقوله « قل انتظروا » خطاب للنبي (ص) ان يقول لهؤلاء الكفار : انتظروا اتيان الملائكة وهذه الآيات ، فانا منتظرون حصولها . ومعنى الآية الحث على المبادرة الى الايمان قبل الحال التي لاتقبل فيها التوبة ، وهي ظهور الآيات التي تقدم ذكرها ، وفي ذلك غاية التهديد .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) آية .

قرأ حمزة والكسائي « فارقوا » بألف ، وهو المروي عن علي (ع) الباقون « فرّقوا » بلا الف مع تشديد الراء . والمعنيان متقاربان ، لان القراءتين يؤلان الى شيء واحد ، لان جميع ذلك مخالف لما يوجبه دينهم ، فهم بتفريقه من جهة اكفار بعضهم بعضا على جهالة فيه مخالفون له ، وهم بخروجهم عنه الى غيره مفارقون له مخالفون . وقيل في المعنيين بهذه الآية اربعة أقوال:

احدها ــ قال مجاهد : هم اليهود ، لانهم كانوا يمالؤن عبدة الاوثان على المسلمين .

الثاني ــ قال قتادة : هم اليهود والنصارى ، لان بعض النصارى يكفر بعضا وكذلك اليهود .

الثالث ــ قال الحسن هم جميع المشركين ، لانهم جميعا بهذه الصفة .

الرابع ــ قال ابو جعفر (ع) : هم اهل الضلالة والبدع من هذه الامة . وهو قول ابي هريرة والمروي عن عائشة .

حذرهم الله تعالى من تفرق الكلمة ودعاهم الى الاجتماع على ما تقوم عليه

الحجة • وا لدين الذي فارقوه : قيل فيه قولان :

الحجة • والدين الذي فارقوه • وقيل فيه قولان :

قال ابو علي وغيره : هو الدين الذي امر الله باتباعه وجعله دينا لهم •

الثاني ـ الدين الذي هم عليه ، لانكار بعضهم بعضا بجهالة فيه •

ومعنى الشيع الفرق التي يمالىء بعضهم بعضا على امر واحد مع اختلافهم في غيره ، وقيل اصله الظهور من قولهم : شاع الخبر يشيع اذا ظهر • وقال الزجاج : اصله الاتباع من قولك : شايعه على الامر اذا اتبعه •

وقوله « لست منهم في شيء » خطاب للنبي (ص) واعلام له انه ليس منهم في شيء ، وانه على المباعـدة التامة من ان يجتمع معهم في معنى من مذاهبهم الفاسدة ، وليس كذلك بعضهم مع بعض ، لانهم يجتمعون في معنى من الباطل وان افترقوا في غيره ، فليس منهم في شيء ، لانه بريء من جميعه وقال الفراء : معناه النهي عن قتالهم ، ثم نسخ بقوله « فاقتلوا الشركين» (١) وهو قول السدي .

اخبر الله تعالى ان الذين فرقوا دينهم ـ وخالفوه وباينوه وصاروا فرقا يمالىء بعضهم بعضاً علىأمر واحدمع أختلافهم فيغيره ـليسالنبي(ص)منهم في شيء وانه مباين لهم لفساد ما هم عليه • ثم قال « انما امرهم الله • ثم ينبئهم بمـا كانوا يعملون » يعني ان الله تعالى هو الذي يخبرهم بأفعالهم ويجازيهم عليها دون غيره يعني يوم القيامة •

قوله تعـالى :

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) آية بلا خلا ف .

يجوز في قوله « فله عشر أمثالها » ثلاثة أوجه : الجربا لاضافة ، وعليه جميع القراء الا يعقوب • ورفع (أمثالها) مع التنوين على الصفة ، وبهقرأ

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦ •

الحسن ويعقوب • ونصبه على التمييز ، كما تقول عندي خمسة أترابا ذكر ذلك الزجاج ، والفراء •

ومعنى القراءة الاولى ، فله عشر حسنات أمثالها ، ويجوز في العربية فله عشر مثلها ، فيكون المثل في لفظ الواحد وفي معنى الجمع ، كما قال « انكم اذا مثلهم» (٢) • ومن قال :أمثالها فهو كقوله« لايكونوا امثالكم»(٣) وانما جاز في (مثل) التوحيد في معنى الجمع ، لانه على قدر ما يشبه به ، تقول :مررت بقوم مثلكم وبقوم أمثالكم • وقال الرماني : كلما لم يتميز بالصورة فان جمعه يدل على الاختلاف ، كقولك : رمال ومياه ، فأما (رجال) فلا يدل على الاختلاف ، لانه يتميز بالصورة ، ويجوز ان يكون (المثل) في موضع الجمع ولا يجوز مثل ذلك في (العدل) لان (المثل) لايضاف الى الجماعة الا على معنى انه مثل لكل واحد منهم • وليس كذلك (العدل) لانه يكون لجماعتهم دون كل واحد منهم •

وقال اكثر اهل العدل ان الواحد من العشرة مستحق وتسعة تفضل • وقال بعضهم : المعنى فله من الثواب ثواب عشر حسنات أمثالها ، وهذا لايجوز، لانه يقبح ان يعطي غير العامل مثل ثواب العامل كما يقبح ان يعطي الاطفال مثل ثواب الانبياء ومثل اجلالهم واكرامهم وان يرفع منزلتهم عليهم •

وانما لم يتوعد على السيئة الا بمثلها ، لان الزائد على ذلك ظلم • والله يتعالى عن ذلك ، وزيادة الثواب على الجزاء تفضل واحسان فجاز ان يزيد عليه • قال الرماني :ولا يجوز على قياس عشرة أمثالها عشر صالحات بالاضافة لان المعنى ظاهر في ان المراد عشر حسنات امثالها ، وقال غيره لان الصالحات لاتعد ، لانها اسماء مشتقة • وانما تعد الاسماء • و (المثل) اسم فلذلك جاز العدد به ،وقال الرماني : دخول الهاء في قوله (الحسنة) يدل على ان تلك الحسنة ما هو مباح لايستحق عليه المدح والثواب • ولو قيل : دخول الالف

(٢) سورة ٤ النساء آية ١٣٩ (٣) سورة ٤٧ محمد آية ٣٨

واللام فيها يدل على ان الحسنة هي المأمور بها ، ودخلا للعهد ، والله لا يأمر بالمباح ، لكان اقوى مما قاله ، ويجوز أن يكون التفضل مثل الثواب في العدد والكثرة ، ويتميز منه الثواب بمقارنة التعظيم والتبجيل اللذين لولاهما لماحسن التكليف . وانما قلنا : يجوز ذلك لان وجه حسن ذلك : الاحسان والتفضل ، وذلك حاصل فى كل قدر زائد . وفي الناس من منع من ان يساوي التفضل الثواب في باب الكثرة . والصحيح ما قلناه اولا .

فان قيل : كيف تجمعون بين قوله « فله عشر أمثالها » وبين قوله « مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة » (١) وقوله « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » (٢) ولان المجازاة بدخول الجنة مثابا فيها على وجه التأبيد ، لانهاية له ، فكيف يكون ذلك عشر أمثالها ، وهل هذا الا ظاهر التناقض ؟ ؟ !

قلنا : الجواب عن ذلك ما ذكره الزجاج وغيره : ان المعنى في ذلك ان جزاء الله على الحسنات على التضعيف للمثل الواحد الذي هو النهاية في التقيد في النفوس ، ويضاعف الله عن ذلك بما بين عشرة اضعاف الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة ، ففائدة ذلك أنه لاينقص من الحسنة عن عشر أمثالها ، وفيما زاد على ذلك يزيد من يشاء من فضله واحسانه .

وقال قوم : المعنى من جاء بالحسنة فله عشر أمثال المستحق عليها ، والمستحق مقداره لايعلمه الا الله وليس يريد بذلك عشر أمثالها في العدد ، كما يقول القائل للعامل الذي يعمل معه : لك من الاجر مثل ما عملت اي مثل ما تستحقه بعملك .

وقال آخرون : المعنى في ذلك ان الحسنة لها مقدار من الثواب معلوم لله تعالى فأخبر الله تعالى انه لايقتصر بعباده على ذلك بل يضاعف لهم الثواب حتى تبلغ ذلك ما أراد وعلم أنه أصلح لهم ، ولم يرد العشرة بعينها لكن اراد الاضعاف

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٦١ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥

كما يقول القائل : لئن اسديت اليّ معروفا لأكافينّك بعشرة أمثاله ، وعشرة اضعافه . وفي الوعيد لئن كلمتني واحدة لا كلمنك عشرة ، وليس يريدون بذلك العدد المعين لا اكثر منها ، وانما يريدون ما ذكرناه .

وقال قوم : عني بهذه الآية الاعراب ، واما المهاجرون فحسناتهم سبعمئة، ذهب اليه ابو سعيد الخدري ، وعبد الله بن عمر .

وقال قوم: معنى « عشر أمثالها » لانه كان يؤخذ منهم العشر في الزكاة ، وكانوا يصومون في كل شهر ثلاثة ايام والباقي لهم .

وقال قوم « من جاء بالحسنة » يعني الايمان ، فله يعني للايمان عشر أمثالها ، وهو ما ذكره في قوله « ان المسلمين والمسلمات . . . » (١) الى آخر الآية . وهذان الوجهان قريبان ، والمعتمد ما قدمناه من الوجوه .

وقال اكثر المفسرين : ان السيئة المذكورة في الآية هي الشرك ، والحسنة المذكورة فيها هي التوحيد واظهار الشهادتين .

فان قيل كيف يجوز الزيادة في نعم المثابين مع ان الثواب قد استغرق جميع مناهم وما يحتملونه ؟

قلنا عنه جوابان : احدهما ـ انه ليس للمنية نهاية مما يحتمله من اللذات. والثاني ـ ان يزاد في البنية والقوة مثل أن يزاد في قوة البصر حتى يرى الجزء الذي لايتجزّء وان لم يزد في اخفاء الانسان .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦١) دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦٢) آيتان .

قرأ ابن عامر واهل الكوفة « قيما » بكسر القاف وتخفيف الياء وفتحها. الباقون بفتح القاف مع تشديد الياء .

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٥

من قرأ بتشديد الياء فحجته قوله « وذلك دين القيِّمة » (١) كأنه قال دين الملة القيِّمة ، ويكون وصفا للدين اذا كان نكرة ، كما كان وصفا للملة ، لان الملة هي الدين • قال ابو الحسن : قال اهل المدينة « دينا قيما » وهي حسنة، ولم اسمعها من العرب • قال ابو الحسن : وهو في معنى المستقيم •

فأما من قرأ بالتخفيف ، فانه اراد المصدر ، مثل الشبع ، ولم يصحح (عوض وحول) • قال الزجاج : لانه جاء على (فَعل) معتل ، وهو (قام) والاصل (قوم ، اقوم قوما) قال ابو علي : وكان القياس يقتضى ان يصحح ، لكنه شذّ عن القياس ، كما شذ (اشياء) ونحوه عن القياس نحو (ثيرة) في جمع (ثور) ونحو (جياد) في جمع (جواد) وكان القياس الواو ، كما قالوا: طويل وطوال قال الأعشى :

جيادك في الصيف في نعمة تصا ن الجلال وتعطى الشعيرا (٢)

وقوله « دينا قيما » يحتمل نصبه ثلاثة اوجه :

احدها ــ انه قال « انني هداني ربي الى صراط مستقيم » واستغنى بجري ذكر الفعل عن ذكره ، فقال « دينا قيما » كما قال « اهدنا الصراط المستقيم » •

والثاني ــ نصبه على تقدير عرّفني ، لان هدايتهم اليه تعريف لهم فحمله على عرّفني دينا قيما •

وقال الزجاج : معناه عرفني دينا قيما • وان شئت حملته على الاتباع كما قال « اتبعوا ما أنزل » (٣) وقال الفراء : هو نصب على المصدر ، كأنه قال هداني اهتداء ، ووضع (دينا) موضعه •

أمر الله تعالى نبيه (ص) ان يقول للخلق وخاصة لهؤلاء الكفار « انني هداني ربي » وقيل في معنى الهداية قولان :

---

(١) سورة ٩٨ البينة آية ٥ (٢) ديوانه : ١٧

(٣) سورة ٢ البقرة آية ١٧٠

احدهما ـ قال ابو علي : اراد بالهداية الدلالة وأضافه الى نفسه دونهم، وان كان قد هداهم أيضا ، لانه اهتدى دونهم .

وقال غيره : اراد به لطف لي ربي في الاهتداء .

و « الى صراط مستقيم » قد فسرناه في غير موضع . وانه الطريق الموصل الى ثواب الله من غير اعوجاج ، وانما قال « الى صراط مستقيم » ـ ههنا ـ وقال في موضع آخر « ويهديك صراطا مستقيما » (٤) ، لانه اذا ضمن معنى النهاية دخلت (الى) واذا لم تضمن لم تدخل (الى) وصار بمعنى عرّفني . والاول بمنزلة ارشدني ، وانما كرر (مستقيم ، وقيم) للمبالغة ، كأنه قال : هو مستقيم على نهاية الاستقامة . وقوله « ملة ابراهيم فالملة الشريعة وهي مأخوذة من الاملاء » كأنه ما يأتي به السمع ويورده الرسول من الشرائع المتجددة فيمله على امته ليكتب او يحفظ .

فأما التوحيد والعدل فواجبان بالعقل ، ولا يكون فيهما اختلاف . والشرائع تختلف ، ولهذا يجوز ان يقال ديني دين الملائكة . ولا يقال ملتي ملة الملائكة . والملة دين ، وليس كل دين ملة . وانما وصف دين النبي (ص) بأنه ملة ابراهيم ترغيبا فيه للعرب لجلالة ابراهيم في نفوسهم وغيرهم من أهل الاديان .

وقوله « حنيفا » معناه مخلصا لعبادة الله في قول الحسن . واصله الميل من قولهم : رجل احنف اذا كان مائل القدم باقبال كل واحدة منهما على الاخرى من خلقة لامن عارض . وقال الزجاج : الحنيف هو المائل الى الاسلام ميلا لازما لارجوع معه . وقال ابو علي : اصله الاستقامة . وانما جاء (أحنف) على التفاؤل « وما كان من المشركين » يعني ابراهيم (ع) و « حنيفا » نصب على الحال من (ابراهيم) و « ملة أبيكم » نصب على المصدر ـ في قول الفراء ـ وقال الزجاج : هو بدل من قوله « دينا قيما » .

---

(٤) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٠

قوله تعـالى :

قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاأَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) آية.

أسكن الياء من « محياي » أهل المدينة • قال أبو علي الفارسي : اسكان الياء من (محياي) شاذ خارج عن القياس والاستعمال ، فشذوذه عن القياس ان فيه التقاء الساكنين ،ولا يلتقيان على هذا الحد ، وشذوذه عن الاستعمال انك لاتجده في نظم ولا نثر الا شاذا • ووجهه ما حكى بعض البغداديين انه سمع أو حكي له : التقت حلقتا البطان باسكان الالف مع سكون لام المعرفة ، وحكى غيره : له ثلثا المال وليس هذا مثل قوله « حتى اذا أداركوا فيها » (١) لان هذا في المنفصل مثل دأبه في المتصل • ومثل ما أجاز يونس من قوله : اضربان زيدا ، وسيبويه ينكرهذا منقول يونس• قال الرماني: ولو وصله على نية الوقف جاز •

امره ان يقول لهؤلاء الكفار « ان صلاتي ونسكي » وقد فسرنا معنى الصلاة فيما مضى •

وقيل في معنى و « نسكي » ثلاثة أقوال :

احدها ـ قال سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والسدي والضحاك:ذبيحتي في الحج والعمرة • وقال الحسن (نسكي) ديني • وقال الزجاج والجبائي « نسكي » عبادتي • قال الزجاج : والاغلب عليه امر الذبح الذي يتقرب به الى الله • ويقولون : فلان ناسك بمعنى عابد • وانما ضم الصلاة الى اصل الواجبات من التوحيد والعدل لان فيها التعظيم لله عند التكبير ، وفيها تلاوة القرآن التي تدعو الى كل برّ ، وقرر فيها الركوع والسجود وهما خضوع لله، وفيها التسبيح وهو تنزيه لله •

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٣٧ •

وقوله « ومحياي ومماتي » يقولون حيي يحيا حياة ومحيا ، ومات يموت موتا ومماتا . وانما جعل للفعل الواحد مصادر في الثلاثي لقوّته ، ولانه الاكثر الاغلب . وانما جمع بين صلاته وحياته ، واحدهما من فعله ، والآخر من فعل الله ، لانهما جميعا بتدبير الله تعالى وان كان احدهما من حيث ايجاده واعدامه لما فيه من الصلاح . ووجه ضم الموت الى اصل الواجب الرغبة الى من يقدر على كشفه الى الحياة فى النعيم الدائم بطاعته في اداء الواجبات .

وقوله « لاشريك له » فالشركة هي تلك المساهمة ، فلما كان عبدةالاوثان جعلوا العبادة على هذه الصفة كانوا مشركين في عبادة الله ، فأمر الله أن ينفي عنه هذا الشرك ويقول « لاشريك له » .والمعنى لايستحق العبادة سواه . ثم امره بأن يقول اني أمرت بذلك يعني بنفي الاشراك مع الله وتوجيه العبادة اليه تعالى وحده « وانا اول المسلمين » قال الحسن : معناه اول المسلمين من هذه الامة . وبه قال قتادة وبيّن ذلك لوجوب اتباعه (ص) ولبيان فضل الاسلام اذا كان اول مسارع اليه نبينا (ص) ومعنى الآية وجوب نفي الشرك عن الله ووجوب اعتقاد بطلانه واخلاص العبادة اليه تعالى .

قوله تعالى :

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) آية

امر الله تعالى نبيه ان يخاطب هؤلاء الكفار ، ويقول على وجه الانكار لفعلهم « أغير الله أبغي »أي أتخذ « ربّاً » معبوداً ؟ ! فالكلام خرج مخرج الاستفهام ، والمراد به الانكار ، لانه جواب لصاحبه الا بما هو قبيح ، لان تقديره ايجوز أن اطلب الضر والنفع بعبادتي ممن هو مربوب مثلي ! ؟

عادلا بذلك عن رب كل شيء وليس بمربوب ؟ ! أم هذا قبيح في العقول ؟ وهو لازم لكم على عبادة الاوثان . والرب اذا أطلق افاد المالك لتصريف الشيء بأتم التصريف واذا أضيف فقيل رب الدار ، ورب الضيعة ، فمعناه المالك لتصريفه بأتم تصريف العباد واصله التربية وهي تنشئة الشيء حالا بعد حال حتى يصير الى الكمال . ثم صرف الى معنى الملك لهذه الاحوال من الشيء وماجرى مجراها . والفرق بين الرب والسيد ، أن السيد هو المالك لتدبير السواد الاعظم ، والرب المالك لتدبير الشيء حتى يصير الى الكمال مع اجرائه على تلك الحال .

وقوله « ولاتكسب كل نفس الا عليها » معناه لايكون جزاء عمل كل نفس الا عليها . ووجه اتصاله بما قبله أنه لاينفعني في ابتغاء رب غيره ما أنتم عليه من ذلك ، لانه ليس بعذر لي في اكتساب غيري له ، لانه « لاتزر وازرة وزر أخرى » وقيل : ان الكفار قالوا للنبي (ص) اتبعنا ، وعلينا وزرك ان كان خطأ ، فأنزل الله الآية . وفيها دلالة على فساد قول المجبرة من وجهين :

احدهما ــ ان قوله « ولا تزر وازرة وزر أخرى » يدل على انه لايعذب الطفل بكفر أبيه .

والثاني ــ أنه لايعذب احدا بغير ذنب كان منه ، لانهما سواء في أن كل منهما مستحق . وتقول : وَزِرَ يَزِرُ وِزراً ، ووُزِرَ ، يوزر ، فهو موزور ، وكله بمعنى الاثم . والوزر الملجأ . ومنه قوله « كلا لا وزر » (١) فحال الموزور كحال الملتجيء من غير ملجأ . ومنه الوزير لان الملك يلتجيء اليه في الامور . وقيل : أصله الثقل ، ومنه قوله « ووضعنا عنك وزرك » (٢) وكلاهما محتمل « ثم الى ربكم مرجعكم » يعني مالككم ومصيركم الى الله في يوم لايملك فيه الامر غيره تعالى .

وقوله « فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » معناه انه يخبركم بالحق فيما اختلفتم فيه من الباطل ، فيظهر المحسن من المسيء بما يزول معه الشك والارتياب

(١) سورة ٧٥ القيامة آية ١١ (٢) سورة ٩٤ الانشراح آية ٢

ويقع معه الندامة في وقت قد فات فيه استدراك الخطيئة ، فمعنى الآية الحجة على ان كل شيء سوى الله فالله ربه من كل وجه يصح منه الربوبية، وفيها دلالة على فساد قول المجبرة : ان الله يعذب على غير ذنب .

قوله تعالى :

وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) آية

اخبر الله تعالى انه الذي جعل الخلق خلائف الارض ، ومعناه ان كل اهل عصر يخلفون اهل العصر الذي قبله كلما مضى واحد خلفه آخر على انتظام واتساق وذلك يدل على مدبر أجراه على هذه الصفة قال الشماخ :

تصيبهم وتخطيني المنايا وأخلف في ربوع عن ربوع (٣)

وواحد الخلائف خليفة ، مثل صحيفة وصحائف ، وسفينة وسفائن ، ووصيفة ووصائف ، هذا قول الحسن والسدي . وقال قوم : معناه انه جعلهم خلفاء الجانّ قبل آدم . وقال آخرون معناه والمراد به امة نبينا (ص) لان الله جعلهم خلفاء سائر الامم .

وقوله « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » وجه الحكمة في ذلك مع انه يخلقهم كذلك ابتداء من غير استحقاق بعمل يوجب التفاضل بينهم ما فيه من الالطاف الداعية الى الواجبات والصارفة عن القبائح ، لان من كان غنيا في ماله شريفا في نسبه قويا في جسمه ربما دعاه ذلك الى طاعة من يملكها رغبة فيها . والحال في أضدادها ربما كان دعته الى طاعته رهبة منها ومن أمثالها ورجاء أن ينقل عنها الى حال جليلة يغتبط عليها . وقال السدي : رفع بعضهم فوق

(٣) ديوانه ٥٨ واللسان (ربع) وتفسير الطبري ١٢/٢٨٨ .

بعض في الرزق وقوة الاجسام وحسن الصورة ، وشرف الانسان ، وغير ذلك بحسب ما علم من مصالحهم • وقوله « درجات » يحتمل نصبه ثلاثة أشياء :

احدها ــ ان يقع موقع المصدر كأنه قال رفعة فوق رفعة •

الثاني ــ الى درجات ، فحذفت (الى) كما فى قولهم : دخلت البيت ، وتقديره دخلت الى البيت •

الثالث ــ أن يكون مفعولا من قولك : ارتفع درجة ورفعته درجة مثل اكتسى ثوباً وكسوته ثوباً •

وقوله « ليبلوكم فيما آتاكم » معناه فعل بكم ذلك ليجزيكم فيما أعطاكم • والقديم تعالى لايبتلي خلقه ليعلم مالم يكن عالما به ، لانه تعالى عالم بالاشياء قبل كونها • وانما قال ذلك ، لانه يعامل معاملة الذي يبلو ، مظاهرة فى العدل، وانتفاء من الظلم •

وقوله « ان ربك سريع العقاب » انما وصف نفسه بأنه سريع العقاب مع وصفه تعالى بالامهال ومع ان عقابه في الآخرة من حيث كان كل آت قريبا ، فهو اذاً سريع ، كما قال « وما أمر الساعة الا كلمح البصر او هو أقرب » (١) وقد يكون سريع العقاب بمن استحقه في دار الدنيا ، فيكون تحذير الواقع في الخطيئة على هذه الجهة • وقيل معناه انه قادر على تعجيل العقاب ، فاحذروا معاجلته • وانما قابل بين العقاب والغفران ولم يقابل بالثواب ، لان ذلك ادعى الى الاقلاع عما يوجب العقاب ، لانه لو ذكر الثواب لجاز ان يتوهم انه لمن لم يكن فيه عصيان •

***

(١) سورة ١٦ النحل آية ٧٧ •

٧ ـ سورة الاعراف

قال قتادة سورة الاعراف مكيّة. وقال قوم : هي مكية إلا قوله « واسألهم عن القرية » (١) الى آخر السورة .

وقال قوم هي محكمة كلها . وقال آخرون حرفان منها منسوخان أحدهما قوله « خذ العفو » (٢) يريد من أموالهم وذلك قبل الزكاة . والآخر قوله « واعرض عن الجاهلين » (٣) نسخ بآية السيف (٤) .

وقال قوم ليس واحد منهما منسوخا بل لكل منهما موضع والسيف له موضع . وهو الاقوى ، لان النسخ يحتاج الى دليل .

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓصٓ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١) آيتان في الكوفي وآية فيما عداه

قد بينا في أول سورة البقرة اختلاف المفسرين في أوائل السور بالحروف المقطعة ، وقلنا : ان الاقوى من ذلك قول من قال : انها أسماء للسور ، وهو قول الحسن والبلخي والجبائي ، واكثر المحصلين . وروي عن ابن عباس أنه قال : هي اختصار من كلام لايفهمه الا النبي (ص) قال الشاعر :

---

(١) آية ١٦٢ (٢ ، ٣) آية ١٩٨ .

(٤) يريد الآية ٦ من سورة التوبة .

نادوهم أن الجموا ألا تا قالوا جميعا كلهم ألافا(١)

يريد ألا تركبون قالوا فاركبوا • وبني قوله « المص » على السكون في الوصل مع ان قبله ساكنا ، لان حروف الهجاء توصل على نية الوقف ، لانه يجزي على تفصيل الحروف ، للفرق بينها وبين ما وصل للمعاني ، وكأن مجموع الحروف يدل على معنى واحد ، ومتى سميت رجلا بـ (المص) ، وجبت الحكاية • فان سميته بـ (صاد) أو (قاف) لم يجب ذلك ، لان صاد ، وقاف ، لهما نظير في الاسماء المفردة، مثل ، باب ، وناب ، ونار • وليس كذلك (المص) لانه بمنزلة الجملة ، وليس له نظير في المفرد • وانما عد الكوفيون « المص » آية ،ولم يعدوا (ص)لان «المص» بمنزلة الجملة مع ان آخره على ثلاثة أحرف بمنزلة المردف ، فلما اجتمع هذان السببان ، وكل واحد منهما يقتضي عدّه عدوه •ولم يعدوا (المر)لان آخره لايشبه المردف • ولم يعدوا (ص) لانه بمنزلة اسم مفرد ، وكذلك (ق) و (ن) •

وانما سميت السورة بالحروف المعجمة ، ولم تسم بالاسماء المنقولة لتضمنها معاني أخرى مضافة الى التسمية ،وهو أنها فاتحة لما هو منها ، وأنها فاصلة بينها وبين ما قبلها ، ولانه يأتي من التأليف بعدها ما هو معجز مع انه تأليف كتأليفها ، فهذه المعاني من أسرارها •

وقيل فى موضع (المص) من الاعراب قولان :

اولهماــ انه رفع بالابتداء وخبره كتاب، او ان يكون على هذه (المص) فى قول الفراء •

الثاني ــ لاموضع له ، لانه في موضع جملة على قول ابن عباس ، كأنه قال : أنا الله أعلم وافصل ــ اختاره الزجاج •

وقوله « كتاب انزل اليك » قيل في العامل في قوله « كتاب » ثلاثةأقوال :

أحدها ــ هذا كتاب ، فحذف لانها حال اشارة وتنبيه •

(١) مر في ١/٤٧٠ وهو في تفسير القرطبي ١/١٣٥ •

الثاني ـ « المص كتاب » على أنه اسم للسورة وكتاب خبره ٠

وقال الفراء : رفعه بحروف الهجاء ، لانها قبله ، كأنك قلت الالف واللام والميم والصاد، من الحروف المقطعةكتاب أنزل اليك مجموعا ، فنابت (المص) عن جميع حروف المعجم ، كما تقول : أ ، ب ، ت ، ث ثمانية وعشرون حرفا٠ وكذلك تقول قرأت الحمد ، فصار اسما لفاتحة الكتاب ٠

وقوله « فلا يكن في صدرك حرج » يحتمل دخول الفاء وجهين :

احدهما ـ أن يكون عطفا وتقديره اذا كان أنزل اليك لتنذر به ، فلا يكن في صدرك حرج منه ، فيكون محمولا على معنى اذا ٠

والثاني ـ ان النهي وان كان متناولا للحرج ، فالمعني به المخاطب،نهي عن التعرض للحرج، وجاز ذلك لظهور المعنى ان الحرج لاينهى ، وكانمخرج له برده الى نهي المخاطب ابلغ ، لما فيه من أن الحرج لو كان مما ينهي لهلنهيناه عنك ، فأنته انت عنه بترك التعرض له ٠

وقيل في معنى الحرج في الآية ثلاثة أقوال :

قال الحسن : معناه الضيق أي لايضيق صدرك لتشعب الفكر بك خوفا ألا تقوم بحقه ، وانما أنزل اليك لتنذر به ٠

الثاني ـ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : أن معناه الشك ههنا والمعنى لاتشك فيما يلزمك له فانما أنزل اليك لتنذر به ٠

الثالث ـ قال الفراء : لايضيق صدرك بأن يكذبوك ، كما قال ـ عزّ وجلّ ـ « فلعلك باخع نفسكعلى آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا»٠

وقوله « لتنذر به » يعني لتخوف بالقرآن ٠ وقال الفراء والزجاج واكثر أهل العلم : هو على التقديم والتأخير ، وتقديره أنزل اليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين ، والذكرى مصدر ذكر يذكر تذكيرا ، فالذكرى اسم للتذكير وفيه مبالغة ، ومثله الرجعى ، وقيل في موضعه ثلاثة أقوال :

أولها ـ النصب على أنزل ، للانذار وذكرى، كما تقول جئتك للاحسان وشوقا اليك ٠

الثاني ـ الرفع بتقدير وهو ذكرى •

الثالث ـ قال الزجاج : يجوز فيه الجر ، لان المعنى ، لان تنذر وذكرى• قال الرماني : هذا ضعيف ، لانه لايجوز ان يحمل الجر على التأويل ، كما لايجوز مررت به وزيد •

قوله تعالى :

إِتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٢) آية

قرأ حمزة ، والكسائي وحفص « تذكرون » بتخفيف الذال بتاء واحدة• الباقون بالتشديد الا ابن عامر ، فانه قرأ يتذكرون بياء وتاء ، قال الزجاج : التخفيف على حذف التاء الثانية كراهة اجتماع ثلاثة أحرف متقاربة، كما قالوا استطاع يستطيع ، فحذفوا أحدى الثلاثة المتقاربة دون الاول ، لان الاول بمعنى الاستقبال ، لايجوز حذفها ، والثانية يدل عليها تشديد العين •

ومن قرأ بتشديد الذال ، فأصله تتذكرون فأدغم التاء في الذال لقرب مخرجهما ، لان التاء مهموسة والذال مجهورة • والمجهورة أزيد صوتا وأقوى من المهموس فحسن ادغام الانقص في الازيد • ولا يسوغ ادغام الازيد في الانقص ، ألا ترى ان الصاد وأختيها لم يدغمن في مقاربهنَّ لما فيهنَّ من زيادة الصفير •

وقراءة ابن عامر بالياء والتاء : انه مخاطبة للنبي (ص) أي قليلا ما يتذكرون هؤلاء الذين ذكروا بهذا الخطاب •

قوله « اتبعوا » خطاب من الله للمكلفين وأمر منه بأن يتبعوا ما أنزل عليهم من القرآن • ويحتمل ان يكون المراد قل لهم يامحمد : اتبعوا ما أنزل اليكم ، لانه قال قبل ذلك «لتنذر به »وكان الخطاب متوجهاً اليه • والاتباع تصرف الثاني بتصريف الاول وتدبيره ، فالاول امام والثاني مؤتم • والفرق

بين الإتّباع والاتباع ان احدهما يتعدى الى مفعول ، والثاني يتعدى الى مفعولين ، تقول : اتّبعت زيدا وأتبعت زيدا عمرا . ووجوب الإتّباع فيما أنزل الله يدخل فيه الواجب والندب والمباح ، لانه يجب ان يعتقد في كل جنس ما أمر الله به ، كما يجب ان يعتقد في الحرام وجوب اجتنابه .

وقوله « ولا تتبعوا من دونه أولياء » نهي من الله ان يتبعوا من دون الله ويتخذوا أولياء . وأولياء جمع وليّ وهوضد العدو ، وهو يفيد الاولى ويفيد الناصر وغير ذلك مما بيناه فيما مضى (١) .

وقوله « قليلا ما تذكرون » معناه الاستبطاء في التذكر ، وخرج مخرج الخبر وفيه معنى الامر ، ومعناه تذكروا كثيرا مما يلزمكم من أمر دينكم ، وما أوجبه الله عليكم . واخبر انهم قليلا ما يتذكرون و (ما) زائدة ، وتذكر معناه أخـذ في التذكر شيئا بعد شيء مثل تفقه وتعلم ،ويقال : تقيّس اذا انتمى الى قيس ، ولم يكن منهم ، لانه يدخل نفسه فيهم شيئا بعد شيء .

قوله تعـالى :

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٣)

آية بلاخلاف .

(كم) لفظة موضوعة للتكثير و (رب) للتقليل . وانما كان كذلك ، لان (رب) حرف ، و (كم) اسم . والتقليل ضرب من النفي و (كم)تدخل في الخبر بمعنى التكثير . فأما في الاستفهام ، فلا ، لان الاستفهام موكول الى بيان المجيب والخبر الى بيان المخبر ، وانما دخلها التكثير ، لان استبهام العدد ان يظهر او يضبط انمـا يكون لكثرته في غالب الامر ، فـ (كم) مبهمة قال الفرزدق :

(١) سورة البقرة آية ٢٥٧ في ٢/٣١٣ ـ ٣١٤ وفي سورة المائدة آية ٥٨ ، في ٣/٥٤٩ وغيرهما كثير .

كم عمة لك ياجرير وخالة فدعاء قد حلبت عليّ عشاري (٢)

فدل بـ (كم) على كثرة العمات ، وموضع (كم) في الآية رفع بالابتداء وخبرها (أهلكناها) ولو جعلت في موضع نصب جاز ، كقوله « انا كل شيء خلقناه بقدر » (٣) ، والاول أجود •

اخبر الله تعالى ـ على وجه الترهيب للكفار والايعاد لهم ـ أنه اهلك كثيرا من القرى، يعني أهلها بما ارتكبوه من معاصيه ، والكفر به ، وانه أنزل عليهم بأسه ، يعني عذابه « بياتا » يعني في الليل «أوهم قائلون » يعني في وقت القيلولة ، وهو نصف النهار • وأصله الراحة ، فمعنى أقلته البيع أرحته منه باعفائي اياه من عقده ، وقلت اذا استرحت الى النوم ، في وسط النهار : القائلة • والاخذ بالشدة في وقت الراحة أعظم في العقوبة فلذلك خص الوقتين بالذكر •

وقيل في دخول الفاء في قوله « فجاءها بأسنا بياتا » ثلاثة أقوال :

أحدها ـ أهلكناها في حكمنا « فجاءها بأسنا » وقد قيل : هو مثل زرني واكرمني فان نفس الاكرام هي الزيارة ، قال الرماني : وليس هذا مثل ذلك ، لان هذا انما جاز لانه قصد الزيارة • ثم الاكرام بها •

والثاني ـ قال قوم « أهلكناها فجاءها بأسنا » أي فكان صفة اهلاكنا أن جاءهم بأسنا •

والثالث ـ أهلكناها فصح انه جاءها بأسنا • وقال الفراء الفاء بمعنى الواو ، وقال الرماني : هذا لايجوز ، لانه نقل للحرف عن معناه بغير دليل • وقال بعضهم : ان المعنى أهلكناها بخذلاننا لها عن الطاعة فجاءها بأسنا عقوبة على المعصية ، وهذا لايجوز لانه ليس من صفة الحكيم ان يمنع من طاعته حتى تقع المعصية ، ثم يعاقب عليها •

(٢) ديوانه ٤٥١ وتفسير الطبري ١٢/٣٠٠ وسيبويه ١/٢٥٣ ، ٢٩٣

(٣) سورة ٥٤ القمر آية ٤٩ •

وقوله « أوهم قائلون » قال الفراء : واو الحال مقدرة فيه ، وتقديره أو « وهم قائلون » وانما حذفت استخفافا . وقال الزجاج وجميع البصريين لايحتاج الى ذلك ، لانه يستغني برجوع الذكر عن الواو ، كما يقال : جاءني زيد راجلا او هو فارس ، او جاءني زيد هو فارس لم يحتج الى واو ، لان الذكر قد عاد على الاول .

فمعنى الآية ان الله اهلك اهل قريات كثيرة بتمردهم في المعاصي ، وحذر من ان يعمل مثل عملهم فينزل بالعامل مثل ما نزل بهم .

قوله تعالى :

فَمَا كَانَ دَعْوٰيهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤) آية بلاخلاف .

اخبر الله تعالى انه لم يكن دعاء هؤلاء الذين أهلكهم عقوبة على معاصيهم وكفرهم في الوقت الذي جاءهم بأس الله ، وهو شدة عذابه ، ومنه البؤس شدة الكفر . والبئس الشجاع لشدة بأسه ، وبئس من شدة الفساد الذي يوجب الذم . «الا أن قالوا انا كنا ظالمين» يعني اعترافهم بذلك على نفوسهم واقرارهم به ، وكان هذا القول منهم عند معاينة البأس واليقين بأنه نازل بهم ، ويجوز ان يكون قالوه حين لابسهم طرف منه ، لم يهلكوا منه ، و(دعواهم) خبر كان واسمها « ان قالوا » وهو بمعنى قولهم ، وهما معرفتان يجوز ان يجعل كل واحد منهما اسما والآخر خبرا ، كما قال « ما كان حجتهم الا ان قالوا » (١) بالرفع ، والنصب ، وانما قدم الخبر على الاسم ، لان الثاني وقع موقع الايجاب ، والاول موقع النفي ، والنفي احق بالخبر .

والدعوى ، والدعاء واحد . وفرق قوم بينهما بأن في الدعوى اشتراكا

---

(١) سورة ٤٥ الجاثية آية ٢٤

بين الدعاء والإدّعاء المال وغيره ، واصله الطلب قال الشاعر :

ولت ودعواها كثير صخبه (٢)

أي دعاؤها ، ويجوز ان يقال : اللهم اشركنا في دعوى المسلمين يريد دعاء المسلمين حكاه سيبويه ، قال الشاعر :

وان مَذِلَتْ رجلي دعوتك اشتفي بدعواك من مذل بها فيهون (٣)

معنى مذلت اي خدرت .

قوله تعالى :

فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ (٥) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٦) آيتان بلا خلاف .

الفاء في قوله « فلنسئلن الذين » عطف جملة على جملة ، وقد يكون لهذا ، وقد يكون لعطف مفرد على مفرد ، وقد يكون للجواب . وانما دخلت الفاء وهي موجبة للتعقيب مع تراخي ما بين الاول والثاني ، وذلك يليق بـ (ثم) لتقريب ما بينهما ، كما قال « اقتربت الساعة » (٤) وقال « وما أمر الساعة الا كلمح البصر او هو أقرب » (٥) وقال «او لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم »(٦) وبينهما بعد .

والنون في قوله « فلنسألن » نون التأكيد يتلقى بها القسم ، وانما بني

(٢) اللسان (دعا) ، وروايته « قالت » بدل (ولت) وفي رواية أخرى (ولت ودعواها شديد صخبه) .

(٣) ديوانه ٢/٢٤٥ واللسان (مذل) وتفسير الطبري ١٢/٣٠٤ ونهاية الارب ٢/١٢٥ . وكانوا يدّعون ان الانسان اذا خدرت رجله ودعا بأسم من يحب زال الخدر

(٤) سورة ٥٤ القمر آية ١

(٥) سورة ١٦ النحل آية ٧٧

(٦) سورة ٣٦ يس آية ٧٧ .

المضارع مع نون التأكيد، لانه انما دخلت عليه طلباً للتصديق، كما ان الامر طلب للفعل فأدخلت عليه نون التأكيد وتثبت مع الفعل، لان هذه الزيادةالتي لاتكون للاسم باعدته كماباعدت الالف واللام مالاينصرف من الفعل،فانصرف.

أقسم الله تعالى في هذه الآية انه يسأل المكلفين الذين ارسل اليهم رسله واقسم أيضا انه ليسأل الصادقين المرسلين الذين بعثهم، فيسأل هؤلاء عن الابلاغ ويسأل اولئك عن الامتثال، وهو تعالى وان كان عالما بما كان منهم، فانما أخرجه مخرج التهديد والزجر ليتأهب العباد ويحسنوا الاستعداد لذلك السؤال.

وحقيقة السؤال طلب الجواب بأداته في الكلام، وحقيقة الاستخبار طلب الخبر بأداته فى الكلام.

وقوله «فلنقصن عليهم بعلم» قسم آخر، واخبار منه تعالى انه يقص عليهم بما عملوه فانه علم جميع ذلك. وانما ذكره بنون الجمع لاحد أمرين:

احدهما ـ ان هذا على كلام العظماء من الملوك لان أفعالهم تضاف الى أوليائهم.

والثاني ـ ان الملائكة تقص عليهم بأمر الله.

وقال ابن عباس نقص عليه بما نجده فى كتاب عمله.

وروي عن النبي (ص) انه قال: (ان الله يسأل كل احد بكلامه له ليس بينه وبينه ترجمان) والقص ما يتلو بعضه بعضا. ومنه المقص، لان قطعه يتلو بعضه بعضا، ومنه القصة من الشعر، والقصة من الكتاب، ومنه القصاص لانه يتلو الجناية في الاستحقاق، ومنه المقاصة في الحق، لانه يسقط ماله قصاصا بما عليه. وانما دخلت نون التأكيد مع لام القسم في المضارع دون الماضي، لانها تؤذن بطلب الفعل الذي تدخل فيه نحو (لأكرمَنَّ زيداً) فان فيه طلب الاكرام بأداته، فالتصديق بالقسم، ولهذا ألزمت النون في طلب الفعل من جهتين، وفتحت هذه النون ما قبلها في جمع المتكلم، ولم تفتحه في

الغائب ، لان الضمة يجب ان تبقى لتدل على الواو المحذوفة فى (ليقصنَّ) بالياء وليس كذلك المتكلم ، لانه لا واو فيه •

ومعنى قوله « بعلم » قيل فيه وجهان : احدهما بأنا عالمون ، والآخر بمعلوم ، كما قال « ولا يحيطون بشيء من علمه » (١) أي من معلومه ، ووجه المسألة له والقصص عليهم أنه سؤال توبيخ وتقريع للضالين ، وسؤال تذكير وتنبيه للمؤمنين ، فبمقدار ما يغتم أولئك يسّر هؤلاء • ثم يسأل الرسل لان من الامم من يجحد ، فيقول ما جاءنا من بشير ولا نذير ، ومنهم من يقول : والله ربنا ما كنا مشركين •

فان قيل كيف يجمع بين قوله « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » (٢) وقوله « فلنسألن الذين ارسل اليهم » ؟

قلنا فيه قولان : احدهما ــ انه نفى ان يسألهم سؤال استرشاد واستعلام وانما يسألهم سؤال توبيخ وتبكيت • الثاني ــ تنقطع المسألة عند حصولهم في العقوبة ، كما قال « فيومئذ لايسأل عن ذنبه انس ولاجان » (٣) وقال فى موضع آخر « وقفوهم انهم مسئولون» (٤) والوجه ما قلناه انه يسألهم سؤال توبيخ قبل دخولهم فى النار فاذا دخلوها انقطع سؤالهم • والسؤال في اللغة على اربعة اقسام :

احدها ــ سؤال استرشاد واستعلام ، كقولك اين زيد ؟ ، ومن عندك ؟ وهذا لايجوز عليه تعالى •

والثاني ــ سؤال توبيخ وتقريع، وهو خبر في المعنى، كقولك ألم احسن اليك فكفرت نعمتني ؟؟ ألم اعطيك فجحدك عطيتي ؟ ! • ومنه قوله تعالى « ألم اعهد اليكم » (٥) وقوله « ألم يأتكم رسل » (٦) وقوله « ألم تكن

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٦ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٧٨ •
(٣) سورة ٥٥ الرحمن آية ٩ (٤) سورة ٣٧ الصافات آية ٢٤ •
(٥) سورة ٣٦ يس آية ٦٠ (٦) سورة الانعام آية ١٣٠ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧١

آياتي تتلى عليكم » (٧) وقال الشاعر :

ألستم خير من ركب المطايا واندى العالمين بطون راح (٨)

ولو كان سائلا لما كان مادحا ، وقال العجاج :

* اطربا وانت قِنَّسرِيٌّ * (٩)

معنى قنسري كبير السن،وهذا توبيخ لنفسه أي كيف أطرب مع الكبر والشيب •

الثالث ـ سؤال التحضيض وفيه معنى (ألا) كقولك : هلا تقوم ، وألا تضرب زيدا أي قم واضرب زيدا •

والرابع ـ سؤال تقرير بالعجز والجهل ، كقولك للرجل : هل تعلم الغيب؟ وهل تعرف ما يكون غدا ؟ وهل تقدر ان تمشي على الماء ؟ وكما قال الشاعر:

* وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر *

المعنى وليس يصلح العطار ما أفسد الدهر ، فاذا ثبت ذلك فقوله « فيومئذ لايسأل عن ذنبه انس ولا جان » (١) وقوله « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » (٢) المراد به لايسألون سؤال استعلام واستخبار ليعلم ذلك من قولهم ، لانه تعالى عالم بأعمالهم قبل خلقهم • واما قوله « فنسألن الذي ارسل اليهم ولنسألن المرسلين » وقوله « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » (٣) فهو مسألة توبيخ وتقريع ، كقوله « ألم أعهد اليكم » (٤) • وسؤاله للمرسلين ليس بتوبيخ ولا تقريع لكنه توبيخ للكفار وتقريع لهم أيضاء واما قوله « فلا انساب بينهم يؤمئذ ولا يتسائلون » (٥) فمعناه سؤال

(٧) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٠٦

(٨) قائله حسان وقد مر في ١/ ٦١، ١٣٢، ٤٠٠ و٢/ ٣٢٧ وسيأتي في ٥/ ٣١٩

(٩) اللسان (قنسر) •

(١) سورة ٥٥ الرحمن آية ٣٩ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٧٨ •

(٣) سورة ١٥ الحجر آية ٩٢ (٤) سورة ٣٦ يس آية ٦٠

(٥) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٠٢

تعاطي واستخبار عن الحال التي جهلها بعضهم لتشاغلهم عن ذلك ، كما قال « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » (٦) وقوله « واقبل بعضهم على بعض يتسألون » (٧) فهو سؤال توبيخ وتقريع وتلاوم ، كما قال « واقبل بعضهم على بعض يتلاومون » (٨) وكقوله « انحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم » (٩) وقوله « ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار » (١٠) وهذا كثير في القرآن ، وليس فى شيء من ذلك تضاد بين المسألتين ، ولا تنافي بين الخبرين بل اثبات لسؤال عن شيء آخر ومثله قول الشاعر :

فأصبحت والليل لي ملبس واصبحت الارض بحراطما

فقوله : واصبحت والليل لي ملبس لم يرد به الصبح ، لانه لو أراد لما نفاه بـ (والليل لي ملبس) وانما أراد اصبحت بمعنى اشعلت المصباح وهو السراج أي اسرجت فى ظلمة الليل ، فلم يكن خبراه متضادين .

وقوله « وما كنا غائبين » فالغائب البعيد عن حضرة الشيء ، ومعناه في الآية انه لايخفى عليه شيء وذلك يدل على انه ليس بجسم ، لانه لو كان جسما على العرش على ما يذهب اليه المجسمة لكان غائبا عما في الارضين السفلى ، لان من كان دون هذا بكثير فهو غائب عنا .

قوله تعالى :

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٧) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٨) آيتان

(٦) سورة ٨٠ عبس آية ٣٧ .

(٧) سورة ٣٧ الصافات آية ٢٧ ، ٥٠ وسورة ٥٢ الطور آية ٢٥ .

(٨) سورة ٦٨ القلم آية ٣٠ (٩) سورة ٣٤ سبأ آية ٣٢

(١٠) سورة ٣٨ ص آية ٦١

ارتفع قوله« والوزن » بالابتداء ، وخبره (الحق) ، وهو الوجه المختار . وقال الفراء : يجوز ان يكون خبره (يومئذ) وينصب (الحق) على المصدر، وتقديره والوزن يومئذ ـ يعني في يوم القيامة ـ حقا ، فينصب الحق وان كان فيه الالف واللام ، كما قال « فالحق والحق أقول » (١) والوزن في اللغة هو مقابلة أحد الشيئين بالآخر حتى يظهر مقداره ، وقد استعمل في غير ذلك تشبيهاً به ، منها وزن الشعر بالعروض ، ومنها قولهم : فلان يزن كلامه وزنا قال الاخطل :

واذا وضعت أباك في ميزانهم رجحوا وشال أبوك في الميزان

وقيل في معنى الوزن في الآية أربعة أقوال :

قال الحسن : موازين الآخرة لها كفتان فالحسنات والسيئات توضعان فيهما وتوزنان . ثم اختلفوا ، فقال بعضهم : انما توضع صحائف الاعمال فتوزن، وهو قول عبد الله بن عمر .وقال ابو علي : انما تتفضل كفةالحسنات من كفة السيئات بعلامة يراها الناس يومئذ ، وذهب عبيد بن عمير الى انه يوزن الانسان فيؤتى بالرجل العظيم الجثة ، فلا يزن جناح بعوضة . وقال مجاهد : الوزن عبارة عن العدل في الآخرة وانه لاظلم فيها على أحد ، وهو قول البلخي وهو أحسن الوجوه ، وبعده قول الجبائي . ووجه حسن ذلك ـ وان كان الله تعالى عالما بمقادير المستحقات ـ ما فيه من المصلحة في دار التكليف وحصول الترهيب به والتخويف .

وقوله « يومئذ » يجوز في (يومئذ) الاعراب والبناء ، لان اضافته الى مبني اضافة غير محضة تقربه من الاسماء المركبة ، واضافته الى الجملة تقربه من الاضافة الحقيقية. ونون يومئذ لانه قد قطع عن الاضافة اذ شأن التنوين ان يعاقبها ، وقد قطع (اذ) في هذا الموضع عنها .

و(الحق) وضع الشيء موضعه على وجه تقتضيه الحكمة . وقد

---

(١) سورة ٣٨ ص آية ٨٤ .

استعمل مصدرا على هذا المعنى وصفة ، كما جرى ذلك في العدل ، قال الله تعالى « ذلك بأن الله هو الحق » [1] فجرى على طريق الوصف •

وقوله « فمن ثقلت موازينه » فالثقل عبارة عن الاعتماد اللازم سفلا ونقيضه الخفة ، وهي اعتماد لازم علواً ، ومثلت الاعمال بهما لما ذكر من المقارنة • والمعنى ان من كانت طاعاته أكثر ، فهو من الفائزين بثواب الله • ومن قلت طاعاته « فأولئك الذين خسروا أنفسهم » بأن استحقوا عذاب الابد جزاء على ما كانوا يظلمون أنفسهم بجحود آياتنا وحجتنا •

وقوله « موازينه » فالموازين جمع ميزان ، وأصله من الواو ، وقلبت ياء لسكونها وانكسار ما قبلها • ولم يقلب في (خوان) لتحركها وأنها لم تجر على فعل لها • والخسران ذهاب رأس المال ، ومن اعظم رأس المال النفس ، فاذا أهلك نفسه بسوء عمله ، فقد خسر نفسه • وظلمهم بآيات الله مثل كفرهم بها وجحدهم اياها •

قوله تعالى :
وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (٩) آية بلا خلاف •

روى خارجة عن نافع همز (معايش) وروي ذلك عن الاعمش ، وعبدالرحمن الاعرج • الباقون غير مهموز •

وعند جميع النحويين أن (معايش) لايهمز ، ومتى همز كان لحنا ، لان الياء فيها اصلية ، لانه من عاش يعيش ، ولم يعرض فيها علة كما عرض في (اوائل) وهي في (مدينة) زائدة علة لاتدخلها الحركة كما لاتدخل الالف ، ومثله (مسألة ، ومسائل ، ومنارة ومنائر ، ومقام ومقاوم) قال الشاعر :

واني لقوام مقاوم لم يكن … جرير ولا مولى جرير يقومها

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٦ ، ٦٢ وسورة ٣١ لقمان آية ٣٠ •

ووزنه (مفعلة) مثل مسورة ومساور ، ومن همزها اعتقدها (فعيلة) على وزن (صحيفة) فجمعها على (فعائل) مثل (صحائف) وذلك غلط ، لان الياء أصلها لقولهم عاش يعيش عيشا ومعيشة . قال ابو علي من همز (مدائن) لم يجعله (مفعلة) ولكنه (فعيلة) بدلالة قولهم : مدني ، ولا يجوز ان يكون (مفعلة) من دان يدين ، ومن أخذه من ذلك قال في الجمع مداين ، بتصحيح الياء . واعتل (معيشة) لانه على وزن (يعيش) وزيادتها تختص بالاسم دون الفعل ، فلم يحتج الى الفصل بين الاسم والفعل ، كما احتيج اليه فيما كان زيادته مشتركة ، نحو الهمزة في (أجاد) و (هو أجود منك) ، وموافقة الاسم لبناء الفعل توجب في الاسم الاعتلال ، ألا ترى انهم أعلّوا (بابا) و (دارا) لما كانا على وزن الفعل . وصححوا نحو (حول) و (غيبة) و (لومة) لما لم تكن على مثال الفعل ، فـ (معيشة) موافقة للفعل في البناء ، مثل (يعيش) في الزنة ، وتكسيرها يزيل مشابهتها في البناء ، فقد علمت بذلك زوال المعنى الموجب للاعلال في الواحد وفي الجمع ، فلزم التصحيح في التكسير لزوال المشابهة في اللفظ ، لان التكسير معنى لايكون في الفعل ، وانما يختص الاسم به ، فاذا زالت مشابهة الفعل وجب تصحيحه .

ومن همز (مصايب) فانه غلط ، كما غلط من همز (معايش) ومثله جاء في جمع (مسيل) أمسلة ، جاء ذلك في الشعر لبني هذيل ، فتوهموه (فعيلة) وانما هو (مفعلة) وحكى يعقوب : مسيل وميسل ، فالميم على هذا فاء ومسيل (فعيل) ، وعلى الاول (مفعل) من سال .

قال الزجاج : من همز (مصايب) جعل الهمزة بدلا من الواو ، كماقالوا: أقب في (وقب) وهذا ان وقع في أول الكلام . وقد قالوا في (أدور) أدأر ، فهمزوه ، فجاز على هذا ان يكونوا حملوا المكسورة على المضمومة .

ويقال : عاش فلان بمعنى حيي ، وطيب العيش طيب الحياة ، فلهذا كانت المعيشة مضمنة بالحياة . وحد المعيشة الرماني : بأنها وصلة من جهة مكسب

المطعم والمشرب والملبس الى ما فيه الحياة .

اخبر الله تعالى على وجه الامتنان على خلقه بأصناف نعمه انه مكن عباده في الارض بمعني مكنهم من التصرف فيها ، والتمكين اعطاء ما يصح معه الفعل مع ارتفاع المنع ، لان الفعل كما يحتاج الى القدرة فقد يحتاج الى آلة والى سبب ، كما يحتاج الى رفع المنع ، فالتمكين عبارة عن حصول جميع ذلك .

والارض هذه الارض المعروفة ، وفي الأصل عبارة عن قرار يمكن أن يتصرف عليه الحيوان ، فعلى هذا لو خلق مثلها ، لكانت أرضا حقيقة .

وقوله « وجعلنا لكم فيها معايش » فالجعل وجود ما به يكون الشيء على خلاف ما كان ، مثل ان تقول جعلت الساكن متحركا ، لانك فعلت فيه الحركة ، ونظيره التصيير والعمل ، . وجعل الشيء أعم من حدوثه ، لانه قد يكون بحدوث غيره فيه مما يتغير به .

وقوله « قليلا ما تشكرون » نصب قليلا بـ (تشكرون) ، وتقديره تشكرون قليلا . و (ما) زائدة . ويحتمل ان تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر ، وتقديره قليلا شكركم . والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم ، والحمد مثله . وقيل : الفرق بينهما ان كل شكر حمد ، وليس كل حمد شكرا ، لان الانسان يحمد على احسانه الى نفسه ، ولا يشكر عليه ، كما انه يذم على اساءته الى نفسه ، ولا يجوز ان يكفر من اجل اساءته الى نفسه .

قوله تعالى :

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ (١٠)

آية بلاخلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لخلقه بأنه خلقهم . والخلق هو احداث الشيء على تقدير تقتضيه الحكمة ، لا زيادة على ما تقتضيه ، فيخرج الى الاسراف ،

ولا ناقص عنه فيخرج الى الاقتار . وقد استوفينا اختلاف الصور ، والصورة بنية مقومة على هيئة ظاهرة .

وقوله « ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » فالسجود هو وضع الجبهة على الارض واصله الانخفاض من قول الشاعر :

ترى الاكم فيها سجدا للحوافر (١)

وقيل في معنى السجود لآدم قولان :

احدهما ـ انه كان تكرمة لآدم وعبادة لله ، لان عبادة غير الله قبيحة لا يأمر الله بها . وعند اصحابنا كان ذلك دلالة على تفضيل آدم على الملائكة على ما بينا في سورة البقرة . (٢) وقال أبو علي الجبائي : امروا ان يجعلوه قبلة ، وأنكر ذلك أبو بكر بن أحمد بن علي الاخشاد بأن قال : هو تكرمة . ، لأن الله تعالى امتن به على عباده ، وذكرهم بالنعمة فيه . فان قيل كيف قال « ثم قلنا للملائكة » مع أن القول للملائكة كان قبل خلقنا وتصويرنا ؟

قلنا عن ذلك ثلاثة أجوبة :

احدها ـ قال الحسن وابو علي الجبائي : المراد به خلقنا اياكم ثم صورنا اياكم . ثم قلنا للملائكة ، وهذا كما يذكر المخاطب ويراد به أسلافه ، وذكرنا لذلك نظائر فيما مضى ، منها قوله « واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور » (٣) أي ميثاق اسلافكم . قال الزجاج المعنى ابتدأنا خلقكم بأن خلقنا آدم ، ثم صورناه ، ثم قلنا .

الثاني ـ قال ابن عباس ومجاهد والربيع وقتادة والضحاك والسدي : ان المعنى خلقنا آدم ثم صورناكم في ظهره . ثم قلنا للملائكة .

الثالث ـ خلقناكم ثم صورناكم ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة ، كما تقول : اني راحل ثم اني معجل . وقال الاخفش (ثم) ههنا بمعنى الواو ، كما

---

(١) مر في ١ / ٢٦٣ (٢) المجلد الاول صفحة ١٣٩ .

(٣) سورة ٢ البقرة آية ٦٣ ، ٩٣

قال « ثم الله شهيد على ما تعملون» ومثله قوله « ثم كان من الذين آمنوا»(٤) على قول بعض المتأخرين معناه وكان من الذين آمنوا ، ومثله « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه » (٥) على بعض الاقوال معناه وتوبوا اليه ، قال الزجاج هذا خطأ عند جميع النحويين • وقال الشاعر :

سألت ربيعة من خيرها ابا ثم اما فقالوا لمه (٦)

معناه سألت اولا عن الاب ثم الام • وقال بعضهم : معناه خلقناكم في ظهور آبائكم ثم صورناكم في بطون امهاتكم • وقال قوم : في الآية تقديم وتأخير ، وتقديره خلقناكم بمعنى خلقنا أباكم أي قدرناكم • ثم قلنا للملائكة اسجدوا • ثم صورناكم •

قوله تعالى :

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١١) آية بلا خلاف •

هذا حكاية لما كان من خطاب الله لا بليس حين امتنع من السجود لآدم، انه قال له « ما منعك » بمعنى اي شيء منعك« ان لاتسجد » وفيه ثلاثة أقوال:

احدها ـ ان تكون (لا) صلة مؤكدة ، كما قال « لئلا يعلم اهل الكتاب » (٧) ومعناه ليعلم ، كقوله « لا أقسم بيوم القيامة » وكقوله « فلا أقسم بمواقع النجوم » وكما قال الشاعر :

أبى جوده لا البخل واستعجلت به نعم من فتى لايمنع الجود قاتله(٨)

معناه أبى جوده البخل ، وروى أبو عمرو بن العلا : أبى جوده لا البخل

(٤) سورة ٩٠ البلد آية ١٧ •

(٥) سورة ١١ هود آية ٣ ، ٥٢ ، ٩٠ (٦) تفسير الطبري ١٢ : ٣٢٢ •

(٧) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٩ (٨) اللسان (نعم) وتفسير الطبري ٢١/٢٢٤ وأمالي ابن الشجرى ٢ / ٢٢٨ ، ٢٢١ وشرح شواهد المغني ٢١٧ • وقد روي (فاعله) بدل (قاتله) وروي أيضا « قائله » •

بالجر ، كأنه قال ابي جوده كلمة البخل ، ورواه كذا عن العرب . وقال الزجاج: فيه وجه ثالث لا البخل على النصب بدلا من (لا) كأنه قال ابي جوده ان يقول (لا) فقال نعم . وهي حكاية في كل هذا .

الثاني ــ انه دخله معنى ما دعاك ان لاتسجد .

الثالث ــ معنى « ألا تسجد » ما الحال ان لاتسجد أو ما أحوجك .

وقال الفراء لما تقدم الجحد في اول الكلام أكد بهذا ، كما قال الشاعر :

ما ان رأينا مثلهن لمعشر سود الرؤوس فوالج وفيول (٩)

فـ (ما) للنفي و (ان) للنفي فجمع بينهما تأكيدا .

فان قيل كيف قال « ما منعك » ولم يكن ممنوعا ؟ !

قلنا : لان الصارف عن الشيء بمنزلة المانع منه ، كما ان الداعي اليه بمنزلة الحامل عليه .

وقوله « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » حكاية لجواب ابليس حين ذمه تعالى على الامتناع من السجود ، فأجاب بما قال ، وهذا الجواب غير مطابق لأنه كان يجب أن يقول معنى كذا ، لأن قوله « أنا خير منه» جواب لمن يقول أيكما خير ، ولكن فيه معنى الجواب ، ويجري ذلك مجرى أن يقول القائل لغيره : كيف كنت ، فيقول أنا صالح ، وكان يجب أن يقول كنت صالحاً لكنه جاز ذلك ، لأنه أفاد انه صالح في الحال مع ما كان صالحاً فيما مضى . ووجه دخول الشبهة عليه في أنه خلقه من نار وخلق آدم من طين أنه ظن أن النار اذا كانت أشرف لم يجز أن يسجد الأشرف للأدون ، وهذا خطأ ، لأن ذلك تابع لما يعلم الله من مصالح العباد ، وما يتعلق به من اللطف

---

(٩) معاني القرآن ١/١٧٦ ، ٣٧٤ وتفسير الطبري ١٢/٣٢٥ . (الفوالج) جمع (فالج) وهو الجمل ذو سنامين . و (الفيول) جمع (فيل) . وكانت هذه الجمال تجلب من السند ، وهي البلاد التي فيها الفيلة .

لهم ، ولم يكن ذلك استخفافاً بهم بالاعمال •

وقد قال الجبائي : إن الطين خير من النار ، لأنها أكثر منفعة للخلق من حيث أن الأرض مستقر الخلق وفيها معايشهم ، ومنها تخرج أنواع أرزاقهم لأن الخيرية فى الأرض أو النار ، إنما يراد بهما كثرة المنافع ، دون كثرة الثواب ، لأن الثواب لا يكون إلا للمكلف المأمور ، وهذان جمادان •

وعلى ما يذهب اليه أصحابنا أن ذلك يدل على تفضيل آدم على الملائكة وكان ذلك مستحقاً ، فلذلك أسجد الله الملائكة له •

فإن قيل : لم اعترض إبليس على الله مع علمه أنه لا يفعل إلا الحكمة ؟ قلنا عنه جوابان :

أحدهما ــ أنه اعترض كما يعترض السفيه على الحكيم الحليم في تدبيره من غير فكر في العاقبة •

والثاني ــ أن يكون جهل هذا بشبهة دخلت عليه • وعلى ما نذهب اليه من أنه لم يكن عرف الله قط سقطت الشبهة •

واستدل أيضاً بهذه الآية على أن الجواهر متماثلة بأن قيل : لا شيء أبعد الى الحيوان من الجماد ، فاذا جاز أن ينقلب الطين حيواناً وإنساناً جاز أن ينقلب الى كل حال من أحوال الجواهر ، لأنه لا فرق بينهما في العقل •

واستدل أيضا بهذه الآية على أن الأمر من الله يقتضي الايجاب بأن الله تعالى ذم إبليس على امتناعه من السجود حين أمره ، فلو كان الأمر يقتضي الندب لما استحق العيب بالمخالفة وترك الامتثال ، والامر بخلاف ذلك في الآية •

قوله تعالى :

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٢) آية

قوله « قال فاهبط منها » حكاية لقول الله تعالى لابليس وأمره إياه أن

يهبط منها ، وما بعد القول وإن كان استئنافاً والفاء لا يستأنف بها وانما يكون كذلك ، لأن ما قيل له بعد جوابه الذي أجاب به ، فهو حكاية ما كان من الكلام له الثاني بعد الأول .

والهبوط والنزول واحد . وفرق بينهما بأن النزول يقتضي تنزله الى جهة السفل بمنزلة بعد منزلة ، وليس كذلك الهبوط ، لأنه كالانحدار في المرور الى جهة السفل ، وكأن الانحدار دفعة واحدة ، كما قال الشاعر :

كل بني حرة مصيرهم قل وإن أكثروا من العدد
إن يغبطوا يهبطوا وإن أمّروا يوماً فهم للفناء والفند [١]

وقيل في الضمير الذي في قوله « منها » قولان :

احدهما ــ قال الحسن : إنه كناية عن السماء ، لأنه كان في السماء فاهبط منها .

الثاني ــ قال أبو علي : كناية عن الجنة .

فان قيل من أين علم ابليس أن الله تعالى قال له هذا القول ؟

قلنا عنه جوابان : أحدهما ــ قال أبو علي : إنه قال له على لسان بعض الملائكة .

الثاني ــ أنه رأى معجزة تدله على ذلك .

وقوله « فما يكون لك أن تتكبر فيها » معناه ليس لك أن تتكبر فيها ، والتكبر إظهار كبر النفس على جميع الاشياء ، فهو في صفة العباد ذم ، وفى صفة الله مدح ، كما قال تعالى « الجبار المتكبر » [٢] فالجبار القاهر لجميع الاشياء . والمتكبر الدال بذاته على أنه أكبر من جميع الاشياء . وقوله «فاخرج إنك من الصاغرين » أمر من الله لابليس بالخروج ، لأنه من الصاغرين . والصاغر هو الذليل بصغر القدر ، صغر يصغر صغراً وصغاراً ، وتصاغرت اليه نفسه ذلاً ومهانة ، والأصل الصغر .

---

(١) قائلة لبيد وقد مر فى ١/٧٣ (٢) سورة ٥٩ الحشر آية ٢٣ .

قوله تعـالى :

قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٣) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٤) آيتان •

في الآية الأولى حكاية عن إبليس أنه سأل الله تعالى أن ينظره • والانظار الامهال الى مدة فيها النظر في الأمر طال أم قصر • والانظار والامهال والتأخير والتأجيل نظائر في اللغة ، وبينها فرق • وضد الامهال الاعجال • وأصل الانظار المقابلة ، وهي المناظرة • و (الجبلان يتناظران) أي يتقابلان ، ونظر اليه بعينه أي قابله لينظر له ونظر اليه بيـده ، ليظهر له حاله في اللين والخشونة أو الحرارة والبرودة •

وقوله « الى يوم يبعثون » مدة للانظار الذي طلبه • والبعث الاطلاق في الامر ، والانبعاث الانطلاق • والبعث والحشر والنشر والجمع نظائر •

ويجوز في « يوم يبعثون » ثلاثة أوجه من العربية : بالجر وترك التنوين على الاضافة، والجر مع التنوين على الصفة • والفتح وترك التنوين على البناء • وليس بالوجه ، لأن الفعل معرب •

والوجه في مسألة إبليس الانظار ــ مع علمه أنه مطرود ملعون مسخوط عليه ــ علمه بأن الله يظاهر الى عباده بالاحسان ، ويعمهم بفضله وإنعامه ، فلم يصرف ارتكابه المعصية وإصراره على الخطيئة عن المسألة طامعاً فى الاجابة ، وعن انس من بلوغ المحبة •

وقيل في قوله « قال إنك من المنظرين » هل فيه إجابة الى ما التمسه أم لا ؟

فقال السدي وغيره : إنه لم يجبه « الى يوم يبعثون » لأنه يوم القيامة ، وهو يوم بعث لا يوم موت ، ولكن انظر الى يوم الوقت المعلوم ، كما ذكره فى سورة اخرى [1] • ويقوي ذلك قوله « إنك من المنظرين » وليس لأحد

(١) سورة ٣٨ ص آية ٧٩ ــ ٨١ •

أن ينظر أحداً الى يوم القيامة على هذا المعنى .

الثاني ـ أنه سأل تأخير الجزاء بالعقوبة الى يوم يبعثون . لما خاف من تعجيل العقوبة ، فأنظر على هذا . وقال قوم : انظر الى يوم القيامة ، والأقوى الوجه الثاني ، لأنه لا يجوز أن يعلم الله أحداً من المكلفين الذين ليسوا بمعصومين أنه يبقيهم الى وقت معين ، لأن في ذلك إغراء له بالقبح من حيث أنه يعلم انه باق الى ذلك الوقت فيرتكب القبيح ، فاذا قارب الوقت جدد التوبة فيسقط عنه العقاب .

وهل يجوز اجابة دعاء الكافر أم لا ؟ فيه خلاف :

فذهب أبو علي الى أنه لا يجوز ، لما في ذلك من التعظيم والتبجيل لمجاب الدعوة في مجرى العادة ، ألا ترى أنه اذا قيل : فلان مجاب الدعوة دل ذلك على أنه صالح المؤمنين . وأجاز ذلك أبو بكر بن الاخشاد على وجه الاستصلاح . وكان يقول : بتفصيل ذلك بحسب الوجه الذي يقع عليه .

وكسرت « إن » لأنها حكاية بعد القول ، وهي تكسر في هذا الموضع ، وفي الابتداء بها ، واذا كان في خبرها لام التأكيد . وانما عملت (إن) لشبهها بالفعل الماضي من حيث كانت على ثلاثة أحرف مفتوحة الآخر ، فهي بمنزلة (كان) إلا أنه خولف بعملها لأنها حرف .

قوله تعالى :

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٥) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٦) آيتان بلا خلاف .

قوله « قال فبما » حكاية عن قول إبليس ، لما لعنه الله ، وطرده وحكى سؤاله الانظار ، واجابة الله تعالى الى شيء منه ، قال حينئذ « فبما أغويتني » أي فبالذي أغويتني . وقيل في معنى هذه الباء ثلاثة أقوال :

احدهما ـ اني مع اغوائك إياي كما تقول بقيامك تناول هذا أي مع قيامك .

الثاني ـ معناه اللام ، والتقدير فلإغوائك إياي .

الثالث ـ أنها بمعنى القسم كقولك بالله لأفعلن .

وقيل في معنى اغويتني ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال أبو علي والبلخي : معناه بما خيبتني من جنتك ، كما قال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغوَ لا يعدم على الغي لائما [1]

أي من يخب ، وقال قوم : يجوز أن يكون أراد إنك امتحنتني بالسجود، لآدم فغويت عنده ، فقال (أغويتني) كما قال «فزادتهم رجساً الى رجسهم»[2] .

الثاني ـ قال ابن عباس وابن زيد : معناه حكمت بغوايتي كقولك : أضللتني أي حكمت بضلالتي .

الثالث ـ أغويتني بمعنى أهلكتني بلعنك إياي ، كما قال الشاعر :

معطفة الاثناء ليس فصيلها برازئها درّاً ولا ميت غوى [3]

أي ولا ميت هلاكاً بالقعود عن شرب اللبن . ومنه قوله « فسوف يلقون غياً » [4] أي هلاكاً . ويقولون : غوى الفصيل اذا أنفذ اللبن فمات . والمصدر غوًى مقصوراً وقوله « لاقعدن لهم » جوا بالقسم . والقسم محذوف ، لأن غرضه بالكلام التأكيد ، وهو ضد قوله « صٓ والقرآن ذي الذكر » [5]

(١) مر هذا البيت في ٢/٣١٢ وسيأتي في ٥/٥٤٨ .

(٢) سورة ٩ التوبة آية ١٢٦ .

(٣) قائله (مدرج الريح الجرمي) وأسمه (عامر بن المجنون) ، الشعر والشعراء : ٧١٣ ، والمعاني الكبير : ١٠٤٧ والمخصص ٧/٤١ ، ١٨٠ وتهذيب اصلاح المنطق ٢/٥٤ واللسان (غوى) وتفسير الطبري ١٢/٣٣٣ .

(٤) سورة ١٩ مريم آية ٥٩ . (٥) سورة ٣٨ ص آية ٢ .

فانه حذف الجواب ، وهي القسم ، لأن الغرض تعظيم المقسم به .

وقعوده على الصراط معناه أنه يقعد على طريق الحق ليصد عنه بالاغواء حتى يصرفه الى طريق الباطل عداوة له وكيداً .

وقوله « صراطك المستقيم » قيل في نصب (صراطك) أنه نصب على الحذف دون الظرف ، وتقديره على صراطك ، كما قيل ضرب زيد الظهر والبطن أي على الظهر والبطن قال الشاعر :

لــدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب (٦)

وقال آخر :

كأني اذا أسعى لأظفر طـائراً مع النجم في جو السماء يصوب (٧)

أي لاظفر على طائر ، وإغواء الله تعالى لابليس لم يكن سبباً لضلاله ، لأنه تعالى علم أنه لو لم يغوه لوقع منه مثل الضلال الذي وقع أو أعظم ، فأما قول من قال : إنه لو كان ما يفعل به الايمان هو ما يفعل به الكفر ، لكان قوله « بما أغويتني » وبما أصلحتني بمعنى واحد ، فكلام غير صحيح ، لأن صفة الآلة التي يقع بها الايمان خلاف صفتها اذا وقع بها الكفر . وإن كانت واحدة كالسيف . ولا يجب من ذلك أن تكون صفتها واحدة من أجل أنها واحدة بل لا يمتنع أنه متى استعمل آلة الايمان في الضلال سمي إغواء ، وإن استعمل في الايمان سمي هداية ، وإن كان ما يصح به الايمان والكفر والضلال واحداً .

وقوله «ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم» قيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال ابن عباس وقتادة وابراهيم بن الحكم والسدي وابن

---

(٦) قائله ساعدة بن جؤية الهذلي ديوانه ١/١٩٠ وسيبويه ١/١٦ ، ١٩٠ وخزانة الأدب ١/٤٧٤ وتفسير الطبري ١٢/٣٣٧ وغيرها .

(٧) تفسير الطبري ١٢ / ٣٣٧ .

جريج : من قبل دنياهم وآخرتهم • ومن جهة حسناتهم وسيئاتهم •

الثاني ـ قال مجاهد : من حيث يبصرون ومن حيث لا يبصرون •

الثالث ـ قال البلخي وأبو علي : من كل جهة يمكن الاحتيال عليهم بها •

وقال ابن عباس : ولم يقل من فوقهم ، لأن رحمة الله تنزل عليهم من فوقهم ، ولم يقل من تحت أرجلهم ، لأن الاتيان منه موحش • وقال أبو جعفر (ع) « ثم لآتينهم من بين أيديهم » معناه أهوّن عليهم أمر الآخرة ومن خلفهم آمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم « وعن أيمانهم » وأفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة «وعن شمائلهم» بتحبيب اللذات اليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم •

وقال الزجاج : « من بين أيديهم » معناه أغوينهم حتى يكذبوا بالبعث والنشور ، « ومن خلفهم » حتى يجحدوا ما كان من أخبار الأمم الماضية والأنبياء السالفة •

وإنما دخلت (من) في الخلف والقدام ، و (عن) في اليمين والشمال ، لأن في القدام والخلف معنى طلب النهاية ، وفي اليمين والشمال الانحراف عن الجهة • ودخول (ثم) في الكلام : بيان أن هذا المعنى يكون بعد القعود في طريقهم •

وقوله « ولا تجد أكثرهم شاكرين » إخبار من إبليس أن الله لا يجد أكثر خلقه شاكرين • وقيل : يمكن أن يكون علم ذلك من أحد وجهين :

أحدهما ـ قال أبو علي: ذلك علمه من جهة الملائكة باخبار الله تعالى إياهم •

الثاني ـ قال الحسن : يجوز أن يكون أخبر عن ظنه ذلك ، كما قال تعالى « ولقد صدق عليهم أبليس ظنه » لأنه لما أغوى آدم فاستزله ، قال ذرية هذا أضعف منه ، وظن أنهم سيجيبونه ويتابعونه •

قوله تعالى :

قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٧) . آية بلا خلاف •

حكي عن عاصم في الشواذ « لمن تبعك » بكسر اللام ، ويكون خبره محذوفاً وتقديره لمن تبعك النار ، وليس بمعروف .

هذا خبر من الله تعالى أنه «قال أخرج منها» يعني من الجنة «مذؤماً» قال ابن عباس : معناه معيباً . وقال ابن زيد : مذموماً ، يقال : ذأمه يذأمه ذأماً وذامه يذيمه ذيماً وذاماً . وقيل الذأم والذيم أشد العيب . ومثله اللوم قال الشاعر :

صحبتك إذ عيني عليهـا غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي أذيمها (١)

وأكثر الرواية ألومها . وقوله « مدحوراً » فالدحر الدفع على وجه الهوان والاذلال يقال : دحره يدحره دحراً ودحوراً . وقيل الدحر الطرد ــ في قول مجاهد والسدي ــ .

وقوله « لمن تبعك منهم » جواب القسم ، وحذف جواب الجزاء في « لمن تبعك » لأن جـواب القسم أولى بالذكر من حيث أنه في صدر الكلام ، ولو كان في حشو الكلام ، لكان الجزاء أحق منه ، كقولك : إن تأتني والله أكرمك ، ولا يجوز أن تكون (من) ههنا بمعنى الذي ، لأنها لا تقلب الماضي الى الاستقبال ، ويجوز أن تقول : والله لمن جاءك أضربه بمعنى لأضربه ، ولم يجز بمعنى لأضربنه ، كما يجوز والله أضرب زيداً بمعنى لأضرب ولا يجوز بمعنى لأضربن ، لأن الايجاب لابد فيه من نون التأكيد مع اللام على قول الزجاج .

وإنما قال « لأملأن جهنم منكم » بلفظ الجمع وإن كان المخاطب واحداً على التغليب للخطاب على الغيبة ، كما يغلب المذكر على المؤنث ، وكما يغلب الأخف على الأثقل في قولهم : سنة العمرين ، لأن المفرد أخف من المضاف ، لأن المعنى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ، كما ذكره في موضع آخر .

وقوله « أجمعين » تأكيد لقوله « منكم » وهو وإن كان بلفظ الغائب أكد به المخاطب ، لأنه تابع للأول ، فإن كان غائباً فهو غائب وإن كان مخاطباً ،

(١) قائله (الحارث بن خالد المخزومي) الاغاني (دار الثقافة) ٣/٣١٣ وتفسير الطبري ١/٢٦٥ و ١٢/٣٤٣ .

فهو مخاطب وإن كان متكلماً ، فهو متكلم كقولك : نحن منطلق أجمعون عامدون ، لأن الاتباع قد دل على ذلك .

قوله تعالى :

وَيَا آدَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ (١٨) آية بلاخلاف

في هذه الآية حكاية خطاب الله تعالى لآدم وأمره إياه أن يسكن هو وزوجه حواء الجنة . واختلفوا في الجنة التي أسكن الله آدم فيها .

فقال قوم : إنها جنة الخلد ، لأن الجنة اذا أطلقت معرفة بالألف واللام لا يعقل منها في العرف إلا جنة الخلد ، كما أن السموات والأرض إذا أطلق لم يعقل منه إلا السموات المخصوصة دون سقف البيت .

وقوله « وزوجك » إنما جاء به على لفظ التذكير ، لأن الاضافة أغنت عن ذلك وأبانت عن المعنى ، فكان الحذف أحسن ، لأنه أوجز يقال : لصاحب المنزل ساكن فيه ، وإن كان يتحرك فيه أحياناً للتغليب ، لأن سكونه فيه أكثر ، بجلوسه ونومه في ليله . وغير ذلك من أوقاته ، وأباح الله تعالى لهما أن يأكلا من حيث شاءا ، وأين شاءا ما شاءا ، ونهاهما على وجه الندب ألا تقربا هذه الشجرة .

وعندنا إن ذلك لم يكن محرماً عليهما بل نهاهما نهي تنزيه دون حظر وبالمخالفة فاتهما ثواب كثير ، وإن لم يفعلا بذلك قبيحاً ، ولا أخلا بواجب .

ومن خالفنا قال أخطأ في ذلك على خلاف بينهم بأن ذلك صغيرة أو كبيرة . ومن قال كانت صغيرة ، منهم من قال : وقع ذلك منه سهواً ونسياناً . ومنهم من قال : وقع ذلك تأويلاً من حيث نهي عن جنس الشجر ، فحمله على شجرة بعينها ، فأخطأ في التأويل . وقد بينا فساد ذلك فيما مضى (١) .

---

(١) في المجلد الأول ص ١٦٠ ــ ١٦٤ .

وقوله « فتكونا من الظالمين » يحتمل أن يكون نصباً على جواب النهي .

والثاني ـ أن يكون جزماً عطفاً على النهي ، فكأنه قال لا تقربا هذه الشجرة ، ولا تكونا من الظالمين . ومعنى « الظالمين » على مذهبنا المراد به الباخسين نفوسهم ثواباً كثيراً ، والمفوتين نعيماً عظيماً . ومن قال : إنهما ارتكبا قبيحاً قال : ظلما أنفسهما بارتكاب القبيح . وعلى مذهب من يقول بأن ذلك كانت صغيرة وقعت مكفرة لابد أن يحمل الظلم ههنا على نقصان الثواب الذي انحبط بمقارنة الصغيرة له ، فأبو عليّ : ذهب الى أن ذلك وقع منه نسياناً . وقال البلخي وقع منه تأويلاً ، لأنه نهي عن جنس الشجرة فتأوّله على شجرة بعينها ، وهذا خطأ ، لأن ما يقطع سهواً أو نسياناً لا يحسن المؤاخذة به . وأما الخطأ في التأويل فقد زاد من قال ذلك قبيحاً آخر . أحدهما ارتكاب المنهي . والثاني الخطأ في التأويل به .

قوله تعالى :

فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ (١٩) آية بلا خلاف .

قرأ يحيى بن كثير ويعلى بن حكيم « إلا أن تكونا ملِكين » بكسر اللام من قوله « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » الباقون بفتح اللام .

أخبر الله تعالى أنه لما نهى آدم وزوجته عن أكل الشجرة وسوس لهما الشيطان . والوسوسة الدعاء الى أمر بضرب خفي كالهمهمة والخشخشة قال رؤبة مراجعة :

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق ‏ ‏ ‏ سراً وقد أوّن تأوين العقق [١]

(١) ديوانه : ١٠٨ واللسان (وسـ ـ) وهو من ارجوزة يصف بها صائداً مختفياً يرتقب حمر الوحش .

وقال الأعشى :

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل [٢]

وقوله « ليبدي لهما » فالابداء الاظهار ، وهو جعل الشيء على صفة ما يصح أن يدرك ، وضده الاخفاء وكل شيء أزيل عنه الساتر فقد أبدي . وقوله « ما ووري » فالمواراة جعل الشيء وراء ما يستره . ومثله المساترة ، وضده المكاشفة ، ولم يهمز ، لأن الثانية مدة ، ولولا ذلك لوجب الهمز .

وقيل للفرج سوأة ، لأنه يسوء صاحبه إظهـاره ، وكلما قبح إظهاره سوأة ، والسوء من هذا المعنى . واذا بالغوا قالوا : السوأة السوآء ، ولم يقصد آدم وحواء (عليهما السلام) بالتناول من الشجرة القبول من إبليس والطاعة له بل إنما قصدا عند دعائه شهوة نفوسهما ، ولو قصدا القبول منه لكان ذلك قبيحاً لا محالة . وقال الحسن لو قصدا ذلك لكانا كافرين .

وفرق بين وسوس اليه ووسوس لـه مثل قولك ألقى اليه المعنى ، ووسوس له معناه أوهمه النصيحة له . فإن قيل كيف وصل إبليس الى آدم وحواء حتى وسوس لهما ؟ وهو خارج الجنة ، وهما في الجنة ، وهما في السماء وهو في الأرض ؟ قلنا : فيه أقوال .

أحدها ــ قال الحسن : كان يوسوس من الأرض الى السماء والى الجنة فوصلت وسوسته بالقوة التي خلقها الله له .

الثاني ــ قال أبو علي إنهما كانا يخرجان من السماء فبلغهما وهما هناك .

الثالث ــ قال أبو بكر بن الاخشيد إنه خاطبهما من باب الجنة وهما فيها .

وقوله « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين » فيه قولان :

أحدهما ــ أن فيه حذفاً وتقديره إلا أن تكونا ملكين ولستما ملكين . ومعناه لئلا تكونا ملكين .

---

(٢) ديوانه : ٤٢ القصيدة ٦ .

الثاني ــ الا كراهة أن تكونا ملكين .

فإن قيل كيف يموّه عليهما أن الأكل من الشجرة يوجب الانقلاب من صورة البشرية الى صورة الملائكة أو يوجب الخلود في الجنة ؟!

قلنا : عن ذلك جوابان :

احدهما ــ أنه أوهم أن ذلك في حكم الله في كل من أكل من تلك الشجرة.

الثاني ــ أنه أراد إلا أن تكونا بمنزلة الملائكة في علو المنزلة .

واستدل جماعة من المعتزلة بهذه الآية على أن الملائكة أفضل من البشر ، والأنبياء منهم . وهذا ليس بشيء ، لأنه لم يجر ههنا ذكر لكثرة الثواب وأن الملائكة أكثر ثواباً من البشر بل كان قصد إبليس أن يقول لآدم ما نهاك الله عن أكل الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، فإن كنتما ملكين فقد نهاكما ، وحيث لستما من الملائكة فما نهاكما الله عن أكلها ، وتلخيص الكلام أن المنهي من أكل الشجرة هم الملائكة فقط ، ومن ليس منهم فليس بمنهي ، ولا تعلق لذلك بكثرة الثواب ولا بقلته وعلى قول من كسر اللام لا متعلق في الآية ولا شبهة .

والشجرة التي نهي عنها آدم ، قال قوم هي الكرمة ، وقال آخرون هي السنبلة . وقيل فيه أقوال غيرهما ذكرناها في سورة البقرة (١) .

قوله تعالى :

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ (٢٠) آية بلا خلاف .

المقاسمة لا تكون إلا بين اثنين ، والقسم كان من إبليس لآدم ، لأن آدم مقسم له . وانما قال وقاسمهما كما يقال : عاقبت اللص وطارقت النبل وناولت الرحل وعافاه الله ، وكذلك قاسمته ، لان في جميع ذلك معنى المقابلة ، كأنه قابله في المنازعة باليمين والمعاقبة مقابلة بالجزاء وكذلك المعافاة ، وقال الهذلي :

وقاسمها بالله جهدا لانتم ألذّ من السلوى اذا ما نشورها (٢)

(١) في تفسير آية ٣٥ المجلد ١ / ١٥٨ ، ١٦٢ (٢) ديوان الهذليين ١/١٥٨ وتفسير الطبري ١٢ / ٣٥٠

أي حالفها ، وفي موضع آخر « قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه واهله » (٣) أي تحالفوا ــ وسئل الحسن فقيل له : أليس الله خلق آدم ليكون خليفة فى الارض قال : بلى ، قال وكان لا بّد له من ان يهبط الارض ، قال : لا والله، ولكن لو هبط مطيعا لله كان خيرا له من ان يهبط عاصيا ، ولم يعاتبه الله على الهبوط ، وإنما عاتبه على مخالفة الأمر • وأصل القسم القسمة ، قال أعشى بني ثعلبة :

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما   باسحم داج عوض لا تتفرق (١)

والقسم تأكيد الخبر بطريقة والله ، وبالله ، وتالله •

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان ابليس حلف ، لآدم وحواء انه لهما ناصح فى دعائهما الى التناول من الشجرة ولذلك تأكدت الشبهة عندهما ، وظنا ان أحداً لا يقدم على اليمين بالله إلا صادقاً ، فكان ذلك داعياً لهما الى تناول الشجرة•

ويجوز ان تقول : اني لك لناصح ، ولا يجوز ان تقول : أنا لك لناصح، لان لام الابتداء موضعها صدر الكلام لا تؤخر عنه الا في باب (ان) خاصة لئلا يجتمع حرفا تأكيد في موضع واحد ، فيوهم اختلاف المعنى ، لان الاصل في اجتماع الحرفين في موضع انه لاينوب احدهما عن الآخر ، وتقدير الكلام، وقاسمهما اني لكما ناصح ، ثم فسر ذلك بقوله من الناصحين ليكون متعلقا بقوله لمن الناصحين فقدم الصلة على الموصول ، ومثله قوله « وانا على ذلكم من الشاهدين» (٢) وتقديره وأنا على ذلكم شاهد، وبينه بقوله من الشاهدين•

قوله تعـالى :

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن

(٣) سورة النمل آية ٤٩ •

(١) ديوانه : ١٥٠ واللسان (عوض) ، (سحم) وتفسير الطبري ١٢/٣٥٠

(٢) سورة ٢١ الأنبياء آية ٥٦ •

تلكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢١)

آية بلاخلاف .

معنى قوله « فدلاهما » حطهما الى الخطيئة بغرور ، ومنه قولهم : فلان يتدلى الى الشر ، لان الشر سافل والخير عال . وقيل : دلاهما من الجنة الى الأرض بغرور . الغرور إظهار النصح مع ابطان الغش ، وأصله الغَرّ : طيّ الثوب يقال : اطوه على غرّه أي على كسر طيه ، وقال الشاعر :

كأن غَرّ متنه اذ نجنبه سير صناع في خريز تكلبه (١)

فالغرور بمنزلة الغر لما فيه من اظهار حال واخفاء حال ، ومنه الغرر لخفاء مالا يؤمن فيه . والغر الذي لم يجرب الامور ، لانها تخفى عليه . والغرة الاخذ على غفلة . والغرارة الوعاء ، لانها تخفي ما فيها . والاغر الابيض لظهور الثوب في غره ، ومنه الغرة في الجبهة .

وقوله « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما » أي ظهرت عورتاهما ، ولم يكن ذلك على وجه العقوبة ، لان الانبياء لايستحقون العقوبة ، وانما كان ذلك لتغير المصلحة ، لانهما لما تناولا من الشجرة اقتضت المصلحة اخراجهما من الجنة ونزعهما لباسهما الذي كان عليهما ، واهباطهما الى الارض ، وتكليفهما فيها .

وقوله « وطفقا » قال ابن عباس : معنى طفق جعل يفعل ، ومثله قولهم : ظل يفعل واخذ يفعل وابتدأ يفعل ، فقد يكون ذلك بأول الفعل وقد يكون بالقصد الى الفعل ، ويقال : طفق يَطفِق وطفق يَطفَق طفقا .

وقوله « يخصفان عليهما من ورق الجنة » معناه يقطفان من ورق الجنة ليستترا به ، ويحوزان بعضه الى بعض ، ومنه المخصف : المثقب الذي يخصف به النعل ، والخصاف الذي يرقع النعل قال الشاعر :

---

(١) قائله (دكين بن رجاء الفقيمي) اللسان (كلب) و « غَرّمتنه » ما تثنى من جلده و (سير صناع) أي سير متصنع به من كثر الخرز فيه .

واسعى للندى والثوب جرد محاسرة وفى نعلي خصاف

يعني ترقيع ، وقال الاعشى :

قلت أرى رجلا في كفه كتف او يخصف النعل لهفي آية صنعا (١)

ومنه قول النبي (ص) (خاصف النعل فى الحجرة) يعني عليا (ع) • والاخصاف سرعة العدو ، لانه يقطعه بسرعة • والخصف ثياب غلاظ جدا ،لانه يعسر قطعها لغلظها • وكان الحسن يقرأ « يخصفان » بمعنى يختصفان •

وقوله « من ورق الجنة » قيل : انه من ورق التين • واصل الورق ورق الشجرة ، ومنه الورِق اسم الدراهم • والورقة سواد في غبرة كأنه كلون الورق الذي بهذه الصفة ، وحمامة ورقاء •

وفي ذلك دلالة على ان ستر العورة كان واجبا في ذلك الوقت •

وقوله « وناداهما ربهما ألم انهكما عن تلكما الشجرة » حكاية عما قال الله تعالى لآدم وحواء ـ بعد ان بدت سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الشجرـ أليس كنت نهيتكما عن تلكما الشجرة ، وانما قال « تلكما » لانه خاطب اثنين واشار الى الشجرة ، فلذلك قال (تلكما) و « أقل لكما » عطف على « أنهكما »فلذلك جزمه«ان الشيطان لكما عدوٌ مبين» يعني ظاهر العداوة•

وقد بينا ان آدم لم يرتكب قبيحا وان ما توجه اليه بصورة النهي كان المراد به ضربا من الكراهة دون الحظر ، وانما قلنا ذلك لقيام الدلالة على عصمتهما من سائر القبائح صغائرها وكبائرها ، فعلى هذا لايحتاج ان تقول : انهما تأولا فأخطئا ، على ما قال البلخي والرماني، أو وقع منهما سهواً على ما قاله الجبائي:

قوله تعالى :

قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٢) آية بلا خلاف .

---

(١) ديوانه : ٨٣ القصيدة ١٣ •

في هذه الآية حكاية عما قال آدم وحواء (ع) لما عاتبهما الله ووبخهما على ارتكابهما ما نهاهما عنه ، واخبار عن اعترافهما على أنفسهما بأن قالا « ربنا ظلمنا أنفسنا » ومعناه بخسناها الثواب بترك المندوب اليه • والظلم هو النقص •

وعلى مذهب من يقول انهما فعلا صغيرة لا بد ان يحمل قوله « ظلمنا انفسنا » على تنقيص الثواب ، لان عندهم ان الصغيرة انقصت ثواب طاعاتهم ، فكان ذلك ظلما للنفس ، فأما من يقول : ان الصغيرة تقع مكفرة من غير ان ينقص من ثواب فاعلها شيء ، فلا يتصور معنى لقوله « ظلمنا أنفسنا » ولا يثبت فيهما فائدة ، لانهما لم يستحقا عقابا بلا خلاف •

وصفة ظالم مفارقة لقولنا : ظلمنا ، لان الظالم اسم ذم في اكثر التعارف ، وظلم قد يستعمل في غير المستحق للعقاب والذم ، كما ان اسم (مؤمن) اسم مدح لمستحق الثواب ، وآمن يؤمن بخلاف ذلك عند القائلين بالوعيد •

وقوله « وان لم تغفر لنا » معناه ان لم تستر علينا ، لان الغفر هو الستر على ما بيناه فيما مضى ، وعلى مذهب من يقول : ان معصيتهم كانت صغيرة وقعت مكفرة لا معنى لقوله « وان لم تغفر لنا » ، لان الغفران كائن لامحالة ، ولا يحسن المؤاخذة به •

وقوله « لنكونن من الخاسرين » المعنى ان لم تتفضل علينا بنعمك التي تتم بها ما فوتناه نفوسنا من الثواب بضروب تفضلك لنكونن من جملة من خسر ، ولم يربح • والانسان يصح ان يظلم نفسه بأن يدخل عليها ضررا غير مستحق ، ولا يدفع عنها ضررا أعظم ، ولا يجتلب منفعة توفي عليه • ولا يصح ان يكون معاقبا لنفسه ، ويجوز ان يأمر الله تعالى المكلف ان يضّر بنفسه ، ولا يحسن ان يأمره ان يعاقب نفسه ، لان امر الحكيم يدل على الترغيب فى الشيء ، ولا يجوز أن يرغبه في عقابه ، كما لا يجوز ان يرغبه في ذمه ولعنه •

قوله تعالى :

قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٣) آية بلا خلاف.

اختلفوا في المعنى بهذه الآية ، فقال السدي وأبو علي الجبائي وأبو بكر ابن الاخشيد : ان المراد بالخطاب آدم وحواء وابليس ، جمع بينهم فى الذكر ، وان كان الخطاب لهم وقع في أوقات متفرقة ، لان ابليس امر بالهبوط حين أمتنع من السجود ، وآدم وحواء حين أكلا من الشجرة ، وانتزع لباسهما • وقال أبو صالح : الخطاب متوجه الى آدم وحواء والحية • وقال الحسن ـ قولا بعيداً من الصواب ـ وهو ان المراد به آدم وحواء والوسوسة ، وهذا قول منعزب عنه ، لان الوسوسة لا تخاطب •

والهبوط هو النزول بسرعة ، والبعض هو أحد قسمي العدة ، وأحد قسمي العشرة بعضها ، واحد قسمي الاثنين بعضهما ولا بعض للواحد ، لانه لا ينقسم • وقوله « بعضكم لبعض » أضاف (البعض) الى جملة هو منها ، ولا يجوز ان يضاف (غير) الى جملة هو منها ، لان اضافة (غير) الى الجملة والتفصيل لصحة ان يكون لكل واحد غير ، وليس كذلك بعض ، لانه لا يصح ان يكون لكل واحد بعض فأضافته الى الجملة فقط •

والعدوّ ضد الوليّ ، ومن صفة العدو انه مراصد بالمكاره • ومن صفة الوليّ انه مراصد بالمحاب • وقال الرماني : العدو هو النائي بنصرته في وقت الحاجة الى معونته ، والولي هو الداني بنصرته في وقت الحاجة الى معونته •

وقوله « ولكم في الارض مستقر » فالمستقر قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال ابو العالية : هو موضع استقرار •

الثاني ـ انه الاستقرار بعينه ، لان المصدر يجيء على وزن المفعول نحو

و « ندخلكم مدخلا كريما » (١) أي ادخالا كريما قال الشاعر :

أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلا وانجو اذا غم الجبان من الكرب (٢)

وقوله « ومتاع الى حين » فالمتاع الانتفاع بما فيه عاجل استلذاذ ، لان المناظر الحسنة يستمتع بها لما فيها من عاجل اللذة . والحين الوقت ، قصيرا كان او طويلا ، الا انه قد استعمل على طول الوقت ـ ههنا ـ وليس بأصل فيه كقول القائل : ما لقيته منذ حين قال الشاعر :

وما مزاحك بعد الحلم والدين وقد علاك مشيب حين لا حين (٣)

أي وقت لا وقت ، وقال البلخي « الى حين » معناه الى القيامة .

قوله تعالى :

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٤)

آية بلا خلاف .

قرأ ابن ذكوان وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب « تخرجون » بفتح التاء وضم الراء . الباقون بضم التاء وفتح الراء . من قرأ بضم التاء ، فلقوله « انكم مخرجون » (٤) وقوله « كذلك نخرج الموتى » (٥) . ومن فتح التاء، فلاجماع الكل في قوله «ثم اذا دعاكم دعوةمن الارض اذاانتم تخرجون»(٦) بفتح التاء ولقوله « الى ربهم ينسلون » (٧) فأسند الفعل اليهم ، ولانه اشبه

(١) سورة ٤ النساء آية ٣٠ (٢) قائله كعب بن مالك . اللسان (قتل) .

(٣) قائله جرير . ديوانه : ٥٨٦ وسيبويه ١/٣٥٨ ومجاز القرآن ١ /٢١٢ وتفسير الطبري ١٢ / ٣٥٩ . ورواية الديوان وسيبويه (ما بال جهلك بعد الحلم والدين) .

(٤) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٣٥ (٥) سورة ٧ الاعراف آية ٥٦ .

(٦) سورة ٣٠ الروم آية ٢٥ (٧) سورة ٣٦ يس آية ٥١ .

بما قبله من قوله « فيها تحيون وفيها تموتون » (٨) وكما قال « كما بدأكم تعودون » (٩) اضاف الفعل اليهم •

وفى الآية اخبار من الله تعالى وحكاية عما قاله لآدم انكم تحيون في هذه الارض التي تهبطون اليها، وفيها تموتون،ومنها تخرجون ، للبعث يوم القيامة• قال الجبائي في الآية دلالة على ان الله (عزّ وجلّ) يخرج العباد يوم القيامة من هذه الارض التي حيوا فيها بعد موتهم ، وانه يفنيها بعد ان يخرج العباد منها في يوم الحشر ، واذا أراد افناءها زجرهم عنها زجرة فيصيرون الى ارض اخرى وهذا معنى قوله « فانما هي زجرة واحدة فاذا هم بالساهرة » (١٠) •

قوله تعالى :

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٥) آية بلاخلاف •

قرأ أهل المدينة ، وابن عامر والكسائي « ولباس التقوى » بالنصب • الباقون بالرفع ، ومن نصب حمله على (انزل) من قوله « قد أنزلنا عليكم لباساً ، ولباس التقوى » وانزلنا ههنا مثل قوله « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » [١] ومثل قوله « وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج » [٢] أي خلق • وانما قال « أنزلنا عليكم لباسا » لاحد أمرين •

أحدهما ـ لانه ينبت بالمطر الذي ينزل من السماء، في قول الحسن والجبائي•

الثاني ـ لأن البركات تنسب الى أنها تأتي من السماء كقوله « وأنزلنا

(٨) سورة ٧ الاعراف آية ٢٤ (٩) سورة ٧ الاعراف آية ٢٩ •

(١٠) سورة ٧٩ النازعات آية ١٤ •

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٥ (٢) سورة ٣٩ الزمر آية ٦ •

الحديد فيه بأس شديد » [٣] وقوله « ذلك » على هذا مبتدأ وخبره (خير) ، ومن رفع قطع اللباس من الاول واستأنف ، فجعله مبتدأ وجعل قوله «ذلك» صفة له أو بدلا أو عطف بيان . ومن قال « ذلك » لغو فقد أخطأ ، لأنه يجوز أن يكون على أحد ما قلناه ، و (خير) خبر لـ (لباس) وتقديره لباس التقوى خير لكم إذا أخذتم به وأقرب لكم الى الله مما خلق لكم من اللباس والرياش الذي يتجمل به ، وأضيف اللباس الى التقوى كما أضيف في قوله « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » [٤] الى (الجوع) .

وهذه الآية خطاب من الله تعالى لاهل كل زمان من المكلفين على ما يصح ويجوز من وصول ذلك اليهم ، كما يوصي الانسان لولده وولد ولده ـ وان نزلوا ـ بتقوى الله وايثار طاعته ، ويجوز خطاب المعدوم بمعنى أن يراد بالخطاب اذا كان المعلوم أنه سيوجد وتتكامل فيه شروط التكليف ، ولا يجوز أن يراد من لا يوجد لأن ذلك عبث لا فائدة فيه .

واللباس كلما يصلح للبس من ثوب أو غيره من نحو الدرع ، وما يغشى به البيت من نطع او كسوة . واصله المصـدر تقول : لبسه يلبسه لَبساً ولباساً ، ولِبساً ـ بكسر اللام ـ قال الشاعر :

فلمـا كشفن اللبس عنـه مسحنه ... بأطراف طفل زان غيلا موشما [٥]

الغيل الساعد ، ووصفها بلطف الكف . (والريش) : ما فيه الجمال ، ومنه ريش الطائر ، وقيل اصله المصدر من راشه يريشه ، وقد تريش فـلان أي صار له ما يعيش به ، قال الشاعر أنشده سيبويه :

وريشي منـكم وهواي معكم ... وإن كانت زيارتكم لمـاما [٦]

---

(٣) وسورة ٥٧ الحديد آية ٢٥ (٤) سورة ١٦ النحل آية ١١٢ .

(٥) قائله « حميد بن ثور الهلالي » ديوانه ١٤ ومعاني القرآن ١ /٣٧٥ وتفسير الطبري ١٢ / ٣٦٤ واللسان (لبس) ، (طفل) .

(٦) كتاب سيبويه ٢/٤٥ نسبه الى الراعي .

وقال سعيد الجهني الرياش المعاش • وقال الزجاج : الريش اللباس يقولون : اعطيت الرجل فريشته أي كسوته ، وجمعه رياش •

قال مجاهد : وإنما ذكر اللباس ــ ههنا ــ لأن المشركين كانوا يتعرون في الطواف حتى تبدو سوآتهم باغواء الشياطين ، كما أغوي أبويهم قبل هذا الاغواء • وقوله « يواري سوآتكم » معناه يستر ما يسوءكم إنكشافه من الجسد ، لأن السوءة ما يسوء انكشافه من الجسد ، والعورة ترجع الى النقيصة في الجسد قال الشاعر :

خرقوا جيب فتاتهم لم يبالوا سوءة الرجله (٧)

ولباس التقوى فيه خمسة أقوال :

احدها ــ قال ابن عباس : هو العمل الصالح •

الثاني ــ قال قتادة والسدي وابن جريج هو الايمان •

الثالث ــ قال الحسن : هو الحياء الذي يكسبكم التقوى •

الرابع ــ قال الجبائي : هو الذي يقتصر عليه من أراد التواضع والنسك في العبادة من لبس الصوف والخشن من الثياب •

الخامس ــ قال الرماني : هو العمل الذي يقي العقاب ، وفيه الجمال مثل جمال الناس من الثياب • وقال الحسين بن علي المغربي « لباس التقوى » يعني الذي كان عليكما في الجنة خير لكم بدلالة قوله « ذلك » وهي للبعيد •

وقوله « ذلك من آيات الله » معناه إن الذي فعلناه بكم من حجج الله التي دلتكم على توحيده من الله « لعلهم يذكرون » معناه لكي يتفكروا فيها ويؤمنوا بالله وبرسوله •

---

(٧) اللسان (رجل) والكامل للمبرد ١/١٦٥ وتفسير الطبري ١٢/٣٦١ وشرح الحماسة ١/١١٧ •

قوله تعـالى :

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٦) آية بلاخلاف •

هذا خطاب من الله لأولاد آدم العقلاء منهم المكلفين ، فنهاهم أن يفتنوا بفتنة الشيطان • والفتنة هي الاختبار والا بتلاء وافتتان الشيطان يكون بالدعاء الى المعاصي من الجهة التي تميل اليها النفوس وما تشبهيه • وانما جازان ينهي الانسان بصيغة النهي للشيطان ، لأنه أبلغ في التحذير من حيث يقتضي أنه يطلبنا بالمكروه ، ويقصدنا بالعداوة ، فالنهي له يدخل فيه النهي لنا عن ترك التحذير منه •

وقوله « كما اخرج أبويكم من الجنة » يعني أغوى أبويكم آدم وحواء حتى خرجا من الجنة ، فنسب الاخراج اليه لما كان باغوائه ، وجرى ذلك مجرى ذم الله تعالى فرعون بأنه يذبح أبناءهم وإنما أمر بذلك ، وتحقيق الذم فيها راجع الى فعل القتل المذموم ، ولكنه يذكر بهذه الصفة لبيان منزلة فعله في عظم الفاحشة •

وقوله « ينزع عنهما لباسهما » في موضع الحال من الشيطان ، وتقديره نازعاً عنهما لباسهما لكي تبدو سوءاتهما فيرياها ، والنزع قلع الشيء من موضعه الذي هو ملابس له ويقال : نزع من الأمر ينزع نزوعاً تشبيهاً بهذا ، ونازعه اذا حاول كل واحد منهما أن يزيل صاحبه عما هو عليه ، وغرض الشيطان في ان يريا سوآتهما هو ان يغمهما ذلك ويسوءهما انتبدولغيرهما،كما بدالهما، لان ذلك صفة كل من له مروءة • واللباس الذي ينزع عنهما قيل فيه ثلاثة

أقوال :

احدها ـ قال ابن عباس : كان لباسهما الظفر •

وقال وهب بن منبة كان لباسهما نوراً •

وقال قوم هي ثياب من ثياب الجنة •

وقوله « إنه » يعني الشيطان « يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » وانما كانوا يرونا ولا نراهم لان أبصارهم احد من ابصارنا ، وأكثر ضوءاًمن أبصارنا ، فابصارنا قليلة الشعاع ، ومع ذلك أجسامهم شفافة وأجسامنا كثيفة ، فصح أن يرونا ولا يصح منا أن نراهم ، ولو تكثفوا لصح منا أيضاً أن نراهم •

وقال أبو علي : في الآية دلالة على بطلان قول من يقول : إنه يرى الجن من حيث أن الله عمّم أن لا نراهم ، قال : وإنما يجوز أن يروا فى زمن الانبياء بأن يكثف الله أجسامهم •

وقال أبو الهذيل وأبو بكر بن الاخشيد : يجوز أن يمكنهم الله أن يتكثفوا فيراهم حينئذ من يختص بخدمتهم •

وقبيل الشيطان ، قال الحسن وابن زيد : هو نسله ، وبه قال أبو علي ، واستدل على ذلك بقوله « أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌ » (١) •

وقوله « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » معناه إنا حكمنا بذلك لانهم يتناصرون على الباطل ، ومثله قوله « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » (٢) أي حكموا بذلك حكما باطلا •

و (حيث) في موضع خفض بحرف (من) غير أنها بنيت على الضم ، وأصلها ان تكون مرفوعة لانها ليست لمكان بعينه ، وان ما بعدها صلة لها ليست بمضافة اليه • ومنهم من يقول (من حيث) خرجت ـ بالفتح ـ لالتقاء الساكنين • ومنهم من يقول (حوث) ولا يقرأ بهما •

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٥١ • (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ١٩ •

قوله تعالى :

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٧)

آية بلا خلاف .

الكناية في قوله « فعلوا فاحشة » كناية عن المشركين ، الذين كانوا يبدون سوآتهم في طوافهم : النساء والرجال الحمس خاصة ، وله خبر طويل ـ في قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والسدي ، وقالت العامرية :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله [1]

قال الفراء : كانوا يعملون سنناً من سور مقطعة يشدون على حقوهم فسمي حوقاً ، وإن عمل من صوف سمي رهطاً .

وقال الحسن وأبو علي : هي كناية عن عبدة الاوثان وفواحشهم الشرك بالله والكفر بنعمه . والفاحشة ما عظم قبحه في قول الزجاج ، يقال فحش يفحش فحشاً ، ولا يقال في الصغيرة ـ عند من قال بها ـ فاحشة ، وإن قيل فيها : إنها قبيحة ، كما لا يقال في القوم فاحش ، وإن قيل : قبيح .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم « إذا فعلوا فاحشة » وارتكبوا قبيحاً اعتذروا لنفوسهم بأن قالوا : وجدنا آباءنا يفعلونها . قال الحسن : وإنما دعاهم الى هذا القول ، لأن أهل الجاهلية كانوا أهل اجبار ، وقالوا : لو كره الله ما نحن عليه من هذا الدين لنقلنا عنه ، فهو قوله « والله أمرنا بها » وقال غيره : إنهم توهموا أن آباءهم لم يفعلوا ذلك إلا وهو من قبل الله . وإنما قال آباؤهم بسببه فحينئذ رد الله عليهم قولهم بأن قال « إن الله لا يأمر بالفحشاء » ثم قال على وجه الانكار « أتقولون على الله ما لا تعلمون » ؟!

(١) تفسير الطبري : ١٢/٣٧٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ومعاني القرآن للفراء ١/٣٧٧ .

لأنهم ان قالوا لا ، نقضوا مذهبهم ، وإن قالوا : نعم ، افتضحوا في قولهم وقال الزجاج : معنى « أتقولون على الله » أتكذبون عليه ؟!

وفي الآية حجة على أصحاب المعارف ، وأهل التقليد ، لأنه ذم الفريقين ، ولو كان الأمر على ما يقولون لما توجه عليهما الذم !! .

فإن قيل : إنما أنكر الله قولهم : إن الله أمرنا بها ، ولا يدفع ذلك أن يكون مريداً لها ، لأن الأمر منفصل من الارادة .

قلنا : الأمر لا يكون أمراً إلا بارادة المأمور به ، فما أراده فقد رغب فيه ودعا اليه فاشتركا في المعنى .

قوله تعالى :

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (٢٨) كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ☆ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٢٩) .

آيتان ، تمام الأولى في الكوفي « تعودون » وفي البصري تمام الأولى « مخلصين له الدين » وتمام الأخرى عند الجميع « مهتدون » .

لما أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا : إن الله أمرنا بما نفعله ونعتقده من الفواحش ، وردّ عليهم بقوله « إن الله لا يأمر بالفحشاء » أمر نبيه (ص) أن يقول « ان الله يأمر بالقسط » وهو العدل ــ في قول مجاهد والسدي وأكثر المفسرين ــ وأصله العدول ، فاذا كان الى جهة الحق ، فهو عدل . ومنه قوله « إن الله يحب المقسطين » (١) . وإذا كان الى جهة الباطل ،

(١) سورة ٥ المائدة آية ٤٥ وسورة ٤٩ الحجرات آية ٩ وسورة ٦٠ الممتحنة آية ٨ .

فهو جور ، ومنه قوله « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » (٢) . وأمرهم أن يقيموا وجوههم عند كل مسجد وقيل فيه وجوه :

أحدها ــ قال مجاهد والسدي وابن زيد : معناه توجهوا الى قبلة كل مسجد في الصلاة على استقامة .

الثاني ــ قال الربيع : توجهوا بالاخلاص لله ، لا للوثن ولا غيره . وقال الفراء : معناه اذا دخل عليك وقت الصلاة في مسجد فصل فيه ، ولا تقل آتى مسجد قومي ، وهو اختيار المغربي :

وقوله « وادعوه مخلصين له الدين » أمرهم بالدعاء والتضرع اليه تعالى على وجه الاخلاص . وأصل الاخلاص إخراج كل شائب من الخبث ، ومنه إخلاص الدين لله (عز وجل) وهو توجيه العبادة اليه خالصاً دون غيره .

وقوله « كما بدأكم تعودون » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد وابن زيد : كما خلقكم أولاً تعودون بعد الفناء ، وروي عن النبي (ص) أنه قال (يحشرون عراة حفاة عزلاً ، كما بدأنا أول خلق نعيده . وعداً علينا انا كنا فاعلين) .

الثاني ــ قال ابن عباس وجابر في رواية أنهم يبعثون على ما ماتوا عليه : المؤمن على إيمانه والكافر على كفره . وإنما ذكر هذا القول ، لأحد أمرين :

أحدهما ــ قال الزجاج : على وجه الحجاج عليهم ، لأنهم كانوا لا يقرُّون بالبعث .

الثاني ــ على وجه الأمر بالاقرار به ، كأنه قيل وأقروا أنه كما بدأكم تعودون . والبدأ فعل الشيء أول مرة ، والعود فعله ثاني مرة . وقد يكون فعل أول خصلة منه بدأ ، كبدء الصلاة ، وبدء القراءة ، بدأهم وأبداهم لغتان .

وقوله « فريقا هدى » فالفريق جماعة انفصلت من جماعة ، وذكر (فريق) هنا أحسن من ذكر (نفر وقوم أو نحوه) لما فيه من الاشعار بالمباينة ونصب

(٢) سورة ٧٢ الجن آية ١٥ .

« فريقاً هدى » • وقوله « وفريقاً حق عليهم الضلالة » لتقابل فريقاً هدى بعطف فعل على فعل، وتقديره وفريقا أضل إلا انه فسره مابعده نظير قوله « يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً » [1] • وقال الفراء : نصب فريقاً على الحال ، والعامل فيه (تعودون) فريقاً ، والثاني عطف عليه ، ولو رفع على تقدير أحدهما كذا ، والآخر كذا ، كان جائزاً كما قال « قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة » [2] والهدي والاضلال في الآية يحتمل أربعة أوجه :

أحدها ــ أنه حكم بأن هؤلاء مهتدون مدحاً لهم ، وحكم بأن اولئك ضالون ذماً لهم •

الثاني ــ الدلالة التي انشرح بها صدور هؤلاء للاهتداء ، وضاقت بها صدور أولئك لشدة محبتهم لما هم عليه من مذهبهم •

الثالث ــ هدى بأن لطف لهؤلاء بما اهتدوا عنده ، وصار كالسبب لضلال أولئك بتخيرهم لينتقلوا عن فاسد مذهبهم •

الرابع ــ أنه هدى هؤلاء الى طريق الثواب ، وأولئك لعمى الاضلال عنه بالعقاب في النار •

وقوله « انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله » اخبار منه تعالى انه فعل بهم ما فعل من الضلال ، لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، والاتخاذ الافتعال من الأخذ بمعنى اعداد الشيء لأمر من الامور ، فلما أعدوا الشياطين لنصرتهم ، كانوا قد اتخذوهم أولياء باعدادهم •

وقوله « ويحسبون انهم مهتدون » يعني هؤلاء الكفار يظنون أنهم مهتدون • والحسبان والظن واحد ، وهو ما قوي عند الظانّ كون المظنون على ما ظنه مع تجويزه أن يكون على غيره ، فبالقوة يتميز من اعتقاد التقليد والتخمين ، وبالتجويز يتميز من العلم ، لأن مع العلم القطع •

(١) سورة ٧٦ الدهر آية ٣١ • (٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٣ •

قوله تعالى :

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣٠) آية بلا خلاف .

أمر الله تعالى في هذه الآية أولاد آدم الذكور منهم ، ـ لأن (بني) جمع ابن ، وإنما نصب لأنه نداء مضاف ، والابن هو الولد الذكر ، والبنت الولد الانثى ـ أمرهم الله بأن يأخذوا ، ومعناه أن يتناولوا زينتهم . والزينة هي اللبسة الحسنة ، ويسمى ما يتزين به زينة ، كالثياب الجميلة والحلية ، ونحو ذلك . وقوله « عند كل مسجد » روي عن أبي جعفر (ع) أنه قال في الجمعات والأعياد . وقال ابن عباس وعطاء وابراهيم والحسن وقتادة وسعيد ابن جبير : كانوا يطوفون بالبيت عراة فنهاهم الله عن ذلك . وقال مجاهد : ما وارى العورة ، ولو عباءة . وقال الزجاج : هو أمر بالاستتار في الصلاة ، قال أبو علي : ولهذا صار التزين للاعياد ، والجمع سنّة .

وقيل في وجه شبهتهم في تعرّيهم في الطواف وإبداء السوأة وجهان :

أحدهما ـ أن الثياب قد دنستها المعاصي فيجردوا منها .

الثاني ـ تفألوا بالتعري من الذنوب .

وقوله « وكلوا واشربوا » صورته صورة الأمر ، ومعناه إباحة الأكل والشرب .

وقوله « ولا تسرفوا » نهي لهم عن الاسراف ، وهو الخروج عن حد الاستواء في زيادة المقدار . وقيل : المراد الخروج عن الحلال إلى الحرام ، وقيل : الخروج مما ينفع الى ما يضر ، وقيل : الزيادة على الشبع فالاسراف والاقتار مذمومان .

وقوله « إنه لا يحب المسرفين » معناه يبغض المسرفين ، لأنه ذمّ لهم ، ولو كان بمعنى لا يحبهم ولا يبغضهم لم يكن ذماً لهم ولا مدحاً ، وقال أبو علي :

من لا يحبه الله فهو يبغضه ويعاديه •

قوله تعالى :

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣١) آية بلا خلاف •

قرأ نافع وحده « خالصة يوم القيامة » بالرفع • الباقون بالنصب •

من رفعه جعله خبر المبتدأ الذي هو (هي) ويكون « للذين آمنوا » تبييناً للخلوص ، ولا شيء فيه على هذا • ومن قال هذا حلو حامض أمكن أن يكون « للذين آمنوا » خبراً و (خالصة) خبراً آخر • ومن نصب (خالصة) كان حالاً مما في قوله « للذين آمنوا » ألا ترى أن فيه ذكراً يعود الى المبتدأ الذي هو (هي) فخالصة حال عن ذلك الذكر ، والعامل في الحال ما في اللام من معنى الفعل ، و « هي » متعلقة بمحذوف يعود اليه الذكر الذي كأن يكون في المحذوف ، ولو ذكر ولم يحذف ، وليس متعلقاً بالخلوص ، كما تعلق به في قول من رفع • وتقديره هو للذين آمنوا في الحياة الدنيا لهم خالصة ، ذكره الفراء •

وحجة من رفع أن المعنى هي خالصة للذين آمنوا يوم القيامة ، وإن شركهم فيها غيرهم من الكافرين في الدنيا •

ومن نصب فالمعنى عنده هي ثابتة للذين آمنوا في حال خلوصها يوم القيمة لهم وانتصابه على الحال أشبه بقوله « إن المتقين في جنات وعيون آخذين » (١) ونحو ذلك مما انتصب الأمر فيه على الابتداء وخبره ، وما يجري مجراه إذا كان فيه معنى (فعل) •

لما أباح الله تعالى وحث على تناول الزينة في كل مسجد وندب اليه وأباح

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ١٥ •

الاكل والشرب ،ونهى عن الاسراف ،وهناك قوم يحرمون كثيرا من الاشياء من هذا الجنس ، قال الله تعالى منكراً لذلك « من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » • وقيل في معنى الطيبات قولان : أحدهما ــ المستلذ من الرزق • الثاني ــ الحلال من الرزق ، والاول أشبه بخلوصه يوم القيامة • وإنما ذكر الطيبات من جملة ذلك ــ في قول ابن زيد والسدي ــ لأنهم كانوا يحرمون البحائر والسوائب ، وظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز لأحد تجنب الزينة والملاذ الطيبة على وجه التحريم ، وأما من اجتنبها على ان غيرها أفضل منها فلا مانع منه •

ثم أخبر تعالى فقال (هي) يعني الطيبات « للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » وقيل في معنى « خالصة يوم القيمة » قولان :

أحدهما ــ قال ابن عباس والحسن والضحاك وابن جريج ، وابن زيد : هي خالصة للمؤمنين دون أعدائهم من المشركين •

وقال أبو علي : هي خالصة لهم من شائب مضرّة تلحقهم •

وقال أبو علي الفارسي : لا يخلو قوله « في الحياة الدنيا » من أن يتعلق بـ (حرم) أو بـ (زينة) أو بـ (أخرج) أو بـ « الطيبات » أو بـ« الرزق » من قوله « من الرزق » أو بقوله « آمنوا » ولا يجوز أن يتعلق بـ (حرم) فيكون التقدير قل من حرم في الحياة الدنيا ، ويكون المعنى قل من حرم في وقت الحياة الدنيا ، ولا يجوز أن يتعلق بـ (زينة) لأنه مصدر أو جار مجراه ، ولما وصفها لم يجز أن يتعلق بها شيء بعد الوصف كما لا يتعلق به العطف عليه ، ويجوز أن يتعلق بـ (أخرج) لعباده في الحياة الدنيا •

فإن قيل : كيف يتعلق بـ (أخرج) وفيه فصل بين الصلة والموصول بقوله « قل هي للذين آمنوا » وهو كلام مستأنف ليس في الصلة ؟

قيل لا يمنع الفصل به ، لأنه مما يسدد القصة ، وقد قال « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة » (١) فقوله « وترهقهم ذلة »

(١) سورة ١٠ يونس آية ٢٧ •

معطوف على كسبوا ، فكذلك قوله « قل هي للذين آمنوا » •

ويجوز أن يتعلق بـ (الرزق) أيضاً إن كان موصولاً •

ويجوز أن يتعلق بـ (آمنوا) الذي هو صلة (الذين) أي آمنوا في الحياة الدنيا ، وكل ما ذكرناه من هذه الأشياء يجوز أن يتعلق به هذا الظرف •

وقوله « كذلك نفصل الآيات » أي كما نميز لكم الآيات وندلكم بها على منافعكم وصلاح دينكم ، كذلك نفصل الآيات لكل عاقل يعلم معناها ودلالتها •

قوله تعالى :

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٢) آية بلا خلاف •

لما أنكر تعالى على من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، وذكر أنه أباح ذلك للمؤمنين فى دار الدنيا بيّن عقيب ذلك ما حرمه عليهم ، فقال « قل » يا محمد « إنما حرّم ربي الفواحش » ومعناه لم يحرم ربي إلا الفواحش ، لأنا قد بينا أن (إنما) تدل على تحقيق ما ذكر ، ونفي ما لم يذكر •

والتحريم هو المنع من الفعل باقامة الدليل على وجوب تجنبه ، وضده التحليل ، وهو الاطلاق في الفعل بالبيان عن جواز تناوله • وأصل التحريم المنع من قولهم : حرم فلان الرزق ، فهو محروم حرمانا ، وحرم الرجل اذا لج في الشيء بالامتناع منه ، وحرمه تحريماً ، وأحرم بالحج إحراماً وتحرّم بطعامه تحرما ، واستحرمت الشاة اذاطلبت الفحل ،لانها تتبعه كماتتبع الحرمةالبعل، والحرم مكة وما حولها مما هو معروف ، وأشهر الحُرم ذو القعدة وذو

الحجة والمحرم ورجب ، والمحرَم القرابة التي لا يحل تزوجها ، وحريم الدار ما كان من حقوقها ، والمحرم السوط الذي لا يلين لأنه حرام أن يضرب به حتى يلين .

والفواحش جمع فاحشة ، وهي أقبح القبائح . وهي الكبائر .

وقوله « ما ظهر منها وما بطن » يعني ما علن وما خفي .

وقد قدمنا اختلاف المفسرين في ذلك ، وانما ذكر مع الفواحش هذه القبائح ، وهي داخلة فيها لأحد أمرين :

أحدهما ــ للبيان عن التفصيل ، كأنه قيل الفواحش التي منها الاثم ، ومنها البغي ، ومنها الاشراك بالله .

والثاني ــ ان الفواحش ــ هاهنا ــ الزنا وهو الذي بطن ، والتعري في الطواف ، وهو الذي ظهر ــ في قول مجاهد ــ وقال قوم : الاثم هو الخمر، وما ظهر الزنا، وما بطن هو نكاح امرأة الأب ، والاثم يعم جميع المعاصي ، وأنشد ابن الانباري في أن الاثم هو الخمر :

شربت الاثم حتى ضل عقلي كذاك الاثم يصنع بالعقول (١)

وقال الفراء : الاثم ما دون الحد ، والبغي هو الاستطالة على الناس ، وحده طلب الترأس بالقهر من غير حق . وأصل البغي الطلب ، تقول : هذه بغيتي أي طلبتي ، وأبتغي كذا ابتغاء . وما تبغي ؟ أي ما تطلب ، وينبغي كذا أي هو الأولى أن يطلب .

وقوله « ما لم ينزل به سلطاناً » السلطان الحجة ــ في قول الحسن وغيره ــ ومثله البرهان والبيان والفرقان ، وحدودها تختلف ، فالبيان إظهار المعنى للنفس كاظهار نقيضه ، والبرهان إظهار صحة المعنى وفساد نقيضه ، والفرقان إظهار تميز المعنى مما التبس به . والسلطان إظهار ما يتسلط به على نقيض المعنى بالابطال .

---

(١) اللسان (أثم) .

و « أن تقولوا على الله ما لا تعلمون » أي وحرم عليكم ذلك ، وذلك يدل على بطلان التقليد ، لأن المقلد لا يعلم صحة ما قلد فيه •

قوله تعالى :

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٣) آية بلا خلاف •

قيل الفرق بين أن تقول : ولكل أمة أجل ، وبين ولكل أحد أجل من وجهين :

أحدهما ـ أن ذكر الأمّة يقتضي تقارب أعمار أهل العصر •

والثاني ـ أنه يقتضي إهلاكهم في الدنيا بعد إقامة الحجة عليهم باتيان الرسل •

والامة الجماعة التي يعمها معنى • وأصله أمه يؤمه إذا قصده ، فالأمّة الجماعة التي على مقصد واحد • والأجل الوقت المضروب لانقضاء المهل ، لأن بين العقد الأول الذي يضرب لنفس الأجل ، وبين الوقت الآخر مهلا ، مثل أجل الدين ، وأجل الوعد ، وأجل العمر •

وقال أبو علي الجبائي : في الآية دلالة على أن الأجل واحد ، لأنه لا يجوز أن يكون الظالم بقتل الانسان قد اقتطعه عن أجله • وقال أبو بكر ابن الاخشيد : ليس الأمر على ذلك لانها قد دلت أنه غير هذا على الاجلين •

وقوله « فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » معنى لا يستأخرون ، لا يتأخرون ، وإنما قيل لا يستأخرون من أجل أنهم لا يطلبون التأخر ، فهو أبلغ في المعنى من لا يتأخرون ، لأن الاستئخار طلب التأخر •

وقوله « ولا يستقدمون » معناه لا يتقدمون ، والمعنى اذا قرب أجلهم لا يطلبون التقدم ولا التأخر ، لأن بعد حضور الأجل ونزول الاملاك يستحيل منهم طلب ذلك ، كما يقال جاء الشتاء وجاء الصيف إذا قارب وقته لأنه

متوقع كتوقعه •

قوله تعـالى :

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٤)

آية بلا خلاف •

هذا خطاب من الله تعالى لجميع بني آدم المكلفين منهم أنه يبعث إليهم رسلاً منهم يقصون عليهم آيات الله وحججه وبراهينه ، وهو ما أنزله عليهم من كتبه ونصب لهم من أدلته •

وقوله « إمّا » أصله (إنْ) حرف الشرط دخلت عليه (ما) ولدخولها دخلت النون الثقيلة في (يأتينكم) ولو قال : إن يأتينكم ، لم يجز ، وإنما كان كذلك ، لأن (ما) جعلته في حكم غير الواجب ، لأنه ينزل منزلة ما هو غير كائن حتى احتيج معه الى القسم مع خفاء أمره من جهة المستقبل ، ولم يجز دخول النون على الواجب في مثل هو ، هون ، لأن هذه النون تؤذن بأن ما دخلت عليه قد احتاج الى التأكيد لخفاء أمره من جهة المستقبل • وانه غير واجب لخفاء أمره من هاتين الجهتين ، لأجله احتاج الى نون التأكيد • وإنما قال « رسل منكم » بلفظ الجمع ، وإنما أتى هؤلاء رسول منهم لأنه على تقدير يأتين لكل أمة ، فصار كأنه خطاب لجميع المكلفين • وجواب (إنْ) يحتمل أن يكون أحد أمرين :

أحدهما ــ أن يكون قوله « فمن اتقى » منكم « وأصلح » لأن التفصيل يقتضي منكم •

الثاني ــ أن يكون محذوفاً يدل الكلام عليه كأنه قال فأطيعوهم •

وقوله « يقصون » فالقصص وصل الحديث بالحديث في وصل الحديث المتتبع بحديث مثله •

وقوله « فمن اتقى وأصلح » معناه فمن اتقى منكم وأصلح « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وظاهر الآية يدل على أن من اتقى معاصي الله واجتنبها، وأصلح بأن فعل الصالحات ، لا خوف عليهم في الآخرة ــ وهو قول الجبائي ــ وقال أبو بكر بن الاخشيد : لا يدل على ذلك ، لأن الله تعالى قال فى وصفه يوم القيامة « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » (١) وإنما هو كقول الطبيب للمريض لا بأس عليك ، ولا خوف عليك ، ومعناه أن أمره يؤل الى السلامة والعافية . والاول أقوى ، لأنه الظاهر غير أن ذلك يكون لمن اتقى جميع معاصي الله ، فأما من جمع بين الطاعات والمعاصي فان خوفه من عقاب الله على معاصيه لابد منه ، لأنا لا نقطع على أن الله تعالى يغفر له لا محالة ، ولا نقول بالاحباط فنقول ثواب إيمانه أحبط عقاب معاصيه ، فاذا اجتمعا فلابد من أن يخاف من وصول العقاب اليه . ومن قال لفظة « اتقى » لا تطلق إلا للمؤمن من أهل الثواب ، لانها صفة مدح ، فلابد من أن يكون مشروطاً بالخلوص مما يحبطه ، فما ذكروه أولاً صحيح نحن نعتبره ، لأن المتقي لا يكون إلا مؤمناً مستحقاً للثواب ، غير أنه ليس من شرطه ألا يكون معه شيء من العقاب ، بل عندنا يجتمعان ، فلا يستمر ما قالوه .

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٥) آية

أخبر الله تعالى أن الذين كذبوا بحججه وبراهينه ــ ، ولم يصدقوه ، واستكبروا عنها ــ انهم أصحاب النار الملازمون لها على وجه الخلود والتأبيد . والتكذيب هو تنزيل الخبر على أنه كذب . والتصديق تنزيل الخبر على

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٢ .

انه صدق ، فالتكذيب بآيات الله كفر ، والتكذيب بالطاغوت إيمان ، فلذلك توعد على التكذيب بآيات الله بعقاب الابد ٠ والاستكبار طلب الترفع بالباطل، ولفظة « مستكبر » صفة ذم في جميع الخلق ، والخلود هو لزوم الشيء على ما هو فيه ٠ومعنى « أخلد الى الارض »[1] لزوم الركون اليها ٠والصاحب والقرين متقاربان غير أن القرين فيه معنى النظير ، وليس ذلك في الصاحب فلذلك قيل : أصحاب رسول الله ، ولم يقل قرناؤه ٠

ولفظة (الذين) مبنية على هذه الصيغة في جميع الأحوال : الرفع ، والنصب ، والجر ، وإنما تثبت مع بعدها بالجمع عن الحرف ، لأن العلة التي لها هي التي موجودة فيه ، وهي نقصانه عن سائر الاسماء حتى تأتي صلته فتتمه ، وليس هذا كالشبيه العارض الذي يزول على وجه ٠ فأما من قال : الذون والذين فانه اعتد بتبعيد الجمع ، فجعله على طريقة المعرف ، ولان هذه الطريقة لما لم تكن اعراباً تاماً لم يمنعوه لما وقع بعده من شبه الحرف بالجمع ٠

قوله تعالى :

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٦) آية بلا خلاف

قوله « فمن أظلم » صورته صورة الاستفهام ، والمراد به الاخبار عن عظم جرم من يفتري على الله كذباً أو يكذب بآيات الله ، لا أنه أحد أظلم لنفسه منه ٠ وانما أورد هذا الخبر بلفظ الاستفهام ، لانه ابلغ برد المخاطب

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٥ ٠

الى نفسه في جوابه مع تحريك النفس له بطريق السؤال • وقد بينا فيمامضى من الكتاب حقيقة الظلم ، وأن أجود ما حدّ به أن قيل : هو الضرر المحض الذي لا نفع فيه يوفّى عليه ، ولا دفع ضرر أعظم من دفعه ، لا عاجلا ولا آجلا ، ولا يكون مستحقاً ولا واقعاً على وجه المدافعة • وقد حد الرماني الظلم بأنه الضرر القبيح من جهة بخس الحق به ، وهذا ينتقض بالألم الذي يدفع به ألم مثله ، لما قلناه •

وقوله « أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب » فالنيل هو وصول النفع الى العبد إذا أطلق ، فان قيد وقع على الضرر ، لأن أصله الوصول الى الشيء من نلت النخلة أنالها نيلاً ، قال امرؤ القيس :

سماحة ذا وبرّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا اذا صحا واذا سكر[1]

والبخل منع النائل لمشقة الاعطاء •

وقيل في معنى « ينالهم نصيبهم من الكتاب » أقوال :

أحدها ـ قال الزجاج والفراء : هو ما ذكره الله تعالى من أنواع العذاب للكفار مثل قوله « فانذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى » [2] وقوله « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم » [3] وغير ذلك مما كتب الله في اللوح المحفوظ•

الثاني ـ قال الربيع وابن زيد : من الرزق والعمر ، والعمل : من الخير والشر في الدنيا •

الثالث ـ قال مجاهد : جميع ما كتب لهم وعليهم ، وهو قول عطية •

وقال بعضهم معناه ينالهم نصيبهم من خير أو شر في الدنيا ، لأنه قال « حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم » وهي الانتهاء • والاجوبة الاولى أقوى

(١) ديوانه : ٨٦ • من قصيدة يمدح بها سعد بن الضباب ويهجو هانيء بن مسعود •

(٢) سورة ٩٢ الليل آية ١٤ ـ ١٦ • (٣) سورة ٣ آل عمران آية ١٠٦

لأن الاظهار فيما يقتضيه عظم الظلم فى الفحش الوعيد والعذاب الأبدي •

وقال سيبويه والزجاج : لا تجوز إمالة (حتى) لانها حرف لا يتصرف ، والامالة ضرب من التصريف ، وكذلك (إما ، وايا ، والا ، ولا) • و (أينما) كتبت بالياء مع امتناع إمالتها تشبيهاً بـ (حبلى) من جهة أن الالف رابعة، ولم يجز مثل ذلك في (إلا) لأن (إلا) تشبه الى • ولا في (اما) التي للتخيير ، لأنها بمنزلة (إن ما) التي للجزاء •

وقوله « حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم » يعني الملائكة التي تنزل عليهم لقبض أرواحهم • وقيل في معنى الوفاة ـ ههنا ـ قولان :

احدهما ـ الحشر الى النار يوم القيامة بعد الحشر الثاني ، وفات الموت الذي يوبخهم عنده الملائكة ـ فى قول أبي علي ـ والوجه في مسألة الملك لمن يتوفاه : التبكيت لمن لم يقم حجته ، والبشارة لمن قام بحجته • وفي الاخبار عن ذلك مصلحة السامع اذا تصور الحال فيه •

وقوله « قالوا أينما كنتم تدعون من دون الله » حكاية سؤال الملائكة لهم وتوبيخهم أن الذين كانوا يدعونهم من دون الله من الاوثان والاصنام لم ينفعوهم في هذه الحال ، بل ضروهم •

وقوله « قالوا ضلوا عنا » حكاية عن جواب الكفار للملائكة أنهم يقولون : ضل من كنا ندعوه من دون الله عنا « وشهدوا على أنفسهم » يعني الكفار أقروا على أنفسهم « أنهم كانوا كافرين » جاحدين بالله ، وكافرين لنعمه بعبادتهم الانداد من دون الله •

قوله تعالى :

قَالَ ٱدْخُلُوا فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا

ضِعْفاً مِنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِنْ لا تَعلَمُونَ (٣٧)

آية واحدة بلاخلاف .

هذا حكاية عن قول الله تعالى للكفار يوم القيامة وأمره لهم بالدخول في جملة الأمم الذين تبعوا من قبلهم من جملة الجن والانس وهم في النار . ويجوز أن يكون ذلك إخباراً عن جعله إياهم في جملة اولئك في النار ، من غير أن يكون هناك قول ، كما قال « كونوا قردة خاسئين » (١) والمراد أنه جعلهم كذلك .

ومعنى الخلو انتفاء الشيء عن مكانه فكل ما انتفى من مكانه ، فقد خلا منه ، وكذلك (خلت) بمعنى مضت ، لانها إذا مضت بالهلاك ، فقد خلا مكانها منها . والجن جنس من الحيوان مستترون عن أعين البشر لرقتهم ، يغلب عليهم التمرد في أفعالهم ، لأن الملك أيضاً مستتر لكن غلب عليه أفعال الخير . وعند قوم : أنهم أجمع رسل الله . والانس جنس من الحيوان يتميز بالصورة الانسانية .

وقوله « كلما دخلت أمة لعنت أختها » يعني فى دينها لا في نسبها ، فأما قوله « والى مدين أخاهم شعيباً » (٢) يعني أنه منهم في النسب . وقوله « حتى اذا اداركوا فيها جميعاً » فوزن اداركوا (تفاعلوا) فأدغمت التاء في الدال واجتلبت ألف الوصل ليمكن النطق بالساكن الذي بعده ، ومعناه تلاحقوا .

وقوله « قالت أخراهم لأولاهم » يعني الفرقة المتأخرة التابعة تقول للامة المتقدمة المتبوعة ، وتشير اليها « هؤلاء أضلونا » عن طريق الحق وأغوونا

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦٥ وسورة ٧ الاعراف آية ١٦٥ .

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ٨٤ وسورة هود آية ٨٣ وسورة ٢٩ العنكبوت آية ٣٦ .

« فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » دعاء منهم عليهم أن يجعل عذابهم ضعفاً ، فقال الله تعالى « لكل ضعف ولكن لا تعلمون » والضعف المثل الزائد على مثله ، فاذا قال القائل : اضعف هذا الدرهم معناه أجعل معه درهماً آخر ، لا ديناراً ، وكذلك اضعف الاثنين أي اجعلهما أربعة . وحكي أن المضعف في كلام العرب ما كان ضعفين ، والمضاعف ما كان أكثر من ذلك . وروي عن عبدالله بن مسعود أن الضعف أفاعي وحيات . واستعمل الضعف بمعنى المثل ، ومنه قوله « يضاعف لها العذاب ضعفين » [٣] يعني مثلين .

وقرأ أبو بكر عن عاصم « ولكن لا يعلمون » بالياء . الباقون بالتاء . ومن قرأ بالتاء ، فتقديره لا تعلمون أيها المخاطبون ما لكل فريق منهم . ومن قرأ بالياء تقديره لكن لايعلم كل فريق ما على الآخر من العقاب .

قوله تعالى :

وَقَالَتْ أُولَيهُمْ لِأُخْرَيهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٨) آية بلاخلاف .

هذا حكاية عن جواب قول الامة الاولى المتبوعة للاخرى التابعة حين سمعت دعاءها عليهم بأن يؤتيهم ضعفاً من العذاب « فما كان لكم علينا من فضل » وقيل في معناه قولان :

أحدهما ــ ما كان لكم علينا من فضل فى ترك الضلال ، وهو قول أبي مخلد والسدي . وقال الجبائي : لمساواتكم لنا في الكفر .

الثاني ــ من فضل في التأويل فتطالبونا بتضييع حقه .

ولفظة (أفعل) على ثلاثة أوجه :

أحدها ــ ما فيه معنى يزيد كذا على كذا ، فهذا لا يجوز فيه التأنيث والتذكير والتثنية والجمع مضافاً كان أو على طريقة (أفعل من كذا) كقولك

(٣) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٠ .

أفضل من زيد وأفضل القوم لتضمنه معنى الفعل ، والمصدر كقولك أفضل القوم بمعنى يزيد فضله على فضلهم •

الثاني ـ ما لم يقصد فيه معنى يزيد كذا على كذا ، فهذا يجوز فيه كل ذلك كقولك : الاكبر والكبرى والاكابر •

الثالث ـ (أفعل) من الألوان والعيوب الظاهرة للحاسة ، فهذا يجيء على (أفعل ، وفعلاء) وجمعه (فُعْل) نحو أحمر ، وحمراء ، وحمر • وأعرج وعرجاء وعرج •

وأما (أفعل) إذا كان اسم جنس ، فانه يثنى ويجمع ولا يؤنث ، وكذلك اذا كان علماً نحو أفكل وأفاكل وأحمد وأحامد • فاما ابطح وأباطح وأجزع واجازع ، فأجري هذا المجرى ، لأنه استعمل على طريقة إسم الجنس وأصله الوصف ، ولا يجوز في (أفعل) الفعول إلا بالتعريف لأيذان معنى (أفعل) معنى أفعل من كذا ، قال سيبويه : لا يجوز نسوة صُغر ولا كبر حتى تعرفه فتقول : النسوة الصغر والكبر •

قوله تعـالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٣٩) آية بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي وخلف « لا يفتح » بالياء والتخفيف ، وقرأ أبو عمرو بالتاء والتخفيف • الباقون بالتاء ، والتشديد • من شدّد ذهب الى التكثير • والمعنى أنهم ليسوا كحال المؤمن في التفتيح مرة بعد أخرى • ومن قرأ بالتاء ، فلان الابواب جماعة فأنث تأنيث الجماعة • ومن قرأ بالياء ، فلأن التأنيث غير حقيقي ، وذهب الى معنى الجمع •

أخبر الله تعالى في هذه الآية « إن الذين كذبوا » بآيات الله وجحدوها ، واستكبروا عنها بمعنى طلبوا التكبر والترفع عن الانقياد لها « لا تفتح لهم أبواب السماء »هوانا لهم واستخفافا بهم فان فتحت فتحت عليهم بالعذاب • وقال ابن عباس والسدي : لأنها تفتح لروح المؤمن ، ولا تفتح لروح الكافر ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وابراهيم : لا تفتح لدعائهم ، ولا أعمالهم •

وقال أبو جعفر (ع) أما المؤمنون فترفع أعمالهم وأرواحهم الى السماء ، فتفتح لهم أبوابها • وأما الكافر ، فيصعد بعمله وروحه حتى اذا بلغ السماء نادى منادٍ : اهبطوا بعمله الى سجين ، وهو واد بحضرموت يقال له : برهوت•

وقال الحسن لا تفتح لدعائهم • وقال ابن جريج : لا تفتح لأرواحهم ولا أعمالهم • وقال أبو علي : لاتفتح لهم أبواب السماء لدخول الجنة ، لان الجنة في السماء •

ثم قال « ولا يدخلون الجنة » يعني هؤلاء المكذبين بآيات الله والمستكبرين عنها سواء كانوا معاندين في ذلك أو غير عالمين بذلك • وإنما تساويا في ذلك ، لان من ليس بعالم قد ازيحت علته باقامة الحجة ، ونصب الأدلة على تصديق آيات الله ، وترك الاستكبار عنها •

وقوله « حتى يلج الجمل في سم الخياط » إنما علق الجائز ، وهو دخولهم الجنة بمحال ، وهو دخول الجمل في سم الخياط ، لأنه لا يكون ، كما قال الشاعر :

إذ شاب الغــراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب [1]

والآخر أنه مضمر بما لا يمكن من قلب الدليل ، والجمل هو البعير ــ ههنا ــ في قول عبدالله والحسن ومجاهد والسدي وعكرمة وأكثر المفسرين• والسم الثقب • ومنه قيل : السم القاتل لأنه ينفذ بلطفه في مسامّ البدن حتى

(١) تفسير الخازن ٢/٨٧ •

يصل الى القلب فتنتقض بنيته ، وكل ثقب في البدن لطيف فهو سُم وسَم بضم السين وفتحها وجمعه سموم ، وقال الفرزدق :

فنفست عن سميه حتى ينفسا وقلت له لا تخش شيئاً ورائيا[٢]

يعني بسميه ثقبي أنفه ، ويجمع السم القاتل سماماً . والخياط والمخيط الابرة . وقيل خياط ومخيط ، كما قيل لحاف وملحف ، وقناع ومقنع ، وإزار ومئزر ، وقرام ومقرم — ذكره الفراء — .

قوله تعالى :

لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤٠) آية بلاخلاف .

أخبر الله تعالى أن لهؤلاء الكفار الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها لهم من جهنم مهاد ، و (جهنم) في موضع جرّ بـ (من) لكن فتح لأنه لا ينصرف لاجتماع التأنيث والتعريف فيه ، واشتقاقه من الجهومة ، وهي الغلظ ، رجل جهم الوجه غليظه ، فسميت بهذا لغلظ أمرها في العذاب ، نعوذ بالله منها . والمهاد الوطأ الذي يفترش . ومنه مهد الصبي ، ومهدت له الأمر اذا وطأته له ، وإنما قيل : مهاد من جهنم أي موضع المهاد ، كما قال تعالى « فبشرهم بعذاب اليم »[٣] وقال الحسن « مهاد » فراش من نار ، و «غواش» ظلل منها .

وقوله « ومن فوقهم غواش » فالغواش لباس مجلل ، ومنه غاشية السرج ، وفلان يغشى فلاناً أي يأتيه ويلابسه . ومنه غشي المرض ، والغشاوة التي تكون على الولد . وقال محمد بن كعب : الغواشي هي اللحف ، وهي أزر الليل محشوة كانت أو غير محشوة ، ذكره الأزهري ، وروى الطبري مثله .

(٢) تفسير الخازن ٢ / ٨٧ .

(٣) سورة ٣ آل عمران آية ٢١ وسورة ٩ التوبة آية ٣٥ وسورة ٨٤ الانشقاق آية ٢٤ .

وقيل في دخول التنوين على (غواش) مع أنه على (فواعل) وهو لا ينصرف قولان :

أحدهما ــ قال سيبويه : إن التنوين عوض من الياء المحذوفة وليس بتنوين الصرف ٠

الثاني ــ أنه تنوين الصرف عند حذف الياء لإلتقاء الساكنين فيالتقدير ٠

وقوله « وكذلك نجزي الظالمين » أي مثل ما نجزي هؤلاء المكذبين بآيات الله المستكبرين عنها نجزي كل ظالم وكل كافر ٠ والوصف بـ (ظالم) يقتضي لحوق الذم به في العرف ٠

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤١) آية ٠

لما أخبر الله تعالى بصفة المكذبين المستكبرين عن آياته ، وما أعدّ لهم من أنواع العذاب والخلود في النيران ، أخبر بعده بما أعده للمؤمنين العاملين بالاعمال الصالحات ، فقال « والذين آمنوا » يعني الذين صدقوا بآيات الله واعترفوا بها ، ولم يستكبروا عنها ٠ ثم أضافوا الى ذلك الأعمال الصالحات ، وهو ما أوجبه الله عليهم أو ندبهم اليه ٠

وقوله « لا نكلف نفسا إلا وسعها » فالتكليف من الله هو إرادة مافيه المشقة ، وقال قوم: هو اعلام وجوب ما فيه المشقة او ندبه٠ والارادةشرط٠ وقال قوم : التكليف هو تحميل ما يشق في الأمر والنهي ، ومنه الكلفة ، وهي المشقة ٠ وتكلف القول أي تحمل ما فيــه المشقة حتى أتى على ما ينافره العقل ٠

أخبر الله تعالى أنه لا يلزم نفساً إلا قدر طاقتها وما دونها ، لأن الوسع دون الطاقة ٠ وفي ذلك دلالة على بطلان قول المجبرة :من أن الله تعالى كلف

العبد ما لا قدرة له عليه ، ولا يطيقه •

وموضع « لا يكلف نفساً إلا وسعها » قيل فيه قولان :

أحدهما ـ ان يكون رفعا بأنه الخبر على حذف العائد ، كأنه قيل : منهم ، ولا من غيرهم ، وحذف لأنه معلوم •

والآخر ـ ألا يكون له موضع من الاعراب ، لأنه اعتراض ، والخبر الجملة في (أولئك) لأن قوله « والذين آمنوا » مبتدأ ، وقوله « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » خبر بأن هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ملازمون الجنة مخلدون لنعمتها •

قوله تعالى :

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٢) آية بلاخلاف •

نزع الغل فى الجنة تصفية الطباع ، وإسقاط الوساوس ، وإعطاء كل نفس مناها ، ولا يتمنى أحد ما لغيره •

قرأ ابن عامر « ما كنا لنهتدي » بلا واو ، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام • الباقون باثباتها • وجه الاستغناء عن الواو أن الجملة متصلة بما قبلها فأغنى التباسها بها عن حرف العطف • ومثله « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم » فاستغنى عن حرف العطف بالالتباس من احدى الجملتين بالأخرى • ومن أثبت الواو فلعطفه جملة على جملة •

في هذه الآية إخبار عما يفعله بالمؤمنين في الجنة بعد أن يخلدهم فيها ، بأن ينزع ما في صدورهم من غل ، فالنزع رفع الشيء عن مكانه المتمكن فيه ،

إما بتحويله ، وإما باعدامه . ومعنى نزع الغل ـ ههنا ـ إبطاله .

وقيل في ما ينزع الغل من قلوبهم قولا ن :

أحدهما ـ قال أبو علي : بلطف الله لهم في التوبة حتى تذهب صفة العـــداوة .

الثاني ـ بخلوص المودة حتى يصير منافياً لغل الطباع .

والثاني أقوى ، لأن قوله « تجري من تحتهم الأنهار » حال لنزع الغل ، وكأنه قال : ونزعنا ما في صدورهم من غل في حال تجري من تحتهم الأنهار وعلى الأولى يكون « تجري من تحتهم الأنهار » مستأنفاً .

والغل : الحقد الذي ينقل بلطفه الى صميم القلب ، ومنه الغلول ، وهو الوصول بالحيلة الى دقيق الخيانة ، ومنه الغـُل الذي يجمع اليدين والعنق بانغلاله فيها . والصدر : ما يصدر من جهته التدبير والرأي ، ومنه قيل للرئيس : صدر ، وقيل صدر المجلس .

وقوله « تجري من تحتهم الأنهار » فالجريان انحدار المائع ، فالماء يجري ، والدم يجري ، وكذلك كل ما يصح أن يجري ، فهو مائع ، وجرى الفرس في عدوه مشبه بجري الماء في لينه وسرعته .

وقوله « تجري من تحتهم الانهار » فالنهر المجرى الواسع من مجاري الماء ، ومنه النهار لاتساع ضيائه ، وانهار الدم لاتساع مخرجه .

وقوله « وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنتهدي لولا أن هدانا الله » إخبار عن قول أهل الجنة واعترافهم بالشكر لله تعالى الذي عرّضهم له بتكليفه إياهم ما يستحقون به الثواب . وقيل : معنى « هدانا لهذا » يعني لنزع الغل من صدورنا . وقيل : هدانا لثبات الايمان في قلوبنا. وقيل : هدانا لجواز الصراط .

وقوله « لقد جاءت رسل ربنا بالحق » إقرار من أهل الجنة واعتراف بأن ما جاءت به الرسل اليهم من جهة الله أنه حق لا شبهة فيه ، ولامرية

في صحته •

وقوله « ونودوا ان تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » فالنداء الدعاء بطريقة يا فلان كأنه قيل لهم : أيتها المؤمنون « أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » جزاء لكم على ذلك ، على وجه التهنئة لهم بها •

و (أن) مخففة من الثقيلة و (الهاء) مضمرة ، والتقدير ونودوا بأنه تلكم الجنة • وقال الزجاج « أن تلكم » تفسير للنداء ، والمعنى قيل لكم : تلكم الجنة • وإنما قال « تلكم » لأنهم وعدوا بها في الدنيا ، وكأنه قيل لهم هذه تلكم التي وعدتم بها • ويجوز أن يكونوا عاينوها ، فقيل لهم ــ قبل أن يدخلوها ــ إشارة اليها « تلكم الجنة » •

ومن أدغم ، فلان الثاء والتاء مهموستان متقاربتان فاستحسن الادغام •

ومن ترك الادغام في « أورثتموها » وهو ابن كثير ، ونافع وعاصم وابن عامر ــ فلتباين المخرجين ، وأن الحرفين في حكم الانفصال ، وإن كانا في كلمة واحدة ، كما لم يدغموا «ولو شاء الله ما اقتتلوا» (١) وإن كانا مثلين لا يلزمان لأن تاء (افتعل) قد يقع بعدها غير التاء ، فكذلك أورث ، قد يقع بعدها غير التاء ، فلا يجب الادغام •

واستدل الجبائي بذلك على ان الثواب يستحق بأعمال الطاعات ، ولا يستحق من جهة الاصلح ، لان الله تعالى بين انهم اورثوها جزاء بما عملوه من طاعته (عز وجل) •

قوله تعالى :

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٣

مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ (٤٣) آية

قرأ حمزة ، والكسائي وابن كثير في رواية شبل (انّ) مشددة النون. الباقون خفيفة . وكذلك ابن كثير في رواية قنبل بتخفيف النون سكونها ورفع (لعنة) . الباقون بتشديد النون ونصب (لعنة) . وقرأ الكسائي وحده « قالوا نعم » بكسر العين . وفي الشعراء « قال نعم » وفي الصافات « قل نعم » بفتح النون . قال ابو الحسن الاخفش : نَعم ونِعم لغتان ، فالكسر لغة كنانة وهذيل ، والفتح لغة باقي العرب ، وفي القراءة الفتح . وقال سيبويه (نَعم) عدة وتصديق فاذا استفهمت اجبت بـ (نعم) . ولم يحك سيبويه الكسر ، ومعنى قوله : عدة وتصديق انه يستعمل عدة ويستعمل تصديقا ، ولا يريد أن العدة تجتمع مع التصديق ألا ترى انه اذا قال قائل : اتعطيني ، فقال : نعم ، كان عدة ، ولا تصديق في ذلك ، واذا قال : قد كان كذا وكذا ، فقلت نعم ، فقد صدقته ، ولا عدة فى هذا .

وقوله « فأذن مؤذن » بمنزلة اعلم معلم ، قال سيبويه : أذن اعلام بصوت ، فالتي تقع بعد العلم . و (أن) إنما هي المشددة او المخففة عنها والتقدير اعلم معلم ان لعنة الله . ومن خفف (ان) كان على اضمار القصة والحديث ، فتقديره انه لعنة الله ، ومثل ذلك قوله « وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين » (١) والتقدير (انه) ولا تخفف (ان) الا مع اضمار الحديث فالقصة تراد معها . ومن ثقل نصب بـ (ان) ما بعدها ، كما ينصب بالمشددة المكسورة . والمكسورة اذا خففت لايكون ما بعدها على اضمار القصة والحديث ، كما تكون المفتوحة كذلك .

والفرق بينهما ان المفتوحة موصولة ، والموصولة تقتضي صلتها ، فصارت لاقتضائها الصلة اشد اتصالا بما بعدها من المكسورة ، فقدّر بعدها الضمير الذي هو من جملة صلتها ، وليست المكسورة كذلك ، لان (ان) المفتوحة

(١) سورة ١٠ يونس آية ١٠

بمعنى المصدر ، فلا بدّلها من اسم وخبر ، لانها تلتغي بأن يكون دخولها كخروجها ، وليس كذلك (ان) ، ومن المفتوحة قول الاعشى :

في فتية كسيوف الهند قد علموا ان هالك كل من يخفى وينتعل (٢)

وأما قراءتهم في النور « ان غضب الله » (٣) فان (ان) في موضع رفع بأنه خبر المبتدأ ، واما قراءة نافع « ان غضب الله » فحسن ، وهو بمنزلةقوله « وآخر دعواهم ان الحمد لله » (٤) وليس لاحد ان يقول : هذا لايستحسن لان المخففة من الشديدة لايقع بعدها الفعل حتى يقع عوض من حذف (ان) ومن أنها تولى ما يليها من الفعل ، يدل على ذلك « علم أن سيكون منكم »(٥) وقوله « لئلا يعلم اهل الكتاب ان لايقدرون على شيء » (٦) وذلك انهم استجازوا ذلك وان لم يدخل معه شيء من هذه الحروف ، لانه دعاء ، وليس شيء من هذه الحروف يحتمل الدخول معه ، ونظير هذا في انه لما كان دعاء لم يلزمه العوض قوله « نودي ان بورك من في النار ومن حولها » (٧) فولي قوله « بورك » (ان) وان لم يدخل معها عوض ، كما لم يدخل في قراءة نافع « ان غضب الله عليها » (٨) والدعاء قد استجيز معه مالم يستجز معغيره ألا ترى انهم قالوا : (اما ان جزاك الله خيرا من) حمله سيبويه على اضمار القصة في (ان) المكسورةولم يضمر القصة مع المكسورة الا فى هذا الموضع .

وقوله « ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار » معناه وقال اصحاب الجنة يا أصحاب النار بعد دخول هؤلاء الجنة ودخول هؤلاء النار .والصاحب هو المقارن للشيء على نية طول المدة ، والصحبة والمقارنة نظائر ، الا ان في الصحبة الارادة . ومنه قيل اصحاب الصحراء .

---

(٢) ديوانه : ٤٥ وتفسير الطبري ١٢ / ٤٤٤ وغيرهما وسيأتي في ٥ /٣٩٦

(٣) سورة ٢٤ النور آية ٩ (٤) سورة ١٠ يونس آية ١٠

(٥) سورة ٧٣ المزمل آية ٢٠ (٦) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٩

(٧) سورة ٢٧ النمل آية ٨ (٨) سورة ٢٤ النور آية ٩

وقوله « ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا » معناه وجدنا ما وعدنا الله على لسان رسله من الثواب على الايمان وعمل الطاعات «فهل وجدتم ماوعدكم ربكم » على السنتهم « حقا » جزاء على الكفر من العقاب وعلى معاصيه من أليم العذاب ، فأجابهم اهل النار :. بأن « قالوا نعم » والغرض بهذا النداء تبكيت الكفار وتوبيخهم ، وان الله تعالى صدق فيما وعد به على لسان نبيه ليحزن الكفار بذلك ويتحسروا عليه .

والوجدان على ضربين : احدهما بمعنى العلم فهو يتعدى الى مفعولين . والآخر بمعنى الاحساس يتعدى الى واحد . وانما كان كذلك ، لان الذي بمعنى العلم يتعلق بمعنى الجملة ، والذي يتعلق بالاحساس يتعلق بمعنى المفرد من حيث ان الاحساس لايتعلق بالشيء الا من وجه واحد .

وجواب الايجاب يكون (نعم) وجواب النفي (بلى) ، لان (نعم) تحقق معنى الخبر المذكورة في الاستفهام و (بلى) تحققه باسقاط حرف النفي.

وقوله « فأذن مؤذن بينهم » معناه نادى مناد نداء أسمع الفريقين « أن لعنة الله على الظالمين » ولعنة الله غضبه وسخطه وعقوبته على من كفر به فيسر بذلك اهل الجنة ويغتم اهل النار .

وقال الاخفش والزجاج : يجوز ان تكون (ان) بمعنى اي « قد وجدنا » ولا يجب ان تكون (أن) بمعنى أي (قد وجدنا) . ونادوهم مشرفين عليهم من السماء في الجنة ، لان الجنة في السماء ، والنار في الارض .

وقوله «وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً» إنما أضافوا الوعد بالجنة الى نفوسهم، لأن الكفار ما وعدهم الله بالجنة والثواب إلا بشرط أن يؤمنوا، فلما لم يؤمنوا فكأنهم لم يوعدوا ، وكذلك قوله « ما وعد ربكم » يعنون من العقاب لان المؤمنين لما كانوا مطيعين مستحقين للثواب فكأنهم لم يوعدوا بالعقاب ، وانما خص الكفار .

قوله تعـالى :

أَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٤) آية بلاخلاف .

« الذين » في موضع جر ، لانه صفة للظالمين ، والتقدير ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وذلك يبين ان المراد بالظالمين الكفار ، لان ما ذكرهم به من اوصاف الكفار .

والصدهو العدول عن الشيء عن قلى،والصد والاعراض بمعنى واحد،إلا ان الصَّد يجوز ان يتعدى تقول : صده عن الحق يصده صدا ، وصد هو عنه أيضا ، والاعراض لايتعدى .

وقوله « عن سبيل الله » يعني الحق الذي دعا الله اليه ونصب عليه الادلة وبعث به رسله . وقيل : هو دين الله . وقيل : الطريق الذي دل الله على انه يؤدي الى الجنة والمعنى متقارب .

وقوله « يبغونها عوجا » معنى يبغونها يطلبون لها العوج بالشبه التي يلبسون بها ويوهمون انها تقدح فيها ، وانها معوجة عن الحق بتناقضها .

و (العِوج) بالكسر يكون في الطريق وفي الدين ، وبالفتح يكون في الخلقة كقولك : في ساقه عَوج بفتح العين ، قال الشاعر :

قفا نسأل منازل آل ليلى على عِوج اليها وانثناء (١)

بكسر العين ، ويحتمل نصب عوجا أمرين :

احدهما ــ ان يكون مفعولا به كقولك يبغون لها العوج .

الثاني ــ ان يكون نصبا على المصدر ، وكأنه قال : يطلبونها هذا الضرب من الطلب ، كما تقول : رجع القهقرى أي هذا الضرب من الرجوع اي طلب الاعوجاج .

---

(١) اللسان (عوج) وتفسير الطبري ١٢ / ٤٤٨

قوله تعالى :
﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٥) ﴾ آية بلا خلاف .

قوله « وبينهما » يعني بين أصحاب الجنة واصحاب النار « حجاب » والحجاب هو الحاجز المانع من الادراك ، ومنه قيل للضرير : محجوب ، وحاجب الامير ، وحاجب العين . وحجبه عنه أي منعه من الوصول اليه .

وقوله « وعلى الاعراف رجال » فالاعراف المكان المرتفع أخذ من عرف الفرس ومنه عرف الديك ، وكل مرتفع من الارض يسمى عرفا ، لانه بظهوره أعرف مما انخفض ، قال الشماخ :

وظلت بأعراف تغالي كأنها رماح نحاها وجهة الرمح راكز (١)

وقال آخر :

كل كناز لحمه نياف كالعلم الموفي على الاعراف (٢)

يعني بنشوز من الارض ، وقيل : هو سور بين الجنة والنار ، كما قال تعالى « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » (٣) وهو قول مجاهد والسدي .

واختلفوا في الذين هم على الاعراف على أربعة اقوال :

---

(١) ديوانه : ٥٣ ومجاز القرآن ١ / ٢١٥ ، وروايتهما (وظلت تغالي باليفاع كأنها) وفي الطبري ١٢ / ٤٤٩ مثل هنا تماما .

(٢) مجاز القرآن ١ / ٢١٥ واللسان (نوف) والطبري ١٢ / ٤٥٠ . (الكناز) المجتمع (والنياف) الطويل . و (العلم) الجبل .

(٣) سورة ٥٧ الحديد آية ١٣

احدها ـ أنهم فضلاء المؤمنين ـ في قول الحسن ومجاهد ـ قال ابو علي الجبائي هم الشهداء ، وهم عدول الآخرة ، وقال ابو جعفر (ع) هم الائمة ، ومنهم النبي (ص) .

وقال ابو عبد الله (ع) الاعراف كثبان بين الجنة والنار ، فيوقف عليها كل نبي وكل خليفة نبي مع المذنبين من اهل زمانه ، كما يوقف قائد الجيش مع الضعفاء من جنده ، وقد سبق المحسنون الى الجنة ، فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه انظروا الى اخوانكم المحسنين ، قد سبقوا الى الجنة فيسلم المذنبون عليهم . وذلك قوله « ونادوا أصحاب الجنة ان سلام عليكم » .

ثم اخبر تعالى « انهم لم يدخلوها وهم يطمعون » يعني هؤلاء المذنبين لم يدخلوا الجنة ، وهم يطمعون ان يدخلهم الله اياها بشفاعة النبي والامام ، وينظر هؤلاء المذنبون الى اهل النار ، فيقولون « ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين » . ثم ينادي اصحاب الاعراف ، وهم الانبياء والخلفاء اهل النار مقرعين لهم « ما أغنى عنكم جمعكم . . . . أهؤلاء الذين اقسمتم » يعني هؤلاء المستضعفين الذين كنتم تحتقرونهم وتستطيلون بدنياكم عليهم . ثم يقولون لهؤلاء المستضعفين عن أمر الله لهم بذلك « ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون » (١) .

ويؤكد ذلك ما رواه عمر بن شيبة وغيره : ان عليا (ع) قسيم الجنة والنار ، فروى عمر بن شيبة بأسناده عن النبي (ص) انه قال : (يا علي كأني بك يوم القيامة وبيدك عصا من عوسج تسوق قوما الى الجنة وآخرين الى النار) .

الثاني ـ قال ابو مجلز : هم ملائكة يرون في صورة الرجال .

الثالث ـ قال حذيفة : هم قوم تبطىء بهم صغائرهم الى آخر الناس .

الرابع ـ قال الفراء والزجاج وغيرهما : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فأدخلهم الله تعالى الجنة متفضلا عليهم . وطعن الرماني والجبائي

(١) سورة الاعراف آية ٤٧ ـ ٤٨ .

على هذا الوجه بأن قالا : الاجماع منعقد على انه لايدخل الجنة من المكلفين الا المطيع لله ٠

وهذا الذي ذكروه ليس بصحيح ، لان هذا الاجماع دعوى ليس على صحته دليل ، بل من قال ما حكيناه لا يسلّم ذلك ، واكثر المرجئة أيضا لايسلمون ذلك ٠

وقوله « يعرفون كلا بسيماهم » يعني هؤلاء الرجال الذين هم على الاعراف يعرفون جميع الخلق بسيماهم اهل الجنة بسيما المطيعين واهل النار بسيما العصاة ٠

والسيماء العلامة ، وهي في اهل النار سواد الوجوه ورزقة العيون ، وفي اهل الجنة بياض الوجوه وحسن العيون ـ في قول الحسن وغيره ـ وقيل في وزن سيما قولان :

احدهما ـ انه (فِعلى) من سام ابله يسومها اذا أرسلها في المرعى ،وهي السائمة ٠

الثاني ـ ان وزنه وزن (فَعلى) ، وهو من وسمت ، فقلبت الواو الى موضع العين ، كماقالوا لهجاهفي الناس أي وجه ، وقالوا : اضمحل وامضحل وارض خامة أي وخيمة ، وفيها ثلاث لغات القصر والمد ٠ وسيماء ، قال الشاعر:

غلام رماه الله بالحسن يافعا   له سيماء لاتشق على البصر (١)

على زنة (كبرياء) ٠ وقوله « ونادوا اصحاب الجنة » يعني هؤلاء الذين على الاعراف ينادون يا أصحاب الجنة « سلام عليكم ، لم يدخلوها وهم يطمعون » قيل في الطامعين قولان :

احدهما ـ قال ابن عباس وابن مسعود والحسن وقتادة انهم اصحاب الاعراف ٠ وقال أبو مجلز : هم اهل الجنة الذين ما دخلوها بعد ٠ والطمع ـ

(١) قائله سدير بن عنقاء الفزاري ٠ الاغاني ١٧ / ١١٧ ، والكامل ١ /١٤ ومعجم الشعراء : ١٥٩ ، ٣٢٣ وامالي القالي ١ / ٢٣٧ والحماسة ٤ / ٦٨ ٠

ههنا ــ هو يقين بلا شك ، لانهم عالمون بذلك ضرورة • وهو مثل قول ابراهيم « والذي اطمع ان يغفرلي خطيئتي يوم الدين » (٢) ولم يكن ابراهيم (ع) شاكا في ذلك بل كان عالما قاطعا ، وانما حسن ذلك لعظم شأن المتوقع في جلالة النعمة به ، وهو قول الحسن وابي علي الجبائي واكثر المفسرين •

قوله تعـالى :

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (٤٦) آية بلا خلاف •

هذا اخبار من الله تعالى عن أحوال هؤلاء الذين على الاعراف انه اذا صرف ابصارهم • والصرف هو العدول بالشيء من جهة الى جهة • والتلقاء جهة اللقاء ، وهي جهة المقابلة ، ولذلك كان ظرفا من ظروف المكان تقول : هو تلقاءك ، كقولك هو حذاءك • والابصار جمع بصر ، وهو الحاسة التي يدرك بها المبصر وقد يستعمل بمعنى المصدر ، فيقال : له بصر بالاشياء أي علم بها ،وهو بصير بالامور اي عالم • «واصحاب النار » هم اهل النار وانما يفيد« اصحاب» انهم ملازمون لها • والاصل يقتضي المناسبة فيهم لسبب لازم ، كالنسيب ، كما يقال اهل البلد •

وحد الرماني (النار) بأن قال : جسم لطيف فيه الحرارة والضياء ،وزيد فيه ومن شأنه الاحراق •

وقوله «قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين » أي لاتجمعنا واياهم في النار وانما حسنت المسألة مع علمهم الضروري بأن الله لا يفعل بهم ذلك ، لما لهم فى ذلك من السرور بموقف الخاضع لله في دعائه الشاكر بخضوعه لربه ، وكما يجوز ان يريدوا من الله النعيم كذلك يجوز ان يسألوا السلامة من العذاب مع العلم بهما • ونظير ذلك قوله تعالى «يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه

(٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٨٢

نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون : ربنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا [١]
وان كان النبي ومن معه من المؤمنين يعلمون ذلك •

قوله تعالى :

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ(٤٧) آية بلا خلاف •

قوله « ونادى اصحاب الاعراف » معناه سينادي ، وانما جاز ان يذكر الماضي بمعنى المستقبل ، لامرين :

احدهما ــ لتحقيق المعنى كأنه قد كان •

والثاني ــ على وجه الحكاية والحذف • والتقدير اذا كان يوم القيامة « نادى أصحاب الاعراف » •

ونادى معناه دعا ، غير ان في (نادى) معنى امتداد الصوت ورفعه ، لانه مشتق من النداء يقال : صوت نداء أي يمتد وينصرف خلاف الواقف ، وليس كذلك (دعا) لانه قد يكون بعلامة كالاشارة من غير صوت ولا كلام ، ولكن اشارة تنبيء عن معنى يقال •

في هذه الآية اخبار وحكاية من الله تعالى ان اصحاب الاعراف ينادون قوما يعرفونهم من الكفار بسيماهم من سواد الوجوه وزرقة العين وضروب من تشويه الخلق يبينون به من اهل الجنة وغيرهم « ما أغنى عنكم جمعكم » معناه ما نفعكم ذلك • وقيل في معنى (الجمع) قولان : احدهما ــ جماعتكم التي استندتم اليها • الثاني ــ جمعكم الاموال والعدد في الدنيا •

قوله « وما كنتم تستكبرون » معناه ولا نفعكم تكبركم وتجبركم في دار الدنيا عن الانقياد لانبياء الله واتباع امره •

(١) سورة ٦٦ التحريم ٨ •

قوله تعالى :

أَهَؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٨) آية بلاخلاف •

قيل في القائل لهذا القول الذي هو « أهؤلاءالذين أقسمتم » قولان :

احدهما ــ قال الحسن وابو مجلز والجبائي واكثر المفسرين : انهم اصحاب الاعراف يقولون للكفار مشيرين الى اهل الجنة «أهؤلاء الذين اقسمتم لاينالهم الله برحمة » وهذا يدل على ان الواقفين على الاعراف هم ذووا المنازل الرفيعة والمراتب السنية •

الثاني ــ انه من قول الله تعالى في اصحاب الاعراف •

وقوله « أهؤلاء » مبتدأ وخبره « الذين اقسمتم » ولا يجوز ان يكون (الذين) صفة لهؤلاء من وجهين: احدهما ــ انالمبهم لايوصف الابالجنس• والآخر ــ انه يبقى المبتدأ بلا خبر • ويجوز نصب (هؤلاء) بالفعل في «أهؤلاء الذين اقسمتم » ولا يجوز مع « الذين اقسمتم » لان ما بعد الموصول لايعمل فيما قبله ، لانه من تمام الاسم • والاقسام تأكيد الخبر تقول : والله وتالله ، للقطع عليه او ليدخل في قسم ما يقطع به العمل عليه •

وقوله « لاينالهم الله برحمة » فالنيل هو لحوق البر • واصله اللحوق ، تقول : نلت الحائط اناله نيلا اذا لحقته •

وقوله « ادخلوا الجنة » أمر بدخول الجنة للمؤمنين •

وقوله « لاخوف عليكم » فالخوف هو توقع المكروه ، وضده الامن وهو الثقة بانتفاء المكروه و « لا انتم تحزنون » معناه ادخلوا الجنة ، لاخائفين ولا محزونين ، وفائدة الآية تقريع الزارئين على ضعفاء المؤمنين حتى حلفوا أنهم لاخير لهم عند الله ، فقيل لهم « ادخلوا الجنة » على اكمل سرور وأتم كرامة •

قوله تعالى :

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ (٤٩)

آية بلاخلاف .

في هذه الآية حكاية ان اصحاب النار يوم القيامة ينادون اصحاب الجنة واصحاب النار هم المخلدون فى عذابها ، لاجميع من فيها ، لان فيها الزبانية الموكلون بعذاب اهلها .

وانما توعد الله بالعقاب بالنار دون اختراع لآلام او غيره من الاسباب ، لانه أهول في النفس واعظم فى الزجر ، لما يتصور من الحال فيه ، وما تقدم من ادراك البصر له ، وانهم يسألونهم ان يفيضوا عليهم شيئا من الماء . والافاضة اجراء المائع من عل ، ومنه قولهم : افاضوا في الحديث أي اخذوه بينهم من أوله لانه بمنزلة اعلاه . وافاضوا من عرفات الى مزد لفة معناه صاروا اليها . قال الرماني : حد الماء جسم سيال يروي العطشان من غير غذاء الحيوان ، وهو جوهر عظيم الرطوبة يزيد على جميع المائعات في كثرة المنفعة .

وقوله « او مما رزقكم الله » قال ابن زيد والسدي : طلبوا مع الماء شيئا من الطعام . وقال ابو علي : طلبوا شيئا من نعيم الجنة ، فأجابهم اهل الجنة بتحريم المنع ، لاتحريم العبادة ، فقالوا : « ان الله حرمها على الكافرين » وانما جاز ان يطلبوا شيئا من نعيم الجنة مع اليأس منه ، لانهم لايخلون من الكلام به او السكوت عنه ، وكلاهما لافرج لهم فيه . وانما لم يدرك اهل الجنة ـ مع خيريتهم ـ رقة على اهل النار ، لان من الخيرية القسوة على اعداء الله واعدائهم ، وذلك من تهذيب طباعهم كما يبغض المسيء ويحب المحسن ،وذلك دلالة على ان الله تعالى بنى هذه الجملة بنية لاتستغني عن الغذاء ، لان اهل النار مع ماهم عليه من العذاب يطلبون الطعام والشراب .

قوله تعــالى :

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنْسَيٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥٠)

آية بلا خلاف •

يحتمل قوله « الذين اتخذوا دينهم » أن تكون في موضع جرّ بأن يكون صفة للكافرين ، ويكون ذلك من قول أهل الجنة ، وتقديره « إن الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً » • ويحتمل أن يكون رفعاً بالابتداء ويكون إخباراً من الله تعالى على وجه الذم لهم •

و (اتخذوا) وزنه وزن (افتعلوا) والاتخاذ الافتعال ، وهو أخذ الشيء باعداد الأمر من الأمور ، فهؤلاء أعدوا الدّين للهو واللعب • ومعنى الدين ــ ههنا ــ ما أمرهم الله تعالى به ورغبهم فيه مما يستحق به الجزاء • واصل الدين الجزاء ، ومنه قوله «ملك يوم الدين» واللهو طلب صرف الهمّ بما لا يحسن أن يطلب به، فهؤلاء طلبوا صرف الهمّ بالتهزيء بالدين وعيب المؤمنين، واللعب طلب المدح بما لا يحسن ان يطلب به مثل حال الصبي في اللعب واشتقاقه من اللعاب وهو المرور على غير استواء • وأصل اللهو الانصراف عن الشيء ومنه قوله (إذا استأثر الله بشيء لاه عنه) أي انصرف عنه •

وقوله «وغرّتهم الحياة الدنيا » فمعنى الغرور تزيين الباطل للوقوع فيه ، غرّه يغره غروراً • وإنما اغتروا هم بالدنيا في الحقيقة فصارت وكأنها غرتهم • والدنيا هي النشأة الاولى • والآخرة النشأة الاخرى، وسميت الدنيا دنياً لدنوها من الحال ، وهما كرتان، فالكرة الاولى الدنيا ، والكرة الثانية هي الآخرة •

وقوله « فاليوم ننساهم » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ نتركهم من رحمتنا بأن نجعلهم في النار ــ فى قول ابن عباس

والحسن ومجاهد والسدي ــ فسمى الجزاء على تركهم طاعة الله نسياناً ، كما قال « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (١) والجزاء ليس سيئة ٠

الثاني ــ أنه يعاملهم معاملة المنسيين فى النار ، لأنه لا يجاب لهم دعوة ، ولا يرحم لهم عبرة ــ في قول الجبائي ــ « كما نسوا لقاء يومهم » معناه كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم ، هذا على القول الاول ٠ وعلى الثاني ــ كما نسوا في أنهم لم يعملوا به مثل الناسين لذلك لا نجيب لهم دعوة، لأنهم نسوا ٠

وقوله «وما كانوا بآياتنا يجحدون » فالجحد إنكار معنى الخبر ٠ واما إنكار المنكر ، فبكل ما يصرف عن فعله الى تركه ٠ و (ما) في الموضعين مع ما بعدها بمنزلة المصدر ، والتقدير كنسيانهم لقاء يومهم هذا ، وكونهم جاحدين لآياتنا ٠

قوله تعالى :

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) آية بلا خلاف٠

هذا إخبار من الله تعالى أنه أتى هؤلاء الكفار بكتاب ، والمجيء نقل الشيء الى حضرة المذكور ، جئته بكذا ضد ذهبت به عنه ، لان ذلك نقل اليه ، وهذا نقل عنه ٠ والكتاب المراد به القرآن ٠ وأصل الكتاب صحيفة فيها كتابة ، والكتابة حروف مسطورة تدل بتأليفها على معان مفهومة ٠

وقوله « فصلناه » معناه ميزنا معانيه على وجه يزول معه اللبس ، والتفصيل والتبيين والتقسيم نظائر ٠

وقوله « على علم » معناه فصلناه ، ونحن عالمون به ، لأنه لما كانت صفة (عالم) مأخوذة من العلم جاز أن يذكر ليدل به على العالم ، كما أن الوجود في صفة الموجود كذلك ٠

---

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠ ٠

وقوله « هدى ورحمة لقوم يؤمنون » إنما جعل القرآن نعمة على المؤمن دون غيره مع أنه نعمة على جميع المكلفين من حيث أنهم عرضوا به للهداية ، غير أن المؤمن لما اهتدى به كانت النعمة بذلك عليه أعظم فأضيف اليه ، وغير المؤمن لم يتعرض للهداية فلم يهتد ، فالمؤمنون على صفة زائدة .

وقوله « هدى ورحمة » يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب : النصب من وجهين : الحال ، والمفعول له ، وبه القراءة . والرفع على الاستئناف ، والجر على البدل . وإنما لم يوصف القرآن بأنه هدى للكفار لئلا يتوهم أنهم اهتدوا به وإن كان هداية لهم بمعنى أنه دلالة لهم وحجة .

قوله تعالى :

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٢) آية بلا خلاف .

قوله « هل ينظرون » معناه هل ينتظرون ، لأن النظر قد يكون بمعنى الانتظار ، قال أبو علي : معناه هل ينتظر بهم أو هل ينتظر المؤمنون بهم إلا ذلك . وإنما أضافه اليهم مجازاً ، لأنهم كانوا جاحدين لذلك غير متوقعين ، وإنما كان ينتظر بهم المؤمنون ، لايمانهم بذلك واعترافهم به . والانتظار هو الاقبال على ما يأتي بالتوقع له . وأصله الاقبال على الشيء بوجه من الوجوه . وإنما قيل لهم : ينتظرون وإن كانوا جاحدين ، لأنهم في منزلة المنتظر أي كأنهم ينتظرون ذلك ، لأنه يأتيهم لا محالة إتيان المنتظر .

والتأويل معناه ما يؤل اليه حال الشيء تقول : أوّله تأويلا ، وتأوله تأولاً ، وآل اليه أمره يؤل أولا ، وقيل « تأويله » عاقبته من الجزاء به ـ في

قول الحسن وقتادة ومجاهد ـ وقال أبو علي « تأويله » ما وعدوا به من البعث والنشور والحساب والعقاب .

وقوله « يقول الذين نسوه من قبل » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال مجاهد : أعرضوا عنه فصار كالمنسي .

الثاني ـ قال الزجاج : يقول الذين تركوا العمل به .

وقوله « قد جاءت رسل ربنا بالحق » إخبار عن اعتراف الكفار الذين أعرضوا عن حجج الله وبيّناته والاقرار بتوحيده ونبوة أنبيائه ، وإقرار منهم بأن ما جاءت به الرسل كان حقاً . والحق ما شهد بصحته العقل ، وضده الباطل ، وهو ما يشهد بفساده العقل .

وقوله « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا » والشفيع هو السائل لصاحبه اسقاط العقاب عن المشفع فيه ، والعفو عن خطيئته فيتمنون ذلك مع يأسهم منه ـ في قول أبي علي ـ وقوله « فيشفعوا لنا » في موضع نصب ، لأنه جواب التمني بالفاء « أو نرد » عطف بالرفع على تأويل هل يشفع لنا شافع « أو نرد » ولو نصب « أو نرد » كان جائزاً . ومعناه فيشفعوا لنا إلا أن نرد ، وما قرىء به .

وقوله « فنعمل غير الذي كنا نعمل » إخبار من الكفار وتمنيهم أن يردوا الى الدنيا حتى يعملوا غير ما عملوه من الكفر والضلال . فأخبر الله تعالى عند ذلك ، فقال « قد خسروا أنفسهم » أي أهلكوها بالكفر والمعاصي « وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة من وجهين :

أحدهما ـ أنهم كانوا قادرين على الايمان في الدنيا فلذلك طلبوا تلك الحال ، ولو لم يكونوا قادرين لما طلبوا الرد الى الدنيا والى مثل حالهم الأولى .

والآخر ـ بطلان مذهب المجبرة في تكليف أهل الآخرة ، قال أبو علي : وهو مذهب الحسين النجار ، وهو خلاف القرآن والاجماع ، ولو كانوا

مكلفين لما طلبوا الرجوع الى الدنيا ليؤمنوا بل كانوا يؤمنون في الحال •

ومعنى « خسروا أنفسهم » أي منعوا من الانتفاع بها ، ومن منع الانتفاع بنفسه فقد خسرها « وضل عنهم ما كانوا يفترون » معناه ضل عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله وآلهة معه ، وهذا كان افتراؤهم على الله •

قوله تعـالى :

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ (٥٣) آية بلاخلاف •

قرأ اهل الكوفة الا حفصا ويعقوب « يغشّي الليل » بالتشديد ،وكذلك في الرعد • وقرأ ابن عامر « والشمس والقمر والنجوم مسخرات » بالرفع فيهن • الباقون بالنصب •

هذا خطاب من الله تعالى لجميع الخلق وإعلام لهم بأن ربهم الذي أحدثهم وأنشأهم هو الله تعالى « الذي خلق » بمعنى اخترع « السماوات والارض » فابتدعهما وأوجدهما لا من شيء ، ولا على مثال « في ستة أيام » وقيل : إن هذه الستة أيامهي الأحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة ، فاجتمع له الخلق في يوم الجمعة ، فلذلك سميت : جمعة ــ في قول مجاهد ــ و (السماوات) إنما جمعت بالواو ، لأنه رد الى أصله ، لأن أصله سماوة ، وليس مثل ذلك (قراءة) لأن أصلها الهمزة ، ولذلك قيل في الجمع قراءات • والوجه فى خلقه إياهما « فى ستة أيام » مع أنه قادر على إنشائهما دفعة واحدة قيل فيه وجوه :

أحدها ــ أن تدبير الحوادث على إنشاء شيء بعد شيء على ترتيب ،

أدلّ على كون فاعله عالماً قديراً يصرفه على اختياره ويجريه على مشيئته • وقال أبو علي : ذلك لاعتبار الملائكة بخلق شيء بعد شيء • وقال الرماني : يجوز أن يكون الاعتبار بتصور الحال في الاخبار ، ومعناه إذا أخبر الله تعالى بأنه « خلق السماوات والارض في ستة أيام » كان فيه لطف للمكلفين ، وكان ذلك وجه حسنه •

وقوله « ثم استوى على العرش » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ أنه استولى كما قال البغيث :

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق [١]

يريد بشر بن مروان •

الثاني ـ قال الحسن : استوى أمره • وقيل في معنى « ثم استوى » ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال أبو علي : ثم رفع العرش بأن استولى عليه ليرفع •

الثاني ـ ثم بيّن أنه مستوي على العرش •

الثالث ـ ثم صح الوصف بأنه مستوي على العرش ، لأنه لم يكن عرشاً قبل وجوده •

وقوله « يغشى الليل النهار » معناه يجلل الليل النهار أي يدخل عليه • وقال الأزهري : أقبل عليه • والاغشاء هو إلباس الشيء مارق بما يجلله ، ومنه غاشية السرج ، والغشاوة التي تخرج على الولد ، وغشي على الرجل اذا غشيه ما يزيل عقله من عارض علة •

ومن شدد العين ،فلانه يدل على الكثرة •وغشى فعل يتعدى الى مفعول واحد ، كقوله « وتغشى وجوههم النار » [٢] فاذا نقلته بالهمزة أو التضعيف تعدى الى مفعولين ، وقد ورد القرآن بهما قال الله تعالى « فأغشيناهم فهم

(١) مر هذا البيت في ١/١٢٥ و ٢/٣٩٦ ، وسيأتي في ٥/٣٨٦ •

(٢) سورة ١٤ ابراهيم آية ٥٠ •

لا يبصرون » [٣] فالمفعول الثاني محذوف ، وتقديره فأغشيناهم العمى ، وفقد الرؤية . وبالتضعيف نحو قوله « فغشّاها ما غشّى » [٤] (ما) في موضع نصب بأنه مفعول ثان .

ومن خفف ، فلأنه يحتمل القليل . والكثير ، والليل هو الذي يلبس النهار فى هذا الموضع ، لأنه منقول من غشي الليل النهار .

وقوله « يطلبه حثيثاً » معناه أنه يستمر على منهاج واحد وطريقة واحدة من غير فتور يوجب الاضطراب ، كما يكون فى السوق الحثيث .

وقيل : إن معنى الحثيث السريع بالسوق .

وقوله « والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » عطف على « خلق السماوات » كأنه قال وخلق « الشمس والقمر والنجوم مسخرات » وهي نصب على الحال ، ومن رفع استأنف وأخبر عنها بأنها مسخرة .

وقوله « ألا له الخلق والأمر » إنما فصل الخلق من الأمر ، لأن فائدتهما مختلفة « لأن له الخلق » يفيد أن له الاختراع ، « وله الأمر » معناه له أن يأمر فيه بما أحب فأفاد الثاني ما لم يفده الأول .

فمن استدل بذلك على أن كلام الله قديم ، فقد تجاهل لما بينا ، ولو كان معناهما واحداً لجاز أيضاً مع اختلاف اللفظين ، كما قالوا : كذب ومين وأشباهه . وقوله « تبارك الله رب العالمين » معناه تبارك تعالى بالوحدانية فيما لم يزل ولا يزال وأصله الثبات من قول الشاعر :

ولا ينجي من الغمرات إلا … براكاء القتال أو الفرار [١]

فهو بمعنى تعالى بدوام الثبات . ويحتمل تعالى بالبركة في ذكر اسمه .

وقيل في معنى (العرش) قولان :

---

(٣) سورة ٣٦ يس آية ٩ . (٤) سورة ٥٣ النجم آية ٥٤ .

(١) قائله بشر بن ابي خازم . اللسان (برك) . البراكاء : الثبات في الحرب والمقاتلة بجد .

أحدهما ــ أنه سرير تعبد الله تعالى الملائكة بحمله .

وقيل : المراد به الملك .

قوله تعالى :

أُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٤) آية

قرأ أبو بكر « خفية » بكسر الخاء ــ ههنا ــ وفي الأنعام . الباقون بضمهما ، وهما لغتان . أمر الله تعالى عباده المكلفين أن يدعوه والدعاء ، طلب الفعل بطريقة (اللهم افعل) وقد يجيء بطريقة غفر الله له ، فهذه صيغة الخبر ، والأول صيغة الأمر غير أنه إنما يسمى أمراً اذا كان المقول له دون القائل ، وإن كان فوقه سمي دعاء وطلباً . وأما قول القائل : يا الله يا رحمن يا رحيم يا غفور يا قدير يا سميع وما أشبه ذلك من اسماء الله ، فانما هو على جهة النداء ومعناه التعظيم .

وقوله « تضرعاً » فالتضرع التذلل ، وهو اظهار الذل الذي في النفس ، ومثله الخشع ومنه الطلب لأمر من الأمور . وأصل التضرع الميل في الجهات ذلاً من قولهم : ضرع الرجل يضرع ضرعاً إذا مال بأصبعه يميناً وشمالاً ، ذلاً وخوفاً . ومنه ضرع الشاة ، لأن اللبن يميل . ومنه المضارعة للمشابهة لأنها تميل الى شبهه بمعنى المقاربة ، والضريع نبت لا يسمن ولا يغني من جوع ، لأنه يميل مع كل داء .

وقوله « وخفية » فالخفية خلاف العلانية . قال ابن عباس : الخفية هي السرّ ، وبه قال الحسن . وقال أبو علي : إنما ذاك لئلا يشوب الدعاء معنى الرياء ، وحد الاخفاء خلاف حد الاظهار ، والاظهار اخراج الشيء الى حيث يقع عليه الادراك . والاخفاء إغماضه بحيث لا يقع عليه الادراك .

وقوله « إنه لا يحب المعتدين » فالمحبة من الله تعالى للعبد إرادة الثواب، ولذلك يحب المؤمن ولا يحب الكافر ، ويحب الصلاح ولا يحب الفساد .

والاعتداء تجاوز حد الحق أي لا تتجاوزوا حدّ الحق في الدعاء فتطلبوا منازل الانبياء وما لا يجوز أن يعمل في الدنيا ــ فى قول أبي مجلز ــ وقال ابن جريج يكره الصياح فى الدعاء و « تضرعاً وخفية » مصدران في موضع الحال ، وتقديره ادعوا الله متضرعين فيحال السر والعلانية . والخفية والاخفاء، والخيفة والخوف والرهبة نظائر . والهمزة في الاخفاء منقلبة عن الياء بدلالة الخفية والاخفاء ، ضد الاعلان . ويقال أحفيت الشيء اذا أظهرته قال الشاعر :

يحفى التراب بأظلاف ثمانية (١)

قوله تعـالى :

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٥) آية بلا خلاف.

نهى الله تعالى في هذه الآية عن الفساد في الأرض وهو الاضرار بما تمنع الحكمة منه يقال : أفسد الحر التفاحة اذا أخرجها الى حال الضرر بالتغيير .

والاصلاح النفع بما تدعو اليه الحكمة ولذلك لم تكن الآلام فى النار إصلاحاً لأهلها ، لأنه لا نفع لهم فيها . وقال الحسن : إفساد الأرض بالقتل للمؤمنين والاعتداء عليهم . وقيل : إفساد الأرض العمل فيها بمعاصي الله ، وإصلاحها العمل فيها بطاعة الله .

وقوله « وادعوه خوفاً وطمعاً » أمر من الله تعالى لهم أن يدعوه خوفاً وطمعاً ، وهما منصوبان على المصدر ، وهما في موضع الحال . وتقديره ادعوا ربكم خائفين من عقابه طامعين في ثوابه . والخوف هو الانزعاج بما لا يؤمن ، والأمن سكون النفس الى انتفاء المضارّ ، والخوف يكون بالعصيان . والأمنُ بالايمـان . والطمع توقع المحبوب ، ونقيضه اليأس وهو القطع

(١) مر في ٢/٧١ كاملا .

باتنفاء المحبوب .

وقوله « إن رحمة الله قريب من المحسنين » إخبار منه تعالى أن رحمته قريبة واصلة الى المحسن . والاحسان هو النفع الذي يستحق به الحمد . والاساءة هي الضرر الذي يستحق به الذم . وقيل : المراد بالمحسنين من تكون أفعاله كلها حسنة وهذا لا يقتضيه الظاهر ، بل الذي يفيده أن رحمة الله قريب الى من فعل الاحسان ، وليس فيها أنها لا تصل الى من جمع بين الحسن والقبيح بل ذلك موقوف على الدليل . وقال الفراء : إنما لم يؤنث قوله « قريب » وهو وصف ل (رحمة) لأنه ذهب مذهب المكان ، وما يكون كذلك لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث . ولو ذهب به مذهب النّسب أنث وثني وجمع قال عروة بن حزام :

عشية لا عفراء منك قريبة فتدنوا ولا عفراء منك بعيد [1]

وقال الزجاج هذا غلط بل كل ما قرب من مكان أو نسب فهو جائزعليه التأنيث والتذكير . وجعله الأخفش من باب الصيحة والصياح ، لأن الرحمة والاحسان والانعام من الله واحد . وقال بعضهم المراد بالرحمة هاهنا المطر فلذلك ذكر .

قوله تعالى :

وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا

(١) ديوانه : ٤٨ ، ومعاني القرآن للفراء ١/٣٨١ وتفسير الطبري ١٢/٤٨٨ والبكري في شرح الأمالي ٤٠١ وتفسير أبي حيان ٤/٣١٣ وقد روي:

عشية لا عفراء منك بعيدة فتسلو ولا عفراء منك قريب

بِهِ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٦)

آية بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف « الريح » على التوحيد ، ههنا وفي النمل ، والثاني من الروم وفي فاطر وقرأ عاصم « بشراً » بالباء وضمها وسكون الشين . وقرأه نافع بالنون وضمها وضم الشين وهم أهل الحجاز والبصرة ، وكذلك الخلاف في الفرقان ، والنمل .

قال أبو علي (الريح) إسم على وزن (فِعَل) ،والعين منه واوفاتقلبت ياء في الواحد للكسرة وصحت في الجمع القليل ، لأنه لاشيء يوجب الاعلال ألا ترى أن الفتحة لاتوجب اعلال هذه الواو في مثل يوم وقول وعون قال ذو الرمة :

اذا هبت الأرواح من نحو جانب به آل ميّ هاج شوقي هبوبها [1]

وليس ذلك كعيد وأعياد ، لأن هذا بدل لازم وليس البدل فى الريح كذلك .فامافي الجمع الكثير فرياح انقلبت الواو بالكسرة التي قبلها كما انقلبت في نحو ديمة وديم ،وحيلة وحيل ،وفي رياح أجدر ، لوقوع الالف بعدها ، والالف تشبه الياء ، والياء إذا تأخرت عن الواو وجب فيها الاعـلال فكذلك الألف لشبهها بها ، والريح على لفظ الواحد ، ويجوز ان يراد بها الكثرة ، لقولهم: كثير الدرهم والدينار ، وقوله « إن الانسان لفي خسر » ثم قال « إلا الذين آمنوا » [2] فكذلك من قرأ « الريح بشراً » فأفرد ، ووصفه بالجمع ، فانه حملها على المعنى . وقد أجاز أبو الحسن ذلك وقال الشاعر :

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً [3]

---

(١) تفسير ابن حيان ٤ : ٣١٦ .

(٢) سورة ١٠٣ العصر آية ٢ — ٣ . (٣) قائله عنترة وتمام البيت :

فيها اثنتـان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الغراب الاسحم

ومن نصب جاء قوله على المعنى ، لأن المفرد يراد به الجمع ، وهذا وجه قراءة ابن كثير لأنه أفرد (الريح) ووصفه بالجمع ، فلا يكون (الريح) على هذا اسم جنس وقول من جمع الريح اذا وصفها بالجمع أحسن إذ الحمل على المعنى أقل من الحمل على اللفظ ، ويؤكد ذلك قوله « الرياح مبشرات » (٤) فلما وصفت بالجمع جمع الموصوف أيضاً • فأما ما جاء في الحديث من أن النبي (ص) كان يقول اذا هبت ريح : (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) فلأن عامة ما جاء بلفظ الرياح السقيا والرحمة ، كقوله « وأرسلنا الرياح لواقح » (٥) وقوله « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات » (٦) وقوله « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء » (٧) • وما جاء بخلاف ذلك جاء على الافراد كقوله « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » (٨) وقوله « وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر » (٩) وقوله « بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم » (١٠) •

قال أبو عبيدة « نشراً » أي متفرقة من كل جانب ، وقال أبو زيد : انشر الله الموتى إنشاراً اذا بعثها وأنشر الله الريح مثل أحياها ، فنشرت الجنوب وأحييت ، والدليل على ذلك قول المراد الفقسي :

وهبت له ريح الجنوب واحييت ... له ريدة يحيي المياه نسيمها (١)

والريدة والريدانة الريح ، قال الشاعر :

---

(٤) سورة ٣٠ الروم آية ٤٦ •
(٥) سورة ١٥ الحجر آية ٢٢ •
(٦) سورة ٣٠ الروم آية ٤٦ •
(٧) سورة ٣٠ الروم آية ٤٨ •
(٨) سورة ٥١ الذاريات آية ٤١ •
(٩) سورة ٦٩ الحاقة آية ٦ •
(١٠) سورة ٤٦ الاحقاف آية ٢٤ •

(١) اللسان (ريد) وتفسير ابي حيان ٤/٣١٦ ، ورواية اللسان (الممات) بدل (المياه) •

إني لأرجو أن تموت الريح فأقعد اليوم واستريح (٢)

ومن قرأ « نشراً » بضم النون والشين يحتمل ضربين : جمع ريح ، ريح نشور وريح ناشر ، ويكون على معنى النّسب فاذا جعله جمع نشور احتمل أمرين : أحدهما ــ أن يكون النشور بمعنى المنشر كما أن الركوب بمنزلة المركوب كان المعنى ريح أو رياح منشرة ، ويجوز أن يكون نشراً جمع نشور يريد به الفاعل مثل طهور ونحوه من الصفات • ويحتمل أن يكون نشر جمع ناشر كشاهد وشهد ونازل ونزل وقايل وقيل ، قال الاعشى :

إنا لأمثالكم يا قومنا قيل (٣)

وقول ابن عامر (بشراً) يحتمل الوجهين : أن يكون جمع فعول وفاعل فخفف العين ، كما خفف في كتب ورسل ، ويكون جمع فاعل كبارك وبرك وغايظ وغيظ •

ومن فتح النون وسكن الشين فانه يحتمل ضربين : أحدهما ــ أن يكون المصدر حالاً من الريح فاذا جعلته حالاً منها احتمل أمرين أحدهما ــ أن يكون النشر الذي هو خلاف الطي ، كأنها كانت بانقطاعها كالمطوية ، ويجوز على تأويل أبي عبيدة أن تكون متفرقة في وجوهها • والآخر ــ أن يكون النشر الذي هو الحياة من قوله :

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشر (٤)

فاذا حملته على ذلك ــ وهو الوجه ــ كان المصدر يراد به الفاعل ، كما تقول أتانا ركضاً أي راكضاً ، ويجوز أن يكون المصدر يراد به المفعول كأنه يرسل الرياح انشاراً أي محياة فحذف الزوائد من المصدر ، كما يقال

(٢) اللسان (نشر) وتفسير أبي حيان ٤/٣١٦ •

(٣) ديوانه : ٤٧ قصيدة ٦ وروايته (قتل) بدل (قيل) وصدره :

* كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم *

(٤) تفسير أبي حيان ٤/٣١٦ واللسان (نشر) •

عمركَ الله • وكما يقال : فان يهلك فذلك كان قدري أي تقديري • والضرب الآخر ـ أن يكون « نشراً » على هذه القراءة ينصب انتصاب المصادر من باب « صنع الله » (٥) لأنه إذا قال يرسل الرياح دل هذا الكلام على تنشير الريح نشراً •

وقراءة عاصم « بشراً » بالباء فهو جمع بشير وبُشر من قوله « يرسل الرياح مبشرات » (٦) أي تبشر بالمطر والرحمة وجمع (بشير) على (بشر) ككتاب وكتب •

لما أخبر الله تعالى في الآية الأولى أنه الذي خلق السماوات والارض وخلق الشمس والقمر والنجوم مسخرات ، وأنه الذي يجلل الليل النهار ، عطف على ذلك بأن قال « وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته » تعداداً لنعمه على خلقه • والارسال هو الاطلاق بتحميل معنى ، كما تقول : أرسلت فلاناً أي حملته رسالة ، فلما أطلق الله الرياح كان ذلك بمنزلة المطوي فى الامتناع من الادراك ثم صارت تدرك في الآفاق ، كانت كنشر الثوب بعد طيه في الادراك قال امرؤ القيس :

كان المدام وصوب الغمام وريح الخزامي ونشــر القطر (٧)

وقال الفراء : النشر من الرياح : الطيبة اللينة التي تنشىء السحاب ، والسحاب الغيم الجاري في السماء مشتقاً من الاسحاب ، يقال : سحبه سحباً وأسحب إسحاباً وتسحب تسحباً •

وقوله « بين يدي رحمته » معناه قدام رحمته ، كما يقدم الشيء بين يدي

---

(٥) سورة ٢٧ النمل آية ٨٨ • (٦) سورة ٣٠ الروم آية ٤٦ •

(٧) ديوانه : ٧٩ واللسان (نشر) وتفسير الطبري ١٢/٤٩٠ يصف صاحبته بأن ريح فمها ذا نكهة طيبة عند قيامها من النوم • والقطر : عود طيب الرائحة •

الانسان ، كما قال « لما خلقت بيدي » [٨] أي توليت خلقه ، كما يقول الانسان: عملت بيدي ، والرحمة يراد بها ـــ ههنا ـــ الغيث •

وقوله « حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً » فالاقلال حمل الشيء بأسره حتى يقل في طاقة الحامل له بقوة جسمه ، يقال : استقل بحمله استقلالاً • وأقله إقلالا ، والثقال جمع ثقيل ، والثقيل ما فيه الاعتماد الكثير سفلاً • وقال قوم: هو ما تجمع أجزاؤه كالذهب والحجر ، وقد يكون بكثرة ما حمل كالسحاب الذي يثقل بالماء •

وقوله « سقناه لبلد ميت » أي الى بلد ، فالسوق حث الشيء في السير حتى يقع الاسراع فيه ، ساقه يسوقه سوقاً ، واستاقه استياقاً ، وساوقه مساوقة ، وتساوقوا تساوقاً ، وتسوق تسوقاً ، وانساق انسياقاً ، وسوقه تسويقاً •

(والبلد الميت) هو الذي اندرست مشاربه وتعفت مزارعه •

وقوله « فأنزلنا به الماء » الهاء في (به) راجعة الى البلد • ويحتمل أن تكون راجعة الى السحاب • وقوله « فأخرجنا به من الثمرات » فالهاء في (به) يحتمل أن تكون راجعة الى البلد ، ويكون التقدير أخرجنا بهذا البلد • ويحتمل أن تكون راجعة الى الماء ، فكأنه قال فأخرجنا بهذا الماء من كل الثمرات • ويحتمل أن تكون (من) للتبعيض • ويحتمل أن تكون لتبيين الجنس•

وقوله « كذلك نخرج الموتى » معناه كما أخرجنا الثمرات • كذلك نخرج الموتى بعد موتها بأن نحييها « لعلكم تذكرون » معناه لكي تتذكروا ، وتتفكروا وتعتبروا بأن من قدر على انشاء الاشجار والثمار في البلد الذي لا ماء فيه ولا زرع ، فانه يقدر على أن يحيي الاموات بأن يعيدها الى ما كانت عليه بأن يخلق فيها الحياة والقدرة •

واستدل البلخي بهذه الآية على أن كثيراً من الأشياء تكون بالطبع •

(٨) سورة ٣٨ ص آية ٧٥ •

قال : لأن الله تعالى بين انه يخرج الثمرات بالماء الذي ينزله من السماء ، قال: ولا ينبغي أن ينكرذلك وإنما ينكر قول من يقول بقدم الطبائع أو قول من يقول : إن الجمادات تفعل • فأما من قال : إن الله تعالى يفعل هذه الأشياء غير أنه يفعلها تارة مخترعة بلا وسائط وتارة بوسائط ، فلا كراهة في ذلك كما تقول في السبب والمسبب ، وهذا الذي ذكره ليس بصحيح ، لأنه إن إشار بالطبع الى رطوبات مخصوصة ويبوسات مخصوصة ، فلا خلاف في ذلك غير أن هذه الأشياء لا تتولد عنها ذوات أخر ، بل ما يحصل عندها الله تعالى يفعلها مبتدأ ، وليس كذلك السبب والمسبب ، لان السبب الذي يفعل الفعل بها وهو الاعتماد والمجاوزة يوجب التأليف ، وما عدا ذلك فليس فيه شيء تولد أصلاً ، وإن أراد بالطبع غير هذا المعقول فبيس في الآية دلالة على صحته بحال •

قوله تعالى :

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٧)

آية بلا خلاف •

قرأ أبو جعفر « نكداً » بفتح الكاف • الباقون بكسرها ، والوجه في ذلك أنهما لغتان • وحكى الزجاج (نكداً) بضم النون وسكون الكاف • ولا يقرأ به • وقال الفراء : يقتضي القياس أيضاً (نكداً) بضم الكاف ، وفتح النون ، غير أني لم أسمعه مثل دَنَف ودنِف وحذر وحذر ، ويقظ ويقظ ويقظ ، بالفتح والضم والكسر •

قوله « والبلد الطيب » فالبلد هو الارض التي تجمع الخلق الكثير ، وتنفصل بما لهم فيها من العمل ، وال ـ • والبلدة خلاف الفلاة ، والصحراء، وأما البادية فكالبلد للأعراب ونحوهم من الأكراد والأتراك • والطيب ما فيه

أسباب التلذذ ، وضده الخبيث ، وهو ما فيه أسباب النكرة . وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي : هذا مثل ، ضربه الله للمؤمنين فشبه المؤمن ــ وما يفعله من الطاعات والأفعال ، والانتفاع بما أمره الله ونهاه عنه ــ بالأرض العذبة التربة التي تخرج الثمرة الطيبة بما ينزله الله عليها من الماء العذب ، والكافر ــ وما يفعله من الكفر والمعاصي ــ بالأرض السبخة الملحة التي لا ينتفع بنزول المطر عليها ، فينزع عنها البركة .

وقوله « يخرج نباته باذن ربه » فالاخراج نقل الشيء من محيط به الى غيره ، فهذا النبات كأنه كان في باطن الأرض فخرج منه ، (والاذن) هو الاطلاق في الفعل برفع المنعة فيه ، فكذلك منزلة هذا البلد ، كأنه قد أطلق في اخراج النبت الكريم .

ووجه ضرب المثل بالأرض الطيبة والأرض الخبيثة مع أنهما من فعل الله وكلاهما حكمة وصواب ، والطاعات والمعاصي أحدهما بأمر الله والآخر بخلاف أمره ، هو أن الله تعالى لما جعل المنفعة بأحدهما والمضرة بالآخر مثل بذلك الانتفاع بالعمل الصالح والاستضرار بالمعاصي والقبائح .

وقوله « والذي خبث لا يخرج إلا نكداً » فالنكد العسر بشدته الممتنع من إعطاء الخير على وجه البخل تقول : نكد ينكد نكداً ، فهو نَكِد ونَكَد . وقد نكّد إذا سئل فبخل ، ونكد ينكد نكداً ، قال الشاعر :

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن أعطيت أعطيّت تافهاً نكداً (١)

وقال الآخر :

واعط ما أعطيته طيباً لا خير في المنكود والناكد (٢)

وقال السدي : النكد القليل الذي لا ينتفع به . وقوله « كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » فالتصريف توجيه الشيء في جهتين فصاعداً ، فلما

(١) مجاز القرآن ١/٢١٧ واللسان (تفه) وتفسير الطبري ١٢/٤٩٥ .
(٢) اللسان (نكد) وتفسير الطبري ١٢/٤٩٥ .

كان معنى الآية يوجه في الدلالات المختلفة كانت الآية متصرفة ، فالنشأة الثانية مصرّفة بأنها كاحياء الأرض بالماء للبنات ، وبأنها كالخارج من الأرض في الاختلاف ، فمنه طيب ، ومنه خبيث ، وبأنها في حال المؤمن والكافر ، كحال الأرض في الطيب والخبث . والمعنى أنه تعالى يبين لهم آية بعد آية ، وحجة بعد أخرى ، ويضرب مثلا بعد مثل « لقوم يشكرون» الله على إنعامه عليهم هدايته إياهم لما فيه نجاتهم وتبصيرهم سبيل أهل الضلال وأمره إياهم تجنب ذلك والعدول عنه .

قوله تعالى :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٨)

آية واحدة بلا خلاف .

قرأ أبو جعفر والكسائي « من إله غيره » ـ بخفض الراء وكسر الهاء ووصلها ـ بناء في اللفظ حيث وقع . الباقون بضم الراء وضم الهاء وإشباعها بالواو ، قال الكسائي تقديره ما لكم غيره من إله . في قراءة نافع .

قال أبو علي الفارسي : من جرّ جعل (غير) صفة لـ (إله) على اللفظ وجعل (لكم) مستقراً أو غير مستقر ، وأضمر الخبر ، والخبر مالكم في الوجود أو في العالم ونحو ذلك لابد من هذا الاضمار إذا لم يجعل (لكم) مستقراً ، لأن الصفة . والموصوف لا يستقل بهما الكلام .

ومن رفع حجته قوله « وما من إله إلا الله » (١) فكما أن قوله « إلا الله » بدل من قوله « من إله » كذلك قوله « غيره » يكون بدلاً من قوله « من إله» و (غير) يكون بمنزلة الاسم الذي بعد (إلا) ، وهذا الذي ذكرناه أولى

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٦٢ .

أن يحمل عليه من أن يجعل (غير) صفة لـ (إله) على الموضع • فان قلت ما ينكر أن يكون « إلا الله » صفة لـ (إله) ؟ قيل : إن (الا) بكونها استثناء أعرف وأكثر من كونها صفة • وإنما جعلت صفة على التشبيه بغير ، فاذا كان الاستثناء أولى حملنا « هل من خالق غير الله» (٢) على الاستثناء من النفي في المعنى ، لأن قوله « هل من خالق غير الله » بمنزلة ما من خالق غير الله ، ولابد من اضمار الخبر ، كأنه قال : ما من خالق للعالم غير الله ، ويؤكد ذلك قوله « لا إله الا الله » (٣) فهذا استثناء من منفي مثل لا أجد في الدار إلا زيداً •

فأما حمزة والكسائي فانهما جعلا (غير) صفة لخالق وأضمرا الخبر ، كما تقدم • والباقون جعلوه استثناء بدلاً من النفي ، وهو أولى لما تقدم من الاستشهاد عليه من قوله « وما من إله إلا الله » (٤) •

أخبر الله تعالى وأقسم على خبره ـ لأن اللام في قوله « لقد » لام القسم ـ بأنه أرسل نوحاً (ع) الى قومه وإرساله اياه هو تكليفه القيام بالرسالة وهي منزلة جليلة شريفة يستحق بها الرسول بتقلبه إياها والقيام باعبائها أن يعظم أعلى تعظيم البشر ، وأخبر أن نوحاً قال لقومه « يا قوم اعبدوا الله » والعبادة هي الخضوع بالقلب في أعلى مراتب الخضوع يعظم به من له أعظم النعم ، فلذلك لا يستحق العبادة غير الله ، وأخبر أنه أمرهم بأن تكون عبادتهم لله وحده ، لأنه لا إله لهم غيره ، ولا معبود لهم سواه • وقال لهم « إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » يريد به يوم القيامة ، والعذاب هو الألم الجاري على استمرار ، وقد يكون غير عقاب ، إلا أن المراد به ـ ههنا ـ العقاب • والعقاب الألم على ما كان من المعاصي • ولم يجعل خوفه عليهم على وجه الشك، بل أخبرهم أن هذا العذاب سيحل بهم إن لم يقبلوا

---

(٢) سورة ٣٥ فاطر آية ٣ •

(٣) سورة ٣٧ الصفات آية ٣٥ • وسورة ٤٧ محمد آية ١٩ •

(٤) سورة ٣ آل عمران آية ٦٢ •

ما أتاهم به ، لأن الخوف قد يكون مع اليقين كما يكون مع الشك ألا ترى أن الانسان يخاف من الموت ، ولا يشك فى كونه •

قوله تعـالى :

قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٩)

آية بلا خلاف •

(قال) أصله (قول) فانقلبت الواو الفاً لحركتها وانفتاح ما قبلها •

أخبر الله تعالى عن الملأ من قوم نوح • وقيل في معنى الملأ قولان :

أحدهما ـ أنهم الجماعة من الرجال سموا بذلك لأنهم يملؤن المحافل •

والثاني ـ أنهم الاشراف ، وقيل : الرؤساء ، لأنهم يملؤن الصدر بعظم شأنهم ، ومنه قوله (ص) أولئك الملأ من قريش • والقوم يقال لمن يقوم بالأمر ، ولا نسوة فيهم ـ على قول الفراء ـ وهو مأخوذ من القيام •

وإنما سموا بالمصدر ، كما قال بعض العرب اذا أكلت طعاماً أحببت نوماً وابغضت قوماً أي قياماً •

وقوله « إنا لنراك » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ انه من رؤية القلب الذي هو العلم •

الثاني ـ من رؤية العين ، كأنهم قالوا نراك بأبصارنا على هذه الحال •

الثالث ـ أنه من الرأي الذي هو غالب الظن وكأنه قال : إنا لنظنك •

وقوله « فى ضلال مبين » أرادوا بالضلال ههنا العدول عن الصواب الى الخطأ فيما زعموا مخالفتهم إياه فيما دعاهم اليه من اخلاص العبادة لله تعالى •

و « مبين » أي بين ظاهر •

قوله تعـالى :

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٠) آية بلا خلاف •

فيهذه الآية إخبار عما أجابهم به نوح (ع) وقال لهم « ليس بي ضلالة » أي ليس بي عدول عن الحق ، ويقال ، : به ضلالة لأن فيه معنى عرض به كما يقال به جنة ، ولا يجوز أن يقال : به معرفة ، لأنها ليست مما تعرض بصاحبها ، ولكن يصحأن يقال : به جوع ، وبه عطش ، لأنه عارض به .

قوله « يا قوم » أصله يا قومي ، فحذفت ياء الاضافة لقوة النداء على التغيير ، حتى يحذف للترخيم ، فلما جاز أن يحذف في غيره للاجتزاء بالكسرة منها ، ازم أن يحذف فيه لاجتماع السببين فيه .

وقوله « ولكني رسول من رب العالمين » معنى (لكن) والاستدراك الخفيفة يستدرك بها معنى المفرد . والمشددة يستدرك بها معنى الجملة ، فلذلك صارت من أخوات (إنّ) . « ولكني » أصله (ولكنني) وحذفت النون لاجتماع النونات ، ويجوز الاتمام ، لأنه الأصل ، وكذلك (اني ، وكأني) فأما (ليتني) فلا يجوز فيه الا اثبات النون ، لأنه لم يعرض فيه علة الحذف . واما (لعلي) فيجوز فيه الوجهان ، لأن اللام قريبة من النون .

ومعنى (من) ـ ههنا ـ لابتداء الغاية ، ومعناه أن الله تعالى هو الذي ابتدأني بالرسالة ، وكل مبتدىء بفعل فذلك الفعل منه . وأصل (من) موضع ابتداء الغاية كقولك : خرجت من بغداد الى الكوفة أي ابتداء خروجي من بغداد .

قوله تعالى :

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) آية بلاخلاف .

قرأ أبو عمرو وحده « أبلغكم » مخففة اللام . الباقون بتشديدها .

و (بلغ) فعل يتعدى الى مفعول واحد تقول : بلغني خبركم ، وبلغت أرضكم ، فاذا نقلته تعدى الى مفعولين . والنقل يكون تارة بالهمزة وأخرى

بتضعيف العين ، وقد ورد بهما التنزيل ، قال الله تعالى « فان تولوا فقد أبلغتكم » [١] فنقل بالهمزة ، وقال « يا أيها الرسول بلغ » [٢] فنقل بتضعيف العين ، فعلى هذين الوجهين اختلفوا في القراءة .

وفي الآية حكاية عن قول نوح (ع) لقومه أنه قال لهم بعد ما أنكر عليهم أنه ليس به ضلالة ، وانه رسول من عند الله ، وأنه بلغهم ما حمله الله من رسالات ربه . والإبلاغ إيصال ما فيه بيان وافهام ، ومنه البلاغة ، وهي إيصال المعنى الى النفس بأحسن صورة من اللفظ . والبليغ الذي ينشيء البلاغة ، لا الذي يأتي بها على وجه الحكاية . والفرق بين الإبلاغ والاداء أن الاداء لما يسمع ، وحسن الاداء للقراءة . والرسالات جمع رسالة ، وهي جملة من البيان يحملها القائم بها ليؤديها الى غيره . وانما جمع ـ ههنا ـ (رسالات) وفي موضع آخر « رسالة » [٣] على التوحيد ، لأنه يشعر تارة بالجملة وتارة بالتفصيل ، فلما دعا الى عبادة الله وطاعته واجتناب محارمه والعمل بشريعته ، كان هذا تفصيل رسالات الله تعالى . ورسالات الله حكم : من ترغيب ، وتحذير ، ووعد ، ووعيد ، ومواعظ ، ومزاجر ، وحجج ، وبراهين وأحكام يعمل بها ، وحدود ينتهى اليها .

وقوله « وانصح لكم » فالنصيحة اخلاص النية من شائب الفساد في المعاملة . و (النصح) خلاف الغش فى العمل ، ولا يكون الغش إلا بسوء النية . وقوله « وأعلم من الله ما لا تعلمون » فيه حث لهم على طلب العلم من جهته ، وتحذير من مخالفته ، لما يعلم من العاقبة ، فكأنه قال : أنا أعلم بحلول العقاب بمخالفتكم وترك القبول مني « ما لا تعلمون » أنتم ، ويجوز أن يريد « وأعلم من » توحيد الله وصفاته وحكمته « ما لا تعلمونه » . وفي ذلك بطلان مذهب القائلين بأن معرفة الله ضرورة ـ وأن من لم يعرفه ضرورة فليس

(١) سورة ١١ هود آية ٥٧ . (٢) سورة ٥ المائدة آية ٧٠ .
(٣) سورة ٧ الاعراف آية ٧٨ .

بمكلف ــ لأن نوحاً (ع) بين أنه خاف عليهم مع أنه يعلم ما لا يعلمونه •

قوله تعالى :

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٢) آية •

في هذه الآية تقريع من نوح (ع) لقومه على صورة الاستفهام بأنهم عجبوا أن جاءهم ذكر من ربهم • وإنما دخل الاستفهام معنى التقريع ، لأن المجيب لا يأتي الا بما يسوء من القبيح ، فهو إنكار وتقريع ، وقد يدخل معنى التمني ، لأنه بمنزلته فى انه طلب ، لأن يكون أمر ، وإنما فتحت الواو في قوله « أوَعجبتم » لأنها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام ، فالكلام مستأنف من وجه ، متصل من وجه ، كما أن المبتدأ في خبر الأول بهذه الصفة • والتعجب تغير النفس بما خفي سببه ، وخرج عن العادة مثله ، لأنه لا مثل له في العادة • والذكر حضور المعنى للنفس ، والذكر على وجهين : ذكر البيان وذكر البرهان ، فذكر البيان احضار المعنى للنفس ، وذكر البرهان الشهادة بالمعنى في النفس ، وكلا الوجهين يحتمل في الآية •

وقوله « على رجل منكم » فالرجل هو إنسان خارج عن حد الصبي من الذكران ، وكل رجل انسان ، وليس كل انسان رجلاً ، لأن المرأة انسان •

وقيل في دخول (على) فى قوله « على رجل منكم » قولان :

أحدهما ــ أنه بمعنى مع رجل منكم ، قال الفراء : كما تقول : جاءني الخير على وجهك ومع وجهك •

الثاني ــ لأن فيه معنى منزل « على رجل منكم » •

وقوله « لينذركم » فالانذار هو الاعلام بموضع المخافة ، والتحذير هو الزجر عن موضع المخافة • وقوله « ولتتقوا ولعلكم ترحمون » معناه إن الله تعالى أرسل هذا الرسول مع هذا الذكر ، وأراد انذاركم ، وغرضه أن

تتقوا معاصيه لكي يرحمكم ويدخلكم الجنة ونعيم الأبد ٠

وفي ذلك دلالة على بطلان مذهب المجبرة : أن الله تعالى لم يرد منهم أن يتقوا ولا أن يؤمنوا ٠

قوله تعالى :

فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ (٦٣) آية بلاخلاف ٠

هذا اخبار من الله تعالى عن قوم نوح أنه لم ينفع فيهم ذلك التخويف ولا الوعظ والزجر ، وأنهم كذبوه يعني نوحاً ٠ ومعناه أنهم نسبوا خبره الى الكذب ، لأن التكذيب نسبة الخبر الى الكذب ، والتصديق نسبة الخبر الى الصدق ، وهذا مما يختلف فيه معنى (فعّل ، وفَعَل) ٠

وقوله « فأنجيناه » إخبار من الله تعالى انه أنجا نوحاً ، والانجاء هو التخليص من الهلكة ، والاهلاك الايقاع فيها وهي المضرة الفادحة ٠ « ومن معه » يعني وأنجا من معه من المؤمنين به « في الفلك » وهي السفن ويقع على الواحد والجمع بلفظ واحد ، وأصله الدور مشتق من قولهم : فلك ثدي الجارية ، إذا استدار ، ومنه الفلكة والفَلَك من هذا ، لأنه يدور على الماء كيف أداره صاحبه ٠

وقوله « وأغرقنا الذين كذبوا » والاغراق هو الغوص المتلف في الماء ، وأصله الغوص في الشيء ، فمنه اغرق في النزع ، ولا تغرق في هذا الأمر ٠

وقوله « إنهم كانوا قوماً عمين » فيه بيان أنه إنما أغرقهم وأهلكهم ، لأنهم كانوا عمين ٠ والعمى الضلال عن طريق الهدى ، فهم كالعمي في أنهم لا يبصرون طريق الرشد ، فهم عمي عن الحق ٠

قوله تعالى :

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٤) آية بلا خلاف .

انتصب قوله « أخاهم هوداً » بقوله « أرسلنا » في أول الكلام وإن تطاول ما بينهما ، لأن تفصيل القصص يقتضي ذلك ، والتقدير وأرسلنا « الى عاد أخاهم هوداً » ويجوز في مثله الرفع وتقديره ، والى عاد أخوهم هود مرسل .

و (الأخ) أحد الولدين لواحد . وإنما قال لهود (ع) أنه أخوهم ، لأنه كان من قبيلهم ، وجاز ذلك على غير الاخوة في الدين ، لأنه احتج عليهم أن يكون رجلاً منهم ، لانهم عنه أفهم واليه أسكن .

وصرف (هود) لخفته ، كما صرفت جمل لخفتها ، وهو أحق بالصرف ، لأنه أكثر في الاستعمال .

في هذه الآية إخبار من الله تعالى انه أرسل الى قوم عاد هودا ، وأنه قال لهم « يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » وقد فسرنا معنى ذلك أجمع وبينا أيضا حقيقة العبادة ، وأنه لا يستحقها غير الله ، لانها على أصول النعم ، والشكر قد يستحقه غير الله ، لانه يستحق بالنعمة وان قلت ، وكذلك الطاعة قد تجب لغير الله ، فعلى هذا تكون عبادة اثنين شركا ، ولا يكون طاعة اثنين شركا ، كما أن الشكر على النعمة لاثنين لا يكون كذلك اذا لم يكن واقعا على وجه العبادة . وقوله « أفلا تتقون » معناه ، فهلا تتقون ، وهو بصورة الاستفهام والمراد به حضّهم على تقوى الله واتقاء معاصيه .

قوله تعالى :

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا

لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ (٦٥) آيه بلا خلاف .

في هذه الآية إخبار عما قالت الجماعة الكافرة منقوم هود له «انا لنراك في سفاهة» والسفاهة خفة الحلم ، كما قال الشاعر :

مبذرا وعاتب سيعى .... (١)

أي سفيه ، وثوب سفيه اذا كان خفيفا (وقال) المؤرج : السفاهة الجنون بلغة حمير ، وقوله «في سفاهة» معناه منغمس في السفاهة ، فالسفاهة بمعنى أنت سفيه ، أقيم المصدر مقام اسم الفاعل ، ولا يجوز قياسا على ذلك أن يقال في إرادة بمعنى مريد ، وكسرت (إن) لانها وقعت بعد القول حكاية ، والحكاية تقتضي استئناف المحكي و (إنّ) اذا شددت عملت ، ولا تعمل اذا خففت ، لأنها مشددة تشبه (كان) فلما خففت قل الشبه الا ان يحمل على كان محذوفة ، وليس قوة حملها عليها تامة كقوة حملها محذوفة ، وحذفت الهمزة في مضارع رأيت دون ماضيه ، لاجتماع ثلاثة أشياء : الزيادة في أوله ، وكثرة الاستعمال لها ، ولان فيما بقي دليل عليها ، ولم يلزم في نأيت تنأى مثل ذلك .

وقوله «وإنا لنضنك» ولم يقولوا نعلمك لامرين : احدهما ـ قال الحسن : لان تكذيبهم كان على الظن دون اليقين . وقال الرماني : معناه انك تجري مجرى من أخبر عن غائب لا يعلم ممن هو منهم . الثاني ـ انهم أرادوا بالظن العلم كما قال الشاعر :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المشدد (٢)

معناه أيقنوا . وفائدة الآية أن أمّة هود جرت على طريقة أمّة نوح فى الكفر بنبيها كأنهم قد تواصوا بالتكذيب بالحق ومعاندة أهله والرد لما أوتوا به

(١) هكذا فى الاصل والكلامات غير منقطة ، فلم أعرف له وجها

(٢) مر هذا البيت فى ١ / ٢٠٥ و ٢ / ٢٩٦ .

قوله تعــالى :

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)

آية بلاخلاف .

هذه الآية فيها إخبار عما قال هود (ع) لقومه مجيبا لهم حين قالوا له : « إنا لنراك في سفاهة » وأنه قال « ليس بي سفاهة » وموضع (قوم) نصب، لانه نداء مضاف فلو وصفته لما جاز في صفته الا النصب ، وانما حـذفت بالاضافة ، لان النداء أحق بالحذف الذي يكون في غيره لقوة اليقين فيه .

وقوله « ولكني رسول من رب العالمين » استدراك بـ (لكن) لان فيه معنى ما دعاني الى امركم السفه ، ولكن دعاني اليه أني رسول من رب العالمين. وقد بينا أن (من) ههنا بمعنى ابتداء الغاية ، والتقدير المبتدىء بالرسالة رب العالمين والمنتهى اليه الرسالة لامته ، لانه ارسل اليهم .

قوله تعــالى :

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٧) آية

قد بينا معنى الابلاغ ، وهو احضار الشيء غيره على وجه الانتهاء ،ومنه قوله « ثم ابلغه مأمنه » (١) وقد يكون احضارا لنفس البيان للافهام ،والابلاغ أشد اقتضاء للمنتهى اليه من الايصال ، لانه يقتضي بلوغ فهمه وعقله كالبلاغه التي تصل الى سويداء قلبه . ولا يجوز بدل « رسالات ربي » نبوات ربي ، لان النبوة تكليف القيام بالرسالة ، فانما يبلغ الرسالة ولا يبلغ التكليف .

وقوله « وأنا لكم ناصح أمين » معناه اني ناصح لكم فيما أدعوكم اليه من طاعة الله واخلاص عبادته . وقيل : ان معناه اني كنت فيكم أمينا قبل النبوة

(١) سورة التوبة آية ٧

والنصح إخلاص المعاملة من شائب الفساد في النية . والامين المأمون من أن يكون منه تغيير له أو تبديل .

وفى الآية دلالة على أنه يجوز للانسان أن يزكي نفسه عند الحاجةاليه .

قوله تعالى :

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٨) آية

قد بينا معنى قوله « أوَ عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم » فلا معنى لاعادته . وانما أنكر العجب مع أنه خفي بسببه ، وخرج عن العادة لظهور الدلائل فيه وقيام البراهين عليه من الارسال اليهم من تنبيههم على ما اغفلوه وتعريفهم ما جهلوه . والفرق بين العَجب والعُجب ،أن العجب ـ بضم العين ـ عقد النفس على فضيلة لاينبغي ان يعجب منها السبب لها، وليس كذلك العجب ـ بفتح العين والجيم ـ لانه قد يكون حسنا . وقد قيل في المثل (لا خير فيمن لا يتعجب من العجب وأرذل منه المتعجب من غير عجب) .

وقوله « فاذكروا اذ جعلكم خلفاء» فخلفاء جمع خليفة، وهو الكائن بدل غيره ليقوم بالامر مقامه في تدبيره . وخلفاء جمعه على التذكير مثل ظريف وظرفاء ،ولو جمعه على اللفظ لقال : خلائف نحو كريمة وكرائم،وورد ذلك في القرآن ، قال الله تعالى « هو الذي جعلكم خلائف » (١) .

وقوله « من بعد قوم نوح » امتنان عليهم بما مكنهم فى الارض وجعلهم بدل قوم نوح حين أهلكهم الله . وقوله « وزادكم في الخلق بسطة » قريء

(١) سورة ٣٥ فاطر آية ٣٩

بالسين والصاد وقيل في معناه قولان : احدهما ـــ قال ابن زيد : زادهم قوة. وقال غيره : أراد به المرة من بسط اليدين اذا فتحت على أبعد أقطارها . وقال الزجاج والرماني : كان أقصرهم طوله سبعين ذراعا وأطولهم مئة ذراع .وقال قوم : كان أقصرهم اثني عشر ذراعا . وقال ابو جعفر (ع) :كانوا كأنهم النخل الطوال ، وكان الرجل منهم ينحت الجبل بيـــده فيهدم منه قطعة . وقوله « فاذكروا آلآء الله » قال الحسن وغيره : الآلاء النعم في واحـــدها لغات : (ألاً) مثل (معاً) و (ألا) مثل «قفا» و « الي » مثل «حسي» و«إلى» مثل «دمى» قال الشاعر :

أبيض لا يرهب الهزال ولا يقطع رحما ولا يخون إلا (٢)

إلا وألا رويا جميعا . وقوله « لعلـــكم تفلحون » معناه اذكروا نعـــم الله واشكروه عليها لكي تفوزوا بثواب الجنة والنعيم الدائم الابدي .

قوله تعـــالى :

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْـدَهُ وَنَذَرَ مَا كَـانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُـنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٦٩) آية بلا خلاف.

قيل في الفرق بين « قالوا » وتكلموا ، أن القول مضمن بالحكاية من حيث هو على صفة القول ، وليس كذلك من حيث هو على صفة الكلام .

وفي الآية حكاية ما قال قوم هود ، وهم قبيلة عاد لهود (ع) « أجئتنا » ومعناه أتيتنا « لنعبد الله وحده » وتريد منا أن نوجه عبادتنا الى الله وحده. والمجيء والاتيان والاقبال واحد ، وقال قوم المجيء إتيان من أي جهة كان ، والاتيان إقبال من قبل الوجه .

وقوله « ونذر » ومعناه ونترك ، ولم تستعمل فيه (وذرنا) استغناء بتركنا ، ولا يلزم أن يستغنى بنترك عن نذر ، لان نذر خفيفة ، لان الواو

(٢) قائله الاعشى ديوانه:١٥٧ ولسان العرب(الا)

حذفت منه . « ما كان يعبد آباؤنا » تمام الحكاية عن الكفار أنهم قالوا : كيف تترك ما كان يعبد آباؤنا ؟! وأنهم قالوا « فأتنا بما تعدنا » من العذاب « ان كنت صادقا » « من » جملة « الصادقين » وانما لم يجب اتباع الآباء ، وان كانوا عقلاء ووجب اتباع العقلاء ، لانه انما يجب اتباع العقلاء فيما علموه بعقولهم ضرورة ، فأما ما طريقه الدليل فانه يجوز أن يغلطوا فيه فلا يجوز حينئذ اتباعهم وان كانوا أباءا .

قوله تعالى :

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧٠) آية بلا خلاف .

فى هذه الآية حكاية عما قال هود لقومه جوابا عما قالوه فى الآية الاولى : أنه « قد وقع عليكم رجس وغضب » فالوقوع والسقوط والنزول نظائر . والوقوع وجود الشيء نازلا بالحدوث ، فقد يكون بحدوثه ، وقد يكون بحدوث غيره ، كوقوع الحائط ونحوه . والرجس العذاب . وقيل : الرجس والرجز واحد فقلبت الزاي سيناً ، كما قلبت السين تاء في قول الشاعر :

ألا لحى الله بني السعلات عمرو بن يربوع لئام النات
ليسوا باعفاف ولا أكيات (١)

يريد الناس ، ويريد أكياس . وقال رؤبة :

كم قد رأينا من عديد ميزي حتى أقمنا كيده بالرجز (٢)

حكي ذلك عن أبي عمرو بن العلا . وقال ابن عباس : الرجس السخط ،

(١) تفسير الطبري ١٢ : ٥٢٢ ، ونوادر أبي زيد : ١٠٤ ، ١٤٧ .
(٢) ديوانه : ٦٤ وتفسير الطبري ١٢ : ٥٢٢ .

والغضب معنى يدعو الى الانتقام دعاء الانتقاص الطباع لشدة الانكار، ونقيضه الرضا، وهو معنى يدعو الى الانعام دعاء ميل الطباع • ومثل الغضب السخط، هذا قول الرماني • وقال غيره : الغضب هو ارادة العقاب بمستحقيه، ومثله السخط • والرضا هو الارادة إلا أنها لا توصف بذلك إلا اذا وقع مرادها ولم يتعقبها كراهة، ولهذا جاز إطلاق ذلك على الله، ولو كان الأمر على ما قاله الرماني لما جاز أن يقال : إن الله غضب على الكفار، ولا أنه سخط عليهم •

وقوله « أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » يعني ما أنزل الله بها من برهان، ولا نصب عليها حجة • والمعنى أتنازعونني في أسماء سميتموها يعني تسميتهم مايعبدون من دون الله آلهة، ما أنزل الله عليكم بذلك حجة بما عبدتم، فالبينة عليكم بما ادعيتم وسميتم، وليس علي ان آتيكم بالبينة على ماتعبدون من دون الله بل ذلك عليكم، وعليَّ أن آتيكم بسلطان مبين أن الله تعالى هو المعبود وحده دون من سواه وأني رسوله •

وقوله « فانتظروا اني معكم من المنتظرين » قال الحسن : معناه انتظروا عذاب الله فانه نازل بكم، فاني معكم من المنتظرين لنزوله بكم، وهو قول الجبائي وغيره من المفسرين •

قوله تعالى :

فَأَنْجَيْنَاهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧١) آية بلا خلاف •

في هذه الآية إخبار من الله تعالى أنه أنجى هوداً والذين آمنوا معه برحمة منه، والانجاء التخليص من الهلاك، وأصله من النجوة وهي الارتفاع من الارض والنجاء السرعة في السير، لأنه ارتفاع فيه بالاسراع وإنما جاز أن يقول : برحمة منا مع أن النجاة هي الرحمة، لأنه عقد معنى النجاة بالرحمة،

فصار كأنه يعمل بالقدرة .

وقوله « وقطعنا » فالقطع هو افراد الشيء عن غيره مما كان على تقدير الاتصال به ، فلما أفردوا بالهلاك عما كان على تقدير التبع لهم من نسلهم وآثارهم من بعدهم كان قد قطع دابرهم . وقال الحسن : معناه قطعنا أصل الذين كذبوا بديننا وما كانوا مؤمنين . وقال ابن زيد : قطعنا دابرهم معناه : استأصلناهم عن آخرهم . والدابر الكائن خلف الشيء . ونقيضه القابل ، ويكون القابل الآخذ للشيء من قبل وجهه .

وقوله « وما كانوا مؤمنين » انما أخبر بذلك عن حالهم مع أنه معلوم منهم ذلك لبيان أن هذه الصفة لا تجوز أن تلحق المكذب بآيات الله الجاحد لها وإن في نفيها عن المكلف ذماً له .

قوله تعالى :

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) آية بلا خلاف .

هذه الآية عطف على ما تقدم ، والتقدير وأرسلنا الى ثمود أخاهم صالحاً .

وثمود اسم قبيلة ، وقد جاء مصروفاً وغير مصروف ، فمن صرفه ، فعلى أنه اسم لحي مذكر ، ومن ترك صرفه ، فعلى أنه اسم القبيلة ، كما قال تعالى « ألا إن ثمود كفروا ربهم الا بعداً لثمود » (١) صرف الأول ولم يصرف الثاني . واختير ترك الصرف في موضع الجر ، لأنه أخف .

(١) سورة ١١ هود آية ٦٨ .

ويجوز في قوله « مالكم من إله غيره » ثلاثة أوجه من العربية : الجر على اللفظ ، والرفع على الموضع ، وقد قرىء بهما ، وقد بيناه فيما مضى ، والنصب على الاستثناء والحال ، ولم يقرأ به • ويجوز عند الفراء الفتح على البناء ، لانه أجاز ما جاءني غيرَك ، ومنع منه الزجاج • وقال : إنما يجوز ذلك اذا أضيف الى غير متمكن إضافة غير حقيقية ، كما قال الشاعر :

لم يمنع الشرب منها غيرَ أن نطقت حمامة في غصون ذات أوقال (٢)

وقوله « أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره » قد بيناه فيما مضى •

وقوله « قد جاءتكم بينة من ربكم » فالبينة العلامة التي تفصل الحق من الباطل من جهة شهادتها به • والبيان هو إظهار المعنى للنفس الذي يفصله من غيره حتى يدركه على ما يقويه كما يظهر نقيضه، فهذا فرق بين البينة والبيان•

وقوله «هذه ناقة الله لكم آية » فالناقة الانثى من الجمال والاصل فيها التوطئة والتذليل من قولهم بعير منوق أي موطّأ مذلل ، وتنوق في العمل أي جوّده كالموطأ المذلل • والناق الحزُّ بين ألية الابهام وطرفها ، لأنه وطأ به لقبض الكف وبسطها • وانما قال « ناقة الله » لأنه لم يكن لها مالك سواه تعالى • ونصب « آية » على الحال • والآية هي البينة العجيبة بظهور الشهادة ولطف المنزلة • والآية والعبرة والدلالة والعلامة نظائر • والآية التي كانت في الناقة خروجها من صخرة ملساء تمخضت بها كما تتمخض المرأة ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها ، وكان لها شرب يوم تشرب فيه ماء الوادي كله وتسقيهم اللبن بدله ، ولهم شرب يوم يخصهم لا تقرب فيه ماءهم ، فى قول أبي الطفيل ، والسدي وابن اسحاق •

وقوله « فذروها » أي اتركوها « تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء » يعني بعقر أو نحر « فيأخذكم عذاب أليم » أي ينالكم عذاب مؤلم •

---

(٢) اللسان (وقل) وأوقال : جمع وقل ، وهو ثمار شجر المقل •

قوله تعالى :

﴿وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ ٱللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٣)﴾ آية بلا خلاف .

في هذه الآية حكاية لقول صالح (ع) لقومه بعد أن أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، ونهيه إياهم أن يمسوا الناقة بسوء ، وحذرهم من المخالفة التي يستحق بها العذاب المؤلم فقال ـ عاطفاً على ذلك ـ و « اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد » أي تفكروا فيما أنعم الله عليكم حيث جعلكم بدل قوم عاد بعد أن أهلكهم وأورثكم ديارهم « وبوأكم في الأرض » أي مكنكم من منازل تأوون اليها ، يقال بوأته منزلاً اذا مكنته منه ليأوى اليه . وأصله من الرجوع من قوله « فباءوا بغضب على غضب »(١) وقوله «وباءوا بغضب من الله » (٢) أي رجعوا ، قال الشاعر :

وبوّأت في صميم معشرها فتم في قومها مبوّأها (٣)

أي انزلت ومكنت من الكرم في صميم النسب .

وقوله « تتخذون من سهولها » فالسهل ما ليس فيه مشقة على النفس من عمل أو أرض ، يقال : السهل والجبل ، وأرض سهلة . وقوله « قصوراً » جمع قصر ، وهو الدار الكبيرة بسور تكون به مقصورة . وأصله القصر الذي هو الجعل على منزلة دون منزلة ، فمنه القصير ، لأنه قصر به على مقدار دون ما هو أطول منه ، والقصر الغاية ، يقال : قصره الموت لأنه قصر عليه ، واقصر عن الأمر أي كف عنه . والقصر العشي ، ومنه القصّار لأنه يقصر

(١) سورة ٢ البقرة آية ٩٠

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٦١ وسورة ٣ آل عمران آية ١١٢ .

(٣) اللسان (بوأ) .

الثوب على النقاء دون ما هو عليه • والقصرة أصل العنق •

وقوله « وتنحتون الجبال بيوتاً » فالجبل جسم عظيم بعيد الاقطار عال في السماء ، ويقال : جبل الانسان على كذا أي طبع عليه ، لأنه يثبت عليه لصوق الجبل ، والمعنى انهم كانوا ينحتون في الجبال سقوفاً كالأبنية ، فلا ينهدم ، ولا يخرب ، « فاذكروا آلاء الله » معناه تفكروا في نعمه المختلفة كيف مكنكم من الانتفاع بالسهل والجبل « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » معناه لا تضطربوا في الارض مفسدين يقال : عاث يعيث عيثاً ، وعثى يعثي بمعنى واحد • ومفسدين نصب على الحال • ومعنى الآية التذكير بنعم الله من التمكين في الأرض والتسخير حتى تبوأوا القصور وشيدوا المنازل والدور مع طول الآمال وتبليغ الآجال •

قوله تعالى :

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٤) آية بلا خلاف •

قرأ ابن عامر « وقال الملأ » بزيادة واو ، وكذلك في مصاحف أهل الشام الباقون بلا واو •

في هذه الآية حكاية عما قال الملأ من قوم صالح ، وهم جماعة من أشراف قومه ورؤساء أمته « الذين استكبروا » أي طلبوا الكبر فوق القدر ، لان الاستكبار هو طلب الكبر فوق القدر ، حتى يؤدي صاحبه الى إنكار ما دعي اليه من الحق ، أنفة من اتباع الداعي الى الحق « للذين استضعفوا » فالاستضعاف طلب الضعف بالأحوال التي تقعد صاحبها عما كان يمكن غيره من القيام بالأمر ، والأصل في باب (استفعل) الطلب منه •

وقوله « لمن آمن منهم » موضعه من الاعراب نصب على البدل من اللام الاولى وهو بدل البعض من الكل إلا أنه أعيد فيه حرف الجر ، كقولك مررت بأخوتك بعضهم . وانما فعل ذلك لئلا يظن انهم كانوا مستضعفين غير مؤمنين ، لأنه قد يكون المستضعف مستضعفاً في دينه ، فلا يكون مؤمناً . فأزال هذه الشبهة .

وقوله « أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه » حقيقة ويقيناً ام لا تعلمون ذلك ؟ وغرضهم بذلك الاستبعاد ، لأن يكون صالح نبياً مرسلا من قبل الله .

وقوله « إنا بما ارسل به مؤمنون » جواب من هؤلاء المستضعفين لهم انهم مؤمنون بالذي أرسل به صالح مصدقون . وقد بينا أن حدّ العلم هو ما اقتضى سكون النفس . وحد الرماني ـ ههنا ـ العلم بأنه اعتقاد للشيء على ما هو به عن ثقة من جهة ضرورة أو حجة ، قال : والعالم هو المبين للشيء بعلم أو ذات تنبيء عن العلم .

قوله تعالى :

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِٱلَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٥) آية

هذه الآية حكاية عما قال المستكبرون للذين آمنوا منهم حين سمعوا منهم الايمان به والاعتراف بنبوته والتصديق لقوله « انا بالذي آمنتم به » يعني صدقتم به « كافرون » أي جاحدون . والقول هو الكلام ، ومنه المقول، وهو اللسان ، لأن صاحبه يقول به . وتقوّل بمعنى كذَب وقال الكذب . والمقيال المخبر الى نفسه بالقول امراً من خير أو شر . والقيل ملك دون الملك الأعظم بلغة حِميَر ، وجمعه أقيال ، لأنه يقول عنه كالوزير .

قوله تعالى :

فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٧٦) آية بلا خلاف .

في هذه الآية إخبار من الله تعالى عما فعل المستكبرون من قوم صالح وأنهم عقروا الناقة التي هي آية الله في الأرض ، والعقر الجرح الذي يأتي على أصل النفس ، وهو من عقر الحوض وهو أصله ، قال الشاعر :

بازاء الحوض أو عقره (١)

ومنه العقار ، لأنه اعتقار أصل مال ، لأن ثبوته كثبوت الأصل • ومنه العاقر ، لأنها قد حدث ما عقر الحال التي يجيء منها الولد فأبطل الأصل ، والمعاقرة على الشراب منه ، لأنه كالأصل في الثبوت على تلك الحال •

وقوله « وعتوا عن أمر ربهم » أي تجاوزوا الحد في الفساد • وقيل : العتوُّ الغلو في الباطل ـ في قول مجاهد ـ ومنه جبار عاتٍ ، والعاتي في الكبر ومنه « وقد بلغت من الكبر عتيا » (٢) أي بلغت حال العاتي كبراً ، والعتو عن الأمر هو المخالفة إلا أن في العتوّ مخالفة على وجه التهاون به والاستكبار عن قبوله •

وقوله « يا صالح ائتنا » إن وصلته همزته ، وان ابتدأته لم تهمز بل تقول : (إيتنا) وانما كان كذلك ، لأن أصله (إئتنا) بهمزتين ، فكره ذلك فقلبوا الثانية ياء على ماقبلها، فاذا وصل سقطت ألف الوصل وظهرت همزة الأصل •

وقوله « بما تعدنا » فالوعد الخبر بخير أو شرّ بقرينة في الشر •

وقوله « إئتنا بما تعدنا » أي من الشر ، لأنا قد علمنا ما توعدتنا عليه فأت الآن بالعذاب الذي خوّفتنا منه ، ومتى تجرّد عن قرينة ، فهو بالخير أحق للفصل بين الوعد والوعيد •

قوله تعالى :

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٧) فَتَوَلَّىٰ

(١) اللسان (عقر) وتمامه :

فرماهـا في فرائصها بأزاء الحوض أو عقره

(٢) سورة ١٩ مريم آية ٧ •

عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَا تُحِبُّونَ ٱلنَّاصِحِينَ (٧٨) آيتان بلاخلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية بما حلّ بثمود من العذاب ، فقال « فأخذتهم الرجفة » وهي حركة القرار المزعجة لشدة الزعزعة تقول : رجف بهم السقف رجوفاً اذا اضطرب من فوقهم ، وقال مجاهد والسدي : الرجفة الصيحة . وقال آخرون : هي زلزلة أهلكوا بها ، قال الأخطل :

اما تريني حناني الشيب من كبر كالنسر أرجف والانسان مهدود [١]

وقوله « فأصبحوا في دارهم جاثمين » إنما قال دراهم على التوحيد لأمرين :

أحدهما ــ إن المعنى فى بلدهم ، وهو واحد .

والآخر ــ أن معناه في دورهم ، وإنما وحد كما توحد أسماء الأجناس كقوله « إن الانسان لفي خسر » [٢] والأخذ نقل الشيء عن حاله الى جهة الناقل له ، وضده الترك كأخذ الدينار وترك الدرهم . ومعنى « جاثمين » باركين على ركبهم موتى ، جثم يجثم جثوماً اذا برك على ركبتيه . وقيل : صاروا رماداً كالرماد الجاثم ، لأن الصاعقة أحرقتهم ، وقال جرير :

عرفت المنتأى وعرفت منها مطايا القدر كالجدء الجثوم [٣]

وقوله « فتولى عنهم » يعني أن صالحاً تولى عن قومه ، والتولي الذهاب عن الشيء وهو الاعراض عنه ، وانما تولى ، لأنه أقبل عليهم بالدعاء الى توحيد الله وطاعته ، فلما خالفوا ونزل بهم العذاب تولى عنهم لليأس منهم وتولاه بمعنى أولاه نصرته ومعونته ، ومنه قولهم (تولاك الله بحفظه) وقوله

(١) ديوانه : ١٤٦ وتفسير الطبري ١٢/٥٤٤ .

(٢) سورة ١٠٣ العصر آية ٢ .

(٣) ديوانه : ٥٠٧ ومجاز القرآن ١/٢١٨ وتفسير الطبري ١٢/٥٤٦ .

« ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا » [١] فهو مثل قوله « إن تنصروا الله ينصركم » [٢] أي إن تنصروا دين الله ، وتولى عنه بمعنى أعرض عنه .

وقوله « وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة بي » انما جاز أن يناديهم مع كونهم جاثمين موتى لما في تذكر ما أصارهم الى تلك الحال العظيمة التي صاروا بها نكالاً لكل من اعتبر بها وفكر فيها من الحكمة والموعظة الحسنة . وقوله « ونصحت لكم » يقال : نصحته ونصحت له مثل شكرته وشكرت له ، ومعناه وكنت نصحت لكم « ولكن لا تحبون الناصحين » فمحبة الشيء إرادة الحال الجليلة له عند المريد ، فمن أحبَّ الناصح قبل منه ، لنهيه لهم عن ركوب أهوائهم واتباع شهواتهم ، وقد روي أنه لم يعذب أمَّة نبي قط ونبيها فيها ، فلذلك خرج ، فأما اذا أهلك المؤمنون فيما بينهم ، فان الله سيعوضهم على ما يصيبهم من الآلام والغموم .

قوله تعالى :

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٧٩) آية .

العامل في قوله « ولوطاً » يحتمل أن يكون أحد أمرين :

أحدهما ـ أن يكون عطفاً على ما مضى ، فيكون تقديره وأرسلنا لوطاً .

والثاني ـ أن يكون على تقدير واذكر لوطاً إذ قال اقومه ـ في قول الأخفش ـ ولا يجوز في قصة عاد وثمود إلا (وأرسلنا) ، لأن فيها ذكر الى . و (لوط) مصروف لخفته ، لأنه على ثلاث أحرف ساكن الاوسط ، ولا ينصرف يعقوب ، لأنه أعجمي معرفة .

واختلفوا في اشتقاق (لوط) فقال بعض أهل اللغة : إنه مشتق من لطت الحوض اذا الزقت عليه الطين وملسته به ، ويقال : هذا (ألوط) بقلبي

---

(١) سورة ٥ المائدة آية ٥٩ (٢) سورة ٤٧ محمد آية ٧ .

أي ألصق ، والليطة القشر للصوقه بما اتصل به ، وقال الزجاج : هو اسم غير مشتق ، لأن العجمي لا يشتق من العربي ، وانما قال ذلك لأنه لم يوجد علماً إلا في أسماء الأنبياء •

وقوله « أتأتون الفاحشة » ؟! فالفاحشة هي السيئة العظيمة القبح •

وقوله « ما سبقكم بها من أحد » فالسبق وجود الشيء قبل غيره • وقيل: ما ذكر على ذكر قبل قوم لوط ، ذكره عمرو بن دينار ، فلذلك قال « ما سبقكم بها من أحد من العالمين » وبه قال أكثر المفسرين ، قال البلخي : يحتمل أن يكون أراد « ما سبقكم بها من أحد العالمين » يريد عالمي زمانهم ، كما قال « واني فضلتكم على العالمين » (١) قال : ويحتمل أن يكون ما سبقكم الى ذلك أحد على وجه القهر والمجاهرة به على ما كانوا يفعلونه • وقال بعضهم : العقل كان يبيح ذلك وانما منع منه السمع • قال البلخي : هذا خطأ ، لأنه يؤدي الى انقطاع النسل ، ولأن الطباع مبنية على الاستنكاف من ذلك ، وان يكون الانسان مفعولاً به ، ولو كان الفاعل لذلك غير مقبح لما لحق المفعول به من ذلك وصمة ، كما أن المرأة المنكوحة بالعقد الصحيح لا يلحقها بذلك وصمة ولا عيب بلا خلاف • قال : ومن حمل نفسه على استحسان ذلك وانه يجوز أن يكون مفعولاً به كان ما جنا ملوماً عند جميع العقلاء •

قوله تعالى :

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ ٱلنِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨٠) آية •

قرأ أهل المدينة وحفص ههنا « إنكم » على الخبر ، وكذلك مذهبه في قراءته ان يكتفي بالاستفهام الأول من الثاني في كل القرآن ، وهو مذهب الكسائي إلا في قصة لوط • الباقون بهمزتين الثانية مكسورة ، وخففها ابن

(١) سورة ٢ البقرة آية ٤٧ ، ١٢٢ •

عامر وأهل الكوفة إلا حفصاً ، والحلواني عن هشام يفصل بينهما بالألف ، وابن كثير وأبو عمرو وورش تحقق الأولى وتلين الثانية ، وفصل بينهما بألف أبو عمرو .

وقال أبو علي : قوله « أتأتون الفاحشة .... إنكم لتأتون الرجال » كل واحد من الاستفهامين كلام مستقل بنفسه لا حاجة لواحد منهما الى الآخر، فاذا كان كذلك ، فمن قرأ (أإنكم) على الاستفهام جعل ذلك تفسيراً للفاحشة، كما أن قوله « للذكر مثل حظ الأنثيين » (١) تفسير للوصية . ومن قرأ على الخبر استأنف ، ومن أراد أن يلين همزة (إنكم) فانه يجعلها بين بين ، لأن ألف الاستفهام بمنزلة المنفصل ، ولولا ذلك لوجب أن يقلب الثانية على ما قبله ثم يحذف لالتقاء الساكنين .

ومعنى قوله « إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء » قال الحسن: إن قوم لوط كانوا ينكحون الرجال في أدبارهم ولا ينكحون إلا الغرباء ولا ينكح بعضهم بعضاً . وقوله « شهوة من دون النساء » فالشهوة مطالبة النفس بفعل ما فيه اللذة ، وليست كالارادة ، لأنها قد تدعو الى الفعل من جهة الحكمة . والشهوة من فعل الله ضرورة فينا ، والارادة من فعلنا ، تقول شهيت أشهي شهوة ، قال الشاعر :

واشعث يشهى النوم قلت له ارتحل اذا ما النجوم اعرضت واسبكرّت
فقام يجرُّ البرد لو أن نفسه يقال له خذها بكفيك خرت (٢)

وقوله « بل أنتم قوم مسرفون » معناه الاضراب عن الأول الى جميع المعايب من عبادة الأوثان وإتيان الذكران وترك ما قام به البرهان ، وتقديره

(١) سورة ٤ النساء آية ١٠ .

(٢) اللسان (شهى) وتفسير الطبري ١٢ : ٥٤٨ (يشهى النوم) بمعنى يشتهى . و (اسبكرت) امتدت واستقامت وأسرعت في مسبحها ورواية الطبرى (واسبطرت) بدل (واسبكرت) .

إنكم مستوفون لجميع المعائب إتيان الذكران وغيره ، ويحتمل أن يكون بل لاسرافكم لا تفلحون . والاسراف الخروج عن حدّ الحق الى الفساد .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨١) آية بلا خلاف .

الوجه في قوله « جواب قومه » بالنصب أنه وقع الاسم بعد (إلا) موقع الايجاب ، وذلك أن ما قبلها اذا كان إيجاباً كان ما بعدها نفياً ، واذا كان ما قبلها نفياً كان ما بعدها ايجاباً ، والجواب خبر يقتضيه أول الكلام ، والغالب عليه جواب النداء والسؤال ، ويكون على وجوه كجواب الجزاء وجواب القسم وجواب (لو) .

أخبر الله في هذه الآية بما أجاب به قوم لوط (ع) حين قال لهم « إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » كأنهم قالوا : بعضهم لبعض « اخرجوهم » يعنون لوطاً وأهله الذين آمنوا به . والاخراج نقل الشيء عن محيط الى غيره ، كما أن الادخال النقل الى محيط عن غيره . وقال الزجاج والفراء : أرادوا اخرجوا لوطاً وابنتيه .

وقوله « من قريتكم » فالقرية هي المدينة ، كما قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج ، يعني رجلين من أهل المدن إلا أنه صار بالعرف عبارة عن مجتمع الناس في منازل متجاورة بقرب ضيعة يأوى اليها للاكراء .

وقوله « إنهم أناس يتطهرون » قيل فيه قولان :

أحدهما ــ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعني يتطهرون عن اتيان الرجال في الأدبار فعابوهم بما يجب أن يمدحوا به .

الثاني ــ أنه أراد يتطهرون يتنزهون عن أفعالكم وطرائقكم .

قوله تعـالى :

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٣)﴾ آيتان .

أخبر الله تعالى أنه أنجى لوطاً ومن معه بمعنى أنه خلّصه من الهلاك « وأهله » يعني المختصين به . والأهل هو المختص بالشيء اختصاص القرابة ، ولذلك قيل : أهل البلد لأنهم بلزومهم سكناه قد صاروا على مثل لزوم القرابة . وقوله « إلا امرأته » استثنى من جملة من أنجاه مع لوط من أهله امرأته ، لأن امرأته أراد به زوجته ولا يقال : مرؤها بمعنى زوجها ، لأنه صار بمنزلة المالك لها . وليست بمنزلة المالكة له . وإنما تجري هذه الاضافة التي بمعنى اللام على طريقة الملك . وقوله « كانت من الغابرين » يعني من الباقين في عذاب الله ــ في قول الحسن وقتادة .

فان قيل : فعلى هذا يجب أن تكون امرأته ممن نجي لأنه تعالى قال « كانت من الغابرين » أي الباقين .

قلنا : المعنى إنها من الباقين في عذاب الله ، على ما حكيناه عن الحسن وقتادة . وقال قوم : معناه إنها من الباقين قبل الهلاك والمعمرين الذين قد أتى عليهم دهر طويل حتى هرمت فيمن هرم من الناس ، وكانت ممن غبر الدهر عليه قبل هلاك القوم . ثم هلكت فيمن هلك من قوم لوط .

وقيل : أراد بذلك من الباقين في عذاب الله ، ذكر ذلك قتادة .

وانما قلنا : إنها كانت من الهالكين ، لقوله في سورة هود « إنه مصيبها ما أصابهم » (١) ذكر ذلك البلخي والطبري ، فالغابر الباقي . ويقال : غبر يغبر غبوراً وغبراً اذا بقي قال الأعشى :

---

(١) سورة ١١ هود آية ٨١ .

عض بما أبقى المواسي لــه   من أمه فى الزمن الغابر [١]

وقال آخر :

وأبي الذي فتح البلاد بسيفه   فأذلها لبني أبان الغابر [٢]

وقال الزجاج « من الغابرين » عن النجاة . ومنه الغبرة بقية أثر البياض بعد الامتزاج بغيره من الألوان . وقال الرماني : هذا استثناء متصل ، لأنه يجوز أن يدخل الزوجة في الأهل على التغليب في الجملة دون التفصيل كما قال « يا نوح إنه ليس من أهلك » [٣] ومن أجل التغليب قال « من الغابرين» ولم يقل من الغابرات . ويقوي في نفسي أنه استثناء منقطع ، لأن الزوجة لا تدخل تحت قولنا : الأهل حقيقة ، وقد بينا ذلك في سورة البقرة مستوفاً .

وقوله « وأمطرنا عليهم مطراً » وأمطرها الله إمطاراً . وقيل : أمطر عليهم حجارة من سجيل ، وهــذا اخبار من الله تعالى عما أنزله الله بقوم لوط من العذاب .

وقوله « فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » أمر للنبي (ص) والمراد به جميع المكلفين بأن يتفكروا في ذلك ويعلموا كيف كان عاقبة المجرمين ، يعني الى ما صار اليه عاقبة هؤلاء العاصين . و (كيف) سؤال عن حال إلا أنها تقع في التسوية ، لأن فيها ادعاء . واذا قال القائل : كيف هو ، معناه قد علمت ما يطلبه الطالب كيف هو من حاله . والعاقبة آخر ما تؤدي اليه التأدية ، وأصله كون الشيء فى أثر الشيء ومنه العقاب ، لأنه يستحق عقيب الذنب ، ومنه العقاب لأنه يعقب على صيده لشدته ، والعَقِب ، لأنه عقب به بشدة شيئاً بعد شيء . والاجرام اقتراف السيئة ، أجرم إجراماً اذا أذنب والجرم

(١) ديوانه : ١٠٦ ومجاز القرآن ١/٢١٩ وتفسير الطبري ١٢/٥٥١ واللسان (غبر) .

(٢) قائله يزيد بن الحكم بن أبي العاص خزانة الأدب ١/٥٥ وتفسير الطبري ١٢/٥٥٢ .   (٣) سورة ١١ هود آية ٤٦ .

الذنب وأصله القطع فالمجرم منقطع عن الحسنة الى السيئة ، وفائدة الآية الاخبار عن سوء عاقبة المجرمين بما أنزل عليهم عاجلاً من عذاب الاستئصال قبل عذاب الآخرة بالنيران •

قوله تعالى :

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٤) آية بلاخلاف •

هذه الآية عطف على ما تقدم والتقدير فيها فأرسلنا « الى مدين » وهي قبيلة ، قال أبو اسحاق : أصله (مديان) وهو مديان بن ابراهيم وهؤلاء ولده • و (مدين) لا ينصرف ، لأنه معرب في حال تعريفه • والعلة المانعة من الصرف هي العجمة والتعريف وقال الزجاج : لأنه اسم قبيلة وهو معرفة وجائز أن يكون أعجمياً •

وقوله « أخاهم شعيباً » نسب اليهم بالاخوة في النسب دون غيره • وقال لهم « قد جاءتكم بينة من ربكم » يعني أتتكم حجة من الله تعالى ومعجزة دالة على صدق قولي ، وأخبر انه أمرهم بأن يوفوا الكيل والميزان •والايفاء إتمام الشيء الى حدّ الحق فيه ، ومنه إيفاء العهد وهو اتمامــه بالعمل به • والكيل تقدير الشيء بالمكيال حتى يظهر مقداره منه • والوزن تقدير الشيء بالميزان ، والمساحة تقدير الشيء بالذراع أو ما زاد عليه أو نقص • « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » نهي من شعيب إياهم عن بخس الحقوق وتنقيصها فى الكيل والميزان وغيرهما ، والبخس النقص عن الحد الذي يوجبه الحق تقول : بخس يبخس بخساً فهو باخس • والبخص بالصاد فقأ العين • وقال

قتادة والسدي : البخس الظلم ، ومنه المثل (تحسبها حمقاء وهي باخسة) .

وقوله « ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها » يعني بعد أن أصلحها الله بالأمر والنهي وبعثة الأنبياء وتعريف الخلق مصالحهم . والافساد اخراج الشيء الى حد لا ينتفع به بدلاً عن حال ينتفع بها ، وضده الاصلاح ، والمعنى لا تخرجوا الى العمل في الارض بالقبائح بعد أن أصلحها الله بالمحاسن .

وقوله « ذلكم » إشارة لقومه الى ما أمرهم به ونهاهم عنه بأن امتثاله والانتهاء اليه خير لهم وأعود عليهم إن كانوا مؤمنين مصدقين بالله ، وانما علق خيريته بالايمان وإن كان هو خيراً على كل حال من حيث أن من لا يكون مؤمناً بالله ، وعارفاً بنبيه لم يمكنه أن يعلم أن ذلك خير له ، وكأنه قال لهم : كونوا مؤمنين لتعلموا أن ذلك خير لكم . ويحتمل أن يكون المراد لا ينفعكم ايفاء الكيل والميزان إلا بعد أن تكوا مؤمنين . قال الفراء : لم يكن لشعيب آية على النبوة . قال الزجاج وغيره : هذا غلط ، لأنه قال « قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا » فجاء بالفاء جواباً للجزاء ، فكيف يقول « قد جاءتكم بينة » ولم يكن له آية على النبوة ، فان كان مع النبوة آية فقد جاءهم بها لأنه لو ادعى النبوة من غير آية لم يقبل منه . وآيات شعيب وإن لم يذكرها الله في القرآن لا يجب أن يقال : لا آية له ، لأن نبينا (ص) لم يذكر الله آياته كلها في القرآن ولا أكثرها وإن كانت له آيات كثيرة ، ولم يوجب ذلك نفيها .

قوله تعالى :

وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَٱذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨٥) آية بلا خلاف.

قيل في معنى قوله « ولا تقعدوا » بكل صراط توعدون قولان :

أحدهما ــ قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد : إنهم كانوا يقعدون على طريق من قصد شعيباً للايمان به فيخوفونه بالقتل • وقال أبو هريرة : إنما نهاهم عن قطع الطريق •

وقوله « بكل صراط توعدون » يجوز فيه تعاقب حروف الاضافة بأن يقول : على كل صراط ، وفي كل صراط ، لأن معاني هذه الحروف اجتمعت فيه ــ ههنا ــ كما تقول : قعد له بكل مكان ، وعلى كل مكان ، وفى كل مكان ، لأن الباء للالصاق وهو قد لاصق المكان ، و (على) للاستعلاء وهو قد علا المكان ، و (في) للمحل وهو قد حلّ المكان • ويقال : قعد عن الأمر بمعنى ترك العمل به كائناً ما كان ، وقام به إذا عمل به كالقعود عن الواجب ونحوه • ومعنى الايعاد الاخبار بالعذاب على صفة من الصفات ، وهو الوعيد والتهديد ، فاذا ذكر المتعلق من الخير أو الشر قلت : وعدته كذا ، كما قال تعالى « النار وعدها الله الذين كفروا »(١) واذا لم يذكر قيل في الخير وعدته ، وفى الشر أوعدته • وتقول : وعدته خيراً بلا باء وأوعدته بالشر باثبات الباء •

وقوله « وتصدون عن سبيل الله » فالصد هو الصرف عن الفعل بالاغواء فيه ، كما يصد الشيطان عن ذكر الله وعن الصلاة • تقول : صده عن الأمر يصده صداً ، وهو كالمنع •

وقوله « من آمن به » (من) في موضع نصب ، لأنه مفعول به ، وتقديره وتصدون المؤمنين بالله عن اتباع دينه ، وهو سبيل الله •

وقوله « وتبغونها عوجاً فالهاء راجعة الى السبيل ، ومعنى « تبغون » تطلبون ، والبغية الطلبة : بغاه يبغيه بغية • والمعنى ــ ههنا ــ وتبغون السبيل عوجاً عن الحق ، وهو أن يقولوا : هذا كذب وباطل وما أشبه ذلك ، وهو قول قتادة • والعوج ــ بكسر العين ــ في الدين وكل ما لا يرى ــ وبفتح العين ــ في العود وكل ما يرى كالحائط وغيره •

---

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٧٢ •

وقوله « واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم » قال الزجاج : يحتمل أشياء :

أحدها ـ اذكروا نعمة الله عليكم إذ كثر عددكم .

وثانيها ـ انه كثركم بالغنى بعد الفقر .

وثالثها ـ كثركم بالقدرة بعد الضعف ، ووجهه أنهم كانوا فقراء وضعفاء، فهم بمنزلة القليل في قلة الغناء .

وقوله «فانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » معناه فكروا فيما مضى من إهلاك من تقدم بأنواع العذاب وانزال العقوبات بهم واستئصال شأفتهم وما فعل الله بالمفسدين ، وكيف كان عاقبتهم في ذلك وما حلّ بهم من البوار .

قوله تعالى :

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٦)

آية بلا خلاف.

الطائفة الجماعة من الناس ، وهو من الطوف صفة غالبة أقيمت مقام الموصوف مأخوذة من أنها تجتمع على الطواف ، وقد يكون جماعة الكتب والدور ونحو ذلك .

وقوله « وطائفة لم يؤمنوا » إنما جاز أن يخبر عمن لم يؤمن بأنهم طائفة وإن كانوا هم الأكثر لتقابل قوله « طائفة منكم آمنوا » ولأن من حق الضد أن يأتي على حد ضده ، كما تقول : ضربت زيداً وما ضربت زيداً ، وإنما ذكر طائفة ، لأنه راجع الى الرجال ، وان كان اللفظ مؤنثاً فغلب فيه المعنى في هذا الموضع ليدل على معنى التذكير ، والمعنى إن شعيباً قال لقومه : وإن اقتسمتم قسمين ، ففرقة آمنت وفرقة كفرت ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، على وجه التهديد لهم والانكا ى من خالف منهم ، والصبر حبس النفس عما تنازع اليه من الجزع وأصله الحبس ، ومنه قوله (ع) : (اقتلوا

القاتل واصبروا الصابر) ومنه قيل للسيء : صبر ، لانه يحبس النفس عن لفظه ليداويه . والحكم المنع من الخروج عن الحق بدعاء الحكمة اليه من جهة معروفة أو حجة ، وأصله المنع قال الشاعر :

أبني حنيفة احكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا [١]

وقوله « وهو خير الحاكمين » لانه لايجوز عليه الجور ، ولا المحاباة في الحكم ، وإنما علق جواب الجزاء بالصبر ، وهو لازم على كل حال ، لأن المعنى فسيقع جزاء كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب ، كأنه قال : فأنتم مصبورون على حكم الله بذلك . قال البلخي : أمرهم في هذه الآية بالكف عما كانوا يفعلون من الصد عن الدين والتوعد عليه ، والكف عن ذلك خير ورشد ، ولم يأمرهم بالمقام على كفرهم والصبر . وفي ذلك دلالة على أنه ليس كل أفعال الكافرين كفراً ومعصية ، كما يذهب اليه بعض أهل النظر .

قوله تعالى :

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٧) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن الملأ ، وهم الجماعة الأشراف والرؤساء من قوم شعيب الذين استكبروا ، ومعناه امتنعوا من اتباع الحق أنفة عن الداعي اليه أن يتبعوه فيه ، وتكبروا عليه جهلاً منهم بمنزلة الحق ومنزلة الداعي اليه ، إذ أنهم قالوا لشعيب وأقسموا « لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا » وقيل في معنى (لتعودن) قولان :

أحدهما ــ على توهمهم أنه كان فيها على دين قومه .

---

(١) مر هذا البيت في ١/١٤٢ و ٢/١٨٨ وسيأتي في ٥/٥١٢ .

الثاني ـ أن الذين اتبعوا شعيباً قد كانوا فيها ٠ وقال الزجاج : وجائز أن يقال : قد عاد عليَّ من فلان مكروه وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك أي لحقني منه مكروه ، ووجه هذا أنه قد كان قبل ذلك في قصده لي كأنه قد أتى مرة بعد مرة ٠ وقال الشاعر :

لئن كانت الأيام أحسن مرة الي فقد عادت لهن ذنوب [١]

والعود هو الرجوع ، وهو مصير الشيء الى الحال التي كان عليها قبل ، ومنه إعادة الخلق ، وقوله تعالى « ولو ردُّوا لعادوا لما نُهوا عنــه » [٢] وتستعمل لفظة الاعادة في الفعل مرة ثانية حقيقة، وفي فعل مثله مجازاً ، وكلاهما يسمى اعادة ، لكن لما كان مثله كأنه هو في أنه يقوم مقامه جرت عليه الصفة كقولك : أعدت الكتابة والقراءة ومعناه فعلت مثله ٠

وقوله « أوَلو كنا كارهين » حكاية لما قال شعيب لأمته من أنه لا يعود في ملتهم إلا أن يكون على وجه الاكراه منهم لذلك وأنهم يريدون أن يردوا المؤمنين الى مثل ما هم عليه من المعاصي مع كراهتهم لذلك ويقينهم لبطلانه ، فبين بهذا أنا مع كراهتنا لذلك مع ما عرفناه من بطلانه لا نرجع ، وتقديره أتعيدوننا في ملتكم وإن كرهناها ؟! فأدخل ألف الاستفهام على (لو) ٠

قوله تعــالى :

قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ (٨٨) آية بلاخلاف ٠

في هذه الأية اخبار من الله عما قال شعيب لقومه من أنه قد افترى هو

(١) مر تخريجه في ٢ /٣١٥ ٠ (٢) سورة ٦ الانعام آية ٢٨ ٠

ومن آمن به على الله كذباً إن عاد في ملتهم بأن يحللوا ما يحللونه ويحرموا ما يحرمونه وينسبونه الى الله بعد إذ نجاهم الله منها •

والافتراء الكذب ، ومنه الافتعال ، والاختلاق وهو القطع بخبر مخبره لا على ما هو به ، مشتقاً من فري الأديم تقول فريت الأديم أفريه فرياً •

والملة الديانة التي تجتمع على العمل بها فرقة عظيمة • والأصل فيه تكرر الامر من قولهم طريق مليل اذا تكرر سلوكه حتى توطأ ، ومنه الملل وهو تكرر الشيء على النفس حتى تضجر • والملة الرماد الحار يدفن فيه الخبز حتى ينضج لتكرر الحمي عليها ،ومنه المليلة من الحمى• والملة لتكرر العمل فيها على ما تأتي به الشريعة •

وقوله « بعد إذ نجانا الله منها » باقامة الدليل والحجج على بطلانها ، وعلمنا بذلك وانتهائنا عنها • وقوله « ربنا افتح » قال ابن عباس : ما كنت أدري معنى قوله «ربنا إفتح » حتى سمعت بنت سيف بن ذي يزن تقول: تعال حتى أفاتحك يعني أقاضيك •

وقوله « وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا » إخبار عن قول شعيب لهم أنه ليس له أن يعود في ملتهم ، ويرجع فيها إلا بعد مشيئة الله ذلك • وقيل في معنى هذه المشيئة مع حصول العلم بأنه لا يشاء تعالى عبادة الأصنام والأوثان ثلاثة أقوال :

أحدها ــ أن فى ملتهم أشياء كان يجوز أن يتعبد الله بها ، فلو شاءها منهم لوجب عليهم الرجوع فيها •

الثاني ــ أنه اذا فعل ما شاء الله كان ذلك طاعة لله تعالى •

الثالث ــ أنه علق ما لا يكون بما علم أنه لا يكون على وجه التبعيد كما قال الشاعر :

إذا شـــاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب (١)

(١) مر فى ٤ / ٤٣٠ •

وكما قال تعالى « حتى يلج الجمل في سم الخياط » (٢) وجه ذلك ـ ههنا ـ أنه كما لا يشاء الله عبادة الأصنام والقبائح ـ لأن ذلك لا يليق بحكمته ـ فكذلك لا أعود في ملتكم . وقال قوم : فيه وجه رابع ، وهو أن الهاء في قوله « فيها » راجعة الى القرية ، وكأنه قال : وما يكون لنا أن نعود في قريتكم غانمين لكم ظاهرين عليكم بعد اذ نجانا الله منها بخروجنا منها سالمين إلا أن يشاء الله أن ينصرنا عليكم ويشاء منا الرجوع فيها .

وقوله « وسع ربنا كل شيء علماً » نصب (علماً) على التمييز .

وقيل في وجه اتصال ذلك بما قبله قولان :

أحدهما ـ أن الملة إنما يتعبد بها على حسب ما في معلومه من مصلحة العباد بها ، فهو تعالى لا يخفى عليه ذلك .

والثاني ـ أنه عالم بما يكون منا من عود أو ترك دوننا .

ثم حكى عن شعيب أنه قال لهم « على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » سؤال من شعيب ورغبة منه اليه تعالى أن يحكم بينه وبين قومه بالحق ، والفتح القضاء . ومعنى افتح إقض ـ في قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي ـ والحاكم الفاتح والفتاح ، وفاتحته في كذا قاضيته . وإنما قيل ذلك ، لأنه يفتح باب العلم الذي انغلق على غيره .

وقوله « بالحق » فيه وجهان :

أحدهما ـ سؤال الله ما يجوز عليه ، كما قال في موضع آخر « رب احكم بالحق » (٣) .

والآخر ـ ما ينكشف به لمخالفينا أنا على الحق من انزال العذاب عليهم، وقال الفراء : اهل عمان يسمون الحاكم الفتاح ، قال الشاعر :

---

(٢) آية ٣٩ من هذه السورة .

(٣) سورة ٢١ الانبياء آية ١١٢ .

ألا أبلغ بني عصـم رسولا فأني عن فتاحتكم غنيٌّ (٢)

أي قضائكم وحكمكم ، وقال الجبائي : معنى « افتح بيننا وبين قومنا » انزل بهم ما يستحقون من العقوبة لكفرهم بالله وظلمهم المؤمنين .

وفي الآية دلالة على بطـلان مذهب المجبرة ، لانه قال « وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله » فعلم أن لهم الرجوع فيها اذا شاء الله ، فاذا لم يشأ لم يكن ذلك ، فيجب على هذا إن كان الله يريد الكفر أن يكون للكافر الرجوع في الكفر ، وهذا لا يقوله أحد ، فبطل ما قالوه . على أن الظاهر من معنى الملة هو ما يعلم بالشرع ، وذلك يجوز أن ينسخه الله فيريد منهم الرجوع فيه ، وليس لأحد أن يقول إن قوله « بعد اذ نجانا الله منها » لا يليق بما قلتم وانما يليق بما قالوه ، وذلك أن قوله « بعد إذ نجانا الله منها » معناه على هذا القول أزاله عنا ونسخه عنا ، فان شاء أن يعيدنا ثانياً جاز لنا الرجوع فيها .

قوله تعـالى :

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ (٨٩) آية بلاخلاف .

في هذه الآية حكاية ما قالت الجماعة الكافرة الجاحدة بآيات الله ولنبوة شعيب للباقين منهم وأقسموا عليهم « لئن اتبعتم شعيباً » وانقدتم له ورجعتم الى أمره ونهيه لأن الاتباع هو طلب الثاني موافقة الأول فيما دعا اليه تقول : اتَّبعه اتباعاً وتبعه تبعاً ، وهو متبع وتابع « إنكم اذاً لخاسرون » وقوله « إنكم » جواب القسم واللام في (لخاسرون) لام التأكيد في خبر (إن) و (الخسران) ذهاب رأس المال ، فكأنهم قالوا : لئن تبعتموه كنتم بمنزلة من ذهب رأس ماله أو أعظم من ماله ، لأنكم لا تنتفعون باتباعه فتخسرون في اشتغالكم بما لا تنتفعون بـه وبانقضاء عمركم إذ لم تكسبوا فيه نفعاً

(٢) تفسير الطبري ١٢/٥٦٤ وقد مر في ١/٣١٥ ، ٣٤٥ .

لأنفسكم • وقيل : معناه لهالكون ، وقيل : لمفتونون •

و (اذا) من عوامل الأفعال ، وانما دخلت ـ ههنا ـ على الاسم ، لأنها ملغاة ، واذا ألغيت من العمل صلح ذلك فيها ، لأنها حينئذ تجري مجرى الف الاستفهام في أنها لا تختص ، لأنها لا تعمل •

وقوله « إنكم إذاً لخاسرون » جواب القسم وقد سد مسد جواب الشرط من قوله « لئن » ولا يجوز قياساً على ذلك إن أتاك زيد إنه لكريم ، لأن جواب الشرط انما هو بالفعل أو الفاء لترتب الثاني بعد الأول بلا فصل •

قوله تعـالى :

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٠)

آية واحدة بلا خلاف •

قد مضى تفسير مثل هذه الآية فلا معنى لاعادته [1] • والفاء في فأخذتهم عطف على قوله « قال الملأ » وفيها معنى الجواب كأنه قيل : كان جواب ما ارتكبوا من عظيم الفساد أخذ الرجفة لهم بالعذاب وأخذ الرجفة إلحاقها بهم مدمرة عليهم ، ولا يقال أخذتهم الرحمة ، لأن العذاب لما كان يذهب بهم اهلاكاً ، صلح فيه الأخذ ولا يصلح في النعيم •

والرجفة الزلزلة ، وهي حركة تزلزل الاقدام وتوجب الهلاك لشدتها • والاصباح الدخول في الصباح ، والامساء الدخول في المساء ويستعمل على وجهين : أحدهما ـ ما يحتاج الى خبر • والآخر ـ مكتف بالاسم بمنزلة (سواء) والجثوم البروك على الركبة ، جثم يجثم جثوماً ، وقد جثم هذا الأمر على قلبي أي ثقل عليه لثبوته على تلك الحال •

قوله تعـالى :

ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا

(١) في تفسير آية ٧٧ من هذه السورة •

شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩١) آية بلاخلاف .

«الذين» الأولى في موضع رفع بأنه مبتدأ وخبره «كأن لم يغنوا فيها» .

وهذه الآية إخبار من الله تعالى عن حال هؤلاء الكفار الذين كذبوا شعيباً . وشبههم بمن لم يغن فيها ، ومعنى « لم يغنوا » لم يقيموا اقامة مستغن بها عن غيرها ، والغاني النازل ، والمغاني المنازل ، وغنى بالمكان اذا أقام به يغني غناء وغنياً ، وقال النابغة :

غنيت بذلك اذ هم لك جيرة   منهـا بعطف رسالة وتودد (١)

وقال آخر :

ولقد تغنى بها جيرانك المم   سكوا منك بعهد الوصال (٢)

وقال رؤبة :

وعهد مغني رمته بضلفعا (١)

وقال حاتم طي :

غنينا زمـاناً بالتصعلك   فكلا سقاناه بكأسيهما الدهر

فما زادنا بغياً على ذي قرابـة   غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر (٢)

ووجه التشبيه في قوله « كأن لم يغنوا فيها » أن حال المكذبين يشبه حال من لم يكن قط في تلك الديار ، لما أخذتهم الرجفة بالاهلاك ، وهذا مما يتحسر عليه الناس اعظم الحسرة كما قال الشاعر :

كأن لم يكن بين الجحون الى الصفا   أنيس ولـم يسمر بمكة سـامر

---

(٢) سيأتي هذا البيت في ٥/٤١٧ .

(٣) قائله عبيدة بن الأبرص ديوانه : ٥٨ ومختارات ابن الشجري ٢/٣٧ والخصائص لابن جني ٢/٢٥٥ .

(١) ديوانه : ٨٧ وتفسير الطبري ١٢/٥٧٠ .

(٢) مجمع البيان ٢ (صيدا) ٤٥٠ واللسان (صعلك) .

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر (١)

وإنما أعيد ذكر (الذين) دفعة ثانية من غير كناية لتغليظ الأمر في تكذيبهم شعيباً مع بيان أنهم الذين حصلوا على الخسران ، لا من نسبوه الى ذلك من أهل الايمان .

و (هم) في قوله « هم الخاسرون » فصل ، ويسميه الكوفيون عماداً ، وإنما دخل الفصل مع أن المضمر لا يوصف ، لأنه يحتاج فيه الى التوكيد ليتمكن معناه في النفس ، وان الذي بعده من المعرفة لا يخرجه ذلك من معنى الخبر ، وإن كان الأصل في الخبر النكرة .

وهذه الآية جواب لقولهم « لئن اتبعتم شعيباً إنكم اذاً لخاسرون » فبين الله في هذه الآية أن الخاسرين هم الذين كذبوه لا الذين اتبعوه .

قوله تعالى :

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٢) آية بلا خلاف .

هذا إخبار من الله تعالى عما فعل شعيب (ع) مع قومه لما أبلغهم رسالات ربه تعالى ، فلما لم يقبلوها وأقاموا على تكذيبه وجحد ما أتى به ، أنه تولى عنهم ومعناه أعرض عنهم إعراض آيس منهم ، فنزل بهم العذاب « فتولى عنهم » لأنه كان مقبلاً عليهم بالوعظ والدعاء الى الحق ، فلما تمادوا في غيهم وأخذهم الله ببأسه تولى عنهم ، وانما قال لمن هلك « لقد أبلغتكم رسالات ربي » لأن معناه إن ما نزل بكم من البلاء وان كان عظيماً ، فهو حق ، لأنه بجنايتكم على أنفسكم ، فلا ينبغي أن يحزن عليهم للأمور التي ذكرناها من شأنهم . قال ابن اسحاق عزّى نفسه عنهم بعد أن كان حزن عليهم .

(١) قيل : إنه لعمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو . وقيل : هو للحارث الجرهمي اللسان (حجن) .

وقوله « رسالات ربي » إنما أتى بلفظ الجمع ليدل على اختلاف معاني الرسالة اذا جمعت ، فهي تجري مجرى جمع الاجناس ، كقولك تمور ، وأما ضربات فانما يدل على عدد المرات .

وقوله « فكيف آسى » أحزن ـ في قول ابن عباس والحسن والسدي ـ والأسى شدة الحزن يقال أسي يأسى أسىً قال الشاعر :

وانحلبت عيناه من فرط الأسى [١]

وقال امرؤ القيس :

وقوفاً بهـا صحبي على مطيهم   يقولون لا تهلك أسىً وتجمل [٢]

وقوله فكيف « آسى » لفظه لفظ الاستفهام والمراد به النفي ، وانما كان كذلك : لأن جوابه في هذا الموضع لا يصح إلا بالنفي ، كما يدخله معنى الانكار لهذه العلة . قال العجاج :

أطرباً وأنت قنسريٌ [٣]

أي لا يكون ذلك مع كبر السنّ ، وهذا تسلٍّ من شعيب (ع) بما يذكر من حاله معهم في مناصحته لهم وتأدية رسالة ربه اليهم ، وأنه لا ينبغي أن يأسى عليهم مع تمردهم في كفرهم وشدة طغيانهم ، وانه لاحيلة في فلاحهم ، قال البلخي : وفي ذلك دلالة على انه لايجوز للمسلم ان يدعو للكافر بالخير كما يقول : لعن الله فلانا واخزاه ثم يقول هداه الله وارشده ورحمه . وقال ابو عبـد الله البجلي : ابو جاد ، وهواز ، وحطي ، وكلمون ، وصعفص ، وقرشت : أسماء ملوك مدين ، وكان ملكهم يوم الظـلة في زمان شعيب (كلمون) فقالت أخت كلمن تبكيه :

(١) مرّ تخريجه في ٣/٥٧٨ .

(٢) ديوانه : ١٤٤ من معلقته الشهيرة التي مطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٣) مر تخريجه في ٤ / ٣٥٠ .

كلمون هدّ ركني هلكه وسط المحلة
سيد القوم أتاه الحتـف نارا وسط ظلـه
جعلـت نارا عليهم دارهم كالمضمحلة (٢)

قوله تعـالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٣) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لم يرسل رسولا الى اهل قرية الا واخذ أهلها بالباساء والضراء تغليظا في المحنة وتشديدا للتكليف ليليّن قلوبهم ، ولكي يتضرعوا الى ربهم في كشف ما نزل بهم فى ذلك ، وانما يفعل بهم ذلك لعلمه بما لهم فيه من الصلاح لكي يتضرعوا . والقرية أصلها الجمـع من قولهم : قريت الماء أقريه قريا اذا جمعته ، فالقرية مجتمع الناس فى المنازل المتجاورة مما هو دون المدينة ، وكذلك تسمى المدينة أيضا قرية . والنبي هو الذي يؤدي عن الله تعالى بلا واسطة من البشر ، وقيل : هو من كان ينبىء بالوحي عن الله تعالى مما أنزله عليه .

وقيل : في معنى « الباساء والضراء » ثلاثة أقوال :

احدها ــ ان البأساء ما نالهم من الشدة في أنفسم ، والضراء ما نالهم في أموالهم .

والثاني ــ ما قال الحسن : ان البأساء الجوع ، والضراء الآلام من الامراض والشدائد التي تصيبهم .

الثالث ــ قال السدي : ان البأساء الجوع والضراء الفقر .

وقيل في معنى « لعلهم » قولان :

احدهما ــ انما عاملناهم معاملة الشاك في ايراد أسباب التضرع مظاهرة

(٢) تفسير الطبري ١٢ / ٥٦٨

عليهم في الحجة .

الثاني ــ ان يكون (لعل) بمعنى اللام وتقديره ليضرعوا . واصل « يضّرعون » يتضرعون فادغمت التاء في الضاد ولا يدغم الضاد فى التاء ، لان في التاء استطالة ، وانما يدغم الناقص فى الزائد ، ولا يدغم الزائد في الناقص لما في ذلك من الاخلال .

قوله تعالى :

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا ٱلضَّرَّاءُ وَٱلسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٤)

آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية انه بدل مكان السيئة الحسنة « وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء » ومعناه انه تعالى بعد ان يفعل بهم البأساء والضراء ليتضرعوا يبدل مكان السيئة الحسنة . والتبديل وضع أحدالشيئين مكان الآخر ، فلما رفعت السيئة عنهم ووضعت الحسنة كانت مبدلة بها . وقال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد : المراد بالسيئة والحسنة ــ ههنا ــ الشدة والرخاء وهو ما يسؤ صاحبه او يحسن اثره عليه . وقال ابو علي : جرى في هذا الموضع على سبيل المثل .

وقوله « حتى عفوا » قال ابن عباس ومجاهد والسدي وابن زيد : معناه حتى كثروا . وقال الحسن حتى سمنوا ،وأصله الترك من قوله «فمن عفي له من أخيه شيء » (١) أي ترك له ، وعفوا تركوا حتى كثروا ، قال الشاعر :

ولكنا نعض السيف منها بأسوق عافيات الشحم كوم (٢)

وقوله « وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء » معناه ان الكفار قال

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٧٨ (٢) مر تخريجه في ٢ / ٢١٤

بعضهم لبعض : ان هكذا عادة الدهر ، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم فلم ينفكوا عن تلك الحال فينتقلوا .

وقوله « فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون » اخبار من الله تعالى انه أخذ من ذكره ممن لم يقبل مواعظ الله وخرج عن طاعته الى عداوته « بغتة » يعني فجاءة وهي الاخذ على غرة من غير تقدمة تؤذن بالنازلة تقول : بغته يبغته بغتة كما قال الشاعر :

* وافظع شيء حين يفجؤك البغت * (٣)

ومعنى الآية انه تعالى يدبر خلقه الذين يعملون بمعاصيه ان يأخذهم تارة بالشدة واخرى بالرخاء ، فاذا فسدوا على الامرين جميعا اخذهم بغتة ليكون ذلك اعظم في الحسرة ، وابلغ في باب العقوبة . ومعنى قوله « وهم لا يشعرون » أي لم يشعروا بنزول العذاب الا بعد حلوله .

قوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥)

آية بلا خلاف .

قرأ ابن عامر « لفتحنا » بتشديد التاء . الباقون بتخفيفها .

من شدد ذهب الى التكثير ، ومن خفف ، فلانه يحتمل القلة والكثرة.

ومعنى (لو) امتناع الشيء لامتناع غيره ، و (لولا) معناه امتناع الشيء لوجود غيره . وقال الرماني : معنى (لو) تعليل الثاني بالاول الذي يجب بوجوبه ، وينتفي بانتفائه على طريقة ان كان ، و (ان) فيها هذا المعنى على طريقةيكون . والفرق بين (لو) و(ان) أن (ان) تعلق الثاني بالاول الذي يمكن أن يكون ويمكن أن لايكون كقولك ان آمن هذا الكافر استحق الثواب،

(٣) مر تخريجه في ٤ / ١١٥ .

وهذا مقدور وليس كذلك (لو) لانها قد تدخل على ما لايمكن ان يكون كقولك : لو كان الجسم قديما لاستغنى عن صانع • وفتحت (أن) بعد(لو) لانها مبنية على شبه التعليل اللفظي لاختصاصه بالفعل الماضي ، فكأنه قيل لو كان أن اهل القرى آمنوا ، وصارت (لو) خلفا منه • واما (لولا انه خارج لاتيته) فتشبه (لو) من جهة تعليق الثاني بالاول فأجريت مجراها •

يقول الله تعالى « لو ان اهل » هذه « القرى » التي اهلكناها : من قوم لوط وصالح ، وشعيب وغيرهم أقروا بوحدانيتي وصدقوا رسلي « لفتحنا عليهم بركات » وهي الخيرات النامية ، وأصله الثبوت فنموءُ الخير يكون كناية عن ثبوته بدوامه ، فبركات السماء بالقطر ، وبركات الارض بالنبات والثمار ، كما وعد نوح بذلك أمته ، فقال « يرسل السماء عليكم مدراراً • • • (١) » الآيات • وقيل بركات السماء اجابة الدعاء ، وبركات الارض تيسير الحوائج « ولكن كذبوا » يعني كذبوا برسلي فأخذناهم بما كانوا يكسبون من المعاصي ومخالفتي •

والكسب العمل الذي يجتلب به نفع او يدفع به ضرر عن النفس ،وقد يكسب الطاعة ويكسب المعصية اذا اجتلب النفع من وجه يقبح •

قال البلخي : وفى الآية دلالة على أن المقتول ظلما لو لم يقتل لم تجب اماتته ، لانه تعالى قال « لو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض » وهذا انما يقوله لقوم أهلكهم ودمر عليهم ، وقد كان عالما بما ينزل بهم من الهلاك ،فأخبر أنهم لو آمنوا لم يفعل بهم ذلك ،ولعاشوا حتى ينزل عليهم بركات من السماء فيتمتعوا بذلك •

قوله تعالى :

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٦)

---

(١) سورة ١١ هود آية ٥٢ وسورة ٧١ نوح آية ١١ وفى سورة ٦ الانعام آية ٦ « وأرسلنا السماء عليهم مدرارا • • • • » •

أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٧)

آيتان .

قرأ اهل المدينة وابن عامر (او) بسكون الواو الا ان ورشا على أصله في القاء حركة الهمزة على الساكن فتصير قراءته مثل قراءة الباقين .

الالف في قوله « أفأمن اهل » ألف الانكار ، أنكر عليهم ان يأمنوا ، وانما دخل حرف الاستفهام معنى الانكار لظهور المعنى فيه ، وان الجواب عنه لايكون الا بالنفي . والفاء في قوله « أفأمن » فاء العطف دخل عليها حرف الاستفهام ، وانما جاز ذلك مع منافات العطف للاستئناف ، لانهماانما يتنافيان في المفرد ، لان الثاني اذا عمل فيه الاول كان من الكلام الاول ، والاستئناف قد أخرجه عن ان يكون منه . واما في عطف جملة على جملة فيصح ، لانه على استئناف جملة بعد جملة .

و (الامن) سكون النفس الى الحال المنافية لانزعاجها . والامنوالثقة والطمئنية نظائر في اللغة ، وضد الامن الخوف ، وضد الثقة الريبة ، وضد الطمأنينة الانزعاج . والامن الثقة بالسلامة من الخوف . والبأس العذاب ، والبؤس الفقر والاصل الشدة ، ورجل بئس شديد في القتال ، ومنه قولهم: بئس الرجل زيد ، معناه شديد الفساد . والنوم نقيض اليقظة . والنومسهو يغمر القلب ويغشي العين ويضعف الحس وينافي العلم . نام الرجل ينام نوما وهو حسن النيمة اذا كان حسن هيئة النوم، ورجل نومة ـ بسكون الواو ـ اذا كان خسيسا لا يؤبه به ـ ذكره الزجاج ـ ورجل نومة ـ بفتح الواو ـ كثير النوم ، والنيم : فرو النوم ، لانه يغشي كما يغشي النوم أو لانه من شأنه أن ينام فيه .

ومعنى الآية الابانة عما يجب ان يكون عليه العبد من الحذر لبأس الله وسطوته، بالمسارعة الى طاعته واتباع مرضاته .والمعني بقوله « اهل القرى »

هم اهل القرى الظالم اهلها ، والمقيمون على معاصي الله في كل وقت وكل أوان ،وان نزلت بسبب اهل القرى الظالم اهلها المشركين في زمن النبي (ص)٠

وقوله « او أمن اهل القرى » انما قال ــ ههنا ــ بالواو ، وفي الآية الاولى بالفاء ، لان الفاء تدل على ان الثاني ادى اليه الاول ، كأنه قيل : أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله من أجل ما هم عليه من تضييع امر الله ، لانه يشبه الجواب ،وليس كذلك الواو بل هي لمجرد العطف ، وانما دخلت ألف الاستفهام عليها للانكار على ما بيناه ، والواو مفتوحة في « أو أمن » لانها واو العطف دخل عليها حرف الاستفهام ، وانما فتحت لانها أخف الحركات، ولمثل ذلك فتحت ألف الاستفهام وكسرت باء الاضافة ولا مها ،لانهما حرفان لازمان لعمل الجرّ • ومن قرأ هذه القراءة قال لانها أشبه بما قبلها وما بعدها ، لانه قال قبلها « أفأمن» وقال بعدها « أولم يهد » ومن سكن الواو أراد الاضراب عن الاول من غير ان يبطل الاول ، لكن كقوله « الم •تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه » (١) فجاء هذا على معنى أمنوا هذه الضروب من معاقبتهم والاخذ لهم •وان شئت جعلته مثل (أو) التي فى قولك ضربت زيدا او عمرا ، كأنك اردت أفأمنوا احدى هذه العقوبات ، و (أو) حرف يستعمل على ضربين :

احدهما ــ بمعنى احد الشيئين ، كقولك : جاءني زيد أو عمرو ، كما تقول: جاءني احدهما ،ومن ذلك قولهم :جالس الحسن أو ابن سيرين، لأنه مخير في مجالسة ايهما شاء •

والثاني ــ ان يكون بمعنى الاضراب بعد الخبر كقولك : انا أخرج ثم تقول : أو أقيم ، فتضرب عن الخروج وتثبت الاقامة ، كأنك قلت : لا بل أقيم • ومن ثم قال سيبويه في قوله « ولا تطع منهم آثما او كفورا» (٢) لو قلت ولا تطع كفورا انقلب المعنى ، وانما كان ينقلب المعنى لانه لو كان

(١) سورة ٣٢ الم السجدة آية ١ ــ ٣ (٢) سورة ٧٦ الدهر آية ٢٤

للاضراب لجاز ان يطيع الآثم ، وذلك خلاف المراد ، لان الغرض لاتطع هذا الضرب ، ولا تطع هؤلاء .

و (الضحى) صدر النهار في وقت انبساط الشمس واصله الظهور من قولهم : ضحا الشمس يضحو ضحوا اذا ظهر ، وفعل ذلك الامر ضاحية اذا فعله ظاهراً والا ضحية من هذا ، لانها تذبح عند الضحى يوم العيد ، قال رؤبة :

* هابي العشي ديسق ضحاؤه * (١)

وقال آخر :

* عليه من نسج الضحى شفوف * (٢)

فشبه السراب بالسور البيض . (واللعب) هو العمل للذة لايراعى فيه الحكمة كعمل الصبي ، لانه لايعرف الحكيم ولا الحكمة ، وانما يعمل للذة ، واصله الذهاب على غير استقامة ، كلعاب الصبي اذا سال على فيه ، وانما خصّ وقت الضحى بهذا الذكر ، لانهم بمنزلة لايجوز لهم ان يأمنوا ليلا ولا نهارا ــ في قول الحسن ــ ولانه ابتداء الدخول في الاستمتاع . ومعنى الآية البيان عن وجوب الاخذ بالجزم في كل ما لايؤمن معه هلاك النفس ، لانكار الله عليهم ان يكونوا على حال الامن وقد ضيعوا الواجب من الامر .

قوله تعالى :

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٨)

آية بلا خلاف .

انما دخلت الفاء في « أفأمنوا » بعد الواو في « أوأمن » لأن فيها معنى (بعد) كأنه قيل ابعد هذا كله أمنوا مكر الله . ثم صار الفاء في « فلا يأمن مكر الله » كأنها جواب لمن قال قد أمنوا ، والمكر اخذ العبد بالضّر من حيث

(١ ، ٢) اللسان (ضحا) .

لايشعر الا أنه قد كثر استعماله في الحيلة عليه ، قال الخليل : المكر الاحتيال باظهار خلاف الاضمار ، وانما جاز اضافة المكر الى الله لما في ذلك من المبالغة من جهة انه قد صار العذاب كالمكر على الحقيقة ، لانه اخذ للعبد بالضّر من حيث لايشعر ، واصل المكر الالتفاف ، فمنه ساق ممكورة أي ملتفة حسنة قال ذو الرمة :

عجزاء ممكورة خمصانة قلق　　عنها الوشاح وثم الجسم والعصب (١)

والمكور شجر ملتف قال الراجز :

❊ يستن في علقي وفي مكور ❊ (٢)

ورجل ممكور قصير ملتف الخلقة ذكره الخليل في هذا الباب تقول : مكر يمكر مكرا اذا التف تدبيره على مكروه لصاحبه .

وقوله « فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » انما ارتفع ما بعد (الا) لان الرافع مفرغ له فارتفع لانه فاعل ، وكلما فرغ الفعل لما بعد (الا) فهي فيه ملغاة ، وكل ما شغل بغيره فهي فيه مسلطة ، لان الاسم لايتصل على ذلك الوجه الا بها . وانما قال « فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » مع ان الانبياء المعصومين يأمنون ذلك لامرين :

أحدهما ــ انهم لايأمنون عقاب الله للعاصين ، ولذلك سلموا من مواقعة الذنوب

الثاني ــ « فلا يأمن مكر الله » من المذنبين « الا القوم الخاسرون » .

ومعنى الآية الابانة عما يجب ان يكون عليه المكلف من الخوف لعقاب الله ، ليسارع الى طاعته واجتناب معاصيه ، ولا يستشعر الامن من ذلك ، فيكون قد خسر في دنياه وآخرته بالتهالك في القبائح .

قوله تعالى :

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ

(١) مقاييس اللغة ٤ / ٢٣٣ وسيأتي في ٥ / ١٢٨ من هذا الكتاب .

(٢) قائله العجاج . اللسان (مكر) ، (علق) .

أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ(٩٩)آية •

قيل في فاعل « يهد » من جهة الاعراب قولان :

احدهما ـ انه مضمر كأنه قيل : أو لم يهد الله لهم ، وقوّي ذلك بقراءة من قرأ بالنون على ما ذكره الزجاج •

الثاني ـ او لم يهد لهم مشيؤنا ، لان « أن لونشاء » في موضعه والتقدير أو لم يكن هاديا لهم استئصالنا لمن اهلكناه •

وقيل في معنى الهداية ـ ههنا ـ قولان :

احدهما ـ قال ابن عباس ومجاهد والسدي وابن زيد : يهدي لهم يبين لهم •

الثاني ـ أن الهداية الدلالة المؤدية الى البغية ، والمعنى اولم نبين للذين متعناهم في الارض بعد إهلاكنا من كان قبلهم فيها • وجعلنا آباءهم المالكين لها بعدهم ، انا لو شئنا أصبناهم بعقاب ذنوبهم وأهلكناهم بالعذاب كما أهلكنا الامم الماضية قبلهم •

وقوله « للذين يرثون الارض من بعد أهلها » فالارث ترك الماضي للباقي ما يصير له بعده ، وحقيقة ذلك في الاعيان التي يصح فيها الانتقال ، وقد استعمل على وجه المجاز في الاعراض ، فقيل : العلماء ورثة الانبياءلانهم تعلموا منهم ، وقاموا بما أدوه اليهم •

وقوله « ان لونشاء اصبناهم بذنوبهم» الاصابة ايقاع الشيء بالغرض المنصوب ، وضده الخطأ وهو ايقاع الشيء بخلاف الغرض المطلوب •

وقوله « ونطبع على قلوبهم » قيل في معنى الطبع ـ ههنا ـ قولان :

أحدهما ـ الحكم بأن المذموم كالممنوع من الايمان لا يفلح ، وهو أبلغ الذم •

الثاني ـ انه علامة وسمة في القلب من نكتة سوداء ان صاحبه لايفلح

تعرفه الملائكة .

وحكي عن البكرية في تأويل هذه الآية ان معنى الآية لو نشاء طبعنا على قلوبهم ، وانكر ابو علي ذلك ، وقال : هذا غلط لان معنى قوله : اني لو شئت اصبتهم بعقاب ذنوبهم وأهلكتهم كما أهلكت الامم قبلهم بعقوبة ذنوبهم ، فلا يجوز ان يعني اني لو شئت أهلكتهم فلا يتهيأ لهم ان يسمعوا بعــد اهلاكهم ، لان من المعلوم للعقلاء أجمع ان الموتى لايسمعون ، ولا يقبلون الايمان .

وقوله « ونطبع على قلوبهم » انما هو استئناف وخبر منه أنه يفعل ذلك ، ولم يرد أني لو شئت لطبعت لانه بين في هذه الآية وغيرها انه مطبع على قلوب الكافرين ، كقوله «بل طبع الله عليها » يعني على القلوب «بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » (١) أي الا قليلا منهم ، لان اهل الطبع قــد يؤمن بعضهم ، وهو خلاف قول الحسن ، فان تأويله عنده الا ايمانا قليلا . وقال الزجاج : هو على الاستئناف ، لانه لو كان محمولا على اصبنا لكان وجه الكلام ولطبعنا ، وهو قول الفراء .

وقوله « فهم لايسمعون » أي لايقبلون الايمان مع هدايتنا لهم وتخويفنا اياهم . وفائدة الآية الانكار على الجهال تركهم الاعتبار بمن مضى من الامم قبلهم ، وانه قد طبع على قلوب من لايفلح منهم عيبا وذما لهم .

وقال البلخي : شبه الله تعالى الكفر بالصدى الذي يركب المرآة والسيف لانه يذهب عن القلوب بحلاوة الايمان ونور الاسلام ، كما يذهب الصدى بنور السيف ، وصفاء المرآة ، ولما صاروا عند امر الله لهم بالايمان الى الكفر جاز ان يضيف الطبع الى نفسه ، كما قال « زادتهم رجسا الى رجسهم »(٢) وان كانت السورة لم تزدهم ذلك .

---

(١) سورة ٤ النساء آية ١٥٤ (٢) سورة ٩ التوبة ١٢٦

قوله تعالى :

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠٠) آية بلا خلاف •

اخبر الله تعالى عن اهل القرى التي ذكرها وقص خبرها واشار بـ«تلك» اليها ، لانه خاطب النبي (ص) • وقوله « نقص عليك من أنبائها » يعني قصص انباء القرى ما فيه من الاعتبار بما كانوا عليه من الاغترار بطول الامهال مع اسباغ النعم وتظاهر المنن حتى توهموا أنهم على صواب فيما دعاهم اليه الشيطان من قبح الطغيان •

والقصص اتباع الحديث ، ويقال فلان يقص الاثر أي يتبعه ومنه « قالت لاخته قصيه » (١) أي اتبعي اثره ، ومنه المقص لانه يتبع في القطع أثر القطع • و (النبأ) هو الخبر الا ان النبأ خبر عن امر عظيم الشأن وأخذ منه اسم نبي ، ويقال : أنبأ بكذا بمعنى اخبر به •

وقوله « ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات » يعني اتتهم رسلهم بالآيات والدلالات ، وانما أضاف الرسل اليهم مع أنهم رسل الله ، لان الاختصاص فيها على طريقة الملك اذ المرسل مالك لرسالته ، وقد ملك العباد الانتفاع بها والاهتداء بما فيها من البيان والبرهان •

وقوله « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ انه بمنزلة قوله « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » في قول مجاهد أي انا لم نهلكهم الا وفي معلومنا أنهم لايؤمنون •

الثاني ـ ان عتوهم في كفرهم وتمردهم فيه يحملهم على ان لايتركوه

(١) سورة ٢٨ القصص آية ١١ •

الى الايمان ــ في قول الحسن والجبائي ــ فالآية على هذا مخصوصة بمن علم من حاله انه لا يؤمن . وقال الاخفش «بما كذبوا» معناه بتكذيبهم فجعل (ما) مصدرية . والمعنى لم يكونوا ليؤمنوا بالتكذيب .

وقوله « كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » وجه التشبيه فيه أن دلالته على انهم لا يؤمنون ذما بأنهم لايفلحون كالطبع على قلوب الكافرين الذين فى مثل صفتهم في المعلوم .

قوله تعالى :

وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (١٠١) آية بلاخلاف .

معنى قوله « وما وجدنا» أي ما أدركنا ، لان الوجدان والالفاء والادراك والمصادفة نظائر . وقوله « لا كثرهم من عهد » فالعهد العقد الذي تقدم لتوطين النفس على أداء الحق ، واذا أخذ على الانسان العهد فنقضه ، قيل ليس عليه عهد أي كأنه لم يعهد اليه ، فلما كان الله تعالى اخذ عليهم العهد بما جعله في عقولهم من وجوب شكر المنعم والقيام بحق المنعم ، وطاعة المالك المحسن في اجتناب القبائح الى المحاسن فألقوا ذلك لم يكن لهم عهد وكأنه قال وما وجدنا لاكثرهم من طاعة لانبيائهم ــ وقيل العهد ما عهد اليهم مع الانبياء ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وهو قول الحسن وابي علي . والمعنى في النفي يؤل الى انه لم يكن لاكثرهم عهد فيوجد .

وقوله « من عهد » قيل في دخول (من) ههنا قولان :

احدهما ــ انها للتبعيض لانه اذا لم يوجد بعض العهد فلم يوجد الجميع لانه لو وجد جميعه لكان قد وجد بعضه .

الثاني ــ انها دخلت على ابتداء الجنس الى النهاية . وقوله « وان وجدنا اكثرهم لفاسقين» معنى (ان) هي المخففة جاز الغاؤها من العمل وان

يليها الفعل ، لانها حينئذ قد صارت حرفا من حروف الابتداء . واللام في قوله « لفاسقين » لام الابتداء التي تكسر لها (ان) وانما جاز ان يعمل ما قبلها فيما بعدها ، لانها مزحلقة عن موضعها اذ لها صدر الكلام ولكن كره الجمع بينها وبين (ان) فأخرت .

وقال قوم : المعنى وما وجدنا آكثرهم الا فسقة . فان قيل : كيف قال « اكثرهم لفاسقين » وهُمْ كلهم فاسقون ؟

قيل يجوز ان يكونَ الرجل عدلا في دينه غير متهتك ولا مرتكب لما يعتقد قبحه وتحريمه ، فيكون تأويل الآية وما وجدنا أكثرهم ـ مع كفره ـ الا فاسقا في دينه غير لازم لشريعته خائنا للعهد قليل الوفاء ، وان كان ذلك واجب عليه في دينه .

وفيها دلالة على انه يكون في الكفار من يفي بعهده ووعده وبعيد عن الخلف وان كان كافرا . وكذلك قد يكون منهم المتدين الذي لايرى ان يأتي ما هو فسق في دينه كالغصب والظلم ، فأخبر تعالى انهم مع كفرهم كانوا لا وفاء لهم ولا يدينون بمذهبهم بل كانوا يفعلون ما هو فسق عندهم ،وذلك يدل على صحة قول من يقول تجوز شهادة أهل الذمة في بعض المواضع .

قوله تعالى :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٢) آية

أخبر الله تعالى في هذه الآية انه بعد ارسال من ذكر قصته من الانبياء، وكفر قومهم ، وانزال عذابه بهم . فالهاء والميم يجوز ان يكون كناية عن الانبياء الذين جرى ذكرهم ، ويحتمل ان يكون كناية عن الامم التي ـ قد تقدم ذكرهم واهلاكهم ـ بعث اليهم موسى وارسله اليهم .والبعث الارسال وهوفي الاصل النقل باعتماد يوجب الاسراع الى الشيء ،فمنه قوله «انظرني

الى يوم يبعثون » (١) أي من القبور ، ومنه قوله « ثم بعثناكم من بعد موتكم » (٢) أي نقلناكم الى حال الحياة ، وكذلك نقلنا موسى عن حاله بالارسال الى فرعون وملائه « بآياتنا » يعني بحججنا وبراهيننا . وقوله « فظلموا بها » معناه ظلموا أنفسم بجحدها ، لان الظلم بالشيء على وجوه: منها السبب والآلة والجهة ، نحو ظلم بالسيف الذي قتل به الناس ، وظلم بذنبه له ، وظلم بغصبه المال ، وظلم بجحده الحق . وقيل « ظلموا بها » أي جعلوا بدل الايمان الكفر بها ، لان الظلم وضع الشيء في غير موضعه الذي هو حقه .

وقوله « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » معنى النظر هو محاولة التصور للشيء بالفكر فيه ، وهو طلب ادراك المعنى بالتأويل له . وقيل : هو تحديق القلب الى المعنى لادراكه ، وكأنه قيل فانظر ــ يعني بالقلب ــ كيف كان عاقبتهم ، وموضع (كيف) نصب لانه خبر (كان) وتقديره انظر أي شيء كان عاقبة المفسدين .

قوله تعالى :

وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٣)

آية بلا خلاف .

في هذه الآية حكاية لما قال موسى (ع) لفرعون ونداؤه له : اني رسول من قبل رب العالمين مبعوث اليك والى قومك و (من) في قوله « من رب العالمين» لابتداء الغاية ،لان المرسل المبتدىء بالرسالة وانتهاؤها المرسل اليه . و (موسى) على وزن (مفعل) والميم في موسى زائدة لكثرة زيادتها أولا

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٣ وسورة ١٥ الحجر آية ٣٦ وسورة ٣٨ ص آية ٧٩
(٢) سورة ٢ البقرة آية ٥٦ .

كالهمزة التي صارت أغلب من زيادة الالف أخيرا . و (أفعى) على وزن (أفعل) لهذه العلة . و (موسى) اسم لاينصرف ، لانه أعجمي ومعرفة ، وموسى الحديد عربي ان سميت به رجلا لم تصرفه ، لانه مؤنث ومعرفة على أكثر من ثلاثة احرف ، كما لو سميته بـ (عناق) لم تصرفه . ولو سميته (فقد) صرفته . و (فرعون) على وزن « فعلون » ومثله برذون ، فالواو زائدة ، لانها جاءت مع سلامة الاصول الثلاثة ، والنون زائدة للزومها . و (فرعون) لاينصرف لانه أعجمي معرفة ، وعرب في حال تعريفه لانه نقل من الاسم العلم ، ولو عرب في حال تنكيره لاينصرف كما ينصرف (بأقرب) اسم رجل .

قوله تعـالى :

حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٤) آية بلاخلاف .

قرأ نافع وحده « حقيق عليَّ » بتشديد الياء . الباقون بتخفيف الياء . فمن قرأ بالتشديد قال تقديره : واجب عليَّ ان لا أقول . ومن خفف فعلى تقدير : حريص على أن لاأقول ، قال ابو علي قوله «حقيق» يحتمل وجهين :

احدهما ــ ان (حق) الذي هو (فعل) قد تعدى بـ « على » قال الله « فحق علينا قول ربنا » (١) وقال « فحق عليها القول » (٢) فحقيق يصل بـ (على) من هذا الوجه .

والثاني ــ ان حقيقا بمعنى واجب ، فكما ان واجب يتعدى بـ (على) كذلك تعدى حقيق بها .

ومن لم يشدد أجاز تعدِّيه بـ (على) من الوجهين اللذين ذكرناهما ،

---

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ٣١ (٢) سورة ١٧ الاسرى آية ١٦ .

وقد قالوا : هو حقيق بكذا ، فيجوز على هذا أن تكون (على) بمعنى الباء فتوضع (على) موضع الباء ، قال ابو الحسن : كما قال « ولا تقعدوا بكل صراط توعدون » (٣) والمعنى (على) قال أبو علي : والاول أحسنها ، لان أبا الحسن قال : لان (على) بمعنى الباء ليس بمقيس ألا ترى انك لو قلت ذهبت على زيد تريد بزيد لم يجز ، وقال : وجاز في الآية لان القراءة وردت به ، وتقدير « حقيق على انلا اقول » حقيق بأن لا أقول قال الفراء: العرب تقول : رميت على القوس وبالقوس وجئت على حال حسنة وبحال حسنة ، ومعناهما متقارب ، لانه مستقل على القول بالنظر حتى يؤديه على الحق فيه. والحق أيضا منعقد بالقول فيه لاينفك .

وقوله « الا الحق » نصب بأنه مفعول القول على غير الحكاية بل على معنى الترجمة عن المعنى دون حكاية اللفظ .

وقوله « قد جئتكم ببينة من ربكم » خطاب من موسى لقومه أنه قد جاء قومه بدلائل من ربه عز وجل . وقوله « فأرسل معي بني اسرائيل » خطاب من موسى لفرعون ، وأمره اياه أن يخلي عن بني اسرائيل من اعتقاله، لانه كان قد اعتقلهم للاستخدام في الاعمال الشاقة من نحو ضرب اللبن ونقل التراب وما أشبه ذلك .

ومعنى الآية البيان عن وجوب اتباع موسى (ع) لمكان الادلة التي تشهد بصدقه ، وبأنه لايقول على الله الا الحق ولا يدعو الا الى الرشد .

قوله تعالى :

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٥)

آية بلا خلاف .

هذا حكاية عمّا قال فرعون لموسى (ع) من انه ان كان معك حجة

(٣) سورة ٧ الاعراف آية ٨٥

ودلالة تشهد لك على ما تقول « فات بها » أي هات بها « ان كنت »صادقا « من الصادقين » على طريق اليأس منه بذلك وجهله بصحته وامكانه ٠

واختلف النحويون ـ ههنا ـ في نقل (ان) الماضي الى الاستقبال ، فقال ابو عباس لم تنقله هنا من أجل قوة (كان) لانها أم الافعال ، ولم يجزه من غيرها ،وقال ابن السراج : المعنى ان تكن جئت بآية أي أن يصح ذلك ، لانه اذا أمكن ان يجري الحرف على اصله لم يجز اخراجه ، وانما جاز نقل (ان) الماضي الى المستقبل للبيان عن قوتها في النقل اذ كانت تنقل الفعل نقلين الى الشرط والاستقبال ، كما أن (لم) تنقله الى النفي والماضي٠ وضمير المخاطب في « كنت » يرجع الى المكنّى ، ولا يجوز مثل ذلك في (الذي) لان (الذي) غائب فحقه أن يعود اليه ضمير الغائب ، وقد أجازوه ـ اذا تقدمت كناية المتكلم ـ كما في قول الشاعر :

وانا الذي قتلت بكرا بالقنا وتركت تغلب غير ذات سنام (١)

فعلى هذا لايجوز أتيت الذي ضربك عمرو ، والوجه ضربه ٠ وانما جاز وقوع الامر في جواب الشرط ، لان فيه معنى : ان كنت جئت بآية فاني ألزمك أن تأتي بها ، فقد عاد الى انه يجب الثاني بوجوب الاول ٠ ولا يجوز مثل ذلك في الاستفهام ، لانه لم يقع معرفة غيره ، ولو اتسع فيه جاز ، مثل أن تقول : ان كان عندك دليل فما هو ؟ ، ولا يجوز : ان قدم زيد ، فأعمرو أقدمه ؟ لان الالف لها صدر الكلام ٠

قوله تعالى :

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٦) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٧) آيتان بلاخلاف ٠

---

(١) مجمع البيان ٢ / ٤٥٦

هذا اخبار من الله تعالى عن القاء موسى عصاه ، والعصا عود كالقضيب يابس وأصله الامتناع بيبسه يقال : عصى يعصي اذا أمتنع قال الشاعر :

تصف السيوف وغيركم يعصي بها   يابن القيون وذاك فعل الصيقل (١)

وقيل : عصى بالسيف اذا أخذه أخذه العصا ، ويقال لمن استقر بعد تنقل : ألقى عصاه ، قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قرّ عينا بالاياب المسافر (٢)

والعصى من بنات الواو ، والمعصية من بنات الياء قال الشاعر :

فجاءت بنسج العنكبوت كأنه   على عصويها سابري مشبرق (٣)

وتقول عصى يعصي فهو عاص مثل رمى يرمي واصل ألقى من اللقاء الذي هو الاتصال ،فألقى عصاه أي أزال اتصالها عما كان،ومنه إلتقاء الحدين يعني اتصالهما ، والملاقات كالمماسة ، وزيدت ألف ألقي لتدل على هذا المعنى وانما صارت الياء الفا في ألقي ، لانها في موضع حركة قبلها فتحة ، ولذلك رجعت الى أصلها في ألقيت . وانما وجب هذا ، لانه بمنزلة التضعيف في موضع يقوى فيه التغيير مع نقل الحركة في حروف العلة .

وقوله « فاذا هي ثعبان » فالثعبان هو الحية الضخمة الطويلة . وقال الفراء : الثعبان أعظم الحيات ، وهو الذكر ، وهو مشتق من ثعبت الماء أثعبه ثعباً اذا فجرته . والمثعب موضع انفجار الماء ، فسمي الثعبان ، لأنه يجري كعنق الماء عند الانفجار قال الشاعر :

* على نهج كثعبان العرين *

وقيل : إن ذلك الثعبان فتح فاه ، وجعل فيه فرعون بين نابيه فارتاع

---

(١) قائله جرير ، ديوانه : ١٧٥ واللسان والتاج (عصا) .

(٢) اللسان والتاج (عصا)وقال ابن بري:هذا البيت لابن عبدربه السلمي .

(٣) قائله ذو الرمة ديوانه ٧٦، واللسان (عصا) ومجمع البيان ٢ / ٤٥٦

فرعون واستغاث بموسى أن يأخذه ، ففعل ـ في قول ابن عباس والسدي وسفيان ـ ومعنى « مبين » أي بيّن أنه حية لا لبس فيه .

وقوله « ونزع يده » فالنزع هو ازالة الشيء عن مكانه الملابس له المتمكن فيه كنزع الرداء عن الانسان ، والنزع والقلع والجذب نظائر ، واليد معروفة وهي الجارحة المخصوصة ، واليد النعمة ، لانها بمنزلة ما اشتدت بالجارحة ، وقد يكون اليد بمعنى تحقيق الاضافة فى الفعل ، لأنه بمنزلة ما عمل باليد التي هي جارحة .

وقوله « فاذا هي بيضاء للناظرين » معنى (اذا) ـ هنا ـ المفاجأة . وهي بخلاف (إذا) التي للجزاء ، قال الزجاج هي من ظروف المكان مثل (ثم ، وهناك) ، والمعنى بيضاء الناظرين هناك ، والبيضاء ضد السوداء وهو أن يكون به المحل أبيض ، وكان موسى (ع) أسمر شديد السمرة . وقيل : أخرج يده من جيبه فاذا هي بيضاء « من غير سوء »[(١)] يعني برص . ثم أعادها الى كمه فعادت الى لونها الأول ـ في قول ابن عباس ومجاهد والسدي ـ وقال أبو علي : كان فيها من النور والشعاع ما لم يشاهد مثله فى يد أحد والناظر هو الطالب لرؤية الشيء ببصره لأن النظر هو تطلب الادراك للمعنى بحاسة من الحواس ، أو وجه من الوجوه .

قوله تعالى :

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٨)

---

(١) سورة ٢٠ طه آية ٢٢ وسورة ٢٧ النمل آية ١٢ وسورة ٢٨ القصص آية ٣٨ .

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١٠٩) آيتان

هذا حكاية ما قال أشراف قوم فرعون ، أن موسى ساحر عليهم بالسحر ، وإنما قيل للأشراف الملأ لأمرين : أحدهما ـ قال الزجاج : لأنهم مليئون بما يحتاج اليه منهم • الثاني ـ لأنه يملأ الصدر هيبتهم ، فالملأ جعل الوعاء على كل ما يتحمل مما يلقى فيه كامتلاء المكيال ونحوه • ويقال : الخلاء والملأ على وجه التقابل ، وقوم فرعون هم الجماعة الذين كانوا يقومون بأمره ومعاونته ونصرته ، ولهذا لايضاف القوم الى الله ، فلا يقال : ياقوم الله كما يقال يا عباد الله ، والسحر لطف الحيلة في إظهار أعجوبة توهم المعجزة وقال الأزهري السحر صرف الشيء عن حقيقته الى غيره ، والساحر إنما يكفر بادعاء المعجزة ، لأنه لا يمكن مع ذلك علم النبوة •

وأصل السحر خفاء الأمر ، ومنه خيط السحارة ، لخفاء الأمر فيها ، ومنه قوله تعالى « إنما أنت من المسحرين » (١) أي الذين يعدون لخفاء الأمر في العدو ، والسحر العدو ، والسَّحَر آخر الليل لخفاء الشخص ببقية ظلمته ، والسحور طعام السحر ، والسحر الرئة وما تعلق بها لخفاء أمرها فى انتفاخها تارة وضمورها أخرى ، قال ذو الرومة :

وساحرة الشراب من الموامي يرقص في نواشرها الأروم (٢)

ويقال : سحر الأرض المطر اذا جادها فقطع نباتها من أصوله بقلب الأرض ظهراً لبطن ، سحرها سحراً والأرض مسحورة ، فشبه سحر الساحر بذلك بتخييله الى من سحره أنه يرى الشيء بخلاف ما هو به •

---

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٥٣ ، ١٨٥ •

(٢) ديوانه : ٥٩١ واللسان (أرم) وتفسير الطبري ١٣/ ١٩ وروايته :
وساحرة السراب من الموامي ترقص في عساقفها الأروم

ومعنى قوله تعالى « يريد أن يخرجكم من أرضكم » بإزالة ملككم بتقوية أعدائكم عليكم . وقوله « من أرضكم » فالأرض المستقر الذي يمكن الحيوان التصرف فيه عليه . وجملة الأرض التي جعلها الله قراراً للعباد فاذا أضيفت ، فقيل أرض بني فلان ، فمعناه مستقرهم خاصة .

وقوله « فماذا تأمرون » موضع (ما) يحتمل أن يكون رفعاً ، ويكون المعنى فما الذي تأمرون ، ويجوز أن يكون نصباً بمعنى فبأي شيء تأمرون ، ويجعل (ما) مع (ذا) بمنزلة اسم واحد ، وفي الجواب يتبيّن الاعراب ، ويحتمل أن يكون قوله « فماذا تأمرون » من كلام الملأ بتقدير أن يكون قال بعضهم لبعض : ماذا تأمرون ، ويحتمل أن يكونوا قالوا ذلك لفرعون على خطاب الملوك ، ويحتمل أن يكون من كلام فرعون والتقدير قال فرعون : فماذا تأمرون خطاباً لقومه ، فعلى هذا تقول قلت لجاريتك قومي أنا قائمة ، وتقديره قالت : أنا قائمة ، وهو قول الفراء وأبي علي الجبائي ، وأنشد الفراء قول عنترة ، وزعم أن فيه معنى الحكاية :

الشاتمي عرضي ولم أشتمهما والناذرين إذا لقيتهما دمي (١)

لأن المعنى قالا إذا لقينا عنترة لنقتلنه .

قوله تعالى :

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١٠) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١١) آيتان بلا خلاف .

قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً « سحّار » بتشديد الحاء وألف بعدها . الباقون (ساحر) بألف قبل الحاء على وزن (فاعل) وقرأ عاصم إلا يحيى وحمزة « أرجهْ » بسكون الهاء من غير همزة . وقرأ أهل البصرة والداحو ني

(١) ديوانه : ٣١ ومعاني القرآن للفراء ١/٣٨٧ .

عن هشام ويحيى بالهمزة ، وضم الهـاء من غير اشباع • وقرأ ابن كثير والحلواني عن هشام كذلك إلا أنهما وصلا الهاء بواو في اللفظ ، وروى ابن ذكوان بالهمز وكسر الهاء من غير اشباع • وقرأ أبو جعفر من طريق بن العلاف وقالون والمسيبي بكسر الهاء من غير اشباع ، وبغير همز • الباقون وهم الكسائي وخلف واسماعيل وورش ، وأبو جعفر من طريق النهرواني بكسر الهاء ووصلها بياء في اللفظ من غير همز ، وكذلك اختلافهم في الشعراء •

والهمزة لغة قيس وغيرهم ، وترك الهمزة لغة تميم وأسد يقولون : أرجيت الأمر ، وقال أبو زيد : أرجيت الأمر إرجاء اذا أخرّته • وقوله تعالى « أرجيه » أفعله من هذا ، ولابد من ضم الهاء مع الهمزة ، لا يجوز غيره ، والا يبلغ الواو أحسن ، لأن الهاء خفية فلو بلغ بها الواو لكان كأنه قد جمع بين ساكنين ، ألا ترى أن من قال : ردُّه يا فتى بضم الدال اذا وصل بالهاء في ضمير المؤنث ، قال ردَّها ففتح ، كما تقول ردَّ لخفاء الهاء ، وكذلك « أرجهه » لا ينبغي أن يبلغ بها الواو فيصير كأنه جمع بين ساكنين ، ومن ألحق الواو فلان الهاء محركة ولم يلتق ساكنان لان الهاء فاصل ، قال (أرجيهوا) كما يقال (أضربهو) فلو كان الياء حرف لين ، لكان وصلها بالواو أقبح نحو (عليهو) لاجتماع حروف متقاربة مع أن الهاء ليست بحاجز قوي في الفصل ، واجتماع المتقاربة كاجتماع الامثال •

قال أبو علي الفارسي : من وصل الهاء بـ (يا) ، فلأن هذه الهاء توصل في الادراج بواو ، أو ياء ، نحو (بهي) أو (بهو) و (ضربهو) ولا تقول في الوصل (به) ولا (به) ولا (ضربه) حتى تشبع فتقول « بهو » ما علم (بهي) الا في ضرورة الشعر كقوله :

وما له من مجلد يلبد

وقال : ومن كسر الهاء مع الهمز ، فقد غلط وانما يجوز اذا كان قبله ياء فقال « أرجيه » بكسر الهاء ، ولم يستقم ، لأن هذه الياء في تقدير الهمزة ،

فكما لم يدغم الواو اذا خففت الهمزة لأن الواو في تقدير الهمزة كذلك لا يحسن تحريك الهاء بالضم مع الياء ، المنقلبة عن الهمزة ، وقياس من قال (رويا) فادغم أن يحرك الياء أيضاً بالضم ، وعلى هذا المسلك من قال (يتبيهم) إذا كسر الهاء مع قلب الهمزة ياء ، قال : ومعنى « أرجه » أخره ، وقال قتادة : معناه إحبسه ، يقال أرجأت الأمر إرجاء ومنه قولهم : المرجئة ، وهم الذين يجيزون الغفران لمرتكبي الكبائر من غير توبة ٠

قال الرماني : لا وجـه لقراءة حمزة عند البصريين فى القياس ، ولا الاستعمال على لغة من همز ، وقال الزجاج إسكان هاء الضمير لا يجوز عند حذاق النحويين ، وأجاز الفراء ذلك ، قال يقولون : هذه طلحة أقبلت ، وأنشد قول الراجز :

أنحى عليّ الدهر رجلا ويداً   يقسم لا يصلح إلا أفسدا
فيصلح اليوم ويفسده غدا (١)

وزعم ان اسكان هاء التأنيث جائز وأنشد

لمـا رأى ان لادعـه ولا شبع   مال الى ارطـاة حقف فاضطجع (٢)

وقال الآخر :

لست لزعبلـة إن لـم أغيـّـ   ـر بكلتي إن لم أساو بالطول (٣)

كلتي معناه طريقتي ، و (الطول) جمع امرأة طولى ، قال الزجاج : هذا

---

(١) قائله دويد بن زيد بن نهد القضاعي وهو أحد المعمرين أنظر طبقات فحول الشعراء : ١٨٠ والمعمرين : ٢٠ ومعاني القرآن للفراء ١/٣٨٨ وتفسير الطبري ١٣/٢١ وأمال الشريف المرتضى ١/١٣٧ ٠

(٢) اللسان (ضجع) وتفسير الطبري ١٣/٢١ ومعاني القرآن للفراء ١/٣٨٨ وهو يصف ذئباً قد قطع أمله من أن ينال الظبي ، ولم يجد ما يشبعه فلما يئس أضطجع بقرب شجرة ٠

(٣) معاني القرآن ١/٣٨٨ ٠

الشعر الذي أنشده الفراء لا يعرف ، ولا وجه له ، وإنما لم يلين أبو عمرو الهمزة الساكنة على أصله في تخفيف الهمزة لأن سكونه علامة للجزم ، فلا يترك همزه ، لأن التسكين عارض وكذلك « مؤصدة » لا يترك همزه ، لأنه يخرج من لغة الى لغة .

والأخ هو من النسب بولادة الأدنى من أب أو أم أو منهما ويقال الأخ الشقيق ويسمى الصديق الأخ تشبيهاً بالنسيب فأما الموافق في الدين فانه أخ بحكم الله في قوله « إنما المؤمنون أخوة » (٤) .

ومعنى الآية أن قوم فرعون أشاروا عليه بأن يؤخِّر موسى وأخاه الى أن يرسل في بلاد مملكته حاشرين ، وقال ابن عباس : هم الشرط ، وقال مجاهد والسدي : يحشرون من يعلمونه من السحرة والعالمين بالسحر ليقابل بينهم وبين موسى جهلاً منهم بأن ذلك ليس بسحر ، ومثله في عظم الاعجاز لا تتم فيه الحيلة ، لأن السحر هو كل أمر يوهموه على من يراه ، ولا حقيقة له ، وإنما يشتبه ذلك على الجهال والاغبياء دون العقلاء المحصلين .

وقوله « يأتوك بكل ساحر عليم » (يأتوك) جزم ، لأنه جواب الأمر ، والمعنى إن ترسل يأتوك ، وحجة من قال « ساحر » قوله « ما جئتم به السحر » (١) والفاعل من السحر ساحر ، ويقوّيه قوله « فألقى السحرة ساجدين » (٢) والسحرة جمع ساحر ، ولأنه قال « سحروا أعين الناس » (٣) واسم الفاعل ساحر ، ومن قرأ « سحّار » فلأنه وصف بـ (عليم) ، ووصفه به يدل على تناهيه فيه وحذقه ، فحسن لذلك أن يذكر بالاسم الدال على المبالغة .

والاتيان هو الانتقال الى مطلوب ، ومثله المجيء أتى يأتي إتياناً وأتيَ يؤتى إيتاء اذا أعطي ، وإنما دخلت (كل) وهي للعموم على واحد ، لأنه في معنى الجمع ، كأنه قال بكل السحرة اذا أفردوا ساحراً ساحراً . والفرق بينه وبين

(٤) سورة ٤٨ الحجرات آية ١٠ . (١) سورة ١٠ يونس آية ٨١ .
(٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٤٦ . (٣) سورة ٧ الاعراف آية ١١٥ .

كل السحرة أنه اذا قيل بكل السحرة ،فالمعنى المطلوب للجميع ، واذا قيل : بكل ساحر ، فالمعنى المطلوب لكل واحد منهم ،-ويبين ذلك قول القائل : لكل ساحر درهم ، ولكل السحرة درهم ، فان الأول يفيد أن لكل واحد درهماً ، والثاني أن الجميع لهم درهم .

والباء في قوله « بكل » قيل فيه قولان :

أحدهما ـ انه للتعدية كما يعدى بالالف ، ومنه ذهبت به وأذهبته وأتيت به وأتيته .

الثاني ـ أنها بمعنى (مع) أي يأتون ومعهم كل ساحر عليم .

قوله تعالى :

وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٢) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٣) آيتان

قرأ أهل الحجاز وحفص « إن لنا لأجراً » بهمزة واحدة على الخبر ، وقرأ بهمزتين مخففتين ابن عامر وأهل الكوفة إلا حفصاً وروح ، إلا أن الحلواني عن هشام يفصل بينهما بألف ، وأبو عمرو ورويس لا يفصل . قال أبو علي : الاستفهام في هذا الموضع أشبه ، لأنهم يستفهمون عن الأجر ، وليس يقطعون أن لهم الأجر ، ويقوّي ذلك إجماعهم في الشعراء ، وربما حذفت همزة الاستفهام ، قال الحسن قوله تعالى « وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل » (١) إن من الناس من يذهب الى انه على الاستفهام وقد جاء ذلك في الشعر :

أفرح أن أرزأ الكرام وأن ... أورث ذوداً شصائصاً نبلا (٢)

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٢٢ .

(٢) اللسان (نبل) يقول أأفرح بصغار الابل التي ورثتها ، وقد رزئت بالكرام ؟؟

وهذا أقبح من قوله :

وأصبحت فيهم آمنا لا كمعشر أتوني فقالوا من ربيعة أم مضر (٣)

لأن (أم) تدل على الهمزة • وفى الكلام حذف ، لأن التقدير فأرسل فرعون في المدائن حاشرين يحشرون السحرة،فحشروهم«فجاءالسحرةفرعون قالوا : انلنا لاجرا »أي ان لنا ثوابا على غلبتنا موسى عندك «انكنانحن» يا فرعون « الغالبين » ، وهو قول ابن عباس والسدي •

وتقول : جئته وجئت اليه ، فاذا قلت : جئت اليه ، ففيه معنى الغاية لدخول (الى) فيه وجئته معناه قصدته بمجيئي ، واذا لم يعده لم يكن فيه دلالة على القصد كما تقول : جاء المطر •

وقوله « وجاء السحرة فرعون قالوا » إنما لم يقل : فقالوا حتى يتصل الثاني بالأول ، لأن معناه لما جاؤا قالوا ، فلم يصلح دخول الفاء على هذا الوجه ، وانما قالوا : أئن لنا لأجراً ، ولم يقولوا : لنا أجر ، لأن أحدهما سؤال عن تحقيق الأجر وتأكيده ، كما لو قال أبا الله لنا أجر ، وليس كذلك الوجه الآخر •

وقوله « إن كنا نحن » موضع (نحن) يحتمل وجهين :

أحدهما ـ أن يكون رفعاً ويكون تأكيداً الضمير المتصل في كنا •

والثاني ـ لا موضع له ، لأنه فصل بين الخبر والاسم •

والأجر الجزاء بالخير ، والجزاء قد يكون بالشر بحسب العمل وبحسب ما يقتضيه العدل • والغلبة ابطال المقاومة بالقوة ، ومن هذا قيل في صفة الله (عز وجل) القاهر الغالب ، لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء •

وقوله « قال نعم » حكاية عن قول فرعون مجيبا لهم عما سألوه من أن لهم أجراً أو لا ؟ بأن قال نعم لكم الأجر ، و (نعم) حرف جواب مع أنه

(٣) قائله عمران بن حطان ، يقوله في قوم نزل بهم متنكراً ، وهو يشكر صنيعهم ، انظر الكامل ١٨٧/٧ والخصائص لابن جني ٢٨١/٢ •

يجوز الوقف عليها ، لأنها في الايجاب نظيرة (لا) في النفي ، وإنما جاز الوقف عليها ، لأنها جواب لكلام يستغني بدلالته عما يتصل بها ٠

وقوله « قال » أصله (قول) فانقلبت الواو الفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها وإنما قلبوها مع خفة الفتحة لتجري على (قلت وتقول) في الاعلال مع أن الالف الساكنة أخف من الواو المتحركة ،وان كانت بانفتحة ٠والواو في قوله تعالى « وانكم » واو العطف كأنه قال : لكم ذلك ، وانكم لمن المقربين ، وهو في مخرج الكلام ، كأنه معطوف على الحرف ٠ وكسرت الف « إنكم » لانها في موضع استئناف بالوعد ،ولم تكسر لدخول اللام في الخبر،لانه لو لم يكن اللام لكانت مكسورة ٠ ومثل هذا قوله تعالى « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام » [١] ومعنى « من المقربين » انكم من المقربين الى مراتب الجلالة التي يكون فيها الخاصة ، ولا يتخطى فيها العامة ٠

وفي الآية دليل لقوم فرعون على حاجته وذلته او استدلوا واحسنوا النظر لنفوسهم ، لأنه لم يحتج الى السحرة الا لذلة وعجز ، وكذلك في طلب السحرة الأجر دليل على عجزهم عما كانوا يدعون من القدرة على قلب الاعيان، لأنهم لو كانوا قادرين على ذلك لاستغنوا عن طلب الأجر من فرعون ، ولقلبوا الصخر ذهباً ولقلبوا فرعون كلباً واستولوا على ملكه ٠

قال ابن اسحاق : وكان السحرة خمسة عشر ألفاً ٠ وقال ابن المكندر : كانوا ثمانين ألفاً ، وقال كعب الاحبار : كانوا إثنى عشر الفاً ٠ وقال عكرمة : كانوا سبعين ألفاً ذكره الطبري ٠

قوله تعـالى :

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٤)

قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُا

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٠ ٠

بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٥) آيتان بلا خلاف .

هذا حكاية قول السحرة أنهم قالوا لموسى اختر أحد شيئين إما أن تلقي أنت عصاك أو نحن نلقي عصيّنا ، وانما دخلت (أن) في قوله « إما أن تلقي » ولم تدخل في « إما يعذبهم وإما يتوب عليهم » (٢) لأن فيه معنى الأمر كأنهم قالوا : اختر إما أن تلقي أي إما القاؤك وإما القاؤنا ، ومثله « اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا »(٣) فموضع (ان) نصب ،ويجوز أيضا ان يكون التقدير إما إلقاؤك مبدوء به وإما القاؤنا ، ويجوز أن تقول : يا زيد اما أن تقوم أو تقعد ، ولا يجوز أن تقول يا زيد إن تقوم أو تقعد ، لأن (إما) يبتدأ بالمعنى فيها أي بمعنى التخيير ، فلذلك تدل على معنى اختر ، وليس كذا (أو) وقد يقع موقع (اما) وليس بجيد ، كما قال الشاعر :

فقلت لهن امشين إما نلاقه كما قال او تشفى النفوس فنعذرا (٤)

وقال ذو الرمة :

فكيف بنفس كلما قلت أشرفت على البرء من حوصاء هيض اندمالها
تهاض بدار قد تقادم عهدها واما بأموات ألمّ خيالها (٥)

(٢) سورة ٩ التوبة آية ١٠٧

(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٨٧ . (٤) معاني القرآن للفراء ١/٣٩٠ .

(٥) هذان البيتان للفرزدق . ديوانه ٢/٦١٨ ومجاز القرآن ١/٣٩٠ وهما مطلع قصيدة له يمدح بها ابن عبدالملك ، ويهجو الحجاج بن يوسف . وقد تكون نسبتهما لذي الرمة ــ هنا ــ خطأ من الناسخ .

موضع (اما) موضع (أو) . والالقاء ارسال المعتمد الى جهة السفل ، ومثله الطرح ، وضده الامساك . وقول القائل : إلق عليّ مسألة الى هذا يرجع ، وإنما قال « واما أن نكون نحن الملقين » ولم يقل واما أن نلقي ، لأنه ليس المعنى على ليكن القاء أحدنا فقط ، فيجيء على التقابل ،وانما هو

على أن يلقي أحدنا فيبطل ما أتى به الآخر .

وقوله « ألقوا » حكاية عن قول موسى (ع) للسحرة (ألقوا) أنتم « فلما ألقوا سحروا أعين الناس » قال البلخي : معناه غشوا أعين الناس ، وقال : السحر هو الخفة ، والافراط فيها حتى تخيل بها الاشياء عن الحقيقة والاحتيال بما يخفى على كثير من الناس كتغييرهم الطرجهالة والحيلة فيها ان يجعل (الطرجهالة) طاقين ويرقق بغاية الترقيق ، ويجعل بين الطبقتين زيبق ، فاذا وضعت في الشمس حمي الزيبق فسار بالطرجهالة ، لأن من طبع الزيبق اذا حمي ان يتحرك ويفارق مكانه .

وقال قوم : معناه خيلوا الى أعين الناس بما فعلوه من لتخييل والخدع أنها تسعى ، كما قال تعالى « يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى [٦] » وقال الرماني : معنى سحر الاعين قلبها عن صحة إدراكها بما يتخيل من الامور المموهة لها بلطف الحيلة التي تجري مجرى الخفة والشعبذة مما لا يرجع الى حقيقة ، والمحدث لهذا التخيل هو الله تعالى عندما أظهروا من تلك المخاريق وإنما نسب اليهم لأنهم لو لم يعرضوا بما يعملونه لم يقع ، كما لو جعل أحد طفلاً تحت البرد ، فمات ، فهو القاتل له في الحكم ، والله تعالى أماته ، وإنما جاز من موسى (ع) أن يأمرهم بالقاء السحر وهو كفر لأمرين :

أحدهما ـ إن كنتم محقين فالقوا .

الثاني ـ القوا على ما يصح ويجوز ، لا على ما يفسد ويستحيل .

وقال الجبائي : هذا على وجه الزجر لهم والتهديد ، وليس بأمر .

وقوله « فلما ألقوا سحروا أعين الناس » والفرق بين (لما) و (إذا) هو الفرق بين (لو) و (أن) في ان أحدهما للماضي والآخر للمستقبل ، وكل هذه الأربعة تعليق أول بثان ، الا ان (لو) على طريقة الشك ، و (لما) يقين .

وقوله « واسترهبوهم » معناه طلبوا منهم الرهبة ، وهو خلاف الارهاب،

---

(٦) سورة ٢٠ طه آية ٦٦ .

لأنه جعل الرهبة للذي يرهب ، والعظيم ما يملأ الصدر بهوله ، ووصف السحر بأنه عظيم لبعد مرام الحيلة فيه ، وشدة التمويه به ، فهو لذلك عظيم الشأن عند من يراه من الناس ، ولأنه على ما ذكرناه من الخلاف في عدة السحرة من سبعين ألفاً أو ثمانين الفاً كان مع كل واحد حبل وعصا ، فلما ألقوها وخيل الى الناس أنهـا تسعى استعظموا ذلك وخافوه ، فلذلك وصفه الله بأنه سحر عظيم •

و (إما) اذا كانت للتخيير ، فأهل الحجاز ومن جاورهم من قيس وبعض تميم يكسرونها وينصبها قيس وأسد و (أما) اذا كانت منصوبة فهي التي يقتضي أن يكون في جوابها الفاء •

قوله تعـالى :

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٦) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٧) آيتان بلاخلاف •

قرأ حفص عن عاصم « تلقف » خفيفة • الباقون بتشديد القاف ، وقرأ ابن كثير فاذا هي « تلقف » بتشديد التاء والقاف في رواية البزي عنه إلا النقاش ، وابن فليح •

والوحي هو القاء المعنى الى النفس من جهة تخفى ، ولذلك لم يشعر به إلا موسى (ع) حتى امتثل ما أمر به فاذا العصا حية تسعى •

وفي هذه الآية إخبار من الله تعالى أنه أوحى الى موسى (ع) حين ألقى السحرة سحرهم وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم : أن ألق عصاك فـ (أن) يحتمل أمرين :

أحدهما ــ أن تكون مع ما بعدها من الفعل بمنزلة المصدر ، وتقديره أوحينا الى موسى بالالقاء •

الثاني ــ أن تكون (أن) بمعنى أي لأنه تفسير ما أوحي اليه •

« فاذا هي تلقف ما يأفكون » معنى تلقف تبتلغ تناولاً بفيها بسرعة منها ، فهي تلتقمه استراطاً حالاً فحالاً قال الشاعر :

وأنت عصى موسى التي لم تزل تلقف مـا يأفكه الساحـر (١)

يقال :لقفته ألقفه لقفاً ولقفاناً ، ولقفته ألقفه وتلقّفته تلقفا إذا أخذته في الهواء . ومن قرأ بتشديد التاء قال : أصله تتلقف فادغم احدى التائين في الأخرى بعد أن سكن الثانية . ومن خفف القاف أخذه من لقفته . ومن شددها قال : هو من تلقّف .

وقوله « ما يافكون » فالافك هو قلب الشيء عن وجهه ، ومنه « المؤتفكات » (٢) المنقلبات . والافك الكذب لانه قلب المعنى عن جهة الصواب . وقال مجاهد : « ما يأفكون » أي يكذبون . وفي الآية حذف ، وتقديره فألقى عصاه فصارت حية « فاذا هي تلقف ما يأفكون » والمعنى إنها تلقف المأفوك الذي حلّ فيه الافك ، وعلى هذا يحمل قوله تعالى « والله خلقكم وما تعملون » (٣) ومعناه وما تعملون فيه .

وقوله « فوقع الحق » معناه ظهر الحق ـ في قول الحسن ومجاهد ـ وأصل الوقوع السقوط كسقوط الحائط والطائر تقول : وقع يقع وقعاً ووقوعاً وأوقعه ايقاعاً ، ووقّع توقيعاً وتوقّع توقعاً وأوقعه مواقعة ، والميقعة المطرقة . والواقعة النازلة من السماء ، والوقائع الحروب . قال الرماني : الوقوع ظهور الشيء بوجوده نازلا الى مستقره . و (الحق) كون الشيء في موضعه الذي اقتضته الحكمة . والحق موافق لداعي الحكمة ، ولذلك يقال وقع الشيء فى حقه . و (الباطل) الكائن بحيث يؤدي الى الهلاك ، وهو نقيض الحق ، فالحق كون الشيء بحيث يؤدي الى النجاة . والعمل

(١) تفسير الطبري ٧/٢٦٠ والفتح القدير (تفسير الشوكاني) ٢/٢٢١ وروايتهما (تلقم) بدل (تلقف) وهو في مجمع البيان ٢/٤٦٠ (تلقف) .

(٢) سورة ٥٢ النجم آية ٥٣ . (٣) سورة ٣٧ الصافات آية ٩٦ .

تصيير الشيء على خلاف ما كان اما بايجاده أو بايجاد معنى فيه ومثله التغيير •

و (ما) في قوله « ما كانوا يعملون » يحتمل أمرين :

أحدهما ـ أن يكون بمعنى المصدر ، والتقدير وبطل عملهم •

والثاني ـ أن يكون بمعنى الذي وتقديره وبطل الحبال والعصي التي عملوا بها السحر •و (ما)اذا كانت بمعنى المصدر لاتعمل عمل(إنّ) اذا كانت بمعنى المصدر ، لأمرين : أحدهما ـ أن (ما) اسم ، والاسم لا يعمل في الفعل • والآخر ـ أن تنقل الفعل نقلين الى المصدر والاستقبال تقول : يعجبني ما تصنع ، ويعجبني أن تصنع الخير •

قوله تعالى :

فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٨) وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١١٩) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٢٠) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢١) أربع آيات •

أخبر الله تعالى أنه لما القى موسى عصاه وصارت حية ، وتلقفت ما أفكت السحرة : أن السحرة « غلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين » والغلبة الظفر بالبغية من العدو ، وفي حال المنازعة تقول : غلب يغلب غلبة ، فهو غالب وذاك مغلوب أي مقهور ، وغالبه مغالبة وتغالبا تغالباً وغلّب تغليباً • ومعنى (هنالك) أي عند ذلك الجمع ، فهو ظرف مبهم كما أن (ذا) مبهم وفيه معنى الاشارة • وقيل : هنا وهنالك وهناك ، مثل ذا وذاك وذلك • وإنما دخلت اللام في (هنالك) لتدل على بعد المكان المشار اليه ، كما دخلت في (ذلك) لبعد المشار اليه ، فـ (هنا) لما بعد قليلا ، وهنالك لما كان أشد بعداً • وإنما دخل كاف المخاطبة مع بعد الاشارة ليشعر بتأكيد معنى الاشارة الى المخاطب ليتنبه على بعد المشار اليه من المكان ، والبعيد أحق بعلامة التنبيه من القريب •

وقوله « وانقلبوا صاغرين » أي رجعوا أذلاء ، والصاغر الذليل ،

والصغر والصغار الذلة ، يقال : صغر الرجل يصغر صغراً وصغاراً اذا ذل ، وأصله صغر القدر •

وقوله تعالى « وألقي السحرة ساجدين » إنما جاء على ما لم يسم فاعله لأمرين :

أحدهما ـ أنه بمعنى ألقاهم ما رأوا من عظيم آيات الله بأن دعاهم الى السجود لله والخضوع له •

الثاني ـ أنهم لم يتمالكوا أن وقعوا ساجدين ،فكأن ملقيا ألقاهم ، ولم يكن ذلك على وجه الاضطرار الى الايمان ، لأنه لو كان كذلك لما مدحوا عليه بل علموا ذلك بدليل ، وهو عجزهم من ذلك مع تأتي سائر أنواع السحر منهم • والالقاء اطلاق الشيء الى جهة السفل ونقيضه الامساك ، ومثله الاسقاط والطرح • ومعنى الآية البيان عن حال من تيقن البرهان ، فظهر منه الاذعان للحق والخضوع بالسجود لله تعالى ، ولم يكن ممن تعامى عن الصواب وتعاشى عن طريق الرشاد •

وقوله تعالى « قالوا آمنا برب العالمين » حكاية لما قالت السحرة عند تبيّنهم الحق ووقوعهم للسجود لله تعالى واعترافهم بأنهم آمنوا برب العالمين الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق موسى وهارون ، والقول كلام يدل على الحكاية ، ولو قيل : (تكلموا) لم يقتض حكاية كلامهم على صورته ، فاذا قيل : (قالوا) اقتضى حكاية كلامهم • والايمان هو التصديق الذي يؤمِّن من العقاب ، وهو التصديق بما أوجب الله عليهم • وقال الرماني : يجوز أن يقال لله أنه لم يزل ربّاً ولا مربوب ، كما جاز لم يزل سميعاً ولا مسموع ، لأنه صفة غير جارية على الفعل كما تجري صفة مالك على ملك يملك ، فالمقدور هو المملوك • وأصل الصفة بـ (رب) التربية وهي تنشئة الشيء ، حالاً بعد حال حتى يصير الى حال التمام والكمال ، ومنه رب النعمة يربها ربّاً إذا تممها ، وربي الطفل تربية ، والله تعالى رب العالمين المالك لهم ولتدبيرهم •

و (العالم) كل أمة من الحيوان وجمعه العالمون على تغليب ما يعقل ، وهو مأخوذ من العلم ، لكنه كثر في استعمال أهل النظر على أنه لجميع ما أحاط به الفلك من الأجسام المتصرفة في الأحوال ، وقال قوم (عالم) لا يقع إلا لجماعة العقلاء • وقد بينا ذلك في فاتحة الكتاب •

وقوله « رب موسى وهارون » إنما خص موسى وهارون بالذكر بعد دخولهما فى الجملة من « آمنا برب العالمين » لأمرين :

أحدهما ــ أن فيه معنى الذي دعا الى الايمان موسى وهارون •

الثاني ــ خصا بالذكر لشرف ذكرهما على غيرهما على طريق المدحة لهما والتعظيم • والرب بالاطلاق لا يطلق إلا على الله تعالى ، لأنه يقتضي أنه رب كل شيء يصح ملكه ، وفي الناس يقال : رب الدار ورب الفرس ، ومثله (خالق) لا يطلق إلا فيه تعالى ، وفى غيره يقيد ، يقال خالق الأديم •

قال الرماني : وإنما جاز نبيان في وقت ولم يجز إمامان في وقت ، لأن الامام لما كان يقام بالاجتهاد كانت إمامة الواحد أبعد من المناقشة واختلاف الكلمة وأقرب الى الإلفة ورجوع التدبير الى رضا الجميع •

وهذا الذي ذكره غير صحيح ، لأن العقل غير دال على أن الامام يجب أن يكون واحداً كما أنه غير دال على أنه يجب أن يكون النبي واحداً ، وإنما علم بالشرع أنه لا يكون الامام في العصر الواحد إلا واحداً كما علمنا أنه لم يكن في عصر النبي (ص) نبي آخر ، واستوى الأمران في هذا الباب •

قوله تعـالى :

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٢) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٣) آيتان بلا خلاف •

قرأ حفص وورش ورويس « آمنتم » على الخبر • الباقون بهمزتين على الاستفهام • وحقق الهمزتين أهل الكوفة إلا حفصاً وروحاً • الباقون بتحقيق الأولى وتليين الثانيـــة إلا أن قنبلاً في غير رواية ابن السائب يقلب همزة الاستفهام واواً اذا اتصلت بنون فرعون ، ولم يفصل أحد بين الهمزتين بألف ، قال أبو علي : قياس قول أبي عمرو ومذهبه أن يفصل بين الهمزتين بألف كما يفصل بين النونات في (اخشينان) إلا أنه يشبه أن يكون ترك القياس ، وقوله هنا لما كان يلزم منه اجتماع المتشابهات فترك الألف التي تدخل بين الهمزتين ، وخفف الهمزة الثانية التي هي همزة (افعل) من (آمن) فأما رواية أبي الاخريط عن ابن كثير بابدال الهمزة واواً ، فانه أبدل من ألف الاستفهام واواً، لانضمام ما قبلها وهي النون المضمومة فى (فرعون) وهذا في المنفصل مثل المتصل من نوره ، فقوله (نوأ) على وزن (نود) وفى رواية قنبل عن القواس مثل رواية البزي عن أبي الاخريط غير انه يهمز بعد الواو ، قال أبو علي : من همز بعد الواو ، لأن هذه (الواو) هي منقلبة عن همزة الاستفهام ، وبعد همزة الاستفهام همزة (أفعلتم) فخففها ، ولم يخففها كما خفف في القول الاول ،ووجهه ان الاولى لما زالت عن لفظ الهمزة وانقلبت واواً حقق الهمزة بعدها ، لأنه لم يجتمع همزتان • ووجه القول الأول أن (الواو) لما كان انقلابها عن الهمزة تخفيفاً قياس ، كان في حكم الهمزة فلم يحقق معها الثانية كما لا تحقق مع الهمزة نفسها ، لأن الواو في حكمها ، كما كانت في حكمها في (رويا) في تخفيف (رؤيا) فلم يدغموها في الياء ، كما لم يدغم الهمزة فيها •

ومن قرأ على الخبر فوجهه أنه يخبرهم بايمانهم على جهة التقريع لهم بايمانهم ، والانكار عليهم • ووجه الاستفهام أنه استفهام على وجه التوبيخ والتقريع ، والانكار عليهم • وحمزة والكسائي قرءا بهمزتين الثانية ممدودة ، لأن الهمزة الثانية تتصل بها الألف المنقلبة عن الهمزة التي هي فاء في (آمن) •

فى هذه الآية حكاية لما قال فرعون للسحرة حين آمنوا بموسى وصدقوه

لظهور الحق ، فقال لهم « آمنتم به ؟ » وانما قال لهم ذلك ، لأنه توهم أن الاقدام على خلاف الملك بما عمل قبل الاذن فيه منكر يقتضي سطوة الملك بصاحبه والتنكيل به ، وعندنا أن فرعون لم يعرف الله قط معرفة يستحق بها الثواب . وقال الرماني : لا يمتنع أن يكون عارفاً بالله ، وإنما قال هذا القول تمويهاً على قومه والتحذير من مثل حال السحرة الذين أقدموا على المخالفة له في الايمان بموسى (ع) .

وقوله تعالى « إن هذا لمكر مكر تموه في المدينة » معناه تواطأتم على هذا الأمر لتستولوا على العباد والبلاد ، فتخرجوا من المدينة أهلها وتتغلبوا عليها ، والمكر قيل الاغترار بالحيلة الى خلاف جهة الاستقامة وأصله الفتل والالتفاف كما قال ذو الرمة .

عجزاء ممكورة خمصانة قلق　　عنها الوشاح وتم الجسم والعصب (١)

والمكر والخدع نظائر في اللغة ، وقوله « فسوف تعلمون » تهديد من فرعون لهم وتخويف من مخالفته ، وإنما هدد فرعون بـ (سوف تعلم) ، لأن فيه معنى أقدمت بالجهل على سبب الشر ، فسوف تعلم حين يظهر مسببه الذي أدى اليه كيف كانت منزلته ، فهو أبلغ من الافصاح به .

وقوله « لأقطعن أيديكم » فالتقطيع تكثير القطع ونظيره التفصيل والتفريق ، ونقيضه التوصيل تقول : قطع قطعاً وأقطع اقطاعا ، وقطّع تقطيعا وتقطّع تقطعاً واقتطع اقتطاعاً وتقاطع تقاطعاً واستقطع استقطاعاً وقاطع مقاطعة وانقطع انقطاعاً . والأيدي جمع يد ، وهي الجارحة المخصوصة ، واليد النعمة ، لأنها تسدي الى صاحبها باليد . والارجل جمع رجل وهي الجارحة التي يمشي بها من يمين وشمال . والراجل خلاف الراكب وترجل الانسان اذا نزل عن دابته واقفاً على رجله ، ورَجَّله غيره ، وارتجل القول ارتجالاً إذا كان فيه كالراجل الذي لم يستعن بركوب غيره . ورجّل الشعر إذا سرحه حاطّاً له

(١) سيأتي في ١٢٨/٥ وهو في مقاييس اللغة ٢٣٣/٤ .

عن ركوب بعضه بعضاً •

و (التقطيع من خلاف) هو قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى ، وهو قول الحسن، وقال غيره : وكذلك يكون قطع اليد اليسرى مع الرجل اليمنى•

وقوله « ثم لأصلبنكم أجمعين » القراء كلهم على ضم الهمزة ، وتشديد اللام من (أصلبكم) وذكر الفراء « ولأصلبنكم » بفتح الهمزة وكسر اللام من الصلب ، وهو الشد على الخشبة أو ما جرى مجراها من الاشخاص البارزة، وهو مشتق من صلابة الشد ، يقال : صلب صلابة وصلبه تصليباً وتصلب تصلباً •

وقال ابن عباس : أول من صلب وقطع الايدي والارجل من خلاف فرعون •

قوله تعالى :

قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٤) آية إجماعاً •

وهذا إخبار عن جواب السحرة حين آمنوا ، وتوعد فرعون إياهم بقطع الأيدي والأرجل والصلب بأنهم « قالوا إنا الى ربنا منقلبون » أي راجعون وغرضهم بهذا التسلي في الصبر على الشدة ، لما عليه من المثوبة ، مع مقابلة وعيده بوعيد هو أشد عليه هو عقاب الله •

وأصل (إنّا) إننا وحذفت احدى النونين لكثرة النونات ، فاذا قيل إننا ، فلأنه الأصل واذا قيل (إنا) فللاستخفاف مع كراهة التضعيف ، والانقلاب الى الله هو الانقلاب الى جزائه والمصير اليه ، إلا أنه فخم بالاضافة الى الله لعظم شأنه ، والانقلاب مصير الشيء على نقيض ما كان عليه مما يتغير به ،واذا صار الى الآخرة بعد الدنيا فانقلب اليها ،واذا كان على خلق فتركه ألى ضده فقد انقلب اليه •

قوله تعالى :

وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ

عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٥) آية بلاخلاف.

في هذه الآية إخبار عما قالت السحرة حين آمنوا وتوعدهم فرعون بأنواع العذاب بأنهم قالوا له : إنا راجعون الى الله ، وقالوا له أيضاً : ليس تنقم منا إلا إيماننا بالله وتصديقنا بآياته التي جاءتنا . والنقمة الأخذ بالعقوبة : نقَمَ ينقِم ، ونقِم ينقَم ، واللغة الاولى أفصح وانتقم انتقاماً ونقمة ، فالنقمة ضد النعمة .

والفرق بين النقمة والاساءة ان النقمة قد تكون بحق ، جزاء على كفر النعمة ، ولذلك يقال انتقم الله من فلان نقمة عاجلة ، والاساءة لا تكون الا قبيحة ، لأنه ليس لأحد أن يسيء في فعله ، والمسيء مذموم على اساءته .

وقوله تعالى « ربنا أفرغ علينا صبراً » حكاية عن قول هؤلاء السحرة الذين آمنوا ، وأنهم بعد أن قالوا لفرعون ما قالوه ، سألوا الله تعالى أن يفرغ عليهم صبراً ، ومعناه أن يفعل بهم من اللطف ما يصبرون معه على عذاب فرعون ويتشجعوا عليه ، ولا يفزعوا منه .

والافراغ صب ما في الاناء أجمع ، حتى يخلو ، مشتقاً من الفراغ ، والفراغ نقيض الشغل ، وقيل : أفرغ عليه الصبر تشبيهاً بافراغ الاناء ، كما يقال صب عليه العذاب صباً ، والصبر هو حبس النفس عن إظهار الجزع ، صبر يصبر صبراً والصبر على الحق عزّ ، كما أن الصبر على الباطل ذل . والصبر فى الجملة محمود ، قال الله تعالى « واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور » .

وقوله تعالى « وتوفنا مسلمين » رغبة منهم الى الله تعالى وسؤالهم إياه بأن يقبضهم اليه ويميتهم فى حال السلامة .

قوله تعالى :

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا

فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٦) آية بلاخلاف .

قرأ أهل الحجاز « سنقتل أبناءهم » بالتخفيف . الباقون بالتثقيل ، فمن ثقل ذهب الى التكثير ، ومن خفف ، فلاحتماله التكثير والتقليل .

في هذه الآية إخبار عن إنكار قوم فرعون وأشرافهم ورؤسائهم على فرعون تركه موسى وقومه ليفسدوا في الأرض على اعتقادهم ، وإنما أنكروا على فرعون ذلك مع عبادتهم له ، لأنه جرى على خلاف عادة الملوك في السطوة بمن خالف عليهم وشق العصا في ملكهم . وكان ذلك بلطف من الله تعالى وحسن دفاعه عن موسى . وعنوا بالافساد في الارض دعاء الخلق الى مخالفة فرعون في عبادته وتجهيله إياه في دياتته لما يتفق عليه من ذلك مما لا قبل له به مما فيه انتقاض أمره وبطلان ملكه .

وقوله تعالى « ويذرك وآلهتك » معناه قال الحسن : إنه كان يعبد الأصنام ، فعلى هذا كان يعبد ويعبد ، كما حكى الله تعالى عنه من قوله « أنا ربكم الأعلى » (٢) وقال السدي : كان يعبد ما يستحسن من البقر ، وعلى ذلك أخرج السامري « عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى» (٣) وقال الزجاج : إنما كانت له أصنام يعبدها قومه تقرباً اليه . وقرأ ابن عباس « ويذرك وإلهتك » بمعنى وعبادتك . وقال كان فرعون يُعبد ولا يَعبد ، وقال بعضهم (إلاهتك) إنما هو تأنيث إله وجمعه آلهتك كما قال الشاعر ، وهو عتيبة بن شهاب اليربوعي

تروحنا من اللعبـــاء قصراً فأعجلنا الاهة ان تؤوبا (٥)

(٢) سورة ٧٩ سورة النازعات آية ٢٤ . (٣) سورة ٢٠ طه آية ٨٨ .

(٥) انظر الى معجم ما استعجم : ١١٠ ، ومعجم البلدان (اللعباء) ولسان العرب « لعب » « أله » وتفسير الطبري ١٣/ ٤٠ وغيرها . و « اللعباء »

يعني الشمس ، فأدخل التاء في هذا كما أدخلوا في قولهم : ولدتي وكوكبتي وهالتي وهو أهلة ذاك ، كما قال الراجز :

يا مضر الحمراء أنت اسرتي وأنت ملجاتي وأنت ظهرتي [٦]

وقوله تعالى « سنقتل أبناءهم » إنما تهددهم بقتل أبنائهم مع ان موسى هو الذي دعاهم الى الله دونهم من حيث أنه لم يطمع فيه ، لما رأى من قوة أمره وعلوّ شأنه فعدل الى ضعفاء بني اسرائيل بقتل ابنائهم ليوهم انه يتم له ذلك فيهم .

وقوله تعالى «ونستحيي نساءهم » معناه نستبقي من تولدمن بناتهم للمهنة والخدمة من غير أن يكون لهم نجدة ولا عندهم منعة .

ونصب قوله « ويذرك » لاحد وجهين : احدهما ـ الصرف ، والآخر العطف . والصرف على ان يكون تقديره ليفسدوا في الارض الى ان يذرك وآلهتك ،والعطف على ليفسدوا ويذرك .وقرأ الحسن « ويذرك » بالرفع عطفا على أتذر ، ويجوز فيه الاستئناف ، وهو يذرك .

قوله تعالى :

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٧) آية بلاخلاف

هذا حكاية من الله تعالى عما قال موسى لقومه حين تهددهم فرعون بقتل ابنائهم واستحياء نسائهم ، وانه امرهم ان يستعينوا بالله والاستعانة طلب المعونة ، وقد يسأل السائل المعونة لغيره يقول : اللهم أعنه على أمره الا ان الغالب على الاستعانة طلب المعونة لنفس الطالب .

وقوله « واصبروا » أمر من موسى اياهم بالصبر وهو حبس النفس

اسم مكان . و « قصراً » أي عشياً . وروي « عصراً » و « إلاهة » :الشمس

(٦) لم أعرف قائله . وهو في تفسير الطبري ١٣/ ٤١ .

عما يؤدي الى ترك الحق مع تجرع مرارة ذلك الحبس ونقيضه الجزع قال الشاعر :

فان تصبرا فالصبر خير مغبة   وان تجزعا فالامر ما تريان (١)

وقوله « ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده » اخبار عما قال موسى لقومه من أن الارض كلها ملك لله يورثها من يشاء من عباده ، والارث جعل الشيء للخلف بعد السلف ، والاغلب ان يكون ذلك في الأموال ، وقد يستعمل في غيرها مجازا كقولهم : العلماء ورثة الانبياء ، وقولهم ما ورث والد ولدا أجلّ من ادب حسن .

ومعنى « يورثها من يشاء من عباده » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ التسلية لهم بأنها لاتبقي على أحد لانها تنقل من قوم الى قوم اما محنة او عقوبة .

الثاني ـ الاطماع في ان يورثهم الله ارض فرعون وقومه .

والمشيئة هي الارادة وهي ما أثرت في وقوع الفعل على وجه دون وجه من حسن أو قبح او غيرهما من الوجوه .

وقوله تعالى « والعاقبة للمتقين » فالعاقبة ما تؤدي اليه التأدية من خير او شر الا انه اذا قيل : العاقبة له فهو في الخير ، فاذا قيل : العاقبة عليه فهو في الشر مثل الدائرة له وعليه وقال ابن عباس : لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني اسرائيل .

قوله تعالى :

قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٨) آية بلا خلاف .

(١) مر في ١ / ٢٠٢ .

هذا اخبار من الله تعالى عن ما قال قوم موسى لموسى بأنا اوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة . والاذى ضرر لايبلغ بصاحبه ان يأتي على نفسه ، تقول : آذاه يؤذيه اذى وتأذى به تأذيا ، ومثله آلمه يؤلمه ايلاما وتألم به تألما . والاذى الذي كان بهم قيل : هو استعباد فرعون اياهم وقتل ابنائهم واستحياء نسائهم للاستخدام . والذي كان بعد مجيء موسى الوعيد لهم بتجديد ذلك العــذاب من فرعون والتوعيد عليه ، وكان هذا على سبيل الاستبطاء منهم لما وعدهم فجدد الوعد لهم وحققه ، وقال الحسن : كــان يأخذ منهم الجزية .

وقوله « قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم » قال سيبويه : لعل وعسى طمع واشفاق ، وقال الحسن (عسى) من الله واجبة ، وبه قال الزجاج . وقال ابو علي الفارسي (عسى) ههنا يقين .

وقوله « ويستخلفكم في الارض » قال أبو علي : استخلفوا في مصر بعد موت موسى (ع) في التيه . ثم فتح الله لهم بيت المقدس مع يوشع بن نون . ثم فتح الله لهم مصر وغيرها في زمن داود وسليمان ، فملكوها في ذلك الزمان على ما وعدوا به من الاستخلاف .

وقوله تعالى « فينظروا كيف تعملون » قيل: ان معنى ينظر ــ ههناــ يعلم ، وقيل يرى وكلامنهما مجاز لان النظر هو الطلب لما يدرك وهــذا لايجوز عليه تعالى، ولكنه جاء على قوله تعالى «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » (١) وفائدة الآية تسلية موسى (ع) لقومه بما وعدهم عن الله من اهلاك فرعون وقومه وجعل قومه بدلا منهم ليعملوا بطاعته .

قوله تعــالى :

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ

---

(١) سورة ٤٧ محمد آية ٣١ .

لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٩) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية ، واقسم عليه بأنه اخذ آل فرعون بالسنين وهي الاعوام المقحطة ، واللام في قوله « لقد » لام القسم ، (وقد) معناه الاخبار عن متوقع وهي تقرب الماضي من الحال ، لانه اذا توقع كون أمر فقيل قد كان ، دل على قربه من الحال . والآل خاصة الرجل الذين يؤول أمرهم اليه ، ولذلك يقال : اهل البلد ، ولا يقال : آل البلد ، لان في الاهل معنى القرب في نسب او مكان ، وليس كذلك الآل .

ومعنى « أخذناهم بالسنين » أخذناهم بالجدوب ، والعرب تقول : أخذتهم السنة اذا كانت قحطة يقال أسنت القوم اذا أجدبوا ، وانما قيل للمجدبة : السنةولم يقل للخصبة ،لانها نادرة في الانفراد بالجدب ،والنادر أحق بالافراد بالذكر ، لانفراده بالمعنى الذي ندر به . وقال الفراء : معنى بالسنين بالجدوبة تقول العرب (وجدنا البلاد سنين) أي جدوبا ،قال الشاعر:

وأموال اللئام بكل أرض تجحفها الجوائح والسنون

وقال آخر :

كأن الناس إذ فقدوا علياً نعام جال في بلد سنيناً

أي في بلد جدوب وأهل الحجاز وعلياء قيس يقولون : هن السنون ، فيجعلونها بالواو في الرفع ، وبالياء في الخفض والنصب على هجائين ، وبعض تميم يقول هي السنين ، فاذا ألقوا الألف واللام لم يجروها ، فقالوا قد مضت له سنون كثيرة ، وكنت عندهم بضع سنين ، وبنو عامر ، فانهم يجرونها في النصب والجر والرفع فيقولون : أقمت عنده سنيناً كثيرة . وقال الكسائي : على هجائين هي اللغة الغالبة في كلام العرب : السنون ، والسنين وينصبون النون على كل حال مثل نون الجمع في الموضعين ، وعليه اجماع القراء ، قال : وبعض العرب يجعلها على هجاء واحد ، ويلزم النون الاعراب بجعلها كأنها من

نفس الكلمة ، وأنشد :

سنيني كلهـا واسيت حرباً أقاس مع الصلادمة الذكور

وأنشد :

ولقد ولدت بنين صدق سادة ولأنت بعد الله كنت السيدا

فأثبت النون في بنين وهي مضافة .

وقوله تعالى « ونقص من الثمرات » أي وأخذناهم مع القحط وجدب الأرض بنقصان من الثمار .

وقوله تعالى « لعلهم يذكرون » معناه لكي يتفكروا في ذلك ويرجعوا الى الحق وإنما قال « لعلهم » وهي موضوعة للشك وهو لا يجوز في كلام الله لأنهم عوملوا معاملة الشاك مظاهرة في القول كما جاء الابتلاء والاختيار مثل ذلك . والآية تدل على بطلان مذهب المجبرة من أن الله تعالى يريد الكفر والمعاصي ، لأنه بين أنه فعل بهم ذلك لكي يذكروا ، ويرجعوا فقد أراد منهم الاذكار ، فكأنه قال من أجل أن يذكروا ، وليس كذلك اذا كلفهم من أجل الثواب ، لأن إرادة المريد لما يكون من فعله في المستأنف عزم ، وذلك لا يجوز عليه تعالى ، وليس كذلك إرادته لفعل غيره ، قال مجاهد : السنين الجائحة ، ونقص من الثمرات دون ذلك ، وقال قتادة : كان السنين ببواديهم ، « ونقص من الثمرات » كان في أمصارهم وقراهم . وقال كعب : يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة الا تمرة .

قوله تعـالى :

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَـٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣٠) آية بلا خلاف .

المراد بالحسنة ـ ههنا ـ النعمة من الخصب والسعة في الرزق والعافية

والسلامة . و (السيئة) النقمة من الجدب وضيق الرزق والمرض والبلاء ، وفيه ضرب من المجاز ، لأن حقيقة الحسنة ما حسن من الفعل في العقل ، والسيئة ما قبح من الفعل ، وإنما شبه هذا بذلك ، لتقبل العقل لهذا كتقبل الطبع لذلك . وقال قوم : هو مشترك لظهور العلم في ذلك في الناس جميعاً على منزلة سواء .

أخبر الله تعالى عن قوم فرعون أنه إذا جاءهم الخصب والسعة والنعمة من الله « قالوا لنا هذه » والمعنى إنا نستحق ذلك على العادة الجارية لنا من نعمنا وسعة أرزاقنا في بلادنا ، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروه عليه ويؤدوا حق النعمة ، لئلا يسلبهم الله إياها .

وقوله « وإن تصبهم سيئة » يعني جدب وقحط وبلاء « يطيروا بموسى ومن معه » والمعنى إنهم تشاءموا بهم ، وهو قول الحسن ومجاهد ، وابن زيد ، لأن العرب كانت تزجر الطير ، فتتشاءم بالبارح وهو الذي يأتي من جهة الشمال ، وتتبرك بالسانح ، وهو الذي يأتي من جهة اليمين ، قال الشاعر :

زجرت لها طير الشمال فإن يكن هواك الذي يهوى يصبك اجتنابها (١)

وقال آخر :

فقلت غراب لا اغتراب من النوى وبان لبين ذي العيافة والزجر

وأصل الطائر النصيب ، يقال : طار له من القسم كذا وكذا ، وأنشد ابن الأعرابي :

واني لست منك ولست مني اذا ما طار من مالي الثمين

أي أخذت الزوجة ثمنها من ميراثه .

وقوله تعالى « ألا إنما طائرهم عند الله » معناه إن الله هو الذي يأتي بطائر البركة وطائر الشؤم ، من الخير والشر والنفع والضر ، فلو عقلوا طلبوا الخير من جهته ، والسلامة من الشر من قبله .

(١) اللسان (طير) وروايته (لهم) بدل (لها) .

وموضع (إذا) نصب بأنها ظرف للقول ، ولا يجوز أن يعمل فيها الفعل الذي يليها ، لأنها مضافة اليه ، ولو جازيت بها جاز عمله فيها ، وقال الأزهري والزجاج : معنى « إنما طائرهم عند الله » شؤمهم الذي وعدوا به من العقاب عند الله يفعله بهم يوم القيامة ، وقال ابن عباس معناه إن مصائبهم عند الله •

قوله تعـالى :

وَقَالُوا مَهمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣١) آية بلا خلاف •

« مهما » أي شيء ، وقال الخليل : أصلها (ما) إلا أنهم أدخلوا عليها (ما) كما يدخلونها على حروف الجزاء ، فيقولون (ماما) و (متى ما) و (اذا ما) فغيروا ألفها بأن أبدلوها هاء ، لئلا يتوهم التكرير وصار (ما) فيها مبالغة في معنى العموم ، وقال غيره : أصلها (مه) بمعنى أكفف دخلت على (ما) التي للجزاء •

والفرق بين (ما) و (مهما) أن (مهما) خالصة للجزاء وفي (ما) اشتراك ، لأنها قد تكون استفهاماً تارة ، وبمعنى الذي أخرى ، وتارة بمعنى الجزاء ، وإن كان الأصل فى (مهما) (ما) ، لأن (ما) يجازى به من الاسماء ما قد لايستعمل في الجزاء ، والتركيب ظاهر فيها لفظا ومعنى •

وقوله تعالى « تأتنا » في موضع جزم ، وعلامة الجزم فيه حذف الياء ، وإنما حذف الحرف للجزم ، لأنه من حروف المد واللين ، وهي مجانسة لحركات الاعراب ، ومن شأن الجازم أن يحذف ما يصادفه من الحركة ، فإن لم يصادف حركة عمل في نفس الحرف ، لئلا يتعطل عن العمل •

فى هذه الآية إخبار من الله تعالى ، وحكاية ما قال قوم فرعون لموسى (ع) بأنهم قالوا له : أي شيء تأتينا به من المعجزات وتسحرنا بها ، فانا لا نصدقك عليه ، ولا نؤمن بك • و (الآية) هي المعجزة الدالة على نبوته ، وهو كل ما يعجز الخلق عن معارضته ومقاومته ، كما لا يمكن مقاومة الشبهة للحجة ،

وكما لا يمكن أن يقاوم الجهل للعلم ، والسراب للماء ، وان توهم ذلك قبل النظر والاعتبار ، ويخيل قبل الاستدلال الذي يزول معه الالتباس ، وقد بينا حقيقة السحر فيما مضى ، وقد يسمى السحر ما لا يعرف سببه وإن لم يكن محظوراً ، كما روي عنه (ص) أنه قال : (إن من البيان لسحراً) وكما قال الشاعر :

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يجز قتل المسلم المتحرز

وذلك مجاز وتشبيه دون أن يكون حقيقة •

قوله تعالى :

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٢) آية

أخبر الله تعالى أنه لما قال فرعون وقومه ما قالوا ــ من أنهم لا يؤمنون ، وان أتى بجميع الآيات ، فانهم لا يصدقونه على نبوته ــ أنه أرسل عليهم الطوفان ، وهو السيل الذي يعم بتفريقه الأرض ، وهو مأخوذ من الطوف فيها ، وقيل : هو مصدر كالرجحان والنقصان • وقال الاخفش : واحده طوفانة ، وأما المفسرون فانهم اختلفوا في معناه ، فقال ابن عباس في بعض الروايات عنه : إنه الغرق • وقال مجاهد : هو الموت • وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه كان أمراً من الله تعالى طاف بهم ، وقال تعالى في قصة نوح « فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » [1] وقال الحسن بن عرفطة :

غيّر الجدة من آياتها خرق الريح بطوفان المطر [2]

وقال الراعي :

---

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ١٤ •

(٢) نوادر أبي زيد : ٧٧ واللسان (طوف) وتفسير الطبري ١٣/٥٣ وغيرها ، ويروى : ❋ خرق الريح وطوفان المطر ❋

تضحى إذا العيس أدركنا نكائثهـا خرقاء يعتادها الطوفان والزّؤد (٣)

الزؤد الفزع ، وقال أبو النجم :

قد مدّ طوفان فبث مـددا شهراً شآبيب وشهراً بردا (٤)

وقال أبو عبيدة : الطوفان من السيل البعاق ، ومن الموت الذريع •

وقوله تعالى « والقمل » فاختلفوا في معناه ، فقال ابن عباس ـ في رواية عنه ـ وقتادة ومجاهد : إنه بنات الجراد ، وهو الدبا صغار الجراد الذي لا أجنحة له • وفي رواية أخرى عن ابن عباس وسعيد : أنه السوس الذي يقع في الحنطة • وقال ابن زيد هو البراغيث • وقال أبو عبيدة : هو الحمنان واحده حمنة • وقيل : حمنانة وهو كبار القردان • وقال الحسن وسعيد بن جبير : هو دواب صغار سود واحدته قملة ، قال الأعشى :

قوم تعالج قمـلاً أبناؤهم وسلاسلاً أجداً وباباً مؤصدا (٥)

وقوله « والضفادع » فهو جمع ضفدع ، فهو ضرب من الحيوان يكون في الماء له نقيق واصطخاب ، وهو معروف • وقيل : إنه كان يوجد في فرشهم وأبنيتهم ويدخل في ثيابهم ، فيشتد أذاهم به •

و (الدم) معروف وقد حده الرماني : بأنه جسم مائع أحمر مسترق عرض له الجمود كهذا الذي يجري في العروق • وقيل : إن مياههم كانت عذبة طيبة فانقلبت دماً ، فكان الاسرائيلي اذا أغترف صار ماء ، واذا اغترف القبطي كان دماً ، حتى ان المرأة القبطية تقول للمرأة الاسرائيلية مجّي من فيك

---

(٣) اللسان (نكث) (زأد) وتفسير الطبري ١٣/٥٣ • (النكائث) آخر ما عند العيس من قوة على السير ، و (الزؤد) الفزع • وخرقاء صفة للناقة التي لا تتعهد مواضع قوائمها لحدة فيها •

(٤) تفسير الطبري ١٣/٥٤ •

(٥) ديوانه : ١٥٤ واللسان (قمل) وتفسير الطبري ١٣/٥٦ وهو من قصيدته التي قالها لكسرى •

في فمي فاذا فعلت ذلك تحول دماً ، وقال زيد بن أسلم : الذي سلط الله عليهم ، كان الرعاف .

وقوله « آيات مفصلات » نصب على الحال ، قال مجاهد : معجزات مبينات ظاهرات وأدلة واضحات . وقال غيره : لأنها كانت تجيء شيئاً بعد شيء ، وقيل : إنها كانت تمكث من السبت الى السبت ، ثم ترفع شهراً ـ في قول ابن جريج ـ .

قوله « فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » معناه إنهم مع مشاهدتهم لهذه الآيات العظيمة والمعجزات الظاهرة ، أنفوا من الحق وتكبروا عن الاذعان والانقياد له ، وكانوا قوماً عصاة مرتكبين للاجرام والآثام .

قوله تعالى :

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٣) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٤) آيتان .

(لما) للماضي مثل (لو) . و (إذا) للمستقبل مثل (أن) وإن دخلت على الماضي .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء القوم أنه حين وقع عليهم الرجز ... وهو العذاب ـ في قول الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد وفي قول سعيد بن جبير : هو الطاعون وقال قوم هو الثلج ولم يكن وقع قبل ذلك ، وأصل الرجز الميل عن الحق ، ومنه قوله تعالى « والرجز فاهجر » [1] يعني عبادة الوثن ، والعذاب رجز ، لأنه عقوبة على الميل عن الحق ، ومنه الرجازة ما يعدل به الحمل اذا مال ، والرجازة أيضاً صوف أحمر يزيَّن به الهودج ، لأنه كالرجازة

(١) سورة ٧٤ المدثر آية ٥ .

التي هي تقويم له اذا مال ، والرجز : رعدة في رجل الناقة لداء يلحقها يعدل بها عن حق سيرها ، والرجز ضرب من الشعر أخذ من رجز الناقة ، لأنه متحرك وساكن ثم متحرك وساكن في كل أجزائه ، فهو كالرعدة فى رجل الناقة ، يتحرك بها ، ثم يسكن ، ثم يستمر على ذلك .

وقوله « قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك » حكاية لمسألة قوم فرعون لموسى أن يدعو الله لهم بما عهد عند موسى ، والعهد التقدم في الأمر فمنه العهد الوصية ، والعهود الوثائق والشروط . والعهد مطر بعد مطر قد عهد قبله . والمعاهد المعاقد على الذمة ، والتعاهد التقدم في تفقد الشيء وكذلك التعهد وقيل في معنى « بما عهد عندك » قولان :

أحدهما ــ بما تقدم اليك به وعلمك أن تدعوه به فإنه يجيبك كما أجابك في آياتك .

الثاني ــ بما عهد عندك من العهد على معنى القسم .

وقوله « فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه » فيه إخبار من الله تعالى أنه لما كشف عنهم العذاب عند ذلك وأخرهم الى أجل هم بالغوه يعني أجل الموت « إذا هم ينكثون » وانهم عند ذلك نكثوا ما قالوه ولم يفوا بشيء منه .

والعامل في (إذا) « ينكثون » ، وليست (اذا) هذه (إذا) المضافة الى جملة ، بل هي بمنزلة ــ هناك ــ وهي المكتفية بالاسم ، ولو قال (إذا النكث) صح الكلام ، كما تقول : خرجت فاذا زيد . ومعنى (إذا) المفاجأة وفيه وقوع خلاف المتوقع منهم ، لأنه أتى منهم نقض العهد بدلاً من الوفاء ، فكأنه فاجأ الرأي عجب من نكثهم ، والبلوغ منتهى المرور ، ومثله الوصول ، غير أن فى الوصول معنى الإتصال ، وليس كذلك البلوغ . والانتهاء نقيض الابتداء فى كل شيء ، وإن لم يكن فيه معنى المرور . والنكث نقض العهد الذي يلزم الوفاء به ، ومثله الغدر ، إلا أن (الغدر) فيما عقد من الايمان علي النفس ، ولذلك جاء في نقض الغزل فى قوله تعالى « كالتي نقضت غزلها

من بعد قوة إنكاثاً»[١] وأصله النكاثة وهي تشعيب الشيء من حبل أو غيره . وانتكث الشيء اذا تشعب والنكيثة نقض العهد ، وجواب (لما) (إذا) ومثله قوله « وإن تصبهم سيّئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون »[٢] ولا يجوز أن يجاب بعد (إذ) ، لأنها لوقت الماضي والجواب بعد الأول ، يقتضي الاستقبال ، ولذلك صلحت فيه الفاء ولم يصلح الواو ، وحرف الجزاء يقلب الفعل دون الوقت .

قوله تعالى :

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٥) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه بعد أن أظهر الآيات التي مضى ذكرها وفزع قوم فرعون الى موسى ليسأل الله أن يرفع عنهم العذاب ، فانهم اذا رفع عنهم ذلك آمنوا ، ففعل موسى ، ورفع الله عنهم ذلك ، ولم يؤمنوا ونكثوا ما عهدوا به من القول وأنه انتقم منهم ، ومعناه سلب نعمهم بانزال العذاب عليهم وحلول العقاب بهم .

وقوله « فأغرقناهم في اليم » فالاغراق في الأمر أو النزع ، فهو مشبه بالاغراق في الماء . و « اليم » البحر في قول الحسن وجميع أهل العلم — قال ذو الرمة :

دوّيّة ودجى ليــل كأنهما يمٌ تواطن في حافاته الروم[٣]

وقال الراجز : كبازخ اليم سقاه اليم[٤]

(١) سورة ١٦ النحل آية ٩٢ . (٢) سورة ٣٠ الروم آية ٣٦ .

(٣) ديوانه : ٥٧٦ وتفسير الطبري ١٣/ ٧٤ .

(٤) قائله العجاج ديوانه : ٦٣ ومجاز القرآن ١/ ٢٧٧ وتفسير الطبري ١٣/ ٧٥ .

وقوله تعالى « بأنهم كذبوا بآياتنا » معناه إنا فعلنا بهم ذلك جزاء بما كذبوا من آيات الله وحججه وبراهينه الدالة على نبوة موسى وصدقه « وكانوا عنها غافلين » معناه أنهم أنزل عليهم العذاب وكانوا غافلين عن نزول ذلك بهم. والغفلة حال تعتري النفس تنافي الفطنة واليقظة تقول : غفل يغفل غفولا ، وغفلا وغفلة ، وتغافل تغافلاً وأغفل الأمر إغفالاً ، واستغفله استغفالا ، واغتفله اغتفالا وتغفل تغفلا ، وغفله تغفيلا وهو مغفل .

فإن قيل كيف جاء الوعيد على الغفلة ، وليست من فعل البشر ؟!

قلنا عنه ثلاثة أجوبة :

أحدها ــ أنهم تعرضوا لها حتى صاروا ، لا يفطنون بها .

الثاني ــ أن الوعيد على الاعراض عن الآيات حتى صاروا كالغافلين عنها.

الثالث ــ أن المعنى وكانوا عن النعمة غافلين ودل عليه (انتقمنا) .

قوله تعالى :

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرُشُونَ (١٣٦) .

آية في الكوفي والبصري ، وفي المدنيين آيتان آخر الاولى « بني اسرائيل»

قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم « يعرشون » بضم الراء . الباقون بكسرها ، وهما لغتان فصيحتان : الكسر والضم ، والكسر أفصح .

أخبر الله تعالى فى هذه الآية أنه أورث الأرض مشارقها ومغاربها الذين استضعفوا في يدي فرعون وقومه . وإنما أورثهم بأن أهلك من كان فيها ومكن هؤلاء ، وحكم بأن لهم أن يتصرفوا فيهـا على ما أباحه الله تعالى لهم . والاستضعاف طلب الضعف بالاستطالة والقهر . وقد استعمل استضعفته بمعنى

وجدته ضعيفاً بامتحاني إياه ، كأنه قال طلبت حال ضعفه بمحنته ، فوجدته ضعيفاً . وقوله « باركنا فيها » يعني باخراج الزروع والثمار وسائر صنوف النبات والأشجار الى غير ذلك من العيون والأنهار وضروب المنافع المعباد . وقيل « باركنا فيها » بالخصب الذي حصل فيها .

ومشارق الأرض ومغاربها يريد جهات المشرق بها والمغرب . وقال الحسن هي أرض الشام ومصر . وقال قتادة هي أرض الشام . وقال أبو علي : هي أرض مصر . وقال الزجاج : كان من بني اسرائيل داود وسليمان ملكا جميع الأرض .

وقوله « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل » يعني صح كلامه بانجاز الوعد الذي تقدم باهلاك عدوهم ، واستخلافهم في الارض ، وإنما كان الانجاز تمام للكلام لتمام النعمة به . وقيل كلمته الحسنى هي قوله تعالى « ونريد أن نمن على الذي استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » . وإنما قيل الحسنى ، وإن كانت كلمات الله كلها حسنة ، لأنه وعد بما يحبون .

وانتصب قوله تعالى « مشارق الأرض ومغاربها » لأحد أمرين :

أحدهما ــ بأنه مفعول (أورثنا) كقولك : أورثه المال .

الثاني ــ بأنه ظرف كأنه قال : أورثتهم الأرض التي باركنا فيها في مشارقها ومغاربها ، والأول أظهر .

وقوله « ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه » معناه أهلكنا ما كان عمله فرعون وقومه مما كانوا يستعبدونهم ويسعون في افساد أمر موسى ويستعينون به في أمرهم « وما كانوا يعرشون » معناه ما كانوا يبنونه من الأبنية والقصور ــ في قول ابن عباس ومجاهد . وقال الحسن : هو تعريش الكرم . وقال أبو علي : تعريش الشجر والأبنية . وأصل التعريش الرفع ، قال أبو عبيدة

« يعوشون » معناه يبنون ، و (العرش) فى هذا الموضع البناء ، يقال : عروش مكة أي بناؤها ، وقال أبو الحسن : هما لغتان ، ومثله نبطِش ونبطُش ونحشِر ونحشُر ، في أمثال ذلك .

قوله تعـالى :

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٧) آية بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي وخلف يعكفون ــ بكسر الكاف ــ الباقون بضمها وهما لغتان ، ومثله يفسقون ــ بكسر السين ــ والضم ، في أمثال ذلك .

المجاوزة الاخراج عن الحد يقال : جاوز الوادي جوازاً اذا قطعه وخلّفه وراءه وتقول : جاز يجوز جوازاً ، وأجازه إجازة ، وجاوزه مجاوزة ، وتجاوز تجاوزاً ، واجتاز اجتيازاً ، وتجوّز تجوزاً ، وجوّزه تجويزاً ، واستجاز استجازة . والبحر الواسع العظيم السعة من مستقر الماء مما هو أعظم من كل نهر ، وأصله السعة ، ومنه البحيرة التي يبحر أذنها أي توسع شقتها ، وتبحر في العلم : اذا اتسع فيه ، وقوي تصرفه به .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه حين أجاز قوم موسى وقطع بهم البحر وأنجاهم من العدو وأغرق عدوهم فرعون وقومه ، وأنهم بلغوا الى قوم عاكفين على أصنام لهم ــ ومعنى (العكوف) اللزوم للامر بالاقبال عليه والمراعاة له تقول : عكف عكوفاً واعتكف اعتكافاً ، ومنه الاعتكاف لزوم المسجد للعبادة فيه ، وعكف عليه أي واظب عليه ــ وأنه لمّا رأى قوم موسى أولئك العاكفين على أصنامهم والملازمين لها دعاهم جبلتهم الى التشبيه بعبادة الأوثان ، لما في طبع الانسان من الحكاية ــ أن قالوا لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

وفي طبع كل حيوان الحكاية ، وأقوى الحيوان طبعاً في الحكاية القرد ، وله حكايات عجيبة ، وهذا الطلب منهم يدل على جهل عظيم من بني اسرائيل بعد ما رأوا الآيات التي توالت على فرعون وقومه حتى غرّقهم الله في البحر بكفرهم بعد ما نجّا بني اسرائيل ، فلم يردعهم ذلك عن أن قالوا لموسى (ع) « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » وتوهمهم أنه يجوز عبادة غير الله ، وإن اعتقدوا أنه لا يشبه الاشياء ولا تشبهه ، ولا يدل طلبهم ذلك على أنهم مشبهة ، لما قلناه .

وقوله تعالى « إنكم قوم تجهلون » حكاية عما أجابهم به موسى (ع) فقال لهم : إنكم قوم تجهلون مَن المستحق للعبادة وما الذي يجوز أن يتقرب به الى الله تعالى ، ويحتمل أن يكون أراد تجهلون من صفات الله ما يجوز عليه وما لا يجوز .

قوله تعالى :

إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَاهُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٨)

آية بلا خلاف .

في هذه الآية حكاية عما قال موسى (ع) لقومه حين سألوه أن يجعل لهم إلهاً بعد أن قال لهم « إنكم قوم تجهلون » ما يجوز أن يعبد وما لا يجوز وأنه أخبرهم « أن هؤلاء متبر ما هم فيه » يشير فيه الى العابد والمعبود من الأصنام ومعناه مهلك ، فالمتبر المهلك المدمر عليه ، والتبار الهلاك ، ومنه قوله تعالى « ولا تزد الظالمين إلا تباراً » (١) ومنه التبر للذهب سمي بذلك لأمرين : أحدهما ــ أن معدنه مهلكة ، وقال الزجاج : يقال لكل أناء متكسر متبر ، وكسارته تبره .

وقوله تعالى « وباطل ما كانوا يعملون » فالبطلان انتفاء المعنى بعدمه ،

(١) سورة ٧١ نوح آية ٢٨ .

وبأنه لا يصح في عدم ولا وجود . والمعنى في بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم بنفع ولا يدفع ضرر ، فكأنه بمنزلة ما لم يكن من هذا الوجه . والعمل إحداث ما به يكون الشيء على نقيض ما كان ، وهو على ضربين : أحدهما ـ إحداث المعمول . والآخر ـ إحداث ما يتغير به .

و (هؤلاء) أصله أولاء ادخلت عليه (هاء) التنبيه ، وهو مبني لتضمنه معنى الاشارة المعرفة ، وهو مع ذلك مستبهم استبهام الحروف ، إذ هو مفتقر في البيان عن معناه الى غيره .

قوله تعالى :

قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ (١٣٩) آية

في هذه الآية إخبار أيضاً عما قال موسى لقومه بعد إزرائه على الأصنام وعلى من كان يعبدها وأن ما يفعلونه باطل مهلك : أأطلب غير الله لكم إلهاً ؟! قاله على وجه الانكار عليهم وإن كان بلفظ الاستفهام ، فنصب « أغير الله » على أنه مفعول به ، ونصب (إلهاً) على أحد شيئين :

أحدهما ـ كأنه قال أأطلب لكم غير الله تعالى معبوداً ؟! .

والثاني ـ أن يكون نصب إلهاً على أنه مفعول به ، ونصب (غير) على الحال التي لو تأخرت كانت صفة .

و (بغى) يتعدى الى مفعولين ، وطلب يتعدى الى مفعول واحد ، لأن معنى بغي أعطى : بغاه الخير أعطاه الخير ، وليس كذلك طلب ، لأنه غير مضمن بالمطلوب ، وقد يجوز أن يكون بمعنى أبغي لكم .

وقوله « وهو فضلكم على العالمين » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال الحسن وأبو علي وغيرهما : يريد على عالمي زمانهم .

الثاني ـ معناه خصكم بفضائل من النعم بالآيات التي آتاكم ، وارسال

موسى وهارون ، وهما رجلان منكم ، ومن إهلاك عدوكم بالتغريق في البحر ، ونجاتكم • وكل ذلك بمرءى ومستمع منكم • والفرق بين التعظيم والتفضيل أن التفضيل يدل على فضل في النفس ، وهو زيادة على غيره ، وليس كذلك التعظيم ، ولذلك جاز وصف الله تعالى بالتعظيم ولم يجز بالتفضيل •

قوله تعالى :

وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤٠) آية •

قرأ ابن عامر (نجيناكم) على لفظ الماضي • الباقون « أنجيناكم » وقرأ نافع وحده « يقتلون » بالتخفيف • الباقون بالتشديد • من شدد أراد التكثير • ومن خفف ، فلأنه يحتمل القلة والكثرة •

وقد مضى تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة [1] فلا وجه للتطويل بتفسيرها ، وإنما نذكر جملها ، فنقول : هذا خطاب لبقية بني اسرائيل الذين كانوا في زمن النبي (ص) فقال لهم على وجه الامتنان عليهم بما أنعم على آبائهم وأسلافهم واذكروا « إذ أنجيناكم » من آل فرعون بمعنى خلصناكم لأن النجاة الخلاص مما يخاف الى رفعة من الحال ، وأصله الارتفاع ، فمنه النجا أي الارتفاع في السير ، ومنه قوله « ننجيك ببدنك » [2] أي نلقيك على نجوة من الأرض ، والنجو كناية عن الحدث ، لأنه كان يلقى بارتفاع من الارض للابعاد به ، وقد كان أيضاً يطلب به الانخفاض للابعاد به •

والفرق بين (أنجيناكم) وبين (نجيناكم) أن ألف (أنجيناكم) المتعدية

---

(١) في تفسير آية ٤٩ ـ ٥٠ من سورة ٢ البقرة ، المجلد الأول ص ٢١٧ ـ ٢٣١ •

(٢) سورة ١٠ يونس آية ٩٢ •

وتشديد [نجيناكم] يحتمل التعدية ، ويحتمل التكثير .

وقوله تعالى« يسومونكم »معناه يولونكم اكراها ويحملونكم اذلالا «سوء العذاب » وأصل السوم مجاوزة الحدّ فمنه السوم في البيع ، وهو تجاوز الحد في السعر الى الزيادة ، والسائمة من الابل الراعية ، لأنها تجاوزت حد الانبات للرعي ، ومنه فلان سيم الخسف أي ألزمه إكراهاً ، و (السوء) مأخوذ من أنه يسوء النفس لنافرية لها . « يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم » معناه إن فرعون كان يقتل من تولد من بني اسرائيل ذكراً ويستبقي الإناث للاستخدام .

وقوله تعالى « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » فالمراد بالبلاء ههنا النعمة وقد يكون بمعنى النقمة ، وأصله المحنة ، فتارة تكون المحنة بالنعمة ، وأخرى بالنقمة ، وبالخير تارة وبالشر أخرى .

قوله تعالى :

وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤١) آية بلاخلاف .

قيل في فائدة قوله « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » ولم يقل أربعين ليلة أقوال :

أحدها ــ أنه أراد شهراً وعشرة أيام متوالية . وقيل : إنه ذو العقدة وعشر من ذي الحجة . ولو قال أربعين ليلة لم يعلم أنه كان الابتداء أول الشهر ، ولا أن الأيام كانت متوالية ، ولا أن الشهر شهر بعينه ، هذا قول الفراء ، وهو معنى قول مجاهد وابن جريج ومسروق وابن عباس ، وأكثر المفسرين .

الثاني ــ أن المعنى وعدناه ثلاثين ليلة يصوم فيها ويتفرد للعبادة بها . ثم أتمت بعشر الى وقت المناجاة . وقيل في العشر نزلت التوراة فلذلك أفردت بالذكر .

الثالث ـ قال أبو جعفر (ع) كان أول ما قال لهم : إني أتأخر عنكم ثلاثين يوماً ، ليسهل عليهم ، ثم زاد عليهم عشراً ، وليس في ذلك كذب ، لأنه إذا تأخر عنهم أربعين ليلة ، فقد تأخر ثلاثين قبلها • وقال الحسن كان الموعد أربعين ليلة في أصل الوعد ، فقال في البقرة « واعدنا موسى أربعين ليلة »[1] وفصله ـ ههنا ـ على وجه التأكيد فقال ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر •

وقوله تعالى « فتم ميقات ربه أربعين ليلة » ومعناه فتم الميقات أربعين ليلة ، وإنما قال ذلك مع أن ما تقدم دل على هذا العدد ، لأنه لو لم يورد الجملة بعدالتفصيل وهو الذي يسميه الكتاب الفذلكة ، لظن قوله « وأتممناها بعشر » أي كملنا الثلاثين بعشر حتى كملت ثلاثين ، كما يقال : تممت العشرة بدرهمين وسلمتها اليه •

وقيل في معنى قوله تعالى « واعدنا موسى ثلاثين ليلة » ينفرد فيها للعبادة في المكان الذي وقت له ثم أتم الأربعين •

والفرق بين الميقات والوقت أن الميقات ما قدر ليعمل فيه عمل من الاعمال والوقت وقت الشيء قدره مقدر أولم يقدره ، ولذلك قيل : مواقيت الحج وهي المواضع التي قدرت للاحرام بها •

وقوله تعالى « وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » الذين يفسدون في الأرض ، وانما أمره بذلك مع أنه نبي مرسل ، لأن الرياسة كانت لموسى (ع) على هارون وجميع أمته ، ولم يكن يجوز أن يقول هارون لموسى مثل ذلك • وقال أبو علي : السبعون الذين اختارهم موسى للميقات كانوا معه في هذا الخروج ، وسمعوا كلام الله لموسى (ع) وكانوا شهدوا له بذلك •

وقوله « هارون » في موضع جرّ ، لأنه بدل من قوله (لأخيه) وإنما فتح لأنه لا ينصرف ، ولو رفع على النداء كان جائزاً ولم يقرأ به أحد •

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٥١ •

قوله تعـالى :

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ وَأَنَا وَخَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَلُأُ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ فَإِنِ اسْتَقَرَّ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٢) آية بلاخلاف .

قرأ أهل الحجاز إلا عاصماً « دكاء » بالمد والهمزة من غير تنوين ـ ههنا وفى الكهف ـ وافقهم عاصم في الكهف . الباقون « دكاً » منونة مقصورة في الموضعين ، قال أبو زيد : يقال : دككت على الميت التراب أدكه دكاً : اذا دفنته وأهلت عليه ، وهما بمعنى واحد ، ودككت الركية دكاً اذا دفنته ، ودك الرجل فهو مدكوك اذا مرض ، وقال أبو عبيدة « جعله دكاً » أي مندكاً ، والدك والدكة مصدره ، وناقة دكاء ذاهبة السنام والدك المستوي ، وانشد للأغلب : هل غير عاد دكّ عاداً فانهدم

وقال أبو الحسن : لما قال « جعله دكاً » فكأنه قال : دكه أي أراد جعله ذا دك ، ويقال : دكاء جعلوها مثل الناقة الدكاء التي لا سنام لها . قال أبو علي الفارسي: المضاف محذوف ـ على تقدير في قول أبي الحسن ، وفي التنزيل « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » (١) وقال « كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً » (٢) وقال الرماني : معنى دكاً مستويا بالأرض ، يقال : دكه يدكه دكاً إذا سحقه سحقاً ، ومنه الدكة . واندك السنام اذا لصق بالظهر . وقال الزجاج : دكاً يعني مدقوقاً مع الأرض ، والدكاء والدكاوات الروابي

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ١٤ (٢) سورة ٨٩ الفجر آية ٢١ .

التي مع الأرض ناشزة عنها لا تبلغ أن تكون جبلاً . وقيل : إيه سباخ في الأرض ـ في قول الحسن وسفيان وأبي بكر الهذلي . وقال ابن عباس : صار تراباً ، وقال حميد :

يدك أركان الجبال هزمه يخطر بالبيض الرقال بهمه [٣]

وقيل في معنى قراءة من قرأها ممدودة قولان :

احدهما ـ انه شبه الجبل بالناقة التى لا سنام لها ، فيقال لها : دكاء فكأنه قال فجعله مثل دكاء .

الثاني ـ فجعله أرضاً دكاء .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن موسى (ع) لما جاء الى ميقات ربه وهو الموضع الذي وقته له ، وكلمه الله تعالى فيه سأل الله تعالى أن يريه لينظر اليه . واختلف المفسرون فى وجه مسألة موسى (ع) ذلك مع أن الرؤية بالحاسة لا تجوز عليه تعالى على ثلاثة أقوال :

أحدها ـ أنه سأل الرؤية لقومه حين ، قالوا له « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » [٤] بدلالة قوله « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » [٥] .

فإن قيل على هذا ينبغي أن يجوزوا أن يسأل الله تعالى هل هو جسم أم لا أو يسأله الصعود والنزول ، وغير ذلك مما لا يجوز عليه ؟!!

قلنا عنه جوابان :

أحدهما ـ أنه يجوز ذلك إذا علم أن فى ورود الجواب من جهة الله مصلحة ، وأنه أقرب الى زوال الشبهة عن القوم بأن ذلك لا يجوز عليه تعالى ، كما جاز ذلك في مسألة الرؤية . وقال الجبائي : إنهم سألوا الله تعالى قبل ذلك هل يجوز عليه تعالى النوم أم لا ؟ وقالوا له : سل الله أن يبين لنا ذلك ، فسأل الله تعالى ذلك ، فأمره بأن يأخذ قدحين يملأ أحدهما ماء ، والآخر دهناً ، ففعل

---

(٣) تفسير الطبري ١٣/١٠٠ . (٤) سورة ٢ البقرة آية ٥٥ .

(٥) سورة ٧ الاعراف آية ١٥٤ .

وألقى عليه النعاس ، فضرب أحدهما على الآخر فانكسرا ، فأوحى الله تعالى اليه أن لو جاز عليه تعالى النوم لاضطراب أمر العالم ، كما اضطرب القدحان في مدة حتى تكسرا .

الثاني ـ عن هذا السؤال أنه إنما يجوز أن يسأل الله ما يمكن أن يعلم صحته بالسمع ، وما يكون الشك فيه لا يمنع من العلم بصحة السمع ، وإنما يمنع من ذلك سؤال الرؤية التي تقتضي الجسمية والتشبيه ، لأن الشك في الرؤية التي لا تقتضي التشبيه مثل الشك في رؤية الضمائر والاعتقادات ، وما لا يجوز عليه الرؤية ، وليس كذلك الشك في كونه جسماً أو ما يتبع كونه جسماً من الصعود والنزول ، لأن مع الشك في كونه جسماً ، لا يصح العلم بصحة السمع من حيث أن الجسم لا يجوز أن يكون غنياً ولا عالماً بجميع المعلومات ، وكلاهما لابد فيه من العلم بصحة السمع ، فلذلك جاز أن يسأل الرؤية التي لا توجب التشبيه ولم يجز أن يسأل كونه جسماً ، وما أشبهه .

والجواب الثاني ـ في أصل المسألة : أنه سأل العلم الضروري الذي يحصل في الآخرة ، ولا يكون في الدنيا ليزول عنه الخواطر والشبهات ، والرؤية تكون بمعنى العلم ، كما تكون الادراك بالبصر ، كما قال « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » (١) وأمثاله . وللانبياء أن يسألوا ما يزول عنهم الوساوس والخواطر ، كما سأل ابراهيم ربه «فقال رب ارني كيف تحيي الموتى » (٢) غير أنه سأل ما يطمئن قلبه الى ذلك وتزول عنه الخواطر والوساوس ، فبين الله تعالى له أن ذلك لا يكون في الدنيا .

الثالث ـ أنه سأل آية من آيات الساعة التي يعلم معها العلم الذي لا يختلج فيه الشك كما يعلم في الآخرة وهذا قريب من الثاني .

وقال الحسن والربيع والسدي : إنه سأل الرؤية بالبصر على غير وجه التشبيه .

---

(١) سورة ١٠٥ الفيل آية ١ . (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٦٠ .

وقوله « لن تراني » جواب من الله تعالى لموسى أنه لا يراه على الوجه الذي سأله ، وذلك دليل على أنه لا يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لأن (لن) تنفي على وجه التأبيد ، كما قال « ولن يتمنوه أبداً » (١) وهذا إنما يمكن أن يعتمده من قال بالجواب الأول ، فأما من قال : انه سأل العلم الضروري أو علماً من أعلام الساعة لا يمكنه أن يعتمده ، لأن ذلك يحصل في الآخرة ، فيجري ذلك مجرى اختصاص الرؤية بالبصر على مذهب المخالف بحال الدنيا .

وقوله تعالى « فإن استقر مكانه فسوف تراني » معناه إن استقر الجبل في حال ما جعله دكاً متقطعاً فسوف تراني ، فلما كان ذلك محالاً لأن الشيء لا يكون متحركاً ساكناً في حال واحدة ، كانت الرؤية المتعلقة بذلك محالة ، لأنه لا يعلق بالمحال إلا المحال .

وقوله « فلما تجلى ربه للجبل » معناه ظهر بآياته التي أحدثها في الجبل لحاضري الجبل بأن « جعله دكاً » . وقيل : إن الله تعالى أبرز من ملكوته ما تدكدك به إذ في حكمه أن الدنيا لا تقوم لما يبرز من الملكوت الذي في السموات ، كما قيل : إنه ابرز الخنصر من العرش ، ويجوز أن يكون المراد « فلما تجلى ربه » لأهل الجبل ، كما قال « واسأل القرية » (٢) والتجلي هو الظهور ، ويكون ذلك تارة بالرؤية ، وأخرى بالدلالة ، قال الشاعر :

تجلى لنـــا بالمشرفية والقنا وقد كان عن وقع الأسنة نائيا

وإنما أراد الشاعر أن تدبيره دل عليه حتى علم أنه المدبر لذلك وأن تدبيره صواب ، فقال تجلى أي علم ، ولم ير بالابصار ، ولا أدرك بالحواس ، لأنه كان عن وقع الأسنة نائياً ، ولكن استدل عليه بحسن تدبيره .

وقال قوم : معناه فلما تجلى بالجبل لموسى قالوا : وحروف الصفات تتعاقب فيكون (اللام) بمعنى (الباء) . وقال قوم : لو أراد موسى الرؤية بالبصر لقال أرينك أو أرني نفسك ، ولا يجوز غير ذلك في اللغة .

---

(١) سورة ٦٢ الجمعة آية ٦ . (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٨٢ .

وقوله « وخرَّ موسى صعقاً » قيل في معنى ذلك قولان :

أحدهما ـ قال ابن عباس والحسن وابن زيد وأبو علي الجبائي : إنه وقع مغشياً عليه من غير أن يكون قد مات بدلالة قوله « فلما أفاق » ولا يقال للميت اذا عاش أفاق ، وإنما يقال : عاش أو حيي ، وقال قتادة : معناه مات .

وقوله « قال سبحانك تبت اليك » قيل في معنى توبته ثلاثة أقوال :

أحدها ـ أنه تاب ، لأنه سأل قبل أن يؤذن لـه في المسألة ، وليس للأنبياء ذلك .

الثاني ـ أنه تاب من صغيرة ذكرها .

الثالث ـ أنه قال ذلك على وجه الانقطاع اليه والرجوع الى طاعته ، وإن كان لم يعص ، وهذا هو المعتمد عندنا دون الأولين ، على أنه يقال لمن جوز الرؤية على الله تعالى اذا كان موسى (ع) إنما سأل ما يجوز عليه فمن أي شيء تاب ؟ فلابد لهم من مثل ما قلناه من الأجوبة .

فإن قيل : كيف يجوز أن يكون تجويز الرؤية صغيراً مع أنه جهل بالله على مذهب من قال إنه كان ذلك صغيرة ؟!

قيل : لأنه إذا لم تكن الرؤية المطلوبة على وجه التشبيه جرى مجرى تجويزه أن تكون هذه الحركة من مقدورات الله في أنه لا يخرجه من أن يكون عارفاً به تعالى ، وإنما شك في الرؤية والحركة .

وقوله « وأنا أول المؤمنين » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال الجبائي : أنا أول المؤمنين بأنه لا يراك شيء من خلقك فأنا أول المؤمنين من قومي باستعظام سؤال الرؤية .

الثاني ـ قال مجاهد : وأنا أول المؤمنين من بني اسرائيل .

قوله تعالى :

قَالَ يَامُوسَىٰ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ (١٤٣) آية بلا خلاف .

قرأ أهل الحجاز ، وروح «برسالتي» على التوحيد . الباقون «برسالاتي» على الجمع . والرسالة تجري مجرى المصدر فتفرد في موضع الجمع ، وإن لم يكن المصدر من (أرسل) يدلك على أنه جار مجراه قول الأعشى :

ففادك بالخيل أرض العـــدو وجذعانها كلقيطة العجم [١]

فاعماله إياها إعمال المصدر بذلك على أنه يجري مجراه ، والمصدر قد يقع لفظ الواحد فيه والمراد به الكثرة ، وكان المعنى على الجمع لأنه مرسل لضروب من الرسالة ، والمصادر قد تجمع مثل الحلوم والألباب . وقال تعالى « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » [٢] فجمع الأصوات لما أريد بها أجناس مختلفة صوت الحمار بعضها ، فأفرد صوت الحمار ، وإن كان المراد به الكثرة، لأنه صوت واحد .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه نادى موسى (ع) وقال له « يا موسى إني اصطفيتك » ومعنى الاصطفاء استخلاص الصفوة لما لها من الفضيلة . والفضائل على وجوه كثيرة : أجلها قبول الاخلاق الكريمة والأفعال الجميلة ، ولهذا المعنى اصطفي موسى (ع) حتى استحق الرسالة ، وأن يكلم بتلقين الحكمة .

وقوله تعالى « برسالاتي وبكلامي » فيه بيان ما به اصطفاه وهو أن جعله نبياً وخصه بكلامه بلا واسطة ، وهما نعمتان عظيمتان منه تعالى عليه ، فلذلك امتن بهما عليه ، وإنما صار في كلام الجليل نعمة على المكلم ، لأنه كلمه بتعليم الحكمة من غير واسطة بينه وبين موسى ، ومن أخذ العلم عن العالم المعظم كان أجل رتبة ، ولو كلم إنساناً بالانتهار والاستخفاف ، لكان نقمة عليه بالضد من تلك الحال .

وقوله تعالى « فخذ ما آتيتك » معناه تناول ما أعطيتك « وكن من الشاكرين » يعني من المعترفين بنعمتي ، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع القيام بحقها على حسب مرتبتها ، فاذا كانت من أعظم النعم ، وجب أن تقابل

(١) ديوانه : ٣٠ القصيدة ٣ . (٢) سورة ٣١ لقمان آية ١٩ .

بأعظم الشكر ، وهو شكر العباد لله وحده على وجه الاخلاص له .

قوله تعـالى :

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٤) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه كتب لموسى (ع) في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ، وقال الجبائي : المكتوب في الألواح التوراة ، فيها اخبار الامم الماضية ، وفصل فيها الحرام والحلال . و (الألواح) جمع لوح ، وقال الزجاج : كانا لوحين فجمع ، قال : ويجوز أن تكون ألواحاً جماعة ، واللوح صفيحة مهيأة للكتابة فيها ، وقد يقال لوح فضة تشبيهاً باللوح من الخشب ،ومثله لو عمل من حجر ،وقال الحسن : وكانت الالواح من خشب نزلت من السماء ، ومعنى كتبنا له من كل شيء كتبنا اليه كل ما في شرعه من حلال وحرام ، وحسن وقبيح ، وواجب وندب ، وغير ذلك مما يحتاجون الى معرفته . وقيل : كتب له التوراة فيها من كل شيء من الحكم والعبر .

وأصل اللوح اللمع يقال : لاح الامر يلوح ،لوحا اذا لمع وتلألأ . والتلويح تضمير ، ولوحه السفر والعطش إذا غيره تغييراً تبين عليه أثره ، لأن حاله يلوح بما نزل به ، واللوح الهواء ، لأنه كاللامع في هبوبه ، واللوح مأخوذ من أن المعاني تلوح بالكتابة فيه . و (الموعظة) التحذير بما يزجر عن القبيح وتبصر مواقع الخوف تقول : وعظه يعظه وعظاً وموعظة ، واتعظ اتعاظاً إذا قبل الوعظ .

وقوله « وتفصيلاً لكل شيء » يعني تمييزاً لكل ما يحتاجون اليه .

وقوله « فخذها بقوة » قيل : معناه بجد واجتهاد . وقيل : بصحة عزيمة،

ولو أخذه بضعف نية لأداه الى فتور العمل به •

وقوله « وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » معناه يأخذوا بأحسن المحاسن، وهي الفرائض والنوافل ، وأدونها فى الحسن المباح ، لأنه لا يستحق عليه حمد ولا ثواب • وقال الجبائي : أحسنها الناسخ دون المنسوخ المنهي عنه ، لأن العمل بهذا المنسوخ قبيح • وقال الزجاج : يأخذوا بأحسنها معناه بما هو حسن دون ما هو قبيح ، وهذا تأويل بعيد ، لأنه لا يقال في الحسن أنه أحسن من القبيح • ويجوز أن يكون المراد بأحسنها حسنها ، كما قال تعالى « وهو أهون عليه » (١) ومعناه هين • ويحتمل ان يكون اراد بأحسنها الى مادونه من الحسن ، ألا ترى أن استيفاء الدين حسن وتركه أحسن ، وأما القصاص فى الجنايات فحسن والعفو أحسن ويكون ذلك على وجه الندب •

وقوله عز وجل «سأوريكم دار الفاسقين» قال الحسن ومجاهد والجبائي: يعني به جهنم ، والمراد به فليكن منكم على ذكر لتحذروا أن تكونوا منهم ، وقال قتادة : هي منازلهم أي لتعتبروا بها وبما صاروا اليه من النكال فيها •

قوله تعالى :

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٥) آية بلا خلاف •

قرأ حمزة والكسائي وخلف « الرشد » بفتح الراء والشين • الباقون بضم الراء وسكون الشين • وفرق بينهما أبو عمرو بن العلاء ، فقال : الرشد ـ بضم الراء ـ الصلاح ، كقوله « فإن آنستم منهم رشداً » (٢) أي صلاحاً ، لدفعه اليهم ، والرشد الاستقامة في الدين ، كقوله « على ان تعلمني مما علمت

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٢٧ •   (٢) سورة ٤ النساء آية ٥ •

رشدا » (٣) وقال الكسائي: هما لغتان بمعنى واحد ،مثل الحزْن والحزَن، والسقِم والسَقم ، والرشد سلوك طريق الحق تقول : رشَد يرشد رشداً ، ورشِد يرشد رشدا،وارشده ارشادا،واسترشد أسترشادا،وضده الغي:غوي يغوى غياً وغواية ، وأغواه إغواء ، واستغواه استغواء •

وقال الجبائي والرماني : معنا « سأصرف عن آياتي » أي سأصرف عن أياتي من العز والكرامـة بالدلالة التي كسبت الرفعة في الدنيا والآخرة ، ويجوز ان يكون معناه أي احكم عليهم بالانصراف واسميهم بأنهم منصرفون عنها ،لانهم قد انصرفوا عنها ،كما قال « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم»(٤)•

ويحتمل أن يكون المراد اني سأصرفهم عن التوراة والقرآن ، وما أوحى الله من كتبه بمعنى امنعهم من إفساده وتغييره وإبطاله ، لأنه قال في أول الآية « وكتبنا له في الالواح » الى قوله تعالى « سأصرف عن آياتي » ويجوز ان يكون المراد « سأريهم آياتي » فينصرفون عنهـا وهم الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ، كما يقول القائل: سأحير فلانا أي اسأله عن شيء فيتحير عند مسألتي ، وسأنجل فلانا أي أسأله ما ينجل عنده ، وكذلك يقال :سأقطع فلانا بكلامي ، والمراد انه سينقطع عند كلامي ، وكل ذلك واضح بحمد الله •

ويجوز أن يكون المراد انهم لما عاندوا وتمردوا بعد لزوم الحجة عليهم وحضروا للتلبيس والشغب على ما حكاه الله عنهم انهم قالوا « لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » (٥) صرفهم الله بلطفه عن الحضور كما كانوا يحضرونه ، ويحتمل أن يكون المراد سأصرف عن جزاء آياتي •

ومن زعم انه بمعنى سأصرف عن الايمان بآياتي فقد أخطأ ، لانه تعالى لايأمر بالايمان ثم يمنع منه ، لان حكمته تمنع من ذلك •

والصرف نقل الشيء الى خلاف جهته ، يقال : صرفه يصرفه صرفا ،

(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٦٧ • (٤) سورة ٩ التوبة آية ١٢٨ •

(٥) سورة ٤١ حم السجدة آية ٢٦ •

وصرّفه تصريفا ، وتصرف تصرفا ، وصارفه مصارفة ، وانصرف انصرافا .

وقوله تعالى « الذين يتكبرون في الارض » والتكبر اظهار كبر النفس على غيرها، وصفة متكبر صفة ذم في جميع البشر، وهو مدح في صفات الله تعالى ، لانه يستحق اظهار الكبر على كل شيء سواه ، لان ذلك حق ، وهذا المعنى في صفة غيره باطل ، فمعنى الآية الاخبار من الله انه يصرف عن ثواب آياته « الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وان يروا كل آية لايؤمنوا بها » يعني الذين اذا شاهدوا الحجج والبراهين لاينقادون لها ، ولا يصدّقون بها « وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا » ومعناه انهم متى رأوا سبيل الصلاح عدلوا عنه ، ولم يتخذوه طريقا لهم بمعنى انهم لايعملون بذلك « وان يروا سبيل الغي ... » يعني وان يروا ضد الرشد من الكفر والضلال سلكوه وارتكبوا معصية الله في ذلك .

وقوله تعالى « ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا » يحتمل ذلك أن يكون في موضع رفع أي امرهم ذلك، ويحتمل ان يكون نصبا أي فعلنا بهم ذلك، لانهم تكبروا وكذبوا ، ومعناه : أفعل ذلك بهم ، يعني صرفي لهم عن ثواب الآيات الجزيل والمنزلة الجليلة .

ومن قال من المجبرة : ان الله تعالى يصرفه عن الايمان قوله باطل ، لانه تعالى لايجوز ان يصرف احدا عن الايمان ، لانه لو صرفه عنه ثم أمره به لكان كلفه مالا يطيقه ، وذلك لايجوز عليه تعالى . وأيضا فان الله تعالى بين انه يصرفهم عن ذلك في المستقبل ، جزاء لهم على كفرهم الذي كفروا ، فكيف يكون ذلك صرفا عن الايمان ! !

وقيل : إن معنى الآية أي سأصرف عن آياتي ، ولا أظهرها لهم كما أظهرتها للمؤمنين ، ويريد بذلك المعجزات الباهرات ، لعلمي بأن إظهارها مفسدة لهم يزدادون عندها كفرا ، تبين ذلك في قوله تعالى « وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا » .

وقيل : معناه سأصرف عن إبطالها والطعن فيها بما أظهره من حججها ، كما يقال : سأمنعك من فلان أي من أذاه ، ذكره البلخي •

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٦) آية بلاخلاف •

هذا إخبار من الله تعالى أن الذين كذبوا بآياته ، وجحدوا البعث والنشور في الآخرة • وهي الكرة الثانية ، لأنه حقيق على من عرف النشأة الأولى ألا ينكر النشأة الأخرى ، لأن الذي قدر على الأولى ، فهو على الثانية أقدر ، كما أن من بنى دارا ابتداء ، فهو على اعادتها أقدر •

وأصل اللقاء إلتقاء الحدين • ثم يحمل عليه الادراك ، فيقال لما أدركه : لقيه ، فهؤلاء كذبوا بادراك الآخرة استبعاداً لكونها •

وقوله « حبطت أعمالهم » إخبار من الله تعالى أن من كذب بآياته وجحد البعث والنشور تنحبط أعماله ، لأنها تقع على خلاف الوجه الذي يستحق بها المدح والثواب فيصير وجودها وعدمها سواء ، والحبوط سقوط العمل حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل •

وأصل الاحباط الفساد مشتق من الحبط ، وهو داء يأخذ البعير في بطنه من فساد الكلأ عليه ، يقال : حبطت الابل تحبط : إذا أصابها ذلك ، واذا عمل الانسان عملا على خلاف الوجه الذي أمر به يقال : أحبطه ، بمنزلة من يعمل شيئاً ثم يفسده •

وقوله « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » أي به ، وصورته صورة الاستفهام والمراد به الانكار والتوبيخ ، والمعنى ليس يجزون إلا ما كانوا يعملون إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً •

قوله تعـالى :
وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً إِتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٧) آية بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي « من حِلِيِّهم » ـ بكسر الحاء واللام ـ الباقون بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء ، وقرأ يعقوب بفتح الحاء وسكون اللام ، وتخفيف الياء ، فوجه قراءة يعقوب أن (الحلي) اسم جنس يقع على القليل والكثير . ومن قرأ بضم الحاء ، فلأنه جمع (حلي) نحو ثُدِيّ وثَدْي ، وإنما جمعه لأنه أضافه الى جمع .

ومن قرأ بكسر الحاء أتبع الكسرة الكسرة ، وكره الخروج من الضمة الى الكسرة ، واجراه مجرى (قسي) جمع (قوس) .

أخبر الله تعالى عن قوم موسى أنهم اتخذوا من بعد مفارقة موسى لهم ومضيّه الى ميقات ربه من حليهم ، ومعنى الاتخاذ الاعداد ، وهو (إفتعال) من الأخذ وأصله يتخذ إلا أن الياء تقلب في (إفتعل) وتدغم لانها في موضع ثقيل في كلمة واحدة ، ولا يجوز في مثل (أحسن نوماً) الادغام ، والاتخاذ اجتباء الشيء لامر من الامور ،فهؤلاءاتخذوا العجل المعبادة ،والحلي ماأتخذ للزينة من الذهب والفضة ، يقال : حلي بعيني يحلا ، وحلا في فمي يحلو حلاوة ، وحليت الرجل تحلية اذا وضعته بما يرى منه . وقد تحلى بكذا أي تحسن به ، والعجل ولد البقرة القريب العهد بالولادة ، وهو العجول أيضاً ، وإنما أخذ من تعجيل أمره لصغره .

وقيل : إنهم عملوا العجل من الذهب ، وقوله « جسداً له خوار » فالجسد جسم الحيوان مثل البدن ، وهو روح وجسد ، والروح ما لطف ،

والجسد ما غلظ ، والجسم يقع على جسد الحيوان وغيره من الجمادات ، والخوار صوت الثور ، وهو صوت غليظ كالجؤار ، وبناء (فعال) يدل على الآفة نحو الصراخ ، والعوار والسكات والعطاش والنباح • وفي كيفية خوار العجل مع أنه مصوغ من الذهب خلاف ، فقال الحسن : قبض السامري قبضة من تراب من أثر فرس جبرائيل (ع) يوم قطع البحر فقذف ذلك التراب في فم العجل ، فتحول لحماً ودماً ، وكان ذلك معتاداً غير خارق للعادة ، وجاز أن يفعل الله لمجرى العادة • وقال الجبائي والبلخي : إنما احتال بادخال الريح فيه حتى سمع له كالخوار ، كما قد يحتال قوم اليوم كذلك •

ثم أخبر تعالى فقال « ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا » على وجه الانكار عليهم والتعجب من جهلهم وبعد تصورهم ، فقال: كيف يعبدون هذا العجل ، وهم يشاهدونه، ولا يكلمهم ولا يتأتى منه ذلك ، ولا يهديهم الى سبيل خير • ثم قال «اتخذوه» إلهاً « وكانوا ظالمين » في اتخاذهم له إلهاً واضعين للعبادة في غير موضعها •

والحلي الذي صاغ السامري منه العجل كانوا أصابوه من حلي آل فرعون قذفه البحر ، فقال السامري لـ (هارون) : إن هذا حرام كله وينبغي أن نحرقه كله أو نصرفه في وجه المصلحة ، فأمر هارون بجمع ذلك كله ، وأخذه السامري لأنه كان مطاعاً فيهم ، فصاغه عجلاً وكان صائغاً ، وطرحه في النار وطرح معه التراب الذي معه •

قوله تعالى :

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٨) آية •

قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً « لئن لم ترحمنا » بالتاء « ربنا » بالنصب على النداء • الباقون بالياء « ربنا » بالرفع على الخبر •

ومعنى قوله « سقط في أيديهم » وقع البلاء في أيديهم أي وجدوه وجدان من يده فيه ، يقال : ذلك للنادم عندما يجده مما كان خفي عليه ، ويقال أيضاً : سقط في يديه أي صار الذي كان يضر به في يديه .

ومعنى قوله « ورأوا » علموا « أنهم قد ضلوا » وتبينوا بطلان ما كانوا عليه من عبادة العجل والكفر والضلال ، لأن ما تعلق به الرؤية ، لا يجوز أن يكون مدركاً بالبصر ، وهو معنى الجملة ، وإنما يصح أن يعلم وأن يدخل على الجملة ، وهي في تقدير المفرد ، ومتى ظهر فساد الإعتقاد ، فلابد أن يندم صاحبه عليه ،لانه لا معنى للاقامة عليه مع توافر الدواعي الى خلافه ، كما أنه لا معنى أن يكذب على نفسه مع علمه بكذبه ، غير أنه مع ظهور الضلالة لهم لم يكونوا ملجئين الى الندم ، لأن الالجاء يقع إما بالعلم بالمنع أو تخوف من المضرة العاجلة أو النفع العظيم العاجل الذي مثله يلجيء ، ولم يكن القوم على واحد من الأمرين ، لأنهم كانوا مكلفين للندم .

وفي الآية دلالة على بطلان قول من يقول لا محجوج الا عارف ، لأن الله وصفهم بأنهم سقط في أيديهم عندما رأوا من ضلالهم ، فدل على أنهم كانوا محجوجين في ترك الضلال الذي إن لم يغفر لهم هلكوا .

وقوله « لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا » أخبار عمّا قال القوم حين تبينوا ضلالهم وسقط في أيديهم والتجائهم الى الله واعترافهم بأنه ان لم يغفر لهم ربهم ويتغمدهم بمغفرته يكونوا من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بما يستحقونه من العقاب الدائم .

وقال الحسن : كلهم عبدوا العجل إلا هارون بدلالة قول موسى « رب اغفر لي ولأخي » (١) ولو كان هناك مؤمن غيرهما لدعا له ، وقال الجبائي : إنما عبد بعضهم بدلالة ما ورد من الاخبار عن النبي (ص) فيما روي عنه في هذا المعنى .

---

(١) آية ١٥٠ من سورة الاعراف .

قوله تعالى :

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٤٩) آية بلاخلاف .

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وابن عامر « ابن أم » بكسر الميم . الباقون بالفتح والقراء كلهم على « تُشمِت » بضم التاء . وقرأ حميد الاعرج، ومجاهد « لا تَشمت » بفتح التاء . واللغة الفصيحة بضم التاء من (أشمت) وقد ذكر : شمت يَشمت ، وأشمت يُشمت .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن موسى حين رجع من مناجاة ربه رجع غضبان آسفاً ، لما رأى من عكوف قومه على عبادة العجل . والغضب معنى يدعو الى الانتقام على ما سلف وهو يضادُّ الرضا ، يقال : غضب غضباً وأغضبه إغضاباً وغاضبه مغاضبة وتغضب تغضباً ، والأسف الغضب الذي فيه تأسف على فوت ما سلف . وقال ابن عباس : أسفاً يعني حزيناً ، وقال أبو الدرداء : معناه شديد الغضب بدلالة قوله تعالى « فلما آسفونا انتقمنا » (١) ومعناه أغضبونا كغضب المتحسر في الشدة ، وهو مجاز في الصفة .

وقوله تعالى « بئس ما خلفتمونِي مِن بعدِي » معناه بئس ما عملتم خلفي، يقال : خلفه بما يكره وخلفه بما يحب إذا عمل خلفه ذلك العمل يقال : خلف خلفاً ، وأخلف إخلافاً ، وخالفه مخالفة ، واختلف اختلافاً ، واستخلف استخلافاً

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٥٥ .

وتخلّف تخلفا ، وخلف تخليفا ، وتخالفا تخالفاً •

وقوله « أعجلتم أمر ربكم » قال الجبائي معناه أعجلتم منه ما وعدكم من ثوابه ورحمته ، فلما لم تروه فعل بكم ذلك كفرتم ، واستبدلتم به عبادة العجل ، والعجلة التقدم بالشيء ، قبل وقته ، والسرعة عمله في أول وقته ، ولذلك صارت العجلة مذمومة ، والسرعة محمودة ويقال : عجلته أي سبقته وأعجلته استحثثته •

وقوله « وأخذ برأس أخيه يجره اليه » قيل في معناه قولان :

أحدهما ــ قال الجبائي : إنما هو كقبض الرجل منا على لحيته وعضه على شفته أو إبهامه ، فأجرى موسى هارون مجرى نفسه ، فقبض على لحيته ، كما يقبض على لحية نفسه اختصاصاً • وقال أبو بكر بن الاخشيد : إن هذا أمر يتغير بالعادة ويجوز أن تكون العادة في ذلك الوقت أنه اذا أراد الانسان أن يعاتب غيره لا على وجه الهوان أخذ بلحيته وجره اليه ثم تغيرت العادة الآن وقال: انما أخذبرأسه ليسر اليه شيئا أراده • وقال « يابن أم »حكايةعما قال هارون لموسى حين أخذ برأسه خوفاً من أن يدخل الشبهة على جهال قومه ، فيظنون أن موسى فعل ذلك على وجه الاستخفاف به والانكار عليه « يابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني » •

ومن فتح ميم (أم) تحتمل قراءته أمرين :

أحدهما ــ أنه بني لكثرة اصطحاب هذين حتى صار بمنزلة اسم واحد مع قوة النداء على التغيير نحو خمسة عشر •

الثاني ــ أنه على حذف الألف المبدلة من ياء الاضافة ، كما قال الشاعر :

يا بنة عما لا تلومي واهجعي [1]

والقياس يابن أمي ، ومن كسر الميم اضافه الى نفسه بعد أن جعله اسماً واحداً ، ومن العرب من يثبت الياء كما قال الشاعر :

---

(١) سيأتي في ٥ : ٥٦١ من هذا الكتاب وهو في اللسان (عم) •

يابن أمي ويا شقيق نفسي أنت خليتني لدهر شديد (٢)

وقال الآخر :

يابن أمي ولو شهدتك إذ تدعو تميماً وأنت غير مجاب (٣)

وقال الحسن : كان أخاه لأبيه وأمه ، والعرب تقول ذلك على وجه الاستعطاف بالرحم .

وقوله « فلا تشمت بي الأعداء » فالشماتة سرور العدو بسوء العاقبة تقول : شمت به شماتة وأشمته إشماتاً اذا عرضته لتلك الحال .

وقوله « وألقى الألواح » يعني رماها . وقال مجاهد : كانت من زمرد أخضر . وقال سعيد بن جبير : كانت من ياقوت أحمر ، وقال أبو العالية : كانت من زبرجد ، وقال الحسن : كانت من خشب .

وقوله « ولا تجعلني مع القوم الظالمين » سؤال من هارون لموسى ألا يشمت به عدوه ولا يجعله في جملة القوم الظالمين لبراءة ساحته مما فعل قومه ، فلما ظهر لموسى براءة ساحة هارون بأن له عذراً ، عذره في المقام بينهم من خوفه على نفسه قال عند ذلك « رب اغفرلي ولأخي » .

قوله تعالى :

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ (١٥٠) آية بلاخلاف .

في هذه الآية حكاية عن دعاء موسى (ع) ربه عز وجل ـ حين تبين له

(٢) قائله أبو زبيد آمالي الزبيدي ٩ وجمهر اشعار العرب ١٣٩ واللسان (شقق) وتفسير الطبري ١٣/١٢٩ وقد روي (كنود) بدل (شديد) .

(٣) قائله غلفاء ابن الحارث ، وهو معديكرب بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرارة الكندي وهو عم امرىء القيس ، وسمي (غلفاء) لأنه كان يغلف رأسه بالمسك . أنظر الأغاني ١٢/٢١٣ وتفسير الطبري ١٣/١٣٠ .

ما نبهه عليه هارون من خوف التهمة ، ودخول الشبهة عليهم بجره رأسه اليه ـ بأن يغفر له ولأخيه ، وأن يدخلهما رحمته ، والمقتضي لهذا الدعاء بالمغفرة قيل فيه قولان :

أحدهما ـ ما أظهره من الموجدة على هارون وهو بريء مما يوجب العتب عليه ، لأنه لم يكن منه تقصير في الانكار على من عبد العجل ، لأنه بلغ معهم من الانكار الى أن همّوا بقتله لشدة إنكاره ، ولذلك قال « إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني » .

والثاني ـ قال أبو علي : إنه بين بذلك لبني اسرائيل أنه لم يأخذ برأسه على جهة الغضب عليه ، وإنما فعل ذلك كما يفعله الانسان بنفسه عند شدة غضبه على غيره ، ولم يكن منه في تلك الحال معصية .

وكان هذا الدعاء من موسى انقطاعاً منه الى الله تعالى ، وتقرباً اليه لا أنه كان وقع منه أو من أخيه قبيح صغير أو كبير يحتاج أن يستغفر منه ، ومن قال : إنه استغفر من صغيرة كانت منه أو من أخيه ، فقد أخطأ . ويقال له : الصغيرة على مذهبكم تقع مكفرة محبطة ، فلا معنى لسؤال المغفرة لها . وقد بينا في غير موضع أن الانبياء(ع)لايجوز عليهم شيء من القبائح لا كبيرها ولا صغيرها لأن ذلك يؤدي الى التنفير عن قبول قولهم ، والأنبياء منزهون عما ينفر عنهم على كل حال .

وقوله « وأنت أرحم الراحمين » اعتراف من موسى بأن الله تعالى أرحم الراحمين وإعترافه بذلك دليل على قوة طمعه في نجاح طلبته ، لأن من هو أرحم الراحمين يؤمل الرحمة من جهته ومن هو أجود الاجودين يؤمل الجود من قبله .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ (١٥١) آية بلا خلاف

في هذه الآية حذف ، وتقديره إن الذين اتخذوا العجل إلهاً ومعبوداً سينالهم غضب ، فحذف لدلالة الكلام عليه ، وقوله في موضع آخر « فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي »[1] .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الذين اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه من دون الله سينالهم غضب ، ومعناه فسيلحقهم ، والنول اللحوق وأصله مدّ اليد الى الشيء الذي يبلغه ، ومنه قولهم : نولك أن تفعل كذا أي ينبغي أن تفعله فانه يلحقك خيره ونواله . وتقول : ناوله مناولة ، وتناول تناولا ، وأناله إنالة .

وقوله « غضب من ربهم » يعني عقاب من الله تعالى وإنما ذكر الغضب مع الوعيد بالنار لانه ابلغ في الزجر عن القبيح ، كما أن ارادة الحسنة في الدعاء اليها والترغيب فيها أبلغ من الاقتصار على الوعد بها .

وقوله « وذلة في الحياة الدنيا » بمعنى صغر النفس والاهانة ، يقال : ذل يذل ذلة ، واذله إذلالاً ، وتذلل تذللاً ، وذلله تذليلاً ، واستذله استذلالاً .

وقيل المراد به ما يؤخذ منهم من الجزية على وجه الصغار .

وقوله « وكذلك نجزي المفترين » إخبار منه تعالى أنه مثل هذا الوعيد والعذاب والغضب يجزي الكاذبين والمتخرصين عليه ، وإنما كان عبادة غير الله كفراً لأنه تضييع لحق نعمة الله كتضييعه بالجحد للنعمة في عظم المنزلة ، وذلك لما ينطوي عليه من تسوية من أنعم بأجل النعمة بمن لم ينعم ، وفي ذلك إبطال لحق النعمة .

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٢) آية بلا خلاف .

لمّا توعد الله تعالى الذين عبدوا مع الله غيره وعطف على وعيدهم توعيد

(١) سورة ٢٠ طه آية ٨٨ .

المفترين عليه والمتخرصين في دينه ما لم يأمر الله به ، عطف على ذلك ، فقال « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا » وهي جمع سيئة وهي الخصلة التي تسوء صاحبها عاقبتها ، وهي نقيض الحسنة ، كما أن الاساءة نقيض الاحسان « ثم تابوا من بعدها وآمنوا » يعني رجعوا الى الله تعالى بعد فعلهم السيّئة وندموا عليها وعزموا على أن لايعودوا الى مثلها في القبح ، وآمنوا بما أوجب الله عليهم أجمع « إن ربك » يا محمد « من بعدها » يعني من بعد السيئة « لغفور رحيم » يعني يغفرها لهم ويسترها عليهم ، لرحمته بعباده .

وقد بينا فيما مضى أن التوبة التي أجمعوا على سقوط العقاب عندها هي الندم على القبيح ، والعزم على أن لا يعود الى مثله في القبح ، وفي غيرها خلاف ، يقال : تاب يتوب توبة و (تاب الله عليه) بمعنى وفقه للتوبة على الدعاء له ، و (تاب عليه) أيضا : بمعنى قبل توبته ، والتوبة طاعة يستحق بها الثواب بلا خلاف ويسقط العقاب عندها بلا خلاف ، إلا أن عندنا يسقط ذلك تفضلا من الله تعالى بورود السمع بذلك وعند المعتزلة العقل يوجب ذلك .

فإن قيل كيف قال « تابوا من بعدها وآمنوا » والتوبة هي إيمان ؟

قلنا عنه ثلاثة أجوبة :

أحدها ــ تابوا من بعد المعصية وآمنوا بتلك التوبة .

الثاني ــ استأنفوا عمل الايمان .

الثالث ــ آمنوا بأن الله قابل التوبة . وقيل : إن الآية نزلت فيمن تاب من الذين كانوا عبدوا العجل ، فانهم تابوا وندموا ، وأكثرهم تعبدهم الله بأن يقتلوا أنفسهم فقتل بعضهم بعضاً ، واستسلموا لذلك ، فقتل في يوم واحد سبعون ألفاً ثم رفع عنهم ذلك وقبل توبتهم .

قوله تعالى :

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا

هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٣) آية بلا خلاف .

معنى قوله « ولما سكت » سكن ، وسمي ذلك سكوتاً وإن كان الغضب لا يتكلم ، لأنه لما كان بفورته دالاً على ما في النفس من المغضوب عليه كان بمنزلة الناطق بذلك ، فاذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة الساكت عما كان متكلماً به والسكوت في هذا الموضع أحسن من السكون ، لتضمنه معنى سكوته عن المعاتبة لأخيه ، مع سكون غضبه . والسكوت هو الامساك عن الكلام بهيئة منافية لسببه ، وهو تسكين آلة الكلام .

وإنما قيل : سكت الغضب وسكت الحزن على طريق المجاز إلا أنه فى شيء يظهر أثره ، فيكون بمنزلة الناطق به ، قال أبو النجم :

وهمّت الافعى بأن تسيحا وسكت المكاء أن يصيحا (١)

فإن قيل : كيف جاز أن يستفزه غضب الحمية عن غضب الحكمة ؟

قلنا : ليس كذلك ، ولكن غضب الحكمة صحبه غضب الحمية لما توجبه الحكمة . وسكون الغضب عن موسى (ع) لا يدل على أن قومه كانوا تابوا من عبادة العجل ، لأنه يحتمل أن تكون زالت فورة الغضب ولم يزل الغضب ، لأنه لم يخلص توبتهم بعد .

ويحتمل أن يكون زال غضبه لتوبتهم من كفرهم ، وإذا احتمل الأمران لم يحكم بأحدهما إلا بدليل .

وقوله تعالى « أخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » معناه أنه لما سكن غضبه رجع فأخذ الألواح التي كان ألقاها ، وكان الالواح مكتوبا فيها ما هو هدى وحجة وبيان ورحمة للذين هم لربهم يرهبون بمعنى يخافون عقابه ، ويجوز أن يقال : لربهم يرهبون ، ولا يجوز يرهبون لربهم ، لأنه اذا تقدم المفعول ضعف عمل الفعل فيه فصار بمنزلة ما لا يتعدى في دخول اللام عليه تقدم أو تأخر ، كما قال تعالى « ردف لكم » (٢) .

(١) تفسير الطبري ١٣/١٣٨ . (٢) سورة ٢٧ النمل آية ٧٢ .

وفي الآية دلالة على أنه يجوز إلقاء التوراة للغضب الذي يظهر بالقائها ثم أخذها ، للحكمة التي فيها من غير أن يكون إلقاؤها رغبة عنها .

قوله تعالى :

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْغَافِرِينَ (١٥٤) آية بلاخلاف .

الاختيار هو إرادة ما هو خير يقال : خيره بين أمرين فاختار أحدهما : والاختيار والايثار بمعنى واحد .

أخبر الله تعالى أن موسى (ع) اختار من قومه سبعين رجلاً وحذف (من) لدلالة الفعل عليه مع ايجاز اللفظ قال الشاعر :

ومنا الذي اختير الرجال سماحة ... وجوداً إذا هب الرياح الزعازع [٣]

وقال غيلان :

وأنت الذي اخترت المذاهب كلها ... بوهبين إذ ردت عليَّ الأباعر

وقال آخر :

فقلت له اخترها قلوصاً سمينة ... وناباً عليها مثل نابك في الحيا [٤]

يريد أختر منها ، وقال العجاج :

---

(٣) قائله الفرزدق . ديوانه : ٥١٦ والنقائض ٦٩٦ وسيبويه ١/١٨ واللسان (خير) وتفسير الطبري ١٣/١٥٥ والكامل للمبرد ١/٢١ .

(٤) قائله الراعي النميري . طبقات فحول الشعراء : ٤٥٠ ومعاني القرآن ١/٣٩٥ وشرح الحماسة ٤/٣٧ وتفسير الطبري ١٣/١٤٦ .

تحت الذي اختار له الله الشجر [٥]

وإنما اختار اخراجهم للميقات • والميقات المذكور ــ ههنا ــ هو الميقات المذكور أولاً ، لأنه في سؤال الرؤية ، وقد ذكر أولاً ودل عليه ثانياً • وقيل هو غيره ، لأنه كان في التوبة من عبادة العجل •

وقوله « فلما أخذتهم الرجفة » قيل في السبب الذي ، لأجله أخذتهم الرجفة قولان :

أحدهما ــ لأنهم سألوا الرؤية في قول ابن اسحاق •

الثاني ــ قال ابن عباس : لأنهم لم ينهوا عن عبادة العجل • وقد بينا معنى الرجفة فيما مضى ، وأنها الزلزلة العظيمة والحركة الشديدة •

وقوله « قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي » حكاية عما قال موسى لله تعالى ، وأنه ناداه ، وقال يا رب لو شئت أهلكتني وإياهم من قبل هذا الموقف •

وقوله « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » معناه النفي ، وإن كان بصورة الانكار كما تقول (أتشتمني وأسكت عنك) أي لا يكون ذلك ، والمعنى إنك لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، فبهذا نسألك رفع المحنة بالاهلاك عنا •

وقوله « إن هي الا فتنتك » معناه إن الرجفة إلا اختبارك وابتلاؤك ومحنتك أي تشديدك تشديد التبعد علينا بالصبر على ما أنزلته بنا من هذه الرجفة والصاعقة اللتين جعلتهما عقاباً لمن سأل الرؤية وزجراً لهم ولغيرهم ، ومثله قوله « أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين » [١] يعني بذلك الأمراض والأسقام التي شدد الله بها التعبد على عباده ، فسمى ذلك فتنة من حيث يشدد الصبر عليها ، ومثله « ألم • أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا

---

(٥) ديوانه : ١٥ ومجاز القرآن ١/٢٢٩ ومعاني القرآن ١/٣٩٥ واللسان (خير) وتفسير الطبري ١٣/١٤٧ •

(١) سورة ٩ التوبة آية ١٢٧ •

آمنا وهم لا يفتنون » (٢) ومعناه لا ينالهم شدائد الدنيا والامراض وغيرها ، ويحتمل أن يكون المراد بذلك ان هي الا عذابك وقد سمى الله تعالى العذاب فتنة في قوله « يوم هم على النار يفتنون » (٣) أي يعذبون ، فكأنه قال ليس هذا الإهلاك إلا عذابك لهم بما فعلوه من الكفر وعبادة العجل ، وسؤالهم الرؤية ، وغير ذلك .

والسبعون الذين كانوا معه وإن لم يعبدوا العجل ، فقد كانوا سألوا موسى أن يسأل الله تعالى ان يريه نفسه ، ليخبروا بذلك أمته ويشهدوا له بأن الله كلمه ، فإن بني اسرائيل قالوا لموسى : لا نصدقك على قولك إن الله كلمك من الشجرة ، فاختار السبعين حتى سمعوا كلام الله ، وشهدوا له بذلك عند قومه ، فسألوا أن يسأل الله الرؤية أيضاً ليشهدوا له ، فلذلك استحقوا الاهلاك ولم يثبت أن السبعين كانوا معصومين ، ولا أنهم كانوا أنبياء ، فينتفي عنهم ذلك .

وقيل المراد بقوله « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » أي أتميتنا بالرجفة التي تميتهم بها ، وإن لم يكن ذلك عقوبة لنا . والهلاك الموت ، لقوله « إن آمرؤ هلك » (٤) والفتنة الكشف والاختبار ، قال المسيب بن علس :

إذ تستبيك بأصلتي ناعم قامت لتفتنه بغير قناع

أي لتكشفه وتبرزه . وقوله « تضل بها من تشاء » معناه تضل بترك الصبر على فتنتك وترك الرضا بها من تشاء عن نيل ثوابك ودخول جنتك ، وتهدي بالرضا بها والصبر عليها من تشاء ، وإنما نسب الضلال الى الله لأنهم ضلوا عند أمره وامتحانه ، كما أضيفت زيادة الرجس الى السورة في قوله « فزادتهم رجساً الى رجسهم » (٥) وإن كانوا هم الذين ازدادوا عندها . والمعنى تختبر بالمحنة من تشاء لينتقل صاحبه عن الضلالة ، وتهدي من تشاء

(٢) سورة العنكبوت آية ١ ـ ٢ .

(٣) سورة ٥١ الذاريات آية ١٣ (٤) سورة ٤ النساء آية ١٧٥ .

(٥) سورة ٩ التوبة ١٢٦ .

معناه تبصره بدلالة المحنة ليثبت صاحبها على الهداية من تشاء •

وقوله « أنت ولينا » • معناه أنت ناصرنا وأولى بنا « فاغفر لنا » سؤال منه المغفرة له ولقومه • وقوله « وارحمنا وأنت خير الغافرين » إخبار من موسى بأن الله خير الساترين على عباده والمتجاوزين لهم عن جرمهم •

قوله تعالى :

وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٥) آية بلا خلاف •

هذا تمام الاخبار عما قال موسى وقومه الذين كانوا معه ، وأنهم سألوا الله تعالى المغفرة وأن يكتب لهم في هذه الدنيا حسنة وهي النعمة ، وإنما سميت النعمة حسنة وإن كانت الحسنة اسم الطاعة لله لأمرين :

أحدهما أن النعمة تتقبلها النفس كما يتقبل العقل الحسنة التي هي الطاعة•

والآخر ــ أن النعمة ثمرة الطاعة لله عز وجل ، وإنما سألوا أن يكتب لهم ، ولم يسألوا أن يجعل لهم ، لأن ما كتب من النعمة أثبت لا سيما اذا كانت الكتابة خبراً بدوام النعمة ، ويقال كتب له الرزق في الديوان ، فيدل على ثبوته على مرور الأزمان • « وفي الآخرة » معناه واكتب لنا في الآخرة أيضاً النعمة التي هي الثواب « إنا هدنا اليك » قال ابن عباس معناه تبنا اليك ، وبه قال سعيد بن جبير وابراهيم وقتادة ومجاهد • وأصله الرجوع من هاد يهود ، فهو هايد اذا رجع ، فمعناه رجعنا بتوبتنا اليك ، والتهويد الترفق في السير والتفريج والتمكث • وقال أبو وجرة : ــ هدنا ــ بكسر الهاء من هاد يهيد ، وهو شاذ ، وثوب مهود أي مرقع ذكره الجبائي ، وليس اليهود

مشتقاً منه ، بل إنما قيل يهودي ، لأنه نسب الى يهوذا ، لكن العرب غيرته في النسب ٠

وقوله « قال عذابي أصيب به من أشاء » حكاية عما أجابهم الله به من أن عذابه يصيب به من يشاؤه ممن استحقه بعصيانه ٠ وقيل : إنما علقه بالمشيئة ولم يعلقه بالمعصية لأمرين :

أحدهما ــ الاشعار بأن وقوعه بالمشيئة له ، دون المعصية ٠

الثاني ــ انه لا يشأ ذلك إلا على المعصية ، فأيهما ذكر دل على الآخر وعندنا أنه علقه بالمشيئة ، لأنه كان يجوز الغفران عقلاً بلا توبة ٠

وقوله « ورحمتي وسعت كل شيء » معناه إني أقدر أن أنعم على كل شيء يصح الانعام عليه ، وقيل : المعنى إنها تسع كل شيء إن دخلوها ، فلو دخل الجميع فيها لو سعتهم الا أن فيهم من يمتنع منها بالضلال بأن لا يدخل معه فيها ، وقال ابن عباس : وهي خاصة في المؤمنين ، وقال الحسن وقتادة هي عامة للبر والفاجر ــ في الدنيا ــ خاصة ٠ وفي الآخرة للبر ٠

وقوله « فسأكتبها للذين يتقون » معناه إن الرحمة في الآخرة مكتوبة للذين يتقون معاصيه ويحذرون عقابه « ويؤتون الزكاة » قيل في معناه ــ ههنا ــ قولان :

أحدهما ــ يخرجون زكاة أموالهم ، فذكره ، لانه من أشق فرائضهم ٠

الثاني ــ يطيعون الله ورسوله في قول ابن عباس والحسن ذهبا الى ما يزكي النفس ويطهرها من الأعمال ، والذين هم بآياتنا يؤمنون يعني أكتبها للذين يصدقون بآيات الله وحججه وبيناته ، وليس اذا كتب الرحمة للذين يتقون منع أن يغفر للعصاة والفساق بلا توبة ، لأن الذي تفيده الآية القطع على وصول الرحمة الى المتقين ، والفساق ليس ذلك بمقطوع لهم وإن كان مجوّزاً ٠

قوله تعالى :

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَالَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٦) آية بلا خلاف .

قرأ « إصارهم » ابن عامر وحده على الجميع . الباقون « إصرهم » على التوحيد . ومن وحد فلأن (الاصر) مصدر يقع على الكثير والقليل بدلالة قوله تعالى « أصرهم » فأضافه الى الكثرة . وقال « لا تحمل علينا إصراً » (١) ومن جمع أراد ضروباً من المآصر مختلفة ، فلذلك جمع .

قوله « الذين » في موضع جر ، لأنه صفة لـ (الذين) في الآية الاولى بعد صفة في قوله « فسأكتبها للذين يتقون » فذكر أن من تمام صفاتهم اتباعهم للرسول « النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل » يعني محمداً (صلى الله عليه وآله) .

و (الأمي) الذي لا يكتب . وقيل : إنه منسوب الى الأمة . والمعنى أنه على جبلة الأمة قبل استفادة الكتابة . وقيل : إنه منسوب الى الأمّ ، ومعناه أنه على ما ولدته أمه قبل تعلم الكتابة . وعن أبي جعفر الباقر (ع) أنه منسوب الى مكة ، وهي أم القرى . وقيل : إنه نسب الى العرب ، لأنها لم تكن تحسن الكتابة .

ومعنى « يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل » أنهم يجدون

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٦ .

نعته وصفته ، ولأنه مكتوب في التوراة (أتانا الله من سينا وأشرف من ساعير ، واستعلن من جبال فاران) وفيها (سأقيم لهم نبياً من إخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيقول لهم كلما أوصيه به) وفيها ، (وأما ابن الأمة فقد باركت عليه جداً جداً وسيلد اثني عشر عظيماً وأؤخره لأمّة عظيمة) •

وفي الانجيل بشارة بالفار قليط في مواضع منها (يعطيكم فار قليط آخر يكون معكم آخر الدهر كله) وفيها أنه (اذا جاء فنّد أهل العلم) وفيها (أنه يدبركم بجميع الخلق ، ويخبركم بالأمور المزمعة ويمدحني ويشهدلي) •

وقوله تعالى « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » صفة للنبي (ص) الأمي ، وهو في موضع الحال ، وتقديره آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، وسمي الحق (معروفاً) والباطل (منكراً) لأن الحق يعرف صحته العقل إذ الاعتماد في المعرفة على الصحة ، وينكر الباطل بمعنى ينكر صحته •

وقوله « ويحلّ لهم الطيبات » معناه يبيح لهم المستلذات الحسنة التي كانت حراماً عليهم ، ويحرّم عليهم الخبائث يعني القبائح ، وما يعافي الأنفس •

وقوله « ويضع عنهم أصرهم » يعني الثقل بأمور محرمة وفي تكليفها مشقة ، كتحريم العروق والغدد وتحريم السبت ، وكانت كالاغلال في أعناقهم، كما يقولون هذا طوق في عنقك • وقيل : ما امتحن به بنو اسرائيل من قبل نفوسهم ، وقرض ما يصيبه البول من أجسادهم وإلتزام للمكاره في كل شيء يخالفون الله فيه •

وقوله « فالذين آمنوا به » يعني صدقوا بهذا النبي « وعزروه » يعني عظموه بمنعهم كل من أراد كيده ، وأصله المنع ، ومنه تعزير الجاني وهو منعه بتأديبه من العود ، وقال قوم : عزرته معناه رددته ، وقال آخرون : معناه أعنته • وقال بعضهم معناه نصرته • وقال آخرون : منعته ونصرته •

وقوله « واتبعوا النور الذي أنزل معه » يعني القرآن سماه نوراً لأنه يهتدى به كما يهتدى بالنور • واخبر عنهم بأن من فعل ما قلناه فأولئك هم المفلحون الفائزون بثواب ربهم •

١ ـ فهرس الاحاديث

صفحة

صفحة

٢ ـ فهرس الردود والاجوبة والادلة

صفحة

صفحة

٣ ـ فهرس المباحث اللغوية

صفحة

صفحة

٤ ـ فهرس المواضيع

صفحة

التّبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي

٣٨٥-٤٦٠هـ

تحقيق وتصحيح

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلّد الخامس

دار
إحياء التراث العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى وفقنا لطاعته والعمل على فهم كتابه واحكامه . وإنى اشكره إستتماماً لنعمته ورضاء بتدبيره وإعترافاً بربوبيته واعتقاداً بحكمته. وصلى الله على محمد رسوله الأمين وعلى آله الميامين الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وبعد فاني اقدم لاخواني المؤمنين العاملين بأحكام القرآن هذا المجلد الخامس من تفسير التبيان . وقد لاقيت من العناء في اخراجه الشيء الكثير .

ولما نفد هذا الجزء ورأينا الطلب باقياً توكلنا على الله واعدناه طبعة ثانية منقحة والله الملهم للصواب .

أحمد حبيب قصير

قوله تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (١٥٧) آية.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يخاطب الخلق ، ويقول لهم إني رسول الله أرسلني اليكم يعني الى الناس أجمع « الذي له ملك السماوات والأرض » يعني ارسلني اليكم الذي له التصرف في السماوات والارض من غير دافع ، ولامنازع « لا إله » اي لامعبود « إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله » أمر من النبي ﷺ للخلق بأن يصدقوا بتوحيد الله ويقروا بنبوة النبي « الامي الذي يؤمن » يعني يصدق بالله وكلماته، وأمرهم بأن يتبعوه ويرجعوا الى طاعته لكي يهتدوا الى الثواب والجنة.

و « جميعاً » نصب على الحال من ضمير المخاطب الذي عمل حرف الاضافة فيه والعامل في الحال معنى الفعل في « رسوله » الا أنه لايتقدم على جرف الاضافة ، لانه قد صار بمنزلة العامل.

وإنما وصفه بأنه يحيي ويميت لأنه لايقدر على الاحياء إلا الله ، ولا على الاماتة أيضاً سواه لانه لو قدر أحد على الاماتة لقدر على الاحياء ، لأن من شأن القادر على الشيء أن يكون قادراً على ضده، وانما استعمل بمعنى لتهتدوا على الرجاء والطمع في الفوز به من العذاب.

قوله تعالى :

(وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) (١٥٨) آية.

أخبر الله تعالى أن من قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون .

قال ابن عباس والسدي : قوم وراء الصين .

وقال ابو جعفر عليه السلام : هم قوم خلف الرمل لم يغيروا ولم يبدلوا .

وأنكر الجبائي قول ابن عباس ، وقال شرع موسى عليه السلام ، منسوخ بشرع عيسى عليه السلام وشرع محمد صلى الله عليه وآله فلو كانوا باقين لكفروا بنبوة محمد .

وهذا ليس بشيء ،لأنه لايمتنع ان يكون قوم لم تبلغهم الدعوة من النبي صلى الله عليه وآله فلا نحكم بكفرهم .

وقال الجبائي يحتمل ذلك وجهين :

احدهما - انهم كانوا قوماً متمسكين بالحق في وقت ضلالتهم(١) بقتل أنبيائهم.

والاخر - انهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله مثل ابن سلام و ابن صوريا وغيرهما .

وتقدير الكلام في معنى الآية إذاً : كان من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، قد مدحوا بذلك وعظموا ، فعلى كل أمة أن يكونوا كهذه الأمة الكريمة في هذا المعنى . والامة الجماعة التي تؤم أمراً بأن تقصده وتطلبه . وأمة محمد صلى الله عليه وآله تؤم شريعته وأمة موسى وعيسى مثل ذلك .

وليس في الآية مايدل على ان في كل عصر أمة هادية من قوم موسى لأن بعد نبوة نبينا صلى الله عليه وآله لم يبق احد يجب اتباعه في شرع موسى عليه السلام و كذلك قوله تعالى « وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٢) ولادلالة في ذلك على ان تلك الأمة موجودة في كل عصر ، بل لو لم توجد هذه الأمة الا في وقت واحد هادية بالحق عادلة به لصح معنى الآية على ان عندنا في كل عصر لايخلون من قوم بهذا الوصف وهم حجج الله على خلقه ، المعصومين الذين لايجوز عليهم الخطأ والزلل ، فقد قلنا بموجب الآية .

---

(١) أي وقت ضلالة قومهم　　(٢) سورة ٧ الأعراف آية .

وصريح الآية يدل على بطلان قول من قال لايهدي الى الحق الا الله تعالى، لأن الله تعالى بين ان فيمن خلقه امة يهدون بالحق وبه يعدلون، وظاهر ذلك الحقيقة وصريح الآية بخلاف ما يقوله المخالف، ولاينافي ذلك قوله تعالى «من يهد الله فهو المهتدي» (١) لانه يصح اجتماعه مع ذلك، والمعنى من يهده الله الى الجنة فهو المهتدي اليها على ان قوله تعالى «من يهد الله فهو المهتدي» لايمنع من ان يهديه ايضاً غير الله ويهتدي، لان المتعلق بذلك تعلق بدليل الخطاب. وهو ليس بصحيح عند اكثر العلماء، على ان من هدى غيره الى الحق فانما يهديه بأن ينبهه على الحجج التي نصبها الله على الحق فجاز ان يضاف ذلك الى انه بهداية الله. ومن حمل قوله تعالى «يهدون» على ان المعنى يهتدون فقد غلط، لان ذلك لايعرف في اللغة.

قوله تعالى:

(وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَيٰهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (١٥٩) آية.

قد مضى تأويل معنى اكثر هذه الآية في سورة البقرة (٢) فلا معنى للتطويل بذكر ما مضى وانما نذكر مالم يذكر هناك: انما انث قوله اثنتي عشرة اسباطاً لان النية التقديم والتأخير والتقدير وقطعناهم امماً اثنتي عشرة اسباطاً ولم

(١) سورة ٧ الأعراف آية ١٧٧

(٢) آية ٦٠ من سورة البقرة المجلد ٢٦٩/١

يقل سبطاً لاحد ثلاثة اشياء :

احدها ـ انه بدل ليس بتمييز والمعنى قطعناهم اسباطاً ذكر ذلك الزجاج.

الثاني ـ على ان كل قسم اسباط لان الواحد يقال لهسبط ، فيجوز على هذا عندي عشرون دراهم على ان كل قسم منها دراهم قال كثير :

علي والثلاثـة من بنيه　　هم الاسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط ايمـان وبر　　وسبط غيبته كربلا (١)

الثالث ـ ان يكون اقام الصفة مقام الموصوف . وتقـديره اثنتي عشرة فرقة اسباطاً .

والسبط : الجماعة التي تجري في الامر بسهولة لاتفاقهم في الكلمة على انه مأخوذ من السبوط . وقيل انه مأخوذ من السبط ضرب من الشجر ، فجعل الاب الـذي يجمعهم كالشجرة التي تتفرع عنها الأغصان الكثيرة . وقال ابو علي لانهم كانوا بني اثني عشر رجلا من ولد يعقوب. وقيل انما فرقوا اسباطاً لاختلاف رتبتهم.

والانبجاس : خروج الماء الجاري بقلة ، والانفجار خروجه بكثرة ، فكان يبتديء بقلة ثم يتسع حتى يصير الى الكثرة ، فلذلك ذكره ههنا بالانبجاس وفي البقرة بالانفجار .

والظلة السترة التي تقي من الشمس ، والأغلب عليها العلو .

فجعل الله عزوجل لهم من الغمام ظلة تكنهم لما احتاجوا الى ذلك في التيه كما اعطاهم المن والسلوى. والمن ضرب من الحلاوة يسقط على الشجر . والسلوى طائر كالسماني. وانما انث « اثنتا عشرة اسباطاً »مع ان السبط ذكر ، لأحد ثلاثة اشياء:

احدها ـ اثنتي عشرة فرقة ثم حذف .

الثاني ـ وقطعناهم قطعاً اثنتي عشرة ، فحذف على هذا التقدير .

الثالث ـ أن السبط لما وقع على الامة أنث ، كما قال الشاعر :

(١) الاغاني ٩ / ١٤

وان كلاباً هـذه عشر أبطن وانت بريء من قبائلها العشر

وقوله تعالى « وماظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون » معناه : ماأنقصونا شيئاً ولكن انقصوا أنفسهم تقول العرب : ظلمت سقاك إذا سقيته قبل ان يخرج زبده ، ويقال : ظلم الوادي إذا بلغ الماء منه موضعاً لم يكن ناله فيما مضى ، قال الفراء وانشدني بعضهم :

يكاد يطلع ظلماً ثم يمنعه عن الشواهق فالوادي به شرق

ويقال هو أظلم من حية . لانها تأتي جحراًلم تحفره فتسكنه ويقال ماظلمك ان تفعل كذا أي مامنعك . والارض المظلومة التي لم ينلها المطر .

قوله تعالى

(وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ) (١٦٠) آية بلاخلاف .

قرأ اهل المدينةوابن عامر ويعقوب(يغفر) بالياء وضمها ، وفتح الفاءالباقون بالنون وكسر الفاء ، وقرأ اهل المدينة ويعقوب (خطيئاتكم) على جمع السلامة ورفع التاء ، وقرأ ابن عامرعلى التوحيد ورفع التاء ، وقرأ ابوعمرو (خطاياكم) بغير همز على جمع التكسير ، الباقون وهم ابن كثير واهل الكوفة (خطيآتكم) على جمع السلامة وكسر التاء .

من قرأ « يغفر» حمله على قوله تعالى « وإذ قيل لهم »ادخلوا ... يغفر ، والتي في البقرة (نغفر) بالنون ، فالنون هناك احسن لقوله « وإذ قلنا » وجازههنا بالنون كأنه قيل لهم ادخلوا ... نغفر . أي إن دخلتم غفرنا .

ومن قرأ تغفر بالتاء المضمومة فلانه اسند اليها خطيئاتكم وهو مؤنث فأنث

وبنى الفعل للمفعول اشبه بما قبله ، لان قبله واذ قيل .

ومن قرأ بالنون فلقوله « سنزيد المحسنين » .

وخطايا جمع خطيئة جمع تكسير (وخطيا تكم) مسكناً لأنه يكثر فيه السكون وسميت القرية قرية لان الماء يقري اليها يقال قريت الماء في الحوض أقريه قرياً إذا جمعته . ويجوز ان يكون مشتقاً من اجتماع الناس اليها .

وقد مضى تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة (١) فلا معنى لاعادته . وإنما نذكر جمل ذلك فنقول :

هـذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يقول اذكـر يامحمد اذ قيل لبني اسرائيل اسكنوا هذه القرية وهي بيت المقدس على قول الجبائي وغيره من المفسرين

وقال الحسين هي ارض الشام . وقال قوم غير ذلك . وقد ذكرنا اختلافهم في سورة البقرة (٢) لأنه كان امرهم بدخولها واخراج من فيها من الكفار وغيرهم ووعدهم ان يوسع عليهم فيها الرزق ويبيحهم ذلك ليأكلوا من حيث شاؤا مايريدون من انواع الاغذية والرزق . وقال لهم : « كلوا من حيث شئتم » على كثرة الرزق والغذاء في هذه القرية وفي كل ناحية منها .

وقوله تعالى : « وادخلوا الباب سجداً » يعني متواضعين وكانوا امروا بأن يدخلوا باباً منه معيناً في هذا الموضع كانوا فيه ــ في قول الجبائي ــ وقال ذلك قبل دخولهم الى بيت المقدس، قال ولم يرد ان يدخلوا الباب سجداً منحنين .

قال ابن عباس كان هناك باب ضيق امروا بان يدخلوه ركعاً فدخلوه على استاههم . وقيل لهم « قولوا حطة » أي مغفرة ، فقالوا حنطة . وذكرنا اختلاف الناس في ذلك .

وقوله «وقولوا حطة » معناه قولوا احطط عنا ذنوبنا وهو بمنزلة الاستغفار والتوبة.

وقوله «نغفر لكم خطايا كم» جواب الأمر وفيه معنى الجزاء . والتقدير انكم

(١ ، ٢) آية ٥٨ المجلد ١ / ٢٦٣

ان فعلتم ذلك غفرنـا لكم خطايا كم . وقولـه (سنزيد المحسنين) معناه سنزيد المحسنين منكم نعماً وفضلا في الدنيا والاخرة ، ولانقتصرلهم على نعم هذه القرية.

ورفع حطة على تقدير مسألتنا حطة ومطلوبنا حطة . وان نصب جاز بمعنى حط عنا حطة . وقوله سجداً نصب على الحال من دخول الباب . وقال ابوعلي ليس بحال لدخول الباب ، لانهم بدلوا في حياة موسى .

قوله تعالى :

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦١) آية

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الذين امرهم بدخول القريـة متواضعين ، وان يقولوا حطة لذنوبنا ، انهم بدلوا قولا غير الذي قيل لهم .

والتبديل تغيير الشيء برفعه الى بدل ، فقال الحسن قالوا حنطة بدل حطة .

وقال قوم: قالوا قولا ينافي الاستغفار ويخالف التوبة. وقالوا ما يدل على الاصرار.

واخبر تعالى انه ارسل عليهم عند ذلك رجزاً وهو العذاب والعقوبة جزاء بما كانوا يفعلونه من معاصي الله تعالى ويظلمون بها انفسهم .

واصل الرجز الميل عن الحق فمنه الرجازة وما يعدل به الحمل اذا مال عن خفة والرجز عبادة الوثن، والناقة الرجزاء التي تميل في احد شقيها لداء يعرض لها في عجزها.

قوله تعالى :

وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٢) آية .

القراء كلهم على فتح الياء في قوله تعالى (لايسبتون) وروي عن الحسن ضمها. من قال أسبتوا اراد دخلوا في السبت ومن فتح الياء اراد يفعلون السبت اي يقومون بأمره كما يفعل المسلمون يوم الجمعة ، ومثله أجمعنا اي مرت بنا جمعة، وجمعنا شهدنا الجمعة . قال الفراء : قال لي بعض العرب : أترانا اشهرنا منذ لم نلتق يريد مرّ بنا شهراً .

امر الله نبيه صلى الله عليه وآله أن يسأل بني اسرائيل الذين كانوا في وقته عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، وعن سبب هلاكها ، سؤال تقرير وتوبيخ لاسؤال استفهام ، كما يقول الرجل لغيره أنا فعلت كذا؟ وانت تعلم أنك لم تفعل، وانما تسأله لتقريره وتوبيخه ، فوجه امر النبي صلى الله عليه وآله ان يسأل اهل الكتاب عن اهل هذه القرية مع ما اخبره الله تعالى بقصتها لتقريرهم تقديم كفرهم وتعلمهم ما لايعلم الا بكتاب اووحي، وهو صلى الله عليه وآله لم يكن ممن قرأ الكتب ، فعلموا بذلك ان ذلك وحي انزل عليه .

وقوله تعالى (اذ يعدون في السبت) معناه اذ يظلمون في السبت ، يقال عدا فلان يعدو عدواناً ، وعدا عدواً اذا ظلم .

وقوله تعالى (اذ تأتيهم حيتانهم) في موضع نصب بيعدون .

والمعنى سلهم اذ عدوا في وقت اتيان الحيتان « شرعاً » اي ظاهرة والحيتان جمع حوت واكثر مايسمي العرب السمك بالحيتان والنيتان ، وكانت الحيتان تأتي ظاهرة فكانوا يحتالون بحبسها يوم السبت ثم يأخذونها في يوم الأحد . وقال قوم : جاهروا بأخذها يوم السبت .

وقوله تعالى (كذلك نبلوهم) اي مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم . وموضع الكاف نصب بقوله : (نبلوهم بما كانوا يفسقون) اي شددت عليهم المحنة بفسقهم . قال الزجاج ويحتمل ان يكون « ويوم يسبتون لاتأتيهم كذلك » اي لاتأتيهم شرعاً ويكون « نبلوهم » مستأنفاً . والأول قول اكثر المفسرين.

والوجه في تشديد المحنة التي هي التكليف أن الله تعالى أمر بني اسرائيل

بامساك السبت والتفرغ فيه للعبادة وأن لايتشاغلوا بشيء من أمر الدنيا فيه فتهاون قوم ممن كان يسكن هذه القرية وهي (ايلـة) في قول قوم من المفسرين . وقال قوم هي مدين ، ورويا جميعاً عن ابن عباس . ولم يقوموا بما وجب عليهم فشدد الله على من اخـذوه . قال الحسن : كانت تشرع على ابوابهم كأنها الكباش البيض فيعدون فيأخذونها وتبعد عنهم في باقي الايام وامرهم ان لايصطادوا يوم السبت فكان ذلك تشديداً للتكليف وتغليظاً للمحنة والبلوى ، وكان ذلك عقوبة على تهاونهم بما أوجب الله عليهم فخالفوا فأرسلوا الشباك يوم السبت واخرجوها يوم الاحد .

قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٣) آية بلاخلاف .

قرأ حفص وحده عن عاصم « معذرة » بالنصب . الباقون بالرفع .

من رفع فعلى تقدير موعظتنا معذرة الى ربكم . ومن نصب فعلى المصدر ، كما يقول القائل لغيره :معذرة الى الله واليك من كذا على النصب .

والمعنى قالوا نعتذر معذرة واعذاراً .

قال ابو زيد عذرته اعذره عذراً ومعذرة وعذرى . والتقدير واذكر اذ قالت امة منهم لطائفة منهم لـم تعظون قوماً علمتم انهم هالكون في الدنيا ويعذبهم الله عذاباً شديداً في الآخرة ، فقالوا في جوابهم وعظناهم إعـذاراً الى الله اي نعظهم اعتذاراً الى ربكم لئلا يقول لنا لم لم تعظوهم ولعلهم ايضاً بالوعظ يتقون ويرجعون.

وفي ذلك دليل على انـه يجب النهي عن القبيح وإن عـلم الناهي ان المنهي لاينزجر ولا يقبل ، وان ذلك هو الحكمة والصواب الـذي لايجوز غيره .

واختلفوا في هذه الفرقة التي قالت : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ؟ هل كانت من الناجية او من الهالكة عن الاعتداء في السبت . ذهب اليه ابن عباس وقال نجت الطائفتان من الهلاك الناهية والتي قالت لها لم تعظون ، وبه قال السدي

وقال قوم الفرقة التي قالت لم تعظون قوماً الله مهلكهم كانت من الفرقة الهالكة ذهب اليه ابن عباس في رواية اخرى عنه .

وقال قتادة عن ابن عباس هم ثلاث فرق التي وعظت والموعظة، فنجت الاولى وهلكت الثانية ، والله اعلم مافعلت الفرقة الثالثة ، وهم الذين قالوا لم تعظون واختاره الجبائي .

وقال الكلبي : هما فرقتان الواعظة والموعظة .

وقال الجبائي لم يريدوا بذلك الا نهيهم اياهم عن ذلك القبيح . وانما قالوا ذلك على سبيل الاياس من قبولهم منهم .

وقوله «لم» اصله (لما) الا انه حذف الألف مع حرف الجر نحو «عم يتساءلون ولم يقولوا (عن ما) .

قوله تعالى :

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٤) آية

قرأ أبو بكر إلا العليمي « بيئس » بفتح الباء وبعدها ياء ساكنة وبعدها همزة مفتوحة على وزن (فيعل) وروي عنه بكسر الهمزة . وقرأ اهل المدينة والداحوني عن هشام بكسر الهاء وبعدها ياء ساكنة من غير همز . وقرأ مثل ذلك ابن عامر الا الداحوني عن هشام إلا أنه همز . الباقون بفتح الباء وبعدها همزة مكسورة بعدها ياء ساكنة على وزن (فعيل) . وروى خارجة عن نافع بفتح الباء بعدها

ياء بلا همز على وزن (فعل) .

قال ابو زيد :قد بؤس الرجل يبؤس بأساً إذا كان شديد البأس ، وفي البؤس بئس وبيس يبأس بؤساً وبئيساً وباساً والبأساء الاسم .

قال أبو علي : من قرأ على وزن (فعيل) يحتمل أمرين :

أحدهما ـ أن يكون فعيلا من بؤس يبؤس إذا كان شديد البأس مثل« من عذاب شديد » (١) قال ابو محمد الفقعسي :

أشعث غير حسن اللبوس باق على عيش لـه بئيس

أي شديد .

والثاني ـ أن يكون من عذاب ذي بئيس . فوصفه بالمصدر ، والمصدر قـد يجيء على (فعيل) مثل نكير ونذير وشحيح وعذير الحي ، والتقدير من عذاب ذي بئيس أي عذاب ذي بؤس .

ومن قرأ بكسر الباء من غير همز فانه جعلها اسماً ، فوصفه به مثل قوله صلى الله عليه وآله (إن الله نهى عن قيل وقال) ومثله : منذ شب الى رب. ونظيره من الصفة نقض وبصق.

ومن فتح الباء من غير همز فهو أيضاً (فعل) في الاصل وصف به وابدلت الهمزة ياء وحكى سيبويه أنه سمع بعض العرب يقول: بيس فلا يحقق الهمزة ويدع الحرف على الأصل الذي هو (فعل) كأنه يسكن العين كما يسكن من (عـلم) ويقلب الهمزة ياء الا أنه لمـا أسكنها لم يجز أن يجعلها بين بين فأخلصها ياء .

وقراءة ابن عامر مثل قراءة نافع إلا أن ابن عامر حقق الهمزة .

وقراءة ابي بكر على وزن «فيعل» ، فانه جعله وصفاً كضيغم وحيدر ، وهذا البناء كثير في الصفة ولايجوز كسر العين من بيئس لان« فيعل » بناء اختص به ما كان عينه ياء أو واواً مثل سيد وطيب ، ولـم يجيء مثل ضيغم وجاء في المعتل حكى سيبويه عيّن وانشد لرؤبة.

(١) سورة ١٤ ابراهيم آية ٢

ما بال عيني كالشعيب العين (١)

فينبغي ان يحمل بيئس على الوهم ممن رواه عن عاصم والاعمش بالكسروقد أنشد بعضهم :

كلاهما كان رئيساً بيئسا   يضرب في يوم الهياج القونسا(٢)

أعلى كل شي قونسه بكسر العين . فمن كسر العين حمله على هذه اللغة.

أخبر الله تعالى أنه لما ترك أهل هذه القرية الرجوع عن ارتكاب المعصية بصيد السمك يوم السبت بعد أن ذكرهم الواعظون ذلك ولم ينتهوا عن ذلك أنه انجى الناهين عن ذلك وأخذ الذين ظلموا انفسهم بعذاب شديد جزاء بما كانوا يفسقون ويخرجون عن طاعة الله الى معصيته .

وروي عن عطا أن رجلا دخل على ابن عباس وبين يديه المصحف وهو يبكى وقد أتى على هذه الاية الى آخرها ، فقال ابن عباس قد علمت ان الله اهلك الذين أخذوا الحيتان وانجى الذين نهوهم ، ولا ادري ماصنع بالذين لم ينهوهم ولم يواقعوا المعصية وهي حالنا .

و « نسوا » في الاية معناه تركوا ويحتمل ان يكون تركهم القبول في منزلة من نسي ،ولا يجوز أن يكون المراد النسيان الذي هو السهو ، لأنه ليس من فعلهم فلا يذمون عليه .

وقال الجبائي العذاب الشديد لحقهم قبل ان يمسخوا قردة خاسئين .

قوله تعالى

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٥) آية

(١) وقيل قائله الطرماح . اللسان (عين)

(٢) قائله امرىء القيس بن عابس الكندي . تفسير ابن حيان ١٤٣/٤ وتفسير الطبري ٢٠٠/١٣

اخبر الله تعالى عن هؤلاء العصاة الذين عصوا بصيد السمك في السبت، ونهوا فلم ينتهوا ووعظوا فلم يتعظوا ، وأنه أنزل عليهم العذاب الشديد ، فلما عتوا عما نهى الله وتمردوا في معصيته مسخهم الله قردة خاسئين .

والعاتي الشديد الدخول في الفساد المتمرد الذي لايقبل موعظة. والعتو الخروج الى الجرأة على أفحش الذنوب . وقوله « خاسئين » معناه مبعدين من قولهم خسأت الكلب إذا أقصيته فخسأ أي بعد . وقال الحسن معناه صاغرين ، وقال : إن أهـل المسخ يتناسلون . وقال ابن عباس : لايتناسلون . وأجاز الزجاج كلا الامرين . وسئل ابو مالك : أكانت القردة والخنازير قبل ان يمسخوا ؟ قال : نعم وكانوا فيمـا خلق الله من الأمم . وقول ابن عباس أصح ، لأن المعلوم أن القردة ليست من ولد آدم كما أن الكلاب ليست من ولـد آدم . قال قتادة : صاروا قردة لها أذناب تعاوي بعد ما كانوا نساء ورجالا .

وقوله تعالى : « كونوا قردة » صيغته صيغة الامر والمراد به الاخبار : من أنه جعلهم قردة على وجه يسهل عليه ولم يتعب به ولم ينصب كما قال تعالى : «إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (١) . وقال « ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » (٢) ولم يكن هناك أمر لانه تعالى لايأمر المعدوم ، وإنما هو إخبار عن تسهيل الفعل، وأجاز الزجاج أن يكون قيل لهم ذلك بكلام سمعوه فيكون ذلك أبلغ في الآية النازلة بهم لما يدل على وقوع الأول الذي تبعه الثاني . وليس كذلك إذا قلت : لما جاء المطر خرج النبات ، وقوله تعالى « ولو ردوا لعادوا » فلا يقع الرد أصلا .

قوله تعالى:

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٤٠ (٢) سورة ٤١ حم السجدة(فصلت) آية ١١

يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٦) آية بلاخلاف .

التقدير اذكر يامحمد « إذ تأذن ربك » ومعنى تأذن : أعلم ، والعرب تقول تعلم ان هذا كذا بمعنى إعلم ، قال زهير :

تعلم أن شرّ الناس حي ينادي في شعارهم يسار (١)

ويسار اسم عبد . وقال زهير ايضاً :

فقلت تعلم ان للصيد غرة والا تضيعه فانك قاتله (٢)

وقال الزجاج معنى (تأذن) تألا ربك ليبعثن . وقال قوم : معناه امر من اذن يأذن . وقوله: « ليبعثن عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب » قسم من الله تعالى انه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب اي من يوليهم سوء العذاب .

قال ابو جعفر عليه السلام وابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير والحسن : اراد به امة محمد صلى الله عليه وآله يأخذون منهم الجزية .

فان قيل فقد جعلوا قردة كيف يبقون الى يوم القيامة ؟

قلنا : إن الذكر لليهود فمنهم من مسخ فجعل منهم القردة والخنازير ومن بقى قمع بذل من الله ، فهم اذلاء بالقتل او اذلاء باعطاء الجزية ، فهم في كل مكان اذل اهله لقوله تعالى « ضربت عليهم الذلة اينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » (٣) اى إلا ان يعطوا الذمة والعهد .

وفي الآية دليل على ان اليهود لايكون لهم دولة الى يوم القيامة ولاعز لهم ايضاً وقيل في معنى البعث ههنا قولان : احدهما ـ الأمر والاطلاق . والآخر ـ

---

(١) الاغاني ـ دارالثقافة بيروت ـ ١٠ : ٣١٧. الشعار علامة ينصبونها في سفرهم
(٢) تفسير القرطبي ٧ : ٣٠٩ . وروايته (تضيعها) بدل (تضيعه) .
(٣) سورة ٣ آل عمران آية ١١٢

التخلية ، وإن وقع على وجه المعصية ، كما قال تعالى : « أنا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازاً » (١) .

وقوله تعالى : «إن ربك لشديد العقاب » معناه إن ربك يامحمد لسريع العقاب لمن يستوجبه على كفره ومعصيته « وانـه لغفور رحيم » اي صفوح عن ذنـوب من تاب إليه من معاصيه ورجع الى طاعته يستر عليهم بعفوه وبفضله رحمة بهم فلا ينبغي لأحد ان يصرّ ويأمن عقابه بل ينبغي ان يجوز سرعـة عقابه فيبادر إلى التوبة والاستغفار .

قوله تعالى :

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّآتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٧) آية

اخبر الله تعالى انه قطع بني اسرائيل يعنى فرقهم فرقاً في الارض «امماً» يعني جماعات شتى متفرقين في البلاد ، وهو قول ابن عباس ومجاهد ، وعلى اي وجه فرقهم ؟ قيل فيه قولان :

احدهما ـ فرقهم حتى تشتت امرهم وذهب عزهم عقوبة لهم .

الثاني ـ فرقهم على ماعلم انه اصلح لهم في دينهم .

ثم اخبر عنهم فقال : من هؤلاء الصالحون يعني من بني اسرائيل الصالحون، وهم الذين يؤمنون با لله ورسـله ، ومنهم دون ذلك يعني دون الصالح ، وإنمـا وصفهم بذلك لما كانوا عليه قبل ارتدادهم عن دينهم ، وقبل كفرهم بربهم ،وذلك قبل ان يبعث فيهم عيسى عليه‌السلام .

وقوله : « وبلوناهم بالحسنات والسيئات» معناه اختبرناهم بالرخاء في العيش

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ٨٤

والخفض في الدنيا والدعة والسعة في الرزق ، وهي الحسنات ، ويعني بالسيئات الشدائد في الحبس والمصائب في الأنفس والأموال « لعلهم يرجعون » اي لكي يرجعوا الى طاعته وينيبوا الى إمتثال امره .

فان قيل كيف قال : لكي يرجعوا الى الحق ، وهم لم يكونوا عليه قط؟!

قلنا عنه جوابان :

احدهما ـ انهم مارون على وجوههم الى جهة الباطل فدعوا الى الرجوع الى جهة الحق لأن الانصراف عن الباطل رجوع الى الحق .

الثاني ـ انهم ولدوا على الفطرة وهي دين الحق الذي يلزمهم الرجوع اليه .

قوله تعالى :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦٨) آية بلاخلاف.

معنى الآية ان الله اخبر انه خلف ـ بعد القوم الذين كانوا فرقهم في الارض ـ خلف ، وهم قوم نشؤوا بعدهم من اولادهم ونسلهم ، يقال للقرن الذي يجيء في اثر قرن خلف ، والخلف ما اخلف عليك بدلا مما اخذ منك . ويقال في هذا خلف ايضاً . فأما ما اخلف عليك بدلا مما ذهب منك ، فهو ـ بفتح اللام ـ افصح . قال الفراء : يقال : اعطاك الله خلفاً مما ذهب لك ، فأنت خلف صدق وخلف سوء ، قال الله تعالى « فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة »(١) واكثر مايجيء في المدح

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ٥٩

ـ بفتح اللام ـ وفي الذم بتسكينها ـ وقد تحرك في الذم وتسكن في المدح ، فمن ذلك في تسكين اللام في المدح قول حسان بن ثابت :

لنا القدم الاولى اليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع (١)

ويقال : خلف اللبن إذا حمض من طول تركه في السقاء حتى يفسد ، فالرجل الفاسق مشبه به ، ومنه خلوف فم الصائم وهو تغيره . وأما بتسكين اللام في الذم فقول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الاجرب(٢)

وقيل ان الخلف الذين ذكرهم الله في هذه الآية أنهم خلفوا من قبلهم النصارى ـ ذهب اليه مجاهد ـ وهذا الذي قاله جائز ،وجائز أيضاً أن يكون المراد به قوم خلفوهم من اليهود .

وقوله تعالى « ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى » قال قوم · كانوا يرتشون على الأحكام ، ويحكمون بجور . وقال آخرون : كانوا يرتشون ويحكمون بحق ، وكل ذلك عرض خسيس ، ومعنى « هذا الأدنى » هذا العاجل ، و « يقولون سيغفر لنا » معناه إذا فعلوا ذلك يقولون الله يغفر لنا ذلك تمنياً منهم للاباطيل كما قال تعالى « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون»(٣).

وقوله تعالى« وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه » دليل على اصرارهم وأنهم تمنوا أن يغفر لهم مع الاصرار ، لان المعنى وان جاءهم حرام من الرشوة بعد ذلك أخذوه واستحلوه ، ولم يرتدعوا عنه ـ وهو قول سعيد بن جبير وقتادة والسدي وابن عباس وقال الحسن : معناه لايشبعهم شيء .

(١) ديوانه : ٨٤ . واللسان (خلف) وتفسير القرطبي ٣١٠/٧

(٢) ديوانه القصيدة : ٨ . واللسان (خلف) وتفسير القرطبي ٣١٠/٧

(٣) سورة ٢ البقرة آية ٧٩

وقوله « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لايقولوا على الله الا الحق ودرسوا مافيه » معناه الم يؤخذ على هؤلاء المرتشين في الاحكام القائلين سيغفر لنا هذا اذا عوتبوا على ذلك و « ميثاق الكتاب » هو ما أخذ الله على بني اسرائيل من العهود باقامة التوراة والعمل بما فيها ، فقال تعالى لهؤلاء الذين قصّهم توبيخاً لهم على خلافهم امره ونقضهم عهده وميثاقه : ألم يأخذ الله عليهم الميثاق في كتابه ان لايقولوا على الله الا الحق ، ولايضيفوا اليه الاما انزله على رسوله موسى في التوراة ولايكذبوا عليه وانما احتج عليهم بميثاق الكتاب، ولم يحتج عليهم بالعقل، ليعلمنا مالانعلمه مما هو في كتبهم من ادلة تؤكد مافي العقل .

وقوله تعالى : « ودرسوا ما فيه » المعنى قرؤوا ما فيه ودرسوه فضيعوه ، وتركوا العمل به . والدرس تكرر الشيء يقال درس الكتاب اذا كرر قراءته ، ودرس المنزل : اذا تكرر عليه مرور الأمطار والرياح حتى يمحى اثره .

وقوله تعالى« والدار الآخرة خير للذين يتقون » أي مااعده الله تعالى لاوليائه في دار الآخرة من النعيم والثواب وذخره للعاملين بطاعته الحافظين لحدوده « خير للذين يتقون » يعني يجتنبون معاصي الله ويحذرون عقابه .

وقوله : « أفلا تعقلون » فمن قرأ بالياء معناه أفلا تعقل هذه الطائفة التي تقدم ذكرها وهم الذين يأخذون عرض هذا الأدنى على أحكامهم ويقولون سيغفر لنا . ومن قرأ بالتاء قال : معناه قل لهم : افلا تعقلون ان الامر على مااخبر الله به.

وحكي ان طياً تقول في جمع ميثاق : مياثيق ، وفي جمع ميزان : ميازين، وحكي عن غيرهم من اهل الحجاز أيضاً ذلك وانشد بعض الطائيين :

حمى لايحل الدهر الا باذننا		ولا نسل الاقوام عقد المياثيق (١)

---

(١) قائله عياض بن درة الطائي . اللسان (وثق)

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَابِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٦٩) آية .

قرأ ابو بكر « يمسكون » بتسكين الميم ، الباقون بفتحها وتشديد السين. من خفف السين فلقوله تعالى « فامساك بمعروف» (١) وقوله «إمسك عليك زوجك» (٢) وقوله « فكلوا مما أمسكن » (٣) . ومن شدد أراد التكثير ، وهو اولى لقوله تعالى « وتؤمنون بالكتاب كله » (٤) اي لاتؤمنون ببعضه وتكفرون ببعضه بل تؤمنون بجميعه . ويقوي التشديد ماروي عن أبي أنه قرأ (مسّكوا بالكتاب » ومعنى « يمسكون » اي يأخذون بما فيه من حلاله وحرامه .

أخبر الله تعالى ان الذين يعملون بما في الكتاب ويقيمون الصلاة مع دخولها في التمسك بالكتاب لجلالة موقعها وشدة تأكدها أنه لايضيع جزاء عملهم، ويثيبهم بما يستحقونه ، لأني لااضيع لاحد ـ أصلح عمله فعمل بطاعتي ـ أجر عمله ، وهو قول ابن زيد ومجاهد ، وجميع المفسرين . والتقدير إنا لا نضيع أجر المصلحين منهم لان من كان غير مؤمن واصلح فأجره ساقط ، لأنه يوقعه على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب . ويمسكون بالكتاب ويمسكون ويتمسكون ويستمسكون بمعنى واحد أي يعتصمون به ويعملون بما فيه . وخبر (الذين) قوله « إنا لا نضيع اجر المصلحين » فاستغنى بذكر العلة عن ذكر المعلول .

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٩ (٢) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٧ .

(٣) سورة ٥ المائدة آية ٥

(٤) سورة ٣ آل عمران آية ١١٩

قوله تعالى :

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٠) آية

هذا خطاب لنبينا محمد ﷺ يقول الله له : اذكر يامحمد الوقت الذي نتقا فيه الجبل اي رفعناه فوقهم حتى صار كأنه ظلة . وقيل : إنه رفع الجبل على عسكرهم فرسخاً في فرسخ .

وامرأة منتاق وناتق كثيرة الولد . وقال ابن الاعرابي الناتق الرافع ، والناتق الفاتق ، والناتق الباسط ، وقال العجاج :

ينتق انتقاق الشليل نتقا (١)

يعني يرفعه عن ظهره . وقال الآخر :

ونتقوا أحلامنا الاثاقلا (٢)

وقال النابغة :

لم يحرموا حسن الغذاء وامهم　　　　دحقت عليك بناتق مذكار (٣)

ويروى طفحت عليك بناتق . ويقال : نتق السير اذا حركه ، ويقال : ماينتق برجله ولا يركض ، والنتق نتق الدابة صاحبها حين تعدو به وتتبعه حتى تربو فذلك النتق . وقال بعضهم : معنى « نتقنا الجبل فوقهم » فرفعناه بنتقه نتقاً . قال ابوعبيدة: سمعت من يقول : أخذ الجراب فنتق مافيه إذا نثر مافيه والاصل نتقت كل شيء وقوله عزوجل « كأنه ظلة » يعني به غماماً من الظلال . وقوله « وظنوا أنه واقع بهم » قال الحسن معناه علموا . وقال الجبائي والرماني : هو الظن بعينه ، لأنه قوي في

---

(١) ديوانه ٤٠ وتفسير الطبري الطبعة الثانية ١٠٩/٩

(٢ ، ٣) اللسان (نتق) . وتفسير الطبري الطبعة الثانية ٩ / ١١٠

نفوسهم ذلك .

وقوله « خذوا ما آتيناكم بقوة » أي قلنا لهم : خذوا ما آتيناكم بجد يعني ماألزمناكم من احكام كتابنا وفرائضه فاقبلوه باجتهاد منكم في اوانه من غير تقصير ولا توان . وقال الجبائي : معناه خذوه بالقدرة التي آتاكم الله وأقدركم بها لأنهم لو لم يكونوا قادرين لما كلفهم الله ذلك ، وذلك يفسد مذهب من قال القدرة مع الفعل .

وقولـه « واذكروا ما فيه » معناه ما في كتابه من العهود والمواثيق التي أخذناها عليكم ، بالعمل بمافيه لكي تتقوا ربكم فتخافوا عقابه بترككم العمل به إذا ذكرتم ماأخذ عليكم فيه من مواثيق .

وكان سبب رفع الجبل عليهم ان موسى عليه السلام لما اتاهم بالتوراة ووقفوا على مافيها من الاحكام والحدود والتشديد في العبادة ابوا أن يقبلوا ذلك وان يتمسكوا به وان يعملوا بما فيه . وقالوا: إن ذلك يغلظ علينا، فرفع الله الجبل كالظلة عليهم، وعرفهم موسى انهم إن لم يقبلوا التوراة ولم يعملوا بما فيها وقع عليهم فأخـذوا بالتوراة وقبلوامافيها وصرف الله نزول الجبل عليهم . قال ابن عباس فلذلك صارت اليهود تسجد على قرنها الأيسر ، لأنهم سجدوا كذلك ينظرون الى الجبل وكأنها سجدة نصبها الله. وإنما اتخذت النصارى المشرق قبلة ، لأن مريم عليها السلام اتخذت مكاناً شرقياً حين حملت بعيسى . وقال مجاهد : معناه إن أخذتموه بجد وحسن نية وإلا ألقي الجبل عليكم. وقال ابو مسلم إن رفع الجبل كان ليظلهم من الغمام ، وذلك خلاف اقوال المفسرين ومايقتضيه سياق الكلام .

قوله تعالى :

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ (١٧١) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٢) آية

قرأ ابن كثير وأهل الكوفة « ذريتهم » على التوحيد . الباقون ذرياتهم على الجمع . وقرأ ابو عمرو « وان يقولوا ، او يقولوا » بالياء فيهما . الباقون بالتاء.

و(الذرية) قد يكون جمعاً نحو قوله تعالى « وكنا ذرية من بعدهم » وقوله تعالى « ذرية من حملنا مع نوح » (١) وقد يكون واحداً كقوله : «هب لي من لدنك ذرية طيبة ... فنادته الملائكة ... أن الله يبشرك بيحيى » (٢) فهو مثل قوله : « فهب لي من لدنك ولياً يرثني » (٣) فقال الله : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى » (٤) .

فمن أفرد جعله اسماً واستغنى عن جمعه بوقوعه على الجمع .

ومن جمع قال :لانه إن كان واقعاً على الواحد فلا شك في جواز جمعه وإن كان جمعاً فجمعه أيضاً حسن،لأنه قد وردت الجموع المكسرة وقد جمعت نحو الطرقات وصواحبات يوسف .

وحجة من أفرد قال : لايقع على الواحد والجميع . فأما وزن (ذرية) فانه يجوز أن تكون (فعلولة) من الذر ، فابدلت من الراء التي هي لام الفعل الأخيرة ياء كما أبدلت من دهرية ، يدلك على البدل فيه قولهم : دهرورة ، ويحتمل ان تكون فعلية منه فأبدلت من الراء الياء ، كما تبدل من هذه الحروف في التضعيف وإن وقع فيها الفصل .ويحتمل أن تكون (فعليه) نسبة الى الذر وأبدلت الفتحة منها ضمة كما أبدلوا في الاضافة الى الدهر دهري والى سهل سهلي .ويجوز أن تكون(فعلية) من ذرأ الله الخلق،أجمعوا على تخفيفها كما أجمعوا على تخفيف البرّية . ويجوز ان

(١) سورة ١٧ الاسراء آية ٣
(٢) سورة ٣ آل عمران آية ٣٨ـ٣٩
(٣) سورة ١٩ مريم آية ٤
(٤) سورة ١٩ مريم آية ٦

تكون من قوله « تذروه الرياح »(١) ابدلت من الواو الياء لوقوع ياء قبلها .

وحجة أبي عمرو في قراءته بالياء ان ماتقدم ذكره من الغيبة وهو قوله عزوجل «واذأ خـذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم » كراهية ان يقولوا أولئلا يقول ، ويؤكد ذلك ماجاء بعد من الاخبار عن الغيبة وهو قوله: « قالوا بلى » .

وحجة من قرأ بالتاء انه قد جرى في الكلام خطاب وهو قوله « ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » وكلا الوجهين حسن لأن الغيب هم المخاطبون في المعنى .

وهذا خطاب للنبي ﷺ قال الله تعالى له : واذكر أيضاً الوقت الذي اخذ الله فيه من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟.

واختلفوا في معنى هذا الأخذ فيه وهذا الاشهاد :

فقال البلخي والرماني اراد بذلك البالغين من بني آدم واخراجه اياهم ذرية قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر واشهاده إياهم على انفسهم تبليغه إياهم وإكماله عقولهم، وما نصب فيها من الأدلة الدالة بأنهم مصنوعون وان المصنوع لابد له من صانع، وبما اشهدهم مما يحدث فيهم من الزيادة والنقصان والآلام والأمراض الدال بجميع ذلك على ان لهم خالقاً رازقاً تجب معرفته والقيام بشكره ، وما اخطر بقلوبهم من تأكيد ذلك والحث على الفكر فيه ، ثم إرساله الرسل وإنزاله الكتب ، لئلايقولوا إذا صاروا الى العذاب : إنا كنا عن هذا غافلين ، لم ينبه عليناولم تقم لناحجة عليه ولـم تكمل عقولنا فنفكر فيه ، اويقول قوم منهم : إنما أشرك آباؤنا حين بلغوا وعقلوا فأما نحن فكنا أطفالا لانعقل ولانصلح للفكر والنظر والتدبير .

وقال الجبائي : أخذه ذرياتهم من ظهورهم انه خلقهم نطفاً من ظهور الآباء، ثم خلقهم في ارحام الامهات ، ثم نقلهم من خلقة الى خلقة ،وصورة الى صورة، ثم صاروا حيواناً بأن احياهم الله في الأرحام ، واتم خلقهم، ثم اخرجهم من الارحام بالولادة

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٤٦

وقوله تعالى : « واشهدهم على انفسهم » يعني عندالبلوغ و كمال العقل وعندما عرفوا ربهم فقال لهم على لسان بعض انبيائه « الست بربكم » ؟ فقالوا : بلى شهدنا بذلك واقررنا به لأنهم كانوا بالله عارفين انه ربهم .

وقوله تعالى « ان تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين » معناه لئلاتقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هـذا غافلين فأراد بذلك اني انا قررتكم بهذا لتواظبوا على طاعتي وتشكروا نعمتي ولاتقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين .

وقوله تعالى « اوتقولوا إنما اشرك آباؤنا من قبل و كنا ذرية من بعـدهم » فنشأنا على شركهم فتحتجوا يوم القيامة بذلك ، فبين اني قد قطعت بذلك حجتكم هذه بما قررتكم به من معرفتي واشهدتكم على انفسكم باقراركم وبمعرفتكم إياي .

وقوله « افتهلكنا بما فعل المبطلون » من آبائنا . وهـذا يدل على انها مخصوصة في قوم من بني آدم وانها ليست في جميعهم ، لأن جميع بني آدم لم يؤخذوا من ظهور بني آدم لان ولد آدم لصلبه لايجوز ان يقال : إنهم اخذوا من ظهور بني آدم فقد خرج ولد آدم لصلبه من ذلك وخرج ايضاً اولاد المؤمنين من ولد آدم الذين لم يكن آباؤهم مشركين ، لانه بين ان هؤلاء الذين اقروا بمعرفة الله واخذ ميثاقهم بذلك كان قد سلف لهم في الشرك آباء . فصح بذلك انهم قوم مخصوصون من اولاد آدم .

فـأما ماروي ان الله تعالى اخرج ذرية آدم من ظهره واشهدهم على انفسم وهم كالذر ، فان ذلك غير جائز لأن الاطفال فضلا عمن هو كالـذر لاحجة عليهم ، ولايحسن خطابهم بما يتعلق بالتكليف ، ثم ان الآية تدل على خلاف ماقالوه . لأن الله تعالى قال « وإذ اخذ ربك من بني آدم » وقال « من ظهورهم » ولـم يقل من ظهره . وقال « ذريتهم » ولم يقل ذريته ، ثم قال « اوتقولوا إنما اشرك آباؤنا من قبل و كنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون » فأخبر ان هذه الذرية قد كان قبلهم آباء مبطلون وكانوا هم بعدهم .

على ان راوي هذا الخبر سليمان بن بشار الجهني ، وقيل مسلم بن بشار عن عمر بن الخطاب وقال يحيى بن معين :سليمان هذا لايدري اين هو . وايضاً فتعليل الآية يفسدما قالوه. لأنه قال : فعلت هذالئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين والعقلاء اليوم في دار الدنيا عن ذلك غافلون .

فان قيل نسوا ذلك لطول العهد اولأن الزمان كان قصيراً كما يعلم الواحدمنا اشياء كثيرة ضرورة ثم ينساها كما ينسى ما فعله في امسه وما مضى من عمره .

قلنا : إنما يجوز ان ينسى مالا يتكرر العلم به ولايشتد الاهتمام به ، فـأما الامور العظيمة الخارقة للعادة ، فلا يجوز ان ينساها الغاقل . الاترى ان الواحد منا لودخل بلاد الزنج ورای الأفيلة ولو يوماً واحداً من الدهر لايجوز ان ينسى ذلك حتى لايذكره اصلا مع شدة اجتهاده واستذكاره ؟ ! ولو جاز ان ينساه واحد لما جاز ان ينساه الخلق بأجمعهم . ولو جوزنا ذلك للزمنا مذهب التناسخ وان الله كان قد كلف الخلق فيما مضى واعادهم ، إما لينعمهم اوليعاقبهم . ونسوا ذلك ، وذلك يؤدي الى التجاهل .

على ان أهل الآخرة يذكرون ما كان منهم من احوال الدنيا ولم يجب ان ينسوا ذلك لطول العهد ، ولا المدة التي مرت عليهم وهم اموات وكذلك اصحاب الكهف لم ينسوا ما كانوا فيه قبل نومهم لما انتبهوا مع طول المــدة في حال نومهم ، فعلمنا ان هؤلاء العقلاء لما كانوا شاهدوا ذلك وحضروه وهم عقلاء لما جاز ان يذهب عنهم معرفة ذلك لطول العهد ، ولوجب أن يكونوا كذلك عارفين .

وقال قوم وهو المروي في أخبارنا إنــه لايمنع ان يكون ذلك مختصاً بقوم خلقهم الله وأشهدهم على أنفسهم بعد ان أكمل عقولهم واجابوه بـ (بلى) ، وهــم اليوم يذكرونه ولايغفلون عنه ، ولايكون ذلك عاماً في جميع العقلاء وهذا وجه ايضاً قريب يحتمله الكلام .

وحكى أبوا الهذيل في كتابه الحجة : أن الحسن البصري واصحابــه كانوا

يذهبون الى ان نعيم الاطفال في الجنة ثواب عن إيمانهم في الذر .

وحكى الرماني عن كعب الاحبار : انه كان يخبر خبر الـذر غير انه يقول ليس تأويل الآية على ذلك. وإنما فعل ليجروا على الاعراف الكريمة في شكر النعمة والاقرار لله بالوحدانية ، كما روي انهم ولدوا على الفطرة .

ويدل على فساد قولهم قوله تعالى «والله اخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئاً » (١) فهم لو كانوا أخرجوا من ظهر آدم على صورة الذر كانوا ابعد من ان يعلموا اويعقلوا ومتى قالوا أكمل الله عقولهم فقد مضى الكلام عليهم .

وذكر الأزهري وروي ذلك عن بعض من تقدم ان قوله : « وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى »تمام الكلام . وقوله « شهدنا ان تقولوا يوم القيامة » حكاية عن قول الملائكة انهم يقولون شهدنا لئلا تقولوا.

وهذا خلاف الظاهر وخلاف ماعليه جميع المفسرين لأن الكل قالوا (شهدنا) من قول من قال (بلى) وان اختلفوا في كيفية الشهادة على ان المـلائكة لم يجر لها ذكر ، فكيف يكون ذلك إخباراً عنهم .

قوله تعالى :

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٣) آية

إنا كما بينا لكم هذه الآيات كذلك نفصلها للعباد ونبينها لهم . وتفصيله الآيات هو تمييز بعضها من بعض ليتمكنوا من الاستدلال بكل واحـدة منها على جهتها وبين أنه فعل ذلك بهم ليتوبوا وليرجعوا عن معاصيه الى طاعته وعن الكفر الى الايمان به .

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٧٨

قوله تعالى :

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (١٧٤) آية بلاخلاف .

هـذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يأمره بأن يقرأ على بني اسرائيل وغيرهم من أمته خبر الـذي اتاه الله حججه وبيناته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان وكان من جملة الغاوين الخائبين الخاسرين . وقيل معناه الضالين الهالكين .

واختلفوا في المعنى بقوله « آتيناه آياتنا » : فقال ابن عباس ومجـاهـد : هو بلعام بن باعورا من بني اسرائيل . وقال : معنى « فانسلخ منها » مـا نزع منه من العـلم . وروي عن عبد الله بن عمر انها نزلت في أمية بن ابى الصلت . وقال مسروق وعبد الله : هي في رجل من بني اسرائيل يقال لـه بلعم بن باعورا . وقال قوم : هو رجل من الكنعانيين . وقال الحسن : هذا مثل ضربه الله للكافر آتاه الله آيات دينه « فانسلخ منها » يقول اعرض عنها وتركها « فاتبعه الشيطان » خذله الله وخلى عنه وعن الشيطان ، وهو مثل قوله تعالى « كتب عليه انه من تولاه فانـه يضله » (١) اى كتب على الشيطان انه من تولى الشيطان فان الشيطان يضله . وقال الجبائى اراد به المرتد الذي كان الله آتاه العلم به وبآياته فكفر به وبآياته وبدينه من بعد ان كان به عارفاً فانسلخ من العلم بذلك ومن الايمان .

وقوله « فأتبعه الشيطان » معناه ان الشيطان اتبعه كفار الانس وغواتهم حتى اتبعوه على ماصار اليه من الكفر بالله وبآيـاتـه . وقيل اتبعه الشيطان بالتزيين والاغواء حتى تمسك بحبـله وكان من الغاوين الخائبين من رحمة الله ، قال وهو رجل من المتقدمين يقال له : بلعام بن باعورا .

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٤

اتبعه الشيطان، واتبعه لغتان وبالتخفيف معناه قفاه ، وبالتشديد حذا حذوه وإذا اردت اقتدا به فبالتشديد لا غير . فأما ماروي أن الآية كانت النبوة فانه باطل ، فان الله تعالى لايؤتي نبوته من يجوز عليه مثل ذلك ، وقد دل دليل العقل والسمع على ذلك قال الله تعالى « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » (١) وقال « المصطفين الأخيار » (٢) فكيف يختار من ينسلخ عن النبوة .

وقيل : إن الآية كانت الاسم الاعظم وهذا ايضاً نظير الاول لايجوز ان يكون مراداً، والقول هوما تقدم من اكثر المفسرين : ان المعني به بلعم بن باعورا ومن قال امية بن ابي الصلت قال كان اوتي علم الكتاب فلم يعمل به . والوجه الذي قاله الحسن يليق بمذهبنا دون الذي قاله الجبائي ، لان عندنا لايجوز ان يرتد المؤمن الذي عرف الله على وجه يستحق به الثواب .

والنبأ الخبر عن الامر العظيم ومنه اشتقاق النبوة : نباه الله جعله نبياً وإنما آتاه الله الايات باللطف حتى تعلمها وفهم معانيها وقال ابومسلم: الاية في كل كافر بين الله له الحق فلم يتمسك به . وقال ابو جعفر عليه السلام في الاصل بلعم ثم ضرب مثلا لكل مؤثر هواه على هدى الله تعالى من اهل القبلة .

قوله تعالى :

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٥) آية .

---

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٣٢   (٢) سورة ٣٨ ص آية ٤٧

الهاء في (لرفعناه) كناية عن الذي تقدم ذكره ، وهو الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها ، فأخبره الله تعالى انه لو شاء لرفعه بتلك الايات.

واختلفوا في معنى هذه المشيئة فقال الجبائي : المعنى لوشئنا لرفعناه بايمانه ومعرفته قبل ان يكفر لـكن ابقيناه ليزداد الايمان ، فكفر . وقال البلخي هذا اخبار عن قدرته انه لو شاء لحال بينه وبين الكفر والارتداد ، وهو الذي نختاره لأنا قد بينا ان المؤمن لايجوز ان يرتد . وقال الزجاج : معناه لوشئنا ان نحول بينه وبين المعصية لفعلنا .

وقوله « ولكنه أخلد الى الارض » معناه سكن الى الدنيا وركن اليها ولـم يسم الى الغرض الأعلى . يقال أخلد فلان الى كذا وكذا وخلد ، وبالألف اكثر في كلام العرب ، والمعنى إنه سكن الى لذات الدنيا واتبع هواه أي لم نرفعه بالايات لاتباع هواه . وقيل معنى أخلد قعد . ويقال: فلا مخلد إذا أبطأ عنه الشيب ومخلد إذا لم تسقط اسنانه ـ هكذا ذكره الفراء ـ ومن الدواب الذي تبقى ثناياه حتى تخرج رباعيتاه . وأخلد بالمكان اذا اقام به ، قال زهير :

لمن الـديار غشيتها بالفدفـد كالوحي في حجر المسيل المخلد (١)

وقال مالك بن نويرة :

بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا (٢)

وقال ابو عبيدة هو اللزوم للشيء والتقاعس فيه وقال سعيد بن جبير معناه ركن الى الارض ، وقال مجاهد : معناه سكن اليها .

---

(١) ديوانه ٢٦٨ ، واللسان (خلد) . و (الفدفد) الفلاة التي لاشيء بها . وقيل : هي الارض الغليظة ذات الحصى ، وقيل غير ذلك و (الوحي) الكتابـة و(حجر المسيل) هو حجر صلب يكتبون فيه .

(٢) الاصمعيات : ٣٢٣ .

وقوله : « فمثله كمثل الكلب » ضرب الله مثل التارك لآياته والعادل عنها بأخس مثل في أخس احواله ، فشبهه بالكلب ، لأن كل شيء يلهث فانما يلهث في حال الاعياء والكلال إلا الكلب فانه يلهث في حال الراحة والتعب ، وحال الصحة وحال المرض . وحال الري وحال العطش . وجميع الاحوال ، فقال تعالى إن وعظته فهو ضال وان لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طردته وزجرته فانه يلهث ، وإن تركته يلهث ، وهو مثل قوله « وإن تدعوهم الى الهدى لايتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم انتم صامتون » (١) .

وقوله تعالى « ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » يعني هذا المثل الذى ضربه بالكلب هو مثل الذين كذبوا بآيات الله . وقال الجبائي إنما شبهه بالكلب لانه لما كفر بعد ايمانه صار يعادي المؤمنين ويؤذيهم ، كما ان الكلب يؤذي الناس طردته أو لم تطرده فانه لايسلم من اذاه .

وقوله تعالى « فاقصص القصص » معناه فاقصص على الناس ما نبينه لك لكي يتذكروا ويتفكروا فيرجعوا الى طاعة الله وينزجروا عن معاصيه . وقال ابن جريج مثله بالكلب ، لان الكلب لافؤاد له فيقطعه الفؤاد حملت عليه أو تركته ، شبه من ترك الآيات كأنه لافؤاد له . واللهث التنفس الشديد من شدة الاعياء ، وفي الكلب طباع يقال : لهث يلهث لهثاً فهو لاهث ولهثان .

قوله تعالى :

سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٦) آية بلاخلاف .

التقدير ساء مثلا مثل القوم ، وحذف لدلالة الكلام عليه و « أنفسهم » نصب

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٩٢

بـ (يظلمون) وصف الله تعالى هـذا المثل الذي ضربه وذكره بأنه ساء مثلا اي بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، وانهم بذلك لايظلمون إلا انفسهم دون غيرهم ، لأن عقاب مايفعلونه من المعاصي يحل بهم فان الله تعالى لايضره كفرهم ولا معصيتهم كما لاينفعه طاعتهم وإيمانهم .

قوله تعالى :

مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٧) آية.

« فهو المهتدي » كتب ـ ههنا ـ بالياء ليس في القرآن غيره بالياء ، واثبت الياء في اللفظ ههنا جميع القراء . وقال الجبائي : معنى الآية من يهديه الله الى نيل الثواب. كما يهدي المؤمن إلى ذلك والى دخول الجنة فهو المهتدي للايمان والخير ، لأن المهتدي هو المؤمن فقد صار مهتدياً الى الايمان والى نيل الثواب . ومن يضله الله عن الجنة وعن نيل ثوابها عقوبة على كفره اوفسقه ، « فأولئك هم الخاسرون » لأنهم خسروا الجنة ونعيمها وخسروا انفسهم والانتفاع بها . وقال البلخي المهتدي هو الذي هداه الله فقبل الهداية واجاب اليها ، والذي أضله الله هو الضال الذي اختار الضلالة فأضله الله بمعنى خلى بينه وبين ما اختاره وترك منعه بالخير على انه إذا ضل عن امر الله عند امتحانـه وتكليفه جاز أن يقال : ان الله أضله . وقيل : معنى « من يهدي الله » من يحكم الله بهدايته « فهو المهتدى » ومن حكم بضلالته فهو الخائب الخاسر.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ

لا يَفقهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ

(١٧٨) آية بلاخلاف .

معنى « ذرأنا » خلقنا يقال : ذرأهم يذرأهم . واللام في (لجهنم) لام العاقبة. والمعنى انه لما كانوا يصيرون اليها بسوء اختيارهم وقبح أعمالهم جاز أن يقال : إنه ذرأهم لها والذي يدل على ان ذلك جزاء على اعمالهم قوله « لهم قلوب لايفقهون بها» وأخبر عن ضلالهم الذي يصيرون به الى النار ، وهو مثل قوله تعالى « إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً » (١) ومثل قوله « ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة واموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك » (٢) ومثل قوله عزوجل « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً » (٣) وإنما التقطوه ليكون قرة عين كما قالت امرأة فرعون عند التقاطه « قرة عين لي ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا او نتخذه ولداً»«٤» ومثله قول القائل : اعددت هذه الخشبة ليميل الحائط فاسنده بها وهو لايريد ميل الحائط . ومثله قول الشاعر :

وللموت تغذو الوالدات سخالها	كما لخراب الدهر تبنى المساكن(٥)

وقال الآخر :

اموالنا لذوي الميراث نجمعها	ودورنا لخراب الدهر نبنيها (٦)

وقال الآخر :

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٨	(٢) سورة ١٠ يونس آية ٨٨

(٣) سورة ٢٨ القصص آية ٨	(٤) سورة ٢٨ القصص آية ٩

(٥) قائله سابق البربري او (البريدي) العقد الفريد ١/ ٢٦٩

(٦) إنظر ٣ / ٦٠ من هذا الكتاب .

وام سماك فـلا تجزعي فللموت ماتلد الوالدة (١)

وقال آخر :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير الى ذهاب (٢)

وقولـه « لهم قلوب لايفقهون بها ولهم اعين لايبصرون بهـا ولهم آذان لا يسمعون بها » معناه انهم لما لم يفقهوا بقلوبهم ولم يسمعوا بآذانهم ولم يبصروا بعيونهم ما كانوا يؤمرون به ويدعون اليه سموا بكما عمياً صماً . ولما لم ينتفعوا بجوارحهم اشبهوا العمي البـكم الصم ، لان هؤلاء لا ينتفعون بجوارحهم فأشبهوهم في زوال الانتفاع بالجوارح وسموا باسمائهم ، ومثله قول مسكين الدارمي :

أعمى اذا ماجارتي خرجت حتى يواري جارتي الخدر

ويصم عمـا كان بينهما سمعي ومابي غيره وقر (٣)

فجعل نفسه اصماً واعمى لما لم ينظر ولم يسمع .وقال آخر :

وكلام سيء قـد وقرت أذني عنه ومابي من صمم

وقال آخر :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا(٤)

وهذا كثير . ويجوز أن يكون قوله تعالى « ذرأنـا لجهنم » معناه ميزنا . ويقال : ذرأت الطعام والشعير أي ميزت ذلك من التبن والمدر ، فلما كان الله

(١ ، ٢) إنظر ٣/ ٦٠ من هذا الكتاب.

(٣) تفسير الطبري الطبعة الثانية ٩/ ١٣٢ . وروايته « الستر » بدل «الخدر» « وما باسمع من وقر » بـدل « ومابي غيره وقر » وقد مر البيتان في ١ / ٩٠ وفي ٢/ ١١٣ من هذا الكتاب .

(٤) قائله قنعب بن أم صاحب اللسان والتاج(أذن) وفي مجاز القرآن ١/١٧٧ هكذا:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

تعالى قد ميز اهل النار من اهل الجنة في الدنيا بالتسمية والحكم والشهادة جاز ان يقول ذرأناهم اي ميزناهم . ثم وصفهم بصفة تخالف اوصاف اهل الجنة يعرفون بها فقال « لهم قلوب لايفقهون بها » إلى آخرها .

ويجوز ان يكون قوله « ذرأنا » بمعنى سنذرأ كما قال : « ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار » (١) بمعنى سينادون ، فكأنه قال سيخلقهم خلقاً ثانياً للنار بأعمالهم التي تقدمت منهم في الدنيا إذ كانوا استحقوا النار بتلك الاعمال . ولايجوز أن يكون معنى الاية إن الله خلقهم لجهنم وارادمنهم ان يفعلوا المعاصي ، فيدخلوا بها النار ، لأن الله تعالى لايريد القبيح ، لأن إرادة القبيح قبيحة ، ولان مريد القبيح منقوص عند العقلاء تعالى الله عن صفة النقص ، ولأنه قال « وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون » (٢) فبين انه خلق الخلق للعبادة والطاعة وقال « وماأرسلنا من رسول إلا ليطاع » (٣) وقال « ولقد صرفناه بينهم ليذكروا » (٤) وقال « ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنامعهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (٥) وقال « إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله » (٦) ونظائر ذلك اكثر من ان تحصى ، فكيف يقول بعد ذلك « ولقد ذرأنا لجهنم » وهل هذا إلا تناقض تنزه كلام الله عنه .

وقوله « اولئك كالأنعام » يعني هؤلاء الذين لايتدبرون بآيات الله ولا يستدلون بها على وحدانيته وصدق رسله اشباه الانعام والبهائم التي لاتفقه ولاتعلم ثم قال « بلهم اضل » يعني من البهائم ، لأن في البهائم ما إذا زجرتها انزجرت واذا أرشدتها الى طريق اهتدت . وهؤلاء لعتوهم وكفرهم لايهتدون الى شيء من الخيرات مع ماركب الله فيهم من العقول التي تدلهم على الرشاد وتصرفهم عن الضلال

(١) سورة ٧ الأعراف آية ٤٣
(٢) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٦
(٣) سورة ٤ النساء آية ٦٣
(٤) سورة ٢٥ الفرقان آية ٥٠
(٥) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٥
(٦) سورة ٦٣ المؤمنون آية ٤٥

وليس ذلك في البهائم ، ومع ذلك تهتدي الى منافعها وتتحرز عن مضارها ، والكافر لايفعل ذلك. ثم قال «أولئك هم الغافلون » يعني هؤلاء هم الغافلون عن آياتي وحججي والاستدلال بها والاعتبار بتدبرها على ماتدل عليه من توحيده ، لان البهائم التي هي مسخرة مصروفة لااختيار لها .

قوله تعالى :

وَلِلّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧٩) آية اجماعاً .

قرأ حمزة « يلحدون » بفتح الحاء والياء ـ ههنا ـ وفي النحل وحم السجدة وافقه الكسائي وخلف في النحل ، والباقون بضم الياء .من قرأ بكسر الحاء ، فلقوله « ومن يرد فيه بالحاد » (١) وألحد أكثر في الكلام قال الشاعر :

ليس الامام بالشحيح الملحد ولايكاد يسمع لأحد (٢)

والالحاد العدول عن الاستقامة والانحراف عنها ومنه اللحد الذي يحفر في جانب القبر خلاف الضريح الذي يحفر في وسطه فمعنى « يلحدون في آياتنا » يجورون عن الحق فيها . وروى ابو عبيدة عن الأحمر : لحدت جرت وملت وألحدت ماريت وجادلت قال : وقال ابو عبيدة : لحدت له والحدت للميت بمعنى واحد .

قال أبن جريج اشتقوا العزى من العزيز واللات من الله . وكان ذلك إلحاداً. وقال ابن عباس : الحادهم تكذيبهم . وقال قتادة : هو شركهم . وقال قوم : هو تسميتهم الاصنام بأنها آلهة .

أخبر الله تعالى ان له الاسماء الحسنى نحو قوله تعالى « بسم الله الرحمن الرحيم »

(١) سورة ٢٢ الحج آيه ٢٥

(٢) قائله حميد بن ثور . اللسان « لحد »

وغير ذلك من الاسماء التي تليق به، وهي الأسماء الراجعة إلى ذاته اوفعله نحو العالم العادل ، والسميع البصير المحسن المجمل ، وكل اسم لله فهو صفة مفيدة لأن اللقب لايجوز عليه . وامر تعالى ان يدعوه خلقه بها وان يتركوا اسماء اهل الجاهلية وتسميتهم اصنامهم آلهة ولاتاً وغير ذلك . وقال الجبائي : يحتمل أن يكون اراد تسميتهم المسيح بأنه ابن الله وعزيراً بأنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقال قوم: هذا يدل على أنه لايجوز أن يسمى الله إلا بما سمى به نفسه .

وقوله « وذروا الذين يلحدون » فيه تهديد للكفار وأن الله تعالى سيعاقبهم على عدولهم عن الحق في تغيير أسمائه .

وقوله تعالى «سيجزون ما كانوا يعملون » معناه سيجزون جزاء ما كانوا يعملون من المعاصي بانواع العذاب . قال الرماني الاسم كلمة تدل على المعنى دلالة الاشارة ، والفعل كلمة تدل على المعني دلالة الافادة . والصفة كلمة مأخوذة للمذكور من اصل من الاصول لتجري عليه تابعة له .

قوله تعالى:

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨٠) آية.

أخبر الله تعالى أن من جملة من خلقه جماعة يهدون بالحق ، وهداهم بالحق هو دعاؤهم الناس الى توحيد الله والى دينه وتنبيههم إياهم على ذلك . وقال قوم معنى (يهدون) يهتدون « وبه يعدلون » معناه إنهم يعملون بالعدل والانصاف فيما بينهم وبين الناس .

وهذا إخبار ان فيما خلق قوماً هذه صفتهم ولايدل ذلك على ان في كل عصر يوجد قوم هذه صفتهم ولو لم يوجدوا إلا في وقت واحد كانت الفائدة حاصلة بالاية ، فلا يمكن الاستدلال بها على ان اجماع اهل الاعصار حجة . على ان عندنا انه لايخلوا وقت من الاوقات ممن يجب اتباعه وتثبت عصمته ويكون حجة الله على

خلقه فيمكن أن يكون المراد بالآية من ذكرناه . وقال ابو جعفر عليه السلام وقتادة وابن جريج : الآية في أمة محمد صلى الله عليه وآله وهو مثل قوله تعالى « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » (١) فكما أنه لايدل على وجود أئمة في كل وقت فكذلك ماقالوه .

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨١) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٢) آيتان

المعنى إن الذين كذبوا بآيات الله التي تضمنها القرآن والمعجزات الدالة على صدق النبي صلى الله عليه وآله وكفروا بها سنستدرجهم من حيث لايعلمون استدراجاً لهم الى الهلكة حتى يقعوا فيها بغتة من حيث لايعلمون ، كما قال تعالى «بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها » (٢) وقال : « فيأتيهم بغتة وهم لايشعرون » (٣) فيقولوا هل نحن منظرون ؟ ويجوز ان يكون من عذاب الآخرة .

فأما من قال من المجبرة : إن معنى الآية أن الله يستدرجهم الى الكفر والضلال فباطل ، لأن الله تعالى لايفعل ذلك لانه قبيح ينافي الحكمة، ثم إن الآية بخلاف ذلك لأنه بين أن هؤلاء الذين يستدرجهم كفار بالله و برسوله وبآياته ، وانه سيستدرجهم في المستقبل لأن السين لاتدخل إلا على المستقبل فلا معنى لقوله « إن الذين كفروا سنستدرجهم » الى الكفر ، لأنهم كفار قبل ذلك ، ولايجب في الكافر أن يبقى حتى يواقع كفراً آخر، لأنه يجوز أن يميته الله تعالى، فبان بذلك أن المراد أنه سيستدرجهم الى العذاب والعقوبات من حيث لايعلمون في مستقبل أمرهم بقوا أو لم يبقوا . على ان الاستدراج عقوبة من الله والله لايعاقب أحداً على فعل نفسه كما لا يعاقبهم

---

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٧٣ (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٤٠

(٣) سورة ٢٦ الشعراء آية ٢٠٢

على طولهم اوقصرهم .

ويحتمل ان يكون معنى الآية إنا نعاقبهم على استدراجهم للناس وإغوائهم إياهم ونعاقبهم على كيدهم ، فجعل العقوبة على الاستدراج استدراجاً ،والعقوبةعلى الكيد كيداً ، كما قال « سخر الله منهم » (١) وقال « الله يستهزىء بهم » (٢) وقال « يخادعون الله وهو خادعهم » (٣) وقال « والله خير الماكرين » (٤) وما اشبه ذلك .

ويحتمل ان يكون المراد : إني سأفعل بهم مايدرجون في الفسوق والضلال عنده ويكون ذلك إخبارعن بقائهمعلىالكفر عند إملائه لهم ، فسمى ذلكاستدراجاً لأنهم عند البقاء كفروا وازدادوا كفراً ومعصية . وان كان الله لم يرد منهم ذلك ولابعثهمعليه، كما قال « أولم نعمر كم ما يتذكر فيه من تذكر » (٥) كما يقول القائل : أبطر فلان فلاناً بانعامه عليه . ولقد ابطرته النعمة واكفرته السلامة ، وإن كان المنعم لايريد ذلك بل اراد ان يشكره عليها .

ومعنى قوله « وأملي لهم » أؤخر هؤلاءالكفار في الدنيا وابقيهم مع إصرارهم على الكفر ولاأعاجلهم بالعقوبة على كفرهم ، لانهم لايفوتوني ولايعجزوني ، ولا يجدون مهرباً ولا ملجأ .

وقوله تعالى « إن كيدي متين » معناه إن عذابي وسماه كيداً لنزولهبهممن حيث لايشعرون . وقيل : إنه اراد أن جزاء كيدهم وسماه كيداً للازدواج على مابينا نظائره . ومعنى « متين » شديد قوي قال الشاعر :

عدلن عدولالبأس والشيخ يبتلى   افانين من الهوب شد مماتني (٦)

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٠   (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٥
(٣) سورة ٤ النساء آية ١٤١   (٤) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤
(٥) سورة ٣٥ فاطر آية ٤٧
(٦) تفسير الطبرى ١٣/ ٢٨٨ .و الطبعة الثانية ٩/ ١٣٦ وفيه اختلاف

يعني شد او شديداً باقياً لاينقطع .والمتن أصله اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب وهما متنان . والكيد والمكر واحـد ، وهو الميل الى الشرّ في خفى ، كاد يكيد كيداً ومكيدة ، وفلان يكيد بنفسه .

وأصل الاستدراج اغترار المستدرج من حيث يرى أن المستدرج محسن اليه حتى يورطه مكروهاً . والاستدراج أن يأتيه من مأمنه من حيث لايعلم .

و(أملي) بمعنى أؤخرمن الملي ـ ثقيلة الياء ـ يقال مضى عليه ملي من الدهر وملاؤ من الدهر ـ بفتح الميم وضمها وكسرها ـ أي قطعة منه . ووجه الحكمة في اخذهم من حيث لايعلمون أنه لواعلمهم وقت مايأخذهم وعرفهم ذلك لأمنوه وقبل ذلك وكانوا مغربين بالقبيح قبله تعويلا على التوبة فيما بعد وذلك لايجوز عليه تعالى.

والاستدراج على ضربين :

احدهما ـ ان يكون الرجل يعادي غيره فيطلب له المكايدة والختل من وجه يغتره به ويخدعه ويدس اليه من يوقعه في ورطة حتى يشفي صدره ولايبالي كيف كان ذلك ، فهذا سفيه غير حكيم .

والآخر ـ أن يحلم فيه ويتأنى ويترك العجلة في عقوبته التي يستحقها على معاصيه كيداً ومكراً واستدراجاً . ألا ترى لوان إنساناً غادى غيره فجعل يشتمه ويعيبه وذاك يعرض عنه ولايكافيه مع قـدرته على مكافاته جاز أن يسمى كيداً واستدراجاً ومكراً وحيلة ، ولجاز ان يقال : فلان متين الكيد شديد الاستدراج ، بعيد الغور محكم التدبير .

وقيل في معنى « سنستدرجهم » سنأخذهم قليلا قليلا ولانباغتهم ، يقال : امتنع فلان على فلان واتى عليه حتى استدرجه اي خدعه حتى حمله على ان درج اليه درجاناً أي اخـذ في الحركة نحوه كما يدرج الصبي اول مايمشي ، ويقال : صبي دارج : ويقال : درجوا قرناً بعد قرن ايفنيوا قليلا قليلا .

قوله تعالى :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٤) آيتان

هـذا خطاب من الله تعالى للكفار الـذين كانوا ينسبون النبي ﷺ الى الجنون على وجه التوبيخ لهم والتقريع « أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة » اي وليس بالنبي ﷺ جنة وهي الجنون ، فانه لايأتي بمثل مايأتي به المجنون ، وهم يرون الاصحاء منقطين دونه ويرون صحة تدبيره واستقامة أعمالـه وذلك ينافي أعمال المجانين .

وبين انه ليس به ﷺ إلا الخوف للعباد من عقاب الله ، لأن الانـذار هو الاعلام عن المخاوف، فبين لهم ماعليهم من أليم العذاب بمخالفته ثم قال « أولم ينظروا» ومعناه يفكروا « في ملكوت السماوات والارض » وعجيب صنعهما فينظروا فيهما نظر مستدل معتبر ، فيعرفون بما يرون من اقامـة السماوات والارض مع عظم أجسامهما وثقلهما على غير عمد وتسكينها من غير آلـة فيستدلوا بذلك على انـه خالقها ومالكها وأنه لايشبهها ولاتشبهه .

وقوله« وماخلق الله من شيء » يعني وينظروا فيما خلق الله تعالى من اصناف خلقه فيستدلوا بذلك على انه تعالى خالق جميع الاجسام وأنه أولى بالالهية من الاجسام المحدثة .

وقوله تعالى « وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » معناه اولم يتفكروا

في ان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم ، وهو اجل موتهم فيدعوهم ذلك إلى ان يحتاطوا لدينهم ولا نفسهم فيما يصيرون اليه بعد الموت من امور الآخرة ويزهدهم في الدنيا وفيما يطلبونه من فخرها وعزها وشرفها فيدعوهم ذلك الى النظر في الأمور التي أمرهم بالنظر فيها .

وقوله تعالى « فبأي حديث بعده يؤمنون » معناه بأي حديث بعد القرآن يؤمنون مع وضوح دلالته على أنه كلام الله إذ كان معجزاً لا يقدر أحد من البشر ان يأتي بمثله ، وسماه حديثاً لأنه محدث غير قديم لأن إثباته حديثاً ينافي كونه قديماً .

وفي الآية دلالة على وجوب النظر وفساد التقليد ، لان النظر المراد به الفكر دون نظر العين ، لان البهائم ايضاً تنظر بالعين ، وكذلك الاطفال والمجانين ، والفكر موقوف على العقلاء .

وقال الحسن وقتادة سبب نزول الآية ان النبي صلى الله عليه وآله وقف على الصفا يدعوا قريشاً فخذاً فخذاً ، فيقول : يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله وعقابه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم لمجنون بأن يصوت على الصباح : فأنزل الله الآية .

والملكوت هو الملك الاعظم للمالك الذي ليس بمملك .

قوله تعالى :

مَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٥) آية .

قرأ أهل العراق « ويذرهم » بالياء ، واسكن الراء منه حمزة والكسائي وخلف الباقون بالنون وضم الراء من قرأ بالنون قال لأن الشرط من الله ، فكأنه قال « من يضلل الله ... فنذرهم » . ومن قرأ بالياء رده الى اسم الله تعالى وتقديره الله يذرهم .

ومن ضم الراء قطعه عن الأول ولم يجعله جواباً . ويجوز ان يكون أضمر المبتدأ وكان تقديره ونحن نذرهم ، فيكون في موضع الجزم . ويجوز أن يكون استأنف الفعل فيرفعه ومن جزمه فانه عطفه على موضع الفاء وما بعدها من قوله « فلا هادي له » لان موضعه جزم ، فحمل« ونذرهم»على الموضع ، ومثله في الحمل على الموضع قوله تعالى «فأصدق وأكن » (١) لأنه لو لم يلحق الفاء لقلت لولا أخرتني أصدق، لان معنى « لولا أخرتني » (٢) أخرني أصدق . فحمل قوله تعالى « واكن » على الموضع .

ومعنى قوله « من يضلل الله فلا هادي له » اي يمتحنه الله فيضل عند امتحانه وأمره إياه بالطاعة والخير والرشاد « فلا هادي له » أي لا يقدر أحد أن يأتيه بالهدى والبرهان بمثل الذي آتاه الله تعالى، ولا بما يقارنه أو يزيد عليه « ويذرهم في طغيانهم» بمعنى يخلي بينهم وبين ذلك ، وترك اخراجه بالقسر والجبر ، ومنعه إياه لطفه الذي يؤتيه من آمن واهتدى وقيل الوعظ .

والطغيان الغلو في الكفر ،والعمه : التحير والتردد في الكفر . ويحتمل ان يكون المراد من يضلل الله عن الجنة عقوبة على كفره فلا هادي له اليها وإن الله لا يحول بين الكافر بل يتركه مع اختياره لأن ما فعله من الزجر والوعيد كاف في ازاحة علة المكلف . وقيل معناه من حكم الله تعالى بضلاله وسماه ضالا بما فعله من الكفر والضلال فلا احد يقدر على إزالة هذا الاسم عنه ولا يوصف بالهداية ، وكل ذلك واضح بحمد الله تعالى .

قوله تعالى :

يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَـٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ

(١ ، ٢) سورة ٦٣ المنافقين آية ١٠

رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٦) آية بلاخلاف .

« أيان » معناه متى ، وهي سؤال عن الزمان على وجه الظرف .

أخبر الله تعالى ان الكفار يسألون النبي صلى الله عليه وآله عن الساعة ، وهي القيامة « أيان مرساها » أي وقت قيامها وثباتها . ومعنى « أيان » متى قال الراجز :

ايان تقضي حاجتي أيانا أما ترى لنجحها إبانا (١)

و «مرساها » في موضع رفع بالابتداء ، يقال: رسى يرسوا إذا ثبت فهو راس وجبال راسيات ثابتات ، وارساها الله اي ثبتها . وقيل معنى « مرساها » الوقت الذي يموت فيه جميع الخلق ، ومعنى سؤالهم عنها اي متى وقوعها و كونها . فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله ان يجيبهم ويقول لهم « علمها عند الله » لم يطلع عليها احداً كما قال « إن الله عنده علم الساعة » (٢) وقوله تعالى « لا يجليها لوقتها الا هو » اي لايظهرها في وقتها إلا الله .

وقوله تعالى « ثقلت في السموات والارض » قيل في معناه قولان :

احدهما - ثقل علمها على السماوات والأرض ذهب اليه السدي وغيره .

الثاني - ثقل وقوعها على اهل السموات والارض - ذكره ابن جريج وغيره .

ثم اخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله بكيفية وقوعها فقال « لاتأتيكم إلا بغتة » يعني فجأة .

وقوله « يسألونك كأنك حفي عنها » قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها - ان معناه وتقديره حفي عنها يسألونك عن الساعة ووقتها كأنك عالم بها

(١) تفسير القرطبي ٣٣٥/٧ ومجاز القرآن ٢٣٤/١ واللسان (ابن)

(٢) سورة ٣١ لقمان آية ٣٤ .

وقيل : معناه كأنك فرح بسؤالهم عنها . وقيل : معناه كأنك اكثرت السؤال عنها ذكره مجاهد . يقال حفيف بفلان في المسألة إذا سألته سؤالا أظهرت فيه المحبة والبر ، قال الشاعر :

سؤال حفي عن أخيه كأنه　　بذكرته وسنان اومتواسن (١)

ويقال : احفى فلان بفلان في المسألة إذا اكثر عليه . ويقال : حفيت الدابة تحفى حفاً مقصوراً إذا كثر عليها الم المشي ، والحفاء ـ ممدوداً ـ المشي بغير نعل. ثم امر الله نبيه ان يقول « إنما علمها عند الله » اي لايعلمها إلا الله .

وقوله تعالى « ولكن اكثر الناس لايعلمون » معناه اكثر الناس لايعلمون ان ذلك لايعلمه إلا الله ، ويظنون انه قد يعلمه الأنبياء وغيرهم من خلقه . وقال الجبائي معناه « لكن اكثر الناس لايعلمون » لـم اخفى الله تعالى علم ذلك على التعيين على الخلق . والوجه فيه انه ازجر لهم عن معاصيه لانهم إذا جوزوا في كل وقت قيام الساعة وزوال التكليف كان ذلك صارفاً لهم عن فعل القبيح خوفاً من فوات وقت التوبة . وقوله في اول الآية « قل إنما علمها عند ربي » يعني علم وقت قيامها . وقوله في آخرها « قل إنما علمها عند الله » معناه علم كيفيتهاوشرح هيئتها وتفصيل مافيها لايعلمه إلا الله ، فلا تكون تكراراً لغير فائدة .

وقال قتادة الذين سألوا عن ذلك قريش . وقال ابن عباس :هم قوم من اليهود وقال الفراء: في الآية تقديم وتأخير وتقديرها يسألونك عنها كأنك حفي بهم .

قال الجبائي وفي الاية دليل علي بطلان قول الرافضة من أن الأئمة معصومون منصوص عليهم واحداً بعد الآخر الى يوم القيامة ، لأن على هذا لابد أن يعلم آخر الأئمة أن القيامة تقوم بعده ويزول التكليف عن الخلق ، وذلك خلاف قوله «قل إنما علمها عند الله » .

---

(١) قائله المعطل الهذلي . ديوانه ٣ /٤٥ وتفسير الطبري ١٣/ ٣٠١ (طبعة دار المعارف) و ٩/ ١٤٢ الطبعة الثانية .

وهذا الذي ذكره باطل لأنه لايمتنع أن يكون آخر الائمة يعلم أنه لاإمام بعده وإن لم يعلم متى تقوم الساعة ، لانه لايعلم متى يموت ، فهو يجوّز أن يكون موته عند قيام الساعة إذا أردنا بذلك انه وقت فناء الخلق . وإن قلنا إن الساعة عبارة عن وقت قيام الناس في الحشر فقدزالت الشبهة ، لأنه إذا علم أنه يفنى الخلق بعده لايعلم متى يحشر الخلق . على انه قد روي أن بعد موت آخر الأئمة يزول التكليف لظهور اشراط الساعة وتواتر إماراتها نحو طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وغير ذلك ، ومع ذلك فلا يعلم وقت قيام الساعة ، ولهذا قال الحسن وجماعة من المفسرين : بادروا بالتوبة قبل ظهور الست : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، والدابة ، وغير ذلك مما قدمناه فعلى هذا سقط السؤال .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٨٧) آية بلاخلاف .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمكلفين إني « لااملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله »ان يملكني إياه فمشيئته تعالى في الآية واقعة على تمليك النفع والضر لاعلى النفع والضر ، لانه لو كانت المشيئة إنما وقعت على النفع والضر كان الانسان يملك ماشاء الله من النفع ، وكان يملك الأمراض والاسقام وسائر مايفعله الله فيه مما لايجدله عن نفسه دفعاً . ومعنى الاية إني املك مايملكني الله من الاموال وما اشبهها مما يملكهم ويمكنهم من التصرف فيها على ماشاؤا ، وكيف شاؤا . والضر الذي ملكهم الله إياه هو مامكنهم منه من الاضرار بأنفسهم وغيرهم ، ومن لم يملكه الله شيئاً منه لم يملكه .

وذلك يفسد تأويل المجبرة الذين قالوا : معنى الاية إن الله يريد جميع ما ينال الناس من النفع والضرروإن كان ظلماً وجوراً من أفعال عباده .

وقوله عزوجل « ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسني السوء» معناه إني لو كنت أعلم الغيب لعلمت مايربح من التجارات في المستقبل ومايخسر من ذلك فكنت اشتري ما اربح واتجنب مااخسر فيه ، فتكثر بذلك الاموال والخيرات عندي ، وكنت أعده في زمان الخصب لزمان الجدب « ومامسني السوء» يعني الفقر إذا فعلت ذلك . وقيل : ومامسني تعذيب . وقيل : ومامسني جنون جواباً لهم حين نسبوه الى الجنون. وقال ابن جريج «لو كنت اعلم الغيب لاستكثرت» من العمل الصالح قبل حضور الاجل ، وهو قول مجاهد وابن زيد . وقال البلخي : لو كنت اعلم الغيب لكنت قديماً ، والقديم لايمسه السوء لان احداً لايعلم الغيب الا الله .

وفي الآية دلالة على ان القدرة قبل الفعل ، لأن قوله « لو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير » يفيد أنه كان قادراً لأنه لولم تكن القدرة إلامع الفعل لوعلم الغيب لما امكنه الاستكثار من الخير وذلك خلاف الآية .

وقوله تعالى « إن أنا إلانذير وبشير لقوم يؤمنون » معناه لست الامخوفاً من العقاب محذراً من المعاصي ومبشراً بالجنة حاثاً عليها غير عالم بالغيب « لقوم يؤمنون » فيصدقون بما اقول ، وخصهم بذلك لانهم الذين ينتفعون بانذاره وبشارته دون من لايصدق به كما قال « هدى للمتقين ».

قوله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ

دَعَوَا ٱللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ (١٨٨)
فَلَمَّا آتَيهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتيهُمَا فَتَعَالَى ٱللهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ (١٨٩) آيتان .

قرأ اهل المدينة وابو بكر وعكرمة والاعرج « شركاً » بكسر الشين منوناً الباقون بضم الشين على الجمع . وقرا ابن يعمر « فمرت» بتخفيف الراء وهوشاذ .

قال ابوعلي الفارسي :من قرا « شركاً » بكسر الشين منوناً ـ حذف المضاف كأنه اراد جعلا له ذا شرك اي ذا نصيب او ذوي شرك ، ويكون كقول من جمع فالقراءتان يؤلان الى معنى واحد . والضمير في قوله « له » يعود الى اسم الله كأنه قال جعلا لله شركاء .

وقال ابوالحسن :كان ينبغي لمن قرأ ـ بكسر الشين ـ أن يقول جعلا لغيره شركا . وقول من قرا « جعلا له شركاء » يجوز ان يريد جعلا لغيره فيه شركاء ، فحذف المضاف ، فالضمير على هذا ايضاً في « له » راجع الى الله تعالى . وقال ابوعلي يجوز ان يكون الكلام على ظاهره،ولايقدر حذف المضاف في قوله تعالى «جعلاله» وانت تريد لغيره ولكن يقدر حذف المضاف الى شرك فيكون المعنى جعلا له ذوي شرك ، واذا جعلا له ذوي شرك كان في المعنى مثل لغيره شركاً ، فلا يحتاج الى تقدير جعلا لغيره شركاً .

قال ابو علي : ويجوزان يكون قوله تعالى « جعلا له شركاء» جعل احدهما له شركاء او ذوي شرك فحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه كما حذف من قوله تعالى «لولانزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » والمعنى على رجل واحد من احد رجلي القريتين . وحكى الازهري ان الشرك والشريك واحد ويكون بمعنى النصيب .

قولــه « هو الذي » كناية عن الله تعالى وإخبار عن الذي خلق البشر من نفس واحدة وهي آدم وخلق منها زوجها يعني حواء.

وقيل : انه خلقهامن ضلع من اضلاعه وبين انه إنما خلقها ليسكن اليها آدم ويأنس بها .

وقوله « فلما تغشاها » معناه لما وطأها وجامعها . وقيل : تغشاها بدنوه بها لقضاء حاجة ، فقضى حاجته منها «حملت » ففي الكلام حذف « حملت حملاخفيفاً» لأن الحمل اول مايكون خفيفاً ، لانه المــاء الــذي يحصل في رحمها . والحمل ـ بفتح الحاء ماكان في الجوف وكــذلك ماكان على نخلة اوشجرة فهو مفتوح . ـ وبكسر الحاء ـ ماكان من الثقل على الظهر .

وقوله تعالى « فمرت به » معناه استمرت به وقامت وقعدت وقيل : شكت له وآلمها ثقلها . ومن خفف الراء اراد شكت ومارت فلم تدر هي حامل ام لا . وقال الحسن أغلاماً ام جارية .

وقوله تعالى « فلما اثقلت » اي صارت ذات ثقل كما يقال اثمر ايصار ذا ثمر ، وذلك قرب ولادتها . « دعوا الله ربهما » يعني آدم وحواء دعوا الله اي سألاه « لئن آتيتنا صالحاً » ايلو أعطيتنا ولداً صالحاً . قال الجبائي : صالحاً يعنيسليماً من الآفات صحيح الحواس والآلات. وقال غيره : معنى صالحاً مطيعاً فاعلاللخير « لنكونن من الشاكرين » اي نكونن معترفين بنعمك علينا نعمة بعــد نعمة تسديها الينـا .

وقوله عز وجل « فلما آتاهما صالحاً » يعني فلما آتى الله آدم وحواء ولداً صالحاً جعلا له شركاء ، واختلفوا في الكناية الى من ترجع في قوله « جعلا »:

فقال قوم هي راجعة الى الــذكور والاناث من اولادهما او الى جنسي من اشرك من نسلهما ، وإن كانت الادلة تتعلق بهما . ويكون تقدير الكلام فلما آتى الله آدم وحواء الولد الصالح الذي تمنياه وطلباه جعل كفار اولادهما ذلك مضافاً الى غير

الله . ويقوي ذلك قوله تعالى « فتعالى الله عما يشركون» فلو كانت الكناية عن آدم وحواء لقال عما يشركان . وإنما اراد تعالى الله عما يشرك هذان النوعان اوالجنسان وجمعه على المعنى . وقد ينتقل الفصيح من خطاب الى خطاب غيره . ومن كناية الى غيرها . قال الله تعالى « إنا ارسلناك شـاهداً ومبشراً ونـذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله » (١) فانصرف من مخاطبة الرسول الى المرسل اليهم ثم قال « وتعزروه وتوقروه » (٢) يعني الرسول ثم قال « وتسبحوه » يعني الله تعالى ، قال الهذلي :

يالهف نفسي كان جده خالد وبياض وجهك للتراب الأعفر (٣)

ولم يقل وبياض وجهه . وقال كثير :

اسيء بنا او احسني لاملومة لدنيا ولا مقلية إن تقلت (٤)

فخاطبها ثم ترك الخطاب . وقال الاخر :

فدى لك ناقتي وجميع اهلي ومالي إنـه منه آتـاني

ولم يقل منك اتاني . وليس لاحد ان يقول كيف يكني عمن لم يجر لـه ذكر ، وذلك ان لنا عنه جوابين :

احدهما ـ انه يجوز ذلك إذا دل الـدليل عليه ، كما قال « حتى توارت بالحجاب (٥) ولم يتقدم للشمس ذكر . وقال الشاعر :

لعمرك مايغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر(٦)

ولم يتقدم للنفس ذكر .

والجواب الثاني ـ انه تقدم ذكر ولد آدم في قوله« هو الذي خلقكم من نفس واحدة » واراد بذلك جميع ولد آدم ، وتقدم ايضاً في قوله « فلما آتاهما صالحاً »

(١ ، ٢) سورة ٤٨ الفتح آية ٨ ـ ٩

(٣) مر هذا البيت في ١ : ٣٥ من هذا الكتاب .

(٤) اللسان (سوأ) (٥) سورة ٣٨ ص آية ٣٢

(٦) اللسان (حشرج)

لان معناه ولداً صالحاً ، ويريد بذلك الجنس . وإن كان لفظه واحداً ، وإذا تقدم مذكوران وعقبا بأمر لايليق بأحدهما وجب ان يضاف الى الاخر، والشرك لايليق بآدم ، لأنه نبي نزهه الله عن ذلك ، وعن جميع القبائح ، ويلق بكفار ولده ونسله فوجب ان نرده اليهم .

وقال الزجاج وإبن الاخشاد : جعل من كل نفس زوجها كأنه قال: وجعل من النفس زوجها على طريق الجنس واضمر لتقدم الذكر .

وقال ابو مسلم محمد بن بحر الاصفهاني : الكناية في جميع ذلك غير متعلقة بآدم وحواء وجعل الهاء في « تغشاها » والكناية في « دعوا الله ربهما ، وآتاهما صالحاً » راجعين الى من اشرك ولم يتعلق بآدم وحواء إلاقوله : « خلقكم من نفس واحدة» والاشارة بذلك الى جميع الخلق . وكذلك قوله « وجعل منها زوجها » ثم خص بها بعضهم ، كما قال « هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة » (١) فخاطب الجماعـة ثم خص راكب البحر ، فكذلك اخبر الله تعالى عن جملة امر البشر بأنهم مخلوقون من نفس واحدة وزوجها وهما آدم وحواء ثم عاد الذكر الى الذي سأل الله تعالى ما سأل فلما اعطاه إياه ادعى له الشركاء في عطيته .

وقال قوم: يجوز ان يكون عنى بقوله « هو الذي خلقكم من نفس واحدة» المشركين خصوصاً ، إذ كان كل بني آدم مخلوقون من نفس واحدة كأنه قال : خلق كل احد من نفس واحدة وخلق من النفس الواحدة زوجها ، ومثله كثير نحو قوله عزوجل « فاجلدوهم ثمانين جلدة » (٢) والمعنى فاجلدوا كل واحد منهم . وقال قوم : ان الهاء في قوله : « جعلا له شركاء » راجعة إلى الولد لا إلى الله ويكون المعنى انهما طلبا من الله تعالى امثالا للولد الصالح فاشركا بين الطلبتين، كما يقول القائل: طلبت مني درهما فلما اعطيتكه شركته بآخر أي طلبت آخر مضافاً اليه ، فعلى هذا

(١) سورة ١٠ يونس آية ٢٢　　(٢) سورة ٢٤ النور آية ٤

يجوز أن تكون الكناية من اول الكلام إلى آخره راجعة إلى آدم وحواء .

فان قيل : فعلى هذا فأي تعلق لقوله « فتعالى الله عما يشركون » بذلك . وكيف ينزه نفسه عن ان يطلب منه ولد آخر ؟ !

قلنا : لم ينزه نفسه عن ذلك وإنما نزهها عن الاشراك به ، وليس يمتنع ان يقطع هذا الكلام عن حكم الاول ، لانه قال بعد ذلك « ايشركون مالايخلق شيئاً وهم يخلقون » فنزه نفسه عن هذا الشرك دون ماتقدم .

فأما الخبر المدعي في هذا الباب ، فلا يلتفت اليه ، لأن الاخبار تبنى على ادلة العقول ، فاذا علمنا بدليل العقل ان الأنبياء لايجوز عليهم المعاصي تأولنا كل خبر يتضمن خلافه او ابطلناه ، كما نفعل ذلك بأخبار الجبر والتشبيه . على ان هذا الخبر مطعون في سنده ، لأنه يرويه قتادة عن الحسن عن سمرة ، وهو مرسل ، لأن الحسن لم يسمع من سمرة شيئاً ـ في قول البغداديين ـ ولان الحسن قال بخلاف ذلك فيما روى عنه عروة ـ في قوله عزوجل « فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما » قال هـم المشركون . ويعارض ذلك ماروي عن سعيد بن جبير وعكرمة والحسن وغيرهم : من ان الشرك غير منسوب الى آدم وزوجته ، وأن المراد به غيرهما . على ان في الخبر اشركا إبليس اللعين فيما ولد لهما بأن سمياه عبد الحرث ، والاية تقضي انهم اشركوا الاصنام التي لاتخلق وهي تخلق ، والتي لاتستطيع ضرّاً ولا نفعاً وليس لابليس في الآية ذكر ، ولو كان له ذكر لقال أتشركون من . وقال في آخر القصة « ألهم ارجل يمشون بها ... » وكذا ، ولايليق ذلك بابليس . ويقوي ان الاية مصروفة عن ادم الى ولده انه قال « فلما تغشاها » ولو كان منسوقاً على النفس الواحدة لقال فلما تغشتها ، لان ذلك هو الأجود والأفصح وإن جاز خلافه . وحكى البلخي عن قوم انهم قالوا : لو صح الخبر لم يكن في ذلك الا إشراكاً في التسمية ، وليس ذلك بـكفر ولامعصية كبيرة ، وذهب اليـه كثير من المفسرين واختاره الطبري .

قوله تعالى :

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩٠) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩١) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٢) ثلاث آيات

قرأ نافع « لايتبعوكم » وفي الشعراء « يتبعهم » بالتخفيف . الباقون بالتشديد وهما لغتان ، وبالتشديد اكثر . قال ابو زيد تقول : رأيت القوم فأتبعتهم إتباعاً إذا سبقوك فأسرعت نحوهم ومروا علي فاتبعتهم اتباعاً إذا ذهبت معهم ولم يسبقوك، قال : وتبعتهم اتبعهم تبعاً مثل ذلك .

وفي الآية توبيخ من الله وتعنيف للمشركين ، وإن خرج مخرج الاستفهام، بأنهم يعبدون مع الله جماداً لايخلق شيئاً من الاجسام ولا ما يستحق به العبادة ،وهم مع ذلك مخلوقون محدثون ولهم خالق خلقهم. ونبههم بذلك على انه لاينبغي أن يعبد إلا من يقدر على إنشاء الاجسام واختراعها وخلق اصول النعم التي يستحق بها العبادة ، وان ذلك لايقدر عليه إلا الله تعالى الذي ليس بجسم ، والقادر لنفسه ، ثم بيّن أن هذه الاشياء التي يعبدونها ويتخذونها آلهة واشركوا بها مع الله تعالى لاتقدر لمن عبدها واتخذها إلهاً على نفع ولاعلى ضرّ ولا أن ينصروهم ، ولا ان ينصروا انفسهم إن ارادبهم غيرهم سوءاً ، ومن هذه صورته فهو على غاية العجز ، ولايجوز أن يكون إلهاً . وإنما يجب ان يكون كذلك من يقدر على الضرّ والنفع ونصرة اوليائه .

وقوله تعالى « وإن تدعوهم الى الهدى لايتبعوكم » معناه إن الاصنام والأوثان

التي كانوا يعبدونها ويتخذونها آلهة إن دعوها إلى الهدى والرشد لم يستمعوا ذلك ، ولاتمكنوا من اتباعهم ، لأنها جمادات لاتفقه ولاتعقل ـ في قول ابي وغيره ـ وقال الحسن: إن ذلك راجع الى قوم من المشركين قد عموا بالكفر فهم لايعلمون .

ثم قال « سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون » يعني سواء عندها دعاؤها والسكوت عنها لكونها جماداً لاتعقل وإنما قال « أم انتم صامتون » ولم يقل أم صمتم ليكون في مقابلة «ادعوتموهم» فيفيد الماضي والحال لأن المقابلة دلت على معنى الماضي ، واللفظ يدل على معنى الحال ، وعليه أكثر الكلام يقولون : سواء عليّ أقمت ام قعدت ، ولايقولون أقمت أم انت قاعد ، قال الشاعر :

سواء إذا مااصلح الله امرهم　　علينا ادثر مالهم ام اصارم (١)

وانشد الكسائي :

سواء عليك النفر ام بت ليلة　　بأهل القبا من نمير بن عامر (٢)

وانشد بعضهم :　　(ام انت بائت)

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٣) آية.

إنما قال « إن الذين » وهو يريد الاصنام ، لأنها لما كانت عندهم معبودة تنفع وتضرّ، جاز أن يكني عنها بما يكنى عن الحيّ ، كما قال في موضع آخر «بل فعله كبيرهم

---

(١) معاني القرآن ١ /٤٠١ « الدثر » المال الكثير . و « اصارم » جمع اصرام وهو الفريق القليل العدد ويقصد ـ هنا ـ الفريق من الابل . واصله اصاريم، وحذف الياء لضرورة الشعر .

(٢) معاني القرآن ١ /٤٠١ . يريد النفر من منى .

هذا فاسألوهم »(١) ولم يقل فعله كبيرها فاسألوها ، وقال « والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » (٢) لما أضاف السجود إليها جمعها بالواو والنون التي تختص بالعقلاء ومعنى « من دون الله » غير الله ، كأنه قال كل مدعو إلهاً غير الله « عباد امثالكم » و« من » لابتداء الغاية في أن الدعاء دون دعاء الله إلى حيث انتهى إنما هو لعباد الله. ثم قال « عباد أمثالكم » فانما سماها كذلك لأن التعبد التذلل ، فلما كانت الاصنام تنصرف على مشيئة الله ، وهي غير ممتنعة عما يريد الله تعالى بها كانت بذلك في معنى العباد . ويقال عبدت الطرق إذا وطئته حتى تقرر وسهل سلوكه . ومنه قوله تعالى « وتلك نعمة تمنها علي ان عبّدت بني اسرائيل » (٣) اي ذللتهم واستخدمتهم ضروباً من الخدم . وقال الجبائي وغيره : معنى « عباد » أي املاك لربهم كما انتم عبيد له ، فان كنتم صادقين في ادعائكم انها آلهة فادعوهم فليستجيبوا لدعائكم ، وهذه لام الأمر على معنى التهجين كما قال « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »(٤) فاذا لم يستجيبوا لكم ، لانها لاتسمع دعاءكم فاعلموا انها لاتنفع ولاتضرّ ولا تستحق العبادة .

فأما من قال الاصنام تعبد الله على الحقيقة كما يعبد العقلاء ، وان كنا لا نفقه ذلك فقد تجاهل ، لأن العبادة ضرب من الشكر، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم . والعبادة وان كانت شكراً فانه يقارنها خضوع وتذلل . وكل ذلك يستحيل من الجماد .

ويحتمل من حيث انهم توهموا انها تضر وتنفع فقيل لهم ليس يخرج هؤلاء بذلك عن حكم الله تعالى . وقال الحسن : معناه إنها مخلوقة امثالكم . والعبد المملوك من جنس مايعقل ، لأن الثوب مملوك ، ولايسمى عبداً .

وقيل الدعاء الأول في الآية تسميتهم الاصنام آلهة كأنه قال « إن الذين تدعون»

---

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٦٣ (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٤

(٣) سورة ٢٦ الشعراء آية ٢٢ (٤) سورة ٢٧ النمل آية ٦٤

آلهة من دون الله فاطلبوا منهم المنافع وكشف المضار ، فاذا كان ذلك ميؤساً منها ، فعبادتها جهل وسخف . وقوله « إن كنتم صادقين » قال الحسن : معناه في أنهم آلهة.

قوله تعالى :

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٤) آية .

قرأ ابو جعفر « يبطشون » ويبطش ـ بظم الطاء ـ حيث وقع . الباقون بكسرها. وهما لغتان ، والكسر افصح واكثر . وقرأ « كيدوني» بياء في الحالين الوقف والوصل الحلواني عن هشام ويعقوب وافقهما في الوصل أبو عمرو وابو جعفر واسماعيل والدحواني عن هشام . الباقون بغير ياء في الحالين . و« تنظروني » بياء في الحالين عن يعقوب .

قال ابو علي الفارسي : الفواصل وما أشبهها من الكلام التام تجري مجرى القوافي لاجتماعهما في أن الفاصلة آخر الآية ، كما ان القافية آخر البيت وقد الزموا الحذف في هذا الباب في القوافي كقوله :

فهل يمنعن ارتيادي البلاد من قدر الموت أن يأتين

والياء التي هي لام الكلمة كذلك نحو قوله :

يلمس الأحلاس في منزله بيديه كاليهودي المصل(١)

أكد الله تعالى في هذه الآية الحجة على المشركين في انه لاينبغي لهم أن يعبدوا هذه الاصنام ولايتخذونها آلهة ، فقال « ألهم ارجل يمشون بها » ، لأن لفظه وإن

(١) قائله لبيد . اللسان « لمس » والأحلاس ملازمة المنزل وعدم التدخل بشؤون الدولة . و« المصل » بمعنى الخاسر الذي ليس له شيء في الامر .

كان لفظ الاستفهام ، فالمراد بـه الانكار ، اي ليس لهم ارجل يمشون بها ولا لهم أيد يبطشون بها ولا اعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها ، فعرفهم بـذلك انهم دون منزلتهم وأن الكفار مفضلون عليهم بما انعم الله عليهم عن هـذه الحواس التي لم تؤت الاصنام . واذا كنتم مفضلين عليها و كنتم أقدر على الاشياء وأعلم ، فكيف يجوز لكم ان تتخذوها مع ذلك آلهة لأنفسكم .

وقوله تعالى « قل ادعوا شركاء كم ثم كيدون فلا تنظرون » معناه ادعواهذه الاوثان والاصنام التي تزعمون أنها آلهة وتشركونها في اموالكم فتجعلون لها حظاً من الاموال والمواشي وتوجهون عبادتكم اليها اشركا بالله لها .واسألوهم ان يضروني وان يكيدوني معكم ، ولاتؤخروا ذلك إن قدروا عليه، ومتى لم يتمكنوا من ذلك فتبينوا انها لاتستحق العبادة ، لانها في غاية الضعف والعجز .

قوله تعالى :

إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ

(١٩٥) آية بلاخلاف .

روى ابن خنيس عن السوسي « ان وليّ الله » بياء مشددة مفتوحة .الباقون بثلاث ياءات الأولى ساكنة والثانية مكسورة والثالثة مفتوحـة ـ على الاضافة ـ ومن قرأ مشدداً حذف الوسطى وادغم الاولى في الثالثة . ولايجوز إدغام الثانية في الثالثة ، لأنها متحركة وقبلها ساكن لايمكن الأدغام .

امر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول للمشركين «ان وليي الله الذي » يحفظني وينصرني ويحوطني ويدفع شر كم عني هو الله الذي خلقني وإياكم جميعاً ويملكني ويملككم الذي نزل القرآن ، وهو ينصر الصالحين الذين يطيعونه ويجتنبون معاصيه تارة بالحجة واخرى بالدفع عنهم .

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٦) آية .

هذا عطف على الاية الاولى ، فكأنه قال قل وليي الله القادر على نصرتي عليكم وعلى من اراد بي ضرّاً. والذين تتخذونهم انتم آلهة لايقدرون على ان ينصروكم ولا أن يدفعوا عنكم ضرراً . ولايقدرون ان ينصروا أنفسهم ايضاً لو ان إنساناً اراد بهم سوءاً من كسر اوغيره .

وإنما كرر هذا المعنى لأنه ذكره في الاية التي قبلها على وجه التقريع، وذكره ههنا على وجه الفرق بين صفة من تجوز له العبادة ممن لاتجوز، كأنه قال : إن ناصري الله ولا ناصر لكم ممن تعبدون .

وانما قال تدعون من دونه وهم يدعونهم معه ،لأن معنى من دونه من غيره ومع ذلك فانه بمنزلة من افرد غيره بالعبادة في عظم الكفر والشرك .

قوله تعالى

وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٧) آية .

قال الفراء والزجاج: المعنى إن دعوتم هؤلاء الذين تعبدونهم من الأصنام الى صلاح ومنافع لايسمعوا دعاءكم ، وتراهم فاتحة اعينهم نحوكم على ماصورتموهم عليه من الصور ، وهم مع ذلك لايبصرونكم .

قال الجبائي : جعل الله انفتاح عيونهم في مقابلتهم نظراً منهم اليهم مجازاً،لان النظر حقيقة تقلب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلباً لرؤيته وذلك لايتأتى في الجماد.

ويقال في اللغة : تناظر الحائطان إذا تقابلا وكل شيء قابل غيره يقال : نظر اليه.

وقال الحسن: المعنى وإن تدع يا محمد المشركين ، فلم يجعل الكناية عن الاوثان

وقال الرماني: الكناية عن الاوثان لأنهم جعلوها تضر وتنفع ، كما يكون ذلك فيما يعقل .

وفي الآية دلالة على ان النظر غير الرؤية، لانه تعالى أثبت النظر ونفى الرؤية وقوله « وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون » وجه الخطاب الى النبي ﷺ ولو كان امره بخطاب المشركين بمعنى قل لهم لقال وترونهم . وقال السدي ومجاهد: اراد به المشركين ، فعلى هذا يكون قوله « وإن تدعوهم » خطاباً للنبي ﷺ انه ن دعا المشركين الى الهدى لايسمعوا بمعنى لايقبلوا وهم يرونه ولاينتفعون برويته.

قوله تعالى :

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٨) آية

امر الله تعالى نبيه أن يأخذ مع الناس بالعفو ،وهو التساهل فيما بينه وبينهم وقبول اليسير منهم الذي سهله عليهم ويسر فعله لهم ، وان يترك الاستقصاء عليهم في ذلك ، وهذا يكون في مطالبة الحقوق الواجبة لله تعالى وللناس وغيرها . وهو في معنى الخبر عن النبي ﷺ « رحم الله سهل القضاء سهل الاقتضاء » . ولا ينافي ذلك ان لصاحب الحق والديون وغيرها استيفاء الحق وملازمة صاحبه حتى يستوفيه ، لأن ذلك مندوب إليه دون ان يكون واجباً . وقد يكون العفو في قبول العذر من المعتذر وترك المؤاخذة بالاساءة .

وقوله « وامر بالعرف » يعني بالمعروف ، وهو كل ما حسن في العقل فعله او في الشرع ، ولم يكن منكراً ولاقبيحاً عند العقلاء .

وقوله عزوجل « وأعرض عن الجاهلين » امر بالاعراض عن الجاهل :السفيه الذي إن كلمه سفه عليه وآذاه بكلامه . وأمره إذا أقام عليهم الحجة وبين بطلان

ماهم عليه من الكفر والمعاصي أن يعرض عنهم ولايجاوبهم في مكروه يسمعه ، صيانة لنفسه عنهم . وقال عطا العفو : الفضل . وقال مجاهد: العفو من اخــلاق الناس ، وعفو أموالهم من غير تجسس عليهم . وقال : ماعفـا لك من أموالهم ، وذلك قبل فرض الزكاة . وقال السدي : نسخ ذلك بآية الزكاة. وقال ابن زيد: امره بالاعراض عنهم ثم نسخ بقوله « واغلظ عليهم » (١) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله : « وامر بالعرف » أن جبرائيل قال لــه معناه تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك .

قوله تعالى :

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٩٩) آية .

النزغ ادنى حركة تقول : نزغته اذا حركته . والمعنى ان نالك يا محمد من الشيطان ادنى حركة من معاندة وسوء عشرة « فاستعذ بالله» اي سل الله ان يعيذك، ويحفظك منه فانه سميع للمسموعات وعالم بالخفيات يسمع دعاء من يدعوه ويعلم دعاءه ومايستحقه بذلك من الله .

والنزغ الفساد ايضاً يقال : نزغ فلان بيننا اي افسد ، ومنه قوله تعالى :« نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي » (٢) ونزغ ينزغ ونغز ينغز اذا افسد . وموضع ينزغنك جزم بـ (إن) التي للجزاء الا انه لايبين فيه الاعراب ، لأنه مبني مع نون التأكيد على الفتح واذا كانت مشددة لابد من تحريك ماقبلها في الجزم لالتقاء الساكنين والنزغ الازعاج بالاغواء واكثر مايكون ذلك عند الغضب واصل النزغ الازعاج بالحركة نزغته انزغه نزغاً .

(١) سورة ٩ التوبة آية ٧٤ وسورة ٦٦ التحريم آية ٩

(٢) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٠

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠٠) آية بلاخلاف .

قرأ ابن كثير واهل البصرة والكسائي « طيف » بغير الف وبغير همز. الباقون بألف بعدها همزة . قال الحسن : الطيف في كلام العرب اكثر من طائف . وقال ابو زيد : : طاف الرجل يطوف طوفاً إذا اقبل وادبر واطاف يطوف طوفاً إذا جعل يستدبر القوم ويأتيهم من نواحيهم . وطاف الخيال طيفاً إذا ألم في المنام . وقال ابو عبيدة : طيف من الشيطان بأن يلم به ، لما يقال منه : طفت اطيف طيفاً .وقال قوم : الطائف ماأطاف بك من وسوسة الباطل . والطيف اللمم والمس . وقال ابوعمرو ابن العلا : الطيف الوسوسة . وحكى الرماني : ان الطيف اصله طوف من الواو مثل سيد وميت ، فخفف ،وانشدابو عبيدة للاعشى في الالمام .

ونصبح عن غب السرى وكأنما　　　ألم بها من طائف الجن اولق(١)

وكأن معنى الآية إذا مسهم من ينظر لهم نظرة من الشيطان. ويكون طائف مثل العاقبة والعافية ، مما جاء المصدر منه على فاعل وفاعلة ، فالطيف اكثر لان المصدر على هذا الوزن اكثر منه على وزن فاعل ، والطائف كالخاطر . وقال الحسن معناه يطوف عليهم الشيطان بوساوسه ، فيقبل بعض وحبه من يعصي الله . وقوله « تذكروا » أي تذكروا ماعندهم من المخرج والتوبة « فاذا هم مبصرون » قد تابوا . وقال مجاهد: هم المؤمنون إذا مسهم طيف أي غضب تذكروا . وقال سعيد ابن جبير : هو الرجل يغضب الغضب فيذكر فيكظم غيظه . وقال مجاهد : هوالرجل يهم بالذنب فيذكر الله تعالى فيتركه .

---

(١) ديوانه ١٤٧ ومجاز القرآن ٢٣٦/١ واللسان «طيف»

اخبر الله تعالى بأن الذين يتقون الله باجتناب معاصيه إذا وسوس اليهم الشيطان واغراهم بمعاصيه تذكروا، فعرفوا ماعليهم من العقاب بذلك فيجتنبونه ويتركونه. وقال مجاهد وسعيد بن جبير : الطيف الغضب . وقال ابن عباس والسدي : هي الزلة التي إذا ارتكبها تاب منها . و « اذا » الأولى بمنزلة الجزاء ولها جواب ، والثانية بمعنى المفاجأة كقولك خرجت ، فاذا زيد . وقال ابن عباس الطيف النزغ . وقال أبو عمرو بن العلا : الوسوسة . وقال غيره هو اللمم .

قوله تعالى :

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠١) آية.

قرىء « يمدونهم » بضم الياء وكسر الميم عن نافع . الباقون بفتح الياء وضم الميم ومعنى الآية أن إخوان الشياطين من الكفار يمدهم الشياطين في الغي، ومعناه يزيدونهم في الغواية ، والاضلال ، ويزينون لهم ماهم فيه .

ثم اخبر ان هؤلاء مع ذلك « لايقصرون » كما يقصر الذين اتقوا إذا مسهم طيف من الشيطان . وهو قول ابن عباس والسدي وابن جريج وابي علي ، وأكثر المفسرين . وقال مجاهد :هم إخوان المشركين من الشياطين . وقال قتادة قوله « ثم لايقصرون » يعني الشياطين « لايقصرون » عن استغوائهم ولايرحمونهم .

وقصرت واقصرت لغتان، والقراءة على لغة اقصرت، ومن ضم الياء من « يمدونهم » فلقوله تعالى « إنما نمدهم به من مال وبنين » (١) وقوله عز وجل « وأمددناهم بفاكهة » (٢) وقوله « اتمدونني بمال » (٣) ومن فتح الياء فلقوله تعالى « ويمدهم في طغيانهم يعمهون » (٤) . وأمددت فيما يستحب ، ومددت فيما يكره . قال ابوزيد : امددت القائد بالجند وامددت الدواة وامددت القوم بالمال والرجال . وقال ابو عبيدة

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٥٥ (٢) سورة ٥٢ الطور آية ٢٢
(٣) سورة ٢٧ النمل آية ٣٦ (٤) سورة ٢ البقرة آية ١٥

« يمدونهم في الغي » اي يزينون لهم يقال : مد له في غيه . هكذا يتكلمون به ووجه قراءة نافع قوله تعالى « فبشرهم بعذاب أليم » .

قوله تعالى :

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٢) آية .

معنى الآية انك يا محمد إذا لم تأتهم بآية يقترحونها ، قالوا : لم لا تطلبها من الله فيأتينا بها . وقوله « لولا » معناه هلا « اجتبيتها » معناه اختلقتها واقتلعتها من قبل نفسك في قول الزجاج ، والفراء ، والحسن ، والضحاك ، وقتادة ، وابن جريج ، وابن زيد ، وابن عباس .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس وقتادة : معناه هلا اخذتها من ربك وتقبلتها منه . ويكون الاجتباء بمعنى الاختيار . وقال الفراء : اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته إذا اقتعلته من قبل نفسك . وقال ابو عبيدة : اخترعته مثل ذلك . وقال ابو زيد : هذه الحروف تقولها العرب للكلام يبتدؤه الرجل لم يكن اعده قبل ذلك في نفسه .

فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم إني لست آتي بالآيات من عندي وإنما يفعلها الله ويظهرها على حسب مايعلم من المصلحة في ذلك لا بحسب اقتراح الخلق ، وإنما اتبع مايوحى إلي .

وقوله « هذا بصائر من ربكم » يعني هذا القرآن حجج وبراهين وأدلة من ربكم . والبصائر جمع بصيرة ، وهي البراهين الواضحة والحجج النيرة. وتكون البصائر جمع بصيرة . وهي طريق الدم .والبصيرة الرأس ايضاً. وجمها بصائر ، ومعناه ظهور

الشيء وبيانه. وإنما قال « هذا بصائر »لأن المراد بهالقرآن ، وقوله تعالى «وهدى» يعني بيان وحجة ورحمة لقوم يؤمنون ، فأضافه اليهم لأنهم هم المنتفعون بها، دون غيرهم من الكفار ، وان كان بياناً للكل . وقال الجبائي قوله « هذا بصائر »إشارة إلى الادلة الدالة على توحيده وصفاته وعدله وحكمته وصحة نبوة النبي وصحة ماأتى به النبي ﷺ .

قوله تعالى:

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٣) آية بلا خلاف.

امر الله تعالى المكلفين بأنه إذا قرىء القرآن ان يسمعوا له ويصغوا إليه ليفهموا معانيه ويعتبروا بمواعظه وان ينصتوا لتلاوته ويتدبروه ولايلغوا فيه ليرحمهم بذلك ربهم ، وباعتبارهم به وإتعاضهم بمواعظه .

واختلفوا في الوقت الذي أمروا بالانصات والاستماع:

فقال قوم :امروا حال كون المصلي في الصلاة خلف الامام الذي يأتم به، وهو يسمع قراءة الامام ، فعليه أن ينصت ولايقرأ ويتسمع لقراءته .

ومنهم من قال : لأنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم ويسلم بعضهم على بعض، وإذا دخل داخل وهم في الصلاة قال لهم كم صليتم فيخبرونه وكان مباحاً فنسخ ذلك ، ذهب اليه عبد الله بن مسعود ، وأبو هريرة والزهري وعطا وعبيد الله بن أبي عمير ومجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والضحاك وابراهيم وعامر الشعبي وابن عباس وابن زيد ، واختاره الجبائي .

وقال قوم : هو امر بالانصات للامام إذا قرأ القرآن في خطبته . روي ذلك عن مجاهد . وقال قوم : هو امر بذلك في الصلاة والخطبة . وروي ذلك عن مجاهد

ايضاً ، والحسن . واقوى الأقوال الاول ، لأنـه لاحال يجب فيها الانصات لقراءة القرآن إلا حال قراءة الامام في الصلاة ، فان على المأموم الانصات لذلك والاستماع له . فأما خارج الصلاة فلا خلاف أنه لايجب الانصات والاستماع . وعن أبي عبدالله عليه السلام انه في حال الصلات وغيرها . وذلك على وجه الاستحباب .

وقال الجبائي : يحتمل ان يكون اراد الاستماع إذا قرأ النبي صلى الله عليه وآله عليهم ذلك ، فانه كان فيهم من المنافقين من لايستمع . والاول اكثر فائدة وأعم . وقال الزجاج : يجوزأن يكون الأمر بالاستماع للقرآن للعمل بما فيه وان لا يتجاوزه كما تقول سمع الله لمن حمده بمعنى أجاب الله دعاه ، لأن الله سميع عليم .

والانصات السكوت مع الاستماع ، قال الطرماح يصف وحشاً ، وحذرها الصيادين :

يخافتن بعض المضغ من خشية الردى   وينصتن للسمع إنصات القناقن (١)

والقناقن عراف الماء .

قوله تعالى :

وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ (٢٠٤) آية .

امر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله أن يذكره على حال التضرع والمراد به الأمة . ونصب «تضرعاً» على الحال ، وعلى وجه الخوف من عذابه ، والخيفة هو الخوف ويكون دعاؤه خالصاً لله ويفعل هذا الدعاء « بالغدو» ، وهو أول النهار ، « والآصال» وهو جمع اصل . والاصل جمع الأصيل ، فالآصال جمع الجمع وتصغيره أصيلال على بدل النون . وقال قوم: هو جمع اصل ، والاصل يقع على الواحد والجمع ومعناه

---

(١) اللسان (نصت)

العشيات ، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس .

وقال ابن زيد : الخطاب متوجه الى المستمع للقرآن إذا تلي ثم اكدتوصيته له في الدعاء بقوله « ولاتكن من الغافلين » والمعنى لاتكن من الغافلين عما امرتك به من الدعاء له والذكر لله . وقال الجبائي : في الآية دليل على ان الذين يرفعون اصواتهم بالدعاء ويجهرون بها مخطؤن على خلاف الصواب .

ومن قرأ « خفية » اراد اخف الدعاء واترك الاجهار ، وهو تأكيد لما امر به من الدعاء إخفاء

وقوله « ودون الجهر » يعني دعاء باللسان في خفاء الاجهار .

وقال قوم : الآية متوجهة الى من أمر بالاستماع للقرآن والانصات له الذين كانوا اذا سمعوا القرآن رفعوا اصواتهم بالدعاء عند ذكر الجنة او النار ــ ذهب اليه ابن زيد ومجاهد وابن جريج ، واختاره الطبري ــ والاولى ان يكون ذلك متوجهاً الى النبي ، والمراد به جميع الامة ، فانه اكثر فائدة .

وإنما امره بالذكر في النفس وإن كان لايقدر عليه العبد لامرين :

أحدهما ــ ان المراد به التعرض للذكر من جهة الفكر ، وهذا في الذكر المضاد للسهو

الثاني ــ انه امر بالذكر الذي هو القول فيما يخفى كحديث النفس .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٥) آية

بين الله تعالى ان الذين عنده، وهم الملائكة ، ومعناه انهم عنده بالمنزلة الجليلة لابقرب المسافة ، لأنه تعالى ليس في مكان ولاجهة فيقرب غيره منه ، لأن ذلك من صفات الأجسام ، وهذا حث منه على الطاعة والاستكانة والخضوع له ، لأن الملائكة مع فضلها وارتفاع منزلتها إذا كانت لاتستكبر عن عبادته بل تسبحه دائماً وتسجد

مثل ذلك فبنوا آدم بذلك اولى واحق ولهم أوجب والزم .

قال الجبائي معنى « عندربك » إنهم في المكان الذي لايملك فيه الحكم بين الخلق سواه لأنه ملك عباده الحكم في الارض على وجه حسن .قال : ويجوز ان يكون المراد بذلك أنهم رسله الذين يبعثهم في أمور الانس ، واذا كانوا رسله جاز أن ينسبهم الى نفسه فيقول : إنهم عنده ، كما يقال: عند الخليفة جيش كثير ، ولا يراد به في مكانه ، ولا بالقرب منه ، وإنما يراد انهم اصحابه وإن كانوا متفرقين في البلاد . وقال الزجاج : من قرب من رحمةالله وفضله فهو عند الله اي قريب من تفضله وإحسانه .

وهذه اول سجدات القرآن ، وهي ـ عندنا ـ مستحبة غير واجبة وفي ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف .

وسبب نزول الآية ان قريشاً لما قالت : وماالرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟! نزلت هذه الآية .

٨ - سورة الانفال

هذه السورة مدنية في قول قتادة وابن عباس ومجاهد وعثمان ، وقال : هي اول ما نزل على النبي صلى الله عليه وآله بالمدينة ، وحكي عن ابن عباس : انها مدنية إلا سبع آيات: أولها « وإذ يمكر بك الـذين كفروا) إلى آخر سبع آيات بعدها . وهي خمس وسبعون آيـة في الكوفي ، وسبع وسبعون آيـة في الشامي ، وست وسبعون في المدنيين والبصري .

بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) آية.

اختلف المفسرون في معنى الأنفال - ههنا - فقال بعضهم : هي الغنائم التي غنمها النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر، فسألوه لمن هي ؟ فأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم : هي لله ولرسوله - ذهب اليه عكرمة ومجاهد والضحاك وابن عباس وقتادة وابن زيد - وقال قوم : هي أنفال السرايا - ذهب اليه علي بن صالح بن يحيى - وقال قوم : وهو ماشـذ من المشركين الى المسلمين من عبد اوجارية من غير قتال او ما اشبه ذلك - عن عطا - وقال : هو للنبي صلى الله عليه وآله خاصة يعمل به ما يشاء .

وروي عن ابن عباس - في رواية اخرى - انه ماسقط من المتاع بعد قسمة

الغنائم من الفرس والدرع والرمح . وفي رواية اخرى ـ أنـه سلب الرجل وفرسه ينفل النبي صلى الله عليه وآله من شاء .

وقال قوم : هو الخمس ، روي ذلك مجاهد ، قال :قال المهاجرون : لِمَيرفع منا هذا الخمس ويخرج منا ؟ فقال الله : هو لله والرسول .

وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام (أن الانفال كل ما اخذ من دار الحرب بغير قتال إذا انجلى عنها أهلها) . ويسميه الفقهاء فيئاً ، وميراث من لاوارث لـه ، وقطائع الملوك إذا كانت في أيديهم من غير غصب ، والآجام وبطون الأودية والموات وغير ذلك مما ذكرناه في كتب الفقه . وقالا : هو لله وللرسول وبعده للقائم مقامه يصرفه حيث يشاء من مصالح نفسه ومن يلزمه مؤنته ليس لاحـد فيه شيء . وقالا : إن غنائم بدر كانت للنبي صلى الله عليه وآله خاصة ، فسألوه أن يعطيهم .

وفي قراءة اهل البيت : « يسألونك الأنفال » فأنزل الله تعالى قولـه « قـل الأنفال لله والرسول » ولذلك قال « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » ولو سألوه عن موضع الاستحقاق لم يقل لهم : اتقوا الله .

والانفال جمع نفل والنفل هو الزيادة على الشيء ، يقال : نفلتك كذا إذا زدته قال لبيد بن ربيعة :

إن تقوى ربنا خير نفل   وباذن الله ريثي والعجل(١)

والنفل هو ما أعطيته المرء على البلاء ، والفناء على الجيش على غير قسمة . وكل شيء كان زيادة على الأصل فهو نفل ونافلة ، ومنه قيل لولد الولد : نافلة ، ولما زاد على فرائض الصلاة نافلة .

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية ، فقال قوم : نزلت في غنائم بدر ، لأن النبي صلى الله عليه وآله كان نفل أقواماً على بلاء ، فأبلى اقوام وتخلف آخرون مع النبي صلى الله عليه وآله فلما انقضى الحرب اختلفوا ، فقال قوم : نحن اخذنا ، لأنا قتلنا . وقال آخرون:

---

(١) تفسير القرطبى ٣٦١/٨ واللسان (نفل) ومجاز القرآن ١/ ٢٤٠ .

نحن احطنا بالنبي صلى الله عليه وآله ولوأردنا لأخذنا. وقال آخرون : نحن كنا وراء كم نحفظكم فأنزل الله هذه الآية يعلمهم أن مافعل فيها رسول الله صلى الله عليه وآله ماض جائز- ذهب اليه ابن عباس وعكرمة وعبادة بن الصامت ــ.

وقال قوم : نزلت في بعض اصحاب النبي صلى الله عليه وآله سأل من المغنم شيئاً قبل قسمتها فلم يعطه إياها إذكان شركاً بين الجيش، فجعل الله جميع ذلك للنبي صلى الله عليه وآله روي ذلك عن سعد بن مالك ، وهوابن ابي وقاص . قال : وكان سيف سعد بن العاص لمـا اقتله اخوته ، وكان يسمى ذا الكثيفة ، قال سعد أتيت النبي صلى الله عليه وآله فسألته سيفاً فقال : ليس هذا لي ولا لك فوليت عنه . قال : فاذا رسول الله صلى الله عليه وآله خلفي فقال: إن السيف قد صار لي فأعطانيه ، ونزلت الآية .

وروي عن ابي أسيد مالك بن ربيعة قال :اصبت سيف ابن عابد ، وكان يسمى المرزبان فألقيته في النفل ، فقام الأرقم بن ابي الأرقم المخزومي ،فسأل رسول الله فأعطاه إياه .

وقال آخرون : إن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله سألوه أن يقسم غنيمة بدر عليهم يوم بدر ، واعلمهم الله أن ذلك لله ولرسوله دونهم ليس لهم فيه شيء .

وقالوا معنى «عن» ههنا معنى «من» وكان ابن مسعود يقرأه «يسألونك الانفال» على هذا التأويل . وهـذا مثل مارويناه عن ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام وروي ذلك عن الأعمش ، والضحـاك عن ابن مسعود ، وروي ذلك عن ابن عباس وابن جريج وعمرو ابن شعيب عن ابيه عن جـده وعن الضحاك ، وعـكرمـة ،واختاره الطبري وهو قول الحسن. وقال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أيما سرية خرجت بغير إذن إمـامها فما أصابت من شيء ، فهو غلول . وقال الزجاج : كانت الغنائم قبل النبي صلى الله عليه وآله حراماً ، فسألوا النبي عن ذلك ، فنزلت الآية ، وهذا بعيد .

واختلفوا هل هي منسوخة أم لا ؟

فقال قوم: هي منسوخة بقوله « واعلموا انما غنمتم من شيء ...»الاية. وروي

ذلك عن مجاهدوعكرمة والسدي وعامر الشعبي واختاره الجبائي .

وقال آخرون : ليست منسوخة ، ذهب اليه ابن زيد واختاره الطبري ، وهو الصحيح ، لأن النسخ محتاج إلى دليل ، ولاتنافي بين هذه الآية وبين آية الخمس ، فيقال انها نسختها .

واختلفوا هل لأحد بعد النبي ﷺ ان ينفل احداً ـ ذكرناه في الخلاف ـ فقال سعيد بن المسيب لانفل بعد رسول الله . وبه قال عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وعندنا وعند جماعة من الفقهاء واختاره الطبري : أن للأئمة أن يتأسوا بالنبي ﷺ في ذلك .

وقوله « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » امر من الله للمكلفين أن يتقوا معاصيه ويفعلوا طاعاته وان يصلحوا ذات بينهم .

واختلفوا في معناه ، فقال قوم : هو ان النبي ﷺ كان ينفل الرجل من المؤمنين سلب الرجل من الكفار إذا قتله ، فلما نزلت الاية امرهم أن يرد بعضهم على بعض ، ذهب اليه قتادة وابن جريج .

وقال قوم : هذا نهي من الله للقوم عن الاختلاف فيما اختلفوا فيه من أمر الغنيمة يوم بدر ، ذهب اليه مجاهد وابن عباس وسفيان والسدي .

واختلفوا لم قال « ذات بينكم » فأنث،والبين مذكر ؟ فقال قوم :أراد « ذات بينكم » للحال التي للبين، كمايقولون ذات العشاء يريدون الساعة التي فيها العشاء ، ولم يصفوا مذكراً لمؤنث ولامؤنثاً لمذكر . قال الزجاج : اراد الحال التي يصلح بها أمر المسلمين . وقال الأخفش : جعله « ذات » لأن بعض الاشياء يوضع عليه اسم المؤنث وبعضه يذكر مثل الدار والحائط انث الدار وذكر الحائط .

وقوله « واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » امرمن الله للخلق ان يطيعوه ولايعصوه ، ويطيعوا رسوله فيما يأمرهم به إن كانوا مصدقين لرسوله فيما يأتيهم به من قبل الله ، لأنهم متى لم يطيعوه ولم يقبلوا منه لم يكونوا مؤمنين .

وروي : ان رسول الله ﷺ قسم غنائم بدر بينهم عن تواء ، يعني سواء ، ولم يخمس وإنما خمس بعد ذلك .

وقال الزجاج : « ذات بينكم» معناه حقيقة وصلكم، والبين الوصل ،لقوله تعالى « لقد تقطع بينكم » اي وصلكم .

قوله تعالى :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

ثلاث آيات بلا خلاف .

استدل ـ من قال : إن الايمان يزيد وينقص وان أفعال الجوارح قدتكون إيماناً ـ بهذه الآيات ، فقالوا: نفى الله ان يكون المؤمن إلا من إذا ذكر الله وجل قلبه وإذا تليت عليه آياته أي قرئت زادتهم الاية إيماناً ، بمعنى أنهم يزدادون عند تلاوتها ايماناً، وانهم على الله يتوكلون في جميع أمورهم « الذين يقيمون الصلاة» بمعنى يأتون بها على ما بينها النبي ﷺ وينفقون مما رزقهم الله في ابواب البر ، وإخراج الواجبات من الزكاة وغيرها . ثم وصفهم بأن هؤلاء الـذين وصفهم بهذه الأوصاف هم المؤمنون حقاً ، يعني الذين اخلصوا الايمان ، لا كمن كان له اسمه على الظاهر ، وإن لهم الدرجات عند الله وهي المنازل التي يتفاضل بها بعضهم على بعض وإن لهم المغفرة والرزق الكريم فدل على أن من ليس كذلك ليس له ذلك .

ومن خالف في ذلك قال : هذه اوصاف افاضل المؤمنين ، وخيارهم ، وليس

يمتنع أن يتفاضل المؤمنون في الطاعات وان لم يتفاضلوا في الايمان، يبين ذلك انه قال في اول الاية « اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » ووجل القلب ليس بواجب بلا خلاف ، وانما ذلك من المندوبات . وقوله « واذاتليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » لانه اذا صدق بآية آية انها من عند الله ، فلا شك ان معارفه تزداد وإن لم يزد بفعل الجوارح .

وقوله « الذين يقيمون الصلاة » يدخل في ذلك الفرائض والنوافل ، ولاشك أن الاخلال بالنوافل لايخرج من الايمان ولاينقص منه عند الأكثر . والانفاق أيضاً قد يكون بالواجب والنفل. والاخلال بما ليس بواجب منه لايخرج من الايمان بلا خلاف . وقوله « أولئك هم المؤمنون حقاً » يبين ذلك انه اشار به : الى خيارهم وافاضلهم ، لأن هذه اوصافهم فمن اين ان غيرهم وإن كان دونهم في المنزلة لايكون مؤمناً ؟!

وقال ابن عباس : اراد ان المنافق لايدخل قلبه شيء من ذلك عند ذكر الله. وأن هذه الأوصاف منتفية عنه .

والوجل والخوف والفزع واحد، يقال وجل فلان يوجل وجلا ، ويقال ياجل وييجل وأفصحها يوجل . قال الله تعالى « لاتوجل » أي لاتخف وقال الشاعر :

لعمرك ماادري وإني لأوجل   على أينا تعدو المنية أول (١)

وإنما وصفهم بالوجل ـ ههنا ـ وباطمئنان القلوب في قوله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله »(٢) لأن الوجل يكون بالخوف من عقابه وبارتكاب معاصيه. والاطمئنان بذكر الله معناه : بنعمه وعدله ، ووصفهم بالوجل يكون في دار الدنيا ، وأما في الآخرة فانه « لايحزنهم الفزع الأكبر » (٣)

---

(١) قطر الندى ٢٣ الشاهد ٦ باب المعرب والمبني .

(٢) سورة ١٣ الرعد آية ٣٠   (٣) سورة ٢١ الأنبياء آية ١٠٣

وقال الربيع : معنى زادتهم إيماناً زادتهم حسنة ، والدرجات عند الله ، قال قوم : معناه أعمال رفيعة وفضائل استحقوها في أيام حياتهم ـ ذهب اليه مجاهد ـ وقال غيره : معناه لهم مراتب رفيعة . والرزق الكريم ، قال قتادة : هو الجنة . وقال غيره : هو ماأعد الله لهم ووعدهم به في الجنة من انواع النعيم والمغفرة يعني لذنوبهم ومعاصيهم سترها الله عليهم .

وقوله « حقاً » منصوب بمعنى دلت عليه الجملة ، وهي قوله « اولئك هم المؤمنون » والمعنى احق ذلك حقاً . والتوكل هو الثقة بالله في كل امر يحتاج اليه تقول وكلت الأمر الى فلان ، إذا جعلت اليه القيام به ، ومنه الوكيل القائم بالامر لغيره . والكريم القادر على النعم من غير مانع ، ولم يزل الله كريماً بهذا المعنى .

قوله تعالى:

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) آيتان

من مد الف (كما) فلأن المد يقع في حروف اللين، وهي الالف والواو والياء، فاذا كان الحرف منها قبل همزة ، وكانت الواو والياء ساكنتين والالف لاتكون الا ساكنة مدوا الالف كألف هذه الكلمة ، وكقوله « من السماء من ماء » (١) بمد الف السماء والف ماء ، والياء نحو قوله « وماينطق عن الهوي ان هو الا وحي يوحي » (٢) بمد الياء من الهوي ، والواو نحو قوله « قالوا أأنت فعلت هذا »(٣) بمد الواو .

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٦٤ (٢) سورة ٥٣ النجم آية ٣ ـ ٤
(٣) سورة ٢١ الأنبياء آية ٦٢

واختلفوا في الكاف من قوله « كما » إشارة الى ماذا ؟ فقال الزجاج وغيره : قوله « كماأخرجك » معطوف على قوله « قل الأنفال لله والرسول » والمعنى في ذلك أن رسول الله لما جعل النفل لمن جعله له وسلمه المؤمنون لذلك على كراهية بعضهم له كراهية طباع ، فقال « الأنفال لله والرسول » فامض لذلك ، وإن كرهه قوم كما مضيت « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق » وهم كارهون أيضاً لأنهم كانوا كرهوا خروجه الكراهية التي ذكرناها ، وليس على المؤمنين في هـذه الكراهية حرج ، إذا سلموا الأمر لله ورسوله وعملوا بما فيه طاعاتهما. وقال غيره: ذلك معطوف على قوله « يسألونك عن الأنفال » كأنه قال : يسألونك الأنفال كما جادلوك عند ما اخرجك ربك من بيتك ، فذلك قوله « يجادلونك في الحق بعد ماتبين » . وقال قوم : يجوز أن يكون الكاف عطفاً على قوله « اولئك هم المؤمنون حقاً ... كما اخرجك ربك من بيتك بالحق » . وقال بعضهم « كما أخرجك ربك من بيتك... فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » . وقال مجاهـد « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ... يجادلونك في الحق من بعد ما تبين » يعني يجادلونك في القتال بعد ما أمرت به . وقال الفراء : قوله « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق » جواب قوله « وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون » فقال : فامض لأمرك في الغنائم على ماشئت « كما أخرجك ربك » مجاز اليمين كأنه، قال والذي اخرجك ربك ، فتكون«ما» في موضع الـذي كقوله « وماخلق الذكر والانثى » (١) وتقديره والـذي خلق الذكر ، وقال ابو عبيدة معمر بن المبنى : «ما» في قوله « كما اخرجك » كما في قوله « وما بناها » (٢) اي وبنائها. وقال عكرمة : المعنى « اتقوا الله واصلوا ذات بينكم » فان ذلك خير لكم « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » وكان خيراً لكم. وقال بعضهم : الكاف بمعنى (على) كأنه قال : إمض على الذي اخرجك

---

(١) سورة ٩٢ الليل آية ٣ (٢) سورة ٩١ الشمس آية ٥

من بيتك . والحق الذي جادلوا فيه هو القتال في قول مجاهد . و« بيتك » يراد به المدينة،اخرجه اللهالى بدر ـ في قول ابن جريج،وابن ابي نجيح واكثرالمفسرين ـ

ووجه كراهية القتال ـ ماذكره ابن عباس ـ من ان أبا سفيان لما اقبل بعير قريش من الشام فيها أموالهم ، ندب النبي ﷺ المسلمين الى الخروج اليها ، قال لعل الله أن ينفلكموها ، فانتدب اليهم ، فخف بعضهم ، وثقل بعضهم ، ولم يظنوا أن رسول الله ملقي كيداً ولا حزناً ، وهو قول السدي والمفسرين . واختلفوا في المؤمنين الذين كرهوا القتال ، وجادلوا النبي ﷺ . فقال قوم : أراد به أهل الايمان يوم بدر ـ ذكر ذلك عن ابن عباس ، وابن اسحاق ـ وقال قوم : عنى المشركين ـ ذهب اليه ابن زيد ـ وقال : هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعوهم الى الاسلام ، وهم ينظرون ، قال وتكون هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . وقول ابن عباس هو الظاهر ، وعليه اكثر المفسرين ، وهو ان هذا صفة للمؤمنين لكن كرهوا ذلك كراهية الطبع ، لكونهم غير مستعدين للقتال ، ولقلتهم وكثرة المشركين ، ويقوي ذلك قوله بعد هذه الآية « وإذيعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غيرذات الشوكة تكون لكم » فبين بذلك انهم كانوا يودون العير دون الحرب .

وقوله « بعد ماتبين » انك يامحمد لاتصنع إلا ماامرك الله به. وقال ابن عباس معناه يجادلونك في القتال بعد ماامرت به . والجدل شدة الفتل ومنه قولهم : جدلت الزمام إذا شددت فتله ، والاجدل الصقر لشدته.

وقوله « كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون » معناه كأن هؤلاء الذين يجادلونك في لقاء العدو في كراهتهم للقتال إذا دعوا اليه وصعوبته عليه بمنزلةمن يساق الى الموت ، وهم يرونه أويتوقعونه .

والسوق الحث على السير عجلة . والاخراج في الاية معناه الدعاء الى الخروج الذي يقع به ، تقول : اخرجه فخرج اي دعاه فخرج ، ومثله اضربت زيداً عمراً ،

فضربه وسمي البيت بيتاً لأنه جاءمهيئاً للبيتوتة فيه. وقوله « من بيتك » قال الحسن وابن ابي برة وابن جريج معناه من المدينة .

قوله تعالى :

وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨) آيتان

تقدير الاية واذكر يامحمد إذيعدكم الله إحدى الطائفتين إما العيروإما قريشاً. قال الحسن كان المسلمون يريدون العير ، ورسول الله يريد ذات الشوكة لما وعده الله . وقوله « إحـدى الطائفتين » يعني عير قريش اوقريشاً ، وكان الله وعـد نبيه حصول احداهما .

وقوله « إحدى الطائفتين » في موضع نصب بـ « يعدكم الله » وقوله « إنها لكم » نصب بدل من قوله « إحدى الطائفتين» ومثله « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة » (١) فانها في موضع نصب بدلا من (الساعة) . ومثله : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطؤهم » (٢) قال الزجاج : تقديره لو لا أن تطؤهم .

وقوله « وتودون » معناه وتحبون«ان غير ذات الشوكة » يعني القتال .وانما قال «ذات الشوكة » فأنث لأنه عنى الطائفة ، والشوكة الجد ،يقال : ماشد شوكة بني فلان ، وفلان شاك في السلاح وشائك وشاك ـ بتشديد الكاف ـ من الشكة .

---

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٦٦　　(٢) سورة ٤٨ الفتح آية٢٥

ومثله شاك في قول الشاعر :

فيوهموني انني هو ذاكم شاك سلاحي في الحوادث معلم

وقال الضحاك ، وغيره: كرهوا القتال واعجبهم أن يأخذوا العير .

وقوله « ويريد الله ان يحق الحق » معناه إن الله يريد أن يظهر محمداً ﷺ ومن معه على الحق « ويبطل الباطل » اي يبطل ماجاء به المشركون .

وقيل : هذه الآية نزلت قبل قوله « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق » وهي في القراءة بعدها ـ ذكره البلخي والحسن ـ

وفي الاية دلالة على ان الله لايريد الباطل ولا يريد ابطال الحق بخلاف مايقول المجبرة من ان كل مافي الأرض من باطل وسفه وفسق فان الله يريده لأن ذلك خلاف الاية .

وقوله « ويقطع دابر الكافرين » معناه يريد الله ان يجتث الجاحدين من اصلهم والدابر المأخر ، وقطعه الاتيان على جميعهم ـ وهو قول ابن زيد وغيره ـ وقال قوم : الحق في هذا الموضع القرآن . والباطل ابليس . وقيل الحق الاسلام ، والباطل الشرك .

وقال ابن عباس : كان عدة اهل بدر مع النبي ﷺ ثلثمائة وثلاث عشر رجلا وروي ان النبي ﷺ لما بلغه خروج قريش لحماية العير شاور اصحابه ، فقال قوم: خرجنا غير مستعدين للقتال . وقال المقداد : امض لما امرك الله به ، فوالله لو خضت بنا الجمر لتبعناك ، فجزاه خيراً. وأعاد الاستشارة ، فقال سعد بن معاذ (رحمه الله) يارسول الله لعلك تريدنا ؟ قال : نعم ، فقال سعد : إنا آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به حق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ،فامض يارسول الله لما أردت ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لنخوضنه معك ، فسرّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك . ثم قال سيروا على بركة الله وابشروا فان الله وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن انظر الى مصارع القوم.

و(الحق) وقوع الشيء في موضعهالذي هوله فاذا اعتقد شيء بضرورةاوحجة فهو حق ، لأنه وقع موقعه الذي هو له ، وعكسه الباطل .

وروي ان احداً لم يشاهد الملائكة يوم بـدر إلا رسول الله ﷺ . ومعنى قوله« ليحق الحق» ليظهر تحقيق الحق للمخلوقين ، ويبطل الباطل، لأنهما لم يكونا كذلك عنده .

قوله تعالى :

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) آية بلاخلاف .

قرأ أهل المدينة ويعقوب « مردفين » بفتح الدال . الباقون بكسرها . قال ابو علي : من قرأ بكسر الدال احتمل شيئين:

أحدهما ــ ان يكونوا مردفين مثلهم ، كماتقول : اردفت زيداً دابتي فيكون المفعول الثاني محذوفاً في الاية وذلك كثير .

الثاني ــ ان يكون معنى « مردفين » جاءوا بعدهم . قال ابو الحسن: تقول العرب بنو فـلان يردفوننا أي هم يجيئون بعدنا . وهو قول ابي عبيدة . وردفني وأردفني واحد . قال الشاعر :

إذا الجوزاء اردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا (١)

وقال قوم : ردفه صار له ردفاً واردفه جعله له ردفاً . ويكون أردفت الثريا الجوزاء . ومعنى البيت ان الجوزاء إذا طلعت في شدة الحر لم يبق حينئذ احد من

---

(١) قائله خزيمة بن مالك وهو من قدماء شعراء الجاهلية الاغاني ١٣ / ٧٥ طبعة دار الثقافـة . ومعجم ما استعجم ١٩ ، وسـمط الـلآلى ١٠٠ واللسان (قرظ)، (ردف) .

البوادي في مناجعهم ، لأن مياه الغدران يبست فتفرق الحلل بعد اجتماعها فتفترق ظنونه في امر فاطمة انها اي ماء تأخذ لتعلق قلبه بها ، وهي فاطمة بنت حل بن عدي.

وقول ابي عبيدة : ردفني وأردفني واحد أقوى لقوله « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » اي جاء من بعد إستغاثتكم ربكم فـ « مردفين » على هذه صفة للالف الذين هم الملائكة .

ومن قرأ بفتح الدال فمعناه اردفوا الناس أي انزلوا بعدهم ، فيجوز على هذا أن يكون حالا من الضمير المنصوب في « ممدكم » مردفين بألف من الملائكة ، والعامل في (إذ) يحتمل شيئين : احدهما ـ ويبطل الباطل (إذا) والثاني ـ بتقدير اذكروا (اذ) فعلى الوجه الأول يكون متصلا بما قبله وعلى الثاني يكون مستأنفاً .

والاستغاثة طلب المعونة وهو سد الخلة في وقت شدة الحاجة. وقيل : في معنى « تستغيثون ربكم » تستجيرون به من عدوكم والاستجابة موافقة المسألة بالغطية ، وأصله طلب الموافقة بالارادة وليس في الاجابة معنى الطلب من هذه الجهة .

وقيل في معنى « مردفين » ثلاثة أقوال :

قال ابن عباس : مع كل ملك ملك ردفاً له ، وقال الجبائي : هم ألفان لأن مع كل واحد واحد ردفاً له .

والثاني ـ قال السدي وقتادة : إن معناه متتابعين.

والثالث ـ قال مجاهد ممدين بالارداف وامداد المسلمين بهم. ويقال هذه دابة لاترادف ، ولايقال تردف ، ويقال : أردفت الرجل إذا جئت بعده . وكان يجوز أن يقرأ بتشديد الدال وفتح الراء وضمها ـ لأن الأصل مرتدفين ، وقرىء في الشواذ ـ بضمها ـ فمن فتح الراء نقل فتحة التاء اليها ، ومن كسرها فلاجتماع الساكنين ومن ضمها فللاتباع .

أخبر الله تعالى عن حال اهل بدر انهم لقلة عددهم استغاثوا بالله والتجأوا اليه فأمدهم الله بألف من الملائكة مردفين ، رحمة لهم ورأفة بهم ، وهوقول ابن عباس،

وقال : الداعي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وهو قول ابي جعفر عليه السلام والسدي وابي صالح وهو المروي عن عمر بن الخطاب. وقيل :إنهم قتلوا يومئذ سبعين واسروا سبعين .وقال الحسن : جميع ماامدوا به من الملائكة خمسة آلاف :ماذكر هنا ، وماذكر في آل عمران . وقال غيره : جميعهم ثمانية آلاف . وقال الحسن :اردف بهؤلاء الألف الثلاثة آلاف الذين ذكرهم في آل عمران .ثم أردفهم بألف آخر فصاروا خمسة آلاف .

قوله تعالى :

وَمَاجَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) آية .

الهاء في قوله « جعله الله » يحتمل أن تكون عائدة الى الامداد ، لأنه معتمد الكلام . وقال الفراء : هي راجعة الى الارداف .

ويحتمل أن تكون عائدة على الخبر بالمدد ، لان تقديم ذلك اليهم بشارة في الحقيقة. اخبر الله تعالى أنه لم يجعل هذا الذي أخبر به من إمداد الملائكة إلا بشرى. وإنما جعله بأن اراده به فقلبه الى هذا المعنى . وقيل : جعله بشرى بأن امر الملائكة أن تبشر به، والجعل على ضروب: اولها ــ أن يكون بمعنى القلب ، كقولك : جعلت الطين خزفاً . وبمعنى الحكم كقولك : جعله الحاكم فاسقاً . وبمعنى الظن كقولك جعلته كريماً بحسن ظني به . وبمعنى الأمر كقولك جعله الله مسلماً بمعنى امره بالاسلام .

وقوله « ولتطمئن به قلوبكم » فالاطمئنان الثقة ببلوغ المحبوب ، وهو خلاف الانزعاج . والطمأنينة : السكون والدعة .

وقوله « وما النصر إلا من عند الله » معناه لايكون النصر وقهر الاعداء من الكفار إلا بفضل من عند الله ونصر من جهته . وليس ذلك بشدتكم وقوة بأسكم

وإنما أضافه الى الله ، لئلا يظن أنه من قبل الملائكة من غير امره .

فأماالغلبة بكثرة العدد ، فقد يتفق للكافر والمبصل ، فعلى هذا المؤمن وان قتل ، فهو منصور غير مخذول ، والكافر وإن غلب وقتل فهو مخذول .

وهل قاتلت الملائكة يوم بدر قيل فيه قولان :

قال ابو علي الجبائي : ماقاتلت ، وإنمـا أراد الله بالامـداد البشارة بالنصر واطمئنان القلب ليزول عنهم الخوف الذي كان بهم ، قال لأن ملكاً واحداً يقدر ان يدمر على جميع المشركين كما اهلك جبرائيل قريات لوط .

وروي عن ابن مسعود : أنها قاتلت . وقيل: سأل ابو جهل من اين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص ، قالوا لـه : من قبل الملائكة ، فقال هم غلبونا لا أنتم .

وقوله « إن الله عزيز » يعني قادر لايغالب « حكيم » في أفعاله ليثقوا بوعده .

قوله تعالى :

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ (١١) آية .

قرأ ابن كثيروابو عمرو « يغشاكم » بفتح الياء وسكون الغين وبألف مخفف. وقرأه اهل المدينة ـ بضم الياء وسكون الغين وكسر الشين مخفاً من غير الف. الباقون بضم الياء وفتح الغين وتشديد الشين وكسرها من غير الف . وكلهم نصب النعـاس إلا ابن كثير وابو عمرو ، فانهما رفعاه .

وحجة من فتح الياء قوله «أمنة نعاساً يغشى »(١) . فكمااسند الفعل الى النعاس والأمنة ، كذلك ههنا . ومن قرأ بضم الياء وشدد الشين اوخففها ، فالمعنى واحـد.

(١) سورة ٣ آل عمران أية ١٥٤

قال الله تعالى « فأغشيناهم فهم لايبصرون » (١)وقال « فغشاها ما غشى » (٢) وقال « كأنما اغشيت وجوههم » (٣) وحجتهما أنه أشبه بما بعده . لأنه قال « وينزل عليكم من السماء ماء » فكما أن (ينزل) مسند الى اسم الله كذلك « يغشي » . و « الغشيان » لباس الشيء مايتصل به ، ومنه غشي الرجل إمرأته ، فكأن النعاس قد لابسهم بمخالطته إياهم . و « النعاس » ابتداء حال النوم قبل الاستثقال فيه ، وهو السنة ، تقول : نعس ينعس نعاساً فهو ناعس . وحكى الفراء أنه سمع نعسان . و « الأمنة » الدعة التي تنافي المخافة ، تقول : أمن أمناً وأماناً وأمنة . وانتصب « أمنة » بأنه المفعول له ، والعامل فيه « يغشى ».

وقوله « وينزل عليكم من السماء ماء » يعني مطراً وغيثاً .

وقوله : « ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان » قال ابن عباس : معناه يذهب عنكم وسوسة الشيطان ، بأنه غلبكم على الماء المشركون حتى تصلوا وانتم مجنبين ، لأن المسلمين باتوا ليلة بدر على غير ماء ، فأصبحوا مجنبين ، فوسوس اليهم الشيطان ، فيقول : تزعمون أنكم على دين الله وانتم على غير الماء تصلون مجنبين ، وعدوكم على الماء . فأرسل الله عليهم السماء ، فشربوا واغتسلوا وأذهب به وسوسة الشيطان ، وكانوا في رمل تغوص فيه الأقدام ، فشدده المطر حتى تثبت عليه الرجال فهو قوله « ويثبت به الاقدام » . والهاء في «به» راجعة الى الماء . وقال ابن زيد : يذهب بوسوسته أنه ليس لكم بهؤلاء طاقة . وقال الجبائي : لان الاحتلام بوسوسة الشيطان .

وقوله « وليربط على قلوبكم » معناه ليشد عليها بما يسكنها

وقوله « ويثبت به الاقدام » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وأكثر المفسرين : لتلبيده الرمل

(١) سورة ٣٦ يس آية ٩ (٢) سورة ٥٣ النجم آية ٥٤

(٣) سورة ١٠ يونس آية ٢٧

الذي لايثبت عليه القدم .

والثاني ـ الصبر الذي افرغه عليهم عند ذلك حتى ثبتوا لعدوهم ـ في قول ابي عبيدة والزجاج ـ . و « إذ » في موضع نصب على معنى وما جعله الله إلا بشرى في ذلك الوقت ، ويجوز على تقدير إذكروا « إذ يغشاكم » .

قوله تعالى :

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) آية

معنى الآية اذكروا « إذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم » يعني بالمعونة والنصرة ، كما يقال : فلان مع فلان بمعني ان معونته معه . وذكر الفراء قال : كان الملك يأتي الرجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وآله فيقول سمعت المشركين يقولون ، والله لئن حملوا علينا لنكشفن ، فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً فيقوي انفسهم بذلك و « الايحاء » إلقاء المعنى إلى النفس من وجه يخفى ، وقد يكون ذلك بنصب دليل يخفى إلا على من إلقي اليه من الملائكة .

وقوله « فثبتوا الذين آمنوا » قيل في معناه قولان : احدهما ـ احضروا معهم الحرب. والثاني ـ قال الحسن: قاتلوا معهم يوم بدر . وقال قوم : معنى ذلك الاخبار بأنه لا بأس عليهم من عدوهم .

وقوله « سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب» اخبار من الله تعالى انه يلقي في قلوب الكفار الرعب ، وهو الخوف . تقول : رعبته ارعبه رعباً ورعباناً ، فانا راعب ، وذاك مرعوب . و« الرعب » إنزعاج النفس بتوقع المكروه. واصل الرعب التقطيع من قولهم رعبت السنام ترعيباً: اذا قطعته مستطيلا . والرعب يقطع حال

السرور بضده من انزعاج النفس بتوقع المكروه . وجارية رعبوبة اذا كانت شطنة مشبهة بقطعة من السنام . ورعب السيل فهو راعب : اذا امتلأ منه الوادي ، لأنه انقطع اليه من كل جهة . والرعيب من الرجال النصير . قال الراجز :

ولا أجيب الرعب ان دعيت (١)

وقوله « فاضربوا فوق الاعناق » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

احدها – اضربوا الاعناق – ذهب اليه عطية – وقال غيره اضربوا على الاعناق. وقال قوم اضربوا فوق جلدة الاعناق .

وقوله « واضربوا منهم كل بنان » قال ابن جريج والضحاك والسدي : أراد بنان الأطراف من اليدين والرجلين والواحد بنانة . ويقال : للاصبع بنانة . واصله اللزوم من قولهم : أبنت السحابة إبناناً إذا لزمت . وأبن بالمكان اذا لزمه فسمي البنان بناناً ، لأنه يلزم به ما يقبض عليه ، قال الشاعر :

ألا ليتني قطعت مني بنانة ولاقيته في البيت يقظان حاذرا (٢)

وقال الفراء : أعلمهم مواضع الضرب، فقال: اضربوا الرؤوس والأيدي والأرجل. وقال الزجاج : اباح الله قتلهم بكل نوع يكون في الحرب . و«اذ» في موضع نصب على قوله « وليربط ... اذ يوحي » ويجوز على تقدير واذكروا .

قوله تعالى :

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٣) آية.

أخبر الله تعالى أنه فعل بهؤلاء الكفار ، ما فعل وامر بقتلهم وضرب اعناقهم

(١) قائله رؤبة . اللسان (رعب) ويروى (إن رقبت)
(٢) قائله عباس بن مرداس اللسان والتاج (بنن) ومجاز القرآن ١ / ٢٤٢

وقطع بنانهم جزاء بما شاقوا الله ورسوله . قال الزجاج : معناه جانبوا الله ، اي صاروا فيجانب غير جانب المؤمنين ، ومثله حاربوا الله . و «الشقاق» اصله الانفصال من قولهم : انشق انشقاقاً ، وشقه شقاً ، واشتق القوم إذا مر بينهم ، وشاقه شقاقاً إذا صار في شق عدوه عليه ، وتشقق تشققاً، وشقق تشقيقاً ، ومنه اشتقاق الكلام لأنه انفصال الكلمة عما يحتمله الأصل . ومعنى « شاقوا الله » شاقوا اولياء الله كما قال « ان الذين يؤذون الله ورسوله » (١) . وقوله « ومن يشاقق الله » يجوز في العربية الاظهار والادغام ، فاما أن يأتي على الأصل للحاجة إلى حركة الأول ، وإما ان يحرك الثاني ـ لالتقاء الساكنين ـ بالكسر . ويجوز الفتح والأول اجود مع الألف واللام لتأكد سببه .

وقوله « فان الله شديد العقاب » شدة العقاب عظمه بجنس فوق جنس أدنى منه ، لأن العظم على ضربين : احدهما ـ بالتضاعف في المرتبة الواحدة . والثاني ـ بالترقي الى مرتبة بجنس يخالف الجنس الذي في ادنى مرتبة .

قوله تعالى :

ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٤) آية .

العامل في «ذلكم » يحتمل احد وجهين :أحدهما ـ الابتداء على تقدير الأمر « ذلكم » ، قال الزجاج : من قال : إنه يرفع « ذلكم » بما عاد عليه من الهاء او بالابتداء وجعل « فذوقوه » الخبر ، فقد أخطأ، لأن ما بعد الفاء لا يكون خبر المبتدأ لا يجوز « زيد فمنطلق »ولا « زيد فاضربه » الا أن تضمر هذا كقول الشاعر :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم		وأكرومة الحيين خلو كما هيا(٢)

أي هذه خولان . الثاني ـ أن يكون نصباً بذوقوا، كما تقول : زيداً فاضربه.

---

(١) سورة ٣٣ الأحزاب آية ٥٧		(٢) اللسان (خلا)

والكاف في قوله « ذلكم » لاموضع له من الاعراب لأنه حرف خطاب ، ولو كان اسماً لجاز أن يؤكد بالنفس وذلك غير جائز اجماعاً . والاشارة بذلك الى ماتقدم من انواع العقوبات ، وانما ضم الى الكاف الميم ، لأنه خطاب للمشركين .

وقوله « فذوقوه » فالذوق طلب ادراك الطعم بتناول اليسير بالفم كما ان الشم طلب ادراك الرائحة بالانف ، وليس بالادراك ، لأنه يقال ذقته فلم أجد له طعماً ، وشممته فلم اجد له رائحة ، وانما قال « فذوقوه » والذوق اليسير من الطعام ، لان المعنى كونوا للعذاب كالذائق للطعام ، لأن معظمه بعده . وقيل : لان الذائق أشد احساساً بالطعم من المستمر عليه ، فكأن حالهم ابداً حال الذائق في شدة احساسه نعوذ بالله منه .

وقوله «وأن للكافرين » فموضع « أن» يحتمل النصب والرفع، فالرفع بالعطف على ذلكم كأنه قال« ذلكم ، فذوقوه » وذلكم « ان للكافرين عذاب النار » معذا والنصب من وجهين : احدهما - وبان للكافرين ، والآخر - واعلموا ان للكافرين ، كما انشده الفراء :

تسمع للأحشاء منه لغطا   ولليدين جسأة وبددا (١)

اي وترى لليدين وانما قدم الخبر في قوله : « وأن للكافرين » على الاسم لدلالته على الكفر الذي هو السبب للعذاب . ومرتبة السبب قبل المسبب .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ (١٥) آية .

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/٤٠٥ . (اللغط) الاصوات المبهمة ، والجسأة - بضم الجيم - الخشونة والصلابة والغلظ . والبدد تباعد مابين اليدين.

هذا خطاب للذين آمنوا من بين المكلفين ناداهم الله ليقبلوا الى امر الله بما يأمرهم به وانتهائهم عما ينهاهم عنه بالتأمل له والتدبر لموجبه ليعملوا به ويكونوا على يقين منه . وقوله « اذا لقيتم الذين كفروا » فالالتقاء الاجتماع على وجه المقاربة لأن الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربة، فلا يكون لقاء كاجتماع الاعراض في المحل الواحد . و « الذين كفروا » هم الذين جحدوا نعم الله ومن كان بمنزلة الجاحد، فالمشرك كافر ، لأنه في حكم الجاحد لنعم الله إذ عبد غيره .

وقوله « زحفاً » نصب على المصدر، فالزحف هو الدنو قليلا قليلا والتزاحف التداني، زحف يزحف زحفاً ، وازحفت القوم اذا دنوت لقتالهم وثبت لهم ،والمزحف من الشعر الذى قد تدانت حروفه على ما ابطلت وزنه .

وقوله : « فلا تولوهم الادبار » نهي لهم عن الفرار عند لقائهم الكفار وقتالهم اياهم .

قوله تعالى :

وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَٰيهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٦) آية

اخبر الله تعالى ان « من يولهم » يعني الكفار «يومئذ» يوم القتال «دبره فقد باء بغضب من الله» . والتولية جعل الشيء يلي غيره وهو متعد الى مفعولين . ولاه دبره اذا جعله يليه ،ومنه ولاه البلد من ولاية الامارة ، وتولى هو اذا قبل الولاية واولاه نعمة ، لانه جعلها تليه .

وقوله « يومئذ » يجوز اعرابه وبناؤه، فاعرابه لأنه متمكن اضيف على تقدير الاضافة الحقيقية ، كقولك هذا يوم ذلك ، وأما البناء فلانه اضيف الى مبني اضافة غير حقيقية ، فأشبه الأسماء المركبة . وقوله « الا متحرفاً لقتال » فالتحرف الزوال

من جهة الاستواء الى جهة الحرف . تقول تحرف تحرفاً ، وانحرف انحرافاً وحرفه تحريفاً واحترف احترافاً ، لأنه يقصد جهة الحرف لطلب الرزق ، مثل ابعد في طلب الرزق، والمحارف المحدود من جهة الرزق الى جهة الحرف. ومنه حروف الهجاء لأنها اطراف الكلمة كحرف الجبل ، ونحوه .

وقوله « اومتحيزاً الى فئة » فالتحيز طلب حيز يتمكن فيه، تحيز تحيزاً وانحاز انحيازاً وحازه يحوزه حوزاً ، والحيز المكان الذي فيه الجوهر . والفئة القطعة من الناس ، وهي جماعة منقطعة عن غيرها . وذكر الفئة في هذا الموضع حسن جداً ، وهو من فأوت راسه بالسيف اذا قطعته .

وفي تناول الوعيد لكل فار من الزحف خلاف .

فقال الحسن وقتادة والضحاك : انما كان ذلك يوم بدر خاصة .

وقال ابن عباس : هو عام ، وهو قول ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام .

ثم اخبر تعالى ان من ولي دبره على غير وجه التحرف للقتال، اوالتحيز الى الفئة انه باء بغضب من الله . أي رجع بسخطه تعالى واستحقاق عقابه . وان مستقره « جهنم وبئس المصير » هي لمن صار اليها .

وقوله « متحرفاً لقتال » نصب على الحال ، وتقديره الا ان يتحرف لأن يقاتل ، وكذلك « متحيزاً» نصب على الحال وتقريره حال تحيزه الى فئة ، ويجوز النصب فيهما على الاستثناء ، وتقديره الا رجلا متحيزاً اويكون متفرداً ، فينحاز ليكون مع المقاتلة . واصل متحيز متحيوز فأدغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء.

قوله تعالى :

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) آية بلاخلاف .

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف «ولكن الله قتلهم ... ولكن الله رمى» بالتخفيف فيهما ورفع اسم الله فيهما . الباقون بتشديد النون ونصب «الله» .

نفى الله ان يكون المؤمنون قتلوا المشركين يوم بدر فقال « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » وإنما نفى القتل عمن هو فعله على الحقيقة ونسبه الى نفسه وليس بفعل له من حيث كانت أفعاله تعالى كالسبب لهذا الفعل ، والمؤدي اليه من إقداره إياهم ومعونته لهم وتشجيع قلوبهم فيه ، والقاء الرعب في قلوب اعدائهم المشركين حتى خذلوا وقتلوا على شركهم عقاباً لهم . وقوله « ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى » مثل الأول في انه نفى الرمى عن النبي صلى الله عليه وآله وإن كان هو الرامي وأضافه الى نفسه من حيث كان بلطفه ، واقداره .

وهذه الرمية ذكر جماعة من المفسرين ، كابن عباس وغيره : أن النبي صلى الله عليه وآله أخذ كفاً من الحصباء فرماها في وجوههم ، وقال : شاهت الوجوه ، فقسمها الله تعالى على ابصارهم ، وشغلهم بأنفسهم حتى غلبهم المسلمون ، وقتلوهم كل مقتل . وقال بعضهم : اراد بذلك رمي النبي صلى الله عليه وآله أبي امية بن الخلف الجمحي يوم احد فأصابه فقتله . وقال آخرون : اراد بذلك رمية سهمه يوم خيبر ، فأصاب ابن ابي الحقيق في فراشة رأسه ، فقتله . والأول أشهر الأقوال.

فأما تعلق من تعلق بذلك من الغلاة ، بأن قال : لما قال « ولكن الله رمى » ـ وكان النبي هو الرامي ـ دل ذلك على انه هو الله تعالى ، فهو جهل وقلة معرفة بوجوه الكلام لانه لو كان على ماقالوه لكان الكلام متناقضاً ، لأنه خطاب للنبي صلى الله عليه وآله بأنه لم يرم ، فان كان هو الله تعالى فالى من توجه الخطاب ؟ وإن توجه اليه الخطاب دل على ان الله غيره . وأيضاً فاذا كان هو الله فقد نفى عنه الرمي فاذا أضافه بعد ذلك الى الله كان متناقضاً على انه قد دلت الأدلة العقلية على ان الله ليس بجسم ، ولا حال في جسم ، فبطل قول من قال إن الله كان حل في محمد صلى الله عليه وآله وليس هذا موضع نقضه . وقد ذكرنا الكلام في ذلك واستوفيناه في الاصول .

وأما من قال: إن الفعل واحد، وهو من الله تعالى بالايجاد، ومن العبد بالاكتساب فباطل، لأنه خلاف المفهوم من الكلام، ولو كان كذلك لم يجز أن ينفى عنه إلا بتقييد كما لاينفى عن الله الا بتقييد.

وقوله « وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً » معناه لينعم عليهم نعمة حسنة. والمعنى ولينصرهم الله نصراً جميلا ويختبرهم بالتي هي احسن، ومعنى يبليهم - ههنا - يسدي اليهم. وقيل للنعمة بلاء وللمضرة أيضاً مثل ذلك، لأن أصله مايظهر به الأمر من الشكر أو الصبر، ومنه يبتلي بمعنى يختبر ويمتحن. وسميت النعمة بذلك لاظهار الشكر، والضر لاظهار الصبر الذي يجب به الأجر.

وقوله « إن الله سميع عليم » معناه انه يسمع دعاء من يدعوه ويعلم ماله فيه من المصلحة فيجيبه اليه.

قوله تعالى:

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَافِرِينَ (١٨) آية.

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: « موهن » خفيفة منونة. وقرا ابو عمرو وابن كثير ونافع شديدة. وقرأ حفص عن عاصم خفيفة مضافة وخفض « كيد ». وقرأ الباقون بنصب كيد.

تقول: وهن الشيء واوهنته انا كما تقول: فرح وافرحته، وخرج واخرجته فمن قرأ « موهن » مخففاً فمن اوهن اي جعله واهناً، ومن شدد فمن قولهم: وهنته كما تقول خرج وخرجته وعرف وعرفته. ومنه قوله « فما وهنوا لما اصابهم »(١) وتقول: وهن يهن مثل ومق يمق وولي يلي، وهو أيضاً ينقل بالهمزة وتثقيل العين ايضاً والامران جميعاً حسنان، واختار الاخفش القراءة بالتخفيف. والوهن الضعف ومنه قولهم: توهن توهناً اي ضعف، ومن قال قوله « ذلكم » في موضع رفع قال

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٦

الزجاج : تقديره الامر « ذلكم وأن الله » والامر ان الله .

وقوله « ذلكم » اشارة الى قتل المشركين ورميهم حتى انهزموا وابتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظفر بهم وامكانهم من قتلهم واسرهم فعلنا الذي فعلناه . ومعنى « وأن الله موهن كيد الكافرين » يضعف مكرهم حتى يذلوا ويهلكوا . وفي فتح « أن » من الوجوه ما في قوله « ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار » ـ وقد بيناه ـ والكيد يقع بأشياء منها الاطلاع على عوراتهم ، ومنها إبطال حيلتهم ، ومنها إلقاء الرعب في قلوبهم ، ومنها تفريق كلمتهم، ومنها نقض ما ابرموا باختلاف عزومهم

قوله تعالى :

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) آية

قرأ نافع وابن عامر وحفص « وان الله » بفتح الالف . الباقون بالكسر، من فتح الهمزة فوجهه « ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت » ولأن الله مع المؤمنين اي لذلك لاتغني عنكم فئتكم شيئاً ، ومن كسر قطعه عما قبله واستأنفه ، وقوي ذلك لما روي ان في قراءة ابن مسعود « والله مع المؤمنين » . والكسر اختيار الفراء، ومن نصب فعلى ان موضعه نصب بحذف حرف الجر ، ويجوز ان يكون عطفاً على قوله « وأن الله موهن » .

والاستفتاح طلب النصرة التي بها يفتح بلاد العدو كأنه قال ان تستنصروا على اعدائكم فقد جاءكم النصر بالنبي ﷺ . وقال الزجاج : يجوز ان يكون المراد استحكموا لأن الاستفتاح الاستقضاء . ويقال للقاضي : الفتاح ، والمعنى فقد جاءكم الحكم من عند الله ، وهو قول الضحاك وعكرمة ومجاهد والزهري ، والأول قول

ابن عباس وغيره ، والمعنيان متقاربان . وقيل في معنى الاية قولان :

أحدهما ـ قال الحسن ومجاهد والزهري والضحاك والسدي والفراء: انه خطاب للمشركين لانهم استنصروا بان قالوا: اللهم اقطعنا للرحم ، واظلمنا لصاحبه فانصرنا عليه روي ان ابا جهل قال ذلك .

الثاني ـ قال ابو علي : هو خطاب للمؤمنين والمعنى وان تعودوا الى مثل ما كان منكم يوم بدر في الأشر والبطر بالنعمة بعد الانكار عليكم . وقال الحسن وان تعودوا لقتال محمد صلى الله عليه وآله نعد عليكم بالقتل والاسر يامعشر قريش وجماعة الكفار وان تنتهوا عن الكفر بالله العظيم ورسوله وعن قتال نبيه فهو خير لكم وانفع لكم واقرب الى مرضاة الله .

والانتهاء ترك الفعل لاجل النهي عنه ، تقول نهيته عن كذا فانتهى ، وامرته فاتمر ، على فعل المطاوع وقد يطاوع بأن يقال: كسرته فانكسر ،وقد يكون الانتهاء بمعنى بلوغ الغاية .

وقوله تعالى « ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً » معناه انه لن يغني عنكم جمعكم في الدفاع عنكم والنصرة ـ وان كانوا كثيرين ـ وإن الله مـع المؤمنين بالنصرة لهم والمعونة .

قوله تعالى

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) آية.

هـذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ، وإنما خصهم بالخطاب ، لان غيرهم بمنزلة من لايعتد به في العمل بما يجب عليه مع مافي إفراده إياهم بالخطاب من إعظام لهم واجلال ورفع من اقدارهم ، وإن دخل في معناه غيرهم .

والايمان : هو التصديق بما اوجب الله على المكلف او ندبه اليه .

وقال الرماني : هو التصديق بما يؤمن من العقاب مع العمل به .

امر الله تعالى المؤمنين أن يطيعوا الله ورسولـه ، والطاعـة هي امتثال امره وموافقة إرادته الجاذبة الى الفعل بطريق الرغبة اوالرهبة ، والاجابة موافقة الارادة فيما يعمل من اجلها . وقوله « ولا تولوا عنه وانتم تسمعون » معناه ولاتعرضوا عن امره ونهيه وانتم تسمعون دعاءه لكم،فنهاهم عن التولي في هذه الحال . وقال الحسن: معناه وانتم تسمعون الحجة .

قوله تعالى :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) آية .

« ولاتكونوا » في موضع جزم وحذف النون دلالة على الجزم .

نهى الله تعالى المؤمنين الذين خصهم بالذكر في الآية الاولى عن ان يكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون ، وفي الكلام حذف المنهي عنه ، لانه قد دل عليه من غير جهة الذكر له ، وفي ذلك غاية البلاغة ، والتقدير ولايكونوا في قولهم المنكر هذا « كالذين » والتشبيه على ثلاثة اوجه : أعلى وأدنى واوسط ، فالاعلى هو الذي حذف معه أداة التشبيه ، كقولهم للانسان : هذا الأسد ، والاوسط تثبت معه مجردة كقوله « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة »(١) والادنى تأتي معه مقيدة كقولهم الجسم كالعرض في الحدوث .

ومعنى قوله « قالوا سمعنا وهم لايسمعون » معناه سمعنا سماع عالم قابل ، وليسوا كذلك ، وهو من صفة المنافقين في قول ابن اسحاق وابي علي . وقال الحسن : يعني به أهل الكتاب . وقيل : هو من صفة المشركين ، فجعلوا بمنزلـة من لايسمع في أنهم لم ينتفعوا بالمسموع . وقال ابو علي : هي نفي القبول من قولك

(١) سورة ٢٤ النور آية ٣٩

سمع الله لمن حمده . وقال الزجاج : يعني الذين قالوا « لو نشاء لقلنا مثل هـذا » فسماهم الله لايسمعون لانهم استمعوا استماع عداوة وبغضاء فلم يتفهموا ولم يتفكروا فكانوا بمنزلة من لم يسمع . وقال ابن اسحاق : أراد به الذين يظهرون الايمان ويسرون النفاق .

قوله تعالى :

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ

(٢٢) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى « أن شر الدواب عندالله الصم» والشر إظهار السوء الذي يبلغ من صاحبه وهو نقيض الخير . وقيل الشر الضر القبيح ، والخير النفع الحسن . وقيل الشر الضر الشديد . والخير النفع الكثير ، واصل الشر الاظهار من قول الشاعر :

كما اشرّت بالأكف المصاحف (١)

اي أظهرت ، وشر الرجل يشر شرّاً وشررت الثوب إذا بسطته في الشمس وشرر النار ما تطاير منه لظهوره بانتشاره وتفرقه ، ومنه الشر وهـو مايظهر من الضرر كشرر النار .

والدواب جمع دابة وهي مادب على وجه الارض إلا انـه تخصص في العرف بالخيل دب يدب دبيباً .

فبين ان هؤلاء الكفار شر مادب على الارض من الحيوان . ثم شبههم بالصم

---

(١) نسب الى كعب بن جعيل . وقيل هو لابن الحمام المري . وقيل لابن جهمة الأسدي راجع : وقعة صفين : ٣٣٦ ، ٤١١ ، واللسان « شرر » وروايته :

فما برحوا حتى رأى الله صبرهم   وحتى أشرت بالأكف المصاحف

واشرت ــ بتشديد الراء المفتوحة ، مبني للمفعول ــ اي أظهرت بكثرة .

البكم الذين لا يعقلون من حيث لم ينتفعوا بما كانوا يسمعون من وعظ الله ولا يتكلمون بكلمة الحق ، والصمم آفة في الاذن تمنع السمع ، صم يصم صمماً وهو اصم . وصمم على الامر إذا حقق العزم عليه وتصام عن القول إذا تغافل عنه . وعود اصم خلاف المجوف وأصله المطابقة من غير خلل . والبكم الخرس : الذي يولد به صاحبه لانه قد يكون لآفة عارضة ، وقد يكون لآفة لازمة .

وقال ابو جعفر عليه السلام نزلت الآية في بني عبد الدار لم يكن اسلم منهم غير مصعب بن عمير وحليف لهم يقال له سويبط . وقيل : نزلت الآية في النضر ابن الحارث بن كلدة من بني عبد الدار بن قصي .

قوله تعالى :

وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُعْرِضُونَ (٢٣) آية .

معنى الآية ان الله تعالى اخبر انه لو علم فيهم . يعني هؤلاء الكافرين انهم يصلحون بما يورده عليهم من حججه وآياته لأسمعهم إياها ولم يخلف عنهم شيئاً منها وإن كان قد أزاح عللهم في التكليف بما نصب لهم من الأدلة الموصلة الى الحق، ولكنهم لا يصلحون بل يتولون وهم معرضون .

وقال ابن جريج وابن زيد : لاسمعهم الحجج والمواعظ سماع تفهم .

وقال ابو علي : لاسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم من قصي بن كلاب وغيره

وقال الزجاج : لاسمعهم جواب كل ما يسألون عنه .

والاعراض خلاف الاقبال وهو الانصراف بالوجه عن جهة الشيء والاقبال الانصراف بالوجه الى جهته والاستماع إيجاد السماع بايجاده والتعريض له . فان الله تعالى يسمعهم بأن يوجد السماع لهم ، والانسان يسمعهم بأن يعرضهم للسماع

الذي يوجدلهم ، هذا على مذهب من قال : إن الادراك معنى ، ومن قال : انه ليس بمعنى ، فمعنى الاسماع هوان يوجد من كلامه الدال على ما يجب أن يسمعوه لكونهم أحياء لا آفة بهم في حواسهم .

وقال الزجاج المعنى « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم » كلما يسألون عنه ولو اسمعهم كلما يخطر ببالهم لتولوا وهم معرضون . وقال الحسن : هو إخبار عن علمه كما قال « ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه » (١).

وفي الآية دلالة على بطلان قول من يقول: يجوزان يكون في مقدوره لطف لو فعله بالكافر لآمن .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) آية .

أمر الله تعالى المؤمنين ان يجيبوا الله والرسول إذا دعاهم وان يطلبوا موافقته والاستجابة طلب موافقة الداعي فيما دعا اليه على القطع به. وقال ابو عبيدة والزجاج: معنى استجيبوا اجيبوا . وقال كعب بن سعد الغنوي :

وداع دعا يا من يجيب الى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيب (٢)

اي لم يجبه . والفرق بين الدعاء الى الفعل وبين الامر به أن الامر فيه ترغيب في الفعل المأمور به، ويقتضي الرتبة ، وهي ان يكون متوجهاً الى من دونه ، وليس

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢٨

(٢) مر هذا البيت في ١ / ٨٦ و ٢ / ١٣١ و ٣ / ٨٨ .

كذلك الدعاء لأنه يصح من دونك لك .

وقوله « إذا دعاكم لما يحييكم » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

احدها ـ دعاكم الى احياء امركم بجهاد عدوكم مع نصر الله إياكم ، وهو قول ابن اسحاق والفراء والجبائي . وقال البلخي : معناه لما يبقيكم ويصلحكم ويهديكم ويحيي امركم .

الثاني ـ معناه لما يورثكم الحياة الدائمة في نعيم الاخرة من اتباع الحق : القرآن

الثالث ـ معناه لما يحييكم بالعلم الذي تهتدون به من اتباع الحق ، والاقتداء بما فيه .

وقوله « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه » قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها ـ ان يفرق بين المرء وقلبه بالموت او الجنون وزوال العقل ، فلا يمكنه استدراك ما فات . والمعنى بادروا بالتوبة من المعاصي قبل هذه الحال .

الثاني ـ ان معناه بادروا بالتوبة لأنه اقرب الى المرء من حبل الوريد لا يخفى عليه خافية من سره وعلانيته وفي ذلك غاية التحذير .

والثالث ـ تبديل قلبه من حال الى حال لانه مقلب القلوب من حال الأمن الى حال الخوف ومن حال الخوف الى حال الأمن على ما يشاء .

وروي عن ابي عبد الله عليه السلام في معنى قوله « يحول بين المرء وقلبه » قال لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبداً ولا يستيقن أن الباطل حق ابداً .

فأما من قال من المجبرة : إن المراد إن الله يحول بين المرء والايمان بعد امره إياه به فباطل ، لانه تعالى لا يجوز عليه أن يأمر أحداً بما يمنعه منه ويحول بينه وبينه ، لان ذلك غاية السفه ، تعالى الله عن ذلك . وايضاً فلا احد من الامة يقول : إن الايمان مستحيل من الكافر ، فانهم وان قالوا إنه لا يقدر على الايمان يقولون يجوز منه الايمان ويتوقع منه ذلك ، ومن ارتكب ذلك فقد خرج من الاجماع .

ويحتمل ان يكون المراد ان امر الله بالموت يحول بين المرء وقلبه ، كما قال « هل ينظرون إلا ان يأتيهم الله » (١) أي أمر الله .

وقال قوم : يجوز ان يكون معناه يحول بينه وبين قلبه بان يسلبه قلبه فيبقى حياً بلا قلب وهذا قريب من معنى زوال العقل، قالوا : يجوز أن يكون المراد : انه عالم بما ينظرون اليه ، ومايضمره العبد في نفسه من معصيته فهو في المعنى كأنه حائل بينه وبينه ، لأن العبد لايقدر على اضمار شيء في قلبه إلا والله عالم به ، وهذا وجه حسن . وروي في التفسير أن الله يحول بين المؤمن وبين الكفر . والمعنى في ذلك ان الله يحول بينه وبين الكفر بالوعد والوعيد ، والامر والنهي، والترغيب في الثواب والعقاب. فأما ماروي عن سعيد بن جبير وغيره من ان الله يحول بين الكافر والايمان فقد بينا ان ذلك لايجوز على الله . والعقل مانع منه . ولو صح ذلك لكان الوجه فيه ان الله يحول بين الكافر وبين الايمان في المستقبل بان يميته ، لأنــه لايجب تبقيته حتى يؤمن ، بل لوابقاه لكان حسناً ، وان لم يبقه كان ايضاً حسناً . وقوله تعالى « وانه اليه تحشرون » معناه انكم تحشرون يوم القيامه للجزاء على اعمالكم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فلذلك يجب المبادرة بالطاعة والاقلاع عن المعصية بالتوبة وترك الاصرار على القبائح .

قوله تعالى :

وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٥) آية

امر الله تعالى المكلفين من خلقه أن يتقوا فتنة لاتصيب الذين ظلموا منهم خاصة. والفتنة البلية التي يظهر بها باطن امر الانسان فيها . والفتنة الهرج الذي يركب فيه

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢١٠

الناس بـالظلم . قال ابن عباس امر الله المؤمنين ان لا يقروا المنكر بين أظهرهم ، فيعمهم الله بالعذاب . وقال عبدالله : هو من قوله تعالى « إنما اموالكم وأولادكم فتنة » (١) وقال الحسن : الفتنة البلية . وقال ابن زيد : هي الضلالة • وقال الجبائي: هي العذاب . « لاتصيبن » فالاصابة الايقاع بالشيء بحسب الارادة ، وضده الخطأ . يقال : أصاب الغرض او أخطأه .

وقوله « لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » معناه انها تعم لان الهرج إذا وقع دخل ضرره على كل أحد . ويجوز أن يقال يخص الظالم ، ولا يعتد بما وقع بغيره للعوض الذي يصل إليه . ويحتمل أن يكون اراد إن هذه العقوبة على فتنتكم لاتختص بالظالمين منكم بل كل ظالم منكم كان أو من غيركم فستصيبه عقوبة ظلمه وفسقه وفتنته واراد بذلك تحذير الناس كلهم ، وأنهم سواء في المعصية ، وماتوجبه من العقوبة ليكون الزجر عاماً .

وفي دخول النون الثقيلة في « تصيبن » قولان :

احدهما ـ قال الفراء: لانه نهي بعد أمر وفيه معنى الجزاء، كقوله «يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده » (٢) ومثله لاارينكم ههنا .

والثاني ـ أن يكون خرج مخرج جواب القسم .

وقال الزجاج : يحتمل ان يكون نهياً بعد أمر وتقديره اتقوا فتنة ، ثم نهى، فقال « لاتصيبن الذين ظلموا » أي لايتعرض الذين ظلموا لما ينزل معه العذاب . ومثله قال في قوله « لايحطمنكم » فيكون لفظ النهي لسليمان ، ومعناه النمل، كما يقول القائل لأرينك ههنا ، فلفظ النهي لنفسك ، والمراد لاتكون ههنا ، فاني اراك.

و « الخاصة » للشيء ماكان له دون غيره و نقيضة العامة .

---

(١) سورة ٨ الانفال آية ٢٨ وسورة ٦٤ التغابن آية ١٥

(٢) سورة ٢٧ النمل آية ١٨

وقولـه « واعلموا أن الله شديد العقاب » معناه لمن لـم يتق معاصيه ولـم يتبع اوامره،

وقال الحسن والسدي ومجاهد وابن عباس : نزلت هذه الآية في أهل الجمل. وقال قتادة قال الزبير : لقد نزلت وما نرى ان أحداً منا يقع فيها ثم اختلفنـا حتى اصابتنا خاصة . وروي ذلك عن الزبير من جهات .

قوله تعالى :

وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) آية .

الذكر ضد السهو ، وهو إحضار المعنى للنفس . وإنما أمروا بالتعرض له،لان إحضار المعنى بقلوبهم ليس من فعلهم .

وقوله « إذ انتم قليل » فالقلة النقصان عن المقدار في العدد وكان اصحاب النبي صلى الله عليه وآله قليلين في الأصل فلطف الله لهم حتى كثروا وعزوا، وقل اعداؤهم وذلوا وكانوا مستضعفين ، فقووا .

والاستضعاف طلب ضعف الشيء بتهوين حالـه . والضعف خـلاف القوة • والاستضعاف استجلاب ضعفه بتحقير حاله ، فامتن الله عليهم بذلك وبين انهم كانوا قليين فكثرهم وكانوا مستضعفين ، فقواهم بلطفه .

وقولـه « تخافون أن يتخطفكم الناس » فالتخطف الاخذ بسرعة انتزاع ، تخطف تخطفاً وخطف خطفاً واختطف اختطافاً ، فبين انهم كانوا خائفين من ان ينال منهم العدو .

وقوله « فآواكم » اي جعل لكم مأوى حريزاً ترجعون إليه وتسكنون فيه

وقال السدي« آوا كم » الى المدينة . وقوله ، « وأيدكم بنصره » يعني بالانصار في قول السدي. وقيل في المعني بقوله « الناس » قولان :

احدهما ـ مشركوا قريش في قول عكرمة وقتادة .

وقال وهب بن منبة يعني فارس والروم ،

وقوله « ورزقكم من الطيبات » أي أطعمكم غنيمتكم حلالا طيباً « لعلكم تشكرون » أي لكي تشكروه على هذه النعم المترادفة والآلاء المتضاعفة .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) آية .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم ان يخونوا الله والرسول . والخيانة منع الحق الذي قد ضمن التأدية فيه . وهي ضد الامانة . وأصل الخيانة ان تنقص من ائتمنك أمانته ، قال زهير :

بارزة الفقاوة لم تخنها　　قطاف في الركاب ولا خلاء (١)

أي لم تنقص من فراهتها . والمعنى لاتخونوا مال الله الذي جعله لعباده فلا يخن بعضكم بعضاً فيما ائتمنه عليه في قول ابن عباس . وقال الحسن ، والسدي: لاتخونوه كما صنع المنافقون . وقال الجبائي : نهاهم ان يخونوا الغنائم . وقال ابن زيد : الأمانة ههنا الدين ، نزلت في بعض المنافقين . والامانة مأخوذة من الأمن من منع الحق وهي حال يؤمن معها منع الحق الذي تجب فيه التأدية

وقوله « وأنتم تعلمون » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ وأنتم تعلمون انها امانة من غير شبهة .

---

(١) مقاييس اللغة ٧٩/١

والثاني ـ وانتم تعلمون ما في الخيانة من الذم والعقاب بخلاف الجهال بتلك المنزلة .

وقوله : « وتخونوا » موضعه الجزم بتقدير ، ولاتخونوا في قول ابن عباس وقال السدي : هو نصب على الظرف (١) أي إنكم إذا خنتم الرسول فقد خنتم أماناتكم . قال الفراء ، ومثله قول الشاعر :

لاتنه عن خلق وتأت مثله　　عار عليك إذا فعلت عظيم (٢)

وحكى الفراء في بعض القراآت : « ولاتخونوا أماناتكم »

وقال جابر بن عبدالله : نزلت الاية في بعض المنافقين حين انذر أبا سفيان بخروج النبي لأخذ العير . وقال الزهري : نزلت في ابي لبابة في قصة بني قريظة وهو المروي عن أبي جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام) .

قوله تعالى :

وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) آية .

أمر الله تعالى المكلفين ان يعلموا ويتحققوا ان اموالهم واولادهم فتنة .وإنما يمكنهم معرفة ذلك بالنظر والفكر في الأدلة المؤدية إليه ، وهو مايدعو إليه الهوى في الاموال والاولاد ، ومايصرف عنه فمن تفقد ذلك وتحرز منه نجاه من مضرته

والمراد بالفتنة ههنا المحنة التي يظهر بها ما في النفس من اتباع الهوى او تجنبه فيخلص حاله للجزاء بالثواب او العقاب بحسب الاستحقاق .

(١) المقصود من الظرف كونه بعد الواو التي بمعنى (مع)

(٢) قطر الندى ٧٧ الشاهد ٢٣ وقد مر في أماكن كثيرة من هذا الكتاب

والولد حيوان يتكون من حيوان بخلق الله له ، فعلى هذا لم يكن آدم ولداً وكان عيسى ولد مريم . والمال هو النصاب الذي تتعلق به الزكاة من ذهب او فضة او ابل او بقر او غنم عند بعض المفسرين . وأصله الكسر من العين والورق .

و (العظيم) استحقاق الصفة بالغنى . فالكثير عظيم للاستغناء به عن القليل من جنسه ، والقليل لايستغنى [به] عنه .

بين الله تعالى ان الاموال والاولاد في هذه الدنيا محنة وبلاء وان الله تعالى عنده الثواب العظيم على الطاعات وترك المعاصي .

وروي عن ابن مسود انه قال : ليس احد منكم إلا وهو مشتمل على فتنة لقوله «واعلموا أنما اموالكم واولادكم فتنة» فاسألوا الله تعالى ان يعيذكم منها .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا ٱللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ(٢٩) آية .

هذا خطاب للمؤمنين خاطبهم الله بأنهم ان يتقوا معاصيه ويمتثلوا طاعاته ويتقوا عقابه باجتناب معاصيه يجعل لهم اجراً على ذلك « فرقاناً » . وقيل في معنى الفرقان اقوال : -

احدها - قال ابن زيد وابن اسحاق يجعل هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل .

وقال مجاهد : معناه يجعل لكم مخرجاً في الدنيا والآخرة .

وقال السدي : معناه يجعل لكم نجاة . وقال الفراء : يجعل لكم فتحاً ونصراً

وعزاً كقوله : « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان »(١) وقال الجبائي : يجعل لكم نصراً وعزاً وثواباً لكم ، وعلى اعدائكم خذلانا وذلا وعقاباً كل ذلك يفرق بينكم وبينهم في الدنيا والآخرة .

وانما جاز الشرط في اخبار الله مع اقتضائه شك المخبر منا من حيث ان الله تعالى يعامل عباده في الجزاء معاملة الشاك للمظاهرة في العدل ولذلك جازت صفة الابتلاء والاختبار لما في ذلك من البيان ان الجزاء على ما يظهر من الفعل دون ما في المعلوم مما لم يقع منه . ثم بين انه يضيف الى ذلك تكفير سيئاتهم وغفران ذنوبهم وسترها عليهم تفضلا منه تعالى .

وقوله « والله ذو الفضل العظيم » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال الجبائي : معناه ان من ابتدأكم بالفضل العظيم لأنه كريم لنفسه لا يمنعكم ما استحقيتموه بطاعاتكم له .

الثاني ـ انه الذي يملك الفضل العظيم فينبغي ان يطلب من جهته .

قوله تعالى :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) آية .

خاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله فقال : واذكر « إذ يمكر بك الذين كفروا » والمكر الفتل الى جهة الشر في خفى وأصله الالتفاف من قول ذي الرمة .

عجزاء ممكورة خمصانة قلق   عنها الوشاح وتم الجسم والقصب(٢)

اي ملتفة . والمكر والختل والغدر نظائر . والفرق بين المكر والغدر ان الغدر نقض العهد الذي يلزم الوفاء به ، والمكر قد يكون ابتداء من غير عقد .

---

(١) سورة ٨ الأنفال آية ٤١   (٢) مقاييس اللغة ٤ / ١٣٣

ووصف الله تعالى بأنه ماكر يحتمل وجهين :

احدهما ـ انه سمى الجزاء على المكر مكراً للازدواج ، كقوله « الله يستهزىء بهم »(١) اي يجازيهم على الاستهزاء فيكون التقدير والله خير المجازين على المكر ، ذكره الزجاج ،

والثاني ـ ان يكون على غير تضمن الحيلة لكن على اصل اللغة . قال ابو علي : ومكره بهم حق وصواب « وهو خير الماكرين » مكراً .

وقوله « ليثبتوك » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ ليثبتوك في الوثاق ، في قول ابن عباس والحسن ومجاهدوقتادة .

والثاني ـ قال عطا وعبدالله بن كثير ، والسدي « ليثبتوك » في حبس .وقال ابو علي الجبائي : معناه ليخرجوك ، يقال : اثبته في الحرب إذا جرحه جراحة ثقيلة .

وقوله « اويخرجوك » قال الفراء : او يخرجوك على بعير تطرد به حتى تهلك او يكفيكموه بعض العرب . وهو قول ابي البختري وهشام .

وكان سبب ذلك أنهم تآمروا في دار الندوة ، فقال عمرو بن هشام : قيدوه تتربصون به ريب المنون . وقال البختري : أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه لكم . وقال أبو جهل :ماهذابرأي ، ولكن اقتلوه بان يجتمع عليه من كل بطن رجل فيضربونه بأسيافهم ضربة رجل واحد ، فترضى حينئذ بنو هاشم بالدية فصوب إبليس هذا الرأي وخطأ الأولين وزيفهما ، فاوحى الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله بذلك فامره بالخروج ، فخرج إلى الغار ، في قول ابن عباس ، ومجاهد وقتادة ، وهو قوله « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ولاخلاف بين المفسرين أنه بات عليٌّ تلك الليلة ، وهي الليلة التي أمر النبي صلى الله عليه وآله بالخروج على فراشه إلى أن اصبح ، وكانوا يحرسونه إلى الصباح ، ولما طلع الفجر ثاروااليه

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٥

فاذا علي ، قالوا له أين صاحبك ؟ قال : لاأدري ، فتركوه وخرجوا في أثره .

قوله تعالى :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) آية .

اخبر الله تعالى عن عناد هؤلاء الكفار ومباهتتهم للحق بأنهم بلغوا في ذلك إلى رفع الحق بما ليس فيه شبهة ، وهو أنه « اذا تتلى عليهم آياته » يعني القرآن قالوا « لو نشاء لقلنا مثل هذا » وقد أبان التحدي كذبهم في ذلك وتخرصهم فيه بما ظهر من عجزهم عن سورة مثله ، وانما قالوا « لو نشاء لقلنا مثل هذا » ولم يجز أن يقولوا لو نشاء لقلبنا الجماد حيواناً ، لأنه يتموه هذا على كثير من الناس ولايتموه ذلك ، على أن قوم فرعون ظنوا أن السحرة يمكنهم قلب الجماد حيواناً .

وقوله « قد سمعنا » معناه أدركناه بآذاننا . والسماع إدراك الصوت بحاسة الأذن ، ولولم نذكر الصوت لانتقض بالحرارة والبرودة والآلام واللذة اذا ادرك بها ، ولايسمى سماعاً . وعلى هذا اذا قيل : ماالرؤية بالبصر ؟ ينبغي أن يقال : هي ادراك المرئيات بها ، لأنه قد يدرك الحرارة والبرودة بها . فاذا قلنا المرئيات لم ينتقض بذلك .

ثم أخبر الله تعالى عن قولهم بأن قالوا ليس هذا الذي سمعناه « إلا أساطير الأولين » والأساطير جمع واحده أسطورة في قول الزجاج . وقال غيره : هو جمع أسطر ، واسطر جمع سطر ، وزيدت الياء للمد ، كما قالوا دراهم ، وارادوا ما هذا إلا ماسطره من الاحاديث بكتبه سطراً بعد سطر .

قوله تعالى :

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) آية بلاخلاف .

تقديره واذكر يامحمد إذ قال هؤلاء الكفار « إن كان هذا » القرآن « هــو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم » شديد مؤلم . قال سعيد ابن جبير ، ومجاهد : كان الطالب لذلك النضر بن الحــارث بن كلدة لأنه كان سمع سجع اهل الحيرة وكلام الرهبان ، فقتله النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر صبراً فقال : يارسول الله من للصبية ؟ قال النار . وقيل عقبة بن ابي معيط ، والمطعم بن عدي ، قتل هؤلاء الثلاثة صبراً من جملة من أسر ، وفي النضر نزل قوله « سأل سائل بعذاب واقع للكافرين » (١) يعني ماسأله ههنا . وهذا القول من قائله يجوز أن يكون عناداً ، فان المعاند قد تحمله شدة عداوته للحق على اظهار مثل هذا القول . ليوهم انه على بصيرة في أمره . ويجوز أن يكون ذلك لشبهة تمكنت في نفوسهم .

وقال الجبائي : ذلك دليل على اعتقادهم خلاف الحق الذي اتى به النبي صلى الله عليه وآله وهو حجة اهل المعارف ، لأنهم لوعرفوا بطلان ماهم عليه ، لما قالوا مثل هــذا القــول .

فان قالوا كيف طلبوا بالحق من الله العذاب وانما يطلب به الخير والثواب ؟ .

قلنا : لانهم قالوا ذلك على أنه ليس بحق من الله عندهم . واذا لم يكن حقاً من الله لم يصبهم البلاء الذي طلبوه .

فان قيل لم قالوا « امطر علينا حجارة من السماء » والامطار لايكون إلا من السماء ؟ قلنا عنه جوابان :

احدهما ـ أن امطار الحجارة يمكن ان يكون من عل دون السماء .

والثاني ـ ان يكون على جهة البيان بـ (من) .

(١) سورة ٧٠ المعارج آية ١ـ٢

والحجارة واحد الاحجار ، وهو ماصلب من الاجسام ، يقال استحجر الطين إذا صلب ، فصار كالحجر . واكثر مايقال حجر للمدر ، ومع ذلك فالياقوت حجر ولذلك يقال الياقوت افضل الحجارة ، ولايقال الياقوت افضل الزجاج ، لانه ليس من الزجاج وكل شيء من العذاب يقال امطرت ومن الرحمة يقال مطرت .

وقوله « هو » يجعل عماداً في ظننت واخواتها . ويسميه البصريون صلة زائدة وتوكيداً كزيادة (ما) ولا يزاد إلا في كل فعل لايستغنى عن خبره ، وفي لغة تميم يرفع ذلك كله ، فيقولون « إن كان هذا هو الحق » وكذلك قوله « ولكن كانوا هم الظالمين » (١) و « تجدوه عند الله هو خيراً واعظم اجراً » (٢) كل ذلك يرفعونه . وعلى الاول ينصب ما بعدها ومثله قوله « ويرى الذين اوتوا العلم » إلى قوله « هو الحق » (٣) .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) آية .

اخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله على وجه الامتنان عليه واعلامه منزلته عنده انه لايعذب احداً من هؤلاء الكفار بهذا العذاب الذي اقترحوه على وجه الفساد للحق « وانت » يا محمد « فيهم » موجود .

والتعذيب تجديد الآلام حالا بعد حال ، لأن اصله الاستمرار ، فالعذب من استمرار الشيء لما فيه من الملاذ . والعذاب من استمراره لما فيه من الآلام واللام في قوله « ليعذبهم » لام الجحد . واصلها لام الاضافة . وإنما دخلت في النفي

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٧٦   (٢) سورة ٧٣ المزمل آية ٢٠
(٣) سورة ٣٤ سبأ آية ٦

ولم تدخل في الايجاب لتعلق الخبر بحرف النفي ، كما دخلت الباء في خبر(ما) ولم تدخل في الايجاب .

وإنما لم يعاقب الله تعالى الخلق مع كون النبي صلى الله عليه وآله فيهم على سلامته مما ينزل بهم ، لأنه تعالى أرسله رحمة للعالمين . وذلك يقتضي ألا يعذبهم وهو فيهم .

وقوله « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » قيل في معناه أقوال :

احدها ـ ان النبي صلى الله عليه وآله لما خرج من مكة بقي فيها بقية من المؤمنين يستغفرون ، وهو قول ابن عباس ، وعطية ، وابي مالك ، والضحاك ، واختاره الجبائي .

وقال آخرون : اراد بذلك لايعذبهم بعذاب الاستئصال في الدنيا ،وهم يقولون يارب غفرانك . ويعذبهم على شركهم في الآخرة، وذلك عن ابن عباس في رواية أخرى ، وهو قول أبي موسى، ويزيد بن رومان ، ومحمد بن مبشر .

الثالث ـ أنهم لو استغفروا لم يعذبوا ، وفي ذلك استدعاء إلى الاستغفار روي ذلك عن ابن عباس في رواية أخرى ، وبه قال مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد .

وقال الزجاج : معناه لايعذب الله من يؤل إلى الاسلام .

وقال الحسن وعكرمة : هذه الآية منسوخة بالتي بعدها . قال الرماني: هذا غلط ، لأن الخبر لاينسخ .

قوله تعالى :

وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ ٱللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

لا يَعلَمُونَ (٣٤) آية .

(ما) في قوله « وما لهم ان لايعذبهم الله » خرجت مخرج الاستفهام ومعناه إيجاب العذاب ،وجاز ذلك، لأنه ابلغ في معنى الايجاب ،من حيث انه لاجواب – لمن سأل عن مثل هذا – يصح في نفي العذاب ، والمعنى لم لايعذبهم وهذا فعلهم .

وموضع (أن) نصب بمعنى أي شيء لهم في أن لايعذبهم ، لكن لما حذف الجار عمل معنى الفعل من الاستقرار ، وجاز الحذف مع (أن) ولم يجز مع المصدر لطول (أن) بالصلة اللازمة من الفعل والفاعل ، وليس كذلك المصدر . وحكي عن الأخفش ان (أن) زائدة مع عملها .

وقوله « وهم يصدون عن المسجد » والصد المنع ، والصد الاعراض عن الشيء من غير حيلولة بينه وبين غيره والمراد ههنا المنع .

وقوله : « وما كانوا اولياءه » جمع ولي وهو الذي يستحق القيام بأمر الشيء ويكون احق به من غيره ، فعلى هذا الله تعالى ولي المتقين دون المشركين . وقال ابو جعفر عليه السلام والحسن قال المشركون : نحن اولياء المسجد ، فرد الله ذلك عليهم ، فقال « وما كانوا اولياءه » . ثم اخبر الله تعالى « إن اولياؤه » بمعنى ليس أولياء المسجد إلا المتقون الذين يتركون معاصي الله ويجتنبونها .

وقال قوم : المعنى إن اولياء الله إلا المتقون والاول احسن : لانه مما يقتضيه الانكار .

وقيل في معنى (لا) قولان : احدهما – ان معناها الجحد اي مالهم في الامتناع من العذاب . وقيل هي صلة ، لان المعنى ايجاب العذاب ، كما قال الشاعر :

لو لم تكن غطفان لاذنوب لها إذن للام ذووا احسابها عمرا (١)

(١) قائله الفرزدق ديوانه ٢٨٣ والخزانة ٨٧/٢ والطبري ٥ | ٣٠٢و١٣/ ٥١٩

والاول احسن ،لأن المعنى لم لايعذبهم الله. فان قيل : كيف تجمعون بين الآيتين على قول من لاينسخ الاولى ، فان في الاولى نفى ان يعذبهم الله وهم يستغفرون وفي الثانية اثبت ذلك ؟ قلنا عنه ثلاثة اجوبة :

احدها ـ ان يكون أراد ومالهم ان لايعذبهم الله في الآخرة

والثاني ـ ان يكون يعني بالاولى عذاب الاستئصال كما فعل بالامم الماضية وبالثانية اراد عذاب السيف والاسر وغير ذلك ويكون قوله « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » اي انه لايعذبهم بعذاب الدنيا ، والآخرة إذا تابوا واستغفروا .

الثالث ـ أنه لايعذبهم مادام النبي فيهم وماداموا يستغفرون وإن كانوا يستحقون العذاب بكفرهم وعنادهم .

وقوله : « ولكن أكثرهم لايعلمون » دليل على بطلان قول من قال المعارف ضرورة .

قوله تعالى

وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) آية .

روى الحسين العجفي عن ابي بكر « صلاتهم » نصباً « إلا مكاء وتصدية » رفع فيهما . والصواب ماعليه القراء ، لان « صلاتهم » معرفة و « مكاء وتصدية » نكرة ولايجوز ان يجعل اسم كان نكرة وخبره معرفة . ومن قرأ كذلك فلان الصلاة لما كانت مؤنثة ولم يكن في كان علامة التأنيث اضاف الفعل إلى المذكر وهو « مكاء » . وهذا ليس بصحيح ، لأن « صلاتهم » لما كان مضافاً إلى المذكر جاز ان يذكر كما ان المذكر إذا اضيف إلى المؤنث جاز ان يؤنث ، نحو قولهم : ذهبت بعض اصابعه .

ومعنى الآية الاخبار من الله تعالى أنه لم تكن صلاة هؤلاء الكفار الصادين عن المسجد الحرام « إلا مكاء » لئلا يظن ظان ان مع كونهم مصلين ومستغفرين لايعذبهم الله ، كما قال في الآية الاولى ، فبين ان صلاتهم كانت مكاء وتصدية .

والمكاء صفير كصفير المكاء . وهو طائر يكون بالحجاز وله صفير قال الشاعر :

ومكابها فكأنما يمكو بأعصم عاقل (١)

وأصل المكاء جمع الريح للصفير . ويقال مكا يمكو مكاء إذا صفر بفيه ومنه يمكو است الدابة إذا انتفخت بالريح . والاست : الكوة ، والمكو ان يجمع الرجل يديه ثم يدخلهما في فيه ثم يصيح . ومنه قول عنترة :

وحليل غانية تركت مجدلا　　تمكو فريضته كشدق الاعلم (٢)

اي يصفر بالريح لما طعنه والتصدية التصفيق يقال صدى يصدي تصدية إذا صفق بيديه . ومنه الصدى صوت الجبل ، ونحوه . ومنه تصدى للملك إذا تعرض له ليكلمه . وقال ابن عباس ، وابن عمر ، والحسن ، وعطية ، ومجاهد ، وقتادة والسدي : المكاء الصفير ، والتصدية التصفيق ، قال الراجز :

ضنت بخد وجلت عن خد　　فأنا من غرو الهوى أصدي

أي اصفق بيدي تعجباً . والغرو : العجب .

وقال ابو علي الجبائي : كان بعضهم يتصدى لبعض ليراه بذلك الفعل ، وكان يصفر له . وقال سعيد بن جبير وابن زيد : التصدية صدهم عن البيت الحرام . وقيل: إنهم كانوا يخلطون ويشوشون بذلك على النبي صلى الله عليه وآله .

وإنما سمي مكاؤهم بأنه صلاة لأمرين :

(١) مجاز القرآن ١ | ٢٤٦

(٢) ديوانه : ٢٤ من معلقته الشهيرة . واللسان (مكا) وتفسير القرطبي ٧ | ٤٠٠ والطبري ١٣ | ٥٢١ .

احدهما ـ انهم كانوا يقيمون فعلهم الصفير والتصفيق مقام الصلاة والدعاء والتسبيح .

والاخر ـ انهم كانوا يعملون كعمل الصلاة مما فيه هذا .

وقوله « فذوقوا العذاب » قال الحسن ، والضحاك ، وابن جريج ، وابن اسحاق : إن معناه عذاب السيف . وقال ابو علي الجبائي : يقال لهم في الاخرة « ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » في دار الدنيا وهو قول البلخي . والمعنى باشروه وليس المراد به من ذوق الفم .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)

آية في الكوفي والمدنيين وآيتان في البصري خاصة .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار بأنهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله وغرضهم المنع عن سبيل الله . وسبيل الله ههنا ، هو دين الله الذي أتى به محمد صلى الله عليه وآله وسمي سبيل الله ههنا ، لان بسلوكه واتباعه يبلغ ماعندالله ، وإن لم يعلموا أنها سبيل الله لانهم قصدوا إلى الصد عنها ، وهي سبيل الله على الحقيقة . ويجوز أن يقال قصد الصد عن سبيل الله ، وإن لم يعلم . ولايجوز قصد أن يصد من غير أن يعلم ، لأن (أن) تفسر الوجه الذي منه قصد ، فلا يكون إلا مع العلم بالوجه كقولك قصد أن يكذب ، وقصد الكذب من غير ان يعلم أنه كذب .

وإنما قال « ينفقون » ثم قال « فسينفقونها » ، لأن الاول معناه ان من

شأنهم ان ينفقوا للصد ،والثاني ـ معناه انه سيقع الانفاق الذي يكون حسرة بما يرونه من الغلبة . والحسرة الغم بما انكشف من فوت استدراك الخطيئة . والاصل الكشف من قولهم حسر عن ذراعه يحسر حسراً والحاسر خلاف الدارع . وحسر حسرة وهو حسير قال المراد :

ما انا اليوم على شيء خلا　　　يا بنةالقين تولي يحسرا (١)

وكان الانفاق المذكور في الاية القائم بـه أبو سفيـان : صخر بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من الاحابيش من كنانةفي قول سعيد ، وابن ابرى ،ومجاهد والحكم ابن عيينة . وفي ذلك قال كعب بن مالك :

وجئنا إلى موج من البحر وسطه　　　احابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن نصية　　　ثلاث مئين ان كثرن فأربع (٢)

وقال الضحاك: إنما عنى بالآية الانفاق يوم بدر .

وفي الآيةدلالة على نبوة النبي ﷺ لانه اخبر بالشيء قبل كونه فكان على مااخبر به .

قوله تعالىٰ :

لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ (٣٧) آية بلاخلاف .

---

(١) اللسان (حسر) . الحسر : الندامة . والقين العبدالمملوك .

(٢) سيرة ابن هشام ٣ | ١٤١ ، وطبقات فحول الشعراء : ١٨٣ . والطبري ١٣ | ٥٣٠ ومقاييس اللغة ٢ | ١٢٩.

قرأ حمزة والكسائي « ليميز » مضمومة الياء مشددة ، والباقون بفتح الياء خفيفاً .

اخبر الله تعالى انه يحشر الكفار إلى جهنم « ليميز الخبيث » الذي هو الكافر « من الطيب » الذي هو المؤمن . (والتمييز) هو إخراج الشيء عما خالفه مما ليس منه ، وإلحاقه بما هو منه . تقول مازه يميزه ، وميزه تمييزاً . وامتاز امتيازاً وانماز انميازاً والخبيث الرديء من كل شيء . وضده الطيب . ومنه خبث الحديد وخبث الفضة ، وخبث الانسان خبثاً ، وتخبث تخبثاً ، وتخابث تخابثاً وخبثه تخبيثاً و (الطيب) المستلذ من الطعام والطيب الحلال من الرزق ، والطيب من الولد الذي يفرح به والطيب نقيض الخبيث ، وهو الجيد من كل شيء .

وقيل المعنى ليميز الله ما انفقه المؤمنون في طاعة الله مما انفقه المشركون في معاصيه . وقوله « ويجعل الخبيث بعضه على بعض » معناه إن الكافر يكون على اسوء حال كالمتاع والركام ، هواناً ، وتحقيراً ، وإذلالا .

وقوله « فيركمه جميعاً » معناه تراكب بعضه فوق بعض . كالرمل الركام وهو المتراكب . ركمه يركمه ركماً وتراكم تراكماً وارتكم ارتكاماً . ومنه قوله تعالى في صفة السحاب « ثم يجعله ركاماً » (١) وقال الحسن يركمهم الله مع ما انفقوا في جهنم ، كما قال « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » (٢) ثم اخبر انه اذا ركمه جميعاً يجعله في جهنم واخبر عنهم بأنهم الخاسرون نفوسهم باهلاكهم اياها بارتكاب المعاصي والكفر المؤدي الى عذاب الابد .

قوله تعالى :

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ

---

(١) سورة ٢٤ النور آية ٤٣ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٣٦

يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) آية .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول للكفار إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف والمعنى إن انابوا عن الكفر والمعاصي وتابوا منها توبة خالصة ، لأن الكف عن المعاصي مع الاصرار لايوجب الغفران . وإنما اطلق الوعد في الآية بالانتهاء عن المعصية ، لان الانتهاء عنها لايكون مع الاصرار عليها ، لان الاصرار معصية .

وقوله « وان يعودوافقدمضت سنة الأولين » معناه وان يعودوا، ويرجعوا إلى المعصية « فقد مضت سنة الاولين » في تعجيل العقاب لهم في الدنيا بعذاب الاستئصال وماجرى مجراه من الاسر والقتل ، يوم بدر ، وبالنصر من الله ،في قول الحسن ومجاهد ، والسدي .

والسلوف : التقدم ، تقول سلف يسلف سلوفاً واسلف إسلافاً وتسلف تسلفاً وسلفه تسلفاً وتسليفاً واستسلف استسلافاً ، والسالفة اعلى العنق ، والسلافة اخلص الخمر واجودها . والسلفان المتزوجان باختين والسنة الطريقة التي يجري عليها الامر ، ومنه قولهم هذا مستمر على سنن واحد .

قوله تعالى :

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) آيتان.

أمر الله تعالى بهذه الآية نبيه ﷺ والمؤمنين ان يقاتلوا الكفار « حتى لاتكون فتنة » وهي الكفر من غير اهل العهد، وماجرى مجراه من البغي ،لأنهم يدعون الناس إلى مثل حالهم بتعززهم على اهل الحق وتطاولهم فيفتنونهم في دينهم .

وقال ابن عباس ، والحسن : معناه حتى لايكون شرك . وقال ابن اسحاق حتى لايفتن مؤمن عن دينه . والفرق بين قوله « حتى لايكون فتنة » وبين قوله حتى لايكون كفر هو ان الذليل والأسير والشريد لايفتن الناس في دينهم لان الذل لايدعو الى حال صاحبه كما يدعو العز .

وقوله « ويكون الدين كله لله » معناه ان يجمع اهل الباطل وأهل الحق على الدين الحق فيما يعتقدونه ويعملون به ، فيكون الدين كله حينئذ لله بالاجتماع على طاعته وعبادته ، والدين ههنا الطاعة بالعبادة .

وقوله « فان انتهوا فان الله بما تعملون بصير » معناه فان رجعوا عن الكفر وانتهوا عنه فان الله يجازيهم مجازاة البصير بهم وبأعمالهم باطنها وظاهرها لايخفى عليه شيء منها .

وقوله « وإن تولوا فاعلموا ان الله مولاكم » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ وان تولى هؤلاء الكفار واعرضوا عن الدين الحق واتباعه فثقوا بالله وتذكروا ماوعدكم به ايها المؤمنون تسكيناً لنفوسهم وتمكيناً للحق عندهم.

والثاني ـ فاعلموا ان الله ينصركم عليهم على طريق الأمر بعلم هذا ليكونوا على بصيرة في ان الغلبة لهم وقوله « وإن تولوا » شرط . وقوله « فاعلموا أن الله » امر في موضع الجواب ، وإنما جاز ذلك لان فيه معنى الخبر ، فلم يخرج من ان يجب الثاني بالاول ، كأنه قال فواجب عليكم العلم بأن الله مولاكم او فينبغي ان تعلموا ان الله مولاكم .

والمولى ههنا هو الناصر . وهو الذي يوليكم عن الغلبة . والمولى على اقسام بمعنى الناصر وبمعنى الحليف ، وبمعنى المعتق والمعتق . وبمعنى الأولى والأحق كما قال لبيد :

فقدت كلا الفرجين يحسب انه مولى المخافة خلفها وامامها (١)

(١) مقاييس اللغة ٢ | ٢١٢

ومنه قول النبي ﷺ «ايما امراة نكحت بغير إذن مولاها فنكاحها باطل»، اي من هو اولى بالعقد عليها . وقال الأخطل يمدح عبدالملك بن مروان :

فاصبحت مولاها من الناس كلهم واحرى قريش ان تهاب وتحمدا (١)

وقال ابو عبيدة : ومنه قوله «النار مولاهم» معناه الاولى بهم واستشهد ببيت لبيد المتقدم ذكره . وقد استوفينا اقسام مولى في غير هذا الموضع (٢) فلا نطول بذكره ههنا . والتولي عن الدين هو الذهاب عنه الى خلافه وهو والاعراض بمعنى واحد والتولي في الدين هو الذهاب إلى جهة الحق ومتابعة النبي ﷺ والنصرة له والمعونة له .

قوله تعالى :

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) آية .

الغنيمة ما اخذ من اموال اهل الحرب من الكفار بقتال . وهي هبة من الله تعالى للمسلمين . والفيء ما اخذ بغير قتال في قول عطا بن السائب، وسفيان الثوري وهو قول الشافعي ، وهو المروي في اخبارنا .

وقال قوم : الفيء والغنيمة واحد . وقالوا إن هذه الآية ناسخة للتي في الحشر من قوله «ما افاء الله على رسوله من اهل القرى ، فلله وللرسول ولذي

(١) مر هذا البيت في ٣ \ ١٨٧ (٢) في ٣ \ ١٨٦ ، ١٨٧ .

القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »(١) لأنه بين في هذه الآية ان الأربعة اخماس للمقاتلة . وعلى القول الأول لايحتاج إلى هذا ، وعند اصحابنا ان مال الفيء للامام خاصة يفرقه فيمن شاء بعضه في مؤنة نفسه وذوي قرابته . واليتامى والمساكين وابن السبيل من اهل بيت رسول الله ليس لسائر الناس فيه شيء .واما خمس الغنيمة ، فانه يقسم عندنا ستة اقسام : فسهم لله ، وسهم لرسوله للنبي ،وهذان السهمان مع سهم ذي القربى ، للقائم مقام النبي صلى الله عليه وآله ينفقها على نفسه وأهل بيته من بني هاشم ، وسهم لليتامى : وسهم للمساكين : وسهم لأبناء السبيل من أهل بيت الرسول لايشركهم فيها باقي الناس لأن الله تعالى عوضهم ذلك عما اباح لفقراء المسلمين ومساكينهم وابناء سبيلهم من الصدقات إذ كانت الصدقات محرمة على أهل بيت الرسول عليه السلام وهو قول علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ،ومحمد بن علي الباقر ابنه عليه السلام رواه الطبري باسناده عنهما .

وقال الحسين بن علي المغربي حاكياً عن الصابوني من اصحابنا ، إن هؤلاء الثلاثة فرق لايدخلون في سهم ذي القربى وإن كان عموم اللفظ يقتضيه ،لأن سهامهم مفردة ، وهو الظاهر من المذهب . والذين يستحقون الخمس عندنا من كان من ولد عبدالمطلب ، لأن هاشماً لم يعقب إلا منه : من الطالبيين والعباسيين والحارثيين واللهبيين ، فاما ولد عبد مناف من المطلبيين ، فلا شيء لهم فيه ، وعند اصحابنا الخمس يجب في كل فائدة تحصل للانسان من المكاسب وأرباح التجارات والكنوز والمعادن والغوص وغير ذلك مما ذكرناه في كتب الفقه .

ويمكن الاستدلال على ذلك بهذه الآية ، لأن جميع ذلك يسمى غنيمة .

وقال ابن عباس ، وابراهيم ، وقتادة ، وعطا : الخمس يقسم خمسة أقسام فسهم الله وسهم الرسول واحد .

وقال قوم : يقسم أربعة أقسام سهم لبني هاشم وثلاثة للذين ذكروا بعد ذلك

(١) سورة ٥٩ الحشر آية ٧

من سائر المسلمين، ذهب اليه الشافعي .

وقال اهل العراق : يقسم الخمس ثلاثة اقسام ، لان سهم الرسول صرفه الأئمة الأربعة إلى الكراع والسلاح .

وقال مالك : يقسم على ماذكره الله . ويجوز للامام ان يخرج عنهم حسب مايراه وإنما جاء على طريق الاولى في بعض الاحوال .

وقال ابو العالية - وهو رجل من صالحي التابعين - يقسم ستة اقسام ،فسهم الله للكعبة ، والباقي لمن ذكر بعد ذلك .

وقال ابن عباس ومجاهد : ذوالقربى هم بنو هاشم ، وقد بينا نحن ان المراد بذي القربى اهل بيت النبي صلى الله عليه وآله : و بعدالنبي القائم مقامه ، و به قال علي بن الحسين عليه السلام وروى جبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه وآله انهم بنو هاشم، و بنوا المطلب واختاره الشافعي وقال الحسن وقتادة: سهم الله وسهم رسوله وسهم ذي القربى لولي الأمر من بعده وهو مثل مذهبنا .

وقال ابو علي الجبائي: إن الأئمة الأربعة جعلوا سهم الرسول وذي القربى في الكراع والسلاح واجمعوا على ان سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل شائع في الناس بخلاف ماقلناه .

واليتيم من مات أبوه وهو صغير قبل البلوغ . و كل حيوان يتيم من قبل أمه إلا ابن آدم ، فانه من قبل ابيه .

واما ابن السبيل ، فهو المنقطع به في سفره . وإنما قيل ابن السبيل بمعنى اخرجه إلى هذا المستقر ، كما يخرجه ابوه من مستقره لقي محتاجاً .

والمسكين المحتاج الذي من شأنه ان تسكنه الحاجة عما ينهض به الغنى .

وقوله « فأن لله خمسه » قيل في فتح (ان) قولان : احدهما - فعلى ان لله خمسه وحذف حرف الجر فنصب .الثاني - انه عطف على (ان) الاولى وحذف خبر الأولى لدلالة الكلام عليه ، وتقديره اعلموا ان ماغنمتم من شيء يجب قسمته واعلموا ان لله خمسه .قال الفراء : إنه جزاء بمنزلة « الم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان لـه نار جهنم خالـداً » (١) قال الرماني : هـذا غـلط

لأن (ان) لاتدخل على الجزاء إلا مع العماد ، كما لاتدخل (ان) إلا على هذا الوجه .

وقوله « إن كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » معناه اعلموا أنما غنمتم من شيء لهؤلاء الذين ذكرناهم ان كنتم مؤمنين بالله مصدقين له في اخباره وما انزله على عبده محمد ﷺ من القرآن .

وقال الزجاج يجوز ان يكون قوله « إن كنتم آمنتم بالله » متعلقاً بقوله « فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير . ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان » اي فايقنوا ان الله ناصركم إذ كنتم شاهدتم من نصره ماشاهدتم . ومعنى « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان» يوم بدر وسمي يوم الفرقان لانه تميز اهل الحق مع قلة عددهم من المشركين مع كثرة عددهم بنصر الله المؤمنين .وقيل كان يوم السابع عشر من شهر رمضان ، وقيل التاسع عشر ، سنة اثنتين من الهجرة ؛ وهو المروي عن ابي عبدالله عليه السلام ثم قال « والله على كل شيء قدير » اي هو قادر على مجازاة من اطاعه بجزيل الثواب ، وعلى عقاب من عصاه بأليم العذاب .

قوله تعالى :

إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا (٤٢) لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٣)

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦٤

آيتان في المدنيين والبصري وآية واحدة في الكوفي .

قرأ ابن كثير وابو عمرو (بالعدوة) بكسر العين ، الباقون بضمها وهما لغتان قال الراعي في الكسر :

وعينان حمر مآقيهما كما نظر العدوة الجؤذر (١)

وقال أوس بن حجر في الضم :

وفارس لايحل الحي عدوته ولوا سراعاً وماهموا باقبال (٢)

والعدوة شفير الوادي . وقال البصريون: الكسر اكثر اللغات . وقال احمد ابن يحيى : بالضم اكثر . وقال قوم :هما لغتان سواء ، وقرأ نافع وابو بكر عن عاصم وابن كثير في رواية البزي وشبل « حيي » باظهار الياءين . وقرأ الباقون بالادغام وإنما جاز الادغام في (حيي) للزوم الحركة في الثاني يجري مجرى (ردّوا) إذا اخبروا عن جماعة قالوا : حيوا فخففوا وقد جاء مدغماً ، فقالوا حيوا ومن اختار الاظهار ، فلامتناع الادغام في مضارعه من يحيي فجرى على شاكلته قال الزجاج ، لأن الحرف الثاني ينتقل عن لفظ الياء تقول حيي يحيى فاما احيا يحيي فلا يجوز فيه الادغام عند البصريين ، لان الثاني إذا سكن في الصحيح من المضاعف في نحو لم يردد كان الاظهار أجود فالمعتل بذلك أولى ، لان سكونه ألزم فلذلك وجه الاظهار في (يحيي) لانه أحق من (لم يردد) لان السكون له ألزم وقد أجاز الفراء الادغام في يحيي وانشد بيتاً لايعرف شاعره :

وكانها بين النساء سبيكة تمشي بشدة بأنها فتعي (٣)

تقدير معنى الآية واذكروا أيها المؤمنون « إذ انتم بالعدوة » وهي الجهة التي هي نهايه الشيء من احد جانبيه . ومنه قولهم عدوتا الوادي . وهما شفيراه وجانباه . و (الدنيا) بمعنى الأدنى الى المدينة . و (القصوى) بمعنى الأقصى

(١، ٢) تفسير الطبرى ١٣/٥٦٥ (٣) معاني القرآن ١/٤١٢

منها الى جهة مكة ، وذلك ان النبي ﷺ واصحابه نزلوا بالجـانب الأدنى إلى المدينة . وقريش نزلت بالجانب الأقصى منها الى مكة فنزلا الوادي بهذه الصفة ، قد اكتنفا شفيريه . وقوله « والركب اسفل منكم » يعني ابا سفيان واصحابه في موضع اسفل منكم الى سـاحل البحر . وإنما نصب اسفل ، لان تقديره بمكـان اسفل . فهو في موضع خفض ، ونصب لانه لاينصرف وكان يجوز الرفع على تقدير والركب أشد سفلا منكم ، ومن نصب يجوز ان يكون اراد والركب مكاناً اسفل منكم بجعله ظرفاً . والذي حكيناه ، هو قول الحسن ، وقتادة ، وابن اسحـاق ومجاهد والسدي .

واصل الدنيا الدنو بالواو ، بدلالة قولهم دنوت إلى الشيء أدنو دنواً ، فقلبت الواو ياء . ولم تقلب مثل ذلك في القصوى ، لأنه ذهب بالدنيا مذهب الاسم في قولهم الدنيا والاخرة ، وان كان اصلها صفة ، فخففت . لأن الاسم احق بالتخفيف . وتقول : ادناه ادناء واستدناه استدناء ، وتدانوا تدانياً . وداناه مداناة . و (العلو) قرار تحته قرار . و (السفل) قرار فوقه قرار ، تقول : سفل يسفل سفلا ، وتسفل تسفلا وتسـافل تسـافلا وسفل تسفيلا ، وسـافـله مسافـلة ، وهو الاسفل ، وهي السفلى .

وقوله « ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد » والمواعدة وعد كل واحد من الاثنين الآخر وتواعدوا تواعداً . و (الاختلاف) مذهب كل واحد من الشيئين في نقيض الآخر ، ومنه الاختلاف في الميعاد لذهاب كل واحد من الفريقين فيما يناقض الميعاد من التقدم والتأخر والزيادة والنقصان عما انعقد به الميعاد .

وقيل: اختلافهم في الميعاد بمعنى «لو تواعدتم» أيها المؤمنون على الاجتماع في الموضع الذي اجتمعتم فيه ثم بلغكم كثرة عددهم مع قلة عددكم لتأخرتم فنقضتم الميعاد ، في قول ابن اسحاق . ووجه آخر « ولو تواعدتم » من غير لطف الله لكم « لاختلفتم » بالعوائق والقواطع فذكر الميعاد لتـأكيـد امره في الاتفاق ولولا

لطف الله مع ذلك لوقع على الاختلاف كما قال الشاعر :

جرت الرياح على محل ديارهم فكانما كانوا على ميعاد

وقوله « ليقضي الله امراً كان مفعولا » معناه ليفصل الله امراً كان مفعولا من عز الاسلام وعلو اهله على عبدة الاوثان وغيرهم من الكفار بحسن تدبيره ولطفه .

وقوله « ليهلك من هلك عن بينة » معناه ليهلك من هلك عن قيام حجة عليه بما رأى من المعجزات الباهرات للنبي صلى الله عليه وآله في حروبه وغيرها « ويحيى من حي عن بينة » يعني ليستبصر من استبصر عن قيام حجة ، فجعل الله المتبع للحق بمنزلة الحي ، وجعل الضال بمنزلة الهالك .

وقوله : « وإن الله لسميع عليم » معناه « سميع » لما يقوله القائل في ذلك « عليم » بما يضمره ، فهو يجازيه بحسب مايكون منه .

قوله تعالى

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤٤) آية .

التقدير واذكر يا محمد « إذ يريكهم الله في منامك قليلا » والهاء والميم كناية عن الكفار الذين قاتلوه يوم بدر « ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الامر » وهذه الرؤية كانت في المنام عند اكثر المفسرين . والرؤيا في المنام تصور يتوهم معه الرؤية في اليقظة والرؤيا على اربعة اقسام : رؤيا من الله عز وجل ، ولها تأويل ورؤيا من وسوسة الشيطان ، ورؤيا من غلبة الاخلاط ، ورؤيا من الافكار ، وكلها أضغاث أحلام إلا الرؤيا من قبل الله تعالى التي هي إلهام في المنام يتصور به الشيء

كأنه يرى في اليقظة . ورؤيا النبي ﷺ هذه بشارة له ، وللمؤمنين بالغلبة

وقال الحسن : معنى « في منامك » في عينك التي تنام بها ، وليس من الرؤيا في النوم ، وهو قول البلخي ، وهو بعيد ، لأنه خلاف الظاهر من مفهوم الكلام .

قال الرماني : ويجوز أن يريه الله الشيء في المنام على خلاف ماهو به ، لأن الرؤيا في المنام يخيل له المعنى من غير قطع وإن جاء معه تطلع من الانسان على المعنى وإنما ذلك على مثل تخييل السراب ماء من غير تطلع على أنه ماء ، فهذا يجوز ان يفعله الله . ولايجوز ان يلهمه إعتقاد الشيء على خلاف ماه و به ، لان ذلك يكون جهلا ، ولايجوز أن يفعله الله تعالى .

والنوم ضرب من السهو يزول معه معظم الحس ، تقول نام ينام نوماً ونومه تنويماً وأنامه إنامة وتناوم تناوماً واستنام استنامة . و (المنـام) موضـع النوم والمضطجع موضع الاضطجاع .

و (القلة) نقصان عن عدد ، كما أن الكثرة زيادة على عدد يقال : قل يقل قلة وقلله تقليلا ، واستقل استقلالا وتقلل تقللا . والشيء يكون قليلا بالاضافة إلى ماهو اكثر منه . ويكون كثيراً بالاضافة إلى ماهو أقل منه . وأقله إقـلالا إذا أطاقه فصادفه قليلا في طاقته ، فهو مشتق من هذا واستقل من المرض إذا قوي قوة يزول بها المرض اي وجده قليلا في قوته لايعتد به .

وقوله « لفشلتم » فالفشل ضعف الوجل لان الضعف قد يكون لمرض من غير فزع وقد يكون من فزع . فالفشل إنما هو الضعف عن فزع . فشل يفشل فشلا فهو فاشل ،وفشله تفشيلا : إذا نسبه إلى الفشل ، وتفاشلوا تفاشلا .

وقوله « ولتنازعتم » فالتنازع الاختلاف الذي يحاول كل واحد منهم نزع صاحبه مما هو عليه تنازعوا تنازعا ، ونازعه منازعة ونزع عن الامر ينزع نزوعاً، واستنزعه إذا طلب نزوعه . وانتزعه إذا اقتلعه عن مكانه .

وقوله « ولكن الله سلم » فالسلامة النجاة من الآفة . سلم يسلم سلامة وأسلمه

إسلاماً إذا دفعه على السلامة ، وأسلم الانسان إذا دخل في السلامة من جهة الدين وسلمه تسليماً إذا نجاه .واستسلم استسلاماً اذا سلم نفسه للامر ، وتسلم تسلماً إذا طلب السلامة ، واستلم الحجر إذا طلب لمسه على السلامة وسالمه مسالمة ، وتسالما تسالماً .

وقوله « إنه عليم بذات الصدور » فالصدر الموضع الأجل لكون القلب فيه . وصدر المجلس أجله ، لانه موضع الرئيس ، وصدر الدار مشبه بصدر الانسان لانه المستقبل منه كاستقباله من الانسان يقال صدر يصدر صدوراً واصدره اصداراً وتصدر تصدراً وصدره تصديراً وصادره مصادرة ، وتصادروا تصادراً .

ففائدة الآية إن الله لطف للؤمنين بما لولم يكن لفشلوا ولاضطرب امرهم واختلفت كلمتهم . ولكن سلمهم الله من ذلك بلطفه لهم واحسانه بهم حتى بلغوا ماارادوه من عدوهم .

قوله تعالى:

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٥) آية

التقدير اذكروا أيها المؤمنون إذ يريكموهم ، فالهاء والميم كناية عن المشركين ، والكاف والميم كناية عن المؤمنين ، أرى الله تعالى الكفار قليلين في أعين المؤمنين ليشتد بذلك طمعهم فيهم وجرأتهم عليهم ، وقلل المؤمنين في أعين الكفار لئلا يتأهبوا ولايستعدوا لقتالهم ولايكترثوا بهم ويظفر بهم المؤمنون . والمراد بالرؤية ههنا الرؤية بالبصر ، وهوالادراك بحاسةالبصر والرائي هوالمدرك . والعين حاسة يدرك بها البصر ، والعين مشتركة ، فمنها عين الماء ، وعين الميزان ، وعين الركبة ، وعين الذهب ، والعين النفس ، والالتقاء اجتماع الاتصال ، لان الاجتماع

على وجهين : اجتماع الاتصال واجتماع في معنى من غير اتصال كاجتماع القوم في الدار ، وان لم يكن هناك اتصال . ويقال للعسكرين إذا تصافا التقيا لوقوع العين على العين .

فان قيل كيف قللهم الله في أعينهم مع رؤيتهم لهم ؟

قلنا : بأن يتخيلوهم بأعينهم قليلا من غير رؤية على الصحة لجميعهم وذلك بلطف من ألطافه تعالى مما يصد به عن الرؤية من قتام يستر بعضهم ولايستر بعضاً آخر . وروي عن ابن مسعود انه قال رأيناهم قليلا حتى قلت لمن كان الى جانبي أتراهم سبعين رجلا ؟ فقال لي هم نحو المئة . فلما اسرنا رجلا منهم سألناه كم كانوا ، فقال ألفاً .

وقوله « ليقضي الله امرأ كان مفعولا » إنما كرره في هذه الآية مع ذكره في الآية الاولى ، لاختلاف الفائدة ، فمعناه في الآية الاولى « ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد . ولكن ليقضي الله امرأ كان مفعولا » من الالتقاء على الصفة التي حصلتم عليها ، ومعناه في الثانية يقلل كل فريق في عين صاحبه « ليقضي الله امرأ كان مفعولا » من اعزاز الدين بجهادكم على مادبره لكم . وإنما قال « كان مفعولا » والمعنى يكون مفعولا في المستقبل لتحقيق كونه لامحالة حتى صار بمنزلة ماقد كان إذ قد علم الله انه كائن لامحالة .

وقوله تعالى « والى الله ترجع الأمور » اي ترجع الامور الى ملكه وتدبيره خاصة ، ويزول ملك كل من ملكه في دار الدنيا .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٦) آية بلاخلاف .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين خاصة يأمرهم بأنهم اذا لقوا جماعة من الكفار لحربهم أن يثبتوا ويذكروا الله كثيراً ، ويستنصروه عليهم لكي يفلحوا ويفوزوا بالظفر بهم ، وبالثواب عند الله يوم القيامة . وقد بينا ان معنى الايمان هو التصديق بما أوجبه الله على المكلفين أو ندبهم اليه . والفئة الجماعة المنقطعة من غيرها وأصله من فأوت رأسه بالسيف اذا قطعته . والثبوت حصول الشيء في المكان على استمرار ، يقال لمن استمر على صفة : قد ثبت كثبوت الطين . والذكر ضد السهو ، وقد يكون الذكر القول من غير سهو . والفئة المذكورة في الآية وان كانت مطلقة ، فالمراد بها المشركة او الباغية ، لأن الله لايأمر المؤمنين بالثبوت لقتال احد الا من هو بهذه الصفة ، ولايأمر بقتال المؤمنين .

قوله تعالى:

وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ (٤٧) آية.

أمر الله تعالى هؤلاء المؤمنين الذين ذكرهم بأن يطيعوا الله ورسوله ، ولا يختلفوا فيضعفوا عن الحرب . والعامل في « فتفشلوا » الفاء التي هي بدل من (أن) على معنى جواب النهي كقولك لاتأت زيداً فيهينك ، ولذلك عطف بالنصب في قوله « وتذهب ريحكم » عليه .

وقوله « وتذهب ريحكم » معناه كالمثل أي ان لكم ريحاً تنصرون بها يقال ذهب ريح فلان اي كان يجري في امره على السعادة بريح تحمله اليها ، فلما ذهبت وقف امره ، فهذه بلاغة حسنة . وقيل : المعنى ريح النصرة التي يبعثها الله مع من ينصره على من يخذله ، في قول قتادة وابن زيد . وقيل : تذهب دولتكم ، من قولهم ذهب ريحه ، أي ذهبت دولته . في قول ابي عبيدة وابي علي . وقال عبيد

ابن الابرص :

كما حميناك يوم النعف من شطب والفضل للقوم من ريح ومن عدد (١)

اي من ريح عز ومن عدد . وقال أبو جعفر عليه السلام : هذه الآية نزلت حين أشار خباب بن المنذر على النبي صلى الله عليه وآله ان ينتقل من مكانه حتى ينزلوا على الماء ويجيؤهم من خلفهم ، فقال بعضهم لاتنغفر معصاتك يارسول الله . فتنازعوا ، فنزلت الآية وعمل النبي صلى الله عليه وآله على قول خباب .

قوله تعالى :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٨) آية .

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية ان يكونوا مثل « الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس » وهم قريش ، لما خرجت لتحمي العير ، فلما نجا ابو سفيان ارسل اليهم ان ارجعوا ، فقد سلمت عيركم وهم بالجحفة : فقال أبو جهل والله لانرجع حتى نرد بدراً وننحر جزراً ، ونشرب خمراً وتعزف علينا القيان ويرانا من غشينا من اهل الحجاز ، ذكره ابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وابن اسحاق . والبطر الخروج عن موجب النعمة ـ من شكرها ، والقيام بحقها ـ الى خلافه .وأصله الشق فمنه البيطار الذي يشق اللحم بالمبضع ، وبطر الانسان بطراً وابطره كثرة النعمة عليه إبطاراً وبطره تبطيراً. والرئاء اظهار الجميل مع ابطان القبيح تقول : راءى يرائي مراءاة ورياء . والمرائي رجل سوء لما بينا . والنفاق اظهار الايمان مع ابطان الكفر . والصد المنع . وقيل هو جعل مايدعو إلى الاعراض

(١) ديوانه : ٤٩ والطبري ١٣/٥٧٥ واعجاز القرآن للباقلاني : ١٣١ و (النعف) ما انحدر من حزونة الجبل و (شطب) اسم جبل .

فهؤلاء يصدون عن سبيل الله بما يدعون الناس إلى الاعراض عنها من معادات اهلها وقتالهم عليها وتكذيبهم بما جاء به الداعي اليها . والفرق بين الصد والمنع أن المنع مايتعذر معه الفعل والصد مايدعو الى ترك الفعل .

وقوله « والله بما تعملون محيط » معناه يحتمل أمرين : احدهما - انه يحيط علمه بما يعملونه . الثاني - انه قادر على جزاء ما يعملونه من ثواب أو عقاب .

قوله تعالى:

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤٩) آية.

التقدير : واذكر « إذ زين لهم » يعني المشركين « زين لهم الشيطان اعمالهم بمعنى حسنها في نفوسهم والتزيين هو التحسين . والمعنى أن ابليس حسن للمشركين أعمالهم وحرضهم على قتال محمد ، وخروجهم من مكة ، وقوى نفوسهم ، وقال لهم « لاغالب لكم اليوم من الناس » . تقول غلب يغلب غلبة ، فهو غالب ، وغالبه مغالبة وتغالبا تغالباً وغلبه تغليباً .والغلبة القهر للمنازع ، والملك لامره .

وقوله « وإني جار لكم » حكاية عما قال ابليس للمشكرين ، فانه قال لهم اني جار لكم ، لأنهم خافوا بني كنانة لما كان بينهم، فأراد إبليس بأن يسكن خوفهم ، والجار هو الدافع عن صاحبه السوء أجاره يجيره جواراً . ومنه قوله « وهو يجير ولايجار عليه » (١) اي يعقد لمن احب دفع الضرر عنه من كل احد

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٨٩

ولايعقد عليه ، فالجار المجير . وقوله « فلما تراءت الفئتان » معناه ، فلما التقتا ورأى بعضهم بعضاً « نكص » يعني ابليس « على عقبيه » والنكوص هو الرجوع قهقرى خوفاً مما يرى. نكص ينكص نكوصاً ، قال زهير .

هم يضربون حبيك البيض اذ لحقوا　　لاينكصون اذا مااستلحموا وحموا (١)

واختلفوا في ظهور الشيطان لهم حتى رأوه ، فقال ابن عباس ، والسدي وقتادة ، وابن اسحاق . : ظهر لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي في جماعة من جنده ، وقال لهم : هذه كنانة قد أتتكم نجدة ، فلما رأى الملائكة « نكص على عقبيه » فقال الحارث بن هشام الى اين ياسراقة ، فقال « اني أرى مالا ترون » وهو قول أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام . وقيل إنه راى جبرائيل بين يدي النبي صلى الله عليه وآله . وقال ابو علي الجبائي حول له الله على صورة إنسان علماً للنبي صلى الله عليه وآله بما يخبر به عنه . وقال الحسن والبلخي : إنما هو يوسوس من غير ان يحول في صورة انسان .

وقوله « اني اخاف الله والله شديد العقاب » حكاية عن قول ابليس حين ولى فقال لقريش اني ارى من الملائكة مالا ترون اني اخاف الله والله شديد العقاب . وانما خافه من ان يأخذه في تلك الحال بعقوبته دون ان يكون خاف معصيته فامتنع منها .

قال الحسن : إبليس عدو الله لا يخاف الله لكن كلما استؤصل جند من جنوده وقعت بذلك عليه مخافة وذلة . وقال البلخي هو كقولك للرجل جمعت بين الفريقين حتى اذا وقع الشر بينهم خليتهم وانصرفت ، وقلت اعملوا ماشئتم وتريد بذلك انك خليت بينهم دون ان يكون هناك قول ، والاول هو المشهور في التفاسير.

(١) ديوانه ١٥٩ من قصيدته في هرم بن سنان . والطبري ١٤/ ١١ و(حبيك البيض) طرائق حديد . و (البيض) الخوذ من سلاح المحارب . و (حموا) من الحمية ، وهي الانفة والغضب .

والواو دخلت في قوله « واذ زين لهم الشيطان » للعطف على خروجهم بطراً ورئاء الناس ، فعطف حالهم في تزيين الشيطان اعمالهم على حالهم في خروجهم بطراً .

قوله تعالى :

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٥٠) آية .

العامل في « اذ » يحتمل أن يكون احد شيئين : احدهما ـ الابتداء والتقدير ذاك « اذ يقول » والآخر بتقدير اذكر « اذ يقول المنافقون » وهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الايمان « والذين في قلوبهم مرض » الشاكين في الاسلام مع اظهارهم كلمة الايمان ، وهم بمكة جماعة خرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا هذا القول ، وهم قيس بن الوليد بن المغيرة (١) والحارث بن زمعة وعلي بن أمية والعاص بن المنبه بن الحجاج ، هذا قول مجاهد ، والشعبي وقال الحسن : المرض الشرك « والذين في قلوبهم مرض » المشركون . وقال ابو علي فصلوا في الذكر لان المنافقين كانوا يضمرون عداوة النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين، وكانوا هؤلاء مرتبتين وكلهم في معنى المنافقين ، لان الشك في الاسلام كفر .

وقوله « غر هؤلاء دينهم » معناه ان المسلمين اغتروا بالاسلام. والغرور: اظهار النصح مع إبطان الغش تقول : غره يغره غروراً واغتر به اغتراراً ومنه الغرر ، لانه عمل بما لايؤمن معه الغرور . وقوله « ومن يتوكل على الله » معناه ومن يسلم لأمر الله ويثق به ويرضى بفعله ، لان التوكل على الله هو التسليم لأمره مع الثقة والرضا به ، تقول : وكل امره الى الله ، يكل واتكل عليه يتكل اتكالا وتوكل توكلا وتواكل القوم تواكلا اذا اتكل بعضهم على بعض ، ووكل توكيلا . وقوله

(١) في بعض النسخ (ابو قيس بن الفاكهة بن المغيرة)

« فان الله عزيز حكيم » معناه انه قادر لايغالب واضع للاشياء مواضعها

قوله تعالى :

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٥١) آية .

قرأ ابن عامر « اذ تتوفى » بتاءين فأدغم احـدهما في الاخرى هشام عنه . الباقون بالياء والتاء . من قرأ بالتاء أسند الفعل الى الملائكة كقوله « اذ قالت الملائكة » (١) ومن قرأ بالياء ، فلأن التأنيث غير حقيقي .

هذا خطاب من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله يقول الله تعالى له : « ولو ترى »الوقت الذي تتوفى الملائكة الذين كفروا بمعنى انهم يقبضون أرواحهم على استيفائها، لان الموت انما يكون باخراج الروح على تمامها. وجواب « لو » محذوف ،وتقديره لرأيت منظراً عظيماً او امراً عجيباً او عقاباً شديداً ، وحذف الجواب في مثل هـذا أبلغ ، لان الكلام يدل عليه . والمرئي ليس بمذكور في الكلام لكن فيه دلالة عليه لان تقديره: لو رأيت الملائكة يضربون من الكفار الوجوه والادبار ، وحذفه ابلغ وأوجز مع أن الكلام يدل عليه . وقال مجاهد وسعيد بن جبير: معنى أدبارهم أستاههم لـكنه كنى عنه . وقال الحسن : معناه ظهورهم . وقال ابو علي : المعنى ستضربهم الملائكة عند الموت . قال الرماني : وهذا غلط ، لأنه خلاف الظاهر ، وخـلاف الاجماع المتقدم أنه يوم بدر . وروى الحسن : ان رجلا قال يارسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشرك ، فقال : ذاك ضرب الملائكة. وروي عن مجاهد ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وآله اني حملت على رجل من المشركين فذهبت لاضربه فبدر رأسه ، فقال : سبقك اليه الملائكة . وعن ابن عباس انه كان يوم بدر .

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٤٥

وقوله : « وذوقوا عذاب الحريق » تقديره ، ويقولون يعني الملائكة للكفار يقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق يوم القيامة وحذف لدلالة الكلام عليه. ومثله قوله « ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا » (١) أي يقولون ربنا أبصرنا ، ودل الكلام عليه . والحريق تفريق الاجسام الكبيرة العظيمة بالنار العظيمة يقال : احترق احتراقاً واحرق إحراقاً وتحرق تحرقاً وحرقه تحريقاً ، وجواب «لو» محذوف ، وتقديره لرأيت منظراً هائلا وإنما حذف جواب « لو » لأن ذكره يخص وجهاً ومع الحذف يظن وجوه كثيرة فهو أبلغ .

قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥٢) آية.

قوله « ذلك » إشارة من الملائكة للكفار الى ماتقدم ذكره من قولهم «ذوقوا عذاب الحريق» قالوا ذلك العذاب «بما قدمت ايديكم » وموضع « بما قدمت ايديكم» يحتمل وجهين من الاعراب : أحدهما ــ الرفع بأنه خبر ذلك . والثاني ــ النصب بأنه متصل بمذوف ، وتقديره ذلك جزاؤكم « بما قدمت أيديكم » وإنما قيل بما قدمت ايديكم مع أن اليد لاتعمل شيئاً لتبين أنه بمنزلة مايعمل باليد في الجناية ، ولذلك لم يذكر القلوب ، وإن كان بها معتمد العصيان ، لانه قصد إظهار مايقع به الجنايات في غالب الأمر وتعارف الناس . والتقديم ترتيب الشيء أولا قبل غيره : قدمه تقديماً وتقدم تقدما واستقدم استقداماً وتقادم عهده تقادماً واقدم على الأمر إقداما .

وقوله : « ان الله ليس بظلام للعبيد » العامل في « ان » يحتمل شيئين : احدهما ــ أن يكون موضعه نصباً بتقدير وبأن الله او خفضاً على الخلاف فيه. والثاني ــ ان يكون رفعاً بمعنى وذلك ان الله كما تقول ذلك هذا .

(١) سورة ٣٢ الم السجدة آية ١٢

وإنما نفى المبالغة في الظلم عنه تعالى دون نفي الظلم رأساً، لأنه جاء على جواب من اضاف اليه فعل جميع الظلم ، ولأن ماينزل بالكفار لو لم يكن باستحقاق لكان ظلماً عظيما ، ولكان فاعله ظلاماً .

قوله تعالى :

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٣) آية.

العامل في قوله : « كدأب آل فرعون » الابتداء وتقديره دأبهم كدأب آل فرعون ، فموضعه رفع ، لانه خبر المبتدأ، كما تقول زيد خلفك ، فموضع خلفك رفع بأنه خبر المبتدأ ، ولفظة نصب بالاستقرار ، فكذلك الكاف في « كدأب » . والداب العادة والطريقة تقول ماذلك دأبه ودينه وديدنه .

والمعنى انه جوزي هؤلاء بالقتل والأسر كما جوزي آل فرعون بالغرق . وقال الزجاج الدأب إدامة الفعل داب يدأب في كذا إذا دام عليه ، ودأب يداب داباً ودؤباً فهو دائب يفعل كذا اي يجري فيه على عادة. وقال خداش بن زهير العامري:

وما زال ذاك الداب حتى تجادلت هوازن وارفضت سليم وعامر (١)

وآل فرعون المراد به اتباعه فيما دعاهم اليه من ربوبيته، سموا « آل » لأن مرجع امرهم اليه بسبب اكيد . والفرق بين « آل فلان » و « الأصحاب » ان الاصحاب مأخوذ من الصحبة لطلب علم او غيره ، كالأصحاب في السفر ، وكثر في الموافقة على المذهب ، كما يقولون اصحاب مالك واصحاب الشافعي يراد به الموافقة في المذهب ، ولا يوصفون بأنهم آل الشافعي او ابي حنيفة . والآل يرجعون اليه بالسبب الأوكد الأقرب .

(١) روح المعاني ١٠/١٧، ومجاز القرآن ١/٢٤٨ .

وقوله: «إن الله قوي» معناه قادر وقد يكون القوي بمعنى الشديد، وذلك لايجوز اطلاقه على الله، وكذلك لايوصف بأنه شـديد العقاب وإنما وصف عقابه بأنه شديد دون الله تعالى.

فمعنى الآيـة تشبيه حـال المشركين في تكذيبهم بآيات الله التى اتى بها محمد ﷺ بحال آل فرعون في التكذيب بآيات الله التي اتى بها موسى عليه السلام لأن تعجيل العقاب لهؤلاء بالاهلاك كتعجيله لأولئك بعذاب الاستئصال.

قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٤) آية.

الاشارة بقوله: «ذلك» الى ما تقدم ذكره من اخذ الله الكفار بالعقاب فكأنه قال ذلك العقاب المدلول عليه بأن الله لايغير النعمة الى النقمة إلا بتغيير النفس الى الحال القبيحة، فـ «ذلك» ابتداء وخبره «بان الله» كما يقول القائل: العقاب بذنوب العباد، والكاف في «ذلك» للخطاب و«ذلك» إشارة الى البعيد و«ذاك» إشارة الى ما دونـه، و«ذا» اشارة الى ماهو حاضر. وقولـه «لم يك» اصله يكون فحذفت الواو للجزم وإلتقاء الساكنين، ثم حذفت النون استخفافاً لكثرة الاستعمال مع انه لايقع بالحذف إخلال بالمعنى، لأن «كان ويكون» أم الافعال الا ترى أن كل فعل فيه معناها، لأنك إذا قلت ضرب معناه كان ضرب: ويضرب معناه يكون يضرب فلما قربت بأنها ام الأفعال وكثر استعمالها احتمل الحذف ولم يحتمل نظائرها، وذلك مثل لم يجز ولم يصن كما جاز فيها. والتغيير تصيير الشيء على خلاف ما كان بما لو شوهد لشوهد على خلاف ما كان. وانما قيل بما لو شوهد لشوهد على خلاف ما كان للتفريق بينه وبين مايصير على خلاف ما كان بالحكم فيه بما لم يكن عليه،

ألاترى ان المعلوم بعد ان لم يكن معلوماً لايتغير بهذا العلم ، لأنه لو شوهد لم يشاهد على خلاف ماكان ، والقدرة شوهدت على خلاف مايشاهد العجز .

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة ، لأنها تدل على انه لايكون العقاب الا بتغيير النفس الى مالا يجوز ان يغير اليه ، وهذا يبين انه لايحسن من الله العقاب الا لمن فعل قبيحاً او اخل بواجب ، وذلك يبطل قول من قال : يجوز ان يعاقب الله البريء بجرم السقيم ، وجملة معنى الآية إنا اخذنا هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا من مشركي قريش ببدر بذنوبهم ،وتغييرهم نعمة الله عليهم من بعث رسوله وتكذيبهم إياه واخراجهم له من بين اظهرهم ، ففعلنا بهم مثل ما فعلنا بالماضين من الكفار .

قوله تعالى :

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٥) آية

انما اعاد قوله : « كداب آل فرعون والذين من قبلهم » لاعلى وجه التكرار بلافائدة بل لوجهين : احدهما ـ قال ابوعلي : لأنه على نوعين مختلفين من العقاب. وقال الرماني : فيه تصريف القول في الذم بما كانوا عليه من قبح الفعل وتقدير الكلام : دأب هؤلاء الكفار مثل داب آل فرعون . ويحتمل ان يكون كناية عن هؤلاء الكفار « كذبوا بآياتنا » .

والتكذيب نسبة الخبر الى الكذب ، فالتكذيب بالحق مذموم ، والتكذيب بالباطل ـ لأنه باطل ـ ظاهرامره محمود،وانما وجب في التكذيب بآيات الله تعجيل العقوبة، ولم يجب ذلك في غيره. لمافي تعجيل عقوبتهم من الزجر لغيرهم ،فيصلحون به مع علم الله بأنه ليس فيهم من يفلح ـ على مذهب من يقول : لو علم الله ان فيهم

من يؤمن ، لأبقاه . وانما كان التكذيب بآيات الله من اعظم الاجرام، لما يتبعه من تضييع حقوق الله فيما يلزم من طاعاته التي لاتصح الا بالتصديق بآياته التي جاءت بها رسله . اخبر الله انه كما اهلك هؤلاء الكفار بتكذيبهم النبي ﷺ كذلك اهلك من الكفار قوماً آخرين بتكذيبهم بآيات الله ، واغرق آل فرعون بمثل ذلك ، ثم اخبر ان كل هؤلاء كانوا ظالمين لنفوسهم بارتكاب معاصي الله وبترك طاعاته .

قوله تعالى :

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٦) آية

الشر الرمي بالمكاره كشرر النار ومثله الضرر ، وضد الشر الخير وضد الضرر النفع . والدابة مامن شأنه ان يدب على الأرض لكن بالعرف لايطلق إلا على الخيل، ومن ذلك قوله « ومامن دابة في الارض إلا على الله رزقها (١) » وقوله « عند الله » معناه في معلوم الله وفي حكمه. وأصل « عند » أن يكون ظرفاً من ظروف المكان إلا أنه قد تصرف فيها على هذا المعنى . والفاء في قوله « فهم لايؤمنون » عطف جملة على جملة ، وهو من الصلة، كأنه قال : كفروا مصممين على الكفر « فهم لايؤمنون» وانما حسن عطف جملة من ابتداء وخبره على جملة من فعل وفاعل ، لما فيها من التأدية الى معنى الحال وذلك ان صلابتهم بالكفر ادى الى الحال في انهم لايؤمنون.

فاخبر الله تعالى في هذه الآية ان شر خصلة يكون الانسان عليها هو الكفر لما في ذلك من تضييع نعم الله التي توجب اعظم العقاب .

والآية متناولة لمن علم الله منه انه لايؤمن ، لأن قوله « فهم لايؤمنون » اخبار عن نفي ايمانهم فيما بعد .

---

(١) سورة ١١ هود آية ٦ .

قوله تعالى :

أَلَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٧) آية .

قال مجاهد : هذه الآية نزلت في بني قريظة ، لما نقضت عهد النبي صلى الله عليه وآله في ألا يحاربوه ولايمالؤا عليه ،فنقضوا عهده ، ومالؤا عليه ، وعاونوا قريشاً يوم الخندق ، فانتقم الله منهم. والمعاهدة المعاقدة على أمر يتقدم فيه للوثيقة به بالأيمان المؤكدة على ما يعقد عليه ، ونقض العهد مثل نقض الوعد لأنه حق للمعاهد كما ان ذلك حق للموعود ، ونقض العزم هو الرجوع عما عزم عليه . والنقض يكون بشيئين : احدهما ـ فيما كان من بناء وشبهه . الثاني ـ في عقد او امر يعزم عليه. وقوله تعالى « ثم ينقضون » عطف المستقبل على الماضي ، لان الغرض ان من شأنهم نقض العهد مرة بعد اخرى في مستقبل اوقاتهم بعد العهد اليهم . وقوله « فهم لايتقون » معناه نقضوا عهدك من غير ان يتقوا عقاب الله عاجلا وآجلا .

قوله تعالى

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٨) آية

معنى « تثقفن » تصادفن وتلقين . واصله الادراك بسرعة تقول ثقف الكلمة فهو ثقف ،وثقفه اذا قومه وثاقفه مثاقفة اذا تدارك كل واحد منهما امر صاحبه بسرعة ودخلت نون التأكيد لما دخلت « ما » ولو لم تدخله لما حسن دخول النون ، لأن دخول «ما» كدخول القسم في أنه علامة تؤذن أنه من مواضع التأكيد المطلوب من التصديق ، لأن النون تدخل لتأكيد المطلوب فيما يدل على المطلب ، وهي في

ستة مواضع : الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والعرض ، والقسم ، والجزاء مع «ما»

وقوله « فشردبهم من خلفهم » يحتمل معنيين :

احدهما ـ اذا اسرتهم فنكل بهم تنكيلا يشرد غيرهم من ناقضي العهد خوفاً منك،وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير والسدي وابن زيد .

الثاني ـ افعل بهم من القتل مايفرق من خلفهم،في قول الزجاج .

والتشريد التفريق على اضطراب ، شرد يشرد شروداً وشرده تشريداً وتشرد تشرداً . ودابة شرود . والتشريد والتطريد والتبديد والتفريق نظائر.

وقوله « لعلهم يذكرون » معناه لكي يفكروا فيتعظوا وينزجروا عن الكفر والمعاصي . وروي في الشواذ « من خلفهم » والمعنى نكل بهم انت يا محمد من ورائهم والاول اجود . وعليه القراء .

قوله تعالى :

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ (٥٩) آية .

بني المضارع مع نون التأكيد ، لأن النون لما أبطلت السكون اللازم للجزم الذي هو أمكن في الفعل ، كانت على إبطال غيره من الاعراب أقوى . وإنما بني على الفتح لسلامتها من البا بين الكسرة والضمة في المؤنث والجمع ، في قولهم لا تحسبن يا امرأة ، ولا تحسبن يا قوم . وتثبت الألف مع الجازم في (أما تخافن) ولم تثبت مع الجازم في قولك (لا تخف القوم) لان الحركة في هذا عارضة ، لأن التقاء الساكنين من كلمتين .

أمر الله تعالى نبيه انه متى خاف ـ ممن بينه وبينه عهد ـ خيانة أن ينبذ اليه عهده على سواء . والخيانة نقض العهد فيما ائتمن عليه ، تقول : خانه يخونه خيانة ، واختان

المال اختياناً . وتخونه تخوناً وخونه تخويناً . و(النبذ) القاء الخبر الى من لا يعلمه بما يوجب أنه حرب بنقض عهد أو إقامة على بغي تقول : نبذ ينبذ نبذاً وانتبذ انتباذاً وتنابذ القوم تنابذاً ، ونابذه منابذة .

وقوله « على سواء » قيل في معناه قولان : احدهما ـ على استواء في العلم به أنت وهم في انكم حرب لئلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب . والثاني ـ ان معناه على عدل من قول الراجز :

فاضرب وجوه الغدر الاعداء   حتى يجيبوك على السواء (١)

أي على العدل . ومنه قيل للوسط سواء ، لاعتداله الى الجهات ، كما قال حسان بن ثابت :

يا ويح انصار النبي ورهطه   بعد المغيب في سواء الملحد (٢)

اي في وسطه . وقال الوليد بن مسلم : معناه على مهل وهذا بعيد ، لأنه لا يعرف في اللغة . فان قيل كيف جاز نبذ العهد ونقضه بالخوف من الخيانة ؟

قيل : انما فعل ذلك لظهور امارات الخيانة التي دلت على نقض العهد ولم تشتهر ولو اشتهرت لم يجب النبذ ، كما حارب رسول الله صلى الله عليه وآله أهل مكة ، لما نقضوا العهد بقتل خزاعة ، وهم في ذمة النبي صلى الله عليه وآله فلما فعلوا ذلك فعلا ظاهراً مشهوراً أغنى ذلك عن نبذ العهد اليهم ، ولو نقضوه على خفى لم يكن بد من نبذ العهد اليهم ، لئلا ينسب الى نقض العهد والغدر .

وقوله « ان الله لا يحب الخائنين » معناه انه يبغضهم وانما عبر بحرف النفي ، لأن صفة النفي تدل على الاثبات إذا كان هناك ما يدل عليه ، وهو أبلغ في هذا الموضع لأن معناه : انهم حرموا محبة الله بخيانتهم واوجب ذلك بغضه اياهم . ومحبة الله للخلق ارادة منافعهم وبغضه اياهم ارادة عقابهم .

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٢٧ والقرطبي ٨/ ٣٣

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ٣٣ وقد مر في ١/ ٤٠٥ من هذا الكتاب .

والآيتان معاً نزلتا في بني قريظة ، قال الواقدي : نزلت هذه الآية في بني قينقاع ، وبهذه الآية سار النبي ﷺ اليهم .

قوله تعالى :

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ(٦٠)آية.

قرأ ابن عامر وحمزة وحفص وأبو جعفر « ولايحسبن » بالياء . الباقون بالتاء. وقرأ ابن عامر« انهم » بفتح الهمزة . الباقون بكسرها .

قال أبو علي الفارسي : من قرأ بالتاء جعل « الذين كفروا » المفعول الأول و « سبقوا » المفعول الثاني ، وموضعه النصب ، وهو واضح . ومن قرأ بالياء احتمل ثلاثة اشياء :

احدها ــ (لا يحسبن الذين كفروا) وهو قول أبي الحسن .

الثاني ــ أن يكون أضمر المفعول الأول وتقديره : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقونا واياهم سبقوا

الثالث ــ ان يقدر على حذف (أن) كانه قال : ولا يحسبن الذين كفروا ان سبقوا . قال الزجاج يقوي ذلك ، ان في قراءة ابن مسعود « إنهم لا يعجزون » فعلى هذا يكون ان سبقوا سد مسد المفعولين ، كما ان قوله « أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا » (١) كذلك . ومن فتح الهمزة جعل الجملة متعلقة بالجملة الاولى والتقدير ولا تحسبنهم سبقوا ، لانهم لا يفوتون فهم يجازون على كفرهم . ومن كسر استأنف الكلام ، قال ابو عبيدة : سبقوا معناه فاتوا ، فانهم لا يعجزون اي لا يفوتون ، ومثله «أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا» ثم استأنف ، فقال : « ساء ما يحكمون(٢)

---

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢ .

(٢)سورة ٢٩ العنكبوت آية ٤ .

فكذلك ها هنا استأنف الكلام . وانما امتنع الاقتصار على احد المفعولين في (حسب) لأن المفعول الثاني خبر عن الأول ، والفعل متعلق بما دلت عليه الجملة فهو بخلاف (اعطيت) في هذا .

والحسبان هو الظن . وقال الرماني : هو شك يقوى فيه احدى النقيضين لقوة المعنى في حيز القولين . وأصله الحساب ، لأن المعنى فيه داخل فيما يحسب به ويعمل عليه . والاحتساب قبول الحساب والاعتداد به وفي المضارع لغتان ، فتميم تفتح السين وأهل الحجاز يكسرونها . والسبق تقدم الشيء على طالب اللحوق به : سبق يسبق سبقاً وتسابقا تسابقاً ، وسابقه مسابقة واستبقوا استباقاً وسبقه تسبيقاً إذا أعطاه السبق. والسابق والمصلي في صفة الفرس . والاعجاز ايجاد ما يعجز عنه : أعجزه إعجازاً وعجزه تعجيزاً وعاجزه معاجزة واستعجز استعجازاً . وقال ابوعبيدة : معنى «لا يعجزون » لا يفوتون . وقال الحسن : معنى لا يعجزون الله لا يفوتونه حتى لا يثقفهم يوم القيامة . وقال الجبائي : معناه لا يعجزونك حتى يظفرك الله بهم . وقال الزجاج: المعنى لا يحسبن من أفلت من هذه الحرب قد سبق الى الحياة . وقال الزجاج : يجوز أن تكون (لا) صلة على ضعف فيه . والمعنى لا يحسبن الذين كفروا انهم يعجزون ، اي يفوتون ،

قوله تعالى :

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(٦١)آية.

امر الله تعالى المؤمنين ان يعدوا ما قدروا عليه من السلاح وآلة الحرب والخيل وغير ذلك ، والاعداد اتخاذ الشيء لغيره مما يحتاج اليه في امره ولو اتخذه له في

نفسه محبة له لم يكن اعداداً وهو مما يعد فيما يحتاج اليه من غيره والاستطاعة معنى تنطاع بها الجوارح للفعل مع انتفاء المنع، تقول : استطاع استطاعة ، وطاوع مطاوعة واطاع طاعة ، وتطوع تطوعاً ، وانطاع انطياعاً . وقوله تعالى « من قوة » اي مما تقوون به على عدوه . وقيل : معناه من الرمي ، ذكره الفراء . ورواه عن النبي ﷺ عقبة بن عامر ، على ما ذكره الطبري . وقال عكرمة : اراد به الحصون .

وقوله تعالى : « ومن رباط الخيل » فالرباط شد ايسر من العقد : ربطه يربطه ربطاً ورباطاً وارتبطه ارتباطاً ورابطه مرابطة .

وقوله « ترهبون به عدو الله وعدوكم » فالهاء في (به) راجعة الى الرباط وذكره لأنه على لفظ الواحد وان كان في معنى الجمع ، لانه كالجراب والقراب والذراع . والارهاب ازعاج النفس بالخوف تقول : ارهبه ارهاباً ورهبه ترهيباً ورهب رهبة وترهب ترهباً واسترهبه استرهاباً ، وقال طفيل :

ويل ام حي دفعتم في نحورهم بني كلاب غداة الرعب والرهب(١)

والعدو المراصد بالمكاره لتعديتها الى صاحبها والعدو ضد الولي .

وقوله « وآخرين من دونهم » لا تعلمونهم تقديره وترهبون آخرين ، فهو نصب بـ (ترهبون) ويجوز ان يكون نصباً بقوله : (وأعدوا لهم) وللآخرين من دونهم . وقيل في المعنيين بذلك خمسة اقوال : احدها ـ قال مجاهد : هم بنو قريظة وقال السدي . هم اهل فارس . وقال الحسن وابن زيد : هم المنافقون . الرابع ـ الجن، وهو اختيار الطبري ، قال : لأن الاعداد للاعداء دخل فيه جميع المتظاهرين بالعداوة فلم يبق إلا من لا يشاهد . الخامس ـ قال الجبائي : كل من لا تعرفون عداوته داخل فيه . ومعنى « لا تعلمونهم » لا تعرفونهم فلذلك لم يكن معه المفعول الثاني .

وقوله : « الله يعلمهم » معناه يعرفهم كما قال الشاعر :

(١) ديوانه : ٦٥ ومجاز القرآن ١/ ٢٤٩ .

فان الله يعلمني ووهباً وإنا سوف نلقاه كلانا (١)

وقوله تعالى : « وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون» يعني ما من شيء تنفقونه في الجهاد إلا والله يوفيكم ثوابه على ذلك بأتم الجزاء ولا تبخسون ، فمعنى الآية الأمر باعداد السلاح والكراع لاخافة اعداء الله بما يملأ صدورهم من الاستعداد لقتالهم مع تضمن اخلاف ما انفق في سبيل الله بأحوج ما يكون صاحبه اليه بما تربح فيه تجارته .

قوله تعالى :

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٢) آية.

قرأ ابو بكر عن عاصم «السلم» بكسر السين . الباقون بفتحها وفي ذلك ثلاث لغات: الفتح والكسر مع سكون اللام، وفتح السين واللام معاً . ومعناها المسالمة ولذلك أنث قال رجل من اليمن جاهلي :

أنا بل انني سلم لاهلك فاقبلي سلمى (٢)

قال ابو الحسن : السلم فيها الكسر والفتح لغتان . وقال غيره : السلم بفتح السين واللام على ثلاثة أوجه . تقول : أخذت الأسير سلماً اي على الاستسلام . والسلم السلف على السلامة . والسلم شجر واحده سلمة ، تقول له بالسلامة .

وقوله : « وإن جنحوا للسلم » معناه ان مالوا الى المسالمة ، تقول : جنح يجنح جنوحاً وجنحت السفينة إذا مالت الى الوقوف ، ومنه جناح الطائر لانه يميل به في

(١) قائله النمر بن تولب العكلي . الاقتضاب : ٣٠٣ ، والمفصل للزمخشري:٨٨ وتفسير الطبري ١٤ / ٣٩ .

(٢) مجاز القرآن ١/٢٥٠ والتاج واللسان (سلم) .

احد شقيه . ولا جناح عليه في كذا اي لاميل الى مأثم ، قال ابو زيد : جنح يجنح جنوحاً إذا اعطى بيــده او عدل الى ما يحب القوم ، وجنح العدو والخيل ، وجنحت الابل إذا اخفضت في السير . وليس في الآية ما يدل على ان الكفــار إذا ما او الى الهدنة وجب اجابتهـم اليها على كل حال ، لأن الأحوال تختلف في ذلك ، فتارة تقتضي الاجابة ، وتارة لا تقتضي ، وذلك إذا وتروا المسلمين بأمر يقتضي الغلاظة مع حصول العدة والقوة .

فان قيل : اذا جازت الهدنة مع الكفار فهلا جاز المكافة في أمر الامامة حتى يجوز تسليمها الى من لايستحقها ؟. قلنا : تسليم الامامة الى من لا يستحقها فساد في الدين كفساد تسليم النبوة الى مثله . وقوله « وتوكل على الله » اي فوض امرك اليه تعالى وثق بأنه لا يدبره الا على ما تقتضيه الحكمة .

واختلفوا هل في الآية نسخ ؟ فقال الحسن وقتادة وابن زيد : نسخها قوله : « اقتلوا المشركين » (١) وقال قوم : ليست منسوخة ، لانهـا في الموادعـة لاهل الكتاب والاخرى في عباد الاوثان ، والصحيح أنها ليست منسوخة ، لأن قوله :« اقتلوا المشركين » نزلت في سنة تسع وبعث بها رسول الله الى مكة ثم صالح اهل نجران بعد ذلك على الفي حلة : ألف في صفر وألف في رجب . وقوله « إنه هو السميع العليم » معناه انه يسمع دعاء من يدعوه عليم بما تقتضي المصلحة من اجابته وحسن تدبيره

قوله تعالى

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦ .

جَمِيعاً مَا أَلَّفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٣) آيتان في الكوفي والمدني، وآية في البصري.

هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وآله يقول له: «ان يريدوا» يعني الكفار. وقيل هم بنو قريظة، ومعناه ان قصدوا بالصلح خديعتك. والخديعة اظهار المحبوب في الامر للاستجابة له مع ابطان خلافه: خدع خدعاً وخديعة واختدعه اختداعا وتخادع له تخادعا. وانخدع انخداعاً. وقوله «فان حسبك الله» معناه، فان الله كافيك يقال: اعطاني ما احسبني اي كفاني. واصله الحساب، وانما اعطاه بحساب ما يكفيه. وقوله «هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين» فالتأييد التمكين من الفعل على اتم ما يصح فيه، تقول: ايده تأييداً وتأيد تأيداً. والأيد القوة. والمعنى ان الله قواه بالنصر من عنده، بالمؤمنين الذين ينصرونه على اعدائه. وقوله «وألف بين قلوبهم» والتأليف الجمع على تشاكل، فلما جمعت قلوبهم على تشاكل فيما تحبه وتنازع اليه كانت قد الفت، ولذلك قيل: هذه الكلمة تأتلف مع هذه، ولا تأتلف. والمراد بالمؤمنين الانصار وبتأليف قلوبهم ما كان بين الأوس والخزرج من العداوة والقتال، هذا قول ابي جعفر عليه السلام والسدي وبشر بن ثابت الانصاري وابن اسحاق. وقال مجاهد: هو في كل متحابين في الله. وانما كان الجمع على المحبة تأليفاً بين القلوب، لانه مأخوذ من الالفة وهي الاجتماع على الموافقة في المحبة، ولايجوز في الجمع على البغضاء ان يسمى بذلك. وقوله «لو انفقت مافي الارض جميعاً» فالانفاق اخراج الشيء عن الملك. والمعنى «لو انفقت مافي الأرض جميعاً» لتجمعهم على الالفة ماتم لك ذاك، ولكن الله الف بينهم بلطف من الطافه وحسن تدبيره، وبالاسلام الذي هداهم الله اليه. ونصب «جميعاً» على الحال. وقوله «انه عزيز حكيم» معناه قادر لايمتنع عليه شيء يريد فعله «حكيم عليم» لايفعل الا ماتقتضيه الحكمة فعلى ذلك جمع قلوبهم على الالفة.

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٤) آية .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يقول له : يكفيك ان يكون ناصرك على اعدائك الله تعالى ، والـذين اتبعوك من المؤمنين من المهاجرين والانصار ، وانما كرر قوله « حسبك » مع انه قـد ذكر فيما قبل ، لأن المعنى هناك إن أرادوا اخـداعك كفاك الله امرهم . وهاهنا معناه عام في كل مايحتاج فيه الى كفاية الله اياه . وقوله « ومن اتبعك » يحتمل اعرابه وجهين :

احدهما ـ ان يكون نصباً . والمعنى ويكفي من اتبعك على التأويل ، لأن الكاف في موضع خفض بالاضافة لكنه مفعول به في المعنى ، فعطف على المعنى، وليس ذلك بكثير . واجاز الفراء الرفع لقوله « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين » ومثله قوله « انا منجوك واهلك » (١) وقال الشاعر :

اذا كانت الهيجاء وانشقت العصا   فحسبك والضحاك سيف مهند(٢)

وهو معنى قول الشعبي وابن زيد . وقال الحسن : هو عطف على اسم الله ، فيكون رفعاً . والكسائي ، والفراء ، والزجاج أجازوا الوجهين وحمل عليهما معاً ابو علي الجبائي . والاتباع موافقة الداعي فيما يدعوا اليه من اجـل دعائه . والمؤمنون يوافقون النبي ﷺ في كل ما دعا اليه . وقال الواقدي : نزلت هذه الاية في بني قريظة وبني النضير لما قالوا له : نحن نسلم ونتبعك .

قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٣٣ .

(٢) القرطبي ٤٢/٨ ومعاني القرآن ٤١٧/١ وتفسير القاسمي ٣٠٣/٨

عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) آية .

وهـذا ايضاً خطاب للنبي ﷺ يأمره الله بأن يحرض المؤمنين على قتال المشركين .

والتحريض والحث نظائر ، وهو الدعاء الأكيد بتحريك النفس على أمرمن الامور . وضده التفتير . والمعنى حثهم على القتال.والتحريض الحث على الشيء الذي يعلم معه انه حارض إن خالف وتأخر . والحارض هوالذي قارب الهلاك . ومنه قوله: « حتى تكون حرضا » اي حتى تذوب غما على ذلك وتقارب الهـلاك « اوتكون من الهالكين » (١) وحارض فلان على أمره إذا واظب عليه . والتحريض ترغيب في الفعل بما يبعث على المبادرة اليه مع الصبر عليه. والقتال محاولة الصد والمنع بما فيه تعرض للمقتل . والمجاهدة ان يقصد الى قتل المشركين بقتاله ، ومن يدفع عن نفسه فليس كذلك . والصبر هوحبس النفس عما تنازع اليه من صد ما ينبغي أن يكون عليه وضده الجزع ، وقال الشاعر :

فان تصبرا فالصبر خير مغبة وان تجزعا فالامر ماتريان (٢)

والغلبة الظفر بالبغية في المحاربة قتلا اواسراً او هزيمة . وقد يقال في الظفر بالبغية في المنازعة بالغلبة . ومعنى « لايفقهون » ها هنا انهم على جهالة، خلاف من يقاتل على بصيرة ، وهو يرجو به ثواب الاخرة .وقال قوم : معناه لايعلمون مالهم من استحقاق الثواب بالقتال . وقوله « ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين » وان كان بلفظ الخبر، فالمراد به الأمر،ويدل على ذلك قوله« الآن خفف الله عنكم» لأن التخفيف لايكون الا بعد المشقة .

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٨٥ (٢) مجمع البيان ٢ /٥٥٦

قوله تعالى :

أَلآنَ خَفَّفَ ٱللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللهِ وَٱللهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ (٦٦) آية .

قرأ اهل الكوفة « إن يكن ... مئة . وان يكن ... الف » بالياء فيهما وافقهم اهل البصرة في الاولى . وقرأ اهل الكوفة الاالكسائي « ضعفاً » بفتح الضاد الباقون بضمها ، ولكنهم سكنوا العين الا ابا جعفر ، فانه فتحها ومد وهمز على وزن « فعلاء » على الجمع . من قرأ « ان يكن » بالياء فلان المراد به المذكر بدلالة قوله « يغلبوا » وكذلك ماوصف به المئة بقوله « صابرة »لأنهم رجال :حملا على المعنى كما حمل على المعنى في قوله « فله عشر أمثالها » (١) فأنث لما كانت في المعنى حسنات. ومن قرأ بالتاء فلان اللفظ لفظ التأنيث . ومن قرأ الاول بالتاء والثاني بالياء فلان القراءة بالتاء في الاولى أشد مشاكلة لقوله « مئة صابرة » وليس كذلك فيالاخرى ، لانه اخبر عنهم بقوله « يغلبوا » . وقال سيبويه يقال : ضعف ضعفاً فهو ضعيف . قال وقالوا الفقر كما قالوا الضعف ، فعل ذلك انهما لغتان .

هذه الاية نسخت حكم ماتقدمها ، لأن في الاولى كان وجوب ثبات الواحد للعشرة والعشرة للمئة ،فلما علم الله تعالى انذلك يشق عليهموتغيرت المصلحة فيذلك نقلهم الى ثبات الواحد للاثنين والمئة للمئتين،فخفف ذلك عنهم ، وهو قول ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد والسدي وعطا والبلخي والجبائي والرماني ، وجميع المفسرين . والتخفيف رفع المشقة بالخفة . والخفة نقيض الثقل والخفة والسهولة بمعنى واحد. والضعف نقصان القوة،وهو من الضعف لانه ذهاب بعض القوة

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠

وقولـه « باذن الله » فالاذن الاطلاق في الفعل ، لأنه يسمع بالاذن ، ومنه الاذان والايذان والاستئذان ، وقوله « الآن » مبني مع الالف واللام لأنـه خرج عن التمكن بشبه الحرف، لأنه ينكر تارة ويعرف أخرى ، فاستبهم استبهام الحروف بأنه للفصل بين الزمانين على انتقال معناه الى الذي يليه من الوقت كما ينتقل امس ، فالامس والغد والان نظائر واحكامها مختلفة لعلل لزمتها .

وقوله تعالى « والله مع الصابرين » معناه انه معهم بالمعونة لهم . والمعنى ان معونة الله مع الصابرين وحقيقة « مع » ان تكون للمصاحبة للجهة بالمعونة وذلك لايجوز عليه تعالى . وقيل هذه الآية نزلت بعد الاولى بمدة .

قوله تعالى :

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) آية .

قرأ اهل البصرة وابن شاهي « ان تكون » بالتاء . الباقون بالياء . وقرأ ابو جعفر «أسارى » ومن الاسارى ـ بفتح الهمزة منهما وبألف بعد السين ـ وافقه ابو عمرو في الثاني . الباقون بفتح الهمزة وسكون السين من غير الف فيهما .

من قرأ بالتاء فلان لفظ الأسرى لفظ التأنيث ، فحمله على اللفظ .

ومن قرأ بالياء فلان الفعل متقدم والأسرى المراد به المذكورون . وايضاً فقد وقع الفصل بين الفعل والفاعل وكل واحد من ذلك إذا انفرد يذكر الفعل معه ، مثل جاء الرجل وحضر القاضي امرأة ، فاذا اجتمعت هذه الاشياء كان التذكير اولى . واختار الأخفش التذكير . وقال ابو علي الفارسي : الأسرى اقيس من الأسارى لأن اسير فعيل بمعنى مفعول ، وماكان كذلك لايجمع بالواو

والنون ، ولا بالالف والتاء . وإنما يجمع على فعلى مثل جريح وجرحى وقتيل وقتلى وعفير وعفرى ، ولديغ ولدغى ، وكذلك كل من اصيب في بدنه مثل مريض ومرضى واحمق وحمقى وسكران وسكرى . ومن قرأ اسارى شبهه بكسالى وقالوا كسلى شبهوه باسرى .واسارى في جمع اسير ليس على بابه، وقال ابو الحسن :الاسرى مالم يكن موثقاً والاسارى موثوقون . قال : والعرب لاتعرف ذلك بل هما عندهم سواء. وقال الأزهري : الاسارى جمع اسرى فهو جمع الجمع ، والأسر الشد على المحارب بما يصير به في قبضة الآخذ له . واصله الشد ، يقال : قتب مأسور اي مشدود وكانوا يشدون الاسير بالفداء .

والمعنى : ماكان لنبي ان يحبس كافراً للفداء والمن حتى يثخن في الأرض ، والاثخان في الأرض تغليظ الحال بكثرة القتل . وقال مجاهد : الاثخان القتل . والثخن والغلظ والكثافة نظائر . وقوله « يريدون عرض الدنيا » يعني تريدون الفداء والعرض متاع الدنيا وسماه عرضاً لقلة لبثه لانه بمعنى العرض في اللغة .

وقوله « والله يريد الاخرة » معناه والله يريد عمل الاخرة من الطاعات التي تؤدي الى الثواب وإرادة الله لنا خير من إرادتنا لانفسنا .

وقوله « والله عزيز حكيم » معناه يريد عمل الاخرة، فانه يعزكم ويرشدكم الى اصلاحكم ، لانه عزيز حكيم ، فلا تخافوا قهراً مع إعزازه اياكم .

وهذه الاية نزلت في اسارى بدر قبل ان يكثر الاسلام ، فلما كثر المسلمون قال الله تعالى « فاما منا بعد وإما فداء » (١) وهو قول ابن عباس وقتادة . وقال فادوهم بأربعة آلاف ، وفي الاية دليل على بطلان مذهب المجبرة لانه تعالى فصل إرادة نفسه من إرادتهم ، ولو كان يريد ما ارادوه لم يصح هذا الفعل من التفصيل

فان قيل : كيف يكون القتل فيهم كان اصلح وقد اسلم منهم جماعة ، ومن علم الله من حاله انه يؤمن يجب تبقيته ؟! قلنا : في ذلك خلاف ، فمن قال :

(١) سورة ٤٧ محمد آية ٤

لايجب ذلك لايلزمه السؤال. ومن قال : ذلك واجب قال : ان الله اراد ان يأمرهم بأخذ الفداء وإنما عاتبهم على ذلك لانهم بادروا اليه قبل ان يؤمروا به .

قوله تعالى :

لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) آية .

قيل في معنى قوله « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم » قولان :

قال الحسن لولا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من انه لايعذبهم على ذلك . وقال غيره : لولا ما كتب الله فيه انه يغفر لأهل بدر ماتقدم وماتأخر .

الثاني - قال مجاهد : يعني ماذكره من قوله « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (١) فكأنه قال : لاعذب إلا بعد المظاهرة في البيان وتكرير الحجة به. وقال قوم « لولا ما كتبه الله » من ان الفدية ستحل لهم فيما بعد ، ذهب اليه سعيد ابن جبير . ومعنى الاية « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم » من فداء الاسرى والغنيمة عذاب عظيم ، لانهم اخذوه قبل ان يؤذن لهم . وقد كان سبق ان الله سيحله لهم في قول ابن عباس والحسن ، وقال الجبائي : والمعنى « لولا كتاب من الله سبق » وهو القرآن الذي آمنتم به واستحقيتم لذلك غفران الصغائر لمسكم فيما اخذتم به من الفداء عذاب عظيم . ولايجوز ان يكون المراد به الا الصغائر لانهم قبل الغفران لم يكونوا فساقاً اجماعاً. قال الجبائي : وقد كان من النبي صلى الله عليه وآله في هذا معصية اجماعاً من غير تعيين ماهي ، واظن انها في ترك قتل الاسرى . وهذا الذي ذكره غير صحيح ، لانه لاإجماع في ذلك بل عندنا لايجوز على النبي صلى الله عليه وآله فعل شيء من القبائح صغيراً كان او كبيراً لما في ذلك من التنفير عنه على ما بيناه

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١٥

في غير موضع . واكثر المفسرين على ان النبي ﷺ لم يقع منه خلاف لأمر الله. وقد روي ان النبي ﷺ كره اخذ الفداء حتى راى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه، فقال يارسول الله هـذا اول حرب لقينا فيه المشركين اردت ان يثخن فيهم القتل حتى لايعود احد بعد هذا الى خلافك وقتالك ، فقال رسول الله : قـد كرهت ما كرهت ، ولكن رايت ماصنع القوم ، فالمعصية في ذلك كانت من قوم من الصحابة الذين مالوا الى الدنيا واخذ الفداء . وقد قال البلخي ايضاً إن اجلاء الصحابة براء من ذلك. وروي عن النبي ﷺ انه قال إن الغنائم احلت لي ولم تحل لنبي قبلي .

ومعنى « لولا » امتناع الثاني لوقوع الأول كقولك : لولا زيد بالمـكان الذي هو به لاتيتك ، فامتنع الاتيان لمكان زيد . والسبق يكون تقدماً في الزمان والمكان والرتبة بأن يكون له وإن لم يكن فيها . والمس مماسة يقع معها إدراك ، وهو كاللمس في الحقيقة . والعظيم ما يصغر فيه قدر غيره ، ويكون ذلك بعظم الجثة تارة وبعظم الشأن أخرى . والعظيم هو المستحق للصفة بأن قدر غيره صغير عنده . وقال أبو جعفر عليه السلام كان الفداء يوم بدر كل رجل من المشركين بأربعين أوقية من فضة والاوقية أبعون مثقالا إلا العباس فان فداءه كان مئة اوقية وكان أخذ منه حين أسر اثنين وعشرين اوقية ذهباً ، فقال النبي ﷺ ذاك غنيمة ففاد نفسك وابني اخيك عقيل ونوفل بن الحارث ، فقال: ليس معي ، فقال : اين الذهب الذي سلمته الى ام الفضل وقلت : ان حـدث بي حدث، فهولك وللفضل وعبد الله وميثم ، فقال من اخبرك بهذا ؟ قال : الله ، قال : اشهد انك رسول الله . والله ما اطلع على هذا احد إلا الله تعالى .

قوله تعالى :

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (٦٩) آية .

أباح الله تعالى للمؤمنين بهذه الاية أن يأكلوا مما غنموه من اموال المشركين بالقهر من دار الحرب . ولفظه وإن كان لفظ الامر . فالمراد به الاباحة ورفع الحظر. والغنيمة ما أخذ من دار الحرب بالقهر . والفيء ما رجع الى المسلمين ، وانتقل اليهم من المشركين. والاكل تناول الطعام بالفم مع المضغ والبلع، فمتى فعل الصائم هذا فقد أكل في الحقيقة . والفرق بين الحلال والمباح ان الحلال من حل العقد في التحريم والمباح من التوسعة في الفعل وان اجتمعا في الحل والطيب المستلذ ، وشبه الحلال به فسمي طيباً . واللذة نيل المشتهى . قال الزجاج : الفاء في قوله « فكلوا » على تقدير قد أحللت لكم الفداء فكلوه .

وقوله « واتقوا الله » معناه اتقوا معاصيه فان الله غفور رحيم لمن اطاعه وترك معاصيه .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ ٱلْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) آية

قرأ ابو عمرو وحده من السبعة وابو جعفر « الاسارى » الباقون « الاسرى » وابو عمرو جمع المذهبين في الاول والثاني . وحمله الباقون على النظير في المعنى.

وقد فسرنا فيما مضى الاسير من اخذ من دار الحرب من أهلها ، ولو اخذ مسلم لكان قد فك اسره . خاطب الله بهذه الآية نبيه صلى الله عليه وآله وامره ان يقول لمن حصل في يده من الاسرى يعني من حصل في وثاقه وسماه في يده لانه بمنزلة ما

قبض على يده بالاستيلاء عليه ولذلك يقال في الملك المتنازع فيه لمن اليد ؟ وقوله « ان يعلم الله في قلوبكم خيراً » يعني اسلاماً . وقيل معناه إن يعلم منكم خيراً في المستقبل بأن يفعلوه فيعلمه الله موجوداً ، لان مالم يفعل لايعلمه موجوداً والخير النفع العظيم ، وهو هاهنا البصيرة في دين الله وحسن النية في امرالله . وقولـه « يؤتكم خيراً » يعني يعطيكم خيراً « مما اخذ منكم » من الفداء . وقال الحسن اطلقهم بالفداء ، ولولم يسلموا لم يتركهم .

وقوله « ويغفرلكم» يعني زيادة مما يؤتيهم يغفرلهم معاصيهم ويسترهاعليهم لانه غفور رحيم . وروي عن العباس انه قال : كان معي عشرون اوقية فأخذت مني فاعطاني مكانها عشرين عبداً ووعدني بالمغفرة. وقالالعباس فيّ نزلتوفي اصحابي هذه الاية ، وهو قول ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم .

قوله تعالى :

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) آية.

معنى الاية ان هؤلاء الاسارى ان علم الله في قلوبهم خيراً اخلف عليهم خيراً مما اخذ منهم . وان عزموا على الخيانة ، ونقض العهد وفعلوا خلاف ماوقع عليه العقد من تأدية فرض الله ، فقد خانوا الله من قبل هذا . والمعنى فقد خانوا أولياء الله ، لأن الله لايمكن ان يخان ، لأنه عالم بالأشياء كلها لايخفى عليه خافية . والخيانة هاهنا نقض عقد الطاعة لله ورسولهالتي شهدت بها الدلالة . وقوله « فامكن منهم » المعنى لما خانوا بأن خرجوا الى بدر وقاتلوا مع المشركين ، فقد امكن الله منهم بان غلبوا واسروا . فان خانوا ثانيأفيمكن اللهمنهم مثل ذلك . والامكان هو القدرة على الشيء مع ارتفاع المانع ، وما لو حرص عليه صاحبه اتم الحرص لم

يصح ان يقع منه لايكون امكاناً ، فالامكان ينافي المنع والالجاء كما ينافي العجز القدرة .

وقوله « والله عليم حكيم » معناه عالم بما تقولونه ومافي نفوسكم وبجميع الاشياء« حكيم » فيما يفعله . والحكيم هوالعالم بوجوه الحكمة في الفعل ممايصرف عن خلافها والاصل في الحكمة المنع فهي تمنع الفعل من الخلل والفساد .

قوله تعالى

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُم مِنْ وَلَايَتِهِم مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) آية .

قرأ حمزة « ولايتهم » بكسر الواو . الباقون بفتحها . قال الزجاج : إنما جاز الكسر لأنه يشبه الصناعة كالخياطة والقصارة والحياكة ، وقال الشاعر في الفتح :

دعيهم فهم ألب علي ولاية وحفرهم ان يعلموا ذاك دائب (١)

قال ابو عبيدة : بفتح الواو مصدر المولى تقول : مولى بين الولاية وإذا كسرت فهو من وليت الشيء . قال ابو الحسن: يفتح الواو من الولاية إلا الولابة في السلطان بكسر الواو ، وكسر الواو في الاخرى لغة . وقرأ الأعمش بكسر الواو من الولاية في الدين هنا . قال ابو علي الفارسي : الولاية هاهنا في الدين والفتح أجود . قال ابو الحسن . وهي قراءة الناس . وعن الأعمش أنه كسر الواو ، وهي لغة . وليست

(١) معاني القرآن ٤١٩/١

بذلك . قال المبرد عن الاصمعي : ان الأعمش لحن في كسره لذلك . قال ابو علي: إذا كان ذلك لغة لايكون لحناً . قال الفراء : والكسر أحب الي ، لأنها ولاية المواريث . وقال الازهري : في النصرة والنسب بفتح الواو . وفي الامارة بكسرها.

اخبر الله تعالى في هذه الآية عن احوال المؤمنين الذين هاجروا من مكة الى المدينة بقوله « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » وعن احوال الأنصار بقوله « والذين آووا ونصروا » يعني النبي صلى الله عليه وآله . ثم قال « اولئك » يعني المهاجرين والانصار « بعضهم اولياء بعض » والهجرة فراق الوطن الى غيره من البلاد فراراً من المفتنين في الدين ، لأنهم هجروا دار الكفار الى دار الاسلام . والجهاد تحمل المشاق في قتال اعداء الدين جاهدجهاداً وجهده الأمر جهداً واجتهد اجتهاداً ، وجاهد مجاهدة . والايواء ضم الانسان صاحبه اليه بانزاله عنده وتقريبه له ، تقول : آواه يؤويه ايواء واوى يأوي اوياً ، وأويت معناه رجعت الى المأوى . والولاية عقد النصرة للموافقة في الديانة .

ثم اخبر تعالى عن الذين آمنوا ولم يهاجروا من مكة الى المدينة فقال «والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء » وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ ولاية القرابة نفاها عنهم لأنهم كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الرحم ـ في قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي ـ وعن ابي جعفر عليه السلام انهم كانوا يتوارثون بالمؤاخاة الاولى .

الثاني ـ انه نفي الولاية التي يكونون بها يداً واحدة في الحل والعقد ، فنفى عن هؤلاء ماأثبته للأولين حتى يهاجروا . ثم قال « وإن استنصروكم » اي طلبوا نصركم « في الدين » يعني الذين آمنوا ولم يهاجروا « فعليكم النصر» اي نصرهم بسبب الايمان الذي يجب عليكم ان تنصروهم على الكفار « إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » يعني موادعة ومهادنة تقتضيه من جهة ان عقدهم بخلاف عقدهم .

وقيل انه نسخ ذلك بقوله « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض » (١) .

وقوله «والله بما تعملون بصير » يعني عالم بما يعملونه

قوله تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) آية .

اخبر الله تعالى عن الكافرين أن بعضهم اولياء بعض بمعنى النصرة ، لأنه ينصر بعضهم بعضاً . وقوله « الا تفعلوه » الهاء عائدة الى معنى ما أمروا به في الآية الاولى والثانية ، ومخرجه مخرج الخبر والمراد به الأمر ،وتقديره الا تفعلوا ما امرتم به من التناصر والتعاون والبراءة من الكفار « تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » على المؤمنين الذين لم يهاجروا . فالفتنة هاهنا المحنة بالميل الى الضلال لأنه إذا لم يتوال المؤمن المؤمن على ظاهر حاله من الايمان والفضل، ولم يدعه الى التبري من الضلال ادى ذلك الى الضلال. والفساد ضد الصلاح وهو الانقلاب الى الضرر القبيح . والصلاح جريان الشيء على استقامة . والولي هو المختص بالعقد على النصرة في وقت الحاجة ، وقد يعقد بالعزم ، وقد يعقد بالحكم . وقيل في معنى قوله « والذين كفروا بعضهم اولياء بعض » قولان : احدهما ـ في الميراث ، في قول ابن عباس ، وابي مالك . والثاني ـ قال قتادة وابن اسحق في النصرة .

قوله تعالى

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٧٢

كَرِيمٌ (٧٤) آية .

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله وهاجروا من ديارهم وأوطانهم، يعني من مكة الى المدينة، وجاهدوا مع ذلك في سبيل الله وقتال اعدائه . والذين آووا من الأنصار ومعناه ضموهم اليهم ونصروا النبي ﷺ بأنهم المؤمنون حقاً ، وقيل في معناه قولان : احدهما انهم المؤمنون الذين حققوا ايمانهم لما يقتضيه من الهجرة والنصرة بخلاف من اقام بدار الشرك . الثاني - قال ابو علي الجبائي : معناه انهم المؤمنون حقاً ، لان الله حقق ايمانهم بالبشارة التي بشرهم بها ، ولو لم يهاجروا ولم ينصروا لم يكن مثل هذا .

واختلفوا في هل تصح الهجرة في هذا الزمان أو لا ؟

فقال قوم : لاتصح لان النبي ﷺ قال : لاهجرة بعد الفتح ولأن الهجرة انتقال من دار الكفر الى دار الاسلام على هجر الاوطان ، وليس يقع مثل هذا في هذا الزمان لاتساع بلاد الاسلام إلا أن يكون نادراً لايعتد به .

وقال الحسن : بقيت هجرة الاعراب الى الامصار الى يوم القيامة .

والأقوى أن يكون حكم الهجرة باقياً ، لأن من أسلم في دار الحرب ثم هاجر الى دار الاسلام كان مهاجراً، وسمي الجهاد في سبيل الله لأنه طريق الى ثواب الله في دار كرامته .

وقوله « لهم مغفرة ورزق كريم » اخبار منه تعالى أن لهؤلاء المغفرة لذنوبهم والرزق الكريم يعني العظيم الواسع والكريم الذي يصح منه الكرم من غير مانع. والكرم الجود العظيم والشرف قال الشاعر :

تلك المكارم لاقعبان من لبن　　شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وقيل الرزق الكريم هنا طعام الجنة لانه لايستحيل الى أجوافهم نجواً بل يصير كالمسك ريحاً .

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) آية .

اخبر الله تعالى بأن الذين هاجروا بعد هجرة من هاجر،وقيل أراد بعد الفتح وجاهدوا مع المؤمنين بأن قال « فأولئك منكم » ومعناه حكمهم حكمكم في وجوب موالاتهم ومواريثهم ونصرتهم . وقوله « وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » قيل في معنى « كتاب الله » قولان :

احدهما - في كتاب الله من اللوح المحفوظ ، كما قال « ماأصاب من مصيبة في الارض ، ولافي أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها » (١) .

والثاني - قال الزجاج : يعني في حكم الله .

ومعنى « أولوا » ذووا ،واحده ذو ، ولا واحد لهمن لفظه .

وفي الآيـة دلالة على ان من كان قربـاه أقرب الى الميت كان أولى بالميراث سواء كان عصبة اولم يكن او له تسمية او لم يكن لان مع كونه اقرب تبطل التسمية.ومن وافقنا في توريث ذوي الارحام يستثني العصبة ، وذوي السهام .

وهذه الآية نسخت حكم التوارث بالنصرة والهجرة فانهم كانوا لايورثون الاعراب من المهاجرين على ماذكره في الايات الاول . ومن قال : الولاية في الاية الأولى ولاية النصرة دون الميراث يقول : ليست هذه ناسخة لها بل هما محكمتان .

ودخلت الفاء في قوله : « فاولئك » كما تقول الذي يأتيني فله درهم، لأن فيه معنى المجازات . وقال مجاهد : في هذه الآيات الثلاث ذكر ماولاية رسول الله بين

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٢

المهاجرين والانصار في الميراث ، ثم نسخ ذلك بآخرها من قوله « وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله » وقال عبد الله بن الزبير نزلت في العصبات كان الرجل يعاقد الرجل يقول ترثني وارثك فنزلت « وأولو الارحام » الى آخرها .

وقال الحسن : والذين آمنوا من بعد يعني بعد فتح مكة . وقوله « منكم » معناه مؤمنون مثلكم ، ولاهجرة بعد فتح مكة ، وقال : الهجرة الى الامصار قائمة الى يوم القيامة . وكان الحسن يمنع ان يتزوج المهاجر الى اعرابية . وروي عن عمر انه قال : لاتنكحوا أهل مكة ، فانهم اعراب .

وأكثر هذه السورة في قصة بدر . وكانت في صبيحة السابع عشر من شهر رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة، من شهد هذه الواقعة فله الفضل .

٩ ـ سورة براءة

وتسمى سورة التوبة

مدنية وهي مئة وتسع وعشرون آية في الكوفي وثلاثون في البصري والمدنيين

قال مجاهد وقتاده وعثمان: هي آخر ما نزلت على النبي ﷺ بالمدينة وروي عن حذيفة انه قال: كيف يسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب ؟!

وروي عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس سورة التوبة قال: تلك الفاضحة مازالت تنزل وفيهم ومنهم حتى خشينا الا تدع احداً. قال وسورة الأنفال نزلت في بدر، وسورة الحشر في بني النضير.

قوله تعالى:

بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١) آية.

قيل في علة ترك افتتاح هذه السورة بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) قولان:

احدهما ـ ماروي عن ابي بن كعب أنه ضمت هذه السورة الى الانفال بالمقاربة، فكانتا كسورة واحدة لأن الاولى في ذكر العهود والاخرى في رفع لعهود. وقال عثمان لاشتباه قصتهما، لان الاولى في ذكر العهود والاخرى في رفع لعهود. وقال المبرد: لأن « بسم الله الرحمن الرحيم » أمان وبراءة نزلت رفع الامان.(1)

(1) وهو قول الثاني

ويحتمل رفع « براءة » وجهين:

احدهما ـ ان يكون خبراً لمبتدأ محذوف وتقديره هذه الآيات براءة.

والثاني ـ ان يكون مبتدأ وخبره الظرف في قوله « الى الذين » . والاول اجود لانه يدل على حصول المدرك كما تقول لما تراه حاضرا : حسن والله اي هذا حسن .

ومعنى البراءة انقطاع العصمة برىء براءة وابرأه ابراءاً وتبرأ تبرؤاً وبرئت من المرض و برأت أبرأ وأبرؤ وبرأ تبريئا . وروى أهل اللغة برأت أبرؤ برءاً ، ولم يجيء من المهموز (فعلت أفعل) إلا في هذا الحرف الواحد وبريت القلم أبريه برياً بغير همز ،وبراه السير إذا هزله . وبرىء له يبرىء إذا تعرض له، وباراه إذاعارضه وأبرأت البعير إذا جعلت لانفه براه بالالف.

ومعنى الآية برىء الله من المشركين ورسوله « إلا الذين عاهدتم من المشركين » من اعطائتم الامان ، والعهود والوفاء لهم بها إلا إذا نكثوا ، لانهم كانوا ينكثون ما كان بينهم وبين النبي ﷺ ، فأمر الله تعالى النبي ﷺ ان ينبذ ايضاً اليهم عهدهم . وقوله « إلا الذين عاهدتم من المشركين » فالعهد العقد الذي يتقدم به لتوثيق الامر عهد عهداًوعاهد معاهدة وتعاهد الامر تعاهداً وتعهده تعهداً . وقوله : « عاهدتم » انما جاء بلفظ الخطاب ، لأن فيه دلالة على الأمر بالنبذ الى المشركين برفع الامان ولولا ذلك لجاز عاقدنا ، لان معاقدة النبي ﷺ انما هي عن الله عز وجل . ويجوز رفع الامان والبراءة من غير نقض العهد إذا كان مشروطاً الى ان يرفعه الله اليهم .

قوله تعالى :

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) آية .

السيح السير في الأرض على مهل تقول : ساح يسيح سيحاً وسياحة وسيوحاً

وسيحاناً وإنساح الماء إنسياحاً وسيحه تسييحاً .

امر الله تعالى في هذه الآية ان يقال لهؤلاء المشركين أن يسيحوا في الأرض أربعة اشهر آمنين وإنما احلهم هذه الاشهر لانها الاشهر الحرم الى آخر المحرم من أول شوال ، في قول ابن عباس والزهري . وقال الفراء : كانت المدة الى آخر المحرم لأنه كان فيهم من كان مدته خمسين ليلة ، وهو من لم يكن لـه عهد من النبي صلى الله عليه وآله فجعل الله ذلك له . قال : ومعنى الاشهر الحرم المحرم وحده وإنما جمعه لانه متصل بـذي الحجة وذي القعدة فكأنه قال : فاذا انقضت الثلاثة أشهر . وقال ابو عبد الله عليه السلام اول الاربعة الاشهر يوم النحر وآخرها العاشر من شهر ربيع الآخر ،وهو قول محمد بن كعب القرطي ومجاهد ، وقال الحسن : إنما جعل لهم هذه المدة ، لان منهم من كان عهده اكثر من اربعة اشهر فحط اليها . ومنهم من كان اقل فرفع اليها . وقال ابو علي الجبائي: كان يوم النحر لعشرين من ذي القعدة الى عشرين من ربيع الاول ، لان الحج كان تلك السنة في ذلك الوقت ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة وفيها حجة الوداع ، وكان سبب ذلك النسيء الذي كان في الجاهلية .

وقرأ براءة على الناس يوم النحر بمكة علي بن ابي طالب عليه السلام لأن أبا بكر كان على الموسم في تلك السنة فاتبعه النبي صلى الله عليه وآله بعلي عليه السلام ، وقال : لايبلغ عني الا رجل مني ـ في قول الحسن وقتادة ومجاهد والجبائي ـ وروى أصحابنا ان النبي صلى الله عليه وآله كان ولاه ايضاً الموسم ، وأنه حين أخذ البراءة من أبي بكر رجع أبو بكر فقال: يارسول الله انزل فيّ قرآن ؟ فقال : لا ، ولكن لايؤدي إلا أنا او رجل مني. وروى الشعبي عن محرز بن ابي هريرة : قال: قال ابو هريرة: كنت أنادي مع علي عليه السلام حين أذن المشركين فكان اذا اضمحل صوته مما ينادي دعوت مكانه قال فقلت يا ابه اي شيء كنتم تقولون ؟ قال : كنا نقول لايحج بعد عامنا هـذا

مشرك ـ قال وما حج بعد عامنا مشرك ـ ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة الا مؤمن ومن كانت بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله مدة فان اجله الى اربعة اشهر فاذا انقضت اربعة اشهر فان الله بريء من المشركين ورسوله . وفتحت مكة سنة ثمان ونزلت براءة سنة تسع وحج رسول الله صلى الله عليه وآله حجة الوداع سنة عشر . وقوله « واعلموا انكم غير معجزي الله » معناه انكم غير فائتين كما يفوت ما يعجز عنه لانكم حيث ما كنتم في سلطان الله وملكه والاعجاز ايجاد العجز والعجز ضد القدرة عند من أثبته معنى .

وقوله « وان الله مخزي الكافرين » فالاخزاء الاذلال بما فيه الفضيحة والعار . والخزي النكال الفاضح .

قوله تعالى :

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ (٣) فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٤) آية في الكوفي والمدني ، وآيتان في البصري.

الاذان الاعلام في قول ابن زيد والزجاج والجبائي ، تقول : أذنني فلان كذا فأذنت اي اعلمني فعلمت . وقال بعضهم : معناه النداء الذي يسمع بالاذن .

وقال الفراء والزجاج : انما ارتفع لأنه عطف على قوله « براءة » وقيل معناه عليكم اذان ، لأن فيه معنى الامر . والحج المقصد الى اعمال المناسك على ما امر الله به وقد بينا شرائط الحج واركانه وفرائضه في كتب الفقه ، ولا نطول بذكره هاهنا والحج الاكبر قال عطا ، ومجاهد ، وعامر وبشر بن عبادة : هو ما فيه الوقوف

بعرفه ، والاصغر العمرة ، وقال مجاهد : الحج الاكبر هو القران ، والحج الاصغر هو الافراد . وقيل في معنى « يوم الحج الاكبر » ثلاثة اقوال :

احدها ـ ماروي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال : عرفـة ، وهو المروي عن عمر وابن عباس بخلاف فيه وبه قال عطا ومجاهد وابن الزبير وابو حنيفة .

الثاني ـ في رواية اخرى عن النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام وابن عباس وسعيد ابن جبير ، وعبد الله بن ابي أوفى ، وابراهيم ومجاهد أنه يوم النحر ، وهوالمروي عن ابي عبد الله عليه السلام . وسمي بالحج الاكبر لانه حج فيه المشركون والمسلمون ولم يحج بعدها مشرك .

الثالث ـ قال مجاهد وشعبة : هو جميع ايام الحج .

اعلم الله تعالى في هذه الاية المشركين انه ورسوله بريء من المشركين وانه ان تبتم ورجعتم الى الايمان وطاعة الرسول « فهو خير لكم » وان اعرضتم وتوليتم فاعلموا انكم لاتفوتون الله وان الله يبشر الـكافرين بعذاب اليم اي شديد مؤلم .

قال الحسن الحج الاكبر ثلاثة ايام الحج اجتمعت في تلك الايام الثلاثة اعياد المسلمين واعياد اليهود واعياد النصارى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن فيما خلا ولا يكون الى يوم القيامة .

قوله تعالى :

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٥) آية اجماعاً .

استثنى الله تعالى من براءته عز وجل ، وبراءة ورسوله صلى الله عليه وآله من المشركين من كان لهم العهد ، في قول الزجاج ، وقال الفراء : هذا استثناء في موضع نصب ، وهو

قوم من بني كنانة كان قد بقي من اجلهم تسعة اشهر ، فقال الله تعالى « فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم » لاتحطوهم الى الاربعة اشهر ، وقال مجاهد : عنى بذلك جماعة من خزاعة ومدلج . وقال ابن عباس : توجه ذلك الى كل من كان بينه وبين رسول الله عهد قبل براءة . وينبغي أن يكون ابن عباس اراد بذلك من كان بينه وبينه عقد هدنة او الى قوم من المشركين لم يتعرضوا له ﷺ بعداوة ولاظاهروا عليه عدوه ، لان النبي ﷺ صالح اهل هجر واهل البحرين وايلى ودومة الجندل، وادرج ، واهل معنا ، وهم ناس من اليهود في توجهه الى تبوك اوفي مرجعه منها، وله عهود الصلح والحرب غير هذه ، ولم ينبذ اليهم بنقض عهد ، ولا حاربهم بعد ان صاروا اهل ذمة الى ان مضى لسبيله . ووفى لهم بذلك من بعده ، فمن حمل ذلك على جميع العهود فقد اخطأ . وقال الحسن : هذا استثناء من قوله تعالى « اقتلوا المشركين » ، « إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام » ثم نقلت الى هاهنا وباقي الناس على خلافه .

وقوله « ثم لم ينقصوكم شيئاً » النقصان حط العدة عن عدة ، والزيادة الحاق العدة بعدة . والمعنى ثم لم ينقصوكم من شروطكم العهد شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً فالمظاهرة المعاونة على العدو للظهور عليه فهؤلاء إن لم يعاونوا عليكم احداً من اعدائكم ولا نقصوكم شيئاً من حقكم في عهدهم فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم، وهو أمن من الله تعالى الى ان يبلغوا المدة التي وافقهم عليها . قال قتادة : وهم مشركوا قريش كانوا عاهدوه في الحديبية وبقي من مدتهم اربعة اشهر بعد يوم النحر . والاتمام بلوغ الحد في العدة من غير زيادة ولا نقصان فهنا معناه امضاء الامر على ما تقدم به العهد الى انقضاء اجل العقد . والمدة زمان طويل الفسحة ، واشتقاقه من مددت له في الاجل للمهلة . والمعنى الى انقضاء مدتهم .

وقرأ عطاء «ثم لم ينقضوكم » بالضاد المعجمة وهي شاذة (وأن) بفتح الهمزة، لان تقديره بأن الله بريء من المشركين ، ولا يجوز أن يكون المراد نبذ العهد الى

مكة ، لأن مكة فتحت سنة ثمان وصارت دار الاسلام ، ونبذ العهد كان في سنة تسع فعلم بذلك ان المراد غيرهم .

قوله تعالى:

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦) آية .

الانسلاخ اخراج الشيء مما لابسه ، وكذلك سلخ الشاة إذا نزع الجلد عنها وسلخنا شهر كذا نسلخه سلخاً وسلوخاً . وقيل في الأشهر الحرم قولان :

احدهما ـ رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ثلاثة سرد وواحد فرد

الثاني ـ الاشهر الأربعة التي جعل لهم ان يسيحوا فيها آمنين ، وهي عشرون من ذي الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وشهر ربيع الاول ، وعشر من ربيع الآخر، في قول الحسن والسدي وغيرهما .

امر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين انه اذا انقضت مدة هؤلاء المعاهدين ، وهي الاربعة اشهر ان يقتلوا المشركين حيث وجدوهم . قال الفراء : سواء كان في الاشهر الحرم اوغيرها وسواء في الحل اوفي الحرم ، وان يأخذوهم ، ويحصروهم.

والحصر المنع من الخروج عن محيط واحصر الرجل إحصاراً وحاصره العدو محاصرة وحصاراً ، وحصر في كلامه حصراً وانحصر الشيء انحصاراً .والحصر والحبس والأسر نظائر . وقوله « واقعدوا لهم كل مرصد » يعني كل موضع يرقب فيه العدو والمرصد الطريق ومثله المرقب والمربأ ، يقال : رصده يرصده رصداً ،ونصب كل

مرصد على تقدير على كل مرصد ـ على قول الاخفش ـ كما قال الشاعر :

نغالي اللحم للاضياف نيأ　　ونرخصه اذا نضج القدور (١)

اي نغالي باللحم. وقال الزجاج هو ظرف كقولك ذهبت مذهباً وقال الشاعر:

إن المنية للفتى بالمرصد (٢)

فجعله بمنزلة المحدود ، والمرصد مبهم ، والطريق محدود ، فهذا فرق ما بينهما

واستدل بهذه الاية على ان تارك الصلاة متعمداً يجب قتله ، لأن الله تعالى اوجب الامتناع من قتل المشركين بشرطين : احدهما ـ ان يتوبوا من الشرك . والثاني ـ ان يقيموا الصلاة ، فاذا لم يقيموا الصلاة وجب قتلهم .

قوله تعالى :

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٧) آية

قوله « احد » ليست التي تقع في النفي في مثل قولك (ماجاءني احد) لأن الايجاب لا يصح فيه اعم العام الذي هو هو على الجملة والتفصيل كقولك : ليسوا مجتمعين ،ولا متفرقين ، ولا يصح مثل ذلك في الايجاب ، ويصح في الاستفهام لان فيه معنى النفي ، ولولا ذلك لم يصح جوابه بـ « لا » والتقدير وإن استجارك احد من المشركين استجارك فاضمر الفعل ، ولم يجز في الجواب ان يقول : إن يقوم احد زيد يذهب ، لقوة « إن » إنها للفعل خاصة ومثله انشد الاخفش :

لاتجزعي إن منفساً اهلكته　　فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعي (٣)

---

(١) مر تخريج هذا البيت في ١ / ٤٧٠ تعليقة ٣

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ٧٣ ومجاز القرآن ١/ ٢٥٣

(٣) القرطبي ٨ / ٧٧ . نسبه للنمير بن تولب .

فاخبر ، ثم جزم على جواب الجزاء ، لانها شرط وليس كذلك الجواب ، لانه قد يكون بالفاء ولايجوز اضمار الفعل في شيء من حروف المجازاة إلا في «إن» لانها ام الباب ، وهي الاصل الذي يلزمه ، قال الشاعر :

فان انت تفعل فللفاعليـ ن انت المجيرين تلك الغمارا (١)

واما قول الشاعر :

فمتى واغل ينبهم يحيو ه ويعطف عليه كأس الساقي

فانما هو ضرورة ، لايجوز مثله في الـكلام قال الفراء « استجارك » في موضع جزم ، وانه فرق بين الجازم والمجزوم بـ « احد » وذلك جائز في « ان » خاصة وقد يفرق بينهما وبين المجزوم بالمنصوب والمرفوع ، فالمنصوب مثل قولك: إن اخاك ضربت ظلمت، والمرفوع مثل قوله تعالى « إن امرؤهلك ليس له ولد »(٢)

امر الله تعالى نبيه ﷺ انه متى استجارك احد من المشركين الذين امرتك بقتالهم اي طلب منه الجار في رفع الاذى عن صاحبه . وقيل : المعنى ان استأمنك احد فأمنه « حتى يسمع كلام الله » والمشرك يصح ان يسمع كلام الله على الحقيقة لان حكاية كلام الله يطلق عليه الاسم بأنه كلام الله لظهور الامر فيه ، ولايحتاج ان يقدر اضل له ، كما يقال : كلام سيبويه وغيره . ومن ظن ان الحكاية تفارق المحكي لاجل هذا الظاهر فقدغلط ،لان المراد ماذكرناه فيما يقال في العرف انه كلام الله . وقوله « ثم ابلغه مأمنه » فالابلاغ التصيير الى منتهى الحد . والابلاغ والاداء نظائر . وفي الاية دلالة على بطلان قول من قال : المعارف ضرورية لانها لو كانت كذلك لما كان لطلب ماهو عالم به معنى . ومعنى قوله « لايعلمون » اخبار عن جهلهم في افعالهم ، لانهم لايعقلون ، وإنما اراد لا ينتفعون بمثله . ولا يعرفون مالهم وعليهم من الثواب والعقاب .

(١) معاني القرآن ٤٢٢/١ . نسبه للكميت .

(٢) سورة ٤ النساء آية ١٧٥

قوله تعالى :

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ ٱللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٨) آية.

قال الفراء : هذا على التعجب كما تقول : كيف تستبقي مثلك ؟! اي لا ينبغي ان يستبقى، وفي قراءة عبد الله : كيف يكون لهم عهد عند الله، ولا ذمة، فادخل الكلام « لا » مع الواو ، ولان معنى الاول جحد . وقال غيره : في الكلام حذف لان الكلام خرج مخرج الانكار عليهم . وتقديره كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله مع اضمار الغدر في عهدهم ، فجاء الانكار ان يكون لهم عهد مع ما ينبذ من العهد على ذلك ، وذلك يقتضي اضمار الغدر فيما وقع من العهد . ثم استثنى من ذلك « الذين عاهدتم عند المسجد الحرام » فكان ذلك ايجاباً فيهم لان ماقبله في معنى النفي ، والتقدير ليس للمشركين عهد الا الذين . وموضع « الذين » يحتمل الجر والنصب . وحكى الكسائي : اين كنت لتنجو مني اي ما كنت .

و « المسجد» الموضع المهيأ لصلاة الجماعة ، والمراد هاهنا مسجد مكة خاصة واصله موضع السجود كالمجلس موضع الجلوس و « الحرام » المحظور بعض احواله فالخمر حرام لحظر شربها وسائر انواع التصرف فيها . والام حرام بحظر نكاحها والمسجد الحرام لحظر صيده وسفك الدم فيه وابتذاله ما يبتذل به غيره . وقوله « فما استقاموا لكم » معناه ما استمروا لكم على العهد. والاستقامة الاستمرار على جهة الصواب . ومتى كان الاستمرار على وجه الخطأ لايسمى استقامة . ومعنى « فاستقيموا لهم » استمروا لهم على العهد مثلهم. والمراد بالذين عوهدوا عند المسجد

الحرام ، قيل فيهم ثلاثة اقوال : قال مجاهد:هم خزاعة. وقال ابن اسحاق: هم قوم من بني كنانة . وقال ابن عباس : هم قريش .

وقوله « ان الله يحب المتقين » اخبار منه تعالى انه يحب من يتقي معاصيه ويعمل بطاعاته وانه يريد ثوابه ومنافعه . وفي الآية دليل على ان تمكين الحربي من المقام في دار الاسلام بعد قضاء حاجته ليس بجائز .

قوله تعالى:

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٩) آية.

تقدير الاية كيف لهم عهد وكيف لاتقتلونهم وحذف ، لان قوله في الاية الاولى « كيف يكون للمشركين عهد » دل على ذلك ومثله قول الشاعر :

وخبرتماني أنما الموت في القرى فكيف وهاتا هضبة وقليب (١)

ويروى وهذي اي كيف مات وليس في قرية . وقال الحطيئة في حذف الفعل بعد كيف :

فكيف ولم أعلمهم خذلوكم على معظم ولا اديمكم قدوا (٢)

أي كيف تلومونني على مدح قوم وتذمونهم. والمعنى كيف لهم يعني لهؤلاء المشركين عهد، وهم إن يظهروا عليكم بمعنى يعلوا عليكم بالغلبة ،لان الظهور هو العلو بالغلبة . واصله خروج الشيء الى حيث يصح ان يدرك « لا يرقبوا فيكم » معناه لايراعون فيكم ، والرقوب هو العمل في الامر على ماتقدم به العهد . والمراقبة

(١) قائله كعب بن سعد الغنوي . الأصمعيات ٩٩ وتفسير الطبري ١٤/١٤٥ وأمالي القالي ٢ / ١٥١ ومعاني القرآن ١/ ٤٢٤

(٢) معاني القرآن ١/٤٢٤

والمراعاة نظائر في اللغة . وقوله : « إلا ولا ذمة » قيل في معنى الئل ستة اقوال :

اولها ـ قال مجاهد وابن زيد : إن معناه العهد . والثاني ـ في رواية اخرى عن مجاهد أنه اسم الله . ومنه قول أبي بكر لما سمع كلام مسيلمة : لم يخرج هذا من إل ، فأين يذهب بكم . الثالث ـ قال ابن عباس: هو القرابة . الرابع ـ قال الحسن :هو الجوار . الخامس ـ قال قتادة: هو الحلف . السادس ـ قال ابو عبيدة : هو التميز . والاصل في جميع ذلك العهد وهو مأخـوذ من الأليل وهو البريق ، يقال : أل يؤل إذا لمع والألة الحربة للمعانها ، وأذن مؤللـة مشبهة بالحربة في تحديدها وقال الزجاج : اصله التحديد قال الشاعر :

وجـدناهم كاذباً إلهم   وذو الال والعهد لايكذب (١)

أي ذو العهد ، وقال ابن مقبل :

أفسد الناس خلوف خلفوا   قطعوا الال واعراق الرحم (٢)

يعنى القرابة ، وقال حسان :

لعمرك إن إلك في قريش   كال السقب من رأل النعام (٣)

وقوله « يرضونكم بأفواههم » معناه يقولون قولا يرضيكم بذلك في الظاهر وتأبى قلوبهم أن يذعنوا لكم بتصديق ما يبدونه لـكم . ثم اخبر تعالى عن حالهم بأن اكثرهم فاسقون . وقال ابن الاخشاد : اراد بذلك انهم متمردون في شركهم لأن الفاسق هو الخارج من الشيء من قولهم فسقت الرطبة . وإنما كان اكثرهم بهذه الصفة ولم يكن جميعهم وإن كانوا كلهم فاسقين لأن المراد به رؤساءهم .

(١،٢) تفسير الطبري ١٤ / ١٤٨ ، ١٤٩

(٣) ديوانه : ٤٠٧ واللسان (ألل) وتفسير الطبري ١٤ / ١٤٩

قوله تعالى:

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٠) آية.

قيل في من نزلت هذه الآية بسببه قولان:

قال مجاهد: نزلت في ابي سفيان لما جمعهم على طعامه فاطعم حلفاءه وترك حلفاء النبي صلى الله عليه وآله. وقال أبو علي الجبائي: نزلت في قوم من اليهود دخلوا في العهد فيما دلت عليه هذه الصفة. ومعنى «اشتروا بآيات الله» استبدلوا بحجج الله وبيناته العظيمة الشأن «ثمناً قليلا» اي عرضاً قليلا. واصل الاشتراء استبدال ما كان من المتاع بالثمن، ونقيضه البيع، وهو العقد على تسليم المتاع بالثمن. والثمن ماكان من العين والورق ـ في الأصل ـ ثم قيل لما اخذوه بدل آيات الله ثمن، لأنه بمنزلته في أنه يستبدل به. وقوله «فصدوا عن سبيله» اي صدوا عن الاسلام، ومعنى هذه الفاء كمعنى جواب الجزاء، لان اشتراءهم هذا اداهم الى الصد عن سبيل الله. والصد هو المنع. ثم اخبر تعالى عنهم انهم بئس ما كانوا يعملونه من هذا الاستبدال.

قوله تعالى:

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (١١) آية.

قد بينا ان المراقبة هي المراعاة لما تقدم من العهد الذي يلزم الديانة، لئلا يقع اخلال بشيء منه. والإل العهد. والذمة عقد الجوار، وهما متقاربان. وفصل بينهما بأن الذمة عقد قوم يذم نقضه. والإل الذي هو العهد عقد يدعو الى الوفاء والبيان الذي فيه، لأنه يلوح المعنى الذي يدعو الى الوفاء إذا ضل كل واحد

منهما يقتضي هذا . وانما اعيد ذكر « لايرقبون في مؤمن إلاولا ذمة » لانه في صفة « الذين اشتروا بآيات الله ثمنا » والاول في صفة جميع الناقضين للعهد . وقال في الثاني « فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين » ، فلذلك كرر بوصفين مختلفين . وقال الجبائي : لأنه في صفة اليهود خاصة ، والأول في صفة الناقضين عامة ، وإنما ذموا بترك المراقبة ، لأن مع تركها الغالب ان يقع إخلال بما تقدم من العقد ، فلزمت المراقبة لهذه العلة . وترك المراقبة في عهد المؤمن أعظم منها في ترك عهد غيره لكثرة الزواجر عن الغدر بالمؤمن ، لأنه ليس من شأنه الغدر .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء المشركين انهم لايراعون في المؤمن عقد العهد ولاذمة الجوار ، وانهم مع ذلك معتدون . والاعتداء الخروج من الحق واصله المجاوزة ، ومنه التعدي وهو تجاوز الحد ومعاداة القوم مجاوزة الحد في البغضة وكذلك العداوة . والاستعداء طلب معاملة العدو في الايقاع به ، والعدو مجاوزة حد السعي . والغرض بالآية حث المسلمين على قتالهم ، وأن لايبقوا عليهم كما انهم لو ظهروا على المسلمين لم يبقوا عليهم .

قوله تعالى :

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٢) آية.

شرط الله لهؤلاء المشركين بأنهم إن تابوا ورجعوا عما هم عليه من الشرك الى طاعة الله، والاعتراف بوحدانيته ،والاقرار بالنبي صلى الله عليه وآله ، وأقاموا الصلاة المفروضة على ماشرعها الله واعطوا الزكاة الواجبة عليهم ، فانهم يكونون اخوان المؤمنين في الدين ، والايمان. وتقديره فهم اخوانكم . والتوبة هي الندم على القبيح لقبحه مع العزم على ترك العود الى مثله في القبح ، وفي الناس من قال الى مثله في صفته

فمن قال ذلك قال توبة المجبوب من الزنا هي الندم على الزنا مع العزم على ترك المعاودة الى مثله على مايصح ويجوز من الامكان ، وهو انه لو رد الله عز وجل عضوه مازنى، فاما من نسي الذنب فان توبته صحيحة لايؤاخذ بالذنب ، لانه مكلف قد ادى جميع ماعليه في الحال ، فقد تخلص بذلك من العقاب . فان قيل لم شرط مع التوبة من الشرك وحصول الايمان ايتاء الزكاة ؟ مع انه ليس كل مسلم عليه الزكاة ! قلنا : انما يجب عليه بشرط الامكان فاذا اقر بحكم الزكاة مع التعذر عليه دخل في حكم الصفة التي يجب بها .

وقوله « ونفصل الايات » معناه نبينها ونميزها بخاصة لكل واحد منها بما يتميز به من غيرها حتى يظهر مدلولها على اتم مايكون من الظهور فيها « لقوم يعلمون » ذلك ويثبتونه دون الجهال الذين لايعقلون عن الله .

قوله تعالى :

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٣) آية .

قرأ أهل الكوفة وابن عامر « أئمة » بهمزتين ، إلا هشاماً عن ابن عامر فانه فصل بين الهمزتين بالف . الباقون بهمزة واحدة وياء بعدها . وفصل بينهما بالف ابو جعفر والمرى عن المسيبي والسوسنجردي عن يزيد بن اسماعيل . وقرأ ابن عامر والحسن « لاإيمان لهم » بكسر الألف .الباقون بفتحها . والكسر يحتمل وجهين : احدهما ـ انهم ارتدوا ، ولا إسلام لهم ، ذكره الزجاج . قال : ويجوز « لاإيمان لهم » على المصدر ، وتقديره لاتأمنوهم بعد نكثهم العهد . والآخر ـ لانهم كفروا « لاإيمان لهم » ويحتمل أن يكون المراد أنهم آمنوا إيماناً لايفون به فلا إيمان لهم . ومن فتح الهمزة فلقوله : « وان نكثوا ايمانهم » ولقوله

« عهدهم » وأثبت لهم الايمان . فان قيل كيف نفى فقال « إنهم لاأيمان لهم » وقد اثبتها في الأول من الآية بقوله « وان نكثوا أيمانهم » ؟!

قلنا : اليمين التي اثبتها هي ما حلفوا بها وعقدوا عليها ، ولم يفوا ، وانما المراد به انهم لاأيمان لهم يفون بها ، ويتمسكون بموجبها . وقال ابو علي النحوي « أئمة » على وزن « افعلة » جمع إمام نحو مثال وامثلة فصار أئمة ، واجتمع همزتان الف أفعلة ، والهمزة التي هي فاء الفعل ، والتي هي فاء الفعل ساكنة فنقل اليها حركة التي بعدها ليمكن النطق بها . فمن خففها اتى بالهمزتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة . ومن كره ذلك قلب الثانية ياء ولم يجعلها بين بين ، لأن همزة بين بين في تقدير التحقيق وذلك مكروه عندهم . وقال الرماني : انما جاز اجتماع الهمزتين في كلمة ، لئلا يجتمع على الكلمة تغيير الادغام والانقلاب مع خفة التحقيق لأجل ما بعده من السكون ، وهو مذهب ابن ابي اسحاق من البصريين . والباقون لايجيزونه ، ذكره الزجاج ، قال : لانـه يلزم عليه ان يقرأ « أأم » بهمزتين وذلك باطل بالاتفاق . وعلى هـذا القول هـذا أأم بهمزتين ، قال : وانما قلبت الهمزة في أئمة على حركتها دون حركة ماقبلها ، لان الحركة إنما نقلها الى الهمزة لبيان زنة الكلمة ، فلو ذهبت تقلبها على ماقبلها لكان مناقضاً للغرض فيها واذا بنيت من الامامة هذا افعل من هذا قلت هذا أوم من هذا ـ في قول المازني ـ لأن اصله كان أأم فلم يمكنه ان يبدل منها الفاء لاجتماع الساكنين ، فجعلها واواً كما قالوا في جمع آدم أوادم . قال الزجاج : وهو القياس وهذا ايم من هذا في قول الأخفش ، قال : لانها صارت الياء في أيمة بدلا لازماً .

وقوله « وان نكثوا ايمانهم » فالنكث نقض العهد الذي جعـل لتوثيق الامر وذلك بالخلاف لمـا تقدم من العزم . و « الأيمان » جمع يمين ، وهو القسم والقسم هو قول عقد بالمعنى لتأكيده ، وتغليظ الأمر فيه نحو والله ليكونن وتالله ما كان ، فيجوز أن يـكون من اعطى صفقة بمينه ، ويجوز أن يكون من يمن

التيسير في فعله . وقوله « وطعنوا في دينكم » فالطعن هو الاعتماد بالعيب . واصله الطعن بالرمح ، ونحوه في الشيء لنقض بنيته .

وقوله « فقاتلوا أئمة الكفر » امر من الله تعالى بقتال أئمة الكفر ، وهم رؤساء الضلال والكفار ، والامام هو المتقدم الاتباع ، فأئمة الكفر رؤساء الكفر والامام في الخير مهتد هاد ، وفي الشر ضال مضل ، كما قال تعالى « وجعلناهم ائمة يدعون الى النار » (١) والمعني بائمة الكفر رؤساء قريش ، في قول ابن عباس ومجاهد . وقال قتادة : هم ابوجهل بن هشام، وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وابو سفيان بن حرب ، وسهيل بن عمرو ، وهم الذين هموا باخراجه ، وكان حذيفة يقول : لم يأت أهل هذه الآية .

وروي عن ابي جعفر عليه‌السلام انها نزلت في اهل الجمل. وروي ذلك عن علي عليه‌السلام وعمار ، وغيرهما . ويقول حذيفة قال يزيدبن وهب : قوله «انهم لاأيمان لهم» معناه لاتأمنوهم . ومن كسر معناه ، لانهم كفروا لاإيمان لهم .

وقوله : « لعلهم ينتهون » معناه لكي ينتهوا .

وفي الاية دلالة على ان الذمي إذا اظهر الطعن في الاسلام فانه يجب قتله ، لان عهده معقود على أن لايطعن في الاسلام ، فاذا طعن فقد نكث عهده .

قوله تعالى :

أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوماً نَكَثُوا أَيمَانَهُم وَهَمُّوا بِإِخرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخشَونَهُم فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخشَوهُ إِن كُنتُم مُؤمِنِينَ (١٤) آية .

قوله « ألا » كلمة موضوعة للتحضيض على الفعل ، وأصلها «لا» دخلت عليها

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٤١ .

الف الاستفهام ، فصارت تحضيضاً كما انها إذا دخلت على « ليس » صارت تقريراً و « ألا » موافقة للتحضيض بالاستقبال و « أليس » إنما هى للحال ، فهي موافقة للحال بهذا المعنى . وإذا قال : « ألا تقاتلون » كان معناه التحضيض على قتالهم وإذا قال : « الا قاتلتم » كان ذلك تأنيباً ، لأن ما يلزم اذا ترك ذم على تركه ويحض على فعله قبل وقته . حض الله تعالى المؤمنين على قتال الكفار الذين « نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول» من مكة اي قصدوه . والهم مقاربة الفعل بالعزم من غير اتباع له ، وقد ذموا بهذا الهم ففيه دليل على العزم وقد يستعمل الهم على مقاربة العزم .

وقوله « وهم بدؤكم اول مرة » فالبدوء فعل مالم يتكرر والمرة الفعلة من المر ، والمرة والكرة والدفعة نظائر . ومعنى « بدؤكم اول مرة » بدؤا حلفاء النبي ﷺ بالقتال من خزاعة ، في قول الزجاج ، وقال ابن اسحاق والجبائي : بدؤوا بنقض العهد . وقال الطبري : بدؤهم بخروجهم الى بدر ، لقتالهم .

وقوله « اتخشونهم » معناه اتخافونهم . ثم قال : « والله احق ان تخشوه » اي تخافوه « ان كنتم مؤمنين » وفي ذلك غاية الفصاحة لانه جمع بين التقريع والتشجيع . والمعنى أتخشون ان ينالكم من قتالهم مكروه ، فالله احق ان تخشوا عقابه في ارتكاب معاصيه إن كنتم مصدقين بعقابه وثوابه .

قوله تعالى

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٥) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٦) آيتان .

هذا امر من الله تعالى للمؤمنين بأن يقاتلوا هؤلاء الناقضين للعهد البادئين

بقتال حلفاء النبي ﷺ من خزاعة، فانهم اذا قاتلوهم يعذب الله الكفار بأيديهم يعني بأيدي المؤمنين الذين يقاتلونهم ، وينصركم ايها المؤمنون ينصركم الله «عليهم ويشف » بذلك « صدور قوم مؤمنين » وفي ذلك دليل على انه اشتد غضب جماعة المؤمنين لله ، فوعدهم الله النصر ، في قول قتادة والزجاج . وفيها دلالة على نبوة النبي ﷺ لأنه وعده النصر فكان الأمر على ما قال . وقوله « ويذهب غيظ قلوبهم» قيل المراد بهم خزاعة الذين قاتلوهم ، في قول السدي وغيره ، لأنهم كانوا حلفاء النبي ﷺ . والتعذيب ايقاع العذاب لصاحبه والعذاب الم يستمر به ، قال عبيد ابن الابرص :

والمرء ما عاش في تكذيب   طول الحياة له تعذيب

ومعنى « يعذبهم الله بأيديكم » اي انكم اذا تناولتموهم بالسلاح من السيوف والنبل والرماح انزل الله بهم العذاب . وقال ابو علي : ذلك مجاز والمعنى انه لما كان ذلك بأمر الله اضافه الى نفسه ، وهو احسن من الاول .

وقوله « ويخزهم » معناه يذلهم والاخزاء الاذلال بما فيه الفضيحة على صاحبه خزي خزياً واخزاه الله إخزاء . ويجوز في « ويخزهم » ثلاثة أوجه من الاعراب : الجزم باللفظ وعليه القراء ، والنصب على الظرف ، والرفع على الاستئناف ولم يقرأ بهما .

وقوله « ويشف صدور قوم مؤمنين » فالشفاء سلامة النفس بما يزيل عنها الأذى ، فكلما وافق النفس وأزال عنها الهم فهو شفاء وقيل « ويشف صدور قوم مؤمنين» يعني خزاعة ، لأنهم نقضوا العهد بقتالهم ــ في قول مجاهد والسدي ــ والصدور جمع الصدر وهو الموضع الاجل الذي يصدر عنه الأمر ، ومنه الايراد والاصدار .

وقوله « ويذهب غيظ قلوبهم » معناه يبطل غيظهم ويعدمه . والأذهاب جعل الشيء يذهب والذهاب الانتقال عن الشيء ، والمجيء الانتقال الى الشيء ، والغيظ نقص الطبع بانزعاج النفس . تقول : غاظه يغيظه غيظاً واغتاظ اغتياظاً وغايظه مغايظة.

وقوله « ويتوب الله على من يشاء » معناه يقبل الله توبة من يشاء من عباده.

ووجه اتصال قوله « ويتوب الله على من يشاء » بما قبله من وجهين :

احدهما ـ بشارتهم بأن فيهم من يتوب ويرجع عن الكفر الى الايمان .

والآخر ـ انه ليس في قتالهم اقتطاع لأحد منهم عن التوبة .

ورفع « ويتوب » بخروجه عن موجب القتال فاستأنفه .

وقوله « والله عليم حكيم » معناه عليم بتوبتهم إذا تابوا حكيم في أمركم بقتالهم إذا نكثوا قبل أن يتوبوا ويرجعوا ، لأن أفعاله كلها صواب وحكمة .

قوله تعالى :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٧) آية .

قوله « ام حسبتم » من الاستفهام الذي يتوسط الكلام فيجعل بـ(أم) ليفرق بينه وبين الاستفهام المبتدأ الذي لم يتصل بكلام ولو كان المراد الابتداء لكان اما بالألف أو بـ (هل) كقوله « هل اتى على الانسان » (١) والمعنى ظننتم أن تتركوا . والظن والحسبان نظائر ، والحسبان قوة المعنى في النفس من غير قطع ، وهو مشتق من الحساب لدخوله فيما يحتسب به « ان تتركوا » معنى الترك هو ضد ينافي الفعل المبتدأ في محل القدرة عليه . ويستعمل بمعنى (ألا يفعل) كقوله « وتركهم في ظلمات لا يبصرون » (٢) وقوله « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » إذا قيل : لما يفعل ، فهو نفي للفعل مع تقريب لوقوعه . وإذا قيل : لم يفعل ، فهو نفي بعد اطماع في

(١) سورة ٧٦ الدهر آية ١ .
(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٧

وقوعه . والمعنى ولما يجاهدوا ويمتنعوا ان يتخذوا وليجة ويعلم الله ذلك منكم فجاء مجيء نفي العلم لنفي المعلوم ، لأنه متى كان علم الله انه كائن . وكان ابلغ وأوجز ، لأنه اتى على طريقة نفي صفات الله تعالى .

وقوله « ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجه » تقديره ولما يعلم الله الذين آمنوا لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله وليجه، فالوليجة الدخيلة في القوم من غيرهم تقول : ولج يلج ولوجاً وأولج إيلاجاً وتولج تولجاً بمعنى الدخول. والوليجة والدخيلة والبطانة نظائر . وكل شيء دخل في شيء وليس منه فهو وليجة، قال طرفة :

فان القوافي يتلجن موالجاً تضايق عنها ان تولجها الابر (١)

وقال آخر :

متخذاً من ضعوات تولجا متخذاً فيها اياداً دولجا (٢)

يعني الكأس . وقال الفراء : نهوا ان يتخذوا بطانة يفشون اليهم اسرارهم . وقال الجبائي : اتخاذ الوليجة من دون الله ودون رسوله هو النفاق . نهوا أن يكونوا منافقين ، وهو قول الحسن ، فانه قال : الوليجة هي الكفر والنفاق . وفي الآية دلالة على انه لا يجوز ان يتخذ من الفساق وليجة ، لان في ذلك تأليفاً بالفسق يجري مجرى الدعاء اليه مع ان الواجب معاداة الفساق والبراءة منهم ، ومع ذلك فهو غير مأمون على الأسرار والاطلاع عليها . قال الزجاج : كانت براءة تسمى الحافرة، لانها حفرت عن قلوب المنافقين ، لأنه لما فرض القتال تميز المؤمنون من المنافقين ومن يوالي المؤمنين ممن يوالي اعداءهم .

قوله تعالى :

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ

(١ ، ٢) مجاز القرآن ١/ ٢٥٤ واللسان (ولج)

بِالْكُفْرِ أُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُـهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ(١٨) آية .

قرأ ابن كثير وابو عمرو « مسجد الله » على التوحيد . الباقون على الجمع ، فمن قرأ على التوحيد ، قال الحسن اراد به المسجد الحرام وبه قال الجبائي . ويحتمل ان يكون اراد المساجد كلها ، لأن لفظ الجنس يدل على القليل والكثير . ومن قرأ على الجمع يحتمل ان يكون اراد جميع المساجد . ويحتمل ان يكون اراد المسجد الحرام . وإنما جمع لأن كل موضع منه مسجد يسجد عليه . والقراءتان متناسبتان. والاصل في المسجـد هو موضع السجود وفي العرف يعبر به عن البيت المهيأ لصلاة الجماعة فيه .

اخبر الله تعالى انه ليس لمشرك ان يعمر مسجد الله . والعمارة ان يجدد منه ما استرم من الأبنية ، ومنـه قولهم : اعتمر اذا زار ، لأنه يجدد بالزيارة ما استرم من الحال . وقوله « شاهدين على أنفسهم بالكفر » نصب على الحال ، فالشهادة خبر عن علم مشاهد بأن يشاهد المعنى او يظهر ظهور ما يشاهد كظهور المعنى في شهادة أن لا إله إلا الله . والمعني بذلك أحد شيئين :

احدهما ـ ان فيما يخبرون به دليلا على كفرهم ، لا أنهـم يقولون نحن كفار ، ولكن كما يقال للرجل ان كلامك ليشهد انك ظالم ـ هذا قول الحسن.

والثاني ـ قال السدي : ان النصراني إذا سئل ما انت ؟ قال نصراني واليهودي يقول انا يهودي وعابد الوثن يقول مشرك فذلك شهادتهم على انفسهـم بالكفر . وقال الكلبي : معناه شاهدين على النبي بالكفر ، وهو من انفسهم . وقوله «اولئك حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون » اخبار منه تعالى ان اعمال هؤلاء الذين شهدوا على انفسهم بالكفر باطلة بمنزلة ما لم يعمل ، لأنهم اوقعوها على وجه لا يستحق بها الثواب ، وانهم مع ذلك مخلدون في نار جهنم معذبون بأنواع العذاب .

قوله تعالى :

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَـٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٩) آية

اخبر الله تعالى في هذه الآية انه ينبغي الا « يعمر مساجد الله » إلا « من آمن بالله » واقر بوحدانيته واعترف باليوم الآخر يعني يوم القيامة ثم اقام بعد ذلك « الصلاة » بحدودها . وأعطى « الزكاة » الواجبة ـ انوجبت عليه ـ مستحقيها ولم يخف سوى الله احداً من المخلوقين ، فاذا فعلوا ذلك فانهم « يكونون من المهتدين » الى الجنة ونيل ثوابها ، لأن عسى من الله واجبة ليست على طريق الشك ، وهو قول ابن عباس والحسن .وقال قوم : انما قال عسى ليكونوا على طريق الحذر ، مما يحبط اعمالهم ، ويدخل في عمارة المساجد عمارتها بالصلاة فيها ، والذكر لله . والعبادة له ، لأن تجديد احوال الطاعة لله من أوكد الاسباب التي تكون بها عامرة ، كما ان اهمالها من اوكد الأسباب في اخرابها ، وذكر قوله « وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » بعد ذكر قوله « من آمن بالله واليوم الآخر » يدل على ان الايمان لا يقع على افعال الجوارح ، لانه لو كان الايمان متناولا لذلك اجمع لما جاز عطف ما دخل فيه عليه . ومن حمل ذلك على ان المراد به التفصيل وزيادة البيان فيما يشتمل على الايمان تارك للظاهر . والخشية انزعاج النفس لتوقع ما لا يؤمن من الضرر تقول : خشي يخشى خشية فهو خاش ، ومثله خاف يخاف خوفاً ومخافة، فهو خائف . والخاشي نقيض الآمن . والاهتداء المذكور في الآية هو التمسك بطاعة الله التي تؤدي الى الجنة وفاعلها يسمى مهتدياً .

قوله تعالى :

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٠) آية .

خاطب الله تعالى بهذه الآية قوماً جعلوا القيام بسقي الحجيج وعمارة المسجد الحرام من الكفار مع مقامهم على الكفر مساوياً أو افضل من ايمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، فأخبر تعالى انهما لا يستويان عند الله في الفضل لان الذي آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله افضل ممن يسقي الحجيج ولم يفعل ذلك . وفي الآية حذف احد امرين : احدهما ـ ان يكون تقديره كايمان من آمن بالله وأقام الاسم مقام المصدر ، لأن اصل السقاية مصدر كما قال الشاعر :

لعمرك ما الفتيان ان تنبت اللحى ولكنما الفتيان كل فتى ندى(١)

اي فتيان نبات . والسقاية آلة تتخذ لسقي الماء . وقيل كانوا يسقون الحجيج الماء والشراب . وبيت البئر سقاية ايضاً قال الرماني المشبه لا يجوز ان يكون مجاهداً في سبيل الله لانه لا يعرف الله فيتبع امره في ذلك والمجاهد اذا عرف الله صح ان يكون مطيعاً بالجهاد لاتباعه امر الله فيه . وروي عن ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام ان الآية نزلت في امير المؤمنين عليه السلام والعباس . وروى الطبري باسناده عن ابن عباس انها نزلت في العباس حين قال يوم بدر: إن سبقتمونا الى الاسلام والهجرة لم تسبقونا الى سقاية الحاج وسدنة البيت ، فأنزل الله الاية . وروى الطبري باسناده عن الحسن انها نزلت في علي والعباس وعثمان وشيبة . وقال الشعبي : نزلت في علي والعباس ، وبه قال ابن وهب والسدي .

---

(١) تفسير الطبري ١٤ / ١٧٢ ومعاني القرآن ١/ ٤٢٧

وقوله « والله لايهدي القوم الظالمين » اخبار منه تعالى انه لايهدي احداً ممن ظلم نفسه وكفر بآيات الله ، وجحد وحدانيته الى الجنة كما انه يهدي اليها من كان عارفاً بذلك فاعلا لطاعته مجتنباً لمعصيته .

واختلفوا في سبب نزول الاية فقال قوم : سأل المشركون اليهود فقالوا : نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام أفنحن أفضل ام محمد واصحابه ؟ فقالت اليهود لهم : انتم افضل ، عناداً للنبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين . وقال آخرون : تفاخر المسلمون الذين جاهدوا والذين لم يجاهدوا . فنزلت الآية ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى :

أَلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢١) آية .

موضع « الذين » رفع بالابتداء وخبره اعظم درجة . اخبر الله تعالى ان الذين آمنوا يعني صدقوا بالله واعترفوا بوحدانيته ، وأقروا بنبوة نبيه ، وهاجروا عن اوطانهم التي هي دار الكفر الى دار الاسلام ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله . ومعناه يتضاعف فضلهم عند الله مع شرف الجنس . ولو قال اعلى درجة افاد شرف الجنس فقط .

وقوله « اولئك هم الفائزون » اخبار منه تعالى ان من وصفه هم الذين يظفرون بالبغية ويدركون الطلبة ، لان الفوز هو الظفر بالبغية وهو والفلاح والنجاح نظائر. وقيل : إنه يلحق بمثل منزلة المجاهدين من لم يجاهد بأن يجاهد في طلب العلم الديني فيتعلمه ويعلم غيره ويدعو اليه والى الله . وربما كانت هذه المنزلة فوق تلك فان قيل كيف قال « اعظم درجة » من الكفار بالساقية والسدانة ؟ قلنا : على ما روينا عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام وابن عباس وغيرهم لايتوجه السؤال عن

ذلك لان المفاضلة جرت بينهم ، لان لجميعهم الفضل عند الله ومن لايقول ذلك يجيب بجوابين: احدهما - انه على تقدير ان لهم بذلك منزلة كما قال تعالى «اصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً» (١) هذا قول الحسن وأبي علي . والثاني - قال الزجاج المعنى اعظم من غيرهم درجة . و(الذي) يجوز وصفها ولايجوز وصف «من» اذا كانت بمعنى الذي ، لأن «من» تكون تارة معرفة موصولة فلذلك افترقا. وقيل معنى «الفائزين» انهم الظافرون بثواب الله الذي استحقوه على طاعتهم.

قوله تعالى :

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢٢) آية .

في الآية اخبار من الله تعالى بالبشارة واعلام للذين آمنوا وهاجروا برحمة من جهته تعالى ، والبشرى والبشارة الدلالة على مايظهر به السرور في بشرة الوجه تقول بشرته أبشره بشرى وابشر ابشاراً واستبشر استبشاراً وتباشر تباشراً وبشره تبشيراً فاما باشره مباشرة ، فبمعنى لاقاه ببشر ورضوان . وهو معنى يستحق بالاحسان ، يدعو الى الحمد على ماكان ، ويضاد سخط الغضبان ، تقول : رضي رضاً ورضواناً وأرضاه إرضاء وترضاه ترضياً وارتضاه ارتضاء واسترضاه استرضاء وتراضوه تراضيا .

وقوله «وجنات» يعني البساتين التي يجنها الشجر ، وأما الرياض فهي الموطأة للخضرة التي قد ينبت فيها نبات الزهر ومنه الرياضة لانها توطئة لتقريب العمل .

وقوله «لهم فيها نعيم مقيم» فالنعيم لين العيش اللذيذ ، وهو مشتق من النعمة

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٤

وهي اللين ، وأما النعمة بكسر النون، فهي منفعة يستحق بها الشكر لانها كنعم العيش والمقيم الدائم بخلاف الراحل فكأنه قال : المقيم ابداً .

قوله تعالى :

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٣) آية .

« خالدين » نصب على الحال من الهاء والميم في قوله : « لهم » والخلود في العرف الدوام في الشيء كالخلود في الجنة مأخوذ من قولهم : خلد هـذا الكتاب في الديوان على تقدير الدوام من غير انقطاع .والابد الزمان المستقبل من غير آخر كما أن (قط) للماضي تقول :مارأيته قط ، ولاأراه ابداً وجمع الابد آباد وأبود تقول لأفعل ذلك أبداً ، وتأبـد المنزل اذا اقفر وأتى عليه الابـد ، والاوابد الوحوش سميت بذلك لطول أعمارها وبقائها . وقيل : لم يمت وحش حتف أنفه وانما يموت بآفة، وجاء فلان بأبدة اي بداهية وأتان آبد تسكن القفر متأبدة .

وقوله « ان الله عنده أجر عظيم » اخبار منه تعالى ان عنده الجزاء أي في مقدوره الجزاء الذي يستحق بالاعمال تقول : أجره يأجره أجراً وآجره إجارة واستأجره استئجاراً ومنه الاجير .

وقوله « عظيم » يعني كبير متضاعف لاتبلغه نعمة غيره من الخلق ، والابـد قطعة من الدهر متتابعة في اللغة قال الحر بن البعيث :

أهاج عليك الشوق اطلال دمنة ... بناصفة البردين أوجانب الهجل
اتى ابد من دون حدثان عهدها ... وجرت عليها كل نافحة شمل(١)

ومن الدليل على أن الابد قطعة من الدهر أنه ورد مجموعاً في كلامهم . قالت صفية بنت عبد المطلب تخاطب ولدها الزبير :

وخالجت آباد الدهور عليكم ... وأسماء لم تشعر بذلك أيم

(١) اللسان « شمل »

فلو كان زبر مشركاً لعذرته   ولكن زبراً يزعم الناس مسلم

ويقال : تأبد الربيع إذا مر عليه قطعة من الدهر وليس يعنون انه مر عليه أبد لاغاية له قال مزاحم العقيلي :

أتعرف بالغرين داراً تأبدت   من الحي واستبقت عليها العواصف

وأما الخلود ، فليس في كلام العرب مايدل على انه بقاء لاغاية له وإنما يخبرون به عن البقاء الى مدة كما قال المخبل السعدي :

الا رماداً هامداً دفعت   عنه الرياح خوالد سحم(١)

اراد دفع الرياح عن النؤي الى هذا الوقت هذه الاثافي التي بقيت الى هذا الوقت.

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ ٱستَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الاِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنكُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ (٢٤) آية.

روي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام ان هذه الآية نزلت في حاطب بن بلتعة حيث كتب الى قريش بخبر النبي صلى الله عليه وآله حين أراد فتح مكة .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم فيه عن اتخاذ آبائهم وإخوانهم أولياء متى استحبوا الكفر ، وآثروه على الايمان . و « الاتخاذ » هو الافتعال من اخذ الشيء . والاتخاذ اعداد الشيء لأمر من الامور . واتخاذهم اولياء : هو ان يعتقدوا موالاتهم ووجوب نصرتهم فيما ينوبهم ، وليس ذلك بمانع من صلتهم . والاحسان اليهم ، لأنه تعالى حث على ذلك ، فقال : « وان جاهداك على ان تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا

(١) مر هذا البيت في ٢ / ٢٨

معروفاً (١). والاب والوالد نظائر. والاخ الشقيق في النسب من قبل الأب والام، وكل من رجع مع آخر الى واحد في النسب من والد ووالدة، فهو أخ. والأولياء جمع ولي وهو من كان مختصاً بايلاء التصرف في وقت الحاجة. وقال الحسن: من تولى المشرك، فهو مشرك. وهذا إذا كان راضياً بشركه، ويكون سبيله سبيل من يتولى الفاسق أن يكون فاسقاً.

وقوله «إن استحبوا الكفر على الايمان» معناه إن طلبوا محبة الكفر على الايمان. وقد يكون استحب بمعنى أحب كما ان استجاب بمعنى اجاب. ثم اخبر تعالى ان من استحب الكفار على المؤمنين فانهم أيضاً ظالمون نفوسهم والباخسون حظها من الثواب، لأنهم وضعوا الموالاة في غير موضعها.

قوله تعالى:

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٥) آية.

قرأ ابو بكر عن عاصم و «عشيراتكم» على الجمع. الباقون على التوحيد. من جمع فلان كل واحد من المخاطبين له عشيرة، فاذا جمع قال وعشيراتكم. ومن افرد قال العشيرة تقع على الجمع. وقال ابو الحسن: العرب لاتجمع العشيرة عشيرات. وانما تقول عشائر.

(١) سورة ٣١ لقمان آية ١٥

أمر الله تعالى بهذه الآية نبيه ﷺ أن يخاطب هؤلاء الذين تخلفوا عن الهجرة الى دار الاسلام . وأقاموا بدار الكفر، وقال الجبائي : هو خطاب للمؤمنين أجمع وتحذير لهم من ترك الجهاد وحثلهم عليه ، فأمره أن يقول لهم « إن كان آباؤكم » الذين ولدوكم « وأبناؤكم » الذين ولدتموهم ، وهم الأولاد الذكور « وأزواجكم » جمع زوجة وهي المرأة التي عقد عليها عقدة نكاح صحيح ، لأن ملك اليمين والمعقود عليها عقد شبهة لاتسمى زوجة « وعشيرتكم » وهي الجماعة التي ترجع الى عقد كعقد العشرة . ومنه المعاشرة ، وهي الاجتماع على عقد يعم . ومنه العشار النوق التي أتى على حملها عشرة أشهر « وأموال » جمع مال « اقترفتموها » أي اقتطعتموها واكتسبتموها ، ومثله الاحتراف . والاقتراف اقتطاع الشيء عن مكانه الى غيره « وتجارة تخشون كسادها » يعني مااشتريتموه طلباً للربح تخافون خسرانها ووقوفها « ومساكن » جمع مسكن وهي المواضع التي تسكنونها وترضونها « أحب اليكم من الله ورسوله » يعني آثر في نفوسكم وأقرب الى قلوبكم . والمحبة إرادة خاصة للشيء فمن أحب الجهاد فقد أراد فعله ومن أحب الله أراد شكره وعبادته .ومن أحب النبي أراد إجلاله وإعظامه. والذي اقتضى نزول هذه الاية محبتهم التي منعتهم الهجرة . وقوله « فتربصوا » اي فتثبتوا . والتربص التثبت في الشيء حتى يجيء وقته. والتربص والتنظر والتوقف نظائر في اللغة . ونقيضه التعجل بالامر.

وقال مجاهد قوله « حتى يأتي الله بأمره » من عقوبة عاجلة أو آجلة . وقوله « والله لايهدي القوم الفاسقين » معناه إنه لا يهديهم الى الثواب والجنة لأنه تعالى قد هداهم الى الايمان فقال « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى »(١).

قوله تعالى

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١٧

كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٦) آية .

أقسم الله تعالى في هذه الاية ـ لأن لام « لقد » لام القسم ـ بأنه نصر المؤمنين في مواطن كثيرة ومواطن في موضع جر بـ « في » وانما نصب ، لأنه لاينصرف لأنه جمع لانظير له في الآحاد ، فلا ينصرف . وجر كثيرة على المواضع وأنثه على اللفظ . ومواطن جمع موطن . ومعنى النصر الغلبة على العدو . والمعونة قد تكون في حمل الثقيل ، وتكون في شراء متاع وتكون في قضاء حاجة ، ولايكون النصر إلا المعونة على العدو خاصة . والموطن هو الموضع الذي يقيم فيه صاحبه وإنما قد أقاموا في هذه المواطن للقتال . ومعنى كثيرة روي عن أبي عبد الله عليه السلام انها كانت ثمانين موطناً ، والكثيرة عدة زائدة على غيرها فهي كثيرة بالاضافة الى مادونها قليلة بالاضافة الى مافوقها .

وقوله « ويوم حنين » ، وحنين اسم واد بين مكة والطائف في قول قتادة. وقال عروة : هو واد الى جانب ذي المجاز ، فلذلك صرف ، ويجوز ترك صرفه على انه اسم للبقعة قال الشاعر :

نصروا نبيهم وشدوا أزره بحنين يوم تواكل الابطال (١)

وقوله « إذ أعجبتكم كثرتكم » فالاعجاب السرور بما يتعجب منه ، والعجب السرور بالنفس على الفخر بما يتعجب منه . وقال قتادة : إنه كان سبب انهزام المسلمين يوم حنين أن بعضهم قال حين رأى كثرة المسلمين يوم حنين لانهم كانوا اثني عشر ألفاً ، فقال : لن نغلب اليوم عن قلة. فانهزموا بعد ساعة . وقيل : إنهم كانوا عشرة آلاف . وقال بعضهم : ثمانية آلاف والأول أشهر . ولما انهزموا لم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله الا تسعة نفر من بني هاشم وأيمن ابن ام ايمن . والعباس بن عبد

(١) قائله حسان ديوانه ٣٣٤ ومعاني القرآن ١/ ٤٢٩ واللسان (حنن)

المطلب . وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعلي بن ابي طالب عليه السلام في آخرين ، فأخذ النبي صلى الله عليه وآله كفاً من الحصباء فرماهم به ، وقال شاهت الوجوه فانهزم المشركون .

وقوله « فلم تغن عنكم شيئاً » معناه لم تغن كثرتكم شيئاً . والاغناء اعطاء مايرفع الحاجة . ولذلك قيل في الدعاء أغناك الله « فلم تغن عنكم شيئاً » معناه لم تعطكم مايرفع حاجتكم .

وقوله « وضاقت عليكم الارض بمارحبت » معناه ليس فيها موضع يصلح لكم لفراركم عن عدوكم . والضيق مقدار ناقص عن مقدار ، والرحب السعة في المكان وقد يكون في الرزق . والسعة في النفقة .

وقوله « ثم وليتم مدبرين » فالادبار الذهاب الى جهة الخلف والاقبال الى جهة القدام . والمعنى وليتم عن عدوكم منهزمين . وتقديره وليتموهم الادبار .

وكانت غزوة حنين عقيب الفتح في شهر رمضان أو في شوال سنة ثمان .

فان قيل كيف قال انه نصرهم في مواطن كثيرة ؟ والمؤمنون منصورون في جميع الأحوال ؟

قلنا عنه جوابان : أحدهما ـ ان ذلك اخبار بأنه نصرهم دفعات كثيرة ولايدل على انه لم ينصرهم في موضع آخر ،والثاني ـ لأنهم لما انهزموا لم يكونوا منصورين وكان ذلك منهم خطأ وإن وقع مكفراً .

قوله تعالى:

ثُمَّ أَنزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ (٢٧) آية .

اخبر الله تعالى أنه حين انهزم المسلمون وبقي النبي ﷺ في نفر من قومه أنه أنزل السكينة، وهي الرحمة التي تسكن اليها النفس ويزول معها الخوف حتى رجعوا اليهم وقاتلوهم وهزمهم الله تعالى بأن أنزل النصر وأنزل السكينة. وقيل السكينة هي الطمأنينة والامنة. وقال الحسن: هي الوقار قال الشاعر:

لله قبر غالها ماذا يجن لقد اجن سكينة ووقارا(١)

وقوله «وأنزل جنوداً لم تروها» والجنود هي الجموع التي تصلح للحروب. والمراد بها ها هنا الملائكة، جند واجناد وجنود، فانزل الله الملائكة مداداً للمؤمنين وقال الجبائي: إنما نزلت الملائكة يوم حنين من جهة الخاطر الذي يشجع قلوبهم ويجبن عنهم اعداءهم، ولم تقاتل إلا يوم بدر خاصة.

وقوله «وعذب الذين كفروا» معناه ـ ها هنا ـ القتل والأسر وسلب الاموال مع الاذلال والصغار. ثم قال «وذلك» يعني ذلك العذاب «جزاء الكافرين» من جحد نعم الله وانكر وحدانيته، وجحد نبوة نبيه مع ما أعده لهم من عذاب النار.

قوله تعالى:

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٢٨) آية

معنى (ثم) ها هنا العطف على الفعل الاول، وقد ذكرت (ثم) في ثلاثة مواضع متقاربة: فالاول ـ عطف على ما قبلها. والثانية ـ عطف على «وليتم مدبرين، ثم انزل الله سكينته» والثالثة ـ عطف على (أنزل ... ثم يتوب) وانما حسن عطف المستقبل على الماضي لانه مشاكله فان الأول تذكير بنعمه والثاني وعد بنعمه. والتوبة هي الندم على مامضى من القبيح، والعزم على أن لا يعود الى مثله إما في

(١) مجاز القرآن ١ / ٢٨٦ .

الجنس او في القبح على الخلاف فيه ، فشرط الندم بالعزم ، لأن الندم إنما هو على الماضي والعزم على ما يستقبل ، فلو لم يجتمعا لم تكن توبة . ومعنى « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء » انه يقبل التوبة من بعد هزيمة من انهزم . ويجوز أن يكون المراد بعد كفر من كفر يقبل توبة من يتوب ويرجع الى طاعة الله والاسلام ويندم على ما فعل من القبيح «على من يشاء » وإنما علقه بالمشيئة ، لأن قبول التوبة واسقاط العقاب عندها تفضل ــ عندنا ــ ولو كان ذلك واجباً لما جاز تعلق ذلك بالمشيئة كما لم يعلق الثواب على الطاعة والعوض على الألم في موضع بالمشيئة . ومن خالف في ذلك قال : إنما علقها بالمشيئة ، لأن منهم من له لطف يؤمن عنده فالله تعالى يشاء أن يلطف له مع صرف العمل في ترك التوبة الى الله .

وقوله « والله غفور رحيم » معناه انه ستار للذنوب لا يفضح احداً على معاصيه بل يسترها عليه إذا تاب منها ، وهو رحيم بعباده .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٩) آية.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين يخبرهم فيه أن المشركين انجاس ويأمرهم ان يمنعوا المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا أي الذي أشار اليه ، وهي سنة تسع من الهجرة التي نبذ فيها براءة المشركين . وكانت بعده حجة الوداع ــ وهو قول قتادة وغيره من المفسرين ــ والمراد بالمسجد الحرام الحرم كله ــ في قول عطاء وغيره ــ وكل شيء مستقذر في اللغة يسمى نجساً ، فاذا استعمل مفرد قيل : نجس ــ بفتح النون والجيم معاً ــ ويقع على الذكر والانثى سواء . وظاهر

الآية يقتضي أن الكفار أنجاس ، ولا يجوز مع ذلك أن يمكنوا من دخول شيء من المساجد ، لأن شركهم أجري مجرى القذر الذي يجب تجنبه ، وعلى هذا من باشر يد كافر ، وجب عليه ان يغسل يده إذا كانت يده او يد المشرك رطبة . وإن كانت ايديهما يابستين مسحها بالحائط . وقال الحسن : من صافح مشركاً فليتوضأ ، ولم يفصل.

واختلفوا في هل يجوز دخولهم المسجد الحرام بعد تلك السنة أم لا ؟.

فروي عن جابر ابن عبد الله ، وقتادة أنه لا يدخله احد إلا أن يكون عبداً او أحداً من اهل الذمة . وقال عمر بن عبد العزيز : لا يجوز لهم دخول المسجد الحرام، ولا يدخل احد من اليهود والنصارى شيئاً من المساجد بحال . وهذا هو الذي نذهب اليه . وقال الطبري وقتادة : سموا انجاساً ، لأنهم لا يغتسلون من جنابة . وقوله « فان خفتم عيلة » فالعيلة الفقر ، تقول : عال يعيل إذا افتقر قال الشاعر :

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل (١)

وكانوا خافوا انقطاع المتاجر بمنع المشركين ، فقال الله تعالى « وإن خفتم عيلة » يعني فقراً بانقطاعهم ، فالله يغنيكم من فضله إن شاء – في قول قتادة ومجاهد – وإنما علقه بالمشيئة لأحد أمرين : أحدهما – لان منهم من لا يبلغ هذا المعنى الموعود به ، لأنه يجوز ان يموت قبله – في قول ابي علي – والثاني – لتنقطع الآمال الى الله تعالى ، كما قال « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » (٢) . وقوله « إن الله عليم حكيم » معناه عالم بمصالحكم حكيم في منع المشركين من دخول المسجد الحرام .

قوله تعالى:

قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ

(١) مر هذا البيت في ٣/ ١٠٩ وهو في مجاز القرآن ١/ ٢٥٥

(٢) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٧ .

مَاحَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَايَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٠) آية .

قوله تعالى « قاتلوا الـــذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الاخر » امر من الله تعالى لنبيه وللمؤمنين بأن يقاتلوا الذين لايعترفون بتوحيد الله ، ولايقرون باليوم الاخر والبعث والنشور . وذلك يـدل على صحة مـذهبنا في اليهود والنصارى وأمثالهم انه لايجور أن يكونوا عارفين بالله وإن أقروا بذلك بلسانهم . وانما يجور أن يكونوا معتقدين لذلك اعتقاداً ليس بعلم. والاية صريحة بأن هؤلاء الذين هم أهل الكتاب الذين تؤخذ منهم الجزية لايؤمنون بالله ولا باليوم الاخر وانـه يجب قتالهم « حتى يعطوا الجزية عن يـد » . ومن قال: إنهم يجوز أن يكونوا عارفين بالله تعالى ، قال : الاية خرجت مخرج الذم لهم ، لأنهم بمنزلة من لايقر بـه في عظم الجرم ، كما انهم بمنزلـة المشركين في عبادة الله بالكفر . وقال الجبائي : لأنهم يضيفون اليه مالايليق به فكأنهم لايعرفونه . وانما جمعت هـذه الأوصاف لهم ولم يذكروا بالكفار من اهل الكتاب للتحريض على قتالهم بما هم عليه من صفات الذم التي توجب البراءة منهم والعداوة لهم .

وقوله « ولايدينون دين الحق » يـدل على ان دين اليهودية والنصرانية غير دين الحق ، وذلك يقوي انهم غير عـارفين بالله ، لأنهم لو كانوا عارفين كانوا في ذلك محقين ، فأما اعتقادهم لشريعة التوراة فانما وصف بأنـه غـير حـق لامرين: احدهما ـ انها نسخت فالعمل بها بعد النسخ باطل غير حق . الثاني ـ ان التوراة التي هي معهم مغيرة مبدلة لقوله « يحرفون الكلم عن مواضعه » (١) ويقلبونـه عن معانيه .

وقوله « ولايحرمون ماحرم الله ورسوله » معناه انهم لايعترفون بالاسلام

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٥ وسورة ٥ المائدة آية ١٤

الذي هو الدين الحق ، ولايسلمون لأمر الله الذي بعث به نبيه محمد ﷺ في تحريم حرامه وتحليل حلاله . والدين في الأصل الطاعة قال زهير :

لئن حللت بجو في بني اسد في دين عمرو وحالت بيننا فدك(١)

وقوله « حتى يعطوا الجزية عن يد » فالجزية عطية عقوبة جزاء على الكفر بالله على ماوضعه رسول الله ﷺ على أهل الذمة ـ وهو على وزن جلسة ، وقعدة لنوع من الجزاء . وإنما قيل « عن يد » ليفارق حال الغصب على اقرار أحد. وقال ابو علي : معناه يعطونا من ايديهم يجيئون بها بنفوسهم لاينوب عنهم فيها غيرهم إذا قدروا عليه ، فيكون أذل لهم . وقال قوم : معناه عن نقد كما يقال : باع يداً بيد . وقال آخرون : معناه عن يد لكم عليهم ونعمة تسدونها اليهم بقبول الجزية منهم . وقال الحسين بن علي المغربي : معناه عن قهر ، وهو قول الزجاج .

وقوله « وهم صاغرون » فالصغار الذل والنكال الذي يصغر قدر صاحبه،صغر يصغر صغاراً، فهو صاغر. وقيل : الصغار اعطاء الجزية قائماً ، والآخذ جالس ذهب اليه عكرمة. والجزية لاتؤخذ عندنا إلا من اليهود والنصارى والمجوس . وأما غيرهم من الكفار على اختلاف مذاهبهم من عباد الاصنام والأوثان والصابئة وغيرهم فلا يقبل منهم غير الاسلام أو السبي . وانما كان كذلك لما علم الله تعالى من المصلحة في اقرار هؤلاء على كفرهم ومنع ذلك في غيرهم ، لأن هؤلاء على كفرهم يقرون بألسنتهم بالتوحيد وبعض الأنبياء ، وان لم يكونوا على إلحقيقة عارفين . واولئك يجحدون ذلك كله ، فلذلك فرق بينهما .

فان قيل : اعطاء الجزية منهم لايخلوا أن يكون طاعة اومعصية ، فان كان معصية فكيف أمر الله بها ؟ وإن كان طاعة وجب أن يكونوا مطيعين لله .

قلنا : إعطاؤهم ليس بمعصية . وأما كونها طاعة لله فليس كذلك ، لأنهم انما يعطونها دفعاً للقتل عن انفسهم لاطاعة لله ، فان الكافر لايقع منه طاعة عندنا

(١) ديوانه ١٨٣ ومجاز القرآن ١/٢٨٦ وتفسير الطبري ١٤ ١٩٨

بحال، لأنه لو فعل طاعة لله لاستحق الثواب والاحباط باطل، فكان يجب ان يكون مستحقاً للثواب وذلك خلاف الاجماع.

قوله تعالى:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣١) آية.

قرأ «عزير» بالتنوين عاصم والكسائي وعبد الوارث عن ابي عمرو. الباقون بترك التنوين. وقرأ عاصم وحده «يضاهؤن» بالهمزة. الباقون بغير همزة.

من ترك التنوين في «عزير» قيل في وجه ذلك ثلاثة أقوال: أحدها - انه اعجمي معرفة لاينصرف. والثاني - لأن ابن هاهنا صفة بين علمين والخبر محذوف والتقدير معبودنا أو نبينا عزير ابن الله. الثالث - انه حذف التنوين لالتقاء الساكنين تشبيهاً بحرف اللين، كما قال الشاعر:

فالفيته غير مستعتب　　ولا ذاكر الله إلا قليلا (١)

هذا الوجه قول الفراء: وعند سيبويه هو ضرورة في الشعر قال أبو علي: من نونه جعله مبتدأ وجعل ابناً خبره، ولابد مع ذلك من التنوين في حال السعة والاختيار، لأن ابا عمرو وغيره يصرف عجمياً كان او عربياً.

ومن حذف التنوين يحتمل وجهين: أحدهما - أنه جعل الموصوف والصفة بمنزلة اسم واحد، كما يقال: لارجل ظريف. وحذف التنوين ولم يحرك لالتقاء الساكنين، كما يحرك يازيد العاقل، لأن الساكنين كأنهما التقيا في تضاعيف كلمة واحدة، فحذف الأول منهما ولم يحرك لكثرة الاستعمال. والوجه الاخر -

(١) مر تخريجه في ٢ / ٧٦ تعليقة ٣

أن يجعل مبتدأ والاخر الخبر مثل من نون وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ، وعلى هـذا قراءة من قرأ « قل هو الله احد الله » فحذف التنوين لالتقاء الساكنين .

فان قيل كيف أخبر الله عن اليهود بانهم يقولون عزير ابن الله واليهود تنكر هذا ؟! قلنا : إنما اخبر الله بذلك عنهم ، لأن منهم من كان يذهب اليه، والدليل على ذلك ان اليهود في وقت ما انزل الله القرآن سمعت هذه الآية فلم تنكرها . وهو كقولك: الخوارج تقول بتعذيب الاطفال، وإنما يقول بذلك الازارقة منهم خاصة. قال ابن عباس : القائل لذلك جماعة جاءوا الى النبي ﷺ ، فقالوا له ذلك ، وهم سلام ابن مشكم، ونعمان بن اوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف ، فانزل الله فيهم الآية .

وقوله « ذلك قولهم بأفواههم » معنا انه لا يرجع الى معنى صحيح : فهو لا يجاوز افواههم ، لأن المعنى الصحيح ما رجع الى ضرورة العقل او حجته او برهانه او دليل سمعي. وقوله « يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل » معناه يشابهون .ومنه قولهم امرأة ضهيـاء التي لا تحيض ، ولا يخرج ثدياها اي اشبهت الرجال . وقال أبو علي الفارسي : ليست يضاهؤن من قولهم امرأة ضهياء ، لأن هذه الهمزة زائدة غير اصلية لأنه ليس في الكلام شيء على وزن (فعيآء) ويشبه ان يكون ذلك لغة، كما قالوا ارجأت وأرجيت . واختار الزجاج أن تكون الهمزة أصلية ، كما جاء كثير من الاشياء على وزن لا يطرد نحو (كنهبل) وهو الشجر العظام ، وكذلك (قرنفل) لا نظير له . ووزنه (فعنلل) .

وقال ابن عباس « الذين كفروا » اراد به عبدة الاوثان، وقال الفراء :يشابهونهم في عبادة الـلات والعزى ومناة الثالثة الاخرى . وقال قوم في قولهم : الملائكـة بنات الله . وقال الزجاج : شابهوهم في تقليدهم اسلافهم في هذا القول .

وقوله « قاتلهم الله » قيل في معناه ثلاثة اقوال : احـدها - قال ابن عباس معناه لعنهم الله . الثاني - معناه قتلهم الله كقولهم عافاه الله من السوء . الثالث -

كالمقاتل لغيره في عداوة الله .

وقوله « انى يؤفكون » معناه كيف يصرفون عن الحق الى الافك الذي هو الكذب ، ورجل مأفوك عن الخير وارض مأفوكة صرف عنها المطر قال الشاعر :

أنى الم بك الخيال تطيف

قوله تعالى :

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣٢) آية .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء اليهود والنصارى الذين حكى حكايتهم انهم اتخذوا احبارهم ، وهو جمع حبر ، وهو العالم الذي صناعته تحبير المعاني بحسن البيان وقيل حبر وحبر - بفتح الباء وكسرها - حكاه الفراء . والرهبان جمع راهب وهو الخاشي الذي يظهر عليه للناس الخشية . وقد كثر استعماله في متنسكي النصارى وروي عنه صلى الله عليه وآله أن معنى اتخاذهم أربابا أنهم قبلوا منهم التحريم والتحليل بخلاف ماأمر الله تعالى ، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام ، فسمى الله ذلك اتخاذهم إياهم أربابا من حيث كان التحريم والتحليل لايسوغ إلا لله تعالى . وهو قول أكثر المفسرين .

وقوله « والمسيح ابن مريم » عطف على الارباب أي واتخذوا عيسى ربا .

وقوله « وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا » معناه ان الله تعالى لم يأمر هؤلاء اليهود والنصارى وغيرهم إلا بعبادة الله وحده لاشريك له . ثم أخبر فقال « لا إله إلا هو سبحانه » يعني تنزيها عما يشركون . ومعنى سبحانه براءة الله من السوء كما قال الشاعر :

أقول لما جاءني فخره　　سبحان من علقمة الفاخر (١)

والآية تدل على أن المشرك مع الله في التحليل والتحريم على مخالفة امر الله كالمشرك في عبادة الله، لأن استحلال ما حرم الله كفر بالاجماع . وكل كافر مشرك ولا يلزم على ذلك أن يكون من قبل من الشيطان باغوائه فارتكب المعاصي أن يكون كافراً على مااستدل به بعض الخوارج ، لأنه إذا قبل من الشيطان مايعتقد انه معصية ولا يقصد بذلك طاعة الشيطان ولا تعظيمه يكون فاسقاً ، ولا يكون كافراً . وليس كذلك من ذكره الله تعالى في الاية ، لأنهم كانوا يقبلون تحريم علمائهم واحبارهم ويقصدون بذلك تعظيمهم . ولا يلزم على ذلك قبول المعاصي من العالم ، لأن العامي يعتد بالرجوع الى العالم فيقبل منه ماأدى اجتهاده اليه وعلمه ، فاذا قصد العالم وافتاه بغير ماعلمه فهو المخطيء دون المستفتي . وليس كذلك هؤلاء ، لأنهم ما كانوا تعبدوا بالرجوع الى الاحبار والقبول منهم لأنهم لو كانوا تعبدوا بذلك لما ذمهم الله على ذلك .

قوله تعالى :

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَىٰ ٱللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ (٣٣) آية .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى انهم « يريدون ان يطفؤا نور الله بافواههم » والاطفاء اذهاب نور النار . ثم استعمل في اذهاب كل نور . و « نور الله » القرآن والاسلام ، في قول المفسرين : السدي والحسن . وقال الجبائي : نور الله : الدلالة والبرهان ، لأنه يهتدى بها كما يهتدى بالأنوار .

وواحد الأفواه فم في الاستعمال ، وأصله فوه فحذفت الهاء وأبدلت من الواو

---

(١) قائله الاعشى • وقد مر تخريجه في ٣/ ٨١

ميم ، لأنه حرف صحيح من مخرج الواو مشاكل لها . ولما سمى الله تعالى الحجج والبراهين نورا سمى معارضتهم لـه اطفاء . وأضاف ذلك الى الافواه ، لأن الاطفاء يكون بالافواه ، وهو النفخ ، وهذا من عجيب البيان مع مافيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم ، لأن النفخ يؤثر في الأنوار الضعيفة دون الاقباس العظيمة ذكره الحسين بن علي المغربي . وقوله « ويأبى الله الا ان يتم نوره » الاباء الامتناع مما طلب من المعنى . قال الشاعر :

وإن أرادوا ظلمنا أبينا

أي منعناهم من الظلم ، وليس الاباء من الكراهة في شيء على مايقول المجبرة لأنهم يقولون : فلان يأبى الضيم ، فيمدحونه ، ولامدحة في كراهة الضيم لتساوي الضعيف والقوي في ذلك . وإنما المدح في المنع خاصة ، ولذلك مدح عورة بن الورد بأنه أبى للضيم بمعنى أنه ممتنع منه ، وقوله (وإن ارادوا ظلمنا أبينا) يدل على ذلك لأنه لامدحة في ان يكرهوا ظلم من يظلمهم . وإنما المدحة في منع من أراد ظلمهم . والمنع في الاية يمنع الله إلا إتمام نوره . وإن كره الكافرون • ولايجوز على قياس « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » أن تقول : ضربت إلا أخاك ، لأن في الاباء معنى النفي ، فكأنه قال : لايمكنهم الله إلا أن يتم نوره •وإذا لم يكن في اللفظ مستثنى منه لم تدخل « إلا » في الايجاب ، وتدخل في النفي على تقدير الحـذف قال الشاعر :

وهل لي أم غيرها إن تركتها ... أبى الله إلا أن اكون لها ابنما(١)

والتقدير في الآية ويأبى الله كل شيء الا اتمام نوره . في قول الزجاج ، وأنكر أن يكون في الآية معنى الجحد •

---

(١) تفسير القرطبي ٨ \ ١٢١ ومعاني القرآن ٤٣٣١ .

قوله تعالى

هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٤) آية .

اخبر الله تعالى انه « هوالذي ارسل رسوله » ﷺ وحمله الرسالة التي يؤديها الى امته « بالهدى » يعني بالحجج والبينات والبيان لما يؤديهم العمل به الى ابواب الجنة . و « دين الحق » هو الاسلام وماتضمنه من الشرائع ، لأنه الذي يستحق عليه الجزاء بالثواب . وكل دين سواه باطل لأنه يستحق به العقاب . ومن شأن الرسول أن يكون أفضل من جميع أمته من حيث يجب عليهم طاعته وامتثال ما يأمرهم به بما هو مصلحة لهم ، ولأنه رئيس لهم في الدين ؛ ويقبح تقديم المفضول على الفاضل فيما كان أفضل فيه .

وقوله « ليظهره على الدين كله » معناه ليعلي دين الاسلام على جميع الأديان بالحكم والغلبة والقهر لهم . وقال البلخي : ظهوره على جميع الاديان بالحكم ، لأن جميع الأديان نال المسلمون منهم وغزوا فيهم وأخذوا سبيهم وجزيتهم .

وفي الآية دلالة على صدق نبوته ﷺ لأنها تضمنت الوعد بظهور الاسلام على جميع الاديان ، وقد صح ظهوره عليها . وقال ابو جعفر عليه السلام ان ذلك يكون عند خروج القائم عليه السلام . وقال ابن عباس : إن الهاء في « ليظهره » عائدة الى الرسول ﷺ أي ليعلمه الله الاديان كلها حتى لا يخفى عليه شيء منها .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ

يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٥) آية.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين يعلمهم أن كثيراً من احبار اليهود وعلمائهم ورؤسائهم، وكثيراً من رهبان النصارى ليأكلون أموال الناس بالباطل من حيث كانوا يأخذون الرشا في الاحكام - في قول اسحاق والجبائي - وأكل المال بالباطل تملكه من الجهات التي يحرم منها اخذه. وقيل في معنى « ليأكلون اموال الناس بالباطل » وجهان: احدهما - انهم يتملكون، فوضع يأكلون موضعه لأن الاكل غرضهم. والثاني - يأكلون اموال الناس من الطعام، فكأنهم يأكلون الأموال، لانها من المأكول، كما قال الشاعر:

ذر الآكلين الماء لوماً فما أرى   ينالون خيراً بعد أكلهم الماء (١)

اي ثمن الماء. وقوله « ويصدون عن سبيل الله » معناه يمنعون غيرهم من اتّباع الاسلام الذي هو سبيل الله التي دعاهم الى سلوكها. والغرض بذلك التحذير من اتباعهم والتهوين على المسلمين مخالفتهم.

وقوله « والذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله » معناه الذين يخبؤن أموالهم من غير ان يخرجوا زكاتها، لأنهم لو اخرجوا زكاتها وكنزوا ما بقي لم يكونوا ملومين بلا خلاف. وهو قول ابن عباس، وجابر، وابن عمر، والحسن والسدي، والجبائي. قال: وهو إجماع. واصل الكنز كبس الشيء بعضه على بعض. ومنه قولهم كنز التمر والطعام قال الهذلي:

لا درّ درّي إن أطعمت نازلكم   قرف الحتي وعندي البر مكنوز (٢)

---

(١) اللسان (أكل) وروايته (من) بدل (ذر) و (ظلماً) بدل (لوماً).

(٢) مقاييس اللغة ١٣٦/٢ واللسان « كنز ».

الحتي ســويق المقل . وقوله « ولا ينفقونها في سبيل الله » إنما لم يقل ولا ينفقونهما لأحد أمرين : احدهما ـ ان تكون الكناية عائدة الى مدلول عليه وتقديره ولا ينفقون الكنوز أو الأموال . والآخر ـ ان يكون اكتفى بأحدهما عن الآخر للايجاز ومثله « وإذا رأوا تجارة او لهواً انفضوا اليها » (١) وقال حسان :

إن شرخ الشباب والشعر الاسـ　　ـود ما لم يعاص كان جنونا (٢)

وقال الآخر :

نحن بما عندنا وانت بما　　عندك راض والرأي مختلف (٣)

وكان يجب ان يقول راضيان . ومعنى البيت نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض وحذف الخبر من الاول لدلالة الثاني عليه كما حذف المفعول في الثاني لدلالة الأول عليه في قوله « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات » (٤) والتقدير والذاكرات الله . ومثل ذلك الآية . وتقديرها والذين يكنزون الذهب ولا ينفقونه في سبيل الله ويكنزون الفضة ولا ينفقونها في سبيل الله . وموضع « والذين يكنزون» يحتمل وجهين من الاعراب : أحدهما ـ ان يكون نصباً بالعطف على اسم (إنْ) وتقديره : يأكلون والذين يكنزون الذهب : والثاني ـ ان يكون رفعاً على الأستئناف.

وقال ابن عمر كل ما اخرجت زكاته فليس بكنز ، وبه قال عكرمة . وقال الجبائي وغيره : « الذين يكنزون » نزلت في مانعي الزكاة من أهل الصلاة . وقال قوم : نزلت في المشركين ، والأولى أن تحمل الآية على العموم في الفريقين .

وقوله « فبشرهم بعذاب اليم » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ ان اصل البشرى مما يظهر في بشرة الوجه من فرح او غم ، إلا

(١) سورة ٦٢ الجمعة آية ١١

(٢) تفسير القرطبي ٨ /١٢٨ ومجاز القرآن ١/ ٢٥٨

(٣) تفسير القرطبي ١٢٨/٨ ومعاني القرآن ٤٣٤/١ ، ٤٤٥ .

(٤) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٥ .

انه كثر استعماله في الفرح كما قال الجعدي .

وأراني طرباً في إثرهم طرب الواله اوكالمختبل (١)

لأن أصل الطرب مايستخف من سرور او حزن .

والثاني ـ انه وضع الوعيد بالعذاب الاليم موضع البشرى بالنعيم . وروي عن علي عليه السلام انه قال : كلما زاد على أربعة آلاف ، فهو كنز . أديت زكاته او لم تؤد ، ومادونها فهو نفقة . وقال أبو ذر : من ترك بيضاء او صفراء كوي بها . وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عند نزول هذه الآية أي مال يتخذ ، فقال : لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة تعين احدكم على دينه .

قوله تعالى :

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٦) آية .

قوله « يوم يحمى » متعلق بقوله « فبشرهم بعذاب اليم » في يوم يحمى عليها. ومعناه انه يدخل الذهب والفضة الى النار فيوقد عليها يعني على الكنوز التي كنزوا فالهاء في قوله « عليها » عائدة على الكنوز او الفضة .

والاحماء جعل الشيء حاراً في الاحساس ، وهو فوق الاسخان ، وضده التبريد تقول : حمي حماً وأحماه احماء إذا امتنع من حر النار .

وقوله « فتكوى » فالكي إلصاق الشيء الحار بالعضو من البدن . ومنه قولهم اخر الداء الكي لغلظ أمره كقطع العضو إذا عظم فساده تقول : كواه يكويه كيّاً

(١) مقاييس اللغة ٤٤٥/٣ واللسان (خبل) .

واكتوى اكتواء. وقوله «جباهم» جمع جبهة وهي صفحة اعلى الوجه فوق الحاجبين وجبهه بالمكروه يجبهه جبهاً إذا استقبله به «وجنوبهم» جمع جنب والجنب والضلع والأبطل نظائر «وظهورهم» جمع ظهر، وهو الصفحة العليا من خلف، المقابلة للبطن يقال: كتب في ظهر الدرج وبطنه إذا كتب في جانبيه. والمعنى ان الله يحمي هذه الكنوز بالنار ليكوي بها جباه من كنزها ولم يخرج حق الله منها وجنوبهم وظهورهم، فيكون ذلك اشد لعذابهم وأعظم لخزيهم.

وقوله «هذا ما كنزتم» اي يقال لهم: هذا ما ذخرتموه لانفسكم «فذوقوا ما كنتم تكنزون» ومعناه فاطعموا جزاء ما كنتم تدخرونه من منع الزكوات والحقوق الواجبة في أموالكم.

قوله تعالى:

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٧) آية.

قرأ ابو جعفر «اثنا عشر» و «أحدعشر» و «تسعة عشر» بسكون الشين فيهن إلا أن النهرواني روى عنه حذف الألف التي قبل العين.

لما ذكر الله تعالى وعيد الظالم لنفسه بكنز المال من غير اخراج الزكاة وغيرها من الحقوق التي لله منه اقتضى ذلك ان يذكر النهي عن مثل حاله، وهو الظلم في الاشهر الحرم التي تؤدي الى مثل حاله او شر منها في سوء المنقلب، فأخبر تعالى «ان عدة الشهور» في السنة على ما تعبدالله المسلمين بأن يجعلوه لسنتهم دون ما يعتبره مخالفوا الاسلام «إثنا عشر شهراً» وانما قسمت السنة اثني عشر شهراً لتوافق أمر

الاهلة مع نزول الشمس في اثني عشر برجاً تجري على حساب متفق ، كما قال: « الشمس والقمر بحسبان » (١) والشهر مأخوذ من شهرة أمره لحاجة الناس اليه في معاملاتهم ومحل ديونهم وحجهم وصومهم ، وغير ذلك من مصالحهم المتعلقة بالشريعة .

وقوله « في كتاب الله » معناه فيما كتبه الله في اللوح المحفوظ وفي الكتب المنزلة على أنبيائه .

وقوله « يوم خلق السماوات والارض » متصل بـ « عند الله » والعامل فيها الاستقرار . ثم بين أمرهذه الاثني عشر شهراً «منها أربعة حرم » وهي ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب : ثلاثة سرد وواحد فرد كما يعتقده العرب . ومعنى « حرم » انه يعظم انتهاك المحارم فيها اكثر مما يعظم في غيرها ، وكانت العرب تعظمها حتى ان الرجل لو لقي قاتل أبيه لم يهجه لحرمته . وانما جعل الله تعالى بعض الشهور اعظم حرمة من بعض لما علم في ذلك من المصلحة في الكف عن الظلم فيها، فعظم منزلتها ،وانه ربما أدى ذلك الى ترك الظلم اصلا لانطفاء النائرة تلك المدة وانكسار الحمية ، فان الأشياء تجر الى اشكالها .

وقوله « ذلك الدين القيم » معناه التدين بذلك هو الدين المستقيم .

وقوله « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » نهي منه تعالى لخلقه عن أن يظلموا انفسهم لأن من فعل قبيحاً يستحق عليه العقاب ، فقد ظلم نفسه بذلك بادخال الضرر عليها وقال ابو مسلم: معناه لاتدعوا قتال عدوكم في هذه الأشهر بأجمعكم ، ولاتمتنعوا من أحد الا من دخل تحت الجزية والصغار ، وكان من أهلها بدلالة قوله «وقاتلوا المشركين كافة » وكافة مشتقة من كفة الشيء وهي طرفه وانما أخذ من أن الشيء إذا انتهى الى ذلك كف عن الزيادة ، ولايثنى كافة ولا يجمع .

وقوله « وقاتلوا المشركين كافة » امر منه تعالى بقتال المشركين أجمع :امر

(١) سورة ٥٥ الرحمان آية ٥.

الله تعالى المؤمنين بأن يقاتلوهم كما أن المشركين يقاتلونهم كذلك، والضمير في قوله « فيهن » يحتمل أن يكون عائداً على الشهور كلها على ما قال ابن عباس ، ويحتمل أن يعود على الأربعة الحرم على ما قال قتادة لعظم أمرها. واختار الفراء رجوعه الى الاشهر الحرم . قال لانه لورجع الى الاثني عشر لقال فيها. والصحيح ان الجميع جائز وانما خص الأربعة اشهر بذلك في قول قتادة لتعاظم الظلم لا أن الظلم يجوز فعله على حال من الأحوال .

وقوله « ذلك الدين القيم » معناه ذلك الحساب الصحيح هو الدين القيم لا ما كانت عليه العرب من النسيء . وقيل : معناه ذلك التدين هو الدين القيم .وقوله « كافة » نصب على المصدر ، ولايدخل عليها الالف واللام ، لأنه من المصادر التي لاتنصرف لوقوعه موقع معاً وجمعاً بمعنى المصدر الذي هو في موضع الحال المذكورة ، فهو في لزوم النكرة نظير أجمعين في لزوم المعرفة .

وقوله « واعلموا ان الله مع المتقين » لمعاصيهم وما يؤدي الى عقابه ويكون معهم بالنصرة والولاية دون الاجتماع في مكان اومحل ، لأن الله لايجوز عليه ذلك لانه من امارات الحدث .

قوله تعالى :

إِنَّمَا ٱلنَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ (٣٨) آية

قرأ ابو جعفر وابن فرج عن البزي « انما النسيّ » من غير همز قلب الهمزة ياء وادغم الياء الاولى فيها فلذلك شدد . الباقون « النسيء » ممدود مهموز على وزن فعيل . وروي عن ابن مجاهد وابن مسعود عن عبيد بن عقيل عن شبل عن ابن كثير

« النسء » على وزن النسع . وقرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « يضل » بضم الياء وفتح الضاد . وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد . الباقون بفتح الياء وكسر الضاد . قال ابو علي : وجه قراءة ابن كثير اذا قرأت على وزن النسع ان (النسيء) التأخير . قال ابو زيد : نسأت الابل في ظمئها يوماً او يومين او اكثر من ذلك ، والمصدر « النسيء» ويقال : الابل نسأتها على الحوض وأنا أنسأها نسئاً إذا اخرتها عنه . قال : وماروي عن ابن كثير من قراءته بالياء فذلك على ابدال الياء من الهمزة ، ولاأعلمها لغة في التأخير ، كما ان ارجيت لغة في ارجأت . وماروي فيه من التشديد فعلى تخفيف الهمز ، لأن النسيّ بتشديد الياء على وزن فعيل بالتخفيف قياسي . وسيبويه لايجيز نحو هذا القلب الذي في النسيء الافي ضرورة الشعر . وابن زيد يراه ويروي كثيراً عن العرب . ومن قرأ بالمد والهمز فلأنه اكثر هذا في المعنى . قال أبو زيد : أنسأته الدين إنساء إذا أخترته واسم ذلك النسيئة والنسأ . وكان النسيء في الشهور تأخير حرمة شهر الى شهر ليست له تلك الحرمة فيحرمون بهذا التأخير ماأحل الله ويحلون ماحرم الله . والنسيء مصدر كالنذير والنكير وعذير الحي . ولايجوز أن يكون (فعيلا) بمعنى مفعول لأنه حمل على ذلك كأن معناه انما المؤخر زيادة في الكفر . والمؤخر الشهر وليس الشهر نفسه بزيادة في الكفر ، وانما الزيادة في الكفر تأخير حرمة الشهر الى شهر آخر ليست له تلك الحرمة . وقال ابو عبيدة فيما روى عن الثوري من قوله : انما النسيء زيادة في الكفر قال : كانوا قد وكلوا قوماً من بني كنانة يقال لهم : بنوا فقيم وكانوايؤخرون المحرم وذلك نساء الشهور لايفعلون ذلك الا في ذي الحجة اذا اجتمعت العرب للموسم، فينادي مناد أن افعلوا ذلك لحاجة اولحرب ،وليس كل سنة يفعلون ذلك،فان ارادوا ان يحلوا المحرم نادوا هذا صفر وان المحرم الاكبر صفر ، وربما جعلوا صفر أمحرماً مع ذي القعدة حتى يذهب الناس الى منازلهم إذا نادى المنادي بذلك ، وكانوا يسمون المحرم صفراً ويقدمون صفراً سنة ويؤخرونه:

وقال الفراء : والذي يتقدم به رجل من بني كنانة يقال لـه نعيم بن ثعلبة و كان رئيس الموسم ، فيقول : أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ولا يرد لي قضاء فيقولون : نعم صدقت انسئنا شهراً اوأخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر وأحل المحرم فيفعل ذلك . وانما دعاهم الى ذلك توالي ثلاثة اشهر حرم لا يغيرون فيها و كان معاشهم في الغارة . والذي كان ينسأها حين جاء الاسلام هو جنادة بن عوف بن ابي امية و كان في بني معد إن قبل بنو كنانة قال الشاعر :

ألسنا الناسئين على معـدّ شهور الحل نجعلها حراما(١)

وقال ابن عباس كانوا يجعلون المحرم صفراً وقال ابو علي : كانوا يؤخرون الحج في كل سنة شهراً و كان الذين ينسؤن بنو سليم، وغطفان ، وهوازن، ووافق حج المشركين في السنة التي حج فيها ابو بكر في ذي القعدة ، فلما حج النبي ﷺ في العام المقبل وافق ذلك في ذي الحجة فلذلك قال : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والارض . وقال مجاهد : فكان النسيء المنهي عنه في الآية تأخير الأشهر الحرم عما رتبها الله ، و كانوا في الجاهلية يعملون ذلك و كان الحج يقع في غير وقته واعتقاد حرمة الشهر في غير أوانه ، فبين تعالى أن ذلك زيادة في الكفر.

قال ابو علي : من قرأ « يضل » بفتح الياء و كسر الضاد قال الذين كفروا لا يخلو أن يكونوا مضلين لغيرهم أوضالين هم في انفسهم فاذا كان كذلك لم يكن في حسن اسناد الضلال في قولـه « يضل » اشكال، ألا ترى أن المضل لغيره ضال بفعله اضلال غيره كمـا ان الضال في نفسه الـذي لم يضله غيره لا يمتنع اسناد الضلال اليه ومن ضم الياء و كسر الضاد فمعناه ان كبراءهم واتباعهم يضلونهم بأمرهم اياهم بحملهم على هذا التاخير في الشهور . وروي في التفسير ان رجلا من كنانـة يقال له ابو ثمامة كان يقول للناس في منصرفهم من الحج إن آلهتكم قد اقسمت

(١) قائله الكميت . تفسير القرطبي ٨/ ١٣٨

لنحرمن". وربما قال لنحلن هذا الشهر يعني المحرم فيحلونه ويحرمون صفراً وان حرموه احلوا صفراً وكانوا يسمونهما الصفرين فهذا اضلال من هذا المنادي . ومن قرأ بضم الياء وفتح الضاد - وقيل انها قراءة ابن مسعود - يقوي ذلك قوله « زين لهم سوء اعمالهم » اي زين ذلك لهم حاملوهم عليه وداعوهم اليه . وعلى هذه القراءة يكون « الذين كفروا » في موضع رفع بانهم فاعلون والمفعول به محذوف وتقديره يضل منسؤا الشهور الذين كفروا تابعيهم والآخذين لهم بذلك .

ومعنى قوله « ليواطئوا » فالمواطأة موافقة امر التوطئة والمعنى ليواطئوا العدة في الاربعة اشهر .

وقوله « زين لهم سوء اعمالهم » قال الحسن وأبو علي المزين لهم انفسهم والشيطان. وقيل : زين بالشهوة وليجتنبوا المشتهى فذكر ذلك للتحذير والاعتراف به. والتزيين يكون بمعنى الفعل له ويكون بمعنى تقبل الطبع . وإنما سمي انساؤهم زيادة في الكفر من حيث أنهم اعتقدوا أن ذلك صحيح وصواب فلذلك كان كفراً فلا حجة في ذلك ان تكون افعال الجوارح كفراً .

وقوله « والله لايهدي القوم الكافرين » معناه انه لايهديهم الى طريق الجنة اذ كانوا كفاراً مستحقين لعذاب الابد .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٩) آية.

هذا خطاب من الله تعالى لجماعة من المؤمنين وعتاب وتوبيخ لهم بأنهم إذا قيل لهم على لسان رسوله « انفروا في سبيل الله » ومعناه اخرجوا في سبيل الله يعني الجهاد

وسماه سبيل الله ، لأن القيام به موصل الى معنى الجنة ورضا الله تعالى والنفر الخروج الى الشيء لامر هيج عليه وضده الهدوء تقول : نفر الى الثغر ينفر نفراً ونفيراً ولا يقال النفور إلا في المكروه كنفور الدابة عما تخاف ، وقوله « اثاقلتم الى الأرض » اصله تثاقلتم وادغمت التاء في الثاء لمناسبتها لها وادخلت الف الوصل ليمكن الابتداء بها ومثله اداركوا قال الشاعر :

تولى الضجيع إذا ما استافها خصراً عذب المذاق إذا ما اتابع القبل(١)

والتثاقل تعاطي اظهار ثقل النفس ومثله التباطيء وضده التسرع . ومعنى « اثاقلتم الى الأرض » قيل فيه قولان :

أحدهما ـ الى المقام بارضكم ووطنكم .

الثاني ـ لما اخرج من الارض من الثمر والزرع . قال الحسن ومجاهد : دعوا الى الخروج الى غزوة تبوك بعد فتح مكة وغزوة الطائف ، وكان ايام ادراك الثمرة ومحبة القعود في الظل فعاتبهم الله على ذلك . والآية مخصوصة بقوم من المؤمنين دون جميعهم ، لأن من المعلوم ان جميعهم لم يكن بهذه الصفة من التثاقل في الجهاد ، وهو قول الجبائي وغيره. فقال الله تعالى لهم على جهة التوبيخ ، والتعنيف ارضيتم بالحياة الدنيا على الاخرة ، آثرتم الحياة الدنيا الفانية على الحياة الآخرة الباقية . وهو استفهام ، والمراد به الانكار . والرضا هو الارادة غير انها لا توصف بذلك إلا اذا تعلقت بما مضى من الفعل والارادة توصف بما لم يوجد بعد قال تعالى مخبراً « فما متاع الحياة الدنيا في الاخرة الا قليل » اي ليس الانتفاع بما يظهر للحواس الاقليل ومنه قولهم : تمتع بالرياض والمناظر الحسان . ويقال للاشياء التي لها أثمان : متاع تشبيهاً بالانتفاع به .

---

(١) معاني القرآن ١/٤٣٨ والطبري ١٤/ ٢٥٢ (استاف) الشيء قرب منه وشمه ، و (القبل) ـ بضم القاف ـ جمع قبلة .

قوله تعالى :

إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) آية.

هذا تحذير من الله تعالى لهؤلاء الذين استبطأهم ووصفهم بالتثاقل عن سبيل الله بقوله « إلا تنفروا » أي إن لم تخرجوا الى سبيل الله التي دعيتم اليها من الجهاد « يعذبكم عذاباً اليماً ويستبدل قوماً غيركم » يقومون بنصرة نبيه ولا يتثاقلون فيه. والاستبدال جعل أحد الشيئين بدل الاخر مع الطلب له والتعذيب بطول وقت العذاب ، لانه من الاستمرار وقد يكون عقاباً وغير عقاب .

وقوله « ولاتضروه شيئاً » قيل فيمن يرجع اليه قولان : احدهما ـ انه يعود على اسم الله في قول الحسن . قال : لأنه غني بنفسه عن جميع الاشياء والاخر ـ قال الزجاج : إنها تعود الى النبي صلى الله عليه وآله لأن الله عصمه من جميع الناس وقوله « والله على كل شيء قدير » معناه قادر على الاستبدال بكم وعلى غيره من الاشياء . وفيه مبالغة .

قوله تعالى :

إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤١) آية.

قرأ يعقوب وحده «و كلمةالله هي العليا » بالنصب على تقدير وجعل كلمةالله هي العليا ومن رفع استأنف ، وهو أبلغ لأنه يفيد أن كلمة الله العليا على كل حال. وهذا ايضاً زجر آخر وتهديد لمن خاطبه في الاية الاولى بانهم إن لم ينصروا النبي صلى الله عليه وآله ولم يقاتلوا معه ولم يجاهدوا عدوه « فقد نصره الله » أي قد فعل الله به النصر حين اخرجه الكفار من مكة «ثاني اثنين» . وهو نصب على الحال اي هو ومعه آخر ، وهو ابو بكر في وقت كونهما في الغار من حيث « قال لصاحبه » يعني ابا بكر « لاتحزن » اي لاتخف . ولاتجزع « ان الله معنا » أي ينصرنا . والنصرة على ضربين : احدهما ـ يكون نعمة على من ينصره . والآخر ـ لايكون كذلك ، فنصرة المؤمنين تكون إحساناً من الناصر الى نفسه لأن ذلك طاعة لله ولم تكن نعمة على النبي صلى الله عليه وآله . والثاني ـ من ينصرغيره لينفعه بما تدعو اليه الحكمة كان ذلك نعمة عليه مثل نصرة الله لنبيه صلى الله عليه وآله .

ومعنى « ثاني اثنين »أحد اثنين يقولون هذا ثاني اثنين، وثالث ثلاثة ،ورابع أربعة ، وخامس خمسة ، لأنه مشتق من المضاف اليه. وقديقولون خامس اربعةأي خمس الاربعة بمصيره فيهم بعد أن لم يكن .

والغار ثقب عظيم في الجبل. قيل : وهوجبل بمكة يقال له ثور، فيقول قتادة. وقال مجاهد : مكث النبي صلى الله عليه وآله في الغار مع ابي بكر ثلاثاً . وقال الحسن : أنبت الله على باب الغار ثمامة ، وهي شجيرة صغيرة . وقال غيره : الهم العنكبوت فنسجت على باب الغار . وأصل الغار الدخول الى عمق الخباء . ومنه قوله « إن أصبح ماؤكم غوراً » (١) وغارت عينه تغور غوراً اذا دخلت في رأسه . ومنه أغار على القوم إذا أخرجهم من أخبيتهم بهجومه عليهم .

وقوله « فأنزل الله سكينته عليه » قيل فيمن تعود الهاءاليه قولان :احدهما ـ قال الزجاج :إنها تعود الى النبي صلى الله عليه وآله . والثاني ـ قال الجبائي: تعود على أبي بكر

(١) سورة ٦٧ الملك آية ٣٠

لأنه كان الخائف واحتاج الى الأمن لأن من وعد بالنصر فهو ساكن القلب. والاول أصح ،لأن جميع الكنايات قبل هذا وبعده راجعة الى النبي ﷺ ألا ترى أن قوله « إلا تنصروه » الهاء راجعة الى النبي ﷺ بلا خلاف ، وقوله « فقد نصره الله » فالهاء أيضاً راجعة الى النبي ﷺ وقوله « اذ اخرجه » يعني النبي ﷺ « اذ يقول لصاحبه » يعني صاحب النبي ﷺ ثم قال « فأنزل الله سكينته عليه » وقال بعده « وأيده بجنود » يعني النبي ﷺ فلا يليق أن يتخلل ذلك كله كناية عن غيره وتأييد الله إياه بالجنود ماكان من تقوية الملائكة لقلبه بالبشارة بالنصر من ربه ومن القاء اليأس في قلوب المشركين حتى انصرفوا خائبين .

وقوله « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » أي جعلها نازلة دنية وأراد بذلك أن يسفل وعيدهم النبي ﷺ وتخويفهم إياه فأبطل وعيدهم ونصر رسول الله والمؤمنين عليهم فعبر عن ذلك بأنه جعل كلمتهم كذلك ، لاانه خلق كلمتهم كما قال « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » (١) .

وقيل :إن كلمة الذين كفروا الشرك ، وكلمة الله التوحيد ، وهي قول : لا اله الا الله . وقيل : كلمتهم هو ماتغامزوا عليه من قتله . و « كلمة الله » ما وعد به من النصر والنجاة . ثم أخبر ان « كلمة الله هي العليا » المرتفعة اي هي المنصورة بغير جعل جاعل ، لأنها لايجوز أن تدعو الى خلاف الحكمة . وقوله « والله عزيز » معناه قادر لايقهر « حكيم » واضع الاشياء مواضعها ليس فيها وجه من وجوه القبح .

وليس في الاية مايدل على تفضيل أبي بكر ، لأن قوله « ثاني اثنين » مجرد الاخبار أن النبي ﷺ خرج ومعه غيره ، وكذلك قوله « اذ هما في الغار » خبر عن كونهما فيه ، وقوله « اذ يقول لصاحبه » لامدح فيه أيضاً ، لأن تسمية الصاحب لاتفيد فضيلة ألاترى أن الله تعالى قال في صفة المؤمن والكافر « قال له صاحبه وهو

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ١٩ .

يحاوره أكفرت بالذي خلقك » (١) وقد يسمون البهيمة بأنها صاحب الانسان كقول الشاعر (وصاحبي بازل شمول) وقد يقول الرجل المسلم لغيره : ارسل اليك صاحبي اليهودي ، ولا يدل ذلك على الفضل ، وقوله «لا تحزن » إن لم يكن ذماً أفليس بمدح بل هو نهي محض عن الخوف ، وقوله « إن الله معنا » قيل إن المراد به النبي ﷺ ، ولو أريد به أبو بكر معه لم يكن فيه فضيلة ، لأنه يحتمل أن يكون ذلك على وجه التهديد ، كما يقول القائل لغيره إذا رآه يفعل القبيح لا تفعل إن الله معنا يريد أنه متطلع علينا ، عالم بحالنا . والسكينة قد بينا أنها نزلت على النبي ﷺ بما بيناه من ان التأييد بجنود الملائكة كان يختص بالنبي ﷺ فأين موضع الفضيلة للرجل لولا العناد ، ولم نذكر هذا للطعن على ابي بكر بل بينا أن الاستدلال بالاية على الفضل غير صحيح .

قوله تعالى :

إِنْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) آية .

هذا امر من الله تعالى للمؤمنين أن ينفروا الى جهاد المشركين خفافاً وثقالا وقيل في معنى « خفافاً وثقالا » ثمانية أقوال : احدها ـ قال الحسن ومجاهد والضحاك والجبائي : إن معناه شباناً وشيوخاً . وثانيها ـ قال صالح : معناه أغنياء وفقراء . وثالثها ـ قال ابن عباس وقتادة : نشاطاً وغير نشاط . ورابعها ـ قال ابو عمرو : ركباناً ومشاة . وخامسها ـ قال ابن زيد : ذا صنعة وغير ذي صنعة . وسادسها ـ قال الحكم : مشاغيل وغير مشاغيل . وسابعها ـ قال الفراء : ذو العيال ، والميسرة : هم الثقال ، وذو العسرة وقلة العيال هم الخفاف . وثامنها ـ ان يحمل

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٣٨

على عمومه فيدخل فيه جميع ذلك ، وهو الأولى والأليق بالظاهر ، وهو اختيار الطبري ، والرماني ويكون ذلك على حال خفة النفير وثقله لأن هذا الذي ذكر يجري مجرى التمثيل لما يعمل هذا العمل به .

وقوله « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم » أمر من الله لهم بأن يجاهدوا في قتال اعدائه بأموالهم وأنفسهم . والجهاد بالمال واجب كالجهاد بالأنفس ، وهو الانفاق في سبيل الله، وظاهر الاية يدل على وجوب ذلك بحسب الامكان ، فمن لم يطق الجهاد إلا بالمال فعليه ذلك يعين به من ليس له مال .

وظاهر الآية يقتضي وجوب مجاهدة البغاة كما يجب مجاهدة الكفار ،لأنه جهاد في سبيل الله ، ولقوله « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله » (١)فأوجب قتال البغاة الى حين يرجعوا الى الحق . وقوله « ذلكم خيرلكم » إشارة الى الجهاد وتقديره ذلك الجهاد خير لكم . وإنما قال « خيرلكم » وان لم يكن في ترك الجهاد خير؛ لأحد أمرين : احدهما ــ خيرمن تركه الى المباح . والثاني ــ ان فيه الخير لكم لافي تركه ، فلا يكون خير بمعنى أفعل من كذا .

وقوله « إن كنتم تعلمون » معناه إن كنتم تعلمون الخير في الجملة فاعلموا أن هذا خير . وقال أبو علي : معناه « ان كنتم تعلمون » صدق الله فيما وعد به من الثواب الدائم .

وقال أبو الضحى : أول ما نزل من سورة براءة « انفروا » .

وقال مجاهد : أول ما نزل قوله « لقد نصركم الله .

وقال ابن عباس: نسخ هذه الاية قوله« وما كان المؤمنون لينفروا كافة»(٢).

وقال جعفر بن قيس : هذا ليس بمنسوخ ، لأن المنسوخ مالا يجوز فعله . وهذا ليس بصحيح ، لأنه يجوز أن يكون وجوبه زال الى الندب او الاباحة .

---

(١) سورة ٤٩ الحجرات آية ٩ (٢) سورة ٩ التوبة آية ١٢٣

قوله تعالى :

لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٣) آية.

هذه الاية في قوم تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وآله ولم يخرجوا معه الى غزوة تبوك. وحسن الكناية عنهم وإن لم يجر لهم ذكر لكونهم داخلين في جملة الذين أمروا بالخروج مع النبي صلى الله عليه وآله الى الجهاد وأن ينفروا معه. والمعنى لو كان المدعو اليه عرضاً قريباً من الغنيمة وما يطمع فيه من المال «وسفراً قاصداً» معناه سفراً سهلا باقتصاده من غير طول في آخره. وسمي العدل قصداً، لأنه مما ينبغي أن يقصد «لاتبعوك» يعني خرجوا معك وبادروا الى اتباعك «ولكن بعدت عليهم الشقة» اي بعدت عليهم المسافة، لأنهم دعوا الى الخروج الى تبوك ناحية الشام، فالشقة القطعة من الأرض التي يشق ركوبها علي صاحبها لبعدها. ويحتمل أن يكون من الشق ويحتمل ان يكون من المشقة. والشقة السفر والمشاقة. وقريش يضمون الشين، وقيس يكسرونها. وقريش يضمون العين من (بعدت).

وقوله «وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم» اخبار منه تعالى ان هؤلاء الذين ذكرهم يحلفون ويقسمون على وجه الاعتذار اليك ويقولون فيما بعد «لو استطعنا لخرجنا معكم» اي لو قدرنا وتمكنا من الخروج لخرجنا معكم ثم اخبر تعالى انهم «يهلكون أنفسهم» بذلك واخبر تعالى انه يعلم انهم يكذبون في هذا الخبر الذي أقسموا عليه. وفي الاية دلالة على أن الاستطاعة قبل الفعل لانهم لايخلون من احد امرين: إما أن يكونوا مستطيعين من الخروج وقادرين عليه ولم يخرجوا اولم يكونوا قادرين عليه وإنما حلفوا أنهم لو قدروا في المسقبل

لخرجوا ، فان كان الاول فقد ثبت ان القدرة قبل الفعل ، وإن كان المراد الثاني فقد أكذبهم الله في ذلك وبين [illegible] لخرجوا [illegible] ذلك أيضاً تقدم القدرة على المقدور وليس لهم أن يحملوا الاستطاعة على آلة السفر وعدة الجهاد ، لأن ذلك ترك الظاهر من غير ضرورة فان حقيقة الأستطاعة القدرة وإنما يشبه غيرها بها على ضرب من المجاز، على انه إذا كان عدم الالة والعدة يعذر صاحبه في التأخر فمن ليس فيه قدرة اولى بأن يكون معذوراً وفي الاية دلالة على النبوة لأنه اخبر انهم سيحلفون في المستقبل على ذلك بالله « لو استطعنا لخرجنا معكم » فجاؤا فيما بعد وحلفوا على ما اخبر به .

قوله تعالى :

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَاذِبِينَ (٤٤) آية.

هذا خطاب فيه بعض العتاب للنبي ﷺ في إذنه من استأذنه في التأخر فأذن له ، فأخبر الله بأنه كان الأولى ان لاتأذن لهم وتلزمهم الخروج معك حتى اذا لم يخرجوا ظهر نفاقهم؛ لأنه متى أذن لهم ثم تأخروا لم يعلم بالنفاق كان تأخرهم أم بغيره . وكان الذين استأذنوه منافقين . وحقيقة العفو الصفح عن الذنب ، ومثله الغفران ، وهو ترك المؤاخذة على الاجرام . وقد كان يجوز أن يعفو الله عن جميع المعاصي كفراً كان او غيره، غير أنه أخبر أنه لا يعفو عن عقاب الكفر ، لاجماع الامة على ذلك ،وماعداه من الفسق باق على ما كان عليه من الجواز .

وانما قال « عفا الله عنك » على غير لفظ المتكلم لأنه أفخم من الكناية لأن هذا الاسم من اسماء التعظيم كما أن قولك إن رأي الامير افخم من قولك إني رأيت .

وقال ابو علي الجبائي : في الاية دلالة على ان النبي ﷺ كان وقع منه ذنب

في هذا الاذن . قال : لأنه لايجوز أن يقال لم فعلت ماجعلت لك فعله؟ كما لايجوز أن يقول لم فعلت ماأمرتك بفعله . وهذا الذي ذكره غير صحيح ، لأن قوله «عفا الله عنك» إنما هي كلمة عتاب له ﷺ لم فعل ما كان الأولى به أن لايفعله، لأنه وان كان له فعله من حيث لم يكن محظوراً فان الأولى ان لايفعله ، كما يقول القائل لغيره إذا رآه يعاتب أخاً له: لم عاتبته وكلمته بما يشق عليه ؟ وان كان له معاتبته وكلامه بما يثقل عليه . وكيف يكون ذلك معصية وقد قال الله في موضع آخر : « فان استاذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم » وإنما اراد الله أنه كان ينبغي أن ينتظر تاكيد الوحي فيه . ومن قال هذا ناسخ لذلك فعليه الدلالة .

وقوله «لم أذنت» فالاذن رفع التبعة ، عاتب الله تعالى نبيه ﷺ لم أذن لقوم من المتأخرين عن الخروج معه الى تبوك وإن كان له اذنهم لكن كان الاولى ان لايأذن « حتى يتبين لك » حتى يظهر لك « الذين صدقوا » في قولهم لو استطعنا لخرجنا معكم ؛ لأنه كان فيهم من اعتل بالمرض والعجز وعدم الحمولة «وتعلم الكاذبين» منهم في هذا القول .

قوله تعالى

لاَ يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ (٤٥) آية .

أخبر الله تعالى نبيه بعلامة المنافقين والكاذبين بأن بين أنه لايستأذن احد النبي ﷺ في التأخر عنه والخروج معه الى جهاد أعدائه ولايسأله الاذن في التأخر القوم الذين يؤمنون بالله ويصدقون به ويقرون بوحدانيته ويعترفون باليوم الاخر. والاستئذان طلب الاذن من الآذن . ومعنى قوله « أن يجاهدوا » فيه حذف وتقديره لأن لايجاهدوا بحذف (لا) لان ذمهم قد دل عليه ـ هذا قول ابي علي

الجبائي ـ وقال الحسن : تقديره كراهية أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . وقال الزجاج : هوفي موضع نصب ، لان تقديره في أن يجاهدوا ، فلما حذف حرف الجر انتصب ، وعند سيبويه وغيره هو في موضع الجر .

وقوله « والله عليم بالمتقين » اخبار منه تعالى بانه يعلم من يتقي معصية الله ويخاف عقابه ، ومن لايتقيه . قال ابن عباس هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوه في القعود عن الجهاد وعذر للمؤمنين ، فقال : لم يذهبوا حتى يستأذنوه . والمعنى انه لم يخرجهم من صفة المتقين إلا انه علم أنهم ليسوا منهم .

فان قيل أي الجهادين أفضل: أجهاد السيف أم جهاد العلم ؟

قيل : هذا بحسب الحاجة اليه والمصلحة فيه ، وكذلك الجهاد بالمال والجهاد بالنفس . وإنما يقع التفاضل مع استواء الأحوال الا بمقدار الخصلة الزائدة من خصال الفضل . وأجاز الرماني الجهاد مع الفساق إذا عاونوا على حق في قتال الكفار لأنهم يطيعون في ذلك الفعل كما هم مطيعون في الصلاة والصيام وغير ذلك من شريعة الاسلام . والظاهر من مذهب أصحابنا أنه لايجوز ذلك إلا ما كان على وجه الدفع عن النفس وعن بيضة الاسلام .

قوله تعالى :

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٦) آية .

أخبر الله تعالى في هذه الاية بانه إنما يستأذن النبي ﷺ في التأخر عن الجهاد والقعود عن القتال معه القوم « الذين لايؤمنون بالله» اي لايصدقون بالله ولايعترفون بـه « واليوم الآخر » يعني بالبعث والنشور « وارتابت قلوبهم » يعني اضطربت وشكت . والارتياب هو الاضطراب في الاعتقاد بالتقدم مرة والتأخر اخرى . والريبة

شك معه تهمة : رابني ريباً وريبة وارتاب ارتياباً ، واسترابة .

وقولـه « فهم في ريبهم يترددون » معناه فهم في شـكهم يذهبون ويرجعون والتردد هو التصرف بالذهاب والرجوع مرات متقاربة ، مثل المتحير ، ردّه ردّاً وردّده ترديداً ، وتردّد تردداً وارتدّ ارتـداداً ، وراده مرادة ، وترادّ القوم تراداً ، واسترده استرداداً . وقوله « في ريبهم يترددونَ » يدل على بطلان قول من يقول : إن المعارف ضرورة ، لأنه تعالى أخبر أنهم في شكهم يترددون، صفة الشاك المتحير في دينه الذي ليس على بصيرة من أمره. وقيل في معنى اليوم الاخر قولان :

احدهما ـ انه آخر يوم من أيام الدنيا والمؤذن بالكرة الأخيرة .

الثاني ـ وهو الاقوى ـ انه يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة وهو الاظهر من مفهوم هذه اللفظة .

قوله تعالى :

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٧) آية .

اخبر الله تعالى ان هؤلاء المنافقين لو ارادوا الخروج مع النبي ﷺ نصرة له ورغبة في جهاد الكفار كما أراد المؤمنون ذلك لأعدوا للخروج عدة، وهو ما يتهيأ لهم معها الخروج ، ولكن لم يكن لهم في ذلك نية وكان عزمهم على أن النبي ﷺ ان لم يأذن لهم في الاقامة فخرجوا ، أفسدوا عليك وضربوا بين أصحابك ، وأفسدوا قلوبهم ، فكره الله خروجهم على هذا الوجه ،لان ذلك كفر ومعصية .والله لا يكره الخروج الذي أمرهم به ، وهو أن يخرجوا لنصرة نبيه وقتال عـدوه والجهاد في سبيله كما خرج المؤمنون كذلك ،فثبطهم الله عن الخروج الذي عزموا عليه ولـم يثبطهم عن الخروج الذي أمرهم به ، لأن الاول كفر . والثاني طاعة .

وقوله « وقيل اقعدوا مع القاعدين » يحتمل شيئين : أحدهما ـ أن يكون

القائلون لهم ذلك أصحابهم الذين نهوهم عن الخروج مع النبي نصرة لـه ورغبة في الجهاد . والثاني - ان يكون ذلك من قول النبي ﷺ لهم على وجه التهديد لا على وجه الاذن ، ويجوز أن يكون إذنه لهم في القعود الذي عاتبه الله عليه . وأنه كان الأولى أن لا يأذن لهم فيه ، ولايجوز أن يكون ذلك من قول الله ، لأنـه لو كان كذلك لكان مباحاً لهم التأخر . اللهم إلا أن يكون ذلك على وجه التهديد ، فيجوز أن يكون ذلك من قول الله . والعدة والاهبة والآلة نظائر . والانبعاث الانطلاق بسرعة في الأمر ، ولذلك يقال : فلان لاينبعث في الحاجة أي ليس لـه نفاذ فيها . والتثبيط التوقف عن الامر بالتزهيد فيه ومثله التعقيل . وقولـه « مع القاعـدين » يعني مع النساء والصبيان والمرضى والزمنى ،ومن ليس به حراك . قال ابن اسحاق: كان الذين استأذنوه اشرافاً ورؤساء كعبدالله بن أبي بن ابي سلول والجد بن قيس. وزاد مجاهد رفاعة بن التابوت وأوس بن قبطي .

قوله تعالى :

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٨) آية .

بين الله تعالى في هذه الآية الوجوه في كراهية انبعاثهم ووجه الحكمة في تثبيطهم عن ذلك وهو ماعلم من ان في خروجهم مفسدة للمؤمنين ،لأنه قال«لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا » قال الفراء : لو قال مازادكم يريد خروجهم لـكان جائزاً ، وهـذا من سعة العربية . والخبال الفساد ، والخبال الموت ، والخبال الاضطراب في الرأي بتزيين أمر لقوم وتقبيحه لاخرين ليختلفوا وتفترق كلمتهم . وقوله «ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة» والايضاع الاسراع في السير بطرح العلق

قال الشاعر :

أرانا موضعين لأمـر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب (١)

وقال آخر :

ياليتني فيها جذع أخب فيها وأضع (٢)

وربما قالوا للراكب : وضع بغير الف ، ومنه وضعت الناقـة تضع وضعاً ، وأوضعتها إيضاعاً . ومعنى الايضاع هاهنا إسراعهم في الدخول بينهم للتضريب بنقل الكلام على وجه التخويف . قال الحسن : معناه مشوا بينكم بالنميمة ، لافساد ذات بينكم . وقوله « وفيكم سماعون لهم » قيل في معناه قولان :

احـدهما ـ قال قتادة وابن اسـحاق : فيكم القابلون منهم عند سـماع قولهم ، وقوله « إلا خبالا » استثناء منقطع وتقديره مازادوكم قوة ولكن طلبوا لكم الخبال ويحتمل أن يكون المعنى إنهم على خبال في الرأي فيعقده حتى يصير خبالا فعلى هذا يكون الاستثناء متصلا .

الثاني ـ قال مجاهد وابن زيد: لهم عيون منهم ينقلون أخباركم الى المشركين.

وقوله «يبغونكم الفتنة » معناه يطلبون لكم المحنة باختلاف الكلمة والفرقة. قال الحسن : يبغونكم أن تكونوا مشركين . وأصل الفتنة إخراج خبث الـذهب بالنار ، تقول : بغيتك كذا بمعني بغيت لك ومثله جلبتك وجلبت لك و«خلالكم» أي بينكم مشتق من التخلل ، وهي الفرج تكون بين القوم في الصفوف وغيرهـا ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله تراصوا في الصفوف لايتخللكم اولاد الخذف .

وقولـه : « والله عـليم بالظالمين » معناه ـ هاهنا ـ عـالم بمن يستأذن

---

(١) مر تخريجه في ١/ ٣٧٢

(٢) قائله دريد بن الصمة قاله يوم حنين : اللسان (وضع) وسيرة ابن هشام ٤ / ٨٢ وتفسير الطبري ١٤ / ٢٧٨

النبي صلى الله عليه وآله في التأخر شكاً في الاسلام ونفاقاً ، وعالماً بمن سمع حديث المؤمن وينقله الى المنافقين فان هؤلاء ظالمون انفسهم وباخسون لها حظها من الثواب .

قوله تعالى :

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٩) ﴾ آية.

اقسم الله تعالى أن هؤلاء المنافقين « ابتغوا » أي طلبوا إفساد ذات بينكم وافتراق كلمتكم في يوم أحد حتى انصرف عبدالله بن أبي بأصحابه وخذل النبي صلى الله عليه وآله وكان هو وجماعة من المنافقين يبغون للاسلام الغوائل قبل هذا ، فسلم الله المؤمنين من فتنتهم وصرفها عنهم . وقوله « وقلبوا لك الامور » فالتقليب هو تصريف الشيء بجعل أسفله أعلاه مرة بعد أخرى ، فهؤلاء صرفوا القول في المعنى للحيلة والمكيدة وقولـه « حتى جاء الحق » أي حتى اتى الحق « وظهر أمر الله وهم كارهون » أي في حال كراهتهم لذلك ، فهي جملة في موضع الحال . والظهور خروج الشيء الى حيث يقع عليه الادراك وقد يظهر المعنى للنفس إذا حصل العلم به .

قوله تعالى

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ آية .

قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد: نزلت هذه الآية في ألجد بن قيس، وذلك ان النبي صلى الله عليه وآله لما دعا الناس الى الخروج الى غزوة تبوك لقتال الروم جاءه ألجد ابن قيس ، فقال : يا رسول الله إني رجل مستهتر بالنساء فلا تفتني ببنات الاصفر، قال الفراء : سمي الروم أصفر ، لأن حبشياً غلب على ناحية الروم ، وكان له بنات

قد أخذن من بياض الروم وسواد الحبشة فكنّ صفراً لعساً ، فنزلت هذه الآية فيه. وقال الحسن وقتادة وأبو عبيدة وأبو علي والزجاج : معنى ولا تفتني ولا تؤثمني بالعصيان في المخالفة التي توجب الفرقة ، فتضمنت الآية ان من جملة المنافقين من استأذن النبي صلى الله عليه وآله في التأخر عن الخروج ، والاذن رفع التبعة في الفعل ،وهو والاباحة بمعنى ، وقال له « لا تفتني » اي لا تؤثمني بأن تكلفني المشقة في ذلك فأهم بالعصيان أو لا تفتني ببنات أصفر على ما حكيناه ، فقال الله تعالى « ألا في الفتنة سقطوا » أي وقعوا في الكفر والمعصية بهذا القول وبهذا الفعل . والسقوط الوقوع الى جهة السفل ووقوع الفعل حدوثه وسقوطه أيضاً . وقوله « وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » اخبار منه تعالى أن جهنم مطيفة بمافيها من جميع جهاتها بالكافرين. والاحاطة والاطافة والاحداق نظائر في اللغة . ولا يدل ذلك على انها لا تحيط بغير الكفار من الفساق الا ترى أنها تحيط بالزبانية والمتولين للعقاب ، فلا تعلق للخوارج بذلك .

قوله تعالى :

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥١) آية .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله بأن هؤلاء المنافقين الذين ذكرهم متى نال النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين حسنة أي نعمة من الله تعالى وظفر باعدائهم وغنيمة ينالونها ساءهم ذلك وأحزنهم ، وإن تصبهم مصيبة أي آفة في النفس او الأهل او المال - وأصلها الصوب - وهو الجري الى الشيء ، يقال : صاب يصوب صوباً ،ومنه صوّب الاناء إذا ميله للجري ، والصواب اصابة الحق « يقولوا » يعني هؤلاء المنافقين «قد أخذنا أمرنا من قبل »ومعناه قد حذرنا واحترزنا ،في قول مجاهد وغيره ، ومعناه،

اخذنا امرنا من مواضع الهلكة فسلمنا مما وقعوا فيه « ويتولوا » اي يعرضوا « وهم فرحون » يعني فرحين بتأخرهم وسلامتهم مما نال المؤمنين من المصيبة . والاصابة وقوع الشيء بما قصد به .

قوله تعالى :

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥٢) آية .

امر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول لهؤلاء المنافقين الذين يفرحون بمصيبات المؤمنين وسلامتهم منها « لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » وقيل في معناه قولان: احدهما ـ ان كل ما يصيبنا من خير أو شر فهو مما كتبه الله في اللوح المحفوظ من أمرنا ، وليس على ما تظنون وتتوهمون من اهمالنا من غير أن نرجع في أمرنا الى تدبير ربنا ، هذا قول الحسن . الثاني ـ قال الجبائي والزجاج : يحتمل أن يكون معناه لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا في القرآن من النصر الذي وعدنا . وقال البلخي : يجوز ان يكون (كتب) بمعنى علم ويجوز ان يكون بمعنى حكم ، والأولان أقوى . فان قيل : ما الفائدة في كتب ما يكون من افعال العباد قبل كونها ؟ قلنا في ذلك مصلحة للملائكة ما يقابلون به فيجدونه متفقاً في الصحة ، مع ان تصور كثرته اهول في النفس وأملأ للصدر .

وقوله : « هو مولانا » يحتمل معنيين : احدهما ـ انه مالكنا ونحن عبيده . والثاني ـ فان الله يتولى حياطتنا ودفع الضرر عنا .

وقوله « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » امر منه تعالى للمؤمنين ان يتوكلوا عليه تعالى دون غيره . والتوكل تفويض الامر الى الله والرضا بتدبيره والثقة بحسن اختياره ، كما قال « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (١) وحرف الجر الذي في

(١) سورة ٦٣ الطلاق آية ٣ .

معنى الظرف متعلق بالامر في قوله « فليتوكل» وتقديره فليتوكل على الله المؤمنون وانما جاز تقديمه لانـه لايلبس ، ولايجوز تقديمه على حرف الجزاء لأنه يلبس بالجزاء في الجواب .

قوله تعالى:

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٣) آية .

روى ابن فليح والبزي إلا النقاش « هل تربصون » بتشديد التاء ، وجهه أنه أراد تتربصون فادغم احد التاءين في الاخرى .

امر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول لهؤلاء المنافقين «هل تربصون بنا» والتربص التمسك بما ينتظر به مجيء حينه ولذلك قيل تربص بالطعام إذا تمساك به الى حين زيادة سعره ، وقوله « إلا احـدى الحسنيين » واحدى الشيئين واحـــدة منهما ، واحد العشر واحد منها ، واحدى النساء معناه واحـدة منهن . والحسنيان عظيمان في الحسن من النعم ومعانيهما ها هنا إما الغلبة بنصر الله عز وجل والشهادة المودية الى الجنة ، في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وغيرهم . و(هـل) حرف من حروف الاستفهام والمراد هاهنا التقريع بالتربص المؤدي صاحبه الى كل مايكرهه من خيبته وفوز خصمه. وقوله « ونحن نتربص بكم » أي قل لهؤلاء : ونحن ايضاً نتوقع بكم ان يوقع بكم عذاباً « من عنده » يهلككم به « اوبأيدينا » بأن ينصرنا عليكم فيقتلكم بأيدينا .وقوله « فتربصوا » صورته صورة الأمر والمراد به التهديد كما قال : « اعملوا ماشئتم » (١) « واستفزز من استطعت » (٢) وانما قلنا ذلك لأن

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ٤٠ (٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٦٤

تربص المنافقين بالمؤمنين تمسك بما يؤدي الى الهلاك وذلك قبيح لايريده الله ولا يأمر به . وقال الفراء : العرب تدغم لام هل وبل في التاء خاصة وهو كثير في كلامهم.

قوله تعالى :

قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرهاً لن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٤) آية .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول لهؤلاء المنافقين « انفقوا » وصورته صورة الامر وفيه ضرب من التهديد وهو مثل قوله « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(١) وانما هو بيان عن توسعة التمكين من الطاعة والمعصية ، وقال قوم : معناه الخبر الذي تدخل (إن) فيه للجزاء كما قال كثير :

اسيئي بنا اواحسني لاملومة　　لدينا ولامقلية ان تقلت (٢)

كأنه قال : إن أحسنت أو أسأت لم تلامي ، وإنما حسن ان يأتي بصيغة الأمر على معنى الخبر بتوسعة التمكين لأنه بمنزلة الأمر في طلب فعل ما يتمكن الذي قد عرفه المخاطب ، كأنه قيل اعمل بحسب ما يوجبه الحق فيما مكنت من الامرين . ووجه آخر أن كل واحد من الضربين كالمأمور به في انه لا يعود وبال العائد الاعلى المأمور .وقوله « طوعا » فالطوع الانقياد بارادة لمن عمل عليها .والكره فعل الشيء بكراهة حمل عليها. وقوله « لن يتقبل منكم » معناه لايجب لكم به الثواب على ذلك مثل تقبل الهدية ووجوب المكافاة وتقبل التوبة وايجاب الثواب عليها ، ومثله في كل طاعة .

وقوله « إنكم كنتم قوماً فاسقين » اخبار منه تعالى وخطاب لهؤلاء المنافقين بأنهم كانوا فاسقين متمردين عن طاعة الله، فلذلك لم يقبل نفقاتهم وإنما كانوا ينفقون

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٢٩ .　　(٢) معاني القرآن ١ / ٤٤١ وقد مر في ١ / ٣٢٧

أموالهم في سبيل الله المرياء ودفعاً عن انفسهم .

قوله تعالى:

وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٥) آية.

قرأ اهل الكوفة الاعاصما « ان يقبل » بالياء . الباقون بالتاء . وجه قراءة من قرأ بالياء ان التأنيث ليس بحقيقي فجاز أن يذكر كقوله « فمن جاءه موعظة »(١) ومن قرأ بالتاء فعلى ظاهر التأنيث .

والمنع أمر يضاد الفعـل وينافيه . والمعنى هاهنا أن هؤلاء المنافقين منعوا انفسهم ان يفعل بهم قبول نفقاتهم ، كما يقول القائل : منعته بري وعطائي.

وقوله « ان تقبل » في موضع نصب ، وتقديره ومامنعهم من أن تقبل وحذف (من) . وقوله « إلا أنهم كفروا بالله ورسوله » انهم في موضع رفع والعامـل في اعراب انهم يحتمل احـد امرين : احدهما ـ مامنعهم من ذلك إلا كفرهم . والثاني ـ أن يكون تقـديره مامنعهم الله منه إلا لأنهم كفروا بالله . وعندنا ان الكافر لايقع منه الانفاق على وجه يكون طاعة ، لأنه لو أوقعها على ذلك الوجـه لاستحق الثواب . والاحباط باطل ، فكان يؤدي الى ان يكون مستحقاً للثواب. وذلك خلاف الاجماع . وعند من خالفنا من المعتزلة وغيرهم يصح ذلك، غير انه ينحبط بكفره . فأما الصلاة فلا يصح أن تقع منهم على وجه تكون طاعة بـلا خـلاف ، لأن الصلاة طريقها الشرع فمن لا يعترف بالشرع لايصح أن يوقعها طاعة ، وليس كذلك الانفاق ، لأن العقل دال على حسنه غير انهم وإن علموا ذلك لايقع منهم

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٥

كذلك على ما بيناه .

وقوله « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » اي يقومون اليها على وجه الكسل وذلك ذم لهم بانهم يصلون الصلاة على غير الوجه الذي امروا به ، من النفاق الذي يبعث على الكسل عنها دون الايمان الذي يبعث على النشاط لها .

وقوله « ولا ينفقون إلا وهم كارهون » اخبار منه تعالى بأنهم لا ينفقون ما ينفقونه لكونه طاعة بل ينفقونه كارهين لذلك وذلك يقوي ما قلناه .

قوله تعالى :

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٦) آية .

هذا نهي للنبي صلى الله عليه وآله والمراد به المؤمنون والمعنى : لا يروق ناظركم ايها المؤمنون ظاهر حسنها يعني اموال المنافقين والكفار واولادهم تستحسنونه بالطبع البشري . وانما قلنا ذلك ، لأن النبي صلى الله عليه وآله مع زهده لا يجوز ان يعجب بها اعجاب مشتهٍ لها . وقوله « إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا » وقيل في معنى ذلك وجوه : احدها ـ قال ابن عباس وقتادة والفراء : ان فيه التقديم والتأخير والتقدير فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، فيكون الظرف على هذا متعلقاً بأموالهم وأولادهم ، ومثله قوله تعالى « فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون » (١) وتقديره فالقه اليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم . الثاني ـ قال ابن زيد : معناه انما يريد الله ليعذبهم بحفظها والمصائب فيها مع حرمان النفقة بها . والثالث ـ قال الجبائي : تقديره انما

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٢٨

يريد الله ليعذبهم في الحياةالدنيا عند تمكن المؤمنين من اخذها وغنمها فيتحسرون عليها ويكون ذلك جزاء على كفرهم نعم الله تعالى بها . والرابـع ـ قال البلخي والزجاج : ان معناه فلا تعجبك اموالهم ، فانها وبال عليهم ، لأن الله يعذبهم بهـا اي بما يكلفهم من انفاقها في الوجوه التي امرهم بهـا فتزهق انفسهم لشـدة ذلك عليهم لانفاقهم، وهم مع هذا كله كافرون وعاقبتهم النار فيكون قوله « وهم كافرون» اخباراً عن سوء احوالهم وقلة نفع المـال والولد لهم ولايكون عطفاً على مامضى . والخامس ـ أن يكون المعنى أن مفارقتها وتركها والخروج عنها بالموت صعب عليهم شديد ، لأنهم يفارقون النعم ولايدرون الى ماذا يصيرون بعد الموت فيكون حينئذ عذاباً عليهم . بمعنى ان مفارقتها غم وعذاب . ومعنى « وتزهق انفسهم »اي تهلك وتذهب بالموت يقال : زهق بضاعة فـلان اي ذهبت اجمع . السادس ـ قال الحسن : اخبر الله تعالى عن عاقبتهم انهم يموتون على النفاق . وقال : ليعـذبهم بزكاتها وانفاقها في سبيل الله ، وهو قول البلخي ايضاً والزجاج مع اعتقادهم ان ذلك ليس بقربة ، فيكون ذلك عذاباً أليماً .

واللام في قوله « ليعذبهم » يحتمل ان يكون بمعنى (أن) والتقديرإنما يريد الله أن يعذبهم . والزهق الخروج بصعوبة . وأصله الهلاك ، ومنه قوله « قـل جاء الحق وزهق الباطل » (١) وكل هالك زاهق ، زهق يزهق زهوقاً . والزاهق من الدواب السمين الشديد السمن ، لأنه هالك يثقل بدنه في السير والكر والفر .وزهق فلان بين ايدي القوم إذا زهق سابقاً لهم حتى يهلك منهم . والاعجاب السرور بمـا يعجب منه تقول : اعجبني حديثه اي سرني بظرف حديثه .

وليس في الآية مايدل على ان الله تعالى اراد الكفر على مايقوله المجبرة ، لأن قوله « وهم كافرون » في موضع الحال كقولك اريد ان تـذمه وهو كافر واريد انتضربه وهو عاص وأنت لاتريد كفره ولاعصيانـه بل تريد ذمه في حال

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٨١

كفره وعصيانه ، وتقدير الاية إنما يريد الله عذابهم وازهاق انفسهم اي اهلاكها في حال كونهم كافرين ، كما يقول القائل للطبيب : اختلف الي كل يوم وأنا مريض ، وهو لايريد المرض ، ويقول لغلامه : اختلف الي وأنا محبوس ، ولايريد حبس نفسه .

قوله تعالى :

وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَاهُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٧) آية .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين انهم يقسمون بالله انهم لمنكم يعني من المؤمنين وعلى دينهم الذي يدينون به. ثم قال الله تعالى مكذباً لهم « وماهم منكم » اي ليسوا مؤمنين مثلكم ولا مطيعين لله في اتباع دينه كما انتم كذلك ، ولكنهم قوم يفرقون اخبار منه تعالى ان هؤلاء المنافقين يفرقون من اظهار الكفر لئلا يقتلوا والفرق انزعاج النفس بتوقع الضرر . وأصله من مفارقة الامن الى حال الانزعاج.

قوله تعالى :

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٨) آية .

قرأ يعقوب « أو مدخلا » بفتح الميم وتخفيف الدال وسكونها . وقرأ شاذ «مدخلا» بضم الميم وسكون الدال.

اخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين انهم لو وجدوا ملجأ. ومعناه لو ادركوا مطلوبهم ، يقال : وجدت الضالة وجداناً ووجدت على الرجل وجداً وموجدة . والملجأ الموضع الذي يتحصن فيه ومثله المعقل والموئل ، والمعتصم والمنتصر .وقال

ابن عباس : معناه هاهنا حرزا . وقال مجاهد : أي حصناً ، ومثله يستعمل في الناصر والمساعد . وقوله « أو مغارات » اي لو وجدوا مغارات ، وهي جمع مغارة وهي المدخل الساتر من دخل فيه . وقال ابن عباس : معناه المغارات والغيران . والغار الثقب الواسع في الجبل ، ومنه غارت العين من الماء إذا غابت في الارض ، وغارت عينه إذا دخلت في رأسه . والمدخل المسلك الذي يتدسس بالدخول فيه وهو مفتعل من الدخول كالمتلج من الولوج . وأصله متدخل . وقال ابن عباس وأبو جعفر عليه السلام والفراء : المدّخل الاسراب في الارض . وقوله « لولوا اليه وهم يجمحون » فالجماح مضي الماء مسرعاً على وجهه لا يرده شيء عنه . وقال الزجاج : فرس جموح ، وهو الذي إذا حمل لم يرده اللجام . وقيل : هو المشي بين المشيين قال مهلهل :

لقد جمحت جماحاً في دمائهم … حتى رأيت ذوي أجسامهم جمدوا

وقال الزجاج : معنى (مدخلا) اي لو وجدوا قوماً يدخلون في جملتهم أو قوماً يدخلونهم في جملتهم يعتصمون بهم لفعلوا .

قوله تعالى :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٩) آية .

قرأ يعقوب « يلمزك » بضم الميم . الباقون بكسرها ، وهما لغتان ، وهذه الآية فيها اخبار أن من جملة المنافقين الذين ذكرهم من يلمزك يا محمد صلى الله عليه وآله في الصدقات اي يعيبك . في قول الحسن . واللمز العيب على وجه المساترة ، والهمز العيب ـ بكسر العين وغمزها ـ في قول الزجاج ـ تقول : لمزه يلمزه ويلمزه ـ بالكسر والضم ـ وهي صفتهم قال الشاعر :

إذا لقيتك تبدي لي مكاشرة　　وان تغيبت كنت الهامز اللمزه (١)

وقال رؤبة :

قاربت بين عنقي وجمزي　　في ظل عصري باطلي ولمزي (٢)

وقال ابو عبيدة : يلزمك معناه يعيبك . وقال قتادة : معناه يطعن عليك . والهمز الغيبة . ومنه قوله « هماز مشاء بنميم » (٣) . وقيل لاعرابي : أتهمز الفارة؟ قال : الهر يهمزها ، فأوقع الهمز على الاكل ، والهمز كاللمز ، ومنه قوله «أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً » (٤) والصدقات جمع صدقة وهي العطية للفقير على وجه البر والصلة . والصدقة الواجبة في الأموال حرام على رسول الله وأهل بيته كأنهم جعلوا في تقدير الأغنياء ، فأما البر على وجه التطوع فهو مباح لهم .

وقوله « فان أعطوا منها رضوا » يعني من الصدقات رضوا بذلك وحمدوك عليه « وان لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » يعني إذا لم يعطوا ما طلبوه من الصدقات سخطوا وغضبوا . والصدقة محرمة على من كان غنياً .

واختلفوا في حد الغني ، فقال قوم : هو من ملك نصاباً من المال . وقال آخرون : هو من كانت له مادة تكفيه ، ملك النصاب أو لم يملك ، والذي كان يلمز النبي صلى الله عليه وآله في الصدقات بلتعة بن حاطب ، وكان يقول : إنما يعطي محمد الصدقات من يشاء فربما أعطاه النبي صلى الله عليه وآله فيرضى وربما منعه فسخط ، فتكلم فيه ، فنزلت الآية فيه .

قوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا

---

(١) قائله زياد الاعجم مجاز القرآن ١/ ٢٦٣ واللسان « همز » ومقاييس اللغة ٦٦/٦ وتفسير الطبري ١٤/ ٣٠١ وفيه اختلاف كثير في الرواية .

(٢) ديوانه : ٦٤ وتفسير الطبري ١٤/ ٣٠٠ .

(٣) سورة ٦٨ القلم آية ١١　　(٤) سورة ٤٩ الحجرات آية ١٢

ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى ٱللَّهِ رَاغِبُونَ (٦٠) آية.

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان هؤلاء المنافقين الذين طلبوا منك الصدقات وعابوك بها لو رضوا بما اعطاهم الله ورسوله «وقالوا» مع ذلك «حسبنا الله» اي كفانا الله وانه سيعطينا الله من فضله وانعامه ويعطينا رسوله مثل ذلك وقالوا «انا الى الله راغبون» والجواب محذوف والتقدير لكان خيراً لهم وأعود عليهم وحذف الجواب في مثل هذا ابلغ لأنه لتأكيد الخبر به استغني عن ذكره.

قوله تعالى:

إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦١) آية.

اخبر الله تعالى في هذه الآية انه ليست الصدقات التي هي زكاة الاموال إلا للفقراء والمساكين ومن ذكرهم في الآية.

واختلفوا في الفرق بين الفقير والمسكين، فقال ابن عباس والحسن وجابر وابن زيد والزهري ومجاهد: الفقير المتعفف الذي لا يسأل، والمسكين الذي يسأل، ذهبوا الى أنه مشتق من المسكنة بالمسألة. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال (ليس المسكين الذي ترده الاكلة والاكلتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى فيغنيه ولا يسأل الناس إلحافاً). وقال قتادة: الفقير ذو الزمانة من اهل الحاجة. والمسكين من كان صحيحاً محتاجاً. وقال قوم: هما بمعنى واحد إلا انه ذكر بالصفتين لتأكيد امره قال الشاعر:

انا الفقير الذي كانت حلوبته   وفق العيال فلم يترك له سبد (١)

(١) اللسان (وفق). الحلوبة: الناقة التي تحلب (وفق العيال) على قدر =

ويسمى المحتاج فقيراً تشبيهاً بأن الحاجة كأنها قد كسرت فقار ظهره يقال: فقر الرجل فقراً وأفقره الله افقاراً وافتقر افتقارا، وتفاقر تفاقراً . وسمي المسكين بذلك تشبيهاً بأن الحاجة كأنها سكنته عن حال اهل السعة والثروة . قال الله تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر » (١) فمن قال : المسكين أحسن حالا احتج بهذه الآية . ومن قال هما سواء قال : السفينة كانت مشتركة بين جماعة لكل واحد منهم الشيء اليسير .

وقوله « والعاملين عليها » يعني سعاة الزكاة وجباتها ، وهو قول الزهري وابن زيد وغيرهم . وقوله « والمؤلفة قلوبهم » معناه أقوام أشراف كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وآله فكان يتألفهم على الاسلام ويستعين بهم على قتال غيرهم ويعطيهم سهماً من الزكاة . وهل هو ثابت في جميع الاحوال ام في وقت دون وقت ؟ فقال الحسن والشعبي: ان هذا كان خاصاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله . وروى جابر عن ابي جعفر محمد بن علي عليهما السلام ذلك . واختار الجبائي انه ثابت في كل عصر الا ان من شرطه ان يكون هناك امام عدل يتألفهم على ذلك .

وقوله « وفي الرقاب » يعني المكاتبين واجاز اصحابنا ان يشترى به عبد مؤمن إذا كان في شدة ويعتق من مال الزكاة ، ويكون ولاؤه لأرباب الزكاة ، وهو قول ابن عباس وجعفر بن مبشر .

وقوله « والغارمين » قال مجاهد وقتادة والزهري وجميع المفسرين ، وهو قول ابي جعفر عليه السلام انهم الذين ركبتهم الديون في غير معصية ولا إسراف فتقضى عنهم ديونهم ، و « في سبيل الله » يعني الجهاد بلا خلاف ، ويدخل فيه عند أصحابنا جميع مصالح المسلمين ، وهو قول ابن عمر وعطاء . وبه قال البلخي ، فانه قال : تبنى به المساجد والقناطر وغير ذلك ، وهو قول جعفر بن مبشر . و « ابن السبيل » وهو المسافر

= حاجتهم و (السبد) كناية عن القليل وأصله الوبر وهو الشعر الضعيف .

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٨٠ .

المنقطع به فانه يعطى من الزكاة وان كان غنياً في بلده من غير ان يكون ديناً عليه ، وهو قول مجاهد وقتادة قال الشاعر :

انا ابن الحرب ربتني وليـداً الى ان شبت واكتهلت لداتي(١)

وقال بعضهم : جعل الله الزكاة لامرين : احدهما ـ سـدّ خلة . والآخر ـ تقوية ومعونة لعز الاسلام . واستدل بذلك على ان المؤلفة قلوبهم في كل زمان .

واختلفوا في مقدار ما يعطى الجابي للصدقة ، فقال مجاهد والضحاك : يعطى الثمن بلا زيادة . وقال عبد الله بن عمر بن العاص والحسن وابن زيد : هو على قدر عمالته ، وهو المروي في اخبارنا . وقال ابن عباس وحذيفة وعمر بن الخطاب وعطاء وابراهيم وسعيد بن جبير ، وهو قول ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام ان لقاسم الزكاة ان يضعها في اي الاصناف شاء . وكان بعض المتأخرين لا يضعها الا في سبعة أصناف لأن المؤلفة قد انقرضوا . وان قسمها الانسان عن نفسه ، ففي ستة لأنه بطل سهم العامل ، وزعم انه لا يجزي في كل صنف أقل من ثلاثة . وعندنا ان سهـم المؤلفة والسعاة وسهم الجهاد قد سقط اليوم ، ويقسم في الخمسة الباقية كما يشاء رب المال وان وضعها في فرقة منهم جاز .

وقوله « فريضة من الله » نصب على المصدر اي فرض ذلك فريضة وكان يجوز الرفع على الابتداء ولم يقرأ به ، ومعناه ان ما فرضه الله وقدره واجب عليكم .

وقوله « والله عليم حكيم » معناه عالم بمصالحكم حكيم فيما يوجبه عليكم من اخراج الصدقات وغير ذلك .

قوله تعالى :

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣٢٠ .

يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٢) آية.

قرأ نافع « أذن خير » بالتخفيف الباقون بالتثقيل . و كلهم أضاف ، ورفع « ورحمة » الا أبا عمرو فانه جر (ورحمة) و كان يجوز النصب على (ورحمة) يفعل ذلك ، ولم يقرأ به أحد ، قال أبو علي : تخفيف « أذن » من أذن قياس مطرد نحو طنب وطنب ، وعنق وعنق وظفر وظفر لأن ذلك تخفيف وتثقيل لا تفاقهما في الوزن وفي جمع التكسير تقول : آذان وأطناب وأعناق وأظفار ، فأما الأذن في الآية فانه يجوز ان يطلق على الجملة وان كان عبارة عن جارحة فيها ، كما قال الخليل في الناب من الابل سميت به لمكان الناب البازل ، فسميت الجملة كلها به . ويجوز أن يكون (فعلا) من اذن ياذن اذا استمع . ومعناه انه كثير الاستماع مثل شلل وأنف وشحح ، قال ابو زيد : رجل اذن ويقن اذا كان يصدق بكل مايسمع فكما ان (يقن) صفة كبطل كذلك (اذن) كشلل ، ويقولون : اذن يأذن اذا استمع ، ومنه قوله « وأذنت لربها » (١) اي استمعت ، وقوله « ائذن لي » (٢) اي استمع . وفي الحديث (ما اذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن) قال الشاعر .

في سماع يأذن الشيخ لـه وحديث مثل ماذي مشار (٣)

والمعنى – في الاضافة – مستمع خير لكم وصلاح ومصغ اليه ، لامستمع شر وفساد . ومن رفع (رحمة) فالمعنى فيه أذن خير ورحمة اي مستمع خير ورحمة فجعله للرحمة لكثرة هذا المعنى فيه ، كما قال « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٤) ويجوز ان يقدر حذف المضاف من المصدر . وأما من جر فعطفه على (خير) كأنه قال اذن خير ورحمة ، وتقديره مستمع خير ورحمة . وجاز هذا كما جاز مستمع

(١) سورة ٨٤ الانشقاق آية ٢ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٥٠

(٣) اللسان (اذن) نسبه الى (عدي) والماذي المشار : العسل المصفى

(٤) سورة ٢١ الانبياء آية ١٠٧ .

خير ، لأن الرحمة من الخير وإنما خص تشريفاً ، كما قال « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ثم قال « خلق الانسان من علق » (١) وان كان قوله تعالى « خلق » عم الانسان وغيره . والبعد بين الجار وماعطف عليه لايمنع من العطف ألا ترى ان من قرأ « وقيله يارب » انما جعله عطفاً على « وعنده علم الساعة » (٢) وعلم قيله . وروي ان الاعمش قرأ قل « اذن خير ورحمة » وهي قراءة ابن مسعود .

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان من جمله هؤلاء - المنافقين الذين وصفهم وذكرهم - من يؤذي النبي ﷺ والأذى هو ضرر ربما تنفر منه النفس في عاجل الامر وانهم يقولون هو اذن يعنون النبي ﷺ . ومعنى (اذن) انه يصغي الى كل احد فيقبل مايقوله - في قول ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك - وقيل اصله من اذن اذا استمع على ما بيناه قال عدي بن زيد :

ايها القلب تعلل بددن　　ان همي في سماع واذن (٣)

وقيل السبب في ذلك : ان قوماً من المنافقين تكلموا بما ارادوه ، وقالوا ان بلغه اعتذرنا اليه ، فانه اذن يسمع مايقال له ، فقال الله تعالى « قل » يامحمد « اذن خير لكم » لااذن شر ، وليس بمعنى أفعل . وانما معناه أذن صلاح ولو رفع خيراً لكان معناه أصلح ، وهي قراءة الحسن والاعشى والبرجمي . وانما قال بعد ذلك « يؤمن بالله » لأن معناه انه لايمانه بالله يعمل بالحق فيما يسمع من غيره . وقيل يصغي الى الوحي من قبل الله .

وقوله « ويؤمن للمؤمنين » قال ابن عباس : معناه ويصدق المؤمنين . وقيل دخلت اللام كما دخلت في قوله « ردف لكم » (٤) وتقديره ردفكم ، واللام مقحمة ومثله « لربهم يرهبون » (٥) ومعناه يرهبون ربهم . واللام مقحمة .

---

(١) سورة ٩٦ العلق ٢ .　　(٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٨٨ ، ٨٥

(٣) اللسان (اذن) وامالي المرتضى ١/ ٣٣ وتفسير الطبرى ١٤/ ٣٢٥

(٤) سورة ٢٧ النمل آية ٧٢ .　　(٥) سورة ٧ الاعراف آية ١٥٣ .

وقال قوم: دخلت اللام للفرق بين إيمان التصديق وايمان الامان.

وقوله « ورحمة للذين آمنوا منكم » يعني ان النبي ﷺ رحمة للمؤمنين منكم وانما خص المؤمنين بالذكر وان كان رحمة للكفار أيضاً من حيث انتفع المؤمنون به دون غيرهم من الكفار. ثم قال « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم » اي مؤلم موجع جزاء لهم على أذاهم للنبي ﷺ.

وقال ابن اسحاق: نزلت هذه الآية في نبتل بن الحارث كان يقول: إني لأنال من محمد ماشئت، ثم آتيه اعتذر اليه وأحلف له فيقبل، فجاء جبرائيل الى رسول الله ﷺ فقال: انه يجلس اليك رجل ادلم ثائر شعر الرأس اسفع الخدين احمر العينين كأنهما قدران من صفر كبده اغلظ من كبد الجمل ينقل حديثك الى المنافقين فاحذره، وكان ذلك صفة نبتل بن الحارث من منافقي الانصار، فقال رسول الله ﷺ من اختار أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبتل بن الحارث، ذكره ابن اسحاق.

قوله تعالى:

يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٣) آية.

اخبر الله تعالى أن هؤلاء المنافقين يقسمون بالله أنهم على دينكم وأن الذي بلغكم عنهم باطل « ليرضوكم » ومعناه يريدون بذلك رضاكم لتحمدوهم عليه. ثم قال تعالى « والله ورسوله أحق أن يرضوه » أي الله ورسوله أولى بأن يطلبوا مرضاتهما « ان كانوا مؤمنين » مصدقين بالله مقرين بنبوة نبيه، والفرق بين الاحق والأصلح ان الأحق قد يكون موضعه غير الفعل كقولك: زيد أحق بالمال، والاصلح لا يقع هذا الموقع لأنه من صفات الفعل وتقول: الله أحق أن يطاع ولا تقول اصلح، وقيل في رد ضمير الواحد في قوله « والله ورسوله أحق أن يرضوه » قولان:

احدهما - أنه لما كان رضى رسول الله رضى الله ترك ذكره ، لأنه دال عليه والتقدير والله احق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه كما قال الشاعر :

نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف(١)

والثاني - أنه لايذكر على طريق المجمل مع غيره تعظيماً له بافراد الذكر المعظم بما لايجوز إلا له ، ولذلك قال النبي ﷺ لمن سمعه يقول : من أطاع الله ورسوله هدى (ومن يعصه فقد غوى) وانما أراد ماقلناه .

قوله تعالى :

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ (٦٤) آية.

يقول الله تعالى على وجه التهديد والتقريع والتوبيخ لهؤلاء المنافقين «ألم يعلموا» أي أو ماعلموا « انه من يحادد الله » اي يتجاوز حدود الله التي أمر المكلفين ان لايتجاوزوها، فالمحادة مجاوزة الحد بالمشاقة ومثله المباعدة . والمعنى مصيرهم في حد غير حد أولياء الله . فالمخالفة والمحادة والمجانبة والمعاداة نظائر في اللغة .

وانما قال : لمن لايعلم « ألم يعلموا » لأحد أمرين : أحدهما - على وجه الاستبطاء لهم والتخاف عن علمه . والآخر - انه يجب ان تعلموا الآن هـذه الاخبار . وقال الجبائي : معناه ألم يخبرهم النبي ﷺ بذلك .

وقوله « فان له نار جهنم خالداً فيها » يحتمل أن يكون على التكرير ، لأن الأولى للتأكيد مع طول الكلام ، وتقديره فله نار جهنم أو فان له نار جهنم . قال الزجاج : ولو قرىء (فان) بكسر الهمزة على وجه الاستئناف كان جائزاً ، غير أنه لم يقرأ به احد . وقوله « ذلك الخزي العظيم » معناه ذلك الذي ذكرناه

(١) انظر ١٧٢/١. و ٢١١/٥

من أن له نار جهنم هو الخزي يعني الهوان بما يستحى من مثله . تقول : خزي خزياً اذا انقمع للهوان فأخزاه إخزاء وخزياً .

قوله تعالى :

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٥) آية.

قيل في معنى يحذر المنافقون قولان :

احدهما ـ قال الحسن ومجاهد واختاره الجبائي : ان معناه الخبر عنهم بأنهم كانوا يحذرون ان تنزل فيهم آية يفتضحون بها لأنهم كانوا شاكين ، حتى قال بعضهم : لوددت ان اضرب كل واحد منكم مئة ولا ينزل فيكم قرآن، ذكره ابو جعفر وقال : نزلت في رجل يقال له مخشى بن الحمير الاشجعي .

الثاني ـ قال الزجاج : انه تهديد ومعناه ليحذروا ، وحسن ذلك لأن موضوع الكلام على التهديد . والحذر اعداد ما يتقي الضرر ، ومثله الخوف والفزع تقول : حذرت حذراً وتحذر تحذراً وحاذره محاذرة وحذاراً وحذره تحذيراً . والمنافق الذي يظهر من الايمان خلاف ما يبطنه من الكفر واشتق ذلك من نافقاء اليربوع لأنه يخفي باباً ويظهر باباً ليكون إذا أتي من احدهما خرج من الآخر .

وقوله « تنبئهم بما في قلوبهم » أي تخبرهم ، غير أن (تنبئهم) يتعدى الى ثلاثة مفاعيل بمنزلة أعلمت . وقوله « قل استهزؤا » أمر للنبي صلى الله عليه وآله أن يقول لهؤلاء المنافقين (استهزؤا) اي اطلبوا الهزء ، والهزء إظهار شيء وابطان خلافه للمتهزىء به ، وهو بصورة الأمر والمراد به التهديد . وقوله « ان الله مخرج ما تحذرون » إخبار من الله تعالى أن الذي تخافون من ظهوره فان الله يظهره بأن يبين لنبيه صلى الله عليه وآله باطن حالهم ونفاقهم.

قوله تعالى :

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (٦٦) آية.

خاطب الله تعالى نبيه ﷺ فأقسم ، لأن اللام لام القسم بأنك يا محمد ﷺ إن سألت هؤلاء المنافقين عما تكلموا به « ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » قال الحسن وقتادة : هؤلاء قالوا في غزاة تبوك : أيرجو هذا الرجل ان يفتح قصور الشام وحصونها ـ هيهات هيهات ـ فأطلع الله نبيه ﷺ على ماقالوه ، فلما سألهم النبي عن ذلك على وجه التأنيب لهم والتقبيح لفعلهم : لم طعنتم في الدين بالباطل والزور ؟ فأجابوا بما لا عذر فيه بل هو وبال عليهم : بأنا كنا نخوض ونلعب . والخوض دخول القدم فيما كان مائعاً من الماء أو الطين هذا في الأصل ثم كثر حتى صار في كل دخول منه أذى وتلويث . واللعب فعل مافيه سقوط المنزلة لتحصيل اللذة من غير مراعاة الحكمة كفعل الصبي، وقالوا: ملاعب الأسنة اي انه لشجاعته يقدم على الاسنة كفعل الصبي الذي لايفكر في عاقبة امره . فقال الله تعالى لنبيه ﷺ : « قل » لهم « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن » قال ابو علي : ذكر الاستهزاء ههنا مجاز ، لانه جعل الهزء بالمؤمنين وبآيات الله هزءاً بالله . والهزء ايهام امر على خلاف ماهو به استصغاراً لصاحبه .

قوله تعالى :

لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٧) آية .

قرأ عاصم « ان نعف » بنون مفتوحة وضم الفاء « نعذب » بالنون وكسر

الذال « طائفة » بالنصب . الباقون بضم الياء في (يعف تُعذب طائفةٌ) بضم التاء ورفع طائفة . من قرأ بالنون فلقوله « ثم عفونا عنكم » (١) ومن قرأ بالتاء فالمعنى ذاك بعينه . وأما « تعذب » فمن قرأ بالتاء ، فلان الفعل في اللفظ مسند الى مؤنث .

قوله تعالى : « لاتعتذروا » صورته صورة النهي والمراد به التهديد. والمراد ان الله تعالى امر نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المنافقين الذين يحلفون بأنهم ماقالوه إلا لعباً وخوضاً على وجه التهزيء بآيات الله « لاتعتذروا » بالمعاذير الكاذبة فانكم بما فعلتموه « قد كفرتم » بعد أن كنتم مظهرين الايمان الذي يحكم لمن اظهره بأنه مؤمن ، ولايجوز ان يكونوا مؤمنين على الحقيقة مستحقين للثواب ثم يرتدّون ، لما قلناه في غير موضع : ان المؤمن لايجوز عندنا أن يكفر لأنه كان يؤدي الى اجتماع استحقاق الثواب الدائم والعقاب الدائم ، لبطلان التحابط . والاجماع يمنع من ذلك . والاعتذار اظهار مايقتضي العذر ، والعذر مايسقط الذم عن الجناية .

وقوله « إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة » اخبار منه تعالى أنه ان عفا عن قوم منهم إذا تابوا يعذب طائفة أخرى لم يتوبوا . والعفو رفع التبعة عما وقع من المعصية وترك العقوبة عليها . ومثله الصفح والغفران . وقوله « بانهم كانوا مجرمين » معناه انه انما يعذب الطائفة التي يعذبها لكونها مجرمة مذنبة مرتكبة لما يستحق به العقاب . والاجرام الانقطاع عن الحق الى الباطل ، واصله الصرم تقول: جرم الثمر يجرمه جرماً وجراماً إذا صرمه . والجرم مصرم الحق بالباطل وتجرمت السنة اذا تصرّمت قال لبيد :

دمن تجرّم بعد عهد انيسها حجج خلون حلالها وحرامها (٢)

قال الزجاج والفراء : نزلت الآية في ثلاثة نفر فهزىء إثنان وضحك واحد

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٥٢ . (٢) اللسان «جرم»

قال ابن اسحاق : كان الذي عفا عنه مخشي بن حصين الأشجعي حليف بني سلمة لأنه انكر منهم بعض ماسمع فجعلت طائفة للواحد ويراد بها نفس طائفة . وأما في اللغة فيقال للجماعة طائفة ، لأنهم يطيفون بالشيء . وقوله تعالى « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » (١) يجوز أن يراد به واحد على مافسرناه .

قوله تعالى :

أَلْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٨) آية .

أخبر الله تعالى بأن المنافقين الذين يظهرون الايمان ويسرون الكفر بعضهم من بعض . والمعنى إن بعضهم يضاف الى بعض بالاجتماع على النفاق ، كما يقول القائل لغيره: أنت مني وأنا منك . والمعنى إن أمرنا واحد لا ينفصل. وقيل: بعضهم من بعض فيما يلحقهم من مقت الله وعذابه أي منازلهم متساوية في ذلك . ثم أخبر أن هؤلاء المنافقين يأمرون غيرهم بالمنكر الذي نهى الله عنه وتوعد عليه من الكفر بالله ونبيه وجحد آياته « وينهون عن المعروف » يعني الأفعال الحسنة التي أمر الله بها وحث عليها ، وانهم يقبضون ايديهم اي يمسكون أموالهم عن انفاقها في طاعة الله ومرضاته وهو قول قتادة . وقال الحسن ومجاهد : أراد إمساكها عن الانفاق في سبيل الله. وقال الجبائي : أراد به إمساك الايدي عن الجهاد في سبيله الله .

وقوله « نسوا الله فنسيهم » معناه تركوا امر الله يعني صار بمنزلة المنسي بالسهو عنه فجازاهم الله بأن صيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه ورحمته، وذكر ذلك لازدواج الكلام . وقال قتادة : اي نسوا من الخير ولم ينسوا من الشر . ثم اخبر

(١) سورة ٢٤ النور آية ٢

تعالى فقال « إن المنافقين » الـذين يخادعون المؤمنين باظهار الايمان مع ابطانهم الكفر « هم الفاسقون » الخارجون عن الايمان بالله وبرسوله وعن طاعاته .

قوله تعالى:

وَعَدَ ٱللهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٩) آية .

اخبر الله تعالى بأنه « وعد المنافقين والمنافقات » الـذين يظهرون الاسـلام ويبطنون الكفر « نار جهنم » يعاقبون فيها أبد الآبدين وكذلك الكفار الـذين يتولونهم ، وهم على ظاهر الـكفر ، فلذلك أفردهم بالذكر ليعلم أن الفريقين معاً يتناولهم الوعيد .وتقول : وعدته بالشر وعيداً ووعدته بالخير وعداً وأوعدته إيعاداً وتوعـدته توعداً في الشر لا بالخير، وواعدته مواعدة ، وتواعدوا تواعداً .وقوله « هي حسبهم » يعني نار جهنم والعقاب فيها كافيهم ، ولعنهم الله يعني أبعدهم الله من جنته وخيره «ولهم » مع ذلك « عذاب مقيم » ومعناه دائم لايزول وقيل معنى « هي حسبهم » أي هي كفايـة ذنوبهم ، ووفاء لجزاء عملهم . واللعن الابعاد من الرحمة عقاباً على المعصية ، ولذلك لايقال لعن البهيمة كما لايدعا لها بالعفو .

قوله تعالى :

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَٱسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ (٧٠) آية .

الكاف في قوله « كالذين » في موضع نصب ، والتقدير احذروا أن يحل بكم من العذاب والعقوبة كالذين . ويحتمل أن يكون المراد وعدكم الله على الكفر كما وعد الذين من قبلكم ، فشبه المنافقين في عدولهم عن أمر الله للاستمتاع بلذات الدنيا بمن قبلكم مع أن عاقبة امر الفريقين يؤل الى العقاب مع أن الأولين كانوا أشد من هؤلاء قوة في ابدانهم وأطول اعماراً واكثر اموالا وأشد تمكيناً فلم يقدروا ان يدفعوا عن نفوسهم ماحل بهم من عقاب الله .

وقوله « فاستمتعوا بخلاقهم » فالاستمتاع هو طلب المتعة وهي فعل مافيه اللذة من المآكل والمشارب والمناكح . ومعناه انهم تمتعوا بنصيبهم من الخير العاجل وباعوا بذلك الخير الآجل فهلكوا بشر استبدال ، كما تمتعتم ايها المنافقون بخلاقكم اي بنصيبكم والخلاق النصيب سواء كان عاجلا او آجلا .

وقوله « وخضتم كالذي خاضوا » خطاب للمنافقين بأن قيل لهم خضتم في الباطل والكذب على الله كالذين تابعوهم على ذلك من المنافقين وغيرهم من الكفار « حبطت اعمالهم » لأنهم كانوا أوقعوها على خلاف ماأمرهم الله به فلم يستحقوا عليها ثواباً بل استحقوا عليها العقاب ، فلذلك كانوا خاسرين أنفسهم ومهلكين لها بفعل المعاصي المؤدي الى الهلاك وروي عن ابن عباس انه قال في هذه الآية : ما أشبه الليلة بالبارحة كذلك من قبلكم هؤلاء بنوا اسرائيل لشبهنا بهم لا أعلم إلا انه قال (والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم حجر ضب لدخلتموه) ومثله روي عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وعن ابي سعيد الخدري مثله.

قوله تعالى :

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ * وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧١)

آية في الكوفي والبصري وآيتان في المدنيين آخر الأولى « وثمود »

قوله « ألم » صورته صورة الاستفهام ، والمراد به التقرير والتحذير . وإنما حسن في الاستفهام أن يخرج الى معنى التقرير لأن الاحتجاج بما يلزمهم الاقرار به فقال الله تعالى مخاطباً لنبيه : ألم يأت هؤلاء المنافقين الذين وصفهم خبر من كان قبلهم من قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين ، على وجه الاحتجاج عليهم فيتعظوا ، لأن الامم الماضية والقرون السالفة إذا كان الله تعالى إنما أهلكها ودمرها لتكذيبها رسلها كان ذلك واجباً في كل أمة يساوونهم في هذه العلة ، فأقل احوالهم ألا يأمنوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك . قال الرماني : والحكمة تقتضي إذا تساوى جماعة في استحقاق العقاب ان لا يجوز العفو عن بعضهم دون بعض مع تساويهم في الاحوال. وانما يجوز العدول من قوم الى قوم في الواحد منا للحاجة وهذا يتم على قول من يقول بالأصلح ، ومن لا يقول بذلك يقول : هو متفضل بذلك وله ان يتفضل على من يشاء ولا يلزم ان يفعل ذلك بكل مكلف .

وقوله « والمؤتفكات» قال الحسن وقتادة : هي ثلاث قريات لقوم لوط ولذلك جمعها بالالف والتاء . وقال في موضع آخر « والمؤتفكة أهوى » (١) فجاء به على طريق الجنس . قال الزجاج : معناه ائتفكت بأهلها انقلبت . ومدين ابن ابراهيم اسم له . وقوله « اتتهم رسلهم بالبينات » معناه جاءت هؤلاء المذكورين الرسل من عند الله معها حجج ودلالات على صدقها فكذبوا بها فأهلكهم الله ، وحذف لدلالة الكلام عليه. ثم قال « فما كان الله ليظلمهم » اي لم يكن الله ظالماً لهم بهذا الاهلاك « ولكن كانوا انفسهم يظلمون » بأن فعلوا من الكفر والمعاصي ما استحقوا به الهلاك .

---

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٥٣

وقيل : ان الله تعالى اهلك قوم نوح بالغرق . واهلك عاداً بالريح الصرصر العاتية . وأهلك ثمود بالرجفة والصاعقة . وأهلك قوم ابراهيم بالتشتيت وسلب الملك والنعمة. وأهلك اصحاب مدين بعذاب يوم الظلة . وأهلك قوم لوط بانقلاب الارض ، كل ذلك عدل منه على من ظلم نفسه وعصى الله واستحق عقابه .

قوله تعالى :

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧٢) آية .

لما ذكر الله تعالى المنافقين ووصفهم بأن بعضهم من بعض بالاتفاق والتعاضد اقتضى ان يذكر المؤمنين ، ويصفهم بضد أوصافهم ، فقال تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » أي يلزم كل واحد منهم نصرة صاحبه وان يواليه وقال الرماني : العقل يدل على وجوب موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً ، لأنها تجري مجرى استحقاق الحمد على طاعة الله والذم على معصيته . ولا يجوز ان يرد الشرع بخلاف ذلك . وإذا قلنا :المؤمن ولي الله معناه أنه ينصر أولياء الله وينصر دينه، والله وليه بمعنى أولى بتدبيره وتصريفه وفرض طاعته عليه .ثم قال « يأمرون بالمعروف» يعني المؤمنين يأمرون بما اوجب الله فعله أو رغب فيه عقلا أو شرعاً وهو المعروف « وينهون عن المنكر » وهو ما نهى الله تعالى عنه وزهد فيه إما عقلا أو شرعاً . ويضيفون الى ذلك إقامة الصلاة اي إتيانها بكمالها والمداومة عليها ويخرجون زكاة اموالهم حسب ما أوجبها الله عليهم ، ويضعونها حيث امر الله بوضعها فيه ويطيعون

الله ورسوله اي يمتثلون امرهما ويتبعون ارادتها ورضاهما .

ثم قال « اولئك سيرحمهم الله » يعني المؤمنين الذين وصفهم ان ستنالهم في القيامة رحمته . ثم اخبر عن نفسه فقال « ان الله عزيز حكيم » فالعزيز معناه قادر لايغلبه احد من الكفار والمنافقين، حكيم في عقاب المنافقين واثابة المؤمنين وغير ذلك من الافعال . وإنكار المنكر يجب بلا خلاف سمعاً وعليه الاجماع وكذلك الأمر بالمعروف واجب ، فأما العقل فلا يدل على وجوبهما أصلا . لأنه لو أوجب ذلك لوجب ان يمنع الله من المنكر، لكن يجب على المكلف اظهار كراهة المنكر الذي يقوم مقام النهي عنه . وفي الآية دلالة على ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الاعيان لأن الله تعالى جعل ذلك من صفات المؤمنين ، ولم يخص قوماً دون قوم .

قوله تعالى :

وَعَدَ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٧٣) آية .

اخبر الله تعالى بأنه كما وعد المنافقين بنار جهنم والخلود فيها كذلك «وعد الله المؤمنين» المعترفين بوحدانيته وصدق رسله وكذلك « المؤمنات جنات » يعني بساتين يجنها الشجر« تجري من تحتها الأنها » وتقديره تجري من تحت اشجارها الأنهار . وقيل : أنهار الجنة أخاديد في الأرض ، فلذلك قال « من تحتها» وانهم فيها خالدون اي دائمون « ومساكن طيبة » معناه وعدهم مساكن طيبة . والمسكن الموضع الذي يسكن. وروى الحسن انها قصور من اللؤلؤ والياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر مبنية بهذه الجواهر . وقوله « في جنات عدن » فالعدن الاقامة والخلود ،

ومنه المعدن قال الاعشى :

وان يستضافوا الى حكمه يضافوا الى راجح قد عدن(١)

وروي أنها جنة لايسكنها إلا النبيون والشهداء والصالحون .

وقوله « ورضوان من الله اكبر » قال الرماني : الرضوان معنى يدعو الى الحمد بالاجابة يستحق مثله بالطاعة فيما تقتضيه الحكمة . وانما رفع (رضوان) لأنه استأنفه للتعظيم كما يقول القائل : اعطيتك ووصلتك ثم يقول : وحسن رأي فيك ورضاي عنك خير من جميع ذلك . وقوله « ذلك هو الفوز العظيم » معناه هذا النعيم الذي وصفه هو النجاح العظيم الذي لاشيء فوقه ولااعظم منه .

قوله تعالى

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٤) آية .

امر الله تعالى في هذه الآية نبيه صلى الله عليه وآله أن يجاهد الكفاروالمنافقين .والجهاد هو ممارسة الأمر الشاق والجهاد يجب باليد واللسان والقلب ، فمن امكنه الجميع وجب عليه جميعه . ومن لم يقدر باليد فباللسان فان لم يقدر فبالقلب . واختلفوا في كيفية جهاد الكفار والمنافقين . فقال ابن عباس : جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان والوعظ والتخويف ، وهو قول الجبائي . وقال الحسن وقتادة : جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باقامة الحدود عليهم . وكانوا اكثر من يصيب الحدود . وقال ابن مسعود : هو بالانواع الثلاثة حسب الامكان فان لم يقدر فليكفهر في وجوههم وهو الاعم .

---

(١) ديوانه : ١٦ وروايته (هادن قد رزن) بدل « راجح قد عدن » وتفسير الطبري ١٤/ ٣٥٠ ، واللسان « وزن » ومجاز القرآن ١/ ٢٦٤

ووري في قراءة اهل البيت عليهم السلام « جاهد الكفار بالمنافقين » .

وقوله « واغلظ عليهم » امر منه تعالى لنبيه ان يقوي قلبه على احلال الالم بهم واسماعهم الكلام الغليظ الشديد ولا يرق عليهم . ثم قال « ومأواهم جهنم » اي منزلهم جهنم ومقامهم . والمأوى منزل مقام ، لامنزل ارتحال . ومثله المثوى والمسكن . وقوله « وبئس المصير » اخبار منه تعالى ان مرجع هؤلاء ومآلهم بئس المرجع والمآل .

قوله تعالى :

يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٥) آية.

اختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية ، فقال عروة وابن اسحاق ومجاهد : إنها نزلت في الخلاس بن سويد بن الصامت بأنه قال : فان كان ماجاء به محمد حقاً لنحن شرّ من الحمير ، ثم حلف بالله أنه ماقال . وقال قتادة : نزلت في عبد الله بن ابي بن سلول حين قال « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعزمنها الاذل » (١) وقال الحسن : كان ذلك في جماعة من المنافقين . وقال الواقدي والزجاج: نزلت في اهل العقبة فانهم ائتمروا أن يغتالوا رسول الله في عقبة في الطريق عند مرجعهم من تبوك . وأرادوا ان يقطعوا اتساع راحلته ، واطلعه الله على ذلك . وكان ذلك

(١) سورة ٦٣ المنافقون آية ٨

من معجزاته صلى الله عليه وآله لأنه لايمكن معرفة مثل ذلك إلا بوحي من الله تعالى ، فسار رسول الله في العقبة وحده وأمر الناس كلهم بسلوك بطن الوادي وكانوا اثني عشر رجلا أو خمسة عشر رجلا على الخلاف فيه . وعرفهم واحداً واحداً عمار بن ياسر وحذيفة ، وكان احدهما يقود ناقةرسول الله والآخر يسوقها ، والحديث مشروح في كتاب الواقدي . وقال ابوجعفر عليه السلام كانوا ثمانيةمن قريش واربعة من العرب

وقوله « وهموا بما لمينالوا» قيل فيه ثلاثة اقوال :

احدها ــ قال مجاهد : همّ المنافقون بما لم يبلغوه من التنفير برسول الله.

الثاني ــ قال قتادة : هموا بما ذكر في قوله « ليخرجن الأعز منها الأذل» فلم يبلغوا ذلك .

والثالث ــ عن مجاهد أنهم هموا بقتل من أنكر عليهم ذلك . وقال بعضهم: كان المنافقون قالوا : لو رجعنا وضعنا التاج على رأس عبد الله ابن ابي ،فلما اوقفوا على ذلك حلفوا بأنهم ماقالوا ذلك ولاهموا به ، فاخبر الله تعالى عن حالهم انهم يحلفون بالله ماقالوا ، ثم اقسم تعالى بانهم قالوا ذلك ، لأن لام لقد لام القسم وانهم قالوا كلمة الكفر ، وهي كل كلمة فيها جحد لنعم الله او بلغت منزلتها في العظم ، وكانوا يطعنون في الاسلام والنبوة ، وأخبر انهم هموا بما لم يبلغوه .والهم مقاربة الفعل بتغليبه في النفس تقول : هم بالشيء يهم هماً ، ومنه قوله « ولقدهمت به وهم بها لولا أن رأى » (١)وليس الهم من العزم في شيء إلا ان يبلغ نهايةالعزم في النفس . والنيل لحوق الأمر . ومنه قوله (نال السيف ونال مااشتهى او قدر او تمنى) فهؤلاءقدّروا في انفسهم من كيد الاسلام مالم يبلغوه .

وقولـه « وما نقموا إلا ان اغناهم الله ورسوله من فضله » يعني ما فتح الله عليهم من الفتوح وأخـذ الغنائم واستغنوا بعد أن كانوا محتاجين وقيل في معناه قولان : احدهما ــ انهم عملوا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر الغنى أن نقموا

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٢٤ .

قال الشاعر :

ما نقموا من بني أمية إلا　　انهم يحلمون ان غضبوا (١)

والآخر ـ انهم بطروا النعمة بالغنى فنقموا بطراً واشراً فهم لايفلحون بهذه الحال ولا بعدها . والفضل الزيادة في الخير على مقدارما . والتفضل هو الزيادة من الخير الذي كان للقادر عليه ان يفعله وأن لايفعله .

ثم قال تعالى « فان يتوبوا » هؤلاء المنافقون ويرجعوا الى الحق « يك خيراً لهم » في دينهم ودنياهم، فانهم ينالون بذلك رضى الله ورسوله والجنة « وإن يتولوا» اي يعرضوا عن الرجوع الى الحق وسلوك الطريق الصحيح « يعذبهم الله عذاباً أليماً» اي مؤلماً « في الدنيا » بما ينالهم من الحسرة والغم وسوء الذكر وانواع المصائب وفي « الآخرة » بعذاب النار « ومالهم في الارض »اي ليس لهم في الارض « من ولي» اي محب « ولا نصير » يعني من ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله . وقيل : إن خلاساً تاب بعد ذلك ، وقال : استثنى الله تعالى لي التوبة فقبل الله توبته .

قوله تعالى :

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ (٧٦) آية .

اخبر الله تعالى أن من جملة المنافقين الذين تقدم ذكرهم « من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن » أي منه « ولنكونن من الصالحين » بانفاقه في طاعة الله وصلة الرحم والمواساة وأن يعمل الاعمال الصالحة التي يكون بها صالحاً .

وقيل : نزلت الآية في بلتعة بن حاطب كان محتاجاً فنذر لئن استغنى ليصدقن فأصاب اثني عشر الف درهم ، فلم يتصدق ، ولم يكن من الصالحين . هكذا قال

(١) مر تخريجه في ٣/ ٥٥٩

الواقدي . وقال ابن اسحاق : هما بلتعة ومقنب بن قشير . وقيل : سبب ذلك أنه قتل مولى له فأخذ ديته اثني عشر ألف درهم : أعطاه النبي صلى الله عليه وآله .

فان قيل : كيف يصح أن يعاهد الله من لا يعرفه ؟

قلنا : إذا وصفه بأخص صفاته جاز منه أن يصرف عهده اليه وإن جاز أن يكون غير عارف . وقال الجبائي : كانوا عارفين ، وانما كفروا بالنبي صلى الله عليه وآله . والمعاهدة هي أن يقول عليّ عهد الله لأفعلن كذا ، فانه يكون قد عقد على نفسه وجوب ماذكره ، لأن الله تعالى حكم بذلك وقدر وجوبه عليه في الشرع .

والآية دالة على وجوب الوفاء بالعهد . واللام الاولى من قوله « لئن آتانا من فضله » والثانية من قوله « لنصدقن » جميعهما لام القسم غير أن الأولى وقعت موقع الجواب ، والتقدير علينا عهدالله لنصدقن إن آتانا من فضله . ولا يجوز أن تكون اللام الأولى لام الابتداء ، لأن لام الابتداء لاتدخل إلا على الاسم المبتدأ ، لأنها تقطع ماقبلها أن يعمل فيما بعدها إلا في باب (إنّ) فانها زحلقت الى الخبر لئلا يجتمع تأكيدان ، ويجوز ان يقول : ان رزقني الله مالا صلحت بفعل الصلاة والصوم لأن ذلك واجب عليه آتاه مالاأولم يؤته.

قوله تعالى :

فَلَمَّا آتَـيهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٧) آية

أخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين الذين عاهدوا الله ، وقالوا متى آتانا الله من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين أنه آتاهم مااقترحوه ورزقهم ماتمنوه من الأموال ، وانهم لما آتاهم ذلك شحت نفوسهم عن الوفاء بالعهد .

ومعنى (لما) معنى (اذا) إلا أن (لما) الغالب عليها الجزاء ، وهي إسم ، لأنها تقع في جواب (متى) على تقدير الوقت كقولك : متى كان هذا ، فيقول السامع : لما كان ذلك . و(لما) و (لو) لايكونان إلا لما مضى بخلاف (إن)

و (إذا) فانهما لما يستقبل الا أن (لو) على تقدير نفي وجوب الثاني لانتفاء الأول و (لما) يدل على وقوع الثاني لوقوع الاول .

والبخل منع النائل لشدة الاعطاء، ثم صار في اسماء الذي منع الواجب، لأن من منع الزكاة فهو بخيل . قال الرماني : ولايجوز أن يكون البخل منع الواجب بمشقة الاعطاء قال زهير :

ان البخيل ملوم حيث كان ولـ   ـكن الجواد على علاته هرم (١)

قال : لأنه يلزم على ذلك ان يكون الجود هو بذل الواجب من غير مشقة . وإنما قال زهير ماقالـه لأن البخل صفة نقص . قال الرماني : ومن منع مالايضره بذله ولاينفعه منعه مما تدعو اليه الحكمة فهو بخيل ، لأنه لايقع المنع على هـذه الصفة إلا لشدة في النفس ، وإن لم يرجع الى ضرر؛ إذ الشدة من غير ضرر معقولة كما يصفون الجوزة بأنها لئيمة لأجل الشدة . وقال عبد الله بن عمر والحسن ومحمد ابن كعب القرطي : يعرف المنافق بثلاث خصال : إذا حدث كذب، وإذا وعدخلف وإذا ائتمن خان . وخالفهم عطاء ابن ابي رياح في ذلك وقال : إن النبي صلى الله عليه وآله إنما قال ذلك في قوم من المنافقين . وروي ان الحسن رجع الى قول عطاء . وقولـه « وتولوا » اي أعرضوا عما عاهدوا الله عليه . وقوله « وهم معرضون » اخبار منه بأنهم معرضون عن الحق بالكلية .

قوله تعالى

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٨) آية.

بين الله تعالى أنـه أعقب هؤلاء المنافقين ومعناه أورثهم وأداهم الى نفاق في

---

(١) اللسان (هرم) .

قلوبهم بخلهم بما آتاهم الله من فضله مع الاعراض عن أمر الله ، وهو قول الحسن . وقال مجاهد : معناه أعقبهم ذلك بحرمان التوبة كما حرم ابليس ، وجعل ذلك إمارة ودلالة على أنهم لايتوبون أبداً لأحد شيئين : من قال : اعقبهم بخلهم رد الضمير اليه . والمعنى يلقون جزاء بخلهم . ومن ذهب الى ان الله أعقبهم رد الضمير الى اسم الله.

وقوله « بما أخلفوا الله ماوعدوه » فالاخلاف نقض ماتقدم به العقد من وعد أو عزم وأصله الخلاف ، لأنه فعل خلاف ماتقدم به العقد . والوعد متى كان بأمر واجب أو ندب أو أمر حسن قبح الاخلاف ، وان كان الوعد وعداً بقبيح كان إخلافه حسناً . وقوله « وبما كانوا يكذبون » يقوي قول من قال : إن الضمير عائد الى الله لأنه بين انه انما فعل ذلك جزاء على اخلافهم وعده وجزاء على ما كانوا يكذبون في اخبارهم عليه .

قوله تعالى :

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوٰيهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٩) آية.

الالف في قوله « ألم يعلموا » الف استفهام والمراد به الانكار . يقول الله تعالى لنبيه ﷺ « ألم يعلموا » هؤلاء المنافقون« أن الله يعلم سرهم» يعني مايخفون في أنفسهم وما يتناجون بينهم ، والمعنى انه يجب عليهم أن يعلموا ذلك ؛ تقول: اسره إسراراً ، واستسرّ استسراراً، وساره مسارة وسراراً، وتساراإسراراً ،والاسرار اخفاء المعنى في النفس والنجوى رفع الحديث باظهار المعنى لمن يسلم عنده من اخراجه الى عدوّ فيه لأنه من النجاة تقول: ناجاه مناجاة ، وتناجوا تناجياً فكأن هؤلاء المنافقون يسرّون في أنفسهم الكفر ويتناجون به بينهم . وقيل: السرّ والنجوى

واحد مكرر باختلاف اللفظين كما يقول القائل: آمرك بالوفاء وأنهاك عن الغدر والمعنى واحد مكرر باختلاف اللفظين. وقوله «ان الله علام الغيوب» معناه يعـــلم كل ماغاب عن العباد مما غاب عن احساسهم او ادراكهم من موجود أو معدوم من كل وجه يصح ان يعلم منه، لأنها صفة مبالغة واقتضى ذكر العـــلم ـ هاهنا ـ حال المنافقين في كفرهم سرّاً وإظهارهم الايمان جهراً، فقيل لهم ان المجازي لكم يعلم سركم ونجواكم، كما قال: ذو الرمة في معنى واحد بلفظين مختلفين:

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي انيابها شنب

فاللعس حوة وكرر لاختلاف اللفظين، ويمكن ان يكون لما ذكر الحوة خشي أن يتوهم السامع سواداً قبيحاً فبين انه لعس لأنه يستحسن ذلك.

قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٨٠) آية.

قيل: نزلت هـذه الآية في علية بن زيد الحارثي وزيد بن اسلم العجلاني فجاء علية بصاع من تمر فنثره في الصدقة، وقال: يارسول الله عملت في النخل بصاعين فصاعاً تركته لأهلي وصاعاً اقرضته ربي، وجاء زيد بن أسلم بصدقة فقال: معتب ابن قشير وعبد الله بن نهيك إنما أراد الرياء. وقال قتادة وغيره من المفسرين: إن هذه الآية نزلت في حبحاب بن عثمان، لأنه أتى النبي ﷺ بصاع من تمر وقال: يـارسول الله إني عملت في النخل بصاعين من تمر فتركت للعيال صاعـاً واهديت لله صاعاً. وجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار وهي شطر ماله للصدقة، فقال المنافقون: إن عبد الرحمن لعظيم الرياء، وقالوا في الآخر: إن

الله لغني عما أتى به ، فأنزل الله تعالى الآية فقال « الذين يلمزون المطوعين » أي ينسبونهم الى النقص في النفس يقولون : لمزه يلمزه لمزاً إذا انتقصه وعابه. والمطوعين على وزن (المتفعلين) وتقديره المتطوعين ، فأدغمت التاء في الطاء ، ومعناه المتنفلين من طاعة الله بما ليس بواجب عليهم ، لأن الخير قد يكون واجباً وقد يكون ندباً وقد يكون مباحاً ولا يستحق المدح الا على الواجب والندب دون المباح ، وقوله « والذين لايجدون الاجهدهم » والجهد هو الحمل على النفس بما يشق تقول : جهده يجهده جهداً وجهداً ــ بالضم والفتح ــ كالوجد والوجد والضعف والضعف . وقال الشعبي : الجهد في العمل والجهد في القوت . وقوله « فيسخرون منهم » يعني المنافقين يهزؤون بالمطوعين « سخر الله منهم » اي يجازيهم على سخريتهم بأنواع العذاب « ولهم عذاب اليم » اي مؤلم موجع ، ولما كان ضرر سخريتهم عائداً عليهم جاز ان يقال « سخر الله منهم » لانه يفعل السخرية .

قوله تعالى:

إِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ وَٱللهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ (٨١) آية .

قوله « استغفر لهم » صيغته صيغة الأمر والمراد به المبالغة في الأياس من المغفرة انه لوطلبها طلبة المأمور بها أوتركها ترك المنهي عنها لكان ذلك سواء في ان الله لايفعلها ، كما قال في موضع آخر « سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » (١) . والاستغفار طلب المغفرة من الله تعالى بالدعاء بها والمغفرة ستر المعصية برفع العقوبة عليها .وتعليق الاستغفار بالسبعين مرة، والمراد

(١) سورة ٦٣ المنافقون آية٦

به المبالغة لا العدد المخصوص، ويجري ذلك مجرى قول القائل : لو قلت ألف مرة ماقبلت ، والمراد بذلك إني لا أقبل منك ، وكذلك الآية المراد بها نفي الغفران جملة . وما روي عن النبي ﷺ أنه قال (والله لأزيدن على السبعين) خبر واحد لايلتفت اليه؛ ولأن في ذلك ان النبي ﷺ استغفر للكفار وذلك لايجوز بالاجماع . وقد روي أنه قال (لو علمت اني لوزدت على السبعين مرة لغفر لفعلت) .

وكان سبب نزول هذه الاية ان النبي ﷺ كان اذا مات ميت صلى عليه واستغفر له، ولم يكن بمنزلة المنافقين بعد ، فأعلمه الله تعالى ان في جملة من تصلي عليهم من هو منافق وإن استغفاره له لاينفع قل ذلك ام كثر ، ثم نهى الله نبيه أن يصلي على أحد منهم وأن يستغفر له حين عرفه اياهم بقوله « ولاتصل على أحد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره » (١) الاية . وقوله « ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله » اشارة منه تعالى الى ان ارتفاع الغفران انما كان لأنهم كفروا بالله وجحدوا نعمه، وكفروا برسوله فجحدوا نبوته « والله لايهدي القوم الفاسقين » فمعناه انه لايهديهم الى طريق الجنة والثواب . فأما الهداية الى الايمان بالاقرار بالتوحيد لله والاعتراف بنبوة النبي ﷺ فقد هدى الله اليه كل مكلف متمكن من النظر والاستدلال ؛ بأن نصب له على ذلك الدلالة وأوضحها له .

قوله تعالى :

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨٢) آية .

اخبر الله تعالى بأن جماعة من المنافقين الذين خلفهم النبي ﷺ ولم يخرجهم

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٥ .

معه الى تبوك لما استأذنوه في التأخر فأذن لهم ، فرحوا بقعودهم خلاف رسول الله. والمخلف المتروك خلف من مضى ، ومثله المؤخر عمن مضى تقول : خلف تخليفاً وتخلف تخلفاً . والفرح ضد الغم ، والغم ضيق الصدر بفوت المشتهى، وعندالبصريين من المعتزلة هو اعتقاد وصول الضرر اليه في المستقبل او دفع الضرر المظنون والمعلوم عنه . ومعنى خلاف رسول الله قال أبو عبيدة : بعد رسول الله وأنشد :

عقب الربيع خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا (١)

وقال غيره : معناه المصدر من قولك خالف خلافاً وهو نصب على المصدر.

وقوله « وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » اخبار منه تعالى ان هؤلاء المخلفين فرحوا بالتأخر وكرهوا إنفاق أموالهم والجهاد بنفوسهم في سبيل الله ، فالجهاد بالمال هو تحمل لمشقة الانفاق في وجوه البر ، والجهاد بالنفس هو تعريضها لما يشق عليها اتباعاً لأمر الله . وقوله « لاتنفروا في الحر» معناه انهم قالوا لنظرائهم ومن يقبل منهم : لاتخرجوا في الوقت الحار ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهم « نار جهنم اشد حرّاً لو كانوا يفقهون » لأنهم توقّوا بالقعود عن الخروج حرّ الشمس ، فخالفوا بذلك أمر الله وأمر رسوله ، واستحقوا حرّ نار جهنم، وكفى بهذا الاختيار جهلا ممن اختاره . وقوله « لو كانوا يفقهون» معناه لو كانوا يفقهون وعظ الله وتحذيره وتزهيده في معاصيه .

قوله تعالى :

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٣) آية.

---

(١) قائله الحارث بن خالد المخزومي . الاغاني ٣/٣٣٣ وروايته (الرذاذ) بدل (الربيع) واللسان (عقب) ، (خلف).

قوله « فليضحكوا » صيغته صيغة الامر والمراد به التهديد ، وإنما قلنا : إنه بصورة الأمر ، لأن اللام ساكنة ولو كانت لام الاضافة لكانت مكسورة لأنها تؤذن بعملها للجزاء المناسب لها ، فلذلك الزمت الحركة . والمراد بالاية الاخبار عن حال هؤلاء المنافقين وأنها في وجـه الضحك كحال المأمور منه فيما يؤل اليه من خير أوشرعلى صاحبه، فلذلك دخله معنى التهدد ، والضحك حال تفتح وانبساط يظهر في وجه الانسان عن تعجب مع فرح ، والضحاك هو الانسان خاصة . والبكاء حال يظهر عن غم في الوجه مع جري الدموع على الخد ، وهو ضد الضحك تقول: بكا بكاءاً ، وأبكاه الله ابكاءاً ، وبكاه تبكية وتباكى تباكياً واستبكى استبكاءاً ومعنى الآية أن يقال لهؤلاء المنافقين : فاضحكوا بقليل تمتعكم في الدنيا فانكم ستبكون كثيراً يوم القيامة إذا حصلتم في العقاب الدائم « جزاء بما كانوا يكسبون» نصب (جزاء) على المصدر أي تجزون على معاصيكم ، ذلك جزاء على أفعالـكم التي اكتسبتموها .

قوله تعالى :

فَإِنْ رَجَعَكَ ٱللهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٤) آية .

قال الله تعالى لنبيه ﷺ « فان رجعك الله » يعني ان ردّك الله « الى طائفة منهم يعني جماعة . فالرجوع هو تصيير الشيء الى المـكان الذي كان فيه ، تقول : رجعته رجعاً كقولك رددته ردّاً ، وقـد يكون التصيير الى الحال التي كان عليها كرجوع الماء الى حال البرودة . والطائفة الجماعة التي من شأنها أن تطوف ولهذا لايقال في جماعة الحجارة طائفة ،وقد يسمى الواحد بأنه طائفة بمعنى نفس طائفة

والأول اظهر . وقوله « فاستأذنوك للخروج » اي طلبوا منك الاذن في الخروج في غزوة أخرى ، والاذن رفع التبعة في الفعل وأصله أن يكون بقول يسمع بالاذن . والخروج الانتقال عن محيط ، فقال الله لنبيه صلى الله عليه وآله قل لهم حينئذ « لن تخرجوا معي أبداً » اي لايقع منكم الخروج أبداً ، فالابد الزمان المستقبل من غير انتهاء الى حد ، ونظيره للماضي (قط) إلا انه مبني كما بني أمس لتضمنه حروف التعريف واعرب (الابد) كما اعرب (غد) لأن المستقبل أحق بالتنكير .

وقوله « ولن تقاتلوا معي عدوّاً » اخبار بأنهم لا يفعلون ذلك ابداً ولايختارونه . وقوله « إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين » معناه اخبار منه تعالى انهم رضوا بالقعود أول مرة فينبغي ان يقعدوا مع الخالفين . وقيل في معناه ثلاثة اقوال : احدها ـ قال الحسن وقتادة : هم النساء والصبيان . وقال ابن عباس : هم من تأخر من المنافقين . وقال الجبائي : هم كل من تأخر لمرض اونقص وقيل : معناه مع اهل الفساد مشتقاً من قولهم : خلف خلوفاً اي تغير الى الفساد . وقيل : الخالف كل من تأخر عن الشاخص .

قوله تعالى :

وَلاَ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنهُم مَاتَ أَبداً وَلاَ تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٥) آية .

هذا نهي من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله عن أن يصلي على أحد من المنافقين او يقوم على قبره ومعناه أن يتولى دفنه او ينزل في قبر كما يقال : قام فلان بامر فلان. وقال ابن عباس وابن عمر وقتادة وجابر : صلى رسول الله صلى الله عليه وآله على عبد الله ابن أبي بن ابي سلول والبسه قميصه قبل أن ينهى عن الصلاة على المنافقين . وقال أنس : أراد أن يصلي عليه فأخذ جبرائيل بثوبه . وقال له « لا تصل على احد

منهم مات أبداً ولاتقم على قبره »..

والصلاة على الأموات فرض على الكفايات إذا قام به قوم سقط عن الباقين. واقل من يسقط به الفرض واحد. وهي دعاء ليس فيها قراءة ولاتسبيح ،وفيه خلاف . وفيها خمس تكبيرات عندنا ، وعند الفقهاء أربع تكبيرات ، فالتكبيرة الأولى يشهد بعدها الشهادتين ، ويكبر بالثانية ، ويصلي بعـدها على النبي صلى الله عليه وآله ويكبر الثالثة ويدعو للمؤمنين والمؤمنات ، ويكبر الرابعة ويدعو للميت إن كان مؤمناً وعليـه إن كان منافقاً ، ويكبر الخامسة ويقف يومي الى يمينه حتى ترفع الجنازة ،وليس فيها تسليم . وسمعت أبا الطيب الطبري وكان امام أُصحاب الشافعي يقول : الخلاف بيننا وبينكم في عبارة ، لأن عندكم ينصرف بالخامسة . وعندنا بالتسليم ، فجعلتم مكان التسليم التكبير . وذلك خلاف في عبارة .

وقوله « مات » موضع (مات) جر لأنه صفة لـ (أحد) لان تقديره على احد ميت منهم و « أبداً» منصوب متصل ، و (أحد) هذه هي التي تكون في النفي دون الايجاب لأنه يصح النهي عن الصلاة عليهم مجتمعين ومتفرقين ، كما يصح في النفي ولايمكن في الايجاب لأنه كنفي الضدين في حال واحدة ، فانه لايصح اثباتها في حال أصلا . والقبر حفرة يدفن فيها الميت، تقول: قبرته اقبره قبراً فأنا قابر وهو مقبور وأقبرت فلاناً اقباراً اذا جعلته بقبره .

وقوله « إنهم كفروا بالله ورسوله » والمعنى انما نهيتك عن الصلاة عليهم لأنهم كفروا بالله ورسوله ، فهي للتعليل ، وانما كسرت لتحقيق الاخبار بأنهم على الصفة التي ذكرها وأنهم « ماتوا وهم فاسقون » اي خارجون عن طاعـة الله الى معصيته .

قوله تعالى :

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُم

فِي ٱلدُّنيَا وَتزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ (٨٦) آية

قد مضى تفسير مثل هـــذه الآية فلا وجه لاعادته (١) وبينا أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وآله والمراد به الامة ، ينهاهم الله أن يعجبوا بما اعطى الله الكفار من الأموال والأولاد في الدنيا حتى يدعوهم ذلك الى الصلاة عليهم ، ولاينبغي ان يغتروا بذلك فانما يريد الله ان يعذبهم بها في الدنيا ، لأنهم لاينفقونها في طاعة الله ولايخرجون حق الله منها . ويجوز أن يعذبهم بها في الدنيا بما يلحقهم فيها من المصائب والغموم وبما يأخذها المسلمون على وجه الغنيمة وبما يشق عليهم من إخراجها في الزكاة والانفاق في سبيل الله مع اعتقادهم بطلان الاسلام وتشدد ذلك عليهم ويكون عذاباً لهم، وان نفوسهم تزهق اي تهلك بالموت « وهم كافرون » أي في حال كفرهم ، فلذلك عذبهم الله في الآخرة . والاعجاب هو ايجاد السرور بمــا يتعجب منه من عظيم الاحسان، تقول : اعجبني امره اعجاباً اذا سررت بموضع التعجب منه. والزهق خروج النفس بمشقة شديدة ومنه قوله « فاذا هو زاهق » (٢) أي هالك .

وقيل : في وجه حسن تكرار هذه الآية دفعتين قولان :

احدهما ــ قال ابو علي : يجوز أن تكون الآيتان في فريقين من المنافقين كما يقول القائل : لايعجبك حال زيد ولايعجبك حال عمرو.

الثاني ــ أن يكون الغرض البيان عن قوة هذا المعنى فيما ينبغي ان يحذر منه مع أنه للتذكير في موطنين بعد احدهما عن الاخر ، فيجب العناية به ، وليس ذلك بقبيح ، لأن الواحد منا يحسن به أن يقوم في مقام بعد مقام ، ويكرر الوعظ والزجر والتخويف ولايكون ذلك قبيحاً .

---

(١) في تفسير آية ٥٦ من هذه السورة

(٢) سورة ٢١ الأنبياء آية ١٨

قوله تعالى :

وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٧) آية .

بين الله تعالى في هذه الآية أنه إذا أنزل سورة من القرآن على النبي ﷺ « أن آمنوا » ومعناه بأن آمنوا فحذفت الباء وجعل « أن آمنوا » في موضع نصب والتقدير بالايمان على وجه الأمر ولايجوز الحذف مع صريح المصدر ، وإنما جاز مع (أن) للزوم الصلة والحمل على التأويل في اللفظ كما حمل على المعنى . وهذا خطاب للمؤمنين وأمر لهم بأن يدوموا على الايمان ويتمسكوا به في مستقبل الأوقات ويدخل فيه المنافق ويتناوله الأمر بأن يستأنف الايمان ويترك النفاق ثم يجاهدوا بعد ذلك بنفوسهم وأموالهم لأنه لاينفعهم الجهاد مع النفاق .

وقوله « استأذنك أولوا الطول » معناه أن ذوي الغنى من المنافقين إذا انزلت السورة يأمرهم فيها بالايمان والجهاد يستأذنون النبي ﷺ في القعود والتأخر عنه ، مع اعتقادهم بطلان الاسلام فيشد ذلك عليهم ويكون عذاباً لهم – وهو قول الحسن وابن عباس – فانهما قالا : إنما لحق هؤلاء الذم لأنهم أقوى على الجهاد . وقوله « وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين » اخبار منه تعالى أن هؤلاء المنافقين من ذوي الغنى يقولون للنبي ﷺ : اتركنا نكن مع القاعدين من الصبيان والزمنى والمرضى الذين لايقدرون على الخروج . قال الرماني : والسورة جملة من القرآن تشتمل على آيات قد احاطت بها كما يحيط سور القصر بما فيه، وسؤر النهر بقيته من الماء . والجهاد بالقتال دفعاً عن النفس معلوم حسنه عقلا لأنه مركوز في العقل وجوب التحرز من المضار ، وليس في العقل مايدل على انه يجب على الانسان ان يمنع غيره من الظلم وإنما يعلم ذلك سمعاً .

قوله تعالى :

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ (٨٨) آية .

اخبر الله تعالى بأن هؤلاء الذين قالوا « ذرنا نكن مع القاعدين » من المنافقين رضوا لنفوسهم أن يكونوا مع الخوالف وهم النساء والصبيان والمرضى والمقعدون. قال الزجاج : الخوالف النساء لتخلفهن عن الجهاد، ويجوز أن يكون جمع خالفة في الرجال ، والخالف والخالفة الذي هو غير نجيب ، ولم يأت في (فاعل) (فواعل) صفة إلا حرفين قولهم : فارس وفوارس . وهالك وهوالك .

وقوله « وطبع على قلوبهم » قيل في معناه قولان :

احدهما ــ انه تعالى يجعل نكتة سوداء في قلب المنافق والكافر لتكون علامة للملائكة يعرفون بها أنه ممن لايفلح أبداً .

الثاني ـ أن يكون المراد بذلك الذم لها بأنها كالمطبوع عليها فلا يدخلها صبر ولاينتفي عنها شر ، لأن حال الذم لها يقتضي صفات الذم ، كما أن حال المدح يقتضي صفات المدح ، كما قال جرير في قصيدة أولها :

أتصحوا أم فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرّواح
ألستم خير من ركب المطايا واندى العالمين بطون راح (١)

ولاتحمل الا على المدح دون الاستفهام . والطبع في اللغة هو الختم تقول : طبعه وختمه بمعنى واحد .

قوله تعالى :

لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

(١) مر تخريجه في ١/ ١٣٢ ، ٤٠٠ وقد مر في ٢ / ٣٢٧

وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٩) آية.

لما أخبر الله تعالى عن حال المتأخرين عن النبي ﷺ والقاعدين عن الجهاد معه وأنهم منافقون قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . أخبر عن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين المطيعين لله ورسوله بأنهم يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم بالاموال التي ينفقونها في مرضاة الله وعدة الجهاد ويقاتلون الكفار بنفوسهم . ثم اخبر عما أعدّلهم من الجزاء على أفعالهم تلك وانقيادهم لله ورسوله ، فقال «أولئك» يعني النبي والذين معه « لهم الخيرات » في الجنة ونعيمها وخيراتها ، وانهم المفلحون ايضاً الفائزون بكرامة الله . والخيرات هي المنافع التي تسكن النفس اليها وترتاح بها من النساء الحسان وغيره من نعيم الجنان واحده خيرة - هذا قول ابي عبيدة - وقال رجل من بني عدي :

ولقد طعنت مجامع الربلات   ربلات هند خيرة الملكات (١)

والفلاح النجاح بالوصول الى البغية من نجح الحاجة وهو قضاؤها .

قوله تعالى :

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩٠) آية .

بين الله تعالى انه « أعد » لهؤلاء المؤمنين والرسول « جنات » يعني بساتين « تجري من تحتها » ومعناه من تحت اشجارها « الانهار » . والاعداد جعل الشيء مهيئاً لغيره تقول : اعدّ إعداداً واستعدّ له استعداداً وهو من العدد ؛ لأنه قد عدّ الله جميع مايحتاج الى تقديمه له من الامور ومثله الاتخاذ . والوجه في اعداد ذلك قبل مجيء وقت الجزاء أن تصوره لذلك ادعى الى الطاعة وآكد في الحرص عليها

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٦٧ واللسان (خير) الربلة لحمة الفخذ

ويحتمل أن يكون المراد أنه سيجعل لهم جنات تجري من تحتها الأنهار غير أنه ترك للظاهر. وقوله « ذلك الفوز العظيم » اشارة الى ما أعده لهم واخبار منه بأنه الفوز العظيم. والفوز النجاة من الهلكة الى حال النعمة، وسميت المهلكة مفازة تفاؤلا بالنجاة وإنما وصفه بالعظيم لأنه حاصل على جهة الدوام.

قوله تعالى:

وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩١) آية.

قرأ يعقوب وقتيبة (المعذرون) بسكون العين وتخفيف الذال. الباقون بفتح العين وتشديد الذال، وجه قراءة من قرأ بالتخفيف أنه اراد جاءوا بعذر. ومن قرأ بالتشديد احتمل أمرين: احدهما - انه اراد المعتذرون، كان لهم عذر أولم يكن، وإنما أدغم التاء في الذال لقرب مخرجهما مثل قوله « يذكرون ويذّكرون » وغير ذلك، وأصله يتذكرون. الثاني - انه أراد المقصرون، والمعذر المقصر، والمعذر المبالغ الذي له عذر. وأما المعتذر فانه يقال لمن له عذر ولمن لا عذر له قال لبيد:

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر(١)

معناه جاء بعذر. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعذرون الذين يعتذرون فيوهمون أن لهم عذراً ولا عذر لهم. وروي عن ابن عباس انه قرأ بالتخفيف، وقال: لعن الله المعذرين أراد من يعتذر بغير عذر، وبالتخفيف من بلغ أقصى العذر.

(١) ديوانه القصيدة: ٢١، وخزانة الأدب ٢ / ٢١٧ وتفسير الطبري ١١٩/١ ١٤ / ١١٧ واللسان (عذر).

وأصل التعذير التقصير مع طلب إقامة العذر ، عذر في الامر تعذيراً اذا لم يبالغ فيه . والفرق بين الاعتذار والتعذير ، أن الاعتذار قد يكون بعذر من غير تصحيح الأمر ، والتعذير تقصير يطلب معه اقامة العذر فيه . واختلفوا في معنى « وجاء المعذّرون » على قولين : قال قتادة واختاره الجبائي : انه من عذر في الأمر تعذيراً إذا قصر . وقال مجاهد : جاء أهل العذر جملة على معنى المعتذرين . وقال الحسن: اعتذروا بالكذب . وقال قوم : إنما جاء بنو عفار ، خفاف بن ايماء بن رخصة وقومه.

ومعنى الاية أن قوماً من الأعراب جاءوا الى النبي ﷺ يظهرون أنهم مؤمنون ولم يكن لهم في الايمان والجهاد نية فيعرضون نفوسهم عليه وغرضهم أن يأذن النبي ﷺ لهم في التخلف ، فجعلوا عرضهم أنفسهم عليه عذراً في التخلف عن الجهاد.

وقوله « وقعد الذين كذبوا الله ورسوله » يعني المنافقين ، لأنهم الذين كذبوا الله ورسوله فيما كانوا يظهرون من الايمان ، فقال الله « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم » اي ينالهم عذاب مؤلم موجع في الآخرة .

قوله تعالى:

لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٢) آية .

عذر الله تعالى في هذه الآية من ذكره ووصفه ، فقال « ليس على الضعفاء » وهو جمع ضعيف ، وهو الذي قوته ناقصة بالزمانة وغيرها « ولا على المرضى » وهو جمع مريض وهم الاعلاء « ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون » يعني من ليس معه نفقة الخروج وآلة السفر « حرج » يعني ضيق وجناح . وأصل الضيق الذي يتعذر معه الامر . وقوله « اذا نصحوا لله ورسوله » شرط تعالى في رفع الجناح والاسم عن

المذكورين ان ينصحوا الله ورسولـه بأن يخلصوا العمل من الغش، يقال : نصح في عمله نصحاً ،وناصح نفسه مناصحة، ومنه التوبة النصوح . ثم قال« ماعلى المحسنين من سبيل » أي ليس على من فعل الحسن الجميل طريق . والاحسان هو ايصال النفع الى الغير لينتفع به مع تعريه من وجوه القبح . ويصح أن يحسن الانسان الى نفسه ويحمل على ذلك ، وهو إذا فعل الأفعال الجميلة التي يستحق بها المدح والثواب . وقوله « والله غفور رحيم » معناه ساتر على ذوي الاعذار بقبول العذر منهم «رحيم» بهم لايلزمهم فوق طاقتهم . وقال قتادة : نزلت هذه الآية في عابد بن عمرو المزني وغيره . وقال ابن عباس : نزلت في عبد الله بن معقل المزني ، فانـه وجماعة معه جاءوا الى رسول الله ﷺ فقالوا له : احملنا فقال رسول الله ﷺ لاأجـد ما احملكم عليه .

قوله تعالى

وَلاَ عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٣) آية .

هذه الاية عطف على الاولى والتقدير ليس على الذين جاءوك ــ وسألوك حملهم حيث لم يكن لهم حملان ، فقلت لهم يامحمد « لاأجد ماأحملكم عليه » اي ليس لي حملان فحينئذ « تولوا وأعينهم تفيض من الدمع » يبكون « حزناً أن لا يجـدوا ماينفقون » في هذا الطريق ويتابعونك ــ حرج وأثم ولاضيق وإنما حذف لدلالـة الكلام عليه . والحمل إعطاء المركوب من فرس أو بعير أو غير ذلك تقول حمله يحمله حملا إذا أعطاه مايحمل عليه. وحمل على ظهره حملا ، وحمله الأمر تحميلا وتحمل تحملا ،واحتمله احتمالا ، وتحامل تحاملا . واللام في قولـه « لتحملهم »

لام الغرض ، والمعنى جاؤك وأرادوا منك حملهم وتقول : وجدت في المال وجداً وجدة ، ووجدت الضالة وجداناً ووجدت عليه ـ من الموجدة ـ وجداً .. والفيض الجري عن امتلاء من حزن قلوبهم ، والحزن ألم في القلب لفوت أمر مأخوذ من حزن الأرض وهي الغليظة المسلك.

وقال مجاهد : نزلت هذه الاية في نفر من مزينة ، وقال محمد بن كعب القرطي وابن اسحاق : نزلت في سبعة نفر من قبائل شتى . وقال الحسن : نزلت في ابي موسى واصحابه. وقال الواقدي : البكاؤن سبعة من فقراء الأنصار ، فلما بكوا حمل عثمان منهم رجلين ، والعباس بن عبد المطلب رجلين ، ويامين بن كعب بن نسيل النصري من بني النضير ثلاثة، ومن جملة البكائين عبد الله بن معقل . وقال الواقدي: كان الناس بتبوك ثلاثين الفاً ، وعشرة آلاف فارس .

قوله تعالى :

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٤) آية.

بين الله تعالى في هذه الآية ان السبيل والطريق بالعقاب والحرج انما هو للذين يطلبون الاذن من رسول الله في المقام ، وهم مع ذلك اغنياء يتمكنون من الجهاد في سبيل الله ، الراضين بكونهم مع الخوالف من النساء والصبيان ومن لا حراك به . ثم قال : وطبع الله على قلوبهم بمعنى وسم قلوبهم بسمة تعرفها الملائكة فيميزون بينهم وبين غيرهم من المؤمنين ، ويحتمل أن يكون المراد انه بمنزلة المطبوع في أن لايدخلها الايمان كما لو طبعوا على الكفر . ومثله قوله « صم بكم عمي » ومعناه لترك تلفظهم بالحق وعدولهم عن سماع الحق وانصرافهم عن النظر الى الصحيح كأنهم صم بكم عمي، وهم لايعلمون ذلك ، ولايدرون الى مايصير أمرهم من

عقاب الابد ، ولايعرفون مايلزمهم من احـكام الشرع مايعرفه المؤمنون . وقال البلخي : معناه لالفهم للخلاف والمعصية كأنهم لايعلمون ، والتقدير ان حكم هؤلاء المذكورين بهذه الاوصاف بخلاف من قد تحصن من العقاب بالايمان ،لأنهم قد فتحوا على انفسهم ابواب العذاب .

قوله تعالى :

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٥) آية .

اخبر الله تعالى ان هؤلاء القوم الذين تأخروا عن الخروج مع النبي ﷺ من غير عذر كان يبيحهم ذلك اذا عاد النبي ﷺ والمؤمنون إنهم كانوا يجيؤن اليهم ويعتذرون اليهم عن تأخرهم بالأباطيل والكذب ، فقال الله تعالى لنبيه : قل يامحمد لهم « لاتعتذروا » فلسنا نصدقكم على ماتقولون ، فان الله تعالى قد اخبرنا من اخباركم واعلمنا من امركم ماقد علمنا به كذبكم « وسيرى الله عملكم ورسوله» أي سيعلم الله فيما بعد عملكم هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ؟ ويحتمل أن يكون المراد أنه يحل في الظهور محل مايرى « ثم تردون » اي ترجعون الى من يعلم الغيب والشهادة يعني السر والعلانية الذي لايخفى عليه بواطن أموركم « فينبئكم بما كنتم تعملون » أي فيخبركم باعمالكم كلها حسنها وقبيحها فيجازيكم عليها أجمع .

والاعتذار اظهار ما يقتضي العذر ويمكن ان يكون صحيحاً ويمكن ان يكون فاسداً كاعتذار هؤلاء المنافقين . والفرق بين الاعتذار والتوبة ان التوبة اقلاع عن

سيئة قد وقعت ، والاعتذار اظهار مايقتضي انها لم تقع ،ولذلك يجوز ان يتوب الى الله ولايجوز ان يعتذر اليه . والاعتذار الذي له قبول هو ما كان صاحبه محقاً، فأما الاعتذار بالباطل فهو أسوء لحال صاحبه قال الشاعر :

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه   وكل امرىءلايقبل العذر مذنب(١)

قوله تعالى :

سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) آية .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الذين يعتذرون بالباطل الى النبي والمؤمنين في تأخرهم عن الخروج معهم أنهم سيقسمون أيضا على ذلك للمؤمنين « اذا انقلبتم اليهم » يعني اذا رجعتم اليهم « لتعرضوا عنهم » اي لتصفحوا عنهم ولاتوبخوهم ولا تعنفوهم . ثم أمر الله تعالى المؤمنين والنبي ﷺ أن يعرضوا عنهم اعراض المقت وبين « انهم رجس » اي هم كالنتن في قبحه وهم انجاس ويقال : رجس نجس على الاتباع، وان « مأواهم » يعني مصيرهم ومآلهم ومستقرهم « جهنم جزاء» اي مكافاة على ما كانوا يكسبونه من المعاصي . والجزاء مقابلة العمل بما يقتضيه من خير اوشر. قال احمد بن يحيى ثعلب : اللام في قوله« لتعرضوا عنهم » ليست لام غرض وانمامعناه لاعراضكم، وانما علق ـ هاهنا ـ بذلك لئلا يتوهم أنه اذا رضي المؤمنون فقد رضي الله عنهم أيضاً فذكر ذلك ليزول هذا الالباس لأن المنافقين لم يحلفوا لهم لكي يعرضوا ، ولكنهم حلفوا تبرئاً من النفاق ولاعراض المسلمين عنهم وأنشد:

سموت ولم تكن أهلا لتسمو   ولكن المضيع قد يصاب

---

(١) العقد الفريد ١٥/٢

أراه ما كنت أهلا للسمو .

قوله تعالى :

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ (٩٧) آية .

بين الله تعالى أن هـؤلاء المنافقين يقسمون بالله طلباً لمرضاتكم عنهم « فان ترضوا » ايها المؤمنون «عنهم فان الله لايرضى عن القوم الفاسقين» الخارجين من طاعته الى معصيته ،والمعنى انه لاينفعهم رضاكم مع سخط الله عليهم وارتفاع رضاه عنهم : رضي المؤمنون عنهم او لم يرضوا ، وانما علق هـا هنا بذلك لئلا يتوهم أنـه اذا رضي المؤمنون فقد رضي الله عنهم أيضاً ، فذكر ذلك ليزول هـذا الالباس ولأن المراد بذلك انه اذا كان الله لايرضى عنهم فينبغي لكم ايضاً أن لاترضوا عنهم .

قوله تعالى :

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٨) آية .

أخبر الله تعالى في هذه الاية أن الاعراب الجفاة الذين لايعرفون الله ورسوله حق معرفتهما أشد كفراً ونفاقاً وجحوداً لنعم الله، وأعظم نفاقاً من غيرهم . وقيل: انها نزلت في اعراب كانوا حول المدينة من اسد وغطفان ، فكفرهم اشد ، لأنهم أقصى وأجفى من أهل المدن ، ولأنهم أبعد عن سماع التنزيل ومخالطة أهل العلم والفضل، ويقال : رجل عربي إذا كان من العرب وإن سكن البلاد ، وإعرابي اذا كان ساكناً في البادية . وروي أن زيد بن صوحان كانت يده اليسرى قد قطعت يوم اليمامة وكان قاعداً يوماً يروي الحديث والى جانبه إعرابي ، فقال له : ان حديثك

يعجبني وان يدك تريبني فقال زيد : إنها الشمال، فقال :والله ماأدري اليمين يقطعون أو الشمال ، فقال زيد : صدق الله ، وقرأ « الأعراب أشد كفراً » الآية .

وقوله « وأجدر» معناه أخلق وأولى وأقرب الى « أن لايعلموا حدود ماأنزل الله على رسوله » من الشرائع والأحكام . وموضع (أن) نصب لأن تقديره أجدر بأن ، فحذف الباء فانتصب ، وتقديره أجدر بترك العلم غير أن الباء لاتحذف مع المصدر الصريح ، وإنما تحذف مع (أن) للزوم العلم بها وحملها على التأويل . و(أجدر) مأخوذ من جدر الحائط . وقوله « والله عليم حكيم » معناه عالم بأحوالهم وبواطنهم حكيم فيما يحكم به عليهم من الكفر وغير ذلك من أفعاله .

قوله تعالى :

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٩) آية .

قرأ ابن كثير وابو عمرو « دائرة السوء » بضم السين . الباقون بفتح السين من فتح أراد المصدر ،وإنما أضاف الدائرة الى السوء تأكيداً كما يقال: عيني رأسه وشمس النهار ، تقول : سؤته أسوءه سوءاً ومساءة ومسائية ، وقوله « ما كان أبوك امرأ سوء » (١) لايجوز فيه غير فتح السين ، وكذلك في قوله « وظننتم ظن السوء » (٢) لأن الضم بمعنى الاسم ، وتقديره عليهم دائرة العذاب والبلاء .

أخبر الله تعالى ان من جملة هؤلاء المنافقين من الأعراب من يتخذ ماينفقه في الجهاد وغيره من طرق الخير « مغرماً » اي غرماً من قولهم : غرمته غرماً وغرامة . والغرم لزوم نائبة في المال من غير جناية ، ومنه قوله « من مغرم مثقلون » (٣)

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ٢٨ . (٢) سورة ٤٨ الفتح آية ١٢

(٣) سورة ٥٢ الطور آية ٤٠ وسورة ٦٨ القلم آية ٤٦ .

وأصل المغرم لزوم الأمر ، ومنه قوله « إن عذابها كان غراما » (١) أي لازما ، وحب غرام أي لازم ، والغريم كل واحد من المتداينين ،وغرمته كذا الزمته إياه في ماله . وقوله « ويتربص بكم الدوائر » فالتربص التمسك بالشيء لعاقبة ومنه التربص بالطعام لزيادة السعر ، فهؤلاء يتربصون بالمؤمنين لعاقبة من الـدوائر . والدائرة جمعها دوائر وهي العواقب المذمومة . وقال الفراء والزجاج : كانوا يتربصون بهم الموت والقتل، وإنما خص رفع النعمة بالدوائر دون رفع النقمة ،لأن النعمة أغلب واعم لأن كل واحد لايخلو من نعم الله وليس كذلك النقمة ، لأنها خاصة . والنعمة عامة . وقد قيل : دارت لهم الدنيا بخلاف دارت عليهم . ثم قال تعالى « عليهم دائرة السوء » يعني على هؤلاء المنافقين دائرة العذاب والبلاء ـ في قراءة من قرأ بالضم ـ وقوله « والله سميع عليم » معناه ـ ها هنا ـ انه يسمع مايقولـه هؤلاء المنافقون ويعلم بواطن أمورهم ، ولايخفى عليه شيء من حالهم وحال غيرهم .

قوله تعالى :

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ ٱللهِ وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٠) آية .

قرأ ورش واسماعيل « قربة » بضم الراء ، اتبع الضمة التي قبلها . وقال ابو علي : لايجوز ان يكون اتباعاً لماقبله لأن ذلك إنما يجوز في الوقف آخر الكلم وإنما الضمة فيها الأصل ، وإنما خففت في قولهم: رسل وطنب ،فقالوا : رسل وطنب فاذا جمع فلايجوز فيه غير ضم الراء ، لأن الحركة الأصلية لابد من ردها في الجمع.

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٥ .

لما ذكر الله تعالى ان من جملة الأعراب من يتخذ انفاقه في سبيل الله مغرماً ذكر ان من جملتهم ايضاً « من يؤمن بالله » اي يصدق به وباليوم الآخر يعني يوم القيامة، وانه يتخذ ماينفقه في سبيل الله قربات عند الله . قال الزجاج : يجوز في (قربات) ثلاثة اوجه ـ ضم الراء وإسكانها وفتحها ـ وما قرىء إلا بالضم ، والقربة هي طلب الثواب والكرامة من الله تعالى بحسن الطاعة ، وهي تدني من رحمة الله والتقدير انه يتخذ نفقته وصلوات الرسول اي دعاءه له قربة الى الله . وقال ابن عباس والحسن : معنى وصلوات الرسول استغفاره لهم ، وقال قتادة : معناه دعاؤه بالخير والبركة قال الاعشى :

تقول بنتي وقد قرّبت مرتحلا يا ربّ جنّب ابي الاوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي نوماً فان لجنب المرء مضطجعاً(١)

ثم قال « ألا إنها » يعني صلوات الرسول « قربة لهم » اي تقربهم الى ثواب الله . ويحتمل ان يكون المراد ان نفقتهم قربة الى الله . وقوله «سيدخلهم الله في رحمته » وعد منه لهم بان يرحمهم ويدخلهم فيها ، وفيه مبالغة ، فان الرحمة وسعتهم وغمرتهم ، ولو قال فيهم رحمة الله لأفاد انهم اتسعوا للرحمة من الله تعالى وقوله « إن الله غفور رحيم » معناه إنه يستر كثيراً على العصاة ذنوبهم ولا يفضحهم بها لرحمته بخلقه « وغفور رحيم » جميعا من الفاظ المبالغة فيما وصف به نفسه من المغفرة والرحمة .

قوله تعالى :

وَٱلسَّابِقُونَ ٱلأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ

(١) ديوانه ٢٢٠ القصيدة ١٣ وقد مر البيت الثاني في ١/١٩٣

جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠١) آية.

قرأ ابن كثير وحده « جنات تجري من تحتها » باثبات (من) وكذلك هو في مصاحف اهل مكة . الباقون بحذف (من) ونصبوا تحتها على الظرف . وقرأ يعقوب « والأنصار والذين » بضم الراء . الباقون بجرها . من رفع عطف على قوله « والسابقون الأولون » ورفع على الابتداء والخبر قوله « رضي الله عنهم » . ومن جرّ عطفه على « المهاجرين » كأنه قال : من المهاجرين ومن الأنصار .ومن اثبت (من) فلأن في القرآن مواضع لاتحصى « جنات تجري من تحتها » ومن أسقطها تبع مصحف غير أهل مكة . والمعنى واحد .

اخبر الله تعالى أن الذين سبقوا أولا الى الايمان بالله ورسوله والاقرار بهما من الذين هاجروا من مكة الى المدينة والى الحبشة ،ومن الانصار الذين سبقوا اولا غيرهم الى الاسلام من نظرائهم من أهل المدينة ، والذين تبعوا هؤلاء بأفعال الخير والدخول في الاسلام بعدهم وسلوكهم منهاجهم . وقال الفراء : يدخل في ذلك من يجيء بعدهم الى يوم القيامة . وقال الزجاج : مثله .

ثم اخبر أن الله رضي عنهم ورضي أفعالهم ورضوا هم ايضاً عن الله لما أجزل لهم من الثواب على طاعاتهم وإيمانهم به وبنبيه . والسبق كون الشيء قبل غيره . ومنه قيل في الخيل السابق ، والمصلي هو الذي يجيء في اثر السابق يتبع صلاه . وإنما كان السابق الى الخير أفضل لانه داع اليه بسبقه ـ والثاني تابع ـ فهو امام فيه وكذلك من سبق الى الشر كان اسوء حالا لهذه العلة . والاتباع طلب الثاني لحال الاول أن يكون على مثلها على مايصح ويجوز ، ومثله الاقتداء . والاحسان هو النفع الواصل الى الغير مع تعريه من وجوه القبح . فأما قولهم أحسن فمن فعله فقد يكون بفعل النفع وبفعل الضرر ، لأنه تعالى اذا فعل في الآخرة العقاب يقال

إنه أحسن لكن لايقال : أحسن اليه. وقوله « واعدلهم جنات تجري تحتها الأنهار» اخبار منه تعالى انه مع رضاه عنهم ورضاهم عنه أعد لهم الجنات يعني البساتين التي تجري تحت اشجارها الأنهار ، وقيل : ان انهارها اخاديد في الأرض فلذلك قال: تحتها « خالدين فيها ابداً » اي يبقون فيها ببقاء الله لايفنون ، منعمين . وقوله « ذلك الفوز العظيم » معناه إن ذلك النعيم الذي ذكره هو الفلاح العظيم الذي تصغر في جنبه كل نعمة .

واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية ، فقال ابو موسى وسعيد بن المسيب وابن سيرين وقتادة : نزلت فيمن صلى القبلتين ، وقال الشعبي : نزلت فيمن بايع بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية ، وقال : من اسلم بعد ذلك وهاجر فليس من المهاجرين الأولين . وقال ابو علي الجبائي : نزلت في الذين أسلموا قبل الهجرة. وروي أن عمر قرأ « والأنصار » بالرفع « الذين اتبعوهم » باسقاط الواو ، فقال أبي: والذين اتبعوهم بأمير المؤمنين فرجعوا الى قوله .

قوله تعالى:

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠٢) آية .

معنى قوله « وممن حولكم » من جملة من حولكم يعني حول مدينتكم وحول الشيء المحيط به، وهو مأخوذ من حال يحول إذا دار بالانقلاب . ومنه المحالة لأنها تدور في المحول. وقوله « من الأعراب » والأعراب هم الذين يسكنون البادية إذا كانوا مطبوعين على العربية وليس واحدهم عرباً، لأن العرب قد يكونوا حاضرة والاعراب بادية . وقوله « منافقون » معناه من يظهر الايمان ويبطن الكفر « ومن

أهل المدينة » أيضاً منافقون ، وانما حذف لدلالة الأول عليه « مردوا على النفاق » يقال : مرد على الشيءيمرد مروداً فهو مارد ومريد إذاعتا وطغى وأعيا خبثاً ، ومنه (شيطان مارد ، ومريد) . وقال ابن زيد : معناه أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب غيرهم . وقال ابن اسحاق : معناه لجوا فيه وأبوا غيره . وقال الفراء : معناه مرنوا عليه وتجرّءوا عليه . وقال الزجاج : فيه تقديم وتأخير والتقدير وممن حولكم من الاعراب منافقون مردوا على النفاق ومن اهل المدينة ايضاً مثل ذلك . وأصل المرود الملاسة . ومنه قوله « صرح ممرد من قوارير » (١) اي مملس ومنه الأمرد الذي لاشعر على وجهه ، والمرودة والمرداء الرملة التي لاتنبت شيئاً ، والتمراد بيت صغير يتخذ للحمام مملس بالطين ، والمرداء الصخرة الملساء . « لاتعلمهم » معناه لاتعرفهم يامحمد « نحن نعلمهم » اي نعرفهم .

وقوله : « سنعذبهم مرتين » قيل في معناه أقوال :

احدها ـ قال الحسن وقتادة والجبائي : يعني في الدنيا وفي القبر . وقال ابن عباس : نعذبهم في الدنيا بالفضيحة لأن النبي صلى الله عليه وآله ذكر رجالا منهم واخرجهم من المسجديوم الجمعة في خطبته قال : اخرجوا فانكم منافقون ، والاخرى في القبر . وقال مجاهد : يعني في الدنيا بالقتل والسبي والجوع . وفي رواية اخرى عن ابن عباس : أن إحداهما اقامة الحدود عليهم ، والاخرى عذاب القبر . وقال الحسن : إحداهما أخذ الزكاة منهم : والاخرى عذاب القبر ، وقال ابن اسحاق : إحداهما غيظهم من اهل الاسلام ، والاخرى عذاب القبر . وكل ذلك محتمل غير أنا نعلم ان المرتين معاً قبل ان يردوا الى عذاب النار يوم القيامة . وقوله « ثم يردون الى عذاب عظيم » معناه ثم يرجعون يوم القيامة الى عذاب عظيم مؤبد في النار . وروي أن الآية نزلت في عيينة بن حصين واصحابه .

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٤٤ .

قوله تعالى:

وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٣) آية.

روي عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية في عشرة أنفس تخلفوا عن غزوة تبوك فيهم أبو لبابة، فربط سبعة منهم أنفسهم الى سواري المسجد الى أن قبلت توبتهم. وقيل: كانوا سبعة منهم ابو لبابة. وقال ابو جعفر عليه السلام: نزلت في ابي لبابة، ولم يذكر غيره، وكان سبب نزولها فيه ماجرى منه في غزوة بني قريظة وبه قال مجاهد. وقال الزهري: نزلت في أبي لبابة خاصة حين تأخر عن تبوك. واكثر المفسرين ذكروا أن أبا لبابة كان من جملة المتأخرين عن تبوك. وروي عن ابن عباس أنها نزلت في قوم من الأعراب. وقيل: نزلت في خمسة عشر نفساً ممن تأخر عن تبوك.

هذه الآية عطف على قوله «ومن أهل المدينة» أي ومنهم «آخرون اعترفوا بذنوبهم» أي أقروا بهامع معرفتهم بها فان الاعتراف هو الاقرار بالشيء عن معرفة، والاقرار مشتق من قرّ الشيء إذا ثبت. والاعتراف من المعرفة. وقوله «خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً» معناه انهم يفعلون افعالا جميلة، ويفعلون افعالا سيئة قبيحة، فيجتمعان، وذلك يدل على بطلان القول بالاحباط، لأنه لو كان صحيحاً لكان أحدهما إذا طرأ على الآخر أحبطه، فلا يجتمعان، فكيف يكون خلطاً. وقوله «عسى الله ان يتوب عليهم» قال الحسن وكثير من المفسرين: إن (عسى) من الله واجبة. وقال قوم: انما قال (عسى) حتى يكونوا على طمع واشفاق فيكون ذلك أبعد من الاتكال على العفو واهمال التوبة، والتقدير في قوله «خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً» اي بآخر سيء ومثله قولك: خلطت الماء واللبن

ايْ باللبن . وقد يستعمل ذلك في الجمع من غير امتزاج كقولهم : خلطت الدراهم والدنانير . وقال قوم : هو يجري مجرى قولهم : استوى المـاء والخشبة اي مع الخشبة . وقال اهل اللغة : خلط في الخير مخففاً وخلط في الشر مشدداً . وقولـه «ان الله غفور رحيم » تعليل لقبول التوبة من العصاة لأنه غفور رحيم .

قوله تعالى :

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٤) آية .

قرأ اهل الكوفة الا ابا بكر « إن صلاتك » على التوحيد ونصب التاء. الباقون على الجمع وكسر التاء ، لأنه جمع السلامة . فمن قرأ على التوحيد فلأنه مصدر يقع على القليل والكثير ، فـلا يحتاج الى جمعه . ومثله « لصوت الحمير » (١) ومما ورد في القرآن بلفظ التوحيد والمراد به الجمع قوله « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء »(٢) وقوله «أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» (٣) ومن جمع فلاختلاف الصلاة ، كما ان قوله « ان انكر الأصوات » (٤)جمع لاختلاف ضروبه والصلاة في اللغة الدعاء قال الأعشى في الخمر :

وقابلها الريح في دنها وصلى على دنها وارتسم (٥)

ومعنى « صلِّ عليهم » ادع لهم ، فان دعاءك سكن لهم بمعنى تسكن اليه

(١) سورة ٣١ لقمان آية ١٩ (٢) سورة ٨ الانفال آية ٣٥

(٣) سورة ٤ النساء آية ٧٦ وسورة ٢٢ الحج آية ٧٨ وسورة ٢٤ النور آية ٥٦ وسورة ٥٨ المجادلة آية ١٣ وسورة ٧٣ المزمل آية ٢٠

(٤) سورة ٣١ لقمان آية ١٩

(٥) ديوانه : ٢٩ القصيدة ٤ وقد سلف في ١/ ٥٦ ، ١٩٣

نفوسهم وتطيب به ، ولفظ التوحيد ـ ها هنا ـ أحسن لأن المراد دعاء النبي ﷺ لهم لا أداء الصلوات ،والجمع على ضروب دعائه . وقولهم : صلى الله على رسول الله وعلى ملائكته، ولايقال : إنه دعاء لهم من الله كما لايقال في نحو(ويل للمكذبين) أنه دعاء عليهم ،لكن المعنى أن هؤلاء ممن يستحق عندكم أن يقال فيهم هذا اللغو من الكلام . ومثله قوله « بل عجبت ويسخرون » (١) فيمن ضم التاء هذا مذهب سيبويه ، وذكر الفراء وغيره أن هؤلاء الذين تابوا وأفلحوا قالوا للرسول : خذ من أموالنا ماتريد، فقال رسول الله : لاأفعل حتى يؤذن لي فيه ، فأنزل الله « خذ من أموالهم صدقة » فأخذ منهم بعضاً وترك الباقي وروي ذلك عن ابن عباس وزيد بن اسلم وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ، وهي في أبي لبابة وجد بن قيس وأوس وحذام . وقوله « خذ من اموالهم صدقة » امر من الله تعالى أن يأخذ من المالكين لنصاب الزكاة : الورق إذا بلغ مئتين ،والذهب إذا بلغ عشرين مثقالا ،والابل إذا بلغت خمساً ، والبقر إذا بلغت ثلاثين ، والغنم إذا بلغت أربعين . والغلات اذا بلغت خمسةأوسق .

وقوله « خـذ من أموالهم » يدل على أن الأخذ من اختلاف الأموال ،لأنه جمعه . ولو قال: خذ من مالهم أفاد وجوب الاخذ من جنس واحد متفق . و(من) دخلت للتبعيض ، فكأنه قال : خذ بعض مختلف الأموال . وظاهر الآية لايدل على انه يجب أن يأخذ من كل صنف لأنه لو اخذ من صنف واحد لكان قد اخذ بعض الأموال وإنما يعـــلم ذلك بدليل آخر . والصدقة عطية ماله قيمة للفقر والحاجة . والبر عطية لاجتلاب المودة . ومثله الصلة .

وقوله « تطهرهم وتزكيهم بها » انما ارتفع (تطهرهم) لاحد امرين :

احدهما ـ ان تكون صفة للصدقةوتكون التاء للتأنيث، وقوله « بها »تبيين له والتقدير صدقة مطهرة .

---

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٢

والثاني ـ أن تكون التاء خطاباً للنبي صلى الله عليه وآله والتقدير فانك تطهرهم بها، وهو صفة للصدقة ايضاً الا انه اجتزأ بذكر (بها) في الثاني عن الاول. وقيل: انه يجوز ان يكون على الاستئناف، وحمله على الاتصال أولى، ولا يجوز ان يكون جواباً للامر لانه لو كان كذلك لكان مجزوماً. وقوله «وتزكيهم» تقديره وأنت تزكيهم على الاستئناف. وقيل في هذه الصدقة قولان: قال الحسن: انها هي كفارة الذنوب التي أصابوها، وقال أبو علي: هي الزكاة الواجبة. وأصل التطهير إزالة النجس، والمراد ـ ها هنا ـ إزلة النجس: الذنوب بما يكفرها من الطاعة. وقوله «وصل عليهم» أمر من الله تعالى للنبي أن يدعو لمن يأخذ منه الصدقة. وقال الجبائي: يجب ذلك على كل ساع يجمع الزكوات ان يدعوا لصاحبها بالخير والبركة، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله. وقوله «والله سميع عليم» معناه انه تعالى يسمع دعاءك لهم بنياتهم في الصدقة التي يخرجونها.

قوله تعالى:

أَلَمْ يَعلَمُوا أَنَّ ٱللهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ وَأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٥) آية.

الالف في قوله «ألم يعلموا» الف استفهام والمراد بها التنبيه على مايجب ان يعلم المخاطب اذا رجع الى نفسه وفكر فيما نبه عليه علم وجوباً. وإنما وجب ان يعلم ان الله يقبل التوبة، لانه اذا علم ذلك كان ذلك داعياً له الى فعل التوبة والتمسك بها والمسارعة اليها، وما هذه صورته وجب عليه ان يعلمه ليتخلص به من العقاب ويحصل له الثواب. وسبب ذلك انهم لما سألوا النبي صلى الله عليه وآله ان يأخذ من مالهم مايكون كفارة لذنوبهم فامتنع النبي من ذلك وقال: حتى يؤذن لي فيه فبين الله تعالى انه ليس الى النبي قبول توبتكم وان ذلك الى الله تعالى دونه، فانه

الذي يقبل التوبة ويقبل الصدقات . وفعل التوبة يستحق به الثواب لانها طاعة. فأما اسقاط عقاب المعاصي المتقدمة عندها فالعقل لايوجب ذلك . وانما علم ذلك سمعاً لان السمع قطع العذر بأن الله يسقط العقاب عند التوبة الصحيحة . وقد بينا في غير موضع فيما تقدم ان التوبة التي يسقط العقاب عندها قطعاً هي الندم على القبيح والعزم على ان لا يعود الى مثله في القبح ، لان الامة مجمعة على سقوط العقاب عند هذه التوبة وفيما خالف هذه التوبة خلاف .

وقوله « ويأخذ الصدقات » معناه انه يأخذها بتضمن الجزاء عليها كما تؤخذ الهدية كذلك . وقال ابو علي الجبائي : جعل الله أخذ النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين الصدقة أخذاً من الله على وجه التشبيه والمجاز ، من حيث كان بأمره . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله ان الصدقة قد تقع في يد الله قبل ان تصل الى يد السائل ، والمراد بذلك انها تنزل هذا التنزيل ترغيباً للعباد في فعلها ، وذلك يرجع الى تضمن الجزاء عليها .

وقوله « وان الله هو التواب الرحيم » عطف على قوله « الم يعلموا » ولذلك فتح (أن) لانها مفعول به . والتوّاب في صفة الله معناه انه يقبل التوبة كثيراً وفي صفة العبد يفيد انه يفعل التوبة كثيراً . وقيل في معنى « وتاب الله عليكم » (١) صفح عنكم ولم يكونوا اذنبوا فيتوبوا ليتوب الله عليهم وكذلك قوله « علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم » (٢) بمعنى صفح لانهم لم يتوبوا .

قوله تعالى :

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٦) آية .

---

(١) سورة ٥٨ المجادلة آية ١٣　　(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٨٧

هذا امر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للمكلفين « اعملوا » ماأمركم الله به من الطاعة واجتنبوا معاصيه فان الله « سيرى عملكم ورسوله والمؤمنون » وفي ذلك ضرب من التهديد، كما قال مجاهد، والمراد بالرؤية ها هنا العلم الذي هو المعرفة ولذلك عداه الى مفعول واحد، ولو كان بمعنى العلم الذي ليس بمعرفة لتعدّى الى مفعولين، وليس لأحد أن يقول: ان اعمال العباد من الحركات يصح رؤيتها لمكان هذه الآية، لأنه لو كان المراد بها العلم لعداه الى الجملة وذلك أن العلم الذي يتعدى الى مفعولين ما كان بمعنى الظن، وذلك لايجوز على الله وانما يجوز عليه ما كان بمعنى المعرفة. وروي في الخبر أن أعمال العباد تعرض على النبي ﷺ في كل اثنين وخميس فيعلمها. وكذلك تعرض على الأئمة عليهم السلام فيعرفونها، وهم المعنيون بقوله « والمؤمنون »، وإنما قال « فسيرى الله» على وجه الاستقبال. وهو عالم بالأشياء قبل وجودها، لأن المراد بذلك انه سيعلمها موجودة بعد أن علمها معدومة. وكونه عالماً بأنها ستوجد من كونه عالماً بوجودها إذا وجدت لايجدد حال له بذلك. وقوله « وستردون الى عالم الغيب والشهادة » معناه سترجعون الى الله الذي يعلم السر والعلانية « فينبئكم » اي يخبركم « بما كنتم تعملون » ويجازيكم عليه.

قوله تعالى:

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٧) آية.

قرأ أهل المدينة عن أبي بكر « مرجون » بغير همزة. الباقون بالهمزة. والوجه فيهما أنهما لغتان ... ويقال: أرجأت وأرجيت بمعنى واحد.

وهذه الآية عطف على قوله « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ... وآخرون اعترفوا بذنوبهم ... وآخرون مرجون لأمر الله » والارجاء تأخير الامر

الى وقت، يقال : أرجأت الأمر إرجاء وأرجيته بالهمزة وترك الهمزة لغتان .

وقوله « اما يعذبهم وإما يتوب عليهم » فلفظة (إمّا) لوقوع أحد الشيئين والله اعلم بما يصير اليه امرهم إلا ان هذا للعباد ، خوطبوا بما يعلمون . والمعنى وليكن امرهم عندكم على هذا اي على الخوف والرجاء . والآية تدل على صحة قولنا في جواز العفو عن العصاة ، لأنه تعالى بين ان قوماً من هؤلاء العصاة أمرهم مرجأ الى الله: ان شاء عذبهم وان شاء قبل توبتهم فعفا عنهم . فلو كان سقوط العقاب عند التوبة واجباً ، لما جاز تعليق ذلك بالمشيئة على وجه التخيير ، لأنهم ان تابوا وجب قبول توبتهم عند الخصم واسقاط العقاب عنهم ، وان أصرّوا ولم يتوبوا فلا يعفي عنهم ، فلا معنى للتخيير - على قولهم - وانما يصح ذلك على مانقوله : من أن مع حصول التوبة تحسن المؤاخذة فان عفا فبفضله وان عاقب فبعدله . وقوله « وإما يتوب عليهم » معناه وإما يقبل توبتهم . وقوله « والله عليم حكيم » معناه عالم بما يؤل اليه حالهم « حكيم » فيما يفعله بهم . والفرق بين الآخِر والآخر أن الآخِر يفيد أنه بعد الأول ، والآخر مقابل لأحد في تفصيل ذكر اثنين احدهما كذا والآخر كذا .

وقال مجاهد وقتادة : الاية نزلت في هلال بن امية الرافعي وفزارة بن ربعي وكعب بن مالك من الاوس والخزرج ، وكان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون عليه ، وانما تخلف توانياً عن الاستعداد حتى فاته المسير وانصرف رسول الله ولم يعتذر اليه بالكذب . وقال : والله مالي من عذر ، فقال صلى الله عليه وآله : صدقت فقم حتى يقضي الله فيك . وجاء الرجلان الآخران فقالا مثل ذلك وصدقاً ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن كلامهم بعد ماعذر المنافقين وجميع المتخلفين ، وكانوا نيفاً وثمانين رجلا فاقام هؤلاء الثلاثة على ذلك خمسين ليلة حتى هجرهم ولدانهم ونساؤهم طاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله بأمره . وبنى كعب خيمة على سلع يكون فيها وحده. وقال في ذلك:

أبعد دور بني القين الكرام وما شادوا علي بنيت البيت من سعف

ثم نزلت التوبة عليهم في الليل فأصبح المسلمون يبتدرونهم يبشرونهم ، قال كعب : فجئت الى رسول الله في المسجد وكان اذا سر يستبشر كأن وجهه فلقة قمر فقال لي ووجهه يبرق من السرور : ابشر بخير يوم طلع عليك شرفه منذ ولدتك أمك قال كعب ، فقلت له : أمن عند الله اومن عندك يارسول الله ؟ قال فقال : من عند الله . وتصدق كعب بثلث ماله شكراً لله على توبته .

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٨) آية .

قرأ ابن عامر وأهل المدينة « الذين اتخذوا » باسقاط الواو . الباقون باثبات الواو . فمن أثبت الواو ، عطفه على ما تقدم من الآيات وتقديره : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً ومن حذفها ابتدأ الكلام وحذف الخبر لطول الكلام قال الزهري، ويزيد بن رومان ،وعبدالله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة : نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلا من المنافقين ، قال الفراء : كانوا من بني عمرو ابن عوف من الأنصار . وقال غيره : كانوا من بني غنم ابن عوف من الأنصار الذين بنوا مسجد الضرار . وقيل انهم كانوا خمسة عشر رجلا منهم عبد الله بن نفيل ـ في قول الواقدي ـ وقال ابن اسحاق : هو نفيل بن الحارث ولم يذكر عبد الله وهذا المختلف في اسمه هو الذي كان ينقل حديث النبي الى المنافقين فأعلم الله نبيه ذلك . وأخبر الله عنهم انهم بنوا المسجد الذي بنوه ضراراً اي مضارة . ونصب على أنه مفعول له أي بنوه للمضارة . والضرار هو طلب الضرّ ومحاولته كما أن الشقاق

محاولة ما يشق ، تقول : ضاره مضارة وضراراً . والآية تدل على ان الفعل يقع بالارادة على وجه القبح دون الحسن ، أوالحسن دون القبح ، لأنهم لو بنوا المسجد للصلاة فيه لكان حسناً ، لكن لما قصدوا المضارة كان ذلك قبيحاً ومعصية .

وقوله « وتفريقاً بين المؤمنين » أي بنوه للمضارة والكفر والتفريق بين المؤمنين . وانما يكون تفريقاً بين المؤمنين بأن يتحزبوا ، فحزب يصلي فيه وحزب يصلي في غيره لتختلف الكلمة وتبطل الالفة . واتخذوه ايضاً ليكفروا فيه بالطعن على النبي ﷺ والاسلام والمسلمين . وقوله « وارصادا لمن حارب الله ورسوله » معناه اتخذوه له ليكون متى أراد الاجتماع معهم حضره وأنس به ، وهو رجل يقال له ابو عامر الراهب لحق بقيصر فتنصر وبعث اليهم سآتيكم بجند فأخرج به محمداً واصحابه. فبنوه يترقبونه، وهو الذي حزب الأحزاب وحارب مع المشركين ، فلما فتحت مكة هرب الى الطائف ، فلما اسلم اهل الطائف لحق بالشام وخرج الى الروم وتنصر ، وابنه عبد الله قتل يوم احد — وهوغسيل الملائكة — ذهب اليه اكثر المفسرين كابن عباس ومجاهد وقتادة. وأصل الارصاد الارتقاب تقول: رصده يرصده رصداً وأرصد له وراصده مراصدة وتراصد تراصداً وارتصده إرتصاداً .

وقوله « وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى » معناه إن هؤلاء يحلفون على أنهم ما أرادوا ببناء هذا المسجد إلا الحسنى يعني إلا الفعلة الحسنى ، فقال الله تعالى تكذيباً لهم « والله يشهد انهم لكاذبون » وكفى بمن يشهد الله بكذبه خزياً . ووجّه رسول الله ﷺ قبل قدومه من تبوك عاصم بن عون العجلاني ومالك بن الدخشم وكان مالك من بني عوف ، فقال لهما (انطلقا الى هذا المسجد الظالم اهله فاهدماه ثم حرّقاه) فخرجا يشتدّان سريعين على أقدامهما ففعلا ما أمرهما به فثبت قوم من جملتهم زيد بن حارثة بن عامر حتى أحترقت البتة .

قوله تعالى :

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٩) آية .

نهى الله نبيه ـ وعنى معه جميع المؤمنين ـ أن يقوموا في المسجد الذي بني ضراراً « ابـدا » أويصلوا فيه ، وأقسم ان المسجد الذي « أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه » وقيل في المسجد الـذي اسس على التقوى قولان :

احدهما ـ قال ابن عباس والحسن وعطية : إنه مسجد قباء .

وقال ابن عمر وابن المسيب : هـو مسجد المـدينة . وقال عمر بن شبه : المسجد الـذي اسس على التقوى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله والذي اسس على تقوى ورضوان مسجدقباء كذلك فصل بينهما . ورواه عن أشياخه . والتقوى خصلة من الطاعة يحترز بها من العقوبة ، والمتقي صفة مدح لاتطلق الا على مستحق الثواب . وواو (تقوى) ابدلت من الياء .لأنه من تقيت وانما ابدلت للفرق بين الاسم والصفة في الابنية ، ومثله شروى من شريت ، فأما الصفة فنحو خزياً . ولو قيل : كيف يبنى (فعلى) من قصيت ؟ قلت : قصوى في الاسم وقصيا في الصفة. وقوله « من أول يوم » معناه اول الأيام اذا ميزت يوماً يوماً ، لان افعل بعض ما اضيف اليه .ومثله اعطيت كل رجل في الـدار اي كل الرجال إذا ميزوا رجلا رجلا . والفرق بين من اول يوم ، ومنذ اول يوم ، ان (منذ) اذا كانت حرفاً ، فهي الوقت الخاص كقولك : منذ اليوم ومنذ الشهر ومنذ السنة ، وليس كذلك (من) وإذا كانت اسما وقع على ما بعدها على تقـدير كلامين و (من) على النهاية لأنها نقيض (الى)

قال زهير :

لمن الـديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن شهر (١)

وقوله « أحق أن تقوم فيه » مع أن القيام في الآخر قبيح منهي عنه، وانما قال ذلك على وجه المظاهرة بالحجة بأنه لو كان من الحق الذي يجوز لكان هذا أحق. ويجوز على هذا أن تقول: عمل الواجب أصلح من تركه. وقيل: المراد به القيام فيه حق ظاهراً وباطناً اذ كانت الصلاة في المساجد على ظاهرها حق.

وقوله « فيه رجال » الأولْ ظرف للقيام. والثاني ظرف لـكون الرجال وقوله « يحبون ان يتطهروا » قال الحسن: معناه يريدون أن يتطهروا من الذنوب وقيل: يتطهرون بالمـاء من الغائط والبول، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام ثم قال « والله يحب المطهرين » اي يريـد منافع المتطهرين من الذنوب وكذلك المتطهرين من النجاسة بالماء. وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لأهل قباء (ماذا تفعلون في طهركم فان الله أحسن عليكم الثناء) قالوا: نغسل أثر الغائط فقال (أنزل الله فيكم والله يحب المطهرين). وقيل: إن سبب نزول هذه الاية أن أهل مسجد ضرار جاءوا اليه، فقالوا يارسول الله بنينا مسجداً للضعيف في وقت المطر نسألك أن تصلي فيه وكان متوجهاً الى تبوك فوعدهم أن يفعل إذا عاد فنهاه الله عن ذلك. وقوله « والذين اتخذوا مسجداً » مبتدأ وخبره في قوله « لاتقم فيه ابداً » كما تقول: والذي يدعوك الى الغي فلا تسمع دعاءه. والتقدير في الآية لاتقم في مسجدهم أبداً، واسقط ذلك اختصاراً.

قوله تعالى:

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ

(١) اللسان (حجر) وتفسير القرطبي ٨/٢٦٠

لا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (١١٠) آية .

قرأ نافع وابن عباس « أسس بنيانه » بضم الهمزة وكسر السين ورفع النون من بنيانه في الموضعين جميعاً . الباقون بفتح الهمزة ونصب النون من بنيانه .وقرأ ابن عامر الا الداحوني عن هشام وحمزة وخلف وأبوا بكر الا الاعشي والبرجمي « جرف » بسكون الراء . الباقون بضمها . وقرأ ابو عمرو والكسائي والداحوني عن ابي ذكوان وهبة الله عن حفص من طريق النهرواني والدوري عن سليم من طريق ابن فرج وابو بكر الا الأعشى والبرجمي « هار » بالامالة . وافقهم على الوقف علي بن مسلم وابن غالب ومحمد في الوقف من طريق السوسي من طريق ابن جيش . قال ابو علي الفارسي : البنيان مصدر ، وهو جمع كشعير وشعيرة لأنهم قالوا في الواحد بنيانة قال أوس :

كبنيانة القريّ موضع رحلها وآثار نسعيها من الدف أبلق

وجاء بناء المصادر على هذا المثال في غير هذا الحرف نحو الغفران وليس بنيان جمع بناء ، لأن فعلاناً اذا كان جمعاً نحو كثبان وقضبان لـم تلحقه تاء التأنيث ، وقد يكون ذلك في المصادر ، نحو : أكل وأكلة وضرب وضربة من ذلك. وقال ابو زيد يقال : بنيت أبني بنياً وبناء وبنية وجمعها البنى وأنشد :

بنى السماء فسواها ببنيتها ولم تمد باطناب ولا عمـد

فالبناء والبنية مصدران ومن ثم قوبل به الفراش في قوله « الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء »(١) فالبناء لما كان رفعاً للمبني قوبل به الفراش الذي هو خلاف البناء . ومن ثم وقع على ما كان فيه ارتفاع في نصبته وان لم يكن مبنياً فأما من فتح الهمزة وبنى الفعل للفاعل ، فلأنه الباني والمؤسس فأسند الفعل اليه وبناه له كما اضاف البنيان اليه في قوله « بنيانه » فكما ان المصدر مضاف الى الفاعل

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢ .

كذلك يكون الفعل مبنياً له. ومن بنى الفعل للمفعول لم يبعد ان يكون في المعنى كالاول ، لأنه إذا أسس بنيانه فتولى ذلك غيره بأمره كان كبنائه هو له . والأول أقوى لما قلناه . وقال ابو علي (الجرف) - بضم العين - هو الأصل ، والاسكان تحفيف ومثله الشغل والشغل . ومثله الطنب والطنب . والعنق والعنق ، يجوز في جميعه التثقيل والتخفيف . وكلاهما حسن وقال ابو عبيدة « على شفا جرف هار» مثل ، قال : لأن ما يبنى على التقوى فهو أثبت أساساً من بناء يبنى على شفا جرف ويجوز ان تكون المعادلة وقعت بين البنائين ، ويجوز أن تكون بين البناءين ، فاذا عادلت بين البنائين كان المعنى المؤسس بنيانه متقناً خير ام المؤسس بنيانه غير متقن لأن قوله « على شفا جرف » يدل على أن بانيه غير متق لله . ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف كأنه قال : أبناء من أسس بنيانه على تقوى خير أم بناء من أسس بنيانه على شفا جرف. والبنيان مصدر يراد به المبني ، كما أن الخلق يراد به المخلوق إذا أردت ذلك ، وضرب الامير اذا اردت به المضروب . وكذلك نسج اليمن يراد به المنسوج ، فانما قلنا ذلك لأنه لا يجوز أن يراد به الحدث ، لأنه إنما يؤسس المبني الذي هو عين ، يبين ذلك قوله « على شفا جرف » والحدث لا يكون على شفا جرف . والجار في قوله « على تقوى » وفي قوله « على شفا جرف » في موضع نصب ، والتقدير افمن اسس بنيانه متقياً خير ام من اسس بنيانه معاقباً على بنيانه ، وفاعل (انهار) البنيان ، وتقديره انهار البنيان بالباني في نار جهنم ، لأنه معصية وفعل لما كرهه الله من الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين . ومن أمال « هار » فقد أحسن لما في الراء من التكرير فكأنك لفظت براءين مكسورتين وبحسب كثرة الكسرات تحسن الامالة . ومن لم يمل فلأن كثيراً من العرب لا يميلون هذه الألفات . وترك الامالة هو الأصل . وأما ألف « هار » فمنقلبة عن الواو ، لأنهم قالوا : تهوّر البناء إذا تساقط وتداعى ، والانهيار والانهيال متقاربان في المعنى . والالف في قوله « أفمن » الف استفهام يراد بها - ها هنا - الانكار

ومعنى « خير » في الآية أفضل ، وليس فيه إشتراك ، يقولون : هذا خير ، وهذا شر ، ولا يراد به (أفعل من) قال الشاعر :

والخير والشر مقرونان في قرن فالخير متبع والشر محذور

وأما قوله : وافعل الخير معناه افعلوا الأفضل . و (الشفا جرف) الشيء وشفيره وجرفه نهايته في المساحة ويثنى شفوان ، والجرف جرف الوادي وهو جانبه الذي ينحفر بالماء أصله فيبقى واهياً ، وهو من الجرف والاجتراف ، وهو اقتلاع الشيء من أصله . ومعنى (انهار) انصدع بالتهدم هار الجرف يهور هوراً فهو هائر وتهور تهوراً وانهار انهياراً ، ويقال ايضاً : هار يهار ، وأصل هار هائر إلا انه قلب كما قال الشاعر :

لاث به الأشاء والعبري (١)

اي لائث بمعنى دائر ،ومثله شاك في السلاح وشائك . والاشاء النخل،والعبري السدر الذي على ساقي الأنهار ، ومعنى لاث أي مطيف به .

شبه الله تعالى بنيان هؤلاءالمنافقين مسجد الضرار ببناء يبنى على شفير جهنم فانهار ذلك البناء بأهله في نار جهنم ، ووقع فيه . وروي عن جابر بن عبد الله انه قال : رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان، وهو قول ابن جريح .

قوله تعالى :

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١١) آية.

قرأ ابن عامر وحمزة وحفص وابو جعفرويعقوب «تقطع »بفتح التاء الباقون بضمها . وقرأ يعقوب وحده « الى ان » على أنه حرف جر .

(١) اللسان (عبر)(اوث) (لثي) والتاج (عبر) ومجاز القرآن١/٢٦٩

وقوله « لايزال » من اخوات (كان) ترفع الاسم وتنصب الخبر. وانما عمل في الاسم والخبر، لأنه إنما يتعلق في معنى الجملة، فيدل على انه يدوم إذ المعنى فيه أن يكون الشيء على الصفة أبداً. قال ابو علي: البنيان مصدر واقع على المبني وتقديره لايزال بناء المبني الذي بنوه ريبة أي شكاً في قلوبهم فيما كان من إظهار اسلامهم وثباتاً على النفاق الى أن تقطع قلوبهم بالموت والبلى لايخلص لهم إيمان ولا ينزعون عن النفاق الى ان تقطع قلوبهم بالموت والبلى. ومن قرأ « الى ان تقطع » فانه يريد حتى تبلى وتقطع بالبلى أي لاتثلج قلوبهم بالايمان ابداً ولا ينزعون عن الخطيئة في بناء المسجد ولا يتوبون. ومن ضم الياء اضاف الفعل الى المقطع المبلي المقلوب بالموت، ومن فتحها اسند الفعل الى القلوب لما كانت هي البالية، كما قالوا: مات زيد ومرض عمرو، ووقع الحائط. وفي قراءة ابي (حتى الممات).

ومعنى قوله « الذي بنوا » مع قوله « بنيانهم » انما هو ليعلم ان البناء ماض دون المستقبل اذ قد تجوز الاضافة على جهة الاستقبال كقولك للغير: أقبل على عملك. وقيل في معنى الريبة في الاية ثلاثة اقوال: احدها ــ ان هذا البنيان الذي بنوه لايزال شكاً في قلوبهم. وقيل معناه حزازة في قلوبهم، وقيل حسرة في قلوبهم يترددون فيها. وقوله « الا ان تقطع قلوبهم » موضع « ان تقطع » نصب والتقدير الا على تقطع قلوبهم غير ان حرف الاضافة يحذف مع (ان) ولا يحذف مع المصدر. ومعنى (إلا) ها هنا (حتى) لأنه استثناء من الزمان المستقبل، والاستثناء منه منتد اليه فاجتمعت مع (حتى) في هذا الموضع على هذا المعنى. قال الزجاج: يحتمل ان يكون المراد الا ان يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً واسفاً على تفريطهم. وقوله « والله عليم حكيم » اي عالم بنيتهم في بناء مسجد الضرار « حكيم » في امره بنقضه والمنع من الصلاة فيه.

قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١٢) آية

قرأ حمزة والكسائي «فيقتلون ويقتلون» على مفعول وفاعل. الباقون على فاعل ومفعول. من قدم الفعل المسند الى الفاعل، فلأنهم يقتلون اولا في سبيل الله ويقتلون، ولا يقتلون اذا قتلوا. ومن قدّم الفعل المسند الى المفعول جاز أن يكون اراد ذلك المعنى ايضاً لأن المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم وان لم يقدّر ذلك كأن المعنى يقتل بعضهم ويقتل من بقي منهم بعد قتل من قتل منهم، كما أن قوله «فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله» (١) ومعناه ماوهن من بقي منهم لقتل من قتل من المؤمنين. وحقيقة الاشتراء لاتجوز على الله تعالى، لأن المشتري انما يشتري مالا يملك، والله تعالى مالك الأشياء كلها. وانما هو كقوله «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً» (٢) في أنه اجري بحسن المعاملة والتلطف في الدعاء الى الطاعة مجرى مالا يملكه المعامل فيه، ولما كان الله تعالى رغب في الجهاد وقتال الأعداء وضمن على ذلك الثواب عبر عن ذلك بالاشتراء، فجعل الثواب ثمناً والطاعات مثمناً على ضرب من المجاز، وكما أن في مقابلة الطاعة الثواب فكذلك في مقابلة الألم العوض غير أن الثواب مقترن بالاجلال والاكرام، والعوض خال منهما، والمثاب محسن مستحق على احسانه المدح وليس كذلك المعوض.

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٦ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥

أخبر الله تعالى أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بما ضمن لهم على بذلها من الثواب في قوله « بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله » اعداء الله واعداء نبيه فيقتلون اعداء الله ويقتلهم اعداء الله فيصبرون على ذلك . ومن قدم المفعول اراد يقتل بعضهم ، فيقتل الباقون أعداء الله .

وقوله « وعداً عليه حقاً » نصب (وعداً) على المصدر بما دل عليه اشترى اذ يدل على أنه وعد، ومثله « صنع الله الذي أتقن كل شيء » (١) و«فطرة الله التي فطر الناس عليها » (٢) والوعد خبر بما يفعله المخبر من الخير بغيره . والوعيد خبر بما يفعله المخبر من الشر بغيره . وقوله « حقاً » معناه يتبين الوعد بالحق الواجب من الوعد بما لم يكن واجباً . فالوعد بالثواب دل على وجوبه من وجهين : احدهما ـ من حيث انه جزاء على الطاعة . والثاني ـ أنه إنجاز الوعد . وقوله « في التوراة والانجيل والقرآن » معناه إن هذا الوعد للمجاهدين مذكور في هذه الكتب . قال الزجاج : وذلك يدل على أن الجهاد كان واجباً على أهل كل ملة . وقوله « ومن اوفى بعهده من الله؟! » معناه لا أحد أحق بالوفاء بالعهد من الله « فاستبشروا » ايها المؤمنون « ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » يعني ذلك الشراء والبيع هو الفلاح العظيم الذي لا يقارنه شيء .

قوله تعالى :

ٱلتَّائِبُونَ ٱلْعَابِدُونَ ٱلْحَامِدُونَ ٱلسَّائِحُونَ ٱلرَّاكِعُونَ ٱلسَّاجِدُونَ ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٣) آية

قيل في ارتفاع قوله « التائبون » ثلاثة اقوال : احدها ـ انه ارتفع بالمدح

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٨٨ (٢) سورة ٣٠ الروم آية ٣٠

والتقدير هم التائبون . الثاني ـ بالابتداء وخبره محذوف بعد قوله : « والحافظون لحدود الله » لهم الجنة . الثالث ـ على أن يكون بدلا من الضمير في « يقاتلون» أي إنما يقاتل في سبيل الله من هـذه صفته . وقيل هو كقولـه « لكن الرسول و الذين آمنوا معه(١) ... التائبون » وقرأ أبي كل ذلك بالنصب على أنـه صفة للمؤمنين .

وصف الله تعالى المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنهم التائبون ومعناه الراجعون الى طاعـة الله المنقطعون اليه والنادمون على مافعلوه من قبيح « العابدون » اي يعبدون الله وحـده لاشريك له « الحامدون » يعني الشاكرون لنعم الله عليهم على وجه الاخلاص له . وقال الحسن : هم الذين يحمدون الله على كل حال في سرّاء كانوا اوضرّاء، وبه قال قتادة . « السائحون » قيل معناه الصائمون وقال المؤرج : السائحون الصائمون بلغة هذيل . وروي عن النبي ﷺ انـه قال (سياحة امتي الصوم) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد . وقال الحسن : هم الذين يصومون ما افترض الله عليهم .وقال غيره : هم الذين يصومون دائماً وكذلك قال في قوله « الراكعون الساجدون » انهم الـذين يؤدون ما افترض الله عليهم من الصلاة والركوع والسجود .وأصل السيح الاستمرار بالذهاب في الأرض كما يسيح الماء فالصائم مستمر على الطاعة في ترك المشتهى من المآكل والمشارب والمنكح .

وقوله « الراكعون الساجدون » معناه الذين يقيمون الصلاة التي فيها الركوع والسجود « الامرون بالمعروف والناهون عن المنكر» معناه الذين يأمرون بما امر الله به من الواجبات والمندوبات وينهون عمّا نهى الله عنه وزهد فيه من القبائح . وانما عطف الناهون بالواو دون غيره من الصفات لأنه لايكاد يذكر على الافراد بل يقال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فجاءت الصفة مصاحبة للاولى ،فأما

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٩

قوله « والحافظون » فلأنـه جاء وهو أقرب الى المعطوف ، ومعنى « الحافظون لحدود الله » انهم يحفظون ماأمر الله به ونهى عنه فلا يتجاوزونه الى غيره . وقوله : « وبشر المؤمنين » امر للنبي ﷺ ان يبشر المؤمنين المصدقين بالله المعترفين بنبوته بالثواب الجزيل والمنزلة الرفيعة وخاصة إذا جمعوا هذه الأوصاف على كمالها وتمامها دون غيرهم .

قوله تعالى :

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ (١١٤) آية .

أخبر الله تعالى أنه لم يكن « للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا » ومعناه أن يطلبوا المغفرة « للمشركين » الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر والذين لايوحدونه ولايقرّون بالاهيته « وان كان » الذي يطلب لهم المغفرة أقرب الناس اليهم بعد أن يعلموا أنهم كفار مستحقون للخلود في النار . والقربى معناه القرب في النسب بالرجوع الى أب أو أم باضافة قريبة . ومعنى قوله « ولو كانوا أولي قربى » أي القرابة وإن دعت الى الحنو والرقة ، فانه لا يلتفت الى دعائها في الخصلة التي نهى الله عنها .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٥) آية .

لما ذكر الله تعالى أنه ليس للنبي والذين آمنوا أن يطلبوا المغفرة للمشركين

بين الوجه في استغفار ابراهيم لابيه مع أنه كان كافراً سواء كان أباه الذي ولده او جده لأمه أو عمه على مايقوله أصحابنا . وهو أن قال : وجه حسن ذلك أنه كان تقدم ذلك موعدة ، فلأجلها وجب عليه الوفاء به .

وقيل في معنى الموعدة التي كانت عليه في حسن الاستغفار قولان :

احدهما ــ ان الموعدة كانت من ابي إبراهيم لابراهيم أنه يؤمن إن استغفر له فاستغفر له لذلك وطلب له الغفران بشرط أن يؤمن « فلما تبين له » بعد ذلك « أنه عدو لله تبرأ منه » .

والثاني ــ أن الوعد كان من ابراهيم بالاستغفار مادام يطمع في الايمان كما قال « إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وماأملك لك من الله من شيء »(١) فاستغفر له على مايصح ويجوز من شرائط الحكمة « فلما تبين له انه عدو لله » وآيس من ايمانه « تبرأ منه » . والذي عندي وهو الأقوى أن أباه أظهر له الايمان وصار اليه ، وكان وعده أن يستغفر له إن آمن فلما أظهر الايمان استغفر له ، فأعلمه الله ان ماظهر منه بخلاف مايبطنه « فتبرأ منه » ويقوي ذلك قوله « واغفر لأبي إنه كان من الضالين » (٢) اي فيما مضى ، ويجوز أن يكون أظهر الكفر بعد ذلك فلما تبين ذلك تبرأ منه . فأما من قال : إن الوعد كان من ابراهيم فالسؤال باق لأن لقائل أن يقول ولم وعد كافراً أن يستغفر له ؟ فان قلنا : وعده بأن يستغفر له إن آمن كان الرجوع الى الجواب الآخر .

والعداوة هي الابعاد من النصرة الى اعداد العقوبة . والولاية التقريب من النصرة من غير فاصلة بالحياة والكرامة .

وقوله « إن ابراهيم لأواه حليم » قيل في معنى « أواه » ثمانية اقوال : فقال ابن عباس في معنى (اواه) تواب . وقال ابن مسعود : معناه دعاء . وقال الحسن وقتادة : معناه رحيم . وقال مجاهد : معناه موقن . وقال كعب : معناه اذا

(١) سورة ٦٠ الممتحنة آية ٤ (٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٨٦

ذكر النار قال أوه . وقال الضحاك : معناه المؤمن الموقن بالخشية الرحيم . وقال آخرون : معناه فقيه . وقال ابو عبيدة : معناه المتوجع المتضرع الى الله خوفاً وإشفاقاً . وأصل الأواه من التأوه وهو التوجع والتحزن تقول ، تأوه تأوهاً وأوه تأويهاً ، قال المثقب العبدي :

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوهِ آهة الرجل الحزين (١)

والعرب تقول : أوه من كذا بكسر الواو وتسكين الهاء قال الشاعر :

فأوه لذكراها إذا ماذكرتها ومن بعد أرض دونها وسماء(٢)

والعامة تقول :أوه يقال ايضاً أوه بكسون الواو و كسر الهاء وينشد البيت المتقدم ذكره كذلك ، وقال الجعدي :

صروح مروح يتبع الورق بعدما يعرس شكوى آهـة وتنمرا(٣)

وقال الراجز :

فأوه الداعي وضوضاء أكلبه (٤)

ولو جاء منه (فعل يفعل) لكان آه يؤوه أوهاً على وزن (قال يقول قولا) والحليم هو الممهل على وجه حسن . والحلم الامهال على ماتقتضيه الحكمة . وهي صفة مدح . والله حليم عن العصاة بأمهاله لهم مع قدرته على تعجيل عقوبتهم وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إنما تبين عداوته لما مات على كفره . وقال ابو علي الجبائي : لما آيس من فلاحه عند تصميمه على بعد الوعـد في الايمان بالله الذي

(١) ديوانـه : ٢٩ ومجاز القرآن ١ / ٢٧٠ واللسان (أوه) وتفسير الطبري ١٤ / ٥٣٥ يصف ناقته بأنها تحن الى الديار .

(٢) اللسان (أوه) والطبري ١٤/ ٥٣٥

(٣) ديوانه : ٣٣ ، ٥٢ وجمرة أشعار العرب : ١٤٦ والطبري ١٤ / ٥٣٤ ويروى (خنوف) و (ظروح) و (طروح) بدل (صروح) .

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٥٣٥

كان وعد باظهاره في وقت بعينه .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدٰيهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٦) آية .

قال مجاهد : وجه اتصال هذه الاية بما قبلها هو أنه لما حرم الله تعالى على المؤمنين الاستغفار للمشركين بين أنه لم يكن الله ليآخذكم به إلا بعد ان يدلكم على تحريمه وأنه يجب عليكم أن تتقوه .

وقوله « ليضل قوماً » معناه ـ ها هنا ـ لم يكن الله ليحكم بضلال من عدل عن طريق الحق على وجه الذم له إلا بعد أن ينصب له على ذلك الدليل ، والهدى هو الحكم بالاهتداء الى الحق على وجه الحمد له . والبيان والبرهان والحجة والدلالة بمعنى واحد ، وفرق الرّماني بين البيان والبرهان ، فقال : البيان إظهار المعنى في نفسه بمثل اظهار نقيضه . والبرهان اظهار صحته بما يستحيل في نقيضه كالبيان عن معنى قدم الاجسام ومعنى حدوثها ، فالبرهان يشهد بصحة حدوثها وفساد قدمها . وقال مجاهد : معناه حتى يبين لهم مايتقون من ترك الاستغفار للمشركين لأنهم كانوا يستغفرون لهم ، فلما نهوا عنه انتهوا . وقوله « ان الله بكل شيء عليم » معناه انه يعلم جميع المعلومات حتى لايشذ شيء منها عنه لكونه عالماً لنفسه . وقال الحسن : مات قوم من المسلمين على الاسلام قبل فرض الصلاة والزكاة وغيرهما من فرائض الدين . فقال المسلمون : يارسول الله اخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض مامنزلتهم ؟ فقال الله تعالى « وما كان الله ليضلّ قوماً » وهم مؤمنون ولم يبين لهم الفرائض .

قوله تعالى

إِنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٧) آية .

وجه اتصال هذه الاية بما قبلها الحض على ما تقدم ذكره من جهاد المشركين ملوكهم وغير ملوكهم ، لأنهم عبيد من له ملك السماوات والأرض يأمر فيهم مايشاء ويدبرهم على مايشاء. فأخبر الله ان « له ملك السماوات والأرض » ومعناه انه قادر على التصرف فيهما وليس لأحد منعه منهما . والملك اتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير . وخزائن الله لاتفنى وملكه لايبيد ولا يبلى ، وكل ذلك يرجع الى مقدوراته في جميع اجناس المعاني . وقوله « يحيي ويميت » معناه انه يحيي الجماد ويميت الحيوان . والحياة معنى يوجب كون الحيوان حياً . والحي المختص بصفة لايستحيل معها كونه عالماً قادراً. والموت عند من اثبته معنى هو مايضاد الحياة . ومن لايثبته معنى ، يقول : هو عبارة عن فساد بنية الحياة . وقوله « ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير » فالولي هو المقرب بالنصرة من غير فاصلة . والانسان ولي الله ، لأنه يقربه بالنصرة من غير فاصلة . والله وليه بهذا المعنى ، والنصير والاستنصار طلب النصرة والانتصار والانتصاف بالنصرة .

قوله تعالى:

لَقَدْ تَابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٨) آية .

قرأ حمزة وحفص « يزيغ » بالياء . الباقون بالتاء . قال أبو علي النحوي: يجوز أن يكون فاعل (كاد) احد ثلاثة اشياء :

احدها ـ ان يضمر فيه القصة أو الحديث ويكون (تزيغ) الخبر وجاز ذلك للزوم الخبر لها ، فأشبه العوامل الداخلة على الابتداء للزوم الخبر لها ، ولا يجوز ذلك في (عسى) لأن (عسى) يكون فاعله المفرد في الاكثر ولايلزمه الخبر ، نحو قوله « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » (١) فاذا كان فاعله المفرد في كثير من الأمر لم يحتمل الضمير الذي احتمله (كاد) كما لم تحتمله سائر الأفعال التي تسند الى فاعلها مما لا يدخل على المبتدأ . وما يجيء في الشعر من كاد أن يفعل ، وعسى يفعل ، فلا يعتد به ، لأنه من ضرورة الشعر .

الثاني ـ من فاعل (كاد) أن يضمنه ذكراً مما تقدم ، ولما كان النبي صلى الله عليه وآله والمهاجرون والأنصار قبيلا واحداً وفريقاً جاز أن يضمر في (كاد) مايدل عليه ما تقدم ذكره من القبيل والحزب والفريق . وقال : منهم من حمله على المعنى كما قال « من آمن بالله واليوم الآخر » ثم قال « فلا خوف عليهم » (٢) فكذلك فاعل (كاد) .

والثالث ـ من فاعل (كاد) أن يكون فاعلها (القلوب) كأنه من بعد ماكاد قلوب فريق منهم تزيغ وإنما قدم (تزيغ) كما قدم خبر كان في قوله « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » (٣) وجاز تقديمه وإن كان فيه ضمير من القلوب لم يكن ذلك من الاضمار قبل الذكر ، لأن النية به التأخير . ومن قرأ بالياء يجوز ان يكون جعل في (كاد) ضمير الحديث فاذا اشتغل (كاد) بهذا الضمير ارتفع القلوب

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢١٦

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٦٢ ، وسورة ٥ المائدة آية ٧٢

(٣) سورة ٣٠ الروم آية ٤٧ .

بـ (تزيغ) فـذكر وان كان فاعله مؤنثاً لتقدم الفعل . ومن قرأ بالتاء جاز أن يكون ذهب الى أن القلوب مرتفعة بـ (كاد) فلا يكون يرفع فعلا مقدماً فاذا لم يكن مقدماً قبح التذكير لتقدم ذكر الفاعل كما قبح في قول الشاعر :

ولاأرض أبقل إبقالها (١)

ولم يصح أبقل أرض ، ويجوز أن يكون الفعل المسند على القصة والحديث يؤنث اذا كان في الجملة التي تفسيرها مؤنث كقوله « فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا » (٢) ويجوز إلحاق التاء في « كاد » من وجه آخر ، وهو أن يرفع «تزيغ قلوب » بـ « كاد » فتلحقه علامة التأنيث من حيث كان مسنداً الى مؤنث كقوله « قالت الأعراب » (٣) فعلى هذا يكون في « تزيغ » ضمير القلوب ، لأن النية في « تزيغ » التأخير .

اقسم الله تعالى فيهذه الاية ـ لأن لام « لقد » لام القسم ـ بأنه تعالى تاب على النبي والمهاجرين والأنصار بمعنى أنه رجع اليهم ، وقبل توبتهم « الذين اتبعوه في ساعة العسرة » يعني في الخروج معه الى تبوك . و « العسرة » صعوبة الأمر وكان ذلك في غزوة تبوك لأنه لحقهم فيها مشقة شديدة من قلة الماء حتى نحروا الابل وعصروا كروشها ومصوا النوى . وقل زادهم وظهرهم ـ في قول مجاهد وجابر وقتادة ـ وروي عن عمر أنه قال : أصابنا عطش شديد فأمطر الله السماء بدعاء النبي صلى الله عليه وآله فعشنا بذلك « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » والزيغ ميل القلب عن الحق ، ومنه قوله « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (٤) ومنه قوله « لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » (٥) وكان أبو خيثمة عبد الله بن خيثمة تخلف الى ان مضى من مسير رسول الله عشرة أيام ثم دخل يوماً على امرأتين له ـ في يوم حار ـ عريشين

(١) مر تخريجه في ١/ ١٢٦
(٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٧
(٣) سورة ٤٩ الحجرات آية ١٤
(٤) سورة ٦١ الصف آية ٥
(٥) سورة ٣ آل عمران آية ٨

لهما قد رشتاهما وبردتا الماء وهيأتا له الطعام ، فقام على العريشين فقال : سبحان الله رسول الله قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر في الضح والريح والحر والقر يحمل سلاحه على عاتقه وأبو خيثمة في ظلال باردة وطعام مهيأ وأمرأتين حسناوين ماهـذا بالنصف ، ثم قال . والله لأكلم واحدة منكما كلمة ولادخل عريشاً حتى الحـق بالنبي ﷺ فأناخ ناضحه واشتد عليه وتزود وارتحل وامرأتاه تكلمانـه ولايكلمهما ثم سار حتى اذا دنا من تبوك ، قال الناس : هذا راكب على الطريق فقال النبي ﷺ كن ابا خيثمة ، فلما دنا قال الناس : هذا أبو خيثمة يارسول الله فأناخ راحلته وسلم على رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ أولى لك . فحدثـه الحديث ، فقال لـه خـيراً ، ودعا له ، فهو الذي زاغ قلبه للمقام . ثم ثبته الله . وقيل : إن من شدة مالحقهم همّ كثير منهم بالرجوع فتاب الله عليهم ، وقيل مـن بعد ما كان شك جماعة منهم في دينه ثم تابوا فتاب الله عليهم . وقولـــه « ثم تاب عليهم » أي رجع عليهم بقبول توبتهم « إنه بهم رؤف رحيم » إخبار منه تعالى أنـه بهم رؤوف ، فالرأفة أعظم الرحمة ، قال كعب بن مالك الانصاري :

نطيع نبينا ونطيع رباً ... هو الرحمن كان بنا رؤوفا«١»

وقال آخر :

ترى للمسلمين عليك حقاً ... كمثل الوالد الرؤف الرحيم «٢»

قوله تعالى :

وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ

---

(١) مر تخريجه في ١٢/٢ وهو مجاز القرآن ٢٧٠/١

(٢) اللسان «رأف» نسبه الى جرير وروايته« يرى للمسلمين عليه» .و« كفعل» بدل « كمثل » ومجاز القرآن ٢٧١/١

بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٩) آية

تقدير الكلام وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا . وقيل نزلت هذه الاية بسبب الثلاثة الذين تخلفوا عن غزاة تبوك ولم يخرجوا مع النبي ﷺ لا عن نفاق، لكن عن توان ، ثم ندموا، فلما ورد النبي ﷺ جاءوا اعتذروا ، فلم يكلمهم النبي ﷺ وتقدم الى المسلمين بأن لا يكلمهم أحد منهم فهجرهم الناس حتى الصبيان وأهاليهم وجاءت نساؤهم الى رسول الله ﷺ تعتزلهم ، فقال: لا ولكن لا يقربونكن فضاقت عليهم المدينة ، فخرجوا الى رؤس الجبال ، فكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ويتركونه لهم ولا يكلمونهم ، فقال بعضهم لبعض : قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد ، فهلا نتهاجر نحن ايضاً ، فتفرقوا ولم يجتمع منهم اثنان ، وثبتوا على ذلك نيفاً وأربعين يوماً . وقيل سنة يضرعون الى الله تعالى ويتوبون اليه ، فقبل الله تعالى حينئذ توبتهم ، وانزل فيهم هذه الاية والثلاثة هم كعب بن مالك وهلال بن امية وفزارة بن ربيعة ، وكلهم من الأنصار - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجابر - والتخليف تأخير الشيء عمن مضى ، فأما تأخير الشيء عنك في المكان ، فليس بتخليف ، وهو من الخلف الذي هو مقابل لجهة الوجه . وقال مجاهد : خلفوا عن قبول التوبة بعد قبول توبة من قبل توبته من المنافقين ، كما قال تعالى فيما مضى « وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم » (١) وقال قتادة «خلفوا» عن غزوة تبوك كما تخلفوا هم . وبه قال الحسن . وفي قراءة اهل البيت عليهم السلام « خالفوا » قالوا لأنهم لو خلفوا لما توجه عليهم العتب .

وقوله « حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت » فالضيق ضد السعة ومنه ضيق الصدر ، خلاف اتساعه بالهم الذي يحدث فيه فيشغله عن غيره ، وليس كذلك

(١) سورة ٩ التوبة آية ١٠٧

السرور لأنه لايشغل عن ادراك الامور. ومعنى « بما رحبت » اي بما اتسعت تقول: رحبت رحباً ، ومنه مرحباً واهـلا اي رحبت بلادك واهلت ، وضيق انفسهم ههنا بمعنى ضيق صدورهم ، بالهم الذي حصل فيها . وقولـــه « وظنوا ان لاملجأ من الله إلا اليه » معناه وعلموا انـه لايعصمهم منه موضع إذا اعتصموا به والتجؤا اليه كأنه قال: لامعتصم من الله إلا به ، لجأ يلجأ لجاء و ألجأه الى كذا إلجاء إذا صيره اليه بالمنع من خلافه . والتجأ اليه التجاء وتلاجؤا تلاجؤاً. وقوله « ثم تاب عليهم ليتوبوا » قيل في معناه ثلاثة اقوال: احدها ـ لطف لهم في التوبة ، كما يقال في الدعاء: تاب الله عليه . الثاني ـ قبل توبتهم ليتمسكوا بها في المستقبل . الثالث ـ قبل توبتهم لـــيرجعوا الى حال الرضا عنهم . وقال الحسن: جعل لهم التوبة ليتوبوا بها ، والمخرج ليخرجوا به . وقوله « ان الله هو التواب الرحيم » اخبار منه تعالى بأنه يقبل توبة عباده كثيراً ويغفر ذنوبهم إذا رجعوا اليه لرحمته عليهم ورأفته بهم . وكان أبو عمرو يحكي عن عكرمة بن خالد « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » بفتح الخاء والتخفيف وكان لايأخذ بها . فان قيل: ما معنى التوبة عليهم واللائمة لهم وهم قد خلفوا فهلا عذروا ؟

قيل: ليس المعنى انهم أمروا بالتخلف اورضي منهم به بل كقولك لصاحبك: أين خلفت فلاناً ؟ فيقول: بموضع كذا ليس يريد انه امره بالتخلف هناك بل لعله ان يكون نهاه وانما يريد انه تخلف هناك .

قوله تعالى:

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ (١٢٠) آية

هذا امر من الله تعالى للمؤمنين المصدقين بالله والمقرين بنبوة نبيه بأن يتقوا معاصي الله ويجتنبوها وأن يكونوا مع الصادقين الذين يصدقون في اخبارهم ولا يكذبون ، قال ابن مسعود: لايصلح من الكذب جد ولاهزل ، ولا ان يعـــد

احدكم ولـده شيئاً ثم لاينجزه ثم قرأ «يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله... » الآية وقال : هل ترون في هذه رخصة ؟. وقال نافع والضحاك : أمروا بأن يكونوا مع النبيين والصديقين في الجنة بالعمل الصالح . وقيل : إن المراد بالصادقين هم الذين ذكرهم الله في قوله «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه » وهم حمزة وجعفر « ومنهم من ينتظر » (١) يعني علياً عليه السلام فأمر الله تعالى بالاقتداء بهم والاهتداء بهديهم ، وهم الذين وصفوا في قوله « ليس البر أن تولو وجوهكم قبل ... »الآية الى قوله « أولئك الذين صدقوا » (٢) فأمر بالاقتداء بهؤلاء .

وقال بعضهم : ان (مع) بمعنى (من) وكأنـه أمر بأن يكونوا في جملة الصادقين وفي قراءة ابن مسعود « وكونوا من الصادقين » . وقيل : اراد كونوا مع كعب بن مالك واصحابه الذين صدقوا في اقوالهم ولـم يكذبوا في الاعتذار . والصادق هو القائل بالحق العامل به ، لأنها صفة مدح لاتطلق الا على من يستحق المـدح على صدقه . فأما من فسق بارتكاب الكبائر فلا يطلق عليه اسم صادق ولذلك مدح الله الصديقين وجعلهم تالين للنبيين في قوله «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » (٣) .

قوله تعالى :

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٢٣   (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٧٧
(٣) سورة ٤ النساء آية ٦٨

عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١) آية.

لما قص الله تعالى قصة الذين تأخروا عن النبي ﷺ والخروج معه الى تبوك ثم اعتذارهم عن ذلك وتوبتهم منه وأنه قبل توبة من ندم على ما كان منه لرأفته بهم ورحمته عليهم ، ذكر عقيب ذلك على وجه التوبيخ لهم والازراء على ما كانوا فعلوه فقال: لم يكن لأهل المدينة ولامن يسكن حول المدينةمن الاعراب والبوادي « ان يتخلفوا » بمعنى ان يتأخروا عن رسول الله « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » ومعناه ولاأن يطلبوا نفع نفوسهم ،لأن الرغبة طلب المنفعة ونقيضها الرهبة . ويقال رغب فيه اذا طلب المنفعة به ورغب عنه طلب المنفعة بتركه ، والترغيب ضدالترهيب ومعنى « يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » اي يطلبون المنفعة بترفيه انفسهم دون نفسه وهذه فريضة الزمهم الله اياها ؛لحقه فيمادعاهم من الهدى الذي اهتدوا به وخرجوا من ظلمة الكفر الى نور الايمان .

وقوله « ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب » اشارة الى ما الزمهم الله اياه من تحمل هذه المشقة لأنهم لايصيبهم ظمأ وهو شدة العطش تقول : ظمىء يظمأ ظمأ وهوظمىء وظمآن وأظمأه الله إظماء . ومنه قيل : أنا ظمآن الى رؤية فلان ومعنى « ولا نصب » اي تعب تقول : نصب ينصب نصباً فهو نصب . ومثله الوصب قال النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل اقاسيه بطيء الكواكب (١)

وقوله « ولا مخمصة » يعني مجاعة وأصله ضمور البطن للمجاعة ومنه رجل خميص البطن وامرأة خمصانة . وقوله « في سبيل الله » يعني من قتال اعدائه المشركين . وقوله « ولا يطؤن موطئاً يغيظ الكفار » اي لايخطون خطوة إلا كتب لهم اجرها ، والموطىء الأرض ، والغيظ انتقاض الطبع بما يرى مما يشق . والغضب

(١) اللسان (نصب) والأغاني ١١/ ١٥

هو ما يدعو الى الانتقام على ماسلف من المعصية مما هي متعلقة به ، وهو مستحق بها ولذلك جاز ان يطلق الغضب على الله ولم يجز اطلاق الغيض عليه .

وقوله « ولاينالون من عـدو نيلا إلا كتب لهم بـه عمل صالح » والنيل لحوق الشيء تقول : نلته اناله نيلا اذا نلته بيدك وهو منيل ، وليس من التناول لأن هذا من الواو تقول : نلته بخير انوله نولا ونوالا وانالني خيراً انالة .

والمعنى ان هؤلاء المؤمنين لا يصيبون من المشركين امراً ،من قتل اوجراح اومال ، او امر يغمهم ويغيظهم الا ويكتب الله للمؤمنين « به عمـلا صالحاً ان الله لايضيع اجر المحسنين » اخبار منه تعالى انه لايضيع اجر من فعل الأفعال الحسنة التى يستحق بها المدح وقد يكون فاعل الحسن لايستحق المدح مثل فاعل المباح.
وقال قتادة : حكم هذه الآيـة مختص بالنبي فانه اذا غزا النبي صلى الله عليه وآله لـم يكن لأحد ان يتخلف عنه ، فاما من بعده من الخلفاء فان ذلك جائز ، وقال الاوزاعي وعبد الله بن المبارك والفرازي والسبيعي وأبو جابر وسعيد بن عبد العزيز : ان هـذه الاية لأول الأمة وآخرها من المجاهدين في سبيل الله . وقال ابن زيد :هذا حين كان المسلمون قليلين ، فلما كثروا نسخ بقوله « وما كان المؤمنين لينفروا كافة فلولا نفرمن كل فرقة منهم طائفة » وهذا هو الأقوى لأنه لاخلاف انالجهاد من فروض الكفايات فلو لزم كل احد النفر لصار من فروض الأعيان

قوله تعالى :

وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) آية .

هذه الاية عطف على ما تقدم ذكره في الايـة الاولى من قوله « ولا يطؤن موطئاً يغيظ الكفار ولاينالون من عدو نيلا ... ولاينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة»

اي لاينفق هؤلاء المؤمنون في سبيل الله وجهاد اعدائه نفقة صغيرة ولا كبيرة يريدون بها اعزاز دين الله ونفع المسلمين والتقرب الى الله بها ، لأن الانفاق متى كان للشهوة أوليذكر بالجود كان ذلك مباحاً . وان كان للرياء والسمعة وللمعاونة على فساد كان معصية . والصغير مانقص ثوابه عن ثواب ماهو اكبر منه ، والكبير مازاد ثوابه على ثواب ما هو دونه . وقوله « ولا يقطعون وادياً » معناه ولا يتجاوزون وادياً .

وقوله « إلا كتب لهم » ثواب ذلك لهم « ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون» معناه انه يكتب طاعاتهم ليجزيهم عليها أحسن مما فعلوه . وقال الرماني : ذلك يدل على انه يكون حسن أحسن من حسن ، قال : لان لفظة أفعل تقتضي التفاضل فيماشاركه في الحسن . وهذا ليس بشيء لأن المعنى ان الله تعالى يجزيهم أحسن ما كانوا يعملون يعني ماله مدخل في استحقاق المدح والثواب من الواجبات والمندوبات دون المباحات التي لامدخل لها في ذلك وان كانت حسنة .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٣) آية .

قوله « فلولا نفر » معناه هلا نفر ، وهي للتحضيض إذا دخلت على الفعل ، فاذا دخلت على الاسم فهي بمعنى امتناع الشيء لأجل وجود غيره . وقيل في معناه ثلاثة اقوال : احدها ـ قال الحسن : حث الله تعالى الطائفة النافرة على التفقه لترجع الى المتخلفة فتحذرها . وقال قتادة : ان المعنى انه لم يكن لهم ان ينفروا بأجمعهم في السرايا ويتركوا النبي صلى الله عليه وآله بالمدينة وحده ، ولكن تبقى بقية لتتفقه البقية ثم تنذر

النافرة، وبه قال الضحاك وابن عباس ، وقال ابو علي الجبائي : تنفر الطائفة من كل ناحية الى النبي صلى الله عليه وآله لتسمع كلامه وتتفقه عنه ، ثم يبينوا ذلك لقومهم إذا رجعوا اليهم . وقال مجاهد : نزلت الآية في قوم خرجوا الى البادية ليفقهوهم ولينالوا منهم خيراً ، فلما عاتب الله من تأخر عن النبي عند خروجه الى تبوك وذم آخرين خافوا ان يكونوا منهم فنفروا بأجمعهم ، فقال الله : هلا نفر بعضهم ليفقه عن النبي صلى الله عليه وآله مايجب عليهم ومالايجب ويرجعون فيخبرون اصحابهم بذلك ليحذروا. والنفور عن الشيء هو الذهاب عنه لتكره النفس له، والنفور اليه الذهاب اليه لتكره النفس لغيره . والتفقه تعلم الفقه . والفقه فهم موجبات المعنى المضمنة بها من غير تصريح بالدلالة عليها، وصار بالعرف مختصاً بمعرفة الحلال والحرام ، وماطريقه الشرع . وقوله « لعلهم يحذرون » معناه لكي يحذروا ، لأن الشك لايجوز على الله . والحذر تجنب الشيء لما فيه من المضرة يقال : حذر حذراً وحذّرته تحذيراً وحاذره محاذرة وتحذر تحذراً .

واستدل جماعة بهذه الآيـة على وجوب العمل بخبر الواحد بأن قالوا : حث الله تعالى الطائفـة على النفور والتفقه حتى إذا رجعوا الى غيرهم لينذروهم ليحذروا ، فلولا انه يجب عليهم القبول منهم لما وجب عليهم الانذار والتخويف . والطائفة تقع على جماعة لايقع بخبرهم العلم بل تقع على واحد . لأن المفسرين قالوا في قوله « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » أنه يكفي أن يحضر واحد.

وهذا الذي ذكروه ليس بصحيح ، لأن الذي يقتضيه ظاهر الاية وجوب النفور على الطائفة من كل فرقة، ووجوب التفقه والانذار إذا رجعوا ،ويحتمل ان يكون المراد بالطائفة الجماعة التي يوجب خبرهم العلم ، ولو سلمنا انه يتناول الواحد او جماعة قليلة، فلم اذا وجب عليهم الانذار وجب على من يسمع القبول؟ والله تعالى إنما اوجب على المنذرين الحذر ، والحذر ليس من القبول في شيء بل الحذر يقتضي وجوب البحث عن ذلك حتى يعرف صحته من فساده بالرجوع الى الأدلة ، ألاترى

ان المنذر إذا ورد على المكلف وخوفه من ترك النظر فانه يجب عليه النظر ولا يجب عليه القبول منه قبل ان يعلم صحته من فساده ، وكذلك إذا ادعى مدع النبوة وان معه شرعاً وجب عليه ان ينظر في معجزه ولا يجب عليه القبول منه وتصديقه قبل ان يعلم صحة نبوته . فكذلك لايمتنع ان يجب على الطائفة الانذار ويجب على المنذرين البحث والتفتيش حتى يعلموا صحة ماقالوه فيعملوا به ، وقد استوفينا الكلام في ذلك في كتاب اصول الفقه لانطول بذكره هاهنا .

وقيل : ان اعراب اسد قدموا على النبي صلى الله عليه وآله المدينة فغلت الأسعار وملؤوا الطرق بالعذرة فانزل الله تعالى الآية يقول : فهلا جاء منهم طوائف ثم رجعوا الى قومهم فأخبروهم بما تعلموا . وروى الواقدي ان قوماً من خيار المسلمين خرجوا الى البدو يفقهون قومهم فاحتج المنافقون في تأخرهم عن تبوك بأولئك فنزلت « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » قال : وفيهم نزلت « والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة » (١) يعني ان احتجوا بتأخر هؤلاء في البادية فانهم مستجيبون مؤمنون ، فكيف يكون لهم بهم اسوة او حجة في تأخرهم وهم منافقون مدهنون . وقال ابو جعفر عليه السلام كان هذا حين كثر الناس فأمرهم الله ان ينفر منهم طائفة وتقيم طائفة للتفقه وان يكون الغزو نوباً .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٢٤) آية .

روى المفضل عن عاصم (غلظة) بفتح الغين . الباقون بكسرها ، قال ابو الحسن قراءة الناس بالكسر ، وهي العربية ، قال وبه أقرأ ولا أعلم الفتح لغة . وقال غيره :

---

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦ .

هي لغة . وذكر الزجاج أن فيه ثلاث لغات الفتح والضم والكسر ، والكسر أفصحها والكسر لغة أهل الحجاز والضم لغة تميم .

امر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الذين يلونهم يعني الأقرب فالأقرب وذلك يدل على أنه يجب على اهل كل ثغر أن يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم اذا خافوا على بيضة الاسلام إذا لم يكن هناك إمام عادل ، وانما جاز من الله تعالى ان يأمر بالقتال ليدعوهم الى الحق، ولم يجز ان يمنعهم من الكفر ،لأن المنع ينافي التكليف. ومن قاتل الأبعد من الكفار وترك الأقرب فالاقرب فان كان باذن الامام كان مصيباً وان كان بغير أمره كان مخطئاً ، ولو قال : قاتلوا الأقرب فالأقرب لصح لأنه يمكن ذلك . ولو قال : قاتلوا الأبعد فالابعد لم يصح لأنه لاحدّ للأبعد يبتدأ منه كما للأقرب . وقوله « وليجدوا فيكم غلظة » معناه وليخشوا منكم بالغلظة، والغلظة ضد اللين وخلاف الرقة ، وهي الشدة في احلال النقمة ،ومخرج الكلام على الأمر بالوجود ، وإنما معناه يجدون ذلك ، ويجوز ان يكون المراد وليعلموا منكم الغلظة .

وقوله « واعلموا ان الله مع المتقين » امر من الله للمؤمنين ان يتيقنوا أن الله مع الذين يتقون معصيته، بالنصرة لهم ،ومن كان الله ناصره في الحرب لم يغلبه احد. فأما إذا نصره بالحجة في غير الحرب فانه يجوز أن يغلب بالحرب لضرب من المحنة وشدة التكليف .

قوله تعالى

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٥) آية

(ما) في قوله : «وإذا ما» يحتمل امرين: أحدهما ـ ان تكون دخلت لتسليط (اذا)

على الجزاء. والثاني ـ أن تكون صلة مؤكدة، وقوله « فمنهم من يقول» الضمير عائد على المنافقين في قول الحسن والزجاج، والتقدير فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض على وجه الانكار « أيكم زادته هذه ايماناً » وقال الجبائي : يقول المنافقون لضعفة المؤمنين على وجه الاستهزاء . فأخبر الله تعالى انه متى نزلت سورة من القرآن قال المنافقون على وجه الاستهزاء والانكار « أيكم زادته هذه ايماناً » ثم قال تعالى « فاما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً » المعنى ازدادوا عندها ايماناً . وانما أضافه الى السورة لأن عندها ازداوا ، فوجه زيادة الايمان انهم يصدقون بأنها من عند الله ويعترفون بذلك ويعتقدونه وذلك زيادة اعتقاد على ما كانوا معتقدين له . وقوله « وهم يستبشرون » جملة في موضع الحال ، وتقديره انهم يزدادون الايمان عندها مستبشرين بذلك فرحين بما لهم في ذلك من السرور والثواب . والزيادة ضم الشيء الى جنسه لأنك لو ضممت حجراً الى ذهب لـم تكن زدت ، ولو ضممت ذهباً الى ذهب أو حجراً الى حجر لكنت زدته .

قوله تعالى .

وأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٦) آية .

لما بين الله تعالى ان المؤمنين يزدادون الايمان عند نزول السورة بين ان الذين في قلوبهم مرض يعني شك ونفاق من الاسلام يزدادون عند ذلك رجساً الى رجسهم اي نفاقاً وكفراً الى كفرهم ، لانهم يشكون في هذه السورة كما يشكون في الذي تقدم ، فكان ذلك هو الزيادة . وسمي الشك في الدين مرضاً ، لأنه فساد يحتاج الى علاج كالفساد في البدن الذي يحتاج الى مداواة . ومرض القلب أعضل وعلاجه أعسر ودواؤه أعز واطباؤه أقل . والرجس والنجس واحد ، وسمي الكفر رجساً على وجه الذم ، وأنه يجب تجنبه كما يجب تجنب الانجاس . وانما أضاف الزيادة الى

السورة لأنهم يزدادون عندها ، ومثله كفى بالسلامة داء ، كما قال الشاعر :

ارى بصري قد رابني بعد صحة   وحسبك داء أن تصح وتسلما(١)

وقوله « وماتوا وهم كافرون » فيه بيان أن المرض في القلب أدّاهم الى ان ماتوا على شرحال ، لأنها تسوق الى النار نعوذ بالله منها ، وانما قال « وماتوا» على لفظ الماضي لأنه عطف على قوله « زادتهم رجساً الى رجسهم » والمعنى انهم يموتون وهم كافرون .

قوله تعالى :

أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٧) آية.

قرأ حمزة ويعقوب « أولا ترون » بالتاء . الباقون بالياء .

قوله « أو لا يرون » تنبيه وتقريع لمن عنى بالخطاب .

فمن قرأ بالتاء فوجهه أن المؤمنين نبهوا على إعراض المنافقين عن النظر والتدبر لما ينبغي أن ينظروا فيه ويتدبروا ، لأنهم يمتحنون بالأمراض والأسباب التي لايؤمن معها الموت ، فلا يرتدعون عن كفرهم ولاينزجرون عما هم عليه من النفاق ، فلا يقدمون عليه اذا ماتوا فنبه المسلمين على قلة اعتبارهم واتعاظهم .

ومن قرأ بالياء وجه التقريع - بالاعراض عما يجب أن لايعرضوا عنه من التوبة والاقلاع عما هم عليه من النفاق - الى المنافقين دون المسلمين، لان المسلمين قد عرفوا ذلك من امرهم. وكان الاولى أن يلحق التنبيه من يراد تنبيهه وتقريعه بتركه ما ينبغي ان يأخذ به .وتحتمل الرؤية في الآية على القراءتين أن تكون متعدية الى مفعولين. وأن تكون من رؤية العين أولى فاذا جعلت متعدية الى مفعولين

(١) قائله حميد بن ثور الهلالي العقد الفريد ٢ / ٣٣١

سدّ (أن)مسدّهما . وإن جعلت من رؤية العين كان أولى ، لأنهم مبتلون في الاعراض عنه على ترك الاعتبار به ، وهـذا أبلغ من المتعدية الى مفعولين ألا ترى أن تارك الاستدلال أعذر ممن يكابر المشاهدات . ولو قرىء بضم الياء وبني الفعل للمفعول به كان (ان)في موضع نصب بأنه مفعول الفعل الذي يتعدى الى مفعول ، وفتحت الواو في قوله « أولا » لأنها واو العطف دخلت عليها الف الاستفهام، فهو متصل بذكر المنافقين ومتصل بذكر آخرين ذكرهم بدليل العلامتين الواو والألف .

والفتنة المحنة بالقتل والسبي ونصر الله لنبيه حتى يستعلي على كل من ناواه ــ في قول الحسن وقتادة ــ وقال مجاهد : هي بالقحط والجوع . وقال الجبائي : هي بالمرض الذي ينزل بهم . وقيل: تهتك استارهم بما يظهره الله من سوء نياتهم وخبث سرائرهم، وقال الزجاج : معناه انهم يختبرون بالدعاء الى الجهاد ، وهو قول الحسن وقتادة . واجاز الرماني أن تفعل التوبة خوفاً من العقاب ، كما يجوز أن تفعل لقبح المعصية . قال : لأن كل واحد من الأمرين يدعو اليه الفعل، ومن جحد أحد الأمرين كمن جحد الآخر . والذي عليه أكثر أهل العدل أنه لايجوز أن تفعل التوبة الا لوجه قبح المعصية . ومتى فعلت لخوف العقاب لم تكن مقبولة .

وقوله « ثم لايتوبون ولاهم يذكرون » اخبار منه تعالى انه مع ما يمتحنهم في كل سنة دفعة او دفعتين فانهم لا يقلعون عن المعاصي ولايتوبون منهـــا ولا يتفكرون فيها .والتذكر طلب الذكر بالفكر فيه .

قوله تعالى

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٨) آية.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه متى أنزل سورة من القرآن « نظر بعضهم الى بعض » نظراً يومئون به « هل يراكم من أحد » وانما يفعلون ذلك ؛ لأنهم منافقون يتحذرون أن يعلم بهم ، فكأنهم يقول بعضهم لبعض : هل يراكم من أحد ثم يقومون فينصرفون . ويحتمل أن يكون انصرافهم عن العمل بشيء مما يستمعون. فقال الله تعالى « صرف الله قلوبهم » يعني عن رحمته عقوبة لهم « بأنهم قوم لايفقهون » مواعظ الله ولا أمره ونهيه .وإنما صرف قلوبهم عن السرور بالفائدة التي تحصل للمؤمنين بسماع الوحي ، فيحرمون ماللمؤمنين من الاستبشار بتلك الحال . والفقه فهم موجب المعنى المضمن به، وقد صار علماً على علم الفتيا في الشريعة لان المعتمد على المعنى . وكان القوم عقلاء يفقهون الاشياء ؛ وإنما نفى الله عنهم ذلك لانهم لم ينظروا فيه ، ولم يعملوا بموجبه ، فكأنهم لم يفقهوه ، كما قال« صم بكم عمي » (١) لما لم ينتفعوا بما سمعوه ورأوه .

قوله تعالى :

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٩) آية .

أقسم الله تعالى في هذه الآية بأنه قد « جاءكم رسول من أنفسكم » لان لام (لقد) هي اللام التي يتلقى بها القسم . والخطاب متوجه الى جميع الخلق . ومعنى « من انفسكم » أي انكم ترجعون الى نفس واحدة كما قال « قل انما أنا بشر مثلكم » (٢) ويحتمل ان يكون المراد به من العرب كما انكم كذلك . ويكون ــ على هذا ــ الخطاب متوجها الى العرب خاصة ، فأنتم تخبرونه قبل مبعثه . وقيل : إنه لم يبق بطن من العرب إلا وولد النبي ﷺ وإنما ذكر ذلك لانه أقرب الى الالفة ، وأبعد من المحك واللجاج ، واسرع الى فهم الحجة ، فهو

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٨　　(٢) سورة ١٨ الكهف آية ١١١

من انفسكم في اشرف نسبه منكم ، ومن أنفسكم في القرب منكم ، ومن انفسكم بالاختصاص بكم .

وقوله « عزيز عليه » أي شديد عليه لأنه لايقدر على ازالته ، والعزيز في صفات الله معناه المنيع القادر الذي لايتعذر عليه فعل مايريده . والعزة امتناع الشيء بما يتعذر معه مايحاول منه، وهو على ثلاثة أوجه : امتناع الشيء بالقدرة أو بالقلة أو بالصعوبة . وقوله « ماعنتم » يعني مايلحقكم من الأذى الذي يضيق الصدر به ولايهتدى للخروج منه ، ومنه قيل : فلان يعنت في السؤال ، ومنه قوله تعالى « ولو شاء الله لأعنتكم » (١) أي ضيق عليكم حتى لاتهتدوا للخروج منه ، والعنت إلقاء الشدة.و (ما) في قوله « ما عنتم » بمعنى الذي ، وهو في موضع رفع بالابتداء وخبره (عزيز) قدّم عليه . وقال الفراء : هو رفع بـ (عزيز) . وقوله « حريص عليكم » فالحرص شدة الطلب للشيء على الاجتهاد فيه . والمعنى : حريص عليكم ان تؤمنوا - في قول الحسن - ثم استأنف فقال « بالمؤمنين رؤوف رحيم » أي رفيق بهم رحيم عليهم .

قوله تعالى

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (١٣٠) آية .

معنى « فان تولوا » إن ذهبوا عن الحق واتباع الرسول ومايأمرهم بهواعرضوا عن قوله . ونقيض التولي عنه التوجه اليه . ومثل التولي الاعراض . وقال الحسن : المعنى فان تولوا عن طاعة الله . وقيل « فان تولوا » عنك ، ومعناه فان ذهبوا عنك هؤلاء الكفار ، ولم يقروا بنبوتك « فقل » يامحمد « حسبي الله » ومعناه كفاني الله وهو

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٠

من الحساب لأنه تعالى يعطي بحسب الكفاية التي تغني عن غيره، ويزيد من نعمه مالا يبلغ الى حدّ ونهاية ؛ اذ نعمه دائمة ومننه متظاهرة . وقوله « لاإله إلا هو » جملة في موضع الحال ، وتقديره حسبي الله مستحقاً لاخلاص العبادة والاقرار بأن لا إله إلا هو . وقوله « عليه توكلت » فالتوكل تفويض الامر الى الله على الثقة بحسن تدبيره وكفايته ، باخلاص النية في كل شيء يحذر منه ؛ ومنه قوله « حسبنا الله ونعم الوكيل » (١) أي المتولي للقيام بمصالح عباده وفي هذه الصفة بلطف . وقوله « وهو رب العرش العظيم » قيل في تخصيصه الذكر بأنه « رب العرش العظيم » ثلاثة أقوال : أحدها ـ انه لما ذكر الاعظم دخل فيه الاصغر . الثاني ـ أنه خص بالذكر تشريفاً له وتفخيماً لشأنه . الثالث ـ ليدل به على أنه ملك الملوك لأنه رب السرير الاعظم . وجرّ القراء كلهم « العظيم » على أنه صفة للعرش . وقال الزجاج : يجوز رفعه بجعله صفة لرب العرش .

قال ابي بن كعب وسعيد بن جبير والحسن وقتادة : هذه آخر آية نزلت من القرآن ولم ينزل بعدها شيء .

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٣

١٠ - سورة يونس

[مكية وهي مئة وتسع آيات]

بسم الله الرحمن الرحيم

آلر تلكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكيمِ (١) آية .

إنما لم تعدّ (الر) آية كما عدّ (الم) آية في عدد الكوفيين لأن آخره لايشا كل رؤس الآي التي بعده ؛ إذ هي بمنزلة المردف بالياء . و (طه) عـدّ ؛ لأنه يشا كل رؤس الآي التي بعده . وقرأ (الر) بالتفخيم ابن كثير ونافع وأبو جعفر . وقرأ بالامالة أبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي .واختلفوا عن عاصم : فروى هبيرة عن حفص بكسر الراء . الباقون عنه بالتفخيم . قال ابو علي الفارسي : من ترك الامالة ؛ فـلأن كثيراً من العرب لايميل ما يجوز فيه الامالة كما يمنعها المستعلي . ومن أمال ؛ فلانها اسم لما يلفظ به من الاصوات ، فجازت الامالة من حيث كانت اسماً ولم تكن كالحروف التي تمنع فيها الامالة . وقال الرماني : انما جاز إمالة حروف الهجاء ، لأن ألفه في تقدير الانقلاب عن ياء .

وقد بينا في أول سورة البقرة معنى هذه الحروف التي في أول السور ، واختلاف المفسرين ،وقلنا :إن أقوى الوجوه أنها اسماء السور ، فلا وجه لاعادته .

وقوله « تلك » قال ابو عبيدة معناه هـذه . وقال الزجاج : المعنى الآيات التي تقدم ذكرها ، وهو قول الجبائي . وقال قوم : انما قال « تلك »لتقدم الذكر (الرفي) كقولك هند هي كريمة . وانما اضيفت الآيات الى الكتاب لانها أبعاض

الكتاب، كما أن السورة ابعاضه، وكذلك محكمه ومتشابهه واسماؤه وصفاته ووعده ووعيده وأمره ونهيه وجلاله وجرامه. والآية العلامة التي تنبىء عن مقطع الكلام من جهة مخصوصة. والقرآن مفصل بالايات مضمن بالحكم النافية للشبهات وانما وصف الكتاب بأنه حكيم، لأنه دليل على الحق كالناطق بالحكمة، ولأنه يؤدي الى المعرفة التي يميز بها طريق الهلاك من طريق النجاة. وقال ابو عبيدة: حكيم ههنا بمعنى محكم وأنشد لأبي ذؤيب:

يواعدني عـكاظ لننزلنه　　　ولم يشعر إذن أني خليف (١)

أي مخلف من اخلفته الوعد. ويؤكد ذلك قوله «الر كتاب أحكمت آياته» والايات العلامات. والكتاب اسم من اسماء القرآن وقد بيناه فيما مضى. وحكي عن مجاهد أنه قال (تلك) اشارة الى التوراة الانجيل. وهذا بعيد لأنه لم يجر لهما ذكر.

قوله تعالى:

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) آية.

قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي «لساحر مبين» بألف. الباقون بغير ألف. قال أبو علي الفارسي: يدل على ساحر قوله «وقال الكافرون هذا ساحر كذاب» (٢) ويدل على «سحر» قوله «ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون» (٣) والقول في الوجهين أنه قد تقدم قوله «أن اوحينا الى رجل منهم» فمن قال «ساحر» أراد به الرجل ومن قال «سحر» أراد الذي أوحي «سحر»

(١) ديوان الهذليين ١/٩٩ واللسان (خلف) ومجاز القرآن ١ / ٢٧٣

(٢) سورة ٣٨ ص آية ٤　　　(٣) سورة ٤٣ الزخرف آية: ٣٠

أي الذي يقول أنه وحي « سحر » وليس بوحي .

ومعنى قوله «أكان للناس عجباً » أكان أيحاؤنا القرآن الى رجل منهم عجباً؟ وإنذارهم عقاب الله على معاصيه كأنهم لم يعلموا أن الله قد أوحى من قبله الى مثله من البشر ، فعجبوا من وحينا اليه الآن ؟ فالألف ألف استفهام والمراد به الانكار. وقال ابن عباس ومجاهد وابن جريح : عجبت العرب وقريش أن يبعث الله منهم نبياً فأنزل الله الآية . وقال الحسن : معناه ليس بعجب مافعلنا في ذلك . والمعنى ألم يبعث الله رسولا من أهل البادية ولا من الجن ولا من الانس . والعجب تغير النفس بما لايعرف سببه مما خرج عن العادة الى ما يجوز كونه . والانذار هو الاخبار على وجه التخويف ، فمن حذّر من معاصي الله فهو منذر . وهذه صفة النبي ﷺ . وقوله « أن أوحينا » في موضع رفع وتقديره أكان للناس عجباً وحينا و « أن أنذر » في موضع نصب ، وتقديره وحينا بأن أنذر ، فحذف الجار فصار موضعه نصباً ، و « أن لهم » نصب بقوله « وبشر الذين آمنوا » ولو قرىء بالكسر كان جائزاً لأن البشارة هي القول إلا أنه لم يقرأ به . وقوله « وبشر الذين آمنوا » أمر للنبي ﷺ أن يبشر المؤمنين ، وهو أن يعرّفهم ما فيه السرور بالخلود في نعيم الجنة على وجه الاكرام والاجلال بالأعمال الصالحة . وقوله « أن لهم قدم صدق عند ربهم» معناه ان لهم سابقة إخلاص الطاعة كاخلاص الصدق من شائب الكذب . وقالوا : له قدم في الاسلام ، والجاهلية . وهو كالقدم في سبيل الله ، قال حسان :

لنا القدم العليا اليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع (١)

وقال ذو الرمة :

لكم قدم لاينكر الناس أنها مع الحسب العادي طمّت على البحر (٢)

وقال أبو سعيد الخدري وأبو عبد الله عليه السلام : معناه إن محمداً ﷺ لهم شفيع يوم القيامة ، وهو المروي عن ابي عبد الله عليه السلام . وقال مجاهد : معناه لهم

(١) ديوانه ٢٥٤ وقد مرّ في ٢١/٥ (٢) ديوانه ١٩ والطبري ١١ / ٥٣

قدم خير بأعمالهم الصالحة .وقال قتادة : معناه لهم سلف صدق . وقال الضحاك : لهم ثواب صدق . وقال ابن عباس : لهم ماقدموه من الطاعات .

وقوله « قال الكافرون إن هذا لساحر مبين »حكاية عن الكفار أنهم يقولون إن النبي ساحر مظهر ، أوما إتى بـه سحر مبين على اختلاف القراءات . والسحر فعل يخفى وجه الحيلة فيه حتى يتوهم أنه معجز . والعمل بالسحر كفر لادعاء المعجزة به ، ولايمكن مع ذلك معرفة النبوة . وقال الزجاج : المراد بـ(الناس) في الآيـة أهل مكة . وقيل إنهم قالوا : لـم يجد الله من يبعثه رسولا إلا يتيم أبي طالب ؟!

قوله تعالى

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) آية

خاطب الله تعالى بهذه الاية جميع الخلق وأخبرهم بأن الله الذي يملك تدبيركم وتصريفكم بين أمره ونهيه ويجب عليكم عبادته « الله الذي خلق السموات والأرض» فاخترعهما وأنشأهما على مافيهما من عجائب الصنعة ومتقن الفعل . وإطلاق الربّ لايقال إلا فيه تعالى، فاما غيره فانه يقيد له ، فيقال :رب الدار ، ورب الضيعة بمعنى أنه مالكها . وكذلك معنى قوله « رب العرش » والربوبية ملك التدبير الذي يستحق به العبادة . وقيل في الوجه « الذي خلق السموات والارض في ستة أيام » بلا زيادة ولانقصان مع قدرته على إنشائهما دفعة واحدة قولان :

أحدهما ــ أن في اظهارهما كذلك مصلحة للملائكة وعبرة لهم .

والثاني ــ لمـا فيه من الاعتبار إذا أخبر عنه بتصرف الحال كما صرّف الله

الانسان من حال الى حال ، لأن ذلك أبعد من توهم الاتفاق فيه .

وقوله « ثم استوى على العرش » معناه استولى عليه بانشاء التدبير من جهته كما يستوي الملك على سرير ملكه بالاستيلاء على تدبيره ، قال الشاعر :

ثم استوى بشر على العراق　　من غير سيف ودم مهراق (١)

يعني بشر بن مروان . ودخلت (ثم) لأن التدبير من جهة العرش بعد استوائه. وقوله « يدبر الأمر » فالتدبير تنزيل الامور في مراتبها على إحكام عواقبها ، وهو مأخوذ من الدبور ، فتجري على أحكام الدابر في الباري .

وقوله « ومامن شفيع إلا من بعد إذنه » فالشفيع هو السائل في غيره لاسقاط الضرر عنه . وعند قوم أنه متى سأله في زيادة منفعة توصل اليه كان شفيعاً . والذي اقتضى ذكره ـ ههنا ـ صفات التعظيم مع اليأس من الاتكال في دفع الحق على الشفيع . والمعنى ـ ههنا ـ ان تدبيره للأشياء وصنعته لها ليس يكون منه بشفاعة شفيع ولا بتدبير مدبر لها سواه ، وأنه لايجسر أحد أن يشفع اليه إلا بعد ان يأذن له فيه ، من حيث كان تعالى أعلم بموضع الحكمة والصواب من خلقه بمصالحهم. وقوله « ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون » معناه إن الموصوف بهذه الصفات هو ربكم وإلهكم فاعبدوه وحده ، لأنه لا إله لكم سواه ، ولايستحق هذه الصفات غيره . وحثهم على التذكر والتفكر في ذلك وعلى تعرّف صحة ما أخبرهم به وقيل: ان العرش المذكور ـ ههنا ـ هو السموات والارض ، لأنهن من بنائه . والعرش البناء . ومنه قوله « يعرشون » (٢) أي يبنون . وأما العرش المعظم الذي تعبد الله الملائكة بالحفوف به والاعظام له وعناه بقوله « الذين يحملون العرش ومن حوله (٣) فهو غير هذا . وانما ذكر الشفيع في الآية ولم يجر له ذكر ، لأن

(١) مر هذا البيت في ١/ ١٢٥ و ٢/ ٣٩٦

(٢) سورة ١٦ النحل آية ٦٨ وسورة ٧ الأعراف آية ١٣٦

(٣) سورة ٤٠ المؤمن آية ٧

المخاطبين بذلك كانوا يقولون الاصنام شفعاؤهم عند الله . وذكر بعدها « ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (١) واذا كانت الأصنام لاتعقل فكيف تكون شافعة؟! مع أنه لايشفع عنده الا من ارتضاه الله.

واختار البلخي أن يكون خلق السموات والأرض في ستة أيام إنما كان لان خلقه لهما دفعة واحدة لم يكن ممكناً كما لايمكن الجمع بين الضدين ، ولايمكن الحركة إلا في المتحرك . وهذا الذي ذكره غير صحيح ، لأن خلق السموات والأرض خلق الجواهر واختراعها ، والجواهر لا تختص بوقت دون وقت ،فلاحال إلا ويصح اختراعها فيه مالم يكن فيما لم يزل . وانما يصح ماذكره في الاعراض التي لا يصح عليها البقاء او ما يستحيل جمعه للمتضاد ، فأما غيره فلا يصح ذلك فيه .

قوله تعالى :

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ ٱللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) آية.

قرأ أبو جعفر« حقاً أنه » بفتح الهمزة . الباقون بكسرها . من فتح ،فمعناه اليه مرجعكم ، لأنه يبدأ . ومن كسر استأنف . قال الفراء : من فتح جعله مفعول حقاً كأنه قال حقاً أنه. قال الشاعر :

أحقاً عباد الله ان لست زائراً　　بثينة او يلقى الثريا رقيبها(٢)

(١) آية ١٨ من هذه السورة　　(٢) تفسير الطبري ١١/ ٥٤

اخبر الله تعالى أن الذي خلق السموات والأرض هو الله تعالى ، وهو الذي يستحق العبادة لاغيره وان اليه مرجع الخلق كلهم . والمرجع يحتمل معنيين :

احدهما ـ أن يكون في معنى الرجوع فيكون مصدراً .

والاخر ـ موضع الرجوع فيكون ظرفاً ، كأنه قال : اليه موضع رجوعكم يكوّنه اذا شاء . ومعنى الرجوع اليه يحتمل أمرين : احدهما ـ ان يعود الأمر الى ان لايملك أحد التصرف في ذلك الوقت غيره تعالى بخلاف الدنيا ، لأنه تعالى قد ملك كثيراً من خلقه التصرف في دار الدنيا ومكنهم من ذلك . والثاني ـ ان يكون معناه انكم ترجعون اليه احياء بعد الموت أي الى موضع جزائه .

وقوله « وعد الله حقاً » نصب على المصدر وتقديره احقه حقاً او وعد الله وعداً حقاً ، لأن في قوله « مرجعكم » انه وعد بذلك الا انه لما لم يذكر الفعل اضيف المصدر الى الفاعل ، كما قال كعب بن زهير :

يسعى الوشاة جنابيها وقيلهم انك يا ابن أبي سلمى لمقتول (١)

اي ويقولون قيلهم . وقوله « انه يبدأ الخلق ثم يعيده » اخبار منه تعالى انه الذي أنشأ الخلق ابتداء ، وهو الذي يعيدهم بعد موتهم النشأة الاخرى ليدل بذلك خلقه على أنه اذا كان قادراً على الابتداء فهو قادر على الاعادة .

وقوله « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فيه بيان أنه انما يعيد الخلق ليعطيهم جزاء اعمالهم من طاعة ومعصية ، والعطاء اذا كان ابتداء لايسمى جزاء .

وقوله « بالقسط » معناه بالعدل ، لأنه لو زاد الجزاء اونقص لخرج عن العدل ، ولكن يجزيهم وفق اعمالهم حتى لايكون الجزاء على النبوة كالجزاء على الايمان بل كل طاعة يستحق الجزاء على قدرها .

وقوله « والذين كفروا لهم شراب من حميم » معناه ان الذين يجحدون نعم الله ويكفرون بوحدانيته ويجحدون رسله « لهم شراب من حميم » وهو الذي اسخن

(١) ديوانه ١٩ ومجاز القرآن ١/ ١١٢ ، ٢٧٣ وقد مر في ١ /٣٠٠

بالنار اشدّ اسخان . قال المرقش الاصغر :

وكل يوم لها مقطرة　　　فيها كباء معدّ وحميم (١)

الكباء العود الذي يتبخر به . وقوله « وعذاب أليم » معناه مؤلم « بما كانوا يكفرون » اي جزاء على كفرهم .

قوله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) آية .

روى ابن مجاهد عن قنبل ،والمولى عن الربيبي (ضئاء) بهمزة بعد الضاد مكان الياء حيث وقع . الباقون بياء بعد الضاد ومدة بعدها . قال ابو علي الفارسي : لايخلو « ضياء » من أن يكون جمع ضوء كسوط وسياط ، وحوض وحياض ، او مصدر (ضاء) يضوء ضياء مثل عاذ يعوذ عياذاً أوقام يقوم قياماً ، وعلى أي الوجهين حملته فالمضاف محذوف ، والمعنى جعل الشمس ذات ضياء ، والقمر ذا نور ، أو يكون جعل النور والضياء لكثرة ذلك فيهما ، فأما الهمزة في موضع العين من « ضياء »فيكون على القلب كأنه قدم اللام التي هي همزة الى موضع العين وآخر العين التي هي واو الى موضع اللام ، فلما وقعت طرفاً بعد الف زائدة قلبت همزة ، كما فعلوا ذلك في (سقاء وعلاء) وهذا اذا قدّر جمعاً كان أسوغ ، كما قالوا قوس وقسي ، فصححوا الواحد وقلبوا في الجمع ،واذا قدّرته مصدراً كان أبعد ، لأن المصدر يجري على فعله في الصحة والاعتلال ، والقلب ضرب من الاعتلال فاذا لم يكن في الفعل يمتنع أن يكون أيضاً في المصدر ألا ترى انهم قالوا : لاذ لواذاً

(١) لسان العرب « قطر » ، « حمم » ومجاز القرآن ١/٢٧٤

وباع بياعاً ، فصححوها في المصدر كصحتها في الفعل ، وقالوا : قام قياماً فأعلوه ونحوه ، لاعتلاله في الفعل . وقرأ ابن كثير واهل البصرة وحفص (يفصل) بالياء. الباقون بالنون . من قرأ بالياء فلأنه قد تقدم ذكر الله تعالى فأضمر الاسم في الفعل . ومن قرأ بالنون فهذا المعنى يريد . ويقويه بقوله « تلك آيات الله نتلوها» وقد تقدم « اوحينا » فيكون نفصل محمولاعلى « اوحينا » والياء أقوى ، لأن الاسم الذي يعود اليه أقرب اليه من (اوحينا) .

اخبر الله تعالى ان الذي يرجع اليه الخلق هو الله « الذي جعل الشمس ضياء» والجعل وجود ما به يكون الشيء على صفة لم يكن عليها ، فتارة يكون باحداثه وأخرى باحداث غيره . والشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لما فيهما من عظم النور ، ومسيرهما بغير علاقة ولادعامة ، وفيهما أعظم الدلالة على وحدانية الله تعالى . والنور شعاع فيه ماينافي الظلام . ونور الشمس لما كان أعظم الأنوار سماه الله ضياء ، كما قيل للنار ناراً ؛ لما فيها من الضياء ، ولما كان نور القمر دون ذلك سماه نوراً ، لأن نور الشمس وضياءها يغلب عليه ، ولذلك يقال أضاء النهار ، ولا يقال اضاء الليل بل يقال انار الليل ، وليلة منيرة . ويقولون : في قلبه نور ، ولا يقال فيه ضياء ، لأن الضوء يقال لما يحس بكثرته . وقوله « وقدره منازل » انما وحد في قوله « وقدره » ولم يقل وقدرهما ، لأحد أمرين : احدهما ـ أنه أراد به القمر ، لأن بالقمر تحصى شهور الأهلة التي يعمل الناس عليها في معاملتهم. والاخر ـ ان معناه التثنية غير أنه وحده للايجاز اكتفاء بالمعلوم ، كقوله « والله ورسوله أحق أن يرضوه » (١) وقال الشاعر :

رماني بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن جول الطوي رماني(٢)

وقوله « ماخلق الله ذلك إلا بالحق » معناه لم يخلق ماذكره من السموات والارض والشمس والقمر وقدرهما منازل إلا حقاً . وقوله « يفصل الآيات » اي

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦٣ (٢) مر تخريجه في ١/١٧٢ ، ٢٠٣

يميز بعضها من بعض « لقوم يعلمون » ذلك ويتبينونه . وقال قوم : معناه لقوم لهم عقول يتناولهم التكليف ويصح منهم الاستدلال دون البهائم ومن لاعقل له .

قوله تعالى :

إِنَّ فِي ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ(٦) آية.

الاختلاف ذهاب كل واحد من الشيئين في غير جهة الاخر . فاختلاف الليل والنهار ذهاب أحدهما في جهة الضياء والآخر في جهة الظلام . والليل عبارة عن وقت غروب الشمس الى طلوع الفجر الثاني ، وهو جمع ليلة كتمرة وتمر . والنهار عبارة عن اتساع الضياء من طلوع الفجر الثاني الى غروب الشمس . والنهار واليوم معناهما واحد إلا أن في النهار فائدة اتساع الضياء . وقوله « وماخلق الله في السموات والارض» معناه ماقدر فيهماوفعلهعلىمقدار تقتضيه الحكمة : من الحيوان والنبات وغيرهما من غير نقصان ولازياد ، . وإن في رفعه السماء بلاعمد ،وتسكينه الارض بلا سند ، مع عظمهالأعظم آيات لمن تفكر في ذلك وتعقله ، ويتقي مخالفته . والخلق مأخوذ من خلقت الأديم اذا قدرته . وإنما خص ما خلق في السموات والأرض بالذكر للاشعار بوجوه الدلالات إذ قد تكون الدلالة في الشيء من جهة الخلق ، وقد تكون من جهة اختلاف الصورة ومن جهة حسن المنظر ، ومن جهة كثرة النفع ومن جهة عظم الأمر ، كالجبل والبحر . وقوله « لآيات لقوم يتقون » معناه ان في هذه الاشياء التي ذكرها دلالات على وحدانية الله لقوم يتقون معاصيه ويخافون عقابه ، وخص المتقين بالذكر لما كانوا هم المنتفعين بها دون غيرهم .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) آية .

معنى « إن الذين لايرجون لقاءنا » يحتمل أمرين :

احدهما – لايخافون عقابنا ، كما قال الهذلي :

اذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عواسل (١)

والثاني – أن يكون معناه لايطمعون في ثوابنا ، كما يقال تاب رجاء لثواب الله وخوفاً من عقابه . والملاقاة وإن كانت لاتجوز الا على الاجسام . فانما اضافها الى نفسه ، لان ملاقاة مالايقدر عليه إلا الله يحسن ان يجعل لقاء الله تفخيماً لشأنه كما جعل إتيان ملائكته اتياناً لله في قوله « هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » (٢) و كما قال « وجاء ربك » (٣) وانما يريد وجاء امر ربك .

ومعنى قوله « ورضوا بالحياة الدنيا » قنعوا بها دون غيرها من خير الاخرة ومن كان على هذه الصفة ، فهو مذموم لانقطاعه بها عن الواجب من أمر الله . وقوله « واطمأنوا بها » معناه ركنوا اليها على وجه التمكين فيه، فهؤلاء مكنوا الاحوال الدنيا ، فصاحبها يفرح لها ويغتم لها ويرضى لها ويسخط لها . وقوله « والذين هم عن آياتنا غافلون » معناه الـذين يذهبون عن تأمل هذه الايات ولايعتبرون بها . والغفلة والسهو نظائر ، وهو ذهاب المعنى عن القلب بما يضاده وقد تستعمل الغفلة في التعرض لها ، ولذلك يقولون : تغافل ولا يقولون مثله في السهو .

(١) اللسان (خلف) ومجاز القرآن ١ / ٢٧٥ وقد مر في ٢ / ٢١٠ و٣/٣١٥

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢١٠ (٣) سورة ٨٩ الفجر آية ٢٢

قوله تعالى[١] :

أُولَئِكَ مَأْوَيهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) آية

« أولئك » اشارة الى الذين تقدم ذكرهم في الاية الأولى، والكاف في«أولئك» حرف الخطاب ، مثل الكاف في قولهم أنا ذاك ، ولهذا لم يجز تأكيده ولاالبدل منه ، ولو كان اسماً لجاز : أولئك نفسك ، وأولاء مبني على الكسر ، وإنما بني لتضمنه معنى الاشارة الى المعرفة لأن أصله أن يتعرف بعلامة ؛اذ لم يوضع للشيء بعينه ، كما وضع زيد وعمرو ، وبني على الحركة لالتقاء الساكنين ، وبني على الكسر لأنها في الأصل في حركة إلتقاء الساكنين إذا كثر ذلك في الفعل لما يدركه من الجزم فاستحق الكسر لأنه لما يدخله في حال الاعراب و (هؤلاء) لما قرب و (أولئك) لما بعد ، كما تقول في (هذا) و (ذاك) لأن ما بعد يقتضي التعريف بالخطاب وما قرب يكفي فيه التنبيه . اخبر الله تعالى أن الذين تقدم وصفهم في الاية الاولى مستقرهم النار جزاء بما كانوا يكسبون من المعاصي .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ (٩) آية .

لما ذكر الله تعالى الكفار ومايستحقونه من المصير الى النار في الآيات الأول ذكر في هذه « ان الذين آمنوا » يعني صدقوا بالله ورسوله ، واعترفوا بهماوأضافوا الى ذلك الاعمال الصالحات « يهديهم » الله تعالى جزاء بايمانهم الى الجنة « تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم» يعني البساتين التي تجري تحت أشجارها الانهارالتي فيها النعيم يعني أنواع اللذات والمنافع يتنعمون فيها . ومعنى « تجري من تحتهم

الانهار » تجري بين أيديهم ، وهم يرونها من عل ، كما قال تعالى « قد جعل ربك تحتك سرياً » (١) ومعلوم انه لم يجعل السري تحتها وهي قاعدة عليه، لان السري هو الجدول ، وإنما أراد أنه جعل بين يديها . وقال حاكياً عن فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي » (٢) وقيل من تحت بساتينهم وأسرتهم وقصورهم ـ في قول ابي علي . ومعنى الهدى ـ هنا ـ الارشاد الى طريق الجنة ثواباً على أعمالهم الصالحة ، ألا ترى انه قال « يهديهم ربهم بايمانهم » يعني جزاء على إيمانهم ، وذلك لايليق إلا بما قلناه . ويحتمل أن يكون وصفهم بالهداية على وجه المدح جزاء على إيمانهم بالله تعالى .

قوله تعالى :

دَعْوَيٰهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَيٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٠) آية

معنى « دعواهم فيها » ان دعاء المؤمنين لله في الجنة ، وذكرهم له فيها هو ان يقولوا « سبحانك اللهم » ويقولون ذلك ولهم فيها لذة لاعلى وجه العبادة ، لانه ليس هناك تكليف . وقيل : إنه اذا مرّبهم الطير يشتهونه قالوا « سبحانك اللهم » فيؤتون به ، فاذا نالوا منه شهوتهم قالوا « الحمد لله رب العالمين » هـذا قول ابن جريح . وقال الحسن : آخر كلام يجري لهم في كل وقت « الحمد لله رب العالمين» لأنه ينقطع . والدعوى قول يدعى به الى أمر ، ومعنى « سبحانك اللهم » ننزهك ياألله من كل مالا يليق بك ولايجوز من صفاتك من تشبيه أوفعل قبيح . وقيل معناه براءة الله من السوء فيما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وقال الشاعر :

(١) سورة ١٩ مريم آية ٢٣

(٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٥١

أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر (١)

أي براءة منه . والتحية التكرمة بالحال الجليلة ، ولذلك يسمون الملك التحية ، قال عمرو بن معد يكرب :

ازور بها أبو قابوس حتى أنيخ على تحيته بجند(٢)

وقال زهير بن خباب الكلبي :

من كل ما نال الفتى قد نلته الا التحيه (٣)

وهو مأخوذ من قولهم احياك الله حياة طيبة . والمعنى تحية بعضهم لبعض سلام اي سلمت وامنت مما ابتلى به اهل النار . و (أن) في الآية هي المخففة من الثقيلة وجاز ان لاتعمل لخروجها بالتخفيف عن شبه الفعل ، كما قال الشاعر :

في فتية كسيوف الهند قد علموا ان هالك كل من يحفى وينتعل(٤)

والميم في اللهم بمعنى (يا) كأنه قال ياألله ، ولم يجعل في موضع (يا) لئلا يكون كحروف النداء التي تجري في كل اسم .

قوله تعالى :

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) آية

قرا ابن عامر ويعقوب «لقضى اليهم اجلهم» بفتح القاف . الباقون بضمها على مالم يسم فاعله . قال ابو علي الفارسي : اللام في قوله « لقضي اليهم اجلهم » جواب (لو) في قوله « ولو يعجل الله للناس » والمعنى « ولو يعجل الله للناس » دعاء

(١) مر هذا البيت في ١/١٣٤ و٣/ ٨١ و ٥ /٢٤١

(٢ ، ٣) تفسير الطبري ١١/ ٥٨ (٤) حاشية الصبان ١/ ٢٩٠

« الشر » اي ما يدعون به من الشر على انفسهم في حال ضجر وبطر « استعجالهم » اياه بدعاء « الخير » فأضاف المصدر الى المفعول بـه وحـذف الفاعل كقوله دعاء الخير ، وحذف ضمير الفاعل ،والتقدير « ولو يعجل الله للناس الشر » استعجالا مثل «استعجالهم بالخير لقضي اليهم اجلهم» قال ابوعبيدة : معناه الفراغ من اجلهم ومدتهم المضروبة للحياة ، فهلكوا ، وهو قريب من قوله « ويدعو الانسان بالشر دعاؤه بالخير وكان الانسان عجولا» (١) . وقيل للميت مقضي كأنه قضى إذا مات وقضى فعل ، التقدير استوفى أجله ، قال ذو الرمة :

إذا الشخص فيها هزه الآل أغمضت عليه كاغماض المقضي هجولها(٢)

والمعنى أغمضت هجول هذه البلاد على الشخص الذي فيها ، فـلم يرلقربه كاغماض المقضي، وهو الميت . فأما قوله « لقضي اليهم » وبما يتعلق هذا الجار ، فانه لما كان معنى (قضى) معنى (فرغ) وكان قولك (فرغ) قد يتعدى بهذا الحرف وفي التنزيل « سنفرغ لكم » (٣) فانه يمكن أن يكون الفعل يتعدى باللام كما يتعدى بـ (الى) كما ان اوحى في قوله « وأوحينا اليه » قد تعدى بـ (الى) وفي قوله « بأن ربك أوحى لها » (٤) تعدّى بالـلام ، فلما كان معنى قضى فرغ ، وفرغ تعلق بها (الى) كذلك تعلق بقضى . ووجه قراءة ابن عامر واسناده الفعل الى الفاعل ، لأن الذكر قد تقدم في قوله « ولو يعجل الله للناس » فقال (لقضى) الله ــ على هذا ــ وقوى ذلك بقوله « ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده »(٥)فقوله « قضى اجلا » اضافه الى الفاعل فكذلك في هذه الآية . وقوله « واجـل مسمى عنده » يعني أجل البعث بدلالة قوله « ثم انتم تمترون» (٦) أي تشكون في البعث.

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١١
(٢) اللسان «غمض » الآل ما أشرف من البعير ومعنى البيت أن الابل مسرعة .
(٣) سورة ٥٥ الرحمن آية ٣١ (٤) سورة ٩٩ الزلزال آية ٥
(٥ ، ٦) سورة ٦ الانعام آية ٢

ومن ضم القاف وبنى الفعل للمفعول ، فلأنه في المعنى مثل قول من بنى الفعل للفاعل .

أخبر الله تعالى في هذه الاية انه او عجل للخلق الشر ، والتعجيل تقديم الشيء قبل حينه. وقد يكون تقديم الشيء في المكان ، فلا يكون تعجيلا . والفرق بين التعجيل والاسراع ان التعجيل بالشيء عمله قبل وقته الذي هو أولى به . والاسراع عمله في وقته الذي هو احق به ، وضده الابطاء . والشر ظهور مافيه الضرر . واصله الاظهار من قولهم : شررت الثوب اذا اظهرته للشمس ، ومنه شرر النار لظهوره وانتشاره . وقوله « لقضي اليهم اجلهم » قيل : إن معناه لأميتوا كأنه قيل لقطع اجلهم وفرغ منه قال ابو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أوصنع السوابغ تبع (١)

وقال الحسين بن علي المغربي : معناه رد قطع أجلهم اليهم لكون السبب فيه دعاؤهم . وقوله « استعجالهم بالخير » نصب استعجالهم على المصدر وتقديره ولو يعجل الله للناس تعجيله استعجالهم بالخير اذا دعوا . وقيل في معناه قولان احدهما قال مجاهد وقتادة : وهو كقول الرجل لولده وماله في حال غضبه : اللهم لاتبارك فيه والعنه . وقال الحسن: هو كقوله « ويدعو الانسان بالشر دعاؤه بالخير » (٢) وقال الجبائي : معناه إنهم يطلبون الخير قبل حينه ،وسبيله في أنه لاينبغي أن يكون كسبيل الشر من الاهلاك بالعقاب قبل حينه لما فيه من الاقتطاع عن التوبة واللطف.

وقوله « فنذر الذين لايرجون لقاءنا » معناه نترك الذين لايخافون لقاءنا أو لايطمعون فيه بمعنى أنهم لايخافون عقاب معاصينا ، ولايطمعون في ثواب طاعتنا «في طغيانهم يعمهون » فالطغيان الغلو في ظلم العباد والطاغي والباغي نظائر. و(العمه) شدة الحيرة ، وتقديره نتركهم وهم يترددون في ضلالتهم ، لأنه يريد منهم العمه

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٧٥ وقد مر في ١/ ٤٢٩ و٤/٨٨ ، ١٦٥

(٢) سورة ١٧ الاسراء آية ١١ .

في الطغيان ، لأنه إنما يتركهم ليتوبوا من ذلك ويؤمنوا لكنه بين أنه لايعاجلهم بالعقاب في الدنيا ، وهم مع ذلك لايرعوون بل يترددون في الطغيان . وقيل المعنى نتركهم في الاخرة يتحيرون في جزاء طغيانهم .

قوله تعالى :

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢) آية .

اخبر الله تعالى في هذه الاية عن قلة صبر الانسان؛اذا ناله الضر دعا ربه على سائر حالاته التي يصيبه ذلك عليها، سواء كان قائما أوقاعداً إذا أطاقه ، أوعلى جنبه من شدة المرض فيجتهد في الدعاء لأن يهب الله له العافية . وليس غرضه بذلك نيل الثواب للآخرة . وانما غرضه زوال ماهو فيه من الآلام ، فـاذا كشف الله عنه ذلك الضرر ، ووهب له العافية ، مرّ معرضاً عن شكر ماوهبه له من نعمة وعافية فلا يتذكر ما كان فيه من الآلام ،وصار في الاعراض عن ذلك بمنزلة من لم يدع الله كشف ألمــه ولا سأله ازالة الضرر عنه الذي كان به . وقوله « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » قال ابو علي الجبائي : الشياطين الذين دعوا المسرفين الى المعاصي واغووهم بها وبترك شـكر نعم الله زينوا لهؤلاء المسرفين ما كانوا يعملونه من المعاصي والاعراض عن ذكر نعمه واداء شكره . والغرض بذلك انه ينبغي لمن وهب الله له العافية بعـد المرض ان يتذكر حسن صنع الله اليه وجزيل نعمه عليه ، فيشكره على ذلك ويسأله ادامة ذلك عليه . ونبه بذلك على انه يجب عليه الصبر عند المرض وترك الجزع عند احتساب الأجر وطلب الثواب في الصبر على ذلك ، وأن يعلم أن الله محسن اليه بذلك ، وليس بظالم لــه . وقال الحسن

التزيين هو التحسين من الشيطان والغواة . وقال غيره هو التحبيب بالشهوة لتحبيب المشتهى . وقوله « أو قاعداً اوقائماً» نصب على الحال . وقوله « كأن » هي المخففة عن الثقيلة، وتقديره كأنه لم يدعنا، ومثله قول الخنساء :

كأن لم يكونوا حمى يتقى اذ الناس اذ ذاك من عزّ بزّ (١)

اي كأنهم . وقوله « مر كأن لم » اي استمر على طريقته الأولى كأنه لم يدعنا ولم يسألنا ذلك . وموضع الكاف نصب على أنه مفعول مالم يسم فاعله والمعنى زين للمسرفين عملهم « كذلك » أي مثل ذلك .

قوله تعالى :

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) آية

أقسم الله تعالى في هذه الاية أنه اهلك من كان قبل هذه الأمة من القرون ، وهو جمع قرن . وسمي أهل كل عصر قرناً لمقارنة بعضهم لبعض . والقرن هو المقاوم لقرينه في الشدة ، ويعني بذلك الذين كذبوا رسل الله الذين بعثهم الله اليهم فكفروا بذلك بربهم وظلموا أنفسهم، فأهلكهم الله بأنواع العذاب وفنون الاستئصال كما أهلك قوم لوط وقوم موسى وغيرهم ، وبين بقوله « وما كانوا ليؤمنوا » ان هذه الأمم التي أهلكهم لم يكونوا مؤمنين ولو أبقاهم الله لم يؤمنوا بالرسل الذين أتوهم والكتب التي جاؤهم بها ، ولما كان ذلك المعلوم من حالهم استحقوا من الله تعالى العذاب فأهلكهم .

وقوله « كذلك نجزي القوم المجرمين» اي نعاقب مثل عقوبة هؤلاء المجرمين اذا استحقوا أو كانوا ممن لايؤمن ولا يصلح . وجعل ابو علي الجبائي ذلك دليلا

---

(١) ديوانها انيس الجلساء ١٤٤

على ان تبقية الكافر إذا علم من حاله أنه يؤمن فيما بعد واجبة .

قوله تعالى :

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) آية .

بين الله تعالى بهذه الاية أنه إنما جعل المخاطبين بهذا الخطاب بعد إهلاك من أهلك وتكليفه إياهم بطاعته وتصديق رسله مثل ما كان كلفهم «لننظر كيف تعملون» معناه إنكم إن عملتم بالمعاصي مثل ما عمل بها أولئك وكذبتم الرسل ولم ترجعوا عن الكفر أهلككم ببعض العقاب كما أهلك من تقدم . وإن آمنتم أثابكم الله في الدنيا والآخرة ورضي عنكم ، فجعل قوله « لننظر كيف تعملون » دلالة لهم على اني أفعل بكم احد هذين : الثواب إن آمنتم وأطعتم ، والعذاب إن كفرتم وعصيتم . واستعمل ذلك على هذا المعنى مجازاً كما يستعمله اهل اللغة على هذا المعنى ، لانهم لايعلمون مايكون من المكلفين ومايفعل بهم من الثواب والعقاب وهو عالم بذلك . ومثل ذلك يستعمله العرب فيما يعلمه الانسان يقول القائل لغلامه الذي يأمره : إني سأعاقبك وأضربك لأنظر كيف صبرك ، واعطيك مالا لأنظر كيف تعمل ، وإن كان عالماً بما يؤل اليه الأمر في ذلك .

وموضع (كيف) نصب بقوله « تعملون» وإنما قدم لانه للاستفهام ولايجوز أن يكون معمولا « لننظر » لأن ما قبل الاستفهام لايعمل في الاستفهام ولو قلت لننظر أخيراً يعملون أو شراً ؟ كان العامل في (خير ، وشر) يعملون .

قوله تعالى :

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) آية .

اخبر الله تعالى في هذه الآية أنه إذا قرأ النبي ﷺ على الكفار آيات الله وكلامه . و (بينات) نصب على الحال . وهي الآيات التي امر فيها عباده بأشياء ونهاهم عن اشياء « قال الذين لا يرجون لقاءنا » اي لقاء عذاب الله اوما وعدهم به من ثوابه ان اطاعوه « ائت بقرآن غير هذا » الذي تتلوه علينا « أو بدله » فاجعله على خلاف ماتقرأه علينا ، وإنما فرق بين قوله « ائت بقرآن غير هذا او بدله » لان الاتيان بغيره قد يكون معه ، وتبديله لايكون إلا برفعه ، والاتيان بغيره . وانما لم يرجوا ثواب الله وعذابه لأنهم كانوا غير مقرين بالله ولا معترفين بنبوة نبيه ﷺ ولا يصدقونه فيما يخبرهم به عن الله ويذكرهم به من البعث والنشور والحساب والجزاء . وكان قولهم هذا له على وجه التعنت والتسبب الى الكفر بـه وتكذيبه ، واحتجاجاً عليه بماليس بحجة لأنه ﷺ كان قـد بين لهم ان هذا القرآن ليس من كلامه وانه ليس له تغييره وتبديله ، فأرادوا أن يوهموا ان الأمر موقوف على رضاهم به ، وليس يرضون بهذا فيريدون غيره .وقال الزجاج : إنه كان غرضهم اسقاط مافيه من عيب آلهتم وتسفيه أحلامهم ومن ذكر البعث والنشور ، فأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم في جواب ذلك : ليس لي « أن أبدله من تلقاء نفسي » أي من جهة نفسي ومن ناحية نفسي كأنه قيل له: قل ليس لي أن اتلقاه بالتبديل كما ليس لي أن اتلقاه بالرد . والتلقاء جهة مقابلة الشيء إلا أنه قد يستعمل ظرفاً فيقال : هو تلقاءه كما يقال: هو حذاه وقبالته وتجاهه .

قوله « إن أتبع إلا مايوحى الي » أى ليس لي أن أتبع إلا الذي يوحى إلي

« إني أخاف إن عصيت ربي » في اتباع غيره « عذاب يوم عظيم » يعني يوم القيامة.

ومن استدل بهذه الاية على أن نسخ القرآن بالسنة لايجوز فقد أبعد ؛لأنه اذا نسخ مايتضمنه القرآن بالسنة ، فالسنة لايقولها النبي ﷺ إلا بوحي من الله . وليس بنسخه من قبل نفسه . بل يكون ذلك النسخ مضافاً الى الله . وانما لايكون قرآناً لأنه تعالى قد يوحي الى نبيه ماهو قرآن وماليس بقرآن ، لأن جميع ما بينه النبي ﷺ من الشريعة لم يبينها إلا بوحي من الله لقوله « وماينطق عن الهوى ان هـو الاوحي يوحى » (١) وان كان تفصيل ذلك ليس بموجود في القرآن فالاستدلال بذلك على ماقالوه بعيد .

قوله تعالى :

﴿قُل لَّوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦) آية .

حكي عن الحسن انه قرأ « ولا أدراكم به » وقرأ ابو ربيعة وقنبل الا المالكي والعطار « ولأدراكم به » يجعلانها (لاماً) ادخلت على (ادراكم) وأمال (أدراكم) و (ادراك) في جميع القرآن ابو عمرو وحمزة والكسائي وخلف والداحوني عن ابن ذكوان ، والكسائي عن ابي بكر ، ووافقهم يحيى والعليمي في هـذه السورة . حكى سيبويه :دريته ودريت به، قالوا كثر الاستعمال التعدي بالباء ، يبين ذلك قوله «ولا أدراكم به » ولو كان على اللغة الاخرى لقال ولاادراكموه ، وقالوا :الدرية على وزن (فعـلة) كما قالوا الشعرة والفطنة ، وهي مصادر يراد بها ضروب من العلم .فأما الدراية فكالهداية والدلالة ،وكأن الدراية التأني والتعمل لعلم الشيء وعلى هذا المعنى ماتصرف من هذه الكلمة ، وقالوا : داريت الرجل اذا لاينته وختلته

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٣ ـ ٤

فعلى هذا لايوصف الله تعالى بالداري ، واما قول الراجز .

اللهم لاأدري وانت الداري

فلا يكون حجة في جواز ذلك لأمرين : احدهما ـ انه لما تقدم قولـه : لاأدري استجاز أن يذكر الداري بعده ، ليزدوج الكلام ، كما قال تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه » (١) ونظائره كثيرة . والثاني ـ إن الأعراب ربما ذكروا أشياء امتنع جوازها كما قال :

لو خافك الله عليه حرمه (٢)

وقال آخر :

اللهم إن كنت الذي بعهدي　　　　ولم تغيرك الأمور بعـدي

فاما الهمزة على ما حكي عن الحسن ، فلا وجه له لأن الدرء الدفع ، كما قال « فأدرءوا عن انفسكم الموت » (٣) وقال « فادّارأتم فيها » (٤) وقوله عليه السلام (ادرأوا الحـدود بالشبهات) قال الفراء : ان كان ماحكي عن الحسن لغة ، وإلا يجوز أن يكون الحسن ذهب الى طبعه وفصاحته فذهب الى درأت الحد ، وقديغلط بعض العرب في الحرف اذا ضارعه آخر في الهمزة فيهمز ماليس مهموزاً ، سمعت امرأة من غني تقول : رثأت زوجي بأبيات ، ويقولون : لبأت بالحج وحـلأت السويق . وكل ذلك غلط ، لأن (حلأت) انما هومن دفع الابل العطاش عن الماء و « لبأت » من اللباء الذي يؤكل ، و « رثأت » من الرثية اذا حلبت الحليب على الرايب ، ومن أمال فتحة الراء وأمال الالف بعدها ، فلان هذه الألف تنقلب ياء في أدريته ، وهما مدريان . ومن لم يمل فلأن الاصل عدم الامالة ، ولأن كثيراً من الفصحاء لايميل ذلك .

ومعنى قوله « ولا ادراكم به » قال ابن عباس ولاأعلمكم به من (دريت به)

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٩٤　　　　(٢) قد مر في ٢/١٨٥

(٣) سورة ٣ آل عمران آية ١٦٨　　　　(٤) سورة ٢ البقرة آية ٧٢

وأدراني الله به . ومعنى الاية الأمر للنبي ﷺ بأن يقول لهؤلاء الكفار لو اراد الله ان يمنعهم فائدته ماأعلمهم به ، ولا أمر النبي ﷺ بتلاوته عليهم .

وقوله « فقد لبثت فيكم عمراً من قبله » معناه لبثت على هذه الصفة لاأتلوه عليكم ولا يعلمكم الله به حتى أمرني به وشاء اعلامكم . وقال قتادة: لبث في قومه أربعين سنة قبل أن يوحى اليه .

وقوله « أفلا تعقلون » معناه هلاتتفكرون فيه بعقولكم فتتبينوا بذلك ان هذا القرآن من عند الله انزله تصديقاً لنبيه ﷺ. قال الرماني : والعقل هو العلم الذي يمكن به الاستدلال بالشاهد على الغائب . والناس يتفاضلون فيه بالأمر المتفاوت فبعضهم أعقل من بعض اذ كان أقدر على الاستدلال من بعض . ومعنى ذلك ان يقول لهم قد لبثت فيكم حيناً طويلا ونشأت بين أظهركم وعرفتم منصرفي ومنقلبي فلو كان ماأتيت به مخترعاً اوكان مافيه من الاخبار من عند غير الله لكنتم عرفتم ذلك اذ فيكم ولدت ونشأت ومعكم تصرفت « أفلا تعقلون » في التدبير والنظر والانصاف فتفعلون فعل من يعقل . على انه ﷺ لو كان اخذ ذلك من غيره وخالط اهلها، او لوكان شاعراً، اولوكان يعلم السحر- كما ادعوا - ثم خفي ذلك اجمع عليهم حتى لم يعرفوا الوجه الذي منه اخذ لكان في ذلك أعظم الحجة .وعلى ما روي عن قنبل يكون المعنى « لو شاء الله ماتلوته » يكون نفياً للتلاوة « ولأدراكم » ولأعلمكم ثبوته ، ويكون اثباتاً للعلم ، وعلى قراءة الباقين يكون نفياً للأمرين معاً .

قوله تعالى :

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٧) آية.

قوله « فمن اظلم ممن » ظاهره الاستفهام والمراد به الاستعظام والاخبار به انه لا احد اظلم ممن اخترع كلاماً اوخبراً ثم اضافه الى الله ويريد به النبي نفسه لو كان فعل « او كذب بآياتـه » يعنيهم « إنه لايفلح » اي لايفوز « المجرمون » وانما قال : لا احد اظلم ممن هذه صفته ، لانه ظلم كفر ، وهو اعظم من ظلم ليس بكفر . والتقدير لااحداظلم ممن يظلم ظلم كفر، فعلى هذا من يدعي الربوبية داخل في هذه الجملة لان ظلمه ظلم كفر ، كأنه قيل لااحـد اظلم من الكافر ، وليس لاحد ان يقول : المدعي للربوبية اظلم من المدعي للنبوة وهو كاذب . والكذاب بآيات الله ظالم لنفسه بما يدخل عليها من استحقاق العقاب وظالم لغيره ممن يجوز ان تلحقه المنافع والمضار بتكذيبه اياه وروده عليه ، لان من شأنه ان يعمه مثـل هذا التكذيب . و (من) في الآية للاستفهام وهي لاتوصل لانها تضمنت حـرف الاستفهام فعوملت معاملته ، كما انها اذا كانت بمعنى الجزاء لم توصل لتضمنهـا معنى (إن) التي هي ام الباب في الجزاء .

قوله تعالى :

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّؤُنَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) آية .

قرأ اهل الكوفة الا عاصماً «عما تشركون » بالتاء ههنا وفي النحل في موضعين وفي الروم . الباقون بالياء . من قرأ بالتاء بناه على ماتقـدم من قوله « اتنبئون الله بما لايعلم » فلما خاطبهم بذلك وجه اليهم الخطاب بتنزيهه عما يشركون . ومن قرأ بالياء بناه على الخبر عن الغائب لأن اول الآية مبني على ذلك ، وهو قوله « ويعبدون من دون الله » وكلاهما حسن .

اخبر الله تعالى على وجه الذم للكفار بأنهم يوجهون عبادتهم الى من هو دون الله من الأصنام والأوثان التي لاتضر ولاتنفع .

فان قيل : كيف ذمهم على عبادة الوثن الذي لاينفع ولايضر مع انه لونفع وضر لم تجز عبادته ؟! قلنا : لانـه اذا كان من يضر وينفع قد لايستحق العبادة اذا لم يقـدر على اصول النعم ، فمن لايقدر على النفع والضر اصلا ابعـد من ان يستحق العبادة .

وقوله « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله » اخبار منه تعالى عن هؤلاءالكفار انهم يقولون انا نعبد هذه الاصنام لتشفع لنا عند الله ، فتوهموا ان عبادتها اشـد في تعظيم الله من قصده تعالى بالعبادة ، فحلت من هذه الجهة محل الشافع عند الله . وقال الحسن : شفعاءفي صلاح معاشهم في الدنيا ، لانهم لايقرون بالبعث بدلالة قوله « واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت » والعبادة خضوع بالقلب في اعلى مراتب الخضوع ، فكل طاعة فعلت على هذا الوجه فهي عبادة . وانما قال « ويعبدون من دون الله » مع انهم كانوا يشركون في عبادة الله لامرين :

احدهما - ان عابد الوثن خاصة قد اشرك في استحقاق العبادة .

الثاني - ان من عبد الله وعبد الوثن فقد عبده من دون اخلاص العبادة لله .

وقوله « اتنبئون الله بمالا يعلم » امر منه تعالى لنبيه ان يقول لهم على وجه الالزام اتخبرون الله بما لايعلم من حسن عبادة الاوثان وكونها شافعة لان ذلك لو كان صحيحاً لكان الله به عالماً ولما نفى العلم بذلك نفي المعلوم .

وقوله « سبحانه وتعالى عما يشركون » تنزيه منه تعالى لنفسه ، وتنزيه من ان يعبد معه إله او يتخذ من دونه معبود .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) آية

اخبر الله تعالى في هذه الاية انه لم يكن الناس فيما مضى الا امة واحدة والامة الجماعة التي على معنى واحد في خلق او ما يستمر على عبادته بالظاهر، فعلى هذا الناس أمة والطير أمة. والمراد – ههنا – أنها كانت على دين واحد. واختلفوا في الدين الذي كانوا مجتمعين عليه قبل حدوث الاختلاف بينهم على قولين: فقال الحسن كانوا على الشرك كما قال تعالى « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » (١) وقال الزجاج: أراد بذلك العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله فانهم كانوا مشركين، فلما بعث النبي آمن به قوم وكفر به آخرون. وقال الجبائي: انهم كانوا على الاسلام، في عهد آدم وولده وأنكر الأول. قال لأن الله تعالى قال « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » (٢) فلو كانوا كلهم على الكفر لما كان فيهم شهيداً أصلا قال الرماني: لايمتنع ان يكون الأمر على ماقال الحسن ويكون المراد التغليب كأن المسلمين كانوا قليلين، فلا يعتد بهم، فيجوز أن يقال فيهم أنهم امة مشركة كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال (ان الله نظر الى اهل الأرض فمقتهم الا بقايا من أهل الكتاب). وقال مجاهد: فاختلفوا حين قتل ابن آدم أخاه. والاختلاف هو الذهاب في الجهتين فصاعداً من الجهات، وحدّ المختلفين ان لا يسد احدهما مسد صاحبه فيما يرجع الى ذاته كما لا يسد السواد مسد البياض.

وقوله « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم » معناه لولا كلمة سبقت من ربك من انه لايعاجل العصاة بالعقوبة انعاماً عليهم في التأني بهم « لقضي بينهم » في اختلافهم بما يضطرهم الى علم المحق من المبطل. وقيل معنى ذلك « لقضي بينهم » اي فصل بينهم بأن اهلك العصاة وانجى المؤمنين، لكنه أخرهم الى يوم القيامة

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢١٣　　(٢) سورة ٤ النساء آية ٤٠

تفضلا منه وزيادة في الانعام عليهم .

قوله تعالى :

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) آية

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا : هلا أنزل على محمد آية وأرادوا بذلك أنه يضطرهم الى المعرفة ولا يحتاجون معها الى النظر والاستدلال ، ولم يطلبوا معجزة يستدل بها على صدقه ؛ لأنه قد كان أتاهم بالمعجزات التي تدل على صدقه فلم يجبهم الله الى ما التمسوه ؛ لأن التكليف يمنع من الاضطرار الى المعرفة ؛ لأن الغرض بالتكليف التعريض للثواب . ولو عرفوا الله تعالى ضرورة لما استحقوا ثواباً فكان ذلك ينقض غرضهم . وقال ابو علي : طلبوا آية سوى القرآن .

والاصل في (لولا) امتناع الثاني لكون الأول كقولك : لولا زيد لجئتك فخرجت الى معنى التحضيض بأنه ليس ينبغي ان يمتنع ذا لكون غيره .

قوله « فقل إنما الغيب لله » معناه إن مالا تعرفونه ولا نصب لكم عليه دليل يجب أن تسلموا علمه الى الله؛ لانه العالم بالخفيات ومايكون في المستقبل ، فلأجل ذلك لا يفعل الآية التي اقترحتموها في هذا الوقت لما في ذلك من حسن التدبير ووجه المصلحة . والغيب خفاء الشيء عن علم العباد ، والله تعالى عالم الغيب والشهادة لأنه عالم لنفسه يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها لا يخفى عليه خافية .

وقوله « فانتظروا » معناه انتظروا ماوعدكم الله من نصر المؤمنين وقهر الكافرين وانزال الذل والعقاب بهم إن أقاموا علي كفرهم فـ « إني معكم من المنتظرين » لذلك .

قوله تعالى :

وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) آية.

روى روح « يمكرون » بالياء . الباقون بالتاء .

أخبر الله تعالى بأنه إذا أذاق الناس يعني الكافرين « رحمة » بأن أنعم عليهم واوسع أرزاقهم وأخصب أسعارهم « من بعد ضراء » يعني بعد شدة كانوا فيها من جدب وضيق نالتهم « مكروا في آياتنا » فجواب (اذا) الأولى في (اذا) الثانية وإنما جعلوا (إذا) جواباً إذا كانت بمعنى الجملة على مافيها من المفاجأة ، كما قال تعالى « وإن تصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم إذا هم يقنطون » (١). وحقيقة الذوق تناول ماله طعم بالفم ليوجد طعمه . وانما قال : اذقناهم الرحمة على طريق البلاغة لشدة إدراك الحاسة . والمكر فتل الشيء الى غير وجهه على طريق الحيلة فيه ، فهؤلاء محتالون لدفع آيات الله بكل مايجدون السبيل اليه من شبهة او تخليط في مناظرة أو غير ذلك من الأمور الفاسدة .وقال مجاهد : مكرهم استهزاؤهم وتكذيبهم. فقال الله لنبيه صلى الله عليه وآله « قل » لهم « الله اسرع مكراً » يعني اقدر جزاء على المكر، وذلك أنهم : جعلوا جزاء النعمة المكر مكان الشكر، فقوبلوا بما هو أشد .والسرعة عمل الشيء في وقته الذي هو أحق به ، والمعنى : إن ما يأتيهم من العقاب اسرع مما أتوه من المكر اي وقع في حقه . وقوله « ان رسلنا يكتبون ماتمكرون » إخبار منه تعالى أن ملائكة الله الموكلين بهم يكتبون مايمكرون من كفرهم وتكذيبهم، ففي ذلك غاية الزجر والتهديد على مايفعلونه من المكر والحيل في امر النبي صلى الله عليه وآله

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٣٦

وقيل انما سمى جزاء المكر مكراً ، لأنهم اذا نالهم العذاب على مكرهم بحيث لايحتسبونه ولايتوقعونه فكأنه مكر بهم .

قوله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢) آية

قرأ ابن عامروابوجعفر « ينشركم » بالنون والشين من النشر . الباقون بالياء والسين وتشديد الياء من التسيير . قال ابو علي : حجة ابن عامر أن (ينشركم) مثل قولــه « وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » (١) فالبث تفريق ونشر . وحجة الباقين قوله « قل سيروا في الأرض » (٢)«فامشوا في مناكبها »(٣) فالمعنيان متقاربان.

امتن الله على خلقه في هذه الآية وعدد نعمه التي يفعلها بهم في كل حال، فقال « هو الذي يسيركم في البر والبحر» وتسييره إياهم اما في البحر، فلأنه بالريح والله المحرك لها دون غيره ، فلذلك نسبه الى نفسه، واما في البر فلأنه كائن باقداره وتمكينه وتسبيبه ، فلذلك نسبه الى نفسه . والتسيير التحريك في جهة تمتد كالسير الممدود ،والبر الأرض الواسعة التي تقطع من بلد الى بلد ، ومنه البرّ لاتساع الخير به

(١) سورة ٤ النساء آية ١

(٢) سورة ٦ الانعام آية ١١ وسورة ٢٧ النمل آيــة ٦٩ وسورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٠ وسورة ٣٠ الروم آية ٤٢ (٣) سورة ٦٧ الملك آية ١٥

والبحر مستقر الماء الواسع حتى لايرى من وسطه حافتاه وجمعه أبحر وبحور ، ويشبه به الجواد ، فيقال انما هـو بحر لاتساع عطائه . وقوله « حتى إذا كنتم في الفلك » خص الخطاب براكبي البحر . والفلك السفن ، وسميت فلكا لدورانها في الماء ، وأصله الدور ، ومنه فلكة المغزل ، والفلك الذي تدور فيه النجوم . وتفلك ثدي الجارية اذا استدار . والفلك ـ ههنا ـ جمع ، وقد يكون واحداً . كقوله « في الفلك المشحون » (١) وقوله « وجرين بهم بريح طيبة » عدل عن الخطاب الى الاخبار عن الغائب تصرفاً في الكلام مع انه خطاب لمن كان في تلك الحال وإخبار لغيره من الناس ، قال لبيد :

باتت تشكي الي النفس مجهشة　　وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا(٢)

وقوله « وفرحوابها » يعني بالريح الطيبة « جاءتها ريح عاصف » يعني ريحاً شديدة يقولون : عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة ، ومنهم من يقول : أعصفت فهي معصف ومعصفة . والريح مؤنثة، وانما قال عاصف ، لأنه لايوصف بذلك غير الريح فجرى مجرى قولهم امرأة حائض ، قال الشاعر :

حتى اذا عصفت ريح مزعزعة　　فيها قطار ورعد صوته زجل (٣)

وقوله « وجاءهم الموج من كل مكان » معناه جاءراكبي الفلك الأمواج العظيمة الهائلة من جميع الوجوه .« وظنوا أنهم أحيط بهم » أي ظنوا انهم هالكون لماأحاط بهم من الأمواج «دعوا الله مخلصين له الدين»اي عند هذه الشدائد والأهوال والتجؤا الى الله ودعوه على وجه الاخلاص ، ولم يذكروا الأوثان والاصنام لعلمهم بأنها لاتنفع ههنا شيئاً وقالوا « لئن انجيتنا » يارب من هذه الشدة « لنكونن » من جملة من يشكرك لنعمك ، ويقوم بآدابها . ويقال لمن اشرف على الهلاك أحيط

(١) سورة ٣٦ يس آية ٤١ وسورة ٢٦ الشعراء آية ١١٩

(٢) مر تخريجه في ١ / ٣٥ ، ٤٧٢ .

(٣) تفسير الطبري « الطبعة الاولى » ١١ /٦٣

به ، ومنه قوله « واحيط بثمره » (١) أي اهلكت .

قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا أَنجَيٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٣) آية

قرأ حفص « متاع الحياة » بنصب العين . الباقون بالرفع . من رفع يحتمل أمرين : احدهما – ان يكون رفعاً بأنه خبر المبتدأ والمبتدأ قوله « بغيكم » الثاني – ان يكون بغيكم مبتدأ ، وقوله « على انفسكم » خبره . ورفع متاع على تقدير ذلك متاع الحياة الدنيا . ومن نصب فعلى المصدر . قال أبو علي الفارسي « على انفسكم » يحتمل أن يكون متعلقاً بالمصدر ، لأن فعله متعد بهذا الحرف كما قال « بغى بعضنا على بعض » (٢) وقال « ثم بغي عليه لينصرنه الله » (٣) فاذا جعلت الجار من صلة المصدر كان الخبر متاع الحياة الدنيا . والمعنى بغي بعضكم على بعض متاعاً في الحياة الدنيا . ويجوز ان تجعله متعلقاً بمحذوف ، ولا تجعله من صلة المصدر ، وفيه ذكر يعود الى المصدر . والتقدير انما بغي بعضكم على بعض عائد على أنفسكم ، فعلى هذا يتعلق بالمحذوف دون المصدر المبتدأ وهو في المعنى كقوله « ولا يحيق المكر السيء الا بأهله » (٤) وقوله « فمن نكث فانما ينكث على نفسه » (٥) فاذا رفعت متاع الحياة على هذا كان خبر مبتدأ محذوف كأنك قلت: ذاك متاع الحياة الدنيا أو هو متاع . ومن نصب احتمل وجهين :

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٤٣
(٢) سورة ٣٨ ص آية ٢٢
(٣) سورة ٢٢ الحج آية ٦٠
(٤) سورة ٣٥ فاطر آية ٤٣
(٥) سورة ٤٨ الفتح آية ١٠

احدهما ـ ان يجعل من صلة المصدر ، فيكون الناصب للمتاع هو المصدر الذي هو البغي ، ويكون خبر المبتدأ محذوفاً ، وحسن ذلك لطول الكلام ، لأن بغيكم يدل على تبغون . والآخر ـ ان يجعل على أنفسكم خبر المبتدأ ، ويكون نصب متاع على أحد وجهين : احدهما ـ يمتعون متاع الحياة فيدل انتصاب المصدر عليه . والآخر ـ ان يضمر تبغون كأنه قال تبغون متاعاً ، فيكون مفعولا له . ولايجوز أن يتعلق بالمصدر إذا جعلت (على) خبراً ، لقوله إنما بغيكم على انفسكم ، لفصلك بين الصلة والموصول .

اخبر الله تعالى في هذه الاية عن هؤلاء الكفار الذين اذا رأوا الأهوال والشدائد في الفلك في البحر فزعوا الى الله ودعوه مخلصين له الدين ، وقالوا متى انجيتنا من هذه « لنكونن من الشاكرين » أنه اذا انجاهم وخلصهم من تلك الشدائد عادوا الى البغي وهو الاستعلاء بالظلم . واصل البغي الطلب . تقول بغاه يبغيه اذا طلبه. والبغية الطلبة ، والنجاة التخلص من الهلاك .والتخليص من الاختلاط لايسمى نجاة .ومعنى « لما » ايجاب وقوع الثاني بالأول كقولك : لما قام قمت ، ولما جاء زيد قام عمرو . والحق وضع الشيء في موضعه على ما يدعو العقل اليه ، والحق والحسن معناهما واحد . وقوله « يا ايها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » خطاب من الله تعالى للخلق بأن بغيكم على انفسكم من حيث ان عقابه يلحقكم دون غيركم « متاع الحياة الدنيا » معناه إنكم تطلبون بالبغي بغير الحق التمتع في الحياة الدنيا. ثم بعد ذلك ترجعون الى الله بعد موتكم فيجازيكم بأعمالكم بعد أن يعلمكم ماعملتموه وما استحققتم بـه من انـواع العقاب . وقال مقاتل : معنى « يبغون في الأرض بغير الحق » يعبدون غير الله . وقال غيره : معناه كلما أنعمنا عليهم بغوا للدين وأهله الغوائل .

قوله تعالى :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) آية.

المثل قول سائر يشبه بـه حال الثاني بالأول . وقيل « مثل الحياة الدنيا » صفة الحياة الدنيا . وقيل في المشبه والمشبه به في الآية ثلاثة اقوال :

احدها ـ قال الجبائي : إنه تعالى شبه الحياة الدنيا بالنبات على ماوصفه الله تعالى في الاغترار به والمصير الى الزوال كالنبات الذي يصير الى مثل ذلك .

الثاني ـ انه شبه الحياة الدنيا بالماء فيمايكون به من الانتفاع ثم الانقطاع .

الثالث ـ انه شبه الحياة الدنيا بحياة مقدرة على هذه الأوصاف ، لمايقتضيه « وظن أهلها أنهم قادرون عليها » أي علموا الانتفاع بها .

وقوله « فاختلط به نبات الأرض » فالاختلاط تداخل الأشياء بعضها في بعض فربما كان على صفة مدح ، وربما كان على صفة ذم . وقوله « حتى اذا أخذت الأرض زخرفها » فالزخرف حسن الألوان كالزهر الذي يروق البصر ، ومنه قيل زخرفت الجنة لأهلها وقوله « وظن أهلها انهم قادرون عليها » معناه ظنوا أنهم قادرون على استصحاب تلك الحال منها ـ جعلها على غير شيء منها ، لأن القادر عليهم وعليها أهلكها . وقولـه « وازينت » أصله تزينت فأدغمت التاء في الزاي واجلبت الهمزة لامـكان النطق بها . وقرأ الأعرج وغيره « وازينت » على وزن

(افعلت) والأول أجود لأن عليه القراء . وقوله « كأن لم تغن بالامس » معناه كأن لم تقم على تلك الصفة فيما قبل ، يقال : غني بالمكان إذا أقام به والمغاني المنازل ، قال النابغة :

غنيت بذلك إذهم لك جيرة　　منها بعطف رسالة وتودد

وقوله « كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون » معناه مثل ذلك نميز الايات ونبينها لقوم يفكرون فيها ويعتبرون بها ، لأن من لا يفكر فيها ولا يعتبر بها كأنها لم تفصل له ، فلذلك خصصهم بالذكر .

قوله تعالى :

وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٢٥) آية .

أخبر الله تعالى بأنه الذي يدعو عباده الى دار السلام . والدعاء طلب الفعل بما يقع لأجله ، والداعي الى الفعل خلاف الصارف عنه . وقد يدعو اليه باستحقاق المدح عليه . والفرق بين الدعاء والأمر أن في الأمر ترغيباً في الفعل ، وزجراً عن تركه ، وله صيغة تنبيء عنه ، وليس كذلك الدعاء ، وكلاهما طلب . وايضاً الأمر يقتضي أن يكون المأمور دون الآمر في الرتبة . والدعاء يقتضي أن يكون فوقه . وفي معنى دار السلام قولان : احدهما ـ قال الحسن : السلام هو الله . وداره الجنة . وبه قال قتادة . الثاني ـ قال الجبائي والزجاج : معناه دار السلامة . وقوله « ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم » قيل في الهداية ههنا ثلاثة اقوال : احدها ـ يفعل الألطاف التي تدعوهم الى طريق الحق لمن كان المعلوم أن له لطفاً . الثاني ـ الأخذ بهم في الآخرة الى طريق الجنة . الثالث ـ قال ابو علي : يريد به نصب الأدلة لجميع المكلفين دون الأطفال والمجانين . والاستقامة المرور في جهة

تؤدي الى البغية ، فالادلة طرق الى العلم على الاستقامة لأنها تؤدي اليه .

قوله تعالى:

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٦) آية .

أخبر الله تعالى بأن للذين يفعلون الحسن من الطاعات التي أمرهم الله بها جزاء على ذلك « الحسنى » وهي الجنة ولذاتها . وقيل : جامعةالمحاسن من السرور واللذات على أفضل مايكون وهي تأنيث الأحسن . وقوله « وزيادة » معناه إن لهم زيادة التفضل على قدر المستحق على طاعاتهم من الثواب ، وهي المضاعفة المذكورة في قوله « فله عشر أمثالها »(١) ذهب اليه ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعلقمة ابن قيس. وقال ابو جعفر عليه السلام « وزيادة» معناه ماأعطاهم الله في الدنيا لايحاسبهم بـه في الآخرة . وقوله « ولايرهق وجوههم قتر ولا ذلة » فالرهق لحاق الأمر ، ومنه راهق الغلام إذا لحق حال الرجال ، ورهقه في الحرب إذا أدركه . و(الرهاق) الاعجال . و(القتر) الغبار . والقترةالغبرة . ومنه الاقتار في النفقة لقلته، قال الشاعر:

متوّج برداء الملك يتبعه   موج ترى فوقه الرايات والقترا(٢)

والذلة صغر النفس بالاهانه . والذلة نقيض العزة . وقد يكون صغر النفس بضيق المقـدرة . وقوله « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » اخبار منه تعالى بأن الذين وصفهم الملازمون للجنة على وجه الخلود والنعيم فيها ولازوال لذلك عنهم.

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠

(٢) قائله الفرزدق ديوانه ٢٩٠ وتفسير الطبري ١١ / ٦٩ وتفسير القرطبي ٣١١/٨ واللسان « قتر» . ورواية الديوان « معتصب » بدل « متوج »

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَالَهُم مِنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ ٱللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) آية.

لما وصف الله تعالى المطيعين ، ومالهم من الثواب الجزيل في الجنة والخلود فيها ،ذكر حكم العصاة الذين يرتكبون السيئات ويكسبونها وأن لهم جزاء كل سيئة مثلها يعني قدر ما يستحق عليها من غير زيادة ،لأن الزيادة على قدرالمستحق من العقاب ظلم ، وليس كذلك الزيادة على قدر المستحق من الثواب ، لأن ذلك تفضل يحسن فعله ابتداء . فالمثل ـ في الآية ـ المراد به مقدار المستحق من غير زيادة ولا نقصان . والكسب فعل يجتلب به نفع او يدفع به ضرر ، وقد يكتسب الانسان الحسنة والسيئة ، ولهذا لايوصفالله تعالى بالكسب . وقوله « وترهقهم ذلة» اي يلحقهم هوان في أنفسهم . «ومالهم من الله من عاصم » أي مالهم مانع من عقاب الله . وفي رفع (جزاء) في الآية وجهان : احدهما ـ ان تقديره فلهم جزاء سيئة بمثلها ليشاكل « للذين أحسنوا » . والآخر ـ ان يكون الخبر بمثلها والباء زيادة كزيادتها في قولك ليس زيد بقائم . وقوله « كأنما اغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً » شبه سواد وجوههم بقطع من الليل المظلم وانما ذكّر ووحّد مظلم لاحد أمرين : احدهما ـ ان يكون حالا من الليل . والثاني ـ على قول الشاعر :

لو أن مدحة حيٍّ تنشرن أحداً   أحيا أباكنّ ياليلى الأماديح

و(القطع) قرأه بتسكين الطاء ابن كثير والكسائي . الباقون بالتحريك،

وهما لغتان . وقوله «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» اخبار منه تعالى بأن من وصفهم ملازمون للنار خالدون فيها غير زائل عنهم عذابها. قال ابو عبيدة « قطعاً من الليل » وهو بعض الليل تقول اتيته لقطع من الليل اي ساعة من الليل ، وقطع واقطاع . وقال ابو علي : القطع الجزء من الليل الذي فيه ظلمة. فأما قوله « مظلماً » اذا اجريته على (قطع) فيحتمل نصبه وجهين : احدهما ـ ان يكون صفة من القطع وهو احسن ، لانه على قياس قوله « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » (١) وصف الكتاب بالمفرد بعد ماوصفه بالجملة واجراه على النكرة . والثاني ـ يجوز أن يكون حالا من الذكر الذي في الظرف . ومن قرأ « قطعاً » لم يكن مظلماً صفة لـ (قطع) ولا حالا من الذكر الذي في قوله « من الليل » ولكن يكون حالا من الليل المظلم فلما حذف الألف واللام نصب على الحال .

قوله تعالى :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) آية

اخبر تعالى في هذه الآية أنه يوم يحشر الخلائق أجمعين . والحشر هو الجمع من كل أوب الى الموقف ، وإنما يقومون من قبورهم الى ارض الموقف « ثم نقول للذين أشركوا » يعني من اشرك مع الله في عبادته غيره، والمشرك بالاطلاق لايقال إلا فيمن أشرك في العبادة ، لانها صفة ذم مثل كافر وظالم . وقوله « مكانكم » معناه انتظروا مكانكم . « جميعاً » نصب على الحال و (مكانكم) نصب على الامر كأنه قال انتظروا مكانكم حتى نفصل بينكم . ويقول المتوعد لغيره : مكانك

(١) سورة ٦ الانعام آية ٩٢ ، ١٥٥.

فانتظر، يستعمل ذلك في الوعيد. وقوله «انتم وشركاؤكم» يعني انتظروا انتم مع شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله. وقوله «فزيلنا بينهم» مأخوذ من قولهم زلت الشيء عن مكانه ازيله - وزيلنا للكثرة من هذا - اذا نحيته عن مكانه وزايلت فلاناً إذا فارقته. وقال القتيبي: وهو مأخوذ من زال يزول، وهو غلط وخلاف لقول جميع المفسرين وأهل اللغة. والتزييل التفريق. والمعنى فرقنا بين المشركين بالله وما أشركوا به.

وقوله «وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون» قيل في معناه قولان: احدهما - قال مجاهد: انه ينطق الأوثان يوم القيامة فيقولوا: ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون. والثاني - ان ذلك قول من كانوا يعبدونهم من الشياطين.

وفي كيفية جحدهم لذلك قولان: احدهما - انهم يقولون ذلك على وجه الاهانة بالرد عليهم. والمعنى مااعتذرنا بذلك لكم. والآخر - انه في حال دهش كـكذب الصبي. وقال الجبائي: يريد انكم لم تعبدونا بأمرنا ودعائنا ولم يرد انهم لم يعبدوها أصلا، لأن ذلك كذب وهو لايقع في الآخرة لكونهم ملجئين الى ترك القبيح. وهذه الاية نظيرة قوله «اذ تبرّأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا»(١) وكان مجاهد يقول: الحشر ههنا هو الموت. والأول اولى.

قوله تعالى:

فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) آية.

هذا اخبار من الله تعالى عن شركاء المشركين من الآلهة والأوثان يوم القيامة حين قال المشركون إنا إنما إياكم كنا نعبد، وأنهم يجحدون ذلك ويقولون:

(١) سوره ٢ البقرة آية ١٦٦

حسبنا الله شاهـداً بيننا وبينكم أيها المشركون بأنه تعالى عالم أنا ما علمنا ما تقولون ، وأنا كنا عن عبادتكم إيانا غافلين ، لانشعر به ولانعلمه . وإنما قال « شهيداً بيننا » ولم يقل علينا ، لأنـــه إذا قال بيننا فمعناه لنا وعلينا ، فهو أعم وأحسن . ونصب (شهيدا) على التمييز ، وتقديره وكفى بالله من الشهداء . وقال الزجاج : نصب على الحال وتقديره كفى بالله في حال الشهادة . وقوله « إن كنا» فهذه (إن)المخففة عن الثقيلة بدلالةدخول اللام في الخبر للفرق بين (إن) الجحد و(إن)المؤكدة . وقال الزجاج :هي بمعنى(ما) ومعناه ما كناعن عبادتكم إلاغافلين.

قوله تعالى :

هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَاأَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى ٱللهِ مَوْلَـٰهُمُ ٱلْحَـقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَاكَـانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) آية .

قرأ اهل الكوفة الاعاصما(تتلوا) بالتاء من التلاوة . الباقون بالباء. من قرأ بالباء فمعناه تختبر من قوله « وبلوناهم بالحسنات والسيئات » (١) اي اختبرناهم ، ومنه قولهم:البلاء ثم الثناء أي الاختبار للثناءعليه ينبغي أن يكون قبل الثناءليكون عن علم بما يوجبه . ومعنى اختبار النفس ما اسلفت إن قـدّم خيراً أو شراً جزي عليه ، كما قال « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »(٢) وغير ذلك . ومن قرأ بالتاء فمن التـــلاوة . ويقوي ذلك قوله « فأولئك يقرؤن كتابهم » (٣) وقوله « اقرأ كتابك » (٤) وقوله « ورسلنا لديهم يكتبون » (٥) ويكون (تتلو) بمعنى تتبع ويكون المعنى هنالك تتبع كل نفس ماأسلفت مـن

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٦٧
(٢) سورة ٩٩ الزلزال آية ٧ ـ ٨
(٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٧١
(٤) سورة ١٧ الاسرى آية ١٤
(٥) سورة ٤٣ الزخرف آية ٨٠

حسنة وسيئة ، فمن أحسن جوزي بالحسنات ومن أساء جوزي به ، فعلى هذا يكون المعنى مثل قراءة من قرأ بالباء . وقال ابن زيد : معنى « تتلو » تعاين . وقال الفراء : معناه تقرأ، وقال غيره تتبع. وقال ابن عباس معنى (تتلو) تخبر قال الشاعر:

قد جعلت دلوي تستتليني　　ولا أحب تبع القرين

اي تتبعني من ثقلها ، ومعنى « هنالك» في ذلك المكان ، وهو ظرف فـ(هنا) للقريب و (هنالك) للبعيد و (هناك) لما بينهما قال زهير :

هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا　　وإن يسألوا يعطوا وإن ييسيروا يغلوا(١)

والاسلاف تقديم امر لما بعده ، فمن أسلف الطاعة لله جزي بالثواب . ومن أسلف المعصية جزي بالعقاب . وقوله « وردّوا الى الله » فالرد هو الذهاب الى الشيء بعد الذهاب عنه ، فهؤلاء ذهبوا عن أمر الله فأعيدوا اليه . والرد والرجع نظائر، ويجوز أن يكون الرد بمعنى النشأة الثانية ، وهو الاليق ههنا . وقوله « مولاهم الحق » فالمولى المالك للعبيد ، ومعناه مالكهم لأنه يملك أمرهم ، وهو أملك بهم من أنفسهم . وقوله « وضل عنهم ما كانوا يفترون » يعني ما كانوا يدعونهم — بافترائهم من الشركاء — مع الله يضلون عنهم يوم القيامة ويبطلون .

قوله تعالى :

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٣١)آية

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار وغيرهم من خلقه « من يرزقكم من السماء » بانزال المطر والغيث ، ومن الارض باخراج النبات وانواع الثمار .

(١) ديوانه ١١٢ واللسان (خبل) وفيه اختلاف في الرواية .

والرزق العطاء الجاري يقال : رزق السلطان الجند ، الا ان كل رزق ، فالله رازق به ، لانه لولم يطلقه على يد الانسان لم يجيء منه شيء . والواحد منا يرزق غيره إلا أنه لايطلق اسم رازق إلا على الله ، كما لايقال : (ربّ) بالاطلاق إلا في الله وفي غيره يقيد ، فيقال رب الدار ورب الفرس . ويطلق فيه ، لأنـه يملك الجميع غير مملك ، وكذلك هو تعالى رازق الجميع غير مرزوق ، ولايجوز أن يخلق الله حيواناً يريد تبقيته إلاويرزقه ، لأنه إذا أراد بقاءه فلا بدّ له من الغذاء ، فان لـم يرد تبقيته كالذي يولد ميتاً فانه لا رزق له في الدنيا . وقوله « أم من يملك السمع والأبصار » يعني من الذي له التصرف فيها بلا مانع يمنعه منها وان شاء اصحها وان شاء امرضها . و « من يخرج الحي من الميت » معناه من الـذي يخلق الحيوان ويخرجه من امـه حياً سويّاً اذا ماتت أمـه «ويخرج الميت من الحي » يعني من يخرجه غير تام ولابالغ حدّالكمال . وقيل:معناه انه يخرج الحي من النطفة ، وهي ميتة ويخرج النطفة من الحي . وقيل: يخرج المؤمن من الكافروالكافرمن المؤمن. و« من يدبر الأمر » اي ومن الـذي يـدبر جميع الامور في السما والأرض ؟ وليس جواب ذلك لمن انصف ولم يكابر الا ان يقول : الله الفاعل لجميع ذلك . واذا قالوا ذلك واعترفوا به قيل لهم « أفلا تتقون » ومعناه فهلا تتقون خلافـه وتحذرون معاصيه ؟ وفي الاية دلالة على التوحيد ؛ لأن ماذكره في الاية يوجب أن المدبر واحد ولا يجوز أن يقع ذلك إتفاقاً ؛ لاحالة العقل ذلك ، ولايجوزأن يقع بالطبيعة ؛ لأنها في حكم الموات لوكانت معقولة ،فلم يبق بعد ذلك إلا ان الفاعل لذلك قادر عالم يدبره على مايشاء ، وهو الله تعالى ، مع ان الطبيعة مدّبرة ـمفعولةـ فكيف تكون هي المدّبرة .وإنما دخلت (أم) على (من) لأن (من) ليست أصل الاستفهام بل أصله الألف ، فلذلك جاز الجمع بينهما .

قوله تعالى :

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ (٣٢) آية .

« ذلك » إشارة الى اسم الله الذي ذكره في الآية الاولى ، ووصفه بأنه الذي يخرج الحي من الميت، والميت من الحي ويرزق الخلق من السماء والارض. و(الكاف والميم) للمخاطبين ، وإنما جمع لأنه أراد جميع الخلق ، فأخبر الله تعالى ان الذي وصفه في الاية الأولى هو « الله ربكم » الذي خلقكم ويملك تصرفكم . وإنما وصفه بأنه « الحق » لأن له معنى الالهية دون غيره من الأوثان والأصنام ، وهو الرب تعالى وحده .

وقوله « فماذا بعد الحق إلا الضلال » صورته صورة الاستفهام والمراد به التقرير على موضع الحجة ، لأنه لايجد المجيب محيداً عن الاقرار به إلا بذكر مالايلتفت اليه ، وكلما تدعو اليه الحكمة على اختلافه فهو حق ، والمراد انه ليس بعد الاقرار بالحق والانقياد له إلا الضلال والعدول عنه. وقوله « فأنى تصرفون » أي كيف تصرفون وتعدلون عن عبادته مع وضوح الدلالة على أنه لامعبود سواه والصرف هو الذهاب عن الشيء، فالصرف عن الحق ذهاب الى الباطل ، وقد أنكر الله ذلك . وفيه دلالة على أنه من فعل غيره من الغواة لأنه لو كان من فعله لما انكره كما لم ينكر شيئاً من أفعال نفسه .

قوله تعالى

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) آية

قرأ أهل المدينة وابن عامر (كلمات) ههنا وفي آخرها ، وفي المؤمن على الجمع . الباقون على التوحيد . قال ابو علي : من قرأ على التوحيد احتمل في ذلك وجهين :

أحدهما ـ ان يكون جعل ماأوعد به الفاسقين كلمة وإن كانت في الحقيقة كلمات ، لانهم قد يسمون القصيدة والخطبة كلمة ، فكذلك ماذكرناه .

والثاني ـ ان يريد بذلك الجنس وقد اوقع على بعض الجنس كما أوقع اسم الجنس على بعضه في قوله « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل» (١) ومن جمع فانه جعل الكلمات التي يوعدون بها كل واحدة منها كلمة ثم جمع ، فقال : كلمات. وأما قوله «كلة الله هي العليا » (٢) فيجوز ان يكون عنى بها قوله « كتب الله لأغلبن انا ورسلي » (٣) كما فسر قوله « وألزمهم كلة التقوى » (٤) انه لا إله الا الله ، ذكره مجاهد . والكاف في قوله كذلك في موضع نصب والتقدير مثل أفعالهم جازاهم ربك. وقيل في المشبه به « كذلك حقت كلمة ربك » قولان :

احدهما ـ المعنى في انه ليس بعد الحق الا الضلال فشبه به كلمة الحق بأنهم لايؤمنون في الصحة .

الثاني ـ ماتقدم من العصيان شبه به الجزاء بكلمة العـــذاب في الوقوع على المقدار . وانما اطلق في الذين فسقوا أنهم لايؤمنون، لانه أريد به الذين تمردوا في كفرهم. و(انهم) في موضع نصب على قول الفراء والتقدير بأنهم أولأنهم لايؤمنون فقوله « انهم لايؤمنون » بدل من كلمة ربك . فأعلم الله أنهم باعمالهم قد منعوا من الايمان ، وجائزان تكون الكلمة ماوعدوا بـه من العقاب . والفسق في الشرع هو الخروج في المعصية الى الكبيرة فان كانت كفراً فالخروج الى أكبره وكذلك ان كانت منع حق . وفائدة الآية الابانـة عن الحال التي لايفلح صاحبها ليحذر من

---

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٣٧ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٤١

(٣) سورة ٥٨ المجادلة آية ٢١ (٤) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٦

مثلها ، لأنه قد يكون في المعلوم أنه من بلغ ذلك الحد لم يفلح ، قال: وأصل المعنى حقت كلمة ربك ان الفساق والكفار ماداموا كفاراً فساقاً فلا يكونون مؤمنين . وقال الجبائي : معناه وجدانكم إياهم على الكفر والاصرار عليه دليل على ان ما أخبر الله تعالى عنهم بأنهم لايؤمنون حق وصدق .

قوله تعالى :

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٣٤) آية .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله آلهة يعبدونها « هل من شركائكم من يبدؤ الخلق » بأن ينشئهم ويخترعهم . ثم اذا أماتهم يعيدهم ويحييهم ، لينبئهم بذلك على انه لايقدر على ذلك الا الله القادر لنفسه الذي لايعجزه شيء . وقيل في معنى (شركائكم) قولان : احدهما ـ انهم الذين جعلوهم شركاء في العبادة . الثاني ـ الذين جعلوهم شركاء في اموالهم من اوثانهم ، كما قال « فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا »(١) والاعادة ايجاد الشيء ثانياً ، وقال لنبيه قل لهم : الله تعالى القادر لنفسه هو الذي يبدؤ الخلق فينشئهم ثم يميتهم ثم يعيدهم لايعجزه شيء عن ذلك . وقوله « فانى تؤفكون » معناه انى تصرفون عن الحق وتقلبون عنه ، ومنه الافك ، والكذب ، لانه قلب المعنى عن جهته .

قوله تعالى :

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٣٦ .

أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) آية

قرأ أهل الكوفة الاعاصماً « يهدي » بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدال. وقرأه أهل المدينة إلاورشاً بفتح الياء ، وسكون الهاء ، وتشديد الدال . وقرأه ابن كثير وابن عامر وابو عمرو وورش بفتح الياء والهاء وتشديد الدال ، الا أن السوسي من طريق ابن جيش لايشبع فتحة الهاء ، وكذلك روى الحماني عن شجاع وقرأه يعقوب وحفص والاعشى والبرجمي بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال ورواه ابو بكر الا الأعشى والبرجمي بكسر الياء والهاء وتشديد الدال . قال ابو علي : من قرأ « يهدي » بفتح الياء والهاء وتشديد الدال فقد نسبهم الى غاية الذهاب عن الحق في معادلتهم الآلهة بالله تعالى، ألا ترى ان المعنى أفمن يهدي غيره الى طريق التوحيد والحق أحق ان يتبع أم من لايهتدي هو إلا أن يهدى ، والتقدير أفمن يهدي غيره فحذف المفعول الثاني. فان قيل : هذه التي اتخذوها آلهة لاتهتدي وإن هديت لأنها موات من حجارة وأوثان ونحو ذلك ! ؟ قيل : تقدير الكلام على أنها إن هديت اهتدت وإن لم تكن في الحقيقة كذلك لأنهم لما اتخذوها آلهة عبر عنها كما يعبر عن الذي يجب له العبادة ، كما قال « ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السماوات والارض شيئاً ولا يستطيعون» (١) وقال « ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم» (٢) فاجرى عليه اللفظ كما يجري على من يعلم ، كأنه قال أمن لايهدي الا ان يهدى أي أمن لايعلم حتى يُعلم ، ومن لايستدل على شيء حتى يدل ، وإن كان لو دل أو أعلم لم يعلم ولم يستدل . واراد الله بذلك تعجيبهم من أنفسهم وتبيين جهلهم وقلة تمييزهم في تسويتهم من لايعلم ولايقدر بالله القادر العالم. وقرأ حمزة والكسائي « أم من لا يهدي » معناه أم من لايهدي غيره ، ولكن يهدى أي لايعلم شيئاً ولايعرّفه ، ولكن

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٧٣ (٢) سورة ٣٥ فاطر آية ١٤

يهدى أي لاهداية له ، ولو هدي أيضاً لم يهتد ، غير أن اللفظ جرى عليه كما قلناه فيما تقدم . ومن شدد ، فلأن أصله يهتدي فأدغم التاء في الدال . ومن حرك الهاء القى حركة الحرف المدغم على الهاء لأنها من كلمة واحدة . ومن كسر الهاء لم يلق الحركة تشبيهاً بالمنفصل ، وكسر الهاء لالتقاء الساكنين . ومن سكن الهاء جمع بين الساكنين . ومن أشم فلأن الاشمام في حكم التحريك . ومن كسر الياء اتبع الياء ما بعدها من الكسر لأن أصله يفتعل . وقال قوم : معنى « أم من لا يهدي إلا أن يهدى » لايتحرك حتى يحرك .

أمر الله تعالى نبيه أن يقول أيضاً لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله شركاء في العبادة « هل من شركائكم » الذين تعبدونهم من دون الله أو تشركون بينهما في العبادة من يهدي غيره الى الحق والى طريق الرشاد ، ثم قال : قل يا محمد « الله يهدي للحق » وأفعال الخير ، ثم قال « أفمن يهدي غيره الى الحق » والى الصراط المستقيم أولى « أن يتبع » ويقبل قوله ، « أم من لا يهدي إلا أن يهدى » أي إلا بعد أن يهدى وحكي عن البلخي أنه قال : هدى واهتدى بمعنى واحد .

وقوله « فما لكم كيف تحكمون » أي بما تدعونه من عبادة — من دون الله — فالهداية المعرفة بطريق الرشاد من الغي ، فكل هداية قائدة الى سلوك طريق النجاة بدلا من طريق الهلاك . وقال الزجاج « ما لكم » كلام تام ، كأنه قال أي شيء لكم في عبادة الأوثان ثم قال لهم « كيف تحكمون ؟ ! » على أي حال ، فموضع (كيف) نصب بـ (تحكمون) ويقال هديته للحق والى الحق بمعنى واحد .

قوله تعالى :

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) آية .

أخبر الله تعالى أنه ليس يتبع أكثر هؤلاء الكفار إلا الظن الذي لايجزي شيئاً، من تقليد آبائهم ورؤسائهم. ثم قال تعالى « إن الظن لايغني من الحق شيئاً » لأن الحق إنما ينتفع به من عرفه وعلمه حقاً ؛ لأن الظن حقيقة ماقوي كون المظنون عند الظان على ماظنه مع تجويز أن يكون على غيره ، فاذا كان معه تجويز كون المظنون على خلاف ماظنه فلايكون مثل العلم . وقديكون للظن حكم إذا قام على ذلك دليل إما عقلي أو شرعي ، ويكون صادراً عن إمارات معروفة بالعادة والخبر أو رده الى نظيره عند من قال بالقياس ، وكل ذلك إذا اقترن به دليل يوجب العمل به ، وكل موضع يمكن أن يقوم عليه دليل ويعلم صحته من فساده فلا يجوز أن يعمل فيه على الظن ، لأنه بمنزلة من ترك العلم وعمل على ظن غيره . وقوله « ان الظن لايغني من الحق شيئاً » معناه انه لايقوم مقام العلم مع وجوده أو امكان وجوده ، وانما يعبد الله في الشرع في مواضع بالرجوع الى الظن مع أنه كان يمكنه أن ينصب عليه دليلا يوجب العلم لما في ذلك من المصلحة . وقوله « إن الله عليم بما يفعلون » فيه ضرب من التهديد ، لأنه أخبر أنه تعالى يعلم مايفعلونه ولايخفى عليه منه شيء فيجازيهم على جميعه: على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) آية .

نفى الله تعالى في هذه الآية أن يكون هذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ مفترى من دون الله والافتراء الاخبار على القطع بالكذب ، وهو مأخوذ من فري الاديم ، وهو قطعه بعد تقديره . والقرآن عبارة عن هذا الكلام

الذي هو في أعلى طبقات البلاغة مع حسن النظم والجزالة ، وكل شيء منه فيه فائدة وكل فصل منه فيه فائدة أخرى . وقوله « ولكن تصديق الذي بين يديه » شهادة من الله له بأنه صدق وبأنه شاهد لما تقدم من التوراة والانجيل والزبور بأنها حق ، وشاهد ايضا من حيث انه مصدق لها اذ جاء على ماتقدمت البشارة به فيها . وقيل مصدق لما بين يديه من البعث والنشور والجزاء والحساب . وقوله « وتفصيل الكتاب » أي تبيين الفصل من المعاني الملتبسة حتى يظهر كل معنى على حقيقته . والتفصيل والتمييز والتقسيم نظائر ، وضده التلبيس والتخليط . وقوله « لاريب فيه » أي لاشك فيه « من رب العالمين » اي نازل من عند مالك العالمين. وقيل : إن معنى « تفصيل الكتاب » أي تفصيل الفروض الشرعية . والكتاب — ههنا — المفروض . وقال الفراء : معنى « وما كان هذا القرآن ان يفترى » اي لاينبغي ان يكون افتراء ، كما قال تعالى « وماكان لنبي أن يغل » (١) أي لا ينبغي له. وقال غيره: تقديره وما كان هذا القرآن مفترى .

قوله تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) آية

معنى « أم » ههنا تقرير على موضع الحجة بعد مضي حجة أخرى ، وتقديره بل أتقولون افتراه ، فالزموا على هذا الاصل الفاسد امكان أن يأتوا بمثله .

وقوله « فاتوا بسورة مثله » صورته صورة الأمر ، والمراد به التحدي باتيان سورة ، وهو الزام لهم على أصلهم اذ أصلهم فاسد يوجب عليهم أن يأتوا بسورة مثله ، فالتحدي يطلب مايوجبه أصلهم عليهم . وقوله « فأتوا بسورة مثله » معناه

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٦١

سورة منه. وقيل في معناه قولان: أحدهما - أن فيه حذفاً وتقديره فاتوا بسورة مثل سورته ذكره بعض البصريين. والاخر - ائتوا بسورة مثله في البلاغة، وهو أحسن الوجهين. والسورة منزلة محيطة بآيات الله كاحاطة سور البناء من أجل الفاتحة والخاتمة، وكل منزلة من سورة البناء محيطة بما فيها. وقوله «وادعوا من استطعتم من دون الله» معناه ادعوهم الى الموازنة على المعارضة بسورة مثله أي استعينوا بكل من قدرتم عليه. والاستطاعة حالة للحي تنطاع بها الجوارح للفعل وهي مأخوذة من الطوع. والقدرة مأخوذة من القدر، فهي معنى يمكن أن يوجد به الفعل وان لايوجد لتقصير قدره عن ذلك المعنى. وقوله «ان كنتم صادقين» معناه ان كنتم صادقين في أن هذا القرآن مفترى من دون الله فأنتم تقدرون على معارضته، فحيث لاتقدرون على ذلك علم أن الامر بخلاف ماتذكرونه من أنه من عند غيرالله، وصح أنه من عند الله، لأنه لو قدر محمد صلى الله عليه وآله على افترائه لقدرتم على معارضته لمشاركتكم إياه في النشوء والفصاحة.

قوله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ﴾ (٣٩) آية

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين حكى عنهم أنهم قالوا إن محمداً صلى الله عليه وآله افترى هذا القرآن ولم ينزله الله عليه بأنهم «كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه» ومعناه بما لم يعلموه من كل وجوهه؛ لان في القرآن مايعلم المراد منه بدليل، ويحتاج الى الفكر فيه والرجوع الى الرسول في معرفة مراده وذلك مثل المتشابه، فالكفار لما لم يعرفوا المراد بظاهره كذبوا به، وقالوا انه افترى على الله كذبا، ومعنى

كذبوا انهم شهدوا بانَ الدعاة الى الله والدعاة الى الحق من المؤمنين كاذبون جهلا منهم وتوهماً لاحقيقة لهم ولاحجة معهم به. وقوله « ولما يأتهم تأويله » معناه مايؤول أمره اليه وهو عاقبته ، ومعناه متأوله من الثواب والعقاب . ثم حكى الله أنه مثل ذلك كذب الذين من قبلهم أنبياء الله ورسله فأهلكهم الله ودمرهم . ثم قال لنبيه « فانظر كيف كان عاقبةالظالمين » يعني ماأدى الى إهلاكهم بعذاب الاستئصال على ماتقدم من ظلمهم لانفسهم وغيرهم في كذبهم . وقيل في موضع « كيف كان » نصب بأنه خبر كان ، ولايكون معمول (انظر) لأن ماقبل الاستفهام لايعمل في الاستفهام.

قوله تعالى :

وَمِنْهُم مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) آية.

أخبر الله تعالى ان من جملة هؤلاء الكفار الذين كذبوا بالقرآن ونسبوه الى الافتراء من سيؤمن بـه أي بالقرآن في المستقبل ، ومنهم من لايؤمن بـل يموت على كفره . وقوله « وربك أعلم بالمفسدين » معناه من يـدوم على الفساد ممن يتوب ، وإنما بقاهم الله لما في معلومه انـه يتوب منهم . وإنما جاز ان يقول « أعلم » وان لم يكن هناك كثرة علوم لاحد أمرين : احدهما ـ ان الذات تغني عن كل علم . والثاني ـ انه يراد كثرة المعلوم .

قوله تعالى :

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُم بَرِيؤُنَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) آية.

خاطب الله تعالى نبيه ﷺ فقال « وان كذبوك » هؤلاء الكفار ولم يصدقوك

وردّوا عليك بذلك ونسبوك الى الكذب « فقل لي عملي »أي إن كنت كاذباً فوبالـه علي « ولكم عملكم » أي ان كنتم غير محقين فيما تردونه علي وتكذبوني ، فلكم جزاء عملكم ، فانتم تبرؤن مما أعمل وأنا ابرأ من أعمالكم . وفائدة ذلك الاخبار بأنه لايجازى احد الا على عمله ، ولايؤخذ أحـد بجرم غيره كما قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر اخرى » (١) والبراءة قطع العلقة التي توجب رفع المطالبة وذلك كالبراءة من الدين ، والبراءة من العيب في البيع ، ولم يقل النبي ﷺ هذا القول شكاً منه فيما يجازي الله الكفار والمؤمنين به من الثواب والعقاب . وانما قال على وجه التلطف لخصمه وحسن العشرة ، وأن لا يستقبلهم بما يكرهونه من الخطاب فربما كان داعياً لهم ذلك الى الانقياد والنظر في قوله . وقال ابن زيد : هذه الاية منسوخة بآية الجهاد ، وعلى ماقلناه لايحتاج الى ذلك .

قوله تعالى :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) آية .

اخبر الله تعالى ان من جملة هؤلاء الكفار « من يستمع اليك » يـا محمد . والاستماع طلب السمع ، فهم كانوا يطلبون السمع للرد لاللفهم ، فلذلك لزمهم الذم ، فهم اذا سمعوه على هذا الوجه كأنهم صم لم يسمعوه حيث لم ينتفعوا به . وقوله « أفأنت تسمع الصم » خطاب للنبي ﷺ بأنه لايقدر على اسماع الصم الذين لايسمعون ، وبهم صمم ، وهم الذين ولدوا صماً . والاصم المفسد السمع بما يمنع من ادراك الصوت ،وقد صم يصم صمماً .والسمع إدراك الشيء بما به يكون مسموعاً .

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٤ وسورة ١٧ الاسرى آيـة ١٥ وسورة ٣٥ فاطر آية ١٨ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧

وتسمى الأذن السليمة سمعاً ، لأنه يسمع بها . وقوله « ولو كانوا لايعقلون »تشبيه من الله تعالى لهؤلاء الكفار في ترك إصغائهم الى النبي ﷺ واستماع كلامه طلباً المفائدة بالذين لايسمعون أصلا ، وان النبي ﷺ ولايقدر على اسماعهم على وجه ينتفعون به اذا لم يستمعوا بنفوسهم ، للفكر فيه ، كما لا يقدر على اسماع الصم. وقوله « من » يقع على الجمع كما يقع على الواحـــد ، فلذلك أخبر عنه بلفظ الجمع بقوله « يستمعون اليك » و (لو) في اكثر الأمر يكون مابعدها أقل مما قبلها تقول : أعطني دابة ولو حماراً ، وقد يجيء مابعدها اكثر مما قبلها ، كما يقول الرجل: انا أقاتل الاسد فيستعظم ذلك منه ، فيقال : أنت تقاتل الأسد ولـو كان ضارياً ، وعلى هذا مخرج الاية . قال الزجاج : والمعنى ولو كانوا جهالا كما قال الشاعر :

اصم عما ساءه سميع (١)

قوله تعالى :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) آية.

اخبر الله تعالى بأن من جملة الكفار « من ينظر اليك » يامحمد ﷺ ، فلم يخبر بلفظ الجمع لأنه حمله على اللفظ ، واللفظ لفظ الواحد . والنظر المذكور في الاية معناه تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلباً لرؤيته . وقيل : معناه من ينظر الى أدلتك . والنظر يكون بمعنى الاعتبار والفكر ، وهو الموازنة بين الامور حتى يظهر الرجحان او المساواة ، وذلك الجمع بين الشيئين في التقـدير بما يظهر به شهادة أحدهما بالآخر ، ثم قال « أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لايبصرون »

(١) مرّ في ٢/ ٨٠ و ٤/ ١٢٥

اي نظرهم اليك لاعلى وجـــه الاستفادة بمنزلة نظر الأعمى الذي لايبصر ، فكما لايقدر ان يهدي الاعمى. فكذلك هؤلاء لاينتفعون بنظرهم اليك، فكأنهم لايبصرون. والعمى آفة تمنع من الرؤية ، وهوعلى وجهين : عمى العين ، وعمى القلب ،وكلاهما يصلح له هذا الحد . والابصار إدراك المبصر بما يكون به مبصراً ، كما أن السمع إدراك المسموع بما به يكون مسموعاً .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) آية

اخبر الله تعالى في هذه الآية على وجه التمدح به بأنه لايظلم أحـداً شيئاً وانما الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بارتكاب ما نهى الله عنه من القبائح فيستحقون بها عقاباً ، فكأنهم الذين أدخلوا عليها ضرراً فلذلك كانوا ظالمين لنفوسهم .والمعنى ـ ههنا ـ ان الله لا يمنع احداً الانتفاع بما كلفهم الانتفاع به من القرآن وأدلته، ولكنهم يظلمون انفسهم بترك النظر فيه والاستدلال به ، وتفويتهم انفسهم الثواب وإدخالهم عليها العقاب . ففي الآية دلالة على انه لايفعل الظلم ، لان فاعل الظلم ظالم ، كما أن فاعـل الـكسب كاسب ، وليس لهم أن يقولوا يفعل الظلم ولا يكون ظالماً به ، كما يفعل العلم ولايكون به عالما . وذلك أن معنى قولنا : ظالم أنه فعل الظلم ، كقولنا : ضارب ، أنه يفيد انه فعل الضرب . وكذلك يكون ظالماً بما يفعله من الظلم في غيره ، وليس كذلك العالم ؛ لانه يفيد انه على صفة مخصوصة ولذلك قد يكون عالماً بما يفعل فيه من العلم ، ولايكون ظالماً بما يفعل فيه من الظلم ولايكون عالماً بما يفعل في غيره من العلم وليس كذلك الظلم ، فبان الفرق بينهما .

وليس لأحد ان يقول : إن الانتفاء من الظلم كالانتفاء من السنة والنوم ، في انه ليس بنفي الفعل ؛ وذلك أن الظلم مقدور قبل العدل ، وليس كذلك النوم واليقظة لانهما يستحيلان عليه . و (لكن) اذا كانت مشددة عملت عمل (إن) واذا خففت لم تعمل لأن المخففة تدخل على المفرد كما يدخل حرف العطف ، والثقيلة تدخل على الجملة فتزيل الابتداء .

قوله تعالى :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) آية .

قرأ حفص « يحشرهم » بالياء . الباقون بالنون . قال أبو علي الفارسي : قوله « كأن لم يلبثوا » يحتمل ثلاثة أوجه : احدها — أن يكون صفة اليوم . والآخر — أن يكون صفة للمقدر المحذوف . والثالث — أن يكون حالا من الضمير في « يحشرهم » فاذا جعلته صفة لليوم احتمل أن يكون التقدير « كأن لم يلبثوا » قبله « إلا ساعة » كما قال « فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف »(١) أي امسكوهن قبله ، و كذلك قوله « فان فاءوا فان الله »(٢) معناه فان فاءوا قبل انقضاء الاربعة أشهر . ويحتمل أن يكون المعنى « كأن لم يلبثوا » قبله ، فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه ، ثم حذفت الهاء من الصفة . ومثله « وترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم »(٣) والتقدير وجزاؤه واقع بهم . وإن جعلته صفة للمصدر كان على هذا التقدير الذي وصفناه . ومثله « كأن لم يلبثوا » قبله

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٣١ وسورة ٦٥ الطلاق آية ٢

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٦ (٣) سورة ٤٢ الشورى آية ٢٢

فحذف وأقام المضاف اليه مقام المضاف ، ثم حذف العائد من الصفة ، كما يحذف من الصلة في نحو قوله « أهذا الذي بعث الله رسولا » (١) وإن جعلته حالا من الضمير المنصوب لم يحتج الى حذف شيء في اللفظ ، لأن الذكر من الحال قد عاد الى ذي الحال . والمعنى يحشرهم مشابهة أحوالهم أحوال من لم يلبث الا ساعة . ويحتمل أن يكون معمولا بما دل عليه قوله « كأن لم يلبثوا » فاذا جعلته معمولا لـ (يتعارفون) انتصب (يوم) على وجهين : احدهما ـ أن يكون ظرفاً . والآخر ـ ان يكون مفعولا على السعة ، على ياسارق الليلة أهل الدار .

ومعنى « يتعارفون » يحتمل امرين :

احدهما ـ ان يكون المعنى يتعارفون مدة إماتتهم التي وقع حشرهم بعدها وحذف المفعول للدلالة عليه ، أو يكون أعمل الفعل الذي دل عليه (يتعارفون) ألا ترى انه قد دل على سيعلمون إذ يتعارفون ، فعلى هذا يكون قوله « ويوم يحشرهم » معمول « يتعارفون » .

والآخر ـ أن يكون « يوم يحشرهم » معمول ما دل عليه قوله « كأن لم يلبثوا » لأن المعنى تشابه أحوالهم أحوال من لم يلبث ، فعمل في الظرف هذا المعنى ولا يمنع المعنى من أن يعمل في الظرف وان تقدم الظرف عليه كقولهم : أكل يوم لك ثوب ؟ واذا جعلت « يتعارفون » العامل في « يحشرهم » لم يجز أن يكون صفة اليوم ، على أنك كأنك وصفت اليوم بقوله كأن لم يلبثوا ويتعارفون ، فوصفت يوم يحشرهم بجملتين لم يجز أن يكون معمولا لقوله « يتعارفون » لأن الصفة لاتعمل في الموصوف ، وجاز وصف اليوم بالجمل وان أضيف ، لأن الاضافة ليست محضة ، فلم تعرفه . ومن قرأ بالنون فلقوله « وحشرناهم فلم نغادر » (٢) وقوله «فجمعناهم جمعاً » (٣) وقوله « ونحشره يوم القيامة أعمى » (٤) . ومن قرأ بالياء فلقوله

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٤١
(٢) سورة ١٨ الكهف آية ٤٨
(٣) سورة ١٨ الكهف آية ١٠٠
(٤) سورة ٢٠ طه آية ١٢٤

« ليجمعنكم الى يوم القيامة » (١) والنون والياء متعارفان في مثل هذا بدلالة قوله « وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه » (٢) فعلم من هذا ان كل واحد منهما يجري مجرى الآخر .

يقول الله تعالى في هذه الآية أنه يوم يحشر الخلق الى المحشر والموقف « كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار » عند أنفسهم ؛ لقلة بقائهم فيها وسرعة تصرمها عنهم مع طول وقوفهم يوم القيامة ومع علمهم بدوام بقائهم في الآخرة ، شبه قرب الوقت الى ذلك الحين بساعة من النهار لأن كل ما هو آت قريب ، كما قال « اقتربت الساعة » (٣) ودل بذلك على أنه لا ينبغي لأحد أن يغتر بطول ما يأمله من البقاء في الدنيا إذ كان عاقبة ذلك الى الزوال . وقوله « يتعارفون بينهم » اخبار منه تعالى أن الخلق يعرّف بعضهم بعضاً في ذلك الوقت خسرانهم ويتذاكرونه . وقوله « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله » اخبار منه تعالى بأن الذين كذبوا بالبعث والنشور ولقاء ثواب الله ولقاء عقابه يخسرون نفوسهم . والخسران ذهاب رأس المال، فالنفس أكبر من رأس المال. وقوله « وما كانوا مهتدين » معناه لا يكونون مهتدين الى طريق الجنة لكونهم مستحقين للعقاب . وقال الزجاج : معنى الآية قرب ما بين موتهم وبعثهم كما قالوا « لبثنا يوماً أو بعض يوم » (٤) و « يتعارفون بينهم » أي يعرف بعضهم بعضاً ، وفي ذلك توبيخ لهم وإثبات الحجة عليهم .

قوله تعالى :

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا

(١) سورة ٤ النساء آية ٨٦ وسورة ٦ الانعام آية ١٢
(٢) سورة ٢٠ طه آية ١٢٧ (٣) سورة ٥٤ القمر آية ١
(٤) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١١٤ ، وسورة ١٨ الكهف آية ١٩

مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) آية.

نون التأكيد في الجزاء لاتجوز الا مع (ما) كما لايجوز الجزاء بـ (اذ، وحيث) الا مع (ما) يخرجونها عن اخواتها ، فـدخلت (ما) لتقريبها منها ، فالنون تدخل في الأمر والنهي والاستفهام والعرض، وكله طلب ، وكله غير واجب. وليس في الجزاء طلب إلا أنه يشبه غير الواجب.

وقوله « نرينك » من رؤية العين لأنها لو كانت من رؤية الاعـلام لتعدى الى مفعولين والبعض شيء يفصل من الكل، والبعض والقسم والجزء نظائر. والتوفي القبض على الاستيفاء بالأمانة ، لأن الروح تخرج من البدن على تمام وكمال من غير نقصان . ومعنى الاية إن أريناك يامحمد بعض مانعد هؤلاء الكفار من العـذاب عاجـلا بأن ننزل عليهم ذلك في حياتك ، وإن أخرنا ذلك عنهم الى بعـد وفاتك ووفاتهم ، فان ذلك لايفوتهم ، لأنه الينا مرجعهم ، والله شاهد بأعمالهم ، وعالم بها ، وحافظ لها ، فهو يوفيهم عقاب معاصيهم . وقال مقاتل : المعنى إمـا نرينك بعض الذي نعد المؤمنين من النصر والاعلاء ، وهو يوم بدر . وقوله « ثم الله » عطف في قول الفراء ، وقال غيره : (ثم) بمعنى الواو .

قوله تعالى:

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) آية.

أخبر الله تعالى في هذه الاية أن لكل جماعة على دين واحد وطريقة واحدة كأمة محمد وأمة موسى وعيسى عليهم السلام رسولا بعثه الله اليهم وحمله الرسالة التي يؤديها اليهم ليقوم بأدائها . وقولـه « فاذا جـاء رسولهم » يعني يوم القيامـة ـ في قول مجاهد ـ وقال الحسن: في الدنيا، بما أذن الله تعالى من الدعاء عليهم .وقوله « قضي

بينهم » معناه فصل بينهم الأمر على الحتم . والله تعالى يقضي بين الخصوم أي يفصل بينهم فصلا لايرد « بالقسط » يعني بالعدل . والمقسط العادل . والقاسط الجائر ، ومنه قوله « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » (١) والأصل واحـد ، والمقسط العادل الى الحق والقاسط العادل عن الحق . وقولـه « وهم لايظلمون » إنما نفى عنهم الظلم بعد أن وصف أنه يقضي بينهم بالعدل ليكون العدل في جميع الأحوال من الابتداء الى الانتهاء ، لأنه كان يمكن ان يكون العدل في أوله والظلم في آخره، فنفى بذلك نفياً عاماً ليخلص العدل في كل أحوالهم .

قوله تعالى

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) آية

حكى الله تعالى عن الكفار والذين تقدم وصفهم أنهم « يقولون متى هذاالوعد» الذي تعدوننا به من البعث والنشور والثواب والعقاب « إن كنتم صادقين » في كون ذلك . والقول كلام مضمن في ذكره بالحكاية ، وقد يكون كلام لايعبر عنه ، فلا يكون له ذكر متضمن بالحكاية ، فلا يكون قولا ، لأنه إنما يكون قولا من أجل تضمين ذكره بالحـكاية . و « متى » سـؤال عن الزمان . و (أين) سؤال عن المكان ، وهما ظرفان يتصلان بالفعل من غـير حرف إضافة تقول : متى يكون هذا ، ولايجوز أن تقول : مايكون هذا على معنى الظرف . ولكن في ما يكون هذا . والوعد خبر مايعطى من الخير . والوعيد خبر مايعطى من الشرّ ، هذا اذا فصل فان اجمل وقع الوعد على الجميع . والصدق الاخبار عن الشيء على ما هو به.

قوله تعالى

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ

(١) سورة ٧٢ الجن آية ١٥

أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) آية

لما حكى الله تعالى عن الكفار استبطاءهم ماوعد الله وقولهم « متى هذا الوعد » امر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم على وجه الانكار عليهم إني « لااملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً » من الثواب والعقاب بل ذلك الى الله ،ولا أملك إلا ما ملكني الله ، فكيف أملك لكم . والملك هو القدرة على التصرف في الشيء على وجه ليس لأحد منعه منه ، فالانسان لايملك إلا ماملكه الله ، لأن له تعالى منعه منه . وقد يملك الطفل ومن لاعقل له من المجانين بالحكم . والنفع هو اللذة أو السرور أو ماأدى إليهما او الى واحد منهما . والضرر الألم نفسه أو الغم او ما أدى اليهما او الى واحد منهما . وقوله « إلا ما شاء الله » أن يملكني إياه من نفع او ضر ، فيمكنه مما جعل له أخذه او اوجب عليه تركه . والاجل هو الوقت المضروب لوقوع امر ، كأجل الدين وأجل البيع واجل الانسان واجل المسافر فاخبر تعالى انه إذا اتى اجل الموت الذي وقته الله لكل حي بحياة ، لايتأخر ذلك ساعة ولايتقدم على ماقدره الله تعالى .

قوله تعالى :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) آية

امر الله تعالى نبيه بهذه الاية ان يقول لهؤلاء الكفار الذين استبطأوا وعد الله « ارأيتم » اي اعلمتم ؟ لانها من رؤية القلب ، لانها دخلت على الجملة من الاستفهام « ان اتاكم عذابه » يعني عذاب الله . والعذاب الالم المستمر واصله

الاستمرار ، ومنه العذوبة لاستمرارها في الحلق « بياتاً » وهو إتيان الشيء ليلا يقال بيته تبييتاً وبياتاً وبات بيتوتة ، وفلان لايستبيت إذا لم يكن له مايبيت به. وجواب« إن » محذوف ،وتقدير الكلام ارايتم ماذا يستعجل المجرمون من العذاب إن أتاكم عذابه بياتاً او نهاراً ، ووقع « إن أتاكم » في وسط الكلام موقع الاعتراض .ومعنى (ما) فيقوله « ماذا »للانكارلأن يكون في العذاب شيءيستعجل به ،وجاء علىصيغة الاستفهام ، لأنهلاجواب لصاحبه يصح له . وقال ابو جعفرعليه‌السلام هو عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة . نعوذ بالله منه . وقال الزجاج : موضع (ماذا) رفع من وجهين : احدهما ـ ان يكون (ذا) بمعنى (الذي) والتقدير ماالذي يستعجل منه المجرمون . ويجوز أن يكون (ماذا)إسماً واحداً ، والمعنى اي شيء يستعجل منه . والهاء في قوله « منه » عائدة على العذاب ويجوز ان تكون عائدة على الاستعجال .

قوله تعالى :

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) آية

« أثم » دخلت الف الاستفهام على (ثم) ليدل على ان الجملة الثانية بعد الاولى مع أن للألف صدر الكلام . وقال الطبري معنى (ثم) ـ ههنا ـ (هنالك) وهذا غلط ، لان (ثم) بالفتح تكون بمعنى هنالك ، وهذه مضمومة فلا تكون الاللعطف . والعامل في (إذا) يحتمل أمرين : احدهما ـ ان يكون « آمنتم به» على أن تكون (ما) صلة . الثاني ـ ان يكون العامل (وقع) وتكون (ما) مسلطة على الجزاء . وإنما جاز ان يعمل الفعل الأول في الجزاء دون الثاني ، ولم يجز في (إذا) لئلا يختلط الشرط بجزائه وليس كذلك (إذا) لانها مضافة الى

الفعل الذي بعدها . والوقوع الحدوث . وقوله « آلآن » مبني على الفتح ، لأن تعريفه كتعريف الحرف في الانتقال من معنى الى معنى . ومعناه عند سيبويه أنحن من هذا الوقت نفعل كذا ، وفتحت لالتقاء الساكنين . وقال الفراء : أصلها (آن) دخلت عليها الالف واللام وبنيت كالذين ، ودخول الالف واللام على اللزوم لا يمكنه ، كما لايمكن الذي . ومعنى الآية أتأمنون حلول هذا العذاب بكم ؟ ثم يقال لكم إذا وقع بكم العذاب وشاهدتموه : آلآن آمنتم به ، وكنتم به تستعجلون . وفائدتها الابانة مما يوجبه استعجال العذاب من التوبيخ عند وقوعه حين لايمكن استدراك الامر فيه بعد أن كان ممكناً لصاحبه .

قوله تعالى :

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) آية .

قوله (ثم) عطف على الايمان الذي وقع في حال الالجاء اليه . و « قيل » لهم بعد ذلك هذا القول على وجه التوبيخ والتقريع ، لأنها ليست حال استدراك لما فات . والمعنى انه يقال لهؤلاء الذين آمنوا حين نزول العذاب بهم ـ وقيل لهم آلآن وقد استعجلتم « ذوقوا عذاب الخلد » يعني الدائم . ويقال لهم « هل تجزون » بهذا العقاب الا بما كنتم تكسبون من المعاصي . والذوق طلب الطعم بالفم في الابتداء ، شبهوا بالذائق لانه أشد إحساساً . وقيل لأنهم يتجرعون العذاب بدخوله أجوافهم .

قوله تعالى :

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ

بِمُعْجِزِينَ (٥٣) آية

معنى « ويستنبؤنك » يستخبرونك أي يطلبون النبأ الذي هو الخبر « أحق هو » يعني هذا الوعيد الذي ذكره الله في هذه الآية الأولى ، فقال الله لنبيه «قل إي وربي » أي نعم وحق الله انه لحق . والحق في الدين ما شهدت به الادلة الموجبة للعلم او اقتضاه غالب الظن فيما طريقه الظن . وقوله « وما انتم بمعجزين » أي لستم تقدرون على اعجاز الله عما يريده من انزال العذاب بكم .

قوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) آية.

أخبر الله تعالى على وجه التعظيم لهذا العذاب وشدته بأنه لو كان لمن ظلم بارتكاب المعاصي « ما في الارض » من الأموال « لافتدت به» من هول ما يلحقه من العذاب. وفتحت (أن) بعد (لو) لأنها مبنية على ما هو بمنزلة العامل لاختصاصها بالفعل، والتقدير لو كان أن لكل نفس ، إلا أنه لايظهر المعنى عن اظهاره بطلب (أن) له . وجاز أن تقع (أن) بعد (لو) ولم يجز المصدر ، لأن فتحها يدل على إظمار العامل اللفظي وليس كذلك المصدر ، لأنه مما يعمل فيه الابتداء .

والافتداء إيقاع الشيء بدل غيره لدفع المكروه يقال : فداه يفديه فديــة وفداء، وافتداه افتداء ، وفاداه مفاداة وتفادى تفادياً ، وفدّاه تفدية .

وقوله «واسروا الندامة لما رأوا العذاب » أي أخفوا الندامة . وقيل «وأسروا الندامة » رؤساء الضلالة من الاتباع والسفلة . وقيل « أسروا الندامة » أي اخلصوها .

والندامة الحسرة على ما كان يتمنى انه لم يكن ، وهي حالة معقولة يتأسف صاحبها على ماوقع منه ويود أنه لم يكن أوقعه . وقال ابو عبيدة « أسروا » معناه أظهروا. قال الازهري : هذا غلط إنما يكون بمعنى الاظهار ما كان بالشين المنقطة من فوق وقوله « وقضي بينهم بالقسط » اي فصل بينهم بالعدل « وهم لا يظلمون » في القضاء والحكم بينهم ومايفعل بهم من العقاب ، لأنهم جرّوه على أنفسهم بارتكاب المعاصي. وروي أنــه قيل لرسول الله ﷺ مايغنيهم اسرار الندامــة وهم في النار ؟ قال : (يكرهون شماتة الاعداء) وروي مثله عن أبي عبد الله عليه السلام .

قوله تعالى :

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) آية

« ألا » كلمة تستعمل في التنبيه ، وأصلها (لا) دخلت عليها حرف الاستفهام تقريراً وتأكيداً ، فصارت تنبيهاً وكسرت (إن) بعد (ألا) لأن (ألا) يستأنف ما بعدها لينبه بها على معنى الابتداء : ولذلك وقع بعــدها الامر والدعاء كقول امريء القيس :

ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالي وهل ينعمن من كان في العصر الخالي(١)

ووجه اتصال هذه الاية بماقبلها أحد أمرين : احدهما - للاثبات بعد النفي لأن ماقبلها تقديره ليس للظالم مايفتدي به بل جميع الملك لله تعالى . والثاني - ان يكون معناه من يملك السموات والارض يقدر على ايقاع ماتوعد به . والسموات جمع سماء وهومأخوذ من السمو الذي هو العلو، وهي المزينة بالكواكب وهي سقف الأرض ، وهي طبقات ، كما قال سبع سموات طباقاً . وجمعت السموات ، ووحدت

(١) ديوانه ١٥٨ وهو مطلع قصيدة له مشهورة .

الارض في جميع القرآن ، لان طبقاتها السبع خفية عن الحس وليس كذلك السموات . وقوله « ألا ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون » صحة ذلك لجهلهم به تعالى وبما يجوز عليه ومالا يجوز، وجهلهم بصحة ماأتى به النبي صلى الله عليه وآله .

قوله تعالى .

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) آية .

في هذه الاية اخبار منه تعالى أن الذي يملك التصرف في السموات والارض هو الذي يحيي الخلق بعد كونهم أمواتاً وهو الذي يميتهم إذا كانوا أحياء . ثم يرجعون اليه يوم القيامة فيجازيهم بمثل أعمالهم إن كانوا مطيعين بالثواب الدائم ، وان كانوا كفاراً بالعقاب الدائم . قال أبو علي : في هذه الآية دلالة على أنه لايقدر على الحياة إلا الله لأنه تعالى تمدّح بكونه قادراً على الاحياء والاماتة ، فلو كان غيره قادراً على الحياة لما كان في ذلك مدح . وفيها دلالة على كونه قادراً على الاعادة لان من قدر على النشأة الأولى يقدر على النشأة الثانية .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) آية .

هذا خطاب من الله تعالى للمكلفين من الناس يخبرهم الله تعالى بأنه أتاهم موعظة من الله . والموعظة مايدعو الى الصلاح ويزجر عن القبيح بما يتضمنه من الرغبة والرهبة ويدعو الى الخشوع والنسك ، ويصرف عن الفسوق والاثم ، ويريد بذلك القرآن وماأتى به النبي صلى الله عليه وآله من الشريعة . وقوله « وشفاء لما في الصدور » فالشفاء معنى كالدواء لازالة الداء . فداء الجهل أضر من داء البدن وعلاجه أعسر

وأطباؤه اقل والشفاء منه أجل . والصدور جمع صدر وهـو موضع القلب ، وهو اجـل موضع في الحي لشرف القلب . وقولـه « وهدى ورحمة للمؤمنين » وصف القرآن بأنه يقال عما يؤدي الى الحق ودلالة تؤدي الى المعرفة ونعمة على المحتاج لأنه لايقال للملك إذا اهدى الى ملك آخر جوهرة أنه قد رحمه بذلك ، وإن كانت نعمة يجب بها شكره ومكافأته . وإنما أضافه الى المؤمنين ، لأنهم الـذين انتفعوا به دون الكفار الذين لم ينتفعوا به ، كما قال « هدى للمتقين » وإن كان هدى لغيرهم .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) آية .

قرأ الحسن « فلتفرحوا » بالتاء . وبه قرأ ابو جعفر المدني ورويس .وروي ذلك عن أبي بن كعب . الباقـون بالياء . وكان الكسائي يعيب القراءة بالتاء وأجازها الفراء واحتج بقولهم : لتأخذوا مصافكم . واللام في قوله « فليفرحوا » لام الامر وإنما احتيج اليها ليؤمر الغائب بها . وقـد يجوز أن يقع في الخطاب المتصرف في الـكلام . وقرأ أبو جعفر وابن عامر ورويس « تجمعون » بالتاء . الباقون بالياء . قال ابو علي: الجار في قوله « فبذلك » يتعلق بقوله « فليفرحوا » لان هذا الفعل يصل به قال الشاعر :

فرحت بما قد كان من سيديكما (١)

والفاء في قوله « فبذلك فليفرحوا » زائدة لأن المعنى فافرحوا بذلك ومثله قول الشاعر :

---

(١) قائله زهير ابن ابي سلمى ديوانه : ١٠٩

فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعي (١)

فالفاء في قوله فاجزعي زيادة مثل التي في « فليفرحوا » وقال الفراء «فبذلك» بدل من قوله « بفضل الله وبرحمته » . ومن قرأ بالياء جعله أمراً للغائب ،واللام انما تدخل على فعل الغائب لان المواجهة استغني فيها عن اللام بقولهم (افعل) فصار مشبهاً للماضي في قولك (يدع) الذي استغني عنه بـ (ترك) ، ولو قلت بالتاء لكنت مستعملا لما هو كالمرفوضْ ، وان كان الاصل . ولايرجح القراءة بالتاء لكونها هي الاصل لانه اصل مرفوض . ومن قرأ بالتاء اعتبر الخطاب الذي قبله من قوله « قد جاءتكم موعظة ... فلتفرحوا » وزعموا أنها في قراءة ابي فافرحوا قال ابوا الحسن : وزعموا انها لغة وهي قليلة بمعنى لتضرب ، وانت تخاطب . فان قيل : كيف جاء الامر للمؤمنين بالفرح ، وقد ذم الله ذلك في مواضع من القرآن كقوله « إن الله لايحب الفرحين » (٢) وقال « إنه لفرح فخور » (٣) وغير ذلك ؟ . قيل : اكثر ماجاء مقترناً بالذم من ذلك ما كان مطلقاً ، فاذا قيد لم يكن ذماً كقوله « يرزقون فرحين » (٤) وفي الاية مقيد بذلك. فأما قوله « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » (٥) فانه مقيد ومع ذلك فهو مذموم ، لكنه مقيد بما يقتضي الذم ، كما جاء مقيداً بما لايقتضي الذم ، فمطلقه يقتضي الذم ، ومقيده بحسب ما يقيد به ، فان قيد بمايقتضي الذم أفاد الذم وإن قيد بما يقتضي المدح أفاد المدح . فأما قوله « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » (٦) وقوله « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » (٧) والفرح بنصر الله للمؤمنين محمود ، كما ان القعود عن رسول الله بالتقييد في الموضعين مذموم .

---

(١) قد مرّ في ٥/١٧٤

(٢) سورة ٢٨ القصص آية ٧٦

(٣) سورة ١١ هود آية ١٠

(٤) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٠

(٥) سورة ٩ التوبة آية ٨٢

(٦) سورة ٤٠ المؤمن آية ٨٣

(٧) سورة ٣٠ الروم آية ٤ ـ ٥

امر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله أن يقول للمكلفين افرحوا بفضل الله ، وهو زيادة نعمه وانما جاز أن يقول : فضل الله ، وانما هـو من افضال الله ، لانـه في موضع افضال ، كما ان النبات في موضع إنبات في قوله « أنبتكم من الارض نباتاً »(١) وايضاً فان اضافة الفضل الى الله بمعنى الملك كما يضاف العبد اليه بمعنى انه مالك له . والفرح لذة في القلب بادراك مايحب ،وان شئت قلت :هو لذة في القلب بنيل المشتهى، وقد حسنه الله في هذه الاية ، فدل على انه لايحب الفرحين بمعنى البطرين. وقوله « هو خير مما يجمعون » قيل فضل الله هو القرآن ، ورحمته هو الاسـلام « خير مما يجمعون » من الذهب والفضة . ذكره ابن عباس وابو سعيد الخدري والحسن وقتادة ومجاهد . ومن قرأ بالياء عنى بـه المخاطبين والغيب ، غير أنـه غلب الغيّب على المخاطبين ، كما غلب التذكير على التأنيث ، فكأنه أراد به المؤمنين وغيرهم . ومن قـرأ بالتاء كان المعنى فافرحوا بـذلك ايها المؤمنون اي افرحوا بفضل الله ، فان ما آتاكموه من الموعظة شفاء ما في الصدور خير مما يجمع غيركم من اعراض الدنيا . وقال ابو جعفر عليه السلام « بفضل الله » يعني الاقرار برسول الله و « برحمته» الائتمام بعلي عليه السلام « خير مما » يجمع هؤلاء من الذهب والفضة .وإذا حملت الاية على عمومها كان هذا ايضاً داخلا فيها .

قوله تعالى

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) آية .

قال الحسن : المعني بهذه الاية مشركوا العرب قال الله لهم « أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق » أي أرزاق العباد من المطر الذي ينزله الله « فجعلتم منه حراماً

(١) سورة ٧١ نوح آية ١٧

وحلالا » يعني ماحرموا من السائبة والوصيلة والحـام ، وماحرموا من زروعهم . قل يا محمد لهم « آلله أذن لكم أم على الله تفترون؟ » معناه انه لم يأذن لكم في شيء من ذلك بل انتم تكذبون في ذلك على الله . واستدل قوم بذلك على أن القياس في الاحكام لايجوز . قال الزجاج (ما) في قوله « ماأنزل الله » في موضع نصب بـ (انزل) والمعنى انكم جعلتم البحائر والسوائب حراماً ، والله تعالى لـم يحرم ذلك وتكون (ما) بمعنى الاستفهام . ويحتمل أن تكون (ما) بمعنى الـذي وتكون نصباً بـ (أرأيتم) . والرزق منسوب كله الى الله لأنه لا سبيل للعبد اليه الا باطلاقه بفعله له او اذنه فيه اما عقلا او سمعاً . ولايكون الشيء رزقاً بمجرد التمكين لانه لو كان كذلك لكان الحرام رزقاً ، لأن الله مكّن منه . قال الرماني: التحريم عقد بمعنى النهي عن الفعل والتحليل حل معنى النهي بالاذن .

قوله تعالى :

وَمَاظَنُّ ٱلذينَ يَفتَرُونَ عَلىٰ ٱللهِ ٱلكَذِبَ يَومَ ٱلقِيٰمَةِ إِنَّ ٱللهَ لـَذُو فَضلٍ عَلىٰ ٱلنَّاسِ وَلـٰكِنَّ أَكثَرَهُمْ لاَيَشكُرُونَ (٦٠) آية

المعنى أي شيء يظن الذين يكذبون على الله انه يصيبهم يوم القامة على افترائهم على الله ، اي لاينبغي ان يظنوا ان يصيبهم على ذلك الا العذاب والعقاب ، وجعـل ذلك زجراً عن الكذب على الله . ثم اخبر تعالى « ان الله لـذو فضل على الناس » بما فعل بهم من ضروب النعم « ولكن اكثرهم لايشكرون » نعمه ولايعترفون به ويجحدونه . وهذا خرج مخرج التقريع على افتراء الكذب ، وإن كان بصورة الاستفهام وتقديره ايؤديهم الى خير ام شر ؟ . وافتراء الكذب أفحش من فعل الكذب بتزويره وتنميقه فالزاجر عنه اشـد . وقيل : معنى قوله « لذو فضل على الناس » أي لم يضيق عليهم بالتحريم لما لا مصلحة لهم في تحريمه كما ادعيتم عليه . وقيل:

معناه انه لذو فضل على خلقه بترك معاجلة الكذاب بالعقوبة في الدنيا ، وامهاله إياه الى يوم القيامة .

قوله تعالى :

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) آية .

قرأ الكسائي « يعزب » بكسر الزاي هنا وفي سبأ . الباقون بضمها ، وهما لغتان . وان كان الضم أفصح واكثر . وقرأ حمزة وخلف ويعقوب « ولااصغر... ولا اكبر » بالرفع فيهما . الباقون بفتحهما . فمن فتح الراء فلأن (افعل) في الموضعين في موضع جر ، لأنه صفة المجرور الذي هو قوله « مثقال ذرة » وانما فتح ، لأن (افعل) اذا اتصل به منكر كان صفة لاتنصرف في النكرة . ومن رفعه حمله على موضع الموصوف ، لأن الموصوف الذي هو « من مثقال ذرة » الجار والمجرور في موضع رفع ، كما كانا في موضعه في قوله « كفى بالله » (١) ومثل قوله « من إله غيره » (٢) فمن رفع يجوز ان يكون صفة بمنزلة (مثل) ويجوز أن يكون استثناء كما تقول : مالكم من إله الا الله . ومثله « فاصدّق واكن

(١) سورة ٤ النساء آية ٥ ، ٤٤ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٣١ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ويونس آية ٢٩ والرعد ٤٥ والاسرى ٩٦ ، والعنكبوت ٥٢ ، والاحزاب ٣ ، ٤٨ والفتح ٢٨ .

(٢) سورة ١١ هود آية ٥٠ ، ٦١ ، ٨٣ وسورة ٢٣ المؤمنون آية ٢٣ ، ٣٢

من » (١) وغير ذلك . ويجوز أن يعطف قوله « ولا اصغر » على « ذرة » فيكون التقدير ومايعزب عن ربك مثقال ذرة ولا مثقال اصغر ، فعلى هذا لايجوز الاالجر لانه لاموضع للذرة غير لفظها ، كما كان لقولك من مثقال ذرة موضع غير لفظه. ولايجوز على قراءة حمزة ان يكون معطوفاً على (ذرة) كما جاز في قول الباقين لأنه اذا عطف على (ذرة) وجب ان يكون اصغر مجروراً ، وانما فتح ، لأنـه لاينصرف وكذلك يكون على قول من عطفه على الجار الذي هو (من) .

معنى قوله « وماتكون في شأن » ليس تكون في حال من الاحوال ، لأن الشأن والبال والحال نظائر وجمعه شؤن . والشأن معنى مفخم على طريق الجمـلة يقال : ما شأنك وماحالك وما بالك . وقوله « وما تتلو منه من قرآن » اي وليس تتلو من القرآن ، فتكون الهاء كناية عن القرآن قبل الذكر لتفخيم ذكر القرآن، كما قال « إنه أنا الله العزيز الحكيم » (٢) ويحتمل أن تكون الهـاء عائدة على الشأن وتقديره وما يكون من الشأن . وقوله « وماتعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً » اي ليس يخفى على الله شيء من اعمالـكم بل يعلمها كلهـا ويشهدهـا. والمشاهدة الادراك بالحاسة . والمشاهد المدرك بحاسة اي ذات يعني عن حاسة يقال : شاهد وشهود وشهداء . وقوله « اذ تفيضون فيه » فالاضافة الدخول في العمل على جهة الانصباب اليه ، وهو الانبساط اليه في العمل مأخوذ من فيض الاناء اذا انصب من جوانبه . ومنه قوله « أفضتم من عرفات » (٣) اي تفرقتم كتفرق الماء الـذى ينصب من الاناء . ومثله أفاض الماء عليه وافاض في الحديث وقوله « ومايعزب عن ربك » فالعزوب الـذهاب عن المعلوم وضده حضور المعنى للنفس . وتعزّب اذا انفرد عن اهله . وقال ابن عباس معنى لايعزب لايغيب . وقوله « من مثقال ذرة » فالذر صغار النمل واحده ذرّة ، وهو خفيف الوزن جداً . ومعنى مثقال ذرة وزن

(١) سورة ٦٣ المنافقون آية ١٠　　(٢) سورة ٢٧ النمل آية ٩

(٣) سورة ٢ البقرة آية ١٩٨

ذرة يقال : خذ هذا فانه أخف مثقالا اي اخف وزناً . وقوله « ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين » معناه لايخفى عليه ماوزنه مثقال ذرة ولاماهو اصغر منها ولا ماهو اكبر الا وقد بينه في الكتاب المحفوظ وكتبته ملائكته وحفظوه .

قوله تعالى:

أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللهِ لاَ خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُم يَحزَنُونَ (٦٢) آية .

بين الله تعالى في هذه الاية أن أولياءه لاخوف عليهم يوم القيامة من العقاب « ولاهم يحزنون » اي ولايخافون . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : هم قوم ذكرهم الله بماهم عليه من سيماء الخير والاخبات . وقال ابن زيد : هم الذين آمنوا وكانوا يتقون . وقد بينهم في الاية بعدها . وقال قوم : هم المتحابون في الله ذكر ذلك في خبر مرفوع . والاولياء جمع ولي وهو الـذي يستحق من الله ان يوليه ثوابه وكرامته، وهو المطيع لله الذي يتولى اجلاله واعظامه . وقيل : الولي النصير ولا يسمى المتولي الانعام على غيره انـه وليه ، لانه قد يتولى الانعام عليه للمظاهرة بالجميل في امره واستصلاحه الذي يصرف عن القبيح ، وان كان عدوه . ولايجتمع الولاية والعداوة . والخوف انزعاج القلب لما يتوقع من المكروه . والخوف والفزع والجزع نظائر ، وضده الأمن . والحزن غلظ الهمّ مأخوذ من الحزن ، وهي الارض الغليظة ، وضده السرور . قال الجبائي: هذه الآية تدل على ان المؤمنين المستحقين للثواب لايخافون يوم القيامة اصلا بخلاف مايقول قوم انهم يخافون الى ان يجوزوا الصراط . وقال البلخي : ليس يمتنع ان يخافوا من اهوال يوم القيامة وان علموا ان مصيرهم الى الجنة والثواب . وعلى ما نذهب اليه من انه يجوز ان يعاقب الله بعض الفساق ثم يردهم الى الثواب ينبغي ان تكون الآيـة مخصوصة بمن لايستحق العقاب اصلا . او نقول المراد بذلك لاخوف عليهم ولاهم يحزنون لذلك . وروي عن الحسين عليه السلام انهم الذين ادّوا فرائض الله واخذوا بسنن رسول الله وتورعوا

عن محارم الله وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا، ورغبوا فيما عند الله واكتسبوا الطيب من رزق الله لمعايشهم لايريدون به التفاخر والتكاثر . ثم انفقوه فيما يلزمهم من حقوق واجبة ،فاولئك الذين يبارك الله لهم فيما اكتسبوا ويثابون على ماقدموا منه لآخرتهم.

قوله تعالى:

أَلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) آية.

يحتمل موضع (الذين) ثلاثة أوجه من الاعراب : احدها - ان يكون نصباً بأن يكون صفة للأولياء . والثاني - ان يكون رفعاً على المدح . والثالث - ان يكون رفعاً بالابتداء ، وخبره « لهم البشرى » .

اخبر الله تعالى ان الذين آمنوا هم الذين يصدقون بالله ويعترفون بوحدانيته وهم مع ذلك يتقون معاصيه .والفرق بين الايمان والتقوى ان التقوى مضمن باتقاء المعاصي مع منازعة النفس اليها . والايمان من الأمن بالعمل من عائد الضرر . والفرق بين الايمان بالله والطاعة له ان الطاعة من الانطياع بجاذب الأمروالارادة المرغبة في الفعل . والايمان هو الامن المنافي لانزعاج القلب . وقوله « يتقون » فالاتقاء اصله من (وقيت) فقلبت الواو ، وادغمت في تاء الافتعال كما قلبت في اتجاه وتراث .

قوله تعالى :

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) آية

ذكر الله تعالى ان الذين وصفهم في الاية الاولى من انهم مؤمنون بالله ويتقون معاصيه « لهم البشرى » وهي الخبر بما يظهر سروره في بشرة الوجه . والبشرى

والبشارة واحد . وقوله « في الحياة الدنيا » قيل فيه ثلاثة اقوال :

احدها ـ قال قتادة والزهري والضحاك والجبائي: هو بشارة الملائكة عليهم السلام انها الرؤيا الصادقة الصالحة يراها الرجل اويرى له . وقال ابوجعفر عليه السلام البشرى في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن اويرى له وفي الآخرة الجنة . والثالث ـ بشرى القرآن بشرف الايمان ـ ذكره الفراء والزجاج وغيرهما . وقوله « لاتبديل لكلمات الله » معناه لاخلف لما وعد الله تعالى به من الثواب بوضع كلمة اخرى مكانها بدلا منها ، لانها حق والحق لاخلف له بوجه . وقوله « ذلك هو الفوز العظيم » اشارة الى هذه البشرى المتقدمة بأنه الفوز الذي يصغر كل شيء في جنبه .

قوله تعالى :

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) آية .

ظاهر قوله « ولايحزنك قولهم» ظاهره النهي والمراد به التسلية للنبي صلى الله عليه وآله عن قولهم الذي يؤذونه به . والنهي في اللفظ القول . وانما هو عن السبيل المؤدي الى التأذي بالقول . ومثله لااراك ههنا والمعنى لاتكن ههنا فمن كان ههنا رأيته ، فكذلك المراد بالآية لاتعبأ بالأذى فيمن عني به اذاه . وقوله « ان العزة لله جميعاً » كسرت (إن) بالاستئناف بالتذكير لما ينفي الحزن لاانها مفعول القول لانها ليست حكاية عنهم ، لانهم لم يقولوا ان العزة لله . ولايجوز نصبها على ان تكون معمول القول لانهم لو قالوه لما احزن ذلك النبي صلى الله عليه وآله ولو فتحت (ان) على معنى (لان) جاز . والعزة القدرة على كل جبار بالقهر بأن لايرام ولايضام عز يعز عزاً فهو عزيز . والمعنى انه الذي يعزك وينصرك حتى تصير اعز ممن ناواك وقوله « هو السميع العليم » معناه انه يسمع قولهم ويعلم ضميرهم فيجازيهم بما تقتضية حالهم ويدفع عنك شرهم .

قوله تعالى

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) آية

قد بينا فيما مضى أن أصل (ألا) (لا) وانما دخلت عليها حرف الاستفهام تنبيهاً . والفرق بين (ألا) و (أما) أن (ألا) للاستقبال ولاتقع بعدها (إن) الا مكسورة . و (اما) تكون بمعنى حقاً كقولهم اما انه منطلق ، لأنها للحال ويجوز بعد (اما) كسر (ان) وفتحها .

لما سلى الله النبي ﷺ فقال « لايحزنك » قول هؤلاء الكفار فـ « ان العزة لله » يعني القدرة والقهر فانهم لايفوتونه ، بين بعد ذلك مايدل عليه وينبه على صحته وهو أن له تعالى « من في السموات ومن في الارض » يعني العقلاء . واذا كان لـه ملك العقلاء فما عداهم تابع لهم ، ووجب ان يكون ملكاً له وانما خص العقلاء تعظيماً للامر . وقوله « ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء » تحتمل (ما) في قوله « وما يتبع » وجهين : احدهما ـ ان تكون بمعنى (اي) كأنه قال واي شيء يتبع الـذين يدعون من دون الله شركاء ، تقبيحاً لفعلهم . الثاني ـ ان تكون نافية ، وتقديره ومايتبعون شركاء في الحقيقة والمعرفة .

وقوله « ان يتبعون الا الظن » معناه ليس يتبعون في اتخاذهم مع الله شركاء الا الظن لتقليدهم اسلافهم في ذلك او لشبهة دخلت عليهم بأنهم يتقربون بذلك الى الله تعالى وبين بعد ذلك انهم ليسوا الا كاذبين بهذا القول والاعتقاد ـ في قوله « ان هم الا يخرصون » . وفائدة الاية الابانة عن انه يجب اخلاص العبادة لمن يملك السموات والارض وان لايشرك معه في العبادة غيره .

قوله تعالى

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) آية

بين الله تعالى في هذه الآية ان الذي يملك من في السموات ومن في الارض « هو الذي جعل الليل » اي خلقه « لتسكنوا فيه » اي خلقه وعرّضه لتسكنوا فيه وانه لاجل ذلك خلقه ليزول التعب والكلال بالسكون فيه وجعل « النهار مبصراً » وانما يبصر فيه تشبيهاً ومجازاً واستعارة في صفة الشيء بسببه على وجه المبالغة ومثله قول جرير :

لقد لمتنا يا أم عيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم (١)

وقال رؤبة :

ونام ليلي وتجلى همي (٢)

والفرق بين الجعل والفعل ان جعل الشيء قد يكون باحداث غيره كجعل الطين خزفاً ولا يكون فعله إلا باحداثه . والفرق بين الجعل والتغيير أن تغيير الشيء لايكون الا بتصييره على خلاف ماكان ، وجعله يكون بتصييره على مثل ما كان كجعل الانسان نفسه ساكتاً على استدامة الحال .

وقوله « ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون » اخبار منه تعالى وتنبيه على ان هذا الجعل لايقدر عليه الا الله تعالى ، وانه لايصح الا من عالم قاصد ، وانه نعمة على الخلق بما لهم في ذلك من النفع والصلاح ، وانه من الامور اللازمة الدائرة، وانه منصوب للفكر لايغيب عنه طرفة عين .

---

(١) ديوانه ٥٤٤ وتفسير الطبري ٨٩/١١ ومجاز القرآن ١/ ٢٧٩

(٢) ديوانه ١٤٣ ومجاز القرآن ٢٧٩/١

قوله تعالى :

قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ (٦٨) آية

الذين أضافوا اتخاذ الولد اليه طائفتان: احداهما ـ كفار قريش والعرب، فانهم قالوا : الملائكة بنات الله . والاخرى ـ النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، فكذب الله الفريقين . ولا يجوز اتخاذ الولد على الله على وجه التبني ، كما لايجوز عليه اتخاذ إ له على التعظيم ، لانه لما استحال حقيقته عليه استحال مجازه المبني عليها . وحقيقة الولد من ولد على فراشه اوخلق من مائه ، ولذلك لايقال : تبنى الشاب شيخاً ، ولاتبنى الانسان بهيمة لما كان ذلك مستحيلا ، وهذه الحقيقة مستحيلة فيه تعالى ، فاستحال مجازها أيضاً . واتخاذ الخليل جائز ، لان الخلة اصفاء المودة التي توجب الاطلاع على سره ثقة به . وان كان مشتقاً من الخلة ـ بفتح الخاء ـ فهو لافتقاره اليه ، لان الخلة هي الحاجة . ويجوزان يقال المسيح روح الله ، لان الارواح كلها ملك لله . وانما خص المسيح بالذكر تشريفاً له بهذا الذكر كما خص الكعبة بأنها بيت الله ، وان كانت الارض كلها لله تعالى. وقوله « سبحانه هو الغني » تنزيه من الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد لكونه غير محتاج الى ذلك ، لانه مالك مافي السموات والارض . وقوله « ان عندكم من سلطان بهذا » إخبار منه أنه ليس مع هؤلاء الذين يتخذون مع الله ولداً برهان ولاحجة ، لأن السلطان هو البرهان الظاهر ، ووبخهم على قولهم ذلك فقال « أتقولون على الله مالا تعلمون » لأن من أقدم على الاخبار عما لايعلم صحته ولايأمن كونه كذباً مقبح عند العقلاء .

قوله تعالى :

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ آيتان عند الجميع .

قوله « لايفلحون » وقف تام . أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول للمكلفين « إن الذين » يكذبون على الله باتخاذ الولد وغير ذلك « لايفلحون » اي لايفوزون بشيء من الثواب . وكسرت (إنّ) بعد القول ، لانه حكاية لما يستأنف الاخبار به ولذلك دخلت لام الابتداء في الخبر ، لأنها تؤذن بأنه موضع ابتداء . والكذب يتعاظم الاثم عليه بحسب تعاظم الضرر به وكثرة الزواجر عنه ، فالكذب على الله أعظم لكثرة الزواجر عنه لما فيه من تضييع حق المنعم بأجل النعم . وقوله « متاع في الدنيا » رفع بأنه خبر الابتداء . وتقديره ذاك متاع أو هو متاع . ويجوز أن يكون على تقدير لهم متاع . وإنما خص بالدنيا لئلا يغتر به . والمتاع مايقع به الانتفاع من أثاث أو غيره . والانتفاع حصول الالتذاذ . وانما جاز أن يمتعوا في الدنيا دون الاخرة ، لأن الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء ، ولذلك كان التكليف في الدنيا دون الآخرة . وقوله « ثم الينا مرجعهم » فالمرجع المصير الى الشيء بعد الذهاب عنه ، فهؤلاء ابتدأهم الله ثم يصيرون الى الهلاك بالموت . ثم يرجعون بالانشاء ثانية .وقوله « ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون» معناه انالانقتصر على بعثهم بعد موتهم بل نوصل اليهم العذاب الشديد وننزله بهم جزاء بما كانوا يكفرون في دار الدنيا .

قوله تعالى :

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ ٱللهِ فَعَلَى ٱللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) آية.

قرأ نافع في رواية الأصمعي عنه « فاجمعوا » من جمع .الباقون بقطع الهمزة وقرأ يعقوب« وشركاؤكم » بالرفع. الباقون بالنصب. قال أبو علي : مارواه الأصمعي عن نافع من وصل الهمزة من جمعت ، والاكثر في الامر يقال أجمعت ، كقوله « وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم » (١) وكما قال الشاعر :

[ياليت شعري والمنى لاتنفع]　　　هل أغدون يوماً وأمري مجمع(٢)

اي معد، ويمكن أن يكون المراد، واجمعوا ذوي الأمرمنكم أي رؤساءكم ووجوهكم ، كما قال « وأولي الأمر منهم » (٣) فحذف المضاف وأجرى على المضاف اليه ما كان يجري على المضاف لو ثبت . ويجوز ان يكون جعل الامر ماكانوا يجمعونه من كيدهم ثم الذين يكيدونه به ، فيكون بمنزلة قوله « فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً » على أن أبا الحسن يزعم أن وصل الألف في « واجمعوا أمركم وشركاءكم » أكثر في كلام العرب . قال: وانما يقطعون الهمزة إذا قالوا أجمعوا على كذا وكذا ، قال: والقراءة بالقطع غريبة . ومن وصل الهمزة حمل الشركاء على هذا الفعل الظاهر لانك جمعت الشركاء وجمعت القوم ، وعلى هذا

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٢　(٢)تفسير الطبري ٩٠/١١ والقرطبي ٣٦٢/٨

(٣) سورة ٤ النساء آية ٨٢

قال « ذلك يوم مجموع له الناس » (١) ومن قطع الهمزة أضمر للشركاء فعلا آخر كأنه قال فاجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم أو ادعوا شركاءكم، قال الشاعر:

علفتها تبناً وماء بارداً (٢)

وقال آخر:

شراب البان وتمر واقط

وفي قراءة أبي «وادعوا شركاءكم» ويجوز أن يكون انتصاب الشركاء على انه مفعول معه، وهو قول الزجاج، كما قالوا: استوى الماء والخشبة، وجاء البرد والطيالسة، وقالوا: لو ترك الفصيل وامه لرضع من لبنها. ومن رفع « وشركاؤكم» كيعقوب والحسن حمله على الضمير، وتقديره فاجمعوا أنتم وشركاؤكم: قال الزجاج: وحسن ذلك لدخول المنصوب بينهما. ولو لم يدخل لما حسن. ولا يجوز أن تقول اجمعوا وشركاؤكم. وانما يجوز العطف على الضمير اذا اكد. وزعم ابو الحسن أن قوماً يقيسون هذا الباب. وقوماً يقصرونه على ماسمع. قال ابو علي الفارسي: والاول عندي أقيس.

امر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقرأ على هؤلاء الكفار أخبار نوح عليه السلام حين « قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي » بين أظهركم « وتذكيري » اياكم « بآيات الله» وحججه وهممتم بقتلي واذاي فافعلوا مابدا لكم فاني على الله توكلت وإنما جعل جواب الشرط « فعلى الله توكلت » مع انه متوكل عليه في جميع احواله ليبين لهم أنه متوكل في هذا على التفصيل لما في إعلامه ذلك من زجرهم عنه لان الله تعالى يكفيه أمرهم. والتوكل والتفويض جعل الامر الى من يدبره للثقة به في تدبيره فمن فوض أمره الى الله فقد توكل عليه. وقوله « ثم لايكن أمركم عليكم غمة » معناه ليكن امركم ظاهراً مكشوفاً ولا يكونن مغطى مستوراً من

(١) سورة ١١ هود آية ١٠٤

(٢) تاويل مشكل القرآن ١٦٥ وأمالي المرتضى ٢/١٧٠ واللسان (علف)

غممت الشيء اذا سترته ، فالغمة ضيق الامر الذي يوجب الحزن ، والغمة والضغطة والكربة والشدة نظائر ، ونقيضه الفرجة . وقيل (غمة) معناه مغطى تغطية حيرة مأخوذةمن غم الهلاك . وقوله « فاجمعوا امركم وشركاءكم » فيه تهديد . وقوله « ثم اقضوا الي ولا تنظرون » معناه افعلوا ماتريدون، على وجه التهديد لهم ،وانه اذا كان الله ناصره وعليه توكله فلا يبالي بمن عاداه واراد به السوء فان الله يكفيه امره . وقرىء بالفاء ومعناهما متقاربان ، ولان معنى اقضوا توجهوا الي . وقال ابن الانباري معنى « اقضوا » امضوا، يقال قضى فلان إذا مات ومضى . ومعنى « ولاتنظرون » ولاتؤخرون .

قوله تعالى :

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى ٱللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) آية

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله تمام ما حكاه عن نوح انه قال لقومه إن « توليتم» اي هربتم عن الحق واتباعه ولم تقبلوه ولم تنظروا فيه .والتولي والاعراض والانصراف نظائر . وقوله « فما سألتكم من اجر » اي لااطلب منكم اجراً على ماأؤديه اليكم من الله، فيثقل ذلك عليكم. والاجر النفع المستحق بالعمل. والاجرة مضمنة بشريطة او مجرى عادة . وقوله « ان اجري الا على الله » اي ليس اجري في القيام باداء الرسالة الا على الله .

وقوله « وامرت ان اكون من المسلمين » معناه قل لهم: امرني الله بأن اكون من المسلمين لأمر الله بطاعته ثقة بأنها خير مايكسبه العباد .

قوله تعالى :

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ

وَأغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) آية.

لما حكى الله تعالى ماقال نوح لقومه في الآيتين الاولتين، ذكر ما كان من قومه في مقابلة ذلك، وهو انهم كذبوه اي نسبوه الى الكذب فيما ذكره من انه نبي الله وان الله بعثه اليهم ليدعوهم الى طاعته، وانه تعالى عند ذلك نجا نوحاً اي خلصه، وخلص الذين معه في السفينة وجعلهم خلائف معه، انه جعل الذين نجوا مع نوح لمن هلك بالغرق عبرة. وقيل انهم كانوا ثمانين نفساً. وقال البلخي: يجوز أن يكون اراد به جعل منهم رؤساء في الارض واهلك باقي أهل الأرض أجمع لتكذيبهم لنوح. والغرق الاهلاك بالماء الغامر، وقد يغرق الحصاة بالماء على هذا المعنى. واماالتغريق في رحمة الله، فانما هو تشبيه بما اكتنفه الماء الغامر. ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله «انظر كيف كان عاقبة الذين» خوفوا بالله وعذابه فلم يخافوه، كيف اهلكهم الله ليعلمهم بذلك انحكم هؤلاء الذين كذبوه وجحدوا نبوته حكم اولئك فيأن الله يهلكهم ويدمر عليهم، يسليه بذلكعن ترك انقيادهم له.

قوله تعالى:

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) آية

أخبر الله تعالى انه بعث رسلا - بعدنوح وإهلاك قومه - الىقومهم الذين كانوا فيهم بعد ان تناسلوا وكثروا فأتوهم بالحجج والمعجزات الدالة على صدقهم وانهممع

ذلك « ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » ويحتمل ذلك امرين : احدهما انهم لم يكونوا ليؤمنوا بما كذبوا به قوم نوح من قبل : من توحيد الله وتصديق انبيائه والثاني - قال البلخي ما كانوا ليؤمنوا بالحجج والبينات بعد اتيان الأنبياء بها بما كذبوا به من قبل يخبر عن عنادهم وعتوهم .

وقال « كذلك نطبع على قلوب المعتدين» معناه إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الكفار سمة وعلامة على كفرهم يلزمهم الذم بها ، وتعرفهم بها الملائكة وإنا مثل ذلك نفعل بقلوب المعتدين . وليس المراد بالطبع في الآية المنع من الايمان ، لان مع المنع من الايمان لايحسن تكليف الايمان . والطبع جعل الشيء على صفة غيره بمعنى فيه . والمعتدون هم الظالمون لنفوسهم الذين تعدوا حدود الله .

قوله تعالى :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (٧٥) آية .

هذا اخبار من الله تعالى انه - بعد ارسال من أرسل من الانبياء بعد نوح واهلاك قومه وماذكره من انهم لم يؤمنوا به وانه طبع على قلوبهم عقوبة لهم على ذلك - بعث ايضاً بعدهم موسى وهارون عليهما السلام نبيين مرسلين « الى فرعون وملائه» يعني رؤساء قومه « بآياتنا » اي بأدلتنا وحججنا وانهم استكبروا عن الانقياد لها والايمان بها « وكانوا قوماً مجرمين » في ذلك مستحقين للعقاب الدائم . والملاء الجماعة الذين هم وجوه القبيلة مأخوذ من انهم تملأ الصدور هيبتهم عند منظرهم. ومنه قوله صلى الله عليه وآله في قتلى بدر (اولئك الملاء من قريش) . والاستكبار طلب الكبر من غير استحقاق فأما المتكبر في اوصاف الله فهو الظاهر ، فان له اعلى مراتب الكبر ، وهو صفة ذم في العباد ومدح في صفة الله تعالى . والاجرام اكتساب السيئة

وهي صفة ذم. واصل الاجرام القطع يقال: جرم التمر يجرمه جرماً فهو جارم والجمع جرام إذا صرمه، وزمن الجرام زمن الصرام. وتجرمت السنة اذا انصرمت . وفلان جريمة اهله اي كاسبهم . وقوله « لاجرم ان لهم النار » (١) اي لابد لهم النار قطعاً قال الشاعر :

ولقد طعنت ابا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا (٢)

اي حملتهم على الغضب بقطعها اياهم . وانجرم الجسيم، والجرم الصوت ،والجرم الذنب . ووزن (موسى) مفعل وهو محمول على قياس العربية فزيادة الميم اولا اكثر من زيادة الالف اخيراً وكذلك زيادة همزة الفعل في افعل لهذه العلة .

قوله تعالى :

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) آية

أخبر الله تعالى عن قوم فرعون الذين ذكرهم وأخبر عنهم بالاستكبار انهم قالوا مع ذلك حين جاءهم الحق من عند الله :ان هذا الذي اتى به موسى من المعجزات والبراهين سحر ظاهر . و (لما) تدل على مامضى ولابد لها من الجواب و (اذ) لما مضى وتستغني عن الجواب كقولك : مضى اليه اذ قدم اي يوم قدم. (واذا) تكون للمستقبل كحرف الجزاء . والحق معنى معتقده على ماهو به ،وهو ما اتت به الرسل من البيان والبرهان عن الله تعالى . والسحر ايهام المعجزة على طريق الحيلة، ويشبه به البيان في خفاء السبب قال الشاعر :

وحديثها السحر الحلال لو انّه لم يجن قتل المسلم المتحرز

والساحر الذي يعتقد صحة سحره كافر؛ لأنه لايمكنه مع ذلك معرفة النبوة فان كان يمخرق بالسحر ويعلم انه باطل لم يكفر ولم يطلق عليه صفة ساحر .

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٢ (٢) مرّ تخريجه في ٤٢٣/٣

قوله تعالى :

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) آية .

حكى الله تعالى عن موسى انه قال لقومه الذين نسبوه الى السحر « أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا » ويريد بذلك تبكيتهم وتهجينهم . ثم قال موسى «ولا يفلح الساحرون » اي لايفوزون بشيء من الخير . ويجوز أن يكون ذلك اخباراً من الله تعالى لاحكاية عن موسى وذلك يدل على بطلان السحر أجمع . وقيل في تكرير الف الاستفهام في قوله « اسحر هذا » بعد ان قال « اتقولون » ثلاثة اقوال : احدها - انه يكون لتأكيد التقريع على الحذف كأنه قال اتقولون للحق لما جاءكم ان هذا لسحر مبين اسحرهذا . والثاني - على وجه التكرار كقولك اتقول اعندك مال . والثالث - أن يكون حكاية قولهم وان اعتقدوا انه السحر كما يقول الرجل للجارية اذا أتته أحق هذا ، فيقولونه على التعجب . ولو قالوا الحق لايكون سحراً . ولكن ليس بحق لقال لهم فلو كان حقاً كيف كان الا هكذا من قلب الجماد حيواناً يرونه عياناً وغير ذلك من الآيات .

قوله تعالى :

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) آية

روى العليمي « ويكون » بالياء . الباقون بالتاء . وجه الياء انه تأنيث غير حقيقي ، وقد فصل بينهما . ومن قرأ بالتاء فلان الكبرياء لفظها لفظ التأنيث . أخبر الله تعالى عن قوم موسى انهم قالوا له لما اظهر لهم المعجزات ودعاهم الى

التصديق بنبوته « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » اي لتصرفنا عن ذلك والللفت الصرف عن امر تقول : لفته يلفته لفتاً . ولفت عنقه اذا لواها ، قال رؤبة :

☆ ولفت لفات لها حصاد ☆

وقال ايضاً :

لفتاً وتهزيعاً سواء اللفت

التهزيع الدق واللفت اللي . وقوله « وتكون لكما الكبرياء في الارض » قال مجاهد : الكبرياء الملك . وقال قوم هي العظمة . وقال آخرون هي السلطان . والكبرياء استحقاق صفة الكبر في أعلى المراتب . والالف في قوله « أجئتنا » الف استفهام ، والمراد به الانكار على طريق اللجاج والحجاج منهم ، فتعلقوا بالشبهة في انهم على رأي آبائهم ، وان من دعاهم الى خلافه فظاهر امره انه يريد التأمر عليهم. وقوله « وما نحن لكما بمؤمنين » حكاية انهم قالوا لموسى وهارون لسنا بمصدقين لكما فيما تدعيانه من النبوة .

قوله تعالى

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) آية .

قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً « بكل سحار » بتشديد الحاء والف بعدها الباقون (ساحر) على وزن فاعل . وقد بينا الوجه في ذلك في الاعراف .

حكى الله تعالى عن فرعون انه حين أعجزه المعجزات التي ظهرت لموسى ، ولم يكن له في دفعها حيلة قال لقومه ائتوني بكل ساحر عليم بالسحر بليغ في علمه . و (فرعون) لاينصرف لأنه أعجمي معرفة ، وهو منقول في حال تعريفه ولو نقل في حال تنكيره انصرف كياقوت . ووزن فرعون فعلون ، الواو زائدة ، لانها لحقت عند سلامة الثلاثة . ومثله فردوس . وإنما طلب فرعون كل ساحر ليتعاونوا على دفع ماأتى به موسى وحتى لايفوته شيء من السحر بتأخر بعضهم . وإنما

توهم مقاومة السحرة لموسى مع قول موسى لـه «قـد علمت ما انزل هؤلاء إلا رب السماوات والارض » لأنه إنما عرف ذلك فيما بعد لما بهره الامر فكان قبل ذلك على الجهل لتوهمه ان السحر يقاوم الحق .

قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ (٨٠) آية

حكى الله تعالى ان السحرة الذين طلبهم فرعون وامر باحضارهم لما جاؤا فرعون وموسى حاضر « قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون » وهذا ظاهره الامر ويحتمل امرين : احـدهما ـ أن يكون قال ذلك على سبيل التحدي والالزام بمعنى : من كان عنده انه يقاوم المعجزات لزمه ان يأتي بها معه حتى تظهر منزلته وانما جاز إلزام الباطل على الخصم ليتبين ان اصله الفاسد يوجب عليه اعتقاد ذلك الباطل ، كما ان الشيطان يوجب الفساد ويدعوه الى الضلال . الثاني ـ أن يكون ذلك امراً على الحقيقة بدليل ان كان معه قوله « القوا ما انتم ملقون » انما لم يقتصر على قوله « القوا » لأن المراد به القوا جمع ما انتم ملقون في المستأنف فلا يكفي منه القوا . والالقاء اخراج الشيء عن اليد الى جهة الارض ويشبه بذلك قولهم القى عليه مسألة والقى عليه كلمة ، والالقاء والطرح نظائر . وفي الكلام حذف ، لان تقديره قال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فأتوه بهم فقال لهم موسى .

قوله تعالى :

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١) آية

قرأ ابو عمرو وحده «آلسحر» على الاستفهام . الباقون على الخبر .

قال ابو علي الفارسي: في قراءة ابي عمرو (ما) يرفع بالابتداء، وجئتم به في موضع الخبر والكلام استفهام، لأن الكلام يستقبل بقوله جئتم به. ولو كانت موصولة احتاج الى خبر آخر. وهذا الاستفهام المراد به التقرير كما، قال «أأنت قلت للناس» (١) لان موسى كان عالماً بأن ذلك السحر. وانما ألحق الف الاستفهام بقوله «السحر» لان السحر بدلا من «ما» المبتدأ ولزم ان يلحق السحر الاستفهام ليساوي المبدل منه في انه استفهام، الا ترى انه ليس في قولك السحر استفهام وعلى هذا قالوا كم مالك أعشرون أم ثلاثون، فجعلت العشرون بدلا من كم فألحقت ام لانك في قولك كم درهماً مالك، مدع ان له مالا. ومن قرأ على الخبر جعل (ما) موصولة (وجئتم به السحر) صلة، والهاء مجرورة عائدة على الموصول والسحر خبر المبتدأ الذي هو الموصول. وحكى الفراء: انه دخل الالف واللام في في قوله «السحر» للعهد، لانهم قالوا لما اتى به موسى إنه سحر، قال موسى ماجئتم به فهو من السحر. وفي قراءة ابي ماجئتم به سحر بلا الف ولام. ومن قرأ بالاستفهام جعل (ما) في قوله «ماجئتم به» للاستفهام. ومن قرأ على الخبر جعل (ما) بمعنى الذي وفسرت (ما) بالواحد في السحر، لأن المعنى عليه، وانما ذكر للتوبيخ كقولك ماصنعت الفساد.

حكى الله تعالى انه لما ألقى السحرة سحرهم قال لهم موسى: الذي جئتم به السحر فمن قرأ على الخبر، واي شيء جئتم به السحر مقرراً لهم ثم اخبر ان الله سيبطل هذا السحر الذي فعلتموه «ان الله لايصلح عمل المفسدين» فالاصلاح تقديم العمل على ماينفع بدلا مما يضر. والصلاح استقامة العمل على هذا الوجه. والافساد تعويج العمل الى مايضر بدلا مما ينفع. والفساد اضطراب العمل على هذا الوجه. والصلاح مضمن بالنفع لانه اذا اضيف ظهر معنى النفع فيه كقولك صلاح لزيد، وهو اصلح له اي انفع له وان كان فيه فساد على غيره.

---

(١) سورة ٥ المائدة آية ١١٩

قوله تعالى :

وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨٢) آية

هذا عطف على قوله « قال موسى ماجئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لايصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته» وقيل في معناه ثلاثة اقوال : اولها - قال الحسن : بوعده لموسى . الثاني - قال ابو علي : بكلامه الذي يبين به معاني الآيات التي اتاها نبيه صلى الله عليه وآله . الثالث - بما سبق من حكمه في اللوح المحفوظ بأن ذلك يكون . واحقاق الحق معناه اظهاره وتمكينه بالدلائل الواضحة والآيات البينة حتى يرجع الطاعن عليه حسيراً والمناصب له مفلولا . وقوله « ولو كره المجرمون » معناه انه يحق الحق وان كرهه من هو مجرم .

وفي الآية دلالة على انه تعالى ينصر المحقين كلهم لنصره اياهم بالحجة فأما بالغلبة في كل حال فموقوف ، لان المصلحة قد تكون بالتخلية تارة وبالحيلولة اخرى . والحق على ضربين : احدهما - ما كان يمكن ان يكون حقاً وغير حق ، فهذا لايصير حقاً إلا بأن يقصد فاعله على ايقاعه حقاً ، فجاز ان يقال انه حق بالفاعل . والآخر لايؤثر فيه قصد فاعله فلا يقال في ذلك انه حق بالفاعل .

قوله تعالى

فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣) آية

أخبر الله تعالى انه لم يصدق لموسى بالنبوة الا ذرية من قومه مع خوفهم من فرعون ورؤساء قومه ان يفتنوهم . (والذرية) الجماعة من نسل القبيلة . وحكى

ابن عباس انه اراد الاقليل من قومه . وقيل كانت امهاتهم من بني اسرائيل وآباؤهم من القبط . وقيل سموا ذرية لانهم اولاد الذين ارسل عليهم موسى فلم يستجب الاباء وقيل: الأبناء .وقيل: هم قوم من بني إسرائيل أخذهم فرعون بتعلم السحر وجعلهم من اصحابه .ويحتمل أن يكون ذرية على وزن (فعلية) مأخوذاً من الذر كقمرية . والثاني ـ أن يكون على وزن (فعلية) من الذرو في تذروه الرياح كقولك مزقته، ويجوز أن يكون من ذرأ الله الخلق فترك همزه . والفتنة في الدين الامتحان الذي يصرف عنه، وقد يكون ذلك بالاكراه تارة وبالهدى أخرى، وبالشبهة الداعية الى الضلال. وقوله « إن فرعون لعال في الارض » فالعلو في الامر عظم الشأن فيه، وكل معنى لا يخلو من أن يكون في صفة عالية أو دانية أو فيما بينهما من الجلالة والضعة .

والضمير في قوله « وملائهم » قيل فيمن يعود اليه ثلاثة اقوال : احدها ـ الى الذرية فقط . الثاني ـ الى فرعون واتباعه . الثالث ـ الى فرعون ، لانه معلوم . وقوله « وإنه لمن المسرفين » اخبار منه تعالى ان فرعون لمن جملة من أبعد في مجاوزة الحق . والاسراف قد يكون في القتل وفي الاكثار من المعاصي .

قوله تعالى :

وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) آية .

حكى الله تعالى عن موسى انه قال لقومه : إن كنتم صدقتم بتوحيد الله فتوكلوا عليه إن كنتم مسلمين وانما اعاد قوله «إن كنتم مسلمين » بعد قوله « إن كنتم آمنتم بالله» ليتبين المعنى بالصفتين من الايمان والاسلام وبالتقييد والاطلاق على أن الثقة بالله توجب الاستسلام لامره . والتوكل التوثق باسناد الامر الى الله . والوكالة عقد الامر لمن يقوم به مقام مالكه . والله عز وجل أملك بالعبد من نفسه فهو أحق بهذه

الصفة . ويوجب التوكل على الله النجاة من كل محذور ، والفوز بكل سرور وحبور اذا اخلص العمل فيه وسلمت النية فيه. وحذفت ياء الاضافة من قوله « ياقوم » اجتزاء بالكسرة منها وهو في النداء أحسن من اثباتها لقوة النداء على التغيير . وفائـــدة الآية البيان عما يعمل عليه عند نزول الشدة من ان من كان يؤمن بالله فليتوكل على الله ويسلم امره اليه ثقة بحسن تدبيره له .

قوله تعالى :

فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) آيتان

الفاء في قوله « فقالوا » فاء العطف وجواب الأمر كما يقال قال السائل كذا فقال المجيب كذا . وانما جازت الفاء في الجواب ولم تجز الواو ، لأن الفاء ترتيب من غير مهلة ، فهي موافقة لمعنى وجوب الثاني بالأول وليس كذلك الواو .

لما حكى الله تعالى قول موسى لقومه « إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا » حكى ما أجاب به قومه من قولهم : توكلنا على الله ، وانهم سألوا الله وقالوا « ربنا لاتجعلنا فتنة » أي محنة واعتباراً « للقوم الظالمين » وخلصنا « برحمتك من القوم » الذين كفروا بآياتك ، وكل كافر ظالم لنفسه بتعرضه للعقاب وليس كل ظالم كافراً . والفتنة أصلها البلية وهي معاملة تظهر الامور الباطنة . يقال : فتنت الذهب اذا أحرقته بالنار ليظهر الخلاص وقوله « يوم هم على النار يفتنون »(١) اي يحرقون بما فيه من اظهار حالهم في الضلال وقوله « والفتنة أشـد من القتل » (٢) معناه التعذيب للرد عن الدين ، لمـا فيه من اظهار النصرة أشد ، ومعنى « لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين » لاتمكنهم من ظلمنا بمـا يحملنا على اظهار الانصراف عن ديننا

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ١٣　　(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٩١

-في قول مجاهد- وقال ابو الضحى والجبائي معناه :لايظهروا علينا فيروا أنهم خير منا. وقوله « ونجنا » معناه خلصنا مما فيه المخافة والشماتة . وانما جاز وصف الله تعالى بالرحمة مع كثرة استعمالها في الرقة لدلالة التعظيم على انتفاء معنى الرقة ان نعمه في الاسباغ والكثرة تقع موقع ماتبعث عليه الرقة . وانما سألوا النجاة من استعباد فرعون وملائه إياهم وأخذهم بالاعمال الشاقة والمهن الخسيسة .

قوله تعالى :

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٧) آية.

أخبر الله تعالى انه أوحى الى موسى وأخيه بمعنى ألقى اليهما في خفاء والايحاء والايماء والاشارة نظائر ، وكله بيان ودلالة . وحكى الرماني أن قوماً أجازوا أن يوحي الله الى من ليس بنبي برؤيا أو إلهام ، قال: وليس يجوز عندنا على المعنى الذي يقع الوحي الى الانبياء ، لانه إنما يقع على خلاف مجرى العادة بمعجزة تشهد بأنه تعالى ألقى المعنى اليه . ولايجوز ان تطلق الصفة بالوحي الا لنبي فان قيد ذلك على خلاف هذا المعنى كان جائزاً ، كقوله « وأوحى ربك الى النحل »(١) ومعنى قوله « تبوءا » اتخذا يقال : بوّأته منزلا أي اتخذته له وأصله الرجوع من « باؤوا بغضب من الله » (٢) أي رجعوا ، والمبوّء المنزل لانه يرجع اليه للمقام فيه ومنه قولهم (بؤ بشسع كليب) أي ارجع به . وقوله « واجعلوا بيوتكم قبلة » معناه مصلى . وقيل قبلة : مسجداً ، لانهم كانوا خائفين فأمروا بأن يصلوا في بيوتهم - في قول ابن عباس ومجاهد وابراهيم والسدي والضحاك والربيع -

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٨

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٦١ وسورة ٣ آل عمران آية ١١٢

وقال الحسن يعني قبلة نحو الكعبة . ولم يصرف (مصر) لانه مؤنث معرفة كقولك هند ، ولو صرفته لخفته كما صرفت هند كان جائزاً ، وترك الصرف أقيس . وقوله « وأقيموا الصلاة » أمر من الله اياهم باقامة الصلاة والدوام على فعلها « وبشر المؤمنين » أمر منه لموسى ان يبشر المؤمنين بالجنة وما وعد الله تعالى من الثواب وانواع النعيم .

قوله تعالى:

وَقَالَ مُوسى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) آية

حكى الله تعالى في هذه الاية عن موسى عليه السلام أنه قال يا « ربنا انك اعطيت فرعون وملائه » يعني قومه ورؤساءهم « زينة واموالا في الحياة الدنيا » وإنما اعطاهم الله تعالى ذلك للانعام عليهم مع تعريه من وجوه الاستفساد . و (الزينة) مايتزين به من الحلي والثياب والمتاع .ويجوز أن يراد به حسن الصورة « ليضلوا عن سبيلك » فهذه لام العاقبة ، وهي مايؤل اليه الأمر كقوله « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً » (١) ويحتمل ان يكون المعنى لئلا يضلوا عن سبيلك فحذفت (لا) كقوله « ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما » (٢) اي لئلا تضل احداهما ، وكقوله « ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » (٣)

---

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٨   (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٢

(٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٧١

اي لئلا يقولوا . ولايجوز أن يكون لام الغرض، لأن الله تعالى لايفعل بهم الزينة ويعطيهم ويريد منهم ان يضلوا بل إنما يفعل لينتفعوا ويطيعوه ويشكروه . وقال قوم : لو كان أراد منهم الضلال لكانوا إذا ضلوا مطيعين ، لان الطاعة هي موافقة الارادة وذلك باطل بالاتفاق . وقوله « ربنا اطمس على اموالهم » إخبار عن موسى انه دعا على قومه فسأل الله ان يطمس على اموالهم . والطمس محو الاثر تقول : طمست عينه اطمسها طمساً وطموساً وطمست الريح آثار الديار . فدعا موسى عليه‌السلام عليهم بأن يقلب حالهم عن الانتفاع بها كقوله « من قبل ان نطمس وجوهاً » (١) والطمس تغير الى الدبور والدروس قال كعب بن زهير :

من كل نضاخة الذفرى إذا عرفت عرضتها طامس الاعلام مجهول (٢)

وقال قتادة والضحاك وابن زيد وابو صالح : صارت اموالهم حجارة .

وقوله « واشدد على قلوبهم » معناه ثبتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك اموالهم فيكون ذلك اشد عليهم . وقوله «فلا يؤمنوا » يحتمل موضعه وجهين من الاعراب: احدهما ـ النصب على جواب صيغة الامر بالفاء او بالعطف على « ليضلوا » وتقريره لئلا يضلوا فلا يؤمنوا . والثاني ـ الجزم بالدعاء عليهم ، كما قال الاعشى:

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى ولاتلقني إلا وانفك راغم (٣)

وقال الفراء : ذلك دعاء عليهم بأن لايؤمنوا . وحكى الجبائي عن قوم ان المراد بذلك الاستفهام والانكار كأنه قال : إنك لاتفعل ذلك ليضلوا عن سبيلك. وقال احمد بن يحيى ثعلب : هذه لام الاضافة ، والمعنى لضلالتهم عن سبيلك « اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم » . وحكى البلخي : انه يجوز أن يكون ذلك على التقديم والتأخير وتقديره ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا ربنا اطمس على اموالهم. وقيل إن قوله « فلا يؤمنوا » خرج مخرج الجواب للامر ومعناه

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٦ (٢) انظر ١/٢٢٦ تعليقة ١ و ٣/٢١٦

(٣) ديوان الاعشى والاعشيين ٥٨ وتفسير القرطبي ٨ / ٢٧٥

الاخبار ، كما يقولون انظر الى الشمس تغرب . وقيل : ان المعنى لايؤمنون ايمان الجاء حتى يروا العذاب الأليم وهم مع ذلك لايؤمنون ايمان اختيار اصلا . وقال بعضهم : اللام لام (كي) وانه اعطاهم الاموال والزينة لكي يضلوا عقوبة وهـذا خطأ ، لانه يوجب ان يكون ضلالهم عن الدين طاعة لله .

قوله تعالى :

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩) آية

حكى الله تعالى أنه اجاب موسى وهارون ، فقال لهما «قد اجيبت دعوتكما» والجواب موافقة للدعوة فيما طلب بها لوقوعها على تلك الصفة . فالله تعالى يجيب الدعاء إذا وقع بشروط الحكمة . واختلفوا في هل يجوز أن يجيب الله تعالى دعوة الكافر أم لا ؟ فقال ابوعلي الجبائي: لايجوز لان اجابته إكرام له كما يقولون : فلان مجاب الدعوة اي هو رجل صالح . والكافر ليس بهذه المنزلة . وقال ابو بكر بن الاخشاد : يجوز ذلك إذا كان فيه ضرب من المصلحة . والاجابـة قد تكون من الاعلى للادون من غير ترغيب المدعو . والطاعة لا تكون إلا من الادنى للاعلى . ولايجوز عند اكثر المحصلين ان يدعو نبي على قومه من غير إذن سمعي ، لانـه لايأمن أن يكون منهم من يتوب مع اللطف في التبقية ، فلايجاب .ويكون ذلك فتنة . والدعوة طلب الفعل بصيغة الامر وقـد يدعى بصيغة الماضي كقولك : غفر الله لك واحسن اليك ، وجزاك الله خيراً . وإنما قال « اجيبت دعوتكما » والداعي موسى لان دعاء موسى كان مع تأمين هارون ـ على ماقاله الربيع وابن زيد وعكرمـة ومحمد بن كعب وأبو العالية ـ والمؤمن داع ، لان المعنى في التأمين اللهم اجب هذا الدعاء . وقوله « فاستقيما » امر منه تعالى لهما بالاستقامة في دعائهما لفرعون

وقومه على ماأمرتكما به ولاتتبعا سبيل الجاهلين لوعدي ووعيدي فانه لاخلف له.
وقال ابن جريج : مكث فرعون بعد هذه الامور اربعين سنة .

وقوله « ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون » نهي منه تعالى لموسى وهارون أن يتبعا طريقة من لايؤمن بالله ولايعرفه . وقرأ ابن عامر وحده « ولاتتبعان » مخففة النون الا الداحواني عن هشام ، فانه خير بين تخفيفها وتشديدها . وقرأ ابن عامر وحده « ولاتتبعان » ساكنة التاء مخففة مشددة النون. وفي قراءةالاخفش الدمشقي عن ابن عامر بتخفيف التاء والنون . الباقون بتشديد التاء والنون . قال ابو علي النحوي : من شدد النون فلأن هذه النون الثقيلة إذا دخلت على (تفعل) فتح لام الفعل ، لدخولها وبني الفعل معها على الفتح نحو (لتفعلن) وحذفت النون التي تثبت في (تفعلان) في حال الرفع مع النون الشديدة ، وحذف الضم في (لتفعلن) ، وإنما كسرت الشديدة بعد ألف التثنية. لوقوعها بعد الف التثنية ،فاشبهت التى تلحق الألف في رجلان ، لما كانت في هذه مثلها ، ودخلت لمعنى كدخولها ، ولم يعتد بالنون قبلها ، لانها ساكنة ، ولانها خفيفة فصارت المكسورة كأنهاوليت الألف . ومن خفف النون يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة كما خففوا (رب) و (ان) ونحوهما ،وحذفوا الاولى من المثلين كما أبدلوا الاولى من المثلين في نحو (قيراط ودينار) ولان اصلهما (قرّاطو دّنار) فأبدلوا من إحدى النونين ياء . ويحتمل ان يكون حالامن قوله « فاستقيما » وتقديره فاستقيما غيرمتبعين .ويحتمل ان يكون على لفظ الخبر والمراد به الامر .

قوله تعالى :

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا

ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٩٠) آية.

قرأ أهل الكوفة الا عاصماً « آمنت انه » بكسر الألف . الباقون بفتحها .

قال ابو علي : من فتح الهمزة فلأن هذا الفعل فصل بحرف الجر في نحو « يؤمنون بالغيب » (١) و « يؤمنون بالجبت » (٢) فلما حذف الحرف وصل الفعل الى (ان) فصار في موضع نصب اوخفض على الخلاف في ذلك . ومن كسر الالف حمله على القول المضمر كأنه قال « آمنت » فقلت إنه، واضمار القول في نحو هذا كثير . وهـذا احسن لان قوله (انه لا إله إلا الله) في المعنى ايمان ، واذا قال آمنت فكأنه ذكر ذلك . وقال الرماني: من كسر (إن) جعله بدلا من (آمنت). ومن فتح جعله معمول (آمنت) وفي الكلام حذف ، لأن تقديره فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً فيه فغرقناه حتى اذا ادركه الغرق .

حكى الله تعالى أنه جاوز ببني إسرائيل البحر بمعنى اخرجهم منه بأن جفف لهم البحر وجعله طرقاً حتى جاوزوه . والمجاوزة الخروج عن الحد من احدى الجهات الأربعة ، لأنه لو خرج عن البحر بقليل وهو متعلق عليه لم يكن قـد جاوزه . والبحر مستقر الماء الواسع بحيث لايدرك طرفه من كان في وسطه. ويقال : مافلان إلا بحر لسعة عطائه . وقوله « فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً » فالاتباع طلب اللحاق بالأول : اتبعه إتباعاً وتبعه بمعنى . وحكى ابو عبيدة عن الكسائي انهقال إذا اريد انه اتبعه خيراً اوشرّاً قالوا بقطع الهمزة ، واذا اريد انه اقتدى بهم واتبع أثرهم قالوا بتشديد التاء ووصل الهمزة . والبغي طلب الاستعلاء بغير حق . والباغي مذموم لقوله تعالى « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله » (٣) . و (عدواً) معناه عدواناً وظلما .

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٣   (٢) سورة ٤ النساء آية ٥٠

(٣) سورة ٤٩ الحجرات آية ٩

وقوله « حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت انه لاإله إلا الذي آمنت به بنوا اسرائيل » اخبار منه تعالى أن فرعون حين لحقه الغرق والهلاك قال ما حكاه الله وكان ذلك ايمان إلجاء لايستحق به الثواب كما لايستحق بالايمان الضروري .

وقوله « بغياً وعدواً » نصب على المصدر والمراد بغياً على موسى وقومه واعتداء عليهم .

قوله تعالى :

آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) آية

قرأ أبو جعفر من طريق النهرواني ونافع إلا اباطاهر عن اسماعيل واحمد ابن صالح عن قالون والحلواني عن قالون من طريق الحمامي « الان » في الموضعين في هذه السورة بالقاء حركة الهمزة على اللام وحذف الهمزة منهما . قال ابو علي النحوي: اعلم ان لام المعرفة إذا دخلت على كلمة أولها الهمزة فخففت الهمزة فان في تخفيفها وجهين : احدهما ـ ان تحذف وتلقى حركتها على اللام وتقر همزة الوصل فيقال الحمر بالالف . والثاني ـ ان يقولوا : كالحمر بلا الف فيحذفون همزة الوصل ، فالذين أثبتوا الهمزة فلأن التقدير باللام السكون وان كانت في اللفظ متحركة . واللغة الآخرى كما انشد الكسائي :

فقد كنت تخفي حب سمراء حقبة فبح لان منها بالذي انت بائح (١)

فاسكن الحاء لما كانت اللام متحركة ، ولو لم يعتد بالحركة كما لم يعتد في الوجه الاول تحرك الحاء بالكسر كما يحركه في بح اليوم . ومعنى (الان) فصل بين الزمان الماضي والمستقبل مع انه الى الحاضر ولهذا بني كما بني (اذا) وعرف (الان) بالالف واللام (وامس) بتضمين حرف التعريف لأن ما مضى بمنزلة المضمن في المعنى في أنه ليس له صورة ،والحاضر في معنى المصرح في صحة الصورة.

(١) مرّ هذا البيت في ١/٣٠٠ وهو في اللسان (أين)

واختلفوا فيمن القائل هذا القول، فقال الجبائي: ان القائل له ملك قال ذلك بأمر الله. وقال (غيره) ان ذلك كلام من الله قاله له على وجه الاهانة والتوبيخ وكان ذلك معجزة لموسى عليه السلام ومعنى الآية حكاية ماقيل لفرعون حين قال «آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل» بانك تقول هذا في هذه الساعة «وقد عصيت قبل» هذا «وكنت من المفسدين» في الارض بقتل المؤمنين وادعاء الآلهية، وغير ذلك من انواع الكفر!.

قوله تعالى:

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) آية.

قرأ يعقوب وقتيبة «ننجيك» بالتخفيف. الباقون بالتشديد.

معنى قوله «ننجيك ببدنك» نلقيك على نجوة من الارض ببدنك عريانا دون روحك قال أوس بن حجر:

فمن بنجوته كمن بعقوته　　والمستكن كمن يمشي بقرواح (١)

القرواح حيث لاماء ولا مطر، والبدن مستكن روح الحيوان على صورته وكل حيوان له روح وبدن، والحي في الحقيقة الروح دون البدن عند قوم، وفيه خلاف.

ومعنى قوله «لتكون لمن خلفك آية» قيل فيه قولان.

احدهما — لمن يأتي بعدك ممن يراك على تلك الصفة وقد كنت تدعي الربوبية.

الثاني — ان بني اسرائيل قالوا: مامات فرعون، فالقاه الله تعالى على نجوة من الارض ليروه، ذهب اليه ابن عباس وقتادة. وقوله «وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون» اخبار منه تعالى أن كثيراً من الخلق غافلون عن الفكر في

---

(١) مرّ هذا البيت في ١ / ٢١٨ و ٣ / ٣٢٦ منسوب الى عبيد بن الابرص

حجج الله وبيناته أي ذاهبون عنها والغفلة ذهاب المعنى عن النفس ونقيضها اليقظة ، والمراد بذمهم بالغفلة عن آيات الله التعريض بأنهم تركوا النظر في آيات الله .

قوله تعالى :

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) آية

قوله « ولقد بوّأنا » اخبار منه تعالى أنه وطّأ منزل بني اسرائيل والتبوّء توطئة المنزل لصاحبه الذي يأوي اليه، تقول: بوأته منزلا تبويئاً وتبوأ، وباء بالامر بواء أي رجع . وقوله « مبوأ صدق » أي منزل صدق أي فيه فضل كفضل الصدق ، كما يقال: أخو صدق وقيل: انه يصدق فيما يدل عليه من جلالة النعمة . وقوله « ورزقناهم من الطيبات » أي ملكناهم الاشياء اللذيذة. والرزق العقد على العطاء الجاري ،ودلت الآية على سعة ارزاق بني اسرائيل . وقوله « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم »قيل في معناه وجهان : احدهما - أنهم كانوا على الكفر فما اختلفوا حتى جاءهم الدليل المؤدي الى العلم من جهة الرسول والكتاب ،فآمن فريق وكفر آخرون - وهو قول الحسن وابن جريح وابن زيد - وقال قوم : كانوا على الاقرار بالنبي قبل مبعثه بصفته ونعته ، فما اختلفوا حتى جاءهم معلوم العلم به . والمنزل الصدق الذي أنزلوه قيل فيه ثلاثة اقوال : قال الحسن : هو مصر وهو منزل صالح خصب آمن. وقال قتادة : هو الشام وبيت المقدس . وقال الضحاك : هو الشام ومصر .

وقوله « إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » اخبار منه تعالى انه الذي يتولى الفصل بين بني اسرائيل في الامور التي يختلفون فيها .

قوله تعالىٰ :

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَؤُنَ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (٩٤) آية

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يقول له « إن كنت في شك مما » أي من الذي « أنزلنا اليك » والشك هو توقف النفس فيما يخطر بالبال عن اعتقاده على ماهو به ، وعلى ماليس به . وقيل : إن هذا وإن كان خطاباً للنبي ﷺ فان المراد به الذين كانوا شاكين في نبوته . وقال قوم : إن معناه فان كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا على نبينا اليك ، ومثله قول القائل لعبده : إن كنت مملوكي فانتبه الى امري . وقول الرجل لابنه: ان كنت ابني فبرني . وقوله: إن كنت والدي فتعطف علي . وحكى الزجاج وجهاً ثالثاً وهو أن يكون معنى (إن) معنى (ما) والتقدير : ما كنت في شك مما أنزلنا اليك « فاسأل الذين » أي لسنا نريد بأمرك لانك شاك لكن لتزداد بصيرة ، كما قال لابراهيم « أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي» (١) وقوله « فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك» قيل : انما أمره بأن يسأل اهل الكتاب مع جحد اكثرهم لنبوته لامرين :

احدهما ـ ان يكون امره بأن يسأل من آمن من اهل الكتاب كعبد الله بن سلام و كعب الاحبار وابن صوريا، ذهب اليه ابن عباس ومجاهد وابن زيد والضحاك.

والثاني ـ سلهم عن صفة النبي ﷺ المبشر به في كتبهم ثم انظر فمن وافق فيه تلك الصفة . وقال البلخي ذلك راجع الى قوله « فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم » فأمره بأن يسألهم هل الأمر على ذلك ؟ فانهم لايمتنعون عن الاخبار به ولم

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٦٠

يأمره بان يسألهم هل هو محق فيه أم لا ؟ ولا ان ماانزله عليه صدق ام لا ؟ ووجه آخر وهوانه انما امره أن يسألهم ان كان شاكاً ولم يكن شاكاً فـلا يجب عليه مسألتهم وهذامعنى ما روي عنه ﷺ انه قال (ماشككت ولا انا شاك) .

وقوله « لقد جاءك الحق من ربك » قسم منه تعالى بأنه قد جاءك يامحمد الحق من عندربك لان لام(لقد) لام القسم . وقوله «فلا تكونن من الممترين »اي لاتكونن من الشاكين . والامتراء طلب الشك مع ظهور الدليل، وهو من مري الضرع اي مسحه ليدر ، فلا معنى لمسحه بعد دروره بالحلب . وقال سعيد بن جبير والحسن وقتادة وابو عبد الله عليه السلام :لم يسأل النبي ﷺ ويقوي ان الخطاب متوجه الى النبي والمراد به غيره قوله بعد هذا « قل يا ايها الناس ان كنتم في شك » .

قوله تعالى :

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) آية

هذا الكلام عطف على قوله « فـلا تكونن من الممترين . ولاتكونن من الذين كذبوا بآيات الله » أي من جملة من يجحد بآيات الله ولايصدق بها فانك ان فعلت ذلك كنت من الخاسرين . والمراد بالخطاب غيرالنبي ﷺ من جملةأمته من كان شاكاً في نبوته . والنون في قوله (لاتكونن) نون التأكيد ، وهي تدخل في غير الواجب لانك لاتقول انت تكونن ، ودخلت في القسم على هذا الوجه لانـه يطلب بالقسم التصديق ، وبني الفعل مع نون التأكيد لأنها ركبت مع الفعل على تقدير كلمتين كل واحـدة مركبة مع الاخرى مع ان الاولى ساكنة ، واقتضت حركة بناء لالتقاء الساكنين . وانما شبه الكافر بالخاسر مع ان حاله اعظم من حال الخاسر لان حال الخاسر قد جرت بها عادة .وذاق طعم الحسرة فيها فرد اليها لبيان أمرها ، وخسران النفس الذي هو أعظم منها .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٩٧) آيتان عند الجميع

قد ذكرنا اختلافهم في (كلمة وكلمات) وإن من وحد فلأنه اسم جنس. ومن جمع اراد اختلاف الالفاظ . اخبر الله تعالى « ان الذين حقت عليهم كلمة ربك » يا محمد اي وجب على التحقيق بأنهم لايؤمنون من غير شرط ولاتقييد، تقول: حق الامر يحق حقاً . وانما جاز وصف جملة من الكلام بالكلمة لانه لما كان في معنى واحد صار بمنزلة الكلمة الواحدة ، ولذلك قالوا في قصيدة من الشعر انها كلمة . وقوله « حتى يروا العذاب الاليم » معناه انهم انما يؤمنون اذا شاهدوا العذاب فآمنوا ملجئين ايماناً لاينفعهم . والرؤية في الآية رؤية العين ، لانها تعدت الى مفعول واحد. والعذاب وان كان ألماً وهو لايصح ان يرى فلأنه ترى اسبابه ومقدماته فصار بمنزلة ما يرى ، فلذلك اخبر عنه بالرؤية له .

وقوله « ولو جاءتهم كل آية » اعلام بأن هؤلاء الكفار لالطف لهم يؤمنون عنده ايمان اختيار وانما جاز تكليفه الايمان باخبار الله تعالى انه لايؤمن للانعام بالمنافع في احوال التكليف التي لاتحصى كثرة مع ما في ذلك من اللطف لغيره ، ولاظلم فيه لاحد . وانما يظلم الكافر نفسه بسوء اختياره. وانما انث قوله «جاءتهم كل آية » لانه مضاف الى الآية وهي مؤنثة كما قالوا: ذهبت بعض اصابعه . ومعنى الآية الاخبار عن ان هؤلاء لايؤمنون ايماناً يستحقون به الثواب ، ولاينافي ذلك قدرتهم على الايمان كما انه اذا اخبر انه لايقيم القيامة الساعة لم يمنع ذلك من قدرته على اقامتها في الحال . وقيل ان التقدير في الاية ان الذين لايؤمنون حقت عليهم كلمة ربك .

قوله تعالى:

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) آية

معنى (فلولا) هلا ، وهي تستعمل على وجهين : احدهما ـ على وجه التحضيض والثاني ـ على وجه التأنيب كقولك :هلا يأتي زيد بحاجتك ، وهلا امتنعت من الفساد الذي رغبت اليه ،قال الشاعر :

تعدون عقر النيب افضل مجدكم بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا(١)

أي هلا تعدون الشجعان .

وقوله « الا قوم يونس » نصب لأنه منقطع كما قال الشاعر :

أعيت جواباً وما بالربع من أحد إلا الأواري لأيا ما ابينها

والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد(٢)

وحكى الفراء : لاإن ما أبينهما وقال : جمع الشاعر بين ثلاثة أحرف في النفي (لا وان وما) وانما جاز فلو لاكانت قرية آمنت لان المراد أهل قرية فحذف اختصاراً من غير اخلال بالمعنى . وقوله « فنفعها ايمانها » معناه هلا كانت اهل قرية آمنت في وقت ينفعها الايمان ،وجرى هذا مجرى قول فرعون « حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي » (٣) فاعلم الله أن الايمان لاينفع عند نزول العذاب ولا عند حضور الموت ، وقوم يونس لم يقع بهم العذاب كأنهم لما رأوا الآية الدالة على العذاب آمنوا فلما آمنوا كشف عنهم العذاب . والنفع هو

(١) انظر ١ / ٣١٩ ، ٤٣٥

(٢) مرّ هذا الشعر في ١ / ٤٤ ، ١٥١ و ٣ / ٣٢٧ و ٤ / ١٩١

(٣) سورة ١٠ يونس آية ٩٠

اللذة ، ومعناه ههنا انه وجبت لهم اللذة بفعل مايؤدي اليها كما أن الصلة بالمال نفع ،لانه يؤدي الى اللذة ،وكذلك أكل الطعام الشهي وتناول الكريه عند الحاجة نفع لانه يؤدي الى اللذة . والخزي هو الهوان الذي يفضح صاحبه ويضع من قدره. وقال الجبائي : المراد بأهل القرية ـ على قول كثير من أهل التأويل ـ ثمود الذين أهلكهم الله بكفرهم ، والتقدير هلا أهل قرية سوى قوم يونس آمنوا فنفعهم ايمانهم وزال عنهم العذاب كما آمن قوم يونس لما أحسوا بنزول العذاب ، فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعهم وبقاهم أحياء سالمين في الدنيا بعد توبتهم الى مدة من الزمان . وهذا الذي ذكره إنما كان يجوز لو كان (إلا قوم يونس) رفعاً وكان يكون « الا قوم يونس » صفة أو بدلا من الاول لان المعنى إلا قوم يونس محمول على معنى هلا كان قوم قرية أوقوم نبي آمنوا الا قوم يونس ، قال الزجاج : لم يقرأ أحد بالرفع ، ويجوز في الرفع أن يكون بدلا من الأول ، وإن لم يكن من جنس الأول كما قال الشاعر :

وبلدة ليس لها أنيس الا اليعافير والا العيس (١)

وقال ابو عبيدة (الا) ههنا بمعنى الواو، والمعنى وقوم يونس. وقال الحسن: معنى الاية انه لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قرية بأجمعها حتى لايشذ منهم أحد الا قوم يونس ، فهلا كانت القرى كلها هكذا . وقرأ طلحة بن مصرف يونس ويوسف بكسر النون والسين أراد أن يجعل الاسمين عربيين مشتقين من أسف وأنس ، وهو شاذ .

فان قيل: قوله « كشفنا عنهم العذاب » يدل على نزول العذاب بهم فكيف ينفع مع ذلك الايمان ، وهل ذلك الا ضد قوله « فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا » (٢) ؟ قلنا : ليس يجب ان يكون العذاب نزل بهم بل لايمتنع أن يكون ظهرت لهم دلائله وان لم يروا العذاب كما أن العليل المدنف قد يستدرك التوبة

(١) مرّ تخريجه في ١ / ١٥١ و ٣ / ٣٢٧ (٢) سورة ٤٠ المؤمن آية ٨٥

فيقبل الله توبته قبل ان يتحقق الموت ، فاذا تحققه لم يقبل بعد ذلك توبته . وقد قال الله تعالى « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » (١) ولا يدل ذلك على انهم كانوا دخلوا النار فأنقذوا منها فكذلك لايمتنع ان يكون كشف عنهم العذاب وان لم يكن حل بهم ولا عاينوه اذا كان قد قرب منهم واستحقوه في الحكم.

قوله تعالى :

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) آية

أخبر الله تعالى في هذه الآية انه لوشاء وأراد « لآمن من في الأرض كلهم جميعاً » فكلهم رفع لأنه تأكيد لـ(من) وهي مرتفعة بالايمان (وجميعاً) منصوب على الحـــال . والمشيئة والارادة والايثار والاختيار نظائر ، وانما يختلف عليهم الاسم بحسب مواقعها على ما بيناه في الأصول. وقيل : إن الشيء مشتق من المشيئة لانه مما يصح ان يذكر ويشاء ، كما اشتقوا المعنى من عنيت .

ومعنى الآية الاخبار عن قدرة الله وانه يقدر على ان يكوّن الخلق على الايمان ، كما قال « إن نشاء ننزل عليهم من السماء آيـة فظلت أعناقهم لهـا خاضعين »(٢) وانما أراد بذلك الاخبار عن قدرته بلا خلاف ، ولذلك قال بعد ذلك « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ومعناه انه لاينبغي ان يريد إكراههم لان الله عز وجـــل يقدر عليه ولايريده ، لانه ينافي التكليف، وأراد بذلك تسلية النبي ﷺ والتخفيف عنه مما يلحقه من التحسر والحرص على ايمانهم .

وفي الاية دلالة على بطلان قول المجبرة ، فانه تعالى لم يزل شائياً وانــه لا يوصف بالقدرة ايضاً ، لأنه تعالى اخبر انه لويشاء لقدر عليه لكنه لم يشأ فلذلك لم

(١) سورة ٣ آل عمران آيه ١٠٣ (٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٤

يوجد ولو كان شائياً لم يزل لما جاز ان يقول ولو شاء ربك كما لايجوز أن يقول لو شاء لقدر لما كان كونه قادراً حاصلا لم يزل .

قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٠) آية

قرأ ابو بكر إلا الأعشى والبرجمي (ونجعل) بالنون . الباقون بالياء . من قرأ بالياء فلانه تقدم ذكر الله فكني عنه . ومن قرأ بالنون ابتدأ بالاخبار عن الله .

ومعنى قوله « وما كان لنفس ان تؤمن إلا باذن الله » انه لايمكن احد ان يؤمن إلا باطلاق الله له في الايمان وتمكينه منه ودعاءه اليه بما خلق فيه من العقل الموجب لذلك . وقال الحسن وابو علي الجبائي : اذنه ههنا أمره كما قال « ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم » (١) وحقيقة اطلاقه في الفعل بالأمر، وقد يكون الاذن بالاطلاق في الفعل برفع التبعة . وقيل: معناه وما كان لنفس أن تؤمن إلا بعلم الله . وأصل الاذن الاطلاق في الفعل فأما الاقدار على الفعل فلا يسمى أذناً فيه ، لان النهي ينافي الاطلاق . قال الرماني : والنفس خاصة الشيء التي لو بطل ماسواها لم يبطل ذلك الشيء ، ونفسه وذاته واحد إلا انه قد يؤكد بالنفس ولا يؤكد بالذات . والنفس مأخوذة من النفاسة .

وقوله « ويجعل الرجس على الذين لايعقلون » قيل في معناه قولان : احدهما ـ قال الفراء : الرجس العذاب يجعله على الذين لايعقلون امر الله ولا نهيه ولا مايدعوهم اليه . والثاني ـ قال الحسن : الرجس الكفر أي يجعله بمعنى انه

(١) سورة ٤ النساء آية ١٦٩

يحكم انهم اهله ذمّاً لهم واسماً « على الذين لايعقلون » اي كانهم لايعقلون شيئاً ذمّاً لهم وعيباً وقال ابن عباس : الرجس الغضب والسخط . وقال ابو عبيدة الرجز العذاب ومثله الرجس ، ومنه قوله « لان كشفت عنا الرجز » (١) وقوله « فلما كشفنا عنهم الرجز» (٢) وقوله « والرجز فاهجر » (٣) معناه وذا الرجز أي الذي تؤدي عبادته الى العـذاب . وقال الحسن : الرجز بضم الراء العذاب ، وبكسرها الرجس . وقال الفراء : يجوز أن يكون الرجز بمعنى الرجس وقلبت الزاي سيناً كما قالوا اسد وأزد .

قوله تعالى :

﴿قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١) آية

امر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأمر الخلق بالنظر لأنه الطريق المؤدي الى معرفة الله تعالى . والنظر المراد في الاية الفكر والاعتبار . وقال الرماني : هو طلب الشيء من جهة الفكر كما يطلب ادراكه بالعين . ومعنى قوله تعالى « ماذا في السموات والأرض » أي مافيهما من العبر من مجيء الليل والنهار ومجرى البحور والافـلاك ونتاج الحيوان وخروج الزرع والثمار ، ووقوف السماوات والارض بغير عماد ؛ لان كل ذلك تدبـير يقتضي مدبراً لايشبه الاشياء ولاتشبهه . وقولـه « وماتغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ أن تكون (ما) نفياً بمعنى مايغني عنهم شيئاً بدفع الضرر ، اذا لم يفكروا فيها ولم يعتبروا بها كقولك :وما يغني عنك المـال شيئاً اذا لـم تنفقه في وجوهه .

(١ ، ٢) سورة ٧ الأعراف آية ١٣٣ ، ١٣٤ (٣) سورة ٧٤ المدثر آية ٥

والاخر ـ أن تكون (ما) للاستفهام كقولك أي شيء يغني عنهم من اجتلاب نفع أو دفع ضرر إذا لم يستدلوا بها . والنذر جمع نذير وهو صاحب النذارة وهي اعلام بموضع المخافة ليقع به السلامة .

قوله تعالى :

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢)﴾ آية

خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بلفظ الاستفهام والمراد به النفي لان تقديره ليس ينتظر هؤلاء الكفار الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم . وانما قابل بين الايام المنتظرة والايام الماضية في وقوع العذاب والحسرة حين لاتنفع الندامة . والانتظار هو الثبات لموقع مايكون من الحال ، تقول : انتظرني حتى ألحقك ولو قلت توقعني لم تكن أمرته بالثبات . والمثل في الجنس ماسد أحدهما مسد صاحبه فيما يرجع الى ذاته والمثل في غير الجنس ماكان على المعنى يقرب به من غيره كقربه من جنسه كتشبيه اعمال الكفار بالسراب . وقوله « قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين» أمر من الله لنبيه أن يقول لهم : انتظروا ماوعد الله به من العقاب فاني منتظر نزوله بكم مع جميع المنتظرين كما وعد الله به .

قوله تعالى :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ آية

قرأ يعقوب « ثم ننجي » بالتخفيف . وقرأ الكسائي ويعقوب وحفص والكسائي عن ابي بكر « ننجي المؤمنين » بالتخفيف . الباقون بالتشديد فيهما . قال ابو علي

النحوي : يقال نجا زيد نفسه ، فاذا عديته ، فان شئت قلت أنجيته وان شئت قلت نجيته . ومن شدد فلقوله « ونجينا الذين آمنوا » (١) ومن خفف فلقوله « فأنجاه الله من النار » (٢) وكلاهما حسن .

أخبر الله تعالى أنه إذا اراد إهلاك قوم استحقوا الهلاك نجى رسله من بينهم وخلصهم من العقاب،ويخلص مع الرسل المؤمنين الذين أقروا له بالوحدانية وللرسل بالتصديق . وقوله « كذلك حقاً علينا نجي المؤمنين » وجه التشبيه في ذلك أن نجاة من يقر من المؤمنين كنجاة من مضى في أنه حق على الله ثابت لهم ويحتمل أن يكون العامل في « كذلك » ننجي الاول وتقديره ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك الانجاء ويحتمل أن يعمل فيه الثاني ،وكذلك حقاً علينا .

ومعنى قوله « حقاً علينا » يحتمل أمرين : احدهما ـ أن يكون معناه واجباً علينا ننجي المؤمنين من عقاب الكفار ، ذكره الجبائي . والثاني ـ أن يكون على وجه التأكيد كقولك مررت بزيد حقاً إلا أن علينا يقتضي الوجه الاول . والنجاة مأخوذة من النجوة وهي الارتفاع عن الهلاك.والسلامة مأخوذة من إعطاء الشيء من غير نقيصة،اسلمته اليه اذا اعطيته سالماً من غير آفة .

قوله تعالى :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤) آية.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله ان يقول للخلق « يا أيها الناس ان كنتم

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ١٨　　(٢) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٤

في شك من ديني » فان ديني أن «لا أعبد الذين تعبدون من دون الله » أي إن كنتم في شك مما أذهب اليه من مخالفتكم فاني أظهره لكم وأبرء مما أنتم عليه وأعرفكم ما أمرت به وهو أن أكون مؤمناً بالله وحده وأن أقيم وجهي للدين حنيفاً .

إن قيل: لم قال « إن كنتم في شك من ديني » مع اعتقادهم بطلان دينه ؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة : احدها ـ أن يكون على وجه التقدير أي من كان شاكاً في أمري وهو مصمم على أمره فهذا حكمه . والثاني ـ انهم في حكم الشاك للاضطراب الذي يجدون نفوسهم عليه عند ورود الآيات. والثالث ـ ان فيهم الشاك فغلب ذكرهم ، وإنما جعل جواب (ان كنتم في شك) (لا أعبد) وهو لا يعبد غير الله شكوا أولم يشكوا ، لان المعنى لاتطمعوا أن تشككوني بشككم حتى أعبد غير الله كعبادتكم ، كأنه قيل : إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله بشككم ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم أي الذي أحياكم ثم يقبضكم وهو الذي يحق له العبادة دون أوثانكم ودون كل شيء سواه .

قوله تعالى :

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) آية

هذه الاية عطف على ماقبلها والتقدير وأمرت أن أكون من المؤمنين ، وقيل لي : أقم وجهك وقيل في معناه قولان : احدهما ـ استقم باقبالك على ما أمرت به من القيام باعباء النبوة وتحمل أمر الشريعة ودعاء الخلق الى الله بوجهك ، اذ من أقبل على الشيء بوجهه يجمع همته له فلم يضجع فيه . والثاني ـ أن يكون معناه أقم وجهك في الصلاة بالتوجه نحو الكعبة . والاقامة نصب الشيء المنافي لاضجاعه تقول : أقام العود إذا جعله على تلك الصفة فأما أقام بالمكان فمعناه استمر به . والوجه عبارة عن عضو مخصوص ويستعمل بمعنى الجهة كقولهم : هذا معلوم في وجه كذا ، ويستعمل بمعنى الصواب كقولك: هذا وجه الرأي .

وقيل في معنى الحنيف قولان : احـــدهما ــ الاستقامة .وقيل للمايل القدم أحنف تفاؤلا . والثاني ــ الميل ، وقيل الحنف في الدين لأنه ميل الى الحق .

وقولــه « ولاتكونن من المشركين » معناه نهي عن الاشراك مع الله تعالى غيره في العبادة تصريحاً بالتحذير عن ذلك والذم لفاعله .

قوله تعالى

وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ ٱلظَّالِمِينَ (١٠٦) آية

قيل في معنى قوله « ولا تدع من دون الله » قولان : احدهما ــ لاتدعــه إلهاً كما يدعو المشركون الوثن إلهاً . الثاني ــ لاتدعه دعاء الآلهة في العبادة بدعائه . والدعاء يكون على وجهين : احدهما ــ بلفظ النداء كقولك : يازيــد اذا دعوته باسمه . والثاني ــ أن تدعوه الى الفعل وتطلب منه فعله كقول القائل لمن فوقه: إفعل . وقوله « ولاتدع من دون الله » معناه لاتدع غير الله إلهاً . وانما قال « مالا ينفعك ولايضرك » مع أنه لو نفع وضر لم تحسن عبادته لامرين :

احدهما ــ أن يكون معناه مالا ينفك ولا يضرك نفع الاله وضره .

والثاني ــ انه إذا كان عبادة غير الله ممن يضر وينفع قبيحة فعبادة من لا يضر ولاينفع أقبح وأبعد من الشبهة . وقوله « فان فعلت فانك اذا من الظالمين » معناه انك إن خالفت ماأمرت به من عبادة الله كنت ظالماً لنفسك بادخال الضرر الذي هو العقاب عليها . وهذاالخطاب وإن كان متوجهاً الى النبي فالمراد به أمته ، ويجوز أن يكون الانسان يضر نفسه بما يفعل بأن يؤديها الى الضرر . ولايجوز أن ينعم على نفسه لان النعمة تقتضي شــــكر المنعم عليه وذلك لايمكن من الانسان ونفسه كما لا يمكن أن يثبت له في نفسه مال أو دين .

قوله تعالى :

وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٧) آية

قوله « وان يمسسك الله بضر » اي ان احل بك الضر ، لان المس الحقيقي لايجوز عليه ، لان حقيقتها تكون بين الجسمين، لكن لما ادخل الباء للتعدية جرى مجرى ان تقول يمسك من امسه . وأما اذا لم يتعد فيكون كقوله «مسني الضر»(١) والمماسة والمطابقة والمجامعة نظائر،وضدها المباينة . والكشف رفع الساتر المانع من الادراك . فكأن الضر ههنا كأنه ساتر يمنع من ادراك الانسان .

وقوله « وان يردك بخير » تقديره وان يرد بك الخير، وجاز على التقديم والتأخير كما يقول القائل : فلان يريدك بالخير ويريد بك الخير . والمعنى انه لاراد لما يريد الله بخلقه فان اراد بهم سوءاً لايقدر على دفعه احد . وان ارادهم بخير فلا يقدر احد على صرفه عنهم « يصيب به من يشاء من عباده » يعني بالخير.

وقوله « وهو الغفور الرحيم » معناه انه الغفار لكل من تاب من شركه وذنبه فلا ييأس من ذلك احد في حال تكليفه . وعندنا يجوز أن يغفر الله ذنب المؤمن من غير توبة . و (الرحيم) معناه انعامه على جميع خلقه .

قوله تعالى :

قُلْ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ

---

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٨٣

فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) آية

امر الله تعالى نبيه في هذه الاية أن يقول للخلق قد جاءكم الحق من الله وهو الذي من عمل به من العباد نجا ، وضده الباطل وهو الذي من عمل به هلك ، فمن عمل بالحق كان حكيما ، ومن عمل بالباطل كان سفيهاً . والمراد بالحق ههنا ماأتى به النبي ﷺ من القرآن والشرائع والاحكام وغير ذلك من الآيات والدلالات « فمن اهتدى » بها بأن نظر فيها وعرفها حقاً وصواباً « فانما يهتدي لنفسه » ومعناه فان منافع ذلك تعود عليه من الثواب دون غيره « ومن ضل » عنها وعدل عن تأملها والاستدلال بها والعمل بموجبها « فانما يضل » عن منافع نفسه وهو الجاني عليها . وقوله «وماأنا عليكم بوكيل » معناه وماأنا عليكم بوكيل في منعكم من اعتقاد الباطل بل انظروا لانفسكم نظر من يطالب بعمله ولايطالب غيره بحفظه كأنه قال ماأنا حافظكم من الهلاك اذا لم تنظروا انتم لانفسكم ولم تعملوا بما يخلصها كما يحفظ الوكيل مال غيره .

قوله تعالى :

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) آية

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يتبع ما يوحى اليه . والايحاء إلقاء المعنى في النفس على وجه خفي وهو مايجيء به الملك الى النبي ﷺ عن الله تعالى فيلقيه اليه ويخصه به من غير أن يرى ذلك غيره من الخلق .

وقوله « واصبر » امر من الله تعالى له بالصبر وهو تجرع مرارة الامتناع

من المشتهى إلى الوقت الذي يجوز فيه تناوله ، كصبر الصائم على الجوع والعطش، وكصبر النفس عن تناول المحرّمات . وانما يعين على الصبر العلم بعاقبته وكثرة الفكر فيه وفي الخير الذي ينال به وبذكر ماوعد الله على فعله من الثواب وعلى تركه من العقاب . وقوله « حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » امر منه تعالى للنبي صلى الله عليه وآله بالصبر على اذي المشركين وعلى قولهم انك ساحر كذاب ومجنون، حتى يحكم فيأمرك بالهجرة والجهاد . قال الحسن: وقدكان الله اعلمه انه سيفرض عليه جهاد الكفار . وقيل نسخ ذلك فيما بعد بالامر بالجهاد ، والتقدير إلى أن يحكم الله بهلاكهم وعذابهم في يوم بدر وغيره « وهو خير الحاكمين » معناه خير الحكام لانه قد يكون حاكم افضل من حاكم مع كونهما محقين كمن يحكم على الباطن فانه افضل ممن يحكم على الظاهر ، لان الأول لايقع إلا حقاً ، والاخر يجوز أن يكون حقاً في الظاهر وان كان فاسداً في الباطن .

١١ - سورة هود

مكية في قراءة قتادة ومجاهد وغيرهما. وهي مئة وثلاث وعشرون آية في الكوفي ،واثنتان في المدني ،وواحدة في البصري وعند اسماعيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) آية

روى الكسائي عن أبي بكر « من لدن حكيم » ههنا وفي النمل ، بسكون الدال واشمامها الضم وكسر النون . الباقون بضم الدال واسكان النون . ولم يعد أحد من القراء (الر) آية كما عد قوم (طه) و(الم) و (حم) آية ؛لان ثانيه لايشبه رؤس الاي بنفس الحرف ولابالردف. وقد بينا في أول سورة البقرة اختلاف المفسرين في هذه الحروف وأمثالها وأن الأقوى أن يقال إنها أسماء للسور .

وروي عن الحسن أنه قال : ماأدري تأويل (الر) غير ان المسلمين كانوا يقولون :هي اسماء للسور ومفاتحها . وخرجت هذه الحروف على وجه التهجي لايعرب شيء منها ، لأنها حروف ولو كانت اسماء لدخلها الاعراب . وقال الفراء « الر كتاب » رفع بحروف الهجاء . وقال غيره « كتاب » رفع بأنه خبر المبتدأ وتقديره هو كتاب او هذا كتاب والمراد بـ (كتاب) القرآن .

وقوله « احكمت آياته ثم فصلت » قيل في معناه ثلاثة أقوال :
احدها – قال الحسن : احكمت بالامر والنهي ، وفصلت بالثواب والعقاب .
الثاني – قال قتادة احكمت آياته من الباطل . ثم فصلت بالحرام والحلال.
الثالث – قال مجاهد « احـكمت آياته » على وجه الجملة « ثم فصلت » اي بينت بذكرها آية آية . والاحكام منع الفعل من الفساد، قال الشاعر:

أبني حنيفة احكموا سفهاءكم   إني اخاف عليكم أن أغضبا (١)

وقوله « من لدن حكيم خبير » معناه من عند حكيم عليم . وقوم يجعلون في (لدن) ضميراً فينصبون ما بعده فيقولون لدن غدوة . وقوم يجعلونه غايـة ولا يضمرون فيه شيئاً بعينه فيرفعون ما بعده لان ما بعـد الغاية مرفوع ، فيقولون لدن غدوة .

وروي عن عكرمة انـه قرأ « فصلت » بفتح الفاء والصاد وتخفيفها – وهي شاذة لم يقرأ بها احد .

والحكيم يحتمل معنيين :احدهما – عليم ،فعلى هذا يجوز وصفه بأنه حكيم فيما لم يزل . والثاني – بمعنى أنه محكم لافعاله . وعلى هذا لا يوصف به فيما لم يزل. والحكمة المعرفة بما يمنع الفعل من الفساد والنقص وبها يميز القبيح من الحسن والفاسد من الصحيح. وقال الجبائي في الاية دلالة على أن كلام الله محدث بأنه وصفه بأنه أحكمت آياته ، والاحكام من صفات الافعال ، ولا يجوز أن تكون احكامه غيره لانه لو كان احكامه غيره لكان قبل ان يحكمه غير محكم ولو كان كذلك لكان باطلا ، لان الكلام متى لم يكن محكماً وجب أن يكون باطلا فاسداً ، وهذا باطل.

قوله تعالى :

أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ ٱللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) آية

(١) مر تخريجه في ٢ / ١٨٨

يحتمل (أن) في قوله « أن لاتعبدوا » أمرين :

احدهما ــ أن يكون بمعنى المصدر كقولك كتبت اليه أن لاتخرج بالجزم وكان يجوز في العربية أن لاتعبدون على الوجه الأول ، وهوالاخبار بأنهم لايعبدون كما تقول : كتبت اليه أنلاتخرج أي بأنك لاتخرج . و « أنلاتعبدوا » في موضع نصب وتقديره فصلت آياته بأن لاتعبدوا او لئلا تعبدوا .

والثاني ــ يحتمل أن يكون المعنى أمرتم بأن لاتعبدوا ، فلما حذف الباء نصب بعدها ، ومعنى (إلا) في الآية ايجاب للمذكور بعدها وهو ما نفي عن كل ما سواه من العبادة وهي التي تفرغ عامل الاعراب لما بعدها من الكلام . وقوله « اني لكم منه نذير وبشير » اخبار أن النبي ﷺ مخوف من مخالفة الله وعصيانه بأليم عقابه مبشر بثواب الله على طاعاته واجتناب معاصيه ، والنذارة اعلام موضع المخافة ليتقى ، ونذير بمعنى منذر كأليم بمعنى مؤلم . والبشارة اعلام بما يظهر في بشرة الوجه بــه المسرة وبشير بمعنى مبشر . وقوله « وابشروا بالجنة » معناه واستبشروا .

قوله تعالى :

وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) آية .

هذه الاية عطف على ماقبلها وتقديره ثم فصلت من لــدن حكيم خبير بان لاتعبدوا إلا الله وبأن استغفروا ربكم بمعنى سلوا الله المغفرة ثم توبوا اليه ، وانما ذكرت التوبة بعد الاستغفار ، لان المعنى اطلبوا المغفرة بأن تجعلوها غرضكم ثم توصلوا الى مطلوبكم بالتوبة ، فالمغفرة أول في الطلب وآخر في السبب . وقيل ان

المعنى استغفروا ربكم من ذنوبكم ثم توبوا اليه في المستأنف متى وقعت منكم المعصية ، ذكره الجبائي .

وقوله « يمتعكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى » يعني انكم متى استغفرتموه وتبتم اليه متعكم متاعاً حسناً في الدنيا بالنعم السابغة والملاذ المختلفة الى الوقت الذي قدر لكم أجل الموت فيه .

وقوله « ويؤت كل ذي فضل فضله » يحتمل امرين : احدهما – أن يعطي كل ذي عمل على قدر عمله في الاخرة دون الدنيا ، لانها ليست دار الجزاء . والثاني – الترغيب في عمل الخير لانه على مقداره يجازي صاحبه .

وقوله « فان تولوا فاني اخاف عليكم » يحتمل امرين : احدهما – فان تتولوا ، إلا انه حذف للتضعيف ولذلك شدده ابن كثير في رواية البزي عنه . والاخر – ان يكون بمعنى فقل « إني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » يعني عذاب يوم القيامة ووصف ذلك اليوم بالكبير لعظم ما يكون فيه من الاهوال والمجازاة لكل انسان على قدر عمله .

قوله تعالى

إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) آية

قيل في معنى قوله « الى الله مرجعكم » قولان : احدهما – اليه مصيركم باعادته اياكم للجزاء . والثاني – الى الله مرجعكم باعادته الى مثل الابتداء من انه لايملك لكم ضرّاً ولانفعاً سواه تعالى ، والمرجع المصير الى مثل الحال الاولى .

وقوله « وهو على كل شيء قدير » اخبار منه تعالى انه يقدر على كل شيء إلا ماأخرجه الدليل مما يستحيل أن يكون قادراً عليه من مقدورات غيره وما يقضى وقته من الاجناس التي لايصلح عليها البقاء .

قوله تعالى

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) آية

روي عن ابن عباس انه قرأ « إلا انهم يثنّون صدورهم » على وزن(يحلون) وأراد المبالغة ومعنى (ألا) التنبيه ، وما بعده مبتدأ .

أخبر الله تعالى ان الكفار يثنون صدورهم . وقيل في معناه ثلاثة اقوال : احدها ـ قال الفراء والزجاج : يثنونها على عداوة النبي صلى الله عليه وآله . وقال الحسن : يثنونها على ماهم عليه من الكفر . وقال ابو علي الجبائي : يثني الكافر صدره على سبيل الانحناء ، في خطابه لكافر مثله ممن يختصه لئلا يعرف الله ما أضمره . وقال ابو عبد الله بن شداد : ولى ظهره إذا رأى النبي صلى الله عليه وآله وغطى وجهه بالثوب واصل الثني العطف تقول: ثنيته عن كذا اي غطيته ومنه الاثنان لعطف احدهما على الاخر في المعنى ، ومنه الثناء لعطف المناقب في المدح ، ومنه الاستثناء لانـه عطف عليه بالاخراج منه .

وقوله «ليستخفوا منه » فالاستخفاء طلب خفاء النفس تقول: استخفى استخفاء وتخفى تخفياً ، ونظيره استغشى وتغشى قالت الخنساء :

أرعى النجوم وما كلفت رعيتها وتارة اتغشى فضل اطماري (١)

والهاء في منه يحتمل أن تكون عائدة الى اسم الله ـ في قول الحسن ومجاهد والجبائي ـ جهلا منهم بأن الله لايخفى عليه خافية . وقال ابو عبد الله بن شداد : هي عائدة على النبي صلى الله عليه وآله .

وقوله « ألاحين يستغشون ثيابهم » معناه انهم كانوا يتغطون بثيابهم ثم يتفاوضون

(١) ديوانها ١٠٩ واللسان (رعي) واساس البلاغة ٣٥١

ما كانوا يدبرونه على النبي وعلى المؤمنين ويكتمونه عن الناس ، فبين الله تعالى انهم وقت ما يتغطون بثيابهم ويجعلونها غشاء فوقهم عالم بما يسرون ومايعلنون ، لأانه يتجدد له العـــلم في حال استغشائهم بالثوب بل هوعالم بذلك في الأزل . ومعنى « مايسرون وما يعلنون » اي مايخفونه في أنفسهم وما يعلنونه أي يظهرونه « انه عليم بذات الصدور » ومعناه عالم بأسرار ذات الصدور .

قوله تعالى :

وَمَامِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) آية .

أخبر الله تعالى أنـه ليس في الارض دابة إلا والله تعالى متكفل برزقها . والدابة الحي الذي من شأنه أن يدب يقال : دب يدب دبيباً وأدبه ادباباً ، غير انه صار بالعرف عبارة عن الخيل والبراذين دون غيرها من الحيوان .

وقوله « ويعلم مستقرها ومستودعها » فالمستقر الموضع الذي يقر فيه الشيء وهو قراره ومكانه الذي يأوي اليه . والمستودع المعنى المجعول في القرار كالولد في البطن والنطفة التي في الظهر وقيل : مستودعها مدفنها بعد موتها . وقيل: مستقرها في اصلاب الآباء ومستودعها في ارحام الامهات . وقيل: مستقرها ما تستقر عليه ، ومستودعها ما تصير اليه .

وقوله « كل في كتاب مبين » خبر من الله تعالى أن جميع ذلك مكتوب في كتاب ظاهر يعني اللوح المحفوظ ، وانما اثبت تعالى ذلك مع انه عالم انه لا يعزب عنه شيء لما فيه من اللطف للملائكة او يكون فيه لطف لمن يخبر بذلك .

قوله تعالى :

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ

عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) آية

اخبر الله تعالى أنه خلق السماوات والارض وأنشأهما في ستة ايام ، وانما خلقهما في هذا المقدار من الزمان مع قدرته ان يخلقهما في أقل من لمح البصر ليبين بذلك ان الامور جارية في التدبير على منهاج ، ولما علم في ذلك من مصالح الخلق من جهة اقتضاء ان ينشأها على ترتيب يدل على انها كانت عن تدبير عالم بها قبل فعلها مثل سائر الافعال المحكمة .

وقوله « وكان عرشه على الماء ليبلوكم » معناه انه خلق الخلق ودبر الامر ليظهر احسان المحسن ، لأنه الغرض الذي يجري بالفعل اليه . وفي وقوف العرش على الماء ، والماء على غير قرار اعظم الاعتبار لمن امعن النظر واستعمل الفكر . والمراد بقوله « في ستة ايام » ما مقدارة مقدار ستة أيام ، لانه لم يكن هناك ايام تعد ، لان اليوم عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها .

وقوله « ليبلوكم » معناه ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر مظاهرة في العدل لئلا يتوهم أنه يجازي العباد بحسب ما في المعلوم أنه يكون منهم قبل أن يفعلوه .

وقوله « أيكم أحسن عملا » فيه دلالة على أنه يكون فعل حسن أحسن من فعل حسن آخر لان لفظة أفعل حقيقتها ذلك . ولا يجوز ترك ذلك الا لدليل ، وليس ههنا مايوجب الانصراف عنه .

وقوله « ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الاسحر مبين » إعلام من الله تعالى لنبيه انه لو قال لهؤلاء الكفار ان الله يبعثكم بعد موتكم ويجازيكم على أعمالكم لقالوا: ليس هذا القول الا سحر ظاهر . ومن

قرأ (ساحر) اراد ليس هذا يعنون النبي ﷺ الا ساحر مبين . وقال الجبائي في الآية دلالة على انه كان قبل خلق السماوات والارض الملائكة قال : لان خلق العرش على الماء لاوجه لحسنه الا أن يكون فيه لطف لمكلف يمكنه الاستدلال به فلا بد اذاً من حيٍّ مكلف . والاقوى ان يقال: انه لايمتنع ان يتقدم خلق الله لذلك اذا كان في الاخبار بتقدمه مصلحة للمكلفين، وهو الذي اختاره الرماني. وكان علي بن الحسين الموسوي المعروف بالمرتضى (ره) ينصره .

وظاهر الاية يقتضي ان العرش الذي تعبد الله الملائكة بحمله كان مخلوقاً قبل السموات والارض ، وهو قول جميع المفسرين : كابن عباس ومجاهد وقتادة والبلخي والجبائي والرماني والفراء والزجاج وغيرهم . وقال ابن عباس : كان العرش على الماء ، والماء على الهواء، وقال الجبائي: ثم نقل الله العرش الى فوق السماوات

قوله تعالى :

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) آية.

اللام في قوله « ولئن أخرنا » لام القسم . ولايجوز ان تكون لام الابتداء ، لانها دخلت على (ان) التي للجزاء ، ولام الابتداء إنما هي للاسم او ماضارع الاسم في باب (ان) وجواب الجزاء مستغنى عنه بجواب القسم ، لانه اذا جاء في صدر الكلام غلب عليه كما انه اذا تأخر اوتوسط الغي . ومعنى قوله « أخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة » اخر الى حين أمة معدودة كما قال « وادكر بعد امة » (١) اي بعد حين . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والزجاج والفراء وغيرهم .

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٤٥

وقال الجبائي : معناه الى أمم بعد هؤلاء يكلفهم فيعصونه فتقتضي الحكمة إهلاكهم وإقامة القيامة . وقال الرماني : معناه الى جماعة معدودة بانه ليس فيها من يؤمن فاذا صاروا الى هذه الصفة أهلكوا بالعذاب ، كما اهلك قوم نوح في الدنيا . وأهلكوا بعذاب الآخرة لكونهم على هذه الصفة .

وقوله « ليقولن مايحبسه » فالحبس المنع بالحصر في خباء . ويقال: حبس الماء إذا منع من النفوذ . وحبس السلطان الرزق اذا معنه . وحبس عنهم العذاب إذامنع من اتيانهم الى الاجل المعلوم . والتقدير ما الذي يمنع من تعجيل هذا العذاب الذي نتوعد به ؟ فقال الله تعالى « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم » ومعناه ان هذا العذاب الذي يستبطئونه اذا نزل بهم في الوقت المعلوم لايقدر على صرفه أحد عنهم ولايتمكنون من اذهابه عنهم اذا اراد الله ان تأتيهم به . وقوله « وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون» معناه انه نزل بهم الذي كانوا يسخرون منه من نزول العذاب ويتحققونه

قوله تعالى :

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) آية

أقسم الله تعالى في هذه الاية انه لو احل تعالى بالانسان رحمة من عنده يعني مايفعله الله تعالى بهم في الدنيا من الارزاق ، فانه يعم بها خلقه كافرهم ومؤمنهم . ثم نزعها منه وسلبها، وسمى احلال اللذات بهم اذاقة تشبيهاً ومجازاً ، لان الذوق في الحقيقة تناول الشيء بالفم لادراك الطعم، والانسان حيوان على الصورة الانسانية لأن الصورة الانسانية بانفرادها قد تكون للتمثال ولايكون انساناً فاذا اجتمعت الحيوانية والصورة لشيء فهو انسان . قال الرماني: وكلما لاحياة فيه فليس بانسان

كالشعر والظفر وغيرهما . والنزع رفع الشيء عن غيره مما كان مشابكا له ، والنزع والقلع والكشط نظائر. واليأس القطع بأن الشيء لايكون وهو ضد الرجاء ويؤوس كثير اليأس من رحمة الله وهذه صفة ذم ، لانه لايكون كذلك الا للجهل بسعة رحمة الله التي تقتضي قوة الأمل . وفائدة الآيـــة الاخبار عن سوء خلق الانسان وقنوطه من الرحمة عند نزول الشدة وأنه إذا أنعم عليه بنعمة لم يشكره عليها وإذا سلبها منه يئس من رحمة الله وكفر نعمه ، وهومصروف الى الكفارالذين هذه صفتهم .

قوله تعالى :

وَلَـئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَـيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـآتُ عَنِّيٓ إِنَّهُ لَـفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) آية

أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه لو أحل بالانسان « نعماء بعد ضراءمسته» لأن الهاء كناية عن الانسان الذي مضى ذكره ، والنعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه والضراء مضرة تظهر الحال بها ؛ لأنها أخرجت مخرج الأحوال الظاهرة كحمراء وعوراء مع مافيها من المبالغة . ومعنى « مسته » نالته . وقوله « ليقولن ذهب السيئات عني » أي يقول عند نزول النعماء به بعد أن كان في ضدها من الضراء : دهبت الخصال التي تسوء صاحبها من جهة نفور طبعه أو عقـله ، وهو ـ ههنا ـ بمعنى المرض والفقر ، ونحو ذلك . وقوله « إنه لفرح فخور » إخبار منه تعالى أن الانسان فرح فخور . والفرح انفتاح القلب بما يلتذ به وضده الغم ، ومثـــله السرور والمرح . والفرح لذة في القلب أعظم من ملاذ الحواس . والفخور المتطاول بتعديد المناقب ، وفخور كثير الفخر ، وهي صفة ذم إذا اطلقت لما فيه من التكبر علي من لايجوز أن يتكبر عليه . وقيل: للعالم أن يفخرعلي الجاهل بالعلم لتعظيم

العلم وتحقير الجهل ، ولذلك تفخر النبي على الكفار .

قوله تعالى :

إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) آية

لما أخبر الله تعالى عن أحوال الخلق وأن أكثرهم إذا حل بهم نعمه تعالى بعد أن كانوا في مضرة شديدة وانهم إذاً يقولون ذهب السيئات عنهم وان كثيراً منهم فرح فخور ، استثنى من جملتهم المؤمنين بتوحيد الله الصابرين على طاعاته والكف عن معاصيه وأضافوا الى ذلك الأعمال الصالحات . والصبر حبس النفس عن المشتهى من المحارم . والصبر على مرارة الحق يؤدي الى الفوز بالجنة في الآخرة مع ما فيه من الجمال في الدنيا . واستثنى الذين صبروا من الانسان، لانه في معنى الجمع كما قال « والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات »(١) وقال الزجاج والأخفش : (إلا) بمعنى (لكن) لأنه ليس من جنس الأول. والأول قول الفراء . وقوله « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » إخبار من الله تعالى عن هؤلاء المؤمنين بأن لهم عند الله المغفرة والأجر العظيم .

قوله تعالى :

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) آية

(١) سورة ١٠٣ العصر ١ ـ ٢

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يحثه على أداء جميع ما بعثه به وأوحى اليه ، وينهاه عن كتمانه ، ويشجعه على الاداء ، ويقول له لايكون لعظم مايرد على قلبك ويضيق به صدرك من غيظهم يوهمون عليك انهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه من امر ربك ، وأنك تترك بعض الوحي ويضيق به صدرك مخافة أن يقولوا أو لئلا يقولوا « لولا انزل عليه كنز » أي هلا انزل عليه كنز فينفق منه « أوجاء معه ملك » يعينه على أمره بل « إنما أنت نذير » أي منذر مخوف من معاصي الله وعقابه « والله على كل شيء وكيل » أي حافظ يكتب عليهم أفعالهم وأقوالهم ، ومجازيهم عليها ، فـلا تغمك اقوالهم ولا أفعالهم ولايضيق بذلك صدرك فان وبال ذلك عائد عليهم . وضائق وضيق واحد الاان (ضائق) ههنا احسن لمشاكلته لقوله: تارك ، والضيق قصور الشيء عن مقدار غيره ان يكون فيه ، فاذا ضاق صدر الانسان قصر عن معان يتحملها الواسع الصدر . والصدر مسكن القلب ويشبه به رفيع المجالس ورئيس القوم لشرفه على غير ، والكنز المال المدفون لعاقبته ، وصار في الشرع اسم ذم في كل مال لايخرج منه حق الله من الزكاة وغيره ، وإن لم يكن مدفونا.

قوله تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) آية

هذه الآية صريحة بالتحدي وفيها قطع لاعتلال المشركين وبغيهم ، لأنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن قالوا : إن مافيه من الاخبار كذب اختلقه واخترعه أو قرأ الكتب السالفة ، فقال الله تعالى لهم : افتروا أنتم مثله ، وادحضوا حجته فذلك أيسر وأهون مما تكلفتموه ، فعجزوا عن ذلك وصاروا الى الحرب وبذل النفس والمال وقتل الآباء والابناء . ولو قدروا على إطفاء أمره بالمعارضة لفعلوه

مع هذا التقريع العظيم . وفيه دلالة على جهة إعجاز القرآن وأنها الفصاحة في هذا النظم المخصوص ، لانــه لو كان غيره لما قنع في المعارضة بالافتراء والاختلاق . وقوله « فأتوا » وإن كان لفظه لفظ الأمر فالمراد به التهديد والتحدي والمثل المذكور في الاية ما كان مثله في البلاغة والنظم أوما يقاربه ؛ لأن البلاغة ثلاث طبقات فأعلاها معجز ، وأدناها وأوسطها ممكن ، فالتحدي وقع بما هو في أعلى طبقة في البلاغة ، ولايجوز أن يكون المراد بالمثل إلا المثل في الجنسية؛ لأن مثله في العين يكون حكايته وذلك لايقع بــه تحدي . وانما يرجع الى ماهو متعارف بينهم في تحدي بعضهم بعضاً كمناقضات امرىء القيس وعلقمة، وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ،وجرير والفرزدق وغيرهم . ومعنى (أم) تقرير بصورة الاستفهام ، وتقديره بل « يقولون افتراه » . وقال بعضهم : إن الاستفهام محذوف ، كأنــه قال أيكذبونك أم يقولون افتراه . وهذا ليس بصحيح لأن (أم) ههنا منقطعة ليست معادلة ، وانما يجوز حـــذف الاستفهام في الضرورة . وقوله « ادعــوا من استطعتم من دون الله » أي ادعوهم الى معاونتكم على المعارضة . وهذا غاية مايمكن من التحدى والمحاجّة . وقوله « بعشر سور مثله » اي مثل سورة منه كل سورة منها . ومعنى « مفتريات » أي مختلقات يقال : افترى واختلق واخترق ، وخلق وخرق وخرص واخترص إذا كذب .

قوله تعالى :

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ ٱللهِ وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) آية

قيل في المعني بقوله « فان لم يستجيبوا لكم » قولان :

أحدهما ـ ان المراد به المؤمنون ، والتقدير فان لم يقبلوا إجابتك ياتحمد

والمؤمنين، ولايأتون بعشر سور معارضة لهذا القرآن ، فليعلم المؤمنون إنما أنزل بعلم الله بهذا الدليل ، وهو قول مجاهد والجبائي .

والآخر - أن يكون المراد به المشركين ، فالتقدير فان لم يستجب لكم من تدعونهم الى المعاونة ولايهيأ لكم المعارضة ، فقد قامت عليكم الحجة .

والاستجابة في الاية طلب الاجابة بالقصد الى فعلها ، يقال : استجاب وأجاب بمعنى واحد . والفرق بين الاجابة والطاعة أن الطاعة موافقة للارادة الجاذبة الى الفعل برغبة أو رهبة ، والاجابة موافقة الداعي الى الفعل من أجل أنه دعا به .

وقوله « انزل بعلم الله » يحتمل أمرين : احدهما - بعلم الله انه حق من عنده أي عالم به . والآخر - بعلم الله بمواقع تأليفه في علو طبقته . وقوله « وأن لا إله إلا هو » اي فاعلموا أن لا إله إلا هو. وقوله « فهل أنتم مسلمون » معناه هل أنتم بعد قيام الحجة عليكم بما ذكرناه من كلام الله وانه أنزله على نبيه تصديقاً له فيما أداه اليكم عن الله مسلمون له موقنون به ؟ لأن كل من سلم له الأمر فقد استسلم له . قال مجاهد : وهذا خطاب لأصحاب النبي ﷺ من المسلمين .

قوله تعالى :

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) آية

شرط الله تعالى بهذه الآية أن « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها » وحسن بهجتها ، ولايريد الآخرة ، فان الله تعالى يوفيه جزاء عمله فيها يعني في الدنيا ، ولايبخسه شيئاً منه. والزينة تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أوهيئة ، يقال : زانه يزينه وزينه تزييناً . والتوفية تأدية الحق على تمام . والبخس نقصان الحق ، يقال : بخسه بخساً إذا ظلمه بنقصان الحق . وفي المثل (يبخسها حمقاء) وهي

باخس . وقيل في العمل الذي يوفون حقهم من غير بخس قولان : أحدهما ـ قال الضحاك ومجاهد : هو أن يصل الكافر رحمه أو يعطي سائلا سأله أو يرحم مضطراً أو غير ذلك من أفعال الخير ، فان الله تعالى يعجل له جزاء عمله في الدنيا بتوسيع الرزق ، وإقرار العين فيما خوّل ، ودفع مكاره الدنيا . الثاني ـ الغزو مع النبي صلى الله عليه وآله للغنيمة دون ثواب الاخرة ، أمر الله نبيه أن يوفيهم قسمهم وهذا من صفة المنافقين ، ذكره الجبائي . وانما جاز أن يقول « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم » ولم يجز أن تقول : من جاءني اكرمه ، لأن الاجود في الشرط والجزاء أن يكونا مستقبلين أويكونا ماضيين بنية الاستقبال ، فان كان أحدهما ماضياً ، والآخر مستقبلا كان جائزاً على ضعف كما قال زهير :

ومن هاب أسباب المنايا تنلنه ولو رام أسباب السماء بسلم (١)

قلنا عنه جوابان : أحدهما ـ قال الفراء : إن المعنى من يرد الحياة الدنيا و(كان) زائدة . والثاني : إن المعنى أن يصح أنه كان ، كقوله « إن كان قميصه قد من دبر فكذبت » (٢) ولا يجوز مثل هذا في غير (كان) لأنها أم الأفعال .

قوله تعالى :

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَاصَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) آية

قوله « أولئك » كناية عن الذين ذكرهم في الاية الأولى ، وهم الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ، دون ثواب الاخرة . فأخبر الله أنه ليس لهم في الآخرة مستقر إلا النار ، وأن أعمالهم كلها محبطة لايستحقون عليها ثواباً ؛ لأنهم أوقعوها

---

(١) اللسان (سبب) وروايته (المنية يلقها) بدل (المنايا تنلنه)

(٢) سورة ١٢ يوسف آية ٢٧

على غير الوجه المأمور به ، وعلى حدّ لا تكون طاعة ، وأن جميع ما فعلوه في الدنيا باطل لا ثواب عليه . وقد بينا فساد القول بالاحباط (١) على ما يذهب اليه المعتزلة وأصحاب الوعيد ، سواء قالوا الاحباط بين الطاعة والمعصية أو بين المستحق عليها، فلا معنى للتطويل بذكره ههنا . وقوله « وباطل ما كانوا يعملون » بعد قوله « حبط ما صنعوا فيها » يحقق ما نقوله : إن نفس الاعمال تبطل بأن توقع على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب .

قوله تعالى :

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) آية.

الالف في قوله « أفمن كان » ألف استفهام ، والمراد بها التقرير ، والتقدير هل الذي كان على بينة - يعني برهان وحجة من الله - والمراد بالبينة ههنا القرآن والمعني بقوله « أفمن كان على بينة » النبي صلى الله عليه وآله وكل من اهتدى به واتبعه . وقوله « ويتلوه شاهد منه » قيل في معناه أقوال : أحدها - شاهد من الله هو محمد صلى الله عليه وآله ، وروي ذلك عن الحسين بن علي عليهما السلام وذهب اليه ابن زيد واختاره الجبائي. والثاني - قال ابن عباس ومجاهد وابراهيم والفراء والزجاج : جبرائيل يتلو القرآن على النبي صلى الله عليه وآله . والثالث - شاهد منه لسانه ، روي ذلك عن محمد بن علي أعني ابن الحنفية ، وهو قول الحسن وقتادة . والرابع - روي عن أبي جعفر محمد

(١) انظر ٢ / ٣٣٦ ، ٣٥٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٥

ابن علي بن الحسين عليه السلام أنه علي بن ابي طالب عليه السلام ورواه الرماني، وذكره الطبري باسناده عن جابر بن عبد الله عن علي عليه السلام. وذكر الفراء وجهاً خامساً ـ قال: ويتلوه يعني القرآن يتلوه شاهد هو الانجيل، ومن قبله كتاب موسى يعني التوراة. والمعنى ويتلوه في الحجة والبينة. وقوله « ومن قبله كتاب موسى » الهاء في « قبله » عائدة على القرآن المدلول عليه فيما تقدم من الكلام، والمعنى أنه يشهد بـه بالبشارة التي فيه. وقوله « إماماً ورحمة » العامل فيه أحـد امرين: احدهما ـ الظرف في قوله ومن قبله. والثاني ـ وشاهد من قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، وخبر (من) في قوله « أفمن كان على بينة من ربه » محـذوف والتقدير أفمن كان على بينة من ربه وعلى الأوصاف التي ذكرت كمن لا بينة معه، قال الشاعر:

وأقسم لوشيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد عنك مدفعا

وأنشد الفراء:

فما أدري إذا يممت وجهاً أريد الخير أيهما يليني
آلخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي لا يأتليني(١)

قال: أيهما، وإنما ذكر الخير وحده، لأن المعنى مفهوم، لأن المبتغي للخير متق للشر. وقال قوم خبره قوله « من كان يريد الحياة الدنيا » وقـد تقدمه، واستغني به. وقوله « أولئك يؤمنون به » كناية عمن كان على بينة من ربه أنهم يصدقون بالقرآن ويعترفون بأنه حق. وقوله « ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده » معناه إن كل من يجحده ولا يعترف به من الاحزاب الذين اجتمعوا على عداوته. وقال الفراء: يقال: كل كافر حزب النار « والنار موعده » يعني مستقره وموعده « فلاتك » يا محمد صلى الله عليه وآله في شك من ذلك، فالخطاب متوجه الى النبي صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلفين. وقوله « انـه الحق من ربك » اخبار منه تعالى بأن

(١) مرّ هذا الشعر في ٢ / ١١٣

هـذا الخبر الذي ذكره حق من عند الله . ولكن اكثر الناس لايعلمون صحته وصدقه لجهلهم بالله وجحدهم نبوة نبيه ﷺ . وروي أن الحسن قرأ (في مرية) بضم الميم ، وهي لغة أسد وتميم ، وأهل الحجاز يكسرون الميم وعليه القراء .

قوله تعالى :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُولَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٨) آية

قال الحسن معنى قوله « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً » لا أحـد أظلم منه إلا انه خرج مخرج الاستفهام مبالغة في انه أظلم لنفسه من كل ظالم ، وانما كان المفتري على الله كذباً أظلم من كل ظالم ، لأنه يجحد نعم الله ولا يشكرها . وقوله « أولئك يعرضون على ربهم » اخبار منه تعالى أن من هذه صفته يعرض على الله يوم القيامة . والعرض إظهار الشيء بحيث يرى للتوقيف على حاله يقال : عرضت الكتاب على فلان ، وعرض الجند على السلطان ، ومعنى العرض على الله أنهم يقفون في المقام الذي يرى العباد ، وقد جعله الله تعالى للمطالبة بالاعمال فهو بمنزلة العرض في الحقيقة ، لأنهم لايخفون عليه في حال من الأحوال بل هو تعالى يراهم حيث كانوا . وقوله « ويقول الأشهاد » يعني الملائكة والأنبياء والعلماء ، يشهدون بما كان منهم من الكذب عليه تعالى . وقيل : هو جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب ، وقيل : جمع شهيد كشريف وأشراف . وقوله « ألا لعنة الله على الظالمين » تنبيه من الله تعالى لخلقه بأن لعنته على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بادخال الضرر عليها وعلى غيرهم بادخال الآلام عليهم ، ولعنة الله إبعاده من رحمته .

قوله تعالى

أَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) آية

وصف الله تعالى الظالمين الذين جعل لعنة الله عليهم بأنهم يصدون عن سبيل الله بمعنى أنهم يغرّون الخلق ويصرفونهم عن المصير اليه واتباعه ، بغير الحق ، ويجوز أن يكون صدّه عن الفساد بدعائه الى تركه ، والصد عن الحق سبب الامتناع منه إذا صادف منه مايهواه ، فيفعله من أجل ذلك الداعي ، وانما جاز تمكين الصادّ من الفساد لأنه مكلف للامتناع . وليس في منعه لطف بأن ينصرف عن الفساد الى الصلاح ، فهو كشهوة القبيح الذي به يصح التكليف . قال ابو علي : ولو لم يكن إغواء الشيطان إضلالا لعمل من قبل نفسه ذلك أوشرّاً منه . وقوله « يبغونها عوجاً » معناه إنهم يطلبون لسبيل الله عدولا عنه . والعوج العدول عن طريق الصواب ، وهو في الدين عوج بالكسر ، وفي العود عوج بالفتح ، فرّقوا بين مايرى وبين مالايرى فجعلوا السهل للسهل والصعب للصعب بالفتح والكسر. والبغية طلبة أمر من الأمور تقول : بغاه يبغيه بغية مثل طلبه يطلبه طلبة . وقوله « وهم بالاخرة هم كافرون » إخبار منه تعالى أن هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله كافرون بالآخرة وبالبعث والنشور والثواب والعقاب أي جاحدون غير مقرين . وقوله « وهم بالآخرة هم كافرون » كرر (هم) مرتين كما قال « أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون » (١) كرر (أنكم) مرتين ، ووجه ذلك أنه لما طال الكلام وفارق فعله كرره مرة أخرى .

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنين آية ٣٥

قوله تعالى :

أُولَـٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) آية

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفارالذين وصفهم بأن عليهم لعنة الله وأنهم الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً بأنهم غير « معجزين في الأرض » أي لم يكونوا فائتين فيها هرباً من الله تعالى إذا اراد إهلاكهم كما يهرب الهارب من عدو ، وقد جد في طلبه . والاعجاز الامتناع من المراد بما لايمكن معه إيقاعه ،وانهم لم يكن لهم ولي يستطيع الدفاع عنهم من دون الله . والولي الخصيص بأن يلي بالمعاونة لدفع الاذية ، ومنه قولهم : تولاك الله بحفظه ، فلا ولي لهؤلاء يعاونهم ويدفع العقوبة عنهم ، لأن الله تعالى قد أيأسهم من ذلك . وقوله « يضاعف لهم العذاب » قيل في معناه قولان : احدهما ـ بحسب تضاعف الاجرام . والآخر ـ كلما مر ضعف جاء ضعف ، وكله على قدر الاستحقاق . وقوله « ماكانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » معناه انه كان يثقل عليهم سماع الحق ورؤيته ، كما يقال: فلان لايستطيع النظر الى فلان ، وحقيقة الاستطاعة القوة التي تنطاع بها الجارحة للفعل ، ولذلك لايقال في الله انه يستطيع . وليس المراد بنفي الاستطاعة في الاية نفي القدرة بل ماذكرناه ، لأنه لو لم يكن فيهم قدرة لما حسن تكليفهم . وقد ذكر الفراء فيه وجهاً مليحاً ، فقال : المعنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع ولايعقلون . وحذف الباء كما قال « اليم بما كانوا يكذبون »(١) اي بتكذيبهم وسقوط الباء جائز ، كما قال «احسن ما كانوا يعملون » (٢) ويقول

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٠ (٢) سورة ٩ التوبة آية ١٢٢

القائل : لأجزينك ماعملت ، وبما عملت . واختار ذلك البلخي . والسمع إدراك الصوت بما به يكون مسموعاً . والابصار إدراك الشيء بما به يكون مبصراً .

قوله تعالى :

أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) آية

ثم أخبر عنهم بخبر آخر،وهو أنهم « الذين خسروا أنفسهم » من حيثأنهم فعلوا مايستحقون به العذاب وهلكوا بذلك في خسران أنفسهم ، وخسران النفس اعظم الخسران ، لأنه ليس عنها عوض، وعن هلاك رأس المال عوض ، فسلامةالنفس أجل فائدة ، وما كان بعده من نفع فهو ربح . وقوله « وضل عنهم ماكانوا يفترون » قيل في معناه قولان : أحدهما ـ ذهب عنهم الانتفاع بالافتراء كما كانوا في الدنيا والثاني ـ ذهب عنهم الأوثان التي كانوا يأملون بها الانتفاع ـ في قول الحسن ـ و (اولئك) اشارة الى البعيد ، (وهؤلاء) إشارة الى القريب وأولاء مبني على الكسر ، لأنه اسم للجمع بمنزلة الواحد والكاف في (أولئك) حرف يدل على أن الكلام الذي معه مخاطباً به . ووجه اتصال (ما) في الآية أن (أولئك) إشارة الى من تقدم ذكره و (الذين) صفة لهم وهو موصول و (خسروا) صلته و (أنفسهم) معمول الصلة و(ضل) معطوف على الصلة و(كانوا) صلة فاعل معطوف الصلة و (يفترون) خبر صلة فاعل معطوف الصلة ، وهو تمام (الاسم) .

قوله تعالى :

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) آية

معنى (لاجرم) قال الزجاج : معنى (لا) نفي لما ظنوه أنه ينفعهم كأن المعنى لاينفعهم ذلك . ثم ابتدأ « جرم انهم » أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران. وقال غيره : معناه لابد انهم ، ولامحـــالة أنهم . وقيل : معناه حقاً أنهم . واصل (الجرم) القطع فكأنه قال لاقطع من انهم في الاخرة هم الاخسرون و (جرم) في قوله (لاجرم) فعل ، وتقديره لاقطع قاطع عن ذا ، إلا أنهم كثر في كلامهم حتى صار كالمثل وهو من قول الشاعر :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة   جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا(١)

اي قطعتهم الى الغضب، فرواية الفراء نصب فزارة، والمعنى كسبهم أن يغضبوا. وخسران النفس يتعاظم ، لأن خسران النفس بعذاب دائم أعظم من خسرانها بعذاب منقطع ، و (هم) في قوله « هم الأخسرون » يحتمل أن يكون فصلا والأخسرون خبر (أن) و (هم) إذا كانت فصلا لم تقع في النكرة . وقولهم : ما كانوا في الدار هم القائمون ، فـلا يكون إلا اسماً ، فان جعلتهما فصلا قلت : كانوا في الدار هم القائمون .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) آية

لما ذكر الله تعالى الكفار ، ووصف ما أعدّ لهم من العذاب وخسران النفس أخبر ـ هنا ـ أن الذين يؤمنون بالله ويعتقدون وحدانيته ويصدقون رسله، وعملوا الأعمال الصالحة التي أمرهم الله بها ورغبهم فيها « وأخبتوا الى ربهم » أي خشعوا اليه. والاخبات الخشوع المستمر على استواء فيه ، وأصله الاستواء من الخبت ، وهـو

(١) مرّ في ٣/٤٢٣ و ٥/٤١٣

الأرض المستوية الواسعة . وقيل : إن الاخبات الانابة ـ ذكره ابن عباس ـ وقال مجاهد : هو الاطمئنان الى ذكر الله . وقال قتادة : هو الخشوع اليه والخضوع له. وقال الحسن : هو الخشوع للمخافة الثابتة في القلب . وقال الجبائي : الاخبات سكون الجوارح على وجه الخضوع لله تعالى . وليس كل عمل صالح يستحق عليه حمد أو مدح ، لأنه مثل الحسن في أنه ينقسم قسمين : أحدهما ـ يستحق عليه الحمد . والآخر ـ لايستحق عليه كالمباح ، فكذلك الصالحات . والمراد بالصالحات ـ ههنا ـ الطاعة ، لأنه وعد عليها الجزاء في قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » (١) . وقوله « وأخبتوا الى ربهم » قال قوم : معناه اخبتوا لربهم ، فوضع (الى) مكان اللام ؛ لأن حروف الاضافة توضع بعضها مكان بعض ، كما قال « أوحى لها » (٢) بمعنى أوحى اليها . والآخر ـ أن معناه عمدوا باخباتهم الى الله . وقوله « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » إشارة الى المؤمنين الذين وصفهم بأنهم يعملون الصالحات ويخبتون الى ربهم ، فاخبر عنهم أنهم أصحاب الجنة اللازمون لها وأنهم فيها مخلدون دائمون .

قوله تعالى :

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (٢٤) آية

المثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بحال الأول ، والأمثال لاتغير عن صورتها كقولك للرجل (اطرى انك ناعلة) وكذلك يقال للكافر : هو أعمى أصم أي هو بمنزلة الذين قيل لهم هذا القول ، ويجري هذا في كل كافر يأتي من بعد .

(١) سورة ١١ هود آية ١١٥ (٢) سورة ٩٩ الزلزال آية ٥

و (الواو) في قوله « كالاعمى والأصم » قيل في دخولها قولان :

أحدهما ـ العموم في التشبيه أي حال الكافر كحال الأعمى و كحال الأصم و كحال من جمع العمى والصمم .

الثاني ـ أن المعنى واحد ، وإنما دخلت الواو لاتصال الصفة الأولى بعلامة.

وإنما قال : هل يستويان ، لأنه أراد الفريقين : الموصوف أحدهما بالصمم والعمى ، والاخر بالبصر والسمع . وفائدة الآية تشبيه المؤمن والكافر في تباعد ما بينهمافشبههما، بالاعمى والبصير، والأصم والسميع ، فالكافر كالاعمى والاصم في أنه لايبصر طريق الرشد ، ولايسمع الحق ، وأنه مع ذلك على صفة النقص . والصمم عبارة عن فساد آلة السمع ، ولو كان معنى يضاد السمع لتعاقبا على الحي ،والأمر بخلافه ، لأنه قد ينتفي حال الصمم ولايكون سامعاً ، وكذلك العمى عبارة عن فساد آلة الرؤية ، وليس بمعنى يضاد الابصار ، لأن الصحيح أن الادراك أيضاً ليس بمعنى ، ولو كان معنى لما وجب أن يكون العمى ضده . لأنه لو كان ضده لعاقبه على حال الحي وكان يجوز أن يحضر المرئي من الاجسام الكثيفة من غير ساتر فلا يرى مع حصول شروط الادراك لأجل وجود الضد ، وكذلك الصمم ، ولاضد له لأنه ليس هناك حال يعاقبه على حال مخصوصة كمعاقبة العجز القدرة على حال الحياة. وقوله « هل يستويان مثلا » وإن كان بصورة الاستفهام فهو لضرب من التوبيخ والتقريع. وقوله «أفلا تتفكرون»معناه أفلا تتفكرون في ذلك فتعلموا صحة ماذكرنا.

قوله تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) آيتان

قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة (إني) بكسر الهمزة . الباقون بفتحها

قال أبو علي النحوي : من فتحها حملها على (أرسلنا) أي أرسلناه بأني لكم ولم يقل إنه ، لأنـه انتقل عن الغيبة الى الخطاب ، ومثله كثير ، قال الله تعالى « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة » ثم قال بعده « فخذها بقوة » (١) فكذلك الآية . ومن كسر يضمر القول قبلها كأنه قال : أرسلنا نوحاً الى قومه فقال: إني لكم نذير ، ومثله كثير ، قال الله تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم » (٢) اي يقولون : سلام عليكم ، وقوله تعالى « والـذين اتخـذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى» (٣) أي قالوا : مانعبدهم ، ويكون الـكلام على ظاهره لم يرجع من الغيبة الى الخطاب . وليس لأحد أن يرجح القراءة بالفتح من حيث أن ما بعده من قوله « أن لاتعبدوا إلا الله » محمول على الارسال ، فاذا فتحت كان أشكل بما بعدها لحملهما جميعاً على الارسال . وذلك أن من كسر حمل قوله « اني لكم » ومابعده على الاعتراض بين المفعول ومايتصل به مما بعده ، كما أن قوله « إن الهدى هدى الله » اعتراض بينهما في قوله « ولاتؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله ان يؤتى أحد مثل ماأوتيتم » (٤) فكذلك قوله « إني لكم نذير مبين » لان التقدير ولقد أرسلنا نوحاً لانـذار أن لاتعبدوا الا الله إني أنذركم لتوحدوا الله وأن تتركوا عبادة غيره .

أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه أرسل نوحاً وأمره أن يقول لهم: إني مؤد عن الله ومخوفكم من عقابه وترك طاعاته ، لأن اللام في قوله « لقد» لام القسم،وهي تدخل على الفعل والحرف الذي يختص بالفعل مما يصح معناه معه ، ولام الابتداء للاسم خاصة . ومعنى (قد) وقوع الخبر على وجه التقريب من الحال تقول : قـد ركب الامير ـ لقوم يتوقعون ركوبه ـ .

(١) سورة ٧ الاعراف ١٤٤
(٢) سورة ١٣ الرعد آية ٢٥ ـ ٢٦
(٣) سورة ٣٩ الزمر آية ٣
(٤) سورة ٣ آل عمران آية ٧٣

وقوله « أن لا تعبدوا الا الله » يحتمل أن يكون موضع (تعبدوا) من الاعراب نصباً ، والمعنى أن لاتعبدوا الا الله ، ويجوز أن يكون موضعه جزماً على تقدير أي لاتعبدوا . ويحتمل أن يكون متعلقاً بقوله « أرسلنا » وتقديره أرسلنا بأن لاتعبدوا الا الله ، على مابينا من الاعتراض وحملها جميعاً على الارسال.

وقوله « اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » أي مؤلم عذابه وانما قال عذاب يوم اليم بالجر ومعناه مؤلم ، لأن الألم يقع في اليوم ، فكأنه سبب الألم . ولو نصبته على أن يكون صفة للعذاب كان جائزاً ، ولم يقرأ به أحد . وانما بدىء بالدعاء الى العبادة دون سائر الطاعات ، لأنها أهم مايدعى اليه من خالف الحق فيه ولأنه يجب أن يفعل كل واحدة من الطاعات على وجه الاخلاص والعبادة فيها لله . وانما قال « اني أخاف عليكم عذاب يوم اليم » مع أن عذاب الكافرمعلوم لأنه يخاف مالم يعلم مايؤل اليه أمرهم من ايمان أو كفر،وهذا لطف فيالاستدعاء وأقرب الى الاجابة في غالب أمر الناس .

قوله تعالى :

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)آية

قرأ أبو عمرو « بادىء الرأي » بالهمز في بادي . الباقون بلا همز .

قال ابو علي: حدثنا محمد بن السدّي أن اللحياني قال: يقال: أنت بادي الرأي تريد ظلمنا لايهمز (بادي) وبادىء الرأي مهموز . فمن لم يهمز أراد أنت أول الرأي ومبتدؤه وهما في القرآن . وقال أبو علي : من قال (بادي الرأي) بلاهمز جعله من بدو الشيء وهو ظهوره ، وما اتبعك إلا أرا ذل فيما ظهر لهم من الرأي

اي لم يفعلوه بنظر فيه ولا بتبين له . ومن همز أراد اتبعوك في أول الامر من غير فكر فيه ولاروية ، والقراءتان متقاربتان ، لأن الهمز في اللام منها ابتداءالشيء وأوله وابتداء الشيء يكون ظهوراً ، وان كان الشيء الظاهر قد يكون مبتدأ وغير مبتدأ ، فلذلك يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر يقولون : انا بادي بدا وبادىء بدء ، فاني أحمد الله .

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن جماعة الرؤساء من قوم نوح الذين كفروا وجحدوا نبوته أنهم قالوا له « ما نراك الا بشراً مثلنا » والبشر مأخوذ من ظهور البشرة، لأن الغالب على الحيوان غير الانسان أن يلبس البشرة منه بالصوف أوالشعر أو الريش أو الصدف . والانسان مأخوذ من النسيان ، لأنهم يصغرونه إنيسيان ويجوز أن يكون من الأنسان الا أنهم زادوا الياء في التصغير . والمثل ماسد مسدغيره في الجنس بمعنى أنه لو ظهر للمشاهد لسد مسده كما يسد الاسود مسد الاسود في الجنس من غير فضل . وقوله « ما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا » حكاية أيضاً عما قاله قوم نوح من أنه ما نرى من اتبعك الا أنه رذل خسيس حقير من جماعتنا تقول : رذل وجمعه أرذل ، وجمع الجمع أراذل مثل كلب وأكلب وأكالب . والعامل في (الذين) قوله « اتبعك » كأنه قال ما اتبعك الا الذين هم أراذلنا و نراك ملغى ، ذكره الفراء . قال ابو علي النحوي : هو نصب على الحال ، والعامل فيه (اتبعك) وأخر الظرف وأوقع بعد (الا) ولو كان غيره لم يجز ، لأن الظرف اتسع فيه في مواضع . ومعنى « بادىء الرأي » أول الرأي ما نراهم . والرأي والرؤية من قوله « يرونهم مثليهم رأي العين » (١) وهو نصب على المصدر كقولك ضربته أول الضرب . وقال الزجاج : نصبه بـ (اتبعوك أول الرأي) من غير فكر كأنه قيل اتبعوك رأياً غير سديد ، ومن قرأ بادي الرأي بـلا همز اراد ظاهر الرأي قال الشاعر :

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٣

وقد علتني ذرأة بادي بدي　　　وريثة تنهض في تشددي (١)

وقال آخر :

اضحى لخالي شبهي بادي بدي　　　وصار للفحل لساني ويدي(٢)

وقوله « وما نرى لكم علينا من فضل » تمام الحكاية عن كفار قوم نوح وانهم قالوا لنوح : إنالانرى لك ولامثالك علينا زيادة خير ، لأن الفضل هو زيادة الخير ، وانما قالوا ذلك ، لأنهم جهلوا في طريقة الاستدلال . وقوله « بل نظنكم كاذبين » ايضاً تمام الحكاية عن كفار قومه أنهم قالوا له ولمن آمن معه هذا القول.

قوله تعالى :

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) آية

قرأ حمزة والكسائي وحفص « فعميت » بضم العين وتشديد الميم . الباقون بتخفيف الميم وفتح العين . وقال ابو علي : من قرأ « فعميت » بالتخفيف فلقوله « فعميت عليهم الانباء يومئذ » (٣) وهذه مثلها ،ويجوز في قوله (فعميت) أمران: احدهما ــ ان يكون عموا هم ،الاترى ان الرحمة لاتعمى وانما يعمى عنها،فيكون هذا من المقلوب ، كقولهم : أدخلت القلنسوة في رأسي ، وأدخلت الخاتم في أصبعي ونحو ذلك مما يقلب إذا زال الاشكال . والاخر ــ ان يكون معنى عميت خفيت كقول الشاعر :

ومهمه أطرافه في مهمه　　　أعمى الهدى في الحائرين العمه (٤)

(١ ، ٢) اللسان (بدا)　　　(٣) سورة ٢٨ القصص آية ٦٦

(٤) قائله رؤبة ديوانه : ١٦٦ وتفسير الطبري ١/ ٣١٠ وقد مرّ في ٨١/١

أي خفي الهدى ألا ترى أن الهدى ليس بذي جارحة تلحقها هذه الآفة ، وقد قيل للسحاب : العمى لخفاء مايخفيه، كما قيل له : الغمام ومن ذلك قول زهير:

ولكنني عن علم مافي غد عمي (١)

ومن شدد اعتبر قراءة الأعمش فانه قرأها فعمّاها عليهم . وروى ذلك الفراء عن أبي ، والمعنيان متقاربان. قال الفراء : يقال عمى علي الخبر وعمي بمعنى واحد.

حكى الله تعالى عن نوح ماقاله لقومه جواباً عما قالوه لـه مما حكيناه فانه « قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة » أي برهان وحجة من المعجزة التي تشهد بصحة النبوة . وخصهم بهذا إذ هو طريق العلم بالحق لاماالتمسوا من اختلاف الخلق . وقوله «آتاني رحمة من عنده » يرّد عليهم ماادعوه من أنه ليس له عليهم فضل ، فبين ذلك بالهداية الى الحق من جهة البرهان المؤدي الى العـــلم . وقوله « فعميت » يحتمل امرين : احدهما ـ خفيت عليكم ، لأنكم لم تسلكوا الطريق المؤدي اليها . والاخر ـ ان يكون المعنى عميتم عنها ، واضاف العمى الى البينة لما عموا عنها لضرب من المجـاز ؛ لأن المعنى ظاهر في ذلك ، كما يقال : ادخلت الخاتم في يدي والقلنسوة في راسي،والمراد ادخلت يدي في الخاتم ورأسي في القلنسوة. ومن قرأ بتشديد الميم وضم العين أضاف التعمية الى غيرهم ممن صدهم عن النظر فيها واغواهم في ذلك من الشياطين والمضلين عن الحق .

وقوله « أنلزمكموها وانتم لها كارهون » أنضطركم الى موجب البينة مع العلم مع كراهتكم لذلك فيبطل تكليفكم الاستدلال بالبينة المؤدية الى المعرفة أي أضطركم الى حال الضرورة . ووجه آخر ـ وهو أن يكون المراد إن الـذي علي أن أدل بالبينة ، وليس علي أن أضطركم الى المعرفة .

وفي قوله « انلزمكموها » ثـلاث مضمرات ضمير المتكلم وضمير المخاطب وضمير الغائب ، وهو أحسن ترتيب : بدأ بالمتكلم ، لانه اخص بالفعل ثم بالمخاطب

(١) اللسان (عمي)

ثم بالغائب، ولو اتى بالمنفصل لجاز لتباعده عن العامل بما فرق بينه وبينه، فاشبه ماضربت إلا إياك، وماضربني إلا انت. وأجاز الفراء «أنلزمكموها» بتسكين الميم جعله بمنزلة عضد وعضد وكبد وكبد. ولايجوز ذلك عند البصريين، لأن الاعراب لايلزم فيه النقل كما يلزم في بناء الكلمة، وإنما يجيزون مثل ذلك في ضرورة الشعر كقول امرىء القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب　　إثماً من الله ولا واغل (١)

وقال آخر:

وناع يخبرنا بمهلك سيد　　تقطع من وجد عليه الانامل

وقال آخر:

إذا اعوججن قلت صاحب قوم

قوله تعالى:

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩) آية

في هذه الآية حكاية ما قال نوح لقومه أي لاأطلب منكم مالا أجراً على الرسالة ودعائكم الى الله فتمتنعون من إجابتي بل أجري وثوابي في ذلك على الله.

وقوله «وما أنا بطارد الذين آمنوا» معناه إني لست أطرد المؤمنين من عندي ولا أبعدهم على وجه الاهانة. وقيل: انهم كانوا سألوه طردهم ليؤمنوا أنفة أن يكونوا معهم على سواء، ذكره ابن جريج والزجاج – وقوله «إنهم ملاقوا ربهم» اخبار بأن هؤلاء المؤمنين ملاقوا جزاء ربهم بعقاب من طردهم. في قول الزجاج.

(١) ديوانه: ١٣٠ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٦

وقوله « ولكني اراكم قوماً تجهلون» معناه أراكم تجهلون انهم خيرمنكم لايمانهم بربهم وكفركم به .

وقال قوم : إنهم قالوا له إن هؤلاء اتبعوك طمعاً في المال على الظاهر دون الباطن ، فقال لهم نوح انهم ملاقوا جزاء اعمالهم فيجازيهم على مايعلم من بواطنهم وليس لي الا الظاهر احملهم على ظاهر الايمان فانتم تجهلون ذلك .

قوله تعالى :

وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (٣٠) آية.

ثم قال لهم نوح عليه السلام « ياقوم » وأراد به الجماعة الذين يقومون بالأمر و (قوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه . « من ينصرني من الله » أي من يمنعني من الله ، يقال : نصره من كذا يعني منعه منه ، ونصره عليه بمعنى أعانه عليه حتى يغلب ، ونصره الى كذا بمعنى نصره معه ، ومنه قوله « من أنصاري الى الله » (١) ويجوز أن يقدر الله الكافر على الكفر ، ولايجوز أن ينصره عليه لأن النصرة على الشيء زيادة في القوة ليقع ذلك الشيء ، وهذا لايجوز على الله . والقدرة تصلح للضدين على منزلة سواء ولا دليل فيها على ارادة احدهما.

وقوله « أفلا تذكرون » معناه أفلا تتفكرون ، فتعلمون أن الامر على ما قلته . وفرق الطبري بين التذكر والتفكر بأن قال : التذكر طلب معنى قد كان حاضراً للنفس و(التفكر) طلب معرفة الشيء بالقلب وان لم يكن حاضراً للنفس.

و (النصرة) المذكورة في الآية ليست من الشفاعة في شيء ، لأن النصرة هي المنع على وجه المغالبة والقهر . والشفاعة هي المسألة على وجه الخضوع . وليس لأحد ان يستدل بذلك على نفي الشفاعة للمذنبين .

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٥٢

قوله تعالى[١] :

وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْراً ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ ٱلظَّالِمِينَ (٣١) آية

في هذه الآية تمام الحكاية عما قال نوح لقومه وحاجهم به ، وهو أن قال لهم مضافاً الى مامضى حكايته « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك » والمعنى إني لا أرفع نفسي فوق قدرها ، فأدعي أن عندي خزائن الله من الأموال فأعطيكم منها وأستطيل عليكم بها ، أو أقول إني أعلم الغيب ، أو أقول لكم إني ملك روحاني غير مخلوق من ذكر وأنثى بخلاف ما خلقني الله ، بل أنا بشر مثلكم وانما خصني الله بالرسالة وشرفني بها . وقيل معنى خزائن الله مقدوراته لأنه يوجد منها مايشاء . وفي وصفها بذلك بلاغة . وقيل « لا أقول لكم عندي خزائن الله » فادعوكم الى أن أعطيكم منها ، ذكره ابن جريج . و (الغيب) ذهاب الشيء عن الادراك ، ومنه الشاهد خلاف الغائب. واذا قيل :علم الغيب معناه علم من غير تعلم ، وهو جميع الغيب ، وعلى هذا لايعلم الغيب إلا الله تعالى . وقوله « ولا أقول للذين تزدري أعينكم » أي لست أقول للذين احتقرتهم اعينكم . و (الازدراء) الافتعال من الزراية ، يقال : زريت عليه إذا عبته ، وازريت عليه اذا قصرت به ، والازدراء الاحتقار . وقوله « لن يؤتيهم الله خيراً » معناه لا اقول لهؤلاء المؤمنين الذين احتقرتموهم انهم لايعطيهم الله في المستقبل خيراً من أعمالهم ، ولايثيبهم عليها ، من حيث لاعلم لي بباطنهم بل الله اعلم بما في انفسهم ،هل هم مؤمنون في باطنهم ام لا ، ومتى قلت لايعطيهم خيراً كنت اذاً من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم .

قوله تعالى:

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) آية

في هذه الآية حكاية عما قال قوم نوح لنوح جواباً عما قاله لهم فيما تقدم « يا نوح قد جادلتنا » اي خاصمتنا وحاججتنا فأكثرت مجادلتنا ، وروي فاكثرت جدلنا ـ والمعنى واحد ، فلسنا نؤمن لك « فأتنا بما تعدنا » من العذاب « إن كنت من الصادقين » فيما تقوله على الله تعالى . وحقيقة المجادلة المقابلة بما يقبل الخصم من مذهبه بالحجة أوشبهه ، وهو من الجدل لشدة الفتل ، ويقال للصقر أجدل ،لأنه أشد الطير .و(الاكثار) الزيادة على مقدار الكفاية . و« الاقلال » النقصان عن مقدار الكفايـة . والفرق بين الجـــدال والحجاج :ان المطلوب بالحجاج ظهور الحجة ، والمطلوب بالجدال الرجوع عن المذهب . والمراء مذموم لأنـه مخاصمة في الحق بعد ظهور الحق كمري الضرع بعد دروره ، وليس كذلك الجدال . وفي الآيـة دلالة على حسن الجدال في الـدين ، لأنه لو لم يكن حسناً لمـا استعمله نوح مع قومه ، لأن الأنبياء لايفعلون إلا مايحسن فعله .

قوله تعالى :

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) آية

فأجابهم نوح عليه السلام عما قالوه فقال : إنما يأتي بالعذاب الله تعالى دون غيره يأتي به متى يشاء ، ولستم تفوتونه هرباً . ومعنى (انما)اختصاص ماذكر لمعنى دون غيره ، تقول : إنما زيد كريم أي هو كريم دون غير ، وإنما دخل (إنما) بمعنى الاختصاص بالمـذكور دون غيره ؛ لأنها لتحقيق المعنى : ومن تحقيقه أن

يكون لها دون غيره إذ المشرك لم يحقق على شيء بعينه ، وإذا دخلت (إنما) هذه على (اسم) كان الاسم مرفوعاً ، لأن (ما) كافة للعامل ، ولولا ذلك لما دخلت على الفعل ، والاعجاز هو الفوت بالهرب . وفي الاية دلالة على أن المجادلة تقوم بها الحجة على مخالف الحق ، لأنه لو لم تقم بها الحجة ماجادلهم نوح ولما قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله « وجادلهم بالتي هي أحسن » (١) .

قوله تعالى

وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) آية

هذه الآية عطف على قول نوح : إنما يأتيكم بالعذاب الله إن شاء ولستم تفوتونه ، « ولا ينفعكم نصحي » . ويحتمل قوله « يريد أن يغويكم » أمرين :

احدهما ـ ان كان الله يريد أن يخيبكم من رحمته بأن يحرمكم ثوابه ، ويعاقبكم لكفركم به ، ولاينفعكم نصحي يقال : غوى يغوي غياً ، ومنه قوله تعالى « فسوف يلقون غياً » (٢) أي خيبة وعذاباً وقال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره　　ومن يغو لايعدم على الغي لائماً (٣)

فلما كان الله قد خيب قوم نوح من رحمته وثوابه وجنته أعلم نبيه نوحاً بذلك في قوله « لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن » (٤) وأنهم سيصيرون الى خيبة وعـذاب ، أخبرهم الله بذلك على لسان نبيه ، فقال « ولاينفعكم نصحي » مع إتيانكم مايوجب خيبتكم والعذاب الذي جرّه عليكم قبيح أفعالكم ، ويريد الله إهلاككم وعقوبتكم على ذلك . وحكي عن طي انها تقول : أصبح فلان غاوياً أي

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ١٢٥　　(٢) سورة ١٩ مريم آية ٥٩ .

(٣) مرّ تخريجه في ٢/٣١٢　　(٤) سورر ١١ هود آية ٣٦

مريضاً . وحكي عن غيرهم سماعاً منهم :أغويت فلاناً أهلكته ، وغوي الفصيل إذا فقد اللبن فمات : بكسر الواو في الماضي ، وفتحها في المستقبل ، ومنه قوله تعالى « وعصى آدم ربه فغوى » (١) اي خاب من الثواب الذي كان يحصل له بتركه .

والوجه الثاني ـ أن يكون جرى على عادة العرب في تسمية العقوبة باسم الشيء المعاقب عليه ، فيكون المعنى ان كان الله يريد عقوبتكم على اغوائكم الخلق واضلالكم اياهم ، فسمى عقوبته اياهم على اغوائهم اغواء كما قال «وجزاء سيئة سيئة » (٢) « ومكروا ومكر الله » (٣) و « الله يستهزىء بهم » (٤) ونظائر ذلك كثيرة . ومثله قوله حكاية ابليس « بما أغويتني » (٥) فانه يحتمل هذين الوجهين ، الأول يحتمل أن يكون فبما خيبتني ، والثاني ـ فبما جازيتني على اغوائي الخلق عن الهدى . ولايجوز أن يكون المراد بذلك أن يجعلهم كفاراً على مايذهب اليه المجبرة ؛ لأن الاغواء بمعنى الدعاء الى الكفر او فعل الكفر لايجوز عليه تعالى، لقبحه كقبح الامر بالكفر . والنصح اخلاص العمل من الفساد على الاجتهاد فيه . والنصح نقيض الغش . وكان نصح نوح لقومه اعلامهم موضع الغي ليتقوه ، وموضع الرشد ليتبعوه . وانما شرط النصح بالارادة ـ في قوله « ان أردت أن أنصح » مع وقوع هذا النصح ـ استظهاراً في الحجة ؛ لأنهم ذهبوا الى أنه ليس بنصح ، فقال : لو كان نصحاً مانفع من لايقبله . وقوله « هو ربكم واليه ترجعون » اخبار من نوح أن الله الذي عذبكم وخيبكم من رحمته هو الذي خلقكم ويميتكم ثم يردكم بأن يحييكم ليجازيكم على افعالكم ويعاقبكم على كفركم بنعمه حيث لاينفعكم استدراك مافات، ولاينفعكم الندم على مامضى. وقال الحسن: معنى الآية ان كان الله يريد أن يعذبكم وينزل بكم عذابه فانتم عند ذلك لاينفعكم

(١) سورة ٢٠ طه آية ١٢١ (٢) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠
(٣) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤ (٤) سورة ٢ البقرة آية ١٥
(٥) سورة ٧ الاعراف آية ١٥ وسورة ١٥ الحجر آية ٣٩

نصحي ، لأن الله تعالى لايقبل الايمان عند نزول العذاب .

وقال بعض العلماء : ان قوم نوح كانوا يعتقدون أن ماهم عليه بارادة الله لولا ذلك لغيّره وأجبرهم على خلافه، فقال نوح على وجه الانكار عليهم والتعجب من قولهم : ان نصحي لاينفعكم ان كان القول كما تقولون وتعتقدونه ، حكى ذلك البلخي .

قوله تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) آية.

معنى قوله « أم يقولون » اخبار من الله تعالى بأن هؤلاء الكفار الذين ليس يقبلون ماأتاهم به من عند الله يقولون : ليس هذا القرآن من عند الله بل افتراه وتخرصه وكذبه على الله ، فمعنى (ام) في الاية (بل) ، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول لهم :إن افتريته ، فعلي اجرامي . وقيل في معناه قولان : احدهما ـ انه وعيد ، بأني ان كنت افتريته فيما اخبرتكم به من الخبر عن نوح فعلي عقاب جرمي ، وان كانت الاخرى فعليكم عقاب تكذيبي ، وستعلمون صدق قولي وأينا الاحق . والثاني ـ انه قال ذلك على وجه الاحتجاج بصحة امره بأن لايتقول مثل هذا مع مافيه من العذاب في الاخرة والعار في الدنيا مع انه ذو امانة وصيانة . وهو في خطاب محمد ﷺ .

وقوله « وانا بريء مما تجرمون » معناه ليس علي من اجرامكم ضرر وانما ضرر ذلك عليكم فاعملوا بحسب مايقتضيه العقل من التفكر في هـذا المعنى . والفرق بين افتراء الكذب وبين قول الكذب :ان قول الكذب قد يكون على وجه تقليد من الانسان لغيره ، واما افتراؤه فهو افتعاله من قبل نفسه . ومعنى اجرم

اذنب ومثله جرم قال النميري حار الزبرقان :

طريد عشيرة ، ورهين ذنب　　بما جرمت يدي وجنى لساني (١)

ومعنى أجرم اقترف السيئة بفعلها لأنه من القطع ، وأذنب اي تشبه بالذنب في السقوط ، وجرم وأجرم في المأثم أكثر ، قال الشاعر :

كذا الناس مجروم عليه وجارم

قوله تعالى

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) آية

اخبر الله تعالى في هذه الآية انه اوحى الى نوح ، وقال له انه لن يؤمن احد من قومك في المستقبل اكثر من الذين آمنوا ، فلا تبتئس أي لاتغتم ولا يلحقك حزن لاجلهم ، يقال ابتأس ابتآساً فهو مبتئس ، وقد يكون البؤس الفقر والابتآس حزن في الاستكانة انشد ابو عبيدة .

مايقسم الله أقبل غير مبتئس　　منه وأقعد كريماً ناعم البال (٢)

واصله البؤس وهو الفقر والمسكنة . ولما اعلم الله نوحاً عليه السلام أن أحداً من قومه لايؤمن فيما بعد ، ولامن نسلهم قال « رب لاتذر على الارض من الكافرين دياراً انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجراً كفاراً » (٣) ذكره قتادة وغيره . والعقل لايدل على أن قوماً لايؤمنون في المستقبل وإنما طريق ذلك السمع ، وقد يغلب في الظن ذلك مع قيام التجويز ، ألا ترى انه يغلب في ظنوننا

(١) تفسير الطبري ١٢/١٨ واللسان والتاج (جرم)

(٢) قائله حسان ديوانه ٣٢٦ واللسان (بأس)

(٣) سورة ٧١ نوح آية ٢٦ ـ ٢٧

أن الروم مع كثرتهم لايؤمنون جملة إلا انـه ليس يمتنع مع ذلك أن يؤمنوا ، لان الله كلفهم الايمان ، فلو لم يكن ذلك جائزاً لما كلفهم .

قوله تعالى :

وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) آية

في هـذه الآية اخبار من الله تعالى عما أمر به ـ عزّ وجلّ ـ نوحاً عليه السلام حين أيأسه من ايمان قومة فيما بعد ، وأنه مهلكهم بالطوفان . بأن يتخذ الفلك ويصنعها ، والصنع جعل الشيء موجوداً بعـد أن كان معدوماً ، ومثـله الفعل ، وينفصلان من الحدوث من حيث أن الصنعة تقتضي صانعاً ، والفعل يقتضي فاعـلا من حيث اللفظ ، وليس كذلك الحدوث ؛ لأنه يفيد تجدد الوجود لاغير . والصناعة الحرفة التي يكتسب بها ، والفلك السفينة ، ويكون ذلك واحداً وجمعاً ، كما قيل في أُسد وأَسد قالوا : في فلك وفلك ، لأن (فعلا وفعلا) جمعهما واحـد ، ويأتيان بمعنى واحد كثيراً يقال عجم وعجم ، وعرب وعرب ، ومثله فلك وفلك. والفلك والفلكة يقال لكل شيء مستدير أو شيء فيه استدارة ، وتفلك ثدي المرأة إذا استدار ، ومنه الفلك . وقوله « باعيننا » معناه بحيث نراها وكأنها ترى بأعين على طريق المبالغة ؛ والمعنى بحفظنا إياك حفظ من يراك ويملك دفع السوء عنك . وقال الجبائي بأعين أوليائنا من الملائكة الذين يعلمونك كيفية عملها ، والموكلين بك . وقيل : معناه بعلمنا . وقوله « ووحينا » اي على ماأوحينا اليك من صفتها وحالها . قال ابن عباس: امره الله تعالى ان يبنيها على هيئة جؤجؤ الطائر . ويجوز أن يكون المراد بوحينا اليك أن اصنعها . وقوله « ولاتخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » نهي لنوح عليه السلام أن يراجع الله تعالى ويخاطبه ويسألـه في امرهم

بأن يمهلهم، ويؤخر إهلاكهم، لأنه حكم بأهلاكهم وأخبر بأنه سيغرقهم، فلا يكون الأمر بخلاف ماأخبر به. ويجوز الامر بما علم أنه لايكون، ولايجوز أن يدعو بمايعلم أنه لايكون، لأن في ذلك إيهاماً بأنه لايرضى باختياره، وليس كذلك الأمر، لانه يتناول من يجوز عليه هذا المعنى. وكسر (إنهم) على الابتداء.

قوله تعالى:

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) آيتان

أخبر الله تعالى في هذه الاية عن نوح أنه أخذ في عمل السفينة، قال الحسن: كان طولها ألف ذراع ومئتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع. وقال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع، وعرضها خمسين ذراعاً، وارتفاعها ثلاثين ذراعاً، وبابها في عرضها وقال ابن عباس: كانت ثلاث طبقات طبقة للناس، وطبقة للطير وطبقة للدواب والوحش.

وقوله «وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه» اخبار من الله عن أشراف قومه ورؤسائهم أنهم كلما اجتازوا به وهو يعمل السفينة هزئوا من فعله. وقيل: إنهم كانوا يقولون: يانوح صرت نجاراً بعد النبوة على طريق الاستهزاء. وقال الرماني: السخرية إظهار خلاف الباطن على جهة يفهم منها استضعاف العقل ومنه التسخير: التذليل استضعافاً بالقهر. والفرق بين السخرية واللعب أن في السخرية خديعة واستنقاصاً، ولايكون إلا لحيوان، وقد يكون اللعب بجماد لأنه طلب الفرجة من غير مراعاة لما يعقب، كفعل الصبي. وانما كانوا يسخرون من

عمل السفينة ، لأنه كان يعملها في البر على صفة من الهول ، ولاماء هناك يحمل مثلها فكانوا يتضاحكون ويتعجبون من عمله . وقوله « إنا نسخر منكم كما تسخرون » جواب من نوح لهم بأنا نسخر منكم يعني نذمكم على سخريتكم ، وسماه سخرية ، كما قال « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (١) وقوله « ومكروا ومكر الله » (٢) وأطلق عليه إسم السخرية على وجه الازدواج . وقال قوم : معناه إن تستجهلونا في هذا الفعل فانا نستجهلكم ، كما تستجهلون ، ذكره الزجاج . وقوله « فسوف تعلمون » (سوف) ينقل الفعل عن الحال الى الاستقبال مثل السين سواء إلا أن فيه معنى التسويف وهو تعليق النفس بما يكون من الامور . وقوله « من يأتيه عذاب » قيل في معنى (من) قولان : أحدهما ـ أن يكون بمعنى (أي) كأنه قال فسوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه .

الثاني ـ أن يكون بمعنى الذي ، والمعنى واحد . و (من) إذا كانت استفهاماً استغنت عن الصلة ، وإذا كانت بمعنى الذي فلا بدّلها من الصلة ، كما استغنت (كم . وكيف) لأن البيان مطلوب من المسؤول دون السائل . والخزي العيب الذي تظهر فضيحته والعار به ، ومنه الذل والهوان . وقوله « ويحل عليه » معناه ينزل عليه . وقال الرماني : الحلول النزول للمقام وهو من الحل خلاف الارتحال . وحلول العرض وجوده في الجوهر من غير شغل حيز . وقوله « عذاب مقيم » أي دائم لايزول .

قوله تعالى:

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤

وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) آية

قرأ حفص « من كل زوجين » بتنوين في اللام هنا ، وفي المؤمنون . وقال أبو الحسن : يقال للاثنين هما زوجان ، قال الله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين » (١) يقال للمرأة زوج ، وللرجل زوجها ، قال الله تعالى « وخلق منها زوجها » (٢)وقال « امسك عليك زوجك » (٣) وقال بعضهم زوجة ، قال الأخطل:

زوجة أشمط مرهوب بوادره قد صار في رأسه التخويص والنزع (٤)

وقال ابو الحسن : يقال للاثنين هما زوج . قال أبو علي الفارسي : يـدل على ان الزوج يقع للواحد،قوله « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين» الى قوله « ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين » (٥) وقال الكسائي أكثر كلام العرب بالهاء . وقال القاسم بن معن أنـه سمعها من العرب من اسـد شنوءة ، وليس في القرآن بالهاء ، وهو أفصح من اثباتها عند البصريين . ومن قرأ بالاضافة كان قوله « اثنين » مفعول الحمل . والمعنى احمـــل من الأزواج اذا كانت اثنين اثنين زوجين ، فالزوجان من قوله « من كل زوجين » يريد بهما الشياع ، ولا يراد به الناقص من الاثنين ، ومنه قول الشاعر :

فمالك بالأمر الذي لاتستطيع بدارا

ومن نون حذف المضاف من (كل) والمعنى من كل شيء أو من كل زوج زوجين اثنين ، فيكون انتصاب اثنين على انه صفة لزوجين ، وذكر تأكيداً كما قال « الهين اثنين » (٦) .

---

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ٤٩ (٢) سورة ٤ النساء آية ١

(٣) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٧ (٤) ديوانه ٦٩واللسان (خوص)الشمط : البياض من السواد، وإذا بدا في رأسه البياض قيل : خوصه الشيب .والنزع : الصلع

(٥) سورة ٦ الانعام آية ١٤٣ ـ ١٤٤ (٦) سورة ١٦ النحل آية ٥١

اعلم الله نوحاً في هـــذه الاية ان وقت هلاك قومه الكفار فور التنور ، وفي (التنور) اقوال : منها أن الماء اذا فار من التنور الذي يخبز فيه . وقيل : التنور عين ماء معروفة ، وتنور الخابزة وافقت فيه لغة العرب لغة العجم . وقيل : ان التنور وجـه الأرض ، ذكره ابن عباس ، واختاره الزجاج . وقيل التنور تنور الصبح ، روي ذلك عن علي عليه السلام . و (حتى) متعلقة بقولـه « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ... حتى » .

أخبر الله تعالى أنه لما جاء أمره باهلاك قوم نوح عليه السلام لاستحقاقهم ذلك بالكفر ، وفار التنور يعني خروج الماء من موضع لم يعهد خروجه منه عـــلامة لنوح عليه السلام وهو تنور الخبز ـ في قول ابن عباس والحسن ومجاهد ـ وقيل : هو تنور آدم عليه السلام ويقال : فار إذا ارتفع مافيه ، كما يفور القدر بالغليان ، فار يفور فوراً وفؤراً . وقال ابن عباس :فار إذا نبع . وقوله « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين » إخبار منه تعالى أنـــه أمر نوحاً أن يحمل معه في سفينته من كل جنس زوجين : والزوج واحد له شكل إلا أنه قـــد كثر على الرجل الذي له امرأة : قال الحسن : في قوله « من كل شيء خلقنا زوجين » فالسماء زوج ،والأرض زوج والشتاء زوج ، والصيف زوج ، والليل زوج ، والنهار زوج ، حتى يصير الأمر الى الله الفرد الذي لايشبهه شيء قال الاعشى :

وكل زوج من الديباج يلبسه　　　أبو قدامة محبوّاً بذاك معا(١)

وقوله « وأهلك » معناه واحمل معك أهلك «الا من سبق عليه القول» بالاهلاك قال الضحاك وابن جريج : هو ابنه وامرأته . وقوله « ومن آمن » تقديره واحمل من آمن . ثم أخبر تعالى فقال « وما آمن معه الا قليل » . قال ابن جريج :القليل الذين نجو معه كانوا ثمانية . وقال الاعمش : كانوا سبعة ، وقال ابن عباس : كانوا ثمانين ، وكان فيهم ثلاثة : بنيه : يافث ، وسام ، وحام . وثلاث كنائن لـه

(١) ديوانه ٨٦ وتفسير القرطبي ٩ /٣٥

ويافث جد الترك والروم والصقالبة وأصناف البيضان . وحام جد السودان ، وهم الحبش والنوبة والزنج وغيرهم . وسام أبو فارس وأصناف العجم .

قوله تعالى :

وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٰيهَا وَمُرْسٰيهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) آية

قرأ حمزة والكسائي « مجراها » بفتح الميم . الباقون بضمها ، وكلهم ضم ميم مرساها . ومن ضمها قابل بينها وبين مرسها لما بينهما من المشاكلة . ومن فتح فلانه قال بعده « وهي تجري » ومن اختار الأول ، قال التقدير اجري فجرت.

قال أبو علي الفارسي : يجوز في « بسم الله مجراها ومرساها » أن يكون حالا من شيئين : احدهما ـ ان يكون من الضمير الذي في (اركبوا) او من الضمير الذي في (فيها) ، فان جعلت « بسم الله مجراها » خبر مبتدأ مقدم في قول من لايرفع بالظرف ، أو جعلته مرتفعاً بالظرف ، ولم يكن قوله « بسم الله مجراها » الاجملة في موضع الحال من الضمير الذي في (فيها) ولايجوز أن يكون الضمير في قوله « اركبوا فيها » ، لأنه لاذكر فيها يرجع الى الضمير ، ألا ترى أن الظرف في قول من يرفع به ارتفع به الظاهر ، وفي قول من رفع مثل هذا بالابتداء قد حصل في الظرف ضمير المبتدأ ، فاذا كان كذلك خلت الجملة من ضمير يعود من الحال الى ذي الحال . واذا كان كذلك لم يكن الا حالا من الضمير الذي في (فيها) . والثاني ـ يجوز أن يكون قوله « بسم الله » حالا من الضمير الذي في (اركبوا) على ان لايكون الظرف خبراً عن الاسم الذي هو (مجراها) على ما كان في الوجه الأول ، ويكون المعنى اركبوا الآن متبركين ببسم الله في الوقتين اللذين لاينفك الراكبون فيها منهما من الارساء والاجراء ، وليس يريد اركبوا في وقت الجري

والرسو ، فموضع «مجراها» نصب على هذا الوجه بأنه ظرف عمل فيه على المعنى . وفي الوجه الأول رفع بالابتداء وبالظرف . ومن فتح الميم فلأنه قال « وهي تجري» . ومن ضم ، فلأن جرت بهم وأجري بهم متقاربان في المعنى ، ويقال : جرى الشيء وجريت به وأجريته ، وإنما ضموا الميم من (مرساها) لقوله « أيان مرساها » (١) وقولـه « والجبال أرساها » (٢) ومن أمـال اوترك الامالة ، فكلاهما حسنان .

اخبر الله تعالى عما قال نوح حين دنا ركوبهم السفينة « اركبوا فيها »يعني في السفينة ، والركوب العلو على ظهر الشيء ، فمنه ركوب الدابة وركوب السفينة وركوب البر وركوب البحر .

والعامل في « بسم الله » يحتمل ثلاثة أشياء : احدهاـ (اركبوا). والثاني ـ ابتدؤا ببسم الله . والثالث ـ أجراها وأرساها . والمجرى يحتمل ثلاثة اوجـه : أحدها ـ أن يكون موضع الاجراء . والثاني ـ وقت الاجراء . والثالث ـ نفس الاجراء . وقيل: كان اذا اراد أن تجري قال « بسم الله » فجرت ، فاذا أراد أن ترسوا قال « بسم الله » فرست ذكره الضحاك . قال لبيد :

عمرت حين ثلاثاً قبل مجرى داحس   لو كان للنفس اللجوج خلود (٣)

والارساء إمساك السفينة بما تقف عليه أرساها إرساء ورست ترسو قال عنترة:

فصرت نفساً عند ذلك حرة   ترسو إذا نفس الجبان تطلع(٤)

وقوله« ان ربي لغفور رحيم » إخبار منه تعالى حكاية عما قال نوح لقومـه « ان ربي لغفور رحيم » أي ساتر عليهم ذنوبهم رحيم بهم منعم عليهم .

ووجه اتصال الآية بما قبلها أنه لمـا ذكرت النجاة بالركوب في السفينة

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٦ وسورة ٧٩ النازعات آية ٤٢

(٢) سورة ٧٩ النازعات آية ٣٢   (٣) ديوانه : ٢٥ واللسان والتاج (جرى)

(٤) ديوانه : ٢٩ والدر المنثور ٣ / ٣٣٨

ذكرت النعمة بالمغفرة والرحمة ليجتلب الطاعة كما اجتلب النجاة .

قوله تعالى :

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) آية

أخبر الله تعالى عن حال السفينة بعد الغرق أنها كانت تجري على الماء في أمواج كالجبال . والجري مرّ سريع كمرّ الماء على وجه الارض . والسفينة تجري بالماء والفرس يجري في عدوه ، ويقال : هذه العلة تجري في أحكامها ، أي تمر فيها من غير مانع منها . والموج جمع موجة ، وهي قطعة عظيمة ترتفع عن جملة الماء الكثير ، ومنه أمواج البحر وأعظم مايكون إذا اشتدت به الريح ، وشبه الله تعالى الامواج بالجبال في عظمها ، والجبل جسم عظيم الغلظ شاخص من الأرض هو لها كالوتد في عظمه ، وجمعه اجبال وجبال . وقوله « ونادى نوح ابنه وكان في معزل » فالمعزل موضع منقطع عن غيره . وكان ابن نوح في ناحية منقطعة عنه حين ناداه وقرأ عاصم « يابني اركب » بفتح الياء . الباقون بكسرها . وفي قوله « يابني » ثلاث ياءات ، ياء التصغير ، وياء الأصل ، وياء الاضافة . وفي قوله « يابني ان الله اصطفى لكم الدين » (١) يا آن ، ياء الجمع ، وياء الاضافة . قال أبو علي الفارسي: الوجه كسر الياء ، لأن اللام من (ابن) ياء أو واو ، وحذفت من (ابن) كما حذفت من (إسم) فاذا حقرت ألحقت ياء التحقير ، لزم أن ترد اللام الذي حذفت لأنك لو لم تردها لوجب أن تحرك ياء التصغير بحركات الاعراب ، وهي لاتحرك أبداً بحركات الاعراب ولاغيرها ، فاذا أضفته الى نفسك أجتمعت ثلاث ياءآت : ، الأولى التي للتحقير ، والثانية لام الفعل ، والثالثة هي التي للاضافة تقول : بني ،

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٣٢

فاذا ناديت جاز فيه وجهان : إثبات الياء وحذفها ، فمن قال ياعبادي فأثبت الياء فقياسه أن يقول يابنيّ ، ومن قال ياعباد يقول يابنيِّ حذفت التي للاضافة ،وابقيت الكسرة دلالة عليها . وهذا هو الجيد عندهم . ومن فتح الياء أراد الاضافة كماأرادها في قوله يابنيّ اذا كسر الياء التي هي آخر الفعل ، كأنه قال يابني ثم أبدل من الكسرة الفتحة ، ومن الياء الالف . فصار (يابنيّا) كما قال :

يابنت عما لاتلومي واهجعي

ثم حذفت الالف كما كانت تحذف الياء : في يابني إنها ، وقد حذفت الياء التي للاضافة إذا أبدلت الألف منها قال أبو الحسن :

فلست بمدرك مافات مني　　　بلهفولابليت ولالو أني (١)

كذلك سمع من العرب ، فقوله : بلهف إنما هو بلهفا ، فحذفت الالف .قال أبو عثمان : ووضع الالف مكان الياء في الاضافة مطرد وأجاز يا زيد اقبل إذا أردت الاضافة .

قوله تعالى :

قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) آية

حكى الله تعالى في هذه الاية ماأجاب ابن نوح أباه عليه السلام فانه « قالسآوي الى جبل يعصمني من الماء » أي سأرجع الى مأوى من جبل يعصمني من الماء أي يمنعني منه ، يقال آوى يأوي أوياً إذا رجع الى منزل يقيم فيه و (العصمة) المنع من الآفة والمعصوم في الدين الممنوع باللطف من فعل القبيح لاعلى وجه الحيلولة.

(١) اللسان (لهف)

فان قيل كيف دعا نوح ابنه الى الركوب معه في السفينة مع أن الله تعالى نهاه أن يركب فيها كافراً . قلنا : فيه جوابان : أحدهما ـ أنه دعاه الى الركوب بشرط أن يؤمن . الثاني ـ قال الحسن والجبائي : انه كان ينافق باظهار الايمان .

فان قيل : هلا كان ما صار اليه ابن نوح من تلك الحال الهائلة إلجاء ؟ .

قلنا : لا . لان الالجاء لايكون إلا بأحد شيئين : احـدهما ـ بأن يخلق فيه العلم بأنه متى رام خـلافه منع منه . الثاني ـ تتوفر الدواعي من ترغيب اوترهيب ، ولم يحصل له واحد من الأمرين ، لأنه جوز أن يكون من عجائب الزمان ، وأنه وقع الى نوح علم به ، فتقدم فيه . وقوله « لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » حـكاية لما قال نوح لولده حين « قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء» بأنه لامانع اليوم من أمر الله .واستثنى من رحم ، وقيل فيه ثلاثة اقوال: أحدها ـ أنه استثناء منقطع ، كأنه قال من رحم فانه معصوم . الثاني ـ لاعاصم إلا من رحمنا برحمة الله سبحانه لنا كأنه قال :لاعاصم إلا من عصمه الله فنجا ، وهو نوح عليه السلام ، وهو اختيار أبي علي النحوي . وقال :لانه يحتمل أن يكون (عاصم) بمعنى معصوم مثل دافق بمعنى مـدفوق ، فيكون الاستثناء متصلا . وقال ابن كيسان: لما قال (لا عاصم) كان معناه لامعصوم ، لأن في نفي العاصم نفي المعصوم ثم قال « إلا من رحم » فاستثناه على المعنى ويكون متصلا . وقوله « وحال بينهما الموج » إخبار منه تعالى انه حال بين نوح وولده الموج ، « فكان من المغرقين » .

قوله تعالى :

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (٤٤) آية

حكى الله تعالى في هذه الآية قصة نوح وقومه بأوجز لفظ وأبلغه، وبلوغ الغاية التي لاتدانيها بلاغة ولاتقاربها فصاحة، لأن قوله «وقيل ياأرض ابلعي ماءك» اخبار منه عن إذهاب الماء عن وجه الارض في أوجز مدة فجرى ذلك مجرى ان قال لها ابلعي فبلعت. والبلع في اللغة انتزاع الشيء من الحلق الى الجوف، فكانت الأرض تبلع الماء هكذا حتى صار في بطنها الغراء، يقال: بلعت وبلعت بفتح اللام وكسرها. وقوله «وياسماء اقلعي» اخبار أيضاً عن اقشاع السحاب، وقطع المطر في أسرع وقت، فكأنه قال لها اقلعي فأقلعت. والاقلاع إذهاب الشيء من اصله حتى لايبقى منه شيء. وأقلع عن الأمر إذا تركه رأساً. وقوله «وغيض الماء» أي أذهب به عن وجه الأرض الى باطنها، يقال: غاض الماء يغيض غيضاً إذا ذهب في الارض. وقوله «وقضي الأمر» معناه أوقع الهلاك بقوم نوح على تمام. والقضاء وقوع الأمر على تمام وإحكام. وقوله «واستوت على الجودي» جبل معروف. قال الزجاج بناحية أمد، وقال غيره: بقرب جزيرة الموصل، قال زيد بن عمر بن نفيل:

وقبلنا سبح الجودي والجمد.

وقيل: أرست على الجودي شهراً، وقال قتادة: اهبطوا يوم عاشوراء.

وقوله «وقيل بعداً للقوم الظالمين» معناه أبعدهم الله من الخير بعداً، على وجه الدعاء. ويجوز أن يكون الله تعالى قال لهم ذلك. ويجوز أن يكون المؤمنون دعوا عليهم بذلك، وهو منصوب على المصدر.

وقيل في هذه الآية وجوه كثيرة من عجيب البلاغة: منها أنه خرج مخرج الأمر على وجه التعظيم من نحو «كن فيكون» (١) لأنه من غير معاناة، ولا

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١١٨ وسورة ٣ آل عمران آية ٤٧، ٥٩ وسورة ٦ الانعام آية ٧٣ وسورة ١٦ النحل آية ٤٠ وسورة ١٩ مريم آية ٣٥ وسورة ٣٦ يس آية ٨٢ وسورة ٤٠ المؤمن آية ٦٨.

لغوب . ومنها حسن تقابل المعنى . ومنها حسن ائتلاف الألفاظ . ومن ذلك حسن البيان في تصوير الحال . ومنها الايجاز من غير إخلال . ومنها تقبل الفهم على أتم الكمال الى غير ذلك مما عليه هذا الكلام في الحسن العجيب واللطف البديع .

قوله تعالى :

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) آية

حكى الله تعالى عن نوح أنه حين رأى قومه قد أهلكهم الله تعالى « فقال يارب ان ابني من أهلي وإن وعدك الحق » لأنه تعالى كان وعده بأنه ينجيه وأهله ،وأمره بأن يحملهم معه في الفلك في قوله « وقلنا احمل فيهامن كل زوجين اثنين وأهلك» فسأل نوح ربه أن ابنه إن كان ممن وعده بنجاته أن ينجيه ، فسأله بهذا الشرط لأنـه لايجوز أن يسأل نبي من أنبياء الله أمراً لايجاب اليه ، وخاصة على رؤس المـلأ لأن ذلك ينفر عنهم . وانما يجوز أن يسأل بما يظهر لـه بشرط مقترن بالكلام وحال يدل عليه ، فيعرف أنه لم يحصل الشرط . والرب والمالك واحد . وقيل : ان الرب المالك للشيء من كل وجه يصح أن يملك به ، وهو أتم الملك ، ولاتصح الصفه بهعلى الاطلاق الا لله تعالى . والانسان قديكون مالكاً بالاطلاق .

وقوله « وانت احكم الحاكمين » يعني في قولك وفعلك ؛ لأنه حق تدعو اليه الحكمة ، فقال نوح ذلك على وجه الاعتراف تعظيماً لله تعالى .

قوله تعالى :

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الجَاهِلِينَ (٤٦) آية

قرأ الكسائي ويعقوب « انه عمل غير صالح » على الفعل ، ونصب (غير) الكسائي . الباقون « عمل » اسم مرفوع منون (غير) رفع . وقرأ ابن كثير (تسألنّ) بالتشديد ، وفتح النون ، وافقه نافع في التشديد الا انه كسر النون . الباقون بالتخفيف و كسر النون الا أن أبا عمرو يثبت الياء في الاصل . قال أبو علي النحوي (سألت) فعل يتعدى الى مفعولين وليس مما يدخل على المبتدأ وخبره ، ويمتنع ان يتعدى الى مفعول واحد . فمن قرأ بفتح اللام ، ولم يكسر النون عداه الى مفعول واحد في اللفظ . والمعنى على التعدي الى ثان ومن كسر النون دل على انه عداه الى مفعولين ، احدهما : اسم المتكلم . والآخر الاسم الموصول ، وحذف النون المتصلة بياء المتكلم ، كما حذفت من قولهم (اني) كراهة اجتماع النونات . ومن اثبت الياء فهو الاصل، ومن حذفها اجتزأ بالكسرة الدالة عليها .

في هذه الآية حكاية مما أجاب الله به نوحاً حين سأله نجاة ابنه بأن قال له « يا نوح انه ليس من أهلك ... » وقيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك واكثر المفسرين : انه ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم معك ، وانه كان ابنه لصلبه، بدلالة قوله « ونادى نوح ابنه » فأضافه اليه اضافة مطلقة . والثاني ـ انه اراد بذلك أنه ليس من أهل دينك ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله (سلمان منا أهل البيت) وإنما اراد على ديننا. وثالثها ـ قال الحسن ومجاهد : انه كان لغيره ، وولد على فراشه، فسأل نوح على الظاهر فأعلمه الله باطن الأمر ، فنفاه منه على ماعلمه ، فيكون على هذا هو نفسه عمل غير صالح ، كما يقولون : الشعر زهير . وهذا الوجه ضعيف ، لأن في ذلك طعناً على نبي وإضافة مالا يليق به اليه . والمعتمد الأول . وقال ابن عباس :

ما زنت امرأة نبي قط ، وكانت الخيانة من امرأة نوح انها كانت تنسبه الى الجنون والخيانة من امرأة لوط انها كانت تدل على أضيافه . وروي عن علي عليه السلام أنه قرأ ونادى نوح ابنها فنسبه الى المرأة ، وأنه كان يربيه . وروي عن محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام وعروة بن الزبير أنهما قرءا « ونادى نوح ابنه » بفتح الهاء وترك الالف كراهة مايخالف المصحف ، وأرادا أن ينسباه الى المرأة ، وأنه لم يكن ابنه لصلبه . وقال الحسن : كان منافقاً يظهر الايمان ويستر الكفر .

وقوله « انه عمل غير صالح » فمن قرأ على الفعل ، فمعناه انه ليس من اهلك لانه عمل غير صالح ، وتقديره انه عمل عملا غير صالح ، وحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ، وذلك يستعمل كثيراً ، وهذه القراءة تقوي قول من قال : إن ابنه لم يكن على دينه ، لأن الله تعالى علل كونه ليس من أهله بأنه عمل عملا غير صالح .

وأما من قرأ على الرفع والتنوين على الاسم فتقديره إنه ذو عمل غير صالح فجاء على المبالغة في الصفة كما قالت الخنساء :

ترتع مارتعت حتى إذا ادّكرت فانما هي إقبال وإدبار (١)

قال الزجاج : تقديره فانما هي ذات إقبال وادبار ، تصف الناقة في حنينها الى ولدها . وقيل : ان المعنى ان سؤالك اياي هذا عمل غير صالح ، ذكره ابن عباس ومجاهد وابراهيم ، وهذا وضعيف ؛ لأن فيه اضافة القبيح الى الأنبياء عليهم السلام وذلك لايجوز عندنا على حال . فالأول هو الجيد . ويحتمل ان يكون المراد ان كونه مع الكافرين وانحيازه اليهم وتركه الركوب مع نوح عمل غير صالح .

وقوله « فلا تسألني ماليس لك به علم » معناه لاتسألني مالا تعلم أنه جائز في حكمي لأن هذا من سؤال الجاهلين ، نهاه عن ذلك ؛ ولا يدل على أن مانهاه عنه قد وقع كما أن قوله « لئن أشركت ليحبطن عملك » (٢) لايدل على وقوع

(١) مرّ تخريجه في ٢ / ٩٥ وهو في تفسير القرطبي ٩/٤٩

(٢) سورة ٣٩ الزمر آية ٦٥

الشرك . وقوله « اني اعظك أن تكون من الجاهلين » فالوعظ الزجر عن القبيح بما يدعو الى الجهل على وجه الترغيب والترهيب . والصحيح أن الجهل قبيح على كل حال . وقال الرماني : انما يكون قبيحاً اذا وقع عن تعمد ، فاما اذا وقع غلطاً او سهواً لم يكن قبيجاً ولاحسناً . وهذا ليس بصحيح ، لأن استحقاق الذم عليه يشرط بالعمد فاما قبحه فلا كما نقوله في الظلم سواء .

قوله تعالى :

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَالَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) آية

في هذه الآية اخبار عما قاله نوح عليه السلام حين عرّفه الله حال ولده وأنه لايستحق الغفران ووعظه بان يكون من الجاهلين ، فانه قال « اني أعوذ بك أن أسالك ماليس لي به علم » فالعياذة طلب النجاة بما يمنع من الشر ، يقال : عاذ يعوذ عوذاً وعياذاً فهو عائذ بالله . والعياذ الاعتصام بما يمنع من الشر . والمعنى اني أعتصم بك أن اسالك مالا أعلمه ، وانما اعتصم من ذلك ؛ لأن مايعلمه الانسان يجوز أن يكون حسناً ويجوز كونه قبيحاً . ولايحسن أن يسأل مايجوز كونه قبيحاً وان شرط حسن السؤال . وينبغي أن يشرط ان كان ماسأله حسناً فيحسن السؤال حينئذ . وقال الرماني : لايحسن أن تسال فتقول : اللهم احيي اقاربي في دار الدنيا على مايصح ويجوز . لأنه قد دل الدليل على أن ذلك لايحسن في الحكمة فلا يجوز أن يسأله بحال . وانما جاز اطلاق « ماليس لي به علم » مع أنه قد علمه سؤالا . لأن هذا العلم لايعتد به لأن المراد علم ماله أن يسأله اياه .

وانما حذفت (يا) من قوله «رب اني أعوذ بك » وأثبته في قوله « يا نوح » لأن ذلك نداء تعظيم . وهذا نداء تنبيه فوجب أن يأتي بحرف التنبيه . وقوله (به)

يحتمل وجهين : احدهما ـ أن يكون كقوله « وكانوا فيه من الزاهدين » (١) و « اني لك من الناصحين » (٢) و « انا على ذلكم من الشاهدين » (٣) قال ابو الحسن : انما يجوز في حروف الجرّ ذلك ؛ لأن التقدير فيه التعلق بمضمر يفسره هذا الذي يظهر بعد ، وان كان لايجوز تسليطه عليه . ومثله « يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين » (٤) فانتصب « يوم يرون » بما دل عليه « لابشرى يومئذ » ولايجوز فيما بعد (لا) هذه أن يتسلط على (يوم) وكذلك « ماليس لك به علم » يتعلق بما دل عليه (علم) المذكور وإن لم يجز أن يعمل فيه . والثاني ـ أن يكون متعلقاً بالمستقر ، وهوالعامل فيه كتعلق الظروف بالمعاني كما تقول : ليس لك فيه رضاء ، فيكون (به) في الاية بمنزلة (فيه) .

قوله تعالى:

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) آية

في هذه الآية حكاية ما أمر الله تعالى به نوحاً حين استوت السفينة على الجبل ، وأنه قال له « اهبط » أي انزل من الجبل ، فالهبوط نزول من أعلى مكان في الارض الى مادونه ومن السماء . وقوله « بسلام منا » قيل في معناه وجهان :

احدهما ـ بسلامة منا وتحية منا ، قال لبيد :

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر (٥)

قيل : انه بمعنى السلام عليكما . وقيل : معناه بتسليم منا عليك . وقوله

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٢٠ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٢٠

(٣) سورة ٢١ الانبياء آية ٥٦ (٤) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٢

(٥) ديوانه ٢ / ١ واللسان « عذر »

« وبركات عليك » معناه ونعم دائمة وخير ثابت حالا بعد حال ، وأصله الثبوت ، فمنه البروك ، والبركة لثبوت النماء فيها قال الشاعر :

ولاينجي من الغمرات إلا   براكاء القتال أو الفرار (١)

أي الثبوت للقتال . ومعنى تبارك الله ثبت تعظيم مالم يزل ولايزال . وقوله « وعلى أمم ممن معك » فالأمة الجماعة الكثيرة على ملة واحدة متفقة ، لأنه من (أمّه يؤمّه أمّاً) إذا قصده ، أو الاتفاق في المنطق على نحو منطق الطير والمأكل والمشرب والمنكح ، حتى قيل : إن الكلاب أمة . وقيل في معناه ـ هنا ـ قولان : أحدهما ـ أنه أراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة ، فأخرج الله أمماً من نسلهم وجعل فيهم البركة . وقال قوم : يعني بذلك الأمم من سائر الحيوان الذين كانوا معه ، لأن الله تعالى جعل فيها البركة ، وتفضل عليها بالسلامة حتى كان منها نسل العالم . وقوله « وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » معناه إنه يكون من نسلهم أمم سيمتعهم الله في الدنيا بضروب من النعم ، فيكفرون نعمه ويجحدون ربوبيته ، فيهلكهم الله . ثم يمسهم بعد ذلك عذاب مؤلم موجع . وانما رفع (أمم) لأنه استأنف الاخبار عنهم .

قوله تعالى :

تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) آية

الاشارة بقوله « تلك » الى ماتقدم ذكره من اخبار نوح وقومه وما احل الله بهم من الاهلاك ، والتقدير تلك الانباء من أنباء الغيب ، ولو قال ذلك كان جائزاً ، لأن المصادر يكنى عنها بالتأنيث تارة وبالتذكير أخرى يقولون : قدم فلان

(١) قائله بشر بن ابي خازم اللسان (برك)

ففرحت بها وفرحت به أي بقدومه أو بقدمته . والغيب ماغاب عن النفس معرفته بطريق الستر له بخلاف السهو لأنــه ذهاب المعنى عن النفس بحال ينافي الذكر. وقوله « نوحيها اليك » أي نوحي اليك تلك الاخبار . وقوله « ما كنت تعلمها أنت ولاقومك » معناه إن هذه الاخبار التي أعلمناك اياها لم تكن تعلمها قبل وحينا اليك ولاقومك من العرب يعرفونها قبل إيحائنا اليك. وقوله « فاصبر ان العــاقبة للمتقين » أمر للنبي ﷺ بأن يصبر على أذى قومه وجهلهم بموضعه كما صبر نوح مثل ذلك على قومــه ؛وهو أحد الوجوه التي لأجلها كرر الله تعالى قصص الانبياء : في الاعراف ، وهود ، والشعراء ، ليصبر النبي ﷺ على أذى قومه حالا بعد حال . وقوله « إن العاقبة للمتقين » اخبار منه تعالى بأن العاقبة المحمودةلمن اتقى معاصي الله وتحرز من عقابه .

تم المجلد الخامس ــ ويليه المجلد السادس

وأوله قوله تعالى : وإلى عاد اخاهم هوداً قال

ياقوم اعبدوا الله ... آية (٥٠) من سورة هود

الفهارس

١ - فهرس الاحاديث

صفحة

صفحة

٢ ـ فهرس الردود، والاجوبة والادلة

صفحة

صفحة

٣ - فهرس المباحث اللغوية

٤ ـ فهرس المواضيع

وبتفسيرها ينتهي المجلد الخامس من التبيان

ويليه المجلد السادس وأوله قوله تعالى :

والى عاد أخاهم هوداً . . . آية ٥٠ من سورة هود

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥-٤٦٠ هـ

تحقيق وتصحيح

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد السادس

دار
إحياء التراث العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفقنا لأتمام طبع المجلد الخامس من هذا السفر النفيس ، وسهل لنـا السبل لانجاز المجلد السادس والشكر له وحـده فانه المتفضل باصول النعم والحمد له على إلها منا الحمد ، والشكر له على إلها منا الشكر ، ولا حول لنا ولا قوة إلا بـه ومآبنا اليه واتكالنا عليه نسأله أن يلهمنا الصواب ، ويوفقنا الى ما فيه مرضاته ، وصلى الله على نبينا محمد وآله الذي أرسله الله لهداية خلقه وتبليـغ كتابه وتطبيق تشريعه في الارض وإظهار كلمة التقوى، وكلمة الله العليا ، فقام باداء الرسالة خير قيام ، وقد بلغ عن ربه ما أمر به على تمام وكمال ، وقام بعده أهل العلم بما وجب عليهم،ومنهم المؤلف قدس الله روحه الطاهرة (راجع ترجمته في المقدمة بقلم اية الله الآغا بزرك الطهراني – مد ظله العالي –) .

وبالختام ابتهل الى الله – جل شأنه – أن يوفقنا وجميع المؤمنين لما فيه السداد انه أرحم الراحمين .

أحمد حبيب قصير العاملي

قوله تعالى :

(وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اْعبُدُوا ٱللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ) (٥٠) آية بلا خلاف

قوله « اخاهم » نصب بتقدير (ارسلنا) كأنه قال : وأرسلنا إلى عاد أخاهم ودل عليه ما تقدم من قوله «ولقد ارسلنا نوحاً » و (عاد) مصروف ، لأن المراد به الحي وقد يقصد به القبيلة ، فلا يصرف قال الشاعر :

لو شهد عاد في زمان عاد لابتزهـا مبارك الجلاد [١]

وإنما سمى هوداً أخا عاد مع انهم كفار ، وهو نبي لان المراد بذلك الاخوة في النسب ، لا في الدين ، فحذف لدلالة الحال عليه .

وقوله « ما لكم من إله غيره » حكاية ما قال هود (ع) لهم وأمرهم ان يوجهوا عبادتهم الى الله ونفى ان يكون معبود يستحق العبادة غيره .

ومن ضم الراء حمله على الموضع ، لأن فيها معنى الاستثناء ، فكأنه قال مـا لكم من إله إلا هو ، ولا يجوز في هذا الاستثناء الحمل على اللفظ ، لأن الواجب لا يدخله (من) الزائدة .

ومن جره حمله على اللفظ . وقال بعضهم تقديره ما لكم إله غيره و (من) زائدة ، فلذلك رفع .

وقوله « ان انتم إلا مفترون » أخبار من الله تعالى : حكاية ما قال هود لهم بأنه ليس انتم إلا متخرصون . وإنما سماهم مفترين بعبادة غير الله ، لأنهم في حكم من قال هي جائزة لغير الله ، فلذلك قال لهم ذلك. ومساكن عاد كانت بين بلاد الشام واليمن تعرف بالأحقاف ، وكانوا أصحـاب بساتين وزروع ، ويسكنون

---

(١) مجمع البيان ٣ : ١٦٩ وروايته (لاقبرها) بدل (لابتزها) .

الرمال ، دعاهم هود الى الايمان بالله وتوجيه العبادة اليه ، فكفروا به فأهلكهم الله بالريح، فذكر انهـــا كانت تدخل في أفواههم فتخرج من استاههم فتقطعهم عضواً عضواً، نعوذ بالله منها .

قوله تعالى :

(يا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلٰى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعقِلُونَ (٥١) آية بلا خلاف

اخبر الله تعالى في هـذه الآية عن هود أنه قـال لقومه : لست أطلب منكم – على دعائي لكم الى عبادة الله – أجراً ، لأنه ليس جزائي في ذلك إلا على الله الذي خلقني ، فهلا تتفكرون – بعقولكم – في ذلك ، فتعلمون أن ذلك محض النصيحة لأنه لو كان لغيره لطلبت عليه الأجر .

اللغة

والسؤال والطلب معناهما واحـد ، الا ان الطلب قد يكون في غير معنى السؤال ، لأن من ضاع منه شيء يطلبه ، او طلب المـاء اذا استعذبه أو طلب المعادن ، لا يقال فيه (سأل) ولا هو سائل . و (الاجر) هو الجزاء على العمل على عمل الخير بالخير . وقد يستحق الاجر على الشكر ، كالاجر الذي يعطيه الله العبد عـلى شكره لنعمه . و (الفطر) الشق عن أمر الله ، كما ينفطر الورق عن الثمر ، ومنه فطر الله الخلق . ومنه قوله « اذا السماء انفطرت »[1] و « هل ترى من فطور »[2] ومنه فطر الله الخلق لأنه بمنزلة مـــا شق عنه فظهر . وقوله « افلا تعقلون » يقال لمن عدل عن الاستدلال: لا يعقل، لأنه بمنزلة من لا يعقل ،

(١) سورة الانفطار آية ١ .
(٢) سورة الملك آية ٣ .

في انه لا ينتفع بموجب العقل . وقيل ان المعنى « أفلا تعقلون » أني اطلب بذلك نصحكم وصلاحكم فتقبلوه ولا تردوه .

قوله تعالى :

(وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)

(٥٢) آية بلا خلاف.

هذه الآية عطف على ما قبلها ، وفيها حكاية ايضاً عما قال هود لقومه ، فانه ناداهم ، وقال «يا قوم استغفروا ربكم » اي اطلبوا منه المغفرة «ثم توبوا اليه» وانما قدم الاستغفار قبل التوبة ، لأنه طلب المغفرة التي هي الغرض ، ثم بين مـا به يتوصل اليها هو التوبة ، والغرض مقدم في النفس ، لان الحاجة اليه ثم السبب، لأنه يحتاج اليه من اجله . وقيل ان (ثم) في الآية بمعنى الواو ، كما قال «خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها»[1] وكان جعل الزوج منها قبل جميع البشر . وقيل ان المعنى استغفروا ربكم من الوجه الذي يصح ، من الايمان به وتصديق رسله ، والاقلاع عن معاصيه ، والتوبة من القبائح «ثم توبوا اليه» بمعنى استديموا على ذلك وجددوا التوبة بعد التوبة ، لئلا يكونوا مصرين . وكل ذلك جائز .

وظاهر هذه الآية يقتضي أن الله تعالى يجعل الخير بالتوبة ترغيباً فيها ، لأنه وعد متى تاب العاصي يرسل السماء عليهم مدراراً وهو الدرر الكثير المتتابع على قدر الحاجة اليه دون الزائد المفسد المضر ، ونصبه على الحال .

وروي انهم كانوا أجدبوا ، وانهم متى تابوا أخصبت بلادهم واثمرت اشجارهم وانزل عليهم الغيث الذي يعيشون به .

---

(١) سورة الزمر آية ٦ .

و (مفعال) صفة للمبالغة كقولهم : منجار، ومعطار، ومغزار. ومثله « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. ويرزقه من حيث لا يحتسب »[1] ولولا هذا الوعد لما وجب ذلك . واما الثواب على التوبة فمعلوم عقلاً .

وقوله « ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » معناه ان الله تعالى اذا تبتم « يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى » القوة التي فعلها فيكم ، ويجوز ان يريد بذلك تمكينهم من النعم التي ينتفعون بها ويلتذون باستعمالها ، فان ذلك يسمى قوة .

وقوله « ولا تتولوا مجرمين » تمام الحكاية عنه انه قال لقومه لا تتولوا من عصا الله وترك عبادته .

قوله تعالى :

(قَالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) (٥٣) آية بلا خلاف.

في هذه الآية حكاية عما قاله قوم هود له حين دعاهم الى عبادة الله وترك ما سواه بأنهم قالوا له يا هود لم تجئنا ببينة يعني بحجة دالة على صدقك ولسنا نترك عبادة آلهتنا لأجل قولك ولسنا مصدقيك، ولا معترفين بعبادة إلهك الذي تدعي انك رسوله ، فالبينة الحجة الواضحة التي تفصل بين الحق والباطل . والبيان فصل المعنى من غيره حتى يظهر للنفس متميزاً مما سواه ، ويجوز ان يكون حملهم على رفع البينة مع ظهورها أمور :

احدها ـ تقليد الآباء والرؤساء فدفعوها لذلك .

ومنها اتهامهم لمن جاء بها حيث لم ينظروا فيها .

---

(١) سورة الطلاق اية ٢ ـ ٣ .

ومنها انهم دخلت عليهم الشبهة في صحتها .
ومنها اعتقادهم لاصول فاسدة تدعوهم الى جحدها .
واما الداعي الى عبادة الاوثان فيحتمل ان يكون احد اشياء :
احدها — انهم ظنوا انها تقربهم الى الله زلفى اذا عبدوها .
الثاني — ان يكونوا على مذهب المشبهة فجعلوا وثناً على صورته فعبدوه .
الثالث — ان يكون القي اليهم ان عبادتها تحظي في دار الدنيا .

وقوله « عن قولك » معناه بقولك ، وجعلت (عن) مكان الباء ، لان معنى كل واحد من الحرفين يصح فيه . وقال الرماني : من عبد إلهاً في الجملة هو ممن عبد غير الله ، لان كل واحد منها لم تخلص العبادة له ولا اوقعها على وجه يستحق به الثواب .

قوله تعالى :

(إِنْ نَقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ ٱللهَ وَٱشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشرِكونَ) (٥٤) آية .

في هذه الاية تمام الحكاية عن جواب قوم هود لهود ، وهو انهم قالوا مع جحدهم لنبوته « ان نقول » لسنا نقول « إلا اعتراك » أصابك من قولهم عراه يعروه إذا اصابه ، قال الشاعر :

من القوم يغروه اجترام ومأثم [(١)]

وقيل «اعتراك» اصابك بجنون خبل عقلك، ذهب اليه ابن عباس، ومجاهد. وانما جاز ان يقول «إلا اعتراك» مع انهم قالوا اشياء كثيرة غير هذا، لان المعنى

---

(١) قائله ابو خراش : مجمع البيان ٣ : ١٦٩ ، وتفسير الطبري ١٢ : ٣٥ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٠ وصدره: (تذكر داخلا عندنا وهو فاتك)

ما نقول في سبب الخلاف الا اعتراك ، فحذف ، لان الحال يقتضي ان كلامهم في الخلاف وسببه .

وقوله « قال اني اشهد الله » اخبار عما اجابهم به هود بأن قال : اشهد الله على اداثي اليكم ونصحي اياكم ، وعلى ردكم ذلك علي وتكذيبكم اياي و«اشهدوا» انتم ايضاً انني بريء مما تشركون ، وانما اشهدهم – على ذلك وان لم يكونوا اهل شهادة من حيث كانوا كفاراً فساقاً – اقامة للحجة عليهم لا لتقوم الحجة بهم ، فقيل هذا القول اعذاراً وانذاراً ، ويجوز ان يكون يريد بذلك اعلموا كما قال « شهد الله » بمعنى علم الله .

قوله تعالى :

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَميعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونَ (٥٥) آية بلا خلاف .

في هذه الاية دلالة على صحة النبوة ، لانه قال لقوم من اهل البأس والنجدة « كيدوني جميعاً ثم لا تنظرون » اي لا تمهلوني ثقة بأنهم لا يصلون اليه بسوء ، لما وعده الله (عز وجل) من العز والغلبة . ومثله قال نوح لقومه « فاجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون »[(١)] وقال نبينا ﷺ « فان كان لكم كيد فكيدون »[(٢)] .

والفرق بين الانظار والتأخير ان الانظار امهال لينظر صاحبه في امره ، والتأخير خلاف التقديم من غير تضمين .

وفي هذه الاية تضمين بما قبلها، لان التقدير اني بريء مما تشركون من دونه، وههنا يحسن الوقف ويحسن ايضاً ان يقف على قوله « تشركون» كان ذلك وقفاً كافياً ، لانه يحسن الوقف عليه، ولا يحسن استئناف ما بعده . واما الوقف التام

(١) سورة يونس آية ٧١

(٢) سورة المراسلات آية ٣٩

فهو الذي يحسن الوقف عليه ويحسن استئناف ما بعده نحو قوله «واياك نستعين» ثم يستأنف « اهدنا الصراط المستقيم »[١].

والكيد طلب الغيظ بالسر وهو الاحتيال بالسر ، تقول : كاده يكيده كيداً وكايده مكايدة مثل غايظه مغايظة .

قوله تعالى :

(إِنِّي تَوَكَّلتُ عَلى أَللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٥٦) آية بلا خلاف.

هذه الآية فيها حكاية ما قال هود لقومه بعد ذكر ما قدم من القول فيه اني توكلت على الله . والتوكل تفويض الامر الى الله تعالى على طاعته فيما امر به، لان ذلك من تسليم التدبير له ، لان افعاله كلها جارية على ما هو اصلح للخلق .

وقوله « ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » معناه ليس من حيوان يدب الا وهو تعالى آخذ بناصيته اي قادر على التصرف فيه ، وتصريفه كيف شاء . و (الناصية) قصاص الشعر ومنه قوله « فيؤخذوا بالنواصي والاقدام »[٢] وفي جر الرجل بناصيته اذلال له . واصل الناصية الاتصال من قولهم : (مفازة بناصي مفازة) اذا كانت الاخيرة متصلة بالاولى قال الشاعر :

فيء تناصيها بلا دفيء[٣]

وقال ذو الرمه :

ينصو الجماهين[٤]

ونصوته انصوه نصواً اذا اتصلت به .

---

(١) سورة الفاتحة اية ٥ – ٦

(٢) سورة الرحمن اية ٤١

(٣) مجمع البيان ٣ : ١٦٩

(٤) لم اجده

وقال ابو النجم :

ان يمس رأسي اشمط العناصي كأنما فرقه مناصي [١]

اي يجاذب ليتصل به في مره ، وانما قال اخذ بناصيتها مع انه مالك لجميعها لما في ذلك من تصوير حالها على عادة معروفة من امرها في اذلالها ، فكل دابة في هذه المنزلة في الذلة لله تعالى . وقوله « ان ربي على صراط مستقيم » معناه أن أمر ربي في تدبير خلقه على صراط مستقيم لا عوج فيه ولا اضطراب، فهو يجري على سبيل الصواب لا يعدل الى اليمين والشمال والفساد . والفائدة هنا ان ربي وإن كان قادراً على التصريف في كل شيء فانه لا يفعل إلا العدل ولا يشاء الا الخير .

قوله تعالى :

(فإنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيءٍ حَفيظٌ (٥٧) آية بلا خلاف .

معنى الاية حكاية ما قال هود لقومه من قوله لهم ان توليتم ، فليس ذلك لتقصير في ابلاغكم وانما هو لسوء اختياركم في الاعراض عن نصحكم ، ويجوز ان يكون ذلك حكاية ما قال الله لهود انهم ان تولوا فقل لهم فقد ابلغتكم . وقال الزجاج : التقدير فان تتولوا فحذف احدى التائين ، لدلالة الكلام عليها ، فعلى هذا تقديره قل لهم فان تتولوا ، ومثله قال الجبائي . والتولي الذهاب الى خلاف جهة الشيء وهو الاعراض عنه . والمعنى هنا التولي عما دعوتكم اليه من عبادة الله ، واتباع امره ، والابلاغ إلحاق الشيء بنهايته ، وذلك انه قد يلحق الحرف بالحرف على جهة الوصل ، فلا يكون إبلاغاً ، لانه لم يستمر الى نهايته .

---

(١) اللسان (نصا) ومجمع البيان ٣ : ١٦٩

وقوله «ويستخلف ربي قوماً غيركم» فالاستخلاف جعل الثاني بدل الاول يقوم مقامه فيما كان عليه الاول، فلما كانوا قد كلفوا، فلم يجيبوا، جعل الثاني بدلاً منهم في التكليف .

وقوله « ولا تضرونه شيئاً » معناه انه اذا استخلف غيركم ، لا تقدرون له على ضر ولا نفع . وقيل ان معناه لا ينقصه هلاككم شيئاً ، لانه يجل عن الحاق المنافع والمضار به .

وقوله « ان ربي على كل شيء حفيظ » لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها . وقيل معناه يحفظني من ان تنالوني بسوء .

قوله تعالى :

(وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ) (٥٨) آية .

المعنى ولما جاء امرنا بهلاك عاد ، ودلائله « نجينا هوداً ، والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ » يعنى من عذاب الدنيا والآخرة فسلموا من الامرين .

والنجاة السلامة من الهلاك ، وقد تكون السلامة من اصابة الم ما ، والرحمة قد تكون مستحقة بدلالة قوله « ونجيناهم برحمة منا » ويجوز ان يكون المراد بما اريناهم من الهدى والبيان الذي هو رحمة . والرحمة مستحقه بالوعد وحسن التدبير في الفصل بين الولي والعدو. والغليظ عظيم الجثة والكثيفة ، وانما وصف به العذاب لانه بمنزلته في الثقل على النفس وطول المكث .

قوله تعالى :

(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَٱتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) (٥٩) آية بلا خلاف.

قوله «وتلك» اشارة الى من تقدم ذكره ، وتقديره و « تلك » القبيلة « عاد جحدوا بآيات ربهم » والجحد الخبر بأن المعنى ليس بكائن على صحة ، فعلى هذا جحدوا هؤلاء الكفار بآيات الله، اي اخبروا بأن المعنى لا نعرف صحته، والنفي خبر بعدمه .

وقال صاحب العين : الجحد انكارك بلسانك ما تستيقنه نفسك .

وقوله « وعصوا رسله» فيه أخبار انهم مع جحدهم دلالة رسل الله، وانكارهم آيات الله ، خالفوا ما اراده الدعاة الى الله ، على طريق الايجاب بالترغيب والترهيب فالرسول دعاهم الى عبادة الله ، فخالفوه وانما قال « عصوا رسله » وهم عصوا هوداً ، لأن الرسل قد تقدمت عليهم بمثل ذلك ، وذلك عصيان لهم فيما امروا به ودعوا اليه من توحيد الله وعدله وان لا يشركوا به شيئاً .

وقوله «واتبعوا امر كل جبار عنيد» والعنيد العاتي الطاغي، عند يعند عنداً وعنوداً اذا حاد عنه كثيراً قال الشاعر .

اني كبير لا اطيق العندا[1]

قوله تعالى :

(وَأُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيامَةِ الا إِنَّ عاداً

---

(١) مجاز القرآن ١ : ٢٩١ وتفسير الطبري ١٢ : ٣٥ والقرطبي ٩ : ٥٤ وصدره :
اذا رحلت فاجعلوني وسطا .

كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) (٦٠) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان عاداً لما عصوه ، وكفروا به ، وكذبوا هوداً ألحق الله بهم الهلاك واتبعهم في دار الدنيا لعنة ، بمعنى انه اخبر نبينا والأمم المستقبلة باهلاكهم وانه لعنهم وامر بلعنهم ، وعرفهم انه ابعدهم من رحمته .

واللعنة الدعاء بالابعاد من قولك لعنه اذا قال عليه لعنة الله ، واصله الابعاد من الخير يقال ذئب لعين اي طريد ، ولا يجوز ان يلعن شيء من البهائم ، وان كانت مؤذية ، لأنه لا يجوز ان يدعى عليها بالابعاد من رحمة الله .

وقوله « ويوم القيامة » اي ويتبعون لعنة يوم القيامة ، يعني يوم يقوم الناس من قبورهم للجزاء والحساب ، كما قال « يوم يخرجون من الاجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون »(١) وقوله « ألا ان عاداً كفروا ربهم » (ألا) معناها التنبيه ، وما بعدها أخبار بأن قوم عاد كفروا ربهم .

وقوله « الا بعداً لعاد قوم هود » نصب (بعداً) على المصدر ، والمعنى ابعدهم الله بعداً ، ووقع (بعداً) موضع ابعاد ، كما وقع نبات موضع انبات في قوله «انبتكم من الارض نباتاً » (٢) .

قوله تعالى :

(وإلى ثَمُودَ اخَاهُمْ صالِحاً قالَ ياقَوْمِ اعْبدُوا اللهَ مالَكُمْ مِنْ إلٰه غَيرُهُ هُوَ أَنْشأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتعمرَكُمْ فِيها فَاسْتغفروهُ ثُمَّ تُوبُوا إِليهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) (٦١) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى في هذه الآية أنه أرسل «إلى ثمود أخاهم صالحاً» ونصب

---

(١) سورة المعارج آية ٤٣ .
(٢) سورة نوح آية ١٧ .

(أخاهم) بأرسلنا ، عطف على ما تقدم ، وانه « قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » وقد فسرناه[١] . وقوله «هو انشاكم من الارض» قيل في معناه قولان :

احدهما – انه خلقكم من آدم وآدم من تراب .

الثاني – انه خلقكم من الارض، والاول اختيار الجبائي وهو الأقوى. والانشاء الايجاد ابتداء من غير استعانة بشيء من الاسباب ، وهما نشأتان الاولى في الدنيا والثانية في الآخرة .

وقوله «واستعمركم فيها» اي جعلكم قادرين على عمارة الأرض ، ومكنكم من عمارتها والحاجة الى سكناها. والاستعمار جعل القادر يعمر الارض كعمارة الدار. وقال مجاهد معنى «استعمركم فيها» أي اعمركم بأن جعلها لكم طول اعماركم. ومنه العمرى المسألة المعروفة في الفقه .

وفي الآية دلالة على فساد قول من حرم المكاسب ، لانه تعالى امتن على خلقه بأن مكنهم من عمارة الأرض فلو كان ذلك محرماً لم يكن لذلك وجه، والعبادة لا تستحق إلا بالنعم المخصوصة التي هي أصول النعم فلذلك لا يستحق بعضنا على بعض العبادة ابتداء ، وان استحق الشكر ، ولذلك لا تحسن العبادة ابتداء ، كما لا يحسن الشكر إلا في مقابلة النعم .

وقوله «فاستغفروا ربكم ثم توبوا اليه» قد بينا معناه[٢] وقوله «ان ربي قريب مجيب» معناه أنه قريب الرحمة لا من قرب المكان، لكنه خرج هذا المخرج لحسن البيان في المبالغة . وقيل ان بلاد ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام ، وكانت عاد باليمن .

---

(١) في تفسير آية . ٥ من هذه السورة صفحة ٥ من هذا المجلد .

(٢) انظر ٥ : ٥١٤ في تفسير آية ٣ من هذه السورة .

قوله تعالى :

(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَا أَتَنْهٰينا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيهِ مُرِيبٍ) (٦٢) آية بلا خلاف .

في هذه الآية حكاية ما أجاب به قوم صالح له حين قالوا له يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ، ومعناه قد كنا نرجو منك الخير ، ونطمع فيه من جهتك قبل هذا لما كنت عليه من الاحوال الجميلة ، فالآن يئسنا منك .

والرجاء تعلق النفس بمجيء الخير على جهة الظن ، ومثله الأمل والطمع .

وقوله «اتنهانا ان نعبد ما يعبد آباؤنا» معناه تحظر علينا عبادة كان يعبدها أباؤنا .

وقوله «اننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب» معناه إن الذي أتيتنا به لا يوجب العلم بل يوجب الشك فنحن في شك مما جئتنا به . والريبة هي الشك إلا ان مع الريبة تهمة للمعنى ليست في نقيضه ، والشك قد يعتدل فيه النقيضان .

قوله تعالى :

(قالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ) (٦٣) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى في هذه الآية ما أجاب به صالح قومه ثمود بأن قال لهم «أريتم ان كنت على بينة» أي حجة من ربي ودليل من جهته . ولا مفعول

لـ (رأيتم) لانه يلغى كما يلغى اذا دخـل عليه لام الابتداء في قولك (رأيت لزيد خير منك) فكذلك الجزاء . وجواب (إن) الاولى الفاء ، وجواب (إن) الثانية محذوف ، وتقديره ان عصيته فمن ينصرني ، إلا انه يستغني بالاول ، فلا يظهر . وقوله «فمن ينصرني من الله ان عصيته» صورته صورة الاستفهام ، ومعناه النفي كأنه قال فلا ناصر لي من الله ان عصيته ، ومعنى الكلام أعلمتم من ينصرني من الله ان عصيته بعد بينة من ربى ونعمة ، وانما جاز إلغاء (رأيت) لانها دخلت على جملة قائمة بنفسها من جهة انها تفيد لو انفردت عن غيرها ، و (من) يتعلق بمعناها دون تفصيل لفظها .

وقوله «فما تزيدونني غير تخسير» قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها – ليس تزيدونني باحتجاجكم بعبادة آبائكم اي مـا تزدادون انتم الا خساراً ، هذا قول مجاهد .

والثاني – قال قوم : تزيدونني لانهم يعطونه ذاك بعد اول امرهم .

الثالث – قال الحسن معناه ان اجبتكم الى ما تدعونني اليه كنت بمنزلة من يزداد الخسران .

وقال اخرون معناه ما تزيدونني على ما انا عندكم الا خساراً .

قوله تعالى :

(وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) (٦٤) .

في هذه الآية حكاية ما قال صالح لقومه بعد ان انذرهم وخوفهم عبادة غـير الله ، وحذرهم معاصيه . «ويا قـــوم هذه ناقة الله لكم اية» واشار الى ناقته التي جعلها الله معجزة ، لان الله تعالى اخرجها لهم من جوف صخرة وهم يشاهدونها على تلك الصفة ، وخرجت وهي حامل كما طلبوا ، انها كانت تشرب يوماً فتنفرد به ولهم يوم وتأتي المرعى يوماً والوحش يوماً .

وقوله «ولا تمسوها بسوء» نهي منه لهم ان يمسوا الناقة بسوء اي بعقر او ضرر. والمس واللمس متقاربان . وفرق بينهما الرماني بأن المس يكون بين جمادين واللمس لا يكون إلا بين حيين لما فيه من الادراك، وقوله «فيأخذكم عذاب قريب» جواب النهي بالفاء وكذلك نصبه . والمعنى ان مسستموها بضر اخذكم عذاب عاجل .

قوله تعالى

(فَعَقَرُوها فَقَالَ تَمَتَّعوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) (٦٥) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن قوم صالح بانهم عصوه فيما امرهم وارتكبوا ما نهاهم عنه من اذى الناقة وانهم عقروها والعقر قطع العضو الذي له سراية في النفس قال امرؤ القيس :

يقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يا امرء القيس فانزل[١]

وكان سبب عقرهم لها انهم كرهوا أن يكون لها يوم ، ولهم يوم في الشرب لضيق الماء عليهم والمرعى على ماشيتهم فعقرها (احمر ثمود) وضربت به العرب المثل في الشؤم، فلما فعلوا ذلك قال لهم صالح «تمتعوا في داركم ثلاثة ايام» أي تلذذوا ، فيما يريدون من المدركات الحسان من المناظر والاصوات وغيرها مما يدرك بالحواس، ويقال للبلاد: دار، لانها تجمع اهلها كما تجمع الدار. ومنه قولهم: ديار ربيعة ، وديار مضر .

وقيل معنى «في داركم» اي في دار الدنيا. وايام اصله (ايوام) فقلبت الواو ياء وادغمت الياء الاولى فيها فصارت ايام لاجتماعها وسكون الاولى وانما وجب ذلك لاشتراكهما في انهما حرفا علة . وقوله « ذلك وعد غير مكذوب » معناه إن

---

(١) ديوانه ١٢٧ (الطبعة المصرية) .

ما وعدتكم به من نزول العذاب بعد ثلاثة ايام وعد صدق ليس فيها كذب .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) (٦٦) آية بلا خلاف .

قرأ اهل المدينة إلا اسماعيل والكسائي والبرجمي والسموني «يومئذ» بفتح الميم ، هنا وفي المعارج . الباقون بكسر الميم على الاضافة . قـــال ابو علي قوله «يومئذ» ظرف – كسرت او فتحت – في المعنى إلا انه اتسع فيه فجعل اسماً كما اتسع في قوله « بل مكر الليل والنهار »(١) فاضيف المكر اليهما وإنما هو فيهما ، فكذلك العذاب والخزي والفزع اضفن الى اليوم ، والمعنى على ان ذلك كله في اليوم كما أن المكر في الليل والنهار .

ومن كسر الميم من «عذاب يومئذ» فلان يوماً اسم معرب اضاف اليه مـــا اضافه من العذاب والخزي والفزع ، فـــانجر بالاضافة ، ولم تفتح اليوم فتبنيه لاضافته الى المعنى ، لان المضاف منفصل عن المضاف اليه ولا يلزمه الاضافـة ، والمضاف لم يلزم البناء .

ومن فتح فقال: من عذاب يومئذ فيفتح معانه في موضع جر، فلان المضاف يكتسب من المضاف اليه التعريف والتنكير ، ومعنى الاستفهام والجزاء في نحو غلام من تضرب اضربه، فلما كان يكتسب من المضاف اليه هذه الاشياء اكتسب منه الاعراب والبناء ايضاً، اذا كان المضاف من الاسماء الشائعة المبنية نحو (اين . وكيف) ولو كان المضاف مخصوصاً نحو (رجل وغلام) لم يكتسب منه البناء كما اكتسبت من الاسماء الشائعة. ومن اضاف على تقدير من عذاب يومئذ ومن خزي

---

(١) سورة سبأ اية ٣٣ .

يومئذ ، فلانها معارف تعرفت بالاضافة الى اليوم .

اخبر الله تعالى انه لمـــا جاء امره باهلاك قوم صالح الذين هم ثمود نجا صالحاً والمؤمنين معه برحمة منه تعالى .

وقوله «ومن خزي يومئذ» فالخزي العيب الذي تظهر فضيحته ويستحي من مثله ، خزي يخزى خزياً اذا ظهر له عيب بهذه الصفة .

وقوله «ان ربك هو القوي العزيز» فالقوي هو القادر، والعزيز هوالقادر على منع غيره من غير ان يقدرأحد على منعه. واصله المنع فمنه عز علي الشيء اذا امتنع بقلبه ومنه العز الارض الصلبة الممتنعة بالصلابة ، ومنه تعزز بفلان اي امتنع به ويقال (من عزّبز) اي من غلب سلب .

وكانت علامة العذاب في ثمود ما قال لهم صالح : آية ذلك ان وجوهكم تصبح في اليوم الاول مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة وفي الثالث مسودة، ذكره الحسن، هذا من حكمته تعالى وحسن تدبيره في الانذار بما يكون من العقاب قبل ان يكون ، للمظاهرة في الحجة .

ولم يختر ابو عمرو بناء (يوم) إذا اضيف الى مبني كما اختير في قوله «على حين غفلة » [١] لأن هذا اضيف الى اسم مبني، وذلك اضيف الى فعل مبني فباعده عن التمكن باكثر مما باعده الاول .

قوله تعالى :

(وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ)

(٦٧) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى أنه لمـا نجا صالحا والمؤمنين وأراد اهلاك الكفار أخذ الذين ظلموا الصيحة ، وهي الصوت العظيم من الحيوان . وقـــال الجبائي لا تكون

---

(١) سورة القصص اية ١٥ .

الصيحة إلا حدوث صوت في فم وحلق حيوان . وقيل ان جبرائيل عليه السلام صاح بهم ، ويجوز ان يكون الله تعالى احدث الصيحة في حلق حيوان ، وانما ذكر اللفظ لأنه حمله على المعنى، لان الصيحة والصياح واحد . ويجوز تأنيثه حملا على اللفظ، كما جاء في موضع آخر[1] . وقوله «فاصبحوا في ديارهم جاثمين» معناه أنه لما اتتهم الصيحة ليلاً أصبحوا في ديارهم خامدين على هذه الصفة ، والعرب تقول في تعظيم الأمر: (واسوأة صباحاه). والجثوم السقوط على الوجوه. وقيل هو القعود على الركب ، يقال : جثم على القلب إذا ثقل عليه، وذكرهم الله بالظلم هنا دون الكفر ليعلم أن الكفر ظلم النفس إذ يصير الى أعظم الضرر بعذاب الأبد .

قوله تعالى :

(كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ) (٦٨) آية بلا خلاف .

قرأ الكسائي وحده «لثمود» بخفض الدال وتنوينها. والباقون بغير صرف. وقرأ حمزة وحفص ويعقوب «ألا إن ثمود» وفي الفرقان . و «عاداً وثمود» وفي العنكبوت «وثمود فما ابقى» بغير تنوين فيهن وافقهم يحيى والعليمي والسموني في سورة (النجم) .

قال الفراء قلت للكسائي : لم صرفت (ثمود) هنا ؟ فقال : لانه قرب من المنصوب ، وهو مجرور ، وانما صرف ثمود في النصب دون الجر والرفع ، لأنه لما جاز الصرف اختير الصرف في النصب ، لانه اخف .

قال ابو علي الفارسي : الاسماء التي تجري على القبائل والاحياء على اضرب

---

(١) سورة هود اية ٩٥ وسورة الحجر اية ٧٣ ، ٨٣ ، وسورة المؤمنون اية ٤١ وغيرها كثير والآيات التي ذكرناها الفعل فيها مؤنث .

احدها – ان يكون اسماً للحي او للاب .

والثاني – ان يكون اسماً للقبيلة .

الثالث – ان يكون غلب عليه الاب دون الحي والقبيلة .

والرابع – ان يستوي ذلك في الاسم فيجري على الوجهين، ولا يكون لاحد الوجهين مزية على الآخر في الكثرة ، فما جاء اسماً للحي قولهم ثقيف وقريش ، وكلما لا يقال فيه بنو فلان . واما ما جاء اسماً للقبيلة فنحو تميم بنت مرة قال سيبويه سمعناهم يقولون : قيس ابنة عيلان ، وتميم صاحبة ذلك، وقال تغلب ابنة وابل . واما ما غلب عليه اسم ام الحي او القبيلة ، فقد قالوا باهلة ابن اعصر ، وقالوا يعصر ، وباهلة اسم امرأة ، قال سيبويه جعل اسم الحي ، ومحوس لم يجعل اسم قبيلة، وسدوس اكثرهم يجعله اسم القبيلة، وتميم اكثرهم يجعله اسم قبيلة. ومنهم من يجعله اسم الأب . واما ما يستوي فيه اسم قبيلة ، وان يكون اسماً للحي ، فقال سيبويه نحو ثمود وعاد، وسماهما مرة للقبيلتين ومرة للحيين، فكثرتها سواء. قال : وعاداً وثموداً، وقال «ألا إن ثمود كفروا ربهم» وقال «واتينا ثمود الناقة» فاذا استوى في ثمود ان يكون مرة للقبيلة ومرة للحي ولم يكن لحمله على احد الوجهين مزية في الكثرة :

فمن صرف في جميع المواضع كان حسناً ، ومن لم يصرف ايضاً كذلك ، وكذلك ان صرف في موضع ولم يصرف في موضع آخر إلا انه لا ينبغي ان يخرج عما قرأت به القراء لان القراءة سنة ، فلا يجوز ان تحمل على ما يجوز في العربية حتى تنضم اليه الرواية .

معنى قوله «كان لم يغنوا» أي كأن لم يقيموا فيها لانقطاع آثارهم بالهلاك وما بقي من اخبارهم الدالة على الخزي الذي نزل بهم ، يقال غنى بالمكان اذا اقام به والمغاني المنازل قال النابغة :

غنيت بذلك اذ هم لك جيرة منها بعطف رسالة وتودد[١]

واصل الغنى الاكتفاء فمنه الغنى بالمال والغناء الصوت الذي يتغنى به، والغناء الاكتفاء بحال الشيء وغنى بالمكان اذا اقام به، لاكتفائه بالاقامة فيه، والغانية الشابة المتزوجة . و (ألا) معناها التنبيه وهي الف استفهام دخلت على (لا) فالالف يقتضي معنى و (لا) ينفي معنى ، فاقتضى الكلام بهما معنى التنبيه مع نفي الفعلية .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرىٰ قالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) (٦٩) آية بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي «قال سلم» بكسر السين وسكون اللام من غير الف هنا ، وفي الذاريات . قال محمد بن يزيد المبرد (السلام) في اللغة يحتمل اربعة اشياء ، منها مصدر سلمت ، ومنها جمع سلامة ، ومنها اسم من اسماء الله، ومنها اسم شجرة ، ومنه قول الاخطل :

الاسلام وحرمل

وقوله «دار السلام»[٢] يحتمل ان يكون مضافاً الى الله تعظيماً لها ، ويجوز ان يكون دار السلام من العذاب لمن حصل فيها . واما انتصاب قوله «سلاماً» فانه لا يحك شيئاً تكلموا به فيحكى كما تحكى الجمل ، ولكن هو ما تكلمت به الرسل ، كما ان القائل اذا قال لا اله الا الله ، فقلت له قلت حقاً او قلت اخلاصاً اعملت القول في المصدر لانك ذكرت معنى ما قال ، فلم يحك نفس الكلام الذي هو جملة يحكى ، فكذلك نصب سلاماً هنا ، لما كان معنى ما قيل ولم يكن نفس

---

(١) ديوانه : ٦٥ ومجمع البيان ٣ : ١٧٨ وتفسير الطبري ١٥ : ٥٦ ، ٦٥ ، ٤٦٥ .
(٢) سورة الانعام ١٢٧ وسورة يونس اية ٢٥ .

القول بعينه . وقوله «اذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً»[١] قال بسيبويه زعم ابو الخطاب : ان مثله يراد به مثل قولك سبحان الله الذي ، تفسيره براءة الله من السوء ، وقولك للرجل سلاماً تريد مسلماً منك لا ابتلي بشيء من امرك . وقوله «سلام» مرفوع ، لانه من جملة الجملة المحكية ، وتقديره سلام عليكم فحذف الخبر كما حذف من قوله «فصبر جميل»[٢] اي فصبر جميل امثل او يكون المعنى امري سلام وشأني سلام، كما يجوز ان يكون في قوله «فصبر جميل» المحذوف منه المبتدا، ومثله على حذف المبتدا قوله تعالى «فاصفح عنهم وقل سلام»[٣] او حذف الخبر ويكون سلام مبتدأ واكثر ما يستعمل (سلام) بغير الف ولام لأنـــه في معنى الدعاء، فهومثل قولهم خير بين يديك، فمن ذلكقوله «قال سلام عليك سأستغفر لك ربي»[٤] وقوله «سلام عليكم بما صبرتم»[٥] وقوله «سلام على نوح»[٦] و «سلا. على ابراهيم»[٧] وقوله «سلام على عباده الذين اصطفى»[٨] وقد جاء بالالف والا قال تعالى «والسلام على من اتبع الهدى»[٩] و «السلام علي يوم ولدت»[١٠] وز. ابو الحسن ان من العرب من يقول : السلام عليكم ، ومنهم من يقول سلام عليَ فمن ألحق فيه الالف واللام حمله على المعهود. ومن لم يلحقه حملهُ على غير المعهود وزعم أن منهم من يقول سلام عليكم بلا تنوين ، وحمل ذلك على وجهين :

أحدهما – انه حذف الزيادة من الكلمة كما يحذف الاصل في نحو لم يــك ولا ادر ويوم يأت .

---

(١) سورة الفرقان اية ٦٣ .
(٢) سورة يوسف اية ١٨ ، ٨٣ .
(٣) سورة الزخرف اية ٨٩ .
(٤) سورة مريم اية ٤٧ .
(٥) سورة الرعد اية ٢٦ .
(٦) سورة الصافات اية ٧٩ .
(٧) سورة الصافات اية ١٠٩ .
(٨) سورة النمل اية ٥٩ .
(٩) سورة طه اية ٤٧ .
(١٠) سورة مريم اية ٣٣ .

والآخر – انه لما كثر استعمال هذه الكلمة، وفيها الالف والامجاز حذفها منها لكثرة الاستعمال كما حذفوا من اللهم فقالوا: لا هم كما قال الشاعر :

لا هم لا هم ان عامر العجوز   قد حبس الخيل على يعمور

ومن قرأ (سلم) بـلا الف احتمل امرين : احدهما – ان يكون بمعنى (سلم) والمعنى أمرنا سلم وسلم عليكم ، ويكون سلام بمعنى سلم ، كقولهم حل وحلال ، وحرم وحرام ، انشد الفراء :

وقفنا فقلنا ايـــه سلم فسلمت   كما اكيل بالبرق الغمام اللوائح[1]

وروي كما انكل . ثم قال الفراء في رفع سلام انه حين نكرهم ، قال هو سلم ان شاء الله ، من أنتم ؟ فعلى هذا القراءتان بمعنى واحد . والآخر أن يكون (سلم) خلاف العدو، والحرب. كأنهم لما كفوا عن تناول ماقدم اليهم فنكرهم واوجس منهم خيفة، قال انا سلم، ولست بحرب ولا عدو، فلا تمتنعوا من تناول طعامي، كما يمتنع من تناول طعام العدو ، وقوله «ولقد» دخلت اللام لتأكيد الخـبر ، كما يؤكد القسم، ومعنى (قد) هنا ان السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة، و (قد) للتوقع فجاءت لتؤذن أن السامع في حال توقع . أخبر الله تعالى أنه لمـا جاءت رسل ابراهيم يبشرونه .

وقيل في البشارة بماذا كانت قولان :

احدهما – قال الحسن كانت بأن الله تعالى يهب له اسحاق ولداً ويجعله رسولا الى عباده .

وقال غيره كانت البشارة باهلاك قوم لوط . وقوله «قالوا سلاماً» حكاية ما قال رسل الله لابراهيم مجيباً لهم «سلام» .

---

(١) تفسير الطبري ١٢ : ٣٩ واللسان (سلم) وقد روى ايضاً :

وقفنا فقلنا ايه سلم فسلمت   فما كان الا ومؤها بالحواجب

وقوله « فما لبث ان جاء بعجل حنيذ » معنى ذلك لم يتوقف حتى جاء – على عادته في اكرام الاضياف وتقديم الطعام اليهم – بعجل، وهو ولد البقرة يسمى بذلك لتعجيل امره بقرب ميلاده . ويقال : فيه عجول وجمعه عجاجيل، و « الحنيذ » المشوي ومعناه محنوذ ، فجاء « فعيل » بمعنى « مفعول » كطبيخ ومطبوخ ، وقتيل ومقتول تقول : حنذه حنذاً ويحنذه قال العجاج :

ورهبا من حنذه أن يهجرا[1]

يعني الحمراء الوحشية أي حنذها حر الشمس على الحجارة. وقال الحسن حنيذ بمعنى نضيج مشوي . وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد : نضيج .

وحكى الزجاج أن الحنيذ هو الذي يقطر ماؤه تقول العرب أحنذ هذا الفرس أي جلله حتى يقطر عرقاً .

وانما قدم الطعام اليهم وهم ملائكة لأنه رآهم في صورة البشر ، فظنهم أضيافاً .

وقال الحسن : جاؤوه فاستضافوه، والا لم يخف عليه أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون . وقوله « أن جاء » في موضع نصب بوقوع لبث عليه ، كأنه قال فما ابطأ عن مجيئه بعجل ، فلما حذف حرف الجر نصب .

قال الفراء: ويحتمل « ان جاء بعجل » أن يكون في موضع رفع بأن تجعل (لبث) فعلا له كأنك قلت فما أبطأ مجيئه بعجل حنيذ، قال الفراء : (الحنيذ) ما حفرت له في الأرض ثم غممته وهو فعل أهل البادية . قال الفراء وغيره : وانما

---

(١) ديوانه : ٩ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٢ وتفسير الطبري ١٢ : ٤١ واللسان (حنذ) ، (هرج) .

خافهم ابراهيم من حيث لم ينالوا طعامه ، لان عادة ذلك الوقت اذا قدم الطعام إلى قوم فلا يمسونه ظنوا أنهم أعداء .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ) (٧٠) آية بلا خلاف.

قيل في وجه اتيان الملائكة ابراهيم عليه السلام في صورة الاضياف قولان :

احدهما - قال الحسن أنهم اتوه على الصفة التي كان يحبها ، لانه كان يقري الضيف .

والآخر - انهم أروه معجزاً من مقدور الله في صورتهم مع البشارة له بالولد على الكبر ، فاخبر الله تعالى ان ابراهيم لما رآهم ممتنعين من تناول الطعام وان ايديهم لا تصل اليه ، والعقل لم يكن مانعاً من أكل الملائكة الطعام وإنما علم ذلك بالاجماع وبهذه الآية ، والا ما كان يجوز أن يقدم ابراهيم الطعام مع علمه بانهم ملائكة . ويجوّز بأن يأكلوه وانما جاز ان يتصور الملائكة في صورة البشر مع ما فيه من الايهام لأنهم أتوه به دلالة ، وكان فيه مصلحة فجرى مجرى السراب الذي يتخيل انه ماء من غير علم انه ماء .

وقوله «نكرهم» يقال نكرته وانكرته بمعنى . وقيل نكرته اشد مبالغة وهي لغة هذيل واهل الحجاز ، وانكرته لغة تميم قال الاعشى في الجمع بين اللغتين :

وانكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث الا الشيب والصلعا[١]

---

(١) ديوانه: ٧٢ القصيدة ١٣ وتفسير الطبري ١٢ : ٤١ والاغاني ١٦ : ١٨ ؛ والصحاح ، والتاج واللسان (نكر) وتفسير القرطبي ٩ ، ٦٦ . ومجمع البيان ٣ : ١٧٧ وتفسير الشوكاني ٢ : ٤٨٦ .

وقال ابو ذؤيب :

فنكرنه فنفرن وافترست به هوجاء هاربة وهـــاد خرسع [١]

وقوله « اوجس منهم خيفة » اي اضمر الخوف منهم ، والايجاس الاحساس قال ذو الرمة :

وقد توجس ركزاً مغفراً ندســاً بنبأة الصوت ما في سمعه كذب [١]

اي تحسيس . وقيل أوجس أضمر ، وانما خافهم حين لم ينالوا من طعامه لانه رآهم شباباً اقوياء وكان ينزل طرفاً من البلد لم يأمن – من حيث لم يتحرموا بطعامه ان يكون ذلك البلاء حتى قالوا له لا تخف يا ابراهيم « انا ارسلنا الى قوم لوط » بالعذاب والاهلاك وقيل انهم دعوا الله فاحيا العجل الذي كان ذبحه ابراهيم وشواه فظهر ورعى ، فعلم حينئذ انهم رسل الله .

قوله تعالى :

وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ (٧١) آية بلا خلاف

قرأ ابن عباس وحمزة وحفص ويعقوب (فبشرناها) بنصب الباء . الباقون بالرفع . قال ابو علي من رفع فباحد امرين : احدها بالابتداء ، والآخر بالظرف على مذهب من رفع وذلك بين . ومن فتح احتمل ثلاثة اشياء :

احدها – ان يكون في موضع جر والمعنى فبشرناها باسحاق ويعقوب ، وقال ابو الحسن : وهو قوي في المعنى ، لانها قد بشرت به قال وفي اعمالها ضعف ، لانك فصلت بين الجار والمجرور بالظرف كما لا يجوز مررت بزيد في الدار والبيت

---

(١) مجمع البيان ٣ : ١٧٨ (٢) مجمع البيان ٣ : ١٧٨

عمرو . وقال الرماني لا يجوز ذلك لانه يجب منه العطف على عاملين ، وذلك لا يجوز ، لأنه أضعف من العامل الذي قام مقامه وهو لا يجر ولا ينصب .

الثاني – بحمله على موضع الجار والمجرور كقول الشاعر :

اذا ما تلاقينا من اليوم او غدا [١]

وكقراءة من قرأ « حوراً عيناً » بعد قوله « يطـــاف عليهم » بكذا [٢] ومثله قوله :

فلسنا بالجبال ولا الحديدا [٣]

وكقول الشاعر:

جئني بمثل بني بدر لقومهم او مثل اسرة منظور بن سيار
او عامر بن طفيل في مراكبه او حارثاً حين نادى القوم يا جار [٤]

فنصب (عامراً) و(حارثاً) كأنه قال او جئني بعامر فلما اسقط حرف الجر نصب .

الثالث – أن تحمله على فعل مضمر ، كأنه قال فبشرناه باسحاق ، ووهبنا له يعقوب .

قال ابو علي الفارسي: والوجه الاول نص سيبويه في فتح مثله نحو مررت بزيد اول امس وأمس عمرو ، وكذلك قال ابو الحسن قال: لو قلت مررت بزيد اليوم وامس عمرو، كان حسناً ولم يحسن الحمل على الموضع على حد مررب بزيد وعمراً، فالفصل فيها ايضا قبيح كا قبح الحمل على الجار وغير الجار، فهذا في القياس مثل الجار في القبح لأن الفعل يصل بحرف العطف وحرف العطف هو الذي يشرك في الفعل، وبه يصل

---

(١) لم اجده
(٢) سورة الصافات اية ٤٥ وسورة الزخرف اية ٧١ وسورة الدهر اية ١٥
(٣) مر هذا البيت في ٣ : ٤٥٥ تاما
(٤) تفسير الطبري ١٢ : ٤٣ (الطبعة الاولى)

الفعل الى المفعول به ، كما يصل الجار فاذا قبح الامران وجب أن تحمل قراءة من قرأ بالنصب على تقدير فعل آخر مضمر يدل عليه (بشرنا) .

وقيل في معنى قوله « وامرأته قائمة » ثلاثة اوجه :

أحدها – انها كانت قائمة بحيث ترى الملائكة فضحكت سروراً بالسلامة وأردف ذلك السرور بما كان من البشارة .

والثاني – انها كانت قائمة من وراء الستر تستمع الى الرسل .

والثالث – انها كانت قائمة تخدم الاضياف وابراهيم جالس .

وقال مجاهد : معنى فضحكت حاضت ، قال الفراء : لم أسمع ذلك من ثقة وجدته كتابة قال الكميت .

واضحكت السباع سيوف سعد لقتلى مـا دفن ولا ودينا[1]

يعني بالحيض وقالوا لحرب بن كعب : تقول ضحكت النخلة إذا أخرجت الطلع والبسر ، وقالوا الضحك الطلع وسمع من يحكى أضحكت حوضك إذا ملأته حتى فاض ، وانشد بعضهم في الضحك بمعنى الحيض قول الشاعر :

وضحك الأرانب فوق الصفا كمثل دم الجوف يوم اللقا[2]

وقال قوم : الضحك العجب وانشد لابي ذؤيب .

فجاء بمزج لم يرَ الناس مثله هو الضحك إلا انه عمل النحل[3]

وقيل في معنى « ضحكت » ثلاثة اقوال :

---

(١) تفسير الطبرى ١٢ : ٤٢ ومجمع البيان ٣ : ١٨٠ .

(٢) مجمع البيـان ٣ : ١٨٠ وتفسير القرطبي ٨ : ٦٦ والطـبري ١٢ : ٤٢ والشوكاني ٢ : ٤٨٦ .

(٣) تفسير القرطبي ٨ : ٦٧ والطبرى ١٢ : ٥٤٣ .

احدها – انها ضحكت تعجباً من حال الاضياف في امتناعهم من اكل الطعام مع أن ابراهيم وزوجته سارة يخدمانهم .

وثانيها – قال قتادة : ضحكت تعجباً من حال قوم لوط اتاهم العذاب وهم في غفلة .

وثالثها – قال وهب بن منبة : انها ضحكت تعجباً من ان يكون لهما ولد ، وقد هرما ، فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير ، كأنه قال فبشرناها باسحاق فضحكت بعد البشارة .

قوله «فبشرناها» يعني امرأة ابراهيم سارة باسحاق انها تلده ومن بعد اسحاق يعقوب من ولده فبشرت بنبي بين نبيين ، وهو اسحاق أبوه نبي وابنه نبي .

وقال الزجاج : انما ضحكت لأنها كانت قالت لابراهيم اضمم لوطاً ابن اخيك اليك فاني أعلم ان سينزل على هؤلاء القوم عذاب فضحكت سروراً لما اتى الأمر على ما توهمت .

وقال ابن عباس والشعبي والزجاج يقال لولد الولد هذا ابني من ورائي هو ابن ابني .

قوله تعالى :

(قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) (٧٢) آية بلا خلاف .

في هذه الآية اخبار عما قالت امرأة ابراهيم حين بشرت بانها تلد اسحاق وهو ان قالت يا ويلتى . ومعنى يا ويلتى الانذار بورود الأمر الفظيع تقول العرب يا للدواهي اي تعالين فانه من ازمانك بحضور ما حضر من اشكالك . والف (يا ويلتى) يجوز ان يكون الف ندبة . ويحتمل ان يكون للاضافة انقلبت من الياء

وكان هذا القول من امرأة ابراهيم على وجه التعجب بطبع البشرية ، إذ ورد عليها ما لم تجربه العادة قبل ان تفكر في ذلك كما ولّى موسى مدبراً حين انقلبت العصاحية حتى قيل له « أقبل ولا تخف »[1] وإلا هي كانت مؤمنة عارفة بأن الله تعالى يقدر على ذلك .

قال الرماني : والسبب في ان العجوز لا تلد أن الماء – الذي يخلق الله (عز وجل) منه الولد مع نطفة الرجل – قد انقطع بدلالة ارتفاع الحيض ، فجعل الله الولد على تلك الحال معجزاً لنبيه ابراهيم (ع) .

وقال مجاهد : كان لابراهيم في ذلك مئة سنة ولها تسع وتسعون سنة .

وقال ابن اسحاق : كان لابراهيم مئة وعشرون سنة، ولسارة تسعون سنة .

والبعل الزوج ، واصله القائم بالأمر ، فيقولون للنخل الذي يستغني بماء السماء عن سقي الانهار والعيون : بعل ، لأنه قائم بالأمر في استغنائه عن تكلف السقي له ، ومالك الشيء القيم بتدبيره : بعل ، ومنه قوله تعالى «اتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين »[2] .

و (شيخاً) نصب على الحال ، والعامل فيه ما في هذا من معنى الاشارة أو التنبيه . وفي قراءة ابن مسعود بالرفع . ويحتمل الرفع في قوله سيبويه والخليل أربعة أوجه ، فيرفع (هذا) بالابتداء ، و (بعلي) خبره، و (شيخ) خبر ثاني، كأنه قال هذا شيخ ، ويجوز ان يكونا خبرين لهذا ، كقولك هذا حلو حامض ، ويجوز ان يكون (بعلي) بدلاً من (هذا) وبياناً له و (شيخ) خبره .

وقوله « ان هذا لشيء عجيب » ان يكون الولد بين عجوزين شيخين شيء يتعجب منه .

---

(١) سورة القصص آية ٣١ .

(٢) سورة الصافات آية ١٢٥ .

قوله تعالى :

(قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) (٧٣) آية بلا خلاف .

في هذه الآية حكاية عما قالت الملائكة لامرأة ابراهيم حين تعجبت من ان تلد بعد الكبر ، فانهم قالوا لها «أتعجبين من أمر الله» وهذه الألف للاستفهام ومعناها ههنا التنبيه ، وليست الف انكار ، وانما هي تنبيه وتوقيف . والعجب يجري على المصدر وعلى المتعجب منه كقولك : هذا أمر عجب ، ولا يجوز العجب من أمر الله ، لأنه يجب ان يعلم انه قادر على كل شيء من الاجناس ، لا يعجزه شيء ، وما عرف سببه لا يعجب منه .

وقوله « رحمة الله وبركاته عليكم » يحتمل معنيين :

احدهما – الدعاء لهم بالرحمة والبركة .

الثاني – التذكير بنعمة الله وبركاته عليهم ، والإخبار لهم بذلك .

وقوله « اهل البيت » يدل على ان زوجة الرجل تكون من أهل بيته في – قول الجبائي – وقال غيره إنما جعل سارة من أهل البيت لما كانت بنت ، عمه على ما قاله المفسرون .

وقوله « انه حميد مجيد » معناه مستحمد الى عباده . وقال ابو علي : يحمد المؤمنين من عباده ، والمجيد الكريم – في قول الحسن – يقال: مجد الرجل يمجد مجداً اذا كرم قال الشاعر :

رفعت مجد تميم باهلال لها رفع الطراف على العلياء بالعمد[١]

---

(١) لم اجده في ما حضرني من المصادر .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) (٧٤) آية في الكوفي والمدني .

أخبر الله تعالى انه حين ذهب عن ابراهيم الروع، وهو الافزاع، يقال : راعه يروعه روعاً اذا افزعه قال عنترة :

ما راعني الا حمولة اهلها وسط الديار تسف حب الخمخم[1]

أي ما افزعني ، وارتاع ارتياعاً اذا خاف . و (الروع) بضم الراء النفس ، يقال ألقي في روعي ، وهو موضع المخافة و « جاءته البشرى » يعني بالولد « يجادلنا » وتقديره جعل يجادلنا ، فجواب (لما) محذوف لدلالة الكلام عليه ، لان (لما) تقتضيه، والفعل خلف منه . وقال الاخفش (يجادلنا) بمعنى جادلنا . وقال الزجاج : يجوز ان يكون ذلك حكاية حال قد جرت ، والا فالجيد ان تقول : لما قام قمت، ولما جاء جئت . ويضعف ان تقول : لما قام اقوم، والتقدير في الآية لماذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى اقبل يجادلنا، واخذ يجادلنا .

وقوله « يجادلنا » يحتمل معنيين احدهما يجادل رسلنا من الملائكة – في قول الحسن – الثاني – يسألنا في قوم لوط. والمعنى انه سأل الله، إلا انه استغني بلفظ (يجادلنا) لأنه حرص في السؤال حرص المجادل .

وقيل في ما به جادل ثلاثة اقوال :

احدها – قال الحسن : انه جادل الملائكة بأن قال لهم: «ان فيها لوطاً»[2] كيف تهلكونهم ، فقالت له الملائكة « نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله »[3] .

---

(١) ديوانه (دار بيروت) : ١٧ والمعلقات العشر : ١٢٤ وتفسير الطبري ١٥ : ٤٠١ .
(٢، ٣) سورة العنكبوت آية ٣٢ .

الثاني – قال قتادة انه سألهم : أتعذبون خمسين من المؤمنين ان كانوا ؟ قالوا: لا، ثم نزل الى عشرة فقالوا : لا .

الثالث – قال ابو علي : جادلهم ليعلم بأي شيء استحقوا عذاب الاستئصال وهل ذلك واقع بهم لا محالة أم على سبيل الاخافة ؟ ليرجعوا الى الطاعة .

قوله تعالى :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) (٧٥) آية في الكوفي والمدني وهذا آخر الآية مع الاولى في البصري .

هذا إخبار من الله تعالى عن حال ابراهيم ، وصفه بانه كان اوّاها . وقيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها – قال الحسن : الاوّاه الرحيم . وقال مجاهد هو الرّجاع ، وقال الفراء : هو كثير الدعاء .

وقال قوم : هو المتأوه . وقال قوم : هو الرّجاع المتأوه خوفاً من العقاب ، ولمثل ذلك حصل له الامان لتمكين الاسباب الصارفة عن العصيان . و (الحليم) هو الذي يمهل صاحب الذنب ، فلا يعاجله بالعقوبة .

وقيل : كان ابراهيم ذا احتمال لمن آذاه وخنى عليه لا يتسرع الى المكافأة ، وان قوي عليه . والاناة السكون عند الحال المزعجة عن المبادرة ، وكذلك التأني : التسكن عند الحال المزعجة من الغضب، ويوصف الله تعالى بانه حليم من حيث لا يعاجل العصاة بالعقاب الذي يستحقونه لعلمه بما في العجلة من صفة النقص .

و (المنيب) هو الراجع الى الطاعة عند الحال الصارفة، ومنه قوله «وانيبوا الى ربكم»[١] والتوبة الانابة ، لانها رجوع الى حال الطاعة ، وكون ابراهيم منيباً

---

(١) سورة الزمر آية ٥٤ .

الى طاعة الله لا يدل على انه كان عاصياً قبل ذلك ، بل انه يفيد أنه كان يرجع الى طاعته في المستقبل ، وان كان على طاعته أيضاً فيما مضى، وقال ابو علي: كان يرجع الى الله في جميع أموره ويتوكل عليه .

قوله تعالى :

(يا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدودٍ (٧٦) آية .

في هذه الآية حكاية ما قالت الملائكة لابراهيم (ع) فانها نادته بأن قالت « يا ابراهيم اعرض عن هذا» القول . والاعراض الذهاب عن الشيء في جهة العرض، ويكون انصرافاً عنه بالوجه والتفكر .

والاشارة بقوله « عن هذا » الى الجدال ، وتقديره يا ابراهيم اعرض عن هذا الجدال في قوم لوط ، لان العذاب نازل بهم لا محالة .

وقوله « جاء أمر ربك » يحتمل أمرين : احدهما – جاء امره لنا بالعذاب . والثاني – جاء اهلاكه لهم بما لا مردّ له .

وقوله « غير مردود » اي غير مدفوع ، والرد اذهاب الشيء الى حيث جاء منه، تقول ردّه يرده رداً، فهو راد والشيء مردود والردوالدفع واحد، ونقيضه الاخذ . والفرق بين الدفع والرد، ان الدفع قد يكون الى جهة القدام والخلف، والرد لا يكون إلا الى جهة الخلف .

قوله تعالى :

(وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هٰذا يَوْمٌ عَصِيبٌ) (٧٧) آية بلا خلاف .

في هذه الآية إخبار من الله تعالى أنه لما جاءت رسله لوطاً سيء بهم ، معناه ساءه مجيؤهم ، وأصله سوىء بهم فنقلت حركة الواو الى السين ، وقلبت همزة ، والضمير في « بهم) عائد الى الرسل ، ويجوز تخفيف الهمزة بإلقاء الحركة على ما قبلها ، ومنهم من يشدد على الشذوذ .

وقوله « وضاق بهم ذرعاً » قال ابن عباس ساء بقومه « وضاق بهم ذرعاً » أي باضيافه ، وانه لما رأى لهم من جمال الصورة ، وقد دعوه إلى الضيافة ، وقومه كانوا يسارعون الى امثالهم بالفاحشه ، فضاق بهم ذرعاً ، لهذه العلة .

والمعنى انه ضاق بهم ذرعه: ضاق بأمره ذرعاً اذ لم يجد من المكروه مخلصاً .

وقوله « ضاق » بحفظهم من قومه ذرعه . حيث لم يجد سبيلاً الى حفظم من فجّار قومه .

والفرق بين السوء والقبيح ان السوء ما يظهر مكروهه لصاحبه ، والقبيح ما ليس للقادر عليه ان يفعله .

وقوله « وقال هذا يوم عصيب » حكاية ما قاله لوط في ذلك الوقت بأن هذا يوم شديد الشر ، لان العصيب الشديد في الشر خاصة ، كأنه التف على الناس بالشر اويكون التف شره بعضه على بعض يقال يوم عصيب ، قال عدي بن زيد :

وكنت لزاز قومك لم اعرد وقد سلكوك في يوم عصيب[1]

وقال الراجز :

---

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٤٠٩ والاغاني (دار الثقافة) ٢ : ٩٣ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ وقد روى (خصمك) بدل (قومك) والبيت من قصيدة قالها وهو في حبس النعمان بن المنذر . و (اللزاز) هو شدة الخصومة. ومعنى (لم اعرد) لم احجم ، ولم انكص .

يوم عصيب يعصب الأبطالا عصب القوي السلم الطوالا[١]

وقال آخر :

فانك إن لا ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب[٢]

وقال كعب بن جعيل :

ويلبون بالحضيض قيــــام عارفات منه بيوم عصيب[٣]

قوله تعالى :

(وَجَـــاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) (٧٨).

اخبر الله تعالى عن قوم لوط أنهم حين أحسوا بمن نزل بلوط، وظنوهم أضيافه جاءوا لوطاً «يهرعون» أي يسرعون ، والاسراع : الاهراع في الشيء – في قول مجاهد ، وقتادة ، والسدي – وانما أهرعوا لطلب الفاحشة ، لما اعلمتهم عجوز السوء : امرأة لوط بمكان الاضياف ، فقالت ما رأيت احسن وجوهاً ، ولا اطيب ريحاً ، ولا انطق لساناً وثنايا منهم . وقال الشاعر :

بمعجلات نحوه مهارع[٤]

---

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٤١٠ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ وروح المعـــاني ١٢ : ٩٥ ولم يعرف قائله .

(٢) تفسير الطبري ١٥ : ٤١٠ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ .

(٣) تفسير الطبري ١٥ : ٤١٠ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ وروايته (فئام) .

(٤) تفسير الطبري ١٥ : ٤١٢ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ .

وقال مهلهل :

فجاؤا يهرعون وهم أسارى نقودهم على رغم الأنوف[١]

وقوله « ومن قبل كانوا يعملون السيّئات » وهي اتيان الذكور في الادبار ، ومعناه انهم كانوا قبل هذا المجيء يعملون ذلك . وقيل من قبل ألفوا الفاحشة ، فجاهروا بها ، ولم يستحيوا منها

وقوله « قال يا قوم » يعني لوطاً لما رآهم هموا باضيافه عرض عليهم النكاح المباح ، وأشار الى نساء فقال « هؤلاء بناتي هن اطهر لكم » قال قتادة . كنّ بناته لصلبه . وقال مجاهد كنّ بنات امّته فكنّ كالبنات له ، فان كل نبيّ ابو أمّته وأزواجه امهاتهم وهو أب لهم .

وقوله « فاتقوا الله » امر من لوط لهم بتقوى معاصي الله وأن لا يفضحوه في أضيافه . وقوله « أليس منكم رجل رشيد » خرج مخرج الانكار عليهم وان كان لفظه لفظ الاستفهام . والرشيد هو الذي يعمل بما يقتضيه عقله ، لانه يدعو الى الحق ، ومنه الارشاد في الطرق، فقال : أما منكم من يدعو الى الحق ويعمل به . ونقيض الرشد الغي .

ولا يجوز نصب (أطهر) في – قول سيبويه واكثر النحويين – لأن الفصل إنما يدخله مع الخبر ليؤذن بأنه معتمد الفائدة دون ما هو زائد في الفائدة ، او على معنى الصفة ، فلهذا لم يخبر في الحال . وأجمعوا على انه لا يجوز (قدم زيد هو ابنك) الا بالرفع. ومن اجازه فانما يجيزه مع المبهم من (هذا) ونحوه تشبيهاً بخبر (كان) . وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو بالنصب .

وقيل في وجه عرض المسلمة على الكفار قولان :

قال الحسن : ان ذلك كان جائزاً في شرع لوط ، وفي صدر الاسلام أيضاً ،

---

(١) اللسان (هرع) وتفسير الطبري ١٥ : ٤١٢ وتفسير روح المعاني ١٢ : ٩٥، وغيرها.

ولذلك زوج النبي ﷺ بنته بابي العاص قبل أن يسلم. ثم نسخ بقوله «ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا »[١] .

والثاني – قال الزجاج إن ذلك عرض بشرط ان يؤمنوا ، على ما هو شرط النكاح الصحيح .

والضيف يقع على الواحد والاثنين والجماعة .

قوله تعالى :

(قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) (٧٩) آية بلا خلاف.

هـــذا حكاية ما أجاب به قوم لوط حين عرض عليهم بنـاته ونهاهم عن الفواحش ، ودعاهم الى النكاح المباح؛ بأن قالوا «ما لنا في بناتك من حق» وقيل في معناه قولان :

قال ابن اسحاق والجبائي : معناه انهنّ لسن لنا بازواج .

والآخر – اننا ليس لنا في بناتك من حاجة ، فجعلوا تناول ما ليس لهم فيه حاجة بمنزلة ما لا حق لهم فيه . فمن قال بالاول ردّه على ظاهر اللفظ . ومن قال بالثاني حمله على المعنى . وقوله « وانك لتعلم ما نريد » تمام حكاية مـــا قالوه للوط ، كأنهم قالوا له انك تعلم مرادنا من اتيان الذكران دون الاناث .

قوله تعالى :

(قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) (٨٠) آية بلا خلاف.

هذه حكاية ما قال لوط عند أياسه من قبول قومه، بأنه قال «لو ان لي بكم قوة»

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢١ .

ومعناه اني لو قدرت على دفعكم وقويت على منعكم من اضيافي لحلت بينكم وبين ما جئتم له من الفساد، وحذف لدلالة الكلام عليه.

وقوله «او آوي الى ركن شديد» معناه لو كان لي من استعين به في دفاعكم. وقيل معناه لو كان لي عشيرة، قال الراجز:

يأوي الى ركن من الاركان   في عدد طيس ومجد بان[1]

والركن معتمد البناء بعد الاساس، وركنا الجبل جانباه. وإنما قال هذا القول مع انه كان يأوي الى الله تعالى، لأنه انما أراد العدة من الرجال، وإلا، فله ركن وثيق من معونة الله ونصره، إلا انه لا يصح التكليف إلا مع التمكين. والقوة القدرة التي يصح بها الفعل، ويقال للعدة من السلاح قوة، كقوله «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة»[2] والشدة بجمع يصعب معه التفكك، وقد يكون بعقد يصعب معه التحلل.

قوله تعالى:

(قالوا يَا لوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) (٨١)

آية بلا خلاف.

القراءة والحجة:

قرأ أهل الحجاز (فاسر) بوصل الهمزة من سريت. الباقون بقطعها. وقرأ ابن كثير وابو عمرو «إلا امرأتك» بالرفع. الباقون بالنصب.

---

(١) مجاز القرآن ١ : ٢٩٤ وتفسير الطبري ١٥ : ٤٢٢ ومعنى (عدد طيس) عدد كثير.

(٢) سورة الانفال آية ٦١.

فحجة من قرأ بقطع الهمزة قوله تعالى «سبحان الذي اسرى بعبده»[١] ومن وصل الهمزة فالمعنى واحد .

اللغة والمعنى :

يقال اسرى يسرى وسرى يسرى، فهو سار لغتان بمعنى واحد. والاسراء: سير الليل قال امرؤ القيس :

سريت بهم حتى تكلّ مطيهم وحتى الجياد ما يقدن بارسان[٢]

وقال النابغة :

اسرت عليه من الجوزاء سارية تزجي الشمال عليه جامد البرد[٣]

اخبر الله تعالى عما قالت الملائكة رسله للوط حين رأته كئيباً بسببهم « انا رسل ربك » بعثنا الله لاهلاك قومك ، فلا تغتم ، فانهم لا ينالونك بسوء (فاسر باهلك » اي امض ومعك اهلك بالليل .

وقوله «بقطع من الليل» والقطع القطعة العظيمة تمضي من الليل . وقال ابن عباس : طائفة من الليل. وقيل هو نصف الليل كأنه قطع نصفين، ذكره الجبائي وقيل معناه في ظلمة الليل .

وقوله « ولا يلتفت منكم احد » قيل في معناه قولان :

احدهما – قال مجاهد لا ينظر احد وراءه ، كأنهم تعبدوا بذلك للنجاة بالطاعة في هذه العبادة .

والآخر – قال أبو علي لا يلتفت منكم احد الى ماله ولا متاعه بالمدينة، وليس

---

(١) سورة الاسرى آية ١ .
(٢) ديوانه : ٢١٠ وروايته (مطوت) بدل (سريت) والمعنى واحد لأن المطو: هو امتداد السير . و(مطيهم) ما يركبونه من خيل او جمال . والارسان هي الحبال التي يقودون الخيل بها.
(٣) ديوانه ٣١ ومجمع البيان ٣ : ١٨٢ .

المعنى لا يلتفت من الرؤية ، كأنه أراد ان في الرؤية عبرة ، فلم ينهوا عنها وانما نهوا عما يفترهم عن الجد في الخروج من المدينة .

ومن رفع (امراتك) جعله بدلاً من قوله « ولا يلتفت منكم أحد » ومن نصبه جعله استثناء من قوله «فأسر بأهلك» كأنه قال فأسر بأهلك إلا امرأتك،وزعموا ان في مصحف عبدالله وأبي « فاسر باهلك بقطع من الليل إلا امرأتك » ، وليس فيه « ولا يلتفت منكم احد » وجاز النصب على ضعفه . والرفع الوجه . وقيل ان لوطاً لما عرف الملائكة اذن لقومه في الدخول الى منزله ، فلما دخلوه طمس جبرائيل (ع) اعينهم فعميت - هكذا ذكره قتادة - وعلى أيديهم ، فجفت حكاه الجبائي .

وقوله « ان موعدهم الصبح اليس الصبح بقريب » معناه إن موعد اهلاكهم عند الصبح. وإنما قال « اليس الصبح بقريب ، لأنه لما اقتضى عظيم ما قصدوا له - من الفحش - إهلاكهم ، فقالت الملائكة هذا القول تسلية له .

وقيل انه قال لهم اهلكوهم الساعة ، فقالت الملائكة له ان وقت اهلاكهم الصبح «اليس الصبح بقريب » .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عالِيَها سافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ* مَنْضودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) (٨٣) آيتان تمام الآية الاولى في المدني قوله « سجيل » وعند الباقين قوله « منضود » .

قيل في قوله « فلما جاء امرنا » ثلاثة أقوال .

احدها - جاء امرنا الملائكة باهلاك قوم لوط .

الثاني – جاءامرنا يعني العذاب، كأنه قيل (كن) على التعظيم وطريق المجاز، كما قال الشاعر :

فقالت له العينان سمعاً وطاعة وحدرتا كالدر لما يثقب[١]

والثالث – ان يكون الأمر نفس الاهلاك، كما يقال : لأمر ما، أي لشيء ما وقال الرماني : انما قال أمرنا بالاضافة ولم يجز مثله في شيء، لان في الأمر معنى التعظيم، فمن ذلك الأمر خلاف النهي، ومن ذلك الامارة، والتأمر .

وقوله « جعلنا عاليها سافلها » معناه قلبنا القرية أسفلها أعلاها « وامطرنا عليها » يعني أرسلنا على القرية حجارة بدل المطر حتى أهلكتهم عن آخرهم . والامطار إحدار المطر من السماء .

وقوله « من سجيل » قيل في معنى سجيل ثمانية أقوال :

احدها – انها حجارة صلبة ليست من جنس حجارة الثلج والبرد . وقيل هو فارسي معرب (سنل، وكل) ذكره ابن عباس وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير .

والثاني – قال الفراء من طين قد طبخ حتى صار بمنزلة الآجر، ويقويه قوله « لنرسل عليهم حجارة من طين »[٢] . وقال ابو عبيدة انها شديدة من الحجارة وانشد لابن مقبل :

ضرباً تواصى به الابطال سجيناً[٣]

إلا ان النون قبلت لاماً .

الثالث – من مثل السجيل في الارسال، والسجيل الدلو، وقال الفضل ابن العباس :

من يساجلني يساجل ماجداً يملأ الدلو الى عقد الكرب[٤]

---

(١) مر تخريجه في ١ : ٤٣١ وهو في مجمع البيان ٣ . ١٨٥ .
(٢) سورة الذاريات آية ٣٣ .
(٣) مجمع البيان ٣ . ١٨٣ ومجاز القرآن ١ . ٢٩٦ واللسان (سجل)، (سجن) وتفسير الطبري ١٥ . ٤٣٤ .
(٤) تفسير الطبري ١٥ . ٤٣٥

الرابع – من اسجلته أذا أرسلته، فكأنه مثل مايرسل في سرعة الارسال .

الخامس – من اسجلته اذا اعطيته ، فتقديره مرسل من المطية في الادرار.

السادس – من السجل وهو الكتاب، فتقديره من مكتوب الحجارة، ومنه قوله «كلا ان كتاب الفجار لفي سجين وما ادراك ما سجين كتاب مرقوم »[١] وهي حجارة كتب الله ان يعذبهم بها ، اختاره الزجاج .

السابع – من سجين اي من جهنم ثم ابتدلت النون لاماً .

الثامن – قال ابن زيد من السماء الدنيا ، وهي تسمى سجيلاً .

ومعنى « منضود » قيل فيه قولان :

احدهما – قال الربيع نضد بعضه على بعض حتى صار حجراً ، وقال قتادة مصفوف في تتابع ، وهو من صفة سجيل ، فلذلك جره .

وقوله « مسومة » يعني معلمة ، وذلك انه جعل فيها علامات تدل على انها معدة للعذاب ، فاهلكوا بها ، قال قتادة : كانوا أربعة آلاف الف . وقيل : كانت مخططة بسواد وحمرة ذكره الفراء فتلك تعليمها ، ونصب (مسومة) على الحال من الحجارة .

وقوله « عند ربك » معناه في خزائنه التي لا يتصرف في شيء منها إلا باذنه، فاذا أمر الملك ان يطرها على قوم فعل ذلك باذنه . واصل المسوّمة من السيماء ، وهي العلامة ، وذلك ان الابل السائمة تختلط في المرعى ، فيجعل عليها السيماء لتمييزها .

وقوله « وما هي من الظالمين ببعيد » قيل في معناه قولان :

احدهما – ان مثل ذلك ليس ببعيد من ظالمي قومك يا محمد اراد به اذهاب قريش، وقال ابو علي ذلك لايكون إلا في زمان نبي أو عند القيامة، لأنه معجز.

والثاني – قال « وما هي من الظالمين ببعيد» يعنى من قوم لوط انها لم تكن تخطيهم. وقال مجاهد: إن جبرائيل (ع) ادخل جناحه تحت الارض السفلى من قوم

---

(١) سورة المطففين آية ٧ – ٩ .

لوط ثم أخذهم بالجناح الايمن فاخذهم مع سرحهم ومواشيهم . ثم رفعها الى سماء الدنيا حتى سمع اهل السماء نباح كلابهم. ثم قلبها، فكان اول ماسقط منها شرافها، فذلك قول الله تعالى « فجعلنا عاليها سافلها » قال السدي وهو قوله « والمؤتفكة اهوى »[1] وإنما أمطر الله عليهم الحجارة بعد أن قبلت قريتهم تغليظاً للعذاب وتعظيماً له ، وقيل قتل بها من كان بقي حياً ، وقرية قوم لوط يقال لها : سدوم ، بين المدينة والشام . وقيل إن إبراهيم (ع) كان يشرف عليها فيقول : سدوم يوم ما لك .

قوله تعالى :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ) (٨٤) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى انه أرسل شعيباً – أخا مدين – اليهم نبياً ، وانما سمى شعيباً أخاهم ، لأنه كان من نسبهم . وقيل : انهم من ولد مدين بن ابراهيم . وقيل ان مدين اسم القبيلة او المدينة التي كانوا فيها – في قول الزجاج – فعلى هذا يكون التقدير، والى أهل مدين أخاهم كما قال «واسأل القرية» فقال لهم شعيب : يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له، فانه ليس لكم إلـه يستحق العبادة سواه، ونهاهم ان يبخسوا الناس فيما يكيلوا به لهم ويزينونه لهم ، وقال لهم إني أراكم بخير، يعني برخص السعر، وحذرهم الغلاء – في قول ابن عباس والحسن – وقال قتادة وابن زيد : اراد بالخير زينة الدنيا والمال . وقال لهم « إني أخاف عليكم عذاب يوم محيط » يعني يوم القيامة ، لانه يحيط عذابه بجميع الكفار في قول الجبائي ، فوصف اليوم بالاحاطة ، وهو من نعت العذاب في الحقيقة ، لأن اليوم

(١) سورة النجم آية ٥٣ .

محيط بعذابه بدلاً من إحاطته بنعيمه، وذلك أظهر في الوصف وأهول في النفس. والنقصان اخذ الشيء عن المقدار والزيادة ضم الشيء الى المقدار، وكله خروج عن المقدار أو نقصه عنه. والوزن تعديل الشيء بغيره في الخفة والثقل بآلة التعديل، وإذا قيل شعر موزون معناه معدل بالعروض.

قوله تعالى:

(وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (٨٥) آية بلا خلاف.

وهذا أيضاً حكاية ما قال شعيب لقومه، وإنه امرهم ان يوفوا المكيال والميزان بالقسط يعني بالعدل والسوية، «ولا تبخسوا الناس اشياءهم» أي لا تنقصوهم «ولا تعثوا في الارض مفسدين» أي لا تضطربوا بالقبيح.

اللغة:

يقال عثى يعثي عثاء، وعاث يعيث عيثاً، بمعني واحد، والوفاء تمام الحق. والوفاء به إتمامه يقال: وفى يفي وأوفى لغتان، ونقيض الوفاء البخس. والفرق بين البخس والظلم أن الظلم أعم، لأن البخس نقصان الحق اللازم، وقد يكون الظلم الألم بغير حق.

قوله تعالى:

(بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) (٨٦) آية.

البقية تركه شيء من شيء قد مضى، والمعنى بقية الله من نعمه. وقيل «بقية الله» طاعة الله – في قول الحسن ومجاهد – لانه يبقى ثوابها أبداً، وكانت هذه البقية خيراً من تعجيلهم النفع بالبخس في المكيال والميزان، وانما شرط أنه خير بالايمان في قوله «ان كنتم مؤمنين» وهو خير على كل حال، لأنهم إن كانوا مؤمنين بالله

عرفوا صحته. ووجه آخر – ان المراد « إن كنتم مؤمنين » فهو ثابت .

وقوله «وما انا عليكم بحفيظ» معناه ههنا ان هذه النعمة التي انعمها الله عليكم لست أقدر على حفظها عليكم . وإنمـــا يحفظها الله عليكم . إذا اطعتموه ، فان عصيتموه أزالها عنكم .

وقال قوم « وما انا عليكم بحفيظ » احفظ عليكم كيلكم ووزنكم حتى توفوا الناس حقوقهم ، ولا تظلموهم ، وإنما علي ان انهاكم عنه .

قوله تعالى :

(قَالُوا يا شُعَيْبُ أَصلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (٨٧) آية بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر «أصلاتك» على التوحيد . الباقون على الجمع .

هذا حكاية ما قال قوم شعيب له (ع) حين نهاهم عن بخس المكيال والميزان وأمرهم بايفاء الحقوق « يا شعيب اصلاتك تأمرك » بهذا ، قال الحسن وأرادوا بالصلاة الدين أي ادينك . وقال الجبائي يريدون ما كانوا يرونه من صلاته لله وعبادته إياه ، وانما اضاف ذلك الى الصلاة ، لانها بمنزلة الامر بالخير ، والتناهي عن المنكر ، وقيل أدينك ، على ما حكيناه عن الحسن .

وقوله « ان نترك ما يعبد اباؤنا » كرهوا الانتقال عن دين آبائهم ودخلت عليهم شبهة بذلك ، لأنهم كانوا يعظمون آباءهم وينزهونهم عن الغلط في الأمر ، فقالوا لولم يكن صواباً ما فعلوه ، وان خفي عنا وجهه . وقوله « انك لانت الحليم الرشيد » قيل في معناه قولان :

احدهما – أنهم قالو ذلك على وجه الاستهزاء – في قول الحسن وابن جريج وابن زيد . والآخر – أنهم ارادوا «أنت الحليم الرشيد» عند قومك ، فلا يليق هذا الأمر بك، وقال المؤرج « الحليم الرشيد » معناه الاحمق السفيه ، بلغة هذيل، والحليم الذي لا يعاجل مستحق العقوبة بها ، والرشيد المرشد .

قال الزجاج « او ان نفعل » موضع (أن) نصب والمعنى او تأمرك ان نترك او ان نفعل في اموالنا ما نشاء ، والمعنى إنا قد تراضينا بالبخس فيما بيننا . وقال الفراء : معناه اتامرك ان نترك ان نفعل في اموالنا ما نشاء، فـ (ان) مردودة على نترك . ووجه آخر ، وهو ان يجعل الأمر كالنهي ، كأنه قال أصلاتك تأمرك بذا أو تنهانا عن ذا ، فهي حينئذ مردودة على (ان) الاولى ولا اضمار فيه ،كانك قلت تنهانا ان نفعل في اموالنا ما نشاء ، كما تقول اضربك ان تسيء ، كأنه قال انهاك بالضرب عن الاساءة . ويقرأ « ان نفعل في اموالنا ما تشاء » . والذي نقوله ان قوله « ان نفعل » ليس بمعطوف على (ان) الاولى ، وانما هو معطوف على (ما) وتقديره فعل ما نشاء في اموالنا ، وليس المعنى اصلاتك تأمرك ان نفعل في اموالنا ما نشاء ، لأنه ليس بذلك امرهم .

و « الرشيد » معناه رشيد الأمر ، في امره إياهم ان يتركوا عبادة الاوثان . وقيل ان قوم شعيب عذبوا في قطع الدراهم وكسرها وحذفها .

قوله تعالى :

(قَالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَني مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوفِيقِي إِلَّا بِٱللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (٨٨) آية بلا خلاف.

جواب (أن) في الآية محذوف، والتقدير يا قوم إن كنت على حجة ودلالة من ربي ، ومع ذلك رزقني منه رزقاً حسناً ، وانما وصفه بأنه حسن مع ان جميع رزق الله حسن لامرين :

احدهما – انه اراد بـ (حسناً) حسن موقعه لجلالته وعظمته .

والثاني – انه اراد ما هو عليه على وجه التأكيد . وقيل إن الرزق الحسن ههنا النبوة. وقال البلخي معناه الهدى والايمان، لانهما لا يوصل اليهما إلا بدعائه وبيانه ومعونته ولطفه،وتريدون أن أعدل عما انا عليه من عبادته مع هذه الحال الداعية اليها ؟، وانما حذف لدلالة الكلام عليه ، والرزق عطاء الخير الجاري في حكم المعطي، والعطية الواصلة من الانسان رزق من الله. وصلة من الانسان، لإدرار الخير على العبد في حكمه .

وقوله « وما أريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه » . قيل في معناه قولان :

احدهما – ليس نهيي لكم لمنفعة اجرّها الى نفسي بما تتركون من منع الحقوق.

والثاني – أنا لا انهى عن القبيح وافعله مثل من ليس بمستبصر في امره ، كما قال الشاعر :

لا تنه عن خلق وتاتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم[1]

وقوله « ان أريد الا الاصلاح » معناه لست أريد بما آمركم به وانهاكم عنه الا اصلاح حالكم ما قدرت عليه .

وقوله « وماتو فيقي الا بالله » والتوفيق عبارة عن اللطف الذي تقع عنده الطاعة وذلك بحسب ما يعلم الله تعالى . وانما لم يكن الموفق للطاعة الا الله ، لان احداً لا يعلم ما يتفق عنده الطاعة – من غير تعليم – سواه تعالى .

وقوله « عليه توكلت » معناه على الله توكلت وفوضت أمري اليه على وجه الرضا بتدبيره مع التمسك بطاعته « واليه أنيب » قيل في معناه قولان :

(١) مر هذا البيت في ١ : ١٩١ و ٢ : ١٩٣ و ٣ : ٤ و ٥ : ١٢٥

احدهما ـ قال مجاهد : اليه ارجع . والثاني – قال الحسن : اليه ارجع بعملي وبنيتي اي اعمل اعمالي لوجه الله .

قوله تعالى :

(ويا قَوْمِ لَا يَجْرِ مَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْم صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) (٨٩) آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما قال شعيب لقومه حين لم يقبلوا أمره ونهيه « يا قوم لا يجر منكم » وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال الحسن وقتادة لا يحملنكم .

والثاني – قال : الزجاج معناه لا يكسبنكم ، كانه قال لا يقطعنكم اليه بحملكم عليه .

والشقاق والمشاقة المباعدة بالعداوة الى جانب المباينة ، وشقها . وكان سبب هذه العداوة دعاؤه لهم الى مخالفة الاباء والاجداد في عبادة الاوثان . وما يثقل عليهم من الايفاء في الكيل والميزان .

وقوله « ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح » قيل اهلك الله قوم نوح بالغرق ، وقوم هود بالريح العقيم ، وقوم صالح بالرجفة ، وقوم لوط بالإئتفاك ، فحذرهم شعيب ان يصيبهم مثل ذلك .

وقوله « وما قوم لوط منكم ببعيد » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ قريب منكم في الزمان الذي بينهم وبينكم ، في قول قتادة .

والاخر – ان دارهم قريبة من دارهم فيجب ان يتعظوا بهم .

قوله تعالى :

(وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ

وَدُودٌ) (٩٠) آية بلا خلاف .

في هذه الآية حكاية ما قال شعيب أيضاً لقومه بعد تحذيره اياهم عذاب الله وحثهم على ان يطلبوا مغفرة الله . ثم يرجعوا الى طاعته ، واخبرهم ان الله رحيم بعباده ، يقبل توبتهم ويعفو عن معاصيهم ، ودود بهم أي محب لهم ، ومعناه مريد لمنافعهم .

وقيل في معنى « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه » قولان :

احدهما – اطلبوا المغفرة من الله بأن يكون غرضكم . ثم توصلوا اليها بالتوبة .

الثاني – استغفروا ربكم ثم اقيموا على التوبة .

ووجه ثالث – ان معناه استغفروا ربكم على معاصيكم الماضية . ثم ارجعوا اليه بالطاعات في المستقبل .

والمودة على ضربين : احدهما – بمعنى المحبة ، تقول وددت الرجل اذا احببته ، والثاني – وددت الشيء اذا تمنيته أود فيهما مودة وانا واد ، والودود المحب لاغير .

قوله تعالى :

(قَالُوا يا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ) (٩١) آية بلا خلاف .

في هذه الآية حكاية ما اجاب به قوم شعيب له (ع) فقالوا له حين سمعوا امنه الوعظ والتخويف : لسنا نفقه أي لسنا نفهم عنك معنى كلامك ، والفقة : فهم الكلام على ما تضمن من المعنى ، وقد صار علماً لضرب من علوم الدين ، فصار الفقة عبارة عن علم مدلول الدلائل السمعية ، واصول الدين علم مدلول الدلائل العقلية .

وقوله « وانا لنراك فينا ضعيفاً » قيل في معناه اربعة اقوال : قال الحسن : معناه مهينا ، وقال سفيان: معناه ضعيف البصر ، وقال سعيد بن جبير وقتادة: كان اعمى . قال الزجاج ويسمى الاعمى بلغة حمير ضعيفاً .

وقال الجبائي معناه : ضعيف البدن .

وقوله « ولولا رهطك » فالرهط عشيرة الرجل وقومه ، واصله الشد ، والترهط شدةالاكل،ومنه الرهطاء جحر اليربوع لشدته وتوثيقه ليخبىءفيه ولده.

وقوله « لرجمناك » فالرجم الرمي بالحجارة ، والمعنى لرميناك بالحجارة .

وقيل معناه لسبّيناك « وما انت علينا بعزيز » اي علينا لست بممتنع ، فلا نقدرعليك بالرجم،ولا أنت بكريم علينا،وانما تمتنع لمكان عشيرتك.وعشيرته كانوا على دينه .

قوله تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) (٩٢) آية .

هذا حكاية ما قال شعيب لقومه حين قالوا « لولا رهطك لرجمناك » يا قوم اعشيرتي وقومي أعز عليكم من الله. والاعز الأقوىالا منع. والاعز نقيض الاذل، والعزة نقيض الذلة والعزيز نقيض الذليل .

وقوله« واتخذتموه وراءكم ظهريا »فالاتخاذ اخذ الشيء لامر يستمر في المستأنف كاتخاذ البيت واتخاذ المركوب ، والظهري جعل الشيء وراء الظهر قال الشاعر:

وجدنا بني البرصاء من ولد الظهر[1]

---

(١) قائله ارطاة ابن سيهة ، انظر نسبه في الاغانى ١٣ : ٢٧ (دار الثقافة) . والبيت في اللسان(ظهر)ومجاز القرآن ١ :٢٩٨ وتفسير الطبري (دار المعارف) ١٥ :٤٥٩وصدره:
فمن مبلغ ابناء مرة أننا ...

وقال آخر :

تميم بن قيس لا تكونن حاجتي بظهر ولا يعيا علي جوابها[١]

وقيل فيما تعود الهاء اليه من قوله « اتخذتموه » ثلاثة اقوال : فقال ابن عباس والحسن : انها عائدة على الله . وقال مجاهد : هي عائدة على ما جاء به شعيب . وقال : الزجاج : هي عائدة على أمر الله .

وقوله « ان ربي بما تعملون محيط » قيل في معناه ههنا قولان :

احدهما – انه محص لاعمالكم لا يفوته شيء منها .

الثاني – انه خبير باعمال العباد ليجازيهم بها – ذكره الحسن – قال سفيان كان شعيب خطيب الأنبياء .

قوله تعالى :

(وَيا قَوْمِ ٱعْمَلوا على مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٩٣) مَنْ يَأْتِيهِ عَـذَابٌ يُخْزِيـهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَٱرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) (٩٤) آيتان .

فقال لهم شعيب ايضاً «يا قوم اعملوا على مكانتكم» والمكانة الحال التي يتمكن بها صاحبها من عمل ما ، فقال لهم قد مكنتم في الدنيا من العمل، كما مكن غيركم من عمل بطاعة الله ، وسترون منزلتكم من منزلته . وهذا الخطاب وإن كان ظاهره ظاهر الأمر فالمراد به التهديد ، وتقديره كأنكم انما أمرتم بأن تكونوا على هذه الحال من الكفر والعصيان . وفي هذا نهاية الخزي والهوان .

وقوله « سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه» معناه انكم تعلمون في المستقبل

---

(١) قائله الفرزدق ديوانه ١ : ٩٥ وقـد مر في ٣ : ٧٤ وهو في اللسان (ظهر) ورواية الديوان (زيد لا تهونن) بدل (قيس لا تكونن) .

من يحل به العذاب الذي يخزيه اي يفضحه ويذله ، وهو أشد من العذاب الذي لا يفضح « ومن هو كاذب » وتعرفون من هو الكاذب مني ومنكم .

وقوله « وارتقبوا » معناه انتظروا ما وعدتكم به من العذاب ، يقال رقبه يرقبه رقوباً وارتقبه ارتقاباً وترقبه ترقباً « اني معكم رقيب » اي منتظر لنزول ذلك بكم. وموضع «من يأتيه» ان جعلت (من) بمعنى الذي نصب ، وقوله «ومن هو كاذب » عطف عليه، وان جعلتها للاستفهام كان موضعها الرفع ، ذكره الفراء وادخلوا (هو) في قوله «ومن هو» لانهم لا يقولون: من قائم؟ ولا من قاعد؟، وانما يقولون : من قام؟ ومن يقوم؟ أو من القائم؟ فلما لم يقولوا إلا المعرفة او يفعل ، ادخلوا (هو) مع قائم، ليكونا جميعاً في مقام (فعل، ويفعل) لانهما يقومان مقام اثنين ، وقد ورد في الشعر من قائم ? قال الشاعر :

من شارب مَرْبح بالكأس نادمني   لا بالحصور ولا فيها بسئوار[1]

قال الفراء: وربما خفضوا بعدها، فيقولون: من رجل يتصدق عليّ؟ بتأويل هل من رجل ?

قوله تعالى :

(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)(٩٥) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه « لما جاء أمر » الله باهلاك قوم شعيب، وقد بينا معناه فيما مضى[2] « نجينا شعيباً » اي خلصناه ، ونجينا معه من كان مؤمناً من قومه برحمة

---

(١) قائله الاخطل ديوانه ١٠٧ واللسان (سور) وروايته : (وشارب مرج) .
(٢) في ٤ : ٤٦٢ — ٥٠٤ .

من جهته تعالى ، ويجوز ان يكون في نجاة شعيب، ومن آمن معه لطف لمن سمع بأخبارهم فيؤمن، كما انه متى كان في نجاة الظالمين لطف وجب تخليصهم، وكذلك ان كان المعلوم من حال الكافر انــه يؤمن فيما بعد وجب تبقيته – عند أبي علي ومن وافقه – وعند قوم آخرين لا يجب .

وقوله «وأخذت الذين ظلموا الصيحة» انث الفعل ههنا لانه رده الى الصيحة، وفيما قبل[١] ذكّر، لانه رده الى الصياح.

وقوله «فاصبحوا في ديارهم جاثمين» قال الجبائي: معناه منكبين على وجوههم. وقال قوم : الجثوّ على الركب . وقال قوم : معناه خامدين موتى . قال البلخي يجوز ان تكون الصيحة صيحة على الحقيقة ، كما روي ان الله تعالى امر جبرائيل فصاح بهم صيحة ماتوا كلهم من شدتهـــا ، ويجوز ان يكون ضرباً من العذاب اهلكهم واصطلمهم تقول العرب : صاح الزمان بآل فلان إذا هلكوا. قال امرؤ القيس :

دع عنك نهبـــاً صيح في حجراته ولكن حديث ما حديث الرواحل[٢]

(معنى صيح في حجراته) اي اهلك وذهب به .

قوله تعالى :

(كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ) (٩٦)

آية بلا خلاف.

شبه الله تعالى هلاك قوم شعيب وانقطاع آثارهم منها بحالهم لو لم يكونوا فيها يقال: غني بالمكان إذا اقام به على وجه الاستغناء بـه عن غيره . واتخاذه وطناً ومأوى يأوي اليه ، ولذلك قيل للمنازل المغاني ، وانما شبه حالهم بحـــال ثمود خاصة ، لانهم أهلكوا بالصيحة كما اهلكت ثمود مثل ذلك مع الرجفة .

---

(١) آية ٦٧ من هذه السورة .
(٢) ديوانه : ١٧٤ واللسان (حجر) .

وقوله « ألا بعداً لمدين » دعاء عليهم بانتفاء الرحمة عنهم كما أهلك الله تعالى ثمود ، فلم يرحمهم ، وجعل انتفاء الرحمة بعداً من الرحمة ، لانه أظهر فيما يتصور، فكأنهم يرونها حسرة لانها لا تصل اليهم منها منفعة لما يحصلون عليه من مضرة الحسرة ، و (كأن) هذه يحتمل ان تكون مخففة من الثقيلة على ان يضمر فيها ، كالاضمار في (ان) من قوله «وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين»[١] ويجوز ان تكون (ان) التي تنصب الفعل بمعنى المصدر . وبعدت وبعُدت بالكسر والضم لغتان . وكانت العرب تذهب بالرفع الى التباعد ، وبالكسر الى الدعاء ، وهما واحد . وقرأ ابو عبد الرحمن السلمي كما بعدت بضم العين . والآخر بعداً فنصب على المصدر ، وتقديره ألا أهلكهم الله فبعدوا بعداً .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسَى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٩٧) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمـا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) (٩٨)

آيتان بلا خلاف .

اخبر الله تعالى واقسم انه ارسل موسى نبياً بالآيات، وهي الحجج والمعجزات الدالة على نبوته « وسلطان مبين » اي وحجة ظاهرة مخلصة من تلبيس وتمويه ، على اتم ما يمكن فيه . والسلطان، والآيات وإن كان معناهما الحجج، فأنما عطف احداهما على الأخرى، لاختلاف اللفظ، ولان معناهما مختلف، لان الآيات حجج من وجه الاعتبار العظيم بها ، والسلطان من جهة القوة العظيمة على المبطل، وكل علم له حجة يقهر بها شبهة من نازعه من اهل الباطل تشبهه ، فله سلطان . وقد قيل إن سلطان الحجة انفذ من سلطان المملكة ، والسلطان متى كان محقاً حجة

---

(١) سورة يونس آية ١٠ .

وجب اتباعه ، واذا كان بخلافه لا يجب اتباعه .

وقال الزجاج . سمي السلطان سلطاناً ، لانه حجة الله في ارضه ، واشتقاقه من السليط وهو مما يستضاء به ، ومن ذلك قيل للزيت السليط .

وقوله « الى فرعون وملائه » معناه انـه ارسل موسى الى فرعون واشراف قومه الذين تملأ الصدور هيبتهم .

وقوله « فاتبعوا أمر فرعون » فالاتباع طلب الثاني للتصرف بتصرف الاول في اي جهة اخذ ، والأمر هو قول القائل لمن دونه : (افعل) . وفيه أخبار ان قوم فرعون اتبعوه على ما كان يأمرهم به . ثم اخبر تعالى ان أمر فرعون لم يكن رشيداً . والرشيد هو الذي يدعو الى الخير ويهدي اليه فـأمر فرعون بضد هذه الحال ، لانه يدعو الى الشر ويصد عن الخير .

واستدل قوم بهذه الآية على ان لفظة الأمر مشتركة بين القول والفعل ، لأنه قال « وما أمر فرعون برشيد » يعني ومـا فعل فرعون برشيد ، وهذا ليس بصحيح ، لانه يجوز ان يكون اراد بذلك الأمر الذي هو القول ، او يكون مجازاً .

قوله تعالى :

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّـارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ) (٩٩) آية بلا خلاف .

هذا اخبار من الله تعالى ان فرعون يوم القيامة يقدم قومه ، ومعناه يمشي على قدمه يقودهم الى النار ، ولو قال يسبق ، لجاز ان يوجده الله (عز وجل) قبلهم في النار . والقيامة هو وقت قيام الناس من قبورهم للجزاء والحساب باعمالهم .

وقوله « فاوردهم النار » معناه اوجب ورودهم الى النار ، والايراد ايجـاب الورود الى الماء او ما يقوم مقامه . قال ابو علي : انما لم يقل يوردهم النار ، لانـه

ذكر ليوم القيامة انه يقدمهم فيه ، يدل على انه فعل مستقبل فأجرى الماضي مجرى المستقبل لدلالة الكلام عليه .

وقوله « وبئس الورد المورود » قال أبو علي : انه مجاز ، والمعنى بئس وارد النار . وقال البلخي : بل هو حقيقة ، لانه تعالى وصف النار بانها بئس الورد المورود ، وهي كذلك . والورد الماء الذي ترده الابل ، والورد الابل التي ترد الماء ، والورد ما يجعله عادة لقراءة أو تلاوة للقرآن. والورد ورد الحمى ، كل ذلك بكسر الواو ، وحكي عن ابن عباس ان الورد الدخول. والمعنى ان ما وردوه من النار هو المورود بئس الورد لمن ورده . ويقال إنهم اذا وردوه عطاشاً فيردون على الحميم والنيران ولا يزيدون بذلك إلا عذاباً وعطشاً. وانما وصف بأنه بئس، وان كان عدلاً حسناً لما فيه من الشدة مجازاً .

قوله تعالى

(وَأُتْبِعُوا فِي هَـٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) (١٠٠) آية بلا خلاف.

معنى قوله «واتبعوا في هذه لعنة» ان الله لعنهم والملائكة والمؤمنون، فاختصر على وجه ما ذكرنا على ما لم يسم فاعله ، لان الايجاز لا يخل بهذا المعنى . واللعن من العباد الدعاء والمسألة لله تعالى بالابعاد من الرحمة – في قولهم لعنة الله – والذم الوصف بالقبيح على وجه التحقير .

ومعنى الآية انهم كيف تصرفوا، وحيث كانوا ، فاللعنة تتبعهم . واللعنة من الله الابعاد من رحمته بان يحكم بذلك، فمن لعنه الله فقد حكم بابعاده من رحمته وانه لا يرحمه .

وقوله « ويوم القيامة بئس الرفد » والرفد العون على الأمر ، وانما قيل

ههنا – رفد ، لان اللعنة جعلت بدلا من الرفد بالعطية ، ويقـال : رفده وهو يرفده رفداً ، ورفد – بفتح الراء وكسرها – قال الزجاج كل شيء جعلته عوناً لشيء واسندت به شيئاً فقد رفدته ، يقال عهدت الحائط ورفدته بمعنى واحد ، والرفد القدح العظيم ، وروي – بفتح الراء – في الاية وهي لغة شاذة .

قوله تعالى :

(ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) (١٠١) آية بلا خلاف .

قوله « ذلك » اشارة الى النبأ كأنه قال النبأ من انباء القرى ، وقد تقدم ذكره . ثم وقعت الاشارة اليه ، والانباء جمع نبأ كالاخبار جمع خبر الا انه لا يقال نبأ الا في خبر عظيم ، يقال لهذا الأمر نبأ اي خبر عظيم .

قوله « نقصه عليه » فالقصص الخبر عن الامور التي يتلو بعضها بعضاً ، يقال قص قصصاً وهو يقص اثره اي يتبع اثره ، واقتص منه اي يتبعه بجنايته .

وقوله « منها قائم وحصيد » فالقائم المعمور ، والحصيد الخراب من تلك الديار ، لان الاهلاك قد اتى عليها ولم تعمر فيما بعد . وقيل « منها قائم » على بنائه وان كان خالياً من اهله ، والحصد قطع الزرع من الاصل ، فالحصيد منهم كالزرع المحصود ، وحصدهم بالسيف اذا قتلهم .

قوله تعالى :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه بما فعله بالامم التي أهلكها لم يظلم احـداً منهم ، ولكن ظلموا هم انفسهم بأن ارتكبوا المعاصي التي استحقوا بها الهلاك فكان ذلك ظلمهم لانفسهم ، وبين انه « ما أغنت عنهم آلهتهم » يعني الاوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله ما دفعت عنهم ولا اعانتهم بشيء لما جاء امر الله واهلاكه وعذابه « وما زادوهم غير تتبيب » بمعنى غير تخسير – في قول مجاهد وقتادة – مأخوذ من تبت يده أي خسرت ، ومنه تبأ له ، وقال جرير :

عرادة من بقية قوم لوط   ألا تبأ لما فعلوا تبابا [١]

وانما قال يدعون من دون الله ، لانهم كانوا يسمونها آلهة ويطلبون الحوائج منها ، كما يطلب الموحدون من الله . ومعنى « من دون الله » مَن منزلته ادنى من منزلة عبادة الله ، لانه من الأدون ، وهو الأقرب الى جهة السفلى .

قوله تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (١٠٣) آية بلا خلاف .

وجه التشبيه في قوله « وكذلك اخذ ربك » ان اخذه الظالم الذي يساوي من تقدمه في ظلمه وحاله في بطلان الفلاح ببقائه ، كأخذه الذي قبله ، لانه ليس هناك محاباة لاحد من خلقه . والاخذ نقل الشيء الى جهة الآخذ ، فلما نقلهم الله الى جهة عقابه كان قد اخذهم به ، والظالم الفاعل للظلم والعادل الفاعل للعدل . ثم اخبر تعال ان اخذه للظالم مؤلم شديد ، والشدة تجمع يصعب معــه التفكك ، ويقال للنقص شدة ، وشدة الألم لجمعه على النفس بما يعسر زواله .

---

(١) ديوانه : ٧٢ من قصيدة في هجاء الراعي النميري ، وهو في تفسير الطبري ١٥ : ٤٧٢

قوله تعالى :

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) (١٠٤) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى ان فيما أخبر به ـ من إهلاك من ذكره على وجه العقوبة لهم على كفرهم ـ آية أي علامة عظيمة بما فيها من البيان عن الامر الكثير قال الشاعر :

بآية تقدمون الخيل زوراً   كأن على سنابكها مداماً[(١)]

قوله « لمن خاف عذاب الاخرة » أي لمن خشي عقوبة الله يوم القيامة ، والخوف انزعاج النفس بتوقع الشر ونقيضه الامن ، وهو سكون النفس بتوقع الخير . والفرق بين العذاب والالم أن العذاب استمرار الالم قال عبيد :

فالمرؤ ما عاش في تكذيب   طول الحياة له تعذيب[(٢)]

وقوله « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » معناه ان يوم القيامة يوم يجمع فيه الناس ويشهده جميع الخلائق ، وليس يوصف في هذه الصفة يوم سواه ، والجمع ضم احد الشيئين الى الآخر . وقيل هو جعل الشيئين فصاعداً في معنى ، والقبض ضم الشيء الى الوسط كقبض البساط ، وهو نقيض بسطه من غير تبري اجزائه .

قوله تعالى :

(وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٥) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) (١٠٦) آيتان بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلا الكسائي وابن عامر يوم (يأت) بغير ياء. الباقون بياء في

---

(١) اللسان (أيا) وروايته (شعثا) بدل (زورا)

(٢) مر هذا البيت في ٥ : ٢١٦

الوصل دون الوقف ، إلا ابن كثير ، فانه أثبت الياء في الحالين .

قال أبو علي : من أثبت الياء في الوصل ، فهو القياس البين ، لأنه لا شيء - ههنا - يوجب حذف الياء في الوصل ، ومن حذفها في الوقف شبهها بالفاصلة ، وان لم يكن فاصلة ، لأن هذه الياء تشبه الحركات المحذوفة بدلالة انهم قد حذفوها كما حذفوا الحركة ، فكما ان الحركة تحذف في الوقف ، فكذلك ما يشبهها من هذه الحروف ، فكان في حكمها ، ومن اثبتها في الحالين فقد أحسن ، لأنها أكثر من الحركة في الصوت ، فلا ينبغي اذا حذفت الحركة للوقف ان تحذف الياء له ، كما لا تحذف سائر الحروف ، ومن حذف الياء في الحالين جعلها في الحالين بمنزلة ما يستعمل محذوفاً مما لم يكن ينبغي في القياس ان يحذف نحو (لم يك ، ولا أدر) وهي لغة هذيل ، قال الشاعر :

كفاك كفاً لا تليق درهماً جواداً وأخرى تعط بالسيف الدما(١)

فحذف الياء في تعط ، وليس هذا ما يوجب حذفها .

والضمير في قوله « وما نؤخره » عائد على قوله « يوم مشهود » وهو يوم الجزاء . ومعناه الاخبار بأنه تعالى ليس يؤخر يوم الجزاء إلا ليستوفي الاجل المضروب لوقوع الجزاء فيه . وانما قال « لأجل » ولم يقل الى اجل ، لان قوله « لاجل » يدل على الغرض ، وان الحكمة أقتضت تاخيره . ولو قال الى اجل لما دل على ذلك . وقوله « يوم يأتي » يعنى يوم القيامة الذي تقدم ذكره بأنه مشهود . والضمير في (ياتى) حين الجزاء ، لانه قد تقدم الدليل عليه في قوله « يوم مشهود » واحسن الاضمار ما يدلّ الكلام عليه ، وانما أضاف (يوم) الى الفعل ، لانه اسم زمان فناسب الفعل للزمان من حيث انه لا يخلو منه ، وانه يتصرف بتصرفه ، وانه لا يكون حادثاً الا وقتاً ، كما ان الزمان لا يبقى .

ومعنى قوله « لا تكلم نفس إلا باذنه » أي لا تتكلم فحذف أحدى التائين

---

(١) تفسير القرطبى ٩ : ٩٨ واللسان (ليق)

لدلالة الكلام عليه . وقيل في معنى « لاتكلم » قولان :

احدهما - ان فيه وقتاً يمنعون من التكلم إلا بالحق فهو باذنه تعالى .

والاخر - انه لا يتكلم بكلام ينفع إلا بإذنه : من شفاعة ووسيلة ، بدلالة قولهم « والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون [١] » .

وقال الجبائي : الاذن الجاؤهم الى الحسن ، لانه لا يقع منهم ذلك اليوم قبيح.

وقوله « فمنهم شقي وسعيد » اخبار منه تعالى بأنهم ينقسمون قسمين منهم الاشقياء ، وهم المستحقون للعقاب ، ومنهم السعداء وهم المستحقون للثواب .

والشقاء قوة أسباب البلاء ، والشقي من شقي بسوء عمله في معاصي الله ، والسعيد من سعد بحسن عمله في طاعة الله ، وانما وصف الاجل بأنه معدود ، لانه متناه منقض ، لان كل معدود قد وجد عدده ، لا يكون ذلك الا متناهياً.

فان قيل كيف قال - ههنا - « يوم يأتي لاتكلم نفس إلا باذنه » وقال في موضع آخر « هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون » [٢] وقال في موضع آخر « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها » [٣] وقال « وقفوهم انهم مسؤلون [٤] » وقال في موضع آخر « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان » [٥] وهل هذا إلا ظاهر التناقض ؟! .

قلنا : لا تناقض في ذلك لان معنى قوله «وقفوهم انهم مسؤلون» انهم يسألون سؤال توبيخ وتقرير وتقريع ، لايجاب الحجة عليهم لا سؤال استفهام ، لانه تعالى

---

(١) سورة الانعام آية ٢٤ - ٢٥
(٢) سورة المرسلات ٣٥ - ٣٦
(٣) سورة النحل آية ١١١
(٤) سورة الصافات آية ٢٤
(٥) سورة الرحمن آية ٣٩

عالم بذلك لنفسه . وقوله « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان »[١] اي لا يسأل ليعلم ذلك منه حيث انه تعالى قد علم اعمالهم قبل ان يعملوها . وقيل ان معناه إنه لا يسأل عن ذنب المذنب إنس ولا جان غيره ، وانما يسأل المذنب لا غير ، وكذلك قوله « يوم لا ينطقون »[٢] أي لا ينطقون بحجة ، وانما يتكلمون بالاقرار بذنوبهم ولوم بعضهم بعضاً ، وطرح بعضهم على بعض الذنوب ، فاما المتكلم بحجة ، فلا . وهذا كما يقول القائل لمن يخاطبه بخطاب كثير فارغ من الحجة : ما تكلمت بشيء ، وما نطقت بشيء ، فسمي من يتكلم بما لا حجة فيه له : غير متكلم، كما قال « صم بكم عمي فهم لا يعقلون »[٣] وهم كانوا يبصرون ويسمعون إلا انهم لا يقبلون ولا يفكرون فيما يسمعون، ولا يتأملون ، فهم بمنزلة الصم ، قال الشاعر :

أصم عما ساءه سميع [٤]

وقال بعضهم ان ذلك اليوم يوم طويل له مواضع ، ومواطن ، ومواقف ، في بعضها يمنعون من الكلام ، وفي بعضها يطلق لهم ذلك بدلالة قوله « يوم يأتي لا تكلم نفس إلا باذنه » وكلاهما حسن والاول احسن .

قوله تعالى :

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) (١٠٨) آيتان بلا خلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذينَ شقوا باستحقاقهم عذاب النار جزاء بسوء اعمالهم داخلون في النار، وانما سمي الشقي شقياً قبل دخوله في النار، لانه

---

(١) سورة الرحمن آية ٣٩
(٢) سورة المرسلات ٣٥
(٣) سورة البقرة آية ١٧١
(٤) مر تخريجه في ٢ : ٤٨٠ ، ١٣٤ : ٥ ، ٤٣٩ :

على حال تؤديه الى دخولها ، من قبائح اعماله . فاما ما روي من قوله (ع) (إن الشقي شقيّ في بطن امه) ، فجاز ، لان المعنى ان المعلوم من حاله انه سيشقى بارتكاب المعاصي التي تؤديه الى عذاب النار ، كما يقال لولد شيخ هرم هذا يتيم ومعناه انه سيتيتم .

وقوله « لهم فيها زفير وشهيق » قال أهل اللغة : الزفير أول نهاق الحمير ، والشهيق آخر نهاقها ، قال رؤبة :

حشرج في الجوف سحيلاً أو شهق حتى يقال ناهق ومـــا نهق [1]

والزفير ترديد النفس مع الصوت من الحزن حتى تنتفخ الضلوع قال الجعدي :

خيط على زفـــيرة فتم ولم يرجع الى دقة ولا هضم [2]

وأصل الزفير الشدة من قولهم للشديد الخلق المزفور ، والزفر الحمل عـــلى الظهر خاصة لشدته ، قال الشاعر :

طوال انضية الاعناق لم يجدوا ريح الاماء إذا راحت بأزفار [3]

والزفر السيد ، لانه يطيق عمل الشدائد ، وزفرت النار اذا سمع لها صوت في شدة توقدها ، والشهيق صوت فظيع يخرج من الجوف عند النفس . واصله الطول المفرط من قولهم : جبل شاهق أي ممتنع طولا .

وقوله « خالدين فيها ما دامت السموات والارض » فالخلود الكون في الامر أبداً ، والدوام البقاء أبداً ، ولهـــذا يوصف الله تعال بأنه دائم ، ولا يوصف بأنه خالد .

وقوله « إلا ما شاء ربك» أختلفوا في هذا الاستثناء على عدة أقوال : فالذي نختاره – ويليق بمذهبنا في الارجاء – ان الله تعالى أخبر ان الاشقياء

---

(١) ديوانه ١٠٦ وتفسير القرطبي ٩ : ٩٨ واللسان (حشرج) وتفسير الطبري ١٥ : ٤٧٩

(٢) اللسان (زفر) (٣) اللسان (زفر)

المستحقين للعقاب يحصلون في النار ثم استثنى من أراد من فساق أهل الصلاة إذا أراد التفضل باسقاط عقابه، أو من يشفع فيه النبي ﷺ فانه عند ذلك لا يدخله النار وتكون - على هذا - (ما) معناها (من) كأنه قال الا من شاء ربك، فلا يدخله النار، وهو قول ابن عباس وقتادة والضحاك، وجابر بن عبد الله، وابي سعيد الخدري وجماعة من المفسرين. ويجوز على هذا المذهب أن يكون استثناء من الخلود، فكأنه قال إلا ما شاء ربك بأن لا يخلدهم في النار بل يخرجهم عنها.

وقال قتادة : ذكر لنا أن ناساً يصيبهم سفع من النار بذنوب اصابوا، ثم يدخلهم الله الجنة بفضله ورحمته يقال لهم الجهنميون، قال قتادة وحدثنا أنس ابن مالك أن رسول الله ﷺ قال يخرج قوم من النار . وقال قتادة : ولا نقول ما يقول اهل حروراء .

وروي عن ابن عباس أنه قال قوله « لابثين فيها أحقابا »[١] وقوله « خالدين فيها إلا ما شاء ربك » في اهل التوحيد . وروي عن ابن مسعود أنه قال : ليأتين على جهنم زمان تخفق ابوابها ليس فيها أحد . وذلك بعد أن يلبثوا فيها أحقابا . وقال الشعبي : جهنم أسرع الدارين عمرانا، واسرعها خراباً .

ثانيها - قال ابن زيد وحكاه الرماني : إن المعنى خالدين فيها ما دامت السموات سموات، والارض أرضاً إلا ما شاء ربك، من الزيادة المضاعفة.

وثالثها - قال الجبائي: إن المعنى ما دامت السموات لاهل الآخرة وأرضهم إلا ما شاء ربك مما كان قبل أن يدخلوها من أوقات وقوفهم في صدر يومهم في الموقف، لان الله تعالى قال « يوم تبدل الارض غير الارض والسموات » .

ورابعها - ما ذكره كثير من أهل العربية كالفراء والزجاج وغيرهم: ان (إلا) في الاية بمعنى (سوى) والتقدير ما دامت السموات والارض سوى ما شاء ربك كما يقول القائل: لو كان معنا رجل إلا زيد أي سوى زيد، ولك عندي ألف درهم

---

(١) سورة النبأ آية ٢٣

الا الألفين التي لك عندي، أي سوى الألفين. ومثله قوله « ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » [١] أي سوى مـا قد سلف ، لأن قوله « ولا تنكحوا » مستقبل « وإلا ما شاء ربك » ماض، والمعنى على هذا «خالدين فيها» مقدار دوام السموات والأرض سوى « ما شاء ربك » من الخلود والزيادة .

وخامسها – ما قال الفراء : إن (الا) بمعنى الواو كما قال الشاعر :

وكل أخ مفـارقه أخوه   لعمر أبيك الا الفرقدان[٢]

وعلى هـذا لو قال القائل لك عندي ألف الا الفين لزمه ثلاثة آلاف درهم ، لأنه أستثناء الزائد من الناقص ، فكأنه قال الا ألفين منفردين. ولو قال ما لك عندي الف الا الفين فانما أقر بألفين كأنه قال مـا لك عندي سوى الفين . ولو قال لك عندي ألف الا ألفان بالرفع أقر بألف فقط ، لأنهـا صفة مثبتة ، كأنه قال الف لا الفان .

وسادسها – أن ذلك تعليق لما لا يكون بما لا يكون ، كأنه قال « الا مـا شاء ربك » وهو لا يشاء ان يخرجهم منها وتكون الفائدة أن لو شاء أن يخرجهم لقدر ، ولكنه قد أعلمنا انهم خالدون أبداً .

وسابعها – ذكره الزجاج : ان الاستثناء وقع على أن لهم زفيراً وشهيقاً إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي لم يذكرها .

وثامنها – ذكره البلخي : ان المراد بذلك الا ما شاء ربك من وقت نزول الآية الى دخولهم النار ، ولولا هذا الاستثناء لوجب ان يكونوا في النـــار من وقت نزول الآية أو من يوم يموتون .

فان قيل كيف يستثنى من الخلود فيها ما قبل الدخول فيها ؟!
قلنا : يجوز ذلك إذا كان الاخبار به قبل دخولهم .

---

(١) سورة النساء آية ٢٢ .
(٢) امالي السيد المرتضي ٢:٨٨ وسيبويه١:٣٧١ وتفسير القرطبي ٩:١٠١ وقد نسب الى عمرو بن معد كرب .

وتاسعها - ما ذكره قوم من اصحابنا في التفسير إن المعنى انهم فيها يعني في النار في حال كونهم في القبور دائمين فيها ما دامت السموات والارض، فانها اذا عدمت انقطع عقابهم الى أن يبعثهم الله للحساب.

وقوله «الا ما شاء ربك» مما يكون في الآخرة.

وقوله «إن ربك فعال لما يريد» معناه انه كلما أراد شيئاً فعله، لانه لا يجوز عليه البداء بالرجوع عما أراده، ولا المنع من مراده ولا يتعذر عليه شيء منه مع كثرته بارادة من أفعاله.

قوله تعالى:

(وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) (١٠٩) آية بلا خلاف.

القراءة واللغة:

قرأ أهل الكوفة الا أبا بكر «سعدوا» بضم السين. الباقون بفتحها.

قال ابو علي: حكى سيبويه: سعد يسعد سعادة، فهو سعيد. وينبغي أن يكون غير متعد، كما أن خلافه الذي هو (شقي) كذلك، واذا لم يكن متعدياً لم يجب أن يبني منه المفعول به، وإذا كان كذلك، ضم السين مشكل الا ان يكون سمع فيه لغة خارجة عن القياس أو يكون من باب (فعل وفعلته) نحو غاض الماء وغضته، وحزن وحزنته، ولعلهم استشهدوا على ذلك بقولهم (مسعود) فانه على سعد فهو مسعود، ولا دلالة في ذلك، لأنه يجوز ان يكون مثل أجنه الله فهو مجنون، واحبه فهو محبوب، فالمفعول جاء في هذا على أنه حذفت الزيادة منه، كما حذف من اسم الفاعل في نحو (ويكشف جمانة دلو الدالي) وانما هو المدلي،

ومثله « وارسلنا الرياح لواقح »[١] يعني ملاقح فجـاء على حذف الزيادة ، فعلى هذا يكون أصله أسعدوا بحذف الزائد. وحكى البلخي انها لغتان - ضم السين- لغة هذيل ، وفتحها لغة سائر العرب .

المعنى :

لما اخبر الله تعالى أن الذين شقوا بفعلهم المعاصي واستحقوا الخلود في النار ، أخبر ان الذين سعدوا بطاعات الله والانتهاء عن معاصيه يكونون في الجنة « ما دامت السموات والارض إلا ما شاء ربك » ومعنى ما دامت السموات والارض المصدر، كأنه قال دوام السموات والارض الا مشيئة ربك، وفيه حسن التقابل، وفيه جميع ما ذكرناه في الاستثناء من الخلود في النار إلا الوجهين الذين ذكرناهما في جواز إخراج بعض الاشقياء ممن تناول الوعيد لهم وإخراجهم من النار بعد دخولهم فيها ، فان ذلك لا يجوز - ههنا - لاجماع الأمة على أن كل مستحق للثواب لا بد أن يدخل الجنة ، ولا يخرج منها بعد دخوله فيها .

وقيل فيه وجه آخر يوافق ما قلناه في الآية الاولى ، وهو أن يكون المعنى «ان الذين سعدوا» بطاعات الله يدخلون الجنة خالدين فيها، واستثنى من جملتهم من كان مستحقاً للنار ، واراد الله عقابهم . ثم إخراجهم منها فكأنه قال خالدين فيها الا مدة مـا كانوا معاقبين في النار ، ذهب اليه الضحاك وهو يليق بقولنا في الارجاء .

وقوله « عطاء غير مجذوذ» يعني غير مقطوع - في قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك - يقال جذّه يجذه جذّاً فهو جاذ، وجذ الله أثرهم قال النابغة :

يجذّ السلوقي المضاعف نسجه ويوقد بالصفاح نار الحباحب[٢]

---

(١) سورة الحجر آية ٢٢ .
(٢) ديوانه : ٤٤ وتفسير القرطبي ٩ : ١٠٣ واللسان (حبحب) ، (سلق) ، (صفح) وروايته (تقد) بدل (يجذ) و (توقد) بدل (يوقد) .

ويقال جذه الله جذ الصليانة، وهي نبات. وقوله (عطاء) نصب على المصدر بما يدل عليه الأول كأنه قال اعطاهم النعيم عطاء غير مجذوذ.

قوله تعالى:

(فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ) (١١٠)

آية بلا خلاف.

نهى الله تعالى نبيه - والمراد به أمته - ان يكونوا في شك من عبادة هؤلاء يعني الكفار الذين تقدم ذكرهم، وانه باطل. و (المرية) - بكسر الميم وضمها - الشك مع ظهور الدلالة البينة. وأصله مري الضرع ليدر بعد درروه، فلا معنى له إلا العبث بفعله.

وقوله «ما يعبدون إلا كما يعبد اباؤهم من قبل» أنهم مقلدون في عبادتهم الأوثان، كما كان آباؤهم كذلك.

وقوله «وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص» أخبار منه تعالى انه يعطيهم - على جهة الوفاء - قسمتهم من خير أو شر على قدر استحقاقهم - في قول ابن عباس - وقال ابن زيد: ما يستحقونه من العذاب من غير ان ينقص منه شيء على وجه العقوبة بعد أن يوفوا ما حكم لهم به من الخير في الدنيا.

و (النصيب) القسم المجعول لصاحبه ومنه انصباء الورثة. والنصيب الحظ والنقص البخس والمنقوص المبخوس.

قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١١) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى أنه أعطى موسى الكتاب يعني التوراة وإن قومه اختلفوا فيه يعني في صحة الكتاب الذي انزل اليه ، وأراد بذلك تسلية النبي ﷺ عن تكذيب قومه إياه وجحدهم للقرآن المنزل عليه ، فبين له أنه كذلك فعل قوم موسى بموسى ، فلا تحزن لذلك ، ولا تغتم له . ثم قال « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم » معناه ولولا خبر الله السابق بأنه يؤخر الجزاء الى يوم القيامة لما في ذلك من المصلحة ، لعجل الثواب والعقاب لأهله . (والكلمة) واحدة الكلم ولذلك ، يقال للقصيدة : كلمة . ثم أخبر عن حال كفار قوم النبي ﷺ أنهم لفي شك مما اخبرناك به مريب ، و(الريب) أقوى الشك . (والاختلاف) ذهاب كل واحد الى جهة غير جهة الآخر ، وهو على ثلاثة أوجه :

احدها ــ اختلاف النقيضين فهذا لا يجوز أن يصحا معاً ، فاحدهما مبطل لصاحبه .

والآخر اختلاف الجنسين ، كاختلاف المجتهدين في جهة القبلة ، فهذا يجوز أن يصحا ، لانه تابع للمصلحة ولا تناقض في ذلك ، ومنه اختلاف المجتهدين في الفروع على مذهب من قال بجوازه .

قوله تعالى :

(وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (١١٢) آية بلا خلاف .

القراءة :

اختلف القرّاء في قوله « وان كلا لما » على اربعة اوجه :

قرأ ابن كثير ونافع بتخفيف (إن) وتخفيف (لما) وقرأ ابن عامر وحمزة

وحفص عن عاصم بتشديدهما معاً . وقرأ أبو عمرو والكسائي بتشديد الأولى وتخفيف الثانية .

وقرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الاولى وتشديد الثانية .

اللغة والاعراب والمعنى :

وقيل في معنى (لمّا) بالتشديد خمسة أوجه :

أوّلها – قول الفراء إنها بمعنى (لمن ما) فاجتمعت ثلاث ميمات ، فحذفت واحدة ثم ادغمت الاولى في الثانية ، كما قال الشاعر :

وانّي لمّا أصدر الامر وجهه اذا هو أعيا بالسبيل مصادره[1]

ثم تخفف ، كما قرأ بعض القراء : « والبغي يعظكم »[2] فحذف احدى اليائين ذكره الفراء .

والثاني– ما اختاره الزجاج:أن(لمّا) بمعنى (إلا) كقولهم سألتك لما فعلت، ومثله « إن كل نفس لما عليها حافظ»[3] لأنه دخله معنى ما كلهم إلا لنوفينّهم . وقال الفراء هذا لا يجوز إلا في التمييز ، لأنه لو جاز ذلك لجاز ان تقول جاءني القوم لمّا زيداً بمعنى الاّ زيداً ، هذا لا يجوز بلا خلاف .

الثالث – اختاره المازني : أنّها هي المخففة شددت للتأكيد . قال الزجاج : هذا لا يجوز ، لانه انما يجوز تخفيف المشددة عند الضرورة، فأما تشديد المخففة، فلا يجوز بحال .

الرابع – حكاه الزجاج : انها من لممت الشيء ألمه لمّاً إذا جمعته إلا أنها

---

(١) قائله العجاج تفسير الطبري ١٥ : ٤٩٤ وتفسير القرطبي ٩ : ١٠٥ ومجمع البيان ٣ : ٢٠٠
(٢) سورة النحل آية ٩٠ .
(٣) سورة الطارق آية ٤ .

بنيت على (فعلى) فلم تصرف نحو (تترى) كأنه قال وإن كلا جميعاً ليوفينهم .

الخامس - قراءة الزهري (لما) بالتنوين بمعنى شديداً ، كقوله « وتأكلون التراث اكلا لما » (١) .

واللام في قوله (لمـــا) يحتمل أن تكون لام القسم دخلت على (ما) التي للتوكيد ، ويحتمل أن تكون لام الابتداء دخلت على (ما) بمعنى الذي ، كقوله « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » (٢) ومثله « وان منكم لمن ليبطئن » (٣) قال الشاعر :

فلو ان قومي لم يكونوا أعزة لبعد لقد لاقيت لا بد مصرعا (٤)

وحكي عن العرب اني لبحمد الله لصالح قال أبو علي من قرأ بتشديد (إن) وتخفيف (لما) فوجهه بين ، وهو انه نصب (كلا) بـ (إن) و (إن) تقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها لام ، فدخلت هذه اللام وهي لام الابتداء على الخبر في قوله « وان كلا لما » وقد دخلت الخبر لام اخرى وهي التي يتلقى بها القسم ، وتختص بالدخول على الفعل ويلزمها في اكثر الامر النونين ، فلما اجتمعت اللامان واتفقا في تلقى القسم ، واتفقا في اللفظ فصل بينهما ، كما فصل بين (إن) واللام ، فدخلت (ما) لهذا المعنى ، وان كانت زائدة للفصل ، كما جاءت النون - وإن كانت زائدة - في قوله « فاما ترين من البشر » (٥) وكما صارت عوضاً من الفعل في قولهم : أما لي ، فهذا بين ، ويلي هذا الوجه في البيان قول من خفف (ان) ونصب (كلا) وخفف (لما) ، كما قال الشاعر :

كأن ثدييه حقان (٦)

---

(١) سورة الفجر آية ١٩
(٢) سورة النساء آية ٣
(٣) سورة النساء آية ٧٢
(٤) تفسير الطبري ١٥ : ٤٩٨
(٥) سورة مريم آية ٢٦
(٦) الكتاب لسيبويه ١ : ٢٨٠ والفية ابن عقيل ١ : ٣٣٤ الشاهد ١٠٨ وتفسير الطبري ١٥ : ٤٩٧ وتمام البيت :

وصدر مشرق النحر كأن ثدياه حقـــان

وأراد (كأنْ) المشددة ، فخفف ، واعمل ، لان سيبويه حكى عمن يثق به أنه سمع من العرب من يقول : ان عمراً لمنطلق ، قال وأهل المدينة يقرؤن « وان كلا لما جميع لدينا محضرون »[١] يخفون وينصبون ، ووجه النصب بها مع التخفيف ان (ان) مشبهة في نصبها بالفعل ، والفعل يعمل محذوفاً كما يعمل غير محذوف في نحو (لم يك زيد منطلقاً ، فلا تك منطلقاً) وكذلك « فــلا تك في مرية » فاما من خفف (ان) ونصب (كلا) وشدد (لما) فقراءته مشكلة لأن (أن) اذا نصب بها وكانت مخففة كانت بمنزلة الثقيلة و(لما)اذا شددت كانت بمنزلة (إلا) فكذلك قراءة من شدد (لما) وثقل (ان) مشكلة، لانه كما لا يحسن أن تقول: ان زيد إلا منطلقاً فكذلك لا يحسن تثقيل(ان)وتخفيفها ويراد الثقيلة مع تثقيل(لما) فاما قولهم : نشدتك الله لما فعلت ، والا فعلت، فقال الخليل: معناه لتفعلن ، كما تقول : أقسمت عليك لتفعلن وإنما دخل (إلا ولما) لان المعنى الطلب، فكأنه قال : ما أسألك إلا فعل كذا ، فلم يذكر حرف النفي في اللفظ ، وإن كان مراداً، وليس في الآية معنى نفي ولا طلب،وضعف ابو علي الوجه الذي حكيناه من ان اصله (لمن ما) فادغم النون في الميم بعد ما قلبت ميماً . قال : لان الحرف المدغم ، إذا كان قبله ساكن نحو (يوم مالك) لم يقوّ الادغام فيه على أن يحرك الساكن الذي قبل الحرف المدغم، فاذا لم يجز ذلك فيه، وكان التغيير أسهل من الحذف، فانه لا يجوز الحذف الذي هو أجدر،في باب التغيير من تحريك الساكن على أنّ في هذه السورة ميات أجتمعت في الادغام، أكثر مما اجتمعت في (لمن ما) ولم يحذف منها شيء نحو قوله «وعلى امم ممن معك»[٢] ولم يحذف شيء منها فبأن لا يحذف – هنا - اجدر وحكي عن الكسائي أنه قال لا أعرف وجه التثقيل في (لما) قال ابو علي : ولم يبعد في ذلك ، قال أبو علي : ولو خفف مخفف (ان) ورفع (كلا) وثقل (لما) ويكون المعنى ما كل الا ليوفينهم ، كما قال « وان كلُّ ذلك لما متاع الحياة الدنيا»[٣] لكان ذلك أبين من النصب في (كل) وتثقيل

---

(١) سورة يس آية ٣٢
(٢) سورة هود آية ٤٨
(٣) سورة الزخرف آية ٣٥

(لما) و (كل) في الآية معرفة ، والمعنى وإن كل المكلفين ليوفينهم ربك أعمالهم أو كل المختلفين على ما تقدم ذكره كما يقولون: مررت بكل قائماً ، والتوفية بلوغ المقدار من غير نقصان ، والتوفية مساواة المقدار في معناه ، لأنـه اذا ساواه في جنسه لم يجب به توفية .

المعنى

أخبر الله تعالى في هذه الآية انه يوفي جميع المكلفين ما يستحقونه على اعمالهم من الثواب والعقاب، لانه عالم بما فعلوه خبير به، لا يخفى عليه شيء من ذلـك ومن ليس بعالم لا يمكنه ذلك ، لانه يجوز ان يكون قد خفي عليه كثير منه ، وهو تعالى لا يخفى عليه خافية .

قوله تعالى :

(فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (١١٣) آية بلا خلاف.

أمر الله النبي ﷺ وأمته أن يستقيموا كما أمرهم الله ، وكذلك من رجع الى الله والى نبيه « ولا تطغوا » يعني في الاستقامة ، فيخرجوا عن حدها بالزيادة على ما أمرهم فرضاً كان أو نفلاً . وقيل : معناه لا تطغينكم النعمة ، فتخرجوا من الاستقامة .

و (الاستقامة) الاستمرار في جهة واحدة ، وان لا يعدل يميناً وشمالاً . و (الطغيان) تجاوز المقدار في الفساد . والطاغي كالباغي في صفة الذم، وطغى الماء مشبه بحال الطاغي، وانما خص من تاب دون ان أسلم من أول حاله للتغليب في الاكثر ويدخل فيه الأقل على وجه التبع .

وقوله « انه بما تعملون بصير » اخبار منه تعالى أنه عالم بأعمالهم لا يخفى عليه شيء منها .

قوله تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ) (١١٤) آية بلا خلاف.

نهى الله تعالى في هذه الآية عباده المكلفين عن أن يركنوا الى الذين ظلموا نفوسهم وغيرهم . و(الركون) الى الشيء هو السكون اليه بالمحبة اليه والانصات اليه ، ونقيضه النفور عنه . وانما نهاهم عن الركون الى الظلمة لما في ذلك من الاستئناس به «فتمسكم النار» جواب النهي وبيان، لانهم متى خالفوا هذا النهي ، وسكنوا الى الظالمين نالتهم النار، ولم يكن لهم ناصر من دون الله يدفع عنهم ثم لا يجدون من ينصرهم ، ويدفع عنهم على وجه المغالبة ، والولي ضد العدو ، وجمعه أولياء . وقال الجبائي معنى « ثم لا تنصرون » انكم إن ركنتم الى الكفار والظالمين ، وسكنتم اليهم مستكم النار في الآخرة ثم لا تنصرون في الدنيا على الكفار .

قوله تعالى :

(وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ ٱللَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ) (١١٥) آية بلا خلاف .

قرأ أبو جعفر (زلفا) بضم اللام . أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه ﷺ وأمة نبيه باقامة الصلاة ، واقامتها هو الاتيان بأعمال الصلاة على وجه التام في ركوعها وسجودها وسائر فروضها . وقيل اقامة الصلاة هو عمل على استواء كالقيام الذي هو الانتصاب في الاستواء . وقيل هو الدوام على فعلها من قولهم: ما قائم اي دائم واقف .

وقوله « طرفي النهار » يريد بها صلاة الفجر والمغرب – في قول ابن عباس والحسن وابن زيد والجبائي – وقال الزجاج يعني الغداة الظهر والعصر، وبه قال مجـاهد، ومحمد بن كعب القرطي، والضحاك. ويحتمل أن يريد بذلك صلاة الفجر والعصر، لان طرف الشيء من الشيء وصلاة المغرب ليست من النهار.

وقوله « وزلفاً من الليل » قال ابن عبّاس ومجاهد وابن زيد: يريد العشاء الآخرة وقال الزجاج يعني المغرب والعشاء الآخرة. و (الزلفة) المنزلة وجمعها زلف قال العجاج:

ناج طواه الاين ممّا وجفا طي الليالي زلفاً فزلفا[1]

قال الزجاج: ويجوز زلفاً بضم اللام، ونصبه على الظرف وهو واحد مثل الحلم، ويجوز أن يكون جمع زليف مثل قريب وقرب، ومنه اشتقـاق المزدلفة لأن ازدلاف الناس اليها منزلة من عرفات.

ومن قال: المراد بـ (طرفي النهار) الفجر والمغرب، قال ترك ذكر الظهر والعصر لأحد أمرين:

احدهما ترك ذكرهما لظهورهما في انها صلاة النهار، والتقدير أقم الصلاة طرفي النهار مع الصلاة المعروفة من صلاة النهار.

والآخر – انها ذكرا على التبع للطرف الاخير، لانها بعدالزوال، فهي أقرب اليه. وقد قال الله تعالى « أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل»[2] ودلوكها زوالهـا.

---

(١) ديوانه: ٨٤ ومجاز القرآن ١/٣٠٠ وسيبويه ١: ١٨٠ واللسان (زلف، حقف، سما، وجف) والصحاح، والتاج (زلف) يصف الشاعر بعيره. وبعده:

★ سماوة الهلال حتى احقوقفا ★

والاين التعب، والوجف السرعة في السير. شبهه بالهلال. لعوجاجه، عند علوه وصعوده.

(٢) سورة الاسرى آية ٧٨.

وقوله «ان الحسنات يذهبن السيئات» قيل فيه وجهان :

احدهما - تذهب به على وجه التكفير اذا كانت المعصية صغيرة .

والآخر - ان المراد بالحسنات التوبة تذهب بالسيئة أي تسقط عقابها ، لانه لاخلاف في ان سقوط العقاب عند التوبة. وقد قيل ان الدوام على فعل الحسنات يدعو الى ترك السيئات فكأنها اذهبت بها .

وقوله «ذلك ذكرى للذاكرين» يعني ما ذكره من قوله « ان الحسنات يذهبن السيئات » فيه تذكار لمن تذكر به وفكّر فيه .

قوله تعالى :

(وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) (١١٦)

آية بلا خلاف.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر على أذى قومه وتكذيبهم اياه ، والتجلد عليه ، وعلى القيام بما افترض عليه من اداء الواجب ، والامتناع من القبيح ، وبين له انه لا يضيع ولا يهمل أجر المحسنين على احسانهم بل يكافيهم عليه أتم الجزاء وأكمل الثواب ، و(الصبر) حبس النفس عن الخروج الى ما لا يجوز من ترك الحق ، وضده الجزع قال الشاعر :

فان تصبرا فالصبر خير مغبة وان تجزعا فالامر ما تريان[٣]

والصبر على الباطل مذموم ، قال الله تعالى « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم»[٢] ويعين على الصبر شيئان :

---

(١) مرهذ البيت في ١ : ٢٠٢ .

(١) سورة ص آية ٦ .

احدهما — العلم بما يعقب من الخير في كل وجه وعادة النفس له .

والثاني - استشعار ما في لزوم الحق من العز والأجر بطاعة الله . والصبر مأخوذ من الصبر المر ، لأنه تجرع مرارة الحق بحبس النفس عن الخروج الى المشتهى .

قوله تعالى :

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٧) آية بلا خلاف .

معنى « فلولا كان » هلا كان ، ولم لا ، وألا كان، ومعناه النفي وتقديره لم يكن من القرون من قبلكم ، فهو تعجيب وتوبيخ لهؤلاء الذين سلكوا سبيل من كان قبلهم في الفساد نحو عاد وثمود ، وسائر القرون الذين مرّ ذكرهم في القرآن ، وأخبر الله بهلاكها « أولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض » أي كان يجب أن يكون منهم قوم باقون في الارض ينهون عن الفساد في الارض مع إنعام الله عليهم بكمال العقل والقدرة ، وبعثة الرسل اليهم ، واقامة الحجج . وأولوا بقية هم الباقون ، فعجب الله نبيه كيف لم يكن منهم بقية في الارض يأمرون فيها بالمعروف وينهون فيها عن المنكر ، وكيف اجتمعوا على الكفر حتى استأصلهم الله بالعذاب والعقوبات لكفرهم بالله ومعاصيهم له ثم استثنا بقوله « الا قليلاً » والمعنى انهم هلكوا جميعاً الا قليلاً ممن انجى الله منهم ، وهم الذين آمنوا مع الرسل ، ونجوا معهم من العذاب الذي نزل بقومهم .

وقوله « واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين » معناه أنهم اتبعوا

التلذذ والتنعم بالاموال والنعم التي أعطاهم الله اياها، وقضوا الشهوات وذلك من الحرام . وبين انهم كانوا بذلك مجرمين عاصين لله تعالى .

وقال الفراء والزجاج: ان قوله « الا قليلاً » استثناء منقطع ، لأنه ايجاب لما تقدم فيه صيغة النفي وإنما تقدم تهجين لمخرج السؤال ، ولو رفع لجاز في الكلام. ومعنى « اترفوا فيه » اي عوّدوا الترفة بالتنعيم واللذة ، وذلك ان الترفة عادة النعمة قال الشاعر :

يهدي رؤس المترفين الصداد الى أمير المؤمنين الممتاد [١]

اي المسؤل، وأبطر بهم النعمة حتى طغوا وبغوا، وفي الآية دلالة على وجوب النهي عن المنكر ، لأنه تعالى ذمهم بترك النهي عن الفساد ، وانه نجا القليل بنهيهم عنه ، فلو نهى الكثير كما نهى القليل لما اهلكوا ، ومعنى « أولوا بقية » اصحاب جماعة تبقى من نسلهم ، والبقية ممدوحة يقال في فلان بقية أي فيه فضل وخير ، كأنه قيل بقية خير من الخير الماضي .

قوله تعالى :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(١١٨) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى انه لم يهلك أهل قرية فيما مضى ، ممن ذكر إهلاكهم مع أن أهلها او اكثرهم يفعلون الصلاح ، وانما اهلكهم اذا افسدوا كلهم او اكثرهم والاصلاح فعل الصلاح. وقوله «بظلم» فيه ثلاثة أوجه: اولها بظلم صغير، فيكون منهم لأنه يقع مكفراً بما معهم من الثواب الكثير .

---

(١) قائلة رؤبة وقد مر في ٤ / ٦٣ من هذا الكتاب وهو تفسير الطبري ١٢ / ٧٩ (الطبعة الاولى) .

الثاني – بظلم كثير من قليل منهم، مع أن اكثرهم المصلحون، لان القليل لا يعتد به في جنب الكثير .

الثالث – ان المعنى بظلم منا، كما قال الله تعالى «إن الله لا يظلم الناس شيئاً»[١].

قوله تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ★ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (١١٩) آيتان في الكوفي والبصري تمام الاولى عند قوله مختلفين وهي آية فيما سوى ذلك .

هذه الآية تتضمن الاخبار عن قدرته تعالى بأنه لو شاء تعالى لجعل الناس أمة واحدة أي على دين واحد، كما قال « إنا وجدنا آباءنا على أمة »[٢] وقال « ولولا ان يكون الناس أمة واحدة»[٣] أي على دين واحد بأن يلجئهم الى الاسلام بأن يخلق في قلوبهم العلم بأنهم لو داموا على غير ذلك لمنعوا منه، لكن ذلك ينافي التكليف ويبطل الغرض بالتكليف لأن الغرض به استحقاق الثواب .

وقوله « ولا يزالون مختلفين » معناه في الاديان كاليهود والنصارى والمجوس وغير ذلك من اختلاف المذاهب الباطلة في قول مجاهد وقتادة وعطا والاعمش والحسن في رواية، وفي رواية أخرى عن الحسن أنهم يختلفون بالارزاق والاحوال ويتحيز بعضهم لبعض . والاول أقوى .

---

(١) سورة يونس آية ٤٤ .
(٢) سورة الزخرف آية ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) سورة الزخرف آية ٣٣ .

والاختلاف هو اعتقاد كل واحد نقيض ما يعتقده الآخر ، وهو ما لا يمكن أن يجتمعا في الصحة وان امكن ان يجتمعا في الفساد ، ألا ترى أن اليهودية والنصرانية لا يجوز أن يكونا صحيحين مع اتفاقهما في الفساد، ويجوز ان يكون في اختلاف اهل الملل المخالفة للاسلام حق، لأن باعتقاد اليهودي ان النصرانية باطلة واعتقاد النصراني ان اليهودية فاسدة حق .

وقوله «الا من رحم ربك» استثناء منقطع، ولذلك جعل رأس آية، ولو كان متصلاً لم يجز ذلك ، وانما كان استثناء منقطعاً ، لان الاول على انهم يختلفون بالباطل ، وليس كذلك من رحم لاجتماعهم على الحق . والمعنى « ولا يزالون مختلفين » بالباطل « الا من رحم ربك » بفعل اللطف لهم الذي يؤمنون عنده ويستحقون به الثواب ، فان من هذه صورته ناج من الاختلاف بالباطل .

وقوله « ولذلك خلقهم » قيل في معناه قولان :

احدهما – قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ان المراد وللرحمة خلقهم وليس لاحد ان يقول لو أراد ذلك لقال: ولتلك خلقهم لأن الرحمة مؤنثة اللفظ وذلك ان تأنيث الرحمة ليس بتأنيث حقيقي، وما ذلك حكمه جاز ان يعبر عنه بالتذكير ، ولذلك قال الله تعالى « ان رحمة الله قريب من المحسنين »[(١)] ولم يقل قريبة على انه لا يمتنع ان يكون المراد : ولأن يرحم خلقهم ، لأن الرحمة تدل على ذلك ، فعلى هذا يكون التذكير واقعاً موقعه .

الثاني – ان يكون اللام لام العاقبة ، والتقدير أنه خلقهم وعلم أن عاقبتهم تؤل الى الاختلاف المذموم ، كما قال « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً »[(٢)] وكما قلنا في قوله « ولقد ذرانا لجهنم »[(٣)] وهو المروي عن ابن عباس والحسن وعطاء ومالك ، وقد يكون اللام بمعنى (على) كقولك اكرمتك على

---

(١) سورة الاعراف آية ٥٦ . (٢) سورة القصص آية ٨ .
(٣) سورة الاعراف آية ١٧٩ .

برّك بي اي لبرّك بي ، فيكون التقدير ، وعلى ذلك خلقهم ، ولا يجوز ان يكون اللام لام الغرض ، ويرجع الى الاختلاف المذموم ، لان الله تعالى لا يخلقهم ويريد منهم خلاف الحق ، لانـــه صفة نقص يتعالى الله عن ذلك . وايضاً فـلو أراد منهم ذلـــك الاختلاف ، لكانوا مطيعين له ، لأن الطاعة هي موافقة الارادة والأمر ، ولو كانوا كذلك لم يستحقوا عقاباً . وقد قال تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »[١] . فبيّن تعالى انه خلقهم وأراد منهم العبادة ، فكيف يجوز مع ذلك ان يكون مريداً لخلاف ذلك ، وهل هذا الا تناقض؟! يتعالى الله عن ذلك .

على ان في اختلاف أهل الضلال مايريده الله ، وهو اختلاف اليهود والنصارى في التثليث ، واختلاف النصارى لليهود في تأبيد شرع موسى .

وقيل ان معنى الاختلاف ههنا هو مضي قوم ومجيء قوم آخرين ، كما قال «هو الذي جعل الليل والنهار خلفة »[٢] . وهذا الاختلاف يجوز ان يريده الله .

وقال الحسن قوله « ولذلك خلقهم » مردود على قوله « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »[٣] والمعنى خلقهم ليكون عدله فيهم ، هذا ، لا أن يهلكهم وهم مصلحون .

وقوله « ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة » على الايمان ، وهذه مشيئة القدرة « ولذلك خلقهم » ان تكون مشيئته وقدرته عليهم ، «ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » قال ليخالف اهل الحق اهل الباطل ، وهو كقوله « لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير »[٤] .

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .
(٢) سورة الفرقان آية ٦٢ .
(٣) سورة هود آية ١١٨ .
(٤) سورة الشورى آية ٧ .

ويقوي هذا التأويل قوله « وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وانا بريء مما تعملون »[١] . وقوله «قل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون ولا انتم عابدون ما اعبد »[٢] ، فيكون الله خلقهم ليخالفوا الكافرين والمبطلين. وقال عمر عن الحسن: ان معنى «ولذلك خلقهم» ليكون أمر الكفار مختلفاً بكفرهم وتكذيبهم . وقال البلخي: أخبر أنهم لا يزالون مختلفين إلا من رحم ، فانهم غير مختلفين ، هذا معنى الآية ، والا فلا معنى لها . ثم قال «ولذلك خلقهم » اي لان يكونوا أمة واحدة متفقين غير مختلفين .

وقوله « وتمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين » ، معناه التحذير لكل احد ان يكون ممن تملأ جهنم به ، وتمامها وقوع مخبرها على ما تقدم بها ، وهذا يمين أقسم الله به ، وتقديره يميناً لا ملأن ، كما تقول : حلفي لا ضربنك ، وبدا لي لأضربنك . وكل فعل كان تأويله كتأويل بلغني ، أو قيل لي أو انتهى الي ، فان (اللام) و (ان) يصلحان فيه ، فتقول بدا لي لأضربنك ، وبدا لي ان اضربك ، فلو قيل وتمت كلمة ربك أن يملأ جهنم من الجنة والناس كان صواباً .

قوله تعالى :

(وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيكَ مِنْ أَنباءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هٰذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وذِكْرَى لِلمُؤْمِنِينَ) (١٢٠) آية بلا خلاف .

قوله « وكلا » نصب على المصدر ، وتقديره ، كل القصص نقص عليك . وقال قوم : نصب على الحال ، فقدم الحال قبل العامل ، كما تقول: كلا ضربت ، ويجوز ان يكون نصباً على انه مفعول به ، وتقديره: وكل الذي تحتاج اليه نقص عليك ،

---

(١) سورة يونس آية ٤١ .
(٢) سورة الكافرون آية ١ - ٢ .

ويكون «ما نثبت به فؤادك» بدلاً منه – في قول الزجاج - والقصص الخبر عن الأمور بما يتلو بغضه بغضاً ، مأخوذاً من قصه يقصه اذا اتبع أثره ، ومنه قوله «قالت لاخته قصيه»[١] أي اتبعي اثره . والانباء جمع نبأ ، وهو الخبر بما فيه عظم الشأن ، وكذلك يقولون لهذا الأمر نبأ ، والتثبيت تمكين اقامة الشيء ثبته تثبيتاً اذا مكنه ، ومعنى « ما نثبت به فؤادك » يحتمل ان يكون ذلك بتسكينه ، ويحتمل ايضاً ان يكون بالدلالة على وجوده . والفؤاد القلب مأخوذ من المفتاد ، وهو المشوي قال النابغة :

كان خارجاً من حيث صفحته سفود شرب نسوه عند مفتأد[٢] .

ومعنى « وجاءك في هذه الحق » قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد : يعني في هذه السورة . وقال الجبائي يعني جاءك في هذه الأنباء . وقال الزجاج : يعني في هذه الأزمان . وقال قتادة : معناه في هذه الدنيا . والأول أصح ، والتقدير وجاءك في هذه السورة الحق مع ما جاءك في سائر السور .

ومعنى (الآية) الاعتبار بقصص الرسل لما فيه من حسن صبرهم على أمتهم واجتهادهم في دعائهم الى عبادة الله مع الحق الذي من عمل عليه نجا، ومع الوعظ الذي يلين القلب لسلوك طريق الحق ، ومع تذكر الخير والشر ، وما يدعو اليه كل واحد منهما في عاقبة النفع أو الضرر .

وقوله « وموعظة » يعني جاءك موعظة تعظ الجاهلين بالله .

وقوله (وذكرى للمؤمنين » معناه تذكرة تذكر المؤمنين بالله ورسله كي لا يفعلوا غير الواجب .

---

(١) سورة القصص آية ١١ .

(٢) اللسان (فأد) ومجمع البيان ٣ / ٢٠٣ .

قوله تعالى :

(وَقُـلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ) (١٢١) وَٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) . آيتان في الكوفي والبصري ، وإحدى المدينين تمام الاولى انا عاملون ، وآية فيما سوى ذلك .

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان يقول للكفار الذين لا يصدقون بتوحيد الله ولا يعترفون بنبوة نبيه صلى الله عليه وسلم « اعملوا على مكانتكم » والمكانـة الطريقة التي يتمكن من العمل عليها ، ويقال : له مكانة عند السلطان – أي جاه ، وقدر – وهذا خرج مخرج التهديد ، وهو مثل قوله « اعملوا ما شئتم »[١] .

وقوله « إنا عاملون » معناه إنا عاملون على الايمان الذي أمرنا الله بـه ودعانا اليـه .

وقوله « وانتظروا » أي توقعوا ، وقد فرق بينهما بأن التوقع طلب ما يقدر أنه يقع، لأنه من الوقوع . والانتظار طلب ما يقدر النظر اليه، لأنه من النظر . والفرق بين الانتظار والترجي ، أن الترجي للخير خاصة ، والانتظار في الخير والشر . ولو دخلت الفاء في قوله «إنا» لأفاد أن الثاني لأجل الأول وحيث لم تدخل لم تفد ذلك .

ومتعلق الانتظار يحتمل أمرين :

احدهما – انتظروا ما يعدكم الشيطان من الغرور ، فانا منتظرون ما يعدنا ربنا من النصر والعلوّ ، في قول ابن جريج .

---

(١) سورة حم السجدة آية ٤٠ .

الثاني – انتظروا ما يعدكم ربكم على الكفر من العذاب ، فانا منتظرون ما يعدنا على الايمان من الثواب .

قوله تعالى :

(وَلِلّهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰوات وَالْأَرْضِ وَالِيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (١٢٣) آية بلا خلاف .

قرأ نافع وحفص يرجع – بضم الياء وفتح الجيم – وقرأ أهل المدينة ، وابن عامر ، وحفص ، ويعقوب (يعملون) بالياء – ههنا ، وفي النمل . الباقون بالتاء .

من ضم الياء فلقوله « ثم ردوا الى الله مولاهم الحق »[1] ، والمعنى رد أمرهم الى الله .

ومن فتح الياء فلقوله « والأمر يومئذ لله »[2] ، والمعنيان متقاربان .

ومن قرأ بالتاء في « تعملون » جعل الخطاب للنبيّ ولأمته ، وهو أعمّ فائده .

ومن قرأ بالياء في « يعملون » جعل ذلك متوجهاً الى من تقدم ذكره من الكفار ، وفيه ضرب من التهديد .

أخبر الله تعالى في هذه الآية بأن له غيب السموات والارض ، وخص الغيب بذلك لاحد امرين :

احدهما – لان ذلك يدل على ان له شهادة ايضاً .

---

(١) سورة الانعام اية ٦٢ ، وفي سورة يونس آية ٣٠ «وردوا الى الله» .
(٢) سورة الانفطار آية ١٩ .

الثاني – لعظم شأن الغيب الذي له . ومن كان له الغيب كان له الشهادة ، والغيب كون الشيء بحيث لا يلحقه الحس ، ومنه « عالم الغيب والشهادة »[١] . أي عالم الموجود والمعدوم ، وما يغيب عن احساس الناس وما يظهر لها، ومعنى « واليه يرجع الأمر كله » أي يذهب الى حيث ابتدأ منه، فرجوع الأمر الى الله بالاعادة بعد النشأة الاولى . وقيل ترجع الأمور الى ان لا يملكها سواه تعالى – في قول أبي علي الجبائي .

وقوله « فاعبده » أي وجه عبادتك اليه وحده « وما ربك بغافل عما تعملون» فالغفلة السهو ، الا ان الغفلة يغلب عليها ان تكون بعد اليقظة، كالنوم بعد الانتباه، والسهو نقيض الذكر من غير علة في الصفة. والمعنى انه ليس ربك يا محمد ﷺ بساه عن اعمال عباده ، بل هو عالم بها ومجاز كلاً على ما يستحقه من ثواب أو عقاب ، فلا يحزنك إعراضهم عنك ، وترك قبولهم منك . وقال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة هود .

---

(١) سورة التوبة آية ٩٥ ، ١٠٦ وسورة المؤمنون آية ٩٣ ، وسورة الزمر آية ٤٦ ، وسورة الجمعة آية ٨ .

(١٢) سورة يوسف

مكية في قول مجاهد، وقتادة،
وهي مئة واحدى عشر آية بلا خلاف في ذلك

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرٰ تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ) (١) آية بلا خلاف.

لم يعدوا (الر) آية، لأنه على حرفين، ولا يشاكل رؤوس الآي، فيعد من الفواصل بالوجهين، لأنه بالحرفين يجري مجرى الاسماء الناقصة. وإنما يؤمّ بالفواصل التام، وانما يعد (طه) لأنه يشبه رؤوس الآي. وقد بينا فيما تقدم اختلاف المفسرين في مبادىء السور بهذه الحروف [١]. وقلنا أن أقوي الأقوال قول من قال إنها اسماء للسور، فلا وجه، لاعادة القول فيها.

قوله «تلك آيات» قال قوم: هو اشارة الى ما تقدم من ذكره السورة في قول «الر» كأنه قال سورة يوسف «تلك آيات الكتاب المبين».

الثاني - انه اشارة الى ما يأتي من ذكرها على وجه التوقع لها. وقال قوم:

---

(١) انظر ١ / ٤٧ - ٥٠، ٢ / ٣٨٨، ٤ / ٣٦٧، ٥ / ٣٨١، ٥١١.

معناه هذه تلك الآيات التي وعدتم بها في التوراة ، كما قال « الم ذلك الكتاب المبين » معناه المظهر لحلال الله وحرامه والمعاني المرادة به ، وهو قول مجاهد وقتادة ، ويروي عن معاذ أنه قـــال (المبين) قال بين الحروف التي سقطت عن ألسن الاعاجم ، وهي ستة يعني حروف الحلق .

والبيان هو الدلالة . وقال الرماني البيان : إظهار المعنى من الطريق التي من جنسه . والبرهان إنما هو إظهار صحة المعنى بما يشهد به ، وإنما سميت (آيات) لما فيها من الدلالة القاطعة على صحة ما تضمنته الآية الدالة .

قوله تعالى :

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنـــاً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (٢)

آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى أنه انزل هـــذا الكتاب قرآناً عربياً لكي يعقلوا معانيه وأغراضه ، وسمّاه (قرآناً) لما تضمن بجموع خبر يوسف وغير ذلك . و(القرآن) كلام في أعـــلا طبقة البلاغة ، ووجه بلاغة القرآن كونه في نهاية التلاؤم المنافي للتنافر في تأليف اللفظ والمعنى : مع تشاكل المقاطع في الفواصل بمايقتضيه المعنى ومع تصريف القول على احسن ما تصرف به المعنى .

والعقل مجموعة علوم يتمكن معهـــا من الاستدلال بالشاهدين على الغائب ، ويفصل به بين الحسن والقبيح . ثم يجري على كل مـــا يعقله الانسان في نفسه من المعاني .

وفي الآية دليل على ان كلام الله محدث ، لانه وصفه بالانزال وبأنه عربي ، ولا يوصف بذلك القديم .

وفيه دلالة على أن القرآن غير الله ، لأنه وصفه بأنه عربي ، ومن يزعم أن الله عربي ، فقد كفر ، وما كان غير الله فهو محدث .

والهاء في قوله « انا أنزلناه » كناية عن الكتاب الذي تقدم ذكره . قال الزجاج: ويجوز ان يكون المعنى إنا انزلنا خبر يوسف، وقصته، لأن علماء اليهود، قالوا لكبراء المشركين : سلوا محمداً ﷺ لم انتقل يعقوب من الشام الى مصر، وعن قصة يوسف ، فانزل الله الآية ودليله قوله « لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين .

قوله تعالى :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَافِلِينَ) (٣) آية بلا خلاف .

أخبر الله انه يقص على نبيه احسن القصص، و(القصص) يتعدى بحرف الجر في عليك لان معناه يتلو بعض الحديث بعضاً ، ولو قال : نخبرك ، لتعدى بنفسه وقوله « أحسن القصص » يدل على ان الحسن يتفاضل ويتعاظم ، لأن لفظ أفعل حقيقتها ذلك ، وانما يتعاظم بكثرة استحقاق المدح عليه .

وقوله « بما أوحينا اليك هذا القرآن » دخلت الباء في بما اوحينا ، لتبيين أن القصص يكون قرآناً وغير قرآن ، والقصص - ههنا - بالوحي : القرآن كأنه قال أوحينا اليك هذا القرآن ، ونصب القرآن بايقاع الوحي عليه ، وكان يجوز فيه الجر على البدل من (ما) والرفع على ان يكون جواب (ما) (هذا) في قول الزجاج ، ولم يقرأ بغير النصب .

وقوله «وان كنت من قبله لمن الغافلين » بمعنى كنت يا محمد ﷺ قبل وحينا اليك غافلاً عن الاحكام التي ذكرناها في القرآن حتى أتيناك بها، ودللناك عليها ، ولم تكن تهتدي اليها . وقيل معناه من الغافلين عن قصة يوسف وأخوته ، حتى أخبرناك بها .

قوله تعالى :

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) (٤) آية بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وابو جعفر «يا أبت» بفتح التاء في جميع القرآن. الباقون بكسر التاء، وابن كثير يقف بالهاء. الباقون يقفون بالتاء، وقرأ ابو جعفر أحد عشر وتسعة عشر بسكون العين فيها. الباقون بفتحها.

العامل في (إذ) أحد أمرين: احدهما - اذكر «اذ قال يوسف». والثاني - نقص عليك «اذ قال»، في قول الزجاج، ولا يكون على هذا الوجه ظرفاً للقصص في معنى نذكره، ويجوز في «يا أبت» ثلاثة أوجه من الاعراب:

احدها - الكسر على حذف ياء الاضافة.

الثاني - (ياأبت) بفتح التاء على حذف الألف المنقلبة عن ياء الاضافة، كأنه أراد يا أبتا، فحذف الالف كما تحذف الياء، فتبقى الفتحة دالة على الالف، كما ان الكسرة دالة على الياء، قال رؤبة:

* يا أبتا علّك أو عساكا [١] *

فلما كثرت هذه الكلمة في كلامهم ألزموه القلب، قال ابو علي الفارسي: ويحتمل ان يكون مثل يا طلحة اقبل، ووجهه ان الاسماء التي فيها تاء التأنيث أكثر ما ينادى مرخماً، فلما كان كذلك رد التاء المحذوفة في الترخيم وترك الامر يجري على ما كان يجري عليه في الترخيم من الفتح، فلم يعتد بالهاء، واقحامها كما قالوا: واجمعت اليمامة يريدون أهل اليمامة، قالوا: أجمعت أهل اليمامة، فلم يعتدوا برد اهل.

---

(١) تفسير القرطبي ٩ : ١١٩ وصدره :

★ تقول بنتي قد انى اناكا ★

الثالث – يا أبة بضم الهاء في قول الفراء ولم يجره الزجاج ، قال : لأن التاء عوض من ياء الاضافة . قال الرماني هذا جائز لأن العوض لا يمنع من الحذف ، والوقف يجوز على التاء، لان الاضافة مقدّرة بعدها، وان قدر على حذف الالف لم يجز الوقف ، الا بالتاء وان قدر على الاقحام جاز الوقف كقول النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل اقاسيه بطيء الكواكب[1]

وانما دخلت الهاء في (يا أبت) للعوض من ياء الاضافة اذ يكثر في النداء ، مع لزوم معنى الاضافة، فكان أحق بالعلامة لهذه العلة. وقال أبو علي: إنما وقف ابن كثير بالهاء ، فقال يا أبة ، لأن التاء التي للتأنيث تبدل منها الهاء في الوقف ، ولم يجز على تقدير الاضافة ، لأنه اذا وقف عليها سكنت للوقف واذا سكنت كانت بمنزلة ما لا يراد به الاضافة فأبدل منها الهاء كما إذا قال يا طلحة أقبل بفتح التاء ، واذا وقف عليها أبدل الهاء ياء .

وإنما – أعاد ذكر «رأيتهم» لامرين: احدهما – للتوكيد حيث طال الكلام. الثاني – ليدل انه رآهم ورأى سجودهم ، وفي معنى سجودهم قولان :

احدهما – هو السجود المعروف على الحقيقة تكرمة له لا عبادة له .

الثاني – الخضوع – في قول ابي علي – كما قال الشاعر:

ترى الا كم فيه سجدا للحوافر[2]

وهو ترك للظاهر، وقال الحسن: الاحد عشر اخوته، والشمس والقمر أبواه، وانما قال ساجدين بالياء والنون ، وهو جمع ما لا يعقل ، لأنه لما وصفها بفعل ما يعقل من السجود أجرى عليها صفات ما يعقل ، كما قال «يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم »[3] لما أمروا امر من يعقل .

---

(١) مر تخريجه في ٥ : ٣٦٨ .

(٢) مر هذا الشعر في ١ : ١٤٨ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٤ : ٢٣٣ ، ٣٨٣ .

(٣) سورة النمل اية ١٨ .

و(كوكباً) منصوب على التمييز و (أحد عشر) الاسمان جعلا اسماً واحداً ، وكذلك الى تسعة عشر ، واللغة الجيدة عند البصريين فتح العين ، وحكي سكون العين ، وحكى الزجاج احدى عشر وهي لغة ردية .

قوله تعالى :

(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (٥) آية بلا خلاف.

قرأ الكسائي الا أبا الحارث وقتيبة، والعبسي ،وابن اليزيدي بامالة «رؤياك» والرؤيا في جميع القرآن، وروى ابو الحارث فتح « رؤياك» وامالة الباقي . وقرأ قتيبة امالة «الرؤيا» ونصب «رؤياك» .

وقرأ خلف في اختياره بامالة ما فيه ألف ولام . الباقون بالتفخيم .

وخفف الهمزة في جميع ذلك أبو جعفر ، وورش ، والسموني ، وشجاع والترمذي في الادراج ، إلا ان أبا جعفر يدغم الواو في الياء فتصير ياء مشددة ، قال ابو علي النحوي (الرؤيا) مصدر كالبشرى والسقيا والبقيا والشورى إلا انه لما صار اسماً لهذا التخيل في المنام جرى مجرى الاسماء ، كما أن (درّ) لما كثر في كلامهم في قولهم لله درك جرى مجرى الاسماء، وخرج من حكم الاعمال: فلا يعمل واحد منها اعمال المصدر ، ومما يقوي خروجه عن أحكام المصادر تكسيرهم لها (دري) فصادر بمنزلة (ظلم) والمصادر في الاكثر لا تكسر ، والرؤيا على تحقيق الهمزة ، فان حذفت قلبتها في اللفظ واواً ولم يدغم الواو في الياء ، لان الواو في تقدير الهمزة فهي لذلك غير لازمة ، فلا يقع الاعتداد بها فلم تدغم ، وقد كسر اوّلها قوم فقالوا (ريا) فهؤلاء قلبوا الواو قلباً لا على وجه التخفيف ، ومن ثم كسروا الفاء ، كما كسروا من قولهم : قرن لوى وقرون لي .

في هذه الآية حكاية ما أجاب به يعقوب يوسف حين قصّ عليه رؤياه ومنامه، فقال له «يا بنيّ لا تقصص رؤياك على أخوتك» أي لا تخبرهم بها فانك إن أخبرتهم بذلك حسدوك وكادوك واحتالوا عليك، وانما قال ذلك لعلمه بأن تأويل الرؤيا أنهم يخضعون له.

وقوله «يا بني» فيه ثلاث ياآت، الياء الاصلية، وياء الاضافة، وياء التصغير. وحذفت ياء الاضافة اجتزاء بالكسرة وادغمت احدى اليائين في الاخرى. وفتح الياء وكسرها لغتان. وانما صغر (بني) مع عظم منزلته، لانه قصد بذلك صغر السن، ولم يقصد به تصغير الذم.

والرؤيا تصور المعنى في المنام على توهم الابصار، وذلك أن العقل مغمور بالنوم، فاذا تصور الانسان المعنى توهم أنه يراه.

والاخ المساوي في الولادة من أب او أم أو منهما، ويجمع أخوة وآخاء. والكيد طلب الغيظ بأذى الطالب لغيره كاده يكيد كيداً، فهو كائد.

وقوله «ان الشيطان للانسان عدوّ مبين» اخبار منه تعالى بأن الشيطان معاد للانسان، ويلقى العداوة بينهم، واللام في قوله (لك كيداً) لام التعدية، كما يقال قدمت له طعاماً، وقدمت اليه طعاماً. وقال قوم: هو مثل قولهم شكرته وشكرت له، لانه يقال كاده يكيده، وكاد له.

وحكى الكسائي أن قوماً يقولون: (الرّيا) بكسر الراء وتشديد الياء فيقلبون الهمزة واواً ويدغمون الواو في الياء. و (رؤياً) فيها أربع لغات بضم الراء مع الهمزة وبالواو بلا همزة. وقد قرىء بهما، وبضم الراء والادغام. وبكسر الراء، ولا يقرأ بهاتين.

قوله تعالى:

(وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ

وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (٦) آية بلا خلاف .

هذه حكاية مـا قـال يعقوب لابنه يوسف (ع) وقوله له ان الله يجتبيك ، ويختارك ، ويصطفيك ويكرمك بذلك ، كما أكرمك بأن اراك في منامك هذه الرؤيا ، فوجه التشبيه وهو اعطاء الرؤيا باعطاء الاجتباء مع ما انضاف اليه من الصفات الكريمة المحمودة التي ذكرها . والاجتباء إختيار معالي الأمور للمجتبى مثل ما اختاره الله تعالى ليوسف من الخصال الكريمة والأمور السنية ، وقـال الحسن: اجتباه الله بالنبوّة، وبشره بذلك . وأصله من جبيت الشيء اذا اخلصته لنفسك ، ومنه جبيت الماء في الحوض .

وموضع الكاف من و (كذلك) نصب ، والمعنى مثل مـــا رأيت تأويله يجتبيك ربك .

« ويعلمك من تأويل الاحاديث » معنـاه أنه تعالى يعرفك عبارة الرؤيا – في قول قتادة ، ومجاهد – وذلك تأويل أحاديث الناس عما يرونه في منامهم ، وقيل كان أعبر الناس للرؤيا، ذكره ابن زيد . وقال الزجاج ، والجبائي : معناه يعلمك تأويل الاحاديث في آيات الله تعالى ودلائلة على توحيده ، وغير ذلك من أمور دينه . والتأويل في الأصل هو المنتهى الذي يؤل اليه المعنى . وتأويـــل الحديث فقهه الذي هو حكمه ، لأنه اظهار ما يؤل اليه أمره ممـا يعتمد عليـه وفائدته .

وقوله « ويتم نعمته عليك » فاتمام النعمة هو أن يحكم بداومها على اخلاصها من شائب بها فهذه النعمة التامة بخلوصها مما ينغصها، ولا تطلب الا من الله تعالى لانه لا يقدر عليها سواه . وقوله « كما اتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحاق » اخبار من يعقوب ليوسف أن الله تعالى يديم عليه هذه النعمة ، كما أداما على أبويه قبله : ابرهيم وإسحق، واصطفائه إياهما وجعله لهما نبيين رسولين الى خلقه

ثم أخبر مع ذلك أن الله تعالى عليم بمن يصلح أن يجتبى،حكيم في اجتبائه من يجتبيه واضع للشيء في موضعه ، وفي غير ذلك من افعاله . قال الفراء : قوله « وكذلك يجتبيك ربك » جواب لقوله إني رأيت أحد عشر كوكبا ، فقيل له ، وهكذا يجتبيك ربك (فكذلك ، وهكذا) سواء في المعنى ، وقال ابن اسحاق إنما قص الله تعالى قصة يوسف علي محمد (ﷺ) ليعلمه أنه بغى عليه أخوته وحسدوه ، فيسليه بذلك من بغي قومه عليه وحسدهم اياه .

قوله تعالى :

(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ) (٧)

آية بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وحده «آية للسائلين»على التوحيد الباقون «آيات» على الجمع.قال أبو علي النحوي من أفرد جعل شأنه كله آية. ويقوي ذلك قوله «وجعلنا ابن مريم وامه آية »[1]، فأفرد، وكل واحد منهما على انفراده يجوز أن يقال آية، فافرد مع ذلك، ومن جمع جعل كل واحد من احواله آية ، ومن جمع على ذلك على أن المفرد المنكر في الايجاب يقع دالا على الكثرة كما يكون ذلك في غير الايجاب قال الشاعر :

فقتلا بتقتيل وضرباً بضربكم جزاء العطاش لاينا م من الثار[2]

اللام في قوله «لقد» هي اللام التي يتلقى بها القسم.أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه كان في يوسف وفي اخوته آيات .والآية الدلالة على ما كان من الامور العظيمة. والآية والعلامة والعبرة نظائر في اللغة . وقال الرمّاني :الفرق بين الآية والحجة: أن الحجة معتمد البينة التي توجب الثقة بصحة المعنى . والآية تكشف عن المعنى

(١) سورة المؤمنون آية ٥١

(٢) مجمع البيان ٣ : ٢١٠

الذي فيه أعجوبة . ووجه الآية في يوسف واخوته أنهم نالوه للحسد بالأذى مع أنهم أولاد الانبياء : يعقوب واسحاق وابراهيم ، فصفح وعفا ، وأحسن ورجع الى الأولى ، وكان ذلك خروجا عن العادات .

وقال الزجاج : معناه بصيرة للذين سألوا النبي صلى الله عليه وآله فانبأهم بقصة يوسف - وهو صلى الله عليه وآله لم يقرأ كتاباً ، ولم يعلمه إلا من جهة الوحي - جوابا لهم حين سألوه . وفي يوسف لغتان ضم السين وكسرها ، وكذلك يونس بضم النون ، وكسرها ، والقراء على الضم فيهما ، وحكى قطرب فتح النون في يونس وهي شاذة .

قوله تعالى :

(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (٨) آية بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ونافع والكسائي «مبين اقتلوا» بضم التنوين . الباقون بكسره. قال أبو علي: من ضم التنوين اتبع حركة التنوين ضمة الهمزة بعده ، لان تحريكه ملزم لالتقاء الساكنين ، كما قالوا مذ به وفي ظلمات فاتبعوا الضمة وكذلك « مبين اقتلوا » « وقالت اخرج » ، ومن كسر لم يتبع، وكسر على أصل الحركة لالتقاء الساكنين في الامر الاكثر .

والعامل في (أذا) اذكر ، وتقديره اذكر إذ قالوا ليوسف . ويحتمل أن يكون العامل فيه ما في الآية الاولى من قوله « لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف » .

وفي الآية اخبار عما قالت أخوة يوسف حين سمعوا منام يوسف وتأويل يعقوب إياه . وقولهم : ان يوسف وأخاه لابيه وأمه ، وهو ابن يامين « احب الى أبينا » يعقوب « منا » مع انا عصبة أي جماعة ، والحب ضد البغض ، والحب

– بفتح الحاء – سمي به ، لانه مما يحب، والحب– بكسر الحاء – المفرط لما فيه من الحب، والاحباب ان يبرك البعير فلا يثور، لانه يحب البروك والمحبة، على ضربين:

احدهما – المحبة التي هي ميل الطباع .

والثاني – ارادة المنافع .

والفرق بين المحبة والشهوة أن الانسان يحب الولد ، ولا يشتهيه بأن يميل طبعه اليه ويرق عليه ويريد له الخير . والشهوة منازعة النفس الى ما فيه اللذة . والعصبة الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض ، وقولهم « ونحن عصبة » أي جماعة يعين بعضها البعض ، وكانوا عشرة . والعصبة يقع على الجماعة من عشرة إلى خمسة عشر ، ولا واحد له من لفظه ، كالرهط والقوم والنفر .

وقوله « ان ابانا لفي ضلال مبين » معناه الاخبار عن قولهم ان ابانا في ذهاب عن طريق الحق والصواب الذي فيه التعديل بيننا في المحبة . وقيل: انهم أرادوا انه غلط في تدبير أمر الدنيا إذ كانوا انفع له من يوسف وأخيه من أمه وأبيه إذ كانوا يقومون بأمواله ومواشيه ، ولم يريدوا الضلال في الدين ، لأنهم لو أرادوا ذلك ، لكانوا كفاراً ، وذلك خلاف الاجماع .

واكثر المفسرين على ان اخوة يوسف كانوا انبياء ، وقال قوم : لم يكونوا كذلك ، وهو مذهبنا ، لأن الأنبياء لا يجوز ان تقع منهم القبائح ، وخاصة ما فعلوه مع أخيهم يوسف من طرحه في الجب، وبيعهم إياه بالثمن البخس، وادخالهم الغم به على أبيهم يعقوب ، وكل ذلك يبين أنهم لم يكونوا أنبياء . وقال البلخي: ذهب قوم الى أنهم لم يكونوا في تلك الحال بلغوا الحلم، وقد يقع مثل ذلك ممن قارب البلوغ ، وان لم يبلغ ، ويعاتب عليه ويذم ، ويضرب على فعله .

ومن قال : كانوا بالغين غير انهم لم يكونوا انبياء استدل على بلوغهم بقوله « وتكونوا من بعده قوماً صالحين » ، وقولهم « يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا » وقال الانبياء الاسباط من بني يعقوب غير هؤلاء .

قوله تعالى :

(أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ) (٩) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعـالى عن اخوة يوسف انهم قال بعضهم لبعض « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم، وتكونوا من بعده قوماً صالحين» ومعناه اطرحوه في أرض تأكله السباع او يهلك بغير ذلك من الأمور . وقيل : معناه اطرحوه في أرض يبعد عن أبيه ، ولا يقدر عليه .

وقوله «يخل لكم وجه أبيكم» جواب الأمر فيقوله «اقتلوا يوسف» ولايجوزفيه غير الجزم، لأنه ليس فيه ضمير، والمعنى انكم متى قتلتموه او طرحتموه في أرض اخرى خلا لكم أبوكم وحن عليكم « وتكونوا من بعده قوماً صالحين » معناه إنكم اذا فعلتم ذلك وبلغتم أغراضكم تبتم مما فعلتموه ، وكنتم من جملة الصالحين الذين يفعلون الخيرات ، فيكفر عنكم عقاب ما فعلتموه . وقال الحسن : معناه تكونوا قوماً صالحين في أمر دنياكم ، ولم يريدوا أمر الدين .

قوله تعالى :

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) (١٠) آية بلا خلاف.

قرأ نافع وابو جعفر «غيابات» على الجمع . الباقون «غيابة» على التوحيد، وقرأ الحسن تلتقطه بالتاء ، كما قالوا ذهبت بعض اصابعه ، قال ابو علي : وجه قول من أفرد، أن الجب لا يخلوا ان يكون له غيابة واحدة او غيابات، فغيابة المفرد يجوز ان يعنى به الجمع ، كما يعنى به الواحد ، ووجه قول من جمع : انه يجوز ان يكون له غيابة واحدة،فجعل كل جزء منه غيابة ، فجمع على ذلك ، كقولهم

شابت مفارقة ، ويجوز ان يكون عنده للجب غيابات ، فجمع على ذلك .

اخبر الله تعالى في هذه الآية عن واحد من جملة القوم أنه قال على وجه المشورة عليهم «لا تقتلوا يوسف» ولكن اطرحوه في جب عميق قليل الماء. وقيل إنه كان اسم القائل لذلك (روبيل) وكان ابن خالة يوسف – في قول قتادة وابن اسحاق – وقال الزجاج : كان يهوذا، والغيابة الموضع الذي يغيب فيه صاحبه وغيابة البئر شبه الجاف او طاف فوق الماء وضعوه فيها . وكلما غيب شيء عن الحس بكونه، فهو غيابة . وقال الحسن يعني في قعر الجب قال المنخل :

فــان انا يوم غيبتني غيابــتي فسيروا بسيري في العشيرة والأهل[1]

والجب البئر التي لم تطوَ ، لانه قطع عنها ترابها حتى طغى الماء من غير طي، ومنه المجبوب قال الأعشى :

لئن كنت في جب ثمانين قامة ورقّيت أسباب السماء بسلم[2]

و (السيارة) الجماعة المسافرون ، لانهم يسيرون في البلاد . وقيل : هم مارة الطريق . و (الالتقاط) تناول الشيء من الطريق ، ومنه اللقطة واللقيطة . وقيل : انهم أشاروا عليه بأن يقعد في دلو المدلي إذا استسقى ليخرجه من البئر ففعل . ومعنى التقاطه أن يجدوه من غير ان يحسبوه ، يقال وردت الماء التقاطاً إذا وردته من غير ان تحسبه .

قوله تعالى :

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

(١١) آية بلا خلاف .

---

(١) الشاعر هو المنخل بن نسيع العنبري . تفسير القرطبي ٩ / ١٣٢ والتاج (غيب) ومجاز القرآن ١ / ٣٠٢ .

(٢) ديوان (دار بيروت) ١٨٢ والصبح المنير ٨٤ ومجـــاز القرآن ١ / ٣٠٢ وتفسير القرطبي ٩/ ١٣٢ والكتاب لسيبويه ١ / ٢٣١ .

كلهم قرأ «تا منا» بفتح الميم وادغام النون الأولى في الثانية، والاشارة الى اعراب النون المدغمة بالضم اتفاقاً، قال ابو علي وجه ذلك ان الحرف المدغم بمنزلة الموقوف عليه من حيث جمعها السكون، فمن حيث اشموا الحرف الموقوف عليه إذا كان مرفوعاً في الادراج اشموا النون المدغمة في (تامنا) وليس ذلك بصوت خارج الى اللفظ، وانما هي هيئة العضو لاخراج ذلك الصوت به ليعلم بذلك أنه يريد ذلك المتهيأ له.

حكى الله تعالى عن أخوة يوسف لما تآمروا على ما يفعلونه بيوسف أنهم، قالوا لأبيهم لم «لا تأمنا على يوسف» قال الزجاج: يجوز في (تأمنا) أربعة أوجه: تأمننا بالاظهار ورفع النون الأولى، لان النونين من كلمة، و «تأمنا» بالادغام وهي قراءة القراء لالتقاء المثلين، و (تأمنا) بالادغام والاشمام، وهو الذي حكاه ابن مجاهد عن الفراء، للاشعار بالضمة، و (تئمنا) بكسر التاء وهي قراءة يحي ابن وثاب، لأن ماضيه فعل، كما قالوا تعلم ونعلم إلا ان القراءة بالادغام والاشمام. والأمن سكون النفس الى إنتفاء الشر، وضده الخوف، وهو انزعاج النفس لما يتوقع من الضر. وقوله «وانا له لنا صحون» تمام الحكاية عنهم أنهم قالوا إنا ليوسف لنـا صحون مشفقون عليه. والنصح إخلاص العمل من فساد يتعمد، ونقيضه الغش. والنصح في التوبة اخلاصها مما يفسدها. وذلك واجب فيها وهي التوبة النصوح.

قوله تعالى:

(أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (١٢)

آية بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو «نرتع ونلعب» بالنون فيهما. وكسر العين من «يرتع» من غير بلوغ الى الياء أهل الحجاز، إلا المالكي. والعطار عن الزبيبي اثبات (ياء) في الوصل، والوقف بعد العين. الباقون بسكون العين، ولم

يختلفوا في سكون الباء من ويلعب، وقرأ نافع يرتع، ويلعب بالياء فيهما، وكسر العين. وقرأ أهل الكوفة بالياء فيهما ، وجزم العين والباء . قال ابو علي : قراءة ابن كثير حسنة ، لأنه جعل الارتعاء القيام على المال لمن بلغ وجاوز الصغر ، واسند اللعب الى يوسف لصغره ، ولا لوم على الصغير في اللعب ، ولا ذم . والدليل على صغر يوسف قول أخوته « وانا له لحافظون » ولو كان كبيراً ما احتاج الى حفظهم . وايضاً قال يعقوب أخاف ان يأكله الذئب ، ولو لم يكن صغيراً ما خاف عليه، وانما يخاف الذئب على من لا دفاع فيه، ولا ممانعة له : من شيخ ، فانٍ او صبي صغير قال الشاعر :

اصبحت لا أحمل السلاح ولا … املك رأس البعير ان نفرا
والذئب اخشاه ان مررت به … وحدي واخشى الرياح والمطرا[١]

فأما اللعب فما لا ينبغي ان ينسب الى اهل النسك والصلاح، ألا ترى الى قوله : « أجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين »[٢] فقوبل اللعب بالحق فدل على انه خلافه، وقال «ولئن سألتهم ليقولنّ انما كنا نخوض ونلعب»[٣] وقال «وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهوا» فأما الارتعاء فهو افتعال من رعيت مثل سويت واستويت وكل واحد منها متعد الى مفعول به ، قال الشاعر :

ترتعي السفح فالكثيب فذا قا … ر فروض القطا فذات الرّئال[٤]

وقال ابو عبيدة : ويجوز ان يقال نرتع ويراد ترتع إبلهم ووجه ذلك انه كان الاصل ترتع إبلنا ثم حذف المضاف وأسند الفعل الى المتكلمين ، فصار نرتع وكذلك نرتعي على ترتعي إبلنا ، ثم يحذف المضاف فيكون نرتعي . وقال أبو عبيدة : نرتع نلهو ، وقد تكون هذه الكلمة على غير معنى النيل من الشيء كقولهم في المثل العبد والرتعة، فكان على هذا النيل والتناول مما يحتاج اليه الحيوان.

---

(١) قائله الربيع بن ضبيع الفزاري . سيبويه ١ : ٤٦ ومجمع البيان ٣ : ٢١٤ .
(٢) سورة الانبياء آية ٥٥ ، (٣) سورة التوبة ٩ آية ٦٥
(٤) قائله الاعشى ، ديوان : ١٦٣ واللسان (سفح) ، (رأل) .

واما قراءة ابي عمرو ، وابن عامر ، فعلى أن معناه نرتع أبلنا ، او على اننا ننال ما نحتاج اليه ومعناه ننال. فأما قوله « ونلعب » فحكي ان ابا عمرو قيل له كيف يقولون نلعب ، وهم انبياء ؟ فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء ، فعلى هـذا سقط الاعتراض ولا يجوز ان يكون المراد به مثل ما قال الشاعر :

حدَّت حداد تلاعب وتقشعت   غمرات قالت ليسه حيران[١]

فكان اللعب ههنا الذي لم يتشمّر في امره ، فدخله بعض الهوينا ، فهذا أسهل من الوجه الذي قوبل بالحق ، وقد روي عن النبي ﷺ انه قال لجابر : (فهلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك) وانما اراد بذلك التشاغل بالمباح والعمل بما يتقوى به على العبادة والطاعة . وقد روي عن بعض السلف انه كان اذا اكثر النظر في مسائل الفقه قال احمضونا ، وقد روي عن النبي ﷺ انه قال ان هذا الدين متين فاوغلوا فيه برفق فان المبتت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . فليس هذا اللعب من الذين « قال انما كنا نخوض ونلعب » في شيء .

ومن قرأ بالياء فإن كان يرتع من اللهو ، كما فسّره ابو عبيدة ، فلا يمتنع ان يخبر به عن يوسف لصغره ، كما لا يمتنع ان ينسب اليه اللعب كذلك إن كان «يرتع» من النيل من الشيء، فلذلك ايضاً لا يمتنع عليه ايضاً، فوجهها بـيّن، وهو أبين من قول من قال «ونلعب» بالنون ، لانهم سألوا ارساله ليتنفس بلعبه ، ولم يسألوا ارساله ليلعبوا هم .

والرتع الاتساع في البلاد بالذهاب في جهاتها من اليمين والشمال ، فلان يرتع في المال وغيره من ضروب الملاذ ، واصل الرتعـــة التصرف في الشهوات رتع فلان في ماله اذا انفق في شهواته قال القطامي :

أكفراً بعد رد الموت عني   وبعد عطائك المائة الرّتاعا[٢]

---

(١) مجمع البيان ٣ : ٢١٤ وروايته :

جدت جداد بلاعب وتقشعت   غمرات قالت ليسه حيران

(٢) مر في ٢٦/١ وتفسير الطبري (دار المعارف) ١٥ : ٥٦٩، والطبعة الاولى ٨٨/١٢.

وقال مجاهد معنى « نرتع » يحفظ بعضنا بعضاً من الرعاية . واللعب يحتمل ما يستهجن ويسترذل لطلب الفرح من غير مراعاة شيء من الحِلمْ كفعل الصبي اذا قصد هذا القصد .

أخبر الله تعالى عن اخوة يوسف انهم قالوا لابيهم ارسل يوسف معنا ينال الملاذ ويتفرّح ، ونحن حافظون له ومراعون لاحواله فلا تخشى عليه .

قوله تعالى :

(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) (١٣) آية بلا خلاف .

قرأ الكسائي وخلف في اختياره ، وابو جعفر وورش والاعشى واليزيدي في الادراج إلا سجادة ، ومدين من طريق عبد السلام « الذّيب » بتخفيف الهمزة في المواضع الثلاثة . الباقون بالهمزة . والهمز وترك الهمز لغتان مشهورتان قال ابو علي : والاصل فيه الهمزة ، فان خفف جاز ، وان وقع في مكان الردف قلب قلباً كما قال الشاعر :

كأن مكان الردف منه على رال (١)

فقلب الهمزة الفاً .

أخبر الله تعالى حكاية عن يعقوب انه قال حين طلب اخوة يوسف انفاذ يوسف معهم ، واحتيالهم في ذلك . واشفق من ذلك ، قال « اني ليحزنني » اي يؤلم قلبي . يقال حزّنتك وأحزنتك لغتان ، والحزن ألم القلب بفراق المحب ويعظم اذا كان فراقه الى ما يبغض « أن تذهبوا به » اي ليحزنني اذهابكم به ، والذهاب

---

(١) قائله امرؤ القيس ، ديوانه : ١٦٥ وامالي الشريف المرتضى ١: ٢٢٩ وصدره :

وصم صلاب ما يقين من الوجى

وهو يصف حوافر الفرس بانها (صم) اي صلبة (لا يقين) ليس فيها تجويف (من الوجى) وهو الحفاء . و (مكان الردف) الموضع الذي يردف عليه الراكب . و(الرال) فرخ الغزال.

والمرور والانطلاق نظائر وبيّن انه يخاف عليه الذئب ان يأكله لان الذئاب كانت ضارية في ذلك الوقت . والذئب سبع معروف ، واشتقاقه من تذاءب الريح اذا جاءت من كل جهة ، فالذئب يختل بالحيلة من كل وجه .

وقوله « وانتم عنه غافلون » جملة في موضع الحال وتقديره اخاف ان يأكله الذئب في حـــال كونكم ساهين عنه ، والخوف والفزع والقلق نظائر ونقيضه الأمن .

قوله تعالى :

(قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ) (١٤) آية بلا خلاف .

لما قال لهم يعقوب ما ذكره في الآية الاولى ، قالوا في الجواب عن ذلك «لئن اكله الذئب ونحن جماعة متعـاضدون متناصرون نرى الذئب قد قصده ، فلا نمنع عنه « انا اذاً لخاسرون » أي بمنزلة الخاسر الذي ذهب رأس ماله على رغم منه ، والخسران ذهاب رأس المال ، والربح زيادة على رأس المال . واللام في قوله « لئن » هي التي يتلقى بها القسم ، فكأنهم أقسموا على ما قالوه . وأعظم الخسران ما يذهب بالثواب ، ويؤدي الى العقاب ، فلذلك أقسموا عليه ، وقال المؤرج : معناه إنا اذاً لمضيّعون بلغة قيس عيلان .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِـهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَـابَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـــذا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (١٥) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى انه لما أذن يعقوب ليوسف في المضي معهم ، وذهبوا به « وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب » اي عزموا على فعل ذلك ، ولا يقال : أجمع الا اذا قويت الدواعي الى الفعل من غير صارف وأما من دعاه داع واحد ، فلا يقال فيه أنه أجمع ، فكأنه مأخوذ من اجتماع الدواعي ، ويجوز ان يكون المراد انهم اتفقوا على إلقائه في غيابة الجب ، والجعل والتصيير والعمل نظائر في اللغة. والغيابة البقعة التي يغيب فيها الشيء عن الحس . وقيل طلبوا بئراً قليلة الماء تغيبه ولا تغرقه . وقيل بل جعلوه في جانب جبها ، وسمّى البئر التي لم تطو جباً لأنه جبّ ترابها عنها فقط ، كأنه ليس فيها إلا قطع التراب . وجواب (لمّا) محذوف وتقديره عظمت فتنتهم أو كبر ما قصدوا له. وقال قوم: الواو في وأجمعوا مقحمة . والمعنى أجمعوا أن يجعلوه وهو مذهب الكوفيين ، وأنشدوا قول أمرىء القيس :

فلمّا اجزنا ساحة الحيّ وانتحى بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل(١)

يريد ، فلما اجزنا ساحة الحي انتحى ، وقال آخر :

حتى اذا قملت بطونكم ورأيتم ابناءكم شبّوا
وقلبتم ظهر المجن لنا ان اللئيم العاجز الخبُّ(٢)

يريد قلبتم ، فادخل الواو . والبصريون لا يجيزونه . وقوله «واوحينا اليه» يعني إلى يوسف ، قال الحسن أعطاه الله النبوة ، وهو في الجب « لتنبئنهم بأمرهم هذا » معناه ستخبرهم بذلك في المستقبل و « هم لا يشعرون » قال ابن عباس والحسن وابن جريج لا يشعرن بأنه يوسف . وقال مجاهد وقتادة : لا يشعرون بأنه اوحي اليه .

والشعور ادراك الشيء بمثل الشعرة في الدقة ، ومنه المشاعر في البدن . وقال

---

(١) ديوانه : ١٤٩ من معلقته الشهيرة وتفسير الطبري ١٥ : ٥٧٥ وفي المعلقات العشر (حقاف) بدل (قفاف) وقال وروي (حقف ذي ركام) .
(٢) انظر ٣ : ١٩ تعليقة ٤ .

قوم : معنى قوله «لتنبئنهم بأمرهم» لتجازينهم على فعلهم، تقول العرب للرجل: تتوعده بمجازاة سوء فعله : لأنبئنك ، ولأعرفنك ، يعني لأجازينك .

قوله تعالى :

(وَجَاؤُا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) (١٧) آيتان بلا خلاف .

في الكلام حذف ، لان التقدير إنهم أجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وفعلوا ذلك ، فلما فعلوه جاؤوا حينئذ « أباهم عشاء يبكون » والمجيء والمصير الى الشيء واحد، وقد يكون المصير بالانقلاب، كمصير الطين خزفاً، وقد يكون بمعنى الانتقال . والعشاء آخر النهار . ونصبه لانه من ظروف الزمان . ومنه اشتق (الاعشى) لانه يستضيء ببصر ضعيف . والبكاء جريان الدمع من العين عند حال الحزن ، فكانوا يعلمون أن اباهم يحزن لما جاؤا من خبر يوسف ، فبكوا مع بكائه عليه ، وفي حال خبره لما تصوروا تلك الحال . وقيل : إنهم أظهروا البكاء ليوهموا أنهم صادقون فيما قالوه .

وقوله « إنا ذهبنا نستبق » قيل في معناه قولان :

احدهما ــ قال الزجاج : ذهبنا نتنصل مشتق من السباق في الرمي . وقال الجبائي: نستبق في العدو لنعلم اينا أسرع عدواً « وتركنا يوسف عند متاعنا » يعني تركناه عند الرحل ليحفظه .

وقوله « ومــا أنت بمؤمن لنا » أي لست بمصدق لنا « ولو كنا صادقين » وجواب (لو) محذوف ، وتقديره : ولو كنا صادقين ما صدقتنا ، لاتهامك لنا في أمر يوسف ، ودل الكلام عليه . ولم يصفوه بأنه لا يصدق الصادق ، لان المعنى

انه لا يصدقهم إتهاماً لهم لشدة محبته ليوسف يسيء الظن بهم ، ولا تسكن نفسه الى خبرهم .

قوله تعالى :

(وَجَاؤُا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (١٨)

آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن أخوة يوسف انهم جاؤا أباهم، ومعهم قميص يوسف ملطخ بدم . وقالوا له هذا دم يوسف حين أكله الذئب . وقال ابن عباس ومجاهد كان دم سخلة ، قال الحسن : لما رأى يعقوب القميص صحيحاً ، قال : يا بني والله ما عهدت الذئب عليماً .

قال عامر الشعبي : كان في قميص يوسف ثلاث آيات :

احدها – حين ألقي على وجه أبيه ، فارتد بصيراً ، وحين قدّ من دبر ، وحين جاؤا على قميصه بدم كذب. ومعنى (كذب) مكذوب فيه ، كما قيل الليلة الهلال فيرفع ، وكما قال « فما ربحت تجارتهم »[1] أي ما ربحوا في تجارتهم إلا انه وصف في المصدر ، وتقديره بدم ذي كذب ، لكن إذا بولغ في الصفة اجري على هذه الصفة ، وقال الفراء يجوز ان يكون المصدر وقع موقع مفعول ، كما يقع مفعول موقع المصدر في مثل قول الراعي القطامي :

حتى اذا لم يتركوا لعظامه لحماً ولا لفؤاده معقولا [2]

---

(١) سورة البقرة آية ١٦ .

(٢) تفسير الطبري ١٥ : ٥٨٣ ، وجمهرة اشعار العرب : ١٧٥ ومجاز القرآن ١ : ٣٠٣ وامالي الشريف المرتضى ١ : ١٠٦ .

ولا يجيزه سيبويه ، ويقول مفعول لا يكون مصدراً ، ويتأول قولهم : خذ ميسوره ، ودع معسوره أي خذ ما يسر ودع ما عسر عليه ، وكذلك : ليس لفؤاده معقولاً أي ما يعقل به .

وقوله «قال بل سولت لكم انفسكم امراً» حكاية ماقال يعقوب لهم. والتسويل تزيين النفس ما ليس بحسن – في قول قتادة – وقيل معناه تقرير معنى في النفس على الطبع في تمامه ، وهو تقدير معنى في النفس على توهم تمامه .

وقوله « فصبر جميل » فالصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه على ما يدعو إليه العقال ، ويحتمل رفع الصبر أمرين : احدهما – ان يكون خبر ابتداء وتقديره فأمري صبر جميل. الثاني – ان يكون مبتدأ ، وخبره محذوف ، وتقديره فصبر جميل أولى من الجزع الذي لا ينبغي لي ، قال الشاعر :

يشكوا الي جملي طول السرى   صبر جميل فكلانا مبتلى[1]

ولو نصب لجاز ، ولكن الأحسن الرفع ، لأنه موصوف . وقوله « والله المستعان على ما تصفون » حكاية ما قال يعقوب عند ذلك ، بأن الله تعالى هو الذي يطلب منه المعونة على ما ذكروه ؛ وتقديره استعين بالله على احتمال ما تصفونه ، وعلى الصبر كله .

قوله تعالى :

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) (١٩)

آية بلا خلاف .

---

(١) امالي الشريف المرتضى ١ : ١٠٧ ، وروايته :

شكا الي جملي طول السرى   يا جملي ليس الي المشتكى
الدرهمان كلفان ما ترى   صبر جميل فكلانا مبتلى

قرأ أهل الكوفة « يا بشري » بغير الف . الباقون بالالف والياء ، وكان يجوز أن يقرأ بياء مشددة « بشريّ » وهي لغة هذيل غير انه لم يقرأ به احد ، قال أبو ذؤيب :

سبقوا هـويّ واعنقوا لهـواهم   فتخرموا ولكل جنب مصرع[١]

قال ابو علي: من قرأ (يا بشراي) فاضافه الى الياء التي للمتكلم، كأن للألف التي هي حرف الاعراب موضعان من الاعراب :

احدهما – ان تكون في موضع نصب لانه منادى مضاف .

والآخر – ان تكون في موضع كسر، لأنه بمنزلة حرف الاعراب في غلامي.

ومن قرأ « يا بشرى » احتمل وجهين :

احدهما – ان يكون في موضع ضم مثل يارجل بالنداء لاختصاصه كاختصاص الرجل .

والآخر – ان يكون في موضع النصب لأنك اشعت النداء ولم تخص به ، كما فعلت في الوجه الاول كقوله « يا حسرتا على العباد »[٢] .

اخبر الله تعالى أنه حين ألقى أخوة يوسف في غيابة الجب جاءت سيارة، وهم جماعة مسافرون مارة فبعثوا واردهم ، وهو الذي يصير الى الماء ليستسقي منه « فأدلى دلوه » يعني أرسل دلوه ليملأ ، يقال ادليت الدلو إذا ارسلتها لتملأ ، ودلوتها إذا اخرجتها مملأة ، وقيل انه لما ارسل الدلو تعلق بها يوسف ، فقال المدلي « يا بشراي » هذا غلام» في قول قتادة والسدي .

وقيل في معنى (بشراي) قولان :

(١) ديوانه ١ : ٢ واماني الشريف المرتضى ١ : ٢٩٣ ورواية الامالي (لسبيلهم) بدل (لهواهم) .
(٢) سورة يس آية ٣٠ .

احدهما – انه بشر اصحابه بأنه وجد عبداً .

الثاني – قال السدي كان اسمه (بشرى) فناداه .

وقوله « واسرّوه بضاعة » قيل في معناه قولان :

احدهما – قال مجاهد والسدي أسره المدلي ، ومن معه من باقي التجار لئلا يسألوهم الشركة فيه .

الثاني – قال ابن عباس اسره اخوته يكتمون أنه أخوهم وتابعهم على ذلك يوسف لئلا يقتلوه . والبضاعة قطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشيء اذا قطعته ، ومنه المبضع ، لأنه يبضع به العرق . ومعنى « وأسرّوه » أنهم لما وجدوه أحبوا أن لا يعلم أنه موجود ، وان يوهموا أنه بضاعة دفعها اليهم أهل الماء ، ونصب بضاعة على الحال .

وقوله « والله عليم بما يعملون » اخبار منه تعالى بأنه عالم بافعالهم ، فيجازيهم على جميعها ، وان اسروا بها، وفي ذلك غاية التهديد .

قوله تعالى :

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ) (٢٠) آية بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن اخوة يوسف أنهم باعوا يوسف. يقال شريت أشري اذا بعت . ومنه قوله « ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون »[١] وقال يزيد ابن مفرغ الحميري :

وشريت برداً ليتني من بعد برد كنت هامه[٢]

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٢ (٢) مرهذا البيت في ١ : ٣٤٨ ، ٣ : ٢٥٧

وقوله « بثمن بخس دراهم معدودة » أي بثمن ذي بخس أي ناقص . وقيل بثمن ذي ظلم، لانه كان حراً، لا يحل بيعه ، فالثمن هو بدل الشيء من العين أو الورق . ويقال في غيرهما أيضاً مجازاً. والبخس النقص من الحق، يقال: بخسه في الوزن او الكيل إذا نقصه من حقه فيهما . ومعنى « معدودة » اي قليلة ، لان الكثير قد يمنع من عدده لكثرته . وقيل : عدوها ولم يزنوها . وقيل: انهم كانوا لايزنون الدراهم حتى تبلغ أوقية، وأوقيتهم أربعون درهماً. وقال عبدالله بن مسعود وابن عباس وقتادة : إنها كانت عشرين درهماً . وعن ابي عبدالله (ع) إنها كانت ثمانية عشر درهماً . وقال ابن عباس ومجاهد: ان الذين باعوه اخوته ، وانهم كانوا حضوراً ، فقالوا هذا عبد لنا ابق ، فباعوه . وقال قتادة الذين باعوه السيارة .

وقوله « وكانوا فيه من الزاهدين » يعني الذين باعوه ، زهدوا فيه ، فلذلك باعوه بثمن بخس ، وتقديره وكانوا زاهدين فيه من الزاهدين بجهلهم بما له عند الله من المنزلة الرفيعة ، وانما قدموا الظرف ، لانه أقوى في حذف العامل من غيره، ولا يجوز قياساً على ذلك (وكانوا زيداً من الضاربين)

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْاحَادِيثِ وَٱللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) (٢١) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن من اشترى يوسف (ع) من بايعه من أهل مصر أنه قال : لامرأته حين حمله اليها « أكرمي مثواه » يعني موضع مقامه، وانما امرها باكرام مثواه دون اكرامه في نفسه ، لان من أكرم غيره لاجله كان اعظم منزلة ممن يكرم في نفسه فقط ، والاكرام اعطاء المراد على جهة الاعظام ، وهو يتعاظم

فأعلاه منزلة ما يستحق بالنبوة، وادناه ما يُستحق لخصلة من الطاعة أدناها كإماطة الاذى من الطريق وغيره .

وقوله « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ، بين أنه إنما يأمرها باكرامه لما يرجو من الانتفاع به فيما بعد أو للتبني به . وقال ابن مسعود : احسن الناس فراسة ثلاثة : العزيز حين قال لامرأته « اكرمي مثواه عسى ان ينفعنا » وابنة شعيب حين قالت في موسى « يا أبت استأجره »[١] وأبو بكر حين ولى عمر .

وقوله « وكذلك مكنا ليوسف في الارض » ووجه التشبيه فيه انه تعالى شبه التمكين له في الارض بالتوفيق للاسباب التي صار بها الى ما صار بالنجاة من الهلاك والاخراج الى اجلّ حال .

وقوله « ولنعلمه من تأويل الاحاديث » اللام فيه محمولة على تقدير دبرنا ذلك لنمكنه في الارض ، ولنعلمه من تأويل الاحاديث .

وقوله « والله غالب على امره » معناه أنه قادر عليه من غير مانع حتى يقع ما أراد، ومنه وقوع المقهور بالغلبة في الذلة . وقيل غالب على امر يوسف يدبره ويحوطه .

وقوله « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » اخبار منه تعالى ان اكثر الخلق غير عالمين بحسن تدبير الله لخلقه، وما يجريه اليهم من مصالحهم وانه قادر لا يغالب؛ بل هم جاهلون بتوحيده ، ولا يدل ذلك على ان من فعل ما كرهه الله يكون قد غالب الله ، لان المراد بذلك ما قلناه من انه غالب على ما يريد فعله بعباده . فاما ما يريده على وجه الاختيار منهم فلا يدل على ذلك ، ولذلك لا يقال إن اليهودي المقعد قد غلب الخليفة حيث لم يفعل ماأراده الخليفة من الايمان ، وفعل ما كرهه من اليهودية وهذا واضح .

---

(١) سورة القصص آية ٢٦

قوله تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ) (٢٢) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى ان يوسف لما بلغ أشده ، وهو كمال القوة . وقال قوم هو من ثماني عشرة سنة الى ستين سنة ، وقال ابن عباس من عشرين . وقال مجاهد من ثلاث وثلاثين سنة ، والاشد جمع ، لا واحد له من لفظه مستعمل . وفي القياس واحده شد ، كواحد الاضرّ ضرّ ، وواحد الاشر شر قال الشاعر :

هل غير ان كثر الا شر واهلكت   حرب الملوك اكاثر الاموال [١]

وقوله « آتيناه حكماً وعلماً » يعني أعطيناه ذلك ، والحكم القول الفصل الذي يدعو الى الحكمة ويقال تقديراً لما يوتى له بعلة : يعلم من دليل الحكم ومن غير دليل الحكم . والاصل في الحكم تبيين ما يشهد به الدليل ، لأن الدليل حكمة من اجل أنه يقود الى المعرفة . وقيل: معناه آتيناه الحكم على الناس . وقيل آتيناه الحكمة في فعله بألطافنا له ، والحكيم العامل بما يدعو اليه العلم . والعلم ما اقتضى سكون النفس . وقال قوم هو تبيين الشيء على ما هو به ، وزاد فيه الرماني : ما يحل في القلب تحرزا من الرؤية ، لانها يبين بها الشيء على ما هو به ، لكنه معنى يحل في العين . ومن قال الادراك ليس بمعنى لا يحتاج الى ذلك .

وقوله « وكذلك نجزي المحسنين » معناه مثل ما جازينا يوسف نجازي كل من أحسن وفعل الافعال الحسنة من الطاعات . والاحسان هو النفع بالحسن الذي يستحق به الحمد ، فعلى هذا يصح أن يحسن الانسان إلى نفسه كما يصح أن يسيء الى

---

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٢١ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢ : ٩٨ وروايته (الاشد) بدل (الاشر) .

نفسه ، ولا يصح ان ينعم على نفسه ، لأن النعمة تقتضي استحقاق الشكر عليها ، ولا يصح ذلك بين الانسان ونفسه .

قوله تعالى :

(وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ) (٢٣) آية بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو ، وعاصم وحمزة والكسائي (هيت) بفتح الهاء والتاء ، وقرأ ابن كثير بفتح الهاء، وضم التاء. وقرأ نافع وابن عامر (هيت) بكسر الهاء وفتح التاء . وروى هشام بن عامر عن ابن عامر (هئت) بالهمز من تهيأت ، وكسر الهاء ، وضم التاء ، وانكر الهمزة أبو عمرو بن العلاء والكسائي، قال طرفة :

ليس قومي بالابعدين إذا ما قال داع من العشيرة هيت
هم يجيبون ذا هلم سراعاً كالابابيل لا يغادر بيت[1]

فهذا شاهد لابن كثير قال ابو عبيدة : « هيت لك » معناه هلم، قال: وقال : رجل لعلي (ع) :

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا
ان العراق واهله سلم اليك فهيت هيتا[2]

قال ابو الحسن : وكسر الهاء لغة ، وقال بعضهم بالهمز من تهيأت الك، وهي حسنة إلا ان المعنى الاول أحسن ، لأنها دعته، والمفتوحة أكثر اللغات ، ففيه ثلاث لغات .

---

(١) مجاز القرآن ١ : ٣٠٣ ، وتفسير القرطبي ٩ : ١٦٤ ، وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ١٥ ، وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢ : ١٠٠ .
(٢) انظر تخريجه في الصفحة التي بعدها .

ومعنى قوله «وراودته» أي طالبته، والمراودة المطالبة بأمر للعمل بـه، ومنه المرود لانه يعمل به، ولا يقال في المطالبة بدين راوده. ومعنى «التي هو في بيتها» يعني امرأة العزيز «وغلقت الأبواب» فالتغليق اطباق الباب بمـا يعسر فتحة. وانما قيل (غلقت) لتكثير الاغلاق او المبالغة في الاغلاق، وألف (باب) منقلبة من الواو لقولهم: بويب وأبواب.

ومعنى «هيت لك» تعال وهلم الى ما هو لك، أنشد ابو عمرو بن العلاء:

أبلغ أمير المؤمنين اخـا العراق اذا اتيت
ان العراق واهله سلم اليك فهيت هيت[1]

ويقال للواحد والاثنين والجمع والذكر والانثى (هيت) بلفظ واحد. وقال ابن عباس والحسن وابن زيد معنى «هيت لك» هلم لك.

وقوله «معاذ الله» حكاية عن يوسف أنه قال ذلك. والمعنى أعوذ عياذاً بالله أن أجيب الى هذا أو ان يكون هذا أي اعتصم بالله من هذا. وقوله «ان ربي احسن مثواي» معناه ان الملك الذي هو زوجها، مالكي في الحكم «أحسن مثواي» باكرامي وبسط يدي ورفع منزلتي، وهو قـول مجاهد وابن اسحاق والسدي والجبائي، وقال الحسن يعني العزيز، وقال الزجاج يجوز ان يكون اراد ان الله ربي احسن مثواي أي في طول مقامي. وقوله «انه لا يفلح الظالمون» حكاية ان يوسف قال: ان من ظلم نفسه بارتكاب المعاصي لا يفلح ولا يفوز بشيء من الثواب.

قوله تعالى:

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ

---

(١) اللسان (هيت) ومجـاز القرآن ١ : ٣٠٥، وتفسير القرطبي ٩ : ١٩٤ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ١٥، وتفسير الطبري ١٢ : ٩٩.

لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوءَ وَٱلْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ) (٢٤) آية بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة ، ونافع «المخلصين» بفتح اللام . الباقون بكسرها . قال أبو علي حجة من كسر اللام قوله « اخلصوا دينهم »[١] ومن فتح اللام، فيكون بنى الفعل للمفعول به ، ويكون معناه ومعنى من كسر اللام واحد ، فاذا أخلصوا هم دينهم فهم مخلصون ، واذا أُخلصوا فهم مخلصون .

ومعنى (الهمّ) في اللغة على وجوه ، منها: العزم على الفعل ، كقوله « إذ همّ قوم ان يبسطوا اليكم أيديهم »[٢] ، أي أرادوا ذلك وعزموا عليه . ومثله قول الشاعر :

هممت ولم افعل وكدت وليتني ترکت على عثمان تبكي حلائله[٣]

وقال حاتم طي :

ولله صعلوك تساور همه ويمضي على الأيام والدهر مقدما[٤]

ومنها : خطور الشيء بالبال، وان لم يعزم عليه . كقوله « اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما»[٥] والمعنى ان الفشل خطر ببالهم، ولو كان الهم ههنا عزماً لما كان الله وليهما ، لأنه قال « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة فقدباء بغضب من الله »[٦] ، وارادة المعصية والعزم عليها معصية بلا خلاف، وقال قوم: العزم على الكبير كبير ، وعلى الكفر كفر،ولا يجوز أن يكون الله وليّ من عزم على الفرار عن نصرة نبيه ﷺ ويقوى ذلك ما قال كعب ابن زهير :

---

(١) سورة النساء آية ١٤٥ .
(٢) سورة المائدة آية ١٢ .
(٣) تفسير القرطبي ٩ : ١٦٦ ومجمع البيان ٣ : ٢٢٣
(٤) مجمع البيان ٣ : ٢٢٣ .
(٥) سورة آل عمران آية ١٢٢
(٦) سورة الانفال آية ١٦ .

فكم فيهم من سيد متوسع ومن فاعل للخير إن هم أو عزم

ففرق بين الهم والعزم وظاهر التفرقة يقتضي اختلاف المعنى، ومنها المقاربة يقولون : هم بكذا ، وكذا أي كاد يفعله قال ذو الرّمة :

أقول لمسعود بجرعاء مالك وقد هم دمعي ان تسيح اوائله(١)

والدمع لا يجوز عليه العزم ، وانما أراد كاد ، وقارب ، وقال ابو الاسود الدؤلي :

وكنت متى تهمم يمينك مرة لتفعل خيراً يعتقبها شمالكا(٢)

وعلى هذا قوله تعالى « جداراً يريد ان ينقض »(٣) أي يكاد وقال الحارثي :

يريد الرمح صدر ابي براءٍ ويرغب عن دماء بني عقيل(٤)

ومنها الشهوة وميل الطباع ، يقول القائل فيما يشتهيه ويميل طبعه ونفسه اليه هذا من همي ، وهذا أهم الاشياء الي . وروي هذا التأويل في الآية عن الحسن . وقال : اما همها وكان اخبث الهم ، واما همه فما طبع عليه الرجال من شهوة النساء، واذا احتمل الهم هذه الوجوه نفينا عنه (ع) العزم على القبيح واجزنا باقي الوجوه ، لان كل واحد منها يليق بحاله ، ويمكن ان يحمل الهم في الآية على العزم ، ويكون المعنى ، وهم بضربها ودفعها عن نفسه ، كما يقول القائل كنت هممت بفلان اي بأن اوقع به ضرباً او مكروهاً ، وتكون الفائدة على هذا الوجه في قوله « لولا ان رأى برهان ربه » مع ان الدفع عن نفسه طاعة لا يصرف البرهان عنها، إنه لما هم بدفعها اراه الله برهاناً على انه ان اقدم على مايهم به، اهلكه اهلها وقتلوه ، وانها تدّعي عليه المراودة لها على القبيح وتقذفه بأنه دعاها اليه وضربها لامتناعها منه ، فأخبر تعالى انه صرف بالبرهان عنه السوء

(١) الاغاني (دار الثقافة) ١٧ : ٣٠٨ . (٢) مجمع البيان ٣ : ٢٢٤ ،
(٣) سورة الكهف آية ٧٨ .
(٤) تأويل مشكل القرآن : ١٠٠ ، ومجمع البيان ٣ : ٢٢٤ .

والفحشا اللذين هما القتل والمكروه او ظن القبيح واعتقاده فيه .

فان قيل هذا يقتضي ان جواب (لولا) تقدمها في ترتيب الكلام ، ويكون التقدير : لولا ان رأى برهان ربه لهمّ بضربها ، وتقدم جواب (لولا) قبيح او يقتضي ان تكون (لولا) بغير جواب !.

قلنا : اما تقدم جواب (لولا) فجائز مستعمل وسنذكر ذلك فيما بعد ، ولا نحتاج اليه في هذا الجواب ، لان العزم على الضرب والهم به وقعا إلا انه انصرف عنها بالبرهان الذي رآه ، ويكون التقدير ولقد همت به وهم بدفعها لولا ان رأى برهان ربه ، لفعل ذلك، فالجواب المتعلق بـ (لولا) محذوف في الكلام ، كما حذف في قوله «ولولا فضل الله عليكم ورحمته . وان الله رؤف رحيم»[١] معناه ، ولولا فضل الله عليكم لهلكتم ومثله «كلا لو تعلمون علم اليقين»[٢] لم تنافسوا في الدنيا وتحرصوا على حطامها ، وقال امرؤ القيس :

فلو انها نفس تموت سويّة ولكنها نفس تساقط انفسا[٣]

والمعنى فلو انها نفس تموت سوية لنقصت وفنيت، فحذف الجواب تعويلاً على ان الكلام يقتضيه، ولا بد لمن حمل الآية على انه هم بالفاحشة ان يقدر الجواب، لان التقدير ، ولقد همت بالزنا وهم بمثله ، و«لولا ان رأى برهان ربه» لفعله . وانما حمل همّها على الفاحشة وهمّه على غير ذلك، لأن الدليل دلّ من جهة العقل والشرع على ان الانبياء ، لا يجوز عليهم فعل القبائح ، ولم يدل على انه لا يجوز عليها ذلك بل نطق القرآن بأنها همت بالقبيح ، قال الله تعالى « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . وقوله حاكياً عنها «الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين وقال «قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم» واجمعت الأمة من المفسرين واصحاب الاخبار

---

(١) سورة النور آية ٢٠ . (٢) سورة التكاثر آية ٥ .

(٣) ديوانه : ١١٧ واللسان «جمع» واماني السيد المرتضى ١ : ٤٧٩ . ورواية اللسان «جميعه» بدل «سوية» .

على انها همت بالمعصية، وقد بين الله تعالى ذلك في مواضع كثيرة ان يوسف لم يهم بالفاحشة . ولا عزم عليها منها قوله « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » وقوله « انه من عبادنا المخلصين » ومن ارتكب الفاحشة لا يوصف بذلك وقوله « ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب » ولو كان الأمر على ما قاله الجهال من جلوسه مجلس الخائن وانتهائه الى حل السراويل ، لكان خائناً ، ولم يكن صرف عنه السوء والفحشاء . وقال ايضاً « ولقد راودته عن نفسه ، فاستعصم » وفي موضع آخر حكاية عنها « أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين » وقوله حكاية عن العزيز حين رأى القميص قد من دبر « انه من كيد كن إن كيدكن عظيم » فنسب الكيد اليهما دونه، وقوله ايضاً «يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين» فخصها بالخطاب وأمرها بالاستغفار دونه . وقوله « رب السجن احب الي مما يدعونني اليه . وإلا تصرف عني كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن » والاستجابة تقتضي براءة ساحته من كل سوء، ويدل على انه لو فعل ما ذكروه ، لكان قد صبا ولم يصرف عنه كيدهن . وقوله « قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء » والعزم على المعصية من اكبر السوء. وقوله حاكياً عن الملك «ائتوني به استخلصه لنفسي، فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين» ومن فعل ما قاله الجهال لا يقال له ذلك.

ووجه آخر في الآية: إذا حمل الهم على ان المراد به العزم ، وهو ان يحمل الكلام على التقديم والتأخير ، ويكون التقدير ولقد همت به ولولا ان رأى برهان ربه لهم بها ويجري ذلك مجرى قولهم: قد كنت هلكت، لولا اني تداركتك، وقتلت لولا اني خلصتك ، والمعنى لولا تداركي لك لهلكت ولولا تخليصي لك لقتلت ، وان لم يكن وقع هلاك ولا قتل قال الشاعر :

فلا يدعني قومي صريحاً لحرة لئن كنتُ مقتولاً ويسلم عامر [١]

---

(١) الكتاب لسيبوية ١ / ٢٧ ؛ وامالي الشريف المرتضى ١ / ٤٨٠ ومجمع البيان ٣ /٢٢٦

وقال آخر :

فلا يدعني قومي صريحاً لحرّة لئن لم أُعجل طعنة أو اعجل[١]

فقدم جواب (لئن) في البيتين جميعاً . وقال قوم : لو جاز هـــذا لجاز أن تقول : قـام زيد لولا عمرو ، وقصد زيد لولا بكر ، وقد بينا ان ذلك غير مستبعد ، وان القائل قد يقول : قد كنت قمت لولا كذا ، وكذا ، وقد كنت قصدتك لولا ان صدني فلان ، وان لم يقع قيام ولا قصد . عـــلى ان في الكلام شرطاً ، وهو قوله « لولا ان رأى برهان ربه » فكيف يحمل على الاطلاق .

والبرهان الذي رآه ، روي عن ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد : انه رأى صورة يعقوب عاضّاً على أنامله .

وقال قتادة: انه نودي يا يوسف أنت مكتوب في الانبياء وتعمل عمل السفهاء.

وروي في رواية أخرى عن ابن عباس : انه رأى الملك .

وهذا الذي ذكروه كلّه غير صحيح، لان ذلك يقتضي الالجاء وزوال التكليف، ولو كان ذلك لما استحق يوسف على امتناعه من الفاحشة مدحاً ولا ثواباً ، وذلك ينافي ما وصفه الله تعالى . من انه صرف عنه السوء والفحشاء ، وانه من عبادنا المخلصين .

ويحتمل ان يكون البرهان لطفاً لطف الله تعالى له في تلك الحال او قبلها، اختار عنده الامتناع من المعاصي ، وهو الذي اقتضى كونه معصوماً ويجوز ان تكون الرؤية بمعنى العلم، وقال قوم: البرهان هو ما دل الله تعالى يوسف على تحريم ذلك الفعل، وعلى ان من فعله استحق العقاب، لان ذلك صارف عن الفعل ومقوّي لدواعي الامتناع ، وهذا ايضا جائز، وهو قول محمد بن كعب القرطي واختيار الجبائي .

---

(٩) مجمع البيان ٣ / ٢٢٥ وامالي السيد المرتضى ١ / ٤٨٠

قوله تعالى :

(وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَدَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٢٥) آية بلا خلاف.

معنى قوله « واستبقا الباب » اي طلب كل واحد من يوسف وامرأة العزيز السبق الى الباب، والسبق تقدم الشيء لصاحبه في مجيئه .

وقوله «وقدت قميصه من دبر» اي شقته طولاً، والقد شق الشيء طولاً، ومنه: قد الاديم يقده قداً ، فهو مقدود ، إذا كان ذاهبا في جهة الطول على استواء .

وقوله « من دبر » اي من جهة الخلف . والقبل جهة القدام ، يقال اتاه قبلاً ، ودبراً ، اذا أتاه من الجهتين ومعنى « الفيا سيدها » صادفاه ، ألفى يلفي الفاً قال ذو الرمة :

ومطعم الصيد هبّال لبغيته الفى اباه بذاك الكسب يكتسب[١]

وقوله «قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً» حكاية ما قالت المرأة للملك ، وما في مقابلة من اراد باهلك سوءاً ، والجزاء مقابلة العمل بما هو حقه من خير او شر يقال : جازاه يجازيه مجازاة ، وجزاءاً « إلا ان يسجن او عذاب أليم » معناه انه ليس مقابلته إلا ّسجنه أو يعذب على فعله عذاباً مؤلماً موجعاً . وعطف العذاب ـ وهو إسم ـ على الفعل ، وهو قوله «ان يسجن» لأن تقديره إلا السجن أو عذاب اليم .

قوله تعالى :

(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ

(١) اللسان « طعم »

قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) (٢٨) ثلاث آيات بلا خلاف.

حكى الله تعالى في الاية الأولى عن يوسف انه قال للملك حين قذفته زوجته بالسؤ: هي طالبتني عن نفسي، وانا بريء الساحة، وشهد له بذلك شاهد من أهل المرأة. قال ابن عباس، وسعيد بن جبير – في رواية عنهما – وابو هريرة: انه كان صبياً في المهد. وفي رواية اخرى عن ابن عباس، وابن جبير، وهو قول الحسن وقتادة: انه كان رجلاً حكيماً، واختاره الجبائي، قال: انه لو كان طفلاً لكان قوله معجزاً لا يحتاج معه الى الثاني، فلما قال الشاهد إن كان قميصه كذا، وكذا ذهب الى الاستدلال بأنه لو كان هذا المراود، لكان القميص مقدوداً من قبل، وحيث هو مقدود من دبر علم أنها هي المراودة ومع كلام الطفل لا يحتاج الى ذلك.

وقوله « ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين » حكاية ما قال الشاهد، وكذلك قوله « وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » تمام الحكاية عن الشاهد.

و(من) في قوله « قد من دبر ... و ... من قبل » لابتداء الغاية، لان ابتداء القد كان منها. والتي في قوله « من الكاذبين » للتبعيض، لانه بعض الكاذبين واسقط (أن) من شهد أنه ان كان لانه ذهب مذهب القول في الحكاية، كما قال « يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين »[1] لان التقدير يوصيكم الله في اولادكم ان المال، وقال ابو العباس المبرد: معنى « ان كان

«١» سورة النساء آية ١١

قميصه » ان يكن ، وجاز ذلك في كان ، لانها ام الباب ، كما جاز ما كان ابردها. ولم يجز ما أصبح أبردها . وقال ابن السراج : إن يكن بمعنى ان يصح قد قميصه من دبر .

وقوله « فلما رأى قميصه قد من دبر » حكاية من الله ان الملك لما سمع قول الشاهد ورأى قميصه قد من دبر اقبل عليها وقال: «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » وقال قوم إن ذلك من قول الشاهد . والكيد طلب الشيء بما يكرهه ، كما طلبت المرأة يوسف بما يكرهه ويأباه .

وقوله « فلما رأى » تحتمل الرؤية أمرين :

احدهما ــ ان يكون المعنى رؤية العين، فلا يكون رؤية للقد، لانه حال، وانما بين رؤية القميص .

والاخر – ان يكون بمعنى العلم فيكون رؤية للقد، لانه خبر. والهاء في قوله (إنه) يحتمل ان تكون عائدة الى السوء ، ويحتمل ان تكون عائدة الى ما تقدم ذكره من معنى الكذب .

والنون في قوله « كيدكن » نون جماعة النساء ، وشددت لتكون على قياس نظيرها من المذكر في ضربكموا في انه على ثلاثة احرف. وقال قوم ان ذلك من قول الزوج . وقال آخرون من قول الشاهد

قوله تعالى :

(يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ) (٢٩) آية بلا خلاف.

هذا حكاية ما نادى زوج المرأة يوسف ، فقال له يا يوسف ، ولذلك قال قوم: إنه لم يكن له غيرة . وروي عن ابن عباس انه قال ذلك من قول الشاهد واسقط حرف النداء لانه اسم علم ولم يجز ذلك في المبهم « اعرض عن هذا » اي اصرف وجهك عنه . والاغراض صرف الوجه عن الشيء الى جهة العرض ،

فكأنه قال اجعله بمنزلة ما تصرف وجهك عنه بأن لا تذكره «واستغفري لذنبك» اي اطلبي المغفرة من الله من خطيئتك، والذنب الخطيأة، والخطيأة العدول عما تدعوا اليه الحكمة الى ما تزجرعنه، ويقال لصاحبه خاطيء اذا قصد ذلك، فاذا وقع عن غير قصد قيل اخطأ المقصد، فهو مخطىء، وان لم يكن صفة ذم. واصل الخطأ العدول عن الغرض الحكمي بقصد أو غير قصد، فان كان بقصد قيل خطىء يخطأ خطأ فهو خاطىء قال أمية:

عبادك يخطئون وانت ربّ بكفيك المنايا والحياة[1]

وانما قال «من الخاطئين» ولم يقل من الخاطئات تغليبا للمذكر على المؤنث اذا اختلطا، كما تقول عبيدك واماءك جاؤني.

قوله تعالى

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَٰهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (٣٠) آية بلا خلاف.

اخبرالله تعالى انه «قال نسوة في المدينة» التي كان فيهاالملك وزوجته ويوسف إن امرأة العزيز تطلب فتاها عن نفسه، والعزيز المنيع بقدرته عن ان يضام في أمره وسمي بذلك لانه كان ملكاً ممتنعا بملكه واتساع قدرته قال أبو داود:

درة غاص عليها تاجر حليت عند عزيز يوم ظل[2]

والفتى الغلام الشاب والمرأة فتاة قال الشاعر:

---

(١) مجمع البيان ٣ / ٢٢٦، وتفسير الطبرى «الطبعة الاولى» ١٢ / ١٠٩ وروايته «الحتوم» بدل «الحياة»

(٢) تفسير الطبري ١٢ / ١١٠ ومجمع البيان ٣ / ٢٢٩. ورواية الطبرى «عاص» بدل «غاص» و «جليت» بدل «حليت»

كأنا يوم فريّ انمـا يقتل ايانا قتلنا منهم كل فتى ابيض حسانا(١)

ومعنى « شغفها حباً » بلغ الحب شغاف قلبها، وهو داخله . وقوله « انا لنراها في ضلال مبين » معناه إنا لنعلمها في عدول عـن طريق الرشد ، فعابوها بذلك وذلك ان تصير الى ما يذهلها ويبلغ صميم قلبها بحب إنسان . وإنما حذف حرف التأنيث في قوله « وقال نسوة » لانه تأنيث جمع قدم عليه الفعل ، وتأنيث الجمع تأنيث لفظ يبطل تأنيث المعنى ، لانه لا يجتمـــع في اسم واحد تأنيثان ، وكما يبطل تذكير المعنى في رجال ، فاذا صار كذلك جاز فيه وجهان، ان حمل على اللفظ انث ، وان حمل على المعنى ذكر .

وقيل في معنى الشغاف ثلاثة اوجه: شغاف القلب غلافه ، وهو جلدة عليه تقول دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب -في قول السدي وابي عبيدة - الثاني - قال الحسن: هو باطن القلب. الثالث – قال ابو علي الجبائي: هو وسط القلب قال النابغة :

وقد حال همّ دون ذلك داخل مكان الشغاف تبتغيه الاصابع(٢)

وروي شعفها بالعين اي ذهب بها الحب كل مذهب من شعف الجبال وهي رؤسها قال امرؤ القيس :

اتقتلني وقد شعفت فؤادهـــا كما شعف المهنؤة الرجل الطالي(٣)

قال ابو زيد هما مختلفان فالشعف بالعين في البغض وبالغين في الحب .

---

(١) الكتاب لسيبويه ١/ ٢٧١ ، ٣٨٣

(٢) ديوانه ٧٩ وروايته (شاغل) بدل (داخل) وتفسير القرطبي ٩/ ١٧٩ وتفسير الطبرى (الطبعة الاولى) ١٢ / ١١٠

(٣) ديوانه ١٦٢ ، وتفسير الطبرى ١٢ / ١١١ والقرطبى ٩ / ١٧٧ والشوكاني (الفتح القدير) ٣ / ١٩ ورواية الديوان :

ليقتلني اني شغفت فؤادها كما شغف المهنوءه الرجل الطالي

قوله تعالى :

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) (٣١) آية بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو ونافع في رواية الأصمعي عنه «حاشا» بألف. الباقون بلا الف، فمن حجة أبي عمرو ، قول الشاعر :

حاشى ابي ثوبان إن به ضنّاً عن الملحاة والشتم (١)

قال ابو علي الفارسي لا يخلوا قولهم : حاش لله من ان يكون الحرف الجار في الاستثناء، كما ذكرناه في البيت أو فاعل من قولهم : حاشى يحاشي ، ولا يجوز ان يكون حرف الجر لأن حرف الجر لا يدخل على مثـله ، ولأن الحروف لا تحذف اذا لم يكن فيها تضعيف ، فاذا بطل ذلك ثبت انها فاعـل مأخوذاً من الحشا الذي هو الناحية . والمعنى انه صار في حشاء اي ناحية ممـا قذف به ، وفاعله يوسف ، والمعنى بعد عن هذا الذي رمي به « لله » اي لخوفـه من الله ، ومراقبة امره. ومن حذف الالف ، فكما حذف لم يك ، ولا أدر ، فاذا أريد به حرف الجر يقال حاشا ، وحاش ، وحشا ، ثلاث لغات قال الشاعر :

حشا رهط النبي فان فيهم بحوراً لا تكدرها الدّلاء (٢)

حكى الله تعالى عن امرأة العزير انها حين سمعت قول نسوة المدينة فيهـا

---

(١) تفسير القرطبي ٩/١٨١ ومجاز القرآن ١/٣١٠ ، والمفضليات . ١٩ والاصمعيات ٨٠، واللسان والتاج « حشى » وتفسير الطبري « الطبعة الاولى » ١٢ / ١١٥

(٢) اللسان « حشا » ومجمع البيان ٣ : ٢٢٩ .

وعد لهنّ اياها ، ومكرهنّ بها . وقيل انهن مكرن بهـا لتريهن يوسف ، فلما اطلعتهن على ذلك أشعن خبرهـا ، والمكر الفتل بالحيلة الى ما يراد من الطلبة يقال: هي ممكورة الساقين بمعنى مفتولة الساقين، وممكورة البدن أي ملتفّة « أرسلت اليهن » أي بعثت اليهن تدعوهن الى دعوتها .

وقوله «واعتدت لهن متّكئاً» معناه اعدّت ، ومعناه اتخذت من العتـاد ، وقولهم : اعتدت من العدوان ، والألف فيـه ألف وصل ، والمتّكأ الوسادة ، وهو النمرق الذي يتكأ عليـه . وقال قوم : انه الاترج . وانكر ذلـك ابو عبيدة .

وقوله « وآتت كل واحـدة منهن سكّيناً » قيل انها قدمت اليهن فاكهة وأعطتهن سكّيناً ليقطعن الفاكهـة ، فلما رأينـه - يعني يوسف - دهشن « وقطعن ايديهن » وقوله « اكبرنه » أي أعظمنه وأجللنه . وقال قوم : معنى ذلك انهن حضن حين رأينه وأنشد قول الشاعر :

يأتي النسـاء على اطهارهنّ ولا يأتي النساء اذا اكبرن اكبارا [١]

وانكر ذلك ابو عبيدة ، وقال : ذلك لا يعرف في اللغـة ، لكن يجوز ان يكون من شدة ما أعظمنه حضن ، والبيت مصنوع لا يعرفه العلماء بالشعر .

وقوله « حاش لله » تنزيه له عن حال البشر ، وانه لا يجوز ان تكون هذه صورة للبشر ، وانما هو ملك كريم . وقال الجبائي: فيه دلالة على تفضيل الملائكة على البشر لانه خرج مخرج التعظيم ، ولم ينكره الله تعالى ، وهذا ليس بشيء ، لأن الله تعالى حكى عن النساء انهن أعظمن يوسف، لما رأين من وقاره وسكونه وبعده عن السوء . وقلن : ليس هذا بشراً ، بل هو ملك يريدون في سكونه ، ولم يقصدن كثرة ثوابه على ثواب البشر ، وكيف يقصدنه ، وهن لا طريق لهن الى معرفة ذلك، على ان هذا من قول النسوة اللاتي وقع منهن من الخطأ والميل

---

(١) تفسير القرطبي ٩ : ١٨٠ وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٠

اليه ما لا يجوز ان يحتج بقولهن. وقوله لم ينكره الله، انما لم ينكره ، لأنه تعالى علم انهن لم يقصدن ما قال الجبائي،ولو كن قصدنه لأنكره، على أن ظاهر الكلام انهن نفين ان يكون يوسف من البشر، وفيه قطع على انه ملك، وهذا كذب، ولم ينكره الله . والوجه فيه انهن لم يقصدن الاخبار بذلك عن حاله ، وانما اخبرن بتشبيه حاله فيما قلناه بحال الملائكة ، فلذلك لم ينكره الله .

وقوله « ما هذا بشراً » نصب بشراً على مذهب اهل الحجاز في اعمال (ما) عمل ليس ، فيرفعون بها الاسم ، وينصبون الخبر ، فأما بنو تميم ، فلا يعملونها قال الشاعر :

لشتّان ما أنوي وينوي بنو أبي جميعاً فما هذان مستويان
تمنّوا لي الموت الذي يشعب الفتى وكل فتى والموت يلتقيان[4]

وقد قرىء « ما هـذا بشرى » أي ليس بمملوك ، وهو شاذ ، لا يقرأ به . وقرىء (متكأ) بتسكين التاء . قال مجاهد : معنا الا ترج ، وقـال قتادة : معناه طعاماً ، وبه قـال عكرمة وابن اسحق وابن زيـد والضحّاك ، وقـال مجاهد ، وغيره: اعطي يوسف نصف الحسن ، وقيل ثلثه . وقيل ثلثاه . والباقي لجميع الخلق .

قوله تعالى :

(قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ) (٣٢) آية بلا خلاف .

هذه الآية فيها حكاية ما قالت امرأة العزيز للنسوة اللاتي عذلنها على محبتها ليوسف ،

---

(١) مجمع البيان ٣ / ٢٢٩ وتفسير الطبري ١٢ / ١١٥

وانها حين رأت ما فعلت النسوة للدهش بيوسف ، قالت لهن هذا هو ذلك الذي لمتنّني فيه ، واللوم الوصف بالقبيح على وجه التحقير ، ومثله الذم وضده الحمد .

وقوله « ولقد راودته عن نفسه » اعتراف منها انها هي التي طلبته عن نفسه وانه استعصم منها أي امتنع من ذلك، والاستعصام طلب العصمة من الله بفعل لطف من ألطافه ليمتنع من الفاحشة . وفيه دلالة على ان يوسف لم يقع منه قبيح .

وقوله «ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن» اخبار عما قالت امرأة العزيز على وجه التهديد ليوسف من انه ان لم يفعل ما تأمره به من المعصية ويجيبها الى ملتمسها لتمنعنّه التصرف من مراده بالحبس، تقول: سجنه يسجنه سجناً، والسجان المتولي للسجن على وجه الحرفة .

وقوله « وليكونن من الصاغرين » هذه النون الخفيفة التي يتلقى بها القسم ، واذا وقفت عليها وقفت بالألف، تقول: وليكونا، وهي بمنزلة التنوين الذي يوقف عليه بالألف قال الشاعر :

وصلّ على حين العشيات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا [١]

اي فاعبدن، فأبدل في الوقف من النون ألفاً . والصغار الذل بصغر القدر صغر يصفر صغاراً ، ومنه قوله «حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» [٢] .

قوله تعالى :

(قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ

---

(١) قائله الاعشى، ديوانه ١٠٣ القصيدة ١٧ وروايته « فاحمدا » بدل «فاعبدا» وهو في مجمع البيان ٣ . ٢٣٠ وتفسير الطبري ١٢ : ١٦ « فاعبدا » .

(٢) سورة التوبة آية ٢٩

عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ) (٣٣) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن يوسف انه لما سمع وعيد المرأة له بالحبس والصغار ان لم يجبها الى ما تريده ، قال يا « رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه » من ركوب الفاحشة ، وانما جاز ان يقول السجن أحب الي من ذلك ، وهو لا يحب ما يدعونه اليه ، ولا يريده ، ولا يريد السجن ايضاً ، لأنه ان اريد به المكان فذلك لا يراد ، وان اريد به المصدر ، فهو معصية منهي عنها، فلا يجوز ان يريده لأمرين :

احدهما – ان ذلك على وجه التقدير ، ومعناه اني لو كنت مما اريد لكانت ارادتي لهذا أشد .

الثاني – ان المراد ان توطين نفسي على السجن أحب الي .

وقيل معناه ان السجن أسهل علي مما يدعونني اليه .

وقرأ الحس (السجن) بفتح السين واراد المصدر ، وبه قرأ يعقوب ، وتأويله ما قلناه . والدعاء طلب الفعل من المدعو وصيغته صيغة الامر إلا ان الدعاء لمن فوقك والأمر لمن دونك .

وقوله « إلا تصرف عني كيدهن » معناه ضرر كيدهن ، لأن كيدهن قد وقع ، والصرف نفي الشيء عن غيره بضده او بأن لا يفعل، وصورته كصورة النهي إلا ان النهي مع الزجر لمن هو دونك ، وليس كذلك الصرف (والصبا) رقة الهوى ، يقال صبا يصبو صبأ فهو صاب ، فكأنه قيل أميل هواي اليهن ، قال الشاعر :

الى هنـــد صبا قلبي وهنـــد مثلها يصبي [٢]

وقال ايضاً :

---

(١) قائله زيد بن ضبة، تفسير القرطبي ٩ : ١٨٥ ومجاز القرآن ١ : ٣١١ واللسان (صبا) وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ٢١ وتفسير الطبري ١٢ / ١١٧ .

صبا صبوة بل لجّ وهو لجوج وزالت له بالانعمين حدوج [١]

وقوله « وأكن من الجاهلين » معناه وأكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل ، لأنه بمنزلة من قد اعتقد الشيء على خلاف ما هو به ، وإلا فهو كان عالماً بأن ذلك معصية ، والغرض فيه بيان ان صفة الجهل من أغلظ صفة الذم .

وقال البلخي والجبائي: في الآية دلالة على انه لا ينصرف احد عن معصية إلا بلطف الله عزّ وجلّ ، لأنه لو لم يعلم ذلك ، لما صح خبره به ، وليس في الآية ما يدل على ذلك ، بل فيها ما يدل على ان يوسف كان له لطف ، ولولاه لفعل المعصية ، وأما ان يدل على انه لا أحد ينتهي عن معصية إلا بلطف ، فلا ، بل ذلك مجوّز ، وليس فيها ما يمنع منه ، ويحتمل قوله « أصب اليهن » على لفظ الجمع اشياء :-

احدها - قال ابو علي الجبائي: ان كل واحدة منهن دعته الى مثل ما دعت اليه امرأة العزيز بدلالة هذا الكلام . وقال قوم : انهن قلن لها نحن نسأله ان يفعل ما دعوته اليه ، فخلت كل واحدة منهن به . ويحتمل ان يكون المراد أصب الى قولهن في الدعاء الى اجابة امرأة العزيز .

قوله تعالى :

(فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(٣٤) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه اجاب يوسف الى ما دعاه به وأراد منه ورغب اليه فيه وانه فعل، لأنه دعا به، فهو اجابة له واستجابة والذي تعلقت به الارادة مستجاب، وقال ابو علي الجبائي : الاجابة من الله تعالى ثواب لقوله تعالى « وما دعاء

---

(١) قائله ابو ذؤيب الهذلي ، ديوانه ١ / ٥٠ وشواهد المغنى ١٠٩ ، والخزانة ١ / ١٩٤ ومجاز القرآن ١ / ٣١١ ومجمع البيان ٣ / ٢٢٩ .

الكافرين إلا في ضلال »[(١)] وهذا انما هو في الجملة ، قال الرماني : وصرف الله تعالى له عن الفعل بالزجر عنه واعلامه الذم على فعله ، وفرق بين الصرف عن الفعل والزجر عنه ، بأن الزجر عنه بالذم على ايقاعه . والصرف عنه اعلامه ان غيره أصلح له من غير ذم عليه لو عمله كما يجب في الزجر ، والظاهر بغير ذلك أشبه ، لأن يوسف (ع) كان عالماً بأن ما دعته اليه قبيح يستحق به الذم، ومع ذلك سأل ان يصرف ضرر كيدهن عنه ، لأن كيدهن الذي هو دعاؤهن وأغواؤهن ، كان قد حصل ، فكأنه قد سأل الله تعالى لطفاً من ألطافه يصرفه عنده عن اجابة النسوة إلى ما دعونه من ارتكاب المعصية ، لأن ظاهر القول خرج مخرج الشرط والجزاء المقتضيين للاستقبال ، فكان ما قلناه أولى . فقوله « انه هو السميع العليم » معناه ههنا انه السميع لدعاء الداعي العليم باخلاصه في دعائه او ترك اخلاصه وبما يصلحه من الاجابة او يفسده ، قال الرماني : ولا يجوز ان يكون السميع للصوت بمعنى العليم بالصوت موجوداً ، لأنه قد يعلم الانسان موجوداً ، اذا كان بعيداً وهو لا يسمعه كعلمه بصوت المطارق في الحدادين ، وليس من طريق الحاسة وانما يعلمه بضرب من الاستدلال او يظن ذلك ، واذا علمه من طريق الحاسة علمه ضرورة ، فكان ذلك فرقاً بين الموضعين .

وقال ابو علي الجبائي : في الآية دلالة على جواز الدعاء بما يعلم انه يكون ، لإن يوسف عالماً بأنه إن كان له لطف فلا بد ان يفعل الله به ، ومع هذا سأله . وليس في الآية ما يدل على ذلك لانه لا يمتنع ان يكون يوسف سأل لتجويزه ان يكون له لطف عند الدعاء ، ولو لم يدع له لم يكن ذلك لطفاً ، فما سأل الا ما جوّز ان لا يكون لو لم يدع، غير ان المذهب: ما قال ابو علي لانه تعالى تعبّدنا بأن نقول « رب احكم بالحق »[(٢)] وقد علمنا انه لا يحكم الا بالحق ، ولكن الآية لا تدل على ذلك .

---

(١) سورة الرعد آية ١٥ وسورة المؤمن (غافر) آية ٥٠ .
(٢) سورة الانبياء آية ١١٢

قوله تعالى :

(ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)

(٣٥) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى انه ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات، يقال بدا يبدو بدواً ، وبدأ والبداء في الرأي التلون فيه ، لانه كلما ظهر رأي مال اليه ، وانما قال «لهم » ولم يقل (لهن) مع تقدم ذكر النسوة ، لامرين : احدهما - قال الحسن انه اراد بذلك الملك . والثاني – انه اراد ذكر الذكور معهن من اعوانها فغلب المذكر ، فقال لهم، قال الرماني : وفاعل (بدا) مضمر وتقديره ثم بدا لهم بداء، ودل عليه قوله « ليسجننه » .

والآيات التي رأوها، قال قتادة: هو قدّ القميص وحز الايدي وقال غيره: هو قطع الايدي والاستعظام، وقدّ القميص .

وقوله«ليسجننه» انما هو فعل المذكر كما قال «بدا لهم»ولم يقل (لهن) ودخلت النون الثقيلة جواباً للقسم وليس بفعل المؤنث ، ولو كان على صيغة فعل المؤنث قيل (ليسجنّ) (وليقتلنّ) ثمتدخل عليها نون التأكيد الشديدة فيصير ليسجنانه كقولك تقتلنانه .

وقوله « حتى حين » فـ (حتى) تنصرف على اربعة اوجه ، تكون حرف جر ، وحرف عطف ، وناصبة للفعل ، وحرف من حروف الابتداء ، فالجارّة نحو هذه التي في الآية ، والعاطفة كقولهم خرج الناس حتى الامير ، والناصبة كقوله « حتى يأتي وعد الله »[١] ، وحرف الابتداء كقولك سرحت القوم حتى زيد مسرّح .

---

(١) سورة الرعد آية ٣٣ .

قوله تعالى :

(وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ) (٣٦) آية بلا خلاف .

وفي الآية تقدير فسجن يوسف، ودخل معه فتيان يعني شابّان. والفتى الشاب القوي قال الشاعر :

يا عزّ هل لك في شيخ فتى ابداً وقد يكون شباب غير فتيان

وقال الزجاج: كانوا يسمون المملوك فتى، شيخاً كان او شاباً . والفتيان قال السدي وقتادة : كانا غلامي ملك مصر الأكبر أحدهما صاحب شرابه والآخر صاحب طعامه، فنمي اليه ان صاحب طعامه يريد ان يسمّه . وظن ان الآخر ساعده ومالأه على ذلك .

وقوله « قال احدهما » يعني احد الفتيين ليوسف.: « إني اراني اعصر خمراً» من رؤيا المنام ، والخمر عصير العنب اذا كان فيه الشدة والتقدير اعصر العنب للخمر ، وقال الضحاك: هي لغة، تسمي العنب خمراً ذكر جماعة انها لغة عمان . وقال الزجاج : تقديره عنب الخمر .

وقوله « وقال الآخر إني اراني احمل فوق رأسي خبزاً » فالحمل رفع الشيء بعماد، يقال: حمل يحمل حملا ، واحتمل احتمالاً ، وتحمّل تحمُّلا ، وحمّله تحميلا . و (الخبز) معروف « تأكل الطير منه » وقوله « نبّئنا بتأويله » اي اخبرنا بتأويل رؤيانا « انّا نراك من المحسنين » معناه انّا نعلمك او نظنك ممن يعرف تأويل الرؤيا . ومن ذلك قول علي (ع) (قيمة كل ما يحسنه) اي ما يعرفه . والاحسان النفع الواصل الى الغير اذا وقع على وجـــه يستحق به الحمد واذا اختصرت فقلت هو النفع الذي يستحق عليه الحمد جاز ، لان ما يفعله الانسان لا يسمى احساناً . وقيل انه كان يداوي مريضهم ويعزّي حزينهم

ويجتهد في عبادة ربه . وقال الزجاج : كان يعين المظلوم وينصر الضعيف ويعود المريض. وقيل «من المحسنين» في عبارة الرؤيا، لانه كان يعبّر لغيرهم ، فيحسن . ذكره الجبائي .

قوله تعالى :

(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (٣٧) آية بلا خلاف.

في هذه الآية اخبار بما اجاب به يوسف للفتيين اللذين سألاه عن المنام ، فقال لهما «لا يأتيكما طعام ترزقانه» والطعام كل جسم فيه طعم يصلح للاكل ، غير انه يختلف باضافته الى الحيوان . والرزق العطاء الجاري في الحكم وكذلك لو اعطاه مرة واحدة ، وقد حكم بانه يجريه كان رزقاً . وقال السدي وابن اسحاق : معنى ذلك اني عالم بتعبير الرؤيا اذ لا يأتيكما ما ترزقانه في منامكما إلا نبأتكما بتأويله في اليقظة . وقال ابن جريج : كان الملك اذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معلوماً ، فأرسل به اليه ، فعلى هذا يرزقانه في اليقظة . وقيل إنه كان يخبر بما غاب كما كان عيسى(ع)، وإنما عدل عن تعبير الرؤيا إلى الجواب بهذا لاحد أمرين:

احدهما - ما قال ابن جريج: انه كره ان يخبرهما بالتأويل على احدهما فيه، فلم يتركاه حتى أخبرهما . وقال ابو علي : إنما قدم هذا ، ليعلما ما خصه الله به من النبوة ، وليقبلا الى الطاعة ، والاقرار بتوحيد الله . والانباء : الاخبار بما يستفاد وذلك ان النبأ له شأن ، وفيه تعظيم الخبر بما فيه من الفائدة ، ولذلك اخذت منه النبوة . والتأويل : الخبر عما حضر بما يؤل اليه أمره ، فيما غاب . ولذلك قال « قبل ان يأتيكما » وتأويل القرآن ما يؤل اليه من المعنى أي يرجع

اليه والتعليم تفهيم الدلالة المؤدية الى العلم بالمعنى ، وقد يكون الاعلام بخلق العلم بالمعنى في القلب .

وقوله «اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالاخرة هم كافرون» اخبار من يوسف أنه إنما علمه الله تعالى تأويل ما سألاه لإيمانه بالله وحده لا شريك له وعدوله عن ملة الكفار وجحدهم البعث والنشور والجزاء بالثواب والعقاب ، و (هم) الثانية دخلت للتأكيد لأنه لما دخل بينهما قوله «وبالآخرة» صارت الأولى كالملغاة ، وصار الاعتماد على الثانية ، كما قال «وهم بالآخرة هم يوقنون»[١] وكما قال «ايعدكم انكم اذا متم وكنتم تراباً وعظاماً انكم مخرجون»[٢] .

قوله تعالى :

(وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرٰهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِٱللّهِ مِنْ شَيْءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ ٱللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (٣٨) آية بلا خلاف.

في هذه الآية أخبار عن يوسف أنه قال لهما : إني في ترك اتباع ملة الكفار وجحدهم البعث والنشور وفي إيماني بالله وتوحيدي له اتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب، فالاتباع اقتفاء الأثر وهو طلب اللحاق بالأول، فاتباع الحق بالقصد الى موافقته من أجل دعائه . والملة مذهب جماعة يحمي بعضها بعضاً في الديانة ، واصله الحمّى من المليلة وهي حمى ما يلحق الانسان دون الحمى . والآباء جمع أب وهو الذي يكون منه نطفة الولد ، والأم الأنثى التي يكون منها الولد والجد أب بواسطة ، ولا يطلق عليه صفة أب ، وإنما يجوز ذلك بقرينة تدل على انه أب بواسطة الأبن ، وجد الأب اب بواسطتين .

---

(١) سورة النمل آية ٣ ، وسورة الروم آية ٤ . (٢) سورة المؤمنون آية ٣٥ .

وقوله « ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء » إخبار من يوسف أنه ليس له ، ولا لاحد من آبائه أن يشرك بالله شيئاً، ودخلت (من) للنفي العام ، والاشراك بلوغ منزلة الجمع لعبادة غير الله الى عبادته – في عظم الجرم. واليهودي مشرك ، لانه بكفره بالنبي قد بلغ تلك المنزلة في عظم الجرم . وقوله « ذلك من فضل الله علينا » اعتراف منه ان ذلك العدول عن عبادة غير الله هو من فضل الله عليهم من حيث كان بلطفه وهدايته وتوفيقه. والفضل النفع الزائد على مقدار الواجب بوجوب الدين الذي يستحق به الشكر، وكل ما يفعله الله تعالى بالعبد، فهو فضل من فضله . والعقاب ايضاً فضل ، لأنه زجر به عن المعاصي . وقيل ذلك من فضل الله علينا ان جعلنا أنبياء وعلى الناس ان جعلنا رسلاً اليهم – في قول ابن عباس – وقوله « على الناس » دال على ان الله قد عمّ جميع خلقه بفضله وهدايته إياهم الى التوحيد والايمان .

قوله تعالى :

(يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ) (٣٩) آية .

هذا حكاية ما نادى به يوسف للمتسفتين له عن تأويل رأياهما، فقال لهما « يا صاحبي السجن » اي يا ملازمي السجن . والصاحب الملازم لغيره على وجه الاختصاص بوجه من الوجوه، وهو خلاف ملازمة الاتصال، ولذلك قيل أصحاب مالك ، واصحاب الشافعي للاختصاص بمذاهبهما ، واصحاب النبي لملازمتهم له، والكون معه في حروبه ، وصاحبا السجن هما الملازمان له بالكون فيه . والسجن هو الحبس الذي يمنع من التصرف قال الفرزدق :

وما سجنوني غير اني ابن غالب وانّي من الأثرين غير الزعانف[1]

---

(١) ديوانه ١ : ٥٣٦ وسيبويه ١ : ٣٦٦ وقد مر في ١ : ٣٢٠ من هذا الكتاب .

وقوله «ارباب متفرقون» فيه أقوال: قال قوم املاك متباينون خير أم المالك القاهر للجميع، يدلهم بهذا على أنه لا يجوز ان يعتقدوا الربوبية إلا لله تعالى - عز وجل - وحده. وقال الحسن متفرقون من صغير وكبير ووسط، يعني الأوثان. وقال قوم: معناه متفرقون بمباينة كل واحد للآخر بما يوجب النقص، والقاهر القادر بما يجب به الغلبة لا محالة والقهار مبالغة في الصفة يقتضي انه القادر بما يجب به الغلبة لكل احد والخير الا بلغ في صفة المدح، والشر الا بلغ في صفة الذم.

قوله تعالى:

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (٤٠)

آية بلا خلاف.

وهذا تمام ما قال يوسف للكفار الذين يعبدون غير الله، فقال لهم لستم تعبدون من دون الله إلا أسماء سميتموها. وقيل في معناه قولان:

احدهما - انه لما كانت الاسماء التي سموا بها آلهتهم لاتصح معانيها صارت كأنها اسماء فارغة يرجعون في عبادتهم اليها فكأنهم إنما يعبدون الاسماء، لأنه لا يصح معاني يصح لها من إله ورب.

الثاني - إلا اصحاب أسماء سميتموها لا حقيقة لها، والعبادة هي الاعتراف بالنعمة مع ضرب من الخضوع في أعلى الرتبة، ولذلك لا يستحقها إلا الله تعالى.

وقوله «ما انزل الله بها من سلطان» أي لم ينزل الله على صحة ما تدعونه حجة، ولا برهاناً، فهي باطلة لهذه العلة، لانها لو كانت صحيحة، لكان عليها دليل.

وقوله «ان الحكم إلا لله» معناه ليس الحكم إلا لله فيما فعله او أمر به، والحكم فصل المعنى بما تدعو إليه الحكمة من صواب او خطأ. والأمر قول القائل لمن دونه (افعل) والصحيح انه يقتضي الايجاب. وقوله «امر ان لا تعبدوا إلا اياه» معناه أمر أن تعبدوه، وكره منكم عبادة غيره، لان الأمر لا يتعلق بأن لا يكون الشيء، لأنه انما يكون أمراً بارادة المأمور والارادة لا تتعلق الا بحدوث الشيء.

وقوله «وذلك الدين القيم» معناه ان الذي أمر به من عبادته وحده، وان لا يشرك به شيء هو «الدين القيم» المستقيم الصواب، ولكن اكثر الناس لا يعلمون صحة ما اقوله، لعدولهم عن الحق، والنظر والاستدلال.

قوله تعالى:

(يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) (٤١) آية بلا خلاف.

في هذه الآية اخبار عما أجاب به يوسف للفتيين في تأويل رؤياهما حين راجعاه في معرفته، فقال «ياصاحبي اما أحدكما فيسقي ربه خمراً» يعني سيده، ومالكه، لانه كان صاحب شرابه، واجرى عليه صفة الرب، لانه مضاف، كما يقال رب الدار، والضيعة. و «اما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه» فروي ان صاحب الصلب، قال ما رأيت شيئاً، فقال له قضي الامر الذي فيه تستفتيان. وهذا يدل على انه كان ذلك بوحي من الله ولفظ احد لواحد من المضاف اليه مما له مثل صفة المضاف في الافراد نحو احد الانسانين، واحد الدرهمين، فهو إنسان ودرهم لامحالة. والبعض يحتمل ان يكون لاثنين فصاعدا، ولذلك اذا قال جاءني احد الرجال، فهم منه إنه جاءه واحد منهم. واذا قال جاءني بعض الرجال جاز ان يكون اكثر من واحد. والاستفتاء طلب الفتيا. والفتيا جواب بحكم

المعنى ، فهو غير الجواب بعينه .

قوله تعالى :

(وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) (٤٢)

آية بلا خلاف .

وهذا حكاية عما قال يوسف (ع) للذي ظن انه ينجو منهما ، وقال ابو علي: الظن ههنا بمعنى العلم لقوله « ظننت اني ملاق حسابيه »(١) وقال قتادة : الرؤيا على الظن ، وقال غيره: إلا رؤيا الانبياء ، فانها يقين . والظن هو ما قوي عند الظان كون المظنون على ما ظنه مع تجويزه ان يكون على خلافه . والنجاة هي السلامة . وقوله « اذكرني عند ربك » يعني عند سيدك كما قال الشاعر :

وإن يك رب أذواد فحسبي ... أصابوا من لقائك ما أصابوا(٢)

وانما سأله ان يذكره عند سيده بخير ويعرفه علمه وما خصه الله تعالى من الفضل والعلم ليكون ذلك سبب خلاصه . والذكر حضور المعنى للنفس ، وعلى حال الذكر يتعاقب العلم واضداده من الجهل والشك . والنسيان ذهاب المعنى عن النفس وعزوبه عنها . والهاء في قوله « فانساه » تعود الى يوسف في قول ابن عباس - والتقدير فانسى يوسف الشيطان ذكر الله ، فلذلك سأل غيره حتى قال جماعة إن ذلك كان سبب للبثه في السجن مدة من الزمان . وقال ابن اسحاق والحسن والجبائي يعود على الساقي ، وتقديره فأنسى الساقي الشيطان ذكر يوسف .

---

(١) سورة الحاقة آية ٢٠

(٢) قائله النابغة الذبياني . ديوانه ١٩ (دار بيروت) وروايته :

وان تكن الفوارس يوم حسي ... اصابوا من لقائك ما اصابوا

وقوله « فلبث في السجن بضع سنين » فاللبث في المكان هو الكون فيه على طول من الزمان ،واللبث والثبوت والسكون نظائر . والبضع قطعة من الدهر. وقيل البضع من الثلث الى العشر – في قول ابن عباس – وقال قتادة ومجاهد الى التسع وقال وهب: الى سبع سنين. والسنة إثنا عشر شهراً ويجمع سنين وسنوات .

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) (٤٣) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى في هذه الآية : إن الملك الذي كان يوسف في حبسه ، وكان ملك مصر فيما روي ، قال إنه رأى في المنام « سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف» يعنى مهازيل «وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات» ثم أقبل على قومه، فقال « يا ايها الملأ » اي يا ايها الاشراف والعظماء الذين يرجع إليهم « أفتوني في رؤياي ان كنتم » تعبرون الرؤيا ، وتدعون العلم بتأويلها ، والملك القادر الواسع المقدور الذي اليه السياسة والتدبير .

والرؤيا تخيل النفس للمعنى في المنام حتى كأنه يرى ، ويجوز فيها الهمزة وتركها. والبقرات جمع بقرة والسمن زيادة في البدن من الشحم واللحم وهو على الشحم أغلب ، والعجف يبس الهزال يقال: عجف يعجف عجفاً ، فهو أعجف. والانثى عجفاء ، والجمع عجاف ، وسنبلات جمع سنبل ، والعبارة : نقل معنى التأويل الى نفس السائل بالتفسير ، وهي من عبور النهر وغيره ، ومنه المعبر والعبّارة، وإنما دخلت اللام في قوله « للرؤيا » مع أن الفعل يتعدى بنفسه، لانه

إذا تقدم المفعول ضعف عمله ، فجاز إدخال حرف الاضافة لهذه العلة ، ولا يجوز يعبرون للرؤيا ، لأنه في قوة عمله .

قوله تعالى :

(قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ)

(٤٤) آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما أجاب به الملأ الملك حين سألهم عن تعبير رؤياه ولم يعرفوا معناها ، قالوا : « أضغاث أحلام » أي هذه الرؤيا أضغاث أحلام ، والاضغاث جمع ضغث ، قال قوم : هو الحزمة من الحشيش ، والبقل ، وغيره . وقال آخرون: هو خلط قش المد، وهو غير متشاكل ، ولا متلائم ، فشبهوا به تخليط المنام ، ونفوا ان يكونوا عالمين بمثل ذلك . وقال قتادة : هي اخلاط أحلام . وقال ابن مقبل :

خود كان فراشها وضعت به   اضغاث ريحان عداه شمال [(١)]

وقال آخر :

يحمي ذمار جنين قل مانعه   طاوٍ لضغث الخلا في البطن ممتكن [(٢)]

وقال آخر :

واستقل مني هذه قدر بطنها   والقيت ضغثاً من خلاً متطيب [(٣)]

والاحلام جمع حلم ، وهو الرؤيا في النوم ، وقد يقال : جاء بالحلم أي الشيء الكثير ، كأنه جاء بما لا يرى إلا في النوم لكثرته . والحلم : الاناة ، حلم حلماً : إذا كان ذا أناة وإمهال . والحلم ضد الطيش . ومنه « ان ابراهيم لحليم أواه

(١ ، ٢) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢ : ١٢٥ وروايته (غداة) بدل (عداه) .

(٣) مجاز القرآن ١ : ٣١٢ وجمهرة اشعار العرب ٢ : ٢٣ وقد نسب الى عوف بن عطية ابن عمر بن الحارث بن تميم . انظر سمط اللآلي ٣٧٧ ، ٧٢٣ ومعجم البلدان ٢٧٧

منيب »[١] والحليم : من له ما يصح به الأناة دون الخرق والعجلة . والله الحليم، الكريم ، و (الحلم) بضم اللام ما يرى في المنام ، لانها حال أناة وسكون ودعة تقول: حلم يحلم حلماً –بسكون اللام – اذا اردت المصدر، والحلمة رأس الثدي، لأنها ، تحلم الطفل ، والحلام الجدي الذي قد حلمه الرضاع ، ثم كثر حتى قيل لكل جدي .

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونَ) (٤٥) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى في هـذه الآية أن الذي نجـا من الفتيين اللذين رأيا المنام ، وفسره لهما يوسف – وهو صاحب الشراب– على ما ذكره له يوسف، فتذكر بعد وقت وحين من الزمان ، لأمر يوسف ، وقال لهم أنا اخبركم بمـا يؤل اليه هـذا المنام ، فابعثوني حتى ابحث عنه .

و (النجاة) التخلص من الهلاك . والادكار طلب الذكر . ومثله التذكّر والاستذكار ، ووزنه (الافتعال) من الذكر وأصله الاذتكار ، فقلبت التاء ذالاً وادغمت فيها الدال على أصل ادغام الاول في الثاني ويجوز اذّكر ، عـلى تغليب الأصلي على الزائد . و (الامة) المذكورة هي الجملة من الحين ، وأصله الجماعة من الجنس ، وسميت الجماعة الكثير من الناس أمة ، لاجتماعها على مقصد في امرها . وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة : « بعد أمة » أي بعد حين ، وحكى الزجاج وغيره عن ابن عباس « بعد أمة » اي بعد نسيان ، يقال أمه يأمه أمهاً – بفتح الميم – ، وحكي عن ابي عبيدة – بسكون الميم – قال الزجاج هذا ليس بصحيح وأجازه غيره، وروى هذه القراءة عن جماعة كقتادة وعكرمة وغيرهم.

---

(١) سورة هود آية ٧٥

وتأويل الرؤيا تفسير مـا يؤل اليه معناه ، وتأويل كل شيء تفسير ما يؤل اليه معنى الكلام . وحكي عن الحسن أنـه قرأ « أنا اجبكم بتأويله » وهو خلاف المصحف .

قوله تعالى :

(يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) (٤٦) آية بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن الذي نجا من الفتيين انه جـاء يوسف بعد أن قـال لهم أبعثوني. وقال له يا «يوسف» وحذف حرف النداء، لأنه إسم علم «أيها الصديق» والصديق الكثير التصديق بالحق للأدلة عليه، وكل نبي صدّيق بهذا المعنى «أفتنا في سبع بقرات » أي اخبرنا عن حكم هـذه الرؤيا ، و (الفتيا) جواب عن حكم المعنى ، وقد يكون الجواب عن نفس المعنى فلا يسمى فتيا .

وقوله «لعلي ارجع الى الناس لعلهم يعلمون» معنى (لعل) الشك ، لأنها طمع واشفاق ، وانما قـال ذلك لطمعه أن يكون، واشفق ان لا يكون ، ولو قـال لأرجع الى الناس ليعلموا ، لكان فيه تعليل السؤال ، غير ان الشك في (لعل) قد يكون للمتكلم ، وقد يكون للمخاطب ، و (الرجوع) الى الشيء المرور الى الجهة التي جاء منها، والرجوع عنه الذهاب عنه. وقوله « لعلهم يعلمون » يحتمل أمرين:

- أحدهما لعلهم يعلمون بمكانك ومنزلتك .

الثاني – لعلهم يعلمون تأويل الرؤيا .

قوله تعالى :

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبـــاً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي

سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) (٤٧) آية .

حكى الله تعالى عن يوسف ما أجاب به المستفتي عن تعبير الرؤيا التي رآها الملك ، فقال له إنكم « تزرعون سبع سنين دأباً » أي مستمرة. وقيل : متوالية. وقيل : على عادتكم . والدأب استمرار الشيء على عادة ، يقال هو دأب بفعل كذا إذا استمر في فعله ، وقد دأب يدأب دأباً. وسكن القراء كلهم الهمزة ، إلا حفصاً فانه فتحها ، وهي لغة مثل سمع، وسمع، ونهر ونهر . ونصب (دأباً) على المصدر أي تدأبون دأباً ، وكلهم همز إلا من مذهبه ترك الهمزة وأبو عمرو اذا أدرج .

وقوله « فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون » حكاية عن تمام ما قال يوسف له : من أن ما تحصدونه لا تذرّوه ولا تدرسونه ، ودعوه في السنبل إلا القليل الذي تأكلونه . وقيل إنما أمرهم بذلك، لأن السنبل لا يقع فيه السوس، ولا يهلك ، وان بقي مدة من الزمان ، واذا صفي أسرع اليه الهلاك ، و(الزرع) طرح الحب في الارض بالدفن مع التعاهد له بالسقي ، تقول . زرع يزرع زرعاً ، وازرع ازراعاً ، وزارعه مزارعة ، و (الحصد) قطع الزرع ، حصده يحصده حصداً واستحصد الزرع إذا جاز حصاده .

قوله تعالى

(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) آية بلا خلاف.

وهذا تمام حكاية ما فسر به الرؤيا يوسف (ع)، فقال لهم: إنه يجيء بعد هذه السنين التي زرعتم فيها وحصدتم ، سبع سنين أخر شداد وهي جمع شديدة ، والشدة قوة الالتفاف ، والشدة والصلابة والصعوبة نظائر . وشدة الزمان

وصعوبته بمعنى. وضدها الرخاء. وقيل الشدة تكون في سبعة أصناف في الاصل : في العقد ، والمد ، والزمان ، والغضب ، والالم ، والشراب ، والبدن .

وقوله « يأكلن ما قدمتم لهن » اضاف الأكل الى السنين ، لأنها بمنزلة ما يأكل ذلك لوقوع الأكل فيها كما يكون الاكل في الآكل قال الشاعر :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم(١)

والتقديم التقريب الى جهة القدام ، والتأخير التبعيد الى جهة الخلف ، والاحصان الاحراز ، وهو إلقاء الشيء فيما هو كالحصن المنيع ، أحصنه إحصاناً اذا أحرزه .

قوله تعالى :

(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) (٤٩) آية بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي بالتاء (تعصرون) على الخطاب أي أنتم. الباقون بالياء على الرجوع الى الناس ، وهذا حكاية ما بشر به يوسف المستفتي له أنه يأتي بعد هذه السنين الصعبة سنة . والعام السنة مأخوذ من العوم ، لما لأهله فيه من السبح الطويل . وقال الخليل : العام حول يأتي على شتوة وصيفة . والحول ، والسنة مثل ذلك.

وقوله « فيه يغاث الناس » فالغوث النفع الذي يأتي على شدة حاجة ينفي المضرّة ، والغيث المطر الذي يجيء في وقت الحاجة ، غاثهم الله يغيثهم غيثاً ، وأصابهم غيث . والغيث الكلأ الذي ينبت من ماء السماء وجمعه غيوث. والغياث أصله من الواو ، اغاثه الله اغاثة ، وغوث تغويثاً : اذا قال واغوثاه من يغيثني ، ويقول الواقع في بلية : اغثني اغاثك الله ، و(يغاث) يحتمل ان يكون من الياء ...

---

(١) تفسير القرطبي ٩ : ٢٩٤ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢ : ١٢٧

ويحتمل ان يكون من الواو «ويعصرون» قيل فيه ثلاثة أقوال :

احدها – قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعصرون الثمار التي تعتصر في الخصب من العنب والزيتون والسمسم . وحكى بعضهم أنهم لم يعصروا – أربع عشرة سنة – زيتاً ولا عنباً ، فيكون المعنى تعصرون للخصب الذي أتاكم ، كما كنتم تعصرون في ايام الخصب .

الثاني – في رواية أُخرى عن ابن عباس تحلبون .

الثالث – قال ابو عبيدة والزجاج: تنجون نجاء المعتصر بالماء عند الغصص ، كما قال عدي بن زيد :

لو بغير المـاء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري (١)

وقال ابو زيد الطائي :

صاديا يستغيث غير مغاث ولقد كان عصرة المنجود (٢)

واصل العصر عصر العنب ، ونحوه من الرطب المستخرج ماؤه وكذلك ما فيه الدهن ليستخرج دهنه ، ومنه العصارة ما يخرج بالعصر ، والاعتصار شرب الماء قليلاً قليلاً عند الغصص ، والمعصر الكاعب ، لانه يجري فيها ماء الشباب ، والمعصرات السحائب التي تنعصر بالمطر ، والاعصار ريح تثير السحاب او الغبار ، لانه كالمعتصر منها . والعصرة المنجاة كنجا الغصان باعتصار الماء ، والعصرة الدنية في النسب ، لانه كالمعتصر من الرطب . وقرىء يعصرون بضم الياء ، وفتح الصاد شاذاً ومعناه يمطرون .

وقال البلخي : وهذا التأويل من يوسف يدل على بطلان قول من يقول : ان الرؤيا على ما عبرت اولاً ، لانهم كانوا قالوا هي أضغاث احلام ، فلو كان ما قالوه صحيحاً لما كان يتأوّلها .

---

(١) مر هذا البيت في ١ : ٤١٢

(٢) تفسير القرطبي ٩ : ٢٠٤ ومجاز القرآن ١ : ٣١٣ وتفسير القرطين ١ : ٢٢٦

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) (٥٠) آية بلا خلاف .

قرأ البرجمي والسلموني « النسوة » بضم النون . والباقون بكسرها ، وهما لغتان . والكسر افصح . وفي الكلام حذف ، لأن تقديره إن الناجي الذي استفتى يوسف عن تفسير رؤيا الملك حين فسره له ، رجع الى الملك واخبره به ، وعرّفه ان ذلك فسره له يوسف، فقال الملك عند ذلك: ائتوني به والكلام دال عليه ، وذلك من عجائب القرآن ، وعظم فصاحته . ومعنى « ائتوني به » . أجيئوني به « فلما جاءه الرسول » يعني رسول الملك ، قال له يوسف ارجع الى سيدك . «فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن » وانما رد الرسول ليبين للملك براءته مما قرف به ، وانه حبس بظلم من غير بينة ، ولا اعتراف بذنب ، وقال قتادة : طلب العذر .

وقوله « ان ربي بكيدهن عليم » قيل في معناه قولان :

احدهما — وهو الصحيح — انه أخبر ان الله تعالى عالم بكيد النسوة .

والثاني — ان سيدي العزيز عليم بكيدهن . والاول عليه اكثر المفسرين . والملك هو القادر الواسع المقدور الذي اليه السياسة والتدبير ، وكان هذا الملك ملك مصر. ويجوز ان يمكّن الله تعالى الظالم من الظلم، وينهاه عن فعله، ولا يجوز أن يملكه الظلم ، لأن ما يملكه ، فقد جعله له ، وذلك لا يليق بعدله . والتمليك تمكين الحي مما له ان يتصرف فيه في حكم الله تعالى بحجة العقل والسمع ، وعلى هذا اذا مكّن الله تعالى من الظلم او الغصب لا يكون ملكه ، لأنه لم يجعل له التصرف فيه ، بل زجره عنه ، قال الرماني : يجوز أن يسلب الله تعالى الخلق

ما ملكهم في الدنيا بسوء افعالهم ، كما يسلب بعضهم بكفرهم ، والا فهو له ، فان اخذ بالموت عنه على طريق العارية ثم يرد اليه ويعوض مما فاته بكرمه تعالى ، وقيل : إن يوسف انما قال ما بال النسوة جميع النساء ولم يخص امرأة العزيز حسن عشرة منه ، وقال قوم ذلك يدل على ان كل واحدة منهن دعته الى نفسها مثل امرأة العزيز .

قوله تعالى :

(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ) (٥١) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه حين رجع الرسول الى الملك برسالة يوسف جمع النساء وقال لهنّ ما خطبكن اذ راودتنّ يوسف عن نفسه ، والخطب الأمر الذي يخاطب به صاحبه ، مما يستعظم شأنه ، يقال هذا خطب جليل ، وما خطبك ، وما شأنك ؟.

وقوله « قلن حاش لله » حكاية عما اجابته به النسوة ، فانهن قلن للملك على وجه التنزيه « حاش لله » اي عياذ بالله ، وتنزيهاً من هذا الأمر ، كقوله « معاذ الله » . وقد يستثنى به ، فيقال أتاني القوم حاشى زيد ، بمعنى إلا زيداً « ما علمنا عليه من سوء » اي لم نعلم عليه امراً قبيحاً . قالت امرة العزيز عند ذلك معترفة بخطئها « الآن حصحص الحق » أي بان الحق يقال حصحص الأمر وحصحص الحق اي حصل على امكن وجوهه ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ، واصله حصّ من قولهم حص شعره اذا استأصل قطعة منه ، والحصة اي القطعة

من الشيء، فمعنى « حصحص الحق » انقطع عن الباطل بظهوره . ومثله كبوا وكبكبوا ، وكف الدمع وكفكفه ، ورده ورddه ، فهـــو زيادة تضعيف دل عليها الاشتقاق ذكره الزجاج . واصله من حصحص البعير ثفناتة في الارض إذا برك حتى يستبين آثارها فيها . قال حميد بن ثور الهذلي :

وحصحص في صمّ القنا ثفناتة ورام القيام ساعة ثم صمما[1]

ويقال انحص الوبر عن جنب البعير وانحت اذا انحسر ومعنى«انا راودته» انا طالبته بذلك ، « وانه لمن الصادقين » في امتناعه من ذلك .

قوله تعالى :

(ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَائِنِينَ) (٥٢) آية بلا خلاف .

اختلفوا في من هذا الكلام حكاية عنه ؟ فقال اكثر المفسرين كالحسن ومجاهد وقتادة والضحاك : انه من قول يوسف « ذلك » يعني ذلك الامر من فعلي من ردّ الرسول ليعلم العزيز اني لم اخنه بالغيب ، وقطع الحكاية عن المرأة ، وجاز ذلك لظهور الكلام الدال على ذلك ، كما قال « وكذلك يفعلون » وقبله حكاية عن المرأة « وجعلوا أعزة اهلها اذلة »[2] وكما قال « فماذا تأمرون» ومثله حكاية قول الملأ « يريد ان يخرجكم من ارضكم بسحره »[3] وقال الجبائي والبلخي: انه من قول المرأة . والمعنى ان اعترافي على نفسي بذلك ليعلم يوسف اني لم اخنه بالغيب ، لان العزيز سألها ولم يكن يوسف حاضراً وكلا الأمرين جائزان ، والاول أشبه، والخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر، وضد الخيانة الامانة،

---

(١) اللسان (صمم) وروايته :

وحصحص في صم القنا ثفناته وناء بسلمى نوءة ثم صمما

(٢) سورة النمل آية ٣٤ (٣) سورة الاعراف آية ١٠٩ - ١١١

وهي تأدية الحق على ما وقع به العقد . والفرق بين الخيانة والغدر أن الخيانة تكون على وجه السر والغدر نقض العهد بخلاف الحق جهراً ، والكيد الاحتيال في ايصال الضرر الى صاحبه ، كاده يكيده كيداً ، فهو كائد .

واللام في قوله « ليعلم » لام (كي) ومعناها تعليق ما دخلت عليه بالفعل الذي قبله ، بمعنى انه وقع من اجله ، وانما يتعلق بذلك الارادة . وقوله « وان الله لا يهدي كيد الخائنين » اي لا يدعوهم اليها ولا يرغبهم فيها وانما يفعلونها بسوء اختيارهم .

قوله تعالى :

(وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٥٣) آية بلا خلاف .

هذا اخبار عما قال يوسف على وجه التواضع لله لست أبريء نفسي من السوء ، والتبرئة ازالة الشيء عما كان لازماً له ، لان النفس امارة بالسوء اي تنازع الى السوء ، فلست ابرىء نفسي من ذلك ، وان كنت لا اطاوعها فيما نازعت اليه ، والأمّارة الكثيرة الامر بالشيء ، والنفس بهذه المنزلة لكثرة ما تشتهيه وتنازع اليه مما يقع الفعل لأجله ، وهذا مجاز في الاصل غير انه كثر استعماله في العرف ، فيقال نفسي تأمرني بكذا وتدعوني الى كذا من جهة شهوتي له ، والا فلا يصح ان تأمر الانسان نفسه ، لانه يقتضي الرتبة ، لانه قول القائل لمن دونه (افعل) وذلك لا يصح بين الانسان وبين نفسه ، واكثر المفسرين على ان هذا من قول يوسف . وقال ابو علي الجبائي هو من كلام المرأة .

وقوله « الا ما رحم ربي » استثناء من الانفس التي يرحمها الله ، فلا تدعو الى القبيح ، بان يفعل معها من الالطاف ما تنصرف عن ذلك .

وقوله « ان ربي غفور رحيم » تمام الحكاية عن قائل ذلك انه اعترف بان الله تعالى غفور رحيم اي ساتر عليهم ذنوبهم رحيم بهم بان يعفو عنهم ويقبل توبتهم .

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) (٥٤) آية بلا خلاف.

هذه السياقة تدل على ان ما مضى حكاية عن قول المرأة ، لان يوسف لم يكن حاضراً ذلك المجلس ، وان الملك حين سمع جميع ذلك قال ائتوني بيوسف استخلصه لنفسي ، وطلب هذا الملك ان يكون يوسف له وحده دون شريك فيه ، والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شائب الاشتراك . وقال ابن اسحاق كان هذا الملك : الوليد ابن ريان .

وقوله « فلما كلمه » فيه حذف ، وتقديره انه لما أمر باحضاره فأحضر قال له بعد ان كلمه « انك » يا يوسف « اليوم لدينا مكين امين » اي عرفنا امانتك ، وثقتك ، وانت على حالة يتمكن من كان عليها مما يريد ، يقال لفلان مكانة عند الملك ، وهو مكين عنده ، واصله التمكن من الامر (والامين) الموثوق به ، والامانة حالة ثقة يؤمن معها نقض العهد بالفتح ، وذلك كالعقد في الوديعة وفي التخلية والعقد في الدين، والعقد في القيام بالحق .

قوله تعالى :

(قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) (٥٥) آية بلا خلاف .

وهذا حكاية ما قال يوسف حين قال له الملك انك اليوم لدينا مكين امين

« اجعلني على خزائن الارض » يعني ارضك ، والالف واللام يعاقبان حرف الكناية ، واراد بذلك الارض التي هي ملكه ويجمع فيها ماله وطعامه ، طلب اليه ذلك ليحفظ ذلك عمّن لا يستحقه ويوصله الى الوجـوه التي يجب صرف الاموال لها ، فلذلك رغب الى الملك فيه ، لان الانبياء لا يجوز ان يرغبوا في جمع اموال الدنيا الا لما قلناه . وقوله « اني حفيظ عليم » معناه حافظ للمال عمن لا يستحقه عليم بالوجوه التي يجب صرفها اليه ، وفي الآية دلالة على جواز تقلد الامر من قبل السلطان الجائر اذا تمكن معه من ايصال الحق الى مستحقه .

قوله تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ)(٥٦) آية بلا خلاف .

قرأ « نشاء » بالنون ابن كثير وحده . الباقون بالياء .

من قرأ بالنون ، فعلى معنى ان يوسف يتبوّء من الارض حيث يشاء، وطابق بينه وبين قوله « نصيب برحمتنا من نشاء » ، ويكون على احد معنيين :

احدهما – ان تكون المشيئة اسندت اليه ، وهي ليوسف ، لما كانت بأمره وارادته كما قال « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى »[1] فأضاف الرمي الى الله ، لما كان بقدرته وارادته .

والثاني – ان يكون الموضع المتبوء موضع نسك وعبادة او موضعاً يقام فيه الحق ، من أمر بمعروف، او نهى عن منكر، ويقوي النون قوله « نصيب برحمتنا من نشاء » .

---

(١) سورة الانفال آية ١٧

ومن قرأ بالياء حمله ، على انه يتبوء يوسف حيث يشاء هو نفسه .

اخبر الله تعالى أنه كما لطف ليوسف حين اخرجه من السجن وخلصه من المهالك كذلك مكنه من التصرف ، والمقام في الارض حيث يشاء كيف يشاء ، وقال الجبائي : كان هذا التمكن ليوسف ثواباً من الله على طاعته واحسانه الذي تقدم منه في الدنيا . وقال غيره : ليس في ذلك دلالة على انه ثواب ، ويجوز أن يكون تفضلاً عليه بذلك من غير ان ينقص من ثوابه شيء ، والتمكين الاقدار بما يتسهل به الفعل من رفع الموانع وايجاد الالات والالطاف وغير ذلك مما يحتاج اليه في الفعل . والتبوء هو اتخاذ منزل يرجع اليه واصله الرجوع من « باؤا بغضب من الله » قال الشاعر :

فان تكن القتلى بواء فانكم فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر[١]

اي يرجع بدم بعضها على بعض ، فان هذا المقتول لا كفاء لدمه . وقوله « نصيب برحمتنا من نشاء » اخبار منه تعالى انه يفعل رحمته بمن يشاء من عباده على وجه التفضل عليهم والاحسان اليهم ، وانه لا يضيع اجر الذين يحسنون افعالهم ويفعلون ما أمرهم الله به على وجهه ، بل يثيبهم على ذلك .

والاحسان على ثلاثة اوجه :

احدها — ان يحسن الى غيره ، فذلك انعام .

وثانيها — ان يحسن الى نفسه بأن ينفعها نفعاً حسناً .

وثالثها — ان يفعل حسناً مبهماً لا يضيفه الى نفسه ولا الى غيره .

واللام في قوله « مكنا ليوسف » يحتمل ان يكون مثل قوله «ردف لكم»[٢] و « للرؤيا تعبرون »[٣] بدلالة قوله « مكناهم فيما ان مكناكم فيه »[٤] وقوله « مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم »[٥] « ويتبوء » في موضع نصب على الحال .

---

(١) قائلة ليلى الاخيلية ، قد مر في ١ : ٣٧٨ وهو في اللسان (بوأ)
(٢) سورة النمل آية ٧٢
(٣) سورة يوسف آية ٤٤
(٤) سورة الاحقاف آية ٢٦
(٥) سورة الانعام آية ٦

قوله تعالى :

(وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (٥٧) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى ان الثواب الذي يثيب الله به الذين يؤمنون به ويتقون معاصيه في الآخرة ، وهي النشأة الثانية ، فان الدنيا هي النشأة الاولى والآخرة خير واعظم نفعاً من منافع الدنيا التي تنالها الكفار .

وقال ابو علي الجبائي: اجر الآخرة خير من ثواب الدنيا ، لان ما تقدم في الآية الاولى يقتضيه .

قوله تعالى :

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) (٥٨) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن اخوة يوسف الذين كانوا ألقوه في الجب ، وباعوه بثمن بخس انهم جاؤه ودخلوا عليه ، فعرفهم يوسف ولم يشك فيهم ، ولم يعرفه اخوته بل كانوا جاهلين بحاله منكرين له ، وكان سبب مجيئهم اليه مجيء سني القحط التي كان ذكرها يوسف في تعبير الرؤيا ، فجاؤا الى مصر يمتارون كما جاء غيرهم من الناس – في قول السدي، وابن اسحق وغيرهما، وليس لأحد ان يقول: كيف يجوز مع كمال العقل ان يعرفهم يوسف ، وهم يجهلونه مع انه نشأ معهم ؟.

وذلك ان عنه جوابين .

احدهما – قال الجبائي : انهم فارقوه وهو صبي امرد ، فجاؤوه وقد التحى وكبر وتغيرت حاله ، فلم يعرفوه . وقال البلخي : ان ذلك مما خرق الله تعالى فيه العادة لنبيه (ع).

قوله تعالى :

(وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) (٥٩) آية بلا خـلاف .

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان يوسف لما أمر بتجهيز اخوته فجهزهم، والجهاز فاخر المتاع الذي يحمل من بلد الى بلد ، ومنه قولهم : فلان يجهز، ومنه جهاز المرأة ، قال لهم جيئوني « بأخ لكم من أبيكم » وانما قال ذلك ، لانه كان اخا يوسف لابيه وامه ، وهو ابن يامين – في قول قتادة وغيره – وكان اخاهم لابيهم خـاصة .

وقوله « الا ترون اني أوفي الكيل » خطاب من يوسف لاخوته ، فقال أليس قد عرفتم عدلي وإيفائي الكيل من غير بخس له . والوفاء تمام الامر على ما يوجبه الحق، ويكون ذلك في الكيل ، وفي الوزن، وفي الذرع، وفي العدّ، وفي العقد. و (الكيل) مصدر كال يكيل ، وهو فصل المكيال بملئه . و (المكيال) مقدار يفصل عليه ما يطرح فيه .

وقوله « وانا خير المنزلين» فيه قولان: احدهما – قال مجاهد: خير المضيفين. والثاني – خير المنزلين في سعر الطعام . و(المنزل) واضع الشيء في منزلته، وقد يكون للشيء منزلتان، احداهما اولى من الاخرى، فمن وضعها في الاولى فهو خير المنزلين كسعر الطعام الذي يضعه في اولى منزلتيه .

قوله تعالى :

(فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ) (٦٠) آية بلا خلاف .

ثم قال يوسف لاخوته بعد ان قال لهم « ائتوني بأخ لكم من ابيكم » متى ما لم تفعلوا ما امرتكم به من اتيانكم بأخيكم ، فأني لا اكيل لكم الطعام ، ولا ابايعكم ، ومع هـذا فلا تقتربون يعني لا تجيئوني ، والذي اقتضى طلبه الاخ من ابيهم انه فاوضهم وساءلهم عن اخبارهم واحوالهم ، واخبار اهلهم ، كما يتساءل الناس عن مثل ذلك ، ودل الكلام على ذلك ، وهو من عجيب فصاحة القرآن ، وإنما استجاز ان يطلب اخاهم ولا معاملة بينه وبينهم ، لأنهم ذكروا ان اباهم آثره عليهم بالمحبة مع حكمته وفضله ، احب ان يراه وتطلعت نفسه الى ان يعلم السبب فيما يقتضي هذه الحال ، وانما اخفاهم امره ولم يطلعهم على ما انعم الله عليه ، لانه خاف ان يكتموا اباه امره لما تقدم لهم فيه واحب ان يجري تدبيره على تدريج لئلا يهجم عليه ما يشتد معه اضطرابهم .

قوله تعالى :

(قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) (٦١) آية بلا خلاف .

هذا حكاية مـا اجاب به اخوة يوسف يوسف حين حثهم على الاتيان بأخيهم بأنهم «قالوا سنراود عنه اباه» ونحن نفعل ذلك، والمراودة المطالبة من قولهم راد يرود ، فهو رائد اي طلب ، وفلان يرتاد موضعاً اي يطلبه ، وفي المثل (الرائد لا يكذب اهله) ومنه الارادة وهي طلب الفعل بما هو كالسبب له ، لان الداعي الى الفعل داع الى ارادته ، لأنّ باجتماع الامرين يقع الفعل من عالم قادر ، والفاعل من جعل الشيء موجوداً بعد ان كان معدوماً ، وكل فاعل جاعل ، وليس كل جاعل فاعلاً ، لأنه قد يكون جاعلاً على صفة ، كالجاعل للجسم متحركاً . قال الرماني : الفرق بين العامل والفاعل ان العامل للشيء قـد يكون المغير له ، والفاعل لا يكون إلا الموجد له ، والفرق بين العامل والجاعل ان العامل لا

يكون الا مغيراً له ، وقد يكون الجاعل غير مغير له ، لانه يجعله على صفة بحكمه فيه كالذي يجعله كافراً بحكمه انه كافر .

وقال ابن اسحاق : الذي وعدوا بفعله الاجتهاد في المصير بأخيهم اليه .لانهم جوّزوا انلا يجيبهم ابوهم الى الارسال به معهم .وقال ابو علي: وعدوه بان يصيروا به اليه ان ارسله ابوه معهم ، فالعدة به كانت واقعة بشرط .

قوله تعالى :

(وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (٦٢) آية بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر «لفتيانه» الباقون «لفتيته» قال ابو الحسن كلام العرب قل : لفتيانك ، وما فعل فتيانك ، وان كانوا ايضاً في أدنى العدد إلا ان يقولوا : ثلاثة وأربعة .

اخبر الله تعالى عن يوسف انه أمر فتيانه بـأن يجعلوا بضاعتهم في رحالهم . و (الفتى) الشاب القوي ، وجمعه فتية وفتيان . وقال قتادة : كانوا غلمانه . وقال غيره : كانوا مماليكه . و (البضاعة) : قطعة من المال التي للتجارة . و (الرحال) جمع رحل وهو الشيء المعد للرحيل من وعاء المتاع او مركب من مراكب الجمال، وجمعه في القليل ارحل وفي الكثير رحال . وانما جعل بضاعتهم في رحالهم، ليقوي دواعيهم في الرجوع اليه اذا رأوا إكرامه اياهم،ورد بضاعتهم اليهم مع جدوب الزمان وشدته . ويجوز ان يكون جعلها في رحالهم ليرجعوا اليه متعرّفين عن سبب ردها . وقال قوم معناه ليعلموا اني لست اطلب أخاهم للرغبة في مالهم .

وقوله «لعلهم يعرفونها» معناه لكي يعرفونها، وانما قال (لعل) لأنه جوز أن تشتبه عليهم ، فيمسكوا فيها « إذا انقلبوا » أي اذا رجعوا الى اهليهم « لعلهم

يرجعون» اي لكي يرجعوا، واللّام لام الغرض، وانما اتى بـ (لعل) لانه جوز أن لا يعودوا .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (٦٣) آية بلا خلاف .

قرأ (يكتل) بالياء حمزة والكسائي . الباقون بالنون .

من قرأ بالياء رد الكناية الى أخو يوسف ، ومن قرأ بالنون رده الى جماعتهم، لقوله « ونمير اهلنا » .

حكى الله تعالى عن أخوة يوسف أنهم حين رجعوا الى ابيهم وحصلوا معه ، قالوا يا أبانا منعنا الكيل « فأرسل معنا أخانا » اي ابعثه « معنا نكتل » ونحن نحفظه ونحتاط عليه . والاكتيال هو الكيل للنفس ، وهو افتعال من الكيل ، وانما قال «منع منا الكيل ،» وهو قد كال لهم ، لان المعنى منع منا الكيل ان لم نأت باخينا . لقوله «فلا كيل لكم عندي ولا تقربون» وهو قول الحسن والزجاج والجبائي . وهو الصحيح .

وقال قوم : معناه إنه لما كال لهم كال لكل واحد كيل بعير ومنعهم تمام الكيل الذي أرادوه .

قوله تعالى :

(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ) (٦٤) آية بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « حافظاً » على وزن فاعل . الباقون «حفظاً» على المصدر .

وهذا حكاية ما قال يعقوب لولده حين قالوا له « ارسل معنا اخانا » فانه قال لهم «هل آمنكم عليه» والامن إطمئنان القلب الى سلامة الأمر يقال: أمنه يأمنه. أمناً وائتمنه يأتمنه ائتماناً. ومنه قوله «فليؤد الذي اؤتمن أمانته»[1] ثم أخبر تعالى، فقال « فالله خير حافظاً » فمن قال على لفظ الفاعل نصبه على الحال . ويحتمل ان يكون نصبه على التمييز ،ولم ينصبه على الحال، والحال يدل على انه تعالى الحافظ. والتمييز يرجع الى من يحفظ بأمره من الملائكة وكلا الوجهين أجازهما الزجاج .

ومن قرأ على المصدر نصبه على التمييز لا غير ، ولو قرىء (خير حافظ) على الاضافة لدل على ان الموصوف حافظ ، وليس كذلك التمييز ، وحقيقة (خير من كذا) انه أنفع منه على الاطلاق ، وانه لا شيء انفع منه، قال ابو علي الفارسي: وجه قراءة من قرأ (حفظاً) بغير ألف انه قد ثبت من قولهم « ونحفظ أخانا » وقولهم « وانا له لحافظون » انهم اضافوا الى انفسهم «حفظاً» فالمعنى على الحفظ الذي نسبوه الى انفسهم ، وان كان منهم تفريط في حفظ يوسف ، كما قال « اين شركائي »[2] ولم يثبت لله شريك، ولكن على معنى الشركاء الذين نسبتموهم اليّ، فكذلك المعنى على الحفظ الذي نسبوه الى انفسهم ، والمعنى «فالله خير حفظاً» من حفظكم الذي نسبتموه الى انفسكم . ومن قرأ (حفظاً) فعلى التمييز دون الحال .

قوله تعالى :

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) (٦٥) آية بلا خلاف.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٣ .

(٢) سورة النحل آية ٢٧ ، وسورة القصص آية ٦٢ ، ٧٤ .

أخبر الله تعالى عن اخوة يوسف أنهم لما فتحوا متاعهم، والمتاع مبيع التجار مما يصلح للاستمتاع ، فالطعام متاع والبر متاع وأثاث البيت متاع ، والمراد به ههنا أوعية الطعام « وجدوا بضاعتهم ردت اليهم » اي اصابوا بضاعتهم التي كانوا وزنوها بشري الطعام قد جعلت في وسط امتعتهم ، فلما رأوا ذلك «قالوا يا أبانا ما نبغي » وقيل في معناه قولان :

احدهما – قال قتادة : ما نطلب ؟ على وجه الاستفهام .

والثاني – قال الجبائي: ما نبغي: فيما أخبرناك به عن ملك مصر ليس بالكذب ودليله ان هذه بضاعتنا ردت الينا ، واجاز الفراء ، والزجاج كلا الوجهين ، وقولهم « ونمير اهلنا » اي نجلب لهم الميرة ، والميرة الاطعمة التي تحمل من بلد الى بلد يقال : ماره يميره ميراً اذا حمل له الطعام الى بلده قال الشاعر :

بعثتك مائراً فمكثت حولاً   متى يأتي غياثك من تغيث[٢]

وقوله « ونزداد كيل بعير » اي ويعطينا فضل كيل بعير ، لمكان أخينا « ذلك كيل يسير » وقيل في معناه قولان :

احدهما – قال الجبائي : ان ذلك كيل قليل ، لا يكفينا نحتاج ان نضيف اليه كيل بعير اخينا .

الثاني – قال الحسن: ان ذلك متيسر على من يكيل لنا، واليسر إتيان الخير بغير مشقة ، وضده العسر . وكذلك اليسير والعسير .

قوله تعالى :

(قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي

---

(٢) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ / ٨ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٢٤ واللسان (غوث) وروايته :

بعثتك مائراً فلبثت حولاً   متى يأتي غواثك من تغيث

بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) (٦٦) آية بلا خلاف.

هذه حكاية ما قال يعقوب لبنيه حين سألوه إنفاذ أخيهم معهم، وان بضاعتهم ردت اليهم، وانه ان انفذه معهم ازدادوا كيل بعير - اني لست «ارسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله» ومعناه حتى تحلفوا لي بالله لتجيؤني به. والايتاء الاعطاء آتاه يؤتيه ايتاء، والاتيان به المجيء به، والموثق العقد المؤكد بالقسم، وانما قال موثقاً من الله، وانما هو موثق من انفسهم، لأن المعنى موثقاً من جهة اشهاد الله او القسم بالله، فاما على انفسهم، فهو العقد عليها بما لا يجوز حله لها.

وقوله «الا ان يحاط بكم» موضع (أن) نصب بأنه مفعول له، وتقديره إلا لأحاطة بكم، كما يقول القائل: ما تأتيني إلا، لأخذ الدراهم، وما تأتيني إلا ان تأخذ الدراهم - ذكره الزجاج - والاحاطة أصله ضرب السور حول الشيء. ومنه قيل يعلمه علم احاطة اي على التحديد. والمعنى ههنا إلا ان يحال بينكم وبينه.

وقوله «فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل» معناه انهم لما أجابوه الى اليمين، وحلفوا له واشهدوا على انفسهم بذلك قال يعقوب «الله على ما نقول وكيل» اي حافظ وقيم به. والوكيل القيم بالتدبير والقائم بالقسط فهو العدل في حكمه.

قوله تعالى:

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ

إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) (٦٧)

آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن يعقوب أنه قال لبنيه حين أنفذ اخاهم معهم « يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة » وقيل في سبب قوله ذلك قولان :

احدهما - قال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، والحسن : انه خاف عليهم العين ، لانهم كانوا ذوي صور حسنة وجمال وهيبة .

وقال الجبائي: انه خاف عليهم حسد الناس لهم، وان يبلغ الملك قوتهم وشدة بطشهم فيقتلهم خوفاً على ملكه ، وانكر العين . وقال لم تثبت بحجة . وانما هو شيء يقوله الجهال العامة .

والذي قاله غير صحيح في امر العين بل غير منكر ان يكون ما قال المفسرون صحيحاً ، وقد روي عن النبي ﷺ انه قال : (العين حق) ، وانه عوذ الحسن والحسين (ع) ، فقال في عوذته : (وأعيذكما من كل عين لامّة) وقد رويت فيه أخبار كثيرة ، وقد جرت العادة به . واختاره البلخي ، والرماني واكثر المفسرين ، وليس يمتنع ان يكون الله تعالى أجرى العادة لضرب من المصلحة أنه متى ما نظر انسان الى غيره على وجه مخصوص اقتضت المصلحة اهلاكه أو إمراضه أو اتلاف ماله ، فالمنع من ذلك لا وجه له .

وقوله « وما اغني عنكم من الله من شيء » اعتراف منه بأنه لا يملك الامر ، ولا يغني عمن يريده الله بسوء . والغنى ضد الحاجة .

وقوله « ان الحكم الا لله » اي ليس للفصل بين الامور على ما تقتضيه الحكمة الا الله .

وقوله « عليه توكلت » اي فوضت امري الى الله يدبره كيف يشاء . والتوكل من صفات المؤمنين .

قوله تعالى :

(وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (٦٨) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى ان اخوة يوسف ، لمـــا وردوا عليه،ودخلوا عليه من ابواب متفرقة حسب ما امرهم به ابوهم ورغبهم فيه لم يكن يعقوب يغنى عنهم من الله شيئاً الا حاجة في نفس يعقوب قضاها من خوف العين عليهم أو الحسد عـــلى اختلاف القولين ، و (الا) بمعنى (لكن) لأن ما بعدها ليس من جنس ما قبلها .

وقوله « وانه لذو علم لما علمنا » اخبار من الله تعالى ان يعقوب عالم بما علمه الله . وقيل في معناه قولان :

احدهما – ان ما ذكره الله من وصفه بالعلم كان ترغيباً فيه .

والاخر – انه ليس ممن يعمل على جهل،بل على علم، براءة له من الامر لولده بما لا يجوز له ، ولكن « اكثر الناس لا يعلمون » ذلك من حاله ، كما علمه الله .

قوله تعالى :

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَـــالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٦٩) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن اخوة يوسف أنهم لما دخلوا على يوسف آوى يوسف أخاه اليه، والايواء ضم المحبوب وتصييره الى موضع الراحة . ومنه المأوى المنزل الذي يأوي اليه صاحبه للراحة فيه . وقـــال الحسن وقتادة : ضمه اليه وأنزله معه ، وقد اجتمعت في (آوى) حروف العلة كلها الالف والواو والياء ، والعلة في ذلك

أن الهمزة بمنزلة الحرف الصحيح ، لانها ليست حرف مد ولين ، فجاز ذلك على قلبه لهذه العلة. وقال له حين اواه الى نفسه «إني انا أخوك» يوسف «فلا تبتئس بما كانوا يعملون» وإنما قال له ذلك ، لانه وإن كان علم ان له أخاً من أبيه وأمه إلا انه لا يعلم انه هذا ، والابتئاس والاكتئاب والاغتمام نظائر ، ومعناه اختلاط البؤس بالحزن ، وانما جاز ان يأخذه بالصواع مع تعريفه انه أخوه لامرين :

احدهما – انه كان بمواطأة منه له .

والثاني – قال وهب بن منبه : انه أراد أنا أخوك مكان أخيك الذي هلك . والأول اصح .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) (٧٠) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى ان يوسف لما جهز أخوته بجهازهم يعني الطعام الذي اشتروه ليحملوه الى بلدهم . ومنه جهاز المرأة « جعل السقاية في رحل أخيه » والسقاية المراد بها ههنا صواع الملك الذي كان يشرب فيه . وقيل: كان من فضة . وقال ابن زيد كان كأساً من ذهب . وقيل انــه صير مكيالاً للطعام . والسقاية في الأصل الاناء الذي يسقى فيه ، والرحل آلة السفر من وعاء أو مركب، والمراد ههنا وعاء أخيه الذي يحمل فيه طعامه .

وقوله «ثم أذن مؤذن» اي نادى مناد. والايذان الاعلام بقول يسمع بالاذن. ومثله الأذن ، والاذن الاطلاق في الفعل بقول يسمع بالاذن ، و (والعير) قافلة الحمير – في قول مجاهد. وقيل هي القافلة التي فيها الاجمال . والاصل الحمير إلا انه كثر حتى صارت تسمى كل قافلة محملة عيراً تشبيهاً. وقوله «انكم لسارقون» فالسرقة أخذ الشيء من حرز في خفى بغير حق، إلا ان الشرع قدر أنه لا يتعلق بها القطع

إلا إذا سرق مقداراً معيناً على خلاف بين الفقهاء ، فعندنا هو ما قدره ربع دينار ، وعند قوم عشرة دراهم ، وعند آخرين ثلاث دراهم .

وقيل في وجه ندائهم بالسرقة مع انهم لم يسرقوا شيئاً قولان :

احدهما – ان ذلك من قول اصحابه ، ولم يأمرهم يوسف بذلك ، ولا علم . وإنما كان أمر بجعل السقاية في رحل أخيه على ما أمره الله تعالى ، فلما فقدها الموكلون بها اتهموهم بها . وهو اختيار الجبائي .

والثاني – انهم نادوهم على ظاهر الحال فيما يتغلب على ظنونهم ولم يكن يوسف أمر به ، وإن علم انهم سيفعلونه . وقال قوم قولاً ثالثاً : ان معناه إنكم سرقتم يوسف من أبيه حين طرحتموه في الجب . وقال آخرون : ان ذلك خرج مخرج الاستفهام ، وليس في جعل السقاية في رحل أخيه تعريضاً لأخيه بأنه سارق ، لانه إذا كان ذلك يحتمل السرقة ، ويحتمل الحيلة فيه حتى يمسكه عنده ، فلا ينبغي ان يسبق احد الى اعتقاد السرقة فيه ، وليس في ذلك ادخال الغم على أخيه لانا بينا انه كان اعلمه إياه ، وواطأه عليه ، ليتمكن من امساكه عنده على ما أمره الله تعالى به ، والنداء وان كان للعير فالمراد به اهل العير ، كما قال « واسأل القرية » وإنما أراد اهلها .

قوله تعالى :

(قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) (٧٢) آيتان .

حكى الله تعالى عن اهل العير انهم حين سمعوا نداءهم بأنكم سارقون أقبلوا عليهم وقالوا اي شيء فقدتموه ، فقال لهم اصحاب يوسف انا فقدنا صواع الملك ، ومن جاء به ورده ، فله حمل بعير من الطعام . والاقبال مجيء الشيء الى جهة المقابلة

بوجهه، وضده الادبار . ومثله التوجه، والتحاذي . والفقد غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يدرى اين هو ، والفاقد من الوحش هي التي تغيب ولدها عنها قـــال الشاعر :

بكاء ثكلى فقدت حميماً   فهي ترثي بأبي وابني ما[١]

والصواع مكيال الطعام. وكان هذا الصواع كأساً للملك يشرب فيه وجمعه صيعان وأصواع . وقـــال ابن عباس : كان من فضة ، و (الحمل) بالكسر على الظهر وبفتح الحاء في البطن ، وجمعه احمال وحمول . والبعير الجمل وجمعه بعران وابعرة . وقوله «وانا به زعيم» اي كفيل به، وضمين له ، وقائل ، قال الشاعر:

فلست بآمن فيهـا بسلم   ولكني على نفسي زعيم[٢]

وإنما قال وانا به زعيم وقبله ذكر جمع ، لأن زعيم القوم متكلم عنهم فكأنه قد كلم بذلك جميعهم قالت ليلى الاخيلية :

حتى اذا برزوا اللواء رأيته   تحت اللواء على الخميس زعيما[٣]

وذلك انه زعيم القوم لرئاسته ، زعم زعامة وزعاماً إذا صار رئيساً ، قال ابو علي : اصله القول .

قوله تعالى :

(قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَـا كُنَّا سَارِقِينَ) (٧٣) آية بلا خلاف.

هذا حكاية ما اجاب به اهل العير لما سمعوا النداء ، وما يدل على رد الصواع

---

(١) قائلة رؤبة اللسان (بني) ويروى (ترثي بأبا وابنا ما) .

(٢) تفسير الطبري (الطبعة الأولى) ١٣ : ١٣ ومجاز القرآن ١ : ٣١٥ .

(٣) تفسير القرطبي ٩ : ٢٣٢ وسمط اللالي : ٤٣ وتفسير الطبرى ١٣ : ١٣ وامالي السيد المرتضى ١ : ٤٩٧ حاشية .

انهم اقسموا بالله انا لم نجيء للافساد في الارض وإنا لم نكن سارقين . والفساد اضطراب التدبير على وجه قبيح ، ونقيضه الصلاح . ويقال فسد الشيء اذا تغير الى حال تضر كفساد الطعام ، وغيره من الأمور، وقوله « تالله » التاء بدل من بدل، لأنها بدل من الواو والواو بدل من الباء، فضعفت عن التصرف، فاختصت بدخولها على اسم الله لا غير دون غيره من الاسماء ، لانه لا يقال (تالرحمن) ودخلت التاء في تالله على وجه التعجب ، لانها لما كانت نادرة في حروف القسم جعلت للنادر من المعاني يتعجب منه . وإنما قالوا « تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض » مع انهم لم يعلموا ذلك لأمرين :

احدهما – لما رأوا من صحة معاملتهم وشده توقيهم لما لا يجوز لهم مما ينبيء عن مقاصدهم .

الثاني – قيل لانهم ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم ظناً منهم أن ذلك عن سهو ، وهذا لا يليق بحال السراق من الناس . وضعف البلخي هذا الوجه ، وقال كيف يكون ذلك وهم لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم اظهروا السرور به والفرح، وقالوا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت الينا فكيف يردونها مع ذلك !.

قوله تعالى :

(قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّالِمِينَ) (٧٥)

آيتان .

حكى الله تعالى عن اصحاب يوسف انهم قالوا لاهل العير لما سمعوا جحودهم الصواع، وانكروا ان يكونوا سارقين «ما جزاؤه ان كنتم كاذبين» في جحودكم وإنكاركم ، وقامت البينة على انكم سرقتموه ، وما الذي يستحق ان يفعل بمن

سرق؟ فأجابهم اهل العير، وقالوا من ادرك عنده الصواع، ووجد في رحله جزاؤه اخذ من وجد في رحله رقاً ، فهو جزاؤه عندنا كجزائه عندكم لانه كان من عادتهم ان يسترقوا السارق –في قول الحسن، ومعمر، والسدي، وابن اسحاق– وفيه تقديران في الاعراب :

احدهما – جزاؤه استرقاق من وجد في رحله، فهذا الجزاء جزاؤه، كما تقول جزاء السارق القطع ، فهو جزاؤه لتمكين البيان الاخير .

الثاني – جزاؤه من وجد في رحله ، فالسارق جزاؤه، فيكون مبتدأ ثانياً، والفاء جواب الجزاء، والجملة خبر (من) و (من) ههنا يحتمل وجهين :

احدهما – ان يكون بمعنى الذي ، وتقديره جزاؤه الذي وجد في رحله مسترقاً .

والآخر – معنى الشرط ، كأنه قال جزاء السراق إن وجد في رحل إنسان منا، فالموجود في رحله جزاؤه استرقاقاً . وقوله «كذلك نجزي الظالمين» اخبار منهم بأن ذلك عادتهم في مجازاة كل ظالم .

وقد قيل في تأويل الآية وجهان :

احدهما – ان يكونوا في ذلك على شرع لنبي من انبياء الله .

والآخر – ان يكون ذلك على عادة الملوك في اهل الجنايات لمصالح العباد لا على حقيقة الجزاء الذي يعمل بأمر الله بدلالة قوله فيما بعد «ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك» فاضاف الجزاء الى دين الملك دون الله .

قوله تعالى :

(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ

إِلَّا أَنْ يَشاءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) (٧٦) آية بلا خلاف.

قرأ يعقوب « يرفع درجات من يشاء » بالياء فيهما على وجه الكناية عن الله . الباقون بالنون فيهما على وجه الاخبار منه تعالى عن نفسه . ونوّن التاء من (درجات) اهل الكوفة . الباقون على الاضافة .

اخبر الله تعالى ان يوسف أمر اصحابه بأن يفتشوا اوعيتهم ورحالاتهم، وان يبدؤوا بأوعية الجماعة قبل وعاء أخيه ليكون ابعد من التهم، فلما لم يجدوا فيها شيئاً امر حينئذ باستخراجها من وعاء أخيه. ثم اخبر الله تعالى انه كاد ليوسف، والكيد التعريض للغيظ ، وكان التدبير على أخوة يوسف حتى اخذ منهم أخوهم بما يوجبه حكمهم ، هو كالتعريض للغيظ من جهة اغتمامهم بما نزل من ذلك الامر بهم . والتقدير كدنا اخوته له بما دبرنا في امره .

وقيل الكيد التعريض للضرّ بما خفي ، وقد يعبر عن الجزاء على المعصية بالكيد ، كقوله « واملي لهم ان كيدي متين » اي عقوبتي .

وقوله « ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك » معناه إنه لم يكن يوسف ممن يأخذ اخاه على دين الملك في جزاء من سرق ان يستعبد قال الشاعر :

تقول اذا درأت لها وضيني اهذا دينه ابداً وديني [1]

اي هذا عادته ابداً وعادتي . وقوله « الا ان يشاء الله » قال الحسن إنما قال ذلك لانه تعالى كان امره بذلك بدلالة قوله « نرفع درجات من نشاء » اي بما نريه من وجوه الصواب في بلوغ المراد .

وقوله « وفوق كل ذي علم عليم » قيل في معناه قولان :

---

(١) مر هذا الشعر في ١ : ٣٦ ، ٢ : ١٤٨ ، ٣ : ٤٥ .

احدهما – قال ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير : معناه « وفوق كل ذي علم » معلم «عليم» وهو الله تعالى الغني بنفسه عن التعليم .

والثاني – ان معناه «وفوق كل ذي علم» ممن رفعه الله « عليم » قد رفعه بالعلم من وجه آخر ، فهو أعلم بذلك الامر الآخر .

وفي ذلك دلالة على أنه تعالى عالم لنفسه ، لأنه لو كان عالم بعلم ، لكان فوقه علم ، وذلك باطل . والضمير في قوله تعالى « استخرجها » عائدة الى السقاية . وقال الزجاج هي عائدة الى الصواع وانه يذكر ويؤنث ، ومن قرأ درجات من نشاء » على الاضافة ، فالمعنى نرفع منازل من نشاء رفع منازله ومراتبه في الدنيا بالعلم على غيره ،كما رفعنا مرتبة يوسف في ذلك على مراتب اخوته .ومن قرأ بتنوين «درجات» فالمعنى نرفع من نشاء درجات ومراتب كما رفعنا ليوسف ، فـ « من » منصوبة على هذه القراءة ، وعلى القراءة الاولى مخفوضة .

قوله تعالى :

(قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) (٧٧) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى عن اخوة يوسف انه لما استخرج الصواع من رحل أخيه ، قالوا إن كان هذا سرق ، فقد سرق أخ له من قبل يعنون يوسف، واختلفوا فيما نسبوه اليه من السرقة من قبل ، قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن جريج انه كان سرق صنماً كان لجده أبي امه ، فكسره والقاه على الطريق ، فقال ابن اسحاق : إن جدته خبأته في ثيابه منطقة اسحاق لتملكه بالسرقة محبة لمقامه عندها . وقال قوم انه كان يسرق من طعام المائدة للمساكين . وقوله « فاسرها

يوسف في نفسه » يعني أخفى هذه الكلمة في نفسه ، « ولم يبدهــا لهم » أي لم يظهرها لهم .

واختلفوا فيما اسر في نفسه ، فقال ابن عباس والحسن وقتــادة : اسر قوله « انتم شر مكاناً » أي ممن قلتم له هذا « والله أعلم بما تصفون » انه كذب . وقال قوم : أسرها باضمار الكلمة للدلالة عليها قال حاتم طي :

اماوي ما يغني الثراء عن الفتى ... اذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر[1]

وانما قال إن مكانكم شرّاً لما ظهر من الأمر الذي يقتضي هذا الوصف. والصفة والوصف مصدران بمعنى واحد مثل وعد وعدة ، ووجه وجهة . وقال الحسن لم يكن اخوة يوسف يومئذ انبياء ، وإنما اعطوا النبوة فيما بعد ، وعندنا إنهم لم يكونوا أنبياء في وقت ، لا في الحال ، ولا فيما بعد ، لان ما فعلوه بيوسف من الافعال القبيحة ينافي النبوة لأن النبي لا يقع – عندنا – منه قبيح أصلاً ، لا صغير ولا كبير .

وقال البلخي : كذبوا في قولهم «سرق أخ له من قبل» والله اعلم بما يعنون في ذلك وانه كذب ، وقال لم يصح عندنا ان اخوة يوسف كانوا انبيــاء وجوز ان يكون الاسباط غيرهم او كانوا من اولادهم .

قوله تعالى :

(قَالُوا يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ) (٧٨) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن أخوة يوسف انه لما أخذ يوسف أخــاه منهم مظهراً لاسترقاقه قــالوا له ، وهم لا يعرفونه « يا ايها العزيز » والعزيز المتنع

(١) مر هذا البيت في ٥ : ٦٣

بقدرته من ان يضام. والعزّ منع الضيم بسعة المقدور والسلطان «ان له أباً شيخاً كبيراً» يعنون يعقوب أبا اخيهم اي انه كبير السن، ويجوز ان يريدوا: كبير القدر «فخذ احدنا مكانه» اي خذ واحداً منا عبداً بدله – في قول الحسن وغيره – «إنا نراك من المحسنين» الينا في الكيل ورد بضاعتنا. وقد أملنا ذلك منك.

قوله تعالى:

(قَالَ مَعَاذَ ٱللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ) (٧٩) آية بلا خلاف.

هذا حكاية ما أجاب به يوسف أخوته حين قالوا له خذ واحداً منا بدله، لأنه قال لهم «معاذ الله» أي اعتصاماً بالله أن يكون هذا. والاعتصام امتناع الهارب من الامر بغيره، ولذلك يقال اعتصم بالجبل من عدوه. واعتصم بالله من شر عدوه، فانا لا نأخذ «إلا من وجدنا متاعنا» يعني الصواع «عنده. إنا اذاً لظالمون» ومعناه إنا لو أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لكنا ظالمين، واضعين للشيء في غير موضعه. والعرب تقول معاذ الله، ومعاذه الله وعوّذه الله وعياذ الله. وتقول: اللهم عائذاً بك اي اني أعوذ عائذاً بك، فكأنه قال استجير بالله من أن آخذ بريئاً بسقيم.

قوله تعالى:

(فَلَمَّا ٱسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ ٱللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ ٱللهُ لِي

وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ) (٨٠) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى عن اخوة يوسف حين آيسوا من تسليم أخيهم اليهم ، فاليأس ضد الطمع ، يقال : يئس يأساً واستيأس استيئاساً ، فهو يائس ، ومستيئس ، وآيس يأس مثله .

وقوله « خلصوا نجيّاً » أي انفردوا من غير أن يكون معهم غيرهم ممن ليس منهم ، وهذا من عجيب فصاحة القرآن الخارقة للعادة لأن بقوله « خلصوا » دل على ما قلناه من معنى الكلام الطويل .

واصل الخلوص حصول الشيء من غير شائب فيه من غيره ، كخلوص الذهب من الشئاب ، وسمي الخلاص لذلك ، وقوله «نجيّاً » مصدر يدل بلفظه على القليل والكثير ، والواحد والجمع . والنجوى مثله ، ولذلك قال تعالى في الواحد « وقربناه نجيّاً »[1] وفي الجمع « خلصوا نجياً » قال الشاعر :

إني اذا ما القوم كانوا أنجيه واضطرب القوم اضطراب الارشيه
هناك أوصيني ولا توصي بيه [2]

والمناجاة رفع المعنى من كل واحد الى صاحبه على وجه خفي . واصل النجو الارتفاع من الارض . والمناجاة المسارة ونجي جمعه أنجية ، وهم يتناجون. و «قال كبيرهم» يعني اكبرهم ،وقال قتادةوابن اسحاق: هوروبيل، فانه كان اكبرهم سناً . وقال مجاهد : هو شمعون ، وكان اكبرهم عقلاً وعلماً دون السن . والأول أليق بالكلام والظاهر: «ألم تعلموا أن أباكم قد اخذ عليكم موثقاً من الله» يعني أما علمتم أن أباكم قد حلفكم واقسمتم له بالله في حفظ أخيكم، وقبل هذا ما فرطتم في يوسف أي قصرتم في حفظه . واصل التفريط التقديم من قوله ﷺ (انا فرطكم على الحوض) أي متقدمكم . والموثق والايثاق : العهد الوثيق و (ما) في قوله

---

(١) سورة مريم آية ٥٢

(٢) مر هذا الشعر في ١ : ٢١٨ وهو في تفسير القرطبي ٩ : ٢٤١

« ما فرطتم » يحتمل ثلاثة اوجه من الاعراب :

احدها – ان تكون منصوبة بـ (تعلموا) ، كأنه قال ألم تعلموا تفريطكم في يوسف .

الثاني – رفع بالابتداء والخبر (من قبل) .

الثالث – ان تكون صلة لا موضع لها من الاعراب ، لأنها لم تقع موقع اسم معرب .

وقوله « فلن ابرح الارض حتى يأذن لي أبي » لست أقوم من موضعي الا أن «يأذن لي ابي او يحكم الله» اي الى ان يحكم الله. وقيل معناه بمجازاة أو غيرهما مما أردّ به أخي ابن يامين على ابيه ، وكانوا تناجوا بمحاربته فلم يتفقوا على ذلك خوفاً من غمّ أبيهم بأن يقتل بعضهم في الحرب وقوله « وهو خير الحاكمين » اخبار من هذا القائل بأنه تعالى خير الحاكمين والفاصلين ، واعتراف منه برد الامر الى الله تعالى .

قوله تعالى :

(إرْجعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنّْ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ) (٨١) آية بلا خلاف .

وهذا اخبار من الله تعالى بما قال احدهم المتخلف عنهم بمصر ، فانه قال لاخوته الباقين ارجعوا الى ابيكم . ويحتمل ان يكون حكاية عما قال اخوة يوسف بعضهم لبعض ، فانهم قالوا ارجعوا الى ابيكم .

وقوله « يا ابانا ان ابنك سرق » يعنون ابن يامين، على ما ظهر لنا من الامر ولا نشهد الا بما علمنا من الظاهر ، فأما الغيب والباطن فلا نعلمه ولا نحفظه . وقيل ما شهدنا إلا بما علمنا في قولنا لهم إن من يسرق يستعبد ، لأن ذلك متقرر عندنا في شرعنا - ذكره ابن زيد - والشهادة خبر عن مشاهدة أو اقرار او حال

ويجوز أن يشهد الانسان بما علمه من جهة الدليل كشهادتنا بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وقال الرماني : علم الغيب هو علم من لو شاهد الشيء لشاهده بنفسه لا بأمر يستفيده . والعالم بهذا المعنى هو الله وحده تعالى .

وقيل في معنى قوله « وما كنا للغيب حافظين » قولان :

احدهما - ما كنا نشعر ان ابنك سيسرق ، في قول الحسن ومجاهد وقتادة .

والثاني - انا لا ندري باطن الامر في السرقة ، وهو الاقوى . وروي عن ابن عباس وقراءة الكسائي في رواية قتيبة عنه «سرّق» بتشديد الراء على ما لم يسم فاعله ، ومعناه انه قذف بالسرقة ، واختار الجبائي هذه القراءة . قال لأنها ابعد من ان يكونوا اخبروا بما لم يعلموا .

قوله تعالى :

(وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) (٨٢) آية بلا خلاف.

هذا حكاية ما قال اخوة يوسف ليعقوب ابيهم حين رجعوا اليه وحكوا له ما جرى ، فقالوا له سل أهل القرية التي كنا فيها ، واهل العير التي اقبلنا فيها عمّا أخبرناك به « وانا لصادقون » فيما اخبرناك به ، وحذف المضاف الذي هو الاصل ، واقام المضاف اليه - من القرية والعير - مقامه اختصاراً لدلالة الكلام عليه. والمراد بالقرية - ههنا - مصر ، في قول ابن عباس والحسن وقتادة . وكل أرض جامعة لمساكن كثيرة بحدود فاصلة تسمى - في اللغة - قرية ، وأصلها من قريت الماء اي جمعته ، والقرية والبلدة والمدينة نظائر في اللغة. وانما ارادوا بذلك أن من سألت من اهلها أخبروك بما ظهر في هذه القصة . وانا ما كذبناك .

قوله تعالى

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ) (٨٣) آية بلا خلاف.

هذا حكاية ما قال يعقوب لبنيه حين قالوا له ما تقدم ذكره، فإنه قال « بل سولت لكم انفسكم » وقال قتادة معناه بل زيّنت . وقال غيره : معناه سهّلت . والتسويل حديث النفس بما تطمع فيه ، ومنه السؤل ، والمنى ، ويقال اعطاك الله سؤلك، فكأنه قال هـــذا من تقدير النفس فيما تطمع ان يكون . ثم اخبر يعقوب ، فقال « صبر جميل » اي شأني او أمري صبر جميل، فعلى هذا يكون واقع بأنه خبر الابتداء . ويجوز ان يكون ابتداء ، وخبره محذوف ، وتقديره فصبر جميل امثل من غيره، والصبر حبس النفس عما تنازع اليه ممـا لا يجوز . والصابر على هذا الوجه من صفات المدح ، والجميل معناه — ههنا — مـا يتقبله العقل ، وقد يسمى ما يتقبله الطبع بأنه جميل .

وقوله «عسى الله ان يأتيني بهم جميعاً» يعني روبيل وابن يامين ويوسف «انه هو العليم الحكيم » معناه - ههنا - انه عليم بحسرتي على فقد اولادي وصدق ما يقولونه من كذبه ، انه الحكيم في تدبيره بخلقه ، عسى ان يأتيني بهم اجمع .

قوله تعالى :

(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) (٨٤) آية بلا خلاف .

اخبرالله تعالى عن يعقوب أنه تولى عنهم بعد ان قال لهم ما تقدم ذكره بمعنى أعرض بوجهه عنهم ، والتولي والاعراض بمعنى واحد «وقال يا أسفى على يوسف»

اي يا حسرتاه، في قول الحسن وقتادة والضحاك . وانما نادى بالاسف على وجه البيان، لان الحال حال حزن كأنه قال : يا اسف احضر ، فـانه من احيانك واوقاتك ، ومثله (واحزناه) . والاسف الحزن على ما فات . وقيل : هو أشد الحزن يقال : أسف يأسف أسفاً وتأسف تأسفاً ، وهو متأسف .

وقوله «ابيضت عيناه» فالإبيضاض انقلاب الشيء الى حال البياض. والمعنى انه عمي فلم يبصر شيئاً . والعين حاسة الادراك للمرئيات. والحزن الغم الشديد، وهو من الحزن، وهي الارض الغليظة، والكظيم هو الممسك للحزن في قلبه لا يبثه بما لا يجوز الى غيره ، ومنه قوله « والكاظمين الغيظ»[1] اي لا يتسرع بموجبه الى غيره . وقيل كظيم على الحزن لم يقل يا اسفاه – في قول مجاهد والضحاك ، والحسن – وقيل كظيم بالغيظ على نفسه ، لم ارسله مع إخوته – في قول السدي والجبائي .

قوله تعالى :

(قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ) (٨٥) آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما قال بنو يعقوب لأبيهم حين رأوه حزيناً « تالله تفتؤ تذكر » معناه لا تزال تذكر، في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي، يقال فتىء يفتؤ فتئاً وفتوءاً ، وقال اوس بن حجر :

فما فتئت خيل تثوب وتدعي ويلحق منها لاحق وتقطع[2]

اي فما زالت ، وحذفت (لا) من تفتأ ، لانـه جواب القسم بمعنى نفي

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٤ .
(٢) ديوانه ٥٨ ومجاز القرآن ١ / ٣١٦ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٥٠ ،

المستقبل، لانه لو كان اثباتاً لم يكن بد من اللام والنون، فجاز لما فيه من الايجاز من غير إلتباس ، كما قال امرؤ القيس :

فقلت يمين الله ابرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك واوصالي(١)

والحرض ذو المرض والبلى – في قول ابن عباس ومجاهد – وقال الحسن وقتادة: معناه حتى تكون ذا الهرم او تكون من الميتين . واصل الحرض فساد الفعل والجسم للحزن والحب ، قال العرجي :

اني امرؤ لج بي حب فاحرضني حتى بليت وحتى شفني السقم(٢)

ورجل محرض اذا كان مريضاً قال امرؤ القيس :

ارى المرء ذا الأذواد يصبح محرضا كإحراض بكر في الديار مريض(٣)

ولا يثنى حرض ولا يجمع لانه مصدر، يقال : حرضه على فلان اي أفسده عليه بما يغريه، وإنما قالوا هذا القول إشفاقاً عليه وكفاً له عن البكاء اي لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك الى مرض لا تنتفع بنفسك معه ، لانه كان قد أشفى على ذهاب بصره وفساد جسمه، او تموت بالغم .

والهلاك ذهاب الشيء بحيث لا يدري الطالب له اين هو ، فالميت هالك لهذا المعنى .

قوله تعالى :

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (٨٦) آية بلا خلاف.

---

(١) ديوانه ١٦١ وقد مر في ٢ / ٢٢٧ ، ٣ / ٢١٦ .

(٢) مجاز القرآن ١ / ٣١٦ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٥١ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ / ٢٥ .

(٣) ديوانه ١٢٩ ونفسير القرطبي ٩ / ٢٥١ والطبري ١٣ / ٢٥ .

هذا حكاية ما أجاب به يعقوب بنيه لماقالوا له ما تقدم ذكره، أي انما أشكو، والشكوى صفة ما يجده من البلوى ، وانما وصف (ع) ذلك لله طلباً للفرج من جهته ، والبث تفريق الهمّ باظهاره عن القلب ، يقال : بثه مـا في نفسه بثاً وأبثه إبثاثاً ، وبث الخيل على العدو : إذا فرقها عليه . وقال ابن عباس معنى (بثي) همي .

وقوله « واعلم من الله ما لا تعلمون » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال ابن عباس : اعلم ان رؤيا يوسف صادقة واني ساجد له .

والثاني ـ قال قتادة : أعلم من احسان الله (عزّ وجل) الي ما يوجب حسن ظني به ، وانما جاز على يعقوب وهو نبي ، ان يبكي حتى تبيض عيناه من الحزن، لان عظم المصيبة يهجم على النفس حتى لا يملك معه القرار بالصبر حتى يرتفع الحزن،مع انه على ولد لا كالأولاد، في جماله، وعقله، وعفافه، وعلمه، وأخلاقه، وبره ، من غير تأس يوجب السلوة ، ولا رجاء يقرب الحال الجامعة ، ومع هذا فلم يكن منه الا ما يوجب الاجر العظيم والثواب الجزيل الكريم ، والبكاء ليس بممنوع منه في الشرع ، وانما الممنوع اللطم، والخدش ، والجز ، وتخريق الثياب، والقول الذي لا يسوغ ، وكل ذلك لم يكن منه (ع) وإنما جاز أن يخفى خـبر يوسف على يعقوب مع قرب المسافة بينهما ، لأن يوسف كان بمصر ويعقوب بأرض الجزيرة من أرض حران ، ولم يعرف يوسف أباه مكانه ليزول همه ، لانه في تلك المدة كان بين شغل وحجر على ما توجبه سياسة الملك ، وبين حبس في السجن ، لانه مكث فيه سبع سنين لما محن به من امرأة العزيز ، فلمـا تمكن من التدبير تلطف في ذلك لئلا يكون من أخوته حال تكره في ايصال خبره الى أبيه لشدة ما ينالهم من التهجين في أمره إذا وقف على خبره .

وانما جاز ان يستخرج الصواع من رحل أخيه مع ايجاب التهمة في ذلك عند الناس ، وغمّ أبيه وأخيه خاصة وسائر اخوته عامة لوجوه :

احدها ـ انه كان ذلك بمواطأة اخيه على ذلك بما يسر في باطنه .

ومنها انه ليس لاحد اتهامه بالسرقة مع امكان جعله في رحله بما لا صنع له فيه .

ومنها اغمام أبيه بالأمر اليسير ليزيل عنه الغم العظيم، وتأتيه البشرى بسلامتهما على أجمل حال يتمنى لهما ، وذلك يحسن ولا يقبح .

قوله تعالى :

﴿ يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْئَسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِنَّهُ لَا يَايْئَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ (٨٧) آية بلا خلاف .

هذا إخبار عما قال يعقوب لبنيه بعد ان قال ما تقدم ذكره « يا بني اذهبوا فتحسسوا» والتحسس طلب الشيء بالحاسة فاما طلبه بالدعاء الى فعله، فلا يسمى تحسساً ، والتحسس والتجسس بالحاء والجيم بمعنى واحد .

« ولا تيأسوا من روح الله » اي لا تقطعوا رجاءكم منه . والروح والفرج نظائر ، وهو رفع ترح بلذة ، مأخوذ من الريح التي تأتي بما فيه اللذة .

وقوله « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » اخبار منه بأن الذي يائس من رحمة الله الكافرون، وذلك يدل على ان الفاسق الملّي لا ييأس منه ، بخلاف ما يقوله اهل الوعيد ، وقد أجاب عن ذلك اهل الوعيد بجوابين:

احدهما - ان ذلك على وجه التغليب ، فيدخل فيه الفاسق في الجملة .

والثاني - أنه لا ييأس في حال التكليف إلا الكافر الذي لا يعرف الله تعالى، فاما من يعرف الله فانه لا ييأس منه ، لانه يسوّف التوبة.

قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ

وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ) (٨٨) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى ان اخوة يوسف لما قال لهم يعقوب « اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه » رجعوا الى يوسف ودخلوا عليه ، وقالوا له «يا ايها العزيز » لانهم كانوا يسمون الملك العزيز . والعزيز في اللغة هو الواسع المقدور الذي لا يهتضم المنيع بسعة مقدوره « مسنا وأهلنا الضر » أي اصابنا الضر ، والمس ملابسة ما يحس ، ولما كان الضر بمنزلة الملامس لهم ، وهو مما يحس، عبر عنه بأنه مسّه . والاهل : خاصة الشيء الذي ينسب اليه ، ومنه قوله « ان ابني من أهلي »[(١)] وتسمى زوجة الرجل بأنها أهله وكذلك اهل البلد واهل الدار ، وهم خاصته الذين ينسبون اليه .

وقوله «وجئنا ببضاعة مزجاة » قيل في معنى المزجاة ثلاثة اقوال :

احدها – قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير : إنها ردية لا تؤخذ الا بوكس . وقال الحسن ومجاهد وابراهيم وقتادة وابن زيد : إنها قليلة. وقال الضحاك: هي كاسدة غير نافعة . وروي انه كان معهم متاع البادية من الصوف والشعر والسمن والحبال البالية وغير ذلك . وأصلها القلة قال الاعشى :

الواهب المئة الهجان وعبدها عوذاً يزجّي خلفها اطفالها[(٢)]

اي يسوقهم قليلاً قليلاً ، وقال النابغة :

وهبت الريح من تلقاءذى أرل تزجي مع الليل من صر ّادهاصرما[(٣)]

يعنى تسوق ، وتدفع ، وقال آخر :

(١) سورة هود آية ٤٥
(٢) ديوانه ١٥٢ (دار بيروت) وتفسير الطبري ١٣: ٢٩
(٣) ديوانه ١٠٢ واللسان (صرم) . ومجمع البيان ٣ : ٢٥٩

وحاجة غير مزجاة من الحاج[١]

وقيل الاصل الدفع بالسوق فهي مدفعه لا تنفق .

وقوله « فاوف لنا الكيل » اي لا تنقصنا من كيلنا لنقصان بضاعتنا ، وتصدق علينا . وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال سعيد بن جبير : سألوا التفضل بترك النقصان من السعر ، لان الصدقة ما كانت تحل لهم. وقال سفيان بن عيينة . إنهم سألوا الصدقة وهم أنبياء وكانت حلالا لهم ، وكان مجاهد يكره ان يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علي ، لان الصدقة ممن يبتغي الثواب . والصدقة العطية للفقراء ابتغاء الاجر ، ولهذا يطلق ، فيقال : «إن الله يجزي المتصدقين» و «لا يضيع أجر المحسنين»[٢] من العباد ، والمعنى انه يثيبهم على ذلك .

قوله تعالى :

(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

(٨٩) آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما أجاب به يوسف إخوته حين سألوه التصدق عليهم وايفاء كيلهم ، فرقّ لهم ، وقال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وإخيه؟ ! على وجه التوبيخ لهم والتذكير لهم بما فعلوه من إلقائه في الجب بعد ان كانوا عزموا على قتله ثم بيعهم إياه عبداً للتاجر الذي حمله الى مصر ، وفعلوا بأخيه ما عرضوه به للغم بأن أفردوه عن أخيه لأبيه وامه مع جفائهم له حتى كان لاذلالهم إياه لا يمكنه ان يكلم احداً منهم الا كلام الذليل للعزيز ، فعاملوه هذه المعاملة ، وسلكوا في امره هذه الطريقة . ومعنى قوله « اذ انتم جاهلون » انكم فعلتم ذلك في حال

---

(١) اللسان (زجا) ومجاز القرآن ١ : ٣١٧

(٢) سورة التوبة آية ١٢١ وسورة هود آية ١١٦ وسورة يوسف آية ٩٠

كنتم فيها جاهلين جهالة الصبي لاجهالة المعاصي ، وذلك يقتضي انهم الآن على خلافه ، ولولا ذلك لقال وأنتم جاهلون . وانما وبخو بحال قد أقلعوا عنها وتابوا منها على وجه التذكير وليتنبهوا على حال من يخاطبهم ويعرفوه بهـا ، لا ان تلك الحال ذكرت بطريق التقبيح لها . وقال السدي وابن اسحاق إن يوسف لما قالوا له ما قالوا أدركته الرقة ، فدمعت عينه وباح لهم بما كان يكتمه مـن شأنه وشأنهم .

قوله تعالى :

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَـإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) (٩٠) آية بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وابو جعفر «انك» بهمزة واحدة على الخبر . الباقون بهمزتين ، وحققهما ابن عامر، وأهل الكوفة، وروح، إلا ان الحلواني عن هشام فصل بينهما بألف. الباقون يخففون الأولى ويلينون الثانية. وفصل بينهما بألف نافع إلا ورشاً وابو عمرو . قال ابو علي : الاجود الاستفهام لقوله «قال انا يوسف» وهذا جواب الاستفهام، ومن قرأ على الخبر أراد الاستفهام ، وحذف حرف الاستفهام كما حكى ابو الحسن في قوله « وتلك نعمة تمنهـا علي »[1] ومعناه اي تلك نعمة ، وحذف حرف الاستفهام .

هذا حكاية ما قال اخوة يوسف له حين قال لهم « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه » فانهم قالوا حينئذ له «أئنك لانت يوسف » على وجه الاستفهام له، فانهم تنبهوا واستيقظوا غير انهم لم يقطعوا به ، فاستفهموه .

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٢ .

وقال الزجاج يجوز في «أئنك» اربعة اوجه في العربية :

تحقيق الهمزتين ، وهو مذهب اهل الكوفة واهل الشام .

الثاني – ادخال الألف بين الهمزتين (آإنك) وهو مذهب هشام ابن عمار عن ابن عامر .

الثالث – تليين الثانية بان يجعل بين بين أينك، وهو مذهب أبي عمرو، وابن كثير ونافع .

الرابع – بهمزة واحدة على الخبر .

فقال يوسف مجيباً لهم «أنا يوسف وهذا أخي» يعني ابن يامين – من أبي وأمي «قد منّ الله علينا» أي انعم علينا بنعمة قطعتنا عن حال الشدّة يقال: منّ الله عليه يمن منّاً ، واصله القطع من قوله «لهم اجر غير ممنون»[1] أي غير مقطوع ، ومنه منّ عليه في الصنيعة اذا ذكرها بما يجري مجرى التعيير بها، لانه قاطع عن شكرها. والمنون الموت، لانه يقطع عن تصرف الاحياء. ثم أخبر يوسف فقال إنه من يتق الله باجتناب معاصيه، وفعل طاعاته ويصبر على بليته ويتجرع مرارة المنع، لما يشتهي من الأمر «فان الله لا يضيع اجر المحسنين» اي لا يذهب بثوابهم. والاضاعة هو الاهلاك وهو إذهاب الشيء بحيث لا يدري الطالب له اين هو. والأجر ما يستحق على العمل الصالح من الثواب، ومنه الاجارة. وتقول: آجره الله يآجره أجراً ، والاحسان فعل حسن يستحق به الحمد .

وحكى ابن كثير انه قرأ «من يتقي» بالياء في الوصل . والوجه فيه ان يجعل (من) بمعنى (الذي) فيكون (يتقي) في موضع رفع، ويكون قوله «ويصبر» حذف الحركة استخفافاً ، او جملة على الموضع ، كما قال «فاصدق واكن من»[2] ولا يجوز ان يكون مثل قول الشاعر :

---

(١) سورة حم السجدة آية ٨ وسورة الانشقاق آية ٢٥ وسورة التين آية ٦ .

(٢) سورة المنافقون آية ١٠ .

ألم يأتيك ، والابناء تنمي[١]

لان ذلك يجوز في الشعر ، والاجود قول من قرأ بحذف الياء .

قوله تعالى :

(قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ) (٩١)

آية بلا خلاف .

هذا حكاية عما قال إخوة يوسف حين سمعوا اعتراف يوسف بأنه يوسف ، وان أخاهم الذي احتبسه أخوه ، وان الله منّ عليهم بذلك ، فقالوا له عند ذلك «تالله» على وجه القسم «لقد آثرك الله علينا» اي فضلك الله علينا . والايثار إرادة التفضيل ، لاحد الشيئين على الآخر ومثله الاختيار ، ويقال : آثرت له ، وآثرت عليه ضده . وأصل الايثار الأثر الجميل ، فيما يؤثر على غيره بمنزلة ما له أثر جميل والآثار الاخبار ، لانها إخبار عن أثر ما تقدم في أمر الدين والدنيا . وقوله «وان كنا لخاطئين» اعتراف منهم بأنهم كانوا خاطئين . وقال قوم : إنهم كانوا صبياناً وقت ما فعلوا بأخيهم ما فعلوا وسموا أنفسهم «خاطئين» اي ابتداء فعلهم كان وهم صبيان . ثم بلغوا مقيمين على كتمان الأمر عن ابيهم موهمين له ما كانوا اخبروه به من شأنهم ، فالايهام معصية لا تبلغ تلك المنزلة . والخطيئة ازالة الشيء عن جهته الى ما لا يصلح فيه ، يقال خطىء يخطأ فهو خاطىء مثل أثم إثماً فهو آثم . و (خطىء) اذا تعمد الخطأ و (أخطأ) إذا لم يتعمد الخطأ كمن رمى شيئاً فأصاب غير ما أراد .

قوله تعالى :

(قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ

---

(١) قائلة قيس بن زهير العبسي . اللسان (اتى) وعجزه :
بما لاقت لبون بني زياد

ٱلرَّحِمِينَ) (٩٢) آية بلا خلاف .

هذا اخبار من الله تعالى عما قال يوسف لأخوته حين اعترفوا بأن الله فضله عليهم، وانهم خطئوا فيما فعلوه، بأن قال «لا تثريب عليكم اليوم» ومعناه لا بأس عليكم بما سلف له منكم ، والتثريب تعليق الضرر بصاحبه من اجل جرم كان منه . وقال سفيان : معنى لا تثريب لا تعيير . وقيل : معناه لا تخليط بعائده مكروه . وقيل : معناه لا تثريب مكروه بتوبيخ ، ولا غيره .

وقوله « يغفر الله لكم » معناه يستر الله عليكم خطيئاتكم ولا يعاقبكم عليها ، وهو ارحم الراحمين ، فالرحمة النعمة على المحتاج ، ومن الرحمة مـا هو واجب وفيها ما ليس بواجب، فالواجبة ما لا يجوز الاحلال بها، وان كان سببها تفضلاً، كالثواب الذي سببه التكليف ، وهو تفضل .

وقيل : في معنى قوله « يغفر الله لكم » قولان :

احدهما – انه دعا لهم بالمغفرة ، ويكون الوقف عند قوله « لا تثريب عليكم اليوم» ثم ابتدأ، فقال «يغفر الله» وقد وقف بعضهم عند قوله «عليكم» والأول أجود .

الثاني – لما كان ظلمهم له معلقاً باحلاله أباهم منه حسن هذا القول ، لان الله هو الآخذ له بحقه إلا ان يصفح .

قوله تعالى :

(إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) (٩٣) آية بلا خلاف .

هذا اخبار من الله تعالى بأن يوسف أعطى اخوته قميصه . وقال : احملوه إلى أبي يعقوب واطرحوه على وجهه ، فـإنه يرجع بصيراً ، ويزول عنه العمى

وذلــك معجز دال على نبوته ، لانه ـ على قول المفسرين كالحسن والسدي وغيرهما ـ كان قد عمي ، ولولا ان الله أعلمه انه يرجع اليه بصره لما أرسله اليه ، وانما حمل اليه القميص ، لان الله تعالى كان جعله علامة له إذا شمه شم منه رائحة يوسف ، وبشارة له قبل لقائه .

وقوله « وأتوني بأهلكم اجمعين » ، معناه احملوا أهاليكم أجمع الى عندي وجيؤني بهم .

قوله تعالى :

(وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) (٩٤) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية انه حين انصرفت العير من عند يوسف . قال : لهم أبوهم يعقوب اني لأجد ريح يوسف اي إني احس برائحته . وقال ابن عباس جاءت الريح برائحة يوسف من ثماني ليال . وقال الحسن من مسيرة شهر . وقيل إنه كان بينهم ثمانين فرسخاً ، لأن يعقوب كان بوادي كنعان من ارض فلسطين . وقيل إنه كان بأرض الجزيرة ، ويوسف بمصر .

والفصل القطع بحاجز بين الشيئين . ونقيضه الوصل ، ومثله الفرق . والعير قافلة الحمير ، وان كان فيها الجمال ، وكل جماعة خرجت من بلد الى بلد ، فهم قافلة .

وقوله « لولا ان تفندون » قال ابن عباس : معناه لولا ان تسفهون . وقال الحسن ومجاهد : لولا ان تهرمون . وقال ابن اسحاق : معناه تضعفون . وقال الضحاك معناه تكذبون .

وانما قال يعقوب هذا القول لمن حضره من أهله وقرابته دون ولده ، لانهم

كانوا غيّباً عنه لم يصلوا إليه . والتفنيد في اللغة هو تضعيف الرأي يقال فنده تفنيداً إذا نسبه الى ضعف الرأي ، قال الشاعر :

يا صاحبي دعا لومي وتفنيدي فليس ما فات من امر بمردود[١]

وفنده الدهر اي أفسده ، وقال ابن مقبل :

دع الدهر يفعل ما يشاء فانه اذا كلف الانسان بالدهر افندا[٢]

وروي (إذا كلف الافناد بالناس فندا) .

قوله تعالى :

(قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) (٩٥) آية بلا خلاف.

هذا حكاية ما اجاب به من خاطبه يعقوب من اهله «اني لاجد ريح يوسف» فانهم قالوا له « تالله انك لفي ضلالك القديم » والضلال هو الذهاب عن جهة الصواب فيه ، وانما قالوا لنبي الله « انك لفي ضلالك القديم » لانهم قالوا كلمة غليظة لم يجز أن يقولوها لنبي الله، فحق الأمر فيها أنهم قالوها اشفاقاً عليه من شدة محبته ليوسف - في قول قتادة- وقال الحسن كان عندهم ان يوسف مات ، فكان في لهوجه في تذكره ذاهباً عن الصواب في امره، والقديم في اللغة هو كل شيء متقدم الوجود ، وفي عرف المتكلمين عبارة عن الموجود لم يزل ، وانما جعلوا الضلال قديما على وجه المبالغة في الصفة ومثله «كالعرجون القديم»[٣] ويقال بناء قديم ، ولا يجوز قياساً على ذلك ان يقال: هذا جسم قديم، لما فيه من الايهام.

قوله تعالى :

(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ

---

(١) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ : ٣٤ ومجاز القرآن ١ : ٣١٨

(٢) تفسير القرطبي ٩ : ٢٦١ والطبري ١٣ : ٣٤

(٣) سورة يس آية ٣٩

أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (٩٦) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى إنه لما جاء المبشر بيوسف الى يعقوب ألقى القميص على وجهه فرجع بصيراً. والبشير الذي يأتي بالبشارة العظيمة. وجاء على لفظ (فعيل) لما فيه من المبالغة يقال بشره تبشيراً ، ومعنى أبشرته : قلت له : استبشر ، كقوله « وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون »[1] وقال الحسن ، ومجاهد ، والضحاك : كان البشير يهوذ بن يعقوب ، والإلقاء إيقاع الشيء على الشيء ، ويكون بمعنى ايجاد الشيء .

وقوله « فارتد بصيراً » فالارتداد انقلاب الشيء الى حال ، قد كان عليها ، وهو والرجوع بمعنى واحد . والبصير من كان على صفة يجب لاجلها ان يبصر المبصرات إذا وجدت ، و(ان) بعد قوله « فلما » زائدة للتوكيد ، كما قال « ولما ان جاءت رسلنا »[2] ولا موضع لها من الاعراب وهي تزاد مع (لما) و (حتى) على وجه الصلة تأكيداً ، تقول : قد كان ذاك حتى كان كذا وكذا ، وحتى ان كان كذا .

وقوله «اني اعلم من الله ما لا تعلمون » ..قيل في معناه قولان :

احدهما– إني اعلم من صحة رؤيا يوسف، وإن تأويلها سيكون على ما رأى « ما لا تعلمون » من تأويل الرؤيا .

والثاني– «اني اعلم» من بلوى الانبياء بالشدائد والمحن التي يصيرون منهـا الى وقت الفرج « ما لا تعلمون » ، ذكره الجبائي .

قوله تعالى :

(قَالُوا يَا أَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) (٩٧) آية بلا خلاف .

---

(١) سورة حم السجدة آية ٣٠ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٣٣ .

في الكلام حذف، لان تقديره إن اخوة يوسف وصلوا إلى أبيهم بعد ان جاء البشير وألقوا قميصه على وجهه ورد الله بصره عليه ، فلما رأوه قالوا له «يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا » أي سل الله تعالى ان يستر علينا ذنوبنا ، ولا يعاقبنا عليها ، فانّا « كنّا خاطئين» فيما فعلناه بيوسف .

ومتى قيل: كيف سألوه الاستغفار مع انهم كانوا تابوا والتوبة تسقط العقاب ؟

قلنا أما على مذهبنا فلان التوبة لا تسقط العقاب وجوباً ، وانما يسقطه الله تعالى عندها تفضلا. وأما على مذهب مخالفنا ، فانهم سألوه ذلك ، لأجل المظلمة المتعلقة بصفح المظلوم، وسؤال صاحبه انلا يأخذ بظلمه، لابد انه توبة خاصة منه ووجه آخر ، وهو ان يبلغه منزلة بدعائه يصير بمنزلة عالية لمكان سؤاله .

قوله تعالى :

(قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ) (٩٨)

آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما أجاب به يعقوب حين قالوا له «استغفر لنا ذنوبنا» فانه قال في جواب ذلك سوف استغفر لكم ربي ، والمعنى إني أفعل ذلك في المستقبل ، ولم يستغفر لهم في الحال .

وروي عن ابي جعفر (ع) انه قال : أخرّهم الى ليلة الجمعة .

وقال ابن مسعود وابراهيم التيمي ، وابن جريج وعمرو بن قيس: انه اخرهم الى السحر، لانه اقرب الى اجابة الدعاء. وقال الجبائي : وجه ذلك أنهم سألوه ان يستغفر لهم دائماً في دعائه ، فوعدهم بذلك في المستقبل .

وقوله « انه هو الغفور الرحيم » اخبار من يعقوب واعتراف منه بأن الله هو الذي يستر على عباده معاصيهم، ويعفو لهم عن عقابها رحمة منه بعباده ورأفة منه بخلقه .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) (٩٩) آية بلا خلاف .

في الكلام حذف ، لان تقديره ان يعقوب وبنيه واهلهم رحلوا الى يوسف ، فلما وصلوا اليه ودخلوا عليه . « آوى اليه أبويه » يعني أباه يعقوب وأمه ،فثني على لفظ الاب تغليبا للذكر على الانثى ، ولم يثن على لفظ الأم ، كما غلب المفرد على المضـــاف في قولهم : سنة العمرين . ومثله قوله « وورثه ابواه »[1] يعني أباه وامه .

قال الحسن وابن اسحاق والجبائي : كانت امه بحق ، وقال السدي كانت امه ماتت وتزوج يعقوب اختها ،وهي خالة يوسف ، فاقامها مقام الأم ،والاول حقيقة والثاني مجاز . والايواء ضم القريب بالمحبة لصـــاحبه كضم المأوى يجمع شمله ، وانما قال لهم « ادخلوا مصر » بعد دخولهم عليه ، لامرين :

احدهما ــ قال السدي وفرقد السجي : ان يوسف خرج يستقبل يعقوب وخرج معه أهل البلد ، فلما رجع قال « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

وقال آخرون أراد « ادخلوا مصر » مقيمين « ان شاء الله آمنين » والمشيئة هي الارادة ، والأمن سكون النفس الى الامر والخوف انزعـــاج النفس من الأمر . والامن التام الأمن من كل جهة ، فاما الأمن من جهة دون جهة ، فهو أمن ناقص .

وفي الناس من قال : انَّ قوله « ان شاء الله » متعلق بقوله «سأستغفر لكم» ان شاء الله،لانه كان قاطعاً على انهم يدخلون مصر آمين ، وليس يحتاج الى ذلك لانه مطابق لقوله « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غـداً الا ان يشاء الله » .[2]

---

(١) سورة النساء آية ١١
(٢) سورة الكهف آية ٢٣

قوله تعالى :

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (١٠٠) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن يوسف انه حين حضر عنده أبواه وأخوته ، ورفع أبويه على العرش ، والرفع النقل الى جهة العلو . ومثله الاعلاء والاصعاد ، وضده الوضع ، والعرش السرير الرفيع وأصله الرفع من قوله «خاوية على عروشها»[١] اي على ما ارتفع من أبنيتها ، وعرّش الكرم إذا رفعه ، وعمل عريشاً اذا عمل مجلساً رفيعاً . وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتاده : العرش السرير . وقوله «وخرّوا له سجداً» معناه انحطوا على وجوههم والخرّ الانحطاط على الوجه ، ومنه «خرّ من السماء فتخطفه الطير»[٢] والسجود في الشرع خضوع بوضع الوجه على الارض وأصله الذل ، كما قال الشاعر :

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر[٣]

وقيل في وجه سجودهم قولان :

قال قوم : إن الهاء في قوله «له» راجعة الى الله ، فكأنه قال فخروا لله سجداً شكراً على ما أنعم به عليهم من الاجتماع .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٩ والكهف ٤٣ والحج ٤٥

(٢) سورة الحج آية ٣١

(٣) مر هذا البيت في ١ : ١٨ ، ٢٦٣ ، ٣١١ و ٤ : ٢٣٣ ، ٣٨٣

الثاني . انهم سجدوا الى جهة يوسف على وجه القربة الى الله ، كما يسجد الى الكعبة على وجه القربة الى الله .

وقيل انه كانت تحية الملوك السجود ، قال اعشى بني ثعلبة :

فلما اتانا بعيد الكرى سجدنا له ورفعنا العمارا[1]

وقوله « يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل » حكاية ما قال يوسف لأبيه بأن هـذا تفسير رؤياي من قبل وما تؤول اليه ، وهو ما ذكره في أول السورة « اني رأيت أحد عشر كوكباً » يعني أخـوته « والشمس والقمر » يعني أبويه سجدوا له ، كما رآه في المنام .

والرؤيا تصور ما يتوهم انه يرى لغمـور النوم ، ومتى قيل إذا كانت رؤيا الانبياء لا تكون الاصادقة ، فهلا تسلى يعقوب بأن تأويل الرؤيا سيكون ؟

قلنا عنه جوابان :

احدهما - انه قيل : انه رآها وهو صبيّ فلذلك لم يثق بها .

والآخر - ان طول الغيبة مع شدة المحنة يوجب الحزن كما يوجبه مع الثقة بالالتقاء في الآخرة .

« وقد احسن بي اذ أخرجني من السجن » بأن لطف وسهل اليَّ الخروج منه « وجاء بكم مـن البدو » اي اتى بكم من أرض فلسطين ، لأن مسكن يعقوب وولده فيما ذكر كان هناك . والبدو : البرية العظيمة مأخوذ من بدا يبدوا بدوّاً . ويقال : بدو ، وحضر .

وقوله « من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي » والنزغ التحريش بين الاثنين ، وهو مس بسوء يغضب ، ومنه قوله « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله »[2]

وقوله « ان ربي لطيف لما يشاء» معنا لطيف التدبير ، واللطف ما يدعو إلى

---

(١) ديوانه ٨٣ (دار بيروت) وروايته (عمارا) .

(٢) سورة الاعراف آية ١٩٩ وحم السجدة آية ٣٦ .

فعل الواجب ويصرف عن القبيح . وقال الحسن : كان بين الرؤيا وتأويلها ثمانين سنة . وقال سلمان ، وعبدالله بن سداد : كانت أربعين سنة . وقال ابن اسحاق : ثماني عشرة سنة .

وقوله « انه هو العليم الحكيم » معناه إنه تعالى عالم بأحوال الخلق ، وما يصلحهم وما يفسدهم « حكيم » في افعاله لا يضع الشيء الا في موضعه .

وقال بعضهم : غاب يوسف عن أبيه وله سبع عشرة سنة ، وبقي بعد الاجتماع معهم في الملك ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات ، وله مئة وعشرون سنة .

قوله تعالى :

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) (١٠١) آية بلا خلاف.

هذا حكاية ما قال يوسف حين اجتمع مع أبويه وأخوته وأهل بيته ، وانه قال يا « رب آتيتني من الملك » وحذف حرف النداء للدلالة عليه . وعلى وجه الاعتراف بأنواع نعمة الله عليه ، وان من جملتها أنه اعطاه الملك والسياسة والتدبير بين الخلق ، وأنه مع ذلك علمه ، وفهمه أنواع العلوم ، ونصب له الدلالة على علوم كثيرة . وقد يقال : علمه تعليماً إذا بين له الدليل المفضي الى العلم . والاعلام هو إيجاب العلم بايجاده والتعريض له . والمعنى فهمتني تأويل الاحاديث التي تؤدي الى العلم بما احتاج إليه . والاحاديث الاخبار عن حوادث الزمان .

وقوله « فاطر السموات والارض » فالفطر الشق عن أمر باختراعه عند انشقاقه ، ففطر السموات والارض : اختراعهما بما هو كائن كالشق عما يظهر فيه . ومنه تفطر الشجر بالورق . ونصبه يحتمل أمرين :

احدهما ـ أن يكون صفة لقوله «رب قد آتيتني من الملك» لانه مضاف، كما يقال: يقول يا زيد ذي الجمة.

والثاني ـ ان يكون على النداء بتقدير يا فاطر.

وقوله «أنت وليّي» أي ناصري، والولي النصير بما يتولى من المعاونة، فاذا وصف تعالى بانه وليّ المؤمن، فلانه ينصره بما يتولى من معونته وحياطته. واذا وصف المؤمن بأنه ولي الله، فلان الله ينصره بمعونته، فتجري الصفة على هذا المعنى.

وقوله «توفني مسلما» معناه اقبضني اليك إذا امتني وأنا مسلم اي الطف لي بما أموت معه على الاسلام «والحقني بالصالحين» من آبائي اسحاق وابراهيم اي اجعلني من جملتهم.

و(من) في قوله «من الملك» وقوله «من تأويل الاحاديث» دخلتا للتبعيض لأنه لم يؤته الله جميع الملك، ولا علمه جميع الاشياء، ويحتمل ان تكون دخلت لتبيين الصفة، كما قال «اجتنبوا الرجس من الاوثان»[1]

قوله تعالى:

(ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) (١٠٢) آية بلا خلاف.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ انه قال له «ذلك» يعني الذي أخبرناك به من أخبار ما يعظم شأنه، لأن الأنباء هي الاخبار بما له شأن. ومنه قولهم: لهذا نبأ اي شأن عظيم. و(الغيب) ذهاب الشيء عن الحس، ومنه «عالم الغيب والشهادة»[2] اي عالم بما غاب عن الحواس، وبما حضرها «نوحيه اليك»

---

(١) سورة الحج آية ٣٠

(٢) سورة الانعام آية ٧٣، والتوبة آية ٩٤، ١٠٥ والرعد ١٠ والمؤمنون ٩٣ والم السجدة ٦ والزمر ٤٦ والحشر ٢٢ والتغابن ١٨.

اي نلقيه . والايحاء إنهاء المعنى الى النفس ، فقد أفهم الله تعالى نبيه ﷺ تلك المعاني بانزال الملك بها عليه .

وقوله « وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم » اي لم تحضرهم حين عزموا على أمورهم . وإجماع الأمر هو اجتماع الرأي على الامر بالعزم عليه . والمكر : فتل الحيل عن الأمر ، واصل المكر من قولهم : ساق ممكورة اي مفتولة . ومثله الخديعة ، وكان مكرهم بيوسف إلقاؤهم إياه في غيابت الجب – في قول ابن عباس والحسن وقتادة . وقال الجبائي : كان مكرهم احتيالهم في امر يوسف حين القوه في الجب . وانما قال ذلك لنبيه ، لأنه لم يكن ممـــن قرأ الكتب ولاخالط أهلها وإنما اعلمه الله تعالى ذلك بوحي من جهته ليدل بذلك على نبوته ، وانه صادق على الله تعالى

قوله تعالى :

(وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (١٠٣) آية بــلا خلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه التسلية بقلة من آمن به بأن الناس كثيرون ، وان حرصت على ان يكونوا مؤمنين فانهم قليلون . والاكثر القسم الآخر من الجملة ، ونقيضه الأقل . والناس جماعة الانسان ، وهو من ناس ينوس نوساً إذا تحرك يميناً وشمالاً ، من نفسه لا بمحرك . والحرص طلب الشيء في اصابته ، حرص عليه يحرص حرصاً ، فهو حريص على الدنيا إذا اشتد طلبه لها والتقدير : وما اكثر الناس بمؤمنين ، ولو حرصت على هدايتهم .

قوله تعالى

(وَمَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (١٠٤) آية بلا خلاف .

هذا اخبار من الله تعالى وخطاب لنبيه ﷺ انك يا محمد لست تسألهم يعني أمته الذين بعث اليهم على ما يعرفهم به من اخبار الماضين اجراً، ولا جزاء في مقابلته . وليس ذلك إلا ذكر للعالمين . والسؤال قول القائل لمن هو فوقه (افعل) اذا كان سؤال طلب ودعاء ، وان كان سؤال استخبار ، فهو طلب الاخبار بادلته ، والاجر جزاء العمل بالخير يقال : آجره الله يآجره أجراً إذا جازاه بالخير ، ويدعا به ، يقال : آجرك الله . والذكر حضور المعنى للنفس ، وهو ضد السهو . وقد يقال للقول الذي يحضر المعنى للنفس ذكر . و (العالم) جماعة الحيوان الكثيرة التي من شأنها ان تعلم ، لانه مأخوذ من العلم، ومنه معنى التكثير ، وفي عرف المتكلمين عبارة عن الفلك وما حواه عن طريق التبع للحيوان الذي ينتفع به ، وهو مجعول لأجله . ومعنى الآية إنك لست تسألهم على ابلاغك إياهم ما اوحى الله به اليك ، ولا على ما تدعوهم اليه من الايمان اجراً ، فيكون تركهم لذلك إشفاقاً من إعطاء الاجر، بل هم يزهدون في الحق مع أمنهم من اعطاء الأجر ، وليس ما تؤديه اليهم من القرآن ، وجميع ما ينزله الله من الاحكام « إلا ذكر للعالمين » اي طريق الى العلم بما أوجب الله عليهم ، فذكر الدليل طريق الى العلم بالمدلول عليه . والفكر سبب مولد له ، فالذكر سبب مؤد ، والفكر سبب مولد . ويحتمل ان يكون المراد ليس هذا القرآن الا شرفاً للعالمين لو قبلوه وعملوا بما فيه .

قوله تعالى :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (١٠٥) آية بلا خلاف.

معنى (كأين) كم . والاصل فيها (أي) فدخلت عليها الكاف للتفخيم بالابهام، وتقديره كالعدد، فهو أبهم من نفس العدد، لما فيه من التكثير والتفخيم، وغلبت على (كاين) (من) دون (كم) لان (كأين) أشد إبهاماً، فاحتاجت الى (من) لتدل على ان ما يذكر بعدها تفسير لها .

اخبر الله تعالى ان في خلق السموات والارض آيات ، ودلالات كثيرة تدل على ان لها صانعاً صنعها ، ومدبراً دبرها ، وعلى صفاته، وعلمه ، وحكمته ، وأنه لا يشبه شيئاً ، ولا يشبهه شيء ، وهو ما فيها من تدبير الشمس والقمر والنجوم والجماد والحيوان،وما بينهما من الاشجار والنبات،وغير ذلك من الأمور الظاهرة للحواس المدركة بالعيان . وقال الحسن : من الآيات اهلاك من اهلك من الأمم الماضية، يعرضون عن الاستدلال بها عليه وعلى ما يدلهم عليه من توحيده وحكمته، مع مشاهدتهم لها ومرورهم عليها .

قوله تعالى :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (١٠٦) آية بلا خلاف .

قيل في معنى هذه الآية قولان :

احدهما – قال الحسن : الآية في اهل الكتاب ، لان معهم إيماناً وشركاً .

وقال ابن عباس، ومجاهد وقتادة: المعنى «وما يؤمن اكثرهم بالله» في اقراره بأن الله خلقه وخلق السمٰوات والأرض إلا وهو مشرك بعبادة الاوثان ، وهذا هو الأولى ، لان التقدير ما يصدقون بعبادة الله إلا وهم يشركون الأوثان معه في العبادة .

وقال الرماني : الآية دالة على ان اليهودي معه إيمان بموسى ، وكفر بمحمد ، لانها دلت على انه قد جمع الكفر والايمان ، وانه لا ينافي ان يؤمنوا بالله من وجه ويكفروا به من وجه آخر، كما قال «افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب»[1] .

---

(١) سورة البقرة آية ٨٥ .

وعلى مذهب من قال بالموافاة من المرجئة لا يصح ذلك ، لان الاحباط عنده باطل ، فمن آمن بالله لا بد ان يوافي به .

والجواب على مذهبه ان يقال تأويل الآية انه لا يؤمن أكثرهم بالله ويصدق رسله في الظاهر الاوهو مشرك في باطنه، فتكون الآية في المنافقين خاصة - يعنى هذه الآية - وقد ذكره البلخي ايضاً .

قوله تعالى :

(أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (١٠٧) آية بلا خلاف .

هذا خطاب لهؤلاء الكفار الذين ذكرهم بأنهم لا يؤمنون إلا وهم مشركون، وتوبيخ لهم وتعنيف ، وان كان متوجهاً الى غيرهم ، فهم المعنون به ، يقول : أفامن هؤلاء الكفاران تجيأهم غاشية من عذاب ، وهو ما يتغشاهم من عذابه . والغاشية ما يتجلل الشيء بانبساطها عليه ، يقال : غشيه يغشاه ، فهو غاش ، وهي غاشية أو: تجيأهم القيامة بغتة أي فجأة. والبغتة والفجأة والغفلة نظائر، وهي مجيء الشيء من غير تقدمة . قال يزيد بن مقسم الثقفي :

ولكنهم باتوا ولم ادر بغتة وافظع شيء حين يفجؤك البغت[1]

والساعة مقدار من الزمان معروف ، وسمي به القيامة لتعجيل أمرها ، كتعجيل الساعة .

وقوله «وهم لايشعرون» معناه لايعلمون بمجيئه، فلذلك كان بغتة. والشعور إدراك الشيء بما يلطف، كدقة الشعر يقال: شعر به يشعر شعوراً واشعره بالامر اشعاراً ، ومنه اشتقاق الشاعر لدقة فكره .

---

(١) مر هذا البيت في ٤ : ١٢٢ ، ٥٠٧ .

قوله تعالى :

(قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) (١٠٨) آية بلا خلاف.

هذا خطاب للنبي ﷺ أمره الله تعالى ان يقول لهؤلاء الكفار «هذه سبيلي» يعني دينه الذي دعا إليه من توحيد الله وعدله وتوجيه العبادة اليه والعمل بشرعه «ادعو» الناس «الى» توحيد «الله» والى طاعته، واتباع سبيله على معرفة مني بذلك، وحجة معي اليه، ومن تابعني على ذلك، فهو يدعو الناس الى مثل ما أدعو اليه من التوحيد وخلع الانداد والعمل بشرع الاسلام «وسبحان الله» اي تنزيهاً لله من ان يعبد معه إله غيره، وان يضاف اليه ما لا يليق به ولست أنا من المشركين الذين يشركون مع الله في عبادته سواه والسبيل هو الطريق، وهو يذكر ويؤنث قال الشاعر :

ولا تبعد فكل فتى اناس سيصبح سالكاً تلك السبيلا[1]

والدعاء طلب الفعل من الغير، وسمي الاسلام سبيلاً، لانه طريق الى الثواب لمن عمل به . و(البصيرة) المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل في الدين والدنيا، يقال : فلان على بصيرة من أمره اي كأنه يبصره بعينه .

قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (١٠٩) آية واحدة بلا خلاف .

---

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٦٨ ، ومجاز القرآن ١ : ٣١٩ .

قرأ ابو بكر «يوحى» بالياء وفتح الحاء . وقرأ حفص بالنون وكسر الحاء .

قال ابو علي الفارسي : وجه القراءة بالنون قوله «إنا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح»[1] ومن قرأ بالياء، فلقوله «واوحي الى نوح»[2] وقوله «قل اوحي الي»[3] فأما في «حم عسق كذلك يوحى اليك»[4]، فلان الفعل مسند الى اسم الله تعالى، فارتفع الاسم بأنه فاعل يوحي ، ولو قرىء يوحى اليك ، والى الذين واسند الفعل الى الجار والمجرور ، لكان جائزاً ، وكان يكون قوله «الله العزيز الحكيم» مبتدءاً وخبراً ، والاول احسن ، لان قوله « العزيز الحكيم » ان يكون صفة احسن من ان يكون خبر المبتدأ .

معنى الآية الاخبار من الله أني مـا أرسلت قبلك من الانبياء والمرسلين الى عبادي إلا رجالاً يوحى اليهم بكتبي واحكامي ، «من اهل القرى» أي لم أرسل عليهم ملكاً ولا جنياً، بل رجالاً أمثالك ، لقول جهال قريش ان الله لو شاء ان يرسل الينا أحداً، لأرسل إلينا ملكاً،فبين ههنا انه لم يرسل فيما مضى الا رجالاً، مثل محمد ، من البشر ، « أفـلم يسيروا في الارض » معناه أفليس قد ساروا في الارض وسمعوا اخبار من ارسله الله من الانبياء المبعوثين الى خلقه مثل ابراهيم وموسى وعيسى،فيعرفوا بذلك كيف كان عاقبة من كذب هـؤلاء الرسل من قبلهم ، وما نزل بهم من العذاب لكفرهم.ثم أخبر ان دار الاخرة خـير للذين اتقوا واجتنبوا معاصيه خير لهم من الدنيا،أفلا يعقلون ان الامر على ما أخبرنا به، وان ذلك خير من دار الدنيا التي فيها تنغيص وتكدير ، وفنون الآلام .

وقال قتادة معنى « من أهل القرى » يريد به الامصار دون البوادي ، لانهم اعلم وأحكم . وقال الحسن ما بعث الله نبياً من اهـل البادية قط ، ولا من الجن ولا من النساء .

وقـوله « ولدار الآخرة » على الاضافة وفي موضع آخر وللدار الآخرة على الصفة . فمن اضافه قال تقديره ولدار الحال الآخرة ، لان للناس حالين حـال

---

(١) سورة النساء آية ١٦٢ .
(٢) سورة هود آية ٣٦ .
(٣) سورة الجن آية ١ .
(٤) سورة الشورى آية ١ .

لدنيا وحـــال الآخرة . ومثله صلاة الاولى والصلاة الاولى ، فمن اضافه قدر صلاة الفريضة الاولى ، ومن لم يضف جعله صفة ، ومثله ساعة الاولى ، والساعة لاولى، ذكره الزجاج.وقال الفراء قد يضاف الشيء الى نفسه إذا اختلف لفظها مثل « حق اليقين » . ومثل بارحة الاولى والبارحة الاولى ومسجد الجـــامع ، والمسجد الجامع .

قوله تعالى :

(حَتَّى إِذَا ٱسْتَيْئَسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ) (١١٠)

آية بلا خلاف.

قرأ « كذبوا » خفيفة بضم الكاف أهــــل الكوفة . الباقون مشددة بضم الكاف . وقرأ عاصم وابن عامر « فنجي من نشاء » بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء . الباقون بنونين على الاستقبال ، وهي في المصحف بنون واحدة .

من قرأ « كذبوا » خفيفة ، فالمعنى إن الامم ظنت ان الرسل كذبوهم فيما أخبرو هم به من نصر الله اياهم واهلاك اعدائهم، ومثله قراءة من قرأ ، وان كان شاذاً «كذبوا» يعنى ان قومهم ظنوا ان الرسل كذبت فيما أخبرت به، وهو قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد والضحاك . ومن قرأ بالتشديد حمـل الظن على العلم ، والمعنى أيقن الرسل ان الامم كذبوهم تكذيباً عمهم حتى لا يفلح احد منهم ، وهو قول الحسن وقتادة وعائشة قال الشاعر :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرّد[1]

معناه ايقنوا، فان قيل على الوجه الاول كيف يجوز ان يحمل الضمير على انه للمرسل اليهم والذين تقدم ذكرهم الرسل دون المرسل اليهم ، قيل ان ذلـك

---

(١) مر هذا البيت في ١ : ٢٠٥ ، ٢ : ٢٩٦ ، ٤ : ٣٧٣ وقد روي (المشدد) بــدل (المسرد) .

لا يمتنع لان ذكر الرسل يدل على المرسل اليهم وقد قال الشاعر :

امنك البرق ارقبه فهاجا فبتّ أخاله دهماً خلاجا[1]

اي بتّ اخال الرعد صوت دهم ، فاضمر الرعد ولم يجرله ذكر لدلالة البرق عليه . وان قلت قد جرى لهم ذكر في قوله « افلم يسيروا في الارض فينظروا » فيكون الضمير للذين من قبلهم من مكذبي الرسل كان جيداً ، ذكره ابو علي . ومن قرأ « فننجي » بنونين ، فعلى انه حكاية حال، لان القصة كانت فيا مضى، فانما حكى فعل الحال على ما كانت ، كما قال «وإن ربك ليحكم بينهم» [2] حكاية الحال الكائنة ، ومثله « وكلبهم باسط ذراعيه »[3] فلو لم يكن على الحال لم يعمل اسم الفاعل ، لانه إذا مضى اختص ، وصار معهوداً ، فخرج بذلك من شبه الفعل . واما النون الثانية من (ننجي) فهي مخفاة مع الجيم ، وكذلك النون مع جميع حروف الفم ، لا تكون الا مخفاة ، قال ابو عثمان المازني وتبيينها معها لحن . قال وللنون مع الحروف ثلاثة احوال: الادغام، والاخفاء، والبيان، فهي تدغم مع ما يقارنها كما تدغم سائر المتقارنة . والاخفاء فيها مع حروف الفم التي لا تقارنها والبيان منها مع حروف الحلق ، وحذف النون الثانية من الخط يشبه ان يكون لكراهة اجتماع المثلين فيه. ومن ذهب الى ان الثانية مدغمة في الجيم ، فقد غلط ، لانها ليست بمثل للجيم ، ولا مقارنة له . ووجه قراءة عاصم انه اتى به على لفظ الماضي ، لان القصة ماضية . وما رواه هبيرة عن عاصم بنونين ، وفتح الياء ، فهو غلط من الراوي ، كما قال ابن مجاهد ، وروى نصر بن علي عن أبيه عن ابي عمرو «فنجي» بنون واحدة ساكنة الياء خفيفة الجيم ، فهذا غلط ، لانا قد بيّنا انّ النون ، لا تدغم في الجيم ، لما بيناه .

---

(١) قائله ابو ذؤيب الهذلي ، ديوان الهذليين ١ : ١٦٤ ، واللسان (دهم) وامالي السيد المرتضى ١ : ٦١٦ .
(٢) سورة النحل آية ١٢٤
(٣) سورة الكهف آية ١٨

اخبر الله تعالى ان الرسل لما يئسوا من فلاح القوم وعلموا ان القوم لقوهم بالتكذيب ونسبوهم الى الكذب، لان التكذيب نسبة القائل الى الكذب، وضده التصديق والاستيئاس واليأس انقطاع الطمع « جاءهم نصرنا » اي أتاهم نصر الله باهلاك من كذبهم ولا يرد بأسنا فالبأس شدة الأمر على النفس يقال له بأس في الحرب والبئيس الشجاع لشدة أمره. ومنه البؤس الفقر والبائس الفقير «عن القوم المجرمين » يعني المخطئين الذين اقترفوا السيآت .

قوله تعالى :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (١١١) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى ان في قصص الامم الماضين التي ذكرها دلالة لذوي العقول على تصديق الرسل وان ما أخبرناك به لم يكن حديثاً كذباً . والحديث الاخبار عن حوادث الزمان وتسميته بأنه حديث يدل على انه حادث ، لان القديم لا يكون حديثاً ، والافتراء القطع بالمعنى على خلاف مـــا هو به وأصله القطع من قولهم فريت الاديم فرياً إذا قطعته ، ووجه الاعتبار بتلك القصص ان الذي قدر على إعزاز يوسف بعد القائه في الجب واعلائه بعد حبسه في السجن وتمليكه مصر بعد ان كان كبعض أهلها في حكم العبيد وجمعه بينه وبين والديه وإخوته على مـــا أحبوا بعد مدة طويلة وشقة بعيدة لقـــادر ان يعز محمد ﷺ ، ويعلي كلمته وينصره على من عاداه .

وقوله « ولكن تصديق الذي بين يديه » معناه تصديق الكتب التي قبله من التوراة ، والانجيل وغيرهما من كتب الله في قول الحسن وقتادة . وانما قيل لمـــا

قبله: بين يديه، لانه قد وجد فكأنه حاضر له، وقيل بين يديه، لانه قريب منه كقرب ما كان بين يدي الانسان. وإنما قال «وتفصيل كل شيء» على وجه المبالغة من حيث كان فيه تفصيل كل شيء يحتاج اليه في أمور الدين من الحلال والحرام والحجاج والاعتبار والوعظ والازجار، أما جملة او تفصيلاً. و «هدى ورحمة» فالهداية الدلالة «لقوم يؤمنون» اي يصدقون بها وينتفعون بالنظر فيها وخص المؤمنين بالهداية وإن كانت هداية لغيرهم من حيث انهم انتفعوا هم بها دون غيرهم، ونصب تصديق على تقدير، ولكن كان تصديق الذي باضمار كان على قول الزجاج.

(١٣) سورة الرعد

قال قتادة هي : مدنية إلا آية منها فانهـــا مكية وهي قوله « لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة » .

وقال مجاهد : هي مكية وليس فيها ناسخ ولا منسوخ .

وهي ثلاث وأربعون آية في الكوفي وأربع في المدنيين وخمس في البصري .

بسم الله الرحمن الرحيم

(المر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ وَٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) (١) آية بلا خلاف .

لم يعد احد «المر» آية وعد الكوفيون «طه» و «حم» آية قالوا ، لان (طه) مشاكلة لرؤوس الآي التي بعدها بالالف مع انه لا يشبه الاسم المفرد ، كما أشبه «صاد» و «قاف» و «نون» لانها بمنزلة (باب) و «نوح» ، وعد « كهيعص » لانه يشاكل رؤوس الآي بعده بالارداف . وقد بينا في أول سورة البقرة أقـــوال المفسرين في تأويل اوائل السور بالحروف[١] . وان اقواها ان يقال أنهـــا اسماء السور واجبنا عما اعترض عليه ، فلا وجه لاعادته .

---

(١) في ١ : ٤٧ - ٥١ .

وروي عن ابن عباس ان معنى قوله « المر » انا الله أرى . وقال غيره: معناه انا الله أعلم . وروي انهـا حروف تدل على اسم الرب . وقوله « تلك آيات الكتاب » ومعناه هذه تلك آيات الكتاب التي تقدمت صفتها . والبشارة بها بما فيها من الهداية ، كما تقول تلك الدلالة اي التي وصفها بـأنه لا غنا لأحد عنها ، فيقول : هذا تنبيهاً عليها ، وتفخيماً لشأنها .

وقال الحسن والجبائي : يعني بالكتاب القرآن . وقال مجاهد وقتادة : يعني بـه الانجيل . والاول اصح . وآيات الكتاب هي الكتاب، ولكن أضيف الى نفسه ، لما اختلف لفظه كما قال « حق اليقين »[1] وغير ذلك مما قد مضى ذكره ، وكما يقال مسجد الجامع ، والمسجد الجامع ، والآيات الدلالات المعجبة المؤدية الى المعرفة بالله وانه لا يشبه الاشياء ، ولا تشبهه ، والكتاب الصحيفة التي فيهـا الكتابة، وقد يكون مصدر كتب، تقول : كتب كتاباً وكتابة. «والذي أنزل اليك من ربك الحق » يحتمل وجهين من الاعراب : الرفع والجر ، فالرفع على الابتداء وخبره الحق، والجر على انه عطف على الكتاب ، وهو غيره – على قول مجاهد – ويجوز ان تكون صفة – في قول الحسن – كما قال الشاعر :

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم[2]

« ولكن اكثر الناس لا يؤمنون » اي لا يصدق اكثر الناس بـأنه كذلك ، ويكفرون به . والحق وضع الشيء في موضعه على مـا تقتضيه الحكمة والانزال النقل من علوّ الى سفل أنزله إنزالاً ، ونزّله تنزيلاً ، وضده الاصعاد .

قوله تعالى :

(أَللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ

(١) سورة الواقعة آية ٩٥ . (٢) مر تخريجه في ٢ : ٩٨ .

الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) (٢) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية بما يدل على وحدانيته وكونه على صفات لا يشاركه فيها احد من المخلوقين من كونه قادراً لنفسه ، لانه قال تعالى هو الذي رفع السموات بغير عمد ترونها . وقيل فيه قولان :

الاول – قال ابن عباس ومجاهد : يعني ليس ترونها دعامة تدعمها ، ولا فوقها علاقة تمسكها .

الثاني – قال قتادة واياس بن معاوية : ان المعنى إنه رفع السموات بلا عمد ونحن نراها .

وقال الجبائي : تأويل ابن عباس ومجاهد خطأ لأنه لو كان لها عمد ، لكانت اجساماً غلاظاً ورؤيت ، وكانت تحتاج الى عمد آخر إلا هو تعالى .

وهذا هو الصحيح . والوجه في قوله «بغير عمد» انه لو كان لها عمد لرئيت . ومثله قول الشاعر :

على لا حب لا يهتدي لمناره[١]

والمعنى انه لا منار له، لانه لو كان له منار لاهتدي به، وقد بينا نظائر ذلك فيما مضى[٢] . و (عمد) جمع عمود يقال : عمد ، كما يقال : اديم وادم . قال ابو عبيدة : وهذا الجمع قليل . وقد قرىء في الشواذ (عمد) بضم العين والميم ، وهو القياس . والعمود السارية، ومثله الدعائم والسند واصله منع الميل، فمنه التعميد والاعتماد ، قال النابغة :

وخيس الجنّ اني قد اذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفائح والعمد[٣]

---

(١) مر هذا البيت في ١ : ١٨٩ ، ٢٧٩ ، ٤٤٤ ، ٢ : ٨٨ ، ٣٥٦ ، ٤٢٣ ، ٥٦٢ ، ٣ : ٣٨٠ .

(٢) راجع ما سبق ان اشرنا اليه في التعليقة قبل هذه رقم ١ .

(٣) ديوانه (دار بيروت) ٣٣ ومعنى (خيس) ذلل ، و (تدمر) بلد بالشام .

وقوله «ثم استوى على العرش» معناه استولى بالاقتدار عليه ونفوذ السلطان. واصله استواء التدبير، كما ان اصل القيام الانتصاب ثم قال: قائم بالتدبير، فالمعنى مستو على العرش بالتدبير المستقيم من جهته بجميع الأمور. و (ثم) دخلت على معنى «ثم استوى على العرش» بالتدبير للأجسام التي قد كونها، فهي تدل على حدوث التدبير.

وقال ابو علي: هي لتسخير الشمس والقمر لكنه قدم في صدر الكلام، كما قال «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين»[1] والمعنى حتى يجاهد من نعلم من المجاهدين.

وقوله «وسخر الشمس والقمر» فالتسخير والتذليل والتوطئة نظائر، والمسخر هو المهيأ، لانه يجري بنفسه من غير معاناة صاحبه فيما يحتاج اليه كتسخير النار للاسخان والماء للجريان، والفرس للركوب.

وقوله «كل يجري لاجل مسمى» اجراه على لفظ كل، ومثله كل منطلق اي اكلهم، ورفع كلا، لانه مستأنف، وذهب بمعنى الاثنين في الشمس والقمر الى الجمع، كما قال «فان كان له اخوة»[2] وإنما هما أخوان. و (الاجل) هو الوقت ضروب لحدوث أمر وانقطاعه، فاجل الدنيا الوقت المضروب، لانقضائها واجل الآخرة، الوقت المضروب لحدوثها، واجل الدين وقت حدوث أدائه، واجل العمر الوقت المضروب لانقضائه، والاجل المسمى - ههنا - قيل يوم القيامة.

وقوله «يدبر الامر» فالتدبير تصريف الامور على ما يقتضيه مستقبل حاله في عاقبته، فتدبير السموات والارض فيه دلالة على مدبر حكيم، قد جعل جميع ذلك لما يصلح في عاقبته، وعاجلته. ودخلت الالف واللام على (الشمس) وهي واحدة لا ثاني لها، لأن في إسمها معنى الصفة، لانه لو وجد مثلها لكان شمساً، وكذلك (القمر) لو خلق الله مثله لكان قمراً، وليس كذلك زيد وعمرو.

---

(١) سورة محمد آية ٣١. (٢) سورة النساء آية ١١.

وقوله « يفصل الآيات » اي يميز الدلالات واختلاف مدلولاتها ، من كونه قادراً عالماً حكيماً لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء «لعلكم بلقاء ربكم توقنون» معنا لكي توقنوا لقاء ثواب طاعات الله ولقاء عقاب معاصيه ، فسمى لقاء ثوابه وعقابه لقاءه مجازاً .

قوله تعالى :

(وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٣) آية بلا خلاف .

ذكّر الله تعالى في الآية الاولى بالسماء والشمس والقمر، لان اكثر ما في العالم متعلق بذلك وجار مجراه كالنبات والحرث والنسل ، ثم ذكر في هـذه الآية الارض وتدبيره لها على ما فيه من المصلحة لينبه بذلك من ذهب عن الاستلال به على حكمته تعالى ، وتوحيده ، فقال « وهو الذي مد الارض » يعنى بسطها طولاً وعرضاً « وجعل فيها رواسي » يعني جبالاً راسيات ثابتات ، يقـال : رسي هذا الوتد وأرسيته . وواحد (الرواسي) راسية « وانهاراً » اي وخلق فيها أنهاراً يجري المياه فيها « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » ثم ابتدأ فقال: وجعل فيها من جميع الثمرات زوجين أي ضربين . قال الحسن يعني لونين من كل ما خلق من البنات. والزوج يكون واحداً ويكون اثنين ، وههنا واحد. وقريش تقول : للانثى زوج وللذكر زوج . قـال الله تعالى « اسكن انت وزوجك الجنة »[1] لادم .

ومعنى « يغشي الليل النهـار » اي يجلل الليل النهار والنهار بالليل . والمعنى انه يذهب كل واحـد منهما بصـاحبه ومثله « يكوّر الليل على

---

(١) سورة البقرة آية ٣٥ وسورة الاعراف آية ١٩

النهار ويكوّر النهار على الليل »[١] والمعنى ان أحدهما يُذهب الآخر . ثم أخبر تعالى ان فيما ذكره من الدلالات لآيات واضحات لمن فكر ، واعتبر بها ، لان من لم يفكر فيها ولم يعتبر ، كأنه لا آية له .

وقوله « زوجين اثنين » انما اكد به (اثنين) وان كان قوله « زوجين » افاد العدد لامرين :

احدهما ـ على وجه التأكيد وهو مستعمل كثيراً .

الثاني ـ انالزوجين قد يقع علىالذكر والانثى.وعلى غيرهما، فاراد انيبين ان المراد به ههنا لونين أو ضربين دون الذكورة والانوثة ، وذلك فائدة لا يفيدها قوله « زوجين »فلا تكرار فيه بحال . وهو قول الحسن والجبائي وغيرهما .

قوله تعالى :

(وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (٤) آية بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وأهل البصرة وحفص « وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان » بالرفع فيهن . الباقون بالخفض . وروى ابو شعيب القواس عن حفص ضم الصاد من صنوان في الموضعين . الباقون بكسرها . وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب « يسقى » بالياء . الباقون بالتاء . وقرأ اهل الكوفة الاعاصما يفضل باليـاء . الباقون بالنون .

---

(١) سورة الزمر آية ٥

قال ابوعلي النحوي: من قرأ « وزرع » مرفوعاً جعله محمولاً على قوله « في الارض » ويكون تقديره وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وفي الارض زرع ونخيل صنوان ، فالجنة على هذا تقع على الارض التي فيها النخيل دون غيرها . ويقوي ذلك قول زهير :

كأن عينيّ غـــربيْ مقتّلة   من النواضح تسقي جنة سحقا[(١)]

السحق جمع سحوق يوصف بها النخيل اذا بسقت فكأنه سمى الارض ذات النخل جنة ، ولم يذكر ان فيها غيرها ؛ فكما ان الجنة تكون من النخيل من غير ان يكون منها شيء آخر ، كذلك تكون من الكروم ، وان لم يكن فيها غيرها .

فاما من قرأ بالخفض فانه حمل الزرع والنخيل على الاعناب ، كأنه قال جنات من أعناب ومن زرع ، ومن نخيل . وقد تسمى الارض إذا كان فيها النخل والكرم والزرع جنة ، قال الله تعالى « جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً »[(٢)] ويقوي ذلك قول الشاعر :

أقبل سيل جاء من أمر الله   يحرد جرد الجنة المغلة[(٣)]

فقوله (المغلة) في وصف الجنة يدل على ان الجنة يكون فيها الزرع ، لان الغلة لا يقال إلا فيما يكال ويوزن ، فلذلك قال الفقهاء : اذا قال : أوصيت له بغلة هذه القرية انه يكون على ما فيها ، من الحال من الثمرة وغيرها وقت التلفظ بالوصية دون ما يحدث بعد .

و (الصنوان) فيما ذهب اليه ابو عبيدة صفة النخل قال : والمعنى ان يكون الاصل واحداً ثم يتشعب من الرؤس فيصير نخلا ويحملن . وقال وقوله

---

(١) ديوانه : ١٤٠ (دار بيروت) .
(٢) سورة الكهف آية ٣٢
(٣) مجمع البيان ٣ : ٢٧٥

« يسقى بماء واحد » لانها تشرب من اصل واحد « ونفضل بعضها على بعض في الاكل » وهو الثمرة ، واجاز غيره ان يكون (الصنوان) من صفة الجنات :

قال ابو علي فكأنه في المعنى يراد به ما في الجنات. وان جرى على لفظ الجنات. وعلى هذا يجوز ان ترفع وان جررت النخل غير أنه لم يقرأ به . ومن ضم الصاد من صنوان جعله مثل ذئب وذؤبان، وربما يعاقب فِعلان وفُعلان على بناء واحد نحو خشن وخشان . واظن سيبويه حكى الضم في صنوان والكسر اكثر . ومن قرأ « تسقى » بالتاء اراد تسقى هذه الاشياء « بماء واحد » ويقوى ذلك قوله « ونفضل بعضها على بعض » فحمله على التأنيث . ومن قرأ بالياء فعلى تقدير ما ذكرناه . ومن قرأ « يفضل » بالياء . رده الى الله ، وتقديره ويفضل الله بعضها على بعض ومن قرأ بالنون ، فعلى الاخبار عن الله عز وجل أنه قال «ونفضل» نحن « بعضها على بعض » .

اخبر الله تعالى على وجه التنبيه لعباده على الاستدلال بآياته بان قال في الارض التي خلقتها قطع متجاورات . قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : معناه سبخة وغير سبخة . وقيل عامرة وغير عامرة . والمتجاورة المتقاربة بعضها من بعض .

وقوله « وجنات من اعناب » فالجنة البستان الذي يجنه الشجر وهي منفصلة من الروضة والزهرة «من أعناب» جمع عنب وهو ثمر الكرم يقع على انواع كثيرة، والزرع القاء الحب للنبات في الارض ، والغرس جعل الاصل من الشجر الثابت في الارض، والصنوان المتلاصق وهي الفسيلة تكون في اصل النخلة . ويقال : هو ابن أخيه صنو أبيه اي لصنو ابيه في ولادته ، ويجوز في جمع صنو اصناء كعدل واعدال . ويقال : صنو بضم الصاد وإذا كثرت ، فهو الصني والصنى ، وقال البراء بن عازب وابن عباس ومجاهد وقتادة : الصنوان النخلات التي اصلها واحد . وقال الحسن: الصنوان النخلتان اصلها واحد «يسقى بماء واحد» معناه ان ما ذكرناه يسقى بماء واحد « ونفضل بعضها على بعض في الاكل » بان

يكون بعضه حلواً وبعضه حامضاً وبعضه مراً في الاكل . والاكل الطعام الذي يصلح للاكل ، فدل بذلك على بطلان قول من يقول بالطبع ، لانه لو كان قولهم صحيحاً لما اختلفت طعوم هذه الاشياء مع ان التربة واحد والماء واحد، وجميع احوالها المعقولة متساوية ، فلما تفاضلت مع ذلك دل على ان المدبر لها عالم حكيم ففعله بحسب المصلحة « ان في ذلك لايات لقوم يعقلون » اخبار منه تعالى ان فيما ذكرناه دلالات لقوم يعقلونها ويتدبرونها لان من لا عقل له لا ينتفع بالاستدلال بها ، وانما ينتفع بذلك ذوو الألباب والعقول .

قوله تعالى :

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٥) أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٦) آية في الكوفي . وفي المدنيين والبصري آيتان تمام الاولى قوله «لفي خلق جديد » .

قرأ ابن عامر وابو جعفر « اذا » بهمزة واحدة على الخبر. الباقون بهمزتين على الاستفهام. وحقق الهمزتين اهل الكوفة وروح. وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو ورويس بتخفيف الاولى وتليين الثانية. وفصل بينهما بالف نافع الا ورشاً وابو عمرو. واما « إنا » فقرأه بهمزة واحدة على الخبر نافع والكسائي ويعقوب . الباقون بهمزتين على الاستفهام . وحقق الهمزتين ابن عامر وعاصم وحمزة وخلف الا ان هشاما يفصل بينهما بالف . وقرأ ابن كثير وابو عمرو ، وابو جعفر بتحقيق الاولى وتليين الثانية إلا ان ابا عمرو وابا جعفر يفصلان بينهما بالف ، وابن كثير لايفصل. وكذلك اختلافهم في الموضعين في(سبحان) وسورة المؤمنين والسجدة ولقمان . والثاني من اللذين في الصافات . وما سوي ذلك من الاستفهامين

يذكر في موضعه ان شاء الله. قال ابو علي الفارسي من قرأ (أإذا، أإنا) بالاستفهام فيهما ، فموضع (اذا) نصب بفعل مضمر يدل عليه قوله « انا لفي خلق جديد » لان هذا الكلام يدل على نبعث ونحشر ، فكأنه قال أنبعث اذا كنا تراباً. ومن لم يدخل الاستفهام في الجملة الثانية كان موضع (اذا) نصباً بما دل عليه قوله « انا لفي خلق جديد » فكأنه قال انبعث اذا كنا تراباً ، وما بعد (ان) لا يعمل فيما قبله بمنزلة الاستفهام، فكما قدرت هذا الناصب في(اذا) مع الاستفهام، لان الاستفهام لا يعمل ما بعده فيما قبله كذلك نقدره في (إنا) لان ما بعدها ايضاً لا يعمل فيما قبلها. وقراءة ابن عباس «اذا كنا تراباً » على الخبر (أإنا)على الاستفهام ينبغي ان يكون على مضمر كما حمل ما تقدم على ذلك، لان بعد الاستفهام منقطع مما قبله. فاما ابو عمرو، فأنه يفصل بين الهمزتين بألف ، كما يفصل في «أأنذرتهم» وكما يفصل بين النونات في (اخشينان) ويأتي بعد ذلك بالهمزة بين بين، وليست (يا) ياء محضة ، كما ان الهمزة في السائل ليست ياء محضة، وانما هي همزة بين بين، وابن كثير ان اتى بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مد فليس ذلك على التخفيف القياسي، لانه لو كان كذلك ، لوجب ان يجعل الهمزة بين بين ، كما فعل في سم ئي المتصل وفي اذ قال ابراهيم - في المنفصل لذلك، ولكنه يبدل من الهمزة ابدالاً محضاً كما حكى سيبويه انه سمع من العرب من يقول (بئس) وقد جاء في الشعر يومئذ على القلب.

مدح الله تعالى نبيه ﷺ تعجُّبه من الكفار في عبادتهم ما لا يملك لهم نفعاً ولا ضرّاً. ثم اخبر ان هذا موضع العجب، وذمهم بعجبهم من اعادتهم ثانية مع علمهم بالنشأة الاولى، وفيما بين الله تعالى من خلق السموات والارض ، وما بينهما من عجائب افعاله التي تدل على انه قادر على الاعادة، كما دلت على الانشاء، لان هذا مما ينبغي ان يتدبره العاقل، وقد قيل: (لا خير فيمن لا يتعجب من العجب وأرذل منه المتعجب من غير عجب) والعجب والتعجب واحد. وهو تغير النفس بما خفي سببه عن الكافر وخرج عن العادة، فهؤلاء الجهال توهموا انهم اذا صاروا تراباً لا يمكن ان يصيروا حيواناً. والذي انشأهم اول مرة قادر ان يعيدهم ثانية.

ثم اخبر تعالى عنهم ، فقال: هؤلاء هم الذين جحدوا نعم الله ، وكفروا بآياته

ودلالاته ، وهم الذين يحشرهم الله يوم القيامة ، والاغلال في اعناقهم . والغل طوق يقيد به اليد في العنق ، وأصله الغل في الشيء إذا انتسب فيه . وغـل : اذا خان بانتسابه في مال الحرام والاعناق جمع عنق، وهو مغرز الرأس . وقيل ان المعنى في ذلك انهم يؤاخذون بأعمالهم ، وهي الاغلال ، كما قال « اذ الاغلال في اعناقهم »[١] فكأنهم بمنزلة من الغلّ في عنقه لما لزمهم من الكفر به ، فقـال و« اولئك اصحاب النار هم فيهـــا خالدون» اخبار منه تعالى انهم بعد الغل في اعناقهم يجعلون في النار مؤبدين فيها معذبين بأنواع العذاب .

قوله تعالى :

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّـكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) (٧) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء الكفار يطلبون منك ما يسوؤهم ان يعجل لهم ، كما قالوا « امطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم »[٢] قبل ان يسألوا الاحسان بالانتظار لهم، وقد حكم الله تعالى ان يمهلهم التوبة . ثم يأخذ من أقام على القبح بالعقوبة . والاستعجال طلب التعجيل ، والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته الذي يقدر له . والسيئة خصلة تسوء النفس ، ساءه يسوءه سوءاً ، وهو ساء وهي سايئة وسيء وسيئة قال الشاعر :

ولا سيء يردي إذا ما تلبسوا الى حاجة يومـاً مخلسه بزلا

والحسنة خصلة تسر النفس وقد يعبر بهما عن الطاعة ، والمعصية .

---

(١) سورة المؤمن (غافر) آية ٧١ . (٢) سورة الانفال آية ٣٢ .

وقوله «خلت من قبلهم المثلات» أي مضت بانقضائها كمضي اهل الدار عنها، يقال: خلت الديار بهلاك أهلها وخلو هم بخلو مكانهم منها، والمثلات العقوبات التي تزجر عن مثل ما وقعت لاجله واحدها مثلة مثل سمرة وصدقة، وفي الجمع سمرات وصدقات، ويقال مثلت به أمثل مثلاً بفتح الميم وسكون الثاء، وأمثلته من صاحبه إمثالاً إذا قصصته منه وتميم تقول: مثلة على وزن غرفة، ثم قـــال «وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم» على وجه الاخبار عن نفسه بالرحمة بخلقه والتفضل عليهم بأنه يغفر للناس على كونهم ظالمين وذلك يدل على بطلان قول من قال إن اصحاب الكبائر لا يجوز ان يعفو الله عنهم إلا بالتوبة، لانـه تعالى لم يشرط في ذلك التوبة ومن شرط في الآية التوبة او خصها بالصغائر كان تاركاً للظاهر.

وقوله «وان ربك لشديد العقاب» اخبار منه تعالى بأنه كا يغفر تارة مـع الظلم، كذلك قد يعاقب مع الاصرار عذاباً شديداً فلا تغتروا بذلك ولا تعولوا على مجرد العفو لانه يجوز ان لا يعفو.

قوله تعالى:

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (٨) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعـالى ان هؤلاء الكفار الذين تقدم ذكرهم يقولون هلا انزل على محمد آية يقترحونها مثل ما حكى الله عنهم من نحو تفجير الانهار بحيث سألوا سقي البلاد ونقل جبال مكة عن اماكنها لتتسع على أهلها وإنزال كتاب من السماء الى الارض يقرؤن فيه الأمور التي دعاهم اليها، فقال الله تعالى له ليس أمر الآيات اليك إنما أمرها الى الله ينزلها على ما يعلمه من مصالح العباد «وانما انت منذر» اي معلم لهم على وجه التخويف لهم معاصي الله وعقابه، «ولكل قوم هـاد» يهديهم الى الحق. وللناس في معناه خمسة اقوال:

احدها – روي عن ابن عباس بخلاف فيه ان الهادي هو الداعي الى الحق .

والثاني – قال مجاهد وقتادة وابن زيد : انه نبي كل أمة .

الثالث – في رواية اخرى عن ابن عباس وسعيد بن جبير ورواية عن مجاهد والضحاك : ان الهادي هو الله .

الرابع – قال الحسن وقتادة في رواية وأبو الضحى وعكرمة : انه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو اختيار الجبائي .

والخامس – ما روي عن ابي جعفر ، وأبي عبدالله (ع) إن الهادي هو امام كل عصر، معصوم يؤمن عليه الغلط وتعمد الباطل .

وروى الطبري باسناده عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت « إنما انت منذر ولكل قوم هاد » وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره ، وقال انا المنذر « ولكل قوم هاد » وأومأ بيده الى منكب علي (ع)، فقال انت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي .

قوله تعالى :

(أَللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٩) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) (١٠) آيتان بلا خلاف .

قرأ ابن كثير « المتعالي » بياء في الوصل والوقف الا المالكي والعطار عن الزبيبي ويعقوب ، وروى المالكي والعطار عن الزبيبي بياء في الوقف دون الوصل. الباقون بغير ياء في الحالين . وروي عن ابي عمير – في رواية شاذة – مثل ابن كثير ، قال أبوعلي : اثبات الياء في الحالين هو القياس ، وليس ما فيه الالف واللام من هذا الباب كما لا الف فيه ولام نحو قاض وغاز . قال سيبويه إذا لم يكن في موضع تنوين يعنى اسم الفاعل فان الاثبات اجود في الوقف نحو هذا

القاضي، وهذا الغازي، لانها ثابتة في الوصل يريد ان الياءمع الالف واللام تثبت ولا تحذف كما تحذف من اسم الفاعل إذا لم يكن فيه الالف واللام، نحو هذا قاض، فاعلم، فالياء مع غير الالف واللام تحذف في الوصل، فاذا حذفت في الوصل كان القياس ان تحذف في الوقف. وهي اللغة والأقيس. فأما إذا حذفت الالف واللام، ولا يحذف اللام - في اللغة التي هي اكثر عند سيبويه، فأما من حذف في الوصل والوقف فلأن سيبويه زعم ان من العرب من يحذف هذا في الوقف شبهه بما ليس فيه الف ولام إذ كانت تذهب اليـــاء في الوصل في التنوين لو لم يكن الف ولام. واما حذفهم لها في الوصل فلم يكن القياس، لانه لم يضطر الى حذفه لشيء كما اضطر ما لا الف ولام فيه للتقاء الساكنين، فكرهوا حركة الياء بالضم والكسر لكن حذف؛ كما حذف في الفواصل ومـــا اشبه الفواصل تشبيهاً بالقوافي.

اخبر الله تعالى انه جل وعز «يعلم ما تحمل كل انثى» من علقة او مضغة ومن ذكر او انثى ومن زائد او ناقص وعلى جميع احواله وصفاته، لانه عالم لنفسه. (والحمل) بفتح الحاء ما كان في البطن - وبكسرها - ما كان على الظهر. وقوله «وما تغيض الارحام» وما تزداد، وقيل فيه ثلاثة اقوال:

الأول ما ينقص من ستة أشهر وما يزداد لان الولد يولد لستة اشهر فيعيش ويولد لسنتين فيعيش ذهب اليه الضحاك.

الثاني - قال الحسن ما ينقص بالسقط وما يزداد بالتمام.

الثالث قال ابن زيد ما ينقص بغور النطفة وظهور دم الحيض فينقص تلك الايام، لانه لا يعتد بها في الحمل وينقص حال الولد وما يزداد من الاشهر، وفي حال الولد. وقال الفراء الغيض النقصان، تقولون: غاضت المياه اي نقصت، وفي الحديث (اذا كان الشتاء غيضاً والولد غيضاً وغاضت الكرم غيضاً وفاضت اللئام فيضاً) وقال الزجاج الغيض النقصان.

وقوله «وكل شيء عنده بمقدار» قيل في معناه قولان:

احدهما – ان جميع ما يفعله الله على مقدار ما تدعو اليه الحكمة من غير نقصان ولا زيادة، وقال قتادة: معناه كل شيء عنده بمقدار في الرزق والاجل. والمقدار مثال يقدر به غيره. ثم اخبر تعالى أنه عالم بما غاب عن الحواس وبما ظهر لها فالغيب كون الشيء بحيث يخفى عن الحس، يقال غاب يغيب، فهو غائب. والشهادة حصول الشيء بحيث يظهر للحس ومنه الشاهد خلاف الغائب، ويقال شهد في المصر اذا حضر فيه. ومنه قوله «فمن شهد منكم الشهر فليصمه»[1] اي من حضر المصر فيه، وانما قال «عالم الغيب» مع ان الله تعالى لا يغيب عنه شيء، لأنه اراد ما غاب عن احساس العباد. وقيل انه اراد انه يعلم المعدوم والموجود، فالغيب هو المعدوم. وقال الحسن: الغيب السر، والشهادة العلانية.

وقوله «الكبير المتعال» فالكبير هو السيد المقتدر. ومعناه الاكبر بسعة مقدوره. والمتعالي المقتدر بما يستحيل ان يكون أعلى منه في الاقتدار أومساوياً له، فهو أقدر من كل قادر، ولهذا استحالت مساواته في المقدور، لان من لا يساويه أحد في المقدور فهو أعلى في المقدور، كأنه قال: تعالى مقدوره الى ما يستحيل ان يكون اعلى منه. وقال الحسن: المتعالي عما يقول المشركون فيه.

قوله تعالى:

(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ) (١١) آية بلا خلاف.

معنى الآية ان الله تعالى الذي وصف نفسه بأنه الكبير المتعالي على غيره بسعة قدرته سواء عليه الاشياء في أنه يعلمها على اختلاف حالاتها، وانه يعلم الانسان

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٥

على تصرف احواله مما يسر في نفسه اي يخفيه او يعلنه أو يستتر بالليل او يسرب بالنهار ، كل ذلك سواءفي ظهوره‌له، فيجب‌ان يحذر من‌هذه صفته، ويعلم انه يأتي بالآيات بحسب ما يعلمه من مصلحة خلقه . وقال الزجاج : المعنى ان الظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات والجاهر بنطقه والمضمر في نفسه في معلوم الله « سواء » اي ليس ببعض ذلك اعلم من بعض . وقال الحسن : « سارب بالنهار » اي مستتر فيه . وقال قطرب : يجوز ان يكون معنى « مستخف بالليل » اي ظاهر بالليل « وسارب بالنهار » اي مستتر فيه . قال الزجاج : هذا جائز في اللغة ، يقال‌منه انسرب الوحش اذا دخل‌في كناسه . وقال ابو رجاء : السارب الذاهب على وجهه ، يقال انسرب فلان انسراباً . وقال ابن عباس وقتادة: السارب الظاهر من خفى كان فيه . ويقال : فلان سارب في مذهبه اي ظاهر يقال : خلا سربه اي طريقه ، ويقال: فلان آمن في سر به بالفتح والخفض معاً قال قيس بن الخطيم :

أنّى سربتِ وكنت غير سروب وتقرُّب الاحلام غير قريب[١]

وقال قوم : السارب الذي يسلك في سربه اي في مذهبه ، يقال منه : سرب يسرب سروباً . وقال بعضهم السارب الجاري في خروجه الى الأمر بسرعة ، يقال انسرب الماء من خروز القربة ، قال ذو الرمة :

ما بال عينك منها الماء منسكب كأنها مِن كلى مفرية سرب[٢]

فالاستخفاء طلب الاختفاء، خفي يخفى نقيض ظهره يظهر ظهوراً. واختفى اختفاء وأخفاه إخفاء ، وتخفى تخفياً . والاسرار إخفاء المعنى في النفس ، فأسر القول معناه أخفى في نفسه، والجهر رفع الصوت بالقول، يقال : لصوته جهارة اي قوة في رفعه اياه ، وهو يجاهر بأمره اي يظهره ويعلنه . والسواء هو

---

(١) اللسان (سرب) .
(٢) مجمع البيان ٣ : ٢٧٩ واللسان (سرب) والطبرى ١٣ : ٦٦ وروايته. (تنسكب) بدر (منسكب) .

الاعتدال في الوزن . و (من) في موضع الذي ، وهما مرتفعان و «سواء» رفع بالابتداء ، وهو يطلب اثنين . تقول : سواء زيد وعمرو ، اي هما مستويان .

قوله تعالى :

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) (١٢) آية بلا خلاف .

اختلفوا في الهاء في قوله « له » الى من ترجع ، فقال ابن زيد : على اسم النبي صلى الله عليه وآله في قوله « انما انت منذر » وقال غيره: على اسم الله في قوله «عالم الغيب والشهادة ». وقال قوم : على(من) في قوله « من اسر القول ومن جهر » فكأنه قال للانسان معقبات. وهو الأقوى. والمعقبات في هذا الموضع هم الملائكة، فقال الحسن وقتادة ومجاهد: ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار، وقال ابن عباس - في رواية - انهم الامراء والولاة لهم حرس واعوان يحفظونهم . وقال الحسن: هم اربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر ، والمعقبات المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ، ويكون بدلاً منه . وأصل التعقيب كون شيء بعد آخر ، فالمعقبات الكائنات على خلف بعضها لبعض بعد ذهابه ، والمعقب الطالب دينه مرة بعد اخرى قال لبيد :

حتى تهجر في الرواح وهاجه طلب المعقب حقه المظلوم[1]

ومنه العقاب لانه يستحق عقيب المعصية . والعقاب لانه يعقب بطلبه لصيده

---

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٧٩ وتفسير الطبري ١٣ : ٧٢

مرة بعد مرة ، والعقب لانه يعقب به لشده على الشيء مرة بعد مرة ، وهو جمع الجمع ، لان واحده معقب مثل رجالة ورجالات . وفي قراة أهل البيت « له معقبات من خلفه ورقيب بين يديه » قالوا لان المعقب لا يكون الامن خلفه . وقوله « يحفظونه من امر الله » قيل في معناه اقول :

احدها - قال الحسن وقتادة : المعنى بأمر الله ، كما تقول جئتك من دعائك اياي اي بدعائك ، وفي قراءة اهل البيت « بأمر الله » .

وقال مجاهد وابراهيم : يحفظونه من امر الله من الجن والهوام . والمعنى ذلك الحفظ من امر الله .

وقال قوم : معناه عن أمر الله ، كما يقال أطعمه عن جوع ومن جوع .

وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، كأنه قال له معقبات من بين يديه ومن خلفه من أمر الله يحفظونه ، وانما قال يحفظونه على التذكير مع قوله « له معقبات » على التأنيث حملاً على المعنى ، وفي تفسير اهل البيت إن معناه يحفظونه بأمر الله .

وقوله « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » معناه ان الله لا يسلب قوماً نعمة حتى يعملوا بمعاصيه التي يستوجبون بها العقاب فانه حينئذ يعاقبهم ويغير نعمه عليهم .

وفي ذلك دلالة على فساد قول المجبرة : إن الله يعذب الاطفال ، لانهم لم يغيروا ما بأنفسهم بمعصية كانت منهم . والتغيير تصيير الشيء على خلاف ما كان مما لو شوهد شوهد على خلاف ما كان .

وقوله «واذا اراد الله بقوم سوءاً» يعنى هلاكاً «فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال » معناه لا يقدر أحد على دفعه ولا نصرته عليه بل هو تعالى الغالب لكل شيء القاهر لمن يريد قهره ، والوالي فاعل من ولي يلي فهو وال ووليّ مثل عالم وعليم ، والله ولي المؤمن اي ناصره ، والمعنى لا يتولاهم أحد الا الله .

قوله تعالى :

(هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِىءُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ (١٣) وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي ٱللهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ) (١٤) آيتان بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه هو الذي يري الخلق البرق اي يجعلهم على صفة الرؤية بايجاد المرئي لهم وجعله إياهم على هذه الصفة التي يرون معها المرتيات من كونهم احياء ورفع الموانع والافات منهم يقال : أراه يريه إراءة إذاجعله رائياً مثل أقامه يقيمه إقامة ، وهو مشتق من الرؤية . والبرق ما ينقدح من السحاب من اللمعان كعمود النار وجمعه بروق وفيه معنى السرعة ، يقال : امض في حاجتك كالبرق ، والخوف انزعاج النفس بتوهم وقوع الضرر ، خاف من كذا يخاف خوفاً فهو خائف . والشيء مخوف . والطمع تقدير النفس لوقوع ما يتوهم من المحبوب . ومثله الرجاء والامل .

وقيل في معنى قوله « خوفاً وطمعاً » قولان :

احدهما - قال الحسن : خوفاً من الصواعق التي تكون مع البرق وطمعاً في الغيث الذي يزيل الجدب والقحط .

وقال قتادة : خوفاً للمسافرين من اذاه وطمعاً للمقيم في الرزق به ، وهما منصوبان على أنه مفعول له .

وقوله « وينشىء السحاب الثقال » والانشاء فعل الشيء من غير سبب مولد ، ولذلك قيل النشأة الاولى ، والنشأة الثانية . ومثله الاختراع والابتداع . والسحاب هو الغيم ، سمي به ، لانه ينسحب في السماء . واذا قيل سحابة جمعت

على سحائب ، كقولك غمامة وغمائم والسحاب جمع سحابة ، والثقال جمع ثقيل مثل شريف وشراف وكريم وكرام . والثقل الاعتماد الى جهة السفل ؛ والمعنى إن السحاب ثقال بالماء ، وهو قول مجاهد .

وقوله « ويسبح الرعد بحمده » فالتسبيح تنزيه الله عز وجل عما لا يجوز عليه ، والتنزيه له من كل صفة نقص تضاف اليه ، واصله البراءة من الشيء قال الشاعر :

اقول لما جاءني فخره   سبحان من علقمة الفاخر[1]

اي براءة منه . و(الرعد) اصطكاك اجرام السحاب بقدرة الله تعالى وفيه أعظم العبرة واوضح الدلالة ، لانه مع ثقله وهوله ، وغلظ جرمه حتى يسمع مثل الرعد في عظمه معلق بقدرته تعالى لا يسقط الى الارض منه شيء ثم ينقشع كأنه لم يكن ، ولاشيء منه ، وقد ذكرنا اختلاف المفسرين في الرعد في سورة البقرة[2] . والحمد الوصف بالجميل من الاحسان على وجه التعظيم .

وقيل في معنى قوله «ويسبح الرعد بحمده» ثلاثة اقوال :

احدها - يسبح بما فيه من الدلالة على تعظيم الله ووجوب حمده ، فكأنه هو المسبح لله عز وجل .

الثاني - انه يسبح بما فيه من الآية التي تدعو الى تسبيح الله تعالى .

الثالث ان الرعد ملك يزجر السحاب بالصوت الذي يسمع ، وهو تسبيح الله بما يذكره من تعظيم الله .

وقوله «والملائكة من خيفته» تقديره ويسبحه الملائكة من خيفته . والفرق بين الخيفة والخوف ، ان الخيفة صفة للحال مثل قولك: هذه ركبة اي حال من

---

(١) مر هذا البيت في ١ : ١٣٤ ، ٣ : ٨١ ، ٥ : ٢٤١ ، ٣٩٥

(٢) في ١ : ٩٢

الركوب الحسن ، وكذلك هذه خيفـة شديدة . والخوف مصدره مطلق غير مضمن بالحال .

وقوله « ويرسل الصواعق » وهي جمع صاعقة وهي نار لطيفة تسقط من السماء بحال هائلة من شدة الرعد وعظم الامر يقال : إنها قد تسقط على النخلة وكثير من الاشجار تحرقها ، وعلى الحيوان فتقتله .

وقوله « فيصيب بها » يعني بالصاعقة من يشاء من عباده . وقوله « وهم يجادلون في الله » يعني هؤلاء الجهال مع مشاهدتهم لهـذه الآيات يخاصمون اهل التوحيد ، ويحاولون فتلهم عن مذهبهم بجدالهم . والجدال فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج .

وقوله « وهو شديد المحال » فالشدة قوة العقدة وفي بدن فلان شدة اي قوة كقوة العقدة ، وشدة العقاب قوته يغلظ على النفس ، كقوة العقدة ، والمحال الأخذ بالعقاب ، يقال ماحلت فلاناً اماحله مماحلة ومحالاً ، ومحلت به أمحل محلاً إذا فتلته الى هلكه . والميم أصلية في المحل يقال محّلني يا فلان اي قوّني . وقال الجبائي : شديد الكيد للكفار ، وسني المحل سني الهلاك بالقحط . واصله الفتل الى الهلاك قال الاعشي :

فرع نبع يهتز في غصن المجـ ـد غزير الندى شديد المحال[1]

وقيل فيمن نزلت هذه الآية قولان :

احدهما – قال أنس بن مالك وعبد الرحمن صحار العبدي ، ومجاهد : انها نزلت في رجل من الطغاة جاء الى النبي ﷺ يجاد له ، فقال يا محمد ممّ ربك أمن لؤلؤ ام يا قوت أم من ذهب ام من فضة ؟ فأرسل الله عليه صاعقة ، فذهبت بقحفه .

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٦٦ وتفسير الطبري ١٣ : ٧٥ المحال : العقوبة

وقال ابن جريج : نزلت في أربد ، لما أراد هو وعامر بن الطفيل قتل رسول الله ﷺ فجفت يده على قائم سيفه ، فرجع خائباً ، فارسل الله (عز وجل) عليه في طريقه صاعقة فأحرقته وابتلى عامراً بغدة كغدة البعير قتلته حتى قال عند موته : غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية . وفي ذلك يقول لبيد ابن ربيعة في أربد ، وكان اخاه :

اخشى على أربد الحتوف ولا ... أرهب نوء السماك والاسد

ففجعني البرق والصواعق بالـ ... ـفارس يوم الكريهة النجد[1]

قوله تعالى :

(لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) (١٥) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى بأن له (عزوجل) دعوة الحق . وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

احدها - قال ابن عباس وقتادة وابن زيد إنها شهادة ان لا إله على اخلاص التوحيد .

الثاني - قال الحسن: الله هو الحق ، فمن دعاه دعا الحق . وقال قوم : كل دعوة هي حق جاز ان تضاف الى الله ، قال ابو علي دعوة الحق هي الدعوة التي يدعى الله بها على اخلاص التوحيد، والدعوة طلب فعل الشيء، فالانسان يدعو ربه ان يدخله في رحمتة وهو أهل المغفرة والرحمة ، وكل ما لابسه الانسان ، فقد دخل فيه . والمعنى لله من خلقه الدعوة الحق. وقوله «والذين يدعون من دونه» قيل في معناه قولان :

---

(١) تفسير الطبرى (الطبعة الاولى) ١٣ : ٧١ ، ٧٤ ومجمع البيان ٣ : ٢٨٣

احدهما – قال الحسن : والذين يدعون من الاوثان لحاجاتهم .

الثاني – الذين يدعون أرباباً . وقيل ان المعنى الذين يدعون غيره مقصرين عن دعائهم له ، كما قال الشاعر :

اتوعدني وراء بني رياح كذبت لتقصرن يداك دوني[١]

اي عني . «لا يستجيبون لهم بشيء» فالاستجابة متابعة الداعي فيما دعا اليه بموافقة إرادته والاستجابة ، والاجابة واحد إلا ان صيغة الاستجابة تفيد طلب الموافقة ، قال الشاعر :

وداع دعا يا من يجيب الى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب[٢]

وقوله « إلا كباسط كفيه الى الماء» معناه قال مجاهد : كباسط كفه الى الماء مشيراً اليه من غير تناول الاناء ليبلغ فاه ببسط كفه ودعائه له . وقال الحسن معناه كباسط كفيه الى الماء ، فمات قبل ان يصل اليه . والعرب تضربه مثلاً لمن سعى فيما لا يدركه كالقابض على الماء قال الشاعر :

فأني واياكم وشوقاً اليكم كقابض ماء لم تسقه اناملة[٣]

وقال الآخر :

فاصبحت مما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد[٤]

«وما هو ببالغه» إخبار منه تعالى ان من كان كذلك لا يبلغ الماء فاه. ثم أخبر تعالى فقال «وما دعاء الكافرين إلا في ضلال» أي ليس دعاؤهم الاوثان من دون الله إلا الاضلال عن الحق وعدولاً عن طريقه وأنه جار مجرى ما ذكره من باسط كفيه

---

(١) تفسير الطبري ٢ : ٩٠ ، ١٣ : ٧٦

(٢) قد مر هذا البيت في ١ : ٣٦ ، ٨٦ ، ٢ : ١٣١ ، ٣ : ٨٨ ، ٤ : ١٨٢ ، ٥ : ١١٩ وهو في اللسان والتاج (جوب) واماني القالي ٢ : ١١٥ ومجاز القرآن ١ : ٦٧ ، ٣٢٦ .

(٣) قائلة ضابي بن الحارث البرجمي . تفسير الطبري ١٣ : ٧٦ ومجمع البيان ٣ : ٢٨٤ .

(٤) مجاز القرآن ١ : ٣٢٧ والطبري ١٣ : ٧٦ والقرطبي ٩ : ٣٠١ والشوكاني ٣ : ٩٦ ومجمع البيان ٣ : ٢٨٤ .

الى الماء ، وهو بعيد منه من غير أن يتناوله ويدعوه الى فمه ، فان ذلك لا يصل اليه أبداً .

قوله تعالى :

(وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ) (١٦) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى ان جميع من في السموات والارض يسجدون له إما طوعاً منهم او كرهاً . وقيل في معنى ذلك ثلاثة اقوال :

احدها – قال الحسن وقتادة وابن زيد : ان المؤمن يسجد طوعاً ، والكافر يسجد كرهاً بالسيف ، ويكون المعنى على هذا إن السجود واجب لله ، فالمؤمن يفعله طوعاً والكافر يؤخذ بالسجود كرهاً اي هذا الحكم في وجوب السجود لله

الثاني – ان المؤمن يسجد لله طوعاً ، والكافر في حكم الساجد كرهاً بما فيه من الحاجة اليه ، والذلة التي تدعو الى الخضوع لله تعالى .

الثالث – قال ابو علي : سجود الكره بالتذليل للتصريف من عافية الى مرض، وغنى الى فقر وحياة الى موت كتذليل الأكم للحوافر في قول الشاعر :

ترى الاكم فيها سجداً للحوافر(١)

وقال الزجاج: يجوز انيكون المعنى إن فيمن سجد للهمن يسهل ذلك عليه وفيهم من يشقّ عليه فيكرهه ، كما قال « حملته أمّه كرهاً وضعته كرهاً »(٢) .

وقوله « وظلالهم بالغدو والاصال » أي وتسجد ظلالهم . وقيل في معناه قولان :

احدهما – ان سجود الظلال بما فيه من تغير الذلة التي تدعو إلى صانع غير

---

(١) قد مر هذا البيت في ١ : ٢٦٣ ، ٤ : ٢٣٣ ، ٦/١٩٧، ٢٣٥ .

(٢) سورة الاحقاق ٤٦ آية ١٥

مصنوع له العزة والقدرة .

والثاني – قيل سجود الظل لأنه يقصر بارتفاع الشمس ويطول بانحطاطها ، وذلك من آيات الله الدالة عليه ، والسجود هو وضع الوجه على الارض على وجه الخضوع مذلّة لمن وضع له ، وأصله التذليل من قول الشاعر :

بجمع تظل البلق في حجراتـه ترى الاكم فيها سجداً للحوافر[١]

واصل السجود هو الميل والتطأطؤ يقال : سجد البعير وأسجده صاحبه إذا طأطأه ليركبه شبه السجود في الصلاة بذلـــك وعلى هذا يحمل سجود الظلال وسجود الكفار، ويراد بذلك حركاتهم وتصاريفهم، فان ذلك أجمع يدل على أن الله الخالق لهم والمدبر لمعايشهم ، والطوع الانقياد للأمر الذي يدعا اليه من قبل النفس وهو نقيض الكره، والكره الجر الى الأمر على إباء النفس، واصله الكراهة ضد الارادة ، إلا انه جعل نقيض الطوع . والظلال جمع ظل وهو ستر الشخص ما بازائه . والظلّ الظّليل هو ستر الشمس اللازم . واما الفيء فهو الذي يرجع بعد ذهاب ضوئه ، ومنه الظلّة ، لانها ساترة . والظلّ والظّلال مثـــل زق وزقاق . والآصال جمع أصل ، والأصل جمع أصيل ، وهو العشيّ ، فكأنه قيل أصل الليل الذي ينشأ منه ، لانه مأخوذ من الأصيل، وهو ما بـــين العصر الى مغرب الشمس ، قال ابو ذؤيب :

لعمري لانت البيت اكرم أهله واقعد في افنائه بالاصائل[٢]

قوله تعالى :

(قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل ٱللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي

(١) قدمر في ١ : ٢٦٣ ، ٤ : ٢٣٣ .
(٢) تفسير الطبري ١٣/٧٧ وروايته (وابعد) بدل (واقعد)

الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ (١٧) أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (١٨) آية في الكوفي وآيتان في البصري والمدنيين تمام الاولى « والنور » .

قرأ أهل الكوفة إلا «حفصاً أم هل يستوي» بالياء. الباقون بالتاء، من قرأ بالتاء فلانه مسند الى مؤنث لم يفصل بينه وبين فاعله بشيء كما قال «قالت الاعراب»(١)، و «قالت اليهود»(٢) و «اذ قالت أمة»(٣) وقد جاء في مثل ذلك التذكير، كقوله « وقال نسوة »(٤) ومن قرأ بالياء، فلانه تأنيث غير حقيقي والفعل مقدّم .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ، يأمره بأن يقول لهؤلاء الكفار «من رب السماوات والارض» أي من مدبرهما ومصرّفهما على ما فيهما من العجائب، فانهم لا يمكنهم أن يدّعوا أنّ مدبر السماوات والارض الاصنام التي يعبدونها، فاذا لم يمكنهم ذلك، فقل لهم رب السماوات والارض وما بينهما من انواع الحيوان والنبات والجماد «الله» تعالى، فاذا أقروا بذلك فقل لهم على وجـه التبكيت لهم والتوبيخ لفعلهم : أفاتّخذتم من دون الله اولياء توجهون عبادتكم اليهم ؟! فالصورة صورة الاستفهام والمراد به التقريع والتوبيخ. ثم بين ان هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من الاصنام والاوثان لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ومن لا يملك لنفسه ذلك فانه بأن لا يملك لغيره اولى وأحرى، ومن كان كذلك كيف يستحق العبادة ثم قال لهم « هـل يستوى الأعمى والبصير » ام هل يتساوى الأعمى عن طريق الحق والعادل عنه الى الضلال . والبصير الذي اهتدى الى الحق، فـإنهما لا يتساويان ابداً، كما لا

---

(١) سورة الحجرات آية ١٤
(٢) سورة البقرة آية ١١٣ والتوبة آية ٣٠ والمائدة ١٩، ٦٥
(٣) سورة الاعراف آية ١٦٤ (٤) سورة يوسف ١٢ آية ٣٠،

يتساوى الظلمات والنور . ثم قال هل جعلوا يعني هـؤلاء الكفار لله شركاء في العبــــادة خلقوا أفعالاً مثل خلق الله ، من خلق الأجسام والألوان والطعوم والاراجيح، والموت والحياة ، والشهوة والنفار ، وغير ذلك من الافعال الـتي يختص تعالى بالقدرة عليها فاشتبه ذلك عليهم ، فظنوا انها تستحق العبادة ، لان افعالها مثل افعال الله، فاذا لم يكن ذلك شبيهاً بل كان معلوماً لهم ان جميع ذلك ليست من جهة الاصنام ، فقل لهم الله خالق كل شيء اي هو خالق جميع ذلك يعني ما تقدم من الأفعال التي يستحق بها العبادة .

وقوله « وهو الواحد القهار » اي الخالق لذلك واحد لا ثاني له وهو الذي يقهر كل قادر سواه لا يقدر على امتناعه منه .

ومن تعلق من المجبرة بقوله « قل الله خالق كل شيء » على ان أفعال العباد مخلوقة لله ، فقد أبعد ، لان المراد بذلك ما قدمناه من أنه تعالى خالق كل شيء يستحق بخلقه العبادة دون ما لا يستحق به ذلك . ولو كان المراد ما قالوه لكان فيه حجة للخلق على الله تعالى وبطل التوبيخ الذي تضمنته الآية الى من وجـه عبادته الى الاصنام ، لانه إذا كان الخالق لعبادتهم الاصنام هو الله على قول المجبرة فلا توبيخ يتوجه على الكفار ، ولا لوم يلحقهم بل لهم ان يقولوا : إنك خلقت فينا ذلك فما ذنبنا فيه ولم توبخنا على فعل فعلته؟فتبطل حينئذ فائدة الآية. على أنه تعالى إنما نفى ان يكون أحد يخلق مثل خلقه ، ونحن لا نقول إن احداً يخلق مثل خلق الله ، لان خلق الله اختراع مبتدع ، وافعال غيره مفعولة في محـــل القدرة عليه مباشراً او متولداً في غيره بسبب حـــال في محل القدرة ولا يقدر أحدنا على اختراع الأفعال في غيره على وجه من الوجوه ، ولان احدنا يفعل ما يجرّ به نفعاً او يدفع به ضرراً ، والله تعالى لا يفعل لذلك فبان الفرق بين خلقنا وخلقه . ولان احدنا يفعل بقدرة محدثة . يفعلها الله فيه والله تعالى يفعل، لانـه قادر لنفسه . وايضاً فان ههنا اجناساً لا نقدر عليها ، وهو تعالى قادر على جميع الاجناس ، ونحن لا نقدر ان نفعل بقدرة واحدة في وقت واحد في محل واحد

من جنس واحد اكثر من جزء واحد ، والله تعالى يقدر ان يفعل مـا لا نهاية له فبان الفرق بيننا وبينه من هذه الوجوه .

قوله تعالى :

(أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ) (١٩) آية واحدة بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا ابا بكر « ومما يوقدون» بالياء. الباقون بالتاء . قال أبو علي : من قرأ بالتاء فلما قبله من الخطاب ، وهو قوله «قل أفاتخذتم» ويجوز ان يكون خطاباً عاماً ، يراد به الكافة ، فكان المعنى « مما توقدون » عليه ايهـا الموقدون زبد مثل زبدالماء الذي عليه السيل «فاما الزبدفيذهب جفاء» لا ينتفع به كما ينتفع بما يخلص بعد الزبد من المـاء والذهب والفضة والصفر . ومن قرأ بالياء ، فلان الغيبة قد تقدم في قوله « ام جعلوا لله شركاء » ويجوز ان يراد بـه جميع الناس ويقوي ذلك قوله « واما ما ينفع الناس » فكما ان الناس يعم المؤمن والكافر كذلك الضمير في « يوقدون » وقال « وممـا يوقدون عليه في النار » كقوله « فاوقد لي يا هامان على الطين »[١] فهذا إيقاد على ما ليس في النار ، وان كان يلحقه وهجها ولهبها. وأما قوله «بورك من في النار»[٢] فالمعنى على من في قرب النار، وليس يراد به متوغلها «ومن حولها»[٣] ومن لم يقرب منها قرب الآخرين

(١) سورة القصص ٢٨ آية ٣٨ (٣٠٢) سورة النمل ٢٧ آية ٨

ألا ترى ان قوله «وممن حولكم من الاعراب منافقون»[١] لم يقرب المنافقون الذين حولهم فيه قرب المخالطين لهم حيث يحضرونه ويشهدونه في مشاهدهم .

قال الحسن يقول الذي « آنزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها » الى قوله « ابتغاء حلية » الذهب والفضة والمتاع والصفر والحديد « كذلك يضرب الله الحق والباطل» كما أوقد على الذهب والفضة والصفر والحديد، فيخلص خالصه، « كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأمـا ما ينفع الناس فيمكث في الارض » قال فكذلك الحق بقي لأهله فانتفعوا به .

وقرأ الحسن «بقدرها» بتخفيف الدال وهما لغتان يقال أعطى قدر شبر وفي المصدر بالتخفيف لا غير تقول: قدرت اقدر قدراً، وفي المثل التخفيف، والتثقيل تقول : هم يختصمون في القدر بالسكون والحركة قال الشاعر :

الا يا لقـوم للنوائب والقـدر ... وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري[٢]

أخبر الله تعالى انه هو الذي ينزل من السماء مـاء يعني الامطار والغيوث ، فتسيل هذه المياه أودية بقدرها من القلة والكثرة. والسيل جري الماء من الوادي على وجه الكثرة . يقال جـاء السيل يغرق الدنيا، وسال بهم السيل إذا جحفهم بكثرته . والوادي سفح الجبل العظيم المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر، ومنه اشتقاق الدية ، لانه جمع المال العظيم الذي يؤدى عن القتيل ، والقدر إقران الشيء بغيره من غير زيادة ولا نقصان. والوزن يزيد وينقص، فاذا كان مساوياً، فهو القدر .

وقوله « فاحتمل السيل زبداً رابياً » فالاحتمال رفع الشيء على الظهر بقـوة الحامل له ، ويقال علا صوته على فلان فاحتمله ، ولم يغضبه ، فقوله هذا يحتمل وجهين: معناه له قوة يحمل بها الوجهين، والزبد وضر الغليان، وهو خبث الغليان ومنه زبد القدر ، وزبد السيل ، وزبد البعير. والجفاء ممدود مثل الغثاء وأصله

(١) سورة التوبة ٩ آية ١٠١
(٢) مجمع البيان ٣ : ٢٨٦

الهمزة يقال جفا الوادي جفاء . قال الفراء: كل شيء ينضم بعضه الى بعض فأنه يجيء على (فعال) مثل الحطام والقماش والغشاء والجفاء ، فاذا أردت المصدر ، فهو مقصور .

وقوله « رابياً » معناه زائداً، يقال ربا يربو رباً فهو راب. ومنه الربا المحرم.

وقوله « ومما توقدون عليه » اي ومن ذلك توقدون عليه زبد مثله، والايقاد القاء الحطب في النار أوقد ايقاداً واستوقدت النار واتّقدت وتوقّدت .

وقوله « ابتغاء حلية » معناه طلب حلية من الذهب والفضة أو متاع يعني الصفر والحديد ، والمتاع ما تمتعت به قال الشاعر :

تمتع يا مشعّث إن شيئاً سبقت به الممات هو المتاع[1]

«زبد مثله»يعني من الذي يوقد عليه زبد مثل زبد السيل،ومثل الشيء ما سد مسده ، وقام مقامه ، فيما يرجع الى ذاته .

وقوله «كذلك يضرب الله الحق والباطل» اي يضرب المثل للحق والباطل، وضرب المثل تسييره في البلاد حتى يتمثل به الناس .

وقوله «فاما الزبد فيذهب جفاء» اخبار منه تعالى ان الزبد الذي يعلو على الماء والنار يذهب باطلا وهالكاً ، قال أبو عبيدة قال أبو عمرو ، وتقول العرب أجفأت القدر إذا غلت فانصب زبدها ، وسكنت فلا يبقى منه شيء . والجفاء ممدود مثل الغثاء ، واصله الهمز .

وقوله «واما ما ينفع الناس» من الماء الصافي، والذهب، والفضة، والحديد، والصفر «فيمكث في الارض» اي يلبث ويثبت . والمكث الكون في المكان على مرور الزمان مكث يمكث مكثاً وتمكث تمكثاً والمكث طول المقام .

وقوله «كذلك يضرب الله الامثال» اي يضرب الله مثل الحق والباطل بالماء الذي ينزل من السماء، وبجواهر الارض ، فإن لها جميعاً زبداً ، هذا عند سيله

---

(١) قائلة المشعث العامري . مجاز القرآن ١ : ٣٢٨ واللسان والتاج (متع) ومعجم المرزباني ٤٧٥ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ : ٨١ .

وجريه ، وهذا عند اذابته بالنار وهو وسخه وخبثه ، فالحق ثابت كالماء الذي يبقى في الارض ينبت به الزرع والشجر وكالجواهر التي في ايدي الناس تصبر على النار ، فلا تبطل فينتفعون بها . والباطل كزبد هذين يذهب، لا منفعة فيه بعد ان يرى له حركة واضطراب. وفي ذلك تنبيه لمن تقدم ذكره من المشركين الذين سألوا الآيات على سبيل التكذيب والعناد .

قوله تعالى :

(لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَى وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ) (٢٠) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين يجيبون دعاء الله الى طريق التوحيد والعمل بشريعته وتصديق نبيه ويطلبون مرضاته في فعل ما دعاهم اليه، لهم الحسني ، وهي المنفعة العظمى في الحسن ، وقال المفسرون: أراد بالحسنى الجنة والخلود في نعيمها . وان الذين لم يجيبوا دعاءه ولم يقرّوا بنبيه ولم يعملوا بما دعاهم اليه «لو ان لهم ما في الارض جميعاً» ملكاً لهم ويضيفوا اليه مثله في الكثرة لافتدوا بجميع ذلك أنفسهم من عذاب النار وطلبوا به الخلاص منه، لو قبل ذلك منهم. والافتداء جعل أحد الشيئين بدلاً من الآخر على وجه الاتقاء به، فهؤلاء لا يقيهم من عذاب الله شيء – نعوذ بالله منه – ثم أخبر تعالى ان لهؤلاء سوء الحساب . وقيل في معناه قولان :

قال ابراهيم النخعي : ان سوء الحساب هو مؤاخذة العبد بذنبه لا يغفر له شيء منه .

وقال الجبائي : معناه واخذه بـــه على وجه التوبيخ والتقريع. والحساب إحصاء ما على العبد وله، يقال : حاسبته حساباً ومحاسبة، وحسبه يحسبه حسباً وحسباناً .

وقوله «ومأواهم جهنم وبئس المهاد» فالمهاد الفراش الذي يوطأ لصاحبه، وانما قيل لجهنم : مهاد أي هي موضع المهاد لهم .

قوله تعالى :

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (٢١) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى انمن يؤمن بالله ويعلم انما أنزل اليك يامحمد من ربك الحق، لا يكون مثل من يشهد ذلك وعمي عنه، فاخرج الكلام مخرج الاستفهام والمراد به الانكار، أي لا يكون هذان مستويين، وبين ان الفرق بينهما بمنزلة الفرق بين الاعمى والبصير .

وقوله «انما يتذكر اولوا الالباب» معناه إنما يتذكر في ذلـك ويفكر فيه ويستدل به ذوو العقول والمعرفة . والالباب هي العقول، واحدها لب . ولبّ الشيء أجل ما فيه واخلصه واجوده، فلب الانسان عقله لانه أجل مـا فيه، ولب النخلة قلبها، ولب الطلعة ثمرتها التي فيها، وانما شبه العلم بالبصر، والجهل بالعمى، لان العـلم يهتدى بـه الى طريق الرشد من الغي كما يهتدى بالبصر الى طريق النجاة من طريق الهلاك، وعكس ذلك حال الجهل والغي. قال الرماني: وجه الاحتجاج بالآية انه إذا كانت حال الجاهل كحال الاعمى، وحـال العالم كحال البصير وأمكن هذا الأعمى ان يستفيد بصراً، فما الذي يبعده عن طلب العلم الذي يخرجه عن حال الاعمى بالجهل؟!. وهذا إلزام طلب العلم،لانه خروج عن حال الأعمى بالجهل الى البصير بالعلم .

وقوله « انما يتذكر أولوا الالباب » معناه إنما ينتفع بالذكر من كان له لب ، كقولك: إنما يترك السرف والبغي من له عقل وعلم بالعواقب، وان كان كثير ممن له عقل لا يترك ذلك ولا يفكر في العواقب .

قوله تعالى :

(أَلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ) (٢٢) آية بلا خلاف .

موضع « الذين » رفع لأنه صفة لاولى الالباب ، فكأنه قال إنما يتذكر أولوا الالباب الذين صفتهم أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون مواثيقه. والايفاء جعل الشيء على المقدار من غير زيادة ولا نقصان ، والعهد العقد المتقدم على الأمر بما يفعل، والنهي عما يجتنب يقال: عهد لله عهداً ، وعاهده معاهدة . وتعهده تعهداً وتعاهده تعاهداً ، والنقض حل العقد بفعل ما ينافيه ، والنقيض معنى تنافي صحته صحة غيره . والنقض في المعاني إيجاد ما لا يمكن ان يصح مع غيره ، كاعتقاد ان زيداً في الدار وليس هو فيها على وجه واحد . والميثاق العهد الواقع على إحكام . توثق توثقاً واستوثق استيثاقاً ؛ وواثقه مواثقة ، ووثق به وثوقاً ، وارثقه ايثاقاً ، ووثقه توثيقاً .

والعهد الذي جعله فيعقول العباد ما جعل فيها من اقتضاء صحة أمور الدين وفساد أمور أخر ، كاقتضاء الفعل للفاعل ، وأنه لا يصح الفعل الا ان يكون فاعله قادراً ، وان الحكم لا يصح الا من عالم ، وان الصانع لا بد ان يرجع الى صانع غير مصنوع ، والا أدى الى ما لا نهاية له ، وان للعالم مدبر لا يشبهه ، ولا يحتاج الى مدبر لحاجته وما أشبه ذلك . وقد يكون ايضاً على العهد الذي عاهد عليه النبي ﷺ . وفي الآية دلالة على وجوب الوفاء بالعهود التي تنعقد بين الخلق سواء كان بين المسلمين او الكفار، من الهدنة وغيرها .

قوله تعالى :

(وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ) (٢٣) آية بلا خلاف .

هذه الآية عطف على الاولى، وهي من صفة الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون ميثاقه ، وانهم مع ذلك « يصلون ما أمر الله به أن يوصل » والوصل ضد الفصل يقال وصله يصله وصلاً ، وأوصله إيصالاً ، واتصل اتصالاً ، وتواصلوا تواصلاً ، وواصله مواصلة ، ووصله توصيلاً . والوصل ضم الثاني الى الاول من غير فاصلة . وقيل : المعنى يصلون الرحم . وقال الحسن : المعنى يصلون محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله « ويخشون ربهم » اي يخافون عقابه فيتركون معاصيه « ويخافون سوء الحساب » وقد فسرناه . والخوف والخشية والفزع نظائر ، وهو انزعاج النفس بما لا تأمن معه من الضرر ، وضد الأمن الخوف . والسوء ورود ما يشق على النفس ، ساءه يسوءه سوءاً ، وأساء اليه إساءة . والاساءة ضد الاحسان . وقيل « سوء الحساب » مناقشة الحساب . والحساب احصاءما على العامل وله ، وهو - ههنا - إحصاءما على المجازى وله .

قوله تعالى :

(وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ) (٢٤) آية بلا خلاف.

هذه الآية ايضاً من تمام وصف الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون ميثاقه ويصلون ما امر الله بوصله ، ويصبرون على ترك معاصي الله ، والقيام بما أوجبه عليهم ، والصبر على بلاء الله وشدائده من الامراض والفقر وغير ذلك . والصبر

حبس النفس عما تنازع اليه مما لا يجوز من الفعل وهو تجرع مرارة تمنع النفس مما تحب من الامر .

ومعنى قوله « ابتغاء وجه ربهم » اي يفعلون ذلك طلب عظمة ربهم . والعرب تقول ذلك في تعظيم الشيء يقولون: هذا وجه الرأي، وهذا نفس الرأي المعظم ، فكذلك سبيل وجه ربهم اي نفسه المعظم بما لا شيء اعظم منه ، ولا شيء يساويه في العظم . والمعنى ابتغاء ثواب ربهم .

وقوله « وأقاموا الصلاة » يعني اقاموها بحدودها . وقيل: معناه داوموا على فعلها و« انفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية » اي ظاهراً وباطناً ، ما يجب عليهم من الزكاة ، وما ندبوا اليه من الصدقات . والسر إخفاء المعنى في النفس، ومنه السرور ، لانه لذة تحصل في النفس ، ومنه السرير ، لانه مجلس سرور .

وقوله « ويدرؤن بالحسنة السيئة » معناه يدفعون بفعل الطاعة المعاصي ، يقال: درأته ادرؤه درءاً إذا دفعة . وقال ابن زيد : الصبر على وجهين :

احدهما – الصبر لله على ما احب . والآخر – الصبر على ما كره، كما قال «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »وقيل ويدرؤن سفه الجهال بما فيهم من الحلوم. وقيل: انهم يدفعون ظلم الغير عن نفوسهم بالرفق والمواعظ الحسنة . ثم قال تعالى مخبراً ان هؤلاء الذين وصفهم بهذه الصفات « لهم عقبى الدار » اي عاقبة الدار، وهي الجنة التي وعد الله الصابرين بها .

قوله تعالى :

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٥) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (٢٦) آيتان في الكوفي والبصري. وآية في الباقي تمام الاولى في الكوفي والبصري. «من كل باب»

يقول الله تعالى إن من وصفه بالصفات المذكورة «لهم عقبى الدار» وهي «جنات عدن» قال الزجاج: (جنات) بدل على قوله «عقبى الدار» والجنات البساتين التي يحفها الشجر واحدها جنة وأصله الستر من قوله «جن عليه الليل»[١] وجنه اذا ستره. و (العدن) الاقامة الطويلة، عدن بالمكان إذا اقام به يعدن عدناً، ومنه المعادن التي يخرج منها الذهب والفضة وغيرهما.

وقوله «ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرّياتهم» اي ويدخل هذه الجنات الذين عملوا الصالحات من آباء المؤمنين، ومن أزواجهم وذرياتهم. والصلاح استقامة الحال الى ما يدعو إليه العقل او الشرع. والمصلح من يفعل الصلاح، والصالح المستقيم الحال في نفسه.

وقوله «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب» اي يدخلون من كل باب بالتحية والكرامة، وفي ذلك تعظيم الذكر للملائكة. وفي الآية دلالة على ان ثواب المطيع لله سروره بما يراه في غيره من أحبّته، لانهم يسرون بدخول الجنة مع من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وهم أولادهم. وذلك يقتضي سرورهم بهذا الخبر. وقوله «سلام عليكم بما صبرتم» اي يقول هؤلاء الملائكة الداخلون عليهم «سلام عليكم». والسلام التحية بالكرامة على انتفاء كل امر يشوبه من مضرة. والقول محذوف لدلالة الكلام عليه. والعقبى الانتهاء الذي يؤدي اليه الابتداء من خير او شر، فعقبى المؤمن الجنة فهي نعم الدار، وعقبى الكافر النار، وهي بئس الدار. و (البـاء) في قوله «بما صبرتهم» يتعلق بمعنى «سلام عليكم» لانه دل على السلامة لكم بما صبرتم، ويحتمل ان يتعلق بمحذوف، وتقديره هذه الكرامة لكم بما صبرتم.

وقيل في معنى «بما صبرتم» قولان:

احدهما - ان تكون (ما) بمعنى المصدر، فكأنه قال: بصبركم.

والثاني - ان تكون بمعنى (الذي) كأنه قال بالذي صبرتم على فعل طاعاته وتجنب معاصيه.

---

(١) سورة الانعام ٦ آية ٧٦

قوله تعالى :

(وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ) (٢٧) آية بلا خلاف .

لما ذكر الله تعالى الذين يوفون بعهده ، ولا ينقضون ميثاقه ، ووصفهم بالصفات التي يستحقون بها الجنة ،وهي عقبى الدار، اخبر بعد ذلك عن حال من ينقض عهده من بعد اعطائه المواثيق ، ويقطع ما امر الله به ان يوصل ، وهو ما بيّناه من صلة الرحم اوصله النبي ﷺ ويفسد مع ذلك في الارض ، ومعناه ان يعمل فيها بمعاصي الله والظلم لعباده ، واخراب بلاده ، فهؤلاء لهم اللعنة ، وهي الابعاد من رحمة الله ، والتبعيد من جنته ، «ولهم سوء الدار» يعني عذاب النار ، والخلود فيها . وقد بينا معنى النقض ، وأنه التفريق بين شيئين متآلفين ، ومثله الهدم ، ونقض العهد هو العمل بخلاف موجبه ، والعهد عقد يتقدم به في الامر وعهد الله عقده ، وهو لزوم العمل بالحق في جميع ما اوجبه عليه ، والميثاق احكام العقد بأبلغ ما يكون مثله ، وميثاق العهد توثيقه بأوكد ما يكون من الأمر . والقطع نقيض الوصل ، وقطع ما امر الله به ان يوصل؛ في كل عمل يجب تنميته ، من صلة رحم او غيره من الفروض اللازمة ، والافساد نقيض الاصلاح.

قوله تعالى :

(ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ) (٢٨) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه «يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» ومعناه يوسعه على من يشاء

من عباده، بحسب ما يعلم من مصلحته،ويضيّقه على آخرين اذا علم ان مصلحتهم في ذلك .

وقوله «وفرحوا بالحياة الدنيا» معناه وسروا – هؤلاء الذين بسط لهم في الرزق – بالرزق في الحياه الدنيا فنسوا فناءه وبقاء امر الآخرة . ويحتمل ان يكون اراد به أنهم فرحوا فرح البطر ، كقوله «ان الله لا يحب الفرحين» [١] والفرح هو السرور ، وهو لذة في القلب بنيل المشتهى ، ومنه قوله «فرحين بما آتاهم الله من فضله» . [٢]

ثم قال تعالى «وما الحياة الدنيا في الآخرة الامتاع» ومعناه ليست هذه الحياة الدنيا بالاضافة الى الحياة في الآخرة «إلا متاع» اي إلا قليل ذاهب في – قول مجاهد – وانما كان كذلك ، لان هذه فانية وتلك دائمة باقية . والمتاع ما يقع من الانتفاع به في العاجلة ، وأصله التمتع ، وهو التلذذ بالأمر العاجل ، ولذلك وصفت الدنيا بأنها متاع . والقدر قطع الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان ، والمقدار المثال الذي يعمل فيه غيره في مساواته ، ومعنى ويقدر – ههنا – يضيق . وقال ابن عباس : ان الله تعالى خلق الخلق فجعل الغنا لبعضهم صلاحاً ، والفقر لبعضهم صلاحاً ، فذلك الخيار للفريقين .

قوله تعالى :

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) (٢٩) آية بلا خلاف.

حكى الله تعالى في هذه الآية عن الكفار الذين وصفهم انهم يقولون «لولا أنزل» على محمد «آية» يعني علامة ومعجزة . والمعنى هلا انزل عليه آية من ربه

---

(١) سورة القصص ٢٨ آية ٧٦ (٢) سورة آل عمران ٣ آية ١٧٠

يقترحونها، ويعلمون انها انزلت من ربه، وذلك لما لم يستدلوا، فيعلموا مدلول الآيات التي اتى بها لم يعتدوا بتلك الآيات، فقالوا هذا القول جهلا منهم بها، فأمر الله نبيه ان يقول لهم «ان الله يضل من يشاء» بمعنى انه يحكم على من يشاء بالضلال اذا ضل عن طريق الحق، ويجوز ان يكون المراد «يضل من يشاء» عن طريق الجنة بسوء أفعالهم وعظم معاصيهم، ولا يجوز ان يريد بذلك الاضلال عن الحق، لان ذلك سفه لا يفعله الله تعالى.

وقوله «ويهدي اليه من أناب» اي يحكم لمن رجع الى طاعة الله والعمل بها بالجنة ويهديه اليها. والهداية الدلالة التي تؤدي الى طريق الرشد بدلاً من طريق الغي، والمراد بها – ههنا – الحكم له بسلوك طريق الجنة رفعاً لقدره، ومدحاً لصاحبه. والاضلال العدول بالمارّ عن طريق النجاة الى طريق الهلاك، والمراد – ههنا – الحكم له بالعدول عن طريق الجنة وسلوك طريق النار، والإنابة الرجوع الى الحق بالتوبة، يقال: ناب ينوب نوبة اذا رجع مرة بعد مرة.

قوله تعالى:

(أَلَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ) (٣٠) آية بلا خلاف.

موضع «الذين» نصب، لأنه من صفة من أناب، وتقديره ويهدي الله الذين أنابوا الى الله «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله» والايمان – ههنا – هو الاعتراف بتوحيد الله على جميع صفاته، والاقرار بنبوة نبيه، وقبول ما جاء به من عند الله، والعمل بما أوجبه عليهم، وفي اللغة: الايمان هو التصديق.

وقوله «وتطمئن قلوبهم بذكر الله» أي تسكن قلوبهم وتأنس الى ذكر الله الذي معه ايمان به، لما في ذلك من ذكر نعمه التي لاتحصى وآياديه التي لا تجازى، مع عظيم سلطانه وبسط إحسانه. والذكر حضور المعنى للنفس، وقد يسمى العلم ذكراً، والقول الذي فيه المعنى الحاضر للنفس يسمى ذكراً. ووصف الله

تعالى - ههنا - المؤمن بأنه يطمئن قلبه الى ذكر الله، ووصفه في موضع آخر بأنه إذا ذكر الله وجل قلبه[١]، لان المراد بالاول انه يذكر ثوابه وانعامه، فيسكن اليه، والثاني يذكر عقابه وانتقامه فيخافه ويجل قلبه.

وقوله «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» إخبار منه تعالى ان بذكر الله تسكن القلوب وتستأنس وتطمئن الى ما وعد الله به من الثواب والنعيم، ومن لم يكن مؤمناً عارفاً لا يسكن قلبه الى ذلك.

قوله تعالى:

(أَلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)

(٣١) آية بلا خلاف.

يحتمل قوله «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» ان يكون في موضع نصب بأن يكون من صفة «الذين» في الآية الاولى، ويحتمل ان يكون رفعاً بالابتداء، فكأنه أخبر ان الذين يؤمنون بالله ويعترفون بوحدانيته ويصدقون نبيّه، ويعملون بما أوجبه عليهم من الطاعات، ويجتنبون ما نهاهم عنه من المعاصي «طوبى لهم» وقيل في معناه عشرة أقوال:

احدها - لهم بطيب العيش.

وثانيها - قال ابن عباس: معناه فرح لهم تقرّبه أعينهم.

وثالثها - قال قتادة: معناه الحسنى لهم.

ورابعها - قال عكرمة: نعم ما لهم.

وخامسها - قال الضحاك: غبطة لهم.

وسادسها - قال ابراهيم: كرامة لهم من الله.

وسابعها - قال مجاهد: الجنة لهم.

---

(١) في سورة الانفال ٨ آية ٢ «انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون».

وثامنها – قال ابو هريرة : طوبى شجرة في الجنة .

وتاسعها - قال الجبائي : تأنيث الاطيب من صفة الجنة، والمعنى إنها أطيب الأشياء لهم .

وعاشرها – قال الزجاج: المعنى العيش الأطيب لهم .

وهذه الأقوال متقاربة المعنى .

وقوله «وحسن مآب» فالمآب المرجع يقال: آب يؤب أوباً ومآباً إذا رجع، وسمي المثوى في الآخرة مآباً، ومنقلباً، لأن العباد يصيرون اليه، كما يصيرون الى ما كانوا انصرفوا عنه. والحسن النفع الذي يتقبله العقل، وقد يجري على ما تتقبله النفس ، كما يجري القبح الذي هو نقيضه على ما ينافره الطبع ، والمعنى إن لهم طوبى ولهم حسن مآب ، و « طوبى » في موضع رفع « وحسن مآب » عطف عليه ويجوز ان يكون موضعه النصب ، وينصب « حسن مآب » على الاتباع كما يجوز الحمدِ لله ، ولم يقرأ به .

قوله تعالى :

(كَذٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) (٣٢) آية بلا خلاف.

قيل في التشبيه في قوله « كذلك أرسلناك » وجهان :

احدهما– قال الحسن والجبائي: إن المعنى إنا ارسلناك كما أرسلنا الأنبياء قبلك.

وقال قوم : ان المعنى إن النعمة على من أرسلناك اليه، كالنعمة على من تقدم ذكره بالثواب في «حسن مآب»، والمعنى إنا ارسلناك يا محمد «في أمّة» قد مضت « من قبلها أمم » وغرضي ان تتلو أي تقرأ عليهم ما « اوحينا اليك » من الأمر والنهي والوعد والوعيد .

والارسال تحميل الرسول الرسالة، فرسول الله قد حمله الله رسالة الى عباده، فيها أمره ونهيه وبيان ما يريده وما يكرهه. والأمة الجماعة الكثيرة من الحيوان التي ترجع الى معنى خاص لها دون غيره، فمن ذلك أمة موسى، وأمة عيسى، وأمة محمد ﷺ، وكذلك كل جنس من أجناس الحيوان أمة، لاختصاصها بمعنى جنسها، فعلى هذا العرب أمة، والترك أمة، والزنج أمة، و (الخلو) مضي الشيء بنقيضه على تجرد مما كان عليه، كأنه ينفيه دون احواله التي كان عليها، فقد انفرد عنها. و (التلاوة) جعل الثاني يلي الأول بعده بلا فصل. والتلاوة والقراءة واحد.

وقوله «وهم يكفرون بالرحمن» إنما قال «بالرحمن» دون (الله) لان اهل الجاهلية من قريش، قالوا الله نعرفه، والرحمن لا نعرفه. وكذلك قالوا «وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا»[1] وقال «قل أدعوا الله أو ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى»[2]، وهو قول الحسن، وقتادة.

ثم أمر الله تعالى نبيه ان يقول لهم «هو» يعني الرحمن «ربي» أي خالقي ومدبري «لا إله إلا هو» ليس لي إله ولا معبود سواه «عليه توكلت» أي وثقت به في تدبيره وحسن اختياره. والتوكل التوثيق في تدبير النفس برده الى الله «وإليه متاب» أي الى الله الرحمن توبتي وهو الندم على ماسلف من الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة الى مثله في القبح، والمتاب والتوبة مصدران، يقال: تاب يتوب توبة ومتاباً.

قوله تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَايْئَسِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ

---

(١) سورة الفرقان ٢٥ آية ٦٠ (٢) سورة الأسرى ١٧ آية ١١٠

لَوْ يَشَاءُ ٱللهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ) (٣٣) آية بلا خلاف .

هذه الآية تتضمن وصف القرآن بغاية مـا يمكن من علو المنزلة وبلوغه أعلى طبقات الجلال، لانه تعالى قال «لو أن قرآناً سيرت به الجبال» من مواضعها وقلعت من أماكنها لعظم محله وجلالة قدره . والتسيير تصيير الشيء بحيث يسير، تقول سار يسير سيراً ، وسيره غيره تسييراً . « أو قطعت به الارض » لمثل ذلك . والتقطيع تكثير القطع ، قطعه قطعة ، وقطّعه تقطيعاً . والقطع فصل المتصل. « او كلم به الموتى » لمثل ذلك حتى يعيشوا او يحيوا ، تقول: كلمه كلاماً، وتكلم تكلماً ، والكلام ما انتظم من حرفين فصاعداً من الحروف المعقولة إذا وقع ممن يصح منه او من قبيلة ، لافادة . و (الموتى) جمع ميت مثل صريع وصرعى ، وجريح وجرحى . ولم يجيء جواب (لو) لدلالة الكلام عليه ، وتقديره : لكان هذا القرآن لعظم محله في نفسه وجلالة قدره . وكان سبب ذلك أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ان يسيّر عنهم جبال مكة لتتسع عليهم المواضع، فأنزل الله تعالى الآية، وبين انه لو سيرت الجبال بكلام، لسيرت بهذا القرآن لعظم مرتبته وجلالة قدره. وقد يحذف جواب (لو) إذا كان في الكلام دلالة عليه، قال امرؤ القيس:

فلو انها نفس تموت سوية ... ولكنها نفس تساقط أنفسا[١]

وهو آخر القصيدة ، وقال الآخر :

فأقسم لو شيء اتانا رسوله ... سواك ولكن لم نجد لك مدفعا[٢]

وقال الفراء : يجوز ان يكون جوابه (لكفروا بالرحمن) لتقدم ما يقتضيه ،

---

(١) ديوانه (الطبعة الرابعة) : ١١٧ وروايته (جميعه) بدل (سوية) وبعده اربع أبيات من القصيدة ، وقد مر هذا البيت في ٦ : ١٢٢

(٢) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢: ١٢، ١٣ : ٩٠، وقد مر فيا سف في ٥: ٥٢٩

وقال البلخي . يجوز ان يكون معطوفاً على قوله « وهم يكفرون بالرحمن ... ولو ان قرآناً » ويستغنى بذلك عن الجواب ، كما تقول: هو يشتمني ولو أحسنت اليه ، وهو يؤذيني ولو اكرمته .

وقوله «بل لله الامر جميعاً» معناه ان جميع ما ذكر - من تسيير الجبال وتقطيع الارض وإحياء الموتى ، وكل تدبير يجري هذا المجرى - لله ، لانه لا يملكه ولا يقدر عليه سواه .

وقوله « أفلم ييأس الذين آمنوا » قيل في معناه قولان :

احدهما - قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، وابو عبيدة : معناه أفلم يعلم ، قال سحيم :

اقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم ييأسوا اني ابن فارس زهدم[1]

معناه ألم يعلموا .

الثاني - قال الفراء : معناه « افلم ييأس الذين آمنوا » ان ينقطع طمعهم من خلاف هذا ، علما بصحته ، كما قال لبيد :

حتى اذا يئس الرماة فأرسلوا عصفاً دواجن قافلا اعصامها[2]

معناه: حتى اذا يئسوا من كل شيء الا الذي ظهر اي يئسوا من خلاف ذلك لعلمهم بصحته ، والعلم بالشيء يوجب اليأس من خلافه .

وقوله «لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً» معناه الم يعلموا ان الله لو أراد ان يهدي خلقه كلهم الى جنته لهدا هم، لكنه كلفهم لينالوا الثواب بطاعاتهم على وجه الاستحقاق . ويحتمل ان يكون المعنى لو اراد ان يلجئهم إلى الاهتداء لقدر على على ذلك ، لكنه ينافي التكليف ويبطل الغرض منه .

---

(١) الشاعر هو سحيم بن وثيل الرياحي . والبيت في تفسير الطبري ١٣ : ٩٠

(٢) تفسير الطبري ١٣ : ٩١ واللسان (دجن) ، (عصم) وروايته (غضفاً) بدل (عصفاً) ، يقصد ارسلوا الكلاب .

وقوله « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة » فالقارعة هي الداهية المهلكة ، وهي النازلة التي تزعج بالنعمة ، تقول : قرعتهم تقرعهم قرعاً وهي قارعة ، ومنه المقرعة .

وقوله « او تحل قريباً من دارهم » قيل في معناه قولان :

احدهما – قال ابن عباس: او تحل، اي تنزل – يا محمد – قريباً من دارهم . والحلول حصول الشيء في الشيء، وحملوا قوله «تصيبهم قارعة» على نزول السرايا بهم او يحل النبي صلى الله عليه وسلم قريباً منهم .

وقال الحسن : المعنى او تحل القارعة قريباً من دارهم .

وقوله « حتى يأتي وعد الله » قال قتادة معناه حتى يأتي وعده بفتح مكة . وقال الحسن : معناه حتى يأتي يوم القيامة .

وقوله « ان الله لا يخلف الميعاد » اخبار منه تعالى انه لا خلف لوعده بل لا بد ان يفعل ما وعد به او توعد عليه . وامر الله ما يصح ان يأمر فيه وينهى عنه وهو عام . واصله الامر نقيض النهي ، والاصابة لحوق ما طلب بالارادة، اصاب الغرض يصيبه إصابة وهو مصيب ، ومنه الصواب إدراك البغية المطلوبة بداعي الحكمة .

وروي عن ابن عباس انه قرأ «أفلم يتبين الذين آمنوا» من التبيين . وروي مثله عن علي عليه السلام رواه الطبري . وقال الزجاج : معناه افلم يعلم الذين آمنوا ان هؤلاء لا يؤمنون مع قوله « لو شاء الله لهدى الناس جميعاً » .

قوله تعالى :

(وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) (٣٤) آية بلا خلاف.

اللام في قوله « ولقد » لام القسم ، ومعنى الكلام انه اقسم تعالى انه لقد

استهزىء برسل من قبلك يا محمد أرسلهم الله. والاستهزاء طلب الهزء وهو اظهار خلاف الاضمار للاستضعاف فيما يجري من عبث الخطاب . والرسل جمع رسول ، وهو المحمّل للرسالة . والرسالة كلام يؤخذ لتأديته الى صاحبه .

وقوله « فامليت للذين كفروا » اي اخرت عقابهم وإهلاكهم وأمهلتهم ، يقال : أملى يملي إملاء ومنه قوله « انما نملي لهم ليزدادوا إثما »[(١)] واصله طول المدة ، ومنه قليل لليل والنهار : الملوان لطولها ، قال ابن مقبل :

الا يا ديار الحي بالسَّبُعان أملَّ عليها بالبلى الملوان[(٢)]

وقوله « ثم اخذتهم » يعني الذين استهزؤا برسل الله وكفروا بآيات الله ، أهلكتهم وانزلت عليهم عذابي « فيكيف كان عقاب » وهو العذاب على وجه الجزاء .

ومعنى الآية تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من سفهاء قومه من الكفر والاستهزاء عند دعائه إياهم إلى توحيده والايمان به ، بأنه قد نال مثل هذا الأنبياء قبلك فصبروا ، فاصبر أنت ايضاً مثل ذلك ، كما قال « فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل »[(٣)]

قوله تعالى :

(أَفَمَنْ هُوَ قَـائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ

---

(١) سورة آل عمران اية ١٧٨

(٢) الكتاب لسيبويه ٢ : ٣١٥ وتفسير الطبرى ١٤ : ١٣٢ وسمط اللآلي ٥٣٣ واللسان (سبع) ومجاز القرآن ١ : ١٠٩ ، ٣٣٣ . وقد روى (الح) بدل (امل) .

(٣) سورة ٤٦ الاحقاق آية ٣٥

وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (٣٥) آية بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة « وصدوا » بضم الصاد . الباقون بفتحها ، قال ابو علي : قال ابو عمرو ، عن ابي الحسن : صد وصددته مثل رجع ورجعته ، قال الشاعر :

صدت كما صـــد عما لا يحل له ساقي نصارى قبيل الفصح صوام[1]

فهذا صدت في نفسها ، وقال الآخر :

صددت الكأس عنا ام عمرو

واما قوله « ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام »[2] فالمعنى يصدون المسلمين عن المسجد الحرام ، فكان المفعول محذوفـــاً . وقوله « رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً »[3] يكون على يصدون عنك اي لا يبايعونك ، كما يبايعك المسلمون ، ويجوز ان يكونوا يصدون غيرهم عن الايمان ، كما صدوا هم عنه ، ويثبطون عنه . وحجة من اسند الفعل الى الفاعل ، قوله « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله »[4] وقوله « هم الذين كفروا وصدوكم عـن المسجد الحرام »[5] فكما اسند الفعل الى الفاعل في جميع هذه الآي كذلك اسند في قوله « وصدوا عن السبيل » وقيل : إن قوماً جلسوا على الطريق ، فصدوا الناس عن النبي صلى الله عليه وآله فيهم نزلت الآية .

ومن بنى الفعل للمفعول به جعل فاعل الصد غواتهم والعتاة منهم في كفرهم ، وقد يكون على نحو ما يقال : صد فلان عن الخير وصد عنه ، يعنى انه لم يفعل خيراً ، ولا يراد : ان مانعاً منعه . فأما قوله « وكذلك زين لفرعون سوء عمله

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٩٤
(٢) سورة ٢٢ الحج آية ٢٥
(٣) سورة ٤ النساء آية ٦١
(٤) سورة ٤ النساء آية ١٦٦ وسورة النحل ١٦ آية ٨٨ وسورة محمد ٤٧ آية ١ ، ٣٢ ، ٣٤
(٥) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٥

وصد عن السبيل »[١] فالفتح الوجه ، لأنه لم يصده عن الإيمان احد ، ولم يمنعه منه، والذي زين ذلك له الشيطان ، كما قال « و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل »[٢]

معنى قوله « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » من هو قائم بتدبيرها وجزائها على ما كسبت من خير او شر ، كمن ليس بهذه الصفة ، وحذف الخبر لدلالة الكلام عليه .

وقوله «وجعلوا لله شركاء» في العبادة ، فعبدوا الاصنام ، والاوثان .

وقوله « قل سموهم » اي سموهم بما يستحقون من الاسماء التي هي صفات . ثم انظروا هل تدل صفاتهم على أنه يجوز أن يعبدوا ام لا ؟

وقوله « ام تنبئونه بما لا يعلم في الارض ام بظهار من القول » معناه إلا ان يصفوهم بما لا يصح أن يعلم صحته، فيخرجوا بذلك الى التجاهل او يقتصروا على ظاهر القول من غير رجوع الى حقيقة ، وهو قول مجاهد وقتادة. وقال ابو علي: معنى « بظهار من القول » الذي انزله الله على انبيائه .

وقوله « بل زين للذين كفروا مكرهم » اي زين ذلك لهم انفسهم وغواتهم من شياطين الانس والجن ، ولا يجوز ان يكون المراد زين بالشهوة ، لأن المكر ليس مما يشتهى « وصدوا عن السبيل » اي منعوا عن طريق الحق بالاغواء والمنع . ويجوز ان يكون المراد واعرضوا عن طريق الجنة .

وقوله « ومن يضلل الله فماله من هاد » قيل في معناه قولان :

احدهما - من حكم الله عليه بأنه ضال على وجه الذم ، فإنه لا ينفعه هداية احد .

والآخر - ان من يضله الله عن طريق الجنة الى النار ، فلا هادٍ يهديه اليها، ولا يجوز ان يكون المراد من يضله عن الايمان ، لان ذلك سفه لا يفعله الله تعالى .

---

(١) سورة المؤمن : (غافر) ٤٠ آية ٣٧ (٢) سورة النمل ٢٧ آية ٢٤

قوله تعالى :

(لَهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَاقٍ) (٣٦) آية بلا خلاف .

في هذه الآية إخبار منه تعالى ان لهؤلاء الكفار الذين وصفهم « لهم عذاب في الحياة الدنيا » وهو ما يفعل بهم من القتل والاسترقاق وسبي الذراري والاموال. ويجوز ان يريد ما يفعله الله بكثير منهم من الآلام العظيمة على وجه العقوبة .ثم قال «ولعذاب الآخرة اشق » اي أشد مشقة، والمشقة : غلظ الامر على النفس بما يكاد يصدع القلب .

وقوله « وما لهم من الله من واق » اي ليس لهم من عذاب الله من يمنعهم منه . والواقي المانع ، وهو الفاعل للوقاية ، والوقاية الحجر بما يدفع الاذية ، وقاه يقيه وقاية ، فهو واق ، ووقّاه توقية .

قوله تعالى

(مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَعُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلنَّارُ) (٣٧) آية بلا خلاف .

قيل في معنى « مثل الجنة » اقوال :

قال سيبويه : فيما نقص عليكم مثل الجنة ، فرفع (مثل) على الابتداء .وحذف الخبر .

وقال بعضهم معناه شبه الجنة ، والخبر محذوف ، وتقديره مثل الجنة التي هي الانهار ، كما قال الله تعالى « ولله المثل الاعلى »[1] معناه الصفة الاعلى .

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٠

وقال قوم: معناه صفة «الجنة التي وعدالمتقون» صفة جنة تجري من تحتها الانهار، والجنة البستان الذي يجنه الشجر، والمراد - ههنا - جنة الخلد التي اعدها الله للمتقين جزاء لهم على طاعاتهم وانتهائهم عن معاصيه، والمتقي هو الذي يتقي عقاب الله بفعل الواجبات وترك المقبحات.

وقوله «اكلها دائم» قيل في معناه قولان:

احدهما - ان ثمارها لا تنقطع، كما تنقطع ثمار الدنيا في غير ازمنتها - في قول الحسن.

الثاني - النعيم به لا ينقطع بموت، ولا بغيره من الآفات.

وقوله «وظلها» اي وظل الجنة دائم ايضاً ليس لها حر الشمس. ثم اخبر ان ذلك عاقبة الذين اتقوا معاصي الله بفعل طاعاته. وأخبر أن عاقبة الكافرين - الجاحدين لتوحيد الله المنكرين لنعمه - النار، والكون فيها على وجه الدوام - نعوذ بالله منها -

قوله تعالى:

(وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ) (٣٨) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين آتيناهم الكتاب، ومعناه اعطاهم، «يفرحون بما انزل» على محمد صلى الله عليه وآله وقال الحسن وقتادة ومجاهد: هم اصحاب النبي صلى الله عليه وآله الذين آمنو به وصدقوه. والأحزاب هم اليهود والنصارى والمجوس. وقال الجبائي: يجوز ان يعنى بالفرح به اليهود والنصارى، لأن ما أتى به مصدق لما معهم، وأما انكار بعضهم، فهو انكار بعض معانيه وما يدل على صدقه أو يخالف أحكامهم. و (الاحزاب) جمع حزب، وهم الجماعة التي تقوم بالنائبة، يقال تحزب القوم تحزباً وحزبهم الأمر يحزبهم إذا نالهم بمكروهه.

وقوله «قل إنما أمرت ان اعبد الله ولا اشرك به» في عبادته احداً، أدعو الى الله، والاقرار بتوحيده وصفاته وتوجيه العبادة اليه وحده، «واليه مآب» اي مرجعي ومصيري؛ من قولهم: آب يؤب أوباً ومآباً، والمعنى يرجع الى حيث لا يملك الضرر والنفع إلا الله تعالى.

قوله تعالى:

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ) (٣٩) آية

قيل في وجه التشبيه في قوله «وكذلك» قولان:

احدهما ـ انه شبه انزاله حكماً عربياً بما أنزل إلى من تقدم من الانبياء.

الثاني ـ انه شبه انزاله حكماً عربياً بإنزاله كتاباً، تبياناً في انه منعم بجميع ذلك على العباد. و(الحكم) فصل الأمر على الحق، واذا قيل: حكم بالباطل، فهو مثل قولهم: حجة داحضة. و (العربي) هو الجاري على مذاهب العرب في كلامها فالقرآن عربي [على هذا المعنى، لان المعاني فيه على ما تدعو اليه الحكمة](١) والالفاظ على مذاهب العرب في الكلام. [وقيل: انما سماه حكماً عربياً لانه أتى به نبي عربي](٢).

وقوله «ولئن اتّبعت اهواءهم» خطاب للنبي صلى الله عليه وآله، والمراد به الأمة، يقول له لئن وافقت وطلبت اهواء الذين كفروا بعد ان جاء العلم، لان ما اتيناك من الدلالات والمعجزات للعلم. والاتباع طلب اللحاق بالأول كيف تصرف. اتبعه اتباعاً وتبعه يتبعه، فهو تابع وذلك متبوع. والهوى ـ مقصور ـ هوى النفس. والهواء ـ ممدود ـ هواء الجوف، والهوى ميل الطباع الى الشيء بالشهوة. و (العلم) ما اقتضى سكون النفس.

---

(١) ما بين القوسين من المخطوطة وهو ساقط من المطبوعة.

(٢) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة ايضاً.

وقوله « مالك من الله من وليّ ولا واق » معناه متى ما ابتعت أهواء هؤلاء الكفار، لم يكن لك من الله وليّ ولا ناصر يعُينك عليه، ويمنعك من عذابه «ولا واق» ولا من يقيك منه ، يقال : وقاه وقاية واتقاه ، وتوقاه توقياً ، والواقي الفاعل للحجر عن الأذى .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) (٤٠) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى انه أرسل قبل إرسال نبيه محمد ﷺ رسلاً الى خلقه ، وجعل لهم ازواجاً وذرية، يعني اولاداً ، لانهم كانوا انكروا تزويج النبي بالنساء ، فبين الله تعالى ان الأنبياء قبله كان لهم أزواج وذرية ، وقد آمنوا بهم . ثم قال : وانه لم يكن لرسول يرسله الله ان يجيء بآية ودلالة ، إلا بعد ان يأذن الله في ذلك ويلطف له فيه .

وقوله «لكل أجل كتاب» معناه لكل أجل قدره، كتاب أثبت فيه، فلا تكون آية الا بأجل قد قضاه الله تعالى في كتاب على ما توجبه صحة تدبير العباد. وقيل: فيه تقديم وتأخير وتقديره لكل كتاب أجل ، كما قال « وجاءت سكرة الموت بالحق »[1] ، والمعنى وجاءت سكرة الحق بالموت، وهي قراءة أهل البيت ، وبه قرأ ابو بكر من الصحابة. والذرية الجماعة المفترقة في الولادة عن أب واحد في الجملة ، ويحتمل ان يكون من الذر . وأن يكون من ذرأ الله الخلق اي أظهرهم .

---

(١) سورة ٥٠ (ق) اية ١٩

قوله تعالى :

(يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ) (٤١)

آية بلا خلاف.

وجه اتصال هذه الآية بما تقدم هو أنه لما قال «لكل اجل كتاب» اقتضى ان يدخل فيه اعمال العباد ، فبين ان الله يمحو ما يشاء ، ويثبت ، لئلا يتوهم ان المعصية مثبتة بعد التوبة ، كما هي قبل التوبة . وقيل: ان مما يمحا ويثبت الناسخ والمنسوخ . وقيل يمحو ما يشاء ، ويثبت ، مما يثبته الملكان ، لأنه لا يثبت الا الطاعات والمعاصي دون المباحات . وقيل معناه يمحو ما يشاء من معاصي من يريد التفضل عليه باسقاط عقابه ، ويثبت معاصي من يريد عقابه . والحسنة يثبتها الله قبل فعلها ، بمعنى أنهم سيعملونها ، فاذا عملوها أثبتها بأنهم عملوها ، فلذلك أثبت في الحالين ، والوجه في اثباته ما يكون فيه من المصلحة والاعتبار لمن يفكر فيه بأن ما يحدث ، على كثرته وعظمه، قد أحصاه الله وكتبه، وذلك لا سبيل اليه الا من جهة علام الغيوب الذي يعلم ما يكون قبل أن يكون،واعتبار المشاهدة له من الملائكة إذا قابل مايكون بما هو مكتوب،مع أنه أهول في الصدور ، وأعظم في النفوس مما يتصور معه، حتى كان المفكر فيه مشاهد له . و(المحو) إذهاب أثر الكتابة محاه يمحوه محواً وإمحاء أيضاً ، وأمّحا إمّحاء وامتحا امتحاء.والاثبات الاخبار بوجود الشيء، ونقيضه النفي، وهو الاخبار بعدم الشيء .

وقال ابن عباس ومجاهد : إنه تعالى لا يمحو الشقاء والسعادة ، وهذا مطابق لقول أصحاب الوعيد .

وقال عمر بن الخطاب ، وابن مسعود : هما يمحيان مثل سائر الأشياء ، وهذا مطابق لقول المرجئة من وجه .

وقوله «وعنده أم الكتاب» معناه أصل الكتاب، لانه يكتب أولاً :

سيكون كذا وكذا ، لكل ما يكون، فاذا وقع كتب أنه قد كان ما قيل أنه سيكون. وقيل: أصل الكتاب، لان الكتب التي أنزلت على الانبياء منه نسخت

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ، وعاصم و« يثبت » خفيفة . الباقون مشدّدة .

قال أبو علي : المعنى يمحو الله ما يشاء ويثبته ، فاستغنى بتعدية الاول من الفعلين عن تعدية الثاني ، كما قال « والحافظين فروجهم والحافظات[1] » وزعم سيبويه أن من العرب من يعمل الاول من الفعلين ، ولا يعمل الثاني في شيء ، كقولهم متى رأيت أو قلت زيداً منطلقاً ، قال الشاعر :

بأي كتاب ام بأية سنة ترى حبهم عاراً عليّ وتحسب [2]

فلم يعمل الثاني . وقالوا « أم الكتاب » هو الذكر المذكور في قوله « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذّكر[3] » قال فحجة من شدّد قوله «واشدّ تثبيتا [4]» وقرأ «ويثبّت» ، لان تثبيت مطاوع ثبت وحجة من قال بالتخفيف ما روي عن عائشة : أنه كان إذا صلى صلاة أثبتها ، قال : وثابت مطاوع ثبت ، كما أن يثبت مطاوع ثبت .

قوله تعالى :

(وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ) (٤٢) آية بلا خلاف.

هذا خطاب للنبي ﷺ يقول الله تعالى له إنا ان ارريناك بعض الذي نعد الكفار من العقوبة على كفرهم ، ونصر المؤمنين حتى يظفروا بهم ، فيقتلوهم ويستذلّوا باقيهم إن لم يؤمنوا ، فنبقيك الى أن ترى ذلك ، أو نميتك قبل أن ترى ذلك . وقيل: ان نفعله بهم، لانه ليس ذلك مما لا بدّ ان تراه لا محالة ، فلا تنتظر كونه على ذلك بأن يكون في ايامك. وانما عليك أن تبلغهم ما أرسلناك به اليهم، وتقوم

---

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٥
(٢) مر هذا البيت في ٣/٧٥
(٣) سورة ٢١ الانبياء آية ١٠٥
(٤) سورة ٤ النساء آية ٦٦

في ذلك بما أمرك الله به ، وعلينا نحن حسابهم ، ومجازاتهم والانتقام منهم ، إما عاجلا أو آجلا ، وذلك كائن لامحالة على ما قلناه .

وكسرت الالف من قوله « وإما نرينّك » لأنه من التخيير ، والتقدير ،وإما نرينّك نقمتنا وأنت حي ، وإما نتوفّينّك .

قوله تعالى :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ) (٤٣) آية بلا خلاف .

يقول الله تعالى لهؤلاء الكفار على وجه التنبيه لهم على الاعتبار بأفعال الله ، أو ما يرون أنّا ننقص الارض من أطرافها ؟ وقيل في معناه أربعة أقوال :

قال ابن عباس والحسن والضحاك : ما فتح على المسلمين من أرض المشركين.

وقال مجاهد ، وقتادة : وننقصها بموت اهلها. وفي رواية أخرى عن ابن عباس ومجاهد: بموت العلماء . وفي رواية أخرى عنهما : بخرابها . ثمّ أخبر أن الله تعالى يحكم ويفصل الأمر ولا احد يعقّب حكمه ، ولا يقدر على ذلك ، وأنه سريع المجازاة على افعال العباد ، على الطاعات بالثواب ، وعلى المعاصي بالعقاب. والنقص أخذ الشيء من الجملة ، وفي فلان نقص أي نقص منزلة عن منزلة عظيمة في المقدور أو المعلوم ، والثاني للامور . والطرف منتهى الشيء ، وهو موضع من الشيء ليس وراءه ما هو منه . وأطراف الأرض نواحيها . والتعقيب ردّ الشيء بعد فصله، ومنه عقّب العقاب على صيده إذ أردّ الكرور عليه بعد فصله عنه قال لبيد :

حتى تهجّر في الرواح وهاجه طلب المعقّب حقه المظلوم[١]

---

(١) اللسان (عقب) ومجمع البيان ٣/٢٧٩ ، وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣/٧٢

والسرعة عمل الشيء في قلة المدة ، على ما تقتضيه الحكمة ، وضده الابطاء، والسرعة محمودة والعجلة مذمومة .

قوله تعالى :

(وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ) (٤٤)

آية بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع « الكافر » على لفظ الواحد . الباقون « الكفار » على لفظ الجمع . قال ابو علي الفارسي في قوله « وسيعلم الكفار » هو المتعدّي الى مفعولين؛ بدلالة تعليق وقوع الاستفهام بعده ، تقول : علمت لمن الغلام ، فتعلقه مع الجار كما تعلقه مع غير الجار في قوله « فسوف يعلمون من تكون له عاقبة الدار » [(١)]

وموضع الجار مع المجرور نصب من حيث سد الكلام – الذي هو الاستفهام – مسدّ المفعولين ، لان من حيث حكمت في نحو مررت بزيد ، فان موضعه نصب ، ولكن الباء الجارّة كانت متعلقة في الاصل بفعل فصار مثل علمت بمن تمر في أن الجارة تتعلق بالمرور ، والجملة التي هي منها في موضع نصب ، وقد علّق الفعل عنها .

ومن قرأ على لفظ الفاعل ، وأنه جعل الكافر اسماً شائعاً كإنسان في قوله « ان الانسان لفي خسر» [(٢)] وزعموا أنه لا ألف فيه وهذا الحذف إنما يقع في (فاعل) نحو خالد ، وصالح ولا يكاد يحذف في (فعال) فهذا حجتهم . وزعموا أن في بعض الحروف « وسيعلم الذين كفروا » ، وقرأ ابن مسعود « وسيعلم الكافرون » فهذا يقوي الجمع .

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٣٦ (٢) سورة ١٠٣ العصر آية ٢

ومن قرأ على لفظ الجمع ، فلأن التهديد متوجّه الى جميع الكفار ، ولا إشكال فيه .

اخبر الله تعالى أن الكفار الذين كانوا قبل هؤلاء الكفار ، مكروا بالمؤمنين واحتالوا في كفرهم . والمكر هو الفتل عن البغية بطريق الحيلة ، تقول مكر يمكر فهو ماكر مكراً ، وقال أبو علي : المكر ضرر ينزل بصاحبه من حيث لا يشعر به .

ثم اخبر تعالى ان له المكر جميعاً ، ومعناه لله جزاء مكرهم ، لانهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله أن وبال مكرهم عليهم بمجازاة الله لهم .

وقوله تعالى : « يعلم ما تكسب كل نفس » معناه أنه لا يخفى عليه ما يكسبه الانسان من خير وشر وغير ذلك ؛ لأنه عالم بجميع المعلومات « وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » تهديد للكفار بأنهم سوف يعلمون لمن تكون عاقبة الجنة للمطيعين أو العاصين ، فإن الله تعالى وعد بذلك المؤمنين دون الكفار والظالمين .

قوله تعالى :

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ) (٤٥) آية بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن الكفار انهم يقولون لك يا محمد انك لست مرسلاً من جهته تعالى ، فقل لهم انت حسبي الله « شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب » . وقيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها – روي عن ابن عباس انه قال : هم اهل الكتاب الذين آمنوا من اليهود والنصارى .

وقال قتادة ومجاهد: منهم عبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري .
وقال الحسن : الذي عنده علم الكتاب هو الله تعالى ، وبه قال الزجاج .

وقال ابو جعفر وابو عبدالله (ع): هم ائمة آل محمد ﷺ، لأنهم الذين عندهم علم الكتاب بجملته لا يشذ عنهم شيء من ذلك دون من ذكروه .

والكفاية وجود الشيء على قدر الحاجة ، فكأنه قيل : قد وجد من الشهادة مقدار ما بنا اليه الحاجة في فصل ما بيننا وبين هؤلاء الكفار . والباء في قوله «بالله» زائدة والتقدير كفى الله . وقال الرماني : دخلت لتحقيق الاضافة من وجهين : جهة الفاعل ، وجهة حرف الاضافة ، لان الفعل لما جاز ان يضاف الى غير فاعله ، بمعنى انه أمر بـه ازيل هذا الاحتمال بهذا التأكيد ، ومثله قوله « لما خلقت بيدي »[1] .

والشهـادة البينة على صحة المعنى من طريق المشاهدة . والشهيد والشاهد واحد، إلا ان في شهيد مبالغة. ووجه الاحتجاج بـ « كفى بالله شهيداً» لأن المعنى كفى الله شهيداً بما اظهر من الآية ، وأبان من الدلالة ،لانه تعالى لا يشهد بصحة النبوة إلا على هذه الصفة إذ قد لزمهم ان يعترفوا لها بالصحة .

وروي عن ابن عباس ومجاهد انهما قرءا « ومن عنده علم » بكسر الميم ،وعلم الكتاب على ما لم يسم فاعله ، وبه قرأ سعيد بن جبير ، ولما قيل له : هو عبد الله بن سلامه، قال : كيف يجوز ذلك والسورة مكية وهو اسلم بعد الهجرة بمدة.

---

(١) سورة ٣٨ ص آية ٧٥

(١٤) سورة ابراهيم

قال قتادة : هي مكية إلا آيتين : قوله « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله » الى قوله «وبئس القرار» . وقال مجاهد هي مكية وليس فيها ناسخ ولامنسوخ .
وهي إثنان وخمسون آية في الكوفي ،
وأربع في المدنيين. وآية في البصري.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الٓر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ* بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (١) ٱللهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) (٢) ثلاث آيات في المـدنيين آخر الاولى. قوله « الى النور » وآيتان عند الباقين .

قرأ ابن عامر ونافع « الله الذي » بالرفع . الباقون بالخفض . قـال ابو علي : من قرأ بالجر جعله بدلاً من الحميد، ولم يكن صفة، لان الاسم وان كان في الأصل مصدراً ، والمصادر يوصف بها كما يوصف بأسماء الفاعلين ، وكذلك كان هذا

الاسم في الاصل (الألاه) ومعناه ذو العبادة اي تجب العبادة له ، قال ابو زيد : يقال تألّه الرجل إذا نسك وأنشد لرؤبة :

سبحن واسترجعن من تألُّهي[1] .

فهذا في أنه في الاصل مصدر قد وصف به مثل السلام والعدل ، الا ان هذا الاسم غلب حتى صار في الغلبة وكثرة الاستعمال كالعلم ، وقد يغلب ما في اصله الصفة فيصير بمنزلة العلم[2] مثل قول الشاعر :

والتيم ألأم من يمشي وألأمهم ذهل بن تيم بنو السود المدانيس[3]

يجوز أن يكون جعل التيم جمع تيميّ كيهودي ويهود . وعلى هذا قال تعالى وقالت اليهود ، ألا ترى أن (يهود) قد جرى في كلامهم إسماً للقبيلة ، كما أن (مجوس) كذلك ، فلولا أن المراد بهما الجمع ، لم يدخلهما الألف واللام ، كما لا يدخل المعارف في نحو زيد وعمرو ، إلا انه جمع بحذف اليائين اللتين للنسب ، كما جمع شعير وشعيرة بحذف التاء ، ومثله (رومي) وروم و(زنجي) وزنج .

ومن رفع قطع عن الاول ، ورفعه بالابتداء ، وجعل (الذي) الخبر ، او جعله صفة وأضمر الخبر . وقد بيّنا معاني الحروف المقطعة في أوائل السور في أول

---

(١) مر هذا الرجز في ١ : ٢٨ .

(٢) كان في المطبوعة على الهامش هذه الحاشية (نابغة الجعدي في الرمل بيته عليه صفيح من تراب وجندل والاصل النابغة ولما غلب نزع منه الالف واللام كما ينزع من اسماء الاعلام نحو زيد وعمرو وربما استعمل في هذا النحو الوجهان واما قول الشاعر) انتهى .
وهو كما ترى بعيد عن المتن من حيث اللهجة والتركيب وظاهر انه ليس من كلام الشيخ الطوسي – رحمه الله – ولكن آخره يشبه المتصل بالمتن لذلك نقلناه فلعل المطلع عليه يستفيد منه .

(٣) قائله جرير . ديوانه (دار بيروت) ٢٥٢ واللسان (تيم) ورواية الديوان :
والتيم ألأم من يمشي وألأمهم اولاد ذهل بنو السود المدانيس
ورواية اللسان :
والتيم ألأم من يمشي وألأمه تيم بن ذهل بنو السود المدانيس

البقرة[١] ، وذكرنا اختلاف المفسرين فيه ، فلا فائدة في اعادته .

وقوله «كتاب أنزلناه إليك» رفع على انه خبر الابتداء ، ومعناه هذا كتاب يعني القرآن أنزله على نبيه محمد ﷺ «ليخرج الناس من الظلمات إلى النور» أي ليخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة الى نور الايمان والهداية .

والظلمة في الأصل سواد الجو المانع من الرؤية تقول أظلم إظلاماً وظلاماً وظلمة . والظلمة ذهاب الضياء بما يستره ، والنور بياض شعاعي تصح معه الرؤية ، ويمنع معه الظلام ، ومنه النار لما فيها من النور . والنور والضياء واحد.

وقال قتادة «من الظلمات الى النور» من الضلالة الى الهدى «بإذن ربهم» اي باطلاق الله ذلك ، وأمره به نبيه ﷺ «الى صراط العزيز الحميد» أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى طريق الله المؤدي إلى معرفة الله «العزيز» يعني القادر على الأشياء الممتنع بقدرته من أن يضام ، المحمود في أفعاله التي أنعم بها على عباده ، الذي له التصرف في جميع ما في السماوات والأرض ، على وجه ليس لأحد الاعتراض عليه .

ثم اخبر تعالى أن الويل للكافرين الذين يجحدون نعم الله ولا يعترفون بوحدانيته . والاقرار بنبيه ﷺ «من عذاب شديد» وهو ما تتضاعف آلامه ، والشدة تجمع يصعب معه التفكك ، شدّه يشدّه شدّاً وشدّة .

وفي الآية دلالة على ان الله يريد الايمان من جميع المكلفين ، لأنه ذكر أنه أنزل كتابه ليخرج الناس من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، لأن اللام لام الغرض ، ولا يجوز أن يكون لام العاقبة ، لانها لو كانت كذلك ، لكان الناس كلهم مؤمنين والمعلوم خلافه .

---

(١) في ١ : ٤٧ – ٥١

قوله تعالى :

(ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) (٣) آية بلا خلاف .

« الذين » في موضع جر، لانه نعت للكافرين، وتقديره وويل للكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة . والاستحباب طلب محبة الشيء بالتعرض لها ، والمحبة إرادة منافع المحبوب . وقد تكون المحبة ميل الطباع . والحياة الدنيا هو المقام في هذه الدنيا العاجلة على الكون في الآخرة . ذمهم الله بذلك ، لان الدنيا دار انتقال ، والآخرة دار مقام .

« ويصدون عن سبيل الله » اي يعرضون بنفوسهم عن اتباع الطريق المؤدي الى معرفة الله ، ويجوز ان يريد انهم يمنعون غيرهم من اتباع سبيل الله تعالى ، يقال : صد عنه يصد صدّاً ، غير متعد ، وصده يصده صدّاً متعد . والسبيل الطريق وكلاهما يؤنث ويذكر ، وهو على السبل اغلب و « يبغونها عوجاً » أي ويطلبون الطريق عوجاً اي عدولاً عن استقامته . و (العوج) خلاف الميل الى الاستقامة ، والعوج – بكسر العين – في الدين ، و – بفتح العين – في العود والبغية طلب المقاصد لموضع الحاجة ، يقال : بغاه يبغيه بغية ، وابتغى ابتغاء ، ودخلت (على) في قوله « يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة » لان المعنى يؤثرونها عليها . ولو قيل من الاخرة ، لجاز ان يكون بمعنى يستبدلونها من الاخرة . وقيل: إنه يجري مجرى قولهم : نزلت على بني فلان، ونزلت في بني فلان، وبني فلان ، كله بمعنى واحد .

وقوله « اولئك في ضلال بعيد » إخبار منه تعالى ان هؤلاء الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الاخرة ، ويصدون عن سبيل الله، في عدول عن الحق، بعيدون عن الاستقامة .

قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٤)

آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى انه لم يرسل فيما مضى من الازمان رسولاً الى قوم إلا بلغة قومه حتى اذا بين لهم ، فهموا عنه ، ولا يحتاجون الى من يترجم عنه .

وقوله « فيضل الله من يشاء » يحتمل امرين :

احدهما – انه يحكم بضلال من يشاء اذا ضلوا هم عن طريق الحق .

الثاني – يضلهم عن طريق الجنة إذا كانوا مستحقين للعقاب و « يهدي من يشاء » الى طريق الجنة « وهو العزيز » يعني القادر الذي لا يقدر أحد على منعه «الحكيم» في جميع افعاله؛ ليس فيها ما له صفة السفه. ويحتمل ان يريد انه محكم لافعاله التي تدل على علمه .

ورفع قوله « فيضل الله » لان التقدير على الاستئناف ، لا العطف على ما مضى ، ومثله قوله « لنبين لكم ونقر في الارحام »[١] ومثله « قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم »[٢] ثم قال بعد ذلك « ويتوب الله على من يشاء »[٣] لانه إذا لم يجز ان يكون عطفاً على ما مضى فينتصب لفساد المعنى فلا بد من استئنافه ورفعه . وقال الحسن: امتن الله على نبيه محمد ﷺ انه لم يبعث رسولاً إلا الى قومه، وبعثه خاصة الى جميع الخلق. وقال مجاهد: بعث الله نبيه الى الاسود والاحمر ولم يبعث نبياً قبله إلا الى قومه واهل لغته .

---

(١) سورة الحج آية ٥ (٣،٢) سورة التوبة آية ١٥ – ١٦

قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ * وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (٥) آية في الكوفي والبصري. وآيتان في المدنيين. آخر الاولى «الى النور».

أخبر الله تعالى انه ارسل موسى نبيه (ع) الى خلقه بآياته ودلالاته «أن أخرج قومك من الظلمات الى النور» اي ارسلناه بأن أخرج قومك من ظلمات الكفر والضلالة الى نور الايمان والهداية بالدعاء لهم الى فعل الايمان، والنهي عن الكفر والتنبيه على ادلته. «وذكرهم بأيام الله» قيل في معناه قولان:

احدهما - قال الحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير: ذكّرهم بنعم الله.

الثاني - ذكّرهم بنعم الله لعاد وثمود وغيرهم من الامم الضالة، قال عمر بن كلثوم:

وايام لنا غر طوال عصينا الملك فيها ان ندينا[1]

وقيل: النعم والنقم من اعدائنا. وقال قوم: اراد خوفهم بهذا، كما يقال: خذه بالشدة واللين. ثم أخبر ان في ذلك دلالات لكلّ من صبر على بلاء الله وشكره على نعمه. والتذكير التعريض للذكر الذي هو خلاف السهو، يقال: ذكّره تذكيراً، وذكره يذكره ذكراً، وتذكر تذكراً، وذاكره مذاكرة. والصبار الكثير الصبر، والصبر حبس النفس عما تنازع اليه مما لا ينبغي.

---

(١) هذا البيت من معلقته الشهيرة. المعلقات السبع (دار بيروت) ١٢٣ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ : ١٠٧ ومجمع البيان ٣ : ٣٠٤ وقد مر في ١ : ٣٦ من هذا الكتاب.

والشكور الكثير الشكر . والشكر هو الاعتراف بالنعمة مـع ضرب من التعظيم ، وضدّه الكفر . (وان) في قوله « أن اخرج » يحتمل ان تكون بمعنى (أي) على وجه التفسير ، ويجوز ان تكون التي تتعلق بالافعال والمعنى قلنا له : اخرج قومك . وقال سيبويه يقول العرب : كتبت اليه أن قم ، وأمرته أن قم، وان شئت كانت (أن) التي وُصلت بالامر . والتأويل على الخبر . والمعنى كتبت اليه ان يقوم وأمرته أن يقوم إلاّ انها وُصلت بلفـظ الامر المخاطب ، والمعنى معنى الخبر ، كما تقول أنت الذي فعلت . والمعنى انت الذي فعل .

قوله تعالى :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ اذْ أَنْجَٰكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (٦)

آية بلا خلاف.

التقدير واذكر يا محمد « إذ قـال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم » في الوقت الذي انجـاكم « من آل فرعون. يسومونكم سوءالعذاب» جملة في موضع الحال . و « يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » وقد فسرناه أجمع في سورة البقرة[١] فلا نطول بإعادته. ودخلت الواو –ههنا– في قوله « ويذبحون ابناءكم » وفي البقرة بلا واو . وقال الفراء: معنى الواو أنه كان يمسهم من العذاب غير التذبيح ، كأنه قال يعذبونكم بغير الذبح. والذبح إذا أطلق كان تفسيراً لصفات العذاب .

---

(١) انظر ١ : ٢١٧ – ٢٢٤ في تفسير آية ٤٩ من سورة البقرة .

وقوله « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » اي في ذلكم نعم من ربكم عظيمة إذ أنجكم منهم . والبلاء قد يكون نعماً ، وعذاباً ، يقال : فلان حسن البلاء عندك اي حسن الانعام عليك ويحتمل ان يكون بمعنى العذاب ، وفي الصبر على ذلك العذاب امتحان من ربكم عظيم .

قوله تعالى :

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) (٨) آيتان بلا خلاف.

وهذه الآية عطف على الاولى، والتقدير واذكروا « إذ تأذن ربكم » اي أعلمكم وقد يستعمل (تفعّل) بمعنى (أفعل) كقولهم اوعدته وتوعّدته، وهو قول الحسن والفراء ، قال الحرث بن حلزة :

آذنتنا ببينها أسماء رُبَّ ثاوٍ يملُّ منه الثواء[1]

والمعنى أعلم ربكم . وقوله « لئن شكرتم لأزيدنكم » التقدير أعلمكم أنكم متى شكرتموني على نعمي، واعترفتم بها زدتكم نعمة الى نعمة « ولئن كفرتم » أي جحدتم نعمتي وكفرتموها « ان عذابي لشديد » لمن كفر نعمتي .

ثم أخبر ان موسى قال لقومه « ان تكفروا » نعم الله وتجحدونها « أنتم » وجميع « من في الارض » من الخلق فإنه لا يضر الله . وإنما يضركم ذلك ، بأن تستحقوا منه العذاب والعقاب «فان الله لغني حميد» اي غني عن شكركم حميد في أفعاله.

والغني هو الحي الذي ليس بمحتاج ، والحميد الكبير لاستحقاق الحمد بعظم

---

(١) من معلقته الشهيرة . المعلقات السبع (دار بيروت) ١٥٥ وقد مر في ١ : ٣٨٠ من هذا الكتاب .

إنعامه ، وهي صفة مبالغة في الحمد ، وقد يكون كفر النعمة بأن يشبه الله بخلقه أو يجوّر في حكمه ، أو يردّ على نبي من انبيائه ، أو كان بمنزلة واحد منها في عظم الفاحشة ، لان الله تعالى منعم بجميع ذلك من حيث أقام الادلة الواضحة على صحة جميع ذلك وغرضه بالنظر في جميعها الثواب الجزيل ، فلذلك كان منعماً بها إن شاء .

قوله تعالى :

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ * وَٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (١٠) آيتان في الكوفي وثلاث آيات في المدنيين والبصري تمام الأولى قوله « وثمود » .

قيل فيمن يتوجه الخطاب اليه في قوله « ألم يأتكم نبؤ » قولان :

احدهما – قال الجبائي : إنه متوجه الى امة النبي ﷺ ذكروا بأخبار من تقدم وما جرى من قصصهم .

والثاني – قال قوم : إنه من قول موسى (ع) لأنه متصل به في الآية المتقدمة يقول الله لهم « الم يأتكم » اي اما جاءكم اخبار من تقدمكم . والنبأ الخبر عما يعظم

شأنه يقال: لهذا الامر نبؤ اي عظم شأن يقال انبأ ينبيء، ونبّأت أنبّيء، ونبأ الله محمداً اي جعله نبياً، وتنبأ مسيلمة اى ادعى النبوة، وليس هو كذلك. و«قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم» كل ذلك مجرور بأنه بدل من الكاف والميم في قوله «قبلكم» وهو مجرور بالاضافة.

وقوله «لا يعلمهم إلا الله» اي لا يعلم تفاصيل أحوالهم وما فعلوه، وفعل بهم من العقوبات، ولا عددهم «إلا الله» ولذلك قال النبي ﷺ (كذب النسابون)

وقوله «جاءتهم رسلهم بالبينات» اي اتتهم رسلهم بالدلالات الواضحات «فردوا أيديهم في أفواههم» وقيل في معناه خمسة اقوال:

احدها – قال عبد الله بن مسعود، وابن زيد: انهم عضوا على اناملهم تغيظاً عليهم في دعائهم الى الله، كما قال «عضو عليكم الانامل من الغيظ»[1]

وثانيها – قال الحسن: جعلوا أيديهم في افواه الانبياء تكذيباً لهم ورداً لما جاؤوا به.

الثالث – قال مجاهد ردوا نعمتهم بأفواههم.

الرابع – قال قوم: يحتمل ان يكونوا ردوا أيدي أنفسهم في أفواه نفوسهم مومئن لهم اي اسكتوا عما تدعونا إليه، كما يفعل الواحد منامع غيره إذا أراد تسكيته. روي ذلك عن ابن عباس ذكره والفراء.

وخامسها – قال قوم: ردوا ما لو قبلوه، لكانت نعمة عليهم في افواههم اي بأفواههم والسنتهم، كما يقولون ادخلك الله بالجنة يريدون في الجنة وهي لغة طي، قال الفراء: انشدني بعضهم:

وارغب فيها عن لقيط ورهطه ولكنني عن سنبس لست ارغب[2]

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٩

(٢) مجمع البيان ٣ : ٣٠٦ وامالي الشريف المرتض ١ : ٣٦٦ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ : ١١١ ولم يعرف قائله.

فقال (ارغب فيها) يريد بها يعنى بنتاً له ، يريد : ارغب بها عن لقيط ، ولا ارغب بها عن قبيلته . وقوله « انا كفرنا بما ارسلتم به » حكاية ايضاً عما قالوا للرسل فإنهم قالوا : إنا قد كفرنا بما ارسلتم به من الدعاء الى الله وحده وتوجيه العبادة إليه ، والعمل بشرائعه « وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب » والريب اخبث الشك المتهم ، وهو الذي يأتي بما فيه التهمة ؛ ولذلك وصفوا به الشك اي انه يوجب تهمة ما اتيتم به يقال : اراب يريب إرابة إذا أتى بما يوجب الريبة ، فقالت لهم حينئذ رسلهم « أفي الله شك » مع قيام الأدلة على وحدانيته وصفاته ، لانه الذي خلق السموات والارض يدعوكم الى عبادته ليغفر لكم من ذنوبكم اذا أطعتموه .

ودخلت (من) ههنا – في قول أبي عبيدة – زائدة ، وأنكر سيبويه زيادتها في الواجب ، وقال أبو علي : دخلت للتبعيض ووضع البعض موضع الجميع توسعاً . وقال قوم : دخلت (من) لتكون المغفرة بدلا من الذنوب ، فدخلت (من) لتضمن المغفرة معنى البدل من السيئة « ويؤخركم الى اجل مسمى » يعنى لا يؤاخذكم بعاجل العذاب ، بل يؤخر الى الوقت الذي ضربه الله لكم ان يمسكم فيه ، فقال لهم قومهم « ان أنتم الا بشر مثلنا » اي ليس انتم الا خلق مثلنا تريدون ان تمنعونا عما كان يعبد اباؤنا من الاصنام والاوثان ، فاتونا بحجة واضحة على ما تدعونه وبطلان ما نحن عليه .

وفي الآية دلالة واضحة على انه تعالى اراد بخلقه الخير والايمان ، لا الشر والكفر ، وأنه إنما بعث الرسل الى الكفار رحمة وتفضلا ، ليؤمنوا ، لا ليكفروا ، لان الرسل قالت : ندعوكم الى الله ليغفر لكم ، فمن قال إن الله أرسل الرسل الى الكفار ليكفروا بهم ويكونوا سوءاً عليهم ووبالاً ، وانما دعوهم ليزدادوا كفراً فقد ردّ ظاهر القرآن .

قوله تعالى :

(قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ

عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ) (١٢) آيتان بلا خلاف .

حكى الله تعالى في هذه الآية ما أجابت به الرسل الكفار ، فإنهم قالوا لهم ما « نحن إلا بشر مثلكم » ولسنا ملائكة ، كما زعمتم « ولكن الله » من علينا فاصطفانا وبعثنا أنبياء وهو « يمن على من يشاء من عباده » ولم يكن لنا ان نجيئكم « بسلطان » اي بحجة على صحة دعوانا إلا بأمر الله واطلاقه لنا في ذلك « وعلى الله » يجب ان يتوكل « المتوكلون » المؤمنون المصدقون به وبأنبيائه .

ثم اخبر انهم قالوا ايضاً « وما لنا ان لا نتوكل على الله » اي ولم لا نتوكل على الله « وقد هدانا » الى سبل الايمان ودلنا على معرفته ووفقنا لتوجيه العبادة اليه ، ولا نشرك به شيئاً ، وضمن لنا على ذلك جزيل الثواب ، « ولنصبرن على ما أذيتمونا » من تكذيبنا وشتمنا في جنب طاعته وابتغاء مرضاته وطلب ثوابه « وعلى الله » يجب ان يتوكل المتوكلون الواثقون بالله دون من كان كافراً ، فان وليه الشيطان .

و « المن » اصله القطع يقال : حبل منين اي منقطع عن بلوغ المنية ، والمنيّة لانها تقطع عن امر الدنيا . « ولهم اجر غير ممنوع »[1] اي غير مقطوع ، والاذى ضرر يجده صاحبه في حاله يقال : آذاه يؤذيه أذى وتأذى به تأذياً ، واكثر ما يقال في الضرر القليل ، ويقال ايضاً آذاه أذى عظيماً ، والمثل ما سدمسد صاحبه فيما يرجع الى ذاته . والهدى الدلالة على طريق الحق من الباطل ، والرشد من الغي ،

---

(١) سورة ٤١ حم السجد (فصلت) آية ٨ وسورة ٨٤ الانشقاق آية ٢٥ وسورة ٩٥ التين آية ٦

هداه يهديه الى الدين هدى. والسلطان الحجة التي يتسلط بها على الطالب مذهب المخالف للحق. وقيل في قوله «وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله» قولان:

أحدهما – قال ابو علي الجبائي: انهم سألوا آية مخصوصة غير ما اتتهم به الرسل، كما سأله قريش، فقالوا «لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا...»[1]

والثاني – ان ما اتيناكم به بإذن الله، لأنه مما لا يقدر عليه البشر، ونحن بشر.

قوله تعالى:

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) (١٤) آيتان بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن الكفار انهم قالوا لرسلهم «انا لنخرجنكم من ارضنا» وبلادنا إلا ان تدخلوا في أديانا، ومذاهبنا، فحينئذ اوحى الله تعالى الى رسله إنا نهلك هؤلاء الظالمين الكافرين، ونسكنكم الارض بعدهم ذلك جزاء «لمن خاف مقامي» اي حيث يقيمه الله بين يديه، وأضافه الى نفسه، كما قال «وتجعلون رزقكم انكم تكذبون»[2] اي رزقي اياكم قال الفراء: والعرب تضيف افعالها الى انفسها والى ما وقعت عليه، يقولون سررت برؤيتك، وسررت برؤيتي إياك،

---

(١) سورة الاسرى ١٧ آية ٩٠. (٢) سورة ٥٦ الواقعة اية ٨٢

وندمت على ضربك وضربي اياك ، وخاف وعيدي وعقابي ، وانما قالوا « او لتعودن في ملتنا » وهم لم يكونوا على ملتهم قط لامرين :

احدهما - انهم توهموا - ذلك على غير حقيقة - انهم كانوا على ملتهم .

الثاني - انهم ظنوا بالنشوء انهم كانوا عليها دون الحقيقة .

واللام في قوله « ولنخرجنكم » لام القسم والتي في قوله « او لتعودن »ايضاً مثل ذلك إلا ان فيه معنى الجزاء ، لان التقدير لنخرجنكم من ارضنا إلا ان تعودوا أو حتى ان تعودوا ، وهو مثل قول القائل: والله لا أكلمك او تدعوني. والمعنى إلا أن، او حتى تدعوني .

قوله تعالى :

(وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ) (١٦) آيتان بلا خلاف .

قوله « واستفتحوا » معناه استنصروا وهو طلب الفتح بالنصر ، ومنه قوله « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا »[1] اي يستنصرون وقال ابن عباس: هو استفتاح الرسل بالنصر على قومهم ، وبه قال مجاهد وقتادة . وقال الجبائي : هو سؤالهم ان يحكم الله بينهم وبين امهم ، لان الفتح الحكم ، ومنه قولهم : الفتاح الحاكم . وقال ابن زيد : هو استفتاح الكفار بالبلاء والخيبة خلاف ما قدروه من المنفعة ، يقال : خاب يخيب خيبة وخيب تخيباً ، وضده النجاح، وهو ادراك الطلبة . والجبرية طلب علو المنزلة بما ليس وراءه غاية في الوصف ، فاذا وصف العبد بأنه جبّار كان ذمّاً، واذا وصف الله به كان مدحاً، لان له علو المنزلة بما ليس وراءه غاية في الصفة . والعنيد : هو المعاند إلا ان فيه مبالغة ، والعناد الامتناع من الحق مع العلم به، كبراً وبغياً ، يقال : عند يعند

---

(١) سورة البقرة اية ٨٩

عنوداً ، وعانده معاندة وعناداً قال الشاعر :

اذا نزلت فاجعلاني وسطاً　　　اني كبير لا أطيق العندا[١]

والوراء والخلف واحد ، وهو جهة مقابلة لجهة القدام ، وقد يكون وراء بمعنى أمام ، وقيل: إنه يحتمل ذلك – ههنا – وذكروا أنه يجوز في الزمان على تقدير انه كان خلفهم ، لأنه يأتي فيلحقهم قال الشاعر :

اتوعـــدني وراء بني رياح　　　كذبت لتقصرن يداك دونى[٢]

وقال آخر :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه　　　يكون وراءه فرج قريب[٣]

وقوله « ويسقى من ماء صديد » يعني يسقى الجبـار العنيد صديداً ، وهو قيح يسيل من الجرح اخـــذ من انه يصد عنه تكرهاً له . والقيـح دم مختلط بمدة .

وقوله « صديد » بيان للماء الذي يسقونه ، فلذلك اعرب بإعرابه ، قـــال الزجاج : والوراء ما توارى عنك ، وليس من الاضداد . قال الشاعر :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة　　　وليس وراء الله للمرء مذهب[٤]

أي ليس بعد مذاهب الله للمرء مذهب .

قوله تعالى :

(يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

---

(١) قدمر تخريجه في ٦ : ١٤ من هذا الكتاب .

(٢) قائله جرير ، ديوانه (دار بيروت) ٤٧٥ ، و (نشر الصاوي) ٥٧٧ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ : ٧٦ ، ١١٤ ومجاز القرآن ١ : ٣٢٦ ، ٣٣٧ وقدمر في ٦ : ٢٣٣

(٣) لم اجده

(٤) قائله النابغة ، ديوانه (دار بيروت) ١٧ من قصيدة يعتذر بها الى النعمان بن المنذ ويمدحه . وهو في امالي الشريف المرتض ٢ : ١٧

وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ) (١٨)

آيتان بلا خلاف .

قوله « يتجرعه » معناه يشرب ذلك الصديد جرعة جرعة ، يقال : تجرّع تجرعاً ، وجرعه يجرعه جرعاً ، والتجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار .

وقوله « ولا يكاد يسيغه » أي لا يقاربه ، وانما يضطر اليه . قال الفراء : (لا يكاد) يستعمل فيما يقع وفيما لا يقع، فما يقع هو هذا ، وما لم يقع مثل قوله «لم يكد يراها »[1] لان المعنى لم يرها . والاساغة اجراء الشراب في الحلق على تقبل النفس، وهذا يضطر اليه، فلذلك قال « ولا يكاد يسغيه » والمعنى فلا يقارب ان يشربه تكرهاً ، وهو يشربه، تقول: ساغ يسوغ الشيء وأسغته أنا . وروي عن النبي ﷺ انه قال : (ما يتجرّعه يقرّب اليه فيتكرّهه ، فاذا أدني منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه ، فاذا شربه قطع امعاءه حتى يخرج من دبره) كما قال « وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم »[2] وقال « وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب »[3] .

وقوله « ويأتيه الموت من كل مكان » قيل في معناه قولان :

احدهما - قال ابن عباس والجبائي : من كل جهة ، من عن يمينه وشماله ومن فوقه وتحته ومن قدامه وخلفه . وقال ابراهيم التيمي وابن جريج : معناه « من كل مكان » من جسده حتى من أطراف شعره « وما هو بميت » اي انه مع

---

(١) سورة النور آية ٤٠ (٢) سورة محمد : ٧ : آية ١٥
(٣) سورة الكهف : ١٨ آية ٢٩

إتيان اسباب الموت والشدائد التي يكون معها الموت «من كل جهة» من شدة الأهوال، وأنواع العذاب، وليس هو بميت «ومن ورائه عذاب غليظ» وقيل في معناه قولان:

احدهما - من أمامه .

والثاني - ومن بعد عذابه هذا «عذاب غليظ» .

وقوله «مثل الذين كفروا بربهم» اي فيما يتلى عليكم «مثل الذين كفروا بربهم»، فيكون رفعاً بالابتداء ويجوز ان يكون (مثل) مقحماً ويبتدىء الذين كفروا . وقوله «اعمالهم» رفع على البدل وهو بدل الاشتمال عليه في المعنى، لان المثل للاعمال، وقد أضيف الى الذين كفروا، ومثله «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة»[1] والمعنى ترى وجوههم مسودة . قال الفراء : لانهم يجدون المعنى في آخر الكلمة، فلا يبالون ما وقع على الاسم المبتدأ، ومثله قوله «لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم»[2] فاعيدت اللام في البيوت، لانها التي يراد بالسقف. وقال المبرد: (اعمالهم) رفع بالابتداء وخبره (كرماد)، والرماد الجسم المنسحق بالاحراق سحق الغبار . ويمكن ان يجعل (مثل) صفة بغير نار في مقدور الله .

وقوله «اشتدت به الريح في يوم عاصف» فالاشتداد الاسراع بالحركة على عظم القوة، يقال : اشتد به الوجع من هذا، لانه أسرع اليه على قوة ألم والعصف شدة الريح، «يوم عاصف» أي شديد الريح، وجعل العصف صفة اليوم، لانه يقع فيه، كما يقال : ليل نائم، ويوم ماطر، أي يقع فيه النوم والمطر، ويجوز ان يكون المراد عاصف ريحه، وحذف الريح للدلالة عليه، ومثله حجر ضبٍّ خرب اي خرب حجره، ويقال : عصفت الرياح إذا اشتدت وعصفت تعصف عصوفاً .

شبه الله تعالى أعمال الكفار في انه لا محصول لها، ولا انتفاع بها يوم القيامة، بالرماد الذي يشتد فيه الريح العاصف، فإنه لا بقاء لذلك الرماد، ولا لبث

---

(١) سورة الزمر : (٣٩) اية ٦٠

(٢) سورة الزخرف : ٤٣ اية ٣٣

فكذلك أعمال الكافر لا يقدر منها على شيء ، كما قال في موضع آخر «وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً »[١] وقوله « ذلك هو الضلال البعيد » اي من وصفناه فهو الذي ضل عن الحق والخير ضلالاً بعيداً .

قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ) (٢٠)

آيتان في الكوفي والمدني تمام الأولى « خلق جديد » وآية عند الباقين .

قرأ حمزة والكسائي « خالق السماوات » على اسم الفاعل . الباقون «خلق» على (فعل) ماض. قال ابو علي: من قرأ «خلق» فلان ذلك ماض فأخبر عنه بلفظ الماضي، ومن قرأ «خالق» جعله مثل «فاطر السموات والارض»[٢] بمعنى خالق. ومثله قوله « فالق الاصباح وجعل الليل سكناً »[٣] لانهما فعلا .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ويعني به الأمة بدلالة قوله « ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد» ألم تعلم؟ لان الرؤية تكون بمعنى العلم، كما تكون بمعنى الادراك بالبصر وههنا لا يمكن ان تكون بمعنى الرؤية بالبصر ، لان ذلك لا يتعلق بأن الله خلق السموات والارض، وإنما يعلم ذلك بدليل. وقوله «بالحق» والحق هو وضع الشيء في موضعه على ما تقتضيه الحكمة واذا جرى المعنى على ما هو لـه من الاشياء فهو حق ، واذا اجري على ما ليس هو له من الشيء فذلك باطل . والخلق فعل الشيء على تقدير وترتيب ، والخالق الفاعل على مقدار ما تدعو الحكم اليـه لا يجوز عليه غير ذلك .

---

(١) سورة الفرقان : ٢٥ آية ٢٣ (٢) سورة فاطر : ٣٥ آية ١
(٣) سورة الانعام : ٦ آية ٩٦

وقوله «ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد» خطاب للخلق واعلام لهم أنه قادر ان شاء ان يميت الخلق ويهلكهم ويجيء بدلهم خلقاً آخر جديداً. والاذهاب ابعاد الشيء عن الجهة التي كان عليها، ولهذا قيل للاهلاك إذهاب، لانه ابعاد له عن حال الايجاد. والجديد المقطوع عنه العمل في ابتداء أمره قبل حال خلوّ فيه، واصله القطع يقال: جدّه يجده جدّاً إذا قطعه، والجدّ أب الأب، لانقطاعه عن الولادة بالأب، والجد ضد الهزل، والجد الحظ.

«وما ذلك على الله بعزيز» اخبار منه تعالى ان إذهابكم وإهلاككم والاتيان بخلق جديد ليس بممتنع على الله على وجه من الوجوه. والممتنع بقدرته: عزيز، والممتنع بسعة مقدوره عزيز، والممتنع بكبر نفسه عزيز.

وفي الآية دلالة على ان من قدر على الانشاء قدر على الافناء إذ كان مما لا يتغير حكم القادر، ولا شيء مما يحتاج اليه في الفعل، لان من قدر على البناء، فهو على الهدم أقدر، فمن كان قادراً على اختراع السماء والارض وما بينهما فهو قادر على إذهاب الخلق وإهلاكهم.

قوله تعالى:

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ) (٢١) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى ان الخلق يبرزون يوم القيامة لله اي يظهرون من قبورهم والبروز خروج الشيء عما كان ملتبساً به الى حيث يقع عليه الحشر في نفسه، يقال: برز للقتال إذا ظهر له.

«فقال الضعفاء» اي يقول الناقص القوة، لان الضعفاء جمع ضعيف،

والضعف نقصان القوة ، يقـــال : ضعف يضعف ضعفاً ، واضعفه الله إضعافاً ؛ والضعف ذهاب مضاعفة القوة « للذين استكبروا » اي للذين طلبوا التكبر . والاستكبار والتكبر والتجبر واحد، وهو رفع النفس فوق مقدارها في الوصف. والمعنى يقول التابعون للمتبوعين من ساداتهم وكبرائهم « انا كنا لكم تبعاً » اي طلبنا اللحاق بكم، واعتمدنا عليكم، وهو جمع تابع، كقولهم: غائب وغيّب. قال الزجاج : ويجوز ان يكون مصدراً وصف به « فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء» اي هل تقدرون على ان تدفعوا عنا ما لا نقدر على دفعه عن أنفسنا ، يقال : أغنى عني إذا دفع عني ، وأغناني بمعنى نفى الحاجة عني بما فيه كفاية . فأجابهم المستكبرون بأنه «لو هدانا الله » الى طريق الخلاص من العقاب والوصول الى النعيم والجنة « لهديناكم » اليه « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا » أي الجزع والصبر سيان مثلان ، ليس لنا من محيص أي مهرب من عذاب الله تعـالى يقال : حاص يحيص حيصاً وحيوصاً وحيصاناً ، وحـاد يحيد حيداً ومحيداً ، والحيد الزوال عن المكروه . والجزع انزعاج النفس بورود مـــا يغم، ونقيضه الصبر قال الشاعر :

فان تصبرا فالصبر خير مغبة وان تجزعا فالأمر ما تريان[1]

قوله تعالى :

(وَقَـــالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٢٢) آية بلا خلاف.

---

(١) مر هذا البيت في ١ : ٢٠٢ ، ٤ ، ٥٤٦

قرأ حمزة وحده «بمصرخيّ» بكسر الياء . الباقون بفتحها .

قال ابو علي: قال الفراء – في كتابه في التصريف : قرأ به الاعمش ، ويحيى ابن وثاب ، قال وزعم القاسم بن معن أنه صواب ، وكان ثقة بصيراً ، وزعم قطرب أنه لغة في بني يربوع، يزيدون على ياء الاضافة ياء وانشد :

ماض اذا ما همّ بالمضيّ قال لها هل لك يا ماميّ

وانشد ذلك الفراء ، وقال الزجاج : هذا الشعر لا يلتفت اليه ، ولا هو مما يعرف قائله ، قال الرماني : الكسر لا يجوز عند اكثر النحويين، واجازه الفراء على ضعف ، قال ابو علي : وجه جوازه من القياس أن الياء ليست تخلو: أن تكون في موضع نصب او جر، فالياء في النصب والجر كالهاء في (هما) وكالكاف في اكرمتك وهذا لك ، فكما ان (الهاء) قد لحقتها الزيادة في هداكه وضربه ، ولحق الكاف الزيادة في قولهم اعطيتكه او أعطيتكاه فيما حكاه سيبويه ، وهما اختا الياء كذلك ألحقوا الياء الزيادة ، فقالوا : فيِّ ، ثم حذفت الياء الزيادة على الياء ، كما حذفت الزيادة من (الهاء) في قول من قال : له أرقان . قال ابو الحسن هي لغة ، فكما حذفت الزيادة من الكاف ، فقال في (اعطيتكيه ، اعطيتكه) كذلك حذفت الياء اللاحقة الياء، كما حذفت من اختيها ، وأقرت الكسرة التي كانت تلي الياء المحذوفة فبقيت الياء على ما كانت عليه من الكسرة ، وكما لحقت الكاف والهاء الزيادة ، كذلك لحقت الياء الزيادة ، فلحاق الياء الزيادة نحو ما أنشد من قول الشاعر :

رميتيه فأصميت وما أخطأت الرمية

فاذا كانت هذه الكسرة في الياء على هذه اللغة . وإن كان غيرها أفشى منها. وعضده من القياس ما ذكرنا لم يجز لقائل ان يقول : إن قراءة القراء بذلك لحن يجوز، لاستقامة ذلك سماعاً وقياساً .

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان الشيطان يوم القيامة يقول لأوليائه الذين اتبعوه:

«ان الله وعدكم وعد الحق» من الثواب والعقاب «ووعدتكم» انا بالخلاص من العقاب بارتكاب المعاصي، وقد خالفت وعدي «وما كان لي عليكم من سلطان» اي لم يكن لي عليكم حجة، ولا برهان اكثر من ان دعوتكم الى الضلال وأغويتكم، فأجبتموني واتبعتموني «فلا تلوموني» في ذلك «ولوموا انفسكم» بارتكاب المعاصي وخلافكم الله وترككم ما امركم به «ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخي» يقال: استصرخني فأصرخته، اي استغاثني فأغثته، فالاصراخ الاغاثة. والمعنى ما انا بمغيثكم وما انتم بمغيثيّ «إني كفرت بما اشركتموني من قبل» حكاية عن قول الشيطان لأوليائه انه يقول لهم «اني كفرت» بشرككم بالله ومتابعتكم لي قبل هذا اليوم. ثم اخبر تعالى «إن الظالمين» الكافرين «لهم عذاب اليم» مؤلم شديد الالم، ويصح ان يلوم الانسان نفسه على الاساءة، كما يصح حمدها على الاحسان قال الشاعر:

صحبتك إذ عيني عليها غشاوة   فلما انجلت قطعت نفسي ألومها[1]

قال الجبائي: وفي الآية دلالة على ان الشيطان لا يقدر على الاضرار بالإنسان اكثر من إغوائه ودعائه الى المعاصي، فأما بغير ذلك فلا يقدر عليه، لأنه اخبر بذلك، ويجب ان يكون صادقاً، لأن الآخرة لا يقع فيها من احد قبيح لكونهم ملجئين الى تركه.

قوله تعالى:

(وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ

(١) قائله الحارث بن خالد المخزومي. اللسان (غشا)

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (٢٥) ثلاث آيات في الكوفي والبصري تمام الثانية « في السماء » وآيتان في الباقي

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين يؤمنون به، ويصدقون بوحدانيته، ويعترفون بنبوة انبيائه ويعملون بما دعاهم اليه من الطاعات والاعمال الصالحات يدخلهم الله يوم القيامة جنات من صفتها انها تجري من تحتها الانهار، لان الجنة البستان الذي يجنه الشجر، فالانهار تجري من تحت الاشجار، وقيل انهار الجنة في اخاديد في الارض «خالدين فيها» اي مؤبدين فيها دائمين، ونصبه على الحال من حيث انها تدوم لهم « بإذن ربهم » اي بأمر ربهم واطلاقه، يخلدون فيها، ويكون تحية بعضهم لبعض في الجنة «سلام». والتحية التلقي بالكرامة في المخاطبة، كقولك احياك الله حياة طيبة، سلام عليك، وما أشبه ذلك تبشيراً لهم بدوام السلامة.

ثم قال لنبيه ﷺ ألم تعلم كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء » انما ضرب المثل بالكلمة الطيبة للدعاء اليها في كل باب يحتاج الى العمل عليه، وفي كل باب من ابواب العلم. ومعنى « فرعها في السماء » مبالغة له في الرفعة، فالأصل سافل، والفرع عال، إلا أنه من الأصل يوصل الى الفرع. والاصل في باب العلم مشبه بأصل الشجرة التي تؤدي الى الثمرة التي هي فرع ذلك الاصل، ويشبه بأصل الدرجة التي يترقى منها الى اعلى مرتبة.

وروي انس بن مالك عن النبي ﷺ أن هذه الشجرة الطيبة هي النخلة. وقال ابن عباس: هي شجرة في الجنة.

وقوله « توتي أكلها » اي تخرج هذه الشجرة الطيبة – وهي النخلة – ما يؤكل منها في كل حين. وقال ابن عباس – في رواية – يعني ستة اشهر الى صرام النخل، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله (ع)، وبه قال سعيد بن جبير، والحسن. وقال مجاهد وابن زيد: كل سنة. وقال سعيد بن المسيب: الحين شهران. وفي رواية اخرى عن ابن عباس: غدوة وعشية، وقال قوم: من اكل النخلة: الطلع

والرطب والبسر والتمر ، فهو دائم لا ينقطع على هـذه الصفة ، وأهل اللغة يذهبون الى ان الحين هو الوقت ، قال النابغة :

يبادرها الراقون من سوء سمها   تطلقه حيناً وحيناً تراجع[1]

كذا رواه الاصمعي و(مثلا)منصوب بـ(ضرب)والتقدير ضرب الله كلمة طيبة مثلاً « بإذن ربها » اي يخرج هذا الأكل في كل حين بأمر الله وخلقه اياه «ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » اخبار منه تعالى انه يضرب المثل للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة في البادية والعاقبة ، لكي يتذكروا ويتفكروا فيه ويعتبروا به ، فيؤديهم ذلك الى دخول الجنة وحصول الثواب .

وفائدة الآية ان الله ضرب للايمان مثلاً وللكفر مثلاً ، فجعل مثل المؤمن الشجرة الطيبة التي لاينقطع نفعها وثمرها ، وهي النخلة ينتفع بها في كل وقت ، لا ينقطع نفعها البتة ، لأنه ينتفع بطلعها ، وبسرها ، ورطبها ، وتمرها ، وسعفها ، وليفها ، وخوصها ، وجذعها . ومثل الكافر بالشجرة الخبيثة وهي الحنظلة . وقيل الاكشوث لا إنتفاع به ، ولا قرار له ولا أصل ، فكذلك الكفر لا نفع فيه ولا ثبات .

قوله تعالى :

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)

آيتان بلا خلاف .

لما ضرب الله المثل للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة التي ذكرها وأكلها، ضرب،

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ٨٠ وروايته :

تناذرها الراقون من سوء سمها   تطلقه طوراً وطوراً تراجع

المثل للكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التي تجتث اي تقلع، يقال : اجتثه اجتثاثاً وجثه جثاً ، ومنه الجثة ، والاجتثاث الاستئصال للشيء واقتلاعه من أصله ، وقال انس بن مالك ومجاهد : الشجرة الممثل بها هي شجرة الحنظل ، قال أنس: وهى السرمان . وقال ابن عباس : هي شجرة لم تخلق بعد . والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالاول ، والتشبيه في الامثال؛ لما يحتاج اليه من البيان وهو على وجهين : احدهما - ما يظهر فيه اداة التشبيه . والآخر - ما لا يظهر فيه .

والكلمة الواحدة من الكلام ، ولذلك يقال للقصيدة كلمة ، لانها قصيدة واحدة من الكلام . والكلمة إنما تكون خبيثة اذا خبث معناها . وهي كلمة الكفر ، والطيبة كلمة الايمان ، والخبث فساد يؤدي الى فساد .

وقوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا » يعنى كلمة الايمان « وفي الاخرة » قال ابن عباس والبراء بن عازب : هي المسألة في القبر اذا أتاه الملك ، فقال له من ربك وما دينك ومن نبيك ? فيقول : ربي الله وديني الاسلام ونبي محمد ﷺ . وقال قوم: معنى « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا » يعني الايمان يثبتهم الله بثوابه في الجنة ويمدحهم فيها .

وقوله « ويضل الله الظالمين » يحتمل امرين :

احدهما - يحكم بضلال الظالمين .

الثاني - يضلهم عن طريق الجنة الى طريق النار « ويفعل الله ما يشاء » من ذلك لا اعتراض عليه في ذلك ولا في غيره مما يريد فعله .

قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ)

(٣٠) ثلاث آيات بلا خلاف .

قيل في من نزل فيه قوله « الذين بدلوا نعمة الله كفراً » قولان :

احدهما - قال امير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، وابن عباس ، وسعيد ابن جبير، ومجاهد ، والضحاك : انهم كفار قريش، فقال (ع) : (أما بنو المغيرة فأبادهم الله يوم بدر، وأما بنو أمية فقد أمهلوا إلى يوم ما) وقال قتادة : هم القادة من كفار قريش . وروي عن عمر أنه قال : هما الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية . فأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين ؛ واما بنو المغيرة فقتلوهم يوم بدر . أنعم الله تعالى عليهم بالنبي ﷺ ، فكفروا به ودعوا قومهم الى الكفر به ،فقال الله تعالى لنبيه : أما تنظر الى هؤلاء الذين كفروا بنعم الله وبدلوا مكان الشكر عليها كفراً « وأحلوا قومهم دار البوار » أي أنزلوا قومهم دار الهلاك بدعائهم إياهم الى الكفر بالنبي ﷺ وإغوائهم إياهم وصدهم عن الايمان به .

والتبديل جعل الشيء مكان غيره ، فهؤلاء القوم لما جعلوا الكفر بالنعمة مكان شكرها ، كانوا قد بدلوا أقبح تبديل . والاحلال وضع الشيء في محل ، اما مجاوره إن كان من قبيل الأجسام، او مداخله إن كان من قبيل الاعراض . والبوار الهلاك ، بار الشيء يبور بوراً إذا هلك وبطل . قال ابن الزبعري .

يا رسول المليك ان لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور[1]

وقوله «جهنم يصلونها» في موضع نصب بدلاً من قوله « دار البوار» لانه تفسير لهذه الدار « يصلونها » اي يصلون فيها ويشتوون فيها .

ثم أخبر انها بئس القرار اي بئس المستقر والمأوى .

ثم قال : ان هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً واحلوا قومهم دار البوار « جعلوا لله انداداً » زيادة على كفرهم وجحدهم نعم الله . والانداد جمع ند ، وهم الامثال المناؤون ، قال الشاعر :

---

(١) قائله عبد الله بن الزبعري السهمي . تفسير الطبري ١٣ : ١٣٠ ، ومجاز القرآن ١ : ٣٤٠ واللسان (بور) ، وروايته (يا رسول الإله)

نهدى رؤس المترفين الانداد   الى امير المؤمنين المتاد[١]

« ليضلوا عن سبيله » اي لتكون عاقبة أمرهم إلى الضلال الذي هو الهلاك ، واللام لام العاقبة ، وليست بلام الغرض ، لانهم ما عبدوا الأوثان من دون الله ، وغرضهم ان يهلكوا ، بل لما كان لاجل عبادتهم لها استحقوا الهلاك والعذاب عبر عن ذلك بهذه اللام ، كما قال « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا »[٢] وإنما التقطوه ليكون لهم قرة عين ، ولكن لما كان عاقبة ذلك انه كان عدوهم فعبر عنه بهذه اللام .

وقرأ بضم الياء وكسر الضاد ، والمعنى انهم فعلوا ذلك ليضلوا غيرهم عن سبيل الحق الذي هو الطريق الى ثواب الله والنعيم في جنته ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهؤلاء الكفار الذين وصفناهم « تمتعوا » وانتفعوا بما تهوون من عاجل هذه الدنيا ، فصورته صورة الأمر والمراد به التهديد بدلالة قوله « فإن مصيركم الى النار » والمعنى مرجعكم ومآلكم الى النار والكون فيها عما قليل .

قوله تعالى

(قُلْ لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) آية بلا خلاف .

أمر الله تعالى نبيه ان يقول لعباده المؤمنين المعترفين بتوحيد الله وعدله يداومون على فعل الصلاة ويقيمونها بشرائطها وينفقون مما رزقهم الله سرّاً وعلانية أي ظاهراً وباطناً ، وموضع « يقيموا » جزم من ثلاثة اوجه :

---

(١) قائله العجاج ديوانه ٤٠ ومجاز القرآن ١ : ٣٠٠ وتفسير الطبري ١٢ : ٧٩ ومجمع البيان ٣ : ٢٠٠ وقد مر في ٤ : ٦٣ ، ٦ : ٨٢

(٢) سورة القصص آية ٨ .

أحدها - انه جواب الأمر وهو « قل » .

الثاني - هو جواب أمر محذوف ، وتقديره قل لهم أقيموا يقيموا .

الثالث - بحذف لام الأمر لأن في « قل » دلالة عليه ، والمعنى ليقيموا ، وعلى هذا يجوز ان تقول : قل له يضرب ، ولا يجوز يضرب زيداً ، لأنه عوض من المحذوف ذكره الزجاج .

« من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال » المعنى بادروا بافعال الخير من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وأفعال الخير « قبل ان » يأتيكم يوم القيامة الذي لا بيع فيه ولا شراء ، والمراد - ههنا - ولا فداء تفدون بها نفوسكم من عذاب الله «ولا خلال» اي ولا مخالة، تقول: خاللت فلاناً مخالة وخلالا ، قال امرؤ القيس:

صرفت الهوى عنهنّ من خيفة الردى ولست بمقلي الخلال ولا قالي [1]

والمخالة اصفاء المودة ، وقد يكون الخلال جمع خلّة مثل قلّة ، وقلال . وظلة وظلال .

قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣٤) ثلاث آيات في الكوفي والمدنيين وآيتان فيما عداها ، آخر الاولى « الانهار » .

أخبر الله تعالى انه (جل وعز) اخترع السموات والارض وانشأهما بلا معين

---

(١) ديوانه : ١٦٣ وتفسير الطبري ١٣ : ١٣٣

ولا مشير « وأنزل من السماء ماء » يعني غيثاً ومطراً فأخرج بذلك الماء الثمرات رزقاً لعباده، وسخر لهم المراكب في البحر لتجري بأمر الله ، لانها تسير بالرياح والله تعالى المنشىء للرياح « وسخر لكم الانهار » التي تجري بالمياه التي ينزلها من السماء ، ويجريها في الأودية ، وينصبّ منها في الانهار «وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » معناه ذلل لكم الشمس والقمر ومهدهما لمنافعكم ، وتدبير الله لما سخره للعباد ظاهر لكل عاقل متأمل لا يمكنه الانصراف عنه إلا على وجه المعاندة والمكابرة، والدؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية فيه دأب يدأب دأباً ودؤوباً فهو دائب، والمعنى دائبين، لا يفتران، في صلاح الخلق والنبات، ومنافعهم « وسخر لكم الليل والنهار » أي ذللها لكم ، ومهدهما لمنافعكم ، لتسكنوا في الليل، وتبتغوا في النهار من فضله «وأتاكم من كل ما سألتموه » معناه ان الانسان قد يسأل الله العافية فيعطي ، ويسأله النجاة فيعطي ، ويسأله الغنى فيعطي ، ويسأله الملك فيعطي، ويسأله الولد فيعطي، ويسأله العز وتيسير الامور وشرح الصدر فيعطي ، فهذا في الجملة حاصل في الدعاء لله تعالى ما لم يكن فيه مفسدة في الدين عليه وعلى غيره، فأين يذهب به مع هذه النعم التي لا تحصى كثرة، عن الله الذي هو في كل حال يحتاج اليه ، وهو مظاهر بالنعم عليه .

ودخلت (من) للتبعيض ، لانه لو كان وآتاكم كل ما سألتموه لاقتضى ان جميع ما يسأله العبد يعطيه الله ، والامر بخلافه ، لان (من) تنبىء عنه .

وقال قوم: ليس من شيء الا وقد سأله بعض الناس، والتقدير كل ما سألتموه قد أتى بعضكم .

وقوله « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » معناه وان تروموا عدها بقصدكم اليه لا تحصونها لكثرتها ، ويروى عن طلق بن حبيب ، أنه قال : ان حق الله اثقل من ان تقوم به العباد ، وان نعم الله اكثر من ان تحصيها العباد، ولكن ، اصبحوا تائبين ، وامسوا تائبين .

وقوله «ان الانسان لظلوم كفار» اخبار منه تعالى أن الانسان يعني من تقدم وصفه بالكفر كثير الظلم لنفسه ولغيره ، وكفور لنعم الله غير مؤد لشكرها .

وقرىء «من كلٍّ ما سألتموه» بالتنوين، قال الفراء: كأنهم ذهبوا الى أنا لم نسأله تعالى شمساً ولا قمراً ولا كثيراً من نعمه فكأنه قال: وآتاكم من كل ما لم سألتموه، والاول أعجب اليّ، لان المعنى آتاكم من كل ما سألتموه لو سألتموه، كأنه قال وآتاكم من كل سؤلكم، كما تقول: والله لأعطينك سؤلك ما بلغته مسألتك وان لم تسأل. قال المبرد: يريد ما يخطر ببالك، ومن أضاف جعل (ما) في موضع نصب، وهي بمعنى الذي. ومن نون جعلها نافية.

قوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِناً وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٣٦)

آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ اذكر «اذ قال ابراهيم» يا «رب اجعل هذا البلد» يعني مكة وما حولها من الحرم «آمنا» يعني يأمن النـاس فيه على نفوسهم واموالهم. (والامن) سكون النفس الى زوال الضرر، وهو نقيض الخوف، ومثله الطمأنينة الى الامر.

وقوله «واجنبني» اي اصرفني عنه، جنبته اوجنبه، جنباً وجنبته الشر تجنيباً، واجنبته اجتناباً، قال الشاعر:

وتنقض عهده شفقاً عليه وتجنبه قلا يصنا الصعابا [١]

«واجنبني» اي واصرفني «وبني ان نعبـد الاصنام» اي جنبنا عبادة الاصنام بلطف من الطافك الذي نختار عنده الامتناع من عبادتها. ودعاء الانبياء

---

(١) تفسير الطبري ١٣ : ١١٣ ومجاز القران ١ : ٣٤٢

لا يكون الا مستجاباً ، فعلى هذا يكون سؤاله ان يجنب نبيه عبادة الاصنام مخصوصاً بمن علم الله من حاله ان يكون مؤمناً ، لا يعبد الا الله ، ويكون الله تعالى اذن له في الدعاء لهم ، فيجيب الله تعالى ذلك لهم .

وقوله « ربّ انهن اضللن كثيراً من الناس » اخبار من ابراهيم ان هذه الاصنام ضل كثير من الناس بها حتى عبدوها فكأنها اضلتهم ، كما يقول القائل: فتنتني فلانة اي فتنت بها ، قال الشاعر :

هبوني أمرءاً منكم أضل بغيره

يعني ضل بعيره عنه ، لان احداً لا يضل بغيره قاصداً الى اضلاله .

وقوله « فمن تبعني » حكاية ما قال ابراهيم من ان من يتبعه في عبادة الله وحده وترك عبادة الاصنام ، فانه منه وعلى دينه . «ومن عصاني» في ذلك وعبد مع الله غيره ، وعصاه في اوامره « فانك » يا الله « غفور رحيم » اي ستار على عبادك معاصيهم رحيم بهم اي منعم عليهم في جميع الاحوال. وقيل المعنى «انك غفور رحيم » بهم ان تابوا واقلعوا عما هم عليه من الكفر .

قوله تعالى :

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُمْ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ) (٣٨) آيتان بلا خلاف .

هذا حكاية ما دعا به ابراهيم (ع)، فإنه قال يا رب «اني اسكنت من ذريتي» اي جعلت مأواهم ومقرهم الذي يقرون فيه ويسكنون اليه . والسكنى اتخاذ

مأوى لصاحبه يسكن اليه في ليله، ومتى يشاء من اوقاته، اسكن البلدة والدار اذا جعله مأوى له ، (والذرية) جماعة الولد على تنسئته من حين يظهر الى ان يكبر ، والمراد بالذرية ههنا : اسماعيل وامه هاجر حين اسكنه وادي مكة ، وهو الابطح ، ولم يذكر مفعول اسكنت ، لان (من) تفيد بعض القوم ، كما يقال : قتلنا من بني فلان ، واكلنا من الطعام ، وشربنا من الماء ، قال تعالى « افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله »[1] فموضع (من) نصب والوادي سفح الجبل العظيم ومن ذلك قيل للانهار العظام اودية ، لان حافاتها كالجبال لها ، ومنه الدّية ، لانها مال عظيم يتحمل في امر عظيم من قتل النفس المحرمة .

« غير ذي ذرع » أي لا زرع في هذا الوادي أي لا نبات فيه ، والزرع كل نبات ينغرس من غير ساق ، وجمعه زروع « عند بيتك المحرم » معناه حرم فيه ما أحل في غيره من البيوت ، من الجماع ، والملابسة بشيء من الدم ، والنجاسة، وانما أضاف البيت الى الله، لأنه مالكه من غير ان يملكه احد سواه ، لأن ما عداه قد ملك غيره من العباد . وسماه بيتاً قبل ان يبنيه ابراهيم لأمرين :

احدهما : – انه لما كان المعلوم انه يبنيه فسماه ما يكون بيتاً .

والثاني – قيل أنه كان البيت قبل ذلك، وانما خربته طسم واندوس. وقيل انه رفع عند الطوفان الى السماء .

وقوله « ربنا ليقيموا الصلاة » اي اسكنتهم هذا الوادي ليدوموا على الصلاة ويقيموها بشرائطها.

« فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم » سؤال من ابراهيم (ع) ان يجعل الله تعالى قلوب الخلق تحن الى ذلك الموضع ، ليكون في ذلك انس ذريته بمن يرد من الوفود ويدرّ ارزاقهم على مرور الاوقات . « وارزقهم من الثمرات » مسألةمنه ان يرزق ذريته من انواع الثمار لكي يشكروه على نعمه وفنون احسانه .

---

(١) سورة الاعراف –٧– اية ٥٠

« ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن » اعتراف من ابراهيم لله تعالى بانه « عز وجل » يعلم ما يخفي الخلق وما يظهرونه ، وانه لا يخفى عليه شيء من ذلك مما يكون في الارض، ومما يكون في السماء مع عظمها وبعد ما بينهما ، لانه عالم لنفسه بجميع المعلومات . وقال قوم : ان قوله « وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء » اخبار منه تعالى بذلك دون الحكاية .

قوله تعالى :

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ) (٤١) ثلاث آيات بلا خلاف .

هذا حكاية من الله تعالى باعتراف ابراهيم (ع) بنعم الله تعالى ، وحمده إياه على إحسانه بما وهب له على كبر سنه ولدين : اسماعيل واسحق . وانه اخبر بأن ربه الذي خلقه يجيب الدعاء لمن يدعوه وذلك يدل على انه كان تقدم منه مسألة لله تعالى أن يهب له ولداً ، فلذلك كان مجيباً له . والحمد هو الوصف الجميل على وجه التعظيم لصاحبه والاجلال له وفرق الرماني بين الحمد والمدح بان المدح : هو الوصف للشيء بالخير من جهته على وجه التعظيم له ، فعله او لم يفعله ، ولكن كان سبباً يؤدي اليه ، وليس كذلك الحمد . والذم : نقيض لهما، لانه الوصف بالقبيح على جهة التحقير . والهبة عطية التمليك من غير عقد مثامنة يقال: وهب له كذا يهبه هبة ، فهو واهب. والدعاء طلب الفعل بدلالة القول وما دعا الله(عز وجل) اليه فقد أمر به ورغب فيه، وما دعا العبد به ربه فالعبد راغب فيه،ولذلك لا يجوز ان يدعو الانسان بلعنه ولا عقابه، ويجوز ان يدعو على غيره به . والتقبل أخذ العمل على طريقة ايجاب الحق به مقابلة عليه .

وقال سعيد بن جبير : بشر ابراهيم بالولد بعد مئة وسبعة عشرة سنة .

وقوله « رب اجعلني مقيم الصلاة » سؤال من ابراهيم (ع) لله تعالى ان يجعله ممن يقيم شرائط الصلاة ويدوم عليها بلطف يفعله به يختار ذلك عنده ، وسأله ان يفعل مثل ذلك بذريته ، وأن يجعل منهم جماعة يقيمون الصلاة، وهم الذين اعلمه الله ان يقوموا بها دون الكفار الذين لا يقيمون الصلاة «ربنا وتقبل دعاء» رغبة منه اليه تعالى ان يجيب دعاءه فيما سأله .

وقوله « ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » نداء من ابراهيم لله تعالى ان يغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين ، وهو ان يستر عليهم ماوقع منهم من المعاصي عند من أجاز الصغائر عليهم ، ومن لم يجز ذلك حمل ذلك على أنه انقطاع منه اليه تعالى فيما يتعلق به ، وسؤال على الحقيقة في غيره . وقد بينا ان أبوي ابراهيم لم يكونا كافرين[1] وفي الآية دلالة على ذلك، لانه سأل المغفرة لهما يوم القيامة ، فلو كانا كافرين لما قال ذلك ، لأنه قال تعالى «فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه » [2] فدل ذلك على ان أباه الذي كان كافراً جده لأمه او عمه على الخلاف . قال البلخي : ان أمه كانت مؤمنة، لانه سأل ان يغفر لأبيه وحكى أنه « كان من الضالين » [3] وقال « إلا قول ابراهيم لأبيه لاستغفرن لك » [4] ولم يقل لأبويه « ويوم يقوم الحساب » أي يقوم فيه الحساب . والعامل في يوم قوله (اغفر) .

قوله تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) (٤٣) آيتان بلا خلاف.

---

(١) انظر ٤ : ١٨٩ من هذا الكتاب .
(٢) سورة التوبة آية ١١٥
(٣) سورة الشعراء آية ٨٦
(٤) سورة الممتحنة اية ٤

قرأ الجماعة « انما يؤخرهم » بالياء . وروي عن أبي عمرو بالنون

قال أبو علي: وجه القراءة بالياء ان الغيبة للمفرد قد تقدم، فتكون بالياء على «فلا تحسبن الله مخلف وعده... إنما يؤخرهم» ووجه القراءة بالنون أنه مثل الياء في المعنى ، وقد تقدم مثله كثيراً

هذا خطاب للنبي ﷺ نهاه الله تعالى ، والمراد به الامة ان يظن ان الله غافل عن أعمال الظالمين ، ومهمل لامورهم . والغفلة والسهو واحد . ثم بين الله تعالى أنه إنما لم يعاجلهم بالعقوبة ويؤخر عقابهم ليعذبهم في اليوم الذي تشخص فيه الابصار ، وهو يوم القيامة . وشخوص البصر ان تبقى العين مفتوحة لا تنطبق لعظم ذلك اليوم « مهطعين » قال سعيد بن جبير والحسن وقتادة : مسرعين ، يقال : أهطع اهطاعاً اذا أسرع قال الشاعر :

بمهطع سرح كان زمـــامه   في رأس جذع من أراك مشذّب (١)

وقال الآخر :

بمستهطع رسل كان جديله   بقيدوم رعن من صوام ممنع (٢)

وقال ابن عباس: المهطع الدائم النظر لا تطرف عينه، وقال ابن دريد: المهطع: المطرق الذي لا يرفع رأسه . وقوله « مقنعي رؤسهم » قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد: معنـــاه رافعي رؤسهم واقناع الرأس رفعه ، قال الشماخ :

يباكرن العضاه بمقنعات   نواجذهنّ كالحدإ الرقيـع (٣)

يعنى يباكرن العضاة بمقنعات اي برؤس مرفوعات اليها ليتناول منها، يصف

---

(١) مجاز القران ١ : ٣٤٢ وتفسير الطبرى ١٣ : ١٤١

(٢) اللسان ، والتاج (قدم) والاساس (هطع) ومجاز القران ١ : ٣٤٣ وتفسير الطبري ١٣ : ١٤٢ ،

(٣) ديوانه ٥٦ ومجاز القرآن ١ : ٣٤٣ والطبري ١٣ : ١٤٢ واللسان والتاج (حدأ) ومجمع البيان ٣ : ٣٢٠ .

ابلا له ترعى الشجر ، وأن أسنانها مرتفعة كالفؤس ، وقال الراجز :

انقض نحوي رأسه واقنعا كأنما أبصر شيئاً اطمعا[١]

وقوله « لا يرتد اليهم طرفهم » اي لا ترجع اليهم اعينهم ولا يطبقونها .

وقوله « وأفئدتهم هواء » معناه منخرقة لا تعي شيئاً للخوف والفزع الذي دخلها ، فهي كهواء الجو ، في الانخراق وبطلان الامساك .

وقوله « يوم يأتيهم » نصب على انه مفعول به والعامل فيه انذرهم ، كأنه قال خوفهم عقاب الله ، ولا يكون على الظرف ، لانه لم يؤمر بالانذار في ذلك اليوم . وقيل في قوله « وافئدتهم هواء » ثلاثة اقوال .

اولها - قال ابن عباس ومرة والحسن : منخرقة لا تعي شيئاً ، وفارغة من كل شيء إلا من ذكر إجابة الداعي .

الثاني - قال سعيد بن جبير : يردد في أجوافهم لا يستقر في مكان .

الثالث - قال قتادة : خرجت الى الحناجر لا تنفصل ، ولا تعود ، وكل ذلك تشبيه بهواء الجو ، والاول أعرف في كلام العرب . وقال حسان بن ثابت :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فانت مجوف نخب هواء[٢]

وقال زهير :

كأن الرحل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هواء[٣]

وقيل ان الظليم لا فؤاد له وقال آخر :

ولانك من اخدان كل يراعة هواء كسقب البان خوفا يكاسره[٤]

---

(١) تفسير الشوكاني ٣ : ١١٠ وتفسير الطبري ١٣ : ١٤٢ ومجاز القرآن ١ : ٣٤٤

(٢) ديوانه ٨ ، واللسان والتاج (هوء ، جوف) والطبري ١٣ : ١٤٤ ومجمع البيان ٣ : ٣٢٠ وقد مر في ١ : ٤١ من هذا الكتاب .

(٣) ديوانه (دار بيروت) ٩ ، ومجمع البيان ٣ : ٣٢٠

(٤) هذا البيت منسوب الى صخر الغي . ونسب ايضاً الى كعب . التاج (هوا) والطبري ١٣ : ١٤٤ ومجاز القران ١ : ٣٤٤

قوله تعالى :

(وَأَنْذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) (٤٤) آية بلا خلاف .

امر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول للناس على وجه التخويف لهم من عقابه ، ويحذرهم يوم يجيئهم العذاب من الله على معاصيهم في دار الدنيا ، وهو يوم القيامة ، ويقول « الذين ظلموا » نفوسهم بارتكاب المعاصي وترك الواجبات يا « ربنا أخرنا الى أجل قريب » أي ردنا الى الدنيا واجعل ذلك مدة قريبة نجب دعوتك فيها ونتبع رسلك فيما يدعوننا اليه ، فيقول الله تعالى « أو لم تكونوا أقسمتم » وحلفتم في دار الدنيا « مالكم من زوال » . قال مجاهد : معناه إنهم اقسموا في الدنيا أنه ليس لهم انتقال من الدنيا الى الآخرة . وقال الحسن : معناه « من زوال » الى العذاب .

والأجل الوقت المضروب لانقضاء الأمد ، والأمد مدة من المدد ، فانما طلبوا أجلاً يستدركون فيه مافات من الفساد بالصلاح ، وفي المعلوم أنهم يبعدون من الفلاح .

وفي الآية دلالة على ان أهل الآخرة غير مكلفين بخلاف ما يقول النجار وجماعة من المجبرة ، لانهم لوكانوا مكلفين لما كان لقوله « آخرنا الى اجل قريب » معنى ، لانهم مكلفون ، وكانوا يؤمنون ويتخلصون من العقاب .

وقوله « فيقول » رفع عطفاً على قوله « يوم يأتيهم العذاب » وليس بجواب الامر لانه لوكان جواباً له لجازفيه النصب والرفع ، فالنصب مثل قول الشاعر :

ياناق سيري عنقاً فسيحا الى سليمان فنستريحا [١]

والرفع على الإستئناف وذكر الفراء ان العلاء بن سبابة كان لاينصب في جواب الأمر بالفاء قال : والعلاء هو الذي علم معاذاً ولهواً وأصحابه .

قوله تعالى :

(وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ) (٤٦) آيتان بلا خلاف .

قرأ الكسائي وحده « لتزول » بفتح اللام الأولى ، وضمّ الثانية . وروي ذلك عن علي (ع). الباقون بكسر اللام الاولى وفتح الثانية .

قال أبو علي : من كسر اللام الأولى وفتح الثانية جعل (إن) بمعنى (ما) والتقدير وما كان مكرهم لتزول ، ومثل ذلك قوله « إن الكافرون إلاّ في غرور [٢] » . ومعناه ما الكافرون ، ومعنى الآية « وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم » اي جزاء مكرهم ، فحذف المضاف كما حذف من قوله « ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا ، وهو واقع بهم [٣]» اي جزاؤه ، والمعنى قد عرف الله مكرهم ، فهو يجازيهم عليه وما كان مكرهم لتزول منه الجبال. و(الجبال) كأنه اراد بها القرآن وأمر النبي ﷺ وأعلامه ودلالاته أي ما كان ليزول منه ما هو مثل الجبال في امتناعه ممّن أراد إزالته .

---

(١) تفسير الطبري ١٣ : ١٤٤ ومجمع البيان ٣ : ٣٢٠. واكثر كتب النحو يشتهدون به على اضمار (أن) بعد الفاء المسبوقة بطلب .

(٢) سورة الملك (تبارك) ٦٧ آية ٢٠ (٣) سورة الشورى ٤٢ آية ٢٢

ومن قرأ بفتح اللام الأولى وضمّ الثانية جعل (إن) هي المخففة من الثقيلة على تعظيم أمر مكرهم، وهو في تعظيم مكرهم، كما قال في موضع آخر « ومكروا مكراً كبّاراً [١] » أي قد كان مكرَهم من الكبر والعظم بحيث يكاد يزيل ما هو مثل الجبال في الامتناع، على من أراد إزالتـــه ومثله في تعظيم الأمر قول الشاعر :

ألم ترَ صدعـــاً في السماء مبينا   على ابن لبينى الحارث بن هشام[٢]

وقال آخر :

بكى حارث الجولان من موت ربه   وحوران منه خاشع متضائل[٣]

وقال أوس :

ألم تكسف الشمس شمس النهـــار   مع النجم والقمر الواجب [٤]

فهذا كله على تعظيم الامر وتفخيمه ويدل على ان الجبال يعني بها أمر النبي صلى الله عليه وسلم قوله بعد ذلك « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » اي بعد وعدك الظهور عليهم والغلبة لهم في قوله « ليظهره على الدين كله » [٥] وفي قوله « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون » [٦] وقد استعمل لفظ الجبال في غير هذا في تعظيم الشيء وتفخيمه قال ابن مقبل :

اذا مت عن ذكر القوافي فلن ترى   لهـا شاعراً مثلي اطب واشعرا
واكثر بيتاً شاعراً ضربت بـــه   بطون جبال الشعر حتى تيسرا [٦]

---

(١) سورة نوح ٧١ آية ٢٢ (٢) مجمع البيان ٣ : ٣٢٢
(٣) قائلة النابغة الذبياني . ديوانه (دار بيروت) ٩١ واللسان (حرث) وروايته الديوان (موحش) بدل (خاشع) وروايتها معاً (فقد) بدل (موت) .
(٤) ديوانه (دار بيروت) ١٠ وروايته :
ألم تكسف الشمس والبدر والـ   ـكواكب للجبل الواجب
(٥) سورة التوبة آية ٣٤ وسورة الفتح آية ٢٨ وسورة الصف اية ٩
(٦) سورة آل عمران آية ١٢ (٧) مجمع البيان ٣ : ٣٢٢

يقول الله تعالى للكفار «او لم تكونوا اقسمتم من قبل ما لكم زوال» مما انتم عليه من النعيم وأنتم «سكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم» بارتكاب المعاصي وكفران نعم الله، فأهلكهم الله «وضربنا لكم الامثال» والمعنى ان مثلكم كمثلهم في الاهلاك اذا اقمتم على ما اقاموا عليه، من الفساد والتتابع في المعاصي «ومكروا مكرهم» يعني الكفار الذين ظلموا انفسهم مكروا بالنبي ﷺ واحتالوا له، ومكروا بالمؤمنين وخدعوهم «وعند الله» جزاء مكرهم، ولم يكن مكرهم ليبطل حجج القرآن وما معك من دلائل النبوّة، فلا يبطل شيء منه، لانه ثابت بالدليل والبرهان.

وعلى القراءة الأولى ولو كان مكرهم يزيل الجبال من عظمه وشدته، لما أزال أمر النبي ﷺ لانه أثبت من الجبال.

وروي عن علي (ع) وجماعة انهم قرؤوا «وان كاد مكرهم» من المقاربة. قال سعيد بن جبير وغيره: ان قوله «ومكروا مكرهم» نزلت في صاحب النسرين الذي أراد صعود السماء. وقال قوم: مكرهم كفرهم بالله وشركهم في عبادته.

قوله تعالى:

(فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ) (٤٨) آيتان بلا خلاف.

قرىء في الشواذ «مخلف وعدَه رسلِه» وهي شاذة رديئة، لأنه لا يجوز ان يفصل بين المضاف والمضاف إليه، وانشد الفراء:

فزججتها بمزجة زج القلوص ابي مزاده[1]

---

(١) انظر ٤ : ٣٠٩ من هذا الكتاب.

والمعنى زج ابي مزادة القلوص ، والصحيح ما عليه القراء ، وتقديره مخلف وعده رسله ، كما تقول هذا معطي زيد درهماً ، والمعنى مخلف رسله وعده .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ «لا تحسبن الله» اي لا تظنه مخلف ما وعدك به من الظفر بهم والظهور عليهم ، فانه لا يخلف ما وعد رسله به . ثم أخبر ان الله تعالى قادر لا يغالب ينتقم ممن يكفر بنعمه ويكذب انبيائه . والانتقام هو العقاب .

«يوم تبدل الارض غير الارض» العامل في «يوم» الانتقام، وتقديره ذو انتقام يوم تبدل . والتبديل التغيير برفع الشيء الى بدل . وقيل ان تبديل الارض بغيرها برفع الصورة التي كانت عليها الى صورة غيرها . وقال ابن عباس ومجاهد وأنس بن مالك وابن مسعود : يبدل الله هذه الارض بأرض بيضاء كالفضة ، لم يعمل عليها خطيئة . والاول قول الحسن .

وقوله «والسموات» تقديره تبدل السموات غير السموات وحذف لدلالة الكلام عليه . وقيل تبديل الارض بتسيير الجبال وتفجير بحارها وكونها مستوية «لا ترى فيها عوجاً ولا امتاً»(١) وتبديل السموات انتشار كواكبها، وانفطارها، وتكوير شمسها وخسوف قمرها .

وقوله «وبرزوا لله الواحد القهار» معناه يظهرون من قبورهم . والبروز الظهور وبرز يبرز بروزاً ، فهو بارز ، وبارز قرنه مبارزة «لله الواحد القهار» والمعنى الواحد لا شبه له ولا نظير . والقهار المالك الذي لا يضام .

قوله تعالى :

(وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ) (٥٠) آيتان بلا خلاف .

---

(١) سورة طه اية ١٠٧

يقول الله لنبيه ﷺ انــك يا محمد ترى الذين اجرموا وفعلوا المعاصي ، من الكفر وجحد النعم ، يوم القيامة « مقرنين في الاصفاد » اي قرنت أيديهم بالغل الى اعناقهم . وقال الجبائي : قرن بعضهم الى بعض ، والصفد الغل الذي يقرن به اليد الى العنق ، ويجوز ان يكون السلسلة التي يقع بها التقرين، وأصل الصفد القيد ، وهو الصفاد ، وجمعه صفد ، قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وابناء الملوك مصفدينا[١]

اي مقيدين ، ومنه اصفدته اصفاداً ، اذا أعطيته مالاً ، قال الاعشى :

تضيفته يومــاً فاكرم مجلسي واصفدني عند الزمانة قائدا[٢]

وقال الذبياني :

هذا الثناء فان تسمع لقــائله فما عرّضت أبيت اللعن بالصفد[٣]

اي ما تعطيه : وانما قيل لها : صفد ، لانها تقيد المودة وترتبطها . وقـــال قتادة : الاصفاد القيود والاغلال ، والسرابيل القميص – في قــول ابن زيد – واحدها سربال ، قال امرؤ القيس :

لعوب تنسيني اذا قمت سربالي[٤]

و(القطران) هو الذي تهنأ به الإبل – في قول الحسن – وفيه لغات ، قطران بفتح القاف وكسر الطاء ، وبتسكين الطاء وكسر القاف . ويجوز فتحها ، قال ابو النجم :

---

(١) تفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ١١٣ ومجمع البيان ٣ : ٢٢٣

(٢) ديوانه (دار بيروت) ٤٤ وروايته (فقرب مقعدي) بدل (فأكرم مجلسي) . وهو في مجمع البيان ٣ : ٣٢٣ ومجاز القران ١ : ٣٤٥ وتفسير الطبري ١٣ : ١٥٢

(٣) ديوانه (دار بيروت) ٣٧ وروايته :

هذا الثناء فان تسمع به حسناً فلم أُعرض ابيت اللعن بالصفد

(٤) ديوانه (الطبعة الرابعة سنة ١٩٥٩) ١٦٠ وصدره :

ومثلك بيضاء العوارض طفلة

جون كأن العرق المنتوحا ألبسه القطران والمسوحا[١]

فكسر القاف وقال ايضاً :

كأن قطراناً اذا تلاهــا ترمي به الريح الى مجراها[٢]

وإنما جعلت سرابيلهم من قطران، لان النار تسرع اليها، وقرىء «قطرآن» وروي ذلــك عن ابن عباس ، والقطر النحاس ومنه قوله « اتوني افرغ عليه قطراً »[٣] والمعنى من قطر بالغ حره ، وانتهى . والقراء على انه اسم واحد على وزن الظربان، والظربان دابة منتنة فسّاءة، وهي من السباع « وتغشى وجوههم» معناه تجللها .

قوله- تعالى :

(لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٥١) هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ) (٥٢) آيتان بلا خلاف.

أخبر الله تعالى بأنه إنما فعل ما تقدم ذكره «ليجزي الله كل نفس» الذي كسبت إن كسبت خيراً أتاها الله بالنعيم الأبدي في الجنة ، وإن كفرت وجحدت وكسبت شراً عاقبها بنار جهنم مخلدة فيها « إن الله سريع الحساب » اي سريع المجازاة . وقيل معنى « سريع الحساب » لا يشغله محاسبة بعضهم عـن محاسبة آخرين . والكسب فعل ما يجلب به النفع للنفس او يدفع به الضرر عنها . والكسب ليس بجنس الفعل ، والله تعالى يقدر على مثله في الجنس .

وقوله « هذا بلاغ» قال ابن زيد وغيره من المفسرين: هو إشارة الى القرآن ،

(١ و ٢) مجمع البيان ٣ : ٣٢٣ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ : ١٥٣

(٣) سورة الكهف اية ٩٧

ففيه بلاغ للناس ، لان فيه البيان عن الانذار والتخويف ، وفيه البيان عما يوجب الإخلاص بما ذكر من الإنعام الذي لا يقدر عليه الا الله .

وفي الآية حجة على ثلاث فرق :

على المجبرة في الارادة ، لأنها تدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين ان يعلموا « إنما هو إله واحد » وهم يزعمون أنه أراد من النصارى ان يثلثوا ، ومن الزنادقة ان يقولوا بالتثنية .

الثاني ـ حجة عليهم في ان المعصية لم يردها ، لانه اذا أراد منهم ان يعلموا أنه إله واحد ، لم يرد خلافه من التثليث والتثنية الذي هو الكفر .

الثالث ـ حجة على اصحاب المعارف ، لانه بين أنه أراد من الخلق ان يتذكروا ويفكروا في دلائل القرآن التي تدلهم على أنه إله واحد . ثم أخبر تعالى انه انما يتذكر « أولو الالباب » اي ذوو العقول ، لان من لا عقل له لا يمكنه الذكر والاعتبار .

(١٥) سورة الحجر

مكية في قول قتادة ومجاهد. وهي تسع وتسعون آية بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

(الۤر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) (٢) آيتان بلا خلاف.

قرأ أهل المدينة وعاصم «ربما» بالتخفيف. الباقون بالتشديد. وروي عن أبي عمرو: الوجهان. قال أبو علي أنشد أبو زيد:

ماويّ يا ربتما غـــارة   شعواء كاللذعة بالميسم[١]

قال الازهري: الماوي الرحمة، وأنشد ايضاً ابو زيد:

يا صاحبا ربــــه إنسان حسن   يسأل عنك اليوم او تسأل عن[٢]

---

(١) مجمع البيان ٣ : ٣٢٦ واللسان (ربب)، (ما).

(٢) مجمع البيان ٣ : ٢٢٧

وقال قطرب ، والسكري : رُبّما، ورَبّما، وربتما، وربُ، ربٌ : ست لغات.
قال سيبويه (رب) حرف وتلحقها (ما) على وجهين :
احدهما - ان تكون نكرة بمعنى شيء كقوله :

ربما تجزع النفوس من الأمـ ـر له فرجة كحلّ العقال[١]

فـ (ما) في هذا البيت إسم؛ لما يقدر من عود الذكراليه من الصفة . والمعنى: رب شيء تكرهه النفوس ، واذا عاد اليه الهاء كان إسماً ، ولم يجز أن يكون حرفاً . والضرب الآخر ان تدخل (ما) كافة نحو الآية ، ونحو قول الشاعر :

ربمـــا أوفيت في علم يرفعن ثوبي شمالات[٢]

والنحويون يسمون (ما) هذه كافة يريدون: أنها بدخولها كفت الحرف عن العمل الذي كان هيأها لدخولها على ما لم تكن تدخل عليه ، ألا ترى ان (رب) انما تدخل على الاسم المفرد ؛ نحو رب رجل يقول ذلك ، وربـه رجل يقول ، ولا تدخل على الفعل ، فلما دخلت (ما) عليها هيأتها للدخول على الفعل، كما قال « ربما يود الذين كفروا» فوقع الفعل بعدها - في الآية - وهو على لفظ المضارع، ووقع في قوله (ربما أوفيت في علم) على لفظ الماضي، وهكذا ينبغي في القياس لأنها تدل على أمر قد وقع ومضى ، وإنما وقع - في الآية - على لفظ المضارع ، لأنه حكاية لحال آتية كما ان قوله « وإن ربك ليحكم بينهم»[٣] حكاية لحال آتية ايضاً ، ومن حكاية الحال قول القائل :

جارية في رمضان الماضي تقطع الحديث بالايماض[٤]

ومن زعم ان الآية على اضمار (كان) وتقديره ربما كان يود ، فقد خرج عن قول سيبويه، لأنهم لا يضمرون على مذهبه (كان) في قول القائل: عبدالله المقتول اي كن عبدالله المقتول. واما اضمار (كان) بعد إن خيراً فخيراً، فإنما جاز ذلك،

---

(١) قائله أمية بن ابي الصلت . اللسان «فرج» وروايته «تكره» بدل «تجزع» .
(٢) قائلة جذيمة الأبرش . اللسان «شمل» . وشمالات : جمع شمال ؛ ويقصد هنا ريح الشمال
(٣) سورة النحل ١٦ اية ١٢٤
(٤) اللسان «رمض» «خصص» ومجمع البيان ٣ : ٣٢٧

لإقتضاء الحرف له، فصار اقتضاء الحرف له كذكره، فاما ما أنشده ابن حبيب، فيهان ابن مسكين :

لقد رزيت كعب بن عوف وربما فتى لم يكن يرضى بشيء يضيمها[١]

فان قوله (فتى) يحتمل ضروباً :

احدها – ان يكون لماجرى ذكر (رزيت) استغنى بجري ذكره عن اعادته، فكانه قال : ربما رزيت فتى ، فأنتصب فتى برزيت المضمرة، كقوله «آلان وقد عصيت »[٢] فاستغنى بذكر آمنت المعلوم عن اظهاره بعد ، ويجوز ان يكون انتصب بـ (رزيت) هذه المذكورة ، كأنه قال : لقد رزيت كعب بن عوف فتى وربما لم يكن يرضى اي رزيت فتى لم يكن يضام ، ويكون هذا الفصل وهو اجنبي بمنزله قوله :

ابو أمه حي أبوه يقاربه[٣]

ويجوزان يكون رفعا بفعل مضمر كانه قال ربما لم يرضى فتى كقوله :

وقلما وصال على طول الصدود يدوم [٤]

ويجوزان تكون (ما) نكرة بمنزلة شيء ويكون فتى وصفاً لها ، كأنه قال: رب شيء فتى لم يكن كذا، فهذه الاوجه فيها ممكنة، ويجوز في الآية ان تكون (ما) بمنزلة شيء و(ودّ) صفة له ، لان (ما) لعمومها تقع على كل شيء فيجوز ان يعنى بها الودّ كأنه رب ودّ يودّه الذين كفروا ، ويكون يودّ في هذا الوجه حكاية حال لانه لم يكن كقوله « ارجعنا نعمل صالحاً »[٥] وقوله « يا ليتنا نردّ ولا نكذب »[٦]

«١» مجمع البيان ٣ : ٣٢٧ «٢» سورة يونس اية ٩١

«٣» البيت مشهو يستشهدون به على التعقيد المعنوي في كتب المعاني والبيان وتمامه :

وما مثله في الناس إلا مملكاً ابو أمه حي أبوه يقاربه

«٤» اللسان «طول» وتمام البيت :

صددت فأطولت الصدود وقلما وصال على طول الصدود يدوم

(٥) الم السجدة ٣٢ اية ١٢ (٦) سورة الانعام ٦ آية ٢٧

وامـــا من خفف ، فلانه حرف مضاعف والحروف المضـاعفة قـد تحذف، وان لم يحذف غـــير المضاعف ، فمن المضاعف الذي حذف (ان، وان، ولكن) قد حذف كل واحد من الحروف، وليس كل المضاعف يحذف ، لاني لا أعلم الحذف في (ثم) ، قال الهذلي :

ازهير إنْ يشب القذال فانني رب هيضل لجب لففت بهيضل[١]

واما دخول التاء في (ربتما) فان من الحروف ما يدخل عليه حرف التأنيث نحو (ثمَّ ، وثمّت ، ولا ، ولات) قال الشاعر :

ثمت لا يجزونني غير ذالكم ولكن سيجزنني المليك فيعقبا[٢]

فلذلك الحق التاء في قوله « ربتما » وقال المبرد : قـال الكسائي : العرب لاتـكاد توقع (رب) على أمر مستقبل ؛ وهذا قليل في كلامهم ، وإنمـا المعنى عندهم ان يوقعوها على الماضي ، كقولهم : ربما فعلت ذلك ، وربما جاءني فلان . وإنما جاء هذا في القرآن ، على ما جاء في التفسير ، ان ذلك يكون يوم القيامة . وإنما جاز هـذا ، لأن كل شيء من أمر الله خاصة فإنه وإن لم يكن وقع بعد ، فهو كالماضي الذي قد كان ، لأن وعـده آت لامحالة ، وعلى هذا عامة القرآن ، نحو قوله « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض » [٣] وقوله « وسيق الذين اتقوا »[٤] « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » [٥] ومع هذا يحسن ان يقال – في الكلام – اذا رأيت الرجل يفعل ما يشاء ، تخاف عليه ربما يندم ، وربما يتمنى ان لا تكون فعلت ، قال : وهذا كلام عربي حسن ، ومثله قال الفراء والمبرد وغيرهم .

فان قيل لم قال « ربما يود الذين كفروا » ورب للتقليل ؟ قلنا عنه جوابان : احدهما – انه شغلهم العذاب عن تمني ذلك الا في القليل .

---

(١) مجمع البيان ٣ : ٣٢٨ واللسان (هضل) نسبه الى ابي كبير
(٢) مجمع البيان ٣ : ٣٢٨
(٣) سورة الزمر –٣٩– آية ٦٨
(٤) سورة الزمر آية ٧٣
(٥) سورة ق ٥٠ آية ٢١

والثاني – انه أبلغ في التهديد كما تقول : ربما ندمت على هذا، وأنت تعلم أنه يندم ندماً طويلاً ، أي يكفيك قليل الندم ، فكيف كثيره .

فان قيل : لم قال « تلك آيات الكتاب وقران » والكتاب هو القرآن ؟ ولم أضاف الآيات الى الكتاب ، وهي القرآن ؟ وهل هذا إلا اضافة الشيء الى نفسه ؟!

قلنا : إنما وصفه بالكتاب والقرآن ، لإختلاف اللفظين ، وما فيهما من الفائدتين وإن كانا لموصوف واحد ، لأن وصفه بالكتاب يفيد انه مما يكتب ويدوّن ، والقرآن يفيد أنه مما يؤلف ويجمع بعض حروفه الى بعض قال الشاعر :

الى الملك القرمَ وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم[١]

وقال مجاهد وقتادة : المراد بالكتاب : ما كان قبل القرآن من التوراة والانجيل ، فعلى هذا سقط السؤال . فأما إضافة الشيء الى نفسه ، فقد بينا الوجه فيما مضى فيه ، وانه يجري مجرى قولهم مسجد الجامع وصلاة الظهر ويوم الجمعة .وقوله تعالى « لحق اليقين »[٢] وهو مستعمل مشهور وبينا الوجه فيه ، ووصف القرآن بانه مبين لانه يظهر المعنى للنفس ، والبيان ظهور المعنى للنفس بما يميزه من غيره ، لأن معنى إبانته منه فصلهَ منه ، فاذا ظهر النقيضان في معنى الصفة فقد بانت وفهمت .

و (الود) التمني يقال : وددته اذا تمنيته ؛ ووددته اذا أحببته أود فيهما جميعاً ودّاً . وقال الحسن : اذا رأى المشركون المؤمنين دخلوا الجنة تمنوا أنهم كانوا مسلمين ، وقال مجاهد : اذا رأى المشركون المسلمين يغفر لهم ويخرجون من النار يودون لوكانوا مسلمين .

---

(١) مر هذا البيت في ٢ : ٩٨ (٢) سورة الحاقة ٦٩ آية ٥١

قوله تعالى :

(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (٩)

سبع آيات .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه التهديد للكفار: اترك هؤلاء يأكلوا ما يشتهون، ويستمتعوا في هذه الدنيا بما يريدون ويشغلهم الأمل «فسوف يعلمون» وبال ذلك فيما بعد يعني يوم القيامة ووقت الجزاء على الاعمال .

ثم اخبر تعالى انه لم يهلك أهل قرية فيما مضى على وجه العقوبة الا وكان لها كتاب معلوم يعنى أجل مكتوب قد علمه الله تعالى لا بدّ ان يبلغونه لما سبق في علمه ، ويجوز إلا ولها بالواو وبغير الواو ، لانه جاء بعد التمام ، ولو جاء بعد النقصان لم يجز، نحو رجلا هو قائم، ولا يجوز وهو قائم ، وكذلك في الظرف في خبر كان ؛ وقال لم تكن أمة فيما مضى تسبق اجلها فتهلك قبل ذلك ولا تتأخر عن اجلها الذي قدر لها بل اذا استوفت أجلها اهلكها الله .

ثم قال له : ان هؤلاء الكفار يقولون لك « يا أيها الذي نزل عليه الذكر » يعنون القرآن نزل عليك على قولك ، لانهم لم يكونوا من المعترفين بذلك « انك لمجنون » في ادعائك أنه أنزل عليك الذكر بوحي الله اليك ، ولم تكن ممن يقرأ .

وقوله «لو ما تأتينا بالملائكة» معناه هلا تأتينا، وهو دعاء الى الفعل وتحضيض عليه، ومثله قوله «لو لا انزل عليه ملك» قال الشاعر :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم   بني ضو طرى لو لا الكمي المقنعا[١]

وقد جاء (لوما) في معنى (لو لا) التي لها جواب قال ابن مقبل :

لوما الحياء ولوما الدين عبتكما   ببعض ما فيكما اذ عبتما عوري[٢]

اي لولا الحياء. والمعنى في الآية هلا تأتينا بالملائكة إن كنت صادقاً في انك نبي، وقال ابو عبيد عن ابن جريج : فيه تقديم وتأخير يعنى قوله « ولو فتحنا » هو جواب « لو ما تأتينا » والمعنى : فلو فعلنا ذلك بهم ايضاً لما آمنوا، وما بينهما كلام مقدم والمراد به التأخير، قال المبرد : هذا الذي ذكره جائز لكن فيه بعد لانه يلبس بأن يكون فتح عليهم من انفسهم فعرج بهم. والله اعلم . وكلا الأمرين غير ممتنع الا ان العرب تمنع مما فيه لبس .

وقوله « ما ننزل الملائكة الا بالحق » قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالنون ونصب الملائكة. الباقون بالتاء ورفع الملائكة إلا أبا بكر عن عاصم فانه ضم التاء على ما لم يسم فاعله. فحجة من قرأ بالنون قوله «ولو اننا نزلنا إليهم الملائكة»[٣] وحجة من قرأ « تنزل الملائكة» بفتح التاء قوله «تنزل الملائكة والروح فيها »[٤] . وحجة من قرأ على ما لم يسم فاعله قوله « ما تنزل الملائكة الا بالحق » وقوله تعالى « ونزل الملائكة تنزيلا »[٥] .

ومعنى قوله « ما ننزل الملائكة الا بالحق » يعنى بالحق الذي لا يلبس معه الباطل طرفه عين . وقال الحسن ومجاهد : معناه إلا بعذاب الاستئصال اي لم

---

(١) مر تخريجه في ١ : ٣٠٩ ، ٤٣٥ .
(٢) شواهد الكشاف ١٢٦ ومجاز القرآن ١ : ٣٤٦ وتفسير القرطبي ١٠ : ٤ ومجمع البيان ٣ : ٣٣٠
(٣) سورة الانعام اية ١١١
(٤) سورة القدر اية ٤
(٥) سورة الفرقان اية ٢٥

يؤمنوا بالآيات ، كما كانت حال من قبلهم حين جاءتهم الآيات التي طلبوا ، فلم يؤمنوا. ومعنى «وما كانوا اذاً منظرين» أنه إن نزل عليهم الملائكة ولم يؤمنوا لم ينظرهم الله ، بل كان يعاجلهم العقوبة . وقوله « انا نحن نزلنا الذكر » يعنى القرآن في ـ قول الحسن والضحاك ، وغيرهم ـ « وانا له لحافظون » قال قتادة : لحافظون من الزيادة والنقصان . ومثله قوله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »[١] وقال الحسن : لحافظون حتى نجزي به يوم القيامة اي لقيام الحجة به على الجماعة من كل من لزمته دعوة النبي صلى الله عليه وآله .

وقال الفراء : الهاء في قوله « وانا له لحافظون » يجوز ان تكون كناية عن النبي ، فكأنه قال: انا نحن نزلنا القرآن وانا لمحمد لحافظون . وقال الجبائي : معناه وانا له لحافظون من ان تناله أيدي المشركين ، فيسرعون الى ابطاله ، ومنع المؤمنين من الصلاة به .

وفي هذه الآية دلالة على حدوث القرآن ، لان ما يكون منزلاً ومحفوظاً لا يكون الا محدثاً ، لان القديم لا يجوز عليه ذلك ولا يحتاج الى حفظه

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ) (١٣) أربع آيات بلا خلاف .

يقول الله (عز وجل) لنبيه محمد صلى الله عليه وآله تسلية له عن كفر قومه « لقدارسلنا من قبلك في شيع الاولين » قال ابن عباس وقتادة : شيع الامم واحدهم شيعة لمتابعة بعضهم بعضاً في الاحوال التي يجتمعون عليها في الزمن الواحد من مملكة

(١) سورة حم السجدة ٤١ (فصلت) اية ٤٢

أو عمارة أو بادية أو نحو ذلك من الأمور الجارية في العادة ، والمرسل محذوف لدلالة (أرسلنا) عليه .

وقوله « وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن » اخبار منه تعالى أنه لم يبعث رسولاً فيما مضى الا وكانت امهم تستهزىء بهم ، واستهزاؤهم بهم حملهم عليهم واستبعادهم ما دعوا اليه واستيحاشهم منه، واستكبارهم له ، حتى توهموا أنه مما لا يكون، ولايصح مع مخالفته لما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم واسلافهم، فكان عندهم كأنه دعا الى خلاف المشاهدة والى ما فيه جحد الضرورة والمكابرة. والهزؤ إظهار مـــا يقصد به العيب على ايهام المدح ، وهو بمعنى اللعب والسخرية .

وقوله « كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقـــد خلت سنة الأولين » قيل في معناه قولان :

احدهما – كذلك نسلك القرآن الذي هوالذكر باخطاره على البال ليؤمنوا به ، فهم لا يؤمنون به ، ماضين على سنة من تقدمهم ، من تكذيب الرسل ، كما سلكنا دعوة الرسل في قلوب من سلف من الامم . ذهب اليه البلخي والجبائي.

وقال الحسن وقتادة: يسلك الاستهزاء بإخطاره على البال ليجتنبوه، ولو كان المراد أنه يسلك الشرك في قلوبهم ، لكان يقول : انهم لا يؤمنون بالشرك ولو كانوا كذلك، كانوا محمودين غير مذمومين ، يقـــال : سلكه فيه يسلكه سلكاً وسلوكاً ، واسلكه اسلاكاً ، قال عدي بن زيد :

وكنت لزاز خصمك لم اعرّد وقد سلكوك في يوم عصيب[1]

وقال الآخر :

---

(١) انظر ٦ : ٣٨ تعليقة ١

حتى اذا سلكوهم في قتائدة شلا كما تطرد الجمّالة الشردا[١]

ومعنى قوله : « وقد خلت سنة الاولين » اي في اهلاك من اقام على الكفر بالمعجزات بعد مجيء مــا طلب من الآيات. ويحتمل ان يكون المراد وقد خلت سنة الاولين في تكذيب رسلهم والكفر بما جاؤوا به .

قوله تعالى :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) آيتان .

قرأ ابن كثير وحده « سكرت » بالتخفيف . البــاقون بالتشديد . قال أبو عبيدة: (سكرت) معناه غشيت. والمعنى في الآية سكرت الابصار ، فلا ينفذ نورها ، ولا تدرك الاشياء على حقيقتها ، وكأن المعنى انقطـاع الشيء عن سننه الجاري،فمن ذلك (سكره سكراً) إنما هو ردّه عن سننه،وقال:السكير في الرأي قبل ان يعزم على شيء ، فاذا عزم على امر ذهب السكير وهو ان ينقطع عما عليه من المضاء في حال الصحو ، فلا ينفذ رأيه على حدّ نفــاذه في صحوه ، ووجه التثقيل ان الفعل مسند الى جماعة مثـــل قوله «مفتحة لهم الابواب»[٢] ووجه التخفيف ان هذا النحو من الفعل المسند الى الجماعة قد يخفف ، قال الشاعر :

ما زلت اغلق ابواباً وأفتحها [٣]

---

(١) قائله عبد مناف بن ربع الهذلي ديوانه ٢/٢٤ وتفسير الطبري ١٤/١٨٠٧ وتفسير القرطبي ١٢/١١٩ ومجاز القران ١/٣٧ ،٣٣١ ومجمع البيان ٣/٣٣٠ ومعجم البلدان (قتائدة) واللسان والتاج (قتد) وقد مر في ١/١٢٨ ،١٤٩ من هذا الكتاب .

(٢) سورة ص ٣٨ اية ٥٠

(٣) اللسان (غلق) نسبه الى الفرزدق ولم اجده في ديوانه وروايته

ما زلت افتح ابوباً واغلقها حتى اتيت ابا عمرو بن عمار

اخبر الله تعالى نبيه ﷺ ان هؤلاء الكفار لشدة عنـــادهم وغلظة كفرهم وتمردهم وعتوهم «لو فتحنا عليهم باباً من السماء» فصاروا «فيه يعرجون» والعروج الصعود في الهواء تعلقاً به نحو السماء ، عِرج الملك يعرج عروجاً ، فلو عرج هؤلاء عروج الملك ، لقالوا هذا القول . والتسكير إدخال اللطيف في المسام ، ومنه السكر بالشراب ، والسكر السد بالتراب «لقالوا انما سكرت أبصارنا» بما ادخل فيها من اللطيف في مسامها ، حتى منعنا من رؤية الاشياء على حقيقتها . وأصل السكر السد بمـــا ادخل في المسام . وقال مجاهد والضحاك وابن كثير : معنى « سكرت » سدت قال المثنى بن جندل الطهوري :

جاء الشتاء واجثألّ القنبر   واستخفت الافعى وكانت تظهر
وطلعت شمس عليها مغفر   وجعلت عين الحرور تسكر (١)

اي تسد بشدة البرد، وقنبر وقنبر –بضم الباء وفتحها– لغتان ، مثل جندب وجندب قال رؤبة :

قبل انصداع الفجر والتهجر   وخوضهن الميل حتى تسكر (٢)

اي يسد بظلمته ، وحكى الفراء : ان من العرب من يقول : سكرت الريح إذا سكنت .

وقال ابن عباس وقتادة والضحاك : المعنى « لو فتحنا عليهم بابا من السماء » فظلّت الملائكة تعرج الى السماء ، وهم يرونها على ما اقترحوه ، « لقـالوا : إنما سكرت أبصارنا » وقال الحسن : يظل هؤلاء المشركون يعرجون فيـــه .

---

(١) مجاز القران ١/٣٤٨ وتفسير الطبري ١٤/٩ واللسان والتاج (سكر ، قبر) وتفسير الطبري ١٥/٨ ومجمع البيان ٣/٣٣٠ والشوكاني (الفتح القدير) ٣/١١٠٨ (اجثأل) اجتمع ، وتقبض ، وانقبض . و(القنبر) و(القنبار) جمعه قنابر ، وتقول : العامة: قنبرة . وهم جماعة يجتمعون لجر ما في الشباك من الصيد ، وهي لغة عمانيـــة . ومعنى (استخفت الافعى) اي تخبأت الحية الكبيرة . بعد ان كانت تظهر . وطلعت الشمس عليها غيوم . و(الحرور) الريح الحارة .

(٢) تفسير الطبري ١٤/٩

«بل نحن قوم مسحورون»أي يقولون: سحرنا،فنحن مسحورون،والسّحر حيلة خفيّة ، توهم معنى المعجزة من غير حقيقة ، ولهذا من عمل بالسّحر كان كافراً ، لأنه يدّعي المعجزة للكذّابين ، فلا يعرف نبوّة الصادقين .

وقال أبو عبيدة : سكّرت أبصار القوم إذا ادير بهم ، وغشيهم كالساتر فلم يبصروا .

وروى ابن خالوية عن الزّهري أنه قرأ « سَكِرت » بفتح السين وكسر الكاف ، والتخفيف أي اختلطت وتغيّرت عقولهم .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) (١٨) ثلاث آيات بلا خلاف .

أخبر الله تعالى أنه جعَل في السّماء بروجاً . والجعل قد يكون تصيير الشيء عن صفة لم يكن عليها . وقد يكون بالايجاد لهُ . والله تعالى قادرٌ ان يجعل في السّماء بروجاً من الوجهين ، والبرْج: ظهُور منزل ممتنع بارتفاعه ، فمن ذلك برج الحصْن ، وبرج من بروج السّماء الإثني عشر ، وهي منازل الشمس والقمر . وأصله الظهور ، يقال : تبرّجت المرأة إذا أظهرت زينتها . وقال الحسن ومجاهد وقتادة : المراد بالبرُوج النجوم . وقوله « وحفظناها من كل شيطان رجيم »

يحتمل ان تكون الكناية راجعة الى السّماء ، والى البرُوج . وحفظ الشيء جعله على ما ينفي عنه الضّياع ، فمن ذلك حفظ القرآن بدرسه ومراعاته ، حتى لا ينسى ، ومنه حفظ المال بإحرازه بحيث لا يضيع بتخطّف الأيدي له ، وحفظ السماء من كل شيطان بالمنع بما أعدّ له من الشّهاب . والرّجم بمعنى المرجوم، والرجم الرمي بالشيء بالاعتماد من غير آلة مهيأة للأصابة ، فإن النفوس يرمى عنها ولا ترجم .

وقوله « الا من استرق السمع » معنى (الا) (لكن) فكأنه قال : لكن من استرق السمع من الشيطان يتبعه شهـاب مبين . قال الفرّاء: أي لا يخطىء، وقال المفسّرون : قوله « إلا من استرق السمع » مثـــل قوله « إلا من خطف الخطفة »(١) ومعناه معناه، والاستراق أخذ الشيء خفيّاً ، وليس طلبهم استراق السمع مع علمهم بالشهب خروج عن العادة في صفة العقلاء ، لانهم قد يطمعون في في السلامة من بعض الجهـات ، والشهاب عمود من نور يمدّ لشدة ضيائه كالنار وجمعه شهب. وقال ابن عباس: بالشهاب يخبل ويحرق، ولا يقتل. وقال الحسن: يقتل قال ذو الرمّة :

كأنه كوكب في إثر عفريةٍ مسوّم في سواد الليل منقضبُ (٢)

والاتباع إلحاق الثاني بالأول ، أتبعه اتباعاً ، وتبعه يتبعه إذا طلب اللحاق به ، وكذلك اتّبعه اتباعاً بالتشديد « مبين » اي ظاهر مبين .

وقال الفراء : قوله « إلا من استرق السمع » استثناء صحيح ، لان الله تعالى لم يحفظ السماء ممن يصعد اليها ليسترق السمع، ولكن اذا سمعه والقاه الى الكهنة اتبعه شهاب مبين ، فأما استراقهم السمع ، فقـــال المفسرون: إن فيهم من كان يصعد السماء فيسمع الوحي من الملائكة، فاذا نزل الى الارض اغوى به شياطينه او ألقاه الى الكهان ، فيغوون به الخلق ، فلما بعث الله تعالى نبيه ﷺ منعهم من ذلك ، وكان قبل البعثة لم يمنعهم من ذلك تغليظـاً في التكليف . قال الزّجاج : والدليل على انه لم يكن ذلك قبل النبي ان أحداً من الشعراء لم يذكره قبل بعثة النبي ﷺ مع كثرة ذكرهم الشهب بعد ذلك .

قوله تعالى :

(وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَـا مِنْ

---

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٠ (٢) مجمع البيان ٣/٣٣٠ واللسان (قضب)

كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) (٢١) ثلاث آيات بلا خلاف .

قوله « والأرض مددناها » عطفاً على قوله « ولقد جعلنا في السماء بروجاً... والارض » ويجوز ان يكون ومددنا الأرض مددناها ، كما قال « والقمر قدرناه »[1] ومعنى «مددناها» بسطناها ، وجعلنا لها طولا وعرضا «والقينا فيها» يعني طرحنا فيها « رواسي » يعني جبالاً ثابتة . واصله الثبوت ، ويقال : رست السفينة اذا ثبتت ، والمراسي ما تثبَّت به . وقيل جعلت الجبال أوتاداً للأرض. وقيل جعلت أعلاماً يهتدي بها أهل الأرض .

وقوله « انبتنافيها » يعني أخرجنا النبات في الأرض ، والنبات ظهور النامي عن غيره ، حالاً بعد حال ، والأغلب عليه ظهوره من الأرض، وقد يكون من غيره ، كنبات الشعر على البدن والرأس .

« من كل شيء موزون » قيل في معناه قولان :

احدهما – قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والجبائي: من كل شيء مقدر معلوم .

والثاني – قال الحسن وابن زيد : من الاشياء التي توزن من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغير ذلك . والوزن وضع احد الشيئين بازاء الآخر على ما يظهر به مساواته في المقدار وزيادته ، يقال وزنه يزنه وزناً فهو موزون ، « وجعلنا لكم فيها معايش » جمع معيشة ، وهي طلب اسباب الرزق مدة الحياة ، فقد يطلبها الأنسان لنفسه بالتصرف والتكسب ، وقد يطلب له فإن أتاه اسباب الرزق من غير طلب فذلك العيش الهني .

وقوله « ومن لستم له برازقين » (من) في موضع نصب عطفا على (معايش)،

---

(١) سورة يس اية ٣٩

وقال مجاهد : المراد به العبيد والاماء والدواب والانعام ، قال الفراء : العرب لا تكاد تجعل (من) الا في الناس خاصة ، قال : فان كان من الدواب والمماليك حسن حينئذ، قال وقد يجوز ان يجعل (من) في موضع خفض نسقاً على الكاف والميم في (لكم) قال المبرّد: الظاهر المخفوض لا يعطف على المضمر المخفوض نحو مررت بك وزيد إلا ان يضطر شاعر،على ما مضى ذكره في سورة النساء، وانشد الفرّاء في ذلك :

نعلق في مثل السواري سيوفنا وما بينها والكعب غوط نفانف[1]

فرد الكعب على (بينها) وقال آخر :

هلا سألت بذي الجماجم عنهم وأبا نعيم ذي اللواء المحرق [2]

فرد أبا نعيم على الهاء في عنهم. قـال ويجوز ان يكون في موضع رفع ، لان الكلام قد تم، ويكون التقدير علىقوله «لكم فيها»... «ومن لستم له برازقين ». وقوله « وان من شيء الا عندنا خزائنه » فخزائن اللهمقدوراته، لانه تعالى يقدر ان يوجد ما شاء من جميع الاجناس، فكأنه قال : وليس من شيء إلا والله تعالى قادر على ما كان من جنسه الى ما لا نهاية له .

وقوله « وما ننزله الا بقدر معلوم » اي لست انزل من ذلك الشيء « إلا بقدر معلوم » اي ما يصلحهم وينفعهم دون ما يفسدهم ويضرهم ، حسب ما سبق في علمي .

قوله تعالى :

(وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَـا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ

(١) مر هذا البيت في ٣ : ٩٨

(٢) تفسير الطبري ١٤ : ١٢ (الطبعة الاولى) ومجمع البيان ٣ : ٣٣٣

ٱلْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)(٢٥) أربع آيات.

قرأ حمزة وحده « الريح لواقح » الباقون «الرياح» على الجمع، قال ابو عبيدة لا اعرف لذلك وجهاً، إلا ان يريد أن الريح تأتي مختلفة من كل وجه، فكانت بمنزلة رياح وحكى الكسائي أرض اغفال، وأرض سباسب . قال المبرّد : يجوز ذلك على بعد، ان يجعل الريح جنساً، وليس بجيد، لأن الرياح ينفصل بعضها عن بعض، بمعرفة كل واحدة، وليست كذلك الارض، لأنها بساط واحد. وقال الفراء : هو مثل ثوب اخلاق وانشد :

جاء الشتاء وقميصي أخلاق شراذم يضحك منه التواق [1]

ومن قراء « الرياح لواقح » احتمل ذلك شيئين .

احدهما - ان يجعل الريح هي التي تلقح بمرورها على التراب والماء، فيكون فيها اللقاح، فيقال فيها ريح لاقح، كما يقال : ناقة لاقح .

والثاني - ان يصفها باللقح وان كانت تلقح، كما قيل ليل نائم وسر كاتم .

يقول الله تعالى انه بعث « الرياح لواقح » للسحاب والأشجار تعداداً لنعمه على عباده وامتنـــانا عليهم، واحدها ريح، وتجمع ايضاً أرواحاً، لأنها من الواو، قال الشاعر :

مشين كما اهتزت رماح تسفهت أعاليها مر الرياح النواسم [2]

فاللواقح التي تلقح السحاب، حتى يحمل الماء أي تلقي اليه ما يحمل به الماء يقال : لقحت الناقة اذا حملت، وألقحها الفحل إذا ألقى اليهـــا الماء فحملته، فكذلك الرياح هي كالفحل للسحاب، (ولواقح) في موضع ملاقح . وقيل في

---

(١) تفسير الطبري ١٤ : ١٣ واللسان «خلق»، «توق» .
(٢) مر هذا البيت في ٢ : ٣٧٢ من هذا الكتاب .

علّة ذلك قولان : احدهما ، لانه في معنى ذات لقاح كقولهم : هم ناصب أي ذو نصب قال النابغة :

كليني لهم يا اميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب (١)

اي منصب ، وقال نهشل بن حري النهشلي :

ليبك يزيد ضارع لخصومة ... ومختبط مما تطيح الطوائح (٢)

اي المطاوح ، وقال قتادة وابراهيم والضحاك: معنى هذا القول : ان الرياح تلقح السحاب الماء . وقال ابن مسعود : إنها لا قحة يحملها الماء ، ملقّحة بإلقائها إياه الى السحاب .

وقوله « فانزلنا من السماء ماء » يعني غيثاً ومطراً « فاسقيناكموه » اي جعلته سقياً ، لأرضكم تشربه ، يقال: سقيته ، فيما يشربه، تسقيه واسقيته فيما تشربه ارضه ، وقد تجيء أسقيته بمعنى سقيته ، كقوله تعالى « نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » (٣) ، وقال ذو الرمة :

وقفت على ربع لمية ناقتي ... فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
واسقيه حتى كاد مما أبثه ... تكلمني احجاره وملاعبه (٤)

اي ادعو له بالسقيا . « وما انتم له برازقين » اي لستم تقدرون ان ترزقوا احداً ذلك الماء ، لولا تفضل الله عليكم . ثم اخبر تعالى انه هو الذي يحيي الخلق اذا شاء وكان ذلك صلاحاً لهم ، ويميتهم اذا اراد وكان صلاحهم ، وانه هو الذي يرث الخلق ، لأنه اذا افنى الخلق ولم يبق احد كانت الاشياء كلها راجعة اليه ينفرد بالتصرف فيها وكان هو الوارث لجميع الاملاك .

---

(١) ديوانه « دار بيروت » ٩ وقد مر في ٥ : ٣٦٨ ، ٦ : ٩٥ .
(٢) مر هذا البيت في ٤ : ٣١٠
(٣) سورة النحل آية ٦٦
(٤) ديوانه ٢١٣ وتفسير الشوكاني« الفتح القدير» ٣ : ٤٨ وتفسير الطبري ١٤ : ١٤ والمحاسن والاضداد للجاحظ ٣٣٥ ومجمع البيان ٣ : ٣٣٣ ، ٣٥٩ واللسان والتاج (سقى) وقد مر الثاني في ٤ : ١٢٩

وقوله « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستاخرين » قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدهما – قال مجاهد وقتادة من مضى ومن بقي .

وثانيها – قال الشعبي : اول الخلق وآخره .

وثالثها – قال الحسن : المتقدمين في الخير والمبطئين .

وقال الفرا : لما قال النبي ﷺ إن الله يصلي على الصف الاول ، أراد بعض المسلمين ان يبيع داره النائية ليدنو الى المسجد ، فيدرك الصف الاول . فأنزل الله الآية ، وأنه يجازي فقراء الناس على نياتهم .

ثم اخبر تعالى ان الذي خلقك يا محمد هو الذي يحشرهم بعد اماتتهم ، ويبعثهم يوم القيامة ، لانه حكيم في افعاله عالم بما يستحقونه من الثواب والعقاب .

(والحشر) جمع الحيوان الى مكان ، يقال : هؤلاء الحشّار ، لانهم يجمعون الناس الى ديوان الخراج . و (الحكيم) العالم بما لا يجوز فعله ، لقبحه ، او سقوط الحمد عليه ، مع انه لا يفعله ، فعلى هذا يوصف تعالى فيما لم يزل بانه حكيم . والحكيم المحكم لأفعاله بمنع الخلل ان يدخل في شيء منها ، فعلى هذا لا يوصف تعالى فيما لم يزل بانه حكيم .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَٱلْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ ٱلسَّمُومِ) (٢٧) آيتان بلا خلاف.

اخبر الله تعالى أنه خلق الانسان ، والمراد به آدم بلا خلاف .

وقيل في معنى الصلصال قولان :

احدهما – إنه الطين اليابس الذي يسمع له عند النقر صلصلة . ذهب اليه ابن عباس والحسن وقتادة .

والثاني – قال مجاهد : هو مثل الخزف الذي يصلصل . وقال مجاهد :

الصلصال المنتن - في رواية عنه - مشتق من صل اللحم وأصلّ إذا انتن، والاول اقوى، لقوله تعالى «خلق الانسان من صلصال كالفخار [١]» وما يبس كالفخار فليس بمنتن، وقال الفراء: الصلصال طين الحرار إذا خلط بالرمل اذا جفّ كان صلصالاً، واذا طبخ كان فخاراً، والصلصلة القعقعة، وهي صوت شديد متردد في الهواء كصوت الرعد، يقال لصوت الرعد صلصلة، وللثوب الجديد قعقعة، واصل الصلصلة الصوت يقال: صلّ يصلّ وهو صليل اذا صوّت، قال الشاعر:

رجعت الى صدر كجرّة حنتم إذا فرغت صفراً من الماء صلّت [٢]

وقيل: خلق آدم على صورة الانسان من طين، ثم ترك حتى جف، فكانت الريح اذا مرت به سمع له صلصلة.

وقوله «من حمإ مسنون» فالحمأ جمع حمأة، وهو الطين المتغير الى السواد، يقال: حمئت البئر وأحمأتها أنا اذا بلغت الحمأة. وقيل في معنى (المسنون) قولان:

احدهما- المصبوب من قولهم: سننت الماء على الوجه وغيره اذا صببته، وعن ابن عباس: انه الرطب، فعلى هذا يكون رطباً مصبوباً ثم يبس فيصير كالفخار.

الثاني - انه المتغير، من قولهم: سننت الحديدة على المسن اذا غيرتها بالتحديد، والأصل الاستمرار في جهة، من قولهم هو على سنن واحد.

ومعنى قوله «والجان خلقناه من قبل» المراد به ابليس، خلقه الله قبل آدم - في قول الحسن وقتادة - «من نار السموم» اي من النار الحارة. وقال عبدالله: هذه السموم جزء من سبعين جزء من السموم التي خرج منها الجان، وهو مأخوذ من دخولها بلطفها في مسام البدن ومنه السم القاتل، يقال: سم يومنا يسم سموماً اذا هبت له ريح السموم.

(١) سورة الرحمن آية ١٤ - ١٥

(٢) قائله عمرو بن شأس. اللسان «حنتم» ومجمع البيان ٣ : ٣٣٥

قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) أربع آيات بلا خلاف.

لفظة (إذ) تدل على ما مضى من الزمان ، ولا بدّ لها من فعـل متعلق به ، والتقدير واذكر يا محمد « اذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً » اي اخلقه فيما بعد ، قبل ان يخلقه ، والمراد بالبشر آدم ، وسمي بشراً لأنه ظاهر الجلد ، لا يرى فيه شعر ، ولا صوف كسائر الحيوان . ثم قال « من صلصال من حمإ مسنون » وقد فسرناه .

وقوله « فإذا سويته » معناه سويت صورته الانسانية ، والتسوية جعل واحد من الشيئين على مقدار الآخر وقد يسوى بين الشيئين في الحكم .

وقوله : « ونفخت فيه من روحي » فالنفخ الاجراء للريح في الشيء باعتماد ، نفخ ينفخ نفخاً إذا اجرى الريح باعتماد ، فلما أجرى الله الروح على هذه الصفة في البدن ، كان قد نفخ الروح فيه ، وأضاف روح آدم الى نفسه تكرمة له ، وهي اضافة الملك ، لما شرفه وكرمه ، والروح جسم رقيق روحاني فيها الحياة التي بها يحيى الحي ، فاذا خرجت الروح من البدن ، كان ميتاً في الحكم ، فاذا انتفت الحياة من الروح ، فهو ميت في الحقيقة .

وقوله « فقعوا له ساجدين » أمر من الله تعالى ، الى الملائكة ان يسجدوا لآدم . وقيل في وجه سجودهم له قولان :

احدهما - انه سجود تحية وتكرمة لآدم ، عبادة لله تعالى . وقيل : أنه على معنى السجود الى القبلة . والاول عليه اكثر المفسرين . ثم استثنى من جملتهم

ابليس انه لم يسجد ، « وأبى ان يكون مع الساجدين » لآدم . وابليس مشتق من الإبلاس ، وهو اليأس من روح الله إلا انه شبه بالاعجمي من جهة انه لم يستعمل إلا على جهة العلم ، فلم يصرف . وقال قوم : إنه ليس بمشتق ، لأنه أعجمي بدلالة انه لا ينصرف . والاباء : الامتناع ، والسجود خفض الجبهة بالوضع على بسط من الارض او غيره ، واصله الانخفاض قال الشاعر :

ترى الاكم فيها سجّد اللحوافر (١)

واختلفوا في هذا الاستثناء ، فقال قوم: ان ابليس كان من الملائكة، فلذلك استثناه، وقال آخرون: إنما كان من جملة المأمورين بالسجود لآدم، فلذلك استثناه من جملتهم ، وقال آخرون : هو استثناء منقطع ومعناه (لكن) وقد بينا الصحيح من ذلك في سورة البقرة (٢) .

ومن قال : لم يكن من الملائكة قال: الملائكة خلقوا من نور، وإبليس خلق من نار ، والملائكة لا يعصون ، وإبليس عصى بكفره بالله . والملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تنكح ، وإبليس بخلاف ذلك ، قال الحسن : إبليس أب الجن ، كما ان آدم أب الإنس .

قوله تعالى :

(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)

آيتان بلا خلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لإبليس يقول له : لم لا تكون مع الساجدين ، تسجد كما سجدوا . واختلفوا في كيفية هذا الخطاب ، فقال الجبائي : قال الله له

---

(١) مر هذا الشعر في : ١ : ١٤٨ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٤ : ٢٣٣ ، ٣٨٣ ، ٦ : ...

(٢) انظر ١ : ١٤٧ في تفسير آية ٣٤ من سورة البقرة .

ذلك على لسان بعض رسله وهو الأليق ، لأنه لا يصح ان يكلمه الله بلا واسطة في زمان التكليف. وقال آخرون: كلمه، بالانكار عليه والاهانة له ، كما قال « اخسؤوا فيها ولا تكلمون » [1] . هذا ينبغي ان يكون حكاية عما يقوله له في الآخرة ، فقال إبليس مجيباً لهذا الكلام : ما كنت بالذي اسجد لبشر « خلقته من صلصال من حمإ مسنون » وقد فسرناه . ولم يعلم وجه الحكمة في ذلك ، لأن في ذلك قلباً للشيء عن الحالة الحقيرة في الضعة الى هذه الحالة الجليلة ، وأي ذلك كان ، فانه لا يقدر عليه غير الله ، وانه لا ينتفع للعظم في الصفة مع إمكان قلبه الى النقص في الصفة ، وكذلك لا يضر النقص في الصفة ، مع إمكان قلبه الى الاعظم ، فلو نظر في ذلك لزالت شبهته في خلقه من نار وخلق آدم من طين ، قال المبرّد : قوله « مالك ألا تكون » (لا) زائدة مؤكدة ، والتقدير ما منعك ان تسجد ، فـ (أن) في قول الخليل وأصحابه في موضع نصب، لأنه إذا حذف حرف الجر ونصب ما بعده، وقال غيره: في موضع خفض، لأن المعنى ما منعك من ان تكون ، فحذف (من)

قوله تعالى :

(قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ) (٣٨)

خمس آيات بلا خلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لابليس لما احتج لامتناعه من السجود لادم بما ليس بحجة ، بل هو حجة عليه ، فاخرج منها .

قال الجبائي : أمره بالخروج من الجنة . وقال غيره أمره بالخروج من السماء .

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٠٩

« فانك رجيم » أي مرجوم بالذم والشتم (فعيل) بمعنى مفعول . وقد يكون (فعيل) بمعنى فاعل مثل رحيم بمعنى راحم .

« وان عليك اللعنة »اي عليك مع ذلك اللعنة ، وهي الابعاد من رحمة الله، ولذلك لايجوز ان تلعن بهيمة ، فأما لعن إبليس الى يوم الدين ، فإن الله قد لعنه، والمؤمنون لعنوه لعنة لازمة الى يوم الدين ، وهو يوم القيامة . ثم يحصل بعد ذلك على الجزاء بعذاب النار. وقيل الدين ـ ههنا ـ الجزاء، ومثله «مالك يوم الدين» اي يوم الجزاء . ويقال لفلان دين اي طاعة يستحق بها الجزاء ، وفلان يدين للملوك أي يدخل في عادتهم في الجزاء ، فقال حينئذ ابليس : يارب « انظرني الى يوم يبعثون » اي أخر في وقتي الى يوم يحشرون ، يعني القيـــامة ، يحشرهم الله للجزاء . والانظار والامهال واحد ، فقال الله تعالى له : اني انظرتك وأخرتك وجعلتك من جملة « المنظرين الى يوم الوقت المعلوم » فقال قوم :هو يوم القيامة، أنظره الله في رفع العذاب عنـــه الى يوم القيامة ، وفي التبقية الى آخر أحوال التكليف « ويوم يبعثون » يوم القيامة. وقد قيل : إن يوم الوقت المعلوم هو آخر أيام التكليف ، وأنه سأل الانظار الى يوم القيامة ، لأن لايموت ، اذ يوم القيامة لا يموت فيه احد ، فلم يجبــه الله الى ذلك . وقيل له « الى يوم الوقت المعلوم » الذي هو آخر ايام التكليف . وقال البلخي : اراد بذلك الى يوم الوقت المعلوم ، الذي قدر الله أجله فيه ، وهو معلوم ، لأنه لا يجوز ان يقول تعالى لمكلف اني ابقيك الى يوم معين لان في ذلك اغراء له بالقبيح .

واختلفوا في تجويز ، إجابة دعاء الكافر، فقال الجبائي : لايجوز ، لان اجابة الدعاء ثواب، لما فيه من اجلال الداعي باجابته الى ما سأل. وقال ابن الاخشاد : يجوز ذلك ، لأن الاجابة كالنعمة في احتمالها ان تكون ثواباً وغير ثواب ، لانه قد يحسن منا ان نجيب الكافر الى ما ســـأل استصلاحاً له ولغيره ، فأما قولهم : فلان مجاب الدعوة ، فهـذه صفة مبالغة لا تصح لمن كانت إجابتـه نادرة من الكفار .

قوله تعالى :

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) (٤٠) آيتان بلا خلاف.

لما أجاب الله تعالى إبليس الى الانظار الى يوم الوقت المعلوم ، قال عند ذلك يارب « بما أغويتني » اي فيما خيبتني من رحمتك ، لان الغي الخيبة قال الشاعر .

فمن يلق خيراً يحمد الناس امره ومن يغو لا يعدم على الغي لائما[1]

وقال قوم : معناه بما نسبتني الى الغي ذماً لي ، وحكمت علي بالغي . وقال البلخي : معناه فيما كلفتني السجود لآدم الذي غويت عنده ، فسمى ذلك غواية، كما قال « فزادتهم رجساً الى رجسهم »[2] لما ازدادوا عندها ، على ان هذا حكاية قول إبليس ، ويجوز ان يكون اعتقد ان الله خلق فيه الغواية ، فكفر بذلك ، كما كفر بالإمتناع من السجود .

والباء في قوله « فيما أغويتني » قيل في معناها قولان :

احدهما – ان معناها القسم ؛ كقولك بالله لا فعلن .

والآخر - بخيبتي « لأغوينهم » كأنهـا سبب لاغوائهم ، كقولك بمعصيته ليدخلنّ النار، وبطاعته ليدخلن الجنة .

والاغواء الدعاء الى الغي، والاغواء خلاف الارشاد، فهذا أصله، وقد يكون الاغواء بمعنى الحكم بالغي ، على وجه الذم والتزيين جعل الشيء منقبلا في النفس من جهة الطبع والعقل ، بحق ام بباطل . واغواء الشيطان تزيينه الباطل حتى يدخل صاحبه فيه، ويرى ان الحظ بالدخول فيه . و « لأغوينهم» اي أدعوهم الى ضد الرشاد ، ثم أستثنى من جملتهم عباد الله المخلصين الذين أخلصوا عبادتهم لله وامتنعوا من اجابة الشيطان ، في ارتكاب المعاصي ، لأنه ليس للشيطان عليهم

---

(١) مر هذا البيت في ٢ : ٣١٢ ، ٤ : ٣٩١ ، ٥ : ٥٤٨

(٢) سورة التوبة اية ١٢٦

سبيل ، كما قال تعالى « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان » يعني عبادالله الذين فعلوا ما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه .

ومن كسر اللام فلقوله « وأخلصوا دينهم لله » [1]

ومن فتحها أراد ان الله أخلصهم بأن وفقهم لذلك ، ولطف لهم فيه .

قوله تعالى :

(قَالَ هٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ) (٤٤) أربع آيات بلا خلاف .

قرأ يعقوب « صراط عليٌّ » بتنوين علي ، ورفعه على أنه صفة لـ (صراط) بمعنى رفيع ، وبه قرأ ابن سيرين وقتادة . الباقون بفتح الياء على الاضافة الى الياء . وقيل في معناه قولان :

احدهما - إن ذلك على وجه التهديد ، كقولك لمن تتهدده وتتوعده : على طريقك ، والى مصيرك ، كما قال « إن ربك لبا لمرصاد » [2] وهو قول مجاهد وقتادة .

الثاني - إنه يراد به الدين المستقيم ، وأن الله يبينه وينفي الشبهة عنه بهداية المستدل على طريق الدليل .

وقوله « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان » اخبار منه تعالى ان عباده الذين

(١) سورة النساء آية ١٤٦ (٢) سورة الفجر آية ١٤

يطيعونه وينتهون الى أمره ويجتنبون معاصيه ليس للشيطان عليهم سلطان ولا قدرة اكثر من ان يغويهم ، فإذا لم يقبلوا منه ولا يتبعونه ، فلا يقدر لهم على ضر ولا نفع . وقال الجبائي : ذلك يدل على ان الجن لا يقدرون على الاضرار ببني آدم ، لانه على عمومه . وقال غيره : الآية تدل على نفي السلطان بالاغواء ، لانهم اذا لم يقبلوا منه ولا يتبعونه ، فكأنه لا سلطان له عليهم ، ولا يمتنع ان يقدروا على غير ذلك من الاضرار .

ثم استثنى تعالى من جملة العباد من يتبع ابليس على إغوائه وينقاد له ويقبل منه ، لانه اذا قبل منه ، صارله عليه سلطان ، بعدوله عن الهدى الى ما يدعوه اليه من اتباع الهوى ، فيظفر به إبليس .

ثم اخبر تعالى ان جهنم موعد جميع العصاة والخارجين عن طاعته ، ومن يتبع ابليس على إغوائه . و (جهنم) لا تنصرف لانها معرفة مؤنثة ، وقد يقال للنار اذا عظمت واشتدت : هذه جهنم ، تشبيهاً بجهنم المعروفة ، وهذا لم ينكر. ثم اخبر عن صفة جهنم بأن « لها سبعة ابواب » وقال علي (ع) والحسن وقتادة وابن جريج : ابوابها أطباق بعضها فوق بعض« لكل باب جزء » من المستحقين للعقوبة على قدر استحقاقهم من العقاب، في القلة والكثرة بحسب كثرة معاصيهم وقلتها .

قوله تعالى :

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) أُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) (٤٨) أربع آيات بلا خلاف.

لما اخبر الله تعالى عن الكفار ان مستقرهم جهنم ، ووصف جهنم ، اخبر - ههنا -

ما للمتقين ، فقال « ان للمتقين» الذين يتقون عقاب الله باجتناب معاصيه وفعل طاعته « جنات » وهي البساتين التي تنبع فيها المياه ؛ كما تفور من الفوارة ، ثم يجري في مجاريه، وانما يشوقهم الى الثواب بالجنان ، لانها من اسباب لذات الدنيا المؤدية اليها ، كما ان النار من اسباب الآلام لمن حصل فيها .

والفرق بين الجنة والروضة : ان الجنة لا بد ان يكون فيها شجر ، لان اصلها من ان الشجر يجنها ، والروضة قد تكون بغير شجر ، يقال : روضة خضرة ورياض مونقات .

وقوله « ادخلوها » اي يقال للمتقين « ادخلوها بسلام آمنين » بسلامة وهي البراءة من كل آفة ومضرة ، كما قال « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً »(١) اي براءة منكم ، ومعنى « آمنين » اي ساكني النفس الى انتفاء الضرر . والامانة الثقة بالسلامة من الخيانة .

وقوله « ونزعنا ما في صدورهم من غل» فالغل الحقد الذي ينعقد في القلب، ومنه الغل الذي يجعل في العنق ، والغلول الخيانة التي تطوق عارها صاحبها ، فبين تعالى ان الاحقاد التي في صدور اهل الدنيا تزول بين اهل الجنة ويصبحون « اخواناً » متحابين « على سرر » وهي جمع سرير ، وهو المجلس الرفيع موطأ للسرور ، ويقال في جمعه : اسرة ايضاً ، وهو مأخوذ من السرور ، لانه مجلس سرور « متقابلين » اي كل واحد منهم مقابل لصاحبه ومحاذ لاخيه ، فانه بذلك يعظم سرورهم . والتقابل وضع كل واحد بازاء الآخر على التشاكل وقال قوم : ان نزع الغل يكون قبل دخول الجنة . وقال آخرون : يكون ذلك بعد دخولهم فيها .

وقوله « لا يمسهم فيها نصب » اخبار منه تعالى : ان هؤلاء المؤمنين الذين حصلوا في الجنة « اخواناً على سرر متقابلين » لا يمسهم في الجنة نصب وهو التعب والوهن الذي من العمل ، للوهن الذي يلحق . ثم اخبر انهم مع ذلك

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٣

لا يخرجون من الجنة بل يبقون فيها مؤبدين. و(اخواناً) نصب على الحال . وقال قوم هو نصب على التمييز .

قوله تعالى :

(نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ) (٥٠) آيتان بلا خلاف .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يخبر عبـاد الله الذين خلقهم لعبادته على وجـه الترغيب لهم في طاعته والتخويف عن معصيته ، باني انا الذي أعفو واستر على عبادي معاصيهم ، ولا افضحهم بها يوم القيامة اذا تابوا منها ، لرحمتي وانعامي عليهم ، وان مع ذلك عذابي وعقوبتي «هو العذاب الاليم» المؤلم الموجع ، فلا تعوّلوا على محض غفراني ، وخافوا عقابي ، وكونوا على حذر باجتناب معاصي والعمل بطاعتي .

قوله تعالى :

(وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرٰهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) (٥٤) أربع آيات بلا خلاف .

قرأ نافع « تبشرون » بكسر النون مع التخفيف بمعنى تبشرونني وحذف النون استثقالاً ، لاجتماع المثلين ، وبقيت الكسرة الدالة على اليـاء المفعولة ، والنون الثانية محذوفة ، لان التكرير بها وقع ، ولم تحذف الاولى لانها علامـة الرفع ومثله قول الشاعر :

تراه كالثغام يعـل مسكاً بسوء الغاليات اذا قليني [١]

أراد قلينني ، فحذف إحدى النونين . وقال اهل الكوفة: ادغم ثم حذف، وحجتهم «وكادوا يقتلونني» [٢] وقوله «اتعدانني» [٣] فأظهر النونات ، وأما حرف المشدد نحو «تأمروني» [٤] و «أتحاجوني» [٥] وما أشبه ذلك . وشدد النون وكسرها ابن كثير . الباقون بفتح النون .

قال أبو علي : من شدد النون أدغم النون الاولى التي هي علامة الرفع في الثانية المتصلة بالياء التي للمضمر المنصوب للمتكلم، وفتحها، لانه لم يعدّ الفعل الى مفعول به ، كما عداه غيره . وحذف المفعول كثير . ولو لم يدغم ، وبيّن ، كان حسناً في القياس مثل (يقتلونني) في جواز البيان والادغام . ومن فتح النون جعلها علامة الرفع ، ولم يعد الفعل فيجتمع نونان .

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله ان يخبر من تقدم ذكره «عن ضيف ابراهيم» والضيف هو المنضوي الى غيره لطلب القرى، وجمعه ضيوف وأضياف وضيفان «إذ دخلوا عليه» يتعلق بـ (ضيف) وضيف يقع على الواحد والاثنين والجمع ، فلذلك قال «إذ دخلوا عليه» فكنى بكناية الجمع. وسماهم ضيفاً، وهم ملائكة ، لانهم دخلوا بصورة البشر «فقالوا سلاماً» نصبه على المصدر ، والمعنى سلمت سلاماً على وجه الدعاء ، والتحية . ومثله قوله «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً» [٦] والمعنى سلمنا منكم سلاماً، والسلامة نقيض البلاء والآفة المخوفة، والنجاة نقيض الهلاك .

وقوله «قال إنا منكم وجلون» اخبار عما أجاب به ابراهيم ضيفانه بأنه خائف منهم ، والوجل الخوف ، فأجابه الضيفان ، وقالوا «لا توجل» أي لا تخف انا

---

(١) قائله عمر بن معد يكرب. الكتاب لسيبويه ٢ : ٦٧ وشرح المفضليات ٧٨ والانصاف ٣٧٧ ومجاز القرآن ١ : ٣٥٢ ومجمع البيان ٣ : ٣٣٩ .

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٤٩

(٣) سورة ٤٦ الاحقاف اية ١٧

(٤) سورة ٣٩ الزمر اية ٦٤

(٥) سورة الانعام اية ٨٠ ،

(٦) سورة ٢٥ الفرقان اية ٦٣

جئناك « نبشرك بغلام عليم » . والتبشير الإخبار بما يسر ، بما يظهر في بشرة الوجه سروراً به يقال : بشرته أبشره بشارة وأبشر ابشاراً بمعنى استبشر ، وبشرته تبشيراً ، وانما وصفه بأنه «عليم» قبل كونه ؛ لدلالة البشارة به على انه سيكون بهذه الصفة ، لانه إنما بشر بولد يرزقه الله اياه ويكون عليماً ، فقال لهم ابراهيم « أبشرتموني على ان مسني الكبر » اي كيف يكون لي ولد وقد صرت كبيراً ، لان معنى « مسني الكبر » أي غيرني الكبر عن حال الشباب التي يطمع معها في الولد ، الى حال الهرم . وقيل في معناه قولان :

احدهما – انه عجب من ذلك لكبره ، فقاله على هذا الوجه .

والآخر – انه استفهم فقال : أأمر الله ان تبشروني ، في قول الجبائي. ومعنى (على ان مسني) أي بأن مسني ، كما قال « حقيق على ان لا أقول »[1] بمعنى بأن لا أقول .

قوله تعالى :

(قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) (٥٦) آيتان بلا خلاف .

قرأ أبو عمرو والكسائي « يقنط » بكسر النون ، حيث وقع . الباقون بفتحها ، وكلهم قرأ « من بعد ما قنطوا »[2] بفتح النون ، قال ابو علي : قنط يقنط ويقنظ لغتان بدلالة إجماعهم على قوله « من بعد ما قنطوا » بفتح النون وقد حكي : يقنط بضم النون ، وهي شاذة ، وهذا يدل على ان ماضيه على (فعَل) لانه ليس في الكلام (فعِل يفعُل) . وقد حكي عن الأعمش أنه قرأ « من بعدما قنطوا » بكسر النون ، وهي شاذة لا يقرأ بها .

وفي هذه الآية حكاية ما قالت الملائكة لابراهيم ، حين عجب ان يكون له

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٠٤ (٢) سورة ٤٢ الشورى آية ٢٨

ولد لكبر سنه وعلو عمره، إنا بشرناك بذلك على وجه الحق والصحيح،وأخبرناك به على وجه الصدق، فلا تكن بعد ذلك من جملة القانطين، يعني الآيسين فأجابهم ابراهيم عند ذلك بأنقال: و«من» الذي «يقنط» أي ييأس «من رحمة»الله وحسن إنعامه، إلا من كان عادلاً عن الحق ضالاً عن سبيل الهدى، وهذا يقوي قول من قال : إنه راجعهم في ذلك على وجه الاستفهام دون الشك في اقوالهم .

قوله تعالى :

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَابِرِينَ) (٦٠) أربع آيات بلا خلاف .

فقال ابراهيم (ع) بعد ذلك للملائكة « ما خطبكم » اي ما الأمر الجليل الذي بعثتم له ، والخطب الأمر الجليل ، ومثله ما شأنك ، وما أمرك ، ومنه الخطبة ، لأنها في الأمر الجليل ، فأجابته الملائكة بأ"نا «أرسلنا الى قوم مجرمين» وقـــوم الرجل : هم الذين يقيمون بنصرته ، والنفر الذين ينفرون في مهام الأمور. وقوم لوط هم الذين كان يجب عليهم القيام بنصرته ومعونته على أمره . وقـال قوم : إنه يقع على الرجـال دون النساء . والمجرم المنقطع عن الحق الى الباطل ، وهو القـــاطع لنفسه عن المحاسن الى المقابح ، والمعنى « انا أرسلنا الى » من وصفنا لنهلكهم ، وننزل بهم العقوبة . ثم استثنى من ذلـــك (آل لوط) وأخبر انهم ينجونهم كلهم ، يقال : نجيت فلاناً وانجيته ، فمن قرأ بالتشديد أراد التكثير . ثم استثنى من جملة آل لوط امرأته، وبين انها هالكة مع الهالكين، (وقدرنا) اي كتبنا « انها لمن الغابرين » والغابر الباقي في من يهلك . والغابر البـــاقي في مثل الغبرة ، مما يوجب الهلكة . قال الشاعر :

فمـــا ونى محمد مذ أن غفر   له الإله ما مضى وما غبر[١]

وآل الرجل أهله الذين يرجعون إلى ولايته ، ولهذا يقـال أهل البلد ، ولا يقال آل البلد، ولكن آل الرجل اتباعه الذين يرجع أمرهم اليه بولايته ونصرته. وقيل: إن امرأة لوط كانت في جملة الباقين. ثم اهلكت فيما بعد «وقدرنا» بالتخفيف مثل (قدّرنا) بالتشديد، وكلهم قرأ -هاهنا- مشدداً إلا أبا بكر عن عاصم، فإنه خففها، ويكون ذلك من التقدير، كما قال «ومن قدر عليه رزقه»[٢]. وقال ابو عبيدة: في الآية معنى فقر ، وكان ابو يوسف يتأوله فيها ، لان الله تعالى استثنى آل لوط من المجرمين ، ثم استثنا استثناء رده على استثناء كان قبله، وكذلك كل استثناء في الكلام إذا جاء بعد آخر عاد المعنى إلى أول الكلام ، كقول الرجل : لفلان علي عشرة إلا أربعة إلا درهم ، فأنه يكون اقرار بسبعة ، وكذلك لو قال : علي خمسة إلا درهماً إلا ثلثاً ، كان إقرار بأربعة وثلث ، وكذلك لو قال لأمرأته أنت طالق ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدة كانت طالقاً إثنتين ، قال: واكثر ما يستثنى ما هو أقل من النصف ، ولم يسمع اكثر من النصف الا بيت أنشده الكسائي :

ادوا التي نقصت سبعين من مئة   ثم ابعثوا حكماً بالعدل حكّاما

فجعلها مئة إلا سبعين ، وهو يريد ثلاثين ، وضعف المـــبرد الاحتجاج بهذا البيت ، ولم يجز إستثناء الأكثر من الجملة ولا نصفها ، وإنما جاز استثناء ما دون النصف من الجملة حتى قال : لا يجوز ان يقال : له عندي عشرة إلا نصف ولا عشرة إلا واحد ، قال : لان تسعة ونصف أولى بذلك ، وكذلك لا يجوز : له الف إلا مئة ، لأن تسعة مئة أولى بذلك ، وإنما يجوز الف إلا خمسين وإلا سبعين والا تسعين، قال: وعلى هذا النحو بني هذا الباب. والصحيح الأول، عند اكثر العلماء من المتكلمين والفقهاء واكثر النحويين .

---

(١) قائله العجاج ديوانه ١٥ واللسان (ثبت)، وقد مر قسم من هذا الرجز في ٤ : ٥٨٨ : ٥٨٩ تعليقة ٤

(٢) سورة الطلاق آية ٧

قوله تعالى :

(فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) (٦٤) أربع آيات بلا خلاف .

أخبر الله تعالى ان الملائكة الذين بعثهم الله لإهلاك قوم لوط، لما جاؤوا لوطاً وقومه ، وكانوا في صورة لا يعرفهم بها لوط ، انكرهم ، وقال لهم « انكم قوم منكرون » اي لا تعرفون مع الاستيحاش منكم ، لأنه لم يثبتهم في ابتداء مجيئهم فلما اخبروه بأنهم رسل الله جاؤوا بعذاب قومه وسؤاله الأمر ، عرفهم حينئذ ، وقالوا « بل جئناك بما كانوا فيه يمترون» اي بالعذاب الذي كانوا يشكّون فيه ويكذبون به ، وقد يوصف الجاهل بالشك من جهة ما يعرض له فيه من حيث لا يرجع الى ثقة فيما هو عليه . وقالوا له ايضاً انا جئناك بالحق فيما أخبرناك به من عذاب قومك ، ونحن صادقون فيه .

قوله تعالى :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) آيتان بلا خلاف .

هذا حكاية ما قالت الملائكة للوط وأمرهم إياه بأن يسري بأهله . والإسراء سير الليل : سرى يسري سرى واسرى إسراء لغتان قال الشاعر :

سريت بهم حتى تكل مطيهم ... وحتى الجياد مايقدن بارسان[1]

(١) مر هذا البيت في ٦ : ٤٣ من هذا الكتاب .

وقوله « بقطع من الليل » معناه بقطعة تمضي منه ، كأنه جمع قطعة . مثل تمرة وتمر وبسرة وبسر ، وقيل : بقطع من الليل ببعض الليل . وقيل: بقية من الليل . وقيل : إذا بقي من الليل قطعة ومضى اكثره .

وقوله « واتبع ادبارهم » اي اقتف آثارهم يعني آثار الأهل . والاتباع اقتفاء الأثر . والاتباع في المذهب ، والاقتداء مثله ، وخلافه الابتداع . والادبار جمع دبر ، وهو جهة الخلف . والقبل جهة القدّام ، ويكنى بها عن الفرج . وجمع القبل أقبال .

ومعنى قوله « ولا يلتفت منكم احد » اي لا يلتفت الى مـا خلف ، كما يقول القائل : امض لشأنك ، ولا تعرج على شيء . وقيل : لئلا يرى هو ما ينزل بهم مما لا تطيقه نفسه « وامضوا حيث تؤمرون » اي حيث تؤمرون بالمصير اليه .

وقوله « وقضينا اليه » اي أخبرناه واعلمناه « ذلك الأمر » اي ما ينزل بهم من العذاب .

وقوله « ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » والدابر الأصل . وقيل دابرهم آخرهم، وعقب الرجل دابره « مصبحين » نصب على الحال اي في حال ما دخلوا في وقت الصبح ، ومثله قوله « فأخذتهم الصيحة مشرقين »[1] نصب على الحال .

قوله تعالى :

(وَجَاءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) (٧١) خمس آيات بلا خلاف .

هذا إخبار من الله تعالى أنه حين بلغ أهل المدينـــة نزول من هو في صورة

---

(١) سورة الحجر آية ٧٣

الاضياف بلوط، جاؤوا إليه مستبشرين فرحين ، يقال استبشر استبشاراً وأبشر إبشاراً، بمعنى واحد وضده اكتأب اكتآباً. وانما فرحوا طمعاً في ان ينالوا الفجور منهم ، فقال لهم لوط « إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون » فيهم ، والفضيحة ظهور السيئة التي يلزم العار بها عند من علمها ، يقال: فضحه يفضحه فضيحة، وافتضح افتضاحاً وتفاضحوا تفاضحاً . ثم قال لهم « اتقوا الله » باجتناب معاصيه ،وفعل طاعته ، « ولا تخزون » والخزي الانقماع بالعيب الذي يستحيا يقال منه :خزي خزياً ، واخزاه الله إخزاء والاخزاء والاذلال والإهانة نظائر . وللضيف ذمام كانت العرب تراعيه ، وتحافظ عليه ، وتعيب من عنده ضيف ولم يقم بحقه ؛ فلذلك قال لهم «ان هؤلاء ضيفي » ، فقالوا له في الجواب عن ذلك أوليس نهيناك أن تستضيف أحداً من جملة الخلائق أو تنزله عندك ،فقال لهم عند ذلك «هؤلاء» وأشار الى بناته. وقيل أنهن كن بناته لصلبه،وقيل انهن كن بنات قومه عرضهن عليهم بالترويج والاستغناء بهن عن الذكران . وقال الحسن ، وقتادة : أراد « هؤلاء بناتي » فتزوجوهن « إن كنتم فاعلين » كناية عن طلب الجماع . وقال الجبائي : ذلك للرؤساء الذين يكفون الاتباع ، وقد كان يجوز في تلك الشريعة تزويج المؤمنة بالكافر ، وقد كان في صدر شريعتنا جائزاً ايضاً، ثم حرم. وهو قول الحسن . وقال الزجاج: أراد نساء أمته ، فهم بناته في الحكم ، قال الجبائي: وهذا القول كان من لوط لقومه قبل ان يعلم أنهم ملائكة لا يحتاج الى هذا القول لقومه .

قوله تعالى :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ

ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ) (٧٨) سبع آيات بلا خلاف .

قال ابن عباس معنى (لعمرك) وحياتك . وقال غيره : هو مدة حياته وبقائه حياً بمعنى لعمرك ومدة بقاءك حيّاً . والعَمر والعُمر واحد ، غير أنه لا يجوز في القسم إلا بالفتح ، قال ابو عبيدة : ارتفع لعمرك وهي يمين ، والأيمان تكون خفضاً إذا كانت الواو في أوائلها ، ولو كانت وعمرك لكانت خفضاً ، ولذلك قولهم : لحق لقد فعلت ذلك ، وإنما صارت هذه الأيمان رفعاً بدخول اللام في اولها ، لانها أشبهت لام التأكيد ، فأما قولهم : عمرك الله أفعل كذا ، فإنهم ينصبون(عمرك) وكذلك ينصبون(الله لا فعلن) . قال المبرد : لا أفتحها يميناً ، بل هي دعاء ومعناه اسأل الله لعمرك . قال المبرد : والتقدير : لعمرك ما اقسم به ، ومثله : عليّ عهدالله لأفعلن ، فعهدالله رفع بالابتداء ، وفيه معنى القسم ، وكذلك (لاها الله ذا) . قال الخليل : (ذا) معناه ما أقسم عليه . وحكي عن الاخفش أنــه قال : (ذا) ما اقسم به ، لانه قد ذكر الله ، وكلاهما حسن جميل .

وقوله « انهم لفي سكرتهم يعمهون » فالسكرة غمور السهو للنفس وهؤلاء في سكرة الجهل « يعمهون » اي يتحيرون ، ولا يبصرون طريق الرشد .

وقوله « فأخذتهم الصيحة مشرقين » فالأخذ فعل يصير به الشيء في جهـة الفاعل ، فالصيحة كأنها أخذتهم بما صاروا في قبضتها حتى هلكوا عن آخرهم . والصيحة صوت يخرج من الفم بشدة . ويقال : إن الملك صاح بهم صيحة أهلكتهم . ويجوز ان يكون جاء صوت عظيم من فعل الله كالصيحة . والاشراق ضيــاء الشمس بالنهار شرقت الشمس تشرق شروقاً اذا طلعت ، وأشرقت إشراقاً اذا أضاءت وصفت . ومعنى (مشرقين) داخلين في الاشراق .

وقوله «فجعلنا عاليها سافلها» والجعل حصول الشيء على وجه لم يكن بقادر عليه لولا الجعل ، ومثله التصيير ؛ والمعنى : انه قلب القرية فجعل أسفلها اعلاها

واعلاها أسفلها « وأمطرنا عليهم حجارة » اي أرسلنا الحجارة ، كما يرسل المطر « من سجيل » وقيل في معناه قولان :

احدهما - انها من طين وهو معرّب . وقيل هو من السجل ، لانه كان عليها أمثال الخواتيم بدلالة قوله « حجارة من طين مسوّمة عند ربك»(١)

والثاني - انها حجارة معدة عند الله تعالى للمجرمين ، وأصله (سجين) فابدلت النون لاماً .

فان قيل ما معنى امطار الحجارة عليهم مع انقلاب مدينتهم ؟

قلنا فيه قولان :

احدهما - أنه أمطرت الحجارة أولاً ثم انقلبت بهم المدينة .

الثاني - ان الحجارة أخذت قوماً منهم خرجوا من المدينة بحوائجهم قبل الفجر - في قول الحسن - ثم اخبر تعالى ان فيما حكاه آيات ودلالات للمتوسمين. قال مجاهد يعنى المتفرسين . وقال قتادة : يعنى المعتبرين . وقال ابن زيد : المتفكرين . وقال الضحاك : الناظرين . وقال ابو عبيدة : المتبصرين . والمتوسم الناظر في السمة الدالة .

وقوله « انها لبسبيل مقيم » معناه إن الاعتبار بها ممكن لان الآيات التي يستدل بها مقيمة ثابتة بها وهي مدينة سدوم ، والهاء كناية عن المدينة التي أهلكها الله ، وهي مؤنثة . ثم قال ان انفيما قصّ من حكاية هذه المدينة « لآية للمؤمنين» ودلالة لهم . وقيل في وجه إضافة الآية الى المؤمنين قولان :

احدهما - انه يصلح ان يستدل بها .

والآخر - انه يفعل الاستدلال بها. وتضاف الآية الى الكافر بشرط واحد، وهو أنه يمكنه الاستدلال بها .

وقوله « وإن كان اصحاب الأيكة لظالمين » فالأيكة الشجرة في قول الحسن والجمع الايك كشجرة وشجر . وقيل : الأيكة الشجر الملتف قال امية :

---

(١) سورة الذاريات آية ٣٣ - ٣٤

كبكاء الحمام على فروع الايـ ـك في الطير الجرائـح

وقيل الايكة الغيضة واصحاب الايكة هم أهل الشجر الذين أرسل اليهم شعيب (ع) وأرسل الى اهل مدين، فأهلكوا بالصيحة، واصحاب الايكة فأهلكوا بالظلة التي احترقوا بنارها. في قول قتادة، فأخبر الله تعالى انه اهلك اصحاب الأيكة بظلمهم وعتوهم وكفرهم بآيات الله وجحدهم نبوة نبيه. وقال ابن خالويه: الأيكة أسم القرية، والايكة أسم البلد، كما ان مكة اسم البلد، ومكة اسم البيت. ولم يصرفوا الأيكة للتعريف والتأنيث، ويجوز ان يكونوا تركوا صرفه، لانه معدول عن الالف واللام، كما ان شجر معدول عن الشجر، فلذلك لم يصرفوه.

قوله تعالى:

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ست آيات بلا خلاف.

لما اخبر الله تعالى عن اصحاب الايكة أنهم كذبوا رسل الله، اخبر بأنه انتقم منهم بأن اهلكهم ودمر عليهم. وفرق الرماني بين الانتقام والعقاب، فقال: الانتقام نقيض الانعام، والعقاب نقيض الثواب، فالعقاب مضمن بأنـه على المعصية، والانتقام مطلق، وهو - ههنا - على المعاصي، لان الاطلاق يصلح فيه التقييد: بحذف الاضافة.

وقوله «وإنهما» يعني قريتي قوم لوط، واصحاب الايكة، لبطريق يؤم ويتبع ويهتدى به - في قول ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن - وقال أبو علي

الجبائي « لبإمام » وهو الكتاب السابق الذي هو اللوح المحفوظ ، ثابت ذلك فيه ظاهر . والامام – في اللغة – هو المقدم الذي يتبعه من بعده وإنما كانا بإمام مبين ، لانهما على معنى يجب ان يتبع ، فيما يقتضيه ويدل عليه ، والمبين الظاهر .

وقوله « ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين » اخبار منه تعالى ان اصحاب الحجر ، وهي مدينة – في قول ابن شهاب ، وسموا أصحاب الحجر ، لانهم كانوا سكانه ، كما تقول : اصحاب الصحراء. « كذبوا » ايضاً الرسل الذين بعثهم الله اليهم ، وجحدوا نبوتهم : وقال قتادة : هم اصحاب الوادي ، وهو من الحجر الذي هو الحظر .

واخبر تعالى انه اتاهم الله الدلالات والمعجزات الدالة على توحيده وصدق انبيائه، فكانوا يعرضون عنها ولا يستدلون بها ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ينقرون نقراً يأمنون فيها من الخراب . وقيل آمنين من سقوطها عليهم . وقيل كانوا آمنين من عذاب الله . وقيل : من الموت . ونصبه على الحال.

فأخبر تعالى ان هؤلاء « اخذتهم الصيحة مصبحين » اي جاءتهم الصيحة وقت دخولهم في الصباح ، ولم يغنهم « ما كانوا يكسبون » من الملاذ القبيحة . والغنى وجود ما ينتفي به الضرر عنهم .

قوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ) (٨٦) آيتان بلا خلاف .

وجه اتصال هذه بما تقدم ذكره هو ان الامم لما خالفوا الحق أهلكوا ، لان الله ماخلق « السموات والارض إلا بالحق » وعلى « ان الساعة آتية » للجزاء

وأن جمع ما خلق يرجع الى عالم به وبتدبيره . وقيل : ما أهلكناهم إلا بالحق كما خلقنا السموات والارض بالحق ، فأخبر تعالى انه لم يخلق السموات والارض إلا بالحق ، ولوجه من وجوه الحكمة ، وان الساعة ، وهي يوم القيامة لآتية جائية بلا شك . ثم امر نبيه ﷺ ان يصفح بمعنى يعفو عنهم عفواً جميلا . واختلفوا في كونه منسوخاً :

فقال قتادة ، ومجاهد ، والضحاك : إنه منسوخ بوجوب الجهاد والقتال ، وكان الصفح قبل ذلك .

وقال الحسن: هذا فيما بينه وبينهم ، لا في ما امر به من جهة جهادهم .

وقال الجبائي : أمره بأن يحلم عنهم فيما كانوا يسفهون عليه من شتمه ، وسفاهتهم عليه ، فلا يقابلهم بمثله .

ثم اخبر تعالى انه الخلاق لما ذكر من السموات والارض ، عليم بما فيه من المصلحة لعباده ووجه الحكمة فيه .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْآنَ عِضِينَ) (٩١)

خمس آيات .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ أنه آتاه أي أعطاه سبعاً من المثاني ، فقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد : هي السبع الطوال سبع سور من أول القرآن .

قال قوم : المثاني التي بعد المئتين قبل المفصل .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس وابن مسعود : أنها فاتحة الكتاب ، وهو قول الحسن وعطاء .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : (السبع المثاني أم القرآن) وهي سبع آيات بلا خلاف في جملتها ، وإنما سميت مثاني، في قول الحسن ، لأنها تثنى في كل صلاة وقراءة .

وقيل: المثاني السبع الطوال لما يثنى فيها من الحكم المصرفة قال الراجز :

نشدتكم بمنزل الفرقان ام الكتاب السبع من مثاني

ثنتين من آي من القرآن والسبع سبع الطوّل الدواني[1]

وقد وصف الله تعالى القرآن كله بذلك في قوله «الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني»[2] فعلى هذا تكون (من) للتبعيض. ومن قال: انها الحمد قال: (من) بمعنى تبيين الصفة، كقوله «اجتنبوا الرجس من الأوثان»[3]

وقوله « والقرآن العظيم » تقديره وآتيناك القرآن العظيم سوى الحمد

وقوله « لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم » خطاب للنبي صلى الله عليه وآله والمراد به الأمّة، نهاهم الله تعالى ان يمدوا أعينهم الى ما متع هؤلاء الكفار به من نعيم الدنيا. ومعنى أزواجاً منهم أمثالاً من النعم «ولا تحزن عليهم» قال الجبائي: معناه لا تحزن لما أنعمت عليهم دونك. وقال الحسن «لا تحزن عليهم» على ما يصيرون اليه من النار بكفرهم .

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وآله ان يخفض جناحه للمؤمنين وهو ان يلين لهم جانبه ويتواضع لهم ويحسن خلقه معهم ، وأن يقول لهم « إني أنا النذير المبين » يعني المخوف من عقاب الله من ارتكب ما يستحق به العقوبة ، ومبين لهم ما يجب عليهم العمل به .

---

(١) مجاز القرآن ١ : ٧ وتفسير القرطبي ١٠ : ٥٤ وتفسير الطبري ١ : ٣٦ ومجمع البيان ٣ : ٣٤٥

(٢) سورة الزمر آية ٢٣

(٣) سورة الحج آية ٣٠

وقوله « كما انزلنا على المقتسمين » قال ابن عباس وسعيد بن جبير ، والحسن : هؤلاء هم أهل الكتاب اقتسموا القرآن ، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، وقال قتادة : هم قوم من قريش عضوا كتاب الله . وقــــال ابن زيد : هم قوم صالح « تقاسموا لنبيتنّه واهله » وقال الحسن : أنزلنا عليك الكتاب ، كما انزلنا على المقتسمين من قبل ، قوم اقتسموا طرق مكة ينفرون عن النبي ﷺ ويقولون : إنه ساحر ، وبعضهم يقول هو كاهن ، وبعضهم يقول انه مجنون ، فأنزل الله بهم عذابا اهلكهم به . وتقديره أنذركم بما أنزل بالمقتسمين . ذكره الفراء .

وقوله « الذين جعلوا القرآن عضين » أي جعلوه متفرقاً بالايمان ببعضه والكفر ببعض ، فعضوه على هذا السبيل الذي ذمهم الله بها . وقيل جعلوه عضين ، بأن قالوا سحر وكهانة – في قول قتادة – واصل عضين عضه منقوصة الواو ، مثل عزة وعزين ، قال الشاعر :

ذاك ديار يأزم المــــآزما وعضوات تقطع اللهازما[1]

وقال آخر :

للماء من عضاتهن زمزمه

وقال رؤبة :

وليس دين الله بالمعضي [2]

فالمعنى انهم عضوه أي فرقوه ، كما تعضا الشاة والجزور ، واصل عضه عضوه فنقصت الواو ، ولذلك جمعت عضين بلا واو كما قالوا عزين جمع عزة والأصل عزوة ومثله ثبه وثبون ، واصله ثبوة والعضيهة الكذب ، فلما نسبوا القرآن الى الكذب وانه ليس من قبل الله فقد عضهوا بذلك .

قوله تعالى :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)

«١» مجمع البيان ٣ : ٣٤٤ واللسان « عضه » وروايته :

هذا طريق يأزم المــــآزما وعضوات تقطع اللهازما

«٢» اللسان « عضا »

فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩) ثمان آيات بلا خلاف .

أقسم الله تعالى بقوله « فوربّك » يا محمـــد ، وفي ذلك تشريف للنبي ﷺ وتنبيه على عظم منزلته عند الله « لنسألنهم » يعني هؤلاء الكفار « أجمعين » وانما يسألهم سؤال توبيخ وتقريع ، فيقول لهم لم عضيتم القرآن ، وما حجتكم فيه وما دليلكم عليه ، فيظهر عند ذلك خزيهم وفضيحتهم عند تعذر جواب يصح منهم .

وقوله «فاصدع بما تؤمر» أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ ان يفرّق بما أمر به، والمعنى افرق بين الحق والباطل بما تؤمر به، قال أبو ذؤيب :

وكأنهنّ ربابة وكأنّه   يسر يفيض على القداح ويصدع[1]

وقال مجاهد: معناه فاجهر بما تؤمر ، وانما قال بما تؤمر ، ولم يقل بما تؤمر به ، لأمرين: احدهما ــ انه حذف (به) كما يقال آمرك وآمر بك، وأكفرك وأكفر بك قال الشاعر :

إذا قالت حذام فصدقوها   فإن القول ما قالت حذام[2]

وكما قال الآخر :

أمرتك حازماً فعصيتني   وأصبحتَ مسلوب الإمارة نادما

«١» ديونه ٨١ ومجاز القران ١ : ٣٥٥ وتفسير الطبري ١٤ : ٤١ واللسان «صدع» ومجمع البيان ٣ : ٣٤٦

(٢) قطر الندى (باب المعرب والمبنى) واللسان (حذم)

وقوله «أعرض عن المشركين» أمر بأن يعرض عن المشركين، ولا يخاصمهم الى ان يأمره بقتالهم.

وقوله «انا كفيناك المستهزئين» المعنى كفيناك شرهم واستهزاءهم بأن أهلكناهم وكانوا خمسة نفر من قريش: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وابو زمعة والأسود بن عبد يغوث، والحرث بن عيطلة - في قول سعيد بن جبير - وقيل الأسود بن المطلب، أهلكهم الله.

وقوله «الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر» الذين في موضع جر، لأنه بدل من المستهزئين، وصفهم بأنهم اتخذوا مع الله إلهاً آخر عبدوه، ثم قال «فسوف يعلمون» وبال ذلك يوم القيامة، وهذا غاية التهديد، ثم قال «ولقد نعلم انك» يا محمد «يضيق صدرك» ويشق عليك ما يقولون من التكذيب والاستهزاء. ثم أمره ان يحمد ربه على نعمه وان يكون من الساجدين الذين يسجدون لله، ويوجهون عبادتهم اليه، وان يعبد ربه الى الوقت الذي يأتيه اليقين، ومعناه حتى يأتيه الموت - في قول الحسن ومجاهد وقتادة - وسمي يقيناً، لأنه موقن به توسعاً وتجوزاً، لأنه مما يوقن به جميع العقلاء. ويحتمل أن يكون أراد. حتى يأتيه العلم الضروري بالموت والخروج من الدنيا الذي يزول معه التكليف.

(١٦) سورة النحل

هي مكية إلا آية هي قوله « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا» الآية . وقال الشعبي: نزلت النحل كلها بمكة إلا قوله « وان عاقبتم » إلى آخرها . وقال قتادة: من أول السورة الى قوله « كن فيكون » مكي ، والباقي مدني . وقال مجاهد: أولها مكي وآخرها مدني، وهي مئة وثمان وعشرون آية ليس فيها خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَتَى أَمْرُ ٱللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(١) آية بلا خلاف .

قرأ نافع وعاصم وابو عمرو « يشركون » بالياء . وقرأ ابن عامر وابن كثير مثل ذلك . وقرأ حمزة والكسائي بالتاء .

من قرأ بالتاء ، فلقوله «فلا تستعجلوه » فرد الخطاب الثاني الى الأول .

ومن قرأ بالياء قال لان الله أنزل القرآن على محمد ﷺ فقال محمد تنزيها لله « سبحانه وتعالى عما يشركون »

وقرأ سعيد بن جبير «أتى أمر الله، فلا تستعجله». وروي عن عباس انه قال: المشركون قالوا للنبي ﷺ ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين، فقال الله تعالى «أتى امر الله فلا تستعجلوه» وانما قال «أتى امر الله» ولم يقل يأتي، لان الله تعالى قرّب الساعة، فجعلها كلمح البصر، فقال «وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب»[١] وقال «اقتربت الساعة»[٢] وكل ما هو آت قريب، فعبر بلفظ الماضي ليكون أبلغ في الموعظه، وإن كان قوله «فلا تستعجلوه» يدل على أنه في معنى يأتي، وأمر الله يراد به العذاب- في قول الحسن وابن جريج وغيرهما – وقال الضحاك: معناه فرائضه واحكامه. وقال الجبائي: امره القيامة والأول أصح، لانهم استعجلوا عذابه دون غيره.

والتسبيح في اللغة ينقسم أربعة أقسام:

احدها – التنزيه مثل قوله «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا»[٣] وقال الشاعر:

أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر[٤]

والثاني – معنى الاستثناء كقوله «لو لا تسبحون[٥]» اي هلا تستثنون.

والثالث – الصلاة كقوله «فلولا انه كان من المسبحين»[٦].

والرابع – النور، جاء في الحديث (فلولا سبحان وجهه) أي نوره ومعنى «تعالى»: تعاظم بأعلى صفات المدح عن ان يكون له شريك في العبادة، وجميع صفات النقص منتفية عنه.

قوله تعالى:

(يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ

---

(١) سورة النحل آية ٧٧ (٢) سورة القمر آية ١.

(٣) سورة الاسرى اية ١

(٤) مر هذا الشعر في ١: ١٣٤، ٣: ٨١، ٥: ٢٤١، ٣٩٥

(٥) سورة القلم اية ٢٨.

(٦) سورة الصافات اية ١٤٣

أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) (٢) آية بلا خلاف.

قرأ روح والكسائي عن ابي بكر « تنزل الملائكة » بالتاء وفتحها ، وفتح النون والزاي ورفع الملائكة. الباقون بالياء وضمها وفتح النون وتشديد الزاي وكسرها، ونصب الملائكة ، إلا أن ابن كثير واباعمرو ، وورشاً يسكنون النون ويخففون الزاي .

من قرأ بالياء ففاعل (ينزّل) هو الضمير العائد الى اسم الله في قوله « اتى امر الله » وإسكان النون وتخفيف الزاي وتشديدها، فكلاهما جائز، قال تعالى : « إنا نحن نزّلنا الذكر » (١) وقال « وأنزلنا اليك الذكر » (٢) فأما ما روي عن عاصم من القراءة بالتاء ، فلأنه انث الفعل باسناده الى الملائكة كقوله « إذ قالت الملائكة » (٣) وبنى الفعل للمفعول به واسنده اليهم والأول ابين .

اخبر الله تعالى أنه ينزل الملائكة بالروح من امره ، واختلفوا في معنى الروح -ههنا- فقال ابن عباس: اراد به الوحي، وقال الربيع بن انس: اراد به كلام الله ، وقال قوم: أراد حياة النفوس، والارشاد لهم الى الدين ، وقد فسر ذلك بقوله « ان أنذروا » وهو بدل من الروح ، وموضعه الجر وتقديره بـ (أن أنذروا) لأن الموعظة والانذار للكافر حياة ، لانه تعالى شبه الكافر بالميت ، فقال « او من كان ميتا فأحييناه »(٤) بالاسلام. والروح تنقسم عشرة اقسام : فالروح الارشاد والحياة ، والروح الرحمة قرأ رسول الله ﷺ «فروح وريحان»(٥) والروح النبوة لقوله « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده »(٦) والروح عيسى روح الله أي خلق من غير بشر ، وقال آخرون : من غير فحل . وقيل انه سمي بذلك لكونه رحمة على عباد الله بما يدعوهم الى الله، والروح جبرائيل. والروح النفخ، يقال: أحييت النار بروحي أي بنفخي ، قال ذو الرمة يصف الموقد والزندة:

(١) سورة الحجر اية ٩
(٢) سورة النحل اية ٤٤
(٣) سورة ال عمران اية ٤٢ ، ٤٥
(٤) سورة الانعام اية ١٢٢
(٥) سورة الواقعة اية ٨٩
(٦) سورة المؤمن (غافر) اية ١٥

فلما بدت كفنتها وهي طفلة بطلساء لم تكمل ذراعاً ولا شبرا
فقلت له ارفعها اليك وأحيها بروحك واقتته لها قيتة قدرا(١)

والروح الوحي قال الله تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا »(٢) قيل انه جبرائيل، وقيل الوحي. والروح ملك في السماء من أعظم خلقه، فاذا كان يوم القيامة وقف صفاً ، والملك كلهم صفاً ، والروح روح الانسان . وقال ابن عباس في الانسان روح ونفس ، فالنفس هي التي تكون فيها التمييز والكلام ، والروح هو الذي يكون به الغطيط والنفس ، فاذا نام العبد خرجت نفسه وبقيت روحه ، واذا مات خرجت نفسه وروحه معاً . وقوله «على من يشاء من عباده» يعني الانبياء يأمرهم أن يخبروا عباده أنه لا إله يستحق العبادة غير الله تعالى ، ويأمرهم بأن يتقوا معاصيه ويفعلوا طاعاته .

قوله تعالى :

(خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) (٤) آيتان بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي «تشركون» بالتاء في الموضعين لقوله « فلا تستعجلوه» فردّ الخطاب الى الاول. ومن قرأ بالياء فلما تقدم ذكره. احتج الله تعالى بالآية وما قبلها وما بعدها على خلقه وأعلمهم عظيم نعمه ، ودلهم على قدرته ، إذ « خلق السموات والأرض » بما فيها من العجائب والمنافع ، و « خلق الانسان من نطفة» مهينة ضعيفة سيالة فرباها ودبرها حتى صار إنساناً يخاصم ويبين. ولو وضعنا

---

(١) اللسان (حيا) ذكر البيت الثاني فقط (طلس) ذكر الشطر الثاني من البيت الاول.
(٢) سورة الشورى آية ٥٢

النطفة بين أيدي الخلائق فاجتهدوا ، وفكروا ما قدروا على قلبها ، ولا عرفوا كيف يتمكن ويتأتى أن تقلب حالاً بعد حال حتى تصير فيها روح ، وعقل ، وسمع ، وبصر ، وحتى تنطق وتعرب عن نفسها ، وتحتج فتدفع عنها . وقيل في معنى « خصيم مبين » قولان :

أحدهما ـ انه أخرج من النطفة ما هذه صفته ، ففي ذلك أعظم العبرة .

والثاني ـ لما خلقه ومكنه خاصم عن نفسه خصومة أبان فيها عن نفسه . وقيل انه يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها ـ تعريف قدرة الله في اخراجه من النطفة ما هذه سبيله .

الثاني ـ تعريف نعم الله في تبليغ هذه المنزلة من خلق من نطفة .

الثالث ـ تعريف فاحش ما ارتكب الانسان من تضييع حق الله بالخصومة .

قوله تعالى :

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (٧) ثلاث آيات بلا خلاف .

الأنعام جمع نعم ، وهي الإبل ، والبقر ، والغنم ، سميت بذلك لنعومة مشيها بخلاف ذات الحافر الذي يصلب مشيها . ونصب بفعل مقدر يفسره ما بعده ، والتقدير وخلق الأنعام خلقها ، وإنما نصب لمكان الواو العاطفة على منصوب قبله . وقوله « خلقها لكم » تمام ، لأن المعنى خلق الأنعام لكم أي لمنافعكم . ثم أخبر ، فقال « فيها دفء » والدفء ما استدفأت به . وقال الحسن يريد ما استدفىء به من أوبارها ، وأصوافها ، وأشعارها . وقال ابن عباس : هو اللباس

من الأكيسة وغيرها ، كأنه سمي بالمصدر ومنه دفوء يومنا دفأ ،ونظيره (الكنّ) قال الفراء : كتبت (دفء) بغير همز ، لأن الهمزة إذا سكن ما قبلها حذفت من الكتاب ، ولو كتبت في الرفع بالواو ، وفي النصب بالألف وفي الخفض بالياء كان صواباً. وقال قتادة «فيها دفء ومنافع» معناه منفعة هي بلغة، من الألبان وركوب ظهرها « ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون » وذاك أعجب ما يكون إذا راحت عظاماً ضروعها طوالاً أسنمتها « وحين تسرحون» إذا سرحت لرعيها . فالسروح خروج الماشية إلى المرعى بالغداة . والاراحة رجوعها من المرعى عشياً :سرحت الماشية سرحاً وسروحاً وسرحها أهلها قال الشاعر :

كأن بقايا الاثر فوق متونه مدب الدبا فوق النقا وهو سارح(١)

وقوله « وتحمل أثقالكم » يعني هذه الانعام تحمل أثقالكم ، وهو جمع ثقل ، وهو المتاع الذي يثقل حمله، وجمعه أثقال « لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس » والبلوغ المصير إلى حد من الحدود ، بلغ يبلغ بلوغاً وأبلغه إبلاغاً ، وبلّغه تبلغاً وتبلّغ تبلغاً وتبالغ تبالغاً ، والشق المشقة ، وفيه لغتان، فتح الشين وكسرها، فالكسر عليه القراء السبعة . وبالفتح قرأ أبو جعفر المدني .

والشق أيضاً أحد قسمي الشيء الذي في احدى جهتيه ، وقال قتادة :معناه بجهد الأنفس، وكسرت الشين من شق الانفس مع أن المصدر بفتح الشين لأمرين :

احدهما - قال قوم: هما لغتان في المصدر ، قال الشاعر :

وذي إبل يسعى ويحسبها له أخي نصب من شقها ودؤوب (٢)

بالكسر والفتح ، وقال العجاج :

اصبح مسحول يوازي شقا(٣)

لكسر والفتح بمعنى يقاسي مشقة، وقال قوم: ان المعنى إلا بذهاب شق قوى النفس

---

(١) تفسير الطبري ٤ ١/١٠٠ (الطبعة الاولى) وروايته :

كأن بقايا الاتن فوق متونه مدب الذي فوق النقا وهو سارح

(٢) قائله النمر بن تولب . اللسان(شقق) (٣) اللسان (شقق)

ذكره الفراء والزجاج ، واختاره الطبري . وقوله « ان ربكم لرؤوف رحيم » أي رؤوف بكم رحيم ، ومن رحمته أنه خلق لكم الأنعام لتنتفعوا بها، على ماذكره

قوله تعالى :

(وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) (٩) آيتان بلا خلاف .

هذه الآية عطف على التي قبلها ، فلذلك نصب « والخيل » وتقديرها، وخلق الخيل ، وهي الدواب التي تركب « والبغال » واحدها بغل « والحمير » واحدها حمار « لتركبوها » وتتزينوا بها ، ونصب (وزينة) بتقدير ، وجعلها زينة « ويخلق ما لا تعلمون » من أنواع الحيوان والجماد والنبات لمنافعكم ، ويخلق من أنواع الثواب للمطيعين ، وأنواع العقاب للعصاة ما لا تعلمون .

وحكي عن ابن عباس: أن الآية دالة على تحريم لحم الخيل ، لأنها للركوب والزينة والانعام لما ذكر قبل ، وهو قول الحكم والاسود . وقالوا : لأنه تعالى ذكر في آية الانعام « ومنها تأكلون » (١) ولم يذكر ذلك في آية الخيل بل ذكرها للركوب والزينة . وابراهيم لم يربه بأساً ، وهو قول جميع الفقهاء. وقال جابر: كنا نأكل لحم الخيل على عهد رسول الله ﷺ .

وقوله « وعلى الله قصد السبيل » قال ابن عباس : معناه بيان قصد السبيل أي بيان الهدى من الضلال « ومنها جائر » أي عادل عن الحق فمن الطريق ما يهدي إلى الحق ؛ ومنها ما يضل عن الحق ، ثم قال « ولو شاء لهداكم أجمعين » وقيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال الحسن والبلخي: لو شاء لهداكم بالإلجاء ، لأنه قادر على ذلك .

الثاني ـ قال الجبائي : لو شاء لهداكم إلى الجنة .

---

(١) سورة المؤمن (غافر) آية ٧٩

قوله تعالى :

(هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (١١) آيتان بلا خلاف .

قرأ أبو بكر عن عاصم إلا الأعشى والبرجمي «ننبت» بالنون. الباقون. بالياء من قرأ بالياء فلما تقدم من قوله «هو الذي أنزل من السماء ماء... ينبت لكم» وهو أشكل بما تقدم، والنون لا يمتنع ايضاً، يقال نبت البقل وانبته الله، وقد روي انبت البقل، وأنكر ذلك الأصمعي، وقال قصيدة زهير التي فيها (حتى إذا أنبت البقل) مبهمة قال أبو علي فأمّا قوله «تنبت بالدهن» (١) فيجوز أن تكون الباء زائدة، كقوله «ولاتلقوا بأيديكم» (٢) قال «وألقى في الارض رواسي أن تميد» (٣) فعدى (ألقى) مرة بالباء وأخرى بغير باء، وإذا ثبت أن (انبت) في معنى (نبت) جاز ان تكون الباء للتعدي، كما لو كانت مع (نبت) كان كذلك، ويجوز ان تكون الهمزة في (انبت) للتعدي، والمفعول محذوف، والباء للحال، كأنه قال تنبت ثمرة بالدهن، فحذف المفعول و (بالدهن) في موضع حال، كأنه قال تنبت، وفيه دهن، ويجوز في (تنبت بالدهن) ان تنبت ما فيه دهن .

اخبر الله تعالى انه الذي ينزل من السماء ماء يعني غيثاً ومطراً لمنافع خلقه، من ذلك الماء شراب تشربونه، ومن ذلك نبات الشجر، والشجر ما ينبت من الارض وقام على ساق وله ورق وجمعه أشجار، ومنه المشاجرة لتداخل بعض الكلام في بعض كتداخل ورق الشجر وقال الازهري: ما نبت من الأرض شجر،

---

(١) سورة المؤمنون آية ٢٠ (٢) سورة البقرة آية ١٩٥

(٣) سورة النحل آية ١٥ وسورة لقمان آية ١٠

قام على ساق أو لم يقم ترعاه الإبل والأنعام كلها .

وقوله « فيه تسيمون » اي ترعون ؛ يقال : اسمت الابل إذا رعيتها ، وقد سامت تسوم ، فهي سائمة اذا رعت . واصل السوم الابعاد في المرعى ، والسوم في البيع الارتفاع في الثمن ، والانبات اخراج الزرع ، والانسان يزرع ، والله تعالى ينبت .

وقوله « ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات » اي ينبت بذلك المطر هذه الاشياء التي عددها لينتفعوا بها. ثم اخبر ان في ذلك لدلالة وحجة واضحة لمن يفكر فيه ، فيعرف الله به ؛ وإنما أضاف الدلالة اليهم ، لانهم الذين انتفعوا بها ، ولأن من لم يفكر فيها فكأنها لم تنصب له .

قوله تعالى :

(وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) (١٣) آيتان بلا خلاف .

قرأ ابن عامر « والشمس والقمر والنجوم مسخرات » بالرفع فيهن كلهن ، وافقه حفص في رفع « والنجوم مسخرات » الباقون بالنصب فيهن كلهن ، امّا ابن عامر فانما رفع ذلك ، لانه جعل الواو ، واو حال ، وابتدأ ، (والشمس) رفع بالابتداء و(النجوم) نسق عليها ، (والقمر) نسق عليها (والمسخرات) رفع خبرها ، ومن نصبها كلها جعلها منسوقة على قوله « وسخر لكم الليل والنهار » . واما حفص فانما رفع (النجوم مسخرات) فقطعها مما قبلها ، فعلى هذا حجة من نصب ان يقدر فعلا آخر ينصبه به ، وتقديره وجعل النجوم مسخرات .

ووجه تسخير الشمس والقمر والليل والنهار، ان الليل والنهار إنما يكون بطلوع الشمس وغروبها، فما بين غروب الشمس الى طلوع الفجر، وهو غياب ضوء الشمس، فهو ليل. وما بين طلوع الفجر الى غروب الشمس، فهو نهار، فالله تعالى سخر الشمس على هذا التقدير لا تختلف؛ لمنافع خلقه ومصالحهم وليستدلوا بذلك على ان المسخر لذلك والمقدر له حكيم ثم بين ان في ذلك التسخير لدلالات لقوم يعقلون عن الله ويتبينون مواضع الاستدلال بادلته.

وقوله «وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه» معنى (ما) الذي وموضعه النصب والتقدير وخلق لكم (ما).

أخبر الله تعالى ان الذي خلقه وأظهره من الاجسام المختلفة الألوان ان في ذلك دلالة لقوم يذكرون وأصله يتذكرون، فادغمت التاء في الذال. والذرء إظهار الشيء بإيجاده ذرأه يذرؤه ذرءاً. وذرأه، وفطره، وانشاءه نظائر. وملح ذرءاني ظاهر البياض والاختلاف هو الامتناع من ان يسد احد الشيئين مسد الآخر ونقيضه الاتفاق. قال قتادة: قوله «وما ذرأ لكم في الارض» معناه خلق لكم «مختلفاً ألوانه» من الدواب والشجر والثمار، نعماً ظاهرة فاشكروها لله، قال المؤرج: ذرأ بمعنى خلق بلغة قريش.

قوله تعالى:

(وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (١٦) ثلاث آيات بلا خلاف.

وهذا تعداد لنوع آخر من نعمه، فقال «وهو الذي سخر البحر» أي ذلله لكم

وسهل لكم الطريق الى ركوبه واستخراج ما فيه من انواع المنافع فتصطادون منه أنواع السمك، فتأكلون لحمه طرياً ، ولا يجوز ان تهمز طرياً، لانه من الطراوة لا من الطراءة ، و « تستخرجوا » من البحر حلية يعني اللؤلؤ والمرجان الذي يخرج من البحار «تلبسونها» وتتزينون بها «وترى الفلك» يعني السفن «مواخر فيه» قال الحسن معناه مقبلة ومدبرة بريح واحدة ، وقال قوم : معناه منقلة، والمواخر جمع ماخرة ، والمخرشق الماء من عن يمين وشمال ، يقال : مخرت السفينة الماء تمخره مخراً ، فهي ماخرة ، والمخر ايضاً صوت هبوب الريح إذا اشتد هبوبها .

وقوله « ولتبتغوا من فضله » اي ولتكتسبوا من فضل الله ونعمه بركوب البحر، ولكي تشكروه على أياديه، والواو دخلت ليعلم ان الله خلق ذلك وأراد جميع ذلك وقصده . ثم أخبر انه القى في الأرض رواسي ، وهو جمع راسية وهي الجبل العالي الثابت «ان تميد بكم» اي لئلا تميد بكم الارض . وقال الزجاج: معناه كراهة ان تمتد ، ولم يجز حذف (لا) والميد الميل يميناً وشمالاً ، وهو الاضطراب : ماد يميد ميداً ، وهو مائد .

وقوله « وانهاراً وسبلا » تقديره وجعل لكم انهاراً، لدلالة (القى) عليه، لانه لا يجوز ان يكون عطفاً على (القى) ومثله قول الشاعر :

تسمع في اجوافهن صرداً   وفي اليدين جسأة وبددا[١]

اي وترى في اليدين يبساً وتفرقاً ، ومثله قولهم : (علفتها تبناً وماء بارداً) والمعنى وسقيتها ماء ، ومثله كثير ، و (سبلا) عطف على (أنهاراً) لكي تهتدوا بها في سلوككم ، وانتقالكم في أغراضكم .

وقوله « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » اي جعل لكم علامات . وقيل انها الجبال ونحوها . قال ابن عباس : يعني الجبال يهتدى بها نهاراً، والنجم يهتدى به ليلاً ، وهو اختيار الطبري . و (العلامة) صورة يعلم بها المعنى ، من خط او لفظ او إشارة او هيئة ، وقد تكون وضعية ، وقد تكون برهانية .

---

(١) مر هذا الشعر في ٥ / ١٠٧ ، وروايته هناك (لغطاً) بدل (صرداً) .

وقوله و «بالنجم هم يهتدون» فالنجم هو الكوكب، ويقال: نجم النبت إذا طلع تشبيهاً بطلوع النجم، وانما قال - ههنا - و «بالنجم» فوحد، وقال فيما تقدم «والنجوم مسخرات» لان النجوم على ثلاثة أضرب: ضرب يهتدى بها مثل الفرقدين، والجدي، لانها لا تزول. وضرب هي الشهب، وضرب هي زينة السماء، كما قال «زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب»(١) فقوله «وبالنجم» يجوز ان يريد به النجوم، فأخبر بالواحد عن الجميع، كما قال «او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء»(٢) والنجم في قوله «النجم الثاقب»(٣) يريد الثريا فقط «والنجم اذا هوى»(٤) يعني نزول القرآن إذا نزل به جبرائيل (ع) وقوله «والنجم والشجر يسجدان»(٥) يريد كلما نجم من الارض اي نبت، مما لا يقوم على ساق كالبطيخ والقرع والضغابيس وهو القثاء الصغار، ويشبه الخسيس بالضغبوس أنشد ابن عرفة:

قد جربت عركي في كل معترك غلب الاسود فما بال الضغابيس(٦)

قوله تعالى:

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (١٨) آيتان بلا خلاف.

في هذه الآية ردّ على عباد الاصنام والاوثان بأن يقال: أفمن يخلق ما تقدم ذكره من السموات والارض والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من أنواع

---

(١) سورة الصافات آية ٦
(٢) سورة النور آية ٣١
(٣) سورة الطارق آية ٣
(٤) سورة النجم ٥٣ آية ١
(٥) سورة الرحمن آية ٦
(٦) البيت لجرير ديوانه (دار بيروت) ٢٥١ واللسان (ضغبس) وقد روي (الرجال) بدل (الاسود).

العجائب، كمن لا يخلق ذلك من الاصنام التي هي جمادات، فكيف توجه العبادة اليها، ويسوّى بينها، وبين خالق جميع ذلك «أفلا يتفكرون» في ذلك ويعتبرون به، فان ذلك من الخطأ الفاحش. وجعل (من) فيما لا يعقل، لما اتصلت بذكر الخالق.

ويتعلق بهذه الآية المجبرة، فقالوا: أعلمنا الله تعالى ان احداً لا يخلق، لانه خلاف الخالق، وانه لو كان خالق غيره لوجب ان يكون مثله، ونظيره.

وهذا باطل، لان الخلق في حقيقة اللغة هو التقدير والاتقان في الصنعة وفعل الشيء لا على وجه السهو والمجازفة بدلالة قوله «وتخلقون إفكاً»[1] وقوله «واذ تخلق من الطين كهيئة الطير»[2] وقوله «احسن الخالقين»[3] كما لا يجوز أنه اعظم الآلهة لما لم يستحق الآلهية غيره، وقال زهير:

ولأنت تفري مـا خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري[4]

وقال الحجاج: لا أعد إلا وفيت ولا أخلق إلا فريت[5]

وقال الشاعر:

ولا يئط بأيدي الخالقين ولا أيدى الخوالق الا جيد الأدم

فعلمنا بذلك جواز تسمية غيره بأنه خالق إلا انّا لا نطلق هذه الصفة إلا لله تعالى، لان ذلك توهم، فاذا ثبت ذلك فالوجه في الآية ما قدمنا ذكره من الرد على عباد الاصنام والجمادات التي لا تقدر على ضرر ولا نفع ولا خلق شيء ولا

---

(١) سورة العنكبوت اية ١٧
(٢) سورة المائدة اية ١١٣
(٣) سورة المؤمنون آية ١٤ وسورة الصافات آية ١٢٥
(٤) ديوانه ٢٩ (دار بيروت) واللسان (فرا)، (خلق).
(٥) وقد رواها ابن منظور في لسان العرب (خلق) قال: قال الحجاج: (ما خلقت إلا فريت ولا وعدت إلا وفيت)

استطاعة لها على فعل ، وان من سوّى بينها وبين من خلق مـا تقدم ذكره من أنواع النعم وأشرك بينها في العبادة ، كان جاهلا بعيداً عن الصواب عادلاً عن طريق الهدى . ويقوي ذلك انه قال عقيب هذه الآية « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون اموات غير احياء » فعلمنا انه أراد بذلك مـا ما قدمنا من اسقاط رأيهم وتسويتهم بين الجماد والحي والفاعل ومن ليس بفاعل، وهذا واضح .

وقوله « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها» قال الحسن: لا تحصوها بأداء حقها وتعظيمها . وقال الجبائي : لا تحصوها مفصلة لكثرتها وإن صح منكم احصاؤها على وجه الجملة .

قوله تعالى :

(وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (٢١) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ يعقوب وحفص ويحي والعليمي «والذين يدعون» بالياء. الباقون بالتاء، قال أبو علي : هذا كله على الخطاب ، لان ما بعده خطاب كقوله بعد « أفـلا تذكرون » وقوله « وألقى في الارض رواسي ان تميد بكم » ، « وإلهكم إله واحد » فكل هذا خطاب .

فان قلت: ان فيه «والذين يدعون من دون الله» فانه لا يكون خطاباً للنبي ﷺ ولا المسلمين، قيل: التقدير في ذلك قل لهم : والذين تدعون من دون الله، فلا يمتنع الخطاب على هذا الوجه ، ولهذا قرأ عاصم بالياء لما كان عنده ذلك اخباراً عن المشركين ، ولم يجز ان يكون في الظاهر خطاباً للمسلمين .

يقول الله لعباده ان الله الذي يستحق العبادة هو الذي يعلم ما يظهرونه وما

يستترون به ويخفونه ، وان الذين يدعون من دون الله من الاصنام لا يخلقون شيئاً، فضلاً عن ان يخلقوا مايستحق به العبادة، وهم مع ذلك مخلوقون مربوبون، وهم مع ذلك أموات غير احياء ، وانما قال أموات غير احياء ، لانها في حكم الأموات في انها لا تعقل شيئاً. وقيل غير أحياء على وجه التأكيد بما صارت به، كالأموات، لانه قد يقال للحيّ هو كالميت إذا كان بعيداً من ان يعلم . و(اموات) رفع بأنه خبر ابتداء ، والتقدير هن أموات غير احياء ، ويجوز ان يكون خبراً عن (الذين) والتقدير والذين يدعون أموات .

وقوله « وما يشعرون أيان يبعثون » اي هم لا يعلمون اي وقت يحشرهم الله للجزاء والحساب ، بل ذلك لا يعلمه الا الله تعالى ، ومعنى (أيان) متى و (متى) اوضح، لأنه اغلب في الاستعمال فلذلك فسر به (أيان) وهو سؤال عن الزمان كما ان (اين) سؤال عن المكان . وقال الفراء : معناه هي أموات فكيف يشعرون متى تبعث يعني الاصنام . قال ويقال للكفار أيضاً وما يشعرون أيان يبعثون ، و (إيان) بكسر الهمزة لغة سليم قرأها أبو عبد الرحمن السلمي .

قوله : تعالى

(إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) (٢٣) آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى لعباده ان « إلهكم » الذي يستحق العبادة « إله واحد » لانه لا يقدر على ما يستحق به العبادة من أصول النعم سواه . ثم قال ان الذين لا يصدقون بالآخرة وبالبعث والنشور والثواب والعقاب ، تجحد قلوبهم وتنكر ما ذكرناه، وهم مع ذلك «يستكبرون» اي يمتنعون من قبول الحق أنفة من أهله . و (الاستكبار) طلب الترفع بترك الاذعان للحق . ثم قال تعالى « لا جرم » اي

حق ووجب انه يعلم ما يبطنونه ويخفونه في نفوسهم ، وما يظهرونه ، لا يخفى عليه منه شيء ، و«انه لا يحب المستكبرين» يعني لا يريد ثوابهم ولا منافعهم ، ولا يفعل ذلك بهم لكونهم مستحقين للعقاب .

قوله تعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) (٢٥) آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى إذا قيل لهؤلاء الكفار على وجه الاستفهام: ما الذي أنزل ربكم على نبيه محمد ﷺ؟ أجابوا بأن «قالوا : أساطير الأولين » يعني أحاديث الأولين الكاذبة ، في قول ابن عباس وغيره ، وأحدها أسطورة سمي بذلك ، لانهم كانوا يسطرونها في الكتب .

وقوله « ليحملوا أوزاهم » أي أثقالهم من المعاصي ، والوزر الاثم ، والوزر الثقل ، ومنه الوزير ، لانه يحمل الاثقال عن الملك ، يقال وازره على امره أي عاونه بحمل الثقل معه ، واللام لام العاقبة ، لانهم لم يقصدوا بما فعلوه ليتحملوا أوزارهم .

وقوله « كاملة » معناه حمل المعاصي تامة على أقبح وجوهها من غير اخلال بشيء منها « ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » معناه إنهم يتحملون مع أوزارهم من أوزار من أضلوه عن دين الله وأغووه عن اتباع الحق، بغير علم منهم بذلك بل كانوا جاهلين . والمعنى إن هؤلاء كانوا يصدون من أراد الايمان بالنبي (ﷺ) فعليهم آثامهم وآثام أبنائهم لاقتدائهم بهم.

وعلى هذا ما روي عن النبي ﷺ انه قال : (ايما داع دعا إلى الهدى فاتبع،

فله مثل اجورهم من غير ان ينقص من اجورهم شيء ، وايما داع دعا الى الضلالة فان عليه مثل اوزار من اتبعه من غير ان ينقص من اوزارهم شيء) .

والوجه في تحملهم أوزار غيرهم أحد شيئين :

احدهما ـ انه اراد بذلك إغواءهم واضلالهم، وهي اوزارهم فأضاف الوزر إلى المفعول به ، كما قال « اني اريد أن تبوء بإثمي وإثمك » (١)

والثاني ـ ان يكون أراد اقتداء غيرهم بهم فيستحقون على معصيتهم زيادة عقاب ، فجاز لذلك أن يضاف اليهم . ثم أخبر تعالى فقال « ألا ساء ما يزرون » أي بئس الشيء الذي يتحملونه ، لانهم يحملون ما يؤدي الى العقاب ، ومعنى يزرون يحملون ثقل الآثام .

قوله تعالى

(قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوءَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ) (٢٧) آيتان بلا خلاف .

قرأ نافع وحده «تشاقون» بكسر النون اراد تشاقونني ، فحذف النون تخفيفاً وحذف الياء اجتزاء بالكسرة ، وقد ذكر فيما مضى علة ذلك في قوله «فبم تبشرون» (٢) وقرأ الباقون بفتح النون ، لا يجعلونه مضافاً إلى الياء . والنون في هذه القراءة علامة الرفع ، والنون مع الياء المحذوفة في موضع النصب .

---

(١) سورة المائدة اية ٣٠

(٢) سورة الحجر اية ٥٤

ومعنى « تشاقون » أي يعادون الله فيهم فيجعلونها شركاء له ، والشقـاق الخلاف في المعنى، ومعنى «تشاقون» تكونون في جانب ، والمسلمون في جانب، لا يكونون معهم يداً واحدة ، ومن ثم قيل لمن خرج عن طاعة الامام وعن جماعة المسلمين : شق العصا أي صار في جانب عنهم ، فلم يكن مجتمعاً في كلمتهم .

يقول الله ان الذين من قبل هؤلاء الكفار « قد مكروا» واحتالوا على رسلهم والمكر الفتل والحيلة الى جهة منكرة ، يقال مكر به يمكر مكراً ، فهو ماكر ومكار ، ثم قال : فان الله تعالى أتى أمره وعقابه « بنيانهم » التي بنوها فهدمها « فخر عليهم السقف من فوقهم » وقيل في معنى « من فوقهم » قولان :

احدهما ـ انه قال ذلك تأكيداً ، كقولك قلت انت .

الثاني ـ انهم كانوا تحته ، وقد يقول القائل : تهدمت علي المنازل، وان لم يكن تحتها ، وأيضاً فليعلم انهم لم يكونوا فوق السقوف .

وقال ابن عباس وزيد بن اسلم : الذين خر عليهم السقف من فوقهم نمرود ابن كنعان . وقال غيرهم : بخت نصر، وقال الزجاج وأبو بكر بن الانباري: المعنى فأتى الله مكرهم من اصله اي عاد ضرر المكر عليهم وبهم. وذكر الاساس مثلا كما ذكر السقف، مع انه لا سقف ثم ولا أساس ، وهذا الذي ذكره يليق بكلام العرب ويشبهه. والمعنى إنّ الله أتى بنيانهم من القواعد اي قلعه من اصله كقولهم: أتي فلان من مأمنه اي أتاه الهلاك من جهة مأمنه وأتاهم العذاب من جهـــة الله « وهم لا يشعرن » أي لا يعلمون انه من جهة الله نزل بهم العذاب . ثم قال انه تعالى مع ذلك يخزيهم يوم القيامة أي يذلهم بأنواع العذاب ويقول لهم أين شركائي الذين اتخذتموهم آلهة ، فعبدتموهم يعني الذين كنتم تشاقون فيهم الله تعالى وتخرجون عن طاعة الله .

ثم أخبر ان الذين أعطوا العلم والمعرفة بالله تعالى وأوتوه يقولون لهم: ان الخزي يعني الذل والهوان « اليوم » والسوء الذي هو العذاب « على الكافرين » الجاحدين لنعمه المنكرين لتوحيده وصدق انبيائه .

قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَٱدْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٠)

ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة «الذين يتوفاهم» بالياء. الباقون بالتاء، من قرأ بالتاء فلتأنيث لفظة الملائكة ، ومن قرأ بالياء ، فلأن التأنيث غير حقيقي وقد مضى نظيره كثيراً.

يقول الله تعالى ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين، الذين يتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم و«الذين» في موضع الجر بأنه بدل من الكافرين وانما قال ذلك ليعلم به ان الوعيد يتناول من كان مات على كفره ، لانه ان تاب لم يتوجه الوعيد اليه ، ومعنى «تتوفاهم الملائكة» أي تقبض ارواحهم بالموت ظالمي انفسهم بما فعلوه من ارتكاب المعاصي التي استحقوا بها العقاب . والظالم من فعل الظلم ، ويصح ان يظلم الانسان نفسه كما يظلم غيره .

وقوله « فألقوا السلم» اي استسلموا للحق حين لا ينفعهم السلم، يعني الانقياد والاذعان .

وقوله « ما كنا نعمل من سوء » اي قالوا ما عملنا من سوء ، فكذبهم الله ، وقال « بلى » قد فعلتم والله عالم بما كنتم تعملون في الدنيا من المعاصي وغيرها . وقيل في معنى ذلك قولان :

احدهما - ما كنا نعمل من سوء عند انفسنا، لانهم في الآخرة ملجؤن الى ترك القبيح والكذب، ذكره الجبائي. وقال الحسن وابن الأخشاد: في الآخرة مواطن يلجؤن في بعضها دون بعض، ثم بين انه تعالى يقول لهم «ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها» اي مؤبدين فيها «فلبئس مثوى المتكبرين» قسم من الله تعالى انها بئس المأوى لمن تكبر على الله، ولم يعمل بطاعته، «وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم» اي اي شيء «انزل ربكم قالوا خيرا» على معنى ماذا، والمعنى انزل الله خيراً، وانما نصب (خيراً) ههنا بعد قوله «قالوا» ورفع «اساطير» فيما تقدم لأمرين.

احدهما - انهم جحدوا التنزيل، فقالوا إنما هي اساطير الأولين وأقر المؤمنون بالتنزيل، فقالوا أنزل ربنا خيراً.

والثاني - قال سيبويه ان يكون الرفع على تقدير ما الذي انزل ربكم فيكون ذا بمعنى الذي، وفي النصب يكون (ذا، وما) بمنزلة اسم واحد.

وقوله «الذين احسنوا الحسنى» يحتمل ان يكون من كلام من قال خيراً، ويحتمل ان يكون اخباراً من الله تعالى، وهو الاقوى، لانه ابلغ في باب الدعاء الى الاحسان، فأجاز الحسن والزجاج كلا الوجهين، والمعنى ان للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة مكافأة لهم في الدنيا قبل الآخرة خيراً «ولنعم دار المتقين» يعني الجنة التي يدخلها الذين اتقوا معاصي الله وفعلوا طاعاته.

قوله تعالى:

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ كَذٰلِكَ يَجْزِي ٱللهُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣١) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلٰئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (٣٢)

آيتان بلا خلاف.

يحتمل رفع جنات وجهين :

احدهما_ ان تكون خبر ابتداء محذوف وتقديره هي جنات يدخلونها، كأن قائلا لما قال الله «ولنعم دار المتقين» قال: ما هذه الدار؟ فقيل: هي جنات عدن.

والثاني _ ان يكون رفعاً بالابتداء وخبره « نعم دار المتقين» وقد قدم الخبر والتقدير جنات عدن « نعم دار المتقين » . ثم وصف هذه الجنات بما فيها ، فقال « تجري من تحتها الانهار » لان الجنة هي البستان الذي فيه الاشجار ، والانهار تجري تحت الاشجار ، وقيل لان انهار الجنة في اخاديد . ثم اخبر ان لهؤلاء الذين دخلوا الجنة لهم فيها ما يشاؤنه ويشتهونه . ثم قال مثل ذلك يجازي الله تعالى الذين يتقون معاصيه ، ويعملون بطاعاته . ثم قال « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين أي صالحين بأعمالهم الجميلة خلاف من تتوفاهم خبيثين بأعمالهم القبيحة . وأصل الطيبة حال المستلذ من الاطعمة ، يقول الملائكة لهم سلام عليكم ادخلوا الجنة جزاء على أعمالكم في الدنيا من الطاعات .

قوله تعالى :

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) (٣٤) آيتان بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « إلا أن يأتيهم » بالياء . الباقون بالتاء . وقد بينا وجهه ، ومعنى قوله « هل ينظرون » ينتظرون ، يعني هؤلاء الكفار إلاأن تأتيهم الملائكة ، يعني بالموت أو الهلاك ، أو يأتي أمر ربك يعني يوم القيامة ، ذكره مجاهد وقتادة .

ثم أخبر تعالى ان الذين مضوا _ فيما سلف من الكفار_ فعلوا مثل فعل هؤلاء من

تكذيب الرسل ، وجحد توحيده ، وانكار رسله ، فأهلكهم الله فما الذي يؤمّن هؤلاء أن يهلكهم .

ثم اخبر تعالى انه باهلاكه اياهم لم يظلمهم ، ولكن هم الذين ظلموا انفسهم فيما مضى بالمعاصي التي استحقوا بها الهلاك .

ثم اخبر تعالى انه اصابهم يعني الكفار جزاء سيئات اعمالهم ، وهي القبائح « وحاق بهم » اي حلّ بهم وبال « ما كانوا به يستهزئون » أي يسخرون برسل الله وبأنبيائه .

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ) (٣٥) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن المشركين مع الله إلهاً آخر ومعبودا سواه أنهم قالوا «لو شاء الله » اي لو أراد الله لم نكن نعبد شيئاً من دونه ، من الاصنام والاوثان ، لا « نحن ولا أباؤنا ولا حرمنا» من قبل نفوسنا شيئا ، بل اراد الله ذلك منا ، فلذلك فعلنا ، كما يقول المجبرة الضلال ، فكذبهم الله وانكر عليهم ، وقال مثل ذلك فعل الذين من قبلهم ، من الكفار الضلال كذبو رسل الله ، وجحدوا انبياءه ثم عذر انبيائه ، فقال « هل على الرسل إلا البلاغ » الظاهر اي ليس عليهم إلا ذلك . وفي ذلك ابطال مذهب المجبرة ، لأن الله انكر عليهم قولهم إنه «لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء» ومثل هذه الآية التي في الانعام [1] وقد بيناها مستوفاة .

---

(١) اية ١٤٨ من سورة الانعام في ٤ : ٣٢٣ — ٣٢٥

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ) (٣٦) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى نبيه ﷺ بأنه قد ارسل في كل امة من الأمم السالفة رسولا بأن « اعبدوا الله » اي امرهم أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ، وان يجتنبوا عبادة الطاغوت ، وهو كل ما يعبد من دون الله. وقيل: الطاغوت اسم الشيطان ويكون المعنى «اجتنبوا» اغواء الشيطان ، وكل داع يدعو الى الفساد . ثم اخبر عن المبعوث اليهم بأن منهم من لطف الله لهم بما علم انه يؤمن عنده ، فآمن عنده ، فسمى ذلك اللطف هداية ، ولم يرد نصب الأدلة على الحق لأنه تعالى سوى في ذلك بين المؤمن والكافر ، كما قال «فاما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى» (١) ويحتمل أن يكون المراد فمنهم من هداه الله الى الجنة بايمانه .

وقوله «ومنهم من حقت عليه الضلالة» قيل فيه قولان :

احدهما – لأنهم ضلوا عن طريق الحق وكفروا بالله ، وهو قول الحسن .

الثاني – حقت عليهم الضلالة عن طريق الجنة بما ارتكبوه من الكفر. والضلالة – ههنا – المراد به العدول عن الجنة ، وقد سمى الله العقاب ضلالا ، فقال «ان المجرمين في ظلال (٢)» اي عذاب. ثم قال قل لهم «سيروا في الارض» وتعرفوا اخبار من مضى وتبينوا كيف كان عاقبة الذين كذبوا بآيات الله ، ولم يصدقوا

---

(١) سورة حم السجدة آية ١٧ (٢) سوره القمر آية ٤٧

رسله ، فان الله اهلكهم ودمر عليهم ، كقوم هود ، ولوط ، وثمود ، وغيرهم ، فان ديارهم عليها آثار الهلاك والدمار ظاهرة .

قوله تعالى :

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (٣٧) آية بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة « يهدي » بفتح الياء وكسر الدال. الباقون بضم الياء وفتح الدال، ولم يختلفوا في ضم ياء يضل وكسر الضاد .

فمن فتح الياء وكسر الدال احتمل ذلك امرين :

احدهما ـ انه اراد ان الله لا يهدي من يضله .

والثاني ـ أن من اضله الله لا يهتدي

ومن ضم الياء أراد من أضله الله لا يقدر أحد ان يهديه ، وقوّوا ذلك بقراءة أُبي « لا هادي لمن اضل الله » واسم الله تعالى اسم (إن) و (يضل) الخبر.

ومعنى اضلال الله ـ ههنا ـ يحتمل امرين :

احدهما ـ ان من حكم الله بضلاله وسماه ضالاً ، لا يقدر أحد ان يجعله هاديا ويحكم بذلك .

والثاني ـ إن من أضله الله (عز وجل) عن طريق الجنة لا احد يقدر على هدايته اليها ، ولا يقدر هو ايضا على أن يهتدي اليها .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ « ان تحرص » يا محمد على ان يؤمنوا ويهتدوا الى الجنة ، فهم بسوء اختيارهم لا يرجعون عن كفرهم ، والله تعالى قد حكم بكفرهم وضلالهم واستحقاقهم للعقاب ، فلا أحد يقدر على خلاف ذلك .

و (من) في الوجهين في موضع رفع، فمن ضم الياء رفعها لأنها لم يسمّ فاعلها ،

ومن فتح الياء ، فلانها الفاعل . والمراد بالآية التسلية للنبي ﷺ في دعائه لمن لا يفلح بالاجابة، لانها كه في الكفر، وان ذلك ليس تقصيراً من جهتك بل انه ليس الى فلاح مثل هذا سبيل .

وقوله « وما لهم من ناصرين » معناه ليس لهم ناصر ينصرهم ويخلصهم من العقاب ، وذلك يبين انه ليس المراد بالآية الضلال عن الدين ، وانما المراد ما قلناه من عدولهم عن الثواب الى العقاب .

والحرص طلب الشيء بجد واجتهاد ، تقول: حرص يحرص حرصاً، وحرص يحرص بكسر الراء في الماضي ، وفتحها في المستقبل،والاول لغة أهل الحجاز .

قوله تعالى :

(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ) (٣٩) آيتان بلا خلاف .

يقول الله تعالى ثم ان هؤلاء الكفار حلفوا بالله على قدر طاقتهم وجهدهم انه لا يحشر الله أحداً يوم القيامة ، ولا يحييه بعد موته. ثم كذبهم تعالى في ذلك، فقال: «بلى» يحشرهم الله ويبعثهم « وعدا » وعدهم به ، ولا يخلف وعده .

ونصب «وعداً» على المصدر والتقدير وعد وعداً . وقال الفراء : تقديره بلى ليبعثهم وعداً حقاً، ولو رفع على معنى ان ذلك وعد عليه حق كان صوابا والمعنى وعد وعداً عليه حقاً ذلك الوعد ليس له خلف «ولكنّ اكثر الناس لا يعلمون » صحة ذلك لكفرهم بالله وجحدهم انبياءه .

وقوله « ليبين لهم الذي يختلفون فيه » في دار الدنيا ، لأنه يخلق فيهم العلم

الضروري يوم القيامة، الذي يزول معه التكليف ويزول خلافهم فيه ، ويعلم ايضاً كل كافر انه كان كاذباً في الدنيا في قوله : إن الله لا يبعث احدا بعد موته ، هذا إن جعلنا قوله « ليبين » متعلقا بـ (بلى) يبعثهم الله. ويحتمل ان يكون متعلقاً بقوله «ولقد بعثنا في كل امة رسولا ..... ليبين الذي يختلفون فيه» ويهديهم الى طريق الحق ويثيبهم عليه

قوله تعالى :

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(٤٠) آية بلا خلاف .

قرأ الكسائي وابن عباس « فيكون » نصباً . الباقون رفعا . فمن نصب جعله عطفاعلى «ان نقول... فيكون» ولا يجوز ان يكون نصبا على جواب الأمر لأن ما ينتصب لأجل جواب الأمر هو ما يكون فعلان، ويجب الثاني من اجل الاول ، كقولك ائتني فأكرمك فالاكرام يجب من اجل الاتيان ، وليس كذلك في الآية ، لانه انما هو فعل واحد أمر، واخبر انه يكون ، ولذلك اجمع القراء على رفع الذي في آل عمران في قوله « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » [١] وقد أجاز الزجاج النصب على ان يكون جواباً ، وهو غلط . من رفع اراد أن نقول له كن ، فإنه يكون .

وقيل في معنى الآية قولان :

احدهما ـ انه بمنزلة قوله (كن) في انه يكون منا من غير كلفة ولا معاناة.

والثاني ـ ان قول «كن» علامة الملائكة تدلهم على انه سيحدث كذا وكذا عند سماعه .

---

(١) سورة ال عمران اية ٥٩

قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (٤٢) آيتان بلا خلاف .

موضع « الذين » رفع بالابتداء ، والخبر « لنبوّئنهم » يقول الله تعالى ان الذين هاجروا من ديارهم فرارا بدينهم ، واتّباعا لنبيهم ، من بعدان ظلمهم قومهم وآذوهم وبخسوهم حقوقهم ، فان الله تعالى يبوئهم في الدنيا حسنة .

والتبوء الاحلال بالمكان للمقام ، يقال تبوأ منزلا يتبوأ اذا اتخذه ، وبوأه غيره تبويئاً اذا احله غيره ، ومنه « بوّأنا بني اسرائيل مبوّء صدق » [1] وقال ابن عباس وقتادة والشعبي : تبوّأهم الله المدينة ، واحل لهم فيها غنيمة حسنة يأخذونها من اموال الكفار .

ثم اخبر ان ما اعدّه لهم من الأجر في الآخرة ونعيم الجنة اكثر من ذلك بكثير لو كانوا يعلمون . ثم وصف الذين هاجروا ، فقال الذين صبروا على جهاد اعدائه واحتملوا الأذى في جنب الله واسندوا أمرهم اليه تعالى وتوكلوا عليه ، فمن كان بهذه الصفة يستحق ما ذكرناه ، ومن كان بخلافه لم يستحق منه شيئاً .
وقيل : إن الآية نزلت في عمار وصهيب وأمثالهم الذين كانوا يعذبون بمكة .

قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

(١) سورة ١٠ يونس اية ٩٣

ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (٤٤) آيتان بلا خلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يقول له إنا لم نرسل من قبلك إلا رجالا امثالك من البشر « نوحي اليهم » أي يوحي الله اليهم . ومن قرأ بالنون ، وهو حفص ، أراد نوحي نحن، إخبار منه تعالى . ثم قال الله لهم « فاسألوا اهـل الذكر إن كنتم لا تعلمون » صحة ما اخبرناكم به من أنّا ارسلنا رجـالا قبلك وأوحينا اليهم . وقال ابن عباس ومجاهد: المعني بأهل الذكر أهل الكتاب ومنهم من قال : المراد من آمن من اهل الكتاب ، ومنهم من قال : امر مشركي العرب ان يسألوا اهل الكتاب عن ذلك فانهم لا يتهمونهم . وقال ابن زيد: يريد اهل القرآن لان الذكر هو القرآن . وقال الرماني والازهري والزجاج : المعني بذلك اهل العلم بأخبار من مضى من الامم ، سواء كانوا مؤمنين او كفاراً ، وما آتاهم من الرسل قال: وفي ذلك دلالة على انه يحسن ان يرد الخصم – اذا التبس عليه امر – الى أهل العلم بذلك الشيء ان كان من أهل العقول السليمة من آفة الشبه .

والذكر ضد السهو وسمي العلم بذلك ، لأنه منعقد بالعلم ، وهو بمنزلة السبب المؤدي اليه في ذكر الدليل ؛ واذا تعلق هذا التعلق حسن ان يقع موقعه وينبىء عن معناه .

وروى جابر عن ابي جعفر (ع) انه قال : (نحن اهل الذكر) .

وقوله « بالبينات والزبر » العامل بالباء أحد امرين :

احدهما – قوله « أرسلنا » والتقدير مـا ارسلنا قبلك إلاّ رجالاً بالبينات نوحي اليهم .

الثاني – ان يكون على حذف (أرسلنا بالبينات) كما قال الأعشى :

وليس مجيراً إن أتى الحي خائف ولا قـائل إلا هو المتعيَّبا[1]

(١) ديوان (دار بيروت) ٨ وتفسير الطبري ١٤ : ٦٩

أي أعني المتعيبا، ومثل الأول، قول الشاعر :

نبئتهم عذّبوا بالنار جارتهم وهل يعذّب إلاّ الله بالنار[١]

وقوله «بالبينات والزّبر» اي بالدلالات الواضحات والكتب المنزلة . والزّبر الكتب، واحدها زبور، يقال: زبرت الكتاب أزبره زبراً إذا كتبته . ثم قال «وأنزلنا اليك» يا محمد «الذّكر» يعني القرآن «لتبين للناس ما نزّل إليهم» فيه من الاحكام والدلالة على توحيد الله، لكي يتفكروا في ذلك ويعتبروا، وانما قال «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً» مع انه أرسل قبله الملائكة، لأن المعنى وما أرسلنا من قبلك الى الأمم الماضية إلا رجالاً بدلالة الآية، لانها حجة عليهم في انكار رسول الله إلى الناس من الرجال .

قوله تعالى :

(أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّآتِ أَنْ يَخْسِفَ ٱللهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ) (٤٧) ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ «أفأمن الذين مكروا» بالنبيّ والمؤمنين، وفعلوا السيئآت واحتالوا الفعل القبيح، على وجه الانكار عليهم، فاللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الانكار «أن يخسف الله بهم الارض» من تحتهم عقوبة لهم على كفرهم او يجيئهم العذاب من جهة، لا يشعرون بها، على وجه الغفلة «او يأخذهم في تقلبهم» وتصرفهم، بأن يهلكهم على سائر حالاتهم، حتى لا ينفلت منهم أحد،

(١) تفسير الطبري ١٤ : ٦٩ ومجمع البيان ٣ : ٣٦٢

فما هم بفائتين . والمعنى إن ما يريد الله بهم من الهلاك لا يمتنع عليه ما يريده منهم « او يأخذهم على تخوف » وقيل في معنى « تخوف » قولان :

احدهما – قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد : على تنقّص بمعنى انه يؤخذ الأول فالأول حتى لا يبقى منهم احد، لان تلك حال يخاف معها الفناء ويتخوف معها الهلاك ، وقال الشاعر :

تخوّف السيرُ منها تامكاً قرِداً كما تخوّف عود النبعة السفَن[1]

اي ينقص السير سنامها بعد تموكه ، كما ينحت العـــود فيدق بعد غلظه . وقال الآخر :

تخوف عدوهم مـــا لي وأهلي سلاسل في الحلوق لها صليل[2]

والثاني – روي عن ابن عباس – في رواية أخرى – ان معناه على تفزيع . وقال الحسن : تهلك القرية فتخوف القرية الاخرى ، وقـال الفراء : تخوّفته ، وتحوفته – بالخاء والحاء – إذا انتقصته من حافّاته . ومثله « ان لـك في النهار سبحاً طويلا »[3] بالخاء والحاء ، سمعت العرب تقول سبحي صوفك ، وهو شبيه بالندف ، والسبخ مثل ذلك ، قال المبرد : لا يقال تحوّفته ، وإنما هو تحيّفته .

قوله تعالى :

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ دَابَّـــةٍ وَٱلْمَلٰئِكَةُ وَهُمْ لَا

(١) قائله ابن مقبل ، اللسان (خوف) وتفسير الطبري ١٤ : ٧٠ ومجمع البيان ٣ : ٣٦٣
(٢) تفسير الطبري ١٤ : ٧١ ومجمع البيان ٣ : ٣٦٣
(٣) سورة المزمل آية ٧

يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (٥٠) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي وخلف « او لم تروا » بالتاء ، الباقون بالياء .

من قرأ بالتاء حمله على الجمع . ومن قرأ بالياء ، فعلى ما قبله ، من قوله « ان يخسف الله بهم الأرض او يأتيهم... او يأخذهم »،وكان النبي ﷺ وأصحابه رأوا ذلك وتيقنوه ، فلذلك عدل عن الخطاب .

وقرأ ابو عمرو ويعقوب « تتفيؤا ظلاله» بالتاء . الباقون بالياء ، فمن أنث فلتأنيث الظلال ، لانه جمع ظل ، فكل جمع مخالف الآدميين ، فهــو مؤنث تقول : هذه الاقطار وهذه المساجد. ومن ذكّر ، فلأن الظلال وإن كان جمعاً، فهو على لفظ الواحد مثل (جدار) ، لانّ جمع التكسير يوافق الواحد .

يقول الله تعالى لهؤلاء الكفار الذين جحدوا وحدانيته ، وكذبوا نبيه ، على وجه التنبيه لهم على توحيده « او لم يروا » هؤلاء الكفار « الى ما خلق الله » من جسم قائم ، شجر او جبل او غيره ، فصير ظلاله فيئاً اي تدور عليه الشمس ثم يرجع الى ما كان قبل زوال الشمس عنه . وقال ابن عباس (يتفيئو) يرجع من موضع الى موضع ويتميل ، يقــال منه: فاء الظل يفيء فيئاً إذا رجع ، وتفيأ يتفيّؤ تفيؤاً بمعنى واحد .

وقوله « عن اليمين والشمائل » معناه في اول النهار وآخره – في قول قتادة والضحاك وابن جريج – يتقلص الفيء عن الجبل من جهة اليمين وينقص بالعشي من جهة الشمال . وإنما قال عن اليمين – على التوحيد – والشمائل – على الجمع – لأحد أمرين :

احدهما – انه اراد باليمين الأيمان ، فهــو متقابل في المعنى ، ويتصرف في اللفظ على الايجاز ، كما قال الشاعر :

بفيّ الشامتين الصخر ان كان هدّني زرية شبلي مخدر في الضراغم[١]

والمعنى بأفواه ، وقال آخر :

الواردون وتيم في ذرى سبإ قد عضّ اعناقهم جلد الجواميس[٢]

وقوله « سجداً لله وهم داخرون » معناه إنها خاضعة لله ذليلة ، بما فيها من الدلالة على الحاجة إلى واضعها ومدبرها ، بما لولاه لبطلت ، ولم يكن لها قوام طرفة عين ، فهي في ذلك كالساجد ، من العباد بفعله ، الخاضع بذاته ، كأنه من بسط الشمس عليه في أول النهار . ثم قبضها عنه الى الجهة الأخرى . ثم قبضها ايضاً عنه ، فتغيرت حاله . والتغيير يقتضي مغيراً غيّره ومدبّراً دبّره . قال الحسن : اما ذلك فيسجد لله، واما انت فلا تسجد لله ؟! بئس والله ما صنعت . و (الداخر) الخاضع الصاغر ، دخر يدخر دخراً ودخوراً، إذا ذل وخضع قال ذو الرمة :

فلم يبق إلا داخر في مخيّس ومنجحر في غير أرضك في جحر[٣]

ثم أخبر تعالىانه يسجد له جميع «ما في السموات ومافي الأرض» والسجود هو الخضوع بالعبادة او الدعاء إلى العبادة ، فكل شيء من مقدوراته تعالى يسجد بالدعاء إلى العبادة بما فيه من الآية ، الذي يقتضي الحاجة اليه تعالى، وكل محق من العباد فهو يسجد بالعبادة .

وقوله « من دابّة » معنى (من) ههنا هي التي تبيّن ، تبيين الصفة ، كأنه قال وما في الارض الذي هوَ دابّة تدبّ على الارض . وقوله « والملائكة » اي وتسجد له الملائكة، وتخضع له بالعبادة ، و «هم» يعني الملائكة، غير مستكبرين،

---

(١) مجمع البيان ٣:٣٦٣ وتفسير الطبري ١٤:٧٣ . وروايته :

بفي الشامتين ان كان هدني ودية شبلي محدد في الضراغم

(٢) قائله جرير : ديوانه (دار بيروت) ٢٥٢ ، وتفسير الطبري ١٤:٧٣ ومجمع البيان ٣:٣٦٣ وروايته الديوان :

تدعوك تيم وتيم في قرى سبإ قد عض اعناقهم جلد الجواميس

(٣) اللسان (خيس) نسبه الى الفرزق خطأ

ولا طالبين بذلك التكبر بل مذعنين بالحق متذللين، غير آنفين من الاذعان به .

« يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون » قيل في معناه قولان :

احدهما – يخافون عقاب ربهم من فوقهم ، لانه يأتي من فوق .

الثاني – انه لمّا وصف بأنه عالٍ ومتعالٍ، على معنى قادر، لا قادر أقدر منه، فقيل صفته في أعلى مراتب صفات القادرين ، حسن ان يقال « من فوقهم » ليدل على ان هذا المعنى من الاقتدار الذي لا يساويه قادر ، وقوله « ويفعلون ما يؤمرون » يعني الملائكة يفعلون ما يأمرهم الله به ، ولا يعصونه ، كما قال « لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون » (١)

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ) (٥٢) آيتان بلا خلاف .

يقول الله تعالى ناهياً لعباده « لا تتّخذوا إلهين اثنين » اي لا تعبدوا مع الله غيره ، فتشركوا بينهما في العبادة .

ثم اخبر انه إله واحد لا اكثر منه ، لان لفظة (إنما) تفيد ثبوت الإله الواحد ، ونفي ما زاد عليه على ما بيّناه فيما مضى .

وقوله «فأياي فارهبون» معناه ارهبوا عقابي وسخطي فلا تتخذوا معي إلهاً آخر ومعبوداً سواي .

وفي قوله « اثنين » بعد قوله « إلهين » قولان :

---

(١) سورة التحريم آية ٦

احدهما – أنه قال ذلك تأكيداً ، كما قال « إله واحد » تأكيداً .

والثاني – ان يكون المعنى لا تتخذوا إثنين إلهين ، فقدّم وأخّر وكلاهما جائزان .

وقوله « وله ما في السماوات والارض » معناه انه يجب علينا ان نتقي عقاب من يملك جميع ما في السموات والارض ، لانه مالك الضرّ والنفع .

ومعنى قوله «وله الدين واصباً » قال ابن عباس: يعني دائماً اي طاعته واجبة على الدّوام ، وبه قال الحسن ومجاهد والضّحاك وقتادة وابن زيد ، ومنه قوله « ولهم عذاب واصب »(١) يقال منه: وَصبَ الدين يصبُ وصُوباً، ووصباً، قال أبو الاسود الدؤليّ :

لا أبتغي الحمدَ القليل بقاؤه يوماً بذم الدهر أجمع واصباً (٢)

وقال حسّان :

غيّرته الريح تسفي به وهزيمٌ رعــده واصب (٣)

والوصب الألم الذي يكون عن الاعيــاء بدوام العمل مدة ، يقال : وصَب الرجل يوصَبُ وصباً ، فهو وصِب قال الشاعر :

لا يغمز الساق من اين ولا وَصب ولا يعضّ على شرسوفه الصفر (٤)

وقيل : المعنى وله الطاعة ، وان كان فيها الوصب ، وهو الشدة والتعب .

قوله تعالى :

(وَمَــا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ

---

(١) سورة الصافات آية ٩

(٢) تفسير الطبري ١٤ : ٧٤ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ١٦٠ ومجمع البيان ٣ : ٣٦٥

(٣) ديوانه (دار بيروت) ٢١ وتفسير الطبري ١٤ : ٧٤

(٤) تفسير الطبري ١٤ : ٧٤

يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)
(٥٥) ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى لخلقه إن جميـــع النعم التي تكون بكم ولكم ، من صحة في جسم وسعة في رزق او ولد ، فكل ذلك من عنـــد الله ، ومن جهته وبخلقه لهـــا وبتمكينكم من الانتفاع بها . والفاء في قوله « فمن الله » قيل في معناه قولان :

احدهما – ان تكون (ما) بمعنى الذي ، وفيه شبه الجزاء ، كما قال تعالى « قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم »[١] ويقول القائل : مالك هو لي ولا يجوز ان يقول مالك فهو لي، لانه خبر ليس على طريق الجزاء .

والقول الثاني – على حذف الجزاء ، وتقديره ما يكن بكم من نعمة فمن الله .

وقوله «ثم إذا مسكم الضرّ فإليه تجأرون » معناه متى ما لحقكم ضر وبلاء ، وألم ، وسوء حال ، تضرعون اليه تعالى بالدعاء، وهو قول مجاهد . وأصل ذلك من جؤار الثور، يقال: جأر الثور يجأر جؤاراً إذا رفع صوته، من جوع اوغيره قال الاعشى :

وما أيبليٌّ على هيكل ... بناه وصلّب فيه وصارا
يراوح من صلوات المليـ ... ـك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا[٢]

وقال عدي بن زيد :

انني والله فاقبلْ حلفتي ... بابيل كلما صلّى جأر[٣]

وقوله « ثم إذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » اخبار منه تعالى انه اذا كشف ضرّ من يجأر اليه ويخضع له ، ويرفع البلاء عنـــه ، يصير – طائفة من الناس – يشركون بربهم في العبادة جهلا منهم بربهم، ومقابلة للنعمة التي

(١) سورة الجمعة آية ٨
(٢) ديوانه (دار بيروت) ٨٤ واللسان (أبل) ذكر البيت الاول فقط
(٣) اللسان (ابل) وروايته (فاسمع حلفي) .

هي كشف الضر بمعصية الشرك . وهذا غاية الجهل. وقوله «ليكفروا بما آتيناهم» اي ليكفروا بآيات إنعمنا عليهم، ورزقنـــا إياهم، فمعنى اللام في «ليكفروا» هو البيان عما هو بمنزلة العلة التي يقع لاجلها الفعل، لانهم بمنزلة من اشركوا في العبادة ليكفروا بما أوتوا من النعمة ، كأنه لا غرض لهم في شركهم إلا هذا ، مع ان شركهم في العبادة يوجب كفر النعمة بتضييع حقها ، فالواجب في هذا ترك الكفر الى الشكر لله تعالى .

وقوله « فتمتعوا فسوف تعلمون » تهديد منه تعالى ، لان المعنى تمتعوا بما فيه معصية له تعالى، فسوف تعلمون عاقبة امركم من العقاب الذي ينزل بكم، وحذف لدلالة الكلام عليه ، وهو ابلغ .

قوله تعالى :

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلهِ ٱلْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) (٥٧) آيتان بلا خلاف .

يقول الله تعالى إن هؤلاء الكفار « يجعلون لما لا يعلمون نصيبا » معنـــاه إنهم يجعلون لما لا يعلمون انه يضر ، ولا ينفع « نصيبا مما رزقناهم » يتقربون اليه ، كما يجب ان يتقربوا الى الله تعالى، وهو ما حكى الله عنهم في سورة الانعام « من الحرث والانعام » وغير ذلك « فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا »[١] فجعلوا نصيباً لله ونصيباً للاصنام ، وهو قول مجاهد وقتادة وابن زيد . ثم أقسم تعالى فقال « تالله لتسئلن » سؤال التوبيخ ، لا سؤال الاستفهام «عما كنتم تعملون» في دار الدنيا لتلزموا به الحجة وتعاقبوا بعد اعترافكم على انفسكم . وانما كان سؤال التوبيخ ، لانه لا جواب لصاحبه الا ما يظهر به فضيحته .

---

(١) سورة الانعام اية ١٣٦

ثم اخبر تعالى عنهم بأنهم يجعلون لله البنات ، لانهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله ، كما قال تعالى « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا »[١] فقال تعالى تنزيهاً لنفسه عما قالوه « سبحانه » اي تنزيهاً له عن اتخاذ البنات .

وقوله « ولهم ما يشتهون » (ما) في قوله « ولهم ما » يحتمل وجهين من الاعراب :

احدهما ــ أن يكون في موضع نصب ، والمعنى ويجعلون لهم البنين الذين يشتهون .

والثاني ــ ان يكون في موضع رفع والتقدير ولهم البنون ، على الاستئناف .

قوله تعالى :

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٦٠) ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن هؤلاء الكفار الذين جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين . انهم متى بشر واحد منهم بأنه ولد له بنت « ظل وجهه مسوداً » أي يتغير لذلك وجهه و(ظل) يقال لما يعمل صدر النهار ، يقال : ظل يفعل كذا ومثله أضحى ، غير انه كثر ، فصار بمنزلة قولهم : أخذ يفعل ، تقول : ظللت أظل ظلولا ، ذكره الفراء .

وقوله « وهو كظيم » قال ابن عباس : معناه وهو حزين . وقال الضحاك :

---

(١) سورة الزخرف آية ١٩

كئيب ، وهو المغموم الذي يطبق فاه ، ولا يتكلم للغم الذي به ، مأخوذ من الكظامة وهو سد فم القربة .

وقوله « يتوارى من القوم » أي يختبىء ويختفي من القوم « من سوء ما بشر به » من الانثى، تميل نفسه بين أن « يمسكه على هون » أي على هوان ومشقة ، ومنه قوله « عذاب الهون » [١] وهي لغة قريش ، قال الشاعر :

فلست بوقّاف على هون [٢] .

وقال الحطيئة :

فلما خشيت الهون والعير ممسك على رغمه ما أثبت الخيل حافره[٣]

وبعض تميم يجعلون الهون من الشيء اللين ، قال سمعت من بعضهم إن كان لقليل فهو هون المؤنة ، فاذا قالوا أقبل يمشي على هون ، لم يقولوا إلا بفتح الهاء ، ومنه قوله «وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا» [٤] قال المبرد : الهون بضم الهاء لا أعرفه في الرفق ، وانما هو بفتح الهاء ، كما يقال: سر عليه هونا أي رفقاً « أم يدسه في التراب» أي هو يميل بين إمساكه على مذلة او دفنه حياً في التراب . ثم أخبر تعالى فقال «ألا ساء ما يحكمون» اي بئس الحكم الذي يحكمون ، يجعلون لنفوسهم ما يشتهون ، ويجعلون لله ما يكرهونه !! .

ثم قال تعالى « للذين لا يؤمنون » اي لا يصدقون بالبعث والنشور والدار الآخرة «مثل السوء. ولله المثل الاعلى » اي لهم بذلك وصف سوء، ولله الوصف الأعلى ، من اخلاص التوحيد، ولا ينافي هذا قوله « فلا تضربوا لله الامثال » [٥] لانه بمعنى الأمثال التي توجب الاشباه ، فأما الامثال التي يضربها الله للناس لما فيها من الحكمة من غير تشبيه له تعالى بخلقه ، فحق وصواب ، كما قال تعالى «وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » [٦] قال الرماني : وفي الآيات دلالة

---

(١) سورة الانعام آية ٩٣ وسورة الاحقاف اية ٢٠
(٢) لم أجده فيما رجعت اليه
(٣) مجمع البيان ٣٦٦/٣
(٤) سورة الفرقان اية ٦٣
(٥) سورة النحل اية ٧٤
(٦) سورة العنكبوت اية ٤٣

على انه لا يجوز ان يضاف اليه تعالى الأدون بدلا من الأصلح ، لان اختيار الأدون على الاصلح صفة نقص ، وقد عابهم الله بإضافة ما لا يرضونه لنفوسهم الى ربهم ، وهو قولهم : الملائكة بنات الله ، فكما لا يرضى الانسان لنفسه النقص الذي فيه ، فهو ينفيه عنه ، وعظماء الناس واجلاؤهم يرفعون نفوسهم عن صفات الادنى ، دون العليا ، فينبغي ان ينزه تعالى عن مثل ذلك .

وقوله « وهو العليم الحكيم » معناه عالم بوضع الاشياء في مواضعها ، حكيم في انه لا يضعها الا في ما هو حكمة وصواب .

قوله تعالى :

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٦٣)

ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ نافع « مفرطون » بكسر الراء والتخفيف ، من الافراط في الشيء اي الاسراف ، بمعنى انهم مسرفون . وقرأ ابو جعفر مثل ذلك بالكسر غير انه شدد الراء من التفريط في الواجب . وقرأ الباقون بفتح الراء والتخفيف ، ومعناه انهم متروكون في النار منسيون فيها – في قول قتادة ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك – وقال الحسن وقتادة – في رواية اخرى – ان المعنى انهم مقدمون بالاعجال الى النار ، وهو من قول العرب : افرطنا فلان في طلب الماء ، فهو

مفرط اذا قدم لطلبه ، وفرط فهو فارط اذا تقدم لطلبه ، وجمعه فرّاط ، قال القطامي :

واستعجلونا وكانوا من صحابتنا كما تعجّل فرّاطٌ لورّاد[1]

ومنه قول النبي ﷺ (انا فرطكم على الحوض) اي متقدمكم وسابقكم حتى تردوه . ومنه يقال في الصلاة على الصبي الميت : اللهم اجعله لنا ولأبويه فرطا .

وروي عن النبي ﷺ انه قال : (انا والنبيون فرّاط العاصين) اي المذنبين ، والتأويل الاول من قول العرب : ما أفرطت ورائي احـداً اي ما خلفت ولا تركت . والمعنى يرجع الى التقدم اي ما تقدمت احداً ورائي .

اخبر الله تعالى انه لو كان ممن يؤاخذ الكفار والعصاة بذنوبهم ، ويعاجلهم بعقوباتهم واستحقاق جناياتهم وظلمهم « لما ترك » على وجه الارض احـداً ممن يستحق ذلك من الظالمين . وانما يؤخرهم تفضلاً منه ليراجعوا التوبة ، او لما في ذلك من المصلحة لباقي المكلفين والاعتبار بهم ، فلا تغتروا بالامهال ، انكم مثلهم في استحقاق العقاب على ظلمكم . وقيل في وجه تعميمهم بالهلاك مع ان فيهم مؤمنين قولان :

احدهما - ان الاهلاك وان عمهم فهو عذاب الظالم دون المؤمن ، لان المؤمن يعوض عليه .

الثاني - ان يكون ذلك خاصة . والتقدير ما ترك عليها من دابة من اهل الظلم . وقيل ان المعنى انه لو هلك الآباء بكفرهم لم يوجد الابناء .

وقوله « ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى » يعني الاجل الذي قدره لموتهم وهلاكهم ، فاذا جاء ذلك الاجل ، لا يتقدمون عليه لحظة ولا يتأخرون .

وقوله « عليها » يعني على الارض لدلالة قوله « ما ترك عليها من دابة » اي دابة عليها لأنها تدب على الأرض .

وقوله « يجعلون لله ما يكرهون » يعني يضيفون الى الله البنات مع كراهية

(١) تفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣/١٦٥ وتفسير الطبري ١٤/٧٩ واللسان (عجل)

ذلك لنفوسهم «وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى» فقول (ان) بدل من الكذب ، وموضعه النصب . وقيل في معناه قولان :

احدهما – قال الحسن : فيما حكاه الزجاج : ان لهم الجزاء الحسنى .

الثاني – قال مجاهد : ان لهم البنين مع جعلهم لله البنات اللاتي يكرهونهنّ .

ثم قال تعالى « لا جرم أن لهم النار » ومعناه حقاً أن لهم النار ، في اقوال المفسرين . وقيل : معناه لا بد ان لهم النار ، فجرم على هذا اسم ، كأنه قال : قطع ان لهم النار وقال بعضهم « جرم » فعل ماض و (لا) ردّ لكلام متقدم ، فكأنه قيل : قطع الحق أن لهم النار . وقيل: وجب قطعاً ان لهم النار .وقيل: كسب فعلهم أن لهم النار ، وانهم مفرطون مقدمون ومعجلون الى النار .وقال الخليل : « لا جرم » لا يكون الا جواباً ، تقول : فعلوا كذا وكذا ، فيقال : لا جرم انهم سيندمون قال الشاعر :

ولقد طعنت ابا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها انيغضبوا[1]

اي بعثتهم على ذلك ومثله «لا يجرمنكم شقاقي»[2] اي لا يبعثكم عداوتي «على ان يصيبكم» ومثله «لا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا»[3]

ثم اقسم تعالى ، فقال « لقد ارسلنا » يعني رسلا إلى امم من قبلك يا محمد « فزين لهم الشيطان اعمالهم » يعني كفرهم وضلالهم وتكذيب رسل الله زينه الشيطان لهم .

وقوله « فهو وليهم اليوم » قيل في معناه قولان :

احدهما – انه ناصرهم في الدنيا ، لأنه يتولى اغواءهم وسبب هلاكهم « ولهم عذاب اليم » يوم القيامة .

الثاني – انه يوم القيامة وليّهم ، لأنه لا يمكنه ان يتولى صرف المكروه عن

---

(١) مر هذا البيت في ٣/٤٢٣ ، ٥/٤٧٣ ، ٥٣٤

(٢) سورة هود آية ٨٩ (٣) سورة المائدة آية ٩

نفسه، فكيف يتولى صرفه عنهم.

ثم اخبر تعالى ان لهم عنده عذاباً أليماً موجعاً مؤلماً جزاء على كفرهم ومعاصيهم.

قوله تعالى:

(وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) (٦٥) آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ إنا «ما انزلنا عليك الكتاب» يعني القرآن «إلا» وأردنا منك ان تبين «لهم» وتكشف لهم «الذي اختلفوا فيه» من دلالة التوحيد والعدل وصدق الرسل وما أوجبت فيه من الحلال والحرام «وهدى ورحمة» اي أنزلته هدى ودلالة على الحق لقوم يؤمنون. «وهدى ورحمة» نصب على انه مفعول له، ويجوز ان يكون رفعا على الابتداء، وانما اضافه الى المؤمنين خاصة لانتفاعهم بذلك، وان كان دليلا وحجة للجميع، كما قال في موضع آخر «هدى للمتقين»[1] وقال «انما انت منذر من يخشاها»[2] وان انذر من لم يخشاها.

ثم اخبر تعالى على وجه، مَنّ نعمه على خلقه، فقال «والله» المستحق للعبادة هو الذي «انزل من السماء ماء» يعني غيثاً ومطراً «فأحيا به» يعني بذلك الماء «الأرض بعد موتها» اي احياها بالنبات بعد جدوبها وقحطها، ففي ذلك اعظم دلالة واجل آية «لقوم يسمعون» ذلك ويفكرون فيه ويعتبرون به.

---

(١) سورة البقرة آية ٢ (٢) سورة النازعات آية ٤٥

قوله تعالى :

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (٦٧) آيتان بلا خلاف .

قرأ نافع وابن عامر وابو بكر عن عاصم « نسقيكم » بفتح النون البـــاقون بضمها . والفرق بين اسقينا وسقينا أنّ معنى اسقيناه جعلنا له شراباً دائماً من نهر أو لبن او غيرهما ، وسقيناه شربة واحدة، ذكره الكسائي قال لبيد :

سقى قومي بني مجد وأسقى ... نُميراً والقبائل من هلال [١]

فعلى هذا هما لغتان ، والأظهر ما قال الكسائي . عند اهل اللغة . وقال قوم : سقيته ماء كقوله « وسقاهم ربهم شراباً طهورا » [٢] واسقيته سألت الله ان يسقيه وانشد لذي الرّمة :

وقفت على ربع لمية ناقتي ... فما زلت أبكي عنده وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد ممـــا أبثّه ... تكلمني أحجاره وملاعبه [٣]

وقيل ان ما كان من الأنهار وبطون الأودية ، فبالضم . وقال ابو عبيدة : إذا سقاه مرة يقال سقيته ، واذا سقاه دائماً يقال أسقيته .

يقول الله تعالى لخلقه المكلفين « إن لكم في الانعام » يعني الابل والبقر والغنم « لعبرة » ودلالة لأنـّا « نسقيكم مما في بطونه » وقيل في تذكيره ثلاثة اقوال :

«١» ديوانه ١ : ١٢٨ ونوادر ابي زيد ٢١٣ ومجاز القران ١ : ٣٥٠ واللسان والتاج « سقى » ومجمع البيان ٣ : ٣٧٠ .

«٢» سورة الدهر اية ٢١

«٣» ديوانه ٢١٣ ونوادر ابي زيد ٢١٣ والمحاسن والاضداد للجاحظ ٣٣٥ ومجمع البيان ٣ : ٣٣٣ ، ٣٥٩ وتفسير الطبري ١٤ : ١٤ والتاج واللسان « سقى » .

احدها - انه ردّ الى واحد . لان النعم والانعام بمعنى، قال سيبويه: والاسم الواحد يجيء على (افعال) يقال هو الانعام . قال تعالى « في بطونه » ذهب الى أنه اسم واحد بلفظ الجمع ، كما أن الخيل اسم مؤنث ، لا واحد له ، والنعم اسم مذكر للجماعة ، لا واحد له ، وقال الراجز :

وطاب ألبان اللقاح فبرد(١)

رده الى اللبن .

الثاني - انه حمل على المعنى ، والتقدير بطون ما ذكرنا ، كما قال الصلتان العبدي :

إن السماحة والمروءة ضمنا قبراً بمرو في الطريق الواضح(٢)

كأنه قال شيئان ضمنا .

الثالث - لأنه في موضع (اي) كأنه قال « نسقيكم مما في بطونه » اي من اي الانعام وكان في بطونه اللبن ، لأنه ليس كلها مما فيه لبناً .

وقوله « من بين فرث ودم لبناً خالصا » فالفرث الثفل الذي ينزل الى الكرش فبين انه تعالى يخرج ذلك اللبن الصافي ، اللذيذ ، المشهى من بين ذلك ، وبين الدم الذي في العرق النجس « سائغاً للشاربين » أي مريئاً لهم لا ينفرون منه ، ولا يشرقون بشربه ، وذلك من عجيب آيات الله ولطف تدبيره وبديع حكمته ، الذي لا يقدر عليه غيره ، ولا يتأتى من احد سواه .

ثم قال « ومن ثمرات » وهو جمع ثمرة ، وهو ما يطعمه الشجر ، ما فيه اللذة والثمرة خاصة طعم الشجر مما فيه اللذة يقال : اثمرت الشجرة إثماراً اذا حملت كالنخلة والكرمة وغيرهما من اصناف الشجر .

وقوله « يتخذون منه سكراً » قيل في معنى السكر قولان :

---

(١) تفسير الطبري ١٤ : ٨١ واللسان (جبه) ، (خرت) وقبله :

اذا رأيت انجماً من الاسد جبهته او الخرات والكتد
بال سهيل في الفضيخ ففسد وطاب ألبان اللقاح فبرد

(٢) تفسير الطبري ١٤ : ٨١ ومجمع البيان ٣ : ٣٧٠

احدهما ــ تتخذون منه مــا حل طعمه من شراب او غيره ، ذكره الشعبي وغيره .

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير وأبي رزين والحسن ومجاهد وقتادة: ان السكر ما حرم من الشراب ، والرزق الحسن ما احل منه . والسكر في اللغة على اربعة اقسام : احدها ما اسكر ، والثاني ما طعم من الطعام كما قال الشاعر:

جعلت عيب الاكرمين سكرا [١]

اي طعماً ، الثالث السكون قال الشاعر :

وجعلت عين الحرور تسكر [٢]

والرابع ، المصدر من قولك سكر سكراً ، واصله انسداد المجاري بما يلقى فيها ، ومنها السكر . وقوله « منه » الكناية راجعة الى محذوف ، قال قوم : تقديره ومن ثمرات النخيل والاعناب ما تتخذون منه ، فالهاء كناية عن (ما) المحذوفة وقال آخرون : تقديره ومن ثمرات النخيل والاعناب شيء تتخذون منه .

وقد استدل قوم بهذه الآية على تحليل النبيذ بأن قالوا: امتن الله علينا به وعدّه من جملة نعمه علينا أن خولنا الثمار نتخذ منها السكر ، والرزق الحسن . وهو لا يمتنّ بما هو محرم . وهذا لا دلالة فيه لأمور :

احدها ــ انه خلاف ما عليه المفسرون ، لأن احداً منهم لم يقل ذلك ، بل كلّ التابعين من المفسرين ، قالوا: اراد ما حرم من الشراب ، وقال الشعبي منهم: انه أراد ما حل طعمه من شراب وغيره .

والثاني إنه لو اراد بذلك تحليل السكر ، لما كان لقوله « ورزقاً حسناً » معنى ، لأن ما احله واباحه ، فهو ايضا رزق حسن ، فلم فرق بينه وبين الرزق الحسن والكل شيء واحد؟؟ وانما الوجه فيه انه خلق هذه الثمار لتنتفعوا بهــا

(١ – ٢) تفسير الشوكاني ٣ : ١٦٨ وتفسير الطبري ١٤ : ٨٤ (واللسان سكر)

فاتخذتم انتم منها ما هو محرم عليكم ، وتركتم ما هو رزق حسن. واما وجه المنّة فبالامرين معاً ثابتة ، لأن ما اباحه واحله فالمنّة به ظاهرة لتعجل الانتفاع به وما حرمه الله فوجه المنّة ايضا ظاهر به ، لانه إذا حرّم علينا ،واوجب الامتناع منه ضمن في مقابلته الثواب الذي هو اعظم النعم، فهو نعمة على كل حال .

والثالث - اذا كان مشتركاً بين المسكر وبين الطعم، وجب أن يتوقف فيه ولا يحمل على احدهما إلا بدليل ، وما ذكرناه مجمع على أنه مراد ، وما ذكروه ليس عليه دليل ، على انه كان يقتضي ان يكون ما اسكر منه يكون حلالاً ، وذلك خلاف الاجماع ، لانهم يقولون : القدر الذي لا يسكر هو المباح ، وكان يلزم على ذلك أن يكون الخمر مباحاً، وذلك لا يقوله احد؛ وكذلك كان يلزم ان يكون النقيع حلالاً ، وذلك خلاف الاجماع .

وقوله « إن في ذلك لآية لقوم يعقلون » معنـــاه إن فيا ذكره دلالة ظاهرة للذين يعقلون عن الله ويتفهمون ويفكرون فيه .

قوله تعالى :

(وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَـــاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٦٩) آيتان بـــلا خلاف .

قرىء «يعرشون» بضم الراء وكسرها ، وهما لغتان ومعناه : وما يبنونه من السقوف. وقال ابن زيد: يعني الكروم ، قال ابن عباس ومجاهد: يعني «واوحى ربك الى النحل » ألهمها الهاماً ، وقال الحسن : جعل ذلك في غرائزها اي مـــا

يخفى مثله عن غيرها ، وذلك ايحاء في اللغة . وقال ابو عبيد : (الوحي) على وجوه في كلام العرب : منها وحي النبوة ، ومنها الإلهام ، ومنها الإشارة ، ومنها الكتاب ، ومنها الأسرار :

فالوحي في النبوة ما يوحي الله إلى الانبياء ، كقوله « إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه » (١)

والوحي بمعنى الإلهام ، قوله « واوحى ربك إلى النحل » وقوله « واوحينا إلى ام موسى » (٢) وفي الارض « بأن ربك اوحى لها » (٣)

ووحي الاشارة كقوله « فأوحى اليهم أن سبحوا » (٤) قال مجاهد : اشار اليهم ، وقال الضحاك : كتب لهم .

واصل الوحي عند العرب هو إلقاء الانسان إلى صاحبه شيئا للاستتار والاخفاء .

ووحي الاسرار مثل قوله « يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً (٥) »

فاما ما روي عن ابن عباس انه قال : لا وحي إلاّ القرآن اراد ان القرآن هو الوحي الذي نزل به جبرائيل على محمد ﷺ ، دون ان يكون انكر ما قلناه .

ويقال : أوحى له وأوحى اليه قال العجاج :

أوحى لها القرار فاستقرت (٦)

قال المبرد : ما روي عن ابن عباس إنما قاله لما سئل عما كان وضعه المختار وسماه الوحي ، فقال ابن عباس : لا وحي إلا القرآن جواباً عما أحدثه المختار وادعى تنزيله اليه .

وواحد « النحل » نحلة ، والمعنى ان الله تعالى ألهم النحل اتخاذ المنازل والادكار ، والبيوت في الجبال ، وفي الشجر وغير ذلك « ومما يعرشون » يعني

---

(١) سورة الشورى آية ٥١ (٢) سورة القصص آية ٧

(٣) سورة الزلزال آية ٥ (٤) سورة مريم آية ١١

(٥) سورة الانعام آية ١١٢

(٦) مر هذا الرجز في ٢ : ٤٥٩ ، ٣ : ٨٤ ، ٤ : ٦١

سقوف البيوت « ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا » معناه انه تعالى ألهمها ايضاً أن تأكل من الثمرات وسائر الاشجار التي تحويها ؛ والذلل جمع ذلول ، وهي الطرق الموطأة للسلوك . وقيل : طرق لا يتوعّر عليها سلوكها عن مجاهد . وقال قتادة : معنى « ذللا » اي مطيعة ، ويكون من صفة النحل. وقال غيره : هو من صفات الطريق ومعنى « ذللا » إنه قد ذللهـا لك وسهل عليك سلوكها وفي ذلك اعظم العبر واظهر الدلالة على توحيده تعالى وأنه لا يقدر عليه سواه .

ثم قال « يخرج من بطونها » يعني بطون النحل « شراب مختلف ألوانه » من أصفر وأبيض وأحمر ، مع أنها تأكل الحامض والمر فيحيله الله عسلاً حلواً لذيذاً « فيه شفاء للناس » لما شفائها فيه ، واكثر المفسرين على ان (الهاء) راجعة إلى العسل ، وهو الشراب الذي ذكره ، وأن فيه شفاء من كثير من الأمراض ، وفيه منافع جمة . وقال مجاهد (الهاء) راجعة إلى القرآن « وفيه شفاء للناس » ، لما فيه من بيان الحلال ، والحرام ، والفتيا ، والأحكام ، والأول أوثق .

ثم اخبر تعالى ان فيما ذكره آيات واضحات ، ودلالات بينات ، لمن يتفكر فيه ويهتدي بهديه ، وانما قال « من بطونها » وهو خارج من فيها ، لان العسل يخلقه الله في بطون النحل ويخرجه إلى فيه . ثم يخرجه من فيــه ، ولو قال : من فيها لظن أنها تلقيه من فيها ، وليس بخارج من البطن .

قوله تعالى :

(وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (٧٠) آية بـلا خلاف .

هذه الآية فيها تعديد لنعم الله تعالى على عباده ، شيئاً بعد شيء ، ليشكروه عليها ، وبحسبها يقول الله : إني أنا الذي خلقتكم وأخرجتكم من العدم إلى الوجود

وأنعمت عليكم بضروب النعم، دينيّة ودنياوية، ثم الذي خلقكم يتوفاكم ويقبضكم أي يميتكم «ومنكم من يرد إلى أرذل العمر» وهو أرداه وأوضعه، يقال منه: رذل الشيء يرذل رذالة، وأرذلته انا ارذالاً يريد به حال الذم. وقيل انه يصير كذلك في خمس وسبعين سنة – في قول علي (ع).

وقوله «لكي لا يعلم بعد علم شيئاً» اخبار منه تعالى انه إنما يردّه إلى أرذل العمر، ليرجع إلى حال الطفولية بنسيان ما كان علم للكبر، فكأنه لا يعلم شيئاً، مما كان علم. وفي ذلك أعظم دلالة وأبين اعتبار على قادر مصرف للخلق من حال إلى حال. ثم أخبر «ان الله عليم» بمصالح عباده، قادر على ما يشاء من تدبيرهم وتغيير أحوالهم.

قوله تعالى:

(وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ) (٧١) آية بلا خلاف.

قرأ أبو بكر عن عاصم «تجحدون» بالتاء على معنى: قل لهم يا محمد أمن أجل ما انعم الله عليكم، أشرتم وبطرتم وجحدتم. وقرأ الباقون بالياء.

وبّخهم الله تعالى على جحودهم نعمه، فيقول الله تعالى لخلقه، بأنه فضل بعضهم على بعض في الرزق، لانه خلق فيهم غنيّاً وفقيراً وقادراً وعاجزاً، وفضل بني آدم على سائر الحيوان في لذيذ المآكل، والمشرب، وجعل بعضهم مالكاً لبعض، وبعضهم رقّاً مملوكا.

وقوله «فما الذين فضلوا برادّي رزقهم على ما ملكت ايمانهم» قيل في معناه قولان:

احدهما – انهم لا يشركون عبيدهم في اموالهم وازواجهم حتى يكونوا فيه

سواء ، لانهم لا يرضون بذلك لانفسهم ، وهم يشركون عبيدي في ملكي وسلطاني ويوجهون العبادة والقربات اليهم ، مثل قربهم الى الله تعالى . ذكره ابن عباس وقتادة ومجاهد .

الثاني – انهم سواء في أني رزقت الجميع ، وأنه لا يمكن احد أن يرزق عبيده إلا برزقي إياه ، أفبهذه النعم التي عددتها وذكرتها « يجحدون » هؤلاء الكفار .

قوله تعالى :

(وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) (٧٢) آية بلا خلاف .

يقول الله تعالى: إني أنا الذي جعلت لكم ازواجاً « من انفسكم » يعني من البشر ، والذين يلدونهم ليكون ذلك آنس لهم وأليق بقلبهم،وخلقت من هؤلاء الأزواج بنين تسرون بهم وتتزينون بهم و « حفدة » اي.وخلق لكم حفدة . وقيل في معناه اقوال :

قال مجاهد وطاووس : هم الخدم، وقال ابن عباس: هم الخدم والاعوان ، وانشد قول جميل :

حفد الولائد حولها واستمسكت بأكفهنّ أزمّة الأجمال [١]

وفي رواية اخرى عن ابن عباس : إنهم البنون وبنو البنين . وفي رواية اخرى أنهم بنو امرأة الرجل من غيره . وقال الحسن : من أعانك ، فقد حفدك من

(١) تفسير الطبري ١٤/٨٨ ، ٨٩ رواه مرتين مع اختلاف يسير ، ومجمع البيان ٣/٣٨٣ . ولم أجده في ديوان جميل بثينة ، (دار بيروت) وهو في اللسان (حفد) غير منسوب وروايته (حولهن واسلمت) بدل (وحولها واستمسكت) .

البنين وبني البنات والاعوان والاهل . وقال ابن مسعود ،وابو الضحى، وابراهيم وسعيد بن جبير : هم الاختان ، وهم ازواج البنات .

وأصل الحفد الاسراع في العمل ، ومنه يسعى ويحفد ، ومر البعير يحفد حفداناً إذا مر يسرع في سيره ، وحفد يحفد حفداً وحفداناً ، قال الراعي :

كلفت مجهولها نوقاً يمانية إذا الحداة على أكسائها حفدوا[1]

والحفدة جمع حافد ، مثل كامل وكملة . وقوله « ورزقكم من الطيبات » اي جعل لكم أشياء تستطيبونها وأباحها لكم .

وانما دخلت (من) لانه ليس كل ما يستطعمه الانسان رزقاً له ، وانما رزقه ما له التصرف فيه ، وليس لغيره منعه منه .

ثم قال « أفبالباطل » يعني عبادة الأوثان والاصنام ، وماحرم عليهم الشيطان من البحائر والسائبة والوصيلة يصدقون ، وبنعمة الله التي عددها لهم «يكفرون» اي يجحدون ما أحله الله ، وما حرم عليهم .

قوله تعالى :

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) (٧٤) آيتان بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأنهم يجحدون نعم الله ، بأنهم يوجّهون عبادتهم من دون الله إلى « ما لا يملك لهم رزقاً » أي لا يقدر عليه ، يعني بها الأصنام التي لا تقدر لهم على نعمة ، ولا على ما يستحق به العبادة ، ولا على

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٩٠ ومجمع البيان ٣/٣٧٣ واللسان (كسأ) وروايته (الحداد) بدل (الحداة) .

رزق يرزقونهم من السموات والأرض ، ولا يستطيعون شيئاً مما ذكرنا. ويتركون عبادة من يقدر على جميع ذلك ويفعله بهم ، ورزق السماء الغيث الذي يأتي من جهتها ، ورزق الأرض النبات والثمار التي تخرج منها

وقوله «فلا تضربوا لله الأمثال» معناه لا تجعلوا لله الأشباه والأمثال في العبادة فإنه لا شبه له ولا مثيل ، ولا أحد يستحق معه العبادة ، وذلك في اتخاذهم الأصنام آلهة ، ذكره ابن عباس وقتادة .

وقوله « شيئاً » نصب على أحد وجهين :

أحدهما – أن يكون بدلا من (رزقاً) والمعنى ما لا يملك لهم رزقاً قليلا ، ولا كثيراً .

والثاني – أن يكون منصوباً بـ«رزقاً» كما قال « أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً » [١] كأنه قال لا يملك لهم رزق شيء .

وقوله « ان الله يعلم » أي يعلم أنه لا تحق العبادة إلا له «وأنتم لا تعلمون» ذلك بل تجهلونه ، ولكن يجب عليكم أن تنظروا لتعلموا صحة ما قلناه .

قوله تعالى :

(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَّمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (٧٥) آية بلا خلاف .

قيل في معنى هذه الآية قولان :

أحدهما – أنه مثل ضرب للكافر الذي لا خير عنده ، والمؤمن الذي يكتسب الخير ، للدعاء إلى حال المؤمن ، والصرف عن حال الكافر ، وهو قول ابن عباس وقتادة .

---

(١) سورة البلد آية ١٤ – ١٥

الثاني – قال مجاهد : إنه مثل ضربه لعبادتهم الأوثان التي لا تملك شيئاً ، والعدول عن عبادة الله الذي يملك كل شيء ، والمعنى أن الإثنين المتساويين في الخلق إذا كان أحدهما قادراً على الإنفاق مالكاً ، والآخر عاجزاً لا يقدر على الإنفاق لا يستويان ، فكيف يسوّى بين الحجارة التي لا تتحرك ، ولا تعقل ، وبين الله تعالى القادر على كل شيء ، الرازق لجميع خلقه ، فبين بذلك لهم أمر ضلالتهم وبعدهم عن الحق في عبادة الأوثان . ثم قال « الحمد لله » أي الشكر له تعالى ، على نعمه ، لا يستحقه من لا نعمة له ، « ولكن أكثرهم لا يعلمون » ذلك .

وفي هذه الآية دلالة على أن المملوك لا يملك شيئاً ، لأن قوله « مملوكاً لا يقدر على شيء » ليس المراد به نفي القدرة ، لأنه قادر على التصرف ، وإنما المراد أنه لا يملك التصرف في الأموال ، وذلك عام في جميع ما يملك ويتصرف فيه .

قوله تعالى :

(وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (٧٦) آية بلا خلاف .

قيل في معنى ضرب هذا المثل قولان :

أحدهما – انه مثل ضربه الله في من يؤمل الخير من جهته ، وفي من لا يؤمل ؛ فيؤمل الخير كله من الله تعالى ، لا من جهة الأوثان والعباد ، فلا ينبغي أن يسوّى بينهما في العبادة .

الثاني – انه مثل للكافر والمؤمن ، ووجه التقابل في ضرب المثل بهذين الرجلين أنه على تقدير : ومن هو بخلاف صفته « يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » في تدبير الأمور بالحق ، وهذا زيادة في ضرب المثل من الله تعالى ، فإنه يقول : ان الرجلين إذا كان أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو الذي لا يسمع

شيئاً ولا يبصر ، ولا يعقل ، وهو مع ذلك « كلٌّ على مولاه » أي وليّه « أينما يوجهه لا يأت بخير » هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل » مع كونه « على صراط مستقيم » والمراد أنهما لا يستويان قط . والأبكم الذي يولد أخرس لا يفهم ولا يفهم . وقيل : أنه ضرب المثل للوثن مع إنهماكهم على عبادته ، وهو بهذه الصفة. وقيل: الأبكم هو الذي لا يمكنه أن يتكلم. والكَلّ الثقل: كلّ عن الأمر يكل كلا إذا ثقل عليه ، فلم ينبعث فيه ؛ وكلت السكين كلولا إذا غلظت شفرتها ، وكل لسانه إذا لم ينبعث في القول لغلظه وذهاب حده ، فالأصل الغلظ الذي يمنع من النفوذ في الأمر .

وقوله « وهو على صراط مستقيم » أي هو مع أمره بالعدل ، على طريق من الحق في دعائه إلى العدل فأمره به مستقيم لا يعوّج ولا يزول عنه .

قوله تعالى :

(وَلِلّٰهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللّٰهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَٱللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (٧٨) آيتان بلا خلاف .

أخبر الله تعالى أن له غيب السموات والأرض ومعناه أنه المختص بعلم ذلك، وهو ما غاب عن جميع العالمين ، مما يصح أن يكون معلوماً ، فإنه تعالى يختص بالعلم به وقال الجبائي : ويحتمل أن يكون المعنى ، ولله ملك ما غاب ممـــا في السموات والأرض. ثم قال «وما أمر الساعة» أي مجيئها وهي يوالقيامة ، في السرعة وقرب المجيء « إلا كلمح البصر أو هو أقرب» من ذلك مبالغة في ضرب المثل به في السرعة ، وأنه قادر عليه. ودخول «أو» في قوله «أو هو أقرب» لأحد أمرين .

أحدهما – الإبانة عن أنه ، على إحدى منزلتين إما كلمح بالبصر أو اقرب من ذلك .

والثاني – انه قال ذلك لشكّ المخاطب ، وإنما قرب امرها ، لأنه بمنزلة «كن فيكون » فمن ههنا صح انها كلمح البصر او أقرب ، ثم ذكر نعمه التي انعم بها على خلقه ، فقال « هو » تعالى « الذي اخرجكم من بطون امهاتكم » وانعم عليكم بذلك وانتم في تلك الحال « لا تعلمون شيئاً » ولاتعرفونه ،فتفضل عليكم بالحواس الصحيحة التي هي طريق العلم بالمدركات ، وجعل لكم قلوباً تفقهون بها الأشياء، لأنها محل المعارف ، لكي تشكروه على ذلك وتحمدوه على نعمه .

قوله تعالى :

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَٱللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ (٨٠) وَٱللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) (٨١) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو «ويوم ظعنكم» بتحريك العين. الباقون بتسكينها وهما لغتــان ، مثل نهر ونهر ، وسمع وسمع . وقرأ ابن عامر وحمزة وخلف ويعقوب «ألم تروا» بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على وجه التذكير لما تقدم ذكره ، والتنبيه لهم .

يقول الله تعالى منبهاً لخلقه على وجه الاستدلال على وحدانيته «ألم يروا» يعني هؤلاء الكفار الجاحدين لربوبيته « الى الطير » قد سخرها الله « في جوّ السماء » وسط الهواء، حتى مكنها ان تتصرف في جوّ السماء على حسب إرادتها، ويعلمون أن لها مسخّراً ومدّبراً، لا يشبه الاشياء ، لان من المعلوم ان احداً من البشر لا يقدر على مثل ذلك، ولا يتأتى منه ذلك ، وأن من مكّن الطير من تلك الحال قد كان يجوز ان يمكنها منه ابتداء واختراعاً ، من غير اسباب ادّت الى أن صارت على تلك الأوصاف ، لأنه قادر لا يعجزه شيء ، ولا يتعذر عليه شيء ، وأنه إنما خلق ذلك ليعتبروا به وينظروا فيه، فيصلوا به الى الثواب الذي عرّضهم له ، ولو كان فعل ذلك لمجرد الانعام به على العبد كان حسناً ، لكن ضم الى ذلك التعريض للثواب على ما قلناه .

وانما قال « ما يمسكهنّ الا الله » وهي تستمسك بالقدرة التي اعطاها الله مبالغة في الصفة بأن الله يمكّنها بالهواء الذي تتصرف فيه، لأنه ظاهر انها بالهواء تستمسك عن السقوط ، وأن الغرض من ذلك تسخير ما سخر لها. ثم قال « ان في » خلق « ذلك » ، على ما وصفه ، لدلالات لقوم يصدقون بتوحيد الله ، ويصدقون انبياءه وخص المؤمنين بذلك لامرين :

احدهما – من حيث هم المنتفعون بها دون غيرهم .

الثاني – لانهم يدلّلون بها على مخالفي التوحيد، وهي دلالة من الله للجميع، والجو – بالفتح – ما بين السماء والارض ، قال الانصاري :

ويل امها في هواء الجوّ طالبة ولا كهذا الذي في الارض مطلوب (١)

ثم عدد في الآية الأخرى نعمه ، فقال : « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً » أي مواضع تسكنون فيها « وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها » اي يخف عليكم حملها « يوم ظعنكم » أي ارتحالكم من مكان

---

(١) مجاز القرآن ١/٣٦٥ وخزانة الادب ٢/٢١٢ نسبة الى امرىء القيس بن حجر الكندي وهو موجود في ديوانه ٦٩ وروايته (لا كالتي) والطبري ١٤ / ٩٣ نسبة الى ابراهيم بن عمران الانصاري .

الى مكان « ويوم اقامتكم » يعني اليوم الذي تنزلون موضعاً تقيمون فيه ، ثم قال « وجعل لكم من أصوافها » من أصواف الضأن وأوبار الابل واشعار المعز « أثاثاً » يعنى متاع البيت الكثير، من قولهم شعر أثيث اي كثير، وأثّ النبت يئث أثّاً إذكثر والتفّ، وكذلك الشعر، ولا واحد للاثاث، كما لا واحد للمتاع، قال الشاعر :

أهاجتك الظعائن يوم بانوا بذي الرّئْيِ الجميل من الاثاث[1]

وقوله « إلى حين » معناه . الى وقت يهلك فيه ، ثم قال « والله جعل لكم مما خلق ظلالا » يعني من الشجر وغيره ، ما تسكنون فيه من أذى الحر والبرد « وجعل لكم سرابيل » يعني قمصاً من القطن والكتان - في قول قتادة - واحدها سربال ، ويقال للدروع سرابيل، وهي التي تقي البأس ، وقال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال .

وقوله « تقيكم الحر » اي تمنعكم من الحرّ ، وخص الحر بذلك مع ان وقايتها للبرد اكثر لامرين :

احدهما - إن الذين خوطبوا بذلك أهل حرّ في بلادهم فحاجتهم الى مايقي الحر أشدّ في قول عطاء.

الثاني - انه ترك ذلك لانه معلوم ، كما قال الشاعر :

وما ادري اذا يممت وجهاً اريد الخير ايهما يليني[2]

فكنى عن الشر ، ولم يذكره ، لانه مدلول عليه ذكره الفراء .

وقوله « كذلك يتم نعمته عليكم » اي كما انعم عليكم بهذه النعم ينعم عليكم بجميع ما تحتاجون اليه ، وهو إتمام نعمه في الدنيا ، وبين انه فعل ذلك لتسلموا

---

(١) قائله محمد بن نمير الثقفي . تفسير القرطبي ١٠/١٥٣ ومجاز القرآن ١/٣٦٥ والكامل للمبرد ٣٧٦ واللسان والتاج (رأى) وروايته (اشاقتك) .

(٢) قائلة المثقب العبدي. اللسان (أمم) وتفسير القرطبي ١٠/١٦٠ وقد مر في ٢/١١٣، ٥/٥٢٩ من هذا الكتاب .

وتؤمنوا . وقرأ ابن عـــامر بفتح التـــاء ، والمعنى لتسلموا بتلك الدروع من الجراحات .

قوله تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) (٨٣) آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه التسلية له عما كان يلحقه عند تولي الكفار عن الحق الذي يلزمهم ، واعراضهم عن القبول منه « فأن تولى » هؤلاء الكفار، وأعرضوا عنك فانه لا يلزمك تقصير من اجل ذلك ، لان الذي يلزمك « البلاغ المبين » يعني الظاهر الذي يتمكنون معه من معرفته ، وقد فعلته ، وقد حذف جميع ذلك لدلالة الكلام عليه ، ثم اخبر عنهم بأن قال هؤلاء الكفار « يعرفون نعمة الله » عليهم ، مما يجدون من خلق نفوسهم ، واقدارهم ، وا كال عقولهم وما خلق الله من انواع المنـــافع ، التي ينتفعون بها ، ثم انهم مع ذلك ينكرون تلك النعم ان تكون من جهة الله ومنسوبة اليه ، وينسبونها الى الاصنام ثم قال : « واكثرهم الكافرون » وانما قال اكثرهم مع ان جميعهم كفار لامرين :

احدهما – لأن فيهم من لقنوه الكفر ، ممن لم يبلغ حد التكليف لصغره ، ولم تقم الحجة عليه ، أو من هو ناقص العقـــل مأووف [1] فلا يحكم عليهم بالكفر .

الثاني – إن منهم من ينكر النعمة ، في حال لم يقم عليه حجة للشواغل في قلبه التي تلهيه عن تأمل امره ، والفكر في حاله ، فيكون في حال حكم الساهي والصبي ، وإن كان مكلفاً بغير ذلك من الامور ، فلا يكون كافراً بالانكار في

---

(١) معنى مأووف فيه آفة اي مرض في عقله .

تلك الحال . وقال الجبائي : هو وإن كان لفظاً خاصاً ، فهو عام في المعنى . وقال الحسن : المعنى ان جميعهم الكافرون ، وانما عزل البعض إحتقاراً له أن يذكره .

وفي الآية الثانية – دلالة على فساد مذهب المجبرة: من أنه ليس لله على الكافر نعمة ، وقولهم: إن جميع ما فعله بهم نقمة وخذلان ، حتى ارتكبوا المعصية، لان الله تعالى قد بين خلاف ذلك نصاً في هذه الآية .

قوله تعالى :

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٥) آيتان بلا خلاف .

يقول الله تعالى إن اليوم الذي يبعث فيه « من كلّ أمّة شهيداً » يشهد عليهم بكفرهم وضلالهم وجميع معاصيهم هو يوم القيامة، والشهيد في كل امة رسوله ، ويجوز أن يكون قوم من المؤمنين المرضيين عند الله ، وانما يقيم الشهادة عليهم مع أنه عالم بأحوالهم من حيث ان ذلك اهول في النفس واعظم في تصور الحال ، واشد في الفضيحة إذا قامت به الشهادة بحضرة الملأ التي يكون من الله التصديق لها مع جلالة الشهود عند الله بالحق .

وقوله « ثم لا يؤذن للذين كفروا ، ولا هم يستعتبون » قيل في معناه قولان :

احدهما – انه لا يؤذن لهم في الاعتذار ، على أن الآخرة مواطن: فيها ما يمنعون وفيها ما لا يمنعون .

الثاني – انهم لم يؤذن لهم في الاعتذار بما ينتفعون، ولا يعرضون للعتبى الذي هو الرضا . وقال الجبائي : المعنى ان الله يخلق فيهم العلم الضروري بانهم ان

اعتذروا لم تقبل معذرتهم ، وإن استعتبوا لم يعتبوا ولم يرد أنهم لا يؤمرون بالاعتذار ، ولا يمكنون منه ، لأن الأمر والتكليف قد زالا عنهم .

ثم اخبر تعالى أن الظالمين إذا رأوا العذاب يوم القيامة وشاهدوه ، فلا يخفف عنهم ذلك العذاب اذا حصلوا فيه « ولا هم ينظرون » اي لا يؤخرون الى وقت آخر ، بل عذابهم دائم في جميع الأوقات ، ووقت التوبة والندم قد فات

قوله تعالى :

(وَإِذَا رَأَى ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) (٨٨) ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن حال المشركين والكفار في الآخرة وأنهم إذا رأوا شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله . وقيل انما سموا « شركاءهم » لأمرين :

احدهما - لانهم جعلوا لهم نصيباً في أموالهم .

الثاني - لانهم جعلوهم شركاء في العبادة .

ومعنى قوله « هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك» اعتراف منهم على انفسهم بأنهم كانوا يشركون مع الله غيره في العبادة .

وقوله « فالقوا اليهم القول إنكم لكاذبون » قيل في معناه قولان :

احدهما — ألقى المعبودون القول « انكم لكاذبون » في أنا نستحق العبادة .

والثاني ـ « انكم لكاذبون » في قولكم إنا دعوناكم الى العبادة .
وقيل : انكم لكاذبون بقولكم إنا آلهة .
والقاء المعنى الى النفس إظهاره لها ، حتى تدركه متميزاً من غيره ، فهؤلاء ألقوا القول حتى فهموا عنهم انهم كاذبون .

وقوله « وألقوا الى الله يومئذ السلم » معناه استسلموا بالذل لحكم الله ـ في قول قتادة ـ «وضل عنهم ما كانوا يفترون» اي يضل ما كانوا يأملونه ويقدرون من ان آلهتهم تشفع لهم. ثم أخبر تعالى ان الذين يكفرون بالله ويجحدون وحدانيته، ويكذبون رسله ، ويصدون غيرهم عن اتباع الحق الذي هو سبيل الله « زدناهم عذاباً فوق العذاب » . قال ابن مسعود : أفاعي وعقارب النار لها أنياب كالنخل الطوال جزاءاً «بما كانوا يفسدون» في الارض.

قوله تعالى :

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (٨٩) آية بلا خلاف .

يقول الله تعالى إن اليوم الذي « نبعث في كلّ أمة شهيداً » اي من يشهد « عليهم من أنفسهم » اي من أمثالهم من البشر . ويجوز ان يكون ذلك نبيّهم الذي بعث اليهم ، ويجوز ان يكونوا مؤمنين عارفين بالله ونبيه ، ويشهدون عليهم بما فعلوه من المعاصي .

وفي ذلك دلالة على ان كل عصر لا يخلو ممن يكون قوله حجة على اهل عصره، عدل عند الله ، وهو قول الجبائي، وأكثر أهل العدل ، وهو قولنا وإن خالفناهم في من هو ذلك العدل والحجة .

« وجئنابك» يا محمد « شهيداً »على هؤلاء يعني كفار قريش وغيرهم ، من الذين كفروا بنبوته . ثم قال « ونزلنا عليك الكتاب » يعنى القرآن « تبياناً لكل شيء » اي بياناً لكل أمر مشكل . والتبيان والبيان واحد. ومعنى العموم في قوله « لكل شيء» المرادبه من أمور الدين : إمّا بالنص عليه او الاحالة على ما يوجب العلم من بيان النبي ﷺ والحجج القائمين مقامه ، او اجماع الأمة او الاستدلال ، لان هذه الوجوه أصول الدين وطريق موصلة الى معرفته .

وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال : الكلام لا يدل على شيء ، لان كلام الحكيم يدل من وجهين :

احدهما- أنه دليل على نفس المعنى الذي يحتاج اليه .

والآخر- أنه دليل على صحة المعنى الذي يحتاج الى البرهان عليه. ولو لم يكن كذلك لخرج عن الحكمة وجرى مجرى اللغو الذي لا فائدة فيه .

وقوله « وهدى ورحمة وبشرى » يعنى القرآن دلالة ورحمة وبشارة للمسلمين بالجنة .

قوله تعالى :

(إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) (٩١) آيتان

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه « ان الله يأمر بالعدل » يعنى الانصاف بين الخلق ، وفعل ما يجب على المكلف و« الاحسان » الى الغير، ومعناه يأمركم بالاحسان ، فالأمر بالاول على وجه الإيجاب ، وبالاحسان على وجه الندب . وفي

ذلك دلالة على ان الامر يكون أمراً بالندوب اليه دون الواجب ، « وإيتاء ذي القربى » اي وأمرك باعطاء ذي القربى ، ويحتمل امرين :

احدهما – صلة الارحام ، فيكون ذلك عاماً في جميع الخلق .

والثاني – ان يكون أمراً بصلة قرابة النبي ﷺ وهم الذين أرادهم الله بقوله « فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى »[1] على ما بيناه فيما قبل

وقوله « وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي » انما جمع بين الاوصاف الثلاثة في النهي عنها مع ان الكل منكر فاحش ، ليبين بذلك تفصيل ما نهى عنه ، لان الفحشاء قد يكون ما يفعله الانسان في نفسه مما لا يظهر أمره ويعظم قبحه . والمنكر ما يظهر للناس مما يجب عليهم إنكاره ، والبغي ما يتطاول به من الظلم لغيره ، ولا يكون البغي إلا من الفاعل لغيره ، والظلم قد يكون ظلم الفاعل لنفسه . وروي عن ابي عيينة ، أنه قال: العدل هو استواء السريرة والعلانية ، والاحسان ان تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر ان يكون علانيته أحسن من سريرته .

ثم بين تعالى أنه يعظ بما ذكره خلقه ، لكي يذكروا ويتفكروا ، ويرجعوا الى الحق .

ثم أمر تعالى خلقه بأن يفوا بعهده اذا عاهدوا عليه ، والعهد الذي يجب الوفاء به : هو كل فعل حسن اذا عقد عليه ، وعاهد الله ليفعلنه بالعزم عليه ، فانه يصير واجباً عليه ، ولا يجوز له خلافه ، ثم يكون عظم النقض بحسب الضرر به ، فأما اذا رأى غيره خيراً منه فليأت الذي هو خير وليكفّر ، عند الفقهاء . وقال اصحابنا : اذا وجد خيراً منه فعل الخير ، ولا كفارة عليه ، وهذا يجوز فيما كان ينبغي ان يشرط ، فأما اذا أطلقه وهو لا يأمن ان يكون غيره خير منه فقد أساء باطلاق العقد عليه .

---

(١) سورة الانفال آية ٤١ وقد بين معناها في ٥ : ١٤٣

ثم قال « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » نهي منه تعالى عن حنث الأيمان بعد عقدها وتأكيدها ، يقال أكدته تأكيداً ووكدته توكيداً ، والأصل الواو . وانما أبدلت الهمزة منها كما قالوا : وقيت في أوقيت .

وفي الآية دلالة على ان اليمين على المعصية غير منعقدة ، لانها لو كانت منعقدة لما جاز نقضها ، وأجمعوا على أنه يجب نقضها ، ولا يجوز الوفاء بها ، فعلم بذلك ان اليمين على المعصية غير منعقدة .

والنقض في المعاني يمكن في ما لا يجوز ان يصح مع خلافه، بل إن كان حقاً فخلافه باطل ، وإن كان باطلاً فخلافه حق ، نحو إرادة الشيء وكراهته ، والأمر بالشيء والنهي عنه والتوبة من الشيء والعود فيه وما أشبه ذلك .

وقوله « وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » اي حسيباً فيما عاهدتموه عليه « إن الله يعلم ما تفعلون» من نقض العهد والوفاء به ، وذلك تهديد ووعيد بأن يجازي على ما يكون منكم على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب.

وقيل: إن الآية نزلت في الذين بايعوا النبي ﷺ على الاسلام . وقال بعضهم نزلت في الحلف الذي كان عليه أهل الشرك ، فأمروا في الاسلام بالوفاء به ذكره ابن زيد .

قوله تعالى :

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (٩٣) آيتان بلا خلاف.

هذا نهي من الله تعالى للمكلفين ان يكونوا «كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً» فواحد الانكاث نكث ، وكل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث : حبلاً كان او غزلاً ، يقال منه: نكث فلان الحبل ينكثه نكثاً ، والحبل منتكث اذا انتقضت قواه . و (الدخل) ما أدخل في الشيء على فساد ، والمعنى تدخلون الايمان على فساد للغرور، وفي نيتكم الغدر بمن حلفتم له، لأنكم أكثر عدداً منهم أو، لان غيركم اكثر عدداً منكم وقيل الدخل الدغل والخديعة ، وإنما قيل الدخل ، لأنه داخل القلب على ترك الوفاء والظاهر على الوفاء . وقيل (دخلاً) غلاً وغشاً ، ويقال : انا اعلم دخل فلان ودخله ودخلته ودخيلته ، والمعنى لا تنقضوا الايمان لكثرتكم ، وقلة من حلفتم له او لقلتكم وكثرتهم ، فاذا وجدتم اكثر منهم نقضتم بل احفظوا عهدكم. و«دخلاً» منصوب بأنه مفعول له .

وقوله « ان تكون أمّة هي أربا من أمّة » اي اكثر عدداً لطلب العز بهم مع الغدر بالأقل ، وهو (أفعل) من الربا، قال الشاعر :

واسمر خطيّ كأن كعوبه نوى المسيب قد اربا ذراعاً على عشر[١]

ومنه أربا فلان للزيادة التي يزيدها على غريمه في رأس ماله (واربى) في موضع رفع . واجاز الفراء ان تكون في موضع نصب ، وتكون هي عماداً . وقال الزجاج : لا يجوز ذلك ، لان العماد لا يكون بين نكرتين ، لأن « امّة » نكرة ، ويفارق قوله « تجدوه عند الله هو خيراً »[٢] لأن الهاء في تجدوه معرفة.

وقوله « انما يبلوكم الله به » معناه إنما يختبركم الله بالامر بالوفاء ، فالهاء في (به) عائدة على الأمر ، وتحقيقه يعاملكم معاملة المختبر ليقع الجزاء بالعمل «وليبين لكم» أي ويفصل لكم ويظهر لكم « ما كنتم تختلفون » في صحته يوم القيامة.

والتي نقضت غزلها من بعد إبرام قيل : إنها ريطة بنت عمرو بن كعب ابن سعيد بن تيم بن مرة ، وكانت حمقاء، فضربه الله مثلاً ، فقال «اوفوا بعهد الله إذا

---

(١) تفسير الطبرى ١٤ : ١٠٢ ومجمع البيان ٣ : ٣٨١
(٢) سورة المزمل آية ٢٠ .

عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » فتكونوا إن فعلتم ذلك كإمرأة غزلت غزلاً ، وقوت قوته وأبرمت ، فلما استحكم نقضته ، فجعلته أنكاثاً أي انقاضاً، وهو ما ينقض من اخلاق بيوت الشعر والوبر ليغزل ثانية ، ويعاد مع الجديد ، ومنه قيل: لم بايع طائعاً ثم خرج عليك ناكثاً؟ لأنه نقض ما وكّده على نفسه بالايمان والعهود كفعل الناكثة غزلها .

ومعنى « أن تكون » لأن تكون « أمة » أعزّ من أُمّة، وقوم أعلى منقوم، يريد لا تقطعوا بأيمانكم حقوقاً لهؤلاء ، فتجعلوها لهؤلاء . وقال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فإذا وجدوا أكثر منهم نقضوا حلف هؤلاء ، وحالفوا اولائك الذين هم أعزّ ، فنهاهم الله عن ذلك .

وقوله «ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة » أخبار منه تعالى عن أن العباد إذا خالفوا أمره لم يعاجزوه، ولم يغالبوه تعالى عن ذلك، لأنه لو يشاء لأكرههم على أن يكونوا أمة واحدة، لكنه يشاء أن يجتمعوا على الايمان ، على وجه يستحقون به الثواب . ومثله قوله «ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض» (١) كذلك قال سبحانه ـ ههنا ـ ولكن ليمتحنكم ويختبركم لتستحقوا النعيم الذي أراده لكم ، فيضل قوم ، ويستحقوا الاضلال عن طريق الجنة ، والحكم عليهم بأنهم ضالون . ويهتدي آخرون ، فيستحقوا الهدى يعني الحكم لهم بالهداية ، وإرشادهم إلى طريق الجنة . ثم قال « ولتسألن » يا معشر المكلفين « عما كنتم تعملون » في الدنيا من الطاعات والمعاصي ، فتجازون عليه بقدره .

قوله تعالى

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

---

(١) سورة ٤٧ محمد آية ٤

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللهِ ثَمَناً قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ ٱللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ ٱللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٩٦) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير ، وعاصم « ولنجزين الذين صبروا » بالنون . الباقون بالياء . من قرأ بالنون فحجته إجماعهم على قوله « ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون » أنه بالنون . ومن قرأ بالياء ، فلقوله « وما عند الله باق » وليجزين الله الذين صبروا .

نهى الله عباده المكلفين ان يتخذوا ايمانهم دخلا بينهم ، وقد فسرنا معنى دخلا ، وبيّن تعالى انه متى خالفوا ذلك زلت اقدامهم بعد ثبوتها ، وهو مثل ضربه الله، والمعنى أنهم يضلّ بعد ان كان على الهدى . وقال قوم: الآية نزلت في الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام والنصرة ، نهوا عن نقض عهده ، وترك نصرته .

وقوله : « وتذوقوا السوء » يعني العذاب ، جزاء على معاصيكم وما صددتم عن اتباع سبيل الله ، ولكم مع ذلك عذاب عظيم تعذبون به . ثم نهاهم ، فقال : « ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلا » أي لا تخالفوا عهد الله بسبب شيء يسير تنالونه من حطام الدنيا ، فيكون قد بعتم ما عند الله بالشيء الحقير ، وبيّن ان الذي عند الله هو خير ، وأشرف لكم إن كنتم تعلمون حقيقة ذلك وتحققونه، ثم قال : إن الذي عند الله لا ينفد ، هو باق ، والذي عندكم من نعيم الدنيا ينفد ويفنى ، ثم أخبر بأنه يجزي الصابرين على بلائه وجهاد اعدائه أجرهم وثوابهم « بأحسن ما كانوا يعملون » وإنما قال بأحسن ما كانوا ، لأن احسن أعمالهم هو الطاعة لله تعالى، وما عداه من الحسن مباح ليس بطاعة، ولا يستحق عليه أجر

ولا حد ، وذلك يدل على فساد قول من قـــال : لا يكون حسن احسن من حسن .

قوله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجرَهُمْ بِأَحسَنِ مَـا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيم (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) (١٠٠) أربع آيات .

هذا وعد من الله تعالى بأن من عمل صالحاً من الطاعات سواء كان فاعله ذكراً او أنثى ، وهو مع ذلك مؤمن بتوحيد الله ، مقرّ بصدق أنبيائه ، فأن الله يحييه حياة طيبة . وقال ابن عباس : الحياة الطيبة هو الرزق الحلال . وقال الحسن : هي القناعة . وقال قتادة : حياة طيبة في الجنة . وقال قوم : الأولى ان يكون المراد بها القناعة في الدنيا ، لأنه عقيب ما توعد غيرهم به من العقوبة فيها مع ان اكثر المؤمنين ليسوا بمتسعي الرزق في الدنيا .

ثم أخبر انه يجزيهم زيادة على الحياة الطيبة « أجرهم » وثوابهم « بأحسن ما كانوا يعملون » وقد فسرّناه ، وإنما قال : «ولنجزينهم » بلفظ الجمع؛ لان (مَنْ) يقع على الواحد والجميع ، فردّ الكناية على المعنى ، ثم خاطب نبيه ، فقال: يامحمد «إذا قرأت القرآن» والمراد به جميع المكلفين «فاستعذ بالله» والمعنى إذا اردت قراءة القرآن «فاستعذ بالله» كما قال: «إذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا»[1] والمعنى اذا اردتم القيام

(١) سورة المائدة اية ٦

اليها، لأن بعد القراءة لا يجب الاستعاذة إلا عند من لا يعتد بخلافه . وقال قوم: هوعلى التقديم والتأخير، وهذالايجوز لانه ضعيف، لانه لا يجوز التقديم، والتأخير في كل شيء، ولذلك حدود في العربية لا تتجاوز . وإنمـا يجوز ذلك مع ارتفاع اللبس والشبهة. والاستعاذة عند التلاوة مستحبة غيرواجبة -بلا خلاف – «من الشيطان الرجيم » أي استعذ بالله من المبعّد من رحمة الله المرجوم، من سخطه .

ثم أخبر أنه « ليس » للشيطـــان سلطان ولا حجة « على الذين آمنوا » بالله وحده ولم يشركوا به سواه . وفوضوا أمرهم اليه وتوكلوا عليه . وإنما سلطانه وقدرته على الذين يتولونه ويقبـــلون منه ، وعلى الذين يشركون في عبـــادة الله سواه .

وقال الجبائي : في الآية دلالة على ان الصرع ليس من قبل الشيطان ، قال : لانه لو امكنه أن يصرعه ، لكان له عليهم سلطـان . وأجازه أبو الهذيل وابن الاخشاد، وقالا: إنه يجري مجرى قوله «كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ»[1] ولأن الله تعالى قال : « إنما سلطانه على الذين يتولّونه» وإنما أراد سلطان الاغواء والاضلال عن الحق .

ومعنى قوله « والذين هم به مشركون » فيه قولان :

احدهما – قال الربيع : من أن الذين يطيعونه فيما يدعو اليه من عبادة غير الله مشركون ، فلما كان من اطاعه فيما يدعو اليه من عبادة غير الله مشركا ، كان به مشركا ، وهو من الايجاز الحسن .

والثاني – قال الضحاك : الذينَ هم بالله مشركون .

قوله تعالى :

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا

---

(١) سورة البقرة اية ٢٧٥

أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (١٠٢) آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى: مخبراً عن احوال الكفّار بأنّا متى «بدّلنا آية مكان آية» بأن رفعنا آية ونسخناها، وأتينا بأخرى بدلها، نعلم في ذلك من مصلحة الخلق، وقد يكون تبديلها برفع حكمها مع ثبوت تلاوتها [وقد يكون برفع تلاوتها دون حكمها][(١)] وقد يكون برفعها. والتبديل - في اللغة - رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، تقول: بدله تبديلاً وأبدله إبدالاً، واستبدل به استبدالاً. ثم قال: «والله أعلم بما ينزل» مما فيه صلاح الخلق من غيره. وقوله: «قالوا إنما انت مفتر» معناه يقول هؤلاء الذين جحدوا نبوتك وكفروا بآيات الله: إنما أنت يا محمد مفترٍ كذاب في إدعائك الرسالة من الله. ثم أخبر عنهم، فقال: «بل اكثرهم لا يعلمون» انك نبي، لتركهم النظر في معجزاتك، ولشبه داخلة عليهم، وان علمه بعضهم وكابر، وجحد ما يعلمه. ثم امره بأن يقول لهم «نزله روح القدس» يعني القرآن نزله جبريل (ع) «ليثبت الذين آمنوا» وتثبيته لهم هو استدعاؤه لهم به وبالطافه ومعونته الى الثبات على الاسلام وعلى تصديق محمد ﷺ. ثم بيّن أن القرآن هدى ودلالة وبشارة للمسلمين.

قوله تعالى:

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (١٠٣) آية بلا خلاف.

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة.

قرأ حمزة والكسائي «يلحدون» بفتح الياء والحاء. والباقون بضم الياء وكسر الحاء، وهما لغتان، يقال: ألحد يلحد إلحاداً، فهو ملحد، ولحد يلحد فهو ملحود، وقيل لحد في القبر وألحد في الدين، والإلحاد الميل عن الصواب ويقال للذي يميل عن الحق ملحد، ومنه اللحد في جانب القبر.

ويقول الله تعالى لنبيه ﷺ إنا «نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه» يعني الرسول «بشر» مثله. وقال ابن عباس الذي مالوا اليه بأنه يعلم محمداً ﷺ وكان اعجمياً هو (بلعام) وكان قيناً بمكة رومياً نصرانياً. وقال الضحاك: أرادوا به (سلمان الفارسي). وقال قوم: أرادوا به إنساناً يقال له: عايش او يعيش، كان مولى لحويطب بن عبد العزى، أسلم وحسن إسلامه، فقال الله تعالى رداعليهم «لسان الذي» يميلون اليه أعجمي «وهذا» القرآن «لسان عربي مبين» كما تقول العرب للقصيدة هذا لسان فلان، قال الشاعر:

لسان السوء تهديها الينا . وحنت وما حسبتك ان تحينا (٢)

والاعجمي الذي لا يفصح، والعجمي منسوب الى العجم، والاعرابي البدوي والعربي منسوب إلى العرب «ومبين» معناه ظاهر بيِّن لا يشكل.

قوله تعالى:

(إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ) (١٠٥) آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى «إن الذين» لا يصدقون «بآيات الله» التي اظهرها، والمعجزات التي يصدق بها قولك يا محمد «لا يهديهم الله» إلى طريق الجنة «ولهم»

(٢) تفسير الشوكاني ٣ : ١٨٨ ومجمع البيان ٣ : ٣٨٥ وتفسير الطبري ١٤ : ١١١

مع ذلك « عذاب أليم » في النار . ويحتمل ان يكون المراد : لا يحكم الله تعالى بهدايتهم ، لأنهم كفار .

ثم اخبر إن الذي يتخرص الكذب ، ويفتري على الله ، هو الذي لا يؤمن بآيات الله ، ويجحدها ، وهم الكاذبون ، وانما خص الذين لا يؤمنون بالله بالافتراء لانه لا يردعهم عن الكذب ايمان بالجزاء ، « واولئك هم الكاذبون » على رسوله فيما ادعوا عليه . وقيل : المعنى في ذلك تعظيم كذبهم ، كما يقول القائل : هؤلاء هم الرجال .

قوله تعالى :

(مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ ٱللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (١٠٦) آية بلا خلاف .

نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر (رحمه الله) اكرهه المشركون بمكة بأنواع العذاب ، وقيل : إنهم غطوه في بئر ماء على ان يلفظ بالكفر ، وكان قلبه مطمئنا بالايمان ، فجاز من ذلك ، وجاء الى النبي ﷺ جزعاً فقال له النبي ﷺ كيف كان قلبك ؟ قال كان مطمئناً بالإيمـــان ، فأنزل الله فيه الآية . واخبر ان الذين يكفرون بالله بعد ان كانوا مصدقين به بأن يرتدوا عن الاسلام « فعليهم غضب من الله » ثم استثنى من ذلك من كفر بلسانه ، وكان مطمئن القلب بالايمان في باطنه ، فانه بخلافه . و « من كفر » رفع بما دل عليه خبر الثاني الذي هو قوله « ولكن من شرح بالكفر صدراً » كأنه قيل فعليه غضب من الله ، كما تقول من يأتنا فمن يحسن نكرمه ، فجواب الاول محذوف كفى فيه الثاني ، وقال الزجاج « من كفر » رفع بأنه بدل من قوله « واولئك هم الكافرون » وقال ابو علي: هذه معاريض يحسن من الله مثلها ، ولا يحسن من الخلق إلا عند التقية ، قال : إلا ان على أهل العقول أن يعلموا ان الله لم يفعل ذلك الا على ما يصح ويجوز ، وليس

ذلك للانسان الا في حال التقية، لانه لا دليل يؤمّن من الخطأ عليه، فعلى هذا يلزمه في النبي ان يحسن منه من غير تقية، لكونه معصوماً لا يكذب في اخباره ولا خلاف بين أهل العدل أنه لا يجوز اظهار كلمة الكفر إلا مع التعريض بأن ينوي بقلبه ما يخرجه عن كونه كاذباً، فأمّا على وجه الاخبار، فلا يجوز أصلا لانه قادر على التعريض الذي يخرج به عن كونه كاذباً.

قوله تعالى:

(ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ) (١٠٩) ثلاث آيات بلا خلاف.

قوله «ذلك» اشارة إلى ما تقدم ذكره من العذاب العظيم. أخبر الله تعالى ان ذلك العذاب العظيم إنما أعدّه لهم، لأنهم آثروا الحياة الدنيا، والتلذذ فيها، والركون اليها على الآخرة، والمعنى انهم فعلوا ما فعلوه للدنيا طلباً لها دون طلب الآخرة. والعمل يجب أن يكون طلباً للاخرة، أو للدنيا والآخرة. فأما أن يكون لمجرد الدنيا دون الآخرة فلا يجوز، لأنه إذا طلب الدنيا ترك الواجب من الطاعات لا محالة، وكذلك لا ينبغي أن يختار المباح على النافلة لان النافلة طاعة لله. والمباح ليس بطاعة له. ثم أخبر تعالى «أن الله لا يهدي القوم الكافرين» ومعناه أحد شيئين:

احدهما – إنه لا يهديهم الى طريق الجنة والثواب، لكفرهم.

الثاني – إنه لا يحكم بهدايتهم لكونهم كفاراً. وأما نصب الدلالة، فقد هدى الله جميع المكلفين، كما قال «وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى»[1] وقيل: إنهم لم يهتدوا بتلك الادلة، فكأنها لم تكن نصبت لهم، ونصبت

---

(١) سورة حم السجدة (فصلت) آية ١٧

للمؤمنين الذين اهتدوا بها ، فلذلك نفاها عنهم فكأنها لم تكن لهم ، ويجوز ان يكون المراد انه لا يهديهم بهدى المؤمنين من فعل الألطاف والمدح بالاهتداء ، لكونهم كفاراً . ثم اخبر ان اولئك الكفار هم «الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم واولئك هم الغافلون » وبينا معنى الطبع على القلوب والسمع والابصار في سورة البقرة [١] وان ذلك سمة من الله جعلها للملائكة ليفرقوا بين الكافر والمؤمن ، جزاء وعقوبة على كفرهم ، وان ذلك غير محيل بينهم وبين اختيار الايمان لو ارادوه ، وانما وصفهم بعوم الغفلة مع الخواطر التي تزعجهم لأمرين :

احدهما ـ انهم بمنزلة الغافلين ذمّاً لهم .

الثاني - لجهلهم عما يؤدي اليه حالهم ، وان كانت الخواطر الى النظر تزعجهم .

وقوله «لاجرم انهم» معناه حقّ لهم «انهم في الآخرة هم الخاسرون » الذين خسروا صفقتهم لفوات الثواب وحصول العقاب وموضع (انهم) يحتمل أمرين من الاعراب :

احدهما ـ النصب على معنى : لا بد انهم اي لا بد من ذا ، ويجوز على جرم فعلهم أن لهم النار اي قطع بذا وتكون (لا) صلة .

والثاني - الرفع والمعنى وجب قطعاً أن لهم النار و (لا) صلة أو ردّ لكلام من قال : ماذا لهم ؟ فقيل وجب لهم النار .

قوله تعالى :

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي

---

(١) في ١ : ٦٣ - ٦٧ . وفي ١ : ٩٠ من هذا الكتاب .

كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (١١١) آيتان بلا خلاف .

قرأ ابن عامر وحده « فَتنوا » جعل الفعل لهم . الباقون « فُتنوا» على ما لم يسم فاعله ، يقال : فتنت زيداً ، وهي اللغة الجيدة ، وحكي افتنت . وحجة من قرأ على ما لم يسم فاعله أن الآية نزلت في المستضعفين المفتنين بمكة : عمار وبلال ، وصهيب ، فانهم حملوا على الارتداد عن دينهم ، فمنهم من اعطى ذلك تقية منهم : عمار ، فانه اظهر ذلك تقية ، ثم هاجر . ومعنى قراءة بن عامر : انه فتن نفسه ، والمعنى من بعد ما فتن بعضهم نفسه باظهار ما اظهره بالتقية قال الرماني : في الآية دلالة على انهم فتنوا في دينهم بمعصية كانت منهم ، لقوله « ان ربك من بعدها لغفور رحيم » لأن المغفرة الصفح عن الخطيئة ، ولو كانوا أعطوا التقية على حقها لم تكن هناك خطيئة . وهذا الذي ذكره ليس بصحيح ، ولا في الكلام دلالة عليه ، وذلك ان الله تعالى إنما قال « ان ربك من بعدها » يعني بعد الفتنة التي فتنوا بها « لغفور رحيم » أي ساتر عليهم ، لان ظاهر ما اظهروه يحتمل القبيح والحسن ، فلما كشف الله عن باطن امورهم ، واخبر انهم كانوا مطمئنين بالايمان كان في ذلك ستر عليهم ، وازالة الظاهر المحتمل إلى الآمر الجلي ، وذلك من نعم الله عليهم .

يقول الله تعالى: إن هؤلاء الذين هاجروا بعد ما فتنوا عن دينهم ، وجاهدوا في سبيله وصبروا على الأذى في جنب الله ، فان الله اقسم انه ضمن لهم أن يفعل بهم الثواب ، وساتر عليهم ، ورحيم بهم منعم عليهم .

وقوله «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها» (يوم) منصوب بأحد شيئين :
احدهما – على معنى إن ربك من بعدها لغفور رحيم (يوم) .

الثاني – على معنى واذكر يوم ، لان القرآن عظة وتذكير ، ومعنى تجادل عن نفسها تخاصم كلُّ نفس عن نفسها ، وتحتج بما ليس فيه حجة عند الحساب ،

كما قال تعالى حكاية عنهم : « والله ربنا ما كنا مشركين »[١] وقال الأتباع « ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار »[٢] فهم يجادلون الملك السائل لهم بين يدي الله ، وقيل : تحتج عن نفسها بما تقدّر به ازالة العقاب عنها .

ثم اخبر الله ان كلّ نفس توّفى جزاء ما عملته على الطاعة الثواب وعلى المعصية العقاب ، ولا يظلم احد في ذلك اليوم أحداً .

قوله تعالى :

(وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (١١٢) آية بلا خلاف .

التقدير ضرب الله مثلاً مثل قرية ، وقيل في القرية التي ضرب الله بها هذا المثل قولان :

احدهما – قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إنها مكة ، لأنها كانت بهذه الصفات التي ذكرها الله . وقال آخرون : اي قرية كانت على هذه الصفة ، فهذه صورتها .

وقوله « كانت آمنة مطمئنة » أي يأمن الناس فيها على نفوسهم واموالهم لا يخافون الغارة والنهب ، كما يخاف سائر العرب ، ويطمئنون فيها ، لا يحتاجون فيها ان ينتجعوا الى غيرها ، كما يحتاج غيرهم اليه ، وكان مع ذلك يجيؤها رزقها ، اي رزق اهلها من كل موضع ، لأنه كان يجلب اليها تفضلا منه تعالى « فكفرت بانعم الله » والمراد كفر اهلها ، « بانعم الله » . وانما اضاف الكفر الى القرية مجازا ، ولذلك أنث الفعل . وقيل في واحد انعم الله ثلاثة اقوال :

---

(١) سورة الانعام آية ٢٣ (٢) سورة الاعراف آية ٣٧

احدها – يقال نعمة وانعم كشدة وأُشدّ .

الثاني – في جمع النعم كما قالوا أيام طعم ونعم ومثله ودّ وأودّ .

الثالث – نعماء كما جمعوا بأساء وابؤس وضراء واضر؛ وقالوا أُشد جمع شُدّ قال الشاعر .

وعندي قروض الخير والشر كله فبؤس لدى بؤسى ونعمى بأنعم

وقوله « فأذاقها الله لباس الجوع » انما سماه لباس الجوع ، لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوب اللون وسوء الحال ما هو كاللباس . وقيل انهم شملهم الجوع والخوف كما شمل اللباس البدن . وقيل ان القحط دام بهم سنين وبلغ بهم الى ان اكلوا القد والطهن ، وهو الوبر يخلط بالدم والقراد ، ثم يؤكل ، وانما يقال لصاحب الشدة : ذق ، لانه يجده وجدان الذائق في تفقده له ، ولانه يتجدد عليه إدراكه كما يتجدد على الذائق، وهم مع ذلك خائفون وجلون من النبي ﷺ واصحابه يغيرون على قوافلهم وتجاراتهم « جزاء بما كانوا يصنعون » من الكفر والشرك وتكذيب الرسل ، واجري الخطاب من أول الآية الى ههنا على التأنيث إضافة إلى القرية ، ثم قال – ههنا – « بما كانوا يصنعون » على المعنى أي بما كان أهلها يصنعون . وروي عن ابي عمرو انه قرأ «لباس الجوع والخوف» بالنصب ، كأنه ضمن فعل إرزاقهم الله لباس الجوع، قاذفاً في قلوبهم الخوف، لأن الله تعالى لم يبعث النبي بالقحط والجوع والخوف ، فقد قذف في قلوبهم الرعب من النبي وسراياه .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ

ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (١١٤) آيتان بلا خلاف .

قوله « ولقد جاءهم رسول منهم » يعني اهل مكة بعث الله منهم رسولاً من صميمهم ، لا من غيرهم «فكذبوه» وجحدوا نبوته « فأخذهم العذاب وهم ظالمون» أي في حال كفرهم ظالمين اخذهم العذاب ، وعذابهم هو ما سلط الله تعالى النبيّ والمؤمنين حتى قتلوهم يوم بدر وغيره من الايام ، وما حل بهم من أنواع العذاب من جهته من الخوف والجوع الذي تقدم ذكره . ومن قال : المراد بالقرية غير مكة قال: هو صفة تلك القرية التي بعث الله رسولاً منهم ، ثم خاطب المؤمنين ، فقال «كلوا» فصيغته وإن كان صيغة الأمر ، فالمراد به الإباحة ، لأن الأكل غير واجب إلاّ عند الخوف من تلف النفس ، ولا مندوب اليه إلا في بعض الاحوال «مما رزقكم الله » أي ملككم التصرف فيه على وجه ليس لاحد منعكم منه «حلالاً» إي جعله لكم « حلالا طيبا واشكروا نعمة الله » واعترفوا بها « ان كنتم إياه تعبدون» اي ان كنتم تعبدون الله دون غيره وليس المعنى ان كنتم تعبدون غيره ، فلا تشكروه ، بل المعنى انه لا يصح لأحد أن يشكره إلاّ بأن يوجه العبادة اليه تعالى وحده .

قوله تعالى :

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١١٥) آية بلا خلاف .

قد بينا تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة [١] وهو ان الله حرم الميتة ،

(١) انظر ٢ : ٨٣ — ٨٦

وهوما لم يذكّ ممّا فيه نفس سائلة . «ولحم الخنزير» وبينا أن الخنزير جميعه حرام، وانما خص اللحم تغليظاً ، « وما أهل لغير الله به » والمعنى ما ذكر غير الله على تذكيته ، لانهم كانوا يذبحونها للاصنام ، ثم استثنى المضطر الى تناول ذلك خوف التلف ، فأباح جميع ذلك له ، واستثنى من المضطرين البغاة ، فلم يبحها لهم ، وقد بينا الخلاف فيه، وان قول مجاهد وما ذهب اليه أصحابنا هو من خرج على امام عادل . وقال قوم : معناه غير باغ بذلك الشبع والتقوي به على معصية « ولا عاد» اي يتعدى فيه ما يجوز له . وفي تفسيرنا: أن معنى ولا عاد ما ذهب اليه الحسن ، وغيره ان الذي يخرج للاعتداء على الناس من قطاع الطريق ، فانهم لا يرخّصون ان يأكلوا، ذلك على وجه . ثم اخبر « ان الله غفور رحيم » اي ستار على عباده معاصيهم «رحيم» بهم بأن يغفرها لهم، بالتوبة تارة وتفضلا منه ابتداء تارة أخرى ، والمعنى إنه لا يعاقب من تناول ما حرّم عليه في حال الضرورة .

والاهلال رفع الصوت بالكلام، ومنه الهلال لرفع الصوت بالتكبير عند رؤيته وشبه به صوت الصبي عند الولادة وكل ما ذكر عليه اسم معبود غير الله لا يحل أكله .

قوله تعالى :

(وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (١١٨) ثلاث آيات .

(ما) في قوله «لما تصف» مصدرية، والتقدير: ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب

« هذا حلال وهذا حرام » وقال الزجاج : قرىء «الكُذُب» على أنه نعت الألسنة، يقال لسان كذوب وألسنة كُذُب، وحكي أيضاً بكسر الباء ردّاً على (ما) وتقديره للذي تصفه ألسنتكم الكَذِب ، وهذا إنما قيل لهم لما كانوا حرموه وأحلوه ، فقالوا « ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا»[١] وقد بيناه فيما تقدم. ثم أخبر عن هؤلاء الذين يقولون على الله الكذب بأنهم «لا يفلحون » أي لا ينجون ولا يفوزون بثواب الله .

وقوله تعالى « متاع قليل » معناه متاعهم هذا الذي فعلوه وتمتعوا به « متاع قليل » ويجوز في العربية (متاعاً) أي يتمتعون بذلك متاعاً قليلا « ولهم عذاب أليم» أي في مقابلة ذلك يوم القيامة. وقوله «وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل » يعني ما ذكره في سورة الانعام في قوله « وعلى الذين هادوا حرمنا...»[٢] الآية، في قول قتادة والحسن وعكرمة. ثم أخبر تعالى أنه لم يظلمهم بذلك ولا يبخسهم حظهم « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » بكفرهم بنعمة الله وجحودهم لأنبيائه ، فاستحقوا بذلك تحريم هذه الأشياء عليهم لتغيير المصلحة عند كفرهم وعصيانهم.

قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١١٩)

آية بلا خلاف.

يقول الله تعالى إن الذي خلقك يا محمد « للذين عملوا السوء » يعني المعصية « بجهالة » أي بداعي الجهل ، لانه يدعو إلى القبيح ، كما أن داعي العلم يدعو إلى

(١) سورة الانعام آية ١٣٩ ، انظر ٤: ٣١٢ - ٣١٦
(٢) سورة الانعام آية ١٤٦ ، انظر ٤: ٣٢٩ - ٣٣٢

الخير ، فقد يكون ذلك للجاهل بالشيء وقد يكون للغافل الذي يعمل عمل الجاهل بتغليب هواه على عقله .

وقوله « ثم تابوا » يعني رجعوا عن تلك المعصية ، وندموا عليها ، وعزموا على أن لا يعودوا إلى مثلها في القبح «واصلحوا» نياتهم وافعالهم ، فإن الذي خلقك من بعد فعلهم ما ذكرناه من التوبة « غفور » لهم ستّار عليهم « رحيم » بهم ، منعم عليهم . وإنما شرط مع التوبة فعل الصلاح استدعاء إلى فعل الصلاح ولئلا يغترّوا بما سلف من التوبة حتى يقع الإهمال لما يكون من الاستقبال .

قوله تعالى :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (١٢٤) خمس آيات بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن ابراهيم (ع) انه « كان أمّة » واختلفوا في معناه ، فقال ابن مسعود : معناه إنه معلم الخير قدوة « قانتاً لله » مطيعاً . قال بعضهم : كان ذا أمّة « قانتاً لله » . وقال قتادة : معناه إنه امام هدى . والقانت الذي يدوم على العبادة لله ، وقيل: جعل « امة » لقيام الامة به . والحنيف المستقيم على طريق الحق . وقوله « ولم يك » يعني ابراهيم « من المشركين » الذين يعبدون مع الله غيره ، بل كان موحداً «شاكراً لانعمه» اي بل كان شاكراً لنعمه

معترفاً بها « اجتباه » يعني اختاره الله واصطفاه « وهداه الى صراط مستقيم » اي حكم بأنه على صراط مستقيم اي لطف له حتى اهتدى الى طريق الحق .

وقوله « وآتيناه في الدنيا حسنة » اي اعطيناه جزاء على هدايته في هـذه الدنيا حسنة ، وهي : تنويه الله بذكره في الدنيا بطاعته لربه ، ومسارعته الى مرضاته ، وإخلاصه لعبادته ، حتى صار إماماً يقتدى به ، وعلماً يهتدى بسنته . قال قتادة : حتى ليس من اهل دين إلا وهو يتولاه ويرضاه . وقـال الحسن : معنى « حسنة » يعني نبوته . وقوله « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » اخبار منه تعالى انه مع إيتائه الحسنة في الدنيا هو في الآخرة من جملة الصالحين. وانما لم يقل: لفي اعلى منازل الصالحين ، مع اقتضاء حاله ذلك، لمدح من هو منهم، والترغيب في الصلاح ليكون صاحبه في جنب ابراهيم ، وناهيك هذا الترغيب في الصلاح ، وهذا المدح لابراهيم أن يشرف جملة هو منها، حتى يصير الاستدعاء اليها بأنه فيها.

وقوله «اوحينا اليك ان اتبع ملة ابن إبراهيم حنيفا» أي أمرناك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا مستقيم الطريق ، في الدعاء الى توحيد الله ، وخلع الانداد، والعمل بسنته ، « وما كان » يعني ابراهيم « من المشركين » بعبادة الله غيره .

وقوله « انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه » اختلفوا في معناه ، قال الحسن : معناه انه جعله عليهم بأن لعنهم بالمسخ لاعتدائهم فيه . واختلافهم فيه كان بأن قال بعضهم: هو اعظم الايام حرمة، لانه تعالى فرغ فيه من خلق الاشياء كلها . وقال آخرون: بل الاحد أفضل ، لانه ابتدأ خلق الاشياء فيه . وقال مجاهد ، وابن زيد : عدلوا عمّا أمروا به من تعظيم الجمعة .

ووجه اتصال هذه الاية بما تقدم أنه لما أمر باتباع الحق ، حذّر من الاختلاف فيه ، بما ذكره من حال المختلفين في السبت ، بما ليس لهم ان يختلفوا فيه ، فشدد عليهم فرضه، وضيق عليهم أمره وقال قوم: معنى «اختلفوا فيه» اي خالفوا فيه، لأنهم نهوا عن الصيد فيه فنصبوا الشباك يوم الجمعة ، ودخل فيهـا السمك يوم السبت ، فأخذوه يوم الاحد. ثم قال « وان ربك » يا محمد «ليحكم بينهم» أي يفصل بينهم يوم القيامة في الذي كانوا مختلفين فيه ، ويبين لهم الصحيح من الفاسد

قوله تعالى :

(أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) (١٢٨) أربع آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وإسماعيل عن نافع « ضيق » بكسر الضاد . الباقون بفتحها ، فمن فتح اراد « ضيق » فخفف مثل سيد وسيد ، وميت وميت وهين وهين . ويجوز ان يكون أراد جمع ضيقة كما قال الشاعر :

كشف الضيقة عنا وفسح

ومن كسر يجوز أن يجعله لغتين، ويجوز أن يكون الضَيق إسماً والضِيق مصدراً والاختيار ان يقال : الضِيق في المكان والمنزل، والضَيق في غير ذلك ، فان كان كذلك « فالاختيار ولاتك في ضَيق » لأنه تعالى لم يرد ضيق المعيشة ، ولا ضيق المنزل . وأصل « ولاتك » ولا تكن ، فاستثقلوا الضمة على الواو فنقلوها إلى الكاف، فالتقى ساكنان: الواو، والنون؛ فحذفوا الواو؛ لالتقاء الساكنين، ومن حذف النون أيضاً ، فلان النون ضارعت حروف المدّ واللين ، وكثر استعمال (كان يكون) فحذفوها كذلك ألا ترى أنك تقول: لم يكونا . والأصل يكونان فأسقطوا النون بالجزم وشبهوا لم يك في حذف النون بلم يكونا .

أمر الله تعالى نبيه محمد ﷺ أن يدعو عباده المكلفين بالحكمة ، وهو أن

يدعوهم إلى أفعالهم الحسنة التي لها مدخل في استحقاق المدح والثواب عليها، لأن القبائح يزجر عنها، ولا يدعو اليها، والمباح لا يدعو إلى فعله؛ لأنه عبث، وإنما يدعو إلى ما هو واجب أو ندب، لانه يستحق بفعله المدح والثواب، والحكمة هي المعرفة بمراتب الافعال في الحسن والقبح والصلاح والفساد. وقيل لها: حكمة، لانها بمنزلة المانع من الفساد، وما لا ينبغي أن يختار، والاصل المنع كما قال جرير:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا(١)

أي امنعوهم من السفه، والفرق بين الحكمة والعقل: أن العاقل هو العاقد على ما يمنع من الفساد، والحكيم هو العارف بما يمنع من الفساد، والحكمة مشتركة بين المعرفة وبين العقل المستقيم، لان كل واحد منهما ممتنع من الفساد عارٍ منه. والقديم تعالى لم يزل حكيماً بمعنى لم يزل عالماً، ولا يجوز لم يزل حكيما فيما يستحق لاجل الفعل المستقيم، وكل حكمة يكون بتركها مضيعاً لحق النعمة يجب على المكلف طلبها. معرفة كانت أو فعلا. والموعظة الحسنة. معناه الوعظ الحسن وهو الصرف عن القبيح على وجه الترغيب في تركه والتزهيد في فعله. وفي ذلك تليين القلوب بما يوجب الخشوع. وقيل: ان الحكمة النبوة. والموعظة القرآن «وجادلهم بالتي هي أحسن» فالجدال فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج «بالتي هي أحسن» وفيه الرفق والوقار والسكينة مع نصرة الحق بالحجة. ثم أخبر «ان ربك» يا محمد «اعلم بمن ضل عن سبيله» بأن عدل عنها و «أعلم» من غيره بمن اهتدى اليها وليس عليك غير الدعاء.

وقوله «وان عاقبتم فعاقبوا» قيل: في سبب نزول هذه الآية قولان:

احدهما - ان المشركين لما مثّلوا بقتلى أُحد. قال المسلمون: متى اظهرنا الله عليهم لنمثلن بهم اعظم مما مثلوا بنا. ذكره الشعبي وقتادة وعطاء.

---

(١) مر هذا البيت في ١ : ١٤٢، ٢ : ١٨٨، ٤ : ٤٩٦، ٥ : ٥١٢

الثاني – قال مجاهد وابن سيرين وابراهيم : انه في كل ظالم بغصب او نحوه . فإنما يجازى بمثل ما عمل .

وقيل: إن هذه الآية منسوخة بآية القتال، لان هذا قبل ان يؤمروا بالجهاد. ثم قال « ولئن صبرتم » اي إن تركتم المجازاة والقصاص وتجرعتم مرارته « لهو خير للصابرين » في العاقبة. ثم قال لنبيه ﷺ والمراد به أمته معه « واصبر » يا محمد وليس صبرك «إلا بالله» اي إلا بتوفيق الله وإقداره وترغيبه فيه «ولاتحزن عليهم» يعني على المشركين ، لإعراضهم عنك . وقيل المراد لا تحزن على قتلى أُحد لما اعطاهم الله من الخير « ولاتك في ضيق مما يمكرون » اي لا يكن صدرك ضيقا مما يمكر به المشرك من الخديعة وغيرها ، وما فعلوا بقتلى أُحد من المثلى «إن الله مع الذين اتقوا » معاصيه خوفاً من عقابه ، بالنصر لهم والتأييد، ومع« الذين هم محسنون» في افعالهم ، غير فاعلين للقبائح يقذف في قلوب اعدائهم الرعب ، خوفاً من رسول الله وسراياه

(١٧) سورة الاسراء

هي مكية في قول مجاهد وقتادة، وهي مئة واحدى عشرة آية في الكوفي ومئة وعشر آيات في البصري والمدني .

بسم الله الرحمن الرحيم

(سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١) وآتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) (٣) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو وحده « ألاّ يتخذوا » بالياء . الباقون بالتـاء ، والمعنى فيهما قريب ، والتقدير ، « وجعلناه هدى لبني اسرائيل ألاّ تتخذوا » وقلنا لهم : لا تتخذوا ، كما تقول : قلت لزيد قم ، وقلت له ان يقوم . وقال تعالى « قل للذين

كفروا ستغلبون [١] » بالتاء والياء . ومعنى « من دوني وكيلا » أي كافياً وربا، ونصب «ذرّيّة» على النداء، وهو خطاب لجميع الخلق، لأن الخلق كله من نسل نوح من بنيه الثلاثة : حام : وهو ابو السودان ، ويافث : وهو أبو البيضان : الروم والترك والصقالبة وغيرهم ، وسام : وهو ابو العرب والفرس . وتقديره يا ذرّية من حملنا، ووزن « ذرية » فعلية، من الذر، ويجوز ان يكون (فعولة) من الذر واصله (ذروية) فقلبت الواو ياء وادغمت في اليـــاء ، قال أبو علي النحوي : ويجوز ان يكون نصبا على انـــه مفعول الاتخاذ لأنه فعل يتعدى إلى مفعولين كقوله « واتخذ الله ابراهيم خليلاً »[٢] وقال « اتخذوا أيمانهم جنة »[٣] وعلى هذا يكون مفعولا ثانياً على القراءتين ، ومتى نصبته على النداء ، فانما يتأتى ذلك في قراءة من قرأ بالتاء ، والاسهل أن يكون على قراءة من قرأ بالياء ، لأن اليـاء للغيبة ، والنداء للخطاب ، و(أن) في قوله « ألا تتخذوا » يحتمل ثلاثة أوجه :

احدها أن تكون (أن) الناصبة للفعل، والمعنى جعلناه هدى، كراهة أن تتخذوا ، أو لان لا تتخذوا .

والثاني – أن تكون (أن) بمعنى أي ، لانه بعد كلام تام والتقدير أي لا تتخذوا .

والثالث - أن تكون (أن) زائدة ، ويضمر القول .

والوكيل لفظه واحد ، والمراد به الجمع ، لأن معناه حينئذ(فعيلا) فيكون مفرد اللفظ والمراد به الجمع ، نحو قوله « وحسن اولئك رفيقاً »[٤] . قال أبو عبيد : أهل المدينة يقولون في نصب (سبحان) أنه اسم في موضع مصدر سبحت الله تسبيحاً، والتسبيح هو المصدر، وسبحان اسم منه ، كقولك كفـّرت اليمين تكفيراً ، أو كفراناً ، والتكفير المصدر ، والكفران الاسم ، قال أميـــة ابن أبي الصلت :

---

(١) سورة آل عمران اية ١٢
(٢) سورة ٤ النساء اية ١٢٥
(٣) سورة ٥٨ المجادلة اية ١٦
(٤) سورة النساء اية ٦٩

سبحانه ثم سبحاناً يعود له   وقبلنا سبح الجودي والجمد [١]

وقال بعضهم انه يجوز أن يكون نصباً على النداء، يريد: يا سبحان ومعناه: التنزيه لله والتبعيد له من كل مـا لا يليق به، والتسبيح يكون بمعنى الصلاة، كقوله « فلولا انه كان من المسبحين [٢] أي من المصلين – ذكره اكثر المفسرين – ومنه السبحة وهي النافلة. وروي أنه كان ابن عمر يصلي سبحته في موضعه الذي يصلي فيه المكتوبة ويكون بمعنى الاستثناء، كقوله « فلولا تسبحون » أي فلولا تستثنون، وهي لغة لبعض أهل اليمن، ولا وجه للكلام غيره، لأنه قال « إنا بلوناهم كما بلونا اصحاب الجنة » الى قوله « ولا يستثنون» ثم « قال: أوسطهم الم أقل لكم لولا تسبحون »[٣] فذكرهم تركهم الاستثناء. فأما سبحة النور التي دون الله، قال المبرد: لا يعرف إلا من الخبر الذي روي (لولا ذلك لاحرقت سبحات وجهه) بمعنى نور وجهه أي الذي إذا رأى الرائي قال سبحان الله. وقال سيبويه (سبحان) براءة الله من السوء وهذا اسم لهـذا المعنى معرفة وقال الاعشى:

أقول لما جاء ني فخره   سبحان من علقمة الفاخر [٤]

اي براءة منه ولا ينزه بلفظ سبحان غير الله، وانما ذكره الشاعر نادراً على الاصل واجراه كالمثل في قوله « وإن من شيء الا يسبح بحمده »[٥] معناه ليس شيء إلا وفيه دلالة على تنزيه الله مما لا يليق به، وقولهم: سبح تسبيحاً أي قال سبحان الله، والسبح في التعظيم الجري فيه. والاسراء سير الليل، اسرى اسراء وسرى يسرى سرى لغتان، قال الشاعر:

وليلة ذات دجى سريت   ولم يلتني عن سراها ليت [٦]

(١) مر هذا البيت في ٣ : ٨٢، ٥ : ٥٦٣   (٢) سورة ٣٧ الصافات اية ١٤٣

(٣) سورة ٢٧ القلم اية ١٧ – ٢٩

(٤) ديوانه (دار بيروت) ٩٤ وقد مر في ١: ١٢٤، ٨١، ٥ : ٢٤١، ٣٩٥

(٥) سورة ١٧ الاسرى آية ٤٤

(٦) تفسير القرطبي ١٠ : ٢٠٥ وروايته (ندى) بـدل (دجى) وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٥ : ٣، واللسان (ليت) ولم يعرف قائله. والمعنى: سرت في ليلة ذات دجى، ولم يؤخرني، ولا منعني عن السير مانع.

وقوله « ليلا » معناه بعض الليل ، على تقليل وقت الاسراء ، ويقوي ذلك قراءة حذيفة ، وعبد الله « من الليل » وروت أم هاني بنت ابي طالب : أن النبي ﷺ كان في منزلها ليلة أسري به . وقال الحسن وقتادة : كان في نفس المسجد الحرام . وروي عن أم هاني أن الحرم كله مسجد . والمسجد الاقصى هو بيت المقدس ، وهو مسجد سليمان بن داود - في قول الحسن وغيره من المفسرين - وانما قيل له : الأقصى ، لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام . وقال الحسن : صلى النبي ﷺ المغرب في المسجد الحرام . ثم أسري به الى بيت المقدس في ليلة ثم رجع ، فصلى الصبح في المسجد الحرام ، فلما اخبر به المشركين كذبوا ذلك ، وقالوا : يسير مسيرة شهر في ليلة واحدة ؟! وجعلوا يسألون عن بيت المقدس وما رأى في طريقه ، فوصفه لهم شيئاً شيئاً بما يعرفونه . ثم اخبرهم انه رأى في طريقه قعباً مغطاً مملوءاً ماء فشرب الماء كله ثم غطاه كما كان ، ووصف لهم صفة إبل كانت لهم في طريق الشام تحمل المتاع ، فقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق ، فقعدوا في ذلك اليوم يستقبلونها ، فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد أشرقت ، ولم تأت . وقال آخر هذا والله العير يقدمها جمل اورق ، كما ذكر محمد ، فكان ذلك معجزة له باهرة ، ودلالة واضحة لولا العناد ، وكان نفس الاسراء حجة له ﷺ لا انه يحتاج إلى دلالة كغيره ، ولذلك قال تعالى « لنريه من آياتنا » فكان الاسراء من جملة الآيات التي تأكد بها يقينه وازدادت به بصيرته ، لأنه كان قد علم نبوته بما تقدم له من الآيات ، فكان هذا على وجه التأكيد لذلك .

وعند أصحابنا وأكثر أصحاب التأويل ، وذكره الجبائي ايضاً : انه عرج به في تلك الليلة الى السماء وأت حتى بلغ سدرة المنتهى في السماء السابعة ، واراه الله من آيات السموات والارض ما ازداد به معرفة ويقيناً ، وكان ذلك في يقظته دون منامه ، والذي يشهد به القرآن الاسراء من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، والباقي يعلم بالخبر .

وقوله « الذي باركنا حوله » يعني بالثمار ومجاري الانهار ، وقيل « باركنا »

حوله بمن جعلنا حوله من الانبياء والصالحين، ولذلك جعله مقدساً. «لنريه من آياتنا» من العجائب التي فيها اعتبار.

وروي أنه كان رأى الأنبياء حتى وصفهم واحداً واحداً.

وقوله «إنه هو السميع البصير» اخبار منه تعالى أنه يجب أن يدرك المبصرات والمسموعات اذا وجدت، لأنه حي ولا يجوز عليه الآفات.

وقوله «وآتينا موسى الكتاب» يعني التوراة «وجعلناه» يعني التوراة التي انزلها «هدى» ودلالة لبني اسرائيل، وقلنا لهم «لا تتخذوا من دوني وكيلا» أي ربّاً تتوكلون عليه وكافياً تسندون اموركم اليه. وقال مجاهد: معنى «وكيلا» شريكا، قال المبرد: هذا لا شاهد له في اللغة. وقلنا يا «ذرّيّة من حملنا مع نوح» في سفينته وقت الطوفان «انه كان عبداً شكورا» يعني نوحاً كان عبداً كان لله شاكراً له على نعمه.

وروي انه اذا كان اراد أكل طعام أو شراب قال: بسم الله، وإذا شبع قال الحمد لله، ومن قال: هو نصب على أنه مفعول، فانه قال تقديره لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح وكيلاً من دوني.

قوله تعالى:

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً) (٦) ثلاث آيات بلا خلاف.

القضاء على أربعة أقسام: بمعنى الخلق والاحداث، كما قال «فقضاهن سبع

سموات » [١] وبمعنى فصل الحكم كقوله « والله يقضي بالحق»[٢] وبمعنى الأمر كقوله « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا اياه » [٣] وبمعنى الاخبار كقوله « وقضينا إلى بني اسرائيل » اي اخبرناهم واعلمناهم بما يكون من الامر المذكور، من انهم سيفسدون في الارض مرتين ، ويعلون علواً كبيراً، اي عظيماً اي يتجبرون على عباد الله .

قال ابن عباس وقتادة : المبعوث عليهم في المرة الاولى جالوت الى ان قتله داود ، وكان ملكهم طالوت .

وقال سعيد ابن المسيب : هوبخت نصر ،وقال سعيدبن جبير : هوسنحاريب وقال الحسن : هم العمالقة ، وكانوا كفاراً .

والفساد الذي ذكره : هو قتلهم الناس ظلماً وتغلبهم على اموالهم قهراً واخراب ديارهم بغيا .

والآية تدل على ان قضاء الله بالمعاصي هو اخباره انها تكون .

وقوله « فلما جاء وعد أولاهما » يعني وقت فناء آجالهم ووقت عقوباتهم . والوعد هو الموعود به — ههنا — ووضع المصدر موضع المفعول به .

وقوله « بعثنا عليكم عباداً لنا اولي بأس شديد » قيل في معنى (بعثنا) قولان :

احدهما — قال الحسن : انا خلّينا بينهم وبينكم ، خاذلين لكم ، جزاء على كفركم ، ومعاصيكم ، كما قال : « انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازّاً»[٤]

الثاني — قال ابو علي : امرناهم بقتالكم . وقوله « فجاسوا خلال الديار » اي تردّدوا وتخللوا بين الدور، يقال: جست أجوس جوساً وجوساناً، قال حسان:

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١٢ (٢) سورة ٤٠ المؤمن (غافر) آية ٢٠
(٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٢٣ (٤) سورة ١٩ مريم آية ٨٤

ومنا الذي لاقى بسيف محمد فجاس به الاعداء عرض العساكر [١]

معناه تخللهم قتلا بسيفه، وقيل: الجوس طلب الشيء باستقصاء. وقوله «وكان وعداً مفعولا» أي كائناً لا محالة على ما أخبرنا به، ثم قال لهم «رددنا لكم الكرة عليهم» يعني الرجعة والنصرة عليهم «وأمددناكم بأموال وبنين» أي أعناكم وكثرناكم «وجعلناكم اكثر نفيرا» اي اكثر انصاراً، ونصبه على التمييز، قال الزجاج: يجوز أن يكون (نفيراً) جمع نفير كعبيد وضنين ومعين. قال الفراء: زعموا أن رجلاً من همدان بعثه الله على بخت نصر، فقتله وعاد الملك إلى بني إسرائيل فعاشوا.

قوله تعالى:

(إِنْ أَحسَنتُمْ أَحسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسأتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً) (٧) آية بلا خلاف.

قرأ الكسائي «لنسو وجوهكم» بالنون وفتح الواو، كما يقال: لن ندعو، فعلامة النصب فتحة الواو. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم بالياء على واحد «ليسوي» الباقون بالياء والمد، وعلامة النصب – ههنا – حذف النون، وإنما مدوا، لتمكين الهمزة، لأن كل واو سكنت وانضم ما قبلها وثبتت بعدها همزة، فلا بد من مد في كلمة كانت أو كلمتين، نحو «قالوا آمنا» [٢] وفي

---

(١) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٥ : ٢١ وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٠٢ ولم اجده في ديوان حسان المطبوع في بيروت (دار صادر، دار بيروت). وهو ايضاً في تفسير القرطبي ١٠ : ٢١٦.

(٢) سورة ٢ البقرة اية ١٤

كلمة واحدة نحو « تبوء بإثمي » [(١)] « وتبوء بحمله » وفي قراءة أبي « ليسؤن وجوهكم » بنون خفيفة للتأكيد ، كقوله « لنسفعاً بالناصية » [(٢)] .

قال أبو علي الفارسي: لما قال « لتفسدن في الأرض مرتين » وبيّن المرة الأولى قال « فإذا جاء وعد الآخرة » أي المرة الآخرة بعثناهم « ليسوءوا وجوهكم » فحذف (بعثناهم) لأنه تقدم ذكره ، لانه جواب (إذا) ، وشرطها يقتضيه ، فحذف للدلالة عليه فأما معنى «ليسؤوا» فقال أبو زيد: يقال: سؤته سأة وساءة ومساءة ومسائية وسوأية ، وقال «وجوهكم» على أن الوجوه مفعولا لـ «يسؤوا» وعدّي إلى الوجوه ، لان الوجوه قد يراد بها ذوو الوجوه كقوله « وكل شيء هالك إلا وجهه » [(٣)] وقال « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة» [(٤)] وقال « ووجوه يومئذ ناضرة» [(٥)] وقال النابغة :

أقارع عوفاً لا أحاول غيرها وجوه قرود تبتغي من تجادع [(٦)]

فكأن الوجوه إنما خصت بذلك ، لانها تدل على ما كان من تغير الوجوه من الناس ، من حزن أو مسرة ، وبشارة وكآبة .

وحجة من قرأ بالياء والجمع انه أشبه بما قبله وما بعده ، لان الذي جاء قبله «بعثنا عليكم رجالاً» وبعده «وليدخلوا المسجد» وهو بيت المقدس، والمبعوثون في الحقيقة هم الذين يسؤونهم لقتلهم إياهم وأسرهم لهم ، فهو وفق المعنى.

ومن قرأ بالياء والتوحيد ، ففاعل « ليسوءوا » أحد شيئين .

أحدهما ـ أن يكون اسم الله ، لأن الذي تقدم « بعثنا » « ورددنا لكم » و «امددناكم» .

والآخر ـ ان يكون البعث والوعد ، ودل عليه « بعثنا» المتقدم كقوله « لا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم » [(٧)] اي البخل .

---

(١) سورة ٥ المائدة اية ٣٠
(٢) سورة ٩٦ العلق اية ١٥
(٣) سورة ٢٨ القصص اية ٨٨
(٤) سورة ٨٠ عبس اية ٤٠
(٥) سورة ٧٥ القيامة اية ٢٣
(٦) ديوانه (دار بيروت) ٨٠ واللسان (جدع)
(٧) سورة ٣ آل عمران اية ١٨٠

ومن قرأ بالنون كان المعنى كقول من قدر أن الفعل ما تقدم من اسم الله وجاز ان تنسب المساءة الى الله ، وإن كانت من الذين جاسوا خلال الديار في الحقيقة ، لانهم فعلوها بقدرة الله وتمكينه ، فجاز ان تنسب اليه ، كما قال « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » [١] ويجوز ان يكون اللام في قوله « ليسؤوا » « وليدخلوا » « وليتبروا » لام العاقبة ، لان الله لا يريد منهم ذلك من حيث كان ذلك ظلماً وفساداً.

يقول الله تعالى لخلقه من المكلفين « إن أحسنتم » اي فعلتم الافعال الحسنة من الإنعام الى الغير ، والافعال الجميلة التي هي طاعة « أحسنتم لانفسكم » ، لان ثواب ذلك ، واصل اليكم « وإن أسأتم » إلى الغير وظلمتموه « أسأتم » لانفسكم لأن وبال ذلك وعقابه واصل اليكم ، وإنما قال « فلها » ليقابل قوله « احسنتم لانفسكم » والمعنى ان اسأتم فإليها ، كما يقال : احسن إلى نفسه ليقابل اساء الى نفسه ، على ان حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض اذا تقاربت معانيها ، قال تعالى « بأن ربك اوحى لها » [٢] والمعنى اوحى اليها . ومعنى انت في منتهى الاساءة ، وانت المختص بالاساءة ، متقارب .

« فإذا جاء وعد الآخرة » يعني وعد المرة الآخرة « ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد » يعني المبعوثين عليكم « كما دخلوه » في المرة الاولى يعنى غيرهم ، لان هؤلاء بأعيانهم لم يدخلوها في الدفعة الاولى « وليتبروا ما علوا تتبيرا » فالتبار والهلاك ، والدمار واحد ، وكل ما انكسر من الزجاج والحديد والذهب تبر . ومعنى « ما علوا تتبيرا » ما غلبوا عليه ، وجواب (اذا) محذوف وتقديره : فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم . وقيل: بعثناهم ليسؤوا .

قوله تعالى :

(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ

---

(١) سورة ٨ الانفال اية ١٧ (٢) سورة ٩٩ الزلزال اية ٥

لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً (٨) إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجراً كَبِيراً (٩) وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) (١٠)

ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وسلم : بأن قل لبني اسرائيل «عسى ربكم أن يرحمكم» إن أقمتم على طاعته وترك معاصيه (وعسى) من الله واجبة ، ويجوز ان يكون بمعنى الابهام على المخاطب . وقوله « وإن عدتم » يعني في معاصي الله، والكفر به وجحد أنبيائه « عدنا » في عذابكم ، والتسليط عليكم ، كما فعلناه أول مرة ، وقال ابن عباس وقتادة : عادوا فبعث الله عليهم المسلمين يذلونهم بالجزية والمحاربة إلى يوم القيامة . قوله « وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة : محبساً، والحصير الحبس ، ويقال للملك حصير ، لأنه محجوب ، قال لبيد :

وقماقم غلب الرقاب كأنهم جنّ لدى باب الحصير قيام[١]

وقال الحسن: يعني مهاداً، كما قال « لهم من جهنم مهاد »[٢] والحصير البساط المرمول ، يحصر بعضه على بعض بذلك الضرب من النسج ، ويقال للجنبين : الحصيران ، لحصرهما ما أحاطا به من الجوف وما فيه . وقيل لأن بعض أضلاعه حصر مع بعض، ويسمى البساط الصغير حصيراً، وحصير بمعنى محصور، كرضي بمعنى مرضي .

ثم أخبر تعالى أن هذا القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم « يهدي » اي يدل

---

(١) ديوانه ٣٩/٢ وتفسير القرطبي ٢٢٤/١٠ ومجاز القرآن ٣٧١/١ وتفسير الطبري ٣٠/١٥ : وسمط اللالي ٩٥٥ وروح المعاني ٢١/١٥ والصحاح، والتاج، واللسان (حصر)

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ٤١

« للتي هي أقوم » قال الفراء : لشهادة أن لا إله إلا الله . ويحتمل أن يكون المراد يهدي لجميع سبل الدين ، التي هي أصوب من غيرها : من توحيد الله ، وعدله ، وصدق انبيائه ، والعمل بشريعته ، وفعل طاعاته ، وتجنب معاصيه « ويبشر المؤمنين » يعني القرآن يبشرهم « بأن لهم أجراً كبيراً » وثواباً عظيماً ، على طاعاتهم ، ويبشرهم أيضاً بـ « أن الذين لا يؤمنون بالآخرة » ويجحدون البعث والنشور أعد الله لهم « عذاباً أليما » يعني مؤلماً موجعاً ، « واعتدنا » أصله أعددنا فقلبت إحدى الدالين تاء ، فراراً من التضعيف إلى حرف من مخرج الدال ، وتكون البشارة قد أوقعت على أن لهم الجنة ، وأن لعدوهم النار ، فلذلك نصب (أن) في الموضعين . ويحتمل أن يكون نصب (أن) الثانية على حذف اللام ، والتقدير ، لأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ، ولو كسرت على الاستئناف جاز غير أنه لا يقرأ به احد .

قوله تعالى :

(وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) (١٢) آيتان بلا خلاف.

قيل في معنى قوله « ويدع الانسان » قولان :

احدهما - ما ذكره ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد انه يدعو على نفسه وولده عند غضبه ، فيقول: اللهم العنه واغضب عليه وما اشبهه ، فيمنعه الله ، ولو اعطاه لشقّ عليه .

والثاني- قال قوم: انه يطلب ما هو شرّ له لتعجيل الانتفاع به مثل دعائه بما هو خير له ، ويقوي ذلك قوله « وكان الانسان عجولا » ومعنى قوله « وكان

الانسان عجولا » قال مجاهد : لأنه يعجل بالدعاء بما لا يجوز . وقال ابن عباس: على طبع آدم لما نفخ فيه الروح فبلغت إلى رجليه ، قبل ان تجري فيهما ، رام النهوض .

والعجلة طلب الشيء قبل وقته الذي لا يجوز تقديمه عليه او ليس بأولى فيه والسرعة عمل الشيء في أول وقته الذي هو أولى به .

ثم أخبر أنه تعالى جعل « الليل والنهار آيتين » يريد الشمس والقمر في هذا الموضع - عند قوم - وقال الجبائي: هما الليل والنهار، وهو الظاهر، وهما دليلان على توحيد الله ، لأن احداً لا يقدر على الاتيان بالنهار، ولا على اذهابه والاتيان بالليل ، وانما يقدر عليه القادر لنفسه الذي لا يتعذر عليه شيء .

ثم اخبر انه جعل احدى الآيتين ممحوة وهي الليل اي لا تبصر فيها المرئيات كما لا يبصر ما يمحى من الكتاب ، وهو من البلاغة العظيمة .

وقال ابن عباس : محو آية الليل السواد الذي في القمر ، وروي عن علي(ع) أنه اللطخة التي في القمر .

وقوله « وجعلنا آيه النهار مبصرة » قيل في معناه قولان :

أحدهما - مضيئه للابصار .

الثاني - جعلنا أهله بصراء فيه كما يقال : رجل مخبث أي أهله خبثاء ورجل مضعف أي أهله ضعفاء ، فكذلك النهار مبصراً أي أصحابة بصراء . ثم بين الغرض بذلك ، وانما جعله كذلك « لتبتغوا فضلا » أي تطلبوا فضلا من ربكم « ولتعلموا عدد السنين والحساب » في مواقيتكم ومعاملاتكم ومعرفة سنينكم وغير ذلك ، فيكثر بذلك انتفاعكم « وكل شيء فصلناه تفصيلا » أي ميزنا كل شيء تمييزاً ظاهراً بيناً لا يلتبس ، وبيناه بياناً لا يخفى .

قوله تعالى :

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (١٣) إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) (١٥) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ أبو جعفر « ويخرج » بضم الياء ، وفتح الراء ، وقرأ يعقوب بالياء وفتحها وضم الراء . الباقون بالنون ، وضمها ، وكسر الراء . واتفقوا على نصب « كتاباً » وقرأ ابن عامر وأبو جعفر « يلقاه » بضم الياء ، وفتح اللام وتشديد القاف . الباقون بفتح الياء وسكون اللام وفتح القاف وتخفيفها ، ونصب كل انسان بفعل يفسره « ألزمناه » وتقديره ألزمنا كل انسان ألزمناه ، كما قال « والقمر قدرناه »[1] فيمن نصب . ومعنى طائره قال ابن عباس ، ومجاهد وقتادة : عمله من خير أو شر كالطائر الذي يجيء من ذات اليمين ، فيتبرك به ، والطائر الذي يجيء من ذات الشمال فيتشاءم به ، وطائره عمله . والزام الله طائره في عنقه : الحكم عليه بما يستحقه من ثواب أو عقاب . وقيل : معناه ان يحكم بأن عمله كالطوق في عنقه . ثم اخبر تعالى أنه يخرج للانسان المكلف يوم القيامة كتاباً فيه جميع أفعاله مثبتة ما يستحق عليه ثواب او عقاب .

وقوله « يلقاه » قرأه ابن عامر بضم الياء وفتح اللام ، وتشديد القاف ، بمعنى ان الملائكة يستقبلونهم . الباقون بفتح الياء والقاف ، بمعنى أنهم يلقونه ويرونه .

فمن قرأ بالتخفيف ، فمن لقيت الكتاب ، فاذ ضاعفت قلت لقّانيه ، وقد يتعدى بتضعيف العين الى مفعولين بعد ان كان متعدياً الى مفعول واحد ، فاذا بني للمفعول به نقص مفعول واحد من المفعولين ، لأن أحدهما يقول مقام الفاعل ،

---

(١) سورة يس آية ٣٩

لاسناد الفعل اليه، فيبقى متعدياً الى مفعول واحد، وعلى هذا قوله « ويلقّون فيها تحية وسلاماً »[١] وفي البناء للفاعل «ولقّاهم نضرة وسروراً»[٢] وحكي عن الحسن ومجاهد أنهما قرءا « ويخرج » بفتح الياء وضم الراء، والمعنى يخرج طائره له « كتاباً » نصب على التمييز، وقيل في (طائره) أنه عمله . وقيل : أنه حظه، وما قدّمه من خير او شرّ قال المؤرج : الطائر العمل، بلغة الانصار ، ويكون المعنى على هذا ويخرج عمله له كتاباً أي ذا كتاب ، ومعناه أنه مثبت في الكتاب الذي قال فيه « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها »[٣] وقال « هاؤم اقرؤا كتابيه »[٤] وانما قيل لعمله طائره ـ وطيره في بعض القراءات ـ على تعارف العرب، يقولون: جرى طائره بكذا ، ومثله قوله « قالوا طائركم معكم »[٥] وقوله « انما طائرهم عند الله »[٦] وقال ابو زيد: ما مر من طائر أو ظبي أو غيره، كل ذلك عندهم طائر، قال ابو زيد : قولهم : سألت الطير ، وقلت للطير، انما هو زجر، وقولهم زجرلي الظباء والطير معناه وقع زجري عليهما ، على كذا وكذا ، من خير أو شرّ ، ومنه قول الكميت :

ولا أنا ممن يزجر الطير همّه ... أصاح عزاب أو تعرّض ثعلب[٧]

وقال حسان :

ذريني وعلمي بالامور وشيمتي ... فما طائري فيها عليك بأخيلا[٨]

اي ليس رأيي بمشوم ، وقال كثير :

أقول إذا ما الطير مرّت مخيلة ... لعلك يوماً فانتظر ان تنالها[٩]

معنى مخيلة مكروهة من الاخيل ، ومعنى « في عنقه » لزوم ذلك له وتعلقه

---

(١) سورة الفرقان آية ٧٥ (٢) سورة الدهر آية ١١
(٣) سورة الكهف آية ٥٠ (٤) سورة الحاقة اية ١٩
(٥) سورة ٣٦ يس اية ١٩ (٦) سورة الاعراف ١٣١
(٧) امالي الشريف المرتضى ١ : ٦٧ ومجمع البيان ٣ : ٤٠٣
(٨) ديوانه ٢٠٦ واللسان (خيل) ومجمع البيان ٣ : ٤٠٣
(٩) مجمع البيان ٣ : ٤٠٣

به ، ومثله قولهم : طوقتك كذا ، وقلدتك كذا اي الزمته إياك ومثله ، قلده السلطان كذا ، اي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ، وإنما خصّ إلزام الطائر بالعنق ، لأنه إضافة ما يزين من طوق ، او ما يشين من عمل يضاف الى الاعناق ، ولأن في عرف الناس ان يقولوا : هذا في رقبتك . وقد يضاف العمل الى اليد ايضاً كما قال « ذلك بما قدمت ايديكم »(١) وإن كان كسبه بفرجه ولسانه ، وغير ذلك ، وإنما يذم بذلك على وجه التقريع والتبكيت بما فعله من المعاصي ، ويكون في العلم بذلك لطف في دار الدنيا ، وان كان الله عالماً بتفصيل ما فعلوه .

وقوله « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » اي حسبك نفسك اليوم حاكماً عليك في عملك وما تستحقه من ثواب على الطاعة ومن عقاب على المعصية ، لانه أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك بعملك . وقيل معنى « حسيباً » شاهداً وشهيدا .

وقوله « من اهتدى » يعني فعل الخيرات والطاعات وانتفع بهداية الله إياه « فإنما يهتدي لنفسه » وأن ثواب ذلك واصل اليه « ومن ضلّ » اي جار عن الحق وعدل عن الصواب وارتكب المعاصي « فإنما يضل عليها » اي يجور عليها لأن عقاب ذلك ووباله واصل اليه ، لأن الله تعالى قال « لا تزر وازرة وزر أخرى » اي لا يأخذ احداً بذنب غيره ، والوزر الإثم ، وقيل معناه لا يجوز لأحد أن يعمل الإثم ، لأن غيره عمله ، والأول أقوى .

وقوله « وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا » اخبار من الله أنه لا يعاقب احداً على معاصيه ، حتى يستظهر عليه بالحجج وانفاذ الرسل ينبهونه على الحق ، ويهدونه اليه ويرشدونه الى سلوكه ، استظهاراً في الحجة ، لانه اذا اجتمع داعي العقل وداعي السمع الى الحق ، تأكد الامر وزال الريب فيما يلزم العبد ، وليس في ذلك دلالة على انه لو لم يبعث رسولا لم يحسن منه ان يعاقب اذا ارتكب العبد

---

(١) سورة آل عمران اية ١٨٢

القبائح العقلية، اللهم إلاّ أن يفرض أن في بعثه الرسول لطفاً، فإنه لا يحسن من الله تعالى مع ذلك أن يعاقب احداً إلاّ بعد أن يعرّفه ما هو لطف له ومصلحة لتزاح علته . وقيل : معناه « وما كنا معذّبين » بعذاب الاستئصال والاهلاك في الدنيا « حتى نبعث رسولا » .

وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة : من ان الله يعذب اطفال الكفار بكفر آبائهم ، لانه بين أنه لا يأخذ احداً بجرم غيره .

قوله تعالى :

(وإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) (١٦) آية بلا خلاف .

قرأ يعقوب « آمرنا » بمد الهمزة . وعن الحسن « أمّرنا » بالتشديد ، وروي عنه « أمِرنا » بكسر الميم خفيفة وهي ردية .

ذكر في هذه الآية وجوه أربعة :

أحدها ـ ان مجرد الاهلاك لا يدل على أنه حسن أو قبيح ، بل يمكن وقوعه على كل واحد من الأمرين ، فإذا كان واقعاً على وجه الظلم ، كان قبيحاً ، وإذا كان واقعاً على وجه الاستحقاق أو على وجه الامتحان ، كان حسناً ، فتعلق الارادة به لا يقتضي تعلقها على الوجه القبيح . وإذا علمنا أن القديم لا يفعل القبيح ، علمنا أن إرادته الاهلاك على الوجه الحسن .

وقوله « أمرنا مترفيها » المأمور به محذوف ، وليس يجب أن يكون المأمور به هو الفسق وان وقع بعده الفسق ، بل لا يمتنع أن يكون التقدير : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرناهم بالطاعة ، ففسقوا فيها فحق عليها القول ، وجرى ذلك مجرى قولهم : أمرته فعصى ودعوته فأبى ، والمراد أمرته بالطاعة ودعوته إلى الاجابة والقبول ، فعصى .

فإن قيل : أيّ معنى لتقدم الارادة ؟ فإن كانت متعلقة بإهلاك يستحق بغير الفسق المذكور في الآية ، فلا معنى لقوله « إذا أردنا ... أمرنا » ، لأن أمره بما يأمر به لا يحسن إرادته للعقاب المستحق بما تقدم من الأفعال، وإن كانت الارادة متعلقة بالاهلاك المستحق بمخالفة الأمر المذكور في الآية، فهو الذي تأبونه ، لأنه يقتضي أنه تعالى مريد لإهلاك من لم يستحق العقاب !!.

قلنا: لم تتعلق الارادة إلا بالإهلاك المستحق بما تقدم من الذنوب، وإنما حسن قوله « إذا أردنا ... أمرنا » أن في تكرار الأمر بالطاعة بالايمان إعذاراً للعصاة وإنذاراً لهم وإيجاباً للحجة عليهم ، ويقوي ذلك قوله قبل هذه الآية « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » منبهاً بذلك أنه أراد إثبات الحجة وتكررها عليهم

الثاني – أن يكون قوله « أمرنا مترفيها » من صفة القرية وصلتها ، ولا يكون جواباً لقوله « وإذا أردنا » ويكون تقدير الكلام : وإذا أردنا أن نهلك قرية من صفتها أنا « أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » ولا يكون لـ (إذا) جواب ظاهر في اللفظ ، للاستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة عليه، ومثله قوله « حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم » إلى قوله « فنعم أجر العاملين »(١) ولم يأت لـ (إذا) جواب في طول الكلام للاستغناء عنه ، وقال الهذلي :

حتى إذا أسلكوهم في قتائدة شلاً كما يطرد الجمالة الشردا(٢)

فحذف جواب (إذا) ولم يأت به ، لأن هذا البيت آخر القصيدة .

الثالث – أن يكون الكلام على التقديم والتأخير ، وتقديره إذا أمرنا مترفي قرية بالطاعة ، فعصوا ، واستحقوا العقاب ، أردنا إهلاكهم ،ويشهد بهذا التأويل قوله « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم»(٣) فالطهارة انما

(١) سورة ٣٩ الزمر اية ٧٣ – ٧٤
(٢) تفسير روح المعاني ١٥ :٣ وقد مر في ١ :١٢٨ ، ١٤٩
(٣) سورة ٥ المائدة اية ٦

تجب قبل القيام الى الصلاة . ومثله قوله « واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك »[١] وقيام الطائفة معه يجب أن يكون قبل إقامة الصلاة لأن إقامتها هو الاتيان بجميعها على الكمال . ومثله قوله « ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوّة »[٢] والتقدير ما إنّ مفاتحه لتنوء بها العصبة أي يثقلونها، ومثله قول الشاعر :

ذعرت القطا ونفيت عنـــه مقام الذئب كالرجل اللعين[٣]

أراد مقام الذئب اللعين ، وقد فصلوا بين المضاف والمضاف اليه قال الشاعر :

بين ذراعي وجبهة الأسد[٤]

اراد بين ذراعي الأسد وجبهته .

والرابع ـ أن يكون ذكر الارادة في الآية مجازاً واتساعاً وتنبيهاً على المعلوم من حال القوم وعاقبة أمرهم ، وأنهم متى أمروا فسقوا وخالفوا ، وجرى ذلك مجرى قولهم : إذا أراد التاجر أن يفتقر أتته النوائب من كل وجـــه ، وجاء الخسران من كل طريق ، وإذا اراد العليل ان يموت خلط في مأكله ، ومعلوم أن احداً ممن ذكرناه لم يرد ذلك ؛ لكن لما كان المعلوم من حال هذا الخسران ، ومن حال ذاك الهلاك ، حسن هذا الكلام ، وكان أفصح وأبلغ ، لما فيه من الاستعارة والمجاز الذي لا يكون الكلام بليغاً من دونهما . ويكون تلخيص الكلام : إذا اردنا اهلاك قرية كقوله « جداراً يريد ان ينقض »[٥] أمرناهم بالطاعة ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول .

وانما خصّ المترفون بذكر الأمر ، لأنهم الرؤوساء الذين من عداهم تبع لهم ، كما أمر فرعون ومن عداه تبع له من القبط . ومن حمله على ان المراد به أكثرْنا قال : لأن الأمر بالطاعة ليس بمقصور على المترفين ، بل هو عام لجميعهم ، فلذلك شدّد الميم أو مدّ الهمزة ..

---

(١) سورة ٤ النساء اية ١٠٢
(٢) سورة ٢٨ القصص اية ٧٦
(٣) مر هذا البيت في ١:٣٤٣ ، ٢:٤٧ ؛
(٤) تفسير الطبري ١٥ : ٣٤ (الطبعة الاولى)
(٥) سورة ١٨ الكهف اية ٧٧

وانما قال « ففسقوا فيها » ولم يقل : فكفروا ، لأن المراد فتمردوا في كفرهم لأن الفسوق في الكفر الخروج إلى افحشه ، فكأنه قال ففسقوا بالخروج عن الأمر الى الكفر .

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : المعنى أمرناهم بالطاعة ، ففسقوا ، ومثله امرتك فعصيتني .

ومن قرأ « أمّرنا مترفيها » بتشديد الميم من التأمير بمعنى التسليط ، وقد يكون بمعنى أكثرْنا . ويجوز ان يكون المعنى أكثرْنا عددهم أو مالهم ، وقرىء (آمرنا) ممدوداً ، والمعنى اكثرْنا مترفيها ، وإنما قيل في الكثرة آمر القوم ، لأنهم يحتاجون إلى أمير يأمرهم وينهاهم ، فقد آمروا لذلك ، قال لبيد :

ان يغبطوا يهبطوا وان آمروا يوماً يصيروا للهلاك والفند [1]

وروى والكند وقال بعضهم أمرنا بمعنى اكثرنا ، وقال ابو عمرو : ولا يكون من هذا المعنى (أمرنا) قال ابو عبيد : يدل على هذه اللغة قولهم : سكة مأبورة ومهرة مأمورة ، أي كثيرة الولد . ومن قال بالأول قال هذا لمكان الازدواج ، كما قالوا الغدايا والعشايا ، والغداء لا يجمع على غدايا ، ولكن قيل ذلك ليزدوج الكلام مع قولهم : العشايا ، وقال قوم : يقال أمر الشيء وأمّرته اي كثر وكثّرته لغتان ، مثل رجع ورجعته . والمشهور الاول . وإنما تعدى اما بالتضعيف او الهمزة ، وإذا كان مخففاً فهو من الأمر الذي هو خلاف النهي ، على ما بيناه . وقال المبرد : « أمرنا » خفيفة بمعنى اكثرنا ، وروى الجرمي : فعلت وأفعلت [2] - عن ابي زيد - بمعنى واحد ، قال وقرأته على الاصمعي . « ودمرنا » معناه أهلكنا ، والدمار الهلاك .

---

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٦١ والشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ٢٠٧ ولكن الكذب والفند الهلاك .

(٢) هذا ما في المخطوطة ، وكان في المطبوعة (ثقلت واثقلت) .

قوله تعالى :

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (١٨) وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً) (١٩) ثلاث آيات بلا خلاف .

اخبر الله تعالى بأنه اهلك من القرون من بعد نوح ، أمماً كثيرة ، لإن «كم» يفيد التكثير ضد (ربّ) الذي يفيد التقليل ، (والقرن) قيل : مئة وعشرون سنة - في قول عبدالله ابن أبي أوفى - وقال محمدبن القاسم المازني: هو مئة سنة ، وقال قوم : هو اربعون سنة. وادخلت الباء في قوله «كفى بربك» للمدح : كما تقول : ناهيك به رجلا ، وجاد بثوبك ثوباً ، وطاب بطعامك طعاماً واكرم به رجلا ، وكل ذلك في موضع رفع ، كما قال الشاعر :

ويخبرني عن غائب المرء هديه كفى الهدى عمّا غيّب المرؤ مخبرا[1]

فرفع لما اسقط الباء . والمعنى : كفى ربك عالماًوحسيباًبذنوب عباده بصيراً بها ، ثمّ قال «من كان يريد» المنافع «العاجلة» في الدنيا «عجلنا له فيها» يعني في الدنيا القدر الذي نريده لمن نريد ، لا على قدر ما يريدون ، لأن ما يريدونه ربما كانت فيه مفسدة، لا يجوز إعطاؤهم إياه، ثم بين انهإذا اعطاهم ما طلبوه عاجلاً جعل لهم جهنم جزاء ، على معاصيهم وكفرهم يصلونها مذمومين مدحورين، اي في حال ذمنا إياهم، يقال : ذأمته ، وذمته، وذممته بمعنى واحد

(١) مجمع البيان ٣ : ٤٠٧ وتفسير الطبري ١٥ : ٤٢

فهو مذؤم ومذيم ومذموم، ويكون ذأمته اي طردته، فهومذؤم. و «مدحوراً» اي متباعداً من رحمة الله دحرته أدحره دحراً اي باعدته .

ثم قال « ومن أراد الآخرة » اي خير الآخرة ، ثواب الجنة « وسعى لها سعيها» بأن فعل الطاعات وتجنب المعاصي، وهو مع ذلك مؤمن مصدق بتوحيد الله ومقر بأنبيائه ، فإن أولئك يكون « سعيهم مشكورا » اي تكون طاعاتهم مقبولة . وقال قتادة : شكر الله حسناتهم، وتجاوز عن سيآتهم. والمعنى أحلهم محلا يشكر عليه في حسن الجزاء كما قال: « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » [1] .

قوله تعالى :

(كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلَاءِ وَهؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠) أُنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولًا (٢٢) ثلاث آيات بلا خلاف .

قوله « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء » نصب (كلا) بـ « نمد » (وهؤلاء) بدل منه والمعنى إنا نعطي البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر في الدنيا. واما الآخرة فللمتقين خاصة « وما كان عطاء ربك محظوراً » اي لم يكن عطاء الله ممنوعاً ، ثم قال لنبيه والمراد به أمته معه « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » بأن جعلنا بعضهم اغنياء ، وبعضهم فقراء ، وبعضهم موالي ، وبعضهم عبيداً ، وبعضهم اصحاء وبعضهم مرضى ، بحسب ما علمنا من مصالحهم . ثم قال « وللآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا » لانهم معطون على مقدار طاعتهم؛ فمن كان كثير الطاعة

---

(١) سورة البقره اية ٢٤٥

حصلت له الدرجات العالية من الثواب . وإنما اراد يبين أن التفاضل في الدنيا إذا كان يتنافس عليه ، فالتفاضل في الجنة اولى بأن يرغب فيه .

ثم قال لنبيه والمراد به امته « لا تجعل مع الله إلهاً آخر » توجه إليه عبادتك وتستدعي الحوائج من قبله فإنك إن فعلت ذلك قعدت مذموماً مخذولاً ، واذا كان الخطاب عاماً كان التقدير ، فلا تجعل ايها الانسان مع الله إلهاً آخر . ونصب « فتقعد » لأنه جواب النهي .

قوله تعالى :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيماً (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً) (٢٤) آيتان بلا خلاف .

قرا حمزة والكسائي وخلف « يبلغان » بألف وكسر النون على التثنية . الباقون يبلغن على الوحدة . وقرأ ابن كثير ، وابن عباس ، ويعقوب «افّ» بفتح الفاء من غير تنوين . وقرأ اهل المدينة وحفص بكسر الفاء مع التنوين . الباقون بكسر الفاء من غير تنوين . ومثله في الاحقاف .

قال ابو علي الفارسي قوله « احدهما » مرتفع بالفعل ، وقوله « اوكلاهما » معطوف عليه ، والذكر الذي عاد من قوله « احدهما » يغني عن إثبات علامة الضمير في (يبلغنّ) ، فلا وجه لمن قال : إن الوجه إثبات الالف ، لتقدم ذكر الوالدين . ويجوز ان يكون رفع (احدهما) على البدل من الضمير في (يبلغان) ويجوز ان يرفعه بفعل مجدد على تقدير إما يبلغان عندك الكبر . يبلغ احدهما او كلاهما ،

ويكون رفعاً على السؤال والتفسير كقوله « وإسروا النجوى الذين ظلموا »[١] ومن اثبت الألف ، فعلى وجه التأكيد ، ولو لم يذكر لم يخلّ بالكلام نحو قوله « أموات غير أحياء »[٢] فقوله « غير أحياء »توكيد ، لأن قوله «اموات» دل عليه » قال : وقول ابن كثير (أفّ) يبني الفاء على الفتح ، لأنه وان كان في الأصل مصدراً من قولهم (أفه وتفه) يراد به نتناً وذفراً، لقد سمي الفعل به فبني، وهذا في البناء على الفتح كقولهم (سرعان ذا إهالة) لما سار اسماً لـ (سرع) ، فكذلك (أفّ) لما كان اسماً لـ (كره) ، ومثله ريداً، في أنه سمي به الفعل، فبني ولم يلحق التنوين إلا ان هذا للأمر والنهي ، واف في الخبر . وقول نافع في البناء على الكسر مع التنوين، مثل(أف)في البناء على الفتح: إلا أنه بدخول التنوين دل على التنكير مثل إيه ومه وصه ، ومثله قولهم صه ، فبنوه على الكسر ، وإن كان في الأصل مصدراً ، كما كان (أف) في الأصل كذلك ، ومن كسر ولم ينون جعله معرفة ، فلم ينون ، كما أن من قال : صه وضاف ، فلم ينون اراد به المعرفة .

وموضع(أف)على اختلاف القراءات موضع الجمل، مثل(رويد)في أن موضعه موضع الجمل وكذلك لو قلت : هذا فدا[٣] قال أبو الحسن . وقول من قال(اف) اكثر وأجود ولو جاء (أفاً لك) أحتمل أمرين : احدهما – أن يكون الذي صار إسماً للفعل لحقه التنوين لعلامة التنكير . والآخر أن يكون نصباً معرباً ، وكذلك الضمير ، فإن لم يكن معه لك كان ضعيفاً ، كما انك لا تقول ويل حتى تقرن به لك ، فيكون في موضع الخبر و (أف) كلمة يكنى بهـا عن الكلام القبيح وما يتأفف به ، لأن التف وسخ الظفر و (الاف) وسخ الاذن . وقيل التف كل ما رفعت بيدك من حقير من الأرض ، وقيل معنى الأف النوم ، وقيل

---

(١) سورة ٢١ الانبياء اية ٣ (٢) سورة ١٦ النحل اية ٢١

(٣) في المخطوطة (هذا قفا) ونسخة اخرى (هذا فداء لك) وقد تركنا ما في المطبوع على حاله فلم نغير فيه شيء .

الشر"، وقد جرى مجرى الاصوات ، فزال عنه الاعراب مثل (صه) ومعناه اسكت، ومه ومعناه كف" وهيهات هيهات اي بعيد بعيد ، فاذا نو"نت أردت النكرة أي سكوتا وقبحاً، واذا لم تنون أردت المعرفة. وإنما جاز تحريك الفاء بالضم والفتح والكسر ، لان حركتها ليست حركة إعراب، وانما هي حركة التقاء الساكنين فتفتح لخفة الفتحة ، وتضم اتباعاً للضم قبله ، وقيل تضم تشبيهاً بقبل وبعد وتكسر على أصل حركة التقاء الساكنين .

وفي (أف) سبع لغات: أفٍّ وافٌّ وافٍّ وافّا وأفي مماله، وزاد ابن الانباري بسكون الفاء . وروى عن الرضا عن أبية عن جعفر بن محمد (ع) انه قال (لو علم الله لفظ أوجز في ترك عقوق الوالدين من (أف) لاتى به) . فان قيل هل اباح الله أن يقال لهما أف قبل أن يبلغا الكبر؟ قلنا: لا، لأن الله أوجب على الولد إطاعة الوالدين على كل حال ، وحظر عليه أذاهما وإنما خص" الكبر ، لأن وقت كبر الوالدين مما يضطر فيه الوالدان إلى الخدمة اذا كانا محتاجين عند الكبر، وفي المثل يقال فلان أبر من النسر، لان النسر إذا كبر ولم ينهض للطيران جاء الفرخ فزقه، كما كان أبواه يزقانه ، ومثله قوله « ويكلم الناس في المهد وكهلا» (١) والوجه في قوله « وكهلا » مع ان الناس يكلمون كلهم حال الكهولة ان الله اخبر أن عيسى يكلم في المهد أعجوبة وأخبر أنه يعيش حتى يكتهل ويتكلم بعد الكهولة ، ونحوه قوله « والامر يومئذ لله»(٢) وانما خص" ذلك اليوم بأن الأمر لله، لأن في الدنيا مع أنه يملك، قد ملك اقواماً جعلهم ملوكاً وخلفاء ، وذلك اليوم لا يملك سواه .

معنى قوله «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا" إياه» أمر، في قول ابن عباس والحسن وقتادة وابن زيد . فإن قيل: الامر لا يكون أمراً بألا" يكون الشيء، لأنه يقتضي إرادة المأمور به، والإرادة لا تتعلق بألا" يكون الشيء ، وإنما تتعلق بحدوث الشيء .

قلنا : المعنى انه كره ربكم عبادة غيره وأراد منكم عبادته على وجه الإخلاص

---

(١) سورة ٣ ال عمران اية ٤٦ (٢) سورة ٨٢ الانفطار اية ١٩

وسمى ذلك أمراً بـ « أن لا تعبدوا إلا ّ إياه » لأن معناهما واحـــد . وقوله « وبالوالدين احساناً » العامل في الباء يحتمل شيئين: أحدهما – وقضى بالوالدين إحساناً . والثاني – وأوصى ، وحذف لدلالة الكلام عليه ، والمعنى متقارب ، والعرب تقول : أمر به خيراً وأوصى به خيراً، وقال الشاعر :

عجبت من دهماء إذ تشكونا ومن أبي دهماء اذ يوصينا
خيراً بها كأننا جافونا (١)

فأعمل «يوصينا» في الخير ، كما أعمل في الاحسان . وقوله « إمّا يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما » معناه متى بلغ واحد منهما أو هما الكبر « فلا تقل لهما أف » أي لا تؤذهما بقليل ولا كثير « ولا تنهرهما » أي لا تزجرهما بإغلاظ وصياح يقال: نهره ينهره نهراً، وانتهره انتهاراً إذا أغلظ له « وقل لهما قولا كريماً» أي شريفاً تكرمهما به . وتوقّرهما « واخفض لهما جنـــاح الذلّ » أي تواضع لهما واخضع لهما .

وقرأ سعيد بن جبير « الذل » بكسر الذال . والذل والذلة مصدر الذليل ، والذل مصدر الذلول ، مثل الدابة والارض تقول : جمل ذلول ، ودابـــة ذلول « وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً» أي ادع لهما بالمغفرة والرحمة كما ربّياك في حال صغرك . وقال قوم الاستغفار لهما منسوخ إذا كانا مشركين بقوله « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » (٢) . وقال البلخي : الآية تختص بالمسلمين .

قوله تعالى :

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ

---

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٤٤ (الطبعه الاولى)
(٢) سورة ٩ التوبة آية ١١٤

لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥) وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَى حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَابْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً) (٢٧) ثلاث آيات .

يقول الله تعالى مخاطباً للمكلفين من عباده إنه أعلم بهم ، ومعناه إن معلوماته أكثر من معلوماتكم ، وقد يقال: أعلم بمعنى أثبت فيما به يعلم ، فيجيء من هذا إن الله تعالى أعلم بأن الجسم حادث من الانسان العالم به . وكذلك كل شيء يمكن ان يعلم على وجوه متغايرة ، فالله تعالى عالم به على تلك الوجوه وإن خفي على الواحد منا بعضها .

ومعنى « بما في نفوسكم » اي بما تضمرونه وتخفونه عن غيركم ، فالله أعلم به منكم ، وفي ذلك غاية التهديد . ثم قال « ان تكونوا صالحين » اي تفعلون الأفعال الصالحة الحسنة الجميلة ، فان الله « كان للأوابين غفورا » معنى «الأوّابين» التوابين وهم الذين يتوبون مرة بعد مرة ـ في قول سعيد بن المسيب ـ كلما أذنب ذنباً بادر بالتوبة . وقال سعيد بن جبير ، ومجاهد: الأواب هو الراجع عن ذنبه بالتوبة . وأصله الرجوع يقال : آب يؤوب أوباً إذا رجع من سفره ، قال عبيد بن الأبرص .

وكل ذي غيبة يؤب   وغائب الموت لا يؤب[1]

ثم قال « وآت ذا القربى حقه » وهو أمر من الله لنبيه ﷺ ان يعطي ذوي القربى حقوقهم التي جعلها الله لهم ، فروي عن ابن عباس والحسن : انهم قرابة الانسان . وقال علي بن الحسين (ع) : هم قرابة الرسول ، وهو الذي رواه ايضاً اصحابنا . وروي أنه لما نزلت هذه الآية استدعى النبي ﷺ فاطمة (ع) وأعطاها فدكاً وسلمه اليها ، وكان وكلاؤها فيها طول حياة النبي ﷺ ، فلما مضى النبي ﷺ

(١) ديوانه (دار بيروت) ٢٦ وتفسير الطبري ١٥ : ٤٨

أخذها ابو بكر ، ودفعها عن النحلة . والقصة في ذلك مشهورة ، فلما لم يقبل بيّنتها، ولا قبل دعواها طالبت بالميراث، لأن من له الحق إذا منع منه من وجه جاز له ان يتوصل اليه بوجه آخر، فقال لها : سمعت رسول الله ﷺ يقول (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) فمنعها الميراث أيضاً وكلامهما في ذلك مشهور ، لا نطول بذكره الكتاب .

وقوله « والمسكين وابن السبيل » أي واعطوا هؤلاء أيضاً حقوقهم التي جعلها الله لهم من الزكوات وغير ذلك . ثم نهاهم عن التبذير بقوله « ولا تبذر تبذيرا » والتبذير التفريق بالاسراف . وقال عبد الله : التبذير إنفاق المال في غير حقه ، وهو قول ابن عباس وقتادة . وقال مجاهد لو انفق مدّاً في باطل كان تبذيرا .

ثم قال « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » وقيل في معناه قولان .

احدهما – إن الشيطان أخوهم باتباعهم آثاره وجريهم على سنته .

والثاني – انهم يقرنون بالشيطان في النار . ثم أخبر عن حال الشيطان بأنه كفور لنعم الله تعالى وجاحد لآلائه .

قوله تعالى

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) (٣٠)

ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى « وإمّا تعرضنّ » وتقديره ، وإن تعرض و (ما) زايدة . والمعنى : ومتى ما صرفت وجهك عنهم ، يعني عن الذين أمروا بإعطائهم حقوقهم ممن تقدم ذكره ، لأنه قد يعرض عند عوز ما طلبوه ، ليبتغي الفضل من الله ، والسعة التي يمكنه معهـا البذل ، والتقدير وإذا أتتك قرابتك أو سواهم من المحتاجين يسألونك فأعرضت عنهم ، لأنه لا شيء عندك، فقل لهم قولا حسناً ، اي عدهم عدة جميلة . والاعراض صرف الوجه عن الشيء ، وقد يكون عن قلى ، وقد يكون للاشتغال بما هو الاولى ، وقد يكون لاذلال الجاهل مع صرف الوجه عنه ، كما قال « واعرض عن الجاهلين »(١) وقوله « ابتغاء رحمة من ربك ترجوها » والابتغاء الطلب . وقوله « ترجوها » معناه تأملهـا ، والرجاء تعلق النفس بطلب الخير ممن يجوز منه ، ومن يقدر على كل خير وصرف كل شر ، فهو أحق بأن يرجا ، ولذلك قال أمير المؤمنين (ع) (ألا لا يرجون احدكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه) .

وقوله : « وقل لهم قولاً ميسوراً » المعنى إذا أعرضت ابتغاء رزق من ربك، فقل لهم قولا ليناً سهلا، مثل: زقنا الله تعالى ، وهو قول الحسن ومجاهد وابراهيم وغيرهم. وقال ابن زيد : تعرض عنهم إذا خشيت أن ينفقوا بالعطية على معاصي الله ، فيكون تبتغي رحمة من الله لهم بالتوبة ، وأصل التيسير التسهيل ، واليسر خلاف العسر ، وقد يكون التيسير بالتقليل ، فيسهل عليه لقلته ، ويكون بمنزلة المعونة على عمله .

ثم قال تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك » أي لا تكن ممن لا يعطي شيئاً ولا يهب ، فتكون بمنزلة من يـده مغلولة إلى عنقه ، لا يقدر على الاعطاء وذلك مبالغة في النهي عن الشحّ والامساك « ولا تبسطها كل البسط » أي ولا تعط ايضاً جميع ما عندك ، فتكون بمنزلة من بسط يده حتى لا يستقر فيها شيء وذلك كناية عن الاسراف . وقوله « فتقعد ملوماً محسوراً » معناه إن امسكت

---

(١) سورة ٧ الاعراف اية ١٩٩

قعدت ملوماً عند العقلاء مذموماً ، وإن اسرفت بقيت محسوراً، أي مغموماً متحسراً ، وأصل الحسر الكشف من قولهم ، حسر عن ذراعيه يحسر حسراً ، إذا كشف عنها . والحسرة الغم لا نحسار ما فات، ودابة حسير إذا كلت لشدة السير ، لانحسار قوتها بالكلال . وكذلك قوله « ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير »[1] والمحسور المنقطع به لذهاب ما في يده، وانحساره انقطاعه عنه ، قال الهذلي :

إن العسير بها داء مخامرها فشطرها نظر العينين محسور[2]

ثم قال « إن ربك » يا محمد « يبسط الرزق لمن يشاء » فيوسعه عليه على حسب ما يعلم له من المصلحة فيه « ويقدر » أي يضيق عليه لعلمه بما فيه من الصلاح ، كما قال « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض[3] » وقوله « انه كان بعباده خبيراً بصيراً » أي وهو عالم بأحوالهم ، لا يخفى عليه ما يصلحهم ، وما يفسدهم ، فيفعل معهم بحسب ذلك .

قوله تعالى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً) (٣٣) ثلاث آيات .

---

(١) سورة ٦٧ الملك (تبارك) اية ٤

(٢) الشاعر هوقيس بن خويلد الهذلي ، الكامل ١٠٩ ، ٤١٠ واللسان والتاج (حسن) (شطر)ومجاز القران ١ : ٣٧٥

(٣) سورة ٤٢ الشورى اية ٢٧

قرأ ابن كثير «خطاء» بكسر الخاء وبألف بعد الطاء ممدوداً . وقرأ ابو جعفر وابن ذكوان - بفتح الخاء والطاء - من غير ألف بعدها وبغير مد . الباقون بكسر الخاء من غير مد ، إلا ان الداجوني عن هشام روى وجهين : أحدهما - مثل أبي عمرو ، والآخر - مثل أبي جعفر . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً « فلا تسرف » بالتاء . الباقون بالياء . قال ابو علي الفارسي : قول ابن كثير (خِطاء) يجوز ان يكون مصدر خاطأ ، وان لم يسمع (خاطأ) ولكن قد جاء ما يدل عليه ، لأن ابا عبيدة انشد :

تخاطأت النبل أحشاءه[١]

وانشدنا محمد بن السدي في وصف كمأة :

وأشعث قد ناولته أحرس القرى أدرّت عليه المدجنات الهواضب

تخاطاءه القُنّاص حتى وجدته وخرطومه من منقع الماء راسب[٢]

فتخاطأت مما يدل على خاطأ ، لأن (تفاعل) مطاوع (فاعل) كما ان (تفعّل) مطاوع فعّل ، وقول ابن عامر (خطأ) ، فان الخطأ ما لم يتعمد ، وما كان المأثم فيه موضوعاً عن فاعله ، وقد قالوا : اخطأ في معنى خطىء ، كما ان خطىء في معنى اخطأ ، قال الشاعر :

عبادك يخطئون وأنت ربٌ كريم لا تليق بك الذُّموم[٣]

ففحوى الكلام أنهم خاطئون ، وفي التنزيل «لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا» فالمؤاخذة من المخطىء موضوعة ، فهذا يدل على ان اخطأ في قوله :

يا لهف هند إذ خطئن كاهلا[٤]

«١» تفسير القرطبي ١٠ : ٢٥٣ واللسان « خطىء » وعجزه :

واخر يوم فلم اعجل

«٢» تفسير القرطبي ١٠ : ٢٥٣ وتفسير روح المعاني ١٥ : ٦٧ (٣) اللسان «خطا»

(٤) قائله امرؤ القيس : ديوانه « الطبعة الرابعة » ١٧٥ واللسان « خطأ » . وهو مطلع رجز قاله عند ما اغار على بني اسد لما نزلوا على بني كنانة وبعده :

تالله لا يذهب شيخي باطلا حتى ابير مالك وكاهلا

القاتلين الملك الحلاحلا

وفي قول آخر :

والناس يلحون الأمير اذا هم خطئوا الصواب ولا يلام المرشد[١]

اي اخطؤه، وكذلك قول ابن‌عامر (خطأ) في معنى أخطأ، وجاء الخطأ في معنى الخطاء، كما جاء خطىء في معنى اخطأ . وقال ابو الحسن : هذا خطاء من رايك؛ فيمكن أن‌يكون خطأ لغة فيه أيضاً. ومن قرأ «خطأ» فلانه‌يقال خطىء يخطأ خطأ إذا تعمد الشيء حكاه الاصمعي ، والفاعل منه خاطىء ، وقد جـاء الوعيد فيه في قوله « لا يأكله إلا الخاطئون »[٢] ويجوز أن يكون الخطأ لغة في الخطأ مثل المثل والمثل ، والشبه والشبه، والبدل والبدل ، قال الفراء: لغتان مثل قتب وقتب ، وبدل وبدل، وحكى ابن دريد عن أبي حاتم ، قال تقول : مكان مخطؤ فيه من خطئت ومكان مخطأ فيه من اخطأ يخطىء ، ومكان مخطوّ بغير همزة من تخطى الناس فيخطىّ ، ومن‌همزه تخطّيت النـــاس، فقد غلط وقال المبرد: خطّأه وخطاه بمعنى ، عند ابي عبيدة والفراء والكسائي ، إلاّ ان (الخطأ) بكسر الخاء أكثر في القرآن (والخطأ) بالفتح افشى في كلام الناس ولم يسمع الكثير في شيء‌من‌اشعارهم الا في بيت قاله الشاعر :

الخطأ فاحشة والبرّ فــاضلة كعجوةغرست في الأرض توبير[٣]

قال ابو عبيد : وفيه لغتان، خطئت وأخطأت، فمن قال : خطئت قال‌خطأ الرجل يخطأ خطأ ، وخطاء، يكون الخطأ بفتح الخاء هو المصدر ، وبكسرها الاسم . ومن قال اخطأت كان الخطأ بالفتح والكسر ، جميعاً اسمين والمصـدر الإخطـاء .

وقال أبو علي: قوله « فلا يسرف في القتل » فاعل يسرف يجوز أن يكون أحد شيئين :

أحدهما ـ أن‌يكون القاتل الأول، فيكون‌التقدير فلا يسرف‌القاتل في‌القتل

---

(١) قائله عبيد ابن الابرص . ديوانه « دار بيروت » ٥٨ وروايته (إذا غوى خطب) وقد مر في ٢ : ٣٨٧

(٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ٣٧ (٣) تفسير الطبري ١٥ : ٥٤

وجاز أن يضمر ، وإن لم يجر له ذكر ، لأن الحال تدل عليه ، ويكون تقديره بالاسراف جارياً مجرى قوله في أكل مال اليتيم « ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا »[١] وإن لم يجز أن تأكل منه لا على الاقتصاد ولا على غيره ، لقوله «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نـاراً »[٢] فحظر أكل مال اليتيم حظراً عاماً وعلى كل حال ، فكذلك لا يمتنع أن يقال للقـاتل الأول لا تسرف في القتل ، لأنه يكون بقتله مسرفاً، ويؤكد ذلك قوله «ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم »[٣] فالقاتل داخل في هذا الخطاب ـ بلا خلاف ـ مع جميع مرتكبي الكبائر ، ويكون الضمير على هذا في قوله «انه كان منصوراً» على قوله «ومن قتل مظلوماً»[وتقديره ، فلا يسرف القاتل الأول بقتله في القتل ، لأن من قتل مظلوماً كان منصوراً][٤] بأن يقتص له وليه أو السلطان إن لم يكن له ولي غيره ، فيكون هذا ردعاً للقاتل عن القتل ، كما أن قوله « ولكم في القصـــاص حياة »[٥] كذلك ، فالولي إذا اقتص ، فإنما يقتص للمقتول ، ومنه انتقـل إلى الولي بدلالة أن المقتول يبرىء من السبب المؤدي إلى القتل ، ولم يكن للولي أن يقتص، ولو صالح الولي من العمد ـ على مال كان ـ للمقتول أن يؤديه منه ديناً عليه أن يقتص منه دون المقتول، ولا يمتنع أن يقال في المقتول منصور، لانه قد جاء قوله « ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا » .

والآخر ـ أن يكون في يسرف ضمير الولي ، وتقـديره فلا يسرف الولي في القتل، وإسرافه فيه أن يقتل غير من قتل او يقتل اكثر من قاتل وليه ، لان مشركي العرب كانوا يفعلون ذلك ، والتقدير فلا يسرف في القتـل ان الولي كان منصوراً بقتل قاتل وليه . والاقتصاص منه .

ومن قرا بالتاء احتمل ايضاً وجهين :

---

(١) سورة ٤ النساء اية ٥
(٢) سورة النساء اية ٩
(٣) سورة ٣٩ الزمر اية ٥٣
(٤) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة
(٥) سورة البقرة اية ١٧٩

احدهما - ان يكون المستثنى القاتل ظلماً، فقيل له لا تسرف ايها الإنسان القتل ظلماً من ليس لك قتله، اذ من قتل مظلوماً كان منصوراً بأخذ القصاص له.

والآخر - ان يكون الخطاب للولي، والتقدير لا تسرف في القتل ايها الولي فتتعدى قاتل وليك الى من لم يقتله، لان المقتول ظلماً كان منصوراً، وكل واحد من المقتول ظلماً ومن وليّ المقتول قد تقدم في قوله « ومن قتل مظلوماً » الآية .

وقوله « ولا تقتلوا » يحتمل موضعه شيئين من الاعراب:

احدهما - ان يكون نصباً بـ « قضى ربك ان لا تعبدوا إلا إياه... ولاتقتلوا»

ويحتمل ان يكون جزماً على النهي، فيكون الله تعالى نهى الخلق عن قتل اولادهم خشية الاملاق .

و (الاملاق) الفقر، وهو قول ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وانما نهاهم عن ذلك لانهم كانوا يئدون البنات بدفنهم احياء فنهاهم الله عن ذلك .

وقوله « نحن نرزقهم وإياكم » إخبار منه تعالى انه الذي يرزق الاولاد والآباء فلا ينبغي قتلهم خوف الفقر، واخبر ان قتلهم في الجاهلية « كان خطأ كبيراً » وهو الآن خطأ وإثم كبير، ثم قال « ولا تقربوا الزنى » ومعناه لا تزنوا، والزنا هو وطؤ المراة حراماً بلا عقد ولا شبهة عقد مختاراً، ثم اخبر ان الزنا فاحشة اي معصية كبيرة «وساء سبيلا» اي بئس الطريق ذلك . وفي الناس من قال : الزنا قبيح بالعقل لما في ذلك من ابطال حق الولد على الوالد، وفساد الانساب. وقوله « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله » نهي من الله تعالى عن قتل النفوس المحرم قتلها، واستثنى من ذلك من يجب عليه القتل إمّا لكفره، اوردّته، او قتله قصاصاً، فان قتله كذلك حق، وليس بظلم، وقد فسرنا تمام الآية .

والسلطان الذي جعله الله للولي، قال ابن عباس، والضحاك: هو القَود أو الدّية او العفو . وقال قتادة الهاء في قوله « انه كان منصوراً » عائدة على الولي. وقال مجاهد عائدة على المقتول . ونصرة الله له بذلك حكمه له بذلك . وقيل نصرة النبي والمؤمنين، ان يعينوه. وقيل الولي هم الوراث من الرجال من الاولاد الذكور ومن الاقارب من كان من قبل الاب .

قوله تعالى :

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلًا (٣٤) وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا) (٣٦) ثلاث آيات .

قرأ اهل الكوفة إلا ابا بكر عن عاصم « بالقسطاس » بكسر القاف . الباقون بالضم ، وهما لغتان . وقال الزجاج : القسطاس هو الميزان صغر او كبر . وقال الحسن : هو القبان . وقال مجاهد : هو العدل بالرومية وهو القرصطون . وقال قوم: هو الشاهين . وقرأ ابو بكر عن عاصم « بالقصطاس » بالصاد قلبت السين صاداً مثل (صراط ، وسراط) لقرب مخرجهما .

في الآية الاولى نهي من الله تعالى لجميع المكلفين ان يقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي احسن ، وهو ان يحفظوا عليه ويثمروه او ينفقوا عليه بالمعروف على ما لا يشك انه اصلح له ، فأمّا لغير ذلك ، فلا يجوز لاحد التصرف فيه . وانما خصّ اليتيم بذلك وان كان التصرف في مال البالغ بغير اذنه لا يجوز ايضاً ، لان اليتيم الى ذلك احوج والطمع في مثله اكثر .

وقوله «حتى يبلغ اشده» قال قوم: حتى يبلغ ثمانية عشرة سنة. وقال آخرون: حتى يبلغ الحلم . وقال آخرون - وهو الصحيح - حتى يبلغ كمال العقل ويؤنس منه الرشد .

وقوله « واوفوا بالعهد » امر من الله تعالى بالوفاء بالعهود ، وهو العقد الذي يقدم للتوثق من الامر ، ومتى عقد عاقد على ما لا يجوز ، فعليه نقض ذلك العقد

الفاسد والتبرؤ منه . وانما يجب الوفاء بالعقد الذي يحسن . وقيل المعنى في الآية اوفوا بالعهد في الوصية بمال اليتيم وغيرها. وقيل كل ما امر الله به ونهى عنه، فهو من العهد ، وقد يجب الشيء للنذر ، وللعهد، والوعد به ، وان لم يجب ابتداء ، وانما يجب عند العقد .

وقوله « ان العهد كان مسؤولا » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ انه كان مسؤولاً عنه للجزاء عليه، فحذف (عنه) لانه مفهوم .

والثاني ـ كأن العهد يسأل فيقال له : لم نقضت ؟ كما تسأل الموؤدة بأي ذنب قتلت . ثم امرهم ان يوفوهم الكيل اذا كالوا هم ؛ ولا يبخسوهم ولا ينقصوهم، وان يوفوا، بالميزان المستقيم الذي لا غبن فيه ؛ فإن ذلك خير واحسن تأويـــلا ، اي احسن عاقبة ، وهو ما يرجع اليه امره . ثم نهى نبيه ﷺ ان يقفو ما ليس له به علم، وهو متوجه الى جميع المكلفين، ومعناه لا تقل: سمعت، ولم تسمع؛ ولا رايت ولا علمت، ولم تر، ولم تعلم ـ في قول قتادة ـ واصل القفو اتباع الاثر، ومنه القيافة، وكأنه يتبع قفا الاثر المتقدم قال الشاعر :

ومثل الدمى شم العرانين ساكن بهن الحيا لايشعن التقافيــــا[1]

أي التقاذف . وقال أبو عبيد والمبرد: القفو العضيهة ، « ولا تقف » ـ بضم القاف وسكون الفاء ـ من قاف يقوف ، ويكون من المقلوب مثل جذب وجبذ.

« ومسؤولاً » نصب على أنه خبر كان .

واستدل بهذه الآية ، على أنه لا يجوز العمل بالقياس ولا بخبر الواحد ، لأنهما لا يوجبان العلم، وقد نهى الله تعالى أن يتبع الانسان ما لا يعلمه. وقوله «ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا » أي يسأل عما يفعل بهذه الجوارح من الاستماع لما لا يحل ، والإبصار لما لا يجوز . والارادة لما يقبح . وإنما قال «كل اولئك » ولم يقل كل ذلك ، لأن اولئك وهؤلاء للجمع القليل من المذكر والمؤنث فإذا أراد الكثير جاء بالتأنيث . فقال : هذه وتلك ، قال الشاعر:

---

(١) قائله النابغة الجعدي . شواهد الكشاف ٣٢٧ وتفسير الطبري ١٥/٥٨ ومجاز القرآن ١/٣٧٩

ذم المنازل بعد منزلة اللّوى والعيش بعد أولئك الأيام[١]

قوله تعالى :

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً) (٣٩) ثلاث آيات .

قرأ ابن كثير وأبوعمرو ونافع «سيء» منوناً غير مضاف. الباقون على الاضافة

فمن قرأ على الاضافة قال : لأنه قد تقدم ذكر حسن وسيء في قوله « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » فخصّ من ذلك السيء بأنه مكروه عند الله، لانه تعالى لا يكره الحسن، وقوّوا ذلك بقراءة أُبي «كان سيئاته» بالجمع مضافاً . وقال آخرون إنما أراد بذلك المنهي عنه فقط ، وقالوا : ليس فيما نهى الله تعالى عنه حسن بل جميعه مكروه، «وكل»وإن كان لفظه لفظ الواحد فمعناه معنى الجميع ، فلذلك قال كان بلفظ الواحد . ومثله قوله « وكل أتوه داخرين»[٢] وقال « ان كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا »[٣] و(مكروهاً) على هذه القراءة نصب على الحال من الضمير في « عند ربك » أو يكون بدلاً من قوله « سيئه » .

وفي ذلك دلالة على بطلان مذهب المجبرة من أنّ الله تعالى يريد المعاصي، لان هذه الآية صريحة بأن السيء من الافعال مكروه عند الله .

---

(١) تفسير القرطبي ٢٦٠/١٠ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٢١٩/٣ وروح المعاني ١٥ : ٧٤

(٢) سورة ٢٧ النمل آية ٨٧ (٣) سورة ١٩ مريم آية ٩٤

وقوله « ولا تمش في الارض مرحا » نهي للنبي ﷺ والمراد به الأمة أن يمشوا في الأرض مرحين .

وقيل في معنى المرح أربعة أقوال : اولها – انه البطر والأشر. والثاني – التبختر في المشي والتكبر. الثالث – تجاوز الانسان قدره مستخفاً بالواجب عليه والرابع – شدة الفرح بالباطل .

وقوله « انك لن تخرق الارض » مثل ضربه الله بانك يا إنسان لن تخرق الأرض من تحت قدمك بكبرك « ولن تبلغ الجبال » بتطاولك . والمعنى انك لن تبلغ بما تريد كثير مبلغ، كما لا يمكنك ان تبلغ هذا، فما وجه المكابرة على ما هذه سبيله مع زجر الحكمة عنه . وأصل الخرق القطع ، خرّق الثوب تخريقاً أي قطعة ورجل خرق أي يقطع الأمور التي لا ينبغي ان يقطعها . والخرق الفلاة، لانقطاع اطرافها بتباعدها قال رؤبة :

وقائم الاعماق خاو المخترق مشتبه الاعلام لماع الخفق[1]

أي خاو المنقطع ، والمرح شدة الفرح ، مرح يمرح مرحاً ، فهو مرح . وقال قتادة : مرحاً خيلاء وكبراً . وقوله « ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة » أي ذلك الذي ذكرناه وقصصناه من جملة ما اوحى اليك يا محمد ربك من الحكمة أي الدلائل التي تؤدي إلى المعرفة بالحسن والقبيح ، والفرق بينهما ، والواجب مما لا يجب ، وذلك كله مبين في القرآن ، فهو الحكمة البالغة. ثم نهاه ان يتخذ مع الله معبوداً آخر يشركه في العبادة مع الله، فانك متى فعلت ذلك ألقيت في جهنم ملوماً ، أي مذموماً « مدحوراً » مطروداً – في قول ابن عباس .

قوله تعالى :

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَٰئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ

(١) ديوانه ١٠٨ وقد مر قسم من هذا الرجز في ١ : ٢٩٦ وفي ٤ : ٢٩٧

قَوْلًا عَظِيماً (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا ٱلْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا) (٤٢) ثلاث آيات بلا خلاف.

الألف في « أفأصفاكم » ألف استفهام ، والمراد بها الإنكار لانه لا جواب لمن سئل إلا بما فيه أعظم الفضيحة ، وفي ذلك تعليم سؤال المخالفين للحق ، وهذا خطاب لمن جعل لله بنات ، وقال الملائكة بنات الله ، فقال الله تعالى لهم : أأخلص لكم البنين واختار لكم صفوة الشيء دونه؟ وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه ، فاختصكم بالأرفع وجعل لنفسه الادون؟!! ثم أخبر أنهم يقولون في ذلك «قولا عظيماً » أي عظيم الوبال والوزر .

وقوله « لقد صرفنا في هذا القرآن ليتذكّروا » وقرأ حمزة والكسائي في جميع القرآن خفيفاً، من ذكر يذكر . والباقون بالتشديد في جميع القرآن بمعنى ليتذكروا، فادغموا التاء في الذال . وفي ذلك دلالة على بطلان مذهب المجبرة لأنه أراد التصريف في القرآن، ليذكر المشركون ما يردهم إلى الحق ، وهذا مما علقت الارادة الفعل فيه بالمعنى من التذكر . ولولاها لم يتعلق . ثم اخبر انه وان اراد منهم الإيمان والهداية بتصريف القرآن لا يزدادون هم إلا نفورا عنه .

فان قيل كيف يجوز أن يفعل تعالى ما يزدادون عنده الكفر ؟ وهل ذلك الا استفساد ومنع اللطف ؟!

قلنا : ليس في ذلك منع اللطف ، بل فيه إظهار الدلائل ، مما لا يصح التكليف إلا معه ولو لم تظهر الدلائل ، لازدادوا فسادا بأعظم من هذا الفساد ، وفي إظهار الدلائل صلاح حاصل لمن نظر فيها وأحسن التدبر لها . وإنما جاز أن يزدادوا بما يؤنس من الدلائل نفوراً ، باعتقاد هم أنها حيل وشبه ، فنفروا منها أشد النفور لهذا الاعتقاد الفاسد ، ومنعهم ذلك من التدبر لها وادراك منزلتها في عظم الفائدة ، وجلالة المنزلة .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « قل » يا محمد لهؤلاء المشركين «لو كان مع الله آلهة» أخرى كما يزعمون « لابتغوا » مـــا يقربهم اليه لعـــلوّه عليهم وعظمته عندهم – في قول قتادة والزجاج – وقال الحسن والجبائي : لا تبغوا سبيلا إلى مغالبته ومضادّته ، كما قال « لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا » (١)

قوله تعالى :

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَاتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤) وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً) (٤٥) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ أهل العراق إلا أبا بكر « تسبح » بالتاء . وقرأ ابن كثير وحفص « عمّا يقولون» بالياء . وقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر « عما تقولون » بالتاء .

قال ابو علي: فمن قرأ «عما يقولون» بالياء فالمعنى على ما يقول المشركون. ومن قرأ بالتاء يحتمل شيئين :

احدهما – أن يعطف على قوله « كما تقولون » كما عطف قوله «يحشرون » على « ستغلبون » .

والثاني – ان يكون نزه نفسه عن دعواهم، فقال «سبحانه عما يقولون» . وقرأ عاصم ونافع وابن عامر وابن عباس: بالياء عطف على ماتقدم. وقوله «عما يقولون»

(١) سورة ٢١ الانبياء اية ٢٢

على أنه نزه نفسه عن قولهم أو على معنى قل لهم سبحانه عما يقولون فأمّا قوله «يسبح» بالياء والتاء، فحسنان. وقد بينا في غير موضع معناه، ويقوّي التأنيث قراءة عبدالله فسبحت له السموات.

لما اخبر الله تعالى أنه «لو كان معه آلهة» سواه على ما يدعيه المشركون «ليبتغوا الى ذي العرش سبيلاً» ونزه نفسه عن ذلك، فقال «سبحانه» ويحتمل أن يكون أمر نبيه أن يقول «سبحانه» أي تنزيهاً له تعالى «عما يقولون» أى عن قولهم، ويجوز ان يكون المراد عن الذي يقولونه من الأقوال الشنيعة فيه بأن معه آلهة «علوّاً كبيراً» وإنما لم يقل تعالياً، لأنه وضع مصدراً مكان مصدر نحو «وتبتل اليه تبتيلا» [1] ومعنى «تعالى» اي صفاته في أعلى المراتب، فانه لا مساوي له فيها، لأنه قادر، ولا أحد أقدر منه، وعالم لا أحد أعلم منه، ولا مساوي له في ذلك.

ثم أخبر أنه «يسبح له» اي ينزهه عن ذلك «السموات السبع والأرض ومن فيهن» يعني في السموات والارض من العقلاء، وتنزيه السموات والارض هو ما فيها من الدلالة على توحيده وعدله، وأنه لا يشركه في الإلهية سواه. وجرى ذلك مجرى التسبيح باللفظ، وتسبيح العقلاء يحتمل ذلك: تسبيحهم باللفظ، غير أن ذلك يختص بالموحدين منهم دون المشركين.

وقوله «وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده» اي ليس شيء من الموجودات إلا يسبح بحمد الله؛ يعني كل شيء يسبح بحمده، من جهة خلقته، او معنى صفته إذ كل موجود سوى القديم تعالى حادث، يدعو الى تعظيمه لحاجته إلى صانع غير مصنوع، صنعه أو صنع من صنعه، فهو يدعو إلى تثبيت قديم غني بنفسه عن كل شيء سواه، لا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات، وما عداه الحادث يدل على تعظيمه بمعنى حدثه من معدوم لا يصح الا به، لدخوله في مقدوره او مقدور

---

(١) سورة ٧٣ المزمل آية ٨

مقدوره ومما سبحه من يسبح بحمده من جهته، معنى صفة في قوله ، فهو على العموم في كل شيء .

وقال بعضهم : سل الارض من شقّ أنهارك ؟ وغرس أشجارك ؟ وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً .

وقال الحسن : المعنى وإن من شيء من الاحياء إلا يسبح بحمده . وقال علي ابن ابراهيم وغيره من اهل العلم : كل شيء على العموم يسبح بحمده حتى صرير البـــاب .

وقوله « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » اي لستم تفقهون تسبيح هذه الاشياء ، من حيث لم تنظروا فيها ، فتعلموا كيفية دلالتها على توحيده .

وقوله «إنّه كان حليماً غفوراً » اي كان حليماً حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على كفركم ، وأمهلكم إلى يوم القيامة ، وستره عليكم ، لأنه ستّار على عباده ، غفور لهم إذ تابوا وأنابوا اليه

وقوله « وإذا قرأت القرآن » خطاب لنبيه محمد ﷺ انه متى قرأ القرآن «جعلنا بينك » يا محمد « وبين » المشركين «حجاباً مستوراً» اي كان بينك وبينهم حجاباً من أن يدركوا ما فيه من الحكمة وينتفعوا به . وقيـــل : « مستوراً » عن أبصار الناس . وقيل « مستوراً » – ههنا – بمعنى ساتراً عن إدراكه ، كما يقال : مشؤم عليهم أو ميمون في موضع شائم ويامن ، لأنه من شؤمهم ويمنهم . والأول أظهر وقيل قوله « وجعلنـــا بينك» وبينهم « حجاباً مستوراً » نزل في قوم كانوا يأذونه باللسان إذا تلا القرآن، فحال الله بينهم وبينه حتى لا يؤذوه. والأول – قول قتادة : والثاني – قول ابو علي ، والزجاج. وقال الحسن: معناه إن منزلتهم فيما أعرضوا عنه منزلة من بينك وبينه حجاب :

قوله تعالى :

(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا

ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (٤٧) أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) (٤٨) ثلاث آيات .

معنى قوله « وجعلنا على قلوبهم أكنة » أي حكمنا بأنهم بهذه المنزلة ذمّاً لهم على الامتناع من تفهم الحق، والاستماع اليه، لتأمل معانيه، مع الإعراض عنه عداوة له ونفوراً منه . وقال الجبائي : إنه تعالى منعهم من ذلك وحال بينهم وبينه في وقت مخصوص، لئلا يؤذوا النبي ﷺ وإنما قال « وجعلنا » ولم يقـــل وجعلناهم « على قلوبهم أكنة » لأنه ابلغ في الذمّ مع قيام الدليل من جهة التكليف أنه ليس على جهة المنع ، وانما لم يجز المنع والحيلولة بينهم وبين ان يفقهوه ، لأن ذلك تكليف مالا يطاق ، وذلك قبيح لا يجوز ان يفعله الله تعالى ، على انه لا يصح ان يريد تعالى ما يستحيل حدوثه ، وإنما يصح ان يراد ما يصح ان يحدث او يتوهم ذلك منه ، لأن استحالته صارفة عن ان يراد ، ولا داع يصح أن يدعو إلى ارادته ، وتجري استحالة ذلك مجرى استحالة ان يريد كون الشيء موجوداً معدوماً في حال واحده .

(والأكنة) جمع كنان ، وهو ما ستر . وقوله « وفي آذانهم وقراً » أي وجعلنا في آذانهم وقراً . (والوقر) – بفتح الواو - الثقل في الأذن، وبالكسر الحمل . والأصل فيه الثقل إلا انه خولف بين البنائين للفرق .

وقوله « وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده » يعني إذا ذكرته بالتوحيد وانه لا شريك له في الإلهيـــة « ولوّا » عنك ولم يسمعوه « على ادبارهم نفوراً » نافرين عنك . وقال بعضهم : إذا سمعوا بسم الله الرحمن الرحيم ولّوا .

ثم اخبر تعالى عن نفسه انه « اعلم » من غيره « بما يستمعون اليك » في حال ما «يستمعون اليك» اي يصغون إلى سماع قراءتك ويعلم أي شيء غرضهم فيه

وقوله: «وإذ هم نجوى» معناه اذ يتناجون بأن يرفع كل واحد سره الى الآخر، ووصفوا بالمصدر، لأن نجوى مصدر، ونجواهم زعمهم انه مجنون، وانه ساحر وانه اتى بأساطير الأولين - في قوله قتادة - وكان من جملتهم الوليد بن المغيرة.

وقوله «إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً» قيل في معناه قولان:

أحدهما - إنكم ليس تتبعون إلا رجلاً قد سحر، فاختلط عليه أمره، يقولون ذلك للتنفير عنه، كما يقال: سحر فلان، فهو مسحور إذ اختلط عقله. وقيل «مسحوراً» أي مصروفاً عن الحق، يقال: ما سحرك عن كذا؟ أي ما صرفك.

الثاني - ان له سحراً أي رئة، لا يستغني عن الطعام والشراب، فهو مثلكم. والعرب تقول للجبان: انتفخ سحره قال لبيد:

فان تسلينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر[1]

وقال آخر:

ونسحر بالطعام وبالشراب[2]

وقيل: إن «نفوراً» جمع نافر، كقاعد وقعود، وشاهد وشهود، وجالس وجلوس. وقيل: مسحور معناه مخدوع. ومعنى الآية البيان عما يوجبه حال الجاحد للحق المعادي لأهله وذمه بأن قلبه كأنه في أكنة عن تفهمه، وكأن في أذنيه وقراً عن استماعه فهو مولٍّ على دبره، نافر عنه بجهله يناجي بالانحراف عنه جهالاً مثله، قد تعبوا بالحجة حتى نسبوا صاحبها إلى أنه مسحور، لما لم يكن إلى مقاومة ما أتى به سبيل، ولا على كسره دليل.

---

(١) ديوانه ١/٨٠ وتفسير القرطبي ١٠/٢٧٢ ومجاز القرآن ١/٣٨١ وتفسير الطبري ١٥/٦٣ واللسان (سحر) وروح المعاني ١٥: ٩٠ وقد مر في ١: ٣٧٢

(٢) قائله امرؤ القيس. ديوانه (الطبعة الرابعة) ٦٣ القصيدة ٣ وهو مطلعها. وتفسير القرطبي ١٠: ٢٧٣ ومجاز القرآن ١: ٣٨٢ واللسان (سحر) وتفسير الشوكاني ٣: ٢٢٣ وتفسير روح المعاني ١٥: ٩٠ وغيرها، وقد مر في ١: ٣٧٢، ٥: ٢٦٨ من هذا الكتاب، وصدره:

ارانا موضعين لامر غيب

وقوله « انظر » أمر للنبي ﷺ بأن ينظر « كيف ضربوا لك الامثال » أي كيف ضرب هولاء المشركون له المثل بالمسحور وغير ذلك ، فجاروا بذلك عن طريق الحق ، فلا يسهل عليهم ولا يخف الرجوع اليه ولا اتبـاع سبيل الدين ، ويحتمل أن يكون المعنى إنهم لا يقدرون على تكذيبك ، وإن ما ذكروه فيك من قولهم مسحور وكذاب صرفهم ولا يستطيعون على ذلك .

قوله تعالى :

(وَقَالُوا ءَإِذَا كُنَّا عِظَامـاً وَرُفَاتـاً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقـاً جَدِيداً (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً) (٥١) ثلاث آيات بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين أنكروا البعث ، والنشور ، والثواب والعقاب : أنهم يقولون « أإذا كنا عظاماً » أي إذا متنا وانتثرت لحومنا وبقينا « عظاماً ورفاتاً » قال مجاهد : الرفات التراب . وبه قال الفراء وقال: لا واحد له من لفظه ، وهو بمنزلة الدقاق ، والحطام ، قال المبرد : كل شيء مدقوق مبالغ في دقه حتي انسحق ، فهو رفات ، يقـال : رفت رفتـاً ، فهو مرفوت إذا صيّر كالحطام .

و(إذا) في موضع نصب بفعل يدل عليه « لمبعوثون » وتقـديره أنبعث « إذا كنا عظاماً . ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً » وصورته صورة الاستفهام وإنما هم منكرون لذلك متعجبون منه وكلما تحطم وترضض يجيء أكـثره على (فعال) مثل (حطام، ورضاض ودقاق وغبار وتراب) والخلق الجديد: هو المجدد أي يبعثهم الله أحياء بعد أن كانوا أمواتاً ، أنكروا ذلك وتعجبوا منـه ، فقال الله لنبيه ﷺ «قل» لهم «كونوا حجارة أو حديداً» أي لو كنتم حجارة أو حديداً

بعد موتكم لأحياكم وحشركم ولم تفوتوا الله ، إلاّ أنه خرج مخرج الأمر ، لأنه أبلغ في الإلزام ، كأن أكثر ما يكون منهم مطلوب حتى يروا أنه هين حقير « أو خلقاً مما يكبر في صدوركم » فقيل في معناه ثلاثة أقوال :

قال مجاهد: السموات والأرض والجبال . وقال قتادة : أيّ شيء استعظموه من الخلق . وقال ابن عباس . وسعيد بن جبير والفراء : انه الموت . قال الفراء قالوا للنبي ﷺ أرأيت لو كنا الموت من كان يميتنا؟! فأنزل الله «او خلقاً مما يكبر في صدوركم » يعني الموت نفسه اي ليبعث الله عليكم من يميتكم ثم يحييكم .

« فسيقولون من يعيدنا » اخبار منه حكاية عن هؤلاء الكفار انهم يقولون من يعيدنا احياء ؟ فقال الله لنبيه ﷺ « قل الذي فطركم اوّل مرة » اي الذي خلقكم ابتداء يقدر على إعادتكم ، لأن أبتداء الشيء اصعب من إعادته ، كما قال « وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه »[(١)] وقال لما قالوا « من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم »[(٢)] وإنما قال لهم ذلك ، لانهم كانوا يقرون بالنشأة الأولى .

وقوله « فسينغضون اليك رؤوسهم » معناه انهم إذا سمعوا هذا حركوا رؤوسهم مستبعدين لذلك . وقال ابن عباس يحركون رؤوسهم مستهزئين ، يقال: انغضت رأسي انغضه انغاضاً ، ونغض براسه ينغض نغضاً إذا حركه والنغض تحريك الراس بارتفاع وانخفاض . ومنه قيل للظليم نغض ، لانه يحرك رأسه في مشيه بارتفاع وانخفاض قال العجاج :

اصك نغضاً لا يني مستهدجا[(٣)]

ونغضت سنه إذا تحركت من اصلها قال الراجز :

ونغضت من هرم اسنانها[(٤)]

---

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٢٧ (٢) سورة ٣٦ يس آية ٧٩
(٣) تفسير الطبري ١٥ : ٦٥ وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٢٦
(٤) تفسير الطبري ١٥/٦٥ وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٢٦ وتفسير القرطبي ١٠ : ٢٧٤ ومجاز القرآن ١ : ٣٨٢

وقال آخر :

لما رأتني أنغضت لي الرأسا[1]

« ويقولون » هؤلاء الكفار « متى هو » يعنون بعثهم وإعادتهم أحياء فقال الله تعالى « قل » لهم يا محمد « عسى ان يكون قريباً » وعسى من الله واجبة ، وكل ما هو آت قريب ، ومن كلام الحسن انه قال : كأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل .

قوله تعالى :

(يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) (٥٤) ثلاث آيات بلا خلاف .

« يوم » يتعلق بقوله « قل عسى ان يكون » بعثكم ايها المشركون « قريباً يوم يدعوكم » وقيل في معني قوله « يوم يدعوكم » قولان :

احدهما — انهم ينادون بالخروج إلى ارض المحشر بكلام تسمعه جميع العباد، وذلك يكون بعد ان يحييهم الله ، لأنه لا يحسن ان ينادى المعدوم ولا الجماد .

الثاني — انهم يسمعون صيحة عظيمة ،فتكون تلك داعية لهم إلى الاجتماع إلى ارض القيامة ،ويجوز أن يكون ذلك عبارة عن البعث ويكون اجرى صرخة ثانية

---

(١) مجاز القرآن ١ : ٣٨٢ وتفسير الطبري ١ : ٦٥٥ والشوكاني ٣ : ٢٢٦

بسرعة فأجرى مجرى، دعي فأجاب في الحال « فيستجيبون بحمده » قيل في معناه قولان :

احدهما – تستجيبون حامدين ، كما يقول القائل: جاء فلان بغضبه اي جاء غضبان .

الثاني – تستجيبون على ما يقتضيه الحمد لله (عزوجل) ، وقيل : معناه يستجيبون معترفين بأن الحمد لله على نعمه ، لا ينكرونه ، لأن معارفهم هناك ضرورة قال الشاعر :

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة اتقنع(١)

والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا اليه بفعله من اجل دعائه، وهي والإجابة واحدة إلا ان الاستجابة تقتضي طلب الموافقة بالإرادة بأوكد من الإجابة .

وقوله « وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » قيل في معناه قولان :

احدهما – انهم لما يرون من سرعة الرجوع يظنون قلة اللبث .

الثاني – انه يراد بذلك تقريب الوقت ، كما حكي عن الحسن انه قال : كأنك بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل . وقال قتادة : المعنى احتقاراً من الدنيا حين عاينوا يوم القيامة . وقال الحسن ان «لبثتم إلا قليلا » في الدنيا لطول لبثكم في الآخرة .

وقوله «وقل لعبادي يقول التي هي احسن» قال الحسن: معناه «قل» يا محمد «لعبادي» يأمروا بما امر الله به ، وينهوا عما نهى عنه . وقال الحسن : معناه قل لعبادي يقل بعضهم لبعض أحسن ما يقال، مثل رحمك الله ويغفر الله لك. ثم أخبر تعالى فقال« إن الشيطان ينزغ بينهم» اي يفسد بينهم ويلقي بينهم العداوة والبغضاء وقال « إن الشيطان كان » في جميع الأوقات عدواً مبايناً « للانسان » آدم وذريته .

وقوله « وربكم أعلم بكم » معناه التحذير لعباده من إضمار القبيح ، والترغيب

(١) تفسير القرطبي ١٠:٢٦٦ وتفسير الشوكاني ٣:٢٢٦ وتفسير روح المعاني ١٥:٩٣

في الجميل ، لأنه عالم به يقدر أن يجازي على كل واحد منه بما هو حقه «إن يشأ يرحمكم» بالتوبة «وإن يشأ يعذبكم» بالاقامة على المعصية .

وقوله «وما أرسلناك عليهم وكيلا» معناه إنا ما وكلناك بمنعهم من الكفر بل أرسلناك داعياً لهم إلى الايمان وزاجراً عن الكفر ، فإن أجابوك ، وإلاّ ،فلا شيء عليك واللائمة والعقوبة يحلان بهم .

قوله تعالى :

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (٥٥) قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) (٥٧) ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى لنبيه «إن ربّك» يا محمد «أعلم بمن في السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض» وانما قال ذلك ليدل على أن تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض وقع موقع الحكمة ، لأنه من عالم بباطن الأمور ، واذا ذكر ما هو معلوم فانما يذكره ليدل به على غيره . والانبياء وان كانوا في أعلى مراتب الفضل ، لهم طبقات بعضهم أعلى من بعض ، وإن كانت المرتبة الوسطى لاتلحق العليا ولا يلحق مرتبة النبي من ليس بنبيّ أبداً . وقوله «وآتينا داود زبوراً» اي خصصناه بالذكر ، وفيه لغتان فتح الزاي ، وضمها . والفتح أفصح . ثم قال لنبيه «قل» لهم «ادعوا الذين زعمتم من دونه» يعني الذين زعمتم انهم أرباب وآلهة من دون الله ادعوهم اذا نزل بكم ضرر ،فانظروا هل يقدرون على دفع ذلك املا .

وقال ابن عباس والحسن « الذين من دونه » الملائكة والمسيح وعزير . وقال ابن مسعود : أراد به ما كانوا يعبدون من الجن : وقد أسلم اولئك النفر من الجن لان جماعة من العرب كانوا يعبدون الجن ، فأسلم الجن وبقي الكفار على عبادتهم. وقال أبو علي: رجع الى ذكر الانبياء في الآية الاولى. والتقدير إن الأنبياء يدعون الى الله يطلبون بذلك الزلفة لديه ويتوسلون به اليه والى رضوانه وثوابه، أيهم كان أفضل عند الله ، واشد تقرباً اليه بالأعمال . ثم قال « فلا يملكون » يعني الذين تدعون من دون الله « كشف الضر » والبلاء « عنكم » ولا تحويله الى سواكم .

ثم قال « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب...» الاية

قوله « اولئك » رفع بالابتداء و« الذين » صفة لهم و « يبتغون الى ربهم » خبر الابتداء . والمعنى الجماعة الذين يدعون يبتغون الى ربهم «أيهم» رفع بالإبتداء و «اقرب» خبره . والمعنى يطلبون الوسيلة ينظرون ايهم اقرب فيتوسلون به ، ذكره الزجاج . وقال قوم : الوسيلة هي القربة والزلفة . وقال الزجاج: الوسيلة والسؤال والسؤل والطلبة واحد ، والمعنى إن هؤلاء المشركين يدعون هؤلاء الذين اعتقدوا فيهم انهم ارباب ويبتغي المدعوون أرباباً الى ربهم القربة والزلفة لأنهم اهل إيمان به . والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله، ايهم اقرب عندالله بصالح اعماله واجتهاده في عبادته ، فهم يرجون بأفعالهم رحمته ويخافون عذابه بخلافهم إياه « إن عذاب ربك كان محذوراً » اي متقى .

قوله تعالى :

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عذَاباً شَدِيداً كَانَ ذٰلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْاٰيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا ٱلْاَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (٥٩)

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً (٦٠) ثلاث آيات .

اخبر الله تعالى انه ليس «من قرية إلا» والله تعالى مهلكها «قبل يوم القيامة» . بكفر من فيها من معاصيهم جزاء على افعالهم القبيحة «او معذبوها عذابا شديداً» والمعنى ان يكون إما الإهلاك والإستئصال أو العذاب ، والمراد بذلك قرى الكفر والضلال دون قرى الإيمان . وقيل إن ذلك يكون في آخر الزمان ، فيهلك الله كل قرية بعقوبة بعض من فيها ، ويكون امتحاناً للمؤمنين الذين فيها . وقيل: ان المعنى ما من قريه إلا والله مهلكها إما بالموت لأهلها اوعذاب يستأصلهم ثم اخبر أن ذلك كائن لا محالة ، ولا يكون خلافه ، لان ذلك مسطور في الكتاب يعني في اللوح المحفوظ ، والمسطور هو المكتوب يقال: سطر سطراً ، قال العجاج:

واعلم بأن ذا الجلال قد قدر   في الصحف الاولى التي كان سطر[1]

ثم قال « وما منعنا ان نرسل بالآيات » يعني الآيات التي اقترحتها قريش من قولهم : حول لنا الصفا ذهباً وفجر لنا من الارض ينبوعا ، وغير ذلك ، فأنزل الله الآية إني إن حولته ، فلم يؤمنوا لم امهلهم كسنتي فيمن قبلهم ، وهو قول قتادة وابن جريج . والمنع وجود مالا يصح معه وقوع الفعل من القادر عليه فكأنه قد منع منه ، ولا يجوز إطلاق هذه الصفة في صفات الله والحقيقة إنا لم نرسل بالآيات لئلا يكذب بها هؤلاء كما كذّب من قبلهم ، فيستحقوا المعاجلة بالعقوبة . وقال قوم : يجوز أن يكون قوله تعالى « إلا أن كذب بها الأولون » تكون (إلا) زايدة ، وتقديره ما منعنا ان نرسل بالآيات « ان كذب بها الاولون » أي لم يمنعنا ذلك من إرسالها بل أرسلناها مع تكذيب الاولين . ومعنى « ان كذب »

(١) ديوان ١٩ ومجاز القرآن ١ : ٣٨٣ وتفسير الطبري ١٥ : ٩٩ واللسان والتاج (نتر)

هو التكذيب ، كما تقول : أريد ان تقوم بمعنى أريد قيامك .ويحتمل ان يكون « إلا » بمعنى (الواو) كما قال « لئلايكون للناس عليكم حجة ،إلا الذين ظلموا »(١) معناه والذين ظلموا منهم ، فلا حجة لهم عليهم . ويكون المعنى وما منعنا أن نرسل بالآيات وإن كذب بها الأولون أي لسنا نمتنع من إرسالها ، وإن كذبوا بها و (أن) الاولى في موضع نصب بوقوع « منعنا » عليها . و (أن) الثانية رفع والمعنى ،وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الاولين من الامم ، والفعل لـ (أن) الثانية .

وقوله « وآتينا ثمود الناقة مبصرة » معناه مبصرة تبصر الناس بما فيها من العبر ، والهدى من الضلالة والشقاء من السعادة ، ويجوز أن يكون المراد انها ذات إبصار ، حكى الزجاج : مبصرة بمعنى مبينة ، وبالكسر معناه تبين لهم ، قال الفراء : مَبصرة مثل مَجبنة ومَنحلة ، وكل (مَفعلة) وضمته موضع (فاعل) أغنت عن الجمع والتأنيث ، تقول العرب : هـذا عشب ملبنة ، مسمنة . والولد مجبنة منحلة . وان كان من الياء والواو ، فاظهرها ، تقول سراب مبولة ، وكلام مهينة للرجال قال عنترة :

والكفر مخبثة لنفس المنعم (٢)

ومعنى مبصرة مضيئة ، قال الله تعالى « والنهار مبصراً » (٣) اي مضيئاً .

وقوله « فظلموا بها » يعني بالناقة [لأنهم نحروها وعصوا الله في ذلك ، لانه نهاهم عن ذلك ، فخالفوا ونحروها . وقيل : ظلموا بها](٤) معناه ظلموا بتكذيبهم إياها بانها معجزة باهرة .

وقوله « وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » اي لم نبعث الآيات ونظهرها إلا

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٠

(٢) من معلقته المشهورة ديوانه (دار بيروت) ٢٨ وصدره :

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي

(٣) سورة ١٠ يونس آية ٦٧ وسورة ٢٧ النمل اية ٨٦ وسورة ٤٠ المؤمن (غافر) اية ٦١

(٤) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة .

لتخويف العباد من عقوبة الله ومعاصيه .

وقوله « واذا قلنا لك » اي اذكر الوقت الذي قلنا لك يا محمد « ان ربك احاط بالناس » اي احاط علماً باحوالهم ، وما يفعلونه من طاعة او معصية ، وما يستحقونه على ذلك من الثواب والعقاب ، وقادر على فعل ذلك بهم ، فهم في قبضته ، لا يقدرون على الخروج من مشيئته .

وقوله « وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس » قيل في معنى ذلك قولان :

احدهما - انه اراد رؤية عين؛ ليلة الاسراء الى البيت المقدس ، فلما اخبر المشركين بما رأى كذبوا به ، ذكره ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، وابراهيم ، وابن جريج ، وابن زيد ، والضحاك ، ومجاهد .

الثاني- في رواية اخرى عن ابن عباس: انه رؤيا نوم ، وهي رؤيا انه سيدخل مكة ، فلما صده المشركون في الحديبية شك قوم ودخلت عليهم الشبهة ، فقالوا يا رسول الله: أو ليس قد اخبرتنا انا ندخل المسجد؟ فقال: قلت لكم انكم تدخلونها السنة ؟! . فقالوا : لا ، فقال سندخلنها إن شاء الله ، فكان ذلك فتنة وامتحاناً وروي عن ابي جعفر وابي عبدالله (ع) ان ذلك رؤيا رآها في منامه أن قروداً تصعد منبره وتنزل ، فساءه ذلك وروى مثل ذلك سهل بن سعد الساعدي عن أبيه ان رسول الله ﷺ رأى ذلك . ومثله عن سعد بن بشار ،[1] فأنزل الله عليه جبرائيل واخبره ما يكون من تغلب أمر بني أمية على مقامه وصعودهم منبره .

وقوله « والشجرة الملعونة في القرآن » قال ابن عباس والحسن وأبو مالك وسعيد بن جبير وابراهيم ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد : إنها شجرة الزقوم التي ذكرها الله في قوله «ان شجرة الزقوم طعام الاثيم» [2] والمعنى ملعون آكلها ، وكانت فتنتهم بها قول ابي جهل وذويه النار تأكل الشجرة وتحرقها ، فكيف ينبت فيها الشجر . وعن أبي جعفر ان الشجرة الملعونة هم بنو امية ،

---

(١) في المخطوطة (سعيد بن يسار) (٢) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٣

وقال البلخي: يجوز ان يكون المراد به الكفار . وقوله «ونخوفهم» أي نرهبهم بما نقصّ عليهم من هلاك من مضى بها، فما يزدادون عند ذلك« إلاطغياناً كبيراً» أي عتوّاً عظيماً وتمادياً وغيّاً .

قوله تعالى :

(وَإِذْ قُلْنَـــا لِلْمَلٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيس قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) قَـالَ أَرَأَيْتَكَ هٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ ٱذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَـإِنَّ جَهَنَّمَ جزاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً) (٦٣) ثلاث آيات .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ واذكر « إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس» وقد بينا أنّ امر الله تعالى بأن اسجدوا لآدم تعظيم لآدم وتفضيله عليهم وإن كانت القربى[1] بذلك السجود الى الله تعالى ، وفي الناس من قال : انـه كان بمنزلة القبلة لهم وإن كان فيه تشريف له .

ثم اخبر تعالى ان الملائكة امتثلت امر الله فسجدت له « إلاإبليس » فقد قلنا ان اخبارنا تدل على ان ابليس كان من جملة الملائكة ، وانما كفر بامتنـــاعه من السجود ، ومن قال ان الملائكة معصومون فان إبليس لم يكن من جملة الملائكة والاستثناء في الآية استثناء منقطع و (إلا) بمعنى (لكن) وانما ضمه الى الملائكة من حيث جمعهم في الأمر ، والتكليف بالسجود ، فلذلك استثناه من جملتهم .

ثم اخبر تعالى عن إبليس أنه قال «أأسجد لمن خلقت طيناً» على وجه الإنكار

(١) في المخطوطة (وان كان الغرض)

لذلك ، وأن من خلق من نار أشرف وأعظم ، من الذي خلق من طين ، وآدم اذا كان مخلوقاً من طين كيف يسجد له من هو مخلوق من نار ، وهو ابليس ، وذلك يدل على ان إبليس فهم من ذلك الأمر تفضيله عليه ، ولو كان بمنزلة القبلة لما كان لامتناعه عليه وجه ، ولا لدخول الشبهة بذلك مجال .

و« طيناً » نصب على التميز ، ويجوز ان يكون نصباً على الحال. والمعنى إنك انشأته في حال كونه من طين .

ووجه الشبهة الداخلة على إبليس ان الفروع ترجع الى الاصول فتكون على قدرها في التكبر أو التصغر ، فلما اعتقد أن النار اكرم أصلا من الطين جاء منه انه أكرم ممن خلق من طين ، وذهب عليه بجهله أن الجواهر كلها متماثلة ، وان الله تعالى يصرفها بالاعراض كيف شاء مع كرم جوهر الطين وكثرة ما فيه من المنافع التي تقارب منافع النار او توفى عليها .

وانما جاز ان يأمره بالسجود له ، ولم يجز ان يأمره بالعبادة له ، لأن السجود يترتب في التعظيم بحسب ما يراد به ، وليس كذلك العبادة التي هي خضوع بالقلب ليس فوقه خضوع ، لأنه يترتب في التعظيم بحسب نيته؛ يبين ذلك أنه لو سجد ساهياً لم يكن له منزلة في التعظيم على قياس غيره من افعال الجوارح . قال الرماني : الفرق بين السجود لآدم والسجود الى الكعبة ، ان السجود لآدم تعظيم له باحسانه ، وهذا يقارب قولنا في أنه قصد بذلك تفضيله بأن امره بالسجود له .

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعنى ما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً محققين ظن إبليس فيهم مخالفين موجب نعمة ربهم على أمتهم وعليهم. ثم حكى تعالى عن إبليس أنه قال « ارأيتك هذا الذي كرمت عليّ » ومعناه اخبرني عن هذا الذي كرّمته عليّ لم كرّمته علي؟ وقد خلقتني من نار وخلقته من طين! فحذف لدلالة الكلام عليه .

وإنما قال «أأسجد » بلا حرف عطف ، لأنه على قوله « أأسجد لمن خلقت طيناً » والكاف في قوله « أرأيتك» لا موضع لها من الاعراب ، لأنها ذكرت في

المخاطبة توكيداً ، و(هذا) نصب بـ (أرأيتك) ، والجواب محذوف . والمعنى ما قدمناه .

وقوله « لئن اخرتن الى يوم القيامة لاحتنكنّ ذرّيّته إلاّ قليلا » ، ومعنى لاحتنكن لاقطعنهم الى المعاصي ، يقال منه : احتنك فلان ما عند فلان من مال أو علم او غير ذلك ، قال الشاعر :

أشكو اليك سنة قد أجحفت جهداً إلى جهد بنا وأضعفت
واحتنكت أموالنا وجلفت (١)

وقال ابن عباس: معنى « لاحتنكنّ » لأستولينّ ، وقال مجاهد: لأحتوين ، وقال ابن زيد: لاضلنهم ، وقال قوم : لاستأصلن ذريته بالاغواء،وقال آخرون: لأقودنهم إلى المعاصي ، كما تقاد . الدابّة بحنكها إذا شدّ فيها حبل تجرُّ به .

وقوله « الا قليلاً » استثناء من ابليس القليل من ذرّيه آدم الذين لا يتبعونه ولا يقبلون منه. فقال الله تعالى عند ذلك « اذهب » يـا ابليس « فمن تبعك » من ذرية آدم واقتفى أثرك وقبل منك « فان جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً » أي كاملاً ، يقال منه : وفرته أفره وفراً ، فهو موفور ، وقال زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم (٢)

ووفـّرته توفيراً ، ويقال : موفوراً بمعنى وافر ، في قول مجاهد ، كأنه ذو وفر ، كقولهم : لابن أي ذو لبن ، وقد دل على انهم لا ينقصون من عقـابهم الذين يستحقونه شيئاً ، وفي ذلك استخفاف به وهوان له . وانما ظن ابليس هذا الظن الصادق، بأنه يغوي اكثر الخلق، لان الله تعالى كان قد أخبر الملائكة أنه سيجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، فـكان قد علم بذلك . وقيل :

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٧٥

(٢) ديوانه (دار بيروت) ٨٧ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣/٢٣٣ وتفسير روح المعاني ١٥/١١٠

انما قال ذلك ، لانه وسوس الى آدم فلم يجد له عزماً، فقال: بنو هذا مثله في ضعف العزيمة ، ذكره الحسن . وهذا الوجه لا يصح على اصلنـــا ، لان عندنا ان آدم لم يفعل قبيحاً ، ولا ترك واجباً ، فلو ظن ابليس ان اولاده مثله لانتقض غرضه ، ولم يخبر بما قال .

و (لئن) حرف شرط، ولا يليه الا الماضي، والشرط لا يكون الا بالمستقبل والعلة في ذلك ان اللام في (لئن) تأكيد يرتفع الفعل بعده و (ان) حرف شرط ينجزم الفعل بعده ، فلما جمعوا بينهما ، لم يجز ان يجزم فعل واحد ويرفع ، فغير المستقبل الى المـــاضي ، لان الماضي لايبين فيه الاعراب ، ذكر هذه العـــلة ابن خالوية .

قوله تعالى :

(وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) رَبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) (٦٦) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ حفص وحده « ورجلك » بكسر الجيم . الباقون بتسكينها من سكّن أراد جمع (راجل) مثل صاحب وصحب، وراكب وركب. ومن كسر اراد قولهم : رجل يرجل، فهو راجل .

قوله: «واستفزز... واجلب» صورته صورة الأمر والمراد به التهديد، وجرى

مجرى قوله « اعملوا ما شئتم » [١] وكما يقال للانسان : اجهد جهدك ، فسترى ما ينزل بك ، وانما جاء التهديد بصيغة الامر ، لأنه بمنزلة من امر باهانة نفسه ، لان هذا الذي يعمله هوان له وهو مأمور به. ومعنى (استفزز) استزل ، يقال : استفزه واستزله بمعنى واحد ، وتفزز الثوب اذ تمزق ، وفززه تفززاً ، وأصله القطع ، فمعنى استفزه استزله بقطعه عن الصواب « من استطعت منهم » فالاستطاعة قوة تنطاع بها الجوارح للفعل ، ومنه الطوع والطاعة ، وهو الانقياد للفعل .

وقيل في الصوت الذي يستفزهم به قولان :

احدهما - قال مجاهد : صوت الغناء واللهو .

الثاني - قال ابن عباس : هو كل صوت يدعا به الى معصية الله . وقيل : كل صوت دعي به الى الفساد ، فهو من صوت الشيطان .

وقال : « واجلب عليك بخيلك » فالاجتلاب السوق بجلبة من السائق . وفي المثل (اذا لم تغلب فاجلب) يقال : جلب يجلب جلباً واجلب اجلاباً، واجتلب اجتلاباً ، واستجلب استجلاباً ، وجلّب تجليباً مثل صوّت، واصل الجلبة شدة الصوت ، وبه يقع السّوق .

وقوله : « بخيلك ورجلك » قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : كل راكب او ماشٍ في معصية الله من الانس والجن ، فهو من خيل ابليس ورجله ، والرجل جمع راجل مثل تجر وتاجر ، وركب وراكب .

وقوله : «وشاركهم في الاموال والاولاد»فمشاركته إياهم في الاموال كسبها من وجوه محظورة او إنفاقها في وجوه محظورة ، كما فعلوا في السائبة والبحيرة والحام ، والاهلال به لغير الله ، وغير ذلك . ومشاركته في الاولاد، قال مجاهد والضحاك : فهم اولاد الزنا . وقال ابن عباس : الموؤدة . وقيل:من هوّدوا ونصّروا ، في قول الحسن وقتاده . وقال ابن عباس في رواية : هو تسميتهم عبد

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٤٠

الحارث ، وعبد شمس ، وما اشبه ذلك . وقيل : ذلك واحد من هذه الوجوه، وهو أعم .

وقوله: «وعدهم» اي منّهم البقاء وطول الأمل. ثم قال تعالى « وما يعدهم الشيطان » أي ليس يعدهم الشيطان «الا غروراً» ونصب على انه مفعول له[اي ليس يعدهم الشيطان الا لأجل الغرور][1] . ثم قال تعالى « ان عبادي » يعني الذين يطيعوني ويقرّون بتوحيدي ويصدقون أنبيائي،ويعملون بما اوجبه عليهم، وينتهون عن معاصيّ « ليس لك » يا ابليس « عليهم » حجة ولا سلطان . قال الجبائي : معناه ان عبادي ليس لك عليهم قدرة ، على ضرّ ونفع اكثر من الوسوسة، والدعاء الى الفساد ، فأمّا على كفر أو ضرر، فلا ، لانه خلق ضعيف متخلخل ، لا يقدر على الاضرار بغيره .

ثم قال « وكفى بربك » اي حسب ربك « وكيلا » اي حافظاً، ومن يسند الامر اليه ويستعان به في الامور .

ثم خاطب تعالى خلقه فقال : « ربكم الذي خلقكم » هو الذي « يزجي لكم الفلك في البحر » قال ابن عباس : معناه يجريها ، وبه قال قتادة ، وابن زيد يقال : أزجى يزجي ازجاء إذا ساق الشيء حالاً بعد حال « لتبتغوا من فضله » اي لتطلبوا فضل الله في ركوب البحر من الارياح وغيرها «انه كان بكم رحيماً » اي منعماً عليكم راحم لكم ، يسهل لكم طرق ما تنتفعون بسلوكه ديناً ودنيا .

قوله تعالى :

(وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ كَفُوراً (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ

---

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً) (٦٩) ثلاث آيات .

قرأ ابن كثير وابو عمرو « أن نخسف... او نرسل ...أن نعيدكم...فنرسل» بالنون فيهن. الباقون بالياء . الا ابا جعفر ، وورش ، فانها قرأا «فتغرقكم» بالتاء يردّانه الى الريح . ومن قرأ بالنون اراد الاخبار من الله عن نفسه . ومن قرأ بالياء اراد أن محمداً اخبر عن الله،والمعنيان متقاربان.وقال ابو علي: من قرأ بالياء فلانه تقدم «ضل من تدعون الا اياه»فلما نجاكم الى البر...أفامنتم ان يخسف بكم» ومن قرأ بالنون ، فلان مثله قد ينقطع بعضه عن بعض . والمعنى واحد ، يقول الله تعالى لخلقه : انه اذا نالكم الضر ، وانتم ركاب البحر بان أشرفتم على الهلاك وخبّ بكم البحر وماجت الامواج «ضل من تدعون » اي يكون بمنزلة من يضل عنكم، ولا ينجيكم من اهواله الا الله تعالى . وانما خص البحر بذكر النجاة ، لان له اهوالاً هيجانية وخبة ، لا يطمع عاقل في ان ينجيه احد منه الا الذي خلق النفس وانعم بما وهب من العقل والسمع والبصر . وقال : اذا دعوتموه في تلك الحال ، ونجاكم ، وخلصكم ، واخرجكم منه الى البر اعرضتم عن ذكر الله ، والاعتراف بنعمه .

ثم قال تعالى : «وكان الانسان كفوراً» لنعم الله تعالى ، ثم قال مهدداً لهم : «أفأمنتم» اي هل أمنتم اذا ضربتم في البرّ «أن يخسف بكم» جانبه ويقلب اسفله اعلاه فتهلكون عند ذلك ، كما خسفنا بمن كان قبلكم من الكفار نحو قوم لوط وقوم فرعون «أو يرسل عليكم حاصباً » بمعنى حجارة تحصبون بها او ترمون بها. والحصباء الحصى الصغار ، ويقال : حصب الحصى يحصبه حصباً اذ رماه رمياً متتابعاً، والحاصب ذو الحصب. والحاصب فاعل الحصب « ثم لا تجدوا لكم وكيلا » أي من يدفع ذلك عنكم .

ثم قال: «أم» ايهل «أمنتم أن يعيدكم» في البحر دفعة اخرى بان يجعل لكم الى ركوبه حاجة «فيرسل عليكم قاصفاً من الريح» فالقاصف الكاسر بشدة قصفه يقصفه قصفاً، فهو قاصف، وتقصف شعره تقصفاً، وانقصف الرجل انقصافاً. وقصّف الشيء تقصيفاً، «فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً» اي من يتبع إهلاككم للمطالبة بدمائكم او يأخذ بثاركم، وقيل ان القاصف الريح الشديدة تقصف الشجر بشدّتها. وانما قيل: حاصب على وزن فاعل لامرين:

احدهما - ريح حاصب أي تحصب الحجارة من السماء، قال الشاعر:

مستقبلين شمال الشام يضربنا بحاصب كنديف القطن منثور [١]

وقال الآخر:

ولقد علمت إذا العشار تروحت حتى تبيت على العصاة حفالا [٢]

الثاني - حاصب ذو حصب.

قوله تعالى:

(ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيّبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلا (٧٠) يوم ندعوا كلّ أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا (٧١) ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا) (٧٢) ثلاث آيات بلا خلاف.

---

(١) قائله الفرزدق ديوانه (دار بيروت) ١: ٢١٣ وتفسير الطبري ١٥/٧٩ وتفسير القرطبي ١٠/٢٩٢ والشوكاني ٣/٢٣٥ وروح المعاني ١٥/١١٦

(٢) تفسير الطبري ١٥/٩٧

اخبر الله تعالى : انه كرّم « بني آدم » وانما عنى بني آدم بالتكرمة مع ان فيهم كفاراً ، لان المعنى كرمناهم بالنعمة على وجه المبالغة في الصفة . وقال قوم : جرى ذلك مجرى قوله « كنتم خير أمة اخرجت للناس[1] » فاجرى الصفة على جماعتهم من اجل من فيهم على هذه الصفة . ثم بين تعالى الوجوه التي كرّم بها بني آدم بأنه حملهم في البرّ والبحر على ما يحملهم من الابل وغيرها ، كما قال: « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة»[2] والبحر، والسفن التي خلقها لهم واجراها بالرياح فوق الماء ليبلغوا بذلك حوائجهم « ورزقناهم من الطيبات» يعني من الثمار والفواكه وطيبات الاشياء ، وملاذها التي خص بها بني آدم ولم يشرك شيئاً من الحيوان فيها من فنون الملاذ . وقيل : من تفضيل بني آدم ان يتناول الطعام بيديه دون غيره ، لان غيره يتناوله بفيه ، وانه ينتصب ، وما عداه على اربع او على وجهه .

وقوله: «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» وليس المراد بذلك تفضيلهم بالثواب ، لان الثواب لا يتفضل به ابتداء ، وانما فضلهم ابتداء بان خلق لهم من فنون النعم وضروب الملاذ ما لم يجعله لشيء من الحيوان ، وانما فعل ذلك تفضلاً منه تعالى ، ولما في ذلك من اللطف للعاقل ، والصلاح الذي ينتظم ويتم بهذا التأويل ، واستدل جماعته بقوله « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا » على تفضيل الملائكة على الانبياء ، قال لان قوله « على كثير ممن خلقنا » يدل على ان ههنا من لم يفضلهم عليهم ،وليس الا الملائكة ، لان ابن آدم افضل من كل حيوان سوى الملائكة بلا خلاف. وهذا باطل بما قلناه من ان المراد بذلك تفضيلهم بالنعم الدنياوية، والالطاف ، وليس المراد بذلك الثواب بدلالة ابتدائهم بهذا التفضيل. والثواب لا يجوز الابتداء به .

وقوله « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » قال الزجاج: يتعلق بقوله «يعيدكم... يوم ندعو » وقيل : تقديره اذكر يوم . وقيل انه يتعلق بقوله « وفضلناهم على

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠ (٢) سورة ١٦ النحل آية ٨

كثير ممن خلقنا تفضيلا... يوم ندعو »، لان ما فعله بهم من الالطاف في الدنيا، لان يطيعوا ويفعلوا من الافعال ما يدعون به يوم القيامة .

واختلفوا في الإمام الذي يدعون به يوم القيامة ، فقال مجاهد وقتادة: إمامه نبيه . وقال ابن عباس : إمامه كتاب علمه. وروي عنه ايضاً أن إمامهم كتابهم الذي انزل الله اليهم فيه الحلال والحرام والفرائض والاحكام . وقال البلخي : بما كانوا يعبدونه ، ويجعلونه إماماً لهم . وقال أبو عبيد : بما كانوا يأتمون به في الدنيا . وهو قول ابي جعفر وابي عبد الله (ع) .

وقوله «فمن أُوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم... » الاية، جعل الله تعالى إعطاء الكتاب باليمين من علامة الرضا والخلاص ، وأن من أعطي كتابه باليمين تمكن من قراءته وسهل له ذلك ، وكان فحواه أن من أعطي كتابه بشماله أو وراء ظهره ، فإنه لا يقدر على قراءة كتابه ، ولا يتأتى له ، بل يتلجلج فيه ، لما يراه من المعاصي الموبقات .

وقوله « ولا يظلمون فتيلاً » معناه لا يبخس أحد حقه ، ولا يظلم شيئاً ، سواء كان مستحقاً للثواب أو العقاب ، فإن المستحق للثواب لا يبخس منه شيئاً والمستحق للعقاب لا يفعل به أكثر من استحقاقه ، فيكون ظلماً له . (والفتيل) هو المفتول الذي في شق النواة - في قول قتادة - وقيل الفتيل في بطن النواة ، والنقير في ظهرها ، والقطمير قشر النواة ، ذكره الحسن .

وقوله « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » قرأ أهل العراق إلا حفصاً والأعشى « ومن كان في هذه أعمى » بالأمالة . الباقون بالتفخيم وقرأ حمزة والكسائي إلا نصيراً، وخلفاً ، وأبا بكر إلا الأعشى والبرجمي « فهو في الآخرة أعمى » بالأمالة : الباقون بالتفخيم .

وقيل في معنى الآية قولان :

أحدهما - قال ابن عباس ، ومجاهد وقتادة ، وابن زيد : من كان في أمر هذه

الدنيا، وهي شاهدة له من تدبيرها وتوثقها وتقلب النعم فيها أعمى عن اعـتماد[١] الصواب الذي هو مقتضاها ، فهو في الآخرة التي هي غائبة[٢] عنه « أعمى وأضل سبيلا » وقال قوم : من كان في هذه الدنيا أعمى عن طريق الحق ، فهو في الاخرة أعمى عن الرشد المؤدي إلى طريق الجنة . وقال أبو علي : فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنة . ومن فخم في الموضعين ، فلأن الياء فيهما قد صارت ألفاً لانفتاح ما قبلها . والأصل فمن كان في هذه اعمى ، فهو في الآخرة أعمى ، ومن كان فيما وضعناه من نعيم الدنيا اعمى، فهو في نعيم الآخرة اعمى. واما تفريق ابي عمرو بين اللفظين فلاختلاف المعنى ، فقال ومن كان في هذه اعمى ممالاً ، فهو في الاخرة اعمى بالفتح اي أشدّ عماً ، فجعل الأول صفة بمنزلة أحمر وأصفر، والثـاني بمنزلة أفعل منك، كقوله «وأضل سبيلا » اي اعمى قلباً . والعمى في العـين لا يتعجب منه بلفظة (أفعل)، ولا يقال ما أعماه ، بل يقال ما أشدّ عماه، وفي القلب ما أعماه بغير أشدّ ، لأن عما القلب حمق، كما قال الشاعر لمرور ما أحمره وأبيضه، فقال:

أمّا الملوك فأنت اليوم ألأمهم   لؤماً وأبيضهم سربال طباخ[٣]

وقال بعضهم : لا وجه لتفريق ابي عمرو، لأن الثاني، وإن كان بمعنى (أفعل منك) فلا يمنع من الامالة ، كما لم يمنع بالذي هو ادنى ، قال ابن خالويه ابو عبدالله إنما اراد ابو عمرو ان يفرق بينهما لما اختلف معناهما ، واجتمعا في آية واحده ، كما قرأ « ويوم القيامة يردون » يعني الكفار، ثم قال في آخرها « عما تعملون »[٤] اي أنتم وهم، ولو وقع مفرداً ، لأجاز الامالة والتفخيم فيهما، قال ابو علي : ومن أمال الجميع كان حسناً ، لانه ينحو نحو الياء بالالف ليعلم انها منقلبة الى اليـاء وان كانت فاصلة او مشبهة للفاصلة ، فالامالة حسنة فيها ، لأن الفاصـلة موضع

---

(١) في المخطوطة (اعتقاد)
(٢) أثبتنا ما في المخطوطة، وكان في المطبوعة (غايته)
(٣) تفسير القرطبي ١٠/٢٩٩ وتفسير الشوكاني ٣/٢٣٨
(٤) سورة البقرة آية ٨٥

وقف، والالف تخفى في الوقف، فأمّا إذا أمالها، نحا بها نحو الكسرة وليكون أظهر لها وأبين.

قوله تعالى

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا (٧٤) إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيٰوةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً) (٧٥) ثلاث آيات .

قال الزجاج : معنى الكلام كادوا يفتنونك، ودخلت (ان واللام) للتوكيد ومعنى (كاد) المقاربة . وقوله « وإن كادوا » قال الحسن : معناه قارب بأن همّ من غير عزم. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم (ان الله وضع عن أمّتي ما حدثت به نفسها إلا من عمل شيئاً او تكلم به) وقيل انهم قالوا : لا ندعك تستلم الحجر حتى تلم بآلهتنا . وقال مجاهد ، وقتادة : الفتنة التي كاد المشركون ان يفتنوا النبي صلى الله عليه وسلم بها الإلمام بآلهتهم ان يمسها في طوافه ، لما سألوه في ذلك ، ولاطفوه .

وقال ابن عباس : همّ بإنظار ثقيف بالإسلام حتى يقبضوا ما يهدى لآلهتهم ثم يسلموا فيها .

امتن الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأنه لولا انه ثبته بلطفه ، وكثرة زواجره وتواتر نهيه ، لقد كاد يركن اي يسكن ، ويميل إلى المشركين قليلاً ، على مايريدون يقال : ركُن يركن، وركَن يركن، ثم قال «إذاً لأذقناك ضعف الحياة، وضعف المماة » اي لو فعلت ذلك ، لاذقناك ضعف عذاب الحياة ، وضعف عذاب المماة لعظم ذلك منه لو فعله، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك. وإنما كان يعظم عذابه بالركون اليهم لكثرة زواجره وفساد العباد به .

وقيل لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ (اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين) روى ذلك قتادة . ومعنى الفتنة ـ ههنا ـ الضلال ، والتقدير وإن كادوا ليفتنونك ليضلوك عن الذي اوحينا اليك، في قول الحسن وأصل الفتنة المحنة التي يطلب بها خلاص الشيء مما لابسه ، فطلبوا إخراجه إلى الضلالة .

وقوله « لتفتري علينا غيره » اي لتكذب علينا غير ما اوحينا اليك وإن فعلت ذلك لاتخذوك خليلا وديداً .

وقوله « ثم لا تجد لك علينا نصيراً » اي لو فعلت الركون اليهم لأذقناك ما قلناه من العذاب ، ثم لا تجد لك علينا ناصراً يدفع عنك ما نريد فعله بك .

قوله تعالى :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱللَّيْلِ وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً) (٧٨) ثلاث آيات .

قرأ ابن عامر واهل الكوفة الا ابا بكر « خلافك » . الباقون « خلفك » فمن قرأ « خلفك » فلقوله « فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها »[١] . وقوله « بمقعدهم خلاف رسول الله »[٢] اي لمخالفتهم إياه ، ومن قرا « خلافك » قال بعدك وخلفك وخلافك بمعنى واحد ، يقول الله تعالى « وإن كادوا » يعني المشركين « ليستفزونك من الارض » قال الحسن : معناه ليقتلونك ، وقال غيره : الاستخفاف بالانزعاج .

---

(١) سورة البقرة آية ٦٦ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٨٢

وقال ابو علي : همّوا بأن يخرجوه من ارض العرب لا من مكة فقط، إذ قد أخرجوه من مكة ، وقال المعتمر ابن ابي سليان عن ابيه : الارض التي ارادوا استزلاله منها: هي ارض المدينة ، لان اليهود قالت له: هذه الارض ليست ارض الانبياء، وانما أرض الانبياء الشام. وقال قتادة ومجاهد: هي مكة، لان قريشاً همّت بإخراجه منها. ثم قال تعالى: انهم لو اخرجوك من هذه الارض لما لبثوا، لما اقاموا بعدك فيها إلا قليلا. وقال ابن عباس والضحاك: المدة التي لبثوا بعده هو ما بين خروج النبي من مكة ، وقتلهم يوم بدر . ومن قرأ خلافك اراد بعدك، كما قال الشاعر:

عقب الرذاذ خلافها فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا[(١)]

الرذاذ المطر الخفيف، يصف روضة وأرضاً غبّ مطرها، وكانت حضراء وقال الحسن الاستفزاز - ههنا - القتل .

وقوله « وإذاً لا يلبثون » بالرفع ، لان (إذاً) وقعت بعد الواو ، فجاز فيها الالغاء ، لانها متوسطة في الكلام ، كما انه لا بد من ان تلغى في آخر الكلام .

وقوله « سنة من قد ارسلنا » انتصب (سنة) بمعنى لا يلبثون . وتقديره : لا يلبثون لعذابنا إياهم كسنة من قبلك، إذ فعلت امهم مثل ذلك . ثم قال « لاتجد لسنتنا تحويلا » اي تغييراً وانتقالاً من حالة إلى حالة اخرى . بل هي على وتيرة واحدة. ثم امر نبيه ﷺ فقال « اقم الصلاة» والمراد به أمّته معه «لدلوك الشمس» اختلفوا في الدلوك ، فقال ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن زيد : هو الغروب والصلاة المأمور بها - ههنا - هي المغرب ، وقال ابن عباس في رواية اخرى والحسن ، ومجاهد ، وقتادة : دلوكها زوالها ، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله (ع). وذلك ان الناظر اليها يدلك عينيه ، لشدة شعاعها. واما عند غروبها فيدلك عينيه لقلة تبينها ، والصلاة المأمور بها عند هؤلاء الظهر ، وقال الراجز :

---

(١) مجاز القرآن ١/٣٨٧ وتفسير الطبري ١٠/١٢٧ ، ١٥/٨٤ واللسان والتاج (خلف) وتفسير الشوكاني ٣:٢٣٩ وقد روي (عقب الربيع) وفي راوية اخرى (عفت الديار).

هذا مقـــام قدمي ربـــاح للشمس حتى دلكت براح [١]

ورباح اسم ساقي الابل . من روى بكسر الباء اراد براحته ، قال الفراء : يقال: بالراحة على العين ، فينظر هل غابت الشمس بعد ، قال الفراء هكذا فسروه لنا ، ومن رواه بفتح الباء جعله اسماً للشمس مبنياً على (فعال) مثل قطام وحذام وقال العجاج :

والشمس قد كادت تكون دنفا ادفعهـا بالراح كي تزحلفا [٢]

وغسق الليل ظهور ظلامه ، ويقال غسقت القرحة إذا انفجرت ، فظهر ما فيها . وقال ابن عباس وقتادة: هو بدؤ الليل ، قال الشاعر :

إن هذا الليل اذ غسقا [٣]

وقال الجبائي غسق الليل ظلمته ، وهو وقت عشاء الآخرة . وقوله «وقرآن الفجر » قال قوم يعني قرآن الفجر في الصلاة ، وذلك يدل على أن الصلاة ، لاتتم إلا بالقراءة ، لأنه أمر بالقراءة وأراد بها الصلاة ، لأنها لا تتم إلا بها .

وقوله : « إن قرآن الفجر كان مشهوداً » معنـــاه يشهده ملائكة الليل ، وملائكة النهار ، ذهب اليه ابن عباس ، وقتادة ومجاهد وابراهيم . وروي عن امير المؤمنين (ع) وأُبي بن كعب أنها الصلاة الوسطى ، وقال الحسن: «لدلوك الشمس» لزوالها : صلاة الظهر ، وصلاة العصر الى «غسق الليـل » صلاة المغرب والعشاء

---

(١) البيت من نوادر ابي زيد . تفسير القرطبي ١٠ : ٣٠٣ ومجاز القرآن ١ : ٣٨٧ وتهذيب الالفاظ ٣٩٣ والمجالس للثعالبي ٣٧٣ وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٤١ وتفسير الطبري ١٥ : ٨٥ وغيرها . وقد روى (عدوة) بدل للشمس) وروي ايضاً (ذبيب) في رواية اخرى .

(٢) ديوانه ٨٢ وتفسير القرطبي ١٠ : ٣٠٣ وتفسير الطبري ١٥ : ٨٦ وتفسير القرطبي ١ : ٢٦١

(٣) قائله عبد الله بن قيس الرقيات . ديوانه (دار بيروت) ١٨٨ وتفسير روح المعاني ١٥ : ١٣٢ وتفسير القرطبي ١٠ : ٣٠٤ وتفسير الطبري ١٥ : ٨٧ ومجـاز القران ١ : ٣٨٨ واللسان والتاج (غسق) وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٤١ وعجزه :

واستكن الهم والارقا

الآخرة، كأنه يقول من ذلك الوقت الى هذا الوقت على ما يبين لك من حال الصلوات الأربع، ثم صلاة الفجر، فأفردت بالذكر. وقال الزجاج: سمى صلاة الفجر «قرآن الفجر»، لتأكد أمر القراءة في الصلاة، ومعنى «لدلوك الشمس» أي عند دلوها. واستدل قوم بهذه الآية على أن وقت الاولى موسع الى آخر النهـــار، لأنه أوجب إقامة الصلاة من وقت دلوك الشمس الى وقت غسق الليل، وذلك يقتضي ان ما بينها وقت. وهذا ليس بشيء، لأن من قال: إن الدلوك هو الغروب لا دلاله فيها عليه عنده، لان من قال ذلك يقول: انه يجب إقامة المغرب من عند المغرب الى وقت اختلاط الظـلام الذي هو غروب الشفق، وما بين ذلك وقت المغرب. ومن قال: الدلوك هو الزوال يمكنه أن يقول: المراد بالآية البيـــان لوجوب الصلواة الخمس على ما ذكره الحسن، لا بيـــان وقت صلاة واحدة، فلا دلالة له في الآية.

و(مشهوداً) قيل في معناه قولان:

احدهما — تشهده ملائكة الليل، والنهار.

والثاني — قال الجبـــائي: فيه حث للمسلمين على ان يحضروا هذه الصلاة ويشهدوها للجماعة.

قوله تعالى:

(وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (٨٠) وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) (٨١) ثـلاث آيات.

هذا خطاب للنبي ﷺ يقول الله تعـالى له: «ومن الليل فتهجّد والتهجّد

التيقظ بما ينفي النوم ، والهجود النوم ، وهو الأصل ، هجد يهجد هجوداً ، فهو هاجد إذا نام ، قال لبيد :

قلت هجدنا فقد طال السرى [١]

وقال الشاعر :

ألا طرقتنا والرفاق هجود فباتت بعلاّت النوال تجود [٢]

وقال الحطيئة :

ألا طرقت هند الهنود وصحبتي بحوران حوران الجنود هجود [٣]

وقال علقمة ، والاسود : التهجد يكون بعد نومة . وقال المبرّد : – التهجد عند أهل اللغة – السهر للصلاة ، أو لذكر الله ، فاذا سهر للصلاة قيل تهجد ، واذا أراد النوم قال هجدت . والنافلة فعل ما فيه الفضيلة مما رغّب الله فيه ، ولم يوجبه . والنافلة . الغنيمة ، قال الشاعر :

إن تقوى ربنا خير نَفل وباذن الله ريثي والعجل [٤]

اي خير غنيمة . والحسن من افعال العباد على ثلاثة أقسام : واجب ، وندب ، ومباح . وقال الرماني : يجوز ان يكون نافلة اكثر ثواباً من فريضة إذا كان ترك الفريضة صغير ، لأن نافلة النبي ﷺ أعظم من هذه الفريضة ، من فرائض غيره . وقد تكون نعمة واجبة أعظم من نعمة واجبة ، كنعم الله تعالى ، لانه يستحق بها العباد من نعمة الانسان التي يستحق بها الشكر فقط .

وقوله : « نافلة لك » وجه هذا الاختصاص هو أنه أتمّ ، للترغيب لما في ذلك من صلاح أُمته في الابتداء به والدعاء الى الاستنان بسنته . وروي أنها فرضت عليه ، ولم تفرض على غيره ، فكانت فضيلة له ، ذكره ابن عباس ، فيجوز ذلك

---

(١) ديوانه ٢/١٣ ومجاز القرآن ١/٣٨٩ والاقتضاب ٤٠٨ وروح المعاني ١٥/١٣٨ واللسان (هجد)

(٢) تفسير القرطبي ١٠ : ٣٠٨ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ٢٤٢ وتفسير الطبري ١٥ : ٨٩

(٣) تفسير الطبري ١٥ : ٨٩

(٤) قائله لبيد بن ربيعة وقد مر هذا الرجز في ٥ : ٨٦ من هذا الكتاب

بترغيب يخصّه في شدته . وقال مجاهد : لانها فضيلة له ولغيره كفّارة ، لان الله تعــالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا ايضاً من إختصــاصه بما ليس لغيره .

وقوله : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » معناه متى فعلت ما ندبناك اليه من التهجد يبعثك الله مقاماً محموداً ، وهي الشفاعة ، في قول ابن عبــاس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة . وقال قوم : المقــام المحمود إعطاؤه لواء الحمد . و(عسى) من الله واجبه . وقد أنشد لابن مقبل في وجوبها :

ظني بهم كعسى وهم بتنوفة يتنازعون جوائز الامثال (١)

يريد كيقين ، ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يقول : « ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق » قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : إدخاله المدينة حين أخرج من مكة . وقيــل ادخلني فيما أمرتني واخرجني عما نهيتني بلطف من ألطافك . وقال الفراء : قال ذلك حين رجع من معسكره الذي أراد أن يخرج الى الشام ، حين قالوا له : ليست المدينة أرض الانبياء ، و«أخرجني مخرج صدق» يعني الى مكة .

وقال أيضاً : يا محمد قل « واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً » قال الحسن وقتادة : معناه اجعل لي عزّاً امتنع به ممن يحاول صدي عن إقامة فرائض الله في نفسه وغيره . وقــال مجاهد : حجة بينة . ثم قال : « وقل جاء الحق » يعني التوحيد وخلع الانداد والعبادة لله وحده لا شريك له « وزهق الباطل » قال ابن عباس : معناه ذهب الباطل ، وزهقت نفسه زهوقاً إذا خرجت ، فكأنه خرج الى الهلاك . وقيل امر بهذا الدعاء إذا دخل في أمرٍ او خرج من امر . ثم قال تعالى وأخبر « ان الباطل كان زهوقاً » باطلاً هالكاً لا ثبات له ، وانه يضمحل ويتلاشى . وروي عن ابن مسعود أنه قــال : دخل النبي ﷺ يوم الفتح مكة ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بعود ، ويقول: « جاء الحق

---

(١) اللسان (ظنن)

وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » وجاء الحق وما يبدي الباطل وما يعيد .

قوله تعالى :

(وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَآ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَؤُساً (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا) (٨٤) ثلاث آيات بلا خلاف.

أخبر الله تعالى : أنه أنزل القرآن وفيه شفاء ، ووجه الشفاء فيه من وجوه :

أحدها - ما فيه من البيان الذي يزيل عمى الجهل وحيرة الشك .

وثانيها - أنه من جهة نظمه وتأليفه يدل على انه معجز دال على صدق من ظهر على يده .

وثالثها - انه يتبرك به فيدفع به كثيراً من المكاره والمضار ، على ما يصح ويجوز في مقتضى الحكمة .

ورابعها - ما في العبادة بتلاوته من الصلاح الذي يدعو الى امثاله بالمشاكلة التي بينه وبينه الى غير ذلك. ثم قال: «ولا يزيد الظالمين» يعني القرآن لا يزيد الظالمين بمعنى انهم لا يزدادون عنده « الا خساراً» يعني يخسرون ثوابهم ويستحقون العقاب لكفرهم به وحرمان أنفسهم تلك المنافع التي فيه ، صار كأنه يزيد هؤلاء خسراناً بدل زيادة المؤمنين تقى وايماناً . ثم قال : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض »

أي ولّى عرضه، كأنه لم يقبل علينا بالدعاء والابتهال ، وباعد عن انعامنا عليه بضروب النعم ، فلا يشكرها ، كما اعرض عن النعمة بالقرآن .

وقوله : « ونأى بجانبه » أي بعد بنفسه عن القيام بحقوق نعم الله . وقال مجاهد : معناه تباعد منا « واذا مسه الشر كان يؤساً » يعني اذا لحق الانسان شر وبلاء « كان يؤساً » اي قنوطاً من رحمة الله ، فقال الله لنبيه ﷺ قل لهم : « كلٌّ يعمل على شاكلته» أي على طريقته التي تشاكل اخلاقه. وقال مجاهد: على طبيعته. وقيل على عادته التي ألفها . والمعنى انه ينبغي للانسان ان يحذر إلف الفساد فلا يستمر عليه ، بل يرجع عنه . ثم قال : « وربكم اعلم بمن هو أهدى سبيلاً » يعني انه عالم بمن يهتدي الى الحق ممن يسلك طريق الضلال ، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم .

وأمال حمزة والكسائي « ونأى بجانبه » بكسر النون والهمزة ، وأمالوا الياء ، وأمالوا النون لمجاورة الهمزة، لأنها من حروف الحلق، كما يقولون: رغيف وشعير وبعير بكسر أولهن . وقرأ ابن عامر « وناء بجـــانبه » من ناء ينوء ، فانقلبت الواو الفاً لانفتاح ما قبلها ، ومدّت الالف تمكيناً للهمزة .

وقرأ ابو عامر عن عاصم وابو عمرو – في رواية عياش – « ونئي » بفتح النون وكسر الهمزة ممالاً ومثل ذلك رأى ورئي ، وراء ورأه في القلب ، فاذا قالوا فعلت ، قالوا رأيت بلا خلاف . وانشد المبرد حاكياً عن ابي عبيد :

أغلام معلل راء رؤياً فهو يهذي بما رأى في المنام [(١)]

قوله تعالى :

(وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٩٦

كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً) (٨٧) ثلاث آيات .

يقول الله تعـــالى لنبيه ﷺ « يسألونك عن الروح » يا محمد . واختلفوا في الروح الذي سألوا عنه . فقال ابن عباس : هو جبرائيل . وروي عن علي (ع) أن الروح ملك من الملائكة له سبعون الف وجه في كل وجه سبعون الف لسان يسبح الله بجميع ذلك . وقيـــل : هو روح الحيوان ، وهو الاظهر في الكلام . وقال قتادة: الذي سأله عن ذلك قوم من اليهود . وقيل : الروح هو القرآن ، ذكره الحسن ، لقوله : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا » [١] واختاره البلخي ، وقوى ذلك بقوله بعدها : « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا اليك » يعني القرآن،فقال الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهم«الروح من أمر ربي» فعلى قول من قال: انهم سألوا عن القرآن أو عن جبرائيل او الملك أو روح الحيوان، فقـــد أجاب عنه لانه قال : « من أمر ربي » أي من خلق ربي وفعله . وعلى قول : من قال انهم سألوه عن ماهية روح الانسان ، لم يجب ، وانما عدل عن جوابهم ، لانهم وجدوا في كتابهم انه إن أجاب عن الروح ، فليس بنبيّ، فاراد ﷺ ان يصدق نبوته بموافقة امتناعه من الجواب ، لما في كتابهم . ويقوي ذلك قوله : « وما اوتيتم من العلم إلا قليلاً » اي لم أُعط من العلم الا شيئاً يسيراً ، والاكثر لا اعلمه ، لان معلومات الله تعالى لا نهاية لها . والروح من الامور المتروكة التي لا يصلح النص عليها ، لانه ينافي الحكمة ، لما فيه من الاستفساد . وانما اعلم ما نص لي عليه مما يقتضي المصلحة ، وهو قليل من كثير .

وقيل ايضاً انهم لم يجابوا عن الروح ، لان المصلحة اقتضت ان يحالوا على ما في عقولهم من الدلالة عليه ، لما في ذلك من الرياضة على استخراج الفائدة ، وان ما طريقه السمع ، فقد اتى به ، وما طريقه العقل ، فانما يأتي به مؤكداً لما في العقل اضرب من التأكيد ، ولما فيه من المصلحة . والروح جسم رقيق هوائي على بنية حيوانية في كل جزء منه حياة ، ذكره الرماني . وقال : كل حيوان ،

---

(١) سورة الشورى آية ٥٢.

فهو روح وبدن الا أن فيهم من الاغلب عليه الروح ، وفيهم من الاغلب عليه البدن . ثم قال : « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا اليك » ومعناه اني اقدر ان آخذ ما أعطيك ، كما منعته من غيرك ، لكني دبرتك بالرحمة لك ، فأعطيتك ما تحتاج اليه ومنعتك ما لا تحتاج اليه والى النص عليه . وان توهّم قوم أنه مما يحتاج اليه ، فتدبر أنت بتدبير ربك وارض بما اختاره لك ، ولو فعلنا ذلك لم تجد لك علينا وكيلاً يستوفي ذلك منـا . وقال قوم : معنى « وان شئنا لنذهبنّ » اي لنمحونّ - هنا - القرآن من صدرك وصدر أمتك. وقوله: «الا رحمة من ربك» اعطاك ما اعطاك من العلوم ومنعك ما منعك منها « إن فضل الله كان » فيما مضى وفيما يستقبل «عليك كبيراً» عظيماً، فقابله بالشكر .

قوله تعالى :

(قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (٨٩) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعاً) (٩٠) ثلاث آيات .

قرأ اهل الكوفة « تفجر » بالتخفيف. الباقون بالتشديد، يقال : فجر يفجر بالتخفيف إذا شق الأنهار ، ومن شدد ، فلقوله « وفجّرنا خلالها نهراً »[1] اي مرة بعد مرة ، ولقوله « فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً » فالتفجير لا يكون إلا من فجر .

في الآية الاولى ، تحدي للخلق ان يأتوا بمثل هذا القرآن وأنهم يعجزون عن

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٣٤

ذلك ولا يقدرون على معارضته، لأنه تعالى قال «قل» يا محمد لهؤلاء الكفار «لئن اجتمعت الانس والجن» متعاونين متعاضدين «على أن يأتوا بمثل هذا القرآن» في فصاحته وبلاغته ونظمه، على الوجه الذي هو عليه، من كونه في الطبقة العليا من البلاغة وعلى حد يشكل على السامعين ما بينهما من التفاوت، لما أتوا بمثله، ولعجزوا عنه «ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» اي معيناً، والمثلية التي تحدوا بالمعارضة بهـا معتـادة بينهم، كمعارضة علقمه لامرىء القيس، ومعـارضة الحرث ابن حلزة عمرو بن كلثوم، ومعارضـة جرير الفرزدق. وما كان ذلك خافياً عليهم.

ثم قال «ولقد صرّفنا في هذا القرآن من كل مثل» وتصريفه إياه هو توجيهه إياه في معانٍ مختلفة. وقال الرماني: هو تصيير المعنى دائراً فيما كان من المعاني المختلفة. وذلك أنه لو أدير في المعاني المتفقة لم يعد ذلك تصريفاً، فالتصريف تصيير المعنى دائرا في الجهات المختلفة.

وقوله «لا يأتون بمثله» انما رفعه لانه غلب جواب القسم على جواب (إن) لوقوعه في صدر الكلام، وقد يجوز أن يجزم على جواب (إن) إلا أن الرفع الوجه، وقال الاعشى:

لئن منيت بنا عن غب معركة لاتلقنا من دماء القوم ننتقل[1]

وقوله «فأبى أكثر الناس إلا كفوراً» معناه إنما «صرّفنا في هذا القرآن من كل مثل» ليستدلوا به على كونه من قبل الله تعالى ومع ذلك يأبى أكثر الناس إلا الجحد به، وإنكاره، فالكفور - ههنا - هو الجحود للحق بالاستكبار. ويقولون مع ذلك «لن نؤمن لك» يا محمد «حتى تفجر لنـا من الارض ينبوعاً» ومعناه حتى تشقق من الارض عيناً ينبع بالماء أي يفور، فهو على وزن

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٤٩ وروايته (تلفنا) بدل (تلقنا) والمعنى واحد. وهو في تفسير روح المعاني ١٥ : ١٣٦ وتفسير الطبرى ١٥ : ١٠٠

(مفعول) من (نبع)، يقال نبع الماء ينبع، فهو نابع، وجمعه ينابيع، وانما طلبوا عيوناً ببلدهم -في قول قتادة - والتفجير التشقيق عما يجري من ماء او ضياء، ومنه سمى الفجر، لانه ينشق عن عمود الصبح، ومنه الفجور، لأنه خروج الى الفساد لشق عمود الحق.

قوله تعالى:

(أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا) (٩٣) ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر «قال سبحان ربي». الباقون «قل سبحان ربي» وقرأ اهل المدينة وابن عامر وعاصم «كسفاً» بفتح السين. الباقون باسكانها من قرأ «قال سبحان» معناه إن الرسول قال ذلك عند إقتراحهم ما تقدم ذكره، مما لايدخل تحت مقدور البشر. ومن قرأ «قل» فعلى أنه أمر بأن يقول لهم ذلك. ويقويه قوله «قل إنما انا بشر مثلكم»(١)

قال ابو زيد: يقال: كسفت الثوب أكسفه كسفاً إذا قطعة قطعاً، والكسف القطع واحده كسفة مثل قطعة. قال ابو عبيد: كسفاً قطعاً. ومن فتح السين جعله جمع كسفة، قال كسَفاً مثل قطعة وقطع. ومن سكنه جاز ان يريد

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ١١٠

الجمع، مثل وسدرة. ويجوز ان يريد به المصدر. والمعنى اطبق علينـــا السماء كسفاً اي طبقاً.

نزلت هذه الآية في أقوام اقترحوا على النبي ﷺ هذه الآيات؛ قالوا «لن نؤمن لك» اي لن نصدقك في أنك رسول الله ﷺ حتى تأتي بها، وهم كانوا جماعة من قريش، منهم عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وابو سفيان، والاسود ابن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وابو جهـل ابن هشام، وعبدالله بن أبي أُميّة، وأميّة بن خلف، والعاص بن وابل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان. على ما ذكر ابن عباس.

فمن الآيات التي اقترحوها ما ذكره في الآية المتقدمة بأن قالوا «لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً» اي تشقق لنا من الارض عيون ماء في بلادنا «او تكون لك جنة» يعني بستاناً من نخيل وعنب، وتشقق الانهار خلالها اي في خلالها، ووسطها تشقيقاً «او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً» وقرىء بسكون السين، وفتحها، والكسف القطع، في قول ابن عباس ومجـــاهد وقتادة. ويحتمل وجهين:

احدهما – ان يكون جمع كسفة وكسف بسكون السين كسدرة وسدر بسكون الدال، وهو للجنس يصلح، للكثير والقليل، ويقول العرب: اعطني كسفة من هذا الثوب أي قطعة منـــه، حكى ذلك الفراء، انه سمعه من بعض العرب؛ ومن ذلك الكسوف، لانقطاع نوره.

والثاني – يجوز ان يكون الكَسف مصدراً من كسفت الشيء إذا غطيته بالغطاء عمّن يراه، فكأنهم قالوا: تسقطها طبقاً علينا.

وقوله «أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً» فيه دلالة على أنهم كانوا مشبهة، لأن العارف بالله على الحقيقة لا يقول هذا، لأنه لا يجوز عليه تعالى المقابلة، ولا لهم إستعمال هذا على معنى دلائل وآيات الله إذ لا دلائل تدل على ذلك، فلا يشترط في الظاهر ما ليس فيه، لانه لم يثبت معرفتهم وحكمتهم، فيصرف ذلك عن

ظاهره . ومعنى «قبيلا» قال الفراء : معناه كفيلا بذلك ؛ يقال قبلت وكفلت ، وزعمت وحملت قبيلـه . وقال غيره : يعني مقابلة . وقال قتادة وابن جريج والزجاج : معناه نعاينهم معاينة ، قال الشاعر :

نصالحكم حتى تبؤوا بمثلها كصرخة حبلى بشّرتها قبيلها (١)

اي قابلتها ، وهي مقابلة لها ، والعرب تجريه في هذا المعنى مجرى المصدر فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث .

وقوله « او يكون لك بيت من زخرف » قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والفراء : يعني بيتاً من ذهب « او ترقى في السماء » اي تصعد إليها أمامنا بحذائنا بسلم ، قال الفراء إنما قال في السماء ، ولم يقل الى ، لأن المراد او ترقى في سلم الى السماء ، فأتى بـ(في) ليدل على ما قلناه يقال : رقيت في السلم أرقى رقياً ، ورقيت من الرقيا أرقوه رقياً ورقية « ولن نؤمن لرقيّك » اي لصعودك حتى تنزل علينا كتاباً مكتوباً نقرأه كما أنزل عـــلى موسى الالواح ، فقال الله تعالى له « قل » يا محمد « سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً » وإنما أجابهم بذلك ، لان المعنى انكم تقترحون علي الآيات وليس أمرها اليّ وإنما أمرها الى الذي أرسلني والذي هو أعلم بالتدبير مني وما ينص عليه من الدليل ، فلا وجه لطلبكم هذا مني مع ان هذه صفتي ، لاني رسول أؤدي اليكم ما أوحي اليّ وأمرت بان أؤديه اليكم . ومن قرأ «قال سبحان» حمله على أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك ابتداء من قبل نفسه ، قبل ان يؤمر به ، لعلمه بأن الآيات لا تتبع الشهوات ، والاقتراحات ،

---

(١) قائله الاعشى ديوانه (دار بيروت) ١٣٥ وقد مر تخريجه في ١ : ٣٥٠ ورواية الديوان

أصالحكم حتى تبوءوا بمثلها كصرخة حبلى يسرتها قبولها

وكان على هامش المطبوعة حاشية هي (كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها ، ويروى قبولها اي يئست منها والقبيل والقبول كلاهما بمعنى القابلة - هنا - سميت بذلك لقبولها الولد ، وتلقيها اياه عند الولادة) نتهى . وعلى هذه الحاشية المذكورة علامة تدل على انها وجدت في بعض المخطوطات .

وانما تتبع المصالح ، ولو تبعت الشهوات لكان كل واحد يقترح غير ما يقترحه الآخر فيؤدي الى الفساد .

قوله تعالى :

(وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ ٱللهُ بَشَراً رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلٰئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِٱللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) (٩٦)

ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى وما صرف الناس، يعني المشركين الذين لم يؤمنوا، وانما أخبر عنه بالمنع مبالغة له في الصرف ، لان المنع يستحيل معه الفعل ، والصرف يمكن معه الفعل، لكنه لشدّة صرفه شبّه بالمنع . وقوله « أن يؤمنوا » اي ما صرفهم عن التصديق بالله ورسوله حين جاءهم الهدى، يعني الحجج والبينات، وطريق الحق إلا قولهم « أبعث الله بشراً رسولاً » فدخلت عليهم الشبهة في أنه لا يجوز من الله أن يبعث رسولاً إلا من الملائكة ، كما دخلت عليهم الشبهة في أن عبادتهم لا تصلح لله ، فوجّهوها إلى الاصنام، فعظموا الله تعالى بجهلهم، بما ليس فيه تعظيم. وهذا فاسد ، لأن تعظيم الله إنما يكون بأن يشكر على نعمته بغاية الشكر ويحمد غاية الحمد ، ويضاف اليه الحق دون الباطل ، وهم عكسوا فأضافوا الباطل اليه وما يتعالى عن فعله أو إرادته . وإنما عدلوا عن الهدى إلى الضلال تقليداً لرؤسائهم . واعتقاداً للجهل بالشبهة .

فان قيل لم جاز ان يرسل الله إلى النبي - وهو من البشر - ملكاً ليس من جنسه ؟ ولم يجز أن يرسل إلى غير النبي مثل ذلك ؟!

قلنا : لانه صاحب معجزة ، وقد اختير للهداية والمصلحة ، فصارت حاله بذلك مقاربةً لحال الملك ، وليس كذلك غيره من الأمة ، مع ان الجماعة الكثيرة ينبغي ان يتخير لها ما تجتمع عليه هممها بما لا يحتاج اليه في الواحد منا إذا اريد صلاح الجميع. وقيل: لأنهم لا يجوز ان يروا الملك ، وهم على هذه الهيئة التي هم بها ، على أنه يلزمهم على الامتناع من اتباع النبيّ – لأنه بشر مثلهم – الامتناع من اتباع الملك ، لانه عبد ومحدث مثلهم في العبودية والحدوث ، فان جاز ذلك ، لان الله تعالى عظمه وشرّفه واختاره ، جاز ايضاً في البشر لمثل هذه العلة .

ثم قال لنبيه ﷺ « قل » لهم «لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين » قال الحسن معنى « مطمئنين » قاطنين فيها. وقال الجبائي : « مطمئنين » عن امر الله الذي يلزم بالاعراض عنه الذم ، كما قال تعالى « ولكنه أخلد إلى الارض واتبع هواه »[1]. ثم قال له «قل» لهم كفى بالله ، أي حسبي الله شهيداً وعالماً بيني وبينكم « انه كان بعباده خبيراً بصيراً » أي عالماً بكم وبي ، مدرك لنا. ونصب « شهيداً » على التمييز ، وتقديره حسبي الله من الشهداء ، ويجوز ان يكون نصبا على الحال ، وتقديره كفى الله في حال شهادته . وإنما قال هذا جوابا لهم حين قالوا : من يشهد لك بأنك رسول الله ؟ فقال الله له « قل كفى بالله شهيدا » .

قوله تعالى :

(وَمَنْ يَهْدِ ٱللهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (٩٧) ذٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا ءَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٩٨) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ

---

(١) سورة الاعراف اية ١٧٥

قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً) (٩٩) ثلاث آيات .

قيـــل في معنى قوله « من يهد الله فهو المهتد » قولان :

أحدهما – من يحكم الله بهدايته وتسميته بها بإخلاصه الطاعة ، فهو المهتدي في الحقيقة ، وفيه دعاء الى الاهتداء ، وترغيب فيه وحث عليه . وفيه معنى الامر به.

الثاني – من يهديه الله الى طريق الجنة ، فهو المهتدي اليها .

وقوله « ومن يضلل » يحتمل ايضاً أمرين :

احدهما – من يحكم الله بضلاله وتسميته ضالاً بسوء اختياره للضلالة فإنه لا ينفعه ولاية وليّ له ، فلو تولاّه لم يعتد بتوليه ، لأنه من اللغو الذي لا منزلة له ، ولذلك حسن أن ينفى ، بمنزلة ما لم يكن .

والثاني – من يضله الله عن طريق الجنة ، وأراد عقابه على معاصيه لم يوجد له ناصر يمنعه من عقابه .

ثم أخبر عن صفة حشرهم الى أرض القيامة ، يعنى الكفار ، إنه يحشرهم « يوم القيامة » مجرورين « على وجوههم عمياً » كما عموا عن الحق في الدنيا « بكماً » جزاء على سكوتهم عن كلمة الاخلاص « وصماً » لتركهم سماع الحق واصغائهم إلى الباطل « كلما خبت » النار ، والخبوة هدوء النار عن الالتهاب خبت النار تخبو خبواً اذا سكنت ، والمعنى : كلما سكنت التهبت واستعرت ، وذلك من غير نقصان آلام أهلها ، قال عدي بن زيد :

وسطه كالسراج أو سرج المجدل حيناً يخبو وحيناً يغير[٢]

فان قيل : كيف يحشرهم الله يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ، مع قوله « ورأى المجرمون النار ، فظنوا انهم مواقعوها »[٣] وقوله « سمعوا لها تغيظاً

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٦ (٢) تفسير الطبري ١٥ : ١٠٥

(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٥٤

وزفيرا [١] » وقوله « دعوا هنالك ثبورا » [٢]

قلنا عنه جوابان :

احدهما ـ انهم يحشرون كذلك، ثم يجعلون يبصرون ويشهدون وينطقون .

الثاني ـ قال ابن عباس والحسن: إنهم عمي عمّا يسرهم، بكم عن التكلم بما ينفعهم صم عما يمتعهم « مأواهم جهنم » أي مستقرهم .

فإن قيل : لم جاز أن يكونوا عمياً عن العذاب يوم القيامة ، ولم يجز أن يكونوا جهالاً به ؟.

قلنا : لان الجاهل به لا يجد من ألمه ما يجده العالم ، ولأن الحكمة تقتضي إعلامه أن عقابه من أجل جرمه ، لانه واقع موقع التوبيخ له ، وموقع الزجر في الخبر به .

وقوله « ذلك » يعني ما قدم ذكره من العقاب « جزاؤهم » استحقوه بكفرهم بآيات الله .

وقوله « إذا كنّا عظاماً ورفاتاً » مثل التراب متحطمين مترّضضين « أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً » وإنما قالوا ذلك ، لانكارهم الحشر والبعث يوم القيامة والثواب والعقاب . ثم قال « أو لم يروا » يعني هؤلاء الكفار « ان الله الذي خلق السموات والأرض » لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها ، « قادر على ان يخلق مثلهم » لأن القادر على الشيء قادر على أمثاله إذا كان له مثل وأمثال في الجنس « وجعل لهم أجلا » يعيشون اليه ويحشرون عنده ، لا شك فيه . وقال الجبائي : جعل الله لهم أجلاً لمعادهم وحشرهم لا شك فيه .

ثم أخبر تعالى فقال « فأبى الظالمون » لنفوسهم الباخسون حقها بفعل المعاصي « إلاّ كفوراً » أي كفروا وجحدوا بآيات الله ونعمه .

وفي الآية دلالة على ان القادر على الشيء قادر على جنس مثله إذا كان له مثل. وفيه دلالة على أنه يجب أن يكون قادراً على ضده ، لأن منزلته في المقدور منزلة

(١ ، ٢) سورة ٢٥ الفرقان آية ١٢ - ١٣

مثله . وفيه دلالة على انه يقدر على إعادته إذا كان مما يبقى وتصح عليه الاعادة .

قوله تعالى :

(قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً) (١٠٠) آية بلا خلاف .

يقول الله لنبيه ﷺ «قل» لهؤلاء الكفار: لو انكم ملكتم «خزائن رحمة ربي» أي ما يقدر عليه من النعم قدرتم على مثله لما انفقتموه في طاعة الله،وامسكتموه خوفا من الفقر . ثم اخبر بأن الانسان كان قتورا ، يعني مضيقاً سيء الظن بالله وبالخلف عن الانفاق ، وهو جواب لقولهم « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً » [١] فاعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الله ، لأمسكوا بخلا بها وشحاً خشية نفادها ، يقال : نفقت نفقات القوم إذا نفدت ، وانفقها صاحبها أي انفدها حتى افتقر ، وقال قتادة : خشية الانفاق أي خشية الفقر . والمراد بالانسان في الآية . - قول ابن عباس والحسن : هو الكافر . والقتور المضيق للنفقة ، يقال قتر يقتر وأقتر إذا قدّر النفقة . و(أنتم) مرفوع بفعل مضمر ، والمعنى قل لو تملكون أنتم ، لأن (لو) يقع بعدها الشيء ، لوقوع غيره ، فلا يليها إلا الفعل ، وإذا وليها اسم يعمل فيه الفعل المضمر قال الشاعر :

لو غيركم علق الزبير بحبله أدى الجوار الى بني العوّام [٢]

والقتور البخيل - في قول ابن عباس - قال أبو داود :

لا أعدّ الاقتار عدماً ولكن فقد من قد رزئته الأعدام [٣]

وظاهر قوله «وكان الانسان قتوراً» العموم، وقد علمنا أن في الناس الجواد، والوجه فيه أحد أمرين :

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٩١
(٢) مر هذا البيت في ٤ : ٣٥١
(٣) تفسير الطبري ١٥ : ١٦

أحدهما - ان الأغلب عليهم من ليس بجواد، ومن مقتصد أو بخيل، فجاز تغليب اللأكثر.

والثاني - أنه لا أحد إلا وهو يجر إلى نفسه نفعاً بما فيه ضرر على الغير، فهو بخيل بالإضافة إلى جود الله تعالى.

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْئَلْ بَنِي اسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً) (١٠٢) آيتان بلا خلاف.

قرأ الكسائي وحده « لقد علمتُ » بضم التاء . الباقون بفتحها .

حجة من فتح أنه قال : إن فرعون وملأه ممن تبعه قد علموا صحة أمر موسى وأن ما أتى به ليس بسحر بدلالة قوله « لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك[١] » وقوله « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً » [٢] وقولهم « يا أيها الساحر ادع لنا ربك » [٣]

ومن قرأ بضم التاء فمن علم موسى .

فان قيل له كيف يصح الاحتجاج عليهم بعلمه، وعلمه لا يكون حجة على فرعون وملائه؟ وانما يكون علم فرعون ما علمه من صحة أمر موسى حجة عليه؟.

نقول : إنه لما قيل له «إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون» [٤] كان ذلك قدحاً في علمه، لأن المجنون لا يعلم، فكأنه نفى ذلك، فقال لقد علمت صحة

---

(١) سورة الاعراف اية ١٣٣

(٢) سورة ٢٧ النمل اية ١٣ - ١٤

(٣) سورة ٤٣ الزخرف اية ٤٩

(٤) سورة ٢٦ الشعراء اية ٢٧

ما أتيت به، وأنه ليس بسحر، علماً صحيحاً كعلم العقلاء، فصارت الحجة عليه من هذا الوجه. ورويت هذه القراءة عن أمير المؤمنين (ع)

يقول الله تعالى مخبراً عمّا أعطى موسى من الآيات وذكر أنهـا تسع آيات معجزات بينات ظاهرات دالات على صحة نبوته. واختلفوا في هذه التسع: فقال ابن عباس والضحاك: هي يد موسى، وعصـاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم «آيات مفصلات». وقال محمد ابن كعب القرطي: الجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والبحر، وعصاه والطمسة، والحجر. والطمسة دعاء موسى وتأمين هرون، فقال الله تعالى «قد اجيبت دعوتكما[1]» وفي رواية عكرمة عن ابن عباس، ومطر الوراق: الطوفان والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، والسنون، ونقص من الثمرات. وبه قال الشعبي ومجاهد. وقال الحسن مثل ذلك، غير أنه جعل الأخذ بالسنين ونقص الثمرات آية واحـدة. وجعل التاسعة تلقف العصا ما يأفكون.

وقال صفوان ابن عسال: سأل يهودي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التسع آيات، فقال: (هن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرمها الله الا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى السلطان يقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربو، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تولوا الفرار يوم الزحف، وعليكم خاصة يا يهود أن لا تعتدوا في السبت)[2] فقبل يده، وقال أشهد أنك نبيُّ الله. وقوله «فاسأل بني اسرائيل» أمر النبي أن يسأل بني إسرائيل «اذ جاءهم موسى». وقال الحسن عن ابن عباس، قال: معناه سؤالك إياهم، نظرك في القرآن. وروي عن ابن

---

(١) سورة ١٠ يونس اية ٨٩

(٢) في بعض المخطوطات (لا تسخروا في السبت) وفي بعضهـا (لا تصيدوا في السبت) وقد اثبتنا ما في المطبوعة لموافقته لقوله تعالى «لا تعدوا في السبت» في سورة النساء آية ١٥٤، وفي سورة البقرة آية ٦٥ «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت» وفي سورة الاعراف اية ١٦٢ «اذ يعدون في السبت»

عباس أنه كان يقرأ «فسأل بني اسرائيل» يعني فسأل موسى فرعون بني إسرائيل أن يرسلهم معه .

وقوله « فقال له فرعون » حكاية عما قـال فرعون لموسى « إني لأظنك يا موسى مسحوراً » أي معطاً علم السحر بهذه العجائب التي تفعلها من سحرك ، وقد يجوز أن يكون المراد « إني لأظنك يا موسى » ساحراً ، فوضع (مفعول) موضع (فاعل) ، مثل مشؤم وميمون موضع شائم ويامن . وقيل معناه : إنك سحرت ، فانت تحمل نفسك على ما يقوله السحر الذي بك وقيل مسحور بمعنى مخدوع .

وقوله « قال لقد علمت » حكاية عما أجاب به موسى فرعون فإنه قال « لقد علمت » يا فرعون أنّ ما جئت به ليس بسحر وإني صادق . ومن قرأ بضم التاء معناه إنه لما قال له فرعون « إني لأظنك يا موسى مسحوراً » قال له موسى «لقد علمت» اني لست كذلك وأنه ما أنزل هذه الآيات «إلا رب السموات والارض» الذي خلقهن وجعلهن « بصائر » أي حججاً واضحة واحدها بصيرة « واني لاظنك يا فرعون مثبوراً» اي ملعوناً ممنوعاً من الخير ، تقول العرب ما ثبرك عن هذا الأمر أي ما منعك منه ، وما صرفك عنه ، وثبره الله ، فهو يثبِره ويثبُره لغتان . ورجل مثبور محبوس عن الخيرات . قال الشاعر :

إذا جارى الشيطان في سنن الـــــغي فمن مال ميله مثبور [1]

وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير ، وقال قوم: معناه مغلوباً ، روي ذلك عن ابن عباس في رواية أخرى ، وبه قال الضحاك. وقال مجاهد: هالكاً ، وبه قال قتادة. وقال عطية العوفي: مغيراً مبدلاً . وقال ابن زيد: معناه مخبولاً لاعقل له.

قوله تعالى :

(فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (١٠٣)

(١) تفسير الطبري ١٥ : ١٠٩

وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً) (١٠٤) آيتان بلا خلاف .

قوله «فأراد» يعني فرعون «أن يستفزهم» يعني موسى وبني اسرائيل «من الأرض» أي يخرجهم منها بالنفي والقتل والازعاج كرهاً ، من أرض مصر . وأصله القطع بشدة ، فزّز الثوب إذا قطعه بشدة تخريق .

فأخبر الله تعالى إنا أغرقناه عند ذلك في البحر ، «ومن معه» من جنده وأتباعه ونجينا بني اسرائيل مع موسى (ع) وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون « اسكنوا الأرض» يعني أرض الشام ، «فإذا جاء وعد الآخرة» يعني يوم القيامة وهي الكرة الآخرة «جئنا بكم لفيفاً» أي حشرناكم إلى أرض القيامة ، مختلطين من كل قوم ومن كل قبيلة ، قد التف بعضكم على بعض لا تتعارفون ، ولا ينحاز منكم أحد إلى قبيلة ، ومن ذلك قولهم : لففت الجيوش إذا ضربت بعضها ببعض فاختلط الجميع ، وكل شيء اختلط بشيء فقد لف به ، وقال مجاهد : معناه جئنا بكم من كل قوم . وقال قتادة : جئنا بكم أجمع أولكم وآخركم ، وهو قول ابن عباس ومجاهد – في رواية – والضحاك . و (لفيف) مصدر تقول لففته لفاً ولفيفاً ، فلذلك أخبر به عن الجميع ولفيفاً نصب على الحال .

قوله تعالى :

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً (١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (١٠٦) آيتان بلا خلاف .

قوله « وبالحق أنزلناه » يعني القرآن أنزله الله يأمر فيه بالعدل وبالانصاف، والأخلاق الجميلة والأمور الحسنة الحميدة، وينهي فيه عن الظلم وأنواع القبائح والأخلاق الذميمة. « وبالحق نزل » معناه بما ذكرناه من فنون الحق نزل القرآن من عند الله على نبيه ﷺ. قال البلخي: يجوز أن يكون أراد موسى، ويكون ذلك كقوله « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد »(١) ويجوز أن يكون أراد الآيات فكنى عنها بالهاء وحدها، دون الهاء والألف؛ ويريد أنزلنا ذلك، كما قال أبو عبيدة قال أنشدني رؤبة:

فيه خطوط من سواد وبلق   كأنه في العين توليع البهق(٢)

فقلت له: إن أردت الخطوط فقل كأنها، وإن أردت السواد والبياض فقل كأنهما، قال: فقال لي: كأن ذلك وتلك.

ثم قال « وما أرسلناك » يا محمد « إلا مبشراً » للمطيعين بالجنة « ونذيراً » أي مخوفاً للعصاة من النار.

وقوله « وقرآناً فرقنا » قرأه أهل الأمصار بالتخفيف. وحكي عن ابن عباس بتشديد الراء، بمعنى نزلناه شيئاً بعد شيء، آية بعد آية، وقصة بعد قصة. ومعنى « فرقناه » فصلنا فيه الحلال والحرام، وميزنا بينهما، وهو قول ابن عباس. وقال أبي بن كعب معناه بيناه. وقال الحسن وقتادة: فرق الله فيه بين الحق والباطل. ومن قرأ بالتشديد، قال ابن عباس وقتادة وابن زيد: إن معناه أنزل متفرقاً لم ينزل جميعاً، وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة. ونصب «قرآناً» على معنى وأحكمنا قرآناً « فرقناه » أو آتيناك قرآناً. وقال بعضهم: نصب بمعنى ورحمة كأنه قال « وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً » ورحمة، قال لأن القرآن رحمة.

وقوله «لتقرأه على الناس على مكث» معناه على تؤدة، فترتله وتبينه ولا تعجل

---

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٥

(٢) مر هذا الرجز في ١/٢٩٦

في تلاوته ، فلا يفهم عنك ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وابن زيد ، ويقال في المكث لغات : مكث بضم الميم وعليه القراء ، وبفتح الميم وسكون الكاف ، وبفتح الميم وكسر الكاف ، وحكي مكثي مقصور ومكاثاء ممدود .

وقوله « ونزلناه تنزيلاً » أي أنزلناه شيئاً بعد شيء ، وهو قول الحسن وقتادة

وقوله « ونزلناه تنزيلا » يدل على أن القرآن محدث ، لأن القديم لا يجوز وصفه بالمنزل والتنزيل ، لأن ذلك من صفات المحدثين .

وقيل في معنى « على مكث » أنه كان ينزل منه شيء ثم يمكثون ماشاء الله وينزل شيء آخر .

قوله تعالى :

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً) (١٠٩) ثلاث آيات في الكوفي خاصة ، تمام الأولى سجداً ، وآيتان فيما سوى ذلك .

يقول الله تعالى لنبيه « قل » لهؤلاء الذين اقترحوا عليك الآيات ؛ وقالوا « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً »[1] على وجه التبكيت لهم في عدولهم عن نبيه وكفرهم به ، وأنه لا يستضر بترك إيمانهم ، لأن عيبه راجع عليهم « آمنوا » بهذا القرآن الذي لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله ، وتعاونوا عليه لما

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٠

قدروا عليه «أولا تؤمنوا» وتجحدوه ، فإن إيمانكم لن يزيد في خزائن الله شيئاً ، ولا ترككم الايمان به ينقص ذلك، وإن تكفروا به ،فإن الذين اوتوا العلم بالله وآياته من قبل نزوله من مؤمني أهل الكتاب ، وهم الذين أسلموا «إذا يتلى عليهم» من القرآن «يخرون» تعظيماً له وتكريماً ،لعلمهم بأنه من عند الله ،لاذقانهم سجداً بالأرض واختلفوا في المعني بقوله « يخرون للاذقان » فقال بعضهم : أراد بـــه الوجوه روى ذلك عن ابن عباس وقتادة . وقال قوم يعني بذلك اللحى ، حكي ذلك عن الحسن . وقوله « ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً » حكاية من الله عن هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبل نزول هذا القرآن خروا للاذقان سجوداً عند استماعهم القرآن يتلى عليهم تنزيها لله تعالى وتبرئة له مما يضيف اليه المشركون ، ويقولون لم يكن وعد ربنا من ثواب وعقاب إلا مفعولا حقاً يقيناً إيماناً بالقرآن وتصديقاً له . والأذقان جمع ذقن ، وهو مجمع اللحيين . وقال مجاهد وابن زيد: « الذين أوتوا العلم من قبله » إلى قوله « خشوعاً » ناس من أهل الكتاب حيث سمعوا ما أنزل الله على محمد « قالوا سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً »وقال ابن جريج: إذا يتلى عليهم كتابهم. وقال قوم «الذين أوتوا العلم» يعني به محمداً صلى الله عليه وآله والمؤمنين . ويراد بقوله « إذا يتلى عليهم » يعني القرآن ، لانه من سيـــاق ذكر القرآن ، ولم يكن يجري لغيره من الكتب ذكر ، وهو الاقوى ، لأن الآية فيها مدح لمن وصف بما فيها ، وذلك لا يليق بالكفار إلا أن يراد بذلك من آمن منهم وكان عالماً قبل ذلك بصحة القرآن اذ علموا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وآله من التوراة والإنجيل ويحتمل ذلك اذاً على ما بيناه .

وقوله « ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعـاً » يقول الله يخرّ هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان اذا يتلى عليهم القرآن «لاذقانهم يبكون ويزيدهم»ما في القرآن من المواعظ والعبر «خشوعاً» يعني خضوعاً لأمر الله وطاعته واستكانة له .

قوله تعالى :

(قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) (١١١) آيتان بلا خلاف .

هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن «قل» يا محمد لمشركي قومك المنكرين لنبوّتك الجاحدين لدعائك وتسميتك الله تعالى بالرحمن «ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» أيها القوم «أيّاما تدعوا فله الاسماء الحسنى» معناه بأي أسمائه تعالى تدعون ربكم به، وانما تدعون واحد، فله الاسماء الحسنى، وانما أمره بذلك؛ لان مشركي قومه لما سمعوا النبي ﷺ يدعو الله تارة بأنه الله وتارة بأنه الرحمن، فظنوا أنه يدعو إلهين حتى قال بعضهم: الرحمن رجل باليمامة، فأنزل الله هذه الآية احتجاجاً لنبيه ﷺ بذلك، وانه شيء واحد، وإن اختلفت أسماؤه وصفاته، وبه قال ابن عباس ومكحول ومجاهد وغيرهم .

(وما) في قوله «أيّاً ما» يحتمل أن يكون صلة، كقوله «عمّا قليل ليصبحن نادمين»[1]، ويحتمل أن يكون بمعنى أي كررت لاختلاف لفظها، كما قالوا: ما رأينا كالليلة ليلة .

وقوله «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا» نهي من الله تعالى عن الجهر العظيم في حال الصلاة، وعن المخافتة الشديدة وأمر بأن يتخذ بين

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنون اية ٤٠

ذلك سبيلاً. وحد ّأصحابه الجهر فيما يجب الجهر فيه بأن يسمع غيره، والمخافتة بأن يسمع نفسه .

واختلفوا في الصلاة التي عنى بها بالآية في قوله « ولا تجهر بصلاتك » فقال الحسن لا تجهر بإشاعتها عند من يؤذيك ، ولا تخافت بها عند من يلتمسها منك. وقال قوم : لا تجهر بدعائك ولا تخافت ، ولكن بين ذلك، قالوا: والمراد بالصلاة الدعاء ، ذهبت اليه عائشة ، وابن عباس ، وأبو عياض، وعطاء، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعبد الله بن شداد ، والزبير ، ومكحول . وروي عن ابن عباس - في رواية أخرى - أن النبي ّكان إذا صلى يجهر في صلاته، فسمعه المشركون فشتموه وآذوه وآذوا أصحابه ، فأمر الله بترك الجهر ، وكان ذلك بمكة في اول الامر ، وبه قال سعيد بن جبير . وقال قوم : أراد لا تجهر بتشهدك في الصلاة ولا تخافت به ، روي ذلك عن عائشة - في رواية أخرى - وبه قال ابن سيرين. وقال قوم : كان النبي ﷺ يصلي بمكة جهراً فأمر بإخفاتها ، ذهب اليه عكرمة والحسن البصري ، وقال قوم : معناه لا تجهر بصلاتك تحسنها مراآة ، في العلانية ، ولا تخافت بها، تثني في القيام بها في السريرة، روي ذلك عن الحسن وقتادة وابن عباس في رواية . وبه قال ابن زيد وابن وهب . وقال الطبري : يحتمل أن يكون المراد لا تجهر بصلاتك صلاة النهار العجماء، ولا تخافت بها ، يعني صلاة الليل التي تجهر فيها بالقراءة، قال: وهذا محتمل غير انه لم يقل به أحد من أهل التأويل .

ثم قال لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد « الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً » فيكون مربوباً لا ربّاً، لأن ربّ الأرباب لا يجوز أن يكون له ولد «ولم يكن له شريك» في ملكه فيكون عاجزاً محتاجاً الى غيره ليعينه فيكون ضعيفاً ، ولا يجوز أن يكون الإله بهذه الصفة « ولم يكن له وليّ من الذل » معناه لم يكن له حليف حالفه لينصره على من يناوئه ، لان ذلك صفة ضعيف عاجز ، ولا يجوز أن يكون الإله بهذه الصفة ، ثم أمره بأن يعظمه تعظيماً لا يساويه تعظيم، ولا يقاربه لعلوّ منزلته .

وروي عن النبي ﷺ أنه كان يعلم أهله هذه الآية . وما قلناه هو قول مجاهد وسعيد بن جبير وابن عباس . وقال محمد بن كعب القرطي : في هذه الآية ردّ على اليهود والنصارى حين قالوا اتخذ الله الولد – وعلى مشركي العرب حيث قالوا : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك . وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا : لولا اولياء الله لذل الله . فأنزل الله رداً لقولهم أجمعين .

وليس لأحد أن يقول : كيف يحمد الله على ان لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، والحمد إنما يستحق على فعل ماله صفة التفضل ، وذلك أن الحمد في الآية ليس هو على أن لم يفعل ذلك . وإنما هو حمد على أفعاله المحمودة ، ووجه الى من هذه صفته ، لا من أجل أن ذلك صفته ، كما تقول : أنا أشكر فلاناً الطويل الجميل ، ليس انك تشكره على جماله وطوله ، بل على غير ذلك من فعله .

ومعنى « وكبره تكبيراً » صفه بصفاته التي لا يشركه فيها أحد .

وقيل : كبره عن كل ما لا يليق وصفه به .

تمّ المجلد السادس من تفسير التبيان
ويليه المجلد السابع وأوله :

اول سورة الكهف

في ربيع الأول سنة ١٣٨١ هـ . آب سنة ١٩٦١ م

١ ـ فهرس الآيات المستشهد بها في غير موضعها

(٤) سورة النساء

(٥) سورة المائدة

صفحة — آية

٢ ــ فهرس الأحاديث

صفحة

٥٠٤ عن أبي جعفر وابي عبد الله (ع) : ان معنى « يوم ندعو كل اناس بإمامهم » هو إمامهم الذي كانوا يأتمون به في الدنيا .

٥٠٦ عن النبي ﷺ: إن الله وضع عن أمتي ما حدّثت به نفسها إلا من عمل شيئاً او تكلم به .

٥٠٧ عن النبي صلى الله عليه وآله: اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين .

٥٠٨ عن ابي جعفر وابي عبد الله (ع) : ان دلوك الشمس زوالها .

٥٠٩ عن امير المؤمنين (ع) : ان « قرآن الفجر » هو الصلاة الوسطى .

٥١٢ روي ان النبي صلى الله عليه وآله: أنه دخل مكة يوم الفتح، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بعود ، ويقول

جـــاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً .

وجاء الحق وما يبدي الباطل وما يعيد .

٥١٥ عن علي (ع) : ان الروح ملك له سبعون الف ... يسبح الله في جميع ذلك .

٥٢٧ عن النبي صلى الله عليه وآله: ان يهودياً سأله عن الآيات التسع ، فقال (هن: لا تشركوا بالله شيئـــاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرمها الله إلا بالحق ......

٣ ـ فهرس الردود والاجوبة والادلة

صفحة

صفحة

فهرس الردود والأجوبة والأدلة

٤ ـ فهرس المباحث اللغوية

صفحة

٥ ــ فهرس الأمثال

٦ – فهرس المواضيع

(١١) سورة هود

(١٢) سورة يوسف

(١٣) سورة الرعد

(١٤) سورة إبراهيم

(١٥) سورة الحجر

١٦ ـ سورة النحل

(١٧) سورة الاسراء

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ

تحقيق وتصحيح

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلّد السّابع

دار

إحياء التراث العربي

١٨- سورة الكهف

قال مجاهد وقتادة : هي مكية ، وهي مئة وعشرون آية في الكوفي وأحدى عشرة في البصري وخمس في المدنيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لله الَّذي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِه الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوجاً (١) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (٢) مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَداً (٣) ﴾ ثلاث آيات بلاخلاف .

قرأ ابو بكر ﴿ لدنه ﴾ باسكان الدال واشمال الضمة ، وكسر النون والهاء وإيصالها بياء . الباقون بضم الدال وسكون النون وضم الهاء من غير واو ، إلا ابن كثير ، فانه كان يصل الهاء بواو .

واعلم أن (لدن) اسم غير متمكن ، ومعناه (عند) ، قال الله تعالى « من

لدن حكيم خبير » (١) فالنون ساكنة في كل أحوالها ، والهاء إذا أتت بعد حرف ساكن لم يجز فيها إلا الضم نحو (منه) فالاصل (منهو) و (لهو) فهو كقول ابن كثير ، غير أنهم حذفوا الواو اختصاراً ، وإنما أسكن ابو بكر الدال استثقالا للضم كما قالوا « في كرم زيد » : قد كرم زيد ، فلما سكن الدال التقى ساكنان ، النون والدال ، فكسر النون لا لتقاء الساكنين ، وكسر الهاء لمجاورة حرف مكسور ، ووصلها بياء كما تقول : مررت به ، ولو فتح النون لالتقاء الساكنين لجاز ، بعد أن أسكن الثاني كقول الشاعر :

عجبت لمولود وليس له أب　　ومن ولد لم يلده ابوان (٢)

يعني آدم وعيسى . فلا يتوهم أن عاصماً كسر النون علامة للجزم ، لان (لدن) لا تعرب . وحكى ابو زيد : جئت فلاناً لدن غدوة ـ بفتح الدال ـ .

يقول الله تعالى لخلقه قولوا ﴿ الحمد لله الذي ﴾ خص برسالته محمداً (ص) وانتجبه لابلاغها عنه ، وبعثه الى خلقه نبياً رسولا ، وانزل عليه كتاباً قيما ، ولم يجعل له عوجاً . وقيل في معنى قوله ﴿ قيماً ﴾ قولان : أحدهما ـ معتدلا مستقيما . الثاني ـ أنه قيم على سائر الكتب يصدقها ويحفظها . والأول قول ابن عباس . فعلى هذا «قيما» مؤخر ، والمراد به التقدم ، وتقديره أنزل الكتاب قيماً ، ولم يجعل له عوجاً أي اختلافاً . وقال الضحاك : معناه مستقيماً . وقال ابن اسحاق : معناه معتدلا لا اختلاف فيه . وقال قتادة : أنزل الله الكتاب قيماً ، ولم يجعل عوجاً . وفي بعض القراءات « ولكن جعله قيماً » وكسرت العين من قوله « عوجاً » لأن العرب تقول : عوجاً

(١) سورة ١١ هود آية ١　　(٢) تفسير الطبري ١٥ / ١١٩ وهو في مجمع البيان ٣ : ٤٤٦

ـ بكسر العين ـ فى كل اعوجاج كان في دين أو فيما لا يرى شخصه قائماً ولا يدرك عياناً منتصباً كالعوج فى الدين ، ولذلك كسرت العين في هذا الموضع . وكذلك العوج في الطريق ، لانه ليس بالشخص المنتصب . فأما ما كان فى الاشخاص المنتصبة فان عينها تفتح كالعوج فى القناة والخشبة ونحوها .

وقال ابن عباس : معنى قوله « ولم يجعل له عوجاً » أي لم يجعله ملتبساً . ولا خلاف بين أهل العربية ان قوله «قيماً» وإن كان مؤخراً فتقديره الى جنب الكتاب.

وإنما افتتح الله تعالى هذه السورة بذكر نفسه بما هو أهله ، وبالخبر عن انزال كتابه على رسوله ، ليخبر المشركين من أهل مكة بأن محمداً (ص) رسوله ، لأن المشركين كانوا سألوا رسول الله (ص) عن أشياء لقنوها إياهم اليهود ، من قريظه والنضير ، وأمروهم أن يسألوه عنها ، وقالوا : إن اخبركم بها فهو نبي ، وإن لم يخبركم فهو مقتول ، فوعدهم رسول الله (ص) الجواب عنها ، موعداً فأبطأ ـ على قول بعضهم ـ الوحي عنه بعض الابطاء وتأخر مجيء جبرائيل (ع) عنه ، عن ميعاده القوم فتحدث المشركون بأنه اخلفهم موعده ، وأنه مقتول ، فأنزل الله هذه السورة جواباً عن مسائلهم ، وافتتح أولها بذكره تكذيباً للمشركين فيما تحدثوا بينهم من احدوثتهم ـ ذكر ذلك محمد بن اسحاق باسناده عن عكرمة عن ابن عباس ـ وكان الذين ذهبوا الى اليهود وسألوهم عن أمر النبي (ص) النضر بن الحارث بن كلدة ، وعقبة بن أبي معيط ، وكانت المسائل التي لقنوهم إياها : أن قالوا : سلوه عن ثلاثة اشياء ، فان أخبركم بهن ، فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فانه مقتول ، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، ما كان أمرهم ؟ فانه كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هو ؟ فان اخبركم بذلك فانه نبي مبعوث ، فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فانه مقتول . فرجعا الي مكة

واجتمعا مع قريش فجاؤا الى رسول الله (ص) فسألوه عنها ، فقال النبي (ص) اخبركم بذلك . وقال بعضهم : انه قال : اخبركم غداً بما سألتم ، ولم يستثن ، وانصرفوا عن النبي (ص) فمكث رسول الله خمس عشرة ليلة لا ينزل الله اليه في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبرائيل (ع) حتى اوجف أهل مكة ، وتكلموا في ذلك ، فشق ذلك على رسول الله (ص) فأنزل الله عليه جبرائيل ومعه (سورة الكهف) يخبره فيها عما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف ، وانزل عليه « ويسألونك عن الروح ... » (١) الآية .

فروى ابن إسحاق أن رسول الله (ص) أفتتح السورة ، فقال « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً » أي معتدلا ، لا اختلاف فيه .

وقوله « لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم اجراً حسناً ما كثين فيه ابداً » معناه أنزل على عبده القرآن معتدلا مستقيماً لا عوج فيه ، لينذركم أيها الناس بأساً شديداً من أمر الله . ومعنى البأس العذاب العاجل والنكال الحاضر ، والسطوة . ومعنى « من لدنه » من عند الله ، وهو قول ابن اسحاق ، وقتادة . ومفعول « لينذر » محذوف ، لدلالة الكلام عليه ، وتقديره : لينذركم بأساً كما قال « يخوف أولياءه » (٢) وتقديره يخوفكم أولياءه ، ومعنى « ويبشر المؤمنين » يعني المصدقين بالله ورسوله « الذين يعملون الصالحات » يعني ما أمرهم الله به من الطاعات ، وهي الاعمال الصالحات ، والانتهاء عما نهاهم عنه « أن لهم اجراً حسناً » يعني ثواباً جزيلا من الله على ايمانهم بالله ورسوله ، وعملهم في الدنيا بالطاعات واجتناب المعاصي ، وذلك الثواب هو الجنة .

وقوله « ما كثين فيه أبداً » أي لابثين فيه ابداً خالدين مؤبدين لا ينتقلون

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٨٥　　(٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٥

عنه ولا ينقلبون ، ونصب (ماكثين) على الحال من قوله « إن لهم أجراً حسناً » في هذه الحال ، في حال مكثهم في ذلك الاجر .

قوله تعالى :

﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً (٤) مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً (٥) ﴾ آيتان .

يقول الله تعالى أنه يحذر ايضاً محمد (ص) القوم « الذين قالوا اتخذ الله ولداً » من مشركي قومه وغيرهم ـ عقاب الله ، وعاجل نقمته وأليم عذابه على قولهم ذلك .

وقوله « مالهم به من علم » [معناه ما للقائلي القول هذا يعني قولهم « اتخذ الله ولداً » به من علم] (١) يعني ليس لهم بالله من علم . ومعنى الكلام ما لهؤلاء القائلين هذا القول بالله من علم بأنه لا يجوز أن يكون له ولد . فلجهلهم بالله وعظمته قالوا ذلك .

وقوله « ولا لآبائهم » معناه ولا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم على مثل الذي هم عليه اليوم ، ما كان لهم بالله وعظمته علم .

وقوله « كبرت كلمة تخرج من افواههم » نصب (كلمة) على التمييز ، وتقديره كبرت كلمتهم التي قالوها كلمة ، كما تقول : نعم رجلا عمرو ، ونعم الرجل رجلاً قام . وقال بعضهم : نصب (كلمة) لانها في معنى : أكبر بها كلمة ، كقوله « وساءت

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة .

مرتفقاً » (١) وهي في النصب كقول الشاعر :

ولقد علمت إذا الرياح تروحت هدج الرئال تكبهن شمالاً (٢)

أي تكبهن الرياح شمالا ، فكأنه قال كبرت تلك الكلمة . وروي عن بعض المكيين انه قرأ ذلك بالرفع ، كقولهم : كبر قولك ، وكبر شأنك ، فعلى هذا لا يكون في قوله (كبرت) مضمر ، بل يكون صفة الكلمة ، والأول أقوى ، لاجماع القراء على النصب ، وهذا شاذ ، وتأويل الكلام : عظمت الكلمة كلمة تخرج من افواه هؤلاء القوم « الذين قالوا اتخذ الله ولداً » او الملائكة بنات الله .

وقوله « إن يقولون إلا كذباً » معناه ليس يقول هؤلاء القائلون « اتخذ الله ولداً » إلا كذباً ، وفرية افتروها على الله ـ عز وجل ـ .

قوله تعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) ﴾

ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) « فلعلك » يا محمد قاتل نفسك ومهلكها على آثار قومك الذين قالوا : « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً ... » (٣) ، تمرداً منهم على ربهم بأنهم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليك ، فيصدقوا بأنه

---

(١) سورة ١٨ ، الكهف آية ٢٩ (٢) تفسير الطبري ١٥ / ١١٩ وهو في مجمع البيان ٣ / ٤٤٩ (٣) سورة ١٧ ، الاسرى آية ٩٠

من عند الله ـ حزناً وتلهفاً ووجداً ـ بادبارهم عنـك واعراضهم عن قبول ما اتيتهم به . و (أسفاً) نصب على المصدر . يقال بخع نفسه يبخعها بخعاً وبخوعاً ، قال ذو الرمة :

ألا ايهذا الباخع الوجـــد نفسه لشيء نحته عن يديه المقادر (١)

يريد (نحته) فخفف . وما ذكرناه قول قتادة وغيره . وقوله « اسفاً » قال قتادة : معناه غضباً وتقديره : فلعلك باخع نفسك إن لم يؤمنوا بهذا الحـديث أسفاً يعني غضباً . وقال مجاهد : معناه جزعاً . وفي رواية أخرى عن قتادة : حزناً عليهم . وفي رواية ثالثة عن قتادة حذراً . وكسرت (إن) لانها في معنى الجزاء ولو فتحت لجاز قال الشاعر :

اتجزع أن بان الخليط المودع وحبل الصفا من عزة المتقطع (٢)

وهـذا معاتبة من الله لرسوله على وجده بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم اليه من الايمان به والبراءة من الآلهة والانداد ، وكان بهم رحيماً ، وهو قول ابن اسحاق.

وقوله « إنا جعلنا ما على الارض زينة لها » معناه انا جعلنا الذي على الارض من انواع المخلوقات جمادها وحيوانها ونباتها « زينة لها » يعني للارض « لنبلوهم ايهم » أي لنختبر عبادنا « ايهم أحسن عملا » يعني من اتبع امرنا ونهينا وعمل فيها بطاعتنا ، وهو قول مجاهد .

قوله تعالى « وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا » فيه اخبار من الله تعالى انا مخربوها بعد عمارتنا إياها بما جعلنا عليها من الزينة فنصيرها صعيداً جرزاً ، والصعيد

(١) مجـاز القرآن ١ / ٣٩٣ وتفسير الطبري ١٥ / ١٢٠ وهو في مجمع البيان ٣ / ٤٤٨ (٢) مر هذا البيت في ١ / ٣٤٩ من هذا الكتاب .

ظهر الارض ، والجرز الذي لا نبات عليه ولا زرع ولا غرس . وقيل انه أراد بالصعيد ـ ههنا ـ المستوي من وجه الارض . وقال ابن عباس : معناه نهلك كل شيء عليها زينة . وقال مجاهد : «جرزاً» أي بلقعاً . وقال قتادة : هو مالا شجر فيه ولا نبات . وقال ابن زيد: الجرز الارض التي ليس فيها شيء ، بدلالة قوله « أو لم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعاً » (١) يعنى الارض التي ليس فيها شيء من النبات . والصعيد المستوي قال : وهو كقوله تعالى « لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً » (٢) قال سيبويه : يقال جرزت الارض فهي مجروزة وجرزها الجراد والنعم ، وارضون اجراز اذا كان لاشيء فيها ، ويقال للسنة المجدبة جرز ، وسنون أجراز لجدوبها ويبسها وقلة امطارها . قال الراجز :

قد جرفتهن السنون الأجراز (٣)

ويقال : أجرز القوم إذا صارت ارضهم جرزاً ، وجرزوا هم أرضهم أكلوا نباتها كله .

قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ (١٠) . آيتان بلا خلاف .

يقول الله تعالى لنبيه (ص) « أم حسبت » يا محمد ، والمراد به أمته أي

(١) سورة ٣٢ ، الم السجدة آية ٢٧ (٢) سورة ٢٠ ، طه آية ١٠٧

(٣) تفسير الطبري ١٥ / ١٢١ وروايته (حرقتهن) بدل (جرفتهن)

أحسبت « أن اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً » بل ما خلقت من السموات والارض وما بينهن من العجائب اعجب من اصحاب اهل الكهف ، وحجتي بذلك ثابتة (١) على هؤلاء المشركين من قومك وغيرهم من جميع عبادي ، وهو قول مجاهد وقتادة وابن اسحاق . وقال قوم : معناه « أم حسبت » يا محمد « أن اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً » فان الذي آتيتك من العلم والحكمة أفضل منه ، وهو قول ابن عباس . وقال الجبائي : المعنى أحسبت « أن اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً » ، ولو لم نعلمك ذلك لما علمته . والاول أشبه ، لأن الله تعالى جعل انزال سورة الكهف احتجاجاً على الكفار بما واطأهم عليه اليهود .

والمراد بالكهف فى الآية كهف الجبل الذي أوى اليه القوم الذين قص الله شأنهم وذكر اخبارهم فى هذه السورة .

واختلفوا فى معنى « الرقيم » فقال قوم : هو اسم قرية ـ ذهب اليه ابن عباس ـ وفى رواية أخرى عنه : أنه واد بين غضبان ، وايلة ، دون فلسطين ، وهو قريب من ايلة . وقال عطية : « الرقيم » واد . وقال قتادة : « الرقيم » اسم الوادي الذي فيه اصحاب الكهف . وقال مجاهد : « الرقيم » كتاب تبيانهم . وفي رواية ايضاً عن ابن عباس أن « الرقيم » هو الكتاب . وقال سعيد بن جبير : هو لوح من حجارة كتبوا فيه قصص اصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف ، وهو اختيار البلخي والجبائي وجماعة . وقيل : جعل ذلك اللوح في خزائن الملوك ، لانه من عجائب الامور . وقيل بل جعل على باب كهفهم . وقال ابن زيد : « الرقيم » كتاب ، ولذلك الكتاب خبر ، فلم يخبر الله عن ذلك الكتاب وما فيه . وقرأ قوله « وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون » (٢) وقال : هو اسم جبل اصحاب الكهف ،

(١) في المخطوطة (قائمة) بدل (ثابتة) (٢) سورة ٨٣ ، المطففين آية ١٩ ـ ٢١

روى ذلك عن ابن عباس . وقيل : إن اسم ذلك الجبل (تيحلوس) (١) وقيل تياحلوس (٢) .

وقد روي عن ابن عباس أنه قال : كل القرآن أعلمه إلا (حنان) و (الأواه) و « الرقيم » . واختار الطبري أن يكون ذلك اسماً لكتاب أو لوح أو حجر كتب فيه .

والرقيم (فعيل) . أصـــله مرقوم ، صرف الى فعيل مثل جريح بمعنى مجروح وقتيل بمعنى مقتول يقال : رقمت الكتاب أرقمه إذا كتبته ومنه الرقيم في الثوب لأنه خط يعرف به ثمنه . وقيل للحية أرقم لما فيها من الآثار ، وتقول العرب عليك بالرقمة [بمعنى عليك برقمة الوادي حيث الماء] (٣) ودع الضفة أي الجانب . والضفتان جانبا الوادي ، ولعل من ذهب الى أن الرقيم الوادي : ذهب الى رقمة الوادي .

وقوله « إذ أوى الفتية الى الكهف » معناه « أم حسبت أن اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً » حين « أوى الفتيـة الى الكهف » أي حين جاء أصحاب الكهف الى الكهف ، كهف الجبل هرباً بدينهم الى الله ، قالوا إذ أووه « ربنا آتنا من لدنك رحمة » رغبة منهم الى ربهم في أن يرزقهم من عنده رحمة .

وقوله « وهيء لنا من أمرنا رشداً » معناه انهم قالوا يسر لنا ما نبتغي و نلتمس من رضاك أي دلنا على ما فيه نجاتنا والهرب من الكفر بك ومن عبادة الأوثان التي يدعونا اليها قومنا « رشداً » أي رشداً الى العمل الذي تحب .

وقيل إن هؤلاء الفتية كانوا مسلمين على دين عيسى (ع) و كان ملكهم يعبد الأصنام ، فهربوا بدينهم منه . وقال آخرون: هربوا من الملك بجنـاية اتهموا بهـا

(١) فى المخطوطة (بجلوس) (٢) في المخطوطة (بناجلوس)

(٣) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة .

فدخلوا الكهف .

ويجوز « رشداً » ـ بضم الراء وتسكين الشين ـ غير أنه لم يقرأ به ـ ههنا ـ أحد ، لأن أواخر الآيات كلها على وزن (فَعَل) فلم يخالفوا بينها .

قوله تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَداً (١٢) ﴾ آيتان .

يقول الله تعالى « فضربنا على آذانهم فى الكهف » يعني بالنوم ، كما يقول القائل لآخر : ضربك الله بالفالج بمعنى أبلاك الله به . وقيل معناه منعناهم أن يسمعوا ، والمعنى انمناهم . وقوله « سنين عدداً » معناه سنين معدودة . ونصب (سنين) على الظرف بقوله « فضربنا ». و « عدداً » بمعنى معدود ، والعدّ المصدر ومثله نقضت الشيء نقضاً ، والمنقوض نقض ، وكذلك قبضته قبضاً ، والمقبوض قبض.

وقوله تعالى « ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً » معناه بعثنا هؤلاء الفتية الذين أووا الى الكهف بعد ما ضربنا على آذانهم فيه سنين عدداً ، من رقدتهم لينظر عبادي فيعلموا بالبعث أي الطائفتين اللتين اختلفتا فى قدر مبلغ مكث الفتية فى كهفهم رقوداً « أحصى لما لبثوا » بمعنى أصوب لقدر لبثهم فيه أمداً . والامد الغاية قال النابغة :

ألا لمثلك او من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد (٢)

وقال قوم : الحزبان جميعاً كانا كافرين . وقال آخرون : كان أحدهما مسلماً

---

(١) تفسير الطبري ١٥ | ١٢٧ ومجمع البيان ٣ | ٤٥١

والآخر كافراً ، فالاول قول مجاهد . وقال : الحزبان من قوم الفتية . وقال قتادة : أحدهما كان كافراً ، والآخر كان مؤمناً ، ولم يكن لواحد منهما علم بمقدار زمان لبثهم . وقال قوم : الحزبان هم اصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم . وقال قوم : احد الحزبين اصحاب الكهف ، والآخر اصحابهم وقومهم .

ومعنى « أمداً » قال ابن عباس يعني بعيداً . وقال مجاهد : يعني عدداً .

ويحتمل نصب « أمدا » وجهين :

احدهما ـ التمييز في قوله (أحصى) كأنه قال أي الحزبين اصوب عدداً .

والثاني ـ أن يكون نصباً بوقوع قوله « لبثوا » عليه ، كأنه قال : أي الحزبين أحصى للبثهم غاية أي في الامد .

والفتية جمع فتى مثل صبي وصبية وغلام وغلمة .

قوله تعالى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) ﴾.

ثلاث آيات في عدد الكل ـ إلا الشامي ـ آخر الأولى «هدى» وعند الشامي شططاً. يقول الله تعالى إنا نخبرك يا محمد ونقص عليك نبأ هؤلاء الفتية الذين أووا الى

الكهف على وجه الصحة . والقصص الخبر بمعاني يتلو بعضها بعضاً واصله الاتباع من قولهم : قص أثره يقصه قصصاً إذا اتبعه ، ومنه قوله تعالى « وقالت لاخته قصيه » أي اتبعي أثره . والنبأ الخبر . وفتية جمع فتى ، وهو جمع لا يقاس عليه لانه غير مطرد ، وقد جاء غلام وغلمة وصبي وصبية ، ولا يجوز غراب وغربة .

ثم اخبر عنهم بانهم فتية آمنوا بربهم ، واعترفوا بتوحيده « وزدناهم هدى » والمعنى وزدناهم المعارف بما فعلنا لهم من الالطاف لمافيهامن الآيات التي رأوها ، ومن الربط على قلوبهم حتى تمسكوا بها .

وقوله « إذ قاموا فقالوا » معناه حين قاموا بحضرة الملك الجبار ، فقالوا هذا القول الذي أفصحوا فيه عن الحق في الديانة ولم يستعملوا التقية ، فقالوا : ربنا الذي نعبده هو الذي خلق السموات والارض لن ندعوا من دونه إلهاً آخر ، فنوجه العبادة اليه ، ومتى قلنا غير ذلك ودعونا معه إلهاً آخر « لقد قلنا إذاشططاً » . والشطط الخروج عن الحد بالغلو فيه ، فقلنا شططاً أي غلواً في الكذب والبطلان . قال الشاعر :

ألا يالقوم قد شطت عواذلي ويزعمن أن أودي بحقي باطلي
ويلحينني فى اللهو ألا أحبه ولاهو داع دائب غير غافل (١)

ومنه اشط فلان في السوم إذا تجاوز القدر بالغلو فيه يشط إشطاطاً وشططاً وشط منزل فلان يشط شطوطاً إذا جاوز القدر في البعد ، وشطت الجارية تشط شطاطاً وشطاطة إذا جاوزة القدر فى الطول .

وقوله « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة » إخبار من الفتية بحضرة الملك على وجه الانكار على قومه « إن هؤلاء » قومك اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونها

(١) قائله الاحوص. مجاز القرآن ١ / ٣٩٤ والكامل للمبرد ٤٩ وتفسير الطبري ١٢٨/١٥ واللسان والتاج (شطط) .

« لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً » . معناه هلا يأتون على عبادتهم إياها بحجة واضحة ودلالة بينة . وحذف لدلالة الكلام عليه ثم قالوا : فمن اظلم لنفسه ممن يتخرص على الله كذباً ، ويضيف اليه مالا اصل له . وفي ذلك دلالة على أن التقليد فى الدين لايجوز وانه لا يجوز أن يقبل دين إلا بحجة واضحة . وفى قصة اصحاب الكهف دلالة على أنه لا يجوز المقام فى دار الكفر إذا كان لا يمكن المقام فيه إلا باظهار كلمة الكفر وانه يجب الهجرة الى دار الاسلام أو بحيث لا يحتاجون الى التلفظ بكلمة الكفر .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ ٱللهَ فَأْوُوا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (١٨) ﴾ ثلاث آيات بلاخلاف .

قرأ ابن عامر واهل الكوفة ، وابو بكر والاعشى إلا يحيي والعليمي « مرفقاً » بفتح

الميم وكسر الفاء . الباقون ـ بكسر الميم وفتح الفاء ـ وقرأ ابن عامر ويعقوب (تزور) ـ بتخفيف الزاي وتسكينها وتشديد الراء من غير ألف ـ وقرأ أهل الكوفة بتخفيف الزاي والف بعدها وتخفيف الراء . الباقون كذلك إلا أنهم شددوا الزاي . وقرأ أهل الحجاز « لمليت » بتشديد اللام . الباقون بتخفيفها وبالهمز .

قال ابو عبيدة : المرفق ما ارتفقت به وبعضهم يقول : المرفق . فأما في اليدين فهو (مرفق) بكسر الميم وفتح الفاء ، وهو قول الكسائي ، واجاز الفراء الفتح أيضاً . وقال ابو زيد يقال : رفق الله عليك أهون المرفق والرفق . قال ابو علي : ما حكاه أبو زيد في (المرفق) فانه جعله مصدراً ، لأنه جعله كالرفق ، وكان القيـاس الفتح لانه من (يرفق) لكنه كقوله « مرجعكم » (١) « ويسألونك عن المحيض » (٢) وقال ابو الحسن : (مرفقاً) أي شيئاً يرتفقون به مثل المقطع . و (مرفقاً) جعله اسماً مثل المسجد أو يكون لغة يعنى في اسم المصدر مثل المطلع ونحوه . ولو كان على القياس لفتحت اللام . وقال الحسن ايضاً : مرفق ـ بكسر الميم وفتحها ـ لغتان لا فرق بينهما أنما هما اسمان مثل المسجد والمطبخ .

ومن قرأ « تزورّ » فانه مثل تحمر وتصفر ، ومعناه تعدل وتميل قال عنترة :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكى الي بعبرة وتحمحم (٣)

وقرأ عاصم والجحدري « تزوار » مثل تحمار وتصفار .

---

(١) سورة ٣ ، آل عمران آية ٥٥ وسورة ٥ ، المائدة آية ٥١ ، ١٠٨ وسورة ٦ ، الانعام آية ٦٠ ، ١٦٤ وسورة ١٠ يونس آية ٢٣ وسورة ١١ ، هود آية ٤ وسورة ٢٩ ، العنكبوت آية ٨ وسورة ٣١ ، لقمان آية ١٥ .

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٢ (٣) ديوانه ٣٠ من معلقته المشهورة

ومن قرأ « تزاور » أراد تتزاور فأدغم التاء في الراء .

ومن خفف اراد ذلك ، وحذف إحدى التائين وهي الثانية مثل تساقط ، وتساقط ، وتظاهرون ، وتظاهرون . قال أبو الزحف :

ودون ليلى بلد سمهدر جدب المندى عن هوانا ازور (١)

يقال : هو أزور عن كذا أي مائل . وفي فلان زور أي عوج ، والزور ـ بسكون الواو ـ هو المصدر ، ومثله الجوشن ، والكلكل ، والكلكال ، كل ذلك يراد به المصدر

وقال ابو الحسن : قراءة ابن عامر « تزور » لا توضع في ذا المعنى ، انما يقال : هو مزور عني أي منقبض . وقال ابو علي : يدل على أن (ازور) بمعنى انقبض ـ كما قال ابو الحسن ـ قول الشاعر :

وأزور من وقع القنا بلبانه (٢)

والذي حسن القراءة به قول جرير :

عسفن على الاداعس من مهيل وفي الاظعان عن طلح ازورار (٣)

فظاهر استعمال هذا (الاظعان) مثل استعماله في (الشمس) . ويقال : ملىء فلان رعباً وفزعاً ، فهو مملؤ ، وملي ، فهو مملي ـ بالتشديد ، للتكثير من ملأت الاناء فهو ملآن ، وامتلأ الحوض يمتلىء امتلاءاً ، وقولهم : تمليت طويلا ، وعانقت حبيباً ، ومت شهيداً ، وابليت جديداً ، فهو غير مهموز . قال ابو الحسن : الخفيفة أجود في كلام العرب ، لانهم يقولون ملأته رعباً ، فلا يكادون يعرفون (ملأتني) .

---

(١) ابو الزحف الكلبي مترجم في الشعراء ٤٦٢ . والبيت في مجاز القرآن ١ / ٣٩٥ وتفسير القرطبي ١٠ / ٣٥٠ وجمهرة اشعار العرب ١ / ٤٤٣ . ٣ / ٣٧٠ واللسان والتاج (زور ، سمهد ، عشنزر) . (٢) قد مر في الصفحة التي قبلها

(٣) ديوانه (دار بيروت) ١٨٢ وروايته (على إلا ما عز من حبي) .

قال ابو علي : يدل على قول أبي الحسن قولهم (فيملأ بيتنا اقطًا وسمنا) وقال الاعشى:

وقد ملأت بكر ومن لف لفها

وقال الآخر :

لا تملأ الدلو وعرق فيها

وقولهم : (امتلأت) يدل على (ملىء) لأن مطاوع (فعلت) (افتعلت)

وقد انشدوا في التثقيل قول المخبل السعدي :

فملأ من كعب سلاسله

وقوله « وإذ اعتزلتموهم » خطاب من اهل الكهف بعضهم لبعض ، ودعاء بعضهم بعضاً الى أن يأووا الى الكهف ، رجاء من الله أن ينشر لهم من رحمته ويبسطها عليهم ، ويهيء لهم من أمرهم مرفقاً اي شيئاً يرتفق به ويستعان به كالمقطع والمجزر .

وقوله « وما يعبدون إلا الله » (ما) في موضع نصب ومعناه وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون من دون الله من الاصنام والاوثان ، ويحتمل الاستثناء امرين :

أحدها ـ أن يكون متصلا ، فيجوز على ذلك أن يكون فيهم من يعبد الله مع عبادة الوثن ، فيكون اعتزالهم للاوثان دون الله .

والثاني ـ يجوز أن يكون جميعهم كان يعبد الأوثان دون الله فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً .

وقوله « فأووا الى الكهف » أي اجعلوه مأواكم ومقركم « ينشر » الله « لكم من رحمته ويهيء لكم من امركم » ما ترتفقون به .

وقوله « فأووا » جواب (إذ) كما تقول : إذ فعلت قبيحاً ، فتب .

وقوله « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين » أي تعدل عنهم وتميل ، يقال : ازور ازوراراً ، وفيه زوز أي ميل .

وقوله « وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال » قيل فى معناه قولان :

أحدهما ـ تقطعهم فى ذات الشمال أي انها تجوزهم منحرفة عنهم ، من قولك قرضته بالمقراض أي قطعته .

الثاني ـ تعطيهم اليسير من شعاعها ثم تأخذه بانصرافها ، من قرض الدراهم التي تسترد .

وقال مجاهد : تقرضهم تتركهم . وقال ابو عبيدة كذلك هو في كلامهم يقال : قرضت الموضع إذا قطعته وجاوزته . وقال الكسائي والفراء : هو المجاوزة يقال : قرضني فلان يقرضني وجازني يجوزني بمعنى واحد ،قال ذو الرمة :

الى قرض يقرض اجواز مشرف شمالا وعن ايمانهن الفوارس (١)

والقرض يستعمل فى اشياء غير هذا ، فمنة القطع للثوب وغيره ، ومنه سمي المقراض ، ومنهقرض الفار . وقال ابو الدرداء : (إن قارضتهم قارضوك وإن تركتهم لم يتركوك) ومعناه إنطعنت فيهم وعبتهمفعلوا بك مثله وإن تركتهم منه لم يتركوك. والقرض ، من يتقارض الناس بينهم الاموال ، وقد يكون ذلك في الثناء تثني عليه كما يثني عليك . والقرض بلغة أهل الحجاز المضاربة ، والقرض قول الشعر القصيد منه خاصة دون الرجز ، وقيل للشعر قريض . ومن ذلك قول الاغلب العجلي :

(١) ديوانه ٣١٣ وتفسير الطبري ١٥ | ١٣٠ وتفسير القرطبي ١٠ / ٤٦٩ والصحاح والتاج ، واللسان (قرض) ومجمع البلدان ٤ | ٤٦٣ ومجاز القرآن ١ / ٤٠٠ وغيرها .

أرجزاً يريد أو قريضاً

والمعنى فى الآية ان الشمس لا تصيبهم البتة أو في اكثر الأمر ، فتكون صورهم محفوظة . وقيل ان الكهف الذي كانوا فيه كان محاذياً لبنات النعش إذا جازت خط نصف النهار .

والفجوة : المتسع من الارض . وقال قتادة : في فضاء منه ، وتجمع فجوات وفجاء ممدود ، وقيل الفجوة متسع داخل الكهف بحيث لا يراه من كان ببابه ، وكان الكلب بباب الفجوة .

وقوله « ذلك من آيات الله » أي ادلته وبراهينه « من يهد الله فهو المهتد » معناه من يسمه الله هادياً ويحكم بهدايتـه « فهو المهتد » . ويحتمل أن يكون اراد : من يهده الله الى الجنة ، فهو المهتدي فى الحقيقة . ويحتمل أن يكون : من يلطف الله له بما يهتدى عنده ، فهو المهتدي « ومن يضلل » اى يحكم بضلاله أو يسميه ضالا أو من يضله عن طريق الجنة ، ويعاقبه « فلن تجـد له ولياً مرشداً » اى معيناً وناصراً يرشده الى الجنة والثواب .

ثم قال تعالى « وتحسبهم » يعني وتحسب يا محمد أهـل الكـهف إذا رأيتهم « ايقاظاً » أي منتبهين « وهم رقود » أي نيام . وقيل انهم كانوا في مكان موحش منه ، أعينهم مفتوحة يتنفسون ولا يتكلمون . وواحد (رقود) راقد أى نائم .

وقوله « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » اخبار منه تعالى عما يفعل بهم وكيفيـة حفـظ اجسادهم بأن يقلبهم من جنب الى جنب الى اليمين تارة والى الشمال أخرى .

وقوله « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » قال ابن عباس : الوصيد الفناء ، وبه قال مجاهد وقتادة والضحاك . وفي رواية أخرى عن ابن عباس : انه هو الباب اذا

أغلقته ، ومنه « نار موصدة » (٢) .

ويجمع (وصيد) وصائد ووصد . وفي واحده لغتان : وصيد ، وأصيد . وأوصدت وآصدت . وليس أحدهما مؤخوذاً من الآخر ، بل هما لغتان مثل ورخت الكتاب وأرخته ، ووكدت الأمر وأكدته .

وقوله « لو اطلعت عليهم لو ليت منهم فراراً » نصب على المصدر ، ومعناه لو اشرفت عليهم لا عرضت عنهم هرباً استيحاشاً للموضع « ولملئت منهم رعباً » نصب على الحال . والمعنى لما ألبسهم الله تعالى من الهيبة لئلا يصل اليهم احد حتى يبلغ الكتاب اجله فيهم ، فينتبهون من رقدتهم باذن الله عند ذلك من امرهم . وقيل انه : كانت اضفارهم قد طالت ، وكذلك شعورهم ، فلذلك يأخذه الرعب منهم . وقال الجبائي : نومهم ثلثمائة سنة وتسع سنين ـ لا تتغير احوالهم ولا يطعمون ولا يشربون ـ معجزة لا تكون إلا لنبي . وقيل النبي كان احدهم ، وهو الرئيس الذى اتبعوه وآمنوا به .

قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ

(١) سورة ٩٠ البلد آية ٢٠

تُفْلِحُوا اِذاً اَبَداً (٢٠) وَكَذٰلِكَ اَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا اَنَّ وَعْدَ ٱللّٰه
حَقٌّ وَاَنَّ ٱلسَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ اَمْرَهُمْ فَقَالُوا
ٱبْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً (٢١) رَبُّهُمْ اَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ
اَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (٢٢)

قرأ « بورقكم » - بسكون الراء - أبو عمرو وحده وأبو بكر عن عاصم الباقون بكسر الراء. وروي عن أبي عمرو بورقكم » بادغام القاف في الكاف. وفي (ورقكم) اربع لغات - فتح الواو وكسر الراء - وهو الأصل. وفتح الواو وسكون الراء. وكسر الواو وسكون الراء. والادغام. فالورق الدراهم، ويقال ايضاً بفتح الراء، ويجمع اوراق. ورجل وراق كثير الدراهم. فأما ما يكتب فيه فهو (الورق) بفتح الراء لا غير. والورق الغلمان الملاح. وقيل الورق - بفتح الراء - المال كله المواشي وغيرها قال العجاج:

اغفر خطاياي وطوح ورقي

في قصة أهل الكهف اعتبار ودلالة على أن من قدر على نقض العادة - بتلك المعجزة - قادر لا يعجزه شيء، وإن التدبير يجري بحسب الاختيار، لا بايجاب الطبائع، كما يتوهمه بعض الجهال، لانه على تدبير مختار، كما يدل على تدبير عالم. ووجه التشبيه في قوله « وكذلك بعثناهم » أي كما حفظنا احوالهم تلك المدة « بعثناهم » من تلك الرقدة، لان أحد الامرين كالآخر في أنه لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

بين الله تعالى أنه بعث أهل الكهف بعد نومهم الطويل ورقدتهم البعيدة ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مقامهم، فيتنبهوا بذلك على معرفة صانعهم إن كانوا كفاراً.

وإن كانوا مؤمنين تثبتوا زيادة على ما معهم ، ويزدادوا يقيناً الى يقينهم . وقال البلخي: اللام في قوله « ليتسألوا » لام العاقبة ، لأن التساؤل بينهم قد وقع . ثم اخبر تعالى أن قائلا منهم قال للباقين « كم لبثتم » مستفهماً لهم ، فقالوا في جوابه : « لبثنا يوماً أو بعض يوم » وانما اخبروا بذلك من غير أن يعلموا صحته ، لأن الاخبار في مثل هذا عن غالب الظن وعلى ذلك وقع السؤال ، لان النائم لا يدري ، ولا يتحقق مقـــدار نومه إلا على غالب الظن . وقيل أنهم لما ناموا كان عند طلوع الشمس فلما انتبهوا كانت الشمس دنت للغروب بقليل . فلذلك قالوا : يوماً أو بعض يوم ـ ذكره الحسن ـ . وقيل ايضاً إن الخبر بأنهم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ليس ينـافي انهم لبثوا مـدة طويلة ، لان المدة الطويلة تأتي على قصيرة وتزيد عليها لا محالة . ثم قالوا « ربكم اعلم بما لبثتم » ومعناه ان الذي خلقكم اعرف بمدة لبثكم على التحقيق . والاعلم هو من كانت علومه اكثر أو صفاته في كونه عالمـاً أزيد . وقيل : إن الاعلم هو من كانت معلوماته اكثر ، وهذا ليس بصحيح ، لانه يلزم انه عالم من اجل العلوم .

ثم قال بعضهم لبعض « فابعثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر ايها ازكى طعاماً » وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال قتادة : « ازكى » أجل وخير .

والثاني ـ ايها أبى طعاماً بأنه طاهر حلال ، لانهم كانوا يذبحون اللاوثان، وهم كفار أرجاس . وقيل معناه ايها اكثر فان الزكاء والنماء الزيادة . « فليأتكم برزق منه وليتلطف » في شرائه واخفاء أمره « ولا يشعرن بكم احداً » أي لا يعلمن بمكانكم أحداً . وقيل : المعنى وإن ظهر عليه فلا يوقعن اخوانه فيما وقع فيـه لانهم « إن يظهروا عليكم » ويعلموا بمكانكم « يرجموكم » . قال الحسن : معناه يرجموكم بالحجارة. وقال ابن جريج : يشتموكم ويؤذوكم بالقول القبيح « أو يعيـــدوكم في ملتهم » اي

يردوكم في عبادة الاصنام . ومتى فعلتم ذلك « لن تفلحوا » بعد ذلك « ابداً » ولا تفوزوا بشيء من الخير .

ثم قال : « وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق » ومعناه اننا كما فعلنا بهم ما مضى ذكره ، مثل ذلك اظهرنا عليهم واطلعنا عليهم ، ليعلم الذين يكذبون بالبعث « أن وعد الله حق » ويزداد المؤمنون ايماناً ، والتقدير ، ليستدلوا بما يؤديهم الى العلم بأن الوعد في قيام الساعة حق كما قبضت ارواح هؤلاء الفتية تلك المدة . ثم بعثوا كأنهم لم يزالوا أحياء على تلك الصفة .

وقوله « إذ يتنازعون بينهم امرهم » يجوز أن تكون (إذ) نصباً بـ « يعلموا » في وقت منازعتهم . ويجوز أن يكون بقوله « أعثرنا » ، والتقدير : وكذلك اطلعنا إذ وقعت المنازعة في امرهم . والمعنى انهم لما ظهروا عليهم وعرفوا خبرهم اماتهم الله في الكهف ، فاختلف الذين ظهروا على امرهم من اهل مدينتهم من المؤمنين وهم الذين غلبوا على امرهم . وقيل رؤساؤهم الذين استولوا على امرهم . فقال بعضهم : ابنوا عليهم مسجداً ليصلي فيه المؤمنون تبركاً بهم (١) . وقيل إن النزاع كان في ان بعضهم قال : قد ماتوا في الكهف . وبعضهم قال : لا بل هم نيام كما كانوا ، فقال عند ذلك بعضهم : إن الذي خلقهم وانامهم وبعثهم اعلم بحالهم وكيفية امرهم ، فقال عند ذلك الذين غلبوا على امرهم من رؤسائهم لنتخذن عليهم مسجداً . وروي انهم لما جاؤا الى فم الغار دخل صاحبهم اليهم واخبرهم بما كانوا عنه غافلين مدة مقامهم ، فسألوا الله

(١) وفي المخطوطة زيادة وقال بعضهم « ابنوا عليهم مسجداً » ليصلوا فيه إذا انتبهوا) .

تعالى ان يعيدهم الى حالتهم الاولى فاعادهم اليها ، وحال بين من قصدهم و بين الوصول اليهم بأن اضلهم عن الطريق الى الكهف الذي كانوا فيه ، فلم يهتدوا اليهم . وقيل انهم لما دخلوا الغار سدوا على نفوسهم بالحجارة فلم يهتد احد اليهم لذلك .

قوله تعالى:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (٢٣) وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً (٢٤) ﴾

يقول الله لنبيه (ص) انه سيقول قوم من المختلفين فى عدد اصحاب الكهف فى هذا الوقت : انهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وطائفة أخرى يقولون : خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، وتقول طائفة ثالثة : انهم سبعة وثامنهم كلبهم . وذهب بعضهم الى انهم سبعة لدخول واو العطف بعده فى قوله « وثامنهم كلبهم » ولم يقل ذلك في الاول . وهذا ليس بشيء ، لأنه انما لم يدخل الواو فى الاول ، لانه جاء على الصفة بالجملة ، والثاني على العطف على الجملة . قال الرماني : وفرق بينهما ، لأن السبعة أصل للمبالغة فى العدة ، كما قال (عز وجل): استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن

يغفر الله لهم » (١) ويحكى البلخي عن بعض أهل العلم أنه قال : الواجب أن يعد في الحساب : واحد اثنان ثلاثة اربعة ، فاذا بلغت الى السبعة قلت : وثمانية ـ بالواو ـ اتباعاً للآية .

وقوله « رجماً بالغيب » قال قتادة : معناه قذفاً بالظن . وقال المؤرج : ظناً بالغيب بلغة هذيل . وقال قوم : مالم تستيقنه فهو الرجم بالغيب قال الشاعر :

وأجعل مني الحق غيباً مرجماً (٢)

وقال زهير :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم   وما هو عنها بالحديث المرجم (٣)

ثم قال تعالى لنبيه (ص) : قل لهم يا محمد : ربي اعلم بعدتهم ، من الخائضين في ذلك والقائلين فى عددهم بغير علم . ثم قال تعالى : ليس يعلم عددهم إلا قليل من الناس ، وهم النبي ومن أعلمه الله من نبيه . وقال ابن عباس : أنا من القليل الذين يعلمون ذلك : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم .

ثم قال تعالى ، ناهياً لنبيه ـ والمراد به امته ـ « فلاتمار فيهم إلا مراء ظاهراً » . قال ابن عباس وقتادة ومجاهدوالضحاك : معناه إلا بما أظهرنا لك من امرهم ، والمعنى انه لا يجوز أن تماري وتجادل إلا بحجة ودلالة ، واخبار من الله ، وهو المراء الظاهر . وقال الضحاك : معناه حسبك ما قصصناعليك . وقال البلخي : وفى ذلك دلالة على أن المراء قد يحسن إذا كان بالحق وبالصحيح من القول . وإنما المذموم منه ما كان باطلا والغرض المبالغة لا بيان الحق . والمراء الخصومةوالجدل .

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٠   (٢) قد مرهذا البيت كاملا في ١/ ٢٠٥ من هذا الكتاب وقد نسبه هناك الى عمير بن طارق . وروايته (الظن) بدل (الحق)

(٣) ديوانه (دار بيروت) ٨١ وهو في تفسير القرطبي ١٠/ ٣٨٣

وقوله « ولا تستفت فيهم » يعني في أهل الكهف . وفي مقدار عددهم «منهم» يعني من اهل الكتاب « أحـداً » ولا تستفهم من جهتهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة .

وقوله « ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » نهي من الله تعالى لنبيه ان يقول : اني افعل شيئاً في الغد إلا أن يقيد قوله بمشيئة الله ، فيقول: ان شاء الله ، لانه لا يأمن اخترامه ، فيكون خبره كذباً . وإذا قيده بقوله إن شاء الله ، ثم لم يفعل ، لم يكن كاذباً . والمراد بالخطاب جميع المكلفين ، ومتى اخبر المخبر عن ظنه وعزمه بأنه يفعل شيئاً فيما بعد ثم لم يفعل لا يكون كاذباً ، لانه اخبر عن ظنه وهو صادق فيه . وقال قوم « إلا أن يشاء الله » معناه إلا أن يشاء الله أن يلجئني الى تركه . وقال الفراء : قوله « إلا أن يشاء الله » بمعنى المصدر ، فكأنه قال إلا مشيئة الله والمعنى إلا ما يريده الله . وإذا كان الله تعالى لا يشاء إلا الطاعات فكأنه قال : لا تقل اني افعل إلا الطاعات وما يقرب الى الله. وهذا وجه حسن . ولا يطعن في ذلك جواز الاخبار عما يريد فعله من المباحات التي لا يشاؤها الله ، لأن هـذا النهي ليس نهي تحريم، وانما هو نهي تنزيه ، لانه لو لم يقل ذلك لما أثم بلا خلاف وانما هو نهي تحريم فيما يتعلق بالقبيح فانه لا يجوز أن يقول اني افعل ذلك بحال . والآية تضمنت أن لا يقول الانسان اني افعل غداً شيئاً إلا أن يشاء الله . فأما أن يعزم عليه من ذكر ذلك ، فلا يلزم المشيئة فيه إلا ندباً . بغير الآية .

وقوله « واذكر ربك إذا نسيت » قال الحسن : معناه انه اذا نسي أن يقول : إن شاء الله ، ثم ذكر فليقل ان شاء الله . وقال ابن عباس : له ان يستثني ولو الى سنة . وقال بعضهم : وله أن يستثني بعد الحنث إلا انه لا تسقط عنه الكفارة في اليمين ، إلا إن يكون الاستثناء موصولا بالاجماع . وقال الحسن له أن يستثني مالم يقم من

مجلسه الذي هو فيه ، فان قام بطل استثناؤه . وقال قوم « واذكر ربك إذا نسيت » أمراً ثم تذكرته ، فان لم تذكره فقل « عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً ». وقال بعضهم : عسى أن يعطيني ربي من ارشد ما هو أولى من قصة اصحاب الكهف.

والذي نقوله : ان الاستثناء متى لم يكن متصلا بالكلام أو في حكم المتصل ، لم يكن له تعلق بالاول ولا حكم له ، وانه يجوز دخول الاستثناء بمشيئة الله في جميع انواع الكلام : من الامر ، والنهي ، والخبر ، والأيمان ، وغير ذلك . ومتى استثنى ثم خالف لم يكن حانثاً في يمينه ولا كاذباً في خبره . ومتى هو استثناه بعد مدة بعد انفصال الكلام لم يبطل ذلك حنثه ولزمته الكفارة . ولو لم نقل ذلك أدى الى ان لا يصح يمين ولا خبر ولا عقد ، فان الانسان متى شاء استثنى في كلامه ويبطل حكم كلامه .

وقد روي عن النبي (ص) انه قال : (من حلف على أمر يفعله ثم رأى ماهو خير له فليحنث وليكفر عن يمينه) ولو كان الاستثناء جائزاً بعد مدة ، لكان يقول فليستثني ولا يحتاج الى الكفارة ولا يلزمه الحنث .

وقد روي في اخبارنا مثل ما حكيناه عن ابن عباس . ويشبه أن يكون المراد به أنه اذا استثنى وكان قد نسي من غير تعمد فانه يحصل له ثواب المستثني دون أن يؤثر في كلامه ، وهو الاشبه بابن عباس وأليق بعمله وفعله ، فان ما حكي عنه بعيد جداً . وقال المبرد ، وجماعة : إن قوله « ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » ضم الاستثناء الى الكلام الذي قبله . ثم قال « واذكر ربك إذ نسيت وقل عسى » استأنف كلاماً آخر وقصة أخرى . وقال الجبائي هذا استئناف كلام من الله ، وأمر منه لنبيه (ص) أنه اذا أراد فعلا من الافعال فنسيه فليذكر الله وليقل عسى أن يهديني ربي لاقرب مما نسيته رشداً . وقال عكرمة : « اذكر ربك اذا نسيت » معناه اذا نسيت امراً فاذكر ربك تتذكره ، وهذا يدل على أنه لم يرد اليمين

في الاستثناء .

وقيـل سبب نزول ذلك أن قريشاً لما جاءت وسألت النبي (ص) عن قصة اصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ، فقال لهم : غداً اخبركم ، فأبطأ عنه جبرائيل . وقيل تأخر عنه اياماً ثم أتاه بخبرهم . وهذا ليس بصحيح ، لانه لو كان كذلـك بأن وعدهم بأن يخبرهم غداً ثم لم يخبرهم لكان كذباً ، وهو منه محال . وقال ابراهيم : اذا حلف الحالف والكلام متصل فله استثناؤه اذا قال ان شاء الله . وقال الكسائي والفراء : التقدير : ولا تقولن لشيء أني فاعل ذلك غـداً إلا أن تقول ان شاء الله فأضمر القول . وانما كان الاستثناء مؤثراً اذا كان الكلام متصلا لانه يدل على انه يؤل كلامه ، وإذا لم يكن متصلاً فقد استقرت نيته وثبتت فلا يؤثر الاستثناء فيها . (١)

وروي عن ابن‌عباس انه قال : « رابعهم كلبهم » يعني راعياً يتبعهم ، حكاه قطرب . وقال اخبر عن الكلب وأراد صاحبه ، كقوله « واسأل القرية » . وانما اراد اهلها . [وهـــذا لا يصح مع ظاهر قوله « وكلبهم باسط ذراعيه »] وقال الجبائي : لما اجتازوا على الراعي ، فقال لهم اين تريدون قالوا : نفر بديننـــا ، فقال الراعي : انا أولى بذلك ، فتبعهم وتبعه الكلب . وفي اصحاب الحديث من يقول : ان الكلب خاطبهم بالتوحيد والاعتراف بما اعترفوا به ، ولذلك تبعهم . وهذا خرق عادة يجوز أن يكون الله فعله لطفاً لهم ، ومعجزة لبعضهم على ما حكي ان بعضهم كان نبياً ، وهو رئيسهم ، فيكون ذلك معجزة له ، غير انه ليس بمقطوع به .

وقوله « عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً » معناه قل يا محمد عسى ان يعطيني ربي من الآيات على النبوة ما يكون اقرب وأدل من قصة اصحاب الكهف .

---

(١) كان في هذه الفقرات المتقدمة وما بعدها ، اخطاء كثيرة ونقص واضح في المطبوعة فصحح على المخطوطة ولكثرة الاخطاء نبهنا عليها جملة .

قوله تعالى:

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً (٢٥) قُلِ ٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (٢٦) وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٧) ﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي « ثلاثمائة سنين» مضافاً. الباقون بالتنوين، قال الفراء: من العرب من يضع (سنين) في موضع (سنة) فهي في موضع خفض على قراءة من أضاف قال عنترة:

فيها اثنتان وأربعون حلوبة　　سوداً كخافية الغراب الاسحم (١)

فمن نون نصب سنين بـ « لبثوا » وتقديره سنين ثلاثمائة، و(سنين) مفعول (لبثوا) و (ثلاثمائة) بدل، كما تقول خرجت أياماً خمسة وصمت سنين عشرة. وان شئت نصبت « ثلاثمائة » بـ (لبثوا) وجعلت (سنين) بدلا ومفسرة لها. ومن أضاف قال ابن خالويه: هي قراءة غير مختارة، لانهم لا يضيفون مثل هذا العدد إلا الى الافراد فيقولون ثلاثمائة درهم ولا يقولون ثلاثمائة دراهم قال ابو علي الفارسي قد جاء مثل ذلك مضافاً الى الجمع، قال الشاعر:

فما زودوني غير سحق عمامة　　وخمس مىء منها قسي وزائف (٢)

(١) ديوانه (دار بيروت) ٧١ من معلقته الشهيرة

(٢) لسان العرب (قسا) نسبه الى مزرد

جمع على فعل . وقد كسر القاف كما كسر في (حلى) وقرأ ابن عامر ، « ولاتشرك » بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبر ، فمن قرأ على النهي قال تقديره « لا تشرك » ايها الانسان . ومن قرأ على الخبر ، فلتقدم الغيبة . وهو قوله « مالهم من دونه من ولي » والهاء للغيبة . وقرأ الحسن « تسع وتسعون » (١) بفتح التاء ـ يقال تسع بكسر التاء وفتحها ، وهما لغتان . والكسر اكثر وافصح .

قوله « ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً » الآية معناه إخبار من الله تعالى وبيان عن مقدار مدة لبثهم يعني أصحاب الكهف الى وقت إنتباههم . ثم قال لنبيه ، فان حاجك المشركون فيهم من أهل الكتاب ، فقل « الله أعلم بما لبثوا » وهو قول مجاهد ، والضحاك ، وعبيدبن عمير ، كما قال « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً » (٢) ومن قرأ بالتاء ، قال معناه لاتنسبن احداً الى عالم الغيب . ويحتمل أن يكون المعنى لا يجوز لحاكم أن يحكم إلا بما حكم الله به أو بما دل على حكم الله ، وليس لأحد أن يحكم من قبل نفسه ، فيكون شريكاً لله في أمره وحكمه .

وقيل إن معناه « قل الله أعلم بما لبثوا » الى أن ماتوا . وحكى عن قتادة أن ذلك حكاية عن قول اليهود فانهم الذين قالوا لبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً . وقوى ذلك بقوله « قل الله اعلم بما لبثوا » فذكر تعالى أنه العالم بذلك دون غيره . وقدضعف جماعة هذا الوجه قالوا : لان الوجه الأول أحسن ، لانه ليس لنا أن نصرف اخبار الله الى أنه حكاية إلا بدليل قاطع ، ولأنه معتمد الاعتبار الذي بينه الله (عز وجل) للعباد .

وقوله « له غيب السموات والارض » فالغيب يكون الشيء بحيث لا يقع

(١) سورة ٣٨ (ص) آية ٢٣　　(٢) سورة ٧٢ ـ الجن ـ آية ٢٦

عليه الادراك ، ولا يغيب عن الله تعالى شيء ، لانه لايكون بحيث لا يدركه . وقيل « عالم الغيب والشهادة » (١) معناه ما يغيب عن احساس العباد وما يشاهدونه . وقيل ما يصح ان يشاهدو ما لا يصح أن يشاهد. وقوله « اسمع به وابصر » (٢) معناه ما أسمعه وما أبصره بأنه لا يخفى عليه شيء فخرج التعجب على وجه التعظيم له تعالى .

وقوله « مالهم من دونه من ولي » اي ليس للخلق وقيل إنه راجع الى اهل الكهف أي ليس لهم من دون الله ولي ولا ناصر «ولا يشرك » يعني الله «في حكمه» بما يخبر به من الغيب « احداً » .

ثم قال لنبيه (ص) « اتل ما أوحي اليك » أي اقرأ عليهم ما أوحى الله اليك من اخبار اصحاب الكهف وغيرهم .

وقوله « لا مبدل لكلماته » أي لا مغير لما أخبر الله تعالى به ، لانه صدق ولا يجوز أن يكون بخلافه « ولن تجد من دونه ملتحداً » ومعناه ملتجأ تهرب اليه وقال مجاهد : ملجأ ، وقال قتادة : موئلا . وقيل : معدلا . وهذه الأقوال متقاربة المعنى وهو من قولهم لحدت الى كذا أي ملت اليه ، ومنه اللحد ، لأنه في ناحية القبر وليس بالشق الذي في وسطه ، ومنه الالحاد في الدين ، وهو العدول عن الحق فيه . (وسنين) فيه لغتان تجمع جمع السلامة وجمع التكسير فالسلامة هذه سنون ورأيت سنين وجمع التكسير بتنوين النون تقول هذه سنون وصمت سنيناً وعجبت من سنين. وقوله « وازدادوا تسعاً » يعني تسع سنين ، فاستغنى بالتفسير في الاول عن اعادته ههنا .

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ٧٣ وسورة ١٣ ـ الرعد ـ آية ١٠ وغيرها كثيراً في القرآن (٢) سورة ١٩ مريم آية ٣٨

قوله تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠)﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وحده « بالغدوة والعشي » بضم الغين والواو، وإسكان الدال. الباقون بفتح الغين والدال، ومع الالف، ولا يجوز عند أهل العربية إدخال الالف واللام على غدوة، لانها معرفة، ولو كانت نكرة لجاز فيها الاضافة ولا يجوز غدوة يوم الجمعة كما يجوز غداة يوم الجمعة.

وقال ابو علي النحوي من أدخل الالف واللام، فانه يجوز - وإن كان معرفة - أن تنكر، كما حكى أبو زيد لقيته فينة. والفينة بعد الفينة، ففينة مثل غدوة في التعريف، ومثل قولهم: اما النضرة، فلا نضرة، فأجري مجرى ما يكون سائغاً في الجنس. ومن قرأ بالغداة، فقوله أبين. وقال ابن خالويه: العرب تدخل الالف واللام على

المعرفة إذا جاؤا بما فيه الالف واللام ليزدوج الكلام ، قال الشاعر :

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركا ... شديداً باعباء الخلافة كاهله (١)

فادخل الالف واللام على اليزيد لما جاور الوليد ، فلذلك أدخل ابن عامر الالف واللام في (الغدوة) لما جاور العشي . والعرب تجعل (بكرة وغدوة وسحر) معارف إذا أرادوا اليوم بعينه . أمر الله تعالى نبيه (ص) بالصبر على جملة المؤمنين الذين يدعون الله بالغداة والعشي ، والصبر على ثلاثة اقسام : صبر واجب مفروض وهو ما كان على اداء الواجبات التي تشق على النفس وتحتاج الى التكلف . والثاني ـ ما هو مندوب فان الصبر عليه مندوب اليه . والثالث مباح جائز ، وهو الصبر على المباحات التي ليست بطاعة لله .

وقوله « يريدون وجهه » معناه يريدون تعظيمه والقربة اليه دون الرياء والسمعة ، فذكر الوجه بمعنى لاجل التعظيم ، كما يقال اكرمته لوجهك أي لتعظيمك لان من عادتهم أن يذكروا وجه الشيء ويريدون به الشيء المعظم . كقولهم هذا وجه الرأي أي هذا الرأي الحق المعظم .

وقوله « ولا تعد عيناك عنهم » معناه لا تتجاوز عيناك الى غيرهم ولا تنصرف وقيل انها نزلت في سلمان واصحابه الى سواهم من أرباب الدنيا المرحين فيها « تريد » بذلك « زينة الحياة الدنيا . ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا » نزلت في عيينة بن حصين . وقيل في معناه ثلاثة أقوال :

احدها ـ لا تطع من صادفناه غافلا عن ذكرنا كقولهم احمدت فلانا أي صادفته محموداً فهو من باب صادفناه على صفة .

الثاني ـ لا تطع من سميناه غافلا ، و نسبناه الى الغفلة كقولهم أكفرناه أي

---

(١) مر تخريجه في ٤ / ٢٠٨ من هذا الكتاب

نسبناه الى الكفر .

والثالث ـ لا تطع من أغفلنا قلبه أي جعلناه غافلا بتعرضه للغفلة.. وقيل لم يسمه الله بما يسم به قلوب المؤمنين مما ينبيء عن فلاحهم ، كما قال « كتب في قلوبهم الايمان » (١) .

« واتبع هواه » يعني الذي أغفلناه عن ذكرنا « اتبع هواه ، وكان أمره فرطاً » معناه تجاوز الحق وخروجاً عنه، من قولهم أفرط إفراطاً اذا أسرف ، فاما فرّط فمعناه قصر عن التقدم الى الحق الذي يلزمه . وقيل معناه وكان أمره سرفا . ثم أمر الله نبيه (ص) أن يقول لهم الذي أتيتكم به هو الحق من ربكم الذي خلقكم « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » صورته صورة الأمر والمراد به التهديد وهو آكد في التهدد من جهة أنه كأنه مأمور بما يوجب اهانته . ثم أخبر أنه أعد للظالمين العصاة ناراً أحاط بهم سرادقها فالسرادق المحيط بما فيه مما ينقل معه والاصل سرادق الفسطاط قال رؤبة :

ياحكم بن المنذر بن الجارود   سرادق المجد إليك ممدود (٢)

وقال ابن عباس سرادقها حائط من نار يطيف بهم ، وقيل سرادقها دخانها قبل وصولهم اليها . وقيل السرادق ثوب يدار حول الفسطاط .

وقوله « وإن يستغيثوا » معناه إن طلبوا الغوث والنجاة ، وطلبوا ماء لشدة ما هم فيه من العذاب « اغيثوا بماء كالمهل » والمهل كل شيء أذيب حتى ماع ، كالصفر والرصاص والذهب والحديد ، وغير ذلك ـ في قول ابن مسعود ـ وقال مجاهد : هو القيح والدم . وقال ابن عباس هو دردي الزيت .

---

١) سورة ٥٨ المجادلة ، آية ٢٢   (٢) تفسير القرطبي ١٠ / ٣٩٣ ومجاز القرآن ١ / ٣٩٩ واللسان (سردق) وسيبويه ١ / ٢٧٢

وقال سعيد بن جبير هو الشيء الذي قد انتهى حره «يشوي الوجوه» أي يحرقها من شدة حرّه إذا قربت منه . ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك بأنه «بئس الشراب» يعني ذلك المهل «وساءت مرتفقاً» وقيل معناه المتكأ من المرفق ، كما قال أبو ذؤيب :

بات الخلي وبت الليل مرتفقاً كأن عيني فيها الصاب مذبوح (١)

وقيل هو من الرفق . وقال مجاهد معناه مجتمعاً كأنه ذهب به الى معنى مرافقة . ثم أخبر تعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات من الطاعات ويجتنبون المعاصي بأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا ولا يبطل ثوابه . وقيل في خبر «إن الذين آمنوا» ثلاثة أقوال :

احدها ـ ان خبره قوله «اولئك لهم جنات عدن» ويكون قوله «إنا لا نضيع اجر من احسن عملا» اعتراضاً بين الاسم والخبر .

الثاني ـ ان يكون الخبر إنا لا نضيع أجره ، إلا انه وقع المظهر موقع المضمر .

والثالث ـ أن يكون على البدل ، فلا يحتاج الأول الى خبر ، كقول الشاعر :

إن الخليفة ان الله سربله سربال ملك به ترجى الخواتيم

فاخبر عن الثاني وأضرب عن الأول .

قوله تعالى :

«أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ

---

(١) ديوان الهذليين ١ / ١٠٤ وتفسير الطبري ١٥ / ١٤٨ ومجاز القرآن ١ / ٤٠٠ وتفسير القرطبي ١٠ / ٣٩٥ والتاج واللسان والصحاح (صوب) وغيرها

فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (٣١) وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأحدهما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً (٣٣) وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَراً (٣٤) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٥) ﴾ أربع آيات في الكوفي والبصري وثلاث في المدني تمام الثانية (زرعاً) .

قرأ عاصم وأبو جعفر وروح « وكان له ثمر » . « واحيط بثمره » بفتح الثاء والميم فيهما ، وافقهم رويس في الاولى . وقرأ أبو عمرو ـ بضم الثاء وسكون الميم ـ فيهما . الباقون بضمهما فيهما .

قال أبو علي : الثمر ما يجتنى من ذي الثمر وجمعه ثمرات مثل رحبة ورحبات : ورقبة ورقبات ، ويجوز في جمع (ثمرة) ضربان : احدهما ـ على ثمر ، كبقرة وبقر والاخر ـ على التكسير ، فتقول ثمار كرقبة ورقاب ، فيشبه المخلوقات بالمصنوعات وشبه كل واحد منهما بالآخر . ويجوز في القياس أن يكسر (ثمار) الذي هو جمع ثمرة على ثمر ، ككتاب وكتب ، ويجوز أن يكون ثمر جمع ثمرة كبدنة وبدن وخشبة وخشب . ويجوز أن يكون ثمر واحداً كعنق وطنب ، فعلى جميع هذه الوجوه يجوز

اسكان العين منه . ومثـله في قوله « واحيط بثمره » . وقال بعض أهـل اللغة : الثمر المال ، والثمر المأكول . وجاء في التفسير (إن الثمر النخل والشجر) ولم يرد به الثمر . فالثمر ـ على ما روي عن جماعـة من السلف ـ الاصول التي تحمل الثمرة لا نفس الثمرة بدلالة قوله «فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها» أي في الجنة والنفقة انما تكون على ذوات الثمر في الأكثر ، فكأن الآية التي أرسلت عليهـا اصطلمت الاصول وإجتاحتها ، كما قال تعالى في صفة الجنة الاخرى « فأصبحت كالصريم » (١) أي كالليل في سواده لاحتراقها بعد أن كانت كأنها في بياضها . وحكي عن أبي عمرو ، إن الثمرة والثمر أنواع المال من الذهب والفضة وغيرهما يقال : فلان مثمر أي كثير المال ، ذهب اليه مجاهد وغيره .

اخبر الله تعالى في الآية الاولى عما المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحـات الذين أخبر عنهم بأنه لا يضيع عملهم الحسن ، وما قد أعدّ لهم ، فقال « لهم جنـات عدن » والجنات جمع جنة ، وهي البستان الذي فيها الشجر . ومعنى (عدن) أي موضع اقامة ، وانما سمي بذلك ، لانهم يبقون فيها ببقاء الله دائماً وأبداً ، والعدن الاقامة . وقيل : هو اسم من اسماء الجنة ـ في قول الحسن ـ ويقال عدن بالمكان يعـدن عدناً اذا أقام فيه ، فسمي الجنة عدناً من اقامة الخلق فيها . ثم وصف هـــذه الجنة ، فقال « تجري من تحتهم الانهار » وقيل في معنا ذلك قولان :

احدهما ـ إن انهار الجنة في اخاديد من الارض ، فلذلك قال من تحتهم .

الثاني ـ انهم على غرف فيها فالانهار تجري من تحتهم ، كما قال تعالى « وهم في الغرفات آمنون » (٢) .

---

(١) سورة ٦٨ ـ القلم ـ آية ٢٠ (٢) سورة ٣٤ سبأ آية ٣٧

وقوله « يحلون فيها من اساور من ذهب » أي يجعل لهم فيها حلياً من زينة من أساور ، وهو جمع اسوار على حذف الزيادة ، لأن مع الزيادة أساوير ، في قول قطرب .

وقيل هو جمع لسورة ، واسورة جمع سوار ، يقال بكسر السين وضمها ـ في قول الزجاج ـ والسوار زينة تلبس في الزند من اليد . وقيل هو من زينة الملوك يسور في اليد ويتوج على الرأس .

« ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق » فالسندس مارق من الديباج واحده سندسة وهي الرقيقة من الديباج ، على أحسن ما يكون وأفخره ، فلذلك شوّق الله اليه . والاستبرق الغليظ من الديباج . وقيل هو الحرير قال المرقش :

تراهن يلبسن المشاعر مرّة ... واستبرق الديباج طوراً لباسها (١)

وقوله تعالى « متكئين » نصب على الحال « فيها » يعني في الجنة « على الارائك » جمع أريكة ، وهي السرير قال الشاعر :

خدوداً جفت في السير حتى كأنما ... يباشرن بالمعزاء مس الارائك (٢)

وقال الاعشى :

بين الرواق وجانب من سيرها ... منها وبين أريكة الانضاد (٣)

أي السرير في الحجلة . وقال الزجاج : الارائك الفرش في الحجال . ثم قال تعالى إن ذلك « نعم الثواب » والجزاء على الطاعات « وحسنت مرتفقاً » يعني

(١) تفسير القرطبي ١٠ / ٣٩٧ وتفسير الطبري ١٥ / ١٤٨ وهو في مجمع البيان ٣ / ٤٦٦ (٢) قائله ذو الرمة ديوانه ٤٤٢ ومجاز القرآن ١ / ٤٠١ وتفسير الطبري ١٥ / ١٤٨ (٣) ديوان الاعشيين (طبع بيانة) ٣٤٤ وتفسير الطبري ١٥ / ١٤٨ ومجاز القرآن ١ / ٤٠١ .

حسنت الجنة مرتفقاً، فلذلك أنث الفعل، ومعنى «مرتفقاً» اي مجلساً. وهو نصب على التمييز. ثم قال «واضرب لهم مثلا رجلين» أي اضرب رجلين لهم مثلا «جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل» أي جعلنا النخل مطيفاً بهما يقال حفه القوم يريد إذا طافوا به «وجعلنا بينهما زرعاً» اعلام بأن عمارتها كاملة متصلة لا يفصل بينهما إلا عمارة. واعلمنا أنهما كاملتان في تأدية كل حملها من غلتها، فقال «كلتا الجنتين آتت اكلها» أي طعمها وما يؤكل منها «ولم تظلم منه شيأ» أي لم تنقص بل أخرجت ثمرها على الكمال والتمام، قال الشاعر:

يظلمني مالي كذا ولوى يدي لوى يده الله الذي هو غالبه (١)

أي ينقصني مالي. وقال الحسن: معناه لم ينقص «وفجرنا خلالهما نهراً» أي شققنا نهراً بينهما، وفائدتها أنهما يشربان من نهر واحد. «وكان له ثمر» وقرىء (ثمر) قال مجاهد هو ذهب، وفضة. وقال ابن عباس وقتادة: هو صنوف الأموال، يقال: ثمار وثمر مثل حمار وحمر، ويجوز أن يكون جمع ثمر، مثل خشب وخشب، وانما قال «كلتا الجنتين آتت» على لفظ كلتا، لانه بمنزلة (كل) في مخرج التوحيد. ولو قال آتتا، على الجنتين كان جائزاً قال الشاعر في التوحيد:

وكلتاهما قد خط لي في صحيفتي فلا العيش اهواه ولا الموت أروح (٢)

ويجوز كلاهما في الحديث قال الشاعر:

كلا عقبيه قد تشعث رأسها من الضرب في جنبي ثقال مباشر

والالف واللام في كلتا ليست ألف التثنية، ولذلك يجوز أن تقول الاثنتان

(١) مر تخريجه في ٢ / ٥٠٨

(٢) البيت في مجمع البيان غير منسوب

قام . ويجوز ان يقال كل الجنة آتت . ولا يجوز كل المرأة قامت ، لان بعض المرأة ليس بامرأة و بعض الجنة جنة ، فكأنه قال كل جنة من جملة ما آتت .

وقوله « فقال لصاحبه وهو يحاوره » أي يقول احد الرجلين لصاحبه يعني صاحبي الجنتين اللتين ضرب بهما المثل ، يقول لصاحبه الآخر « وهو يحاوره » أي يراجعه الكلام « أنا اكثر منك مالا وأعز نفراً » أي أجمع مالا وأعز عشيرة واكثر انصاراً ، وقد فسرناه فيما مضى وإنما قال «وفجرنا خلالهما نهراً » والنهر يتفجر من موضع واحد لان النهر يمتد حتى يصير التفجر كانه فيه كله ، فالتخفيف والتثقيل فيه جائزان ومنه « حتى تفجر لنامن الارض ينبوعاً » (١) يخفف ويثقل على ما مضى القول فيه .

قوله تعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً (٣٦) وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً (٣٧) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٨) ﴾ آيتان في عدد اسماعيل وشامي وثلاثة في ماعداه لأنهم عدوا ابداً آية ولم يعدها اسماعيل ولا الشامي وثلاثة آيات في الكوفي والمدني الاول واثنتان في المدني الأخير .

قرأ اهل الحجاز وابن عامر « خيراً منهما » بزيادة ميم على التثنية .

(١) سورة ١٧ ـ الاسرى آية ٩٠

الباقون بلا ميم .

اخبر الله تعالى عن أحد الرجلين اللذين ضرب بهما المثل ، وهو صاحب الجنتين انه دخل جنته وهي البستان الذي يجنه الشجر ويحفه الزهر ، «وهو ظالم لنفسه» أي باخس لها حقها بارتكاب القبيح والاخلال بالواجب اللذين يستحق بهما العقاب ويفوته بهما الثواب ، فلما رأى هذا الجاهل ما راقه وشاهد ما أعجبه ، وكبر فى نفسه توهم أنه يدوم ، وأن مثله لا يفنى ، فقال « ما أظن ان تبيد هـذه أبداً » أي تهلك هـذه الجنة أبداً « وما أظن الساعة قائمة » يعني يوم القيامة أي تقوم ، كما يدعيه الموحدون . ثم قال « ولئن رددت الى ربي » وجدت « خيراً منها » يعني من الجنة ، ومن قرأ « منهما » أراد الجنتين « منقلباً » أي في المرجع اليه . وانما قال هـذا مع كفره بالله تعالى ، لأن المعنى ان رددت الى ربي ، كما يدعى من رجوعي ، فلي خير من هذه ، تحكما سولته له نفسه ، لا مطمع فيه . وقال ابن زيد : شك ، ثم قال على شكه فى الرجوع الى ربه ما أعطاني هذه الأولى عنده خير منها « فقال له صاحبه وهو يحاوره » أي يراجعه الكلام « اكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا » ومعنى خلقك من تراب أن اصلك من تراب إذ خلق اباك آدم (ع) من تراب ، فهو من تراب ويصير الى التراب ، وقيل لما كانت النطفة يخلقها الله بمجرى العادة من الغذاء ، والغذاء نبت من التراب ، جاز أن يقال : خلقك من تراب ، لان أصله تراب كما قال من نطفة ، وهو فى هذه الحال خلق سوي حي ، لكن لما كان أصله كذلك جاز أن يقال ذلك .

وفي الآية دلالة على ان الشك فى البعث والنشور كفر ، والوجه في خلق البشر وغيره من الحيوان وتنقله من تراب الى نطفة ، ثم الى علقة ، ثم الى صورة ، ثم الى طفولية ، ثم الى حال الرجولية ، ما فى ذلك من الاعتبار الذي هو دال على تدبير مدبر

مختار يصرف الاشياء من حال الى حال ، لان ما يكون فى الطبع يكون دفعة واحـدة كالكتابة التي يوجدها بالطبائع من لا يحسن الكتابة ، فلما انشأ الخلق حالا بعد حال دل على أنه عالم مختار .

و (المحاورة) مراجعة الكلام و (المنقلب) المعاد، و (التسوية) جعل الشيء على مقدار سواه ، فقوله « سواك رجلا » أي كملك رجلا .

قوله تعالى :

﴿ لَـٰكِنَّا هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَداً (٣٩) وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَـداً (٤٠) فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (٤١) أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَباً (٤٢) ﴾ أربع آيات بلاخلاف.

قرأ نافع ـ فى رواية المسيبي ـ وابن عامر ، وابو جعفر ، ورويس ، والبرجمي ، والعبسي «لكنا هو الله ربي » باثبات الالف فى الوصل ، وهي قراءة ورش عن نافع . والباقون بغير الف في الوصل . ولم يختلفوا في الوقف أنه بألف . وقد جاء الاثبات فى الوصل ، قال الاعشى :

فكيف أنا وانتحالى القوافي بعد المشيب كفى ذاك عارا (١)

(١) ديوانه (دار بيروت) ٨٤ وطبع (بيانه) ٤١ والقرطبي ١٠ | ٤٠٥ وروايته (فما انا أم ما انتحالي القوافى)

غير ان ذلك من ضروة الشعر ، ويجوز في « لكنا هو الله ربي » خمسة أوجه في العربية .

احدها ـ لكن هو الله ـ بالتشديد ـ من غير الف في الوصل والوقف .

الثاني ـ بالف في الوصل والوقف .

الثالث ـ لكننا باظهار النونين وطرح الهمزة .

الرابع ـ لكن هو الله ربي بالتخفيف .

الخامس ـ لكن انا على الاصل . وقال الكسائي : العرب تقول : أن قائم بمعنى أنا قائم ، فهذا نظير « لكن هو الله » ومن قرأ لكنا في الوصل احتمل امرين:

أحدها ـ أن يجعل الضمير المتصل مثل المنفصل الذي هو نحن،فيدغم النون من « لكن » ـ لسكونها ـ فى النون من علامة الضمير ، فيكون على هذا باثبات الالف وصلا ووقفاً ، لان أحداً لا يحذف الالف من (انا فعلنا) .

وقوله « هو الله » فهو ضمير علامة الحديث والقصة . كقوله « فاذا هي شاخصة » (١) وقوله « قل هو الله احد » والتقدير : الامر : الله احد ، لأن هذا الضمير يدخل على المبتدإ والخبر،فيصير المبتدأ والخبر في موضع خبر وعاد على الضمير الذي دخلت عليه (لكن) على المعنى ، ولو عاد على اللفظ لقال : لكنا هو الله ربنا . ودخلت (الكن) مخففة على الضمير ، كما دخلت في قوله « انا معكم » (٢) والوجه الاخر ـ أن يكون على ما حكاه سيبويه أنه سمع من يقول أعطني بيضة فشدد وألحق الهاء بالتشديد الوقف ، والهاء مثل الالف في سبساء ، والياء فى (عيهل)واجرى الهاء مجراها فى الاطلاق ، كما كانت مثلهما في نحو قوله :

١) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٧

(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٤

صفية قومي ولا تجزعي وبكى النساء على حمزة (١)

وهذا الذي حكاه سيبويه ليس في شعر ، فكذلك الآية يكون الالف فيها كالهاء ، ولا تكون الهاء للوقف لأن هاء الوقف لا يبين بها العرب ، ولا ما ضارع المعرب فعلى احد هذين الوجهين يكون قول من اثبت الالف في الوصل أو عليهما جميعاً ، ولو كانت فاصلة ، لكان مثل « فاضلونا السبيلا » (٢) وفي (أنا) في الوصل ثلاث لغات أجودها (أنا قمت) كقوله « أنا ربكم الأعلى » بغير ألف في اللفظ ، ويجوز (أنا قمت) باثبات الالف ، وهو ضعيف جداً وحكوا أن قمت باسكان النون ، وهو ضعيف أيضاً وأما « لكنا هو الله ربي » باثبات الالف فهو الجيد ، لان الهمزة قد حذفت من انا فصار اثبات الالف عوضاً عن الهمزة ، وحكي أن أبياً قرأ « لكن انا هوالله » قال الزجاج وهو الجيد البالغ ، وما قرأه القراء ايضاً جيد .

وقوله « قلت ماشاء الله » تحتمل (ما) أن تكون رفعاً ، وتقديره قلت الأمر ماشاء الله ، ويجوز ان تكون نصباً على معنى الشرط والجزاء . والجواب مضمر وتقديره أي شيء شاء الله كان ، وتضمر الجواب ، كما تضمر جواب (لو) في قوله « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال » (٣) والمعنى لكان هذا القرآن . ومعنى « لاقوة إلا بالله » لا يقدر أحد إلا بالله ، لان الله هو الذي يفعل القدرة للفعل .

وقوله « ان ترني انا اقل » منصوب بأنه مفعول ثان لـ (ترني) و « أنا » تصلح لشيئين : احدهما - ان تكون توكيداً للنون والياء . والثاني - ان تكون فصلا كما تقول : كنت انت القائم ياهذا ، ويجوز رفع (اقل) وبه قرأ عيسى بن عمر على

---

(١) البيت في مجمع البيان ٣\ ٤٧٠ (٢) وسورة ٣٣ - الاحزاب آية ٦٧

(٣) سورة ١٣ - الرعد - آية ٣٣

ان يكون (أنا) مبتدأ و (اقل) خبره . والجملة في موضع المفعول الثاني ـ لـ (ترني) وقوله « غوراً » قرأه البرجمي بضم الغين ـ ههنا ـ وفي الملك ، وانما جاز ان يقع المصدر في موضع الصفة في ماء غور ، للمبالغة ، كما تقول في الحسن وجهه : نور ساطع ، وقال الشاعر :

تظل جياده نوحاً عليه مقلدة أعنتها صفونا (١)

حكى الله تعالى عن الذي قال لصاحبه « أكفرت بالذي خلقك من تراب » أنه قال « لكن هو الله ربي » ومعناه لكن أنا هو الله ربي إلا أنه حذف الهمزة ، والقى حركتها على الساكن الذي قبلها ، فالتقت النونان ، وأدغمت احداهما في الاخرى ، كما قال الشاعر :

ويرميني بالطرف أي انت مذنب ويقليني لكن إياك لا أقلى (٢)

أي لكن أنا . وقوله « ولا أشرك بربي احداً » أي لا أشرك بعبادتي أحداً مع الله بل أوجهها إليه خالصة له وحده . وإنما استحال الشرك في العبادة ، لأنها لا تستحق إلا باصول النعم التي لا توازيها نعمة منعم ، وذلك لا يقدر عليه أحد إلا الله . ثم قال له « ولو لا إذ دخلت جنتك » والمعنى هلا حين دخلت جنتك « قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله » لاحد من الخلق « ان ترني أنا اقل منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتيني » بمعنى ان يعطيني خيراً من جنتك جنة في الدار الآخرة « وأن يرسل عليها » أي على جنتك حسباناً من السماء . قال ابن عباس ، وقتادة : عذاباً . وقيل ناراً من السماء تحرقها . وقيل أصل الحسبان السهام التي ترمى لتجري في طلق واحد ، وكان ذلك من رمي الأساورة . والحسبان المرامي الكثيرة مثل كثرة الحساب واحده حسبانة .

---

(١) قيل ان البيت لعمر بن كلثوم من معلقته وهو في أمالي السيد المرتضى ١ / ١٠٥ ، ٢٠١ (٢) تفسير القرطبي ١٠ / ٤٠٥ ، ومجمع البيان ٣ / ٤٧٠

وقوله « فتصبح صعيداً زلقاً » أي تراباً محترقاً . والزلق الذي لانبات فيها . وقال الزجاج: الصعيد الطريق الذي لانبات فيه أي ملساء ماأنبتت من شيء قد ذهب . و قال الزجاج : المعنى ويرسل عليها عذاب حساب بما كسبت يداك ، لان الحسبان هو الحساب .

وقوله « او يصبح ماؤها غوراً » أي ذاهباً في باطن غامض . والمعنى غائراً ، فوضع المصدر موضع الصفة و نصب على الحال ولذلك لا يثنى ولا يجمع .

وقوله « فلن تستطيع له طلباً » أي لا تقدر على طلب الماء إذا غار ، والطلب تقليب الأمر لوجدان ما يهلك . قال الرماني هذا أصله ، ثم قيل للمريد من غيره فعلا : طالب لذلك الفعل بارادته او أمره والمفكر في المعنى (طالب) لادراك ما فيه وكذلك السائل .

قوله تعالى :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (٤٣) وَلَمْ تَكُن لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً (٤٤) هُنَالِكَ ٱلْوَلَايَةُ لِلهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً (٤٥) ﴾ ثلاث آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، ونافع وعاصم «الولاية» بفتح الواو « لله الحق » بكسر القاف ، وقرأ حمزة بكسرها . وقرأ ابو عمرو : بفتح الواو ، وضم القاف . وقرأ الكسائي بكسر الواو وضم القاف . وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « ولم يكن » بالياء

الباقون بالتاء .

من قرأ بالتاء فلتأنيث الفئة ، والفئة الجماعة ، وقد يسمى الرجل الواحد فئة ، كما ان الطائفة تكون جماعة وواحداً . قال ابن عباس فى قوله « وليشهد عذابهما طائفة » فالطائفة قد تكون الرجل الواحد .

ومن قرأ بالياء فلقوله « ينصرونه » ولأن التأنيث غير حقيقي . واما (الولاية) بفتح الواو، وكسرها فلغتان مثل الوكالة والوكالة والدلالة والدلالة . وقال قوم: هما مصدران فالمكسور مصدر الوالي من الامارة والسلطان . والمفتوح مصدر الوليَ ضد العدو ، تقول : هذا ولي بين الولاية .

واما قوله « الحق » فمن خفض قال الحق هو الله فخفضه نعتاً لله ، واحتج بقراءة ابن مسعود «هنالك الولاية لله وهو الحق » وفى قراءة ابي « هنالك الولاية الحق لله »

ومن رفع جعله نعتاً الولاية ، وأجاز الكوفيون والبصريون النصب بمعنى أحق ذلك حقاً ، والحق اليقين بعد الشك .

قوله « واحيط بثمره » معناه هلكت ثمرهم عن آخرها ، ولم يسلم منها شيء كما يقال أحاط بهم العدو إذا هلكوا عن آخرهم والاحاطة ادارة الحائط على الشيء . ومنه قوله « ولا يحيطون بشيء من علمه » (١) أي لا يعلمون معلوماته ، والحد محيط بجميع المحدود .

وقوله « فاصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها » أي يتحسر على ما انفق فى عمارتها « وهي خاوية على عروشها » معناه حيطانها قائمة لاسقوف عليها ، لانها انهارت

(١) سورة ٢ ـ البقرة ـ آية ٢٥٦

فصارت في قرارها ، وخوت فصارت خاوية من الاساس . ومثله قولهم وقعت الدار على سقوفها أيَ أعلاها على أسفلها . وقيل خاوية على بيوتها ، والعروش الابنية أي قد ذهب شجرها وبقيت جدرانها،لاخير فيها . وقيل العروش السقوف ، فصارت الحيطان على السقوف .

وقوله « ويقول ياليتني لم اشرك بربي احـــداً » اخبار منه تعالى عما يقول صاحب الجنة الهالكة ، وانه يندم على ما كان منه من الشرك بالله . ثم قال تعالى « ولم يكن له فئة » اي جماعة « ينصرونه من دون الله » قال العجاج :

كما يحوز الفئة الكمي

وقوله تعالى « وما كان منتصراً » قال قتادة : معنا ما كان ممتنعاً . وقيل معناه ما كان منتصراً بان يسترد بدل ما كان ذهب منه .

وقوله ﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ اخبار منه تعالى أن فى ذلك الموضع الولاية بالنصرة والاعزاز لله (عز وجل) لا يملكها احد من العباد يعمل بالفساد فيها ، كما قد مكن فى الدنيا على طريق الاختبار ، فيصح الجزاء فى غيرها .

وقوله ﴿هو خير ثواباًوخير عقباً﴾ انما قال هو خير ثواباً مع أنه لا يثيب أحد إلا الله لامرين :

احدهما ـ انه على ردّ ادعاء الجهال انه قـد يثيب غير الله ، فتقديره لو كان غيره يثيب ، لكان هو خير ثواباً .

والثاني انه خير جزاء على العمل.وعاقبة ما يدعو اليه خير من عاقبة مالايدعو اليه . والولاية بفتح الواو ضد العداوة ، وبكسرها الامارة والسلطان . وقرأ عاصم وحمزة « عقباً » بسكون القاف . الباقون بضمتين وهما لغتان بمعنى العاقبة ، وهو نصب على التمييز (وهنالك) اشارة الى يوم القيامة . والمعنى ان يوم القيامة تتبين نصرة الله ،

لأوليائه. و (عقباً) أي عاقبة يقال عقبى الدار ، وعقب الدار ، وعقب الدار ، وعاقبة الدار بمعنى واحد .

قوله تعالى:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً (٤٦) ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٧) ﴾

آيتان بلاخلاف.

أمر الله تعالى نبيه (ص) أن يضرب المثل للدنيا تزهيداً فيها ، وترغيباً في الآخرة بأن قال : إن مثلها كمثل ماء أنزله الله من السماء « فاختلط به نبات الارض » أي نبت بذلك الماء المنزل من السماء نبات ، فالتفت بعضه ببعض يروق حسناً وغضاضة. ثم عاد (هشيماً) أي مكسوراً مفتتاً « تذروه الرياح » فتنقله من موضع الى موضع فانقلاب الدنيا بأهلها كانقلاب هذا النبات . ثم قال « وكان الله على كل شيء » اراده « مقتدراً » أي قادراً ، لا يجوز عليه المنع منه . والتذرية تطيير الريح الاشياء الخفيفة على كل جهة ، يقال : ذرته الريح تذروه ذرواً ، وذرته تذريه وأذرته اذراء قال الشاعر :

فقلت له صوب ولا تجهدنه فيذرك من أخرى القطاة فتزلق (١)

---

(١) تفسير القرطبي ١٠ / ٤١٣ وهو في مجمع البيان ٣ / ٤٧٠

وأذريت الرجل عن الدابة إذا ألقيته عنها ، والهشيم النبات اليابس المتفتت . وقال الحسن : معنى « وكان الله على كل شيء مقتدراً » أي كان قادراً ان يكوّنه قبل أن يكون ، وقيل أن يكون . وهو اخبار عن الماضي ودلالة على المستقبل ، وهذا المثل للمتكبرين الذين اغتروا بأموالهم ، واستنكفوا من مجالسة فقراء المؤمنين ، فأخبرهم الله أن ما كان من الدنيا لايراد به الله ، فهو كالنبت الحسن على المطر لا مادة له فهو يروق ما خالطه ذلك الماء ، فاذا انقطع عنه عاد هشيماً تذروه الرياح لا ينتفع به.

وقوله « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » اخبار منه تعالى أن كثرة الاموال التي يتمولها الانسان ويملكها في الدنيا . والبنين الذين يرزقهم الله زينة الحياة الدنيا ، أي جمال الدنيا وفخرها «والباقيات الصالحات» يعني الطاعات لله تعالى ، لانه يبقى ثوابها أبداً ، فهي خير من نفع منقطع لا عاقبة له ، والباقيات يفرح بها ويدوم خيرها ، وهي صالحات بدعاء الحكيم اليها وأمره بها. وقال ابن عباس « الباقيات الصالحات » الطاعات لله . وروي في أخبارنا أن من الباقيات الصالحات ، والامور الثابتات : القيام بالليل لصلاة الليل. والأمل الرجاء ، ومعنى « خير أملا » أن الرجاء للعمل الصالح والأمل له خير من الأمل للعمل الطالح .

قوله تعالى :

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (٤٨) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (٤٩) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ

هٰذا الْكِتَابِ لاَ يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصٰيهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (٥٠) ﴾ ثلاث آيات

قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو « تسير » لتأنيث الجبال ورفع الجبال ، لأنه اسم ما لم يسم فاعله ، ولانه قال « وسيرت الجبال فكانت سرابًا » (١) ، ولأن ابيًا قرأ « ويوم سيرت الجبال » ، فاذا كان الماضي (سيرت) كان المضارع تسير . الباقون « نسير » بالنون ، اخبار من الله تعالى عن نفسه . ونصب الجبال وهو مفعول به لـ (نسير) وحجتهم قوله « وحشرناهم فلم نغادر منهم احداً » ونصب « ويوم نسير » باضمار فعل ، وتقديره واذكر يامحمد (ص) يوم نسير الجبال . وقوله « وترى الارض بارزة » أي ظاهرة فلا يتستر منها شيء ، لان الجبال إذا سيرت عنها وصارت دكا ملساء ظهرت وبرزت . وقيل « وترى الأرض بارزة » أي يبرز ما فيها من الكنوز والأموات ، فهو مثل قول النبي (ص) (ترمي الارض بافلاذ كبدها) وأجاز بعض البصريين ان ينصب « ويوم » بقوله « والباقيات الصالحات خير ثوابًا » في يوم تسير الجبال فـ « الباقيات الصالحات » قيل الطاعات. وقيل الصلوات الخمس. وقيل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

وروي عن أبي جعفر (ع) أنه قال (القيام بالليل لصلاة الليل) . وسمع بعضهم عزّى صديقًا له ، فقال : ابنك كان زينة الدنيا ، ولو بقي كان سيداً مثلك ، وإذ استأثر الله به ، فجعله من الباقيات الصالحات ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملا ، فتسلى بذلك .

يقول الله تعالى لنبيه (ص) اذكر يوم نسير الجبال ، والتسيير تطويل السير

(١) سورة ٧٨ ـ النبأ ـ آية ٢٠

وقد يكون بمعنى ان يجعله يسير، وهذا هو معنى تسيير الجبال، وانما يسيرها [الله تعالى، ويخبر به، لما في ذلك من الاعتبار في الدنيا . وقيل يسيرها] (١) بأن يجعلها هباء منبثاً، ومعنى « وترى الارض بارزة » أي لا شيء يسترها، يحشر الخلائق حتى يكونوا كلهم على صعيد واحد، ويرى بعضهم بعضاً، وكل ذلك من هول يوم القيامة، أخبر الله به للاعتبار به والاستعداد بما يخلص من أهواله .

وقوله « وحشرناهم » أي بعثناهم وأحييناهم بعد أن كانوا أمواتاً « فلم نغادر منهم احداً » أي لم نترك واحداً منهم لا نحشره . والمغادرة الترك، ومنه الغدر ترك الوفاء، ومنه الغدير لترك الماء فيه . وقيل : نغادر نخلف . وقيل : أغدرت وغادرت واحد .

وقوله « وعرضوا على ربك صفاً » قيل معناه انهم يعرضون صفاً بعد صف كالصفوف في الصلاة . وقيل المعنى انهم يعرضون على ربهم لا يخفى منهم أحد فكأنهم صف واحد . وقيل : انهم يعرضون، وهم صف، ويقال لهم « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » يعني جئتم الى الموضع الذي لا يملك الأمر فيه أحد إلا الله، كما خلقناكم أول مرة لا تملكون شيئاً . وروي عن النبي (ص) أنه قال (يحشرون حفاة عراة عزلا) فقالت عائشة: أفما يحتشمون يومئذ، فقال النبي (ص) (لكل امرء منهم يومئذ شأن يغنيه) ويقال لهم أيضاً « بل زعمتم » في دار الدنيا « أن لن نجعل لكم موعداً » يعني يوم القيامة، وانكم انكرتم البعث والنشور .

ثم قال تعالى « ووضع الكتاب » يعني الكتب التي فيها أعمالهم مثبتة « فترى المجرمين مشفقين مما فيه » اي يخافون من وقوع المكروه بهم والاشفاق الخوف من وقوع المكروه مع تجويز ألا يقع، وأصله الرقة، ومنه الشفق : الحمرة الرقيقة التي

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

تكون في السماء ، وشفقة الانسان على ولده رقته عليه . وقوله « ويقولون » الواو واو الحال وتقديره قائلين « يا ويلتنا » وهذه لفظة، من وقع فى شدة دعا بها و« ما لهذا الكتاب » اي شيء لهذا الكتاب « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة » أي لايترك صغيرة ولا كبيرة من المعاصي « إلا احصاها » بالعدد وحواها . و (لا يغادر) في موضع نصب على الحال « ووجدوا ما عملوا حاضراً» اخبار منه تعالى أنهم يجدون جزاء ما عملوا فى ذلك الموضع ، ولا يبخس الله أحداً حقه فى ذلك اليوم ولا ينقصه ثوابه الذي استحقه . وقيل معناه ووجدوا أعمالهم مثبتة كلها ويعاقب كل واحد على قدر معصيته .

قوله تعالى :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (١٥) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥٢) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (٥٣) ﴾ ثلاث آيات بلاخلاف .

قرأ حمزة وحده « ويوم نقول » بالنون ، على أن الله تعالى هو المخبر عن نفسه بذلك ، لانه قال قبل ذلك « وما كنت متخذ المضلين عضداً ، ويوم نقول » حمله على ما تقدم ، والجمع والافراد بذلك المعنى .الباقون بالياء ، بمعنى قل يا محمد

يوم يقول الله أين شركائي الذين زعمتم ، ولو كان بالنون لكان الأشبه بما بعده ان يكون جمعاً ، فيقول شركاؤنا ، فأما قوله « الذين زعمتم » فالراجع الى الموصول محذوف ، والمعنى الذين زعمتموهم اياهم أي زعمتموهم شركاء ، فحذف الراجع من الصلة ، ولا بد من تقديره كقوله « أهذا الذي بعث الله رسولا »(١)

يقول الله تعالى لنبيه واذكر الوقت الذي قال الله فيه « للملائكة اسجدوا لآدم » وانهم « سجدوا إلا ابليس » وقد فسرناه فيما تقدم (٢) وقيل : إنما كرر هذا القول فى القرآن لأجل ما بعده مما يحتاج الى اتصاله به ، فهو كالمعنى الذي يفيد أمراً فى مواضع كثيرة ، والاخبار عنه باخبار مختلفة ، كقولهم برهان كذا كذا وبرهان كذا كذا ، للمعنى الذي يحتاج الى احكامه فى أمور كثيرة .

وقوله « كان من الجن » قيل معناه صار من الجن المخالفين لأمر الله . وقال قوم : ذلك يدل على أنه لم يكن من الملائكة ، لأن الجن جنس غير الملائكة ، كما ان الانس غير جنس الملائكة والجن ، ومن زعم انه كان من الملائكة يقول : معنى كان من الجن يعني من الذين يستترون عن الابصار (٣) لانه مأخوذ من الجن وهو الستر ، ومنه المجن لأنه يستر الانسان . وقال ابن عباس : نسب الى الجنان التي كان فيها ، كقولك كوفي وبصري ، وقال قوم : بل كانت قبيلته التي كان فيها يقال لهم الجن ، وهم سبط من الملائكة ، فنسب اليهم . وقال ابن عباس : لو لم يكن ابليس فى الملائكة ما أمر بالسجود . وقال وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم . وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى « كان من الجن »

---

(١) سورة ٢٥ ـ الفرقان ـ آية ٤١ (٢) سورة البقرة آية ٣٤ المجلد الاول صفحة ١٤٧ وقد مر أيضاً فى ٤ / ٣٨٣ في تفسير آية ١٠ من سورة الاعراف

(٣) في المخطوطة (الانسان) بدل (الابصار)

قال: كان ابليس من الملائكة فلما عصى لعن فصار شيطاناً . ومن قال إن ابليس له ذرية والملائكة لاذرية لهم ولا يتناكحون ولا يتناسلون عول على خبر غير معلوم . فأما الاكل والشرب ففي الملائكة ولو علم انه مفقود ، فانا لانعلم أن ابليس كان يأكل ويشرب ، فأما من قال إن الملائكة رسل الله ، ولا يجوز عليهم أن يرتدوا . فلا نسلم لهم أن جميع الملائكة رسل الله ، وكيف نسلم ذلك ، وقد قال الله تعالى « الله يصطفي من الملائكة رسلا » (١) فأدخل (من) للتبعيض ، فدل على أن جميعهم لم يكونوا رسلا أنبياء ، كما انه تعالى قال « ومن الناس » (٢) فدل على أن جميع الناس لم يكونوا انبياء . وقوله « ففسق عن أمر ربه » معناه خرج عن أمر ربه الى معصيته بترك السجود لآدم . وأصل الفسق الخروج الى حال تضر ، يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها وفسقت الفارة إذا خرجت من حجرها قال رؤبة :

يهوين في نجد وغوراً غايراً فواسقاً عن قصدها جوائرا (٣)

وقال ابو عبيدة : هذه التسمية لم أسمعها في شيء من أشعار الجاهلية ، ولا أحاديثها ، وانما تكلمت بها العرب بعد نزول القرآن ، قال المبرد : والأمر على ماذكر أبو عبيدة . وهي كلمة فصيحة على ألسنة العرب، وأوكد الأمور ما جاء في القرآن . وقال قطرب: معنا « ففسق عن امر ربه » عن رده أمر ربه ، كقولهم كسوته عن عرى وأطعمته عن جوع ، ثم خاطب تعالى الخلق الذين أشركوا بالله غيره ، فقال « أفتتخذونه يعني ابليس وذريته أولياء » أي أنصاراً توالونهم من دون الله «وهم»

(١ ، ٢) سورة ٢٢ ـ الحج ـ آية ٧٥

(٣) ملحق ديوانه ١٩٠ ومجاز القرآن ١ | ٤٠٦ وتفسير الطبري ١٥/١٥٨ والكشاف ٣ | ١٩٠ واللسان والتاج (فسق) وغيرها .

يعني ابليس « وذريته عدو لكم » يريدون بكم الهلاك والدمار « بئس » البـدل «للظالمين بدلا » ونصب (بدلا) على التمييز .

ثم قال « ما اشهدتهم خلق السموات » وقيل معناه ما أشهدتهم ذلك مستعيناً بهم ، وقيل معناه ما أشهدت بعضهم خلق بعض . ووجه اتصال ذلك بماقبله اتصال الحجة التي تكشف حيرة الشبهة ، لانه بمنزلة ما قيل إنكم قد أقبلتم على اتباع ابليس وذريته حتى كأن عندهم ما تحتاجون اليه،فلو اشهدتهم خلق السموات والأرض وخلق أنفسهم ، فلم يخف عليهم باطن الأمور وظاهرها لم تزيدوا على ما أنتم عليه في امركم . ثم قال تعالى « وما كنت متخذ المضلين عضداً » يعني اعوانا ، وهو قول قتادة وهو من اعتضد به إذا استعان به . وفي عضد خمس لغات ، وهي عَضد وعُضُد وعَضِد وعُضْد وعَضْد.

ثم اخبر تعالى عن حالهم يوم القيامة فقال واذكر يوم يقول الله تعالى للمشركين نادوا شركائي الذين زعمتم ـ على وجه التقريع والتوبيخ ـ واستغيثوا بهم ، فدعوهم يعني المشركين يدعون أولئك الشركاء الذين عبدوهم مع الله ، فلا يستجيبون لهم ثم قال تعالى «وجعلنا بينهم موبقاً» قال ابن عباس أي مهلكاً ، وبه قال قتادة والضحاك وابن زيد ، وهو من أوبقته ذنوبه أي اهلكته . وقال الحسن معنا «موبقاً» أي عداوة ، كأنه قال عداوة مهلكة . وقال أنس بن مالك: هو واد في جهنم من قيح ودم . وحكى الكسائي وبق يبق وبوقاً ، فهو وابق إذا هلك ، وحكى الزجاج: وبق الرجل يوبق وبقاً، والوبق مصدر وبق .

قوله تعالى :

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا

مصرفاً (٥٤) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٥) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (٥٦) ﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة «قبلا» بضم القاف والباء. الباقون بكسر القاف وفتح الباء. فمن قرأ بضم القاف والباء أراد جمع قبيل نحو قميص وقمص. وقال قوم: القبيلة بنو أب. والقبيل يعبر بها عن الجماعة وإن اختلفت أنسابهم واحتجوا بقول النابغة:

جوانح قد أيقنّ ان قبيله إذا ما التقى الجمعان اول غالب (١)

وجمع القبيلة قبائل. والقبائل أيضاً قبائل الرأس، وهي عروق مجرى الدمع من الرأس، وسمي أيضاً شئوناً، واحدها شأن. ومن قرأ بكسر القاف وفتح الباء أراد مقابلة، أي معاينة. ويحتمل أيضاً الضم، ذلك، ذكره الفراء والزجاج، وهما لغتان.

اخبر الله تعالى عن المجرمين والعصاة أنهم إذا شاهدوا نار جهنم ورأوها «فظنوا» اي علموا «انهم مواقعوها» ولم يجدوا عن دخولها معدلا ولا مصرفاً، لأن معارفهم ضرورية، فالظن ههنا بمعنى العلم. وقد يكون الظن غير العلم، وهو ما قوي عند الظان كون المظنون على ما ظنه مع تجويزه ان يكون على خلافه. والاجرام قطع العمل الى الفساد. واصله القطع، يقال: هذا زمن الجرام أى زمن الصرام يعني زمان قطع الثمرة عن النخل. والمواقعة ملابسة الشيء بشدة، ومنه وقائع الحروب وأوقع به ايقاعاً. وتواقعوا تواقعاً. والتوقع الترقب لوقوع الشيء، والمصرف

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٠

المعدول . وهو الموضع الذي يعدل اليه،صرفه عن كذا يصر صرفاً .والموضع مصرف قال ابو كثير :

ازهير هل عن شيبة من مصرف   أم لاخلود لبـاذل متكلف (١)

وقوله « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل » اخبار من الله تعالى انه نقل المعاني فى الجهات المختلفة فى هذا القرآن ، فتصريف المثل فيه تنقيله في وجوه البيان على تمكين الأفهام . والمعنى بيّنا للناس من كل مثل يحتاجون اليه . ثم اخبر تعالى عن حال الانسان فقال « وكان الانسان اكثر شيء جدلا » أي خصومة. والجدل شدة الفتل عن المذهب بطريق الحجاج . واصله الشدة ، ومنه الاجدل الصقر لشدته ، وسير مجدول شديد الفتل .

وقوله « وما منع الناس ان يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الاولين» معناه ما منعهم من الايمان بعد مجيء الدلالة وان يستغفروا ربهم على ما سبق من معاصيهم إلا طلب ان يأتيهم سنة الأولين، من مجيء العذاب من حيث لا يشعرون ، او مقابلة من حيث يرون . وإنما هم بامتناعهم من الايمان بمنزلة من يطلب هذا حتى يؤمن كرهاً ، لانهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الاليم، كما يقول القائل لغيره ما منعك ان تقبل قولي إلا ان تضرب،إلا انك لم تضرب ، لأن مشركي العرب طلبوا مثل ذلك ، فقالوا « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم »(٢) .

---

(١) ديوان الهذليين ٢ / ١٠٤ وتفسير الطبري ١٥ | ١٦٠ واللسان (صرف) وشواهد الكشاف ١٩٢ ومجاز القرآن ١ | ٤٠٧

(٢) سورة ٨ الانفال آية ٣٢

قوله تعالى:

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً (٥٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (٥٨) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٩) ﴾ ثلاث آيات بلا خلاف

أخبر الله تعالى أنه لم يرسل رسله الى الخلق، إلا مبشرين لهم بالجنة إذا أطاعوا، ومخوفين لهم من النار إذا عصوا، فالبشارة الاخبار بما يظهر سرورة فى بشرة الوجه يقال بشره تبشيراً وبشارة، وأبشره إبشاراً إذا استبشر بالأمر. ومنه البشر لظهور بشرته. ثم قال «ويجادل الذين كفروا بالباطل» أي يناظر الكفار دفعاً عن مذاهبهم بالباطل. وذلك انهم ألزموه أن يأتيهم أو يريهم العذاب على ما توعدهم ما هو لاحق بهم إن أقاموا على كفرهم. والباطل المعني الذي معتقده على خلاف ماهو به، كالمعني فى انه ينبغي أن تكون آيات الأنبياء على ما تقتضي الأهواء، كالمعني في أنه: يجب عبادة الأوثان على ما كان عليه الكبراء «ليدحضوا به الحق» والادحاض الاذهاب بالشيء الى الهلاك: ودحض هو دحضاً. ومكان دحض أي مزلق مزل، لا يثبت فيه خف ولا حافر، ولا قدم، قال الشاعر:

وردت ونحن اليشكري حذاره   وحاد كما حاد البعير عن الدحض (١)

ثم اخبر تعالى عنهم أنهم « اتخذوا آيات الله » ودلالته وما خوفوا به من معاصيه « هزواً » أي سخرية يسخرون منه . ثم قال تعالى « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه » اي من أظلم لنفسه ممن نبه على أدلته وعرفه الرسل اياها «فاعرض عنها» جانباً ، ولم ينظر فيها « ونسي ما قدمت يداه » أي نسي ما فعله من المعاصي التي يستحق بها العقاب . وقال البلخي : معناه تذكر واشتغل عنه استخفافاً به ، وقلة معرفة بعاقبته ، لا انه نسيه .

ثم قال تعالى « انا جعلنا على قلوبهم أكنة » وهي جمع كنات كراهية أن يفقهوه ، وقيل لئلا يفقهوه « وفي آذانهم وقراً » أي ثقلا . وقد بينا معنى ذلك فيما مضى وجملته أنه على التشبيه في جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه كقوله « واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كان لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً » (٢) والمعنى كأن قلوبهم في أكنة عن أن تفقه . وفي آذانهم وقراً أن تسمع ، وكأنه مستحيل أن يجيبوا الداعي الى الهدى. ويقوي ذلك قوله « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فاعرض عنها » فدل انه كان يسمعها حتى صح إعراضه عنها . وقال البلخي : يجوز ان يكون المراد انا إذا فعلنا ذلك ليفقهوا فلن يفقهوا ، لانه شبههم بذلك ويجوز ان يكون المراد بذلك الحكاية عنهم انهم قالوا ذلك ، كما حكى تعالى « وقالوا قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » (٣) ثم قال إن كان الأمر على ذلك فلن يهتدوا إذاً أبداً .

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٦١٠   (٢) سورة ٣١ ـ لقمان آية ٧

(٣) سورة ٤١ ، حم السجدة (فصلت) آية ٥

وقوله « وإن تدعهم الى الهدى » مع ماجعلنا فيهم « فلن يهتدوا إذاً ابداً » ولا يرجعون اليها بسوء اختيارهم ، وسوء توفيقهم من الله جزاء على معاصيهم ، وذلك يختص بمن علم الله أنه لا يؤمن منهم ، ويجوز أن يكون الجعل في الآية بمعنى الحكم والتسمية ، ثم قال « وربك » يا محمد « الغفور ذو الرحمة » يعني الساتر على عباده إذا تابوا ، ذو الرحمة بهم « لو يؤاخذهم بما كسبوا » عاجلا « لعجل لهم العذاب » لكن لا يؤاخذهم ، لأن لهم موعداً وعدهم الله ان يعاقبهم فيه وهو يوم القيامة « لن يجدوا من دونه موئلا » اي ملجأ ـ في قول ابن عباس وقتادة وابن زيد ـ وقال مجاهد: يعني محرزاً . وقال ابو عبيدة: يعني منجاً ينجيهم ، ويقال: لاوألت نفسه بمعنى لانجت قال الاعشى :

وقد اخالس رب البيت غفلته | وقد يحاذر مني ثم ما يئل (١)

وقال الآخر :

لاوألت نفسك خليتها | للعامريين ولم تكلم (٢)

أي لا نجت نفسك :

قوله تعالى:

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (٦٠) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَيَهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ

(١) ديوانه ١٤٧ وتفسير الطبري ١٥ | ١٦٣ وتفسير القرطبي ١١ | ٨ ومجاز القرآن ١/٤٠٨ (٢) تفسير الطبري ١٥ / ١٦٢ وتفسير القرطبي ١١ | ٨ ومجمع البيان ٣/٤٧٥

أَمْضِيَ حُقُباً (٦١) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (٦٢)﴾ ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ عاصم « لمهلكهم » بفتح الميم واللام، في رواية أبي بكر عنه . وفي رواية حفص - بفتح الميم وكسر اللام - الباقون بضم الميم وفتح اللام ، من فتح الميم واللام جعله مصدراً ، لهلك يهلك مهلكاً ، مثل طلع مطلعاً ، ومن كسر اللام جعله وقت هلاكهم أو موضع هلاكهم مثل مغرب الشمس . وحكى سيبويه عن العرب : أتت الناقة على مضربها ومنتجها - بالكسر - أي وقت ضرابها ونتاجها . وإنّ في الف (لمضربا) بفتح الراء أي ضرباً جعلها مصدراً ومن ضم الميم وفتح اللام - وهو الاختيار - فلان المصدر من (أفعل) والمكان يجيء على (مفعل) كقوله « ادخلني مدخل صدق »(١) كذلك : أهلكه الله مهلكاً . وكل فعل كان على (فعل يفعل) مثل ضرب يضرب فالمصدر مضرب بالفتح ، والزمان والمكان (مفعل) بكسر العين ، وكل فعل كان مضارعه (يفعل) بالفتح نحو يشرب ويذهب ، فهو مفتوح أيضاً نحو المشرب والمذهب . وكل فعل كان على (فعل يفعل) بضم العين في المضارع نحو يدخل ويخرج ، فالمصدر والمكان منه بالفتح نحو المدخل والمخرج إلا ما شذ منه نحو المسجد ، فانه من سجد يسجد ، وربما جاء في (فعل يفعل) المصدر بالكسر كقوله « الى الله مرجعكم » (٢) أي رجوعكم ، ونحو قوله « ويسئلونك عن المحيض » (٣) ونحو قوله « وجعلنا النهار معاشاً » (٤) فهذا مصدر وربما جاء على المعيش مثل المحيض كما قال الشاعر :

---

(١) وسورة ١٧ - الاسرى - آية ٨٠　(٢) سورة - ٥ - المائدة آية ٥١ ، ١٠٨

(٣) سورة ٢ - البقرة آية ٢٢٢　(٤) سورة ٧٨ (عم) - النبأ - آية ١١

اليك أشكوا شدة المعيش ومرّ ايام نتفن ريشي

اخبر الله تعالى أن تلك القرى أهلكناهم يعني أهل القرية ، ولذلك قال : (هم) : ولم يقل (ها) لأن القرية هي المسكن مثل المدينة والبلدة . والبلدة لاتستحق الهلاك ، وانما يستحق العذاب اهلها ، ولذلك قال « لما ظلموا » يعني أهل القرية الذين أهلكناهم. والاهلاك اذهاب الشيء بحيث لا يوجد، فقيل هؤلاء أهلكوا بالعذاب. والاهلاك والاتلاف واحد، وقولهم الضائع هالك من ذلك لانه بحيث لا يوجد. وقوله « وجعلنا لمهلكهم » أي لوقت اهلاكهم ـ في من ضم الميم ـ أو لوقت هلاكهم ـ في من فتحها ـ « موعداً » أي ميقاتاً وإجلاً فلما بلغوه جاءهم العذاب . والموعد الوقت الذي وعدوا فيه بالاهلاك .

وقوله « وإذ قال موسى لفتاه » معناه واذكر اذ قال موسى لفتاه لما في قصته من العبرة بأنه قصد السفر فوفق الله (عز وجل) في رجوعه أكثر مما قصد له ممن أحب موسى أن يتعلم منه ويستفيد من حكمته التي وهبها الله له . وقيل إن فتى موسى (ع) كان يوشع بن نون . وقيل ابن يوشع ، وسمي فتاه لملازمته إياه « لا ابرح » أي لا ازال كما قال الشاعر :

وابرح ما أدام الله قومي بحمد الله منتطقاً مجيداً (١)

أي لا ازال ، ولا يجوز أن يكون بمعنى لا أزول ، لان التقدير ، لا أزال أمشي حتى أبلغ . ومعنى (لا يزال يفعل كذا) أي هو دائب فيه . وقيل انه كان وعد بلقاء الخضر عند مجمع البحرين .

وقوله « أو امضي حقباً » معناه لا أبرح حتى ابلغ مجمع البحرين الى أن

(١) قائله خداش بن زهير . تفسير القرطبي ١١ | ٩ ومجمع البيان ٣ | ٤٧٩ واللسان (نطق) .

امضي حقباً . قال ابن عباس : والحقب الدهر . وقيل هو سنة بلغــة قيس . وقيل سبعون سنة ـ ذكره مجاهد ـ وقال عبد الله بن عمر : هو ثمانون سنة . وقال قتــادة : الحقب الزمان . وقال قتادة: مجمع البحرين : بحر فارس والروم.

وقوله « فلما بلغا مجمع بينهما » يعني بين البحرين « نسيا حوتهما » وانما نسيه يوشع بن نون وأضافه اليهما ، كما يقال نسي القوم زادهم ، وانما نسيه بعضهم . وقيل نسي يوشع أن يحمل الحوت ، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء .

وقوله « فاتخذ سبيله » يعني الحوت « في البحر سربا » قال ابن عباس وابن زيد ومجاهـد : أحيا الله الحوت ، فاتخذ طريقه في البحر مسلكاً . وقيل ان الحوت كانت سمكة مملحة فطفرت من موضعها الى البحر ذاهبة. وقال الفراء : كان مالحاً ، فلما حيي بالماء الذي أصابه من العين ، وقع في البحر . ووجد مذهبه ، فكان كالسرب . وروي عن أبي بن كعب أن مجمع بينهما أفريقية ، وأراد الله أن يعلم موسى أنه وإن آتاه التوراة ، فانه قد آتى غيره من العلم ما ليس عنده ، فوعده بلقاء الخضر . وقوله « مجمع بينهما » يعني موسى وفتاه بلغا مجمــع البحرين . وقال قتادة قيل لموسى آية لقيائك إياه أن تنسى بعض متاعك ، وكان موسى وفتاه تزودا حوتاً مملوحاً حتى إذا كانا حيث شاء الله، رد الله الى الحوت روحه فسرب في البحر ، فذالك قوله « فاتخذ سبيله في البحر سرباً » أي مذهباً يقال سرب يسرب سرباً إذا مضى لوجهه في سفر غير بعيد ولا شاق وهي السربة فاذا كانت شاقة ، فهي (السبأ) بالهمزة . وروي ان الله تعالى بعث ماء من عين الجنة ، فاصاب ذلك الماء تلك السمكة فحييت وطفرت الى البحر ومضت . وروي عن ابن عباس أنه قال : لما وفد موسى الى طور سيناء ، قال رب أي عبادك أعلم ؟ قال الذي يبغي علم الناس الى علمه ، لعله يجد كلمة تهديه الى هدى أو ترده عن ردى . قال رب من هو ؟ قال الخضر تلقاه عند الصخرة التي

عندها العين التي تنبع من الجنة . وقال الحسن : كان موسى سأل ربه هل أحد أعلم مني من الآدميين فأوحى الله اليه: نعم عبدي الخضر (ع) ، فقال موسى (ع) : كيف لي بلقائه ؟ فاوحى الله اليه أن يحمل حوتاً في متاعه ويمضي على وجهه حتى يبلغ مجمع البحرين ، بحر فارس والروم ، وهما المحيطان بهذا الخلق . وجعل العلم على لقائه أن يفقد حوته ، فاذا فقدت الحوت فاطلب حاجتك عند ذلك فانك تلقى الخضر عند ذلك .

وقال الحسن كان الحوت طرياً . وقال ابن عباس : كان مملوحاً . قال الحسن : فمضى على وجهه هو وفتاه حتى « بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً » يعني الحوت . ثم « قال لفتاه آتنا غداءنا » ففتش متاعه ففقد الحوت ، قال « أرأيت إذ أوينا الى الصخرة » وكانت الصخرة عند مجمع البحرين « فاني نسيت الحوت وما انسانيه إلا الشيطان أن أذكره فاتخذ سبيله في البحر » يعني الحوت وانقطع الكلام . فقال موسى (ع) عند ذلك « عجباً » كيف كان ذلك . وقال لفتاه « ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً » وقال الزجاج: يحتمل أن يكون ذلك من قول صاحبه فانه أخبر بأن اتخاذ الحوت طريقاً في البحر كان عجباً .

قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٣) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٤) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٥)﴾ ثلاث آيات

اخبر الله تعالى ان موسى وفتاه لما جاوزا أي خرجا من ذلك الموضع. والمجاوزة الخروج عن حدّ الشيء، يقال: تجاوز الله عن فلان أي تجاوز عن عقابه بمعنى أزل الله العقاب عنه.

والفتى الرجل الشاب وجمعه فتية وفتيان مثل صبية وصبيان. وانما أضيف الى موسى، لأنه كان يلزمه ليتعلم منه العلم وصحبه في سفره. وقيل انه كان يخدمه، والعرب تسمي الخادم للرجل فتى، وإن كان شيخاً، والأمة فتاة وإن كانت عجوزاً، ويسمى التلميذ فتى، وإن كان شيخاً، والفتى عند العرب السخي على الطعام وعلى المال والشجاع. و (الغداء) طعام الغداة و (العشاء) طعام العشي. والتغدي أكل طعام الغداة والتعشي أكل طعام العشي، و (النصب) التعب والوهن الذي يكون عند الكد، ومثله الوصب. فقال له فتاه في الجواب «أرأيت» الوقت الذي «اوينا الى الصخرة» أي اقمنا عندها «فاني نسيت الحوت» ثم قال «وما انسانيه» يعني الحوت «إلا الشيطان ان اذكره» أي وسوسني وشغلني بغيره حتى نسيت، فلذلك اضافة الى الشيطان، لما كان عند فعله. ومعنى «وما انسانيه» أي الحوت، يعني نسيت أن اذكر كيف اتخذ سبيله في البحر. وجاز نسيان مثل ذلك مع كمال العقل لأنه كان معجزاً. وضم الهاء من (انسانيه) حفص عن عاصم، لان الاصل في حركة الهاء الضم. ومن كسرها فلأن ما قبلها (ياء) فحركها بما هو من جنسها.

وقوله «واتخذ سبيله فى البحر عجباً» يعني أن موسى (ع) لما رأى الحوت قد حيي وهو يسلك الطريق الى البحر، عجب منه ومن عظم شأنه، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد.

وقوله «ذلك ما كنا نبغي» حكاية عما قال موسى عند ذلك من أن ذلك الذي كنا نطلب من العلامة، يعني نسيانك الحوت، لأنه قيل له: صاحبك الذي تطلبه

ـوهو الخضر ـحيث ينسى الحوت. ذكره مجاهد . فارتدا يقصان أي يتبعان آثارهما حتى انتهيا الى مدخل الحوت . ذكره ابن عباس . وقيل نسي ذكر الحوت لموسى (ع) فرجعا الى الموضع الذي حييت فيه السمكة وهو الذي كان يطلب منه العلامة فيه . وقيل الصخرة موضع الوعد .

قوله تعالى:

﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (٦٦) ﴾ آية .

قوله « فوجدا عبداً من عبادنا » أي صادفاه وادركاه ، وهو الوجود ، ومنه وجدان الضالة أي مصادفتها وادراكها . والعبد المملوك من الناس ، فكل انسان عبد لله ، لانه مالك له ، وقادر عليه وعلى أن يصرفه اتم التصريف ، وهو يملك الانسان وما يملك وقوله « آتيناه رحمة من عندنا » أي اعطيناه رحمة أي نعمة من عندنا « وعلمناه من لدنا علماً » والتعلم تعريض الحي لأن يعلم ، إما بخلق في قلبه ، وإما بالبيان الذي يرد عليه كما أن من أرى الانسان شيئاً فقد عرضه ، لان يراه ، إما بوضع الرؤية في بصره عند من قال الادراك معنى ، أو بالكشف له عن المرئي .

قوله تعالى:

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٧) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٨) ﴾ آيتان .

قال ابو علي يحتمل أن (رشداً) منصوباً على انه مفعول له ويكون متعلقاً

بـ (اتبع) كأنه قال اتبعك للرشد ، أو طلب الرشد على أن تعلمني ، فيكون على هذا حالا من قوله (اتبعك) ويجوز أن يكون مفعولا به ، وتقديره اتبعك على أن تعلمني رشداً مما علمته ، ويكون العلم الذي يتعدى الى مفعول واحد يتعدى بالتضعيف الى مفعولين . والمعنى على ان تعلمني امراً ذا رشد أو علماً ذا رشد .

« قال له » يعني لذلك العبد الذي علمه الله العلم « هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً » . والاتباع والانقياد واحد ، اتبعه في مسيره ، واتبعه فى مذهبه ، واتبعه فى أمره ونهيه ، واتبعه فيما دعاه اليه ، والرشد ـ بفتح الراء والشين ـ قراءة ابي عمرو . الباقون ـ بضم الراء وسكون الشين ـ إلا ابن عامر ـ فى رواية ابن ذكوان ـ فانه ضمهما ، وهما لغتان ، مثل أسد وأسد ، ووثن ووثن . واختلفوا فى الذي كان يتعلم موسى منه ، هل كان نبياً ؟ أم لا ؟ فقال الجبائي : كان نبياً ، لانه لا يجوز ان يتبع النبي من ليس بنبي ، ليتعلم منه العلم ، لما فى ذلك من الغضاضة على النبي. وقال ابن الاخشاد : ويجوز أن لا يكون نبياً على أن لا يكون فيه وضع من موسى . وقال قوم : كان ملكا . وقال الرماني : لا يجوز أن يكون إلا نبياً ، لان تعظيم العالم المعلم فوق تعظيم المتعلم منه . وقيل إنه سمي (خضراً) لانه كان إذا صار في مكان لانبات فيه اخضر ما حوله ، وكان الله تعالى قد اطلعه من علم بواطن الامور على ما لم يطلع عليه غيره .

فان قيل : كيف يجوز أن يكون نبي اعلم من نبي ؟ فى وقته .

قيل عن ذلك ثلاثة اجوبة :

أحدها ـ انه يجوز أن يكون نبي اعلم من نبي فى وقته عند من قال : ان الخضر كان نبياً .

والثاني ـ أن يكون موسى اعلم من الخضر بجميع ما يؤدي عن الله على عباده ،

وفي كل ما هو حجة فيه ، وانما خص الخضر بعلم مالا يتعلق بالأداء .

الثالث ـ إن موسى استعلم من جهة ذلك العلم فقط ، وإن كان عنده علم ما سوى ذلك .

فقال الخضر لموسى (ع) « انك لن تستطيع معي صبراً » ومعناه يثقل عليك الصبر ولا يخف عليك ، ولم يرد أنه لا يقدر عليه ، لأن موسى (ع) كان قادراً متصرفاً ، وانما قال له ذلك لأن موسى كان يأخذ الامور على ظواهرها ، والخضر كان يحكم بما أعلمه الله من بواطن الامور ، فلا يسهل على موسى مشاهدة ذلك ، ولو اراد نفي الاستطاعة التي هي القدرة لما قال : « وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً » لانه دل على انه لهذا لا يصبر ولو كان على نفي القدرة ، سواء علم او لم يعلم لم يستطع .

قوله تعالى:

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (٦٩) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (٧٠) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (٧١) ﴾ ثلاث آيات بلا خلاف .

هذا حكاية ما قال الخضر لموسى (ع) حين قال « انك لن تستطيع معي صبراً » اي كيف تصبر على ما لم تعلم من بواطن الامور ، ولا تخبرها ، فقال له موسى (ع) عند ذلك « ستجدني » اي ستصادفني إن شاء الله صابراً ، ولم يقل ذلك على وجه التكذيب ، لكن لما اخبر به على ظاهر الحال فقيده بالمشيئة لله ، لانه جوز

أن لا يصبر فيما بعد بأن يعجز عنه ليخرج بذلك من كونه كاذباً « ولا اعصي الك امراً » اي لا اخالف اوامرك ، ولا اتركها. فقال الخضر : « فان اتبعتني » واقتفيت اثري « فلا تسألني عن شيء حتى احدث لك منه ذكراً » معناه لا تسألني عن باطن امر حتى اكون انا المبتدىء لك بذلك .

والصبر تجرع مرارة تمنع النفس عما تنازع اليه . واصله حبس النفس عن امر من الأمور . و (الذكر) العلم ، والذكر ادراك النفس للمعنى بحضوره كحضور نقيضه ، ويمكن ان يجامعه علم يصحبه او جهل او شك . و « خبراً » نصب على المصدر . والتقدير لم تخبره خبراً . وقرأ نافع « تسألن » بتشديد النون . الباقون بتخفيفها وإثبات الياء إلا ابن عامر ، فانه حذف الياء . قال أبو علي قول ابن كثير ومن اتبعه : انهم عدوا (تسأل) الى المفعول الذي هو المتكلم مثل (لا تضربني) و(لا تظلمني) ونافع إنما فتح اللام ، لأنه لما ألحق الفعل النون الثقيلة بنى الفعل معها على الفتح وحذف الياء ، وكسرت النون ليدل على الياء المحذوفة .

قوله تعالى :

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (٧٢) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٣) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (٧٤) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (٧٥) ﴾ أربع آيات

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « ليغرق أهلها » بالياء ، ورفع أهلها . الباقون بالتاء و نصب الأهل . فمن قرأ بالتاء ونصب الأهل ، فلقوله « أخرقتها لتغرق » بذلك « اهلها » أي فعلت ذلك وغرضك اهلاك اهلها على وجه الانكار . ومن قرأ بالياء أسند الغرق الى الأهل ، فكانه قال : فعلت ذلك ليغرقوا هم . وقرأ اهل الكوفة وابن عامر « زكية » بلا الف . وقرأ الباقون زاكية بألف . وقرأ ابن عامر ونافع ـ في رواية الاصمعي عنه وابو بكر عن عاصم ـ « نكراً » بضم النون والكاف. الباقون بتخفيف الكاف .

قال الكسائي (زاكية ، وزكية) لغتان مثل قاسية وقسية. قال أبو عمرو : الزاكية التي لم تذنب قط ، والزكية التي إذا أذنبت تابت ، و(النكر) بالتثقيل والتخفيف لغتان مثل الرعب والرعب .

اخبر الله تعالى عن موسى (ع) وصاحبه الذي تبعه ليتعلم منه أنهما ذهبا حتى إذا بلغا البحر، فركبا في السفينة فخرق صاحبه السفينة أي شق فيها شقاً ، لما أعلمه الله من المصلحة في ذلك ، فقال له موسى منكراً لذلك على ظاهر الحال : « أخرقتها لتغرق أهلها » أي غرضك بذلك أن تغرق أهلها الذين ركبوها . ويحتمل أن يكون قال ذلك مستفهماً أي فعلت ذلك لتغرق أهلها أم لغير ذلك . والاول أقوى لقوله بعد ذلك « لقد جئت شيئاً امراً » فالامر المنكر ـ في قول مجاهد وقتادة ـ وقال ابو عبيدة: داهية عظيمة وانشد :

لقد لقي الاقران منه نكراً ‍ ‍ ‍ ‍ داهية دهياء إداً إمراً (١)

(١) تفسير القرطبي ١١ | ١٩ ومجاز القرآن ١ | ٤٠٩ وتفسير الطبري ١٥ | ١٦٩ واللسان والصحاح والتاج (أمر) وشواهد الكشاف ٣٠

ومن سكن (النكر)فعلى لغة من سكن (رسل).و (الإمر) مأخوذ من الأمر ، لأنه الفاسد الذي يحتاج أن يؤمر بتركه الى الصلاح ، ومنه رجل إمر إذا كان ضعيف الرأي ، لانه يحتاج أن يؤمر حتى يقوي رأيه . ومنه آمر القوم إذا كثروا حتى احتاجوا الى من يأمرهم وينهاهم ، ومنه الأمر من الامور أى الشيء الذى من شأنه ان يؤمر فيه ، ولهذا لم يكن كل شيء أمراً .

فقال له الخضر « ألم أقل لك » فيما قبل « انك لن تستطيع معي صبراً » أي لا يخفّ عليك ما تشاهده من أفعالي ويثقل عليك ، لانك لا تعرف المصلحة فيه ، ولم يرد بالاستطاعة المقدرة ، لأن موسى كان قادراً في حال ما خاطبه بذلك ، ولم يكن عاجزاً ، وهذا كما يقول الواحد منا لغيره أنا لا أستطيع النظر اليك ، وانما يريد أنه يثقل عليّ ،دون نفي القدرة في ذلك . فقال له موسى في الجواب عن ذلك « لا تؤاخذني بما نسيت » وروي أنه قال ذلك لما رأى الماء لايدخل السفينة مع خرقها ، فعلم أن ذلك لمصلحة يريدها الله ، فقال « لا تؤاخذني بما نسيت » وقيل في معنى نسيت ثلاثة أقوال :

احدها ـ ما حكي عن أبي بن كعب ، أنه قال : معناه بما غفلت من النسيان الذي هو ضد الذكر .

والثاني ـ ما روي عن ابن عباس أنه قال معناه : بما تركت من عهدك .

الثالث ـ لا تؤاخذني بما كأني نسيته ، ولم ينسه فى الحقيقة ـ فى رواية أخرى ـ عن ابي بن كعب الانصاري .

وقوله « ولا ترهقني من أمري عسراً » قيل معناه لا تغشني ، من قولهم رهقه الفارس إذا غشيه وادركه ، وغلام مراهق إذا قارب أن يغشاه حال البلوغ . والارهاق ادراك الشيء بما يغشاه . وقيل معنى أرهقه الأمر إذا ألحقه اياه .

ثم أخبر تعالى انهما مضيا « حتى إذا لقيا غلاماً » أي رأيا غلاماً « فقتله » قال له موسى « اقتلت نفساً زاكية » ومعناه طاهرة من الذنوب . ومن قرأ « زكية » فمعناه بريئة من الذنوب. وذلك انها كانت صغيرة لم تبلغ حد التكليف على ما روي في الاخبار . وقوله « بغير نفس » أي بغير قود . ثم قال له « لقد جئت شيئاً نكراً » أي منكراً . وقيل معناه جئت بما ينبغي أن ينكر ، وقال قتادة النكر أشد من الامر ، وانما قيل لما لا يجوز فعله منكراً ، لانه مما تنكر صحته العقول ولا تعرفه .

قوله تعالى:

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٦) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (٧٧) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (٧٨) ﴾ ثلاث آيات بلا خلاف .

معنى قوله « ألم اقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً » تحقيق ما قال له أولا مع نهيه عن العود لمثل سؤاله ، لانه لا يجوز أن يكون توبيخاً ، لانه جار مجرى الذم في أنه لا يجوز على الانبياء (ع) فقال له موسى في الجواب عن ذلك « ان سألتك » أي ان استخبرتك عن شيء تعمله بعد هذا « فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً » ومعناه إقرار من موسى بأن صاحبه قد قدم اليه ما يوجب العذر عنده ، فلا يلزمه ما أنكره . وروي عن النبي (ص) أنه تلا هذه الآية ، فقال : (استحيى نبي الله

موسى) . والعذر وجود ما يسقط اللوم من غير جهة التكفير بتوبة واجتناب كبير لوقوع سهو لم يتعرض له .

وفي (لدن) خمس قراءات ، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي بالتثقيل .

الثاني ـ بضم الدال وتخفيف النون قرأ به نافع .

الثالث ـ قرأ ابو بكر بضم اللام وسكون الدال واشمام من غير اشباع .

الرابع ـ قرأ الكسائي عن أبي بكر بضم اللام وسكون الدال .

الخامس ـ في رواية عن أبي بكر بفتح اللام وسكون الدال : وهذه كلها لغات معروفة .

ثم أخبرالله تعالى عنهما ايضاً أنهما مضيا حتى « أتيا أهل قرية استطعما أهلها » أي طلبا منهم ما يأكلانه فامتنعوا من تضييفهما « فوجدا فيها » يعني القرية « جداراً يريد ان ينقض . فاقامه » ومعناه وجدا حائطاً قارب أن ينقض فشبهه بحال من يريد أن يفعل فى التباني ، كما قال الشاعر :

يريد الرمح صدر ابي براء　　ويرغب عن دماء بني عقيل (١)

ومثله تراني آثارها ، ودار فلان ينظر الى دار فلان . وقال سعيد بن جبير : معنى قوله « فأقامه » انه رفع الجدار بيده فاستقام . والانقضاض السقوط بسرعة ، يقال انقضت الدار اذا سقطت وتهدمت قال ذو الرمة :

فانقض كالكوكب الدري منصلتا

فقال له موسى « لو شئت لا تخذت عليه أجراً » وقد قرأ ابن كثير وأبوعمرو

---

(١) تفسير الطبري ١٥ / ١٧١ والقرطبي ١١ / ٢٦ ومجاز القرآن ١ / ٤١٠ والكشاف ١ / ٥٧٧ واللسان (رود) وغيرها وقد مر فى ٦ / ١٢١ من هذا الكتاب

« لتخذت » الباقون « لاتخذت » يقال : تخذ يتخذ بالتخفيف قال الشاعر :

وقد تخذت رجلي لدى جنب غرزها نسيفاً كأفحوص القطاة المطرق (١)

المطرق التي تريد أن تبيض ، وقد تعسر عليها ، والافحوص والمفحص عش الطائر ، وابن كثير يظهر الذال ، وابو عمرو يدغم . والباقون على وزن (افتعلت) مثل اتقى يتقي . وقد حكي تقى يتقي خفيفاً ، قال الشاعر :

جلاها الصيقلون فاخلصوها خفافاً كلها يتقي باثر

ومن ادغم فلقرب مخرجيهما ومن اظهر فلتغاير مخرجيهما وقال الفراء في قوله « لو شئت » قال موسى لوشئت لم تقمه حتى يقرونا ، فهو الأجر وانشدوا فى « يريد أن ينقض » قول الشاعر :

إن دهراً يلف شملي بجمل لزمان يهم بالاحسان (٢)

أي كأنه يهم، وانما هو سبب الاحسان المؤدي اليه وقال آخر :

يشكوالى جملي طول السرى صبراً جميلا فكلانا مبتلى (٣)

والجمل لم يشك شيئاً . وقال عنترة :

وشكا الى بعبرة وتحتحم (٤)

وكل ذلك يراد به ما ظهر من الامارة الدالة على المعاني .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ هٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ

---

(١) مجاز القرآن ١ | ٤١١ وتفسير الطبري ١٥ / ١٧٢ والاصمعيات ٤٧ واللسان والتاج (خص ، طرق ، نسف) .

(٢) تفسير الطبري ١٠ / ١٧١ والقرطبي ١١ / ٢٦ ومجمع البيان ٣ / ٤٨٧

(٣) مر هذا البيت في ٦ | ١١٢ من هذا الكتاب

(٤) ديوانه ٣٠ من معلقته ، وتفسير الطبرى ١٥ | ١٧٢

عليه صبراً (٧٩) أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردتُّ أن أعيبها وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كلّ سفينة غصباً (٨٠) وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً (٨١) فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكوة وأقرب رحماً (٨٢) وأمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً (٨٣) ﴾ خمس آيات بلا خلاف

قرأ اهل المدينة وابو عمرو « أن يبدلهما » - بفتح الياء وتشديد الدال - هنا - وفي التحريم « أن يبدله » وفي نون « أن يبدلنا » بالتشديد فيهن. الباقون بالتخفيف. فاما التي في سورة النور « وليبدلنهم » فخففها ابن كثير وابو بكر ويعقوب . وشدده الباقون . وقرأ ابن عامر وابو جعفر ويعقوب « رحماً » بضم الحاء. الباقون باسكانها . وروى العبسي (ما لم تسطع) بتشديد الطاء . الباقون بتخفيفها .

قال ابو علي (بدل ، وابدل) متقاربان مثل (نزل ، وانزل) إلا ان (بدل) ينبغي ان يكون أرجح ، لقوله تعالى « لا تبديل لكلمات الله » (١) ولم يجيء الابدال كما جاء التبديل ، ولم يجيء الابدال في موضع من القرآن ، وقد جاء « وإن

(١) سورة ١٠ - يونس - آية ٦٤

اردتم استبدال زوج مكان زوج » (١) فهذا قد يكون بمعنى الابدال كما ان قوله الشاعر :

فلم يستجبه عنك ذاك مجيب (٢)

بمعنى فلم يجبه . وقال قوم . ابدلت الشيء من الشيء إذا ازلت الأول وجعلت الثاني مكانه . كقول ابي النجم :

عزل الامير للأمير المبدل (٣)

وبدلت الشيء من الشيء إذا غيرت حاله وعينه . والاصل باق ، كقولهم بدلت قميصي جبة ، واستدلوا بقوله « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » (٤) فالجلد الثاني هو الاول ، ولو كان غيره لم يجز عقابه . واما (رحم ورحم) فلغتان مثل العمر والعمر ، والرعب والرعب . وحكي لغة ثالثة ـ بفتح الراء واسكان الحاء ـ كما يقال : اطال الله عمرك وعمرك . والمعنى واقرب رحمة وعطفاً ، وقربى وقرابة قال الشاعر :

ولم تعوج رحم من تعوجا (٥)

وقال آخر :

يا منزل الرحم على ادريس (٦)

حكى الله تعالى عن صاحب موسى انه قال له « هذا فراق بيني وبينك » ومعناه هذا وقت فراق اتصال ما بيني وبينك ، فكرر (بين) تأكيداً ، كما يقال : أخزى الله

(١) سورة ٤ ـ النساء ـ آية ١٩ (٢) مر هذا البيت كاملا في ١ / ٣٦ ، ٨٦ و ٢ / ١٣١ و ٣ / ٨٨ و ٤ , ١٨٢ و ٥ / ١١٩ و ٦ / ٢٣٣

(٣) تفسير الطبري ١٨ / ١١٠ (٤) سورة ٤ ـ النساء ـ آية ٥٥

(٥) تفسير الطبري ١٦ / ٤ (٦) مجمع البيان ٣ / ٤٨٥ وبعده (ومنزل اللعن على ابليس) . وهو في القرطبي ١٠ / ٣٧ إديسا ، ابليسا)

الكاذب مني ومنك أي أخزى الله الكاذب منا. وقيل في «هذا» انها اشارة الى احد شيئين:

احدها ـ هذا الذى قلته فراق بيني و بينك .

والثاني ـ هذا الوقت فراق بيني وبينك . ثم قال له « سأنبئك » أي ساخبرك « بتأويل مالم تستطع عليه صبراً » ولم يخفّ عليك رؤيته ، ثم بين واحداً واحداً ، فقال « اما » السبب فى خرقي « السفينة » انها « كانت لمساكين » أي للفقراء الذين لاشيء لهم يكفيهم ، قد اسلمتهم قلة ذات أيديهم « يعملون فى البحر » أي يعملون بها في البحر و يتعيشون بها « فاردت أن اعيبها » والسبب فى ذلك انه « كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً » فقيل إن الملك كان يأخذ السفينة الصحيحة ، ولا يأخذها إذا كانت معيبة . وقد قرىء فى الشواذ « يأخذ كل سفينة صحيحة غصباً » روى ذلك عن أبي، وابن مسعود.

والوراء والخلف واحد ، وهو نقيض جهة القدام على مقابلتها . وقال قتادة : وراءهم ـ ههنا ـ بمعنى أمامهم . ومنه قوله « من ورائهم جهنم » (١) و « من ورائهم برزخ » (٢) وذلك جائز على الاتساع ، لانها جهة مقابلة لجهة ، فكأن كل واحد من الجهتين وراء الآخر قال لبيد :

أليس ورائي ان تراخت منيتي   لزوم العصا تحنو عليها الاصابع (٣)

وقال آخر :

ايرجوا بنو مروان سمعي وطاعتي   وقومي تميم والفلاة ورائيا (٤)

وقال الفراء : يجوز ذلك في الزمان دون الأجسام ، تقول : البرد والحر وراءنا

---

(١) سورة ٤٥ الجاثية آية ٩   (٢) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٠١

(٣) البيت في مجمع البيان ٣ / ٤٦٧   (٤) قائله سوار بن المضرب تفسير الطبرى ١٦ / ٢ وتفسير القرطبي ١٠ / ٣٠ ، واكثر كتب النحو

ولا تقول : زيد وراءك . وقال الرماني وغيره : يجوز في الاجسام التي لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر . وقرأ ابن عباس « وكان أمامهم ملك » وقال الزجاج (وراءهم) خلفهم ، لانه كان رجوعهم عليه . ولم يعلموا به .

ثم قال « وأما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً »

وقيل : إن قوله « فخشينا » من قول الخضر . وقيل : انه من قول الله تعالى، ومعناه علمنا . وقيل: معنى خشينا كرهنا ، فبين أن الوجه في قتله ما لأبويه من المصلحة في ثبات الدين ، لانه لو بقي حياً لأرهقهما طغياناً وكفراً أى اوقعهما فيه ، فيكون ذلك مفسدة ، فأمر الله بقتله لذلك ، كما لو أماته . وفي قراءة أبي « واما الغلام فكان كافراً وكان ابواه مؤمنين » . ثم قال « فأردنا أن يبدلهما » يعني أن يبدل الله لأبويه خيراً من هذا الغلام ﴿ زكاة ﴾ يعنى صلاحاً وطهارة ﴿ وأقرب رحماً ﴾ أى ابرّ بوالديه من المقتول ـ في قول قتادة ـ يقال : رحمه رحمة ورحماً . وقيل : الرحم والرحم القرابة قال الشاعر :

ولم يعوج رحم من تعوجا (١)

وقال آخر :

وكيف بظلم جارية ومنها اللين والرحم (٢)

وقيل معناه وأقرب أن يرحما به . ثم أخبر الخضر عن حال الجدار الذى اقامه وأعلم انه ﴿ كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ﴾ فقال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد : كانت صحف من علم . وقال الحسن : كان لوحاً من ذهب مكتوب فيه الحكم . وقال قتادة وعكرمة : كان كنز مال . والكنز في اللغة هو

---

(١) تفسير الطبري ٦ / ٤ (٢) تفسير القرطبي ١١ / ٣٧

كل مال مذخور من ذهب وفضة وغير ذلك .

وقوله « وكان أبوهما صالحاً » يعني أبا اليتيمين فأراد الله « أن يبلغا اشدهما » يعني كما لهما من الاحتلام وقوة العقل « ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » أي نعمة من ربك . ثم قال صاحب موسى : وما فعلت ذلك من قبل نفسي وأمري بل بأمر الله فعلت . ثم قال « ذلك » الذي قلته لك « تأويل مالم تسطع عليه صبراً » وثقل عليك مشاهدته واستبشعته .

وفى الآية دلالة على وجوب اللطف ، لان مفهومه أنه تدبير من الله فى عباده لم يكن يجوز خلافه ، وقد عظم الله شأنه بما يفهم منه هذا المعنى .

وقال الجبائي : لايجوز أن يكون صاحب موسى الخضر ، لأن خضراً كان من الانبياء الذين بعثهم الله من بني اسرائيل بعد موسى . قال : ولا يجوز ايضاً أن يبقى الخضر الى وقتنا هذا ، كما يقوله من لايدري ، لانه لانبي بعد نبينا ، ولانه لو كان لعرفه الناس ، ولم يخف مكانه .

وهذا الذي ذكره ليس بصحيح ، لأنا لا نعلم أولا أن خضراً كان نبياً ، ولو ثبت ذلك لم يمتنع أن يبقى الى وقتنا هذا ، لأن تبقيته في مقدور الله تعالى ، ولا يؤدي الى انه نبي بعد نبينا ، لأن نبوته كانت ثابتة قبل نبينا . وشرعه – إن كان شرعاً خاصاً – انه منسوخ بشرع نبينا . وإن كان يدعو الى شرع موسى أو من تقدم من الانبياء ، فان جميعه منسوخ بشرع نبينا (ص) فلا يؤدي ذلك الى ما قال . وقوله : لو كان باقياً لرؤي ولعرف غير صحيح ، لانه لا يمتنع أن يكون بحيث لا يتعرف الى احد ، فهم وإن شاهدوه لا يعرفونه .

وفى الناس من قال : إن موسى الذي صحب الخضر ليس هو موسى بن عمران

وانما هو موسى بن ميشا ، رجل من بني اسرائيل . والله اعلم بذلك .

وروي عن جعفر بن محمد (ع) في قوله تعالى « وكان تحته كنز لهما » قال : سطران ونصف ولم يتم الثالث ، وهي (عجباً للموقن بالرزق كيف يتعب وعجباً للموقن بالحساب كيف يغفل وعجباً للموقن بالموت كيف يفرح) وفى بعض الروايات زيادة على ذلك (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) وذكر أنهما حفظا ، لصلاح أبيهما ، ولم يذكر منهما صلاح . وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة أباء ، وكان سياحاً . واستشهد على أن الخشية بمعنى العلم بقوله تعالى « إلا أن يخافا الا يقيما حدود الله » (١) وقوله « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً » (٢) أي علمت . واستشهد على أنه بمعنى الكراهية بقول الشاعر :

يا فقعسي لم اكلتـه له لو خافك الله عليه حرمه (٣)

قال قطرب يريد لو كره أن تأكله لحرمه عليك .

قوله تعالى :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (٨٤) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً (٨٦) قُلْنَا يَاذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٩ (٢) سورة ٤ النساء آية ١٢٤

(٣) مر هذا الرجز فى ٢ / ٢٤٥ من هذا الكتاب .

وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (٨٧) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً (٨٨) ﴾ خمس آيات كوفي وحجازي وست بصري وشامي. عدّ اسماعيل والكوفيون والبصري والشامي «من كل شيء سبباً» آية وعدّ المدني الأخر والمكي والبصري والشامي «عندها قوماً» آية جعلوا ﴿فاتبع سبباً﴾ بعض الآية الأولى ولم يعد أهل الكوفة «قوماً» آخر آية بان جعلوا آخر الآية «حسناً».

قرأ ابن عامر وأهل الكوفة «فأتبع» بقطع الهمزة، وفتحها، وتخفيف التاء وسكونها، فيهن. الباقون «فاتبع» جعلوها ألف وصل وشددوا التاء، وفتحوها. وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة إلا حفصاً وابو جعفر «حامية» بالف وتخفيف الهمزة. الباقون «حمئة» بلا الف، مهموز. قال أبو علي النحوي (تبع) فعل يتعدى الى مفعول واحد، فاذا نقلته بالهمزة يتعدى الى مفعولين. قال الله تعالى «واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة» (١) وقال «واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة» (٢) لما بنى الفعل للمفعولين قام أحد المفعولين مقام الفاعل واما (اتبعوا) فافتعلوا، فتعدى الى مفعول واحد، كما تعدى افعلوا اليه، مثل شويته واشتويته، وحفرته واحتفرته. وقوله «فاتبعوهم مشرقين» (٣) تقديره فاتبعوهم جنودهم فحذف أحد المفعولين، كما حذف من قوله «لينذر بأساً شديداً من لدنه» (٤) ومن قوله

(١) سورة ٢٨ (القصص) آية ٤٢   (٢) سورة ١١ (هود) آية ٦٠
(٣) سورة ٢٦ (الشعراء) آية ٦١   (٤) سورة ٨ (الكهف) آية ٢

« لا يكادون يفقهون قولا » (١) والمعنى لا يكادون يفقهون أحداً ، و لينذر الناس بأساً شديداً ، فمن قطع الهمزة فتقديره فاتبع أمره سبباً او اتبع ما هو عليه سبباً [والسبب ههنا الطريق مثل السبيل . والسبب الحبل . والسبب القرابة] . (٢)

وقال ابو عبيدة « فى عين [حمئــة » بالألف ذات حمأة . وقال ابو علي من قرأ حمئه بغير الف فهي فعله . ومن قرأ (حاميه] (٣) فهي فاعلة من حميت فهي حامية ، قال الحسن : يعني حارة . ويجوز فيمن قرأ (حاميـة) أن تكون فاعلة من الحمأة ، فخفف الهمزة وقلبها ياء على قياس قول أبي الحسن . وإن خفف الهمزة على قول الخليل كانت بين بين . وقرأ ابن عباس « في عين حمئة » وقال هي ماء وطين . وتقول العرب: حمأت البئر إذا أخرجت منها الحمأة ، واحمأتها إذا طرحت فيها الحمأة . وحمئت تحمأ ومعنى حمئة صار فيها الحمأة . فاما قولهم هذا حم لفلان ، ففيه أربع لغات حمو وحمو وحماء وحم . وذكر اللحياني لغـة خامسة وسادسة : الحمو مثل العفو ، والحمأ مثل الخطأ . وكل قرابة من قبل الزوج ، فهم الاحماء وكل قرابة من قبل النساء فهم الاختان والصهر يجمعهما ، وأم الرجل ختنه وابوه ختنه وام الزوج حماة وأبوها حمو . وقال ابو الاسود الدؤلي شاهد لابي عمرو في عين حمئة :

تجيء بملئها طوراً وطوراً   تجيء بحمأة وقليل ماء

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) يسألونك يا محمد عن ذي القرنين واخباره وسيرته ، وكان السائل عن ذلك قوماً من اليهود . وقيل كانوا قوماً من مشركي العرب ، فقل لهم يا محمـد ، سأتلوا عليكم » يعني سأقرأ عليكم من خبره ذكراً .

---

(١) سورة ١٨ (الكهف) آية ٩٤ (٢) سورة ١٨ (الكهف) آية ٩٤

(٢) هذه الجملة التى بين القوسين كانت متأخرة فى المطبوعة عن هذا الموضع اسطر (٣) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

ثم قال تعالى مخبراً له « انا مكنا له في الارض » أي بسطنا يده فيها وقويناه « وآتيناه من كل شيء سبباً » ومعناه علماً يتسبب به الى ما يريده - في قول ابن عباس وقتادة وابن زيد والضحاك وابن جريج - «وقيل آتيناه من كل شيء سبباً» يعني ما يتوصل به الى مراده . ويقال للطريق الى الشيء سبب وللحبل سبب وللباب سبب « فاتبع سبباً » أي سبباً من الأسباب التي أوتي . ومن قرأ بقطع الهمزة أراد فلحق سبباً ، يقال ما زلت أتبعه حتى اتبعته أي لحقته .

وقوله « فاتبع سبباً » قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد : معناه طرقاً من المشرق والمغرب . وقيل معنى « وآتيناه من كل شيء سبباً » ليسيعين به على الملوك وفتح الفتوح ، وقتل الاعداء في الحروب « فاتبع سبباً » أي طريقاً الى ما أريد منه . وقيل سمي (ذي القرنين) لأنه كان في رأسه شبه القرنين . وقيل سمي بذلك لأنه ضرب على جانبي رأسه . وقيل : لانه كانت له ضفيرتان . وقيل لانه بلغ قرني الشمس مطلعها ومغربها . وقيل : لانه بلغ قطري الارض من المشرق والمغرب .

وقوله « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة » أي في عين ماء ذات حمأة - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير - ومن قرأ « حامية » أراد حارة ، في قول الحسن . وقرىء به في احدى الروايتين عن ابن عباس كقول ابي الاسود الدؤلي .

تجيء بملئها طوراً وطوراً   تجيء بحمأة وقليل ماء

وقال ابو علي الجبائي، والبلخي : المعنى وجدها كانها تغرب في عين حمئة ، وإن كانت تغيب وراءها . قال البلخي لان الشمس اكبر من الارض بكثير ، وأنكر ذلك ابن الاخشاد . وقال : بل هي في الحقيقة تغيب في عين حمئة على ظاهر القرآن .

وقوله « ووجد عندها قوماً قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما ان تتخذ

فيهم حسناً »معناه إما أن تعذبهم بالقتل لاقامتهم على الشرك بالله « وإما ان تتخذفيهم حسناً » بان تأسرهم فتعلمهم الهدى وتستنقذهم من العمى ، فقال ذو القرنين ـ لما خيره الله في ذلك«اما من ظلم نفسه » بأن عصى الله وأشرك به « فسوف نعذبه » يعني بالقتل ويرد فيما بعد « الى ربه فيعذبه » يوم القيامة « عذاباً نكراً » أي عظيماً منكراً تنكره النفس من جهة الطبع ، وهو عذاب النار ، وهو أشد من القتل في الدنيا .

قوله تعالى :

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى * وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً (٨٩) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٠) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً (٩١) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً (٩٢)﴾ خمس آيات في الكوفي والبصري وأربع في المدنيين عدا «ثم اتبع سبباً » آية .

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « فله جزاء الحسنى » بالنصب والتنوين . الباقون بالرفع ، والاضافة . فمن أضاف احتمل أن يكون أراد فله جزاء الطاعة ، وهي الحسنى . ويحتمل أن يكون أراد فله الجنة وأضافه الى الحسنى وهي الجنة ، كما قال « وانه لحق اليقين » (١) ومن نون أراد فله الحسنى أي الجنة ، لأن الحسنى هي الجنة لا محاله . ونصبه يحتمل أمرين :

أحدها ـ ان يكون نصباً على المصدر في موضع الحال أي فلهم الجنة يجزون

---

(١) سورة ٦٩ الحاقة ، آية ٥١

بها جزاء .

والثاني ـ قال قوم : هو نصب على التميز وهو ضعيف ، لان التمييز يقبح تقديمه كقولك تفقأ زيد شحماً ، وتصبب عرقاً ، وله دن خلاً ، ولا يجوز له خلاً دن ، وأما عرقاً فما أحد اجازه إلا المازني . وشاهد الاضافة قوله « لهم جزاء الضعف » (١) والحسنى ههنا الجزاء . لما حكى الله تعالى ما قال ذو القرنين إن من ظلم نعذبه ، وإن له عند الله عذاباً نكراً ، أخبر ان من صدق بالله ووحده وعمل الصالحات التي أمر الله بها « فله جزاء الحسنى وسنقول له من امرنا يسراً » اي قولا جميلا ثم قال « ثم اتبع سبباً حتى إذا بلغ مطلع الشمس » أي الموضع الذي تطلع منه مما ليس وراءه أحد من الناس فوجد الشمس « تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً » اي انه لم يكن بتلك الأرض جبل ولا شجر ، ولا بناء ، لأن أرضهم لم يكن يبنى عليها بناء ، فكانوا إذا طلعت الشمس عليهم يغورون في المياه والاسراب ، وإذا غربت تصرفوا في أمورهم ـ في قول الحسن وقتادة وابن جريج ـ وقال قتادة هي الزنج .

وقوله « كذلك » معناه كذلك هم . ثم قال « وقد أحطنا بما لديه خبراً » أي كذلك علمناهم وعلمناه . ويحتمل أن يكون المراد كذلك « اتبع سبباً » الى مطلع الشمس ، كما اتبعه الى مغربها .

وقوله « ثم اتبع سبباً » يعني طريقاً ومسلكا لجهاد الكفار . وقال الحسن ان ذا القرنين كان نبياً ملك مشارق الارض ومغاربها . وقال عبد الله بن عمر كان ذو القرنين والخضر نبيين وكذلك لقمان كان نبياً .

قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا

---

(١) سورة ٣٤ (سبأ) آية ٢٧

قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٤) قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً (٩٥) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٦) ﴾ أربع آيات .

قرأ ابن كثير وابو عمرو وعاصم في رواية حفص «السدين» ـ بالفتح ـ الباقون بالضم . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً وحده « يفقهون » بضم الياء وكسر القاف . الباقون بفتح الياء والقاف . وقرأ عاصم وحده « يأجوج ومأجوج » بالهمز . الباقون بلا همز . وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « خراجاً » بالف . الباقون « خرجاً » بغير الف .

اخبر الله تعالى عن حال ذي القرنين أنه اتبع طريقاً الى جهاد الكفار الى ان بلغ بين السدين ووصل الى ما بينهما ، وهما الجبلان اللذان جعل الردم بينهما ـ في قول ابن عباس وقتادة والضحاك . والسد وضع ما ينتفي به الخرق ، يقال : سده يسده سداً فهو ساد ، والشيء مسدود ، وانسد انسداداً ، ومنه سدد السهم ، لأنه سد عليه طرق الاضطراب . ومنه السداد الصواب ، والسد الحاجز بينك وبين الشيء . قال الكسائي : الضم والفتح في السد بمعنى واحد . وقال أبو عبيدة وعكرمة : (السد) ـ بالضم ـ من فعل الله ، وبالفتح من فعل الآدميين .

وقوله « وجد من دونهما » يعني دون السدين « قوماً لا يكادون يفقهون قولا » اي لا يفهمونه . ومن ضم الياء أراد لا يفهمون غيرهم ، لاختلاف

لغتهم عن سائر اللغات ، وانما قال « لايكادون» لانهم فقهوا بعض الشيء عنهم ، وإن كان بعد شدة ، ولذلك حكي عنهم أنهم قالوا « إن يا جوج وما جوج مفسدون في الارض » والفقه فهم متضمن المعنى ، والفهم للقول هو الذي يعلم به متضمن معناه يقال : فقه يفقه وفقه يفقه.

وقوله « قالوا ياذا القرنين إن يا جوج ومأجوج مفسدون في الارض » حكاية عما قال القوم الذين وجدهم ذو القرنين من دون السدين ، فقالوا إن هؤلاء مفسدون في الارض أي في تخريب الديار ، وقطع الطرق ، وغير ذلك .

« فهل نجعل لك خراجاً » فمن قرأ بالألف ، فانه أراد الغلة . ومن قرأ بلا ألف أراد الأجر « على أن تجعل بيننا وبينهم » يعني بيننا وبين يأجوج ومأجوج « سداً » قال لهم ذو القرنين « ما مكني فيه ربي خير » من الاجر الذي تعرضون علي « فاعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما » فالردم أشد الحجاب ـ في قول ابن عباس ـ ، يقال : ردم فلان موضع كذا يردمه ردماً ، وردم ثوبه ترديماً إذا اكثر الرقاع فيه ، ومنه قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردّم　　　أم هل عرفت الدار بعد توهم (١)

اي هل تركوا من قول يؤلف تأليف الثوب المرقع . وقيل الردم السد المتراكب وقرأ ابن كثير « مكنني » بنونين . الباقون بنون واحدة مشددة . من شدد أدغم كراهية المثلين . ومن لم يدغم قال : لانها من كلمتين ، لان النون الثانية للفاعل ، والياء المتكلم ، وهو مفعول به.

وقوله « اعينوني بقوة » أي برجال يبنون ، و (الخرج) المصدر لما يخرج من

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٥ وهو مطلع معلقته ، وتفسير الطبري ١٦/١٧ والقرطبي ١١/٥٩

المال ، والخراج الاسم لمــا يخرج عن الارض ونحوها . وترك الهمزة في (يا جوج وما جوج) هو الاختيار ، لان الاسماء الاعجمية لا تهمز مثل (طالوت ، وجالوت ، وهاروت ، وماروت) . ومن همز قال : لانه ماخوذ من اجج النار ومن الملح الأجاج . فيكون (مفعولا) منه في قول من جعله عربياً ، وترك صرفه للتعريف والتأنيث، لانه اسم قبيلة ولو قال : لو كان عربياً لكان هذا اشتقاقه ولكنه أعجمي فلا يشتق لكان أصوب قال رؤبه :

لو ان يا جوج وما جوج معاً وعاد عاد واستجاشوا تبعا (١)

فترك الصرف في الشعر ، كما هو في التنزيل ، وجمع يأجوج يآجيج ، مثل يعقوب ويعاقيب لذكر الحجل ، وولد القبج السلك والانثى سلكة ومن جعل (يا جوج وماجوج) فاعولا جمعه يواجيج بالواو ، مثل طاغوت وطواغيت ، وهاروت وهوا ريت . واما مأجوج في قول من همز ، ف(مفعول) من أج ، كما أن يا جوج (يفعول) منه : فالكلمتان على هذا من أصل واحد في الاشتقاق ، ومن لم يهمز ياجوج ، كان عنده (فاعول) من (يج) كما ان ماجوج (فاعول) من (مج) فالكلمتان على هذا من أصلين ، وليسا في أصل واحد ، كما كانا كذلك فيمن همزها ، وإن كانا من العجمي فهذه التقديرات لا تصح فيهما . وانما مثل بها على وجه التقدير على ما مضى . وقال الجبائي والبلخي وغيرهما : إن يا جوج وماجوج قبيلان من ولد آدم. وقال الجبائي : قيل : انهما من ولد يافث بن نوح ، ومن نسلهم الاتراك . وقال سعيد ابن جبير : قوله « مفسدون في الارض » معناه يأكلون الناس . وقال قوم : معناه انهم سيفسدون ، ذهب اليه قتادة .

---

(١) ديوانه ٩٢ ومجاز القرآن ١ / ٤١٤ تفسير الطبري ١٦ / ١٢ والقرطبي ١١ / ٥٥ واللسان والتاج (اجج)

قوله تعالى:

﴿آتوني زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩٧) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٨) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً (٩٩)﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ «الصدفين» - بضم الصاد والدال - ابن كثير، وابو عمرو، وابن عامر، الباقون - بفتح الصاد والدال - إلا أبا بكر عن عاصم، فانه ضم الصاد وسكن الدال. وقرأ أهل الكوفة إلا حفصاً «قال آتوني» قصراً. الباقون ممدوداً. وقرأ حمزة وحده «فما اسّطاعوا» مشددة الطاء بالادغام، وهو ضعيف - عند جميع النحويين - لان فيه جمعاً بين ساكنين.

حكى الله تعالى عن ذي القرنين أنه قال للقوم الذين شكوا اليه افساد ياجوج وما جوج في الارض وبذلوا له المال، فلم يقبله، وقال لهم اعينوني برجال واعطوني وجيئوا بزبر الحديد، لا عمل منه - في وجوه ياجوج وما جوج - الردم.

والزبرة الجملة المجتمعة من الحديد والصفر ونحوها، واصله الاجتماع، ومنه (الزبور) وزبرت الكتاب إذا كتبته، لانك جمعت حروفه. والحديد معروف حددته تحديداً إذا أرهفته، ومنه حد الشيء نهايته. وقال ابن عباس ومجاهد: زبر الحديد قطع الحديد. وقال قتادة: فلق الحديد.

وقوله « حتى إذا ساوى بين الصدفين » تقديره انهم جاؤا بزبر الحديد وطرحوه حتى إذا ساوى بين الصدفين مما جعل بينهما أي وازى رؤسهما . والصدفان جبلان ـ في قول ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وابراهيم ـ وقيل : هما جبلان كل واحد منهما منعزل عن الآخر كأنه قد صدف عنه ، وفيه ثلاث لغات ـ ضم الصاد والدال وفتحهما وتسكين الدال وضم الصاد ـ قال الراجز :

قد أخذت ما بين عرض الصدفين ناحيتيها وأعالي الركنين (١)

وقال ابو عبيدة : الصدفان جانبا الجبل . وقوله « قال انفخوا » يعني قال ذو القرنين انفخوا النار على الحديد ، والزبر فنفخوا « حتى إذا جعله ناراً » أي ما ئعاً مثل النار ، قال لهم « آتوني » أي اعطوني . وقرىء بقطع الهمزة ووصلها ، فمن قطع ، فعلى ما قلناه ، ومن وصل خفض وقصر ، وقيل معناه جيؤني « افرغ عليه قطراً » نصب (قطراً) بـ (أفرغ) ولو نصبه بـ (آتوني) لقال أفرغه . والقطر النحاس فى قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ـ وأراد بذلك أن يلزمه . وقال ابوعبيدة : القطر الحديد المذاب وانشد :

حساماً كلون الملح صاف حديده جرازاً من اقطار الحديد المنعت (٢)

وقال قوم : هو الرصاص النقر ، واصله القطر ، وكل ذلك إذا أذيب قطر كما يقطر الماء .

وقوله فما اسطاعوا أن يظهروه أي لم يقدروا أن يعلوه « وما استطاعوا له نقباً » من اسفله ـ في قول قتادة .

وفي (استطاع) ثلاث لغات ، استطاع يستطيع ، واسطاع يسطيع ، بحذف

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٨ (٢) مجاز القرآن ١/ ٤١٥ وتفسير الطبري ١٦/ ١٩

التاء ، واستاع يستيع بحذف الطاء ، استثقلوا اجتماعهما من مخرج واحد . فأما اسطاع يسطيع ، فهي من أطاع يطيع ، جعلوا السين عوضاً من ذهاب حركة العين .

ثم « قال » ذو القرنين « هذا » الذي يسهل فعله من الردم بين الجبلين نعمة « من ربي » عليكم « فاذا جاء وعد ربي » لاهلاكه عند اشراط الساعة « جعله دكاء » أي مدكوكاً مستوياً بالارض ، من قولهم : ناقة دكاء ، لاسنام لها ، بل هي مستوية السنام . ومن قرأ « دكاً » منوناً أراد دكه دكاً ، وهو مصدر . ومن قرأ بالمد أراد جعل الجبل أرضاً دكاء منبسطة وجمعها دكاءات . وقال ابن مسعود : في حديث مرفوع إن ذلك يكون بعد قتل عيسى الدجال . وقيل إن هذا السد وراء بحر الروم بين جبلين هناك يلي مؤخرهما البحر المحيط . وقيل : إنه وراء در بند ، وبحر خزران من ناحية (أرمينية وآذر بيجان) يمضي اليه . وقيل : ان مقدار ارتفاع السد مئتي ذرع وإنه من حديد يشبه الصمت وعرض الحائط نحو من خمسين ذراعاً .

وقوله « وكان وعد ربي حقاً » معناه ما وعد الله بأنه يفعله ، لا بد من كونه ، فانه حق لا يجوز ان يخلف وعده وروي ان رجلا جاء الى رسول الله (ص) فقال : اني رأيت سد يأجوج ومأجوج ، فقال (ص) فكيف رأيته قال رأيته كأنه رداء محبر ، فقال له رسول الله (ص) قد رأيته .

قوله تعالى :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً (١٠٠) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً (١٠١) ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ

سمعاً (١٠٢) ، ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن حال تلك الامم انهم تركوا أي بقوا و لم يخترموا ، بل اديموا على الصفات التي يبقون بها « يومئذ يموج » بعضهم « في بعض » فلو اقتطعوا عنها لكان قد أخذوا عن تلك الاحوال ، و بعض الشيء ما قطع منه ، يقال : بعضته أي فرقته بأن قطعته ابعاضاً ، والبعض جزء من كل ، فان شئت قلت البعض مقدار من الكل وإن شئت قلت: هو مقدار ينقص بأخذه من الجميع ، و (الموج) اضطراب الماء بتراكب بعضه على بعض ،والمعنى انهم يموجون في بناء السد ، ويخوضون فيه متعجبين من السد . ومعنى « يومئذ » يوم انقضاء السد ، فكانت حال هؤلاء كحال الماء الذي يتموج باضطراب أمواجه .

والترك في الحقيقة لا يجوز على الله إلا أنه يتوسع فيه فيعبر به عن الاخلال بالشيء بالترك .

وقوله « ونفخ في الصور » فالنفخ اخراج الريح من الجوف باعتماد ، يقال نفخ ينفخ نفخا ومنه انتفخ إذا امتلأ ريحاً ومنه النفاخة التي ترتفع فوق الماء بالريح. والصور قال عبد الله بن عمر في حديث يرفعه: انه قرن ينفخ فيه ، ومثله روي عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري . وقيل انه ينفخ فيه ثلاث نفخات : الاولى ـ نفخة الفزع التي يفزع من في السماوات والارض . والثانية ـ نفخة الصعق . والثالثة ـ نفخة القيام لرب العالمين ، وقال الحسن : الصور جمع صورة فيحيون بأن ينفخ في الصور الأرواح، وهو قول أبي عبيدة .

وقوله « فجمعناهم جمعاً » يعني يوم القيامة يحشرهم الله أجمع « وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا » أي ابرزناها واظهرناها حتى يروها فاذا استبانت وظهرت

قيل اعرضت ، ومنه قول عمرو :

واعرضت اليمامة واشمخرت   كأسياف بايدي مصلتينا (١)

وقوله « الذين كانت اعينهم في غطاءعن ذكري » شبه الله أعين الكفار الذين لم ينظروا في أدلة الله وتوحيده ولم يعرفوا الله ، بأنها كانت في غطاء . ومعناه كأنها في غطاء ، « وكانوا لا يستطيعون سمعا » معناه إنه كان يثقل عليهم الاستماع . وقال البلخي : يجوز أن يكون المراد إنهم لا يسمعون ، كما قال تعالى « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة »(٢) وانما أراد بذلك هل يفعل أم لا ؟ لانهم كانوا مقرين بأن الله قادر ، لانهم كانوا مقرين بعيسى (ع) .

قوله تعالى:

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٣) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٤) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١٠٥) ﴾ ثلاث آيات في الكوفي والبصري وشامي، تمام الثانية قوله « اعمالاً » وآيتان في المدنيين.

قرأ الاعشى ويحي بن يعمر إلا النقار « افحسب » بتسكين السين وضم الباء ، وهي قراءة علي (ع) الباقون بكسر السين وفتح الباء .

يقول الله تعالى لنبيه (ص) « افحسب الذين كفروا » بتوحيد الله وجحدوا

(١) تفسير الطبري ١٦ / ٢٢   (٢) سورة ٥ (المائدة) آية ١١٥

ربوبيته « أن يتخذوا عبادي من دونه أولياء » أي انصاراً يمنعونهم من عقابي لهم على كفرهم ، وقد أعددت « جهنم للكافرين نزلا » أي مأوى ومنزلا ـ في قول الزجاج وغيره ـ وقال قوم : النزل الطعام جعل الله لهم طعاماً والنزل الريع . ومن ضم الباء من « أحسب » معناه حسبهم على اتخاذهم عباد الله من دونه أولياء أن جعل لهم جهنم نزلا ومأوى . وقيل بل هم لهم اعـــداء يعني ، الذين عبدوا المسيح والملائكة » ثم أمر نبيه (ع) أن يقول « لهم هل ننبئكم بالأخسرين » أي نخبركم بالاخسرين « أعمالا » وهم « الذين يحسبون انهم يحسنون صنعاً » وإن افعالهم طاعة وقربة وقيل انهم اليهود والنصارى ، وقيل الرهبان منهم .

وروي عن أمير المؤمنين (ع) انه قال : هم أهل حروراء من الخوارج وسأله ابن الكوّا عن ذلك ، فقال (ع) : انت واصحابك منهم وهم « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا » أي جاز عنهم وهلك ، وهم مع ذلك « يحسبون » أي يظنون أنهم يفعلون الافعال الجميلة والحسبان هو الظن وهو ضد العلم .

وفي الآية دلالة على أن المعارف ليست ضرورية ، لانهم لو عرفوا الله تعالى ضرورة لما حسبوا غير ذلك ، لأن الضروريات لا يشك فيها .

وقوله « الاخسرين اعمالا » نصب على التمييز . ومن قرأ « أفحسب » بضم الباء وسكون السين كان عنده « أن يتخذوا » في موضع رفع ، ومن جعلها فعلا ماضياً جعل (أن) في موضع نصب بوقوع حسب عليه .

قوله تعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْناً (١٠٦) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً (١٠٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٨) ثلاث آيات بلاخلاف .

اخبر الله تعالى عن الكفار الذين تقدم وصفهم بأنهم الذين جحدوا أدلة ربهم وأنكروا « لقاءه » أي لقاء ثوابه وعقابه في الآخرة من حيث انكروا البعث والنشور بأنهم « قد حبطت اعمالهم » لانهم أوقعوها على غير الوجه الذي أمرهم الله به « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » وصفهم الله بأنهم لا وزن لهم ، كما يقال في التحقير للشيء: هذا لاشيء من حيث أنه لا يعتد به . ويقال للجاهل لا وزن له لخفته وسرعة طيشه وقلة تثبته فيما ينبغي أن يتثبت فيه . وقال قوم : معناه لا نقيم لهم وزناً لطاعتهم، لانهم أحبطوها . وقال البلخي: معناه إن اعمالهم لا يستقيم وزنها لفسادها . ثم قال : وانما كان « ذلك » كذلك ، لان جهنم « جزاؤهم بما كفروا » أي جحدوا الله واتخذوا آياته ورسله هزواً أي سخرية ، يقال هزى، يهزء هزواً ، فهو هازيء .

ثم أخبر عن حال الذين صدقوا النبي وآمنوا بالله وعملوا الصالحات إن « لهم جنات الفردوس نزلا » أي مأوى . والفردوس البستان الذي يجمع الزهر والثمر وسائر ما يمتع ويلذ ، وقال كعب : هو البستان الذي فيه الاعناب . وقال مجاهد : الفردوس البستان بالرومية . وقال قتادة : هو أطيب موضع في الجنة .

وروي انه أعلى الجنة وأحسنها في خبر مرفوع .

وقال الزجاج : الفردوس البستان الذي يجمع محاسن كل بستان .

وقوله « نزلا » أي مأوى وقيل نزلا أي ذات نزول . وحكي الزجاج أن الفردوس الأودية التي تنبت ضروباً من النبت . والنزل ـ بضم النون والزاي ـ من النزول والنزل بفتحهما الريع .

قوله تعالى:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٩) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (١١٠) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١١)﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفه إلا عاصماً « قبل أن ينفد » بالياء . الباقون بالتاء . فمن قرأ بالتاء ، فلتأنيث الكلمات ، ومن قرأ بالياء ، فلان التأنيث ليس بحقيقي . وقد مضى نظائر ذلك .

اخبر الله تعالى عن أحوال المؤمنين الذين وصفهم بالأعمال الصالحة وأن لهم جنات الفردوس جزاء على أعمالهم بانهم خالدون في تلك الجنات . ونصب « خالدين » على الحال .

وقوله « لا يبغون عنها حولا » أي لا يطلبون عنها التحول والانتقال الى مكان غيرها . وقال مجاهد : الحول التحول أي لا يبغون متحولا . وقد يكون معناه التحول من حال الى حال ، ويقال حال عن مكانه حولا مثل صغر صغر او كبر كبراً .

ثم أمر نبيه (ص) أن يقول لجميع المكلفين : قل لو كان ماء البحر مداداً في

الكثرة الكتابة كلمات الله لنفد ماء البحر ولم تنفد كلمات الله بالحكم ، والبحر مستقر الماء الكثير الواسع الذي لا يرى جانباه من وسطه وجمعه أبحر وبحار وبحور ، والمداد هو الجائي شيئاً بعد شيء على اتصال . والمداد الذي يكتب به . والمدد المصدر ، وهو مجيء شيء بعد شيء . وقال مجاهد : هو مداد العلم .

والكلمة الواحدة من الكلام، ولذلك يقال للقصيدة: كلمة ، لانها قطعة واحدة من الكلام ، والصفة المفردة: كلمة . و (مدداً) نصب على التمييز ، وهذا مبالغة لوصف ما يقدر الله تعالى عليه من الكلام والحكم . ثم قال قل لهم « انما انا بشر مثلكم » لست بملك. آكل واشرب « يوحى الي انما الهكم إله واحد » أي يوحى الي أن معبودكم الذي يحق له العبادة واحد « فمن كان » منكم « يرجو لقاء ربه » لقاء ثوابه او عقابه ويرجو معناه يأمل . وقيل معناه يخاف « فليعمل عملا صالحاً » أي طاعة يتقرب بها اليه « ولا يشرك بعبادة » الله أحداً غيره : من ملك ولا بشر ولا حجر ، ولا مدر ولا شجر ، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقال سعيد بن جبير معنى « لا يشرك بعبادة ربه أحداً » أي لا يرائي بعبادة الله غيره . وقال الحسن : لا يعبد معه غيره . وقيل إن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن . وقال ابن جريج قال حي بن اخطب : تزعم يا محمد إنا لم نؤت من العلم إلا قليلا ، وتقول ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، فكيف يجتمعان ، فنزل قوله تعالى « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي » ونزل « ولو أن ما فى الارض من شجرة اقلام ... » (١) الآية .

(١) سورة ٣١ (القمان) آية ٢٧

١٩ - سورة مريم

هي مكية فى قول قتادة ومجاهد وهي ثمان وتسعون آية فى المدني الأول والكوفي والبصري والشامي . وتسع وتسعون فى المكي والمدني الأخير وفى عدد إسماعيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (١) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٢) ﴾ ثلاث آيات في الكوفي خاصة عدوا « كهيعص » آية . وآيتان في الباقي .

قرأ ابو عمرو « كهيعص » بامالة الهاء وفتح الياء ، وقرأ ابن عامر إلا الداجوني عن هشام وحمزة إلا العبسي وخلف في اختياره بفتح الهاء ، وامالة الياء . وقرأ الكسائي ويحيي والعليمي والعبسي بامالة الهاء والياء . الباقون بفتحهما ، وهم أهل الحجاز والداجوني عن هشام وعاصم إلا يحيي والعليمي ويعقوب وابو جعفر بقطع الحروف علي أصله ويظهر الدال من هجاء (صاد) عند ذاك . وكذلك أهل الحجاز وعاصم

ويعقوب . قال أبو علي امالة هذه الحروف سائغه ، لانها ليست بحروف معنى وانماهي اسماء لهذه الاصوات . وقال سيبويه : قالوا (با ، يا) لأنها اسماء ما يتهجأ به . فلما كانت اسماء غير حروف جازت فيها الامالة كما جازت في الاسماء ، ويدلك على انها اسماء انك إذا اخبرت عنها أعربتها [وإن كنت لا تعربها اسماء قبل ذلك] (١) فكما أن اسماء العددقبل أن تعربها اسماء كذلك هذه الحروف.وإذا كانت اسماء ساغت فيها الامالة . فاما من لم يمل فعلى مذهب أهل الحجاز ، وكلهم أخفى (نون ، عين)إلا حفصاً عن عاصم فانه بينها . وقال ابو عثمان بيان النون مع حروف الفم لحن إلا أن هذه الحروف تجري على الوقف عليها ، والقطعها مما بعدها ، فحكمها البيان ، وإن لا تخفى ، فقول عاصم هو القياس فيها، وكذلك اسماء العدد حكمها على الوقف،وعلى انها منفصلة عما بعدها . وقال ابو الحسن تبيين النون أجود في العربية ، لأن حروف العدد والهجاء منفصل بعضها عن بعض . وروي عن أبي عمرو واليزيدي ـ في رواية أبي عمرو ـ عنه كسر الهاء والياء . وقال قلت له لم كسرت الهاء ؟قال : لئلا تلتبس بهاء التنبيه ، فقلت لم كسرت اليا ؟ . قال : لئلا تلتبس بـ (يا) التي للنداء إذاقلت:ها زيد ويا رجل .ومن أدغم الدال في الذال ، فلقرب مخرجهما ، ومن اظهر ، فلأنهما ليسا من جنس واحد ، وليسا اختين .

وقرأ الحسن بضم الهاء،حكى سيبويه أن في العرب من يقول في الصلاة بما ينحو نحو الصلوة الضم ، وحكى (هايا) باشمام الضم . قال الزجاج من حكى ضم الياء ، فهو شاذ لانه اجتمعت الرواة على ان الحسن ضم الهاء لاغير وقد بينا في أول سورة البقرة اخلاف العلماء في أوائل امثال هذه السور وشرحنا أقوالهم ، وبينا أن أقوى ما قيل فيه انها اسماء السور ، وهو قول الحسن وجماعة،وقيل ان كل حرف منها حرف من اسم من

(١) مابين القوسين ساقط من المطبوعة

اسماء الله تعالى ، فالكاف من كبير ، والهـاء من هاد ، والعين من عالم ، والصاد من صادق ، والياء من حكيم . وروى ذلك عن علي (ع)وابن عباس وغيرهما . وروي عن علي (ع) انه دعا فقال اللهم سألتك يا كهيعص .

وقوله « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » رفع (ذكر) على أنه خبر للابتـداء وتقديره هذا او فيما يتلى عليكم « ذكر رحمة » أي نعمة ربك « عبده » منصوب بـ (رحمة) . وقال الفراء الذكر مرفوع بـ (كهيعص) والمعنى ذكر ربك عبده برحمته ، فهو تقديم وتأخير ، ونصب « زكريا » لانه بدل من (عبده) .

« إذ نادى ربه نداء خفياً » أي حين دعا ربه دعاء خفياً أي سراً غير جهر ، لا يريد به رياء ، ذكره ابن جريج . واصل النداء مقصور من ندى الصوت بندى الحلق

قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً (٣) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً (٤) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً (٥) ثلاث آيات بلا خلاف

قرأ ابو عمرو والكسائي « يرثني » جزماً على أنه جواب الأمر . الباقون بالرفع على أنه صفة لـ (ولياً) . فمن رفع قال « ولياً » نكرة فجعل « يرثني » صلة له ، كما تقول أعرني دابة اركبها ، ولو كان الاسم معرفة ، لكان الاختيـار الجزم ، كقوله « فذروها تأكل فى أرض الله » (١) والنكرة كقوله « خذ من اموالهم صدقة

(١) سورة ٧ (الاعراف) آية ٧٢ وسورة ١١ (هود) آية ٦٤

تطهرهم » (١) وقال مجاهد : من جزم جاز ان يقف على « ولياً » . ومن رفع لم يجز لانه صلة ، ولان المفسرين قالوا : تقديره « هب لي » الذي « يرثني » أي وارثا فكل ذلك يقويّ الرفع .

حكى الله تعالى ما نادى به زكريا ودعى ربه به ، وهو أن قال « رب » أي يارب وأصله ربي ، وانما حذف الياء تخفيفاً و بقيت الكسرة تدل عليها « اني وهن العظم مني » أي ضعف ، والوهن الضعف ، وهو نقصان القوة ، ويقال . وهن الرجل يهن وهناً إذا ضعف ، ومنه قوله ﴿ لا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ﴾ (٢) وإنما اضاف الوهن الى العظم ، لأن العظم مع صلابته إذا كبر ضعف ، وتناقص ، فكيف باللحم والعصب . وقيل شكى البطش وهو قلة المطس وهو لا يكون إلا بالعظم . وقوله ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ معناه انتشر الشيب في الرأس ، كما ينتشر شعاع النار ، وهو من أحسن الاستعارات . والاشتعال انتشار شعاع النار ، والشيب مخالطة الشعر الابيض للاسود في الرأس وغيره من البدن ، وهو مثل الشائب الذي يخالط الشيء من غيره ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ تمام حكاية ما دعا به زكريا ، وانه قال لم اكن يا رب بدعائي اياك شقياً أي كنت ادعوك وحدك واعترف بتوحيدك . وقيل معناه اني إذا دعوتك اجبتني ، والدعاء طلب الفعل من المدعو ، وفي مقابلته الاجابة ، كما أن في مقابلة الأمر الطاعة . ويحتمل نصب « شيباً » أمرين :

احدهما ـ ان يكون نصباً على المصدر كأنه قال شاب شيباً .

والثاني ـ التمييز كقولهم تصببت عرقاً وامتلأت ماء . وقوله « واني خفت الموالي من ورائي » قال مجاهد وأبو صالح ، والسدي: الموالي ههنا العصبة . وقيل خفت الموالي بني عمي على الدين ، لانهم كانوا شرار بني اسرائيل ، وانما قيل لبني العم

(١) سورة ٩ (التوبة) آية ١٠٤ (٢) سورة ٣ (آل عمران) آية ١٣٩ .

موالي لأنهم الذين يلونه في النسب بعد الصلب . وقيل معنى الموالي الأولياء ان يرثوا علمي دون من كان من نسلي وانشدوا في أن الموالي بنو العم قول الشاعر :

مهـــلا بني عمنـا مهلا موالينـا   لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا (١)

والمولى المعتق ، والمعتق ، والمولى الناصر ، والولى الولي والمولى الاولى .

وروي عن عثمان أنه قرأ « واني خفت الموالي » بفتح الخاء وتشديد الفاء .

وقوله « وكانت امرأتي عاقراً » يعني لاتلد ، ويقال للمرأة التي لا تلد : عاقر والرجل الذي لا يولد له : عاقر قال الشاعر :

لبئس الفتى إن كنت اسود عاقراً   جبانا فما عذري لدى كل محضر (٢)

والعقر في البدن الجرح ومنه اخذ العاقر ، لأنه نقص أصل الخلقة إما بالجراحة ، وإما بامتناع الولادة ، ومنه العقار ، لان فساده نقص لأصل المال . وقوله « يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيّاً » والميراث تركة الميت ما كان يملكه لمن بعده من مستحقيه بحكم الله فيه، يقال : ورث يرث ارثاً وميراثاً وتوارثوا توارثاً وورثه توريثاً ، وأورثه علماً ومالا . و (الآل) خاصة الرجل الذين يؤل أمرهم اليه . وقد يرجع اليـه أمرهم بالقرابة تارة وبالصحبة أخرى ، وبالدين والموافقة ، ومنه قيل (آل النبي) (ص) .

وقوله « يرثني ويرث من آل يعقوب » قال أبو صالح:معناه يرثني مالي ، ويرث من آل يعقوب النبوة . وقال الحسن يرثني العلم والنبوة ، وقال مجاهد يرث علمه . وقال

(١) قدمر تخريجه انظر ٣ / ١٨٧ من هذا الكتاب . والبيت في تفسير الشوكاني ٣/٣١١

(٢) قائله عامر بن الطفيل ديوانه ٦٤ وتفسير الشوكاني ٣ / ٣١١ والقرطبي ١١ / ٧٨ وتفسير الطبري ١٦ / ٣٢ وغيرها .

السدي : يرث نبوته ونبوة آل يعقول ، وكان آل يعقوب أخواله ، وهو يعقوب ابن ماتان ، وكان قيم الملك منهم ، وكان زكريا من ولد هارون بن عمران أخي موسى ابن عمران . قال مقاتل: يعقوب بن ماثان اخو عمران ابي مريم ، وهما ابنا ماثان .

وقوله « واجعله رب رضيا » والجعل على اربعة اقسام :

احدها ـ بمعنى الاحداث كقولهم جعل البناء أي احدثه .

والثاني ـ احداث ما يتغير به كقولهم : جعل الطين خزفاً أي احدث ما به يتغير

الثالث ـ ان يحدث فيه حكما كقولهم : جعل فلان فلاناً فاسقاً أي بما أحدث فيه من حكمه وتسميته .

الرابع ـ أن يحدث ما يدعوه الى ان يفعل كقولهم : جعله يقتل زيداً اي بما أمره به ودعاه الى قتله .

ومعنى « واجعله رب رضيا » أي اجعل ذلك الولي الذي يرثني مرضياً عندك ممتثلا لأمرك عاملا بطاعتك .

وفي الآية دلالة على ان الانبياء يورثون المال بخلاف ما يقول من خالفنا انهم لا يورثون ، لأن زكريا صرح بدعائه وطلب من يرثه ويحجب بني عمه وعصبته من الولد . وحقيقة الميراث انتقال ملك المورث الى ورثته بعد موته بحكم الله . وحمل ذلك على العلم والنبوة على خلاف الظاهر ، لان النبوة والعلم لا يورثان ، لأن النبوة تابعة للمصلحة لا مدخل للنسب فيها ، والعلم موقوف على من يتعرض له ويتعلمه ، على أن زكريا إنما سأل ولياً من ولده يحجب مواليه من بني عمه وعصبته من الميراث وذلك لا يليق إلا بالمال ، لان النبوة والعلم لا يحجب الولد عنهما بحال ، على أن اشتراطه ان يجعله (رضيا) لا يليق بالنبوة ، لان النبي لا يكون إلا رضياً معصوما ، فلا معنى لمسألته ذلك ، وليس كذلك المال ، لأنه يرثه الرضي وغير الرضي . واستدل المخالف بهذه

الآية على أن البنت لا تحوز المال دون بني العم والعصبة ، لان زكريا طلب ولياً يمنع مواليه ، ولم يطلب ولية . وهذا ليس بشيء ، لان زكريا إنما طلب ولياً ، لان من طباع البشر الرغبة في الذكور دون الاناث من الأولاد ، فلذلك طلب الذكر ، على أنه قيل ان لفظ الولي يقع على الذكر والانثى ، فلا نسلم أنه طلب الذكر بل يقتضي الظاهر أنه طلب ولداً سواء كان ذكراً او انثى .

والوراء الخلف والوراء القدام ممدود وكذلك الوراء ولد الولد ممدود . والورى مقصوراً : داء في الجوف . والورى ايضاً الخلق مقصور ، وكلهم قرأ «ورائي» ممدوداً ساكن الياء إلا ما رواه ابن مجاهد عن قنبل بفتح الياء مع المد . وروي عن شبل عن ابن كثير (وراي) مقصوراً مثل هداي بغير همز ، وفتح الياء . قال أبو علي لا أعلم أحداً من اهل اللغة حكى القصر في هذه اللفظة ، ولعلها لغة جاءت ، وقد جاء في الشعر قصر الممدود، وقياسه رد الشيء الى أصله ، واللام في هذه الكلمة همزة ، وليس من باب الورى . وقال ابو عبيدة وغيره « من ورائي » يعني من قدامي ، ومثله « وكان وراءهم ملك » (١) أي بين أيديهم . وحكي عن الثوري وراء الرجل خلفه وقدامه . وقوله « ومن ورائه عذاب » (٢) اى قدامه .

وقوله « واني خفت الموالي » فان الخوف لا يكون من الاعيان وإنما يكون من معان فيها ، فقولهم خفت الله اى خفت عقابه، وخفت الموالي خفت تضييعهم مالي وانفاقه في معصية الله .

قوله تعالى :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن

(١) سورة ١٨ (الكهف) آية ٨٠   (٢) سورة ١٤ (ابراهيم) آية ١٧

قَبلُ سَمِيّاً (٦) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيّاً (٧) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (٨) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً (٩) ﴾ أربع آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة « نبشرك » وفي آخرها (١) ﴿ لتبشر به ﴾ بالتخفيف فيهما الباقون بالتثقيل . وقرأ حمزة والكسائي ﴿ عتيا ، وصليا ، وبكيا ، وجثيا ﴾ بكسر أوائلهن وافقهما حفص إلا في بكيا الباقون بضم اوائلهن . من كسر اوائل هذه الحروف فلمجاورة الياء . والاصل الضم ، لأنه جمع فاعل مثل جالس وجلوس ، وكذلك صال وصلي ، والاصل صاوى ويكون على وزن فعول ، فانقلبت الواو ياء وادغمت الياء في الياء . والاصل في « عتيا » عتواً ، لانه من عتا يعتو « وبكيا » من بكى يبكي ، كما قال تعالى « وعتوا عتواً كبيراً » (٢) وانما قيل « عتيا » ههنا بالياء ، لأنه جمع عات ، وأصله عاتو فانقلبت الواو ياء ، لانكسار ما قبلها فبنوا الجمع على الواحد في قلب الواو (ياء) لان الجمع أثقل من الواحد . وقوله « وعتوا عتواً » مصدر، والمصدر يجري مجرى الواحد حكماً : وإن كان في اللفظ مشاركاً للجمع ، لانك تقول : قعد يقعد قعوداً ، وقوم قعود . وفي حرف أبي « وقد بلغت من الكبر عسيا » يقال الشيخ إذا كبر عسى يعسو ، وعتا يعتو إذا يبس .

وقرأ حمزة والكسائي « وقد خلقناك » على الجمع . الباقون ـ بالتاء ـ على التوحيد

(١) آخر هذه السورة آية ٩٨   (٢) سورة ٢٥ (الفرقان) آية ٢١

فمن قرأ بالنون فلقوله « وحنانا من لدنا » ومن قرأ بالتاء فلقوله « وهو عليّ هين » ولم يقل علينا ، وهما سواء في المعنى .

هذا حكاية ما قال الله تعالى لزكريا حين دعاه ، فقال له « يا زكريا إنا نبشرك » والبشارة الاخبار بما يظهر سروره فى بشرة الوجه ، يقال : بشره بشارة ، وتبشيراً وأبشر بالامر ابشاراً إذا استبشر به .

وقوله « بغلام اسمه يحيي » فالغلام اسم للذكر أول ما يبلغ ، وقيل : إنه منه اشتق اغتلم الرجل إذا اشتدت شهوته للجماع . وقيل انما سمي يحيي ، لان الله تعالى أحياه بالايمان ـ فى قول قتادة ـ وقوله ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ قال ابن عباس : معناه لم تلد مثله العواقر ولداً . وقال مجاهد : لم نجعل له من قبل مثلا . وقال ابن جريج وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم ، والسدي : معناه لم يسم أحداً باسمه . وقيل انه لم يسم احداً من الانبياء باسمه قبله ، فقال زكريا عند ذلك ﴿ انى يكون لي غلام ﴾ أي كيف يكون لي غلام ﴿ وامرأتي عاقر ﴾ لا يلد مثلها « وقد بلغت » أنا ايضاً « من » السن و « الكبر عتيا » فالعتي والعسي واحد، يقال عتاعتوا وعتياً ، وعسى يعسو عسياً وعسواً فهو عات وعاس بمعنى واحد ، والعاسي هو الذي غيّره طول الزمان الى حال اليبس والجفاف . وقال قتادة : كان له بضع وسبعون سنة ، فقال الله تعالى له « كذلك » هو ان الامر على ما اخبرتك « قال ربك هو علي هين » أي ليس يشق علي خلق الولد من بين شيخ وعاقر لاني قادر على كل شيء وكيف يعسر علي ذلك « وقد خلقتك » يازكريا « من قبل » ذلك « ولم تك شيئاً » اى لم تكن موجوداً ومن نفى ان يكون المعدوم شيئاً استدل بذلك ، فقال لو كان المعدوم شيئاً لما نفى ان يكون شيئاً قبل ذلك وحمل قوله « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » (١) على المجاز ، والمعنى انها إذا وجدت كانت

(١) سورة ٢٢ (الحج) آية ١

شيئاً عظيما ، ومن قال : المعدوم شيء قال : اراد ولم يكن شيئاً موجوداً . ولم يكن قول زكريا « انى يكون لي ولد » على وجه الانكار بل كان ذلك على وجه التعجب من عظم قدرة الله . وقيل: انه قال ذلك مستخبراً ، وتقديره ابتلك الحال أو بقلبه الى حال الشباب ، ذكره الحسن ، فقال زكريا عند ذلك يا « رب اجعل لي آية » أي دلالة وعلامة استدل بها على وقت كونه ، فقال الله تعالى له « آيتك » أي علامتك على ذلك « ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً » فقال ابن عباس اعتقل لسانه من غير مرض ثلاثة ايام . وقال قتادة والسدي وابن زيد اعتقل لسانه من غير خرس . وفي زكريا ثلاث لغات (زكرياء) ممدود (وزكريا) مقصور و (زكرى) مشدد . [وقرىء بالمقصور والمدور دون اللغة الثالثة] (١)

قوله تعالى :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً (١٠) يَا يَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيّاً (١١) وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيّاً (١٢) وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً (١٣) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً (١٤) ﴾ خمس آيات بلا خلاف .

حكى الله تعالى ان زكريا « خرج على قومه من المحراب » وهو الموضع الذي يتوجه اليه للصلاة . وقال ابن زيد محرابه مصلاه . والاصل فيه مجلس الاشراف الذي

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة .

يحارب دونه ذبّا عن أهله « فاوحى اليهم » قيل : معناه اشار اليهم وأومأ بيده يقال : أوحى يوحي ايحاء ووحى يحي وحيا مثل أومى يومي ايماء ، وومى يمي وميا . والايحاء إلقاء المعنى الى النفس في خفى بسرعة من الأمر . واصله السرعة من قولهم : الوحي الوحا أي الأسراع. وقيل : كتب لهم على الارض ، والوحي الكتابة .

وقوله « ان سبحوا بكرة وعشيا » أي اوحى اليهم بأن سبحوا ، ومعناه صلوا بكرة وعشيا ـ في قول الحسن وقتادة ـ وقيل للصلاة تسبيح ، لما فيها من الدعاء والتسبيح ، ويقال : فرغت من سبحتي أي صلاتي .

وقوله « يا يحيى خذ الكتاب » يعني التوراة التي انزلتها على موسى « بقوة » أي بجدّ « وآتيناه الحكم صبيا » معناه أعطيناه الفهم لكتاب الله حتى حصل له عظيم الفائدة . وروي عن معمر: أن الصبيان ، قالوا ليحيى أذهب بنا نلعب ، فقال ما للعب خلقت ، فانزل الله « وآتيناه الحكم صبياً » .

وقوله « وحناناً من لدنا » معناه وآتيناه رحمة من عندنا ـ في قول ابن عباس وقتادة والحسن ـ وقال الفراء : فعلنا ذلك رحمة لابويه « وزكوة » أي وصلاحاً . وقال الضحاك رحمة منا لايملك إعطاءها احد غيرنا . وقال مجاهد : معناه تعطفاً . وقال عكرمة : معناه محبة . واصل الحنان الرحمة ، يقال : حنانك وحنانيك قال أمروء القيس :

ويمنعها بنو شمجى بن جرم معيزهم حنانك ذا الحنان (١)

وقال الآخر :

فقالت حنان ما أتى بك ههنا أذو نسب ام انت بالحي عارف (٢)

أي امرنا حنان،وتحنن علينا تحنناً أي تعطف قال الشاعر :

(١) ديوانه ٢١٦ (٢) تفسير القرطبي ١١ / ٨٧ والطبري ١٦ / ٣٢

تحنن عليّ هداك المليك　　فان لكل مقام مقالا (١)

وحننت عليه أحن حنيناً وحناناً، وحنت على الرجل إمراته . وقال ابو عبيدة معمر ابن المثنى أكثر ما يستعمل بلفظة التثنية ، قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا　　حنانيك بعض الشر أهون من بعض(٢)

وقوله « وزكاة » أي وعملا صالحاً زكياً - في قول قتادة والضحاك وابن جريج - وقال الحسن معناه : وزكاة لمن قبل عنه حتى يكونوا أزكياء . وقال الجبائي : معناه آتيناه تحننا على العباد ورقة قلب عليهم ليحرص على دعائهم الى طاعة ربهم « وزكاة » اى إنا زكيناه بحسن الثناء عليه ، كما يزكي الشهود الانسان ﴿ وكان تقياً ﴾ أي يتقي معاصي الله وترك طاعته ﴿ وبرا بوالديه ﴾ اى كان باراً محسناً الى والديه ، ﴿ ولم يكن جباراً ﴾ متكبراً ﴿ عصياً ﴾ فعيل بمعنى فاعل ، ثم قال تعالى « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ في يوم القيامة ، ومعناه ان رحمة الله وسلامه اللذين هما تفضل من الله ، هما على يحيي يوم ولد ، وإن رحمة الله وسلامه اللذين هما جزاء لاعماله الصالحة، هما عليه يوم يموت ويوم يبعث حيا ، في الآخرة . قال قوم معناه : أمان الله له وسلامه يوم ولد من عبث الشيطان له واغوائه اياه ، ويوم يموت من عذاب القبر وهول المطلع ، ويوم يبعث حيا من عذاب النار واهوال المحشر .

قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً

(١) قائله الحطيئة تفسير الشوكاني ٣ / ٣١١ وتفسير الطبري ١٦ / ٣٨ والقرطبي ١١ / ٨٧

(٢) ديوانه (دار بيروت) ٦٦ وتفسير الطبري ١٦ / ٣٨ والقرطبي ١١ / ٨٧ .

شَرْقِياً (١٥) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً (١٦) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً (١٧) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً (١٨) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً (١٩))

خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابو عمرو ونافع في رواية ورش وقالون عنه ﴿ ليهب لك ﴾ بالياء ﴿ ربك غلاماً ﴾ الباقون ﴿ لأهب ﴾ بالهمزة على الحكاية ، وتقديره قال ربك لاهب لك . وقال الحسن : معناه لاهب لك باذن الله ﴿ غلاماً زكياً ﴾ اى صار بالبشارة كأنه وهب لها . وضعف ابو عبيدة قراءة أبي عمرو ، لانها خلاف المصحف . قال ابن خالويه : حجة ابي عمرو أن حروف المد واللين وذوات الهمز يحول بعضها الى بعض ، كما قرىء (ليلا) بالياء ـ والاصل الهمزة : (لئلا)

قال ابو عليّ النحوي : من قرأ ـ بالياء ـ يجوز أن يكون أراد الهمزة ، وانما قلبها ياء على مذهب ابي الحسن أو جعلها بين بين في قول الخليل . وفي قراءة أبي وابن مسعود (ليهب) باليـاء ، وهو الاجود ، ومعنى « زكيا » نامياً على الخير والبركة يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) « اذكر في الكتاب مريم » والذكر إدراك النفس المعنى بحضوره في القلب ، والاذكار احضار النفس المعنى ، وقد يكون الذكر قولا يحضر المعنى للنفس ، والمراد بالكتاب ـ ههنا ـ القرآن وإنما سمي كتاباً ، لانه مما يكتب .

وقوله « إذ انتبذت من اهلها » فالانتباذ اتخاذ الشيء بالقاء غيره عنه، والاصل الالقاء من قولهم: نبذه وراء ظهره أي القاه، وفي هذا الطعام نبذ من شعير اي مقدار كف منه، والنبذ الطرح. وقال قتادة : معنى انتبذت انفردت . وقيل : معناه اتخذت مكاناً تنفرد فيه بالعبادة. وقيل معناه تباعدت . وقوله « مكاناً شرقياً » يعني الموضع الذي في جهة الشرق ، قال جرير :

هبت جنوباً فذكرى ما ذكرت لكم   عند الصفاة التي شرقيّ حورانا (١)

وقال السدي : معنى « فاتخذت من دونهم حجاباً » أي حجاباً من الجدران. قال ابن عباس : انما جعلت النصارى قبلتهم الى المشرق ، لان مريم اتخذت من جهة المشرق موضع صلاتها . وقال ابن عباس: معنى « من دونهم حجابا » أي من الشمس جعله الله لها ساتراً .

وقوله « فارسلنا اليها روحنا » قال الحسن وقتادة والضحاك والسدي ، وابن جريج، ووهب بن منبة : يعني جبرائيل (ع) وسماه الله (روحاً) لانه روحاني لا يشبه شيئاً من غير الروح . وخص بهذه الصفة تشريفاً له . وقيل لأنه تحيا به الأرواح بما يؤديه اليهم من أمر الاديان والشرائع .

وقوله « فتمثل لها بشراً سوياً » أي تمثل لها جبرائيل في صورة البشر «سوياً» أي معتدلا ، فلما رأته مريم « قالت إني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً » تخاف عقوبة الله .

فان قيل كيف تعوذت منه إن كان تقياً ؟ والتقي لا يحتاج أن تتعوذ منه ، وانما يتعوذ من غير التقي !!

قيل المعنى في ذلك إن التقي للرحمن إذا تعوذ بالرحمن منه ارتدع عما يسخط

(١) ديوانه (دار بيروت) ٤٩٣ وروايته (ذكرتكم) بدل (ذكرت لكم)

الله ، ففي ذلك تخويف وترهيب ، كما يقول القائل : إن كنت مؤمناً ، فلا تظلمني ، وتكون هي غير عالمة بأنه تقي أم لا ، فلما سمع جبرائيل منها هذا القول ، قال لها : « انما أنا رسول ربك » ارسلني الله لا بشرك بأنه يهب « لك غلاماً » ذكراً « زكياً » طاهراً من الذنوب . وقيل : نامياً فى أفعال الخير . فقالت مريم عند ذلك متعجبة من هذا القول : « أنى يكون لي غلام » أي كيف يكون ذلك « ولم يمسسني بشر » بالجماع على وجه الزوجية « ولم أك بغياً » أي لم أكن زانية ـ فى قول السدى وغيره ـ . و (البغي) التي تطلب الزنا ، لأن معنى تبغيه تطلبه ، و « لم اك » اصلها لم اكن لأنه من (كان ، يكون) وإنما حذفت النون ، لا ستخفافها على ألسنتهم ، ولكثرة استعمالهم لها ، كما حذفوا الالف فى (لم أبل) واصله (لم أبالي) لأنه من المبالاة وكقولهم : (لا أدر) وقولهم : (أيش) واصله أى شيء ، ومثله : لا أب لشانئك واصله لا أبا لشانئك ، ومثله كثير .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً (٢٠) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً (٢١) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً (٢٢) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً (٢٣) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً (٢٤) ﴾ خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة وحفص عن عاصم « نسياً » بفتح النون . الباقون بكسرها ، وهما

لغتان . وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص « من تحتها » على أن (من) حرف جر . الباقون « من تحتها » يعني الذي تحتها قال ابو عليّ النحوي : ليس المراد بقوله « من تحتها » الجهة السفلى ، وانما المراد من دونها ، بدلالة قوله « قد جعل ربك تحتك سريًا » ولم يكن النهر محاذيًا لهذه الجهة . وإنما المعنى جعل دونك .

وقرأ « تساقط » ـ بالتاء وضمها ، وكسر القاف مخففه السين ـ حفص عن عاصم . وقرأ حمزة « تساقط » بفتح التاء وتخفيف السين . الباقون ، وهم ابن كثير ونافع وابو عمرو ، وابن عامر والكسائي وابو بكر عن عاصم ، بفتح التاء وتشديد السين وفتح القاف . وقرأ يعقوب والعليمي ونصير ـ بياء مفتوحة ، وتشديد السين وفتح القاف ـ وكلهم جزم الطاء .

حكى الله تعالى ما قال لها جبرائيل حين سمع تعجبها من هذه البشارة « قال كذلك » يعني الله تعالى قال ذلك « قال ربك هو علي هين » أي سهل متأت لا يشق علي ذلك « ولنجعله آية للناس » أي نجعل خلقه من غير ذكر آية باهرة ، وعلامة ظاهرة للناس « ورحمة منا » أي ونجعله نعمة من عندنا « وكان أمراً مقضياً » أي وكان خلق عيسى من غير ذكر أمراً قضاه الله وقدره وحتم كونه أي هو المحكوم بأنه يكون ، وما قضاه الله بأنه كائن ، فلا بد من كونه .

وقوله ﴿ فحملته ﴾ يعني حملت عيسى في بطنها ، والحمل رفع الشيء من مكانه ، وقد يكون رفع الانسان في مجلسه ، فيخرج عن حد الحمل . ويقال له (حمل) بكسر الحاء لما يكون على الظهر ، وبالفتح لما يكون في البطن ﴿ فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ أي انفردت به مكاناً بعيداً ، ومعناه قاصياً ، وهو خلاف الداني . قال الراجز :

لتقعدن مقعد القصي　　مني كذي القاذورة المقلي (١)

(١) تفسير الطبري ١٦ / ٤٢

يقال قصا المكان يقصوه قصواً إذا تباعد ، واقصيت الشيء إذا أبعدته ، واخرته اقصاه . وقوله « فأجاءها المخاض » أي جاء بها المخاض وهو مما يعدى تارة بالباء وأخرى بالالف . مثل ذهبت به وأذهبته وآتيتك بعمرو وآتيتك عمراً . وخرجت به وأخرجته قال زهير :

وجار سار معتمداً اليكم   أجاءته المخافة والرجاء (١)

أي جاءت به . قال الكسائي تميم تقول : ما أجاءك الى هذا وما أشاء بك اليه . أي صيرك تشاء . ومن أمثالهم (شر أجاءك الى مخة عرقوب) وتميم تقول : شر أشاءك الى مخة عرقوب . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : معنى « فأجاءها» الجأها . وقال السدي : إنها قالت في حال الطلق « ياليتني مت قبل هذا » استحياء من الناس « وكنت نسياً منسياً » فالنسي الشيء المتروك حتى ينسى ـ بالفتح والكسر ـ مثل الوتر والوتر . وقيل النسي ـ بالفتح ـ المصدر ، يقال : نسيت الشيء نسياً ونسياناً ـ وبالكسر ـ الاسم إذا كان لقي لا يؤبه به ، وقيل النسي خرقة الحيض التي تلقيها المرأة ، قال الشاعر :

كأن لها في الارض نسياً تقصه   إذا ما غدت وإن تكالمك تبلت (٢)

أي نسياً تركته ، ومعنى (تبلت) أي تقطع كلامها رويداً رويداً وتقف وتصدق .

وقوله « فناداها من تحتها » قال ابن عباس والسدي والضحاك وقتادة : المنادي كان جبرائيل (ع) . وقال مجاهد والحسن ووهب بن منبه ، وسعيد بن جبير وابن زيد والجبائي : كان المنادي لها عيسى (ع) .

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٣ وتفسير الشوكاني ٣ / ٣١٧ والطبري ١٦ / ٤٢ والقرطبي ١١ / ٧٢   (٢) الطبري ١٦ / ٤٤ ومجمع البيان ٣ / ٥٠٩

وقوله « ألا تحزني » أي لا تغتمي « قد جعل ربك تحتك سريا » قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : السري هو النهر الصغير . وقال قوم : هو النهر بالسريانية . وقال آخرون : هو بالنبطية . وقال ابراهيم والضحاك وقتادة : هو النهر الصغير بالعربية ، مثل قول ابن عباس ، وقال البراء بن عازب : هو الجدول . وقال الحسن وابن زيد : السري عيسى (ع) . وقيل للنهر (سري) لأنه يسري بجريانه كما قيل جدول لشدة جريه . قال لبيد :

فتوسطا عرض السريّ فصدعا　　　مسجورة متجاوز أقدامها (١)

وقال آخر :

سلم ترى الدالي منـــه ازورا　　　إذا يعج في السريّ هرهرا (٢)

وقوله « وهزي اليك بجذع النخلة » معناه هزي النخلة اليك ، ودخلت الباء تأكيداً ، كما قال تعالى « تنبت بالدهن » (٣) . قال الشاعر :

نضرب بالبيض ونرجوا بالفرج (٤)

أى نرجو الفرج ، وقال آخر :

بواديمان ينبت السدر صدره　　　وأسفله بالمرخ والشبهان (٥)

وفي رواية ينبت الشث حوله . وقوله « تساقط عليك » من شدد، أراد تتساقط فادغم احد التاءين في السين ، ومن خفف حذف احد التاءين . ومن قرأ ـ بالياء ـ

---

(١) تفسير الطبري ١٦ / ٤٧ والقرطبي ١١ / ٩٤

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ٩٤ وروايته (يعب) بدل (يعج)

(٣) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٢٠　　　(٤) قائله النابغة الجعدي تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ١٩٣　　　(٥) تفسير الطبري ١٦ / ٤٨

أسند الفعل الى الجذع . ومن قرأ ـ بالتاء ـ اسنده الى النخلة . ومن قرأ تساقط أراد من المساقطة . وقرأ ابو حيويه ﴿ تسقط عليك ﴾ . وروي عنه (يسقط) وهو شاذ والمعاني متقاربة . وقال ابو علي : من قرأ ﴿ تساقط ﴾ عدى (فاعل) كما عدى (يتفاعل) وهو مطاوع (فاعل) قال الشاعر :

تطالعنا خيالات لسلمى　　　كما يتطالع الدين الغريم (١)

وانشد ابو عبيدة :

تخاطأت النبل أحشاءه　　　وأ خر يومي فلم أعجل (٢)

قال في موضع (اخطأت) كقوله ﴿ فان طبن لكم عن شيء منه نفساً ﴾ (٣) ومعنى الآية يتواقع عليك رطباً جنياً . والجني المجني (فعيل) بمعنى (مفعول) وهو المأخوذ من الثمرة الطرية ، اجتناه اجتناء إذا اقتطعه ، قال ابن اخت جذيمة :

هـذا جناي وخياره فيه　　　إذ كل جان يده الى فيه (٤)

وفي نصب ﴿ رطباً ﴾ قولان :

احدها ـ قال المبرد : هو مفعول به ، وتقديره هزي بجذع النخلة رطباً تساقط عليك .

وقال غيره: هو نصب على التمييز والعامل فيه تساقط .

وقال ابو علي : يجوز أن يكون نصباً على الحال ، وتقديره تساقط عليك ثمر النخلة رطباً ، فحذف المضاف الذي هو الثمرة ، ونصب رطباً على الحال .

وقيل : لم يكن للنخلة رأس وكان في الشتاء ، فجعله الله تعالى آية ، وانما تمنت الموت قبل تلك الحال التي قد علمت انها من قضاء الله لكراهتها أن يعصى الله بسببها

(١) البيت في مجمع البيان ٣\ ٥٠٧ (٢) مر تخريجه في ٦/٤٧٢ من هذا الكتاب
(٣) سورة ٤ النساء آية ٣ (٤) تفسير الطبري ١٦/٤٩

إذا كان الناس يتسرعون الى القول فيها بما يسخط الله . وقال قوم : انها قالت ذلك بطبع البشرية خوف الفضيحة . وقال قوم : المعنى فى ذلك اني لو خيرت قبل ذلك بين الفضيحة بالحمل والموت لا خترت الموت .

واختلفوا فى مدة حمل عيسى ، فقال قوم : كان حمله ساعة ووضعت فى الحال . وقال آخرون : حملت به ثمانية أشهر ولم يعش مولود الثمانية أشهر غيره (ع) ، فكان ذلك آية له . وفي بعض الروايات أنه ولد لستة أشهر . وقوله « فاجاءها المخاض » يدل على طول مكث الحمل ، فاما مقداره فلا دليل يقطع به .

قوله تعالى:

﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَداً (٢٥) فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنْسِيّاً (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً (٢٧) يَا أُخْتَ هٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيّاً (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً (٣٠) ﴾

خمس آيات بلا خلاف .

لما قال جبرائيل لمريم «هزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا» قال لها بعد ذلك « فكلي » من ذلك الرطب « واشربي » من السري « وقري

عيناً » ونصبه على التميز كقوله « فان طبن لـكم عن شيء منه نفساً » (١) وقيل في معنا « قري عيناً » قولان : احدها ـ لتبرد عينك برد سرور بما ترى .

الثاني ـ لتسكن سكون سرور برؤيتها ما تحب ، يقال قررت به عيناً أقر قروراً وهي لغة قريش . وأهل نجد يقولون : قررت به عيناً ـ بفتح العين ـ اقر قراراً ، كما يقولون قررت بالمكان ـ بالفتح .

وقوله ﴿ فاما ترين من البشر أحـداً فقولي اني نذرت للرحمن صوماً ﴾ قال الجبائي : كان الله تعالى أمرها بأن تنذر لله تعالى الصمت ، فاذا كلمها احد تومي بأنها نذرت صوماً صمتاً ، لانه لا يجوز ان يأمرها بان تخبر بانهـا نذرت ولم تنذر ، لأن ذلك كذب . وقال انس بن مالك وابن عباس والضحاك : تريد بالصوم الصمت . وقال قتادة : يعني صمتاً عن الطعام والشراب والكلام أي إمساكاً . وانما أمرهـا بالصمت ليكفيها الكلام ولدها بما يبرىء ساحتها ـ في قول ابن مسعود وابن زيد ووهب ابن منبة وقيل : من كان صام في ذلك الوقت لا يكلم الناس ، فاذن لها في هذا المقدار من الكلام، في قول السدي .

فان قيل كيف تكون نذرت الصمت وألا تكلم أحداً مع قولها واخبارها عن نفسها بانها نذرت وهل ذلك إلا تناقض ؟

قيل من قال : انه أذن لها في هذا القدر فحسب، يقول : انها نذرت لا تكلم بما زاد عليه . ومن قال: انها نذرت نذراً عاماً ، قال : أومت بذلك ولم تتلفظ به . وقيل: أمرها الله أن تشير اليهم بهذا المعنى ، وانها ولدته بناحية بيت المقدس ، وفي موضع يعرف بـ (بيت لحم) .

(١) سورة ٤ النساء آية ٣

ثم اخبر الله تعالى عن حال مريم أنها اتت بعيسى الى قومها تحمله ، فلما رأوها قالوا لها « لقد جئت شيئاً فريا » أي عملا عجيباً قال الراجز :

قد اطعمتني دقـلا حوليا مسوساً مدوداً حجريا

قـد كنت تفرين به الفريا (١)

قال قتادة ومجاهـد والسدي : معنى الفري العظيم من الأمر . وقيل الفري القبيح من الافتراء ، فقال لها قومها « يا اخت هارون »وقيل في هارون الذي نسبت اليه بالاخوة أربعة أقوال :

فقال قتادة : وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة يرفعه الى النبي (ص): انه كان رجلا صالحاً في بني اسرائيل ينسب اليه من عرف بالصلاح .

وقال السدي : نسبت الى هارون أخي موسى (ع) لأنهـا كانت من ولده كما يقال يا أخا بني فلان .

وقال قوم : كان رجلا فاسقاً معلناً بالفسق ، فنسبت اليه .

وقال الضحاك: كان أخاها لابيها وأمها،وكان بنوإسرائيل يسمون أولادهم باسماء الأنبياء كثيراً . وقوله « ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا » اي لم يكن أبواك إلا صالحين ، ولم يكونا فاجرين ، فكيف خالفتيهما « فاشارت اليه » اي أومأت عند ذلك مريم الى عيسى (ع) أن كلموه ، واستشهدوه على براءة ساحتي « فقالوا » في جوابها « كيف نكلم من كان في المهد صبيا » قال قوم : دخلت (كان) ههنا زائدة ونصب (صبياً) على الحال . وانشد أبو عبيدة في زيادة (كان) :

الى كناس كان مستعدة

وقال آخر :

---

(١) تفسير الطبري ١٦ / ٥١ والقرطبي ١١ / ١٠٠

فكيف إذا رأيت ديار قومي وجيران لنا كانوا كرام(١)

والمعنى وديار جيران كرام و (كانوا) فضلة ، فلذلك لم تعمل . وقيل معنى (كان) صار وانشد لزهير :

اجزت اليـــه حرة أرجيـة وقد كان لون الليل مثل الارندج

اي قد صار . وقال المبرد : معنى (كان) حدث . وقال الزجاج : معناه على الشرط ، وتقديره من كان في المهد صبياً كيف نكلمه على التقديم والتأخير . وقال قتادة : المهد حجر أمه ، واصله ما وطيء للصبي . وقيل : انهم غضبوا عند اشارتها الى ذلك، وقالوا: لسخريتها بنا أشد علينا من زناها، فلما تكلم عيسى ، قالوا: إن هذا الامر عظيم ـ ذكره السدي ـ فقال عيسى (ع) عند ذلك « اني عبد الله آتاني الكتاب » قال عكرمة : معناه فيما مضى « وجعلني نبياً » لان الله أكمل عقله وأرسله الى عباده ولذلك كانت له تلك المعجزة ـ في قول الحسن وابي علي الجبائي ـ وقال قوم : معناه « اني عبد الله » سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبياً فيما بعد ، وكان ذلك معجزة لمريم على براءة ساحتها على قول من أجاز اظهار المعجزات على يد غير الانبياء من الصالحين . وقال ابن الاخشاذ : كان ذلك إنذاراً لنبوته . وقال الجبائي معنى « وجعلني نبياً » أي وجعلني رفيعاً لان النبي هو الرفيع .

قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (٣١) وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً (٣٢)

(١) قائله الفرزدق . ديوانه (دار بيروت) ٢ / ٢٩٠ وقد مر في ٣ / ١٥٥ من هذا الكتاب .

وَٱلسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ خمس آيات بلاخلاف .

قرأ الكسائي « آتاني ، واوصاني » بالامالة . الباقون بالتفخيم ، فمن أمال ، فلان هذه الألف تنقلب ياء في (أوصيت) فأمال لمكان الياء . ومن لم يمل ، فلمكان الألف. والامالة في (آتاني) احسن من الامالة في (أوصاني)لأن في (أوصاني) حرفاً مستعلياً يمنع من الامالة ، ومع ذلك ، فهو جائز كصفي وطغي . وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب « قول الحق » بالنصب على المصدر . الباقون بالرفع على أنه خبر الابتداء ، وتقديره ذلك الذي تلوناه من صفته « قول الحق » وقيل هو تابع لـ (عيسى) كأنه قيل كلمة الحق وروي عن عبد الله انه قرأ « قول الحاقّ » بمعنى قول الحق ومعناه يحق نحو العاب والعيب والذام والذيم .

لما حكى الله تعالى عن عيسى أنه قال لقومه « اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً » أخبر أنه قال « وجعلني مباركاً » قال مجاهد : معناه معلماً للخير اينما كنت . وقيل نفاعاً ، والبركة نماء الخير ، والمبارك الذى ينمى الخير به . والتبرك طلب البركة بالشيء وأصله التبرك من البرك وهو ثبوت الطير على الماء .

وقوله « واوصانى بالصلاة والزكاة » معناه أمرني بهما . والوصية التقدم فى الأمر الذى يكون بعدما وقتله ، كتقدم الانسان في التدبير بعد خروجه ، وكتقدمه في أموره بعد موته . والصلاة فى أصل اللغة: الدعاء ، وفي الشرع عبارة عن هذه العبادة

التي فيها الركوع والسجود . وقيل عبارة عن عبادة افتتاحها التكبير وخاتمتها التسليم . وقيل في معنى الزكاة ـ ههنا ـ قولان : احدهما ـ زكوة المال . والثانى ـ التطهير من الذنوب .

« ما دمت حياً » أي أوصاني بذلك مدة حياتي « وبراً بوالدتي » أى واوصاني بأن اكون باراً بوالدتي أي محسناً إليها « ولم يجعلني جباراً » أى متجبراً ،لم يحكم علي بالتجبر ، والشقاء ، ولم يسمني بذلك « والسلام علي » أى والرحمة من الله بالسلامة والنعمة بها علي « يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حياً » .

وقوله « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق » أى الذى تلوناه من صفة عيسى « قول الحق » أى كلمة الحق « الذى فيـه يمترون » اى يشكون فيه « ما كان لله أن يتخذ من ولد »اخبار منه تعالى بأنه لم يكن لله أن يتخذ من ولد على ما يقوله النصارى. ثم قال منزها لنفسه عن ذلك « سبحانه إذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون » اى يفعله لا يشق عليه بمنزلة ما يقال كن فيكون ، وقد بينا فيما مضى وحكينا ما قال بعضهم إنّ قول (كن) عند خلق ما يريد خلقه ليعلم الملائكة أنه لا يتعذر عليه شيء يريد فعله .

والسلام مصدر سلمت سلاماً ، ومعناه عموم العافية والسلامة . والسلام جمع سلامة. والسلام اسم من اسماء الله وسلام يبتدأ به في النكرة ،لانه يكثر استعماله، تقول: سلام عليكم والسلام عليكم ، وأسماء الاجناس يحسن الابتداء بها ، لأن فائدتها واحدة ، ولما جرى ذكر (سلام) أعيد ـ ههنا ـ بالألف واللام ليرد على الاول .

قوله تعالى :

وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦)

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع ويعقوب إلا روحاً « وأن الله » بفتح الهمزة الباقون بكسرها . من نصب الهمزة احتمل أربعة أوجه :

احدها ـ إن المعنى وقضى الله « أن الله ربي وربكم » في قول ابي عمرو بن العلا

والثاني ـ أنه معطوف على كلام عيسى ، أي واوصاني « أن الله ربي وربكم »

والثالث ـ قال الفراء : إنه معطوف على « ذلك عيسى بن مريم » وذلك « أن الله » . ويكون موضعه الرفع بأنه خبر المبتدأ .

الرابع ـ ولان الله ربي وربكم فاعبدوه . والعامل فيه (فاعبدوه) .

ومن كسر (إن) استأنف الكلام . ويقوي الكسر انه روي ان أبياً قرأ « ان الله » بلا واو ويجوز ان يكون عطفاً على قوله « قال اني عبد الله » وقوله « هذا صراط مستقيم » معناه عبادتكم لله وحده لا شريك له هو الصراط المستقيم الذى لا اعوجاج فيه .

وقوله « فاختلف الاحزاب من بينهم » فالاختلاف في المذهب هو ان يعتقد كل قوم خلاف ما يعتقده الآخرون . والاحزاب جمع حزب . والحزب الجمع المنقطع في رأيه عن غيره ، يقال تحزب القوم إذا صاروا أحزاباً . وحزب عليهم

الأحزاب أى جمع . والمعنى في الآية اختلف الأحزاب من أهـل الكتاب فى عيسى (ع) ، فقال قتادة ومجاهد قال قوم : هو الله وهم اليعقوبية . وقال آخرون : هو ابن الله وهم النسطورية . وقال قوم: هو ثالث ثلاثة وهم الاسرائيلية . وقال قوم: هو عبد الله وهم المسلمون .

ثم قال تعالى « فويل للذين كفروا » بآيات الله ، وجحدوا وحدانيته من حضور يوم عظيم يعني يوم القيامة .

وقوله « اسمع بهم وابصر يوم يأتوننا » معناه ما أسمعهم وابصرهم على وجه التعجب ، والمعنى انهم حلوا في ذلك محل من يتعجب منه ، وفيه تهدد ووعيد أن سيسمعون ما يصدع قلوبهم ويردون ما يهيلهم . وقال الحسن وقتادة : المعنى لأن كانوا فى الدنيا صماً عمياً عن الحق . فما اسمعهم به ، وما أبصرهم به يوم القيامـة « يوم يأتوننا » أي يوم يأتون المقام الذي لا يملك أحد فيه الامر والنهي غير الله .

ثم قال تعالى « لكن الظالمون » انفسهم بارتكاب معاصيه وجحد آياته والكفر بأنبيائه « اليوم » يعني في دار الدنيا « في ضلال » عن الحق وعدول عنه « بعيد » من الصواب . ثم قال لنبيـه (ص) « وانذرهم » يا محمد أى خوفهم هول « يوم الحسرة » اى اليوم الذى يتحسر فيه الناس على ما فرطوا فيه من طاعة الله ، وعلى ما ارتكبوا من معاصيه فى الوقت الذى « قضي الامر » وحكم بين الخلائق بالعـدل « وهم في غفلة » اليوم عما يفعل بهم من العقاب على معاصيهم، وهم لا يصدقون بما يقال لهم ويخبرون به . ثم اخبر تعالى عن نفسه ، فقال « انا نحن نرث الارض ومن عليها » اى يعود إلينا التصرف فى الارض وفيمن عليها من العقلاء ، وغيرهم ، لا يبقى لاحد ملك « والينا يرجعون » أى يردون يوم القيامة الى الموضع الذى لا يملك الامر والنهي غيرنا .

قوله تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ (٤٥) خمس آيات في الكوفي والبصري، وست آيات في المدنيين عدوا «في الكتاب ابراهيم» آية.

امر الله تعالى نبيه (ص) أن يذكر ابراهيم في الكتاب الذى هو القرآن، وسماه كتاباً، لأنه مما يكتب. والمعنى اقصص عليهم أو اتل عليهم. وكذلك فيما بعد. ثم قال «انه» يعنى ابراهيم «كان صديقاً نبياً» والصديق هو الكثير التصديق بالحق حتى صار علماً فيه. وكل نبي صديق لكثرة الحق الذى يصدق فيه مما هو علم فيه وامام يقتدى به من توحيد الله وعدله، حين «قال لأبيه يا أبت» والاصل يا ابتي، فحذف ياء الاضافة وبقيت كسرة التاء تدل عليها. وقيل ان التاء دخلت للمبالغة في تحقيق الاضافة، كما دخلت فى (علامة، ونسابة) للمبالغة فى الصفة. ومثله يا أمت. والوقف بالتاء لهذه العلة. واجاز الزجاج الوقف بالهاء. وقيل ان التاء عوض من ياء الاضافه.

وقوله «لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً» من امور الدنيا

وإنما هو حجر منقور ، او صنم معمول « يا أبت إني قد جاءني من العلم » بمعرفة الله وتوحيده ووجوب اخلاص العبادة له ، وقبح الاشراك « ما لم يأتك فاتبعني » على ذلك واقتد بي « اهدك صراطاً سوياً » معتدلا غير جائر بك عن الحق الى الضلال « يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصياً » اي عاصياً (فعيل) بمعنى فاعل .

« يا ابت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » قال الفراء : أخاف بمعنى أعلم ههنا ، ومثله « فخشينا أن يرهقهما »(١) أي علمنا «أن يمسك» أي يلحقك عذاب من الله على إشراكك معه في العبادة غيره . ومتى فعلت ذلك كنت وليّاً للشيطان وناصراً ومساعداً ، ونصب « فتكون » عطفاً على ﴿ ان يمسك ﴾ . وقيل : إن معناه أنه يلزمك ولاية الشيطان لعبادتك له ذمّاً لك وتقريعاً ، إذا ظهر عقاب الله لك ، وسخطه عليك . وقيل : فتكون موكولا الى الشيطان ، وهو لا يغني عنك شيئاً . وقال قوم : هذه المخاطبة من ابراهيم كان لأبيه الذي هو والده . والذي يقوله اصحابنا انه كان جده لأمه ، لأن آباء النبي (ص) كلهم كانوا مسلمين الى آدم ، ولم يكن فيهم من يعبد غير الله تعالى ، لقوله (ص) (لم يزل الله ينقلني من اصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات) والكافر لا يوصف بالطهارة ، لقوله تعالى «إنما المشركون نجس »(٢) قالوا وابوه الذي ولده كان اسمه تارخ ، وهذا الخطاب منه كان لآزر

قوله تعالى:

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٨١ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٢٩

لأَرْجمنَّكَ وَٱهجُرْني مليّاً (٤٦) قالَ سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لكَ رَبّي إنّهُ كانَ بي حفيّاً (٤٧) وأعتزِلُكُم وَما تدعُونَ من دُون ٱللهِ وأدْعُو رَبّي عسَى ألاّ أكُونَ بدُعاءِ رَبّي شَقيّاً (٤٨) فَلَمّا اعتزَلهُمْ وَما يَعبُدُونَ منْ دُون ٱللهِ وهَبْنا لهُ إسحٰقَ ويعقُوبَ وكُلاًّ جعلْنا نَبيّاً (٤٩) ووَهَبْنا لهُم منْ رَحمتِنا وَجعلْنا لهُم لسَانَ صِدقٍ عليّاً ﴾ (٥٠) خمس آيات بلاخلاف .

لماحكى الله تعالى ما قال ابراهيم لأبيه، وتوبيخه له على عبادة الاصنام، وتقريعه اياه على ذلك ، حكى في هذه الآيات ما أجاب به أبوه ، فانه قال له يا ابراهيم « أراغب أنت عن آلهتي » ومعناه أزاهد في عبادة آلهتي ، والرغبة اجتلاب الشيء لما فيه من المنفعة ، والرغبة فيه نقيض الرغبة عنه . والترغيب الدعاء الى الرغبة فى الشيء . ثم قال له مهدداً « لئن لم تنته » أي لم تمتنع من ذلك ، يقال نهاه فانتهى . واصله النهاية ، فالنهي زجر عن الخروج عن النهاية المذكورة . والتناهي بلوغ نهاية الحد . وقوله « لا رجمنك » قال الحسن : معناه لارمينّك بالحجارة حتى تباعد عني . وقال السدي وابن جريج والضحاك : معناه لأرمينك بالذم والعيب. وقوله « واهجرني ملياً » قيل فى معناه قولان :

قال الحسن ومجاهد « ملياً » دهراً [قال الفراء : ويقال : كنت عنده ملوة وملوة وملوة -بتثليث الميم- وملاوة بالفتح وملاوة بالضم أي] (١) دهراً ملاوة، وكله من طول المقام

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

وبه قال سعيد بن جبير والسدي ، وهو بمعنى الملاوة من الزمان وهو الطويل منه .

والثاني ـ قال ابن عباس وقتادةوعطية والضحاك : معنى « مليا » سوياً سليماً من عقوبتي ، وهو من قولهم : فلان مليّ بهذا الأمر إذا كان كامل الأمر فيـــه مضطلعاًبه ، فقال لهابراهيم « سلامعليك »أيسلامةعليك،أياكرام وبر بحق الأبوة وشكر التربية . وقال ذلك على وضع التواضع له ولين الجانب لموضعه « سأستغفر لك ربي »قال قوم : انما وعده بالاستغفار على مقتضى العقل ، ولم يكنقد استقر بعد قبح الاستغفار للمشركين . وقال قوم : معناه سأستغفر لك إذا تركت عبادة الأوثان وأخلصت العبادة لله تعالى . ومعنى قوله « انه كان بي حفياً » إن الله كان عالمًا بي لطيفاً ، والحفي اللطيف بعموم النعمة ،يقال:تحفني فلان إذا اكرمني وألطفني،وحفي فلان بفلان حفاوة إذا ابره وألطفه . والحفى أذى يلحق باطن القدم للطفه عن المشي بغير نعل

ثم قال « وأعتزلكم » أي اتنحى عنكم جانباً ، واعتزل عبادة « ما تدعون من دون الله . وادعو ربي » وحده ﴿ عسى أن لا اكون بدعاء ربي شقيا ﴾ .

وقوله ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ﴾ قيل انه اعتزلهم بأن خرج الى ناحية الشام ﴿ وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ﴾ أي لما اعتزلهم آنسنا وحشته بأولاد كرام على الله رسل لله، وجعلناهم كلهم أنبياء معظمين ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا ﴾ أي من نعمتنا ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ قال ابن عباس والحسن: معناه الثناء الجميل الحسن من جميع أهل الملل ، لان أهل الملل على اختلافهم يحسنون الثناء عليهم ، وتقول العرب : جاءني لسان منفلان تعنى مدحه أو ذمـه قال عامر ابن الحـارث:

اني اتتني لسان لا اسر بهـا   من علو لا عجب منها ولا سخر

جاءت مرجمة قد كنت احذرها لو كان ينفعني الاشفاق والحذر(١)

وقيل: معناه انا جعلناهم رسل الله يصدقون عليه أعالي الصفات :

قوله تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّاً (٥٣) وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ (٥٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا ابا بكر ﴿ مخلصاً ﴾ ـ بفتح اللام ـ بمعنى اخلصه الله للنبوة. الباقون ـ بالكسر ـ بمعنى أخلص هو العبادة لله .

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) ﴿ واذكر ﴾ موسى ﴿ فى الكتاب ﴾ الذي هو القرآن . وسماه كتاباً لما ذكرناه: أنه يكتب . واخبر أن موسى كان مخلصاً بطاعاته وجه الله تعالى دون رياء الناس ، وانه لم يشرك فى عبادته سواه . ومن فتح اللام أراد ان الله اخلصه لطاعته بمعنى أنه لطف له ما اختار عنده اخلاص الطاعة . وانه لم يشب ذلك بمعصيته له ، وأنه مع ذلك كان رسولا لله تعالى الى خلقه ، قد حمله رسالة يؤديها اليهم ﴿ وكان نبياً ﴾ وهو العلي برسالة الله الى خلقه ، وبما نصب له من المعجزة الدالة

(١) تفسير الطبري ١٦ / ٦٢ وهو في مجمع البيان ٣ | ٥١٦

على تعظيمه وتبجيله ، وعظم منزلته . وهو مأخوذ من النبأ ، وهو الخبر بالأمر العظيم.

ثم اخبر الله تعالى انه ناداه ﴿ من جانب الطور الأيمن ﴾ فانه قال له ﴿ اني انا الله رب العالمين ﴾ والطور جبل بالشام ناداه من ناحيته اليمنى ، وهو يمين موسى (ع). وقوله ﴿ وقربناه نجياً ﴾ معناه قربناه من الموضع الذي شرفناه وعظمناه بالحصول فيه ليسمع كلامه تعالى . وقال ابن عباس ومجاهد: قرب من اهل الحجب حتى سمع صريف القلم . وقيل معناه إن محله منا محل من قربه مولاه من مجلس كرامته . وقيل قربه حتى سمع صرير القلم الذي كتب به التوراة. وقوله ﴿ نجيا ﴾ معناه انه اختصه بكلامه بحيث لم يسمع غيره ، يقال : ناجاه يناجيه مناجاة إذا اختصه بالقاء كلامه اليه . واصل النجوة الارتفاع عن الهلكة، ومنه النجاة ايضاً، والنجاء السرعة ، لأنه ارتفاع فى السير ، ومنه المناجاة . وقال الحسن : لم يبلغ موسى (ع) من الكلام الذي ناجاه شيئاً قط . ثم اخبر تعالى انه وهب له من رحمته ونعمته عليه اخاه هارون نبياً ، شد أزره كما سأله .

ثم قال لنبيه محمد (ص) ﴿ واذكر في الكتاب ﴾ الذي هو القرآن أيضاً ﴿ اسماعيل ﴾ ابن ابراهيم وأخبر ﴿ انه كان صادق الوعد ﴾ بمعنى إذا وعد بشيء وفى به، ولم يخلف ﴿ وكان ﴾ مع ذلك ﴿ رسولا ﴾ من قبل الله الى خلقه ﴿ نبياً ﴾ معظماً بالاعلام المعجزة. وأنه « كان يأمر اهله بالصلاة والزكاة » قال الحسن : أراد بأهله أمته ، والمفهوم من الأهل في الظاهر اقرب أقاربه . و « كان » مع هذه الاوصاف « عند ربه مرضياً » قد رضي اعماله لانها كلها طاعات لم يكن فيها قبائح . وانما أراد بذلك افعاله الواجبات والمندوبات دون المباحات ، لان المباحات لا يرضاها الله ولا يسخطها . واصل (مرضي) مرضو فقلبت الضمة كسرة والواو ياء وادغمت في الياء .

قوله تعالى :

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً (٥٧) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَٰوةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ (٦٠) خمس آيات .

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) « اذكر في الكتاب » الذي هو القرآن « إدريس » واخبر انه كان كثير التصديق بالحق ، وكان « نبياً » معظماً مبجلاً مؤيداً بالمعجزات الباهرة . ثم أخبر تعالى أنه رفعه مكاناً علياً . قال انس بن مالك: رفعه الله الى السماء الرابعة ، وروى ذلك عن النبي (ص) وبه قال كعب ومجاهد ، وابو سعيد الخدري . وقال ابن عباس والضحاك : رفعه الله الى السماء السادسة .

واصل الرفع جعل الشيء في جهة العلو ، وهي نقيض السفل ، يقال : رفعه يرفعه رفعاً ، فهو رافع وذاك مرفوع . والعلي العظيم العلوّ والعالي العظيم فيما يقدر به على الأمور ، فلذلك وصف تعالى بأنه علي . والفرق بين العليّ والرفيع أن العلي قد يكون بمعنى الاقتدار وعلو المكان . و (الرفيع) من رفع المكان لا غير . ولذلك

لا يوصف تعالى بأنه رفيع . وقوله « رفيع الدرجات » (١) انما وصف الدرجات بأنها رفيعة . وانما أخذ من علو معنى الصفة بالاقتدار ، لأنها بمنزلة العالي المكان .

ثم اخبر تعالى عن الانبياء الذين تقدم وصفهم فقال« اولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين » فان حملنا (من) على التبعيض لم تدل على أن من عداهم لم ينعم عليهم، بل لا يمتنع أن يكون انما افردهم بأنه انعم عليهم نعمة مخصوصة عظيمة رفيعة ، وإن كان غيرهم ايضاً قد أنعم عليهم بنعمة دونها . وإن حملنا (من) على انها لتبيين الصفة لم يكن فيه شبهة . لأن معنى الآية يكون اولئك الذين أنعم الله عليهم من جملة النبيين .

وقوله « من ذرية آدم »[لان الله تعالى بعث رسلا ليسوا من ذرية آدم بل هم من الملائكة كما قال« يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس » (٢) وقوله « وممن حملنا » في السفينة « مع نوح » أي ابوهم نوح وهو من ذرية آدم كما قال] (٣) «ومن ذرية ابراهيم واسرائيل » يعني يعقوب « وممن هدينا » هم الى الطاعات فاهتدوا اليها واجتبيناهم اي اخترناهم واصطفيناهم « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن » اي أعلامه وادلته « خروا سجدا وبكيا » أي سجدوا له تعالى وبكوا ، وبكي جمع باك ونصبهما على الحال، وتقديره: خروا ساجدين باكين. وبكي (فعول) ويجوز ان يكون جمع باك على (فعول) . ويجوز ان يكون مصدراً بمعنى البكاء . قال الزجاج : لا يجوز النصب على المصدر ، لأنه عطف على قوله «سجداً » . وانما فرق ذكر نسبهم ، وكلهم لآدم، ليبين مراتبهم في شرف النسب ، فكان لادريس شرف القرب من آدم ، لأنه جدّ نوح . وكان ابراهيم من ذرية من حمل مع نوح ، لأنه من ولد سام بن نوح . وكان اسماعيل

(١) سورة ٤٠ المؤمن آية ١٥ (٢) سورة ٢٢ الحج آية ٧٥

(٣) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة .

واسحاق ويعقوب من ذرية ابراهيم ، لما تباعدوا من آدم حصل لهم شرف ابراهيم ، وكان موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى من ذرية إسرائيل ، لأن مريم من ذريته . وقيل انما وصف الله صفة هؤلاء الانبياء ليقتدى بهم وبتبع آثارهم في اعمال الخير

ثم اخبر تعالى انه خلفه من بعد المذكورين خلف . والخلف ـ بفتح اللام ـ يستعمل في الصالحين ، وبتسكين اللام في الطالح قال لبيد :

ذهب الذين يعاش في اكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الاجرب (١)

وقال الفراء والزجاج : يستعمل كل واحد منهما في الآخر .

وفي الآية دلالة على أن المراد بالخلف من لم يكن صالحاً ، لانه قال « أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات » وقال القرطي : تركوها . وقال ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز : أخروها عن مواقيتها . وهو الذي رواه أصحابنا . وقال قوم خلف ـ بفتح اللام ـ إذا خلف من كان من أهله ـ وبسكون اللام ـ إذا كان من غير أهله .

ثم قال تعالى « فسوف يلقون غياً » والغي الشر والخيبة ـ في قول ابن عباس وابن زيد ـ قال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس امره ... ومن يغو لا يعدم على الغي لائما (٢)

اي من يخب . وقال عبد الله بن مسعود : الغي واد في جهنم . وقيل معناه يلقون مجازاة غيهم . ثم استثنى من جملتهم من يتوب فيما بعد ويرجع الى الله ويؤمن به ويصدق أنبياءه ، ويعمل الاعمال الصالحة من الواجبات والمندوبات ، ويترك القبائح فان « اولئك يدخلون الجنة » من ضم الياء أراد أن الله يدخلهم الجنة بأن يأمرهم بدخولها ، فضم لقوله « ولا يظلمون » ليتطابق اللفظان . ومن فتح الياء أراد أنهم

(١) مر تخريجه في ٥ / ٢٥ من هذا الكتاب

(٢) مر هذا البيت في ٢ / ٣١٢ ، ٤ / ٣٩١ ، ٥ / ٥٤٨ ، ٦ / ٣٣٦

يدخلون بأمر الله . والمعنيان واحد . وقوله « ولا يظلمون شيئاً » معناه لا يبخسون شيئاً من ثوابهم بل يوفر عليهم على التمام والوفاء .

قوله تعالى:

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ عِبَادَهُ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (٦٥) خمس آيات بلا خلاف.

« جنات » فى موضع نصب بدلا من قوله « الجنة » فى قوله « يدخلون الجنة » وكان يجوز الرفع بتقدير هي جنات . والجنة البستان الذي يجنه الشجر ، فاذا لم يكن فى البستان شجر ، ويكون من خضرة ، فهو روضة ، ولا يسمى جنة . وانما قيل « جنات » على لفظ الجمع ، لان كل واحد من المؤمنين له جنة تجمعها الجنة العظمى . والعدن الاقامة يقال : عدن بالمكان يعدن عدناً اذا أقام به . والاقامة كون بالمكان على مرور الازمان . والوعد الاخبار بما يتضمن فعل الخير ، ونقيضه الوعيد ، وهو الاخبار عن فعل الشر . وقد يقال: وعدته بالشر ، ووعدته بالخير ، وأوعدته بالشر . وأوعدته

لايكون إلا فى الشر ، والمراد بالوعد ـ ههنا ـ الموعود . ومعنى مأتيا مفعولا . ويجوز فى مثل هذا (آتيًا) و (مأتيًا) لأن ما أتيته ، فقد اتاك وما أتاك فقد أتيته ، كما يقال أتيت على خمسين سنة وأتت عليّ خمسون سنة . وقيل معناه إنه كقولك اتيت خير فلان وأتاني خير فلان .

وقوله « بالغيب » معناه أن الجنة التي وعدهم بها ليست حاضرة عندهم بل هي غائبة. وقوله « لا يسمعون فيها لغواً » معناه لا يسمعون فى تلك الجنة القول الذي لا معنى له يستفاد ، وهو اللغو . وقد يكون اللغو الهذر من الكلام . واللغو ، واللغا بمعنى واحد قال الشاعر :

عن اللغا ورفث التكلم (١)

وقوله « إلا سلاماً » يعني لكن سلامًا وتحية من بعضهم لبعض ، قال ابو عبيدة : تقديره لا يسمعون فيها لغواً إلا انهم يسمعون سلاماً . وقال الزجاج : المعنى لا يسمعون كلاماً يؤثمهم إلا كلاماً يسلمهم ، فيكون استثناء منقطعاً .

وقوله « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً » قيل معناه في مقدار اليوم من أيام الدنيا ، فذكر (الغداة والعشي) ليدل على المقدار ، لانه ليس في الجنة ليل ، ولا نهار . وقيل : انما ذكر ذلك ، لأن اسلم الاكلات اكلة الغداة والعشي ، فهو اسلم من الأكل دائمًا أيّ وقت وجده ، أو تكون اكلته واحدة.

وقوله « تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً » معناه انما نملك تلك الجنة من كان تقياً فى دار الدنيا بترك المعاصي ، وفعل الطاعات. وانما قال « نورث » مع انه ليس بتمليك نقل من غيرهم اليهم ، لأنه مشبه بالميراث من جهة أنه تمليك بحال استؤنفت عن حال قد انقضت من أمر الدنيا ، كما ينقضي حال الميت من أمر الدنيا.

(١) مر تخريجه فى ٢ / ١٣٢ ، ١٦٤ ، ٢٣٠

وقيل : انه أورثهم من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا .

وقوله «وما نتنزل إلا بامر ربك »قيـل في معناه أن النبي (ص) استبطأ جبرائيل (ع) فقال (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا) فاتاه بهذا الجواب وحياًمنالله بأنالانتنزل إلا بأمر الله ، وهو قول ابن عباس والربيع وقتادة والضحاك ومجاهد وابراهيم .

وقوله « له ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلـك » قال ابن عباس والربيع وقتادة والضحاك وأبو العاليـة : له مابين أيدينا:الدنيا ، وماخلفنا : الآخرة ، ومابين ذلك: مابينالنفختين .

وقوله « وما كان ربك نسيا » أي ليس الله تعالى ممن ينسى ويخرج عن كونه عالمًا ، لانه عالم لنفسه ، وتقديره ـ ههنا ـ وما نسيك وإن أخر الوحي عنك .

وقوله « رب السموات والارض » معناه إن الله تعالى هو المالك المتصرف فى السموات والارض ، ليس لأحـد منعـه منه « وما بينهـما » يعني وله ما بين السموات والارض .

ثم قال لنبيه (ص) « فاعبده»وحده لا شريكله« واصطبر لعبادته» أي اصبر على تحمل مشقة عبادته، وقال لنبيه (ص) « هل تعلم له سميًا » أي مثلا وشبهاً . وهو قول ابن عباس ومجاهد وابن جريج . وقيل المعنى انه لا يستحق احد ان يسمى إلهًا إلا هو . ومن أدغم اللام فى التاء ، فلان مخرج اللام قريب من مخرج التاء . وقال ابو علي : ادغام الـلام في الطاء والدال والتـاء والصاد والزاي والسين جائز لقرب مخرج بعضها من بعض .

قوله تعالى :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ (٧٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ نافع وابن عامر وعاصم « أولا يذكر » خفيفاً . الباقون بالتشديد . من شدد: أراد أولا يتذكر ، فادغم التاء في الذال لقرب مخرجيهما . ومن خفف ، فلقوله « فمن شاء ذكره » (١) والخفيفة دون ذلك في الكثرة في هذا المعنى . هذا حكاية من الله تعالى عن قول من ينكر البعث والنشور من الكفار ، وهم المعنيون بقوله « اولا يذكر الانسان » بانهم يقولون على وجه الانكار والاستبعاد :أإذا متنا يخرجنا الله احياء ويعيدنا كما كنا ؟! فقال الله تعالى منبها على دليل ذلك « اولا يذكر الانسان » . من شدد أراد اولا يتفكر ، ومن خفف أراد اولا يعلم « أنا خلقناه من قبل » هذا « ولم يك شيئاً » موجوداً ، فمن قدر على أن يخلق ويوجد ما ليس بشيء ، فيجعله شيئاً موجوداً ، فهو على إعادته بعد عدمه الى الحالة الاولى أقدر .

ثم اقسم تعالى فقال « فوربك لنحشرنهم » أي لنبعثنهم من قبورهم مقرنين

(١) سورة ٧٤ المدثر آية ٥٥ وسورة ٨٠ عبس آية ١٢

بأوليائهم من الشياطين . ويحتمل (الشياطين) أن يكون نصباً من وجهين :

احدها ـ ان يكون مفعولا به بمعنى ونحشر الشياطين .

الثاني ـ ان يكون مفعولا معه بمعنى لنحشر نهم مع الشياطين «ثم لنحضر نهم حول جهنم جثياً » جمع جاثي وهو الذي برك على ركبتيه . وقوله « ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا » يعني تمرداً أي نبدأ بالاكبر جرماً فالاكبر، في قول أبي الاحوص ، ومجاهد . والشيعة هم الجماعة المتعاونون على أمر واحد من الامور ، ومنه تشايع القوم إذا تعاونوا ، ويقال للشجاع : شيع أي معان ، وفي رفع (أيهم) ثلاثة اقوال :

أولها الحكاية على تقدير ، فيقال لهم أيهم أشد على الرحمن عتيا ؟ فليخرج .

الثاني ـ انه مبني على الضم، ومعناه الذي هو اشد على الرحمن عتيا، إلا أنه مبني لما حذف منه (هو) . واطرد الحذف به فصار كبعض الاسم . فالاول قول الخليل . والثاني مذهب سيبويه .

والثالث ـ أن يكون (لننزعن) معلقة كتعليق علمت أيهم في الدار ، وهو قول يونس . وأجاز سيبويه النصب على أن يكون (أي) بمعنى الذي . وذكر انها قراءة هارون الاعرج .

وقوله « ولم يك شيئاً » أي لم يكن شيئاً موجوداً كائناً . ثم أخبر تعالى أنه اعلم بالذين عملوا المعاصي وارتكبوا الكفر والكبائر . والذين هم اولى بالنار صلياً ، لا يخفى عليه خافية .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً (٧١)
ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَنَذَرُ ٱلظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً (٧٢) وَإِذَا تُتْلَى

عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمٰنُ مَدّاً (٧٥) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً ﴾ (٧٦) خمس آيات .

قرأ نافع وابن عامر «وريا» بغير همز . الباقون بهمز ، من همز فمعناه المنظر الحسن (فعيل) من الرؤية ، ومن لم يهمز احتمل أن يكون خفف الهمزة كما قالوا في البريئة برية ويحتمل أن يكون مأخوذاً من الري ، وهو امتلاء الشباب والنظارة ، أي ترى الري في وجوههم. وقرأ سعيد بن جبير « وريا » جعله من الري وقرى، بالزاي، ومعناه ما يتزيا به .

وقرأ ابن كثير « مقاماً » ـ بضم الميم ـ الباقون بفتحها . فالمقام ـ بضم الميم ـ مصدر الاقامة . وبفتحها المكان ، كقوله « مقام ابراهيم » (١) وقرأ يعقوب الحضرمي وعاصم والجحدري وابن أبي ليلى وابن عباس « ثم ننجي » بفتح الثاء بمعنى هناك ننجي المتقين . والباقون ﴿ ثم ﴾ بضم الثاء حرف عطف .

يقول الله تعالى للمكلفين انه ليس منكم أحد إلا وهو يرد جهنم ، فان الكناية في قوله « إلا واردها » راجعة الى جهنم بلا خلاف، إلا قول مجاهد ، فانه قال: هي كناية عن الحمى والامراض. وروى في ذلك خبراً عن النبي (ص) عن ابي هريره . وقال قوم : هو كناية عن القيامة . واقوى الاقوال الأول ، لقوله تعالى « ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً » يعني في جهنم .

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٩٧

واختلفوا في كيفية ورودهم اليها ، فقال قوم ـ وهو الصحيح ـ : إن ورودهم هو وصولهم اليها واشرافهم عليها من غير دخول منهم فيها ، لأن الورود في اللغة هو الوصول الى المكان . واصله ورود الماء ، وهو خلاف الصدور عنه . ويقال: ورد الخبر بكذا ، تشبيها بذلك . ويدل على أن الورود هو الوصول الى الشيء من غير دخول فيه قوله تعالى « ولما ورد ماء مدين » وأراد وصل اليه . وقال زهير :

فلما وردن الماء زرقاً جمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم (١)

وقال قتادة وعبدالله بن مسعود : ورودهم اليها هو ممرهم عليها . وقال عكرمة يردها الكافر دون المؤمن ، فخص الآية بالكافرين . وقال قوم شذاذ : ورودهم إليها: دخولهم فيها ولو تحلة القسم . روي ذلك عن ابن عباس وكان من دعائه : اللهم أزحني من النار سالماً وادخلني الجنة غانماً . وهذا الوجه بعيد ، لان الله قال « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » (٢) فبين تعالى أن من سبقت له الحسنى من الله يكون بعيداً من النار ، فكيف يكون مبعداً منها مع أنه يدخلها . وذلك متناقض ، فاذاً المعني بورودهم أشرافهم عليها ، ووصولهم اليها .

وقوله « كان على ربك حتماً مقضياً » معناه إن ورودهم الى جهنم على ما فسرناه حتم من الله وقضاء قضاه لابد من كونه . والحتم القطع بالأمر ، وذلك حتم من الله قاطع . والحتم والجزم والقطع بالامر معناه واحد . والمقضي الذي قضى بأنه يكون .

ثم قال تعالى « ثم ننجي الذين اتقوا » معاصي الله وفعلوا طاعاته من دخول النار « ونذر الظالمين » أي ندعهم فيها ونقرهم على حالهم «جثياً » باركين على ركبهم « في جهنم » . ثم قال « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات » اي إذا قرئت على المشركين

(١) هو زهير ابن ابي سلمى . ديوانه (دار بيروت) : ٧٨

(٢) سورة ٢١ الانبياء آية ١٠١

أدلة الله الظاهرة وحججه الواضحة « قال الذين كفروا » بوحدانيته وجحدوا أنبياءه للذين صدقوا بذلك مستفهمين لهم وغرضهم الانكار عليهم « أي الفرقين خير مقاماً » أي منزل اقامة فى الجنة او في النار « واحسن نديا » اي مجلساً وقيل معناد اوسع مجلسا واحسن نديا ، فالندي المجلس الذي قد اجتمع فيه أهله ، يقال : ندوت القوم اندوهم ندواً إذا جمعتهم في مجلس . وفلان في ندى قومه وناديهم بمعنى واحد واصله مجلس الندى وهو الكرم ، وقال حاتم :

ودعوت فى اولى الندي ولم   ينظر الي بأعين خزر (١)

والمراد بالفريقين فريق المشركين وفريق المؤمنين ، فيفتخرون على المؤمنين بكثرة نعمهم وحسن احوالهم وحال مجلسهم ، فقال الله تعالى « وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم احسن اثاثاورئيا » . والاثاث المتاع والرئي المنظر ، وهو قول ابن عباس . وقال ابن الاحمر : واحد الاثاث اثاثة كحمام وحمامة . وقال الفراء : لا واحد له ، ويجمع اثة وأثث . ويجوز في « رئيا » ثلاثة اوجه فى العربية : رئيا بالهمز قبل الياء ، وريئا بياء قبل الهمزة وهو على قولهم راءني على وزن راعني ، وريا بترك الهمزة - فى قول الزجاج - ويجوز أن يكون من الزاي انشد لابن دريد :

اهاجتك الضغائن يوم بانوا   بذي الزي الجميل من الاثاث (٢)

ثم قال تعالى لنبيه (ص) « قل » يا محمد « من كان في الضلالة » عن الحق والعدول عن اتباعه « فليمدد له الرحمن مدا » أي يمدهم ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة ، كما قال « ويمدهم في طغيانهم يعمهون » (٣) وانما ذكر بلفظ الامر ليكون

---

(١) تفسير الطبري ١٦ / ٧٧ واللسان (خزر)   (٢) القرطبي ١١ / ١٤٣ والشوكاني ٣ / ٣٣٦ وقد نسبوه الى (محمد بن نمير الثقفي) وروايته (اشاقتك) ويمكن أن يكون هذا غير ذاك .   (٣) سورة ٢ البقرة آية ١٥

آكد كأنه ألزم نفسه إلزاماً كما يقول القائل: آمر نفسي ، ويقول من زارني فلأكرمه ، فيكون الزم من قوله أكرمه. ويجوز أن يكون أراد « فليمدد له الرحمن مداً » في عذابهم في النار ، كما قال « ونمد له من العذاب مداً » (١) وقوله «حتى إذا رأوا ما يوعدون» أي شاهدوا ما وعدهم الله به «إما العـذاب »والعقوبة على المعاصي « وإما » القيامة والمجازاة لكل أحد على ما يستحقه « فسيعلمون » حينئذ ويتحققون« من هو شر مكاناً وأضعف جنداً » آلكفار أم المؤمنين . وفي ذلك غاية التهديد في كونهم على ما هم عليه . وقيل العذاب ـ ههنا ـ المراد به ما وعد المؤمنون به من نصرهم على الكفار فيعذبونهم قتلا واسراً ، فسيعلمون بالنصر والقتل انهم أضعف جنداً من جند النبي والمسلمين ، ويعلمون بمكانهم من جهنم ومكان المؤمنين من الجنة، من هو شر مكاناً.

قوله تعالى :

﴿ وَيَزِيدُ ٱللهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً (٧٧) أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً (٧٨) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْداً (٧٩) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً (٨٠) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ (٨١) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعـالى انه « يزيد الذين اهتدوا » الى طاعـة الله واجتناب معاصيه

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ٨٠

« هدى » ووجه الزيادة لهم فيه ان يفعل بهم الألطاف التي يستكثرون عندها الطاعات بما يبينه لهم من وجه الدلالات والامور التي تدعو الى أفعال الخيرات . وقيل : زيادة الهدى هو بايمانهم بالناسخ والمنسوخ . واخبر تعالى أن « الباقيات الصالحات » وهي فعل جميع الطاعات واجتناب جميع المعاصي . وقيل : هو قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر ولله الحمد ، وروي عن أبي عبد الله (ع) أن الباقيات الصالحات القيام آخر الليل لصلاة الليل والدعاء في الاسحار . وسميت باقيات بمعنى أن منافعها تبقى وتنفع أهلها في الدنيا والاخرة ، بخلاف ما نفعه مقصور على الدنيا فقط . وقوله « خير عند ربك ثواباً » أي أكثر ثواباً من غيرها . وقيل معناه خير ثواباً من مقامات الكفار التي لها عندهم الافتخار . وقيل: خير من اعمال الكفار على تقدير: إن كان فيها خير . وقوله « وخير مردّاً » أي خير نعيماً ترده الباقيات الصالحات على صاحبه ، كأنه ذاهب عنه لفقده له ، فترده عليه حتى يجده في نفسه .

وقوله « أرأيت الذي كفر بآياتنا ، وقال لأوتين مالا وولداً » قيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي ـ في قول ابن عباس ، وخباب ابن الارت ، ومجاهد ـ وقال الحسن : نزلت في الوليد بن المغيرة ، فانه قال ـ استهزاء ـ لأوتين مالا وولداً في الجنة ، ذكره الكلبي . وقيل أراد في الدنيا ، يعني إن اقمت على دين آبائي وعبادة آلهتي « لأوتين مالا وولداً » .

وقرأ حمزة والكسائي « وولداً » بضم الواو . الباقون بفتحها . وقيل في ذلك قولان :

احدها ـ انهما لغتان كالعدم والعدم ، والحزن والحزن ، قال الشاعر :

فليت فلاناً كان في بطن أمّه   وليت فلاناً كان ولد حمار (١)

(١) تفسير الطبري ١٦ / ٨١ والقرطبي ١١ / ١٤٦ ، ١٥٥ وتفسير الشوكاني ٣/٣٣٧

وقال الحارث بن حلزة :

ولقد رأيت معاشراً قد ثمروا مالا وولدا (١)

وقال رؤبة :

الحمد لله العزيز فردا لم يتخذمن ولد شيء ولدا (٢)

والثاني ـ إن (قيساً) تجعل (الولد) بالضم جمعاً ، وبالفتح واحداً ، كقولهم: اسد واسد ، ووثن ووثن .

فقال الله تعالى « اطلع الغيب » أي اشرف على علم الغيب وعرفه حتى قال ما قال ؟! وهذه الف الاستفهام دخلت على الف الوصل المكسورة فسقطت المكسورة مثل « أصطفى البنات على البنين » (٣) وقوله « أم اتخذ عند الرحمن عهداً » قال قتادة : معناه آتخذ عهداً للرحمن بعد صالح قدمه ؟. وقال غيره : معناه « أم اتخذ عند الرحمن عهداً » أي قولا قدمه اليه بما ذكره .

ثم قال تعالى « كلا » أي حقاً وهو قسم « سنكتب ما يقول » أي نثبته ليواقف عليه يوم القيامة « ونمد له من العذاب مداً » أي نؤخر عنه عذابه ، ولا نعاجله . ويجوز أن يكون المراد إنا نطيل عذابه .

وقوله « ونرثه ما يقول » قال ابن عباس وقتادة وابن زيد : نرثه نحن المال والولد بعد اهلاكنا إياه وإبطالنا ما ملكناه « ويأتينا فرداً » أي يجيئنا يوم القيامة فرداً لا أحد معه، ولا شيء يصحبه .

قوله تعالى :

﴿ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً (٨٢) كَلَّا

---

(١) نفس المصادر المتقدمةفي الصفحة قبلها (٢) تفسير الطبري ١٦ / ٨١

(٣) سورة ٣٧ (الصافات) آية ١٥٣

سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً (٨٣) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً (٨٤) فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً (٨٥) يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمٰنِ وَفْداً (٨٦)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن نهيك « كلا سيكفرون » ـ بضم الكاف ـ بمعنى جميعاً سيكفرون . الباقون بفتح الكاف .

اخبر الله تعالى أن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم ووصفهم بأنهم « اتخذوا من دون الله آلهة » عبدوها ووجهوا عبادتهم نحوها « ليكونوا لهم عزّاً » والاتخاذ اعداد الشيء ليأتيه في العاقبة ، فهؤلاء اتخذوا الآلهــة ليصيروا الى العز فصاروا بذلك الى الذل ، فسخط الله عليهم وأذلهم . والعز الامتناع من الضيم عزّ يعزّ عزاً ، فهو عزيز أي منيع من أن ينال بسوء . فقال الله تعالى « كلا سيكفرون بعبادتهم » أي حقاً ليس الأمر على ما قالوه بل سيكفرون بعبادتهم . وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ إن معناه سيجحدون أن يكونوا عبدوها لما يرون من سوء عاقبتها . وهذا جواب من اجاز وقوع القبائح والكذب من أهل الآخرة .

الثاني ـ سيكفرو ما اتخذوه آلهــة بعبادة المشركين لها ، كما قال الله تعالى « تبرأنا اليـك ما كانوا إيانا يعبدون » (١) أي بأمرنا وإرادتنا « ويكونون عليهم ضداً » وقيل في معناه قولان :

احدها ـ قال مجاهد : يكونون عوناً في خصومتهم وتكذيبهم .

---

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٦٣

الثاني ـ قال قتادة يكونون قرناءهم فى النار يلعنونهم ويتبرؤن منهم .

ثم قال تعالى لنبيه (ص) ﴿ ألم تر ﴾ يا محمد ﴿ أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين ﴾ أي لما سلط الكفار الشياطين على نفوسهم وقبلوا منهم واتبعوهم خلينا بينهم وبينهم حتي اغووهم ، ولم نحل بينهم بالالجاء ، ولا بالمنع ،وعبر عن ذلك بالارسال على ضرب من المجاز . ومثله قوله ﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى اجل مسمى ﴾ (١) ويحتمل ان يكون أراد به يرسل الشياطين عليهم في النار بعد موتهم يعذبوهم ويلعنونهم ، كما قال ﴿ فو ربك لنحشرنهم والشياطين ﴾ (٢) ويقال أرسلت الباز والكلب على الصيد إذا خليت بينه وبينه . وقوله « تؤزهم أزاً » أي تزعجهم ازعاجاً . والاز الازعاج الى الامر ، أزه أزاً وأزيزاً إذا هزه بالازعاج الى أمر من الأمور .

ثم قال تعالى « فلا تعجل » على هؤلاء الكفار « انما نعد لهم عداً » الايام والسنين . وقيل الانفاس .

وقوله ﴿ يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفداً ﴾ أي اذكر يوم نحشر الذين اتقوا معاصي الله وفعلوا طاعاته الى الرحمن وفداً اي ركباناً فى قدومهم ، ووحد لأنه مصدر وفد،ويجمع وفوداً ، تقول: وفدت أفد وفداً فأنا وافد . وقيل : انهم يؤتون بنوق لم ير مثلها، عليها رحال الذهب وأزمتها الزبرجد، فيركبون عليها حتى يصيروا الى ابواب الجنة ـ في قول ابن عباس ـ وقيل:معناه يحشرهم الله جماعة جماعة .

قوله تعالى:

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٧) لاَ يَمْلِكُونَ

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٤٢ (٢) سورة ١٩ مريم آية ٦٨

ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْداً (٨٨) وَقَالُوا ٱتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً (٨٩) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٩٠) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً (٩١) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَداً (٩٢) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ (٩٣) سبع آيات بلا خلاف .

قرأ الكسائي ونافع ﴿ يكاد ﴾ بالياء . الباقون بالتاء . وقرأ ابن كثير ونافع والكسائي وحفص ﴿ يتفطرن ﴾ بياء وتاء من: تفطر يتفطر تفطراً . الباقون ﴿ينفطرن ﴾ من انفطر كقوله ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ . وتفطر مطاوع فطر . والتشديد يفيد التكثير

اخبر الله تعالى أنه يسوق المجرمين الى جهنم ورداً يوم القيامة . والسوق الحث على السير، ساقه يسوقه سوقاً، فهو سائق ومنه الساق، لاستمرار السير بها، ومنه السوق لأنه يساق به البيع والشراء شيئاً بعد شيء . وقال الفراء : يسوقهم مشاة . وقال الاخفش : عطاشاً . وقيل افراداً . ومعنى ﴿ ورداً ﴾ أي عطاشاً ، كالابل التي ترد عطاشاً الماء ، إلا أن هؤلاء يمنعون منه ، لانه لا يشرب من الحوض الا مؤمن . وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة .

وقوله ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ أي لا يقدرون عليها ، والملك القدرة على ماله التصرف فيه أن يصرفه أتم التصريف في الحقيقة أو الحكم .

وقوله ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ أي عملا صالحاً ـ فى قول ابن جريج ـ فموضع (من) نصب على أنه استثناء منقطع، لأن المؤمن ليس من المجرمين. وقد قيل: انه نصب على حذف اللام بمعنى لا يملك المتقون الشفاعة إلا لمن اتخذ عند الرحمن

عهداً . والعهد المراد به الايمان . والاقرار بوحدانيته وتصديق أنبيائه ، فان الكفار لا يشفع لهم . وقال الزجاج (من) فى موضع رفع بدلا من الواو والنون فى قوله ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ . والمعنى لا يملك الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً وهو الايمان .

ثم اخبر تعالى عن الكفار بأنهم ﴿ قالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ كما قال النصارى: إن المسيح ابن الله، واليهود قالت عزير ابن الله . فقال الله لهم على وجه القسم ﴿ لقد جئتم ﴾ بهذا القول ﴿ شيئاً اداً ﴾ أي منكراً عظيماً - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد ، قال الراجز :

لقد لقي الاعداء مني نكراً داهية دهياء إداً إمراً (١)

وقال الآخر :

فى لهب منه وحبل إد (٢)

ثم قال تعالى تعظيما لهذا القول «تكاد السموات » وقرئ بالتاء والياء . فمن قرأ بالتاء فلتأنيث السموات ومن ذكر ، فلأن التأنيث غير حقيقي . وقال ابو الحسن: معنى تكاد السموات تريد كقوله «كدنا ليوسف» أي أردنا، وانشد :

كادت وكدت وتلك خير أرادة لو عاد من لهو الصبابة ما مضى(٣)

ومثله قوله تعالى ﴿ اكاد أخفيها ﴾ أي أريد ومعنى ﴿ تكاد ﴾ فى الآية تقرب لان السموات لايجوز ان ينفطرن ولا يردن لذلك ، ولكن هممن بذلك ، وقربن منه اعظاماً لقول المشركين . وقال قوم : معناه على وجه المثل ، لان العرب تقول إذا أرادت امراً عظيماً منكراً: كادت السماء تنشق والارض تنخسف ، وأن يقع السقف.

---

(١) مر تخريجه فى ٧ / ٧٣ من هذا الكتاب (٢) تفسير الطبري ١٦ / ٨٦
(٣) تفسير القرطبي ١١ / ١٨٤ وهو في مجمع البيان ٣ / ٥٣٠

فلما افتروا على الله الكذب،ضرب الله المثل لكذبهم بأهول الاشياء،وقريب من هذا قول الشاعر :

ألم تر صدعاً في السماء مبيناً   على ابن لبينى الحارث بن هشام(١)

وقريب منه ايضاً قول الشاعر :

واصبح بطن مكة مقشعراً   كان الارض ليس بها هشام (٢)

وقال آخر :

بكا حارث الجولان من فقد ربه   وحوران منه خاشع متضائل (٣)

وقال آخر :

لما اتى خبر الزبير تواضعت   سور المدينة والجبال الخشع (٤)

وقال قوم : المعنى لو كان شيء يتفطر استعظاماً لما يجري من الباطل لتفطرت السموات والارض استعظاماً ، واستنكاراً لما يضيفونه الى الله تعالى من اتخاذ الولد ، ومثله قوله « ولو ان قرآناً سيرت به الجبال » (٥) ومعنى يتفطرن يتشققن والانفطار الانشقاق فى قول ابن جريج ، يقال : فطر ناب البعير إذا انشق ، وقرىء ينفطرن بمعنى يتشققن منه ،يعني من قولهم اتخذ الرحمن ولداً،والمراد بذلك تعظيماً واستنكاراً لهذاالقول ، وانه لو كانت السموات يتفطرن تعظيماً لقول باطل لانشقت لهذا القول، ولو كانت الجبال تخر لأمر ، لخرّت لهذا القول . و (الهدّ) تهدم بشدة صوت .

وقوله « أن دعوا للرحمن ولداً » أي لأن دعوا ، أو من ان دعوا . او المعنى ان السموات تكاد ينفطرن والجبال تنهد والارض تنشق لدعواهم لله ولداً . أي

(١) مر هذا البيت فى ٦ / ٣٠٧   (٢) مجمع البيان ٣ / ٥٣٠
(٣) مر تخريجه فى ٦ / ٣٠٧   (٤) مر تخريجه فى ١ / ٢٠٤ ، ٣١٢
(٥) سورة ١٣ الرعد آية ٣٣

لتسميتهم له ولداً ، فهؤلاء سموا لله ولداً كما جعلوا المسيح ابن الله. والمشركون جعلوا الملائكة بنات الله. وقيل: معناه ان جعلوا الرحمن ولداً ، لان الولد يستحيل عليه تعالى.

ثم اخبر تعالى انه لا ينبغي له ان يتخذ ولداً ، ولا يصلح له ، كما قال ابن احمر :

في رأس حلقاء من عنقاء مشرفة ... ما ينبغي دونها سهل ولا جبل(١)

وقال الآخر فى الدعاء بمعنى التسمية :

ألا ربّ من تدعو نصيحاً وإن تغب ... تجده بغيب غير منتصح الصدر(٢)

وقال ابن احمر ايضاً :

هوى لها مشقصاً حشراً فشبرقها ... وكنت أدعو قذاها الاثمد الفرد (٣)

قوله تعالى:

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا آتِي ٱلرَّحْمٰنِ عَبْداً (٩٤) لَقَدْ أَحْصٰيهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً (٩٥) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَرْداً (٩٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمٰنُ وُدّاً (٩٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً (٩٨) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ (٩٩) ست آيات بلا خلاف.

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٥٦ ، ٨٧
(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٨٧
(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٨٧

يقول الله تعالى ليس كل من في السموات والارض من العقلاء إلا وهو يأتي الرحمن عبداً مملوكاً لا يمكنهم جحده، ولا الامتناع منه ، لانه يملك التصرف فيهم كيف شاء . ثم قال تعالى إنه « قد احصاهم وعدهم عداً » أي علم تفاصيلهم وأعدادهم فكانه عدهم، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم . ثم قال : وجميعهم يأتي الله يوم القيامة فرداً مفرداً، لا أحد معه ولا ناصر له ولا أعوان، لان كل احد مشغول بنفسه لا يهمه هم غيره . ثم قال تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أي آمنوا بالله ووحدانيته وصدقوا أنبياءه ، وعملوا بالطاعات سيجعل الله لهم وداً أي سيجعل بعضهم يحب بعضاً ، وفي ذلك أعظم السرور وأتم النعمة ، لانها كمحبة الوالد لولده البار به . وقال ابن عباس ومجاهد : « سيجعل لهم الرحمن وداً » فى الدنيا . وقال الربيع بن أنس إذا أحب الله عبداً طرح محبته في قلوب أهل السماء ، وفي قلوب أهل الارض . ثم قال لنبيه (ص) « انما يسرناه بلسانك » يعني القرآن « لتبشر به المتقين » لمعاصي الله بالجنة « وتنذر به » أي تخوف به « قوماً لداً » أي قوماً ذوي جدل مخاصمين ـ فى قول قتادة ـ وهو من اللدد، وهو شدة الخصومة ، ومنه قوله تعالى « وهو الد الخصام » (١) أي أشد الخصام خصومة وهو جمع ألد . كـ(أصم ، وصم) قال الشاعر :

إن تحت الاحجار حزماً وعزماً وخصيماً ألدّ ذا معلاق (٢)

ثم اخبر الله تعالى فقال « وكم اهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد » أي هل تدرك احداً منهم « او تسمع لهم ركزاً » قال ابن عباس وقتادة والضحاك : الركز الصوت. وقال ابن زيد : هو الحس ، والمراد ـ ههنا ـ الصوت ، ومنه الركاز ، لانه يحس به حال من تقدم بالكشف عنه ، قال الشاعر :

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٠٤

(٢) قائله المهلهل . اللسان (علق) وروايته (وجوداً) بدل (وعزماً)

فتوجست ركز الأنيس فراعها عن ظهر غيب والانيس سقامها(١)

والمعنى: إنا قداهلكنا امماً كثيرة اعظم منهم كثرة ، واكثراموالا واشد خصاماً فلم يغنهم ذلك لما اردنا اهلاكهم ، فكيف ينفع هؤلاء ذلك ، وهم اضعف منهم فى جميع الوجوه ، وبين ان حكم هؤلاء حكم اولئك في ان لا يبقى لهم عين ولا اثر .

* * *

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٨٩

٢٠-سورة طه

وهي مكية في قول قتادة ومجاهد . وهي مائة وخمس وثلاثون آية في الكوفي واربع في المدنيين واثنان في البصري .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه (١) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (٢) إلا تذكرة لمن يخشى (٣) تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى (٤) الرحمن على العرش استوى (٥)

خمس آيات في الكوفي ، لأنهم عدوا (طه) آية وأربع في الباقين.

قرأ ابو عمرو (طه) بفتح الطاء وامالة الهاء . وقرأ حمزة والكسائي وخلف وابو بكر إلا الأعشى والبرجمي بامالتهما . الباقون بفتحهما . وقرأ عيسى بن عمر ضد قراءة أبي عمرو - بكسر الطاء وفتح الهاء - وقرأ الحسن باسكان الهاء ، وفسره يارجل. وقرأ ابو جعفر بتقطيع الحروف ، ورواه الأصمعي عن نافع . وروي عن نافع بين

الكسر والفتح في الحرفين ، وروي الفتح فيهما ، وهو الأظهر .

فمن فخم فلأنها لغة النبي (ص) وهي لغة اهل الحجاز ، ومن أمال ، فهو حسن . قال ابو عمرو : املت الهاء لئلا تلتبس بهاء الكناية . وقد بينا فى اول سورة البقرة معنى اوائل السور واختلاف الناس فيه، وأن أقوى ما قيل فيه: إنها اسماء للسور ومفتاح لها . وقال قوم : هو اختصار من كلام خص بعلمه النبي صلى الله عليه وآله . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد :معنى (طه) بالسيريانية يا رجل . ومنهم من قال هو بالنبطية . وقال الحسن: هو جواب المشركين لما قالوا: انه شقي فقال الله تعالى يا رجل ما انزلنا عليك القرآن لتشقى . وقيل: إن طه بمعنى يا رجل فى لغة عك وانشد لمتمم بن نويرة :

هتفت بطه في القتال فلم يجب   فخفت عليه ان يكون موائلا(١)

وقال آخر :

إن السفاهة طه من خلائقكم   لا بارك الله فى القوم الملاعين(٢)

ومن قرأ (طه) بتسكين الها تحتمل قراءته امرين :

احدهما - ان تكون الهاء بدلا من همزة طاء ، كقولهم في أرقب هرقب ، والآخر ان يكون على ترك الهمز(ط)يا رجل، وتدخل الهاء الوقف. والشقاء استمرار ما يشق على النفس . يقال : شقي يشقى شقاً ، وهو شقي ونقيض الشقاء السعادة .

وقيل في قوله « ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » قولان :

احدهما - قال مجاهد وقتادة : إنه نزل بسبب ما كان يلقى من التعب والسهر في قيام الليل .

---

(١) تفسير الطبري ١٦ / ٩٠ والقرطبي ١١ / ١٦٥ والشوكاني ٣ / ٣٤٣

(٢) تفسير الطبري ١٦ / ٩٠ والقرطبي ١١ / ١٦٦ والكشاف ٣ / ٣٩

والثاني ـ قال الحسن : انه جواب للمشركين لما قالوا : انه شقي .

وقوله « إلا تذكرة لمن يخشى » معناه لكن انزلناه تذكرة أي ليتذكر به من يخشى الله ويخاف عقابه ، يقال : ذكره تذكيراً و تذكرة ، ومثله « وما لاحد عنده من نعمة تجزي إلا ابتغاء وجه ربه الاعلى » (١) اي لكن ابتغاء وجه ربه ، وما فعله إلا ابتغاء وجه ربه ، ومثله قول القائل: ما جئت لأسوءك إلا إكراماً لزيد، يريد ما جئت إلا اكراماً لزيد ، وكذلك المصادر التي تكون عللا لوقوع الشيء نحو جئتك ابتغاء الخير اي لابتغاء الخير . وقوله « تنزيلا ممن » معناه نزل تنزيلا . وقيل تقديره « إلا تذكرة... تنزيلاً ممن خلق الارض والسموات العلى » أي أبدعهن وأحدثهن و « العلى » جمع عليا ، مثل ظلمة وظلم ، وركبة وركب ، ومثل الدنيا والدنى . والقصوى والقصى .

وقوله « الرحمن » رفع بأنه خبر مبتدأ ، لانه لما قال « تنزيلا ممن خلق » بينه فكأنه قال : هو الرحمن ، كقوله « بشر من ذلكم النار » (٢) وقال ابو عبيدة : تقديره « ما انزلنا عليك القرآن ... إلا تذكرة لمن يخشى » لا لتشقى . [ويحتمل أن يكون المراد ما انزلنا عليك القرآن لتشقى] (٣) وما انزلناه إلا تذكرة لمن يخشى .

« الرحمن على العرش استوى » قيل فى معناه قولان :

احدهما ـ انه استولى عليه ، وقد ذكرنا فيما مضى شواهد ذلك .

الثاني ـ قال الحسن « استوى » لطفه وتدبيره ، وقد ذكرنا ذلك أيضاً فيما مضى ، وأوردنا شواهده فى سورة البقرة (٤) فأما الاستواء بمعنى الجلوس على الشيء

---

(١) سورة ٩٢ الليل آية ١٩ ـ ٢٠ (٢) سورة ٢٢ الحج آية ٧٢

(٣) مابين القوسين ساقط من المطبوعة

(٤) في تفسير آية ٢٩ من سورة البقرة ، المجلد الاول صفحة ١٢٤

فلا يجوز عليه تعالى ، لانه من صفة الاجسام ، والاجسام كلها محدثة . ويقال : استوى فلان على مال فلان وعلى جميع ملكه أي احتوى عليه . وقال الفراء : يقال : كان الأمر في بني فلان ثم استوى في بني فلان أي قصد اليهم وينشد:

أقول وقد قطعن بنا شروری　　ثواني واستوين من النجوع (١)

أي خرجن واقبلن

قوله تعالى :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) أَللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) وَهَلْ أَتَيكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ (١٠) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى إن « له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى » المعنى انه مالك لجميع الاشياء واجتزى بذكر بعض الاشياء عن ذكر البعض لدلالته عليه ، كما قال « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم » (٢) ولم يقل وعلى ظهورهم ، لان المفهوم انهم يذكرون الله على كل حال . ومثله قوله « والله ورسوله أحق أن يرضوه » (٣)

(١) لم اجده في مظانه ، وهذه رواية المخطوطة . أما المطبوعة فانها اشارت الى خلاف في روايته كما يلي : (ظعن) بدل (قطعن) و (سروراً) بدل (شروری) و (سوامد) بدل (ثواني) و (الضجوع) بدل (النجوع)

(٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٩١　　(٣) سورة ٩ التوبة آية ٦٣

لما كان رضا احدهما رضا الآخر ، ومثله قوله « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله » (١) ولم يقل ينفقونهما لدلالته على ذلك و « الثرى » التراب الندي ، فله تعالى « ما تحت الثرى » الى حيث انتهى ، لانه مالكه وخالقه ومدبره ، وكل شيء ملكه يصح ، والله تعالى مالكه بمعنى أن له التصرف فيه كيف شاء.

وقوله « وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى » معناه وإن تجهر بالقول لحاجتك لسمعه أي تجهر به فانه تعالى يعلم السر وأخفى من السر . ولم يقل وأخفى منه ، لانه دال عليه ، كما يقول القائل : فلان كالفيل أو اعظم ، وهذا كالحبة أو اصغر . والجهر رفع الصوت يقال : جهر يجهر جهراً ، فهو جاهر والصوت مجهور ، وضده الهمس . و (السر) ما حدث به الانسان غيره في خفية ، وأخفى منه ما أضمره في نفسه ولم يحدث به غيره ـ هذا قول ابن عباس ـ وقال قتادة وابن زيد وسعيد بن جبير : السر ما أضمره العبد في نفسه . وأخفى منه ما لم يكن ولا أضمره أحد . وقال قوم : معناه يعلم السر والخفي . وضعف هذا لانه ترك الظاهر وعدول بلفظة (أفعل) الى غير معناها من غير ضرورة ، ولان حمله على معنى أخفى أبلغ إذا كان بمعنى أخفى من السر ، فاما قول الشاعر :

تمنى رجال ان اموت وإن امت   فتلك سبيل لست فيها بأوحد (٢)

انما حمل على ان المراد (بأوحد) احد ، لان الوحدة لا يقع فيها تعاظم ، فاخرجه الشاعر مخرج ما فيه تعاظم ورد للمعنى الى الواحد . ثم اخبر تعالى بانه « الله » الذي تحق له العبادة « لا إله » يحق له العبادة « إلا هو له الاسماء الحسنى » وانما ذكر الحسنى بلفظ التوحيد ولم يقل الاحاسن ، لان الاسماء مؤنثة يقع عليها (هذه) كما

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣٥ (٢) تفسير الطبري ١٦ /٩٣

يقع على الجماعة (هذه) كأنه اسم واحد للجميع قال الشاعر :

وسوف يعتبنيه إن ظفرت به رب كريم وبيض ذات اطهار (١)

وفي التنزيل « حدائق ذات بهجة » (٣) « ومآرب اخرى » (٢) فقد جاز صفة جمع المؤنث بصفة الواحد .

وقوله وهل « اتاك حديث موسى » خطاب للنبي (ص) وتسلية له مما ناله من اذى قومه . والتثبيت له بالصبر على امر ربه ، كما صبر اخوه موسى (ع) حتى نال الفوز في الدنيا والآخرة .

وقوله « إذ رأى ناراً » اي حديث موسى حين رأى ناراً « فقال لاهله امكثوا » اي البثوا مكانكم « إني آنست ناراً » اي رأيت ناراً . والايناس وجدان الشيء الذي يؤنس به ، لانه من الانس ويقال : آنس البازي إذا راى صيداً قال العجاج :

آنس خربان فضاء فانكدر

وكان في شتاء ، وقد امتنع عليه القدح وضل عن الطريق . فلذلك قال « او اجد على النار هدى » وقوله « لعلي آتيكم منها بقبس فالقبس الشعلة ، وهو نار في طرف عود أو قصبة ، يقول القائل لصاحبه : اقبسني ناراً فيعطيه إياها في طرف عود او قصبة أي لعلي آتيكم بنار تصطلون به أو اجد من يدلني على الطريق الذي أضللناه او ما استدل به عليه ويقال اقبسته ناراً إذا اعطيته قبساً منها ، وقبسته للعلم . فرق بين النوعين ، والاصل واحد وكلاهما يستضاء به .

---

(١) تفسير الطبري ١٦/٩٣ ومجمع البيان ٤\ ٣ (٢) سورة ٢٧ النمل آية ٦٠

(٣) سورة ٢٠ طه آية ١٨

قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَتَيٰهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي * وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ (١٥) خمس آيات .

قرأ ابن كثير وابو عمرو « اني أنا ربك » بفتح الهمزة والياء . الباقون بكسرها وسكون الياء إلا نافعاً فانه فتح الياء . وقرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع وعاصم وحمزة والكسائي « طوى » بضم الطاء مصروفاً . وروى بكسر الطاء غير مصروف ابو زيد عن أبي عمرو . وقال : هي أرض . وقرأ « وانا اخترناك » بالتشديد بالف حمزة، واصله وانا اخترناك والنون والالف نصب بـ (إن) و (ان) مع ما بعدها فى موضع نصب بتقدير ، نودي « إنا اخترناك » . وقرأ الباقون « وأنا اخترتك » على التوحيد فـ (أنا) رفع بأنه ابتداء و « اخترتك » خبره . وفى قراءة أبي « وإنني اخترتك » فهذه تقوي قراءة حمزة والكسائي .

من لم يصرف « طوى » يجوز أن يكون اعتقد انه معدول عن (طاو) وهو معرفة ، ويجوز أن يكون نكرة ، لأنه اسم البقعة .

يقول الله تعالى لنبيه (ص) إن موسى (ع) لما أتى النار التي آنسها نودي ، فقيل له يا موسى . والنداء الدعاء على طريقة يافلان ، وهو مد الصوت بنداء على هذه الطريقة

يقال : صوت نداء ، وذلـــك أنه بندائه يمتد « إني انا ربك » فيمن فتح الهمزة . فالمعنى نودي بأني أنا ، ولما حـذف الباء فتح . ومن كسرها فعلى الاستئناف أو على تقدير قيل له إني أنا ربك الذي خلقك ودبرك « فاخلع نعليك » وانما علم موسى (ع) أن هذا النداء من قبل الله تعالى بمعجزة أظهرها الله ، كما قال في موضع آخر « نودي من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين*وان ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب » حتى قيل له « يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » (١) وقيل السبب الذي لأجله أمر بخلع النعلين فيه قولان :

احدها ـ ليباشر بقدميه بركة الوادي المقـــدس في قول علي (ع) والحسن وابن جريج.

وقال كعب وعكرمة : لانها كانت من جلد حمار ميت . وحكى البلخي أنه امر بذلك على وجه الخضوع والتواضع، لان التحفي في مثل ذلك أعظم تواضعاً وخضوعاً.

والخلع نزع الملبوس يقال : خلع ثوبه عن بدنه وخلع نعله عن رجله . وقد ينزع المسمار ، فلا يكون خلعاً ، لانه غير ملبوس ويقال : خلع عليه رداءه كأنه نزعه عن نفسه وألبسه اياه . والوادي سفح الجبل . ويقال للمجرى العظيم من مجاري الماء واد واصله عظم الامر . ووديته إذا أعطيته ديته ، لأنها عطية عن الأمر العظيم من القتل.
والمقدس المبارك ـ فى قول ابن عباس ومجاهد ـ وقيل هو المطهر ، قال امرؤ القيس :

كما شبرق الولدان ثوب المقدس (٢)

يريد بالمقدس : العابد من النصارى ، كالقسيس ونحوه و(شبرق)أي شق .

---

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٣٠ ـ ٣١ (٢) شرح ديوانه: ١٢٠ وصدره:
فأدركنه يأخذن بالساق والنسا

وقيل في معنى (طوى) قولان :

احدها ـ قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد : هو اسم الوادي .

وقال الحسن : لانه طوي بالبركة مرتين ، فعلى هذا يكون مصدر طويته طوى ، وقال عدي بن زيد :

آعاذل ان اللوم في غير كنهه علي طوى من غيك المتردد (١)

وقوله « وأنا اخترتك » اي اصطفيتك « فاستمع لما يوحى » اليك من كلامي واصغ اليه وتثبت « إني انا الله لا إله إلا انا » أي لا إله يستحق العبادة غيري « فاعبدني » خالصاً ، ولا تشرك في عبادتي احداً « واقم الصلاة لذكري » أي لتذكرني فيها بالتسبيح والتعظيم ـ في قول الحسن ومجاهد ـ وقيل : معناه لأن أذكرك بالمدح والثناء . وقيل المعنى متى ذكرت ان عليك صلاة كنت في وقتها أوفات وقتها ، فأقمها . وقرىء ـ بفتح الراء ـ قال أبو علي : يحتمل أن يكون قلب الكسرة فتحة مع ياء الاضافة.

ثم اخبر الله تعالى بأن الساعة يعني القيامة « آتية » أي جائية « اكاد أخفيها» معناه أ كاد لا أظهرها لاحد ـ في قول ابن عباس والحسن وقتادة ـ أي لا أذكرها بأنها آتية ، كما قال تعالى « لا تأتيكم إلا بغتة » (٢) وقيل « اخفيها » بضم الألف بمعنى أظهرها ، وانشد بيتاً لأمرىء القيس بن عابس الكندي :

فان تدفنوا الداء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد (٣)

فضم النون من نخفه ـ ذكره ابوعبيدة ـ قال انشدنيه ابو الخطاب هكذا ، وانشده

---

(١) تفسير الطبري ١٦ / ٩٦ ومجمع البيان ٤ \ ٤

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٦ (٣) شرح ديوان امرىء القيس : ٧٧ والطبري ١٦ \ ١٠٠ والقرطبي ١١ / ١٨٢ والشوكاني ٣/٣٤٧ وغيرها

الفراء بفتح النون . وقال ابي بن كعب : المعنى « أكاد اخفيها » من نفسي . قال ابن الانباري تأويله من نفسي « أكاد اخفيها » أي من قبلي . كما قال « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما فى نفسك » (١) . وقوله « لتجزي كل نفس بما تسعى » اي تجازي كل نفس بحسب عملها ، فمن عمل الطاعات اثيب عليها ، ومن عمل المعاصي عوقب بحسبها

قوله تعالى :

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوٰيهُ فَتَرْدٰى (١٦) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسٰى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلٰى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرٰى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسٰى (١٩) فَأَلْقٰيهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعٰى ﴾ (٢٠) خمس آيات بلا خلاف .

قوله « فلا يصدنك عنها » نهي متوجه الى موسى من الله تعالى والمراد به جميع المكلفين ، نهاهم الله ان يصدهم عن ذكر الساعة ، والمجازاة فيها من لا يصدق بها من الكفار . و (الصدّ) الصرف عن الخير يقال : صده عن الايمان وصده عن الحق ، ولا يقال : صده عن الشر ، ولكن يقال : صرفه عن الشر ، ومنعه منه .

وقوله « واتبع هواه » يعني من لا يؤمن بالقيامة و (الهوى) ميل النفس الى الشيء بأريحية تلحق فيه . وهواء الجو ممدود ، وهوى النفس مقصور .

وقوله « فتردى » معناه فتهلك ، يقال : ردي يردى ردى ، فهو رد . إذا هلك ، أي ان صددت عن الساعة بترك التأهب لها هلكت ، وتردّى هلك بالسقوط .

وقوله « وما تلك بيمينك ياموسى » قال الفراء : (تلك) تجري مجرى (هذه) وهي بمعني الذي و (بيمينك) صلته وتقديره ، وما الذي بيمينك يا موسى وأنشد :

(١) سورة ٥ المائدة آية ١١٩

عـــدس ما لعباد عليك امارة أمنت وهذا تحملين طليق (١)

يعني الذي تحملين. وهو في صورة السؤال لموسى عما في يده اليمنى. والغرض بذلك تنبيهه له عليها ليقع المعجز بها بعد التثبت فيها، والتأمل لها.

وقوله «قال هي عصاي» جواب من موسى ان الذي في يدي «عصاي اتوكؤ عليها» في مشيي «واهش بها على غنمي» اي اخبط بها ورق الشجر اليابس لترعاه غنمي يقال: هش يهش هشاً: قال الراجز:

أهش بالعصا على اغنامي من ناعم الاراك والبشام (٢)

﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ اي حوائج أخر من قولهم: لا أرب لي في هذا أي لاحاجة. وللعرب في واحدها ثلاث لغات: مأربة بضم الراء وفتحها وكسرها.

وقوله «قال ألقها يا موسى فألقاها فاذا هي حية تسعى» حكاية عما امر الله تعالى موسى بأن يلقي العصا من يده وأن موسى القاها، فلما ألقاها صارت في الحال حية تسعى، خرق الله العادة فيها وجعلها معجزة ظاهرة باهرة.

قوله تعالى:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف.

(١) تفسير الطبري ١٦ / ١٠٢ واكثر كتب النحو يأتون به شاهداً على أن (هذا) أسم موصول بمعنى الذي.

(٢) تفسير الشوكاني ٣ / ٣٤٩ والقرطبي ١١ / ١٨٧ والطبري ١٦ / ١٠٢

اخبر الله تعالى أن العصا حين صارت حية تسعى خاف موسى منها فقال الله له « خذها » يا موسى فانا « سنعيدها » الى ما كانت اول شيء في يدك عصى . ومعنى « خذها » تناولها بيدك . و (الخوف) انزعاج النفس بتوقع الضرر ، خافه خوفاً ، فهو خائف وذاك مخوف . وضد الخوف الأمن ، ومثل الخوف الفزع والذعر ، والاعادة ردّ الشيء ثانية الى ما كان عليه أول مرة . ومثل الاعادة التكرير والترديد . والمعنى سنعيدها خلقتها الاولى ، وقد يقال : الى سيرتها . والسيرة مرور الشيء في جهة : من سار يسير سيرة حسنة او قبيحة . وكان مستمر على حال العصا فاعيـــدت الى تلك الحـال . ونظير السيرة الطريقة . وقيل المعنى سنعيدها الى سيرتها ، فانتصب باسقاط الخافض .

وقوله « واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء » قيل في معناه قولان : احدهما ـ الى جنبك ، قال الراجز :

اضمه للصدر والجناح (١)

الثاني ـ الى عضدك واصل الجنوح الميل ، ومنه جناح الطائر ، لانه يميـل به في طيرانه حيث شاء . والجنب فيه جنوح الاضلاع . واصل العضد من جهته تميل اليـد حيث شاء صاحبها . وقال ابو عبيدة : الجناحان الناحيتان .

وقوله « تخرج بيضاء من غير سوء » اي من غير برص ـ في قول ابن عباس ومجاهد والحسن وقتـادة والسدي والضحاك ـ وقوله « آية اخرى » قيل في نصبهـا قولان : احـدهما ـ على الحـال . والاخر على المفعولية ، اي نعطيك آية أخرى ، فحـذف لدلالة الكلام عليه ، فالآية الاولى قلب العصا حية والاخرى اليد البيضاء من غير سوء . وقيل انه امره ان يدخل يده في فمها فيقبض عليها ، فادخل يده في فمها

(١) تفسير القرطبي ١١ / ٢٩١

فصارت يده بين الشعبتين اللتين كانتا في العصا ، وصارت الحية في يده عصاً كما كانت .

وقوله ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ معناه قلب العصا حية لنريك من آياتنا وحججنا الكبرى منها ، ولو قال الكبر على الجمع كان وصفاً لجميع الآيات ، وكان جائزاً .

ثم قال تعالى له ﴿ إذهب الى فرعون ﴾ اي امض اليه وادعه الى الله ، وخوفه من عقابه ، فانه طغى ، أي تجاوز قدره في عصيان الله ، وتجاوز به قدر معاصي الناس ، يقال : طغى يطغى طغياناً ، فهو طاغ ، ونظيره البغي على الناس ، وهم الطغاة والبغاة . فقال عندذلك موسى يا﴿ رب اشرح لي صدرى ﴾ اى وسع لي صدرى ، ومنه شرح المعنى اى بسط القول فيه .

قوله تعالى :

﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَٱجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هٰرُونَ أَخِي ﴾ (٣٠)

خمس آيات .

وهذا ايضاً اخبار عما سأل الله تعالى موسى ، فانه سأله ان ييسر له أمره ، أي يسهله عليه ويرفع المشقة عنه ويضع المحنة ، يقال : يسره تيسيراً ، فهو ميسر ونقيضه التعسير ، ومنه اليسر واليسير . والحل نفي العقد بالفرق ، حله يحله حلا ، فهو حال والشيء محلول . وضد الحل العقد ، ونظيره الفصل والقطع . والعقدة جملة مجتمعة يصعب حلها متفلكة ، عقد يعقد عقداً وعقدة ، فهو عاقد والشيء معقود ،

ويقال : انه كان فى لسان موسى (ع) رثة وهي التي لا يفصح معها بالحروف شبه التمتمة وغيرها . وقيل : إن سبب العقـدة في لسانه أنه طرح جمرة في فيـه لما اراد فرعون قتله ، لانه اخذ لحيته وهو طفل فنتفها ، فقالت له آسية : لا تفعل ، فانه صبي لا يعقل ، وعلامته انه اخذ جمرة من طست فجعلها في فيه . ذكره سعيد بن جبير ومجاهد والسدي .

وقوله « يفقهوا قولي » أي يفقهوه إذا حللت العقدة من لساني افصحت بما اريد . وسأله ايضاً أن يجعل له وزيراً يؤازره على المضي الى فرعون ويعاضده عليه ، والوزير حامل الثقل عن الرئيس ، مشتق من الوزر الذي هو الثقل ، واشتقاقه ايضاً من الوزر ، وهو الذى يلجأ اليه من الجبال والمواضع المنيعة . وقوله « هارون اخي » قيل فى نصب (هارون) وجهان :

احدهما ـ على انه مفعول (اجعل) الاول و (وزيراً) المفعول الثاني على جهة الخبر .

والوجه الثاني ـ ان يكون بدلا من (وزيراً) وبيانا عنه . فقيل : انّ الله حل اكثر ما كان بلسانه إلا بقية منه بدلالة قوله « ولا يكاد يبين » (١) في قول ابي علي ، وقال الحسن : ان الله استجاب دعاءه ، فحل العقدة من لسانه . وهو الصحيح ، لقوله تعالى «قد أوتيت سؤلك ياموسى» ويكون قول فرعون «ولا يكاد يبين» (١) انه لا يأتي ببيان يفهم كذباً عليه ليغوي بذلك الناس ويصرف به وجوههم عنه .

قوله تعالى :

﴿أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٥٢

نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ (٣٦) ست آيات.

قرأ ابن عامر وحـــده « اشدد به ازري » بقطع الهمزة « واشركه » بضم الألف . الباقون بوصل الهمزة الأولى ، وفتح الثانية . فوجه قراءة ابن عامر: أنه جعله جزاء . الباقون جعلوه : دعاء . وضم الف (اشركه) فى قراءة ابن عامر ضعيف ، لانه ليس اليه اشراكه في النبوة بل ذلك الى الله تعالى . والوجه فتح الهمزة على الدعاء إلا ان يحمل على أنه أراد اشراكه فى أمره فى غير النبوة وذلك بعيد ، لانه جاء بعده ما يعلم به مراد موسى ، لانه قال « واخي هارون هو أفصح مني لسانًا فارسله معي ردءاً يصدقني » (١) فقال الله تعالى « سنشد عضدك باخيك » (٢).

قوله « اشدد به أزري » فالشد جمع يستمسك به المجموع يقال : شده يشده شداً ، فهو شاد وذاك مشدود ، ومثله الربط والعقـد . والازر الظهر يقال : آزرني فلان على أمري أي كان لي ظهراً ، ومنه المئزر ، لانه يشد على الظهر ، والازار لانه يشد على الظهر ، والتأزير لأنه تقوية من جهة الظهر . ويجوز ان يكون ازر لغـة في وزر ، مثل أرخت وورخت ، واكدت ووكدت . وقوله « واشركه فى امري » فالاشراك الجمع بين الشيئين فى معنى على انه لهما ، بجعل جاعل . وقد أشرك الله بين موسى وهارون في النبوة . وقوّى الله به أزره ، كما دعاه .

وقوله « كي نسبحك كثيراً » فالتسبيح التنزيه لله عما لا يجوز عليه من وصفه بما لا يليق به ، فكل شيء عظم به الله بنفي ما لا يجوز عليـــه ، فهو تسبيح ، مثل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر . وقوله « ونذكرك كثيراً » معناه

(١، ٢) سورة ٢٨ القصص آية ٣٥ ـ ٣٦

نذكرك بحمدك والثناء عليك بما أوليتنا من نعمك، ومننت به علينا من تحميل رسالتك « انك كنت بنا بصيراً » أي عالماً بأحوالنا وأمورنا. فقال الله تعالى إجابة له « لقد أوتيت سؤلك يا موسى » أي أعطيت مناك فيما سألتـــه. والسؤل المنى فيما يسأله الانسان، مشتق من السؤال. ويجوز بالهمز وترك الهمز.

قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً * فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَامُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (٤٤)

ثمان آيات بلا خلاف. إلا أن في تفصيلها خلافاً لا نطول بذكره.

لما أخبر الله تعالى موسى بأنه قد آتاه ما طلبه واعطاه سؤله، عدد ما تقدم

ذلك من نعمه عليه ومننه لديه . فقال « ولقد مننا عليك مرة اخرى » والمنّ نعمة يقطع صاحبها بهاعن غيره باختصاصها به . يقال : منّ عليه يمن منّاً إذا انعم عليه نعمة يقطعه إياها . واصله القطع ، ومنه قوله « لهم اجر غير ممنون » (١) اي غيرمقطوع. وحبل منين : أي منقطع . والمرة الكرة الواحدة من المر ، وذلك ان نعمة الله (عز وجل) عليه مستمرة،فذكره الاجابة مرة وقبلها مرة أخرى . وقوله ﴿ إذ أوحينا الى أمك ما يوحى ﴾ أي كانت هذه النعمة عليك حين أوحينا الى أمك ما يوحى ، قال قوم : اراد انه ألهمها ذلك . وقال الجبائي : رأت فى المنام أن اقذفيه في التابوت ، ثم اقذفيه في اليم ، والقذف هو الطرح ، واليم البحر قال الراجز :

كنازح اليم سقاه اليم (٢)

وقيل : المراد به ههنا النيل. وقوله « فليلقه اليم بالساحل» جزاء وخبر أخرج مخرج الامر ومثله «اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم»والتقدير فاطرحيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل . وقوله « يأخذه عدوّ لي وعدوّ له » يعني فرعون . وكان عدوّ الله بكفره وحدانيته وادعائه الربوبية ، وكان عدو موسى ، لتصوره أن ملكه ينقرض على يده .

وقوله « والقيت عليك محبة مني » معناه إني جعلت من رآك احبك حتى احبك فرعون ، فسلمت من شره، واحبتك امرأته آسية بنت مزاحم فتبنتك .

وقوله ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ قال قتادة : معناه لتغذى على محبتي وارادتي ، وتقديره وأنا اراك ، يجري امرك على ما اريد بك من الرفاهة في غذائك ، كما يقول القائل لغيره : أنت مني بمرأى ومستمع أى انا مراع لاحوالك . وقوله « إذ تمشي اختك فتقول هل أدلكم على من يكفله » قيل ان موسى امتنع أن يقبل ثدي مرضعة

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٨ وسورة ٨٤ الانشقاق آية ٢٥ وسورة ٩٥ التين آية ٦ (٢) مر تخريجه فى ٤ / ٥٥٧ من هذا الكتاب

الا ثدي امه لما دلتهم عليها أخته ، فلذلك قال ﴿ فرجعناك الى امك كي تقر عينها ولا تحزن ﴾ .

وقوله « وقتلت نفساً فنجيناك من الغم » وروي عن النبي (ص) أن قتله النفس كان خطأ . وقال جماعة من المعتزلة : انه كان صغيرة . وقال اصحابنا : انه كان ترك مندوب اليه ، لان الله تعالى قد كان حكم بقتله لكن ندبه الى تأخير قتله الى مدة غير ذلك ، وانما نجاه من الفكر في قتله ، كيف لم يؤخره الى الوقت الذى ندبه اليه . وقال قوم : أراد نجيناك من القتل لانهم طلبوه ليقتلوه بالقبطي .

وقوله ﴿ وفتناك فتونا ﴾ أى اختبرناك اختباراً . والمعنى انا عاملناك معاملة المختبر حتى خلصت للاصطفاء بالرسالة ، فكل هذا من اكبر نعمه . وقيل : الفتون وقوعه فى محنة بعد محنة حتي خلصه الله منها : اولها ـ أن امه حملته فى السنة التي كان فرعون يذبح فيها الاطفال ، ثم القاؤه في اليم ، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه ، ثم جره لحية فرعون حتى هم بقتله ، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة ، فدرأ الله بذلك عنه قتل فرعون ، ثم مجيء رجل من شيعته يسعى ليخبره بما عزموا عليه من قتله . وذلك عن ابن عباس فالمعنى على هذا وخلصناك من المحن تخليصاً . وقيل معناه اخلصناك إخلاصاً . ذكره مجاهد .

وقوله « فلبثت سنين في أهل مدين » يعني اقمت سنين عند شعيب، يعني احوالا اجيراً له ترعى غنمه، فمننا عليك وجعلناك نبياً حتى « جئت على قدر » أي فى الوقت الذي قدر لارسالك، قال الشاعر :

نال الخلافة إذ كانت له قدراً   كما أتى ربه موسى على قدر (١)

وقال الجبائي معنى « وفتناك فتونا » أي شددنا عليك التعب فى أمر المعاش

(١) مر تخريجه فى ١ / ٣٠٧ من هذا الكتاب

حتى رعيت لشعيب عشر سنين ، ويؤكده قوله « فلبثت سنين فى اهل مدين » وهي مدينة شعيب « ثم جئت على قدر يا موسى » وقوله « واصطنعتك » أي اصطفيتك اخلصتك بالالطاف التي فعلتها بك، اخترت عندها الاخلاص لعبادتي . وقوله « لنفسي » أي لتنصرف على أرادتي ومحبتي يقال: اصطنعه يصطنعه اصطناعاً ، وهو (افتعال) من الصنع، والصنع اتخاذ الخير لصاحبه. ووجه قوله « لنفسي » يعني محبتي، لان المحبة لما كانت أخص شيء بالنفس حسن أن يجعل ما اختص بها مختصاً بالنفس على هذا الوجه .

وقوله « اذهب انت واخوك بآياتي » أي بعلاماتي وحججي « ولا تنيا » أي لاتفترا ، يقال : ونى في الامر يني ونياً إذا فتر فيه ، فهو وان ومتوان . وقيل : معناه لا تضعفا قال العجاج :

فما ونى محمد مذ أن غفر له إلا له ما مضى وما غبر (١)

وقوله « في ذكري . اذهبا الى فرعون انه طغى » أي عتا وخرج عن الحد فى المعاصي « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » معناه ادعواه الى الله والى الايمان به وبما جئتما به ، على الرجاء والطمع ، لا على اليأس من فلاحه . فوقع التعبد لهما على هذا الوجه ، لأنه أبلغ فى دعائه الى الحق ، بالحرص الذي يكون من الراجي للامر . وقال السدي : معنى قوله « فقولا له قولا لينا » أي كنياه ، وقيل : انه كانت كنية فرعون ابا الوليد . وقيل : أبا مرة . وقيل : معناه وقّراه وقارباه . وقوله « لعله يتذكر » معناه ليتذكر « أو يخشى » معناه أو يخاف . والمعنى انه يكون أحدها إما تذكر أو الخشية . وقيل المعنى على رجائكما او طمعكما ، لانهما لا يعلمان هل يتذكر لا . و (لعل) للترجي إلا انه يكون لترجي المخاطب تارة ولترجي المخاطب أخرى

(١) مر تخريجه فى ٦ / ٣٤٤ من هذا الكتاب

قوله تعالى :

﴿ قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (٥٠) ست آيات بلا خلاف.

لما امر الله موسى وهارون (ع) أن يمضيا الى فرعون ويدعواه الى الله «قالا اننا نخاف أن يفرط علينا» ومعناه ان يتقدم فينا بعذاب، ويعجل علينا، ومنه الفارط المتقدم امام القوم الى الماء، قال الشاعر :

قد فرط العجل علينا وعجل (١)

ومنه الافراط الاسراف، لانه تقدم بين يدي الحق. والتفريط التقصير في الأمر، لأنه تأخير عما يجب فيه التقدم. فالأصل فيه التقدم «أو ان يطغي» أو يعتوا علينا ويتجبر، فقال الله تعالى لهما «لا تخافا» ولا تخشيا «انني معكما» أي عالم بأحوالكما، لا يخفى علي شيء من ذلك، وإني ناصر لكما، وحافظ لكما «اسمع» ما

(١) تفسير الشوكاني ٣ / ٣٥٥ والقرطبي ١١/ ١٩٨

يقول لكما « واری » ما يفعل بكما . وقال ابن جريج « انني معكما اسمع » ما يحاوركما به «وأرى» ما تجيئان به . فالسامع هو المدرك للصوت . والرائي المدرك للمرئيات . ثم امرهما بأن ياتياه ، ويقولا له « انا رسولا ربك » بعثنا الله اليك والى قومك لندعوكم الى توحيد الله واخلاص عبادته ، ويأمرك أن ترسل « معنا بني اسرائيل » اي تخليهم وتفرج عنهم ، وتطلقهم من اعتقالك « ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك » اي بمعجزة ظاهرة ، ودلالة واضحة من عند ربك «والسلام» يعني السلامة والرحمة « على من اتبع » طريق الحق و ﴿ الهدى ﴾ ، و (على) بمعنى اللام وتقديره السلامة لمن اتبع . والمعنى ان من اتبع طريق الهدى سلم من عذاب الله .

وقوله ﴿ انا قد اوحي الينا ﴾ معناه قولا : ﴿ انا قد أوحي الينا ان العذاب على من كذب ﴾ بآيات الله واعرض عن اتباعها . وفى الكلام محذوف ، وتقديره فاتياه فقولا له ذلك . قال « فمن ربكما ياموسى » وقيل: انه:قال فمن ربكما ؟ على تغليب الخطاب . والمعنى فمن ربك وربه يا موسى ، فقال موسى مجيباً له « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ومعناه أعطى كل شيء حي صورته التي قدر له ثم هداه الى مطعمه ومشربه ومسكنه ومنكحه ، الى غير ذلك من ضروب هدايته ـ في قول مجاهد ـ وقيل : معناه أعطى كل شيء مثل خلقه من زوجة ، ثم هداه لمنكحه من غير أن رأى ذكراً اتى انثى قبل ذلك . وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه وغير ذلك من هدايته . وقرأ نصير عن الكسائي « خلقه » بفتح اللام والخاء ، على انه فعل ماض . الباقون بسكونها على انه مفعول به . والمعنى إنه خلق كل شيء على الهيئة التي بها ينتفع والتي هي أصلح الخلق له ، ثم هداه لمعيشته ومنافعه لدينه ودنياه .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (٥٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة ﴿ مهداً ﴾ على التوحيد. الباقون «مهاداً» على الجمع . وهو مثل فرش وفراش . ومن قرأ « مهداً » قال ليوافق رؤس الآي . والمعنى « لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الارض » مستقراً يمكنكم من التصرف عليها . وقال الزجاج : القرن اهل كل عصر فيهم نبي أو إمام او عالم يقتدى به ، وإن لم يكن واحد منهم لم يسم قرناً .

حكى الله تعالى ما قال فرعون لموسى « ما بال القرون الأولى » وهي الامم الماضية ، وكان هذا السؤال منه معاياة لموسى ، فأجابه موسى بأن قال « علمها عند ربي» لانه لا يخفى عليه شيء من المعلومات . وقوله « في كتاب » اي اثبت ذلك في الكتاب المحفوظ لتعرفه الملائكة . و(الأولى) تأنيث (الأوّل) وهو الكائن على صفة قبل غيره . فاذا لم يكن قبله شيء، فهو قبل كل شيء . واراد ذلك على ما في معلوم الله من امرها . وقيل انه اراد من يؤدبهم ويجازيهم . وقيل : أن معنى «لا يضل ربي ولا ينسى» اي لا يذهب

عليه شيء ، والعرب تقول لكل ماذهب على الانسان مما ليس بحيوان : ضله ، كقولهم: ضل منزله إذا اخطأه يضله بغير الف ، فاذا ضل منه حيوان فيقولون : أضل ـ بألف بعيره أو ناقته أو شاته بالألف. والاصل فى الاول ضل عنه . وقرأ الحسن « يضل » بضم الياء وكسر الضاد .

وقوله « الذي جعل لكم الارض مهداً » موضع (الذي) رفع بدل عن قوله « ربي . ولا ينسى الذي جعل لكم الارض مهداً » أي جعله لكم مستقراً تستقرون عليه « وسلك لكم فيها سبلا » معناه انه جعل لكم فى الارض سبلا تسلكوا فيها في حوائجكم من موضع الى موضع ، وانهج لكم الطرق « وأنزل من السماء ماء فاخرجنا به ازواجاً من نبات شتى » كل ذلك من صفات قوله « لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل » جميع ما ذكر صفاته . وقوله « كلوا وارعوا انعامكم » لفظه لفظ الامر والمراد الاباحة. وقوله ﴿ إن فى ذلك لآيات لاولى النهى ﴾ أي أن فى جميع ما عددناه دلالات لأولى العقول ، والنهى جمع نهية نحو كسية وكسى ، وهو شحم فى جوف الضب ، وانما خص أولي النهى ، لانهم أهل الفكر والاعتبار وأهل التدبير والاتعاظ . وقيل لهم : اهل النهى ، لانهم ينهون النفوس عن القبائح وقيل لانه ينتهى الى رأيهم .

وقوله ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾ يعني من الارض خلقناكم وفي الارض نعيدكم إذا امتناكم ﴿ ومنها نخرجكم تارة اخرى ﴾ دفعة اخرى إذا حشرناكم .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ

مَكَاناً سُوىً (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحىً (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ (٦٠) خمس آيات بلا خلاف.

قوله ﴿ ولقد اريناه آياتنا كلها ﴾ تقديره أريناه آياتنا التي اعطيناها موسى واظهرناها عليه ﴿ كلها ﴾ لما يقتضيه حال موسى (ع) معه، ولم يرد جميع آيات الله التي يقدر عليها، ولا كل آية خلقها الله، لان المعلوم أنه لم يرد به جميعها. وقوله ﴿ فكذب وأبى ﴾ معناه نسب الخبر الذي أتاه الى الكذب ﴿ وابى ﴾ امتنع مما دعي اليه من توحيد الله واخلاص عبادته والطاعة لما أمر به. وقال فرعون لموسى ﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴾ والسحر حيلة يخفى سببها ويظن بها المعجزة، ولذلك يكفر المصدق بالسحر، لانه لا يمكنه العلم بصحة النبوة مع تصديقه بأن الساحر يأتي بسحره بتغيير الثابت. ثم قال فرعون لموسى ﴿ فلنأتينك ﴾ يا موسى ﴿ بسحر ﴾ مثل سحرك ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً لانخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ﴾ اي عدنا مكاناً نجتمع فيه ووقتا نأتي فيه ﴿ مكانا سوى ﴾ أي مكانا عدلا بيننا وبينك ـ في قول قتادة والسدي ـ وقيل معناه مستوياً يتبين الناس ما بيننا فيه ـ ذكره ابن زيد ـ وقيل: معناه يستوي حالنا في الرضا به. وفيه إذا قصر لغتان ـ كسر السين، وضمها ـ وإذا فتحت السين مددته نحو قوله ﴿ الى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ (١) ومثله عدى وعدى. وطوى وطوى، وثنى وثنى. وقال أبو عبيدة: (سوى) النصف والوسط قال الشاعر:

وإن ابانا كان حل ببلدة سوى بين قيس قيس غيلان والفزر (٢)

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٦٤ (٢) تفسير القرطبي ١١ / ١٩٨ والطبري ١٦ / ١١٩

قيس وفزر قبيلتان هنا . والفزر القطيع من الشاه . والقيس القردة . والقيس مصدر قاس خطاه قيساً إذا سوى بينها . ويقال جارية تميس ميساً وتقيس قيساً ، فمعنى تميس تتبختر . وسأل رجل اعرابياً : ما اسمك قال محمد ، قال : والكنيسة ، قال : ابو قيس . قال قبحك الله اتجمع بين اسم النبي والقرد .

وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ﴿ سوى ﴾ بضم السين . الباقون بالكسر .

فقال له موسى « موعدكم يوم الزينة » وهو يوم عيد كان لهم ـ في قول قتادة وابن جريج والسدي وابن زيد وابن اسحاق ـ وقال الفراء « يوم الزينة » يوم شرف كانوا يتزينون بها . وقوله « وأن يحشر الناس ضحى » يحتمل أن يكون في موضع رفع ، وتقديره موعدكم حشر الناس . ويحتمل ان يكون في موضع جر وتقديره يوم يحشر الناس .

وقوله « فتولى فرعون » أي اعرض عن موسى على هذا الوعد « فجمع كيده » من السحر و « اتى » يوم الموعد . وقرأ هبيرة عن حفص عن عاصم « يوم » بفتح الميم على الظرف . الباقون بضمها على أنه خبر (موعدكم) فجعلوا الموعد هو اليوم بعينه .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا

يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦)

ست آيات بلا خلاف .

قرأ « فيسحتكم » - بضم الياء وكسر الحاء - أهل الكوفة إلا أبا بكر . الباقون بفتح الياء والحاء . وهما لغتان . يقال : سحت وأسحت إذا استأصل . وقرأ ابو عمرو « إن هذين » بتشديد (إن) ونصب (هذين) . وقرأ نافع وحمزة والكسائي وابو بكر عن عاصم - بتشديد (ان) والالف في (هذان) . وقرأ ابن كثير (ان) مخففة (هـذان) مشددة النون . وقرأ ابن عامر بتخفيف نون (إن) وتخفيف نون (هذان) . وقرأ ابوعمرو وحده « فاجمعوا » بهمزة الوصل . الباقون بقطع الهمزة من اجمعت الأمر إذا عزمت عليه، قال الشاعر :

يا ليت شعري والمنى لا تنفـــع   هل اغدون يوما وأمري مجمع (١)

وقيل : إن جمعت وأجمعت لغتان في العزم على الأمر يقال: جمعت الأمر، واجمعت عليه ، بمعنى ازمعت عليه وفي الكلام حذف ، لان تقديره انهم حضروا واجتمعوا يوم الزينة، فقال لهم حينئذ موسى يعني للسحرة الذين جاؤا بسحرهم « لا تفتروا على الله » اي لا تكذبوا عليه كذباً بتكذيبي، وتقولوا إن ما جئت به السحر. والافتراء اقتطاع الخبر الباطل بادخاله في جملة الحق وأصله القطع من فراه يفريه فرياً. وافترى افتراء ، والافتراء والافتعال والاختلاق واحد وقوله « فيسحتكم بعذاب» قال قتادة وابن زيد والسدي معناه فيستأصلكم بعذاب . والسحت استقصاء الشعر في الحلق : سحته سحتاً واسحته

---

(١) مر تخريجه في ٥ / ٤٦٨ من هذا الكتاب

اسحاتاً لغتان ، قال الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجلف(١)

وينشد (مسحت) بالرفع على معنى لم يدع أي لم يبق . ومن نصب قال أو مجلف ، كذلك روي مسحتاً ومجلف . وسئل الفرزدق على ما رفعت إلا مسحتاً أو مجلف . فقال للسائل على ما يسؤك وينؤك . ويقال : سحت شعره إذا استقصى حلقه . والمعنى إن العذاب إذا أتى من قبل الله أخذهم واهلكهم عن آخرهم .

وقوله «وقد خاب من افترى » أي انقطع رجاه من افترى الكذب . والخيبة الامتناع على الطالب ما أمل ، والخيبة انقطاع الرجاء يقال : رجع بخيبة ، وهو إذا رجع بغير قضاء حاجته . واشد ما يكون إذا أمل خيراً من جهة،فانقلب شراً منها .

وقوله « فتنازعوا أمرهم »معناه اختلفوا فيما بينهم . والتنازع محاولة كل واحد من المختلفين نزع المعنى عن صاحبه . تنازعا في الامر تنازعاً ، ونازعه منازعة .

وقوله « واسروا النجوى » أي اخفوها فيما بينهم . قال قتادة : انهم قالوا : إن كان هذا ساحراً فسنغلبه ، وإن كان من السماء ، فله أمره . وقال : وهب بن منبة: لما قال لهم « ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » قالوا: ما هـذا بقول ساحر . وقيل : اسرارهم كان أنهم قالوا : ان غلبنا موسى اتبعناه . وقيل أسروا النجوى دون موسى وهارون بقوله « إن هذين لساحران .... » الآية . وهو قول السدي . وقوله « ان هذان لساحران » قيل فيه أوجه :

اولها ـ إنه ضعف عمل (إن) لأنها تعمل وليست فعلا لشبهها بالفعل ، وليست

---

(١) مر تخريجه في ٣ / ٥٢٣ وفي ديوان الفرزدق طبع (دار صادر ، دار بيروت) ٢ / ٢٦ (مجرف) بدل (مجلف) وهو خطأ

باصل في العمل ، كما انها لما خففت لم تعمل أصلا .

والثاني ـ « إن هـــذان » أشبه (الذين) في البناء، لأن أصله الذي فزادوا نونًا للجمع، وتركوه على حالة واحدة في النصب والجر والرفع . فكذلك كان أصله (هـذا) فيه ألف مجهولة فزادوا نونًا للتثنية وتركوها على حالة واحدة في الاحوال الثلاثة .

والثالث ـ إن (ان) بمعنى (إنه) إلا انها حذفت الهاء .

والرابع ـ انه لما حذفت الألف من (هـــذا) صارت ألف التثنية عوضاً منها ، فلم تزل على حالها . وهي لغة بني الحارث بن كعب ، وخثعم، وزبيد، وجماعة من قبائل اليمن . وقال بعض بني الحارث بن كعب :

واطرق اطراق الشجاع ولو يرى　　مساغاً لناباه الشجاع لصمما (١)

وقال آخر :

إن اباها وابا اباهـــا　　قد بلغا في المجد غايتاها (٢)

وقال آخر :

تزود منـــا بين اذناه ضربة　　دعته الى هابي التراب عقيم (٣)

الخامس ـ وقال المبرد واسماعيل بن اسحاق القاضي: أحسن ما قيل في ذلك ان (ان) تكون بمعنى نعم، ويكون تقديره نعم هذان لساحران ، فيكون ابتداء وخبراً قال الشاعر :

ظل العواذل بالضحى　　يلحينني والومهنـــه *

---

(١) تفسير القرطبي ١١ /٢١٥ وتفسير الطبري ١٦ / ١١٩

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ٢١٧ والشوكاني ٣ / ٣٦١

(٣) تفسير القرطبي ١١ / ٢١٧ ومجمع البيان ٤ / ١٦

ويقلن شيب قـد علاك وقد كبرت فقلت انه(١)

ووجه قراوة حفص انه جعل (إن) بمعني (ما) وتقديره : ما هذان ساحران. وروي ان ابن مسعود قرأ (ان هذان ساحران) بغير لام . وقرأ ابي (إن هـذان إلا ساحران) . ومن جعل (ان) بمعنى (نعم) جعل حجته فى دخول اللام في الخبر قول الشاعر :

خالي لانت ومن جرير خاله ينل العلا وتكرم الاخوال (٢)

وقال آخر :

ام الحـليس لعجوز شهربة ترضى من اللحم بعظم الرقبة (٣)

هذه الآية حكاية عن قول فرعون أنه قال لهم « إن هـذين » يعني موسى وهارون « لساحران يريدان أن يخرجاكم من ارضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى» قال مجاهد : معناه يذهبا بطريقة اولي العقل والاشراف والانساب . وقال ابو صالح : ويذهبا بسراة الناس . وقال قتادة: ويذهبا ببني اسرائيل، وكانوا عدداً يسيراً. وقال ابن زيد : معناه ويذهبا بالطريقة التي أنتم عليها في السيرة [وقيل : المعنى يذهبان بأهل طريقتكم المثلى. والامثل الاشبه بالحق الثابت ، والصواب الظاهر . وهو الاولى به](٤).

وقال لهم فرعون ايضاً « فاجمعوا كيدكم » فمن قطع الهمزة أراد فاعزموا على أمركم وكيدكم وسحركم . وقيل : جمع وأجمع لغتان في العزم على الشيء يقال : جمعت

---

(١) تفسير القرطبى ١١/ ٢١٨ ومجمع البيان ٤ / ١٥

(٢) تفسير الشوكانى ٣ / ٣٣٤ وتفسير القرطبي ١١/ ٢١٩

(٣) تفسير القرطبى ١١ / ٢١٩

(٤) ما بين القوسين كان في المطبوعة متأخراً عن موضعه مع اخطاء كثيرة فيه

الأمر وأجمعت عليه .

« ثم ائتوا صفاً » ومعناه مصطفين . وقال الزجاج : هو كقولهم : أتيت الصف أي الجماعة . ولم يجمع (صفاً) لانه مصدر . وقال قوم : إن هذا من قول فرعون للسحرة . وقال آخرون : بل هو من قول بعض السحرة لبعض .

وقوله « وقد افلح اليوم من استعلى » معناه قد فاز اليوم من علا على صاحبه بالغلبة . و « قالوا ياموسى اما أن تلقي واما أن نكون أول من القى » حكاية عما قالت السحرة لموسى فانهم خيّروه في الالقاء بين أن يلقوا أولا ما معهم أو يلقي موسى عصاه ، ثم يلقون ما معهم ، فقال لهم موسى « بل القوا » أنتم ما معكم «فاذا حبالهم وعصيّهم» أي القوا ما معهم ، فاذا حبالهم وعصيّهم . وحبال جمع حبل ؛ وعصي جمع عصا ، ويجمع الحبل حبلاً والعصى أعصيا ويثنى عصوان . وانما أمرهم بالالقاء ، وهو كفر منهم ، لانه ليس بأمر ، وانما هو تهديد . ومعناه الخبر ، بان من كان إلقاؤه منكم حجة عنده ابتدأ بالالقاء ، ذكره الجبائي . وقال قوم: يجوز أن يكون ذلك أمراً على الحقيقة أمرهم بالالقاء على وجه الاعتبار ، لاعلى وجه الكفر . وقيل كان عدّة السحرة سبعين ألفاً ـ في قول القاسم بن ابي برّة وقال ابن جريج : كانوا تسعمائة .

وقوله « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى » وانما قال يخيل، لأنها لم تكن تسعى حقيقة ، وانما تحركت ، لأنه قيل إنه كان جعل داخلها زئبق ، فلما حميت بالشمس طلب الزئبق الصعود ، فتحركت العصي والحبال ، فظن موسى أنها تسعى . وقوله « يخيل اليه » قيل الى فرعون . وقيل الى موسى . وهو الأظهر . لقوله « فاوجس فى نفسه خيفة موسى » وانما خاف دخول الشبهة على قومه . وقيل خاف بطبع البشرية .

قوله تعالى:

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾(٧٠) اربع آيات .

قرأ ابن عامر « تلقف » بتشديد القاف ورفع الفاء . وقرأ حفص عن عاصم ساكنة الفاء مجزومة خفيفة القاف . الباقون مشددة القاف مجزومة الفاء . وقرأ حمزة والكسائي « كيد سحر» على (فعل)الباقون «ساحر» على (فاعل) قال ابوعلي : حجة من قال (ساحر) أن الكيد للساحر ، لا للسحر إلا أن يريد كيد ذي سحر ، فيكون المعنيان واحداً ، ولا يمتنع ان يضاف الكيد الى السحر مجازاً . قوله « فأوجس في نفسه خيفة موسى » قيل في وجه خيفته قولان :

احدها ـ قال الجبائي والبلخي خاف أن يلتبس على الناس أمرهم،فيتوهموا أنه كان بمنزلة ما كان من أمر عصاه .

الثاني ـ انه خاف بطبع البشرية لما رأى من كثرة ما تخيل من الحيات العظام، فقال الله تعالى له « لا تخف إنك انت الأعلى » أي انك انت الغالب لهم والقاهر لامرهم ، ثم أمره تعالى فقال له «ألق ما فى يمينك » يعني العصا « تلقف ما صنعوا» أي تأخذها بفيها ابتلاعاً و (ما) ها هنا بمعنى الذي ، وتقديره تلقف الذي صنعوا فيه ، لان فعلهم لا يمكن ابتلاعه،لانها اعراض . ويقال: لقف يلقف وتلقف يتلقف . ومن قرأ(تلقف)مضمومة الفاء مشددة القاف،أراد تتلقف فاسقط احدالتائين، وكذلك

روى ابن فليح عن البزي عن ابن كثير بتشديد التاء ، لانه ادغم احداهما في الاخرى. ومن سكن الفاء جعلها جواب الأمر. ومن رفع ، فعلى تقدير ، فهي تلقف . وقيل: إنها ابتلعت حمل ثلاث مئة بعير من الحبال والعصي . ثم اخذها موسى فرجعت الى حالها عصاً ، كما كانت . ثم اخبر تعالى ، بأن الذي صنعوه كيد سحر ، او كيد ساحر ، على اختلاف القراءتين . وانما رفع « كيد ساحر » لأنه خبر (ان) . والمعنى إن الذي صنعوه كيد ساحر ، ويجوز فيه النصب على أن تكون (ما) كافة لعمل (إن) كقولك إنما ضربت زيداً ، ومثله « انما تعبدون من دون الله أوثاناً » (١) ثم اخبر تعالى أن الساحر لا يفلح أي لا يفوز بفلاح أي بنجاة « حيث أتى » أي حيث وجد . وقال بعضهم ، لانه يجب قتله على كل حال ، فلما رأت السحرة ما فعله الله من قلب العصا ثعباناً وابطال سحرهم علموا انه من قبل الله ، وانه ليس بسحر ، فالقوا نفوسهم ساجدين لله ، مقرين بنبوة موسى (ع) مصدقين له . و « قالوا آمنا » أي صدقنا « برب هارون وموسى » وقيل معناه صدقنا بالرب الذي يدعو اليه هارون وموسى ، لانه رب الخلائق اجمعين .

قوله تعالى:

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ١٧

مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ (٧٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وحفص وورش « آمنتم » على لفظ الخبر. وقرأ اهل الكوفة إلا حفصاً بهمزتين. الباقون بهمزة واحدة بعدها مدة. قال ابو علي : من قرأ على الخبر، فوجهه أنه قرعهم على تقدمهم بين يديه، وعلى استبدارهم بما كان منهم من الايمان بغير اذنه وأمره، والاستفهام يؤل الى هذا المعنى . ووجه قراءة أبي عمرو انه أتى بهمزة الاستفهام وهمزة الوصل، وقلب الثانية مدة، كراهية اجتماع الهمزتين. وقد مضى شرح ذلك فيما مضى.

حكى الله تعالى ما قال فرعون للسحرة حين آمنوا بموسى وهارون « آمنتم له » أي صدقتموه واتبعتموه « قبل ان آذن لكم » وقال في موضع آخر « آمنتم به »(١) وقيل في الفرق بينهما « ان آمنتم له » يفيد الاتباع، وليس كذلك « آمنتم به » لانه قد يوقن بالخبر من غير اتباع له فيما دعا اليه إلا أنه إذا قبل قول الداعي الى أمر أخذ به. ومن قرأ « آمنتم على الخبر » كأن فرعون أخبر بذلك. ومن قرأ على لفظ الاستفهام كأنه استفهم عن ايمانهم على وجه التقريع لهم.

والفرق بين الاذن والأمر، أن في الامر دلالة على إرادة الفعل المأمور به، وليس

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٢٢

في الاذن دلالة على إرادة المأذون فيه ، كقوله « وإذا حللتم فاصطادوا » (١) فهـذا إذن . ثم قال فرعون « انه » يعني موسى « لكبيركم » اي رئيسكم ومتقدمكم « الذي علمكم السحر » ثم هددهم فقال « لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف » يعني قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى او اليد اليسرى والرجل اليمنى . وقيل أول من فعل ذلك فرعون ، وأول من صلب فى جذوع النخل هو ، و (في) بمعنى (على) قال الشاعر :

وهم صلبوا العبدي في جذع نخلة　　　فلا عطست شيبان إلا بأجدعا(٢)

وقوله « ولتعلمن اينا اشد عذاباً وأبقى » قال ابن اسحاق ومحمـد بن كعب القرطي معناه : ابقى عقاباً ان عصي وثواباً ان اطيع ، ورفع « أينا » لانه وقـع موقع الاستفهام ، ولم يعمل فيه ما قبله من العلم . وقيل انما نسبهم الى اتباع رئيسهم في السحر ليصرف بذلك الناس عن اتباع موسى (ع) فأجابته السحرة فقالوا « لن نؤثرك » أي لانختارك يا فرعون « على ما جاءنا من البينات » يعني الادلة الدالة على صدق موسى وصحة نبوته . وقوله « والذي فطرنا » يعني وعلى الذي خلقنـا فيكون عطفاً على « ما جاءنا من البينات » فيكون جراً ، ويحتمل أن يكون جراً بأنه قسم . وقوله « فاقض ما انت قاض » معناه فاصنع ما انت صانع على تمام من قولهم : قضى فلان حاجتي إذا صنع ما اريد على اتمام ، قال ابو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما　　　داود أو صنع السوابغ تبع(٣)

وقوله « انما تقضي هذه الحياة الدنيا » يعنى انما تصنع بسلطانك وعذابك فى هذه الحياة الدنيا دون الاخرة . وقيل : معناه ان الذي يفنى وينقضي هذه الحياة

(١) سورة ٥ ، المائدة آية ٣

(٢) تفسير الشوكاني ٣/٣٦٣ والقرطبى ١١/٢٢٤ والطبري ١٦ ١٢٦

(٣) مر هذا البيت فى ١/ ٤٢٩ و٤/ ٨٨ و ١٦٥ و ٥/٣٩٨

الدنيا دون حياة الآخرة . وقوله « انا آمنا بربنا » اي صدقنا به،نطلب بذلك أن يغفر لنا خطايانا ويغفر لنا ما اكرهتنا عليه من السحر . قال ابن زيد وابن عباس : إن فرعون رفع غلماناً الى السحرة يعلمونهم السحر بالغرائم قالوا «والله خير » لنا منكم « وابقى » لنا ثواباً من ثوابك . ثم حكى قول السحرة انهم قالوا « انه من يأت ربه مجرماً » وقيل انه خبر من الله تعالى بذلك دون الحكاية عن السحرة « فان له جهنم » جزاء على جرمه وعصيانه « لا يموت فيها » يعني جهنم « ولا يحيي » اي لا يموت فيها فيستريح من العذاب ، ولا يحيي حياة فيها راحة ، بل هو معاقب بأنواع العقاب .

ثم اخبر تعالى فقال « ومن يأته مؤمناً » أي مصدقا بتوحيده وصدق أنبيائه و « قد عمل » الطاعات التى أمره بها « فاولئك لهم الدرجات العلى » أي العاليه والعلى جمع عليا مثل ظلمة وظلم والكبرى والكبر .

قوله تعالى :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ

الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ (٨٠) خمس آيات .

قرأ حمزة وحده ﴿ لا تخف دركاً ﴾ على النهي ، أو على الجزاء لقوله « فاضرب لهم طريقاً » الباقون « لا تخاف » بالرفع « ولا تخشى » بألف بلا خلاف على الاستئناف . ومثله قوله « يولوكم الادبار ثم لا ينصرون » (١) . وقيل انه يحتمل ان يكون « لا تخش » مجزوماً ، وزيد الالف ليوافق رؤس الآي كما قال الشاعر :

الم يأتيك والأنباء تنمي بما لاقت لبون بني زياد (٢)

ومن قرأ « لا تخاف » بالرفع ، و « لا تخشى » مثله ، فهو على الخبر . وقال ابو علي : هو في موضع نصب على الحال ، وتقديره طريقاً في البحر يبساً غير خائف دركاً . وقرأ حمزة والكسائي « انجيتكم ، ووعدتكم » بالتاء فيهما بغير الف . الباقون بالالف والنون . وقرأ ابو عمرو وحده « ووعدناكم » بغير الف . الباقون « وواعدناكم » بالف . ولم يختلفوا في « نزلنا » انه بالنون . ومعنى التاء والنون قريب بعضه من بعض ، لكن النون لعظم حال المتكلم .

لما اخبر الله تعالى ان لمن آمن بالله الدرجات العلى ، قال ولهم « جنات عدن » اي بساتين إقامة « تجري من تحتها الانهار خالدين فيها » وقد فسرناه في غير موضع ثم قال « وذلك » الذي وصفه « جزاء من تزكى » فالتزكي طلب الزكا بارادة الطاعة ، والعمل بها ، والزكا النماء في الخير ، ومنه الزكاة ، لان المال ينمو بها في العاجل والاجل ، لما لصاحبها عليها من ثواب الله تعالى . وقيل : معنى « تزكى » تطهر من الذنوب بالطاعة بدلا من تدنيسها بالمعصية . والخلود المكث في الشيء الى غير غاية .

(١) سورة ٣ آية آل عمران آية ١١١ (٢) مر هذا البيت ٦ | ١٩٠ وهو في تفسير القرطبي ١١ / ٢٢٤ وتفسير الشوكاني ٣ / ٣٣٤

ثم أخبر تعالى فقال ﴿ ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي ﴾ أي سر بهم ليلا لأن الاسراء السير بالليل ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ﴾ والمعنى: اضرب بعصاك البحر تجعل طريقاً، فكأنه قيل: اجعل طريقاً بالضرب بالعصا، فعداه الى الطريق لما دخله هذا المعنى فكأنه قد ضرب الطريق، كضربه الدينار.

واليبس اليابس وجمعه ايباس، وجمع اليبس ـ بسكون الباء ـ يبوس. وقال ابو عبيدة: اليبس ـ بفتح الباء ـ المكان الجاف. واذا كان اليبس في نبات الارض فهو اليبس ـ بسكون الباء ـ قال علقمة بن عبده:

تخشخش أبدان الحديد عليهم كما خشخشت يبس الحصاد جنوب

وقوله ﴿ لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾ معناه لا تخف أن يدركك فرعون، ولا تخش الغرق من البحر ـ في قول ابن عباس وقتادة. وقيل: معناه لا تخف لحوقاً من عدوك، ولا تخش الغرق من البحر الذي انفرج عنك. والمعنيان متقاربان. وكان سبب ذلك أن اصحاب موسى قالوا له: هذا فرعون قد لحقنا، وهذا البحر قد غشينا يعنون اليم، فقال الله تعالى « لا تخف دركا ولا تخش ».

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده ﴾ أي دخل خلف موسى وبني إسرائيل، وفي الكلام حذف لأن تقديره: فدخل موسى وقومه البحر ثم أتبعهم فرعون بجنوده ومن اتبعهم. فمن قطع الهمزة جعل الباء زائدة. ومن وصلها أراد: تبعهم وسار في أثرهم، والباء للتعدية.

وقوله ﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ يعني الذي غشيهم. وقيل: معناه تعظيم للامر لأن (غشيهم) قد دل على (ما غشيهم) وإنما ذكره تعظيماً. وقيل: ذكره تأكيداً. وقال قوم: معناه فغشيهم الذي عرفتموه. كما قال ابو النجم:

أنا ابو النجم وشعري شعري(١)

وقال الزجاج : فغشيهم من اليم ما غرقهم . وقال الفراء : معناه «فغشيهم من اليم ما غشيهم » لأنه ليس الماء كله غشيهم ، وانما غشيهم بعضه . وقال قوم : معناه « فغشيم » يعني أصحاب فرعون « من اليم » ما غشي قوم موسى إلا أن الله غرق هؤلاء ، ونجا أولئك . ويجوز أن يكون المراد : فغشيهم من قبل اليم الذي غشيهم من الموت والهلاك ، فكأنه قال : الذي غشيهم من الموت والهلاك كان من قبل البحر إذ غشيهم ، فيكون (غشيهم) الاول للبحر ، و (غشيهم) الثاني للهلاك والموت .

وقوله « وأضل فرعون قومه وما هدى » معناه أنه دعاهم الى الضلال واغواهم ، فضلوا عنده ، فنسب اليه الضلال . وقيل : إن معناه أستمر بهم على الضلالة فلذلك قيل « وما هدى » . ثم عدد الله على بني إسرائيل نعمه ، بأن قال « يا بني اسرائيل قد أنجيناكم » أي خلصناكم « من عدوكم » فرعون « وواعدناكم جانب الطور الأيمن » معناه إن الله واعدكم جانب الجبل الذي هو الطور ، لتسمعوا كلام الله لموسى بحضرتكم هناك « ونزلنا عليكم المن والسلوى » يعني في زمان التيه أنزل عليهم المن ، وهو الذي يقع على بعض الاشجار ، والسلوى طائر أكبر من السمان .

قوله تعالى :

﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ

(١) آمالي السيد المرتضى ١/٣٥٠ . وبعد : (لله دري مايجن صدري)

قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ (٨٥) خمس آيات .

قرأ الكسائي وحده « فيحل عليكم » بضم الحاء ، وكذلك « من يحلل » بضم اللام . الباقون ـ بكسرها ـ ولم يختلفوا فى الكسر من قوله « ان يحل عليكم غضب من ربكم » (١) يقال حل بالمكان يحل إذا نزل به ، وحل يحل ـ بالكسر ـ بمعنى وجب .

قوله « كلوا من طيبات ما رزقناكم » صورته صورة الأمر والمراد به الاباحة ، لان الله تعالى لا يريد المباحات من الأكل والشرب فى دار التكليف . والطيبات معناه الحلال . وقيل معناه المستلذات .

وقوله « ولا تطغوا فيه » معناه لا تتعدوا فيه فتأكلوه على وجه حرمه الله عليكم ، فتتعدون فيه بمعصية الله ، ويمكن ترك الأكل على وجه حرمه الله الى وجه أباحه الله على الوجه الذي أذن فيه ، وعلى وجه الطاعة أيضاً ، للاستعانة به على غيره من طاعة الله .

وقوله « فيحل عليكم غضبي » معناه متى طغيتم فيه وا كلتموه على وجه الحرام ، نزل عليكم غضبي ، على قراءة من ضم الحاء . ومن كسره : معناه يجب عليكم غضبي الذي هو عقاب الله .

ثم اخبر تعالى أن من حل غضب الله عليه « فقد هوى » يعني هلك ، لأن من هوى من علو الى سفل ، فقد هلك . وقيل : هو بمعنى تردى وقيل : معناه هوى الى النار .

(١) سورة ٢٠ طه آية ٨٦

ثم أخبر تعالى عن نفسه أنه « غفار » أي ستار « لمن تاب من المعاصي » فاسقط عقابه وستر معاصيه إذا أضاف الى إيمانه الأعمال الصالحات « ثم أهتدى » قال قتادة : معناه ثم لزم الايمان إلى أن يموت ، كأنه قال : ثم استمر على الاستقامة. وانما قال ذلك ، لئلا يتكل الانسان على انه قد كان أخلص الطاعة . وفي تفسير أهل البيت (ع) أن معناه « ثم أهتـدى » الى ولاية أوليائه الذين أوجب الله طاعتهم والانقياد لامرهم . وقال ثابت البناني : ثم أهتدى الى ولاية أهل بيت النبي (ص) .

ثم خاطب موسى (ع) ، فقال « وما أعجلك عن قومك يا موسى » قال ابن اسحاق : كانت المواعدة أن يوافي هو وقومه ، فسبق موسى الى ميقات ربه ، فقرره الله على ذلك لم فعله ؟ وقال موسى في جوابه « هم أولاء على أثري وعجلت اليك رب لترضى » فقال الله تعالى « فانا قد فتنا قومك من بعدك » أي عاملناهم معاملة المختبر بان شددنا عليهم في التعبد بأن ألزمناهم عند اخراج العجل أن يستدلوا على أنه لايجوز أن يكون إلهاً ، ولا أن يحل الاله فيه ، فحقيقة الفتنة تشديد العبادة .

وقوله « وأضلهم السامري » معناه أنه دعاهم الى عبادة العجل ، فضلوا عند ذلك ، فنسب الله الاضلال اليه لما ضلوا بدعائه .

قوله تعالى :

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ

فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (٩٠) خمس آيات .

قرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر « بملكنا » بكسر الميم ـ وقرأ نافع وعاصم ـ بفتح الميم ـ وقرأ حمزة والكسائي ـ بضم الميم ـ من ضم الميم فمعناه بسلطاننا وقيل إن في ذلك ثلاث لغات : فتح الميم وضمها وكسرها . وقرأ ابو عمرو ، وحمزة وآبو بكر « حملنـا » ـ بفتح الحاء والميم ـ مخففاً . الباقون ـ بضم الحاء وكسر الميم ـ مشدداً .

اخبر الله تعالى أن موسى رجع من ميقات ربه « الى قومه غضبان أسفاً » والغضب ضد الرضا ، وهو ما يدعو الى فعل العقـاب ، والأسف أشد الغضب . وقال ابن عباس : معنى « أسفاً » اي حزينـاً . وبه قال قتادة والسدي . والأسف أشد الغضب . وقال بعضهم : قد يكون بمعنى الغضب ، ويكون بمعنى الحزن . قال الله تعالى « فلما أسفونا انتقمنا منهم » (١) أي أغضبونا ، فقال موسى لقومـه « يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً » لأن الله تعالى كان وعد موسى بالنجاة من عدوهم ، ومجيئهم الى جانب الطور الأيمن ، ووعـده بأنه تعالى « غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٥٥

أهتدى » ثم قال « أفطال عليكم العهد » أي عهدي ولقائي فنسيتموه « أم أردتم أن يحل عليكم » اي يجب عليكم « غضب » اي عقاب « من ربكم فاخلفتم موعدي » أي ما وعدتموني من المقام على الطاعات. وقال الحسن : معنى « ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً » فى الآخرة على التمسك بدينه في الدنيا . وقيل الذي وعدهم الله به التوراة ، وفيها النور والهدى ليعملوا بما فيها ، ويستحقوا عليه الثواب . وكانوا وعدوه أن يقيموا على أمره ، فأخلفوا ، وقالوا جواباً لموسى « ما أخلفنا موعدك بملكنا » أي قال المؤمنون : لم نملك أن نرد عن ذلك السفهاء . قال قتادة والسدي : معنى « بملكنا » بطاقتنا . وقال ابن زيد : معناه لم نملك أنفسنا للبلية التي وقعت بنا . فمن فتح الميم : أراد المصدر . ومن كسرها أراد : ما يتملك . ومن ضم أراد : السلطان والقوة به .

وقوله « ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم » معناه إنا حملنا أثقالا من حلي آل فرعون ، وذلك أن موسى أمرهم ان يستعيروا من حليهم ـ في قول ابن عباس ومجاهد والسدي وابن زيد ـ وقيل : جعلت حلالا لهم . ومن قرأ بالتشديد أراد ان غيرنا حملنا ذلك بأن أمرنا بحمله .

وقوله « فقذفناها » أي طرحنا تلك الحلي ، ومثل ذلك « ألقى السامري » ما كان معه من الحلي . وقيل « أوزاراً » أي اثقالا من حلي آل فرعون ، لما قذفهم البحر أخذوها منهم . ثم اخبر تعالى فقال : إن السامري أخرج لقوم موسى عجلا جسداً له خوار ، فقيل أن ذلك العجل كان في صورة ثور صاغها من الحلي التي كانت معهم ، ثم ألقى عليها من أثر جبرائيل شيئاً ، فانقلب حيواناً يخور ـ ذكره الحسن وقتادة والسدي ـ و (الخور) الصوت الشديد كصوت البقرة . وقال مجاهد : كان خواره بالريح إذا دخلت فى جوفه . وأجاز قوم الأول ، وقالوا : إن ذلك معجزة تجوز

في زمن الأنبياء . وقول مجاهد أقوى ، لأن إظهار المعجزات لا يجوز على أيدي المبطلين ، وإن كان في زمن الأنبياء . وقال الجبائي : انما صوره على صورة العجل وجعل فيه خروقاً إذا دخله الريح أوهم انه يخور . وقيل : انه خار دفعة واحدة « فقالوا هذا إلهكم وإله موسى » يعني قال ذلك السامري ومن تابعه ان هذا العجل معبودكم ومعبود موسى ، « فنسي » أي نسي موسى أنه إلهه ، وهو قول السامري ـ في قول ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي وابن زيد والضحاك ـ وقال ابن عباس في رواية أخرى : معناه ، فنسي السامري ما كان عليه من الايمان ، لأنه نافق لما عبر البحر . ومعناه ترك ما كان عليه . وقال قوم : معناه « فنسي » موسى أنه أراد هذا العجل ، فنسي وترك الطريق الذي يصل منه اليه ، ويكون حكاية قول السامري .

ثم قال تعالى تنبيهاً لهم على خطئهم « أفلا يرون » أي أفلا يعلمون أنه « لا يرجع اليهم قولا » أي لا يجيبهم إذا خاطبوه ، ولا يقدر لهم على ضر ولا نفع . ثم اخبر ان هارون قال لهم قبل ذلك « يا قوم إنما فتنتم به » أي ابتليتم واختبرتم به « وإن ربكم الرحمن » اي الذي يستحق العبادة عليكم هو الرحمن الذي أنعم عليكم بضروب النعم « فاتبعوني » فيما أقول لكم « واطيعوا أمري » فيما آمركم به .

قوله تعالى:

﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ

أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ (٩٥) خمس آيات .

قرأ « يا ابن أم » ـ بفتح الميم ـ ابن كثير وأبو عمرو ، وعاصم في رواية حفص . الباقون ـ بكسر الميم ـ من فتح الميم جعل « ابن أم » اسماً واحداً وبناها على الفتح مثل (خمسة عشر) إلا ان (خمسة عشر) تضمن معنى الواو ، وتقديره خمسة وعشرة ، و « ابن أم » بمعنى اللام وتقديره : لأمي ، وكلاهما على تقدير الاتصال بالحرف على جهة الحذف ، ويجوز « يا ابن أم » على الاضافة ، ولم يجيء هذا البناء إلا في يا أبن ام ، ويا ابن عم ، لأنه كثر حتى صار يقال للأجنبي ، فلما عدل بمعناه عدل بلفظه ، قال الشاعر :

رجال ونسوان يودون أنني   وإياك نخزى يا ابن عم ونفضح

ويحتمل ان يكون (اراد يابن أماه) فرخم . ويحتمل ان يكون أراد (يابن اما) [فخفف . ومن كسر اراد يابن امي] (١) لأن العرب تقول : يا ابن اما بمعنى يا ابن امي ويا ربا بمعنى يا ربي . فمن كسر اراد : يا ابن امي ، فحذف اليـاء وابقى الكسرة تدل عليها .

حكى الله تعالى ما اجاب به قوم موسى لهارون حين نهاهم عن عبادة العجل وأمرهم باتباعه ، فانهم « قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى » أي لن نزال لازمين لهذا العجل الى أن يعود الينا موسى ، فننظر ما يقول قال الشاعر :

فما برحت خيل تثوب وتدعي   ويلحق منها لاحق وتقطع (٢)

---

(١) مابين القوسين ساقط من المطبوعة .

(٢) مر تخريجه في ٦/١٨٢ وروايته هناك ـ (فتئت) بدل (برحت)

والعكوف لزوم الشيء مع القصد اليه على مرور الوقت ، ومنه الاعتكاف في المسجد . ثم اخبر تعالى أن موسى لما رجع الى قومه ، قال لهارون « يا هارون مامنعك ألا تتبعني » قال ابن عباس : معناه بمن أقام على إيمانه . وقال إبن جريج : معناه ألا تتبعني في شدة الزجر لهم عن الكفر . ومعنى (ألا تتبعني) ما منعك أن تتبعني و (لا) زائدة ، كما « قال ما منعك ألا تسجد إذ امرتك » (١) وقد بينا القول في ذلك. وإنما جاز ذلك لأنه المفهوم أن المراد ما منعك بدعائه لك الى أن لاتتبعني فدخلت (لا) لتنبىء عن هذا المعنى ، وهو منع الداعي دون منع الحائل .

وقوله « أفعصيت أمري » صورته صورة الاستفهام ، والمراد به التقرير، لأن موسى كان يعلم أن هارون لا يعصيه في أمره ، فقال له هارون في الجواب « لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » حين اخذ موسى بلحيته ورأسه . وقيل في وجه ذلك قولان :

احدهما ـ ان عادة ذلك الوقت أن الواحد إذا خاطب غيره قبض على لحيته ، كما يقبض على يده في عادتنا ، والعادات تختلف ولم يكن ذلك على وجه الاستخفاف .

والثاني ـ انه أجراه مجرى نفسه إذا غضب، في القبض على لحيته ، لأنه لم يكن يتهم عليه ، كما لا يتهم على نفسه .

وقوله « إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل » معناه إني خفت أني إن فعلت ذلك على وجه العنف والاكراه أن يتفرقوا وتختلف كلمتهم ويصيروا أحزاباً ، حزباً يلحقون بموسى وحزباً يقيمون مع السامري على اتباعه ، وحزباً يقيمون على الشك في أمره . ثم لا يؤمن إذا تركتهم كذلك أن يصيروا بالخلاف الى سفك الدماء ، وشدة التصميم على أمر السامري ، فاعتذر بما مثله يقبل ، لأنه وجه

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١١

من وجوه الرأي .

قوله « ولم ترقب قولي » أي لم تحفظ قولي ـ في قول ابن عباس ـ فعدل عن ذلك موسى الى خطاب السامري ، فقال له « ما خطبك يا سامري » أي ما شأنك وما دعاك الى ما صنعت ؟! وأصل الخطب : الجليل من الأمر ، فكأنه قيل : ما هذا العظيم الذي دعاك الى ما صنعت .

قوله تعالى:

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَٰوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَٱنْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفاً (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ ٱللهُ ٱلَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (٩٨) كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْراً (١٠٠) خمس آيات .

قرأ حمزة والكسائي « بما لم تبصروا » بالتاء . الباقون بالياء المعجمة من اسفل . من قرأ بالتاء حمله على خطابه لجميعهم . ومن قرأ بالياء اراد : بصرت بما لم يبصروا بنو إسرائيل . وقرأ ابن كثير وابو عمرو « لن تخلفه » بكسر اللام .

الباقون بفتح اللام . والمعنى : لأن الله يكافيك على ما فعلت يوم القيامة ، لأنه بذلك وعد . يقال : اخلفت موعد فلان إذا لم تف بما وعدته . ومن قرأ ـ على ما لم يسم فاعله ـ جعل الخلف من غير المخاطب ، والهاء كناية عن الوعـد ، وهو المفعول به ، والفاعل لم يذكر .

حكى الله تعالى قول موسى للسامري وسؤاله إياه بقوله «ماخطبك ياسامري» وحكي ما أجاب به السامري ، فانه قال « بصرت بما لم يبصروا به » والمعنى رأيت ما لم يروه . فمن قرأ بالياء اراد ما لم يبصروا هؤلاء . ومن قرأ بالتاء حمله على الخطاب وبصر لا يتعدى ، وإن كانت الرؤية متعدية ، لأن ما كان على وزن (فعل) بضم العين لا يتعدى ، غير انه وإن كان غير متعد ، فانه يتعدى بحرف الجر . كما عداه ـ ههنا ـ بالباء . وقيل بصرت ـ ههنا ـ بمعنى علمت من البصيرة . يقال : بصر يبصر اذا علم . وابصر ابصاراً اذا رأى .

وقوله « فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها » قرأ الحسن بالصاد غير المعجمة . والقراء على القراءة بالضاد المنقطة ، والفرق بينهما ان (القبضة) بالضاد بملء الكف ، وبالصاد غير المعجمة بأطراف الأصابع . وقيل : انه قبض قبضة من اثر جبرائيل (ع) « فنبذتها » في الحلي على ماالطمعتني نفسي من انقلابه حيوانًا . وقال ابن زيد : معنى « سولت لي نفسي » حدثتني . وقيل : معناه زينت لي نفسي .

فان قيل : لم جاز إنقلابه حيوانًا ـ مع انه معجز ـ لغير نبي ؟ !

قلنا : في ذلك خلاف ، فمنهم من قال : انه كان معلوماً معتاداً في ذلك الوقت انه من قبض من اثر الرسول قبضة فألقاها على جماد صار حيوانًا ـ ذكره ابو بكر ابن الاخشاذ ـ فعلى هذا لا يكون خرق عادة بل كان معتاداً . وقال الحسن : صار لحمًا ودماً . وقال الجبائي : المعنى سوّلت له نفسه مالا حقيقة له وانما خار بحيلة : جعلت

فيه خروق اذا دخلتها الريح سمع له خوار منه . فقال له موسى عند ذلك « فاذهب » يا سامري « فان لك في الحياة أن تقول لامساس » واختلفوا في معناه ، فقال قوم : معناه تقول لا أمس ولا أمس . وكان موسى امر بني إسرائيل ألاّ يؤاكلوه ولا يخالطوه ولا يبايعوه ، فيما ذكر . وقال الجبائي : معناه انه لامساس لأحد من الناس ، لأنه جعل يهيم في البرية مع الوحش والسباع . وقوله « لامساس» بالكسر والفتح ، فان كسرت فمثل لا رجال، واذا فتحت الميم بنيت على الكسر مثل نزال ، قال رؤبة:

حتى تقول الأرد لا مساسا (١)

وقال الشاعر :

تميم كرهط السامري وقوله   ألا لا يريد السامري مساسا (٢)

وكله بمعنى المماسة والمخالطة . ثم قال « وان لك موعداً لن تخلفه » من جهتنا فيمن قرأ بالفتح ، ومن قرأ بالكسر معناه لا تخلفه انت ، وهما متقاربان ، ويريد بالموعد البعث والنشور والجزاء ، اما جنـــة واما ناراً . ثم قال « انظر الى الهك » يعني معبودك عند نفسك أبصره « الذي ظلت عليه عاكفاً » قال ابن عباس : معناه اقمت عليه عاكفاً ، واصله ظللت ، فحذف اللام المكسورة للتخفيف وكراهية التضعيف ، وللعرب فيها مذهبان ، فتح الظاء ، وكسرها ، فمن فتح تركها على حالها ، ومن كسر نقل حركة اللام اليها للاشعار باصلها . ومثـــله مست ومست في مسست . وهمت وهمت . في هممت ، وهل احست في احسست ، قال الشاعر :

---

(١) تفسير القرطبي ١١/٢٤١ /والشوكاني ٣ / ٣٧١

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ٢٤٠

خلا ان العتاق من المطايا أحس به فهن اليه شوس (١)

وقوله «لنحرقنه» يعني بالنار يقال: انه حرقه ثم ذراه في البحر - في قول ابن عباس - يقال حرقته بتشديد الراء اذا حرقته بالنار وحرقته بتخفيف الراء بمعنى بردته بالمبرد، وذلك لانه يقطع به كما يقطع المحرق بالنار يقال حرقته واحرقته حرقاً، كما قال الشاعر :

بذي فرفير يوم بنو حبيب بيوتهم علينا يحرقونا (٢)

وقال زهير :

ابى الضيم والنعمان يحرق نابه عليه فأفضى والسيوف معاقله (٣)

وقرأ ابو جعفر المدني «لنحرقنه» بفتح النون وسكون الحاء وضم الراء بمعنى لنبردنه . وروي ذلك عن علي (ع)، ويقال نسف فلان الطعام بالمنسف اذا ذراه لتطير عنه قشوره . وقال سعيد بن جبير: كان السامري رجلا من اهل كرمان . وقال قوم: كان من بني اسرائيل، واليه تنسب (السامرة) من اليهود . وحكى قوم: ان قبيلته الى اليوم يقولون في كلامهم: لامساس .

ثم اقبل على قومه فقال «انما الهكم الله الذي لا اله الا هو» اي ليس لكم معبود الا الله الذي «وسع كل شيء علماً» اي يعلم كل شيء، لا يخفى عليه شيء منها، وهي لفظة عجيبة في الفصاحة .

ثم قال تعالى لنبيه محمد (ص) مثل ذلك «نقص عليك من ابناء» يعني اخبار «ما قد سبق» وتقدم «وقد آتيناك من لدنا ذكراً» اي اعطيناك من عندنا

---

(١) تفسير الطبري ١٦/١٣٧ والقرطبي ١١/٢٤٢

(٣) تفسير الطبري ١٦/١٣٨ (٢) ديوان (دار بيروت) ٦٩ وهذا البيت برمته ساقط من المطبوعة

علماً بأخبار الماضين. وقال الجبائي : اراد آتيناك من عندنا القرآن لأنه سماه ذكراً. ثم قال « من اعرض » عن التصديق بما اخبرناك به وعن توحيد الله، واخلاص عبادته « فانه يحمل يوم القيامة وزراً » اي اثماً، واصل الوزر الثقل، في قول مجاهد.

قوله تعالى:

﴿ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (١٠٤) وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً (١٠٦) لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً ﴾ (١٠٧) سبع آيات.

قرأ ابو عمرو وحده « يوم ننفخ » بفتح النون مع قوله « ونحشر ». الباقون « ينفخ » بالياء على ما لم يسم فاعله. قوله « خالدين » نصب على الحال، والعامل فيه (العذاب) الذي تقدم ذكره من الوزر، والمعنى في عذاب الاثم ﴿ وساء لهم يوم القيامه حملا ﴾ نصب (حملا) على التميز. وفاعل (ساء) مضمر. وتقديره: ساء الحمل حملا، الا انه استغني بالمفسر عن اظهار المضمر، كقولهم بئس رجلا صاحبك. وانما اضمر، ثم فسره، لأنه افخم واهول، والمعنى وساء ذلك الحمل الوزر لهم يوم القيامة حملا، فيما ينزل بهم.

وقوله ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ فالنفخ اخراج الريح من الجوف بالدفع من

الفم ، فهذا اصله ، ثم قد يسمى احداث الريح من الزق او البوق نفخاً ، لأنه كالنفخ المعروف . و (الصور) قيل في معناه قولان :

احدها ـ انه جمع صورة ، كل حيوان تنفخ فيه الروح ، فتجري في جسمه ، ويقوم حياً باذن الله .

والثاني ـ انه قرن ينفخ فيه النفخة الثانية ليقوم الناس من قبورهم عند تلك النفخة تصويراً لتلك الحال فى النفوس بما هو معلوم ، مما عهدوه من بوق الرحيل وبوق النزول .

وقوله ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ قيل : معناه إنه أزرقت عيونهم من شدة العطش . وقيل : معناه عمياً ، كما قال ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً ﴾ (١) كأنها ترى زرقاً وهي عمي . وقيل : المعني فى (زرقاً) تشويه الخلق: وجوههم سود وأعينهم زرق .

وقوله ﴿ يتخافتون بينهم ﴾ معناه يتشاورون بينهم ـ في قول ابن عباس ـ ومنه قوله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ ومعناه لا تعلن صوتك بالقراءة فى الصلاة كل الاعلان ولا تخفها كل الاخفاء ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ (٢) وقوله ﴿ إن لبثتم إلا عشراً ﴾ يعني ما أقمتم فى قبوركم إلا عشراً . وانما يقولون ذلك القول لانهم لشدة ما يرونه من هول القيامة ينسون ما لبثوا فى الدنيا ، فيقولون هذا القول . وقيل : معناه وتأويله انه يذهب عنهم طول لبثهم فى قبورهم لما يرون من أحوالهم التي رجعت اليهم ، كأنهم كانوا نياماً ، فانتبهوا . وقال الحسن : إن لبثتم إلا عشراً يقللون لبثهم فى الدنيا لطول ما هم لا بثون فى النار .

ثم قال تعالى ﴿ نحن اعلم بما يقولون إذ يقول امثلهم طريقة ﴾ أي اصلحهم

(١) سورة ١٧ الاسري آية ٩٧ (٢) سورة ١٧ الاسري آية ١١٠

طريقة وأوفرهم عقلا . وقيل : أكثرهم سداداً ، يعني عند نفسه ﴿ إن لبثتم إلا يوماً ﴾ قال ابو علي الجبائي : معناه ﴿ إن لبثتم إلا يوماً ﴾ بعد انقطاع عذاب القبر عنهم ، وذلك ان الله يعذبهم ثم يعيدهم .

ثم قال لنبيه محمد (ص) ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ قيل: انه يجعلها بمنزلة الرمل ، ثم يرسل عليها الرياح فتذريها كتذرية الطعام من القشور والتراب . وقيل : ان الجبال تصير كالهباء ﴿ فيذرها قاعاً صفصفاً ﴾ قال ابن عباس : الصفصف الموضع المستوي الذي لانبات فيه ، وهو قول مجاهد وابن زيد . وقيل هو المكان المستوي كأنه على صف واحد في استوائه ، والقاع قيل : هو الارض الملساء . وقيل مستنقع الماء وجمعه اقواع قال الشاعر :

كأن أيدهن بالقاع القرق   أيدي جوار يتعاطين الورق(١)

وقال الكلبي : الصفصف مالاتراب فيه . ﴿ لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ يعني وادياً ولا رابية في قول ابن عباس - وقيل ﴿ عوجاً ﴾ معناه صدعاً ﴿ ولا أمتاً ﴾ يعني اكمة . وقيل : معنى ﴿ عوجاً ﴾ ميلاً و ﴿ أمتاً ﴾ اثراً . وقال ابو عبيدة : ﴿ صفصفاً ﴾ اي مستوياً أملساً . و (العوج) مصدر ما اعوج من المجاري ، والمسايل والأودية والارتفاع يميناً وشمالا و « لا أمتاً » اي لا ربا ولا وهاد ، أي لا ارتفاع فيه ولا هبوط ، يقال : مد حبله حتى ما ترك فيه امتاً ، وملأ سقاه حتى ما ترك فيه أمتاً أي انثناء ، قال الشاعر :

ما في انحداب سيره من أمت (٢)

---

(١) امالي الشريف المرتضى ١ / ٥٦١ واللسان (قرق)
(٢) تفسير الطبري ٦ / ١٤١ والشوكاني ٣/٣٧٢

قوله تعالى:

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ (١١٠) ثلاث آيات.

يقول الله تعالى إن اليوم الذي ينسف الله فيه الجبال نسفاً، ويذرها قاعاً صفصفاً، حتى لا يبقى فيه عوج ولا امت، تتبع الخلائق يومئذ الداعي لهم الى المحشر ﴿لا عوج له﴾ اي لا يميلون عنه، ولا يعدلون عن ندائه، ولا يعصونه كما يعصون في دار الدنيا ﴿وخشعت الاصوات للرحمن﴾ اي تخضع له بمعنى انها تسكن، ولا ترتفع ـ في قول ابن عباس ـ والخشوع الخضوع قال الشاعر:

لما اتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع (١)

وقوله تعالى «فلاتسمع إلا همساً» فالهمس صوت الأقدام ـ في قول ابن عباس وابن زيد ـ وقال مجاهد: الهمس إخفاء الكلام، قال الراجز في الهمس:

وهن يمشين بنا هميساً (٢)

يعني صوت اخفاف الابل في سيرها. وقوله ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا﴾ اخبر الله تعالى أن ذلك اليوم لا تنفع شفاعة احد في

(١) قائله جرير ديوانه (دار بيروت) ٢٧٠ وقد مر في ١/٢٠٤، ٣١٢ من هذا الكتاب

(٢) تفسير القرطبي ١١/٢٤٩ والشوكاني ٣/٣٧٢ والطبري ١٦/١٤١

غيره ، إلا شفاعة من أذن الله له أن يشفع ، ورضي قوله فيها : من الأنبياء والأولياء والصديقين والمؤمنين . ثم قال ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي يعلم ما بين أيدي الخلائق من أمور القيامة واحوالهم ، ويعلم ما سبقهم فيما تقدمهم ﴿ ولا يحيطون ﴾ هم ﴿ به ﴾ بالله ﴿ علماً ﴾ . والمعنى انهم لا يعلمون كل ما هو تعالى عالم به لنفسه ، فلا يعلمه أحد علم إحاطة ، وهو تعالى يعلم جميع ذلـك ، وجميع الاشياء علم إحاطة ، بمعنى انه يعلمها على كل وجه يصح أن تعلم عليه مفصلا . وقال الجبائي : معناه ولا يحيطون بما خلفهم علماً ، ولا بما بين أيديهم .

قوله تعالى :

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (١١٤) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ (١١٥) خمس آيات .

قرأ ابن كثير وحده ﴿ فلا يخف ظلماً ﴾ على النهي . الباقون على الخبر . قال ابو علي النحوي : قوله ﴿ وهو مؤمن ﴾ جملة فى موضع الحال والعامل فيها ﴿ يعمل ﴾ وذو الحال الذكر الذي فى يعمل من ﴿ من ﴾ ، وموضع الفاء ، وما بعدها من قوله

﴿ فلا يخاف ﴾ الجزم ، لكونه فى موضع جواب الشرط . والمبتدأ محذوف مراد بعد الفاء ، وتقديره : فهو لا يخاف ، والأمر في ذلك حسن ، لأن تقديره من عمل صالحًا فليأمن ، ولا يخف . والمراد الخبر بأن المؤمن الصالح لاخوف عليه

وقوله ﴿ وعنت الوجوه ﴾ أي خضعت وذلت خضوع الاسير في يد القاهر له ، والعاني الاسير ، ويقال:عنا وجهي لربه يعنو عنواً اي ذل وخضع ومنه : أخذت الشيء عنوة أي غلبة بذل المأخوذ منه ، وقد يكون العنوة عن تسليم وطاعة ، لأنه على طاعة الذليل للعزيز قال الشاعر :

هل انت مطيعي ايها القلب عنوة ولم تلح نفس لم تلم فى اخيتا لها (١)

وقال آخر :

فما اخـــذوها عنوة عن مودة ولكن بضرب المشرفي استقالها (٢)

و ﴿ عنت ﴾ ذلت ـ فى قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . و ﴿ القيوم ﴾ قيل في معناه قولان :

احدهما ـ انه العالم فيما يستقيم به تدبير جميع الخلق ، فعلى هذا لم يزل الله قيوماً

والثاني ـ انه القائم بتـدبير الخلق ، وهي مثل صفة حكيم على وجهين . وقال الجبائي : القيوم القائم بأنه دائم لا يبيد ولا يزول . وقال الحسن : هو القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجزيها . ووجه ﴿ عنت الوجوه للحي القيوم ﴾ انها تدل عليه ، لأن الفعل منه تعالى يدل على انه قادر وكونه قادراً يدل على انه عالم . وقيل : معنى ﴿ وعنت الوجوه ﴾ هو وضع الجبهة والانف على الارض في السجود ـ فى قول طلق ابن حبيب

---

(١) تفسير الطبري ١٦/٤٢ .

(٢) تفسير الطبري ١٦/١٤٢ والقرطبي ١١/٢٠٩ واللسان (عنو)

وقوله ﴿وقد خاب من حمل ظلماً﴾ أي خسر الثواب من جاء يوم القيامة كافراً ظالماً مستحقاً للعقاب . و ﴿من﴾ في قوله ﴿من الصالحات﴾ زائدة عند قوم والمراد من يعمل الصالحات . ويحتمل ان تكون للتبعيض ، لان جميع الصالحات لا يمكن احد فعلها ، فأخبر الله تعالى ان من يعمل الاعمال الصالحات ، وهو مؤمن عارف بالله تعالى مصدق بأنبيائه ﴿فـلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ اي لا يخاف ظلماً بالزيادة في سيآته ، ولا زيادة في عقابه الذي يستحقه على معاصيه ﴿ولا هضماً﴾ أي ولا نقصاناً من حسناته ولا من ثوابه - في قول ابن عباس والحسن وقتادة - وقيل ﴿لا يخاف ظلماً﴾ بأن لا يجزى بعمله ﴿ولا هضماً﴾ بالانتقاص من حقه - في قول ابن زيد . فمن قرأ « فلا يخاف » أراد الاخبار بذلك . ومن قرأ « فلا يخف » معناه معنى النهي للمؤمن الذي وصفه عن أن يخاف ظلماً او هضماً . وأصل الهضم النقص ، يقال : هضمني فلان حق اي نقصني . وامرأة هضيم الحشا أي ضامرة الكشحين بنقصانه عن حد غيره . ومنه هضمت المعدة الطعام اي نقصت مع تغييرها له .

وقوله « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً » أي كما اخبرناك باخبار القيامة أنزلنا عليك يا محمد القرآن « وصرفنا فيه من الوعيد » اي ذكرناه على وجوه مختلفة ، وبيناه بألفاظ مختلفة ، لكي يتقوا معاصيه ويحذروا عقابه « او يحدث » القرآن « لهم ذكراً » ومعناه ذكراً يعتبرون به . وقيل « ذكراً » اى شرفاً بايمانهم به .

ثم قال تعالى « فتعالى الله الملك الحق » اي ذو الحق ، ومعناه ارتفع - معنى صفته - فوق كل شيء سواه ، لأنه اقدر من كل قادر ، واعلم من كل عالم سواه لأن كل قادر عالم سواه يحتاج اليه ، وهو غني عنه .

وقوله « ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه » اى لا تسأل إنزاله قبل ان يأتيك وحيه . وقيل : معناه لا تلقه الى الناس قبل ان يأتيك بيان

تأويله . وقيل : لا تعجل بتلاوته قبل ان يفرغ جبرائيل من ادائه اليك .

وقوله « وقل رب زدني علماً » اي استزد من الله علماً الى علمك . وقال الحسن : كان النبي (ص) إذا نزل عليه الوحي عجل بقراءته مخافة نسيانه .

وقوله « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » قال ابن عباس ومجاهد : معناه عهد الله اليه ، بأن امره به ووصاه به « فنسي » اي ترك . وقيل إنما اخذ الانسان من انه عهد اليه فنسي ـ في قول ابن عباس ـ وقوله « ولم نجد له عزماً » اى عقداً ثابتاً . وقال قتادة : يعني صبراً . وقال عطية : اى لم نجد له حفظاً. والعزم الارادة المتقدمة لتوطين النفس على الفعل .

وقرأ يعقوب « من قبل ان نقضي » بالنون وكسر الضاد وفتح الياء بعدها « وحيه » بنصب الياء . الباقون « يقضى » بناه لما لم يسم فاعله ورفع الياء في قوله « وحيه » .

قوله تعالى :

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَاآدَمُ انَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُ فِيهَا وَلَا تَضْحىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلىٰ » (١٢٠) خمس آيات

قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم « وإنك لا تظمؤ » بكسر الهمزة على الاستئناف

وقطعه عن الأول . الباقون بالنصب عطفاً على اسم (أن) .

يقول الله تعالى لنبيه (ص) يا محمد واذكر حين قال الله تعالى « للملائكة اسجدوا لآدم » أي أمرهم بالسجود له ، وانهم سجدوا له بأجمعهم إلا إبليس وقد بينا .. فيما تقدم ـ أن أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم يدل على تفضيله عليهم ، وإن كان السجود لله تعالى لا لآدم . لأن السجود عبادة ، لا يجوز أن يفعل إلا لله ، فأما المخلوقات فلا تستحق شيئاً من العبادة بحال ، لأن العبادة تستحق بأصول النعم و بقدر من النعم لا يوازيها نعمة منعم .

وقال قوم : ان سجود الملائكة لآدم كان كما يسجد الى جهة الكعبة ـ وهو قول الجبائي ـ والصحيح الأول ، لأن التعظيم الذي هو في أعلى المراتب حاصل لله لا لآدم باسجاد الملائكة له . ولو لم يكن الأمر على ما قلناه من أن في ذلك تفضيلا لآدم عليهم ، لما كان لامتناع إبليس من السجود له وجه ، ولما كان لقوله « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » (١) وجه . فلما احتج إبليس بأنه أفضل من آدم ـ وإن أخطأ في الاحتجاج ـ علمنا أن موضوع الأمر بالسجود لآدم على جهة التفضيل ، وإلا كان يقول الله لابليس : إني ما فضلته على من أمرته بالسجود لآدم وإنما السجود لي ، وهو بمنزلة القبلة ، فلا ينبغي أن تانف من ذلك . وقد بينا أن الظاهر ـ في روايات أصحابنا ـ أن ابليس كان من جملة الملائكة ، وهو المشهور ـ في قول ابن عباس ـ وذكره البلخي ـ فعلى هذا يكون استثناء إبليس من جملة الملائكة استثناء متصلا . ومن قال : إن ابليس لم يكن من جملة الملائكة قال : هو استثناء منقطع ، وانما جاز ذلك ، لأنه كان مأموراً ايضاً بالسجود له ، فاستثني على المعنى دون اللفظ ، كما يقال : خرج أصحاب الأمير إلا الأمير ، وكما قال عنتر

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١١

ابن دجاجة :

من كان أشرك فى تفرق مالح فلبونه جربت معاً واغـدت

الا كناشرة الذي ضيعتم كالغصن فى غلوائه المتثبت

والمعنى لكن هذا كناشرة . وتقول : قام الأشراف للرئيس ، إلا العامي الذي لا يلتفت اليه . قال الرماني : وإذا أمر الملائكة بالسجود اقتضى أن من دونهم داخل معهم ، كما أنه اذا أمر الكبراء بالقيام للأمير اقتضى أن الصغار القـدر ، قد دخلوا معهم .

وقوله « أبى » معناه امتنع « فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك » حكاية عما قال الله لآدم: إن إبليس عدوك وعدو زوجتك يريد إخراجكما من الجنة ، ونسب الاخراج الى ابليس إذ كان بدعائه واغوائه .

وقوله « فتشقى » قيل : معناه تتعب بأن تأكل من كدّ يدك وماتكتسبه لنفسك . وقيل : فتشقى على خطاب الواحد ، والمعنى فتشقى أنت وزوجك ، لأن امرهما فى السبب واحد ، فاستوى حكمهما لاستوائهما في العلة . وقيل : خص بالشقاء لأن الرجل يكد على زوجته .

وقوله « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى » يعني في الجنة مادمت على طاعتك لي والامتثال لأمري وانك « لا تعرى» فيها من الكسوة « وإنك لا تظمأ فيها » اي لا تعطش فيها « ولا تضحى » أي لا يصيبك حر الشمس ـ وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ـ وقال عمر بن ابي ربيعة :

رأت رجلاً ماإذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر(١)

أي يخصر من البرد . وقيل : ليس فى الجنة شمس انما فيها نور وضياء . وانما

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٢١ وروايته (يخصر) بدل (يخضر)ومعناها واحد

الشمس في سماء الدنيا خاصة . وضحى الرجل يضحى إذا برز للشمس . قال أبو علي : إنما لم يجز أن يقول انك لا تجوع وإنك لا تظمأ . بغير فصل كراهـة اجتماع حرفين متقاربين فى المعنى ، فاذا فصل بينهما لم يكره ذلك ، كما كرهوا : إن لزيداً قائم ، ولم يكرهوا « إن في ذلك لآيات » مع الفصل . وقال الرماني إنما جاز أن تعمل (انّ) في (أن) بفصل ولم يجز من غير فصل كراهية التعقيد بمداخلة المعاني المتقاربة ، فاما المتباعدة فلا يقع بالاتصال فيها تعقيد ، لأنها متبـاينة مع الاتصال لالفاظها ، فلذلك جاز « إن لك انلا تظمؤا فيها » ولم يجز ان انك لا تظمؤ ، لأنه بغير فصل .

ثم اخبر تعالى أن إبليس وسوس لادم ، فقال له « هل أدلك على شجرة الخلد... » أي على شجرة إن تناولت منها بقيت فى الجنة مخلداً لا تخرج منها ، وحصل لك ملك وسلطان لا يبلى على الابد ، ولا يهلك . وهي الشجرة التي نهاه الله تعالى عن تناولها . وقد قدمنـــا أختلاف المفسرين في ماهية تلك الشجرة فيما مضى فـلا وجه لاعادته.

قوله تعالى:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً

وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ أَعْمىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴾ (١٢٥) خمس آيات .

اخبر الله تعالى عن آدم وحواء أنهما أكلا من الشجرة التي نهى الله عن أكلها، وعندنا أن النهي كان على وجه التنزيه . والأولى أن يكون على وجه الندب دون نهي الحظر والتحريم ، لأن الحرام لا يكون إلا قبيحاً ، والأنبياء لا يجوز عليهم شيء من القبائح لا كبيرها ولا صغيرها . وقال الجبائي : لا تقع معاصي الانبياء إلا سهواً، فأما مع العلم بأنها معاصي فلا تقع . وقال قوم آخرون : إنه وقع من آدم أكل الشجرة خطأ ، لأنه كان نهي عن جنس الشجرة فظن انه نهي عن شجرة بعينها ، فأخطأ فى ذلك . وهذا خطأ لأنه تنزيه له من وجه المعصية ، ونسبة المعصية اليه من وجهين : أحدهما ـ أنه فعل القبيح . والثاني ـ أنه أخطأ فى الاستدلال . وقال قوم : انها وقعت منه عمداً ، وكانت صغيرة : وقعت محبطة . وقد بينا أن ذلك لا يجوز عليهم(ع) عندنا بحال . وقال الرماني : لما حلف ابليس لهما لم يقبلا منه ، ولم يصدقاه ، ولكن فعلا ذلك لغلبة شهوتهما ، كما يقول الغاوي للانسان إزن بهذه المرأة ، فانك ان أخذت لم تحد ، فلا يصدقه ، ويزني بها لشهوته . وقال الحسن : أكلت حواء أولا وابت عليه ان يجامعها حتى يأكل منها ، فأكل حينئذ .

وقوله « فبدت لهما سوآتهما » أي ظهرت لهما عوراتهما ، لان ما كان عليهما من اللباس نزع عنهما ، ولم يكن ذلك على وجه العقوبة بل لتغيير المصلحة فى نزعهما وإخراجهما من الجنة وإهباطهما الأرض وتكليفهما فيها . وانما جمع سوآتهما ، وهو لاثنين ، لأن كل شيئين من شيئين ، فهو من موضع التثنية جمع ، لأن الاضافة تثنية

مع أنه لا إخلال فيه لمناسبة الجمع للتثنية . وقال السدي : كان لباس سوآتهما الظفر .

وقوله « طفقا » يعني ظلا ، وجعلا يفعلان .

وقوله « يخصفان عليهما من ورق الجنة » فالخصف خيط الشيء بقطعة من غيره ، يقال : خصفه يخصفه خصفاً ، فهو خاصف وخصاف . وقيل : انهما كانا يطبقان ورق الجنة بعضه على بعض ويخيطان بعضه الى بعض ليسترا به سوآتهما .

وقوله « وعصى آدم ربه فغوى » معناه خالف ما أمره الله به فخاب ثوابه . والمعصية مخالفة الأمر سواء كان واجباً او ندباً قال الشاعر :

أمرتك امراً جازماً فعصيتني (١)

ويقال ايضاً: أشرت عليك بكذا ، فعصيتني ، ويقال غوى يغوي غواية وغياً إذا خاب ، قال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره　　ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً (٢)

أي من يخب ، وفي الكلام حذف ، لان تقديره ان آدم تاب الى الله وندم على ما فعل ، فاجتباه الله واصطفاه «وتاب عليه » أي قبل توبته . وهداه الى معرفته والى الثواب الذي عرضه له .

وقوله « قال اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو » يعني آدم وحواء وابليس وذريته . وقد بينا معنى الهبوط فيما تقدم (٣) واختلاف الناس فيه . والمعنى أنه أخرج هؤلاء من الجنة بأن أمرهم بالخروج منها على وجه تغيير المصلحة في أمره ، ولابليس على وجه العقوبة . وقد بينا فيما تقدم ان إخراج ابليس من الجنة ، كان قبل ذلك حين أمره الله بالسجود لآدم فامتنع فلعنه وأخرجه ، وانما أغوى آدم من

(١) مر هذا البيت كاملا فى ٦/٣٥٥　　(٢) مر هذا البيت فى ٢/٣١٢ و ٤/٣٩٩ و٥/٥٤٨ و ٦/٣٣٦　　(٣) انظر ١/١٦٢ و ٤ / ٢٩٨

خارج الجنة ، لأنه قيل : ان آدم كان يخرج الى باب الجنة. وذكرنا أقوال المفسرين في ذلك فيما مضى (١) .

وقوله « فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى » معناه ان أتاكم هدى مني بأن أكلفكم ، وانصب لكم الادلة على ما آمركم به من معرفتي وتوحيدي والعمل بطاعتي ، فمن اتبع أدلتي وعمل بما آمره به ، فانه « لا يضل » في الدنيا « ولا يشقى » في الآخرة . وقال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة .

وقوله « ومن اعرض عن ذكري » [أي من لم ينظر في ذكري الذي هو القرآن والادلة المنصوبة على الحق وصدف عنها] (٢) « فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » فالضنك الضيق الصعب ، منزل ضنك أي ضيق ، وعيش ضنك ، لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ، لأن أصله المصدر . ثم وصف به ، قال عنترة :

إن يلحقوا أكرر وان يستلحموا أشدد وان يلفوا بضنك أنزل

وقال ايضاً :

ان المنيـــة لو تمثـل مثلت مثلي اذا نزلوا بضنك المنزل(٣)

والضنك : الضيق ، في قول مجاهد وقتادة . وقال الحسن وابن زيد : المعيشة الضنك هو الضريع ، والزقوم في النار . وقيل : الضريع شوك من نار . وقال عكرمة والضحاك : هو الحرام في الدنيا الذي يؤدي الى النار . وقال ابن عباس : لأنه غير موقن بالخلف ، فعيشه منغص . وقال ابو سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود وأبو

(١) انظر ١/١٦٢ و ٤/٢٩٨

(٢) مابين القوسين ساقط من المطبوعة

(٣) البيت الأول في ديوان (دار بيروت) : ٥٧ والثاني في ٥٨

صالح، والسدي، ورواه ابو هريرة عن النبي (ص) أنه عذاب القبر . ولقوله تعالى « ولعذاب الآخرة أشد وابقى » يقتضي انه عذاب القبر .

وقوله « ونحشره يوم القيامة أعمى » قيل معناه نحشره يوم القيامة أعمى البصر . وقيل أعمى الحجة . وقيل أعمى عن جهات الخير لا يهتدي اليها . والأول هو الظاهر اذا اطلق . فمن قال : أعمى البصر قال : معناه لا يبصر في حال ويبصر العذاب في حال . ومن قال : بالآخرة قال : هو أعمى عن جهات الخير لا يهتدي لشيء منها .

وقوله « قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً » حكاية عما يقول الذي يحشره أعمى « لم حشرتني أعمى » ذاهب البصر « وقد كنت بصيراً » أبصر بها . وهذا يقوي أنه أراد عمى البصر دون عمى البصيرة، لان الكافر لم يكن بصيراً في الدنيا الا على وجه صحة الحاسة . وقيل معناه كنت بصيراً بحجتي عند نفسي .

قوله تعالى:

« قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (١٣٠) خمس آيات ·

قرأ الكسائي وابو عمرو عن عاصم « ترضى » بضم التاء . الباقون بفتحها .

هذا جواب من الله تعالى لمن يقول « لم حشرتني أعمى ، وقد كنت بصيراً » فيقول الله له في جواب ذلك كما حشرتك أعمى مثل ذلك « أتتك آياتنا » يعني أدلتنا وحججنا « فنسيتها » أي تركتها ولم تعتبر بها ، وفعلت معها ما يفعله الناسي الذي لم يذكرها اصلا ، ومثل ذلك اليوم تترك من ثواب الله ورحمته وتحرم من نعمه ، وتصير بمنزلة من قد ترك في المنسى بعذاب لا يفنى .

ثم قال ومثل ذلك « نجزي من أسرف » على نفسه بارتكاب المعاصي ، وترك الواجبات ولم يصدق بآيات ربه وحججه .

ثم قال « ولعذاب الآخرة » بالنار « أشد وابقى » لأنه دائم ، وعذاب القبر وعذاب الدنيا يزول . وهذا يقوي قول من قال : إن قوله « معيشة ضنكاً » أراد به عذاب القبر . ولا يجوز أن يكون المراد بقوله « فنسيتها » النسيان الذي ينافي العلم لأن ذلك من فعل الله لا يعاقب العبد عليه ، اللهم إلا ان يراد ان الوعيد على التعرض لنسيان آيات الله فأجري في الذكر على نسيان الآيات للتحذير من الوقوع فيه .

ثم قال تعالى « أو لم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم » قيل : ان قريشاً كانت تتجر الى الشام فتمر بمساكن عاد وثمود ، فترى آثار اهلاك الله اياهم ، فنبههم الله بذلك على معرفته وتوحيده · وفاعل « يهد » مضمر يفسره « كم أهلكنا » والمعنى او لم يهد لهم اهلاكنا من قبلهم من القرون . ويجوز أن يكون المضمر المصدر يفسره (كم اهلكنا) وموضع (كم) نصب بـ (أهلكنا) في قول الفراء

والزجاج . وقال بعضهم : انه رفع بـ (يهد) وهذا خطأ ، لانه خرج مخرج الاستفهام، كما يقول القائل : قد تبين لي أقام زيد أم عمرو ؟ . وقوله « ان في ذلك » يعني في اهلاكنا القرون الماضية « لآيات » وحججاً لأولي العقول . والنهى العقول ، على ما بيناه في غير موضع (١) .

وقوله « ولو لا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً واجل مسمى » فيه تقديم وتأخير وتقديره : ولو لا كلمة سبقت من ربك واجل مسمى لكان لزاماً ومعناه : لو لا ما سبق من وعد الله بأن الساعة تقوم في وقت بعينه وان المكلف له اجل مقدر معين . لكان هلاكهم « لزاماً » أي لازماً ابداً . وقيل : معناه فيصلا يلزم كل انسان طائره ، ان خيراً فخيراً وان شراً . فشراً ، فالاول قول الزجاج ، والثاني قول أبي عبيدة . وقال قوم : عذاب اللزام كان يوم بدر ، قتل الله فيه الكفار ، ولو لا ما قدر الله من آجال الباقين ووعدهم من عذاب الآخرة ، لكان لازماً لهم ابداً في سائر الازمان . وقال قتادة : الاجل الاول يعني في قيام الساعة والثاني الذي كتبه الله للانسان انه يبقيه اليه .

ثم قال لنبيه محمد (ص) « فاصبر على ما يقولون » من كفرهم بتوحيد الله وجحدهم لنبوتك وأذاهم اياك بكلام يسمعونك يثقل عليك « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس » يعنى صلاة الفجر « وقبل غروبها » يعني صلاة العصر « ومن آناء الليل » يعنى صلاة المغرب والعشاء « وأطراف النهار » صلاة الظهر ــ في قول قتادة ــ « وآناء الليل » ساعات الليل . واحدها إني ، قال السعدي :

حلو ومر كعصف القدح مرته   بكل إني حذاه الليل ينتعل (٢)

وقيل في قوله « واطراف النهار » لم جمع ؟ ثلاثة اقوال :

---

(١) انظر ٧ / ١٧٩   (٢) انظر ٢ / ٥٦٤

اولها ـ انه أراد اطراف كل نهار فالنهار في معنى الجمع .

الثاني ـ انه بمنزلة قوله « فقد صغت قلوبكما » (١)

الثالث ـ انه أراد طرف اول النصف الاول ، وآخر النصف الاول ، واول النصف الاخير ، وآخر النصف الاخير ، ولذلك جمع .

وقوله « لعلك ترضى » معناه افعل ما امرتك به لكي ترضى بما يعطيك الله من الثواب على ذلك . ومن ضم التاء أراد : لكي نفعل معك من الثواب ما ترضى معه . وقيل : لكي ترضى بالشفاعة . والمعاني متقاربة ، لانه اذا أرضى الله النبي (ص) فانه يرضى .

قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقْوَىٰ (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (١٣٥) خمس آيات .

(١) سورة ٦٦ التحريم آية ٤

قرأ « زهرة » ـ بفتح الهاء ـ يعقوب . وقرأ الباقون بسكونها ، وهما لغتان.
وقرأ نافع وابو جعفر ـ من طريق إبن العلاف ـ وأهل البصرة وحفص « أو لم تأتهم» بالتاء . الباقون بالياء . وقد مضى نظائره .

نهى الله تعالى نبيه محمداً (ص) والمراد به جميع المكلفين عن ان يمدوا أعينهم ، وينظروا إلى ما متع الله الكفار به ، من نعيم الدنيا ولذاتها ، والامتاع الالذاذ بما يدرك ، وذلك بما يرى من المناظر الحسنة ويسمع من الاصوات المطربة ، ويشم من الروائح الطيبة ، يقال : أمتعه إمتاعاً ، ومتعه تمتيعاً ، إلا ان في متعه تكثر الامتاع .

وقوله « ازواجاً منهم » معناه أشكالا منهم ، من المزاوجة بين الاشياء ، وهي المشاكلة ، وذلك أنهم اشكال في الذهاب عن الصواب .

وقوله « زهرة الحياة الدنيا » فالزهرة الأنوار التي تروق عند الرؤية ، ومن ذلك قيل للكوكب يزهر ، لنوره الذي يظهر . والمعاني الحسنة زهرة النفوس .

وقوله « لنفتنهم فيه » معناه لنعاملهم معاملة المختبر ، بشدة التعبد في العمل بالحق في هذه الأمور التي خلقناها لهم .

وقوله « ورزق ربك » يعني الذي وعدك به في الآخرة من الثواب « خير وأبقى » مما متعنا به هؤلاء في الدنيا .

وقيل إن هذه الآية نزلت على سبب ، وذلك أن النبي (ص) استسلف من يهودي طعاماً فأبى أن يسلفه إلا برهن ، فحزن رسول الله (ص) ، فأنزل الله هذه الآية تسلية له . وروى ذلك أبو رافع مولاه .

وقيل « زهرة الحياة الدنيا » زينة الحياة الدنيا ـ في قول قتادة ـ .

ثم قال لنبيه (ص) « وأمر » يا محمد « أهلك بالصلاة » وقيل : المراد بهأهل بيتك ، واهل دينك ، فدخلوا كلهم في الجملة « واصطبر عليها » بالاستعانة بها على

الصبر عن محارم الله . ثم قال له « لا نسألك رزقاً نحن نرزقك » الخطاب للنبي ص) والمراد به جميع الخلق ، فان الله تعالى يرزق خلقه ، ولا يسترزقهم ، فيكون أبلغ فى المنة « والعاقبة للتقوى » يعني العاقبة المحمودة لمن اتقى معاصي الله واجتنب محارمه.

وفى الآية دلالة على وجوب اللطف ، لما فى ذلك من الحجة ، لمن في المعلوم انه يصلح به ، ولو لم يكن فيه حجة لجرى مجرى أن تقول : لولا فعلت بنا ما لا يحتاج اليه فى الدين ، ولا الدنيا ، من جهة أنه لا حجة فيه ، كما لا حجة فى هذا .

وقوله « ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله » اخبار منه تعالى أنه لو أهلكهم بعذاب أنزله عليهم جزاء على كفرهم « لقالوا » يوم القيامة «لولا أرسلت » اي هلا ارسلت « الينا رسولا» يدعونا الى الله ويأمرنا بتوحيده﴿ فنتبع ﴾ ادلتك و ﴿ آياتك من قبل ان نذل ونخزى ﴾ اي قبل أن نهون، يقال : خزي يخزى اذا هان وافتضح.

وقوله ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ﴾ حكاية عما قال الكفار للنبي (ص) هلا ياتينا بآية من ربه يريدون الآية التي يقترحونها ، لأنه اتى بالآيات . ومن قرأ ـ بالتاء ـ وجه الخطاب اليه . ومن قرأ ـ بالياء ـ حكى بأنهم قالوا فيما بينهم هلا يأتينا بالمعجز ، او دلالة تدل على صدق قوله ، فقال الله لهم ﴿ أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ يعني ألسنا بينا ذلك فى الكتب التي انزلناها على موسى وعيسى ، فلم لم يؤمنوا بها ولم يصدقوا بها؟ ومن قرأ ـ بالتاء ـ وجه الخطاب اليه،فقال الله تعالى لنبيه ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ كل متربص ﴾ اي كل واحد منا ومنكم متربص ، فنحن نتربص بكم وعد الله لنا فيكم وانتم تتربصون بنا ان نموت ، فتستريحوا ﴿ فستعلمون ﴾ اي سوف تعلمون فيما بعد ﴿ من اصحاب الصراط السوي ﴾ يعني الصراط المستقيم و (من) الذي ﴿ اهتدى ﴾ الى طريق الحق . و ﴿ من ﴾ يحتمل ان تكون نصباً إن كانت بمعنى الذي وان تكون رفعاً على طريقة الاستفهام .

٢١ - سورة الانبياء

هي مكية فى قول قتادة ومجاهد وهي مائة واثنتا عشرة آية فى
الكوفي واحدى عشرة فى البصري والمدنيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا
يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)
لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ
مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ
الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا
أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَيهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
الأَوَّلُونَ » (٥) خمس آيات .

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر وخلفاً « قال ربي » على وجه الخبر . الباقون

« قل ربي » على وجه الامر .

هذا اخبار من الله تعالى بأنه « اقترب للناس » يعني دنا وقت «حسابهم» ومعناه دنا وقت اظهار ما للعبد وماعليه ليجازى به وعليه . والحساب اخراج مقدار العدد بعقد يحصل . ويقال : هو إخراج الكمية من مبلغ العدة . وقيل انه دنا لأنه بالاضافة الى ما مضى يسير .

وقيل : نزلت الآية في أهل مكة استبطؤا عذاب الله تكذيباً بالوعيد ، فقتلوا يوم بدر . والاقتراب قصر مدة الشيء بالاضافة الى ما مضى من زمانه . وحقيقة القرب قلة ما بين الشيئين ، يقال : قرب ما بينهما تقريباً إذا قلل ما بينهما من مدة او مسافة او اي فاصلة ، والقرب قد يكون في الزمان ، وفي المكان ، وفي الحال . وقد قيل : كل آت قريب ، فلذلك وصف الله تعالى القيامة بالاقتراب ، لأنها جائيــــة بلا خلاف .

وقوله « وهم في غفلة معرضون » فالغفلة السهو ، وهو ذهاب المعنى عن النفس و نقيضها اليقظة ، ونقيض السهو الذكر ، وهو حضور المعنى للنفس . والنسيان ، هو عزوب المعنى عن النفس بعد حضوره . وقوله « معرضون » يعني عن الفكر في ذلك ، والعمل بموجبه . وقيل : هم في غفـلة بالاشتغال بالدنيا ، معرضون عن الآخرة . وقيل : هم في غفلة بالضلال ، معرضون عن الهدى . وهو مثل ما قلناه .

وقوله « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » معناه اي شيء من القرآن محدث بتنزيله سورة بعد سورة وآية بعد آية « إلا استمعوه وهم يلعبون » اي كل ما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل ـ في قول الحسن وقتادة ـ وفي هــذه الآية دلالة على ان القرآن محدث ، لأنه تعالى اخبر انه ليس يأتيهم ذكر محدث من ربهم إلا استمعوه وهم لاعبون . والذكر : هو القرآن قال الله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر

وإنا له لحافظون » (١) وقال « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » (٢) يعني القرآن ، ويقويه في هذه الآية قوله « الا استمعوه » والاستماع لا يكون إلا في الكلام ، وقد وصفه بأنه محدث ، فيجب القول بحدوثه .

ويجوز في (محدث) الجر على انه صفة . ويجوز الرفع والنصب . فالنصب على الحال والرفع على تقديرهو محدث . ولم يقرأ بهما ، وقوله « لاهية قلوبهم » نصب (لاهية) على الحال . وقال قتادة : معناه غافلة . وقال غيره : معناه طالبة للهو ، هازلة . واللهو الهزل المتع . وقوله ﴿ واسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ فموضع ﴿ الذين ظلموا ﴾ من الاعراب يحتمل أن يكون رفعاً على البدل من الضمير في قوله « واسروا » كما قال تعالى « ثم عموا وصموا كثير منهم » (٣) ويجوز ان يكون رفعاً على الاستئناف ، وتقديره وهم الذين ظلموا . ويحتمل وجهاً ثالثاً ـ أن يكون خفضاً بدلا من النـاس . والمعنى ان الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله وجحدهم أنبياءه ، وأخفوا القول فيما بينهم ، وقالوا « هل هذا » يعنون رسول الله « إلا بشر مثلكم » . وقال قوم : معناه انهم أظهروا هذا القول . لأن لفظة (أسروا) مشتركة بين الاخفاء والاظهار ، والأول أصح.

وقوله « أفتأتون السحر » معنـاه أفتقبلون السحر « وأنتم تبصرون » أي وانتم تعلمون انه سحر . وقيل : معناه أفتعدلون الى الباطل وأنتم تعلمون الحق وتنكرون ثبوته .

ثم أمر نبيه (ص) فقال « قل » يا محمـد « ربي » الذي خلقني واصطفاني « يعلم القول في السماء والارض » لا يخفى عليه شيء من ذلك بل يعلمه جميعـه « وهو السميع العليم » أي هو من يجب أن يسمع المسموعات إذا وجدت عالم بجميع المعلومات

---

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٩ (٢) سورة ١٦ النحل آية ٤٤

(٣) سورة ٥ المائدة آية ٧٤

وقوله ﴿ بل قالوا أضغاث احلام بل افتراه ﴾ فالمعني في (بل) الاضراب بها عما حكى انهم قالوه أولا ، والاخبار عما قالوه ثانياً ، لانهم اولا قالوا : هـذا الذي اتانا به من القرآن ﴿ أضغاث احلام ﴾ اي تخاليط رؤيا ، رآها في المنام ـ في قول قتادة ـ قال الشاعر :

كضغث حلم عزمته حالمة (١)

ثم قالوا : لا ﴿ بل افتراه ﴾ اي تخرصه وافتعله. ثم قالوا: ﴿ بل هو شاعر ﴾ وانما قالوا : هو شاعر ، قول متحير ، قد بهره ما سمع ، فمرة يقول ساحر ، ومرة يقول شاعر . ولا يجزم على أمر واحد . قال المبرد : في (أسروا) اضمار هؤلاء اللاهية قلوبهم ، والذين ظلموا بدلا منه . وقال قوم : قدم علامة الجمع ، لان الواو علامة الجمع ، وليست بضمير ، كقولهم : انطلقوا أخوتك ، وانطلقا صاحباك ، تشبيها بعلامة التأنيث ، نحو : ذهبت جاريتك ، وهذا يجوز ، لكن لايختار في القرآن مثله .

قوله تعالى:

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ

(١) تفسير القرطبي ١١ | ٢٧٠

أَفلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٠) خمس آيات .

قرأ عاصم « نوحي » بالنون . الباقون ـ بالياء ـ على مالم يسم فاعله . من قرأ بالنون اراد الاخبار من الله تعالى عن نفسه ، بدلالة قوله « وما أرسلنا » لأن النون والالف اسم الله .

لما حكى الله تعالى ما قال الكفار في القرآن ، الذي أنزله الله على نبيه محمد (ص) من أنهم قالوا تارة : هو اضغاث احلام ، يريدون أقاويله . وتارة قالوا: بل اختلقه وافتعله . وتارة قالوا : هو شاعر ، لتحيرهم في امره . ثم قالوا ﴿ فليأتنا بآية ﴾ غير هذا على ما يقترحونها ﴿ كما أرسل ﴾ الانبياء ﴿ الأولون ﴾ بمثلها ، فقال الله تعالى ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية اهلكناها افهم يؤمنون ﴾ اي انا أظهرنا الآيات التي اقترحوهاعلى الأمم الماضية ، فلم يؤمنوا عندها ، فأهلكناهم ،فهؤلاء ايضاًلا يؤمنون لو انزلنا ما ارادوه . وأراد الله بهذا الاحتجاج عليهم ان يبين ان سبب مجيء الآيات ليس لانه سبب يؤدي الى ايمان هؤلاء ،وانما مجيئها لما فيها من اللطف والمصلحة، بدلالة انها لو كانت سبباً لايمان هؤلاء لكانت سبباً لايمان اولئك ، فلما بطل ان تكون سبباً لايمان اولئك ، بطل ان تكون سبباً لايمان هؤلاء على هذا الوجه . وقيل : ان معناه إنا لما اظهرنا الآيات التي اقترحوها على الأمم الماضية ، فلم يؤمنوا اهلكناهم، فلو اظهرنا على هؤلاء مثلها لم يؤمنوا وكانت تقتضي المصلحة ان نهلكهم . ومثله قوله ﴿ وما منعنا ان نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾(١) وقال الفراء : المعنى ما آمنت قبلهم امة جاءتهم آية ، فكيف يؤمن هؤلاء ! .

ثم اخبر تعالى انه لم يرسل قبل نبيه محمد (ص) الى الامم الماضية ﴿ إلا رجالا

(١) سورة ١٧ الاسري آية ٥٩

يوحى اليهم ﴾ ووجه الاحتجاج بذلك انه لو كان يجب ان يكون الرسول الى هؤلاء الناس من غير البشر ، كما طلبوه ، لوجب ان يكون الرسول الى من تقدمهم من غير البشر ، فلما صح إرسال رجال الى من تقدم ، صح الى من تأخر . وقال الحسن : ما ارسل الله إمراة ، ولا رسولا من الجن ، ولا من اهل البادية . ووجه اللطف فى إرسال البشر ان الشكل الى شكله آنس ، وعنه افهم ومن الأنفة منه ابعد ، لأنه يجري مجرى النفس ، والانسان لا يأنف من نفسه .

ثم قال لهم « فاسألوا أهـل الذكر » عن صحة ما أخبرتكم به من انه لم يرسل الى من تقدم إلا الرجال من البشر

وفى الآية دلالة على بطلان قول ابن حائط : من أن الله تعالى بعث الى البهائم والحيوانات كلها رسلا .

واختلفوا في المعني بأهـل الذكر ، فروي عن أمير المؤمنين (ع) انه قال : (نحن اهل الذكر) ويشهد لذلك أن الله تعالى سمى نبيـه ذكراً بقوله « ذكراً رسولا » (١) وقال الحسن : وقتادة : هم أهل التوراة والانجيل . وقال ابن زيد : أراد اهل القرآن ، لان الله تعـالى سمى القرآن ذكراً في قوله « انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٢) وقال قوم : معناه واسألوا اهـل العلم باخبار من مضى من الأمم هل كانت رسل الله رجالا من البشر أم لا ؟ .

وقيل فى وجه الأمر بسؤال الكفار عن ذلك قولان :

احدها ـ انه يقع العلم الضروري بخبرهم إذا كانوا متواترين ، واخبروا عن مشاهدة ، هذا قول الجبائي .

والثاني ـ ان الجماعة الكثيرة إذا أخبرت عن مشاهدة حصل العلم بخبرها إذا

(١) سورة ٦٥ الطلاق آية ١٠ ـ ١١   (٢) سورة ١٥ الحجر آية ٩

كانوا بشروط المتواترين وإن لم يوجب خبرهم العلم الضروري .

وقال البلخي : المعنى انك لو سألتهم عن ذلك لأخبروك أنا لم نرسل قبلك إلا رجالا . وقال قوم : أراد من آمن منهم . ولم يرد الأمر بسوءال غير المؤمن .

ثم اخبر تعالى انه لم يبعث رسولا ممن أرسله إلا وكان مثل سائر البشر يأكل الطعام ، وانه لم يجعلهم مثل الملائكة لا يأكلون الطعام ، وأنهم مع ذلك لم يكونوا خالدين مؤبدين ، بل كان يصيبهم الموت والفناء كسائر الخلق . وانما وحد « جسداً » لأنه مصدر يقع على القليل والكثير ، كما لو قال : وما جعلناهم خلقاً .

ثم قال تعالى « ثم صدقناهم الوعد » يعني الانبياء الماضين ما وعدناهم به من النصر والنجاة ، والظهور على الاعداء ، وما وعدناهم به من الثواب ، فانجيناهم من اعدائهم ، ومعهم من نشاء من عبادنا ، واهلكنا المسرفين على انفسهم ، بتكذيبهم للانبياء . وقال قتادة : المسرفون هم المشركون . والمسرف الخارج عن الحق الى ما تباعد عنه . يقال : اسرف إسرافاً إذا جاوز حد الحق وتباعد عنه .

ثم اقسم تعالى بقوله « لقد أنزلنا اليكم » ، لان هذه اللام يتلقى بها القسم ، بأنا أنزلنا عليكم « كتاباً » يعني القرآن ﴿ فيه ذكركم ﴾ قال الحسن : معناه فيه ما تحتاجون اليه من أمر دينكم . وقيل : فيه شرفكم إن تمسكتم به ، وعملتم بما فيه . وقيل : ذكر، لما فيه من مكارم الاخلاق ، ومحاسن الافعال ﴿ أفلا تعقلون ﴾ يعني أفلا تتدبرون ، فتعلموا أن الأمر على ما قلناه .

قوله تعالى :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً

آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ (١٥) خمس آيات.

يقول الله تعالى مخبراً انه قصم قرى كثيرة ، ويريد أهلها . وقوله « كانت ظالمة » لما اضاف الهلاك الى القرية اضاف الظلم اليها . والتقدير قصمنا اهل قرية كانوا ظالمين لنفوسهم ، بمعاصي الله ، وارتكاب ما حرمه. و (كم) للكثرة وهي ضد (رب) لان (رب) للتقليل . و (كم) في موضع نصب بـ (قصمنا) . والقصم كسر الصلب قهراً ، قصمه يقصمه قصماً ، فهو قاصم الجبابرة ، وانقصم انقصاماً مثل انقصف انقصافاً .

وقوله « وانشانا بعدها قوماً آخرين » يعني أوجدنا بعد هلاك أولئك قوماً آخرين . والانشاء إيجاد الشيء من غير سبب يولده ، يقال انشأه إنشاء. والنشأة الاولى الدنيا ، والنشأة الثانية الآخرة . ومثل الانشاء الاختراع والابتداع ـ هذا في اللغة ـ فأما في عرف المتكلمين ، فالاختراع هو ابتداع الفعل في غير محل القدرة عليه .

وقوله « فلما أحسوا بأسنا » معناه لما أدركوا بحواسهم عذابنا ، والاحساس الادراك بحاسة من الحواس الخمس : السمع ، والبصر ، والانف ، والفم ، والبشرة. يقال : أحسه إحساساً وأحس به . وقال قوم : أراد عذاب الدنيا . وقال آخرون : أراد عذاب الآخرة .

وقوله « إذا هم منها يركضون » فالركض العدو بشدة الوطء ، ركض فرسه

إذا حثه على المر السريع ، فمعنى « يركضون » يهربون من العذاب سراعاً ، كالمنهزم من عدو . فيقول الله تعالى لهم « لا تركضوا » أي لا تهربوا من الهلاك « وارجعوا إلى ما أترفتم فيه » أي ارجعوا إلى ما كنتم تنعمون فيه ، توبيخاً لهم وتقريعاً على ما فرط منهم . ومعنى « ماأترفتم فيه » نعمتم ، فالمترف المنعم والترف التنعم ، وهي طلب النعمة . « ومساكنكم لعلكم تسألون » أي ارجعوا إلى مساكنكم لكي تفيقوا بالمسألة ـ في قول مجاهد ـ وقال قتادة : إنما هو توبيخ لهم في الحقيقة . والمعنى تسألون من أنبيائكم ؟ على طريق الهزء بهم ، فقالوا عند ذلك معترفين على نفوسهم بالخطأ « يا ويلنا إنا كنا ظالمين » لنفوسنا بترك معرفة الله وتصديق أنبيائه ، وركوب معاصيه . والويل الوقوع في الهلكة . ونصب على معنى ألزمنا ويلنا .

ثم اخبر الله تعالى عنهم بأن ما حكاه عنهم من الويل « دعواهم » ونداؤهم أبداً « حتى جعلناهم حصيداً خامدين » بالعذاب ـ في قول الحسن ـ وقال مجاهد : يعني بالسيف ، وهو قتل (بخت نصر) لهم . والحصيد قتل الاستئصال ، كما يحصد الزرع بالمنجل ، والخمود كخمود النار إذا طفيت .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ

وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى مخبراً على وجه التمدح : إنا « ما خلقنا السموات والارض وما بينهما » أي ماأنشأناها « لاعبين » ونصبه على الحال . واللعب الفعل الذي يدعو اليه الجهل بما فيه من النقص ، لان العلم يدعو الى أمر ، والجهل يدعو الى خلافه . والعلم يدعوالى الاحسان . والجهل يدعوالى الاساءة لتعجيل الانتفاع . واللعب يستحيل في صفة القديم تعالى ، لانه عالم لنفسه . بجميع المعلومات غني عن جميع الاشياء ، ولا يمتنع وصفه بالقدرة عليه كما نقول فى سائر القبائح ، وإن كان المعلوم أنه لا يفعله ، لما قدمناه .

ثم قال تعالى « لو أردنا أن نتخذ لهواً لا تخذناه من لدنا » قال الحسن ومجاهد : اللهو المرأة . وقال قتادة : اللهو المرأة - بلغة أهل اليمن - وهو من اللهو المعروف ، لانه يطلب بها صرف الهم . وهذا إنكار لقولهم : الملائكة بنات الله ، والمسيح ابن الله تعالى الله عن ذلك ، وروي عن الحسن البصري أيضاً انه قال : اللهو الولد .

ووجه اتصال الآية بما قبلها أن هؤلاء الذين وصفوهم أنهم بنات الله ، وأبناء الله هم عبيد الله ، على أتم وجه العبودية ، وذلك يحيل معنى الولادة لانها لاتكون إلا مع المجانسة . ومعنى « لو أردنا أن نتخذ لهواً لا تخذناه من لدنا » الانكار على من أضاف ذلك الى الله ، ومحاجته بأنه لو كان جائزاً في صفته لم يتخذه بحيث يظهر لكم أو لغيركم من العباد ، لما في ذلك من خلاف صفة الحكيم الذي يقدر أن يستر النقص ، فيظهره . وانما استحال اللهو على الله تعالى ، لانه غني بنفسه عن كل شيء سواه ، يستحيل عليه المرح . واللاهي المارح والملتذ بالمناظر الحسنة والاصوات المؤنقة .

وقوله « إن كنا فاعلين » قيل في معنى (ان) قولان :

احدها ـ انها بمعنى (ما) التي للنفي ، والمعنى لم نكن فاعلين .

والآخر ـ انها بمعنى التي للشرط ، والمعنى إن كنا نفعل ذلك ، فعلناه من لدنا ، على ما أردناه إلا انا لا نفعل ذلك .

وقوله « من لدنا » قيل : معناه مما في السماء من الملائكة . وقال الزجاج : معناه مما نخلقه . ثم قال تعالى « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه » معناه إنا نلقي الحق على الباطل فيهلكه ، والمراد به إن حجج الله تعالى الدالة على الحق تبطل شبهات الباطل . ويقال : دمغ الرجل إذا شج شجة تبلغ أم الدماغ ، فلا يحيا صاحبها بعدها .

وقوله « فاذا هو زاهق » أي هالك مضمحل ، وهو قول قتادة . يقال : زهق زهوقاً إذا هلك . ثم قال لهم ، يعني الكفار «ولكم الويل مما تصفون » يعني الوقوع في العقاب ، جزاء على ما تصفون الله به من اتخاذ الأولاد .

ثم اخبر الله تعالى بأن « له من في السموات والارض ومن عنده » يعني الملائكة أي يملكهم بالتصرف فيهم ﴿ لا يستكبرون ﴾ هؤلاء عن عبادة الله ﴿ ولا يستحسرون ﴾ قال قتادة : معناه لا يعيون . وقال ابن زيد : لا يملون ، من قولهم : بعير حسير اذا أعيا ونام . ومنه قول علقمة بن عبدة :

بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيض واما جلدها فصليب (١)

وقيل : معناه يسهل عليهم التسبيح، كسهولة فتح الطرف والنفس ـ في قول كعب ـ والاستحسار الانقطاع من الاعياء مأخوذ من قولهم حسر عن ذراعه إذا كشف عنه .

ثم وصف تعالى الذين ذكرهم بأنهم ﴿ يسبحون الليل والنهار ﴾ اي ينزهونه عما أضافه هؤلاء الكفار اليه من اتخاذ الصاحبة والولد ، وغير ذلك من

( ) تفسير الطبري ١٧/ ٩

القبائح ﴿لا يفترون﴾ أي يملونه فيتركونه بل هم دائمون عليه .

قوله تعالى:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا آلِـهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِـهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) خمس آيات

يقول الله تعالى إن هؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله شركاء عبدوهم وجعلوها آلهة « هم ينشرون » أي هم يحيون ؟؟ تقريعاً لهم وتعنيفاً لهم على خطئهم ـ في قول مجاهد ـ يقال : أنشر الله الموتى فنشروا أي أحياهم فحيوا وهو النشر بعد الطي ، لان المحيا كأنه كان مطوياً بالقبض عن الادراك ، فأنشر بالحياة . والمعنى في ذلك أن هؤلاء إذا كانوا لا يقدرون على الاحياء الذي من قدر عليه قدر على أن ينعم بالنعم التي يستحق بها العبادة فكيف يستحقون العبادة ؟! . وحكى الزجاج: انه قرىء ـ بفتح الشين ـ والمعنى هل اتخذوا آلهة لا يموتون أبداً ، ويبقون أحياء ابداً ؟ ! أي لا يكون ذلك .

ثم قال تعالى « لو كان فيهما آلهة » يعني في السماء والارض آلهة أي من يحق له العبادة « غير الله لفسدتا » لأنه لو صح إلهان او آلهة لصح بينهما التمانع ،

فكان يؤدي ذلك الى ان احدهما إذا أراد فعلا ، وأراد الآخر ضده ، إما ان يقع مرادها . فيؤدي الى اجتماع الضدين أولا يقع مرادها ، فينتقض كونهما قادرين ، او يقع مراد أحدهما . فيؤدي الى نقض كون الآخر قادراً . وكل ذلك فاسد ، فاذاً لا يجوز أن يكون الاآله إلا واحداً . وهذا مشروح فى كتب الاصول .

ثم نزه تعالى نفسه عن ان يكون معه إله يحق له العبادة ، بأن قال « فسبحان الله رب العرش عما يصفون » وانما أضافه الى العرش ، لانه أعظم المخلوقات . ومن قدر على اعظم المخلوقات كان قادراً على ما دونه .

ثم قال تعالى « لايسأل عما يفعل » لانه لا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ، ولا يقال للحكيم لو فعلت الصواب « وهم يسألون » لانه يجوز عليهم الخطأ .

ثم قال « أم اتخذوا من دونه آلهة » معنى (ام) بل . ثم قال : قل لهم يامحمد « هاتوا برهانكم » على ذلك وحجتكم على صحة ما فعلتموه . فالبرهان هو الدليل المؤدي الى العلم ، لانهم لا يقدرون على ذلك ابداً .

وفى ذلك دلالة على فساد التقليد ، لأنه طالبهم بالحجة على صحة قولهم . قال الرماني (إلا) في قوله « إلا الله » صفة ، وليست باستثناء ، لانك لا تقول لوكان معناه إلا زيد لهلكنا ، على الاستثناء . لان ذلك محال ، من حيث انك لم تذكر ما تستثني منه كما لم تذكره فى قولك كان معنا إلا زيد ، فهلكنا قال الشاعر :

وكل اخ مفـارقه اخوه لعمر ابيك الا الفرقدان (١)

اراد وكل اخ يفارقه اخوه غير الفرقدين . ثم قال لنبيه (ص) وقل لهم : « هذا ذكر من معي » بما يلزمهم من الحلال والحرام والخطأ والصواب ، « وذكر من قبلي » من الامم ، ممن نجا بالايمان او هلك بالشرك ـ في قول قتادة ـ وقيل :

(١) انظر ٦ : ٦٩

معناه ذكر من معي بالحق في اخلاص الالهية والتوحيد في القرآن ، وعلى هذا ﴿ ذكر من قبلي ﴾ في التوراة والانجيل .

ثم اخبر ان ﴿ اكثرهم لا يعلمون الحق ﴾ ولا يعرفونه ، فهم يعرضون عنه الى الباطل . ثم قال لنبيه ﴿ وما ارسلنا من قبلك ﴾ يا محمد ﴿ من رسول ﴾ اي رسولا ، و (من) زائدة ﴿ الا نوحي اليه ﴾ نحن ، فيمن قرأ بالنون . ومن قرأ – بالياء – معناه الا يوحي الله اليه ، بأنه لا معبود على الحقيقة سواه ﴿ فاعبدون ﴾ اي وجهوا العبادة اليه دون غيره .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّالِمِينَ (٢٩) أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٠) خمس آيات .

حكى الله تعالى عن الكفار الذين تقدم ذكرهم أنهم « قالوا اتخذ الرحمن ولداً » أي تبنا الملائكة بناتاً ، فنزه الله تعالى نفسه عن ذلك بأن قال « سبحانه بل عباد مكرمون » أي هؤلاء الذين جعلوهم أولاد الله هم عبيد لله مكرمون لديه ، و (عباد)

رفع بأنه خبر ابتداء وتقديره هم عباد، ولا يجوز عليه تعالى التبني ، لأن التبني إقامة المتخذ لولد غيره مقام ولده لو كان له، فاذا استحال أن يكون له تعالى ولد على الحقيقة استحال أن يقوم ولد غيره مقام ولده، ولذلك لا يجوز أن يشبه بخلقه على وجه المجاز، لما لم يكن مشبهاً به على الحقيقة .

والفرق بين الخلة والنبوة أن الخلة إخلاص المودة بما يوجب الاخلاص والاختصاص بتخلل الاسرار، فلما جاز أن يطلع الله ابراهيم على أسرار لا يطلع عليها غيره تشريفاً له اتخذه خليلا على هذا الوجه، والبنوة ولادة ابن أو إقامته مقام ابن لو كان للمتخذ له. وهذا المعنى لا يجوز عليه تعالى كما يستحيل أن يتخذ إلهاً تعالى الله عن ذلك .

ثم وصف تعالى الملائكة بأنهم « لا يسبقونه بالقول » ومعناه لا يخرجون بقولهم عن حد ما أمرهم به، طاعة لربهم، وناهيك بهذا إجلالا لهم وتعظيماً لشأنهم « وهم بأمره يعملون » أي لا يعملون القبائح وإنما يعملون الطاعات التي أمرهم بها .

وقوله « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » قال ابن عباس : معناه يعلم ما قدموا وما أخروا من أعمالهم . وقال الكلبي « ما بين أيديهم » يعني القيامة وأحوالها « وما خلفهم » من أمر الدنيا « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » قال أهل الوعيد : معناه لا يشفع هؤلاء الملائكة الا لمن ارتضى الله جميع عمله ، قالوا : وذلك يدل على أن اهل الكبائر لا يشفع فيهم، لان أعمالهم ليست رضاً لله . وقال مجاهد : معناه الا لمن رضي عنه .

وهذا الذي ذكروه ليس في الظاهر، بل لا يمتنع ان يكون المراد لا يشفعون الا

لمن رضي الله ان يشفع فيه ، كما قال تعالى « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » (١) والمراد أنهم لا يشفعون الا من بعد اذن الله لهم ، فيمن يشفعون فيه ، ولو سلمنا أن المراد الا لمن رضي عمله ، لجاز لنا أن نحمل على أنه رضي ايمانه ، وكثيراً من طاعاته. فمن أين أنه أراد : الا لمن رضي جميع اعماله ؟ ! ومعنى - رضا الله - عن العبد إرادته لفعله الذي عرض به للثواب .

وقوله « وهم من خشيته مشفقون » يخافون من عقاب الله من موافعة المعاصي . ثم هدد الملائكة بقوله « ومن يقل منهم اني إله » تحق لي العبادة من دون الله « فذلك نجزيه جهنم » معناه إن ادعى منهم مدع ذلك فانا نجزيه بعذاب جهنم ، كما نجازي الظالمين بها . وقال ابن جريج ، وقتادة : عنى بالآية ابليس ، لانه الذي ادعى الالهية من الملائكة دون غيره ، وذلك يدل على ان الملائكة ليسوا مطبوعين على الطاعات ، كما يقول الجهال . وقوله « كذلك نجزي الظالمين » معناه مثل ما جازينا هؤلاء نجزي الظالمين أنفسهم بفعل المعاصي .

ثم قال « او لم ير الذين كفروا » أي او لم يعلموا « ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما » وقيل في معناه اقوال :

قال الحسن وقتادة « كانتا رتقاً » اي ملتصقتين ففصل الله بينهما بهذا الهواء.

وقيل « كانتا رتقاً » السماء لا تمطر والارض لا تنبت ، ففتق الله السماء بالمطر والارض بالنبات ، ذكره ابن زيد وعكرمة . وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) .

وقيل معناه : كانتا منسدتين لا فرج فيهما فصدعهما عما يخرج منهما . وانما قال: السموات ، والمطر والغيث ينزل من سماء الدنيا ، لأن كل قطعة منها سماء ، كما يقال :

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٦

ثوب أخلاق ، وقميص اسمال . وقيل الرتق الظلمة ففتقهما بالضياء . وانما قال « كانتا » والسموات جمع ، لانهما صنفان ، كما قال الاسود بن يعفر النهشلي :

إن المنيـة والحتوف كلاهما ... يوقي المحارم يرقبان سوادي (١)

لانه على النوعين ، وقال القطامي :

ألم يحزنك أن جبال قيس وتغـ ... ـلب قد تباينتا انقطاعا (٢)

فثنى الجمع لما قسمه صنفين صنف لقيس وصنف لتغلب ، و (الرتق) السد رتق فلا الفتق رتقاً إذا سده ، ومنه الرتقاء : المرأة التي فرجها ملتحم . ووحد لانه مصدر وصف به .

وقوله « وجعلنا من الماء كل شيء حي » والمعنى إن كل شيء صار حياً : فهو مجعول من الماء . ويدخل فيه الشجر والنبات على التبع . وقال بعضهم : اراد بالماء النطف التي خلق الله منها الحيوان . والاول أصح .

وقوله « أفلا يؤمنون » معناه أفلا يصدقون بما أخبرتهم . وقيل : معناه أفلا يصدقون بما يشاهدونه ، من أفعال الله الدالة على أنه المستحق للعبادة لا غير والمختص بها ، وانه لا يجوز عليه اتخاذ الصاحبة والولد .

وقرأ ابن كثير وحده « ألم ير الذين كفروا » بغير واو . الباقون « أو لم » بالواو . والألف التي قبل الواو ، الف توبيخ وتقرير .

قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً

(١ ، ٢) تفسير الطبري ١٤/١٧

وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٣٥) خمس آيات .

قال المبرد : معنى « أن تميد » أي منع الأرض « أن تميد » أي لهذا خلقت الجبال . ومثله قوله « أن تضل احداهما » (١) والمعنى عدة أن تضل أحداهما ، كقول القائل : أعددت الخشبة أن يميل الحائل فأدعمه . وهو لم يعدها ليميل الحائط ، وانما جعلها عدة ، لأن يميل ، فيدعم بها .

يقول الله تعالى انا « جعلنا في الأرض رواسي » وهي الجبال ، واحدها راسية يقال : رست ترسو رسواً إذا ثبتت بثقلها ، وهي راسية . كما ترسو السفينة إذا وقفت متمكنة في وقوفها « أن تميد بكم » معناه ألا تميد بكم ، كما قال « يبين الله لكم أن تضلوا » (٢) والمعنى ألا تضلوا . وقال الزجاج : معناه كراهة أن تميد بكم . والميد الاضطراب ، بالذهاب في الجهات ، يقال : ماد يميد ميداً ، فهو مائد . وقيل : إن الأرض كانت تميد وترجف ، رجوف السفينة بالوطء ، فثقلها الله تعالى بالجبال الرواسي - لتمتنع من رجوفها . والوجه في تثقيل الله تعالى الأرض بالرواسي مع قدرته على امساك الارض أن تميد ، ما فيه من المصلحة والاعتبار ، وكان ابن الاخشاذ

(١) سورة ٢ البقره آيه ٢٨٢ (٢) سورة ٤ النساء آية ١٧٥

يقول: لو لم يثقل الله الأرض بالرواسي لأمكن العباد أن يحركوها بما معهم من القدر، فجعلت على صفة مالا يمكنهم تحريكها. وقال قتادة: تميد بهم معناه تمور، ولا تستقرّ بهم.

وقوله «وجعلنا فيها فجاجاً» يعني فى الارض طرقاً، والفج الطريق الواسع بين الجبلين.

وقوله «لعلكم تهتدون» أي لكي تهتدوا فيها الى حوائجكم ومواطنكم، وبلوغ أغراضكم. ويحتمل أن يكون المراد لتهتدوا، فتستدلوا بذلك على توحيد الله وحكمته. وقال ابن زيد: معناه ليظهر شكركم، فيما تحبون، وصبركم فيما تكرهون.

وقوله «وجعلنا السماء سقفاً محفوظا» وانما ذكرها، لأنه أراد السقف، ولو أنث كان جائزاً. وقيل: حفظها الله من أن تسقط على الارض. وقيل: حفظها من أن يطمع احد ان يتعرض لها بنقض، ومن ان يلحقها ما يلحق غيرها من الهدم او الشعث، على طول الدهر. وقيل: هي محفوظة من الشياطين بالشهب التي يرجمون بها.

وقوله «وهم عن آياتها معرضون» اي هم عن الاستدلال بحججها وادلتها، على توحيد الله معرضون.

ثم قال تعالى مخبراً، بأنه «هو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر» واخبر ان جميع ذلك «في فلك يسبحون» فالفلك هو المجرى الذي تجري فيه الشمس والقمر، بدورانهما عليه ـ فى قول الضحاك ـ وقال قوم: هو برج مكفوف تجريان فيه. وقال الحسن: الفلك طاحونة كهيئة فلك المغزل. والفلك في اللغة كل شيء دائر، وجمعه افلاك قال الراجز:

باتت تناصي الفلك الدوارا　　حتى الصباح تعمل الاقتارا (١)

ومعنى « يسبحون » يجرون ـ في قول ابن جريج ـ وقال ابن عبـــاس « يسبحون » بالخير والشر ، والشدة والرخاء . وانمـا قال « يسبحون » على فعل ما يعقل ، لأنه أضاف اليها الفعل الذي يقع من العقلاء ، كما قال « والشمس والقمر رأيتهم لي ساجـدين » (٢) وقال « لقـــد علمت ما هؤلاء ينطقون » . (٣) وقال النابغة الجعدي :

تمززتها والديك يدعو صباحه　　إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا (٤)

وقوله « كل فى فلك يسبحون » أراد الشمس والقمر والنجوم ، لأنـــ قوله « الليل » دل على النجوم .

ثم قال لنبيه (ص) و « ما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » أي البقاء دائماً فى الدنيا « أفان مت فهم الخالدون » أي لم يجعل لهم الخلود ، حتى لو مت أنت ابقوا أولئك مخلدين ، بل ما أولئك مخلدين . ثم أكد ذلك ، وبين بأن قال « كل نفس ذائقة الموت » والمعنى لابد لكل نفس حية بحياة أن يدخل عليها الموت ، وتخرج عن كونها حية . وانما قال (ذائقة) لان العرب تصف كل أمر شاق على النفس بالذوق كما قال « ذق انك انت العزيز الكريم » (٥) . وقال الفراء : إذا كان اسم الفاعل لما مضى جازت الاضافة ، وإذا كان المستقبل ، فالاختيار التنوين ، ونصب ما بعده.

ثم قال تعالى « ونبلوكم » اي نختبركم معاشر العقلاء بالشر والخير ، يعني بالمرض والصحة . والرخص والغلاء ، وغير ذلك من انواع الخير والشر « فتنـة »

(١) تفسير الطبري ١٧ | ١٦　　(٢) سورة ١٢ يوسف آية ٤

(٣) سورة ٢١ الانبياء آية ٦٥　　(٤) هو فى مجمع البيان ٤ : ٦

(٥) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٩

أي اختبار آمني لكم ، وتكليفاً لكم. ثم قال « والينا ترجعون » يوم القيامة . فيجازى كل انسان على قدر عمله . ودخلت الفاء في قوله « أفان » وهي جزاء ، وفى جوابه ، لان الجزاء متصل بكلام قبله . ودخلت في ﴿ فهم ﴾ لانه جواب الجزاء ، ولو لم يكن فى ﴿ فهم ﴾ الفاء ، كان جائزاً على وجهين :

احدها ـ ان تكون مرادة ، وقد حذفت .

والآخرى ـ أن تكون قد قدمت على الجزاء ، وتقديره ﴿ أفهم الخالدون ﴾ إن مت .

قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا رَآكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ هُمْ كَافِرُونَ(٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ(٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ(٤٠)

خمس آيات .

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) إنه « إذا رآك الذين كفروا » وجحدوا وحدانية الله ، ولم يقروا بنبوتك « إن يتخذونك » اي ليس يتخذونك « إلا هزواً » يعني سخرية ، جهلا منهم وسخفاً وفي ذلك تسلية لكل محق يلحقه أذى

من جاهل مبطل . والهزؤ إظهار خلاف الابطان ، لايهام النقص عن فهم القصد . يقال : هزىء منه يهزؤ هزؤاً ، فهو هازىء ، ومثله السخرية « أهذا الذي يذكر آلهتكم » حكاية ، أي يقولون ذلك ، ومعناه إنهم يعيبون من جحد إلهية من لا نعمة له ، وهم يجحدون إلهية من كل نعمة ، فهي منه ، وهذا نهاية الجهل . والمعنى أهذا الذي يعيب آلهتكم ، تقول العرب ، فلان يذكر فلاناً أي يعيبه ، قال عنترة :

لا تذكري مهري وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الاجراب (١)

وقوله « وهم بذكر الرحمن » معناه وهم بذكر توحيد الرحمن « هم كافرون » .

وقوله « خلق الانسان من عجل » قال قتادة : معناه خلق الانسان عجولا . والمراد به جنس الانسان . وقال السدي : المعني به آدم (ع) . وقال مجاهد : خلق الانسان على تعجيل ، قبل غروب الشمس يوم الجمعة . وقال ابو عبيدة : معناه خلقت العجلة من الانسان ، على القلب . وهو ضعيف ، لأنه لا وجه لحمله على القلب . وقال قوم : معناه على حب العجلة ، لانه لم يخلقه من نطفة ومن علقة بل خلقه دفعة واحدة . والذي قاله قتادة، أقوى الوجوه . وقيل خلق الانسان من عجل مبالغة ، كأنه قيل هو عجلة ، كما يقال : انما هو إقبال وادبار . وقال المبرد : خلق على صفة من شأنه ان يعجل في الامور . وقال الحسن : معناه خلق الانسان من ضعف ، وهو النطفة. وقال قوم : العجل هو الطين الذي خلق آدم منه ، قال الشاعر :

والنبع ينبت بين الصخر ضاحيه والنخل ينبت بين الماء والعجل (٢)

يعني الطين . والاستعجال طلب الشيء قبل وقته الذي حقه أن يكون فيه دون غيره . والعجول الكثير الطلب للشيء قبل وقته . والعجلة تقديم الشيء قبل

(١) ديوانه : ٣٣ (٢) تفسير القرطبي ١١/٢٨٩ والشوكاني ٣/٣٩٤ وروايته : « والنبع في الصخرة الصماء منبتة .....

وقته ، وهو مذموم . والسرعة تقديم الشيء فى أقرب أوقاته ، وهو محمود .

وقوله « سأوريكم آياتي فلا تستعجلون » أي سأظهر بيناتي وعلاماتي ، فلا تطلبوه قبل وقته . ثم أخبر تعالى عن الكفار أنهم « يقولون متى هذا الوعد » يريدون ما توعدالله به من الجزاء والعقاب على المعاصي بالنيران وانواع العذاب « إن كنتم صادقين » يعني يقولون « إن كنتم صادقين » ومحقين فيما تقولون متى يكون ما وعدتموه ، فقال الله تعالى « لو يعلم الذين كفروا » الوقت الذي « لا يكفون فيه » أي لا يمنعون فيه « عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم » يعني إن النار تحيط بهم من جميع وجوههم « ولا هم ينصرون » أي لا يدفع عنهم العذاب بوجه من الوجوه . وجواب (لو) محذوف ، وتقديره : لعلموا صدق ما وعدوا به من الساعة .

ثم قال « بل تأتيهم » يعني الساعة ، والقيامة « بغتة » أي فجأة « فتبهتهم » أي تحيرهم والمبهوت المتحير « فلا يستطيعون ردها » ومعناه : لا يقدرون على دفعها « ولاهم ينظرون » أي لا يؤخرون الى وقت آخر . وقال البلخي : ويجوز أن تكون العجلة من فعل الله وهو ما طبع الله عليه الخلق من طلب سرعة الاشياء . وهو كما خلقهم يشتهون أشياء ويميلون اليها ، ويحسن أمرهم بالتأني عنها ، والتوقف عند ذلك ، فلأجل ذلك قال « فلا تستعجلون » كما حسن نهيهم عن ارتكاب الزنا الذي تدعوهم اليه الشهوة .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾ (٤٥) خمس آيات .

قرأ ابن عامر « ولا تسمع » بالتاء وضمها وكسر الميم « الصم » بالنصب . الباقون ـ بالياء ـ مفتوحة ، وبفتح الميم ، وضم « الصم » .

فوجـــه قراءة ابن عامر ، أنه وجّه الخطاب الى النبي (ص) فكأنه قال « ولا تسمع » أنت يا محمد « الصم » كما قال « وما أنت بمسمع من فى القبور » (١) لأن الله تعالى ، لما خاطبهم ، فلم يلتفتوا إلى ما دعاهم اليه ، صاروا بمنزلة الميت الذي لا يسمع ولا يعقل .

ووجه قراءة الباقين أنهم جعلوا الفعل لهم ، ويقويه قوله ﴿ إذا ما ينذرون ﴾ قال أبو علي : ولو كان على قراءة ابن عامر ، لقال : إذا ينذرون .

و (الصم) وزنه ﴿ فعل ﴾ جمع أصم . وأصله (أصمم) فادغموا الميم فى الميم وتصغير (أصم) (أصيمم) . و (الصمم) ثقل في الأذن ، فاذا كان لا يسمع شيئاً قيل أصلج . وقال ابن زيد : (أصم) أصلج بالجيم . والوقر المثقل في الأذن .

(١) سورة ٣٥ فاطر آية ٢٢

لما قال الله تعالى لنبيه محمد: إن الكفار اذا ما رأوك اتخذوك هزواً وسخرية علم ان ذلك يغمه فسلاه عن ذلك بأن اقسم بأن الكفار فيما سلف استهزؤا بالرسل الذين بعث الله فيهم . وسخروا منهم ﴿ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن ﴾ أي حل بهم عقوبة ما كانوا يسخرون منهم ، وحاق معناه حل ، حاق يحق حيقاً . ومنه قوله « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » (١) أي يحل وبال القبيح بأهله الذين يفعلونه ، فكان كما أرادوه بالداعي لهم الى الله حل بهم .

والفرق بين الهزء والسخرية ، أن في السخرية معنى الذلة ، لأن التسخير التذليل والهزء يقتضي طلب صغر القدر مما يظهر في القول .

ثم أمر نبيه (ص) بأن يقول لهؤلاء الكفار « من يكلؤكم بالليل والنهار » أي من يحفظكم من بأس الرحمن وعذابه . وقيل : من عوارض الآفات، يقال : كلأه يكلؤه ، فهو كالىء قال ابن هرمة :

إن سليمى والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزؤها (٢)

ومعنى ﴿ يكلؤكم ... من الرحمن ﴾ اي من يحفظكم من أن يحل بكم عذابه

وقوله ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ معناه كأنه قال : ما يلتفتون الى شيء من الحجج والمواعظ ، بل هم عن ذكر ربهم معرضون . وقيل : من يحفظكم مما يريد الله إحلاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة . ثم قال على وجه التوبيخ لهم والتقريع ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ أي من عذابنا وعقوباتنا . ثم أخبر أنهم ﴿ لا يستطيعون نصر انفسهم ﴾ . وقيل : ان المعنى إن آلهتهم لا يقدرون على نصر أنفسهم ، فكيف يقدرون على نصر غيرهم؟! وقيل ان الكفار ﴿ لا يستطيعون نصر

---

(١) سورة ٣٥ فاطر ٤٣ .

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ٢٩١ والطبري ١٧ / ٢٠ والشوكاني ٣ / ٣٩٥

أنفسهم ﴾ وهو الاشبه اي لا يقدرون على دفع ما ينزل بهم عن نفوسهم « ولا هم منا يصحبون ﴾ معناه لا يصحبهم صاحب يمنعهم منا. وقيل ولاهم منا يصحبون بأن يجيرهم مجير علينا. وقال ابن عباس : معناه ولا الكفار منا يجارون ، كما يقولون : ان لك من فلان صاحباً ، أي من يجيرك ويمنعك . وقال قتادة : معناه ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ بخير

ثم قال تعالى ﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم ﴾ فلم نعاجلهم بالعقوبة حتى طالت اعمارهم . ثم قال موبخاً لهم ﴿ أفلا يرون ﴾ اي ألا يعلمون ﴿ انا نأتي الارض ننقصها من اطرافها ﴾ قيل : بخرابها . وقيل : بموت اهلها . وقيل : بموت العلماء .

وقوله ﴿ افهم الغالبون ﴾ قال قتادة : افهم الغالبون رسول الله مع ما يشاهدونه من نصر الله له في مقام بعد مقام، توبيخاً لهم ، فكأنه قال : ما حملهم على الاعراض الا الاغترار بطول الامهال حيث لم يعاجلوا بالعقوبة .

ثم قال لنبيه محمد (ص) ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ انما انذركم بالوحي ﴾ اي اعلمكم واخوفكم بما اوحى الله الي . ثم شبههم بالصم الذين لا يسمعون النداء اذا نودوا ، فقال ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون ﴾ اي يخوفون ، من حيث لم ينتفعوا بدعاء من دعاهم ، ولم يلتفتوا اليه ، فسماهم صماً مجازاً وتوسعاً .

قوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً

الْمُتَّقِينَ (٤٨) ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٠)

خمس آيات.

قرأ اهل المدينة ﴿ مثقال حبة ﴾ برفع اللام ـ ههنا ـ وفي القمر. الباقون بنصبها.

من رفع اللام جعل (كان) تامة بمعنى حدث، كما قال ﴿ الا ان تكون تجارة ﴾ (١) ولا خبر لها. ومن نصبه جعل في (كان) ضميراً ونصب (مثقال) بأنه خبر (كان) وتقديره فلا تظلم نفس شيئاً وان كان الشيء ﴿ مثقال حبة من خردل ﴾ وانما قال ﴿ بها ﴾ بلفظ التأنيث والمثقال مذكر، لان مثقال الحبة وزنها، ومثله قراءة الحسن ﴿ تلتقطه بعض السيارة ﴾ (٢) لان بعض السيارة سيارة. وروي ان مجاهد قرأ ﴿ آتينا ﴾ ممدوداً بمعنى جازينا بها.

اخبر الله تعالى انه لو مس هؤلاء الكفار ﴿ نفحة من عذاب الله ﴾ ومعناه لو لحقهم واصابهم دفعة يسيرة، فالنفحة الدفعة اليسيرة، يقال: نفح ينفح نفحاً، فهو نافح، لأيقنوا بالهلاك، ولقالوا ﴿ يا ويلنا ﴾ اي الهلاك علينا ﴿ انا كنا ظالمين ﴾ لنفوسنا بارتكاب المعاصي اعترافاً منهم بذلك. ومعنى ﴿ ياويلنا ﴾ يا بلاءنا الذي نزل بنا. وانما يقال استغاثه مما يكون منه، كما يستغيث الانسان بنداء من يرفع به.

ثم قال تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ قال قتادة: معناه نضع

---

١ سورة ٢ البقرة آية ٢٨٢ ٢ سورة ١٢ يوسف آية ١٠

العدل في المجازاة بالحق لكل احد على قــدر استحقاقه ، فلا يبخس المثــاب بعض ما يستحقه ، ولا يفعل بالمعاقب فوق ما يستحقه . وقال الحسن : هو ميزان له كفتان ولسان ، يذهب الى انه علامة جعلها الله للعباد يعرفون بها مقادير الاستحقاق . وقال قوم : ميزان ذو كفتين توزن بها صحف الاعمال . وقال بعضهم : يكون في احدى الكفتين نور ، وفي الأخرى ظلمة ، فايهما رجح ، علم به مقـدار ما يستحقه ، وتكون المعرفة في ذلك ما فيه من اللطف والمصلحة في دار الدنيا .

وقوله « ليوم القيامة » معناه لأهل يوم القيامة . وقيل في يوم القيامة .

وقوله « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينـا بها » معناه أنه لا يضيع لديه قليل الاعمال والمجازاة عليه ، طاعة كانت أو معصية « وكفى بنا حاسبين » أي وكفى المطيع أو العاصي بمجازاة الله وحسبه ذلك . وفى ذلـك غاية التهديد ، لأنه إذا كان الذي يتولى الحساب لايخفى عليه قليل ولا كثير ، كان اعظم . والباء فى قوله « كفى بنا » زائدة . و «حاسبين» يحتمل أن يكون نصباً على الحال أو المصدر ـ فى قول الزجاج .

ثم اخبر الله تعالى فقال : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان » قال مجاهد وقتادة : هو التوراة التي تفرق بين الحق والبـاطل . وقال ابن زيد : هو البرهان الذي فرق بين حقه وباطل فرعون ، كما قال تعالى « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » (١) . وقوله « وضياء » أي وآتيناه ضياء يعني أدلة يهتدون بها ، كما يهتدون بالضياء . وآتيناه « ذكراً للمتقين » أي مذكراً لهم ، يذكرون الله به . ومن جعل الضياء والذكر حالا للفرقان قال : دخلته واو العطف لاختلاف الأحوال ، كقولك جاءني زيد الجواد والحليم والعالم . وأضافه الى المتقين ، لانهم المنتفعون به دون غيرهم .

ثم وصف المتقين بأن قال « الذين يخشون » عذاب الله فيجتنبون معاصيه فى

---

(١) سورة ٨ الانفال آية ٤١

حال السر والغيب . وقال الجبائي : معناه يؤمنون بالغيب الذي أخبرهم به ، وهم من مجازاة يوم القيامة « مشفقون » أي خائفون .

ثم اخبر عن القرآن ، فقال « وهذا ذكر مبارك » يعني القرآن « أنزلناه » عليك يا محمد . وخاطب الكفار فقال « أفانتم له منكرون » أي تجحدونه ، على وجه التوبيخ لهم ، والتقرير ، وفى ذلك دلالة على حدوثه ، لأن ما يوصف بالانزال وبأنه مبارك يتنزل به ، لا يكون قديماً ، لان ذلك من صفات المحدثات .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرٰهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ ٱللَّاعِبِينَ (٥٥)

خمس آيات .

لما اخبر الله تعالى أنه آتى موسى وهارون الفرقان ، والضياء ، والذكر . وبين أن القرآن ذكر مبارك أنزله على محمد (ص) ، أخبر انه آتى إبراهيم أيضاً قبل ذلك ﴿ رشده ﴾ يعني آتيناه من الحجج والبينات ما يوصله الى رشده ، من معرفة الله وتوحيده . والرشد هو الحق الذي يؤدي الى نفع يدعو اليه . ونقيضه الغي ، رشد يرشد رشداً ورشداً ، فهو رشيد . وفى نقيضه : غوى يغوى غياً ، فهو غاو . وقال قتادة ومجاهد : معنى ﴿ آتيناه رشده ﴾ هديناه صغيراً . وقال قوم : معنى ﴿ رشده ﴾

النبوة . وقوله ﴿ من قبل ﴾ يعني من قبل موسى وهارون . وقوله ﴿ وكنا به عالمين ﴾ أي كنا عالمين بأنه موضع لايتاء الرشد ، كما قال تعالى ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾(١) وقيل : كنا نعلم أنه يصلح للنبوة ﴿إذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ . (إذ) في موضع نصب ، والعامل فيه ﴿ آتيناه رشده ... إذ قال ﴾ أي في ذلك الوقت ، وفيه إخبار عما أنكر ابراهيم على قومه وأبيه حين رآهم يعبدون الأصنام والأوثان ، فانه قال لهم : أي شيء هذه الاصنام ؟ ! يعني الصور التي صرتم لازمين لها بالعبادة ، والعكوف اللزوم لأمر من الامور : عكف عليه عكوفاً ، فهو عاكف . وقيل في معنى ﴿ لها عاكفون ﴾ لاجلها . قال مجاهد ﴿ هذه التماثيل ﴾ الأصنام . ثم حكى ما أجابه به قومه ، فانهم قالوا « وجدنا آباءنا لها » لهذه الاصنام « عابدين » فأحالوا على مجرد التقليد . فقال لهم ابراهيم « لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين » فذمهم على تقليد الآباء ، ونسب الجميع الى الضلالة والعدول عن الحق . فقالوا له عند ذلك « أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » ومعناه أجاد أنت فيما تقول محق عند نفسك أم أنت لاعب مازح ؟ وذلك أنهم كانوا يستبعدون إنكار عبادتها عليهم .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ (٥٩)

(١) سورة ٤٤ الدخان آيه ٣٢

قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ (٦٠) خمس آيات.

قرأ الكسائي «جذاذاً» بكسر الجيم. الباقون بضمها. فمن ضم الجيم أراد جعلهم قطعاً، وهو (فعال) على وزن الرفات والفتات والرقاق، وجذذته أجذه جذاً أي قطعته. وقال ابن عباس: الجذاذ الحطام. ومن كسر الجيم فانه أراد جمع جذيذ (فعيل) بمعنى مجذوذ. ومثله كريم وكرام، وخفيف وخفاف، وبالضم مصدر لايثنى ولا يجمع. قال جرير:

آل المهلب جذ الله دابرهم أمسوا رماداً فلا أصل ولا طرف(١)

حكى الله تعالى ما رد به إبراهيم على كفار قومه حين قالوا له «أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين» فانه قال لهم «بل ربكم رب السموات والارض الذي» خلقكم ودبركم والذي خلق السموات والارض و «فطرهن» معناه ابتدأهن والفطر شق الشيء من امر ظهر منه يقال: فطره يفطره فطراً وانفطر انفطاراً، ومنه تفطر الشجر بالورق، فكأن السماء تشق عن شيء فظهرت بخلقها. ثم قال ابراهيم «وأنا على ذلكم من الشاهدين» يعني أنا على ما قلت لكم: من انه تعالى خالقكم وخالق السموات شاهد بالحق لانه دال، والشاهد الدال على الشيء عن مشاهدة، فابراهيم (ع) شاهد بالحق دال عليه بما يرجع الى ثقة المشاهدة. ثم أقسم إبراهيم فقال «وتالله لأكيدن أصنامكم» وذلك قسم، والتاء في القسم لا تدخل إلا في اسم الله تعالى، لأنها بدل من الواو والواو بدل من الباء، فهي بدل من بدل، فلذلك أختصت باسم الله. وقال قتادة: معناه لأكيدن أصنامكم في سر من قومه. والكيد ضر الشيء بتدبير عليه، يقال:

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ٣٠٨

كاده يكيده كيداً . فهو كائد .

وقوله « بعد أن تولوا مدبرين » يقال : انه انتظرهم حتى خرجوا الى عيد لهم فحينئذ كسر اصنامهم . ثم أخبر تعالى انه « جعلهم جذاذاً » أي قطعاً « إلا كبيراً لهم » تركه على حاله . ويجوز أن يكون كبيرهم في الخلقة . ويجوز أن يكون أكبرهم عندهم في التعظيم « لعلهم اليه يرجعون » أي لكي يرجعوا اليه فينتبهوا على ما يلزمهم فيه من جهل من اتخذوه إلهاً ، إذا وجدوه على تلك الصفة . وكان ذلك كيداً لهم .

وفي الكلام حذف ، لان تقديره إن قومه رجعوا من عيدهم ، فوجدوا أصنامهم مكسرة «قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الضالمين » ف (من) بمعنى الذي ، وتقديره الذي فعل هذا بمعبودنا ، فانه ظلم نفسه .

وقوله « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » قيل تخلف بعضهم فسمع إبراهيم يذكرها بالعيب ، فذكر ذلك ، ورفع (ابراهيم) بتقدير ، يقال له هذا إبراهيم ، او ينادى يا إبراهيم ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى:

﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)
قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ
فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ
مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ (٦٥) خمس آيات .

لما قال بعضهم انه سمع ابراهيم يعيب آلهتهم وحكاه لقومه قالو : جيئوا « به على اعين الناس لعلهم يشهدون » وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال الحسن وقتادة والسدي : كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ، فقالوا جيئوا به بحيث يراه الناس ، ويكون برءاً منهم « لعلهم يشهدون » بما قاله إني أكيد اصنامهم شهادة تكون حجة عليه .

الثاني ـ قال ابن اسحاق « لعلهم يشهدون » عقابه . وقيل « لعلهم يشهدون » حجته وما يقال له من الجواب ، فلما جاؤا به قالوا له ﴿ أأنت فعلت هـذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ مقررين له على ذلك ، فأجابهم إبراهيم بأن قال ﴿ بل فعله كبيرهم هـذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وإنما جاز أن يقول ﴿ بل فعله كبيرهم هـذا ﴾ وما فعل شيئاً لأحد امرين :

احدهما ـ انه قيده بقوله ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ فقد فعله كبيرهم . وقوله ﴿ فاسألوهم ﴾ اعتراض بين الكلامين ، كما يقول القائل : عليه الدارهم فاسأله إن أقر .

والثاني ـ انه خرج مخرج الخبر وليس بخبر ، وانما هو إلزام دل على تلك الحال، كأنه قال بل ما تنكرون فعله كبيرهم هذا . فالالزام تارة يأتى بلفظ السؤال وتارة بلفظ الامر ، كقوله ﴿ فأتوا بسورة مثـله ﴾ وتارة بلفظ الخبر . والمعنى فيه أنه من اعتقد كـذا لزمه كذا وقد قرىء في الشواذ ﴿ فعله كبيرهم ﴾ ـ بتشديد اللام ـ بمعنى فلعل كبيرهم ، فعلى هذا لا يكون خبراً ، فلا يلزم ان يكون كذباً ، والكذب قبيح لكونه كذباً، فلا يحسن على وجه ، سواء كان فيه نفع اودفع ضرر ، وعلى كل حال، فلا يجوز على الأنبياء القبائح ، ولا يجوز ايضاً عليهم التعمية فى الاخبار ، ولا التقية

(١) سورة ١٠ يونس آية ٣٨

في اخبارهم ، لأنه يؤدي الى التشكيك في اخبارهم ، فلا يجوز ذلك عليهم على وجه. فأما ما روي عن النبي (ص) بأن قال (لم يكذب ابراهيم إلا ثلاث كذبات كلها فى الله) فانه خبر لا أصل له ، ولو حسن الكذب على وجه ، كما يتوهم بعض الجهال، لجاز من القديم تعالى ذلك . وزعموا ان الثلاث كذبات هي قوله « فعله كبيرهم هذا» و ماكان فعله . وقوله « اني سقيم » (١) ولم يكن كذلك . وقوله فى سارة لما اراد الجبار أخذها : إنها اختي ، وكانت زوجته . حتى قال بعضهم : كان الله أذن له فى ذلك . وهذا باطل ، لأنه لو اذن الله له فيه ، لكان الكذب حسناً. وقد بينا أنه قبيح على كل حال . وقيل : معنى قوله « اني سقيم» اي سأسقم ، لأنه لما نظر الى بعض الكواكب علم انه وقت نوبة حمى كانت تجيئه ، فقال : إني سقيم . وقيل معناه : اني سقيم ، اي غماً بضلالكم . وقيل : معناه سقيم عندكم ، فيما أدعوكم اليه من الدين . وقيل : ان من كانت عاقبته الموت جاز ان يقال فيه سقيم ، مثل المريض المشفى على الموت . وأما قوله فى سارة إنها أختي فانه أراد فى الدين . واما قول يوسف لأخوته « انكم لسارقون » (٢) فقد قال قوم : هو من قول مؤذن يوسف على ظنه فيما يقتضيه الحال من الظن الذي يعمل عليه . وقيل معناه : ﴿ إنكم لسارقون ﴾ يوسف (ع)

وقوله تعالى ﴿ فرجعوا الى انفسهم ﴾ اي عادوا الى نفوسهم يعني بعضهم الى بعض وقال بعضهم لبعض : ﴿ انكم انتم الظالمون ﴾ في سؤاله ، لانها لو كانت آلهة لم يصل ابراهيم الى كسرها .

وقوله ﴿ ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فالنكس هو جعل الشيء أسفله أعلاه ، ومنه النكس في العلة إذا رجع الى اول حاله . والمعنى ادركتهم حيرة سوء ، فنكسوا لأجلها رؤسهم . ثم أقروا بما هو حجة عليهم ، فقالوا لابراهيم

---

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ٨٩ (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٧٠

﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فأقروا بهذا للحيرة التي لحقتهم ، فكان ذلك دلالة على خطئهم ، لكنهم أصروا على العناد .

قوله تعالى:

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠) خمس آيات .

يقول الله تعالى لما قال كفار قوم إبراهيم (ع) ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فقال لهم إبراهيم منبهاً لهم على خطئهم وضلالهم ﴿أفتعبدون من دون الله﴾ أي توجهون عبادتكم الى الاصنام التي لا تنفعكم شيئاً ولا تدفع عنكم ضراً ، لانها لو قدرت على نفعكم وضركم . لدفعت عن نفسها ، حتى لم تكسر ، ولأجابت حين سئلت ﴿ من دون الله ﴾ الذي يقدر على ضركم ونفعكم من ثوابكم وعقابكم ، وإنه يفعل معكم مالا يقدر عليه سواه . وليس كل من قدر على الضر والنفع يستحق العبادة ، وانما يستحقها من قدر على اصول النعم التي هي خلق الحياة ، والشهوة ، والقدرة ، وكمال العقل ، ويقدر على الثواب والعقاب او لمنافع تقع على وجه لا يقدر على ايقاعها على ذلك الوجه سواه . قال الرماني : لانه تعالى لو فعل حركة فيها لطف في إيمان زيد كزلزلة الارض في بعض الاحوال . ثم ان عندها ايماناً يتخلص به من

العقاب . ويستحق الثواب الذي ضمنه بالايمان، لا يستحق ـ بفعل الحركة على هذا الوجه ـ العبادة .

ثم قال مهجناً لافعالهم مستقذراً لها ﴿ اف لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ فمعنى (أف) الضجر عما كان من الامر وهي كلمة ، مبنية ، لانها وضعت وضع الصوت الخارج عن دلالة الاشارة والافادة ، فصارت كدلالة الحرف ، لانه يفهم المعنى بالحال المقارنة لها ، وبنيت على الحركة لالتقاء الساكنين إذ لا اصل لها في التمكن مستعمل ، فتستحق به البناء على الحركة . وكسرت على اصل الحركة لا لتقاء الساكنين . وقال الزجاج : معنى ﴿ اف لكم ﴾ نتناً لافعالكم ، ويجوز ـ ضم الفاء ـ الاتباع لضمة الهمزة ويجوز ـ الفتح ـ لثقل التضعيف . ويجوز ـ التنوين ـ على التنكير .

وقوله « أفلا تعقلون » معناه أفلا تتفكرون بعقولكم في أن هذه الاصنام لا تستحق العبادة ، ولا تقدر على الضر والنفع ، فلما سمعوا منه هذا القول قال بعضهم لبعض « حرقوه » يعني بالنار « وانصروا آلهتكم » أي عظموها وادفعوا عنها وعن عبادتها « إن كنتم فاعلين » معناه إن كنتم ناصريها ، ولم تريدوا ترك عبادتها . والتحريق هو التقطيع بالنار ، يقال : حرقه تحريقاً وأحرقه إحراقاً ، وثوب حرق أي متقطع كالتقطع بالنار . واحترق الشيء احتراقاً ، وتحرق على الامر تحرقاً . وقال ابن عمر : الذي أشار بتحريق إبراهيم رجل من اكراد فارس . وفي الكلام حذف لأن تقديره أوثقوا إبراهيم وطرحوه في النار ، فقال الله تعالى عند ذلك للنار « كوني برداً وسلاماً على ابراهيم » وقيل في وجه كون النار برداً وسلاماً قولان :

احدها ـ انه تعالى أحدث فيها برداً بدلا من شدة الحرارة التي فيها .

فلم تؤذه .

والثاني ـ انه تعالى حال بينها وبين جسمه ، فلم تصل اليه ، ولو لم يقل سلاماً لأهلكه بردها ، ولم يكن هناك أمر على الحقيقة . والمعنى أنه فعل ذلك ، كما قال « كونوا قردة خاسئين » (١) أي صيرهم كذلك من غير ان أمرهم بذلك . وقال قتادة : ما أحرقت النار منه إلا وثاقه . وقال قوم : ان إبراهيم لما أوثقوه ليلقوه في النار قال (لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين . لك الحمد ولك الملك لا شريك لك) . ثم اخبر تعالى ان الكفار أرادوا بابراهيم كيداً وبلاء ، فجعلهم الله « الأخسرين » يعني بتأييد ابراهيم وتوفيقه ، ومنع النار من إحراقه حتى خسروا وتبين كفرهم وضلالهم .

قوله تعالى :

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَعْمَلُ ٱلْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ (٧٥)

خمس آيات .

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦٥

يقول الله تعالى إنا نجينا ابراهيم ولوطاً من الكفار الذين كانوا يخافوهم ، وحملناهما « الى الارض التي باركنا فيها للعالمين » قال قتادة : نجيا من ارض كوثاريا الى الشام . وقال ابو العالية : ليس ماء عذب الا من الصخرة التي في بيت المقدس. وقال ابن عباس : نجاهما الى مكة ، كما قال « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً » (١) وقيل : الى أرض بيت المقدس . وقال الزجاج : من العراق الى ارض الشام . وقال الجبائي : أراد ارض الشام . وانما قال « للعالمين » لما فيها من كثرة الاشجار والخيرات التي ينتفع جميع الخلق بها اذا حلوا بها . وانما جعلها مباركة ، لان اكثر الانبياء بعثوا منها ، فلذلك كانت مباركة . وقيل : لما فيها من كثرة الاشجار والثمار ، والنجاة هو الدفع عن الهلاك ، فدفع الله ابراهيم ولوطاً عن الهلكة الى الارض المباركة . والبركة ثبوت الخير النامي ونقيضها الشؤم وهو إمحاق الخير وذهابه . وقيل في هذه الآية دلالة على نجاة محمد (ص) كما نجا ابراهيم من عبدة الاصنام ، الى الارض التي اختارها له .

ثم قال « ووهبنا له » يعني ابراهيم اي أعطيناه اجتلاباً لمحبته ، فالله تعالى يحب انبياءه ويحبونه ، ويحب أن يزدادوا في محبته بما يهب لهم من نعمه « اسحاق ويعقوب » اي أعطيناه اسحاق ومعه يعقوب « نافلة » اي زيادة على ما دعا الله اليه . وقوله « نافلة » اي فضلا ـ في قول ابن عباس وقتادة وابن زيد ـ لأنه كان سأل الله ان يرزقه ولداً من سارة ، فوهب له اسحاق ، وزاده يعقوب ولد ولده . وقيل جميعاً نافلة ، لانهما عطية زائدة على ما تقدم من النعمة ـ في قول مجاهد وعطاء ـ والنفل النفع الذي يوجب الحمد به لانه مما زاد على حد الواجب ، ومنه صلاة النافلة اي فضلا على الفرائض . وقيل : نافلة اي غنيمة قال الشاعر :

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٩٦

لله نافلة الأعز الأفضل

وقوله ﴿ وكلا جعلنا صالحين ﴾ يحتمل امرين :

احدهما ـ انه جعلهم بالتسمية على وجه المدح بالصلاح أي سميناهم صالحين .

والثاني ـ انا فعلنا بهم من اللطف الذي صلحوا به . ثم وصفهم بأن قال ﴿وجعلناهم أئمة ﴾ يقتدى بهم في افعالهم ﴿ يهدون ﴾ الخلق الى طريق الحق ﴿ بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات ﴾ اي أوحينا اليهم بأن يفعلوا الخيرات « واقام الصلاة » اي وبأن يقيموا الصلاة بحدودها وانما قال « واقام الصلاة » بلا (هاء) لأن الاضافة عوض الهاء « وإيتاء الزكاة » أي بأن يؤتوا الزكاة ، التي فرضها الله عليهم .

ثم اخبر : أنهم كانوا عابدين لله وحده لا شريك له ، لا يشركون بعبادته سواه .

وقوله « ولوطاً آتيناه حكما وعلماً » نصب (لوطاً) بـ (آتينا) وتقديره : وآتينا لوطاً آتيناه ، كقوله « والقمر قدرناه منازل » (١) . ويجوز ان يكون نصباً بتقدير اذكر « لوطاً » إذ « آتيناه حكماً » اي اعطيناه الفصل بين الخصوم بالحق أي جعلناه حاكماً ، وعلمناه ما يحتاج الى العلم به .

وقوله « ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث » يعني انهم كانوا يأتون الذكران ، فى أدبارهم ويتضارطون فى انديتهم ، وهي قرية (سدوم) على ما روي .

ثم اخبر « انهم كانوا قوم سوء فاسقين » اي خارجين عن طاعة الله الى معاصيه . ثم عاد الى ذكر لوط فقال « وادخلناه فى رحمتنا » أي نعمتنا « انه من الصالحين » الذين أصلحوا أفعالهم . فعملوا بما هو حسن منها ، دون ما هو قبيح .

---

(١) سورة ٣٦ يس آية ٣٩

قوله تعالى:

﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (٨٠) خمس آيات.

قرأ « لنحصنكم » بالنون ابو بكر عن عاصم. وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم بالتاء. الباقون بالياء. فمن قرأ بالتاء، فلأن الدروع مؤنثة، فأسند الفعل اليها. ومن قرأ بالياء اضافه الى (لبوس)، وهو مذكر ويجوز ان يكون اسند الفعل الى الله. ويجوز ان يضيفه الى التعليم - ذكره ابو علي - ومن قرأ بالنون اسند الفعل الى الله ليطابق قوله « وعلمناه ».

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) واذكر يا محمد « نوحاً » حين « نادى من قبل » ابراهيم. والنداء الدعاء على طريقة (يا فلان) فأما على طريقة (افعل) و (لاتفعل) فلا يسمى نداء، وإن كان دعاء. والمعنى إذ دعا ربه، فقال: رب، أي

يا رب نجني واهلي من الكرب العظيم فقال الله تعالى « فاستجبنا له » اي اجبناه الى ما التمسه « فنجيناه واهله من الكرب العظيم » . والكرب الغم الذي يحمى به القلب ، ويحتمل ان يكون غمه كان لقومه . ويجوز ان يكون من العذاب الذي نزل بهم .

وقوله « ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا » اي منعناه منهم ان يصلوا اليه بسوء . ومعنى نصرته عليه أعنته على غلبه . ثم اخبر تعالى « انهم كانوا قوم سوء » فأغرقهم الله اجمعين بالطوفان .

ثم قال واذكر يا محمد « داود وسليمان اذ يحكمان في الحرث إذ » في الوقت الذي « نفشت فيه غنم القوم » والنفش لا يكون الا ليلا على ما قاله شريح . وقال الزهري: الهمل والنشر بالنهار ، والنفش بالليل ، والحرث الذى حكماه فيه : قال قتادة : هو زرع وقعت فيه الغنم ليلا ، فأكلته . وقيل : كرم قد نبتت عناقيده ــ في قول ابن مسعود ــ وشريح . وقيل : ان داود كان يحكم بالغنم لصاحب الكرم . فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله . قال : وما ذاك ؟ قال : يدفع الكرم الى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم الى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى اذا عاد الكرم كما كان دفع كل واحد الى صاحبه ــ ذكره ابن مسعود ــ وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) . وقال ابو علي الجبائي : أوحى الله الى سليمان مما نسخ به حكم داود الذي كان يحكم به قبل . ولم يكن ذلك عن اجتهاد ، لان الاجتهاد لايجوز ان يحكم به الانبياء . وهذا هو الصحيح عندنا . وقال ابن الاخشاذ ، والبلخي والرماني: يجوز أن يكون ذلك عن اجتهاد ، لأن رأي النبي افضل من رأي غيره ، فكيف يجوز التعبد بالتزام حكم غيره من طريق الاجتهاد ، ويمتنع من حكمه من هذا الوجه . والدليل على صحة الاول ان الانبياء (ع) يوحي اليهم ، ولهم طريق الى العلم بالحكم ، فكيف

يجوز أن يعملوا بالظن ؟! والأمة لا طريق لها الى العلم بالاحكام فجاز ان يكلفوا ما طريقه الظن ؟! على ان عندنا لا يجوز في الأمة أيضاً العمل على الاجتهاد . وقد بينا ذلك في غير موضع . ومن قال : انهما اجتهدا ، قال أخطأ داود وأصاب سليمان . وذكروا فى قوله « إذ يحكمان» ثلاثة أوجه :

أحدها - إذ شرعا في الحكم فيه من غير قطع به في ابتداء الشرع .

وثانيها - ان يكون حكمه حكماً معلقاً بشرط لم يفعله بعد .

وثالثها - أن يكون معناه طلبا بحكم في الحرث ، ولم يبتديا به بعد . ويقوي ما قلناه قوله تعالى « ففهمناها سليمان » يعني علمنا الحكومة فى ذلك سليمان . وقيل : ان الله تعالى « فهم سليمان » قيمة ما أفسدت الغنم .

ثم أخبر تعالى بأنه آتى كلا حكماً وعلماً ، فدل على ان ما حكم بهداود كان بوحي الله ، وتعليمه . وقيل : معنى قوله « ففهمناها سليمان » أي فتحنا له طريق الحكومة ، لما اجتهدفي طلب الحق فيها ، من غير عيب علىداود فيما كان منه فىذلك ، لأنه اجتهد ، فحكم بما أدى اجتهاده اليه .

وقوله « وسخرنا مع داود الجبال » معناه سخر الله تعالى الجبال مع داود حيث سار ، فعبر عن ذلك بالتسبيح ، لما فيها من الآية العظيمة التي تدعو له بتعظيم الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق به ، ولايجوز وصفه به. وكذلك سخر له الطير ،وعبر عن ذلك التسخير بأنه تسبيح من الطير ، لدلالته على أن من سخرها قادر لا يجوز عليه العجز ، كما يجوز على العباد .

وقوله « وكنا فاعلين » أي وكنا قادرين على ما نريده . وقال الجبائي : اكمل الله تعالى عقول الطير حتى فهمت ما كان سليمان يأمرها به وينهاها عنه ، وما يتوعدها به متى خالفت .

وقوله « وكنا لحكمهم شاهدين » انما جمعه فى موضع التثنية ، لأن داود وسليمان كان معهما المحكوم عليه، ومن حكم له . فلا يمكن الاستدلال به على أن اقل الجمع اثنان . ومن قال : إنه كناية عن الاثنين ، قال : هو يجري مجرى قوله « فان كان له أخوة » (١) فى موضع فان كان له أخوان . وهذا ليس بشيء ، لان ذلك علمناه بدليل الاجماع ، ولذلك خالف فيه ابن عباس ، فلم يحجب ما قل عن الثلاثة .

وقوله « وعلمناه » يعني داود « صنعة لبوس لكم » اي علمناه كيف يصنع الدرع . وقيل : ان اللبوس ـ عند العرب ـ هو السلاح كله ، درعاً كان ، أو جوشناً، او سيفاً ، او رمحاً ، قال الهذلي .

ومعي لبوس للبنين كأنه روق بجبهة ذي نعاج مجفل (٢)

يصف رمحاً .وقال قتادة ، والمفسرون : المراد به في الآية الدروع . والاحصان الاحراز ، والباس شدة القتال . وقوله « فهل أنتم شاكرون » تقرير للخق على شكره تعالى على نعمه التي انعم بها عليهم بأشياء مختلفة .

قوله تعالى :

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ ٱلشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ (٨٣) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ

(١) سورة ٤ النساء آية ١٠ (٢) تفسير القرطبي ١١/ ٣٢٠ والطبرى ١٧/ ٣٧

رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٨٥) خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى وسخرنا « لسليمان الريح عاصفة » من رفع (الريح) وهو عبد الرحمن الأعرج : أضاف الريح الى سليمان إضافه الملك ، كأنه قال له الريح . و « عاصفة » نصب على الحال في القراءتين ، والريح هو الجو ، يشتد تارة ويضعف أخرى . وحد الرماني الريح بأن قال : هو جسم منتشر لطيف ، يمتنع بلطفه من القبض عليه ويظهر للحس بحركته . وقولهم : سكنت الريح مثل قولهم : هبت الريح ، وإلا فانها لا تكون ريحاً إلا بالحركة . ويقولون : أسرع فلان في الحاجة كالريح ، وراح فلان الى منزله . و (العصوف) شدة حركة الريح ، وعصفت تعصف عصفاً وعصفة ، وعصف عصفاً وعصوفاً إذا اشتد ، والعصف التبن ، لان الريح تعصفه بتطييرها . وقيل : عصوف الريح شدة هبوبها . وذكر ان الريح كانت تجري لسليمان إلى حيث شاء ، فذلك هو التسخير « تجري بأمره » يعني بأمر سليمان « الى الارض التي باركنا فيها » يعني الشام ، لانها كانت مأواه ، فأي مكان شاء مضى اليه ، وعاد اليها بالعشي .

وقوله « وكنا بكل شيء عالمين » معناه علمنا معه على ما يعلمه من صحة التدبير ، فان ما أعطيناه من التسخير يدعوه الى الخضوع له . ويدعو طالب الحق الى الاستبصار في ذلك ، فكان لطفاً يجب فعله .

وقوله « ومن الشياطين من يغوصون له » أي وسخرنا لسليمان قوماً من الشياطين يغوصون له في البحر « ويعملون عملا دون ذلك » قال الزجاج : معناه سوى ذلك « وكنا لهم حافظين » أي يحفظهم الله من الافساد لما عملوه . وقيل : كان حفظهم لئلا يهربوا من العمل . وقال الجبائي : كشف الله تعالى أجسام الجن حتى

تهيأ لهم تلك الاعمال ، معجزة لسليمان (ع) قال : انهم كانوا يبنون له البنيان ، والغوص في البحار ، وإخراج ما فيه من اللؤلؤ وغيره ، وذلك لا يتأتى مع رقة أجسامهم . قال : وسخر له الطير بأن قوّى أفهامها ، حتى صارت كصبياننا الذين يفهمون التخويف والترغيب .

ثم قال واذكر يا محمد « أيوب إذ نادى ربه » أي حين دعاه ، فقال يا رب « أني مسني الضر » أي نالني الضر يعني ما كان ناله من المرض والضعف . قال الجبائي : كان به السلعة « وأنت ارحم الراحمين » فارحمني . وقيل انما فعل ذلك بايوب ، ليبلغ بصبره على ذلك المنزلة الجليلة التي أعدها الله ـ عز وجل ـ له ولكل مؤمن فيما يلحقه من مصيبة اسوة بايوب، قال الجبائي : لم يكن ما نزل به من المرض فعلا للشيطان ، لأنه لا يقدر على ذلك ، وإنما آذاه بالوسوسة وما جرى مجراها . قال الحسن : وكان الله تعالى أعطاه مالا وولداً ، فهلك ماله ومات ولده ، فصبر ، فأثنى الله عليه . ثم قال تعالى « فاستجبنا له » يعني أجبنا دعاءه ونداءه « فكشفنا ما به من ضر » أي أزلنا عنه ذلك المرض « وآتيناه أهله ومثلهم معهم » قيل : رد الله اليه أهله الذين هلكوا بأعيانهم ، وأعطاه مثلهم معهم ـ في قول ابن مسعود وابن عباس ـ وقال الحسن وقتادة : إن الله أحيا له أهله بأعيانهم . وزاده اليهم مثلهم . وقال عكرمة ومجاهد ـ في رواية ـ أنه خير فاختار إحياء أهله في الآخرة ، ومثلهم في الدنيا ، فأوتي على ما اختار . وقال ابن عباس : أبدله الله تعالى بكل شيء ذهب له ضعفين « رحمة من عندنا » أي نعمة منا عليه « وذكرى للعابدين » اي عظة يتذكر به العابدون لله تعالى مخلصين .

وقوله « واسماعيل وإدريس وذا الكفل » أي اذكر هؤلاء الذين عددتهم لك من الانبياء ، وما أنعمت عليهم من فنون النعمة . ثم أخبر أنهم كانوا كلهم

« من الصابرين » يصبرون على بلاء الله ، والعمل بطاعته . دون معاصيه .

واختلفوا في ذي الكفل ، فقال ابو موسى الاشعري ، وقتادة ، ومجاهد : كان رجلا صالحاً ، كفل لنبي بصوم النهار ، وقيام الليل ، وألا يغضب ، ويقضي بالحق ، فوفى لله بذلك ، فأثنى الله عليه . وقال قوم : كان نبياً ، كفل بأمر وفى به . وقال الحسن : هو نبي اسمه ذو الكفل . وقال الجبائي : هو نبي ، ومعنى وصفه بالكفل أنه ذو الضعف أي ضعف ثواب غيره ، ممن في زمانه لشرف عمله .

قوله تعالى:

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (٩٠) خمس آيات .

قرأ يعقوب « فظن ان لن يقدر عليه » بالياء مضمومة . وفتح الدال . الباقون بالنون ، وكسر الدال ، والمعنيان متقاربان .

يقول الله تعالى إنا ادخلنا هؤلاء الذين ذكرناهم من الانبياء « فى رحمتنا » أي في نعمتنا ، ومعنى ﴿ أدخلناهم فى رحمتنا ﴾ غمرناهم بالرحمة . ولو قال رحمناهم لما أفاد الاغمار ، بل أفاد انه فعل بهم الرحمة ، التي هي النعمة .

وقوله ﴿ انهم من الصالحين ﴾ معناه إنما ادخلناهم في رحمتنا ، لانهم كانوا ممن صلحت أعمالهم ، وفعلوا الطاعات ، وتجنبوا المعاصي . و (صالح) صفة مدح في الشرع .

ثم قال لنبيه محمد (ص) واذكر ﴿ ذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ﴾ والنون الحوت ، وصاحبها يونس بن متى ، غضب على قومه ـ فى قول ابن عباس والضحاك ـ فذهب مغاضباً لهم ، فظن ان الله لا يضيق عليه ، لأنه كان ندبه الى الصبر عليهم والمقام فيهم من قوله « ومن قدر عليه رزقه » (١) أي ضيق ، وقوله « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (٢) أي يضيق ، وهو قول ابن عباس ومجاهد والضحاك ، واكثر المفسرين . وقال الزجاج والفراء : معناه « ظن أن لن نقدر عليه » ما قدرناه . وقال الجبائي : ضيق الله عليه الطريق حتى ألجأه الى ركوب البحر حتى قذف فيه ، وابتلعته السمكة . ومن قال : ان يونس (ع) ظن أن الله لا يقدر عليه من القدرة ، فقد كفر . وقيل إنما عوتب على ذلك ، لأنه خرج مغاضباً لهم قبل أن يؤذن له ، فقال قوم : كانت خطيئة ، من جهة تأويله أنه يجوز له ذلك . وقد قلنا : انه كان مندوباً الى المقام فلم يكن ذلك محظوراً ، وانما كان ترك الأولى . فأما ماروي عن الشعبي وسعيد بن جبير من انه خرج مغاضباً لربه فلا يجوز ذلك على نبي من الانبياء ، وكذلك لا يجوز أن يغضب لم عفى الله عنهم إذ آمنوا ، لان هذا اعتراض

(١) سورة ٦٥ الطلاق آية ٧ (٢) سورة ١٣ الرعد آية ٢٨

على الله بما لا يجوز فى حكمته .

وقوله « فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » فالظلمات قيل : إنها ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، على ما قاله ابن عباس وقتادة . وقيل : حوت فى بطن حوت ، فى قول سالم بن أبي حفصة. وقيل : ان أكثر دعائه كان في جوف الليل فى الظلمات . والأول أظهر في اقوال المفسرين . وقال الجبائي : الغضب عداوة لمن غضب عليه ، وبقاؤه في بطن الحوت حياً معجز له . ولم يكن يونس فى بطن الحوت على جهة العقوبة ، لان العقوبة عداوة للمعاقب ، لكن كان ذلك على وجه التأديب ، والتأديب يجوز على المكلف وغير المكلف ، كتأديب الصبي وغيره . وقال قوم : معنى قوله « فظن أن لن نقدر » الاستفهام ، وتقديره أفظن . وهذا ضعيف ، لأنهم لا يحذفون حرف الاستفهام إلا وفي الكلام عوض عنه من (أم) أو غيرها .

وقوله « اني كنت من الظالمين » أي كنت من الباخسين نفسي ثوابها ، لو أقمت ، لأنه كان مندوباً اليه ، ومن قال يجوز الصغائر على الانبياء ، قال : كان ذلك صغيرة نقصت ثوابه . فأما الظلم الذي هو كبيرة ، فلا يجوزها عليهم إلا الحشوية الجهال ، الذين لا يعرفون مقادير الانبياء ، الذين وصفهم الله بأنه اصطفاهم واختارهم.

ثم اخبر تعالى انه استجاب دعاءه ونجاه من الغم الذي كان فيه . ووعد مثل ذلك أن ينجي المؤمنين .

وقد قرأ ابو بكر عن عاصم « نجى المؤمنين » بنون واحدة مشددة الجيم . الباقون بنونين . وهي في المصحف بنون واحدة حذف الثانية كراهة الجمع بين المثلين فى الخط ، ولأن النون الثانية تخفى مع الجيم ، ومع حروف الفم ، ولا تظهر ، ولذلك ظن قوم أنها ادغمت في الجيم ، فقرؤها مدغماً ، وليس بمدغم . ولا وجه لقراءة عاصم هذه

ولا لقول أبي عبيدة حاكياً عن أبي عمرو : ان النون مدغمة ، لانها لا تدغم في الجيم. وقال الزجاج :هذا لحن ، ولا وجه لمن تأوله : نجى النجا المؤمنين، كما لا يجوز ضرب زيداً بمعنى ضرب الضرب زيداً . وقال الفراء : هو لحن . وقال قوم ـ محتجين لأبي بكر ـ انه أراد فعلا ماضياً ، على ما لم يسم فاعله ، فاسكن الياء ، كما قرأ الحسن « وذروا ما بقي من الربا » (١) أقام المصدر مقام المفعول الذي لا يذكر فاعله ، فكذلك نجي النجا المؤمنين ، واحتجوا بأن أبا جعفر قرأ « لنجزى قوماً » (٢) في الجاثية على تقدير لنجزي الجزاء قوماً قال الشاعر .

ولو ولدت قفيرة جرو كلب لسب بذلك الجرو الكلابا (٣)

ثم قال تعالى لنبيه (ص) واذكر « زكريا إذ نادى ربه » أي دعاه ، فقال يا « رب لا تذرني فرداً » أي وحيداً، بل ارزقني ولداً . ثم قال « وأنت خير الوارثين » ومعناه أنت خير من يرث العباد من الأهل والولد ، فقال الله تعالى إنا استجبنا دعاءه « وهبنا له يحيي وأصلحنا له زوجه » قال قتادة : إنها كانت عقيماً فجعلها الله ولوداً . وقيل : كانت سيئة الخلق ، فرزقها الله حسن الخلق . ثم اخبر «انهم كانوا يسارعون فى الخيرات »أي يبادرون فى فعل الطاعات «ويدعون» الله « رغبة » في ثوابه « ورهبة » من عقابه « وكانوا » لله « خاشعين » متواضعين . وقال الجبائي :إجابة الدعاء لاتكون إلا ثواباً . وقال ابن الاخشاذ : يجوز أن تكون استصلاحاً لا ثواباً ، ولذلك لا يمتنع أن يجيب الله دعاء الكافر والفاسق. فأما قولهم : فلان مجاب الدعوة ، فلا يجوز اطلاقه على الكفار والفساق . لأن فيه تعظيماً وأن له منزلة جليلة عند الله . والامر بخلاف ذلك .

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٨ (٢) سورة ٤٥ الجاثية آية ١٣

(٣) تفسير القرطبي ١١ | ٣٣٥

قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥)

خمس آيات.

قرأ اهل الكوفة إلا حفصاً عن عاصم « وحرم » بكسر الحاء بلا الف. الباقون بفتح الحاء، وإثبات الالف، وهما بمعنى واحد.

يقول الله تعالى لنبيه (ص) واذكر ايضاً « التي أحصنت فرجها » يعني مريم بنت عمران. والاحصان إحراز الشيء من الفساد، فمريم أحصنت فرجها بمنعه من الفساد فأثنى الله عليها. ورزقها ولداً عظيم الشأن، لا كالأولاد المخلوقين من النطفة. وجعله نبياً. وقوله « فنفخنا فيها من روحنا » معناه أجرينا فيها روح المسيح، كما يجري الهواء بالنفخ، وأضاف الروح الى نفسه، على وجه الملك تشريفاً له في الاختصاص بالذكر. وقيل: إن الله تعالى أمر جبرائيل بنفخ الروح في فرجها، وخلق المسيح في رحمها. وقوله « وجعلناها وابنها آية للعالمين » معناه إنا جعلنا مريم وابنها عيسى آية للعالمين. وانما قال « آية » ولم يثن، لأنه في موضع دلالة لهما، فلا يحتاج أن يثنى. والآية فيهما أنها جاءت به من غير فحل، فتكلم في المهد بما يوجب

براءة ساحتها من العيب ، وفي ذلك دليل واضح على سعة مقدوراته تعالى ، وأنه يتصرف كيف شاء .

وقوله « وإن هذه أمتكم أمـــة واحدة » قال ابن عباس ومجاهد والحسن : معناه دينكم دين واحد . واصل الأمة الجماعة التي على مقصد واحد ، فجعلت الشريعة أمة ، لاجتماعهم بها على مقصد واحد . وقيل : معناه جماعة واحدة في أنها مخلوقة مملوكة لله . ونصب « أمة » على الحال ، ويسميه الكوفيون قطعاً . ثم قال « وأنا ربكم » الذي خلقكم « فاعبدوني » ولا تشركوا بي احداً .

وقوله « وتقطعوا أمرهم بينهم » معنـاه اختلفوا في الدين بما لا يسوغ ، ولا يجوز ـ في قول ابن زيد ـ ثم قال مهدداً لهم « كل الينا راجعون » أي الى حكمنا ، في الوقت الذي لا يقدر على الحكم فيه سوانا ، كما يقـال : رجع أمرهم الى القاضي أي الى حكمه .

وقوله « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن » قيل : الصالحات ـ ههنا ـ صلة الرحم ، ومعونة الضعيف ، ونصرة المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، والكف عن الظلم ، ونحو ذلك من اعمال الخير ، وانما شرط الايمان ، لأن هـــذه الأشياء لو فعلها الكافر لم ينتفع بها عند الله . وقوله « فلا كفران لسعيه » معناه لا جحود لاحسانه في عمله ، وهو مصدر كفر كفراً وكفراناً ، قال الشاعر :

من الناس ناس لاتنام خدودهم وخدي ولا كفران لله نائم (١)

وقوله « وإنا له كاتبون » أي ملائكتنا يثبتون ذلك ويكتبونه ، فلا يضيع له لديه شيء .

وقوله « وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون » قيل : (لا) صلة ،

(١) تفسير الطبري ١٧ / ٦١

والمعنى : حرام رجوعهم . وقيل « انهم لا يرجعون » أي حال قبول التوبة . وقال قوم : حرام على قرية أهلكناها ، لانهم لايرجعون . وقال الزجاج : المعنى وحرام على قرية أهلكناها أن نتقبل منهم عملا لأنهم لا يرجعون، أي لا يتوبون أبداً . وحرم وحرام لغتان مثل حل وحلال . وقيل : في معنى « وحرام على قرية » معناه واجب عليهم ألا يرجعون الى تلك القرية أبداً . وقال الجبائي : معناه وحرام على قرية أهلكناها عقوبة لهم ان يرجعوا الى دار الدنيا .

قوله تعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (١٠٠)

خمس آيات .

قرأ ابن عامر « فتحت » مشددة ، على التكثير . الباقون بالتخفيف .

يقول الله تعالى : إنه حرام على أهل قريه أهلكناها رجوعهم « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج » أي ينفرج السد ان (يأجوج وماجوج) ويظهروا ، والتقدير فتحت

جهة يأجوج ومأجوج ، والفتح أنفراج الشيء عن غيره .

وقوله «وهم من كل حدب ينسلون» قال مجاهد : ان قوله « وهم » كناية عن الناس ، يحشرون الى أرض الموقف يوم القيامة . وقال عبدالله بن مسعود : هو كناية عن يأجوج ومأجوج . ويأجوج ومأجوج إسمان أعجميان ، وهما قبيلان . ولو كانا عربيين لكانا من أج النار ، أو الماء الاجاج . وقال قتاده : الحدب الأكم . وقيل : هو الارتفاع من الارض بين الانخفاض ، ومعناهما واحد . والحدبة خروج الظهر ، يقال : رجل أحدب إذا احدودب كبراً . وقوله « ينسلون » فالنسول الخروج عن الشيء الملابس ، يقال : نسل ينسل وينسل نسولا ، قال امرؤ القيس :

وان كنت قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل (١)

ونسل ريش الطائر إذا سقط . وقيل : النسول الخروج باسراع مثل نسلان الذئب ، قال الشاعر :

عسلان الذئب أمسى قارباً برد الليل عليه فنسل (٢)

وقوله تعالى « واقترب الوعد الحق » قال قوم : الواو مقحمة والتقدير اقترب الوعد الحق ، يعني القيامة . وقال آخرون : ليست مقحمة ، بل الجواب محذوف ، وهو الأجود . والتقدير على قول الأولين « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ... اقترب الوعد الحق » ذكره الفراء قال : وهو مثل قوله « وتله للجبين وناديناه »(٣) وكقوله ﴿حتى إذا جاؤها وفتحت﴾ (٤) والمعنى فتحت . وعلى قول البصريين الواو مرادة والتقدير حتى إذا فتحت ، واقترب الوعد الحق ، قالوا يا ويلنا قد كنا في غفلة . وقيل : خروج يأجوج ومأجوج من اشراط الساعة .

(١) شرح ديوانه ١٤٧ (٢) تفسير الطبرى ١٧ / ٦٦
(٣) سورة ٣٧ الصافات آية ١٠٣ (٤) سورة ٣٩ الزمر آية ٧٣

وقوله ﴿ فاذا هي شاخصة ﴾ قيل ان الضمير في قوله ﴿ فاذا هي ﴾ عائد الى معلوم ينبه عليه ابصار الذين كفروا ، كما قال الشاعر :

لعمر ابيها لا تقول ظعينتي إلا فرّعني مالك ابن أبي كعب (١)

فكنى في ابيها ثم بين ذكرها . وقال قوم : إضمار العماد على شروط التفسير ، كقوله تعالى ﴿ فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ (٢)

وقوله ﴿ يا ويلنا ﴾ أي يقول الكفار الذين شخصت أبصارهم : الويل لنا إناقد كنا في غفلة من هذا اليوم ، وهذا المقام ، بل كنا ظالمين لنفوسنا بارتكاب معاصي الله . فيقول الله تعالى لهم ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون ﴾ والمعنى انكم ايها الكافرون والذي عبدتموه من الاصنام والاوثان حصب جهنم . وقال ابن عباس : وقودها . وقال مجاهد : حطبها . وقيل : انهم يرمون فيها ، كما يرمى بالحصباء ـ في قول مجاهد ، وقال : إنما يحصب بهم أي يرمى بهم .

وقرأ (علي) (ع) ، وعائشة ﴿ حطب ﴾ . وقرأ الحسن ﴿ حضب ﴾ بالضاد . ومعناه ما تهيج به النار وتذكا به . والحضب الحية .

وقوله ﴿ انتم لها واردون ﴾ خطاب لجميع الكفار انهم يردون جهنم ويدخونها لا محالة ، فالورود قد يكون الدخول ، كقولهم وردت الدار ، أي دخلتها ، ويكون بالاشراف ، كقوله ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ (٣) ومعناه أشرف عليه . والمراد في الآية الدخول ، لأن الكفار يدخلون النار لامحالة .

ثم قال تعالى:لو كان هذه الاصنام والاوثان آلهة لم يردوا جهنم . ويحتمل :

---

(١) تفسير الطبري ٦٦/١٧ والقرطبي ٣٤٢/١١

(٢) سورة ٢٢ الحج آية ٤٦ (٣) سورة ٢٨ القصص آية ١٢ .

أن يكون أراد ما وردت الاصنام جهنم ، لأنه كان يكون عبادتهم واقعة موقعها ، ولكانوا يقدرون على الدفاع عنهم والنصرة لهم .

ثم اخبر تعالى ان كل في جهنم خالدون ، مؤبدون فيها . وأن لهم في جهنم زفيراً ، وهو شدة التنفس . وقيل : هو الشهيق لهول ما يرد عليهم من النار ﴿ وهم فيها ﴾ يعني في جهنم ﴿ لا يسمعون ﴾ قال الجبائي : لا يسمعون ما ينتفعون به ، وإن سمعوا ما يسؤهم . وقال ابن مسعود : يجعلون في توابيت من نار ، فلا يسمعون شيئاً . وقال قوم : المراد بقوله ﴿ وما يعبدون من دون الله ﴾ الشياطين الذين دعوهم الى عبادة غير الله ، فأطاعوهم ، فكأنهم عبدوهم ، كما قال ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ﴾ (١) أي لا تطعه .

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ

(١) سورة ١٩ مريم آية ٤٤

﴿ ٱلصَّالِحُونَ ﴾ (١٠٥) خمس آيات .

قرأ اهل الكوفة إلا ابا بكر ﴿ للكتب ﴾ على الجمع . الباقون ﴿ للكتاب ﴾ على التوحيد . وقرأ حمزة وحده ﴿ الزبور ﴾ بضم الزاي . من ضم الزاي أراد الجمع . ومن فتحها اراد الواحد . يقال : زبرت الكتاب أزبره زبراً إذا كتبته .

لما اخبر الله تعالى : ان الكفار حصب جهنم وانهم واردون النار ، وداخلون فيها مؤبدين ، اخبر ﴿ ان الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ يعني الوعد بالجنة . وقيل : الحسنى الطاعة لله تعالى يجازون عليها في الآخرة بما وعدهم الله به . واخبر تعالى ان من هـذه صفته مبتعد عن النار ناء عنها ، ويكونون بحيث ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ يعني صوتها ، الذي يحس ، وإنهم في ما تشتهيه أنفسهم من الثواب والنعيم خالدون

والشهوة طلب النفس للذة يقال : اشتهى شهوة ، وتشهى تشهياً ، ونقيض الشهوة تكره النفس ، فالغذاء يشتهى والدواء يتكره . وقيل : الحسنى الجنة التي وعد الله بها المؤمنين . وقال ابن زيد : الحسنى السعادة لأهلها من الله ، وسبق الشقاء لأهله ، كأنه يذهب الى ان معنى الكلمة انه : سيسعد أو أنه سيشقى . وقال الحسن ومجاهد : الذين سبقت لهم منا الحسنى عيسى ، وعزير ، والملائكة الذين عبدوا من دون الله ، وهم كارهون ، استثناهم من جملة من اخبر انهم مع الكفار في جهنم .

وقوله « لا يحزنهم الفزع الاكبر » معناه لا يغم الذين سبقت لهم من الله الحسنى الفزع الاكبر . ومن ضم اليـاء أراد لا يفزعهم الفزع الاكبر . قال ابن جبير ، وابن جريج : هو عذاب النار ، على أهلها . وقال ابن عباس : هي النفخة الأخيرة . وقال الحسن : هو حين يؤمر بالعبد الى النار « وتتلقاهم الملائكة » قيل تتلقاهم الملائـكة بالتهنئة ويقولون لهم « هذا يومكم الذي كنتم توعدون » به أي تخوفون بما فيه من

العقاب ، وترغبون فيما فيه من الثواب .

وقوله « يوم نطوي السماء » يحتمل نصب (يوم) وجهين :

احدهما ـ أن يكون بدلا من (توعدون) لان تقديره توعدونه .

الثاني ـ انه نعدكم يوم نطوي السماء . وقوله « كطي السجل للكتاب » فالسجل الصحيفة تطوى على ما فيها من الكتابة ، فشبه الله تعالى طي السماء يوم القيامة بطي الكتاب ـ في قول ابن عباس ومجاهد ـ وقال ابن عمر، والسدي: السجل ملك يكتب اعمال العباد . وقال ابن عباس ـ في رواية أخرى ـ السجل كاتب كان لرسول الله (ص) والتقدير كطي الكتاب السجل ، واللام مؤكدة . ويحتمل أن يكون المعنى كطي السجل ، وقدتم الكلام . ثم قال للكتب أي لما كتبناه وعلمناه ، فعلنا ذلك ، كما قال « ولو لا كلمة سبقت » (١) وقوله « كما بدأنا أول خلق نعيده » المعنى نعيد الخلق كما بدأناه . قال ابن عباس : معناه انه يهلك كل شيء ، كما كان أول مرة . ثم قال : إن الذي ذكرناه وعيد منا لازم نفعله لا محالة .

ثم قال تعالى « ولقد كتبنا في الزبور » قيل الزبور كتب الانبياء « من بعد الذكر » من بعد كتبه في أم الكتاب ـ في قول سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد . وقيل : الزبور ، زبور داود ، من بعد الذكر في توراة موسى ـ في قول الشعبي ـ وقال قوم « من بعد الذكر » معناه قبل الذكر الذي هو القرآن ، حكاه ابن خالويه .

وقوله « ان الأرض يرثها عبادي الصالحون » قال ابن عباس وسعيد بن جبير وابن زيد : يعني أرض الجنة يرثها الصالحون من عباد الله ، كما قال « وأورثنا الأرض

---

(١) سورة ١٠ يونس آية ١٩ ، وسورة ١١ هود آية ١١١ ، وسورة ٢٠ طه آية ١٢٩ ، وسورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٤٥ ، وسورة ٤٢ الشورى آية ١٤

نتبوّأ من الجنة حيث نشاء » (١) وقيل : هي الارض في الدنيا التي تصير للمؤمنين في أمة محمد (ص) من بعد اجلاء الكفار عنها - في رواية اخرى - عن ابن عباس . وقيل : يعني أرض الشام ، يرثها الصالحون من بني اسرائيل ذكره الكلبي . وعن ابي جعفر (ع) إن ذلك وعد للمؤمنين بأنهم يرثون جميع الارض .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي هٰذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (١١٢) سبع آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى « إن في هذا » المعنى الذي أخبرتكم به ، مما توعدنا به الكفار ، من النار والخلود فيها ، وما وعدنا به المؤمنين من الجنة والكون فيها « لبلاغاً » وقيل : « ان في هذا » يعني القرآن « لبلاغا » أي لما يبلغ الى البغية من أخذ به ، وعمل عليه . والبلوغ الوصول . والبلاغ سبب الوصول الى الحق ، في البرهان بلاغ ، والقرآن

(١) سورة ٣٩ الزخرف آية ٧٤

دليل وبرهان. وقيل : معناه إنه يبلغ رضوان الله ومحبته وجزيل ثوابه « لقوم عابدين » لله مخلصين له .

ثم قال لنبيه محمد (ص) ﴿ وما أرسلناك ﴾ يا محمد ﴿ إلا رحمة للعالمين ﴾ أي نعمة عليهم ، ولأن ترحمهم .

وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة فى أنه : ليس لله على الكافرين نعمة . لانه تعالى بين ان إرسال الله رسوله نعمة على العالمين . وعلى كل من أرسل اليهم . ووجه النعمة على الكافر انه عرضه للايمان ولطف له فى ترك معاصيه . وقيل : هي نعمة على الكافر بأن عوفي مما اصاب الأمم قبلهم من الخسف والقذف ـ في قول ابن عباس ـ ثم قال له (ص) قل لهم ﴿ انما يوحي الي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ اي مسلمون لهذا الوحي الذي أوحي الي ، من اخلاص الالهية والعبادة لله تعالى . ثم قال ﴿ فان تولوا ﴾ يعني إن اعرضوا عن هذا الذي تدعوهم اليه من إخلاص التوحيد ، فقل لهم ﴿ آذنتكم على سواء ﴾ أي اعلمتكم على سواء في الايذان تتساوون في العلم به لم اظهر بعضكم على شيء كتمته عن غيره ؛ وهو دليل على بطلان قول أصحاب الرموز ، وأن للقرآن بواطن خص بالعلم بها اقوام . وقيل على سواء [في العلم اني صرت مثلكم ، ومثله قوله « فانبذ اليهم على سواء] (١) أي ليستوي علمك وعلمهم . وقيل معناه : لتستووا في الايمان به .

وقوله ﴿ وإن أدري اقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ معناه لست اعلم ان ما وعدكم الله به من العقاب اقريب مجيؤه ام بعيد . وقوله ﴿ وإن ادري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين ﴾ اي لست ادري لعل التأخير شدة في عبادتكم يظهر بها ما هو كالسر فيكم من خير أوشر ، فيخلص الجزاء بحسب العمل. واصل الفتنة التخليص

---

(١) سورة ٨ الأنفال آيه ٥٩ . ومابين القوسين ساقط من المطبوعة .

بالشدة، كتخليص الذهب بشدة النار من كل شائب من غيره. وقيل ﴿ فتنة لكم ﴾ اي اختبار لكم ﴿ ومتاع الى حين ﴾ أي تتمتعون الى الوقت الذي قدره الله لا هلاككم.

ثم قال لنبيه (ص) ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ رب احكم بالحق ﴾ انما أمره أن يدعو بما يعلم انه لابد أن يفعله تعبداً، لانه إذا دعا بهذا ظهرت رغبته في الحق الذي دعا به. وقال قتادة: كان النبي (ص) اذا شهد قتالا قال ﴿ رب احكم بالحق ﴾ بيني وبين المشركين بما يظهر به الحق للجميع. وقرأ حفص وحده ﴿ قال رب أحكم ﴾ على الخبر. الباقون على الامر، وضم الباء ابو جعفر اتباعاً لضم الكاف. الباقون بكسرها على أصل حركة إلتقاء الساكين.

وقوله ﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ أي على ما تذكرون، مما ينافي التوحيد. وحكي عن الضحاك انه قرأ ﴿ قال ربي أحكم ﴾ باثبات الياء، وهو خلاف ما في المصاحف، ويكون على هذا ﴿ ربي ﴾ مبتدأ و ﴿ أحكم ﴾ خبره، كقوله ﴿الله احسن الخالقين﴾ (١). وقرا ابن ذكران عن ابن عامر ﴿ عما يصفون ﴾ بالياء يعني على ما يكذب هؤلاء الكفار من انكار البعث. الباقون بالتاء على الخطاب لهم بذلك.

(١) سورة ٢٣ المؤمنين آية ١٤

٢٢ - سورة الحج

قال قتادة هي مدنية إلا اربع آيات فانها مكيات من قوله « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » الى قوله ﴿ عذاب مقيم ﴾ وقال مجاهد وعياش بن ابي ربيعة : هي مدنية كلها . وهي ثمان وسبعون آية في الكوفي وست في المدنيين وخمس في المكي .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)
يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ
حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ
شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ
شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ
إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (٤) أربع آيات بلا خلاف .

قرا اهل الكوفه إلا عاصماً « سكرى » بلا الف بسكون الكاف فى الموضعين. الباقون « سكارى » .

هذا خطاب من الله تعالى لجميع المكلفين من البشر يأمرهم بأن يتقوا معاصي الله لانه يستحق بفعل المعاصي والا خلال بالواجبات العقوبات يوم القيامة .

ثم اخبر « ان زلزلة الساعة » يعني القيامة « شيء عظيم » والزلزلة شدة الحركة على حالة هائلة ، ومنه زلزلة الارض لما يلحق من الهول ، وكان اصله زلت قدمه إذا زالت عن الجهة بسرعة . ثم ضوعف فقيل : زلزل الله اقدامهم ، كما قيل : دكة ودكدكة ، والزلزلة والزلزال ـ بكسر الزاي ـ مصدر . والزلزال ـ بالفتح ـ الاسم قال الشاعر :

يعرف الجاهل المضلل ان الدهر فيه النكراء والزلزال (١)

وقال علقمه والشعبي : الزلزلة من اشراط القيامة . وروى الحسن في حديث رفعه عن النبي (ص) انها يوم القيامة . والعظيم المختص بمقدار يقصر عنه غيره ، وضده الحقير . والكبير نقيض الصغير .

وفي الآية دلالة على أن المعدوم يسمى شيئاً ، لان الله تعالى سمى الزلزلة يوم القيامة شيئاً ، وهي معدومة اليوم .

وقوله « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت » قال الفراء والكوفيون : يجوز ان يقال : مرضع بلا هاء ، لأن ذلك لا يكون في الرجال ، فهو مثل حائض وطامث . وقال الزجاج وغيره من البصريين : إذا أجريته على الفعل قلت ارضعت فهي مرضعة ، فاذا قالوا مرضع ، فالمعنى انها ذات رضاع . وقيل في قولهم : حائض وطامث معناه انها ذات حيض وطمث . وقال قوم : اذا قلت : مرضعة ، فانه يراد

(١) تفسير الطبري ١٧ / ٨٠

بها ام الصبي المرضع . واذا اسقطت الهاء ، فانه يراد بها المرأة التي معها صبي مرضعة لغيرها .

والمعنى ان الزلزلة هي شيء عظيم ، في يوم ترون فيها الزلزلة ، على وجه « تذهل كل مرضعة » اي يشغلها عن ولدها اشتغالها بنفسها ، وما يلحقها من الخوف .

وقال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام ، وتضع الحامل لغير تمام . والذهول الذهاب عن الشيء دهشاً وحيرة ، تقول : ذهلت عنه ذهولا ، وذهلت ـ بالكسر ـ ايضاً ، وهو قليل ، والذهل السلو ، قال الشاعر :

صحا قلبه يا عز أو كاد يذهل (١)

وهذا تهويل ليوم القيامة ، وتعظيم لما يكون فيه من الشدة على وجه لو كان هناك مرضعة لشغلت عن الذي ترضعه ، ولو كان هناك حامل لأسقطت من هول ذلك اليوم . وإن لم يكن هناك حامل ولا مرضعة .

وقوله ﴿ وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ﴾ معناه تراهم سكارى من الفزع ، وماهم بسكارى من شرب الخمور . وانما جاز «وترى الناس سكارى ، وماهم بسكارى » ، لانها رواية تخيل . وقيل :معناه كأنهم سكارى من ذهول عقولهم لشدة ما يمر بهم . فيضطربون كاضطراب السكران من الشراب . وقرأ ابو هريرة ﴿ وترى الناس ﴾ بضم التاء ، والناس منصوب على أنه مفعول ثان .وتقديره وترى أن الناس ، وتكون « سكارى » نصباً على الحال . ومن قرأ « سكرى » جعله مثل جرحى وقتلى . وقيل : هما جمعان كسكران وسكرانة ، قال ابو زيد : يقولون : مريض ومراضى ، ومرضى . فمن قرأ « سكرى » فلأن السكر كالمرض والهلاك ، فقالوا :

(١) تفسير الطبري ١٧ / ٨٠

(سكرى) مثل هلكى ومثل عكلى . ومن قرأ « سكارى » فلأنه روي أن النبي (ص) قرأ كذلك .

ثم علل تعالى ذلك ، فقال ليس هم بسكارى « ولكن عذاب الله شديد » فمن شدته يصيبهم ما يصيبهم من الاضطراب .

ثم اخبر تعالى ان « من الناس من يجادل » أي يخاصم « فى الله » فيما يدعوهم اليه من توحيد الله ونفي الشرك عنه « بغير علم » منه بل للجهل المحض « ويتبع » فى ذلك « كل شيطان مريد » يغويه عن الهدى ويدعوه الى الضلال . وذلك يدل على أن المجادل في نصرة الباطل مذموم ، وأن من جادل بعلم ووضع الحجة موضعها بخلافه. و (المريد) المتجرد للفساد . وقيل أصله الملاسة . فكأنه متملس من الخير ، ومنه صخرة مرداء أي ملساء ، ومنه الأمرد . والمريد الداهية المنكرة . ويقال : تمرد فلان. والممرد من البناء المتطاول المتجاوز .

وقوله « كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير » يقول الله تعالى انه كتب في اللوح المحفوظ ان من تولى الشيطان واتبعه واطاعه فيما يدعوه اليه ، فانه يضله . وقال الزجاج : معناه كتب عليه أنه من تولاه يضله ، فعطف (أن) الثانية على الأولى تأكيداً ، فلذلك نصبت (أن) الثانية . والاكثر فى التأكيد أن لايكون معه حرف عطف غير انه جائز ، كما يجوز : زيد ـ فافهم ـ في الدار . وقال قوم : نصبت (أن) الثانية ، لان المعنى فلأنه يضله عن طريق الحق « ويهديه الى عذاب السعير » أي عذاب النار الذي يستعر ويلتهب . والهاء فى « كتب عليه » راجعة الى الشيطان ، وتقديره كتب على الشيطان أنه من تولى الشيطان واتبعه ، فان الشيطان يضله ، فالهاء في يضله عائدة الى (من) في قوله « من تولاه » .

قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) آية واحدة بلا خلاف.

قرأ ابو جعفر «وربأت». الباقون (ربت).

خاطب الله تعالى بهذه الآية جميع المكلفين من البشر. فقال لهم «ان كنتم في ريب من البعث» والنشور. والريب اقبح الشك «فانا خلقناكم من تراب» قال الحسن: المعنى خلقنا آدم من تراب الذي هو أصلكم وأنتم نسله. وقال قوم: أراد به جميع الخلق، لانه إذا أراد انه خلقهم من نطفة، والنطفة يجعلها الله من الغذاء، والغذاء ينبت من التراب والماء، فكان أصلهم كلهم التراب، ثم أحالهم بالتدريج: الى النطفة، ثم أحال النطفة علقه، وهي القطعة من الدم جامدة. ثم أحال العلقة مضغة، وهي شبه قطعة من اللحم مضوغة. والمضغة مقدار ما يمضغ من اللحم.

وقوله «مخلقة وغير مخلقة» قال قتادة: تامة الخلق، وغير تامة. وقيل: مصورة وغير مصورة. وهي السقط ـ في قول مجاهد ـ.

وقوله « لنبين لكم » معناه لندلكم على مقدورنا ، بتصريفه فى ضروب الخلق
وقوله « ونقرّ فى الارحام ما نشاء الى أجل مسمى » مستأنف ، فلذلك رفع.
وقال مجاهد : معناه نقره الى وقت تمامه .

وقوله « ثم نخرجكم طفلا يعني نخرجكم » من بطون أمهاتكم ، وانتم أطفال. والطفل الصغير من الناس ، ونصب طفلا على المصدر ، وهو فى موضع جمع . وقيل : هو نصب على التمييز ، وهو جائز ، وتقديره نخرجكم أطفالا ، وقيل الطفل الى قبل مقاربة البلوغ .

وقوله « ثم لتبلغوا أشدكم » يعني وقت كمال عقولكم وتمام خلقكم . وقيل : وقت الاحتلام والبلوغ ، وهو جمع (شد) . والأشد فى غير هذا الموضع قد بينا اختلاف المفسرين فيه (١) . وقوله « ومنكم من يتوفى » يعني قبل بلوغ الاشد . وقيل : قبل أن يبلغ أرذل العمر « ومنكم من يرد الى ارذل العمر » وقيل معناه أهونه واخسه عند أهله . وقيل : احقره . وقيل هي حال الخرف . وانما قيل : ارذل العمر ، لان الانسان لا يرجو بعده صحة وقوة ، وانما يترقب الموت والفناء ، بخلاف حال الطفولية ، والضعف الذي يرجو معها الكمال والتمام والقوة ، فلذلك كان أرذل العمر .

وقوله « لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » معناه إنا رددناه الى أرذل العمر لكي لا يعلم ، لأنه يزول عقله من بعد أن كان عاقلا عالماً بكثرة من الاشياء ، ينسا جميع ذلك .

وقوله « وترى الارض هامدة » اي دارسة داثرة يابسة ، يقال : همد يهمد هموداً إذا درسته ودثرته . قال الاعشى :

---

(١) انظر ٤ / ٣٤٣ و ٦ / ١٩٧ ، ٤٧٦

قالت فتيلة ما لجسمك شاحباً وأرى ثيابك باليات همدا (١)

وقوله تعالى « فاذا انزلنا عليها الماء » يعني الغيث والمطر « اهتزت وربت » فالاهتزاز شدة الحركة في الجهات . والربو الزيادة فيها اي تزيد بما يخرج منها من النبات ، وتهتز بما يذهب في الجهات « وانبتت » يعني الارض « من كل زوج بهيج » فالبهيج الحسن الصورة ، الذي يمتع في الرؤية . وقال الزجاج : (ربت) و (ربأت) لغتان . وقال الفراء : ان ذهب ابو جعفر في قراءته (ربأت) الى انه من الربئة التي تجر بين الناس ، فهو مذهب . وإلا فهو غلط ، ويغلط العرب كقولهم : حلأت السويق ، ولبأت بالحج ، ورثأت الميت . وقد قرأ الحسن البصري في يونس « ولا أدرأكم به » وهو مما يرخص في القراءة .

قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (١٠) خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى ان الذي ذكرناه انما دللنا به لتعلم ان « الله هو الحق » وانه

(١) ديوانه ٥٤ وروايته (سايئا) بدل (شاحباً)

الواحد الذي لا يستحق العبادة سواه ، ومن اعتقده كذلك ، فمعتقده على ما هو به ، وهو محق ، والحق هو ما كان معتقده على ما أعتقده « وانه يحيي الموتى » لأن من قدر على انشاء الخلق إبتداء ونقله من حال الى حال على ما وصف ، فانه يقدر على إعادته حياً بعد كونه ميتاً ، ويعلم ايضاً انه قادر على كل ما يصح أن يكون مقدوراً له ، واصل الوصف بالحق من قولهم : حقه يحقه حقاً ، وهو نقيض الباطل . والفرق بين الحق والعدل أن العدل جعل الشيء على قدر ما تدعو اليه الحكمة ، والحق في الأصل جعل الشيء لما هو له في ما تدعو اليه الحكمة غير انه نقل الى معنى مستحق لصفات التعظيم ، فالله تعالى لم يزل حقاً أي انه لم يزل مستحقاً لمعنى صفة التعظيم بأنه الاله الواحد الذي هو على كل شيء قدير .

ثم اخبر تعالى ان فى جملة الناس من يخاصم « ويجادل فى الله » وصفاته « بغير علم » بل للجهل المحض « ولا هدى » أي ولا حجة « ولا كتاب منير » أي ولا حجة كتاب ظاهر ، وهذا يدل ايضاً على ان الجدال بالعلم صواب ، وبغير العلم خطأ ، لأن الجدال بالعلم يدعو الى اعتقاد الحق ، وبغير العلم يدعو الى الاعتقاد بالباطل ، ولذلك قال تعالى « وجادلهم بالتي هي احسن » (١)

« وقوله « ثاني عطفه » نصب على الحال يعني الذي يجادل بغير علم يثني عطفه . قال مجاهد وقتادة : يلوي عنقه كبراً . وقيل انها : نزلت فى النضر بن الحارث ابن كلدة - ذكره ابن عباس - .

وقوله « ليضل عن سبيل الله » من فتح الياء ، معناه يفعل هذا ليضل عن طريق الحق المؤدي الى توحيد الله . ومن ضم الياء اراد انه يفعل ذلك ليضل غيره . ثم اخبر تعالى ان من هذه صفته « له فى الدنيا خزي » وأنه يذيقه « عذاب

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ١٢٥

الحريق » يوم القيامة أي العذاب الذي يحرق بالنار. ثم قال « ذلك بما قدمت يداك » أي يقول الله تعالى عند نزول العذاب به ﴿ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ ومعناه إن ما يفعل بالظالم نفسه من عذاب الحريق جزاء على ما كسبت يداه ، فذكر اليدين مبالغة في إضافة الجرم اليه ، وهذا يدل على أن ذكر اليدين قد يكون لتحقيق الاضافة . وقوله « وإن الله » اي ولان الله « ليس بظلام للعبيد » وإنما ذكره بلفظ المبالغة ، وإن كان لا يفعل القليل من الظلم لامرين :

احدهما ـ انه خرج مخرج الجواب للمجبرة ، ورداً عليهم ، لأنهم ينسبون كل ظلم في العالم اليه تعالى ، فبين أنه لو كان ، كما قالوا لكان ظلاماً وليس بظالم .

والثاني ـ أنه لو فعل أقل قليل الظلم لكان عظيماً منه ، لانه يفعله من غير حاجة اليه ، فهو أعظم من كل ظلم فعله فاعله لحاجته إليه .

قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ

هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ (١٦) ست آيات بلا خلاف .

قرأ ابن عامر وأبو عمرو ، ورويس ، وورش « ثم ليقطع » ثم « ليقضوا »(١) - بسكون اللام - فيهما ، ووافقهم قنبل فى « ثم ليقضوا » . الباقون بسكون اللام .

معنى قوله « ومن الناس من يعبد الله على حرف » أي فى الناس من يوجه عبادته إلى الله على ضعف في العبادة ، كضعف القيام على حرف جرف ، وذلك من اضطرابه فى استيفاء النظر المؤدي الى المعرفة . فأدنى شبهة تعرض له ينقاد لها ، ولا يعمل فى حلها . والحرف والطرف والجانب نظائر . والحرف منتهى الجسم ، ومنه الانحراف الانعدال الى الجانب . وقلم محرف قد عدل بقطعته عن الاستواء إلى جانب ، وتحريف القول هو العدول به عن جهة الاستواء . فالحرف معتدل الى الجانب عن الوسط . وقال مجاهد : معنى على حرف على شك . وقال الحسن : يعبد الله على حرف يعني المنافق يعبده بلسانه دون قلبه . وقيل على حرف الطريقة لا يدخل فيها على تمكين .

وقوله « فان أصابه خير اطمان به وإن أصابته فتنة انقلب على وجه » قال ابن عباس : كان بعضهم إذا قدم المدينة فان صح جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً رضي به واطمأن اليه ، وإن اصابه وجع المدينة ، وولدت امرأته جارية ، وتأخرت عنه الصدقة ، قال ما اصبت منذ كنت على ديني هذا إلا شراً . وكل ذلك من عدم البصيرة . وقيل : انها نزلت فى بني أسد كانوا نزلوا حول المدينة . و (الفتنة) - ههنا - معناه المحنة بضيق المعيشة ، وتعذر المراد من

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٢٩

أمور الدنيا .

ثم اخبر الله تعالى أن من هذه صفته على خسران ظاهر ، لانه يخسر الجنة ، وتحصل له النار . ثم اخبر عن من ذكره انه « يدعو من دون الله مالا يضره وما لا ينفعه » يعني الاصنام والاوثان ، لانها جماد لا تضر ولا تنفع ، فانه يعبدها دون الله . ثم قال تعالى « ذلك هو الضلال البعيد » يعني عبادة مالا يضر ولا ينفع من العدول عن الصواب ، والانحراف عن الطريقة المستقيمة الى البعيد عن الاستقامة . و « ذلك » في موضع نصب بـ (يدعو) ومعناه (الذي) كأنه قال : الذي هو الضلال البعيد يدعوه . وقوله « يدعو لمن » مستأنف على ما ذكره الزجاج . وقوله « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه » يعني يدعو هذه الاصنام التي ضررها أقرب من نفعها ، لان الضرر بعبادتها عذاب النار ، والنفع ليس فيها . وإنما جاز دخول اللام في « لمن ضره » لأن (يدعو) معلقة ، وإنما هي تكرير للأولى ، كأنه قال : يدعو ـ للتأكيد ـ للذي ضره أقرب من نفعه يدعو . ثم حذفت (يدعو) الأخيرة اجتزاء بالأولى . ولا يجوز قياساً على ذلك ضربت لزيد ، ولو قلت بدلا من ذلك يضرب لمن خيره اكثر من شره يضرب ، ثم حذفت الخبر جاز . والعرب تقول عندي لما غيره هو خير منه ، كأنه قال للذي غيره خير منه عندي ، ثم حذف الخبر من الثاني ، والابتداء من الاول ، كأنه قال عندي شيء غيره خير منه وعلى هذا يقال : اعطيك لما غيره خير منه ،على حذف الخبر . وقيل : في خبر (لمن ضره) أنه (لبئس المولى) . وقيل: يدعو بمعنى يقول . والخبر محذوف . وتقديره يقول لمن ضره أقرب من نفعه : هو آلهة ، قال عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم (١)

اي يقولون يا عنتر ، وقيل تقدير اللام التأخر ، وإن كانت متقدمة . والمعنى يدعو من لضره أقرب من نفعه .

وقوله « لبئس المولى ولبئس العشير » فالمولى هو الولي ، وهو الناصر الذي يولي غيره نصرته إلا أنها نصرة سوء ، والعشير الصاحب المعاشر أي المخالط ـ في قول ابن زيد ـ وقال الحسن : المولى ـ هنا ـ الولي . وقيل : ابن العم اي بئس القوم لبني عمهم بما يدعونهم اليه من الضلال . وقيل : اللام لام اليمين ، والتقدير يدعو وعزتي لمن ضره أقرب من نفعه .

ثم اخبر تعالى انه « يدخل الذين آمنوا » بالله وأقروا بوحدانيته وصدقوا رسله « وعملوا » الاعمال « الصالحات » التي امرهم بها « جنات » أي بساتين « تجري من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد » من ذلك لا اعتراض عليه في ذلك .

ثم قال « من كان يظن ان لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيــــده ما يغيظ » فالهاء في قوله « ينصره الله » قال ابن عباس وقتادة : عائدة الى النبي (ص) ، والمعنى من كان يظن أن الله لا ينصر نبيه ولا يعينه على عدوه ، ويظهر دينـه فليمت غيظاً . والنصرة المعونة ـ في قول قتادة ـ وقال مجاهد والضحاك : أن الكناية عائدة الى (من) والمعنى إن من ظن أن لا ينصره الله . وقال ابن عباس : النصرة ـ هنا ـ الرزق . والمعنى من ظن ان الله تعالى لا يرزقه ، والعرب تقول : من ينصرني نصره الله أي من يعطيني أعطاه الله . وقال الفقعسي :

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ٢٩ من معلقته

وإنك لا تعط امرءاً فوق حظه ولا تملك الشق الذي الغيث ناصره (١)

اي معطيه وجايده ، ويقال نصر الله أرض فلان أي جاد عليها بالمطر وقوله « فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع » قيل في معنى (السماء) قولان :

احدهما ـ قال ابن عباس : اراد سقف البيت . والسبب الحبل . وقال ابن زيد : الى السماء سماء الدنيا والسبب المراد به الوحي الى النبي (ص) « ثم ليقطع » الوحي عن النبي (ص) والمعنى من ظن أنه لا يرزقه الله على وجه السخط لما اعطى « فليمدد » بحبل الى سماء بيته واضعاً له في حلقه ، على طريق كيد نفسه ليذهب غيظه به . وهذا مثل ضربه الله لهذا الجاهل . والمعنى مثله مثل من فعل بنفسه هذا ، فما كان إلا زائداً في بلائه . وقيل : هذا مثل رجل وعدته وعداً ، ووكدت على نفسك الوعد ، وهو يراجعك . لا يثق بقولك له . فتقول له : فاهب فاختنق ، يعني اجهد جهدك فلا ينفعك ، وهذه الآية نزلت في قوم من المسلمين نفروا من اتباع النبي (ص) خيفة من المشركين يخشون أن لا يتم له أمره .

وقرأ ابن مسعود « يدعو من ضره أقرب من نفعه » بلا لام . الباقون باثبات اللام . ووجهه أن (من) كلمة لا يبين فيها الاعراب فاستجازوا الاعتراض باللام دون الاسم الذي يبين فيه الاعراب ، ولذلك قالت العرب : عندي لما غيره خير منه . وقد يجوز أن يكون (يدعو) الثانية من صلة الضلال البعيد ، ويضمر في يدعو الهاء . ثم يستأنف الكلام باللام . ولو قرىء بكسر اللام كان قوياً . قال الفراء : كأن يكون المعنى يدعو الى ما ضره أقرب من نفعه ، كما قال تعالى « الحمد لله الذي هدانا لهذا » (٢) أي الى هذا إلا انه لم يقرأ به احد .

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ٢٢ والطبري ١٧ / ٨٧

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ٤٢

وقوله « وكذلك أنزلناه » اي مثل ما ذكرنا من الادلة الواضحة أنزلناه « آيات » واضحات ، لان « الله يهدي من يريد » منه فعل الطاعات ويدله عليها .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئِينَ وَٱلنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٢٢) ست آيات .

اقسم الله تعالى لأن (إن) يتلقى بها القسم ، فأقسم تعالى « إن الذين آمنوا » بالله وصدقوا بوحدانيته وصدقوا أنبياءه « والذين هادوا » يعني اليهود « والصابئين والنصاري والمجوس والذين أشركوا » مع الله غيره « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة »

خبر « ان الذين آمنوا » قوله « إن الله يفصل » فدخل (إن) على الخبر تأكيداً، كما يقول القائل : إن زيداً إن الخير عنده لكثير . وقال جرير :

إنّ الخليفة ان الله سربله سربال ملك به ترجى الخواتيم (١)

وقال الفراء لا يجوز أن تقول : إن زيداً انه صائم لا تفاق الاسمين . قال الزجاج : يجوز ذلك ، وهو جيد بالغ . ومعنى قوله « يفصل بينهم » يعني إن الله يفصل بين الخصوم في الدين يوم القيامة بما يضطر الى العلم بصحة الصحيح ويبيض وجه المحق ، ويسود وجه المبطل . والفصل هو التمييز بين الحق والباطل . وإظهار احدهما من الآخر .

وقوله « إن الله على كل شيء شهيد » أي عالم بما من شأنه أن يشاهد ، فالله تعالى يعلمه قبل أن يكون ، لأنه علام الغيوب . ثم خاطب نبيه (ص) والمراد به جميع المكلفين فقال « ألم تر » ومعناه ألم تعلم « أن الله يسجد له من في السموات ومن فى الارض » من العقلاء . ويسجد له « الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب » فسجود الجماد هو ما فيه من ذلة الخضوع التي تدعو العارفين الى السجود ، سجود العبادة لله المالك للامور ، وسجود العقلاء هو الخضوع له تعالى والعبادة له . وقوله « من في السموات ومن في الارض » وإن كان ظاهره العموم ، فالمراد به الخصوص إذا حملنا السجود على العبادة والخضوع ، لأنا علمنا أن كثيراً من الخلق كافرون بالله تعالى . فلذلك قال ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ ارتفع (كثير) بفعل مقدر ، كأنه قال ﴿ وكثير ﴾ أبى السجود ، فـ (حق عليه العذاب) دل عليه ، لانهم يستحقون العقاب بجحدهم وحدانية الله ، وإشراكهم معه غيره . وقيل : سجود كل شيء سوى

(١) ديوانه (دار بيروت) ٤٣١ وروايته : (يكفي الخليفة)

المؤمنين -سجود ظله حين تطلع الشمس وحين تغيب - في قول مجاهد - كأنه يجعل ذلك لما فيه من العبرة بتصريف الشمس في دورها عليه سجوداً .

وقوله ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ يعني لابائه السجود . وقيل : بل هو يسجد بما يقتضيه عقله من الخضوع ، وإن كفر بغير ذلك من الامور ، وأنشدنا في السجود بمعنى الخضوع قول الشاعر :

بجمع تضل البلق في حجراته ترى الاكم فيها سجداً للحوافر (١)

وقوله ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ معناه من يهنه الله بالشقوة بادخاله جهنم ﴿ فما له من مكرم ﴾ بالسعادة بادخاله الجنة ، لأنه الذي يملك العقوبة والمثوبة ﴿ ان الله يفعل ما يشاء ﴾ يعني يكرم من يشاء ، ويهين من يشاء إذا استحق ذلك .

وقوله ﴿ هذان خصمان ﴾ يعني الفريقين من المؤمنين والكفار يوم بدر ، وهم حمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن أبي ربيعة ، وعلي بن أبي طالب (ع) قتل الوليد بن عتبة ، وعبيدة بن الحارث قتل شيبة بن ربيعة - في قول ابي ذر - وقال ابن عباس : هم اهل الكتاب ، وأهل القرآن . وقال الحسن ومجاهد وعطاء : هم المؤمنون والكافرون « اختصموا في ربهم » لان المؤمنين قالوا بتوحيد الله وأنه لا يستحق العبادة سواه . والكفار اشركوا معه غيره ، وانما جمع قوله « اختصموا » لأنه أراد ما يختصون فيه او أراد بالخصمين القبيلتين وخصومهم . ثم قال تعالى « فالذين كفروا » بالله وجحدوا وحدانيته « قطعت لهم ثياب من نار » ومعناه إن النار تحيط بهم كاحاطة الثياب التي يلبسونها . و « يصب من فوق رؤسهم الحميم » روي في خبر مرفوع : انه يصب على رؤسهم الحميم ، فينفذ الى أجوافهم فيسلب ما فيها . والحميم الماء المغلي. وقيل : ثياب نحاس من نار تقطع لهم ، وهي أشد ما يكون حمى . قوله « يصهر به

(١) انظر ١ / ٣١١ تعليقة ٥

ما في بطونهم والجلود » فالصهر الاذابة . والمعنى يذاب بالحميم الذي يصب من فوق رؤسهم ما في بطونهم من الشحوم وتساقط من حره الجلود . تقول : صهرت الالية بالنار إذا أذبتها ، أصهرها صهراً قال الشاعر :

تروي لقى ألقي في صفصف تصهره الشمس فماينصهر (١)

يعني ولدها ، وتروي معناه أن تحمل له الماء في حوصلتها ، فتصير له راوية كالبعير الذي يحمل عليه الماء ، يقال : رويت للقوم إذا حملت لهم الماء . واللقى كل شيء ملقى من حيوان او غيره ، وقال الآخر :

شك السفافيد الشواء المصطهر

وقوله تعالى « ولهم مقامع من حديد » فالمقامع جمع مقمعة ، وهي مدقة الرأس . ومثله المنقفة، قمعه قمعاً إذا ردعه عن الأمر . فالزبانية بأيديهم عمد من حديد يضربون بها رؤسهم إذا أرادوا الخروج من النار من الغم الذي يلحقهم ، والعذاب الذي ينالهم ردوا بتلك المقاطع فيها وأعيدوا الى حالتهم التي كانوا فيها من العقاب . وقيل : يرفعهم زفيرها حتى إذا كادوا أن يخرجوا منها ضربوا بالمقامع ، حتى يهووا فيها . وقيل : لهم ذوقوا عذاب الحريق ، فالذوق طلب ادراك الطعم ، فهو اشد لاحساسه عند تفقده وطلب ادراك طعمه . فأهل النار يجدون المهاوجدان الطالب لادراك الشيء ، والحريق الغليظ من النار المنتشر العظيم الاهلاك . وقيل : هو بمعنى محرق كأليم بمعنى مؤلم ، فهؤلاء أحد الخصمين . والآخرون هم المؤمنون الذين وصفهم في الآية بعدها .

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٧ والطبري ١٧/ ٩٢ واللسان (صهر) نسبه لابن أحمر

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ ٱلْحَمِيدِ (٢٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٥) ثلاث آيات

قرأ نافع وأبو بكر « ولؤلؤاً » بالنصب . الباقون بالجر .

لما حكى الله تعالى أمر الخصمين اللذين يختصمان ، من الكفار ، والمؤمنين ، ثم بين ما للكفار من عذاب النار ، وإصهار ما في بطونهم ، والمقامع من الحديد ، وغير ذلك ، بين ما للمؤمنين ، وهم الفريق الآخر في هذه الآية ، فقال : « إن الله يدخل الذين آمنوا » بالله وأقروا بوحدانيته ، وصدقوا رسله « وعملوا » الاعمال « الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار يحلون فيها » أي يلبسون الحلي « من أساور من ذهب » والأساور جمع أسوار ، وفيه ثلاث لغات اسوار ـ بالالف ـ وسوار وسوار . فمن جعله أسوار ، جمعه على أساورة . ومن جعله سوراً ، وسوراً ، جمعه أسورة . وفي قراءة عبد الله « أساوير » واحدها إسوار أيضاً ، وسوار وأساور ، مثل كراع وأكارع ، وجمع الاسورة سوراً « ولؤلؤاً » فمن جره عطفه على « من ذهب » وتقديره : يحلون أساور من ذهب ولؤلؤ ، ومن نصبه عطفه على الموضع ، لأن (من) وما بعدها

في موضع نصب ، فعطف « ولؤلؤاً » على الموضع ، وتقديره : ويحلون لؤلواً . وقد روي عن عاصم همز الاولى وتليين الثانية . وروي ضده ، وهو تليين الأولى وهمز الثانية . الباقون يهمزونهما . وكل ذلك جائز فى العربية . واللؤلؤ الكبار ، والمرجان الصغار . ويجوز أن يكون اللؤلؤ مرصعاً في الذهب ، فلذلك قال : يحلون لؤلؤاً وقوى القراءة بالنصب أنه فى المصاحف مكتوباً بالالف ، قال ابو عمرو : كتب كذلك ، كما كتبوا كفروا بالألف .

ثم اخبر ان لباسهم فى الجنة حرير ، فحرم الله على الرجال لبس الحرير في الدنيا وشوقهم اليه فى الآخرة . ثم قال « وهدوا » يعني أهل الجنة الى الصواب من القول . قال الجبائي : هدوا الى البشارات من عندالله بالنعيم الدائم . وقيل : معناه الى القرآن . وقيل : الى الايمان . وقال الكلبي : الى قول : لا إله إلا الله . وقال قوم : هو القول الذي لا فحش فيه ، ولا صخب « وهدوا الى صراط الحميد » قيل : الى الاسلام . وقيل : الى الجنة . فالحميد هو الله المستحق الحمد . وقيل : المستحمد الى عباده بنعمه ــ في قول الحسن ــ أي الطالب منهم أن يحمدوه . وروي عن النبي (ص) أنه قال ما احد أحب اليه الحمد من الله ــ عز وجل ــ .

ثم قال تعالى ﴿ إن الذين كفروا ﴾ بوحدانيته واختصاصه بالعبادة . ﴿ ويصدون ﴾ أي ويمنعون غيرهم ﴿ عن ﴾ اتباع ﴿ سبيل الله ﴾ بالقهر والاغواء ﴿ والمسجد الحرام ﴾ أي ويمنعونهم عن المسجد الحرام أن يجيئوا اليه حجاجاً وعماراً ﴿ الذي ﴾ جعله الله تعالى ﴿ للناس ﴾ كافة قبلة لصلاتهم ومنسكاً لحجهم ، والمراد بالمسجد الحرام المسجد بعينه . وقيل الحرم كله « سواء العاكف فيه والباد » قال ابن عباس وقتادة : العاكف المقيم فيه ، والباد الطارىء . ونصب ﴿ سواء ﴾ حفص عن

عاصم على انه مفعول ثان من قوله ﴿ جعلناه للناس سواء ﴾ أي مساوياً ، كما قال ﴿ انا جعلناه قرآناعربياً ﴾ . (١) ويرتفع (العاكف) في هذه القرءاة بفعله أي يستوي العاكف والبادي . ومن رفع (سواء) جعله ابتداءاً وخبراً ، كما تقول : مررت برجل سواء عنده الخير والشر ، وتقديره العاكف والبادي سواء فيه بالنزول فيه . وقال مجاهد : معناه إنهم سواء في حرمته وحق الله عليهما فيه . واستدل بذلك قوم على أن أجرة المنازل فى أيام الموسم محرمة . وقال غيرهم : هذا ليس بصحيح ، لان المراد به سواء العاكف فيه والباد ، فى ما يلزمه من فرائض الله تعالى فيه ، فليس لهم أن يمنعوه من الدور ، والمنازل ، فهي لملاكها . وهو قول الحسن . وانما عطف بالمستقبل على الماضي من قوله ﴿ كفروا ، ويصدون ﴾ لان المعنى ومن شأنهم الصد ، ونظيره ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ (٢) ويجوز فى (سواء) الرفع والنصب والجر ، فالنصب على أن يكون المفعول الثاني لـ (جعلناه) على ما بيناه ، والرفع على تقدير : هم سواء فيه . والجر على البدل من قوله ﴿ للناس سواء ﴾ .

وقوله ﴿ ومن يرد فيه بالحاد بظلم ﴾ معناه من أرادته فيه بالحاد كما قال الشاعر :

اريد لأنسى ذكرها فكأنما　　　تمثل لي ليلى بكل سبيل (٣)

ذكره الزجاج . والباء في قوله ﴿ بالحاد ﴾ مؤكدة . والباء فى قوله ﴿ بظلم ﴾ للتعدية ، ومثله قول الشاعر :

بواد يمان ينبت الشث صدره　　　واسفله بالمرخ والشبهان (٤)

---

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٣　　　(٢) سورة ١٣ الرعد آية ٣٠

(٣) مر هذا البيت فى ٣ / ١٧٤ و ٤ / ١٨٤

(٤) تفسير القرطبي ١٢ / ٣٦ والطبري ١٧ / ٩٤ واللسان (شثث) وروايته (فرعه) بدل (صدره)

والمعنى ينبت المرخ . ومثله قوله ﴿ تنبت بالدهن ﴾ (١) .

أي تنبت الدهن . وقال الاعشى :

ضمنت برزق عيالنـــا أرماحنا نيل المراجل والصريح الأجردا (٢)

وقال امرؤالقيس :

ألا هل أتاها والحوادث جمة بأن امرأالقيس بن تملك بيقرا (٣)

وقال الآخر :

فلما جزت بالشرب هزّ لها العصا شجيح له عند الازاء نهيم (٤)

وقال الآخر :

ألم يأتيك والانبـاء تنمى بما لاقت لبون بني زياد (٥)

ويجوز ان يكون المعنى ، ومن يرد فيه منعاً ﴿ بالحاد ﴾ أي يميل بظلم ، فتكون حينئذ معدّية للارادة ، وذلك انه يمكن أن يريد منعاً لا بالحـاد ، كما يمكن أن يميل لا بظلم ، وكما يمكن أن يمرّ لا بشيء . وقال ابن عباس : المعنى فيه من يرد استحلال ما حرم الله . و (الالحاد) هو الميل عن الحق .

وقوله « نذقه من عذاب اليم » يعني مؤلم. وحكى الفراء : انه قرىء « ومن يرد » بفتح الياء ـ من الورود ، ومعنـاه من ورده ظلماً على غير ما أمر الله به ، إلا انه شاذ . وقال مجاهد : معنـاه من ظلم فيه وعمل شيئاً واشرك بالله غيره . وقال ابن

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٢٠ (٢) ديوانه ٥٧ وروايته :

ضمنت لنا اعجازهن قدورنا وضروعهن لنا الصريح الأجردا

(٣) شرح ديوانه (للسندوبي) ٨٦ (٤) تفسير الطبري ١٧ / ٩٥

(٥) مر تخريجه في ٦ / ٤٩٠

مسعود: من استحل ما حرمه الله. وقال ابن عباس : هو استحلال الحرم متعمداً. وقال حسان بن ثابت : هو احتكار الطعام بمكة.

وقيل نزلت في ابي سفيان وأصحابه، حين صدوا رسول الله (ص) عن عمرة الحديبية.

قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٢٩) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى لنبيه (ص) واذكر يا محمد «اذ بوأنا لابراهيم مكان البيت» ومعناه جلعنا له علامة يرجع اليها. وقال قوم : معنى بوأنا وطأناه. وقال السدي: كانت العلامة ريحاً هبت، فكشف حول البيت، يقال لها الحجوج. وقال قوم : كانت :

سحابة تطوقت حيال الكعبة ، فبنى على ظلها . واصل بوأنا من قوله « باؤا بغضب من الله » أي رجعوا بغضب منه . ومنه قول الحارث بن عباد (بؤ بشسع كليب) أي ارجع ، قال الشاعر :

فان تكن القتلى بواء فانكم فتى ما قتلتم آل عوف ابن عامر(١)

اي قد رجع بعضها ببعض فى تكافىء . وتقول : بوأته منزلا أي جعلت له منزلا يرجع اليه . والمكان والموضع والمستقر نظائر . والبيت مكان مهيأ بالبناء للبيتوتة ، فهذا اصله . وجعل البيت الحرام على هذه الصورة . وقوله « ألا تشرك بي شيئاً » معناه وأمرناه ألا تشرك بي شيئاً في العبادة ﴿ وطهر بيتي ﴾ قال قتادة : يعني من عبادة الاوثان . وقيل : من الادناس . وقيل من الدماء ، والفرث ، والاقذار التى كانت ترمى حول البيت . ويلطخون به البيت إذا ذبحوا .

وقوله ﴿ للطائفين ﴾ يعني حول البيت ﴿ والقائمين والركع السجود ﴾ يعني طهر حول البيت الذين يقومون هناك للصلاة والركوع والسجود . وقال عطاء : والقائمين في الصلاة . وإذا قال : طاف ، فهو من الطائفين ، وإذا قعد ، فهو من العكف ، وإذا صلى ، فهو من الركع السجود .

وفى الآية دلالة على جواز الصلاة في الكعبة .

وقوله ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ قال الحسن : والجبائي : هو أمر للنبي (ص) أن يؤذن للناس بالحج ويأمرهم به ، وانه فعل ذلك في حجة الوداع . وقال ابن عباس : ان إبراهيم قام في المقام ، فنادى (يا أيها الناس إن الله قد دعاكم الى الحج) فأجابوا (بلبيك اللهم لبيك) .

وقوله ﴿ يأتوك رجالا ﴾ أي مشاة على أرجلهم ، فرجال جمع راجل مثل

---

(١) انظر ٦ / ١٥٨

صاحب وصحاب ، وقائم وقيام ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ أي على كل جمل ضامر ، وهو المهزول ، أضمره السير ﴿ من كل فج عميق ﴾ أي طريق بعيد ، قال الراجز :

يقطعن بعد النازح العميق

وإنما قال ﴿ يأتين ﴾ لانه في معنى الجمع . وقيل : لأن المعنى وعلى كل ناقة ضامر. وقوله ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ قيل الأجر والثواب في الآخرة ، والتجارة في الدنيا . وقال أبو جعفر (ع) : المغفرة . وقوله ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ﴾ قال الحسن وقتادة : الأيام المعلومات عشر من ذي الحجة ، والأيام المعدودات أيام التشريق . وقال ابو جعفر (ع) الأيام المعلومات أيام التشريق ، والمعدودات العشر ، لأن الذكر الذي هو التكبير في أيام التشريق . وانما قيل لهذه الأيام : معدودات، لقلتها . وقيل لتلك: معلومات، للحرص على علمها بحسابها ، من أجل وقت الحج في آخرها .

وقوله ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الانعام ﴾ يعني مما يذبح من الهدي . وقال ابن عمر : الأيام المعلومات أيام التشريق . لأن الذبح فيها الذي قال الله تعالى ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام ﴾ . وقوله ﴿ فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ﴾ قال مجاهد وعطاء : أمرنا بأن نأكل من الهدي وليس بواجب . وهو الصحيح ، غير انه مندوب اليه . والبائس الذي به ضر الجوع ، والفقير الذي لاشيء له ، يقال : بؤس فهو بائس إذا صار ذا بؤس ، وهو الشدة . أمر الله تعالى أن يعطى هؤلاء من الهدي .

وقوله « ثم ليقضوا تفثهم » فالتفث مناسك الحج ، من الوقوف ، والطواف، والسعي ، ورمي الجمار ، والحلق بعد الاحرام من الميقات . وقال ابن عباس وابن

عمر : التفث جمع المناسك . وقيل التفث قشف (١) الاحرام ،وقضاؤه بحلق الرأس ، والاغتسال ، ونحوه . قال الازهري : لا يعرف التفث في لغة العرب إلا من قول ابن عباس .

وقوله « وليوفوا نذورهم » أي يوفوا بما نذروا ، من نحر البدن - فى قول ابن عباس- وقال مجاهد : كل ما نذر فى الحج . وقرأ ابو بكر عن عاصم « وليوّفوا » مشددة الفاء ، ذهب إلى انه التكبير . وقوله « وليطوفوا بالبيت العتيق » أمر من الله تعالى بالطواف بالبيت . قال ابن زيد : سمي البيت عتيقاً ، لانه أعتق من ان تملكه الجبابرة عن آدم . وقيل : لأنه اول بيت بني ، كقوله تعالى « إن اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا » (٢) ثم حدده إبراهيم (ع) . وقيل : لانه أعتق من الغرق أيام الطوفان،فغرقت الارض كلها إلا موضع البيت ، روي عن أبي جعفر (ع). والطواف المأمور به من الله فى هذه الآية ، قال قوم : هو طواف الافاضة بعدالتعريف إما يوم النحر ، وإما بعده ، وهو طواف الزيارة . وهو ركن بلا خلاف . وروى أصحابنا ان المراد - ههنا - طواف النساء الذي يستباح به وطؤ النساء ، وهو زيادة على طواف الزيارة .

وقوله « ذلك ومن يعظم حرمات الله » بأن يترك ما حرمه الله . وقوله « واحلت لكم الانعام إلا ما يتلى عليكم » يعني إلا ما يتلى عليكم فى كتاب الله :من الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع ، وما ذبح على النصب . وقيل : واحلت لكم الانعام ، من الابل ، والبقر ، والغنم ، فى حال إحرامكم « إلا ما يتلى عليكم » من الصيد ، فانه يحرم على المحرم .

وقوله « فاجتنبوا الرجس من الاوثان » معنى (من) لتبيين الصفة ، والتقدير

(١) وفي المخطوطة «شق»

(٢) سورة ٣ آل عمران آية ٩٦

فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان . وروى أصحابنا أن المراد به اللعب بالشطرنج ، والنرد ، وسائر انواع القمار « واجتنبوا قول الزور » يعني الكذب . وروى اصحابنا أنه يدخل فيه الغناء وسائر الاقوال الملهية بغير حق .

قوله تعالى :

﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ (٣٤) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (٣٥) خمس آيات بلاخلاف .

قوله « حنفاء » نصب على الحال من الضمير في قوله « واجتنبوا قول الزور » ومعنى « حنفاء » مستقيمي الطريقة ، على أمر الله . وأصل الحنف الاستقامة . وقيل للمائل القدم: أحنف تفاؤلا بالاستقامة . وقيل : أصله الميل . والحنيف المائل الى العمل بما أمر الله ، والأول أقوى ، لأنه أشرف في معنى الصفة . وقوله « غير مشركين به » أي غير مشركين بعبادة الله غيره . والاشراك تضييع حق عبادة الله بعبادة غيره .

أو ما يعظم عظم عبادة غيره ، وكل مشرك كافر ، وكل كافر مشرك . ثم قال تعالى «ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء » أي من أشرك بعبادة الله غير الله ، كان بمنزلة من وقع من السماء ، «فتخطفه الطير » أي تتناوله بسرعة وتستلبه . والاختطاف والاستلاب واحد . يقال : خطفه يخطفه خطفاً ، وتخطفه تخطفاً إذا أخذه من كل جهة بسرعة . وقرا ابن عامر « فتخطفه » بتشديد الطاء ، بمعنى فتختطفه ، فنقل فتحة الطاء الى الخاء ، وأدغم التاء في الطاء . الباقون بالتخفيف ، وهو الاقوى لقوله « الامن خطف الخطفة » (١) .

وقوله ﴿ أو تهوي به الريح فى مكان سحيق ﴾ والسحيق البعيد . والمعنى أن من أشرك بالله غيره كان هالكاً بمنزلة من زل من السماء ، واستلبه الطير ورمى به الريح فى مكان بعيد ، فانه لا يكون إلا هالكاً . وقيل :شبه المشرك بحال الهاوي فى أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً يوم القيامة . وقيل : شبه أعمال الكفار أنها تذهب فلا يقدر على شيء منها ـ فى قول الحسن ـ وقوله « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » قال سيبويه : تقديره ذلك الأمر من يعظم ، فالشعائر علامات مناسك الحج كلها ، منها رمي الجمار ، والسعي بين الصفا والمروة وغير ذلك ـ فى قول ابن زيد ـ وقال مجاهد : هي البدن ، وتعظيمها استسمانها واستحسانها . والشعيرة العلامة التي تشعر بها ، لما جعلت له ، وأشعرت البدن إذا علمتها بما يشعر أنها هدي .

وقوله « فانها من تقوى القلوب » فالكناية في قوله « فانها » تعود الى التعظيم ويجوز أن تعود الى الخصلة من التعظيم . وقيل : شعائر الله دين الله . وقوله « فانها من تقوى القلوب » معناه إن تعظيم الشعائر من تقوى القلوب أي من خشيتها .

---

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٠

ثم قال « لكم فيها منافع الى أجل مسمى » قال ابن عباس ، ومجاهد : ذلك ما لم يسم هدياً او بدناً . وقال عطاء : ما لم يقلد ، وقيل : منافعها ركوب ظهرها وشرب ألبانها إذا احتاج اليها . وهو المروي عن ابي جعفر (ع) . وقوله « الى اجل مسمى » قال عطاء بن ابي رياح : الى أن تنحر . وقيل : المنافع التجارة . وقيل: الأجر ، وقيل: جميع ذلك . وهو أعم فائدة .

وقوله ﴿ ثم محلها الى البيت العتيق﴾ معناه إن محل الهدي والبدن الى الكعبة ، وعند اصحابنا : إن كان الهدي فى الحج ، فمحله منى ، وإن كان في العمرة المفردة ، فمحله مكة قبالة الكعبة بالحزورة . وقيل : الحرم كله محل لها ، والظاهر يقتضي أن المحل البيت العتيق ، وهو الكعبة . وقال قوم « الى اجل مسمى » يعني يوم القيامة .

ثم اخبر تعالى انه جعل لكل أمة من الامم السالفة منسكاً . وقرأ حمزة والكسائي « منسكا » بكسر السين . الباقون بالفتح ، وهما لغتان ، وهو المكان للعبادة المألوفة الذي يقصده الناس . وقال الحسن : المنسك المنهاج وهو الشريعة جعل الله لكل أمة من الامم السالفة منسكاً أي شريعة ، كقوله « لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه »(١) وقال مجاهد « منسكا » يعني عبادة فى الذبح ، والنسكة الذبيحة . يقال : نسكت الشاة أي ذبحتها فكأنه المذبح ، وهو الموضع الذي يذبح فيه . وقال محمد بن ابي موسى : محل المناسك الطواف بالبيت .

وقوله « ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام » أي جعلنا ذلك للامم وتعبدناهم به « ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام » يعني من الابل والبقر والغنم إذا ارادوا تذكيتها . وفي ذلك دلالة على وجوب التسمية عند الذبيحة .

---

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٦٧

ثم اخبر تعالى فقال « فالهكم إله واحد » أي معبودكم الذي ينبغي أن توجهوا العبادة اليه واحدلا شريك له « فله اسلمو » أي استسلموا «وبشر المخبتين » قال قتادة : يعنى المتواضعين . وقال مجاهد: يعني المطمئنين الى ذكر ربهم .

واشتقاق المخبت من الخبت ، وهو المكان المطمئن . وقيل: المنخفض ، ومعناها واحد . ثم وصف تعالى المخبتين ، فقال «الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» والمعنى إذا ذكر ثواب الله ، على طاعاته ، وعقابه على معاصيه ، خافوا عقابه وخشيوا من ترك طاعاته « والصابرين على ما اصابهم » يعني يصبرون على ما يبتليهم الله ، من بلائه فى دار الدنيا من أنواع المصائب والأمراض والاوجاع « والمقيمي الصلاة » يعني الذين يقيمون الصلاة ، فيؤدونها بحقوقها ، ويداومون عليها . « ومما رزقناهم ينفقون » أي مما ملكهم الله وجعل لهم التصرف فيه ينفقون فى مرضاته .

وفى ذلك دلالة على أن الحرام ليس برزق الله ، لان الله مدح من ينفق في سبيل الله مما رزقه ، والحرام ممنوع من التصرف فيه ، والانفاق منه فكيف يكون رزقاً .

قوله تعالى:

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ ٱللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ ٱللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللهَ عَلَىٰ مَا هَدَٰيكُمْ وَبَشِّرِ

الْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿ (٤٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ يعقوب «لن تنال الله لحومها ولكن تناله» بالتاء فيهما. الباقون بالياء فيهما. وقد مضى ذكر نظائره. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي «أذن» بفتح الالف «يقاتلون» بكسر التاء. وقرأ نافع وحفص «أذن» بضم الألف «يقاتلون» بفتح التاء. وقرأ ابو عمرو، وابو بكر عن عاصم «أذن» بضم الالف «يقاتلون» بكسر التاء. وقرأ ابن عامر «أذن» بفتح الألف «يقاتلون» بفتح التاء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «إن الله يدفع، ولولا دفع الله» بغير ألف في الموضعين الباقون «يدافع»، «ولولا دفاع الله» باثبات الألف في الموضعين. وقرأ أهل الكوفة وإبن كثير وابو جعفر «لهدمت» بتخفيف الدال. الباقون بتشديدها، وهما لغتان. والتشديد للتكثير.

قال الحسن: هدمها تعطيلها، فاذا هدمت مواضع الصلاة فكأنهم هدموا الصلاة. وقيل: إن الصلوات بيوت النصارى، يسمونها صلوتا، وقال أبو العالية

الصلوات بيوت الصابئين وانشد :

اتق الله والصلوت فدعهـــا إن فى الصوم والصلوت فساداً (١)

يريد بيت النصارى ومعنى الصوم - فى البيت - ذرق النعام .

« ودفع الله ، ودفاع الله » [لغتان والأغلب أن يكون (فعال) بين اثنين . وقد يكون للواحد مثل عافاه الله وطارقت النعل] (٢) وقال ابن عمر : دفاع الله ، ويدافع : لحن . ومن فتح الالف فى (اذن) وكسر التاء فى (يقاتلون) فالمعنى أذن الله للذين يقاتلون أن يقاتلوا من ظلمهم ، وكذلك المعنى فى قراءة الباقين . ومعنى ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ أي من أجل انهم ظلموا .

يقول الله تعالى ﴿ والبدن جعلناها ﴾ فنصب البـدن بفعل مضمر يدل عليه (جعلناها) ومثله « والقمر قدرناه » (٣) فيمن نصب القمر والبدن جمع بدنة ، وهي الابل المبدنة بالسمن . قال الزجاج : يقولون: بدنت الناقة إذا سمنتها . ويقال لها بدنة من هذه الجهة . وقيل : أصل البدن الضخم ، وكل ضخم بدن . وبدن بدناً إذا ضخم ، وبدن تبديناً ، فهو بدن ، ثقل لحمه للاسترخاء كما يثقل الضخم . والبدنة الناقة ، وتجمع على بدن وبدن . وتقع على الواحد والجمع قال الراجز :

على حين تمـلك الأمورا صوم شهور وجبت نذورا

وحلق رأسي وافياً مغضورا وبدناً مدرعاً موفورا (٤)

قال عطاء : البدن البقرة والبعير . وقيل : البدنة إذا نحرت علقت يد واحدة ، فكانت على ثلاث ، وكذلك تنحر ، وعند أصحابنا تشد يداها الى إبطيها ، وتطلق رجلاها . والبقر تشد يداها ورجلاها ويطلق ذنبها ، والغنم تشد يداها ورجل واحدة

(١) لم أجد في مظانه (٢) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

(٣) سورة ٣٦ يس آية ٣٩ . (٤) تفسير الطبري ١٧ / ١٠٧

وتطلق الرجل الأخرى .

وقوله « جعلناها لكم من شعائر الله » معناه جعلناها لكم فيها عبادة لله بما في سوقها الى البيت وتقليدها بما ينبىء أنها هدي . ثم نحرها الاكل منها واطعام القانع والمعتر. وقيل « من شعائر الله » معناه من معالم الله « لكم فيها خير » أي منافع في دينكم ودنياكم ، مثل ما فسرناه .

وقوله « فاذكروا اسم الله عليها صواف » أمر من الله أن يذكر اسم الله عليها إذا إقيمت للنحر ، صافة . وصواف جمع صافة ، وهي المستمرة في وقوفها على منهاج واحد ، فالصف استمرار جسم يلي جسماً على منهاج واحد . والتسمية إنما تجب عند نحرها دون حال قيامها .

وقوله « فاذا وجبت جنوبها » معناه وقعت لنحرها ، والوجوب الوقوع ، ومنه يقال : وجبت الشمس إذا وقعت فى المغيب للغروب . ووجب الحائط إذا وقع، ووجب القلب إذا وقع فيه ما يضطرب به . ووجب الفعل إذا وقع ما يلزم به فعله . ووجبت المطالبة إذا وقع ما يدعو الى قبولها . ووجب البيع إذا وقع . وقال أوس ابن حجر :

ألم تكسف الشمس والبدر والـ   ـكواكب للجبل الواجب (١)

أي الواقع ،وقرىء « صواف » على ثلاثة أوجه : صواف بمعنى مصطفة ، وعليه القراء « وصوافي » بمعنى خالصة لله وهي قراءة الحسن و « صوافن » بمعنى معلقة فى قيامها ، بأزمتها . وهي قراءة ابن مسعود ، وهومشتق من صفن الحصان إذا ثنى احدى يديه حتى قام على ثلاث ، ومنه قوله « والصافنات الجياد » (٢)

---

(١) ديوانه (دار بيروت) : ١٠ وتفسير القرطبي ١٢ / ٦٢

(٢) سورة ٣٨ ص آية ٣١

قال الشاعر :

الف الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسيرا (١)

والصافن من الخيل الذي يقوم على ثلاث ، ويثني سنبك الرابعة .

وقوله « فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر » فقال قوم : الاكل والاطعام واجبان . وقال آخرون: الاكل مندوب والاطعام واجب . وقال قوم :لو اكل جميعه جاز ، وعندنا يطعم ثلثه ،ويعطي ثلثه القانع والمعتر ، ويهدي الثلث الباقي . والقانع الذي يقنع بما أعطي أو بما عنده ولا يسأل،والمعتر الذي يتعرض لك ان تطعمه من اللحم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : المعتر الذي يسأل ، والقانع الذي لا يسأل ، وقال الحسن وسعيد بن جبير:القانع الذي يسأل قال الشماخ :

لمال المرىء يصلحه فيغني مفاقره أعف من القنوع (٢)

أي من السؤال . وقال الحسن: المعتر يتعرض ، ولا يسأل . وقال مجاهد : القانع جارك الغني ، والمعتر الذي يعتريك من الناس . ويقال: قنع الرجل الى فلان قنوعاً إذا سأل قال لبيد :

وأعطاني المولى على حين فقره إذا قال الصبر حلتي وقنوعي(٣)

وقنعت بكسر النون اقنع قناعة وقناعاً إذا اكتفيت .

وقوله « كذلك سخرناها لكم » أي مثل ذلك ذللنا هذه الأنعام لكم تصرفوها على حسب اختياركم ، بخلاف السباع الممتنعة بفضل قوتها ، لكي تشكروه على نعمه

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ٦٢

(٢) تفسير الطبري ١٧ / ١١٠ واللسان (فقر) وتفسير القرطبي ١٢ / ٦٤

(٣) تفسير الطبري ١٧ / ١١٠ وروايته (اصبر) بدل (الصبر) وشرح ديوانه (طبع الكويت : ٧١) روايته (اذا أبصر خلتي وخشوعي)

التي أنعم بها عليكم .

ثم قال تعالى « لن ينال الله لحومها ... » والمعنى لن يتقبل الله اللحوم ، ولا الدماء ، ولكن يتقبل التقوى فيها وفي غيرها ، بأن يوجب في مقابلتها الثواب . وقيل: لن يبلغ رضا الله لحومها ، ولا دماؤها ، ولكن ينالها التقوى منكم .

ثم قال « كذلك سخرها لكم » يعني الأنعام « لتكبروا الله على ما هداكم » أي لتعظموه ثم تشكروه على هدايته إياكم الى معرفته وطريق ثوابه . وقيل : معناه لتسموا الله تعالى على الذباحة . وقيل : لتكبروا الله في حال الاحلال بما يليق به في حال الاحرام .

ثم قال تعالى « وبشر المحسنين » يا محمد ، الذين يفعلون الأفعال الحسنة وينعمون على غيرهم .

ثم قال « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » أي ينصرهم ويدفع عنهم عدوهم ، تارة بالقهر ، وأخرى بالحجة « إن الله لا يحب كل خوان كفور » إخبار منه تعالى أنه لا يحب الخوان ، وهو الذي يظهر النصيحة ، ويضمر الغش للنفاق ، أو لاقتطاع المال . وقيل: إن من ذكر اسم غير الله على الذبيحة ، فهو الخوان ، والكفور هو الجحود لنعم الله وغمط أياديه .

ثم اخبر انه « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » قيل: إن هذه الآية نزلت في المهاجرين الذين أخرجهم أهل مكة من أوطانهم ، فلما قووا ، أمرهم الله بالجهاد ، وبين أنه أذن لهم في قتال من ظلمهم واخرجهم من أوطانهم . ومعنى « بأنهم ظلموا » أي من أجل أنهم ظلموا .

ثم أخبر أنه « على نصرهم لقدير » ومعناه انه سينصرهم . قال الجبائي : لا فائدة له الا هذا المعنى .

وهذه الآية اول آية نزلت في الأمر بالقتال .

ثم بين حالهم فقال « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق » بل ظلماً محضاً « الا أن يقولوا ربنا الله » والمعنى الا أن يقولوا الحق ، فكأنه قال الذين أخرجوا بغير حق ، الا الحق الذي هو قولهم ربنا الله . وقال سيبويه (إلا) بمعنى (لكن) وتقديره لكنهم يقولون : ربنا الله ، فهو استثناء منقطع ، وهو كقولك ما غضبت عليّ إلا أني منصف ، وما تبغض فلاناً إلا أنه يقول الحق ، أي جعلت ذلك ذنبه . وقال الفراء : تقديره إلا بأن يقولوا ، فتكون (أن) فى موضع الجر .

ثم قال « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع » فى أيام شريعة موسى « وبيع » في ايام شريعة عيسى « ومساجد » فى ايام شريعة محمد (ص) ـ في قول الزجاج ـ وقال مجاهد : صوامع الرهبان ، وبيع النصارى ، وهو قول قتادة. وعن مجاهد ايضاً ان البيع كنائس اليهود . وقال الضحاك : الصلوات كنائس اليهود يسمونها صلوتاً . وقيل مواضع صلوات المسلمين مما في منازلهم . وقيل : الصلوات أراد بها المصليات ، كما قال « لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى » (١) وأراد المساجد ، والظاهر انه أراد نفس الصلاة لا يقر بها سكران . وقيل تقديره : وتركت صلوات ـ ذكره الاخفش ـ وقوله « يذكر فيها اسم الله كثيراً » يعني في المساجد والمواضع التي ذكرها .

ثم قال « ولينصرن الله من ينصره » أي من نصر أولياء الله ، ودفع عنهم فان الله ينصره ، ويدفع عنه . ويجوز أن يكون المراد : من ينصر دين الله ويذب عنه فان الله ينصره « إن الله لقوي عزيز » أي قادر قاهر ، لا ينال أحد منه مالا يريده ،

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٢

ولا يتعذر عليه من يريد ضره . وقال الحسن : إن الله يدفع عن هدم مصليات أهل الذمة بالمؤمنين . وقرأ عاصم الجحدري « وصلوت » بالتاء ـ في رواية هارون ـ وقال غيره : صلوت بالتاء والصاد واللام مضمومتان ، وقال : هي مساجد للنصارى . وقرأ الضحاك (صلوث) بثلاث نقط ، وقال : هي مساجد اليهود . وهذه شواذ لا يقرأ بها ، ولا يعرف لها في اللغة اصل .

قوله تعالى :

﴿ أَلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٤١) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ (٤٥) خمس آيات في الكوفي والمدنيين . وفي الباقي أربع آيات .

قرأ ابو عمرو وحده « أهلكتها » بالتاء . لقوله في الآية التي فيما بعد ﴿فأمليت﴾ . الباقون ﴿ اهلكناها ﴾ بالنون .

يقول الله تعالى ﴿ الذين ان مكناهم في الارض ﴾ فـ (الذين) صفة من تقدم ذكره من المهاجرين في سبيل الله ، وموضعه النصب ، وتقديره ﴿ لينصرن الله من ينصره ... الذين ان مكناهم ﴾ ومعناه أعطيناهم كل ما لا يصح الفعل إلا معه ، لان

التمكين إعطاء ما يصح معه الفعل ، فان كان هذا الفعل لا يصح إلا بآلة ، فالتمكين باعطاء تلك الآلة لمن فيه القدرة ، وكذلك ان كان لا يصح الفعل إلا بعلم ، ونصب دلالة ، وصحة سلامة ، ولطف وغير ذلك ، فاعطاء جميع ذلك واجب. وإن كان الفعل يكفي - في صحة وجوده - مجرد القدرة ، فخلق القدرة هو التمكين . ثم وصفهم ، فقال : هؤلاء الذين هاجرو فى سبيل الله ، ﴿ إن مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة ﴾ يعني ادوها بحقوقها ، وقيل : معناه داموا عليها ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ أي واعطوا ما افترض الله عليهم في أموالهم من الزكوات وغيرها ﴿ وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ . وفي ذلك دلالة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، لأن ما رغب الله فيه، فقد اراده ، وكل ماأراده من العبد ، فهو واجب إلا أن يقوم دليل على ذلك انه نفل ، لان الاحتياط يقتضي ذلك . و (المعروف) هو الحق ، وسمي معروفاً لأنه تعرف صحته . وسمي المنكر منكراً ، لأنه لا يمكن معرفة صحته .

وقوله «ولله عاقبة الامور » معناه تصير جميع الأملاك لله تعالى ، لبطلان كل ملك سوي ملكه . ثم قال لنبيه (ص) مسلياً له عن تكذيب قومه له وقلة قبولهم منه : « وان يكذبوك» يا محمد في ماتدعيه من النبوة « فقد كذبت قبلهم قوم نوح » نوحا، وكذبت قوم « عاد » هوداً وقوم « ثمود» صالحاً « وقوم أبراهيم » ابراهيم « وقوم لوط» لوطاً« واصحاب مدين » شعيباً «وكذب» اصحاب موسى «موسى » وانما قال « وكذب موسى » ولم يقل وقوم موسى ، لأن قومه بني اسرائيل ، وكانوا آمنوا به وإنما كذبه قوم فرعون « فامليت للكافرين » اي أخرت عقابهم وحلمت عنهم « ثم أخذتهم » فاستاصلتهم بانواع الهلاك « فكيف كان نكير » أي عذابي لهم . وانما اقتصر على ذكر أقوام بعض الانبياء ، ولم يسم أنبياءهم ، لدلالة الكلام عليه .

ثم قال تعالى « وكأين من قرية » معناه وكم من أهل قرية «اهلكناها» لما

استحقوا الاهلاك في حال كونها «ظالمة» لنفسها «فهي خاوية على عروشها» أي اهلكناها في حال كونها ظالمة لنفسها حتى تهدمت الحيطان على السقوف . وقال الضحاك على عروشها سقوفها .

وقوله «وبئر معطلة وقصر مشيد» معناه وكم من بئر معطلة أي لا أهل لها. والتعطيل ابطال العمل بالشيء ، ولذلك قيل للدهري : معطل ، لانه أبطل العمل بالعلم على مقتضى الحكمة . ويقال : خوت الدار خواء، ممدود . وهي خاوية ، وخوى جوف الانسان من الطعام خوى ، مقصور ، وهو خاو . وقيل في خفض «وبئر معطلة وقصر مشيد» قولان :

احدهما ـ بالعطف على قرية ، فيكون المعنى إهلاكنا كالقرية .

والثاني ـ بالعطف على العروش ، فيكون المعنى ان بها البئر المعطلة والقصر المشيد . ومعنى وقصر مشيد أي مجصص ، والشيد الجص ـ في قول عكرمة ومجاهد ـ وقال قتادة : معناه رفيع ، وهو المرفوع بالشيد . وقال عدي بن زيد :

شاده مرمراً وجلله كلسا　　　فللطير في ذراه وكور (١)

وقال امرؤ القيس :

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة　　　ولا أجماً إلا مشيداً بجندل (٢)

وقال آخر :

كحية الماء بين الطين والشيد (٣)

(١) شرح ديوان امرئ القيس (اخبار المراقسة) ٣٦٠ وتفسير القرطبي ١٢/٧٤ والطبري ١٧/ ١١٦ واللسان (شيد)

(٢) شرح ديوانه : ١٥٧ وروايته (أطماً) بدل (أجماً)

(٣) تفسير الطبري ١٧/١١٦ والقرطبي ١٢/٧٤ وتمامه :

لا تحسبين وان كنت امرءاً غمراً　　　كحية الماء بين الطين والشيد

ويقال شدته أشيده إذا زينتـه . وقال الكلبي قصر مشيد : معناه حصين .
وقيل : ان البئر والقصر معروفان باليمين . وفي تفسير أهل البيت إن معنى « وبئر معطلة » أي وكم من عالم لا يرجع اليه ، ولا ينتفع بعلمه ، ولا يلتفت اليه . ومعنى الآية: أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا إلى آثار قوم أهلكهم الله بكفرهم وأبادهم بمعصيتهم، ليروا من تلك الاثار بيوتاً خاوية ، قد سقطت على عروشها ، وبئر الشرب قد باد أهلها وعطل رساوها وغار معينها وقصراً مشيداً مزيناً بالجص ، قد خلا من السكن ، وتداعى بالخراب ، فيتعظوا بذلك ، ويخافوا من عقوبة الله ، وبأسه الذي نزل بهم .

قوله تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي « مما يعدون » بالياء ، على الخبر عن

الكفار . الباقون بالتاء ، على الخطاب .

لما اخبر الله تعالى عن اهلاك الامم الماضية جزاء على كفرهم ومعاصيهم ، نبه الذين يرتابون بذلك . فقال « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها» إذا شاهدوا آثار ما أخبرنا به ، وسمعوا صحة ماذكرناه عمن أخبرهم بصحته من الذين عرفوا أخبار الماضين . وفيها دلالة على أن العقل هو العلم ، لان معنى ﴿ يعقلون بها ﴾ يعلمون بها مدلول ما يرون من العبرة . وفيها دلالة على أن القلب محل العقل والعلوم ، لأنه تعالى وصفها بأنها هي التي تذهب عن إدراك الحق ، فلولا أن التبيين يصح أن يحصل فيها ، لما وصفها بأنها تعمى ، كما لا يصح أن يصف اليد والرجل بذلك . والهاء في ﴿ انها لا تعمى ﴾ هاء عماد ، وهو الاضمار على شروط التفسير ، وانما جاز أن يقول : ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، للتأكيد لئلا يتوهم بالذهاب الى غير معنى القلب ، لانه قد يذهب الى ان فيه اشتراكا كقلب النخلة ، فاذا قيل هكذا كان أنفى للبس بتجويز الاشتراك واما قوله ﴿ يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم ﴾ (١) فلان القول قد يكون بغير الفم . والمعنى فى الآية ان الابصار وإن كانت عمياً ، فلا تكون في الحقيقة كذلك ، اذا كان عارفاً بالحق . وانما يكون العمى عمى القلب الذي يجحد معه معرفة الله ووحدانيته .

ثم قال ﴿ ويستعجلونك ﴾ يا محمد ﴿ بالعذاب ﴾ أن ينزل عليهم ، ويستبطؤنه ، وان الله لا يخلف ما يوعد به ﴿ وان يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة : يوم من أيام الآخرة ، يكون كألف سنة من ايام الدنيا . وقال ابن زيد ، وفى رواية اخرى عن ابن عباس : انه أراد يوماً من الأيام التي خلق الله فيها السموات والارض . والمعنى ﴿ وان يوماً عند ربك ﴾ من ايام العذاب ، في

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٦٧

الثقل والاستطالة ﴿ كألف سنة مما تعدون ﴾ في الدنيا ، فكيف يستعجلونك بالعذاب لولا جهلهم ، وهو كقولهم : ايام الهموم طوال ، وايام السرور قصار .

قال الشاعر :

يطول اليوم لا القاك فيه ويوم نلتقي فيه قصير (١)

وأنشد ابو زيد :

تطاولن أيام معن بنـــا فيوم كشهرين اذ يستهل (٢)

وقال جرير :

ويوم كأبهام الحبارى لهوته (٣)

وقيل « وان يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون » في طول الامهال للعباد لصلاح من يصلح منهم ، أو من نسلهم ، فكأنه ألف سنة لطوال الأناة . وقيل ﴿ وان يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون ﴾ فى مقدار العذاب فى ذلك اليوم ، أي انه لشدته وعظمه كمقدار عذاب ألف سنة من أيام الدنيـا على الحقيقة . وكذلك نعيم الجنة ، لأنه يكون فى مقدار يوم السرور والنعيم مثل ما يكون في الف سنة من أيام الدنيا لو بقي ينعم ويلتذ فيها .

ثم قال تعالى ﴿ وكم من قرية أمليت لها ﴾ فالاملاء والاملال والتأخير نظائر ﴿ وهي ظالمة ﴾ اي مستحقة لتعجيل العقاب ، لكن اخذتها وأهلكتها والي المصير ،

---

(١) هذا البيت ساقط من المطبوعة . (٢) هو في مجمع البيان ٤ / ٩٠

(٣) وفي المخطوطة (ويوم كأبهام الحبارى لطوله) ولم اجده في ديوان جرير وانما يوجد ابيات تشبه هذا وهي:

ويوم كابهام القطاة مزين الي صباه غالب لي باطله

لهوت بجني عليه سموطه وانس مجاليه وانس شمائله

لكل أحد ، بأن يزول ملك كل مالك ملك شيئاً في دار الدنيا .

ثم قال لنبيه ﴿ قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين ﴾ اي مخوف من معاصي الله بعقابه ، مبين لكم ما يجب عليكم فعله ، وما يجب عليكم تجنبه ﴿ فالذين آمنوا ﴾ اي صدقوا بالله واقروا برسله ﴿ لهم مغفرة ﴾ من الله تعالى لمعاصيهم ولهم ﴿ رزق كريم ﴾ اي مع اكرامهم بالثواب الذي لا يقاربه تعظيم وتبجيل .

قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ (٥٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ﴿ معجزين ﴾ بالتشديد ، بمعنى مثبطين ومبطئ ، وهو قول مجاهد . الباقون ﴿ معاجزين ﴾ بالألف . قال قتادة : معناه مشاقين معاندين .

يقول الله تعالى ان ﴿ الذين سعوا في آيات الله معجزين ﴾ ومعناه إن الذين يعجزون المؤمنين في قبول هذه الآيات اي يعجزونهم عن اقامتها بجحدهم تدبير الله (عز وجل) لها . ويحتمل ان يكون معناه يعجزونهم عن تصحيحها . والسعي الاسراع في المشي ، ومنه قوله ﴿ يا ايها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ﴾ (١) وسعى يسعى سعياً ، فهو ساع ، وجمعه سعاة ، واستسعاه في الامر استسعاء . وقال قتادة : ظنوا انهم يعجزون الله أي يفوتونه وأن يعجزوه . وقال مجاهد : معناه مبطئين عن اتباع آيات الله . ومن قرأ ﴿ معاجزين ﴾ اراد انهم يجادلون عجز الغالب . ومن قرأ ﴿ معجزين ﴾ بالتشديد اراد طلب اظهار العجز . وقال ابن عباس : معنى ﴿ معاجزين ﴾ مشاقين . وقيل معنى ﴿معجزين﴾ مسابقين ، يقال : اعجزني الشيء بمعني سبقني وفاتني . وقال ابو علي : معاجزين ظانين ومعتقدين انهم يفوتونا ، لانكارهم البعث . ومعجزين أي ينسبون من اتبع النبي (ص) الى العجز . وقال مجاهد : معناه مثبطين للناس عن النبي (ص) واتباعه .

وقوله « أولئك أصحاب الجحيم » معناه الذين يسعون في آيات الله طالبين إظهار عجزه إن لهم عذاب الجحيم ، وهم ملازمون لها .

وقوله « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته » روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك ومحمد بن كعب ومحمد ابن قيس : انهم قالوا : كان سبب نزول الآية انه لما تلى النبي (ص) « افرأيتم اللات

(١) سورة الجمعة آية ٩

والعزى ومنوة الثالثـة الأخرى » (١) القى الشيطان فى تلاوته (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) ومعنى الآية التسلية للنبي (ص) وانه لم يبعث الله نبياً ، ولا رسولا إلا اذا تمنى- يعني تلا- القى الشيطان في تلاوته بمايحاول تعطيله، فيرفع الله ماالقاه بمحكم آياته . وقال المؤرج : الامنية الفكرة ، بلغـــة قريش . وقال مجاهد : كان النبي (ص) إذاتأخر عنه الوحي تمنى أن ينزل عليه فيلقي الشيطان فى أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ويحكم آياته . وقال ابو علي الجبـائي : انما كان يغلط فى القراءة سهواً فيها ، وذلك جائز على النبي ، لانه سهو لا يعرى منه بشر ، ولا يلبث ان ينبهه الله تعالى عليه . وقال غيره : إنما قال ذلك فى تلاوته بعض المنافقين عن اغواء الشياطين ، وأوهم أنه من القرآن . وقال الحسن : انما قال : هي عند الله كالغرانيق العلى . يعني الملائكة في قولكم ، وإن شفاعتهن لترتجى فىاعتقادكم . والتمني فىالآية معناه التلاوة ، قال الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادر (٢)

وقال الجبائي : انمـا سها النبي (ص) فى القراءة نفسها . فأما الرواية بأنه قرأ تلك الغرانيق العلى . وإن شفاعتهن لترتجى ، فلا أصل لها ، لأن مثله لا يغلط على طريق السهو ، وانما يغلط في المتشابه .

وقوله « فينسخ الله ما يلقي الشيطان » أي يزيل الله ما يلقيه الشيطان من الشبهة « ثم يحكم الله آياته » حتى لا يتطرق عليها ما يشعثها . وقال البلخي : ويجوز أن يكون النبي (ص) سمع هاتين الكلمتين من قومه وحفظهما فلما قرأ النبي (ص) وسوس بهما اليه الشيطان ، وألقـاهما فى فكره ، فكاد أن يجريهما على لسانه ، فعصمه الله ، ونبهه ، ونسخ وسواس الشيطان ، وأحكم آياته ، بأن قرأها النبي (ص) محكمة

(١) سورة ٥٣ النجم آية ١٩ ـ ٢٠ (٢) مرهذا البيت في ١ / ٣١٩

سليمة مما أراد الشيطان . ويجوز أن يكون النبي (ص) حين اجتمع اليه القوم ، واقترحوا عليه أن يترك ذكر آلهتهم بالسوء ، أقبل عليهم يعظهم ويدعوهم الى الله ، فلما انتهى رسول الله الى ذكر اللات والعزى . قال الشيطان هاتين الكلمتين رافعاً بها صوته ، فألقاهما فى تلاوته في غمار من القوم وكثرة لغطهم ، فظن الكفار ان ذلك من قول النبي ، فسجدوا عند ذلك .

وقوله « والله عليم حكيم » معناه إنه عالم بجميع المعلومات ، واضع الاشياء مواضعها . والآية تدل على أن كل رسول نبي ، لأنه تعالى ذكر أنه أرسلهم ، وانما قال من رسول ولا نبي ، لاختلاف المعنيين ، لأن الرسول يفيد أن الله أرسله ، والنبي يفيد أنه عظيم المنزلة يخبر عن الله . وقد قال بعض المفسرين : إن المراد بالتمني في الآية تمني القلب ، والمعنى انه ما من نبي ولا رسول إلا وهو يتمنى بقلبه ما يقربه الى الله من طاعاته ، وإن الشيطان يلقي في أمنيته بوسوسته واغوائه ما ينافي ذلك ، فينسخ الله ذلك عن قلبه بأن يلطف له ما يختار عنده ترك ما اغواه به .

وقوله « ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة الذين في قلوبهم مرض » بيان من الله تعالى أنه يجعل ما يلقيه الشيطان من الأمنية فتنة ، فمعنى (ليجعل) يحتمل امرين :

احدهما ـ الحكم والتسمية ، كما تقول جعلت حسني قبيحاً ، ويكون المراد انه ينسخ ما يلقي الشيطان طلباً للفتنة والاغواء .

والثاني ـ انه أراد ليجعل نسخ ما يلقي الشيطان فتنة ، لأن نفس فعل الشيطان لا يجعله الله فتنة ، لأن ذلك قبيح ، والله تعالى منزه عن القبائح اجمع ، فمعنى الفتنة في الآية المحنة ، وتغليظ التكليف « للذين في قلوبهم مرض » أي شك ونفاق وقلة معرفة « والقاسية قلوبهم » يعني من قسى قلبه عن اتباع الحق . وقيل : هم الظالمون .

ثم اخبر تعالى « إن الظالمين » لنفوسهم « لفي شقاق بعيد » أي مشاقة

بعيدة من الله تعالى ، وبين انه يفعل ذلك « ليعلم الذين أوتوا العلم » بالله وصفته وأن أفعاله صواب « انه الحق من ربك » فيصدقوا به « فتخبت له قلوبهم » أي تطمئن اليه وتسكن . وبين ان الله تعالى يهدي من يؤمن الى صراط مستقيم ، بأن يلطف له ما يعلم انه يهتدي عنده « الى صراط مستقيم » .

ثم قال « ولا يزال الذين كفروا في مرية منه » يعني من القرآن . ومعناه الاخبار عمن علم الله تعالى من الكفار انهم لا يؤمنون بالآية خاصة . وهو قول ابن جريج إلا أن ﴿ تأتيهم الساعة ﴾ يعني القيامة ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة . وعلى غفلة ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ قال الضحاك : هو عذاب يوم القيامة . وقال مجاهد وقتادة : هو عذاب يوم بدر . وقيل معنى ﴿ عقيم ﴾ أي لا مثل له في عظم امره لقتال الملائكة قال الشاعر :

عقم النساء بأن يلدن شبيهه ... إن النساء بمثله لعقيم (١)

قوله تعالى:

﴿ اَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ

(١) البيت في مجمع البيان ٤ / ٩٢

حَلِيمٌ (٥٩) ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (٦٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن عامر « ثم قتلوا » بالتشديد . الباقون بالتخفيف . من شدد أراد التكثير . ومن خفف ، فلأنه يحتمل القليل والكثير .

يقول الله تعالى إن الملك فى اليوم الذي وصفه بأنه « عقيم » وانه لا مثل له فى عظم الاهوال ، فيه الملك لله تعالى وحده . لاملك لاحد معه . وانما خص ذلك به، لأن فى الدنيا قد ملك الله تعالى أقواماً أشياء كثيرة . والملك اتساع المقدور لمن له تدبير الأمور ، فالله تعالى يملك الأمور لنفسه ، وكل مالك سواه ، فانما هو مملك له بحكمه ، اما بدليل السمع او بدليل العقل .

وقوله ﴿ يحكم بينهم ﴾ أي يفصل فى ذلك اليوم بين الخلائق ، وينصف بينهم فى الحكم ، والحكم الخبر بالمعنى الذي تدعو اليه الحكمة ، ولهذا قيل: الحكم له ، لأن كل حاكم غيره ، فانما يحكم باذنه واعلام من جهته إما من جهة العقل او جهة السمع .

ثم اخبر تعالى ان ﴿ الذين آمنوا ﴾ اي صدقوا بوحدانيته ، وصدقوا أنبياءه ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ التي أمر الله بها انهم ﴿ في جنات النعيم ﴾ منعمين فيها . ﴿ وإن الذين كفروا ﴾ اي جحدوا ذلك ﴿ وكذبوا ﴾ بآيات الله ، فان لهم عذاباً مهيناً ، يهينهم ويذلهم . والهوان الاذلال بتصغير القدر ، ومثله الاستخفاف والاحتقار ، أهانه يهينه إهانة فهو مهان مذلل .

وقيل نزلت الآية فيقوم من المشركين أتوا جماعة من المسلمين ، فقاتلوهم في الاشهر الحرم بعد ان نهاهم المسلمون عن ذلك ، فأبوا ، فنصروا عليهم . وقيل إن النبي (ص) عاقب بعض المشركين لما مثلوا بقوم من اصحابه يوم أحد .

وقوله ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ﴾ يعني الذين خرجوا من ديارهم واوطانهم بغضاً للمشركين الذين كانوا يؤذونهم بمكة ﴿ ثم قتلوا او ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴾ يعني الجنة ﴿ وان الله لهو خير الرازقين ﴾ ثم اقسم تعالى انه ليدخلن هؤلاء المهاجرين في سبيل الله الذين قتلوا ﴿ ليدخلنهم مدخلا يرضونه ﴾ ويؤثرونه يعني الجنة ، وما فيها من انواع النعيم . وقرأ نافع « مدخلا » بفتح الميم ، يريد المصدر او اسم المكان ، وتقديره : ليدخلنهم فيدخلون مدخلا يرضونه أو مكاناً يرضونه . والباقون بضم الميم وهو الأجود ، لانه من ادخل يدخل مدخلا لقوله « وأدخلني مدخل صدق » (١) وإن الله لعليم بأحوالهم ، حليم عن معاجلة الكفار بالعقوبة .

وقوله « ذلك ومن عاقت بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله » قيل نزلت فى قوم من المشركين لقوا جماعة من المسلمين . فقاتلوهم في الاشهر الحرم بعد أن نهاهم المسلمون عن ذلك ، فأبوا . فنصروا عليهم . وقيل : إن النبي (ص) عاقب بعض المشركين لما مثلوا بقوم من أصحابه يوم أحد ، والأول لم يكن عقوبة ، وانما هو كقولهم الجزاء بالجزاء . والاول ليس بجزاء ، وانما هو لازدواج الكلام .

قوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (٦١) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٨٠

لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦٥) خمس آيات بلاخلاف

قرأ أهل العراق إلا ابا بكر « وإن ما يدعون » بالياء . الباقون بالتاء . معنى ذلك ان « ذلك » الأمر « بأن الله يولج الليل في النهـار » أي يدخل الليل على النهـار ، والايلاج الادخال باكراه ، ولج يلج ولوجاً وأولج إيلاجاً واتلج اتلاجاً . وانما قال يولج الليل في النهار ـ ههنا ـ لأن ذلك يقتضي أن ذلك صادر من مقتدر لولاه لم يكن كذلك . وقيل : معنى « يولج الليل فى النهار » أن يدخل ما انتقص من ساعات الليل في النهار ، وما انتقص من ساعات النهـار فى الليل . ومعنى « وإن الله سميع بصير » ـ ههنا ـ أنه يسمع ما يقول عباده في هذا بصير به ، لايخفى عليـه شيء منه حتى يجازي به .

وقوله « بأن الله هو الحق » وصفه بأنه الحق يحتمل أمرين :

احدهما ـ انه ذو الحق في قوله وفعله .

الثاني ـ انه الواحد فى صفات التعظيم التي من اعتقدها ، فهو محق .

وقوله « وإن ما يدعون من دونه هو الباطل » من قرأ بالتاء خاطب بذلـك الكفار . ومن قرأ بالياء أخبر عنهم بأن ما يدعونه من دون الله من الاصنام والاوثان هو الباطل ، على الحقيقة « وإن الله هو العلي الكبير » فالعلي القـادر الذي كل شيء سواه تحت معنى صفته ، بأنه قادر عليه ، ولا يجوز وصفه بـ (رفيع) على هذا المعنى ،

لان صفة علي منقولة اليه ، ولم تنقل صفة (رفيع) ووصفه بأنه الكبير ، يفيد أن كل شيء سواه يصغر مقداره عن معنى صفته ، لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء ،العالم الذي لا يخفى عليه شيء .

وقوله « ألم تر » خطاب للنبي (ص) والمراد به جميع المكلفين يقول الله لهم ألم تعلموا « أن الله أنزل من السماء ماء » يعني غيثاً ومطراً « فتصبح الارض » بذلك « مخضرة » بالنبات « ان الله لطيف خبير » فاللطيف معناه أنه المختص بدقيق التدبير الذي لا يخفى عنه شيء ولا يتعذر عليه، فهو لطيف باستخراج النبات من الارض بالماء، وابتداع ما يشاء « خبير » بما يحدث عنه وما يصلح له. وقوله « فتصبح الارض » انما رفع (فتصبح) لانه لم يجعله جواباً للاستفهام ، لان الظاهر وإن كان الاستفهام فالمراد به الخبر ، كأنه قال : قد رأيت أن الله ينزل من السماء ماء ، فتصبح الارض مخضرة ، إلا انه نبه على ما كان رآه ليتأمل ما فيه قال الشاعر :

ألم تسأل الربع القواء فينطق وهل يخبرنك اليوم بيداً سملق(١)

لان المعنى قد سألته فنطق . ثم أخبر تعالى أن « له » ملك « ما فى السماوات وما فى الارض » لا ملك لاحد فيه . ومعناه إن له التصرف في جميع ذلك لا اعتراض عليه . وأخبر « إن الله هو الغني الحميد » فالغني هو الحي الذي ليس بمحتاج ، فهو تعالى المختص بأنه لو بطل كل شيء سواه لم تبطل نفسه القادرة العالمة . الذي لا يجوز عليه الحاجة بوجه من الوجوه ، وكل شيء سواه يحتاج اليه ، لانه لولاه لبطل ، لانه لا يخلو من مقدوره أو مقدور مقدوره . و (الحميد) معناه الذي يستحق الحمد على أفعاله ، وهو بمعنى انه محمود .

---

(١) تفسير الطبري ١٧ / ١٣٤

ثم قال « ألم تر » يامحمد والمراد جميع المكلفين « ان الله سخر لكم ما في الأرض » من الجماد والحيوان اي قد ذلله لكم ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وينقاد لكم ، على ما تؤثرونه . وان الفلك تجري في البحر بأمر الله اي بفعل الله ، لانها تسير بالريح ، وهو تعالى المجري لها و﴿يمسك السماء أن تقع على الارض﴾ أي يمنعها من الوقوع على الارض ، ولا يقدر على إمساكها أحد سواه مع عظمها وثقلها « الا باذنه » اي لا تقع السماء على الارض إلا اذا أذن الله في ذلك بأن يريد ابطالها واعدامها . ومعنى (أن تقع) ألا تقع . وقيل معناه كراهية أن تقع . ثم أخبر انه تعالى ﴿ بالناس لرؤف رحيم ﴾ أي متعطف منعم عليهم .

قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٧٠) خمس آيات بلا خلاف .

لما ذكر الله تعالى انه الذي سخر للخلق ما في الارض من الحيوان وذللها لهم واجرى

الفلك في البحر ، كنا عنه بأن قال « وهو الذي أحياكم » ايضاً بعد ان لم تكونوا كذلك ، يقال أحياه الله ، فهو محي له « ثم يميتكم » بعد هذا الاحياء « ثم يحييكم » يوم القيامة للحساب إما الى الجنة ، وإما الى النار ثم اخبر عن الانسان بانه (كفور) أي جحود لنعم الله بما فعل به من انواع النعم ، وجحوده ما ظهر من الآيات الدالة على الحق في كونه قادراً على الاحياء والاماتة . والاحياء بعدها ، لا يعجزه شيء من ذلك .

ثم اخبر تعالى أن « لكل أمة منسكاً » أي مذهباً « هم ناسكوه » أي يلزمهم العمل به . وقيل : المنسك جميع العبادات التي أمر الله بها . وقيل : المنسك الموضع المعتاد لعمل خير او شر ، وهو المألف لذلك . ومناسك الحج من هذا ، لأنها مواضع العبادات فيه ، فهي متعبدات الحج . وفيه لغتان فتح السين ، وكسرها . وقال ابن عباس «منسكاً» اي عيداً . وقال مجاهد وقتادة : متعبداً في إراقة الدم بمنى ، وغيرها .

وقوله « فلا ينازعنك في الامر » لانهم كانوا يقولون : أتأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله . وقيل « لا ينازعنك في الأمر » نهي لهم عن منازعة النبي (ص) وقيل : نهي له لان المنازعة تكون من اثنين ، فاذا وجه النهي الى من ينازعه ، فقد وجه اليه . وقرىء « فلا ينزعنك » والمعنى لا يغلبنك على الامر .

ثم قال لنبيه (ص) « وادع الى ربك » يا محمد « انك لعلى هدى مستقيم » أي على طريق واضح . ثم قال « وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون » معناه إن جادلوك على وجه المراء والتعنت الذي يعمله السفهاء ، فلا تجادلهم على هذا الوجه ، وادفعهم بهذا القول . وقل « الله أعلم بما تعملون » وهذا أدب من الله حسن ، ينبغي أن يأخذ به كل احد « الله يحكم بينكم » أي يفصل بينكم « يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » من توحيد الله وصفاته واخلاص عبادته ، وألا نشرك به غيره .

ثم قال لنبيه (ص) « ألم تعلم » والمراد به جميع المكلفين « أن الله يعلم ما فى السماء والارض » من قليل وكثير، لا يخفى عليه شيء من ذالك « إن ذلك في كتاب » يعني مثبتاً في اللوح المحفوظ الذي أطلع عليه ملائكته « إن ذلك على الله يسير » أي سهل غير متعذر .

قوله تعالى:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ ٱللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ٱللهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلٰئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٧٥) خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن حال الكفار الذين يعبدون مع الله الاصنام، والاوثان:

انهم « يعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطاناً » أي لاحجة ولا برهاناً ، وإنما قيل للبرهان سلطان ، لانه يتسلط على انكار المنكر ، فكل محق في مذهبه ، فله برهان يتسلط به على الانكار لمذهب خصمه .

وقوله « ومااليس لهم به علم » معناه ولا هو معلوم لهم ايضاً من جهة الدلالة ، لان الانسان قد يعلم صحة أشياء يعمل بها من غير برهان أدى اليها كعلمه بوجوب شكر المنعم ، ووجوب رد الوديعة ، ومدح المحسن وذم المسيء ، وغير ذلك ، مما يعلمه بكمال عقله ، وإن لم يكن معلوماً بحجة ، فلذلك قال « وما ليس لهم به علم » .

ثم اخبر انه ليس « للظالمين » أنفسهم بارتكاب المعاصي وترك المعرفة بالله من ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله إذا نزل بهم .

ثم اخبر تعالى عن حال الكفار وشدة عنادهم ، فقال « واذا تتلى عليهم آياتنا » يعني من القرآن وغيره من حجج الله تعالى الظاهرات البينات « تعرف » يا محمد « في وجوه الذين كفروا » بنعم الله ، وجحدوا ربوبيته « المنكر » من القول « يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا » فالسطوة اظهار الحال الهائلة للاخافة ، يقال : سطا عليه سطوة وسطواً وسطا به ايضاً فهو ساط . والانسان مسطو به . والانسان يخاف سطوات الله ونقماته . والسطوة والاستطالة والبطشة نظائر في اللغة . والمعنى إن هؤلاء الكفار إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم ، قاربوا أن يوقعوا بمن يتلوها المكروه .

ثم قال لنبيه (ص) « قل » يا محمد « أفأنبؤكم بشر من ذلكم » أي بشر من اعتدائكم على التالي لآيات الله . وقيل : بشر عليكم مما يلحق التالي منهم . ثم ابتدأ فقال « النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير » وقيل التقدير كأن قائلا قال ما ذلك الشر ؟ فقيل « النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير » اي بئس

الموضع ، وكان يجوز في (النـار) الجر على البدل من (ذلـكم) لأنه في موضع جر بـ (من) وكان يجوز النصب بمعنى أعرفكم شراً من ذلكم النار ، والذي عليه القراء الرفع . ثم اخبر تعالى عن النار بأن الله وعدها الذين كفروا وبئس المرجع .

ثم خاطب جميع المكلفين من الناس ، فقال « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له » يعني ضرب مثل ، جعل ، كقولهم ضرب على أهل الذمة الجزية ، لأنه كالتثبيت شبهه بالضرب المعروف ، وكذلك الضربة . والمثل : شبه حال الثاني بالأولى في الذكر الذي صار كالعلم . ومن حـكم المثل أن لا يتغير ، لأنه صار كالعـلم . كقولهم « أطري انك فاعلة » .

ثم قال « ان الذين تدعون من دون الله » قرأ يعقوب بالياء على الخبر الباقون بالتاء على الخطاب ، كقوله « يا أيها الناس » . والذي عبدوه من دون الله الأصنام والاوثان « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » على ذلك وعاون بعضهم بعضاً مع صغر الذباب ، فكيف بالعظيم من الاشياء . ثم زاد في ضرب المثل ، فقال « وإن يـسلبهم الذباب شيئاً . . . » يعني هؤلاء الكفار ، ومن جرى مجراهم لو سلبهم الذباب شيئاً وطار ، لما قدروا على استنقاذه منه وتخليصه من يديه . ثم اخبر تعالى بانه « ضعف الطالب » يعني من الأوثان « والمطلوب » من الذباب - وهو قول ابن عباس - ولم يأت بالمثل ، لأن في الكلام دلالة عليه ، كأنه قال يا أيها الناس مثلكم مثل من عبد آلهة اجتمعت لأن تخلق ذباباً ، فلم يقدروا عليه ، وإن يسلبها الذباب شيئاً ، فلم تستنقذه منه . ومثل ذلك في الحذف قول امرئ القيس :

وجـــدك لو شيء اتانا رسوله   سواك ولكن لم نجد عنك مدفعاً (١)

وتقديره لو أتانا رسول غيرك لرددناه وفعلنا به ، ولكن لم نجد عنك مدفعاً ،

---

(١) شرح ديوانه ١٣١ وقد مر في ٥/٥٢٩ و ٦/٢٥٣ مع اختلاف يسير

فاختصر لدلالة الكلام عليه . وقال قوم : اراد أن الكافرين جعلوا لي الامثال من الاصنام التي عبدوها فاستمعوا لما ضرب لي من الامثال . ثم أخبرعنها كيف هي ، وكيف بعدها مما جعلوه مثلا ، ويدل عليه قوله « ما قدروا الله حق قدره » واختلفوا في معنى « ما قدروا الله حق قدره » فقال الحسن : معناه ما عظموه حق عظمته ، إذ جعلوا له شريكاً في عبادته . وهو قول المبرد والفراء . وقال قوم : معناه ما عرفوه حق معرفته . وقال آخرون : ما وصفوه حق صفته . وهو مثل قول أبي عبيدة . قال : يقول القائل : ما عرفت فلاناً على معرفته ، أي ما عظمته حق تعظيمه .

وفي ذلك دلالة على أن من جوز عبادة غير الله فهو كافر ، وكذلك من جوز ان يكون المنعم - بخلق النفس ، والبصر ، والسمع ، والعقل - غير الله ، فهو كافر بالله .

ثم اخبر تعالى عن نفسه ، فقال « ان الله لقوي » أي قادر على ما يصح ان يكون مقدوراً « عزيز » لا يقدر احـد على منعه .

ثم قال تعالى « الله يصطفي من الملائكة رسلا » أي يختـار منهم من يصلح للرسالة « ومن الناس » أي ويختار من الناس ايضاً مثل ذلك . وفي ذلك دلالة على انه ليس جميع الملائكة رسلا ، لأن (من) للتبعيض عند اهل اللغة ، وكما ان الناس ليس جميعهم أنبياء فكذلك الملائكة .

وقوله « إن الله سميع بصير » أي يسمع جميع ما يدرك بالسمع من الاصوات ودعاء من يدعوه خالصاً ، ودعاء من يدعو على وجه الاشراك به بصير بأحوالهم .

قوله تعالى

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ٧٦)

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (٧٨) ثلاث آيات بلا خلاف

لما اخبر الله تعالى عن نفسه بأنه « سميع بصير » وصف أيضاً نفسه بأنه « يعلم ما بين أيديهم » يعني ما بين أيدي الخلائق من القيامة وأحوالها ، وما يكون فى مستقبل أحوالهم ، « وما خلفهم » أي وما يخلفونه من دنياهم . وقال الحسن : يعلم ما بين أيديهم : أول اعمالهم ، وما خلفهم آخر أعمالهم « واليه ترجع الامور » يعني يوم القيامة ترجع جميع الأمور الى الله تعالى بعد ان كان ملكهم فى دار الدنيا منها شيئاً كثيراً .

ثم خاطب تعالى المؤمنين فقال « يا ايها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا » أي صلوا ، على ما امرتكم به ، من الركوع والسجود فيها ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ الذي خلقكم ولا تشركوا به شيئاً ﴿ وافعلوا الخير ﴾ والخير النفع الذي يجل موقعه ، وتعم السلامة به ، ونقيضه الشر ، وقد أمر الله بفعل الخير ، ففعله طاعة له .

وقوله ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي افعلوا الخير لكي تفوزوا بثواب الجنة وتتخلصوا من عذاب النار . وقيل معناه افعلوه على رجاء الصلاح منكم بالدوام على افعال الخير واجتناب المعاصي والفوز بالثواب .

ثم أمرهم بالجهاد فقال ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ قال ابن عباس : معناه

جاهدوا المشركين ، ولا تخافوا فى الله لومة لائم ، وقال الضحاك : معناه اعملوا بالحق لله حق العمل .

وقوله ﴿ هو اجتباكم ﴾ فالاجتبا هو اختيار الشيء لما فيه من الصلاح . وقيل : معناه اختاركم لدينه ، وجهاد اعدائه . والحق يجتبى ، والباطل يتقى ، ولا بد أن يكون ذلك خطاباً متوجهاً الى من اختاره الله بفعل الطاعات ، دون أن يكون ارتكب الكبائر الموبقات . وإن كان سبق منه جهاد فى سبيل الله .

وقوله ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ معناه لم يجعل عليكم ضيقاً في دينكم ، ولا مالامخرج منه . وذلك أن منه مايتخلص منه بالتوبة ، ومنه ما يتخلص منه برد المظلمة ، وليس في دين الاسلام مالا سبيل الى الخلاص من عقابه . وفيه من الدليل - كالذي فى قوله ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ (١) - على فساد مذهب المجبرة في العدل . ومثله قوله ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ (٢)

وقوله ﴿ ملة ابيكم ابراهيم ﴾ يحتمل نصب (ملة) وجهين :

احدها - اتبعوا ﴿ ملة أبيكم ﴾ وإلزموا ، لان قبله ﴿ جاهدوا في الله حق جهاده ﴾

والاخر - كملة أبيكم إلا انه لما حذف حرف الجر اتصل الاسم بالفعل فنصب . وقال الفراء : نصبه بتقدير : وسع ملتكم ، كما وسع ملة أبيكم . وقوله ﴿ ملة أبيكم ابراهيم ﴾ معناه انه يرجع جميعهم الى ولادة ابراهيم ، وافاد هذا ان حرمة ابراهيم على المسلمين كحرمة الوالد على الولد ، كما قال ﴿ وازواجه امهاتهم ﴾ (٣) - في قول الحسن .

وقوله « هو سماكم المسلمين » قال ابن عباس ومجاهد : الله سماكم المسلمين ، فهو كناية عن الله . وقال ابن زيد : هو كناية عن ابراهيم وتقديره ابراهيم سماكم المسلمين

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٠ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٦

(٣) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٦

بدليل قوله « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » (١) .

وقوله « من قبل » اي من قبل القرآن . ـ في قول مجاهد ـ وقيل: ملة ابراهيم داخلة في ملة محمد (ص) ، فلذلك قال « ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل . وفي هذا » يعني القرآن . وقال السدي : معناه : وفي هذا الأوان ليكون الرسول شهيداً عليكم بطاعة من أطاع في تبليغه ، وعصيان من عصى « وتكونوا شهداء على الناس » بأعمالهم في ما بلغتوهم من كتاب ربهم وسنة نبيهم . ثم أمرهم باقامة الصلاة ، فقال « فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله » أي بدين الله الذي لطف به لعباده ـ في قول الحسن ـ وقيل : معناه امتنعوا بالله من أعدائكم « هو مولاكم » أي أولى بكم، وبتدبيركم ، وتصريفكم « فنعم » ما لكم « المولى » يعني الله « ونعم النصير » أي الناصر ، والدافع عن الخلق الله تعالى . وقيل : « نعم المولى » من لم يمنعكم الرزق لما عصيتموه « ونعم النصير » حين أعانكم لما أطعتموه .

وروي أن الله أعطى هذه الأمة ثلاث اشياء لم يعطها أحداً من الامم : جعلها الله شهيداً على الامم الماضية ، وقال لهم « ما جعل عليكم في الدين من حرج » (٢) وقال ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ (٣) .

* * *

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٢٨ (٢) سورة ٢٢ الحج آية ٧٨

(٣) سورة ٤٠ المؤمن آية ٦٠

٢٣- سورة المؤمنون

مكية بلا خلاف، وهو قول قتادة ومجاهد : وهي مئة وثمان عشرة آية في الكوفي، وتسع عشرة في البصري، والمدنيين، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، إلا ما روي أنهم كانوا يجيزون الالتفات يميناً وشمالا وإلى ما وراء نسخ ذلك بقوله « في صلاتهم خاشعون » فلم يجيزوا أن ينظر المصلي إلا الى موضع سجوده.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ (٤)
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْعَادُونَ ﴾ (٧) سبع آيات

يقول الله تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ أي فازوا بثواب الله، الذين صدّقوا

بالله واقروا بوحدانيته وصدقوا رسله . وقيل : معناه ، قد سعدوا ، قال لبيد :

فاعقلي ان كنت لمـــا تعقلي　　ولقد أفلح من كان عقل (١)

وقيل معنى ﴿ أفلح ﴾ بقي أي بقيت أعمالهم الصالحة ، ومنه قولهم (حي على الفلاح) أي على بقاء أعمال الخير ، ومعنى (قد) تقريب الماضي من الحال ، فدل على أن فلاحهم قد حصل بما هم عليه في الحال ، وهذا أبلغ في الصفة من تجريد ذكر الفعل . ثم وصف هؤلاء المؤمنين بأوصاف ، فقال ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ أي خاضعون متذالون لله فيها . وقيل : معناه يسعون،مقبلون على الصلاة بالخضوع والتذلل لربهم . وقيل : معناه خائفون . وقال مجاهـــد : هو غض الطرف وخفض الجناح . وقيل : أن ينظر المصلي الى موضع سجوده . وكان النبي (ص) يرفع بصره الى السماء . فلما نزلت هذه الآية طأطأ رأسه ، ونظر الى مصلاه . والخشوع في الصلاة هو الخضوع بجمع الهمة لها ، والاعراض عما سواها ، لتدبر ما يجري فيها : من التكبير ، والتسبيح ، والتحميد لله ، وتلاوة القرآن . وهو موقف الخاضع لربه الطالب لمرضاته بطاعاته .

ثم زاد في صفاتهم فقال ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ واللغو هو القول والفعل الذي لا فائدة فيه يعتد بها ، وهو قبيح على هذا الوجه . وقال ابن عباس : اللغو ـ ههنا ـ الباطل . وقال السدي : هو الكذب . وقال الكلبي هو الحلف . وحكي النقاش : انهم نهوا عن سباب الكفار إذا سبوهم ، وعن محادثتهم .

ثم قال ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ أي يؤدون ما يجب عليهم في أموالهم من الصدقات ، وسميت زكاة ، لأنه يزكو بها المال عاجلا وآجلا . ثم قال ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ قيل عنى بالفروج ـ ههنا ـ فرج الرجل خاصة بدلالة قوله ﴿ الا على أزواجهم

(١) مر هذا البيت في ١ / ٥٩ من هذا الكتاب

أو ما ملكت ايمانهم ﴾ ثم استثنى من الحافظين لفروجهم من لا يحفظ فرجه عن زوجته، أو ما تملك يمينه من الاماء على مـا أباحه الله له ، لأن التزويج ينبغي أن يكون ، على وجـه اباحة الله تعالى . و (ملك اليمين) في الآية المراد به الاماء لأن الذكور من المماليك لاخلاف في وجوب حفظ الفرج منهم . ومن ملك الأيمان ، لا يجمع بين الاختين في الوطىء ، ولا بين الأم والبنت . وكل ما لم يجز الجمع بينهم في العقد ، فلا يجوز الجمع بينهم في الوطىء بملك اليمين . ولا يخرج من الآية وطؤ المتمتع بها، لأنها زوجة عندنا ، وإن خالف حكمها حكم الزوجات في احكام كثيرة ، كما أن حكم الزوجات مختلف في نفسه . وذكره تعالى هذه الاوصاف ومدحـه عليها يكفي ويغني عن الأمر بها ، لما فيها من الترغيب كالترغيب في الأمر ، وأنها مرادة ، كما أن المأمور به مراد ، وكلها واجب .

وانما قيل للجارية (ملك يمين) ولم يقل في الدار (ملك يمين) لأن ملك الجارية أخص من ملك الدار إذ له نقض بنية الدار ، وليس له نقض بنية الجارية ، وله عارية الدار ، وليس له عارية الجارية ، حتى توطأ بالعارية . فلذلك خص الملك في الأمة ، وانمـا قال « إلا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين » مع تحريم وطئها على وجوه : كتحريم وطىء الزوجة . والأمة في حال الحيض ، ووطىء الجارية إذا كان لها زوج ، أو كانت في عدة من زوج . وتحريم وطىء المظاهرة قبل الكفارة . لأن المراد بذلـك على ما يصح ويجوز ، مما بينه الله ، وبينه رسوله في غير هذا الموضع ، وحذف لأنه معلوم ، وهي من الامور العارضة في هذه الوجوه ايضاً ، فان من وطأ الزوجة أو الأمة في الاحوال التي حرم عليه وطؤها ، فانه لا يلزمه اللوم من حيث كانت زوجة أو ملك يمين وإنما يستحق اللوم من وجه آخر . واللوم والذم واحد ، وضدهما الحمد والمدح .

ثم قال تعالى « فمن ابتغى وراء ذلك » ومعناه من طلب سوى ذلك يعني الزوجية، وملك اليمين، فهو عاد. والابتغاء والبغية الطلب. والبغاء طلب الزنا، والباغي طالب الاعتداء. و (العادون) هم الذين يتعدون الحلال الى الحرام. وقوله « وراء » - ههنا - قيل: معناه غير. وقال الفراء معناه « إلا على أزواجهم » إلا من أزواجهم « أو ما ملكت أيمانهم » في موضع خفض.

قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١١) أربع آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وحده « لأمانتهم » على التوحيد. الباقون « لأماناتهم » على الجمع، لقوله « إن الله يأمركم أن تؤدوا الآمانات الى أهلها » (١) وقرأ ابن كثير ذلك اختياراً ليطابق قوله ﴿ وعهدهم ﴾. وقرأ حمزة والكسائي ﴿ على صلاتهم ﴾ على التوحيد، لان الصلاة اسم جنس يقع على القليل والكثير، فكذلك قوله ﴿ أمانتهم ﴾ والاصل فيه المصدر كالعمل. الباقون ﴿ صلواتهم ﴾ على الجمع، ومن جمع جعله بمنزلة الاسم، لاختلاف انواعها. لقوله ﴿ حافظوا على الصلوات ﴾ (٢) قال ابو علي النحوي: الجمع أقوى، لأنه صار اسماً شائعاً شرعياً، وقد بينا الوجه فيه.

ثم زاد الله تعالى في صفات المؤمنين الذين وصفهم بالفلاح فقال ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ ومعناه الذين يراعون الأمانات التي يؤتمنون عليها ولا

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٥٧　　(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٣٨

يخرنون فيها ، ويحفظون ما يعاهدون عليه من الأيمان والنذور ، فـلا يحنثون ولا ينكثون . والراعات قيـــام الراعي باصلاح ما يتولاه . ثم قال ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ أي لا يضيعونها . ويواظبون على أدائها . وفي تفسير أهل البيت إن معناه : الذين يحافظون على مواقيت الصلوات فيؤدونها في أوقاتها ، ولا يؤخرونها حتى يخرج الوقت . وبه قال مسروق وجماعة من المفسرين . وانما أعيـــد ذكر الصلاة ـ ههنا ـ لأنه أمر ـ ههنا ـ بالمحافظة عليها ، كما امر بالخشوع فيها ، فيما تقدم ، كما أعيد ذكر الفلاح ، لانه يجب بالخصال المذكورة بعده كما وجب في ـ سورة البقرة ـ (١) بالخصال المذكورة قبله .

ثم اخبر تعالى عمن اجتمعت فيه هذه الخصال ، فقال « أولئك هم الوارثون » وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ انه يؤل أمره الى النعيم في الجنة ، ويملك ما يعطيه الله ، كما يؤل أمر الوارث

الثاني ـ روى أبو هريرة عن النبي (ص) أنه قال (ما منكم أحـــد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار ، فان مات على الضلال ورث منزله أهل الجنة ، وإن مات على الايمان ، ورث هو منزل اهل النار) . وقال مجاهد : يهدم منزله في النار .

ثم وصف الله تعالى الوارثين ، فقـال ﴿ الذين يرثون الفردوس هم فيهـا خالدون ﴾ وحقيقة الارث ملك ما يتركه الميت من بعده ، ممن هو أولى به في حكم الله ، فهذا أصله ، ثم يشبه به ، فيقال : ورث فلان علم فلان أي صار اليه ، ومعنى ﴿ يرثون الفردوس ﴾ اي يصيرون اليها بعد الاحوال المتقدمة . والفردوس البستان الذي يجمع محاسن النبات . وقيل اصله رومي . وقيل : بل هو عربي ووزنه (فعلول) وقيل الفردوس البستان . الذي فيه كرم قال جرير :

---

(٣) انظر ١ / ٤٨ في تفسير آية ٥ من سورة البقرة

ما بعد يبرين من باب الفراديس (١)

وقال الجبائي ﴿ يرثون الفردوس ﴾ على التشبيه بالميراث المعروف من جهة الملك الذي ينتهي اليه أمره .

قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (١٦) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن عامر وابو بكر عن عاصم « عظماً » في الموضعين على التوحيد . الباقون على الجمع . فمن وحد ، فلأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير . ومن جمع ، فلقوله « أإذا كنا عظاماً ورفاتا » (٢) وقوله « أإذا كنا عظاماً نخرة » (٣) وقوله « من يحيي العظام » (٤) وما أشبه ذلك .

---

(١) ديوانه ٢٥٠ وصدره : (فقلت للرحل إذ جد الرحيل بنا) ويبرين اسم بلد من بلاد بني سعد . وباب الفراديس بدمشق .

(٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٤٩ ، ٩٨ (٣) سورة ٧٩ النازعات آية ١١

(٤) سورة ٣٦ يس آية ٧٨

يقول الله تعالى على وجه القسم، انه : خلق « الانسان من سلالة من طين » فقال ابن عباس ومجاهد : المراد بالانسان كل انسان ، لانه يرجع إلى آدم الذي خلق من سلالة . وقال قتادة : المراد بالانسان آدم ، لانه استل من أديم الأرض . وقيل : استل من طين . والسلالة صفوة الشيء التي تخرج منه ، كأنها تستل منه . والسلالة صفوة الشيء التي تجري قبل ثفله ، وكدره ، لانها متقدمة على ثفله ، كتقديم السلف والأجر على الآخرة . وقد تسمى النطفة سلالة والولد أيضاً سلالة وسليلة . والجمع سلالات ، وسلائل ، قال الشاعر :

وهل كنت إلا مهرة عربية سليلة أفراس تجللها بغل (١)

وقال آخر :

فجاءت به عضب الاديم غضنفرا سلالة فرج كان غير حصين (٢)

وقال آخر :

يقذفن في أسلابها بالسلائل (٣)

وقال آخر :

إذا نتجت منها المهارى تشابهت على القود لا بالانوف سلائله (٤)

وفي الآية دلالة على أن الانسان هو هذا الجسم المشاهد ، لأنه المخلوق من نطفة ، والمستخرج من سلالة ، دون ما يذهب اليه قوم : من انه الجوهر البسيط ، او شيء لا يصح عليه التركيب والانقسام ، على ما يذهب اليه معمر وغيره .

---

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ١٠٩ والطبرى ١٨/٦

(٢) تفسير الطبري ١٨ \ ٦ وتفسير القرطبي ١٢ / ١٠٩ وقد نسبه لحسان ، وروايته (حملت) بدل (فجاءت) (٣ ، ٤) تفسير الطبرى ١٨/٦

وقوله « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » المعنى جعلنا الانسان، وهو من ولد من نسل آدم « نطفة » وهي القطرة من ماء المني التي يخلق الله منها الحيوان، على مجرى العادة فى التناسل، فيخلق الله من نطفة الانسان إنساناً ومن نطفة كل حيوان ما هو من جنسه. ومعنى « مكين » أي مكين لذاك، بأن هيىء لاستقراره فيه الى بلوغ أمده الذي جعل له.

وقوله « ثم خلقنا النطفة علقة » فالعلقة القطعة من الدم إذا كانت جامدة، فبين الله تعالى أنه يصير تلك النطفة علقة، ثم يجعل العلقة مضغة، وهي القطعة من اللحم. ثم اخبر انه يجعل المضغة « عظاماً »، وقرىء « عظماً » وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر عن عاصم. فمن قرأ « عظاماً » أراد ما في الانسان من أقطاع العظم. ومن قرأ « عظماً » فلأنه اسم جنس يدل على ذلك.

ثم بين تعالى انه يكسو تلك « العظام لحماً » ينشئه فوقها، كما تكسى الكسوة. وقوله ثم « انشأناه خلقاً آخر » يعني بنفخ الروح فيه - فى قول ابن عباس ومجاهد - وقيل: نبات الأسنان والشعر، واعطاه العقل والفهم. وقيل « خلقاً آخر » معناه ذكر او انثى. ثم قال « فتبارك الله أحسن الخالقين » ومعنى (تبارك) استحق التعظيم بأنه قديم لم يزل، ولا يزال، وهو مأخوذ من البروك، وهو الثبوت. وقوله « احسن الخالقين » فيه دلالة على ان الانسان قد يخلق على الحقيقة، لانه لو لم يوصف بخالق إلا الله، لما كان لقوله « أحسن الخالقين » معنى. وأصل الخلق التقدير، كما قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ   ـض القوم يخلق ثم لا يفري (١)

ثم خاطب الخلق، فقال ﴿ ثم إنكم ﴾ معاشر الخلق بعد هذا الخلق والاحياء

(١) مر تخريجه في ٦ / ٣٦٩

﴿ لميتون ﴾ أي تموتون عند انقضاء آجالكم . يقولون لمن لم يمت ويصح عليه الموت : ميت ومائت . ولا يقولون لمن مات : مائت . وكذلك فى نظائره سيد وسائد .

وقوله ﴿ ثم إنكم يوم القيامه تبعثون ﴾ أي تحشرون إلى الموقف والحساب والجزاء بعد أن كنتم أمواتاً ، ولا يدل ذلك على أنه لا يحييهم فى القبور للمساءلة ، لان قوله : انه يميتهم عند فناء آجالهم ويبعثهم يوم القيامة ، لا يمنع من أن يحييهم فيما بين ذلك ، ألا ترى أن القائل لو قال : دخلت بغداد فى سنة مئة ، وخرجت منها فى سنة عشر ومئة ، لم يدل على أنه لم يخرج فيما بينهما وعاد ، فكذلك الآية . على ان الله تعالى اخبر انه أحيا قوماً ، فقال لهم الله موتوا ، ثم أحياهم ، فلا بد من تقدير ما قلناه للجميع . وفيه دلالة على بطلان قول معمر ، والنظام فى الانسان .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾ (٢٠) أربع آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو « سيناء » بكسر السين ، ولم يصرف ، لأنه إسم البقعة . الباقون بفتح السين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « تنبت » بضم التاء

وكسر الباء . الباقون بفتح التاء وضم الباء . من كسر السين من « سيناء » ، فلقوله « طور سينين » (١) والسيناء الحسن ، وكل جبل ينبت الثمار فهو سينين . ومن فتح السين ، فلأنه لغتان . وأصله سرياني ، ومن فتح السين لا يصرفه في المعرفة ولا النكرة ، لأن الهمزة في هذا البناء لاتكون إلا للتأنيث ، ولا تكون للالحاق لأن (فعلال) لا يكون إلا في المضاعف مثل (الزلزال والقلقال) ومن كسر السين ، فالهمزة عنده منقلبة عن الياء ك(علباء ، وحرباء) وهي التي تظهر في قولك (سيناية) لما بنيت للتأنيث . وانما لم يصرف على هذا القول ، وإن كان غير مؤنث ، لأنه جعل اسم بقعة أو ارض ، فصار بمنزلة امرأة سميت ب(جعفر) . ومن ضم التاء من « تنبت » لم يعده بالباء ، وأراد تنبت الدهن . قال ابو علي الفارسي : ويحتمل أن يكون الباء متعلقاً بغير هذا الفعل الظاهر ، وتقدر مفعولا محذوفاً ، وتقديره : تنبت ثمرها وفيها دهن وصبغ . ومن فتح التاء عدى الفعل بالباء . كقولهم : ذهبت بزيد وأذهبت زيداً ، ويجوز أن يكون الباء في موضع الحال ، ولا يكون للتعدي . مثل ما قلناه في الوجه الأول وتقديره تنبت وفيها دهن .

يقول الله تعالى « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » يعني سبع سماوات ، خلقها الله فوق الخلائق ، وسماها طرائق ، لأن كل طبقة طريقة . وقال الجبائي : لأنها طرائق للملائكة ، وقال ابن زيد : الطرائق السماوات الطباق . وقال الحسن : ما بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام وكذلك ما بين السماء والارض .

وقوله « وما كنا عن الخلق غافلين » معناه ما كنا غافلين ان ينزل عليهم ما يحييهم من المطر . ويحتمل أن يكون أراد ما كنا غافلين عن أفعالهم ، وما يستحقون بها من الثواب والعقاب ، بل نحن عالمون بجميع ذلك . وقيل « وما كنا عن الخلق

(١) سورة ٩٥ التين آية ٢

غافلين » بل كنا حافظين للسماء من أن تسقط عليهم ، فتهلكهم . والغفلة ذهاب المعنى عن النفس . ومثله السهو ، فالعالم لنفسه لا يجوز عليه الغفلة ، لأنه لا شيء إلا وهو عالم به . وإنما ذكر الغفلة بعد الطرائق ، لأن من جاز عليه الغفلة عن العباد جاز عليه الغفلة عن الطرائق التي فوقهم ، فتسقط عليهم ، فأمسك الله تعالى طرائق السموات أن تقع على الارض إلا باذنه . ولولا إمساكه لها لم تقف طرفة عين .

وقوله « وأنزلنا من السماء ماء بقدر » أي أنزلنا المطر والغيث بقدر الحاجة ، لا يزيد على قدر الحاجة ، فيفسد ، ولا ينقص عنها فيهلك ، بل وفق الحاجة .

وقوله « فاسكناه فى الارض » يعني انه تعالى أسكن الماء المنزل من السماء في الارض وأثبته في العيون والأودية . وروي عن النبي (ص) أنه قال : (أربعة أنهار من الجنة : النيل ، والفرات ، وسيحان ، وجيحان) .

ثم قال تعالى « وإنا على ذهاب به لقادرون » لا يعجزنا عن ذلك شيء ، ولو فعلناه لهلك جميع الحيوان ، فنبههم بذلك على عظم نعمة الله على خلقه ، بانزال الماء من السماء .

ثم أخبر تعالى انه ينشيء للخلق بذلك الماء ﴿ جنات ﴾ وهي البساتين ﴿ من نخيل وأعناب ﴾ لتنتفعوا بها معاشر الخلق ﴿ لكم فيها فواكه كثيرة ﴾ تتفكهون بها ﴿ ومنها تأكلون ﴾ وانما خص النخيل والاعناب ، لأنها ثمار الحجاز ، من المدنية والطائف . فذكرهم الله تعالى بالنعم التي يعرفونها .

وقوله ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ انما خص الشجرة التي تخرج من طور سيناء ، لما فى ذلك من العبرة ، بأنه لا يتعاهدها إنسان بالسقي ، ولا يراعيها احد من العباد ، تخرج الثمرة التي يكون فيها الدهن الذي تعظم الفائدة وتكثر المنفعة به . وسيناء البركة ، كأنه قال جبل البركة ـ وهو قول ابن عباس ومجاهد ـ وقال قتادة

والضحاك : معناه الحسن . وقال ابن عباس : طور سيناء إسم الجبل الذي نودي منه موسى (ع) وهو كثير الشجر قال العجاج :

دانى جناحيه من الطور فمر (١)

وقيل يحتمل ان يكون (سيناء : فيعالا) من السنة ، وهو الارتفاع . والشجرة قيل انها شجرة الزيتون . وقوله ﴿ تنبت بالدهن ﴾ أي تنبت ثمرها بالدهن . ومن فتح التاء فمعناه تنبت بثمر الدهن . وقيل نبت وأنبت لغتان قال زهير :

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم   قطيناً بها حتى إذا أنبت البقل (٢)

وقيل الباء زائدة ، والمعنى تنبت ثمر الدهن ، كما قال الراجز :

نحن بنو جعدة أرباب الفلج   نضرب بالبيض ونرجوا بالفرج (٣)

أي نرجوا الفرج . وقوله ﴿ وصبغ للآكلين ﴾ أي وجلعناه مما يتأدم به الانسان ويصطبغون به من الزيت والزيتون . والاصطباغ ان يغمز فيه ثم يخرجه ويأكله .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَو

(١) مر هذا الرجز فى ١ / ٢٨٦   (٢) ديوانه (دار بيروت) ٦٢

(٣) تفسير الطبري ١٨ / ١٠ والقرطبي ١٢ / ١١٥

شَاءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ ابن عامر ونافع وابو بكر عن عاصم « نسقيكم » بفتح النون . الباقون بضمها . قال بعضهم : هما لغتان سقيت وأسقيت ، قال الشاعر :

سقى قومي بني مجد واسقى نميراً والقبائل من هلال (١)

ولا يجوز ان يكون المراد في البيت (وأسقى) مثل قوله « وأسقيناكم ماء فراتاً » (٢) لأنه لا يكون قد دعا لقومه وخاصته بدون ما دعا الاجنبي البعيد عنه . والصحيح ان سقيت للشفة واسقيت للانهار والانعام تقول : دعوت الله ان يسقيه . ومن قرأ بضم النون أراد : انا جعلنا مافي ضروعها من الالبان سقياً لكم ، كما يقال: أسقيناهم نهراً إذا جعلته سقياً لهم ، وهذا كأنه اعم ، لان ما هو سقياً لا يمتنع أن يكون للشفة، وما يكون للشفة ـ فقط ـ يمتنع أن يكون سقياً. وماأ سقاناالله من البان الانعام أكثر مما يكون للشفة ومن فتح النون جعل ذلك مختصاً به الشفاه دون المزارع والمراعي ، فلم يكن مثل الماء فى قوله « فأسقينا كموه » (٣) وقوله « وأسقيناكم ماء فراتاً » لأن ذلك يصلح للامرين . ومن ثم قال « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً »(٤) وانما قال ههنا « مما في بطونها » وفي النحل « بطونه » (٥) لانه إذا أنث ، فلا كلام لرجوع ذلك الى الانعام . وإذا ذكر فلأن النعم والانعام بمعنى واحد ، ولئن التقدير:

(١) مر تخريجه فى ٦/٣٩٩
(٢) سورة ٧٧ المرسلات آية ٢٧
(٣) سورة ١٥ الحجر آية ٢٢
(٤) سورة ٧٦ الدهر آية ٢١
(٥) سورة ١٦ النحل آية ٦٦

ونسقيكم من بعض ما فى بطونه .

يقول الله تعالى « وإن لكم » معاشر العقلاء « فى الانعام » وهي الماشية التي تمشي على نعمة في مشيها ، خلاف الحافر فى وطئها ، وهي الابل والبقر والغنم ﴿ لعبرة ﴾ يعني دلالة تستدلون بها على توحيد الله ، وصفاته التي يختص بها دون سواه .

وقوله ﴿ نسقيكم مما فى بطونها ﴾ فالسقي اعطاء ما يصلح للشرب ، فلما كان الله تعالى قد أعطى العباد ألبان الأنعام ، باجرائه فى ضروعها ، وتمكينهم منها ، من غير حظر لها ، كان قد سقاهم اياها .

ثم قال ﴿ ولكم فيها ﴾ يعني في الانعام «منافع كثيرة» ولذات عظيمة ، ببيعها والتصرف فيها وأكل لحومها ، وشرب ألبانها ، وغير ذلك من الانتفاع باصوافها وأوبارها ، واشعارها ، وغير ذلك ﴿ ومنها تأكلون ﴾ يعني اللحم ، وغيره من الألبان ومايعمل منها . ثم قال : ومن منافعها انكم تحملون عليها الاثقال في اسفاركم بأن تركبوها وتحملوا عليها اثقالكم . ومثل ذلك على الفلك ، وهي السفن .

ثم اقسم تعالى انه أرسل نوحاً الى قومه ، يدعوهم إلى الله ، ويقول لهم ﴿ اعبدوا الله ﴾ وحده لا شريك له ، فانه لا معبود لكم غيره . ويحذرهم من عقابه ، ويقول ﴿ أفلا تتقون ﴾ نقمة الله بالاشراك معه فى العبادة . ثم حكى أن الملأ وهم ـ جماعة اشراف قومه ـ الكفار ، قال بعضهم لبعض : ليس نوح هذا إلا مخلوقاً مثلكم ، وبشر مثلكم ، وليس بملك ﴿ يريد أن يتفضل عليكم ﴾ فيسودكم ويترأسكم وان يكون افضل منكم « ولو شاء الله » ما قاله من توحيده واختصاصه بالعبادة ﴿ لانزل ملائكة ﴾ عليكم يدعونكم الى ذلك . ثم قالوا « ما سمعنا بهذا » يعنى بما قال نوح ، وبمثل دعوته . وقيل بمثله بشراً أتى برسالة من ربه فى اسلافنا الماضين وابائنا واجدادنا الذين تقدمونا . ثم قالوا : ﴿ إن هو الا رجل به جنة ﴾ اي ليس

هذا ـ يعنون نوحاً ـ إلا رجلا به جنة أي تعتاده غمرة تنفي عقله حتى يتخيل اليه ما يقوله ويخرجه عن حال الصحة وكمال العقل، فكان اشراف قومه يصدون الناس عن اتباعه، بما حكى الله عنهم، وقالوا: انه لمجنون يأتي بجنونه بمثل هذا. ويحتمل أن يكونوا أرادوا كأنه فى طمعه فيما يدعو اليه مجنون. ثم قال بعضهم لبعض: ﴿تربصوا به حتى حين﴾ اي الى وقت ما، كأنهم قالوا لهم تربصوا به الهلاك وتوقعوه.

قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّانَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ (٣٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿منزلا﴾ بفتح الميم. الباقون بضمها. من فتح الميم جعله اسم المكان أو مصدراً ثلاثياً. ومن ضم الميم، فلانه مصدر (أنزل إنزالا)

لقوله ﴿ انزلني ﴾ ومثله ﴿ ادخلني مـدخل صدق ﴾ (١) ولو قرىء ﴿وأنت خير المنزلين ﴾ لكان صوابًا بتقـدير أنت خير المنزلين به ، كما تقول : أنزلت حوائجي بك .

وقرا حفص عن عاصم ﴿ من كلّ زوجين ﴾ منونًا على تقدير اسلك فيها زوجين اثنين من كل ، اي من كل جنس ، ومن كل الحيوان . كما قال تعالى ﴿ ولكل وجهة ﴾ اي لكل انسان قبلة ﴿ هو موليها (٢) ﴾ لان (كلا ، وبعضاً) يقتضيان مضافاً إليهما . الباقون بالاضافـة إلى (زوجين) ونصب (اثنين) على انه مفعول به

يقول الله تعالى ان نوحًا (ع) لما نسبه قومه الى الجنة ، وذهاب العقل ، ولم يقبلوا منه ، دعا الله تعالى ، فقال « رب انصرني بما كذبون » أي اعني عليهم ، فالنصرة المعونة على العدو . فأجاب الله تعالى دعاءه . وأهلك عدوه ، فأغرقهم ونجاه من بينهم بمن معه من المؤمنين . وقوله « بما كذبون » يقتضي أن يكون دعا عليهم بالاهلاك جزاء على تكذيبهم إياه . فقال الله تعالى انا « أوحينا اليه أن اصنع الفلك » وهو السفينة « باعيننا » وقيل في معناه قولان :

احدها ـ بحيث نراها ، كما يراها الرائي من عبادنا بعينه ، ليتذكر انه يصنعها ، والله (عزوجل) يراه .

الثاني ـ بأعين أوليائنا من الملائـكة والمؤمنين ، فانهم يحرسونك من منع مانع لك .

وقوله « ووحينا » أي باعلامنا إياك كيفية فعلها . وقوله « فاذا جاء أمرنا » يعني إذا جاء وقت اهلاكنا لهم « وفار التنور » روي انه كان جعل الله تعالى علامة

(١) سورة ١٧ الاسراء آية ٨٠   (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٤٨

وقت الاهلاك فوران التنور بالماء . فقال له : اذا جاء ذلك الوقت « فاسلك فيها » يعني في السفينة ، وكان فوران الماء من التنور المسجور بالنـار ، معجزة لنوح (ع) ودلالة على صدقه ،وأ كثر المفسرين على أنها التنور التي يخبز فيها . وروي عن علي (ع) انه أراد طلوع الفجر . ويقال : سلكته وأسلكته ، فيـه لغتان ، كما قال الشاعر :

وكنت لزاز خصمك لم أعرّد وقد سلكوك في يوم عصيب (١)

وقال الهذلي :

حتى إذا أسلكوهم في قتائدة شلاً كما تطرد الجمـالة الشردا (٢)

وقيل: سلكته فيه حذف ، لان تقديره سلكت به فيه . ومعنى « فأسلك فيها » احمل فيها وادخل الى السفينة « من كل زوجين اثنين » أي من كل زوجين ، من الحيوان . اثنين : ذكراً وانثى . والزوج واحد له قرين من جنسه وقوله « واهلك » أي احمل اهلك معهم ، يعني الذين آمنوا معك ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ بالاهلاك منهم ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ اي لا تسلني في الظالمين أنفسهم بالاشراك معي ف ﴿ إنهم مغرقون ﴾ هالكون . ثم قال له ﴿ فاذا استويت انت ﴾ يا نوح ﴿ ومن معك على الفلك ﴾ واستقررتم فيه وعلوتم عليه ، وتمكنتم منه فقل شكراً لله ﴿ الحمد لله الذي نجانا ﴾ وخلصنا ﴿ من القوم الظالمين ﴾ لنفوسهم بجحدهم توحيـد الله . وقل داعياً ﴿ رب أنزلني منزلا مباركاً وانت خير المنزلين ﴾ وقال الجبائي : المنزل المبارك هو السفينة . وقال مجاهد : قال ذلك حين خرج من السفينة . وقال الحسن : كان في السفينة . سبعة انفس من المؤمنين ، ونوح ثامنهم . وقيل : ستة . وقيل :

---

(١) انظر ٦ | ٣٨ ، ٣٢١

(٢) مر تخريجه في ١ / ١٢٨ ، ١٤٩ و ٦ | ٣٢٢ ، ٤٥٩

ثمانين. وقيل: انه هلك كل ما كان على وجه الأرض إلا من نجا مع نوح في السفينة.
وقال الحسن: كان طول السفينة الفاً ومئتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع. وكانت
مطبقة تسير بين ماء السماء وبين ماء الارض.

ثم قال تعالى ﴿ ان في ذلك ﴾ يعني فيما اخبرناك به وقصصنا عليك ﴿ لآيات ﴾
ودلالات للعقلاء، يستدلون بها على توحيد الله وصفاته ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ أي
وإن كنا مختبرين عبادنا بالاستدلال على خالقهم بهذه الآيات، ومعرفته وشكره على
نعمه عليهم، وبعبادته وطاعته وتصديق رسله.

قوله تعالى

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ
رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (٣٢)
وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ
وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مَا هٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ
مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ
إِذاً لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً
أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٣٦) ست
آيات بلا خلاف.

قرأ ابو جعفر ﴿ هيهات هيهات ﴾ بكسر التاء. الباقون بفتحها. ولا خلاف

ترك التنوين فيها .

يقول الله تعالى ﴿ انا انشأنا ﴾ واخترعنا ، من بعد إهلاك قوم نوح بالطوفان ﴿ قوماً آخرين ﴾ والانشاء والاختراع واحد ، وكلما يفعل الله تعالى ، فهو إنشاء واختراع . وقد يفعل الله تعالى الفعل عن سبب بحسب ما تقتضيه المصلحة . والقرن أهل العصر لمقارنة بعضهم لبعض ، ومنه قرن الكبش لمقارنته القرن الآخر ، ومنه القرينة، وهي الدلالة التي تقارن الكلام . وقوله « فارسلنا فيهم رسولا منهم » اخبار منه تعالى انه أرسل رسولا في القرن الذي انشاهم من بعد قوم نوح . وقال قوم : هو صالح وقيل:هود، لأنه المرسل بعد نوح «ان اعبدوا الله مالكم من اله غيره » أي ارسلناه بأن يقول لهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، ويقول لهم : ما لكم معبود سواه ، وأن يخوفهم إذا خالفوه . ويقول لهم « أفلا تتقون » عذاب الله ، واهلاكه بارتكاب معاصيه ، فموضع (أن) من الاعراب نصب . وتقديره بأن اعبدوا الله ، فلما حذفت الباء نصب بـ (أرسلنا) .

وقوله « وقال الملأ من قومه » يعني ـ الاشراف ، ووجوههم ـ قالوا لغيرهم « الذين كفروا » بالله وكذبوا بآياته وحججه وبيناته ، وجحدوا « وكذبوا بلقاء الآخرة » والبعث والنشور يوم القيامة . وقوله « واترفناهم في الحياة الدنيا » والاتراف التنعم بضروب الملاذ ، وذلك أن التنعيم قد يكون بنعيم العيش ، وقد يكون بنعيم الملبس ، فالاتراف بنعيم العيش قال الراجز :

وقد أراني بالديار مترفا

وقوله « ما هذا إلا بشر مثلكم » أي ليس هذا الذي يدعي النبوة من قبل الله إلا بشراً مثلكم « يأكل مما تأكلون منه » من الاطعمة « ويشرب مماتشربون منه » من الاشربة . ثم قالوا لهم « لئن أطعتم بشراً مثلكم » وعلى هيئتكم وأحوالكم « إنكم

اذاً لخاسرون » فجعلوا اتباع الرسول خسرانا ، لأنه بشر مثلهم ، ولم يجعلوا عبادة الصنم خسرانًا ، لانه جسم مثلهم ، وهذا مناقضة ظاهرة .

ثم حكى انهم قالوا لغيرهم « ايعدكم » هذا الذي يدعي النبوة من قبل الله « أنكم إذا متم وكنتم ترابًا وعظامًا » ورفاتًا « انكم مخرجون » وقيل فى خبر (ان) الاول قولان :

احدهما ـ انه قوله (مخرجون) وتكون الثانية للتأكيد .

والثاني ـ ان يكون الخبر الجملة ، وتقديره : أيعدكم انكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما إخراجكم . ونظير تكرير (ان) قوله « ألم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم » (١) يعني فله نار جهنم ـ ذكره الزجاج ـ إلا ان هذه الثانية عملت فى غير ما عملت فيه الأولى . وإنما هي بمنزلة المكرر في المعنى . وموضع «انكم» الأولى نصب ، وتقديره : ايعدكم بأنكم . وموضع (ان) الثانية كموضع الأولى ، وانما ذكرت تأكيداً ، والمعنى : أيعدكم أنكم تخرجون إذا متم ، فلما بعد ما بين (ان) الأولى ، والثانية بقوله « إذا كنتم ترابًا وعظامًا » أعيد ذكر (أن) .

ثم قالوا لهم « هيهات هيهات لما توعدون » من البعث ، والنشور ، والجزاء بالثواب والعقاب . ومعنى « هيهات » بعد الأمر جداً حتى امتنع ، وهو بمنزلة (صه ، ومه) إلا ان هذه الأصوات الأغلب عليها الأمر والنهي وهذا فى الخبر ونظيره (شتان) أي بعدما بينهما جداً ، وانما لم تتمكن هذه الاصوات فى الأسماء بخروجها إلى شبه الافعال التي هي معانيها ، وليست مع ذلك افعالا ، لانه لا يضمر فيها ، ولا لها تصرف الأفعال في أصلها ، وانما جعلت هكذا ، للافهام بما تفهم به البهيمة من الزجر بالأصوات ، على هذه الجملة . وقال ابن عباس : معنى (هيهات)

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦٤

بعيد بعيد . والعرب تقول : (هيهات) لما تبغي ، وهيهات ما تبغي ، قال جرير :

فهيهات هيهـــات العقيق ومن به وهيهات وصل بالعقيق نواصله (١)

ويروى أيهات . وكان الكسائي : يقف بالهاء ، فيقول : هيهاه ، على قياس هاء التأنيث في الواحد زائدة نحو (علقاة) واختار الفراء الوقف بالتاء ، لأن قبلها ساكناً ، فصارت كما تقول : بنت وأخت . قال : ولأن من العرب من يخفض التاء، فدل ذلـك على انها ليست بهاء التأنيث ، وانما هي بمنزلة دراك ، ونظار ماله . ومن وقف بالهـاء جعلها كالادارة وقال الزجاج : يجوز هيهات وهيهتاً وهيهاتاً بالتنوين ، وترك التنوين . قال الاخفش : يجوز فتح التاء وكسرها ومنهم من يجعل بدل الهـاء همزة ، فيقول :أيهات ، وهي لغة تميم ، غير انهم يكسرون التـاء . ومن العرب من إذا جعلها فى موضع إسم . قال : لم أره مذأيهات من النهار ـ بضم التاء ـ وتنوينها . ومنهم من يجعل مكان التاء نوناً ، فيقول : ايهان واحدهاأيها ، قال الشاعر :

ومن دوني الاعيار والقيع كله وكتمان أيهاناً أشت وأبعدا (٢)

قوله تعالى :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ (٤٠) أربع آيات بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن الملأ الذين قالوا « هيهات هيهات لما توعدون » لقومهم

(١) ديوانه ٣٨٥ « دار بيروت » (٢) تفسير القرطبي ١٢ / ١٢٣

الذين أغووهم، وقالوا أيضاً ليست الحياة « إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » أي لسنا نبعث يوم القيامة على ما يقول هذا المدعي للنبوة من قبل الله . ومعنى « نموت ونحيا » أي يموت منا قوم ويحيا قوم ، لأنهم لم يكونوا يقرون بالنشأة الثانية ، فلذلك قالوه على هذا الوجه . وشبهتهم في انكار البعث طول المدة في القرون الخالية ، فظنوا أنه ابداً على تلك الصفة ، وهذا أبلغ ، لأنه إذا اقتضت الحكمة طول المدة لما في ذلك من المصلحة المكلفين ، فلا بد منه ، لأن الحكيم لا يخالف مقتضى الحكمة ، فقال النبي المرسل عند ذلك يا « رب انصرني بما كذبون » أي اهلك هؤلاء جزاء على تكذيبي ونصرة لي ، ومعونة على صحة قولي . فقال الله تعالى له « عما قليل » أي عن قليل و (ما) زائدة « ليصبحن » هؤلاء القوم « نادمين » على ما فعلوه من تكذيب الرسل ، وجحد وحدانية الله ، والاشراك مع الله في عبادته غيره

واللام في قوله « ليصبحن » لام القسم يجوز أن يقدم ما بعدها عليها وتقدير الكلام : ليصبحن هؤلاء نادمين عن قليل .

قوله تعالى :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَرُونَ (٤٥) بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً

عَالِينَ (٤٧) ست آيات في الكوفي والبصري، وسبع في المدنيين، عدوا قوله ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون، آية.

لما قال الله تعالى لصالح (ع) انه عما قليل يصبح هؤلاء الكفار نادمين، على ما فعلوا. حكى الله أنهم «أخذتهم الصيحة بالحق» والصيحة الصوت الشديد الذي يفزع منها، فأهلك الله تعالى (ثمود) بالصيحة وهي صيحة تصدعت منها القلوب. وقوله «بالحق» معناه على وجه الحق، وهو أخذهم بالعذاب من أجل ظلمهم، باذن ربهم وهو وجه الحق. ولو أخذوا بغير هذا، لكان أخذاً بالباطل، وهو كأخذ كل واحد بذنب غيره.

وقوله «فجعلناهم غثاء» فالغثاء القش الذي يجيء به السيل على رأس الماء: قصب وحشيش وعيدان شجر وغير ذلك. وقيل: الغثاء البالي من ورق الشجر، إذا جرى السيل رأيته مخالطاً زبده. وقوله «فبعداً لقوم لا يؤمنون» معناه بعداً لهم من الرحمة، وهي كاللعنة التي هي ابعاد من رحمة الله. وقالوا في الدعاء على الشيء: بعداً له، ولم يقولوا في الدعاء له قرباً له أي من الرحمة لانهم طلبوا الانعماس في الرحمة، فتركوا التقابل لهذه العلة. وقال ابن عباس ومجاهد. وقتادة: الغثاء المتفتت البالي من الشجر يحمله السيل. وقيل: ان الله بعث ملكاً صاح بهم صيحة ماتوا عندها عن آخرهم.

ثم اخبر تعالى فقال «وانشأنا من بعدهم» يعني بعد هؤلاء الذين أهلكهم بالصيحة «قروناً» أي أمماً «آخرين» واخبر انه «ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون» وهذا وعيد لهؤلاء المشركين، ومعناه إن كل أمة لها أجل ووقت

مقدر قدره الله لها إذا بلغته لا تؤخرعنه ولا تقدم عليه ، بل تهالك عنده . والأجل : هو الوقت المضروب لحدوث أمر من الامور ، وليس الأجل الوقت المعلوم أنه يحدث فيه أمر من الامور ، لان التأجيل فعل يكون به الوقت أجلا لأمر ، وما في المعلوم ليس بفعل . والأجل المحتوم لا يتأخر ولا يتقدم . والأجل المشروط بحسب الشرط. والمعنى في الأجل المذكور - في الآية - الأجل المحتوم .

ثم اخبر تعالى انه ارسل بعد ان أهلك من ذكره (رسلا تترا) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتنوين . الباقون بغير تنوين ، ولا خلاف في الوقف انه بألف . فمن نون لم يمل في الوقف ،ومن لم ينون فمنهم من يميل ، ومنهم من لا يميل . والمواترة المتابعة . وقيل : هي المواصلة يقال : واترت بين الخبرين أي تابعت بينهما . وقال ابن عباس ومجاهد ، وابن زيد : معنى « تترا » أي متواترين يتبع بعضهم بعضاً . وهي (فعلى) من المواترة فمن صرفها جعل الألف للالحاق ، ومن لم يصرفها جعلها للتأنيث ، ويقال: جاءت كتبه تترى. وأصل (تترى،وترى) من وترت، فقلبت الواو تاء لكراهتهم الواو أولا ، حتى لم يزيدوها هنالك البتة مع شبهها بالتاء في اتساع المخرج ، والقرب في الموضع . وأصله في المعنى الاتصال ، فمنه الوتر الفرد عن الجمع المتصل ، ومنه الوتر لاتصاله بمكانه من القوس . ومنه وترت الرجل أي قطعته بعد اتصال .

ثم اخبر تعالى انه « كلما جاء أمة رسولها » الذي بعثه الله اليهم « كذبوه » ولم يقروا بنبوته .

وقوله « فاتبعنا بعضهم بعضاً » يعني في الاهلاك أي أهلاكنا قوماً بعد قوم « وجعلناهم أحاديث » يتحدثون بهم على وجه المثل في الشر ، وهو جمع احدوثة . ولا يقال في الخير لأن الناس يفسرون في الحديث بأسباب الشر أكثر وأغلب .

ثم قال تعالى « فبعداً » من رحمة الله ورسوله « لقوم لا يؤمنون » أي

لا يصدقون بوحدانيته فيقرون بالبعث والنشور والجزاء .

ثم اخبر تعالى انه أرسل ـ بعد إهلاك من ذكره ـ « موسى وهارون » نبيين « بآياتنا وسلطان مبين » بأدلة من الله وحجج ظاهرة « الى فرعون وملائه » يعني قومه « فاستكبروا وكانو قوماً عالين » والملأ الجماعة التي تملأ الصدر هيبتهم ، وهم أشراف القوم ورؤساؤهم ، وخصوا بالذكر ، لأن من دونهم أتباع لهم . فلما استكبروا وردوا دعوة الحق تبعهم غيرهم ممن هو دونهم . وقوله « فاستكبروا » اى تكبروا وتجبروا عن الاجابة لها ، وطلبوا بذلك الكبر ، فكل مستكبر من العباد جاهل ، لانه يطلب أن يعظم بما فوق العبد ، وهو عبد لله مملوك يلزمه التذلل له والخضوع ، فهي صفة ذمّ للعبد ، وكذلك جبار ومتجبر ؛ وهو مدح فى صفات الله تعالى ، لان صفته تجل عن صفات المخلوقين ، وتعلوفوق كل صفة .

وقوله « وكانوا قوماً عالين » أي كانوا قاهرين للناس بالبغي والتطاول عليهم ولهذا كانت صفة ذم . والعالي القاهر القادر الذي مقدوره فوق مقدور غيره لعظمه يقال : علا فلان إذا ترفع وطغا وتجاوز ، ومنه قوله « ألا تعلوا علي » (١) وقوله « إن فرعون علا فى الارض » (٢) وقوله « قد أفلح اليوم من استعلى » (٣) أي من علا على صاحبه وقهره بالحجة .

قوله تعالى :

« فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٨) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٣١ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٤

(٣) سورة ٢٠ طه آية ٦٤

لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٥٠) وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥١) أربع آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى حكاية عن فرعون وقومه بعد ما أخبر عنهم بالاستكبار، والعلو على موسى وهارون، وترك اجابتهما انهم «قالوا أنؤمن» أي نصدق «لبشرين مثلنا» أي انسانين خلقهم مثل خلقنا، وسمي الانسان بشراً، لانكشاف بشرته، وهي جلدته الظاهرة، حتى احتاج الى لباس يكنه، لأن غيره من الحيوان مغطى البشرة بريش أو صوف أو شعر أو وبر أو صدف، لطفاً من الله تعالى لهم إذ لم يكن هناك عقل يدبر أمره مع حاجته الى ما يكنه. وهدى الانسان الى ما يستغني به في هذا الباب. وقوله «وقومهما لنا عابدين» معناه انهم لنا مطيعون طاعة العبد لمولاه. وقال قوم: معناه إنهم يذلون لنا ويخضعون. وقال ابو عبيدة: كل من دان لملك، فهو عابد له، ومنه سمي أهل الحيرة العباد، لأنهم كانوا يطيعون ملوك العجم. قال الحسن: كان بنوا إسرائيل يعبدون فرعون وفرعون يعبد الأوثان.

ثم اخبر عنهم انهم كذبوا موسى وهارون، فكان عاقبة تكذيبهما أن اهلكهم الله وغرقهم. والاهلاك إلقاء الشيء بحيث لا يحس به، فهؤلاء هلكوا بالعذاب ويقال للميت: هالك من هذا المعنى.

ثم اقسم تعالى انه آتى موسى الكتاب يعني التوراة التي فيها ما يحتاجون اليه لكي يهتدوا إلى طريق الحق، من معرفة الله وخلع الانداد.

وقوله «وجعلنا ابن مريم وأمه آية» معناه جعلناها حجة، على أنه تعالى قادر على اختراع الاجسام من غير شيء، كما اخترع عيسى من غير أب. والاية ههنا - في عيسى (ع) أنه ولد من غير فحل، ونطق في المهد. وفي أمه أنها حملته

من غير ذكر وبرأها كلامه في المهد من الفاحشة .

وقوله « وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين» يقال : آوى اليه يأوي ، وآواه غيره يؤويه ايواء أي جعله مأوى له . (والربوة) المكان المرتفع على ما حوله ، ويجوز ضم الراء وفتحها وكسرها ، وبالفتح قرأ عاصم وابن عامر . الباقون بالضم أيضاً . ولم يقرأ احد بالجر . ويقال : رباوة بفتح الراء وكسرها والف بعد الباء . وصار خمس لغات . والربوة التي أويا اليها هي الرملة ـ في قول ابي هريرة ـ وقال سعيد بن المسيب: هي دمشق ، وقال ابن زيد : هي مصر . وقال قتادة هي بيت المقدس . وقال ابو عبيدة: يقال : فلان في ربوة من قومه أي في عز وشرف ، وعدد . وقوله « ذات قرار » أي تلك الربوة لها ساحة وسعة أسفل منها . و « ذات معين » أي ماء جار ، ظاهر بينهم . وقيل : معنى « ذات قرار » ذات استواء يستقر عليه . ومعين ماء جار ظاهر للعيون ـ في قول سعيد والضحاك ـ وقال قتادة « ذات قرار » ذات ثمار ، ذهب إلى انه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها . ومعين (مفعول) من عنته اعينه ، ويجوز أن يكون (فعيلا) من معن يمعن ، وهو الماعون ، وهو الشيء القليل ـ في قول الزجاج ـ قال الراعي :

قوم على الاسلام لما يمنعوا ماعونهم ويبدلوا التنزيلا

قيل معناه وفدهم . وقيل : زكاتهم . وأمعن في كذا إذا لم يترك منه إلا القليل . وقال الفراء : المعن الاستقامة . قال عبيد بن الابرص :

واهية او معين ممعن أو هضبة دونها لهوب (١)

واحدها لهب ، وهو شق في الجبل ، واهية أي وهت . ومطر ممعن أي مار .

(١) ديوانه « دار بيروت » ٢٥

قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥٢) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٣) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٤) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٥) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٦) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٧)

ست آيات •

قرأ اهل الكوفة وابن عامر (وإن) بكسر الهمزة ، وخفف ابن عامر النون وسكنها . وقرأ الباقون بفتح الهمزة مشددة النون .

قال قوم : هـذا خطاب لعيسى (ع) حكاه الله تعالى ، قالوا : وذلك لما جرى ذكره كأنه قال: يا عيسى « كلوا من الطيبات » وقال : آخرون : هو خطاب للنبي (ص) خاصة خاطبه بلفظ الجمع ، كما يقال للرجل الواحد : أيها القوم كفوا عنا. وقال قوم : لمـا ذكر بعض الانبياء ، كأنه قال : وقلنا لهم « يا ايهـا الرسل كلوا من الطيبات» والأكل تناول الطعام بالفم ، ومضغه وابتلاعه . وصورة « كلوا » صورة الأمر ، والمراد به الاباحة . وأصل « كلوا » أؤكلوا ، فحـذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال . والمعنى مفهوم ، لأنه من الاكل . و (الطيبات) الحلال ، وقيل : هو المستلذ . فعلى الوجه الأول يكون أمراً بنفل ، لأن تقديره كلوا من الحلال على الوجه الذي يستحق به الحمد . وعلى الثاني يكون على الاباحة ، كما قال

تعالى « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق »(١).

وقوله « واعملوا صالحًا » أمر من الله لهم بأن يعملوا الطاعات، واجباتها ونوافلها. والصلاح الاستقامة، على ما تدعو اليه الحكمة. وقال قوم: انما هذا حكاية لما قيل لجميع الرسل. وهو الوجه. وقال آخرون: المعنى وقلنا لعيسى « يا أيها الرسل » على الجمع على ما ذكرناه من المثال.

وقوله « وإن هذه أمتكم » موضع (ان) نصب، لان تقديره، ولان ﴿ هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاتقون ﴾ أي لهذه فاتقون. وقيل: موضعه الجر بالعطف على ﴿ بما تعملون عليم ﴾. ومن كسر الهمزة استأنف الكلام. ومعنى الأمة ههنا ـ الملة سماها بذلك للاجماع عليها بأمر الله. وقال الحسن وابن جريج: معنى ﴿ وإن هذه امتكم أمة واحدة ﴾ أي دينكم دين واحد. وقيل: جماعتكم جماعة واحدة في الشريعة التي نصبها الله لكم. ونصب ﴿ أمة واحدة ﴾ على الحال. وقال الجبائي: معناه ﴿ وإن هذه امتكم امة واحدة ﴾ في أنهم عبيد الله، وخلقه وتدبيره.

وقوله ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ﴾ فالزبر الكتب ـ في قول الحسن وقتادة ومجاهد وابن زيد ـ وهو جمع زبور، كرسول ورسل. والمعنى تفرقوا كتباً دانوا بها، وكفروا بما سواها، كاليهود دانوا بالتوراة وكفروا بالانجيل، والقرآن. وكالنصارى دانوا بالانجيل وكفروا بالقرآن. ومن قرأ ﴿ زبراً ﴾ بفتح الباء، وهو ابن عامر فمعناها جماعات، لانه جمع زبرة، وزبر، كبرمة وبرم.

وقوله ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي كل طائفة بما عندها تفرح لاعتقادها بأن الحق معها. فقال الله تعالى لنبيه ﴿ فذرهم ﴾ يا محمد ﴿ في غمرتهم ﴾ أي جهلهم وضلالتهم. وقيل: في حيرتهم. وقيل: في غفلتهم. والمعاني متقاربة ﴿ حتى حين ﴾

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٣١

أي حين وقت الموت • وقيل : حين العذاب •

ثم قال تعالى منكراً عليهم ﴿ أيحسبون ﴾ أي يظنون هؤلاء الكفار ﴿ أنما نمدهم به من مال وبنين ﴾ تمام الكلام أحد شيئين :

احدهما ـ أيحسبون أن الذي نمدهم به من اجل ما لهم و بنيهم ، بل إنما نفعل ذلك لما فيه من المصلحة •

والثاني ـ أن يكون فيه حذف ، وتقديره أيحسبون أن الذي نمدهم به من المال والبنين حق لهم أو لكرامتهم عندنا ، لا ، بل نفعل ذلك لما فيه من المصلحة التي ذكرناها ، ويكون قوله ﴿ نسارع لهم في الخيرات ﴾ ابتداء كلام ، ولا يجوز أن يكون الانكار وقع لظنهم ان ذلك مسارعة لهم فى الخيرات ، لأنه تعالى قد سارع لهم في الخيرات ، بما فعل بهم من الأموال والبنين ، لما لهم فى ذلك من اللطف والمصلحة • والغرض في ذلك ان يعرفوا الله و يؤدوا حقوقه ﴿ بل لا يشعرون ﴾ أي وهم لا يشعرون بذلك ، ولا يفهمونه لتفريطهم في ذلك •

والمسارعة تقديم العمل فى اوقاته التي تدعو الحكمة الى وقوعه فيه • وهي سرعة العمل • ومثله المبادرة • وانما بني على (مفاعلة) لان الفعل كأنه يسابق فعلا آخر • والخيرات المنافع التي يعظم شأنها ، ونقيضها الشرور • وهي المضار التي يشتد أمرها • والشعور العلم الذي يدق معلومه ، وفهمه على صاحبه دقة الشعر • وقيل : هو العلم من جهة المشاعر • وهي الحواس ، ولهذا لا يوصف الله تعالى به • وقيل : نسارع لهم فى الخيرات أي نقدم لهم ثواب اعمالهم لرضانا عنهم ، ومحبتنا إياهم ، كلا ، ليس الأمر كذلك ، بل نفعله ابتلاء في التعبد لهم •

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٦٠) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦١) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (٦٢) خمس آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم ﴾ اي خوفاً من عقابه ﴿ مشفقون ﴾ والخشية ظن لحوق المضرة. ومثلها المخافة، ونقيضها الأمنة، فالخشية إنزعاج النفس بتوهم المضرة، والظن كذلك يزعج النفس، فيسمى باسمه على طريق البلاغة، والخشية من الله خشية من عقابه وسخطه على معاصيه، ﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ وبحججه من القرآن وغيره يصدقون ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ أي لا يشركون بعبادة الله غيره، من الاصنام والاوثان، لان خصال الايمان لا تتم إلا بترك الاشراك دون ما يقول أهل الجاهلية إنا نؤمن بالله.

وقوله ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾ اي يعطون ما اعطوا، من الزكاة والصدقة، وينفقونه في طاعة الله ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾ أي خائفة من عقاب الله لتفريط يقع منهم. قال الحسن: المؤمن جمع إحساناً وشفقة. وقال ابن عمر: ما آتوا من الزكاة ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾ أي خائفة ﴿ انهم الى ربهم راجعون ﴾ اي يخافون من رجوعهم الى الله

يوم القيامة ، والى مجازاته اي يخافون ذلك ،لانهم لا يأمنون التفريط. ثم أخبر عمن جمع هذه الصفات وكملت فيه ، فقال ﴿ اولئك يسارعون في الخيرات ﴾ أي يبادرون الى الطاعات ، ويسارعون اليها : من الايمان بالله ، ويجتهدون في السبق اليها رغبة فيها ولعلمهم بما لهم بها من حسن الجزاء . وقوله ﴿ وهم لها سابقون ﴾ قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها ـ قال ابن عباس انهم : سبقت لهم السعادة .

الثاني ـ وهم من اجل تلك الخيرات سابقون الى الجنة .

الثالث ـ وهم الى الخيرات سابقون .

قوله تعالى

﴿ وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٦٣) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٤) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٥) لاَ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لاَ تُنْصَرُونَ (٦٦) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٧) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ ﴾ (٦٨) ست آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه « لا نكلف نفساً إلا وسعها » يعني إلا على قدر طاقتها وقوتها ، ومثله قوله تعالى « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (١) والوسع

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٦

الحال التي يتسع بها السبيل الى الفعل . وقيل : إن الوسع دون الطاقة . والتكليف تحميل ما فيه المشقة بالأمر والنهي والاعلام ، وهو مأخوذ من الكلفة في الفعل ، والله تعالى مكلف عباده تعريضاً لهم للنفع الذي لا يحسن الابتداء بمثله ، وهو الثواب .

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة : في تكليف ما لا يطاق ، لأنه لو كلف ما لا يطيقه العبد لكان قد كلفه ما ليس في وسعه . والآية تمنع من ذلك .

وقوله « ولدينا كتاب ينطق بالحق » يريد الكتاب الذي فيه اعمال العباد مكتوبة من الطاعة والمعصية تكتبه عليه الملائكة الموكلون به كما قال « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » (١) ثم أخبر تعالى « انهم لا يظلمون » أي لا يؤاخذون بما لا يفعلونه ولا ينقصون عما استحقوه .

ثم اخبر تعالى فقال « بل قلوبهم في غمرة من هذا » اى فى غفلة من هذا اليوم ، وهذه المجازاة . وقال الحسن : معناه في حيرة . وهذا اخبار منه تعالى بما يكون منهم في المستقبل من الاعمال القبيحة ، زائدة على ما ذكره وحكاه أنه فعلهم « ولهم اعمال من دون ذلك هم لها عاملون » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال قتادة وابو العالية ـ وفى رواية عن مجاهد ـ ان لهم خطايا من دون الحق .

والثاني ـ قال الحسن وابن زيد ـ وفى رواية عن مجاهد ـ ايضاً : أعمالا من دون ما هم عليه لا بد من ان يعملوها . وقوله « حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون » فالمترف المتقلب في لين العيش ونعومته . ومنه قوله « وأترفناهم في الحياة الدنيا » (٢) و (يجأرون) معناه يضجون ، لشدة العذاب . وقال ابن عباس:

---

(١) سورة ٥٠ ق آية ١٨ (٢) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٣٣

يستغيثون . وقال مجاهد : كان ذلك بالسيوف يوم بدر ، والجؤار : رفع الصوت ، كما يجأر الثور . قال الاعشى :

يراوح من صلوات المليـ　　ـك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا(١)

وقيل معنى « يجأرون » يصرخون بالتوبة ، فيقول الله لهم « لا تجأروا اليوم » أي لا تصرخوا فى هذا اليوم « إنكم منا لا تنصرون » بقبول التوبة ، ولا لكم من يدفع عنكم ما أفعله من العذاب . ثم يقول الله تعالى لهم « قد كانت آياتي » أي حججي وبراهيني « تتلى عليكم » من القرآن وغيره « فكنتم على أعقابكم تنكصون» فالنكص الرجوع القهقرى وهو المشي على الاعقاب الى خلف ، وهو أقبح مشية . مثل شبه الله به أقبح حال فى الاعراض عن الداعي الى الحق . وقال سيبويه : لأنه يمشي ولا يرى ما وراءه ، فهو النكوص . وقال مجاهد : ينكصون معناه يستأخرون. وقيل : يدبرون . وقوله « مستكبرين » نصب على الحال ، ومعناه « تنكصون » فى حال تكبركم عن الانقياد لحجج الله ، والاجابة لانبيائه . وقال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والضحاك : « مستكبرين به » أي بحرم الله أنه لا يظهر عليكم فيه أحد .

وقوله « سامراً تهجرون » فالسامر الذي يحدث بالسمر ليلا ، ومنه السمرة والسمار ، لان جميع ذلك من اللون الذي بين السواد والبياض . وقيل : السمر ظل القمر ، ويقال له الفخت ، ومعنى « سامراً » أي سماراً ، فوضع الواحد موضع الجمع لانه فى موضع المصدر ، كما يقال قوموا قائماً أي قياماً قال الشاعر :

من دونهم إن جئتهم سمراً　　عزف القيان ومجلس غمر (٢)

(١) ديوانه (دار بيروت) ٨٤ وقد مر في ١ / ٢٦٣

(٢) اللسان (سمر) . وتفسير الطبري ١٨ / ٢٦ والقرطبي ١٢ / ١٣٧

وكانوا يسمرون حول الكعبة بالليل . وقيل : انما وحد ، لأنه في موضع الوقت وتقديره لئلا تهجرون ، والهجر الكلام المرفوض ، وهو المهجور منه ، لأنه لا خير فيه . والنائم يهجر في نومه أي يأتي بكلام مختلط لا فائدة فيه . وفى معنى تهجرون قولان :

احدهما ـ تهجرون الحق بالاعراض عنه . فى قول ابن عباس .

الثاني ـ تقولون الهجر ، وهو السيء من القول ، فى قول سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد .

وقرأ نافع وحده « تهجرون » بضم التاء أراد من الهجر ، وهو الكلام السيء . الباقون بفتح التاء وضم الجيم ، على ما فسرناه ، يقال : هجر يهجر هجراً إذا هذى .

قوله تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٩) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٧٠) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ (٧١) ثلاث آيات بلاخلاف

يقول الله تعالى منكراً على هؤلاء الكفار « أفلم يدبروا القول » الذي أتاهم به من القرآن ويتفكروا فيه ، فيعلموا انه من قبل الله ، لعجز الجميع عن الاتيان بمثله . وقوله « أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » توبيخ لهم على انكار الدعوة من هذه الجهة ، ومع ذلك ، فقد جاءت الرسل الأمم قبلهم ، متواترة ، فهو عيب وخطأ من كل جهة « أم لم يعرفوا رسولهم » لكونه غريباً فيهم ، فلا يعرفون صدقه ، ولا أمانته

« فهم له منكرون » لذلك ؟! ثم اخبر تعالى أن النبي (ص) « جاءهم بالحق » من عند الله « واكثرهم » يعنى اكثر النـاس « للحق كارهـون » أي يكرهونه بمجيئه بمـا ينافي عادتهم .

قوله تعالى :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧٢) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ (٧٣) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٤) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٥) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٧٦) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ، ونافع ، وعاصم « خرجاً » بلا ألف « فخراج » بألف . وقرأ حمزة والكسائي « خراجاً فخراج » بالالف فيهما . وقرأ ابن عامر « خرجاً فخرج » بلا ألف فيهما .

معنى قوله « ولو اتبع الحق أهواءهم » ان الحق لما كان يدعو الى الافعال الحسنة . والاهواء تدعو إلى الافعال القبيحة ، فلو اتبع الحق داعي الهوى لدعاه الى قبيح الاعمال والى ما فيه الفساد والاختلاط ، ولو جرى الامر على ذلك « لفسدت السماوات والارض ومن فيهن » ووجه فساد العالم بذلك : انه يوجب بطلان الادلة وامتناع الثقة بالمدلول عليه ، وانه لا يؤمن وقوع الظلم ، الذي لا ينصف منه ، وتختلط

الامور أقبح الاختلاط ولا يوثق بوعد ، ولا وعيد ، ولا يؤمن إنقلاب عدل الحكيم . وهذا معنى عجيب . وقال قوم من المفسرين : إن الحق - في الآية - هو الله والتقدير : ولو اتبع الحق أعني الله أهواء هؤلاء الكفار ، وفعل ما يريدونه لفسدت السموات و الارض . وقال الجبائي : المعنى لو اتبع الحق - الذى هو التوحيد - أهواءهم فى الاشراك معه معبوداً سواه ، لوجب ان يكون ذلك المعبود مثلا له ولصح بينهما الممانعة ، فيؤدي ذلك الى الفساد ، كما قال تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (١) .

والهوى ميل النفس الى المشتهى من غير داعي الحق ، كما قال تعالى « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى » (٢) ، فلا يجوز لاحد أن يفعل شيئاً لانه يهواه . ولكن يفعله لانه صواب ، على انه يهواه أو لانه يهواه مع أنه صواب حسن جائز . وقال ابو صالح وابن جريج : الحق هو الله ، وقال الجبائي معنى « ولو اتبع الحق أهواءهم » فيما يعتقدون من الآلهة « لفسدت السماوات والارض » كقوله « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » .

وقوله « بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » ، قال ابن عباس : معنى الذكر البيان للحق . وقال غيره : الذكر الشرف . كقوله « وانه لذكر لك ولقومك » (٣) وكل ذلك يراد به القرآن .

ثم قال « أم تسألهم » يا محمد « خرجاً » أي اجراً على العمل - فى قول الحسن - وأصل الخرج والخراج واحد ، وهو الغلة التي تخرج على سبيل الوظيفة منه . ومنه خراج الارض ، وهما مصدران لا يجمعان . ثم قال « فخراج ربك » أي أجر ربك « خير وهو خير الرازقين » يعني الله خير من يرزق . وفى ذلك دلالة على أن

---

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٢٢ (٢) سورة ٧٩ النازعات آية ٤١
(٣) سورة ٤٣ الزخرف آية ٤٤

غير الله قد يرزق باذنه، ولولا ذلك لم يجز ﴿ خير الرازقين ﴾ .

ثم قال لنبيه محمد (ص) ﴿ وانك ﴾ يا محمد ﴿ لتدعوهم ﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿ الى صراط مستقيم ﴾ من التوحيد، واخلاص العبادة، والعمل بالشريعة ﴿ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ يعني من لا يصدقون بالبعث يوم القيامة ﴿عن الصراط﴾ صراط الحق ﴿ لناكبون ﴾ أي عادلون عن دين الحق . وقال الجبائي : معناه لناكبون في الآخرة عن طريق الجنة ، بأخذهم يمنة ويسرة إلى النار .

ثم قال تعالى ﴿ ولو رحمناهم ﴾ في الاخرة ورددناهم الى دار الدنيا ، وكلفناهم فيها ﴿ للجوا في طغيانهم يعمهون ﴾ كما قال ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾(١) وقال ابن جريج يريد في الدنيا أي ﴿ لو انا رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر ﴾ وجوع ونحوه ﴿ للجوا في طغيانهم ﴾ أي في غوايتهم ﴿ يعمهون ﴾ أي يترددون .

قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٧) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٨٠) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٨١) خمس آيات .

يقول الله تعالى انا اخذنا هؤلاء الكفار الذين ذكرناهم بالعذاب . وقيل :

(١) سورة ٦ الانعام اية ٢٨

هو الجدب وضيق الرزق ، والقتل بالسيف ﴿ فما استكانوا لربهم ﴾ أي لم يذلوا عند هذه الشدائد ، ولم يتضرعوا اليه ، فيطلبوا كشف البـلاء منه تعالى عنهم بالاستكانة له ، والاستكانة طلب السكون خوفاً من السطوة . يقال : استكان الرجل استكانة إذا ذل عند الشدة .

وقوله ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴾ فالفتح فرج الباب بطريق يمكن السلوك فيه ،فكأنه فتح عليهم باباً أتاهم منه العذاب . وقيل : ان ذلك حين دعا النبي (ص) فقـال : (اللهم سنين كسني يوسف) فجاءوا حتى أكلوا العلهز وهو الوبر بالدم في قول مجاهد .

وقال ابن عباس : هو القتل يوم بدر . وقال الجبائي فتحنا عليهم باباً من عذاب جهنم في الآخرة .

والابلاس الحيرة لليأس من الرحمة ، يقال : أبلس فلان إبلاساً إذا بهت عند انقطاع الحجة .

وقوله ﴿ وهو الذي أنشأكم ﴾ أي أوجدكم ، واخترعكم من غير سبب « وجعل لكم السمع والابصار » أي وخلق لكم السمع تسمعون به الاصوات والابصار تبصرون بها المرئيات وخلق لكم ﴿ الافئدة ﴾ وهو جمع فؤاد ، وهو القلب ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ نصب (قليلا) على المصدر و(ما) صلة ، وتقديره تشكرون قليلا لهذه النعم التي أنعم بها عليكم .

ثم قال ﴿ وهو الذي ذرأكم ﴾ اي خلقكم وأوجدكم ﴿ في الارض واليه تحشرون ﴾ يوم القيامة ، فيجازيكم على أعمالكم إما الثواب أو العقاب . والمراد إلى الموضع الذي يختص تعالى بالتصرف فيه ، ولا يبقى لاحد هناك ملك . وقال الفراء: وهو الذي خلق السماوات والارض أي اخترعهما ، وانشأهما ، وقدرهما على ما فيهما

من انواع المخلوقات، ليدل بها على توحيده وألا إله سواه «وله اختلاف الليل والنهار» اي له مرورها يوماً بعد ليلة . وليلة بعد يوم، كما يقال إذا اتى الرجل الدار مرة بعد مرة : هو يختلف الى هذه الدار . وقيل : معناه وله تدبيرها بالزيادة والنقصان.

ثم قال ﴿ افلا تعقلون ﴾ فتفكرون في جميع ذلك، فتعلمون انه لا يستحق الالهية سواه، ولا تحسن العبادة إلا له.

قوله تعالى :

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨٢) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٣) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٤) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٥) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٦) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٧) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٨) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٩) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٩٠) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٩١) عشر آيات بلاخلاف.

قرأ ابو عمرو «سيقولون الله» في الأخيرتين . الباقون «لله» بغير الف،

ولا خلاف في الاولى أنها بغير الف .

اخبر الله تعالى حاكياً عن الكفار ممن عاصر النبي (ص) أنهم لم يؤمنوا بالله ولم يصدقوا رسوله في اخلاص العبادة له تعالى « بل قالوا مثل ما قال الأولون » أي مثل الذي قاله الكفار الأولون : من انكار البعث والنشور والحساب والجنة والنار ، فأقوال هؤلاء مثل أقوال أولئك . وانما دخلت عليهم الشبهة فى انكار البعث ، لأنهم لم يشاهدوا ميتاً عاش، ولا جرت به العادة . وشاهدوا النشأة الاولى من ميلاد من لم يكن موجوداً . ولو فكروا فى أن النشأة الأولى أعظم منه لعلموا أن من انكره فقد جهل جهلا عظيماً ، وذهب عن الصواب ذهاباً بعيداً ، لان من قدر على اختراع الاجسام لا من شيء ،قدر على إعادتها إلى الصفة التي كانت عليها ، مع وجودها .

ثم حكى ما قال كل منهم ، فانهم قالوا منكرين « أاذا متنا وكنا تراباً وعظاما أئنا لمبعوثون » أي كيف نصير أحياء بعد أن صرنا تراباً ورمماً وعظاماً نخرة ؟ ! ثم قالوا « لقد وعدنا » بهذا الوعد « نحن وآباؤنا » من قبل هذا الموعد ، فلم نر لذلك صحة ، ولا لهذا الوعد صدقاً ، وليس « هذا إلا أساطير الأولين » أي ما سطره الأولون مما لا حقيقة له ، وانما يجري مجرى حديث السمر الذي يكتب للاطراف به . والأساطير هي الأحاديث المسطرة فى الكتب، واحدها أسطورة .

فقال الله تعالى لنبيه (ص) « قل » يا محمد لهؤلاء المنكرين للبعث والنشور « لمن الارض ومن فيها » أي من يملك الارض ويملك من فيها من العقلاء [وقوله « إن كنتم تعلمون » موافقة لهم فى دعواهم . ثم قال فى الجواب « سيقولون لله » أي سيقولون إن السموات والارض ومن فيهما لله ، لانهم لم يكونوا يجحدون الله . وانما كذبوا الرسول . وقوله « قل افلا تذكرون » أي افلا تتفكرون فى مالكها . وتتذكرون قدرته وانه لا يعجزه شيء عن إعادتكم بعد الموت ، مرة ثانية كما انشأكم

أول مرة] (١) ثم قال له « قل » يا محمد لهم ايضاً « من رب السماوات السبع » أي من مالكها والمتصرف فيها ؟ ولولاه لبطل كل شيء سواه ، لأنه لا يصح إلا مقدوره اومقدور مقدوره ، فقوام كل ذلك به، ولا تستغني عنه طرفة عين لانها ترجع الى تدبيره على ما يشاء (عز وجل) وكذلك هو تعالى « رب العرش العظيم » وانما وجب أن يكون رب السماوات والعرش ،من حيث كانت هذه الاشياء جميعها محدثة ، لا بدّ لها من محدث اخترعها وانشأها، ولا بد لها من مدبر يدبرها ويمسكها، ويصرفها على ما تتصرف عليه ، ولا بد أن يختص بصفات : من كونه قادراً عالماً لنفسه ليتأتى منه جميع ذلك ، على ما دبره . ولو لا كونه على هذه الصفات ، لما صح ذلك .

ثم اخبر أنهم يقولون فى الجواب عن ذلك رب السماوات ورب العرش هو « الله » ومن قرأ بلا ألف فمعناه انهم يقولون إنها « لله » فعنـد ذلك « قل » لهم « افلا تتقون » الله ، ولا تخافون عقابه على جحد توحيده والاشراك فى عبادته ؟!

ثم أمره بان يقول لهم أيضاً « من بيده ملكوت كل شيء » والملكوت عظم الملك ووزنه (فعلوت) وهو من صفات المبالغة نحو (جبروت) ومن كلامهم (رهبوت خير من رحموت) أي ترهب خير من ان ترحم . وقال مجاهد : ملكوت كل شيء خزائن كل شيء . والمعنى أنه قادر على كل شيء إذا صح أن يكون مقدوراً له.

وقوله « وهو يجير » .معناه أنه يعيذ بالمنع من السوء ، لما يشاء « ولا يجار عليه » أي لا يمكن منع من أراده بسوء منه . وقيل « هو يجير » من العذاب « ولا يجار عليه » .منه . والاجارة الاعاذة ، والجار المجير المعيذ ، وهو الذي يمنعك ويؤمنك ومن استجار بالله اعاذه، ومن أعاذه الله لم يصل اليه احد . فانهم «سيقولون الله » الذي له

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة .

ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه . فقل لهم عند ذلك « أنى تسحرون » ومعناه كيف يخيل اليكم الحق باطلا ، والصحيح فاسداً ، مع وضوح الحق وتمييزه عن الباطل . ومن قرأ ﴿ الله ﴾ باثبات الالف ، فلانه يطابق السؤال فى قوله ﴿ من رب السموات السبع ورب الارض ... ومن بيده ملكوت كل شيء ﴾ لان جواب ذلك على اللفظ أن يقولوا ﴿الله﴾ . ومن قرأ «لله» باسقاط الالف ، حمله على المعنى دون اللفظ ، كقول القائل لمملوك : من مولاك ؟ فيقول انا لفلان . وانشد الفراء لبعض بني عامر :

واعلم انني سأكون رمساً إذا سار النواعج لا يسير
فقال السائلون لمن حفرتم فقال المخبرون لهم وزير(١)

لانه بمنزلة من قال: من الميت ؟ فقالوا له :وزير ، وذكر أنها في مصاحف أهل الامصار بغير الف ، ومصحف أهل البصرة فانها بالف . (٢) فأما الاولى فلا خلاف أنها بلا ألف لمطابقة السؤال في قوله ﴿ قل لمن الارض ﴾ والجواب يقتضى أن يقولوا : لله . وإنما أخبر الله تعالى عنهم ، بأنهم يقولون في جواب السؤال : لله ، لأنهم لو أحالوا على غير الله فى انه مالك السموات والارض ، وأن غيره بيده ملكوت كل شيء وأن غيره رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، لظهر كذبهم . ولعلم كل احد بطلان قولهم ، لظهور الأمر في ذلك . وقربه من دلائل العقول .

وقوله ﴿ فأنى تسحرون ﴾ أي كيف تعمهون عن هذا ، وتصدون عنه ، من قولهم : سحرت أعيننا عن ذلك ، فلم نبصره . وقيل معنى ذلك : فأنى تخدعون، كقول امريء القيس :

(١) تفسير الطبري ١٨ / ٣٢

(٢) وفي المخطوطة (في مصاحف اهل الشام بغير الف وفي مصاحف أهل الامصار بالالف)

و نسحر بالطعام وبالشراب(١)

أي نخدع .وقيل معناه أنى تصرفون ، يقال : ما سحرك عن هذا الامر أي ما صرفك عنه . ثم أخبر تعالى أنه أتى هؤلاء الكفار بالحق الواضح : من توحيد الله وصفاته وخلع الانداد دونه وأنه يبعث الخلق بعد موتهم ، ويجازيهم على طاعاتهم بالثواب ، وعلى معاصيهم بالعقاب ، وان الكفار كاذبون فيما يخبرون بخلافه . قال المبرد : معنى ﴿أنى﴾ كيف ، ومن أين .

قوله تعالى :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(٩٢) عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٩٣) قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ(٩٤) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (٩٥) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٦)خمس آيات بلاخلاف.

قرأ ﴿عالم الغيب﴾ بالجر ابن كثير وأبو عمرو ، وابن عامر وحفص عن عاصم . الباقون بالرفع . من جر رده على قوله ﴿ سبحان الله .... عالم الغيب ﴾ فجعله صفة لله . ومن رفعه ، فعلى تقدير هو ﴿ عالم الغيب ﴾ .

يقول الله تعالى مخبراً أنه لم يتخذ ولداً اي لم يجعل ولد غيره ولد نفسه ، لاستحالة ذلك عليه ،لانه محال أن يكون له ولد ، فلا يجوز التشبيه بما هو مستحيل ممتنع

---

(١) مر تخريجه في ١/ ٣٧٢ و٥/ ٢٦٨ و ٦/ ٤٨٥

إلا على النفي والتبعيد. واتخاذ الولد: أن يجعل الجاعل ولد غيره يقوم مقام ولده لو كان له. وكذلك التبني إنما هو جعل الجاعل ابن غيره يقوم مقام ابنه الذي يصح أن يكون ولداً له. ولذلك لا يقال: تبنى شاب شيخاً، ولا تبنى الانسان بهيمة، لما استحال ان يكون ذلك ولداً له. ولا يجوز أن يقال: اتخذه ولداً، اذا اختصه بضرب من المحبة، لأن في ذلك إخراج الشيء عن حقيقته كما أن تسمية ما ليس بطويل عريض عميق جسماً إخراج له عن حقيقته.

ثم اخبر انه كما لم يتخذ ولداً، لم يكن معه إله. وهذا جواب لمحذوف، وتقديره: لو كان معه إله آخر «اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض» وفيه إلزام لمن يعبد الاصنام. وقوله «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا»(١) دليل عام في نفي مساو للقديم فيما يقدر عليه من جميع الاجناس والمعاني. ومعنى «اذاً لذهب كل إله بما خلق» أي لا نفرد به وبحوله من خلق غيره، لانه لا يرضى أن يضاف خلقه وانعامه الى غيره.

فان قيل: لم لا يكون كل واحد منهم حكيماً، فلا يستعلي على حكيم غيره؟

قلنا: لانه إذا كان جسماً وكل جسم محتاج، جاز منه أن يستعلي لحاجته، بل لا بد من أن يقع ذلك منه، لانه ليس له مدبر يلطف له حتى يمتنع من القبيح الذي يحتاج اليه، كما يلطف الله لملائكته وانبيائه بما في معلومه انهم يصلحون به.

ثم نزه نفسه تعالى عن اتخاذ الولد وأن يكون معه إله غيره، فقال «سبحان الله عما يصفون» من الاشراك معه، واتخاذ الولد له.

وقوله «عالم الغيب والشهادة» فلذلك يأتي بالحق، وهم يأتون بالجهل. ويحتمل ان يكون معناه إن عالم الغيب والشهادة لا يكون له شريك، لانه أعلى من كل شيء

(١) سورة ٢١ انبياء آية ٢٢

فى صفته . قال الحسن : هو ردّ لقول المشركين : الملائكة بنات الله. وقال الجبائي : فى الآية دلالة على انه يجوز أن يدعو الانسان بما يعلم انه يكون لا محالة وأن الله لابد أن يفعله .

ثم قال تعالى ﴿ فتعالى عما يشركون ﴾ أي تعاظم الله عن ان يشرك هؤلاء الكفار معه من الاصنام والاوثان . ثم قال لنبيه (ص) ﴿ قل رب اما تريني ما يوعدون ﴾ ومعناه إن أريتني ما وعد هؤلاء الكفار به من العذاب والاهلاك . فقل يا ﴿ رب فلا تجعلني فى القوم الظالمين ﴾ أي لا تجعلني فى جملة من يشملهم العذاب بظلمهم ، وتقديره : إن انزلت بهم النقمة ، فاجعلني خارجاً منهم . فقال الله تعالى ﴿ وإنا على ان نريك ما نعدهم لقادرون ﴾ معناه إن ما وعدتهم به من العذاب والاهلاك على كفرهم قادر عليه ، لكني لا أفعله وأؤخره الى يوم القيامة لما في تأخيره من المصلحة .

قوله تعالى :

﴿ إِدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٧) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ (٩٨) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ (١٠٠) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١٠١) خمس آيات بلاخلاف .

امر الله تعالى نبيه (ص) أن يدفع السيئة من إساءة الكفار اليه بالتي هي أحسن

منها . ومعنى ذلك انهم إذا ذكروا المنكر من القول ـ الشرك ـ ذكرت الحجة في مقابلته وذكرت الموعظة التي تصرف عنه الى ضده من الحق ، على وجه التلطف في الدعاء اليه ، والحث عليه ، كقول القائل : هذا لا يجوز ، وهذا خطأ ، وعدول عن الحسن. وأحسن منه أن يوصل بذكر الحجة والموعظة كما بينا . وقال الحسن : « بالتي هي أحسن » الاغضاء والصفح . وقيل : هو خطاب للنبي (ص) والمراد به الأمة ، والمعنى إدفع الأفعال السيئة بالافعال الحسنة التي ذكرها .

وقوله «نحن اعلم بما يصفون » معناه نحن اعلم منهم بما يستحقون به من الجزاء في الوقت الذي يصلح الأخذ بالعقوبة إذا انقضى الأجل المضروب بالامهال . ثم قال له « قل » يا محمد ، وادع فقل يا « رب اعوذ بك من همزات الشياطين » أي نزغاتهم ووساوسهم ، فمعنى (أعوذ) اعتصم بالله من شر الشياطين ، في كل مايخاف من شره . والمعاذة هي التي يستدفع بها الشر ، والهمزات دفعهم بالاغواء الى المعاصي ، والهمز شدة الدفع . ومنه الهمزة : الحرف الذي يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد. والعياذ طلب الاعتصام من الشر « واعوذ بك رب أن يحضرون » هؤلاء الشياطين فيوسوسون لي ويغووني عن الحق .

وقوله « حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون » اخبار من الله تعالى عن أحوال هؤلاء الكفار ، وانه إذا حضر أحدهم الموت ، واشرف عليه سأل الله عند ذلك و « قال رب ارجعون » أي ردني الى دار التكليف « لعلي أعمل صالحاً » من الطاعات وأتلافى ما تركته . وانما قال « رب ارجعون » على لفظ الجمع لأحد امرين :

احدهما ـ انهم استعانوا أولا بالله ، ثم رجعوا الى مسألة الملائكة بالرجوع الى

الله - في رواية ابن جريج .

والثاني - انه جرى على تعظيم الذكر في خطاب الواحد بلفظ الجمع لعظم القدر كما يقول ذلك المتكلم ، قال الله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (١) وقال « ولقد خلقنا الانسان » (٢) وما جرى مجراه . وروى النضر بن سمال قال : سئل الخليل عن قوله « رب ارجعون » ففكر ثم قال : سألتموني عن شيء لا أحسنه ولا أعرف معناه ، والله أعلم ، لانه جمع ، فاستحسن الناس منه ذلك .

فقال الله تعالى في الجواب عن سؤالهم « كلا » وهي كلمة ردع وزجر أي حقاً « إنها كلمة » فالكناية عن الكلمة والتقدير : ان الكلمة التي قالوها « كلمة هو قائلها » بلسانه . وليس لها حقيقة ، كما قال « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » (٣)

وقوله « ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون» فالبرزخ الحاجز - وهنا - هو الحاجز بين الموت والبعث - في قول ابن زيد - وقال مجاهد: هو الحاجز بين الموت والرجوع الى الدنيا. وقال الضحاك : هو الحاجز بين الدنيا والاخرة . وقيل البرزخ الامهال . وقيل : كل فصل بين شيئين برزخ .

وفي الآية دلالة على أن احداً لا يموت حتى يعرف اضطراراً منزلته عند الله وانه من أهل الثواب أو العقاب - في قول الجبائي وغيره - وفيها دلالة أيضاً على انهم في حال التكليف يقدرون على الطاعة بخلاف ما تقول المجبرة .

ومعنى « ومن ورائهم » أي أمامهم وقدامهم ، قال الشاعر :

ايرجو بنو مروان سمعي وطاعتي   وقومي تميم والفلاة ورائيا

ومعنى « يبعثون » يوم يحشرون للحساب والمجازاة ، وأضيف الى الفعل لان ظرف الزمان يضاف الى الافعال .

(١، ٢) سورة ١٥ الحجر آية ٩ ، ٢٦   (٣) سورة ٦ الانعام آية ٢٨

قوله تعالى

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠٢) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٣) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٤) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٥) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (١٠٦) خمس آيات بلا خلاف .

قوله تعالى « فاذا نفخ في الصور » ليوم الحشر والجزاء ومعنى نفخ الصور : هو علامة لوقت اعادة الخلق . وفي تصورهم الاخبار عن تلك الحال صلاح لهم في الدنيا ، لانهم على ما اعتادوه فى الدنيا من بوق الرحيل والقدوم . وقال الحسن : الصور جمع صورة أي إذا نفخ فيها الأرواح واعيدت احياء . وقال قوم : هوقرن ينفخ فيه إسرافيل بالصوت العظيم الهائل ، على ما وصفه الله . وقوله « فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » اخبار منه تعالى عن هول ذلك اليوم ، فانهم لايتواصلون هناك بالانساب ، ولا يحنون اليها ، لشغل كل انسان بنفسه . وقيل معناه : انهم لايتناسبون في ذلك اليوم ، ليعرف بعضهم بعضاً من أجل شغله بنفسه عن غيره . وقال الحسن : معناه لا أنساب بينهم يتعاطفون بها ، وإن كانت المعرفة بأنسابهم حاصلة بدلالة قوله « يوم يفر المرء من اخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه » (١) فاثبت انهم يعرفون أقاربهم وإن هربهم منهم لاشتغالهم بنفوسهم ، والنسب هو إضافة الى

(١) سورة ٨٠ عبس آية ٣٤ ـ ٣٦

قرابة في الولادة .

وقوله « ولا يتساءلون » معناه لا يسأل بعضهم بعضاً عن خبره وحاله ، كما كانوا فى الدنيا ، لشغل كل واحد منهم بنفسه . وقيل : لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه من ذنوبه شيئاً . ولا يناقض ذلك قوله « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون »(١) لان هناك مواطن ، فمنها ما يشغلهم من عظيم الأمر الذي ورد عليهم عن المساءلة ، ومنها حال يفيقون فيها فيتساءلون . وقال ابن عباس : قوله « فاذا نفخ فى الصور » يعني النفخة الاولى التي يهلك عندها الخلق ، فلا احد يبقى ، ولا نسب هناك ولا تساؤل . وقوله ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ فذلك عند دخولهم الجنة ، فانه يسأل بعضهم بعضاً ، وهو قول السدي .

وقوله « فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون » اخبار منه تعالى أن من عظمت طاعاته وسلمت من الاحباط - فى قول من يقول بذلك - ومن لا يقول بالاحباط فمعناه عندهم: إن من كثرت طاعاته ، وهو غير مستحق للعقاب ، فان اولئك هم المفلحون الفائزون .

« ومن خفت موازينه » بأن يكون احبطت طاعاته ، لكثرة معاصيه . ومن لا يقول بالاحباط ، قال : معناه من لم يكن معه شيء من الطاعات وإنما معهم المعاصي ، لان الميزان إذا لم يكن فيه شيء يوصف بالخفة ، كما يوصف بالخفة إذا كان فيه شيء يسير في مقابلته ماهو أضعافه ، فان من هذه صورته ﴿فأولئك الذين خسروا انفسهم﴾ لأنهم أهلكوها بالمعاصي التي استحقوا بها العقاب الدائم ، وهم ﴿ فى جهنم ﴾ مؤبدون ﴿ خالدون ﴾ .

وقال الحسن والجبائي وغيرهما : هناك ميزان له كفتان ولسان . واختلفوا :

---

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ٢٧

فمنهم من قال : يوزن بها صحف الأعمال . وقال بعضهم : يظهر في احدى الكفتين النور، وفي الأخرى الظلمة ، فأيهما رجح تبينت الملائكة المستحق للثواب من المستحق للعقاب . وقال قتادة والبلخي : الميزان عبارة عن معادلة الاعمال بالحق . وبيان أنه ليس هناك مجازفة ولا تفريط .

ثم اخبر تعالى بأن النار التي يجعلون فيها ﴿ تلفح وجوههم ﴾ وانهم فيها ﴿ كالحون ﴾ يقال : لفح ونفح بمعنى واحد ، غير أن اللفح أعظم من النفح . واشد تأثيراً ، وهو ضرب من السموم للوجه ، والنفح ضرب الريح للوجه ، والكلوح تقلص الشفتين عن الاسنان حتى تبدو الأسنان ، قال الاعشى :

وله المقدم لا مثل له ساعة الشدق عن الناب كالح (١)

قوله تعالى :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (١٠٧) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٨) قَالَ اخْسَؤُا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٩) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٠) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ (١١١) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً ﴿ شقاوتنا ﴾ باثبات الألف . الباقون ﴿ شقوتنا ﴾ .

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ٤٠ وروايته « في الحرب » بدل « لا مثل له »

وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً ونافع ﴿ سخرياً ﴾ بضم السين . الباقون بكسرها .

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار انهم يعترفون على نفوسهم بالخطأ ، ويقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾ والشقوة المضرة اللاحقة في العاقبة . والسعادة المنفعة اللاحقة في العاقبة ، وقد يقال لمن حصل في الدنيا على مضرة فادحة : شقي ، من حيث أنه يؤدي الى أمر شديدة ، فالمعاصي شقوة ، تؤدي الى العقاب الدائم . ويجوز أن يكون المراد بالشقوة العذاب الذي يفعل الله بهم ويغلب عليهم .

وقوله « وكنا قوماً ضالين » اعتراف منهم على نفوسهم أنهم ضلوا عن الحق في الدنيا وزمان التكاليف ، ويسألون الله تعالى فيقولون « ربنا أخرجنا منها » أي من هذه النار « فان عدنا فانا ظالمون » ولا يجوز أن يكونوا لو أخرجوا الى دار التكليف لما عادوا ، لان الشهوة العاجلة والاغترار بالامهال يعود اليهم فلا يكونون ملجئين . وقد قال الله تعالى « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون » (١) . وقال الحسن : هو آخر كلام يتكلمون به أهل النار ، فيقول الله تعالى لهم في جوابهم « اخسئوا فيها » يعني في النار « ولا تكلمون » أي ابعدوا ، بعد الكلب . واذا قيل للكلب اخسأ ، فهو زجر بمعنى ابعد بعد غيرك من الكلاب ، واذا خوطب به انسان ، فهو إهانة له ، ولا يكون ذلك إلا عقوبة . وخسأت فلاناً أخسأه خسأ ، فهو خاسىء إذا أبعدته بمكروه ، ومنه قوله « كونوا قردة خاسئين » (٢) وقوله « ولا تكلمون » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ ان ذلك على وجه الغضب اللازم لهم ، فذكر ذلك ليدل على هذا المعنى ، لان من لا يكلم اهانة له وغضباً ، فقد بلغ به الغاية في الاذلال .

والثاني ـ ولا تكلمون في رفع العذاب عنكم ، فاني لا أرفعه عنكم ، ولا افتره

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢٨　　(٢) سورة ٢ البقرة آية ٦٥

وهو على صيغة النهي ، وليس بنهي ٠

ثم يقول الله تعالى لهؤلاء الكفار على وجه التهجين لهم والتوبيخ ﴿ انه كان فريق من عبادي ﴾ يعني المؤمنين في دار الدنيا ﴿ يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين ﴾ أي يدعون بهذه الدعوات ، عبادة لله ، وطلباً لما عنده من الثواب ﴿ فاتخذتموهم ﴾ انتم يا معشر الكفار ﴿ سخريا ﴾ اي كنتم تستهزؤن بهم وتسخرون منهم . وقيل (السخري) بضم السين من التسخير و (السخري) بكسر السين من الهزء . وقيل : هما لغتان ٠ وقوله ﴿ حتى انسوكم ذكري ﴾ معناه لتشاغلكم بالسخرية نسيتم ذكري ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾ فلذلك نسب اليهم انهم انسوهم ذكر الله ، لما كان بسببهم ، والاشغال باغوائهم نسوا ذكر الله ٠

قوله تعالى :

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١٢) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٣) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ (١١٤) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٥) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٦) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٧) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٨) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ

وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴾ (١١٩) ثمان آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي وخارجة عن نافع « انهم هم الفائزون » بكسر الهمزة . الباقون بفتحها . وقرأ ابن كثير « قل كم لبثتم » على الامر . الباقون « قال كم لبثتم » على الخبر . وقرأ حمزة والكسائي « قل » فيهما على الأمر . الباقون « قال » فيهما على الخبر . وقرأ « ترجعون » بفتح التاء وكسر الجيم حمزة والكسائي . الباقون بضم التاء وفتح الجيم .

اخبر الله تعالى « اني جزيتهم اليوم » يعني المؤمنين الذين سخر منهم الكفار فى دار التكليف ، وأكافيهم على صبرهم ومضضهم في جنب الله ، على أقوال الكفار وهزؤهم بهم بـ « أنهم هم الفائزون » وحذف الباء ، ونصب الهمزة ، وقيل : إنها فى موضع جر ، وتقديره جزيتهم بفوزهم بالجنة . وقيل تقديره : لانهم هم الفائزون . ومن خفض الهمزة فاستأنف ، فالجزاء مقابلة العمل بما يستحق عليه من ثواب أو عقاب كما يقال: الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخيراً،وإن شراً فشراً. والصبر حبس النفس عما تنازع اليه مما لا يحسن ، أو ليس بأولى ، لان الصبر طاعة الله لما وعد عليه من الجزاء ،،والطاعة قد تكون فرضاً ، وقد تكون نفلا .

وقوله « اليوم » يريد به أيام الجزاء لا يوماً بعينه ، لأن اليوم هو ما بين طلوع الفجر الثاني الى غروب الشمس ، وليس المراد في الآية ذاك .

قوله « قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين ، فمن قرأ « قال » فمعناه قال الله لهم كم لبثتم . ومن قرأ « قل » معناه قل لهم يا محمد ، واللبث هو المكث وهو حصول الشيء على الحال اكثر من وقت واحد ، واللابث هو الكائن على الصفة ، على مرور الأوقات . والعدد عقد يظهر به مقدار المعدود ، يقال : عده يعده عداً وعدداً ،

فهو عاد . والحساب هو اخراج المقـدار فى الكمية وهي العدة ، وهذا السؤال لهم على وجه التوبيخ لانكارهم البعث والنشور ، فيقول الله لهم اذا بعثهم ﴿كم لبثتم في الارض عدد سنين﴾ اي اين ما كنتم تنكرون من اجابت الرسل وما جاءت به وتكذبون به .

وقوله ﴿قالوا لبثنا يوماً او بعض يوم﴾ فسأل العادين قال مجاهـد: معناه فسأل العادين من الملائكة لانهم يحصون أعمال العبـاد . وقال قتادة : العادين هم الحساب الذين يعـدون الشهور والسنين ، ولا يدل ذلك على بطلان عـذاب القبر ، لانهم لم يكونوا يعذبون كاملي العقول ، وقد صح عذاب القبر بتضافر الاخبار عن النبي (ص) واجماع الامة عليه ـ ذكره الرماني ـ ولا يحتاج الى هـذا ، لانه لا يجوز أن يعاقب الله العصاة إلا وهم كاملوا العقول ليعلموا أن ذلك واصل إليهم على وجه الاستحقاق . ووجـه اخبارهم بيوم او بعض يوم ، هو الاخبار عن قصر المدة ، وقلته ، لما مضى لسرعة حصولهم فى ماتوعـدهم الله تعالى ، فيقول الله تعالى في الجواب ﴿ان لبثتم الا قليلا﴾ اي لم تلبثوا إلا قليلا ، والمراد ما قلناه من قصر المدة كما قال ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ (١) وكما قال ﴿اقتربت الساعـة﴾ (٢) وكما قال ﴿وما أمر الساعـة إلا كلمح البصر أوهو اقرب﴾ (٣) وقال الحسن : معناه ﴿إن لبثتم إلا قليلا﴾ فى طول لبثكم فى النار ، والقلة والكثرة يتغيران بالاضافة ، فقد يكون الشيء قليلا بالاضافة الى ما هو أكثر منه ، ويكون كثيراً بالاضافة الى ما هو أقل منه ﴿لو انكم كنتم تعلمون﴾ صحة ما أخبرناكم به .

ثم قال لهم ﴿أفحسبتم﴾ معاشر الجاحدين للبعث والنشور ﴿أنما خلقناكم عبثاً﴾ لا لغرض؟!! أي ظننتم ، والحسبان والظن واحد ، أي ظننتم انا خلقناكم لا لغرض،

(١) سورة ٢١ الأنبياء آية ١ (٢) سورة ٥٤ القمر آية ١

(٣) سورة ١٦ النحل آية ٧٧

وحسبتم ﴿ أنكم الينا لا ترجعون ﴾ أي الى الحال التي لا يملك نفعكم وضركم فيها إلا الله ، كما كنتم في ابتداء خلقكم قبل أن يملك أحداً شيئاً من أمركم . ثم نزه تعالى نفسه عن كل دنس ، واخبرانه ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ ومعناه : علا معنى صفته ، فوق كل صفة لغيره ، فهو تعظيم لله تعالى بأن كل شيء سواه يصغر مقداره عن معنى صفته . ﴿ والملك الحق ﴾ هو الذي يحق له الملك ، بأنه ملك غير مملك ، وكل ملك غيره ، فملكه مستعار له ، وانما يملك ما ملكه الله ، فكأنه لا يعتد بملكه في ملك ربه ، والحق هو الشيء الذي من اعتقده كان على ما اعتقده ، فالله الحق ، لأنه من اعتقد انه لا إله إلا هو ، فقد اعتقد الشيء على ما هو به . وقوله ﴿ رب العرش الكريم ﴾ أي خالقه ، ووصفه العرش بأنه كريم تعظيم له باتيان الخير من جهته ، بما دبره الله لعباده ، والكريم في أصل اللغة القادر على التكرم من غير مانع . ثم قال « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به » ومعناه إن من دعا مع الله إلهاً سواه لا يكون له على ذلك برهان ولا حجة ، لأنه باطل ، ولو دعا الله ببرهان لكان محقاً ، واجري على ذلك قوله « ويقتلون النبيين بغير حق » (١) وقول الشاعر :

على لاحب لا يهتدى بمناره (٢)

وقوله « فانما حسابه على ربه » يعني الله الذي يبين له مقدار ما يستحقه من ثواب او عقاب . ثم اخبر تعالى بأنه « لا يفلح الكافرون » يعني الجاحدين لنعم الله ، والمنكرين لتوحيده ، والدافعين للبعث والنشور . ثم أمر نبيه (ص) فقال له « قل » يا محمد « رب اغفر وارحم » أي اغفر الذنوب ، وانعم على خلقك . « وانت خير الراحمين » معناه افضل من رحم وانعم على غيره ، واكثرهم نعمة وأوسعهم فضلا .

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٢١　　(٢) انظر ٢/ ٣٥٦، ٤٢٣ و٦/ ٢١٣

٢٤- سورة النور

مدنية بلا خلاف ، وهي أربع وستون آية
في البصري والكوفي واثنتان في المدنيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) آية واحدة بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ﴿ وفرضناها ﴾ بتشديد الراء . الباقون بتخفيفها . وفسر ابو عمرو قراءته بمعنى فصلناها (١) وبيناها بفرائض مختلفة ، والتقدير هذه ﴿ سورة ﴾ لان النكرة لا يبتدأ بها . وقال غيره : معنى التشديد حددنا فيها الحلال والحرام . وقال قتادة : معنى التشديد : قد بيناها . وقيل : معنى التشديد : جعلناها عليكم وعلى من بعدكم الى قيام الساعة .

ومن خفف أراد من الفريضة أي فرض فيها الحلال والحرام ، والفرض مأخوذ من فرض القوس وهو الحز الذي فيه الوتر ، والفرض ايضاً نزول القرآن قال

(١) وفي بعض النسخ الخطية (فمعنى قراءة ابي عمرو : وفصلناها)

الله تعالى ﴿ ان الذي فرض عليك القرآن ﴾ (١) أي أنزل . وارتفع ﴿ سورة ﴾ على تقدير هذه (سورة) إلا انه حذف على تقدير التوقع لما ينزل من القرآن . والسورة المنزلة الشريفة قال الشاعر :

ألم تر أن الله اعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب (٢)

فسميت السورة من القرآن بذلك لهذه العلة . والفرض هو التقدير - فى اللغة - وفصل بينه وبين الواجب ، بأن الفرض واجب بجعل جاعل ، فرضه على صاحبه ، كما انه أوجبه عليه ، والواجب قد يكون واجباً من غير جعل جاعل ، كوجوب شكر المنعم ، فجرى مجرى دلالة الفعل على الفاعل في انه يدل من غير جعل جاعل كما تجعل العلامة الوضعية ، إلا أن الله تعالى لا يوجب على العبد الا ماله صفة الوجوب في نفسه ، كما لا يرغب الا في ما هو مرغوب فى نفسه .

وقوله ﴿انزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ فمعنى (الآيات) الدلالات على ما يحتاج إلى علمه مما قد بينه الله فى هذه السورة ، ونبه على ذلك من شأنها لينظر فيه طالب العلم ويفوز ببغيته منه ، والتقدير ، وفرضنا فرائضها . واضاف الفرائض الى السورة ، وهي بعضها ، لدلالة الكلام عليه ، لانها مفهومة منها و﴿ بينات ﴾ معناه ظاهرات واضحات . وقوله ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ معناه لكي تذكروا الدلائل التي فيها ، فتكون حاضرة لكم لتعملوا بموجبه وتلتزموا معانيه .

قوله تعالى :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ

---

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٨٥ (٢) قائله النابغة الذبياني ديوانه « دار بيروت » ١٨ وقد مر في ١/ ١٩ ، ٣ / ٣٦٦ من هذا الكتاب

وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢) ألزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) آيتان بلا خلاف .

قرأ ابن كثير الا ابن فليح ﴿ رآفة ﴾ بفتح الهمزة على وزن (فعالة) . الباقون بسكونها ، وهما لغتان في المصدر . يقال : رأف رأفة مثل كرم كرماً . وقيل : رآفة مثل سقم سقامة . والرأفة رقة الرحمة .

أمر الله تعالى فى هذه الآية : أن يجلد الزاني ، والزانية اذا لم يكونا محصنين ﴿ كل واحد منهما مئة جلدة ﴾ واذا كانا محصنين أو أحدهما ، كان على المحصن الرجم بلا خلاف . وعندنا انه يجلد اولا مئة جلدة ثم يرجم ، وفي اصحابنا من خص ذلك بالشيخ والشيخة إذا زنيا وكانا محصنين ، فأما اذا كانا شابين محصنين لم يكن عليهما غير الرجم ، وهو قول مسروق . وفي ذلك خلاف ذكرناه فى خلاف الفقهاء .

والاحصان الذي يوجب الرجم هو أن يكون له زوج يغدو اليه ويروح على وجه الدوام ، وكان حراً . فأما العبد ، فلا يكون محصناً ، وكذلك الأمة لا تكون محصنة ، وانما عليهما نصف الحد : خمسون جلدة ، والحر متى كان عنده زوجة يتمكن من وطئها مخلى بينه وبينها سواء كانت حرة او أمة ، او كان عنده أمة يطؤها بملك اليمين ، فانه متى زنا وجب عليه الرجم ، ومن كان غائباً عن زوجته شهراً فصاعداً أو كان محبوساً او هي محبوسة هذه المدة . فلا أحصان . ومن كان محصناً على ماقدمناه ثم ماتت زوجته أو طلقها بطل احصانه . وفى جميع ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه

فى الخلاف .

والخطاب بهذه الآية وان كان متوجهاً الى الجماعة ، فالمراد به الأئمة بلا خلاف ، لانه لا خلاف أنه ليس لاحد اقامة الحدود إلا للامام أو من يوليه الامام . ومن خالف فيه لا يعتد بخلافه .

والزنا هو وطؤ المرأة فى الفرج من غير عقد شرعي ولا شبهة عقد شرعي مع العلم بذلك أو غلبة الظن . وليس كل وطىء حرام زناً ، لانه قد يطؤ امرأته فى الحيض والنفاس ، وهو حرام ، ولا يكون زناً ، وكذلك لو وجد امرأة على فراشه ، فظنها زوجته او أمته فوطأها لم يكن ذلك زناً ، لانه شبهة .

وقوله « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » قال مجاهد وعطاء ابن أبي رياح وسعيد بن جبير وابراهيم : معناه لا تمنعكم الرأفة والرحمة من اقامة الحد . وقال الحسن وسعيد بن المسيب وعامر الشعبي وحماد : لا يمنعكم ذلك من الجلد الشديد . (والرأفة) بسكون الهمزة . والرآفة ـ بفتح الهمزة ـ مثل الكأبة والكآبة ، والسأمة والسآمة ، وهما لغتان ، وبفتح الهمزة قرأ ابن كثير على ما قدمناه .

وقوله « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » أي إن كنتم تصدقون بما وعدالله وتوعد عليه ، وتقرون بالبعث والنشور ، فلا تأخذكم فى من ذكرناه الرأفة ، ولا تمنعكم من اقامة الحد على من ذكرناه ،

وقوله « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » قال مجاهد وابراهيم : الطائفة رجل واحد . وعن ابي جعفر (ع) ان اقله رجل واحد . وقال عكرمة : الطائفة رجلان فصاعداً . وقال قتادة والزهري : هم ثلاثة فصاعداً . وقال ابن زيد : اقله اربعة . وقال الجبائي : من زعم ان الطائفة اقل من ثلاثة فقد غلط من جهة اللغة ، ومن جهة المراد بالآية ، من احتياطه بالشهادة ، وقال : ليس لأحد ان يقيم الحد

إلا الأئمة وولاتهم ، ومن خالف فيه فقد غلط ، كما انه ليس للشاهد ان يقيم الحد. وقد دخل المحصن في حكم الآية بلا خلاف.

وكان سيبويه يذهب الى ان التأويل: في ما فرض عليكم ، الزانية والزاني ، ولولا ذلك لنصب بالأمر. وقال المبرد : إذا رفعته ففيه معنى الجزاء ، ولذلك دخل الفاء في الخبر ، والتقدير التي تزني ، والذي يزني ، ومعناه من زنى فاجلدوه ، فيكون على ذلك عاماً في الجنس .

وقال الحسن : رجم النبي (ص) الثيب (١) وأراد عمر ان يكتبه في آخر المصحف ثم تركه ، لئلا يتوهم انه من القرآن . وقال قوم : إن ذلك منسوخ التلاوة دون الحكم . وروي عن علي (ع) ان المحصن يجلد مئة بالقرآن ، ثم يرجم بالسنة . وانه امر بذلك .

وقوله « الزاني لا ينكح إلا زانية او مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان او مشرك ... » الآية ، قيل : انها نزلت على سبب ، وذلك انه استأذن رجل من المسلمين النبي (ص) ان يتزوج امرأة من اصحاب الرايات ، كانت تسافح ، فأنزل الله تعالى الآية . وروي ذلك عن عبد الله بن عمر ، وابن عباس : وقال حرم الله نكاحهن على المؤمنين ، فلا يتزوج بهن الا زان او مشرك . وقال مجاهد والزهري والشعبي : ان النبي استؤذن فيها ام مهزول . وقيل النكاح ـ ههنا ـ المراد به الجماع ، والمعنى الاشتراك في الزنا ، يعني انهما جميعاً يكونان زانيين ، ذكر ذلك ابن عباس . وقد ضعف الطبري ذلك ، وقال : لا فائدة في ذلك . ومن قال بالأول ، قال : الآية وان كان ظاهرها الخبر ، فالمراد به النهي . وقال سعيد بن جبير : معناه انها زانية مثله ، وهو قول الضحاك وابن زيد . وقال سعيد بن المسيب : كان ذلك حكم كل

(١) في المخطوط (البنت)

زان وزانية، ثم نسخ بقوله ﴿ وانكحوا الأيامى منكم والصالحين ﴾ (١) ، وبه قال اكثر الفقهاء . وقال الرماني : وجه التأويل انهما مشتركان في الزنا ، لأنه لاخلاف انه ليس لاحد من اهل الصلاة ان ينكح زانية وان الزانية من المسلمات حرام على كل مسلم من اهل الصلاة ، فعلى هذا له ان يتزوج بمن كان زنى بها .

وعن ابي جعفر (ع) (ان الآية نزلت في اصحاب الرايات ، فأما غيرهن فانه يجوز ان يتزوجها ، وان كان الأفضل غيرها ، ويمنعها من الفجور) . وفي ذلك خلاف بين الفقهاء .

قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) آيتان بلاخلاف.

قال سعيد بن جبير : هذه الآية نزلت في عائشة . وقال الضحاك في نساء المؤمنين : وهو الأولى ، لأنه اعم فائدة ، وإن كان يجوز أن يكون سبب نزولها في عائشة ، فلا تقصر الآية على سببها .

يقول الله تعالى ان « الذين يرمون المحصنات » أي يقذفون العفائف من النساء بالزنا ، والفجور ، وحذف قوله بالزنا لدلالة الكلام عليه ، ولم يقيموا على ذلك أربعة من الشهود ، فانه يجب على كل واحد منهم ثمانون جلدة . وقال الحسن : يجلد

(١) سورة ٢٤ النور آية ٣٢

وعليه ثيابه . وهو قول ابي جعفر (ع). ويجلد الرجل قائماً ، والمرأة قاعدة . وقال ابراهيم ترمى عنه ثيابه فى حد الزنا .

وقوله « ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً » نهي من الله تعالى عن قبول شهادة القاذف على التأبيد ، وحكم عليهم بأنهم فساق . ثم استثنى من ذلك الذين تابوا من بعد ذلك .

واختلفوا فى الاستثناء الى من يرجع ، فقال قوم : انه من الفساق ، فاذا تاب قبلت شهادته حد او لم يحد . وهو قول سعيد بن المسيب . وقال عمر لأبي بكرة : إن تبت قبلت شهادتك . فأبى ابو بكرة أن يكذب نفسه . وهو قول مسروق والزهري والشعبي وعطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز والضحاك ، وهو قول ابي جعفر وابي عبد الله (ع) . وبه قال الشافعي من الفقهاء وأصحابه ، وهو مذهبنا . وقال الزجاج : يكون تقديره ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً إلا الذين تابوا . ثم وصفهم بقوله «وأولئك هم الفاسقون» وقال شريح وسعيد بن المسيب ، والحسن وابراهيم : الاستثناء من الفاسقين دون قوله « ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً » وبه قال أهل العراق ، قالوا : فلا يجوز قبول شهادة القاذف ابداً . ولا خلاف فى انه إذا لم يحد ـ بأن تموت المقذوفة ولم يكن هناك مطالب ، ثم تاب ـ أنه يجوز قبول شهادته . وهذا يقتضي الاستثناء من المعنيين على تقدير : وأولئك هم الفاسقون فى قذفهم ، مع امتناع قبول شهادتهم إلا التائبين منهم .

والحد حق المقذوفة لا يزول بالتوبة . وقال قوم : توبته متعلقة باكذابه نفسه . وهو المروي فى أخبارنا ، وبه قال الشافعي . وقال مالك بن أنس : لا يحتاج الى ذلك فيه . قال أبو حنيفة : ومتى كان القاذف عبداً او أمة فعليه أربعون جلدة . وقد

روى أصحابنا: أن الحد ثمانون في الحرّ والعبد، وظاهر العموم يقتضي ذلك، وبه قال عمر بن عبد العزيز، والقاسم بن عبد الرحمن.

قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٦) وَٱلْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ (٨) وَٱلْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة الا أبا بكر «فشهادة احدهم اربع شهادات» برفع العين. الباقون بفتحها. وقرأ نافع ويعقوب «ان لعنة الله .... وان غضب الله عليها» بتخفيف النون فيهما، وسكونها، ورفع «لعنة الله» وقرأ نافع «غضب الله» ـ بكسر الضاد وفتح الباء، ورفع الهاء ـ من اسم الله. وقرأ يعقوب ـ بفتح الضاد ورفع الباء وخفض الهاء ـ من اسم الله. الباقون بفتح الضاد ونصب الباء وخفض الهاء. وقرأ حفص «الخامسة ان غضب الله» بالنصب. الباقون بالرفع.

من رفع قوله «اربع» جعله خبر الابتداء، والابتداء «فشهادة احدهم» قال أبو حاتم: من رفع فقد لحن، لان الشهادة واحدة، وقد أخبر عنها بجمع، فلا يجوز ذلك، كما لا يجوز (زيد أخوتك) وهذا خطأ، لان الشهادة، وإن كانت بلفظ الوحدة فمعناها

الجمع ، كقولك صلاتي خمس ، وصومي شهر . وقال الزجاج : تقديره « فشهادة أحدهم » التي تدرؤ العذاب «أربع شهادات» ومن قرأ بالنصب جعله مفعولا به أي يشهد أربع شهادات . وقال ابو علي الفارسي : ينبغي أن يكون قوله «فشهادة احدهم» مبنيًا على ما يكون مبتدأ ، وتقديره : فالحكم أو فالفرض ان يشهد أحدهم أربع شهادات ، أو فعليهم أن يشهدوا ، ويكون قوله « انه لمن الكاذبين » على هـذا من صلة (شهادة أحدهم) ، وتكون الجملة التي هي قوله « انه لمن الصادقين » في موضع نصب ، لان الشهادة كالعلم ، والجملة في موضع نصب ، بأنه مفعول به « واربع شهادات» تنتصب انتصاب المصادر . ومن رفع « أربع شهادات » لم يكن قوله « انه لمن الصادقين » إلا من صلة « شهادات » دون « شهادة » كما أن قوله « بالله » من صلة (شهادات) دون صلة (شهادة) لانك لو جعلته من صلة (شهادة) فصلت بين الصلة والموصول . ومن نصب « أربع شهادات » فقياسه ان ينصب « والخامسة » لانها شهادة ، وإذا رفع « أربع شهادات » ونصب « الخامسة » قدر له فعلا ينصبها به ، وتقديره ويشهد الخامسة . ومن رفع « أربع شهادات » ورفع « الخامسة » جعلها معطوفة عليه ، وإذا نصب الخامسة ، لم يجعلها معطوفة عليه وجعلها مفعولا ، وقدر فعلا ينصبها به . وقال : ابو علي : قراءة نافع في تخفيف (ان) الوجه فيها أنها المخففة من الثقيلة ، ولا تخفف في الكلام أبداً وبعدها اسم إلا ويراد إضمار القصة ، ومثله قوله « وآخر دعواهم أن الحمد لله » (١) . وانما خففت الثقيلة المفتوحة على اضمار القصة والحديث ، ولم تكن المكسورة كذلك ، لأن الثقيلة المفتوحة موصولة . ويستقبح النحويون قراءة نافع في قوله « ان غضب الله » لان من شأن المخففة من الثقيلة ألا تلي فعلا إلا وفي الكلام عوض ، كقوله « ألا يرجع» (٢) وقوله « علم ان

(١) سورة ١٠ يونس آية ١٠ (٢) سورة ٢٠ طه آية ٨٩

سيكون » (١) فان (لا) و (السين) عوض من الثقيلة . ووجه قراءة نافع انه قد جاء في الدعاء ولفظه لفظ الخبر ، وقد يجيء في الشعر وإن لم يفصل بين (ان) وبين ما يدخل عليها من الفعل ، فعلى قول نافع ﴿ لعنة الله ﴾ رفع بالابتداء و ﴿غضب﴾ فعل ماض ، واسم الله رفع بفعله .

ومعنى الآية ان من قذف محصنة حرة مسلمة بفاحشة من الزنا ، ولم يأت بأربعة شهداء جلد ثمانين . ومن رمى زوجته بالزنا تلاعنا . والملاعنة أن يبدأ الرجل فيحلف اربع مرات بالله الذي لا إله إلا هو انه صادق فيما رماها به ، ويحتاجان يقول أشهد بالله أني صادق ، لان شهادته أربع مرات تقوم مقام أربعة شهود في دفع الحد عنه ، ثم يشهد الخامسة ان لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به . [واذا جحدت المرأة ذلك شهدت أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فيما رماها به و](٢) تشهد الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . ثم يفرق بينهما ، ولا يجتمعان أبداً ، كما فرق رسول الله (ص) بين هلال بن أمية وزوجته . وقضى أن الولد لها ، ولا يدعى لأب ، ولا ترمى هي ، ولا يرمى ولدها . وقال ابن عباس : متى لم تحلف رجمت ، وإن لم يكن دخل بها جلدت الحد ، ولم ترجم إذا لم تلتعن ، وعند أصحابنا : انه لا لعان بينهما مالم يدخل بها . فمتى رماها قبل الدخول وجب عليه حد القاذف ، ولا لعان بينهما . وفرقة اللعان تحصل عندنا بتمام اللعان من غير حكم الحاكم ، وتمام اللعان إنما يكون اذا تلاعن الرجل والمرأة معاً . وقال قوم : تحصل بلعان الزوج الفرقة . وقال أهل العراق : لاتقع الفرقة إلا بتفريق الحاكم بينهما .

ومتى رجمت عند النكول ورثها الزوج ، لأن زناها لا يوجب التفرقة بينهما . ولو جلدت ـ إذا لم يكن دخل بها ـ فهما على الزوجية . وذلك يدل على ان الفرقة انما تقع

---

(١) سورة ٧٣ المزمل آية ٢٠   (٢) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

بلعان الرجل والمرأة معاً . قال الحسن : اذا تمت الملاعنـة بينهما ولم يكن دخل بها ، فلها نصف الصداق ، لان الفرقة جاءت من قبله . وآذاتم اللعان اعتدت عدة المطلقة عند جميع الفقهاء ، ولا يتزوجها أبداً بلا خلاف .

وآية اللعان نزلت في عاصم بن عدي . وقيل : نزلت في هلال ابن امية ـ فى قول ابن عباس ـ ومتى فرق بينهما ثم اكذب نفسه جلد الحد ولا ترجع اليه امرأته . وقال ابو حنيفة ترجع اليه . وإذا أقر بالولد بعد اللعان ألحق به يرثه الابن ولا يرثه الأب . وقال الشافعي : يتوارثان . و (الدرؤ) الدفع و (العذاب) الذي يدرؤ عنهما بشهادتهما (الحد) ، لأنه بمنزلة من يشهد عليها أربعـــة شهود بالزنا . وقال قوم : هو الحبس لانه لم تتم البينة بأربعة شهود ، وانما إلتعان الرجل درأ عنه الحد فى رميه .

قال الجبائي : فى الآية دلالة على ان الزنا ليس بكفر ، لانه ليس لصاحبه حكم المرتد . وفيها دلالة على انه يستحق اللعن من الله بالزنا .

وقوله ﴿ ولو لا فضل الله عليكم ورحمته وان الله تواب رحيم ﴾ نصب قوله ﴿ وان الله ﴾ لانه عطف على موضع (أن) الاولى وجواب (لولا) محذوف ، وتقديره : لولا فضل الله عليكم ورحمته لفضحكم بما ترتكبون من الفاحشة ، ولعاجلكم بالعقوبة او لهلكتم وما يجري مجراه . ومثله قولهم : لو رايت فـلاناً وفى يده السيف اي لرأيت شجاعاً ولرأيت هائلا ، قال جرير :

كذب العواذل لو رايت مناخنا … بحزيز رامـــة والمطي سوام (١)

وفى المثل (لو ذات سوار لطمتني)

(١) ديوانه « دار بيروت » ٤٥٢

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاؤُا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا ٱكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَٱلَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاؤُا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِٱلشُّهَدَاءِ فَأُولٰئِكَ عِنْدَ ٱللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ ٱللهِ عَظِيمٌ ﴾ (١٥) خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخاطباً لأمة محمد (ص) «إن الذين جاؤا بالافك» يعني الذين أتوا بالافك، وهو الكذب الذي قلب فيه الأمر عن وجهه، واصله الانقلاب، ومنه (المؤتفكات) وأفك يأفك افكاً إذا كذب. لانه قلب المعنى عن حقه الى باطله. فهو آفك، مثل كاذب.

وقوله «عصبة منكم» يعني جماعة منكم، ومنه قوله «ليوسف واخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة» (١) ويقال: تعصب القوم إذا اجتمعوا على هيئة، فشد

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٨

بعضهم بعضاً . والعصبة فى النسب العشيرة المقتدرة ، لانه يجمعها التعصب .

وقال ابن‌عباس : منهم (عبد الله بن أبي بن سلول) وهو الذي تولى كبره ، وهو من رؤساء المنافقين . و (مسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش) وهو قول عائشة ، وكان سبب الافك ان عائشة ضاع عقدها في غزوة بني المصطلق ، وكانت تباعدت لقضاء الحاجة ، فرجعت تطلبه ، وحمل هودجها على بعيرها ظناً منهم بها أنها فيه ، فلما صارت الى الموضع وجدتهم قد رحلوا عنه ، وكان صفوان ابن معطل السلمي الذكواني من وراء الجيش فمر بها ، فلما عرفها أناخ بعيره حتى ركبته، وهو يسوقه حتى أتى الجيش بعد ما نزلوا فى قائم الظهيرة . هكذا رواه الزهري عن عائشة .

وقوله « لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم » خطاب لمن قرب بالافك من عائشة ، ومن اغتم لها ، فقال الله تعالى لا تحسبوا غم الافك شراً لكم بل هو خير لكم ، لان الله (عز وجل) يبرىء ساحته ببراءتها ، وينفعها بصبرها واحتسابها ، وما ينل منها من الاذى والمكروه الذي نزل بها ، ويلزم أصحاب الافك ما استحقوه بالاثم الذي ارتكبوه فى أمرها .

ثم اخبر تعالى فقال « لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم » أي له جزاء ما اكتسب من الاثم من العقاب .

ثم قال « والذي تولى كبره منهم » يعني (ابن ابي بن سلول) تحمل معظمه و (كبره) مصدر من معنى الكبير من الامور . قال ابو عبيدة : فرقوا بينه وبين مصدر الكبر فى السن ، يقال : فلان ذو كبر أي ذو كبرياء . وقرأ ابو جعفر المدني بضم الكاف . الباقون بكسرها ، فالكبر بضم الكاف من كبر السن . وهو كبير قومه أي معظمهم ، والكبر والعظم واحد . وقيل : دخل حسان على عائشة فانشدها قوله فى بيته :

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم القوافل (١)

فقالت له : لكنك لست كذلك . وقوله « له عذاب عظيم » يعني جزاء على ما اكتسبه من الاثم . وقوله «لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً » معناه هلا حين سمعتم هذا الافك من القائلين ظن المؤمنون بالمؤمنين الذين هم كانفسهم خيراً ، لان المؤمنين كلهم كالنفس الواحدة فيما يجري عليها من الامور ، فاذا جرى على أحدهم محنة ، فكأنه جرى على جماعتهم ، وهو كقوله « فسلموا على أنفسكم » (٢) وهو قول مجاهد ، قال الشاعر في (لو لا) بمعنى (هلا) :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا (٣)

اي فهلا تعدون قتل الكمي . وقوله تعالى « وقالوا هذا افك مبين » معناه وهلا قالوا هذا القول كذب ظاهر . ثم قال تعالى «لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء» اى هلا جاؤا على ما قالوه ببينة أربعة من الشهداء « فاذ لم يأتوا بالشهداء فاولئك » الذين قالوا هذا الافك « هم الكاذبون» عند الله ، والمعنى انهم كاذبون في عيبهم ، فمن جوز صدقهم ، فهو رادّ لخبر الله تعالى ، فالآية دالة على كذب من قذف عائشة ، وافك عليها . فأما في غيرها إذا رماها الانسان ، فانا لا نقطع على كذبه عند الله ، وإن اقمنا عليه الحد ، وقلنا هو كاذب في الظاهر ، لانه يجوز أن يكون صادقاً عند الله ، وهو قول الجبائي .

ثم قال تعالى على وجه الامتنان على المؤمنين « ولولا فضل الله عليكم ورحمته

---

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ٢٠٠ (٢) سورة ٢٤ النور آية ٦١

(٣) قائلة جرير ديوانه (دار بيروت) ٢٦٥، وقد مر في ١ / ٣١٩ ، ٤٣٥ و٦ / ٣١٩ ورواية الديوان :

تعدون عقر النيب افضل سعيكم بني ضوطرى هلا الكمي المقنعا

في الدنيا والاخرة لمسكم في ما أفضتم فيــه عذاب عظيم» جزاء على خوضكم في قصة الافك وافاضتكم فيـه . وقيل فى الآية تقـديم وتأخير ، وتقديره : ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم في ما افضتم فيه عذاب عظيم في الدنيا والاخرة .

وقوله « اذ تلقونه بالسنتكم » تقـديره : لمسكم عـــذاب عظيم حين تلقونه بالسنتكم ، ومعناه برواية بعضكم عن بعض لتشييعه ـ فى قول مجاهد ـ وروي عن عائشة أنها قرأت « تلقونه » من ولق الكذب ، وهو الاستمرار على الكذب ، ومنه: ولق فلان في السير إذا استمر به ، ويقال . فى الولق من الكذب : الالق والألق ، تقول : ألقت وانتم تألقونه . أنشد الفراء :

من لي بالمرر واليلامق صاحب أدهان وألق آلق (١)

فتح الالف من ادهان ، وقال الراجز :

إن الحصين زالـق وزملق جاءت به عيس من الشام تلق

وينشد ايضاً :

ان الحصين زلق وزملق جاءت به عنس من الشام تلق

مجوع البطن كلاليم الحلق

وقوله « تقولون بافواكم ما ليس لكم به عـــلم » من وجه الافك « وتحسبونه هينـاً وهو عند الله عظيم » اي تظنونه حقيراً وهـو عنــد الله عظيم لأنه كذب وافتراء.

---

(١) تفسير الطبري ١٨ / ٧٠

قوله تعالى

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذَا سُبْحَانَكَ هٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ ٱللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى للمؤمنين : وهلا حين سمعتم من هؤلاء العصبة ماقالوا من الافك « قلتم » في جوابهم « ما يكون لنا ان نتكلم بهذا » أي ليس لنا ذلك بل هو محرم علينا ، وقلتم « سبحانك » يا ربنا « هذا » الذي قالوه « بهتان عظيم » أي كذب وزور عظيم عقابه في الظاهر . فالبهتان الكذب الذي فيه مكابرة تحير ، يقال : بهته يبهته بهتاً و بهتاناً إذا حيره بالكذب عليه .

ثم قال تعالى « يعظكم الله ان تعودوا » أي كراهة أن تعودوا « لمثله » أو لئلا تعودوا إلى مثله من الافك « أبداً » أي طول اعماركم ، لا ترجعوا الى مثل هذا القول « إن كنتم مؤمنين » مصدقين بالله و نبيه ، قابلين وعظ الله . وقال ابن زيد : الوعظ يمنع ان يقول القائل أنا سمعته ، ولم أختلقه . « ويبين الله لكم الايات » يعني الدلالات والحجج « والله عليم حكيم » أي عالم بما يكون منكم ، حكيم فيما يفعله ،

ولا يضع الشيء إلا فى موضعه .

ثم اخبر تعالى « ان الذين يحبون » ويؤثرون « ان تشيع الفاحشة » أي تظهر الافعال القبيحة « في الذين آمنوا لهم عـذاب اليم » أي موجع جزاء على ذلك « فى الدنيا » باقامة الحد عليهم ، وفي « الاخرة » بعذاب النار « والله يعلم » ذلك وغيره « وانتم لا تعلمون » ان الله تعالى يعلم ذلك .

ثم قال « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤف رحيم » لأهلككم وعاجلكم بالعقوبة ، وحذف الجواب لدلالة الكلام عليه .

وفي الآية دلالة على أن العزم على الفسق فسق ، لانه إذا الزمه الوعيد على محبة شياع الفاحشة من غيره ، فاذا أحبها من نفسه وأرادها كان أعظم .

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلٰكِنَّ ٱللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَكُمْ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي ٱلدُّنْيَا

والآخرة ولهم عذاب عظيم (٢٣) يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (٢٤) يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ (٢٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابو جعفر المدني « ولايتأل » على وزن (يتفعل) الهمزة مفتوحة بعد التاء، واللام مشددة مفتوحة . الباقون « يأتل » على وزن (يفتعل). الهمزة ساكنة . وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « يوم يشهد » بالياء ، لان تأنيث الألسنة ليس بحقيقي ، ولانه حصل فصل بين الفعل والفاعل . الباقون بالتاء ، لان الألسنة مؤنثة .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين المعترفين بتوحيد الله المصدقين لرسله ، ينهاهم فيه عن اتباع خطوات الشيطان ، وخطوات الشيطان تخطية الحلال الى الحرام . والمعنى لا تسلكوا مسالك الشيطان ، ولا تذهبوا مذهبه ، والاتباع الذهاب فيما كان من الجهات التي يدعو الداعي اليها بذهابه فيها ، فمن وافق الشيطان فيما يدعو اليه من الضلال ، فقد اتبعه . والاتباع اقتفاء أثر الداعي الى الجهة بذهابه فيها ، وهو بالتثقيل والتخفيف بمعنى الاقتداء به . والمعنى لاتتبعوا الشيطان بموافقته فيما يدعو اليه . ثم قال « ومن يتبع خطوات الشيطان » فيما يدعوه اليه « فانه » يعني الشيطان « يأمر بالفحشاء » يعني القبائح «والمنكر» من الأفعال . والفحشاء كل قبيح عظيم . والمنكر الفساد الذي ينكره العقل ويزجر عنه .

ثم قال تعالى « ولو لا فضل الله عليكم ورحمته » بان يلطف لكم ، ويزجركم عن ارتكاب المعاصي « ما زكى منكم من أحد ابداً » فـ (من) زائدة ، والمعنى ما فعل احد منكم الأفعال الجميلة إلا بلطف من جهته أو وعيد من قبله . وقال ابن زيد : معناه لولا فضل الله ما أسلم احد منكم .

وفى ذلك دلالة على أن احداً لايصلح فى دينه إلا بلطف الله (عز وجل) له ، لأن ذلك عام لجميع المكلفين الذين يزكون بهذا الفضل من الله .

وقوله « ولكن الله يزكي من يشاء » معناه من يعلم أن له لطفاً يفعله به ليزكو عنده . وقيل : يزكي من يشاء بالثناء عليه . والأول أجود ﴿والله سميع عليم﴾ معناه إنه يفعل المصالح والالطاف على ما يعلمه من المصلحة للمكلفين . لانه يسمع أصواتهم ويعلم أحوالهم .

وفي الآية دلالة على أنه تعالى يريد لخلقه خلاف ما يريده الشيطان ، لأنه ذكره عقيب قوله ﴿ يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ .

وقوله ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ﴾ فالايتلاء القسم ، يقال آلى يؤلي إيلاء إذا حلف على أمر من الأمور ، ويأتل (يفتعل) من الالية على وزن (يقتضي) من القضية ، ومن قرا (يتألّ) فعلى وزن (يتفعل) ، والمعنى لايحلف أن لا يؤتي .

وقال ابن عباس وعائشة وابن زيد : إن الآية نزلت فى أبي بكر ، ومسطح بن أثاثة ، وكان يجري عليه ، ويقوم بنفقته ، فقطعها وحلف ان لاينفعه أبداً ، لما كان منه من الدخول مع أصحاب الافك فى عائشة ، فلما نزلت هذه الآية عاد أبو بكر له الى ما كان ، وقال : والله اني لأحب ان يغفر الله لي ، والله لا أنزعها عنه ابداً . وكان مسطح ابن خالة أبي بكر ، وكان مسكيناً ومهاجراً من مكة الى المدينة ، ومن جملة البدريين . وقال الحسن ومجاهد : الآية نزلت فى يتيم كان في حجر أبي بكر ، حلف الاينفق عليه . وروي عن ابن عباس وغيره : أن الآية نزلت في جماعة من اصحاب رسول الله حلفوا أن لا يواسوا أصحاب الأفك . وقال قوم : هذا نهي عام لجميع أولي الفضل والسعة أن يحلفوا ألا يؤتوا أولي القربى والمساكين والفقراء ، وهو أولى

واعم فائدة ، ويدخل فيه ما قالوه . وكان مسطح احد من حـــده النبي (ص) فى قذف الافك .

وقال ابو علي الجبائي : قصة مسطح دالة على انه قد يجوز أن تقع المعاصي ممن شهد بدراً بخلاف قول النوابت .

وقوله تعالى ﴿ وليعفوا وليصفحوا ﴾ أمر من الله تعالى المرادين بالآية بالعفو عمن أساء اليهم ، والصفح عنهم .واصل العافي التارك للعقوبة على من اذنب اليه، والصفح عن الشيء ان يجعله بمنزلة مامر صفحاً . ثم قال لهم ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ معاصيكم جزاء على عفوكم وصفحكم عمن اساء اليكم ﴿ والله غفور رحيم ﴾ اي ساتر عليكم منعم .

ثم اخبر تعالى ﴿ إن الذين يرمون المحصنات ﴾ومعناه الذين يقذفون العفائف من النساء ﴿ الغافلات ﴾ عن الفواحش ﴿ لعنوا فى الدنيا والآخرة ﴾ اي أبعدوا من رحمة الله (في الدنيا) باقامة الحد عليهم ورد شهادتهم (وفي الآخرة) بأليم العقاب ، والابعاد من الجنة ﴿ولهم﴾ مع ذلك ﴿ عذاب عظيم ﴾ عقوبة لهم على قذفهم المحصنات . وهذا وعيد عام لجميع المكلفين ، في قول ابن عباس وابن زيد واكثر اهل العلم .

وقال قوم : فى عائشة، لما رأوها نزلت فيها هذه الآية توهموا ان الوعيد خاص فيمن قذفها ، وهـذا ليس بصحيح ، لأن عند اكثر العلماء المحصلين : ان الآية إذا نزلت على سبب لم يجب قصرها عليه، كآية اللعان ، وآية القذف ، وآية الظهار ، وغير ذلك . ومتى حملت على العموم دخل من قذف عائشة في جملتها .

وقوله ﴿ يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وارجلهم ﴾ تقديره : ولهم عذاب عظيم فى هذا اليوم . وهو يوم القيامة . وشهادة الايدي والأرجل باعمال الفجار . قيل فى كيفيتها ثلاثة اقوال :

احدها ـ ان الله تعالى يبنيها بنية يمكنهم النطق بها والكلام من جهتها ٠

الثاني ـ ان يفعل الله تعالى في هـذه البنية كلاماً يتضمن الشهادة ، فكأنها هي الناطقة ٠

والثالث ـ ان يجعل فيها علامة تقوم مقام النطق بالشهادة ، وذلك اذا جحدوا معاصيهم ٠ واما شهادة الالسن فيجوز ان يكونوا يشهدون بألسنتهم إذا رأوا ان لا ينفعهم الجحد ٠ واما قوله تعـالى ﴿ اليوم نختم على افواههم ﴾ فقالوا : إنه يجوز ان يخرج الألسنة ويختم على الأفواه ، ويجوز ان يكون الختم على الأفواه إنما هو فى حال شهادة الأيدي والارجل ٠ وقال الجبائي : ويجوز ان يبنيها بنية مخصوصة ، ويحدث فيها شهادة تشهد بها ٠

وقوله ﴿ يومئـــذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ يعني جزاءهم الحق ، والـدين ـ ههنا ـ الجزاء ، ويجوز ان يكون المراد جزاء دينهم الحق ، وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامـه ﴿ ويعلمون ان الله هو الحق المبين ﴾ اي يعلمون الله ضرورة فى ذلك اليوم ، ويقرون انه الحق ، الذي ابان الحجج والآيات فى دار التكليف ، وهو قول مجاهد ، وقرىء ﴿الحق﴾ بالرفع ، والنصب ، فمن رفعه جعله من صفة الله ، ومن نصبه جعله صفةً للدين ٠

قوله تعالى :

﴿ أَلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢٦) آية بلاخلاف ٠

قيل فى معنى الآية أربعة اقوال :

احدها ـ قال ابن عباس ومجاهد والحسن والضحاك : معناه (الخبيثات) من الكلم (للخبيثين) من الرجال أي صادرة منهم .

الثاني ـ في رواية أخرى عن ابن عباس : أن (الخبيثات) من السيآت (للخبيثين) من الرجال ، والطيبات من الحسنات للطيبين من الرجال .

الثالث ـ قال ابن زيد : (الخبيثات) من النساء (للخبيثين) من الرجال ، كأنه ذهب الى اجتماعها للمشاكلة بينهما .

والرابع ـ قال الجبائي : (الخبيثات) من النساء الزواني (للخبيثين) من الرجال الزناة ، على التعبد الأول ثم نسخ ، وقيل الخبيثات من الكلم إنما تلزم الخبيثين من الرجال وتليق بهم . والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات عكس ذلك على السواء في الاقوال الأربعة .

والخبيث الفاسد الذي يتزايد فى الفساد تزايد النامي فى النبات ، ونقيضه الطيب. والحرام كله خبيث . والحلال كله طيب .

وقوله « أولئك مبرؤن مما يقولون » قال مجاهد معناه : الطيبون من الرجال مبرؤن من خبيثات القول ، يغفرها الله لهم . ومن كان طيباً ، فهو مبرؤ من كل قبيح. ومن كان خبيثاً ، فهو مبرؤ من كل طيب بأن الله يرده عليه . ولا يقبله منه . وقال الفراء وغيره : يرجع ذلك الى عائشة ، وصفوان بن معطل ، كما قال « فان كان له أخوة » (١) والام تحجب بالاخوين ، فجاء على تغليب لفظ الجمع الذي يجري مجرى الواحد فى الاعراب ، وانما قال « مبرؤن .... » الآية ، لأنه ذكر صفة الجمع ، والمبرأ المنزه عن صفة الذم ، المنفي عنه صفة العيب ، يقال : برّأه الله من كذا ، إذا

(١) سورة ٤ النساء آية ١٠

نفاه عنه . والله تعالى يبرىء المؤمنين من العيوب التي يضيفها اليهم أعداؤهم ، ويفضح من يكذب عليهم .

وقوله « لهم مغفرة ورزق كريم » أي لهؤلاء الطيبين من الرجال والنساء مغفرة من الله لذنوبهم ، وعطية من الله كريمة ، فالرزق الكريم هو الذي يعطي الخير على الادرار المهنأ ، من غير تنغيص الامتنان ، وهو رزق الله تعالى الذي يعم جميع العباد ، ويخص من يشاء بالزيادة في الافعال . وقال قتادة « لهم مغفرة من الله ورزق كريم » في الجنة .

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣٠) أربع آيات بلا خلاف .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم أن يدخلوا بيوتاً لا يملكونها، وهي ملك غيرهم إلا بعد أن يستأنسوا، ومعناه يستأذنوا، والاستئناس الاستئذان ـ في قول ابن عباس وابن مسعود وابراهيم وقتادة ـ وكأن المعنى يستأنسوا بالاذن. وروي عن ابن عباس أنه قال: القراءة «حتى تستأذنوا» وانما وهم الكتاب. وهو قول سعيد ابن جبير، وبه قرأ أبي بن كعب. وقال مجاهد: حتى تستأنسوا بالتنحنح والكلام الذي يقوم مقام الاستئذان. وقد بين الله تعالى ذلك في قوله «واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا» (١) قال عطاء: وهو واجب في أمه وسائر أهله والاستئناس طلب الانس بالعلم أو غيره، كقول العرب: اذهب فاستأنس هل ترى احداً، ومنه قوله «فان آنستم منهم رشداً» (٢) اي علمتم.

وقوله «وتسلموا على أهلها» معناه على أهل البيوت ينبغي أن تسلموا عليهم وإذا أذنوا لكم في الدخول فادخلوها. وروى ابو موسى عن النبي (ص) أنه قال: (الاستئذان ثلاث، فان اذنوا، وإلا فارجع) فدعاه عمر، فقال لتأتيني بالبينة وإلا عاقبتك، فمضى أبو موسى، فأتى بمن سمع الحديث معه.

والفرق بين الاذن في الدخول، وبين الدعاء اليه، أن الدعاء اليه، يدل على ارادة الداعي، وليس كذلك الاذن. وفي الدعاء رغبة الداعي او المدعو، وليس كذلك الاذن

وقوله «ذلكم خير لكم» يعني الاستئذان خير لكم من تركه، لتتذكروا في ذلك، فلا تهجموا على العورات.

وقوله «فان لم تجدوا فيها احداً» يعني ان لم تعلموا في البيوت احداً يأذن لكم في الدخول «فلا تدخلوها» لانه ربما كان فيها مالا يجوز أن تطلعوا عليه إلا بعد أن يأذن اربابها في ذلك، يقال: وجد اذا علم.

---

(١) سورة ٢٤ النور آية ٥٩   (٢) سورة ٤ النساء آية ٥

وقوله ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا﴾ أي لا تدخلوا إذا قيل لكم : لا تدخلوا ، فان ذلك ﴿ أزكى لكم ﴾ اي اطهر ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ أي عالم بأعمالكم لايخفى عليه شيء منها .

ثم قال ﴿ ليس عليكم جناح ﴾ أي حرج وإثم ﴿ ان تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ﴾ أي منافع . وقيل : في معنى هذه البيوت أربعة اقوال :

احدها ـ قال قتادة : هي الخانات ، فان فيها استمتاعاً لكم من جهة نزولها ، لامن جهة الأثاث الذي لكم فيها .

والثاني ـ قال محمد بن الحنفية : هي الخانات التي تكون في الطرق مسبلة . ومعنى ﴿ غير مسكونة ﴾ اي لا ساكن لها معروف .

والثالث ـ قال عطاء : هي الخرابات للغائط والبول .

والرابع ـ قال ابن زيد : هي بيوت التجار التي فيها امتعة الناس .

وقال قوم : هي بيوت مكة . وقال مجاهد : هي مناخات الناس في أسفارهم يرتفقون بها . وقال قوم : هي جميع ذلك حملوه على عمومه لأن الاستئذان إنما جاء لئلا يهجم على ما لا يجوز من العورة . وهو الأقوى ، لأنه اعم فائدة .

وقوله ﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ اي لا يخفى عليه ما تظهرونه ، ولا ما تكتمونه ، لانه عالم بجميع ذلك .

ثم خاطب النبي (ص) فقال ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ﴾ عن عورات النساء وما يحرم النظر اليه . وقيل : العورة من النساء ما عدا الوجه والكفين والقدمين ، فأمروا بغض البصر عن عوراتهن ، ودخلت (من) لا بتداء الغاية . ويجوز ان تكون للتبعيض ، والمعنى أن يطرق وإن لم يغمض . وقيل : العورة من الرجل العانة الي مستغلظ الفخذ من أعلى الركبة ، وهو العورة من الاماء ، قالوا:

ويدل على ان الوجه والكفين والقدمين ليس من العورة من الحرة ، انلها كشف ذلك في الصلاة ، وإذا كانت محرمة مثل ذلك ، بالاجماع ، والقدمان فيهما خلاف .

وقوله ﴿ ويحفظوا فروجهم ﴾ أمر من الله تعالى أن يحفظ الرجال فروجهم عن الحرام ، وعن إبدائها حيث ترى فانهم متى فعلوا ذلك كان ازكى لاعمالهم عند الله وإن الله خبير بما يعملون ويصنعون اي عالم بما يعملونه اي على اي وجه يعملونه .

وقال مجاهد : قوله ﴿ فان لم تجدوا فيها احداً ﴾ معناه فان لم يكن لكم فيها متاع ، فلا تدخلوها إلا باذن ، فان قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، وهذا بعيد ، لان لفظة (احد) لا يعبر بها إلا عن الناس ، ولا يعبر بها عن المتاع .

قوله تعالى :

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣١) آية بلا خلاف .

قرأ ابن عامر وابو بكر عن عاصم وابو جعفر ﴿ غير اولي الاربة ﴾ نصباً . الباقون بالجر . وقرأ ابن عامر ﴿أيه المؤمنون﴾ بضم الهاء ، ومثله ﴿يا أيه الساحر﴾(١) و ﴿ أيه الثقلان ﴾ (٢) . الباقون ﴿ ايها ﴾ بفتح الهاء مع الالف فيها . وكلهم وقف بلا الف إلا الكسائي ، واهل البصرة والزبيبي من طريق العطار ، والمالكي ، فانهم وقفوا بالف .

قال ابو علي : الوقف بالالف أجود ، لانها سقطت في الوصل لاجتماع الساكنين .

لما امر الله تعالى الرجال المؤمنين في الآية الأولى بغض أبصارهم عن عورات النساء ، وامرهم بحفظ فروجهم عن ارتكاب الحرام ، أمر المؤمنات في هذه الآية ايضاً من النساء بغض أبصارهن عن عورات الرجال ، وما لا يحل النظر اليه . وامرهن ان يحفظن فروجهن إلا عن ازواجهن على ما اباحه الله لهم ، ويحفظن ايضاً اظهارها بحيث ينظر اليها ، ونهاهن عن إبداء زينتهن إلا ما ظهر منها . قال ابن عباس : يعني القرطين والقلادة والسوار والخلخال والمعضد والمنحر ، فانه يجوز لها إظهار ذلك لغير الزوج ، فاما الشعر فلا يجوز ان تبديه إلا لزوجها .

والزينة المنهي عن إبدائها زينتان ، فالظاهرة الثياب ، والخفية الخلخال ، والقرطان والسوار ـ في قول ابن مسعود ـ وقال ابراهيم : الظاهر الذي ابيح الثياب فقط . وعن ابن عباس ـ في رواية أخرى ـ أن الذي ابيح الكحل والخاتم والحذاء والخضاب في الكف . وقال قتادة : الحذاء والسوار والخاتم . وقال عطاء : الكفان والوجه . وقال الحسن : الوجه والثياب . وقال قوم : كلما ليس بعورة يجوز اظهاره . واجمعوا أن الوجه والكفين ليسا بعورة ، لجواز اظهارهما في الصلاة ، والاحوط قول ابن مسعود ، والحسن بعده .

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٤٩ (٢) سورة ٥٥ الرحمن آية ٣١

وقوله « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » فالخمار غطاء رأس المرأة المنسبل على جبينها وجمعه خمر ، وقال الجبائي : هي المقانع .

ثم كرر النهي عن اظهار الزينة تأكيداً وتغليظاً واستثنى من ذلك : الأزواج وآباء النساء ، وإن علوا ، وآباء الازواج وابنائهم ، أو اخوانهن وبني أخوانهن أو بني اخواتهن ، أو نسائهن يعني نساء المؤمنين دون نساء المشركين إلا اذا كانت أمة وهو معنى قوله « أو ما ملكت أيمانهن » أي من الاماء - في قول ابن جريج - فانه لا باس باظهار الزينة لهؤلاء المذكورين ، لانهم محارم .

وقوله « أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال » قال ابن عباس : هو الذي يتبعك ليصيب من طعامك ولا حاجة له في النساء ، وهو الأبله . وبه قال قتادة وسعيد بن جبير وعطاء . وقال مجاهد : هو الطفل الذي لا أرب له في النساء لصغره . وقيل : هو العنين ، ذكره عكرمة ، والشعبي . وقيل : هو المجبوب . وقيل : هو الشيخ الهم .

والاربة الحاجة ، وهي فعلة من الارب ، كالمشية من المشي ، والجلسة من الجلوس . وقد أربت لكذا آرب له أرباً إذا احتجت اليه ، ومنه الأربة - بضم الالف - العقدة ، لان ما يحتاج اليه من الامور يقتضي العقدة عليه ، ولان الحاجة كالعقدة حتى تنحل بسد الخلة ، ولان العقدة التي تمنع من المنفعة يحتاج الى حلها ، ولان العقدة عمدة الحاجة .

وقوله « او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » يعني الصغار الذين لم يراهقوا ، فانه يجوز إبداء الزينة لهم .

وقوله « ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » معناه لا تضرب إمرأة برجلها ، ليعلم صوت الخلخال في رجلها ، كما كان يفعله نساء أهل الجاهلية . وذلك

يدل على ان إظهار الخلخال لا يجوز .

ثم أمر الله تعالى المكلفين ، فقال « وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » أي لتفوزوا بثواب الجنة .

ومن نصب (غير) يجوز أن يكون على الاستثناء ، ويجوز أن يكون على الحـال . ومن كسر جعله نعتاً لـ «التابعين ، غير » وإن لم يوصف به المعارف ، فانما المراد بـ (التابعين) ليس بمعين . وابن عامر انما ضم الهاء ووقف بلا ألف فى (أيه) اتباعاً للمصحف . قال ابو علي : وقراءته ضعيفة . لان آخر الاسم هو الياء الثانية في أي ، فينبغي أن يكون المضموم آخر الاسم ولا يجوز ضم الهاء ، كما لا يجوز ضم الميم في قوله « اللهم » ولأنه آخر الكلام ، وها للتنبيه ، فلا يجوز حذف الالف بحال .

قوله تعالى :

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣٣) آيتان بلاخلاف .

هذا خطاب من الله للمكلفين من الرجال يأمرهم الله تعالى أن يزوجوا الأيامى اللواتي لهم عليهن ولاية، وأن يزوجوا الصالحين المستورين الذين يفعلون الطاعات من المماليك والاماء إذا كانوا ملكاً لهم، والأيامى جمع (أيم) وهي المرأة التي لا زوج لها سواء كانت بكراً أو ثيباً. ويقال للرجل الذي لازوجة له: أيم ايضاً ووزن أيم (فيعل) بمعنى (فعيل) فجمعت كجمع يتيم ويتيمة ويتامى، وقال جميل:

احب الايامى اذ بثينة ايم　　وأحببت لماأن غنيت الغوانيا (١)

ويجوز جمعه أيايم، ويقال: امرأة أيم وايمة إذا لم يكن لها زوج، قال الشاعر:

فان تنكحي أنكح وإن تتأيمي　　يدا الدهر ما لم تنكحي أتأيم (٢)

وقال قوم: الايم التي مات زوجها، ومنه قوله (عليه السلام): (والايم أحق بنفسها) يعني الثيب. ومعنى أنكحوا زوجوا، يقال: نكح إذا تزوج، وأنكح غيره اذا زوجه. وقيل: ان الأمر بتزويج الأيامى إذا أردن ذلك أمر فرض، والامر بتزويج الأمة إذا أرادت ندب، وكذلك العبد.

وقوله «ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم» معناه لاتمتنعوا من انكاح المرأة أو الرجل اذا كانوا صالحين، لأجل فقرهما، وقلة ذات أيديهما، فانهم وإن كانوا كذلك، فان الله تعالى يغنيهم من فضله، فانه تعالى واسع المقدور، كثير الفضل، عليم بأحوالهم وبما يصلحهم، فهو يعطيهم على قدر ذلك. وقال قوم: معناه إن يكونوا فقراء الى النكاح يغنهم الله بذلك عن الحرام. فعلى الأول تكون الآية خاصة في الاحرار. وعلى الثاني عامة فى الأحرار، والمماليك.

وقوله «وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله» أمر

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ٤٨

(٢) لسان العرب (أيم) وتفسير الطبري ١٨/٨٨ والقرطبي ١٢/٢٤٠

من الله تعالى لمن لا يجد السبيل الى أن يتزوج، بأن لا يجد طولا من المهر، ولا يقدر على القيام بما يلزمها من النفقة والكسوة، أن يتعفف، ولا يدخل في الفاحشة، ويصبر حتى يغنيه الله من فضله.

وقوله «والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم» معناه إن الانسان اذا كانت له أمة أو عبد يطلب المكاتبة. وهي أن يقوّم على نفسه وينجم عليه ليؤدي قيمة نفسه الى سيده، فانه يستحب للسيد أن يجيبه الى ذلك ويساعده عليه لدلالة قوله تعالى «فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً» وهذا أمر ترغيب بلا خلاف عند الفقهاء. وقال عمرو بن دينار، وعطاء، والطبري: هو واجب عليه إذا طلب. وصورة المكاتبة أن يقول الانسان لعبده، أو امته: قد كاتبتك على ان تعطيني كذا وكذا ديناراً أو درهماً في نجوم معلومة على أنك إذا أديت ذلك فانت حر، فيرضى العبد بذلك، ويكاتبه عليه ويشهد بذلك على نفسه، فمتى أدى ذلك، وهو مال الكتابة في النجوم التي سماها صار حراً، وان عجز عن اداء ذلك كان لمولاه أن يرده في الرق. وعندنا ينعتق منه بحساب ما أدى ويبقى مملوكاً بحساب ما بقي عليه إذا كانت الكتابة مطلقة، فان كانت مشروطة بأنه متى عجز رده في الرق، فمتى عجز جاز لهرده في الرق. و (الخير) الذي يعلم منه هو القوة على التكسب، وتحصيل ما يؤدي به مال الكتابة. وقال الحسن: معناه ان علمتم منهم صدقاً. وقال ابن عباس وعطاء: ان علمتم لهم مالا. وقال ابن عمر: ان علمتم فيهم قدرة على التكسب، قال: لأنه إذا لم يقدر على ذلك قال اطعمني (١) اوساخ أيدي الناس، وبه قال سلمان.

(١) في المخطوطة (استطعم) بدل (قال اطعمني)

واختلفوا في الامر بالكتابة مع طلب المملوك لذلك وعلم مولاه أن فيه خيراً. فقال عطاء: هو الفرض. وقال مالك، والثوري، وابن زيد: هو على الندب. وهو مذهبنا.

وقوله « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » أمر من الله تعالى أن يعطي السيد مكاتبه من ماله الذي أنعم الله عليه، بأن يحط شيئاً منه. وروى عبد الرحمن السلمي عن علي (ع) أنه قال: يحط عنه ربع مال الكتابة. وقال سفيان احب ان يعطيه الربع، او أقل، وليس بواجب وقال ابن عباس وعطاء وقتادة: أمره بأن يضع عنه من مال الكتابة شيئاً. وقال الحسن وابراهيم: حثه الله تعالى على معونته. وقال قوم: المعنى آتوهم سهمهم من الصدقة الذي ذكره في قوله « وفي الرقاب » (١) ذكره ابن زيد عن أبيه، وهو مذهبنا.

واختلفوا في الحط عنه، فقال قوم: هو واجب. وقال آخرون -وهو الصحيح- انه مرغب فيه.

وقوله « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصناً » نهي عن اكراه الأمة على الزنا. قال جابر بن عبد الله: نزلت في عبد الله بن ابي بن سلول، حين اكره أمته مسيكة على الزنا. وهذا نهي عام لكل مكلف عن أن يكره أمته على الزنا طلباً لمهرها وكسبها. وقوله « ان اردن تحصناً » صورته صورة الشرط وليس بشرط وانما ذكر لعظم الافحاش في الاكراه على ذلك. وقيل: انها نزلت على سبب فوقع النهي عن المعني على تلك الصفة.

وقوله « ومن يكرههن » يعني على الفاحشة « فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم » اي لهن « غفور رحيم » ان وقع منها صغير في ذلك، والوزر على المكره.

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦١

قوله تعالى:

﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين (٣٤) الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكوة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم (٣٥)

آيتان بلا خلاف.

قرأ « دري » مشددة، بضم الدال من غير همز، ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم. وقرأ ـ بكسر الدال والهمز ـ ابو عمرو، والكسائي. وقرأ ـ بضم الدال والهمز ـ حمزة وعاصم، فى رواية ابي بكر. وقرأ ابن كثير وابو عمرو « توقد » بفتح التاء والدال. وقرأ ـ بالياء مخففة مرفوع مضموم الياء ـ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم والكسائي. وقرأ ـ بضم التاء والدال مخففة مرفوعة ـ حمزة، وابو بكر عن عاصم.

فمن قرأ « دري » بكسر الدال، فهو من (درأت) اي رفعت. والكوكب (دري) لسرعة رفعه في الانقضاض، والجمع الدراري، وهي النجوم التي تجيء وتذهب. وقال قوم: هي احد الخمسة المضيئة: زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد.

ومن قرأ ـ بضم الدال ـ نسبه الى الدّر في صفائه وحسنه . ومن ضم الدال وهمز ، فهو غير معروف عند أهل اللغة ، لانه ليس في الكلام (فُعيل) ـ ذكره الفراء ـ وقال ابو عبيدة : وجهه ان يكون ـ بفتح الدال ـ كأنه (فَعيل) . قال سيبويه : ليس في الكلام (فعيل) وانما تكسر الفاء مثل (سكيت) . وروى المفضل عن عاصم انه قرأ ـ بكسر الدال ـ من غير همز ، ولا مدّ ، ومعناه : انه جار كالنجوم الدراري الجارية مأخوذ من در الوادي إذا جرى .

ووجه قراءة ابن كثير في « توقد » أنه على (فعل) ماض ، وضم الدال ابن محيصن اراد (تتوقد) . ومن ضم الياء مثل نافع وابن عامر ، رده على الكوكب . وقال الفراء : رده على المصباح . ومن ضم التاء والدال رده على الزجاجة .

اقسم الله تعالى انه انزل « آيات » يعني دلالات « مبينات » يعني مفصلات ، بينهن الله وفصلهن ، فيمن قرأ ـ بفتح الياء ـ ومن كسر الياء : معناه ان هذه الآيات والحجج تبين المعاني وتظهر ما بطن فيها .

وقوله « ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » معناه انه انزل اليكم اخبار من كان قبلكم من امم الرسل ، وجعل ذلك عبراً لنا . وقيل لتعتبروا بذلك وتستدلوا به على ما يرضاه الله منكم فتفعلوه وعلى ما يسخطه فتتجنبوه .

وقوله « الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة » قيل في معناه قولان :

احدها ـ ان الله هادي اهل السموات والارض ـ ذكره ابن عباس ـ في رواية ، وأنس .

والثاني ـ انه منوِّر السموات والارض بنجومها وشمسها وقمرها ـ في رواية اخرى ـ عن ابن عباس ، وقال ابو العالية والحسن مثل ذلك .

ثم قال تعالى « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » الهاء في قوله « نوره » قيل

إنها تعود على المؤمن ، وتقديره مثل النور الذي في قلبه بهداية الله ، وهو قول ابي ابن كعب والضحاك . وقال ابن عباس : هي عائدة على اسم الله ، ومعناه مثل نور الله الذي يهدي به المؤمن . وقال الحسن : مثل هذا القرآن فى القلب كمشكاة . وقيل : مثل نوره وهو طاعته ـ في قول ابن عباس ـ فى رواية . وقيل : مثل نور محمد (ص) . وقال سعيد بن جبير : النور محمد، كأنه قال مثل محمد رسول الله (ص) فالهاء كناية عن الله . والمشكاة الكوة التي لا منفذ لها ـ في قول ابن عباس وابن جريج ـ وقيل : هو مثل ضرب لقلب المؤمن . والمشكاة صدره ، والمصباح القرآن ، والزجاجة قلبه ـ في قول ابي ابن كعب ، وقال : فهو بين اربع خلال إن أعطي شكر ، وإن ابتلي صبر ، وإن حكم عدل ، وإن قال صدق . وقيل : المشكاة عمود القنديل الذي فيه الفتيلة ، وهو مثل الكوة . وقال كعب الاحبار : المشكاة محمد (ص) والمصباح قلبه ، شبه صدر النبي بالكوكب الدري .

ثم رجع الى المصباح أي قلبه شبهه بالمصباح كأنه في زجاجة و« الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء » اي يتبين للناس ولو لم يتكلم انه نبي . ومن قال « الله نور السموات » يعني منورها بالشمس والقمر والنجوم ، ينبغي ان يوجه ضرب المثل بالمشكاة على ان ذلك مثل ما فى مقدوره ، ثم تنبث الأنوار الكثيرة عنه .

ضرب الله تعالى المثل لنوره الدي هو هدايته فى قلوب المؤمنين بالمشكاة ، وهي الكوة التي لا منفذ لها إذا كان فيها مصباح ، وهو السراج ، ويكون المصباح فى زجاجة ، وتكون الزجاجة مثل الكوكب الدري ـ فمن ضم الدال ـ منسوب الى الدر فى صفائه ونوره . ومن كسر الدال شبهها بالكوكب فى سرعة تدفعه بالانقضاض .

ثم عاد الى وصف المصباح ، فقال « يوقد من شجرة مباركة زيتونة » اي

يشتعل من دهن شجرة مباركة ، وهي الزيتونة الشامية ، قيل لأن زيتون الشام ابرك . وقيل : وصفه بالبركة لان الزيتون يورق من اوله الى آخره .

وقوله « لا شرقية ولا غربية » قال ابن عباس ـ في رواية ـ معناه لا شرقية بشروق الشمس عليها فقط ولا غربية بغروبها عليها فقط ، بل هي شرقية غربية تأخذ حظها من الامرين ، فهو اجود لزيتها . وقيل : معناه انها وسط البحر ، روي ذلك عن ابن عباس أيضاً . وقال قتادة : هي ضاحية للشمس ، وقال الحسن : ليست من شجر الدنيا « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » اي زيتها من صفائه وحسنه يكاد يضيء من غير ان تمسه نار وتشتعل فيه . وقال ابن عمر الشجرة ابراهيم (ع) والزجاجة التي كأنها كوكب دري محمد (ص) .

وقوله « نور على نور » قيل : معناه نور الهدى الى توحيده ، على نور الهدى بالبيان الذي اتى به من عنده . وقال زيد بن اسلم « نور على نور » معناه يضيء بعضه بعضاً . وقيل « نور على نور » معناه انه يتقلب في خمسة انوار ، فكلامه نور ، وعلمه نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومسيره نور الى النور يوم القيامة الى الجنة . وقال مجاهد : ضوء النار على ضوء النور على ضوء الزيت على ضوء المصباح على ضوء الزجاجة .

وقوله « يهدي الله لنوره من يشاء » أي يهدي الله لدينه وإيمانه من يشاء بأن يفعل له لطفاً يختار عنده الايمان إذا علم ان له لطفاً . وقيل : معناه يهدي الله لنبوته من يشاء ، ممن يعلم انه يصلح لها . وقيل : معناه « يهدي الله لنوره » اي يحكم بايمانه لمن يشاء ، ممن آمن به .

وقوله « ويضرب الله الأمثال للناس » معناه يضرب الله الامثال الذين يفكرون فيها ويعتبرون بها « والله بكل شيء عليم » لا يخفى عليه خافية .

قوله تعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٨) ثلاث آيات في الكوفي والبصري تمام الآية الأولى « الآصال » وفي الباقي آيتان آخرهما « الابصار » و « حساب ».

قرأ ابن عامر وابو بكر وابن شاهي عن حفص « يسبح » بفتح الباء. الباقون بكسرها، فمن فتح الباء، وقرأ على مالم يسم فاعله احتملت قراءته في رفع (رجال) وجهين:

احدهما ـ أن يكون الكلام قد تم عند قوله « والاصال » ثم قال « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » فالتجارة الجلب، والبيع ما يبيع الانسان على يده.

والوجه الثاني ـ أن يرفع (رجال) باضمار فعل يفسره الأول، فيكون الكلام تاماً عند قوله « والاصال » ثم يبتدىء « رجال » بتقدير يسبحه رجال. وقال ابو علي: يكون أقام الجار والمجرور مقام الفاعل، ثم فسر من يسبحه، فقال « رجال » أي يسبحه رجال، ومنه قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارع لخصومة (١)

كأنه قال ليبك يزيد . قيل من يبكيه ؟ فقال : يبكيه ضارع . وقال المبرد : يجوز أن يكون يسبح نعتاً للبيوت ، وتقديره في بيوت اذن الله برفها وذكر اسمه ويسبح له فيها رجال لا تلهيهم تجارة . ومن قرأ بكسر الباء ـ ورفع رجالا بفعلهم ، فعلى هذه القراءة لا يجوز الوقف إلا على « رجـــال » وعلى الاول على قوله « والاصـال » . والآصال جمع أصيل . وقرأ أبو محلم « الاصال » بكسر الالف جعله مصـدراً .

وقوله « في بيوت اذن الله » قيل في العامل في (في) قولان :

احـــدها ـ (المصابيح) في بيوت ، والعامل استقرار المصابيح ، وهو قول ابن زيد .

والثاني ـ توقد في بيوت ، وهذه البيوت هي المساجـد ـ في قول ابن عباس والحسن ومجاهد ـ وقال عكرمة : هي سائر البيوت . وقال الزجاج: يجوز ان تكون (في) متصلة بيسبح ويكون فيها كقولك في الدار قام زيد فيها .

وقوله « اذن الله ان ترفع » قال مجاهـــد : معناه أذن الله أن تبنى ، وترفع بالبناء ، كما قال « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » (٢) وقال الحسن : معناه أن تعظم ، لانها مواضع الصلوات .

وقوله « ويذكر فيها اسمه » أي يذكر اسم الله في هذه البيوت . وقيل تنزه من النجاسات والمعاصي .

وقوله « يسبح له فيها بالغدو والاصال » قال ابن عباس : معناه يصلي له فيها بالغداة والعشي ، وهو قول الحسن والضحاك . وقال ابن عبـاس : كل تسبيح في القرآن فهو صلاة .

---

(١) انظر ٤ / ٣١٠ تعليقة ٢ و ٦ / ٣٢٩ (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٢٧

وقوله « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » أي لا تشغلهم ولا تصرفهم التجارة والبيع عن ذكر الله وتعظيمه .

وروي عن ابي جعفر وابي عبد الله (ع) انه تعالى مدح قوماً إذا دخل وقت الصلاة تركوا تجارتهم وبيعهم ، واشتغلوا بالصلاة .

وقوله « واقام الصلاة وايتاء الزكاة » أي لا تصرفهم تجارتهم عن ذكر الله، وعن اقامة الصلاة ، وحذف التاء لان الاضافة عوض عنها ، لانه لا يجوز أن تقول : اقمته إقاماً ، وانما يجوز إقامة ، والهاء عوض عن محذوف ، لان أصله اقوام ، فلما اضافه قامت الاضافة مقام الهاء « وايتاء الزكاة » أي ولا يصرفهم ذلك عن اعطاء الزكاة التي افترضها الله عليهم . وقال ابن عباس :الزكاة الطاعة لله وقال الحسن : هي الزكاة الواجبة في المال قال الشاعر [في حذف الهاء والعوض عنها بالاضافة] :

إن الخليط اجدّوا البين فانجردوا واخلفوك عدى الأمر الذي وعدوا (١)

يريد عدة الأمر فحذف الهاء لما اضاف .

وقوله تعالى « يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار » أي يخافون عذاب يوم أو اهوال يوم تتقلب فيه القلوب من عظم اهواله ، والابصار من شدة ما يعاينوه . وقيل تتقلب فيه القلوب ببلوغها الحناجر ، وتقلب الابصار بالعمى بعد النظر

وقال البلخي : معناه إن القلوب تنتقل من الشك الذي كانت عليه ، الى اليقين والايمان . وإن الابصار تتقلب عما كانت عليه ، لانها تشاهد من أهوال ذلك اليوم ما لم تعرفه ، ومثله قوله « لقد كنت في غفلة من هذا » (٢) الآية . وقال الجبائي :

---

(١) تفسير الطبري ١٨/١٠٢ واللسان (وعد)

(٢) سورة ٥٠ ق آية ٢٢

تتقلب القلوب والابصار عن هيئاتها بأنواع العقاب كتقلبها على الجمر .

وقوله « ليجزيهم الله أحسن ما عملوا » أي يفعلون ذلك طلبا لمجازات الله إياهم بأحسن ما عملوا من ثواب الجنة ، ويزيدهم على ذلك من فضله وكرمه . ثم اخبر تعالى انه « يرزق » على العمل بطاعته تفضلا منه تعالى « من يشاء بغير حساب » والثواب لا يكون إلا بحساب والتفضل يكون بغير حساب .

قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (٣٩) أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (٤٠)

آيتان بلا خلاف .

ثم اخبر الله تعالى عن احوال الكفار ، فقال والذين كفروا بتوحيد الله واخلاص العبادة وجحدوا انبياءه « أعمالهم » التي عملوها يعني التي يعتقدون أنها طاعات وقربات « كسراب بقيعة » فالسراب شعاع يتخيل كالماء يجري على الارض نصف النهار حين يشتد الحر والآل شعاع يرتفع بين السماء والارض ـ كالماء ـ ضحوة النهار ، والال يرفع الشخص فيه . وانما قيل سراب ، لأنه يتسرب أي يجري كالماء و (قيعة) جمع قاع ، وهو المنبسط من الأرض الواسع . وفيه يكون السراب

ومثله جار وجيرة، ويجمع ايضاً على (اقواع ، وقيعان) ، والشعاع بالقاع يتكثف فيرى كالماء ، فاذا قرب منه صاحبه انفش كالضباب ، فلم يره شيئاً ، كما كان . وقال ابن عباس : القيعة الارض المستوية . والمعنى : إن الكافر لم يجد شيئاً على ما قدر .

وقوله « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » والمعنى ان الذي قدره من جزاء أعماله لايجده ، ويعلمه الله عند عمله فيوفيه جزاءه على سوء أفعاله .

وقوله « والله سريع الحساب » أي سريع المجازاة ، لان كل ما هوآت سريع قريب . وقال الجبائي : ، لانه تعالى يحاسب الجميع في وقت واحد ، وذلك يدل على انه لا يتكلم بآلة . وانه ليس بجسم ، لانه لو كان متكلماً بآلة لما تأتى ذلك إلا في أزمان كثيرة .

ثم شبه الله تعالى أفعال الكافر بمثال آخر ، فقال « او كظلمات فى بحر لجي » أي افعاله مثل ظلمات ، يعني ظلمة البحر وظلمة السحاب ، وظلمة الليل ، لان الكافر حاله ظلمة ، واعتقاده ظلمة ، ومصيره الى ظلمة ، وهو في النار يوم القيامة نعوذ بالله منها . وتلخيص الكلام أن اعمال هؤلاء الكفار كالسراب يحسبه الظمآن ـ من بعد ـ ماء يرويه حتى إذا دنى منه لم يجده شيئاً أي حتى اذا مات لم يجد عمله شيئاً لانه بطل بكفره ، ووجد الله عند عمله يجازيه عليه . ثم ضرب مثلاً آخر فقال او كظلمات يعني انه فى حيرة من كفره مثل هذه الظلمات « ومن لم يجعل الله له نوراً » فى قلبه ويهديه به « فما له من نور » يهتدي به .

وقوله « فى بحر لجي يغشاه موج من فوق موج من فوق سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض » مبالغة في تشبيه هذه الافعال بالظلمات المتكاثفة على ما وصفه الله تعالى ، ولجة البحر معظمه ، الذي تتراكب فيه امواجه لا يرى ساحله . والظلمات مثل التحير ، والتحير الجهل الذي يغشي القلب . وقوله « حتى اذا أخرج يده لم يكد يراها » انما قال لم يكد يراها مع أنه

بدون هذه الظلمات لا يراها، لان (كاد يراها) معناه قارب ان يراها ، ولم يكد يراها لم يقارب أن يراها ، فهي نفي مقاربة الرؤية على الحقيقة . وقيل دخل (كاد) بمعنى النفي كما يدخل الظن بمعنى اليقين ، كأنه قال : يكفيه ان يكون على هذه المنزلة فكيف أقصى المنازل . وقيل يراها بعد جهد وشدة ، رؤية تخيل لصورتها . وقال الحسن لم يكد يراها لم يقارب الرؤية قال الشاعر :

ما كدت اعرفه إلا بعد انكار

وقالوا كاد العروس يكون أميراً . وكاد النعام يطير . وقوله « ومن لم يجعل الله له نوراً ، فما له من نور » معناه من لم يجعل الله له هداية الى الرشد ، فما له من نور ، أي فما له ما يفلح به على وجه من الوجوه . وقيل : من لم يجعل الله له نوراً يوم القيامة يهديه الى الجنة ، فما له من نور يهديه اليها .

وفي الآية دلالة على فساد قول من يقول : إن المعارف ضرورة ، لأنه لا يصح مع المعرفة الضرورية الحسبان .

قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَإِلَى ٱللهِ ٱلْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ

يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ(٤٣)
يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٤٤)

أربع آيات في البصري والكوفي وثلاث في غيرها . لانهم لم يعدوا «بالابصار» آخر آية .

قرأ ابو جعفر المدني « يذهب بالابصار » بضم الياء . الباقون بفتحها . وقد مضى ذكر مثله .

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) « ألم تر » يا محمد والمراد به جميع المكلفين أي ألم تعلم ان الذي ذكره في الآية لا يرى بالابصار وانما يعلم بالادلة ، « أن الله يسبح له من في السموات والارض » فالتسبيح التنزيه لله تعالى عن جميع ما لا يجوز عليه ، ولا يليق به ، فمن نفى عنه الصاحبة والولد ، فقد سبحه ، لانه برأه مما لا يجوز عليه ، ومن نفى عنه أن يكون له شريك في ملكه او عبادته ، فقد سبحه ، لانه برأه مما لا يجوز عليه ، وكذلك من نفى عنه فعل القبيح ، فقد سبحه ، لانه برأه مما لا يجوز عليه . وتسبيح من في السموات والارض إنما هو بما فيها من الدلالات على توحيده ، ونفي الصاحبة عنه ، ونفي تشبيهه بخلقه وتنزيهه عما لا يليق به ، مما يدل على ذلك ويدعو اليه ، كأنه المسبح له .

وقوله « والطير صافات » معناه وتسبحه الطير صافات في حال اصطفافها في الهواء ، لانها إذا صفت اجنحتها في الهواء وتمكنت من ذلك كان في ذلك دلالة وعبرة على أن ممكنها من ذلك لا يشبه شيئاً من المخلوقات .

وقوله « كل قد علم صلاته وتسبيحه » معناه : إن جميع ذلك قد علم الله تعالى

صلاته ، يعني دعاءه الى توحيده ، وتسبيحه ، وتنزيهه عما لا يليق به . وقال مجاهد : الصلاة للانسان ، والتسبيح لكل شيء . وقيل : كل قد علم صلاته أي صلاة نفسه ، وتسبيح نفسه ، فيكون الضمير في علم لـ (كل) ، وعلى الأول يعود على اسم الله ، والأول أجود ، لان هذه الاشياء كلها لا يعلم كيفية دلالتها غير الله . وانما الله تعالى عالم بذلك ، ويقويه قوله « والله عليم بما يفعلون » أي عالم بأفعالهم ، لا يخفى عليه شيء منها ، فيجازيهم بحسبها .

ثم اخبر تعالى فقال « ولله ملك السموات والارض » ، والملك المقدور الواسع لمن يملك السياسة والتدبير ، فملك السموات والارض لا يصح إلا لله وحده لاشريك له ، لأنه لا يقدر على خلق الاجسام غيره ، وليس مما يصح أن يملكه العبد ، لانه لا يمكنه أن يصرفه أتم التصريف ، فالملك التام ، لا يصح الا لله تعالى .

وقوله « والى الله المصير » اي اليه المرجع يوم القيامة ، الى ثوابه او عقابه .

ثم قال «الم تر» اي الم تعلم «ان الله يزجي سحاباً» اى يسوق سحاباً الى حيث يريده ، ومنه زجا الخراج إذا انساق الى أهله وازجاه فلان أي ساقه « ثم يؤلف بينه » أي بين بعضه و بعض ، لان لفظ سحاب جمع ، واحده سحابة ، وهو كقولهم : جلس بين النخل ، لان لفظ بين لا تستعمل إلا في شيئين فصاعداً .

وقوله « ثم يجعله ركاماً » وهو المتراكب بعضه فوق بعض « فترى الودق » يعني المطر . يقال : ودقت السحابة ، تدق ودقاً إذا أمطرت قال الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقهـا	ولا ارض ابقل إبقالها (١)

« يخرج من خلاله » فالخلال جمع خلل . وقوله « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » معنى (من) الاولى ، لابتداء الغاية ، لان (من السماء) ابتداء

---

(١) مر تخريجه في ١/ ٢١٦ و ٥/ ٣٦١

الانزال بالمطر ، والثانية للتبعيض ، لأن البرد بعض الجبال التي فى السماء ، والثالثة لتبيين الجنس ، لان جنس الجبال جنس البرد . وقيل فى السماء جبال برد مخلوقة في السماء . وقال البلخي : يجوز أن يكون البرد يجتمع في السحاب كالجبال ثم ينزل منها. وقيل السماء هو السحاب ، لان كل ما عـلا مطبقاً فهو سماء . وقال الفراء : يجوز أن يكون المراد وينزل من السماء قدر جبال من برد ، كما تقول : عندي بيتان من تبن أي قدر بيتين . وقال الحسن : فى السماء جبال برد ، وقيل المعنى : قدر جبال يجعل منها برداً على ما حكيناه عن الفراء .

وقوله « فيصيب به » يعني بذلك البرد « فيصيب به من يشاء » ان يهلك أو يهلك ماله « ويصرفه عمن يشاء » على حسب اقتضاء المصلحة .

وقوله « يكاد سنا برقه » أي ضياء البرق ، فسنا البرق مقصور ، وسناء المجد ممدود . وقال ابن عباس وابن زيد : يعني ضوء برقه يكاد يختطف الابصار . وقال قتادة : لمعان برقه .

وقوله « يقلب الله الليل والنهار » يعني يجيء بالنهار عقيب الليل ، وبالليل عقيب النهـار . وقيل : يزيد من هـذا في ذاك وينقص من ذاك في هذا « ان فى ذلك لعبرة » اي دلالة ﴿ لأولي الابصار ﴾ يعني ذوي العقول الذين يبصرون بقلوبهم .

وفي الآية دلالة على وجوب النظر ، وفساد التقليد ، لانه تعالى مدح المعتبرين بعقولهم بما نبه من الدلالات والآيات الدالة على توحيده وعدله وغير ذلك .

قوله تعالى

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُـلَّ دَآبَّةٍ مِن مَاءٍ فَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ

مَا يَشَاءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤٥) آية بلاخلاف .

قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ والله خالق ﴾ على وزن (فاعل) . الباقون ﴿ خلق ﴾ على فعل ماض . من قرأ ﴿ خالق ﴾ فلقوله ﴿ خالق كل شيء ﴾ (١) ومن قرأ خلق ، فلانه فعل ذلك فيما مضى ، ولقوله ﴿ ألم تر ان الله خلق السموات ﴾(٢) وقوله ﴿ خلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ (٣) .

اخبر الله تعالى انه خالق كل شيء يدب من الحيوان من ماء . ثم فصله فقال منهم من يمشي على بطنه كالحياة والسمك والدود ، وغير ذلك . ومنهم من يمشي على رجلين كالطير وابن آدم ، وغير ذلك ، ومنهم من يمشي على أربع كالبهائم والسباع وغير ذلك . ولم يذكر ما يمشي على أكثر من أربع ، لانه كالذي يمشي على أربع في مرءى العين ، فترك ذكره ، لان العبرة تكفي بذكر الاربع . وقال البلخي : لان عند الفلاسفة أن ما زاد على الأربع لا يعتمد عليها . واعتماده على الاربع فقط ، وانما قال ﴿ من ماء ﴾ لان أصل الخلق من ماء ، ثم قلب الى النار ، فخلق الجن منه ، والى الريح فخلق الملائكة منه ، ثم الى الطين فخلق آدم (ع) . ودليل أن اصل الحيوان كله الماء قوله تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ (٤) وانما قال منهم تغليباً لما يعقل على ما لا يعقل إذا اختلط فى خلق كل دابة . وقيل ﴿ من ماء ﴾ اى من نطفة ، ذكره الحسن ، وجعل قوله ﴿ كل دابة ﴾ خاصاً ، فيمن خلق من نطفة .

وقوله ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ اى يخترع ما يشاء ، وينشئه من الحيوان ،

(١) سورة ٤٠ المؤمن آية ٦٢ وسورة ٦ الانعام آية ١٠٢ وسورة ١٣ الرعد آية ١٨
(٢) سورة ١٤ إبراهيم آية ١٩　　(٣) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢
(٤) سورة ٢١ الانبياء آية ٣٠

وغيره ﴿ان الله على كل شيء قدير﴾ لا يتعذر عليه شيء يريده .

قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)

خمس آيات بلا خلاف .

اقسم الله تعالى فى هذه الآية انه انزل ﴿آيات مبينات﴾ أي دلالات واضحات تظهر بها المعاني، وتتميز، مما خالفها حتى تعلم مفصلة . ومن كسر الياء، جعلها من المبينة المظهرة مجازاً، من حيث يتبين بها، فكأنها المبينة .

وقوله ﴿والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾ معناه والله يلطف لمن يشاء بما يعلم أنه يهتدي عنده ﴿الى صراط مستقيم﴾ واضح: من توحيده وعدله وصدق أنبيائه . والهداية الدلالة التي يهتدي بها صاحبها الى الرشد، وقد تطلق على ما يصح أن يهتدى بها، كما قال تعالى ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على

الهدى ﴾ (١) لأن المراد فى الآية اللطف على ما قلناه . وقال الجبائي : قوله ﴿ يهدي من يشاء ﴾ يعني المكلفين دون من ليس بمكلف ، ويجوز أن يكون المراد هدايتهم فى الآخرة الى طريق الجنة ، والصراط المستقيم الايمان لأنه يؤدي الى الجنة .

وقوله ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ قيل انها نزلت فى صفة المنافقين ، لانهم يقولون بألسنتهم : آمنا بالله وصدقنا رسوله ، فاذا انصرفوا إلى أصحابهم قالوا خلاف ذلك ، فأخبر الله تعالى أن هؤلاء ليسوا بمؤمنين على الحقيقة . ثم اخبر عن حال هؤلاء فقال : « وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم » فى شيء يختلفون فيه « اذا فريق منهم » يعني المنافقين « معرضون » عن ذلك ، ولا يختارونه ، لانه يكون الحق عليهم . ثم قال « وإن يكن لهم الحق » وتتوجه لهم الحكومة « يأتوا اليه » يعني الى النبي (ص) منقادين « مذعنين » والاذعان هو الانقياد من غير اكراه ، فهؤلاء المنافقون إذا دعوا الى رسول الله (ص) ليحكم بينهم في شيء اختلفوا فيه ، امتنعوا ظلماً ، لانفسهم وكفروا بنبيهم ، ففضحهم الله بما أظهر من جهلهم ونفاقهم .

وقيل انها نزلت فى رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة، فدعاه اليهودي الى رسول الله ، ودعاه المنافق الى كعب بن الاشرف . وقيل انها نزلت في علي (ع) ورجل من بني أمية دعاه علي الى رسول الله ، ودعاه الاموي الى اليهود ، وكان بينهما منازعة في ماء وأرض . وحكى البلخي انه كانت بين علي(ع) وعثمان منازعة في أرض اشتراها من علي ، فخرجت فيها أحجار ، واراد ردها بالعيب ، فلم يأخذها ، فقال بيني وبينك رسول الله ، فقال الحكم ابن أبي العاص ان حاكمته الى ابن عمه حكم له ، فلا تحاكمه اليه ، فانزل الله الآية .

(١) سورة ٤١ حم السجدة ﴿ فصلت ﴾ آية ١٧

ثم قال تعالى منكراً عليهم « أفي قلوبهم مرض » أي شك في قلوبهم . وسمي الشك مرضاً ، لانه آفة تصد القلب عن ادراك الحق ، كالآفة في البصر تصد عن ادراك الشخص ، وانما جاء على لفظ الاستفهام ، والمراد به الانكار ، لانه أشد في الذم والتوبيخ أي ان هذا كفر ، قد ظهر حتى لا يحتاج فيه الى البينة ، كما جاز في نقيضه على طريق الاستفهام ، لأنه أشد مبالغة في المدح ، كما قال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا ... واندى العالمين بطون راح (١)

فقال الله تعالى «أفي قلوبهم مرض» أي شك في النبي « أم ارتابوا » بقوله وبحكمه ﴿ أم يخافون أن يحيف الله ورسوله عليهم ﴾ أي يجور عليهم ، والحيف الجور بنقض الحق ، ويحيف عليهم : يظلمهم ، لانه لا وجه للامتناع عن المجيء إلا أحد هذه الثلاثة .

ثم اخبر تعالى فقال : ليس لشيء من ذلك ، بل لانهم الظالمون نفوسهم وغيرهم ، والمانعون لهم حقوقهم ، وإنما افرد قوله ﴿ ليحكم بينهم ﴾ بعد قوله ﴿ الى الله ورسوله ﴾ ، لانه حكم واحد يوقعه النبي (ص) بأمر الله .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

(١) قائله جرير ، ديوانه (دار بيروت) ٧٧

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٥٤) أربع آيات بلا خلاف

قرأ ابو بكر وأبو عمرو ﴿ ويتقه ﴾ ساكنة القاف ، لان الهاء لما اختلطت بالفعل وصارت مزدوجة ثقلت الكلمة ، فخففت بالاسكان . وقيل : انهم توهموا أن الجزم واقع عليها . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وورش ﴿ ويتقهي ﴾ بكسر الهاء لمجاورة القاف المكسورة ، وبعد الهاء ياء . وروى قالون باختلاس الحركة ، وهو الاجود عند النحويين ، لان الأصل يتقيه باختلاس الحركة ، فلما سقطت الياء للجزم بقيت الحركة مختلسة ، كما كانت . وروى حفص باسكان القاف وكسر الهاء ، لانه كره الكسرة في القاف واسكنها تخفيفاً ، كما قال الشاعر :

عجبت لمولود وليس له أب　　ومن والد لم يلده ابوان(١)

ويجوز ان يكون أسكن القاف والهاء ساكنة ، فكسر الهاء لالتقاء الساكنين ، ولأن من العرب من يقول لم يتق مجزوم القاف بعد حذف الياء .

لما اخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم إذا دعوا الى الله ورسوله في الحكم بينهم فيما يتنازعون فيه ، فانهم عند ذلك يعرضون عن ذلك ، ولا يجيبون اليه ، أخبر أن المؤمنين بخلافهم وانهم إذا قيل لهم تعالوا﴿الى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾ينبغي ﴿ ان يقولوا ﴾ في الجواب عن ذلك﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ أي قبلنا هذا القول وانقدنا اليه وأجبنا الى حكم الله ورسوله .

ثم اخبر تعالى عن هؤلاء المؤمنين بانهم ﴿ هم الفائزون ﴾ الذين فازوا بثواب الله وكريم نعمه . وعن أبي جعفر (ع) أن المعني بالآية أمير المؤمنين (ع)وصفه

(١) مر تخريجه في ٧/ ٤

بخلاف ما وصف خصمه الذي ذكره في الآية الاولى .

ثم قال تعالى ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ بان يفعل ما أمره به ويبادر اليه ﴿ ويخشى الله ويتقه ﴾ بأن يخاف عقابه ، فيجتنب معاصيه ، فان من هذه صفته من الفائزين . و (الفوز) اخذ الحظ الجزيل من الخير ، تقول : فاز يفوز فوزاً ، فهو فائز . وسميت المهلكة مفازة تفاؤلا ، فكأنه قيل : منجاة .

ثم أخبر تعالى عن جماعة من المنافقين بأنهم « أقسموا بالله جهد أيمانهم » أي حلفوا به أغلظ أيمانهم ، وقدر طاقتهم « لئن امرتهم » يا محمد بالخروج « ليخرجن » يعني الى الغزو ، فقال الله تعالى لهم « لا تقسموا » أي لا تحلفوا « طاعة معروفة » وقيل : في معناه قولان :

احدهما ـ هذه طاعة معروفة منكم يعني بالقول دون الاعتقاد . أي إنكم تكذبون ذكره مجاهد .

والثاني ـ طاعة وقول معروف أمثل من هذا القسم ، والقول المعروف هو المعروف صحته ، فان ذلك خير لكم من هذا الحلف .

ثم اخبر تعالى بأنه « خبير » أي عالم « بما تعملون » لا يخفى عليه شيء على أي وجه توقعون أفعالكم ، فيجازيكم بحسبها . وفي ذلك تهديد . ثم قال « فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم » أي تتولوا ، فحذفت التاء ، وليس كقوله « فان تولوا فانما هم في شقاق » (١) لان الأول مجزوم ، وهو للمخاطبين ، لأنه قال « وعليكم ما حملتم » ولو كان لغير المخاطبين ، لقال وعليهم ، كما قال «فان تولوا فانما هم في شقاق» وكان يكون في موضع نصب لانه بمنزلة قولك : فان قاموا ، والجزاء يصلح فيه لفظ المستقبل والماضي من (فعل يفعل) كما قال ﴿ فان فاؤا فان الله ﴾ (٢) . وقوله ﴿ فان

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٣٧　　(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٦

تولوا فانما هم في شقاق ﴾ في موضع نصب ذكره الفراء ، وقوله ﴿ فانما عليه ﴾ يعني على المتولي جزاء ما حمل أي كاف ، فانه يجازى على قدر ذلك ، وعليكم جزاء ما كلفتم إذا خالفتم ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ يعني ان اطعتم رسوله تهتدوا .

ثم اخبر انه ليس ﴿ على الرسول إلا البلاغ ﴾ الظاهر والقبول يتعلق بكم ، ولا يلزمه عهدته ، ولا يقبل منكم اعتذار تركه بامتناع غيره .

قوله تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ (٥٥)

آية بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وابو بكر عن عاصم ﴿ وليبدلنهم ﴾ بالتخفيف . الباقون بالتشديد . وقرأ ابو بكر عن عاصم ﴿ كما استخلف ﴾ بضم التاء على ما لم يسم فاعله . الباقون بفتحها . قال ابو علي : الوجه فتح التاء ، لأن اسم الله قد تقدم ذكره ، والضمير في ﴿ يستخلفنهم ﴾ يعود الى الاسم ، فكذلك قوله ﴿ كما استخلف ﴾ لان المعنى ليستخلفنهم استخلافاً كاستخلافه الذين من قبلهم . ومن ضم التاء ذهب الى ان المراد به مثل المراد بالفتح .

في هذه الآية وعد من الله تعالى للذين آمنوا من اصحاب النبي (ص) وعملوا

الصالحات ، بأن يستخلفهم فى الارض ، ومعناه يورثهم أرض المشركين من العرب والعجم ﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ يعني بني اسرائيل بأرض الشام بعد اهلاك الجبابرة بأن أورثهم ديارهم وجعلهم سكانها . وقال الجبائي : ﴿ استخلف الذين من قبلهم ﴾ يعني فى زمن داود وسليمان . وقال النقاش : يريد بالأرض أرض مكة ، لان المهاجرين سألوا ذلك ، والاول قول المقداد بن الاسود ، وروى عن رسول الله (ص) أنه قال : (لا يبقى على الارض بيت مدر ، ولا وبر إلا ويدخله الاسلام بعز عزيز أو ذل ذليل) . وفي ذلك دلالة على صحة نبوة النبي (ص) لأنه أخبر عن غيب وقع مخبره على ما أخبر ، وذلك لا يعلمه إلا الله تعالى ﴿ وليمكنن لهم دينهم الذي أرتضى لهم ﴾ يعني يمكنهم من إظهار الاسلام الذي ارتضاه ديناً لهم ﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾ أي نصرهم بعد أن كانوا خائفين بمكة وقت غلبة المشركين آمنين بقوة الاسلام وانبساطه .

ثم اخبر عن المؤمنين الذين وصفهم بأنهم يعبدون الله تعالى وحده لا يشركون بعبادته سواه من الاصنام والاوثان وغيرها . ويجوز ان يكون موضعه الحال . ويجوز أن يكون مستأنفاً .

ثم قال ﴿ ومن كفر بعد ذلك ﴾ يعني بعد الذي قصصنا عليك ووعدناهم به ﴿ فاولئك هم الفاسقون ﴾ وإنما ذكر الفسق بعد الكفر مع أن الكفر أعظم من الفسق، لأحد امرين :

احدها ـ انه أراد الخارجين في كفرهم الى أفحشه ، لان الفسق في كل شيء هو الخروج الى اكبره .

الثاني ـ أراد ان من كفر تلك النعمة بالفساد بعدها ، فسق وليس يعني الكفر بالله ، ذكره ابو العالية .

والتبديل ـ تغيير حال الى حال أخرى ، تقول : بدل صورته تبديلا ، وتبدل تبدلا ، والابدال رفع الشيء بأن يجعل غيره مكانه ، قال ابو النجم :

عزل الامير بالأمير المبدل (١)

والتبديل رفع الحال الى حال أخرى . والابدال رفع النفس الى نفس أخرى . والأصل واحد ، وهو البدل .

واستدل الجبائي ، ومن تابعه على إمامة الخلفاء الأربعة بأن قال : الاستخلاف المذكور فى الآية لم يكن إلا لهؤلاء ، لأن التمكين المذكور في الآية إنما حصل في أيام ابي بكر وعمر ، لان الفتوح كانت فى أيامهم ، فأبو بكر فتح بلاد العرب وطرفاً من بلاد العجم ، وعمر فتح مداين كسرى الى حد خراسان وسجستان وغيرهما ، فاذا كان التمكين والاستخلاف ههنا ليس هو إلا لهؤلاء الائمة الأربعة . واصحابهم علمنا أنهم محقون .

والكلام على ذلك من وجوه :

احدها ـ ان الاستخلاف ـ ههنا ـ ليس هو الامارة والخلافة . بل المعنى هوابقاؤهم فى أثر من مضى من القرون . وجعلهم عوضاً منهم وخلفاً ، كما قال « هو الذي جعلكم خلائف في الارض » (٢) وقال « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض » (٣) وقال « وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء » (٤) وكقوله « وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة » (٥) أي جعل كل واحد منهما خلف صاحبه ، وإذا ثبت ذلك ، فالاستخلاف والتمكين الذي ذكره الله

---

(١) قد مر تخريجه فى ٧ / ٧٩
(٢) سورة ٣٥ فاطر آية ٣٩
(٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٢٨
(٤) سورة ٦ الانعام آية ١٣٣
(٥) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٢

في الآية ، كانا في أيام النبي (ص) حين قمع الله اعداءه وأعلا كلمته ونشر ولايته، واظهر دعوته ، وأكمل دينه ، ونعوذ بالله أن نقول : لم يمكّن الله دينه لنبيه في حياته حتى تلافى ذلك متلاف بعده ، وليس ذلك التمكين كثرة الفتوح والغلبة على البلدان ، لأن ذلك يوجب أن دين الله لم يتمكن بعد الى يومنا هذا لعلمنا ببقاء ممالك للكفر كثيرة لم يفتحها المسلمون ، ويلزم على ذلك إمامة معاوية وبني أمية ، لأنهم تمكنوا اكثر من تمكن أبي بكر وعمر ، وفتحوا بلاداً لم يفتحوها .

ولو سلمنا أن المراد بالاستخلاف الامامة للزم أن يكون منصوصاً عليهم ، وذلك ليس بمذهب اكثر مخالفينا ، وإن استدلوا بذلك على صحة إمامتهم احتاجوا أن يدلوا على ثبوت امامتهم بغير الآية ، وانهم خلفاء الرسول حتى تتناولهم الآية .

فان قالوا : المفسرون ذكروا ذلك .

قلنا : لم يذكر جميع المفسرين ذلك ، فان مجاهداً قال : هم أمة محمد (ص) .

وعن ابن عباس وغيره : قريب من ذلك .

وقال أهل البيت (ع) إن المراد بذلك المهدي (ع) لأنه يظهر بعد الخوف، ويتمكن بعد ان كان مغلوباً ، فليس في ذلك اجماع المفسرين . وهذا أول ما فيه . وقد استوفينا ما يتعلق بالآية في كتاب الامامة ، فلا نطول بذكره ـ ههنا ـ وقد تكلمنا على نظير هذه الآية ، وان ذلك ليس بطعن على واحد منهم ، وانما المراد الممانعة من أن يكون فيها دلالة على الامامة ، وكيف يكون ذلك . ولو صح ما قالوه لما احتيج الى اختياره ، ولكان منصوصاً عليه ، وليس ذلك مذهباً لأكثر العلماء ، فصح ما قلناه .

قوله تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَيٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٥٧) آيتان بلاخلاف.

قرأ حفص وابن عامر وحمزة «لا يحسبن» بالياء. الباقون بالتاء. فمن قرأ - بالياء - فموضع (الذين) رفع. ومن قرأ - بالتاء - فموضعه نصب، و (معجزين) المفعول الثاني، والمفعول الثاني لمن قرأ - بالياء - قوله «في الارض». وقال ابو علي: المفعول الثاني على هذه القراءة محذوف، وتقديره: ولا يحسبن الذين كفروا اياهم معجزين. وقال الاخفش: من قرأ - بالياء - يجوز أن يكون (الذين) في موضع نصب، على تقدير لا يحسبن محمد الذين، فيكون محمد الفاعل.

امر الله تعالى في الآية الأولى جميع المكلفين باقامة الصلاة وايتاء الزكاة اللذين أوجبهما عليهم وان يطيعوا الرسول فيما يأمرهم به ويدعوهم اليه، ليرحموا جزاء على ذلك، ويثابوا بالنعم الجزيلة.

ثم قال «لا تحسبن» يا محمد اي لا تظنن «الذين كفروا معجزين في الارض» اي لا يفوتوني. ومن قرأ - بالياء - قال تقديره: لا يظنن من كفر أنه يفوتني، ويعجزني أيّ مكان ذهب في الارض.

ثم اخبر تعالى: ان مأوى الكافرين ومستقرهم النار، عقوبة لهم على كفرهم وانها بئس المرجع وبئس المستقر والمأوى. وانما وصفها بذلك لما ينال الصائر اليها من العذاب والآلام والشدائد، وإن كانت من فعل الله وحكمته صواباً.

قوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلوة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلوة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (٥٨) وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم (٥٩) والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم (٦٠) ثلاث آيات بلاخلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا حفصاً « ثلاث عورات » بفتح الثاء. الباقون بالرفع. قال ابو علي النحوي: من رفع، فعلى أنه خبر ابتداء محذوف، وتقديره هذه ثلاث عورات، لانه لما قال «الذين ملكت ايمانكم، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات» وفصل الثلاث بقوله « من قبل صلاة الفجر، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء » صار كأنه قال: هذه ثلاث عورات، فاجمل بعد التفصيل. ومن

نصب جعله بدلا من قوله « ثلاث مرات » وانما أبدل « ثلاث عورات » وليس بزمان من﴿ ثلاث مرات﴾ وهي زمان ، لانه مشتمل على زمان من حيث ان التقدير : أوقات ثلاث عورات ، فلما حذف المضاف أقام المضاف اليه مقامه .

و(العورات) جمع عورة ، وحكم ما كان على وزن (فعلة) من الأسماء أن تحرك العين منه ، نحو صفحة وصفحات ، وجفنة وجفنات إلا ان عامة العرب يكرهون تحريك العين فيما كان عينه واواً أو ياء ، لانه كان يلزمه الانقلاب الى الألف ، فاسكنوا لذلك ، فقالوا عورات وجوزات وبيضات . وقرأ الاعمش - بفتح الواو - من (عورات) ووجهه ما حكاه المبرد أن هذيلا يقولون في جمع جوزة وعورة ولوزة : جوزات ، وعورات ، ولوزات ، فيحركون العين فيها ، وأنشد بعضهم :

ابو بيضات رائح متأوب　　　رفيق بمسح المنكبين سبوح (١)

فحرك الياء من بيضات ، والأجود عند النحويين ما ذكرناه .

هذه الآية متوجهة الى المؤمنين بالله المقرين برسوله ، يقول الله لهم : مروا عبيدكم واماءكم أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول الى مواضع خلواتكم . وقال ابن عباس وابوعبد الرحمن : الآية في النساء والرجال من العبيد . وقال ابن عمر :هي في الرجال خاصة . وقال الجبائي : الاستئذان واجب على كل بالغ في كل حال ، ويجب على الاطفال في هذه الاوقات الثلاثة بظاهر هذه الآية . وقال قوم : في ذلك دلالة على انه يجوز أن يؤمر الصبي الذي يعقل ، لأنه أمره بالاستئذان . وقال آخرون: ذلك أمر للآباء أن يأخذوا الأولاد بذلك ،فظاهر الآية يدل على وجوب الاستئذان ثلاث مرات في ثلاث أوقات من ساعات الليل والنهار . ثم فسر الاوقات فقال « من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلوة العشاء » الاخرة

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ٣٠٥ واللسان ﴿بيض﴾

لأن الغالب على الناس أن يتعروا فى خلواتهم في هذه الاوقات ذكره مجاهد . ثم بين أنه ليس عليكم ولا عليهم جناح فيما بعد ذلك من الاوقات أن يدخلوا عليكم من غير اذن ، يعني فى الذين لم يبلغوا الحلم ، وهو المراد بقوله «طوافون عليكم بعضكم على بعض» ثم قال : مثل ما بين لكم هذه العورات بين الله لكم الدلالات على الاحكام « والله عليم » بما يصلحكم « حكيم » فيما ذكره وغيره من أفعاله . ثم قال « واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم » يعني يرتفع من دخوله بغير اذن إذا بلغ ، وصار حكمه حكم الرجال فى وجوب الاستئذان على كل حال . ثم قال مثل ما بين لكم هذا بين لكم ادلته « والله عليم حكيم » .

ثم قال « والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً » يعني المسنات من النساء اللاتي قعدن عن التزويج ، لانه لا يرغب فى تزويجهن . وقيل : هن اللاتي ارتفع حيضهن ، وقعدن على ذلك ، اللاتي لا يطمعن في النكاح أي لا يطمع فى جماعهن لكبرهن « فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن » قيل هو القناع الذي فوق الخمار وهو الجلباب ، والرداء الذي يكون فوق الشعار . وفى قراءة أهل البيت (ع) « ان يضعن من ثيابهن » وبه قرأ ابي .

وقوله « غير متبرّجات بزينة » أي لا تقصد بوضع الجلباب اظهار محاسنها ، وما ينبغي لها أن تستره . والتبرج إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره .

ثم اخبر تعالى أن الاستعفاف عن طرح الجلباب خير لهن في دينهن « والله سميع » لا قوالكم « عليم» بما تضمرونه « حليم » عليكم لا يعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم ، وانما ذكر القواعد من النساء ، لان الشابة يلزمها من التستر اكثر مما يلزم العجوز ، ومع ذلك فلا يجوز للعجوز أن تبدي عورة لغير محرم ، كالساق والشعر والذراع .

قوله تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٦١) آية بلا خلاف.

يقول الله تعالى انه « ليس على الاعمى حرج » وهو الذي كف بصره « ولا على الاعرج حرج » وهو الذي يعرج من رجليه أو احدهما « ولا على المريض حرج» وهو الذي يكون عليلا، والحرج الضيق في الدين، مشتق من الحرجة، وهي الشجر الملتف بعضه ببعض لضيق المسالك فيه، وحرج فلان إذا أثم. وتحرّج من كذا إذا تأثم من فعله.

نفى الله الحرج عن هؤلاء لما يقتضيه حالهم من الافات التى بهم مما تضيق على غيرهم. واختلفوا في تأويل ذلك، فقال الحسن وابن زيد والجبائي: ليس عليهم حرج فى التخلف عن الجهاد، ويكون قوله «ولا على انفسكم» كلاماً مستأنفاً. وقال

ابن عباس : ليس من مؤاكلتهم حرج ، لانهم كانوا يتحرجون من ذلك . قال الفراء : كانت الانصار تتحرج من ذلك ، لانهم كانوا يقولون : الاعمى لا يبصر فتأكل جيد الطعام دونه ويأكل رديئة . والاعرج لا يتمكن من الجلوس . والمريض يضعف عن المأكل . وقال مجاهد : ليس عليكم في الأكل من بيوت من سمي على جهة حمل قراباتهم إليهم يستتبعونهم في ذلك حرج . وقال الزهري : ليس عليهم حرج في أكلهم من بيوت الغزاة إذا خلفوهم فيه باذنهم . وقيل : كان المخلف في المنزل المأذون له في الأكل يتحرج ، لئلا يزيد على مقدار المأذون له فيه . وقال الجبائي : الآية منسوخة بقوله « ياايها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين أناه » (١) ويقول النبي (ص) (لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفسه) والذي روي عن أهل البيت (ع) : انه لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت من ذكرهم الله بغير اذنهم ، قدر حاجتهم من غير اسراف .

وقوله « ولا على انفسكم ان تأكلوا من بيوتكم » قال الفراء : لما نزل قوله « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا ان تكون تجارة » (٢) ترك النـاس مؤاكلة الصغير والكبير ممن أذن الله تعالى في الأكل معه ، فقال تعالى وليس عليكم في أنفسكم ، وفي عيالكم حرج أن تأكلوا منهم ومعهم الى قوله « أو صديقكم » أي بيوت صديقكم « أو ما ملكتم مفاتحه » أي بيوت عبيدكم وأموالهم . وقال ابن عباس : معنى ما ملكتم مفاتحه هو الوكيل وما جرى مجراه . وقال مجاهد والضحاك : هو ما ملكه الرجل نفسه في بيتـه . وواحد المفـاتح مفتاح ـ بكسر الميم ـ وفي المصدر (مفتح) بفتح الميم . وقال قتادة : معنى قوله « او صديقكم » لانه لا بأس في الاكل من بيت صديقه بغير اذنه .

---

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٥٣ (٢) سورة ٤ النساء آية ٢٨

وقوله « ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعاً أو اشتاتاً » قيل : يدخل فيه أصحاب الآفات على التغليب للمخاطب كقولهم : انت وزيد قمتما ، ولا يقولون قاما . وقال ابن عباس : معناه لا بأس ان يأكل الغني مع الفقير في بيته . وقال ابن عباس والضحاك : هي في قوم من العرب كان الرجل منهم يتحرج أن يأكل وحده. وقال ابن جريج : كانوا من كنانة . وقال ابو صالح : كانوا إذا نزل بهم ضيف تحرجوا أن يأكلوا معه ، فأباح الله الاكل منفرداً ومجتمعاً . والاولى حمل ذلك على عمومه ، وانه يجوز الاكل وحداناً وجماعاً .

وقوله « فاذا دخلتم بيوتاً فسلموا على انفسكم » قال الحسن : معناه ليسلم بعضكم على بعض . وقال ابراهيم : اذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقال قوم : أراد بالبيوت المساجد . والأولى حمله على عمومه . فاما رد السلام ، فهو واجب على المسلمين . وقال الحسن : يجب الرد على المعاهد ، ولا يقول الراد ورحمة الله .

وقوله تعالى « تحية من عند الله مباركة طيبة » يعني هذا السلام تحيون به تحية من عند الله مباركة طيبة ، لما فيها من الأجر الجزيل والثواب العظيم .

ثم قال كما يبين الله لكم هذه الأحكام والآداب « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » أي يبين الله لكم الأدلة على جميع الاحكام ، وجميع مايتعبدكم به لتعقلوا ذلك ، وتعملوا بموجبه .

قوله تعالى

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) ثلاث آيات بلا اخلاف

يقول الله تعالى ليس المؤمنون على الحقيقة إلا « الذين آمنوا بالله » أي صدقوا بتوحيده وعدله ، وأقروا بصدق رسوله واذا كانوا مع رسوله « على أمر جامع » وهو الذي يقتضي الاجتماع عليه والتعاون فيه : من حضور حرب أو مشورة في أمر، أو في صلاة جمعة ، وما اشبه ذلك ، لم ينصرفوا عن رسوله او عن ذلك الأمر ، إلا بعد أن يأذن لهم الرسول فى الانصراف متى طلبوا الاذن من قبله . والاستئذان طلب الاذن من الغير .

ثم قال تعالى لنبيه (ص) « إن الذين يستأذنونك » يا محمد ، فهم الذين يصدقون بالله ورسوله على الحقيقة ، دون الذين ينصرفون بلا استئذان .

ثم قال لنبيه (ص) أيضاً متى ما استأذنوك هؤلاء المؤمنون أن يذهبوا لبعض مهماتهم وحاجاتهم « فأذن لمن شئت منهم » فخيره بين ان يأذن وألا يأذن ، وهكذا

حكم الامام .

وقوله « واستغفر لهم الله » أي اطلب لهم المغفرة من الله . واستغفار النبي (ص) هو دعاؤه لهم باللطف الذي تقع معه المغفرة « إن الله غفور رحيم » أي ساتر لذنوبهم منعم عليهم .

ثم أمر المكلفين فقال تعالى « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » وقيل في معناه قولان :

احدها - احذروا دعاءه عليكم إذا أسخطتموه ، فان دعاءه موجب ، ليس كدعاء غيره ، ذكره ابن عباس .

والثاني - قال مجاهد وقتادة : ادعوه بالخضوع والتعظيم ، وقولوا له : يا رسول الله ، ويا نبي الله ، ولا تقولوا : يا محمد ، كما يقول بعضكم لبعض .

وقوله « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً » معناه إذا تسلل واحد منكم من عند النبي (ص) فان الله عالم به . وقال الحسن : معنى « لواذاً » فراراً من الجهاد . قال الفراء : كان المنافقون يحضرون مع النبي الجمعة ، فاذا نزلت آية فيها ذم للمنافقين ضجروا ، وطلبوا غره (١) واستتر بعضهم ببعض ، يقال : لاوذت بفلان ملاوذة ، ولواذاً . قال الزجاج : الملاوذة المخالفة، ولذت به ألوذ لياذاً .

ثم حذرهم من مخالفة رسوله بقوله « فليحذر الذين يخالفون عن أمره » وانما دخلت (عن) في قوله « عن أمره » لأن المعنى يعرضون عن أمره . وفي ذلك دلالة على أن أوامر النبي (ص) على الايجاب ، لانها لو لم تكن كذلك لما حذر من مخالفته ، وليس المخالف هو ان يفعل خلاف ما أمره فقط ، لان ذلك ضرب من المخالفة . وقد يكون مخالفاً بألا يفعل ما أمره به . ولو كان الأمر على الندب لجاز

---

(١) معناه طلبوا اختصار الحديث أي طيه على غره

تركه ، وفعل خلافه .

وقوله « أن تصيبهم فتنة » أي فليحذروا من أن تصيبهم فتنة : أي بلية تظهر ما فى قلوبهم من النفاق . والفتنة شدة فى الدين تخرج ما في الضمير « او يصيبهم عـذاب اليم » فى الآخرة جزاء على خلافهم الرسول . ويجوز أن يكون المراد : ان تصيبهم عقوبة في الدنيا ، أو يصيبهم عذاب مؤلم في الآخرة . وقيل : معناه « أن تصيبهم فتنة » أي قبل أن يصيبهم عــذاب فى الآخرة . وقوله « ألا إن لله ما في السموات والارض » المعنى ان له ملك ما فى السموات والارض ، والتصرف في جميع ذلك، ولا يجوز لا حدالاعتراض عليه ، ولايجوز مخالفة أمر رسوله ، ولا يخالف أمره ، لأن الهاء في قوله « عن أمره » يحتمل أن تكون راجعة الى الرسول ويحتمل أن تكون راجعة الى الله ، وقد مضى ذكرها قبلها . ثم بين انه « يعـلم ما انتم عليه » من الايمان والنفاق ، لا يخفى عليه شيء من احوالكم لا سراً ولا علانية .

وقوله « ويوم يرجعون اليه » أي يوم يردون اليه يعني يوم القيامـة ، الذي لا يملك فيه احدشيئاً سواه . ومن ضم الياء : أراد يردون . ومن فتحها نسب الرجوع اليهم . وقوله « فينبئهم بمـا عملوه » أي يعلمهم جميع ما عملوه من الطاعات والمعاصي ويوافيهم عليها . « والله بكل شيء عليم » لا يخفى عليـه شيء من ذلك الذي عملوه سراً أو جهراً .

٢٥ - سورة الفرقان

قال مجاهد وقتادة : هي مكية . وقال ابن عباس نزلت ثلاث آيات منها بالمدينة
من قوله « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر » الى قوله « رحيماً »
عـدد آياتها سبع وسبعون آية ليس فيها خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ
نَذِيراً (١) أَلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ
يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢) وَٱتَّخَذُوا
مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ
ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيٰوةً وَلَا نُشُوراً (٣) وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرٰيهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُا
ظُلْماً وَزُوراً (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً

وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٦) ست آيات .

معنى تبارك : تقدس وجل ، بما لم يزل عليه من الصفات ، ولا يزال كذلك ، ولا يشاركه فيها غيره . وأصله من بروك الطير على الماء ، فكأنه قال : ثبت فيما لم يزل ولا يزال الذي نزل الفرقان على عبده . وقال ابن عباس : تبارك (تفاعل) من البركة . فكأنه قال ثبت بكل بركة او حل بكل بركة . وقال الحسن : معناه الذي تجيء البركة من قبله ، والبركة الخير الكثير . والفرقان هو القرآن ، سمي فرقانا لأنه يفرق به بين الصواب والخطأ ، والحق والباطل في امور الدين ، بما فيه من الوعظ والزجر عن القبائح والحث على افعال الخير .

ثم بين تعالى انه انما نزل هذا القرآن ، وغرضه أن يكون نذيراً للعالمين ، أي مخوفاً وداعياً لهم إلى رشدهم ، وصارفاً لهم عن غيهم وضلالتهم ، يقال : أنذره إنذاراً إذا دعاه الى الخير ، بأن يخوفه من تركه : إذا كان غافلا عنه ، وقال ابن زيد : النذير هو النبي (ص) . وقال آخرون : هو القرآن .

ثم وصف تعالى ﴿ الذي نزل الفرقان ﴾ بأنه ﴿ الذي له ملك السموات والارض ﴾ والتصرف فيهما ، بسعة مقدوره بسياستها . وانه ﴿ لم يتخذ ولداً ﴾ كما يدعيه النصارى في أن المسيح ابن الله ، ويزعم جماعة من العرب أن الملائكة بنات الله . وأنه ليس له شريك في الملك ، بل هو المالك لجميع ذلك وحده ، وانه ﴿ خلق كل شيء ﴾ وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ ان كل شيء يطلق عليه اسم مخلوق ، فانه خلقه ، لأن أفعالنا لا يطلق عليها اسم الخلق حقيقة ، لان الخلق يفيد الاختراع ، وانما يسمونها بذلك مجازاً .

والثاني ـ انه لا يعتد بما يخلقه العبد في جنب ما خلقه الله ، لكثرة ذلك وقلة ما يخلقه العبد .

ويحتمل ان يكون المراد قدّر كل شيء ، لان أفعال العباد مقدرة لله ، من حيث بين ما يستحق عليهافاعلها من الثواب والعقاب أولا يستحق شيئاً من ذلك . ويقوي ذلكقوله ﴿ فقدره تقديراً ﴾ لان المعنى فيه ، وكل شيء على مقدار حاجتهم اليه وصلاحه لهم .

ثم اخبر تعالى عن الكفار ، فقال ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ من الاصنام والاوثان ، ووجهوا عبادتهم اليها من دون الله . ثم وصف آلهتهم بما ينبيء أنها لا تستحق العبادة ، بأن قال ﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ ولا يقدرون عليه ، وهم مع ذلك مخلوقون ، ومصرفون ، وانهم ﴿ لا يملكون ﴾ أي لا يقدرون ﴿ لانفسهم ﴾ على ضرّ ولا على نفع ﴿ ولا يملكون ﴾أي لا يقدرون على موت ، ولا على حياة ، ولا على بعث بعد الموت . والنشور هو البعث بعد الموت ، يقال : نشر الميت ، فهو ناشر نشوراً ، وانشره الله انشاراً ، ومنه قوله ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ (١) وجميع ذلك يختص الله بالقدرة عليه ، والعبادة تستحق بذلك ، لانها أصول النعم ، ثم أخبر عن الكفار بأنهم يقولون : ليس هذا القرآن الذي أنزلناه ﴿ إلا إفك ﴾ يعني كذب افتعله النبي (ص) ﴿ واعانه عليه قوم آخرون ﴾ قال الحسن : قالوا أعانه عليه عبد حبشي يعني الحضرمي ، وقال مجاهد : قالوا أعانه عليه اليهود .

ثم حكى تعالى عنهم بأنهم قالوا ذلك و ﴿ جاؤا ﴾ في هذا القول ﴿ ظلماً وزوراً ﴾ أي جاؤا بظلم ، فلما حذف الباء نصبه أي انهم أضافوه الى غير من صدر عنه ، وكذبوا فيه .

---

(٢) سورة ٨٠ عبس آية ٢٢

وحكى عنهم انهم قالوا أيضاً : هـــذا القرآن ﴿ أساطير الاولين ﴾ ورفـع (أساطير) بأنه خبر ابتداء محذوف ، وتقديره هذا أساطير الأولين . قال ابن عباس: الذي قال ذلك النضر بن الحارث بن كلدة ، يعني اخبار قد سطرها الأولون من الأمم اكتتبها هو ، وانتسخها ﴿ فهي تملى عليه ﴾ حتى ينسخها ﴿ بكرة وأصيلا ﴾ يعني غداة وعشياً . والاصيل العشي ، لأنه أصل الليل وأوله . ومعناه : إنه يقرأ عليه على هوى النفس ، فأمر الله تعالى نبيه (ص) أن يقول لهم ، تكذيباً لقولهم ﴿ قل انزله ﴾ يعني القرآن ﴿ الذي يعلم السر ﴾ يعني الخفايا ﴿ في السموات والارض ﴾ والمعنى انه أنزله على ما يعلم من المصلحة وبواطن الأمور وخفاياها ، لا على ما تقتضيه أهواء النفوس وشهواتهـا . وقال الجبائي : السر ـ ههنا ـ الغيب . والسر اخفاء المعنى فى القلب اسر اليه إسراراً أي ألقى اليه ما يخفيه فى قلبه ، وساره مسارة وسراراً : إذا اخفى ما يلقيه اليه من السر عن غيره .

وقوله ﴿ انه كان غفوراً ﴾ معناه الذي يعلم السر في السموات والارض لا يعاجلهم بالعقوبة ، بل يستر عليهم ، وهكذا كان على من تقدم من الكفار والعصاة ﴿ رحيما ﴾ أي منعماً عليهم.

قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (٨) أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

سَبِيلاً (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً ﴾ (١٠) أربع آيات.

قرأ حمزة والكسائي ﴿ نأكل ﴾ بالنون. الباقون بالياء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وابو بكر عن عاصم ﴿ ويجعل لك قصوراً ﴾ بالرفع. الباقون بالجزم. من قرأ ﴿ يا كل ﴾ بالياء أراد النبي (ص) فانهم كرهوا أن يكون نبي من قبل الله يأكل الطعام ويمشي فى الاسواق، وقالوا: هلا كان معه ملك؟ فيكون معه معيناً مخوفاً لعباده ﴿ وداعياً ﴾ لهم. ومن قرأ بالنون اراد: نأكل نحن، فيكون له بذلك مزية علينا فى الفضل بأكلنا من جنته. ومن جزم ﴿ ويجعل ﴾ عطفه على موضع (جعل) لأن موضع (جعـل) جزم، لانه جزاء الشرط، فعطف ﴿ ويجعـل ﴾ على الموضع كما قرأ من قرأ قوله ﴿من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم﴾ (١) بالجزم ومن رفع استأنفه وقطعه عن الأول، كمن قرأ ﴿ ويذرهم ﴾ بالرفع.

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم أنهم قالوا أي شيء « لهـذا الرسول يأكل الطعام » كما نأكل « ويمشي في الاسواق » فى طلب المعاش، كما نمشي « لولا انزل اليه » ومعنـاه هلا أنزل الله عليـه ملكاً ان كان صادقاً، فيكون معيناً له على الانذار والتخويف. وإن لم ينزل اليه ملك، هلا « يلقى اليـه كنز » يستغني به ويكون عوناً له على دنيـاه وما يريده « او تكون له جنة » اي بستان « يا كل منها » هو نفسه. ومن قرأ ـ بالنون ـ اراد نأكل نحن معه، ونتبعه.

ثم حكى: ان الظالمين نفوسهم بارتكاب المعاصي والكفر، قالوا لأتباعهم ومن سمع منهم ﴿ إن تتبعون ﴾ اي ليس تتبعون إن تبعتموه ﴿ الا رجلا مسحوراً ﴾ وقيل

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٥

إنما يخاطبون بذلك المؤمنين المقرين بنبوته ، ليصرفوهم عنه . ومعنى (مسحوراً) انه قد سحر . والسحر ما خفي سببه حتى يظن انه معجز . فقال الله لنبيه (ص) ﴿ انظر كيف ضربوا لك الامثال ﴾ يعني الأشباه ، لأنهم قالوا تارة : هو مسحور . وتارة مثلوه بالمحتاج المتروك ، حتى تمنوا له الكنز . وتارة بأنه ناقص عن القيام بالأمور ، وكل ذلك جهل منهم وذهاب عن وجه الصواب . فقال الله تعالى ﴿ فضلوا ﴾ بضرب هذه الامثال عن طريق الحق ﴿ فلا يستطيعون سبيلا ﴾ معناه لا يستطيعون طريقاً الى الحق ، مع تمسكهم بطريق الجهل وعدولهم عن الداعي الى الرشد . وقيل معناه ﴿ لا يستطيعون سبيلا ﴾ الى ابطال امرك .

ثم قال تعالى ﴿ تبارك الذي ﴾ أي تقدس وتعاظم الله الذي ﴿ ان شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ يعني مما قالوه ـ في قول مجاهد ـ ثم فسر (ذلك) فقال الذي هو خير مما قالوه ﴿ جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصوراً ﴾ وهو جمع قصر ، وهو البيت المشيد المبني ـ في قول مجاهد ـ وسمي القصر قصراً ، لأنه يقصر من فيه عن أن يوصل اليه . ومن جزم « يجعل » عطفاً على موضع (جعل) ، لأنه جواب الشرط . ومن رفع استأنف . وكان يجوز النصب على الظرف (١) .

قوله تعالى :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ

(١) يقصد بالظرف ﴿ واو المعية ﴾

ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً ﴾ (١٦) ست آيات •

يقول الله تعالى مخبراً عن حال هؤلاء الكفار الذين وصفهم وذكرهم بأنهم كفروا بالله وجحدوا البعث والنشور ، أنهم لم يكفروا لأنك تأكل الطعام وتمشي في الاسواق ، بل لانهم لم يقروا بالبعث والنشور ، والثواب والعقاب ، وهو معنى قوله « بل كذبوا بالساعة » يعني بالقيامة ، وما فيها من الثواب والعقاب .

ثم اخبر تعالى انه اعد « لمن كذب بالساعة سعيراً » و (أعتدنا) أصله أعددنا فقلبت احدى الدالين تاء ، لقرب مخرجها . و (السعير) النار الملتهبة ، يقال : اسعرتها اسعاراً، واستعرت استعاراً ، وتسعرت تسعراً ، وسعرها الله تسعيراً . والاسعار تهييج النار بشدة الايقاد .

ثم وصف تلك النار المستعرة ، فقال « اذا رأتهم من مكان بعيد » ونسب الرؤية الى النار ـ وانما هم يرونها ـ لان ذلك أبلغ ، كأنها تراهم رؤية الغضبان الذي يزفر غيظاً ، فهم يرونها على تلك الصفة ، ويسمعون منها تلك الحال الهائلة . و (التغيظ) انتفاض الطبع لشدة نفور النفس ، والمعنى صوت التغيظ من التلهب والتوقد . وقال الجبائي : معناه « اذا رأتهم» الملائكة الموكلون بالنار « سمعوا لها » للملائكة « تغيظاً وزفيراً » للحرص على عذابهم . وهذا عدول عن ظاهر الكلام مع حسن ظاهره وبلاغته من غير حاجة داعية ولا دلالة صارفة . وانما شبهت النار بمن له تلك الحال ، وذلك في نهاية البلاغة .

وقوله « وإذا القوا » يعني الكفار « منها » يعني من النار « مكاناً ضيقاً » أي

في مكان ضيق « مقرنين » قيل : معناه مغللين ، قد قرنت أعناقهم الى ايديهم في الاغلال ، كما قال « مقرنين في الاصفاد » (١) وقيل : مقرنين مع الشياطين في السلاسل والاغلال . وقيل يقرن الانسان والشيطان الذي كان يدعوه الى الضلال « دعوا هنالك » يعني في ذلك الموضع ، يدعون « ثبوراً » قال ابن عباس : الثبور الويل ، وقال الضحاك : هو الهلاك . وقيل : أصله الهلاك من قولهم ثبر الرجل إذا هلك ، قال ابن الزبعري .

إذا جاري الشيطان في سنن الـ ـغي فمن مال ميله مثبور (٢)

ويقال: ماثبرك عن هذا الأمر أي ماصرفك عنه صرف المهلك عنه، فيقولوا : واإنصرافاه عن طاعة الله . وقيل : واهلاكاه . فقال الله تعالى انه يقال لهم عند ذلك « لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً » أي لا تدعوا ويلا واحداً ، بل أدعوا ويلا كثيراً . والمعنى إن ذلك لا ينفعكم سواء دعوتم بالويل قليلا أو كثيراً .

ثم قال تعالى لنبيه (ص) « قل » لهم يا محمد « أذلك خير » يعني ما ذكره من السعير وأوصافه خير « أم جنة الخلد » وانما قال ذلك على وجه التنبيه لهم على تفاوت ما بين الحالين . وانما قال « أذلك خير أم جنة الخلد » وليس في النار خير ، لأن المراد بذلك أي المنزلين خير؟! تبكيتاً لهم وتقريعاً . وقوله « التي وعد المتقون » أي وعد الله بهذه الجنة من يتقي معاصيه ويخاف عقابه « كانت لهم جزاء ومصيراً » يعني الجنة مكافأة وثواباً على طاعاتهم، ومرجعهم اليها ومستقرهم فيها، و « لهم فيها ما يشاؤن » ويشتهون من اللذات والمنافع « خالدين » أي مؤبدين لا يفنون فيها « كان على ربك وعداً مسؤلا » وقيل في معناه قولان :

---

(١) سورة ١٤ ابراهيم آية ٤٩ وسورة ٣٨ ص آية ٣٨

(٢) مر تخريجه في ٦/٥٢٨

احدها ـ ان المؤمنين يسألون الله عزوجل الرحمة فى قولهم « ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا » (١) وقولهم : ﴿ وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ (٢) .

والثاني ـ انه بمنزلة قولك : لك ما تمنيت مني أي متى تمنيت شيئاً فهو لك ، فكذلك متى سألوا شيئاً . فهو لهم بوعد الله (عز وجل) اياهم .

وقرأ ابن كثير ﴿ ضيقاً ﴾ بتخفيف الياء . الباقون بالتشديد ، وهما لغتان بالتشديد والتخفيف، مثل سيد وسيد ، وميت وميت . وقيل : ذلك هو الوعد المسئول في دار الدنيا .

قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً * وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً (١٩) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ (٢٠) اربع آيات .

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١١٠ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٩٤

ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١٤) قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً ﴾ (١٦) ست آيات .

يقول الله تعالى مخبراً عن حال هؤلاء الكفار الذين وصفهم وذكرهم بأنهم كفروا بالله وجحدوا البعث والنشور ، أنهم لم يكفروا لأنك تأكل الطعام وتمشي في الاسواق ، بل لانهم لم يقروا بالبعث والنشور ، والثواب والعقاب ، وهو معنى قوله « بل كذبوا بالساعة » يعني بالقيامة ، وما فيها من الثواب والعقاب .

ثم اخبر تعالى انه اعد « لمن كذب بالساعة سعيراً » و (أعتدنا) أصله أعددنا فقلبت احدى الدالين تاء ، لقرب مخرجهما . و (السعير) النار الملتهبة ، يقال : اسعرتها اسعاراً، واستعرت استعاراً ، وتسعرت تسعراً ، وسعرها الله تسعيراً . والاسعار تهييج النار بشدة الايقاد .

ثم وصف تلك النار المستعرة ، فقال « اذا رأتهم من مكان بعيد » ونسب الرؤية الى النار ـ وانما هم يرونها ـ لان ذلك أبلغ ، كأنها تراهم رؤية الغضبان الذي يزفر غيظاً ، فهم يرونها على تلك الصفة ، ويسمعون منها تلك الحال الهائلة . و (التغيظ) انتفاض الطبع لشدة نفور النفس ، والمعنى صوت التغيظ من التلهب والتوقد . وقال الجبائي : معناه « اذا رأتهم» الملائكة الموكلون بالنار « سمعوا لها » للملائكة « تغيظاً وزفيراً » للحرص على عذابهم . وهذا عدول عن ظاهر الكلام مع حسن ظاهره وبلاغته من غير حاجة داعية ولا دلالة صارفة . وانما شبهت النار بمن له تلك الحال ، وذلك في نهاية البلاغة .

وقوله « وإذا القوا » يعني الكفار « منها » يعني من النار « مكاناً ضيقاً » أي

قرأ ابن كثير وابو جعفر وحفص ويعقوب ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ بالياء . الباقون بالنون . وقرأ ابن عامر ﴿ فنقول ﴾ بالنون . الباقون بالياء . وقرأ ابو جعفر ﴿ ان نتخذ ﴾ بضم النون وفتح الخاء . الباقون بفتح النون وكسر الخاء . وقرأ حفص ﴿ فما تستطيعون ﴾ بالياء . الباقون بالتاء .

من قرأ ﴿يحشرهم﴾ بالياء فتقديره : قل يا محمد يوم يحشرهم الله ويحشر الاصنام التي يعبدونها من دون الله . قال قوم : حشر الاصنام افناؤها . وقال آخرون يحشرها كما يحشر سائر الحيوان ليبكت من جعلها آلهة .

ومن قرأ بالنون اراد : ان الله المخبر بذلك عن نفسه . وابن عامر جعل المعطوف مثل المعطوف عليه في أنه حمله على انه إخبار من الله . ومن قرأ الأولى بالنون والثانية بالياء عدل من الاخبار عن الله الى الاخبار عن الغائب .

يقول الله تعالى ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ يعني هؤلاء الكفار الجاحدين للبعث والنشور ويحشر ﴿ مايعبدون من دون الله ﴾ قال مجاهد : يعني عيسى وعزير . وقال قوم : هو كل ما عبدوه من دون الله ليبكتوا بذلك ﴿ فيقول ﴾ اي فيقول الله لهم ﴿ أأنتم اضللتم عبادي هؤلاء ﴾ يعني الكفار أي يقول الله للذين عبدوهم أأنتم الذين دعوتم الكفار الى عبادتكم ، فأجابوكم ﴿ أم هم ضلوا السبيل ﴾ من قبل نفوسهم عن طريق الحق واخطؤا طريق الصواب ؟؟ فيجيب المعبودون بما حكاه الله فيقولون : ﴿ سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من اولياء ﴾ ندعوهم الى عبادتنا .

ومن ضم النون أراد : لم يكن لنا ان نتخذ اولياء من دونك ، وضعف هذه القراءة النحويون . فقالوا : لان (من) هذه تدخل في الاسم دون الخبر ، نحوما علمت من رجل راكبا . ولا تقول : ما علمت رجلا من راكب . وقال الزجاج : لا يجوز ذلك

كما لا يجوز فى قوله ﴿فما منكم من احد عنه حاجزين﴾(١) ماا حدعنه منكم من حاجزين. وقال الفراء يجوز ذلك على ضعف ، ووجهه أن يجعل الاسم في (من أولياء) ، وإن كانت وقعت موقع الفعل [وقوله ﴿ ما كان ينبغي لنا ﴾ ، (كان) زائدة ، والتقدير: ما ينبغي لنا ـ ذكره ابو عبيدة ـ وهذا لا يحتاج اليه ، لان هذا إخبار عنهم يوم القيامة: انهم يقولون : « ما كان ينبغي لنا» فى دار الدنيا ان نتخذ اولياء من دونك] (٢)

وقوله «ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً » تمام الحكاية عما يقول المعبودون من دون الله ، فانهم يقولون يا ربنا انك متعت هؤلاء الكفار ومتعت آباءهم في نعيم الدنيا « حتى نسوا الذكر » أي ذكرك « وكانوا قوماً بوراً » أي هلكى فاسدين . والبور الفاسد ، ويقال : بارت السلعة تبور بوراً إذا بقيت لا تشترى بقاء الفاسد الذي لا يراد . والبائر الباقي على هذه الصفة . والبور مصدر كالزور ، لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث . وقيل هو جمع (بائر) قال ابن الزبعري :

يا رسول المليك إن لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور (٣)

ونعوذ بالله من بوار الاثم . وقوله « فقد كذبوكم بما تقولون » قيل فى معناه قولان :

احدهما ـ كذبكم الملائكة والرسل ، في قول مجاهد .

والثاني ـ قال ابن زيد : أيها المؤمنون كذبكم المشركون بما تقولون : عن نبوة محمد (ص) وغيره من انبياء الله .

قال الفراء : من قرأ بالياء معناه كذبوكم بقولهم . وقوله « فما تستطيعون صرفاً

---

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٤٧ (٢) ما بين القوسين كان في المطبوعة مؤخراً عن موضعه .

(٣) انظر ٦/ ٢٩٤ من هذا الكتاب .

ولا نصراً » قال مجاهد : يعني بذلك ، فما يستطيع هؤلاء الكفار صرف العـذاب عن انفسهم ، ولا نصر أنفسهم من عذاب الله تعالى . وقيل : معناه فما يستطيعون لـك يا محمد صرفاً عن الحق ، ولا نصر أنفسهم من البلاء الذي هم فيه ، من التكذيب لك. وهي : ما يستطيعون نصراً من بعض لبعض . ومن قرأ ـ بالتاء ـ خاطبهم بذلـك بتقدير قل لهم .

ثم قال تعالى « ومن يظلم منكم » نفسه بارتـكاب المعاصي وجحد آيات الله « .. قه » في مقابلة ذلك جزاء عليه « عذاباً كبيراً » أي عظيماً .

ثم خاطب نبيه محمداً (ص) فقال « وما أرسلنا قبلك » يا محمد « من المرسلين إلا انهم ليأكلون الطعام » مثلك « ويمشون في الاسواق » طلبا للمعايش ، كما تطلبها أنت ، وهو جواب لقولهم « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق » (١) وكسرت (إن) في قول « الا انهم » لانه موضع ابتداء ، كأنه قال : إلاهم يأكلون الطعام ، كما تقول : ما قدم علينا أمير الا إنه مكرم لي ، ولا يجوز أن تكون مكسورة لأجل اللام ، لأن دخولها وخروجها واحد في هذا الموضع . وقال قوم (من) محذوفة والتقدير إلا من انهم ليأكلون الطعام نحو «وما منا إلا له مقام معلوم» (٢) اي الا من له مقام معلوم ، ذكره الفراء . وقال الزجاج : هذا لا يجوز ، لان قوله « انهم ليأكلوا الطعام » صلة (من) ولا يجوز حذف الموصول وبقاء الصلة ، ومثل الآية قول الشاعر :

ما أعطيـاني ولا سألتهما   إلا وأني لحاجز كرمي (٣)

وقوله « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » قال الحسن : معناه يقول هذا الأعمى : لو شاء لجعلني بصيراً مثل فلان ، ويقول هذا الفقير : لوشاء لجعلني غنياً مثل فلان

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٧ (٢) سورة ٣٧ الصافات آية ١٦٤

(٣) البيت في مجمع البيان ٤/١٦٣

ويقول هذا السقيم : لو شاء لأصحني مثل فلان .

وقوله « وكان ربك بصيراً » أي بصيراً بمن يصبر ممن يجزع ، في قول ابن جريج . وقال الفراء : كان الشريف إذا أراد أن يسلم ، وقد سبق المشروف الى الاسلام ، فيقول : أسلم بعد هذا ؟! فكان ذلك فتنة . وقيل « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » للعداوات التي كانت بينهم في الدين . والفتنة شدة في التعبد تظهر ما في نفس العبد من خير وشر ، وهي الاختبار . وأصله اخلاص الشيء باحراق ما فيه من الفساد من قولهم : فتنت الذهب بالنار إذا أخلصته من الغش باحراقه ، ومنه قوله « يومهم على النار يفتنون » (١) أي يحرقون إحراق ما يطلب اخلاصه من الفساد .

وقوله « أتصبرون وكان ربك بصيراً » معناه اصبروا فقد عرفتم ما وعد الصابرون به من الثواب ، والله بصير بمن يصبر ومن يجزع .

قوله تعالى

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً (٢٣) أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَاءُ بِٱلْغَمَامِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾ (٢٥) خمس آيات .

حكى الله تعالى عن الكفار الذين لا يرجون لقاء ثواب الله ، ولا يخافون عقابه

---

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ١٣

أنهم قالوا ماذكره . والرجاء ترقب الخير الذي يقوى في النفس وقوعه ، تقول : رجا يرجو رجاء وارتجى ارتجاء ، وترجى ترجياً ، ومثل الرجاء الطمع والامل . والمعنى لا يرجون لقاء جزائنا ، وإذا استعملوا الرجاء مع النفي أرادوا به الخوف ، كقوله « لا ترجون لله وقاراً » (١) وهي لغة تهامة وهذيل . واللقاء المصير الى الشيء من غير حائل ولهـذا صح لقاء الجزاء من الثواب والعقاب ، لان العباد يصيرون اليـه في الآخرة وعلى هذا يصلح أن يقال : لابد من لقاء الله تعالى .

وقوله « لو لا انزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » معناه هلا أنزل الملائـكة لتخبرنا بأن محمداً نبي « أو نرى ربنا » فيخبرنا بذلك . قال الجبائي : وذلك يدل على انهم كانوا مجسمة ، فلذلك جوزوا الرؤية على الله التي تقتضي التشبيه .

ثم اقسم تعالى فقال « لقد استكبروا » بهذا القول « في أنفسهم » أي طلبوا الكبر والتجبر بغير حق ، تقول : استكبر استكباراً « وعتوا » بذلـك أي طغوا به « عتواً كبيراً » والعتو الخروج الى أفحش الظلم .

وقوله « يوم يرون الملائـكة » يجوز أن يكون المراد به اليوم الذي تقبض فيه أرواحهم ، ويعلمون أين مستقرهم . ويجوز أن يكون يوم القيامة « لا بشرى يومئـذ للمجرمين » أي لا بشرى لهم في ذلـك اليوم . قال الفراء : ليس (اليوم) من صلة (بشرى) ولا منصوباً به ، بل اضمرت (الفاء) كقولك : أما اليوم ، فلا مال لك . وقال الزجاج : يجوز على تقدير لا بشرى تكون للمجرمين يوم يرون الملائكة ، ويكون (يومئـذ) مؤكداً لـ (يوم) ، ولا يكون منصوباً بـ (لا بشرى) لأن ما يتصل بـ(لا) لا يعمل فيما قبلها ، لكن لما قيل : « لا بشرى للمجرمين » بين في أي يوم ذلك فكأنه قال يمنعون البشرى يوم يرون الملائكة ، وهو يوم القيامة و (المجرمين) معناه

---

(١) سورة ٧١ نوح آية ١٣

الذين أجرموا وارتكبوا المعاصي «ويقولون حجراً محجوراً» حراماً محرّماً. وقال قتادة، والضحاك: هو من قول الملائكة يقولون لهم: حراماً محرماً عليكم البشرى. وقال مجاهد وابن جريج: هو من قول المجرمين، كما كانوا يقولون فى الدنيا إذا لقوا من يخافون منه القتل، قالوا «حجراً محجوراً» أي حراماً محرماً دماؤنا. واصل الحجر الضيق، يقال: حجر عليه يحجر حجراً إذا ضيق. والحجر الحرام لضيقه بالنهي عنه، قال المتلمس:

حنت الى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألاتلك الدهاريس (١)

وقال آخر:

فهممت ان ألقي اليها محجراً ولمثلها يلقى اليه المحجر (٢)

أي حراماً. ومنه حجر القاضي عليه يحجر. وحجر فلان على أهله. ومنه حجر الكعبة، لانه لا يدخل اليه في الطواف، وانما يطاف من ورائه، لتضيقه بالنهي عنه وقوله «لذي حجر» (٣) أي لذي عقل، لما فيه من التضييق في القبيح، والحجر الانثى من الخيل. ومنه الحجرة، وحجر الانسان.

وقوله «وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً» قال البلخي: معناه قدم أحكامنا بذلك. وقال مجاهد: معنى «قدمنا» عمدنا قال الراجز:

وقدم الخوارج الضلال الى عباد ربهم فقالوا
إن دماءكم لنا حلال (٤)

وفي الكلام بلاغة حسنة، لان التقدير: كان قصدنا اليه قصد القادم على ما يكرهه، ما لم يكن رآه قبل فيغيره. والهباء غبار كالشعاع، لا يمكن القبض عليه

(١) أنظر ٤/٣١٣ تعليقة ١ من هذا الكتاب. (٢) تفسير الطبري ١٩/ ٢
(٣) سورة ٨٩ الفجر آية ٥ (٤) تفسير القرطبي ١٣/ ٢١ والطبري ١٩/ ٣

وقال الحسن ومجاهدوعكرمة : هو غبار يدخل الكوة فى شعاع الشمس .وقال عكرمة : هو رهج الخيل . وقال ابن عباس وغيره : هو الماء المهراق .

ثم قال تعالى « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً » ومعناه : إن الذين يحصلون فى الجنة - مثابين منعمين فى ذلك اليوم - مستقرهم خير من مستقر الكفار في الدنيا والآخرة . وانما قال ذلك على وجـه المظاهرة ، بمعنى أنه لو كان لهم مستقر خير ومنفعة ، لكان هذا خيراً منه ، « واحسن مقيلا » معناه أحسن موضع قائلة ، وإن لم يكن في الجنة نوم ، إلا أنه من تمهيده يصلح للنوم ، لانهم خوطبوا بما يعرفون ، كما قال « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً » (١) على ما اعتـادوه . وقال البلخي : معنى « مستقراً واحسن مقيـلا » انه خير في نفسه ، وحسن فى نفسه ، لا انه أفضل من غيره ، كما قال « وهو أهون عليه » (٢) أي هو هين . وقال قوم : معنى « خير مستقراً وأحسن » أي انفع من مستقرهم . وقال ابن عباس وابراهيم وابن جريج : لانه يفرغ من حسابهم الى وقت القائلة .

وقوله « يوم تشقق السماء بالغمام » أي عن الغمام ، وهو كقولهم : رميت بالقوس ، وعن القوس بمعنى واحد .

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر « تشقق » مشددة ومعناه تتشقق ، فادغم احدى التائين في الشين لقرب مخرجيهما . ومن قرأ بالتخفيف أراد ايضاً ذلك ، ولكنه حذف أحدى التائين ، وهي تاء (تفعّل) لان الأخرى علامـةالاستقبال ، لايجوز حذفها . وقال أبو علي الفارسي : المعنى « تشقق السماء » وعليها الغمام . وفى التفسير : انه يتشقق سماء سماء . وقال الفراء : تتشقق السماء عن الغمام الأبيض . وقرأ الباقون بالتخفيف . وقرأ ابن كثير « وننزل الملائكة » بنونين . وقرأ الباقون بنون

(١) سورة ١٩ مريم آية ٦٢   (٢) سورة ٣٠ الروم آية ٢٧

واحدة مشددة .

والمعنى بذلك الاخبار عن هول ذلك اليوم وعظم شدائده ، وان الملائكة تنزل للمؤمنين بالاكرام والاعظام ، وللكافرين بالاستخفاف والاهانة .

ومن قرأ بالنونين أراد ان الله المخبر بذلك عن نفسه . ومن قرأ بنون واحدة فعلى ما لم يسم فاعله . والمعنيان واحد . والتشديد أجود لقوله « تنزيلا » والآخر يجوز ، كما قال ﴿وتبتل اليه تبتيلا﴾ (١) وقوله ﴿ والله أنبتكم من الارض نباتاً ﴾ (٢) فجاء المصدر على غير الفعل وذلك سائغ جيد .

قوله تعالى :

﴿ أَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَاوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (٢٩) وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ (٣٠)

خمس آيات .

يقول الله تعالى إن ﴿ الملك ﴾ الذي هو السلطان بسعة المقدور وتدبير العباد في ذلك اليوم ووصفه بأنه الحق « للرحمن » الذي أنعم على جميع خلقه ، وأن ذلك

---

(١) سورة ٧٣ المزمل آية ٨　　(٢) سورة ٧١ نوح آية ١٧

اليوم كان على الكافرين عسيراً ، يعني صعباً شديداً ، والعسير هو الذي يتعذر طلبه ، ونقيضه اليسير . والحق هو ما كان معتقده على ما هو به ، معظم في نفسه ، ولذلك وصفه تعالى بأنه الحق ووصف ملكه ايضاً بأنه الحق لما ذكرناه . وقيل « الملك » على ثلاثة أضرب : ملك عظمة ، وهو لله تعالى وحده . وملك ديانة بتمليك الله تعالى . وملك جبرية بالغلبة .

ثم قال تعالى أن فى ذلك اليوم « يعض الظالم على يديه » تلهفاً على ما فرط فى جنب الله ،فى ارتكاب معصيته . وقيل : إن الآية نزلت فى أبي بن خلف ، وعقبة ابن ابي معيط ، وكانا خليلين ارتدّ أبي ، لما صرفه عن الاسلام عقبة . وقتل عقبة ابن أبي معيط يوم بدر صبراً . وقتل أبي بن خلف يوم احد ، قتله النبي (ص) بيده ، ذكره قتادة . وقال مجاهد : الخليل ـ ههنا ـ الشيطان ، وفلان كناية عن واحد بعينه من الناس ، لأنه معرفة . وقال ابن دريد ، عن أبي حاتم عن العرب : أنهم يكنوا عن كل مذكر بفلان ، وعن كل مؤنث بفلانة . وإذا كنوا عن البهائم أدخلوا الألف واللام ، فقالوا الفلان والفلانة .

ثم بين أنه يتبرأ منه بأن يقول : والله « لقد اضلني عن الذكر بعد اذ جاءني » يعني أغواني عن اتباع الذكر الذي هو النبي (ص) ويحتمل أن يكون اراد القرآن .

ثم بين فقال « وكان الشيطان للانسان خذولا » يخذله في وقت حاجته ومعاونته ، لانه على باطل « وقال الرسول » أي ويقول الرسول « ان قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً » وقيل فيمعناه قولان :

احدها ـ قال مجمد ، وابراهيم : انهم قالوا فيه هجراً أي شيئاً من القول القبيح لزعمهم انه سحر ، وانه اساطير الاولين .

والثاني ـ قال ابن زيد : هجروا القرآن باعراضهم عنه ، وترك ما يلزمهم فيه

ويشهد لهذا قوله « لا تسمعوا لهذاالقرآن والغوافيه » (١) ومثل (قال) بمعنى (يقول) قول الشاعر :

مثل العصافير أحلاماً ومقدرة ... لو يوزنون بزف الريش ما وزنوا (٢)

اي ما يوزنون ، واما قول الشاعر :

إن يسمعوا ريبـة طاروا بها فرحاً ... مني وما سمعوا من صالح دفنوا (٣)

فهذا فى الجزاء .

قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً (٣١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) أَلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٣٤) أربع آيات .

معنى قوله « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين » قيل فيه قولان:

احـــدهما ـ قال ابن عباس : جعل لمحمد (ص) عـدواً من المجرمين ، كما جعل لمن قبله .

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٢٦ (٢) مجمع البيان ٤/ ١٦٨

(٣) مجاز القرآن ١/ ١٧٧ إنظر ٥/ ٤٤ تعليقة ٢ من هذا الكتاب

والثاني ـ كما جعلنا النبي يعادي المجرم مدحاً له وتعظيما ، كذلك جعلنا المجرم يعادي النبي ذماً له وتحقيراً . والمعنى إن الله تعالى حكم بأنه على هذه الصفة . وقيل « جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين » ببياننا أنهم أعداؤهم ، كما يقال جعله لصاً أو خائناً . وقيل : معناه أمرنا بأن يسموهم أعداء . والجعل وجود ما به يصير الشيء على ما لم يكن ، ومثله التصيير ، والعدو المتباعد من النصرة للبغضة ، ونقيضه الولي ، واصله البعد . ومنه عدوتا الوادي أي جانباه ، لانهما بعداه ونهايتاه ، وعدا عليه يعدو عدواً اذا باعد خطوة للايقاع به ، وتعدى في فعله إذا أبعد في الخروج عن الحق . ثم قال تعالى « وكفى بربك » يا محمد « هادياً ونصيراً » اي حسبك الله الهادي الى الحق ، والناصر على العدو ، و (هادياً) منصوب على الحال أو التمييز ، فالحال كفى به في حال الهداية والنصرة ، والتمييز من الهادين والناصرين ـ ذكره الزجاج ـ ولا يقدر أحد أن يهدي كهداية الله ، ولا أن ينصر كنصرته ، فلذلك قال « وكفى بربك هادياً ونصيراً » ثم حكى أن الكفار ، قالو « لولا » اي هلا «نزل عليه القرآن » على النبي « جملة واحدة » فقيل لهم إن التوراة انزلت جملة ،لانها أنزلت مكتوبة على نبي يكتب ويقرأ وهو موسى ، واما القرآن ، فانما انزل متفرقاً ، لأنه أنزل غير مكتوب على نبي أمي ، وهو محمد (ص) وقيل : انما لم ينزل جملة واحدة ، لان فيه الناسخ والمنسوخ ، وفيه ما هو جواب لمن سأل عن أمور ، وفيه ما هو إنكار لما كان . وفي الجملة المصلحة معتبرة في إنزال القرآن ،فاذا كانت المصلحة تقتضي انزاله متفرقاً كيف ينزل جملةواحدة !؟ فقال الله تعالى لنبيه (ص) إنا أنزلناه متفرقاً ﴿ لنثبت به فؤادك ﴾ وقال أبو عبيدة : معناه لنطيب به نفسك ونشجعك .

وقوله ﴿ ورتلناه ترتيلا ﴾ فالترتيل التبيين في تثبت وترسل . وقوله ﴿ ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق ﴾ أي لم ننزل القرآن جملة واحدة لانهم لا يأتونك بشيء

يريدون به ابطال امرك ﴿ الا جئناك بالحق ﴾ الذي يبطله ﴿ واحسن تفسيراً ﴾ أي نجيؤك بأحسن تفسيراً مما يأتونك به واجود معاني .

ثم قال ﴿ الذين يحشرون على وجوههم ﴾ يوم القيامة ﴿ الى جهنم ﴾ يعني الكفار يسحبون على وجوههم . وفي الحديث أن الذي امشاهم على أقدامهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم .

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الذين يحشرون على وجوههم بأنهم ﴿ شر مكاناً وأضل سبيلا ﴾ عن الحق وعن الثواب والجنة .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هٰرُونَ وَزِيراً (٣٥) فَقُلْنَا ٱذْهَبَا إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ ٱلرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذٰلِكَ كَثِيراً (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ (٤٠) ست آيات .

أقسم الله تعالى بأنه آتى موسى الكتاب يعني التوراة ، وأنه جعل معه (أخاه) هارون وزيراً ، يحمل عنه أثقاله ، وأنه قال لهما وأوحى اليهما وأمرهما بأن يذهبا الى القوم

الذين كذبو بآيات الله وجحدوا أدلته ، يعني فرعون وقومه و أخبر أنهم لم يقبلوامنهما وجحدوا نبوتهما ، فأهلكهم الله ودمرهم تدميراً . والتدمير الاهلاك بأمر عجيب ومثله التنكيل ، يقال : دمر على فلان إذا هجم عليه بالمكروه .

ثم قال « وقوم نوح » أي اغرقنا قوم نوح لما كذبوا الرسل « أغرقناهم وجعلناهم للناس آية » وعلامة . والتغريق الاهلاك بالماء الغامر ، وقد غرق الله تعالى قوم نوح بالطوفان ، وهو مجيء ماء السماء المنهمر ، وماء الارض الذي فجر الله تعالى عيونها حتى التقى الماء ، أي أتى على أمر قد قدره الله ، فطبق الارض ولم ينج إلا نوحاً ومن كان معه راكباً في السفينة ، ويقال : فلان غريق في النعمة تشبيهاً بذلك .

وقوله « لما كذبوا الرسل » يعني نوحاً ومن تقدم من الانبياء . وقيل : المعني نوحاً والرسل من الملائكة . وقيل : نوحاً ومن بعده من الرسل ، لأن الانبياء يصدق بعضهم بعضاً في توحيد الله وخلع الانداد ، فمن كذب بواحد منهم فقد كذب بهم جميعهم ، وقال الحسن : تكذيبهم بنوح تكذيب لسائر الرسل .

ثم قال تعالى : إنا مع إهلاكهم العاجل ﴿ اعتدنا للظالمين ﴾ نفوسهم ﴿ عذاباً اليماً ﴾ أي مؤلماً موجعاً .

وقوله ﴿ وعاداً وثمود واصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ معناه وأهلكنا هؤلاء ايضاً ، يقال : (عاد) هم القوم الذين بعث الله إليهم هوداً ، و (ثمود) هم الذين بعث الله اليهم صالحاً ، واصحاب الرس قال عكرمة : الرس بئر رسوا فيها نبيهم أي ألقوه فيها . وقال قتادة : هي قرية باليمامة ، يقال لها : (فلج) وقال ابوا عبيدة : الرس كل محفور ـ في كلام العرب ـ وهو المعدن ، قال الشاعر :

سبقت الى فرط ناهل　　　تنابلة يحفرون الرساسا (١)

---

(١) قائله النابغة الجعدي . تفسير القرطبي ١٣ / ٣٢ والطبري ١٩ / ٩ واللسان (رسس)

اي المعادن . وقيل : الرس البئر التي لم تطو بحجارة ، ولا غيرها ، يقال : رسه يرسه رساً إذا دسه . وقيل : اصحاب الرس هم اصحاب (ياسين) بانطاكية الشام ، ذكره النقاش . وقال الكلبي : هم قوم بعث الله تعالى اليهم نبياً فاكلوه ، وهم اول من عمل نساؤهم السحر . وعن اهل البيت (ع) انهم قوم كانت نساؤهم سحاقات .

وقوله ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ اي اهلكنا قروناً بين هؤلاء الذين ذكرناهم كثيراً . وقيل: القرن سبعون سنة . وقال ابراهيم : أربعون سنة .

وقوله ﴿ وكلا ضربنا له الامثال ﴾ تقديره ودللنا كلاً ضربنا له الامثال ، فلما كفروا بها دمرناهم تدميراً ﴿ وكلاً تبرّنا تتبيراً ﴾ اي اهلكنا كلاً منهم إهلاكاً . والتتبير تكبير الاهلاك ، والتبر مكسر الزجاج ، ومكسر الذهب .

وقوله ﴿ ولقد اتوا على القرية التي امطرت مطر السوء ﴾ يعني ان هؤلاء الكفار قد جاؤا الى القرية التي اهلكها الله بالمطر السوء ﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾ فيعتبروا بها . والقرية هي قرية (سدوم) قرية قوم لوط ، والمطر السوء الحجارة التي رموا بها ـ في قول ابن عباس ـ ثم قال ﴿ بل ﴾ رأوها، وانما لم يعتبروا بها ، لانهم ﴿ كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ اي لا يخافون البعث لاعتقادهم جحده ، قال الهذلي :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عوامل (١)

فالدبر النحل اي لم يخف . وقيل : ركبوا المعاصي ، لانهم لا يرجون ثواب من عمل خيراً بعد البعث .

---

(١) مر تخريجه في ٢/ ٢١٠ و ٣/ ٣١٥

قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٤٤) أربع آيات.

يقول الله تعالى حاكياً عن الكفار الذين وصفهم بأنه « إذا رأوك » يا محمد وشاهدوك لا يتخذونك « إلا هزواً » أي سخرياً ، والهزو إظهار خلاف الابطان لاستصغار القدر على وجه اللهو . وانهم ليقولون « أهذا الذي بعث الله رسولا » متعجبين من ذلك ، ومنكرين له ، لانهم يعتقدون في الباطن انه ما بعثه الله .

وقوله « إن كاد ليضلنا عن آلهتنا » أي قد قارب أن يأخذ بنا في غير جهة عبادة آلهتنا ، على وجه يؤدي الى هلاكنا. والاضلال الأخذ بالشيء الى طريق الهلاك.

وقوله « لو لا أن صبرنا عليها » أي على عبادتها لأزالنا عن ذلك ، وحذف الجواب لدلالة الكلام عليه . فقال الله تعالى متوعداً لهم « وسوف يعلمون » فيما بعد إذا رأوا العذاب الذي ينزل بهم « من أضل سبيلا » عن طريق الحق : هم أم غيرهم؟

ثم قال لنبيه يا محمد « ارأيت من اتخذ إلهه هواه » لأنه ينقاد له ويتبعه في جميع ما يدعوه اليه . وقيل : المعنى من جعل إلهه ما يهوى ، وذلك نهاية الجهل .

لان ما يدعو اليه الهوى باطل ، والاله حق يعظم بما لا شيء أعظم منه ، فليس يجوز أن يكون الاله ما يدعو اليه الهوى ، وانما الاله ما يدعو الى عبادته العقل . ومعنى « أفانت تكون عليه وكيلا » أي لا تكون له انت حافظاً من الخروج الى هذا الفساد . قال المبرد : الوكيل أصله واحد ، ويشتمل على فروع ترجع اليه ، فالوكيل من تتكل عليه وتعتمد فى امورك عليه . ثم قال لنبيه (ص) « أم تحسب » يا محمد وتظن « أن اكثر » هؤلاء الكفار « يسمعون » ما تقول سماع طالب للافهام « او يعقلون » ما تقوله لهم ؟ بل سماعهم كسماع الانعام ، وهم أضل سبيلا من الانعام ، لأنهم مكنوا من طريق الفهم ، ولم تمكن النعم من ذلك ، وهم مع ذلك لا يعقلون ما تقول ، إذ لو عقلوا عقل الفهم بهلدعاهم عقلهم اليه ، لانه نور فى قلب المدرك له . وقيل « بل هم اضل سبيلا » لانها لا تعتقد بطلان الصواب وإن كانت لا تعرفه ، وهم قد اعتقدوا ضد الصواب الذي هو الجهل . وقيل: كان أحدهم يعبد الحجر ، فاذا رأى أحسن صورة منه ترك الأول وعبد الثاني . وقيل : لان الأنعام تهتدي الى منافعها ومضارها . وهؤلاء لا يهتدون إلى ما يدعون اليه من طريق الحق . فهم اضل .

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ (٤٦) آيتان .

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) وهو متوجه الى جميع المكلفين « ألم تر » يامحمد « الى ربك » ومعناه ألم تعلم ربك « كيف مد الظل » قال ابن عباس والضحاك وسعيد

ابن جبير: الظل حده من طلوع الفجر الى طلوع الشمس. وقال ابو عبيدة: الظل بالغداة، والفيء بالعشي، لانه يرجع بعد زوال الشمس.

وقوله «ولو شاء لجعله ساكنا» أي دائماً لا يزول، في قول ابن عباس ومجاهد.

وقوله «ثم جعلنا الشمس عليه دليلا» قال ابن زيد: يعني باذهابها له عند مجيئها. وقيل: لان الظل يتبع الشمس في طوله وقصره، فاذا أرتفعت في اعلا ارتفاعها قصر، وإن انحطت طال بحسب ذلك الانحطاط ولو شاء لجعله ساكناً بوقوف الشمس. والظل يتبع الدليل الذي هو الشمس، كما يتبع السائر في المفازة الدليل.

وقوله «ثم قبضناه» يعني الظل يقبضه الله، من طلوع الشمس. وقيل: بغروبها، فالقبض جمع الاجزاء المنبسطة قبضه يقبضه قبضاً، فهو قابض والشيء مقبوض، وتقابضا تقابضاً، وقبضه تقبضاً، وتقبض تقبضاً. وانقبض انقباضاً. واليسير السهل القريب واليسير نقيض العسير، يسر ييسر يسراً، وتيسر تيسراً، ويسره تيسراً، وأيسر ايساراً أي ملك من المال ما تتيسر به الامور عليه. واليد اليسرى لانها يتيسر بها العمل مع اليمنى، وتياسر أخذ في جهة اليد اليسرى. وقيل: معناه قبضاً خفيفاً، لان ظلمة الليل تجيء شيئاً بعد شيء، فلا تهجم دفعة واحده عقيب غروب الشمس. وقيل: معناه قبضاً سريعاً.

قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِبَاساً وَٱلنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً (٤٧) وَهُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ

مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴾ (٥٠) اربع آيات •

قرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو « نشراً » بضم النون والشين . وقرأ ابن عامر ـ بضم النون وسكون الشين ـ وروى ذلك هارون عن أبي عمرو . وقرأ حمزة والكسائي ـ بفتح النون وسكون الشين ـ وقرأ عاصم « بشراً » بالباء وسكون الشين. قال ابوعلي النحوي : من ثقل أراد جمع (نشور) مثل رسول ورسل ، ومن سكن الشين ،فعلى قول من سكن (كتب) في (كتب) و (رسل) في (رسل) . ومن فتح النون جعله مصدراً واقعاً موقع الحال ، وتقديره يرسل الرياح حياة أي يحيي بها البلاد الميتة. ومن قرأ بالباء أراد جمع (بشور) أي تبشر بالغيث من قوله « الرياح مبشرات »(١) يعني بالغيث المحيي للبلاد . وقرأ حمزة والكسائي « ليذكروا » خفيفة الذال . الباقون بتشديدها . من شدد الذال أراد (ليتذكروا) فأدغم التاء في الذال ، وهو الأجود لأن التذكير والتذكر والاذكار في معنى واحد وهو في معنى الاتعاظ ، وليس الذكر كذلك . وقد حكى أبو علي ان الذكر يكون بمعنى التذكر ، كقوله تعالى « إنها تذكرة فمن شاء ذكره » (٢) وقوله « خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه » (٣) ، والاول أكثر . والمعنى ليتفكروا في قدرة الله ، وموضع نعمته بما أحيا بلادهم به من الغيث •

يقول الله تعالى معدداً لنعمه على خلقه منها أنه « جعل لكم الليل لباساً » ومعناه أن ظلمته تلبس كل شخص ، وتغشيه حتى تمنع من ادراكه . وانما جعله كذلك للهدوء فيه والراحة من كد الاعمال ، مع النوم الذي فيه صلاح البدن . وقوله « والنوم سباتاً »

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٤٦ (٢) سورة ٨٠ عبس آية ١١ ـ ١٢

(٣) سورة ٢ البقرة آية ٦٣ وسورة ٧ الاعراف آية ١٧٠

أي جعل نومكم ممتداً طويلا تكثر به راحتكم وهدوؤكم . وقيل : انه اراد جعله قاطعاً للاعمال التي يتصرف فيهـا . والسبات قطع العمل ، ومنه سبت رأسه يسبته سبتاً اذا حلقه ، ومنه يوم السبت ، وهو يوم ينقطع فيه العمل . قال المبرد : يعني سباتاً سكوتاً يقال : أسبت الرجل إذا اخذته سكتة .

وقوله « وجعل النهار نشوراً » أي للانبساط والتصرف في الحوائج . والنشور الانبساط في تصرف الحي ، يقـال : نشر الميت إذا حيي وانشره الله فنشر ، قال الاعشى :

حتى يقول الناس مما رأوا   يا عجبا الميت الناشر (١)

ثم قال « وهو الذي ارسل الرياح بشراً بين يدي رحمتـه » وفي الرحمة تجمع الرياح ، لانه جمع الجنوب والشمال والصبا . وفي العـذاب (ريح) لانها هي الدبور وحدها وهي عقيم ، لا تلقح ، فكل الرياح لواقح غيرها . والرحمة التي ينزلها من السماء هي الغيث ، وذكر انه قد يرسل الرياح لينشيء السحاب . ثم ينزل « من السماء ماء طهوراً » أي طاهراً مطهراً مزيلا للاحداث والنجاسات مع طهارته في نفسه. وانما نزل هذا الماء « ليحيي به بلدة ميتاً » قد مات بالجـدب . قال ابو عبيدة : زعم بعضهم انه اراد إذا لم يكن فيها نبات ، فهو بغير (هاء) وإذا كانت حية روحانيـة فماتت ، فهي ميتة . وقال غيره : اراد بالبلدة المكان ، فلذلك قال ميتاً بالتـذكير ، ومعنى نسقيه نجعله سقياً للانعام التي خلقها الله تعالى .

وقوله « واناسي كثيراً » جمع إنسان جعلت الياء عوضاً من النون ، وقـد قالوا : (أناسين) نحو بستان وبساتين . ويجوز أن يكون جمع (أنسي) نحو كرسي وكراسي . وقد قالوا : أناسية كثيرة .

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ٩٣ وقد مر في ٤/٤٦٠

ثم قال تعالى « ولقد صرفناه بينهم » قيل : معناه قسمناه بينهم يعني المطر قال ابن عباس : ليس من غمام إلا يمطر ، وإنما يصرف من موضع الى موضع . والتصريف تصيير الشيء دائراً في الجهات . فالمطر يصرف بدوره في جهات الارض. ثم بين انه صرفه كذلك « ليتذكروا » ويتفكروا ، فيستدلوا على سعة مقدور الله وانه لا يستحق العبادة سواه .

ثم اخبر عن حال الكفار ، فقال « فأبى اكثر الناس إلا كفوراً » أي جحوداً لهذه النعم التي عددناها وانكارها . ويقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا .

قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (٥١) فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ (٥٥) خمس آيات .

يقول الله تعالى « لو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً » يخوفهم بالله ويحذرهم من معاصيه . والمعنى : لو شئنا لقسمنا النذر بينهم ، كما قسمنا الأمطار بينهم ، ففي ذلك اخبار عن قدرته على ذلك ، لكن دبرنا على ما اقتضته مصلحتهم ، وما هو أعود

عليهم في دينهم ودنياهم . وفيه امتنان على النبي (ص) بأنا « لو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً » فيخف عنك كثير من عبء ما حملته ، لكنا حملناك ثقل أوزار جميع القرى لتستوجب بصبرك عليه إذا صبرت عظيم المنزلة وجزيل الكرامة . والنذير هو الداعي الى ما يؤمن معه الخوف من العقاب ، والانذار الاعلام بموضع المخافة . والنذر عقد البر على انتفاء الخوف ، يقال تناذر القوم تناذراً إذا انذر بعضهم بعضاً . ثم قال لنبيه (ص) « فلا تطع الكافرين » يا محمد بالاجابة الى ما يريدون «وجاهدهم » في الله «جهاداً كبيراً » شديداً ، والهاء في قوله « به» عائدة الى القرآن - في قول ابن عباس والحسن - وقال الحسن : معنى « فلا تطع الكافرين » لا تطعهم فيما يصرفك عن طاعة الله . وقيل : فلا تطعهم بمعاونتهم فيما يريدونه مما يبعد عن دين الله ، وجاهدهم بترك طاعتهم .

ثم عاد تعالى الى تعديد نعمه عليهم فقال ﴿ وهو الذي مرج البحرين ﴾ ومعناه أرسلهما في مجاريهما، كما ترسل الخيل في المرج،فهما يلتقيان ، فلا يبغي الملح على العذب ولا العذب على الملح، بقدرة الله . والعذب الفرات : وهو الشديد العذوبة، والملح الاجاج يعني المر .

ثم قال ﴿ وجعل بينهما برزخاً ﴾ أي حاجزاً يمنع كل واحد منهما من تغيير الآخر ﴿ وحجراً محجوراً ﴾ معناه يمنع أن يفسد احدهما الآخر . وقال المبرد : شبه الخلط بحجر البيت الحرام. وأصل المرج الخلط ومنه قوله «في امر مريج» (١) أي مختلط. وفي الحديث : مرجت عهودهم أي اختلطت ، وسمي المرج بذلك ، لانه يكون فيه اخلاط من الدواب . ومرجت دابتك إذا ذهبت بتخليتك حيث شاءت قال الراجز :

رعى بها مرج ربيع ممرجا (٢)

(١) سورة ٥٠ ق آية ٥ (٢) اللسان (مرج)

و ﴿ مرج البحرين ﴾ معناه خلا بينهما ، تقول : مرجت الدابة وأمرجتها إذا خليتها ترعى . ثم قال تعالى ﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً ﴾ يعني من النطفة . وقيل الماء الذي خلق الله منه آدم بشراً أي انساناً ، فجعل ذلك الانسان ﴿ نسباً وصهراً ﴾ فالنسب ما رجع الى ولادة قريبة ، والصهر خلطة تشبه القرابة . وقيل الصهر المتزوج بنت الرجل او اخته . وقال الفراء : النسب الذي لا يحل نكاحه ، والصهر النسب الذي يحل نكاحه ، كبنات العم ، وبنات الخال ونحوهما . وقيل : النسب سبعة أصناف ذكرهم الله في ﴿ حرمت عليكم امهاتكم ... ﴾ الى قوله ﴿ وبنات الأخت ﴾ . والصهر خمسة أصناف ذكرهم في ﴿ أمهاتكم اللاتي ارضعنكم ... ﴾ الى قوله ﴿ وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم ﴾ (١) ذكره الضحاك .

وقوله ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ أي قادراً على جميع ما انعم به عليكم .

ثم اخبر عن الكفار فقال ﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ الاصنام والاوثان التي لا تنفعهم ولا تضرهم ، لان العبادة ينبغي أن توجه الى من يملك النفع والضر مطلقاً . ثم قال ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ قال الحسن ومجاهد وابن زيد : يظاهر الشيطان على معصية الله . وقيل : ﴿ ظهيراً ﴾ معناه هيناً كالمطرح . والاول هو الوجه . وقيل: معنى (ظهيراً) معيناً .

ووصف الاصنام بأنها لا تضر ولا تنفع ، يدل على بطلان فعل الطباع ، لانها موات مثلها. والفعل لا يصح إلا من حي قادر .

قوله تعالى

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (٥٦) قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ

(١) سورة ٤ النساء آية ٢٢

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ (٦٠) خمس آيات.

قرأ حمزة والكسائي لما « يأمرنا » بالياء . الباقون بالتاء .

من قرأ ـ بالتاء ـ جعل الخطاب للنبي (ص) وقيل : معناه أنسجد لأمرك فجعلوا (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر .

ومن قرأ ـ بالياء ـ جعل الياء لمسيلمة الكذاب ، لأنه كان يسمي نفسه الرحمن فقالوا للنبي (ص) إنا لا نعرف الرحمن إلا نبي اليمامة . فقال الله تعالى « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ماتدعوا فله الاسماء الحسنى » (١) .

وقال ابوعلي : من قرأ ـ بالتاء ـ اراد انسجد لما تأمرنا يا محمد على وجه الانكار ، لأنهم أنكروا أن يعرف الرحمن ، فلا يحمل على رحمان اليمامة .

يقول الله تعالى لنبيه (ص) « ما أرسلناك » يا محمد « إلا مبشراً » بالجنة وثواب الله لمن أطاعه ومخوفاً لمن عصاه بعقاب الله . وقال الحسن : ما بعث الله نبياً قط إلا وهو يبشر الناس إن أطاعوا الله بالمتعة في الدنيا والآخرة ، وينذر الناس إن

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١١٠

عصوا عذاب الله فى الآخرة . والبشارة الاخبار بما يظهر سروره في بشرة الوجه ، تقول : بشره تبشيراً و بشارة . و بشارة الأنبياء مضمنة باخلاص العبادة لله تعالى. والنذارة هوالاخبار بما فيه المخافة ، ليحذر منه . انذره إنذاراً ونذارة،وتناذرالقوم إذا أنذر بعضهم بعضاً. ثم امره ، فقال: يا محمد «قل » لهؤلاء الكفار: إني لست اسألكم على ما أبشركم به واحذركم منه « اجراً » تعطوني«إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا» استثناء من غير الجنس ، ومعناه انه جعل أجره على دعائه اتخاذ المدعو سبيلا الى ربه وطاعته اياه كقول الشاعر :

وبلدة ليس بها انيس إلا اليعافير وإلا العيس (١)

جعلها انيس ذلك المكان . وقيل « إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا » بانفاقه ماله في طاعة الله ، وابتغاء مرضاته .

ثم امره ان يتوكل على ربه « الحي الذي لا يموت » والمراد به جميع المكلفين لأنه يجب على كل أحد ان يتوكل على الله ، ويسلم لأمره ، ومعنى « وسبح بحمده » أي احمده منزهاً له مما لا يجوز عليه في صفاته ، بان تقول : الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله على نعمه واحسانه الذي لا يقدر عليه غيره ، الحمد لله حمداً يكافىء نعمه في عظم المنزلة وعلوّ المرتبه ، وما اشبه ذلك .

وقوله « وكفى به » اي كفى الله « بذنوب عباده خبيراً » أي عالماً « الذي خلق السموات والارض وما بينهما » يعني بين هذين الصنفين ، كما قال القطامي :

ألم يحزنك أن جبال قيس وتغلب قد تباينتا انقطاعا (٢)

وقال الآخر :

(١) قد مر فى ١/١٥١ و ٣/٣٢٧ و ٥/ ٤٩٨

(٢) تفسير القرطبي ١٣/٦٣ والطبري ١٩/١٧

إن المنية والحتوف كلاهما   توفي المحارم يرقبان سوادي

وقوله في ستة أيام قيل : كان ابتداء الخلق يوم الأحد، وانتهاؤه يوم الجمعة « ثم استوى على العرش » وقيل « ثم استوى على العرش » تمام الحكاية . ثم ابتدأ فقال « الرحمن فسأل به خبيراً » ومعنى « فسأل به خبيراً » أي فاسأل سؤالك إياه خبيراً، قال ابن جريج : الخبير - ههنا - هو الله . وقيل معناه فاسأل به ايها الانسان عارفاً يخبرك بالحق في صفته .

ثم حكى انه إذا قيل لهؤلاء الكفار « اسجدوا للرحمن » الذي انعم عليكم « قالوا وما الرحمن » أي أيّ شيء الرحمن ؟ أي لا نعرفه « أنسجد لما تأمرنا » وقد فسرناه « وزادهم نفوراً » أي ازدادوا عند ذلك نفوراً عن قبول قول النبي (ص) والرجوع الى طاعة الله .

قوله تعالى :

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً (٦١) وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (٦٢) وَعِبَادُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (٦٣) وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً (٦٤) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ (٦٥) خمس آيات .

قرأ حمزة والكسائي « سرجاً » على الجمع . الباقون « سراجاً » على التوحيد .

وقرأ حمزة وحده « أن يذكر » خفيفة . الباقون بالتشديد .

من قرأ على التوحيد فلقوله « وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً » . ومن قرأ على الجمع ، فلقوله « زينا السماء الدنيا بمصابيح » (١) تشبيهاً بالكواكب أعني المصابيح كما شبهت المصابيح بالكواكب ، في قوله « الزجاجة كأنها كوكب دري » (٢) وقيل : من وحد أراد الشمس وحدها . ومن جمع أراد الكواكب المضيئة كلها . واتفقوا على « وقمراً » إلا الحسن ، فانه قرأ ـ بضم القاف والميم ـ ويجوز أن يكون فيه لغتان مثل (ولد ، وولد) ويجوز أن يكون أراد الجمع غير ان العرب لا تعرف جمع القمر قمراً ، وانما يجمعونه أقماراً .

قوله تعالى « تبارك » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ تقدس الله ، وجل بما هو ثابت لم يزل ولا يزال . لان أصل الصفة الثبوت .

والثاني ـ انه من البركة ، والتقدير جل تعالى ، وتقدس بما به يقدر على جميع البركات « الذي جعل في السماء بروجاً » والبروج منازل النجوم الظاهرة ، وهي اثنتا عشرة برجاً معروفة أولها الحمل وآخرها الحوت . وقيل : البروج منازل الشمس والقمر ، وقال ابراهيم : البروج القصور العالية ، واحدها برج ، ومنه قوله ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ (٣) قال الاخطل :

كأنها برج رومي يشيده لزّ بجص وآجرّ واحجار (٤)

وقال قتادة : البروج النجوم . وقال أبو صالح : هي كبار النجوم ، والبرج تباعد ما بين الحاجبين قال : الزجاج : كل ظاهر مرتفع يقال له : برج ، وسميت

(١) سورة ٦٧ تبارك (الملك) آية ٥ (٢) سورة ٢٤ النور آية ٣٥

(٣) سورة ٤ النساء آية ٧٧ (٤) تفسير الطبري ١٩ / ١٨

الكواكب بروجاً لظهورها .

وقوله ﴿ وجعل فيها سراجاً ﴾ يعني الشمس التي يستضيء بها جميع الخلق .

وقوله ﴿ وقمراً منيراً ﴾ أى مضيئاً بالليل ، اذا لم يكن شمس .

فمن قرأ ﴿ سراجاً ﴾ أراد الشمس وحدها . ومن قرأ ﴿ سرجاً ﴾ أرادجميع النجوم ، لأنه يهتدى بها ، كما يهتدى بضوء السراج .

وقوله ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ أى يخلف كل واحد منهما صاحبه ، فيما يحتاج أن يعمل فيه ، فمن فاته عمل الليل استدركه بالنهار ،ومن فاته عمل النهار استدركه بالليل . قال عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، والحسن : يخلف احدهما الآخر فى العمل . وقال مجاهد : معناه أحدهما اسود والآخر ابيض ، فهما مختلفتان . وقال ابو زيد : معناه احدهما يذهب ويجيء الآخر قال زهير :

بها العين والأرآم يمشين خلفة   واطلاؤها ينهضن من كل مجثم (١)

وقوله ﴿ لمن اراد أن يذكر ﴾ اى خلقناه كذلك لمن أراد ان يتفكر ويستدل بها على ان لها مدبراً ومصرّفاً ، لا يشبهها ولا تشبهه فيوجه العبادة اليه .

وقوله ﴿ او اراد شكوراً ﴾ أى يشكر الله ، على ما أنعم به عليه فيتمكن من ذلك ، لان بهذه الأدلة وامثالها يتوصل الى ما قلناه .

وقوله ﴿ وعباد الرحمن ﴾ يعني عباده المخلصين ، الذين يعبدونه ، المعظمون ربهم ﴿ الذين يمشون على الارض هوناً ﴾ يعني بالسكينة والوقار ـ فى قول مجاهد ـ وقال الحسن : معناه حلماً وعلماً ، لا يجهلون وإن جهل عليهم . وقال ابن عباس : بالتواضع لا يتكبرون على أحد ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون ﴾ بما يكرهونه أو يثقل عليهم ، قالوا في جوابه ﴿ سلاماً ﴾ أى سداداً من القول ـ ذكره مجاهد ـ وقيل :

(١) ديوانه « دار بيروت » ٧٥

معناه إنهم قالوا قولا يسلمون به من المعصية لله . وقال قوم : هذا منسوخ بآية القتال . وليس الأمر على ذلك ، لان الأمر بالقتال لا ينافي حسن المحاورة في الخطاب وحسن العشرة .

وقوله ﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ يعني يعبدون الله فى لياليهم ويقومون بالصلاة ، ويسجدون فيها « والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراماً » أي يدعون بهذا القول ، ومعنى « غراماً » لازماً ملحاً دائماً ومنه الغريم ، لملازمته وإلحاحه ، وفلان مغرم بالنساء أي ملازم لهن ، لا يصبر عنهن قال الشاعر :

إن يعاقب يكن غراماً وإن يعـ ـط جزيلا فانه لا يبالي (١)

وقال بشر بن ابي حازم :

فيوم النسار ويوم الجفـار كانا عذاباً وكانا غراماً (٢)

وقال الحسن : ليس غريم إلا مفارق غريمه غير جهنم ، فانها لا تفارق غريمها.

قوله تعالى :

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً (٦٦) وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً (٦٧) وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ

(١) قائله الاعشى ديوانه : ١٦٧

(٢) اللسان (جفر) وتفسير الطبري ١٩ / ٢١ وروايته (النثار) بدل (النسار)

مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّآتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾(٧٠)

خمس آيات.

قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي عن أبي بكر «يقتروا» بضم الياء وكسر التاء، وقرأ اهل البصرة وابن كثير بفتح الياء وكسر التاء. الباقون بفتح الياء وضم التاء، وهم أهل الكوفة إلا الكسائي عن أبي بكر. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر «يضاعف ... ويخلد» بالرفع فيهما. وقرأ ابن كثير وابن عامر وابو جعفر ويعقوب «يضعف» بتشديد العين وإسقاط الالف. الباقون «يضاعف» باثبات الألف وتخفيف العين. تقول: قتر يقتر ويقتر - بكسر التاء، وضمها - لغتان. وأقتر إقتاراً لغة.

واختلفوا في (السرف) في النفقة، فقال قوم: كلما أنفق في غير طاعة الله، فهو سرف، لقوله تعالى «إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين» (١).

وقال علي (ع): ليس فى المأكول والمشروب سرف وإن كثر.

وقال قوم: الاسراف فى الحلال فقط، لأن الحرام لا يجوز الانفاق فيه ولو ذرة.

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٢٧

ومن قرأ « يضاعف » فمن المضاعفة . ومن شدد ، فمن التضعيف ذهب الى التكثير ، والمعنيان متقاربان . ومن ـ جزم ـ جعله بدلا من جواب الشرط ، لان الشرط قوله « ومن يفعل ذلك » وجزاءه « يلق أثاماً »وعلامة الجزم سقوط الالف من آخره . و (يضاعف) بدل منه و (يخلد) عطف عليه . ومن ـ رفع ـ استأنف لان الشرط والجزاء قد تم . وكان يجوز النصب على الظرف ـ فى مذهب الكوفيين ، وباضمار (ان)على مذهب البصريين ـولم يقرأ به احد .

لما اخبر الله تعالى أن عذاب جهنم كان غراماً ، بين بأنها « ساءت مستقراً ومقاماً » أي موضع قرار واقامة لما فيها من أنواع العذاب ، ونصبها على التمييز .

ثم عاد الى وصف المؤمنين فقال « والذين إذا انفقوا لم يسرفوا » أي لم يخرجوا عن العدل في الانفاق يقال : فلان مسرف على نفسه إذا أكثر من الحمل على نفسه فى المعصية ، فشبه بالمسرف في النفقة « ولم يقتروا » أي لم يقصروا عن العدل في الانفاق ، وهو مأخوذ من القترة ، وهي الدخان . والاقتار مشبه به فى الاحاق والاضرار . وفيه ثلاث لغات : قتر يقتر ، ويقتر ، وأقتر إقتاراً . وقال ابو علي الفارسي : من قرأ « يقتروا » بضم التاء أراد لم يقتروا فى إنفاقهم ، لان المسرف مشرف على الافتقار ، لسرفه . ومن فتح التاء أراد لم يضيقوا فى الانفاق ، فيقصروا عن المتوسطين ، فمن كان فى هذا الطرف ، فهو مذموم ، كما أن من جاوز الاقتصاد كان كذلك مذموم . وبين ذلك بقوله « وكان بين ذلك قواماً » أي كان إنفاقهم بين ذلك ، لا إسرافاً يدخل فى حد التبذير ، ولا تضييقاً يصير به فى حد المانع لما يجب . وقال ابن عباس : الاسراف الانفاق فى معصية الله ، قل او كثر ، والاقتار منع حق الله من المال . وقال ابراهيم : السرف مجاوزة الحد في النفقة ، والاقتار التقصير فيما لابد منه . والقوام ـ بفتح القاف ـ العدل ، ـ وبكسرها ـ السداد ، يقال :

هو قوام الأمر وملاكه ، ويقال : هي حسنة القوام في اعتدالها ، قال الحطيئة :

طافت امامة بالركبان آونة   يا حسنها من قوام زان منتقبا (١)

ثم زاد في وصفهم بأن قال « والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر » يوجهون عبادتهم اليه « ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق » والنفس المحرمة هي نفس المسلم والمعاهد والمستثنى نفس الحربي ، ومن يجب عليه القتل على وجه القود ، والارتداد ، والزنا مع الاحصان ﴿ ولا يزنون ﴾ فالزنا هو الفجور بالمرأة في الفرج .

ثم قال ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ قال قوم : يلقى جزاء الاثام . وقال آخرون : الاثام العقاب ، قال بلعا بن قيس الكناني .

جزى الله ابن عروة حيث أمسى   عقوقا والعقوق له أثام (٢)

أي عقاب ، وقال ابن عمر ، وقتادة : هو اسم واد في جهنم ، وهو قول مجاهد وعكرمة . وقال اهل الوعيد : ان قوله ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ راجع الى كل واحد من المعاصي المذكورة . وقال اهل الارجاء انما يرجع الى جميعه ، ويجوز ـ أن يكون راجعاً ـ الى الكفر وحده ، لان الفسوق لا يستحق به العقاب الدائم والا لأدى الى اجتماع الاستحقاقين على وجه الدوام . وذلك خلاف الاجماع ، لان الاحباط عندهم باطل ، والكلام على ذلك استوفيناه في كتاب الاصول .

ثم زاد في الوعيد ، فقال ﴿ ومن يفعل ذلك يلق ﴾ جزاء اثامه ويضاعف له العذاب في كثرة الاجزاء لا انه يضاعف استحقاقه ، لان الله تعالى لا يعاقب باكثر من المستحق ، لأن ذلك ظلم يتعالى الله عن ذلك . وقيل يضاعف عذابه على عذاب الدنيا ، وبين تعالى أنه ﴿ يخلد ﴾ مع ذلك في النار ﴿ مهاناً ﴾ مستخفاً به .

---

(١) تفسير الطبري ١٩ / ٢٣

(٢) تفسير القرطبي ١٣ / ٧٦ والطبري ١٩ / ٢٤

ثم استثنى من جملتهم من تاب وندم على معاصيه ، وعمل عملا صالحا ، فان الله تعالى ﴿ يبدل سيآته حسنات ﴾ أي يجعل مكان عقاب سيآته ثواب حسناته قال الشاعر في التبديل :

بدلن بعد خره صريعا وبعد طول النفس الوجيعا (١)

وقوله تعالى ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾ أي ساتراً لمعاصي عباده اذا تابوا منها ، منعماً عليهم بالثواب والتفضل .

قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صَالحاً فَإنَّهُ يَتُوبُ إِلى ٱللهِ مَتَاباً (٧١) وَٱلَّذينَ لاَ يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (٧٢) وَٱلَّذينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ٧٣ وَٱلَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً [٧٤] أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً [٧٥] خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ٧٦ قُلْ مَا يَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ [٧٧] سبع آيات .

قرأ ابو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وابو بكر إلا حفصاً « وذريتنا » على

«١» تفسير الطبري ١٩/ ٢٨

التوحيد . الباقون على الجمع . وقرأ اهل الكوفة إلا حفصاً « ويلقون » بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف . الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف .

من وحد « الذرية » فلانه في معنى الجمع لقوله « ذرية من حملنا مع نوح »(١) ومن جمع فكما تجمع الاسماء الدالة على الجمع ، نحو (قوم ، واقوام) وقد يعبر بذلك عن الواحد ، كقوله « هب لي من لدنك ذرية طيبة » (٢) ويعبر به عن الجمع كقوله « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم » (٣) ومن جمع فللازدواج .

ومن شدد « يلقون » فعلى أن المعنى يلقون التحية والسلام مرة بعد مرة لان التشديد للتكثير ، وشاهده قوله « ولقاهم نضرة وسروراً » (٤) . ومن خفف أراد يلقون هم تحية ، كما قال « فسوف يلقون غياً » (٥) وقال بعضهم : لو كان بالتشديد لقال (ويتلقون) لأنهم يقولون تلقيته بالتحية ، و (لقي) فعل متعد الى مفعول واحد فاذا ضعفت العين تعدى الى مفعولين ، وقوله « تحية » المفعول الثاني .

يقول الله تعالى « ومن تاب » من معاصيه وأقلع عنها ، وندم عليها وأضاف الى ذلك الاعمال الصالحات « فانه يتوب الى الله متاباً » أي يرجع اليه مرجعاً عظيماً جميلا ، وفرق الرماني بين التوبة الى الله ، والتوبة من القبيح لقبحه ، بأن التوبة الى الله تقتضي طلب الثواب ، وليس كذلك التوبة من القبيح لقبحه .

ثم عاد تعالى الى وصف المؤمنين فقال « والذين لا يشهدون الزور » أي لا يحضرونه ، ولا يكون بحيث يذكرونه بشيء من حواسهم الخمس: البصر ، والسمع ،

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٣   (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٣٨

(٣) سورة ٤ النساء آية ٨   (٤) سورة ٧٦ الدهر (الانسان) آية ١١

(٥) سورة ١٩ مريم آية ٥٩

والانف ، والفم ، والبشرة . ومن لا يشهد الزور ، فهو الذي لا يشهد به ولا يحضره لأنه لو شهده لكان قد حضره ، فهو أعم في الفائدة من أن لا يشهد به . و (الزور) تمويه الباطل بما يوهم أنه حق . وقال مجاهد : الزور ـ ههنا ـ الكذب . وقال الضحاك : هو الشرك . وقال ابن سيرين : هو أعياد أهل الذمة كالشعانين وغيرها . وقيل : هو الغناء ، ذكره مجاهد ، واهل البيت (ع) .

وقوله « واذا مروا باللغو مروا كراماً » معناه : مروا من جملة الكرماء الذين لا يرضون باللغو ، لانهم يجلون عن الاختلاط بأهله ، والدخول فيه ، فهذه صفة الكرام . وقيل : مرورهم كراماً كمرورهم بمن يسبهم فيصفحون عنه ، و كمرورهم بمن يستعين بهم على حق فيعينونه . وقيل : هم الذين إذا أرادوا ذكر الفرج كنّوا عنه . ذكره محمد بن علي (ع) ومجاهد . واللغو الفعل الذي لا فائدة فيه . وليس معناه أنه قبيح ، لان فعل الساهي لغو ، وهو ليس بحسن ولا قبيح ـ عند قوم ـ ولهذا يقال : الكلمة التي لا تفيد لغو .

وقوله « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً » معناه انهم إذا ذكروا بأدلة الله تعالى التي نصبها لهم نظروا فيها ، وفكروا في مقتضاها ، ولم يكونوا كالمشركين في ترك التدبر لها حتى كانهم صم وعميان عنها ، ذكره الحسن . وقيل معناه يخرون سجداً وبكياً سامعين لله مطيعين . قال الشاعر :

بايدي رجال لم يشيموا سيوفهم ولم تكثروا القتلى بها حين سلت (١)

أي بايدي رجال شاموا سيوفهم ، وقد كثرت القتلى ، ومعنى شاموا أغمدوا ذكره الزجاج .

(١) اللسان (شيم) نسبه الى الفرزدق ، ولم اجده في ديوانه (طبع ـ دار صادر ـ دار بيروت)

ثم وصف المؤمنين بأنهم يدعون « يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » ومعناه بأن نراهم مطيعين لله ، في قول الحسن . و « قرة أعين » يكون من القر ، وهو بردها عند السرور ، ويكون من استقرارها عنده .

وقوله « واجعلنا للمتقين إماماً » أي يسألون الله تعالى أن يجعلهم ممن يقتدى بأفعالهم الطاعات . وفي قراءة اهل البيت (ع) و « اجعل لنا من المتقين إماماً » وإنما وحد (إماماً) لانه مصدر ، من قولهم : أم فلان فلاناً إماماً ، كقولهم : قام قياماً وصام صياماً . ومن جمعه فقال : (أئمة) فلانه قد كثر في معنى الصفة . وقيل: إنه يجوز أن يكون على الجواب ، كقول القائل : من أميركم؟ فيقول : هؤلاء أميرنا قال الشاعر :

يا عاذلاتي لا تردن ملامتي   إن العواذل ليس لي بأمير (١)

ثم اخبر تعالى عمن جمع هذه الاوصاف من المؤمنين بأن قال « اولئك يجزون الغرفة بما صبروا » على طاعاتهم التي ذكرها . و (الغرفة) فى الجنة المنازل العالية ثواباً على ما صبروا في جنب الله ، وعلى مشاق الدنيا وصعوبة التكليف ، وغير ذلك وانهم « يلقون فيها تحية وسلاماً » من الملائكة ، بشارة لهم بعظيم الثواب .

وقوله « خالدين فيها » نصب على الحال أي هم فى الجنة مؤبدين ، لا يخرجون منها ولا يفنون . وأخبر أن الجنة مستقرهم ، وانها « حسنت مستقراً » من مواضع القرار ، وموضع الاقامة ونصب على التمييز .

ثم قال لنبيه (ص) « قل » يا محمد لهؤلاء « ما يعبؤبكم ربي » ومعناه ما يصنع بكم ربي - فى قول مجاهد وابن زيد - واصله تهيئة الشيء ، ومنه عبأت الطيب أعبؤه عباء ، إذا هيأته ، قال الشاعر :

---

(١) تفسير الطبرى ١٩ / ٣٢ والقرطبي ١٣ / ٨٣

كأن بنحره وبمنكبيه عبيراً بات يعبؤه عروس (١)

أي تهيئه ، وعبأت الجيش ـ بالتشديد ، والتخفيف ـ إذا هيأته . والعبء الثقل . وما أعبأ به أي لا أهيئ به امراً . وقال قوم : مالا يعبأ به ، فوجوده وعدمه سواء .

وقوله « لولا دعاؤكم » قال مجاهد : معناه لولا دعاؤه إياكم الى طاعته ، لم يكن في فعلكم ما تطالبون به ، وهو مصدر أضيف الى المفعول ، كقولهم : اعجبني بناء هذه الدار ، وخياطة هذا الثوب . وقال الزجاج : معناه لولا توحيدكم وايمانكم ، وقال البلخي : معناه لولا كفركم وشرككم ما يعبأ بعذابكم ، وحذف العذاب وأقام المضاف اليه مقامه .

ثم قال « فقد كذبتم » يا معاشر الكفار بآيات الله ، وجحدتم رسوله « فسوف يكون لزاماً » عليكم ، ويكون تأويله ، فسوف يكون تكذيبكم (لزاماً) فلا تعطون الثواب عليه ، وتكون العقوبة لزاماً تلزمكم على ذلك . وقال مجاهد : معناه القتل يوم بدر ويكون الخطاب متوجهاً الى الذين قتلوا يوم بدر . وقيل (اللزام)عذاب الآخرة ، وقال ابو ذؤيب ـ فى اللزام :

ففاجأه بعادية لزاماً كما يتفجر الحوض اللقيف (٢)

لزام : كثيرة يلزم بعضها بعضاً ، واقيف متساقط متهدم ، وقال صخر الغي ـ فى اللزام :

---

(١) تفسير الطبرى ١٩ / ٣٢ والقرطبي ١٣ / ٨٤ واللسان (عبأ)
(٢٢) اللسان (لزم)

فاما ينجوا من حتف ارض فقد لقيا حتوفهما لزاماً (١)

أي انه واقع لا محالة. وقال الضحاك: هو لزوم الحجة لهم فى الآخرة. وقال ابو عبيدة: معناه فيصلا.

وقوله «أولئك يجزون الغرفة» قال الزجاج: الأحسن أن يكون خبراً لـ (عباد الرحمن)(٢) فيكون قوله «الذين يمشون على الارض هوناً» ومابعده صفة له ويجوز أن يكون «الذين يمشون على الأرض هوناً» خبر، وما بعده عطف عليه(٣)

تم المجلد السابع من التبيان

ويليه المجلد الثامن وأوله أول سورة الشعراء

ربيع الاول سنة ١٣٨٢ هـ

آب سنة ١٩٦٢م

(١) اللسان (لزم) (٢) آية ٦٣ من هذه السورة

(٣) هذه الثلاثة أسطر ملفقة من المخطوطة والمطبوعة

فهارس المجلد السابع من التبيان

١ - فهرس الاحاديث

الصفحة

٢ ـ فهرس الردود والادلة

٣ - فهرس المباحث اللغويه

فهرس المباحث اللغوية

٤ – فهرس المواضيع

٥ – فهرس الخطأ والصواب

الصفحة	سطر	خطأ	صوابه
٦	١٥	كلما	كما
٢٢	١	اغلعته	أغلقته
٦١	١٠	سرورة	سروره
٦٨	٢	أزل	ازال
٦٨	١٢	اضافة	اضافه
٩١	٣	الثار	النار
٩٢	١٧	ارهتفه	ارهفته
٩٤	١١	ذرع	ذراع
١٠٢	١٩	اخلاف	اختلاف
١٥٩	٤	تجزي	تجزى
١٦٦	٣	لتجزي	لتجزى
١٦٦	٣	تجازي	تجازى
٢٢٨	٩	مساقة	مسافة
٢٩٣	عنوان	الانبياء	الحج
٣٣٤	٩	عاقت	عاقب
٣٥١	١١	الووارث	الوارث

التّبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي

٣٨٥-٤٦٠هـ

تحقيق وتصحيح

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلّد الثّامن

دار
إحياء التراث العربي

سورة الشعراء

قال قتادة هي مكية . وقيل أربع آيات منها مدنية من قوله «والشعراء الى آخرها» وهي مئتان وسبع وعشرون آية فى الكوفي والمدني الاول وست فى البصري والمدني الآخر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) .

ثلاث آيات في الكوفى خاصة . واثنتان فى الباقي . ولم يعد «طسم» آية إلا أهل الكوفة .

قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيي والعليمي «طسم ، وطس» بامالة الطاء فيهما . الباقون بالتفخيم ، وأظهر ـ النون من هجاء سين عند الميم ـ حمزة وأبو جعفر إلا أن أبا جعفر يقطع الحروف . الباقون يخفونها قال ابوا علي الفارسي : تبيين النون من (طسم) على قراءة حمزة هو الوجه ، لأن حروف الهجاء في تقدير الانفصال والانقطاع مما بعدها ، وإذا ثبت ذلك وجب أن تبين النون

لأنها تخفى اذا انصلت بحرف من حروف الفم ، فاذا لم يتصل بها ، لم يكن هناك ما يوجب إخفاؤها . ووجه إخفائها مع هذه الحروف أن همزة الوصل قدوصلت ولم تقطع ، وهمزةالوصل إنما تذهب في الدرج فكما سقطت همزة الوصل ، وهي لا تسقط إلا في الدرج مع هذه الحروف في (الف لام ميم) الله ، كذلك لا تبين النون ، ويقدر فيها الاتصال بما قبلها ، ولا يقدر الانفصال .

قيل إنما عد (طسم) آية ، ولم يعد (طس) لأن (طس) تشبه الاسم المفرد ، نحو (قابيل ، وهابيل) وليس كذلك (طسم) . ووجه الشبه بالزنة أن أوله لا يشبه حروف الزيادة التي هي حروف المد واللين ، نحو (يس) وليس شيء على وزن المفرد بعد إلا (يا سين) لان الياء تشبه حروف الزيادة فقد رجع الى انه ليس على زنة المفرد . وقد بينا فيما مضى معاني هذه الحروف المقطعة في أول سورة البقرة ، فلا نطول باعادته . وقد بينا قول من قال . إنها اسماء السور . وقال قتادة والضحاك : ان (طسم ، وطس) اسم من اسماءالقرآن.

وقوله « تلك آيات الكتاب المبين » انما أشار بـ (تلك) الى ما ليس بحاضر لأنه متوقع ، فهو كالحاضر بحضور المعنى للنفس ، وتقديره : تلك الآيات آيات الكتاب . وقيل : تلك الآيات التي وعدتم بها هي القرآن . وقيل : ان « تلك » بمعنى (هذا) ومعنى (الكتاب) القرآن ، ووصفه بأنه (المبين) لأن به تتبين الاحكام ، لأن البيان اظهار المعنى للنفس بما يتميز به عن غيره ، وهو مأخوذ من البينونة ، وهي التفرقة بين الشيء وغيره . فالمبين الذي يبين الحق من الباطل . وسمي أيضاً فرقاناً ، لانه يفرق بين الحق والباطل .

وقوله « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » قيل فيه قولا : الأول ـ قال ابن عباس وقتادة : معناه لعلك قاتل نفسك . والثاني قال ابن زيد : مخرج

نفسك من جسدك . والبخع القتل ، قال ذو الرمة :

الا أيهذا الباخع الوجد نفسه　　لشيء نحته عن يديه المقادر (١)

وقال ابن عباس معنى « أن لا يكونو مؤمنين » فيه أي في القرآن وقال الفراء موضع (أن) نصب بـ (باخع) ، لان (أن) جزاء ، كانه قال : ان لم يكونوا مؤمنين فأنت قاتل نفسك ، فلما كان ماضياً نصب (ان) كما تقول : اتيك (أن) تأتيني ، ولولم يكن ماضياً لقلت : آتيك ان تأتني ، ولو كانت مجزومة مع كسر (ان) كان جائزاً ، ومثله ﴿لا يجر منكم شنآن قوم أن﴾ (٢) بالفتح والكسر .

قوله تعالى :

﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (٥) آيتان بلاخلاف .

لما بين الله تعالى حرص النبي (ص) على إيمان قومه ، واجتهاده بهم حتى كاد أن يقتل نفسه تأسفاً على تركهم الايمان ، أخبره بأنه قادر على أن ينزل عليهم آية ودلالة من السماء تظل اعناقهم لها خاضعة بأن تلجئهم الى الايمان ، لكن ذلك نقيض الغرض بالتكليف ، لأنه تعالى لو فعل ذلك ، لما استحقوا ثواباً ولا مدحاً ، لأن الملجأ لا يستحق الثواب والمدح على فعله ، لأنه بحكم المفعول فيه . وقيل : المراد بالاعناق الرؤساء . وقال قتادة : المعنى لا يلوي أحد منهم

---

(١) شرح ألفية بن مالك (المنادى) ٢٢٤　　(٢) سورة ٥ المائدة آية ٣

عنقه الى معصية . وقيل في وجه جمع « خاضعين » بالياء والنون وهو صفة (الاعناق) والاعناق لاتعقل ، وهذا الجمع يختص بمن يعقل قيل فيه أربعة اقوال :

احدها ـ فظل اصحاب الاعناق لها خاضعين ، وحذف المضاف ، واقام المضاف اليه مقامه لدلالة الكلام عليه .

الثاني ـ انه أراد بالاعناق الرؤساء والجماعات ، كما يقال جاءه عنق من الناس أي جماعة .

الثالث ـ ان يكون على الاقحام . قال ابو عبيدة ، والمبرد « خاضعين» من صفة الهاء والميم ، في قوله « اعناقهم » كما قال جرير :

أرى مرّ السنين أخذن مني　　　كما أخذ السرار من الهلال (١)

فعلى هذا يكون ترك الاعناق وأخبر عن الهاء والميم ، وتقديره فظلوا خاضعين لها والاعناق مقحمة .

الرابع ـ أنها ذكرت بصفة من يعقل لما نسب اليها ما يكون من العقلاء كما قال الشاعر :

تمززتها والديك يدعو صياحه　　　إذا ما بنوا نعش دنوا فتصوّبوا (٢)

ويروي نادى صباحه . ثم اخبر تعالى عن هؤلاء الكفار الذين تأسف النبي (ص) على عدولهم عن ايمانهم انه ليس يأتيهم ذكر من الرحمن يعني القرآن . كما قال تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٣) وقال « إن

(١) ديوانه « دار بيروت » ٣٤١　(٢) قائله النابغة الجعدي . اللسان (نعش)
(٣) سورة ١٥ الحجر آية ٩

هو إلا ذكر وقرآن مبين » (١) ووصفه بأنه محدث ، ولذلك جره ، لانه صفة لـ (ذكر) . وقوله « إلا كانوا عنه معرضين » أي يتولون عنه ولا ينظرون فيه.
قال الفراء : انما قال « فظلت » ولم يقل « فتظل » لانه يجوز أن يعطف على مجزوم الجزاء بـ (فعل) لان الجزاء يصلح في موضع (فعل ، يفعل) وفي موضع (يفعل ، فعل) لانك تقول : إن زرتني زرتك وإن تزرني أزرك ، والمعنى واحد

قوله تعالى:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) أربع آيات بلاخلاف.

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأنهم كذبوا بايات الله وجحدوا رسوله وأنه سيأتيهم فيما بعد ، يعني يوم القيامة « اخبار ما كانوا به يستهزون » وإنما خص المكذب باتيان الأنباء ، مع أنها تأتي المصدق والمكذب ، من حيث أن المكذب يعلم بها بعد أن كان جاهلا . والمصدق كان عالماً بها . فلذلك حسن وعيد المكذب بها ، لان حاله يتغير الى الحسرة والندم . والاستهزاء السخرية ، وهو طلب اللهو بما عند الطالب صغير القدر .

ثم قال « او لم يروا » هؤلاء الكفار « الى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم » من أنواع النبات ، فيستدلوا على توحيده ، بأن يعلموا أن ذلك

---

(١) سورة ٣٦ يس آية ٦٩

لا يقدر عليه غيره ، ولا يتأتى من سواه ، ممن هو قادر بقدرة . لأنه لو تأتى من غيره لتأتى منا لأ ناقادرون أيضاً بقدرة ، فلما استحال منا علمنا استحالة ذلك ممن يجري مجرانا ، فاذاً الفاعل لذلك مخالف لنا ، وانه قادر لنفسه .

ثم اخبر تعالى ان فيما ذكره من انمات النبات من كل زوج كريم ، لدلالة لمن يستدل بها ، ومن يتمكن من ذلك ، وإن اكثر الكفار لا يصدقون بذلك،ولا يعترفون به عناداً وتقليداً لاسلافهم ، وحباً للراحة ، وهرباً من مشقة التكايف ومعنى « كل زوج كريم » يعني مما يأكل الناس والانعام ،في قول مجاهد . وقيل : من الشيء ومشاكله في الانتفاع به . وقيل :من كل زوج كريم من انواع تكرم عند أهلها . وقيل : من كل نوع معه قرينه من أبيض وأحمر وأصفر . وحلو وحامض ، وروائح وغير ذلك مختلفة . ثم قال « وإن ربك » يا محمد « لهو العزيز » الغني القادر الذي لا يعجز ولا يغلب « الرحيم » أي المنعم على عباده بأنواع النعم التي ذكرها .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (١٤) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ « ويضيق صدري ، ولا ينطلق لساني » بالنصب يعقوب ، عطفاً على « ان يكذبون » الباقون - بالرفع - عطفاً على ﴿ أخاف ﴾ ويجوز أن يكون على

الاستئناف . والمعنى : واني يضيق صدري .

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) واذكر يا محمد الوقت الذي نادى فيه ربك ـ الذي خلقك ـ موسى ، ومعناه قال له : يا موسى ، بأن ائت القوم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي . ثم بين : من القوم الموصوفون بهذه الصفة ؟ بان قال ﴿ قوم فرعون ﴾ وهو عطف بيان ﴿ ألا يتقون ﴾ وإنما قال بالياء ، لأنه على الحكاية . وتقديره : فقل لهم : ألا تتقون ، ومثله ﴿ قل للذين كفروا سيغلبون ﴾ (١) بالياء والتاء . ولو قرئ بالتاء كان جائزاً ، والتقوى مجانبة القبائح بفعل المحاسن : اتقى الله يتقيه اتقاء أي اتقى عقابه بطاعته بدلا من معصيته ، واصله صرف الأمر بحاجز بين الصارف وبينه .

ثم حكى ما قال موسى وجوابه ، فانه قال يا ﴿ رب اني أخاف أن يكذبون ﴾ ولا يقبلون مني . والخوف انزعاج النفس بتوقع الضرر ، ونقيضه الأمن وهو سكون النفس الى خلوص النفع ، ونظير الخوف الفزع والذعر والجزع . والتكذيب تصيير المخبر كاذباً باضافة الكذب اليه ، كذبه تكذيباً وأكذبه إكذاباً والكذب نقيض الصدق ، والكذب كله قبيح ، والتكذيب على وجهين : فتكذيب الصادق قبيح ، وتكذيب الكاذب حسن .

وقوله « ويضيق صدري ولا ينطلق لساني » حكاية أيضاً عما قال موسى . وضيق الصدر غم يمنع من سلوك المعاني في النفس ، لأنه يمنع منه كما يمنع ضيق الطريق من السلوك فيه . وقوله « ولا ينطلق لساني » أي لا ينبعث بالكلام

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٢

وقد يتعذر ذلك لآفة في اللسان ، وقد يتعذر لضيق الصدر ، وغروب المعاني التي تطلب الكلام . وقوله «فارسل الى هارون» يعني لمعاونتي ، كما يقال : إذا نزلت بنا نازلة أرسلنا اليك أي لتعيننا . وقيل : انما طلب المعاونة حرصاً على القيام بالطاعة . « ولا ينطلق لساني » للعقدة التي كانت فيه . قال الجبائي: لم يسأل موسى ذلك إلا بعد أن أذن الله تعالى له فى ذلك ، لان الانبياء لا يسألون الله إلا ما يؤذن لهم في مسألته .

وقوله « ولهم علي ذنب » يعني قتل القبطي الذي قتله موسى حين استصرخ به واحد من أصحابه من بني اسرائيل ـ ذكره مجاهد وقتادة ـ وقوله « فأخاف أن يقتلون » بدل ذلك المقتول .

قوله تعالى

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (٢٠) ست آيات .

هذا خطاب من الله تعالى جواباً لموسى عما حكاه نه ﴿ قال كلاّ ﴾ لا يقتلونك ﴿ فاذهبا ﴾ ومعنى (كلا) زجر أي لا يكون ذلك ، ولا يقتلونك ﴿ فاذهبا ﴾ أمر لموسى وهارون على ما اقترحه موسى فاجيب اليه ﴿ فاذهبا بآياتنا ﴾ أي

بأدلتنا ومعجزاتنا التي خصكما الله بها ، و﴿ انا معكم مستمعون ﴾ أي نحن نحفظكم ونحن سامعون ما يجري بينكم ، فهو (مستمع) في موضع (سامع) لأن الاستماع طلب السمع بالاصغاء اليه ، وذلك لايجوز عليه تعالى ، وانما قال بهذا اللفظ ،لأنه أبلغ في الصفة ، وأشد في التعظيم ـ والله تعالى سامع بما يغني عن مذكر مستمع ـ لينبيء عن هذا المعنى ، ووصفه بسامع يغني عن سماع الجماعة التي يقع سماعهم معاونة وإنما قال (مستمعون) بلفظ الجمع بناء على قوله ﴿ إنا ﴾ وأمرهما بأن يأتيا فرعون وأن يقولا له ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ أرسلنا الله اليك لندعوك الى عبادته ، وترك الاشراك به ، وانما قال ﴿ رسول ﴾ على التوحيد ، وهو للاثنين ، لأن المعنى ان كل واحد منا رسول رب العالمين ، وقد يكون الرسول في معنى الجمع قال الهذلي :

الكني اليها وخير الرسو ل أعلمهم بنواحي الخبر (١)

أي و خير الرسل . وقيل : إنه في موضع رسالة ، فكما يقع المصدر موقع الصفة كذلك تقع الصفة موقع المصدر . والارسال جعل الشيء ماضياً في الامر ، ومثله الاطلاق والبعث ، وانشد في ذلك :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول (٢)

أي برسالة ، وقال الآخر :

ألا من مبلغ عني خفافا رسولا بيت أهلك منتهاها (٣)

فانثه تأنيث الرسالة . وقوله « أن ارسل معنا بني اسرائيل » أي أمرك الله بأن تطلق صراح بني إسرائيل ليجيئوا معنا ، وفي الكلام حذف وتقديره : إنهما مضيا الى فرعون ، وقالا له ما أمرهم الله به

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٩٣ (٢) مر هذا البيت في ١ / ٣٦٨

(٣) قائله عباس بن مرداس تفسير الطبري ١٩ \ ٣٨ والقرطبي ١٣ / ٩٤

فقال فرعون لموسى « ألم نربك فينا وليداً » فالتربية تنشئة الشيء حالا بعد حال : رباه يربيه ، ومثله نماه ينميه نماء . وقوله « وليداً » أي حين كنت طفلا صغيراً « ولبثت فينا من عمرك سنين » أي اقمت سنين كثيرة عندنا ، ومكثت. وفي (عمر) ثلاث لغات ـ ضم الميم وإسكانها مع ضم العين ، وفتح العين وسكون الميم . ومنه قوله « لعمرك » (١) ، وعمر الانسان بالفتح لا غير ، وفي القسم أيضاً بالفتح لاغير.

وقوله « وفعلت فعلتك التي فعلت » يعني قتلك القبطي . وقرأ الشعبي «فعلتك» بكسر الفاء مثل الجلسة والركبة، وهو شاذ لا يقرأ به . وقوله « وانت من الكافرين » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال ابن زيد أنت من الجاحدين لنعمتنا .

الثاني ـ قال السدي أراد كنت على ديننا هذا الذي تعيبه كافراً بالله . وقال الحسن : وأنت من الكافرين أي في أني إلهك . وقيل : من الكافرين لحق تربيتي ، فقال له موسى (ع) في الجواب عن ذلك « فعلتها » يعني قتل القبطي « وأنا من الضالين » قال قوم : يعني من الضالين أي من الجاهلين بأنها تبلغ القتل . وقال الجبائي « وأنا من الضالين » عن العلم بان ذلك يؤدي الى قتله . وقال قوم : معناه « وأنا من الضالين » عن طريق الصواب ، لأني ما تعمدته . وانما وقع مني خطأ ، كما يرمي انسان طائراً فيصيب انساناً .

قوله تعالى :

﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٧٢

مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى حاكياً عن موسى أنه قال لفرعون : إني فررت منكم لما خفتكم ، فالفرار الذهاب على وجه التحرز من الادراك ، ومثله الهرب : فرَّ يفر فراراً ، ومنه يفتر أي يضحك ، لانه يباعد بين شفتيه مباعدة الفرار .

وقوله « فوهب لي ربي حكماً » فالهبة الصلة بالنائل . وهب له يهب هبة فهو واهب ،واستوهبه كذا إذا سأله هبته ، وتواهبوا ما بينهم إذا اسقطوها عنهم على جهة الهبة . والحكم العلم بما تدعو اليه الحكمة ، وهو الذي وهبه الله تعالى لموسى من التوراة . والعلم بالحلال والحرام وسائر الاحكام . والخبر عما يدعواليه الحكم ايضاً يسمى حكما . والحكم ـ ههنا ـ أراد به النبوة ـ فى قول جماعة من المفسرين ـ وقوله « وجعلني من المرسلين » أي جعلني الله نبياً من جملة الانبياء .

وقوله « وتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبدت بني اسرائيل » قيل في معناه قولان :

احدها ـ ان اتخاذك بني اسرائيل عبيداً قد أحبط ذلك ، وإن كانت نعمة عليَّ .

الثاني ـ إنك لما ظلمت بني اسرائيل . ولم تظلمني عددتها نعمة عليَّ ؟!

وقيل قول ثالث ـ انه لا يوثق بأنها نعمة منك مع ظلمك بني اسرائيل فى تعبيدهم ، وفى كل ذلك دلالة وحجة عليه ، وتقريع له .

ويجوز في ﴿ أن ﴾ النصب بمعنى لتعبيدك بني اسرائيل ، والرفع بالرد على النعمة أي على تعبيدك بني اسرائيل . والتعبيد اتخاذ الانسان أو غيره عبداً تقول عبدته وأعبدته بمعنى واحد ، قال الشاعر :

علام يعبدني قومي وقد كثرت فيهم أباعر ما شاءوا وعبدان (١)

وقال الجبائى بين أنه ليس لفرعون عليه نعمة ، لان الذي تولى تربيته أمه وغيرها من بني اسرائيل بأمر فرعون لما استعبدهم . وقال الحسن : أراد أخذت أموال بني اسرائيل ، واتخذتهم عبيداً فأنفقت عليّ من أموالهم . فاراد أن لا يسوّغه ما امتن به عليه . وقال قوم : أراد أو تلك نعمة؟! مستفهماً واسقط حرف الاستفهام .

وقوله تعالى ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ حكاية من الله أن فرعون قال لموسى أي شيء رب العالمين الذي تدعوني الى عبادته ، لان هذا القول من فرعون يدل على ان موسى كان دعاه الى طاعة الله وعبادته . وقيل : ان فرعون عجب من حوله من جواب موسى ، لانه طلب منه أي أجناس الاجسام هو؟ جهلا منه بما ينبغي أن يسأل عنه ، فقال موسى في جوابه « رب السموات والارض وما بينهما » أي رب العالمين هو الذي اخترع السموات والارض وخلقهما ، وخلق ما بينهما من الحيوان والجماد والنبات « إن كنتم موقنين » بذلك مصدقين به فقال فرعون ـ عندذلك ـ لمن حوله من أصحابه « ألا تستمعون » أي ألا تصغون اليه ، وتفهمون ما يقول معجباً لهم من قوله ، حين عجز عن محاورته ومجاوبته .

(١) تفسير القرطبي ١٣/٩٦ والطبري ١٩/٤٣

قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف.

قال لما قال فرعون لمن حوله « ألا تستمعون » الى قول موسى فانه يقول ربه رب العالمين الذي خلق السموات والارض وما بينهما ! معجباً لهم من قوله ، قال موسى « ربكم » الذي خلقكم ويملك تدبيركم وخلق آباءكم الاولين ، وملك تدبيرهم ، وتدبير جميع الخلق . والاول الكائن قبل غيره والآخر الكائن بعد غيره ؛ والكائن على صفة أول في كونه على تلك الصفة ، نحو الاول فى دخول الدار، فقال فرعون ـ عندذلك حين لم يجد جواباً الكلام موسى ـ لقومه « إن رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون » يموه عليهم ، اني اسأله عن ماهية رب العالمين فيجيبني عن غير ذلك ، كما يفعل المجنون . والجنون داء يعتري النفس يغطي على العقل ، وأصله الستر من قولهم : جنه الليل وأجنه إذا ستره بظلمته والجنة البستان الذي يجنه الشجر ، فقال موسى عند ذلك ان الذي ذكرته انه « ربكم ورب آبائكم الاولين » ... « هو رب المشرق والمغرب » فالمشرق الموضع الذي تطلع منه الشمس ، والمغرب الموضع الذي تغرب فيه الشمس يقال :

شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت ، وأشرقت إشراقاً اذا أضاءت وصفت. « وما بينهما إن كنتم تعقلون » ذلك وتتدبرونه ، فلما طال على فرعون الاحتجاج من موسى تهدده « قال لئن اتخذت الهـاً غيري » يعني معبوداً سواي « لا جعلنك » من المسجونين أي محبوساً من جملة المحبسين ، فقال له موسى « أولو جئتك بشيء مبين » يعني بمعجزة تدل على صحة ما ادعيته تبينني من غيري والمعنى ان جئتك بشيء يدل على صدقي تحبسني ؟ !

قوله تعالى :

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ ﴾ (٤٠)

عشر آيات بلا خلاف .

لما قال موسى لفرعون « أو لو جئتك بشيء مبين قال » فرعون « فات به إن كنت من الصادقين » أي هات ما أدعيته من المعجزة إن كنت صادقاً

« فألقى عصاه » حينئذ موسى « فاذا هي ثعبان مبين » وهي الحية العظيمة، ومنه المثعب وهو المجرى الواسع ، وانثعب الماء انثعاباً إذا جرى باتساع ،ومنه الثعبان لأنه يجري باتساع لعظمه . وفى قلب العصا حية دلالتان :

إحداهما ـ دلالة على الله تعالى ، لانه مما لا يقدر عليه إلا هو ، وليس مما يلتبس بإيجاب الطبائع ، لأنه اختراع ، للانقلاب في الحال .

والثاني ـ دلالة على النبوة بموافقتـه الدعوة مع رجوعها الى حالتها الاولى لما قبض عليها . وقيل : الثعبان الحية الذكر ، ووصفه تعالى العصا ـ ههنا ـ بأنها صارت مثل الثعبان ، لا ينافي قوله « كأنها جان » من وجوه :

احدها ـ انه تعالى لم يقل ، فاذا هي جان ، كما وصفها بأنها ثعبان ، وانما شبهها بالجان ، ولا يجوز أن تكون مثله على كل حال .

والثاني ـ انه وصفها بالثعبان في عظمها ، وبالجان في سرعة حركتها ، فكأنها مع كبرها فى صفة الجان لسرعة الحركة ، وذلك أبلغ فى الاعجاز .

وثالثها ـ انه أراد أنها صارت مثل الجان فى أول حالها ، ثم تدرجت الى ان صارت مثل الثعبان ، وذلك ايضاً أبلغ في باب الاعجاز .

ورابعهـا ـ ان الحالين مختلفان ، لأن احـــداهما كانت حين ألقى موسى فصارت العصا كالثعبان ، والحالة الأخرى حين أوحى الله اليه وناداه من الشجرة.

ومعنى (مبين) قال ابن عباس: انه ثعبان لا شبهة فيه . وقيل: معناه مبين وجه الحجة به . وروي أنها غرزت ذنبها فى الارض ورفعت رأسها نحو الميل الى السماء ، ثم انحطت فجعلت رأس فرعون بين نابيهـا ، وجعلت تقول : مرني بما شئت ،

فناداه فرعون أسألك بالذي أرسلك لما اخذتها ، فاخذها ، فعادت عصاً ، كما كانت - ذكره ابن عباس ، والمنهال - .

وقوله « ونزع يده » أي أخرجها من جيبه أو من كمه على ما روي . ويجوز أن يكون المراد حسر عن ذراعه . والمعنى أنه نزعها عن اللباس التي كان عليها . والنزع إخراج الشيء مما كان متصلا به ، وملابساً له .

وقوله « فاذا هي بيضاء » يعني بياضاً نورياً كالشمس في إشراقها ﴿ للناظرين ﴾ اليها من غير برص ، فقال فرعون عند ذلك لأشراف قومه الذين حوله ﴿ إن هذا ﴾ يعني موسى ﴿ لساحر عليم ﴾ أي عالم بالسحر والحيل ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ قيل معناه يريد أن يخرج عبيدكم بني اسرائيل قهراً . ويحتمل أن يكون أراد يخرجكم من دياركم ويتغلب عليكم ﴿ فماذا تأمرون ﴾ في تأديبه ، وانما شاور قومه في ذلك مع أنه كان يقول لهم : انه إله ، لأنه يجوز أن يكون ذهب عليه وعلى قومه أن الاله لا يجوز أن يشاور غيره ، كما ذهب عليهم أن الاله لا يكون جسماً محتاجاً ، فاعتقدوا إلهيته لما دعاهم اليها مع ظهور حاجته التي لا اشكال فيها ، فقال لفرعون اشراف قومه الذين استشارهم « أرجه واخاه » أي أخرهما ، فالارجاء التأخير ، تقول : ارجأت الأمر ارجئه إرجاء ، وهم المرجئة ، لأنهم قالوا بتأخير حكم الفساق في لزوم العقاب . وقيل : انما أشاروا بتأخيره ولم يشيروا بقتله ، لانهم رأوا أن الناس يفتتنون به ان قتل ، وإن السحرة اذا قاومته زال ذلك الافتتان ، وكان له حينئذ عذر في قتله أو حبسه بحسب ما يراه .

وقوله ﴿ وابعث في المدائن حاشرين ﴾ أي ارسل حاشرين يحشرون الناس من جميع البلدان . فالحشر السوق من جهات مختلفة الى مكان واحد ،

حشره يحشره حشراً، فهو حاشر والشيء محشور، وانحشر الناس الى مكان إذا اجتمعوا اليه. والسحر لطف الحيلة حتى يتوهم المموه عليه أنه حقيقة. وقوله ﴿ياتوك﴾ أي يجيئوك ﴿بكل سحار﴾ مبالغة فيمن يعمل بالسحر ﴿عليم﴾ أي عالم بالسحر، وفي الكلام حذف، لان تقديره إنه انفذ الحاشرين فى المدائن وانهم حشروهم ﴿فجمع السحرة﴾ على ما قالوه ﴿لميقات يوم معلوم﴾ لوقت يوم بعينه اختاروه وعينوه ﴿وقيل للناس هل انتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة﴾ ان غلبوا موسى، فالغلبة الاستعلاء بالقوة : غلبه يغلبه غلبة إذا قهره، وتغلب تغليباً وغالبه مغالبة وتغالبا تغالباً ، وقد يوصف المستعلي على غيره بالحجة بأنه غلبه.

قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) آيات بلا خلاف.

قرأ حفص «تلقف» بتخفيف القاف. الباقون ـ بتشديدها ـ إلا أن البزي وإبن فليح وقنبل شددوا التاء. قال ابو علي : من خفف القاف، فهو الوجه، لأن من شددها يريد تتلقف، فادغم، وانما أدغم، لأنه يلزمه إذا ابتدأ

على هذه القراءة أن يجتلب همزة الوصل ، وهمزة الوصل لا تدخل على الافعال المضارعة ، كما لا تدخل على اسماء الفاعلين .

حكى الله تعالى أن السحرة لما حشروهم الى فرعون وحضروا بين يديه قالوا له « أئن لنا لأجراً ان كنا نحن الغالبين » اي هل لنا أجر جزاء على غلبنا اياه ان غلبناه . ومن قرأ على الخبر « إن لنا » أراد انهم لتيقنهم بالأجر أخبروا بذلك . والاول أقوى لقوله « قال نعم » وذاك جواب الاستفهام . والاجر الجزاء على العمل بالخير . والجزاء على الشر يسمى عقاباً ، ولذلك اذا دعي لانسان قيل : آجرك الله . والمعنى أئن لنا لأجراً عند الملك؟ والغالب الذي يعلو على غيره الذي يمنع في نفسه بما يصير اليه في قبضة ، فالله غالب كل شيء بمعنى أنه عال عليه لدخوله في مقدوره ، لا يمكنه الخروج منه . فقال لهم فرعون في جواب ذلك : « نعم » لكم على ذلك الأجر الجزيل « وانكم » مع ما تعطون من الجزاء « اذاً لمن المقربين » . والمقرب المدني من مجلس الكرامة ، واختصاصه بها.

ثم حكى ما قال موسى للسحرة ، فانه قال لهم « ألقوا ما أنتم ملقون » وهذا بصورة الأمر والمراد به التحدي ، والمعنى اطرحوا ما انتم ملقوه « فالقوا حبالهم وعصيهم » أي طرحت السحرة ما كان معهم من السحر من الحبال والعصي التي سحروها وموهوا بأنها تسعى وتتحرك . وقيل : انهم جعلوا فيها زيبقاً ، وطرحوها في الشمس ، فلما حميت بالشمس تحرك الزيبق ، لانه إذا حمي من شأنه أن يصعد فتحركت لذلك الحبال والعصي ، فظن الناظرون أنها تتحرك . وقالوا حين طرحوا ما معهم « بعزة فرعون » والعزة القوة التي يمتنع بها من لحاق الضيم بعلو منزلتها ، وهذا القول قسم منهم وإن كان غير مبرور « إنا لنحن الغالبون » لموسى فيما أتى به « فالقى » عند ذلك « موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون »

أي تناولت العصا ما موّهوا به في ادنى مدة من الزمان ، والتلقف تناول الشيء بالفم بسرعة ، تقول : تلقف تلقفاً والتقف التقافاً واستلقف استلقافاً . ومعنى (ما يأفكون) ما يوهمون الانقلاب زوراً وبهتاناً . وقيل كان عدد السحرة اثني عشر ألفاً و كلهم أقرّ بالحق عند آية موسى ،

قوله تعالى :

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ(٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ(٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤٩) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٥٠) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ (٥١) ست آيات .

قرأ أهل الكوفة إلا حفصاً وروح «أأمنتم» بهمزتين مخففتين على الاستفهام. وروى حفص وورش ورويس بهمزة واحدة على الخبر. الباقون بهمزتين الأولى مخففة والثانية ملينة . ولم يفصل أحد بين الهمزتين بألف. وقد بينا نظائره فيما تقدم في الاعراف.

حكى الله تعالى أن السحرة لما بهرهم ما أظهره موسى (ع) من قلب العصا حية وتلقفها جميع ما اتعبوا نفوسهم فيه علموا أن ذلك من فعل الله ، وأن احداً من البشر لا يقدر عليه فآمنوا عند ذلك ، وأذعنوا للحق وخروا ساجدين لله شكراً على ما أنعم به عليهم ووفقهم للايمان ، وأنهم قالوا عند ذلك « آمنا » وصدقنا « برب العالمين» الذي خلق الخلق كلهم ، الذي هو «رب موسى وهارون» وإنما

خص رب موسى وهارون بالذكر دون غيرهما ، وان كان رب كل شيء ، للبيان عن المعنى الذي دعا الى ربوبيته موسى وهارون ، لأن الجهال كانوا يعتقدون ربوبية فرعون ، فكان إخلاصهم على خلاف ما يقوله الأغبيـاء ، والمعنى الذي ألقاهم ساجدين قيل فيه قولان :

احدهما ـ إن الحق الذي عرفوه القاهم ساجدين .

الثاني ـ انهم ألقوا نفوسهم ساجدين لما عرفوا من صحة الدعاء الى الدين.

فقال عند ذلك فرعون مهدداً لهم « أأمنتم له » أي صدقتم له فيما يدعو اليـه منكراً عليهم « قبل أن آذن لكم » في تصديقكم . ثم قال « إنه لكبيركم » أي استاذكم وعالمكم « الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون » فيما بعد ما افعله بكم جزاء على تصديقكم إياه ، ودخلت اللام فى الكلام تأكيداً ، ثم فسر ذلـك ، فقـال « لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف » يعني قطع اليد من جانب ، والرجل من الجانب الآخر كقطع الرجل اليسرى واليد اليمنى « ولا صلبنكم » مع ذلك « أجمعين » على الجذوع ، ولا أترك واحداً منكم ، لا تتناله عقوبتي ، فقالوا له فى الجواب عن ذلك « لا ضير » أي لا ضرر علينا بما تفعله يقال : ضره يضره ضراراً ، وضاره يضيره ضيراً ، وضاره يضوره ضوراً لغة قليلة . وقوله « انا الى ربنا منقلبون » أي مصيرنا إلى ثواب الله لا يضرنا ما تفعله بنـا . وقال الجبائي : في الآية دلالة على ان للانسان أن يظهر الحق وإن خاف القتل . وقال الحسن : لم يصل فرعون إلى قتل أحد منهم ولا قطعه . وقال قوم : أول من قطع الايدي والارجل فرعون.

قوله تعالى:

« إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ

الْمُؤْمِنِينَ (٥٢) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٣)
فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٤) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ
قَلِيلُونَ (٥٥) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٦) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٧)
فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٨) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٩)
كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٦٠) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ (٦١)

عشر آيات بلاخلاف .

قرأ اهل الكوفة وابن عامر إلا الحلواني « حاذورن » بألف ، الباقون بغير ألف . من قرأ بالالف قال : هو مثل شرب ، فهو شارب ، وحذر فهو حاذر . وقيل : رجل حاذر فيما يستقبل ، وليس حاذراً في الوقت ، فاذا كان الحذر له لازماً قيل رجل حذر مثل سؤل وسائل ، وطمع وطامع ، وكان يجوز ضم الذال لانهم يقولون : حذر وحذر ـ بكسر الذال وضمها ـ مثل يقظ ويقظ وفطن وفطن .

وقرأ عبد الله بن السائب « حادرون » بالدال ـ المهملة ـ بمعنى نحن أقوياء غلاظ الاجسام ، يقولون : رجل حادر أى سمين ، وعين حدرة بدرة إذا كانت واسعة عظيمة المقلة ، قال امرؤ القيس :

وعين لها حدرة بدرة شقت مآقيهما من أخر (١)

وقيل الفرق بين الحاذر والحذر أن الحاذر الفاعل للحذر ، أن يناله مكروه والحذر

---

(١) ديوانه ٩٩ وتفسير القرطبي ١٣ / ١٠٤

المطبوع على الحذر وقيل . « حاذرون » مؤدون فى السلاح أى ذووا أداة من السلاح المستعدون للحروب من عدو ، والحذر اجتناب الشيء خوفاً منه ، حذر حذراً ، فهو حاذر وحذره تحذيراً ، وتحذر تحذراً وحاذره محاذرة وحذاراً .

اخبر الله تعالى عن السحرة انهم حين آمنوا وقالوا لفرعون : لاضرر علينا بما تفعل بنا ، لانا منقلبنا الى الله وثوابه ، قالوا « إنا نطمع أن نغفر لنا ربنا خطايانا » أى ما فعلنا من السحر وغيره ، لأنا كنا اول من صدق بموسى وأقر بنبوته ، وبما دعا اليه من توحيد الله ونفي التشبيه عنه ممن كان يعمل بالسحر . وقيل : انهم اول من آمن عند تلك الآية . ومن قال : هم اول من آمن من قومه فقد غلط ، لأن بني اسرائيل كانوا آمنوا به . ولو كسرت الهمزة من (إن) على الشرط كان جائزاً . والطمع طلب النفس للخير الذى يقدر فيها انه يكون . ومثله الأمل والرجاء والخطايا جمع خطيئة ، وهي الزوال عن الاستقامة المؤدية الى الثواب .

ثم حكى تعالى انه أوحى الى موسى ، وامره بأن يسري بعباد الله الذين آمنوا به ، ويخرجوا من بلد فرعون ، وهم بنوا إسرائيل المقرون بنبوته . يقال سرى وأسرى لغتان ، فمن قطع الهمزة قال : هو من اسرى يسري ، ومن وصلها فمن سرى يسري . واعلمهم أن فرعون وجنوده يتبعونهم ، ويخرجون فى طلبهم وتبع واتبع لغتان .

ثم حكي ايضاً ان فرعون ارسل برسله في المدائن حاشرين يحشرون الناس اليه الذين هم جنوده . وقيل : انه حشر جنده من المدائن التي حوله ليقبضوا على موسى وقومه ، لما ساروا بأمر الله (عز وجل) فلما حضروا عنده ، قال لهم « إن هؤلاء » يعني أصحاب موسى « لشرذمة قليلون » والشرذمة العصبة

الباقية من عصب كثيرة ، وشرذمة كل شيء بقيته القليلة ، ومنه قول الراجز :

جاء الشتاء وقميصي اخلاق شراذم يضحك منه التواق (١)

وقال عبد الله بن مسعود : الشرذمة الذين قللهم فرعون من بني اسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ، وانما استقلهم ، لأنه كان على مقدمته سبعة آلاف الف على ماقال بعض المفسرين. ثم قال « وانهم » مع قلتهم « لنا لغائظون » أي يغيظوننا بمخالفتهم إيانا ، ويقال : جمع قليل وقليلون ، كما يقال حي واحد، وواحدون .

ثم اخبر تعالى عن فرعون أنه قال لجنده « انا لجميع حذرون » منهم قد استعددنا لقتالهم .

ثم اخبر تعالى عن كيفية إهلاكهم بأن قال « فاخرجناهم » يعني فرعون وقومه « من جنات » وهي البساتين التي تجنها الاشجار « وعيون » جارية فيها « وكنوز » يعني اموال لهم مخبئة بعضها على بعض في مواضع غامضة من الارض ومنه كناز التمر وغيره مما يعبأ بعضه على بعض « ومقام كريم » فالمقام الموضع الذي يقيمون فيه . ويجوز أن يكون مصدراً و « الكريم » هو الحقيق باعطاء الخير الجزيل ، لأنه اهل للكرم ، وهي صفة تعظيم في المدح : كرم كرماً واكرمه إكراماً ، وتكرّم تكرماً . وقيل : المقام الكريم المنابر . وقيل مجالس الامراء والرؤساء : التي كان يحف بها الاتباع .

ثم قال تعالى « كذلك » أي مثل ذلك أي كما وصفنا لك اخبارهم « واورثناها بني اسرائيل » أي نعم آل فرعون بأن اهلكنا آل فرعون وملكنا ديارهم واملاكهم

(١) مر تخريجه في ٦ / ٣٢٨

لبني اسرائيل . والارث تركة الماضي ممن هلك لمن بقي . وقيل صار ذلك فى ايدي بني اسرائيل في ايام داود وغيره . وقال الحسن : رجع بنو إسرائيل الى مصر بعد اهلاك فرعون وقومه .

وقوله « فاتبعوهم مشرقين» معناه تبعوا اثرهم وقت اشراق الشمس وظهور ضوئها وصفائه . وقيل معناه مصبحين ، ويقال : اتبع فلان فلاناً وتبعه اذا اقتفى اثره - لغتان -.

قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦٢) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٣) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٤) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٥) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٦) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٧) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٩) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٧٠) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٧١) عشر آيات بلاخلاف .

قرأ حفص « معي ربي » بفتح الياء ، وكذلك في جميع القرآن . الباقون بسكونها ، فمن سكن ذهب الى التخفيف ، ومن فتح فعلى أصل الكلمة لان الاسم على حرف واحد ، فقراءته - بالفتح - ان كان متصلا بكلمة على حرفين .

وكان اصحاب موسى فزعوا من فرعون أن يلحقهم وحذروا موسى ، فقالوا « انا لمدركون » فقال لهم موسى (ع) ـ ثقة بالله ـ « كلا » ليس كما تقولون « ان معي ربي سيهدين » وقرأ الاعرج « لمدّركون » مفتعلون ، من الادراك وادغم التاء في الدال . قال الفراء : دركت دراكاً وادركت ادراكاً بمعنى واحد ، مثل حفرت واحفرت ، بمعنى واحد ،

وقرأ حمزة وحـــده « تراء الجمعان » بالامالة . الباقون بالتفخيم على وزن (تراعى) لأنه تفاعل من الرؤية ، وهو فعل ماض موحد ، وليس مثنى ؛ لأنه فعل متقدم على الاسم ، ولو كان مثنى لقـــال تراءا ووقف حمزة « ترای » بكسر الراء ممدود قليلا ، لأن من شرطه ترك الهمزة في الوقف ، فترك الهمزة التى آخر الألف ، كأنه يريدها ، فلذلك مد قليلا . ووقف الكسائي « ترآى » اى بالامالة على وزن تراعى ، وتنادى . البـــاقون وقفوا بألفين على الأصل . وكذلك جميع ما فى القرآن مثل « أنشأناهن انشاء » (١) و ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ (٢) كل ذلك يقفون بالمد بألفين . وحمزة يقف على الف واحدة . واذا كانت الهمزة للتأنيث أسقطت الهمزة فى الوقف عنـد الجميع نحو ﴿ بيضاء ﴾ (٣)

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٣٥

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٢ و سورة ١٣ الرعد آية ١٩ وسورة ١٤ ابراهيم آية ٣٢ وسورة ١٦ النحل آية ٦٥ وسورة ٢٠ طه آية ٥٣ وسورة ٢٢ الحج آية ٦٣ وسورة ٣٥ فاطر آية ٢٧ وسورة ٣٩ الزمر آية ٢١

(٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٠٧ وسورة ٢٠ طه آية ٢٢ وسورة ٢٦ الشعراء آية ٣٣ وسورة ٢٧ النمل آية ١٢ وسورة ٢٨ القصص آية ٣٢ وسورة ٣٧ الصافات آية ٤٦

و﴿ انهـا بقرة صفراء ﴾ (١) و ﴿ الاخـلاء ﴾ (٢) فيشم الضمة في موضع الرفع ولا يشم الفتحة في موضع النصب .

اخبر الله تعالى انه ﴿ لما تراء الجمعان ﴾ جمع فرعون وجمع موسى أي تقابلا بحيث يرى كل واحد منهما صاحبه . ويقال : تراآ نارهما أي تقابلا ، وانما جاز تثنية الجمع ، لانه يقع عليه صفة التوحيد ، فتقول : هذا جمع واحد ، ولا يجوز تثنية مسلمين ، لانه لايقع عليه صفة التوحيد ، لأنه على خلاف صفة التوحيـد .
﴿ قال أصحاب موسى انا لمدركون ﴾ أي لملحقون . فالادراك الالحاق ، وادركته ببصري اذا رأيته ، وادرك قتـادة الحسن اى لحقه ، وادرك الزرع اذا لحق بلوغه ، وأدرك الغلام إذا بلغ ، وادركت القدر إذا نضجت ، فقال لهم : موسى « كلا » ليس الامر على ذلك « إن معي ربي » بنصره إياي « سيهدين » أي سيدلني على طريق النجاة من فرعون وقومه كما وعدني ، لأن الانبياء لايخبرون بما لا دليل عليه من جهة العقل او السمع .

وقوله « فأوحينا اليه أن اضرب بعصاك البحر » أي امرناه بضرب البحر بعصاه . وقيل: هو بحر قلزم الذي يسلك الناس فيه من اليمن ومكة الى مصر ، وفيه حذف ، لان تقديره فضرب البحر « فانفلق » وقيل : انه صار فيه إثنا عشر طريقاً لكل سبط طريق « فكان كل فرق كالطود العظيم » فالطود الجبل ، قال الأسود بن يعفر النهشلي :

حلوا بانقرة يجيش عليهم ... ماء الفرات يجيء من اطواد (٣)

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦٩ (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٦٧

(٣) تفسير القرطبي ١٣ / ١٠٧ والطبري ١٩ / ٤٦ واللسان (نقر) وروايته

نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجيء من اطواد

وقوله « وأزلفنا ثم الاخرين » قال ابن عباس وقتادة : معناه قربنا الى البحر فرعون ، ومنه قوله « وأزلفت الجنة المتقين » (١) أي قربت وادنيت قال العجاج :

ناج طواه الأين مما وجفا طي الليالي زلفا فزلفا
سماوة الهلال حتى احقوقفا (٢)

أي منزله يقرب من منزله ، ومنه قيل ليلة المزدلفة . وقال ابو عبيدة : معنى أزلفنا جمعنا ، وليلة مزدلفة ليلة جمع ، والمعنى قربنا قوم فرعون الى البحر كما يسرنا لبني اسرائيل سلوك البحر وكان ذلك سبب قربهم منهم حتى اقتحموه وقيل : معناه قربناهم الى المنية لمجيء وقت هلاكهم قال الشاعر :

وكل يوم مضى او ليلة سلفت فيها النفوس الى الاجال تزدلف (٣)

وانجينا موسى ومن معه يعني بني إسرائيل أنجيناهم جميعهم من الهلاك والغرق « ثم اغرقنا الباقين » من فرعون وأصحابه . وقال تعالى « إن فى ذلك » يعني في فلق البحر فرقاً ، وانجاء موسى من البحر ، وإغراق قوم فرعون ، لدلالة واضحة على توحيد الله وصفاته التي لا يشاركه فيها أحد .

ثم اخبر تعالى ان « اكثرهم لا يؤمنون » ولا يستدلون به بسوء اختيارهم كما يسبق فى علمه . فالآخر ـ بفتح الخاء ـ الثاني من اثنين قسيم (احد) كقولك نجا الله أحدهما ، وغرق الآخر ، والآخر ـ بكسر الخاء ـ هو الثاني قسيم الأول كقولك نجا الأول وهلك الآخر . وقيل : معنى « وما كان اكثرهم مؤمنين » ان الناس مع هذا البرهان الظاهر ، والسلطان القاهر ، بالامر المعجز

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٩٠ (٢) مر تخريجه فى ٦ / ٧٦
(٣) تفسير القرطبي ١٣ / ١٠٧

الذي لا يقدر عليه أحد غير الله ، ما آمن أكثرهم ، فلا تستنكر أيها المحق استنكار استيحاش من قعودهم عن الحق الذي تأتيهم به ، وتدلهم عليه ، فقد جروا على عادة اسلافهم ، في انكار الحق وقبول الباطل .

وقوله « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » أي هو القادر الذي لا يمكن معارضته في أمره ، وهو مع ذلك رحيم بخلقه . وفى ذلك غاية الحث على طلب الخير من جهة الموصوف بهما . ثم قال لنبيه (ص) « واتل » يا محمد على قومك « نبأ ابراهيم » أي خبره ، حين « قال لابيه وقومه ما » الذي « تعبدون » من دون الله ؟ ! يعني أي شيء معبودكم على وجه الانكار عليهم ، لانهم كانوا يعبدون الاصنام .

قوله تعالى :

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧٢) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٨٠) تسع آيات بلاخلاف .

حكى الله تعالى ما أجاب به قوم ابراهيم حين قال لهم ابراهيم « ما تعبدون » ؟ فانهم « قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين » أي مقيمين مداومين على عبادتنا

يقال : عكف عكوفاً ، فهو عاكف ، واعتكف اعتكافاً . قال ابن عباس : معناه فنظل لها مصلين . وقيل : في وجه دخول الشبهة عليهم في عبادة الاصنام أشياء :

احدها ـ انهم اعتقدوا أنها تقربهم الى الله زلفى كما يتقرب بتقبيل بساط الملك اليه .

ومنها ـ أنهم اتخذوا هياكل النجوم ليحظوا بتوجه العبادة الى هياكلها ، كما يفعل بالهند .

ومنها ـ ارتباط عبادة الله بصورة يرى منها .

ومنها ـ انهم توهموا خاصية في عبادة الصنم يحظى بها ، كالخاصية في حجر المغناطيس .

والشبهة الكبرى العامة في ذلك تقليد الذين دخلت عليهم الشبهة ، ولذلك « قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » ولم يحتجوا بشيء سوى التقليد ، الذي هو قبيح في العقول . والعبادة خضوع بالقلب في أعلى مراتب الخضوع ، فلا تستحق إلا بأصول النعم وبما كان في أعلى المراتب من الانسان ، فكل من عبد غير الله ، فهو جاهل بموجب العبادة ، كافر لنعم الله ، لان من حقه إخلاص العبادة له.

فقال لهم ابراهيم (ع) « هل يسمعونكم » هذه الاصنام التي تعبدونها إذا دعوتموها !أي هل يسمعون أصواتكم ، لان اجسامهم لا تسمع « او ينفعونكم » بشيء من المنافع « او يضرون » بشيء من المضار! . وانما قال ذلك ، لان من لا يملك النفع والضر ، لا تحسن عبادته ، لانها ضرب من الشكر ، ولا يستحق الشكر إلا بالنعم ، فمن لا يصح منه الانعام يقبح شكره ، ومن قبح شكره قبحت عبادته . فقالوا عند ذلك « وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » أحالوا على مجرد

التقليد . فقال لهم ابراهيم منكراً عليهم التقليد « أفرايتم ما كنتم تعبدون » من الاصنام « أنتم » الآن « وآباؤكم الاقدمون » المتقـدمون ، فالأقدم الموجود قبل غيره ، ومثله الأول والأسبق . والقـدم وجود الشيء لا الى أول ثم قال ابراهيم « فانهم » عدوٌ لي يعني الاصنام جمعها جمع العقلاء ، لما وصفها بالعداوة التي تكون من العقلاء ، لان الاصنام كالعدوّ في الصورة بعبادتها ، ويجوز أن يكون ، لانه كان منهم من لا يعبد إلا الله مع عبـادة الاصنام فغلب ما يعقل ولذلك استثناه، فقال « إلا رب العالمين » لأنه استثناء من جميع المعبودين ، وعلى الوجه الأول يكون الاستثناء منقطعاً وتكون (إلا) بمعنى لكن ثم وصف رب العالمين فقال : هو « الذي خلقني » واخرجني من العدم الى الوجود « فهو يهدين » لان هداية الخلق الى الرشاد أمر يجل ، فلا يكون إلا ممن خلق الخلق كأنه قيل من يهديك ؟ ومن يسد خلتك بما يطعمك ويسقيك ؟ ومن إذا مرضت يشفيك؟ فقال ـ دالا بالمعلوم على المجهول « الذي خلقني ، فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين » بمعنى أنه يزرقني مايوصلني الى ما فيه صلاحي « وإذا مرضت فهو يشفين » بان يفعل ما يحفظ بدني ويصح جسمي ويرزقني ما يوصلني اليه .

قوله تعالى

﴿ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيٓئَتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّالِحِينَ (٨٣) وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ (٨٤) وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي

يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) تسع آيات بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن ابراهيم (ع) أنه قال بعد قوله: إن الله الذي يشفيه إذا مرض «والذي يميتني» بعد أن كنت حياً «ثم يحيين» أي يحيني بعد أن اكون ميتاً يوم القيامة ﴿والذي أطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ أي يوم الجزاء. وهذا انقطاع منه (ع) الى الله دون أن يكون له خطيئة يحتاج ان تغفر له يوم القيامة، لان عندنا أن القبائح كلها لا تقع منهم (ع)، وعند المعتزلة الصغائر التي تقع منهم محبطة، فليس شيء منها بمغفور يحتاج ان يغفر لهم يوم القيامة. وقيل: إن الطمع ـ ههنا ـ بمعنى العلم دون الرجاء وكذلك في قوله ﴿انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا﴾ (١) كما ان الظن يكون بمعنى العلم. وقيل: ان ذلك خرج مخرج التلطف في الدعاء بذكر ما يتيقن انه كائن. كما انه إذا جاء العلم على المظاهرة في الحجاج وذكر بالظن.

ثم حكى انه سأل الله تعالى فقال ﴿رب هب لي حكما﴾ والحكم بيان الشيء على ما تقتضيه الحكمة، فسأل ذلك ابراهيم، من حيث كان طريقاً للعلم بالأمور.

وقوله ﴿والحقني بالصالحين﴾ معناه افعل بي من اللطف ما يؤديني الى الصلاح. والاجتماع مع النبيين في الثواب. وفي ذلك دلالة على عظم شأن الصلاح وصلاح العبد هو الاستقامة على ما أمر الله به ودعا اليه.

وقوله ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ اي ثناء حسناً في آخر الامم، فأجاب

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٥٢

الله تعالى دعاءه ، لان اليهود يقرون بنبوته ، وكذلك النصارى ، واكثر الامم. وقيل : معنى « واجعل لي لسان صدق فى الآخرين » أي اجعل من ولدي من يقوم بالحق ، ويدعو الى الله ، وهو محمد (ص) ثم سأله أن يجعله « من ورثة جنة النعيم » بأن يفعل معه من الالطاف ما يختار عنده الطاعات ، لأن الجنة لايثاب فيها إلا بالاستحقاق . ثم قال « ولا تخزني يوم يبعثون » أي لا تفضحني بذنب، ولا تعيرني يوم يحشر الخلائق . و (الخزي) الفضيحة والتعيير بالذنب بما يردع النفس ، يقال : خزي خزياً . وأخزاه الله إخزاء ، وهذا موقف خزي. وهذا الدعاء منه (ع) إنقطاع منه الى الله تعالى ، لانا قد بينا أن القبائح لا تقع من الانبياء على حال .

ثم وصف اليوم الذي يبعث فيه الخلائق بأنه « يوم لا ينفع » فيه « مال » فيفادي به الانسان نفسه من العقاب « ولا » ينفع « بنون » ينصرونه « إلا من أتى » أي وإنما ينفع من يأتي « الله بقلب سليم » أي سليم من الفساد والمعاصي،انما خص القلب بالسلامة ، لانه إذا سلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد ،من حيث أن الفساد بالجارحة لا يكون إلا عن قصد بالقلب الفاسد فان اجتمع مع ذلك جهل ، فقد عدم السلامة من جهتين ، وقيل : سلامة القلب سلامة الجوارح ، لانه يكون خالياً من الاصرار على الذنب .

وحكى انه سأل الله تعالى أن يغفر لأبيه ، وذكر انه من الضالين ، قالوا : إنما سأل الله أن يغفر له يوم القيامة بشرط تقتضيه الحكمة . وهو أن يتوب قبل موته، فلما تبين انه عدو لله تبرأ منه، ووصفه بأنه ضال يدل على أنه كافر، كفر جهل لا كفر عناد . وقيل : انه إنما دعا لأبيه لموعدة وعده بها ، لأنه كان يطمعه سراً فى الايمان فوعده بالاستغفار،فلما تبين انه كان عن نفاق تبرأ منه .وقال الحسن:عاب الله

تعالى من فعل ابراهيم فى قوله « إلا قول ابراهيم لأبيه لاستغفرن لك » بعد قوله « قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه » (١). وليس الأمر على ما قاله . ونحن نبين الوجه في هذه الآية إذا انتهينا اليها إن شاء الله . وعند اصحابنا ان أباه الذي استغفر له ، كان جده لأمه ، لان آباء النبي (ص) الى آدم كلهم مؤمنون موحدون ـ بأدلة ليس هذا موضع ذكرها ، والدلالة عليها .

قوله تعالى :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) ست آيات .

معنى « وازلفت الجنة المتقين » قربت لهم ليدخلوها « وبرزت الجحيم للغاوين » أي أظهرت الجحيم للعاملين بالغواية وتركهم الرشاد . يقال : برز يبرز بروزاً ، وأبرزه إبرازاً ، وبرزه تبريزاً ، وبارزه مبارزة ، وتبارزا تبارزاً . وفى رؤية الانسان آلات العذاب التي أعدت لهم عذاب عظيم ، وألم جسيم للقلب فبروز الجحيم للغاوين بهذه الصفة ، و (الغاوي) العامل بما يوجب الخيبة من الثواب : غوى الرجل يغوى غياً وغواية ، وأغواه غيره إغواء ، واستغواه استغواء واصله الخيبة قال الشاعر :

---

(١) سورة ٦٠ الممتحنة آية ٤

فمن يلق خيراً يحمد النـاس أمره　　ومن يغو لا يعدم على الغيّ لائما (١)

ثم اخبر أنه يقال لهم ، يعني للغاوين على وجه التوبيخ لهم والتقريع « أين ما كنتم تعبدون من دون الله » وإنما وبخوا بلفظ الاستفهام ، لانه لاجواب لهم عن ذلك إلا بما فيه فضيحتهم ، كقولك اينما كنت تعبد من دون الله؟! لا يخلصك من عقابه « هل ينصرونكم » ويدفعون عنكم العقاب في هذا اليوم « أو ينتصرون » لكم إذا عوقبتم ! ، فمن عبدها ، فهو الغاوي في عبادته ، لا يملك رفع الضرر عن نفسه ، ولا عن عابده مـع أنه لاحق به . ثم قال « فكبكبوا فيها » ومعناه كبوا إلا انه ضوعف ، كما قال « بريح صرصر » (٢) أي صر . وقيل : جمعوا بطرح بعضهم على بعض - عن ابن عباس - وقال مجاهد : هووا « هم والغاون » أي وكب الغاون معهم ، وكب معهم « جنود ابليس » أي من اتبعه من ولده ، وولد آدم . وقال ابو عبيدة (كبكبوا) معناه طرحوا فيها بعضهم على بعض جماعة جماعـة . وقال المبرد : نكسوا فيها من قولهم : كبه الله لوجهه .

قوله تعالى:

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا

---

(١) مر تخريجه في ٢ / ٣١٢ و ٤ / ٣٩١ و ٥ / ٥٤٨ و ٦ / ٣٣٦

(٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ٦

كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٠٤)

تسع آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن هؤلاء الكفار أنهم إذا حصلوا في الجحيم «يختصمون» والاختصام منازعة كل واحد منهم صاحبه بما فيه إنكار عليه واغلاظ له: يقال: اختصما في الامر اختصاماً. وتخاصما تخاصماً، وخاصمه مخاصمة. ويقول بعضهم لبعض «تالله إن كنا لفي ضلال مبين» قال الزجاج: معناه ما كنا الا في ضلال مبين. وقال غيره: اللام لام الابتداء التي تدخل في خبر (ان) و (ان) هذه هي الخفيفة من الثقيلة، ويلزمها اللام في خبرها، فرقاً بينها، وبين (ان) التي للجحد، وتقديره تالله ان كنا لفي ضلال مبين في الحال التي سوينا كم ـ يخاطبون كل معبود من دون الله ـ «برب العالمين» الذي خلق الخلق، في توجيه العبادة اليكم. والتسوية اعطاء أحد الشيئين مثل ما يعطى الآخر، ومثله المعادلة والموازنة. والمراد ـ ههنا ـ الشركة في العبادة.

ثم قال ﴿ وما أضلنا الا المجرمون ﴾ بأن دعونا الى الضلال فتبعناهم، وقبلنا منهم. ثم يقولون ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ أي لو كان لنا شفيع اسأل في أمرنا او صديق لدفع عنا، فقد آيس الكفار من شافع، وانما يقولون ذلك اذا رأوا جماعة من فساق أهـــل الملة يشفع فيهم، ويسقط عنهم العقاب ويخرجون من النار، يتلهفون على مثل ذلك، ويتحسرون عليه. والصديق هو الصاحب الذي يصدق المودة. وصدق المودة اخلاصها من شائب الفساد. و (الحميم) القريب الذي يحمى بغضب صاحبه، والحميم هو الحامي، ومنه الحمى. وأحم الله ذلك من لقائه: أي ادناه، بمعنى جعله كالذي بلغ بنصحه إياه، وحم

كذا أي قدر .

ثم اخبر تعالى أنهم يتمنون فيقولون « فلو أن لنا كرة » أي رجعة الى دار التكليف « فنكون من المؤمنين » وانما جاز التمني بـ (لو) ، لانه للتقدير ، كما أن التمني بـ (ليت) مثل ذلك لتقدير المعنى ، إلا أن التقدير بـ (لو) لموجب غيره والتقدير بـ (ليت) للامتناع بالمقدر ، وانما جاز جواب التمني ، لان المعنى متصور بالتمني غير انه اذا كان بالفاء ، فهو نصب ، فلذلك نصب (فنكون) لأن الفاء اذا صرفت عن العطف أضمر معها (ان) للاشعار بالصرف .

ثم قال تعالى « ان في ذلك لآية » أي ان فيما قصصناه ، وذكرناه لدلالة لمن نظر فيها واعتبر بها ، لكن اكثرهم لا يعتبرون بها ، ولا يؤمنون بها ، وأخبر « إن ربك » يا محمد « لهو العزيز الرحيم » وإنما جمع بين الصفتين: العزيز والرحيم، ليرغب في طلب ما عند الله أتم الترغيب من حيث هو عظيم الرحمة واسع المقدور ، منيع من معاجزة غيره . وقيل في وجه اخبارهم بأنهم يكونون مؤمنين لو ردوا إلى دار التكليف قولان :

احدهما - انهم يخبرون عن عزمهم ، لان الله تعالى قد أخبر عنهم أنهم « لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » (١) ولا يجوز - ان يكونوا مع رفع التكليف وكمال عقولهم وحصول المعارف الضرورية - ان يكذبوا ، لانهم ملجؤن الى ترك القبيح بأن يخلق الله فيهم العلم الضروري ، انهم لو راموا القبيح لمنعوا من ذلك ، ولولا ذلك لكانوا مغرين بالقبيح وذلك لايجوز .

والثاني - ان يكون ذلك القول منهم قبل دخولهم النار ، وقبل ان يصيروا ملجئين . والاول أقوى .

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢٨

قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (١١٠) ست آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن قوم نوح أنهم كذبوا الذين أرسلهم الله بالنبوة. وانما كذبوهم جميعهم ، لانهم كذبوا كل من دعا الى توحيد الله، وخلع عبادة الاصنام ممن مضى من الرسل ، وغيرهم ممن يأتي . وقال الحسن : لأنهم بتكذيبهم نوحاً مكذبون من جاء بعده من المرسلين . ولو لم يكن قبله نبي مرسل . وقال الجبائي : كذبوا من أرسل قبله . وانما قال « كذبت » بالتأنيث ، والقوم مذكر لأنه بمعنى جماعة قوم نوح .

ثم بين انهم انما كذبوه حين « قال لهم اني رسول » من قبل الله تعالى « أمين » على رسالته . والامين الذي يؤدي الأمانة وضده الخائن ، وقد أدى نوح الأمانة فى أداء الرسالة ، والنصيحة لهم ، فلذلك وصفه الله بأنه (أمين) . وإنما سماه بأنه (أخوهم) لأنه كان منهم في النسب ، وذكر ذلك ، لأنهم به آنس والى إجابته أقرب فيما ينبغي أن يكونوا عليه ، وهم قد صدفوا عنه «ألا تتقون» الله باجتناب معاصيه منكراً بهذا القول عليهم ، وانما جاء الانكار بحرف الاستفهام لانهم لا جواب لهم عن ذلك إلا بما فيه فضيحتهم ، لأنهم : ان قالوا لا نتقي ما يؤدينا الى الهلاك هتكوا نفوسهم وخرجوا عن عداد العقلاء . وان قالوا : بل نتقيه

لزمهم ترك عبادة الاصنام .

ثم قال لهم « فاتقوا الله » واجتنبوا معاصيه وافعلوا طاعاته « واطيعون » فيما أمركم به ، وأدعوكم اليه . ثم قال لهم ﴿ وما اسألكم عليه ﴾ على ما أدعوكم اليه . ﴿ من أجر ﴾ فيصرفكم ذلك عن الايمان ، لأنه ليس أجري ، وثوابي ﴿ الا على رب العالمين ﴾ الذي خلق جميع الخلائق ، ثم كرر عليهم قوله ﴿ فاتقوا الله واطيعون ﴾ لاختلاف المعنى فيه ، لان التقدير ، فاتقوا الله واطيعوني لاني رسول أمين ، واتقوا الله وأطيعوني لاني لا أسألكم أجراً عليه فتخافون ثلم أموالكم. والطاعة اجابة الداعي بموافقة ارادته مع كون الداعي فوقه، فالرتبة معتبرة .

قوله تعالى :

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١٢٢) اثنتا عشرة آية بلاخلاف .

قرأ يعقوب ﴿ واتباعك ﴾ على الجمع . الباقون ﴿ واتبعك ﴾ على الفعل الماضي قال الزجاج : من قرأ على الجمع فقراءته جيدة ، لان الواو (واو) الحال ، واكثر ما يدخل على الاسماء . تقول جئتك وأصحابك بنو فلان ، وقد يقولون : وصحبك بنو فلان ، واكثر ما يستعملونه مع (قد) في الفعل .

حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا لنوح حين دعاهم الى الله وخوفهم من معصيته : انصدقك فيما تدعونا اليه وقد اتبعك الارذلون ؟ ! يعني السفلة واوضاع الناس . والرذل الوضيع ، ونقيض الرذيلة الفضيلة وجمعه الرذائل . وقيل : انهم نسبوهم الى صناعات دنيئة ، كالحياكة والحجامة . وانهم مع ذلك اهل نفاق ورذالة ، فأنفوا من اتباعه لما اتبعوه هؤلاء . ولم يجز من نوح أن يقبل قول هؤلاء فيهم ، لانهم كفار يعادونهم ، فلا تقبل شهادتهم . ويجوز أيضاً ان يكونوا لما آمنوا تابوا من قبيح ما عملوا ، لأن الايمان يجبّ الخطايا ، ويوجب الاقلاع عنها . ولم يجز استصلاح هؤلاء باقصاء من آمن ، كما لايجوز استصلاحهم بفعل الظلم ، لان في ذلك اذلالا المؤمنين ، وذلك ظلم لهم ، لا يجوز أن يفعل بأهل الايمان ، لأنه قبيح .

ومن قرأ ـ على الجمع ـ أراد ان الذين اتبعوك هم الارذلون .

ومن قرأ على الفعل أراد : تبعك من هذه صفته .

فقال لهم نوح (ع): لم أطردهم « وما علمي بما كانوا يعملون » فيما مضى ، لأني ما كلفت ذلك ، وانما أمرت بأن ادعوهم الى الله ، وقد اجابوني اليه ، وليس حسابهم الا على ربي الذي خلقني وخلقهم لو علمتم ذلك وشعرتموه ، وليس أنا بطارد المؤمنين ، لاني لست الا نذيراً مخوفاً من معصية الله مبين لطاعته ،

داع اليه .

و (الطرد) ابعاد الشيء على وجـــه التنفير ، طرده يطرده، واطرده جعله طريداً ، واطرد في الباب استمر في الذهاب كالطريد ، وطارده مطاردة وطراداً.

فقال له قومه عند ذلك ﴿ لئن لم تنته ﴾ وترجع عما تقوله ، وتدعو اليـــه ﴿ يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ بالحجارة ، وقيل : من المرجومين بالشتم ، فالرجم الرمي بالحجارة ، ولا يقال للرمي بالقوس رجم ، ويسمى المشتوم مرجوماً لانه يرمى بما يذم به. والانتهاء بلوغ الحد من غير مجاوزة إلى ما وقع عنه النهي. وأصل النهاية بلوغ الحد ، والنهي الغدير ، لانتهاء الماء اليه .

فقال نوح عند ذلك يا رب ﴿ إن قومي كذبون ﴾ وانما قال ذلك مع أن الله تعالى عالم بأنهم كذبوه ، لأنه كالعلة فيما جاء بعده ، فكأنه قال ﴿ افتح بيني وبينهم فتحاً ﴾ لانهم كذبوني ، إلا انه جاء بصيغة الخبر دون صيغة العلة . وإذا كان على معنى العلة حسن أن يأتي بما يعلمه المتكلم والمخاطب . ومعنى ﴿ افتح بيني وبينهم فتحاً ﴾ احكم بيننا بالفعل الذي فيه نجاتنا ، وهلاك عدوّنا وعامل كل واحد منا بما يستحقه، يقال للحاكم : الفتاح ، لانه يفتح وجه الأمر بالحكم الفصل ، ويتقرر به الأمر على أداء الحق ، فقـــال الله تعالى له مجيباً لدعائه «فأنجيناه ومن معه» من المؤمنين ﴿ في الفلك ﴾ يعنى السفن ، يقال شحنه يشحنه شحناً فهو شاحن إذا ملأه بما يسد خلاءه ، وشحن الثغر بالرجال . ومنه الشحنة، قال الشاعر ، في الفتح بمعنى الحكم :

ألا ابلغ بني عصم رسولا ... فاني عن فتاحتكم غني(١)

والفلك السفن يقع على الواحـد والجمع . ثم اخبر تعالى انه لما أنجى نوحاً

(١) مر تخريجه في ١ / ٣١٥ ، ٣٤٥ و ٤ / ٥٠٠

واصحابه اغرق الباقين من الكفار بعد ذلك ، واهلكهم .

ثم قال تعالى : إن فيما اخبرنا به من قصة نوح وإهلاك قومه لآية وأضحة على توحيد الله ، وإن كان اكثرهم لا يؤمنون ، ولا يعتبرون به . وقيل : إن قوله ﴿ ان في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين ﴾ في عدة مواضع ليس بتكرير وانما هو ذكر آية في قصة نوح ، وما كان من شأنه مع قومه بعد ذكر آية فيما كان من قصة ابراهيم وقومه ، وذكر قصة موسى وفرعون فيما مضى ، فبين أنه إنما ذكر ذلك لما فيه من الآية الباهرة ، وكرر ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ لان المعنى انه ﴿ العزيز ﴾ فى الانتقام من فرعون وقومه ﴿ الرحيم ﴾ فى نجاة موسى ومن معه من بني اسرائيل ، وذكر ـ ههنا ـ ﴿ العزيز ﴾ في إهلاك قوم نوح بالغرق الذي طبق الأرض ﴿ الرحيم ﴾ فى إنجائه نوحاً ومن معه فى الفلك .

والعزيز القادر الذي تتعذر مما نعته لعظم مقدوراته ، فصفة (عزيز) وإن رجعت الى معنى قادر ، فمن هذا الوجه ترجع ، ولا يوصف بالعزيز مطلقاً الا الله ، لانها تفيد معنى قادر ، ولا يقدر أحد على مما نعته . والله تعالى قادر أن يمنع كل قادر سواه . ومعنى وصفه بانه عزيز مبالغة من ثلاثة أوجه : احدها ـ لانه بزنة (فعيل) . والثاني ـ انه لا يوصف به مطلقاً سواه . والثالث ـ لما فيه من التعريف بالالف والام .

قوله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ

وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) ﴾ تسع آيات بلا خلاف

اخبر الله تعالى عن عاد - وقيل: هم قبيلة - انهم كذبوا من أرسلهم الله حين قال لهم أخوهم هود . قال الحسن: كان أخاهم من النسب دون الدين ﴿ ألا تتقون ﴾ الله باجتناب معاصيه الى قوله ﴿ رب العالمين ﴾ وقد فسرنا نظائره .

وقوله « تبنون بكل ريع آية » فالبناء وضع ساف على ساف الى حيث ينتهي. والريع الارتفاع من الارض ، وجمعه ارياع وريعة قال ذو الرمة :

طراق الخوافي مشرق فوق ريعة　　ندى ليلة في ريشه يترقرق(٢)

ومنه الريع في الطعام ، وهي الزيادة والنماء قال الاعشى :

وبهما قفر تجاوزتها　　إذا خبّ في ريعها أألها

وفيه لغتان - فتح الراء ، وكسرها - بمعنى المكان المرتفع ، قال الفراء فيه لغتان ﴿ ريع ، وراع ﴾ مثل زير ، وزار قال أبو عبيدة هو الطريق بين الجبلين في ارتفاع . وقيل : هو الفج الواسع ، وقال قتادة : معناه بكل آية طريق أي علامة « تعبثون » تلعبون، في قول ابن عباس . وقوله « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » قال المؤرج : لعلكم تخلدون : كأنكم تخلدون - بلغة قريش - وقال

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ١٢٣ والطبري ١٩ / ٥٣

الفراء : معناه كيما تخلدون . قال مجاهد : المصانع أراد بها حصوناً مشيدة . وقال قتادة : مآخذ الماء ، وهو جمع مصنع ، ويقال مصنعة لكل بناء . وقيل : إنهم كانوا يبنون بالمكان المرتفع البناء العالي، ليدلوا بذلك على أنفسهم ، وزيادة قوتهم وليفاخروا بذلك غيرهم من الناس ،وكانوا جاوزوا في ايجاد المصانع إلى الاسواق فنهوا عن ذلك . وقال الزجاج : المصانع المباني « لعلكم تخلدون » معناه تفعلون ذلك لكي تبقوا فيها مؤبدين «وإذا بطشتم بطشتم جبارين» فالبطش العسف قتلا بالسيف وضرباً بالسوط ـ في قول ابن عباس ـ والجبار العالي على غيره بعظم سلطانه ، وهو في صفة الله تعالى مدح ، وفي صفة غيره ذم ، فاذا قيل للعبد جبار فمعناه انه يتكلف الجبرية . والجبار في النحل ما فات اليد ، وقال الحسن : بطش الجبرية هو المبارزة من غير ثبت ولا توقف ، فذمهم الله بذلك ، ونهاهم هود فقال « اتقوا الله » باجتناب معاصيه و « اطيعوني » فيما أدعوكم اليه ، ولم يكن هذا القول تكراراً من هود لأنه متعلق بغير ما تعلق به الأول ، لان الأول معناه ، فاتقوا الله في تكذيب الرسل ،واطيعوني فيما أدعوكم اليه من اخلاص عبادته ، والثاني فاتقوا الله في ترك معاصيه في بطش الجبارين وعمل اللاهين واطيعوني في ذلك الأمر الذي دعوتكم اليه .

قوله تعالى :

﴿ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ

الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هٰذَا إِلاَّ خُلُقُ الْاَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٤٠)

تسع آيات بلا خلاف.

قرأ «خلق الأولين» - بفتح الخاء - ابن كثير وابو عمرو والكسائي وأبو جعفر. الباقون - بضم الخاء، واللام - فمن قرأ - بفتح الخاء - أراد: ليس هذا إلا اختلاق الأولين - في قول ابن مسعود - ومن ضم الخاء واللام: أراد ليس هذا الاعادة الأولين، في أنهم كانوا يحيون ويموتون. وقال بعضهم: المعنى في «خلق الأولين» خلق أجسامهم، وانكروا أن يكون المعنى إلا كذب الأولين لأنهم يقولون «ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين» (١). وليس الامر على ما ظنه لانهم قد سمعوا بالدعاء الى الدين، وكانوا عندهم كذّابين، فلذلك قال «كذبت عاد المرسلين» (٢) وقال «إن هذا إلا اساطير الأولين» (٣) وانما قالوا «ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين» أي ما سمعنا أنهم صدقوا بشيء منه، أو ذكروا آية حق وصواب، بل قالوا باطل، وخطأ.

حكى الله تعالى عن هود أنه قال لقومه واتقوا معاصي الله الذي أمدكم بالذي

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٢٤ وسورة ٢٨ القصص آية ٣٦

(٢) آية ١٢٣ من هذه السورة

(٣) سورة ٦ الانعام آية ٢٥ وسورة ٨ الانفال آية ٣١ وسورة ٢٣ المؤمنون آية ٨٤ وسورة ٢٧ النمل آية ٦٨

تعلمون من انواع نعمه ، فالامداد اتباع الثاني ما قبله شيئاً بعد شيء ، على انتظام فهؤلاء امدهم الله بالمال وبالبنين ، يعني الذكور من الأولاد ، وبالانعام من الابل والبقر والغنم ، والبساتين التي فيها شجر تحتها عيون جارية فيها ، فآتاهم رزقهم على إدرار . فالعيون ينابيع ماء تخرج من باطن الأرض ، ثم تجري على ظاهرها وعين الماء مشبه بعين الحيوان في استدارته وتردد الماء إلا انه جامد في عيون الحيوان يتردد بالشعاع .

ثم قال لهم « اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم » يعني يوم القيامة ، والعظيم هو الموصوف بالعظم ، وفيه مبالغة مثل ما أعظمه لعظم ما فيه من الاهوال .

ثم حكى ما أجابه به قومه ، فانهم قالوا له « سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين » وإنما لم يقل سواء علينا أوعظت أم لم تعظ ، ليتشاكل رؤس الآي ، ومعناه إنا لسنا نقبل منك ما تقوله : سواء علينا وعظك وارتفاعه والوعظ حث بما فيه تليين القلب ، الانقياد الى الحق ، والوعظ زجر عما لايجوز فعله . ومعنى « سواء » أي كل واحد من الأمرين مثل الآخر ، حصول الوعظ وارتفاعه .

ثم قالوا : ليس هـذا الذي تدعوه « إلا خلق الأولين » أي كذبهم ، فيمن فتح الخاء . والا عادة الاولين وخلقهم . والخلق المصدر من قولك : خلق الله العباد خلقاً . والخلق المخلوق من قولهم : يعلم هـذا من خلق الناس . قال الفراء : يقولون هذه الاحاديث: خلق يعنون المختلقة . قال والقراءة بضم الخاء أحب إليّ ، لانها تتضمن المعنيين . والخلق الاختلاق ، وهو افتعال الكذب على التقدير الذي يوهم الحق .

ثم اخبروا: إنا لسنا بمعذبين على خلاف ما تدعونا اليه ، على ما تدعيـــه

« فكذبوه » يعني هوداً « فأهلكناهم إن في ذلك لآية » الى آخر القصة . وقد فسرناه .

قوله تعالى

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (١٥٠)

عشر آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وابو عمرو « فرهين » بغير الف . الباقون « فارهين » بألف.

حكى الله تعالى عن قوم صالح ، وهم (ثمود) أنهم كذبوا المرسلين ، ولم يصدقوهم فيما دعوهم اليه من توحيد الله وخلع الانداد وترك عبادة الاصنام، حتى قال لهم أخوهم في النسب صالح ، وهو النبي المبعوث اليهم « ألا تتقون » الله باجتناب معصيته وترك عبادة من سواه « اني لكم رسول أمين » فالامين هو الذي استودع الشيء على من أمن منه الخيانة ، فالرسول بهذه الصفة ، لأنه يؤدي الرسالة ، كما حملها من غير تغيير لها ، ولا زيادة ، ولا نقصان .

ثم أمرهم فقال « فاتقوا » عقاب « الله » باجتناب معاصيه « واطيعون » فيما ادعوكم اليه ، ولست اسألكم على ما ادعوكم اليه اجراً فيصرفكم عن القبول لانه ليس أجري وثوابي فى ذلك إلا على رب العالمين الذي خلق الخلق . ثم قال لهم يا قوم « اتتركون فيما ههنا آمنين » منكراً عليهم ، فان ما هم فيه من النعم لا تبقى عليهم ، وانها تزول عنهم وأن أمنهم سيؤل الى الخوف . والامن سكون النفس الى السلامة ، وهو نقيض الخوف . وقد يكون أمناً مع العلم بالسلامة ، ومع الظن القوي .

ثم عدد نعمهم التي كانوا فيها ، فقال انتم « فى جنات » وهي البساتين التي يسترها الشجر « وعيون » جارية « وزروع » وهو جمع زرع وهو نبات من الحب الذي يبذر فى الارض : زرعه أي بذره في الارض كما يزرع البذر فالبذر المبدد فى الارض على وجه مخصوص يسمى زرعاً « ونخل طلعها هيضم » فالهضيم اللطيف فى جسمه ، ومنه هضيم الحشا أي لطيف الحشا ، ومنه هضمه حقه : إذا ما نقصه ، لأنه لطف جسمه ينقصه ، ومنه هضم الطعام إذا لطف واستحال الى مشاكلة البدن . وقال ابن عباس : معنى « هضيم » أي قد بلغ واينع . وقال الضحاك : ضمر يزكون بعضه بعضاً . وقال عكرمة : هو الرطب اللين ، وقال مجاهد : هو الذي اذا مس تفتت . وقال أبو عبيدة والزجاج ، والفراء : هو المتداخل بعضه في بعض .

وقوله « وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين » قال ابن عباس : معناه حاذقين وقال ابن عباس ايضاً (فرهين) أشرين بطرين . وقال الضحاك : معناه عليين . وقال ابن زيد : الفره القوي . وقيل : هو الفرح المرح ، كما قال الشاعر :

لأستكين إذا مازمة أزمت ولن تراني بخير فاره اللبب (١)

أي مرح اللبب . وقيل : فاره وفره مثل حاذق وحذق . والفاره النافذ في الصنعة بين الفراهة كحاذق بين الحذق ، وعبد فاره نافذ في الأمور .

ثم قال لهم « اتقوا الله » في ترك عبادته والاشراك به واجتنبوا معاصيه « واطيعون » فيما أدعوكم اليه .

قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٥٩)

تسع آيات بلا خلاف .

حكى الله تعالى أن صالحاً قال لقومه « لا تطيعوا أمر المسرفين » وهم الذين تجاوزوا الحد بالبعد من الحق . وقيل عنى بالمسرفين : تسعة رهط من ثمود، كانوا

(١) اللسان (فره) وروايته (الطلب) بدل (اللبب)

يفسدون فى الارض ولا يصلحون ، فنهاهم الله على لسان صالح عن اتباعهم . وقال « الذين يفسدون فى الارض » بان يفعلوا فيها المعاصي ، ويرتكبوا القبائح « ولا يصلحون » أي لا يفعلون شيئاً من الافعال الحسنة .

فقالوا له فى الجواب عن ذلك « انما أنت من المسحرين » والمسحر : هو الذي قد سحر مرة بعد مرة ، حتى يختل عقله ويضطرب رأيه . والسحر حيلة توهم قلب الحقيقة ، وقال مجاهد : معناه من المسحورين . وقال ابن عباس : من المخلوقين ، لانه يذهب الى انه يخترع على أمر يخفى كخفاء السحر . وقيل : معناه إنك ممن له سحر أي رئة ، ومنه قولهم أنتفخ سحره قال لبيد :

فان تسلينا فيم نحن فاننا عصافير من هذا الانام المسحر (١)

أي المعلل بالطعام وبالشراب ، على أمر يخفى كخفاء السحر.

ثم قالوا له « ما أنت إلا بشر مثلنا » أي ليس أنت إلا مخلوقاً مثلنا ، فلن نتبعك ونقبل منك ، وقالوا له « فأت بآية » أي معجزة تدل على صدقك « إن كنت من » جملة « الصادقين » في دعواك ، فقال لهم « هذه ناقة » وهي التي أخرجها الله من الصخرة عشراء ترغو على ما أقترحوا « لها شرب » أي حظ من الماء ، قال الشاعر :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة في غصون ذات اوقال (٢)

أي لم يمنع حظها من الماء و (الشرب) ـ بفتح الشين وضمها وكسرها ـ تكون مصادراً ، على ما قاله الفراء والزجاج ، وكانوا سألوا أن يخرج لهم من

(١) مر تخريجه في ١ / ٣٧٢ و ٦ / ٤٨٥

(٢) اللسان (وقل) وروايته :

لم يمنع الشرب منها غير أن هتفت حمامة في سحوق ذات أوقال

الجبل ناقة عشراء فاخرجها الله حاملا كما سألوا ، ووضعت بعد فصيلا ، وكانت عظيمة الخلق جداً . ثم قال لهم صالح « ولا تمسوها » يعني الناقة « بسوء » أي بضر تشعر به ، فالسوء هو الضرر الذي يشعر به صاحبه ، لأنه يسوء وقوعه ، فاذا ضره من حيث لا يشعر به لم يكن قد ساءه ، لكنه عرضه لما يسوؤه .

وقوله « فيأخذكم عذاب يوم عظيم » معناه إنكم إن مسستم هذه بسوء أخذكم عذاب يوم عظيم ، أي الصيحة التي أخذتهم .

ثم اخبر فقال « فعقروها » أي انهم خالفوه وعقروا الناقة . فالعقر قطع الشيء من بدن الحي ، فاذا كثر انتفت معه الحياة ، وإن قل لم تنتف . والمراد ـ ههنا ـ انهم نحروها . وقيل : انهم عقروها ، لانها كانت تضيق المرعى على مواشيهم . وقيل : كانت تضيق الماء عليهم ، ولما عقروها رأوا آثار العذاب فيه جداً ، ولم يتوبوا من كفرهم ، وطلبوا صالحاً ليقتلوه ، فنجاه الله ومن معه من المؤمنين . ثم جاءتهم الصيحة بالعذاب ، فوقع لجميعهم الاهلاك ، ولو كانوا ندموا على الحقيقة ، واقلعوا عن الكفر ، لما أهلكهم الله .

ثم قال تعالى إن فيما أخبرنا به وفعلناه بقوم صالح من إهلاكهم ، لدلالة واضحة لمن اعتبر بها ، لكن اكثرهم لا يؤمنون « وإن ربك » يا محمد « لهو العزيز » أي العزيز فى انتقامه « الرحيم » بمن آمن من خلقه به .

قوله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١٧٥)

ست عشرة آية بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن قوم لوط أنهم كذبوا الرسل الذين بعثهم الله، بترك الاشراك به وإخلاص العبادة له، حين «قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون» الله فتجتنبوا معاصيه والاشراك به، وانه قال لهم «اني لكم رسول أمين» وقد فسرناه. واخباره عن نفسه بأنه رسول أمين مدح له، وذلك جائز في الرسول كما يجوز أن يخبر عن نفسه بأنه رسول الله، وانما جاز أن يخبر بذلك لقيام الدلالة على عصمته من القبائح. وغيره لا يجوز أن يخبر بذلك عن نفسه لجواز

الخطأ عليه .

واخبر ايضاً انه قال لهم « فاتقوا الله » واجتنبوا معاصيه « واطيعون » فيما أمركم به وأدعوكم اليه ولست اسألكم على ما اؤدّيه اليكم وأدعوكم اليه ، أجراً ، ولا ثواباً ، لانه ليس أجري إلا على الله الذي خلق العالمين ، وانما حكى الله تعالى دعوة الانبياء بصغية واحدة ، ولفظ واحد إشعاراً بأن الحق الذي يأتي به الرسل ، ويدعون اليه واحد من اتقاء الله تعالى وإجتناب معاصيه واخلاص عبادته ، وطاعة رسله ، وأن أنبياء الله لا يكونون إلا أمناء لله ، وانه لايجوز على واحد منهم أن يأخذ الأجر على رسالته ، لما في ذلك من التنفير عن قبول قولهم ، والمصير اليه الى تصديقهم . ثم قال لهم منكراً عليهم « أتأتون الذكران من العالمين » ؟! يعني من جملة الخلائق « وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم » أي وتتركون ما خلقه لكم من الازواج والنساء ، وتذرون استغني في ماضيه بـ (ترك) ولا يستعمل إلا في ضرورة الشعر . والزوجة المرأة التي وقع عليها العقد بالنكاح الصحيح ، يقال : زوجة وزوج ، قال الله تعالى « اسكن انت وزوجك الجنة » (١) .

ثم قال لهم منكراً عليهم « بل انتم قوم عادون » أي خارجون عن الحق بعيدون عنه . والعادي والظالم والجائر نظائر ، والعادي من العدوان . وقد يكون من العدو ، وهو الاسراع في السعي ، فقال له قومه في جوابه « لئن لم تنته » وترجع عما تقوله « يالوط » وتدعونا اليه وتنهانا عنه « لتكونن من المخرجين » أي نخرجك من بيننا وعن بلدنا . فقال لهم لوط عند ذلك « إني لعملكم من القالين » يعني من المبغضين : قلاه يقليه إذا أبغضه .

(١) سورة ٢ البقرة آية ٣٥

ثم دعا لوط ربه فقال « رب نجني واهلي مما يعملون » أي من عاقبة ما يعملونه ، وهو العذاب النازل لهم فأجاب الله دعاءه وقال « فنجيناه واهله اجمعين » يعني من العذاب الذي وقع بهم . وقد يجوز أن يكون أراد النجاة من نفس عملهم ، بأن يفعل لهم من اللطف ما يجتنبون مثل افعالهم ، وتكون النجاة من العذاب النازل بهم تبعاً لذلك . واستثنى من جملة أهله الذين نجاهم « عجوزاً » فانه أهلكها . وقيل : انها كانت امرأة لوط تدل قومه على اضيافه « في الغابرين » يعني الباقين . فيمن هلك من قوم لوط ،لانه قيل:هلكت هي فيما بعد مع من خرج عن القرية بما أمطر الله عليهم من الحجارة . وقيل أهلكو بالخسف ، وقيل بالائتفاك وهو الانقلاب . ثم أمطر على من كان غائباً منهم عن القرية من السماء حجارة قال الشاعر في الغابر :

فما ونا محمد مذ أن غفر له الاله ما مضى وما غبر (١)

وقال الشاعر :

لا تكسع الشول باغبارها انك لا تدري من الناتج (٢)

فأغبارها بقية لبنها في اخلافها ، والغابر الباقي في قلة ، كالتراب الذي يذهب بالكنس ، ويبقى غباره : غبر يغبر ، فهو غابر ، وغبر الجص بقيته . وغبر من الغبار تغبيراً ، وتغبر تغبراً . والعجوز المرأة التي قد أعجزها الكبر عن أمور كثيرة ، ومثله الكبيرة والمسنة .

وقوله « ثم دمرنا الآخرين » فالتدمير هو الاهلاك بأهوال الأمور ،دمره تدميراً ، ومثله تبره تتبيراً ، ودمر عليه يدمر دمراً إذا هجم عليه بالمكروه

---

(١) مر تخريجه في ٦ / ٣٤٤ و ٧ / ١٧٥ (٢) تفسير القرطبي ١٣ / ١٣٣

والدامر الهالك .

وقوله « وامطرنا عليهم مطراً » فالامطار الاتيان بالقطر العام من السماء ، وشبه به امطار الحجارة . والاهلاك بالامطار عقاب اتي الذكران من العالمين « فساء مطر المنذرين» سماه (سوء) وإن كان حسناً ، لانه كان فيه هلاك القوم ثم قال « إن في ذلك لآية » أي دلالة « وما كان اكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم » وقد فسرناه .

قوله تعالى :

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨)

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٨٩)إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١٩١)ست عشرة آية بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر « أصحاب اليكة » على انه اسم المدينة معرفة لا ينصرف. قال ابو علي الفارسي : الاجود أن يكون ذلك على تخفيف الهمزة، مثل لحمر ونصبه يضعف، لانه يكون نصب حرف الاعراب في موضع الجر، مع لام التعريف، وذلك لا يجوز. وحجة من قرأ بذلك أنه في المصحف بلا ألف. وقالوا هو اسم المدينة بعينها. الباقون « أصحاب الأيكة » بالألف واللام مطلقاً مضافاً. ومثله الخلاف في ص. وقرأ ابوا حفص « كسفاً » بفتح السين ـ ههنا ـ وفي (سبأ). الباقون باسكانها.

حكى الله تعالى أن قوم شعيب، وهم أصحاب الأيكة كذبوا المرسلين في دعائهم الى خلع الانداد وإخلاص العبادة لله. والايكة الغيضة ذات الشجر الملتف. وجمعه الايك، قال النابغة الذبياني :

تجلو بقادمتي حمامة أيكة   برداً أسف لثاته بالاثمد (١)

وقال ابن عباس وابن زيد : اصحاب الأيك هم أهل مدين. وانما قال « إذ قال لهم شعيب » ولم يقل أخوهم كما قال في سائر من تقدم من الانبياء لانه لم يكن منهم في النسب، وسائر من تقدم كانوا منهم في النسب، إلا موسى

(١) ديوانه (دار بيروت) ٤٠

فانه كان من بني اسرائيل ، وكانوا هم قبطاً ولم يسمه الله بأنه أخوهم . ثم حكى عن شعيب انه قال لقومه مثل ما قاله سائر الانبياء وقد فسرناه .

ثم قال لهم « اوفوا الكيل » أي اعطوا الواجب وافياً غير ناقص ويدخل الوفاء في الكيل والذرع والعدد ، يقال : أوفى يوفي إيفاء ووفاه . ونهاهم أن يكونوا من المخسرين ، فالمخسر المعرض للخسران في رأس المال بالنقصان أخسر يخسر إخساراً إذا جعله يخسر في ماله ، وخسر هو يخسر خسراناً واخسره نقيض أربحه . وأمرهم أن يزنوا بالقسطاس المستقيم ، فالوزن وضع شي بازاء المعيار ، لما يظهر منزلته منه في ثقل المقدار إما بالزيادة أو النقصان او التساوي . والقسطاس العدل في التقويم على المقدار ، وهو على وزن (قرطاط) وجمعه قساطيس . وقال الحسن: القسطاس القبان . وقال غيره هو الميزان . وقال قوم هو العدل والسواء . ذكره ابو عبيدة .

ثم قال لهم « ولا تبخسوا الناس اشياءهم » أي لا تنقصوها ، « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » قال قوم : لا تعثوا فيها بالمعاصي . وقال سعيد ابن المسيب : معناه لا تفسدوا فيها بعد اصلاحها . وقال ابو عبيدة : عثا يعثا عثواً وهو أشد الفساد بالخراب . وقال غيره : عثا يعثوا عثواً ، وعاث يعيث عيثاً .

ثم قال لهم « واتقوا الذي خلقكم » وأوجدكم بعد العدم « والجبلة الأولين » فالجبلة الخليقة التي طبع عليها الشيء ـ بكسر الجيم ـ وقيل ايضاً بضمها ويسقطون الهاء أيضاً فيخففون . ومنه قوله « ولقد أضل منكم جبلا كثيراً » (١) وقال ابو ذؤيب :

---

(١) سورة ٣٦ يس آية ٦٢

منايا يقربن الحتوف لاهلها جهاراً ويستمتعن بالانس الجبل (١)

ومعناه اتقوا خليقة الأولين في عبادة غير الله والاشراك معه ، فهو عطف على (الذي) فيها ، ولا يجوز أن يكون منصوباً بـ « خلقكم » لأن الله تعالى لم يخلق كفرهم ، ولا ضلالهم ، وإن جعلته منصوباً بـ « خلقكم » على أن يكون المعنى اتقوا الله الذي خلقكم وخلق الخلق الأولين ، كان جائزاً . واخلصوا العبادة لله . فقالوا في الجواب له « إنما انت من المسحرين » وقد فسرناه. « وما أنت إلا بشر مثلنا » أي مخلوقاً من الناس مثلنا ، ولست بملك حتى يكون لك فضل علينا . والبشر هو الانسان ، والانسان مشتق من الانس ووزنه (فعليان) والاصل إنسيان غير أنه حذف منه الياء ، فلما صغر رد الى أصله ، فقيل : انسيان . والبشر من البشرة الظاهرة . والمثل والشبه واحد .

« وإن نظنك لمن الكاذبين » معناه إنا نحسبك كاذباً من جملة الكاذبين . و (إن) هي المخففة من الثقيلة . ولذلك دخلت اللام في الخبر . ثم قالوا له: إن كنت صادقاً ومحقاً في دعواك « فاسقط علينا كسفاً من السماء » أي قطعاً ـ فى قول ابن عباس ـ وهو جمع كسفة ، ومثله تمرة وتمر ، فقال لهم فى الجواب عن ذلك « ربي أعلم بما تعملون » ومعناه إنه إن كان في معلومه أنه : متى بقاكم انكم تتوبون أو يتوب تائب منكم ، لم يقتطعكم بالعذاب ، وإن كان في معلومه انه لا يفلح واحد منكم ، فسيأتيكم عذاب الاستئصال .

ثم قال تعالى « فكذبوه » يعني قوم شعيب كذبوا شعيباً ، فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة ، وهي سحابة رفعت لهم ، فلما خرجوا اليها طلبا لبردها من شدة ما أصابهم من الحر مطرت عليهم ناراً فاحرقتهم ، فهؤلاء أصحاب الظلة ، وهم

(١) تفسير الطبري ١٩ / ٦٠

غير أهل مدين - فى قول قتادة - قال : أرسل شعيب الى أمتين .

« إن فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم » وقد فسرناه وانما كر ، « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » للبيان عن انه رحيم بخلقه عزيز فى انتقامه من الكفار .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) ﴾ ست عشرة آية بلاخلاف :

قرأ ابن عامر واهل الكوفة الا حفصاً ويعقوب « نزل » به بتشديد الزاي وفتحها ﴿ الروح الامين ﴾ بالنصب فيهما ، الباقون بالتخفيف والرفع فيهما .

وقرأ ابن عامر ﴿أو لم تكن﴾ بالتاء ﴿ آية ﴾ بالرفع. الباقون بالياء ونصب ﴿ آية ﴾ من شدد الزاي، فلقوله «فانه نزل على قلبك باذن الله» (١) ﴿وانه لتنزيل رب العالمين﴾ ومن خفف، فلان التنزيل فعل الله ، وهذا فعل جبرائيل، يقال: نزل الله جبرائيل، ونزل جبرائيل . فاما قوله ﴿ فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقاً ﴾ بالتشديد ، فلأجل حذف البـاء ، لانك تقول نزلت به وأنزلته . ومن شدد فانه أضاف الفعل الى الله . ومن خفف أضاف الفعل الى جبرائيـل (ع) ومن قرأ ﴿ أو لم تكن ﴾ بالتاء ورفع ﴿ آية ﴾ جعلها اسم (كان) وخبره ﴿ أن يعلمه ﴾ لأن (ان) مع الفعل بمنزلة المصدر ، وتقديره : أو لم تكن لهم آية معجزة ودلالة ظاهرة عـلم بني اسرائيل بمحمد في الكتب . يعني كتب الانبياء (ع) قبله أنه نبي ، وأن هذا القرآن من عند الله ، لكنه لما جاءهم ما عرفوه على بصيرة كفروا به . ومن قرأ بالياء ونصب (آية) جعلها خبر (كان) واسمه (أن يعلمه) وهو الاقوى في العربية ، لان (آية) نكرة ، و (أن يعلمه) معرفة ، وإذا اجتمعت معرفة ونكرة اختير أن يكون المعرفة اسم (كان) والنكرة خبرها ، وسيبويه لا يجيز غير ذلك إلا في ضرورة الشعر كقول حسان :

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء (٢)

من بيت رأس معنـاه من بيت رئيس ، فسمى السيد رأساً ، قال عمرو ابن كلثوم.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٩٧ (٢) (اللسان (رأس)

برأس من بني جشم بن عمرو (١)

وبيت رأس بيت بالشام ، تتخذ فيه الخمور . والهاء في قوله « نزله ... وانه لتنزيل » كناية عن القرآن في قول قتادة . وصفه الله تعالى أنه تنزيل من رب العالمين الذي خلق الخلائق . ووصفه بأنه تنزيل من رب العالمين ، تشريف له وتعظيم لشأنه . ثم قال « نزل به الروح الامين » من خفف أسند الفعل الى جبرائيل ، ولذلك رفعه . ومن ثقل أسنده الى الله تعالى ، ونصب ﴿ الروح الامين ﴾ على انه مفعول به . والروح الأمين جبرائيل (ع) . وانما قال ﴿ على قلبك ﴾ لأنه بقلبه يحفظه فكأنه المنزل عليه . و (الروح الأمين) جبرائيل (ع) في قول ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك وابن جريج . ووصف بأنه (روح) من ثلاثة وجوه :

احدها ـ انه تحيا به الأرواح بما ينزل من البركات .

الثاني ـ لان جسمه روحاني .

الثالث ـ ان الحياة عليه أغلب ، فكأنه روح كله .

وقوله ﴿ على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ أي انزل هذا القرآن على قلبك لتخوف به الناس وتنذرهم . ثم عاد الى وصفه فقال ﴿ وإنه لفي زبر الاولين ﴾ ومعناه إن ذكر القرآن في كتب الأولين على وجه البشارة به ، لا لأن الله أنزله على غير محمد (ص) . وواحد (الزبر) زبور ، وهي الكتب ، تقول : زبرت الكتاب أزبره زبراً إذا كتبته . واصله الجمع ، ومنه الزبرة الكتبة ، لانها مجتمعة. ثم قال تعالى ﴿ أولم يكن لهم آية ﴾ اي دلالة في علم بني اسرائيل واضحة

(١) ملحق ديوان امرىء القيس اخبار عمرو بن كلثوم :٢٢٦ وروايته:

برأس من بني جشم بن بكر   ندق به السهولة والحزونا

على صحة أمره . ومن حيث أن مجيئه على ما تقدمت البشارة به بجميع أوصافه لا يكون إلا من جهة علام الغيوب . وقيل : من علماء بني اسرائيل عبد الله ابن سلام ـ فى قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد ـ ثم قال « ولو نزلناه » يعني القرآن « على بعض الاعجمين » قيل : معناه على أعجم من البهائم أو غيره ما آمنوا به ـ ذكره عبد الله بن مطيع ـ وقيل : معنـاه « لو نزلناه على » رجل اعجم اللسان ما آمنوا به ولتكبروا عليه ، لأنه من غيرهم،وأن المعجزة تفارقه ، وفي ذلك تسلية للنبي (ص) حين لم يؤمنوا به ، ولم يقبلوا منـــه . ونقيض الاعجم الفصيح ، والاعجم الذي يمتنع لسانه من العربية . والعجمي نقيض العربي ، وهو نسبة الولادة ، قال الشاعر :

من وائل لاحي يعـدلهم من سوقة عرب ولا عجم (١)

وإذا قيل أعجمي ، فهو منسوب الى أنه من الأعجمين الذين لا يفصحون كما قال العجاج :

والدهر بالانسان دواري (٢)

فنسبه الى أنه من الدوارين بالانسان .

وقوله « كذلك سلكناه في قلوب المجرمين » فالهـاء كناية عن القرآن . ومعنـاه أقررناه فى قلوبهم باخطاره ببالهم لتقوم به الحجة عليهم ، ولله لطف يوصل به المعنى في الدليل الى القلب، فمن فكر فيه أدرك الحق به . ومن أعرض عنه كان كمن عرف الحق وترك العمل به فى لزوم الحجة عليه .

والفرق بين من ادرك الحق لسلوكه في القلب ، وبين من ادرك الحق بالاضطرار اليه في القلب ، أن الاضطرار اليه يوجد الثقة به ، فيكون صاحبه عالماً به . واما

(١) تفسير الطبري ١٩ / ٦٤ (٢) مر تخريجه في ٤/٣٧٧ ، ٥٠٥

بسلوكه ، فيكون مع الشك فيه .

وقال الحسن وابن جريج ، وابن زيد : كذلك « سلكناه » أي الكفر. ولا وجه لذلك ، لأنه لم يجر ذكره ، ولا حجة فيه وانما الحجة في القرآن واخطاره بالبال ، فهو أحسن فى التأويل .

وقوله « لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم » اخبار منه تعالى عن قوم من الكفار أنهم يموتون على كفرهم بأنهم لا يؤمنون حتى يشاهدوا العذاب المؤلم ، فيصيرون عند ذلك ملجئين الى الايمان ، ومعنى « حتى يروا العذاب » أي حتى يشاهدوا أسبابه من نيران مؤججة لهم يساقون اليها ، لا يردهم عنها شيء . ويحتمل حتى يعلموه فى حال حلوله بهم علم ملابسته لهم .

ثم قال تعالى « فيأتيهم بغتة » ومعناه : إن العذاب الذي يتوقعونه ويستعجلونه يجيئهم فجأة . والبغتة حصول الأمر العظيم الشأن من غير توقع بتقديم الاسباب . وقيل البغتة الفجأة . والبادرة ، بغته الأمر يبغته بغتاً وبغتة قال الشاعر :

وافضع شيء حين يفجؤك البغت(١)

واتاه الامر بغتة نقيض أتاه عن تقدمة « وهم لا يشعرون » أي لا يعلمون والشعور هو العلم بما يلطف ، لطف الشعر .

ثم اخبر تعالى انه إذا جاءهم العذاب بغتة قالوا « هل نحن منظرون » أي مؤخرون ، فقال الله تعالى « افبعذابنا يستعجلون » على وجه التوبيخ لهم والانكار عليهم . ثم قال لنبيه (ص) « افرأيت » يا محمد « إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون » به من العذاب « ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » معناه

(١) مر تخريجه في ٤ / ١٢٢ ، ٥٠٧ و ٦ / ٢٠٤

انه لم يغن عنهم ما كانوا يمتعون ، لازديادهم من الآثام ، واكتسابهم من الاجرام ، أي أيّ شيء يغني عنهم مايمتعون به من النعم، لانه فان كله ، والاغناء عن الشيء صرف المكروه عنه بما يكفي عن غيره . والغنى به نقيض الغنى عنه ، فالاغناء عنه الصرف عنه ، والاغناء به الصرف به ، والامتاع احضار النفس ما فيه اللذة بادراك الحاسة ، يقال : أمتعه بالرياحين والطيب ، وامتعه بالنزه والبساتين ، وامتعه بالمال والبنين ، وامتعه بالحديث الطريف الظريف .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلاَ تَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧) ٱلَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢٢٠)

إثنتا عشرة آية فى المكي والمدني الآخر ، وثلاث عشرة آية فيما عداه . عدوا

« الشياطين » ولم يعدها الأول .

يقول الله تعالى « وما أهلكنا من » أهل « قرية » بالعذاب الذي أنزلناه عليهم فيما مضى من الأمم السالفة ﴿ الا ﴾ وكان ﴿ لها منذرون ﴾يخوفونهم بالله ويحذرونهم معاصيه . وقوله « ذكرى وما كنا ظالمين » معناه ذاك الذي قصصناه من إنزال العذاب بالامم الخالية « ذكرى » لكم تتعظون بها . ثم بين أن ذلك كان عدلا ، ليكون أشد في الزجر ، وإن الله تعالى لم يكن ظالمًا لاحد .

وموضع « ذكرى » يجوز أن يكون نصباً بالانذار . ويجوز أن يكون رفعاً بالاستئناف على ذلك (ذكرى) . والذكرى : هو إظهار المعنى للنفس تقول : ذكرته ذكرى .

وبين ان ذلك ليس مما ينزل به الشياطين ويغوون به الخلق ، بل هو وحي من الله تعالى . ثم بين انه ليس ينبغي للشياطين أنزال ذلك . وانهم لا يستطيعون على ذلك . ومعنى ينبغي لك كذا يطلب منك فعله في مقتضى العقل ، فتقول : ينبغي لك أن تختار الحسن على القبيح ، ولا ينبغي لك أن تختار القبيح على الحسن. واصله من البغية التي هي الطلب ، وقرا الحسن و «ما تنزلت به الشياطون» بالواو ، ظناً منه أنه مثل (المسلمين) . وهذا لحن بلا خلاف ، لانه جمع تكسير شيطان وشياطين . والاستطاعة هي القدرة التي ينطاع بها الفعل للجارحة . ثم قال : « انهم » يعني الشياطين « عن السمع لمعزولون » وقيل : معناه إنهم عن عن استراق السمع من السماء لمعزولون . وقيل: عن سمع القرآن ـ في قول قتادة ـ لمعزولون معناه منحون . فالعزل تنحية الشيء عن الموضع الى خلافه ، وهو ان يزيله عن أمر الى نقيضه ، كما قال الشاعر :

عزل الامير بالامير المبدل (١)

وانما لم ينبغ لهم ذاك لحراسة المعجزة عن أن تتموّه بالباطل ، لأن الله إذا أراد أن يدل بها على صدق الصادق أخلصها بمثل هذه الحراسة ، حتى تصح الدلالة .

ثم نهى نبيه (ص) والمراد به المكلفين ، فقال « ولا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين» وتقديره انك إن دعوت معه إلهاً آخر كنت من المعذبين.

ثم امره أن ينذر عشيرته الأقربين قيل : انما خص في الذكر انذار عشيرته الاقربين ، لانه يبدأ بهم ،ثم الذين يلونهم ، كما قال تعالى « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » (٢) لان ذلك هو الذي يقتضيه حسن التدبير : الترتيب . ويحتمل أن يكون انذرهم بالافصاح عن قبيح ماهم عليه وعظم ما يؤدي اليه من غير تليين بالقول يقتضي تسهيل الأمر لما يدعو اليه مقاربة العشيرة ، بأن من نزل بهم الاغلاظ في هذا الباب أذاهم. وقيل : ذكر عشيرتك الأقربين أي عرفهم إنك لا تغني عنهم من الله شيئاً إن عصوه . وقيل : انما خص عشيرته الاقربين لانه يمكنه أن يجمعهم ثم ينذرهم ، وقد فعل (ص) ذلك . والقصة بذلك مشهورة فانه روي أنه أمر (ص) علياً بأن يصنع طعاماً ثم دعا عليه بني عبد مناف وأطعمهم الطعام . ثم قال لهم : أيكم يؤازرني على هذا الأمر يكن وزيري وأخي ووصيي ، فلم يجبه أحد إلا علي (ع) والقصة في ذلك معروفة .

ثم أمره (ص) بأن يخفض جناحه للمؤمنين الذين اتبعوه ، ومعناه ألن جانبك وتواضع لهم ، وحسن أخلاقك معهم - ذكره ابن زيد - ثم قال « فان عصوك » يعني أقاربك بعد انذارك إياهم وخالفوك فيما تدعوهم اليه الى

(١) مر في ٧/ ٩٧ ، ٤٥٦ (٢) سورة ٩ التوبة آية ١٢٤

مايكرهه الله ، فقل لهم «اني بريء مما تعملون» أي من أعمالكم القبيحة وعبادتكم للاصنام . والبراءة المباعدة من النصرة عند الحاجة ، فاذا بريء من عملهم فقد تباعد من النصرة لهم او الموالاة . ثم أمره أن يتوكل على العزيز الرحيم ومعناه أن يفوض أمره الى من يدبره . والتوكل على الله من الايمان ، لانه أمر به ، وحث عليه « على العزيز الرحيم » يعني القادر الذي لا يغالب ، ولا يعاز الكبير الرحمة الواسع النعمة على خلقه « الذي يراك » يا محمد « حين تقوم وتقلبك في الساجدين » أي تصرفك في المصلين بالركوع والسجود والقيام والقعود - في قول ابن عباس وقتادة - وفي رواية أخرى عن ابن عباس : إن معناه إنه أخرجك من نبي الى نبي حين أخرجك نبياً . وقيل : معناه يراك حين تصلي وحدك ، وحين تصلي في جماعة . وقال قوم من اصحابنا : إنه أراد تقلبه من آدم الى أبيه عبد الله فى ظهور الموحدين ، لم يكن فيهم من يسجد لغير الله .

والرؤية - ههنا - هي ادراك البصر ، دون رؤية القلب ، لان (رأيت) بمعنى علمت ، لا يتعدى الى مفعول واحد ، فهي من رؤية البصر ، ثم قال « إنه هو السميع العليم » أي يسمع ما تتلو فى صلاتك ، العليم بما تضمر فيها فى قلبك . وقيل معنى « وتوكل على العزيز الرحيم » ليظهرك على كيد أعدائك الذين عصوك فيما أمرتهم به . وقرأ ابن عامر ونافع « فتوكل » بالفاء ، لانها في مصاحف أهل المدينة والشام كذلك . الباقون بالواو ، وكذلك هو في مصاحفهم . والتوكل على الله : هو أن يقطع العبد جميع آماله من المخلوقين إلا منه تعالى ، ويقطع رغبته من كل احد إلا اليه ، فاذا كان كذلك رزقه الله من حيث لا يحتسب .

قوله تعالى:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (٢٢٧)

سبع آيات بلاخلاف.

لما اخبر الله تعالى أن القرآن ليس مما تنزل به الشياطين، وأنه وحي من الله تعالى على نبيه، نبه خلقه على من تنزل الشياطين عليه بقوله «هل انبئكم» أي هل أخبركم «على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم» أي كذاب أثيم، وقال مجاهد: الأفاك الكذاب. ومعناه الكثير الكذب، والقلب للخبر من جهة الصدق الى الكذب، وأصله الانقلاب من المؤتفكات وهي المنقلبات. والانباء الاخبار بما فيه من الغيوب وعظم الشأن، ومنه قولهم: لهذا الامر نبأ ومنه اشتق وصف الرسول بأنه نبي بعظم شأن ما اتى به من الوحي من الله. والآثم الفاعل للقبيح: أثم يأثم إثماً إذا ارتكب القبيح، وتأثم إذا ترك الاثم مثل تحوب إذا ترك الحوب، وأثمه تأثيماً إذا نسبه الى الاثم، ثم قال «يلقون

لسمع ، أي يلقون ما يسمعون باستراق السمع الى كل افاك أيثم - في قول مجاهد - ثم اخبر تعالى أن اكثرهم كاذبون فيما يلقونه اليهم .

وقوله « والشعراء يتبعهم الغاون » قال الحسن : هم الذين يسترقون السمع ويلقونه الى الكهنة ، وقال إنما يأخذون أخباراً عن الوحي « انهم عن السمع لمعزولون » أي عن سمع الوحي . وقيل : ان الشعراء المراد به القصاص الذين يكذبون في قصصهم ويقولون ما يخطر ببالهم .

وقوله « ألم تر انهم في كل واد يهيمون » أي هم لما يغلب عليهم من الهوى كالهائم على وجهه في كل واد يعن له ، وليس هذا من صفة من عليه السكينة والوقار ومن هو موصوف بالحلم والعقل . والمعنى أنهم يخوضون في كل فن من الكلام والمعاني التي يعن لهم ويريدونه . وقال ابن عباس وقتادة : معناه في كل لغو يخوضون ! يمدحون ويذمون ، يعنون الباطل . وقال الجبائي : معناه يصغون الى ما يلقيه الشيطان اليهم على جهة الوسوسة لما يدعوهم اليه من الكفر والضلال . وقيل : انما صار الأغلب على الشعراء الغي باتباع الهوى ، لان الذي يتلو الشعر - في الاكثر - العشاق ولذلك يقبح التشبيب . مع أن الشاعر يمدح للصلة ويهجو على جهة الحمية فيدعوه ذلك الى الكذب ، ووصف الانسان بما ليس فيه من الفضائل والرذائل .

وقرأ نافع « يتبعهم » بتخفيف التاء من تبعه إذا اقتفى أثره ، يقال تبع فلاناً اذا سار في أثره واتبعه لحقه . الباقون : بالتشديد من الاتباع ، ومعناهما واحد .

والآية قيل نزلت في الشعراء الذين هجوا رسول الله (ص) والمؤمنين ، وهي تتناول كل شاعر يكذب في شعره - ذكره الفراء - وقيل : انها نزلت في ابن الزبعري وأمثاله .

ثم اخبر ان هؤلاء الشعراء يقولون ويحثون على اشياء لا يفعلونها هم ، وينهون عن أشياء يرتكبونها ، ثم استثنى من جملتهم الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ، فأجتنبوا معاصيه ، وانتصروا ـ لنفوسهم فى الدين ـ من الذين ظلموهم . وقيل : أراد الشعراء الذين ردوا على المشركين هجاءهم للمؤمنين ، فانتصروا بذلك للنبي والمؤمنين ، ثم هدد الظالمين ، فقال « وسيعلم الذين ظلموا » نفوسهم « أي منقلب ينقلبون » أي أي منصرف ينصرفون اليه لأن منصرفهم الى النار ، نعوذ بالله منها . وقيل أراد الذين ظلموا نفوسهم بقول الشعر الباطل من هجو النبي والمؤمنين ، ومن يكذب فى شعره .

وقوله « أي منقلب ينقلبون » نصب (أي) بـ (ينقلبون) ولا يجوز أن ان يكون منصوباً بـ (سيعلم) ، لأن أياً لا يعمل فيها ما قبلها ، لأن الاستفهام له صدر الكلام حتى ينفصل من الخبر بذلك .

٢٧ - سورة النمل

مكية بلا خلاف وهي خمس وتسعون آية حجازي واربع وتسعون آية
بصري وشامي وثلاث وتسعون آية فى عدد الكوفيين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَٰوةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَٰوةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ (٥) خمس آيات بلا خلاف .

قد بينا معنا الحروف التي فى أوائل السور فيما تقــــدم بما لا نحتاج معه إلى إعادته ، وقد بينا قول من قال إنها أسماء للسور . وقال قوم « طس » اسم من اسماء القرآن .

وقوله « تلك » إشارة الى ما وعدوا بمجيئه من القرآن . وقيل ان « تلك »

يعني (هذا) وآيات القرآن هي القرآن ، وانما أضافها اليه ، كما قال « انه لحق اليقين » (١) . والقرآن والكتاب معناهما واحد ، ووصفه بالوصفين ليفيد أنه مما يظهر بالقراءة ، ويظهر بالكتابة ، وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الامرين جميعاً وذلك يبطل قول من قال: ان كلام الله شيء واحد لا يتصرف بالقراءة والكتابة . ووصفه بأنه مبين تشبيه له بالناطق بكذا ، وإذا وصفه بأنه بيان جرى مجرى وصفه له بالنطق بكذا في ظهور المعنى به للنفس . والبيان هو الدلالة التي تبين بها الاشياء . والمبين المظهر ، وحكم القرآن الموعظة بما فيها من الترغيب والترهيب والحجة الداعية الى الحق الصارفة عن الباطل ، وأحكام الشريعة التي فيها مكارم الاخلاق ومحاسن الافعال ، والمصلحة فيما يجب من حق النعمة لله تعالى ما يؤدي الى الثواب ويؤمن من العقاب . ثم وصفه بأنه « هدى وبشرى للمؤمنين » وموضع « هدى » نصب على الحال ، وتقديره هادياً ومبشراً ، ويجوز أن يكون رفعاً على تقدير هو « هدى وبشرى للمؤمنين » والمعنى ان ما فيه من البيان والبرهان يهديهم الى الحق ، وما لهم في وجه كونه معجزاً الذي فيه من اللطف ما يؤديهم الى الثواب ويبشرهم بالجنة .

ثم وصف المؤمنين الذين بشرهم القرآن بأنهم « الذين يقيمون الصلاة » بحدودها ويداومون على أوقاتها ويخرجون ما يجب عليهم من الزكاة في أموالهم الى مستحقها ، وهم مع ذلك يوقنون بالآخرة ، ويصدقون بها . ثم وصف تعالى من خالف ذلك ولم يصدق بالآخرة ، فقال « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم اعمالهم فهم يعمهون » قيل في معناه قولان :

احدها - قال الحسن والجبائي : زينا لهم اعمالهم التي أمرناهم بها ، فهم

---

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٥١

يتحيرون بالذهاب عنها .

الثاني ـ زينالهم أعمالهم بخلقنا فيهم شهوة القبيح الداعية لهم الى فعل المعاصي ليجتنبوا المشتهى « فهم يعمهون » عن هذا المعنى أي يتحيرون بالذهاب عنها .

ثم اخبر تعالى ان من وصفه بذلك لهم « سوء العذاب » ووصفه بأنه سوء لما فيه من الألم و « هم فى الاخرة هم الاخسرون » لانهم يخسرون الثواب ويحصل لهم بدلا منه العقاب فهو اخسر صفقة تكون .

قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١١) ست آيات بلاخلاف .

قرأ اهل الكوفة « بشهاب قبس » منون غير مضاف جعلوا (قبساً) صفة للشهاب على تقدير منور . الباقون بالاضافة على تقدير (نار) .

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه محمد صلى الله عليه وآله « انك » يا محمد « لتلق القرآن من لدن حكيم عليم » أي انك لتعطى لأن الملك يلقيه اليه من قبل الله تعالى ، من عند حكيم بصير بالصواب من الخطاء في تدبير الامور بما يستحق به التعظيم . وقد يفيد (الحكيم) العامل بالصواب المحكم للامور المتقن لها. وعليم بمعنى عالم إلا أن فيه مبالغة . وقال الرماني هو مثل سامع وسميع ، فوصفنا له بأنه عالم يفيد أن له معلوماً ، كما أن وصفه بأنه سامع يفيد بأن له مسموعاً ، ووصفه بأنه عليم يفيد أنه متى صح معلومه . فهو عليم به ، كما أن (سميعاً) يفيد أنه متى وجد مسموع لابد أن يكون سامعاً .

وقوله « إذ قال موسى لا هله » قال الزجاج : العامل في إذ (اذكر) وهو منصوب به . وقال غيره : هو منصوب بـ (عليم) اذ قال اني آنست ناراً . فالايناس الاحساس بالشيء من جهة مايؤنس آنست كذا ، أؤنسه ايناساً وما آنست به ، فقد أحسست به ، مع سكون نفسك اليه « سآتيكم منها بخبر » يعني من يدل على الطريق ويهدينا اليه ، لانه كان قد ضل « أو آتيكم بشهاب قبس » قيل : لانهم كانوا قد أصابهم البرد ، وكان شتاء فلذلك طلب ناراً . والشهاب نور كالعمود من النار ، وجمعه شهب . وقيل للكوكب الذي يمتد وينقض شهاب ، وجمعه شهب ، وكل نور يمتد مثل العمود يسمى شهاباً ، والقبس القطعة من النار قال الشاعر :

في كفه صعدة مثقفة فيها سنان كشعلة القبس (١)

ومنه قيل اقتبس النار اقتباساً أي أخذ منها شعلة ، واقتبس منه علماً أي اخذ منه نوراً يستضيء به كما يستضيء بالنار « لعلكم تصطلون » معناه ، لكي

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ١٥٧

تصطلوا . ومعناه لتدفئوا ، والاصطلاء التدفي بالنار ، وصلى النـار يصلي صلا إذا لزمها ، فاصله اللزوم . وقيل الصلاة منه للزوم الدعاء فيها. والمصلي الثاني بعـد السابق للزومه صلو السابق . وإنما قال لا مراته « لعلى آتيكم » لانه أقامها مقام الجماعة في الانس بها والسكون اليها في الامكنة الموحشة . ويجوز أن يكون على طريق الكناية على هذا التأويل .

وقوله « فلما جاءها » معناه جاء النار « نودي أن بورك من فى النار ومن حولها » وقيل فى معناه قولان :

احدهما ـ بورك نور الله الذي فى النار ، وحسن ذلـك ، لانه ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار . في قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحسن .

الثاني ـ الملائكة الذين وكلهم الله بها على ما يقتضيه . « ومن حولها » ـ فى قول ابي علي الجبائي ـ ولا خلاف أن الذين حولها هم الملائكة الذين وكلوا بها . و « سبحان الله رب العالمين » .

وقوله « ان بورك » يحتمل أن يكون نصباً على نودي موسى بأن بورك . ويحتمل الرفع على نودي البركة ، والبركة ثبوت الخير النامي بالشيء . قال الفراء العرب تقول : بارك الله ، وبورك فيك .

وقوله « أنه انا الله العزيز الحكيم » معناه ان الله قال لموسى ان الذي يكلمك هو الله العزيز القادر الذي لا يغالب ، الحكيم في افعاله ، المنزه من القبائح . قال الفراء : الهاء في قوله « انه » عماد ، ويسميها البصريون إضمار الشأن والقصة . ثم أراد أن يبين له دلالة يعلم بها صحة النداء ، فقال « والق عصاك » من يدك ، وفي الكلام حذف ، وهو أنه القى عصاه وصارت حية « فلما رآها تهتز كأنها جان » وهي الحية الصغيرة مشتق من الاجتنان، وهو الاستتار ، وقال

الفراء : هي حية بين الصغيرة والكبيرة ، قال الراجز :

يرفعهن بالليل إذا ما أسدفا　　　أعناق جان وهاماً رجفاً (١)

ووصف العصا في هذا الموضع « كأنها جان » وفي الشعراء بأنها ثعبان ، وهي الحية الكبيرة . لانها جمعت صفة الجان في اهتزازه وسرعة حركته مع انه ثعبان في عظمه ، ولذلك هاله ف « ولى مدبراً » . وقيل انها أول شيء صارت جاناً ثم تدرجت الى ان صارت ثعباناً ، وهم يشاهدونها ، وذلك أعظم في الاعجاز . وقيل : ان الحالين مختلفان ، لان الحال التي صارت فيها جاناً هي الحال التي خاطبه الله في أول ما بعثه نبياً ، والحال التي صارت ثعباناً هي الحال التي لقي فرعون فيها . فلا تنافي بينهما على حال .

وقوله « ولم يعقب » معناه ولم يرجع - في قول قتادة - وقال الجبائي معناه لم يرجع على عقبيه . والمعاقبة ذهاب واحد ومجيء آخر على وجه المناوبة . وانما ولّى منها موسى بالبشرية ، لا انه شك في كونها معجزة له ولا يضره ذلك .

وقوله « يا موسى لا تخف » نداء من الله تعالى لموسى وتسكين منه ، ونهي له عن الخوف . وقال له انك مرسل و « لا يخاف لدي المرسلون » لانهم لا يفعلون قبيحاً ، ولا يخلون بواجب ، فيخافون عقابه عليه ، بل هم منزهون عن جميع ذلك .

وقوله « إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء » صورته صورة الاستثناء ، وهو منقطع عن الاول وتقديره لكن من ظلم نفسه بفعل القبيح ، ثم بدل حسناً بعد سوء ، بأن تاب من القبيح ، وفعل الحسن ، فانه يغفر له . وقال قوم :

---

(١) تفسير الطبري ١٩/٧٦ وروايته :

يرقلن بالليل اذا ما رجفا　　　اعناق جان وهاماً رجفاً

هو استثناء متصل وأراد من فعل صغيرة من الانبياء . فعلى هذا يكون الاستثناء متصلا - ذكره الحسن - وهذا تأويل بعيد ، لان صاحب الصغيرة لاخوف عليه أيضاً لوقوعها مكفرة . والاستثناء وقع من المرسلين الذين لا يخافون ، فالاول هو الصحيح.

وقوله « ثم بدل حسناً بعد سوء » معناه ندم على ما فعله من القبيح ، وتاب منه وعزم على أن لا يعود الى مثله في القبح ، فان من تلك صورته ، فان الله يغفر له ويستر عليه لانه رحيم . وقيل : المعنى « لا يخاف لدي المرسلون » انما الخوف على من سواهم « إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء » قال الجبائي : في الآية دلالة على انه يسمى الحسن حسناً قبل وجوده وبعد تقضيه ، وكذلك القبيح ، وهذا إنما يجوز على ضرب من المجاز ، دون الحقيقة ، لان كون الشيء حسناً او قبيحاً بقيد حدوثه على وجه لا يصح في حال عدمه ، وانما سمي بذلك بتقدير أنه متى وجد كان ذلك، وقال قوم « إلا » بمعنى الواو ، فكأنه قال اني لا يخاف لدي المرسلون ، ولا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء ، فاني أغفر له .

قوله تعالى:

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ (١٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَنَ عِلْماً وَقَالاَ الْحَمْدُ لله الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥١) أربع آيات بلاخلاف .

امر الله تعالى موسى (ع) أن يدخل يده في جيبه . وقيل : أراد كمه . وقيل : ثيابه « تخرج بيضاء من غير سوء » يعني من غير برص . وقال المبرد : السوء إذا اطلق يراد به البرص ، وإذا وصل بشيء ، فهو كما يسوء ، قال : وتقديره كأن هاتين مع بقية الآيات تسع آيات . والتقدير ادخل يدك فى جيبك فان ذلك مع إلقائك العصا ، وما بعد ذلك من الآيات تسع آيات ، كما يقال جاء فلان فى جمع كثير ، وهو احد ذلك الجمع . وقيل : إن معنى (في) من . وقال ابن مسعود : اتى موسى فرعون وعليه جبةصوف . وقال مجاهد كان كمها الى بعض يده .

وقوله « الى فرعون » تقديره مرسلا الى فرعون وقومه فى تسع آيات . وحذف كما قال الشاعر :

رأتني بخيليها فصدت مخافــة　　　وفي الخيل دوعاءالفؤاد فروق (١)

اي رأتني مقبلا بخيليها . ثم اخبر تعالى عن فرعون وقومه بأنهم « كانوا قوماً فاسقين » والآيات التسع التي كانت لموسى (ع) : قلب العصا حيـة . واليد البيضاء . والجراد . والقمل . والضفادع . والدم . والبحر وانفلاقه . ورفـع الطور فوق رؤسهم . وانفجار الحجر اثنتـا عشرة عيناً . وقيل : بدل البحر

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٧٨

والجبل الطوفان والطمس . ذكره ابن زيد .

ثم اخبر تعالى عن فرعون وقومه أنه لما جاءتهم آيات الله ودلائله مبصرة . وقيل في معنى مبصرة قولان :

احدهما ـ انها تبصر الصواب من الخطأ ، يقال أبصرته وبصرته بمعنى واحد ، كقولك أكفرته وكفرته ، واكذبته وكذبته .

الثاني ـ مبصرة للحق من الباطل ، فهي تهدي اليه كأنها تراه . قالوا عند ذلك إن هذه الآيات « سحر مبين » أي ظاهر .

ثم قال « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » والمعنى انهم عرفوها وعلموها بقلوبهم ، لكنهم جحدوا بها بألسنتهم طلباً للعلو والتكبر ، ففي ذلك دلالة على أنهم كانوا معاندين إذ جحدوا ما عرفوا . وقال الرماني : لا تدل على ذلك ، لان معرفتهم كانت بوقوعها على الحقيقة . فأما الاستدلال على أنها من فعل الله ومن قبله ليدل بها على صدق من أعطاها إياه فبعد العلم بوقوعها . وقال ابو عبيدة : الباء زائدة ، والمعنى وجحدوها ، كما قال العجاج :

نضرب بالسيف ونرجوا بالفرج (١)

وقيل انهم جحدوا ما دلت عليه من تصديق الرسول ، كما تقول كذبت به أي بما جاء به .

ثم قال تعالى لنبيه محمد (ص) « فانظر » يا محمد ﴿ كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ لان الله أهلكهم وغرقهم ودمر عليهم .

ثم اخبر تعالى بأنه اعطى داود وسليمان علماً من عنده ، وانهما قالا الحمد لله

(١) قدمر في ٧/١١٨ من هذا الكتاب

الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، بأن جعلنا أنبياء واختارنا من بين الخلائق . والعلم الذي اوتياه قيل : هو علم الاحكام . وقيل : هو العلم بمنطق الطير ، وكلام البهائم .

قوله تعالى :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّالِحِينَ ﴾ (١٩) أربع آيات بلاخلاف .

اخبر الله تعالى أن سليمان ورث داود . واختلفوا فيما ورث منه ، فقال اصحابنا إنه ورث المال والعلم . وقال مخالفونا : انه ورث العلم ، لقوله (ص) نحن معاشر الانبياء لا نورث .

وحقيقة الميراث هو انتقال تركة الماضي بموته الى الثاني من ذوي قرابته . وحقيقة ذلك في الاعيان ، فاذا قيل ذلك في العلم كان مجازاً . وقولهم : العلماء ورثة الأنبياء ، لما قلنا . والخبر المروي عن النبي (ص) خبر واحد ، لايجوز أن يخص به عموم القرآن ولا نسخه به .

وقال بعضهم : إن داود كان له تسعة عشر ولداً ذكوراً وورثه سليمان خاصة ، فدل على أنه إنما ورثه العلم والنبوة ، فخبر واحد لا يلتفت اليه .

وقوله ﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير ﴾ أي فهمنا معاني منطقها ومانفهم به بعضها عن بعض،قال المبرد : والعرب تسمي كل مبين عن نفسه ناطقاً ومتكلماً قال رؤبة :

لو انني اوتيت علم الحكل   علم سليمان كلام النمل (١)

وقال الرماني ﴿ منطق الطير ﴾ صوت يتفاهم به معانيها على صيغة واحدة ، بخلاف منطق الناس إذهو صوت يتفاهمون به معانيهم على صيغ مختلفة ، لذلك لم نفهم عنها مع طول مصاحبتها ، ولم تفهم هي عنا ، لأن افهامها مقصورة على تلك الامور المخصوصة ، ولما جعل سليمان يفهم عنها ، كان قد علم منطقها .

وقوله ﴿ واوتينا من كل شيء ﴾ لفظه لفظ العموم ، والمراد به الخصوص لانه لم يؤت اشياء كثيرة . وقيل : المعنى ﴿وأوتينا من كل شيء ﴾ يطلبه طالب لحاجته اليه وانتفاعه به ، ويحتمل أن يكون المراد ﴿ وأوتينا من كل شيء﴾ علماً وتسخيراً في كل ما يصلح أن يكون معلوماً لنا ومسخراً، غير ان مخرجه مخرج العموم أبلغ وأحسن .

ثم اخبر ان سليمان كان قد قال هذا القول:إن هذالهو الفضل الظاهر.اعترافاً

(١) مقاييس اللغة (حكل) ٢/ ٩١

بنعم الله عليه . ويحتمل أن يكون ذلك اخباراً من الله بأن ما ذكره هو الفضل الظاهر . وقيل : معناه وأعطينا من كل شيء من الخيرات .

وقوله « وحشر لسليمان جنوده » أي جمع له من كل جهة جنوده « من الجن والانس والطير » قال محمد بن كعب القرظي : كان عسكره مئة فرسخ، خمسة وعشرون من الانس، وخمسة وعشرون من الجن، وخمسة وعشرون من الطير، وخمسة وعشرون من الوحش . وقوله « فهم يوزعون » معناه قال ابن عباس : يمنع أولهم على آخرهم وقال ابن زيد : يساقون . وقال الحسن : معناه يتقدمون . وقول ابن عباس أقوى ، لانه من قولهم : وزعه من الظلم إذا منعه من ذلك وكفه ، قال النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصبى　　　وقلت الما أصح والشيب وازع(١)

ويقولون لا بد للسلطان من وازعة أي يمنع الناس عنه ، وقال الشاعر :

لم يزع الهوى إذ لم توات　　　بلى وسلوت عن طلب العتاة(٢)

وقيل : معنى يوزعون يمنعون ان نزلوا عن مراتبهم بالجمع مرة ، وبالتفريق أخرى ، حتى يتقدموا في مسيرهم . والايزاع المنع من الذهاب ، فانما منع أول الجنود على آخرهم ليتلاحقوا ، ولا يتفرقوا ، كما تقدم الجيوش اذا كثرت بمثل ذلك . وقوله « حتى اتوا على واد النمل » معناه سار سليمان وجنوده حتى بلغوا واديا فيه النمل و « قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » قيل : كانت معرفة النمل بسليمان على طريق المعجزة الخارقة للعادة له (ع) على غيره . وهذا غير لازم لانه لا يمتنع ان تعرف البهيمة هذا الضرب كما تعرف كثيراً مما فيه نفعها وضرها فمن معرفة النملة انها تكسر الحبة بقطعتين لئلا تنبت ، الا الكزبرة فانها تكسرها باربع قطع ، لانها تنبت إذا

(١) الطبري ١٩/ ٨٠ والقرطبي ١٣/ ١٦٨　　　(٢) تفسير الطبري ١٩ / ٨٠

كسرت بقطعتين، فمن هداها الى هذا هو الذي يهديها الى ما يحطمها مما لا يحطمها. وقيل : جعل لها منطق تفهم به المعاني ، لانه يفهم به المعاني كما تفهم به ، كالفم وبكما الفرح قال الشاعر :

عجبت لهــا أنى تكون غناؤها   فصيحاً ولم تفغر بمنطقها فما (١)

وقيل : انه ظهر من النملة امارات من الرجوع الى بيتها خوفاً من حطم جنود سليمان إياها ، فاعلم به سليمان انها تحرزت ، فعبر عن ذلك بالقول مجازاً كما قال الشاعر :

امتلأ الحوض وقال قطني   مهلا رويداً قد ملأت بطني (٢)

ولم يكن هناك قول من الحوض . ويقولون : عيناك تشهد بسهرك ، ويريدون بذلك امارات السهر التي تظهر في العين ، وقوله «لا يحطمنكم سليمان» أي يكسرنكم بأن يطأكم عسكره «وهم لا يشعرون» أي لا يعلمون بوطئكم ، فلما فهم سليمان هذا «تبسم ضاحكا من قولها. وقال رب أوزعني» أي الهمني ما يمنع من ذهاب الشكر عني بما أنعمت به علي وعلى والدي ، ووفقني «ان اعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين» كالانبياء ومن يجري مجراهم ممن يعمل الاعمال الصالحة ولا يرتكب شيئاً من القبائح . وقال ابن زيد : معنى في عبادك مع عبادك .

قوله تعالى:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَاأَرى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِن

(١) اللسان (غنا)   (٢) قد مر في ١ / ٤٣١

الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ
بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ
وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي
يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٦)

سبع آيات بلاخلاف.

قرأ ابن كثير « أوليأتينني بسلطان مبين » بنونين الأولى مشددة مفتوحة والثانية مكسورة. الباقون بنون واحدة مشددة مكسورة . وقرأ « مكث » عاصم وروح ـ بفتح الكاف ـ الباقون بضمها ، وهما لغتان . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « من سبأ بنبأ » غير مصروف . الباقون مصروفًا ، منونًا .

من لم يصرفه فلأنه معرفة ومؤنث، لانه قيل: ان (سبأ) حي من احياء اليمن. وقيل : هو اسم أبيهم .وقد قال الزجاج : (سبأ) مدينة تعرف بمأرب من اليمن ، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، فاذا صرفته فعلى البلد ، وإذا لم تصرفه ، فعلى المدينة . وقيل : من صرفه جعله إسمًا للمكان ، ومن لم يصرفه جعله اسمًا للبقعة .

قال جرير :

الواردون وتيم في ذوي سبأ قد عض أعناقهم جلد الجواميس (١)

وقال آخر في ترك صرفه :

من سبأ الحاضرين مأرب اذ يبنون من دون سيله العرما (٢)

وقرأ الكسائي وابو جعفر ورويس « ألا يا اسجدوا » بتخفيف (ألا) . الباقون « ألا يسجدوا » مشددة . وجه قراءة الكسائي أنه جعل (ألا) للتنبيه (يا) هؤلاء على حذف المنادي « اسجدوا » على الامر ، قال الأخطل :

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بدر وإن كان حيانا عدى آخر الدهر (٣)

أي ألا يا هند . وقرأ ابن مسعود « هلا » وذلك يقوى قراءة من قرأ بالتخفيف . ومن قرأ بالتشديد فمعناه وزين لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا لله ، وشاهد الأول قول الشاعر :

ألا اسلمي يا دارمي على البـلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر (٤)

وقال العجاج :

يا دار سلمي يا اسلمي ثم اسلمى عن سمسم أو عن يمين سمسم

اخبر الله سبحانه عن سليمان أنه «تفقد الطير ، فقال مالي لا أرى الهدهد» قيل كان سبب تفقده الهدهد أنه احتاج اليه في سيره ليدله على الماء ، لأنه يقال: انه يرى الماء في بطن الأرض ، كما نراه في القارورة ـ وذكره ابن عباس ـ وقال وهب بن منبة : كان تفقده إياه لاخلاله بنوبته ، وقيل : كان سبب تفقده أن الطير كانت تظله من الشمس ، فلما أخل الهدهد بمكانه بان بطلوع الشمس عليه

---

(١) مر تخريجه انظر ٦/ ٣٨٨ (٢) تفسير القرطبي ١٣/ ١٨١

(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٨٤ (٤) تفسير القرطبي ١٣/ ١٨٧

وقوله « أم كان من الغائبين » معنى (أم) بل . وقيل : معناه أتأخر عصياناً «أم كان من الغائبين » لعذر وحاجة . ثم قال « لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين » وهذا وعيد منه للهدهد أنه متى لم يأت سليمان بحجة ظاهرة في تأخره يفعل به أحد ما قاله ، عقوبة له على عصيانه . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : تعذيب الهدهد نتف ريشه وطرحه في الشمس .

قوله « فمكث غير بعيد » أي لبث غير بعيد ، وفي ماضيه لغتان ـ فتح الكاف وضمها ـ ثم جاء سليمان ، فقال معتذراً عن تأخره ، واخلاله بموضعه « أحطت بما لم تحط به » أي علمت ما لم تعلم ، وعلم الاحاطة هو أن يعلمه من جميع جهاته التي يمكن أن يعلم عليها تشبيهاً بالسور المحيط بما فيه . ثم قال له « وجئتك من سبأ » يا سليمان يا نبي الله « بنبأ » و (سبأ) مدينة أو قبيلة على ما بيناه .

وروي عن النبي (ص) ان (سبأ) رجل واحد له عشرة من العرب فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فالذين تشاءموا : لخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة . والذين تيامنوا : كندة ، والاشعرون ، والازد، ومذحج ، وحمير، وانمار . ومن الانمار خثعم وبجيلة .

وقوله « بنبأ يقين » أي بخبر لاشك فيه ، وانه يحتاج الى معرفته ، لما فيه من الاصلاح لقوم قد تلاعب بهم الشيطان في ذلك ، فعذره عند ذلك سليمان [. وقيل : عذر الهدهد بما أخبره بما يحبه لما فيه من الأجر وإصلاح الملك الذي وهبه الله] (١) ثم شرح الخبر فقال «إني وجدت امرأة تملكهم» وتتصرف فيهم بحيث لا يعترض عليها أحد ومع ذلك « أوتيت من كل شيء » أي

(١) ما بين القوسين كان في المطبوعة متأخراً عن مكانه اسطراً

أعطيت كل شيء، لفظه لفظ العموم والمراد به المبالغة فى كثرة ما أوتيت من نعم الدنيا وسعة الملك . وقيل : انها أوتيت كل شيء يؤتى الملوك ، والعرش العظيم سرير كريم معمول من ذهب وقوائمه من لؤلؤ وجوهر - فى قول ابن عباس - ثم اخبر انه وجدها « وقومها يسجدون للشمس من دون الله » وأن الشيطان زين ذلك لهم فهم لا يهتدون الى سبيل الحق والتوحيد واخلاص العبادة لله تعالى .

ثم قال الهدهد على وجه التوبيخ والتهجين لفعلهم « ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبأ فى السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون »والخبء هو المخبوء، وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه . وضع المصدر موضع الصفة خبأته اخبأه خبأ . وما يوجده الله ويخرجه من العدم الى الوجود فهو بهذه المنزلة فخبء السماء الامطار والرياح ، وخبء الارض الاشجار والنبات «ويعلم ماتخفون وما تعلنون » فمن قرأ بالتاء جعله للمخاطبين . ومن قرأ بالياء فللغائبين . والخبء والخفاء نظائر ، وقيل الخبء الغيب ، وهو كل ما غاب عن الادراك .

وقوله « فهم لا يهتدون » دليل على أن المعارف ليست ضرورة ، لأنه اراد لا يهتدون الى دين الله . وقال الجبائي : لم يكن الهدهد عارفاً بالله وإنما أخبر بذلك ، كما يخبر مراهقوا صبياننا ، لأنه لا تكليف عليهم ولا تكيف إلا على الملائكة والجن والانس ، وهذا الذي ذكره خلاف الظاهر ، لأن الاحتجاج الذي حكاه الله عن الهدهد احتجاج عارف بالله وبما يجوز عليه وما لا يجوز ، لانه قال « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ولا يجوز أن يفرق بين الحق فى السجود لله وبين الباطل الذي هو السجود للشمس ، وان احدهما حسن

والآخر قبيح إلا من كان عارفاً بالله وبما يجوز عليه ومالا يجوز ، وذلك ينافي حال الصبيان ، ثم نسب تزيين عملهم الى الشيطان ، وهذا قول من عرفه وعرف ما يجوز عليه في عدله ، وأن القبيح لا يجوز عليه ، ثم حكى أنه قال إن الشيطان صدهم عن السبيل : الحق باغوائهم ، وانهم مع هذا الصد لا يهتدون الى الحق من توحيد الله وعدله .

وقال ابو عبد الله البصري في بعض المواضع : إن الهدهد كان رجلا من البشر اسمه هدهد ، ولم يكن من الطير وهذا غلط لأن الله تعالى قال « وتفقد » يعني سليمان تفقد « الطير فقال مالي لا أرى الهدهد » فكيف يحمل ذلك على انه إسم رجل ؟ ! إن هذا من بعيد الأقوال . وقال الفراء : من قرأ « ألا » بالتخفيف، فهو موضع سجدوا ، ومن ثقل ، فلا ينبغي أن يكون موضع سجدوا وقد يجوز السجود على مخالفة تزيين الشيطان . ومعنى « ويعلم ما يخفون وما يعلنون » أي ما يسرون في نفوسهم ، وما يظهرونه . وقرأ الكسائي وحفص « ماتخفون وماتعلنون » بالتاء فيهما على الخطاب. الباقون بالياء على الخبر .

ثم اخبر فقال « الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » الى ههنا تمام حكاية ما قاله الهدهد . و « العرش » سرير الملك الذي عظمه الله ورفعه فوق السموات السبع وجعل الملائكة تحف به وترفع أعمال العباد اليه ، وتنشأ البركات من جهته فهو عظيم الشأن ، كما وصفه تعالى.

قوله تعالى .

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) إِذْهَبْ بِكِتَابِي هٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا

يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣١) خمس آيات بلا خلاف .

لما سمع سليمان ما اعتذر به الهدهد في تأخره بما قصه الله تعالى وذكرناه قال عند ذلك « سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » في قولك الذي أخبرتنا به فأجازيك بحسب ذلك . وإنما لم يقل : أصدقت أم كذبت ، وقال : أم كنت من الكاذبين ، لأنه أليق في الخطاب ، لأنه قد يكون من الكاذبين بالميل اليهم وقد يكون منهم بالقرابة التي بينه وبينهم . وقد يكون منهم بأن يكذب كما كذبوا ومثل ذلك في الخطاب ولينه قولهم : ليس الأمر على ما تقول ، فهو ألين من كذبت ، لانه قد يكون ليس كما تقول من جهة الغلط الذي لا يوصف بالصدق ولا بالكذب .

ثم أمر سليمان الهدهد بأن يذهب بكتابه الذي كتبه له وأشار اليه بقوله « هذا فألقه اليهم ثم تولى عنهم فانظر ماذا يرجعون » وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره فالقه اليهم فانظر ماذا يرجعون ، ثم تولا عنهم ، وهذا لا يحتاج اليه ، لأن الكلام صحيح على ما هو عليه من الترتيب . والمعنى فألقه اليهم ثم تول عنهم قريباً منهم ، فانظر ماذا يرجعون ـ على ما قال وهب بن منبة وغيره ـ فانهم قالوا معنى « تول عنهم » استتر عنهم ، وفي الكلام حذف ، لان تقديره فمضى الهدهد بالكتاب . وألقاه اليهم ، فلما رأته قالت لقومها « يا أيها الملاء » وهم أشراف اصحابها « إني ألقي إليّ كتاب كريم » ومعنى كريم أنه حقيق بأن

يوصل الخير العظيم من جهته، فلما رأت آثار ذلك في كتاب سليمان وصفته بأنه كريم. وقيل: أرادت بـ (كريم) انه من كريم يطيعه الانس والجن والطير. والهاء في قوله «انه من سليمان» كناية عن الكتاب، والهاء في قوله «وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» كناية عما في الكتاب. وقيل: إنه كان مختوماً، فلذلك وصفته بأنه كريم.

وقوله «بسم الله الرحمن الرحيم» حكاية ما قالته على المعنى باللغة العربية، وإن كانت لم تقل هي بهذا اللفظ. والحكاية على ثلاثة اوجه: حكاية على المعنى فقط، وحكاية على اللفظ فقط من غير أن يعلم معناه. وحكاية على اللفظ والمعنى وهو الأصل في الحكاية التي لا يجوز العدول عنها إلا بقرينة. وموضع «ان لا تعلوا» يجوز أن يكون رفعاً بالبدل من (كتاب) ويحتمل النصب على معنى بأن لا تعلوا، والعلو على الشيء طلب القهر له بما يكون به بحسب سلطانه «لا تعلوا علي» أي لا تطلبوا تلك الحال، فانكم لا تنالونها مني، ﴿وأتوني مسلمين﴾ يحتمل وجهين:

احدهما - واتوني مؤمنين بالله ورسوله.

الثاني - مستسلمين لأمري فيما أدعوكم اليه فاني لا أدعو إلا الى الحق.

قوله تعالى:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ(٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا

دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)
وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٣٥)

خمس آيات حجازي وأربع فيما عداه. عد الحجازيون شديد رأس آية ولم يعده الباقون.

حكى الله تعالى ان المرأة لما وقفت على كتاب سليمان، ووصفته بأنه كتاب كر، وعرفتهم ما فيه قالت لأشراف قومها ﴿ افتوني في أمري ﴾ اي أشيروا علي والفتيا هو الحكم بما هو صواب بدلا من الخطأ، وهو الحكم بما يعمل عليه كما يسأل العامي العالم ليعمل على ما يجيبه به، ثم قالت لهم لم أكن أقطع أمراً ولا أفصل حكما دونكم ولا أعمل به ﴿ حتى تشهدون ﴾ وتعاينوه. وهذا ملاطفة منها لقومها في الاستشارة منهم فيما يعمل عليه، فقالوا لها في الجواب عن ذلك انا ﴿ نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ﴾ أي أصحاب قدرة وأصحاب بأس أي شجاعة شديدة ﴿ والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ ما الذي تأمرينا به لنمتثله، وهذا القول منهم فيه عرض القتال عليها إن أرادت، فقالت لهم في الجواب ﴿ ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ فكونوا على حذر من ذلك ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ قيل بأن يستعبدوهم، فقال الله تعالى تصديقاً لهذا القول ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ قال ابن عباس: إنما يفعلون ذلك إذا دخلوها عنوة. ثم حكى انها قالت ﴿ إني مرسلة اليهم بهدية ﴾ فأذنوا للأمر في ذلك لانظر ما عند القوم فيما يلتمسون من خير أو شر. وقيل إنها ارسلت بجوار وغلمان على زي واحد. فقالت ان ميز بينهم ورد الهدية وأبا إلا المتابعة، فهو نبي وإن قبل الهدية فانما هو من الملوك. وعندنا ما يرضيه ـ ذكره ابن عباس ـ

وقيل : انها أرسلت اليه بلبنة من ذهب فأمر سليمان أن تطرح بين أرجل الدواب وسراقينها استهانة بذلك .

قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَـٰنِيَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَـٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة ويعقوب « أتمدوني » بنون واحدة مشددة على الادغام وياء ثابتة في الوصل والوقف . الباقون بنونين .

اخبر الله تعالى إن الهدية التي أنفذت بها المرأة، لما وصلت اليه ، قال لموصلها

« أتمدونني بمال » والامـداد الحاق الثاني بالأول ، والثالث بالثاني الى حيث ينتهي . والمعنى لست أرغب في المـال الذي تمدونني به ، وإنمـا أرغب في الايمان الذي دعوتكم اليه والاذعان بالطاعة لله ورسوله ، ثم قال « فما آتاني الله خير مما آتاكم » بالتمكين من المال الذي لي أضعافه واضعاف أضعافه الى ماشئت منه . ثم قال لهم « بل أنتم بهديتكم تفرحون » أي ما يهدى اليكم ، لانكم أهل مفاخرة في الدنيا ومكاثرة . وقيل بهديتكم التي اهديتموها الي تفرحون .

والهدية العطية على جهة الملاطفة من غير مثابة ، تهدى هدية ، لانها تساق الى صاحبها على هداية ، فالاصل الهـداية وهي الدلالة على طريق الرشد . ثم حكى ما قال سليمان لرسولها الذي حمل الهـدية « ارجع اليهم » وقل لهم « فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بهـا » أي لا طاقة لهم بهم ولا يقدرون على مقـاومتهم « ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » فالذليل هو الناقص القوة في نفسه بمـا لا يمكنه أن يدفع غيره عن نفسه . والصاغر هو الذليل الصغير القـدر المهين ، يدل على معنى التحقير بشيئين ، ونقيض الذليل العزيز وجمعـه أعزة ، وجمع الذليل أذلة .

ثم حكى تعالى أن سليمان قال لاشراف عسكره وأماثلة جنده « ايكم يأتيني بعرشها قبـل أن يأتوني مسلمين » فاختلفوا في الوقت الذي قال سليمان « أيكم يأتيني بعرشها » فقال قوم قال ذاك حين جاءه الهدهد بالخبر ، وهو الوقت الأول لأنه يبين به صدق الهدهد من كذبه ، ثم كتب الكتاب بعد ـ في قول ابن عباس ـ وقال وهب بن منبة : انما قال ذلك بعد مجيء الرسل بالهدية .

واختلفوا في السبب الذي لأجله خص بالطلب فقيل لانه أعجبته صفته فأحب أن يراه ، وكان من ذهب وقوائمه مكلل من جوهر ، على ما ذكره قتادة . وقال

ابن زيد : لأنه أحب أن يعاينها ويختبر عقلها إذا رأته اثبته أم تنكره . وقيل : ليريها قدرة الله فى معجزة، يأتي بها فى عرشها .

واختلفوا فى معنى « مسلمين » فقال ابن عباس : معناه طائعين مستسلمين وقال ابن جريج : هو من الاسلام الذي هو دين الله الذي أمر به عباده .

ثم حكى تعالى انه أجاب سليمان عفريت من الجن . ومعنى عفريت ما رد قوي داهية . يقال : عفريت وعفرية ، ويجمع عفاريت وعفاري . قال سيبويه: هو مأخوذ من العفر . والمعنى كل سديد فى مذهبه من الدهاء والنكارة والنجابة يقال : رجل عفرية نفرية على وزن(زبينة) لواحد الزبانية .

وقوله « انا آتيك به قبل أن تقوم من مقـامك » أي من مجلسك الذي تقضي فيه ـ فى قول قتادة ـ « وإني عليه » يعني على الاتيان به فى هذه المـدة « لقوي أمين » وفى ذلك دلالة على بطلان قول من يقول : القدرة تتبع الفعل لأنه أخبر انه قوي عليه ، ولم يجيء بعد بالعرش . وقال ابن عباس : « أمين » على فرج المرأة . فقال عند ذلك « الذي عنده علم من الكتاب » قال ابن عباس وقتادة : هو رجل من الانس ، كان عنده علم إسم الله الأعظم الذى إذا دعي به أجاب . وقيل : يا إلهنـا وإله كل شيء ياذا الجلال والاكرام . وقال الجبائي : الذى عنده علم من الكتاب سليمان (ع) . وقال ذلك للعفريت ليريه نعمة الله عليه . والمشهور عند المفسرين هو الأول . وقد ذكر أن إسمه اصف بن برخيا . وقيل : هو الخضر . وقال مجاهد : اسمه أسطوع . وقال قتادة : اسمه مليخا .

وقوله « انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك » قيل فى معناه قولان :

احدها ـ قال مجاهد : إن ذلك على وجه المبالغة في السرعة .

الثاني ـ قال قتادة : معناه قبل أن يرجع اليـك ما يراه طرفك . وقيل :

قبل ان يرجع طرفك خاسئاً إذا فتحتها وادمت فتحها • وقيل : قبل أن تفتحها وتطبقها • وقيل : حمل العرش من مأرب الى الشام في مقدار رجع البصر • وقيل : شقت عنه الارض فظهر • وقيل يجوز أن يكون الله اعدمه ثم اوجده في الثاني بلا فصل بدعاء الذي عنده علم من الكتاب ، وكان مستجاب الدعوة إذا دعا باسم الله الأعظم . ويكون ذلك معجزة له . وقال قوم : كان ذلك معجزة لسليمان • وفي الكلام حذف ، لان تقديره « أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك » فأتاه به « فلما رآه » سليمان « مستقراً عنده قال » معترفا بنعم الله عليه « هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر » أي أأشكر على نعمه أم أجحدها .

ثم قال سليمان « ومن شكر فانما يشكر لنفسه » لأن ثواب ذلك يعود عليه ومن جحد نعم الله فانما يضر نفسه ، لان عقاب ذلك يحل به « فان الله غني » عن شكره وعن كل شيء. « كريم » في انعامه على خلقه •

وقرأ ابو عمرو ونافع وعاصم ـ في رواية حفص ـ ﴿ فما أتاني الله ﴾ ـ بفتح الياء ـ في الوصل . الباقون « فما آتان » بغير ياء في الوصل .

قوله تعالى:

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ

تَعْبُدُ مِنْ دُونِ ٱللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ * قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٤٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥)

خمس آيات عند الكل ما عدا الكوفي ، فانها في عدده ست آيات عد ﴿ قوارير ﴾ آية . ولم يعده الباقون .

حكى الله تعالى ان سليمان أمر ان ينكروا لها عرشها ، وهو أن يغيره الى حال تنكره اذا رأته اراد بذلك اعتبار عقلها على ما قيل. والجحد الانكار: جحد العلم بصحة الشيء ، ونقيضه الاقرار ، والتنكير تغيير حال الشيء الى حال ينكرها صاحبها إذا رآها .

وقوله « ننظر اتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون » بيان من سليمان ان الغرض بتنكير عرشها ننظر اتهتدي بذلك أم تكون من الذين لا يهتدون الى طريق الرشد ، فلما جاءت المرأة ، قال لها سليمان « أهكذا عرشك » فقالت في الجواب كأنه هو ، ولم تقطع عليه ، لما رأت من تغير احواله . فقال سليمان « واوتينا العلم من قبلها » قال مجاهد : هو من قول سليمان « وكنا مسلمين » اي مؤمنين بالله مستسلمين له . وقال الجبائي : هو من كلام قوم سليمان (ع).

ثم اخبر تعالى فقال « وصدها ما كانت تعبد من دون الله » ومنعها

منه وتقديره وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله ، ومنعها منه « انها كانت من قوم كافرين » بنعم الله عليهم عابدين مع الله غيره . وقال الفراء : يجوز ان يكون المراد صدها عن عبادة ما كانت تعبد من دون الله من الشمس انها كانت من قوم كافرين يعبدون الشمس ، فنشأت على ذلك . وكسر (انها) على الاستئناف ، ولو نصب على معنى ، لأنها جاز .

ثم حكى بأنه قيل لها «ادخلي الصرح » فالصرح هو الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف ، ومنه قولهم : صرح بالأمر اذا افصح به ، ولم يكنّ عنه . والتصريح خلاف التعريض ، وفلان يكذب صراحاً من هذا . « فلما رأته حسبته لجة » يعني ان المرأة لما رأت الصرح ظنته لجة ، واللجة معظم الماء . ومنه لجج البحر خلاف الساحل . ومنه لجّ في الأمر اذا بالغ بالدخول فيه « وكشفت عن ساقيها » ظناً منها انها تريد ان تخوض الماء . وقيل : ان سليمان اجرى الماء تحت الصرح الذي هو كهيئة السطح . وقيل : الصرح صحن الدار يقال صرحة الدار ، وراحة الدار ، وقاعة الدار ، وقارعة الدار كله بمعنى صحن الدار . وقيل صرح القصر ، قال الشاعر :

بهن نعام بناه الرجال تشبه اعلامهن الصروحا(١)

وقال ابو عبيدة : كل بناء من زجاج او صخر او غير ذلك موثق ، فهو صرح ، ومنه « يا هامان ابن لي صرحاً » (٢) وقيل : انه اراد ان يختبر عقلها. وقيل : لأنهم كانوا قالوا : إن ساقيها مثل ساق الحمار برجل حمار ، لأنها من ولد بين الانس والجن ، لأنه قيل : ان الجن خافت ان يتزوج بها سليمان ،

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠٩ والطبري ٢٠/ ٤١

(٢) سورة ٤٠ المؤمن آية ٣٦

فقالوا ذلك لينفروا عنها ، فلما امتحن ذلك وجده على خلاف ما قيل فيه . وقيل : انه كان قيل : ان على ساقيها شعراً ، فلما كشفته بان الشعر فساءه ذلك واستشار الجن فى ذلك ، فعملوا له النورة والزرنيخ . وقيل : انه اول من اتخذ له ذلك . وقيل : انما فعل ذلك ليريها عظيم آيات الله لتسلم وتهتدي الى دين الله .

ثم قال لها « انه صرح ممرد من قوارير » فالمرد المملس ، ومنه الأمرد . وشجرة مرداء ملساء لا ورق عليها ، والمارد الخارج عن الحق المملس منه . فقالت عند ذلك يا رب « اني ظلمت نفسي » بما ارتكب من المعاصي بعبادة غيرك « واسلمت » الآن « مع سليمان لله رب العالمين » الذي خلق الخلق . وقيل : انها لما اسلمت تزوجها سليمان (ع) .

ثم اخبر تعالى انه أرسل « الى ثمود اخاهم صالحاً » يعني في النسب ، لأنه كان منهم « أن اعبدوا الله » موضع (ان) نصب ، وتقديره ارسلناه بأن اعبدوا الله ، وحده لا شريك له « فاذا هم فريقان يختصمون » يعني منهم مؤمن بصالح ومنهم كافر به ، فى قول مجاهد .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨)

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ لتبيتنه وأهله ثم لتقولن ﴾ بالتاء فيهما جميعاً. الباقون بالنون . وقرأ مجاهد بالياء . وقرأ ابو بكر عن عاصم ﴿ مهلك ﴾ بفتح الميم واللام ، وفي رواية حفص ـ بفتح الميم وكسر اللام ـ الباقون ـ بضم الميم وفتح اللام ـ قال ابو علي : من قرأ بضم الميم احتمل امرين :

احدهما ـ اراد المصدر من إهلاك اهله أي لم نشهد اهلاكهم .

الثاني ـ ان يكون المراد لم نشهد موضع إهلاكهم .

وقراءة حفص ايضاً تحتمل أمرين :

احدهما ـ ما شهدنا موضع هلاكهم .

والثاني ـ المصدر اي ما شهدنا هلاكهم . وقراءة ابي بكر معناها المصدر .

لما اخبر الله تعالى انه ارسل صالحاً الى قومه ، وانهم كانوا فريقين ، مسلم وكافر ، يخاصم بعضهم بعضاً ، قال لهم صالح ﴿ يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ فالاستعجال طلب التعجيل ، وهو الاتيان به قبل وقته . وكان هؤلاء الجهال إذا خوفوا بالعقاب قالوا ، على جهة الانكار لصحته متي هو ؟ وهلا يأتينا به ؟ ، فقال لهم صالح ﴿ لم تستعجلون ﴾ ذلك : قال مجاهد . يعني العذاب قبل الرحمة ، والسيئة ـ ههنا ـ المراد بها العقاب سماها سيئة لما فيها من الآلام ولأنها جزاء على الافعال السيئة ، لان السيئة هي الخصلة التي تسوء صاحبها حين

مجدها . والسيئة ايضاً هي الفعل القبيح الذي ، لا يجوز لفاعلها فعلها ، ونقيضها الحسنة . فقال لهم ﴿ لولا تستغفرون الله ﴾ ومعناه هلا تسألون الله الغفران به بدلا من استعجال العقاب ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ وإنما خرجت (لولا) الى معنى (هلا) لأنها كانت لامتناع الشيء الكون غيره ، كقولك : لولا زيد لأتيتك ، فخرجت الى الانكار ، لامتناع الشيء لفساد سببه فقال ﴿ لولا تستغفرون الله ﴾ منه . ثم اخبر بما اجابوه ، لانهم قالوا ﴿ اطيرنا بك وبمعنى معك ﴾ أي وبمن هو على دينك ، فالتطير التشاؤم ، وهو نسبة الشؤم الى الشيء على ما يأتي به الطير من ناحية اليد اليسرى وهو البارح ، والسانح هو اتيانها من جهة اليد اليمنى . واصل : (اطيرنا) تطيرنا ، دخلت فيه ألف الوصل ، لما سكنت الطاء للادغام ، فقال لهم صالح ﴿ طائركم عند الله ﴾ أي الشيء الذي تحذرونه بالتطير ﴿ عند الله ﴾ لانه القادر على عقابكم بما أنتم عليه من الكفر . والمعنى ـ في قول ابن عباس ـ معاقبتكم عند الله . ثم قال لهم : ليس ذلك للتشاؤم والتطير ﴿ بل انتم قوم تفتنون ﴾ فالفتنة ـ ههنا ـ قولهم ما زين لهم من الباطل .

ثم اخبر تعالى أنه « كان في المدينة » التي بعث الله منها صالحاً « تسعة رهط يفسدون في الأرض » أي يفعلون فيها المعاصي « ولا يصلحون » أي لا يفعلون الطاعات .

وقوله « قالوا تقاسموا بالله » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ قالوا متقاسمين إلا انه يحذف منه قد .

والآخر ـ انه أمر ، وليس بفعل ماض . « لنبيتنه وأهله » حكاية أنهم قالوا :﴿ لنبيتنه ﴾فمن قرأ بالنون اراد إنا نفعل بهم ذلك ليلا . ومن قرأ بالتاء ، فعلى انه خاطب بعضهم بعضاً بذلك . والمعنى انهم تحالفوا : لنطرقنهم ليلا ،

يقال لكل عمل بالليل تبييت ، ومنه قوله﴿ إذ يبيتون مالا يرضى من القول﴾(١) وانشد ابو عبيدة :

اتوني فلم ارض ما بيتوا وكانوا اتوني بامر نكر

لانكح امهم منذراً وهل ينكح العبد حر لحر(٢)

وقال ابن اسحاق انهم لما اتوا صالحاً لتبييته ، دفعتهم الملائكة بالحجارة ، ﴿ ثم لنقولون لوليه ﴾ معناه إنهم قالوا إذا قال لنا وليه وناصره : من فعل هذا قلنا له ﴿ ما شهدنا مهلك اهله ﴾ فمن ضم الميم اراد ما رأينا إهلاكه . ومن فتح الميم اراد مكان هلاكهم او اهلاكهم يريد المصدر ﴿ وانا لصادقون ﴾ فى هذا القول .

ثم اخبر تعالى انهم « مكروا » بهذا القول « ومكرنا » نحن ايضاً مكراً بأن جازيناهم على مكرهم وجعلنا وباله عليهم فانا أهلكناهم عن آخرهم . وقيل : ان الله أرسل عليهم صخرة أهلكتهم . ويحتمل أن يكون المعنى فى « مكرنا » انا انجينا المؤمنين بالمكر بالكفار بكل ما يقدرون عليه من الاضرار بهم ، وإلجائهم الى الايمان . وانما نسبه الى نفسه لما كان بأمره .

قوله تعالى :

﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)

(١) سورة ٤ النساء آية ١٠٧ (٢) مر تخريجه في ٣/ ٢٦٩ ، ٣١٩

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ ٱلنِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (٥٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ اهل الكوفة ويعقوب « أنا دمرناهم » بفتح الالف . الباقون بكسرها ومن فتح احتمل وجهين :

احدهما ـ النصب على البدل من (كيف) و (كيف) نصب بـ (انظر) .

والثاني ـ ان يكون (كيف) في موضع الحال و (دمرنا) خبر (كان) وتلخيصه ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أي عاقبة امرهم التدمير . وقيل : هو نصب بتقدير بأنا ، فلما حذف الباء نصب ، وقال الكسائي : هو في موضع الجر . ويحتمل الرفع أيضاً على البدل من (عاقبة) . ويحتمل أيضاً على الجواب ، كأنه قيل: ما كان عاقبة أمرهم ؟ فقيل : تدميرنا لهم .

يقول الله تعالى لنبيه (ص) « انظر » يا محمد وفكر « كيف كان عاقبة مكرهم » أي هؤلاء الكفار الذين كفروا ودمرناهم. والعاقبة الحال التي يؤدي اليها البادي، تقول : اعقبني هذا الدواء صحة . وأعقب هذا الطعام الرديء مرضاً ، وكذلك المعاصي تعقب النار . وقيل : ان بيوتهم هذه المذكورة بوادي القرى موضع بين الشام والمدينة . والمكر الأخذ بالحيلة للايقاع في بلية ، فلما مكر أولئك الكفار بصالح (ع) ليقتلوه، ومن آمن ولم يتم مكرهم ، وأدى مكرهم الى هلاكهم وتدميرهم والتدمير التقطيع بالعذاب ، فدمر الله قوم صالح بأن قطعهم بعذاب الاستئصال في الدنيا قبل الآخرة ، فلم يبق لهم باقية .

ثم اخبر تعالى ان بيوت أولئك الكفار « خاوية » أي خالية فارغة وكان رسمهم أن يكونوا فيها ويأوون اليها ، فلما أهلكهم الله ، صاروا عبرة لمن نظر اليها واعتبر بها . وقيل هذه البيوت المذكورة بوادي القرى .

وقوله « وانجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » اخبار منه تعالى انه انجى وخلص المؤمنين من قوم صالح لانهم كانوا يتقون معاصي الله ، خوفا من عقابه ، فالاتقاء الامتناع من البلاء بما يرد عن صاحبه ان ينزل به . والتقي هو العامل بما يتقي عنه العقاب . وقيل : ان الله تعالى دمر التسعة الرهط الذين يفسدون في الارض وقومهم .

وقوله « ولوطاً إذ قال لقومه » يحتمل امرين :

احدهما ـ نصب (لوطاً) بتقدير وأرسلنا لوطاً . الثاني ـ واذكر لوطاً حين قال لقومه منكراً عليهم افعالهم « اتأتون الفاحشة » يعني الخصلة القبيحة الشنيعة ، الظاهرة القبح ، وهي اتيانهم الذكران في أدبارهم « وانتم تبصرون » أي تعلمون أنها فاحشة . وقيل معناه : « وأنتم تبصرون » أي يرى بعضكم من بعض ان ذلك عتواً وتمرداً . ثم بين الفاحشة التي كانوا يفعلونها بقوله « أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء » التي خلقهن الله لكم . ثم اخبر تعالى عن لوط انه قال لهم « بل أنتم قوم تجهلون » اي تفعلون أفعال الجهال لجهلكم بمواقع نعم الله سبحانه وتعالى عليكم .

قوله تعالى :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِن

قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (٦٠)

خمس آيات بلا خلاف.

نصب « جواب قومه » بأنه خبر « كان » واسمها « أن قالوا » ولا يجوز وقع جواب - ههنا - لان ما بعد الايجاب وما قبلها نفي ، والنفي أحق بالخبر من الايجاب ، ومثله « ما كان حجتهم إلا قالوا » (١).

اخبر الله تعالى عن قوم لوط حين قال لهم لوط ما تقدم ذكره ، منكراً عليهم انه لم يكن لهم جواب عن ذلك ، بل عدلوا إلى أن قالوا ، بعضهم لبعض خرجوا لوطاً ومن تبعه « من قريتكم » فانهم « أناس يتطهرون » أي يتطهرون عن عملكم في إتيان الذكران من العالمين إذ تأمرونهم ، ويتنزهون عن ذلك ، فلا تجاوروهم وهذه صفتهم - وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة - فأخبر الله تعالى أنه أهلك هؤلاء القوم بأجمعهم وأنجى لوطاً وأهله الذين آمنوا به من

(١) سورة ٤٥ الجاثية آية ٢٤

ذلك الهلاك واستثنى من جملة أهله امرأته ، واخبر انه « قدرناها من الغابرين » أي جعلها من الغابرين لأن جرمها على مقدار جرمهم ، فلما كان تقديرها كتقديرهم في الاشراك بالله جرت مجراهم في انزال العذاب بهم . وقيل: « قدرناها » أي بما كتبنا إنها من الغابرين ، واخبر تعالى انه أمطر عليهم مطراً . قال الحسن : أمطرت الحجارة على من خرج من المدينة ، وخسف المدينة باهلها ، فهم يهوون الى يوم القيامة « فساء مطر المنذرين » وهم الذين أبلغهم لوط النذارة ، وأعلمهم بموضع المخافة ليتقوها ، فخالفوا ذلك. ونقيض النذارة البشارة ، وهي الاعلام بموضع الأمن ليجتبى ، والنذير البشير ينذر بالنار ويبشر بالجنة .

ثم قال لنبيه محمد (ص) قل يا محمد « الحمد لله » شكراً على نعمه بأن وفقنا للايمان « وسلام على عباده الذين أصطفى » يعني اجتباهم ، الله واختارهم يقال : صفا يصفو صفاء ، وأصفاه بكذا إصفاء ، واصطفاه اصطفاء ، ويصفى تصفياً وصفاء وتصفية ، وصافاه مصافاة .

وقوله « أما يشركون » من قرأ ـ بالتاء ـ وجهه الى انه خطاب لهم . ومن قرأ ـ بالياء ـ فعلى الخبر . وقوله « آلله خير أما » معناه خير لنا منا لأنفسنا ، ولفظ أفعل لا يدخل إلا بين شيئين يشتركان فى حكم ويفضل أحدهما على صاحبه ، وما يعبدون من دون الله لا خير فيه . قال ابوعلي : يجوز أن يقع ذلك في الخير الذي لاشر فيه ، والشر الذي لا خير فيه . وإن كان يتوهم بعض الجهال الأمر على خلاف ما هو به ، فتقول : هذا الخير خير من الشر . وانكر على من خالف هذا . واجاز قوم من اهل اللغة ذلك على ما مضى القول فيه فى غير موضع .

ثم قال لهم : أمن الذي « خلق السموات والارض » بأن انشأها واخترعها

« وانزل لكم من السماء ماء » يعني غيثاً ومطراً ﴿فأنبتنا به﴾ بذلك الماء ﴿حدائق﴾ وهي جمع حديقة ، وهي البستان إذا كان عليه حائط يحوطه ﴿ ذات بهجة ﴾ انما وصف (الحدائق) بلفظ الواحد في قوله ﴿ ذات ﴾ لان معناه جماعة ذات بهجة . وقيل : الحديقة البستان الذي فيـــه النخل ، و (البهجة) منظر حسن ابتهج به إذا سر .

ثم قال ﴿ ما كان لكم ان تنبتوا شجرها ﴾ أي لم تكونوا تقدرون على انبات شجر الحديقة ، لان الله تعالى هو القادر عليه لا غيره . ثم قال منكراً عليهم ﴿ أإله مع الله ﴾ يقدر على ذلك . ثم قال ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ بالله غيره لجهلهم . وقيل : يعدلون عن الحق . ومعنى الآية التنبيه على أن من قدر على انبات الحدائق ذات الشجر واخراج الشجر باكرم الثمار ، يجب اخلاص العبادة له ، وإن من عدل الى الاشراك به كافر بهذه النعمة الخفية .

قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ

يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (٦٥) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ اهل البصرة وعاصم «عما يشركون» بالياء. الباقون بالتاء. وقرأ ابو عمرو وهشام وروح «قليلا ما يذكرون» بالياء. الباقون بالتاء. من قرأ بالياء فى الموضعين جعله للمخاطبين ومن قرأ بالتاء فالى الغائبين.

يقول الله تعالى منبهاً على مواقع نعمه على خلقه، ممتناً بها عليهم بأن قال «أمن» الذي «جعل الأرض قراراً» بأن أسكنها للاستقرار عليها، وامكان التصرف عليها، فمن جعلها كذلك لمصالح عباده بها على ما يحتاجون اليه منها عالم حكيم، وهو أولى بالعبادة من الاصنام «وجعل خلالها أنهاراً» يعني خلال الأرض وهي المسالك فى نواحيها «أنهاراً» جمع نهر وهي المجرى الواسع من مجاري الماء، واصله الاتساع، فمنه النهار لاتساع ضيائه، ومنه انهار الدم إذا جرى، كالنهر «وجعل لها رواسي» يعني الجبال الثابتة، رست ترسو رسواً إذا ثبتت فلم تبرح من مكانها كالسفينة وغيرها، ومنه المراسي.

وقوله «وجعل بين البحرين حاجزاً» فالحاجز هو المانع بين الشيئين، أن يختلط احدهما بالآخر، وقد يكون ذلك بكف كل واحد منهما عن صاحبه. وفى ذلك دلالة على امكان كف النار عن الحطب، حتى لاتحرقه ولا تسخنه كما كف الماء المالح عن الاختلاط بالعذب. ثم قال «أإله مع الله» يقدر على ذلك،

تبكيتاً لهم على الاشراك به . ثم قال « بل أكثرهم لا يعلمون » حقيقة ما ذكرناه لعدولهم عن النظر في الدلالة المؤدية اليه . وقيل « بل أكثرهم لا يعلمون » مالهم وعليهم في العبادة إن اخلصوها ، او اشركوا فيها .

ثم قال « ام من يجيب المضطر إذا دعاه » فاجابة دعاء المضطر هو فعل ما دعا به ، لأجل طلبه ، وذلك لا يكون إلا من قادر عليه مختار له ، لانه يقع على ما دعا به الداعي « و يكشف السوء » يعني الآلام يصرفها عنكم « ويجعلكم خلفاء الارض » أي يجعل أهل كل عصر يخلفون العصر الاول « أإله مع الله » يقدر على ذلك

ثم قال « قليلا ما تذكرون » أي تفكرون قليلا بما قلناه ونبهنا عليه . ثم قال « أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر » بما نصب لكم من الدلالات التي تستدلون بها ، من الكواكب وغيرها ﴿ ومن ﴾ الذي ﴿ يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ يعني بين يدي المطر والغيث .

ومن قرأ بالنون أراد ملقحات . وقيل : معناه منتشرة . ومن قرأ بالباء أراد مبشرات بالمطر .

ثم نزه نفسه عن الاشراك به واتخاذ إله معه فقال ﴿ تعالى عما يشركون ﴾ ثم قال ﴿ أم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ﴾ يبدؤهم بأن يخترعهم ابتداء ، ثم يعيدهم بعد أن يميتهم ، ويعيدهم الى ما كانوا عليه ﴿ ومن يرزقكم من السماء والارض ﴾ من السماء بالغيث والمطر ، ومن الارض بالنبات وانواع الثمار ﴿ أإله مع الله ﴾ يقدر على ذلك ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ وحجتكم ﴿ ان كنتم صادقين ﴾ في قولكم محقين في الاشراك معه ، فاذا لم تقدروا على اقامة البرهان على ذلك ، فاعلموا انه لا إله معه ، ولا يستحق العبادة سواه ، لان كل ما يكون حقاً من أمر الدين لا بد أن يكون عليه دلالة وبرهان .

ثم قال لنبيه (ص) ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ لا يعلم من فى السموات والارض الغيب إلا الله ﴾ يعني الغائب عن الخلق لا يعلم به إلا الله تعالى أو من أعلمه الله . ثم اخبر انهم لا يشعرون متى يبعثون ويحشرون يوم القيامة .

قوله تعالى .

﴿ بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعِدْنَا هٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (٧٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير ، وأهل البصرة بل « أدراك » بقطع الهمزة، يقال : تدارك زيد أمره وأدارك بمعنى واحد . ومثله « إنـا لمدركون» (١) وقد شدد الاعرج وروى السموني ـ بكسر اللام ـ ووصل الهمزة وتشديد الدال من غير ألف . الباقون « بل ادارك » بمعنى تتابع علمهم وتلاحق حتى كمل . والمعنى بل ادارك فى الآخرة أي حين لم ينفعهم اليقين مع شكهم فى الدنيا ـ على ما ذكره ابن عباس ـ وقيل : انه قرأ « بلى ادارك » وادارك العلم لحاق الحال التي يظهر فيها

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٦٢

معلومه ، ففي الآخرة يظهر الحق بما يرى من الأمور التي من شأنها أن يقع عندها علم بمقتضى ما يحدث من عظم الأمور وقيل : معنى « بل » ههنا (هل) فكأنه قال : هل ادارك علمهم ، ومعناه انهم لا يعلمون الآخرة « بل هم فى شك منها » ومن شدد الدال قال أصله تدارك فأدغموا التاء فى الدال وقلبوا ألف الوصل . وقرأ اهل المدينة « إذا » على الخبر . الباقون بهمزتين على الاستفهام ، ويحقق الهمزتين ابن عامر وأهل الكوفة وروح ، إلاأن هشاماً يفصل بينهما بالف ، وابن كثير وابو عمرو ورويس يخففون الأولى ويلينون الثانية . ويفصل بينهما بالف أبو عمرو ، واما « ائنا » فقراءته على الخبر ، وزاد فيه نوناً ابن عامر والكسائي . الباقون بهمزتين وخففهما عاصم وحمزة وخلف وروح . الباقون يخففون الأولى ويلينون الثانية ، ويفصل بينهما بالف أهل المدينة إلا ورشاً ، وابو عمرو . وقد مضى تعليل هذه القراءات فيما مضى .

لما اخبر الله تعالى عن الكفار أنهم لا يشعرون متى يحشرون يوم القيامة وانهم ساخرون فى ذلك ، أخبر انهم يعلمون حقيقة ذلك يوم القيامة حين يبعثهم الله ، وانه لا ينفعهم علمهم في ذلك الوقت مع شكهم في دار الدنيا . وأخبر انهم فى شك من البعث في دار الدنيا ، وأنهم عمون عن معرفة حقيقته . وهو جمع (عمي) وشبه جهلهم بذلك بالعمى ، لان كل واحد منهما يمنع بوجوده من ادراك الشيء على ما هو به ، لأن الجهل مضاد العلم ، والعمى مناف الرؤية .

ثم حكى عن الكفار انهم قالوا متعجبين من البعث والنشور « أئذا كنا ترابًا » ويكون « آباؤنا » ترابًا ايضاً « ائنا لمخرجون » من قبورنا ومبعوثون ، يقولون ذلك مستهزئين منكرين . ثم اخبر انهم يحلفون ويقولون « لقد وعدنا هذا » البعث « نحن » فيما مضى وكذلك وعدبه « آباؤنا » ولم نعرف حقيقة

ذلك . ثم حكى انهم يقولون ليس « هـذا إلا اساطير الاولين » وانما اشتبه عليهم النشأة الثانية لطول المدة في النشأة الاولى على مجرى العادة ، ولو نظروا في أن من اجرى هذه العادة حكيم ، وانه قادر على نقض العادة ، كما قدر على اجرائها لزالت شبهتهم .

ثم امر نبيه (ص) ان يقول لهم « سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » لأنهم يرون آثار آبائهم وكيف أهلكهم الله وخرب ديارهم كعاد وثمود وغيرهم ، فيعلمون عند ذلك صحة ما قلناه ، ولا يأمنوا أن يحل بهم مثل ما حل بهم .

ثم نهى نبيه (ص) ان يحزن عليهم ويتأسف على تركهم الايمان وأن لا يكون في ضيق نفسه « مما يمكرون » ، فان وبال مكرهم عائد عليهم .

قوله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٧٥) خمس آيات بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم « يقولون متى هذا الوعد » الذي توعدنا به « ان كنتم صادقين » في اخباركم بذلك في البعث والنشور ، والوعد من الحكيم على ضربين :

احدهما ـ ان يكون مقيداً بوقت ، فاذا جاء ذلك الوقت فلا بد أن يفعل فيه ما وعد به .

والثاني ـ ان يكون مطلقاً غير موقت إلا انه لا بد أن يكون معلوماً لعلام الغيوب الوقت الذي يفعل فيه الموعود به ، فاذا كان ذلك الوقت معلقاً بزمان تعين عليه الفعل في ذلك الوقت ، فلا بد للموعود به من وقت ، وإن لم يذكر مع الوعد .

ثم امر نبيه (ص) ان يقول لهم « عسى ان يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون » فعسى من الله واجبة ، والمعنى ان الذي وعدكم الله به لا بد أن يردفكم ، والردف الكائن بعد الأول قريباً منه . والفرق بينه وبين التابع أن في التابع معنى الطلب لموافقة الأول . وترادف إذا تلاحق،تلاحقا،رادفا ، واردفه ارادفاً . ومعنى « ردف لكم » قرب منكم ودنا ـ في قول ابن عباس ـ وقيل : تبع لكم . والاستعجال طلب الأمر قبل وقته ، فهؤلاء الجهال طلبوا العذاب قبل وقته تكذيباً به . وقد أقام الله عليهم الحجة فيه. و (ردف)من الافعال التي تتعدى بحرف وبغير حرف ، كما قال الشاعر :

فقلت لها الحاجات تطرحن بالفتى　　وهم يعناني معناً ركائبه (١)

وقيل : ان الباء انما دخلت للتعدية . وقيل : انما دخلت لما كان معنى تطرحن ترمين ، وكذلك لما كان معنى « ردف لكم » دنا، قال « لكم» قال المبرد : معناه

(١) البيت في مجمع البيان ٤ / ٢٣١

ردفكم واللام زائدة . وقيل « بعض الذي تستعجلون » يوم بدر . وقيل : عذاب القبر .

ثم قال « وإن ربك لذو فضل على الناس » والفضل الزيادة على ما للعبد بما يوجبه الشكر ، فالعدل حق العبد . والفضل فيه واقع من الله لا محالة إلا انه على ما يصح وتقتضيه الحكمة .

ثم اخبر ان « اكثر الناس لا يشكرون » الله على نعمه بل يكفرونه .

ثم قال لنبيه (ص) « وإن ربك » يا محمد « ليعلم ما تكن صدورهم » أي ما تخفيه صدورهم ، يقال : كننت الشيء في نفسي ، وأكننته إذا سترته في نفسك ، فهو مكن ومكنون لغتان . قال الرماني : الاكنان جعل الشيء بحيث لا يلحقه أذى لمانع يصد عنه « وما يعلنون » أي يعلم ما يظهرونه ايضاً .

ثم قال « وما من غائبة في السماء والارض » أي ليس شيء يغيب علمه عن أهل السماء والارض « إلا » ويبينها الله « في كتاب المبين » وهو الكتاب المحفوظ . وقال الحسن : الغائبة القيامة . وقال النقاش : ما غاب عنهم من عذاب السماء والارض . وقيل : هو ما أخفاه الانسان عن قلبه وعينه . وقال البلخي : معنى « في كتاب مبين » أي هو محفوظ لا ينساه كما يقول القائل : أفعالك عندي مكنونة أي محفوظة .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ

رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ (٨٠) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ ابن كثير «ولا يسمع» بياء مفتوحة وفتح الميم «الصم» بالرفع. ومثله في الروم. الباقون «تسمع» بالتاء وكسر الميم «الصم» بالنصب، فوجه قراءة ابن كثير انه أضاف الفعل الى الصم، فلذلك رفعه. ووجه قراءة الباقين أنهم أضافوا الفعل الى النبي (ص) وجعلوا الصم مفعولا ثانياً.

اخبر الله تعالى أن هذا القرآن الذي انزله على نبيه محمد (ص) «يقص على بني اسرائيل أكثر» الاشياء التي اختلفوا فيها الكفار. والقصص كلام يتلو بعضه بعضاً فيما ينبيء عن المعنى، ومن اجاب غيره عما سأل لم يقل له انه يقص لانه اقتصر على مقدار ما يقتضيه السؤال. والاختلاف ذهاب كل واحد الى خلاف ما ذهب اليه صاحبه. والاختلاف ايضاً امتناع احد الشيئين أن يسد مسد صاحبه فيما يرجع الى ذاته. واختلاف بني اسرائيل نحو اختلافهم في المسيح حتى قالت اليهود فيه ما قالت، وكذبت بنبوته. وقالت النصارى ما قالته من نبوته، ووجوب إلهيته، وكاختلاف اليهود في نسخ الشريعة، فأجازه قوم في غير التوراة وأباه آخرون، فلم يجيزوا النسخ أصلا، واعتقدوا أنه بدأ. وكاختلافهم في المعجز، فقال بعضهم: لا يكون إلا بما لا يدخل تحت مقدور العباد. وقال آخرون: قد يكون إلا أنه ما يعلم أنه لا يمكن العباد الاتيان به،

وكاختلافهم فى صفة المبشر به فى التوراة ، فقال بعضهم : هو يوشع بن نون . وقال آخرون : بل هو منتظر لم يأت بعد . وكل ذلك قد دل القرآن على الحق فيه . وقيل : قد بين القرآن اختلافهم فى من سلف من الأنبياء . وقيل : ان بني اسرائيل اختلفوا حتى لعن بعضهم بعضاً كالاسماعينية والعنانية والسامرة .

ثم وصف تعالى القرآن بـ « انه لهدى ورحمة للمؤمنين » معناه انه بيان للحق فيما وقع الاختلاف فيه من بني اسرائيل وغيرهم إذا رجعوا اليه علموا مفهومه ، وانه من عند حكيم لا يقول إلا بالحق ، فالهدى الدلالة على طريق الحق الذي من سلكه اداه الى الفوز بالنعيم فى جنة الخلد ، فالقرآن هدى من هذا الوجه ، ورحمة للمؤمنين في تأديته الى ما فيه من مرضات الله تعالى .

ثم خاطب نبيه (ص) فقال ﴿ ان ربك ﴾ يا محمد ﴿ يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم ﴾ أي العزيز فى انتقامه من المبطلين العليم بالمحق المبين منهم من المبطل . وقيل: العليم بصحة ما يقضي به العزيز بما لا يمكن رد قضائه ، فهو يقضي بين المختلفين بما لا يمكن أن يرد ولا يلتبس بغير الحق .

وفى الآية تسلية للمحقين الذين خولفوا في أمر الدين ، لان أمرهم يؤول الى ان يحكم بينهم رب العالمين بما لا يمكن دفعه ولا تلبيسه .

ثم خاطب بينه (ص) فقال ﴿فتوكل على الله ﴾ يا محمد ﴿ انك على الحق المبين ﴾ الظاهر البين فى ما تدعو اليه . ثم شبه الكفار بالموتى الذين لا يسمعون ما يقال لهم ، وبالصم الذين لا يدركون دعاء من يدعوهم، من حيث انهم لم ينتفعوا بدعائه ولم يصيروا الى ما دعاهم اليه، فقال ﴿ انك ﴾ يا محمد ﴿ لا تسمع الموتى ﴾ لأن ذلك محال ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولو مدبرين ﴾ أي اعرضوا عن دعائك ولم يلتفتوا اليه ولم يفكروا في ما تدعوهم اليه ، فهؤلاء الكفار بترك الفكر فى مايدعوهم

اليه النبي (ص) بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ، وبمنزلة الصم الذين لا يدركون الأصوات .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاؤُا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ (٨٥) خمس آيات بلا خلاف

قرأ حمزة « تهدي » بالتاء مفتوحة وبسكون الهاء « العمي » بنصب الياء . ويقف على « تهدي » بالياء . الباقون « بهاد » بباء مكسورة وبألف بعد الهاء ، وخفض الياء من « العمي » على الاضافة في الموضعين . فقراءة حمزة تفيد الفعل المضارع . وقراءة الباقين اسم الفاعل .

يقول الله تعالى لنبيه لست يا محمد تهدي العمي عن ضلالتهم . والهادي هو الذي يدعو غيره الى الحق ويرشد اليه . وقد يدعو بالنطق بأن يقول : هو صواب وقد يدعو اليه بأن يبين أنه صواب ، فانه ينبغي أن يعمل عليه ويعتقد صحته ،

والضلالة الذهاب عن طريق الصواب وهو الهلاك بالذهاب عنه . وإنما شبه الله تعالى الكفار بأنهم عمي ، لانهم من حيث لم يهتدوا الى الحق ، ولم يصيروا اليه فكأنهم عمي ، وانما نفى أن يهديهم الى الحق بأن يحملهم عليه أو يجبرهم عليه ، ولم ينتف أن يكون هادياً لهم بالدعاء اليه ، ويبين لهم الحق فيه .

وقوله « ان تسمع إلا من يؤمن بآياتنا » معناه لا تسمع إلا من يطلب الحق بالنظر فى آياتنا ولا يلبث أن يسلم ، لان الدلائل تظهر له، وعقله يخاصمه حتى يقول بالحق ويعتقده . وانما قال انه يسمع المؤمنين ، من حيث أنهم الذين ينتفعون به ويسلمون له .

وقوله « وإذا وقع القول عليهم » قال قتادة : معناه وجب الغضب عليهم . وقال مجاهد : حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون . وقيل : معناه إذا وقع القول عليهم بأنهم قد صاروا الى منزلة من لا يفلح أحد منهم ولا أحد بسببهم ، أخذوا حينئذ بمنادي العقاب باظهار البراءة منهم . وقال ابن عمر ، وعطية : إذا لم يأمر الناس بالمعروف وينهوا عن المنكر تخرج الدابة . وقيل : انها تخرج من بين الصفا والمروة . وروى محمد بن كعب القرظي عن علي (عليه السلام) انه سئل عن الدابة ، فقال : (اما والله مالها ذنب وإن لها لحية) وفي هذا القول منه (ع) إشارة الى انه من ابن آدم . وقال ابن عباس : دابة من دواب الله لها زغب وريش لها أربعة قوائم . وقال ابن عمر : انها تخرج حتى يبلغ رأسها الغيم ، فيراها جميع الخلق . ومعنى « تكلمهم » قيل فيه قولان :

احدها ـ تكلمهم بما يسوؤهم من انهم صائرون الى النار ، من الكلام بلسان الآدميين الذي يفهمونه ويعرفون معناه ، فتخاطب واحداً واحداً ، فتقول له : يا مؤمن يا كافر . وقيل « تكلمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون »

أي بهذا القول . ذكره ابن مسعود .

الثاني ـ تكلمهم من الكلام . وقيل إنها تكتب على جبين الكافر أنه كافر وعلى جبين المؤمن أنه مؤمن . وروي ذلك عن النبي (ص) .

ثم قال « ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون » واستدل به قوم على صحة الرجعة في الدنيا ، لأنه قال : من كل أمة ، وهي للتبعيض فدل على ان هناك يوماً يحشر فيه قوم دون قوم ، لأن يوم القيامة يحشر فيه الناس عامة ، كما قال « وحشرناهم فلم نغادر منهم احداً » (١) . ومن حمل الآية على أن المراد باليوم يوم القيامة قال : إن (من) زائدة ، والتقدير ويوم نحشر كل أمة فوجاً أي فوجاً فوجاً من الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة « فهم يوزعون » أي يجمعون . وقال ابن عباس : معناه يدفعون . وقيل : يساقون . وقيل : يوقف أولهم على آخرهم .

وقوله « ووقع القول عليهم بما ظلموا » أي صاروا الى منزلة من لا يفلح احد منهم ، ولا احد بسببهم ، « فهم » في ذلك الوقت « لا ينطقون » بكلام ينتفعون به . ويجوز أن يكون المراد « لا ينطقون » أصلا لعظم ما يرونه ويشاهدونه من أهوال القيامة .

وقرأ اهل الكوفة « تكلمهم أن الناس » بفتح الالف ، لان ابن مسعود قرأ « بأن الناس » فلما سقطت الباء نصبوا (أن) . الباقون بالكسر على الاستئناف . وروي عن ابن عباس « تكلمهم » مخففاً اي تسمهم وتجرحهم تقول العرب كلمت زيداً إذا جرحته . وقد يقال ايضاً بالتشديد من الجراح ، ولا يقال في الكلام إلا بالتشديد .

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٤٨

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ
أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ
السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ
آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ
الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ
لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٣)

ثمان آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم « وكل أتوه » مقصورة على وزن (فلوه) الباقون « آتوه » ممدودة ومضمومة التاء على وزن ﴿ فالوه ﴾ وقرأ اهل الكوفة ﴿ من فزع ﴾ منوناً ﴿ يومئذ ﴾ بفتح الميم . الباقون بغير تنوين على الاضافة إلا ورشاً فانه نصب الميم من ﴿ يومئذ ﴾ مع الاضافة . ووجه هذه القراءة انه جعل (يوم) مع (إذ) كالاسم الواحد ، لان إضافة (يوم) الى (إذ) ليست محضة ، لان الحروف لا يضاف اليها ، ولا الى الافعال ، وانما أجازوا في اسماء الزمان الاضافة الى الحروف والى الافعال نحو : هذا يوم ينفع، لما خص وكثر . وقرأ اهل البصرة وابن كثير وابو بكر إلا يحيي والداجوني عن ابن ذكوان ﴿ يفعلون ﴾ بالياء . الباقون بالتاء . وقرأ اهل المدينة وابن عامر ويعقوب ﴿ عما تعملون ﴾ بالتاء . الباقون بالياء .

يقول الله تعالى منبها لخلقه على وجه الاعتبار والتنبيه على النظر بالفكر بجعله تعالى الليل ليسكن فيه خلقه ، من الحيوان من الحركات ، لأن من جعل الشيء لما يصلح له من الانتفاع ، فانما ذلك باختياره دون الطبع ، وما يجري مجراه مما ليس مختار ، ففي ذلك بطلان قول كل مخالف فيه . وقوله ﴿والنهار مبصراً﴾ يحتمل أمرين :

احدهما - انه جعل النهار ذا إبصار ، كما قال ﴿ عيشة راضية ﴾ (١) أي ذات رضا ، وكما قال النابغة :

كليني لهم يا أمية ناصب (٢)

أي لهم ذي نصب .

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٢١ وسورة ١٠١ الزلزال آية ٧

(٢) مر تخريجه في ٥/ ٩٥ ، ٣٢٩

الثاني ـ لأنه يريك الاشياء كما يراها من يبصرها بالنور الذي تجلى عنها فقيل هو كقول جرير :

لقد لمتنا ياأم غيلان فى السرى ونمت وما ليل المطي بنـائم (١)

اي بالذي ينام فيه . ثم قال ﴿ ان في ذالك لآيات ﴾ يعني دلالات واضحات لقوم يصدقون بالله وبتوحيده . وقوله ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾ منصوب بتقدير : واذكر ﴿ يوم ينفخ فى الصور ﴾ أي وذلك يوم ينفخ فى الصور ، يعني قوله ﴿ وقع القول عليهم بما ظلموا .... يوم ينفخ فى الصور ﴾ ويجوز أن يكون على حذف الجواب ، وتقديره وتكون البشارة الثانية يوم ينفخ فى الصور . وقيل : تقديره ويوم ينفخ في الصور يفزع ، لان المعنى إذا نفخ فى الصور فزع إلا أنه لما جاء الثاني بالفاء اغنى عن (يفعل) لأنها ترتب. وقال الحسن وقتادة : الصور صور الخلق . وقال مجاهد : هو قرن كالبوق ينفخ فيه . وقيل : النفخة الأولى نفخة الفزع . والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين .

وقيل : معنى ﴿ ففزع من في السموات ومن في الارض ﴾ من شدة الاسراع والاجابة، يقال: فزعت اليك فى كذا إذا أسرعت الى ندائه في معونتك. وقيل : هو ضد الأمن ، وهو الأولى . وقيل : وجه النفخ فى الصور أنه على تصور ضرب البوق للاجتماع على المسير الى أرض الجزاء بالحال التي تعرف في دار الدنيا . ومن ذهب الى أنه جمع صورة قال : المعنى نفخ الأرواح فى الاجساد بردها الى حال الحياة التي كانت عليها . وقوله ﴿ إلا من شاء الله ﴾ روي فى الخبر أن الشهداء من جملة الخلق لا يفزعون ذلك اليوم . وقيل :

(١) مر تخريجه في ٥/ ٤٦

﴿ إلا من شاء الله ﴾ يعني من الملائكة الذين يثبت الله قلوبهم . وقيل : اسرافيل هو النافخ في الصور بأمر الله تعالى . ثم قال ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ معناه إن جميع الخلق جاؤا لله داخرين أي صاغرين . فمن قصر ، حمله على انهم اتوه أي جاؤه . ومن مدّ ، حمله على أنهم جايؤه على وزن (فاعلوه) . ولفظة (كل) ههنا معرفة ، لأنها قطعت عن الأضافة ، كما قطع قوله ﴿ من قبل ومن بعد ﴾ (١) إلا أنه لم يبن ، لأنه قطع عن متمكن التمكن التام . وليس كذلك ﴿ من قبل ومن بعد ﴾ لأنه كان ظرفاً لا يدخله الرفع .

وقوله ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ قال ابن عباس : تحسبها قائمة وهي تسير سيراً حثيثاً سريعاً قال النابغة الجعدي :

ناز عن مثل الطود يحسب أنهم　　　وقوف لحاج والركاب تهملج (٢)

أي من أجل كثرتهم وإلتفافهم يحسب انهم وقوف ، فكذلك الجبال .

وقوله ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ نصب (صنع الله) بما دل عليه ما تقدم من الكلام من قوله ﴿ تمر مر السحاب ﴾ فكأنه قال : صنع الله صنع الذي أتقن كل شيء إلا انه اظهر اسم الله في الثاني ، لأنه لم يذكر في الأول وانما دل عليه . والاتقان حسن إيثاق . وقوله ﴿ انه خبير بما تفعلون ﴾ أي عليم بأفعالهم فيجازيهم بحسبها على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .

ثم بين كيفية الجزاء ، فقال ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ يعني بالخصلة الحسنة ﴿ فله خير منها ﴾ أي خير يصيبه منها . وقيل : فله أفضل منها في عظم النفع لأن له بقيمتها وبالوعد الذي وعده الله بها كأنه قال : من اتى بالحسنة التي هي الايمان والتوحيد والطاعة لله يوم القيامة يكون آمناً لا يفزع كما يفزع الكفار

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٤　　(٢) تفسير الطبري ٢٠/١٤

والفساق . وقيل : هم من فزع الموت في الدنيا آمنون في الآخرة . وقيل : من فزع يوم القيامة في الجنة آمنون . ثم قال ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ يعني بالمعصية الكبيرة التي هي مثل الكفر والشرك ، وما جرى مجراهما . وقال جميع المفسرين: إن السيئة ـ ههنا ـ الشرك ، فان الله تعالى يكبه على وجهه في النار . ويقال : كبه واكبه إذا نكسه ، ويقال لهم ﴿ هل تجزون ﴾ بهذا العقاب ﴿ إلا ﴾ مكافأة لما كنتم تفعلون وتعملون في دار التكليف من المعاصي .

ثم قال لنبيه ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ انما أمرت أن أعبد رب هـذه البلدة ﴾ يعني مكة ـ في قول ابن عباس ـ وقال غيره : منى ، أي أمرت بعبادة رب هذه البلدة لم أؤمر بعبادة سواه ﴿ التي حرمها ﴾ وقيل : معنى (حرمهـا) عظم حرمتها من أن يسفك دم حرام فيها أو يظلم أحد فيها أو يصطاد صيدها أو يخلى خلاؤها وقيل : حرمها حتى أمن الوحش فيها ، فلا يعدو الكلب على الغزال ، ولا على الطير ولو خرج من الحرم لنفر أشد النفور ، فذكر هـذه الآية في الحرم ﴿ وله كل شيء ﴾ أي يملك كل شيء بالتصرف فيه على وجه يريده ويختاره ، وليس لأحد منعه منه ﴿ وأمرت ان أكون من المسلمين ﴾ الذين يسلمون بتوحيده واخلاص العبادة له مستسلمين له ﴿ وأمرت أن أتلو القرآن ﴾ عليكم وادعوكم الى مافيه ﴿ فمن اهتدى ﴾ الى الحق والعمل بما فيه ﴿ فانما يهتدي لنفسه ﴾ لأن جزاء ذلك وثوابه يصل اليه دون غيره ﴿ ومن ضل ﴾ عنه وجار ولم يعمل بما فيه ولم يهتد الى الحق ﴿ فقل ﴾ له يا محمد ﴿ انما أنا من المنذرين ﴾ الذين يخوفون بعقاب الله من معاصيه ، ويدعون الى طاعتـه . وفي ذلك دلالة على فساد قول المجبرة الذين يقولون : ان الله يخلق الايمان والهداية والكفر والضلالة .

ثم امر نبيه (ص) بان يقول ﴿ الحمـد لله ﴾ اعترافا بنعمه ﴿ سيريكم

آياته ﴾ يعني دلالاته التي ليس يمكنكم جحدها . وقال الحسن : معناه يريكم آياته في الآخرة فتعرفون انها على ما قال في الدنيا . وقيل : يريكم في الدنيا ما ترون من الآيات في السماء والارض ، فتعرفونها أنها حق . ذكره مجاهد . ثم قال وليس ربك يا محمد ﴿ بغافل عما تعملون ﴾ من قرأ بالياء يعني عما يفعله المشركون . ومن قرأ بالتاء ، فعلى تقدير : قل لهم : ليس ربكم بغافل عما تعملونه بل هو عالم بجميع ذلك فيجازيكم عليه ، وفي ذلك غاية التهديد .

* * *

٢٨ - سورة القصص

مكية في قول قتادة والحسن وعطاء وعكرمة ومجاهد ليس فيها ناسخ ولا منسوخ
وقال ابن عباس آية منها نزلت بالمدينة وقيل بالجحفة وهي
قوله « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد »
وهي ثمانون وثمان آيات بلاخلاف في جملتها واختلفوا في
رأس آيتين سأذكرها عند كتابتها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ
مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ
عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ
أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ
نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ
الْوَارِثِينَ ﴾ (٥) .

خمس آيات كوفي وأربع فيما عداه . عد الكوفي « طسم » آية ولم يعدها الباقون .

قد بينا معنى هذه الحروف في أوائل السور في عدة مواضع ، فلا فائدة في إعادته ، وقوينا قول من قال : إنها اسماء للسور .

وقوله « تلك آيات الكتاب » أي تلك آيات الكتاب التي وعدتم بانزالها . وقيل معناه هذا القرآن هو الكتاب المبين - ذكره الحسن - وقيل : في معنى «المبين» قولان : احدهما - قال قوم : المبين أنه من عند الله . وقال قتادة : المبين الرشد من الغي . والمبين هو البين أيضاً . وأضاف الآيات الى الكتاب ، وهي الكتاب كما قال « انه لحق اليقين » (١) .

ثم خاطب نبيه (ص) فقال « نتلو عليك » يا محمد طرفاً من اخبار « موسى وفرعون بالحق » على حقيقة البيان وهو اظهار المعنى للنفس بما تميزه من غيره مشتق من أبنت كذا من كذا إذا فصلته منه . والبرهان إظهار المعنى للنفس بما يدعو الى انه حق مما هو حق في نفسه . والتلاوة الاتيان بالثاني بعد الأول في القراءة بما يتلوه تلاوة ، فهو تلل لمقدم ، والمقدم والتالي مثل الأول والثاني . والنبأ الخبر عما هو أعظم شأناً من غيره . والحق هو ما يدعو اليه العقل ، ونقيضه الباطل ، وهو ما صرف عنه العقل .

وقوله « لقوم يؤمنون » معناه إنا نتلو عليك هذه الأخبار لقوم يصدقون بالله ، وبما أنزل عليك ، لانهم المنتفعون به ، والايمان التصديق بفعل ما يؤمن من العقاب .

ثم اخبر تعالى فقال « ان فرعون علا في الارض » أي تجبر وبغى - في

---

(١) سورة ٩٦ الحاقة آية ٥١

قول قتادة وغيره ـ ببغيه واستعباده بني إسرائيل ، وقتل أولادهم . وقيل : بقهره وادعائه الربوبية . وقيل : بشدة سلطانه « وجعل اهلها شيعاً » أي قوماً « يستضعف طائفة منهم » فيستعبدهم و« يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم » أي يستبقي بناتهم فلا يقتلهن . وقيل : إنه كان يأمر باخراج أحيائهن الذي فيه الولد والأول هو الصحيح .

ثم اخبر تعالى وحكم بأن فرعون « كان من المفسدين » في الارض والعاملين بمعاصي الله . ثم وعد تعالى فقال « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض » وهو عطف على قوله « يستضعف طائفة منهم » ونحن نريد أن نمن . وقال قتادة : يعني من بني اسرائيل « ونجعلهم أئمة » يقتدى بهم « ونجعلهم الوارثين » لمن تقدمهم من قوم فرعون .

وروى قوم من أصحابنا أن الآية نزلت في شأن المهدي (ع) وأن الله تعالى يمن عليه بعد أن استضعف . ويجعله إماماً ممكناً ، ويورثه ما كان في ايدي الظلمة .

قال السدي : إن فرعون رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني اسرائيل فسأل علماء قومه ، فقالوا : يخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يده ، فامر بذبح أبنائهم واستحياء نسائهم ، وأسرع الموت في شيوخ بني إسرائيل ، فقالت القبط لفرعون : ان شيوخ بني إسرائيل قد فنوا ، وصغارهم قد قتلتهم ، فاستبقهم لعملنا وخدمتنا ، فأمرهم أن يستحيوا في عام ، ويقتلوا في عام ، فولد في عام الاستحياء هارون ، وولد في عام القتل موسى ، قال الضحاك : عاش فرعون

أربع مئـة سنة ، وكان قصيراً وسيماً ، وهو أول من خضب بالسواد . وعاش موسى مئة وعشرين سنة . وقيل : ان فرعون كان من أهل الاصطخر .

قوله تعالى:

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ اهـل الكوفة إلا عاصماً « وحزناً » بضم الحاء ، واسكان الزاي . الباقون بفتحهما ، وهما لغتان . يقال : حزن وحزن مثل نجل ونجل . وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « ويري فرعون وهامان » بالياء ورفع (فرعون ، وهامان) باسناد الرؤية اليهما . الباقون بالنون ، ونصب (فرعون وهامان) باسناد الفعل الى الله ، وكونهما مفعولين .

لما اخبر الله تعالى أنه يريد ان يمن على الذين استضعفوا في الارض ويجعلهم أئمة ، أخبر في هـــذه الآية أنه يريد أن يمكنهم في الارض ، والتمكين هو فعل جميع مالا يصح الفعل ولا يحصل إلا معه: من القدرة والآلة واللطف وغير ذلك. وقال الرماني :اللطف لايدخل في التمكين ، لانه لو دخل فيه لكان من لا لطف له لم يكن ممكناً ، ولكن يقال : انه من باب ازاحة العلة . ثم بين انه تعالى «يري فرعون وهامان وجنودهما منهم » يعني من بني اسرائيل « ما كانوا يحذرون » من زوال ملكهم على يد رجل من بني اسرائيل ، ولذلك ذبح فرعون أبناءهم . ومن قال : ان الآية في شأن المهدي (ع) حمل فرعون وهامان على فرعون هذه الأمة وهامانها ، والكناية في «منهم» عائدة على أنصار المهدي (ع) قالوا : وهذه أولى ، لانه بلفظ الاستقبال ، لأن في أوله النون او الياء على اختلاف القراءتين وهما للمضارعة .

والحذر توقي ما فيه المضرة ، فهؤلاء الذين طلبوا الحذر في غير وجهه ، اذ قتلوا الاطفال ظلماً لأجله ، ولو طلبوه بالرجوع الى الله ، ودعائه ليكشف عنهم لكانوا طالبين له من وجهه .

وقوله « وأوحينا الى أم موسى » أي ألهمناها ، وقذفنا في قلبها ، وليس بوحي نوم ، ولا نبوة ـ في قول قتادة وغيره ـ وقال الجبائي : كان الوحي رؤيا منام عبر عنه مؤمن به من علماء بني إسرائيل . وقوله «أن ارضعيه » أي ألهمناها إرضاع موسى « فاذا خفت عليه فألقيه في اليم » فالخوف توقع ضرر لا يؤمن به. وقال الزجاج : معنى «أوحينا الى أم موسى » اعلمناها ، وقوله « فالقيه في اليم» أمر من الله تعالى لأم موسى انها إذا خافت على موسى من فرعون أن ترضعه وتطرحه في اليم . واليم البحر ، ويعني به النيل « ولا تخافي ولا تحزني » نهي من الله تعالى

لها من الخوف والحزن ، فانه تعالى أراد أن يزيل خوف أم موسى بما وعدها الله من سلامته على أعظم الأمور في القائه في البحر الذي هو سبب الهلاك في ظاهر التقدير ، لولا لطف الله تعالى بحفظه حتى يرده الى أمه . ووعدها بأنه يرده عليها بقوله « انا رادوه اليك » ووعدها أيضاً بان يجعله من جملة الانبياء المرسلين بقوله « وجاعلوه من المرسلين » .

ثم اخبر ان آل فرعون التقطوه ، وفي الكلام حذف ، لان تقديره ان أم موسى طرحته في البحر ومضى في البحر الى أن بلغ قصر فرعون فالتقطه آل فرعون . والالتقاط هو اصابة الشيء من غير طلب ، ومنه اللقطة قال الراجز :

ومنهل وردته التقـاطا لم ألق اذ وردته فراطا (١)

وقوله « ليكون لهم عدواً وحزناً » اللام لام العاقبة ، لأنهم لم يلتقطوه لأن يصير لهم عدواً وحزناً ، بل التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ومثله قول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب (٢)

ومنه قوله « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً » (٣) . ثم اخبر تعالى « إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » عاصين لله في أفعالهم ، ثم حكى تعالى أن امرأة فرعون لما جيء بموسى اليها ورأته وعطف الله بقلبها عليه جاءت به الى فرعون ، وقالت « قرة عين لي ولك » أي قرة عين هذا الولد لي ولك « لاتقتلوه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولداً » إذا ربيناه وكبر « وهم لا يشعرون » بأن هلاكهم على يديه ، في قول قتادة .

ثم قال « وأصبح فؤاد امموسى فارغاً » قال ابن عباس وقتادة والضحاك :

---

(١) تفسير الطبري ٢٠ / ١٩ والقرطبي ١٣ / ٢٥٢

(٢) مر في ٣ / ٦٠ و ٥ / ٤٣ (٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٨

معناه فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى . وقال الحسن وابن زيد وابن اسحاق : فارغاً من وحينا بنسيانه ، فانها نسيت ما وعدها الله به . وقيل : فارغاً من الحزن لعلمها بأن ابنها ناج سكوناً الى ما وعد الله وقبلت به . وقوله « إن كادت لتبدي به » قال ابن عباس وقتادة والسدي : معناه كادت لتبدي بذكر موسى . وتقول : يا ابناه . وقيل : ان كادت لتبدي بالوحي . وقوله « لو لا أن ربطنا على قلبها » فالربط على القلب تقويته على الأمر حتى لا يخرج منه الى ما لا يجوز ، وجواب (لولا) محذوف ، وتقديره لولا أن ربطنا على قلبها لأظهرته . وقوله « لتكون من المؤمنين » معناه فعلنا ذلك بها لتكون من جملة المؤمنين المصدقين بتوحيد الله وعدله ،

قوله تعالى:

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ

هٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٥) خمس آيات بلاخلاف .

حكى الله تعالى عن أم موسى أنها قالت لأخت موسى : قصيه أي اتبعي اثره ، يقال قصه يقصه قصاً إذ اتبع اثره ، ومنه القصص ، لانه حديث يتبع بعضه بعضاً يتبع الثاني للاول ، والاقتصاص اتباع الجاني في الأخذ بمثل جنايته في النفس .

« فبصرت به عن جنب » معنى (فبصرت به) رأته ، وهو لا يتعدى إلا بحرف الجر . والرؤية تتعدى بنفسها . وقال مجاهد : معناه عن بعد ، ومثله أبصرته عن جنابة قال الاعشى :

أتيت حريثاً زائراً عن جنابة　　فكان حريث عن عطائي جامدا (١)

أي عن بعد ، وقيل : معنى « عن جنب » عن مكان جنب ، وهو الجانب لأن الجنب صفة وقعت موقع الموصوف لظهور معناه ، وكان ذلك احسن واوجز « وهم لا يشعرون » قال قتادة : معناه وآل فرعون لا يشعرون انها اخته .

وقوله « وحرمنا عليه المراضع » وهي جمع مرضعة ومعناه منعناه منهن وبغضناهن اليه ، فكان ذلك كالمنع والنهي ، لا أن هناك نهياً عن الفعل ، قال الشاعر :

جاءت لتصرعني فقلت لها اقصري　　اني امرء صرعي عليك حرام (٢)

اي ممتنع فاني فارس امنعك من ذلك ، ومثله قولهم : فلان حرم على

(١) ديوانه (دار بيروت) ٤٣　　(٢) مر هذا البيت في ٣ / ٤٨٩

نفسه كذا بالامتناع منه ، كالامتناع بالنهي . وقوله « من قبل » أي من قبل ردّه على أمه « فقالت هل أدلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » معناه يضمنونه برضاعه والقيام عليه ، وينصحونه في ذلك ، فقيل لأخته من أين قلت : انهم ناصحون له أعرفت أهله ، فقالت : إنما عنيت ناصحون للملك . والنصح اخلاص العمل من شائب الفساد ، وهو نقيض الغش : نصح ينصح نصحاً ، فهو ناصح في عمله ، وناصح في نفسه في توبته إذا اخلصها . وقوله « فرددناه الى أمه كي تقر عينها ولا تحزن » قيل : إن فرعون سأل أمه كيف يرتضع منك ، ولم يرتضع من غيرك ؟ ! قالت : لأني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا اكاد أؤتى بصبي إلا ارتضع مني . وبين تعالى انه إنما فعل ذلك « كي تقر عينها » يعني عين أمه ، فرده عليها « ولتعلم ان وعد الله حق » لابد من كونه . ثم قال « ولكن اكثرهم » اى الخلق « لا يعلمون » حقيقة ما يراد بهم . وقيل : من قوم فرعون ما علمته أم موسى ، ومن لطيف تدبير الله تسخير فرعون لعدوه حتى تولى تربيته .

وقوله « ولما بلغ أشده واستوى » قال قتادة : اشده ثلاث وثلاثون سنة ، واستواؤه اربعون سنة . وقيل استواء قوته ﴿ آتيناه ﴾ يعني أعطيناه ﴿ حكماً وعلماً ﴾ قال السدى : يعني النبوة . وقال عكرمة : يعني العقل . وقال مجاهد : الفرقان . والحكم الخبر بما تدعو اليه الحكمة . والمعنى علمناه من الحكمة ما تقتضي المصلحة ، واوحينا اليه بذلك . ثم قال: ومثل ما فعلنابه نجزي أيضاً من فعل الاحسان . وفعل الطاعات والافعال الحسنة .

ثم اخبر تعالى ان موسى ﴿ دخل المدينة ﴾ يعني مصر ، وقيل : غيرها ﴿ على حين غفلة من اهلها ﴾ قيل : إنه كان وقت القائلة . وقيل : لأنهم

غفلوا عن ذكره لبعد عهدهم به . وقيل : انه كان يوم عيد لهم قد أشتغلوا بلهوهم ولعبهم . وقوله ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴾ قال مجاهد : يعني من شيعته إنه كان اسرائيلياً ، والآخر إنه كان قبطياً . وقال ابن اسحاق : كان احدهما مسلماً ، والآخر كافراً ﴿ فاستغاثه الذى من شيعته على الذي من عدوه ﴾ أى استنصره لينصره ﴿ فوكزه موسى ﴾ اى دفع في صدره ، وجميع كفه (ولكزه) مثل وكزه ولهزه ﴿ فقضى عليه ﴾ اى مات ، فقال عند ذلك موسى ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ اى من اغوائه حتى زدت من الايقاع به ، وإن لم اقصد قتله . وقيل : ان الكناية عن المقتول ، فكأنه قال : ان المقتول من عمل الشيطان اي عمله عمل الشيطان . ثم وصف الشيطان بأنه ﴿ عدو ﴾ للبشر ظاهر العداوة . وقوله ﴿ هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴾ إشارة الى الرجلين اللذين احدهما من شيعة موسى ، والآخر من عدوه إنما هو على وجه الحكاية للحاضر إذا نظر اليهما الناظر قال هذا من شيعته وهذا من عدوه .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ

يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ(١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن موسى انه حين قتل القبطي ندم على ذلك وقال يا « رب إني ظلمت نفسي » بقتله وسأله ان يغفر له ، فحكى الله تعالى انه « غفر له » لان « الله هو الغفور » لعباده « الرحيم » بهم المنعم عليهم . وعنـد أصحابنا أن قتله القبطي لم يكن قبيحاً ، وكان الله أمره بقتله ، لكن كان الأولى تأخيره الى وقت آخر لضرب من المصلحة ، فلما قـــدم قتله كان ترك الأولى والافضل ، فاستغفر من ذلك لا أنه فعل قبيحاً . وقال جماعة : ان ذلك كان منه صغيرة غير انها وقعت مكفرة لم يثبت عليها عقاب ، ويكون قوله « رب إني ظلمت نفسي » على الوجه الأول أي بخست نفسي حقها بأن لم أفعل ما كنت أستحق به ثوابا زائداً . وعلى المـذهب الثاني مذهب من يقول بالموازنة يقول : لأنه نقص من ثوابه ، وكان بذلك ظالمـاً لنفسه . فأما من قال : إن ذلك كان كبيرة منه وظلماً فخارج عما نحن فيـه ، لأن ادلة العقل دلت على أن الأنبياء لا يجوز عليهم شي من القبائح ، لا كبيرها ولا صغيرها . ومن قال : إنه كان ذلك صغيرة ، قال : كان دفعه له المؤدي الى القتل صغيرة ، لا أنه قصد القتل وكان صغيرة .

وقوله « قال رب بما أنعمت علي فلن اكون ظهيراً للمجرمين» معناه إن أنعمت علي فلن اكون ، فهو مشبه بجواب الجزاء ، ولذلك دخلت الفاء فى الجواب ، وإذاوقع الانعام قيل لما أنعمت ، فلن أكون ، لأنها فى كلاالموضعين تدل على أن الثاني وقع من أجل الاول . ويحتمل أن يكون ذلك قسماً منموسى بنعم اللهعليه ، بمغفرته ، وفنون نعمه بأن لا يكون معيناً على خطيئة ، ولايكون ظهيراً . والظهير المعين لغيره بما به يصير كالظهر له الذي يحميه من عدوه .

وقوله « فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب » معناه إن موسى أصبح خائفاً من قتل القبطي ، يترقب الأخبار ـ فى قول ابن عباس ـ والترقب التوقع . وقوله « فاذا الذي استنصره بالأمسيستصرخه » يعني رأى من كان استنصره بالأمس ، بأن طلب نصرته علىعدوه « يستصرخه » أي يطلب نصرته ايضاً . وقيل : يطلب الصراخ على العدو بما يردعه عن الايقاع بمن قد تعرض له « قال له موسى انك لغوي مبين » أي عادل عن الرشد ، ظاهر الغواية ، ومعناه انك لغوي فى قتالكمنلا تطيق دفع شره عنك ، من أصحاب فرعون ، خائب فيما تقدر أن تفعله .

وقوله « فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما » قيل : إن موسى هم أن يدفع العدو عن نفسه وعن صاحبه ، ويبطش به « قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس » قال الحسن : هو من قول الفرعوني ، لانه كان قد اشتهر أمر القتل بالأمس أنه قتله بعض بني إسرائيل . وقال ابن عباس واكثر اهل العلم انه من قول الأسرائيلي ، لأنه قال له موسى انك لغوي مبين ، خاف على نفسه فظن أنه يريد الايقاع به ، فقال ما قال . وقوله « إن تريد إلا أن تكون جباراً في الارض » اي است تريد بقتل من قتلته

بالأمس إلا أن تكون جباراً متكبراً فى الارض « وما تريد » اي ولست تريد « أن تكون من » جملة « المصلحين » .

وقوله « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » قيل هو مؤمن آل فرعون « قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » أي يأمر بعضهم بعضاً بقتلك. وقيل : يأتمرون معناه يرتاؤن، قال نمر بن تولب :

أرى الناس قد احدثوا شيمة   وفى كل حادثه يؤتمر (١)

أي يرتاء، وقال آخر :

ما تأتمر فينـــا فأمـ   ـرك فى يمينك أو شمالك

فقوله « فاخرج اني لك من الناصحين » حكاية ما قال الرجل لموسى ، وانه ناصح له بقوله ، يحذره من اعدائه . وقال الزجاج : وقوله « اني لك » ليست من صلة « الناصحين » لان الصلة لاتقدم على الموصول ، لكن تقديره : إني من الناصحين الذين ينصحون لك ، يقال : نصحت لك و نصحتك ، والاول اكثر .

قوله تعالى :

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ (٢٢) وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ

(١) تفسير الطبري ٢٠/٣١ والقرطبي ١٣/٢٦٦

لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ (٢٥) .

خمس آيات كوفي، وست فيما عداه ، عد الكل « يسقون » آية إلا الكوفيين فانهم عدوها وما بعدها الى « كبير » آية . قرأ ابو عمرو ، وابن عامر ، وابو جعفر « حتى يصدر » بفتح الياء وضم الدال. الباقون ـ بضم الياء وكسر الدال ـ والصدر الانصراف عن الماء : صدر يصدر صدراً وأصدره غيره إصداراً ، ومنه والصدر ، لان التدبير يصدر عنه ، والمصدر لان الافعال تصدر عنه . فمن فتح الياء أسند الفعل الى الرعاء ، ومن ضمه أراد اصدارهم عنه ومواشيهم .

حكى الله تعالى ان موسى لما انذره مؤمن آل فرعون ، وأن اشراف قومه ورؤساءهم قد ائتمروا على قتله ، وأمره بالخروج من المدينة خرج (ع) « خائفاً يترقب » أي يطلب ما يكون ويتوقعه ، والترقب طلب ما يكون من المعنى على حفظه للعمل عليه ، ومثله التوقع وهو طلب ما يقع من الأمر متى يكون . وقال قتادة : وخرج منها خائفاً من قتله النفس يترقب الطلب . وقيل خرج بغير زاد وكان لا يأكل الاحشاش الصحراء الى أن بلغ ماء مدين .

وقوله « قال رب نجني من القوم الظالمين » حكاية ما دعا به موسى ربه ، وانه سأله أن يخلصه من القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله ، وذلك يدل على أن خوفه كان من القتل .

وقوله « ولما توجه تلقاء مدين » فالتوجه صرف الوجه الى جهة من الجهات، ويقال : هذا المعنى يتوجه الى كذا أي هو كالطالب له بصرف وجهه اليه ، وتلقاء الشيء حذاه ، ويقال : فعل ذلك من تلقاء نفسه أي من حذا داعي نفسه ، و (مدين) لاينصرف ، لانه إسم بلدة معرفة ، قال الشاعر :

رهبان مدين لو رأوك تنزلوا والعصم من شعف العقول الفادر (١)

الشعف أعلى الجبل ، والفادر الكبير . وقال ابن عباس : بين مصر ومدين ثمان ليال ، نحو ما بين الكوفة والبصرة ،

وقوله « عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » حكاية ما قال موسى في توجهه ، فانه قال : عسى أن يدلني ربي على سواء السبيل ، وهو وسط الطريق المؤدي الى النجاة ، لأن الأخذ يميناً وشمالا يباعد عن طريق الصواب ، ويقرب منه لزوم الوسط على السنن ، فهذا هو المسعى في الهداية ، وقال الشاعر :

حتى اغيب في سواء الملحد

اي في وسطه ، وقال عطاء: عرضت له أربع طرق لم يدر أيها يسلك ، فقال ما قال . ثم أخذ طريق مدين حتى ورد على شعيب ، وهو قول عكرمة . ثم حكى تعالى أن موسى « لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة » يعني جماعة « من الناس يسقون » بهائمهم ويستسقون الماء من البئر «ووجد من دونهم » يعني دون الناس « امرأتين تذودان » أي يحبسان غنمهما ويمنعانها من الورود الى الماء يقال : ذاذ شاته و إبله عن الشيء يذودها ذوداً إذا احبسها عنه بمنعها منه ، قال سويد بن كراع :

---

(١) مر تخريجه في ٣/٦٠١

أبيت على باب القوا في كأنما أذود بهاسرباًمن الوحش شرعاً (١)

وقال الآخر :

وقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدري بأي عصاً تذود (٢)

وقال الفراء : لا يقال : ذدت الناس ، وإنما قالوا ذلك في الغنم والإبل ، وقال قتادة : كانتا تذودان الناس عن شائهما . وقال السدي : تحبسان غنمهما فقال لهما موسى « ما خطبكما » أي ما شأنكما ؟ في قول ابن اسحاق ، قال الراجز :

يا عجبا ما خطبه وخطبي (٣)

والخطب الأمر الذي فيه تفخيم ، ومنه الخطبة ، لأنها في الأمر المعظم ، ومن ذلك خطبة النكاح والخطاب ، كل ذلك فيه معنى العظم . فأجابتاه بأننا لا نسقي غنمنا حتى يصدر الرعاء وواحد الرعاء راع ، ويجمع ايضاً رعاة ورعياناً ، والمعنى انالانسقي حتى ينصرف الرعاء ـ فيمن فتح الياء ـ أو يصرفون غنمهم ـ فيمن ضم الياء ـ لأنا لاقوة بنا على الاسقاء ، وإنما ننتظر فضول الماء في الحوض ـ في قول ابن عباس وقتادة وابن اسحاق ـ « وابونا شيخ كبير » لا يقدر على أن يتولى ذلك بنفسه . وقوله « فسقى لهما » قال شريح : رفع لهما حجراً عن بئر لا يقدر على رفعه إلا عشرة رجال ثم استقى لهما . وقال ابن اسحاق : إنه زحم الناس عن الماء حتى آخرهم عنه حتى سقى لهما . وقوله « ثم تولى الى الظل فقال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير » معناه إني الى ما أنزلت فاللام بمعنى الى ، و (ما) بمعنى الذي وما بعده من صلته و (لما) متعلق بقوله (فقير) وتقديره أي فقير

(١) تفسير الطبري ٢٠ / ٣٣ والقرطبي ١٣ / ٢٦٦

(٢) تفسير الطبري ٢٠ / ٣٣ والقرطبي ١٣ / ٢٦٨

(٣) قائله رؤبة . تفسير القرطبي ١٣ / ٢٦٨ والطبري ٢٠ / ٣٣

الى ما أنزلت الي من خير . قال ابن عباس : أدرك موسى جزع شديد ، فقال « رب إني لما انزلت الي من خير فقير » وفي الكلام حذف ، لان التقدير إن المرأتين عادتا الى أبيهما وشكرتا فعله ، فقال أبوهما لاحداهما ادعية لي لأجزيه على فعله « فجاءت احداهما تمشي على استحياء » قيل : معناه متسترة بكم درعها أو قميصها ، فقالت له « ان ابي يدعوك» ليكافيك على ما سقيت لنا وإن موسى مشى معها حتى وصل اليه « وقص عليه القصص » من اخباره وما مر عليه ، فقال له الشيخ « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » قال ابن عباس معناه ليس لفرعون سلطان بأرضنا . وقيل: كان الشيخ أبوهما شعيباً (ع) وقال الحسن : بل كان رجلامسلماً على دين شعيب اخذالدين عنه ، وشعيب مات قبل ذلك ، وقال قوم : انه كان ابن اخي شعيب (ع) .

قوله تعالى :

« قَالَتْ إِحْدَيٰهُمَا يَاأَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ

ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ عاصم ﴿جذوة﴾ بفتح الجيم ، وقرأ حمزة وخلف بضمها ، الباقون ـ بكسر الجيم ـ وفيه ثلاث لغات ـ فتح الجيم وضمها وكسرها . والكسر أكثر وافصح . والجذوة القطعة الغليظة من الحطب فيها النار ، وهي مثل الحزمة من أصل الشجر ، وجمعها جذى قال الشاعر :

كانت حواطب ليلى يلتمسن لها　　جزل الجذى غير خوار ولا ذعر (١)

وقال قتادة : الجذوة الشعلة من النار . حكى الله تعالى أن احدى المرأتين قالت لابيها « يا أبت استأجره » والاستئجار طلب الاجارة ، وهي العقد على أمر بالمعاوضة ، يقال: أجره أجراً ، وآجره إجارة وإيجاراً ، واستأجره استئجاراً ومنه الاجير ، والماجور . والأجر الثواب ، وهو الجزاء على الخير . ثم حكى أنها قالت لأبيها « ان خير من استأجرت القوي الأمين » قال قتادة : عرفت قوته بأنه سقى الماشية بدلو واحد ، وعرفت أمانته بغض طرفه ، وامره إياها بأن تمشي خلفه . والقوي القادر العظيم المقدور ، ومنه وصف الله تعالى بأنه القوي العزيز ، وأصل القوة شدة الفتل من قوى الحبل ، وهي طاقاته التي يفتل عليها ، ثم نقل الى معنى القدرة على الفعل . والأمانة خاصة للتأدية على ما يلزم فيها ،

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٢٨١ والطبري ٢٠ / ٤١

وهي ضد الخيانة ، والثقة مثل الأمانة .

ثم حكى ما قال ابو المرأتين لموسى (ع) ، فانه قال له « إني اريد أن انكحك احدى ابنتي هاتين » أي ازوجك احداها ، فالانكاح عقد ولي المرأة على غيره الزوجية ، وهو تزويجه اياها ، والنكاح تزوج الرجل المرأة ، يقال نكحها نكاحاً إذا تزوجها . وقوله « على أن تأجرني ثماني حجج » معناه على أن تجعل أجري على تزويجي إياك ابنتي رعي ما شيتي ثماني سنين ، لأنه جعل صداق ابنته هذا الذي عقد عليه ، وجعل الزيادة على المدة اليه الخيار فيها ، فلذلك قال « فان أتممت عشراً فمن عندك » أي هبة منك غير واجب عليك . ثم اخبر انه قال « وما اريد اناشق عليك » بأن الزمك عشر سنين «ستجدني» فيما بعد ﴿ ان شاء الله من ﴾ جملة ﴿ الصالحين ﴾ الذين يفعلون الخيرات ، وتعليق الصلاح بمشيئة الله فى الآية يحتمل أمرين :

احدهما ـ ان يريد بها الصلاح فى الدنيا من صحة الجسم وتمام القوة ، فان الله تعالى يجوز ان يفعل بأنبيائه أمراضاً امتحاناً لهم ولطفاً ، فلذلك قال إن شاء الله .

والثاني ـ ان يكون أراد ان شاء الله تبقيتي ، لانه يجوز أن يخترمه الله فلا يفعل الصلاح الديني ، فلذلك علقه بمشيئة الله . ويحتمل أن يكون ذلك لاتفاق الكلام ، ولا يكون خبراً قاطعاً ، فلا يكون بمشيئة الله شرط في فعل الصلاح وقال ابن عباس : ان موسى قضى أتما الأجلين وأوفاها ، وقيل : انه كان جعل لموسى كل سخلة تولد على خلاف شبه امها فأوحى الله (عز وجل) الى موسى ان الق عصاك في الماء فولدت كلهن خلاف شبههن . وقيل : جعل له كل

بلقاء فولدن كلهن بلقاً .

ثم حكى تعالى ان موسى قال له ﴿ ذلك بيني وبينك ايما الأجلين قضيت فلا عدوان علي﴾ أي لا تعدي علي لاني مخير في ذلك ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ أي كاف وحسيب ، وقيل : انه من قول الشيخ ، ثم حكى تعالى ان موسى لما قضى الأجل تسلم زوجته وسار بها الى أن ﴿ آنس من جانب الطور ناراً ﴾ اي ابصر امراً يؤنس بمثله ، والطور الجبل قال العجاج :

آنس جربان فضاء فانكدر   دانى جناحيه من الطور فمر (١)

فلما رأى ذلك قال لأهله : البثوا مكانكم ، فاني ابصرت ناراً ، فامضي نحوها ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ يعرف منه الطريق ، فانه روي انه كان قد ضل عن الطريق ﴿ او جذوة من النار ﴾ اى قطعة من الحطب غليظة فيها النار ، وقيل الجذوة الشعلة من النار ، لكي تصطلوا بها . وقيل : انهما كانا وجدا البرد ، فلذلك قال ما قال .

ثم حكي تعالى ان موسى لما اتى النـار بان قرب منها ﴿ نؤدي من شاطىء الواد الأيمن ﴾ اى من جانبه وهو الشط ، ويجمع شواطيء وشطاناً ﴿ من البقعة المباركة ﴾ يقال : بقعة وبقعة بالضم والفتح ، وجمعه بقاع ، ووصفها بأنها مباركة لأنه كلم الله فيها موسى ﴿ من الشجرة ﴾ قيل ان الكلام والنداء سمعه موسى من ناحية الشجرة ، لأن الله تعالى فعل الكلام فيهـا لا أن الله تعالى كان في الشجرة ، لانه لا يحويه مكان ، ولا يحل في جسم ، فتعالى الله عن ذلك « أن يا موسى » أي ناداه بان قال له يا موسى ﴿اني أنا الله رب العالمين﴾

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٠ وروايته « آنس جربان قض » ، وقدمر قسم من هذا الرجز في ١ / ٢٨٦ و ٧ / ٣٥٨

الذي خلقت جميع الخلائق وأخرجتهم من العدم الى الوجود .

قوله تعالى :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) أُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (٣٥) خمس آيات بلاخلاف

قرأ ﴿ من الرهب ﴾ بفتح الراء والهاء ـ ابن كثير ونافع وابو جعفر وابو عمرو . الباقون ـ بضم الراء وسكون الهاء ـ إلا حفصاً ، فانه قرأ ـ بفتح الراء وسكون الهاء ـ وقرأ ابن كثير وابو عمرو ﴿ فذانك ﴾ مشددة النون . الباقون بالتخفيف . وقرأ نافع ﴿ رداً ﴾ بفتح الدال من غير همز منوناً . وقرأه ابو جعفر بالف بعد الدال من غير همز وغير تنوين . الباقون بسكون الدال وبعدها همزة مفتوحة منونة . وقرأ عاصم وحمزة ﴿ يصدقني ﴾ بضم القاف .

الباقون بالجزم .

الرهب والرهب لغتان مثل النهر والنهر ، والسمع والسمع . وقيل فى تشديد ﴿ ذانك ﴾ ثلاثة اقوال : احدها - للتوكيد ، الثاني - للفرق بين النون التي تسقط للاضافة . وبين هذه النون . الثالث - للفرق بين بنية الاسم المتمكن وغير المتمكن . وروي عن ابن كثير انه قرأ ﴿ فذانيك ﴾ قال ابو علي : وجه ذلك انه أبدل من احدى النونين ياء ، كما قالوا : تظنيت وتظننت . ومن جزم ﴿ يصدقني ﴾ جعله جواباً للامر وفيه معنى الشرط . وتقديره : إن ارسلته صدقني ومن رفع جعله صفة للنكرة . وتقديره رداً مصدقاً لي . وقال مقاتل : الرهب الكم ، ويقال وضعت الشيء فى رهبي اي في كمي ، ذكر الشعبي انه سمع ذلك من العرب . ومن شدد ﴿ ذانك ﴾ جعله تثنية (ذلك) ومن خفف جعله تثنية (ذاك) .

اخبر الله تعالى انه لما قال لموسى ﴿ اني انا الله رب العالمين ﴾ أمره ايضاً ان يلقي عصاه ، وانه القاها أي طرحها واخرجها من يده الى الارض فانقلبت باذن الله ثعباناً عظيماً ﴿ تهتز ﴾ باذن الله ﴿ كأنها جان ﴾ في سرعة حركته ، وشدة اهتزازه ، فعلم موسى عند ذلك ان الذي سمعه من الكلام صادر من الله ، وان الله هو المكلم له دون غيره ، لأن ذلك إنما يعلمه بضرب من الاستدلال .

وقوله ﴿ ولى مدبراً ، ولم يعقب ﴾ اي لم يرجع . اي خاف بطبع البشرية وتأخر عنها ولم يقف ، فقال الله تعالى له ﴿ يا موسى اقبل ولا تخف انك من الآمنين ﴾ من ضررها . والعصا عود من خشب كالعمود ، وفي انقلابه حية دليل على ان الجواهر من جنس واحد ، لأنه لا حال ابعد الى الحيوان من حال الخشب . وما جرى مجراه من الجماد ، وذلك يقتضي صحة قلب الأبيض الى

حال الاسود . والاهتزاز شدة الاضطراب في الحركة ، والحيوان له حركة تدل عليه إذا رإي عليها لا يشك في انه حيوان بها . وهي التصرف بالنفس من غير ريح ، ولا سبب يولد التصرف مع كونه على البنية الحيوانية . وقيل : ان الله امره ان يدخل يده في فيها ، ففعل فعادت عصاً كما كانت . ثم امره الله ان يسلك يده في جيبه ، أي بأن يدخلها فيه ، وكانت سمرة شديدة السمرة فلما اخرجها خرجت بيضاء نقية ﴿ من غير سوء ﴾ اي من غير برص .

وقوله ﴿ واضمم اليك جناحك ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : يعني يدك ﴿ من الرهب ﴾ يعني من الرعب ، والفرق الذي لحقه لأجل الحية ـ في قول مجاهد ، وقتادة ـ وقال قوم : ان معناه امر له بالعزم على ما اريد له مما امر به ، وحثه على الجد فيه ، ويمنعه ذلك من الخوف الذي لحقه ، ولا يستعظم ذلك ، فيكون ذلك مانعاً مما امر به ، كما قال ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ ولم يرد خلاف الحل فكذلك الضم ليس يراد به الضم المزيل للفرجة . ومثله قول الشاعر :

اشدد حيازيمك للموت فان الموت لاقيك ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك(١)

وانما يريد تاهب له . ثم قال « فذانك » يعني قلب العصا حية واخراج اليد البيضاء « برهانان » أي دليلان ، واضحان من الله في ارسالك الى فرعون واشراف قومه .

ثم اخبر تعالى أن فرعون وقومه « كانوا قوماً فاسقين » خارجين من طاعة الله الى معاصيه . ثم حكى تعالى ما قال موسى ، فانه قال يا رب « اني قتلت منهم نفساً » يعني القبطي الذي وكزه فقضى عليه « فأخاف ان يقتلوني » بدله .

(١) الاسان (حزم) نسبه الى علي (ع)

وقال ايضاً « وأخي هارون هوافصح مني لساناً » لان موسى كان في لسانه عقدة ولم يكن كذلك هارون ، وسأل الله تعالى أن يرسل هارون معه « ردءاً » أي عوناً ، والردء العون الذي يدفع السوء عن صاحبه ، ومنه رده الشيء يردأه رداءاً فهو ردىء ، فالرد المعين في دفع الردا عن صاحبه . ويقال : ردأته اردأه ردءاً إذا أعنته . واردأته ايضاً لغتان . وقوله « يصدقني » من جزمه جعله جواباً للامر ، ومن رفعه جعله صفة للنكرة ، وتقديره ردءاً مصدقاً « إني اخاف أن يكذبون » في ادعاء النبوة والرسالة . وقيل : ان موسى ما سأل ذلك إلا باذن الله ، لانه لايجوز ان يسأل نبي أن يرسل معه إنساناً آخر نبياً ، وهو لايعلم أنه يصلح لذلك ، فلا يجاب اليه ، فان ذلك ينفر عنه . فقال الله تعالى « سنشد عضدك باخيك » أي سنقويك به بأن نقرنه اليك في الرسالة لنقوي بعضكما ببعض . « ونجعل لكما سلطاناً » يعني حجة وقوة ، وهي التي كانت لهما بالعصا . والسلطان القوة التي يدفع بها على الأمر . والسلطان الحجة الظاهرة ، وتقديره ونجعل لكما سلطاناً ثابتاً « فلا يصلون اليكما » فيه تقديم وتأخير .

ثم قال تعالى « فلا يصلون اليكما » يعني فرعون ، وقومه لا يتمكنون من قتلكما ، ولا أذاكما ، ثم قال « بآياتنا » أي بحججنا وبراهيننا « انتما ومن اتبعكما » من بني إسرائيل وغيرهم « الغالبون » لفرعون ، فعلى هذا يكون « أنتما » مبتدءاً ، « ومن اتبعكما » عطفاً عليه « والغالبون » خبره « وبآياتنا » متعلق بقوله « الغالبون » . وعلى الوجه الآخر يكون « بآياتنا » متعلقاً بقوله « ويجعل لكما سلطاناً .... بآياتنا » قال الزجاج : يجوز أن يكون « بآياتنا » متعلقاً بقوله « فلا يصلون اليكما » بآياتنا وحججنا ، وكل ذلك محتمل .

قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى ٱلطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير « قال موسى » بلا واو ، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة . الباقون ـ بالواو ـ وكذلك هو في المصاحف .

وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « من يكون » بالياء . الباقون بالتاء .

من قرأ بالياء فلأن تأنيث العاقبة ليس بحقيقي . ومن قرأ بالتاء ، فلأن لفظه مؤنث . وتقدير الكلام إن موسى مضى الى فرعون « فلما جاءهم موسى بآياتنا » أي حججنا « بينات » أي ظاهرات « قالوا » يعني فرعون وقومه ليس « هذا » الذي يدعيه « إلا سحر مفترى » أي مختلق مفتعل . والفرق

بين (لو) و (لما) أن (لو) لتقدير وقوع الثاني بالاول ، و (لما) للايجاب في وقوع الثاني بالاول. وقولك: ولو جاءهم موسى بآياتنا قالوا ، ليس فيه دليل انهم قالوا وفي (لما) دليل على أنهم قالوا عقيب مجيء الآيات. وقوله ﴿ سحر مفترى ﴾ اي سحر مختلق لم يبن على اصل صحيح ، لأنه حيلة موهم خلاف الحقيقة ، فوصفوا الآيات بالسحر والاختلاق ، على هذا المعنى جهلا منهم وذهاباً عن الصواب.

وقوله ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين ﴾ أي لم نسمع ما يدعيه ويدعو اليه في آبائنا الذين كانوا قبلنا ، وانما قالوا ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ مع شهرة قصة قوم نوح وصالح وغيرهم من النبيين الذين دعوا الى توحيد الله واخلاص عبادته لأحد امرين :

احدهما ـ للفترة التي دخلت بين الوقتين وطول الزمان جحدوا أن تقوم به حجته ،

والآخر ـ إن آباءهم ما صدقوا بشيء من ذلك ، ولا دانوا به ، ووجه الشبهة في أنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم الاولين أنهم الكثير الذين لو كان حقاً لأدركوه ، لأنه لايجوز أن يدرك الحق الأنقص في العقل والرأي ، ولا يدركه الافضل منهما ، وهذا غلط ، لأن ما طريقه الاستدلال قد يصيبه من سلك طريقه ولا يصيبه من لم يسلك طريقه .

ثم حكى ما قال موسى بأنه قال ﴿ ربي اعلم بمن جاء بالهدى ﴾ أي بالدين الواضح والحق المبين من عنده ، ووجه الاحتجاج بقوله ﴿ ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ أنه عالم بما يدعو الى الهدى مما يدعو الى الضلال ، فلا يمكن من مثل ما أتيت به من يدعو الى الضلال ، لأنه عالم بما في ذلك من فساد العباد

ثم بين هذا بقوله ﴿ انه لايفلح الظالمون ﴾ وان عاقبة الصلاح لأهل الحق والانصاف ، وهو كما تقول على طريق المظاهرة بحمل الخطاب : الله أعلم بالمحق منا من المبطل وحجتي ظاهرة ، فاكسرها ان قدرت على ذاك ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ يعني الجنة والثواب فى الآخرة ﴿ انهلا يفلح ﴾ أي لا يفوز بالخير من ظلم نفسه وعصى ربه وكفر نعمه ،

ثم حكى تعالى ما قال فرعون عند سماع كلام موسى لقومه فانه قال لهم ﴿يا ايها الملاءماعلمت لكم من إله غيري﴾ فلاتصغوا الى قوله، حين أعياه الجواب وعجز عن محاجته . ثم قال لهامان ﴿اوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحاً﴾ قال فالصرح البناء العالي كالقصر ، ومنه التصريح شدة ظهور المعنى قال الشاعر :

بهن نعام بنـاها الرجا ل تحسب اعلامهن الصروحا(١)

جمع صرح وهي القصور ، وقال قتادة : اول من طبخ الآجر وبنى به فرعون، ويقال:الآجر بالتخفيف،والتثقيل والآجور ثلاث لغات .

وقوله ﴿ لعلي اطلع الى اله موسى ﴾ فالاطلاع الظهور على الشيء من عل ، وهو الاشراف عليه . وقوله ﴿ واني لاظنه من الكاذبين ﴾ حكاية ما قال فرعون فانه قال : أظن موسى من جملة الذين يكذبون ، ثم اخبر تعالى ان فرعون استكبر ، وكذلك جنوده ، واستكبروا ﴿ في الارض بغير الحق ، وظنوا انهم الينا لا يرجعون ﴾ الى الله والى ثوابه وعقابه . وقوله ﴿ فاخـذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ﴾ اخبارمنه تعالى انه اخذ فرعون وجنوده أي جمعهم وطرحهم في البحر ، وغرقهم . والنبذ الالقاء ، قال ابو الاسود الدؤلي :

---

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٢٠٩ والطبري ٢٠ / ٤١

نظرت الى عنوانه فنبذته   كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا (١)

وقال قتادة : البحر الذى غرق فيه فرعون يقال له : اسناد ، على مسيرة يوم من مصر .

قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (٤٥) خمس آيات بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه جعل فرعون وقومه ﴿ أئمة يدعون الى النار ﴾ وقيل في معناه قولان :

احدها ـ انا عرفنا الناس انهم كانوا كذلك ، كما يقال : جعله رجل شرٍّ بتعريفه حاله . والثاني ـ انا حكمنا عليهم بذلك ، كما قال ﴿ ما جعل الله

---

(١) مر تخريجه في ١ / ٣٦٧

من بحيرة ولا سائبة ﴾ (١) وكما قال ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ (٢) وانما قال ذلك ، واراد انهم حكموا بذلك ، وسموه . والجعل على اربعة اقسام :

احدها ـ بمعنى الاحداث ، كقوله ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾ (٣) وقوله ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ (٤) .

الثاني ـ بمعنى قلبه من حال الى حال كجعل النطفة علقة الى ان تصير انساناً

الثالث ـ بمعنى الحكم انه على صفة ، كما قال انه جعل رؤساء الضلالة يدعون الى النار اى حكم بذلك .

الرابع ـ بمعنى اعتقد انه على حال كقولهم جعل فلان فلاناً راكباً إذا اعتقد فيه ذلك . والامام هو المقدم للاتباع يقتدون به ، فرؤساء الضلالة قدموا في المنزلة لاتباعهم فيما يدعون اليه من الغالبة . وانما دعوهم الى فعل ما يؤدي بهم الى النار ، فكان ذلك كالدعاء الى النار . والداعي هو الطالب من غيره ان يفعل إما بالقول او ما يقوم مقامه ، فداعي العقل بالاظهار الذى يقوم مقام القول . وكذلك ظهور الارادة يدعو الى المراد .

وقوله ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ معناه : إنهم كانوا يتناصرون فى الدنيا ، وهم لا ينصرون في الآخرة بنصر بعضهم لبعض ، ولا غيره ولا احد ينصرهم .

وقوله ﴿ واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ﴾ معناه الحقنا بهم فى هذه الدنيا لعنة بأن لعناهم وابعدناهم من رحمتنا . وقال ابو عبيدة معناه ألزمناهم بأن امرنا بلعنهم ، قوماً بعد قوم ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ مع اللعنة .

(١) سورة ٥ المائدة آية ١٠٦ (٢) سورة ٦ الانعام آية ١٠٠

(٣) سورة ١٧ الاسرى آية ١٢ (٤) سورة ٢١ الانبياء آية ٣٢

والاتباع إلحاق الثاني بالأول ، فهؤلاء الدعاة الى الضلالة ألحقوا اللعنة تدور معهم حيث ما كانوا ، وفي ذلك أعظم الزجر عن القبيح . وقيل : المقبوح المشوه بخلقته لقبيح عمله ، ويقال : قبحه الله يقبحه قبحاً ، فهومقبوح إذا جعله قبيحاً وقال ابو عبيدة : معنى (المقبوحين) المهلكين .

ثم اخبر تعالى انه أعطى موسى الكتاب يعني التوراة من بعد ان اهلك القرون الاولى من قوم فرعون وغيرهم، وانه فعل ذلك « بصائر للناس » وهي جمع بصيرة يتبصرون بها ويعتبرون بها وجعل ذلك هدى يعني ادلة وبياناً ورحمة اي ونعمة عليهم لكي يتذكروا ويتفكروا فيعتبروا به. وقوله « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين » معناه ما كنت بجانب الغربي أي الجبل - في قول قتادة - حين قضينا اليه الأمر اى فصلناله الأمر بما ألزمناه وقومه وعهدنا اليه فيهم ، فلم تشهد انت ذلك « ولكنا انشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في اهل مدين » أى مقيماً فالثاوي المقيم قال الاعشى :

أثوى وقصر ليلة ليزودا　　ومضى وأخلف من قتيلة موعدا (١)

« تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين » والمعنى انك لم تشهد احساننا الى الى عبادنا بارسال الرسل ونصب الآيات وانزال الكتب بالبيان والهدى وما فيه الشفاء للعمى كأنه يقول لم تراي شيء كان هناك ، تفخيماً لشأنه مع إنك انما تخبر به عنا ، ولو لا ما أعلمناك منه لم تهتد له .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ

(١) ديوانه ﴿ دار بيروت ﴾ ٥٤

لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَـيهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّـرُونَ (٤٦)
وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)
فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَـقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى
أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا
وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ
أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَيهُ
بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥٠) خمس
آيات بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة « سحران » بغير الف . الباقون « ساحران » وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال مجاهد اراد موسى وهارون .

والثاني ـ قال ابن عباس : أراد موسى ومحمداً « تظاهرا » : اي تعاونا .

ومن قرأ « سحران » قال ابن عباس : أراد التوراة والقرآن . وقال الضحاك : اراد الانجيل والقرآن . وقال عكرمة : أراد التوراة والانجيل . ومن اختار « ساحران » فلأنه قال تظاهرا وذلك إنما يكون بين الساحرين دون

السحرين. ومن قرأ « سحران » قال : فى ذلك ضرب من المجاز ، كما قال « بكتاب من عند الله هو اهدى » (١) والكتاب يهتدى به ، ولا يهدي . وانما يقال ذلك مجازاً .

يقول الله تعالى لنبيه (ص) « ما كنت بجانب الطور » الذي كلم الله عليه موسى حين ناداه وكلمه . وقال له «إنني أنا الله » (٢) « يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين » (٣) « فخذها بقوة » (٤) وقيل : إن هذه المرة الثانية التي كلم الله فيها موسى « ولكن رحمة من ربك » ومعناه لكن آتيناك علم ذلك رحمة من ربك ، ونعمة عليك ، لما فيه من العبرة والموعظة ، وإن سبيلك اسبيل غيرك من النبيين فى التأييد والمعجزة الدالة على النبوة .

وقوله « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » فالانذار الاعلام بموضع المخافة ليتقى ، فالنبي (ص) نذير لأنه معلم بالمعاصي ، وما يستحق عليها من العقاب ، لتتقى بالطاعات ، والنذر العقد على ضرب من البر بالسلامة من الخوف والمعنى إنا أعلمناك لتخوف قوماً لم يأتهم مخوف قبلك ليتذكروا ويعتبروا ، وينزعوا عن المعاصي . و (التذكر) طلب الذكر بالفكر والنظر .

وقوله « ولو لا ان تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم » أي لولا أن تلحقهم مصيبة جزاء على ما كسبت ايديهم فيقولوا حينئذ « لولا ارسلت الينا رسولا » اي هلا ارسلت الينا من ينهانا عن المعاصي ويدعونا الى الطاعات « فنتبع آياتك » أي ادلتك وبيناتك « ونكون من المؤمنين » بوحدانيتك لماأهلكناهم عاجلا بكفرهم ، فجواب (لولا) محذوف لدلالة الكلام عليه ، لأن

(١) آية ٤٩ من هذه السورة (٢) سورة ٢٠ طه آية ١٤
(٣) آية ٣١ من هذه السورة (٤) سورة ٧ الاعراف آية ١٤٤

معنى الكلام الامتنان عليهم بالامهال حتى يتذكروا ما أتى به الرسول (ص) . وقال قوم جواب (لولا) ﴿ ارسلت الينا رسولا ﴾ .

وفي الآية دلالة على وجوب فعل اللطف ، لأنه لو لم يكن فعله واجباً لم يكن للآية معنى صحيح . ثم اخبر تعالى انه ﴿ فلما جاءهم ﴾ يعني الكفار ﴿ الحق من عندنا ﴾ من عند الله من القرآن والادلة الدالة على توحيده ﴿ قالوا ﴾ عند ذلك : هلا أوتي محمد من المعجزات ﴿ مثل ما أوتي موسى ﴾ من قبل : من فلق البحر وقلب العصا حية وغير ذلك . فقال الله تعالى ﴿ او لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ قال الجبائي معنى ﴿ او لم يكفروا ﴾ اي او لم يكفر من كان في عصر موسى وهارون ، ونسبوهما الى السحر ف ﴿ قالوا ساحران تظاهرا ﴾ اي موسى ومحمد ـ فى قول ابن عباس ، وفي قول مجاهد : موسى وهارون . ومن قرأ (سحران) أراد التوراة والقرآن اوالتوراة والانجيل اوالانجيل والقرآن . على ما حكيناه بخلاف فيه وأنهم قالوا مع ذلك ﴿ انا بكل كافرون ﴾ اي بكل ما امر به ، وذكر أنه من عند الله . ويحتمل ان يكون المراد بموسى وهارون . وقال الحسن : المعني بقوله ﴿ إنا بكل كافرون ﴾ مشركوا العرب الذين كفروا بالتوراة والانجيل والقرآن .

ثم امر تعالى نبيه (ص) أن يقول لكفار قومه ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما ﴾ يعني من كتاب موسى وكتاب محمد ـ في قول ابن زيد ـ « اتبعه ان كنتم صادقين » فيما تدعونه . ثم قال لنبيه (ص) « فان لم يستجيبوا لك » مع ظهور الحق « فاعلم انما يتبعون اهواءهم » أي ما تميل طباعهم اليه ، لأن الهوى ميل الطبع الى المشتهى . وما عمل على انه حسن للهوى فلا يجوز أن يكون طاعة لكنه أبيح أن يفعله على هذا الوجه ، كما أبيح أن

يفعله للذة والشهوة ، والاستمتاع به . وانما يكون طاعة لله ما عمل على أنه حسن لان الحكم دعا اليه او لان الحكمة دعت اليه إذ كلما دعت اليـه الحكمة بالترغيب فيه فالحكم داع اليه .

ثم اخبر تعالى فقال « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هـدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين » أي لا يهديهم الى طريق الجنة . ويجوز ان يكون المراد لا يحكم بهدايتهم ، لانهم عادلون عن طريق الحق .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) أَلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (٥٥) خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى إنا « وصلنا » لهؤلاء الكفار « القول » وقيل في معناه قولان :

احدها ـ قال ابن زيد «وصلنا لهم القول» فى الخبر عن أمر الدنيا والآخرة

الثاني ـ قال الحسن البصري « وصلنا لهم القول » بما أهلكنا من القرون

قرنًا بعد قرن فأخبرناهم أنا أهلكنا قوم نوح بكذا ، وقوم هود بكذا ، وقوم صالح بكذا « لعلهم يتذكرون » فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن كان قبلهم . واصل التوصيل من وصل الحبال بعضها ببعض . ومنه قول الشاعر :

فقل لبني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف ما يزال يوصّل (١)

والمعنى انا اتبعنا القرآن بعضه بعضاً . وقيل : معناه فصلنا لهم القول .

وقوله «الذين آتيناهم الكتاب» يعني التوراة ﴿من قبله﴾ يعني من قبل القرآن وقد تقدم ذكره في قوله « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل » .

وقوله « هم به يؤمنون » أي هم بالقرآن يصدقون من قبل نزوله وبعد نزوله . ويحتمل أن تكون الكناية عن النبي ﷺ ، وتقديره الذين آتيناهم الكتاب من قبل محمد هم بمحمد يؤمنون ، لأنهم كانوا يجدون صفته في التوراة ثم قال ﴿ وإذا يتلى عليهم﴾ يعني القرآن« قالوا آمنا به » أي صدقنا به « انه الحق من ربنا انا كنا » من قبل نزوله « مسلمين » بهمستمسكين بما فيه .

ثم اخبر تعالى ان هؤلاء الذين وصفهم يعطيهم الله أجرهم اي ثوابهم على ما صبروا في جنب الله « مرتين » إحداهما - لفعلهم الطاعة ، والثانية للصبر عليها لما يوجبه العقل من التمسك بها ، والصبر حبس النفس عما تنازع اليه فيما لايجوز أن يتخطأ اليه ، ولذلك مدح الله الصابرين . والصبر على الحق مر إلا أنه يؤدي الى الثواب الذي هو أحلى من الشهد ، فهؤلاء صبروا على الامتناع من المعاصي ، وعلى فعل الطاعات . وقيل : صبروا على الأذى في جنب الله .

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٩٥ والطبري ٢٠ / ٥١ مع اختلاف قليل في الرواية

ثم وصف الصابرين الذين ذكرهم فقال « ويدرؤن بالحسنة السيئة » يعني يدفعون بالتوبة المعاصي ، لان الله تعالى يسقط العقاب عندها . وقيل : معناه يدفعون بالكلام الجميل اللغو من كلام الكفار . وقيل : ان ذلك قبل الأمر بقتالهم ، ولا يمتنع أن يؤمروا ، بالاعراض عن مكالمتهم مع الأمر بقتالهم ، ولا تنافي بينهما على حال .

ثم قال « ومما رزقناهم ينفقون » أي جعلنا لهم التصرف فيها ، وملكناهم إياها ينفقون في طاعة الله ، وفي سبيل الخير ، وإذا سمعوا لغواً من الكلام ، ورأوا لغواً من الفعل أعرضوا عنه ، ولم يخاصموا فيه فقالوا لفاعل اللغو « لنا أعمالنا ولكم اعمالكم » أي لنا جزاء اعمالنا ولكم جزاء اعمالكم « سلام عليكم » أي ويقولون لهم قولا يسلمون منه . ويقولون « لا نبتغي الجاهلين » أي لا نطلبهم ولانجازيهم على لغوهم . واللغو الفعل الذي لا فائدة فيه ، وانما يفعله فاعله على توهم فاسد ، واللغو واللغا بمعنى واحد . قال الشاعر :

عن اللغا ورفث التكلم (١)

ومن احسن الأدب الاعراض عن لغو الكلام . وقيل : ان هذه الآيات نزلت في عبدالله بن سلام ، وتميم الداري ، والجارود العبدي ، وسلمان الفارسي لما اسلموا نزلت فيهم هذه الآيات ـ على ما ذكره قتادة ـ وقال غيره : انها نزلت في أربعين رجلا من أهل الانجيل كانوا مسلمين بالنبي ﷺ قبل مبعثه : اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن ابي طالب وقت قدومه ، وثمانية قدموا من الشام : منهم بحيرا ، وابرهه ، والاشرف ، وعامر ، وايمن وإدريس ، ونافع . قال قتادة : آتاهم الله أجرهم مرتين ، لايمانهم بالكتاب

(١) مر تخريجه في ٢ / ١٣٢ ، ١٦٤ ، ٢٣٠ من هذا الكتاب

الأول وإيمانهم بالكتاب الثاني .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ
مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ
شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ
أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ
بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا
كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ
فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ اهل المدينة ورويس « يجبى » بالياء . الباقون بالتاء . وقرأ ابو عمرو إلا السوسي « يعقلون » بالياء .

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ « إنك » يا محمد « لا تهدي من احببت » هدايته . وقيل : معناه من احببته لقرابته . والمراد بالهداية ـ ههنا ـ اللطف

الذي يحتاج اليه ليختار عنده الايمان ، وذاك لا يقدر عليه غير الله لانه إما أن يكون من فعله خاصة أو باعلامه ، لأنه لايعلم ما يصلح العبد في دينه إلا الله تعالى ، فاذا دبر الامور على ما فيه صلاحه كان لاطفاً له ، وهذا التدبير لا يتأتى من أحد سوى الله تعالى ، فلذلك نفى الله ذلك عن نبيه ، ويؤيد ماقلناه قوله «وهو أعلم بالمهتدين» ومعناه هو أعلم بمن يهتدي باللطف ممن لا يهتدي ، فهو تعالى يدبر الأمور على ما يعلم من صلاح العباد ، على التفصيل من غير تعليم .

وهذه الآية نزلت لأن النبي ﷺ كان يحرص على إيمان قومه ويؤثر أن يؤمنوا كلهم ، ويحب أن ينقادوا له ويقروا بنبوته ، وخاصة أقاربه . فقال الله تعالى له : إنك لا تقدر على ذلك ، وليس في مقدورك ما تلطف بهم في الايمان ذلك بل في مقدور الله يفعله بمن يشاء إذا علم أنهم يهتدون عند شيء فعله بهم فلا ينفع حرصك على ذلك . وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم أنها نزلت في أبي طالب . وعن ابي عبد الله وابي جعفر إن أبا طالب كان مسلماً وعليه اجماع الامامية ، لا يختلفون فيه ، ولهم على ذلك أدلة قاطعة موجبة للعلم ليس هذا موضع ذكرها .

ثم قال تعالى حاكياً عن الكفار انهم قالوا : إن نتبع محمداً وما يدعونا اليه ونقول انه هدى وموصل الى الحق « نتخطف من ارضنا » وقيل : انها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف ، فانه قال للنبي ﷺ انا لنعلم أن قولك حق ولكن يمنعنا أن نتبع الذي معك ، ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا يعني مكة ، ولا طاقة لنا بالعرب فقال الله تعالى ﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمنا ﴾ فالتخطف اخذ الشيء على الاستلاب من كل وجه : تخطف تخطفاً واختطف اختطافا وخطفه يخطفه خطفاً قال امرؤ القيس :

تخطف خزان الشربة بالضحى وقد حجرت منها ثعالب أورال (١)

فقال الله تعالى لهم « أو لم نمكن لهم حرماً آمنا » وقيل في وجه جعله الحرم آمناً وجهان:

احدها ـ بما طبع النفوس عليه من السكون إليه بترك النفور مما ينفر عنه في غيره كالغزال مع الكلب، والحمام مع الناس وغيرهم.

والوجه الآخر ـ بما حكم به على العباد وأمرهم أن يؤمنوا من يدخله ويلوذ به، ولا يتعرض له. وفائدة الآية إنا جعلنا الحرم آمنا لحرمة البيت مع أنهم كفار يعبدون الأصنام حتى أمنوا على نفوسهم وأموالهم، فلو آمنوا لكان أحرى بأن يؤمنهم الله، وأولى بأن يمكنهم من مراداتهم.

وقوله « يجبى اليه ثمرات كل شيء » أي يجلب الى هذا الذي جعلناه حرماً ثمرات كل شيء.

فمن قرأ بالتاء فلتأنيث الثمرات. ومن قرأ بالياء، فلأن التأنيث غير حقيقي.

وقوله « رزقاً من لدنا » نصب على المصدر، وتقديره رزقاً رزقناه من عندنا « ولكن أكثرهم لا يعلمون » ماأنعمنا به عليهم. ثم قال « وكم أهلكنا من قرية » اي من أهل قرية استحقوا العقاب « بطرت معيشتها » قال الفراء: معناه أبطرتها معيشتها، كقولهم ابطرك مالك، فذكرت المعيشة، لان الفعل كان لها في الأصل لحول الى ما أضيفت اليه فنصبت كما قال « فان طبن لكم عن شيء منه نفساً » (٢) فالبطر والاشر واحد، وهو شق العصا بتضييع حق نعم

(١) شرح ديوانه ١٦٦ (حسن السندوبي)

(٢) سورة ٤ النساء آية ٣

الله ، والطغيان فيها بجحدها ، والكفر بها .

ثم اخبر تعالى فقال « فتلك مساكنهم » يعني مساكن الذين أهلكهم الله « لم تسكن من بعدهم إلا قليلا » من الزمان . ثم هلكوا وورث الله تعالى مساكنهم لانه لم يبق منهم احد . ثم خاطب نبيه ﷺ فقال « وما كان ربك » يامحمد « مهلك القرى ، حتى يبعث في أمها رسولا » وقيل في معنى « أمها » قولان :

احدها ـ فى أم القرى ، وهي مكة .

والآخر فى معظم القرى فى سائر الدنيا « يتلو عليهم آياتنا » اي يقرأ عليهم حجج الله وبيناته « وما كنا مهلكي القرى إلا واهلها ظالمون » لنفوسهم بارتكاب المعاصي ، وكفران نعمه .

ثم خاطب خلقه فقال « وما أوتيتم من شيء » اي ما اعطيتم من شيء « فمتاع الحياة الدنيا » اي هو شيء تنتفعون به فى الحياة الدنيا ، وتتزينون فيها ﴿ وما عند الله ﴾ من الثواب ونعيم الجنة ﴿ خير وأبقى ﴾ من هذه النعم ، لانها باقية ، وهذه فانية ﴿ افلا تعقلون ﴾ ذلك وتتفكرون فيه .

وقوله ﴿ ثمرات كل شيء ﴾ قيل : ان (كل) ههنا البعض ، لانا نعلم انه ليس يجبى الى مكة كثير من الثمرات . وقال قوم : ظاهر ذلك يقتضى انه يجبى اليه جميع الثمرات ، إما رطباً او يابساً ، ولا مانع يمنع منه .

ومن قرأ ﴿ تعقلون ﴾ بالتاء فلقوله ﴿ وما أوتيتم ﴾ ومن قرأ بالياء فتقديره ﴿ أفلا يعقلون ﴾ يا محمد .

قوله تعالى :

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ

الْحَيَوٰةِ ٱلدُّنيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٦٥) خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى منبهاً لخلقه على عظيم ما انعم به عليهم ورغبهم فيه من ثواب الجنه « أفمن وعدناه وعداً حسناً » يعني من ثواب الجنة جزاء على طاعاته يكون بمنزلة من متعناه متاع الحيا الدنيا ؟ ! وقال السدي المعني بقوله « أفمن وعدناه » حمزة بن عبد المطلب ، وعلي بن ابي طالب عليه السلام وعدهما الله الجنة . وقيل : النصر فى الدنيا والجنة في الآخرة ـ ذكره الضحاك ومجاهد ـ « كمن متعناه متاع الحياة الدنيا » يعني به أبا جهل « ثم هو يوم القيامة من المحضرين » في النار . وقيل للجزاء . وقيل : نزلت في النبي صلى الله عليه وآله وابي جهل والمتعة هي المنفعة . وقد فرق بينهما بأن المتعة منفعة توجب الالتذاذ فى الحال ، والنفع قد يكون بألم يؤدي الى لذة فى العاقبة ، فكل متعة منفعة ، وليس كل منفعة متعة . والمتاع على وجهين :

احدهما ـ كالادوات التي يتمتع بها من نحو الفرس ، والاثاث والثياب وغيرها

والثاني ـ يكون بمعنى المتعة . والمراد ـ ههنا ـ متعة الحياة الدنيا .

وقوله ـ « ثم هو يوم القيامة من المحضرين » يعني من المحضرين للجزاء بالعقاب ، لأنه تعالى ذكر من وعد وعداً حسناً ، فدل ذلك على أهل الثواب ثم ذكر انه لايستوي أهل الثواب وغيرهم ، فدل على اهل العقاب، لبعد حال كل فريق من الفريقين عن الآخر . والاحضار إيجاد ما به يكون الشيء بحيث يشاهد ، فلما كان هؤلاء القوم يوجدون يوم القيامة ما به يكرهون بحيث يشاهدهم الخلائق ، كانوا محضرين. ثم قال « ويوم يناديهم » وتقديره : واذكر يوم ينادي الله الكفار ، وهو يوم القيامة « فيقول » لهم على وجه التوبيخ لهم والتقريع « اين الذين » اتخذتموهم شركائي فعبدتموهم معي على قولكم وزعمكم والزعم القول فى الأمر عن ظن أو علم ، ولذلك دخل فى باب العلم ، واخواته قال الشاعر :

فان تزعميني كنت أجهل فيكم فاني شريت الحلم بعدك بالجهل (١)

ثم حكى ان « الذين حق عليهم القول » بالعقاب: من الشياطين والانس والذين أغووا الخلق من الانس يقولون في ذلك اليوم « ربنا هؤلاء » يعني من ضل بهم من الناس واتخذوا شركاء من دون الله هم « الذين اغوينا اغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون » اي تبرأ بعضهم من بعض ، وصاروا أعداء . ويقولون لم يكن الانس يعبدوننا . ثم حكى الله فقال « وقيل »لهم « ادعوا شركاءكم» الذين عبدتموهم من دون الله . ثم حكى انهم يدعونهم « فلا يستجيبون لهم ويرون العذاب لو انهم كانوا يهتدون » وقيل فى معناه قولان :

(١) الكتاب لسيبويه ١ / ٦١

احدها ـ لو أنهم كانوا يهتدون ما رأوا العذاب .

والثاني ـ لو كانوا يهتدون لرأوا العذاب .

ثم قال « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » فيما دعوكم اليه من توحيد الله وعدله واخلاص العبادة له .

قوله تعالى:

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٧٠) خمس آيات بلا خلاف .

لما حكى الله تعالى أنه ينادي الكفار يوم القيامة ويقررهم عما أجابوا به المرسلين ، أخبر انهم تعمى عليهم الحجج ، فهم لا يسأل بعضهم بعضاً . والعمى آفة تنافي صحة البصر « وعميت عليهم الأنباء » فيه تشبيه بالعمى عن الابصار لانسداد طريق الاخبار عليهم ، كما تنسد طرق الأرض على الأعمى ، ومعنى « فهم لا يتساءلون » أي هم لانسداد طرق الاخبار عليهم لم يجيبوا عما سئلوا

عنه ، ولا يسأل بعضهم بعضاً عنه ، لانقطاعهم عن الحجة ، ولا ينافي قوله « فهم لا يتساءلون » قوله في موضع آخر « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » (١) لان يوم القيامة مواطن يختلف فيها حالهم ، فمرة تطبق عليهم الحيرة ، فلا يتساءلون ، ومرة يفيقون فيتساءلون . وقال الحسن : لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه شيئاً كما كانوا في الدنيا .

ثم اخبر تعالى « ان من تاب » من المعاصي ورجع عنها الى الطاعات ، واضاف الى ذلك الاعمال الصالحات « فعسى أن يكون من المفلحين » وانما أدخل (عسى) في اللفظ مع انه مقطوع بفلاحه ، لأنه على رجاء أن يدوم على ذلك ، فيفلح ، وقد يجوز أن يزول فيما بعد ، فيهلك ، فلهذا قال «فعسى» على انه قيل : إن عسى من الله في جميع القرآن واجبة .

ثم اخبر تعالى فقال « وربك » يا محمد « يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » قيل في معناه قولان :

احدها ـ يختار الذي كان لهم فيه الخيرة ، فدل بذلك على شرف اختياره لهم .

الثاني ـ أن تكون (ما) نفياً أي لم يكن لهم الخيرة على الله بل لله الخيرة عليهم ، لأنه مالك حكيم في تدبيرهم ، فيكون على هذا الوجه الوقف على قوله « ويختار » وهو الذي اختاره الزجاج . وقال الحسن : معناه « ما كان لهم الخيرة » اي أن يختاروا الأنبياء ، فيبعثوهم . وقال مجاهد « لا يتساءلون » بالانساب والقرابات . وقيل « لا يتساءلون » بما فيه حجج لهم . وقوله « سبحانه وتعالى عما يشركون » معناه ما عظم الله حق عظمته من اشرك في عبادته ، لأن من تعظيمه اخلاص الالهية له ، وانه الواحد فيما تفرد به على

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ٢٧ وسورة ٥٢ الطور آية ٢٥

استحقاق العبادة ، وأنه لايجوز أن يستغني عنه بغيره ، فمن اشرك في عبادته فما عظمه حق تعظيمه ، فهذا قد قبح فيما أتى وضيع حق نعمه .

ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله « وربك يامحمد يعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون » أي عالم بما يخفونه وما يظهرونه . يقال : اكننت الشيء في صدري أي أخفيته و (كننته) بغير ألف صنته . وقيل : كننت الشيء واكننته لغتان .

ثم اخبر تعالى انه الإله الذي لا إله سواه ، ولا يستحق العبادة غيره في جميع السموات والارض ، وأنه يستحق الثناء والحمد والمدح والتعظيم ، على ما انعم به على خلقه في الدنيا والاخرة « وله الحكم » بينهم بالفصل بين المختلفين بما يميز به الحق من الباطل . وان جميع الخلق يرجعون اليه يوم القيامة الذي لا يملك احد الحكم غيره . وقيل قوله « وربك يخلق ما يشاء ويختار » ذلك في الوليد بن المغيرة حين قال « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (١) فبين الله تعالى أن لهأن يختار ما يشاء لنبوته ورسالته بحسب مايعلم من يصلح لها .

قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٣١

رَحْمَتِهِ وَمِنْ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَاكَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٧٥) خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله لنبيه ﷺ « قل » يا محمد لهؤلاء الكفار الذين عبدوا معي آلهة تنبيهاً لهم على خطئهم ﴿ أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سر مداً ﴾ أي دائماً ﴿ الى يوم القيامة ﴾ بلا نهار ولا ضياء ﴿ من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾ كضياء النهار تبصرون فيه ، فانهم لا يقدرون على الجواب عن ذلك إلا بأنه لا يقدر على ذلك سوى الله تعالى، فحينئذ يلزمهم الحجة بأنه لا يستحق العبادة غير الله وهذا تنبيه منه لنبيه ﷺ ولخلقه على وجه الاستدلال على توحيده ويبطل ذلك قول من قال : المعارف ضرورية . لأنه لو كان تعالى معلوماً ضرورة لما احتاج الأمر الى ذلك ، لان كونه معلوماً ضرورة يغني عن الاستدلال عليه ، وما لا يعلم ضرورة من أمر الدين ، فلا يصح معرفته إلا ببرهان يدل عليه .

وقوله ﴿ افلا تسمعون ﴾ معناه أفلا تقبلونه وتتفكرون فيه ؟ وفى ذلك تبكيت لهم على ترك الفكر فيه ، لانهم إذا لم يفكروا فيما يسمعونه من حجج الله فكأنهم ما سمعوه . وقيل فى قوله ﴿ أفلا تسمعون ﴾ قولان :

احدهما ـ افلا تسمعون هذه الحجة فتتدبرونها وتعملون بموجبها إذ كانت بمنزلة الناطقة بأن ما انتم عليه خطأ وضلال يؤدي الى الهلاك .

والثاني ـ ان معناه أفلا تقبلون . ثم نبههم ايضاً فقال ﴿ أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً ﴾ أي دائماً ﴿ الى يوم القيامة ﴾ بلا ليل تسكنون فيه ، فانهم لا يقدرون على الجواب عن ذالك إلا بما يدل على فساد معتقدهم ، وهو انه لايقدر على ذلـك غير الله ، فحينئذ تلزمهم الحجة بأنه لا يستحق العبادة سواه .

وقوله ﴿ افلا تبصرون ﴾ معناه أفلا تتفكرون فيما ترونه ، لأن من لا يتدبر بما يراه من الحجج والبراهين فكأنه لم يرها . وقيل معناه أفلا تعلمون ثم قال ﴿ ومن رحمته ﴾ أي من نعمه عليكم أن ﴿ جعل لـكم الليل والنهار لتسكنوا ﴾ فى الايل ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ بالنهار بالسعي فيه ، ولكي تشكروا هذه النعم التي أنعم بها عليكم ، والهاء في قوله﴿لتسكنوا فيه ﴾ يحتمل وجهين:

احدهما ـ ان يعود الى الليل خاصة ، ويضمر مع الابتغاء هاء أخرى .

الثاني ـ ان يعود الضمير اليهما إلا انه وحد ، لأنه يجري مجرى المصدر فى قولهم : اقبالك وادبارك يؤذيني ، والاول أصح ، لان الليل للسكون فيه ، والنهار للتصرف والحركة ، ولكنه يحتمل ليكونوا في هذا على التصرف وفي ذاك على الهـدوء وقطع التصرف ، وانما كان الفساد فى ادامة النهار في دار التكليف ، ولم يكن فى دار النعيم ، لأن دار التكليف لابد فيها من التعب والنصب الذي يحتاج معه الى الاستجمام والراحة ، وليس كذلك دار النعيم ، لانه انما يتصرف فيها بالملاذ . وقوله « اين شركائي الذين كنتم تزعمون » قـد مضى تفسيره . وانما كرر النـداء بـ « أين شركائي الذين كنتم تزعمون » لان النداء الأول للتقرير بالاقرار على اليقين بالغي الذي كانوا عليه ودعوا اليه.

والثاني ـ للتعجيز عن اقامة البرهان لما طولبوا به بحضرة الاشهاد مع

تقريع حاصل به بالاشراك بعد تقريع .

ثم اخبر تعالى انه نزع « من كل أمة » من الأمم « شهيداً » يشهد على تلك الامة بما كان فيها ، ومعنى ﴿ نزعنا ﴾ أخرجنا وأحضرنا يقال : فلان ينزع الى وطنه بأن يحن اليه حنيناً يطالبه بالخروج اليه . قال قتادة ومجاهد: شهيدها نبيها الذي يشهد عليها بما فعلوه ، وقيل هؤلاء الشهود : هم عدول الآخرة الذين لا يخلو زمان منهم يشهدون على الناس بما عملوا من عصيانهم .

وقوله ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ حكاية عما يقول الله تعالى للكفار فى الآخرة فانه يقول لهم هاتوا حجتكم على ما ذهبتم اليه ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ ثم اخبر تعالى انهم عند ذلك يعلمون ﴿ أن الحق لله ﴾ أي ان التوحيد لله والاخلاص في العبادة له دون غيره لان معارفهم ضرورة ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي بطل ما عبدوه من دون الله ، وافتراءهم هو ادعاءهم الالهية مع الله تعالى

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ

قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّيهَا إِلاَّ ٱلصَّابِرُونَ ﴾ (٨٠) خمس آيات بلاخلاف ٠

هذا اخبار من الله تعالى ﴿ أن قارون كان من قوم موسى ﴾ قال ابن اسحاق : كان موسى ابن أخيه ، وقارون عمه . وقال ابن جريج : كان ابن عمه لأبيه وأمه ﴿ فبغى عليهم ﴾ قال قتادة : إنما بغى عليهم بكثرة ماله . والبغي طلب العلو بغير حق . ومنه قيل لولاة الجور : بغاة ، يقال: بغى يبغي بغياً ، فهو باغ وابتغى كذا ابتغاه إذا طلبه ، ويبتغي فعل الحسن أي يطلب فعله بدعائه الى نفسه . و (قارون) اسم أعجمي لا ينصرف ، وروي أنه كان عالماً بالتوراة فبغى على موسى وقصد الى تكذيبه ، والافساد عليه . وقوله ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ أي اعطيناه كنوز الأموال والكنز جمع المال بعضه على بعض ، وبالعرف عبارة عما يخبأ تحت الأرض ، ولا يطلق اسم الكنوز في الشرع الاعلى مال لا يخرج زكاته ، لقوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ﴾(١) فوجه الوعيد عليه منه تعالى

﴿١﴾ سورة ٩ التوبة آية ٣٥

على فعلهم يدلك على صحة ما قلناه .

وقوله ﴿ ما ان مفاتحه ﴾ المفتاح عبارة عما يفتح به الاغلاق ، وجمعه مفاتيح ومفاتيح جمع مفتح ، ومعناها واحد ، وقال قوم : كانت مفاتيحه من جلود وقال آخرون : مفاتحه خزائنه . قال الزجاج : وهو الأشبه .

وقوله ﴿ لتنوء بالعصبة ﴾ أي ايثقل في حمله ، يقال : ناء بحمله ينوء نوءاً إذا نهض به مع ثقله عليه ، ومنه أخذت الانواء ، لأنها تنهض من المشرق على ثقل نهوضها . وقال ابو زيد : ناءني الحمل إذا اثقلني . والعصبة الجماعة الملتفة بعضها ببعض . وقال قتادة : العصبة ما بين العشرة الى الأربعين . وقال ابن عباس : قد يكون العصبة ثلاث . وانما قال لتنوء بالعصبة والمعني العصبة تنوء بها ، لان المعنى تميل بها مثقلة . وقيل : هو يجري مجرى التقديم والتأخير كما قال الشاعر :

ونركب خيلا لا هوادة بينها ... وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر (١)

وانما تشقى الضياطرة بالرماح ، وقال آخر :

فديت بنفسه نفسي ومالي ... وما آلوه إلا ما يطيـق (٢)

والمعنى بنفسي ومالي نفسه ، وقال الفراء : كان الاصل ان يقول لتنؤ العصبة أي يثقلهم، بحذف الياء ومثله قوله، وهو مقلوب :

إن سراجاً لكريم مفخرة ... تحلى به العين إذا ما تجهره (٣)

فالوجه ان الرجل يعجب العين وكان ينبغي ان يقول يحلى بالعين، كقوله:

(١) قائله خداش بن زهير امالي الشريف المرتضى ١ / ٤٦٦ واللسان (ضطر)

(٢) قائله عباس بن مرداس أمالي الشريف المرتضى ١ / ٢١٧

(٣) مر تخريجه في ٢ / ٧٩، ١٩٦

حليت بعينك ريطة مطويه

قال الرماني ـ التأويل الأول هو الصحيح ، لانه ليس من باب التقديم والتأخير لما في ذلك من قلب المعنى وليس كالذي تبنيه الاعراب. وقوله ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح ان الله لايحب الفرحين ﴾ حكاية عما قال قوم قارون لقارون حين خوفوه بالله ونهوه عن الفرح بما آتاه الله من المال ، وأمروه بالشكر عليه. والفرح المرح الذي يخرج الى الانس ، وهو البطر. ولذلك قال تعالى ﴿ ان الله لايحب الفرحين ﴾ لانه إذا اطلقت صفة فرح فهو الخارج بالمرح الى البطر ، فأما قوله « فرحين بما آتاهم الله من فضله » (١) فحسن جميل بهذا التقييد ، وقال مجاهد : الفرحين هو فرح البطر. وقال الشاعر :

ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلب (٢)

وقال آخر :

ولا ينسيني الحدثان عرضي ولا أرخي من الفرح الازارا (٣)

وقوله « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » حكاية عما قال لقارون قومه المؤمنون بموسى وبتوحيد الله. وقال قوم : إن المخاطب له كان موسى وإن ذكر بلفظ الجمع ومعناه اطلب فيما أعطاك الله من الأموال « الدار الآخرة » بأن ينفقها في وجوه البر وسبيل الخير « ولا تنس نصيبك من الدنيا » قال ابن عباس : معناه أن يعمل فيها بطاعة الله ، وقال الحسن معناه : أن يطلب الحلال

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٠ (٢) تفسير القرطبي ١٣ / ٣١٣ ويروى (المتحول) بدل (المتقلب) ومجاز القرآن ٢ / ١٧٨

(٣) قائله ابن احمر ، مجاز القرآن ٢ / ١١١

« وأحسن » اي افعل الجميل الى الخلق . وتفضل عليهم ، كما تفضل الله عليك « ولا تبغ الفساد في الارض » أي لاتطلب الفساد بمنع ما يجب عليك من الحقوق ، وانفاق الأموال في المعاصي « ان الله لا يحب المفسدين » أي لايريد منافع من يفسد في الأرض ، ولا يريد أن يفعل بهم ثواب الجنة .

وقوله « قال إنما أوتيته على علم عندي » حكاية عما قال قارون في جواب قومه ، فانه قال لهم : أوتيت هذه الأموال على علم بأني مستحق لذلك ، لعلمي بالتوراة . وقال قوم : لاني أعمل الكيمياء ، وقال قوم لعلمي بوجوه المكاسب ، وبما لا يتهيأ لأحد أن يسلبني إياه ،فقال الله تعالى موبخاً على هذا القول « او لم يعلم » قارون « ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة واكثر جمعاً » كقوم عاد ، وثمود ، وقوم لوط وغيرهم ، فما اغنى عنهم جمعهم ولا قوتهم حين أراد الله إهلاكهم ، فكيف ينفع قارون ماله وجمعه .

وقوله « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » قال الفراء تقديره : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم ، فالهاء والميم للمجرمين ، كما قال تعالى « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان » (١) وقال الحسن لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون لنعلم ذاك من قبلهم ، وإن سئلوا سؤال تقريع وتوبيخ .

ثم حكى تعالى أن قارون « خرج على قومه في زينته » التي كان يتزين بها . وقيل : إنه كان خرج مع قومه عليهم في الديباج الأحمر على الخيل ، فلما رآه الذين يريدون الحياة الدنيا من الكفار والمنافقين والضعيفي الايمان بما للمؤمنين عند الله من ثواب الجنة قالوا « ياليت لنا مثل ما أوتي قارون » تمنوا

(١) سورة ٥٥ الرحمان آية ٣٩

مثل منزلته ، ومثل ماله وإنهم قالوا ان قارون « لذو حظ » من الدنيا ونعيمها « عظيم » . ثم حكى ما قال المؤمنون بثواب الله المصدقون بوعده في جوابهم « ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » مما أوتي قارون ، وحذف لدلالة الكلام عليه . وقوله « ولا يلقاها إلا الصابرون » أي ما يلقى مثل هذه الكلمة إلا الصابرون على أمر الله . وقيل : وما يلقى نعمة الله من الثواب إلا الصابرون .

فان قيل : أليس عندكم أن الله لا يؤتي الحرام أحداً ؟ وقد قال ـ ههنا ـ « وابتغ فيما آتاك الله » فأخبر انه آتاه .

قيل : لا يعلم أن ذلك المال كان حراماً ، ويجوز أن يكون حلالا ورثه أو كسبه بالمكاسب والمتاجر ، ثم لم يخرج حق الله منه وطغى فسخط الله عليه وعاقبه لطغيانه وعصيانه لا على كسب المال .

قوله تعالى:

« فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّآتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي
فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ
بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى
إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً
لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ
وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ
اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٨٨) ثمان آيات بلاخلاف .

روي عن الكسائي الوقف على « وي » من قوله تعالى « وي كأن الله » ومن قوله « وي كأنه » وروي عن ابن عمر الوقف على الكاف منهما قال ابو طاهر : الاختيار اتباع المصحف ، وهما فيه كلمة واحدة . وقرأ حفص ويعقوب « لخسف بنا » بفتح الخاء والسين . الباقون بضم الخاء وكسر السين على ما لم يسم فاعله .

حكى الله تعالى أنه خسف بقارون وبداره الأرض ، فمر يهوي فيها حتى زهقت نفسه على اسوء حالها ، والخسف ذهاب في الأرض في جهة أسفل. ثم اخبر تعالي انه لم يكن لقارون ﴿ فئة ﴾ أي جماعة منقطعة اليه . والفئة

مشتق من فأوت رأسه بالسيف إذا قطعته ، وتصغيرها فئية ﴿ ينصرونه من دون الله ﴾ أي يمنعونه من عذاب الله الذي نزل به ، وانما ذكر امتناع النصرة من الله مع أنه معلوم أنه كذلك ، لان المراد أنه لم يكن الأمر على ما قدره من امتناعه بحاشيته وجنده ، لان الذي غره قوته وتمكنه حتى تمرد في طغيانه . ثم اخبر انه كما لم يكن له من ينصره لم يكن هو ايضاً ممن ينتصر بنفسه لضعفه عن ذلك وقصوره عنه . ثم حكى أن ﴿ الذين تمنوا مكانه بالامس ﴾ حين خرج عليهم على زينته لما رأوه خسف الله به ، أصبحوا يقولون ﴿ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ أي يوسع رزقه على من يشاء ويضيق على من يشاء ، اعترفوا بذلك . ومعنى ﴿ وي ﴾ التنبيه على أمر من الامور ، وهي حرف مفصول من (كأن) ـ في قول الخليل وسيبويه ـ واختاره الكسائي . وذلك انهم لما رأوا الخسف تنبهوا فتكلموا على قدر علمهم عند التنبيه لهم ، كما يقول القائل إذا تبين له الخطأ : وي كنت على خطأ ، وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

سألتاني ، الطلاق إذ رأتاني قل مالي قد جئتماني بنكر
وي كأن من يكن له نشب يحـ ـبب ومن يفتقر يعيش عيش ضر (١)

وقيل (وي كأنه) بمنزلة (ألا كأنه ، وأما كأنه) وقيل هي : ويك إن الله ، كأنه قال ينبهك بهذا إلا انه حذف ، قال عنترة :

ولقد شفى نفسي وأذهب سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم (٢)

وقال قوم : هي بمنزلة (ويلك) إلا انه حذف اللام تخفيفاً ، ونصب انه بتقدير اعلم انه لا يفلح ، وهذا ضعيف ، لان العلم لا يضمر ويعمل . وقال

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٣١٨ (٢) ديوانه ٣٠ من معلقته

الفراء : سألت امرأة زوجها عن أبيه فقال ويك إنه وراء الحائط ، ومعناه ألا ترينه وراء الحائط . وقيل المعنى إن ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ لا لكرامة عليه ، كما بسط لقارون ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق لا لهوانة عليه ، كما ضيق على أنبيائه .

ثم قالوا ﴿ لولا أن منّ الله علينا ﴾ وعفى عنا لخسف بنا ، كما خسف بقارون ﴿ ويك أنه لا يفلح الكافرون ﴾ أي لا يفوز بثوابه وينجو من عقابه من يجحد نعم الله ويعبد معه سواه . وقيل : إن قارون جعل لبغيّ جعلا على أن ترمي موسى بالفاحشة ، فلما حضرت في الملأ كذبت قارون واخبرت بالحق فخر موسى ساجداً يبكي ، فأوحى الله اليه ما يبكيك قد سلطتك على الأرض فمرها بما شئت ، فقال موسى يا أرض خذيهم ، فأخذتهم الى ركبهم . ثم قال يا أرض خذيهم ، فأخذتهم الى حقرويهم ثم قال يا ارض خذيهم ، فاخذتهم الى اعناقهم وهم في كل ذلك ينادون يا موسى يا موسى ارحمنا - ذكره ابن عباس - وروي أن الله تعالى قال : لو قالوا مرة واحدة يا الله ارحمنا لرحمتهم . ثم قال تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة ﴾ يعني الجنة ﴿ نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ﴾ وانما قبح طلب العلو في الارض ، لأنه ركون اليها ، وترك لطلب العلو في الآخرة ، ومعاملة لها بخلاف ما أراده الله بها من أن تكون دار ارتحال لادار مقام فيها ﴿ ولا فساد ﴾ أي ولا يريدون فساداً في الارض بفعل المعاصي ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ اخبار منه تعالى بأن العاقبة الجميلة من الثواب للذين يتقون معاصي الله ويفعلون طاعاته . وقيل : علواً في الارض معناه تكبراً عن الحق .

ثم اخبر تعالى ان من جاء بطاعة من الطاعات وحسنة من الحسنات

﴿ فله خير منها ﴾ ثواباً عليها وجزاء عليها ، لان له بالواحدة عشراً ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ يعني بالمعصية ﴿ فلا يجزى الذين عملوا السيئات ﴾ يعني الذين عملوا المعاصي إلا على قدر استحقاقهم على ما فعلوه من غير زيادة ، كما قال ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ (١) .

وقوله ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وآله يقول الله له إن الذي أوجب عليك الامتثال بما يضمنه القرآن وأنزله عليك ﴿ لرادّك الى معاد ﴾ قال الحسن : معناه الى المرجع يوم القيامة . وقال مجاهد : إلى الجنة. وقال ابن عباس : الى الموت . وفي رواية أخرى عن ابن عباس : الى مكة . والأظهر من الاقوال : لرادك الى معاد في النشأة الثانية الى الجنة . واكثر أقوال المفسرين انه أراد الى مكة قاهراً لأهلها .

ثم قال له ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ ربي أعلم من جاء بالهدى ﴾ الذي يستحق به الثواب ممن لم يجيء به ، وضل عنه ، لا يخفى عليه المؤمن من الكافر ، ولا من هو على الهدى ، ولا من هو ضال عنه .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ وما كنت ﴾ يا محمد ﴿ ترجو أن يلقى اليك الكتاب إلا رحمة من ربك . فلا تكونن ظهيراً للكافرين ﴾ قال الفراء : تقديره إلا أن ربك رحمك ، فانزله عليك ، فهو استثناء منقطع . ومعناه وما كنت ترجو أن تعلم كتب الأولين وقصصهم تتلوها على أهل مكة ، ولم تشهدها ولم تحضرها بدلالة قوله ﴿ وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو ﴾ (٢) أي انك تتلو على أهل مكة قصص مدين وموسى ولم تكن هناك ثاوياً مقيماً فتراه فتسمعه وكذلك

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠

(٢) سورة ٢٨ القصص آية ٤٥

قوله ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ (١) فيها أنت تتلو قصصهم وأمرهم ، فهذه رحمة من ربك . ومعنى ﴿ فلا تكونن ظهيراً ﴾ اي لا تكونن معيناً لهم ﴿ ولا يصدنك ﴾ يعني هؤلاء الكفار أي لايمنعك « عن » اتباع ﴿ آيات الله ﴾ وحججه ﴿ بعد إذا أنزلت اليك ﴾ على ما بينهما فى القرآن ﴿ وادع الى ربك ﴾ الذي خلقك وأنعم عليك ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ الذين يتخذون مع الله معبوداً سواه ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ﴾ فتستدعي حوائجك من جهته ﴿ لا إله إلا هو ﴾ اخبار منه تعالى أنه لا معبود إلا الله وحده لاشريك له .

ثم اخبر أن كل من سوى الله هالك ، فان ﴿ كل شيء هالك إلاوجهه ﴾ ومعناه إلا ذاته . وقيل : معناه كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه . قال الشاعر :

استغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد اليه الوجه والعمل (٢)

ثم قال ﴿ له الحكم ﴾ لانه ليس لأحد أن يحكم بشيء إلا بأمر الله تعالى. ويجعل الحكم له عقلياً كان او شرعياً و « اليه » الى الله ﴿ ترجعون ﴾ يوم القيامة أي الى الموضع الذي لا يملك أحد التصرف فيه سواه ، لان الله تعالى قد ملك فى الدنيا الكثير من البشر التصرف فيها .

---

(١) سورة ٦ القصص آية ٤٤ (٢) تفسير القرطبي ١٣ / ٣٢٨

٢٩ - سورة العنكبوت

قال قوم : هي مكية ، وقال قتادة : العشر الأول مدني ، والباقي
مكي . وقال مجاهد : هي مكية . وهي تسع وستون آية
بلاخلاف في جملتها ، وفى تفصيلها خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الۤمۤ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ
لاَ يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللهُ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
ٱلسَّيِّآتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ
ٱللهِ فَانَّ أَجَلَ ٱللهِ لآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٥) .

خمس آيات كوفي وأربع فيما عداه عدوا « الم » آية . ولم يعده الباقون .

قال قتادة : نزلت فى أناس من أهل مكة خرجوا للهجرة فعرض لهم

المشركون ، فرجعوا ، فنزلت الآية فيهم ، فلما سمعوها خرجوا ، فقتل منهم من قتل وخلص من خلص ، فنزلت فيهم ﴿ والذين جاهـــدوا فينا ﴾ الآية (١) وقيل: نزلت في عمار، ومن كان بقرب مكة - ذكره ابن عمر - وقيل : نزلت فى قوم أسلموا قبل فرض الجهاد والزكاة ، فلما فرضا منعا ، فنزلت الآية فيهم .

قد بينا في غير موضع اختـلاف الناس فى ابتداء السور بحروف الهجاء وذكرنا أن أقوى الأقوال قول من قال : إنها اسماء للسور . وقال قوم : إنها اسماء للقرآن .

وقوله ﴿ الم أحسب الناس ان يتركوا ﴾ اختلف الناس في ﴿ الم ﴾ وقد ذكرناه فيما مضى (٢) . وقوله ﴿ أحسب الناس أن يتركوا ﴾ خطاب من الله لخلقه على وجه التوبيخ لهم بأن قال أيظن الناس أن يتركهم الله إذا قالوا آمنا أي صدقنا ونقتصر منهم على هذا القدر ، والحسبان والظن واحد . وقوله ﴿ أحسب ﴾ معناه التوهم والتخيل . وقيل : الحسبان مشتق من الحساب ، لأنه في حساب ما يعمل عليه . ومنه الحسيب ، لانه فى حساب ما يختبي ، و « هم لا يفتنون » أي أيظنون أنهم لا يختبرون إذا قالوا آمنا ؟! . والمعنى انهم يعاملون معاملة المختبر لتظهر الافعال التي يستحق عليها الجزاء . وقيل : فى معنى « أن يقولوا آمنا » قولان : احدهما - يتركوا لأن يقولوا . الثاني - أحسبوا أن يقولوا على البدل وقال مجاهد : معنى « يفتنون » يبتلون فى أنفسهم واموالهم . وقيل : معنى يفتنون يصابون بشدائد الدنيا أي ان ذلك لا يجب أن يرفع في الدنيا لقولهم آمنا . وقال ابن عمر : أظنوا ان لا يؤمروا ولا ينهوا .

---

(١) آية ٦٩ من هذه السورة   (٢) انظر ١ / ٤٧ - ٥١

وقال الربيع : ألا يؤذوا ولا يقتلوا ؟ !

ثم اقسم تعالى انه فتن الذين من قبلهم « فليعلمن الله الذين صدقوا » في ايمانهم « وليعلمن الكاذبين » فيه . وانما قال « فليعلمن » مع أنه للاستقبال والله تعالى عليم فيما لم يزل ، لحدوث المعلوم فـلا تصح الصفة إلا على معنى المستقبل إذ لا يصلح ولا يصح لم يزل عالماً بأنه حادث ، لانعقاد معنى الصفة بالحادث ، وهو إذا حدث علمه تعالى حادثاً بنفسه . وقيل : معنى « وليعلمن الله الذين صدقوا » ليجازيهم بما يعلم منهم . وقيل : معناه يعلم الله الذين صدقوا في أفعالهم ، كما قال الشاعر :

[ليث بعثر يصطاد الرجال] إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا(١)

وقال ابن شجرة « فليعلمن الله » معناه فليظهرن الله لرسوله صدق الصادق . وقال النقاش : معناه فليميزن الله الصادقين من الكاذبين . وهو قول الجبائي.

ثم قال تعالى ممدداً لخلقه « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا » اي أيظن الذين يفعلون القبائح والمعاصي ان يفوتونا ؟! كما يفوت السابق لغيره. ثم قال « ساء ما يحكمون » اي بئس الشيء الذي يحكمون بظنهم انهم يفوتونا. ثم قال « من كان يرجوا لقاء الله » أي من كان يأمل لقاء ثواب الله . وقال سعيد بن جبير والسدي : معناه من كان يخاف عقاب الله ، كما قال الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها (٢)

أي لم يخف فـ (من) رفع بالابتداء ، وخبرها (كان) وجواب الجزاء ، كقولك زيد إن كان في الدار فقد صدق الوعد . وقوله « فان أجل الله

(١) قائله زهير بن ابى سلمى ديوانه : ٤٣

(٢) قد مر تخريجه في ٢ / ٢١٠ و ٣ / ٣١٥ و ٧ / ٤٩١

لآت » أي الوقت الذي وقته الله للثواب والعقاب آت لا محالة والله « هو السميع » لاقوالكم « العليم » بما تضمرونه فى نفوسكم ، فيجازيكم بحسب ذلك.

قوله تعالى :

﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ (٦) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠) خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى « ومن جاهد » أي من جاهد نفسه بأن يصبر على ما أمره الله به ، ويعمل بسنته ، ومنه الجهاد ، وهو الصبر فى الحرب على ما جاء به الشرع « فانما يجاهد لنفسه » لان ثواب صبره عائد عليه وواصل اليه دون الله تعالى ، لانه تعالى غني عن جميع الخلائق غير محتاج الى طاعاتهم ، ولا غير ذلك.

ثم قال تعالى « والذين آمنوا » أي صدقوا بوحدانيته واقروا بنبوة

نبيه ، واعترفوا بما جاء به من عند الله « لنكفرن عنهم سيئاتهم » التي اقترفوها قبل ذلك . ومن قال بالاحباط قال : تبطل السيئة الحسنة التي هي أكبر منها حتى يصير بمنزلة مالم يعمل ، كما قال « ان الحسنات يذهبن السيئات » (١) والاحباط هو ابطال الحسنة بالسيئة التي هي اكبر منها . والسيئة الخصلة التي يسوء صاحبها عاقبتها . والحسنة الخصلة التي يسر صاحبها عاقبتها . وكل حسنة طاعة لله ، وكل سيئة هي معصية له تعالى .

وقوله « لنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون » قال الجبائي : معناه أحسن ما كانوا يعملون : طاعاتهم لله ، لانه لاشيء في ما يعمله العباد أحسن من طاعاتهم لله . وقال قوم : معناه ولنجزينهم بأحسن اعمالهم ، وهو الذي أمرناهم به ، دون المباح الذي لم نأمرهم به ولا نهيناهم عنه .

وقوله « ووصينا الانسان بوالديه حسناً » معناه أمرناه أن يفعل حسناً وألزمناه ذلك . ثم خاطب كل واحد من الناس ، فقال « وإن جاهداك » يعني الوالدين أيها الانسان « لتشرك بي » في العبادة « ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما » في ذلك . وقيل : نزلت في سعد بن ابي وقاص ، لأنه لما هاجر حلفت أمه انها لا يظلها سقف بيت حتى يعود . فنزلت الآية .

ثم قال مهدداً للجميع « الي مرجعكم » أي إليّ مآلكم « فانبئكم » أي اخبركم « بما كنتم تعملون » في دار التكليف ، ثم اجازيكم بحسبه . ثم قال تعالى « والذين آمنوا » بتوحيد الله واخلاص العبادة له وصدق انبيائه واضافوا الى ذلك الأعمال الصالحات « لندخلنهم في » جملة « الصالحين » الذين فعلوا الطاعات ويجازيهم الله ثواب الجنة .

---

(١) سورة ١١ هود آية ١١٥

ثم اخبر ان « من الناس من يقول » بلسانه « آمنا بالله فاذا أوذي في الله » أي إذا لحقه شدة في جنب الله « جعل فتنة الناس » أي عذاب الناس إياهم « كعذاب الله » اي خافوا عذاب الخلق ، كما يخاف عذاب الله ، فيرتدون. « ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم » وهذا الذي ذكره صفة المنافقين الذين إذا جاهدوا الكفار وكانت الدائرة على المسلمين جعلوا ذلك مثل ما يعذبهم الله ، ومتى ظفروا بأعدائهم قالوا المؤمنين « انا كنا معكم » في الجهاد فلنا مثل مالكم من الغنيمة ، فقال تعالى « أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين » أي الله يعلم بواطن احوالهم وسرائرما في نفوسهم ، فيجازيهم على حسب ذلك .

قوله تعالى :

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١٥)

خمس آيات بلا خلاف .

اقسم الله تعالى بأنه يعلم الذين يؤمنون بالله على الحقيقة ظاهراً وباطناً فيجازيهم على ذلك بثواب الجنة ، وذلك ترغيب لهم « وليعلمن المنافقين » فيه تهديد للمنافقين مما هو معلوم من حالهم التي يستترون بها ويتوهمون انهم نجوا من ضررها ، باخفائها ، وهي ظاهرة عند من يملك الجزاء عليها ، وتلك الفضيحة العظمى بها .

ثم حكى تعالى أن الذين كفروا نعم الله وجحدوها يقولون للذين آمنوا بتوحيده وصدق انبيائه « اتبعوا سبيلنا ولنحمل » نحن « خطاياكم » أي نحمل ما تستحقون عليها من العقاب يوم القيامة عنكم هزؤاً بهم واشعاراً بأن هذا لاحقيقة له ، فالمأمور بهذا الكلام هو المتكلم به أمر نفسه في مخرج اللفظ ومعناه يضمن إلزام النفس هذا المعنى ، كما يلزم بالأمر ، قال الشاعر :

فقلت ادعي وادع فان أندى لصوت أن ينادي داعيان (١)

معناه ولادع . وفيه معنى الجزاء وتقديره ان تتبعوا ديننا حملنا خطاياكم .

ثم نفى تعالى أن يكونوا هم الحاملين لخطاياهم من شيء ، وانهم يكذبون في هذا القول ، لأن الله تعالى لايؤاخذ أحداً بذنب غيره . فلا يصح إذاً أن يتحمل احـد ذنب غيره ، كما قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للانسان إلا ما سعى » (٢) وليس ذلك بمنزلة تحمل الدية عن غيره ، ولان الفرض في الدية أداء المال عن نفس المقتول ، فلا فضل بين ان يؤديه زيد عن نفسه ، وبين أن يؤديه عمرو عنه ، لانه بمنزلة قضاء الدين .

(١) شرح الفية بن مالك ٢٦٧ وتفسير القرطبي ١٣ / ٣٣٤

(٢) سورة ٦ الانعام آية ١٦٤ وسورة ١٧ الاسرى آية ١٥ وسورة ٣٥ فاطر آية ١٨ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧ وسورة ٥٣ النجم آية ٣٩

وقوله «وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم» معناه انهم يحملون خطاياهم في أنفسهم التي لا يعملونهـا بغيرهم ، ويحملون الخطايا التي ظلموا بها غيرهم ، فحسن لذلك فيه التفصيل الذي ذكره الله .

وقوله « وليسألن يوم القيامـة عما كانوا يفترون » أي يعملون . ومعناه إنهم يسألون سؤال تعنيف وتوبيخ وتبكيت وتقريع ، لا سؤال استعلام كسؤال التعجيز في الجدل ، كقولك للوثني ما الدليـل على جواز عبادة الأوثان ، وكما قال تعالى « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (١) .

ثم اخبر تعالى انه أرسل نوحاً الى قومه يدعوهم الى توحيد الله وإخلاص العبادة له ، وانه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلم يجيبوه ، وكفروا به « فأخذهم الطوفان » جزاء على كفرهم ، فأهلكهم الله تعالى « وهم ظالمون » لنفوسهم بما فعلوه من عصيان الله تعالى والاشراك به ، والطوفان الماء الكثير الغامر ، لانه يطوف بكثرته في نواحي الارض قال الراجز :

افناهم طوفان موت جارف (٢)

شبه الموت في كثرته بالطوفان . ثم اخبر تعالى انه أنجى نوحاً والذين ركبوا معه السفينه من المؤمنين به ، وجعل السفينة آية أي علامـة للخلائق يعتبرون بها إلى يوم القيامة ، لأنها فرقت بين المؤمنين والكفار والعاصين والاخيار ، فهي دلالة للخلق على صدق نوح وكفر قومه .

قوله تعالى :

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ

(١) سورة ٢ البقرة آية ١١١ وسورة ٢٧ النمل آية ٦٤

(٢) تفسير القرطبي ١٣ / ٣٣٤

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَٱبْتَغُوا عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلاَّ ٱلْبَلاَغُ ٱلْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنْشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « أو لم تروا » بالتاء . الباقون بالياء . وقرأ ابن كثير وابو عمرو « النشاءة » بفتح الشين ممدودة ـ هنا ـ وفي النجم ، والواقعة . الباقون ـ بسكون الشين مقصوراً ـ ومن قرأ بالتاء ، فعلى الخطاب تقديره : قل لهم يا محمد « أو لم تروا » حين انكروا البعث والنشور « أو لم تروا كيف يبدىء الله الخلق » أي إذا انكرتم الاعادة كان الابتداء أولى بالنكرة . وحيث أقروا بان الله خالقهم ابتداء فيلزمهم أن يقروا بالاعادة ثانياً . ومن قرأ بالياء ، فعلى الاخبار عنهم « ويبدىء » فيه لغتان اتى بهما القرآن بدأ الله الخلق ، وأبدأهم ، قال الله تعالى « وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده » فمصدر أبدأ يبدؤ إبداءاً ، فهو مبدىء . ومن قرأ (بدأ) يبدؤ

بدءاً ، فهو بادىء ، وذاك مبدوء ، ويقال : رجع عوده على بدئه بالهمز ، وبدا يبدو ، بغير همز : ظهر . وقال ابو عمرو (غلام تغلب) : يجوزرجع عوده على بده - بغير همز - بمعنى الظهور كقولهم : ما عـدا مما بدا . والنشاءة والنشأة بالمد والقصر ، لغتان . كقولهم : رأفة ورآفة ، وكأبة وكآبة وهما مصدران . فالنشأة المرة الواحدة ، يقال : نشأ الغلام ، فهو ناشىء ، وامرأة ناشئة ، والجمع نواشىء ، ويقال للجواري الصغار نشأ قال نصيب :

ولولا ان يقال صبا نصيب   لقلت بنفسي النشأ الصغار (١)

وانشأهم الله إنشاء ، فهو منشىء ، ونشت - بغير همز - ريحاً طيبة ، ورجل نشوآن من الشراب . ورجل نشيان للخير إذا كان يتخير الخير ، حكاه تغلب.

قوله « وابراهيم إذ قال » يحتمل نصبه أمرين :

احدهما - ان يكون عطفاً على قوله « وارسلنا نوحاً الى قومه » وتقـــديره وأرسلنا إبراهيم أيضاً .

الثاني - بتقدير واذكر « ابراهيم» حين « قال لقومه أعبدوا الله » وحده لا شريك له ، واتقوا عقابه باتقاء معاصيه « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» ما هو خير لكم مما هو شر لكم .

وقوله « انما تعبدون من دون الله او ثاناً » حكاية عما قال ابراهيم لقومه كأنه قال لهم ليس تعبدون من دون الله إلا اوثاناً ، وهو جمع وثن ، وهو ما يعبد من دون الله. وقيل: ما يعمل من حجر وطين يسمى وثناً . و (ما) فى قوله « إنما » كافة ، وليست بمعنى الذي ، لأنها لو كانت بمعنى الذي ، لكان (اوثان) رفعاً .

(١) مر تخريجه في ٤/٣٠٤

وقوله « وتخلقون إفكاً » أي تعملون أصناماً ، وسماها إفكاً لادعائهم أنها آلهة ـ وهو قول قتادة ، والجبائي ـ وقال ابن عباس: وتصنعون كذباً ، وتحقيقه يصنعون على ما يقدرون ، ثم قال لهم ابراهيم أيضاً ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله ﴾ يعني الاصنام ﴿ لا يملكون لكم رزقاً ﴾ أي لا يقدرون على أن يرزقوكم ، وإنما يبتغى الرزق من القادر على المنع ، وهو الله الرازق . والملك قدرة القادر على ماله أن يتصرف فيه أتمّ التصرف ، وليس ذلك إلا لله ـ عز وجل ـ على الحقيقة ، لأن له التصرف والقدرة على جميع الاشياء بلا مانع ، والانسان إنما يملك ما يملكه الله ، ويأذن له في التصرف فيه . فأصل الملك لجميع الأشياء لله . ومن لا يملك أن يرزق غيره لا يستحق العبادة ، لأن العبادة تجب بأعلى مراتب النعمة . والأصنام لاتقدر على ذلك ، فاذاً لايحسن عبادتها .

ثم قال لهم ﴿ وابتغوا عند الله الرزق ﴾ أي اطلبوا الرزق من عند الله دون من سواه ﴿ واعبدوه ﴾ على ما انعم به عليكم من أصول النعم ، وأعلى مراتب الفضل ﴿ واشكروا له ﴾ ايضاً ، لأنكم اليه ترجعون يوم القيامة فيجازيكم على قدر اعمالكم . فمن عبده وشكره جازاه بالثواب . ومن عبد غيره وكفر نعمه جازاه بالعقاب . ويقال : شكرته وشكرت له يؤكد باللام . فمعنى الشكر له اختصاصه بنفسه من غير احتمال لغيره . ثم قال ﴿ وإن تكذبوا ﴾ بما اخبركم به من عند الله ، وما أدعوكم اليه من اخلاص عبادته ﴿ فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ انبياءهم الذين بعثوا فيهم وليس ﴿ على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ يعني الا أن يوصل اليهم ويؤدي اليهم ما أمر به لكونه بياناً ظاهراً يمكنهم معرفته وفهمه ، وليس عليه حملهم على الايمان .

ثم قال ﴿ او لم يروا كيف يبدؤ الله الخلق ﴾ اي ألم يفكروا فيعلموا كيف

اخترع الله الخلق من العدم ﴿ ثم يعيده ﴾ ثانياً اذا اعدمهم بعد وجودهم . قال قتادة : معنى ﴿ ثم يعيده ﴾ بالبعث بعد الموت . وقيل ينشئه بالاحياء ﴿ ثم يعيده» بالرد الى حال الموت . والأول أصح ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ غير متعذر ، لأن من قدر على الاختراع والانشاء أولا كان على الاعادة اقدر . ومعنى (يسير) لا تعب عليه فيه ولا نصب ، وكل فعل كان كذلك ، فهو سهل يسير . والاحتجاج في ذلك أن من قدر على ذلك قادر على ارسال الرسول الى العباد .

ثم قال لنبيه محمد ﷺ ﴿ قل ﴾ لهؤلاء الكفار ﴿ سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق ﴾ وفكروا في آثار من كان قبلكم ، والى اي شيء صار امرهم لتعتبروا بذلك فيما يؤديكم الى العلم بربكم .

وقوله ﴿ ثم الله ينشيء النشأة الآخرة ﴾ فالنشأة الآخرة اعادة الخلق كرة ثانية من غير سبب كما كان اول مرة ، لان معنى الانشاء الايجاد من غير سبب. ﴿ ان الله على كل شيء قدير ﴾ اخبار منه تعالى انه قادر على كل شيء يصح ان يكون مقدوراً له .

قوله تعالى:

﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ٱقْتُلُوهُ أَوْحَرِّقُوهُ فَأَنْجَيهُ ٱللهُ مِنَ
ٱلنَّارِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُمْ
مِنْ دُونِ ٱللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ
يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَيكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وابو عمرو، والكسائي « مودة بينكم » بالرفع والاضافة، وقرأ نافع وابو بكر عن عاصم وابن عامر « مودة بينكم » منونا منصوبا، وروى الأعشى عن أبي بكر برفع « مودة » و « بينكم » نصب، وقرأ حفص عن عاصم وحمزة « مودة بينكم » نصباً غير منون مضاف .

من رفع يحتمل وجهين احدهما ـ ان يجعل « انما » كلمتين يجعل (ما) بمعنى الذي، وهو اسم (ان) و (مودة) خبره، ومفعول اتخذتم (هاء) محذوفة، وتقديره : إن الذي اتخذتموه مودة بينكم، كما قال الشاعر :

ذريني إنما خطائي وصوا   بي علي وانما اهلكت مالي

يريد ان الذي أهلكته مالي . الثاني ـ ان يرفعها بالابتداء، « وفي الحياة الدنيا » خبرها .

ومن نصب جعل (المودة) مفعول (اتخذتم) .

ومن أضاف جعل البين الوصل .

ومن لم ينون ولم يضف جعل (البين)ظرفاً . وهو الفراق ايضاً . يقال : بينهما بين بعيد ، وبون بعيد ، وجلس زيد بيننا ، وبينا بالادغام ، ذكره ابن زيد عن ابن حاتم عن الاصمعي ، يقال : بان زيد عمراً : إذا فارقه يبونه بوناً قال الشاعر :

كأن عيني وقد بانوني غربا نصوح غير محنوني

وقرأ ابي « انما مودة بينكم » .

اخبر الله تعالى انه « يعذب من يشاء » من عباده اذا استحقوا العقاب ﴿ ويرحم من يشاء ﴾ منهم فيعفو عنهم بالتوبة وغير التوبة ﴿ واليه تقلبون ﴾ معاشر الخلق أي اليه تحشرون وترجعون يوم القيامة . والقلب الرجوع والرد ، فتقلبون أي تردون الى حال الحياة في الآخرة بحيث لا يملك الضر والنفع فيه إلا الله . والقلب نفي حال بحال يخالفها . ثم قال : ولستم بمعجزين في الأرض أي بفائتين ، فالمعجز الفائت بما يعجز القادر عن لحاقه . ولهذا فسروا ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي بفائتين ، والمعنى لا تغتروا بطول الامهال ﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾ اي لستم تفوتونه في الارض ، ولا في السماء لو كنتم فيها ، فانه قادر عليكم حيث كنتم . وقيل في ذلك قولان : احدهما ـ لا يفوتونه هرباً في الأرض ، ولا في السماء . الثاني ـ ولا من في السماء بمعجزين ، كما قال حسان :

أمن يهجوا رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء (١)

وتقديره ومن يمدحه وينصره سواء أم لا يتساوون ؟ !

وقوله ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ أي وليس لكم ولي ولا ناصر من دون الله يدفع عنكم عقاب الله إذا أراد بكم ، فالولي هو الذي

(١) مر تخريجه في ١ / ٤١٠

يتولى المعونة بنفسه ، والنصير قد يدفع المكروه عن غيره تارة بنفسه وتارة بان يأمر بذلك . ثم قال تعـالى ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ اي جحدوا أدلة الله ولقاء ثوابه وعقابه يوم القيامة ﴿ أولئك يئسوا من رحمتي ﴾ اخبار عن اياسهم من رحمة الله ، لعلمهم انها لاتقع بهم ذلك اليوم ﴿ وأولئك لهم عذاب اليم ﴾ اي مؤلم . وفى ذلك دلالة على ان المؤمن بالله واليوم الآخر لا يجوز ان ييأس من رحمة الله .

ثم قال ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه اوحرقوه ﴾ وفى ذلك دلالة على ان جميع ما تقدم حكاية ما قال ابراهيم لقومه ، وانهم لما عجزوا عن جوابه بحجةعدلوا الى ان قالوا اقتلوه او حرقوه وفى الكلام حذف ، وتقديره : إنهم اوقدوا ناراً وطرحوه فيها ﴿ فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآية ﴾ واضحة وحجة بينـة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ بصحة ما اخبرناك به من توحيد الله واخلاص عبادته .

ثم عاد الى حكاية قول ابراهيم وانه قال لهم ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ قال قتادة : كل خلة تنقلب يوم القيامة عداوة إلا خلة المتقين كما قال ﴿ الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين ﴾ (١) ومعنى الآية ان ابراهيم قال لقومه : انما اتخذتم هذه الأوثان آلهة من دون الله لتتوادوا بها في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامـة يتبرؤ بعضكم من بعض ويلعن بعضكم بعضاً ، ومستقركم النار ، ومالكم من ينصركم بدفع عذاب الله عنكم .

ثم قال لهم « ومأواكم النار » أي مستقركم و « ما لكم من ناصرين »

---

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٦٧

يدفعون بالقهر والغلبة. وروى عبد الله بن احمد بن حنبل عن أبيه في كتاب التفسير أن جميع الدواب والهوام كانت تطفي عن ابراهيم النار إلا الوزغ فانها كانت تنفخ النار، فامر بقتلها. وروى أيضاً انه لم ينتفع احد يوم طرح ابراهيم في النار بالنار في جميع الدنيا.

قوله تعالى:

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف

ست آيات حجازي وخمس في ماعداه عدوا «السبيل» آية ولم يعدها الباقون.

قرأ اهل الحجاز وابن عامر وحفص ويعقوب «إنكم لتأتون الفاحشة» بهمزة واحدة على الخبر. وقرأه اهل الكوفة. إلا حفصاً بهمزتين مخففتين على الاستفهام. وقرأ ابو عمرو كذلك إلا انه بلين الثانية، ويفصل بينهما

بألف ، وأما « انكم لتأتون الرجال » فانهم على اصولهم . حكى الله سبحانه ان ابراهيم لما دعا قومه الى اخلاص عبادة الله وترك عبادة الاوثان ، وقبح فعلهم في ذلك أنه صدّق به لوط عليه السلام وآمن به . وكان ابن اخته ، فابراهيم خاله وهو قول ابن عباس وابن زيد والضحاك وجميع المفسرين . وقال لوط « اني مهاجر الى ربي » معناه اي خارج من جملة الظالمين على جهة الهجر لهم لقبح أفعالهم الى حيث أمرني ربي ، ومن هذا هجرة المسلمين من مكة الى المدينة والى أرض الحبشة ، لانهم هجروا ديارهم وأوطانهم لأذى المشركين لهم فأمروا بأن يخرجوا عنها . وقيل : هاجر ابراهيم ولوط من كوثى ، وهي من سواد الكوفة الى أرض الشام في قول قتادة . وقال « إنه هو العزيز الحكيم » الذي لا تضيع الطاعة عنده ، العزيز الذي لايذل من نصره . ثم قال « ووهبنا له » يعني لابراهيم « إسحاق ويعقوب ، وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » قيل : إنما لم يذكر اسماعيل مع انه نبي معظم، لأنه قد دل عليه بقوله « وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب » فترك ذكر اسمه . لانه يكفي فيه الدلالة عليه لشهرته وعظم شأنه ، وذكر ولد ولده فى سياقه ذكر ولده ، لأنه يحسن اضافته اليه ، لأنه الأب الأكبر له .

وقوله « وآتيناه أجره في الدنيا » قال ابن عباس : الأجر في الدنيا الثناء الحسن ، والولد الصالح ، وقال الجبائي : هو ما أمر الله به المكلفين من تعظيم الأنبياء . قال البلخي : وذلك يدل على انه يجوز أن يثيب الله في دار التكليف ببعض الثواب . و (الكتاب) أريد به الكتب ، من التوراة والانجيل والزبور والقرآن ، غير انه خرج مخرج الجنس . « وانه في الآخرة لمن الصالحين »

اخبار منه تعالى أن ابراهيم مع انه آتاه أجره وثوابه في الدنيا إنه في الآخرة يحشره الله من جملة الصالحين العظيمي الاقدار، لما قاموا به من النبوة على ما أمر الله به . وقوله « ولوطاً إذ قال لقومه » يحتمل نصبه أيضاً بشيئين :

احدهما - و (أرسلنا لوطاً) عطفاً على (نوحاً وابراهيم) .

والثاني - بتقدير واذكر لوطاً حين قال لقومه « انكم لتأتون الفاحشة » من قرأ بلفظ الاستفهام أراد به الانكار دون الاستعلام . ومن قرأ على الخبر أراد إن لوطاً أخبرهم بذلك منكراً لفعلهم لا مفيداً لهم، لأنهم كانوا يعلمون ما فعلوه . والفاحشة - ههنا - ما كانوا يفعلونه من اتيان الذكران في أدبارهم « ما سبقكم بها » بهذه الفاحشة أحد من الخلائق . ثم فسر ما أراد بالفاحشة فقال « انكم لتأتون الرجال » يعني في أدبارهم ، والفاحش الشنيع في القبح ، فحش فلان يفحش فحشاً وتفاحش تفاحشاً إذا شنع في قبحه ، وهو ظهوره بما تقتضي العقول بالبديهه ردّه وانكاره .

وقوله « وتقطعون السبيل » قيل : انهم كانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال . وقيل : يقطعون سبيل الولد باتيان الذكران في الأدبار . وقيل : بالعمل الخبيث ، لأنهم كانوا يطلبون الغرباء « وتأتون في ناديكم المنكر » قال ابن عباس : كانوا يضرطون في مجالسهم ، وقال السدي : كانوا يحذفون من مرّ بهم . وقال مجاهد : كانوا يأتون الرجال في مجالسهم . وقال الكلبي : منها الحذف ، والصفير ، ومضغ العلك ، والرمي بالبندق ، وحل ازرار القبا والقميص . وهي ثماني عشرة خصلة . وقال غيره : هي عشر خصال .

وقوله « فما كان جواب قومه إلا ان قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت

من الصادقين » حكاية عما قال قوم لوط في جوابه حين عجزوا عن مقاومته بالحجة وانهم قالوا له « ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » في دعواك النبوة وأن الله أرسلك وأمرك بما تدعو اليه ، فقال عند ذلك لوط « رب انصرني على القوم المفسدين » الذين فعلوا المعاصي وارتكبوا القبائح وأفسدوا في الارض والمعنى اكفني شرّهم وأذاهم ، ويجوز أن يريد اهلكهم ، وانزل عذابك عليهم .

قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣٥) خمس آيات

قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب « لننجينه » بالتخفيف . الباقون بالتثقيل . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وابو بكر ويعقوب « منجوك » غير متحرك بالتخفيف . الباقون بالتشديد وقرأ ابن عامر والكسائي

عن ابي بكر ﴿ منزلون ﴾ بالتشديد . الباقون بالتخفيف . من قرأ « لننجينه » بالتشديد و بتحريك النون ، فلقوله ﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (١) ولقوله ﴿ إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ (٢) ومن خفف فلقوله ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ (٣) يقال : نجا زيد وأنجيته ونجيته ، مثل فرح وفرحته وأفرحته . ومن قرأ ﴿ منزلون ﴾ بالتشديد ، فلان أصله نزل ، كما قال ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ (٤) . فاذا عديته ثقلته إما بالهمزة او بالتضعيف والتضعيف يدل على التكرار .

وقوله ﴿ انا منجوك وأهلك ﴾ نصب ﴿ أهلك ﴾ على انه مفعول به عطفاً على موضع الكاف ، وقوله ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ﴾ (٥) انما كسر اللام وموضعها النصب ،لان العرب تقول : رأيت أهلك يريدون جميع القرابات . ومنهم من يقول : أهليك ، ويجمع اهل على أهلين ، فاذا أضافه ذهبت النون للاضافة ، فالياء علامة الجمع والنصب . وكسرت اللام لمجاورتها الياء . وفي الحديث (ان لله أهلين) قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال (اهل القرآن هم اهل الله وخاصته) ومن العرب من يجمع (أهلا) أهلات انشد ابن مجاهد :

فهم اهلات حول قيس بن عاصم إذا ادلجوا بالليـل يدعون كوثرا

قال ابن خالويه : الصواب أن يجعل اهلات جمع اهلة . قال : فان قيل : هل يجوز أن تقول أهلون؟ - بفتح الهاء - كما يقولون : أرضون إذ كان الأصل ارضات ، قال : إن (أهلا) مذكر تصغيره أهيل ، وارضاً مؤنثـة تصغيرها

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١٨

(٢) سورة ٥٤ القمر آية ٣٤ (٣) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٤

(٤) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٩٣ (٥) سورة ٦٦ التحريم آية ٦

أريضة ، والتاء سابقة فى المؤنث ممتنعة فى المذكر ، فهذا يفصل ما بينهما ، قال وما علمت احداً تكلم فيه .

اخبرالله تعالى انه لما جاء ابراهيم رسل الله ، وهم من الملائكة بالبشرى يبشرونه باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ، والبشرى البيان ، وهوالخبر بما يظهر سروره فى بشرة الوجه . وقيل : الاخبار بما يظهر سروره او غمه في البشرة : بشرى ، ويقوي ذلك قوله ﴿ فبشرهم بعذاب اليم ﴾ (١) غير انه غلب عليه البشارة بما يسر به .

وقوله ﴿ قالوا إنا مهلكوا اهل هذه القرية ﴾ حكاية ما قالت الملائكة لابراهيم فانهم قالوا له: بعثنا الله وارسلنا لاهلاك هذه القرية التي فيها قوم لوط . والاهلاك الاذهاب بالشيء الى ما لايقع به احساس ، فلما كانوا بالعذاب قد اذهبوا هذا الاذهاب كانوا قد اهلكوا ، والقرية البلدة التي يجتمع اليها للايواء من جهات مختلفة ، وهي من قريت الماء في الحوض أقريه قرياً . إذا جمعته . ومنه قرى الضيف لانك تجمعه اليك بما تعده له من طعام . و (الظالم) من فعل الظلم وهو صفة ذم .

فقال لهم ابراهيم عند ذلك ﴿ إن فيها لوطاً ﴾ كيف تهلكونها ، فقالوا في جوابه ﴿ نحن أعلم بمن فيها ﴾ والأعلم الاكثر معلوماً ، فاذا كان الشيء معلوماً لعالم من جهات مختلفة ولعالم آخر من بعض تلك الوجوه دون بعض كان ذلك اعلم . ثم قالوا ﴿ لننجينه ﴾ أي لنخلصنه من العذاب ﴿ وأهله ﴾ أي ونخلص أيضاً اهله المؤمنين منهم ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي من الباقين

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٢١ وسورة ٩ التوبة آية ٣٥ وسورة ٨٤ الانشقاق آية ٢٤

في العذاب ، قال المبرد : و (أهلك) عطف على المعنى ، لأن موضع الكاف الخفض ، ولا يجوز العطف على المضمر المخفوض على اللفظ ، ومثل ذلك قول لبيد:

فان لم تجد من دون عدنان والدآ   ودون معد فلترعك العواذل (١)

فنصب (ودون) على الموضع ٠ ثم حكى تعالى أن رسل الله لما جاءت ﴿ لوطاً سيء بهم ﴾ وقيل في معناه قولان :

احدها - سيء بالملائكة أي ساء مجيؤهم لما طلبوا منه الضيافة لما يعلم من خبث فعل قومه - في قول قتادة - ٠

الثاني - سيء بقومه ذرعاً أي ضاق بهم ذرعاً ، لما علم من عظم البلاء النازل بهم ، فلما رأته الملائكة على تلك الصفة ﴿ قالوا ﴾ له ﴿ لا تخف ولا تحزن انا منجوك ﴾ اي مخلصوك ومخلصوا ﴿ اهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ﴾ اي من الباقين في العذاب ٠ وانما قال ﴿ من الغابرين ﴾ على جمع المذكر تغليباً للمذكر على المؤنث إذا اجتمعا ٠ وقيل : كانت من الباقين لأنه طال عمرها ، ذكره ابو عبيدة ، وقالوا له ﴿ إنا منزلون على اهل هذه القرية رجزاً ﴾ اي عذاباً رجزاً ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ ويخرجون من طاعة الله الى معصيته ٠

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ ولقد تركنا منها ﴾ يعني من القرية انه بينه ، قال قتادة الآية البينة الحجارة التي أمطرت عليهم ٠ وقال غيره عفو آثارهم معظهور هلاكهم ﴿ لقوم يعقلون ﴾ ذلك ويبصرونه ويتفكرون فيه ويتعظون به ، فيزجرهم ذلك عن الكفر بالله واتخاذ شريك معه في العبادة ٠

---

(١) الكتاب لسيبويه ١ / ٣٤

قوله تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ وَٱرْجُو ٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي ٱلأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلاخلاف.

قوله « والى مدين أخاهم شعيباً » عطف على قوله « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه » وتقديره وأرسلنا الى مدين، وقد فسرنا معنى (مدين) فيما تقدم (١) « أخاهم شعيباً » وانه قال لهم « يا قوم اعبدوا الله » وحده لاشريك له ولا تشركوا معه في العبادة غيره « وارجوا اليوم الآخر » يحتمل أن

(١) انظر ٦ / ٤٧

يكون أراد وخافوا عقاب اليوم الآخرة بمعاصي الله ، ويحتمل ان يكون أراد واطلبوا ثواب يوم القيامة بفعل الطاعات « ولا تعثوا في الارض مفسدين » معناه لا تضطربوا بحال الجهالة يقال : عثى يعثي عثى ، كقولهم عاث يعيث عيثاً وفيه معنى الأمر بالاستقامة ، لانه إنما يخرج عن اضطراب الجهال إلى الاستقامة في الأفعال . والفساد كل فعل ينافي العقل أو الشرع ، فهو عبارة عن معاصي الله .

ثم اخبر أن قومه كذبوه في ادعائه النبوة ولم يقبلوا منه فعاقبهم الله بعذاب الرجفة ، وهي زعزعة الأرض تحت القدم ، يقال : رجف السطح من تحت أهله يرجف رجفاً ، ورجفة شديدة ، والارجاف هو الأخبار بما يضطرب الناس لأجله من غير أن يحققونه « فأصبحوا في دارهم جاثمين » قال قتادة : ميتين بعضهم على بعض . وقيل : باركين على ركبهم ، والجاثم البارك على ركبتيه مستقبلا بوجهه الأرض .

وقوله « وعاداً وثمود » أي وأهلكنا أيضاً عاداً وثمود جزاء على كفرهم « وقد تبين لكم » معاشر الناس كثير « من مساكنهم » .

ثم اخبر أنه « زين لهم الشيطان اعمالهم » التي كفروا بها وعصوا الله فيها ، وذلك يدل على بطلان قول المجبرة الذين ينسبون ذلك الى الله .

ثم اخبر أن الشيطان صدهم ومنعهم عن طريق الحق « فهم لا يهتدون » اليه لاتباعهم دعاء الشيطان.وعدولهم عن الطريق الواضح « وكانوا مستبصرين» أي وكانوا عقلاء يمكنهم تميز الحق من الباطل بابصارهم له وفكرهم فيه . وقال مجاهد وقتادة « وكانوا مستبصرين » في ضلالتهم لعجبهم به ، فتصوروه بخلاف صورته .

ثم اخبر انه تعالى أهلك قارون ، وفرعون ، وهامان . ويجوز أن يكون عطفاً على (الهاء والميم) فى قوله « فصدهم عن السبيل » وكأنه قال فصد عاداً وثمود ، وصد قارون وفرعون وهامان وأنهم « جاءهم موسى بالبينات » يعني بالحجج الواضحات : من فلق البحر وقلب العصا وغير ذلك « فاستكبروا في الارض » أي طلبوا التجبر فيها ، ولم ينقادوا للحق وأنفوا من اتباع موسى « وما كانوا سابقين » أي فائتين لله ، كما يفوت السابق .

ثم اخبر تعالى فقال « فكلاً أخذنا بذنبه » أي اخذنا كلاً بذنبه « فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً » وهو الريح العاصفة التي فيها حصباء وهي الحصى الصغار ، وشبه به البرد والجليد ، قال الاخطل :

ولقد علمت إذا العشار تروحت هدج الرئال تكبهن شمالا
ترمي الرياح بحاصب من ثلجها حتى تبيت على العضاة جفالا (١)

وقال الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام يضربنا بحاصب كنديف القطن منثور (٢)

والذين أرسل عليهم الحاصب قوم لوط ـ في قول ابن عباس ، وقتادة ـ والذين أخذتهم الصيحة ثمود وقوم شعيب ـ فى قولهما ـ « ومنهم من خسفنا به الارض» يعني قارون ، « ومنهم من أغرقنا » يعني قوم نوح وفرعون.

ثم اخبر تعالى أنه لم يظلمهم بما فعل معهم « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » بجحدهم نعم الله واتخاذهم مع الله آلهة عبدوها ، وطغيانهم وفسادهم فى الأرض . وذلك يدل على فساد قول المجبرة الذين قالوا : إن الظلم من فعل الله ، لأنه

(١) مر تخريجه فى ٧ / ٨ (٢) مر تخريجه في ٦ / ٥٠٢

لو كان من فعله لما كانوا هم الظالمين لنفوسهم، بل كان الظالم لهم من فعل فيهم الظلم

قوله تعالى :

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنْكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) ٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَأَقِمِ ٱلصَّلٰوةَ إِنَّ ٱلصَّلٰوةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللهِ أَكْبَرُ وَٱللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو ويعقوب وعاصم - في رواية حفص - والعليمي، والعبسي « ان الله يعلم ما يدعون من دونه » بالياء على الخبر عن الغائب . الباقون بالتاء على الخطاب . قال ابو علي : (ما) استفهام وموضعها النصب بـ (يدعون) ولا يجوز أن يكون نصباً بـ (يعلم) ولكن صارت الجملة التي هي منها في موضع نصب ، وتقديره إن الله يعلم أوثاناً يدعون من دونه ، لايخفى عليه ذلك . ومثله « فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار » (١) والمعنى سيعلمون آلمسلم

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٣٥

يكون له عاقبة الدار أم الكافر ؟ . وكل ما كان من هذا فهكذا القول فيه ، وهو قياس قول الخليل .

شبه الله سبحانه حال من اتّخذ من دونه أولياء ينصرونه عند الحاجة في الوهن والضعف بحال العنكبوت الذي يتخذ بيتاً ليأوى اليه ، فكما أن بيت العنكبوت في غاية الوهن والضعف ، فكذلك حال من اتّخذ من دون الله أولياء مثله في الضعف والوهن . والمثل قول سائر يشبه به حال الثاني بالاول . و (الاتّخاذ) أخـــذ الشيء على اعداده لنائبة ، وهو (افتعال) من (الاخذ) فلما اخذوا عبادة غير الله إعداداً لنائبة كانوا اتّخذوا الأولياء من دون الله ، وذلك فاسد لأن عبادة الله هي العاصمة من المكاره دون عبادة الأوثان . والولي هو المتولي للنصرة ، وهو أبلغ من الناصر ، لان الناصر قد يكون ناصراً بأن يأمر غيره بالنصرة ، والولي هو الذي يتولى فعلها بنفسه . والعنكبوت هو دابة لطيفة تنسج بيتاً تأويه ، في غاية الوهن والضعف ، ويجمع عناكب ، ويصغر عنيكب ووزنه (فعللوت) وهو يذكر ويؤنث ، قال الشاعر :

على هطـأ لهم منهم بيوت كأن العنكبوت هو ابتناها (١)

ويقال: هو العنكباء . ثم اخبر تعالى «ان أوهن البيوت لبيت العنكبوت» الذي شبه الله حال من اتخذ من دونه أولياء به ، فاذا حاله أضعف الاحوال . وقوله « لو كانوا يعلمون » صحة ما أخبرناهم به ويتحققونه ، لكنهم كفار بذلك ، فلا يعلمونه فـ (لو) متعلقة بقوله « اتّخذوا » أي لو علموا أن اتخاذهم الأولياء كاتّخاذ العنكبوت بيتاً سخيفاً لم يتخذوهم أولياء ، ولا يجوز أن تكون متعلقة بقوله « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت » لأنهم كانوا عالمين بأن

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٣٤٥

بيت العنكبوت واه ضعيف .

ثم قال تعالى « إن الله يعلم ما تدعون من دونه من شيء » سواء كان صنماً او وثناً أو ما كان مثل ذلك « وهو العزيز » في انتقامه الذي لايغالب فيما يريده « الحكيم » في جميع أحواله وأفعاله ، واضع لها في مواضعها . ثم قال « وتلك الامثال » وهي الاشباه والنظائر ، قال الشاعر :

هل يذكر العهد في تنمص إذ يضرب لي قاعدة بهامثلا (١)

« يضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » أي ما يدركها إلامن كان عالماً بمواقعها . ثم اخبر تعالى انه « خلق السموات والارض » وأخرجهما من العدم الى الوجود « بالحق » أي على وجه الحكمة دون العبث الذي لافائدة فيه وانه قصد بها الدلالة على توحيده « إن في ذلك » يعني في خلق الله ذلك على ما ذكره « لآية للمؤمنين » المصدقين بتوحيد الله ، لأنهم المنتفعون بها دون الكفار الذين لم ينتفعوا بها لتفريطهم ، فلذلك اسندها الى المؤمنين .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « أتل ما أوحي اليك من الكتاب » يا محمد يعني القرآن ـ على المكلفين ، واعمل بما تضمنه « وأقم الصلاة » بحدودها « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » يعني فعلها فيه لطف للمكلف في فعل الواجب والامتناع عن القبيح ، فهي بمنزلة الناهي بالقول إذا قال : لا تفعل الفحشاء ولا المنكر ، وذلك لأن فيها : التكبير ، والتسبيح ، والقراءة ، وصنوف العبادة ، وكل ذلك يدعو إلى شكله ويصرف عن ضده ، كالأمر والنهي بالقول ، وكل دليل مؤد الى المعرفة بالحق ، فهو داع اليه وصارف عن ضده من الباطل . وقال ابن مسعود : الصلاة تنهى عن المنكر وتأمر بالمعروف . وبه

(١) مجاز القرآن ٢ / ١١٦

قال ابن عباس . وقال ابن مسعود : الصلاة لا تنفع إلا من أطاع .

وقوله « ولذكر الله أكبر » معناه ولذكر الله إياكم برحمته اكبر من ذكركم إياه بطاعته ـ ذكره ابن عباس ، وسلمان ، وابن مسعود ، ومجاهد ـ وقيل : معناه ذكر العبد لربه أفضل من جميع عمله ـ في رواية أخرى ـ عن سلمان ، وهو قول قتادة وابن زيد وابي الدرداء . وقال ابو مالك : معناه إن ذكر العبد لله تعالى في الصلاة أكبر من الصلاة . وقيل : ذكر الله بتعظيمه اكبر من سائر طاعاته . وقيل : ولذكر الله اكبر من النهي عن الفحشاء .

وقوله « والله يعلم ما تصنعون » من خير وشر ، فيجازيكم بحسبه . وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال : ان المعرفة ضرورة ، ودلالة على بطلان قول المجبرة في أن الله خلق الكافر للضلال .

قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلاَّ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ فَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ ٱلْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا ٱلظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَاتُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو ، وابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم وقتيبة عن الكسائي « لولا أنزل عليه آيات من ربه » على الجمع لقوله « قل إنما الآيات » . وقرأ الباقون « آية » على التوحيد . ومعناها واحد ، لأنه لفظ جنس يدل على القليل والكثير . قال قتادة : الآية الأولى منسوخة بالجهاد والقتال . وقال غيره : هي ثابتة ، وهو الأولى ، لأنه لا دليل على ما قاله ، فكيف وقد أمر بالجدال بالذي هو أحسن ، وهو الواجب الذي لا يجوز غيره كما قال « وجادلهم بالتي هي احسن » (١) فالآية خطاب من الله تعالى لنبيه وجميع المؤمنين ينهاهم أن يجادلوا أهل الكتاب : من اليهود والنصارى « إلا بالتي هي أحسن » وقيل : معناه إلا بالجميل من القول في التنبيه على آيات الله وحججه والأحسن الأعلى في الحسن من جهة تقبل العقل له . وقد يكون الأعلى في الحسن من جهة تقبل الطبع له ، وقد يكون في الامرين . و (الجدال) فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج فيه . وفي ذلك دلالة على حسن المجادلة ، لأنها لو كانت قبيحة على كل حال ، لما قال « إلا بالتي هي أحسن » .

وأصل الجدال شدة الفتل ، يقال : جدلته أجدله جدلا إذا فتله فتلا شديداً ، ومنه الأجدل : للصقر لشدة فتل بدنه . وقيل : انه يجوز أن يغلظ

(١) سورة ١٦ النحل آية ١٢٥

الحق في الجدل على الظالم فيه ، بتأديب الله تعالى في الآية في قوله « إلا الذين ظلموا منهم » فاستثنى الظالم عن المجادلة بالتي هي أحسن .

فان قيل : لم استثنى الذين ظلموا ؟ وكلهم ظالم لنفسه بكفره !

قيل : لان المراد « إلا الذين ظلموا » في جـدالهم أو في غيره مما يقتضي الاغلاظ لهم ، ولهذا يسع الانسان ان يغلظ على غيره ، والا فالداعي الى الحق يجب أن يستعمل الرفق في أمره . قال مجاهد : « إلا الذين ظلموا منهم » بمنع الجزية. وقال ابن زيد: الذين ظلموا بالاقامة على كفرهم بعد إقامة الحجة عليهم.

ثم قال تعالى للمؤمنين « وقولوا آمنا بالذي انزل الينا » من القرآن « وانزل اليكم » من التوراة والانجيل ، وقولوا « وإلهنا وإلهكم واحد » لا شريك له « ونحن له مسلمون » طائعون .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ومثل ما أنزلنا الكتاب على موسى وعيسى من التوراة والانجيل «انزلنا اليك الكتاب» القرآن «فالذين آتيناهم الكتاب» يعني الذين آتيناهم علم الكتاب يصدقون بالقرآن لدلالته عليه « ومن هؤلاء من يؤمن به » أي من غير جهة علم الكتاب . وقيل « فالذين آتيناهم الكتاب » يعني به عبد الله بن سلام وأمثاله . و « من هؤلاء » يعني أهل مكة « من يؤمن به » . ويحتمل ان يكون أراد بـ (الذين آتيناهم الكتاب) الذين آتاهم القرآن : المؤمنين منهم و (ومن هؤلاء) يعني من اليهود والنصارى « من يؤمن به » أيضاً ، والهاء في قوله (به) يجوز أن تكون راجعة الى النبي ، ويجوز أن تكون راجعة الى القرآن « وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون » لان كل من جحد بآيات الله من المكلفين ، فهو كافر: معانداً كان أو غير معاند .

ثم خاطب نبيه صلى الله عليه وآله فقال « وما كنت تتلو من قبله من كتاب » يعني

لم تكن تحسن القراءة قبل أن يوحى اليك بالقرآن « ولا تخطه بيمينك » معناه وما كنت أيضاً تخط بيمينك . وفيه اختصار ، وتقديره ولو كنت تتلو الكتاب وتخطه بيمينك « إذاًلارتاب المبطلون » وقال المفسرون : إنه لم يكن النبي ﷺ يحسن الكتابة . والآية لاتدل على ذلك بل فيها إنه لم يكن يكتب الكتاب وقد لا يكتب الكتاب من يحسنه ، كما لا يكتب من لا يحسنه ، وليس ذلك بنهي ، لأنه لو كان نهياً لكان الأجود أن يكون مفتوحاً ، وإن جاز الضم على وجه الاتباع لضمة الخاء ، كما يقال : (ردّه) بالضم والفتح والكسر ، ولكان أيضاً غير مطابق للاول . ولو أفاد أنه لم يكن يحسن الكتابة قبل الايحاء ، لكان دليله يدل على انه كان يحسنها بعد الايحاء اليه ، ليكون فرقاً بين الحالتين .

ثم بين تعالى أنه لم يكتب ، لأنه لو كتب لشك المبطلون في القرآن وقالوا هو قرأ الكتب أو هو يصنفه ، ويضم شيئاً الى شيء في حال بعد حال فاذا لم يحسن الكتابة لم تسبق اليه الظنة .

ثم قال « بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم » وقيل : معناه بل هي آيات واضحات في صدور العلماء . بأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، على صفتهفي التوراة والانجيل - في قول ابن عباس - وقال الحسن : بل القرآن آيات بينات في صدور العلماء . ثمقال ﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾ أي لا ينكر حججنا ويجحدها إلا الذين ظلموا نفوسهم بترك النظر فيها ، أو العناد لها بعد طول المدة وحصول العلم بها . ثم حكى عن الكفار انهم قالوا : هلا انزل على محمد آية من ربه ؟ يريدون آية يقترحونها ، وآية كآية موسى : من فلق البحر وقلب العصا حية ، فقال الله تعالى لهم ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ انما الآيات عند الله ﴾ ينزلها ويظهرها بحسب ما يعلم من مصالح خلقه ﴿ وانما أنا نذير ﴾ أي

منذر مخوف من معصية الله ﴿ مبين ﴾ طريق الحق من طريق الباطل .

قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ اهل الكوفة ونافع « يقول » بالياء على معنى : ويقول لهم الموكلون بعذابهم . الباقون ـ بالنون ـ على وجه الاخبار من الله تعالى عن نفسه . وفي قراءة عبد الله ويقال لهم : على ما لم يسم فاعله .

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا : هلا أنزل على محمد آيات

اقترحوها او آيات كما أنزل على موسى وعيسى ، قال الله لهم « أو لم يكفهم أنا انزلنا عليك » يا محمد « الكتاب » يعني القرآن « يتلى عليهم » فبين أن في القرآن دلالة واضحة وحجة بالغة ينزاح معه العلة وتقوم بهالحجة لا يحتاج معه الى غيره في الوصول الى العلم بصحة نبوته وأنهمبعوث من عندالله،مع أن اظهار المعجزات مع كونهالا زاحةالعلة يراعى فيها المصلحة .فاذا كانت المصلحة فياظهار نوع منها لم يجز إظهارغيرها ، ولو اظهر الله الاعلام التي اقترحوها ثم لم يؤمنوا ، لاقتضت المصلحة استئصالهم كما اقتضت في الامم الماضية ، وقد وعد الله أن هذه الأمةلا تعذب بعذاب الاستئصال ، كما قال «وما منعناأن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » (١) . والكفاية بلوغ حد ينافي الحاجة ، يقال : كفى يكفي كفاية ، فهو كاف . وقيل : إن الآية نزلت في قوم كتبوا شيئاً من كتب أهل الكتاب شبه الخرافات . فقال الله تعالى ﴿ أو لم يكفهم ﴾ القرآن تهديداً لهم ومنعاً من التعرض لغيره . وقولهم : كفى الله معناه أنه فعل ما ينافي الحاجة بالنصرة . والتلاوة هي القراءة وسميت تلاوة لأنه يتلو حرف حرفاً في التلاوة . والقرآن مشتق من جمع الحروف بعضها الى بعض .

ثم بين الله تعالى ﴿ إن في ذلك ﴾ أي القرآن ﴿ لرحمة ﴾ أي نعمة ﴿ وذكرى ﴾ اي ما يتذكر به ومعتبر ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ يصدقون به ويعتبرون وانما أضافه اليهم ، لانهم الذين ينتفعون به . ثم أمر نبيه ﷺ أن يقول ﴿ كفى بالله ﴾ أي كفى الله . والباء زائدة ﴿ بيني وبينكم شهيداً ﴾ يشهد بالحق. والشاهد والشهيد واحد ، وفيه مبالغة ، والشهادة هي الخبر بالشيء عن مشاهدة تقوم به الحجة في حكم من أحكام الشرع ، ولذلك لم يكن خبر من لا تقوم به

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٥٩

الحجة ـ في الزنا ـ شهادة وكان قذفاً ، ثم بين أن الشهيد الذي هو الله ﴿ يعلم ما في السموات والارض ﴾ ويعلم الذين صدقوا بالباطل وجحدوا وحدانيته . ثم اخبر عنهم انهم الخاسرون الذين خسروا ثواب الجنة بارتكابهم المعاصي وجحدهم بالله ، فكان ذلك الخسران الذي لا يوازيه خسران مال . وقوله ﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ انما وصفهم بالايمان مقيدا بالباطل ، كما يقال : فلان كافر بالطاغوت مقيداً ، وانما الاطلاق لايجوز فيهما .

ثم خاطب نبيه صلى الله عليه وآله فقال ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ يعني هؤلاء الكفار ﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾ أن ينزل عليهم بجحودهم صحة ما تدعوهم به ، كما قالوا ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾(١) و ﴿ لو لا أجل مسمى ﴾ يعني وقتاً قدره الله أن يعاقبهم فيه وهو يوم القيامة وأجل قدره الله أن يبقيهم اليه لضرب من المصلحة . وقال الجبائي : ذلك يدل على أن التبقية لا تجب لكونه أصلح ، لانه علله بأنه قدر له أجلا ﴿ لجاءهم العذاب ﴾ الذي استحقوه ﴿ وليأتينهم ﴾ العذاب الذي يوعدونه ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بوقت مجيئه .

ثم قال ﴿ يستعجلونك ﴾ يا محمد ﴿ بالعذاب ﴾ أي يطلبون العذاب عاجلا قلة يقين منهم بصحته ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي كأنها محيطة بهم لما قد لزمهم بكفرهم من كونهم فيها . وقيل : معناه انه إذا كان يوم القيامة أحاطت بهم . ووجه ثالث ـ أنها تحيط بهم ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ أي تكسبون أي ذوقوا جزاء اعمالكم المعاصي التي اكتسبتموها .

---

(١) سورة ٨ الانفال آية ٣٢

قوله تعالى:

﴿يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ (٥٨) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (٦٠) خمس آيات بلاخلاف

قرأ يحيى والعليمي «ثم الينا يرجعون» بالياء على الخبر عن الغائب. الباقون بالتاء على الخطاب. وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً «لنثوينهم» بالثاء من أثويته منزلا أي جعلت له منزل مقام، والثواء المقام، الباقون بالباء من قولهم: بوأته منزلا، كما قال تعالى «مبوء صدق» في قوله «ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوء صدق» (١) و «إذ بوأنا لابراهيم مكان البيت» (٢) ويحتمل ان تكون اللام زائدة، كقوله ﴿ردف لكم بعض﴾ (٣) ويحتمل ان يكون المراد ﴿بوأنا﴾ لدعاء إبراهيم ﴿مكان البيت﴾ ويقول القائل: اللهم بوّئنا مبوء صدق أي انزلنا منزل صدق والتبوء اتخاذ منزل يرجع اليه من يأوى اليه، وأصله

(١) سورة ١٠ يونس آية ٩٣ (٢) سورة ٢٢ الحج آية ٢٦

(٣) سورة ٢٧ النمل آية ٧٢

الرجوع من قوله ﴿باءوا بغضب من الله﴾ (١) أي رجعوا ، ومنه قول الحارث ابن عباد : (بوئوا بشسع كايب) وقيل : معناه لننزلنهم من الجنة علالي .

يقول الله تعالى لخلقه الذين صدقوا بوحدانيته وأقروا بنبوة نبيه ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة ﴾ لبعد أقطارها ، فاهربوا من أرض من منعكم فيها من الايمان واخلاص عبادتي فيها . وقيل : نزلت في مؤمني مكة أمروا بالهجرة عنها ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وابن زيد . وقيل ﴿ أرضي واسعة ﴾ بما أخرج فيها من الرزق لكم ـ ذكره مطرف بن عبد الله بن السخير العامري . وقال الجبائي : معناه إن ارض الجنة واسعة ، واكثر اهل التأويل على ان المراد به ارض الدنيا .

وقوله ﴿ فاياي فاعبدون ﴾ أي اعبدوني خالصاً ، ولا تطيعوا احداً من خلقي في معصيتي . وقيل : دخول الفاء في الكلام للجزاء وتقديره إن ضاق موضع بكم فاياي فاعبدون لأن أرضي واسعة . و (إياي) منصوب بمضمر يفسره ما بعده .

ثم اخبر تعالى ان ﴿ كل نفس ﴾ احياها الله بحياة خلقها فيها ﴿ ذائقة الموت ﴾ والذائق الواجد للجسم بحاسة إدراك الطعم ﴿ثم الينا ترجعون ﴾ أي تردون إلينا فنجازيكم على قدر استحقاقكم من الثواب والعقاب . وفي ذلك غاية التهديد والزجر . ثم قال ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بوحدانية الله ، وأقروا بنبوة نبيه صلى الله عليه وآله ﴿ وعملوا ﴾ مع ذلك الاعمال ﴿ الصالحات لنبوءنهم ﴾ أي لننزلنهم ﴿ من الجنة ﴾ التي وعدها الله المتقين ﴿ غرفاً ﴾ أي مواضع عاليات ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ لان الغرف تعلو عليها . وقيل : تجري من تحت

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦١ وسورة ٣ آل عمران آية ١١٢

أشجارها المياه . وقيل : انهار الجنة في أخاديد تحت الارض ﴿ خالدين فيها ﴾ أي يبقون فيها ببقاء الله .

ثم اخبر تعالى ان ذلك ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ أي نعم الثواب والأجر للعاملين بطاعة الله ﴿ الذين صبروا ﴾ على الأذى في الله ، وصبروا على مشاق الطاعات ، ووكلوا أمورهم الى الله وتوكلوا عليه في ارزاقهم وجهاد اعدائهم ومهمات أمورهم .

ثم قال تعالى « وكأين من دابة » معنى كاين (كم) وقد فسرناه في ما مضى (١) « لا تحمل رزقها » أي لا تدخره لغـد - في قول علي بن الاقمر - وقال الحسن « لا تحمل رزقها » للادخار . وقيل : ان الحيوان أجمع من البهائم والطير ونحوها لا تدخر القوت لغدهـا - إلا ابن آدم والنملة والفارة - بل تأكل منه كفايتها فقط . وقال مجاهد : معناه « لاتحمل رزقها » لا تطيق حمل رزقها لضعفها « الله يرزقها » يعني تلك الدابة الضعيفة التي لا تقـدر على حمل رزقها « وإياكم » أي ويرزقكم أيضاً « وهو السميع العليم » يعني « السميع » لمـا يقول القائل في فراق وطنه « العليم » بما في نفسه ، لانه عالم بجميع الاشياء وقيل : الآية نزلت في أهل مـكة : المؤمنين منهم ، فانهم قالوا لرسول الله : ليس لنا بالمدينة اموال ، ولا منازل ، فمن أين المعاش ، فأنزل الله الآية .

قوله تعالى:

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ

(١) انظر ٣ / ١٠ و ٦ / ٢٠٢

ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ * فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٦) .

سبع آيات بصري وشامي ، وست في ما عداه عدوا « مخلصين له الدين » ولم يعده الباقون .

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ، والمسيبي ، والأعشى ، والبرجمي والكسائي عن أبي بكر ﴿ ليكفروا ، وليتمتعوا ﴾ ساكنة اللام . الباقون بالكسر إلا نافعاً ، لأنه اختلف عنه فيه . قال ابو علي : من كسرها وجعلها الجارة جعلها متعلقة بالاشراك ، وكأن المعنى : يشركون ليكفروا ، أي لا فائدة لهم في الاشراك إلا الكفر والتمتع بما يتمتعون بهعاجلا من غير نصيب آجلا . ومن سكن جعل ﴿ ليكفروا ﴾ بمنزلة الأمر ، وعطف عليه ، وكان

على وجه التهديد . وقال غيره : تحتمل هذه اللام أن تكون (لام كي) أي كأنهم اشركوا ليكفروا إذ لا يدفع الشرك في العبادة من كفر النعمة . ويجوز أن يكون لام الأمر على وجه التهديد بدلالة قوله ﴿ فسوف تعلمون ﴾ .

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله ولئن سألت هؤلاء الكفار الذين جحدوا توحيدي، وكفروا بنبوتك ﴿ من خلق السموات والأرض ﴾ والمنشيء لها والمخرج لها من العدم الى الوجود ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ في دورانها على طريقه واحدة لا تختلف ؟؟ ﴿ ليقولان ﴾ في جواب ذلك ﴿ الله ﴾ الفاعل لذلك لأنهم كانوا يقولون بحدوث العالم ، والنشأة الأولى ، ويعترفون بأن الأصنام لا تقدر على ذلك . ثم قال ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ هؤلاء أي كيف يصرفون عن صانع ذلك والاخلاص لعبادته - في قول قتادة - .

ثم قال ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أي يوسعه لمن يشاء من عباده بحسب ما تقتضيه المصلحة ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق مثل ذلك على حسب المصلحة ومنه قوله ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ (١) بمعنى ضيق على قدر ما فيه مصلحته . وقيل : معنى ويقدر - ههنا - ويقبض رزق العبد بحسب ما تقتضيه مصلحته . وخص بذكر الرزق على الهجرة لئلا يخلفهم عنها خوف العيلة .

وقوله « ان الله بكل شيء عليم » أي عالم بما يصلح العبد وبما يفسده فهو يوسع الرزق ويبسط بحسب ذلك . ثم قال « ولئن سألتهم » يعني هؤلاء الذين ذكرناهم « من نزل من السماء ماء » ؟ يعني مطراً « فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن » في الجواب عن ذلك « الله » فـ « قل » يا محمد عند ذلك « الحمد لله » على فنون نعمه على ما وفقنا للاعتراف بتوحيده واخلاص

(١) سورة ٦٥ الطلاق آية ٧

عبادته . ثم قال « بل اكثرهم » يعني هؤلاء الخلق « لا يعقلون » ما قلناه لعدولهم عن طريق المفضي اليه . ثم قال تعالى وليس « هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب » لأنها تزول كما يزول اللهو واللعب ، لا بقاء لهـا ، ولا دوام ، كما يزول اللهو واللعب « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان » أي الحياة على الحقيقة لكونها دائمة باقيـة « لو كانوا يعلمون » صحة ما أخبرناك به . وقال ابو عبيدة : الحيوان والحياة واحد .

ثم قال تعالى مخبراً عن حال هؤلاء الكفار انهم « إذا ركبوا فى الفلك » وهي السفن وهاجت به الرياح وخافوا الهـلاك « دعوا الله مخلصين له الدين » لا يوجهون دعاءهم إلى الأصنام والأوثان « فلما نجاهم إلى البر » أي خلصهم إلى البر « إذا هم يشركون » أي يعودون الى ما كانوا عليه من الاشراك معه فى العبادة « ليكفروا بما آتيناهم » أي يفعلون ما ذكرناه من الاشراك مع الله ليجحدوا نعم الله التي أعطاهم إياها « وليتمتعوا » أي وليتلذذوا فى العاجل من دنياهم ، فالتمتع يكون بالمناظر الحسنة ، والاصوات المطربة ، والمشام الطيبة والمآكل الملذة ، ثم قال مهدداً لهم « فسوف يعلمون » أي لابد أن يعلموا جزاء ما يفعلونه من الأفعال من طاعة او معصية ، فان الله يجازيهم بحسبها وذلك غاية التهديد .

قولـه تعـالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي

جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٦٩) ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى لهؤلاء الكفار « او لم يروا » ومعناه او لم يعلموا « أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم » أي يتناول الناس من حوالي مكة بسرعة ، وتؤخذ أموالهم . ومنه خطف البصر لسرعته . ومنه اختطاف الطير لصيده . ومنه الخطاف الذي يخرج الدلو . والمعنى بذلك تنبيههم على جميل صنع الله بهم ، وسبوغ نعمه عليهم ، بأن جعلهم في أمن مع ان الناس يؤخذون من حولهم . وذلك لا يقدر عليه غير الله . ثم قال مهدداً لهم « أفبالباطل يؤمنون » ! أي يصدقون بعبادة الأصنام وهي باطلة مضمحلة « وبنعمة الله» التي انعم بها عليهم « يكفرون » ؟!

ثم قال « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً » أي من اظلم لنفسه ممن جحد آيات الله واضاف اليه ما لم يقله ولم يأمر به من عبادة الأصنام وغيرها « او كذب بالحق لما جاءه » من نبوة محمد ﷺ من القرآن الذي أنزل عليه . ثم قال « أليس في جهنم مثوى للكافرين » أي موضع مقام الذين يجحدون نعم الله ، ويكفرون بآياته .

ثم قال « والذين جاهدوا فينا » يعني جاهدوا الكفار بأنفسهم ، وجاهدوا نفوسهم بمنعها عن المعاصي وإلزامها فعل الطاعة لوجه الله « لنهدينهم سبلنا » أي نرشدهم السبيل الموصل إلى الثواب . وقيل : معناه لنوفقنهم لازدياد الطاعات فيزدادوا ثوابهم . وقيل : معناه لنرشدنهم إلى الجنة « وإن الله لمع المحسنين » أي ناصر الذين فعلوا الأفعال الحسنة ، ويدفع عنهم اعداءهم .

٣٠ - سورة الروم

وهي مكية في قول مجاهد وقتادة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ . وقال الحسن : كلها مكية إلا قوله ﴿ فسبحانه الله ﴾ إلى قوله ﴿ وحين تظهرون ﴾ وهي ستون آية كوفي وبصري ومدني الأول وشامي . وتسع وخمسون في المدني الأخير والمكي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٥) .

خمس آيات كوفي وبصري وشامي ، وأربع في ما عداه ، عد الكوفيون ﴿ الم ﴾ وعدوا ﴿ غلبت الروم ﴾ وعد البصري والشامي ﴿ غلبت الروم ﴾

وعدوا ﴿ فى بضع سنين ﴾ وعد المدني ﴿ غلبت الروم ﴾ وعـد ﴿ اسماعيل والمكى غلبت الروم ، في بضع سنين ﴾ .

قرأ ابن عمر ، وابو سعيد الخدري ﴿ غلبت الروم ﴾ بفتح الغين ، فقيل لابن عمر : على أي شيء غلبوا قال على ريف الشام ، وهذا غلط ، فان عند جميع المفسرين القراءة بالضم . والسبب في ذلك معروف ، وهو ان الروم لما غلبهم فارس فرح مشركوا قريش بذلك من حيث ان اهل فارس لم يكونوا اهل كتاب ، وساء ذلك المسلمين ، فأخبر الله تعالى ان الروم وإن غلبهم فارس ، فان الروم ستغلب في ما بعـد فارس ﴿ في بضع سنين ﴾ أي في ما بين ثلاث سنين إلى عشر ، فكان كما اخبر ، وكان ذلك معجزة ظاهرة باهرة للنبي صلى الله عليه وآله وروي أن جماعـة من الصحابة راهنوا أبي بن خلف وقيل : أبا سفيان ، إن لم يصح الخبر ووافقوهم على اربع سنين ، فلما اخبروا النبي صلى الله عليه وآله قال : (زيدوهم في الخطر واستزيدوا في الأجل) ففعلوا ، فغلبت الروم افارس قبل المدة .

اخبر الله تعالى ان الروم غلبت عليها فارس في أدني الأرض من أرض الشام الى ارض فارس ، وانهم من بعد غلبتهم فارس سيغلبون في ما بعد في بضع سنين . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله ان البضع ـ ههنا ـ ما بين الثلاث الى العشر . وروي ان سبب ذلك ان الروم لما غلبتها فارس فرح المشركون بذلك وقالوا: أهل فارس لا كتاب لهم غلبوا اهل الروم ، وهم اهل كتاب ، فنحن لا كتاب لنا نغلب محمداً الذي معه كتاب ، فانزل الله تعالى هذه الآيات تسلية للنبي والمؤمنين . وإن الروم وإن غلبها فارس ، فانها ستغلب فارس في ما بعـد في بضع سنين . قال ابو سعيد الخدري : كان النصر يوم بدر للفريقين للنبي صلى الله عليه وآله

والروم على فارس ، ففرح المؤمنون بالنصرين . وقيل : كان يوم الحديبية .
وقال الفراء : قوله « من بعد غلبهم » تقديره غلبتهم ، فحذف الهاء للاضافة .
كما قال « وإقام الصلاة » (١) .

قال الزجاج : الغلب والغلبة مصدران ، مثل الحلب والحلبة ، والغلبة الاستيلاء على القرن بالقهر ، غلبْ يغلب فهو غالب وذلك مغلوب ، وتغلب تغلباً إذا تعرض للغلبة ، غالبه معالبة . و (الأدنى) الاقرب ، ونقيض الأدنى الاقصى ، ونقيض الأقرب الابعد . والمراد أدنى الارض إلى جهة عدوهم . والبضع القطعة من العدد ما بين الثلاث إلى العشر ، اشتقاقه من بضعته إذا قطعته تبضيعاً ، ومنه البضاعة القطعة من المال فى التجارة ، ومنه البضعة القطعة من البدن ، والمبضع ، لانه يقطع به العرق . والمباضعة الجماع . وقال المبرد البضع ما بين العقدين فى جميع الاعداد .

ثم اخبر تعالى بأن « لله الأمر من قبل ومن بعد » تقديره من بعد غلبهم ومن قبل غلبهم ، فقطع عن الاضافة وبني لأنه على الغاية وتفسيرها انه ظرف قطع عن الاضافة التي هي غاية ، فصار كبعض الاسم ، فاستحق البناء وبني على الحركة ، لان له اصلا فى التمكن يستعمل . وبني على الضمة لانها حركة لاتكون له فى حال الاعراب . فهي ادل على البناء .

ثم قال « ويومئذ يفرح المؤمنون » أي يوم يغلب الروم لفارس يسر المؤمنون تفاؤلا بأن يغلبوا هم المشركين . ثم بين بماذا يفرحون ، فقال « بنصر الله ينصر من يشاء من عباده وهو العزيز » فى انتقامه من اعدائه « الرحيم » إلى من أناب اليه من خلقه .

(١) سورة ٢٤ النور آية ٣٧

قوله تعالى :

﴿ وَعْدَ ٱللهِ لا يُخْلِفُ ٱللهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٦) يَعلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ ٱللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَاؤُا ٱلسُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُنَ ﴾ (١٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ أهل الحجاز والبصرة والبرجمي ، والسموني ، والكسائي عن ابي بكر « عاقبة الذين » بالرفع . الباقون بالنصب . من نصب جعلها خبر (كان) وقدمها على الاسم ، واسمها يحتمل ان يكون السوء وتقديره : ثم كان السوء عاقبة الذين . ويحتمل ان يكون ما بعد (أن) فى قوله « ان كذبوا » . ومن رفع [عاقبة] جعلها اسم (كان) والخبر السوء . ويحتمل ان يكون الخبر

(ان كذبوا) وتقديره ثم كان عاقبة المسيء التكذيب بآيات الله ، أي لم يظفر في شركه وكفره إلا بالتكذيب ، ويكون السوء على هذا نصباً على المصدر في قوله « وعد الله » نصب على المصدر ، وتقديره : إن ما ذكره الله تعالى من ان الروم ستغلب فارس في ما بعد ، وعد وعداً لله لا يخالف وعده ، وتقديره وعداً لله وعده كما قال الشاعر :

يسعى الوشاة جنابيها وقيلهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول (١)

أي ويقولون : قيلهم ، والاخلاف فعل خلاف ما تقدم الوعد به ، وسبيل الوعد بالخير والوعيد بالشر واحد في انه إذا وقع فيه خلاف ما تضمنه كان خلفاً ، ثم قال « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » صحة ما اخبرناك به لجهلهم بالله وتفريطهم في النظر المؤدي إلى معرفة الله ، ولا يناقض قوله « لا يعلمون » لقوله « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » لأن ذلك ورد مورد المبالغة لهم بالذم لتضييعهم على ما يلزمهم من أمر الله ، كأنهم لا يعلمون شيئاً . ثم بين حالهم في ما عقلوا عنه ، وما عملوه . ومعنى « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » أي عمران الدنيا متى يزرعون ومتى يحصدون ، وكيف يبنون ومن أين يعيشون وهم جهال بأمر الآخرة ، وله مضيعون ـ ذكره ابن عباس ـ أي عمروا الدنيا واخربوا الآخرة . والظاهر هو الذي يصح ان يدرك من غير كشف عنه . فالله تعالى ظاهر بالأدلة ، باطن عن حواس خلقه . والأمور كلها ظاهرة له ، لأنه يعلمها من غير كشف عنها ولا دلالة تؤديه اليها ، وكلما يعلم بأوائل العقول ظاهر وكلما يعلم بدليل العقل باطن ، لأن دليل العقل يجري مجرى الكشف عن صحة المعنى ـ في صفته ـ والغفلة ذهاب المعنى عن النفس كحال النائم ، ونقيضه

(١) مر هذا البيت في ١ / ٣٠٠ و ٥ / ٣٨٨

اليقظة . وهي حضور المعنى للنفس كحال المنتبه . ونقيضه السهو .

ثم قال تعالى منبهاً لخلقه على وجه الدلالة على توحيـده « او لم يتفكروا في انفسهم » فيعلموا ان الله لم يخلق « السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق» بمعنى الاستدلال بهما على توحيده « واجل مسمى » للاشياء التي للعباد فيها مصلحة بالاعتبار به اذا تصوروا ذلك في الاخبار عنه انه مع كثرته وعظمه محصل بتسمية تنبئ عنه ، لا يتأخر ولا يتقدم ، بالاوصاف التي ذكرها الله تعالى عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه شيء منه .

ثم قال « وان كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » أي بلقاء ثواب الله وعقابه كافرون ، يجحدون صحة ذلك ولا يعترفون به .

ثم قال منبهاً لهم دفعة أخرى « او لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » من الأمم « كانوا اشدمنهم قوة وآثاروا الأرض » أي حرثوها لعمارتها ـ في قول مجاهد والسدي ـ و « عمروها اكثر مما عمروها» هؤلاء . يعني أهل مكة « وجاءتهم رسلهم بالبينات » يعني أتتهم الرسل بالدلالات من عند الله . وفي الكلام حذف ، لان تقـديره ، فكذبوا بتلك الرسل ، وجحدوا الآيات فأهلكهم الله بأنواع العذاب . ثم قال « فما كان الله ليظلمهم » بأن يهلكهم من غير استحقاق ابتداء ، وفي ذلك بطلان قول المجبرة : ان الله يبتدىء خلقه بالهلاك .

ثم قال « ولكن كانوا » هم « انفسهم يظلمون » بأن جحدوا نعم الله واشركوا في العبادة معـه غيره ، وكذبوا رسله وعصوه بأنواع العصيان ، حتى استحقوا العقاب عاجلا وآجلا .

ثم قال « ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوء » اخبار منه تعالى بأن عاقبة

الذين أساؤا الى نفوسهم بالكفر بالله تعالى، وتكذيب رسله وارتكاب معاصيه «السوء» وهي الخصلة التي تسوء صاحبها إذا أدركها، وهي عـذاب النار ـ في قول ابن عبـاس وقتادة وغيرهما ـ «أن كذبوا» ومعناه لأن كذبوا «بآيات الله» أي جحدوا أدلتـــه ولم يؤمنوا بها «وكانوا بها» بتلك الادلة «يستهزؤن» أي يسخرون منهـا ويتهزؤن بهـا . وقيل: معنى الآية أنهم حفروا الأنهار وغرسوا الأشجار وشيدوا البنيان وصاروا الى الهلاك على أسوء حال بالعصيان ولم يفكروا في الموت، وانهم يخرجون من الدنيـا ويصيرون الى الحساب والجزاء .

قوله تعالى:

«أَللَّهُ يَبْدَؤُ الْخَـلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَـائِهِمْ شُفَعَاؤُ وَكَـانُوا بِشُرَكَـائِهِمْ كَـافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَـاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَـفَرُوا وَكَـذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَـمْدُ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠)

عشر آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو ، وروح ويحيى والعليمي « ثم اليه يرجعون » بالياء على وجه الخبر . الباقون - بالتاء - على الخطاب .

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه أنه هو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده يبدؤهم إبتداء فيوجدهم بعد أن كانوا معدومين على وجه الاختراع ثم يعيدهم أي يميتهم ويفنيهم بعد وجودهم ، ثم يعيدهم ثانياً كما بدأهم أولا ، ثم يرجعون اليه يوم القيامة ليجازيهم على أفعالهم ، على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب.

واستدل قوم بهذه الآية على صحة الرجعة بأن قالوا « الله يبدؤ الخلق » معناه ابتداء خلقهم « ثم يعيده » إذا أماته في زمان الرجعة « ثم اليه ترجعون » يوم القيامة ، وهذا ليس بمعتمد ، لان لقائل أن يقول : قوله « ثم يعيده » يجوز أن يكون المراد به احياءهم في القبر للمساءلة التي لاخلاف فيها « ثم اليه ترجعون » يوم القيامة ، فلا يمكن الاعتماد عليه . و (البدء) أول الفعل وهو على وجهين :

احدهما - انه اول الفعل وهو جزء منه مقدم على غيره .

والثاني - انه موجود قبل غيره من غير طريق الفعلية ، يقال: بدأ يبدؤ بدءاً وابتدء يبتدىء ابتداء . والابتداء نقيض الانتهاء ، والبدؤ نقيض العود . والخلق - ههنا

ـ بمعنى المخلوق . ومثله قوله « هذا خلق الله » وتقول هذا الخلق من الناس ، وقد يكون الخلق مصدراً من خلق الله العباد ، والخلق كالاحداث والمخلوق كالمحدث . والاعادة فعل الشيء ثانية . وقولهم : اعاد الكلام فهو على تقدير ذلك ، كأنه قد اتى به ثانية إذا اتى بمثله ، وإن كان الكلام لا يبقى ولا يصح اعادته . وقد يكون الاعادة فعل ما به يكون الشيء الى ما كان من غير ايجاد عينه كاعادة الكتاب الى مكانه . ومثل الاعادة الرجعة والنشأة الثانية .

وقوله « ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون » قيل : معناه ييئسون ، وقيل : يتحيرون ، وقيل : تنقطع حججهم ، فالابلاس التحير عند لزوم الحجة ، فالمجرم يبلس يوم القيامة ، لأنه تظهر جلائل آيات الآخرة التي تقع عندها على الضرورة فيتحير أعظم الحيرة ، قال العجاج :

يا صاح هل تعرف رسماً مكرسا قال نعم أعرفه وأبلسا (١)

وقوله « ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء » أي لم يكن في أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله من يشفع لهم . وقيل : شركاؤهم لأنهم كانوا يجعلون لها نصيباً في أموالهم . وقيل : شركاؤهم الذين جعلوهم شركاء في العبادة « وكانوا بشركائهم كافرين » أي يجحدون شركاءهم ذلك اليوم ، لأنه يحصل لهم المعرفة بالله ضرورة . وأصل الشرك إضافة الملك الى اثنين فصاعداً على طريق القسمة التي تمنع من اضافته الى الواحد ، فالانسان على هذا يكون شريكاً لانسان آخر في الشيء إذا ملكاه جميعاً ، والله تعالى مالك له ، ملكه هذا الانسان

(١) قد مر في ١ /١٥٣ و ٢ / ٣٠٩ و ٣ /٥٧٨ و ٤ / ٥٠٤

او لم يملكه .

وقوله « ويوم تقوم الساعة » يعني القيامة « يومئذ يتفرقون » قيل : يتميز المؤمنون من الكافرين . وقيل : معناه لا يلوي واحد منهم على حاجة غيره ، ولا يلتفت اليه ، وفي ذلك نهاية الحث على الاستعداد والتأهب لذلك المقام .

ثم قال « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات » يعني صدقوا بتوحيد الله وصدق رسله ، وعملوا الصالحات ، وتركوا القبائح « فهم في روضة يحبرون » أي يسرون سروراً تبين أثره عليهم ، ومنه الحبرة وهي المسرة ، ومنه الحبر العالم ، والتحبير التحسين الذى يسر به . وانما خص ذكر الروضة ـ ههنا ـ لأنه لم يكن عند العرب شيء أحسن منظراً ولا اطيب ريحاً من الرياض ، كما قال الشاعر :

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل(١)

والحبرة هي السرور والغبطة ، قال العجاج :

فالحمد لله الذى أعطى الحبر موالي الحق إن المولى شكر (٢)

ثم بين تعالى أن الكفار في ضد ما فيه اهل الجنة ، فقال « وأما الذين كفروا » بنعم الله وجحدوا آياته ثم انكروا لقاء ثوابه وعقابه يوم القيامة « فهم في العذاب محضرون » أى محضرون فيها ، ولفظة الاحضار لا تستعمل إلا

(١) قائله الاعشى ديوانه (دار بيروت) ١٤٥

(٢) اللسان (حبر)

فيما يكرهه الانسان ، ومنه حضور الوفاة ، ويقال : احضر فلان مجلس السلطان إذا جيء به بما لا يؤثره ، والاحضار إيجاد ما به يكون الشيء حاضراً إما بايجاد عينه كاحضار المعنى في النفس او بايجاد غيره ، كايجاد ما به يكون الانسان حاضراً .

ثم قال تعالى « سبحان الله » أي تنزيها لله تعالى مما لا يليق به ولا يجوز عليه من صفات نقص او ينافي عظمه ، وما اختص به من الصفات . وقوله « حين تمسون وحين تصبحون » فالامساء الدخول في المساء ، والمساء مجيء الظلام بالليل ، والاصباح نقيضه ، وهو الدخول في الصباح ، وهو مجيء ضوء النهار .

ثم قال « وله الحمد في السموات » يعني الثناء والمدح في السموات « والارض وعشياً » أي وفي العشي « وحين تظهرون » أي حين تدخلون في الظهيرة وهي نصف النهار . وإنما خص تعالى العشي والاظهار في الذكر بالحمد وإن كان الحمد واجباً في جميع الأوقات ، لانها أحوال تذكر باحسان الله ، وذلك أن انقضاء احسان اول الى احسان يقتضي الحمد عند تمام الاحسان والأخذ في الآخر ، كما قال تعالى « وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين » (١) .

وقيل : إن هذه الآية تدل على الصلوات الخمس في اليوم والليلة ، لأن قوله « حين تمسون » يقتضي المغرب والعشاء الآخرة « وحين تصبحون » يقتضي صلاة الفجر « وعشياً » يقتضي صلاة العصر « وحين تظهرون » يقتضي صلاة الظهر ـ ذكره ابن عباس ، ومجاهد ـ .

ثم اخبر تعالى انه الذي « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي »

---

(١) سورة ١٠ يونس آية ١٠

قال ابن عباس وابن مسعود : معناه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي فانه يخرج الانسان وهو الحي من النطفة ، وهي الميتة ، ويخرج الميتة وهي النطفة من الانسان وهو حي . وقال قتادة : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

وقوله ﴿ ويحي الأرض بعد موتها ﴾ اى يحييها بالنبات بعد جدو بها ، ولا يجوز أن يكون المراد إحياء الأرض حقيقة ، كما لا يكون الانسان أسداً حقيقة إذا قيل فلان اسد ، لانه يراد بذلك التشبيه والاستعارة ، فكذلك احياء الارض بعد موتها ، كأنها تحيا بالنبات الذى فيها. وقوله ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً والاعشى من طريق الطبرى — بفتح التاء — أضاف الفعل الذى هو الخروج اليهم . الباقون — بالضم — بمعنى يخرجهم الله ، والمعنيان قريبان ، لانهم إذا أخرجوا ، فقد خرجوا ، والمعنى مثل ما يخرج النبات من الارض كذلك يخرجكم الله بعد ان لم يكن كذلك ، تخرجون الى دار الدنيا بعد ان لم تكونوا ، ويعيدكم يوم القيامة بعد ان كنتم قد أعدمكم الله أى لا يشق عليه ذلك . كما لا يشق عليه هذا .

ثم قال تعالى ﴿ومن آياته ﴾ أى أدلته الواضحة ﴿ان خلقكم من تراب﴾ يعني انه خلق آدم الذى هو ابوكم وأصلكم — في قول قتادة وغيره — ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ من نسله وذريته ، و ﴿ تتفرقون ﴾ في أطراف الارض فهلا دلكم ذلك على انه لا يقدر على ذلك غيره تعالى ؟ وانه الذى يستحق العبادة دون غيره من جميع خلقه .

وفي هذه الآيات — دلالة واضحة على صحة القياس العقلي ، وحسن النظر بلا شك ، بخلاف ما يقول قوم : ان النظر باطل . فأما دلالتـــه على القياس

الشرعي فبعيد لا يعوّل على مثله .

قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف .

روى حفص عن عاصم « العالمين » بكسر اللام الأخيرة . الباقون بفتحها فمن كسرها اسند (الآيات) الى العلماء ، لأنهم الذين ينظرون فيها ، ويعتبرون بها ، كما قال « هدى للمتقين » (١) ومن فتح اللام أسند (الآيات) الى جميع

(١) سورة ٢ البقرة ٢

المكلفين الذين يتمكنون من الاستدلال بها والاعتبار بها، سواء كانوا عالمين بها او جاهلين، لأن الامكان حاصل لجميعهم وهو أعظم فائدة.

يقول الله سبحانه مخاطباً لخلقه منبهاً لهم على توحيده وإخلاص العبادة له بـ «أن خلق لكم من أنفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها» والنفس هي الذات في الأصل ثم يستعمل على وجه التأكيد لقولهم: رأيت زيداً نفسه، ويعبر بها عن الروح وغير ذلك. وقد بيناه. (١) وقال قتادة المعنى ـ ههنا ـ أنه خلقت حواء من ضلع آدم. وقال غيره: المعنى خلق لكم من شكل أنفسكم أزواجاً. وقال الجبائي: المعنى خلق أزواجكم من نطفكم. قال البلخي: وذلك يدل على قوله «هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها، فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً» (٢) انه يريد بعض الخلق دون بعض. والزوجة المرأة التي وقع عليها عقد النكاح. والزوج الرجل الذي وقع عليه عقد النكاح. وقد يقال: المرأة زوج إذا لم يلبس للاشعار بأنهما نظيران في عقد النكاح عليهما قال الله تعالى «إسكن انت وزوجك الجنة» (٣) وقوله ﴿لتسكنوا اليها﴾ يعني سكون إنس وطمأنينة، بأن الزوجة من النفس إذ هي من جنسها ومن شكلها فهو أقرب الى الالفة والميل بالمودة منها لو كانت من غير شكلها.

وقوله ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ أي جعل بينكم رقة التعطف إذ كل واحد من الزوجين يرق على الآخر رأفة العطف عليه، بما جعله الله في قلب كل واحد لصاحبه ليتم سروره.

---

(١) انظر ٥ / ٦٣ ـ ٦٤ (٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٨

(٣) سورة ٢ البقرة آية ٣٥ وسورة ٧ الاعراف آية ١٨

ثم قال ﴿ إن في ذلك ﴾ يعني في خلق الازواج مشاكلة للرجال ﴿لآيات﴾ أي لدلالات واضحات ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ في ذلك ويعتبرون به ، والفكر والاعتبار والنظر واحد ، فالفكر في أن الازواج لأي شيء خلقت ؟ ومن خلقها؟ ومن انعم بها ؟ ومن جعلها على الاحوال التي يعظم السرور بها ؟ وكيف لا يقدر احد من العباد على ذلك ؟ وذلك من اعظم الدلالة على أن لها خالقاً مخالفاً لها ومنشئاً حكيماً يستحق العبادة ، ولا يستحقها غيره .

ثم نبه على آية أخرى فقال ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على توحيده ووجوب اخلاص العبادة له « خلق السموات والأرض » وما فيهما من عجائب خلقه من النجوم والشمس والقمر وجريانها على غاية الحكمة والنظام الذي يعجز كل أحد عنها وبما في الأرض من أنواع الاشجار والنبات وأصناف الجمادات التي ينتفع بها وفنون النعم التي يكثر الانتفاع بها « واختلاف ألسنتكم وألوانكم » فالالسنة جمع لسان ، واختلافها ما بناها الله تعالى، وهيأتها مختلفة في الشكل والهيئة وتأتي الحروف بها « واختلاف السنتكم » أي اختلاف مخارجها التي لا يمكن الكلام إلا بكونها كذلك . وقال قوم: المراد بالالسنة اختلاف اللغات ، وهو جواب من يقول : إن اللغات أصلها من فعل الله دون المواضعة . فأما من يقول : اللغات مواضعة فان تلك المواضعة من فعلهم دون فعل الله ، غير أنه لما كانت الآلات التي تتأتى بها هذه الضروب لا يقدر على تهيئها كذلك غير الله جاز أن تضاف اللغات اليه تعالى على ضرب من المجاز « والوانكم » أي واختلاف ألوانكم من البياض والحمرة والشقرة والصفرة ، وغير ذلك « ان في ذلك لآيات » أي إن في خلق جميع ذلك لدلالات واضحات لجميع خلقه الذين خلقهم، واكمل عقولهم

ومن كسر اللام اضاف الاعتبار بها الى العلماء ، لأنهم المنتفعون بها دون غيرهم فكأنها خلقت لهم دون غيرهم ، كما قال « هدى للمتقين » (١) وإن كانت لجميع المكلفين .

ثم قال « ومن آياته » الدالة على توحيده واخلاص العبادة له ﴿ منامكم بالليل والنهار ﴾ فالمنام والنوم واحد ، لان في النوم راحة الاجساد من الكد الذي يلحقها ، والتعب الذي يصيبها ﴿ وابتغاؤكم ﴾ أي طلبكم المعاش وما ينفعكم ﴿ من فضله ﴾ أي مما يتفضل الله به عليكم . قال البلخي : ويجوز ان يكون المراد بالابتغاء المبتغا ، فلذلك كان دلالة عليه دون فعل العباد ، وانما يكون فعل الله دلالة عليه لما كان باقداره وإهدائه الى مراشده وترغيبه فيه وتسهيله له ﴿ إن في ﴾ خلق الله تعالى ﴿ ذلك لآيات ﴾ واضحات على توحيده ﴿ لقوم يسمعون ﴾ ذلك ويقبلونه ويفكرون فيه ، لأن من لا يفكر فيه ولا ينتفع به كأنه لم يسمعه .

ثم قال ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ والبرق نار تحدث في السحاب ، بين تعالى أنه إنما يخلقه ليخافوا من عذابه بالنار على معصيته والكفر به ، ويطمعوا في ان يتعقب ذلك مطر فينتفعون به ﴿ وينزل من السماء ماء ﴾ يعني غيثاً ومطراً ﴿ فيحيي به الارض بعد موتها ﴾ أي بعد انقطاع الماء عنها وجدو بها . وقيل : ﴿ خوفاً ﴾ من المطر في السفر ﴿ وطمعاً ﴾ فيه في الحضر . وقيل : ﴿ خوفاً ﴾ من الصاعقة ﴿ وطمعاً ﴾ في الغيث ﴿ إن في ﴾ خلق الله ﴿ ذلك لآيات ﴾ أي دلالات واضحة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أي يفكرون فيه ، لان من لا يفكر فيه ولا ينتفع به وإن كان عاقلا ، فكأنه لا عقل له . وقيل :

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢

في قوله ﴿ ومن آياته يريكم البرق ﴾ ثلاثة أقوال :

احدها ـ ان تقديره ومن آياته أن يريكم . فحذف (أن) كما قال طرفة :

ألا ايهـذا اللائمي احضر الوغى وأن اشهد اللذات هل انت مخلدي (١)

الثاني ـ انه حذف (أنه) لدلالة (من) عليها ، كما قال الشاعر :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت واخرى ابتغي العيش اكدح (٢)

أي فتارة أموت . وفي الآية حذف تقديره : ومن آياته آية يريكم البرق .

الثالث ـ ويريكم البرق من آياته على التقديم والتأخير من غير حذف .

ثم قال ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على ما ذكرناه ﴿ أن تقوم السماء والارض بأمره ﴾ بلا دعامة تدعمها ولا علاقة تعلق بها ، بل لان الله تعالى يسكنها حالا بعد حال لأعظم دلالة على أنه لا يقدر عليه سواه ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الارض ﴾ أي أخرجكم من الارض من قبوركم بعد أن كنتم أمواتاً يبعثكم ليوم الحساب فعبر عن ذلك بما هو بمنزلة الدعاء ، وبمنزلة ﴿ كن فيكون ﴾ في سرعة تأتي ذلك ، وأمتناع التعذر عليه ، وإنما ذكر هذه المقدورات على اختلافها وعظم شأنها ليدل على انه القادر الذي لا يعجزه شيء . وفي الآيات دلالة واضحة على فساد مذهب القائلين بان المعارف ضرورية لأنها لو كانت ضرورة لم يكن للتنبيه على هذه الأدلة وجه ولا فائدة فيه لان ما يعلم ضرورة لا يمكن الاستدلال عليه .

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ٣٢ وقد مر في ١ / ٣٢٧ من هذا الكتاب

(٢) قائله ابن مقبل ، الكتاب لسيبويه وقد مر في ٣ / ٢١٢ و ٤ / ٧٧ من هذا الكتاب .

قوله تعالى:

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى بعد أن ذكر ما يدل على توحيده، وإخلاص العبادة له أن ﴿ له من في السموات والارض ﴾ من العقلاء فانه يملكهم ويملك التصرف فيهم، وليس لاحد منعه منه والاعتراض عليه، وخص العقلاء بذلك لأن ما عداهم في حكم التبع.

ثم اخبر عن جميع من في السموات والارض بأنهم قانتون له. قال مجاهد:

معناه مطيعون وقال ابن عباس: معناه مصلون. وقال عكرمة: مقرون له بالعبودية. وقال الحسن: كل له قائم بالشهادة فالقانت الدائم على أمر واحد فالملائكة وغيرهم من المؤمنين دائمون على أمر واحد في الذلة لله في لزوم الطاعة لله تعالى، والكافرون وغيرهم من الفساق دائمون على أمر واحد في الذلة لله ـ عز وجل ـ إلا أن منهم من هو بخلقته وفعله، ومنهم من هو بخلقته.

ثم قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدؤ الخلق ﴾ اي يخترعهم ابتداء وينشئهم «ثم يعيده» إذا أعدمه ﴿ وهو أهون عليه ﴾ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد: اي هو ايسر، وكل هين. وروي عن ابن عباس ايضاً: ان معناه وهو هين عليه، فـ (افعل) بمعنى (فاعـل) وقال بعضهم ﴿ وهو اهون ﴾ على الخلق، لأن الانشاء أولا من نطفة الى علقة ومن علقة الى مضغة على التدريج، وفي الاعادة يعادون دفعة واحدة. وحكي عن ابن عباس: انه قال المعنى وهو أهون عليه عندكم، لأنكم أقررتم بأنه يبدؤ الخلق، فاعادة الشيء عند المخلوقين أهون من ابتدائه، قال الشاعر ـ في أهون بمعنى هين:

تمنى رجال أن أموت وان أمت فتلك سبيل لست فيها باوحد (١)

أي بواحد. وقال الراجز:

قبحتموا يا آل زيد نفرا الام قوم أصغراً واكبرا

أي صغيراً وكبيراً، وقال معن بن أوس:

لعمرك ما ادري واني لاوجل على أينا تعدو المنية أول (٢)

أي لواجـل. والله أكبر بمعنى كبير. ويقال للسلطان: الأعظم

(١) قد مر في ٧/١٦١ (٢) قد مر في ٥/٩١

بمعنى عظيم .

وقوله ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض ﴾ قال قتادة وهو قول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لأنه دائم في السموات والارض، يقول الثاني فيه كما قال الأول . وقيل : المعنى وله الصفة العليا ، لأنها دائرة يصفه بها الثاني كما يصفه بها الأول . وقيل : النشأة الثانية يا أهل الكفر ينبغي أن تكون أهون عليه . ثم قال ﴿ وله المثـل الأعلى ﴾ فذلـك دليل على انه مثل ضربه الله . ذكره الفراء .

وقوله ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ يعني في انتقامه من اعدائه ، الحكيم في تدبيره لخلقه . ثم قال ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت ايمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ المعنى إنكم إذا لم ترضوا في عبيدكم أن يكونوا شركاء لكم في أموالكم وأملاككم ، فكيف ترضون لربكم ان يكون له شركاء في العبادة !! . وقال قتادة : كما لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاءكم في فراشكم وأزواجكم كذلك لا ترضوا في ربكم الذي خلقكم أن يعدل به أحد من خلقه فيشرك بينهما في العبادة .

وقوله ﴿ تخافونهم كخيفتكم انفسكم ﴾ قال ابو مخلد : معناه تخافون عبيدكم أن يشاركوكم في أموالكم كما تخافون الشريك من نظرائكم . وقيل : تخافون ان يرثوكم كما يرث بعضكم من بعض - ذكره ابن عباس - وقيل : معناه تخافونهم كخيفتكم أنفسكم في اتلاف المال بانفاقه .

ثم قال ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ أي كما ميزنا لكم هـذه الأدلة نفصل الأدلة لقوم يعقلون ،فيتدبرون ذلك ويفكرون فيها . وقال سعيد ابن جبير : كان اهل الجاهلية إذا لبو قالوا : لبيك اللهم لبيك لا شريك

الك إلاشريك هو لك تملكه وما ملك . فأنزل الله الآية رداً عليهم وإنكار لقولهم ثم قال تعالى ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾ معناه إن هؤلاء الكفار لم يتفكروا في أدلة الله ، ولا انتفعوا بها بل اتبعوا اهواءهم وشهواتهم بغير علم منهم بصحة مااتبعوه .

ثم قال ﴿ فمن يهدي من أضل الله ﴾ وقيل : المعنى من يهدي الى الثواب من أضله الله عنه . وقيل : المعنى من يحكم بهداية من حكم الله بضلالته . ثم قال ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أي ليس لهم من ينصرهم ويدفع عذاب الله إذا حل بهم .

ثم قال تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ والمراد به جميع المكلفين ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ أمرهم الله بأن يوجهوا عبادتهم الى الله على الاستقامة دون الاشراك في العبادة . ثم قال ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ قال مجاهد: فطرة الله الاسلام . وقيل : فطر الناس عليها ولها وبها بمعنى واحد ، كما يقول القائل لرسوله : بعثتك على هذا ولهذا وبهذا بمعنى واحد . ونصب ﴿ فطرة الله ﴾ على المصدر ، وقيل تقديره : اتبع فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لأن الله تعالى خلق الخلق للايمان ، ومنه قوله ﷺ (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه) ومعنى الفطر الشق ابتداء يقولون : أنا فطرت هذا الشيء اي أنا ابتدأته ، والمعنى خلق الله الخلق للتوحيد والاسلام .

وقوله ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد وابراهيم : لا تبديل لدين الله الذي أمركم به من توحيده وعدله وإخلاص العبادة له ، وهو قول ابن عباس وعكرمة . وقيل : المراد نفي

الخطأ . ثم قال ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي ما بيناه من التوحيد والعدل وإخلاص العبادة لله هو الدين القيم أي المستقيم الذي يجب اتباعه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ صحة ذلك لعدولهم عن النظر فيه .

قوله تعالى :

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ (٣٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي وابن عامر ﴿ فارقوا ﴾ بألف وتخفيف الراء . الباقون بغير الف وتشديد الراء . من قرأ بألف أراد : فارقوا دينهم الذي أمروا باتباعه . ومن شدد اراد : انهم اختلفوا في دينهم .

قوله ﴿ منيبين اليه ﴾ نصب على الحال وتقديره فاقم وجهك للدين يا محمد أنت والمؤمنون منيبين الى الله ، ولا يجوز أن يكون حالا ﴿ من فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ لانه ما فطرهم منيبين ، والانابة الانقطاع الى الله تعالى

بالطاعة وأصله على هـذا القطع . ومنه الناب ، لأنه قاطع ، وأناب في الأمر إذا نشب فيـه ، كما ينشب الناب المقاطع ، ويجوز أن يكون من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد مرة ، فيكون على هـذا الانابة التوبة التي يجـددها مرة بعد مرة .

ثم قال ﴿ واتقوه ﴾ أي اجتنبوا معاصيـه ، واتقوا عقابه ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ التي أمركم الله تعالى بها أي دوموا عليها ، وقوموا بادائها ، فالصلاة وإن كانت في حكم المجمل ، ولم يبين شروطها ـ في الآية ـ فقد أحال على بيان النبي صلى الله عليه وآله هذا إذا اراد بالصلاة تعريف الجنس ، وإن أراد العهد الذي استقر في الشرع ، فهو على ما قد استقر في الشرع . ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ نهي لهم عن أن يكونوا من جملة من أشرك بعبادة الله سواه ، ثم قال ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ قال الفراء : يجوز أن يكون التقدير : ولا تكونوا من المشركين من جملة الذين فرقوا دينهم ، ويجوز أن يكون من الذين فرقوا ابتداء ، وتقديره الذين تفرقوا وكانوا شيعاً ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ فالتفريق جعل أحد الشيئين مفارقاً لصاحبه وضده الجمع ، وهو جمع أحـــد الشيئين الى صاحبه ، فتفريق الدين جعل احـدهما ليس مع الآخر في معنى ما يدعو اليه العقل ، وهومنكر لمخالفته داعي العقل ، والدين العمل الذي يستحق به الجزاء ، ودين الاسلام العمل الذي عليه الثواب . ولوجمعوا دينهم في أمر الله ونهيه لكانوا مصيبين ، ولكنهم فرقوا بأخراجه عن حد الأمر والنهي من الله وكانوا بذلك مبطلين خارجين عن الحق الذي أمر الله به . ومن قرأ ﴿ فارقوا ﴾ بألف أراد : فارقوا دينهم الذي أمرهم الله باتباعه .

وقوله ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ أي فرقاً ، والشيع الفرق التي يجتمع كل فريق منها على مذهب ، خلاف مذهب الفريق الآخر ، وشيعة الحق هم الذين اجتمعوا على الحق . وكذلك شيعة أمير المؤمنين عليه السلام هم الذين اجتمعوا معه على الحق وقال قتادة :المعنى بقوله﴿ من الذين فرقوا دينهم ﴾ اليهود والنصارى ، وقال غيره: كل من خالف دين الحق الذي أمر الله به داخل فيه وهو أعم فائدة.

ثم اخبر تعالى ان ﴿ كل حزب ﴾ أي كل فريق ﴿ بما لديهم فرحون ﴾ من الاعتقاد الذي يعتقدونه يسرون به لاعتقادهم أنه الحق دون غيره .

وقوله « وإذا مس الناس ضرّ دعوا ربهم منيبين اليه » قال الحسن : إذا أصابهم مرض او فقر دعوا الله تعالى راجعين اليه مخلصين في الدعاء له « ثم إذا أذاقهم منه رحمة » بأن يعافيهم من المرض أو يغنيهم من الفقر نعمة منه تعالى عليهم « إذا فريق منهم بربهم يشركون » أي يعودون الى عبادة غير الله بخلاف ما يقتضي العقل في مقابلة النعمة بالشكر . ثم بين أنهم يفعلون ذلك « ليكفروا بما آتيناهم » أي بما آتاهم الله من نعمه . ثم قال تعالى مهدداً لهم « فتمتعوا » أي انتفعوا بهذه النعم الدنيوية كيف شئتم « فسوف تعلمون » ما فيه من كفركم ومعصيتكم أي تصيرون في العاقبة الى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله « أم انزلنا عليهم سلطاناً » اي هل أنزلنا عليهم برهاناً وحجة يتسلطون به على ما ذهبوا اليه ، ويحتمل أن يكون المراد هل ارسلنا اليهم رسولا فاذا حمل على البرهان ، فهو بمنزلة الناطق بالأمر لاظهاره إياه . وقوله « فهو يتكلم بما كانوا به يشركون » اي هل انزلنا عليهم سلطاناً اي رسولا يتكلم بأنا ارسلناه بما يدعونه من الاشراك مع الله في العبادة ، فانهم لا يقدرون على ذلك ولا يمكنهم ادعاء حجة عليه ولا برهان ، والكلام وإن خرج مخرج

الاستفهام فالمراد به التبكيت.

قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ (٣٩) ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ نافع وابو جعفر « لتربوا » بالتاء وسكون الواو. الباقون بالياء وفتح الواو. وقرأ ابن كثير « وما أتيتم من ربا » بالقصر. الباقون بالمد. واتفقوا على المد في قوله « وما آتيتم من زكوة » وقرأ حمزة والكسائي وخلف « عما يشركون » بالياء. الباقون بالتاء. قال ابو علي: المعنى وما آتيتم من هدية

أهديتموها التعوضوا اكثر منها، فلا يربو عند الله ، لأنكم قصدتم زيادة العوض دون وجه الله ، وهو كقوله « ولا تمنن تستكثر » (١) فمن مدّ اراد أعطيتم من قوله « فآتاهم الله ثواب الدنيا » (٢) ومن قصره فالمعنى يؤل الى قول من مد إلا انه على لفظ (فعلتم) ومدهم لقوله « وما آتيتم من زكوة » فلقوله « وإيتاء الزكوة » (٣) ولو قال أتيت الزكوة لجاز أن يعني به : فعلتها ولكن لفظ القرآن على الايتاء . ومن ضم « لتربوا » فالمعنى لتصيروا ذوي زيادة في ما آتيتم من أموال الناس أي يستدعونها من أربى إذا صار ذا زيادة مثل أقطف واضرب . ومن فتح أسند الفعل الى الربوا المذكور وقدر المضاف ، فحذفه كما قيل : اجتذاب أموال الناس واجتلابه . ويجوز ذلك . وسمي هذا المدفوع على هذا الوجه ربا لما كان فيه من الاستزادة .

يقول الله تعالى مخبراً عن خلقه بأنه إذا أذاقهم رحمة من عنده بأن ينعم عليهم بضروب النعم ويصح أجسامهم ويدرّ أرزاقهم ويكثر مواشيهم وغير ذلك من النعم ، إنهم يفرحون بذلك ويسرون به. (اذا) شرط وجوابه « فرحوا بها » وإنما جاء الجزاء بـ (إذا) ولم يجيء بـ (حين) ، لأن (إذا) اشبه بالفاء من جهة البناء ، والزم للفعل من جهة أنه لا يضاف الى مفرد ، فصار بمنزلة الفاء في ترتيب الفعل، وليس كذلك (حين). وشبه إدراك الرحمة بادراك الطعم ، فسماه ذوقاً. « وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم » هو اخبار منه تعالى أنه إن أصابهم عذاب من الله تعالى جزاء على ما كسبته أيديهم « إذا هم يقنطون »

(١) سورة ٧٤ المدثر آية ٦ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٨

(٣) سورة ٢٤ النور آية ٣٧ وسورة ٢١ الانبياء آية ٧٣

أي ييأسون من رحمة الله، والقنوط اليأس من الفرج، قال جهد الأرقط :

قد وجدوا الحجاج غير قانط (١)

وإنما قال « بما قـدمت أيديهم » ولم يقل بما قدموا على التغليب للاكثر الأظهر، لان اكثر العمل وأظهره لليـدين، والعمل بالقلب وإن كان كثيراً فهو أخفى، وإنـما يغلب الأظهر. ويجوز أن يكون ما يصيبهم ـ من مصائب الدنيا والآلام بها ـ بعض العقاب، فلذلك قال « بما قدمت ايديهم » ويجوز ان يكون لما فعلوا المعاصي اقتضت المصلحة أن يفعل بهم ذلك، وإن لم يكن عذاباً.

ثم قال تعالى منبهاً لهم على توحيده « اولم يروا » أي او لم يفكروا فيعلموا « ان الله يبسط الرزق » اي يوسعه « لمن يشاء ويقدر » اي ويضيق على من يشاء على حسب ما تقتضيه مصالحهم، وبسط الرزق الزيادة على مقدار القوت منه بما يظهر حاله، واصل البسط نشر الشيء بما يظهر به طوله وعرضه، وبسط الرزق مشبه به. ثم قال « إن في ذلك » يعني في البسط للرزق لقوم وتضييقه لقوم آخرين « لآيات » اي لدلالات « لقوم يؤمنون » بالله، لانهم يعلمون ان ذلك من فضل الله الذي لا يعجزه شيء.

ثم خاطب نبيه صلى الله عليه وآله فقال « فآت ذا القربى حقه » اي اعـط ذوي قرباك يا محمـــد حقوقهم التي جعلها الله لهم في الاخماس ـ وهو قول مجاهد ـ وقيل : إنه لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله اعطى فاطمة فدكاً، وسلمه اليها ـ روى ذلك ابو سعيد الخدري وغيره ـ وهو المشهور عن ابي جعفر، وابي عبد الله عليهما السلام. وقال السدى : الآية نزلت في قرابة النبي صلى الله عليه وآله. وقال قوم:

(٤) مجاز القرآن ٢ / ١٢٢

المراد به قرابة كل انسان . والأول اظهر ، لأنه خطاب للنبي ﷺ « والمسكين وابن السبيل » تقديره واعط - ايضاً - المسكين ، وهو الفقير ، وابن السبيل وهو المنقطع به ، حقوقهم التي جعلها الله لهم في الصدقات وغيرها ، والخطاب وإن كان متوجهاً الى النبي ﷺ فهو متوجه الى جميع المكلفين .

ثم قال « ذلك خير » يعني اعطاء الحقوق المستحقة خير « للذين يريدون وجه الله » بالاعطاء دون الرياء والسمعة « واولئك هم المفلحون » الفائزون بثواب الله . ثم قال « وما اتيتم من رباً ليربوا في اموال الناس » قال ابن عباس : هو اعطاء الرجل العطية ليعطى اكثر منها لأنه لم يرد بها طاعة الله . وقال ابن عباس : وابو جعفر الربوا رباءان احدهما - حلال ، والآخر حرام ، فالأول هو ان يعطي الانسان غيره شيئاً لا يطلب اكثر منه فهو مباح ، ولا يربوا عند الله . والآخر - الربوا الحرام . وقال ابن طاوس عن أبيه : إذا أهدى الرجل الهدية ليهدى له أفضل منها فليس فيه أجر ولا وزر ، وكلما فعله الفاعل على أنه حسن للشهوة فليس فيه حد ولا أجر ، وشهوته وشهوة غيره في هذا سواء ، وقيل: المعنى في الآية التزهيد في الربو ، والترغيب في اعطاء الزكاة. وقال الحسن: هو كقوله « يمحق الله الربوا ويربي الصدقات » (١) ولا خير في العطية إذا لم يرد بها وجه الله . وقال الجبائي : وما أتيتم من ربا لتربوا بذلك أموالكم « فلا يربو » لانه لا يملكه المرابي بل هو لصاحبه ، ولا يربو «عند الله » لأنه يستحق به العقاب ، واعطاء المال قد يقع على وجوه كثيرة فمنه إعطاؤه على وجه الصدقة . ومنه اعطاؤه على وجه الهدية . ومنه الصلة . ومنه الودائع . ومن ذلك قضاء

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٦

الدين ، ومنه البر ومنه الزكاة . ومنه القرض . ومنه النذر وغير ذلك .

ثم قال « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله » أي ما اخرجتموه على وجه الزكاة واعطيتموه أهله تريدون بذلك وجه الله دون الربو « فأولئك هم المضعفون » أي يضاعف لهم الحسنات كقوله « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (١) وقال الكلبي : تضاعف أمواله في الدنيا ، فالمضعف ذو الاضعاف كما أن الميسر ذو اليسار .

ثم خاطب تعالى خلقه فقال « الله الذي خلقكم » بعد ان لم تكونوا موجودين « ثم رزقكم » من أنواع الملاذ وملككم التصرف فيها وأباحها لكم « ثم يميتكم» بعد ذلك إذا شاء ليصح ايصالكم الى ما عوضكم له من الثواب « ثم يحييكم » ليجازيكم على أفعالكم على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب « هل من شركائكم » الذين عبدتموهم من دون الله « من يفعل من ذلكم من شيء » أو يقدر عليه فيجوز لذلك توجه العبادة اليه فانهم لا يقدرون على أن يقولوا : نعم يقدرون عليه وانما يعترفون بعجزها عن ذلك ، فيعلموا عند ذلك انها لا تستحق العبادة فلذلك نزه نفسه عقيب ذلك عن أن يشرك معه في العبادة ويتخذ معه معبوداً سواه فقال «سبحانه وتعالى عما يشركون » فمن قرأ بالياء وجه الخطاب الى الغائب. ومن قرأ بالتاء وجهه الى المخاطبين ، وفي ذلك تنبيههم على وجوب ضرب الامثال لله تعالى دون غيره من المخلوقات .

قوله تعالى:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠

لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾(٤٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ـ في رواية ابن مجاهد ـ عن قنبل وروح « لنذيقهم » بالنون . الباقون بالياء . فمن قرأ بالنون فعلى وجه اخبار الله عن نفسه أنه الذي يذيقهم . ومن قرأ بالياء فالمعنى ليذيقهم الله بعض الذي عملوا .

يقول الله تعالى « ظهر الفساد في البر والبحر » قيل : فساد البر هو ما يحصل فيهامن المخاوف المانعة من سلوكه ، ويكون بخذلان الله عز وجل لاهل العقاب به ، وفساد البحر اضطراب أمره حتى لا يكون متصرفاًفيه ، وكل ذلك ليرتدعوا عن معاصيه . وقال قتادة : المعنى ظهر الفساد في أهل البر والبحر فأهل البر أهل البادية وأهل البحر أهل القرى الذين على الانهار العظيمة ويكون قوله « بما كسبت ايدي الناس » معناه يخلي الله بينهم و بين المعاصي جزاء على ما سبق منهم من المعاصي . وقال مجاهد : البر ظهر الأرض والبحر هو

البحر المعروف ، لأنه يؤخذ فيه كل سفينة غصباً . وقيل : البر الأرض القفر والبحر المجرى الواسع الماء عذباً كان أو ملحاً ، وسمي البر براً ، لانه يبر بصلاح المقام فيه خلاف البحر ، ومنه البر لأنه يبرّ بصلاحه في الغذاء أتم الصلاح . وقيل : الفساد المعاصي ودليله قوله تعالى « والله لا يحب الفساد »(١) والتقدير . ظهر عقاب الفساد في البر والبحر ، والظهور خروج الشيء الى حيث يقع عليه الاحساس والعلم به بمنزلة الادراك له . وقد يظهر الشيء بخروجه عن وعاء أو وجوده عن عدم أو ظهوره بدليل . وقيل : بالعدل ينبت الله الزرع ويدر الضرع ،وبالظلم يكون القحط وضيق الرزق . وقوله « بما كسبت ايدي الناس» أي جزاء على ما فعله الناس . والكسب فعل الشيء لاجتلاب نفع الى نفس الفاعل أو دفع ضرر عنه ، فالقادر لنفسه يقدر على مثله في الحالتين لاجتلاب نفع الى غيره أو دفع ضرر عنه ، غير انه لا يوصف بهذه الصفة وإن قدر على مثله . وقوله « ليذيقهم بعض الذي عملوا » معناه ليصيبهم الله بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوها من المعاصي « لعلهم يرجعون » أي ليرجعوا عنها في المستقبل ، وتقديره فعل الله تعالى القحط والشدائد والجدب وقلة الثمار وهلاك النفوس عقوبة على معاصيهم ليذيقهم بذلك عقاب بعض ما عملوا من المعاصي ليرجعوا عنها في المستقبل ، ليذيقهم عقابه غير انه اجري على بعض العمل لانهم بذواقهم جزاءه كأنهم ذاقوه ، وهذا من الحذف الحسن ، لأنه حذف المسبب وإقامة السبب الذي أدى اليه مقامه .

ثم بين تعالى انه فعل بهم هذا ليرجعوا عن معاصيه الى طاعته .

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٠٥

ثم خاطب تعالى نبيه صلى الله عليه وآله فقال له « قل » لهم يا محمد « سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان اكثرهم مشركين » أي فكروا فيمن تقدم من الامم التي اشركت بالله أكثرهم، والمؤمنون كانوا قليلين فيهم كيف أهلكهم الله ودمر عليهم .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « فأقم وجهك للدين القيم » ومعناه استقم للدين المستقيم بصاحبه الى الجنة أي لا يعدل عنه يميناً ولا شمالا ، فانك متى فعلت ذلك أداك الى الجنة ، وهو مثل قوله « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » (١) مجانس فيه للبلاغة ومنه قوله « يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار » ومنه « يمحق الله الربوا ويربي الصدقات » . « من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله يومئذ يصدعون » أي استقيموا على الطريق المستقيم قبل يوم القيامة الذي تتفرقون فيه فرقتين ، فريق في الجنة وفريق في السعير ـ ذكره قتادة ـ وقال الحسن : الدين القيم الطاعة لله .

ثم قال « من كفر » بالله وجحد نعمه « فعليه كفره » أي فعليه جزاء كفره لا يعاقب أحد بذنب غيره ، كما قال « ولا تزر وازرة وزر اخرى » (٢) « ومن عمل صالحاً » يعني الايمان بالله وأفعال الطاعات « فلأنفسهم يمهدون » والتمهيد والتمكين والتوطيد نظائر أي ثواب ذلك واصل اليهم وتتمهد احوالهم الحسنة عند الله . وقوله « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله » اخبار منه تعالى أنه الذي يجزي الذين يطيعون الله تعالى ويجتنبون معاصيه ثواب الجنة

(١) سورة ٩ التوبة آية ١٢٨　　(٢) سورة ٦ الانعام آية ١٦٤ وسورة ١٧ الاسرى آية ١٥ وسورة ٣٥ فاطر آية ١٨ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧

من فضله على خلقه «إنه لايحب الكافرين» أي لايريد منافعهم ولا ثوابهم، وانما يريد عقابهم جزاء على كفرهم.

قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَٱنْتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَٱنْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ ابو جعفر وابن ذكوان «كسفاً» بسكون السين. الباقون بتحريكها. وقرأ أهل الكوفة وابن عامر «الى آثار» على الجمع وأماله الكسائي إلا أبا

الحارث . الباقون على التوحيد . من سكن السين من كسف أراد جمع كسفة وهي القطعة الواحدة من السحاب ، مثل سدرة وسدر . ويحتمل ان يكون الضمير في (خلاله) راجعاً اليه . ويحتمل ان يكون راجعاً الى الخلال . ومن فتح السين أعاد الضمير الى السحاب لاغير . ومن أفرد « اثر » فلأنه مضاف الى مفرد وجاز الجمع لان (رحمة الله) يجوز ان يراد بها الكثرة .

يقول الله تعالى إن من الأدلة الدالة على توحيدي ووجوب اخلاص العبادة لي إرسال الرياح مبشرات بالغيث والمطر . وإرسال الرياح تحريكها واجراؤها في الجهات المختلفة تارة شمالا وتارة جنوباً وصبا ، وأخرى دبوراً على حسب ما يريده الله ويعلم فيه من المصلحة ، وذلك لا يقدر عليه غيره تعالى ، لأن العباد وإن قدروا على جنس الحركة فلو اجتمع جميع الخلائق من الجن والانس على ان يردوا الريح إذا هبت شمالاً الى كونها جنوباً وإذا هبت جنوباً الى كونها شمالا او صبا او دبوراً لما قدروا عليه ، فمن قدر على ذلك يعلم أنه قادر لنفسه لا يعجزه شيء مستحق للعبادة خالصة له ، وانما سماها مبشرات ، لأنها بمنزلة الناطقة إذا بشرت بأنه يجيء مطر وغيث يحيي به الأرض لما فيها من إظهار هذا المعنى ودلالتها على ذلك بجعل جاعل ، لأنه من طريق العادة التي أجراها الله تعالى .

وقوله « وليذيقكم من رحمته » معطوف على المعنى ، وتقديره أن يرسل الرياح للبشارة والا ذاقة من الرحمة « ولتجري الفلك » بها « بامره ولتبتغوا من فضله » أي تطلبوه ، فارسال الرياح لهذه الأمور ، ومعنى « لعلكم تشكرون » لتشكروا الله على نعمه . وإنما اتى بلفظ (لعلكم) تلطف في الدعاء الى الشكر كالتلطف في الدعاء الى البر ، في قوله « من ذا الذي يقرض الله قرضاً

حسناً » (١) ثم خاطب نبيه ﷺ على وجه التسلية عن قومه في تكذيبهم إياه فقال « ولقد أرسلنا من قبلك » يا محمد « رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات » يعني بالمعجزات ، وفي الكلام حذف ، لأن تقديره فكذبوهم وجحدوا بهم فاستحقوا العذاب « فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » أي اوجبناه على نفوسنا أن ننصر المؤمنين من عبادنا .

ثم قال تعالى « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً » أي تنشىء سحاباً فانشاء السحاب وإن كان من فعل الله لكن لما كان السحاب سبباً منه جاز أن يسند اليها « فيبسطه في السماء » أي يبسط ذلك السحاب كيف شاء في السماء من كثافة ورقة وغير ذلك « ويجعله كسفاً » أي قطعاً ـ في قول قتادة ـ « فترى الودق » يعني المطر ، قال الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض ابقل ابقالها (٢)

« يخرج من خلاله » يعني من خلال السحاب « فاذا اصاب به » يعني بذلك المطر « من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون » أي يفرحون ويبشر بعضهم بعضاً به « وإن كانوا من قبل ان ينزل عليهم » المطر «من قبله لمبلسين » اي قانطين يائسين ـ في قول قتادة ـ وقوله « من قبله » في الموضعين فيه قولان : احدهما ـ انه للتوكيد . والآخر من قبل الارسال ، والأول من قبل الانزال . ثم قال لنبيه ﷺ والمراد به جميع المكلفين « فانظر » يا محمد « الى آثار رحمة ربك كيف يحي الارض بعد موتها » يحييها بالنبات بعد جدوبها

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥ وسورة ٥٧ الحديدآية ١١

(٢) مر هذا البيت في ١ / ١٢٦ و ٥ / ٣٦١ و ٧ / ٤٤٦

« إن ذلك لمحيي الموتى » أي مثل ذلك يحيي الله الموتى بعد ان كانوا جماداً « وهو على كل شيء قدير » أي قادر وفيه مبالغة .

قوله تعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ * مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ (٥٥) .

ست آيات مدني وخمس في ما عداه عـد المدني « يقسم المجرمون » ولم يعده الباقون .

قرأ ابن كثير ﴿ ولا تسمع ﴾ بفتح التاء ﴿ الصم ﴾ رفعاً الباقون ـ بضم التاء ـ ﴿ الصم ﴾ نصباً . وهذا مثل ضربه الله للكفار ، والمعنى كما إنك يا محمد لا تسمع الميت لتعذر اسماعه فكذلك لا تسمع الكفار . والمعنى انه لا ينتفع بسماعه ، لانه لا يعمل به ، فاذا كان كذلك فالمعنيان متقاربان ، لان المعنى إنك

لا تسمع الكافر ما في القرآن من حكمة وموعظة، كما لا تسمع الاصم المدبر عنك. وضم التاء ونصب الميم أحسن لتشاكل ما قبله من اسناد الفعل اليك أيها المخاطب وحكم المعطوف يجب ان يكون مشاكلاً حكم المعطوف عليه. وقرأ عاصم وحمزة ﴿ من ضعف ﴾ بفتح الضاد في الثلاثة. الباقون بالضم فيهن، وهما لغتان.

يقول الله سبحانه ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ مؤذنة بالهلاك ﴿ فرأوه مصفراً ﴾ فالهاء يجوز أن يكون كناية عن السحاب، وتقديره فرأوا السحاب مصفراً لأنه إذا كان كذلك كان غير ممطر، ويحتمل أن يكون راجعاً الى الزرع، وتقديره، فرأوا الزرع مصفراً ـ والثاني قول الحسن ـ وجواب لئن في الشرط أغنى عنه جواب القسم، لأن المعنى ليظلن كما أن (أرسلنا) بمعنى أن يرسل فجواب القسم قد ناب عن الأمرين. وكان أحق بالحكم لتقدمه على الشرط ولو تقدم الشرط لكان الجواب له، كقولك: ان أرسلنا ريحاً ظلوا والله يكفرون. و (الاصفرار) لون بين الحمرة والبياض، وهو من النبات الذي يصفر بالريح للجفاف ويحول عن حال الأخضرار، فيصير الى الهلاك ويقنط صاحبه الجاهل بتدبير ربه في ما يأخذ به من الشدة بأمره تارة والرخاء أخرى ليصح التكليف بطريق الترغيب والترهيب. ومعنى (ظل يفعل) أي جعل يفعل في صدر النهار، وهو الوقت الذي فيه الى ظل الشمس. و (أضحى يفعل) نظير ظل يفعل إلا أنه كثر حتى صار بمنزلة (جعل يفعل).

ثم قال لنبيه «إنك» يا محمد «لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين» شبه الكفار في تركهم تدبرهم لما يدعوهم اليه النبي صلى الله عليه وآله تارة بالأموات، وتارة بالصم، لأنهم لا ينتفعون بدعاء داع، لانهم لا يسمعونه،

وكذلك من يسمع ولا يصغي ولا يفكر فيه ، ولا يتدبره فكأنه لم يسمعه .

وقوله « إذا ولوا مدبرين » معناه إذا أعرضوا عن أدلتنا وعن الحق ذاهبين الى الضلال غير طالبين لسبيل الرشاد . ولذلك لزمهم الذم وصفة النقص .

وقوله « وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم » معناه ليس في هؤلاء حيلة أن يقبلوا الهداية فصار العمي بالضلال صنفين احدهما - يطلب الهداية فهو يجدها عندك . والآخر لا يطلب الهداية ، فليس فيه حيلة . ثم قال ﴿ إن ﴾ يعني ليس ﴿ تسمع إلا من يصدق بآياتنا وأدلتنا ﴾ لانهم المنتفعون بدعائك واسماعك ﴿ فهم مسلمون ﴾ لك ما تدعوهم اليه .

ثم قال ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ﴾ وفيه لغتان - الضم ، والفتح - مثل الفقر والفقر ، والكره والكره ، والجهد والجهد ، والمعنى انه خلقهم ضعفاء لانهم كانوا نطفاً ، فخولهم الى أن صاروا أحياء أطفالا لا قدرة لهم ﴿ ثم جعل ﴾ لهم ﴿ من بعد ضعف ﴾ أي من بعد هذا الضعف ﴿ قوة ﴾ إذا شبوا وترعرعوا وكملوا ﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾ في حال الشيخوخة والشيب ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ كيف يشاء ﴿ وهو العليم ﴾ بما فيه مصالح خلقه قادر على فعله فهو يفعل بحسب ما يعلمه من مصالحهم .

ثم اخبر تعالى عن حال الكفار أنهم ﴿ يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ﴾ انهم ﴿ مالبثوا غير ساعة ﴾ وقيل : في قسمهم بذلك مع أن معارفهم ضرورية قولان :

احدها - قال ابو بكر بن الاخشاد : ذلك يقع منهم قبل اكمال عقولهم . ويجوز قبل الالجاء ان يقع منهم قبيح .

والثاني - قال الجبائي : ان المراد أنه منذ ما انقطع عنا عذاب القبر

﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ أي يكذبون لأنه اخبار عن غالب الظن بما لا يعلمون قال: ولا يجوز أن يقع منهم القبيح في الآخرة، لان معارفهم ضرورة. وقيل: ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ في دار الدنيا ويجحدون البعث والنشور، مثل ما حلفوا أنهم لم يلبثوا إلا ساعة، قال الفراء: وتقديره كما كذبوا في الدنيا بالبعث كذلك يكذبون بقولهم ما لبثنا غير ساعة. ومن استدل بذلك على نفي عذاب القبر فقد أبطل، لأن المراد أنهم ما لبثوا بعد انقطاع عذاب القبر إلا ساعة.

قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٦٠) خمس آيات بلا خلاف

قرأ اهل الكوفة «لا ينفع» بالياء، لان تأنيث المعذرة غير حقيقي. الباقون

بالتاء ، لان اللفظ لفظ التأنيث .

يقول الله تعالى مخبراً عن الذين قد أعطاهم الله العلم وآتاهم إياه بما نصب لهم من الأدلة الموجبة له ، ونظروا فيها فحصل لهم العلم ، فلذلك أضافه الى نفسه لما كان هو الناصب للادلة الدالة على العلوم ، والتصديق بالله ورسوله ﴿لقد لبثتم﴾ أي مكثتم ﴿في كتاب الله﴾ ومعناه إن لبثكم مذكور ثابت في كتاب الله بينه الله فيه ، فصار من أجل ان بيانه في كتابه كأنه في الكتاب ، كما تقول كلما يكون فهو في اللوح المحفوظ أي هو مبين فيه ، وقيل ﴿في كتاب الله﴾ أي في كتابه الذي أخبرنا به ، واللبث لا يكون إلا في المكان ، كما لا يكون السكون إلا فيه ، والبقاء قد يكون لا في مكان ، ولذلك يوصف تعالى بالباقي ، ولا يوصف بـ (لابث) و ﴿الى يوم البعث﴾ يعني يوم يبعث الله فيه خلقه ويحشرهم . واصل البعث جعل الشيء جاريا في أمر ، ومنه انبعث الماء إذا جرى وانبعث من بين الاموات إذا خرج خروج الماء ، ويوم البعث يوم اخراج الناس من قبورهم الى أرض المحشر .

ثم يقول المؤمنون للكفار « فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون » صحة ذلك وكنتم شاكين فيه . وقال الحسن : لقد قدرنا اجالكم الى يوم البعث ولكنكم لا تعلمون ان البعث حق .

ثم اخبر تعالى ان ذلك اليوم لا تقبل معذرتهم ، والمعذرة إظهار ما يسقط اللائمة ، وانما لا تقبل معذرتهم لانهم ملجئون في تلك الحال ، ولا يصح اعتذارهم وقوله « ولا هم يستعتبون » أي لا يقبل عتبهم ، ولا يطلب منهم الاعتاب . والاستعتاب طلب صلاح المعاتب بالعتاب وذلك بذكر الحقوق التي تقتضي خلاف ما عمله العامل بما لا ينبغي أن يكون عليه مع الحق اللازم له وليس في قولهم

ما علمنا أنه يكون ولا أننا نبعث عـذر ، لانه قـد نصب لهم الدلالة عليه ودعوا اليه .

ثم اخبر تعالى انه ضرب للناس المكلفين في القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ من كل مثل، يحثهم به على الحق واتباع الهدى . ثم قال لنبيه « ولئن جئتهم بآية » يا محمد أي معجزة باهرة « ليقولن الذين كفروا ان انتم إلا مبطلون » في دعواكم البعث والنشور ، عنـاداً وجحداً للامور الظاهرة . ثم قال مثل ما طبع الله على قلوب هؤلاء بأن حكم عليهم بانهم لا يؤمنون كذلك حكم في كل من لا يؤمن . وقيل : الطبع علامة يجعلها الله في قلوب الكافرين يفصل بها الملائكة بينه وبين المؤمن . ثم قال لنبيه « فاصبر » يا محمد على أذى هؤلاء الكفار ومقامهم على كفرهم « ان وعد الله حق » في ما وعدك به من النصر واعزاز دينك « ولا يستخفنك » أي ولا يستفزنك «الذين لا يوقنون » فالاستخفاف طلب الخفة .

٣١ - سورة لقمان

هي مكية - في قول مجاهد وقتادة - ليس فيها ناسخ ولا منسوخ . وقال الحسن : هي مكية إلا آية واحدة وهي قوله ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ لان الصلاة والزكاة مدنيتان وهي ثلاث وثلاثون آية حجازي وأربع وثلاثون آية في ما عدا الحجازي .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥) خمس آيات كوفي وأربع بلا خلاف فيما عدا الكوفي .

قرأ حمزة « هدى ورحمة » رفعاً . الباقون نصباً . من رفع جعله خبر إبتداء محذوف ، وتقديره هو هدى ورحمة ، ويجوز أن يكون بدلا من « تلك آيات » أي تلك هدى ورحمة ، ومن نصب فعلى المصد وتقديره يهدي به هدى ويرحم به رحمة ، ويجوز أن يكون على الحال ، وتقديره هادياً أي في حال الهداية والرحمة - ذكره الزجاج - « للمحسنين » الذين يفعلون الافعال الحسنة من الطاعات ويتفضلون على غيرهم . وقد بينا أن اقوى الأقوال في معني « الم » قول من

قال هو اسم للسورة ، وذكرناما في الأقوال في ما تقدم. قال الرماني : انما جعل اسم السورة على الاشتراك المناسبة بينها وبين ما يتصل بها مع الفصل بالصفات وذلك انها استحقت بذكر الكتاب والمؤمنين به غير العادلين عنه ، كما هو في البقرة .

وقوله « تلك آيات الكتاب » اشارة الى آيات الكتاب التي وعدهم الله بانزالها عليهم في الكتب الماضية ، قال ابو عبيدة « تلك » بمعنى هذه « وآيات الكتاب » وإن كانت هي الكتاب فهو جائز ، كما قال « حق اليقين » (١) وكما قالوا : مسجد الجامع ، وغير ذلك . وقد بيناه في مامضى «الحكيم» من صفة الكتاب ، فلذلك جره وإنما وصف الكتاب بأنه (حكيم) مع انه محكم لأنه يظهر الحق والباطل بنفسه ، كما يظهره الحكيم بقوله ، ولذلك يقال : الحكمة تدعو الى الاحسان وتصرف عن الاساءة . وقال ابو صالح : احكمت آياته بالحلال والحرام . وقال غيره : احكمت بأن اتقنت « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل » (٢) .

ثم قال هذا الكتاب « هدى ورحمة للمحسنين » أي دلالة موصلة لهم الى الصواب وما يستحق به الثواب ، ورحمة رحمهم الله بها وأضافه الى المحسنين وإن كان هدى لغيرهم لما كانوا هم المنتفعين به دون غيرهم كما قال « هدى المتقين » (٣) والاحسان النفع الذي يستحق به الحمد فكل محسن يستحق الحمد وكل مسيء يستحق الذم ، وما يفعله الفاعل على انه لاظلم فيه لاحد لينقطع به عن قبيح في انه احسان فهو احسان يستحق عليه الحمد ، لان الحكمة تدعو الى

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٩٥ (٢) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٤٢

(٣) سورة البقرة آية ٢

فعله على هذا الوجه ، ولا يدعو الى ان يفعله للشهوة ، ولا للهوى .

ثم وصف المحسنين فقال « الذين يقيمون الصلاة » أي يديمون فعلها ويقومون بشرائطها واحكامها ويخرجون الزكاة الواجبة عليهم في أموالهم . وهم بالآخرة مع ذلك يوقنون، ولا يرتابون بها . ثم اخبر أن هؤلاء الذين وصفهم بهذه الصفات « على هدى من ربهم » أي على حجة من ربهم « وأولئك هم المفلحون » الفائزون بثواب الله ورحمته .

قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلنَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (١٠) خمس آيات بلا خلاف

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « ويتخذها » نصباً . الباقون رفعاً من قرأ بالنصب عطفه على « ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها » أي يشتري لهو الحديث

للامرين . ومن رفع عطف على قوله « يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله . . . ويتخذها هزواً » ومن قرأ « ليضل » ـ بضم الياء وكسر الضاد ـ أراد يفعل ذلك ليضل غيره . ومن ـ فتح الياء ـ أراد ليضل هو نفسه بذلك .

اخبر الله تعالى ان « من » جملة « الناس من يشتري لهو الحديث » أي يستبدل لهو الحديث . وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ انه يشتري كتاباً فيه لهو الحديث .

الثاني ـ انه يشتري لهو الحديث عن الحديث . واللهو الأخذ في ما يصرف الهم من غير الحق ، تقول : لهى فلان يلهو لهواً ، فهو لاه ، وتلهى تلهياً وألهاه إلهاء ، واللهو واللعب والهزل نظائر . والحديث الخبر عن حوادث الزمان . وقال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد : لهو الحديث الغناء ، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام . وقال قوم : هو شراء المغنيات . وروى ابو أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله تحريم ذلك . وقال قتادة : هو استبدال حديث الباطل على حديث الحق . وقيل : كلما كان من الحديث ملهياً عن سبيل الله الذي أمر باتباعه الى ما نهى عنه ، فهو لهو الحديث . وقيل : الآية نزلت في النضر ابن الحارث بن كلدة كان اشترى كتباً فيها أحاديث الفرس : من حديث رستم واسفنديار ، فكان يلهيهم بذلك ويطرف به ، ليصد عن سماع القرآن وتدبر ما فيه .

وقوله « ليضل عن سبيل الله » أي ليتشاغل بما يلهيه عن سبيل الله . وقال ابن عباس : سبيل الله قراءة القرآن ، وذكر الله ، لان حجة الله قائمة عليه بالدواعي التي تزعجه الى النظر فيما يؤديه الى العلم بالواجب ليعمل ، فيتشاغل ليخف ذلك الازعاج . ومن قرأ بالضم أراد ليضل غيره بذلك ،

وقوله « ويتخذها هزواً » أي يتخذ سبيل الله سخرية ، فلا يتبعها ويشغل غيره عن اتباعها . والضمير في قوله « ويتخذها » يجوز أن يكون راجعاً الى الحديث ، لأنه بمعنى الاحاديث . ويجوز أن يكون راجعاً الى (سبيل الله) والسبيل يؤنث ويذكر . ويجوز أن يكون راجعاً الى (آيات الله) في قوله « تلك آيات الكتاب » .

ثم اخبر تعالى أن من هذه صفته « له عذاب مهين » أي عذاب يذله . والاذلال بالمداوة هو الهوان . فأما اذلال الفقر والمرض ، فليس بهوان ، ولا إذلال على الحقيقة . وإذلال العقاب لا يكون إلا هواناً ، وإن كان العذاب على وجه الامتحان ، فلا يكون هواناً أيضاً .

ثم اخبر تعالى عن صفة هذا الذي يتخذ آيات الله هزواً ويشتري لهو الحديث أنه « إذا تتلى عليه آياتنا » التي هي القرآن « ولى مستكبراً » أي اعرض عنها تكبراً عن استماعها . والفكر فيها ، كأنه « لم يسمعها » من حيث لم يفكر فيها ، ولم يعتبر بها و« كأن في اذنيه وقراً » أي ثقلا يمنع من سماعه . ثم امر نبيه صلى الله عليه وآله أن يبشر من هذه صفة « بعذاب اليم » أي مؤلم موجع .

ثم اخبر تعالى عن صفة المؤمنين المصدقين بتوحيد الله وصدق انبيائه فقال « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أي صدقوا بالله ونبيه وفعلوا الطاعات « لهم جنات النعيم » يوم القيامة يتنعمون فيها ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مؤبدين في تلك البساتين ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي وعده الله حقاً ، لا خلف لوعده ﴿ وهو العزيز ﴾ في انتقامه ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله ، إذ لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ووجه من وجوه الحكمة

ثم اخبر تعالى عن نفسه بأنه ﴿ خلق السموات ﴾ فأنشاها واخترعها

﴿ بغير عمد ترونها ﴾ أي ليس لها عمد يسندها ، لانه لو كان لها عمد لرأيتموها فلما لم تروها دل على أنه ليس لها عمد ، لأنه لو كان لها عمد لكانت اجساماً عظيمة حتى يصح منها إقلال السموات ، ولو كانت كذلك لاحتاجت الى عمد آخر ، فكان يتسلسل. فاذاً لاعمد لها ، بل الله تعالى سكنها حالا بعد حال بقدرته التي لاتوازيها قدرة قادر . وقال مجاهد : لها عمد لا ترونها ، وهذا فاسد لأنه لو كان لها عمد لكانت أجساماً عظيمة ، لانه لا يقل مثل السموات والارض إلا ما فيه الاعتمادات العظيمة . ولو كانت كذلك لرأيت ، وكان يؤدي الى ما ذكرناه من التسلسل .

ثم قال ﴿والقى في الارض رواسي﴾ يعني الجبال الثابتة ﴿ أن تميد بكم ﴾ وقيل معناه لئلا تميد بكم ، كما قال الراجز :

والمهر يأبى أن يزال ملهبا

بمعنى لايزال . وقال قوم : معناه كراهة أن تميد بكم ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ أي فرق فيها من كل دابة أي من كل ما يدب على الارض « وأنزلنا من السماء ماء » يعني غيثاً ومطراً «فأنبتنا فيها» بذلك الماء ﴿من كل زوج كريم ﴾ أي من كل نوع حسن النبت طيب الريح والطعم .

قوله تعالى :

﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ ٱلظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١) وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ

ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِٱبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٥) خمس آيات بلاخلاف.

هذا اشارة الى ما تقدم ذكره من خلق السموات والارض على ما هي به من عظمها وكبر شأنها من غير عمد يمنع من انحدارها، وألقى الرواسي في الارض لئلا تميد بأهلها « وبث فيها من كل دابة » للاعتبار والانتفاع بها، وأنزل من السماء ماء لاخراج كل نوع كريم على ما فيه من بهجة ولذة يستمتع بها. فهذا كله خلق الله فأين خلق من اشركتموه في عبادته حتى جاز لكم أن تعبدوه من دونه وهذا لا يمكن معه معارضة. وفيه دليل على توحيده تعالى.

ثم اخبر تعالى فقال « بل الظالمون » لانفسهم بترك الاعتبار بآيات الله « في ضلال مبين » أي عدول عن الحق بين ظاهر وما دعاهم الى عبادتها انها تخلق شيئاً ولكن ضلالهم بالجهل الذي اعتقدوه من التقرب بذلك الى الله وانها

تقربهم الى الله زلفى .

ثم اخبر تعالى انه اعطى لقمان الحكمة ، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : لم يكن لقمان نبياً . وقال عكرمة : كان نبياً . وقيل : انه كان عبداً أسوداً حبشياً ذا سفة . فقال له بعض الناس : ألست الذي كنت ترعى معنا ؟ فقال : نعم . فقال له : من اين أوتيت ما أرى ؟ فقال: بصدق الحديث والصمت عما لا يعنيني . والحكمة التي آتى الله لقمان هو معرفته بتوحيده ، ونفيَ الشرك عنه . وما فسرناه في ما بعد وهو ان أمره بأن يشكر لله على نعمه التي أنعم بها عليه .

ثم اخبر تعالى فقال « ومن يشكر فانما يشكر لنفسه » أي من يشكر نعمة الله ونعمة من أنعم عليه ، فانه يشكر لنفسه ، لأن ثواب شكره عائد عليه « ومن كفر فان الله غني حميد » أي من جحد نعمة الله ، فانه تعالى غني عن شكره حميد على أفعاله ، وعقاب ذلك عائد على الكفار دون غيرهم ، والشكر لا يكون إلا على نعمة سبقت ، فهو يقتضي منعماً ، فلا يصح على ذلك أن يشكر الانسان نفسه ، لأنه لا يجوز أن يكون منعماً عليها ، وهو جرى مجرى الدين في أنه حق لغيره عليه يلزمه أداؤه ، فكما لا يصح أن يقرض نفسه فيجب أن يقضي ذلك الدين لنفسه ، فكذلك لا يصح أن ينعم على نفسه فيلزمه شكر تلك النعمة

ثم قال تعالى وأذكر يا محمد « إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » إذ قال له لا تعبد مع الله غيره فان من فعل ذلك فقد ظلم نفسه ظلماً عظيماً . ويجوز أن يتعلق قوله « وإذ قال لقمان » بقوله « ولقد آتينا لقمان الحكمة ... إذ قال لابنه ... لا تشرك بالله » ثم قال تعالى « ووصينا الانسان بوالديه » أي وصيناه وأمرناه بالاحسان الى والديه . والرفق بهما « حملته امه وهناً على وهن » قال الضحاك : معناه ضعفاً على ضعف

أي ضعف نطفة الوالد الى ضعف نطفة الأم . وقيل : هو ما يلحقها بحملها إياه مرة بعد مرة من الضعف . وقيل : بل المعنى شدة الجهد، قال زهير :

فان يقولوا بحبل واهن خلق   لو كان قومك في اسبابه هلكوا (١)

وقال ابن عباس « وهن على وهن » أي شدة على شدة . وقيل : ضعف الولد حالا بعد حال، لانه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ثم مولوداً . وقوله « وفصاله في عامين » يعني فطامه في انقضاء عامين . وقيل : نزلت في سعد بن ابي وقاص حلفت أمه لا تأكل طعاماً حتى تموت أو يرجع سعد ابنها فلما رأته بعد ثلاث لا يرجع عن الاسلام أكلت . ثم قال « أن اشكر لي ولوالديك » أي وصيناه بأن اشكر لي على نعمي، واشكر والديك أيضاً على ما أنعما عليك . ثم قال « إلي المصير » فيه تهديد أي إليّ مرجعكم، فاجازيكم أيها الناس على حسب عملكم .

ثم قال « وإن جاهداك » يعني الوالدين أيها الانسان « على أن تشرك بي » معبوداً آخر « فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معرفاً » أي احسن اليهما في الدنيا وارفق بهما . ثم قال « واتبع سبيل من أناب إلي » أي رجع الى طاعتي من النبي والمؤمنين « ثم إلي مرجعكم » أي منقلبكم « فانبئكم » أي اخبركم « بما كنتم تعملون » في دار الدنيا من الاعمال . واجازيكم عليها بحسبه، وقرأ ابن كثير ، إلا ابن فليح « يا بني لا تشرك بالله » بسكون الياء الباقون بتشديدها وكسرها، إلا حفصاً فانه فتحها على اصله « يا بني أقم

(١) هو زهير بن ابي سلمى . ديوانه (دار بيروت) ٥١ وروايته (فلن) بدل (فان)

الصلاة» بفتح الياء، وابن كثير إلا قنبلاً وحفص. الباقون بكسر الياء. فوجه السكون أنه أجرى الوصل كالوقف، ووجه الفتح على الاضافة وحذف ما قبلها لاجتماع ثلاث ياآت. والكسر على الاجتزاء بها من ياء الاضافة، وعندنا أن الرضاع بعد الحولين يحرم لقوله «وفصاله في عامين» ولقوله عليه السلام لا رضاع بعد الحولين.

قوله تعالى:

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلٰوةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر « ولا تصعر » بغير ألف في التصعير . الباقون « تصاعر » بألف. وقرأ اهل المدينة « مثقال حبة » رفعاً . الباقون نصباً من رفعه جعل (كان) بمعنى حدث ، ووقع ، ولم يجعل لها خبراً . ومن نصب فعلى أنه خبر (كان) والاسم مضمر فيها أي إن تك الحبة مثقال . وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابو عمرو وحفص عن عاصم « نعمه » على لفظ الجمع . الباقون « نعمة » على التوحيد .

يقول الله تعالى مخبراً عن لقمان ووصيته لابنه ، وأنه قال « يا بني أنها إن تك مثقال حبة من خردل» من خير أو شر (فتكن) عطف على الشرط فلذلك جزمه وتقديره : إن تلك الحبة لو كانت في جوف صخرة ، وهي الحجر العظيم او تكون في السموات او الأرض « يأت بها الله » ويحاسب عليها ويجازي لأنه لا يخفى عليه شيء منها ، ولا يتعذر عليه الاتيان بها أي موضع كانت ، لأنه قادر لنفسه لا يعجزه شيء عالم لنفسه لا تخفى عليه خافية .

وقوله « يأت بها الله » معناه إنه يجازي بها ويواقف عليها فكأنه أتى بها وإن كانت أفعال العباد لا يصح إعادتها ، ولو صح اعادتها لما كانت مقدورة لله . وإنما أراد ما قلناه . وفي ذلك غاية التهديد والحث على الأخذ بالحزم . والهاء في قوله « انها » قيل : انها عماد وهو الضمير على شريطة التفسير . وقيل : (إنها) كناية عن الخطيئة او الفعلة التي تقتضي الجزاء ، وهي المضمرة في تلك وانما أنث مثقال ، لأنه مضاف الى مؤنث وهي الحبة ، كما قيل : ذهبت بعض اصابعه . وكما قيل :

[وتشرق بالقول الذي قد اذعته] كما شرقت صدر القناة من الدم (١)

(١) قائله الاعشى ، ديوانه ١٨٣ ، واللسان (شرق)

والصخرة وإن كانت في الأرض أو في السماء ، فذكر السموات والارض بعدها مبالغة كقوله « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق » (١) وقد قال بعض المفسرين : ان الصخرة خارجة عن السموات والارض ، وهو ايضاً جائز . وقرأ قتادة « فتكن في صخرة » بكسر الكاف مخففاً من (وكن يكن) أي جعل الصخرة كالوكنة . وهو عش الطائر . ذكره ابن خالويه . وحكاه عن ابن مجاهد سماعاً ، واستحسنه .

وقوله « ان الله لطيف خبير » قال قتادة : معناه ـ هاهنا ـ لطيف باستخراجها ، خبير بمستقرها . واللطيف القادر الذي لا يخفو عن عمل شيء ، لأن من القادرين من يخفو عن عمل اشياء كثيرة كاخراج الجزء الذي لا يتجزأ وتأليفه الى مثله ، فهو فان كان قادراً عليه ، فهو ممتنع منه ، لانه يخفو عن عمل مثله . والخبير العالم وفيه مبالغة في الصفة ، مشتق من الخبر . ولم يزل الله خبيراً عالماً بوجوه ما يصح أن يخبر به ، والمثقال مقدار يساوي غيره في الوزن ، فمقدار الحبة مقدار حبة في الوزن . وقد صار بالعرف عبارة عن وزن الدينار ، فاذا قيل : مثقال كافور او عنبر ، فمعناه مقدار الدينار بالوزن .

ثم حكى ما قاله لقمان لابنه ايضاً قال له « يا بني اقم الصلاة » أي دم عليها وأقم حدودها وشرائطها « وأمر بالمعروف » والمعروف هو الطاعات « وانه عن المنكر » وهي القبائح سواء كانت قبائح عقلية او شرعية « واصبر على ما أصابك » من الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المشقة والأذى وفي ذلك دلالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كان فيه

(١) سورة ٩٦ العلق آية ٢

بعض المشقة . ثم قال « إن ذلك » أي ما ذكره من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « من عزم الامور » من العقد الصحيح على فعل الحسن بدلا من القبيح ، والعزم العقد على الأمر لتوطين النفس على فعله . وهي الارادة المتقدمة للفعل بأكثر من وقت ، لان التلون في الرأي يناقض العزم . قال الله تعالى « فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل » (١) .

ثم حكى ما قال لقمان لابنه ، فانه قال له ايضاً « ولا تصعر خدك للناس » ومعناه لا تعرض بوجهك عن الناس تكبراً - ذكره ابن عباس - واصل الصعر داء يأخذ الابل في اعناقها أو رؤسها حتى يلفت أعناقها فتشبه به الرجل المتكبر على الناس . وقال عمر بن جني الثعلبي واضافه المبرد الى الفرزدق :

وكنا إذا الجبار صعر خده ... أقمنا له من مثله فتقوما (٢)

قال ابو علي الفارسي : يجوز أن يكون تصعر وتصاعر بمعنى كقولهم ضعف وضاعف ، قال ابو الحسن (لا تصاعر) لغة اهل الحجاز و (لا تصعر) لغة بني تميم . والمعنى ولا تتكبر ، ولا تعرض عنهم تكبراً « ولا تمش في الأرض مرحاً » أي مشي مختال متكبر « ان الله لا يحب كل مختال فخور » فالاختيال مشية البطر ، قال مجاهد : المختال المتكبر ، والفخر ذكر المناقب للتطاول بها على السامع ، يقال : فخر يفخر فخراً وفاخره مفاخرة وفخاراً ، وتفاخرا تفاخراً وافتخر افتخاراً .

ثم قال له « واقصد في مشيك » أي اجعل مشيك مشي قصد ، لا تمشي مشي مختال ولا متكبر « واغضض من صوتك » أي لا ترفع صوتك متطاولاً لانه مذموم « ان انكر الاصوات لصوت الحمير » قال الفراء : معناه إن اشد

---

(١) سورة ٤٦ الاحقاف آية ٣٥ (٢) مجاز القرآن ٢ / ١٧٢

الأصوات . وقال غيره : معناه أقبح الأصوات ـ في قول مجاهد ـ كما يقال : هـذا وجه منكر . ثم نبههم على وجوه نعم الله على خلقه . فقال « ألم تروا ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض » أي ذلله لكم تتصرفون فيه بحسب ما تريدون من أنواع الحالات من الثمار والبهائم ، وغير ذلك « واسبغ عليكم نعمه » ظاهرة أي وسع عليكم نعمه ، والسابغ الواسع الذي يفضل عن مقدار القوت . وقوله « ظاهرة وباطنة » أي من نعمه ما هو ظاهر لكم لا يمكنكم جحده : من خلقكم ، واحيائكم واقدارکم ، وخلق الشهوة فيكم وضروب نعمه ، ومنها ما هو باطن مستور لا يعرفها إلا من أمعن النظر فيها وقيل : النعم الباطنة مصالح الدين والدنيا ، مما لا يشعرون به . وقيل : سخر لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجم وسحاب ، وما في الارض من دابة وشجر وثمار ، وغير ذلك مما تنتفعون به في اقواتكم ومصالحكم .

ثم قال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ اي يخاصم ولا علم له بما يقوله ، ويجادل فيه ﴿ ولا هدى ﴾ أي ولا حجة على صحة ما يقوله ﴿ ولا كتاب منير ﴾ أي ، ولا كتاب من عند الله منير أي ظاهر عليه نور وهدى .

قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٢١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلاخلاف.

حكى الله سبحانه عن الكفار وسوء اختيارهم أنه ﴿ إذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله﴾ من القرآن والاحكام واعملوا بموجبه واقتدوا به ﴿ قالوا﴾ في الجواب عن ذلك ﴿ بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ من عبادة الأصنام ، ولا نتبع ذلك ، فقال الله تعالى منكراً عليهم ﴿ أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير ﴾ ومعناه إنكم تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ، ولو كان ذلك يدعوكم الى عذاب جهنم ! . وادخل على واو العطف ألف الاستفهام على وجه الانكار .
ثم قال ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله ﴾ أي يوجه طاعته الى الله ويقصد وجهه بها دون الرياء والسمعة ﴿وهو محسن﴾ اي لا يخلط طاعاته بالمعاصي ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أى من فعل ما وصفه فقد تعلق بالعروة الوثيقة التي لا يخشى انتقاضها ، والتوثق امتناع سبب الانتقاض ، لأن البناء الموثق قد جعل على امتناع سبب الانتقاض ، وما ليس بموثق على سبب الانتقاض .

ثم قال ﴿والى الله عاقبة الأمور ﴾ أى اليه ترجع أواخر الأمور على وجه

لا يكون لأحد التصرف فيها ، ولا الأمر والنهي .

ثم قال لنبيه ﴿ ومن كفر ﴾ يا محمد من هؤلاء الناس ﴿ فلا يحزنك كفره ﴾ اى لا يغمك ذلـك ﴿ الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴾ اى نعلمهم باعمالهم ونجازيهم على معاصيهم بالعقاب ، ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ أى بما تضمره الصدور ، لا يخفى عليه شيء منها . ثم قال ﴿ نمتعهم قليلا ﴾ اى نتركهم يتمتعون في هذه الدنيا مدة قليلة ﴿ ثم نضطرهم ﴾ أى نصيرهم مكرهين ﴿ الى عـذاب غليظ ﴾ يغلظ عليهم ويصعب وهو عـذاب النار . ثم قال ﴿ ولئن سألتهم ﴾ يعني هؤلاء الذين كفروا بآيات الله ﴿ من خلق السموات والارض ﴾ ؟ ليقولن في جواب ذلك : الله خالق ذلك ، لانهم لا يمكنهم أن يقولوا خلق ذلك الاصنام والاوثان ، لأنهم يقرون بالنشاة الأولى ، ولأنهم لو قالوا ذلك لعلم ضرورة بطلان قولهم ، فقل عند ذلك يا محمد ﴿ الحمد لله ﴾ على هدايته وتوفيقه لنا بالمعرفة له ﴿ بل اكثرهم لا يعلمون ﴾ انكم وفقكم الله لمعرفته .

قوله تعالى :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٦)
وَلَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ
سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)
مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ

ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابو عمرو ويعقوب وابن شاهي ﴿ والبحر يمده ﴾ نصباً . الباقون رفعاً . من نصبه عطفه على (ما) في قوله ﴿ أن ما ﴾ لأن موضعها نصب بـ (أن) لأن الكلام لم يتم عند قوله ﴿ أقلام ﴾ فاشبه المعطوف قبل الخبر . قال ابن خالويه: وهذا من حذق ابي عمرو ، وجودة تمييزه . وإنما لم يتم الكلام مع الاتيان بالخبر لأن (لو) يحتاج الى جواب . ومن رفع استأنف الكلام .

اخبر الله تعالى أن له جميع ما في السموات والأرض ملك له يتصرف فيه بحسب إرادته لا يجوز لأحد الاعتراض عليه . ثم اخبر انه تعالى ﴿ هو الغني ﴾ الذي لا يحتاج الى شيء من جميع المخلوقات كما يحتاج غيره من الاحياء المخلوقين وأنه ﴿ الحميد ﴾ مع ذاك، يعني المستحق للحمد العظيم ، ونقيضه الذميم ويقال (محمود) بمعنى حميد . ومعناه أنه اهل الحمد .

ثم قال تعالى ﴿ ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ﴾ وفيه حذف ، لأن المعنى يكتب به كلام الله ﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ والآية تقتضي انه ليس لكلمات الله نهاية بالحكم ، لانه يقدر منها على مالا نهاية له . وقال قوم : المعنى ان وجه الحكمة وعجيب الصنعة وإتقانها لا ينفد ، وليس المراد به الكلام . وقال ابو عبيدة : المراد بالبحر - ههنا - العذب ، لأن المالح لا ينبت الاقلام . وقال ابن عباس : نزلت الآية جواباً

لليهود ، لما قالوا قد أوتينا التوراة ، وفيها كل الحكمة ، فبين الله تعالى أن ما يقدر عليه من الكلمات لا حصر له ولا نهاية . والشجر جمع شجرة مثل تمرة وتمر ، وهو كل نبات يقوم على ساق ، يورق الاغصان . ومنه اشتقت المشاجرة بين الناس في الأمر . ومنه قوله ﴿ فيما شجر بينهم ﴾ وشجر تشجيراً وتشاجروا تشاجراً ، ومد البحر إذا جرى غيره اليه حالا بعد حال . ومنه المد والجزر . ومد النهر ومده نهر آخر يمده مداً . وقال الفراء : يقولون : أمدد تك الفاً فمددت .

﴿ ان الله عزيز حكيم ﴾ معناه عزيز في انتقامه من اعدائه (حكيم) في أفعاله . ثم قال ﴿ ما خلقكم ﴾ معشر الخلق ﴿ ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ أي إلا كبعث نفس واحدة أي لا يشق عليه ابتداء جميع الخلق ولا إعادتهم بعد إفنائهم ، وأن جميع ذلك من سعة قدرة الله كالنفس الواحدة ، إذ المراد أن خلقها لا يشق عليه .

وقوله ﴿ إن الله سميع ﴾ أي يسمع ما يقول القائلون في ذلك ﴿ بصير ﴾ بما يضمرونه في قوله « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » وفي ذلك تهديد على المخالفة فيه . ثم قال « ألم تر » يا محمد ، والمراد به جميع المكلفين « أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » قال قتادة : معناه ينقص من الليل في النهار ، ومن النهار في الليل . وقال غيره : معناه إن كل واحد منهما يتعقب الآخر ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري ﴾ لأنهما يجريان على وتيرة واحدة لا يختلفان بحسب ما سخرها له ، كل ذلك يجري ﴿ الى أجل مسمى ﴾ قدره الله ان يفنيه فيه . وقال الحسن : الأجل المسمى القيامة ﴿ وإن الله ﴾ عطف على ﴿ ألم تر ﴾ فلذلك نصبه ، وتقديره : وتعلم ﴿ أن الله بما تعملون خبير ﴾ من

قرأ بالياء - وهو عياش عن أبي عمرو - أراد الاخبار . ومن قرأ بالتاء حمله على الخطاب . وهو الأظهر . والمعنى ﴿ ان الله بما تعملون ﴾ معشر المكلفين ﴿ خبير ﴾ أي عالم ، فيجازيكم بحسب ذلك ليطابق قوله ﴿ الم تر أن الله يولج الليل في النهار ﴾ ثم قال ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ الذي يجب توجيه العبادة اليه ﴿ وأن ما تدعون من دونه الباطل ﴾ . ومن قرأ بالياء فعلى الاخبار عنهم . ومن قرأ بالتاء على وجه الخطاب .

يقول الله تعالى : ألم تعلم ان ما يدعون هؤلاء الكفار من الاصنام هو الباطل . ومن قرأ بالياء فعلى : قل لهم يا محمد ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ فالعلي هو الذي علا على الأشياء واقتدر عليها ، والكبير معناه العظيم في صفاته لا يستحق صفاته غيره تعالى . وذكر ابو عبيدة - في كتاب المجاز - ان البحر المذكور في الآية البحر العذب ، لأن المالح لا ينبت الأقلام .

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ * فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ

الْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ
ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا
تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ ﴾ (٣٤) ·

خمس آيات بصرى وشامي واربع فيما عداها عدوا ﴿ مخلصين له الدين ﴾ ولم يعده الباقون ·

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ والمراد به جميع المكلفين منبهاً لهم على جهات نعمه التي انعم بها عليهم وما يدلهم على انه يستحق العبادة خالصاً ، فقال ﴿ الم تر ﴾ ومعناه الم تعلم ﴿ ان الفلك ﴾ وهي السفن تجري في البحر بنعمة الله عليكم ﴿ ليريكم من آياته ﴾ اى ليريكم بعض ادلته الدالة على وحدانيته ، ووجه الدلالة في ذلك ان الله تعالى يجري الفلك بالرياح التي يرسلها في الوجوه التي تريدون المسير فيها ، ولو اجتمع جميع الخلق ليجروا الفلك في بعض الجهات مخالفاً لجهة الرياح لما قدروا على ذلك · وفي ذلك اعظم دلالة على ان المجري لها بالرياح هو القادر الذى لا يعجزه شيء ، وذلك بعض الأدلة التي تدل على وحدانيته ، فلذلك قال ﴿ من آياته ﴾ ثم قال ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ يعني في تسخير الفلك وإجرائها في البحر على ما بيناه لدلالات ﴿ لكل صبار ﴾ يعني الصبار على مشاق التكليف · وعلى الم المصائب ، وأذى الكفار ﴿ شكور ﴾ لنعم الله عليهم واضاف الآيات اليهم لما كانوا هم المنتفعين بها ، وانما ذكر ﴿ كل صبار شكور ﴾ لأن الصبر عليه بأمر الله ، والشكر لنعم الله من افضل

ما في المؤمن . وقال الشعبي : الصبر نصف الايمان ، والشكر نصف الايمان فكأنه قال : لكل مؤمن .

ثم قال تعالى ﴿ وإذا غشيهم موج ﴾ يعني إذا غشي اصحاب السفن الراكبي البحر موج ، وهو هيجان البحر ﴿ كالظلل ﴾ اى الماء في ارتفاعه وتغطيته ما تحته كالظلل ، قال النابغة الجعدي : يصف البحر :

يغاشيهن اخضر ذو ظلال　　على حافاته فلق الدنان (١)

شبه الموج لأنه يجيء منه شيء بعد شيء بالسحاب الذي يركب بعضه فوق بعض ، ويكون اسوداً بما فيه من الماء « دعوا الله مخلصين له الدين » أي طاعة العبادة ، فالاخلاص إفراد المعنى من كل شائب كان من غيره ، أي يخلصون الدعاء في هذه الحال لله تعالى دون الأصنام وجميع ما يعبدونه من دون الله « فلما نجاهم » أي خلصهم الى البر وسلمهم من هول البحر « فمنهم مقتصد » قال قتادة: يعني منهم مقتصد في قوله مضمر لكفره . وقال الحسن : المقتصد المؤمن . وقيل: مقتصد على طريقة مستقيمة « وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » فالختار الغدار بعهده أقبح الغدر ، وهو صاحب ختل وختر أي غدر قال عمرو ابن معدي كرب :

فانك لو رأيت أبا عمير　　ملأت يديك من غدر و ختر (٢)

وقال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد : الختار الغدار .

ثم خاطب تعالى جميع المكلفين من الناس فقال « يا ايها الناس اتقوا ربكم » امرهم باجتناب معاصيه خوفاً من عقابه « واخشوا يوماً لا يجزي والد عن

(١، ٢) مجاز القرآن ٢ / ١٢٩

ولده ... » يعني يوم القيامة الذي لا يغني فيه أحد عن احد ، لا والد عن ولده ولا ولد عن والده ، يقال : جزيت عنك أجزي إذا أغنيت عنك . وفيه لغة أخرى : أجزأ يجزىء من أجزأت بالهمزة . ثم قال « ان وعد الله حق » اي الذي وعدته من الثواب والعقاب حق لا خلف فيه « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » قال مجاهد وقتادة والضحاك : الغرور الشيطان . وقال سعيد بن جبير : هو يمنيك المغفرة في عمل المعصية . قال ابو عبيدة : الغرور كل شيء غرك حتى تعصي الله ، وتترك ما أمرك به الله ، شيطاناً كان أو غيره ، فهو غرور . وهو أحسن ، لأنه أعم . ثم قال تعالى « إن الله عنده علم الساعة » يعني وقت قيام القيامة يعلمه تعالى لا يعلمه سواه « وينزل الغيث » أي وهو الذي يعلم وقت نزول الغيث بعينه وهو الذي « يعلم ما في الارحام » من ذكر او أنثى « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت » يقال : بأي ارض وبأية ارض. من قال : بأي ، فلأن تأنيث الأرض بالصيغة لا باللفظ . ومن قال : بأية ارض فلان الأرض مؤنثة . والمعنى انه لا يعلم موت الانسان في أي موضع من البلاد يكون سواه . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله إن هذه الخمسة اشياء مما لا يعلمها غيره تعالى على التفصيل والتحقيق « إن الله عليم » بتفصيل ذلك « خبير » به لا يخفى عليه شيء من ذلك .

وسأل البلخي نفسه ، فقال : إذا قلتم : إن من اعتقد الشيء على ما هو به تقليداً أو تخميناً أو تنجيماً يكون عالماً ، فلو أن إنساناً أعتقد ان امرأة تلد ذكراً او رجلا يموت في بلد بعينه او يكسب في الغد كذا ، فوافق ذلك اعتقاده ، فيجب

ان يكون عالماً ، ويبطل الاختصاص في الآية ؟! وأجاب : إن ذلك وإن كان جائزاً ، فانه لا يقع لظاهر الآية . وهذا غير صحيح ، لان من المعلوم ضرورة أن الانسان يخبر شيئاً فيعتقده ، فيكون على ما اعتقده من هذه الاشياء الخمسة ، وانما لا يكون علماً ، لانه لا تسكن نفسه الى ذلك،فأما المنع من وقوعه فمعلوم خلافه.

٣٢ - سورة السجدة

مكية في قول قتادة ومجاهد وغيرهما. وقال الكلبي ومقاتل: ثلاث آيات منها مدنية قوله «أفمن كان مؤمنا» الى تمام ثلاث آيات. وهي ثلاثون آية كوفي وحجازي وشامي. وتسع وعشرون آية بصري

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ
مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ
مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ
السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ
سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٥).

خمس آيات كوفي وأربع فيما عداه عدوا « ألم » آية ولم يعدها الباقون .

روي عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ في كل ليلة سورة السجدة « الم تنزيل » و « تبارك الذي بيده الملك » .

و « تنزيل » رفع على انه خبر ابتداء محذوف ، وتقديره « الم » هو تنزيل. ويجوز أن يكون (تنزيل) رفعاً بالابتداء ، وخبره « لاريب فيه » ذكره الزجاج. وقد تكرر القول بأن أوائل امثال هذه السور أقوى الأقوال فيها انها أسماء للسورة ، ورجحناه على غيره من الأقوال . والتلفظ بحروف الهجاء ينبغي ان يكون على الوقف ، لأنها مبنية على السكون من حيث كانت حكاية للاصوات .

وقوله « تنزيل الكتاب » أي هذه الآيات هي تنزيل الكتاب الذي وعدتم به « لا ريب فيه » أي لاشك فيه أنه وحي من الله . والمعنى أنه لاريب فيه عند المهتدين ، وإن كان ارتاب به خلق من المبطلين . وهو مثل قول القائل : لاريب في هذا انه ذهب أي عند من رآه واعتبره . وقيل : معنى « لاريب فيه » خبر والمراد به النهي ، والمعنى لاترتابوا به . والريب الشك . وقيل : هو اقبح الشك . ووجوه الحكم في الكتاب البيان عن كل ما تدعو الحكمة الى تميز الحق فيه من الباطل بالبرهان عليه مما يحتاج اليه في الدين الذي يرضى به رب العالمين ، وهو على وجهين : حجة ، وموعظة ، واعتماد الحجة على تبين مايؤدي الى العلم بصحة الأمر ، واعتماد الموعظة على الترغيب والترهيب ، وفي الموعظة من جهة التحذير بما تضمنه أي يقرب ما في السورة المسمى به من الحكم ، وفيه حجة على العبد من جهة انه قد دل به على ما يجب أن يعتقد تعظيمه ويعمل به .

وقوله « من رب العالمين » أي هو تنزيل من عند الله الذي خلق الخلائق. وقوله « ام يقولون افتراه » فهذه (أم) منقطعة ، ومعناها (بل) وتقديره :

بل يقولون افتراه ، ففيها معنى (بل) والألف إذا كانت معادلة فمعناها (او) مع الاستفهام ، و (افتراه) معنـاه افتعله ، بل قال تعالى ليس الأمر على ما قالوه « بل هو الحق » من عند الله والحق هو كل شيء كان معتقـده على ما هو به مما يدعو العقل اليه واستحقاق المدح عليه . وتعظيمه الكتاب حق ، لأن من اعتقد أنه من عند الله كان معتقده على ما هو به . والباطل نقيض الحق ، وهو ما كان معتقده لا على ما هو به .

وقوله « بل هو الحق من ربك » فيه دلالة على بطلان مذهب المجبرة لان الله تعالى أنزله ليهتدي به الخلق لا ليضلوا به عن الدين ، والمجبرة تزعم انه أراد ضلال الكفار عن الدين فيجب كونه منزلا ليضل الكفار عن الدين .

وقوله « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » لا ينافي قوله « وإن من أمة إلا خلافيها نذير » (١) لان الحسن ، قال : المعنى وإن من امة أهلكت بالعذاب إلا من بعد أن جاءهم نذير ينذرهم بما حل بهم . وهـــذا خطاب للنبي صلى الله عليه وآله يقول الله تعالى له « لتنذر » أي لتخوف يا محمد « قوماً » لم يأتهم مخوف قبلك ، يعني أهل الفترة من العرب ، فكانوا كأنهم في غفلة عما لزمهم من حق نعم الله وما خلقهم له من العبادة . وقد كان اسماعيل عليه السلام نذيراً لمن أرسل اليه .

ثم قال « الله الذي خلق السموات والارض » أي اخترعهـما وانشأهما وخلق « ما بينهما في ستة أيام » أي في ما قدره ستة أيام ، لانه قبل خلق الشمس لم يكن ليل ولا نهار . وقوله « ثم استوى على العرش » أي استوى عليه بالقهر والاستعلاء ، وقد فسرناه في ما مضى (٢) ودخلت « ثم » على (استوى على العرش)

---

(١) سورة ٣٥ فاطر آية ٢٤ (٢) انظر ٤ / ٤٥٢

وإن كان مستعلياً على الاشياء قبلها ، كما دخلت حتى في قوله « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » (١) وتقديره ثم صح معنى استوى على العرش باحداثه ، وكذلك حتى يصح معنى « نعلم المجاهدين » أي معنى وصفهم بهذا وذلك لا يكون إلا بعد وجود الجهاد من جهتهم .

وقوله « مالكم من دونه من وليّ ولا شفيع » نفي منه تعالى أن يكون للخلق ناصر ينصرهم من دون الله أو شفيع يشفع لهم ، كما كانوا يقولون: نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى .

ثم قال « افلا تتذكرون » في ما قلناه وتعتبرون به ، فتعلموا صحة مابيناه لكم . وقوله « يدبّر الأمر من السماء الى الارض» معناه ان الذي خلق السموات والارض وما بينهما في هذه المدة يدّبر الامور كلها ، ويقدرها على حسب إرادته في ما بين السماء والارض ، وينزله مع الملك الى الارض « ثم يعرج اليه » يعني الملك يصعد الى المكان الذي أمره الله تعالى أن يعرج اليه ، كما قال ابراهيم : « اني ذاهب الى ربي » (٢) أي ارض الشام التي امرني ربي . ولم يكن الله بأرض الشام ، ومثله قوله تعالى «ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله» (٣) يريد الى المدينة . ولم يكن الله في المدينة. وقوله « في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » قال ابن عباس ، والضحاك : معناه يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة مما يعده البشر . وقيل : معناه خمس مئة عام نزول وخمس مئة عام صعود ، فذلك ألف سنة . وقال قوم : يجوز ان يكون يوم القيامة يوماً له اول وليس له آخر . وقته اوقاتاً يسمى بعضها الف سنة وبعضها خمسين الف

---

(١) سورة ٤٧ محمد آية ٣١ (٢) سورة ٣٧ الصافات آية ٩٩

(٣) سورة ٤ النساء آية ٩٩

سنة . وقيل : ان معنى « وإن يوماً عند ربك كألف سنة » انه فعل في يوم واحد من الأيام الستة التي خلق فيها السموات والارض ما لو كان يجوز أن يفعله غيره لما فعله إلا في الف سنة. وقيل : ان معناه إن كل يوم من الأيام الستة التي خلق فيها السموات كألف سنة من أيام الدنيا .

قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (١٠)

خمس آيات عراقي لم يعدوا « جديد » آية . وست في ما عداه ، لأنهم عدوا « جديد » آية .

قرأ ابن كثير ، وابو عمرو ، وابن عامر « احسن كل شيء خلقه » باسكان اللام . الباقون بفتحها . من سكن اللام فعلى تقدير : الذي أحسن خلق كل شيء اي جعلهم يحسنونه والمعنى انه ألهمهم جميع ما يحتاجون اليه . قال الزجاج : ويجوز ان يكون على البدل ، والمعنى : احسن كل شيء . ويجوز أن يكون على المصدر وتقديره الذي خلق كل شيء خلقه . ومن فتح اللام جعله فعلا ماضياً ، ومعناه

احسن الله كل شيء خلقه على إرادته ومشيئته ، وأحسن الانسان وخلقه في احسن صورة . وقيل : معناه إن وجه الحكمة قائم في جميع أفعاله ، ووجوه القبح منتفية منها ، ووجه الدلالة قائم فيها على صانعها ، وكونه عالماً . والضمير في قوله « خلقه » كناية عن اسم الله .

لما اخبر الله تعالى انه الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام واستولى على العرش ، وانه الذي يدبر الأمور ما بين السموات والارض بين ـ ههنا ـ ان الذي يفعل ذلك ويقدر عليه هو « عالم الغيب والشهادة » أي يعلم السر والعلانية « العزيز » في انتقامه من أعدائه « الرحيم » بعباده ، المنعم عليهم . و (الغيب) خفاء الشيء عن الادراك . والشهادة ظهوره للادراك فكأنه قال : يعلم ما يصح أن يشاهد ، وما لا يصح أن يشاهد فيدخل في ذلك المعدوم والحياة والموت والقدرة وجميع مالا يصح عليه الرؤية . والعزيز : هو القادر على منع غيره ولا يقدر الغير على منعه ، وأصله المنع من قولهم : من عز بزّ ، من غلب سلب ، لأن من غلب أسيره فمنعه أخذ سلبه .

ثم قال الذي احسن كل شيء خلقه ، ومعنى ذلك في جميع ما خلقه الله تعالى وأوجده فيه وجه من وجوه الحكمة ، وليس فيه وجه من وجوه القبح . وذلك يدل على ان الكفر والضلال وسائر القبائح ليست من خلقه . ولفظة (كل) وإن كانت شاملة للاشياء كلها ، فالمراد به الخصوص ـ ههنا ـ لأنه أراد ما خلقه الله تعالى من مقدوراته دون مقدور غيره ، ونصب قوله «خلقه» بالبدل من قوله « كل شيء » كما قال الشاعر :

وظعني اليك الليل حضنيه انني ... لتلك إذا هاب الهدان فعول (١)

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٣٠

وتقديره وظعني حضني الليل اليك . وقال الآخر :

كأن هنـداً ثناياها وبهجتها   يوم التقينا على ادحال دباب (١)

والمعنى كأن ثنايا هندو بهجة هند . وقوله «وبدأ خلق الانسان من طين» أي ابتـدأ خلق الانسان من طين ، يريد انه خلق آدم الذي هو أول الخلق من طين ، لأن الله تعالى خلق آدم من تراب ، فقلبه طيناً ، ثم قلب الطين حيواناً ، وكذلك قال « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (٢) وقال ـ ههنـا ـ و « وبدأ خلق الانسان من طين » وكل ذلك لما في التصريفين دليل وقوله « ثم جعل نسله من سلالة » يعني نسل الانسان الذي هو آدم وولده من سلالة ، وهي الصفوة التي تنسل من غيرها خارجة ، قال الشاعر :

فجاءت به عضب الاديم غضنفراً   سلالة فرج كان غير حصين(٣)

« من ماء مهين » قال قتادة : المهين الضعيف . وهو (فعيل) من المهنة .

وقوله « ثم سواه » أي عـدله ورتب جوارحه « ونفخ فيه » يعني في ذلك المخلوق «من روحه» فأضافه الى نفسه اضافة اختصاص وإضافة ملك على وجه التشريف . ثم قال « وجعل لكم » معاشر الخلق « السمع » لتسمعوا به الاصوات « والابصار » لتبصروا بها المرئيات «والافئدة » أي وخلق لكم القلوب لتعقلوا بها « قليلا ما تشكرون » أي تشكرون نعم الله قليلا من كثير و (ما) زائدة ، ويجوز ان تكون مصدرية ، والتقـدير قليلا شكركم ، لأن نعم

---

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٣٠   (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٥٩

(٣) مر تخريجه في ٧ / ٣٥٣

الله لا تحصى . ثم حكى عن الكفار فقال ﴿ وقالوا أئذا ضللنافي الارض ﴾ وفيه لغتان فتح اللام وكسرها ، وكل شيء غلب عليه غيره حتى يغيب فيه ، فقد ضل فيه ، قال الاخطل :

كنت القذي في موج أكدر مزبد   قذف الأتي به فضل ضلالا (١)

وقال مجاهد وقتادة : معنى ﴿ ضللنا ﴾ هلكنا . وقال ابو عبيدة : همدنا فلم يوجد لهم دم ولا لحم ﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾ حكاية عن تعجبهم وقولهم كيف نخلق خلقاً جديداً ، وقد هلكناوتمزقت أجسامنا . ثم قال ﴿ بل ﴾ هؤلاء الكفار ﴿ بلقاء ربهم ﴾ بالعذاب والعقاب ﴿ كافرون ﴾ أي جاحدون ، فلذلك قالوا : أإذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد، جعل ﴿ إذا ﴾ منصوبة بـ (ضللنا) وتكون في معنى الشرط ، ولا توصل إلا بذكر الفاء بعدها ، لأن (إذا)قد وليها الفعل الماضي ولا يجوز أن تنصب (إذا) بما بعدها إذ لاخلاف بين النحويين فيه . وقرأ الحسن ﴿ صللنا ﴾ بالصاد غير منقوطة . ومعناه احد شيئين : احدهما ـ انتنا وتغيرنا وتغيرت صورنا ، يقال صل اللحم ، وأصل إذا أنتن . والثاني ـ صللنا صرنا من جنس الصلة وهي الأرض اليابسة .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّيكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ

---

(١) مر في ١ / ٤٠٤

شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً
وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٥) خمس آيات بلاخلاف

أمر الله نبيه ﷺ أن يخاطب المكلفين بأن يقول لهم « يتوفاكم ملك الموت » أي يقبض أرواحكم ، قال قتادة يتوفاكم ومعه أعوان من الملائكة ، والتوفي أخذ الشيء على تمام ، قال الراجز :

ان بني أدرد ليسوا من أحد ولا توفاهم قريش في العدد (١)

ومنه قوله « الله يتوفى الأنفس حين موتها » (٢) ويقال : استوفى الدين إذا قبضه على كماله ، فملك الموت يتوفى الانسان باخذ روحه على تمام فيعرج بها الى حيث امره الله تعالى . وقوله « يتوفاكم » يقتضي أن روح الانسان هي الانسان فالاضافة فيها وقعت كما وقعت في نفس الانسان ، والملك مشتق من الألوكة وهي الرسالة كما قال الهذلي .

الكني اليها وخير الرسو ل أعلمهم بنواحي الخبر (٣)

وقوله « الذي وكل بكم » صفة الملك الذي يتوفى الأنفس ، وأن الله

(١) مر في ٣ / ٣٠٤ و ٤ / ١٦٩ (٢) سورة ٣٩ الزمر آية ٤٢
(٣) مر في ٨ / ١٩

قد وكله بمعنى فوض اليه قبض الأرواح . والتوكيل تفويض الأمر الى غيره للقيام به ، وكله توكيلاً ، وتوكل عليه توكلاً ، ووكله يوكله وكالة .

وقوله « ثم الى ربكم ترجعون » معناه إنكم الى جزاء الله من الثواب والعقاب تردون ، وانما جعل الرجوع الى الجزاء رجوعاً اليه تفخيماً للامر . وقيل : معناه تردون الى ان لايملك لكم أحد ضراً ولا نفعاً إلا الله تعالى . وفيه تعظيم لهذه الحال . واقتضى الوعيد . ثم قال لنبيه ﷺ « ولو ترى » يا محمد « إذ المجرمون » فجواب (لو) محذوف وتقديره : ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم إذا بعثوا ، من الندم على تفريطهم في الايمان لرأيتم ما تعتبرون به . والخطاب للنبي ﷺ والمراد به الأمة « ناكسوا رؤسهم » من الغم . وقيل: من الحياء والخزي مما ارتكبوه من المعاصي « عند ربهم » يعني يوم القيامة الذي يتولى الله تعالى حساب خلقه . وفي الكلام حذف لان تقديره قائلين « ربنا أبصرنا وسمعنا » ومعناه أبصرنا الرشد وسمعنا الحق . وقيل : معناه أبصرنا صدق وعدك وسمعنا تصديق رسلك . وقيل معناه : إنا كنا بمنزلة العمي ، فقد أبصرنا ، وبمنزلة الصم ، فسمعنا « فارجعنا » أي ردنا الى دار التكليف « نعمل صالحاً » من الطاعات غير الذي كنا نعمل من المعاصي « إنا موقنون » اليوم لا نرتاب بشيء من الحق والرسالة .

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » ومعناه الاخبار عن قدرته انه يقدر على إلجائهم الى الايمان بان يفعل أمراً من الامور يلجئهم الى الاقرار بتوحيد الله ، لكن ذلك يبطل الغرض بالتكليف ، لان المقصود استحقاق الثواب ، والالجاء لا يثبت معه استحقاق الثواب وقال الجبائي يجوز أن يكون المراد ولو شئنا لأجبناهم الى ما سألوا ولرددتهم الى دار التكليف

ليعملوا بالطاعات « ولكن حق القول مني » أن اجازيهم بالعقاب ، ولا أردهم وقيل : ولو شئنا لهديناهم الى الجنـة « ولكن حق القول مني » أي أخبرت وأوعدت أني « لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين » بكفرهم بالله وجحدهم وحدانيته وكفرانهم نعمه. ثم حكى تعالى ما يقال لمن تقدم ذكره الذين طلبوا الرجوع الى دار التكليف ، فانه يقال لهم يوم القيامة ، إذا حصلوا في العـذاب « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا » أي انما فعلتم فعل من نسي لقاء جزاء هذا اليوم ، فتركتم ما أمركم الله به وعصيتموه « انا نسيناكم » أي فعلنا معكم جزاء على ذلك فعل من نسيـكم يعني من ثوابه ، وتركهم من نعيمه . والنسيان الترك . ومنه قوله « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي » (١) وقال النابغة :

سفود شرب نسوه عند مفتأد (٢)

أي تركوه فلم يستعملوه ، قال المبرد . لانه لو كان المراد النسيان الذي هو ضد الذكر لجاز أن يكونوا استعملوه « وذوقوا عذاب الخلد » الذي لافناء له جزاء « بما كنتم تعملون » من المعاصي .

ثم اخبر تعالى عن حال المؤمنين ووصفهم بأن المؤمن على الحقيقة الـكامل الايمان بآيات الله وبحججه « هم الذين إذا ذكروا » بحجج الله وتليت عليهم آياته خروا سجداً شكراً على ما هداهم لمعرفته وأنعم عليهم من فنون نعمه ونزهوا الله تعالى عما لا يليق به من الصفات وعن الشرك به حامـدين لربهم غير مستكبرين ولا مستنكفين من الطاعة .

---

(١) سورة ٢٠ طه آية ١١٥

(٢) مر هذا البيت كاملا في ٦ / ٨٧

قوله تعالى:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَيٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٢٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ « اخفي » باسكان الياء حمزة ويعقوب. الباقون - بفتح الياء - من سكن الياء جعله فعلا مستقبلا وحجته قراءة عبد الله « ما نخفي لهم » ومن فتح جعله فعلا ماضياً على مالم يسم فاعله، فعلى قراءة حمزة (ما) نصب مفعول به، وعلى ما في القرآن إن موضع (ما) رفع بما لم يسم فاعله. والله فاعله و ﴿قرة أعين﴾ شيء أعده الله لعباده لم يطلعهم عليه في دنياهم، كما قال النبي صلى الله عليه وآله (هو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) وصف الله تعالى المؤمنين الذين ذكرهم في الآية الأولى في هذه الآية بأن قال : وهم الذين لا يستنكفون عن عبادته « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » أي يرتفعون عن

مواضعهم التي ينامون عليها فالتجافي تعاطي الارتفاع عن الشيء ، ومثله النبو يقال جفاعنه يجفو جفاء إذا نبا عنه. وتجافى عنه يتجافى تجافياً، واستجفاه استجفاء والمضجع موضع الا ضجاع ، والاضطجاع هو القاء النفس « يدعون ربهم » أي داعين ربهم الذي خلقهم وأوجدهم ﴿ خوفاً ﴾ من عذابه يسألونه المغفرة ﴿ وطمعاً ﴾ في ثوابه. وانتصب ﴿خوفاً ، وطمعاً﴾ على انه مفعول له أي للخوف وللطمع ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ في طاعة الله وسبيل ثوابه . ووجه المدح بذلك أن هؤلاء المؤمنين يقطعهم اشتغالهم بالدعاء لله عن طيب المضطجع لما يأملون به من الخير والبركة من الله تعالى ، لأن آمالهم مصروفة اليه ، واتكالهم في أمورهم عليه ، وقال الشاعر في التجافي :

وصاحبي ذات هباب دمشق وابن ملاط متجاف ادفق (١)

أي متنح عن كركرتها ، وقال أنس وقتادة : انه مدح قوماً كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء . وقال الضحاك : انهم كانوا يذكرون الله بالدعاء والتعظيم وقال قتادة : ﴿ خوفاً ﴾ من عذاب الله ﴿ وطمعاً ﴾ في رحمة الله ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ في طاعة الله. وقال ابو جعفر ، وابو عبد الله عليهما السلام الآية متناولة لمن يقوم الى صلاة الليل عن لذيذ مضجعه وقت السحر ، وبه قال معاذ والحسن ومجاهد . وقال عبد الله بن رواحة في صفة النبي صلى الله عليه وآله :

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

ثم قال تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ تحتمل (ما) في قوله ﴿ ما أخفي ﴾ أن تكون بمعنى الذي ويكون موضعها النصب ، ويحتمل أن تكون بمعنى (أن) ويكون موضعها الرفع ، وتكون الجملة في موضع نصب ،والمعنى

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٣٢

ليس يعلم أحد كنه ما أعد الله لهؤلاء المؤمنين الذين تقـدم وصفهم من انواع اللذات والاشياء التي تقرّ أعينهم بها على كنه معرفتها . وقولهم قرت عيناه أي فرحها الله ، لأن المستبشر الضاحك يخرج من عينه ماء بارد من شؤونه. والباكي جزعاً يخرج من عينيه ماء سخن من الكبد ، ومنه قولهم : سخنت عينه - بكسر الخاء - ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ من الطاعات في دار التكليف، وانما نفى العلم عنهم مع أن المؤمن يعلم أنه مستحق للثواب ، لان العلم بالشيء يكون من وجهين :

احدها - ان يعلم الشيء على طريق الجملة ، وهو الذي يحصل للمؤمن في دار التكليف .

والآخر - ان يحصل على طريق التفصيل ، وذلك موقوف على مشاهدتهم للثواب الذي يرونه عند زوال التكليف وحضور الثواب .

ثم قال تعالى ﴿ أفمن كان مؤمناً ﴾ مصدقا بالله عارفاً به وبأنبيائه عاملا بما اوجبه الله عليه وندبه اليه ﴿ كمن كان فاسقاً ﴾ خارجاً عن طاعة الله بارتكاب معاصيه على وجه الانكار لذلك ، فلذلك جاء به على لفظ الاستفهام ، ثم اخبر تعالى بأنهم ﴿ لا يستوون ﴾ قط، لان منزلة المؤمن الثواب وانواع اللذات، ومنزلة الفاسق العذاب وفنون العقاب . ثم فسر ذلك بما قال بعده فقال ﴿ اما الذين آمنوا ﴾ بالله وصدقوه وصدقوا أنبياءه ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ وهي الطاعات مع ذلك ﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ فالمأوى المقام اي لهم هذه البساتين التي وعدهم الله بها يأوون اليها ﴿ نزلا بما كانوا يعملون ﴾ أي في مواضع لهم ينزلون فيها مكافأة لهم على طاعاتهم التي عملوها . وقال الحسن : ﴿ نزلا ﴾ أي عطاء نزلوه ﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ بخروجهم عن طاعة الله الى معاصيه ﴿ فمأواهم النار ﴾ يأوون اليها نعوذ بالله منها ﴿ كلما أرادوا ان يخرجوا منها ﴾ أي كلما كادوا وهموا

بالخروج منها لما يلحقهم من العذاب ﴿ اعيدوا فيها ﴾ أي ردوا فيها وقال الحسن: كلما كادوا الخروج منها لانها ترميهم بلهبها ضربوا بمقامع حتى يعودوا فيها، وقيل: لهم مع ذلك على وجه التقريع والتبكيت ﴿ ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ اي العذاب الذي كنتم به تجحدون في دار الدنيا ولا تصدقون به. وقال ابن ابي ليلى: نزلت الآية في رجل من قريش وعلي عليه السلام وقال غيره: إن هذه الآيات نزلت في علي ابن أبي طالب عليه السلام والوليد بن عقبة بن ابي معيط، فالمؤمن المراد به علي عليه السلام والفاسق هو الوليد بن عقبة، روي انه لقيه يوماً فقال لعلي: انا أبسط منك لساناً واحد منك سناناً، فقال علي: عليه السلام ليس كما قلت يا فاسق. فنزل قوله ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً .... ﴾ فقال قتادة: والله ما استووا، لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا عند الموت.

قوله تعالى:

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا

فيه يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ حمزة والكسائي ورويس ﴿ لما صبروا ﴾ بكسر اللام والتخفيف أى لصبرهم . الباقون بالتشديد وفتح اللام بمعنى حين صبروا .

اقسم الله تعالى في هذه الآية ، لان اللام في قوله ﴿ ولنذيقنهم ﴾ هي التي يتلقى بها القسم ، وكذلك النون الثقيلة ، بأنه يذيق هؤلاء الفساق الذين تقدم وصفهم العذاب الادنى بعض مايستحقونه . وقيل : العذاب الأدنى هو العذاب الأصغر وهو عذاب الدنيا بالقتل والسبي والقحط والفقر والمرض والسقم وما جرى هذا المجرى . وقيل : هو الحدود . وقيل : عذاب القبر . وعن جعفر بن محمد عليهما السلام : ان العذاب الادنى هو القحط ، والأكبر خروج المهدي بالسيف . والعذاب الاكبر عند المفسرين هو عذاب الآخرة بالنار التي يستفزع الانسان بالآلام وفي الأدنى معنى الأقرب . وقد يكون الأدنى من الاشياء في الحسن ، وهو أن يفعل على انه ليس فيه ظلم لاحد إذا فعل للشهوة ، والأدنى في القبح مايفعل وفيه ظلم يسير اتباعاً للشهوة ، والاعلى في الحسن هو ما ليس فوقه ماهو اعلى منه يستحق به العبادة . والادنى في العذاب اكبر في الآلام ، لان العذاب استمرار الألم ، وليس فوق عذاب الكفر عذاب ، لأن عذاب الفسق دونه . وقال ابن عباس : وابي بن كعب والحسن : العذاب الأدنى مصائب الدنيا . وقال ابن مسعود : هو القتل يوم بدر . والعذاب الاكبر عذاب الآخرة . وهو قول الحسن ومجاهد وابن زيد وابن مسعود .

وقوله ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ إخبار منه تعالى أنه يفعل بهم ماذكره من العذاب الأدنى ، ليرجعوا عن معاصي الله الى طاعته ويتوبوا منها . وهو قول

عبدالله وابي العالية وقتادة .

ثم قال الله تعالى على وجـه التقريع لهم والتبكيت « ومن أظلم » لنفسه بارتـكاب المعاصي وإدخالها في استحقاق العقاب « ممن ذكر بآيات ربه » أي ينبه على حججه تعالى التي توصله الى معرفته ومعرفة ثوابه ، « ثم أعرض عنها» جانباً ، ولم ينظر فيها . ثم قال « إنا من المجرمين » الذين يفعلون المعاصي بقطع الطاعات وتركها « منتقمون » بأن نعذبهم بعذاب النار .

ثم اخبر تعالى فقال « ولقد آتينا موسى الكتاب » يعني التوراة « فلا تكن في مرية من لقائه » أي في شك من لقـائه يعني لقاء موسى ليلة الاسراء بك الى السماء ـ على ما ذكره ابن عباس ـ وقيل : فلا تكن في مرية من لقاء موسى في الآخرة ، وقال الزجاج : فلا تكن يا محمد في مرية من لقاء موسى الكتاب . والمرية الشك . وقال الحسن : فلا تكن في شك من لقاء الاذى ، كما لقي موسى كأنه قال : فلا تكن في شك من أن تلقى كما لقي موسى « وجعلناه هـدى لبني اسرائيل » قال قتـادة : وجعلنا موسى هادياً لبني اسرائيل ، وضع المصدر في موضع الحال . وقال الحسن : معناه جعلنا الكتاب هادياً لهم « وجعلنـا منهم أئمة يهدون بأمرنا » قال قتادة : معناه جعلنا منهم رؤساء في الخير يقتدى بهم يهدون الى فعل الخير بأمر الله « لـما صبروا » قيل : فيه حكاية الجزاء ، وتقديره قيل لهم : إن صبرتم جعلناكم أئمة ، فلما صبروا جعلوا أئمة ـ ذكره الزجاج ـ و « كانوا بآياتنا » أي بحججنا « يوقنون» أي لا يشكون فيه . واليقين وجدان النفس بالثقة على خلاف ما كانت عليه من الاضطراب والحيرة .

ثم قال لنبيه « إن ربك » يا محمد « هو » الذي « يفصل بينهم يوم القيامة » أي يحكم بينهم ، يعني بين المؤمن والكافر والفاسق « في ما كانوا فيه يختلفون »

في دار الدنيا من التصديق بالله وبرسوله والايمان بالبعث والنشور وغير ذلك.

قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ (٣٠)

خمس آيات بلاخلاف.

القراء كلهم على الياء في قوله «أو لم يهد لهم» بمعنى او لم يهد إهلاكنا لهم لمن مضى من القرون. وقرىء بالنون بمعنى الاخبار عن الله تعالى أنه الذي بين لهم هلاك الماضين وأرشدهم بذلك الى الحق وأتباعه، فاضافه الى نفسه.

يقول الله تعالى منبهاً لخلقه على وجه الاعتبار بحججه «او لم يهدلهم» ومعناه او لم يبصرهم ويرشدهم من غوايتهم، يقال: هداه يهديه في الدين هدى، وهدي الى الطريق هداية، واهتدى إذا قبل الهداية. والواجب من الهدى: هو ما يؤدي إلى ما ليس للعبد عنه غنى في دينه، فاللطف على هذا هدي. والنظر المؤدي الى معرفة الله هدى. وفاعل «يهد» مضمرفيه؛

وتقديره أو لم يهد لهم إهلاكنا من أهلكناهم من القرون الماضية جزاء على كفرهم بالله وإرتكابهم لمعاصيه ، ولا يجوز أن يكون فاعل « يهد » « كم » في قوله « كم اهلكنا » لان « كم » لا يعمل فيها ما قبلها إلا حروف الاضافة ، لانها على تقدير الاستفهام الذي له صدر الكلام ، واجاز الفراء أن يكون فاعل « يهد» « كم » ولم يجزه البصريون .

وقوله « يمشون في مساكنهم » اي أهلكناهم بغتة وهم متشاغلين بنفوسهم ويمشون في منازلهم . ثم قال « إن في ذلك لآيات » أي لحججاً واضحات « أفلا يسمعون » ومعناه أفلا يتدبرون ما يسمعونه من هذه الآيات ، لان من لا يتدبر ما يسمعه ، ولا يفكر فيه . فكأنه لم يسمعه . ثم نبههم على وجه آخر فقال « أو لم يروا » ومعناه او لم يعلموا « أنا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه انعامهم وأنفسهم » فالسوق الحث على السير ، ساقه يسوقه سوقاً ، فهو سائق ، يقول الله تعالى نسوق ماء المطر الى هذه الأرض الجرز ، فننبت به ضروباً من النبات الذي يتغذى به الانسان والانعام وغيرهم والارض الجرز هي الأرض اليابسة التي ليس فيها نبات ، انقطع ذلك لانقطاع الامطار ، وهو مشتق من قولهم : سيف جراز أي قطاع ، لا يلقى على شيء إلا قطعه وناقة جراز ، إذا كانت تأكل كل شيء لأنها لا تبقي شيئاً إلا قطعته بفيها وأرض جروز ، وهي التي لا تبقي على ظهرها شيئاً إلا أهلكته ، كالناقة الجراز ورجل جروز أكول ، قال الراجز :

خب جروز إذا جاع بكا ‍ ‍ ‍ [يأكل التمر ولا يلقي النوى] (١)

وفيه أربع لغات أرض جرز ـ بضم الجيم والراء ، وبضم الجيم واسكان

(١) تفسير القرطبي ١٤ / ١١٠

الراء و بفتح الجيم والراء ، وبفتح الجيم واسكان الراء .

وقال ابن عباس ﴿ نسوق الماء ﴾ بالسيول ، لانها مواضع عالية ، قال وهي: قرى بين اليمن والشام . ثم قال ﴿ أفلا يبصرون ﴾ بأن يفكروا في ذلك فيدلهم على انه لايقدر على ذلك أحد غير الله الذي لا شريك له . ثم حكى عنهم أنهم ﴿ يقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين ﴾ مستعجلين لما وعد الله تعالى من الفصل بينهم في قوله ﴿ ان ربك هو يفصل بينهم ﴾ يعنون متى يجيء فتح الحكم بيننا وبينكم في الثواب والعقاب ، والفتح القضاء والحكم . وقيل : انه أراد به فتح مكة ، فعلى هذا قوله ﴿ يوم الفتح ﴾ يوم فتح مكة ﴿ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ﴾ لا يليق به . وقيل : لا ينفع الذين قبلهم خلد من بني كنانة ايمانهم . والتأويل هو الأول ، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ يوم الفتح ﴾ أي يوم القضاء والفصل . وقال مجاهد : يوم القيامة ﴿ لا ينفع الذين كفروا ﴾ بآيات الله ﴿ إيمانهم ﴾ لان التكليف قد زال عنهم ، ومعارفهم تحصل ضرورة ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي ولا يؤخرون ايضاً ، فلا ينبغي أن يستعجلوا مجيئه . ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ فأعرض عنهم ﴾ يا محمد ، فانه لا ينفع فيهم الدعاء والوعظ. وقيل : كان ذلك قبل أن يؤمر بالجهاد . وقيل : أعرض عن أذاهم ﴿ وانتظر ﴾ حكم الله تعالى فيهم وإهلاكه لهم ﴿ فانهم منتظرون ﴾ أيضاً الموت الذي يؤديهم الى ذلك . وقيل : انه سيأتيهم ذلك ، فكأنهم كانوا ينتظرونه.

٣٣ - سورة الاحزاب

مدنية في قول مجاهد والحسن وهي ثلاث وسبعون آية بلا خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَكِيلاً (٣) مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ
أَزْوَاجَكُمُ ٱللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ
أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي
ٱلسَّبِيلَ (٤) ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا
آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

فيمَا أخْطَأْتُم بِهِ ولٰكن مَا تعمَّدَتْ قُلُوبُكُم وكَانَ ٱللهُ غفُوراً رَحِيماً ﴾ (٥) خمس آيات .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ، ونافع وأبو جعفر ﴿ اللاء ﴾ بهمزة ليس بعدها ياء ، إلا أن ابا عمرو لين الهمزة . وقرأ ابن عامر واهل الكوفة بهمزة بعدها ياء ، وقرأ ﴿ تظهرون ﴾ بفتح التاء مشددة الظاء بغير ألف ـ ابن كثير ونافع وابو عمرو ـ وقرأ عاصم إلا الكسائي عنه ﴿ تظاهرون ﴾ بضم التاء خفيفة الظاء والف بعدها . وقرأ ابن عامر بتشديد الظاء والألف وفتح التاء . فمن قرأ ﴿ تظاهرون ﴾ بتشديد الظاء اراد تتظاهرون ، فأدغم احدى التاءين في الظاء . ومن قرأ بغير الف مشدداً اراد تتظهرون ، وادغم احدى التاءين في الظاء . وعاصم جعل الفعل بين اثنين . فقال ﴿ تظاهرون ﴾ بضم التاء وتخفيف الظاء مع الالف . وقرأ ابو عمرو ﴿ بما يعملون خبيراً ﴾ و ﴿ بما يعملون بصيراً ﴾ بالياء فيهما . الباقون بالتاء . وجه قراءة أبي عمرو قوله « ولا تطع الكافرين والمنافقين » بأن الله يعلم ما يفعلونه ، فيجازيهم بحسبه . ووجه التاء الخطاب لهم .

هذا خطاب من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله والمراد به جميع الأمة كما قال « يا أيها النبي إذا طلقتم » (١) فخصه بالخطاب ، وأراد به جميع المكلفين ، يأمرهم الله بتقواه ، وتجنب معاصيه ، وفعل طاعاته ، فنهاهم عن طاعة الكافرين الذين يجحدون نعم الله ويتخذون معه إلهاً سواه ، ومثل ذلك نهاه عن طاعة المنافقين ومتابعتهم لما يريدونه .

وسبب نزول الآية أن أبا سفيان وجماعة من الكفار قدموا على النبي صلى الله عليه وآله

(١) سورة ٦٥ الطلاق آية ١

المدينة ، ودعوه الى اشياء عرضوها عليه ، فأراد المسلمون قتلهم . فأنزل الله سبحانه « يا أيها النبي اتق الله » في نقض العهد ، وقتل هؤلاء الكفار « ولا تطع الكافرين » في ما يدعونك اليه ولا « المنافقين » في قتلهم ونقض العهد . والمنافق هو الذي يظهر الايمان ويبطن الكفر ، والكافر هو الذي يظهر الكفر ويبطنه .

ثم قال « إن الله كان عليماً حكيماً » في ما يوحيه اليك من أمرهم ويامرك بالطاعة وترك المعصية في متابعتهم في ما يريدونه ولما نهاهم عن متابعة الكفار والمنافقين قال « واتبع ما يوحى اليك من ربك » امره ان يتبع الذي يوحي الله اليه من أمره ونهيه ، فعلى موجب هذه الآية لايجوز لأحد أن يطيع الكفار والمنافقين، وإن دعوهم الى الحق ، ولكن يفعل الحق ، لأنه حق لالأجل دعائهم اليه « إن الله كان بما تعملون خبيراً » تهديداً لهم ، لأن المراد أنه لايخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسبها إن كان سوءاً عاقبكم، وإن كان طاعة أثابكم عليها . ومن قرأ - بالياء - أراد الاخبار عن الكفار والخطاب متوجه الى النبي صلى الله عليه وآله . ومن قرأ - بالتاء - خاطب الجميع . ثم أمر النبي صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلفين فقال « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » أمرهم ان يتوكلوا على الله ويفوضوا أمورهم اليه ، فان الله تعالى كاف في ما يوكل اليه . و (الوكيل) القائم بالتدبير لغيره بدعاء من له ذلك اليه ، فالحكمة تدعو الى أن الله تعالى القائم بتدبير عباده ، فهو وكيل عليهم من أوكد الوجوه .

ثم قال تعالى « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » قال ابن عباس : كان المنافقون يقولون : لمحمد قلبان ، فاكذبهم الله . وقال مجاهد وقتادة ، وهو

في رواية عن ابن عباس : أنه كان رجل من قريش يدعى ذا القلبين من دهائه وهوأبو معمر جميل بن اسد ، فنزلت هذه الآية فيه . وقال الحسن : كان رجل يقول : لي نفس تأمرني ونفس تنهاني ، فأنزل الله فيه هذه الآية . وقال الزهري: هو مثل في ان هذا ممتنع كامتناع أن يكون ابن غيرك ابنك . وروي عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: ما جعل الله لرجل من قبلين في جوفه يحب بهذا قوماً ويحب بهذا اعداءهم . ولا يمكن أن يكون لانسان واحد قلبان في جوفه ، لأنه كان يمكن أن يوصل إنسانان فيجعلان إنساناً واحداً ، وقد يمكن أن يوصلا بما لا يخرجهما عن أن يكونا انسانين ، وليس ذلك إلا من جهة القلب الواحد أو القلبين ، لانه إذا جعل لهما قلبان يريد أحدهما بقلبه ما لا يريده الآخر ويشتهي مالا يشتهي الآخر ، ويعلم مالا يعلم الآخر فهما حيان لامحالة ، وليسا حياً واحداً. وقال الرماني : لا يجوز أن توجد الارادة والمعرفة في جزئين من القلب او أجزاء وانما يصح أن توجد في جزء واحد ، قال : لان ما يوجد في جزئين بمنزلة ما يوجد في قلبين ، وقد بطل أن يكون لانسان واحد قلبان . وهذا الذي ذكره ليس بصحيح ، لأنه لا يمتنع أن يوجد معنيان مختلفان في جزئين من القلب ، لانهما وإن وجدا في جزئين فالحالان الصادران عنهما يرجعان الى الجملة وهي جملة واحدة وليسا يوجبان الصفة للمحل الواحد فيتنافى ، فعلى هذا لايجوز أن يوجد في جزئين من القلب معنيان ضدان، لاستحالة اجتماع معناهما في الحي الواحد ، ويجوز أن يوجد معنيان مختلفان او مثلان في جزئين من القلب ويوجبان الصفتين للحي الواحد ، وعلى هذا القياس ليس يمتنع ان يوجد قلبان في جوف واحد إذا كان ما يوجد فيهما يرجع الى حي واحد ، وانما المتنافي أن يرجع ما يوجد منهما الى حيين ، وذلك محال .

وقوله « وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم » أي ليس نساؤكم وأزواجكم إذا قلتم لهن أنتن علي كظهر أمي يصرن أمهاتكم على الحقيقة لان أمهاتكم على الحقيقة هن اللائي ولدنكم وأرضعنكم. وقال قتادة: إذا قال لزوجته أنت علي كظهر أمي، فهو مظاهر، وعليه الكفارة. وعندنا إن الظهار لا يقع إلا ان تكون المرأة طاهراً، ولم يقربها في ذلك الطهر بجماع، ويحضر شاهدان رجلان مسلمان، ثم يقول لها أنت علي كظهر أمي، ويقصد التحريم. فاذا قال ذلك حرم عليها وحرمت عليه أن يطأها حتى يكفر. وإن اختل شيء من شرائطه، فلا يقع ظهار أصلاً.

وقوله « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » قال قتادة ومجاهد وابن زيد: نزلت في زيد بن حارثة، فانه كان يدعى ابن رسول الله، والادعياء جمع دعي، وهو الذي تبناه الانسان. وبين الله تعالى أن ذلك ليس بابن على الحقيقة، ولذلك قال في آية أخرى « ما كان محمد أبا احد من رجالكم » (١) وقوله « ذلكم قولكم بأفوهكم » يعني أن قولكم في الدعي أنه ابن الرجل قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له عند الله. ثم قال « والله يقول الحق » في ما يبينه « وهو يهدي السبيل » يعني طريق الحق الذي يفضي بكم الى الثواب. ثم أمر المكلفين بأن يدعوا الادعياء « لآبائهم » الذين ولدوهم وينسبونهم اليهم أو الى من ولدوا على فراشهم « اقسط » أي، فان ذلك اعدل عند الله، واقسط بمعنى أعدل « فان لم تعلموا آباءهم » ولا تعرفوهم باعيانهم فهم « اخوانكم في الدين » أي في الملة فادعوهم بذلك « ومواليكم » أي بنوعمكم او لكم ولاءهم إذا كنتم اعتقتموهم من رق. ثم قال « وليس عليكم جناح » اي حرج « في ما اخطأتم به » فنسبتموه

---

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٤٠

الى من انتمي اليه وإن الله لا يؤاخذكم به « ولكن ما تعمدت قلوبكم » فقصدتموه من ذلك وارد تموه هو الذي تؤاخذون به ، وموضع (ما) جر ، تقديره ولكن في ما تعمدت قلوبكم « وكان الله غفوراً رحيماً » يغفر لكم مالم تتعمدوا من ذلك ، ويستره عليكم ويرحمكم بترك مؤاخذتكم به .

قوله تعالى:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (١٠) خمس آيات .

قرأ بن كثير والكسائي وحفص عن عاصم « الظنونا » بألف في الوقف دون الوصل . وقرأ نافع وابو جعفر وابو بكر عن عاصم وابن عامر ـ بالالف ـ فيهما وقرأ ابو عمرو ويعقوب وحمزة ـ بغير الف ـ فيهما وفي المصحف بألف . من أثبت الالف أثبته لأجل الفواصل التي يطلب بها تشاكل المقاطع ، ولأن الألف ثابتة في المصاحف ، فاتبعوا المصحف ، ومن حذف قال : لأن هذا الألف يكون بدلا من التنوين في حال الوقف ، فاذا دخلت الألف واللام اسقطت التنوين ، فسقط ايضاً ما هو بدل منه ، ولأن مثل ذلك إنما يجوز في القوافي وذلك لا يليق بالقرآن ، قال الشاعر :

اقلي اللوم عاذل والعتابا [وقولي ان اصبت لقد اصابا] (١)

اخبر الله تعالى ان « النبي » صلى الله عليه وآله « اولى بالمؤمنين من انفسهم » بمعنى احق بتدبيرهم ، وبأن يختاروا ما دعاهم اليه . واحق بأن يحكم فيهم بما لا يحكم به الواحد في نفسه لوجوب طاعته التي هي مقرونة بطاعة الله ، وهو اولى في ذلك واحق من نفس الانسان ، لأنها ربما دعته الى اتباع الهوى ، ولأن النبي صلى الله عليه وآله لا يدعو إلا الى طاعة الله ، وطاعة الله اولى ان تختار على طاعة غيره . وواحد الأنفس نفس ، وهي خاصة الحيوان الحساسة المدركة التي هي أنفس ما فيه . ويحتمل ان يكون اشتقاقه من التنفس ، وهو التروح ، لان من شأنها التنفس به ، ويحتمل ان يكون مأخوذاً من النفاسة ، لأنها اجل ما فيه واكرمه . ثم قال « وأزواجه امهاتكم » والمعنى أنهن كالامهات في الحرمة ، وتحريم العقد عليهن . ثم قال « وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » أولوا الارحام هم أولوا الأنساب . لما ذكر الله أن ازواج النبي أمهاتهم

(١) قائله جرير ديوانه ٥٨ وسيبويه ٢ / ٢٨ ، ٢٩٩

في الحكم من جهة عظم الحرمة ، قال « وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض » أي إلا ما بين الله في كتابه مما لا يجوز لازواج النبي صلى الله عليه وآله أن يدعين أمهات المؤمنين . وقال قتادة : كان الناس يتوارثون بالهجرة . فلا يرث الاعرابي المسلم المهاجر حتى نزلت الآية . وقيل : إنهم كانوا يتوارثون بالمؤاخاة الاولى . ثم نسخ ذلك ، فبين الله تعالى أن « أولى الارحام بعضهم اولي ببعض » أي من كان قرباه أقرب فهو أحق بالميراث من الأبعد ، وظاهر ذلك يمنع أن يرث مع البنت والام احد من الأخوة والاخوات ، لأن البنت والأم اقرب من الأخوة والاخوات ، وكذلك يمنع أن يرث مع الاخت أحد من العمومة والعمات وأولادهم ، لأنها اقرب . والخبر المروي في هذا الباب أن (ما أبقت الفرائض فلأولي عصبة ذكر) خبر واحد مطعون على سنده ، لا يترك لأجله ظاهر القرآن الذي بين فيه ان أولي الارحام الأقرب منهم اولى من الابعد « في كتاب الله من المؤمنين » المؤاخين والمهاجرين .

وقوله « إلا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفاً » استثناء منقطع ، ومعناه لكن إن فعلتم الى أوليائكم معروفاً من المؤمنين وحلفائكم ما يعرف حسنه وصوابه فهو حسن ، ولا يكون على وجه نهى الله تعالى عنه ، ولا أذن فيه . وقال مجاهد معروفاً من الوصية لهم بشيء ، والعقل عنهم والنصرة لهم ، ولا يجوز أن يكونوا القرابة المشركين على ما قال بعضهم ، لقوله « لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء » (١) وقد أجاز كثير من الفقهاء الوصية للقرابات الكفار . وعندنا ان ذلك جائز للوالدين والولد.

وقوله «كان ذلك في الكتاب مسطوراً» يعني أن ما ذكره الله كان مكتوباً

(١) سورة ٦٠ الممتحنة آية ١

في الكتاب المحفوظ اثبته الله وأطلع عليه ملائكته لما لهم في ذلك من اللطف فلا يجوز خلاف ذلك ، وقيل: مسطوراً في القرآن . و (من) يحتمل أمرين :

احدها ـ أن يكون دخلت لـ (أولى) أي بعضكم اولى ببعض من المؤمنين

والثاني ـ أن يكون التقدير ، وأولوا الأرحام من المؤمنين والمهاجرين أولى بالميراث .

وقوله « وإذ اخذنا من النبيين » تقديره واذكر يا محمد حين اخذ الله من النبيين ميثاقهم ، قال ابن عباس : الميثاق العهد والميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى على الوفاء بما حملوا . وقوله « ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم واخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » يعني ما عهد الله تعالى الى الانبياء المذكورين وأمرهم به من اخلاص العبادة له ، وخلع الانداد من دونه. والعمل بما أوجبه عليهم وندبهم اليه ، ونهاهم عن معاصيه ، والاخلال بواجباته . وقال البلخي : معناه ما أمرهم الله به من أداء الرسالة والقيام بها .

وقوله « ليسأل الصادقين عن صدقهم » قال مجاهد : معناه فعل ذلك ليسأل الأنبياء المرسلين ما الذي أجاب به اممكم ، ويجوز ان يحمل على عمومه في كل صادق ، ويكون فيه تهديد للكاذب ، فان الصادق إذا سئل عن صدقه على اي وجه قال فيجازي بحسبه ، فكيف يكون صورة الكاذب .

ثم قال « واعد للكافرين عذاباً اليماً » أي اعدلهم عذاباً مؤلماً ، وهو عذاب النار ـ نعوذ بالله منها .

ثم خاطب المؤمنين فقال « يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود » أي في حال ما جاءتكم جنود يعني يوم الاحزاب ، وهو يوم الخندق حيث اجتمعت العرب على قتال النبي صلى الله عليه وآله قريش وغطفان وبنو قريظة

وتضافروا على ذلك « فارسلنا عليهم » اي فارسل الله تعالى عليهم نصرة لنبيه و نعمة على المؤمنين « ريحاً » استقبلتهم ورمت في اعينهم الحصباء واكفئت قدورهم واطفئت نيرانهم، وقلعت بيوتهم واطنابهم وارسل الله عليهم «جنوداً» من الملائكة نصرة للمؤمنين ، روى ذلك يزيد بن رومان « لم تروها » اي لم تروا الملائكة أنتم بأعينكم ، لانها اجسام شفافة لايصح إدراكها « وكان الله بما تعملون بصيراً » من قرء بالياء اراد ان الله عالم بما يعمله الكفار . ومن قرأ بالتاء وجه الخطاب الى المؤمنين .

ثم قال واذكر « إذ جاؤكم » يعني جنود المشركين ﴿ من فوقكم ﴾ وهم عيينة بن حصين بن بدر في اهل نجد ﴿ ومن اسفل منكم ﴾ وهم ابو سفيان في قريش وواجهتهم قريظة ، وهو قول مجاهد : ﴿ وإذ زاغت الأبصار ﴾ أي اذكر إذ عدلت الابصار عن مقرها . قال قتادة معناه : شخصت من الخوف ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ أي نأت عن أماكنها من الخوف . وقيل : قال المسلمون : يا رسول الله بلغت القلوب الحناجر فهل من شيء نقوله قال : نعم قولوا (اللهم استرعورتنا وأمن روعتنا) فضرب الله وجوه أعدائه بريح الصبا ، فهزمهم الله بها ، والحناجر جمع حنجرة ، وهي الحلق . قيل : لأن الرئة عند الخوف تصعد حتى تلحق بالحلق ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ قال الحسن : كانت الظنون مختلفة ، فظن المنافقون انه يستأصل ، وظن المؤمنون انه سينصر . وقيل : كانت الريح شديدة البرد تمنع المشركين من الحرب وكانت الملائكة تفقد بعضهم عن بعض .

قوله تعالى:

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً﴾ (١٥) خمس آيات.

قرأ حفص عن عاصم ﴿لا مقام﴾ بضم الميم اى لا إقامة لكم. الباقون ـ بفتح الميم ـ يعني لا موضع لكم تقومون فيه. وقرأ ابن كثير ونافع وابو جعفر وابن عامر ﴿لأتوها﴾ قصراً بمعنى لجاؤها. الباقون بالمد، يعني لأعطوها. وقالوا: هو أليق بقوله «ثم سئلوا الفتنة» لان الاعطاء يطابق سؤال السائل.

لما وصف الله تعالى شدة الأمر يوم الخندق، وخوف الناس وأن القلوب بلغت الحناجر من الرعب. قال ﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾ أي اختبروا ليظهر بذلك حسن نياتهم وصبرهم على ما أمرهم الله به من جهاد اعدائه و (هنا) للقريب

من المكان و (هنالك) للبعيد منه ، و (هناك) المتوسط بين القريب والبعيد وسبيله سبيل (ذا ، وذاك وذلك) .

والابتلاء إظهار ما في النفس من خير او شر ، ومثله الاختبار والامتحان والبلاء النعمة ، لاظهار الخير على صاحبه ، والبلاء النقمة لاظهار الشر عليه .

وقوله ﴿ وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ معناه وحركوا بهذا الامتحان تحريكا عظيماً ، فالزلزال الاضطراب العظيم ومنه قوله «إذا زلزلت الارض زلزالها» والزلزلة اضطراب الأرض . وقيل : انه مضاعف زل ، وزلزله غيره . والشدة قوة تدرك بالحاسة ، لأن القوة التي هي القدرة لا تدرك بالحاسة ، وانما تعلم بالدلالة ، فلذلك يوصف تعالى بأنه قوي ، ولا يوصف بأنه شديد .

ثم قال واذكر يا محمد ﴿ إذ يقول المنافقون ﴾ الذين باطنهم الكفر وظاهرهم الايمان ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك من الايمان بالله ورسوله ﴿ ماوعدنا الله ورسوله ﴾ اي لم يعدنا الله ورسوله من الظفر والظهور على الدين ﴿ إلا غروراً ﴾ وقيل : ان النبي ﷺ بشرهم بأنه يفتح عليهم مدائن كسرى وبلاد قيصر وغير ذلك من الفتوح ، فقالوا : يعدنا بهذا ، والواحد منا لا يقدر على ان يخرج ليقضي حاجة ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ غرانا به ، فالغرور ايهام المحبوب بالمكر ، يقال : غره يغره غروراً ، فهو غار ، والغرور الشيطان قال الحارث بن حلزة :

لم يغروكم غروراً ولكن ... يرفع الآل جمعهم والضحاء

وقال يزيد بن رومان : الذي قال هذا القول معتب بن قشيرة . وقال العتابي : ليس عاقل يقول : إن الله وعده غروراً ، لكنهم لما كذبوا رسوله وشكوا في خبره ، فكانهم كذبوا الله ، وإذا نسبوا الرسول بأنه غرهم ، فقد نسبوا الله الى

ذلك في المعنى ، وإن لم يصرحوا به .

ثم قال واذكر يا محمد ﴿ اذ قالت طائفة منهم ﴾ يعني من المنافقين ﴿ يا اهل يثرب ﴾ أي يا اهل المدينة . قيل : ان يثرب اسم ارض المدينة . وقال ابو عبيدة : إن مدينة الرسول في ناحية من يثرب . وقيل: يثرب هي المدينة نفسها ﴿ لا مقام لكم ﴾ أي ليس لكم مكان تقومون فيه للقتال . ومن ضم أراد : لا إقامة لكم ـ ذكره الاخفش ـ وقال يزيد بن رومان : القائل لذلك أوس بن قبطي . ومن وافقه على رأيه ﴿ فارجعوا ﴾ اي امرهم بالرجوع الى منازلهم . وحكي ان جماعة منهم جاؤا الى النبي ﷺ فاستأذنوه للرجوع . وقالوا ﴿إن بيوتنا عورة﴾ أي هي مكشوفة نخشى عليها السرق ـ ذكره ابن عباس ومجاهد ـ فكذبهم الله تعالى في قوله ﴿وماهي بعورة...﴾ وليس يريدون بهذا القول إلا الفرار ، والهرب من القتال .

ثم قال ﴿ ولو دخلت عليهم من اقطارها ﴾ اي من نواحيها يعني المدينة او البيوت ، فهو جمع قطر ، وهو الناحية ﴿ ثم سئلوا الفتنة ﴾ يعني الكفر والضلال وقيل : انهم لو دعوا إلى القتال على وجه الحمية والعصبية لجاؤا إليها ـ على قراءة من قصر ـ ومن مد اراد لأعطوا ما سئلوا إعطاءه من ذلك ﴿ وما تلبثوا بها إلا يسيراً ﴾ قال الفراء : وما تلبثوا بالمدينة إلا قليلا حتى يهلكوا . وقال قتادة : معناه وما احتبسوا عن الاجابة الى الكفر إلا قليلا .

ثم قال ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل ﴾ يعني عندما بايعوا النبي ﷺ وحلفوا له انهم ينصرونه ويدفعون عنه ، كما يدفعون عن نفوسهم ، وانهم ﴿لا يولون الادبار ﴾ اي لا يفرون من الزحف ﴿ وكان عهد الله مسئولا ﴾ يعني العهد الذي عاهدوا الله عليه ، وحلفوا له به يسألهم عن الوفاء به يوم القيامة .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَ تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٢٠)

خمس آيات .

لما أخبر الله تعالى عن المنافقين الذين استأذنوا النبي ﷺ في الرجوع واعتلوا بأن بيوتهم يخاف عليها ، وكذبهم الله في ذلك ، وبين أنهم يريدون

الهرب ، قال لنبيه ﷺ ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ ان ينفعكم الفرار إن فررتم ﴾ يعني الهرب إن هربتم ﴿ من الموت أو القتل ﴾ فانه لابد من واحد منهما ، وإن هربتم وبقيتم بعده فلا تبقون ﴿ ولا تتمتعون إلا قليلا ﴾ من الزمان . ثم لابد من الموت . والفرار الذهاب عن الشيء خوفاً منه ، ومثله الهرب ، فرّ يفر فراراً وأفتر إذا باعد بين شفتيه كتبا عده الفارّ ، وانما فرق الله بين الموت والقتل لأن القتل غير الموت ، فالقتل نقض بينة الحي ، والموت ضد الحياة عند من أثبته معنى . والقتل يقدر عليه غير الله ، وانما رفع بعد (اذن) لوقوع (اذن) بين الواو والفعل ، فصارت بمنزلة ما لم يقع بعده الفعل ، كقولك أنا آتيك اذن لانه مما يجوز فيه الالغاء بأنه يصح الاستدراك ، كالاستدراك بالظن ، وقد اعملت بعد (ان) في قوله :

لا تتركني فيهم شطيراً إني اذن أهلك او اطيرا (١)

ثم قال لنبيه ﷺ قل لهم يا محمد من الذي يمنعكم من الله ان اراد أن يفعل بكم سوءاً يعني عذاباً أو اراد بكم رحمة ، فان احداً لا يقدر على منعه مما يريد الله فعله به ﴿ ولا يجدون ﴾ هؤلاء ﴿ لهم من دون الله وليا ﴾ ينصرهم ﴿ ولا نصيراً ﴾ يدفع عنهم ، ثم قال تعالى ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ يعني الذين يعوقون غيرهم عن القتال ويثبطونهم عنه ، فالتعويق التثبيط والشغل للقعود عن أمر من الأمور ، فكأن هؤلاء يدعون اخوانهم من المنافقين الى القعود عن الجهاد ويشغلونهم لينصرفوا عنه ﴿ والقائلين لاخوانهم هلموا الينا ﴾ أي يعلم القائلين لهم تعالوا ﴿ ولا يأتون البأس ﴾ يعني الحرب ﴿ إلا قليلا ﴾ أي ان يكلفوا الحضور الى القتال فلا يحضرون إلا قدر ما يوهمون أنهم معكم ، ولا يقاتلون

(١) قائله نهشل بن حرى ، اللسان (شطر)

معكم ، فهو تعالى عالم بأحوال هؤلاء ، لا يخفى عليه شيء منها .

ثم قال « اشحة عليكم » بالغنيمة والنفقة في سبيل الله - في قول قتادة ومجاهد - ونصبه على تقدير يأتونه أشحة وإن شئت على الذم . وقال ابن اسحاق « اشحة عليكم » بالضغن الذي في أنفسهم ، فهو نصب على الحال - في قول الزجاج - وفي قول غيره على المصدر ، وتقديره يشحون عليكم اشحة « فاذا جاء الخوف » يعني الفزع « رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت » يعني من شدة ما يخافون يلحقهم مثل ما يلحق من شارف الموت وأحواله ، ويغشى عليه « فاذا ذهب الخوف » والفزع « سلقوكم بالسنة حداد » أي خصموكم طلباً للغنيمة أشد مخاصمة . وقال الحسن : سلقوكم حاوروكم يقال : خطيب مصقع ومسلق أي بليغ في الخطابة فصيح فيها « أشحة على الخير » يعني الغنيمة . ثم قال « أولئك » يعني من تقدم وصفه « لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم » يعني نفع أعمالهم على وجوه لا يستحق عليها الثواب . لانهم لا يقصدون بها وجه الله . ثم قال « وكان ذلك » يعني احباط اعمالهم . وقيل: وكان نفاقهم « على الله يسيراً » قليلا . ثم وصف هؤلاء المنافقين الذين تقدم ذكرهم بالجبن ، فقال « يحسبون الأحزاب » الذين انهزموا ورجعوا من شدة فزعهم انهم « لم يذهبوا » بعد . وقيل : لفرط جهلهم يعتقدون انهم لم يذهبوا بعد « وإن يأت الأحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب » أي وإن جاؤا الاحزاب تمنوا أن يكونوا في البوادي مع الاعراب « يسألون عن انبائكم » أي أخباركم ولا يكونون معكم فيتربصون بكم الدوائر ويتوقعون الهلاك . ثم قال لنبيه « ولو كانوا » يعني هؤلاء المنافقون معكم « وفيكم ما قاتلوا إلا قليلا » أي قدراً يسيراً ليوهموا أنهم في جملتكم ، لا لينصروكم ويجاهدوا معكم . وقال

عاصم الجحدري : يساءلون عن انبائكم بتشديد السين بمعنى يتساءلون ، فيسأل بعضهم بعضاً ، وهو شاذ لا يقرأ به . وقرأ طلحة بن مصرف « يودوا لو انهم بدى في الاعراب » جمع باد ، مثل غاز وغزى ، وهي أيضاً شاذة لا يقرء بها .

و (هلم) بمعنى أقبل واهل الحجاز يقولون للواحد والاثنين والجمع والانثى (هلم) بلفظ واحد ، وانما هي (لم) ضمت اليها (ها) التي للتنبيه ، ثم حذفت الألف من (ها) إذ صارا شيئاً واحداً ، كقولهم (ويلمه) واصله (ويل أمه) فلما جعلوهما شيئاً واحداً حذفوا ، وغيروا . وأما بنوا تميم فيصرفونه تصريف الفعل ، فيقولون : هلم يا رجل وهلما يا رجلان ، وهلموا يارجال وهلمي يا امرأة وهلميا يا امرأتان ، وهلممن يا نساء ، إلا انهم يفتحون آخر الواحد البتة ، فيقولون : هلم يا رجل وهلم يا مرأة .

قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللهَ كَثِيراً (٢١) وَلَمَّا رَأَى ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً (٢٢) مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ ٱللهُ ٱلصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٤)

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ (٢٥) خمس آيات .

قرأ عاصم «أسوة» ـ بضم الهمزة ـ الباقون بكسرها ، وهما لغتان . والكسر اكثر . ومثله (كسوة ، وكسوة ، ورشوة ورشوة) .

هذا خطاب من الله تعالى للمكلفين ، يقول لهم : ان لكم معاشر المكلفين « في رسول الله اسوة حسنة » أي اقتداء حسن ، في جميع ما يقوله ويفعله متى فعلتم مثله كان ذلك حسناً ، والمراد بذلك الحث على الجهاد والصبر عليه في حروبه ، والتسلية لهم في ما ينالهم من المصائب ، فان النبي صلى الله عليه وآله شج رأسه وكسرت رباعيته في يوم احد وقتل عمه حمزة . فالتأسي به في الصبر على جميع ذلك من الاسوة الحسنة . وذلك يدل على ان الاقتداء بجميع افعال النبي صلى الله عليه وآله حسن جائز إلا ما قام الدليل على خلافه ، ولا يدل على وجوب الاقتداء به في افعاله . وإنما يعلم ذلك بدليل آخر . فالاسوة حال لصاحبها يقتدي بها غيره في ما يقول به ، فالاسوة تكون في إنسان وهي اسوة لغيره ، فمن تأسى بالحسن ففعله حسن « لمن كان يرجو الله » فالرجاء توقع الخير ، فرجاء الله توقع الخير من قبله ومثل الرجاء الطمع والامل ، ومتى طمع الانسان في الخير من قبل الله ، فيكون راجياً له .

وقوله « وذكر الله كثيراً » معناه يذكره تعالى بجميع صفاته ، ويدعوه بها فيستحق بذلك الثواب من جهته .

ثم قال وقد عاد تعالى الى ذكر المؤمنين وانهم حين عاينوا الأحزاب التي اجتمعت على قتال النبي صلى الله عليه وآله وتظافروا عليه ، وهم ابو سفيان ومن معه من

المشركين « قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله » من الجهاد في سبيله « وصدق الله ورسوله » في ما اخبرا به ، لأن النبي صلى الله عليه وآله كان اخبرهم انه يتظاهر عليكم الأحزاب ، ويقاتلونكم فلما رآهم المؤمنون تبينوا صدق قوله وكان ذلك معجزاً له « وما زادهم » مشاهدة عدوهم « إلا إيماناً » وتصديقاً بالله ورسوله « وتسليماً » لأمره . ثم بين ان « من المؤمنين رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه » من مجاهدة عدوه ، وألا يولوا الأدبار . وقيل : ذلك يوم تأخروا عن بدر ، ثم عاهدوا ألا يفارقوا النبي صلى الله عليه وآله في غزواته . وقوله « فمنهم من قضى نحبه » أي منهم من صبر حتى قتل في سبيل الله ، وخرج الى ثواب ربه « ومنهم من ينتظر » ذلك « وما بدلوا تبديلا » أي لم يبدلوا الايمان بالنفاق ولا العهد بالحنث . وروي أن الآية نزلت في حمزة بن عبد المطلب ، وجعفر بن أبي طالب ، وعلي بن أبي طالب عليه السلام فالذي قضى نحبه حمزة ، وجعفر والذي ينتظر علي عليه السلام ثم بين تعالى انه يجزي الصادقين على صدقهم في تنزيله فوعدهم بالثواب الدائم والنعيم المقيم. وقوله « ويعذب المنافقين إن شاء » لا يدل على أن ما يجب غفرانه من الكبائر عند التوبة يجوز تعليقه بالمشيئة ، لأن على مذهبنا إنما جاز ذلك، لأنه لا يجب اسقاط العقاب بالتوبة عقلا ، وإنما جاز ذلك وعلمناه بالسمع وإن الله يتفضل بذلك . وقوله « او يتوب عليهم » معناه إن شاء قبل توبتهم وأسقط عقابهم إذا تابوا ، وإن شاء لم يقبل ذلك . وذلك اخبار عن مقتضى العقل . وأما مع ورود السمع وهو قوله « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » (١) فنقطع على انه تعالى يغفر مع حصول التوبة .

---

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٢٥

وقوله « إن الله كان غفوراً رحيماً » يؤكد ذلك لأنه انما يكون فيه مدح إذا غفر ماله المؤاخذة به ، ويرحم من يستحق العقاب . وأما من يجب غفران ذنبه ويجب رحمته ، فلا مدح في ذلك . وقال قوم : معناه « ويعذب المنافقين إن شاء » بعذاب عاجل في الدنيا أو يتوبوا ، قالوا : وإنما علق بالشرط في قوله « إن شاء او يتوب عليهم » لأنه علم أن من المنافقين من يتوب ، فقيد الكلام ليصح المعنى - ذكره الجبائي - وقيل : إن الذي وعد الله المؤمنين في الأحزاب هو أنه وعدهم إذا القوا المشركين ظفروا بهم واستعلوا عليهم في نحو قوله « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (١) مع فرض الجهاد . وقيل : إن الذي وعدهم الله به في قوله «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب » (٢) - ذكره قتادة - و (النحب) النذر أي قضى نذره الذي كان نذره في ما عاهد الله عليه . وقال مجاهد : قضى نحبه أي عهده .. وقيل : ان المؤمنين كانوا نذروا إذا لقوا حزباً مع رسول الله أن يثبتوا ولا ينهزموا ، وقال الحسن : قضى نحبه أي مات على ما عاهد عليه ، والنحب الموت كقول ذي الرمة :

قضى نحبه في ملتقى الخيل هوبر (٣)

أي منيته . وهوبر اسم رجل والنحب الخطر العظيم قال جرير :

بطخفة جالدنا الملوك وخيلنـا ... عشية بسطام جرين على نحب (٤)

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣٤ وسورة ٦١ الصف آية ٩

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢١٤ (٣) مجاز القرآن ٢ / ١٣٦ الشاهد (٧١٨)

(٤) ديوانه ٥٤ ومجاز القرآن ٢ / ١٣٥

أي على خطر والنحب المد في السير يوماً وليلة ، قال الفرزدق .

وإذ نحبت كلب على الناس أنهم　　أحق نتاج الماجد المتكرم (١)

ثم اخبر تعالى أنه ردّ المشركين من الأحزاب عن قتال النبي ﷺ بغيظهم الذي جاؤا به وخيبهم لم ينالوا خيراً أملوه من الظفر بالنبي ﷺ وبالمؤمنين « وكفى الله المؤمنين القتال » عند رجوعهم ، وقيل وكفى الله المؤمنين القتال بالريح والملائكة . وقيل : وكفى الله المؤمنين القتال بعلي عليه السلام وهي قراءة ابن مسعود ، وكذلك هو في مصحفه ، في قتله عمرو بن عبد ودّ ، وكان ذلك سبب هزيمة القوم. « وكان الله قوياً عزيزاً » أي قادراً لا يغالب ، وعزيزاً لا يقهر ، لانه قوي في سعة مقدوره ، عزيز في انتقامه .

قوله تعالى:

﴿ وَأَنْزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُهَا وَكَانَ ٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢٧) يَاأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللهَ أَعَدَّ

(١) ديوانه ٢ / ٧٥٩ وتفسير القرطبي ١٤ / ١٥٨ ومجاز القرآن ٢ / ١٣٦

لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (٢٩) يَا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيراً ﴾ (٣٠) خمس آيات .

قرأ ابن كثير ، وابن عامر « نضعف » بالنون وتشديد العين « العذاب » نصباً ، أسند الفعل الى الله تعالى . وقرأ ابو عمرو « يضعف » بالياء وتشديد العين بلا ألف على مالم يسم فاعله . الباقون ﴿يضاعف﴾ بالياء والألف .

والذي عليه أكثر المفسرين إن المعني بقوله « وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب » هم بنو قريظة من اليهود ، وكانوا نقضوا العهد بينهم و بين النبي صلى الله عليه وآله وعاونوا أبا سفيان ، فلما هزم الأحزاب أمر النبي صلى الله عليه وآله مناديه بأن ينادي لا يصلين أحد العصر إلا ببني قريظة ، لأن جبرائيل عليه السلام نزل عليه وقال إن الملائكة لم تضع أسلحتها بعد ، ففيهم من لحق ذلك بعد وصلى العصر في الوقت ، وفيهم من صلاها قبل ذلك . وكل صوبه رسول الله . ثم حكم سعد ابن معاذ فيهم رضوا بحكمه ، فحكم سعد أن تقتل الرجال ، وتسبى الذراري والنساء وتقسم الأموال وتكون الارض للمهاجرين دون الأنصار ، فقيل له في ذلك فقال لكم دار ، وليس للمهاجرين دار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله حكم فيهم بحكم الله تعالى . وفي بعض الأخبار لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ، وهو جمع رقيع اسم من اسماء سماء الدنيا . وقال الحسن : الآية نزلت في بني النضير والاول أصح وأليق بسياق الآيات ، لان بني النضير لم يكن لهم في قتال الأحزاب شيء ، وكانوا قد انجلوا قبل ذلك .

والمظاهرة المعاونة ، وهي زيادة القوة بأن يكون المعاون ظهراً لصاحبه في الدفع عنه ، والظهر المعين . وفي قراءة ابن مسعود آزروهم ، ومعناه عاونوهم . والصياصي الحصون التي يمتنع بها واحدها صيصية . ويقال جذ الله صيصية فلان أي حصنه الذي يمتنع به. والصيصية قرن البقرة وشوكة الديك أيضاً ، وهي شوكة الحائك أيضاً ، قال الشاعر :

[ما راعني إلا الرماح تنوشه] كوقع الصياصي في النسيج الممدد (١)

وقوله « وقذف في قلوبهم الرعب » أي ألقى في قلوبهم يعني اليهود والمشركين خوفاً من النبي ﷺ « فريقاً تقتلون » منهم يعني الرجال « وتأسرون فريقاً » يعني النساء والذراري ثم قال « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم » يعني ديار بني قريظة وأرضهم وأموالهم . جعلها الله للمسلمين مع ذلك ونقلها اليهم « وأرضا لم تطؤها » معناه وأورثكم أرضاً لم تطؤها ، قال الحسن : هي أرض فارس والروم . وقال قتادة : هي مكة . وقال يزيد بن رومان وابن زيد : هي خيبر « وكان الله على كل قديراً » أي قادراً على توريثكم أرض هؤلاء وأموالهم ونصركم وغير ذلك . الى ههنا انتهت قصة الأحزاب .

ثم انتقل الى خطاب النبي ﷺ فقال له « يا ايها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا » قال الحسن لم يكن ذلك تخيير طلاق ، انما هو تخيير بين الدنيا والآخرة . وكان لنزول الآية سبب معروف من بعض أزواج النبي ﷺ فعاتبهن الله تعالى وخيرهن بين المقام مع النبي ﷺ واختيار ما عند الله من الثواب ونعيم الأبد

(١) تفسير القرطبي ١٤ / ١٦١ ومجاز القرآن ٢ / ١٦١ ويروى (فجئت اليه والرماح تنوشه)

ومن مفارقته بالطلاق وتعجيل المنافع يأخذونها ، وبين ذلك بقوله « وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فان الله اعد المحسنات منكن أجراً عظيما» وقيد ذلك بالمحسنات لعلمه أن فيهن من ربما ارتكبت ما يستحق به الخروج عن ولاية الله تعويلا على ما وعد الله تعالى به من النعيم ، فزجرهن بالتهديد المذكور في الآية .

وروي أن سبب نزول هذه الآية أن كل واحدة من نسائه طلبت شيئاً فسألت أم سلمة ستراً معلقاً وسألت ميمونة حلة وسألت زينب بنت جحش برداً يمانياً وسألت أم حبيبة ثوباً سحوانياً وسألت حفصة ثوباً من ثياب مصر وسألت جويرية معجراً وسألت سودة قطيفة خيبرية ، فلم يقدر على ذلك ، لان الله تعالى كان خيره بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختار الآخرة . وقال : (اللهم أحيني مسكيناً وامتني مسكيناً واحشرني مسكيناً في جملة المساكن) فحينئذ أمره الله تعالى بتخيير النساء ، فاخترن الله ورسوله فعوضهن الله عن ذلك أن جعلهن أمهات المؤمنين . وقيل : وأمر الله أن لا يطلقهن ولا يتزوج عليهن بقوله « لا يحل لك النساء من بعد » (١) ذكره ابن زيد .

ثم خاطب نساء النبي صلى الله عليه وآله فقال « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة يضاعف لها العذاب » من شدد أراد التكثير ، ومن أثبت الألف أراد من المضاعفة ، ومن قرأ بالنون أضاف الفعل الى الله ، لأن الفاعل لذلك هو الله وإنما جاز ان يضعف عقابهن بالمعصية لعظم قدرهن ، وأن معصيتهن تقع على وجه يستحق بها ضعف ما يستحق غيرهن ، كما أن طاعاتهن يستحق بها ضعف

(١) آية ٥٢ من هذه السورة

ما يستحق به غيرهن ، من حيث كن قدوة في الاعمال وأسوة في ذلك .

ثم اخبر تعالى أن تضعيف ذلك عليه يسير سهل . والضعف مثل الشيء الذي يضم اليه ، ضاعفته ازددت عليه مثله ، ومنه الضعف ، وهو نقصان القوة بأن يذهب احد ضعفيها ، فهو ذهاب ضعف القوة . قال أبو عبيدة : يضاعف لهاضعفين أي يجعل لها العذاب ثلاثة أعذبة لان ضعف الشيء مثله ، وضعفي الشيء مثلاه ومجاز يضاعف أن يجعل الى الشيء شيئان حتى يكون ثلاثة ، فأما من قرأ ﴿يضعف﴾ أراد أن يجعل الشيء شيئين ، وذكر بعضهم أن ذلك غلط على أبي عمرو في تشديد يضعف ، لأن ذلك نقل عنه على حكاية الفرق بين يضاعف ويضعف بالتشديد ، وليس بينهما فرق ، لان المضاعفة والتضعيف شيء واحد وإنما قرأ ابو عمرو ﴿ يضعف ﴾ بضم الياء وتسكين الضاد وتخفيف العين وفتحها والفرق يقع بين هذه وبين يضاعف لانك تقول لمن اعطاك درهماً فأعطيته مكانه درهمين : أضعفت لك العطية ، فان اعطيته مكان درهم خمسة او ستة قلت ضاعفت له العطية وضعفت بالتشديد أيضاً ، فلما رأى ابو عمرو أن من احسن من أزواج النبي أعطي اجرين علم آن من اذنب منهن عوقب عقوبتين ، فقرأ يضعف لها العذاب ضعفين .

وكان الحسن لا يرى التخيير شيئاً . وقال : إنما خيرن بين الدنيا والآخرة لا في الطلاق ، وكذلك عندنا ان الخيار ليس بشيء غير أن اصحابنا قالوا إنما كان ذلك لنبي الله خاصة ، ولما خيرهن لو اخترن انفسهن لبن ، فلما غيره فلا يجوز له ذلك . وقال قتادة : خيرهن الله تعالى بين الدنيا والآخرة في شيء كن أردن من الدنيا . وقال عكرمة : في غيرة كانت غارتها عائشة ، وكان تحته يومئذ تسع نسوة خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان

وأم سلمة بن ابي أميه ، وسودة بنت زمعة. وكان تحته صفيه بنت حي ابن خطب وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الاسدية ، وحويرية بنت الحارث من بني المصطلق ، فلما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، فرح بذلك رسول الله ﷺ .

قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ

وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (٣٥) خمس آيات ·

قرأ حمزة والكسائي « ومن يقنت منكن لله ورسوله ويعمل صالحاً » بالياء فيهما على اللفظ ، لأن لفظة (من) مذكر . الباقون « ومن يقنت » ـ بالياء ـ حملا على اللفظ « وتعمل » بالتاء حملا على المعنى ، لأن المعنى من النساء ، فكنى بلفظ التأنيث ، ولأنه قد ظهر علامة التانيث في قوله « منكن » فكأن الرد عليه أولى من رده على اللفظ . وروي في الشواذ « ومن تقنت » بالتاء حملا على المعنى وذلك جائز في العربية غير انه ليس بمعروف ، ولا يقرأ به . وقرأ عاصم ونافع « وقرن » بفتح القاف بمعنى أقررن « في بيوتكن » من قررت في المكان أقر قراراً إلا انه نقل حركة العين الى القاف ، فانفتحت وسقطت الراء الأولى لالتقاء الساكنين كقولهم : في ظللت ظلت . وفي أحسست احست ، وقالوا في يحططن من الجبل يحطن . وقال الزجاج : فيه لغتان (قررت في المكان واقررت) . الباقون بكسر القاف بمعنى كن أهل وقر ، أي هدوء وسكينة من وقر فلان في منزله يقر وقوراً إذا هدأ فيه واطمأن . ويجوز أن يكون المراد الاستقرار ، على لغة حكاها الزجاج والكسائي .

لما تهدد الله تعالى نساء النبي ﷺ بأن من يأت منهن بفاحشة ظاهرة من ارتكاب محظور ، وما نهى الله تعالى عنه انه يضاعف لها العذاب ضعفين لوقوع أفعالهن على وجه يستحق به ذلك من حيث كن سواء اسوة يتأسى بهن غيرهن ورغبهن في هذه الآية بأن قال « ومن يقنت منكن » أي من داوم منكن على

الطاعة لله ورسوله « وتعمل » مع ذلك الافعال « صالحًا نؤتها » اي يعطيها الله « أجرها مرتين » كما لو عصت عاقبها ضعفين . والقنوت المداومة على العمل فمن داوم على العمل لله فهو مطيع . ومنه القنوت في صلاة الوتر ، وهو المداومة على الدعاء المعروف . والعمل الصالح هو المستقيم الذي يحسن أن يحمد عليه ويستحق به الثواب . والاجر الجزاء على العمل ، وهو الثواب ، آجره يأجره اجراً والأجر مرتين ليس يجب بالوعد بل إنما هو مستحق ، لأن أفعالهن تقع على وجه يستحق مثلي مالو استحق الغير ، لأنه في مقابلة العذاب ضعفين ، ولايجوز أن يضاعف ضعفين إلا مستحقاً ، وكذلك الثواب المقابل له .

وقوله « واعتدنا لها رزقًا كريمًا » معنى اعتدنا اعددنا ، وابدل من احدى الدالين تاء . والرزق الكريم هو الثواب الذي لايحسن الابتداء بمثله .

ثم قال « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء » انما قال كأحد ، ولم يقل كواحدة لان احداً نفي عام المذكر والمؤنث والواحد والجماعة أي لا يشبهكن احد من النساء في جلالة القدر وعظم المنزلة ولمكانكن من رسول الله ﷺ بشرط أن تتقين عقاب الله باجتناب معاصيه ، وامتثال أوامره . وانما شرط ذلك بالاتقاء لئلا يعولن على ذلك ، فيرتكبن المعاصي ، ولولا الشرط كان يكون اغراءاً لهن بالمعاصي ، وذلك لا يجوز على الله تعالى .

ثم قال لهن « فلا تخضعن بالقول » أي لا تلين كلامكن الرجال ، بل يكون جزلا قوياً لئلا يطمع من في قلبه مرض . قال قتادة : ومعناه من في قلبه نفاق . وقال عكرمة : من في قلبه شهوة الزنا .

ثم قال لهن « وقلن قولا معروفًا » مستقيماً جميلا بريئًا من التهمة بعيداً من الريبة موافقـاً الدين والاسلام . ثم امرهن بالاستقرار في بيوتهن وألا يتبرجن

تبرج الجاهلية ـ على قراءة من فتح القاف. ومن كسر أراد كن وقورات عليكن سكينة ووقار « ولاتبرجن » قال قتادة : التبرج التبختر والتكبر ، وقال غيره : هو اظهار المحاسن للرجال .

وقوله « تبرج الجاهلية الأولى » نصب تبرج على المصدر والمعنى مثل تبرج الجاهلية الأولى ، وهو ما كان قبل الاسلام . وقيل ما كان بين آدم ونوح . وقيل ما كان بين موسى وعيسى ، وقيل ما كان بين عيسى ومحمد . وقيل ما كان يفعله اهل الجاهلية ، لانهم كانوا يجوزون لامرأة واحدة رجلا وخلا فللزوج النصف السفلاني وللخل الفوقاني من التقبيل والمعانقة ، فنهى الله تعالى عن ذلك ازواج النبي صلى الله عليه وآله واشتقاق التبرج من البرج وهو السعة في العين وطعنة برجاء اي واسعة وفي اسنانه برج إذا تفرق ما بينها ، واما الجاهلية الأخرى ، فهو ما يعمل بعد الاسلام بعمل اولئك ،

ثم أمرهن باقامة الصلاة والدوام عليها بشروطها وايتاء الزكاة لمن وجبت عليه ، وأمرهن بطاعة الله وطاعة رسوله ، في ما يأمرانهن به . ثم قال « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً » روى ابو سعيد الخدري وانس بن مالك وعائشة وأم سلمة وواثلة بن الاسقع أن الآية نزلت في النبي صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام واهل البيت نصب على النداء او على المدح ، فروي عن أم سلمة انها قالت إن النبي صلى الله عليه وآله كان في بيتي فاستدعا علياً وفاطمة والحسن والحسين ، وجللهم بعباء خيبرية ، ثم قال: اللهم هؤلاء اهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، فأنزل الله تعالى قوله « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً » فقالت أم سلمة قلت : يا رسول الله هل انا من اهل بيتك ؟ فقال : لا ، ولكنك

الى خير .

واستدل أصحابنا بهذه الآية على ان في جملة اهل البيت معصوماً لايجوز عليه الغلط وان اجماعهم لايكون إلا صواباً بأن قالوا ليس يخلو إرادة الله لاذهاب الرجس عن اهل البيت من ان يكون هو ما اراد منهم من فعل الطاعات واجتناب المعاصي ، او يكون عبارة عن انه اذهب عنهم الرجس بأن فعل لهم لطفاً اختاروا عنده الامتناع من القبائح . والأول لا يجوز ان يكون مراداً ، لأن هذه الارادة حاصلة مع جميع المكلفين ، فلا اختصاص لاهل البيت في ذلك ولا خلاف أن الله تعالى خص بهذه الآية اهل البيت بأمر لم يشركهم فيه غيرهم فكيف يحمل على ما يبطل هذا التخصيص ويخرج الآية من أن يكون لهم فيها فضيلة ومزية على غيرهم ؟! على ان لفظة (إنما) تجري مجرى ليس ، وقد دللنا على ذلك في ما تقدم وحكيناه عن جماعة من اهل اللغة ، كالزجاج وغيره ، فيكون تلخيص الكلام : ليس يريد الله إلا إذهاب الرجس على هذا الحد عن أهـل البيت ، فدل ذلك على ان إذهاب الرجس قـد حصل فيهم . وذلك يدل على عصمتهم ، وإذا ثبت عصمتهم ثبت ما اردناه .

وقال عكرمة هي في ازواج النبي خاصة . وهذا غلط ، لأنه لو كانت الآية فيهن خاصة لكنى عنهن بكناية المؤنث ، كما فعل في جميع ما تقدم من الآيات نحو قوله «وقرن في بيوتكن ولا تبرجن ، واطعن الله واقمن الصلاة وآتين الزكاة» فذكر جميع ذلك بكناية المؤنث ، فكان يجب أن يقول إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس اهل البيت ويطهركن ، فلما كنا بكناية المذكر دل على ان النساء لامدخل لهن فيها .

وفي الناس من حمل الآية على النساء ومن ذكرناه من اهل البيت هرباً

مما قلناه . وقال : إذا اجتمع المذكر والمؤنث غلب المذكر ، فكنى عنهم بكناية المذكر . وهذا يبطل بما بيناه من الرواية عن أم سلمة وما يقتضيه من كون من تناولته معصوماً . والنساء خارجات عن ذلك . وقد استوفينا الكلام في ذلك ـ في هذه الآيات ـ في كتاب الامامة من أراده وقف عليه هناك .

ثم عاد تعالى الى ذكر النساء فأمرهن بأن يذكرن الله تعالى بصفاته ، وبالدعاء والتضرع اليه ، وان يفكرن في آيات الله التي تتلى في بيوتهن من القرآن المنزل ، ويعملن بها وبما فيها من الحكمة « ان الله كان لطيفاً » في تدبير خلقه ، وفي إيصال المنافع الدينية والدنيوية اليهم « خبيراً » اي عالماً بما يكون منهم ، وبما يصلحهم وبما يفسدهم ، وأمرهم بأن يفعلوا ما فيه صلاحهم واجتناب ما فيه فسادهم .

ثم اخبر تعالى بـ « إن المسلمين والمسلمات » وهم الذين استسلموا لاوامر الله وانقادوا له ، وأظهروا الشهادتين ، وعملوا بموجبه « والمؤمنين والمؤمنات » فالاسلام والايمان واحد ، عند اكثر المفسرين ، وإنما كرر لاختلاف اللفظين . وفي الناس من قال : المؤمن هو الذي فعل جميع الواجبات ، وانتهى عن جميع المقبحات ، والمسلم هو الملتزم لشرائط الاسلام المستسلم لها و « القانتين والقانتات » يعني الدائمين على الاعمال الصالحات « والصادقين » في اقوالهم « والصادقات » مثل ذلك « والصابرين والصابرات » على طاعة الله وعلى ما يبتليهم لله من المصائب وما يأمرهم به من الجهاد في سبيله « والخاشعين » يعني المتواضعين غير المتكبرين « والخاشعات » مثل ذلك « والمتصدقين » يعني الذين يخرجون الصدقات والزكوات « والمتصدقات » مثل ذلك « والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم » من الزنا وإتكاب انواع الفجور « والحافظات » فروجهن

وحذف من الثاني لدلالة الكلام عليه « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات » الله كثيراً، وحذف مثل ما قلناه . ثم قال « اعد الله لهم » يعني من قدم ذكرهم ووصفهم « مغفرة واجراً عظيماً » يعني ثواباً جزيلا . لا يوازيه شيء .

وقيل : إن سبب نزول هذه الآية ان أم سلمة قالت : يا رسول الله ما للرجال يذكرون في القرآن ولا يذكر النساء ؟ فنزلت الآية . فلذلك قال «ان المسلمين والمسلمات » وإن كن المسلمات داخلات في قوله « المسلمين » تغليباً للمذكر فذكرهن بلفظ يخصهن إزالة للشبهة .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ

ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيباً (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (٤٠) خمس آيات.

قرأ اهل الكوفة « ان يكون لهم الخيرة » بالياء ، لان التأنيث غير حقيقي. الباقون بالتاء لتأنيث الخيرة. والخيرة جمع خير وحكي خيرة بفتح الياء وسكونها وقرأ عاصم « وخاتم » بفتح التاء ، الباقون بكسرها . وهو الأقوى ، لأنه مشتق من ختم ، فهو خاتم . وقال الحسن : خاتم وهو الذي ختم به الانبياء . وقيل : هما لغتان ـ فتح التاء وكسرها ـ وفيه لغة ثالثة (خاتام) وقرىء به في الشواذ . وحكي ايضاً (ختام) .

وروي عن ابن عباس ، وذهب اليه مجاهد ، وقتادة أنه نزل قوله « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة .... » الآية ، في زينب بنت جحش ، لما خطبها رسول الله صلى الله عليه وآله لزيد بن حارثة فامتنعت لنسبها من قريش وإن زيداً كان عبداً ، فأنزل الله الآية فرضيت به . وقال ابن زيد : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة ابن ابي معيط ، وكانت وهبت نفسها لرسول الله صلى الله عليه وآله فزوجها زيد بن حارثة. بين الله تعالى في هذه الآية انه لم يكن « لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امراً » بمعنى إلزاماً وحكماً « أن يكون لهم الخيرة » اي ليس لهم ان يتخيروا مع امر الله بشيء يترك به ما امر به الى ما لم يأذن فيه . والخيرة إرادة اختيار الشيء على غيره . وفي ذلك دلالة على فساد مذهب المجبرة في القضاء والقدر ، لأنه لو كان الله تعالى قضى المعاصي لم يكن لأحد الخيرة ، ولوجب

عليه الوفاء به . ومن خالف في ذلك كان عاصياً ، وذلك خلاف الاجماع .

ثم قال « ومن يعص الله ورسوله » في ما قضيا به وامرا به وخالفهما « فقد ضل » عن الحق وخاب عنه « ضلالاً مبيناً » أي ظاهراً .

ثم خاطب النبي ﷺ فقال واذكر يا محمد حين « تقول للذي انعم الله عليه » يعني بالهداية الى الايمان « وانعمت عليه » بالعتق « أمسك عليك زوجك » اي احبسها ، ولا تطلقها ، لأن زيداً جاء الى النبي ﷺ مخاصما زوجته زينب بنت جحش على ان يطلقها ، فوعظه النبي ﷺ ، وقال له : لا تطلقها وامسكها « واتق الله » في مفارقتها « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » فالذي اخفى في نفسه انه إن طلقها زيد تزوجها وخشي من إظهار هذا للناس ، وكان الله تعالى امره بتزوجها إذا طلقها زيد ، فقال الله تعالى له ان تركت إظهار هذا خشية الناس فترك اضماره خشية الله احق وأولى . وقال الحسن : معناه وتخشى عيب الناس . وروي عن عائشة انها قالت لو كتم رسول الله ﷺ شيئاً من الوحي لكتم « وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه » وقيل : إن زيداً لما جاء مخاصما زوجته ، فرآها النبي ﷺ استحسنها وتمنى ان يفارقها زيد حتى يتزوجها ، فكتم . قال البلخي : وهذا جائز ، لأن هذا التمني هو ماطبع الله عليه البشر ، فلا شيء على احد إذا تمنى شيئاً استحسنه .

ثم قال تعالى ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ﴾ فالوطر الارب والحاجة وقضاء الشهوة يقال : لي في هذا وطر ، أي حاجة وشهوة ، قال الشاعر :

ودعني قبل ان اودعه ... لما قضى من شبابنا وطرا (١)

وقال آخر :

---

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٦٠

وكيف ثواي بالمدينة بعد ما   قضى وطراً منها جميل بن معمر

وقوله ﴿ زوجنا كها ﴾ يعني لما طلق زيد إمرأته زينب بنت جحش اذن الله تعالى لنبيه في تزوجها . واراد بذلك نسخ ما كان عليه اهل الجاهلية من تحريم زوجة الدعي على ما بيناه ، وهو قوله ﴿ لكي لايكون على المؤمنين حرج ﴾ اي اثم في أزواج ادعيائهم أن يتزوجوهن ﴿ إذا قضوا ﴾ الادعياء ﴿ منهن وطراً ﴾ وفارقوهن ، فبين الله تعالى ان الغرض بهذا ان لا يكون المتبنى به إذا طلق المرأة يجري مجرى تحريم إمراة الابن إذا طلقت او مات عنها الابن . وقوله ﴿ وكان امر الله مفعولا ﴾ معناه وكان تزويج النبي ﷺ زينب بنت جحش كائناً لا محالة .

واستدل بقوله ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ على حدوث كلام الله ، لأن الله تعالى قص كلامه . وقد بين أنه مفعول ، والمفعول والمحدث واحد . ثم قال تعالى ﴿ ما كان على النبي من حرج في ما فرض الله له ﴾ أي لم يكن عليه إثم في ما قدره الله أن يتزوج زينب بنت جحش التي كانت زوجة زيد ، وإن كان دعياً له ، وفي جمعه بين التسع . وقال ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أي ما أمرنا به محمداً من هذه السنن والعادات مثل سنة من تقدم من الانبياء ، وما أمرهم الله تعالى به ، لأنه تعالى أباح لكل نبي شيئاً خصه به ورفع به شأنه من بين سائر الامم ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾ فالقدر المقدور هو ما كان على مقدار ما تقدم من غير زيادة ولا نقصان ، قال الشاعر :

واعلم بان ذا الجلال قد قدر   في الصحف الاولى التي كان سطر (١)

(١) مر تخريجه في ٦ / ٤٩٢

وقوله ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ﴾ ولا يكتمونها بل يؤدونها الى من بعثوا اليهم ﴿ ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ أي لا يخافون سوى الله احداً وقوله ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أي كافياً ومجازياً . ثم قال ﴿ ما كان محمد أبا احد من رجالكم ﴾ نزلت في زيد بن حارثة لأنهم كانوا يسمونه : زيد بن محمد ، فبين الله تعالى ان النبي ليس بـ (أب احد) منهم من الرجال وإنما هو ابو القاسم والطيب والمطهر وإبراهيم ، وكلهم درجوا في الصغر . ذكره قتادة . ثم قال ﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ رسول الله ﴾ ونصب باضمار (كان) وتقديره ولكن كان رسول الله صلى الله عليه وآله ، وروى عبد الوارث عن ابي عمرو ﴿ ولكن ﴾ بالتشديد ﴿ رسول الله ﴾ نصب بـ (لكن) ﴿ وخاتم النبيين ﴾ أي آخرهم ، لأنه لا نبي بعده الى يوم القيامة ﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ أي عالماً لا يخفى عليه شيء مما يصلح العباد . وقيل إنما ذكر ﴿ وخاتم النبيين ﴾ ههنا ، لان المعنى أن من لا يصلح بهذا النبي الذي هو آخر الانبياء ، فهو مأيوس من صلاحه من حيث انه ليس بعده نبي يصلح به الخلق . ومن استدل بهذه الآية ، وهي قوله ﴿ ما كان محمد أبا احد من رجالكم ﴾ على انه لم يكن الحسن والحسين عليهما السلام ابنيه ، فقد أبعد ، لان الحسن والحسين كانا طفلين ، كما انه كان أبا إبراهيم وإنما بقي أن لا يكون أبا للرجال البالغين .

قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣)

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٤٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (٤٨) ثمان آيات .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين المصدقين بوحدانيته المقرين بصدق أنبيائه ، يأمرهم بأن يذكروا الله ذكراً كثيراً ، والذكر الكثير أن نذكره بصفاته التي يختص بها ، ولا يشاركه فيها غيره ، وننزهه عما لا يليق به . وروي في اخبارنا أن من قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر ثلاثين مرة ، فقد ذكر الله كثيراً ، وكل صفة لله تعالى فهي صفة تعظيم ، وإذا ذكر بأنه شيء وجب أن يقال : إنه شيء لا كالأشياء ، وكذلك احد ليس كمثله شيء وكذلك القديم هو الأول قبل كل شيء ، والباقي بعد فناء كل شيء . ولا يجوز أن يذكر بفعل ليس فيه تعظيم ، لان جميع ما يفعله يستحق به الحمد والوصف بالجميل على جهة التعظيم ، مثل الذكر بالغنى والكرم بما يوجب اتساع النعم ، والذكر احضار معنى الصفة للنفس إما بايجاد المعنى في النفس ابتداء من غير طلب . والآخر بالطلب من جهة الفكر . والذكر قد يجامع العلم ، وقد يجامع الشك . والعلم لا يجامع الشك في الشيء على وجه واحد . والذكر أيضاً يضاد السهو ، ولا يضاد الشك ، كما يضاده العلم . وقوله ﴿ وسبحوه بكرة واصيلا ﴾ أمر لهم بأن ينزهوا الله تعالى عن كل قبيح وجميع ما لا يليق به ، بالغداة

والعشي : قال قتادة : يعني صلاة الغداة وصلاة العصر ، والاصيل العشي وجمعه أصائل ، ويقال اصل وآصال ، وهو اصل الليل أي اوله ومبدؤه ، وقوله ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾ يترحم عليكم بايجاب الرحمة ، ويصلي عليكم الملائكة بالدعاء والاستغفار ، فالأول كالدعاء ، والثاني دعاء . وقيل : معناه يثني عليكم بطريقة الدعاء ، كقوله عليك رحمتي ومغفرتي . وقيل : معناه هو الذي يوجب عليكم الصلاة ، وهي الدعاء بالخير ، ويوجبه الملائكة بفعل الدعاء ، وهذا مما يختلف فيه معنى صفة الله تعالى وصفة العباد ، كتواب بمعنى كثير القبول للتوبة وتواب بمعنى كثير فعل التوبة ، وقال الاعشى :

عليك مثل الذي صليت فاعتصمي   يوماً فان لجنب المرء مضطجعاً (١)

فمن رفع (مثل) فانما دعا لها مثل ما دعت له . ومن نصب أمرها بأن تزداد من الدعاء أي عليك بمثل ما قلت . وقوله ﴿ ليخرجكم من الظلمات الى النور ﴾ معناه ليخرجكم من الجهل بالله الى معرفته ، فشبه الجهل بالظلمات ، والمعرفة بالنور . وانما شبه العلم بالنور ، لانه يقود الى الجنة ، فهو كالنور . والكفر يقود الى النار ـ نعوذ بالله منها ـ وقال ابن زيد : معناه ليخرجكم من الضلالة الى الهدى .

ثم اخبر تعالى انه ﴿ كان بالمؤمنين رحيماً ﴾ حين قبل توبتهم وخلصهم من العقاب الى الثواب بما لطف لهم في فعله . وقوله ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ أي يحيي بعضهم بعضاً يوم يلقون ثواب الله بأن يقولوا السلامة لكم من جميع الآفات والفوز بنعيم ثواب الله . ولقاء الله لقاء ثوابه لا رؤيته ، لأنه بمنزلة قوله

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٠٦ وقد مر في ٥ / ٣٣١ من هذا الكتاب

﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم الى يوم يلقونه ﴾ (١) وبمنزلة قول النبي ﷺ (من حلف على يمين كاذبة يقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان) ولا خلاف أن هؤلاء لا يرون الله. وقوله ﴿وأعد لهم أجراً كريماً﴾ أي ثواباً جزيلا .

ثم خاطب النبي ﷺ فقال ﴿ يا ايها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ أي شاهداً على أمتك في ما يفعلونه من طاعة الله او معصيته او إيمان به او كفر ، لتشهد لهم يوم القيامة او عليهم ، فأجازيهم بحسبه ، ومبشراً لهم بالجنة وثواب الابد إن أطاعوني واجتنبوا معصيتي . ﴿ ونذيراً ﴾ أي مخوفاً من النار وعقاب الأبد بارتكاب المعاصي وترك الواجبات ﴿ وداعياً ﴾ اي وبعثناك داعياً لهم تدعوهم ﴿ الى الله باذنه ﴾ والاقرار بوحدانيته وأمتثال ما امرهم به ، والأنتهاء عما نهاهم عنه ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ أي انت بمنزلة السراج الذي يهتدي به الخلق . والمنير هو الذي يصدر النور من جهته إما بفعله ، وإما لأنه سبب له ، فالقمر منير ، والسراج منير بهذا المعنى ، والله منير السموات والارض، وقال الزجاج ﴿ وداعياً الى الله باذنه وسراجاً ﴾ و بعثناك ذا سراج، وحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه وأراد بالسراج القرآن الذي يحتاجون الى العمل به .

ثم امر نبيه ﷺ بأن ﴿ يبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً ﴾ أي زيادة على ما يستحقونه من الثواب كثيراً . ثم نهاه عن طاعة الكفار الجاحدين لله والمنكرين لنبوته فقال ﴿ ولا تطع الكافرين ﴾ الذين يتظاهرون بالكفر ، ولا « المنافقين » الذين يظهرون الاسلام ، ويبطنون الكفر ، ولا تساعدهم على ما يريدونه ﴿ ودع أذاهم ﴾ أي اعرض عن أذاهم . فانا اكفيك أمرهم إذا توكلت عليّ ، وعملت بطاعتي فان جميعهم في سلطاني

(١) سورة ٩ التوبة آية ٧٨

بمنزلة ما هو في قبضة غيري. ثم قال ﴿ وتوكل على الله ﴾ أي اسند أمرك اليه واكتف به ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ اي كافياً ومتكفلا ما يسنده اليه. وقوله (وشاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً، وسراجاً) كل ذلك نصب على الحال.

قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً (٤٩) يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ٱللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ ٱللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٥٠) آيتان.

قرأ حمزة والكسائي ﴿ تماسوهن ﴾ بألف. الباقون بلا الف. وقد مضى تفسيره في البقرة (١).

---

(١) انظر ٢/٢٦٨ - ٢٧٢

خاطب الله نبيه بأنه إذا نكح واحد من المؤمنين المصدقين بوحدانيته المقرين بنبوة نبيه مؤمنة نكاحاً صحيحاً ، ثم طلقها قبل ان يمسها بمعنى قبل ان يدخل بها بأنه لاعدة عليها منه ، ويجوز لها أن تتزوج بغيره في الحال . وأمرهم أن يمتعوها ويسرحوها سراحاً جميلا ، الى بيت أهلها . وهذه المتعة واجبة إن كان لم يسم لها مهراً وإن كان سمى لها مهراً لزمه نصف المهر ، ويستحب المتعة مع ذلك ، وفيه خلاف . وقال ابن عباس : إن كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا نصف المهر ، وإن لم يكن سمى لها صداقاً متعها على قدر عسره او يسره وهو السراح الجميل . وهذا مثل قولنا سواء . وحكي عن ابن عباس أن هذه الآية نسخت بايجاب المهر المذكور في البقرة (١) ومثله روي عن سعيد بن المسيب والصحيح الأول . ثم خاطب النبي صلى الله عليه وآله فقال ﴿ يا ايها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت اجورهن ﴾ يعني مهورهن ، لأن النكاح لا ينفك من المهر واحللنا لك ما ملكت من الاماء أن تجمع منهن ما شئت ﴿ مما افاء الله عليك ﴾ من الغنائم والانفال ﴿ وبنات عمك ﴾ أي واحللنا لك بنات عمك ﴿ وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ﴾ أن تعقد عليهن وتعطيهن مهورهن .

ثم قال ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ﴾ فالقراء كلهم على كسر (ان) على انه شرط ، وقرأ الحسن بفتحها على انه بمعنى أحللنا لك لان وهبت ، والمعنى واحد ، لانه بمنزلة قولك سرني إن ملكت وسرني أن ملكت أي سرني ماملكت ﴿ إن أراد النبي ﴾ واحللنا لك المرأة إذا وهبت نفسها لك إن أردتها ورغبت فيها . فروي عن ابن عباس انه لاتحل امرأة بغير مهر وإن وهبت نفسها إلا للنبي

(١) انظر ٢ / ٢٧٢

صلى الله عليه وآله خاصة، وقال ابن عباس : لم يكن عند النبي امرأة وهبت نفسها له، وفي رواية أخرى عن ابن عباس انه كانت عنده ميمونة بنت الحارث بلا مهر وكانت وهبت نفسها للنبي . وروي عن علي بن الحسين عليه السلام أنها امرأة من بني اسد يقال لها أم شريك . وقال الشعبي : هي امرأة من الانصار . وقيل زينب بنت خزيمة من الانصار . وعندنا أن النكاح بلفظ الهبة لا يصح وإنما كان ذلك للنبي صلى الله عليه وآله خاصة . وقال قوم : يصح غير انه يلزم المهر إذا دخل بها ، وإنما جاز بلا مهر للنبي صلى الله عليه وآله خاصة غير انه يبين حجة ما قلناه . قوله ﴿ إن اراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ فبين أن هذا الضرب من النكاح خاص له دون غيره من المؤمنين .

وقوله ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم ﴾ يعني على المؤمنين ﴿ في أزواجهم ﴾ قال قتادة : معناه أي لا نكاح الا بولي وشاهدين وصداق وألا يتجاوز الأربع . وقال مجاهد : ما فرضنا عليهم ألا يتزوجوا اكثر من أربع . وقال قوم ﴿ مافرضنا عليهم في أزواجهم ﴾ من النفقة والقسمة وغير ذلك .

وعندنا أن الشاهدين ليسا من شرط صحة انعقاد العقد ، ولا الولي إذا كانت المرأة بالغة رشيدة ، لأنها ولية نفسها . والمعنى على مذهبنا إنا قد علمنا ما فرضنا على الأزواج من مهرهن ونفقتهن وغير ذلك ومن الحقوق مع ﴿ ما ملكت أيمانهم ﴾ (ما) في موضع جر لانها عطف على (في) وتقديره : في أزواجهم وفي ما ملكت أيمانهم ﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ إذا تزوجت المرأة بغير مهر إذا وهبت لك نفسها وأردتها . ثم قال ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي ساتراً للذنب على المسيئين رحيماً بهم ومنعما عليهم .

قوله تعالى:

﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (٥٢) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ ٱللَّهِ عَظِيماً (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيماً (٥٤) لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾ (٥٥)

خمس آيات .

قرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر وابو بكر عن عاصم ﴿ ترجىء ﴾ مهموزة . الباقون بغير همز . من همز خففها ومن ترك الهمز لين ، وهما لغتان يقال : أرجئت وأرجيت . وقرأ ابو عمرو وحده ﴿ لا تحل ﴾ بالتاء . الباقون بالياء . فمن قرأ بالتاء ، فلان النساء مؤنثة . ومن قرأ بالياء حمله على اللفظ لأن المعنى : لايحل لك شيء من النساء .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله يخيره في نسائه بين أن يرجىء منهن من شاء أي تؤخر وتبعد . قال ابن عباس : خيره الله بين طلاقهن وإمساكهن . وقال قوم : معناه تترك نكاح من شئت وتنكح من شئت من نساء أمتك . وقال مجاهد : معناه تعزل من شئت من نسائك فلا تأتيها وتأتي من شئت من نسائك فلا تقسم لها ، فعلى هذا يكون القسم ساقطاً عنه فكان ممن أرجى ميمونه وأم حبيبة وصفية وسودة ، فكان يقسم لهن من نفسه وماله ما شاء ، وكان ممن يأوي عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، فكان يقسم نفسه وماله بينهن بالسوية . وقال زيد بن اسلم : نزلت في اللاتي وهبن أنفسهن فقال الله له تزوج من شئت منهن واترك من شئت ، وهو اختيار الطبري وهو أليق بما تقدم . فالارجاء هو التأخير وهو من تبعيد وقت الشيء عن

وقت غيره ومنه الارجاء في فساق أهل الصلاة ، وهو تأخير حكمهم بالعقاب الى الله ﴿ وتؤوي منهن من تشاء ﴾ فالايواء : ضم القادر غيره من الاحياء الذين من جنس ما يعقل الى غيره أو ناحيته ، تقول آويت الانسان آويه إيواء وأوى هو يأوي أويا إذا انضم الى مأواه .

وقوله ﴿ ومن ابتغيت ﴾ يعني من طلبت ﴿ ممن عزلت ﴾ قال قتادة : كان نبي الله يقسم بين أزواجه فأحل الله تعالى له ترك ذلك . وقيل ﴿ ومن ابتغيت ﴾ اصابته ممن كنت عزلت عن ذلك من نسائك . وقال الحسن ﴿ ترجي من تشاء منهن ﴾ تذكر المرأة للتزويج ثم ترجيها فلا تتزوجها ﴿ فلا جناح عليك ﴾ أي لاجناح عليك في ابتغاء من شئت وإرجاء من عزلت وإيواء من شئت ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولايحزن ﴾ أي اقرب إذا علمن أن الرخصة من قبل الله كان ذلك اقر لعينهن ، وإنهن لا يطلقن وأشد لسرورهن. وهو قول قتادة، وقيل ﴿ ذلك أدنى ان تقر أعينهن ﴾ إذا طمعت في ردّها الى فراشها بعد عزلها ﴿ ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ رفع (كلهنّ) على تأكيد الضمير وهو النون في (يرضين)لا يجوز غير ذلك ، لان المعنى عليه . ثم قال ﴿ والله يعلم ما في قلوبكم ﴾ من الرضا والسخط والميل الى بعض النساء دون بعض ﴿ وكان الله عليما ﴾ بذلك ﴿ حليماً ﴾ عن ان يعاجل أحداً بالعقوبة .

وقوله ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن ﴾ قال ابن عباس والحسن : بعد التسع اللاتي كن عنده واخترنه مكافأة لهن على اختيارهن الله ورسوله . وقال ابي بن كعب لا يحل لك من بعد أي حرم عليك ما عدا اللواتي ذكرن بالتحليل في « إنا احللنا لك .... » الآية . وهن ست أجناس النساء اللاتي هاجرن معك وإعطائهن مهورهن وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله

وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه ، ومن وهبت نفسها له بجميع ما شاء من العدد ، ولا يحل له غيرهن من النساء . وقال مجاهد : « لايحل الك النساء » من أهل الكتاب ويحل الك المسلمات .

وروى أن حكم هذه الآية نسخ ، وأبيح له ما شاء من النساء أي أي جنس أراد ، وكم أراد ، فروي عن عائشة انها قالت : لم يخرج النبي ﷺ من دار الدنيا حتى حلل الله له ما أراد من النساء ، وهو مذهب اكثر الفقهاء . وهو المروي عن أصحابنا في أخبارنا .

« ولا ان تبدل بهن من أزواج » قال ابن زيد : معناه أن تعطي زوجتك لغيرك وتأخذ زوجته . لان أهل الجاهلية كانوا يتبادلون الزوجات . وقيل : معناه تطلق واحدة وتتزوج أخرى بعدها « ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك » استثناء الاماء أي اللاتي تملكهن من جملة ما حرم عليه من النساء « وكان الله على كل شيء رقيباً » أي عالماً حافظاً ، فالرقيب الحفيظ ـ في قول الحسن وقتادة ـ قال الشاعر :

لواحد الرقباء للضرباء ايديهم نواهد (١)

ثم خاطب المؤمنين فقال « يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم » نهاهم عن دخول دور النبي بغير اذن « الى طعام غير ناظرين إناه » أي بلوغه ، وكان يداريهم ، وهو نصب على الحال ، يقال في الطعام: أناى يأني إذا بلغ حال النضج ، قال الشاعر [الشيباني] .

تمخضت المنون له بيوم ... أني ولكل حادثة تمام (٢)

وقال الحطيئة :

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٤٠ (٢) تفسير القرطبي ١٤ / ٢٢٦

وأخرت العشاء الى سبيـل او الشعري فطال بي الاناء (١)

وقال البصريون : لا يجوز (غير ناظرين) بالجر على صفة (طعام) لان الصفة إذا جرت على غير من هي له لم يضمر الضمير ، واجاز ذلـك الفراء وانشد الاعشى:

فقلت له هـــذه هاتها · الينا بأدماء مقتادها(٢) .

والمعنى على يدي من اقتادها ، وقال الكسائي : سمعت العرب تقول : يدك باسطها ، أي انت . وقال الزجاج : لو جر (غير) لقال : الى طعام غير ناظرين إناه انتم ، لا يجوز إلا ذلك . والمعنى غير منتظرين بلوغ الطعام .

ثم قال « ولكن إذا دعيتم فادخلوا » والمعنى إذا دعيتم الى طعام فادخلوا « فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحـديث » أي تفرقوا ولا تقيموا ولا تستأنسوا بطول الحديث ، وإنما منعوا من الاستئناس من اجل طول الحديث لان الجلوس يقتضي ذلـك ، والاستئناس هو ضد الاستيحاش ، والانس ضد الوحشة ، وبين تعالى فقال « لان ذلـك » الاستئناس بطول الجلوس « كان يؤذي النبي فيستحيي منكم » أي من الحاضرين ، فيسكت على مضض ومشقة « والله لا يستحيي من الحق » ثم قال « وإذا سألتموهن متاعاً » يعني إذا سألتم أزواج النبي شيئاً تحتاجون اليـه « فاسألوهن من وراء حجاب » وستر « ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن » من الميل الى الفجور .

ثم قال « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله » قال ابو عبيدة (كان) زائدة والمعنى ليس « لكم ان تؤذوا رسول الله » بطول الجلوس عنده ، ومكالمة نسائه

---

(١) تفسير القرطبي ١٤ /٢٢٦ (٢) ديوانه (دار بيرت) روايته :

فقلنا له هذه هاتها بأدماء في حبل مقتادها

« ولا » يحل لكم ايضاً « أن تنكحوا أزواجه من بعده ابداً » لانهن صرن بمنزلة أمهاتكم في التحريم . وقال السدي : لما نزل الحجاب قال رجل من بني تيم أنحجب من بنات عمنا إن مات عرسنا بهن، فنزل قوله « ولا أن تنكحوا ازواجه من بعده ابداً إن ذلكم » إن فعلتموه « كان عند الله عظيماً » .

ثم قال لهم « إن تبدوا شيئاً » أي إن اظهرتموه من مواقعة النساء « او تخفوه فان الله كان بكل شيء عليماً » لا يخفى عليه شيء من أعمالكم لا ظاهرة ولا باطنة . ثم استثنى لازواج النبي صلى الله عليه وآله من يجوز لها محادثتهم ومكالمتهم ، فقال « لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن » ولم يذكر العم والخال لانه مفهوم من الكلام ، لان قرباتهم واحدة ، لأنهن لا يحلان لواحد من المذكورين بعقد نكاح على وجه ، فهن محرم لهن « ولا نسائهن ولا ماملكت ايمانهن » قال قوم : من النساء والرجال . وقال آخرون من النساء خاصة . وهو الأصح . وقال مجاهد : رفع الجناح ـ ههنا ـ في وضع الجلباب للمذكورين . وقال قتادة : في ترك الاحتجاب ، ثم أمرهن بأن يتقين الله ويتركن معاصيه فقال « واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً » أي عالماً لا يخفى عليه شيء من ذلك . وقال الشعبي وعكرمة : وإنما لم يذكر العم والخال ، لئلا ينعتاهن لابنائهما . وكان سبب نزول الآية لما نزل الحجاب ، قوله «فاسألوهن من وراء حجاب » قال آباء النساء وابناؤهن : ونحن ايضاً مثل ذلك، فانزل الله الآية وبين أن حكم هؤلاء بخلاف حكم الاجانب .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً (٥٧) وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً (٥٨) يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٦٠) خمس آيات

يقول الله تعالى مخبراً انه يصلي وملائكته على النبي صلى الله عليه وآله وصلاة الله تعالى هو ما فعله به من كراماته وتفضيله وإعلاء درجاته ورفع منازله وثنائه عليه وغير ذلك من انواع إكرامه . وصلاة الملائكة عليه مسألتهم الله تعالى أن يفعل به مثل ذلك ، وزعم بعضهم أن « يصلون » فيه ضمير الملائكة دون اسم الله مع إقراره بأن الله سبحانه يصلي على النبي لكنه يذهب في ذلك الى انه في افراده بالذكر تعظيماً ، ذكره الجبائي .

ثم امر تعالى المؤمنين المصدقين بوحدانيته المقرين بنبوة نبيه أن يصلوا ايضاً عليه ، وهو أن يقولوا : اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على ابراهيم وآل إبراهيم - في قول ابن عباس .

ثم أمر المؤمنين أيضاً ، ان يسلموا لامره تعالى وأمر رسوله تسليماً ، في جميع ما يأمرهم به . والتسليم هو الدعاء بالسلامة كقولهم سلمك الله . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . وكقولك : السلام عليك يارسول الله .

ثم اخبر تعالى « ان الذين يؤذون الله ورسوله » وأذى الله يقال هواذى أوليائه ، وانما أضافه الى نفسه تعظيماً لأوليائه ومبالغة في عظم المعصية به « لعنهم الله » أي يستحقون اللعنة من الله ، لان معنى « لعنهم الله » أي حل بهم وبال اللعن بالابعاد من رحمة الله . وقول القائل : لعن الله فلاناً معناه الدعاء عليه بالابعاد من رحمته . وقوله «في الدنيا والآخرة » أيهم مبعدون من رحمته تعالى في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك « اعدلهم » في الآخرة « عذاباً مهيناً » اي مذلالهم . والهوان الاحتقار ، يقال : اهانه اهانة ، وإنما وصف العذاب بأنه مهين ، لأنه تعالى يهين الكافرين والفاسقين به ، حتى يظهر الذلة فيه عند العقاب .

ثم قال « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا » يعني يؤذونهم من غير استحقاق على شيء فعلوه يستوجبون به ذلك « فقد احتملوا بهتاناً .... » .

وكان سبب نزول الآية ان قوماً من الزناة كانوا يمشون في الطرقات فاذا رأوا امرأة غمزوها . وقال النقاش : نزلت في قوم كانوا يؤذون علياً عليه السلام وقيل : نزلت في من تكلم في عائشة في قصة الافك .

وقوله « فقد احتملوا بهتاناً » اي كذباً « وإثماً مبيناً » اي ظاهراً - ثم خاطب النبي صلى الله عليه وآله بقوله « يا ايها النبي » وامره بأن يقول لازواجه وبناته ونساء المؤمنين « ويأمرهم بأن يدنين عليهن من جلابيبهن » قالجلابيب جمع جلباب وهو خمار المرأة وهي للقنعة تغطي جبينها ورأسها إذا خرجت لحاجة بخلاف خروج الاماء اللاتي يخرجن مكشفات الرؤس والجباه - في قول ابن عباس ومجاهد - وقال الحسن : الجلابيب الملاحف تدنيها المرأة على وجهها « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » ثم قال « وكان الله غفوراً رحيماً » اي ستار الذنوب على عباده « رحيماً » بهم .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « لئن لم ينته المنافقون » أي لئن لم يرجعوا « والذين في قلوبهم مرض » اي شك ونفاق . وقيل : شهوة الزنا « والمرجفون في المدينة » فالارجاف اشاعة الباطل للاغتمام به . والمرجفون هم الذين كانوا يطرحون الأخبار الكاذبة بما يشغلون به قلوب المؤمنين « لنغرينك بهم » يا محمد ، والاغراء الدعاء الى تناول الشيء بالتحريض عليه اغراه يغريه إغراء وغري به يغرى مثل اولع به كأنه أخذ بلزومه . وقيل : معناه لنسلطنك عليهم - في قول ابن عباس - .

وقوله « ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا » يعني ينفون عن المدينة ولا يجاورونك يا محمد فيها .

قوله تعالى:

﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ

ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ (٦٥)

خمس آيات.

لما أخبر الله تعالى، وتوعد « المنافقين والذين في قلوبهم مرض » أي شك « والمرجفون في المدينة » بما يشغل قلوب المؤمنين وأنهم إن لم يتوبوا عن ذلك نفوا عنها، وصفهم بانهم « ملعونين » أي مبعدون « أينما ثقفوا » ونصب (ملعونين) على الحال من الضمير في قوله « يجاورونك » وقيل: انه نصب على الذم، والصفة لـ (قليلا)، كأنه قال: إلا أذلاء ملعونين، (وأينما) منصوب بـ (ثقفوا)، والجزم به (ثقفوا) على طريق الجزاء. وإنما جاز ذلك، لأن الجازم في الأصل (إن) المحذوفة. وصار (أينما) تقوم مقامها، وتغني عنها ولا يجوز ان يعمل فيه (اخذوا) لأنه جواب الجزاء، ولا يعمل الجواب فيما قبل الشرط، لئلا يختلط احد الأمرين بالآخر.

وفي الآية دلالة على انهم انتهوا، وإلا كان يوقع الاغراء بهم ويجعلهم بالصفة التي ذكرها.

وقوله « سنة الله التي قد خلت من قبل » فالسنة الطريقة في تدبير الحكيم ومنه سنة رسول الله، وهي الطريقة التي أجراها بأمر الله تعالى، فأضيفت اليه

لأنه فعلها بأمر الله . واصل السنة الطريقة . ومن عمل الشيء مرة أو مرتين لا يقال : إن ذلك سنة ، لأن السنة الطريقة الجارية ، ولا تكون جارية بما لا يعتد به من العمل القليل ، وسنة الله في المتمردين في الكفر ـ الذين لا يقلع احد منهم ولا من نسلهم ـ الاهلاك في العذاب في الدنيا والآخرة .

وقوله « ولن تجد لسنة الله تبديلا » معناه إن السنة التي اراد الله أن يسنها في عباده لا يتهيأ لأحد تغييرها، ولا قلبها عن وجهها لانه تعالى القادر الذي لا يتهيأ لاحد منعه مما اراد فعله .

ثم قال « يسألك الناس عن الساعة » يعني عن يوم القيامة « قل » لهم « انما علمها عند الله » لا يعلمها أحد غيره « وما يدريك » يا محمد « لعل الساعة تكون قريباً » مجيئها .

ثم قال تعالى مخبراً « إن الله لعن الكافرين » يعني أبعدهم من رحمته « وأعدلهم سعيراً » يعني النار التي تستعر وتلتهب « خالدين فيها أبداً » أي مؤبدين فيها لا يخرجون منها « ولا يجدون ولياً » ينصرهم من دون الله « ولا نصيراً » يدفع عنهم .

واستدل قوم بذلك على النار أنها مخلوقة الآن ، لان مالا يكون مخلوقاً لا يكون معداً . وهذا ضعيف ، لانه يجوز أن يكون المراد إن الجنة والنار معدتان في الحكم كائنتان لامحالة ، فلا يمكن الاعتماد على ذلك .

قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولاَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا

فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلاَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ
لَعْناً كَبِيراً (٦٨) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ آذَوْا
مُوسَى فَبَرَّأَهُ ٱللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ ٱللهِ وَجِيهاً ﴾ (٦٩)

آيات أربع .

قرأ ابن عامر ويعقوب « ساداتنا » بألف بعد الدال . الباقون بغير الف على جمع التكسير ، والأول على جمع الجمع . وقرأ عاصم وابن عامر - في رواية الداحوني عن هشام « لعناً كبيراً » بالباء . بالباقون بالثاء .

العامل في قوله « يوم تقلب » قوله « واعد لهم سعيراً ... يوم تقلب وجوههم » فالتقليب تصريف الشيء في الجهات ، ومثله التنقيل من جهة الى جهة فهؤلاء تقلب وجوههم في النار ، لانه ابلغ في ما يصل اليهم من العذاب . وقوله « يقولون ياليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا » حكاية ما يقول هؤلاء الكفار الذين تقلب وجوههم في النار ، فانهم يقولون متمنين : ياليتنا كنا اطعنا الله في ما امرنا به ونهانا عنه ، وياليتنا أطعنا الرسول في ما دعانا اليه . وحكى ايضاً انهم يقولون يا « ربنا إنا اطعنا » في ما فعلنا « سادتنا وكبراءنا » والسادة جمع سيد ، وهو الملك المعظم الذي يملك تدبير السواد الاعظم ، ويقال للجمع الاكثر السواد الأعظم يراد به السواد المنافي لشدة البياض والضياء الأعظم « فأضلونا السبيلا » يعني هؤلاء الرؤساء اضلونا عن سبيل الحق .

وقيل الآية نزلت في الاثنى عشر الذين أطعموا الكفار يوم بدر من قريش . ثم حكى انهم يقولون « ربنا آتهم ضعفين من العذاب » لضلالهم في

نفوسهم وإضلالهم إيانا . وقيل معناه عذاب الدنيـا والآخرة « والعنهم لعناً كثيراً » أي مرة بعـد اخرى . ومن قرأ بالباء اراد اللعن الذي هو اكبر من لعن الفاسق ، لان لعنة الكافر أعظم .

ثم خاطب تعالى المؤمنين فقال« يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى »أي لا تؤذوا نبيكم مثل ما اوذي موسى يعني آذاه قومه بعيب اضافوه اليه لم يقم حجة بتعيبيه . وقيل : إن الآية نزلت في المنافقين عابوا النبي ﷺ باصطفائه صفيه بنت حيي ، فنهاهم الله عن ذلك . واختلف المفسرون في العيب الذي اضافه قوم موسى اليه . فقـال قوم : انهم آذوا موسى بأن اشاعوا أن هارون قتله موسى فأحياه الله ـ عز وجل ـ حتى أخبرهم ان موسى لم يقتله وأن الله تعالى هو الذي اماته عند انقضاء أجـله ، وهو معنى قوله « فبرأه الله مما قالوا » وقيل : انهم قالوا : إنه ابرص . وقيل : انهم اضافوه الى انه ادر الخصيتين ، فبرأه الله من ذلك ، واجاز البلخي حديث الصخرة التي ترك موسى ثيابه عليها على ان يكون ذلك معجزاً له . وقال قوم : ذلـك لا يجوز لأن فيه اشتهار النبي وابداء سوأته على رؤس الأشهاد . وذلك ينفر عنه ، فبرأه الله من ذلك .

وقوله « وكان عند الله وجيها » أي عظيم القدر ، رفيع المنزلة إذا سأل الله تعالى شيئاً أعطاه . وأثبت الألف في قوله « الرسولا .... والسبيلا » لأجل الفواصل في رؤس الآي تشبيهاً بالقوافي .

قوله تعالى :

﴿ يا أيُّـها ٱلَّذينَ آمَنُوا ٱتَّقوا ٱللهَ وَقُولوا قَوْلاً سَديداً ﴾ (٧٠)

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٧٣) أربع آيات .

امر الله تعالى المصدقين بوحدانيته المقرين بنبوة نبيه بأن يتقوا عقابه باجتناب معاصيه وفعل واجباته وأن يقولوا « قولا سديداً » أي صواباً بريئاً من الفساد خالصاً من شائب الكذب والتمويه واللغو . وقوله « يصلح لكم اعمالكم » جزم بأنه جواب الأمر ، وفيه معنى الجزاء . وتقديره : إن فعلتم ما امرتكم به يصلح لكم اعمالكم . وإصلاحه أعمال العباد أن يلطف لهم فيها حتى تستقيم على الطريقة السليمة من الفساد ، وذلك مما لا يصح إلا في صفات الله تعالى ، لانه القادر الذي لا يعجزه شيء العالم الذي لا يخفى عليه شيء « ويغفر لكم ذنوبكم » قيل : إنما وعد الله بغفران الذنوب عند القول السديد ، ولم يذكر التوبة ، لأن التوبة داخلة في الاقوال السديدة ، كما يدخل فيه تجنب الكذب في كل الأمور فيدخل فيه الدعاء الى الحق وترك الكفر والهزل واجتناب الكلام القبيح .

ثم قال « ومن يطع الله ورسوله » في ما أمراه به ونهياه عنه ودعواه اليه

« فقد فاز فوزاً عظيماً » أي افلح فلاحاً عظيماً ، لأنه يفوز بالجنة ، والثواب الدائم . وقيل : معناه فقد ظفر بالكرامة من الله والرضوان ، وهو الفوز العظيم.

ثم اخبر تعالى بأنه عرض الأمانة على السموات والأرض ، فالامانة هي العقد الذي يلزم الوفاء به مما من شأنه أن يؤتمن على صاحبه ، وقد عظم الله شأن الأمانة في هذه الآية وأمر بالوفاء بها ، وهو الذي امر به في اول سورة المائدة وعناه بقوله « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » وقيل في قوله « عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال » مع أن هذه الاشياء جمادات لا يصح تكليفها أقوال :

احدها ـ ان المراد عرضنا على اهل السموات و اهل الارض واهل الجبال

وثانيها ـ ان المعني في ذلك تفخيم شأن الأمانة وتعظيم حقها ، وأن من عظم منزلتها انها لو عرضت على الجبال والسموات والأرض مع عظمها ، وكانت تعلم بأمرها لأشفقت منها ، غير انه خرج مخرج الواقع لانه ابلغ من المقدر ،

وقوله « فأبين ان يحملنها » أي منعن ان يحملن الأمانة « واشفقن منها » أي خفن من حملها « وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا » أي ظلوماً لنفسه بارتكاب المعاصي، جهولا بموضع الأمانة واستحقاق العقاب على ارتكاب المعاصي وقال ابن عباس : معنى الأمانة الطاعة لله ، وقيل لها أمانة لأن العبد اؤتمن عليها بالتمكين منها ومن تركها . وقال تعالى « ليبلوكم أيكم احسن عملا » (١) فرغب في الأحسن ، وزهد في تركه . وقيل : من الأمانة ان المرأة اؤتمنت على فرجها والرجل على فرجه ان يحفظاها من الفاحشة . وقيل : الامانة ما خلق الله تعالى في هذه الاشياء من الدلائل على ربوبيته وظهور ذلك منها ، كأنهم أظهروها

(١) سورة ١١ هود آية ٧

والانسان جحد ذلك وكفر به . وفائدة هذا العرض إظهار ما يجب من حفظها وعظم المعصية في تضييعها .

وقيل معنى « حملها الانسان » أي خانها ، لأن من خان الأمانة فقد حملها وكذلك كل من اثم فقد حمل الاثم ، كما قال تعالى « وليحملن أثقالهم واثقالا مع اثقالهم » (١) وقال البلخي : يجوز ان يكون معنى العرض والاباء ليس هو ما يفهم بظاهر الكلام ، بل انما أراد تعالى أن يخبر بعظم شأن الامانة وجلالة قدرها ، وفظاعة خيانتها وترك ادائها ، وانه لو جد السموات مع عظمها لا تحملها وإن الانسان حملها ، وليس الانسان - هنا - واحداً بعينه ، ولا هو للطيع المؤمن ، بل هو كل من خان الأمانة ولم يرد الحق فيها ، وحمل الانسان الأمانة هو ضمانة القيام بها وإداء الحق فيها ، لان ذلك طاعة منه لله ، واتباع لامره والله لا يعتب على طاعته وما امر به ودعا اليه لكن معنى « حملها » انه احتملها ثم خانها ولم يؤد الحق فيها كأنه حملها فذهب بها واحتمل وزرها ، كما يقولون فلان أكل امانته أي خان فيها ، والعرب تقول : سألت الربع ، وخاطبت الدار فأجابني بكذا ، وقالت كذا ، وربما قالوا : فلم يجب ، وامتنعت من الجواب ، وليس هناك سؤال ولا جواب ، وإنما هو اخبار عن الحال التي تدل عليه وعبر عنه بذكر السؤال والجواب ، كما قال تعالى « ائتيا طوعاً او كرهاً » للسموات والارض « قالتا أتينا طائعين » (٢) وهو تعالى لا يخاطب من لا يفهم ولا يعقل ، وقال تعالى ﴿ لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ (٣) ونحن نعلم ان السموات لم تشعر بما كان من

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ١٣ (٢) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١١
(٣) سورة ١٩ مريم آية ٩١ - ٩٢

الكفار وانه لا سبيل لهـا الى الانفطار في ذات نفسها ، ويقول القائل أتيت بكذب لا تحتمله الجبال الراسيات ، قال الشاعر :

فقال لي البحر إذ جئته ... كيـف يجيز ضرير ضريرا

وقال جرير :

لما اتى خبر الزبير تواضعت ... سور المدينة والجبال الخشع (١)

وقال آخر :

فاجهشت للتوباد حين رأيته ... وكبر الرحمن حين رآني

فقلت له أين الذين عهدتهم ... بجنبيك في حضن وطيب زمان

فقال مضوا فاستودعوني بلادهم ... ومن ذا الذي يبقى على الحدثان

والتوباد جبل ، وقال آخر :

امتلأ الحوض وقال قطني ... مهلا رويداً قد ملأت بطني (٢)

وقال بعض المحدثين :

يا قصر ويحك هل اوعيت من خبر ... فقال هل خبر أنبأ من العبر

قد كان يسكنني قوم ذو خطر ... بادوا على الدهر والأيام والغير

وقـد أتاني وقرب العهد يذكرني ... منصور أمتكم في الشوك والشجر

حتى أناخ على بابي فقلت له ... أما كفاك الذي نبئت من خبري

إن لا اكن قلته نطقاً فقـد كتبت ... به الحوادث في صخري وفي حجري

خطاً قـديماً جليلاً غير ذي عوج ... يقرأ بكل لسان ظاهر الأثر

(١) ديوانه ٢٧٠ وقد مر في ١ / ٣١٢ ، ٢٠٤ و ٧ / ١٥٢ ، ٢٠٩

(٢) مر في ١ / ٤٣١

فخلني ثم أفناه الزمان ولم يطق دفاعاً لما قد حم من قدر
وكلهم قائل لي أنت لي ولمن خلفت من ولدي حظراً على البشر
فما تملى بنو الآباء بعدهم ولا هم سكنوا إلا على غرر

وقد قال بعض الحكماء : سل الارض من شق انهارك وغرس اشجارك وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً ، والعرض على وجوه يقال : عرضت المال والعمل على فلان ، فهذا بالقول والخطاب ، وعرضت هذا الأمر على فكري البارحة ، وهذا أمر إن عرض على العقول لم تقبله ، ومنه قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، يريدون عرضت الحوض على الناقة و (الاباء) على وجوه : فمنه الامتناع وإن لم يكن قصد لذلك ، ومنه ألا يصلح لما يريده ، تقول : أردت سل سيفي فأبى علي . وتقول : هذه الأرض تأبى الزرع والغرس أي لا تصلح لهما ، فعلى هذا يكون معنى قوله « فأبين أن يحملنها » أي لا تصلح لحملها ، وليس في طباعها حمل ذلك ، لأنه لا يصلح لحمل الأمانة إلا من كان حياً عالماً قادراً سميعاً بصيراً . بل لا يلزم أن يكون سميعاً بصيراً ، وإنما يكفي ان يكون حياً عالماً قادراً . وقال قوم : معناه إنا عرضنا الأمانة على أهل السموات وأهل الارض واهل الجبال ، كما قال « فما بكت عليهم السماء والارض » (١) يعني اهل السماء واهل الارض ، فأبوا حملها على أن يؤدوا حق الله فيها إشفاقاً من التقصير في ذلك ﴿ وحملها الانسان ﴾ يعني الكافر جهلا بحق الله واستخفافاً بعرضه ﴿ إنه كان ظلوماً ﴾ لنفسه ﴿ جهولا ﴾ بما يلزمه القيام بحق الله ، وإنما قال ﴿ فأبين ﴾ ولم يقل : فأبوا حملا على اللفظ ، ولم يرده الى معنى الآدميين ، كما قال ﴿ والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ (٢) وقوله

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٢٩ (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٤

﴿ فظلت اعناقهم لها خاضعين ﴾ (١) حملا على المعنى دون اللفظ ، وكل ذلك واضح بحمدالله .

ثم قال ﴿ ليعذب المنافقين والمنفقات والمشركين والمشركات ﴾ يعني بتضييع الأمانة ، وقال الحسن وقتادة : كلاهما خانا الأمانة ﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ بحفظها الأمانة لانهما كليهما أديا الأمانة ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾ أي ستاراً لعيوب خلقه رحيماً بهم في اسقاط عقابهم إذا تابوا ورجعوا الى الطاعة .

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٤

٣٤ ـ سورة سبأ

مكية في قول مجاهد وقتادة : والحسن وغيرهم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقيل إن آية واحدة منها مدنيــة ، وهي قوله « وترى الذين أوتوا .... » وهي أربع وخمسون آية عند الكل إلا الشامي فانها عنده خمس وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ (٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ

مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ (٥) خمس آيات ·

قرأ حمزة والكسائي « علام الغيب » بتشديد اللام وألف بعدها وخفض الميم . وقرأه اهل المدينة وابن عامر ورويس بألف قبل اللام وتخفيف اللام وكسرها ورفع الميم . الباقون كذلك إلا أنهم خفضوا الميم ، وهم ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وخلف وروح . وقرأ ابن كثير وحفص ويعقوب ﴿ من رجز اليم ﴾ برفع الميم ـ ههنا ـ وفي الجاثية ، و ﴿ معجزين ﴾ قد مضى ذكره ، (١) وقرأ الكسائي وحده (يعزب) بكسر الزاي . الباقون بضمها . و ﴿ الحمد ﴾ رفع بالابتداء و ﴿ لله ﴾ خبره .

والحمد هو الشكر ، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم · والحمد هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم ، ونقيضه الذم ، وهو الوصف بالقبيح على جهة التحقير ، ولا يستحق الحمد إلا على الاحسان ، فلما كان احسان الله لا يوازيه احسان احد من المخلوقين ، فكذلك لا يستحق الحمد احد من المخلوقين مثل ما يستحقه ، وكذلك يبلغ شكره الى حد العبادة ولا يستحق العبادة سوى الله تعالى ، وإن استحق بعضنا على بعض الشكر والحمد .

ومعنى قوله ﴿ الحمد لله ﴾ أي قولوا ﴿ الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض ﴾ معناه الذي يملك التصرف في جميع ما في السموات ، وجميع ما في الأرض ، وليس لاحد منعه منه ولا الاعتراض عليه ﴿ وله الحمد ﴾ في الأولى يعني بما أنعم عليه من فنون الاحسان و ﴿ في الآخرة ﴾ بما يفعل بهم من الثواب

(١) انظر ٧/ ٣٢٩

والعوض وضروب التفضل في الآخرة . والآخرة وإن كانت ليست دار تكليف فلا يسقط فيها الحمد والاعتراف بنعم الله تعالى ، بل العباد ملجأون الى فعل ذلك لمعرفتهم الضرورية بنعم الله تعالى عليهم وما يفعل من العقاب بالمستحقين فيه أيضاً إحسان لما للمكلفين به في دار الدنيا من الالطاف والزجر عن المعاصي ويفعل الله العقاب بهم لكونه مستحقاً على معاصيه في دار الدنيا ، ومن حمد أهل الجنة قولهم : الحمد لله الذي صدقنا وعده . وقولهم : الحمد لله الذي هدانا لهذا . وقيل : إنما يحمده أهل الآخرة من غير تكليف على وجه السرور به ﴿ وهو الحكيم ﴾ في جميع أفعاله ، لأنها كلها واقعة موقع الحكمة ﴿الخبير ﴾ العالم بجميع المعلومات . ثم وصف نفسه بأنه ﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ من سائر انواع الاشياء ﴿ وما يخرج منها ﴾ كذلك. وقال الحسن : معناه يعلم ما يلج في الأرض من المطر ، وما يخرج منها من النبات ، والولوج الدخول ، ولج يلج ولوجاً ، قال الشاعر :

رأيت القوافي يلجن مواجلا تضايق عنه ان تولجه الابر (١)

ومعنى ﴿ ما ينزل من السماء ﴾ قال الحسن: يعني من الماء ﴿ وما يعرج فيها ﴾ من ملك فهو يجري جميع ذلك على تدبير عالم به وتوجبه المصلحة فيه .

ثم حكى عن الكفار أنهم يقولون ﴿ لا تأتينا الساعة ﴾ يعني القيامة تكذيباً للنبي صلى الله عليه وآله في ذلك فـ ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ بلى ﴾ تأتيكم ﴿ و ﴾ حق الله ﴿ ربي ﴾ الذي خلقني وأخرجني من العدم الى الوجود ﴿ لتأتينكم ﴾ الساعة ﴿ عالم الغيب ﴾ من جر (عالم) جعله صفة لقوله ﴿ وربي ﴾ وهو في موضع جر بواو القسم . ومن رفعه ، فعلى انه خبر ابتداء محذوف ، وتقديره هو عالم

(١) تفسير الطبري ٢٢ / ٣٧

الغيب . ومن قرأ ﴿ علام ﴾ أراد المبالغة في وصفه بأنه عالم الغيب ، والغيب كل شيء غاب عن العباد علمه ﴿ لا يعزب عنه ﴾ أي لا يفوته ﴿ مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ﴾ بل هو عالم بجميع ذلك ، يقال : عزب عنه الشيء يعزب ويعزب لغتان ، في المضارع ﴿ ولا اصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ أي ولا يعزب عنه علم ما هو اصغر من مثقال ذرة ، ولا علم ما هو اكبر منه ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ يعني اللوح المحفوظ الذي أثبت الله تعالى فيه جميع ما هو كائن الى يوم القيامة ليطلع عليه ملائكته ، فيكون لطفاً لهم ، ويكون المكلفين أيضاً في الاخبار عنه لطف لهم .

ثم بين أنه إنما أثبت ذلك في الكتاب المبين ﴿ ليجزي ﴾ على ذلك ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بنعيم الجنة وهو قوله ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم وستر لها ، ولهم مع ذلك ﴿ رزق كريم ﴾ قال قتادة: الرزق الكريم الجنة . وقال غيره: هو الهنيء الذي ليس فيه تنغيص ، ولا تكدير . ثم بين أن الذين يسعون في آيات الله وحججه ﴿ معاجزين ﴾ له أي متعاونين مجاهدين في ابطال آياته ﴿ أولئك لهم عذاب ﴾ على ذلك ﴿ من رجز اليم ﴾ فمن جر ﴿ أليم ﴾ جعله صفة (رجز) والرجز هو الرجس ، وقال قوم: هو سيء العذاب وقال آخرون : هو العذاب . والرجز بضم الراء الصنم ومنه قوله ﴿ والرجز فاهجر ﴾ (١) وقال ابو عبيدة ﴿ معاجزين ﴾ بمعنى سابقين و﴿ معجزين ﴾ معناه مثبطين ـ في قول الزجاج.

قوله تعالى:

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

(١) سورة ٧٤ المدثر آية ٥

هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَالِ ٱلْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ (١٠) أَنِ ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١)

ست آيات.

قرأ حمزة والكسائي ﴿ إن يشأ يخسف بهم ﴾ بالياء كناية عن الله تعالى أنه إن شاء خسف. الباقون بالنون كناية على انه إخبار منه تعالى عن نفسه.

يقول الله تعالى مخبراً أن الذين أوتوا العلم والمعرفة بوحدانية الله تعالى. قال قتادة: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وقال غيره: يجوز أن يكون المراد كل من أوتي العلم بالدين، وهو الاولى، لانه أعم ﴿ الذي أنزل اليك من ربك ﴾ يعني القرآن ﴿ هو الحق ﴾ ف‍ ﴿ الذي ﴾ في موضع نصب بأنه المفعول ب‍ ﴿ يرى ﴾ وقوله ﴿ هو ﴾ فصل، ويسميه الكوفيون عماداً، قال الشاعر:

ليت الشباب هو الرجيع الى الفتى والشيب كان هو البــدء الاول

أنشده الكسائي على أن ﴿ هو ﴾ الاول عماد والثاني اسم. و﴿الحق﴾ هو المفعول الثاني، و ﴿يرى﴾ في الآية بمعنى (يعلم) وموضعه يحتمل أن يكون نصباً عطفاً على ﴿ليجزي﴾ ويحتمل أن يكون رفعاً بالاستئناف، وإيتاء العلم اعطاؤه إما بخلق العلم او بنصب الادلة المسببة له، فهو لطف الله تعالى لهم بما أداهم الى العلم، فكان كأنه قد أتاهم ﴿ الذي أنزل اليك ﴾ يعني القرآن وما أنزله الله عليه من الاحكام يعلمونه حقاً صحيحاً لمعرفتهم بالله وآياته الدالة على صدق نبيه ﴿ ويهدي ﴾ يعني القرآن ويرشد إلى ﴿ صراط العزيز الحميد ﴾ يعني إلى دين الله القادر الذي لا يغالب، والحميد يعني المحمود على جميع أفعاله، وهو الله تعالى.

ثم حكى ان الكفار يقول بعضهم لبعض ﴿ هل ندلكم على ﴾ ونرشدكم الى ﴿ رجل ينبئكم ﴾ أي يخبركم ﴿ إذا مزقتم كل ممزق﴾ أي مزقت أعضاؤكم بعد الموت، وصرتم تراباً ورميماً ﴿ إنكم لفي خلق جديد ﴾ ابتداء بأن لم يعمل فيها ﴿ ينبئكم ﴾ لانه لو أعمل فيها لنصبها، يعيدكم ويحييكم، ويقولون: هذا على وجه الاستبعاد له والتعجب من هذا القول. ومعنى ﴿ مزقتم ﴾ بليتم وتقطعت أجسامكم. والعامل في (إذ) يقول ـ في قول الزجاج ـ وتقديره هل ندلكم على رجل يقول لكم إنكم إذا مزقتم تبعثون، ويكون (إذا) بمعنى الجزاء تعمل فيها التي تليها، قال قيس:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا الى اعدائنا فنضارب

والمعنى يكن وصلها، فلذلك جزم فنضارب. وقيل العامل فيه معنى الجملة كأنه قيل: يجدد خلقكم، ولا يجوز أن يعمل فيه ما بعد لام الابتداء، ولا ما

بعد ان لأنها حروف لا تتصرف في نفسها ولا في معمولها . وقوله « أفترى على الله كذباً » قال قوم : اسقط ألف الاستفهام من (أفترى) لدلالة (أم) عليه. وقال الرماني : هذا غلط ، لأن الف الاستفهام لا تحذف إلا في ضرورة وإنما القراءة بقطع الألف ، فألف الاستفهام ثابتة وألف (افتعل) سقطت ، لأنها زائدة ، ومثله قوله ﴿ بيـدي أستكبرت ﴾ (١) وقوله ﴿ أصطفى النبات ﴾ (٢) وقوله « سواء عليهم أستغفرت لهم » (٣) ونظائره كثيرة . ولم يفصل بينهما بمدة لان الثانيـة مكسورة ففارق همزة « آلله خير اما يشركون » (٤) ولو لم تقطع لكان خبراً بعـده استفهام ، والمعنى إن هؤلاء الكفار الذين يتعجبون من قول النبي صلى الله عليه وآله إن الله يعيد الخلق بعد اماتتهم خلقاً جديداً ، هـل كذب على الله متعمداً « أم به جنة » يعنون جنوناً فيتكلم بما لا يعلم فقال الله تعالى ليس كما يقولون : « بل الذين لا يوقنون » أي لا يصدقون بالآخرة وبما فيها من الثواب والعقاب « في العذاب والضلال البعيد » يعني العدول البعيد عن الحق ، فلذلك يقولون ما يقولون ، بل نبههم على صحة ما يقول النبي صلى الله عليه وآله من الاعادة فقال « افلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض » فيفكروا فيه ويعتبروا به وإن الله تعالى خلقه واخترعه وأنه « ان نشأ نخسف بهم الارض » من تحت أرجلهم « او نسقط عليهم كسفاً » يعني قطعة من السماء ثم قال « إن في ذلـك لآية » ودلالة « لكل عبد منيب » أي راجع الى الله تعالى . ووجه التنبيه بالآية أن ينظروا فيعلموا أن السماء تحيط بهم ، والارض حاملة لهم ، فهم في قبضتنا « إن نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم السماء » أفما يحذرون

---

(١) سورة ٣٨ ص آية ٧٥ (٢) سورة ٣٧ الصافات آية ١٥٣

(٣) سورة ٦٣ المنافقون آية ٦ (٤) سورة ٢٧ النمل آية ٥٩

هذا فيرتدعون عن التكذيب بآيات الله . و (المنيب) المقبل التائب ـ في قول قتادة ـ .

ثم اخبر تعالى فقال « واقد آتينا داود » يعني أعطاه « منا فضلا » من عند الله . وقيل : معناه النبوة . وقيل : الزبور . وقيل : حسن الصوت . وقيل: هو ما فسره أي قلنا « يا جبال أوبي معه » ومعناه أنه نادى الجبال وأمرها بأن أوبي معه أي ارجعي بالتسبيح معه ، قال الشاعر :

يومان يوم مقامات واندية ويوم سير الى الاعداء تأويب(١)

أي رجوع بعد رجوع . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : أمر الله الجبال أن تسبح معه إذا سبح « والطير » في نصبه وجهان : أحدهما وسخرنا الطير . والثاني ـ بالعطف على موضع المنادى الاول كما قال الشاعر :

ألا يازيد والضحاك سيرا [فقد جاوزتما حد الطريق] (٢)

والاول أقوى عندهم لان الحمل على لفظة المنادى أشكل . ويكون كقولهم (أطعمتها تبنًا وماء بارداً) أي وسقيتها.

وقيل معنى « أوبي » سيري معه حيث شاء ، وليس المعنى إن الله خاطب الجبال ، وهي جماد بذلك ، بل المراد أنه فعل في الجبال مالو كانت حية قادرة لكان يتأتى منها ذلك .

وقوله «وألنا له الحديد » قال قتادة: كان الحديد في يده مثل الشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار ولا تطريق . ثم قال وقلنا له « أن اعمل سابغات » وهي الدروع التامة والسابغ التام من اللباس ، ومنه اسباغ النعمة إتمامها ، وثوب سابغ تام « وقدر في السرد » معناه لا تجعل الحلقة واسعة لا تقي صاحبها

(١ ـ ٢) تفسير الطبري ٢٢ / ٤١

وسرد الحديد نظمه . وقيل : السرد حلق الدرع - في قول ابن عباس وابن زيد - قال الشاعر :

اجاد السدي سردها وأدالها (١)

وقال قتادة : السرد المسامير التي في حلق الدرع ، وهو مأخوذ من سرد الكلام سرده يسرده سرداً إذا تابع بين بعض حروفه وبعض كالتابعة في الحلق والمسامير . ومنه السرد للطعام وغيره للاستقباع في خروج ما ليس منه ، قال الشاعر :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود او صنع السوابغ تبع(٢)

ويقولون : درع مسرودة أي مسمورة الحلق . وقيل : معنى « وقدر في السرد » عدل المسمار في الحلقة لايدق فينكسر او يغلظ فيفصم ، ذكره مجاهد والحكم . « واعملوا صالحاً » أمرهم بأن يعملوا الاعمال الحسنة التي ليست قبيحة وما يكون بفعله مطيعاً لله « إني بما تعملون بصير » أي عالم بما تفعلونه ، لايخفى عليه شيء من أعمالكم ، فالبصير العليم بالامور بما يتبين في عمزه بعضه من بعض وكان الكسائي يدغم الفاء في الباء في قوله « إن نشأ نخسف بهم » وهذا لايجوز عند البصريين ، لان الفاء من باطن الشفة العليا ، واطرف الثنايا العليا ، والباء يخرج من بين الشفتين ، ولان الفاء فيه نفس ، فاذا أدغم في الباء بطل ، وأيضاً فهو من مخرج التاء ، فكما لا يجوز ادغامه في التاء ، فكذلك لا يجوز ادغامه في الباء ، وأجاز ذلك الفراء . وأما إدغام التاء في الفاء ، فلا خلاف فيه .

---

(١) تفسير الطبري ٢٢ / ٤١ (٢) مر في ٧ / ١٩٠

قوله تعالى:

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (١٤) لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (١٥) .

خمس آيات شامي، لانهم عدوا «عن يمين وشمال» وأربع في ما عداه، لانهم لم يعدوا ذلك .

قرأ نافع «من ساته» بغير همز. الباقون «من سأته» بالهمزة . وقرأ الكسائي وحده «مسكنهم» بكسر الكاف . وقرأ حمزة بفتحها . الباقون (مساكنهم) على الجمع . ونصب الريح في قوله «ولسليمان الريح» على تقدير:

وسخرنا لسليمان الريح . وقرأ ابو بكر عن عاصم بضم الحاء ، والمعنى في ذلك أنه اضاف الريح اليه إضافة الملك يصرفه كيف شاء . وقوله « غدوها شهر ورواحها شهر » قال قتادة : كان مسيرها به الى انتصاف النهار مقدار مسير شهر « ورواحها شهر » من انتصاف النهار الى الليل ـ في مقدار مسير شهر ـ وقال الحسن كان يغدو من الشام الى بيت المقدس، فيقيل باصطخر من ارض اصبهان ويروح منها ، فيكون بكابل .

وقوله « واسلنا له عين القطر » قال ابن عباس وقتادة : أذبنا له النحاس والقطر النحاس . ثم قال « ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه » أي بأمر الله « ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير » معناه من يعدل من هؤلاء الجن الذين سخرناهم لسليمان حتى يعملوا بين يديه عما أمرهم الله به من طاعته « نذقه من عذاب السعير » يعني عذاب النار تقول : زاغ يزيغ زيغاً وأزاغه إزاغة .

ثم اخبر تعالى ان الجن الذين سخرهم الله لسليمان « يعملون له ما يشاء من محاريب » قيل: معناه شريف البيوت . وقال قتادة : قصور ومساجد ، قال المبرد: لا يسمى محراباً إلا ما يرتقى اليه بدرج ، لقوله « إذ تسوروا المحراب » (١)
قال عدي بن زيد :

كدمي العاج في المحاريب أو كالـ   بيض في الروض زهره مستنير (٢)

وقال وضاح اليمن :

ربة محراب إذا جئتها   لم القها أو ارتقي سلما (٣)

(١) سورة ٣٨ ص آية ٢١   (٢) تفسير الطبري ٢٢ / ٤٣ والقرطبي ١٤/٢٧١
(٣) مجاز القرآن ٢/١٤٤

و « تماثيل » جمع تمثال وهو صورة . فبين أنهم كانوا يعملون أي صورة أرادها سليمان . وقال قوم: كانوا يعملون له صورة الملائكة. وقال آخرون : كانوا يعملون له صورة السباع والبهائم على كرسيه ليكون أهيب له ، فذكر أنهم صوروا أسدين وفوق عمودي الكرسي نسرين ، فكان إذا أراد صعود الكرسي بسط له الأسد ذراعه ، فاذا علا فوق الكرسي نشر النسران جناحيهما ، فظللا عليه لئلا يسقط عليه شيء من الشمس ، ويقال : إن ذلك مما لا يعرفه أحد من الناس ، فلما حاول بخت نصر صعود الكرسي بعد سليمان حين غلب على بني إسرائيل لم يعرف كيف كان يصعد سليمان ، فرفع الأسد ذراعه فضرب ساقه فقدها فوقع مغشياً عليه ، فما جسر أحد بعده أن يصعد على ذلك الكرسي .

« وجفان كالجواب » واحدها جفنة وهي القصعة الكبيرة ، والجوابي جمع جابية ، وهي الحوض الذي يجيء الماء فيه ، قال ابو علي النحوي : إثبات الياء مع الألف واللام أجود ، وحذفها يجوز، وقال الاعشى في جفنة :

تروح على آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق (١)

وقال آخر :

فصبحت جابية صهارجا كأنه جلد السماء خارجا (٢)

وقال ابن عباس : الجوابي الحياض « وقدور راسيات » يعني عاليات ثابتات لا تنزل ، ثم نادى آل داود وأمرهم بالشكر على ما أنعم عليهم من هذه النعمة العجيبة التي أنعم بها عليهم ، لأن نعمته على داود نعمة عليهم ، فقال « اعملوا آل داود شكراً » ثم قال تعالى « وقليل من عبادي الشكور » أي من يشكر نعمي قليل ، والاكثر يجحدون نعم الله لجهلهم به ، وتركهم معرفته .

(١) تفسير القرطبي ١٤ / ٢٧٥ (٢) تفسير الطبري ٢٢ / ٤٣

ثم اخبر تعالى أنه لما قضى على سليمان الموت وقدره عليه وقبضه اليه لم يعلموا بذلك من حاله حتى دلهم على موته دابة الارض وهي الأرضة، فأكلت عصاه فانكسرت، فوقع لأنه روي أنه قبض وهو في الصلاة، وكان قال للجن اعملوا ما دمتم تروني قائماً، واتكأ على عصاه من قيام، وقبضه الله اليه وبقي مدة فيجيء الجن فيطالعونه فيرونه قائماً فيعودون فيعملون الى أن دبت الأرضة فاكلت عصاه فوقع وخر، فعلموا حينئذ موته وتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون ما غاب عنهم من موت سليمان لم يلبثوا في العذاب الذي أهانهم وأذلهم والمنسأة العصا الكبيرة التي يسوق بها الراعي غنمه قال أبو عبيدة: معنى «تبينت الجن» أي أبانت الجن للناس «أن لو كانوا» الجن «يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين» والمنسأة أصلها الهمزة من نسأت الى سقت، وقد يترك الهمز، قال الشاعر:

إذا دببت على المنساة من هرم ... فقد تباعد عنك اللهو والغزل(١)

إلا أنه يترك همزها، كما يترك في (البرية) وهي من برأت، وقيل: إنه كان متوكئاً على عصاه سنة لا يدرك أنه مات. وقيل: المعنى «فلما خر تبينت» جماعة من عوام «الجن» أغواهم مردتهم أن المتمردين «لو كانوا يعلمون الغيب» لأنهم كانوا يقولون لهم نحن نعلم الغيب، وفي قراءة أهل البيت «فلما خر تبينت الانس أن لو كان الجن يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين» قالوا: لان الجن كانت تعلم أنها لا تعلم الغيب قبل ذلك. وإنما تبينت الانس ذلك من حال الجن.

ثم اخبر تعالى فقال «لقد كان لسبا في مسكنهم آية» أي دلالة وعلامة

(١) تفسير الطبري ٢٢ / ٤٤ والقرطبي ١٤ / ٢٧٩

ف (سبأ) قيل : إنه ابو عرب اليمن كلها ، فقد تسمى به القبيلة نحو هذه تميم .

فمن قرأ على التوحيد ، فلأنه يدل على القليل والكثير . ومن جمع أراد المساكن المختلفة . والفرق بين فتح الكاف وبين كسرها في (مسكنهم) أن الفتح تفيد المصدر ، والكسر تفيد الموضع . وقيل : إنهما لغتان في الموضع .

والآيتان قيل : إنهم لم يكن بينهم شيء من هوام الأرض ، نحو البق والبرغوث والعقرب وغير ذلك . وكان الغريب إذا دخل بلدهم وفي ثيابه قمل متن فهذه آية . والثانية أن المرأة كانت تأخذ على رأسها مكتلا فيمتلىء بالفواكه من غير أن تمس بيدها شيئاً . ثم فسر الآيتين فقال « جنتان » أي هي جنتان. « عن يمين وشمال » قيل : عن يمين الوادي وشماله . « كلوا من رزق ربكم » أي كلوا من رزق الله الذي رزقكم في هاتين الجنتين ، فلفظه لفظ الأمر والمراد به الاباحة « واشكروا له » هذه النعمة التي انعم بها عليكم . ثم بين أن تلك الجنتين « بلدة طيبة » التربة . وقيل البلدة الطيبة صنعاء أرضها طيبة ليس فيها سبخة و « رب غفور » .

قوله تعالى :

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ

سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٠)

خمس آيات بلاخلاف.

قرأ ابو عمرو « ذواتي أكل خمط » مضافاً . الباقون « أكل خمط » منوناً. والاختيار عندهم التنوين ، لأن الأكل نفس الخمط والشيء لايضاف إلى نفسه ، ومن أضاف قال(الخمط) هو جنس مخصوص من المأكولات ، والأكل أشياء مختلفة فأضيفت الى الخمط ، كما تضاف الأنواع الى الاجناس. والخمط ثمر الاراك وهو البربر أيضاً. واحدها بربرة وسميت به جارية عائشة . والبربر شجر السواك و (الأثل) شجر ، واحدها أثلة .

وقرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « وهل نجازي » بالنون « إلا الكفور » نصباً أضافوا الفعل الى الله تعالى . الباقون - بالياء - على ما لم يسم فاعله « الكفور » بالرفع . وقرأ ابو عمرو وابن كثير « بعد بين أسفارنا » بالتشديد من التبعيد . الباقون « باعد » من المباعدة على لفظ الأمر ، إلا يعقوب ، فانه قرأ « باعد » على لفظ الخبر ، لانهم لما سألوا أن يبعد الله بينهم ، ففعل ذلك بينهم جاز حينئذ الاخبار بأنه تعالى فعل ذلك . وقرأ اهل الكوفة(ولقد صدق) بتشديد الدال . الباقون بتخفيفها.

لما اخبر الله سبحانه عن « سبأ » وهي القبيلة من اليمن انه أنعم عليهم

بالجنتين وبالبلدة الطيبة ، وأمرهم بشكر نعمه «فأعرضوا» عن ذلك ، فلم يشكروه وكفروه وجحدوا نعمه ، ولم يقبلوا ممن دعاهم إلى الله من أنبيائه ورسله جازاهم الله على ذلك بأن ارسل عليهم سيل العرم ، وسلبهم تلك النعمة وانزل بهم البلية ، فالسيل الماء الكثير الذي لا يمكن ضبطه ولا دفعه ، وقيل : انه كانت تجتمع مياه وسيول في هذا الوادي فسدوه بين جبلين بالحجارة والقار وجعلوا له ابوابا يأخذون منه ما شاءوا ، فلما تركوا أمر الله بعث عليهم جرذاً فنقبه فأغرق الله عليهم جنتهم وأفسد ارضهم . وقيل : العرم : ماء كثير ارسله الله في السد فشقه وهدمه. قال الراجز :

اقبل سيل جاء من أمر الله يحرد حرد الجنة المغله (١)

وقيل : ان العرم المسناة التي تحبس الماء ، واحدها عرمة وهو مأخوذ من عرامة الماء وهو ذهابه كل مذهب ، قال الاعشى :

ففي ذاك للمؤتسي اسوة ومأرب قفى عليه العرم

رجام بنتـــه لهم حمية إذا جاء ماؤهم لم ترم(٢)

وقيل : كان سببه زيادة المــاء حتى غرقوا .وقيل : كان سببــه نقب جرذ نقب عليهم السكر .وقيل العرم السكر . وقيل المطر الشديد . وقيل هواسم وادي وقيل : هو الجرذ الذي نقب السكر ، قال كثير :

ايادي سبا يا عزّ ما كنت بعدكم فلم يحل للعينين بعدك منظر (٣)

وقال آخر :

من صادر او وارد ايدي سبا (٤)

---

(١) اللسان(غال) (٢) تفسير الطبري ٢٢ / ٤٧

(٣) اللسان (صبأ) وروايته (منزل) بدل (منظر) (٤) اللسان (سبأ)

وقال جرير :

الواردون وتيم في ذرى سبأ قدعض اعناقهم جلد الجواميس(١)

ثم قال « وبدلناهم بجنتيهم » التي فيها أنواع الفواكه والخيرات « جنتين » أخراوين وسماها جنتين لازدواج الكلام ، كما قال « ومكروا ومكر الله » (٢) و « يخادعون الله وهو خادعهم » (٣) « ذواتي أكل خمط » أي صاحبتي خمط فالاكل جني الثمار الذي يؤكل ، والخمط نبت قد أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله - في قول الزجاج - وقال ابو عبيدة هو كل شجر ذي شوك . وقال ابن عباس والحسن : هو شجر الاراك ، وهو معروف . والاثل الطرفا قال قتادة : بدلوا بخير الشجر شر الشجر ، فالخمط شجر له ثمر مر . والاثل ضرب من الخشب كالطرفا ، إلا انه أكبر . وقيل : الاثل التمر « وشيء من سدر قليل » أي فيهما مع الخمط ، والاثل قليل من السدرة .

ثم قال « ذلك جزيناهم بما كفروا » في نعم الله « وهل نجازي » بهذا الجزاء « إلا الكفور » من كفر نعم الله ، فمن قرأ بالنون فلقوله « جزيناهم » . ولا يمكن الاستدلال بذلك على أن مرتكب الكبيرة كافر من حيث هو معذب ، لأن الله تعالى بين أنه لا يجازي بهذا النوع من العذاب الذي هو الاستئصال إلا من هو كافر ، وإن جاز أن يعذب الفاسق بغير ذلك من العذاب . وقال الفراء : المجازاة المكافأة ، ومن الثواب الجزاء ، تقول : جازاه على معصيته ، وجزاه على طاعته . وقال غيره : لافرق بينهما .

ثم بين تعالى انه جعل بين سبأ ، وبين القرى التي بارك فيها . قال قتادة

(١) مر تخريجه في ٦ / ٣٨٨ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤

(٣) سورة ٤ النساء آية ١٤١

ومجاهـد : هي قرى الشام ، وقال ابن عباس : هي بيت المقدس «قرى ظاهرة» قال قتادة : معناه متواصلة ، لانه يظهر الثانيـة من الأولى لقربها منها « وقدرنا فيها السير » معناه جعل بين القرية الأولى والثانية مسيرة يوم لراحـة المسافر ونزوله فيها « سيروا فيهـا ليالي وأياماً آمنين » لاتخافون جوعاً ولا عطشاً ولا ظلماً من أحد ، كأنه قيل لهم سيروا كذا ، فقالوا « ربنـا باعد بين أسفارنا » معناه إنهم نظروا وملوا النعمة ، فقالوا لو كان جني ثمارنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيه ، كما قالت بنو إسرائيل « فادع لـنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها » (١) بدلا من المن والسلوى « وظلموا أنفسهم » بارتكاب المعاصي « فجعلناهم أحاديث » فضرب بهم المثل فيقال(تفرقوا أيادي سبأ) أي تشتتوا أعظم التشتت قال الشعبي : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما الانصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامـة ، وأما الازد فلحقوا بعمان . وقيل : معنى « جعلناهم احاديث » أي اهلكناهم والهمنا الناس حديثهم ليعتبروا « ومزقنـاهم كل ممزق » قال ابن عباس : مزقوا بين الشام وسبأ ، كل ممزق .

ثم قال تعالى « إن » في ما ذكـر « لآيات » ودلالات « لكل صبار شكور » أي صبار على الشدائد شكور على النعماء .

ثم قال تعالى « ولقد صدق عليهم إبليس » صدق « ظنه » فيهم باجابتهم إلى معصية الله وقبولهم منه « فاتبعوه » باجمعهم « إلا فريقاً من المؤمنين » العارفين بالله وبوحدانيته ، فخالفوه فلم يتبعوه . فمن شدد (صدق) اسند الفعل إلى إبليس وجعل الظن المفعول به ، لأن إبليس لمـا قال تظننا « ولآمرنهم

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦١

فليبتكن آذان الانعام ﴾ (١) فلما تبعه قوم على ذلك صدق ظنه . ومن خفف فالمعنى مثله ، لانهما لغتان يقال : صدقت زيداً وصدقته ، وكذبته وكذبته وينشد :

وصدقتني وكذبتني   والمرء ينفعه كذابه (٢)

وقرأ ابو الهجهاج ﴿ إبليس ﴾ بالنصب ﴿ ظنه ﴾ بالرفع جعل الظن الفاعل وإبليس المفعول به ، وذلك جائز عند النحويين ، لانهم يقولون : صدقني ظني وكذبني إلا انه شاذ لا يقرأ به ، وقيل : ان إبليس لما اغوى آدم قال ذريته أولى بأن أغويهم ، وقال ﴿ لاحتنكن ذريته إلا قليلا ﴾ (٣) فصدق ذلك ظنه حتى تابعوه . وقال ﴿ فوعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ (٤) وكانت أجابتهم له تصديقاً لظنه .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ

(١) سورة ٤ النساء آية ١١٨   (٢) اللسان (صدق)

(٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٦٢   (٤) سورة ٣٨ ص آية ٨٢

عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو وحمزة والكسائي وخلف ، والاعشى والبرجي عن أبي بكر ﴿ أذن له ﴾ بضم الهمزة . الباقون بفتحها . وقرأ ابن عامر ويعقوب ﴿ فزع ﴾ بفتح الفاء والزاي . الباقون ﴿ فزع ﴾ بضم الفاء وكسر الزاي . فمن فتح الهمزة من ﴿ أذن ﴾ فمعناه أذن الله له ، ومن ضمها جعله لما لم يسم فاعله ، يقال : أذنت الرجل في ما يفعله اي اعلمته وأذنته أيضاً ، وأذن زيد الى عمرو ، إذا استمع اليه . روي في الحديث ما أذن الله لشيء قط كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن . ومثل ذلك القول في فزع عن قلوبهم ، ومعنى فزع . قال ابو عبيدة : فزع عن قلوبهم نفس عنها . وقال ابو الحسن : المعنى حكى عنها . وقال ابو عبيدة : معناه أذهب ، وقال قوم : الذين فزع عن قلوبهم الملائكة ، ويقال : فزع وفزع إذا أزيل الفزع عنها ، ومثله جاء في (افعل) يقولون : أشكاه إذا أزال عنه ما يشكو منه انشد ابو زيد :

تمد بالاعناق او تلويها ... وتشتكي لو أننا نشكيها (١)

والمعنى فلما ان اشكيت أزالت الشكوى ، كذلك فزع وفزّع أزال الفزع وقال قتادة : معنى فزع عن قلوبهم خلا من قلوبهم ، قال يوحي الله تعالى الى

(١) اللسان (شكا) وروايته (تثنيها) بدل (تلويها)

جبرائيل فيعرف الملائكة ، ويفزع عن أن يكون شيء من امر الساعة ، فاذا ﴿ خلا عن قلوبهم ﴾ وعلموا أن ذلك ليس من امر الساعة ﴿ قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق ﴾ وتقديره قالوا قال الحق . فمن قرأ بفتح الفاء أسند الفعل إلى الله ، ومن ضمها بنى الفعل للمفعول به ، وكان الجار والمجرور في موضع رفع . وقال الحسن : فزع بمعنى كشف الفزع عن قلوبهم ، وفزعت منه ، والمفزع على ضربين : احدهما ـ من ينزل به الافزاع . الثاني ـ من يكشف عنه الفزع . وقوله ﴿ وفزع ﴾ له معنيان احدهما بمعنى ذعر ، والثاني ـ ازال الفزع وقال اليربوعي :

حللنا الكثيب من زرود لنفزعا

أي لنغيث . لما اخبر الله تعالى ان إبليس صدق ظنه في الكفار باجابتهم له إلى ما دعاهم اليه من المعاصي بين انه لم يكن لابليس عليهم سلطان . و (من) زائدة تدخل مع النفي نحو قولهم ما جاءني من احد . والسلطان الحجة ، فبين بهذا ان الشيطان لم يقدر على اكثر من أن يغويهم ويوسوس اليهم ويزين لهم المعاصي ، ويحرضهم عليها . وقوله ﴿ إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك ﴾ تقديره إنا لم نمكنه من اغوائهم ووسوستهم إلا لنميز من يقبل منهم ومن يمتنع ويأبى متابعته ، فنعذب من تابعه ونثيب من خالفه ، فعبر عن تمييزه بين الفريقين بالعلم ، وهو التمييز مجرداً ، لأنه لا يكون العذاب والثواب إلا بعد وقوع ما يستحقون به ذلك ، فأما العلم ، فالله تعالى عالم بأحوالهم ، وما يكون منها في ما لم يزل . وقيل : إن معناه إلا لنعلم طاعاتهم موجودة أو عصيانهم إن عصوا فنجازيهم بحسبها ، لأنه تعالى لا يجازي احداً على ما يعلم من حاله إلا بعد ان يقع منهم ما يستحق به من ثواب او عقاب ، وقيل : معناه إلا لنعامل معاملة

من كأنه لا يعلم، وانما نعمل لنعلم ﴿ من يؤمن بالآخرة ﴾ أي من يصدق بها ويعترف ممن يشك فيها ويرتاب .

ثم قال ﴿وربك﴾ يا محمد ﴿ على كل شيء حفيظ ﴾ أي رقيب عالم لا يفوته علم شيء من أحوالهم من ايمانهم وكفرهم او شكهم . ثم أمر نبيه ﷺ بأن يقول لهؤلاء الكفار ﴿ ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ أنهم آلهة ومعبود ، هل يستجيبون لكم ؟ إلى ما تسألونهم ، لأنه لا يستحق العبادة إلا من كان قادراً على إجابة من يدعوه . ثم اخبر تعالى عنها فقال ﴿ لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيها من شرك ﴾ يعني وما لله في السموات والارض شريك ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ أي معاون ، والملك هو القدرة على ما للقادر عليه التصرف فيه ، وليس لاحد منعه منه ، وذلك ـ في الحقيقة ـ لا يستحق الوصف به مطلقاً إلا الله، لان كل من عداه يجوز أن يمنع على وجه .

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده ﴾ أي عند الله ﴿ إلا لمن اذن ﴾ الله ﴿له ﴾ في الشفاعة من الملائكة والنبيين والأئمة والمؤمنين ، لأنهم كانوا يقولون : نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، فحكم الله تعالى ببطلان ذلك . وقوله ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ قال ابن عباس وقتادة : حتى إذا خلي عن قلوبهم الفزع ، كقولك رغب عنه أي رفعت الرغبة عنه فلا يرغب ، بخلاف رغب فيه ، ففي أحد الأمرين وضع وفي الآخر رفع . وقيل : هم الملائكة يلحقهم غشي عن سماع الوحي من الله بالآية العظيمة ، فاذا ﴿ فزع عن قلوبهم ﴾ اي خلي عنها ﴿ قالوا ماذا قال ربكم ﴾ ـ ذكره ابن مسعود ومسروق وابن عباس في رواية ـ وقال الحسن : حتى إذا كشف عن قلوب المشركين الفزع ، قالت

الملائكة ﴿ ماذا قال ربكم ﴾ في الدنيا ﴿ قالوا ﴾ قال ﴿ الحق وهو العلي الكبير ﴾ اي الله تعالى المستعلي على الاشياء بقدرته ، لامن علو المكان ﴿ الكبير ﴾ في اوصافه دون ذاته ، لأن كبر الذات من صفات الاجسام . ثم قال له ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ من يرزقكم من السموات والارض ﴾ فانهم لا يمكنهم ان يقولوا يرزقنا آلهتنا التي نعبدها«قل»لهم عند ذلك الذي يرزقكم ﴿ الله ﴾ وقل ﴿ وإنا او إياكم لعلى هدى او في ضلال مبين ﴾ وقيل : إنما قال ﴿ وإنا او إياكم ﴾ على وجه الانصاف في الحجاج دون الشك ، كما يقول القائل لغيره : احدنا كاذب ، وإن كان هو عالماً بالكاذب ، وعلى هذا قال ابو الأسود الدؤلي يمدح اهل البيت :

يقول الارذلون بنو قشير طوال الدهر ما تنسى علياً
احب محمداً حبا شديداً وعباساً وحمزة والوصيا
بنو عم النبي وأقربوه احب الناس كلهم اليا
فان يك حبهم رشدا أصبه ولست بمخطىء ان كان غياً(١)

ولم يقل هذا مع أنه كان شاكاً في محبتهم ، وانه هدى وطاعة ، وقال اكثر المفسرين : إن معناه إنا لعلى هدى وإياكم لعلى ضلال وقال ابو عبيدة (او) بمعنى الواو ، كما قال الاعشى :

اثعلبة الفوارس او رياحا عدلت بهم طهية والخشابا (٢)

بمعنى اثعلبة ورياحا

ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ لا تسألون ﴾ معاشر الكفار ﴿ عما اجرمنا ﴾ اي عما اقترفناه من المعاصي ﴿ ولا نسأل ﴾ نحن ايضاً ﴿ عما تعملون ﴾ انتم بل كل إنسان يسأل عما يعمله ، وهو يجازى على أي فعل فعله دون غيره ،

(١) تفسير الطبري ٢٢ / ٥٧   (٢) مجاز القرآن ٢ / ١٤٨

وتقدير قوله « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » ان يشفع له ، فزع بسماعه أذنه حتى إذا فزع عن قلوبهم وخلي عنها وكشف الفزع عنهم قالوا ماذا قال ربكم قالت الملائكة قال الحق وهو العلي الكبير.

قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف.

لما امر الله تعالى نبيه ان يخاطب الكفار ويقول لهم ان كل إنسان يسئل عما عمله دون ما عمل غيره ، قال له ايضاً ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ يجمع بيننا ربنا ﴾ يوم القيامة ﴿ ثم يفتح بيننا ﴾ اي يحكم والفتح الحكم ، والفتاح الحاكم بالحق ، لا بالظلم ﴿ وهو الفتاح ﴾ أي الحاكم ﴿ العليم ﴾ بما يحكم به لا يخفى عليه شيء منه .

ثم قال ﴿ قل اروني الذين الحقتم به شركاء ﴾ تعبدونهم معه وتشركون بينهم في العبادة على وجه التوبيخ لهم في ما اعتقدوه من الاشراك مع الله ، كما يقول القائل لمن أفسد عملا : ارني ما عملته توبيخاً له بما افسده ، فانهم سيفتضحون بذلك إذا اشاروا إلى الاصنام والاوثان ويضمونها إلى الله ويشركون بينهما في

العبادة فقال تعالى ﴿ كلا ﴾ ومعناه الردع والتنبيه أي ارتدعوا عن هذا القول وتنبهوا عن ضلالكم ﴿ بل هو الله ﴾ الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ﴿ العزيز ﴾ يعني القادر الذي لا يغالب ﴿ الحكيم ﴾ في جميع افعاله . وقيل ﴿ العزيز ﴾ في انتقامه ممن كفر به ﴿ الحكيم ﴾ في تدبيره لخلقه ، فكيف يكون له شريك في ملكه .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ وما ارسلناك ﴾ يا محمد بالرسالة التي حملنا كها ﴿ إلا كافة ﴾ ومعناه ارسلناك إلى الخلق كافة بأجمعهم . وقيل : معناه إلا مانعاً لهم وكافاً لهم من الشرك ودخلت الهاء للمبالغة ﴿ للناس بشيراً ﴾ لهم بالجنة اي مبشراً بها ﴿ ونذيراً ﴾ أي مخوفاً بالنار ﴿ ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ صدق قولك وإنك رسول اليهم ، لتفريطهم في النظر في معجزك .

ثم حكى عن الكفار انهم يستبطؤن العذاب الذي يخوفهم به النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنون ، فانهم كانوا يحذرونهم نزول العذاب عليهم ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ الذي تعدونا به ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ما تقولونه معاشر المؤمنين ثم امره ان يقول لهم في الجواب عن ذلك ﴿ قل لكم ميعاد يوم ﴾ ينزل عليكم ما وعدتم به من الثواب والعقاب ﴿ لا تستأخرون عنه ساعة ﴾ أي لا تؤخرون من ذلك اليوم لحظة ﴿ ولا تستقدمون ﴾ عليه ، وهو يوم القيامة .

قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ

بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ
لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ
صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢)
وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا
رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ
مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ
أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) خمس آيات بلاخلاف .

حكى الله تعالى عن الكفار أنهم يقولون لن نصدق بهذا القرآن الذي أنزل عليك وتدعيه انه من عند الله ولا بالذي بين يدي القرآن من أمر الآخرة والنشأة الثانية ، فجحدوا أن يكون القرآن من الله او ان يكون لما دل عليه من الاعادة للجزاء حقيقة . وقيل : معناه الكتب التي قبله من التوراة والانجيل وغيرها .

ثم قال « ولو ترى » يا محمد « إذ » أي حين « الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول » أي يرد بعضهم على بعض « يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا » قيل : كانوا رؤساء الضلالة يأمرون الاتباع بعبادة الأوثان لضعفهم عن استخراج صواب الرأي عند أنفسهم ،

فالاستضعاف طلب الضعف فكل من يجاهر غيره بما يقتضي ضعفه يقال قد استضعفه، والاستكبار طلب الكبر بغير حق، وكانوا يتعظمون هؤلاء الكفار بالجهل الذي صمموا عليه وصاروا رؤساء فيه ليحققهم به «لولا أنتم لكنا مؤمنين» لكن بسببكم يمنع، فهؤلاء إذا أخبروا عن ظنهم، فقد صدقوا كأنهم قالوا في ما نظن، لأنه هكذا يقتضي ظاهر خبرهم، كما إذا أخبروا عما يفعلونه في المستقبل، فهو اخبار عن عزمهم، ولو كان كذباً لانكر الله ذلك واتبعه بما يدل على انكاره، كما قال «انظر كيف كذبوا على انفسهم» (١) ثم حكى ماأجابهم به المستكبرون فانهم يقولون في جوابهم «أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم» ؟! منكرين عليهم قولهم انهم منعوهم من الايمان بعد تبين الحق فيه، وليس الأمر على ما تقولونه «بل كنتم» أنتم «مجرمين» ثم حكى تعالى ما يقول الذين استضعفوا فانهم يقولون «بل مكر الليل والنهار» معناه مكركم في الليل والنهار - في قول الحسن - كما قال الشاعر :

لقد لمتنا يا ام غيلان في السرى   ونمت وما ليل المطي بنائم (٢)

أي بنائم فيه . وقيل : كأن الليل والنهار يمكران بطول السلامة فيهما . و(المترف) المنعم البطر بالنعمة «إذ تأمروننا» أي حين تأمروننا «أن نكفر بالله» أي ان نجحد بالله «ونجعل له انداداً» أي امثالا في العبادة «واسروا الندامة» أي اخفوا الندامة بينهم «لما رأوا العذاب» نزل بهم، ولام بعضهم بعضاً . وقال الجبائي : معناه اظهروا الندامة، قال: وهذا مشترك . وهذا غلط، لان لفظة الاخفاء هي المشتركة دون لفظ الاسرار، فحمل أحدهما على الآخر قياس في اللغة «وجعلنا الأغلال في اعناق الذين كفروا» الاغلال جمع غل والله

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢٤   (٢) مر تخريجه في ٥ / ٦٤٥

تعالى يجعل الغل في رقاب الكفار عقوبة لهم .

ثم قال موبخاً لهم « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » أي يجزون على قدر استحقاقهم لايجازفون ، فلفظه لفظ الاستفهام والمراد به النفي ، فكأنه قال : لا يجزون إلا على قدر اعمالهم التي عملوها .

ثم اخبر تعالى انه ما يرسل في قرية نذيراً أي مخوفاً بالله في ما مضى إلا إذا سمع أهلها المترفون منهم المنعمون « قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » أي جاحدون ، ثم حكى بأنهم « قالوا نحن اكثر أموالا واولاداً » منكم « وما نحن بمعذبين » على ما تقولونه ، لأنه لو أراد عقابنا لما أنعم علينا في الدنيا وجعلنا أغنياء وجعلهم فقراء ، فقال الله تعالى رداً عليهم « قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » .

قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ (٣٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ

جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰئِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٤٠)

خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة وحده « وهم في الغرفة آمنون » لقوله تعالى « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » (١) وفي الجنة غرفات وغرف ، غير أن العرب تجتزىء بالواحد عن الجماعة إذا كان اسم جنس كما قالوا : اهلك الناس الدينار والدرهم . الباقون على الجمع « غرفات » على وزن (ظلمة، وظلمات) وحجتهم « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف » (٢) .

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: إن الله لا يعذبنا على ما تقولونه لأنه أغنانا في دار الدنيا ، ولم يجعلنا فقراء ، فكذلك لا يعذبنا في الآخرة، قال الله رداً عليهم « قل » لهم يا محمد « إن ربي » الذي خلقني « يبسط الرزق » أي يوسع الرزق لمن يشاء على حسب ما يعلم من مصلحته ومصلحة غيره « ويقدر » أي يضيق . وهو مثل قوله « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر » (٣) أي يوسع ويضيق ، ومنه قوله « ومن قدر عليه رزقه » (٤) أي ضيق ، وعلى هذا : يحتمل قوله « فظن أن لن نقدر عليه » (٥) أي ان نضيق عليه ، فبسط الرزق هو الزيادة فيه على قدر الكفاية ، والقدر تضييقه على قدر الكفاية.

ثم قال « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » ما قلناه لجهلهم بالله وبحكمته .

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٧٥ (٢) سورة ٣٩ الزمر آية ٢٠

(٣) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٦٢ (٤) سورة ٦٥ الطلاق آية ٧

(٥) سورة ٢١ الأنبياء آية ٨٧

ثم قال تعالى « وما أموالكم » أي ليس اموالكم التي خولتموها « واولادكم » التي رزقتموها « بالتي تقربكم عندنا زلفى » قال الفراء : (التي) يجوز أن يقع على الأموال والأولاد ، لان الأولاد يعبر عنها بـ (التي) ، وقال غيره : جاء الخبر بلفظ احدها ـ وإن دخل فيه الآخر ، ولو قال بالذي يقربكم لكان جائزاً و(زلفى) قربى ، وإنما يقربكم اليه تعالى أفعالكم الجميلة وطاعاته الحسنة . ثم قال « إلا من آمن وعمل صالحاً » معناه ، لكن من آمن بالله وعرفه وصدق نبيه وعمل الصالحات التي أمره بها ، وانتهى عن القبائح التي نهاه عنها ، فان لهؤلاء « جزاء الضعف بما عملوا » ومعناه انه تعالى يجازيهم أضعاف ما عملوا ، فانه يعطي بالواحد عشرة ، والضعف من الاضعاف ، لأنه اسم جنس يدل على القليل والكثير .

ويجوز في اعراب (جزاء) أربعة أوجه : الرفع والنصب بالتنوين وتركه ، وفي (الضعف) ثلاثة أوجه: الجر والنصب والرفع ، إلا أن القراءة بوجه واحد وهو رفع (جزاء) على الاضافة بلا تنوين ، وجر « الضعف » بالاضافة اليه . ثم قال إن هؤلاء مع أن لهم جزاء الضعف على ما عملوه « هم في الغرفات » جمع غرفة وهي العلية « آمنون » فيها لا يخافون شيئاً مما يخاف مثله في دار الدنيا .

ثم قال « والذين يسعون في آياتنا معاجزين » أي مسابقين : فيمن قرأه بألف . ومثبطين غيرهم عن افعال الخير عند من قرأه بغير ألف « أولئك في العذاب محضرون » أي يحصلون في عذاب النار .

ثم قال « قل » يا محمد « إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء » أي يوسعه « ويقدر » أي يضيقه لمن يشاء . وإنما كرر قوله « قل إن ربي يبسط الرزق »

لاختلاف الفائدة ، لأن الاول على معنى إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر من غير أن يعلم اكثر الناس لم فعل ذلك ، والثاني - بمعنى أن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له على أن ما انفقه في ابواب البر فالله يخلفه عليه وهو قوله « وما انفقتم من شيء فهو يخلفه » أي يعطيكم عوضه ، وليس المراد ان يخلف في دار الدنيا على كل حال ، لان الله يفعل ذلك بحسب المصلحة ، وإنما أراد انه يعوض عليه إما في الدنيا بأن يخلف بدله او يثيب عليه « وهو خير الرازقين » أي الله تعالى خير من يرزق غيره ، لأنه يقال : رزق السلطان الجند ، ثم قال ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ﴾ يعني يوم القيامة الذي يبعث الله فيه الخلائق ﴿ ثم يقول للملائكة ﴾ الذين عبدهم جماعة من الكفار ﴿ اهؤلاء ﴾ يعني الكفار الذين عبدوهم ﴿ إياكم كانوا يعبدون ﴾ على وجه التقرير لهم وإن كان بلفظ الاستفهام ، كما قال لعيسى ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وامي إلهين من دون الله ﴾ (١) وقرأ حفص ﴿ ويوم يحشرهم ثم يقول ﴾ بالياء رداً على قوله ﴿ قل ان ربي ﴾ الباقون بالنون على الجمع .

قوله تعالى:

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم

---

(١) سورة ٥ المائدة آية ١١٩

بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا
إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا
مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا
إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا
مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (٤٥) خمس
آيات بلا خلاف .

لما حكى الله تعالى انه يقول للملائكة إن هؤلاء الكفار إياكم كانوا يوجهون عبادتهم ، حكى ما يجيب به الملائكة ، فانهم يقولون ﴿ سبحانك أنت ولينا ﴾ تنزيهاً لك أن نعبد سواك ، ونتخذ معك معبوداً غيرك، ويقولون : أنت يا ربنا ولينا أي ناصرنا وأولى بنا ﴿ من دونهم ﴾ يعني دون هؤلاء الكفار ودون كل احد وأنت الذي تقدر على ذلك من دونهم ، فما كنا نرضى بعبادتهم مع علمنا بأنك ربنا وربهم ، ما أمرناهم بهذا ولا رضينا به لهم « بل كانوا يعبدون الجن » بطاعتهم إياهم في ما يدعونهم اليه من عبادة الملائكة . وقيل : انهم صوّروا لهم صورة قوم من الجن ، وقالوا هذه صورة الملائكة فاعبدوها ، وهم وإن عبدوا الملائكة ، فان الملائكة لم يرضوا بعبادتهم إياهم ولا دعوهم اليها ، والجن دعوهم إلى عبادتهم ورضوا به منهم فتوجه الذم إلى العابد والمعبود ، وفي الملائكة لا يستحق الذم غير العابد ، فلذلك أضرب عن ذكر الملائكة .

ثم حكى تعالى ما يقول للكفار يوم القيامة ، فانه يقول لهم « فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولاضرّاً » ولا يقدر على ذلك « ونقول للذين ظلموا » نفوسهم بارتكاب المعاصي «ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون » أي تجحدونه ، ولا تعترفون به . ثم عاد تعالى إلى الحكاية عن حال الكفار في الدنيا فقال « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات » أي تقرأ عليهم حججنا واضحات من القرآن الذي أنزله على نبيه « قالوا » عند ذلك « ما هذا الارجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم » أي يمنعكم عن عبادة ما كان يعبده أباؤكم «وقالوا» أيضاً « ما هذا » القرآن « إلا إفك مفترى » يعني كذب تخرصه وافتراه « وقال الذين كفروا للحق » يعني القرآن « لما جاءهم إن هذا » أي ليس هذا « إلا سحر مبين » أي ظاهر ، والسحر حيلة خفية توهم المعجزة .

ثم قال تعالى « وما آتيناهم من كتب يدرسونها » قال الحسن : معناه ماآتيناهم من كتب قبل هذا الكتاب ، فصدقوا به وبما فيه ان هذا كما زعموا « ومارسلنا اليهم قبلك من نذير » ويجوز أن يكون المراد وما أرسلنا اليهم قبلك يا محمد من نذير إلا وفعلوا به وقالوا له مثل ما قالوا لك ، وحذف لدلالة الكلام عليه ، ودلك عليه بقوله « وكذب الذين من قبلهم » بما أتاهم الله من الكتب ، وبما بعث اليهم من الرسل « وما بلغوا » أي وما بلغ هؤلاء ﴿ معشار ما آتيناهم ﴾ أولئك الكفار ، قال الحسن : معنى معشار أي عشر . والمعنى ما بلغ الذين ارسل اليهم محمد ﷺ من اهل مكة عشر ما اوتي الأمم قبلهم من القوة والعدة ـ في قول ابن عباس وقتادة ـ ﴿ فكذبوا رسلي ﴾أي كذبوا بآيات الله وجحدوا رسله ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي عقوبتي وتغييري لان الله أهلكهم واستأصلهم وهو نكير الله تعالى في الدنيا .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلا خلاف .

هذا امر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله أن يقول للكفار ﴿ إنما أعظكم بواحدة .... ﴾ والمعنى يكفيني منكم أن يقوم الرجل وحده أو هو وغيره ثم تتساءلون هل جربنا على محمد كذباً او هل رأينا به جنة ؟ ! ففي ذلك دلالة على بطلان ما أنتم عليه وما ذكرتم فيه ، فالوعظ الدعاء إلى ما ينبغي أن يرغب في ما ينبغي أن يجوز منه مما يلين القلب إلى الاستجابة للحق بالنبي صلى الله عليه وآله والنبي اجل وأعظم واكبر داع بما اعطاه الله من الحكمة .

وقوله ﴿ مثنى وفرادى ﴾ معناه ان تقوموا اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ليذاكر أحدهما صاحبه ، فيستعين برأيه على هذا الأمر . ثم يجول بفكرته حتى يكرره حتى يتبين له الحق من الباطل وبني ﴿ مثنى ﴾ وإن لم يكن صفة لانه مما

يصلح ان يوحد، كما قال تعالى ﴿ أولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ (١) وهو ـ ههنا ـ في موضع حال، وقال مجاهد في قوله ﴿ اعظكم بواحدة ﴾ أي بطاعة الله تعالى وقال غيره (بواحدة) بتوحيد الله خصلة واحدة، فقولوا: لا إله إلا الله.

وقوله ﴿ ثم تتفكروا ما بصاحبكم ﴾ في موضع نصب عطفاً على ﴿ أن تقوموا لله ﴾ وتتفكروا أي وتنظروا وتعتبروا، ليس بصاحبكم يعني محمداً صلى الله عليه وآله ﴿ من جنة ﴾ أي جنون، لأنهم كانوا ينسبونه إلى الجنون وحاشاه من ذلك.

ثم بين انه ليس ﴿ إلا نذير ﴾ أي مخوف من معاصي الله وترك طاعاته ﴿ بين يدي عذاب شديد ﴾ يعني عذاب القيامة. ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله يا محمد ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ وليس ﴿ اجري إلا على الله ﴾ والمعنى أني ابلغكم الرسالة، ولا اجرّ إلى نفسي عرضاً من اعراض الدنيا بل ثمرة ذلك لكم، وليس أجري إلا على الله.

وقال ابن عباس ﴿ من أجر ﴾ اي من مودة، لان النبي صلى الله عليه وآله سأل قريشاً أن يكفوا عن أذاه حتى يبلغ رسالات ربه ﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ أي عالم به. ثم قال أيضاً ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ إن ربي يقذف بالحق ﴾ أي يلقيه على الباطل، كما قال تعالى ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ﴾ (٢) ﴿ علام الغيوب ﴾ إنما رفع بتقدير هو علام الغيوب، ولو نصب على انه نعت لـ (ربي) لكان جائزاً، لكن هذا اجود، لانه جاء بعد تمام الكلام كقوله ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ (٣) والمعنى انه عالم بجميع ما غاب عن جميع الخلائق علمه.

---

(١) سورة ٣٥ فاطر آية ١ (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ١٨

(٣) سورة ٣٨ ص آية ٦٤

ثم أمره صلى الله عليه وآله أن يقول لهم قد ﴿ جاء الحق ﴾ يعني أمر الله بالاسلام والتوحيد ﴿ وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ لأن الحق إذا جاء اذهب الباطل فلم يبق له بقية يبدىء بها ولا يعيد. وقال قتادة: الباطل إبليس لا يبدؤ الخلق ولا يعيدهم. وقيل: إن المراد به كل معبود من دون الله بهذه الصفة. وقال الحسن: وما يبدىء الباطل لاهله خيراً ولا يعيد بخير في الآخرة.

ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ إن ضللت ﴾ أي ان عدلت عن الحق ﴿ فانما اضل على نفسي ﴾ لأن ضرره يعود عليّ، لأني أوآخذ به دون غيري ﴿ وإن اهتديت ﴾ إلى الحق ﴿ فبما يوحي الي ربي إنه سميع قريب ﴾ أي يسمع دعاء من يدعوه قريب الى إجابته.

وفي الآية دلالة على فساد قول الجبرة، لانه قال ﴿ إن ضللت ﴾ فأضاف الضلال إلى نفسه، ولم يقل فبقضاء ربي وإرادته.

قال الزجاج: وما يبدىء الباطل أي اي شيء يبدىء الباطل؟ وأيّ شيء يعيد؟ ويجوز ان تكون (ما) نافية، والمعنى وليس يبدىء ابليس ولا يعيد.

قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ (٥٤) أربع آيات بلاخلاف.

قرأ حمزة والكسائي وابو عمرو ﴿ التناؤش ﴾ بالهمز . الباقون بغير همز .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ولو ترى ﴾ يا محمد ﴿ إذ فزعوا ﴾ من العذاب يوم القيامة ﴿ فلا فوت ﴾ أي لا مهرب ولا يفوتونه . فالفوت خروج وقت الشيء كفوت الصلاة ، وفوت وقت التوبة وفوت عمل اليوم بانقضائه . والفزع والجزع والخوف والرعب واحد . والفزع يتعاظم في الشدة بحسب أسبابه وقوله ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ قال ابن عباس والضحاك : أخذوا من عذاب الدنيا . وقال الحسن : حين يخرجون من قبورهم . وقيل : من بطن الارض الى ظهرها . والمعنى انهم اذا بعثوا من قبورهم ، ولو ترى فزعهم يامحمد حين لافوت ولا ملجأ . وجواب (لو) محذوف ، والتقدير لرأيت ما تعتبر به عبرة عظيمة . وقوله ﴿ وقالوا آمنا به ﴾ أي يقولون ذلك الوقت آمنا به وصدقنا به . فقال تعالى ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ قيل : معناه بفوتهم تناول التوبة في الآخرة الى الدنيا ، والتناوش التناول من قولهم نشته أنوشه اذا تناولته من قريب . قال الشاعر :

فهي تنوش الحوض نوشاً من علا ... نوشا به تقطع اجواز الفلا (١)

وتناوش القوم اذا دنا بعضهم الى بعض ، ولم يلتحم بينهم قتال ، وقد همز بعضهم ، فيجوز أن يكون من هذا ، لأن الواو اذا انضمت همزت كقوله ﴿ أقتت ﴾ (٢) ويجوز أن يكون من النش وهو الابطاء ، وانتاشه اخذ به من مكان بعيد ، ومثله ناشه قال الشاعر :

تمنى نئيشاً أن يكون اطاعني ... وقد حدثت بعد الأمور امور (٣)

---

(١) تفسير الطبري ٢٢ / ٦٥ (٢) سورة ٧٧ المرسلات آية ١١

(٣) تفسير القرطبي ١٤ / ٣١٧

وقال رؤبة :

اقحمني جار ابي الجاموش اليك نأش القدر المنؤش(١)

﴿ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ معناه كيف تقبل توبتهم أو يردون الى الدنيا ، وقد كفروا بالله ورسله من قبل ذلك ، وهو قوله ﴿ بالغيب من مكان بعيد ﴾ يعني قولهم هو ساحر وهو شاعر وهو مجنون. وقيل : هو قولهم لا بعث ولا جنة ولا نار ـ ذكره قتادة ـ وقال البلخي : يجوز ان يكون اراد انهم يفعلون ذلك بحجة داحضة وأمر بعيد . وقال قوم : يقذفون بالظن ان التوبة تنفعهم يوم القيامة عن مكان بعيد الا ان في العقل انها لا تقبل . ثم قال ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ أي فرق بينهم وبين شهواتهم ، من قبول توبتهم وايصالهم الى ثواب الجنة أو ردهم الى دار الدنيا ﴿ كما فعل ﴾ مثل ذلك ﴿ باشياعهم من قبل ﴾ وهو جمع الجمع تقول شيعة وشيع واشياع ، ولان أشياعهم تمنوا أيضاً مثل ذلك فحيل بينهم وبين تمنيهم . ثم اخبر ﴿ انهم كانوا في شك من ذلك ﴾ في الدنيا ﴿ مريب ﴾ والريب أقبح الشك الذي يرتاب به الناس .

وقال سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير قوله « ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت » نزلت في الجيش الذي يخسف بهم بالبيداء فيبقى رجل يخبر الناس بما رآه، ورواه حذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله .

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٥١

٣٥ - سورة فاطر

مكية في قول مجاهد وقتادة : لا ناسخ فيها ولا منسوخ ، وبه قال الحسن إلا آيتين قوله « إن الذين يتلون كتاب الله » إلى قوله « الفضل الكبير » وهي خمس وأربعون آية عراقي وحجازي إلا اسماعيل . وست واربعون في عدد اسماعيل والشاميين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ

وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي « هل من خالق غير الله » جراً على أنه صفة لـ (خالق) الباقون ـ بالرفع ـ على تقدير هل من خالق هو غير الله ، ويجوز ان يكون التقدير : هل غير الله من خالق ، ويجوز أن يكون رفعاً على موضع (من) وتقديره هل خالق غير الله .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله قل يا محمد « الحمد لله » أي الشكر له على جميع نعمه « فاطر السموات والارض » أي خالقهما ومخترعهما . والفطر الشق عن الشيء باظهاره للحس ، ومعنى فطر السموات والارض أي خلقهما وأظهرهما للحس بعد ان لم تكونا ظاهرتين ، وروي عن ابن عباس أنه قال : ما كنت أدري ما معنى فطر السموات حتى احتكم إلي اعرابيان في بئر ، فقال أحدهما أنا فطرتها ، أي اخترعتها وابتدأتها . ومن كان خالق السموات والأرض لايفعل إلا ما يستحق به الشكر والحمد ، لأنه غني حكيم ، فلا يعدل عما يستحق به الحمد إلى مالا يستحق به ذلك .

وقوله « جاعل الملائكة رسلا » أي جعل الملائكة رسلا بعضهم إلى بعض وبعضهم إلى البشر . ثم ذكر اوصافهم وهو أنهم « أولي اجنحة » أي اصحاب أجنحة « مثنى وثلاث ورباع .... » أي اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة واربعة اربعة ، فهذه الألفاظ معدولة عن الاثنين والثلاث والاربع ، مع انها

صفات فلذالك ترك صرفها قال الشاعر :

ولكنما اهلي بواد أنيسه ذئاب تبغي الناس مثنى وموحد (١)

وإنما جعلهم أولي أجنحة ، ليتمكنوا بها من العروج إلى السماء ومن النزول الى الارض ، قال قتادة : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة ، ثم قال « يزيد في الخلق ما يشاء » قيل حسن الصوت وقيل من الأجنحة من حيث خلق الملائكة زيادة عما خلق لسائر الخلق من البشر والامم . فان قيل : الطائر لايحتاج إلى اكثر من جناحين فما معنى خلق الملائكة أولي ثلاث واربع ? قيل : يجوز أن يكون كل جناح بعلوه باثنين ، ويجوز أن يكون للزينة الزائدة ، وقد يكون للسمكة أجنحة في ظهرها . ثم بين « أن الله على كل شيء قدير » أي لا شيء إلا وهو تعالى قادر عليه بعينه او قادر على مثله.

ثم قال تعالى « ما يفتح الله للناس من رحمة » معنى (ما) الذي وتقديره الذي يفتح الله للناس من نعمة ورحمة « فلا ممسك لها وما يمسك » من نعمة على خلقه « فلا مرسل له من بعده » أي من بعد الله « وهو العزيز » يعني القادر الذي لا يقهر « الحكيم » في جميع افعاله ، إن انعم وإن امسك ، لأنه عالم بمصالح خلقه لا يفعل إلا مالهم فيه مصلحة في دينهم او دنياهم .

ثم خاطب المؤمنين فقال « يا ايها الناس اذكروا نعمة الله عليكم » بأن خلقكم وأوجدكم وأحياكم وأقدركم وشهاكم ، وخلق لكم المنافع التي تنتفعون بها « هل من خالق غير الله » تقريراً لهم على انه لا خالق غير الله في السموات والأرض « يرزقكم من السماء » بالمطر ومن « الارض » بالنبات « لا إله إلا هو » أي لامعبود يستحق العبادة سواه تعالى « فأنى تؤفكون » أي كيف تقلبون

(١) الكتاب لسيبويه ٢ / ١٥

عن طريق الحق إلى الضلال . وانما قال « هل من خالق غير الله » وإن كان احدنا يخلق الشيء لأن هـذه الصفة لا تطلق إلا عليه تعالى ، فاما غيره فانها تقيد له . وايضاً فقد فسر ما أراد وهو أنه هل من خالق رازق للخلق من السموات والأرض غير الله أي لا خالق على هذه الصفة إلا هو . هذا صحيح لأنه لا احـد يقدر على ان يرزق غيره من السماء والأرض بالمطر والنبات وأنواع الثمار .

ثم قال تعالى تعزية للنبي ﷺ وتسلية له عن تكذيب قومه إياه « وإن يكذبوك » يا محمد هؤلاء الكفار « فقـد كذبت رسل من قبلك » أرسلهم الله فكذبوهم ولم يقبلوا منهم فلك اسوة بمن كان قبلك « وإلى الله ترجع الامور » يعني ترد الأمور الى حيث لا يملك التصرف فيها مطلقاً غير الله يوم القيامة .

ثم خاطب الخلق فقال « يا أيها الناس إن وعد الله حق » يعني ماوعدهم به من البعث والنشور والجنة والنار صحيح كائن لا محالة « فلا تغرنكم الحياة الدنيا » فتغترون بملاذها وزينتها وتتركون ما امركم الله به وترتكبون ما نهاكم عنه ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ فالغرور هو الذي عادته ان يغر غيره ، والدنيا وزينتها بهذه الصفة ، لأن الخلق يغترون بها ، وقال الحسن الغرور الشيطان الذي هو إبليس ، وهو قول مجاهد . والرزق يطلق على وجهين :

احدهما ـ ان الله جعله يصلح للغـذاء يتغذى به الحيوان والملابس يلبسونه فالعباد من هذا الوجه لا يأكلون ولا ينتفعون إلا بما جعله الله رزقاً لهم .

والثاني ـ انه ملكه الله وحكم انه له فهم يتظالمون من هذا الوجه .

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ (٦) ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) وَٱللَّهُ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ (١٠) .

خمس آيات حجازي وكوفي، وست بصري وشامي، عدّ البصريون والشاميون ﴿ شديد ﴾ ولم يعده الباقون .

قرأ أبو جعفر ﴿ فلا تُذهِب ﴾ بضم التاء وكسر الهاء ﴿ نفسَك ﴾ بنصب السين . الباقون ـ بفتح التاء والهاء، ورفع السين .

يقول الله تعالى مخبراً لخلقه من البشر ﴿ إن الشيطان لكم عدو ﴾ فيعدل

بكم عن افعال الخير ويدعوكم إلى ما فيه الهلكة ، فالعداوة ضد الولاية ، ولا يجوز ان يكون احد عدواً من وجه ولياً من وجه ، كما لا يجوز أن يكون موجوداً من وجه معدوماً من وجه ، لان الصفتين متنافيتان . ثم امرهم بأن يتخذوا الشيطان عدّواً كما هو عدّولهم ، وبين تعالى أن الشيطان ليس يدعو إلا حزبه أي اصحابه وجنده ، وهم الذين يقبلون منه ويتبعونه . وبين انه إنما يدعوهم ليكونوا من اصحاب السعير بارتكاب المعاصي والكفر بالله تعالى ، والسعير النار المستعرة .

ثم اخبر تعالى ﴿ إن الذين كفروا ﴾ بآيات الله ويكذبون رسله ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ جزاء على كفرهم وتكذيبهم ، وإن ﴿ الذين آمنوا وعملوا ﴾ الأفعال ﴿ الصالحات لهم مغفرة ﴾ من الله لذنوبهم ولهم ﴿ أجر ﴾ أي ثواب ﴿ كبير ﴾ ثم قال مقرراً لهم ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ يعني الكفار زينت نفوسهم لهم أعمالهم السيئة فتصوروها حسنة او الشيطان يزنيها لهم فيميلهم الى الشبهة وترك النظر في الأدلة الدالة على الحق باغوائه حتى يتشاغلوا بما فيه اللذة وطرح الكلفة .

وخبر (من) في قوله ﴿ أفمن زين له سوء عمله ﴾ محذوف وتقديره يتحسر عليه ، وقيل : إن الخبر قوله ﴿ فان الله يضل من يشاء ﴾ إلا أنه وقع ﴿ من يشاء ﴾ موقعه . وقيل : جواب ﴿ افمن زين ﴾ محذوف بتقدير : كمن علم الحسن من القبيح ، وعمل بما علم . وقيل : كمن هداه الله .

وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول : إن المعارف ضرورة ، لأنه دل على انهم رأوا اعمالهم السيئة حسنة . وهذا رأي فاسد ، ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ناهياً له ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم ﴾ يا محمد ﴿ حسرات ﴾ . ومن فتح التاء جعل

الفعل للنفس . والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ من المعاصي والطاعات فيجازيهم بحسبها .

ثم قال ﴿ والله الذي ارسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ أي تنشئه وتجمعه وتجيء به وتحركه ﴿ فسقناه ﴾ إي فساقه الله ﴿ الى بلدميت ﴾ لم يمطر أي قحط وجدب فيمطر على تلك الأرض فيحيي بذلك الماء والمطر الأرض بعد موتها بالزرع بعد أن لم يكن فيها زرع . ثم قال : كما فعل هذا بهذه الأرض الجدبة القحطة من احيائها بالزرع بعد أن لم يكن فيها زرع مثل ذلك ينشر الخلائق بعدموتهم ويحشرهم الى الموقف للجزاء من ثواب وعقاب . وقيل : إن الله تعالى اذا اراد احياء الخلق امطر السماء أربعين يوماً فينبت بذلك الخلق نباتاً .

ثم قال تعالى ﴿ من كان يريد العزة ﴾ يعني القدرة على القهر والغلبة ﴿ فلله العزة جميعاً ﴾ أي له القهر على جميع الاشياء لا يقدر احد ان يمنعه مما يريد فعله به . وقيل : معناه من كان يريد علم العزة لمن هي ، فهي لله . وقيل : معناه من اراد العزة فليطع لله حتى يعزه .

وقوله ﴿ اليه يصعد الكلم الطيب ﴾ قيل : معناه انه تعالى يقبله ويثيب عليه . وقيل : اليه يصعد اي الى حيث لا يملك الحكم فيه إلا الله ، كما يقال : ارتفع امرهم الى القاضي . وقوله ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ اى يقبله . وقيل : في الضمير الذى في (يرفعه) ثلاثة اوجه : احدها - يرفع الكلم الطيب من الفعل . الثاني - يرفعه الكلم الطيب . الثالث - يرفعه الله .

ثم قال ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ اى يحتالون لفعل السيئات من الشرك والكبائر . وقيل : هم اصحاب الرياء ﴿ لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال قتادة: معناه مكرهم يفسد. وقيل : معنى يبور يكسد ، فلا ينفذ في مايريدون

وقال مجاهد : هو ما عمل للرياء فانه يفسد ، قال ابن الزبعرى :

يارسول المليك ان لساني راتق ما فتقت اذ انابور (١)

قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يَا أَيُّهَا

(١) مر تخريجه في ٦ / ٢٩٤ و ٧ / ٤٧٩

ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (١٧)

ست آيات بصرى وسبع في ما عداه عدوا ﴿ بخلق جديد ﴾ ولم يعده البصريون.

قرأ يعقوب ولا ﴿ ينقص من عمره ﴾ بفتح الياء وضم القاف . الباقون على ما لم يسم فاعله . وقرأ قتيبة ﴿ والذين تدعون ﴾ بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر .

هذا خطاب من الله سبحانه لجميع خلقه من البشر انه خلقهم من تراب ، ويريد أن آدم الذى هو ابوهم ومنه انتسلوا خلقه من تراب ومنه توالدوا . وقيل : إن المراد به جميع الخلق ، لانهم إذا خلقهم من نطفة والنطفة تستحيل من الغذاء ، والغذاء يستحيل من التراب ، فكأنه خلقهم من تراب ، ثم جعل التراب نطفة بتدريج . وعلى الأول يكون قوله « ثم من نطفة » معناه ثم خلق اولاد آدم من نطفة ثم استثنا منه عيسى في قوله « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » (١) فقوله « ثم جعلكم ازواجاً » أي اشكالا لان الزوج هو الذي معه آخر من شكله ، والاثنان زوجان « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » معناه ليس تحمل الانثى من حمل يولد ولا تضعه لتمام ولغير تمام إلا والله تعالى عالم به ، لا أن علمه آلة في ذلك ، ولا يدل ذلك على أن له علماً يعلم به ، لأن المراد ما ذكرناه من انه لا يحصل شيء من ذلك إلا وهو عالم به .

وقوله « وما يعمر من معمر » والعمر مدة الأجل للحياة وهو تفضل من

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٥٩

الله سبحانه وتعالى يختلف مقداره بحسب ما يعلم من مصالح خلقه ، كما يختلف الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والمعنى : وليس يطول عمر احد ولا ينقص من عمره بأن يذهب بعضه بمضي الليل والنهار إلا وذلك في الكتاب المحفوظ أثبته الله تعالى قبل كونه . وقال الحسن والضحاك وابن زيد : معنى « ولا ينقص من عمره » أي من عمر معمر آخر ، وقال ابو مالك : معناه ولا ينقص من عمره ينقضي ما ينقضي منه . وقال الفراء : هو كقولك : عندي درهم ونصفه أي ومثل نصف الدرهم من غيره .

ثم قال ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ يعني تعمير من يعمره ونقصان من ينقصه وإثبات ذلك في الكتاب سهل على الله غير متعذر .

ثم قال تعالى ﴿ وما يستوي البحران ﴾ أي لا يستويان لان ﴿ هذا عذب فرات سائغ شرابه ﴾ اي مريء شهي ﴿ وهذا ﴾ الآخر ﴿ ملح أجاج ﴾ فالفرات أعذب العذب والاجاج أشد المر . والاجاج مشتق من أججت النار كأنه يحرق من مرارته . و ﴿ اللؤلؤ والمرجان ﴾ (١) يخرج من الملح دون العذب . وقيل: في الملح عيون عذبة ، وفي ما بينهما يخرج اللؤلؤ .

ثم قال ﴿ ومن كل ﴾ يعني من البحرين العذب والاجاج ﴿ تأكلون لحماً طرياً ﴾ يعني سمكا ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ من اللؤلؤ والمرجان ﴿ وترى الفلك ﴾ يعني السفن ﴿ فيه مواخر ﴾ اي تشق الماء في جريانها شقاً . وقيل : معناه إنها تذهب وتجيء ، بلغة قريش وهذيل . وقال الحسن : يعني مواقير كقوله ﴿ الفلك المشحون ﴾ (٢) ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ معناه إنه تعالى خلق ذلك لخلقه

---

(١) سورة ٥٥ الرحمان آية ٢٢ (٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ١١٩ وسورة ٣٦ يس آية ٤١ وسورة ٣٧ الصافات آية ١٤٠

ليلتمسوا من فضل الله بركوب البحر للتجارة والمسير فيها طلباً للمنافع وما يخرجون منها من انواع الاشياء لكي يشكروا الله على نعمه ويحمدوه على فضله

ثم قال ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ معناه انه ينقص من الليل في النهار عند منقلب الصيف ، ومن النهار في الليل عند منقلب الشتاء . وقيل : معناه انه يدخل كل واحد منهما على صاحبه ويتعقبه ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ قدره الله لهما بحسب ما علم من مصالح خلقه إلى الوقت الذي يفنيهما الله فيه . فتسخير الشمس نزولها في بروج مخصوصة في أوقات مخصوصة كل فصل منها لنوع آخر من المنافع لا يختلف الحال فيه ، وتسخير القمر جريانه على وتيرة واحدة ، فيستدل به على السنين والشهور ، وذلك يدل على أن مدبره عالم حكيم .

ثم قال ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ الذي يقدر على تسخير الشمس والقمر ، وايلاج الليل في النهار والنهار في الليل وخلق البحرين العذب والمالح ، ومنع احدهما أن يختلط بالآخر لا يقدر عليه غيره ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ وتوجهون عبادتكم اليهم من الاصنام والاوثان ﴿ ما يملكون من قطمير ﴾ وهو قشر النواة ـ في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وعطية ـ فدل على أن من لا يملك هذا القدر لا يستحق العبادة ولا يكون إلهاً .

ثم قال ﴿ إن تدعوهم ﴾ يعني الاصنام ﴿ لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ لانها جمادات يستحيل ذلك عليها ، ولا يقدرون على ضرر ولا نفع ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ قيل : إن الله تعالى يحيي الاصنام يوم القيامة لينكروا على المشركين ، ويوبخوهم على عبادتهم إياهم . وقال البلخي : يجوز ان يكون المراد به الملائكة وعيسى . وقوله ﴿ لا يسمعوا

دعاءكم ﴾ أي هم بحيث لا يسمعونه اوهم مشتغلون عنهم لا يلتفتون اليهم ولا يصغون ويجوز ان يكون المراد بها الاصنام ويكون ما يظهرونه من بطلان ما ظنوه كفراً بشركهم وجحداً له كما حصل ما في الجماد من الدلالة على الله مسبحاً له وهو كقولهم : سل الارض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك ، فان لم تجبك حواراً اجابتك عتباراً ﴿ ولا ينبئك ﴾ يا محمد بالشيء على حقيقته ﴿ مثل خبير ﴾ عالم بما اخبر ، والله تعالى هو العالم بالاشياء على حقائقها .

ثم قال تعالى ﴿ يا ايها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ اي محتاجون اليه ﴿ والله هو الغني ﴾ عن جميع المخلوقات لا تجوز عليه الحاجة ، لأنه ليس بجسم فالحاجة من صفة الاجسام ﴿ الحميد ﴾ يعني المحمود المستحق للحمد على جميع افعاله ، والله تعالى لا يفعل إلا ما يستحق به حمداً .

ثم اخبر تعالى عن قدرته فقال ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ معاشر الخلق ويفنيكم ﴿ ويأت بخلق ﴾ آخر ﴿ جديد ﴾ وهو ما كان قريب عهد بانقطاع العمل عنه ، واصله القطع من جده يجده إذا قطعه . والجد ابو الأب لانقطاعه عن الولادة بالأب والجد المضي فيه بقطعه أولا اولا من غير تفتير ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي بممتنع فالعزيز المنيع بوجه من الوجوه الذي يتعذر معها الفعل .

قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ

وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ (١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَاتُ وَلَا ٱلنُّورُ (٢٠) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَاءُ وَلَا ٱلْأَمْوَاتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ (٢٣).

ست آيات حجازي وكوفي وخمس آيات شامي واربع آيات بصري عد الحجازيون والكوفي والشامي «البصير» و «النور» ولم يعده البصري وعد الحجازيون والعراقيون « القبور» ولم يعده الشامي.

يقول الله تعالى مخبراً حسب ما تقتضيه حكمته وعدله أنه « لا تزر وازرة وزر اخرى» معناه أنه لا تحمل حاملة حمل أخرى من الذنب، والوزر الثقل، ومنه الوزير لتحمله ثقل الملك بما يتحمله من تدبير المملكة، وتقديره أنه لا يؤاخذ احد بذنب غيره، وإنما يؤاخذ كل مكلف بما يقترفه من الاثم.

وقوله « وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » معناه وإن تدع مثقلة بالآثام غيرها لتحمل عنها بعض الاثم لا يحمل عنها شيئاً من آثامها، وإن كان أقرب الناس اليها، لما في ذلك من مشقة حمل الآثام ولو تحملته لم يقبل تحملها، لما فيه من مجانبة العدل ومنافاته له، فكل نفس بما كسبت رهينة، لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، ولا يؤخذ إلا بجنايته.

وقوله « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب » معناه ليس ينتفع بتخويفك يا محمد إلا الذين يخافون ربهم في غيبتهم وخلواتهم فيجتنبون معاصيه في سرهم ويصدقون بالآخرة.

وقوله « واقاموا الصلاة » قال ابو عبيدة في مجازه : اي ويقيمون ، فوقع الماضي مقام المستقبل ، والمعنى يديمون فعلها ويقومون بشرائطها . وإنما عطف الماضي على المستقبل إشعاراً باختلاف المعنى ، لان الحسنة لازمة في كل وقت والصلاة لها اوقات مخصوصة ، واضاف الأنذار إلى الذين يخشون ربهم من حيث كانوا هم المنتفعون بها ، وإن كان النبي صلى الله عليه وآله ينذر كل مكلف .

ثم قال « ومن تزكى » أي فعل الطاعات وقام بما يجب عليه من الزكاة وغيرها من الواجبات فانما يتزكى لنفسه ، لان ثواب ذلك ونفعه عائد عليه . وقوله « وإلى الله المصير » معناه يرجع الخلق كلهم الى حيث لا يملك الأمر والنهي إلا الله ، فيجازي كل مكلف على قدر عمله . وقوله « وما يستوي الاعمى والبصير » معناه لا يتساوى الأعمى عن طريق الحق والعادل عنها ، والبصير الذي يهتدي إليها قط ، لأن الأول يستحق العقاب ، والثاني يستحق الثواب « ولا الظلمات ولا النور » يعني وكذلك لا يستوي المؤمن والكافر والمطيع والعاصي فشبه الايمان بالنور والكفر بالظلمات ، وكذلك لا يستوي « الظل ولا الحرور » فالظل هو الستر عن موقع الشمس ومنه الظلة ، وهي السترة عن موقع الشمس ، ومنه قولهم : ظل يفعل كذا إذا فعل نهاراً في الوقت الذي يكون للشمس ظل ، والحرور السموم وهو الريح الحارة في الشمس ، وقال الفراء : الحرور يكون بالليل والنهار والسموم لا يكون إلا بالنهار . وقيل : الظل الجنة والحرور النار « وما يستوي الاحياء ولا الاموات » أي هما ايضاً لا يتساويان ولا يتماثلان ، فالاسواء حصول أحد الشيئين على مقدار الآخر ، ومنه الاستواء في العود والطريق خلاف الاعوجاج ، لمره على مقدار أوله من غير انعدال .

وهذه الأمثال أمثال ضربها الله لعبادة الله وعبادة الأوثان ، وبين أنه كما

لا تماثل هذه الاشياء ، ولا تتشاكل ولا تتساوى ، فكذلك عبادة الله لاتشبه عبادة الاصنام .

ثم قال تعالى « إن الله يسمع من يشاء » ومعناه أن الله ينفع باسماع ذلك من يشاء ممن يعلم أن له لطفاً يفعله به دون غيره « وماأنت بمسمع من في القبور » أي لانك لا تقدر على نفع الكفار باسماعك إياهم إذا لم يقبلوا ، كما لا تسمع من في القبور من الأموات « ان أنت إلا نذير » أي لست إلا نذيراً مخوفاً بالله. شبه الكفار في تركهم قبول ما يسمعون وذهابهم عن تفهمه وتدبره بالموتى ، كما شبههم بالصم والعمي، يقال : أصمهم وأعمى أبصارهم ليس أنهم كانوا لا يسمعون ولا يفهمون أو كان النبي صلى الله عليه وآله لا ينذرهم لكن على ما بيناه من التشبيه . وقيل في (لا) قولان : أحدهما ـ أنها زائدة مؤكدة للنفي . الثاني ـ انها باقية لاستواء كل واحد منهما لصاحبه على التفصيل . فمن قال : إنها زائدة قال في مثل قولهم لا يستوي زيد ولا عمرو في هذا المعنى ، فلا تكون هنا إلا زائدة ، ومن قال : ليست زائدة ، قال تقديره لايستوي الاعمى والبصير ولا يساوي البصير الاعمى .

قوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (٢٦) ثلاث آيات بلاخلاف .

لما قال الله تعالى لنبيه إن أنت إلا نذير ، ومعناه لست إلا مخوفاً من عقاب الله ومعاصيه قال له « انا ارسلناك » يا محمد « بالحق » أي بالدين الصحيح « بشيراً » أي مبشراً بالجنة وثواب الله لمن أطاعه « ونذيراً » أى مخوفاً من عقابه لمن عصاه « وإن من أمة » أى ليس من أمة في ما مضى إلا مضى فيها مخوف من معاصي الله . وقال قوم : المعنى « إلا خلافيها نذير » منهم وقال آخرون : نذير من غيرهم ، وهو رسول اليهم ، كما أرسل نبينا ﷺ الى العرب والعجم . وقال الجبائي : في ذلك دلالة على أنه لا أحد من المكلفين إلا وقد بعث الله اليهم رسولا ، وأنه أقام الحجة على جميع الامم .

ثم قال على وجه التسلية له والتعزية عن تكذيب قومه اياه « فان كذبوك » يا محمد ولم يصدقوك في انك نبي من قبل الله « فقد كذب الذين من قبلهم » من الكفار أنبياء أرسلوا اليهم « جاءتهم رسلهم » من الله « بالبينات » أى الحجج الواضحات « وبالزبر » يعني بالكتب « وبالكتاب المنير » الموضح بمنزلة ما فيه من نور يستضاء به . والزبر هي الكتب ، وانما كرر ذكر الكتاب ، وعطف عليه ، لاختلاف الصنفين ، لان الزبر الكتابة الثابتة كالنقر في الحجر ، ثم بين تعالى ان الكفار لما كذبوا رسل الله الذين جاؤهم بالبينات ولم يعترفوا بنبوتهم انه اخذهم بالعذاب و بالعقوبة العاجلة واهلكهم ودمر عليهم .

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا

وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٣٠) أربع آيات بلا خلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه والمراد به جميع المكلفين منبهاً لهم على طريق الاستدلال على وحدانيته واختصاصه من الصفات بما لا يختص به سواه بأن قال « ألم تر » يا محمد ومعناه ألم تعلم « ان الله أنزل من السماء ماء » يعني غيثاً ومطراً « فاخرجنا به » اخبار منه تعالى عن نفسه انه أخرج بذلك الماء « ثمرات » جمع ثمرة ، وهي ما يجتنى من الشجر « مختلفاً ألوانها » لان فيها الاحمر والابيض والاصفر والاخضر وغير ذلك ، ولم يذكر اختلاف طعومها وروائحها لدلالة الكلام عليه . والاختلاف هو امتناع الشيء من ان يسد مسد صاحبه فيما يرجع إلى ذاته ألا ترى أن السواد لا يسد مسد البياض ، وذلك لا يقدر عليه سواه تعالى من جميع المخلوقين « ومن الجبال جدد » واحده جده نحو مدة ومدد واما جمع جديد فجدد - بضم الدال - مثل سرير وسرر . والجدد الطرائق ﴿ بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ﴾ واحد الغرابيب غربيب وهو الذي لونه كلون الغراب من شدة سواده ، ولذلك قال (سود) لانه دل عليه من هذا

الوجه ، ثم بين بالافصاح أنها سود ، قال امرؤ القيس :

كأن سراته وجـدة متنه كنائن يجري فوقهن دليص (١)

يعني بالجدة الخطة السوداء تكون في متن الحمار ، والكنائن جمع كنانه ، والدليص الذي يبرق من الذهب والفضة وما أشبهها ، فالجدد هي الوان الطرق . ثم قال ﴿ ومن الناس ﴾ أيضاً ﴿ ومن الدواب ﴾ التي تدب على وجه الأرض ﴿ والانعام ﴾ كالابل والبقر والغنم ﴿ مختلف ألوانه ﴾ ايضاً مثل ذلك مما في الجبال والثمار ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ما قدمنا ذكره .

ثم قال ﴿ انما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ومعناه ليس يخاف الله حق خوفه ولا يحذر معاصيه خوفاً من عقابه إلا العلماء الذين يعرفون حقيقة ذلك فأما الجهال ومن لايعرف الله فلا يخافونه مثل ذلك ، وكذلك ينظر العلماء في حجج الله و بيناته ويفكرون في ما يفضي بهم إلى معرفته من جميع ما تقدم ذكره

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ إن الله عزيز ﴾ في انتقامه من اعدائه ﴿ غفور ﴾ لأوليائه والتائبين من خلقه الراجعين إلى طاعته .

ثم قال ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾ يعني يقرؤن القرآن ويعملون بما فيه ﴿ واقاموا الصلاة وانفقوا ﴾ في طاعة الله ﴿ مما رزقناهم ﴾ أي مما رزقهم الله وملكهم التصرف فيه ﴿ سراً وعلانيــة ﴾ أي في حال سرهم ، وفي حال علانيتهم ﴿ يرجون ﴾ في موضع الحال أي راجيين بذلك ﴿ تجارة لن تبور ﴾ أي لا تكسد . وقيل : لا تفسد ، يقال بارت السوق إذا كسدت وبار الطعام ، وبار الشيء إذا فسد ، قال الشاعر :

(١) ديوانه (شرح السندوسي) ١٢٤ وروايته (ظهره) بدل (متنه)

يارسول المليك إن لساني راتق ما فتقت إذ أنابور (١)

ثم بين انهم يقصدون بذلك أن يوفيهم الله أجور ما عملوا من الطاعات بالثواب ويزيدهم من فضله زيادة على قدر استحقاقهم، لانه وعد بأن يعطي الواحد عشرة ﴿ إنه غفور ﴾ لعباده ساتر لذنوبهم ﴿ شكور ﴾ معناه إنه يعامل بالاحسان معاملة الشاكر. وقال الجبائي: وصفه بأنه شكور مجاز، لان معناه انه يجازي على الطاعات.

قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ (٣١) ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ (٣٢) جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ (٣٣) وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ (٣٤) ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴾ (٣٥)

خمس آيات بلاخلاف.

(١) قدم، في ٦ / ٢٩٤ و ٧ / ٤٧٩

قرأ ابو عمرو ﴿ يدخلونها ﴾ بضم الياء على مالم يسم فاعله ليشاكل قوله تعالى ﴿ يحلون ﴾ . الباقون بفتح الياء ، لانهم إذا أدخلوها فقد دخلوها ، والمعنيان متقاربان .

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ والذي أوحينا اليك ﴾ يا محمد وأنزلناه عليك ﴿ من الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ هو الحق ﴾ معناه هو الصحيح الذي معتقده على ما هو به . وضده الباطل ، وهو ما كان معتقده لاعلى ما هو به . والعقل يدعو إلى الحق ويصرف عن الباطل ، وقوله ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ معناه مصدقاً لما قبله من الكتب بأنه جاء موافقاً لما بشرت به تلك الكتب من حاله وحال من أتى به . ثم قال ﴿ إن الله ﴾ تعالى بعباده ﴿ لخبير ﴾ أي عالم بهم ﴿ بصير ﴾ بأحوالهم لا يخفى عليه شيء منها فيجازيهم على استعمال الحق بالثواب وعلى استعمال الباطل بالنار . ثم قال ﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾ يعني القرآن أورثناه من أصطفيناه من عبادنا . ومعنى الارث انتهاء الحكم اليه ومصيره لهم ، كما قال تعالى ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ (١) وقيل المراد أورثناهم الايمان بالكتب السالفة وكان الميراث انتقال الشيء من قوم إلى قوم. والأول أصح . والاصطفاء الاختيار باخراج الصفوة من العباد ، فاصطفى الله المؤمن يحمل على ثلاث طبقات مؤمن ظالم لنفسه بفعل الصغيرة ، ومقتصد بالطاعات في المرتبة الوسطى ، وسابق بالخيرات في الدرجة العليا ، وهم الذين لم يرتكبوا شيئاً من المعاصي ، وكل وعدالله الحسنى ، والذين اصطفاهم الله وأورثهم الكتاب قيل : هم الانبياء فمنهم ظالم لنفسه يعني أصحاب الصغائر . وقيل : هم اصحاب النار ، هذا من قول من أجاز على الانبياء الصغائر دون الكبائر ، فأما

---

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٧٢

من لايجوز عليهم شيئاًمن المعاصي أصلاً لاصغيرة ولا كبيرة يقول : معنى الآية إن الله تعالى أورث علم الكتاب الذي هو القرآن الذين اصطفاهم واجتباهم واختارهم على جميع الخلق من الانبياء المعصومين ، والأئمة المنتجبين الذين لايجوز عليهم الخطأ ولا فعل القبيح لا صغيراً ولا كبيراً ، ويكون قوله ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ راجعاً إلى (عباده) وتقديره فمن عبادنا ظالم لنفسه ، ومن عبادنا مقتصد ، ومن عبادنا سابق بالخيرات ، لأن من اصطفاه الله لا يكون ظالماً لنفسه ، فلا يجوز أن ترجع الكناية إلى الذين اصطفيناوقوله « بالخيرات » يعني يعلم من اقتصد او ظلم نفسه أو سبق بالخيرات .

ثم قال ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ يعني السبق بالخيرات هو الفضل العظيم الذي لاشيء فوقه . وقال ابن عباس : الذين أورثهم الله الكتاب هم أمة محمد ، ورثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسبهم حساباً يسيراً وسابقهم يدخلون الجنة بغير حساب . وقال ابن مسعود - بذلك - وكعب الاحبار . وقال الثلاث فرق - المذكورة في هذه الآية - كلهم في الجنة . وقال عكرمة عن ابن عباس: إن المصطفين من هذه الأمة الأنبياء ، والظالم لنفسه هو المنافق والمقتصد والسابق بالخيرات في الجنة ، والمنافق في النار . وقال الحسن ومجاهد : السابق بالخيرات من جميع الناس ، والظالم لنفسه أصحاب المشئمة ، والمقتصد اصحاب الميمنة من الناس كلهم . وهذا مثل ما قلناه من ان الكناية راجعة إلى العباد دون المصطفين . وقال البلخي : الاصطفاء - ههنا - التكليف دون الثواب ، فعلى هذا يجوز أن ترجع الكناية الى المصطفين .

ثم قال « جنات عدن » فرفع جنات على تفسير الفوز ، كأنه قيل : ماذلك الفوز ؟ فقال هي جناتٍ أي جزاء جناتٍ أو دخولِ جناتٍ ، ويجوز أن يكون

بدلا من الفوز ، كأنه قال ذلك جنات أي دخول جنات، والجنات هي البساتين التي يجنها الشجر ، والعدن الاقامة « يدخلونها » يعني من تقدم ذكره من الذين سبقوا بالخيرات والمقتصدين « يحلون فيها » بمعنى يلبسون فيها الحلي « من اساور من ذهب » وأساور جمع اسوار ، ومن قال سوار جمعه على أسورة « من ذهب ولؤلؤ » فيمن جر ، ومن نصب « لؤلؤاً » وهو نافع وعاصم فعلى تقدير ويحلون فيها لؤلؤاً « ولباسهم فيها حرير » معناه إن ما يلبسه أهل الجنة من اللباس ابريسم محض .

ثم اخبر تعالى عن حال من يدخل الجنة أنهم إذا دخلوها « قالوا الحمد لله » أي اعترافاً بنعمة الله وشكراً له على نعمه ، وهو الاعتراف منهم على وجه الالجاء ، لهم في ذلك سرور لا على وجه التكليف « الذي أذهب عنا الحزن » ومعناه أذهب الغم عنا بخلاف ما كنا عليه في دار الدنيا ، وقيل : الحزن الذي اصابهم قبل دخول الجنة ، فانهم يخافون من دخول النار إذا كانوا مستحقين لها ، فاذا تفضل الله عليهم بأن يسقط عقابهم ويدخلهم الجنة حمدوا الله على ذلك . وقيل : ما كان ينالهم في دار الدنيا من أنواع الاحزان والاهتمام بأمر المعاش والخوف من الموت وغير ذلك « إن ربنا لغفور شكور » لذنوب عباده إذا تابوا مجاز لهم على شكرهم لنعمه . وقيل : إن مكافاته لهم على الشكر لنعمه والقيام بطاعاته جرى مجرى أن يشكره لهم وإن كان حقيقة لا يجوز عليه تعالى من حيث كان اعترافاً بالنعمة ، ولا يصح عليه تعالى أن يكون منعماً عليه ، ثم وصفوا الله تعالى بأن قالوا « الذي أحلنا » أي انزلنا دار المقامة يعني دار الاقامة وإذا فتحت الميم كان المراد موضع القيام قال الشاعر :

يومان يوم مقـامات وأندية　　　ويوم سير إلى الاعداء تأويب (١)

و « من فضله لا يمسنا فيها نصب » يعني تعب . وقال قتادة : معنـاه وجع « ولا يمسنا فيها لغوب » يعني اعياء . وقيل : اللغوب العناء . ومنه قوله تعالى « وما مسنا من لغوب » (٢) .

قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) إِنَّ ٱللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٣٨) هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً

(١) اللسان (أوب)　　(٢) سورة ٥٠ ق آية ٣٨

فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ ٱلظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً ﴾ (٤٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابو عمرو وحده « يجزى » بضم الياء على ما لم يسم فاعله . الباقون بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه . وقرأ ابن كثير وابو عمرو وحفص « على بينة » بالتوحيد لقوله « قد جاءكم بينة من ربكم » (١) الباقون « بينات » على الجمع ، لانها مكتوبة في المصاحف بالألف والتاء ، والبينة والبينات القرآن ، وفي قوله « حتى تأتيهم البينة رسول من الله » (٢) وهو محمد صلى الله عليه وآله . ويقال : بان الشيء وأبان إذا تبين ، فهو باين ومبين ، وأبنته أنا و بينته لا غير والبينة وزنها (فيعلة) فاجتمع ياآن فأدغم احداها في الأخرى .

لما اخبر الله تعالى عن أحوال اهل الآخرة وما أعده لأهل الجنة من أنواع الثواب أخبر ـ ههنا ـ عن حال الكفار وما أعده لهم من أليم العقاب فقال « والذين كفروا » بوحدانية الله وجحدوا نبوة نبيه « لهم نار جهنم » عقوبة لهم على كفرهم يعذبون فيها « لا يقضى عليهم فيموتوا » أي لا يحكم عليهم بالموت فيموتوا فيستريحوا ، يقال قضى فلان إذا مات « ولا يخفف عنهم من عذابها » معناه ولا ييسر عليهم عذاب النار ولا يسهل عليهم ومثل هذا العذاب ونظيره « كذلك نجزي كل كفور » جاحد لوحدانيته تعالى ومكذب لانبيائه .

ثم اخبر تعالى عن حال من هو في النار فقال « وهم يصطرخون فيها » أي

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٥٧ (٢) سورة ٩٨ البينة آية ٢

يتصايحون بالاستغاثة ، فالاصطراخ الصيـاح والنداء بالاستغاثة ، وهو افتعال من الصراخ قلبت التاء طاء لاجل الصاد الساكنة قبلها ، وإنما فعل ذلك لتعديل الحروف بحرف وسط بين حرفين يوافق الصاد بالاستعـلاء والاطباق ويوافق التاء بالمخرج. ويقولون « ربنا أخرجنا » من عذاب النار « نعمل صالحاً » يعني نعمل بالطاعات والاعمال الصالحات التي أمرنا بها « غير الذي كنا نعمل » من المعاصي ، فيقول الله لهم ـ في جوابه تبكيتا لهم وإنكاراً عليهم « أو لم نعمركم » في دار الدنيـا . وقال ابن عباس ، ومسروق : العمر الذي ذكره الله أربعون سنة ، وفي رواية أخرى ستون سنة ، وهو قول علي عليه السلام « ما يتذكر فيه من تذكر » أي عمرناكم مقدار ما يمكن أن يتـذكر ويعتبر وينظر ويفكر من يريد أن يتفكر ويتذكر « وجاءكم النذير » يعني المخوف من معاصي الله ، قال ابن زيد : يعني به محمداً صلى الله عليه وآله وقال غيره : أراد الشيب . وقيل : الحمى «فذوقوا» معاشر الكفار عقاب كفركم ومعاصيكم « فما للظالمين من نصير » اي ليس لمن ظلم ـ وبخس نفسه حقها بارتكاب المعاصي ـ ناصر يدفع عنه العذاب.

ثم اخبر تعالى بأنه « عالم غيب السموات والارض » لايخفى عليه شيء مما غاب عن جميع الخلائق علمه « إنه عليم بذات الصدور » ومعناه اتقوا واحذروا أن تضمروا في أنفسكم ما يكرهه الله تعالى ، فانه عليم بما في الصدور لايخفى عليه شيء منها .

وقوله « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض » معناه جعلـكم معاشر الكفار أمة بعد أمة وقرناً بعـد قرن . وهو قول قتادة « فمن كفر » أي جحد وحدانيته وأنكر نبوة نبيه صلى الله عليه وآله « فعليه » عقاب « كفره » دون غيره « ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً » أي لا يزيدهم كفرهم بالله عند الله

إلا أشد البغض لان المقت اشد البغض «ولا يزيد الكافرين» أيضاً «كفرهم إلا خساراً» لانهم يخسرون الجنة ويحصل لهم النار بدلا منها «وذلك هو الخسران المبين» ثم قال موبخاً لهم «قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله» قيل: معناه إدعوا شركاءكم في الاموال التي جعلتم لها قسطاً من السائبة والوصيلة والانعام والحرث، وهي الأوثان. وقيل: شركاءكم الذين اشركتموهم في العبادة مع الله «أروني ماذا خلقوا من الارض» معناه أي شيء اخترعوه وانشؤه فيدخل عليكم بذلك شبهة «أم لهم شرك في السموات؟» أي لهم شركة في خلق السموات؟ على وجه المعاونة لله؟ ﴿أم آتيناهم كتاباً﴾؟ أي أعطيناهم كتاباً أمرناهم فيه بما يفعلونه ﴿فهم على بينة منه﴾ اي من ذلك الكتاب، فان جميع ذلك محال لا يمكنهم ادعاء شيء من ذلك، ولا إقامة حجة ولا شبهة عليه ﴿بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ ومعناه ليس شيء من ذلك لكم، ليس يعد الظالمون أنفسهم بعضهم بعضاً إلا غروراً يغترون به وزوراً يتعدون به، يقال: غره يغره غروراً إذا أطمعه في ما لا يطمع فيه.

فان قيل: الآية تدل أن الله سبحانه ينفرد بالخلق دون العباد، لأنه بين أن من تهيأ له الخلق فهو إله.

قلنا: هذا كقوله ﴿ألهم أرجل يمشون بها؟ أم لهم أيد يبطشون بها﴾(١) فكما لا يدل على ان من كان له يد أو رجل يكون إلهاً، فكذلك لا يجب ان يكون من يخلق يكون الها على انه بين المراد بالخلق، فقال ﴿ماذا خلقوا من الارض﴾ لايقدر على خلق الارض ولا على شيء منه إلا الله تعالى على أنا

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٩٤

لا نطلق اسم خالق إلا على الله ، ونقيده في الواحد منا .

قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا (٤١) وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا (٤٣) أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا (٤٤) وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ (٤٥) .

خمس آيات كوفي ومكي ومدني الأول . وست شامي ، وفي عدد اسماعيل.

وسبع بصري . عد البصري والشامي واسماعيل ﴿ تبديلا ﴾ وعد البصري قبله ﴿ تزولا ﴾ ولم يعد ذلك الباقون .

لما بين الله تعالى أن الاصنام لا تقدر على شيء وأن ليس لها شرك في السموات والأرض ، أخبر عن عظيم قدرته وسعة سلطانه فقال ﴿ إن الله يمسك السموات ﴾ بأن يسكنها حالا بعد حال ، ولا يقدر على تسكينها غيره تعالى حال بعدحال ، لأنه يسكنها بغير عمد ،فالارضون ساكنة بلا عمد والسموات ساكنة باسكانه . وهي غير الأفلاك التي تجري فيها النجوم ، قال عبد الله بن مسعود ان السموات لاتدور ، ولو كانت تدور لكانت قد زالت . ومنعهما بهذا التسكين من أن تزولا عن مواضعها او تهوي او تسقط ، ومعنى ﴿ أن تزولا ﴾ كراهة أن تزولا . وقال الكوفيون : معناه ألا تزولا عن مراكزها ، فحذف (لا) .

ثم قال ﴿ ولئن زالتا ﴾معنى (لئن) (لو) ويوضع كل واحد منهما مكان الآخر ، لانهما يجابان بجواب واحد . ومثله ﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفراً ﴾ (١) ومعناه و (لو) ومعنى ﴿ ولئن زالتا ﴾ يعني عن مقرها ﴿ إن امسكهما من احد من بعده ﴾ أي ليس يسكنها احد ولا يقدر عليه احد بعدالله تعالى ﴿ انه كان حليماً ﴾ يعني القادر الذي لا يعاجل واحداً بالعقوبة ، ولا يحلم إلا قادر ، لأن من ليس بقادر ، لا يصح ان يعاقب ، فلا يحلم وإنما حلمه أناة عن استحق العقوبة ﴿ غفوراً ﴾ أي ستاراً لذنوبهم إذا تابوا لا يفضحهم بها على رؤس الأشهاد ، و (الغفور) الكثير الغفران لذنوب عباده بالتوبة و بالتفضل لمن يشاء منهم .

ثم حكى عن الكفار أنهم ﴿ أقسموا بالله ﴾ يعني حلفوا به ﴿ جهد أيمانهم ﴾

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٥١

أي غاية وسعهم وطاقتهم ﴿ لئن جاءهم نذير ﴾ أي مخوف من جهة الله يخوفهم من معاصيه ﴿ ليكونن أهدى ﴾ إلى اتباعه والقبول منه ﴿ من احدى الأمم ﴾ الماضية وأسبق إلى اتباعه ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ أي محمد صلى الله عليه وآله جاءهم يخوفهم بالله « ما زادهم » مجيئه « إلا نفوراً » أي ازدادوا عند مجيئه نفوراً عن الحق وهرباً منه لأن مجيئه زادهم ذلك . ثم بين تعالى انهم ينفرون عند مجيء النبي « استكباراً »أي طلباً للكبر والتجبر على غيرهم « في الأرض » من أن يقروا بالحق « ومكر السيء » أي وحيلة الأفعال القبيحة والمعاصي لانهم قصدوا بذلك الفرار من اتباع محمد والايمان به،والسيء الشرك ـ في قول قتادة ـ واضيف اليه كما قال « لحق اليقين » (١) وفي قراءة عبد الله بن مسعود « ومكراً سيئاً » وقد سكن حمزة وحده الهمزة . الباقون جروها بالاضافه . والتسكين لحن عندهم اعني البصريين ، لا يجوز ان يقرأ به . وقيل الوجه في تسكين حمزة كثرة الحركات في الكلام ، كما قال الشاعر :

إذا اعوججن قلت صاحب قوم

فسكن الباء لكثرة الحركات ، والصحيح الأول ، لأن مثل هذا إنما يجوز في ضرورة الشعر ، قال ابو علي النحوي : يجوز أن يكون أجراه في الوصل مجرى الوقف ، وتقدير ومكراً المكر السيء ، فأضيف المصدر إلى صفة المصدر ، وتقديره ومكروا المكر السيء بدلالة قوله « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » ومعناه لا ينزل باحد جزاء المكر السيء إلا بمن فعله « فهل ينظرون » أي فهل ينتظرون « إلا سنة الاولين » من نزول العقاب بهم وحلول النقمة عليهم جزاء على كفرهم ، فان كانوا ينتظرون ذلك « فلن تجد » يا محمد والمراد به

(١) سورة ٦٩ الحاقة ٥١

الكفار « لسنة الله تبديلا » أي لا يغير الله عادته من عقوبة من جحد ربوبيته « ولن تجد لسنة الله تحويلا » ولا يبدلها بغيرها ، فالتبديل تصير الشيء مكان غيره ، والتحويل تصير الشيء في غير المكان الذي كان فيه ، والتغيير تصيير الشيء على خلاف ما كان .

ثم قال « او لم يسيروا في الأرض » يعني هؤلاء الكفار الذين أنكروا إهلاك الله الأمم الماضية . أما ساروا في الارض « فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا » أولئك « اشد منهم » من هؤلاء « قوة وما كان الله ليعجزه من شيء » إذ لم يكن يفوته شيء « في السموات ولا في الارض انه كان عليما » عالمًا بجميع الأشياء ﴿ قديراً ﴾ قادراً على ما لا نهاية له ، ويقدر على اجناس لا يقدرون عليها .

ثم اخبر تعالى ممتنا على الناس بتأخير عقابهم بان قال ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ﴾ أي جزاء على معاصيهم عاجلا ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ ظهر الارض ﴿ من دابة ﴾ تدب على رجليها ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل ﴾ يعني إلى الوقت المعلوم الذي قدره لتعذيبهم ﴿ فاذا جاء أجلهم ﴾ يعني الوقت المقدر المعلوم ﴿ فان الله ﴾ تعالى ﴿ كان بعباده بصيراً ﴾ أي عالمًا بأحوالهم لا يخفى عليه شيء منها فيجازي كل انسان على قدر فعله من طاعة او معصية ، والضمير في قوله ﴿ على ظهرها ﴾ عائد إلى الارض وإن لم يجر لها ذكر لدلالة الكلام عليه ، لأنه معلوم أنهم على ظهر الارض دون غيرها ، على أنه قد تقدم قوله ﴿ أو لم يسيروا في الارض ﴾ وفي قوله ﴿ إن الله يمسك السموات والارض ﴾ فيجوز أن يرد الكناية اليها .

٣٦ - سورة يس

في قول مجاهد وقتادة والحسن : ليس فيها ناسخ ولا منسوخ . وقال ابن عباس : آية منها مدنية وهي قوله ﴿ وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله ﴾ وهي ثلاث وثمانون آية كوفي . واثنان وثمانون آية في ما عداه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣)
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْماً
مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ
فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٠)

عشر آيات كوفي وتسع في ما عداه عدّ الكوفي (يس) ولم يعده الباقون .

قرأ الكسائي بامالة الألف من(يا سين) وكذلك حمزة إلا انه أقل إمالة الباقون بغير امالة . وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو وابو بكر عن عاصم ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ بالرفع الباقون بالنصب . فمن رفع ، فعلى تقدير (ذلك) تنزيل العزيز ، ومن نصب، فعلى تقدير (نزل) تنزيل العزيزالرحيم . وقرأ اهل الكوفة إلا ابا بكر ﴿ سداً ﴾ بفتح السين في الموضعين . الباقون بضمها ، وهما لغتان. وقال ابو عمرو : وما كان من فعل الله ، فهو بالفتح . وعدأهل الكوفة(يس) آية ولم يعدوا (طس)لأن (طاسين) أشبه قابيل وهابيل في الوزن ، والحروف الصحاح ، ولم يشبهها (يا سين) لأن أوله حرف من حروف العلة وليس مثل ذلك في الاسماء المفردة ، فاشبه الجملة والكلام التام وشاكل ما بعده من رؤس الآي . وقد مضى في ما تقدم أن افتتاح أوائل السور بأمثال هذه الحروف الأقوى فيها أنها اسماء للسور . وقيل : إنها اسماء القرآن . وقيل إنها حروف إذاجمعت انبأت عن اسم الله الأعظم، وغير ذلك من الاقاويل لا نطول بذكره . وقال الحسن : معناه يا رجل . وقال محمد بن الحنفية (يس) معناه يا إنسان يا محمد ، وروي عن علي عليه السلام أنه قال سمى الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله في القرآن بسبعة اسماء : محمد ، وأحمد ، وطه ، ويس ، والمزمل ، والمدثر ، وعبد الله ، وقيل : معناه بالسريانية ياإنسان. وقيل : معناه ياسيد الأولين والآخرين. وأخفى النون من (يا سين) الكسائي وابو بكر عن عاصم . الباقون ببيان النون ، وهو الاجود لأن حروف الهجاء ينوى بها السكت والانقطاع عما بعدها . ومن قال بالاول قال لأن النون والتنوين إنما يظهران عند حروف الحلق

وليس ههنا شيء منها .

وقوله « والقرآن الحكيم » قسم من الله تعالى بهذا القرآن وصفه بأنه حكيم من حيث أن فيه الحكمة ، فصار ذلك بمنزلة الناطق به للبيان عن الحق الذي يعمل به . والحكمة قد تكون المعرفة ، وقد تكون ما يدعو إلى المعرفة ، وأصله المنع من الخلل والفساد ، فالمعرفة تدعو إلى ما أدى إلى الحق من برهان أو بيان قال الشاعر:

أبني حنيفة احكموا سفهاءكم   إني اخاف عليكم أن اغضبا (١)

أي امنعوهم . وقال قوم : إنما أقسم الله بالقرآن الحكيم لعظم شأنه وموضع العبرة به والفائدة فيه ، والمقسم عليه قوله « إنك لمن المرسلين » أقسم تعالى أن النبي صلى الله عليه وآله ممن أرسله الله بالنبوة والرسالة ، وأنه « على صراط مستقيم » وهو طريق الحق المستقيم الذي يؤدي إلى الجنة « تنزيل العزيز الرحيم » من رفع فعلى تقدير ذلك تنزيل ، ومن نصب فعلى تقدير نزل تنزيل . وموضع « على صراط مستقيم » يجوز ان يكون رفعاً على انه خبر ، كأنه قال إنك على صراط مستقيم ، ويجوز أن يكون نصباً على الحال للارسال ، كأنه قال : أرسلوا مستقيماً طريقتهم .

وقوله « لتنذر قوماً » معناه إنه أنزل القرآن لتخوف به من معاصي الله قوماً « ما أنذر آباؤهم » من قبل اراد به قريشاً أنذروا بنبوة محمد ، وقيل : في معناه قولان:

احدها ـ قال عكرمة : معناه لتنذر قوماً مثل الذي أنذر آباؤهم .

الثاني ـ قال قتادة : معناه لتنذر قوماً لم ينذر آباؤهم قبلهم ـ يعني في

---

(١) مر في ١ / ١٤٢ و ٢ / ١٨٨ و ٤ / ٤٩٦ و ٥ / ١٢ ، و ٦ / ٤٤٠

زمان الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ﴿ فهم غافلون ﴾ عما تضمنه القرآن وعما أنذر الله من نزول العذاب . ومثل الغفلة السهو ، وهو ذهاب المعنى عن النفس ومثله النسيان وهو ذهاب الشيء عن النفس بعد حضوره فيها .

ثم اخبر تعالى مقسما انه ﴿ لقد حق القول على اكثرهم ﴾ اي وجب باستحقاق العقاب بادخالهم النار ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ لذلك ، وقد سبق في علم الله . ثم اخبر تعالى فقال ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا ﴾ أي جعل الغل في اعناقهم وهو جمع عنق ﴿ فهي إلى الأذقان ﴾ والاذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين . وقيل بأيمانهم إلى اذقانهم ، فكنى عنها ، لانها معلومة . وقيل : التقدير بالاغلال بالايمان إلى الاذقان فهو محذوف ، قال الشاعر :

وما أدري إذا يممت أرضاً أريد الخير أيهما يليني
أ ألخير الذي أنا ابتغيه أم الشر الذي لا يأتليني (١)

﴿ فهم مقمحون ﴾ فالمقمح الغاض بصره بعد رفع رأسه ، وقيل هو المقنع وهو الذي يجذب ذقنه حتى تصير في صدره ثم يرفع . والقمح من هذا وهو رفع الشيء إلى الفم ، والبعير القامح الذي إذا أورده الماء في الشتاء رفع رأسه وشال به نصباً لشدة البرد ، قال الشاعر :

ونحن على جوانبها قعود نغض الطرف كالابل القماح (٢)

وقيل : قد رفعوا رؤسهم وشخصوا بأبصارهم ـ ذكره مجاهد ـ ثم قال ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴾ ومعناه سداً عن الحق ـ في قول مجاهد وقتادة ـ اي على جهة الذم لهم ، وصفهم بذلك لا أنهم منعوا منه وكذلك ذكر الاغلال كما قال الأفوه الازدي :

---

(١) مر في ٢ / ١١٣ و ٥ / ٥٢٩ و ٦ / ٣٩١ (٢) اللسان (قمح)

كيف الرشاد إذا ما كنت في نفر   لهم عن الرشد اغـلال واقياد

وفي تأويل الآيات قولان :

احدها ـ انه جعل جهلهم وذهابهم عن معرفة الحق غلا وسداً إذ كان المغلول الممنوع من التصرف امامه ووراءه ذاهب عما قد منع منه وحيل بينه وبين الدليل عليه إن الله تعالى لم يجعل الكافر مغلولا في الحقيقة ولا مسدوداً بين يديه ومن خلفه ولا في عينه غشاوة، كقوله تعالى ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في اذنيه وقراً ﴾ (١) شبهه بمن في اذنيـه وقر، فعلمنا بهذا التشبيه أنه إنما يريد بوصف الكفار بالوقر والكن والغل والسد التشبيه الذي عناه ـ ههنا ـ ولو كان في إذن الكافر وقر على الحقيقة لم يجز تشبيهه بمن في اذنيه وقر ، وهو كقولهم للجاهل : حمار وثور ، وإنما يريدون المبالغة في وصفه بالجهل . ومعنى (جعلنا) يحتمل وجهين احدها ـ انه كما شبههم بمن جعله مغلولا مقيداً أجرى عليه صفة الجعل بأنه مشبه للمجعول مغلولا مقيداً . والثاني ـ انه اراد البيان عن الحالة التي شبه بها المغلول المقيد ، كما يقول القائل: جعلني فلان حماراً وجعلني ميتاً إذا وصفه بالحمارية والموت وشبهه بالحمـار والميت وهذا واضح .

والوجه الثاني ـ في تأويل الآيات انه أراد وصف حالهم في الآخرة، لأنه تعالى يوثقهم في الاغلال والسلاسل ، كما قال تعالى ﴿ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ﴾ (٢) وقال ﴿ إذ الاغـلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النـار يسجرون ﴾ (٣) وقال في السد الذي جعله لهم : فلا يبصرون كما قال ﴿ يوم

(١) سورة ٣١ لقمان آية ٧   (٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ٣٠ ـ ٣١

(٣) سورة ٤٠ المؤمن آية ٧١ ـ ٧٢

يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ (١) وقال ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصماً مأواهم جهنم ﴾ (٢) فلما كانت هذه حال الكفار في الآخرة ، وصف حالهم في الدنيا .

وقوله ﴿ فهم مقمحون ﴾ فقد فسرناه في آية اخرى وهي قوله ﴿ مهطعين مقنعي رؤسهم ﴾ (٣) والاقناع هو رفع الرأس واشخاصه فقد صح بما بيناه كلا الوجهين في الآية وزالت الشبهة بحمد الله . وقال السدي : إن ناساً من قريش ائتمروا على قتل النبي صلى الله عليه وآله فلما جاءوه جعلت ايديهم إلى اعناقهم فلم يستطيعوا ان يبسطوا اليه يداً . وقال قوم : حال الله بينهم وبين ما أرادوا فعبر عن ذلك بأنه غلت ايديهم . وقال البلخي : يجوز ان يكون المراد ﴿ جعلنا في اعناقهم اغلالا ﴾ من الآيات والبينات ﴿ وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴾ منها ﴿ فاغشيناهم ﴾ بها ﴿ فهم ﴾ مع ذلك ﴿ لا يبصرون ﴾ بدليل قوله ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ﴾ (٤) وقرأ ابن مسعود وابن عباس ﴿ انا جعلنا في ايمانهم اغلالا ﴾ لأن الغل لا يكون في العنق دون اليد ، ولا في اليد دون العنق ، والمعنى إنا جعلنا في اعناقهم وفي أيمانهم اغلالا وقوله ﴿ فهي ﴾ كناية عن الايدي لا عن الاعناق ، لأن الغل يجعل اليد تلي الذقن . والعنق هو مقارب الذقن ، لان الغل يجعل العنق إلى الذقن .

---

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ١٣ (٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٧

(٣) سورة ١٤ ابراهيم آية ٤٣ (٤) سورة ٣٤ سبأ آية ٩

وقرأ الحسن ﴿ فأعشيناهم ﴾ بالعين المهملة ، وهو ما يلحق من ضعف البصر وقيل : الآية نزلت في أبي جهل ، لانه همّ بقتل النبي ﷺ فكان إذا خرج بالليل لا يراه ، ويحول الله بينه وبينه . وقيل : السد فعل الانسان . والسد بالضم خلقه تعالى ﴿ فاغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ أي حكمنا عليهم بأنهم كمن غشي بصره فهم لا يبصرون لذلك . وقيل : اغشيناهم بظلمة الكفر فهم لا يبصرون الهدى . وقيل : بظلمة الليل فهم لا يبصرون النبي ﷺ . ثم قال ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم ﴾ يا محمد وخوفتهم ﴿ أم لم تنذرهم ﴾ وتخوفهم بالعقاب ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ للعناد وترك الالتفات والفكر في ما يخوفهم منه ، فاستوى علمه تعالى في تركهم الايمان وعدولهم عنه إلى الكفر بسوء اختيارهم .

قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ (١٥) خمس آيات .

قرأ ابو بكر عن عاصم ﴿ فعززنا ﴾ مخففاً بمعنى فقهرنا من قولهم: من عزيز الباقون بالتشديد يعني قوينا الاثنين بثالث معيناً ، لما قال الله تعالى لنبيه ﷺ إن هؤلاء الكفار لايؤمنون أبداً واخبره بأنه سواء عليهم الانذار وترك الانذار بين ههنا حال من ينتفع بالانذار فقال ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ ومعناه إنماينتفع بانذارك وتخويفك من اتبع الذكر ، لان نفس الأنذار قد حصل للجميع وأضافه ـ ههنا ـ إلى من اتبع الذكر لما كانوا المنتفعين به ، كما قال ﴿ هدى للمتقين ﴾ . والذكر المذكور ـ ههنا ـ القرآن ـ في قول قتادة ـ ﴿ وخشي الرحمن بالغيب ﴾ قيل في معناه قولان :

احدها ـ وخشي الرحمن وخاف ارتكاب معاصيه في غيبه عن الناس .

والثاني ـ وخشي الرحمن في ما غاب عنه من الآخرة وأمرها.

ثم قال لنبيه من هذه صفته ﴿ فبشره بمغفرة ﴾ من الله لذنوبه ﴿ واجر ﴾ أي ثواب ﴿ كريم ﴾ وهو ما يفعله الله على وجه الاجلال والاكرام . وقيل : الاجر الكريم الجنة .

ثم اخبر تعالى عن نفسه فقال ﴿ إنا نحن نحي الموتى ﴾ بعد أن افنيناهم ﴿ ونكتب ما قدموا ﴾ من طاعاتهم ومعاصيهم في دار الدنيا ، وهو قول مجاهد وقتادة ﴿ وآثارهم ﴾ قال مجاهد : يعني خطاهم إلى المساجد ، لان بني سلمة من الانصار شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد والصلاة مع رسول الله ، فنزلت فيهم الآية . وقيل : معناه وآثارهم التي تبقى بعدهم ويقتدى بهم فيها .

ثم قال ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ ومعناه أحصيناه في كتاب ظاهر ، وهو اللوح المحفوظ . والوجه في احصاء ذلك في إمام مبين اعتبار

الملائكة به إذا قابلوا به ما يحدث من الامور ، وكان فيه دليل على معلومات الله على التفصيل .

ثم قال انبيه صلى الله عليه وآله ﴿ واضرب لهم مثلا ﴾ معناه اذكر لهم مثلا . وقيل: معناه مثل لهم مثلا ، من قولهم : هؤلاء اضراب أي امثال . وقوله ﴿ اصحاب القرية ﴾ قال عكرمة والفراء : هي انطاكية ﴿ إذ جاءها المرسلون ﴾ اي حيث بعث الله اليهم بالرسل ﴿ إذ ارسلنا اليهم اثنين ﴾ يعني رسولين . وقال قوم : كانا رسولي عيسى من حواريه . وقال آخرون : كانا رسولين من رسل الله وهو الظاهر ﴿ فكذبوهما ﴾ أي جحدوا نبوتهما ﴿ فعززنا بثالث ﴾ أي فعززها الله بثالث فيمن قرأ بالتشديد وشد ظهرهما به - في قول مجاهد وابن زيد - ومن خفف أراد فغلب الله بثالث أرسله اليهم ﴿ فقالوا ﴾ لهم يا اهل القرية ﴿ إنا اليكم مرسلون ﴾ ارسلنا الله اليكم ﴿ قالوا ﴾ لهم ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أي ليس أنتم إلا بشر أمثالنا ، فدخلت عليهم الشبهة فاعتقدوا أنه من حيث انهم امثالهم في البشرية لا يصلح ان يكونوا رسلا كما لا يصلحون هم لذلك ﴿ وما انزل الرحمن من شيء ﴾ مما تذكرونه وتدعونا اليه ﴿ ان انتم إلا تكذبون ﴾ أي ليس انتم إلا كاذبون على الله ومتخرصون عليه في ادعائكم الرسالة ، وذهب عنهم معنى ﴿ اخترناهم على علم على العالمين ﴾ (١) وأنه تعالى علم من حال هؤلاء صلاحهم للرسالة وتحملهم لاعبائها ولم يعلم ذلك من حالهم بل على خلاف ذلك .

---

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٣٢

قوله تعالى:

﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٠) خمس آيات

لما حكى الله تعالى عن اهل القرية انهم قالوا الرسل ﴿إن انتم إلا تكذبون﴾ في ادعائكم الرسالة على الله حكى ما اجابهم به الرسل فانهم ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون ﴾ ووجه الاحتجاج بذلك انه يلزمهم بقولهم الحذر من مخالفتهم والنظر في معجزاتهم ليعلموا انهم صادقون على الله، ففي ذلك تحذير شديد. ثم قال الرسل لهم أيضاً ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ أي ليس يلزمنا اكثر من البلاغ المبين، والمعنى انه لو جاءكم رسول غيرنا هل كان عليه إلا البلاغ؟ على حد ما بلغنا. والبلاغ مجيء الشيء إلى حد يقف عنده، بلغ الشيء يبلغ بلوغاً وبلاغاً، فهو بالغ. ومنه البلاغة، ومثل الابلاغ الافهام والايصال. والمبين صفة للبلاغ، وهو الظاهر الذي لاشبهة فيه، فقالوا لهم في الجواب عن ذلك حين عجزوا عن إيراد شبهتم، وعدلوا عن النظر في معجزهم ﴿ انا تطيرنا بكم ﴾ أي تشاءمنا بكم، والتطير التشاؤم. ثم هددوهم فقالوا ﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ عن

ما تدّعونه من النبوة والرسالة ﴿ لنرجمنكم ﴾ بالحجارة - في قول قتادة - وقال مجاهد : معناه لنشتمنكم . فالرجم الرمي بالحجارة ، يقال : رجم يرجم رجماً ، ورجم بالغيب ترجيماً ﴿ وليمسنكم منا عذاب اليم ﴾ عندذلك ، فقال لهم الرسل ﴿ طائركم معكم ﴾ أي الشؤم كله معكم باقامتكم على الكفر بالله . وقال الفراء : معنى ﴿ طائركم معكم ﴾ أي اعمالكم في رقابكم تجازون عليها . وقال المبرد : معنى (طائركم) حظكم ونصيبكم من الخير والشر . وهو قول ابي عبيدة . والطيرة الشؤم . ومنه قوله صلى الله عليه وآله (لاعدوى ولاهامة ولا صفر ولا غلول) . وفلان لا يطير غرابه ، وهو ساكن الطائر ، إذا كان ساكناً وقوراً ، وفلان لا يطور بنا أي لا يقربنا ، وما في الدار طوري ولا طوراني أي لا أحد . وعدا فلان طوره إذا جاوز قدره .

وقوله ﴿ أئن ذكرتم ﴾ قرأه ابن كثير ونافع وابو عمرو والمفضل عن عاصم - بهمزة بعدها ياء - وهي همزة بين بين . والباقون بهمزتين مخففتين : احداهما همزة الاستفهام ، والاخرى - همزة (إن) وجواب (أئن ذكرتم) محذوف وتقديره أئن ذكرتم هذا القول . وقال قوم : معناه أئن ذكرتم طائركم معكم وقال قوم : جمله جزاء قدم خبره عليه لما كان غير مجزوم اللفظ . وقيل : أئن ذكرتم تطيركم قلتم ما قلتم ، ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ على نفوسكم ، لانكم تجاوزتم حدالعصيان حين كفرتم بالله ووحدانيته . وقيل : كان اسم صاحب (يس) الذي قتله قومه حبيب بن مري .

حكى الله تعالى انه ﴿ جاء من اقصى المدينة رجل يسعى ﴾ أي رجل من أبعد المدينة جاء يعدوا ويشتد ﴿ فقال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ الذين أرسلهم الله اليكم واقروا بنبوتهم وبرسالتهم . وقرأ ابو جعفر (أئن) بفتح الهمزة الثانية .

و به قال زوين بن حبيش . ومعناه لان ذكرتم . الباقون بكسرها . وقرأ ابو جعفر (ذكرتم) بالتخفيف . الباقون بتشديدها .

قوله تعالى:

﴿ إِتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْئَلُكُمْ أَجراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ ٱلرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ٱدْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ﴾ (٣٠) عشر آيات .

قرأ ابوا جعفر ﴿ ان كانت إلا صيحة ﴾ بالرفع في الموضعين جعلها اسم (كان) . الباقون بالنصب على انها خبر كان .

لما حكى الله تعالى ما قال لهؤلاء الكفار الرجل الذي جاءهم من اقصى المدينة وأمرهم بأن يتبعوا الرسل قال لهم ايضاً ﴿ اتبعوا ﴾ معاشر الكفار ﴿ من

لا يسألكم أجراً ﴾ أي لا يطلب الأجر والجزاء والمكافأة على ما يدعوكم اليه ويحثكم عليه ، وإنما يدعوكم نصيحة لكم ﴿ وهم ﴾ مع ذلك ﴿ مهتدون ﴾ إلى طريق الحق سالكون سبيله . ثم قال لهم الذي وعظهم وحثهم على طاعة الله واتباع رسله ﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني ﴾ ومعناه ولم لا أعبد الله واتبع رسله ، ومالي لا أعبد الذي فطرني ، ومعناه ولم لا أعبد الله الذي خلقني وابتداني وهداني ﴿ واليه ترجعون ﴾ أي الذي تردون اليه يوم القيامة حيث لا يملك الأمر والنهي غيره . ثم قال لهم منكراً على قومه عبادتهم غير الله ﴿ أ أتخذ ﴾ أنا على قولكم ﴿ من دون الله ﴾ الذي فطرني وأنعم علي ﴿ آلهة ﴾ اعبدهم؟ فهذه همزة الاستفهام والمراد بها الانكار ، لانه لاجواب لها على اصلهم إلا ما هو منكر في العقول ثم قال ﴿ إن يردني الرحمن بضر ﴾ معناه ان أراد الله إهلاكي والاضرار بي لا ينفعني شفاعة هذه الآلهة شيئاً ، ولا يقدرون على انقاذي من ذلك الضرر . ولا يغنون عني شيئاً في هذا الباب . وإذا كانوا بهذه الصفة كيف يستحقون العبادة ؟ !

ثم قال ﴿ إني إذا لفي ضلال مبين ﴾ أي إذاً لو فعلت ما تفعلونه وتدعون اليه من عبادة غير الله أكن في عدول عن الحق . والوجه في هذا الاحتجاج أن العبادة لا يستحقها إلا من أنعم بأصول النعم ويفعل من التفضل ما لايوازيه نعم منعم ، فاذا كانت هذه الاصنام لا يصح فيها ذلك كيف تستحق العبادة ؟ !

ثم قال مخبراً عن نفسه مخاطباً لقومه ﴿ إني آمنت ﴾ أي صدقت ﴿ بربكم ﴾ الذي خلقكم وأخرجكم من العدم إلى الوجود ﴿ فاسمعون ﴾ مني هـذا القول . وقيل : انه خاطب الرسل بهذا القول ليشهدوا له بذلك عند الله . وقال ابن مسعود : إن قومه لما سمعوا منه هـذا القول وطؤه بأرجلهم حتى مات . وقال

قتادة : رجموه حتى قتلوه . وقال الحسن : لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله اليه فهو في الجنة ، و لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة . قال مجاهد : مثل ذلك . وقالا الجنة التي دخلها يجوز هلاكها . وقال قوم : إنهم قتلوه إلا أن الله أحياه وادخله الجنة وقال الحسن ﴿ من بعده ﴾ يعني من بعد رفعه . وقال غيره: من بعد قتله .

ثم حكى الله تعالى ما يقول الملائكة لهذا الداعي من البشارة له بعد موته فانهم يقولون له ﴿ ادخل الجنة ﴾ مثاباً مستحقاً للثواب الجزيل على إيمانك بالله فيقول حينئذ ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفرلي ربي ﴾من الذنوب﴿ وجعلني من المكرمين ﴾ عنده .فهذا المؤمن تمنى أن يعلم قومه بما أعطاه الله تعالى فيرغبوا فيه ويؤمنوا به لينالوا مثله . والاكرام هو اعطاء المنزلة الرفيعة على وجه التعظيم والتبجيل . وقد فاز من أكرمه الله بالرضوان ، كما قال تعالى ﴿ ورضوان من الله اكبر ﴾ (١) لانه سبب يؤدي إلى الجنة .

ثم حكى ما قال وانزل بهؤلاء الكفار من العذاب والاستئصال ، فقال ﴿ وما انزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾ أي كان إهلاكهم عن آخرهم بأيسر أمر : صيحة واحـــدة حتى صاروا خامدين ذكره ابن مسعود ومعنى « خامدين » هالكين بتلف أنفسهم ، والمعنى إنا لم نستعن على إهلاكهم بانزال الجند من السماء « وما كنا منزلين » لهم ليهلكوهم ، وما كان إهلاكهم « إلا صيحة واحدة » عظيمة فحين سمعوها هلكوا من عظمها ، وماتوا من فزعها .

وقوله « ياحسرة على العباد » قيل : هو قول الذي جاء من أقصى المدينة

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٧٣

- ذكره البلخي - وقال غيره : معناه يحتمل شيئين :

احدهما - يا حسرة من العباد على أنفسهم - ذكره قتادة ومجاهد - .

الثاني - انهم قد حلوا محل من يتحسر عليه ، وقال ابن عباس : معناه ياويلا للعباد « ما يأتيهم من رسول » أي ليس يأتيهم من رسول من عند الله « إلا كانوا به يستهزؤن » أي يسخرون منه ويهزؤن به ، والذي حكى الله تعالى عنه مخاطباً قومه هو ما قدمنا ذكره : حبيب بن مري - في اقوال المفسرين .

قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٥) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة « لما » بتشديد الميم ، الباقون بتخفيفها . وقرأ اهل المدينة « الميتة » بالتشديد ، لأنه يقال : لما كان حياً ومات ميت بالتشديد ، ولما لم يكن حياً بالتخفيف - ذكره الفراء - وقرأ اهل الكوفة إلا حفصاً « وما عملت » بغير هاء . الباقون بالهاء . من قرأ (لما) بالتخفيف فانه يكون (ما) في قوله (لما) صلة مؤكدة ، وتكون (إن) هي المخففة من الثقيلة

وتقديره ، وإن كل لجميع لدينا محضرون ، ومن قرأ بالتشديد يحتمل شيئين :

أحدهما ـ ان يكون بمعنى (إلا) وتقديره وان كل إلا لجميع لدينا محضرون وتكون (إن) بمعنى الجحد ، وكأنه جحد دخل على جحد ، فخرج الى معنى الاثبات . ومثله في الاستعمال سألتك لما فعلت ، بمعنى الا فعلت .

والوجه الثاني ـ أن يكون معنى (لما) بمعنى (لمن ما) فحذفت احدى الميمات ، لاجل التضعيف كما قال الشاعر :

غداة طفت علماء بكر بن وائل وعجنا صدور الخيل نحو تميم

اراد على الماء ، فحذف لالتقاء المضاعف ، وأما (ما) في قوله « وما عملت أيديهم » يحتمل ثلاثة اوجه :

احدها ـ أن يكون بمعنى الجحد . وتقديره ليأكلوا من ثمره ، ولم تعمله أيديهم ، ويقوي ذلك قوله « أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » (١) .

والثاني ـ ان يكون بمعنى الذي .

والثالث ـ أن يكون مع ما بعده بمعنى المصدر ، فعلى هذا يكون في موضع جر ، وتقديره ليأكلوا من ثمره ومن الذي عملته او من عمل ايديهم من انواع الطعوم الذي أنبتوه ، والذي غرسوه ، ومن الذي يطحنونه ويخبزونه ، فمن أثبت الهاء او حذفها تبع المصاحف ، لان المصاحف مختلفة . والهاء عائدة على (ما) و (عملت) صلتها . ومن حذف اختصر ، لأنها المفعول به ، وكل مفعول يجوز حذفه ، كقوله « ما ودعك ربك وما قلى » (٢) يريد وما قلاك

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٦٣ ـ ٦٤

(٢) سورة ٩٣ الضحى آية ٣

ومثله « منهم من كلم الله » (١) يريد كلمه الله ، وكقوله « أهذا الذى بعث الله رسولا » (٢) يريد بعثه الله .

يقول الله تعالى منبهاً للكفار على وجه الاستدلال على وحدانيته بأن يقول « ألم يروا » ومعناه ألم يعلم هؤلاء الكفار « كم اهلكنا قبلهم من القرون » فمعنى (كم) ههنا للتكثير ، ويفسرها (من القرون) وتقديره ألم يروا كم قرناً أهلكنا قبلهم من القرون ، وموضع (كم) نصب بـ (يروا) - في قول الكوفيين ، وعند البصريين بـ (أهلكنا) على تقدير القرون اهلكنا او اكثر « انهم اليهم لا يرجعون » ونصب (انهم) لأنه مفعول (الم يروا) وكسره الحسن على وجه الاستئناف ، ووجه الاحتجاج بذلك هو انه قيل لهم : انظروا لم لا يرجعون فانكم تجدون ذلك في قبضة ما لكهم يردهم في الآخرة إذا شاء ردهم ، لأنه لا يخلو اهلاكهم اما بالاتفاق من غير اضافة او بالطبيعة او بحي قادر ، ولو كان بالاتفاق او بالطبيعة لم يمتنع ان يرجعوا الى الدنيا ، فاذا بطل ذلك ، ثبت أن إهلاكهم بحي قادر إذا شاء ردهم وإذا شاء لم يردهم . ووجه التذكر بكثرة المهلكين أي انكم ستصيرون الى مثل حالهم ،فانظروا لانفسكم واحذروا أن يأتيكم الاهلاك ، وانتم في غفلة عما يراد بكم .

والقرون جمع (قرن) وأهل كل عصر يسمى قرناً ، لاقترانهم في الوجود والقرن - بكسر القاف - هو المقاوم في الحرب ، ومنه قرن الشاة لمقارنته القرن الآخر ، وكذلك كل ذى قرنين . وقال قتادة « انهم اليهم لا يرجعون » عاد وثمود ، وقرون بين ذلك كثيرة . ثم قال وهؤلاء الذين لا يرجعون كلهم « لدينا محضرون » يوم القيامة يحضرهم الله ويبعثهم ليجازيهم على اعمالهم .

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٣ (٢) سورة ٢٥ الفرقان آية ٤١

وقوله ﴿ وآية لهم ﴾ على ذلك أي دلالة وحجة قاطعة ﴿ الارض ﴾ يعني هي الأرض ﴿ الميتة ﴾ القحطة المجدبة وهي التي لا تنبت ﴿ احييناها ﴾ بالنبات ﴿ واخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ من انواع ما يأكلون ﴿ وجعلنا فيها ﴾ أي وخلقنا فى الارض ﴿ جنات ﴾ يعني بساتين ﴿ من نخيل ﴾ جمع نخل ﴿ واعناب ﴾ جمع عنب ﴿ وفجرنا فيها ﴾ فى تلك الجنات ﴿ من العيون ﴾ وهي عيون الماء تنبع فيها وتجري ثم بين انه إنما خلق ذلك ﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ أي غرضنا نفعهم بذلك وانتفاعهم بأكل ثمار تلك الجنات ﴿ وما عملته ايديهم ﴾ أي ولم تعمل تلك الثمار ايديهم إذا (ما) كانت بمعنى النفي ، وإذا كانت معناها معنى الذي يكون تقديره ، والذي عملته ايديهم من انواع الاشياء المتخذة من النخل والعنب وكثرة منافعه . وقوله ﴿ من ثمره ﴾ رد الكناية إلى احدها كما قال ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ﴾ (١) كما قال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف (٢)

وقوله ﴿ افلا تشكرون ﴾ معناه هلا تشكرونه على هذه النعم التي عددتها .

قوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣٥ (٢) مر في ١ / ١١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٦٣ و ٥ / ٢٨٩،٢٤٦

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو وروح « والقمر قدرناه » رفعاً على الاستئناف لأن الفعل مشغول بالضمير العائد إلى القمر. وقال ابو علي: الأجود أن يكون رفعاً على تقدير وآية لهم القمر قدرناه، لأنه أشبه بالجمل قبلها. ومن رفعه بالابتداء جعل (لهم) صفة للنكرة والخبر مضمر، وتقديره « وآية لهم » في المشاهدة او الوجود، ويكون قوله « الليل نسلخ منه النهار » تفسير الآية. الباقون بالنصب بتقدير فعل مضمر، مابعده تفسيره، وتقديره: وقدرنا القمر قدرناه.

يقول الله تعالى منزهاً نفسه ومعظماً لها ودالا بأنه هو الذي يستحق الحمد بما نبه بقوله « سبحان الذي » أي تنزيهاً الذي « خلق الأزواج كلها » أي تعظيماً وتبجيلا له بجميع ما خلق من الازواج، وهي الاشكال، والحيوان على مشاكلة الذكر الانثى، وكذلك النخل والحبوب اشكال، والتين والكرم ونحوه اشكال، فلذلك قال « مما تنبت الارض » يعني من سائر النبات « ومن انفسهم » من الذكر والانثى « ومما لا يعلمون » مما لم يشاهدوه ولم يصل خبره اليهم.

ثم قال « وآية لهم » يعني دلالة وحجة على صحة ذلك « الليل نسلخ منه النار » أي نخرج منه النهار « فاذا هم مظلمون » أي داخلون في الظلمة لاضياء

لهم فيه بالشمس، فالسلخ إخراج الشيء من لباسه ، ومنه إخراج الحيوان من جلده ، يقال سلخ يسلخ سلخاً فهو ساخ ، ومنه قوله ﴿ فانسلخ منها ﴾ (١) أي فخرج منها خروج الشيء مما لابسه ، ثم قال ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ آية اخرى . وقيل فى معنى المستقر ثلاثة اقوال :

احدها ـ لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا .

الثاني ـ قال قتادة : لوقت واحد لها لا تعدوه ولا تختلف .

الثالث ـ إلى ابعد منازلها فى الغروب . وقال المبرد معنى ﴿ لمستقر لها ﴾ أي إلى . ومن قال الشمس لاتستقر بل تتحرك أبداً قال معنى ﴿ لمستقر لها ﴾ أنها كلما انتهت إلى منقلب الصيف عادت فى الرجوع وإذا بلغت منقلب الشتاء عادت إلى الصعود . ثم قال ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أي من قدر الشمس على ذلك إلا القادر الذي لا يضام ، العالم بما يفعله ؟ ، ثم قال ﴿ والقمر قدرناه ﴾ فمن رفع عطف على قوله ﴿ والشمس تجري ﴾ ومن نصب قدر له فعلا يفسره وقوله ﴿ قدرناه منازل ﴾ كل يوم ينزل منزلا غير المنزل الأول لا يختلف حاله إلى ان يقطع الفلك ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ فالعرجون العذق الذي فيه الشماريخ ، فاذا تقادم عهده يبس وتقوس ، فشبه به . وقال الفراء : العرجون ما بين الشماريخ إلى المنابت في النخلة من العذق ، والقديم الذي اشرف على حول ، وقوله ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ حتى يكون نقصان ضوئها كنقصان القمر ، وقال ابو صالح : معناه لا يدرك احدهما ضوء الآخر ، وقيل معناه : ﴿ لاالشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ﴾ في سرعة سيره ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أي ولا يسبق الليل النهار . وقيل : إن احدهما لا يذهب إلى معنى

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٤

الآخر وكل له مقادير قدرها الله عليه. ثم قال ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ يعني الشمس والقمر والكواكب يسبحون في الفلك. وإنما جمعها بالواو والنون لما أضاف اليها افعال الآدميين. وقيل: الفلك مواضع النجوم من الهواء الذي يجري فيه. ومعنى يسبحون يسيرون فيه بانبساط، وكل ما انبسط في شيء فقد سبح فيه، ومنه السباحة في الماء.

قوله تعالى:

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ اهل المدينة وابن عامر ويعقوب ﴿ ذرياتهم ﴾ على الجمع. الباقون ﴿ ذريتهم ﴾ على التوحيد.

يقول الله تعالى ممتناً على خلقه بضروب نعمه، ودالا لهم على وحدانيته بأن حمل ذريتهم في الفلك المشحون. وقيل: معنى ﴿ حملنا ذريتهم ﴾ أي قويناهم وهديناهم، كما يقول القائل: حملني فلان إذا اعطاه ما يحمل عليه او هداه إلى ما يحمل عليه. ومن جمع (ذرياتهم) فلأن كل واحد له ذرية. ومن وحد فلأنه لفظ جنس يدل على القليل والكثير، فالحمل منع الشيء أن يذهب إلى

جهة السفل ، يقال : حمله حملا ، فهو حامل والشيء محمول . و (الذرية) فعلية من الذر . وقيل : هو مشتق من (الذره) الذي هو الخلق . وقد بيناه في ما مضى (١) والفلك السفن ، لأنها تدور في الماء ، ومنه الفلكة لأنها تدور بالمغزل والفلك لانه يدور بالنجوم ، وفلك ثدي المرأة إذا استدار و (المشحون) المملؤ يقال : شحنت الثغر بالرجال أشحنه شحناً إذا ملأته ، ومنه الشحنة ، لانه يملأ بهم البلد ، وإنما خص الذرية ـ وهم الصبيان والنساء ـ باللفظ ، لأنهم لا قوة لهم على السفر كما يقوى الرجال ، فسخر الله لهم السفن بما جعلها على الماء وعدل الريح ليمكن الحمل في البحر ، وجعل الأبل في البر . وقال قتادة والضحاك : المعني بقوله « حملنا ذريتهم في الفلك المشحون » سفينة نوح . و « خلقنا لهم من مثله ما يركبون » قال ابن عباس ، وهو قول مجاهد : ان المراد به الأبل وهي سفن البر .

وقوله « وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم » معناه إنا لو شئنا إذا حملناهم في السفن أن نغرقهم فعلنا « فلاصريخ لهم » أي لامغيث لهم ولا صارخ بالاستغاثة قال الشاعر :

كنا إذا ما اتانا صارخ فزع   كان الصراخ له قرع الظنابيب

أي لا شيء اعانته إلا الجد في نصرته ، والظنبوب عظم الساق . وقيل : معنى الصريخ المعين عند الصراخ بالاستغاثة ، وكأنه قال : لامعين لهم يعينهم عند ذلك « ولا هم ينقذون » أي ولا يخلصون ايضاً من الغرق إذا اردناه . وقوله « إلا رحمة منا » معناه إلا أن نرحمهم رحمة منا ونمتعهم « متاعاً » ويحتمل إلا لرحمة منا ، فيكون مفعولا له ، و « إلى حين » أي إلى وقت ما قدرناه

(١) انظر ٢/ ٤٠ و ٣/ ١٢٤ و ٤/ ٣٠٣ و ٥ \ ٣٢ ، ٤٨

لاهلاكهم وتقضي آجالهم ، ونخلصهم فى الحال من اهوال البحر .

وقوله « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم » قال قتادة : معناه ما بين أيديكم من عذاب الله لمن خلا قبلكم اتقوا مثله باجتناب معاصيه « وما خلفكم » من أمر الساعة « لعلكم ترحمون » لكي ترحموا عند ذلك وحذف الجواب ، كأنه إذا قيل : لهم هذا اعرضوا . وقال مجاهد : معنى « ما بين ايديكم » هو ما يأتي من الذنوب اجتنبوه فى المستقبل « وما خلفكم » يعني ما مضى من ذنوبكم تلافوه بالتوبة لترحموا .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلا خلاف

قرأ ابن كثير وابو عمرو « يخصمون » بفتح الخاء وتشديد الصاد إلا أن أبا عمرو يختلس حركة الخاء . وقرأ نافع ـ بفتح الياء وتسكين الخاء مشدد الصاد ـ يجمع بين ساكنين . وقرأ ابن عامر وعاصم والكسائي ـ بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد ـ وقرأ حمزة ـ بفتح الياء وتسكين الخاء وتخفيف الصاد ـ

فمعنى هذه القراءة : وهم يخصمون عند انفسهم في دفع النشأة الثانية والقراءتان الأوليتان بمعنى يختصمون ، فأدغمت الياء في الصاد بعد أن اسكنت . فمن أسكن الخاء ، فلأنها في الأصل ساكنة ، ومن فتحها نقل حركة الياء اليها . ومن كسر الخاء اتبع كسرتها كسرة الصاد . وفي القراء من كسر الياء اتباعاً لكسرة الخاء ، كما قالوا يهدي ، وهو يجيء عن أبي بكر .

يقول : الله تعالى مخبراً عن عناد هؤلاء الكفار وشدة جهلهم بأنه ﴿ ما تأتيهم من آية ﴾ أي دلالة وحجة من حجج الله و (من) تزاد في النفي إذا أريد بها الاستغراق ، كقولهم : ما جاءني من احد ومعناه ما جاءني احد . و (من) الثانية للتبعيض ، لأنه ليس كل آيات الله جاءتهم ، غير انه تعالى قال ليس تأتيهم من آية أي أيّ آية كانت ﴿ من آيات ربهم إلا كانوا ﴾ هؤلاء الكفار ﴿ عنها معرضين ﴾ أي ذاهبين عنها وتاركين لها ومعرضين عن النظر فيها ، وكل من اعرض عن الداعي الى كتاب الله وآياته التي نصبها لعباده ليعرفوه بها فقد ضل عن الهدى وخسر الدنيا والآخرة .

ثم اخبر تعالى انه إذا قيل لهم : ايضاً ﴿ انفقوا مما رزقكم الله ﴾ في طاعته واخرجوا ما اوجب الله عليكم في أموالكم ـ من الزكوات وغيرها وضعوها في مواضعها ﴿ قال الذين كفروا ﴾ بوحدانية الله وجحدوا ربوبيته وكذبوا بنبوة نبيه ﴿ انطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ احتجاجاً منهم في منع الحقوق ، بأن يقولوا كيف نطعم من الله قادر على أطعامه ؟ ! ولو شاء إطعامه أطعمه ، فاذا لم يطعمه دل على انه لم يشأ إطعامه فنحن إذاً أحق بذلك . وذهب عليهم أن الله تعبدهم بذلك ، لما فيه من المصلحة واللطف في فعل الواجبات وترك المقبحات ، فلذلك كلفهم إطعام غيرهم . و (الرزق) هو ما خلق الله لخلقه لينتفعوا به على وجه

لا يكون لاحد منعه منه فعلى هذا الوجه لا يكون الحرام رزقاً، فان الله تعالى قد منع منه بالنهي وقـد سمي رزقاً ما يصلح للانتفاع به مجازاً، فعلى هذا ليس كل ما رزقه الله العبد جعل له الانفاق منه والتصرف فيه، وعلى الأول - وهو الاصح - جعل له ذلك. ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله قل لهم يا محمد ﴿ إن انتم إلا في ضلال مبين ﴾ أي ليس لكم هداية وما انتم إلا في ذهاب عن الحق وعدول عنه بين، فعلى هـذا قول من قال: هو من قول الله تعالى صحيح. وقال قوم: هو من قول المشركين كأنهم لما قالوا: انطعم من لو يشاء الله أطعمه؟ قالوا لرسله ليس انتم إلا في ضلال مبين في ما تدعونا اليه.

ثم اخبر تعالى عن الكفار انهم ﴿ يقولون متى هذا الوعد ﴾ الذي تعدنا به من نزول العذاب بنا استهزاء بخبره صلى الله عليه وآله وخبر المؤمنين وتجرّياً على الله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ما تدعونا اليه وتخوفونا منه. فقال الله تعالى في جوابهم ﴿ ما ينظرون ﴾ أي لا ينتظرون ﴿ إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾ في هل ينزل العذاب بهم أم لا؟ وإنما جعلهم منتظرين لما قالوا: متى هذا الوعد، لأن من يلتمس الوعد يكون منتظراً لما وعد به ﴿ تأخذهم ﴾ في حال خصامهم ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي لا يقدر بعضهم على ان يوصي إلى بعض ﴿ ولا إلى اهلهم يرجعون ﴾ أي لا يردون الى اهلهم فيوصون اليهم. والصيحة التي تأخذهم هي الصيحة الأولى في الدنيا عند قيام الساعة ﴿ تأتيهم بغتة ﴾ والرجل يسقي أبله وآخر يبيع سلعته على عادتهم في تصرفاتهم، فاذا اخذتهم ونزلت بهم لم يستطيعوا توصية ولم يرجعوا الى أهلهم للمعاجلة، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال (هي ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين).

قوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى ٱلْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٦٠) عشر آيات بلا خلاف

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «في شغل» خفيفة. الباقون بضم الغين مثقلة، وهما لغتان. وقرأ ابو جعفر «فكهون» بغير ألف حيث وقع، وافقه حفص والداحوني عن ابن ذكوان في (المطففين). وقرأ اهل الكوفة إلا عاصما «في ظلل» على انه جمع ظلة مثل ظلمة وظلم وتحفة وتحف، الباقون «في ظلال» مثل برمة وبرام، وقلة وقلال. وقيل: هو جمع ظل وظلال، وهو الكن، كما

قال ﴿ يتفيؤ ظلاله ﴾ (١) وقال ابو عبيدة : هو جمع الظل أظلال .

يقول الله تعالى مخبراً ﴿ ونفخ في الصور ﴾ وقيل : إن الصور قرن ينفخ فيه إسرافيل فيخرج من جوفه صوت عظيم يميل العباد اليه ، لأنه كالداعي لهم إلى نفسه . وقال أبو عبيدة : الصور جمع صورة مثل بسرة و بسر ، ولو جعلوه مثل (ظلمة ، وظلم) لقالوا : صور بفتح الواو ، وهو مشتق من الميل ، صاره يصوره صوراً إذا أماله ومنه قوله ﴿ فصرهن اليك ﴾ (٢) أي أملهن اليك ومنه الصورة ، لأنها تميل إلى مثلها بالمشاكلة . وقوله ﴿ فاذا هم من الاجداث ﴾ وهو جمع جدث ، وهو القبر ، فلغة اهل العالية بالثاء ، ولغة أهل السافلة بالفاء يقولون : جدف إلى ربهم ينسلون أي يسرعون والنسول الاسراع في الخروج كما قال الشاعر :

عسلان الذئب أمسى قارباً   برد الليل عليه فنسل (٣)

يقال : نسل ينسل وينسل نسولا ، قال امرؤ القيس :

وإن تك قد ساءتك مني خليقة   فسلي ثيابي من ثيابك تنسل (٤)

وقال قتادة : الموتة بين النفختين . ثم حكى ما يقول الخلائق إذا حشروا ، فانهم ﴿ يقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ أي من حشرنا من منامنا الذي كنا فيه نياماً ، ثم يقولون ﴿ هـــذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ في ما أخبرونا عن هذا المقام وعن هذا البعث . فان قيل : هذا ينافي قول المسلمين الذين يقولون : الكافر يعذب فى قبره ، لأنه لو كان معذباً لما كان فى المنام! . قيل : يحتمل ان يكون العذاب فى القبر ولا يتصل إلى يوم البعث ، فتكون النومة

(١) سورة ١٦ النحل آية ٤٨   (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٦٠

(٣ و ٤) مر فى ٧ / ٢٧٩

بين الحالين .ويحتمل لو كان متصلا أن يكون ذلك عبارة عن عظم ما يشاهدونه ويحضرون فيه يوم القيامة ، فكأنهم كانوا قبل ذلك في مرقد ، وإن كانوا في عذاب لما كان قليلا بالاضافة الى الحاضر . وقال قتادة : قوله ﴿ هذا ما وعد الرحمن ﴾ حكاية قول المؤمن . وقال ابن زيد والجبائي: هو قول الكفار ، وهو أشبه بالظاهر ، لأنه تعالى حكى عنهم انهم يقولون : يا ويلنا ، والمؤمن لايدعو بالويل لعلمه بما له من نعيم الجنة . وقال الفراء : هو من قول الملائكة .

وقال تعالى مخبراً عن سرعة بعثهم وسرعة اجتماعهم ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ والمعنى ليست المدة إلا مدة صيحة واحدة ﴿ فاذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ ثم حكى تعالى ما يقوله ـ عز وجل ـ يومئذ للخلائق فانه يقول لهم ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي لا ينقص من له حق من حقه شيئاً من ثواب او عوض او غير ذلك ، ولا يفعل به ما لا يستحقه من العقاب بل الامور جارية على العدل ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ ومعناه لايجازى الانسان إلا على قدر عمله ، إن كان عاملا بالطاعة جوزي بالثواب ، وإن كان عاصياً جوزي بالعقاب على قدر عمله من غير زيادة عليه ولا نقصان ، إلا أن يتفضل الله باسقاط عقابه .

ثم قال تعالى ﴿ إن اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾ يعني يشغلهم النعيم الذي يغمرهم بسرورهم به عن غيره . وقال ابن مسعود وابن عباس : الشغل كناية عن افتضاض الابكار . وقيل استماع الألحان ﴿ فاكهون ﴾ قال ابن عباس : معناه فرحون . وقال مجاهد : عجبون . وقيل : ذو فاكهة ، كما يقال لاحم شاحم أي ذو لحم وشحم ، وعاسل ذو عسل ، قال الحطيئة :

وعززتني وزعمت انك لابن في الصيف تامر (١)

أي ذو ابن وتمر . وقيل : فاكه وفكه مثل حاذر وحذر . والفكه الذي يتمرى بالشيء .

ثم اخبر عن حال أهل الجنة فقال ﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الارائك ﴾ فالازواج جمع زوجة وهي حرة الرجل الذي يحل له وطؤها . ويقال المرأة زوج ايضاً بغير هاء في الموضع الذي لا يلتبس بالذكر ، والظلال الستار عن وهج الشمس وسمومها ، فاهل الجنة في مثل ذلك الحال في الطيبة من الظلال الذي لا حر فيه ولا برد . وقيل : الظل الكن وجمعه ظلال . وقيل هو جمع ظلة وظلال ، مثل قلة وقلال . ومن قرأ ظلل ، فعلى وزن ظلمة وظلم ، وقلة وقلل . والارائك جمع أريكة وهي الوسادة ، وجمعها وسائد ، ويجمع أيضاً أرك كقولهم سفينة وسفن وسفائن ، وهذه جلسة الملوك العظماء من الناس . وقيل الارائك الفرش ، قال ذو الرمة :

خدوداً جفت في السير حتى كأنما يباشرن بالمعزاء مس الارائك (٢)

وقال عكرمة وقتادة : الارائك الحجال على السرر ﴿ متكئون ﴾ فمتكىء مفتعل من توكأت ، إلا أن الواو أبدلت تاء . ثم قال ﴿ لهم فيها ﴾ في الجنة ﴿ فاكهة ، ولهم ما يدعون ﴾ أي ما يتمنون . وقال ابو عبيدة : يقول العرب : ادع على ما شئت أي تمن ما شئت . وقيل : معناه إن من ادعى شيئاً فهو له بحكم الله تعالى ، لانه قد هذبت طباعهم ، فلا يدعون إلا ما يحسن منهم . وقوله ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ معناه ولهم سلام قولا من رب رحيم

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٦٤

(٢) مجاز القرآن ١ / ٤٠١ و ٢ / ١٦٤

يسمعونه من الله تعالى ويؤذنهم بدوام الأمن والسلامة ودوامهما مع سبوغ النعمة والكرامة. ثم يقول للعصاة ﴿ أمتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ ومعناه انفصلوا معاشر العصاة وامتازوا، الذين اجترموا وارتكبوا من المعاصي من جملة المؤمنين، وقال قتادة: معناه اعتزلوا معاشر العصاة عن كل خير، يقال تميز الشيء تميزاً وميزته تمييزاً، وأماز اميازاً.

ثم حكى ما يقول تعالى لهم فانه يقول لهم ﴿ ألم اعهد اليكم يا بني آدم ﴾ يعني على لسان أنبيائه ﴿ ان لا تعبدوا الشيطان ﴾ فجعل عبادتهم للاوثان بأمر الشيطان عبادة له ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ أي، وقلت لكم أن الشيطان لكم عدو مبين أي ظاهرة عداوته لكم.

قوله تعالى:

﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) أَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٦٥) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ورويس ﴿ جبلا ﴾ بضم الجيم والباء خفيفة اللام. وقرأ نافع وابو جعفر وعاصم بكسر الجيم والباء مشددة. وقرأ ابو عمرو وابن عامر بضم الجيم ساكنة الباء خفيفة. هذه كلها لغات

والمعنى واحـــد . قال النوري يقال : جُبلاً و جِبلاّ وجبـلا و جُبلا . وحكى غيره التشديد .

لما حكى الله تعالى ما يقوله الكفار يوم القيامة ويواقفهم عليه من انه عهد اليهم أن لا تعبدوا الشيطان وانه عدوهم ، حكى انه كان أمرهم أيضاً بأن يعبدوا الله وأن عبادته صراط مستقيم ، فوصف عبادته تعالى بأنه طريق مستقيم من حيث كان طريقاً مستقيماً إلى الجنة ، وانه لا تخليط فيه ولا تعريج . ثم قال ﴿ ولقد أضل منكم ﴾ يعني أضل عن الدين الشيطان منكم ﴿ جبلا كثيراً ﴾ أي خلقاً كثيراً وإضلاله إياهم هو إغواؤه لهم ، كما أضل السامري قوم موسى لما دعاهم إلى عبادة العجل ، فكان الاضلال على هذا الوجه قبيحاً ، فأما إضلال الله تعالى للكفار عن طريق الجنة إلى طريق النار او إضلالهم بمعنى الحكم عليهم بالضلال ، فهو حسن . وأمر الشيطان بالضلال الذي يقع معه القبول إضلال كما يسمى الأمر بالاهتداء الذي يقع عنده القبول هدى .

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة في إرادة الله اضلالهم ، لان ذلك اضر عليهم من إرادة الشيطان واشد عليهم في إيجاد العداوة قبل أن يكفروا . و (الجبل) الجمع الذين جبلوا على خليقـة ، وجبلوا أي طبعوا . وأصل الجبل الطبع ومنه جبلت التراب بالماء إذا صيرته طيناً يصلح أن يطبع فيه ، ومنه الجبل لأنه مطبوع على الثبات ﴿ افلم تكونوا تعقلون ﴾ أنه يغويكم ويصدكم عن دين الحق فتنتبهون عليه ، فهو بصورة الاستفهام ومعناه الانكار عليهم والتبكيت لهم .

ثم يقول الله لهم ﴿ هذه جهنم التي كنتم توعدون ﴾ بها في دار التكليف حاضرة تشاهدونها ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ معناه الزموا العذاب

بها ، وأصل الصلو اللزوم فمنه المصلي الذي يجيء في أثر السابق للزومه أثره والصلوان مكتنفا ذنب الفرس للزومها وموضعها . وقولهم : صلى على عادتها للزومه الدعاء ، وسميت الصلاة صلاة للزوم الدعاء فيها . وقوله ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ أي جزاء على كفركم بالله وجحدكم لوحدانيته وتكذيبكم انبياءه .

ثم اخبر تعالى بأنه يختم على افواه الكفار يوم القيامة فلا يقـدرون على الكلام والنطق « وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » قيل : في معنى شهادة الأيدي قولان :

احدهما ـ إن الله تعالى يخلقها خلقة يمكنها أن تتكلم وتنطق وتعترف بذنوبها

والثاني ـ انه يجعل الله فيها كلاماً ونسبه اليها لما ظهر من جهتها ، وقال قوم : انه يظهر فيها من الامارات ما تدل على ان اصحابها عصوا وجنوا بها أقبح الجنايات فسمى ذلك شهادة ، كما يقال : عيناك تشهد لسهرك ، وقال الشاعر :

امتلأ الحوض وقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني (١)

وغير ذلك مما قد بيناه في ما تقدم ، وكل ذلك جائز ، وقال آخر :

وقالت له العينان سمعاً وطاعة وحدّرتا كالدر لما يثقب (٢)

قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا

---

(١) مر في ١ / ٤٣١ (٢) مر في ١ / ٤٣ و ٦ / ٤٥

مُضِيّاً وَلاَ يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابو بكر عن عاصم ﴿ مكاناتهم ﴾ على الجمع . الباقون على التوحيد ، لأنه يدل على القليل والكثير . وقرأ عاصم وحمزة ﴿ ننكسه ﴾ بضم النون الأولى وفتح الثانية وتشديد الكاف . الباقون بفتح النون الأولى وتخفيف الثانية وتخفيف الكاف ، وهما لغتان تقول : نكست ونكست مثل رددت ورددت غير ان التشديد للتكثير ، والتخفيف يحتمل القليل والكثير . وقال ابو عمرو بالتشديد إن ترك الرجل من دأبه ، وبالتخفيف ان يرده إلى ارذل العمر ، ففرق بينهما . وقرأ نافع وابوا جعفر والداحوني عن هشام والنقار ويعقوب ﴿ أفلا تعقلون ﴾ بالتاء . الباقون بالياء ، والأول على الخطاب ، والثاني على الخبر عن الغائب . وقرأ اهل المدينة وابن عامر «لتنذر» بالتاء . الباقون بالياء .

يقول الله تعالى مخبراً عن قدرته على إهلاك هؤلاء الكفار الذين جحدوا وحدانيته وعبدوا سواه وجحدوا رسله إنا ﴿ لو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ قال ابن عباس : معناه إنا لو شئنا أعميناهم عن الهدى . وقال الحسن وقتادة : معناه اتركناهم عمياً يترددون والطمس محو الشيء حتى يذهب أثره ، فالطمس على العين كالطمس على الكتاب ، ومثله الطمس على المال : إذهابه حتى لا يقع على إدراكه ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ ومعناه طلبوا النجاة . والسبق اليها ولا بصر

لهم ﴿ فأنى تبصرون ﴾ وقيل : معناه فاستبقوا الطريق إلى منازلهم فلم يهتدوا اليها . وقال ابن عباس : معناه طلبوا طريق الحق وقد عموا عنها . والطمس على العين إذهاب الشق الذي بين الجفنتين ، كما تطمس الريح الأثر يقال أعمى مطموس ، وطمس أي عمي ﴿ فاستبقوا ﴾ معناه فابتدروا ، وهذا بيان من الله أنهم في قبضته ، وهو قادر على ما يريد بهم ، فليحذروا تنكيله بهم . ثم قال زيادة في التحذير والارهاب ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ والمسخ قلب الصورة إلى خلقة مشوهة كما مسخ قوماً قردة وخنازير ، والمسخ نهاية التنكيل . وقال الحسن وقتادة : معناه لمسخناهم على مقعدهم على أرجلهم والمكانة والمكان واحد ، ولو فعلنا بهم ذلك ﴿ فما استطاعوا مضياً ﴾ أي لما قدروا أن يذهبوا أصلا ولا أن يجيئوا ثم قال ﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق ﴾ معناه إن من طولنا عمره نصيره بعد القوة إلى الضعف وبعد زيادة الجسم إلى النقصان وبعد الجدة والطراوة إلى البلى والخلاقة . وقيل معناه : نصيره ونرده إلى حال الهرم التي تشبه حال الصبي وغروب العلم وضعف القوى ذكره قتادة .

وقوله ﴿ افلا تعقلون ﴾ يعني ما ذكرناه بأن تفكروا فيه فتعرفوا صحة ما قلناه.

ثم اخبر تعالى عن نبيه صلى الله عليه وآله فقال ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ ومعناه ما علمناه الشعر لأنا لو علمناه ذلك لدخلت به الشبهة على قوم في ما أتى به من القرآن وأنه قدر على ذلك لما في طبعه من الفطنة للشعر . وقيل : لما لم يعط الله نبيه العلم بالشعر وإنشائه لم يكن قد علمه الشعر ، لأنه الذي

يعطي فطنة ذلك من يشاء من عباده . ثم قال ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ يعني ليس الذي أنزلناه عليه شعراً بل ليس إلا ذكر من الله ﴿ وقرآن مبين لتنذر به ﴾ يعني واضح ، وفعلنا ذلك وغرضنا أن تنذر به أي تخوف به من معاصي الله ﴿ من كان حياً ﴾ قيل : معناه من كان مؤمناً ، لأن الكافر شبهه ومثله بالاموات في قوله ﴿ أموات غير أحياء ﴾ (١) ويقويه قوله ﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ ويجوز أن يكون أراد من كان حياً عاقلا دون من كان جماداً لا يعقل ، ويحق القول على الكافرين إذا لم يقبلوه وخالفوا فيه . ومن قرأ بالتاء وجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله لأنه الذي يخوف . ومن قرأ بالياء معناه إن الله الذي يخوفهم ويرهبهم بالقرآن ، لانه الذي أنشأه ، ويجوز أن يكون القرآن هو الذي ينذر من حيث تضمن الانذار .

قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ (٧٦) خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى منبهاً لخلقه على الاستدلال على معرفته ﴿ او لم يروا ﴾

(١) سورة ١٦ النحل آية ٢١

ومعناه او لم يعلموا ﴿ أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاماً ﴾ ومعناه إنا عملناه من غير أن نكله إلى غيرنا ، فهو بمنزلة ما يعمله العباد بأيديهم في انهم تولوا فعله ولم يكلوه إلى غيرهم ، وتقديره انا تولينا خلق الانعام لهم بأنفسنا ، والأنعام جمع النعم ، وهي الأبل والبقر والغنم ﴿ فهم لها ما لكون ﴾ معناه لو لم نخلق ذلك لما صح ملكهم لها ، وكذلك سائر أملاك العباد بهذه الصفة فهو المنعم على عباده بكل ما ملكوه، وبحسب ما ينتفعون به يكون حاله حال المنعم .واليدفي اللغة على أربعة أقسام : احدها ـ الجارحة . والثاني ـ النعمة ، والثالث ـ القوة . والرابع ـ بمعنى تحقيق الاضافة . تقول : له عندي يد بيضاء أي نعمة ، وتلقى قولي باليدين أي بالقوة والتقبل ، وقول الشاعر :

دعوت لما نابني مسوراً فلبى فلبى يدي مسور

فهذا بمعنى تحقيق الاضافة . وتقول هذا ما جنت يدك ، وما كسبت يدك أي ما كسبت أنت .

وقوله ﴿ وذللناها لهم ﴾ فتذليل الانعام تسخيرها بالانقياد ورفع النفور لان الوحشي من الحيوان نفور ، والانسي مذلل بما جعله الله فيه من الانس والسكون ، ورفع عنه من الاستيحاش والنفور . وقوله ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ قسمة الانعام ، فان الله تعالى جعل منها ما يركب ومنها ما يذبح وينتفع بلحمه ويؤكل ، فالركوب ـ بفتح الراء ـ صفة ، يقال : دابة ركوب أي تصلح الركوب ، والركوب ـ بضم الراء ـ مصدر ركبت . وقرأت عائشة ﴿ فمنها ركوبتهم ﴾ مثل الحلوبة . وقوله ﴿ ولهم فيها منافع ومشارب ﴾ فمن منافعها لبس اصوافها وشرب ألبانها واكل لحومها وركوب ظهورها إلى غير ذلك من انواع المنافع الكثيرة فيها . ثم قال ﴿ أفلا تشكرون ﴾ الله على هذه

النعم المختلفة المتقنة .

ثم اخبر عن حال الكفار فقال ﴿ واتخذوا من دون الله آلهـــة لعلهم ينصرون ﴾ يعبدونها لكي ينصروهم . ثم قال تعالى ﴿ فلا يستطيعون نصرهم ﴾ يعني هـذه الآلهة التي اتخذوها وعبدوها لاتقدر على نصرهم والدفع عنهم ما ينزل بهم من عذاب الله ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ ومعناه إن هذه الآلهة معهم في النار محضرون ، لأن كل حزب مع ما عبد من الأوثان في النار ، كما قال ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ إلا من استثناه بقوله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعـدون لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ (١) فاما الاصنام فان الله تعالي يجعلها مع من عبدها في النار ، فلا الجند يدفعون عنها الاحراق بالنار ولا هم يدفع عنهم العذاب . وقال قتادة : يعني وهم لهم جند محضرون أي وهم يغضبون للاوثان في الدنيا .

قوله تعالى :

﴿ فَلاَ يَحزُنكَ قَولُهُم إِنّا نَعلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعلِنُونَ (٧٦) أَوَلَم يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقنَاهُ مِن نُطفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُل يُحيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الأَخضَرِ نَاراً فَإِذَا

(١) سورة ٢١ الأنبياء آية ٩٨ـ١٠١ ـ ١٠٢

أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٣) ثمان آيات بلا خلاف

قرأ رويس ﴿ يقدر ﴾ بالياء وجعله فعلا مستقبلا . وقرأ الكسائي وابن عباس ﴿ فيكون ﴾ نصباً عطفاً على ﴿ أن نقول .... فيكون ﴾ الباقون بالرفع بتقدير ، فهو يكون .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله على وجه التسلية له عن تكذيب قومه إياه ، فقال ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ وضم الياء نافع ، وحزن وأحزن لغتان . والحزن ألم القلب بما يرد عليه مما ينافي الطبع ، ومثله الغم ، وضده السرور والفرح . والمعنى في صرف الحزن عن النبي صلى الله عليه وآله في كفر قومه هو أن ضرر كفرهم عائد عليهم ، لانهم يعاقبون به دون غيرهم . ثم قال ﴿ انا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي ما يظهرونه وما يبطنونه فنجازي كلاً منهم على قدره لا يخفى علينا شيء منها . ثم قال منبهاً لخلقه على الاستدلال على صحة الاعادة والنشأة الثانية ، فقال ﴿ أو لم ير الانسان ﴾ ومعناه أو لم يعلم ﴿ أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ﴾ ومعناه إنا نقلناه من النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى العظم ومن العظم إلى أن جعلناه خلقاً سوياً وجعلنا فيه الروح وأخرجناه من بطن أمه وربيناه ونقلناه من حال إلى حال إلى أن كمل عقله وصار متكلماً خصيماً عليماً ،

فمن قدر على جميع ذلك كيف لا يقدر على الاعادة ، وهي أسهل من جميع ذلك ؟ ! ولا يجوز أن يكون خلق الانسان ولا خالق له ، ولا أن يكون واقعاً بالطبيعة ، لانها في حكم الموات في أنها ليست حية قادرة ، ومن كان كذلك لا يصح منه الفعل ولا أن يكون كذلك بالاتفاق لان المحدث لا بد له من محدث قادر وإذا كان محكما فلا بد من كونه عالمًا .

وفي الآية دلالة على صحة استعمال النظر ، لان الله تعالى أقام الحجة على المشركين بقياس النشأة الثانية على النشأه الأولى ، وأنه يلزم من أقر بالأولى أن يقر بالثانية ،

ثم حكى تعالى عن بعض الكفار انه ﴿ ضرب لنا ﴾ أي ضرب لله ﴿ مثلا ونسي خلقه ﴾ كيف كان في الابتداء ﴿ فقال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ فقال قتادة ، ومجاهد : كان القائل ابي بن خلف . وقال سعيد بن جبير : هو العاص بن وابل السهمي . وقال ابن عباس : هو عبد الله بن أبي ابن سلول . وقال الحسن : جاء أمية إلى النبي صلى الله عليه وآله بعظم بال قد بلي ، فقال يا محمد أتزعم ان الله يبعث هذا بعد ما بلي ! . قال : نعم ، فنزلت الآية . والرميم هو البالي ، فقال الله تعالى في الرد عليه ﴿ قل ﴾ يا محمد لهذا المتعجب من الاعادة ﴿ يحييها الذي انشأها أول مرة ﴾ لأن من قدر على الاختراع لما يبقى من غير تغيير عن صفة القادر ، فهو على اعادته قادر لا محالة ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ أي عالم بكل جنس من أجناس الخلق . ثم وصف نفسه فقال ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون ﴾ فبين أن من قدر على ان يجعل في الشجر الاخضر الذي هو في غاية الرطوبة ناراً حامية مع تضاد النار للرطوبة حتى إذا احتاج الانسان حك بعضه ببعض وهو

المزح والعفار وغير ذلك من انواع الشجر فيجرج منه النار وينقدح ، فمن قدر على ذلك لا يقدر الاعادة ؟ ! ثم نبههم على دليل آخر فقال ﴿ او ليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم ﴾ ومعناه من قدر على اختراع السموات والارض كيف لا يقدر على أمثاله ؟ ! وقد ثبت أن من شأن القادر على الشيء أن يكون قادراً على جنس مثله وجنس ضده . ودخول الباء في خبر (ليس) لتأكيد النفي .

ثم قال تعالى مجيباً عن هذا النفي فقال ﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ أي هو خالق لذلك عالم بكيفية الاعادة .

ثم قال تعالى ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ والمعنى بذلك الاخبار عن سهولة الفعل عليه وانه إذا اراد فعل شيء فعله بمنزلة ما يقول للشيء كن فيكون في الحال ، وهو مثل قول الشاعر :

وقالت له العينان سمعا وطاعة وحدرتا كالدر لما يثقب (١)

وإنما اخبر عن سرعة دمعه دون ان يكون قبولا على الحقيقة . ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ ومعناه تنزيهاً له عن نفي القدرة على الاعادة وغير ذلك مما لا يليق به الذي يقدر على الملك ، وفيه مبالغة ﴿ واليه ترجعون ﴾ يوم القيامة الذي لا يملك فيه الأمر والنهي سواه ، فيجازيكم على قدر اعمالكم من الطاعات والمعاصي بالثواب والعقاب .

---

(١) مر في ١ / ٣٤١ و ٦ / ٤٥ و ٨ / ٤٧١

٣٧ - سورة الصافات

مكية في قول مجاهد وقتادة والحسن وهي مئة واثنان وثمانون آية في المدنيين وإحدى وثمانون في البصري وليس فيها ناسخ ومنسوخ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَٱلزَّاجِرَاتِ زَجْراً (٢) فَٱلتَّالِيَاتِ
ذِكْراً (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ
ٱلْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ
إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ
وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ (١٠)
عشر آيات بلا اختلاف .

ادغم ابو عمرو - إذا أدرج - التاء في الصاد ، والتاء في الزاي ، والتاء في الذال في قوله ﴿ والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً ﴾ لقرب

مخرجهما إذا كانا من كلمتين ، وافقه حمزة في جميع ذلك . الباقون بالاظهار لأن قبل التاء حرفاً ساكناً ، وهو الالف ، لأن مخارجها متغايرة . وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو وابن عامر ﴿ بزينة الكواكب ﴾ ولذلك كان يجوز أن يقرأ برفع الكواكب غير أنه لم يقرأ به أحد ، ولو قرىء به لجاز . وقرأ ابو بكر عن عاصم ﴿ بزينة ﴾ منوناً ﴿ الكواكب ﴾ نصباً على معنى تزييننا الكواكب . الباقون ﴿ بزينة ﴾ منوناً ﴿ الكواكب ﴾ خفضاً على البدل ، وهو بدل الشيء من غيره ، وهو بعينه ، لأن الزينة هي الكواكب ، وهو بدل المعرفة من النكرة ، ومثله قوله ﴿ لنسفعاً بالناصية ناصية ﴾ (١) فابدل النكرة من المعرفة . وقرأ الكسائي وحمزة وخلف وحفص عن عاصم ﴿ لا يسمعون ﴾ بالتشديد ، وأصله لا يتسمعون ، فأدغم التاء في السين . الباقون بالتخفيف لان معنى سمعت إلى فلان وتسمعت إلى فلان واحد . وإنما يقولون تسمعت فلاناً بمعنى أدركت كلامه بغير (إلى) . ومن شدّد كرّر ، لئلا يشتبه . قال ابن عباس : كانوا لا يتسمعون ولا يسمعون .

هذه اقسام من الله تعالى بالأشياء التي ذكرها ، وقد بينا أن له تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لخلقه أن يحلفوا إلا بالله . وقيل إنما جاز أن يقسم تعالى بهذه الأشياء ، لأنها تنبىء عن تعظيمه بما فيها من القدرة الدالة على ربها . وقال قوم : التقدير : ورب الصافات ، وحذف لما ثبت من أن التعظيم بالقسم لله . وجواب القسم قوله ﴿ إن الهكم لواحد ﴾ وقال مسروق وقتادة والسدي : إن الصافات هم الملائكة مصطفون في السماء

(١) سورة ٩٦ العلق آية ١٥

يسبحون الله . وقيل : صفوف الملائكة في صلاتهم عند ربهم - ذكره الحسن - وقيل : هم الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة حتى يأمرها الله بما يريد ، كما قال ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ (١) وقال ابو عبيدة : كل شيء من السماء والأرض لم يضم قطريه فهو صاف ، ومنه قوله ﴿ والطير صافات ﴾ (٢) إذا نشرت أجنحتها ، والصافات جمع الجمع ، لأنه جمع صافة .

وقوله ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ قال السدي ومجاهد : هم الملائكة يزجرون الخلق عن المعاصي زجراً يوصل الله مفهومه إلى قلوب العباد ، كما يوصل مفهوم اغواء الشيطان إلى قلوبهم ليصح التكليف ، وقيل : إنها تزجر السحاب في سوقها . وقال قتادة : ﴿ الزاجرات زجراً ﴾ آيات القرآن تزجر عن معاصي الله تعالى ، والزجر الصرف عن الشيء لخوف الذم والعقاب ، وقد يكون الصرف عن الشيء بالذم فقط على معنى انه من فعله استحق الذم .

وقوله ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ قيل فيه ثلاثة اقوال :

احدها - قال مجاهد والسدي : هم الملائكة تقرأ كتب الله .

وقال قتادة : هو ما يتلى في القرآن . وقال قوم : يجوز أن يكون جماعة الذين يتلون القرآن . وإنما قال ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ ولم يقل تلوا ، كما قال ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ لأن التالي قد يكون بمعنى التابع تقول : تلوت فلاناً إذا تبعته بمعنى جئت بعده ، ومنه قوله ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ (٣) فلما كان مشتركاً ، بينه بما يزيل الابهام ، وكل هذه اقسام على أن الاله الذي يستحق العبادة واحد لا شريك له . وقوله ﴿ رب السموات والأرض وما

(١) آية ١٦٥ من هذا السورة (٢) سورة ٢٤ النور آية ٤١

(٣) سورة ٩١ الشمس آية ٢

بينهما ورب المشارق ﴾ معناه إن إلهكم الذي يستحق العبادة واحد وهو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من سائر الاجناس من الحيوان والنبات والجماد ﴿ ورب المشارق ﴾ ومعناه ويملك التصرف فيها، والمشارق هي مشارق الشمس، وهي مطالعها بعدد ايام السنة ثلاثمائة وستون مشرقاً وثلاثمائة وستون مغرباً، ذكره السدي.

ثم اخبر تعالى عن نفسه، فقال ﴿ إنا زينا السماء الدنيا ﴾ والتزيين التحسين للشيء وجعله صورة تميل اليها النفس، فالله تعالى زين السماء الدنيا على وجه يمتع الرائي لها، وفي ذلك النعمة على العباد مع ما لهم فيها من المنفعة بالفكر فيها والاستدلال على صانعها. والكواكب هي النجوم كالبدر والسماء بها زينة قال النابغة:

بانك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبق منهن كوكب

وقوله ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾ معناه وحفظناها حفظاً. والحفظ المنع من ذهاب الشيء، ومنه حفظ القرآن بالدرس المانع من ذهابه. والمارد الخارج إلى الفساد العظيم، وهو وصف للشياطين وهم المردة، واصله الانجراد، ومنه الأمرد، والمارد المتجرد من الخير. وقوله ﴿ لا يسمعون ﴾ من شدّد أراد لا يتسمعون وأدغم التاء في السين، ومن خفف أراد ايضاً لا يتسمعون في المعنى ﴿ إلى الملأ الأعلى ﴾ يعني الملائكة الذين هم في السماء وقوله ﴿ ويقذفون من كل جانب ﴾ معناه يرمون بالشهب من كل جانب إذا ارادوا الصعود إلى السماء للاستماع ﴿ دحوراً ﴾ أي دفعاً لهم بعنف، يقال: دحرته دحراً ودحوراً، وانما جاز أن يريدوا استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون، وانهم يحرقون بالشهب، لانهم تارة يسلمون إذا لم يكن من

الملائكة هناك شيء لا يجوز أن يقفوا عليه ، وتارة يهلكون كراكب البحر في وقت يطمع في السلامة.

وقوله ﴿ ولهم عـذاب واصب ﴾قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد : معناه إن لهم مع ذلك ايضاً عذاباً دائماً يوم القيامة ، ومنه قوله تعالى ﴿ وله الدين واصباً ﴾ (١) أي دائماً قال ابو الأسود :

لا ابتغي الحمد القليل بقاؤه   يوماً بذم الدهر اجمع واصبا (٢)

اي دائماً . وقوله ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ لما اخبر الله تعالى أن الشياطين لا يستمعون الى الملأ الأعلى ولا يصغون اليهم أخبر انهم متى راموا رموا من كل جانب دفعاً لهم على اشد الوجوه . ثم قال ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ أي استلب السماع استلاباً ،و الخطفة الاستلاب بسرعة ، فمتى فعل أحدهم ذلك ﴿ اتبعه شهاب ثاقب ﴾قال قتادة: والشهاب كالعمود من نار ، وثاقب مضى كأنه يثقب بضوئه يقال أثقب نارك واستثقبت النار إذا استوقـدت وأضاءت ، ومنه قولهم : حسب ثاقب أي مضى شريف ، قال ابو الأسود :

أذاع به في النـاس حتى كأنه   بعلياء نار اوقـدت بثقوب (٣)

أي بحيث يضيء ويعلو .

قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ

(١)سورة ١٦ النحل آية ٥٢   (٢) مر في ٦/ ٣٩٠

(٣) مجاز القرآن ١ / ١٣٣ و ٢ / ١٦٧

طِينٍ لاَزِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا
لاَ يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ
هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ
دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)
وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ (٢٠) عشر آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا عاصما ﴿ بل عجبت ﴾ بضم التاء. الباقون بفتحها. قال ابو علي: من فتح التاء أراد: بل عجبت يا محمد من إنكارهم البعث او من نزول الوحي على قلبك وهم يسخرون. ومن ضم قال: معناه إن إنكار البعث مع بيان القدرة على الابتداء وظهور ذلك من غير استدلال عجيب عندك. وقال قوم: إن ذلك اخبار من الله عن نفسه بأنه عجيب، وذلك كما قال ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ (١). وهذا غير صحيح، لان الله تعالى عالم بالاشياء كلها على تفاصيلها، وإنما يعجب من خفي عليه اسباب الاشياء، وقوله ﴿ فعجب قولهم ﴾ معناه عندكم. وقرأ ابن عامر ﴿ إذا ﴾ على الخبر. الباقون على الاستفهام على أصولهم في التحقيق والتخفيف والفصل وقرأ ﴿ إنا ﴾ على الخبر اهل المدينة والكسائي ويعقوب. وقرأ الباقون بهمزتين على أصولهم في التحقيق والتليين والفصل. وقرأ اهل المدينة وابن

(١) سورة ١٣ الرعد آية ٥

عامر ﴿ او آباؤنا ﴾ بسكون الواو ـ هنا وفي الواقعة ـ إلا أن ورشاً على اصله في إلقاء حركة الهمزة على الواو. الباقون بفتح الواو .

وهذا خطاب من الله تعالى لنبيه يأمره بأن يستفتي هؤلاء الكفار وهو أن يسألهم أن يحكموا بما تقتضيه عقولهم ، ويعدلوا عن الهوى واتباعه ، فالاستفتاء طلب الحكم ﴿ أهم اشدُّ خلقاً ام من خلقنا ﴾ يعني من قبلهم من الأمم الماضية والقرون الخالية ، فانه تعالى قد أهلك الأمم الماضية الذين هم اشد خلقاً منهم لكفرهم ، ولهم مثل ذلك إن أقاموا على الكفر . وقيل : المعنى أهم اشد خلقاً منهم بكفرهم ، وهم مثل ذلك أم من خلقنا من الملائكة والسموات والارضين ، فقال : أم من خلقنا ، لأن الملائكة تعقل ، فغلب ذلك على ما لا يعقل من السموات ، والشدة قوة الفتل وهو بخلاف القدرة والقوة . وكل شدة قوة ، وليس كل قوة شدة ، واشد خلقاً ما كان فيه قوة يمنع بها فتله إلى المراد به .

ثم اخبر تعالى انه خلقهم من طين لا زب . والمراد انه خلق آدم من طين ، وإن هؤلاء نسله وذريته ، فكأنهم خلقوا من طين ، ومعنى ﴿ لا زب ﴾ لازم فأبدلت الميم باء ، لأنها من مخرجها ، يقولون : طين لازب وطين لازم قال النابغة :

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب (١)

وبعض بني عقيل يبدلون من الزاي تاء ، فيقولون : لاتب ، ويقولون :لزب، ولتب،ويقال:لزب يلزب لزوباً . وقال ابن عباس : اللازب الملتصق من الطين الحر الجيد .وقال قتادة :هو الذي يلزق باليد وقال مجاهد : معناه لازق . وقيل :

(١) مجاز القرآن ٢ /١٦٧ القرطبي١٥ / ٦٩

معناه من طين علك خلق آدم منه ونسب ولده اليه . وقوله ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ فمن ضم التاء اراد أن النبي صلى الله عليه وآله أمره الله أن يخبر عن نفسه انه عجب من هذا القرآن حين أعطيه ، وسخر منه أهل الضلالة . قال المبرد : وتقديره قل بل عجبت . ومن فتح التاء أراد ان الله تعالى خاطبه بذلك . والعجب تغير النفس بما خفي فيه السبب في ما لم تجر به العادة ، يقال : عجب يعجب عجباً وتعجب تعجباً . والمعنى في الضم على ما روي عن علي عليه السلام وابن مسعود ليس على انه بعجيب كما يعجب ، لأن الله تعالى عالم بالاشياء على حقائقها ، وإنما المعنى انه يجازي على العجب كما قال ﴿ فيسخرون منهم سخر الله منهم ﴾ (١) ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ (٢) ويجوز أن يكون المعنى قد حلوا محل من يعجب منهم . والفتح على عجب النبي صلى الله عليه وآله ﴿ ويسخرون ﴾ معناه يهزؤن بدعائك إياهم إلى الله . والنظر في دلائله وآياته . ﴿ وإذا ذكروا ﴾ بآيات الله وحججه وخوفوا بها ﴿ لا يذكرون ﴾ أي لا يتفكرون ، ولا ينتفعون بها ﴿ وإذا رأوا آية ﴾ من آيات الله تعالى ﴿ يستسخرون ﴾ أي يسخرون وهما لغتان . وقيل : معناه يطلب بعضهم من بعض أن يسخروا ويهزؤا بآيات الله ، فيقولون ليس هذا الذي تدعونا اليه من القرآن وتدعيه أنه من عند الله ﴿ إلا سحر مبين ﴾ أي ظاهر بين .

وحكى انهم يقولون ايضاً ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاما أئنا لمبعوثون ﴾ بعد ذلك ومحشورون ومجازون؟ ! ﴿ او آباؤنا الأولون ﴾ الذين تقدمونا بهذه الصفة ، واللفظ لفظ الاستفهام والمراد بذلك التهزي والاستبعاد لأن يكون

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٠ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤

هذا حقيقة وصحيحاً . فمن فتح الواو فلأنها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ نعم ﴾ الامر على ذلك ، فانكم تحشرون وتسألون وتجازون على اعمالكم من الطاعات بالجنة والثواب ، وعلى المعاصي بالنار والعقاب فيها ﴿ وانتم داخرون ﴾ أي صاغرون أذلاء ـ وهو قول الحسن وقتادة والسدي ـ وقيل : الداخر الصاغر الذليل اشد الصغر والصاغر الذليل لصغر قدره .

ثم قال ايضاً وقل لهم ﴿ فانما هي زجرة واحدة ﴾ فقال الحسن : يعني النفخة الثانية . والزجرة الصرفة عن الشيء بالمخافة ، فكأنهم زجروا عن الحال التي هم عليها إلى المصير إلى الموقف للجزاء والحساب ﴿ فاذا هم ينظرون ﴾ أي يشاهدون ذلك ويرونه . وقيل : معناه فاذا هم أحياء ينتظرون ما ينزل بهم من عذاب الله وعقابه ، ويقولون معترفين على نفوسهم بالعصيان ﴿ يا ويلنا هذا يوم الدين ﴾ اي يوم الجزاء والحساب . و (الويل) كلمة يقولها القائل إذا وقع في الهلكة ، ومثله يا ويلتى ، ويا حسرتى ، ويا عجبا . وقال الزجاج : والمعنى في جميع ذلك ان هذه الأشياء حسن نداؤها على وجه التنبيه والتعظيم على عظم الحال ، والمعنى يا عجب اقبل ويا حسرة اقبلي فانه من اوانك واوقاتك ، ومثله قوله ﴿ يا ويلتى الد وانا عجوز ﴾ (١) وقوله ﴿ يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله ﴾ (٢) .

قوله تعالى :

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) أُحْشُرُوا

(١) سورة ١١ هود آية ٧٢   (٢) سورة ٣٩ الزمر آية ٥٦

ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ ٱللَّهِ
فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (٢٤)
مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ
الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا
عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴾ (٣٠)

عشر آيات في الكوفي والمدنيين عدوا قوله ﴿ وما كانوا يعبدون ﴾ رأس آية . والبصريون لم يعدوها ، فهي عندهم تسع آيات .

لما اخبر الله تعالى عن الكفار انهم إذا حشروا وشاهدوا القيامة وقالوا ﴿ يا ويلنا هذا يوم الدين ﴾ يعني الجزاء حكى ما يقول الله لهم فانه تعالى يقول لهم ﴿ هذا يوم الفصل ﴾ بين الخلائق والحكم وتميز الحق من الباطل على وجه يظهر لجميعهم الحال فيه ، وانه تعالى يدخل المطيعين الجنة على وجه الاكرام والاعظام ، ويدخل العصاة النار على وجه الاهانة والاذلال ﴿ هذا هو يوم الفصل ﴾ وهو اليوم ﴿ الذي كنتم ﴾ معاشر الكفار ﴿ به تكذبون ﴾ وتجحدونه وتقابلون من اخبر عنه بالتكذيب وتنسبونه إلى ضد الصدق .

ثم حكى ما يقول الله للملائكة المتولين لسوق الكفار إلى النار ، فانه

يقول لهم « أحشروا الذين ظلموا » أنفسهم بارتكاب المعاصي بمعنى اجمعوهم من كل جهة ، فالكفار يحشرون من قبورهم إلى أرض الموقف للجزاء والحساب . ثم يساق الظالمون مع ما كانوا يعبدون من الأوثان والطواغيت إلى النار وكذلك أزواجهم الذين كانوا على مثل حالهم من الكفر والضلال وقال ابن عباس ومجاهد وابن زيد : معنى « وازواجهم » اشباههم ، وهو من قوله « وكنتم أزواجاً ثلاثة » (١) أي اشكالا واشباها . وقال قتادة : معناه وأشياعهم من الكفار . وقيل : من الاتباع . وقال الحسن : يعني « وأزواجهم » المشركات . وقيل : اتباعهم على الكفر من نسائهم .

وقوله « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » إنما عبر عن ذلك بالهداية من حيث كان بدلا من الهداية إلى الجنة ، كما قال « فبشرهم بعذاب اليم » (٢) لهذه العلة من حيث ان البشارة بالعـذاب الأليم وقعت لهم بدلا من البشارة بالنعيم ، يقال : هديته الطريق أي دللته عليها وأهديت الهدية .

ثم حكى الله تعالى ما يقوله للملائكة الموكلين بهم فانه يقول لهم «وقفوهم» أي قفوا هؤلاء الكفار أي احبسوهم « انهم مسؤلون » عما كلفهم الله في الدنيا من عمل الطاعات واجتناب المعاصي هل فعلوا ما أمروا به أم لا ؟ على وجه التقرير لهم والتبكيت دون الاستعلام ، يقال : وقفت انا ووقفت الدابة بغير الف . وبعض بني تميم يقولون : اوقفت الدابة والدار . وزعم الكسائي انه سمع ما اوقفك ههنا ، وانشد الفراء :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحن اومأنا إلى الناس اوقفوا

بالف . ويقال لهم ايضاً على وجه التبكيت « مالكم » معاشر الكفار

(١) سورة ٥٦ الواقعه آية ٧ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٢١

« لا تنـاصرون » بمعنى لا تتناصرون ، ولذلك شدد بعضهم التاء ، ومن لم يشدد حذف إحداها ، والمعنى لم لا يدفع بعضكم عن بعض ان قدرتم عليه .

ثم قال تعالى انهم لا يقدرون على التناصر والتـدافع لكن « هم اليوم مستسلمون » ومعنا مسترسلون مستحدثون يقال : استسلم استسلاماً إذا القي بيده غير منازع في ما يراد منه . وقيل : معناه مسترسلون لما لا يستطيعون له دفعاً ولا منه امتناعاً .

وقوله « واقبل بعضهم على بعض يتساءلون » اخبـار منه تعالى إن كل واحد من الكفار يقبل على صاحبه الذي اغواه على وجه التأنيب والتضعيف له يسأله لم غررتني ؟ ويقول ذاك لم قبلت مني .

وقوله « قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين » حكاية ما يقول الكفار لمن قبلوا منهم إنكم : كنتم تأتوننا من جهـة النصيحة واليمن والبركة ، فلذلك اغتررنا بكم والعرب تتيمن بما جاء من جهة اليمين . وقال الفراء : معناه إنكم كنتم تأتوننا من قبـل اليمين ، فتخدعوننا من اقوى الوجوه . واليمين القوة ومنهقوله « فراغ عليهمضرباً باليمين » (١)أي بالقوة ثم حكى ما يقول اولئك لهم في جواب ذلك : ليـس الأمر على ما قلتم بل لم تكونوا مصدقين بالله ولم يكن لنا عليكم في ترك الحق من سلطان ولا قدرة فـلا تسقطوا اللوم عن أنفسكم فانه لازم لكم ولا حق بكم . وقال قتادة : أقبل الأنس على الجن يتساءلون بأن كنتم أنتم معاشر الكفار قوماً طاغين أي باغين ، تجاوزتم الحد إلى الفحش الظلم ، واصله تجاوز الحد في العظم ومنه قوله « إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية » (٢) وطغيانهم كفرهم بالله ، لأنهم تجاوزوا في ذلك الحد

(١) آية ٩٣ من هذه السورة (٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ١١

إلى أعظم المعاصي ، وقال الزجاج : معنى لاتناصرون مالكم غير متناصرين فهو نصب بانه حال .

قوله تعالى :

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤٠) عشر آيات .

هذا تمام ما حكى الله عن المغاوين للكفار يوم القيامة بأنهم إذا قالوا لهم لم يكن لنا عليكم من سلطان ، وإنما أنتم كنتم قوماً طاغين ، اخبروا أيضاً وقالوا « فحق علينا » أي وجب علينا « قول ربنا » بأنا لانؤمن ، ونموت على الكفر او وجب علينا قول ربنا بالعذاب الذي يستحق على الكفر والاغواء « إنا لذائقون » العذاب يعني إنا ندركه كما ندرك المطعوم بالذوق . ثم يعترفون على انفسهم بأنهم كانوا غاوين ، أي دعوناكم إلى الغي وقيل : معناه خيبنا كم طرق الرشاد فغوينا نحن ايضاً وخيبنا ، فالاغواء الدعاء

إلى الغي ، والغي نقيض الرشد ، وأصله الخيبة من قول الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائما(١)

ويكون (أغوى) بمعنى خيب ، ومنه قوله « رب بما أغويتني » (٢) أي خيبتني .

ثم اخبر تعالى انهم في ذلك اليوم مشتركون في العذاب ، ومعنى اشتراكهم اجتماعهم في العذاب الذي هو يجمعهم .

ثم اخبر تعالى فقال إن مثل فعلنا بهؤلاء نفعل بجميع المجرمين . وبين أنه إنما فعل بهم ذلك ، لأنهم « كانوا إذا قيل لا إله » معبود يستحق العبادة « إلا الله يستكبرون » عن قبول ذلك ، وطلبوا التكبر ، وهذه لفظة ذم من حيث استكبروا عن قول الحق . وحكى ما كانوا يقولون إذا دعوا إلى عبادة الله وحده فانهم كانوا « يقولون أإنا لتاركوا آلهتنا » ومعنى ذلك إنا نترك عبادة آلهتنا « لشاعر مجنون » يدعونا إلى خلافه ، يعنون بذلك النبي صلى الله عليه وآله يرمونه بالجنون تارة وبالشعر أخرى - وهو قول الحسن وقتادة - لفرط جهلهم حتى قالوا هذا القول الفاحش الذي يفضح قائله ، لأن المعلوم انه صلى الله عليه وآله كان بخلاف هذا الوصف ، والجنون آفة تغطي على العقل حتى يظهر التخليط في فعله ، وأصله تغطية الشيء : جن عليه الليل إذا غطاه ، ومنه المجن لأنه يستر صاحبه ، ومنه الجنان الروح ، لانها مستورة بالبدن ، ومنه الجنة لانها تحت الشجر .

ثم اخبر تعالى تكذيباً لهم بأن قال ليس الأمر على ما قالوه « بل »

(١) مر في ٢/٣١٢و٤/٣٩١و٥/٥٤٨و٦/٣٣٦و٧/١٣٦،٢١٨و٨/٣٦

(٢) سورة ١٥ الحجر آية ٣٩

النبي صلى الله عليه وآله « جاء بالحق » من عند الله وهو ما يجب العمل به « وصدق » مع ذلك « المرسلين » جميع من أرسله الله قبله . ثم خاطب الكفار ، فقال « إنكم لذائقوا العذاب الأليم » يعني المؤلم الموجع جزاء على تكذيبكم بآياتنا وليس « تجزون إلا » على قدر « ما كنتم تعملون » من المعاصي ثم استثنى من جملة المخاطبين « عباد الله المخلصين » وهم الذين أخلصوا العبادة لله واطاعوه في كل ما أمرهم به ، فانهم لا يذوقون العذاب وإنما ينالون الثواب الجزيل .

قوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٥٠) عشر آيات .

قرأ حمزة والكسائي وخلف «ينزفون» بكسر الزاي على اسناد الفعل اليهم . الباقون بفتح الزاي - على مالم يسم فاعله - ومن فتح فانه مأخوذ من نزف الرجل ، فهو منزوف ونزيف ، إذا ذهب عقله بالسكر ، وانزف فهو منزف به إذا فنيت خمره . ويقال أنزف أيضاً إذا سكر .

لما استثنى الله تعالى من جملة من يعاقبهم من الكفار المخلصين الذين

أخلصوا عبادتهم لله وحده ، بين ما اعدّ لهم من أنواع الثواب ، فقال « اولئك لهم رزق معلوم » يعني عطاء جعل لهم التصرف فيه وحكم لهم به في الأوقات المستأنفة في كل وقت شيئاً معلوماً مقدراً . ثم فسر ذلك الرزق ، فقال ذلك الرزق « فواكه » وهي جمع فاكهة وهي تكون رطباً ويابساً يتفكهون بها وينتفعون بالتصرف فيها « وهم » مع ذلك « مكرمون » أي معظمون مبجلون ، وضد الاكرام الاهانة وهي الانتقام وهم مع ذلك « في جنات النعيم » أي بساتين فيها أنواع النعيم التي يتنعمون بها « على سرر » وهو جمع سرير « متقابلين » يستمتع بعضهم بالنظر إلى وجوه بعض « يطاف عليهم بكأس من معين » أي بكأس من خمر جارية في أنهار ظاهرة للعيون ـ في قول الحسن وقتادة والضحاك والسدي ـ والكأس اناء فيه شراب . وقيل : لا يسمى كأساً إلا إذا كان فيه شراب وإلا فهو اناء .

وقوله « معين » يحتمل ان يكون (فعيلا) من العين ، وهو الماء الشديد الجري من أمعن في الأمر إذا اشتد دخوله فيه . ويحتمل ان يكون وزنه (مفعولا) من عين الماء لانه يجري ظاهراً للعين.

ثم وصف الخمر الذي في الكأس ، فقال « بيضاء » ووصفها بالبياض لانها تجري في انهار كاشرف الشراب . وهي خمر فيها اللذة والامتاع فترى بيضاء صافية في نهاية الرقة واللطافة مع النورية التي لها والشفافة ، لأنها على احسن منظر ومخبر . وقال قوم : بيضاء صفة للكأس ، وهي مؤنثة . واللذة نيل المشتهى بوجود ما يكون به صاحبه ملتذاً . والشراب مأخوذ من الشرب.

وقوله « لافيها غول » معناه لايكون في ذلك الشراب غول أي فساد يلحق العقل خفياً ، يقال : اغتاله اغتيالا إذا أفسد عليه أمره ، ومنه الغيلة

وهي القتل سراً . وقال ابن عباس « لا فيها غول » معناه لا يكون فيها صداع ولا أذى ، كما يكون في خمر الدنيا ، وقال الشاعر :

وما زالت الكأس تغتالنا ... ونذهب بالاول الاول (١)

هذا من الغيلة أي نصرع واحد بعد واحد « ولا هم عنها ينزفون » أي لا يسكرون والنزيف السكران ، لانه ينزف عقله ، قال الأبرد الرياحي :

لعمري لئن أنزفتم اوصحوتم ... لبئس التداني كنتم آل ابجرا (٢)

فالبيت يدل على ان أنزف لغة في نزف إذا سكر ، لأنه جعله في مقابلة الصحو . ومن قرأ بالسكر فعلى معنى : إنهم لا ينزفون خمرهم أي لا يفنى عندهم.

وقوله « وعندهم قاصرات الطرف عين » معنى قاصرات الطرف تقصر طرفهن على أزواجهن - في قول الحسن وغيره - وقال بعضهم : معنى قاصرات راضيات من قولهم : اقتصرت على كذا ، ومعنى « عين » الشديدة كبياض العين الشديدة سوادها - في قول الحسن - والعين النجل وهي الواسعة العين .

وقوله « كأنهن بيض مكنون » شبههن ببيض النعام يكنّ بالريش من الريح والغبار - في قول الحسن وابن زيد - وقال سعيد بن جبير والسدي : شبههن ببطن البيض قبل ان يقشر وقبل أن تمسه الأيدي ، والمكنون المصون يقال : كننت الشيء إذا صنته ، واكننته إذا سترته من كل شيء قال الشاعر :

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغـ ... ـواص ميزت من جوهر مكنون (٣)

---

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٦٩ (٢) اللسان (نزف) وتفسير القرطبي ١٥ / ٧٩ والطبري ٢٣ / ٣١ ومجاز القرآن ٢ / ١٦٩

(٣) مجاز القران ٢ / ١٧٠ وتفسير القرطبي ١٥ / ٨١ والطبري ٢٣ / ٣٤

ثم قال « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » يعني ان اهل الجنة يقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن احوالهم وما تفضل الله عليهم من انواع الكرامات

قوله تعالى:

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦٠) عشر آيات

لما حكى الله تعالى أن اهل الجنة يقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن اخبارهم وأحوالهم، ذكر أن قائلا منهم يقول « إني كان لي قرين » في دار الدنيا أي صاحب يختص بي إما من الانس - على ما قال ابن عباس - او من الجن - على ما قال مجاهد - « يقول » لي على وجه الانكار علي والتهجين لفعلي « ائنك لمن المصدقين » بيوم الدين بان الله يبعث الخلق بعد أن يصيروا تراباً وعظاماً وانهم يحشرون بعد ذلك ويحاسبون ويجازون إن هذا لبعيد، فألف الأستفهام دخلت - ههنا - على وجه الانكار، وإنما دخلت ألف الاستفهام للانكار من حيث أنه لاجواب لقائله إلا ما يفتضح به، وهؤلاء

الكفار غلطوا في هذه الانكار وتوهموا أن من يقول في جواب ذلك نعم يأتي بقبيح من القول .

وقوله « أئنا لمدينون » معناه لمجزيون مشتق من قولهم : كما تدين تدان . أي كما تجزي تجزى ، والدين الجزاء ، والدين الحساب ، ومنه الدين ، لأن جزاءه القضاء . وقال ابن عباس : القرين الذي كان له شريكاً من الناس . وقال مجاهد : كان شيطاناً .

ثم حكى انه يقال لهذا القائل على وجه العرض عليه « هل أنتم مطلعون» أي يؤمرون أن يروا مكان هذاالقرين في النار ، فيقول: نعم، فيقال له: اطلع في النار ، فيطلع في الجحيم فيراه في سوائه أي وسطه ـ في قول ابن عباس والحسن وقتادة ـ وإنما قيل للوسط : سواء لاستوائه في مكانه بأن صار بدلا منه ، وقد كثر حتى صار بمعنى غير ، وروى حسين عن أبي عمرو « مطلعوني فاطلع » بكسر النون وقطع الألف ، وهو شاذ ، لان الاسم إذا أضيف حذفت منه النون ، كقولك : مطلعي ، وإنما يجوز في الفعل على حذف احدى النونين ، وقد انشد الفراء على شذوذه قول الشاعر :

وما أدري وظني كل ظن   أسلمني إلى قوم شراح (١)

يريد شراحل ، وانشده المبرد (أأسلمني) وانشد الزجاج :

هم القائلون الخير والآمر دونه   إذاماخشوامن محدث الأمرمعظما(٢)

وقيل : ان لأهل الجنة في توبيخ أهل النار لذة وسروراً . وقال الحسن : الجنة في السماء والنار في الأرض ، فلذلك صح منهم ، الاطلاع .

ثم حكى تعالى ما يقوله المؤمن إذا اطلع عليه ورآه في وسط الجحيم

(١) تفسير الطبري ٢٣ / ٣٦   (٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٨٣

فانه يقول « تالله إن كدت لتردين » ومعنى (تالله) القسم على وجه التعجب وإنما كان كذلك ، لان التاء بدل من الواو في القسم على وجه النادر ، ولذلك اختصت باسم الله ليدل على المعنى النادر .

وقوله « إن كدت لتردين » وهي التي في قوله « إن كل نفس لما عليها حافظ » (١) إلا أنها دخلت في هذا على (فعل) ومعنى « لتردين » لتهلكني كهلاك المتردي من شاهق ، ومنه قوله « وما يغني عنه ماله إذا تردى » (٢) في النار ، وتقول ردي يردى إذا هلك وأرداه غيره إرداء إذا أهلكه ثم يقول « فلو لا نعمة ربي » علي ورحمته لي بأن لطف لي في ترك متابعتك والقبول منك « لكنت » أنا ايضاً « من المحضرين » معك في النار فالاحضار الاتيان بالشيء إلى حضرة غيره ، وقال الشاعر :

أفي الطوف خفت علي الردى وكم من رد أهله ولم يرم (٣)

أي من هالك ، وقوله « أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين » هذا تقريع لهم وتوبيخ ، لأن هذا الكافر كان يقول كثيراً ذلك في دار الدنيا ، ومثله قول الشاعر :

قالت له وبضيق ضنك لا تكثري لومي اخلي عنك

ومعناه إنها كانت تلومه على الانفاق ، فكان يقول لا تكثري لومي فاطلقك فلما انفق عيرته بذلك ووبخته وحكت ما كان يقول عند توبيخها وعذلها . وقال الجبائي : هذا يقوله المؤمن على وجه الاخبار بأنه لا يموت بعد هذا النعيم لكن الموتة الأولى قد مضت ، فتلخيص معنى الآية قولان :

(١) سورة ٨٦ الطارق آية ٤ (٢) سورة ٩٢ الليل آية ١١

(٣) الطبري ٢٣ / ٣٦

أحدها ـ انه يقوله المؤمن على وجه السرور بنعم الله في أنه لا يموت ولا يعذب .

الثاني ـ أن المؤمن يقوله على وجه التوبيخ لقرينة بما كان ينكره .

وقوله « إن هذا لهو الفوز العظيم » إخبار منه تعالى بأن هذا الثواب الذي حصل له لهو الفلاح العظيم .

قوله تعالى:

﴿ لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أَذٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ (٧٠)

عشر آيات .

يقول الله تعالى في تمام الحكاية عن قول المؤمن للكافر « لمثل هذا » يعني لمثل ثواب الجنة ونعيمها « فليعمل العاملون » في دار التكليف ، ويحسن من العامل أن يعمل العمل للثواب إذا أوقعه على الوجه الذي تدعو اليه الحكمة من وجوب او ندب ، قال الرماني : ألا ترى أنه لو عمل القبيح ليثاب على ما تدعو اليه الحكمة لاستحق الثواب إذا خلص من الاحباط . وهذا الذي

ذكره غير صحيح ، لأن القبيح لا يجوز أن يستحق عليه الثواب على وجه وإن عرض في القبيح وجوه كثيرة من وجوه الحسن ، فانه لا يعتد بها ، فان علمنا في ما ظاهره القبيح أنه وقع على وجه يستحق فيه الثواب ، علمنا انه خرج من كونه قبيحاً . ومثال ذلك إظهار كلمة الكفر عند الاكراه عليها او الانكار لكون نبي بحضرته لمن يطلبه ليقتله فان هذا وإن كان كذباً في الظاهر فلا بد أن يوري المظهر بما يخرجه عن كونه كاذباً ، ومتى لم يحسن التورية منع الله من إكراهه عليه . وفي الناس من يقول : يجب عليه الصبر على القتل ، ولا يحسن منه الكذب ، ومتى كان من يحسن التورية ، ولم يور كان القول منه كذباً وقبيحاً ولا يستحق به الثواب ، فاما الاكراه على أخذ مال الغير وإدخال ضرر عليه دون القتل ، متى كان قد علمنا بالشرع وجوب فعل ذلك عند الاكراه أو حسنه علمنا انه خرج بذلك عن كونه قبيحاً وإن الله تعالي ضمن من العوض عليه ما يخرجه عن كونه قبيحاً ، كما تقول : في ذبح البهائم ، ومتى لم يعلم بالشرع ذلك ، فانه يقبح إدخال الضرر على الغير واخذ ماله ، فأما إدخال الضرر على الغير ونفسه ببذل مال او تحمل خراج ليدفع بذلك عن نفسه ضرراً أعظم منه ، فانه يحسن ، لانه وجه يقع على الاثم فيصير حسناً ، وهذا باب احكمناه في كتاب الأصول . لايحتمل هذا الموضع أكثر من هذا .

وقوله « أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم » إنما جاز ذلك مع انه لاخير في شجرة الزقوم لامرين :

أحدها ـ على الحذف بتقدير آسبب هذا الذي أدى اليه خير أم سبب أدى الى النار ، كأنهم قالوا هو فيه خير ، لما عملوا ما أدى اليه . والنزل

الفضل طعام له نزل ، ونزل أي فضل وريع . وقيل : معناه خير نزلا من الانزال التي تقيم الابدان وتبقى عليها الأرواح و (الزقوم) قيل : هو ثمر شجرة منكرة جداً من قولهم يزقم هذا الطعام إذا تناوله على تكره ومشقة شديدة . وقيل : شجرة الزقوم ثمرة مرة خشنة منتنة الرائحة .

وقوله « إنا جعلناها فتنة للظالمين » معناه إنا جعلنا شجرة الزقوم محنة لشدة التعبد . وقال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال المشركون : النار تحرق الشجرة ، وكيف تنبت هذه في النار ، فكان ذلك تغليظاً المحنة ، لانه يحتاج إلى الاستدلال على انه قادر لا يمتنع عليه أن يمنع النار من احراقها حتى تنبت الشجرة فيها . وقيل : معناه إنها عذاب للظالمين من قوله « يومهم على النار يفتنون » (١) أي يعذبون ، وقيل : هو قول أبي جهل في التمر والزبد انه يتزقمه . روى أنه لما سمع هذه الآية دعا الكفار واحضر التمر والزبد وقال تعالوا نتزقم هذا بخلاف ما يهددنا به محمد . ثم قال تعالى « إنها شجرة » يعني الزقوم « تخرج في أصل الجحيم » أي تنبت في قعر جهنم « طلعها كأنه رؤس الشياطين » قيل : في تشبيه ذلك برؤس الشياطين مع أن رؤس الشياطين لم تر قط ثلاثة أقوال :

أحدها ـ ان قبح صورة الشياطين متصور في النفس ولذلك يقولون لشيء يستقبحونه جداً كأنه شيطان . وقال امرؤ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب اغوال (٢)

فشبه النصول بأنياب الأغوال ، وهي لم تر ، ويقولون : كأنه رأس شيطان وانقلب عليّ كأنه شيطان .

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ١٣ (٢) ديوانه ١٦٢ وتفسير القرطبي ١٥ / ٨٦

الثاني ـ انه شبه برأس حية يسميها العرب شيطاناً ، قال الراجز :

منجرد يحلف حين أحلف كمثل شيطان الحماط أعرف (١)

الثالث ـ انه شبه بنبت معروف برؤس الشياطين . وقيل : قد دل الله أنه يشوه خلق الشياطين في النار حتى لو رآهم راء من العباد لاستوحش منهم غاية الاستيحاش ، فلذلك يشبه برؤسهم.

ثم أخبر تعالى أن اهل النار ليأكلون من تلك الشجرة ويملئون بطونهم منها لشدة ما يلحقهم من ألم الجوع ، والملأ الطرح في الوعاء ما لايحتمل الزيادة عليه ، فهؤلاء حشيت بطونهم من الزقوم بما لا يحتمل زيادة عليه .

ثم قال « إن لهم عليها » يعني الزيادة على شجرة الزقوم « لشوبا من حميم » فالشوب خلط الشيء بما ليس منه مما هو شر منه ، ويقال هذا الطعام مشوب ، وقد شابه شيء من الفساد ، والحميم إذا شاب الزقوم اجتمعت المكاره فيه من المرارة والخشونة ونتن الرائحة ، والحرارة المحرقة ـ نعوذ بالله منها ـ والحميم الحار الذي له من الاحراق المهلك أدناه قال الشاعر :

احم الله ذلك من لقاء أحاد أحاد في الشهر الحلال (٢)

أي ادناه وحمم ريش الفرخ إذا نبت ، حتى يدنو من الطيران والمحموم المقترب من حال الاحراق . وقال ابن عباس : يشربون الحميم المشروب من الزقوم أي قد شيب مع حرارته بما يشتد تكرهه . والحميم الصديق القريب أي الداني من القلب .

وقوله « ثم ان مرجعهم لالى الجحيم » معناه أنهم يردون بعد ذلك إلى النار الموقدة . وفي ذلك دلالة على أنهم في وقت ما يطعمون الزقوم

(١) تفسير القرطبي ١٥ / ٨٧ (٢) اللسان (حمم)

بمعزل عنها ، كما قال « يطوفون بينها و بين حميم آن » (١)

ثم حكى تعالى ان هؤلاء الكفار « الفوا » يعني صادفوا « آباءهم ضالين» عن الطريق المستقيم الذي هو طريق الحق « فهم على آثارهم يهرعون » في الضلال أي يقلدونهم ويتبعونهم ، قال ابو عبيدة : معنى يهرعون يستحثون من خلفهم . وقيل : معناه يزعجون إلى الاسراع ، هرع وأهرع لغتان .

قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٨٠) عشر آيات .

أقسم الله تعالى انه « لقد ضل قبلهم » قبل هؤلاء الكفار الذين هم في عصر النبي صلى الله عليه وآله عن طريق الحق واتباع الهدى « أكثر الأولين » من كان قبلهم لان اللام في (لقد) هي لام القسم وتدخل على الجواب لقولك : والله لقد كان كذا ، وقد تدخل للتأكيد . والضلال الذهاب عن الحق إلى طريق الباطل ، تقول : ضل عن الحق يضل ضلالا . والاضلال قد يكون

(١) سورة ٥٥ الرحمن آية ٤٤

بمعنى الذم بالضلال والحكم عليه به ، وقد يكون بمعنى الأمر به والاغراء كقوله « وأضلهم السامري » (١) . والأكثر هو الأعظم في العدد . والأول الكائن قبل غيره . وأول كل شيء هو الله تعالى ، لأن كل ما سواه فهو موجود بعده.

ثم أقسم انه أرسل فيهم منذرين من الأنبياء والرسل يخوفونهم بالله ويحذرونهم معاصيه. ثم قال « فانظر » يا محمد « كيف كان عاقبة المنذرين » والتقدير ان الأنبياء المرسلين لما خوفوا قومهم فعصوهم ولم يقبلوا منهم أهلكهم وأنزل عليهم العذاب ، فانظر كيف كان عاقبتهم .

ثم استثنى من المنذرين في الاهلاك عباده المخلصين الذين قبلوا من الأنبياء ، وأخلصوا عبادتهم لله تعالى ، فان الله تعالى خلصهم من ذلك العذاب ووعدهم بالثواب .

ثم أخبر ان نوحاً نادى الله ودعاه واستنصره على قومه ، وأنه تعالى أجابه ، وانه ـ جل وعز ـ نعم المجيب لمن دعاه وتقديره فلنعم المجيبون نحن له ولما أجابه نجاه وخلصه وأهله من الكرب العظيم ، فالنجاة هي الرفع من الهلاك واصله الرفع ، فمنه النجوة المرتفع من المكان ومنه النجا النجا كقولهم الوحا الوحا. والاستنجاء رفع الحدث . والكرب الحزن الثقيل على القلب ، قال الشاعر :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب (٢)

والكرب تحرير الأرض باصلاحها للزراعة . والكرب هو الذي يحمي قلب النخلة باحاطته بها وصيانته لها . والعظيم الذي يصغر مقدار غيره عنه . وقد

---

(١) سورة ٢٠ طه آية ٨٥ (٢) مر في ٦ / ٢٨٣

يكون التعظيم في الخير والعظم في الشر والعظم في النفس . وقال السدي : معناه نجيناه وأهله من الغرق . وقال غيره : بل نجاهم من الأذى والمكروه الذي كان ينزل بهم من قومه ، لانه بذلك دعا ربه فأجابه . وقيل: الذين نجوا مع نوح شيعته .

وقوله ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال ابن عباس وقتادة : الناس كلهم من ذرية نوح بعد نوح . وقال قوم : العجم والعرب أولاد سام بن نوح والترك والصقالبة والخزر أولاد يافث بن نوح ، والسودان أولاد حام ابن نوح .

وقوله ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ قيل في معناه قولان :

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ يعني ذكراً جميلا ، وأثنينا عليه في أمة محمد . ومعنى (تركنا) أبقينا ، لحذف ، فيكون ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ من قول الله على غير جهة الحكاية .

الثاني - قال الفراء : تركنا عليه قولا هو أن يقال في آخر الامم : سلام على نوح في العالمين .

ثم قال ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ كما فعلنا بنوح من الثناء الجميل، مثل ذلك نجزي من احسن أفعاله وتجنب المعاصي .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ (٩٠)

عشر آيات .

هذا رجوع من الله تعالى إلى ذكر وصف نوح بأنه كان ﴿ من عبادنا المؤمنين ﴾ الذين يصدقون بتوحيد الله ووعده ووعيده وجميع أخباره . والعباد جمع عبد ، وهو الذليل لملكه بالعبودية . والخلق كلهم عباد الله فمنهم عابد له ومنهم عابد لغيره تضييعاً منهم لحق نعمه وجهلا بما يجب له عليهم . والمؤمن هو المصدق بجميع ما اوجب الله عليه او ندبه اليه . وقال قوم : هو العامل بجميع ما أوجب الله عليه العامل بما يؤمنه من العقاب .

ثم اخبر تعالى انه أغرق الباقين من قوم نوح بعد إخلاصه نوحاً وأهله المؤمنين . ثم قال ﴿ وإن من شيعته لابراهيم ﴾ فالشيعة الجماعة التابعة لرئيس لهم ، وصاروا بالعرف عبارة عن شيعة علي عليه السلام الذين معه على اعدائه . وقيل من شيعة نوح إبراهيم يعني إنه على منهاجه وسنته في التوحيد والعدل واتباع الحق . وقال الفراء : معناه وإن من شيعة محمد صلى الله عليه وآله لابراهيم ، كما قال ﴿ أنا حملنا ذريتهم ﴾ (١) أي ذرية من هو أب لهم ، فجعلهم ذرية لهم وقد سبقوهم ، وقال الحسن : معناه على دينه وشريعته ومنهاجه ، قال الرماني : هذا لا يجوز ، لانه لم يجر لمحمد ذكر ، فهو ترك الظاهر . وقد روي عن اهل

(١) سورة ٣٦ يس آية ٤١

البيت عليهم السلام إن من شيعته علي لابراهيم . وهذا جائز إن صح الخبر المروي في هذا البـاب ، لأن الكناية عمن لم يجر له ذكر جائزة إذا اقترن بذلك دليل ، كما قال ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ (١) ولم يجر للشمس ذكر ويكون المعنى انه على منهاجه وطريقته في اتباع الحق والعدول عن الباطل ، وكان ابراهيم وعلي عليهما السلام بهذه المنزلة .

وقوله ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ معناه حين جاء إلى الموضع الذي أمره الله بالرجوع اليه بقلب سليم عن الشرك بريء من المعاصي في الوقت الذي قال لابيه وقومه حين رآهم يعبدون الاصنام من دون الله على وجه التهجين لفعلهم والتقريع لهم ﴿ ماذا تعبدون ﴾ أي اي شيء تعبدون من هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر . وقال لهم ﴿ أإفكا آلهة دون الله تريدون ﴾ فالافك هو اشنع الكذب وأفظعه ، والافك قلب الشيء عن جهته التي هي له ، فلذلك كان الافك كذباً . وإنما جمع الآلهة مع أنه لا إله إلا إله واحد . على اعتقادهم في الالهية . وإن كان توهمهم فاسداً ، لما اعتقدوا أنها تستحق العبادة ، وكان المشركون قد اوغروا باتخاذ الآلهة إلى ان جاء دين الاسلام وبين الحق فيه وعظم الزجر .

وقوله ﴿ دون الله تريدون ﴾ معناه إنكم أتريدون عبادة آلهة دون عبادة الله ، فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه ، كما قال ﴿ واسأل القرية ﴾ (٢) أي أهلها ، لان الارادة لا تتعلق إلا بما يصح حدوثه . وهذه الاجسام ليست مما يحدث ، فلا يصح إرادتها .

وقوله ﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ قيل : معناه أي شيء ظنكم به أسوء

(١) سورة ٣٨ ص آية ٣٢   (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٨٢

ظن ؟ ! وقيل معنى ﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ أي انه استدل بها على وقت حمى كانت تعتـاده ﴿ فقال أني سقيم ﴾ ومن أشرف على شيء جاز أن يقال انه فيه ، كما قال تعالى ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (١) ولم يكن نظره في النجوم على حسب المنجمين طلباً للاحكام ، لان ذلك فاسد ، ومثله قول الشاعر :

اسهري ما سهرت أم حكيم واقعـدي مرة لذاك وقومي
وافتحي الباب فانظري في النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

وقال الزجاج نظره في النجوم كنظرهم ، لانهم كانوا يتعاطون علم النجوم فتوهموا هم أنه يقول مثل قولهم ، فقال عند ذلك ﴿ إني سقيم ﴾ فتركوه ظناً منهم أن نجمه يدل على سقمه . وقال ابو مسلم : معناه إنه نظر فيها نظر مفكر فاستدل بها على أنها ليست آلهـة له ، كما قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي .... ﴾ تمام الآيات (٢) وكان هذا منه في زمان مهلة النظر . وهذا الذي ذكره يمنع منه سياق الآية ، لان الله تعالى حكى عن ابراهيم أنه ﴿ جاء ربه بقلب سليم ﴾ يعني سليم من الشرك ، وذلك لايليق بزمان مهلة النظر . ثم أنه قال لقومه على وجـه التقبيح لفعلهم ﴿ ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين ﴾ وهذا كلام عارف بالله مستبصر ، وكيف يحمل على زمان مهلة النظر . وقيل : في معنى قوله ﴿ إني سقيم ﴾ إني سقيم القلب ممـا أرى من أحوالكم القبيحة من عبـادة غير الله وعدولكم عن عبادته مع وضوح الأدلة الدالة على توحيده واستحقاقه للعبادة منفرداً بها . وقيل : إنه كان عرضت له

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٣٠ (٢) سورة ٦ الانعام آية ٧٦

علة في الحال ، وكان صادقاً في ذلك . وقيل : معناه إن عاقبتي الموت ، ومن كان عاقبته الموت جاز أن يعبر عن حال حياته بأنه مريض . وقيل : معناه إني سأسقم في المستقبل . وقيل : إنه أراد بقوله : سقيم مطعون ، فلذلك تركوه خوفاً من أن يتعدى اليهم الطاعون .

فأما من قال : إنه لم يكن سقيماً وإنما كذب فيه ليتأخر عن الخروج معهم إلى عيدهم لتكسير أصنامهم وانه يجوز الكذب في المكيدة والتقية ، فقوله باطل ، لان الكذب قبيح لا يحسن على وجه .

فأما ما يرونه من أن النبي ﷺ قال (ما كذب أبي إبراهيم الا ثلاث كذبات يحاجز بهـا عن ربه : قوله إني سقيم ولم يكن كذلك ، وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله في سارة انها أختي وكانت زوجته) .

فأول ما فيه أنه خبر واحـــد لا يعول عليه . والنبي ﷺ أعرف بما يجوز على الأنبياء ومالا يجوز من كل واحد ، وقد دلت الأدلة العقلية على أن الأنبياء لا يجوز أن يكذبوا فيما يؤدونه عن الله من حيث أنه كان يؤدي إلى ان لا يوثق بشيء من اخبارهم وإلى أن لا ينزاح علة المكلفين ، ولا في غير مايؤدونه عن الله من حيث أن تجويز ذلك ينفر عن قبول قولهم ، فاذاً يجب ان يقطع على ان الخبر لا أصل له . ولو سلم لجاز أن يكون المعنى مع ظاهره مظاهر للكذب ، وإن لم يكن في الحقيقة كذلك ، لان قوله ﴿ إني سقيم ﴾ قـد بينا الوجه فيه . وقوله ﴿ بل فعـله كبيرهم ﴾ بيناه في موضعه . وقوله في سارة إنهـا اختي معناه إنها اختي في الدين ، وقد قال الله تعالى إنما المؤمنون أخوة ، وإن لم يكونوا بني أب واحد .

وقوله ﴿ فتولوا عنـه مدبرين ﴾ اخبار منه تعالى أنه حين قال لهم إني

سقيم أعرضوا عنه وتركوه وخرجوا إلى عيدهم وهو متخلف عنهم .

قوله تعالى :

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ (١٠١) احدى عشر آية .

قرأ حمزة والمفضل عن عاصم ﴿ يزفون ﴾ بضم الياء . الباقون بفتحها ، وهما لغتان . وزففت اكثر . ويجوز أن يكون المراد زفّ الرجل في نفسه وأزف غيره ، والتقدير فأقبلوا اليه يزفون أنفسهم .

قوله ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾ معناه مال إليها بحدة ، تقول : راغ يروغ روغاً وروغاناً مثل حاد يحيد حيداً وحيداناً ، والرّواغ الحياد ، قال عدي ابن زيد :

حين لا ينفع الرواغ ولا ينفع إلا الصادق النحرير (١) .

(١) تفسير الطبري ٢٣ / ٤١

وإنما مال اليها بحدة غضباً على عابديها ، وقوله ﴿ إلى آلهتهم ﴾ معناه إلى ما يدعون أنها آلهتهم أي إلى ما اتخذوها آلهة لهم ، كما تقول ، للمبطل : هات حجتك مع علمك انه لاحجة له .

وقوله ﴿ فقال ألا تأكلون ﴾ إنما جاز ان يخاطب الجماد بذلك تهجينا لعابديها وتنبيها على أن من لا يتكلم ولا يقدر على الجواب كيف تصح عبادتها ، فاجراها مجرى من يفهم الكلام ويحسن ذكر الجواب استظهاراً في الحجة وإيضاحاً للبرهان ، لكل من سمع ذلك ويبلغه . وقوله ﴿ ما لكم لا تنطقون ﴾ معناه تهجينا لعابديها كأنهم حاضرون بها . وقوله ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ قيل في معناه قولان :

احدهما ـ انه مال عليهم بيده اليمنى ، لانها اقوى على العمل من الشمال .

الثاني ـ بالقسم ليكسرنها ، لأنه كان قال ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾(١) وقال الفراء : اليمين القوة ، ومنه قول الشاعر :

[إذ ما راية رفعت لمجد] تلقاها عرابة باليمين (٢)

أي بالقوة . وقوله ﴿ فاقبلوا اليه يزفون ﴾ قال ابن زيد : معناه يسرعون . وقال السدي : يمشون . وقيل : يتسللون بحال بين المشي والعدو ، ومنه زفت النعامة ، وذلك أول عدوها ، وهو بين العدو والمشي ، وقال الفرزدق :

وجاء فزيع الشول قبل أوانها تزف وجاءت خلفه وهي زفف (٣)

ومنه زففت العروس إلى زوجها ، ومعنى يزفون يمشون على مهل ، قال الفراء : لم أسمع إلا زففت ، قال و لعل من قرأ بالضم اراد من قولهم طردت الرجل إذا أخسأته

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٥٧ (٢) تفسير القرطبي ١٥ | ٧٥

(٣) تفسير الطبري ٢٣ | ٤٢ والقرطبي ١٥ | ٩٥

واطردته جعلته طريداً . وقرأ بعضهم (يزفون) بفتح الياء وتخفيف الفاء من (وزف ، يزف) قال الكسائي والفراء : لا اعرف هذه إلا أن يكون احدهم سمعها . فلما رآهم ابراهيم ﷺ اقبلوا عليه قال لهم على وجه الانكار عليهم والتبكيت لهم بفعلهم ﴿ اتعبدون ما تنحتون ﴾ فالالف ألف الاستفهام ومعناها الانكار ووجه التوبيخ انه كيف يصح أن يعبد الانسان ما يعمله بيده ! ، فانهم كانوا ينحتون الاصنام بأيديهم ، فكيف تصح عبادة من هذه حاله مضافاً إلى كونها جماداً ! . ثم نبههم فقال ﴿ والله ﴾ تعالى هو الذي ﴿ خلقكم ﴾ وخلق الذي ﴿ تعملون ﴾ فيه من الاصنام ، لانها اجسام والله تعالى هو المحدث لها ، وليس للمجبرة أن تتعلق بقوله ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ فتقول : ذلك يدل على ان الله خالق لافعالنا ،لامور :

احدها ـ ان موضوع كلام ابراهيم لهم بني على التقريع لهم لعبادتهم الاصنام ، ولو كان ذلك من فعله تعالى لما توجه عليهم العيب ، بل كان لهم ان يقولوا : لم توبخنا على عبادتنا للاصنام والله الفاعل لذلك ، فكانت تكون الحجة لهم لاعليهم .

الثاني ـ انه قال لهم ﴿ اتعبدون ما تنحتون ﴾ ونحن نعلم أنهم لم يكونوا يعبدون نحتهم الذي هو فعلهم ، وإنما كانوا يعبدون الاصنام التي هي الاجسام وهي فعل الله بلا شك . فقال لهم ﴿ والله خلقكم ﴾ وخلق هذه الاجسام . ومثله قوله ﴿ فاذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ (١) ومثله قوله ﴿ وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ﴾ (٢) وعصا موسى لم تكن تلقف افكهم ، وإنما

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١١٦ (٢) سورة ٢٠ طه آية ٦٩

كانت تتلقف الأجسام التي هي العصا و الحبال .

ومنها ان (ما) في قوله ﴿ وما تعملون ﴾ لا يخلو من ان تكون بمعنى (الذي) او تقع مع بعدها بمنزلة المصدر ، فان كانت بمعنى (الذي) فـ (تعملون) صلتها ، ولا بد لهـا من عائد يعود اليهـا ، فليس لهم أن يقدروا فيها ضميراً لها ليصح ما قالوه ، لان لنا أن نقدر ضميراً فيه فيصح ما نقوله ، ويكون التقدير : وما يعملون فيه ، والذي يعملون فيه هي الاجسام وإن كانت مصدرية فانه يكون تقديره : والله خلقكم وعملكم ، ونفس العمل يعبر به عن المعمول فيه بل لا يفهم في العرف إلا ذلك ، يقال فلان يعمل الخوص ، وفلان يعمل السروج ، وهذا الباب من عمل النجار ، والخاتم من عمل الصانع ، ويريدون بذلك كله ما يعملون فيه ، فعلى هذا تكون الأوثان عملا لهم بما يحدثون فيها من النحت والنجر ، على أنه تعالى اضاف العمل اليهم بقوله ﴿ وما تعملون ﴾ فكيف يكون ما هو مضاف اليهم مضافا إلى الله تعالى وهل يكون ذلك إلا متناقضاً .

ومنها أن الخلق في أصل اللغة هو التقدير للشيء وترتيبه ، فعلى هـذا لا يمتنع أن نقول : إن الله خالق افعالنا بمعنى أنه قدرها للثواب والعقاب ، فلا تعلق للقوم على حال .

ثم حكى تعالى ما قال قوم ابراهيم بعضهم لبعض فانهم ﴿ قالوا إبنوا له بنياناً ﴾ قيـل : انهم بنوا له شبه الحظيرة . وقيل مثل التنور وأججوا ناراً ليلقوه فيها . والبناء وضع الشيء على غيره على وجه مخصوص ، ويقال لمن رد الفرع إلى الأصل بناه عليه ﴿ فالقوه في الجحيم ﴾ بمعنى اطرحوه في النار التي اججوها له . والجحيم عند العرب النار التي تجتمع بعضها على بعض .

ثم اخبر تعالى ان كفار قوم ابراهيم انهم ﴿ ارادوا به كيداً ﴾ وحيلة وهو ما ارادوا من إحراقه بالنار ﴿ فجعلناهم الاسفلين ﴾ بأن اهلكهم الله ونجا ابراهيم وقيل منع الله ـ عز وجل ـ النار منه بل صرفها في خلاف جهته ، فلما أشرفوا على ذلك علموا انهم لاطاقة لهم به .

ثم حكى ما قال ابراهيم حين ارادوا كيده ، فانه قال ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ ومعناه إلى مرضات الله ربي بالمصير إلى المكان الذي أمرني ربي بالذهاب اليه . وقيل : إلى الأرض المقدسة وقيل إلى ارض الشام . وقال قتادة : معناه ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ أي بعملي ونيتي ، ومعنى ﴿ سيهدين ﴾ يعني يهديني في ما بعد الى الطريق الذي امرني بالمصير اليه أو الى الجنة بطاعتي إياه .

ثم دعا ابراهيم ربه فقال ﴿ ربي هب لي من الصالحين ﴾ يعني ولداً صالحاً من الصالحين ، كما تقول : اكلت من الطعام ، وحذف لدلالة الكلام عليه ، فأجابه الله تعالى إلى ذلك وبشره بغلام حليم اي حليماً لا يعجل في الأمور قبل وقتها ، وفي ذلك بشارة له على بقاء الغلام حتى يصير حليماً . وقال قوم : المبشر به اسحاق وقال آخرون اسماعيل ، ونذكر خلافهم في ذلك في ما بعد .

قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ إِنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣)

وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١١) عشر آيات .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصما ﴿ ماذا ترى ﴾ بضم التاء وكسر الراء . الباقون بفتح التاء . من ضم التاء اراد ماذا تشير ، وقال الفراء : يجوز ان يكون المراد ماذا ترى من صبرك وجلدك ، لانه لا يستشيره في أمر الله . واصله ترئي فنقلوا كسرة الهمزة إلى الراء ، وحذفت الهمزة لسكونها وسكون الياء . ومن فتح جعله من الرأي والرؤية ، لامن المشورة .

لما اخبر الله تعالى انه اجاب دعوة إبراهيم في طلب الولد وبشره بولد حليم اخبر ان من وعده به ولد له وكبر وترعرع ، فلما بلغ مع ابيه السعي يعني في طاعة الله ، قال الحسن سعى للعمل الذي تقوم به الحجة . وقال مجاهد : بلغ معه السعي . معناه أطاق ان يسعى معه ويعينه على أموره ، وهو قول الفراء قال : وكان له ثلاث عشرة سنة ، وقال ابن زيد : السعي في العبادة ﴿ قال يا بني اني أرى في المنام إني اذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ وكان الله تعالى أوحى إلى ابراهيم في حال اليقظة ، وتعبده أن يمضي ما يأمره في حال نومه من حيث ان منامات الانبياء لا تكون إلا صحيحة ، ولو لم يأمره

به في اليقظة لما جاز أن يعمل على المنامات ، أحب ان يعلم حال ابنه في صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته . فلذلك قال له ماذا ترى ، وإلا فلا يجوز أن يوآمر في المضي في امر الله ابنه ، لأنه واجب على كل حال . ولا يمتنع ايضاً أن يكون فعل ذلك بأمر الله ايضاً ، فوجده عند ذلك صابراً مسلماً لامر الله . ﴿ وقال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ اي ما امرت به ﴿ ستجدني انشاء الله من الصابرين ﴾ ممن يصبر على الشدائد في حب الله ويسلم أمره اليه ﴿ فلما اسلما ﴾ يعني ابراهيم وابنه اي استسلما لأمر الله ورضيا به اخذ ابنه ﴿ وتله للجبين ﴾ معنى تله صرعه . والجبين ما عن يمين الجبهة او شمالها وللوجه جبينان الجبهة بينهما . وقال الحسن : معنى وتله اضجعه للجبين . ومنه التل من التراب وجمعه تلول . والتليل العنق ، لانه يتل له ، ﴿ وناديناه ان يا ابراهيم ﴾ و (ناديناه) هو جواب (فلما) قال الفراء : العرب تدخل الواو في جواب (فلما) و (حتى) و (إذا) كما قال ﴿ حتى إذا جاؤها فتحت ابوابها ﴾ (١) وفي موضع آخر ﴿ وفتحت ﴾ (٢) وفي قراءة عبدالله ﴿ فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية ﴾ (٣) وفي المصاحف (جعل) بلا واو وموضع ان نصب بوقوع النداء عليه وتقديره وناديناه بأن يا ابراهيم أي هذا الضرب من القول فلما حذف الباء نصب . وعند الخليل انه في موضع الجر

﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ ومعناه فعلت ما امرت به في الرؤيا واختلفوا في الذبيح . فقال ابن عباس وعبدالله بن عمر ومحمد بن كعب القرظي وسعيد ابن المسيب والحسن في احدى الروايتين عنه والشعبي : انه كان اسماعيل وهو الظاهر في روايات اصحابنا . ويقويه قوله بعد هذه القصة وتمامها

﴿١ ، ٢﴾ سورة ٣٩ الزمر آية ٧١ ، ٧٣ ﴿٣﴾ سورة ١٢ يوسف آية ٧٠

﴿ وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين ﴾ فدل على ان الذبيح كان اسماعيل . ومن قال : إنه بشر بنبوة اسحاق دون مولده ، فقد ترك الظاهر لان الظاهر يقتضي البشارة باسحاق دون نبوته ، ويدل ايضاً عليه قوله ﴿ فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ﴾ ولم يذكر اسماعيل ، فدل على انه كان مولوداً قبله وايضاً فانه بشره باسحاق وانه سيولد له يعقوب ، فكيف يأمره بذبحه مع ذلك . واجابوا عن ذلك بأن الله لم يقل إن يعقوب يكون من ولد اسحاق . وقالوا ايضاً يجوز أن يكون أمره بذبحه بعد ولادة يعقوب ، والاول هو الاقوى على ما بيناه . وقد روي عن النبي ﷺ انه قال : انا ابن الذبيحين ، ولا خلاف انه كان من ولد اسماعيل والذبيح الآخر عبد الله ابوه . وروي عن ابن عباس وعلي وابن مسعود وكعب الاحبار انه كان اسحاق . وروي ذلك ايضاً في اخبارنا .

وفي الناس من استدل بهذه الآية على جواز النسخ قبل وقت فعله من حيث ان الله تعالى كان قد امره بذبح ولده ثم نسخ عنه قبل أن يفعله ، ولا يمكننا ان نقول ان الوقت كان قد مضى ، لأنه لو أخره عن الوقت الذي امره به فيه لكان عاصياً ، ولا خلاف أن ابراهيم لم يعص بذلك ، فدل على انه نسخ عنه قبل وقت فعله .

ومن لم يجز النسخ قبل وقت فعله أجاب عن ذلك بثلاثة أجوبة :

احدها ـ ان الله تعالى أمر ابراهيم ان يقعد منه مقعد الذابح ويشدّ يديه ورجليه ويأخذ المدية ويتركها على حلقه وينتظر الأمر بامضاء الذبح على ما رأى في منامه وكل ذلك فعله ، ولم يكن أمره بالذبح ، وإنما سمي مقدمات الذبح بالذبح لقربه منه وغلبة الظن انه سيؤمر بذلك على ضرب من المجاز .

الثاني ـ أنه إنما أمره بالذبح وذبح ، وكل ما فرى جزء من حلقه وصله الله بلا فصل حتى انتهى إلى آخره فاتصل به ، وصله الله تعالى ، فقد فعل ما أمر به ولم يبن الرأس ولا انتفى الروح .

الثالث ـ انه امر بالذبح بشرط التخلية والتمكين ، فكان كما روي انه كلما أعمد بالشفرة انقلبت وجعل على حلقه صفحة من نحاس ، وهذا الوجه ضعيف، لان الله تعالى لا يجوز ان يأمر بشرط ، لانه عالم بالعواقب ، وإنما يأمر الواحد منا بشرط ذلك لانه لا يعلم العواقب ، ولان فيه انه أمر بما منع منه وهذا عيب

فاما قول من قال : انه فداه بذبح ، فدل ذلك على انه كان مأموراً بالذبح على الحقيقة ،اعتراضاً على الوجه الأول ، لان من شأن الفداء أن يكون من جنس المفدي ، فليس بشيء ، لانه لا يلزم ذلك الا ترى ان من حلق رأسه وهو محرم يلزمه ذلك ، وكذلك إذا لبس ثوباً مخيطاً او شم طيباً او جامع . وإن لم يكن جميع ذلك من جنس المفدي .

وقوله ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ معناه إنا جازينا ابراهيم على فعله بأحسن الجزاء . ومثل ذلك نجزي كل من فعل طاعة ، فانا نجازيه على فعله بأحسن الجزاء .

ثم اخبر تعالى بأن هذا الذي تعبد به إبراهيم هو البلاء المبين أي الاختبار الظاهر وقيل : هو النعمة البينة الظاهرة ،وتسمى النعمة بلاء والنقمة ايضاً بلاء من حيث انها سميت بسببها المؤدي اليها، كما يقال لأسباب الموت هو الموت بعينه ﴿ والمبين ﴾ هو البين في نفسه الظاهر ، ويكون بمعنى الظاهر ، ويكون بمعنى المظهر ما في الأمر من خير او شر .

ثم قال تعالى ﴿ وفديناه ﴾ يعني ولد إبراهيم ﴿ بذبح عظيم ﴾ فالفداء جعل

الشيء مكان غيره لدفع الضرر عنه ، ومنه فداء المسلمين بالمشركين لدفع ضرر الاشد عنهم ، فكذلك فداء الله ولد إبراهيم بالكبش لدفع ضرر الذبح عنه . والعظيم هو الكبير . وقيل : لان الكبش الذي فدي به يصغر مقدار غيره من الكباش عنه بالاضافة اليه . وقال ابن عباس : فدي بكبش من الغنم . وهو قول مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير . وقال الحسن : فدي بوعل أهبط به عليه جبرائيل . وقيل : إنه لاخلاف انه لم يكن من الماشية التي كانت لابراهيم او غيره في الدنيا . وقيل : إنه رعى في الجنة أربعين خريفاً . وقال مجاهد : وصفه بأنه عظيم ، لانه متقبل . والذبح بكسر الذال المهيأ ، لان يذبح . وبفتح الذال المصدر .

وقوله ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ يعني على إبراهيم في الآخرين يعني اثبتنا عليه الثناء الحسن في أمة محمد لانهم آخر الأمم بأن قلنا ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ وقد بينا ما في ذلك ثم قال مثل ذلك نجزي كل محسن ، فاعل لما أمر الله به كما جازينا ابراهيم صلى الله عليه وآله .

ثم أخبر تعالى ان إبراهيم كان من جملة عباده الذين يصدقون بتوحيد الله وبجميع ما اوجبه عليهم ، ومن جملة المصدقين بوعد الله ووعيده والبعث والنشور والجنة والنار . وانما قال ﴿ انه من عبادنا المؤمنين ﴾ مع انه افضل المؤمنين ترغيباً في الايمان بأن مدح مثله في جلالته بأنه من المؤمنين ، كما يقال هو من الكرماء وكذلك قوله ﴿ ونبياً من الصالحين ﴾ (١) وإذا مدح بأنه يصلح وحده فلأنه لا يقوم غيره مقامه ويستغنى به عنه .

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٣٩

قوله تعالى:

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحٰقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)

احدى عشرة آية.

يقول الله تعالى بعد ان ذكر قصة ابراهيم وولده الذي اخبر الله بذبحه على ما فسرناه، بشره باسحاق ولداً له آخر، نعمة عليه مجددة لما فعل من المسارعة إلى ما أمره الله به وصبره على احتمال المشقة فيه، وبين انه نبياً من الصالحين، وأنه بارك عليه يعني على يعقوب (ابراهيم) وعلى إسحاق وخلق من ذريتهما الخلق الكثير، فمنهم محسن بفعل الطاعات ومنهم ظالم لنفسه بارتكاب المعاصي بسوء أختياره، مبين أي بين ظاهر.

ثم اقسم تعالى بأنه منّ على موسى وهارون أي انعم عليهما نعمة قطعت عنهما

كل اذية ، فأصل المنّ القطع من قوله ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ (١) أي غير مقطوع ، وحبل منين متقطع والمنية الموت ، لانها قاطعة عن تصرف الحي والبركة ثبوت الخير النامي على مرور الاوقات فبركته على إبراهيم واسحاق باللطف في دعائهما إلى الحق ، وبالخبر عن أحوال جليلة في التمسك بطاعة الله ﴿ ونجيناهما وقومهما ﴾ ومعناه إنا خلصنا موسى وهارون ، ومن كان آمن بهما ﴿ من الكرب العظيم ﴾ أي الأذى الذي كان يؤذونهم بأن أهلك الله فرعون وقومه وغرقهم ﴿ ونصرناهم ﴾ يعني موسى وهارون وقومهما ، ﴿ فكانوا هم الغالبين ﴾ لاعدائهم بالحجج الظاهرة وبالقهر ، من حيث أن الله غرق أعداءهم ﴿ وآتيناهما ﴾ يعني موسى وهارون ﴿ الكتاب المستبين ﴾ يعني التوراة الداعي إلى ما فيه من البيان بالمحاسن التي تظهر منه في الاسماع ، فكل كتاب لله بهذه الصفة من ظهور الحكمة فيه ﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ يعني أرسلنا موسى وهارون ودللناهما على الطريق المؤدي إلى الحق الموصل إلى الجنة باخلاص الطاعة لله تعالى . وقال قتادة : الطريق المستقيم الاسلام ﴿ وتركنا عليهما في الآخرين ﴾ أي الثناء الجميل . بأن قلنا ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ كما قلنا ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ (٢) .

ثم اخبر تعالى ان مثل ما فعل لهما يفعل بالمحسنين المطيعين ويجزيهم بمثل ذلك على طاعاتهم ، ودل ذلك على ان ما ذكره الله كان على وجه الثواب على الطاعات لموسى وهارون ومن تقدم ذكره ، لأن لفظ الجزاء يفيد ذلك . ثم اخبر ان موسى من جملة عباده المصدقين بجميع ما اوجبه الله عليهم العالمين بذلك .

---

(١) سورة ٩٥ التين آية ٦   (٢) آية ٧٩ من هذه السورة

قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٢) عشر آيات.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر ﴿ الله ربكم ورب آبائكم ﴾ نصباً. الباقون بالرفع. من نصب جعله بدلا من قوله ﴿ أحسن الخالقين ﴾ ومن رفع استأنف الكلام. وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ على إضافة (آل) إلى (ياسين). الباقون ﴿ على ألياسين ﴾ موصولة. من أضاف اراد به على آل محمد صلى الله عليه وآله لأن (يس) اسم من اسماء محمد على ما حكيناه. وقال بعضهم: أراد آل الياس عليه السلام. وقال الجبائي اراد أهل القرآن، ومن لم يضف أراد الياس. وقال: الياسين، لان العرب تغير الاسماء العجمية بالزيادة كما يقولون: ميكائيل وميكائين، وميكال وميكائل، وفي أسماعيل اسماعين قال الشاعر:

يقول اهل السوق لما جينا هذا ورب البيت اسرائينا(١)

(١) تفسير الطبري ٢٣ / ٥٥

وفي قراءة عبد الله ﴿ وإن إدريس لمن المرسلين سلام على إدراسين ﴾ وقيل أيضاً إنه جمع ، لانه اراد الياس ومن آمن معه من قومه ، وقال الشاعر :

قدني من نصر الخبيبين قدي (١)

فجعل ابن الزبير أبا خبيباً ومن كان على رأيه عدداً ولم يضفهم بالياء فيقول : خبيبين ، فخفف في الشعر مثل الأشعرين ، وكما قالوا : سيرة العمرين وخير الزهدمين ، وإنما أحدهما زهدم والآخر كردم . وقال قوم : تقديره على ﴿ آل ياسين ﴾ فخفف ، لانه أراد الياساً وقومه ، كما قالوا : الاشعرون والمهليون . قال الشاعر :

انا ابن سعد اكرم السعدينا

وكلهم قرأ ﴿ وإن الياس ﴾ بقطع الهمزة إلا ان أبا عامر ، فانه فصل الهمزة وأسقطها في الدرج ، فاذا ابتدأ فتحها ، قال ابو علي النحوي : يجوز أن يكون حذف الهمزة حذفاً ، كما حذفها ابو جعفر في قوله ﴿ إنها لاحدى الكبر ﴾ (٢) ويحتمل أن تكون الهمزة التي تصحب لام التعريف ، وهي تسقط في الدرج ، وأصله (ياس) .

اخبر الله تعالى أن الياس من جملة من أرسله الله إلى خلقه نبياً داعياً إلى توحيده وطاعته حين ﴿ قال لقومه ألا تتقون ﴾ الله بترك معاصيه وفعل طاعاته ، فاللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الانكار ، كما يقول القائل ألا تتقي الله يا فلان في أن تظلم او تزني ، وما اشبه ذلك ، وإنما يريد بذلك الانكار . ثم قال لهم ﴿ أتدعون بعلا ﴾ قال الحسن والضحاك وابن زيد : المراد بالبعل - ههنا - صنم كانوا يعبدونه ، والبعل في لغة اهل اليمن هو

---

(١) تفسير القرطبي ١٥ / ١١٨   (٢) سورة ٧٤ المدثر آية ٣٥

الرب ، يقولون من بعل هذا الثوب أي من ربه ـ وهو قول عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي ـ ويقولون : هو بعل هذه الدابة أي ربها ، كما يقولون : رب الدار ورب الفرس ، وزوج المرأة بعلها ، والنخل والزرع إذا استقى بماء السماء فهو بعل ، وهو العذي ، خلاف السقي . والاصل في الرب المالك فالزوج رب البضع ، لانه مالكه .

ومعنى الآية أتدعون بالالهية صنماً عادلين عن أحسن الخالقين ، وهذا إنكار عليهم أن يعتقدوا أن غير الله إله او يقولون لغيره يا إلهي . وقال قتادة : الياس وهو إدريس . وقال ابن اسحاق : هو من ولد هارون ، وهو اسم نبي وهو أعجمي ، فلذلك لم ينصرف ، ولو جعل (افعالا) من الاليس وهو الشجاع الجريء لجاز .

ثم بين لهم الذي هو أحسن الخالقين ، فقال ﴿ الله ربكم الذي خلقكم ورب آبائكم ﴾ أي الذي دبركم وخلقكم ، وخلق آباءكم ﴿ الأولين ﴾ يعني من مضى من آبائكم وأجدادكم .

ثم حكى ان قومه كذبوه ولم يصدّقوه ، وأن الله أهلكهم وأنهم لمحضرون عذاب النار . ثم استثنى من جملتهم عباده الذين اخلصوا عبادتهم لله وبين انه أثنى عليهم في آخر الامم بأن قال ﴿ سلام على الياسين ﴾ وآل محمد ﷺ هم كل من آل اليه بحسب او بقرابة . وقال قوم : آل محمد كل من كان على دينه ، ولا خلاف بين النحويين أن اصل (آل) اهل فقلبوا الهاء همزة وجعلوها مدة لئلا يجتمع ساكنان ، ألا ترى أنك اذا صغرت قلت أهيل ولا يجوز أويل ، لأنه رد الى الأصل لا إلى اللفظ .

وقوله ﴿ افلا تعقلون ﴾ معناه تتدبرون وتتفكرون في ما نزل بهؤلاء

القوم وتعتبرون به لتجتنبوا ما كانوا يفعلونه من الكفر والضلال . وفي قوله ﴿ لمحضرون ﴾ حذف ، لان تقديره فانهم لمحضرون العقاب واليم العذاب لتكذيبهم والجزاء بما تقتضيه الحكمة فيهم . وهذا الابهام تغليظ في الوعيد بالعذاب ، لانه لعظمه معلوم لايخفى أمره ، ووجه الحجة عليهم في قوله ﴿ ورب آبائكم الأولين ﴾ انه اذا كان الرب واحداً وجب اخلاص العبادة لواحد ، لانه الذي يملك الضر والنفع في جميع الامور ، وذلك يبطل عبادة الأوثان .

ثم قال كما جازينا هؤلاء بهذا الجزاء وهو ان أثنينا عليهم في آخر الامم مثل ذلك نجزي من فعل الطاعات واجتنب المعاصي .

ثم اخبر ان الياس كان من جملة عباده المصدقين بجميع ما اخبر الله به من وعد ووعيد وغير ذلك ، العاملين بما اوجب الله عليهم .

قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣)

كَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾(١٤٨)

ست عشرة آية.

أخبر الله تعالى أن لوطاً كان من جملة من أرسله الله نبياً إلى خلقه داعياً لهم إلى طاعة الله ومنبهاً لهم على وجه وحدانيته، وإن قومه كذبوه وجحدوا نبوته فأهلكهم الله ونجا لوطاً وأهله اجمعين، واستثنى من جملة اهله الناجين (عجوزاً) أهلكها الله، لكونها على مثل ما كان قومه عليه ﴿في الغابرين﴾ أي في الباقين الذين اهلكوا، فالغابر الباقي قليلا بعد ما مضى، ومنه الغبار، لانه يبقى بعد ذهاب التراب قليلا. والتغبير التلحين لانه يبقى الصوت فيه بالترديد قليلا، ومنه قول الشاعر:

به غبر من دأبه وهو صالح

ثم انه لما نجى لوطاً وأهله وخلصهم، دمر الآخرين من قومه. والتدمير الاهلاك على وجه التنكيل دمر عليهم إذا غير حالهم إلى حال التشويه، فالله تعالى اهلك قوم لوط بما أرسل عليهم من الحجارة، وبما فعل بهم من انقلاب قراهم.

وقوله ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾ توبيخ من الله للكفار الذين عاصروا النبي ﷺ وتعنيف لهم على ترك اعتبارهم وإيقاظهم بمواضع هؤلاء الذين أهلكهم الله ودمر عليهم مع كثرة مرورهم

عليها صباحاً ومساء وليلا ونهاراً . وفي كل وقت . ومن كثر مرورهم بمواضع العبرة فلم يعتبر كان الوم ممن قل ذلك منه .

وقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ معناه أفلا تتدبرون فتتفكرون في ما نزل بهؤلاء القوم من الكفر والضلال . وقيل : وجه القصص وتكريرها ، كتشويق إلى مثل ما كانوا عليه من مكارم الاخلاق ومحاسن الأفعال وصرف الناس عن مساوي الاخلاق وقبائح الأفعال قال الشاعر :

تلك المكارم لاقعبان من لبن　　شيبا بماء فعادا بعد ابوالا

ثم قال تعالى مخبراً عن يونس عليه السلام انه كان من جملة من أرسله الله الى خلقه وجعله نبياً يدعو الى توحيده وخلع الانداد دونه .

وقوله ﴿ إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ معناه حين هرب إلى السفن المملوءة ، فالاباق الفرار ، فالآبق الفار إلى حيث لايهتدي اليه طالبه يقال : أبق العبد يأبق أباقاً فهو آبق إذا فرّ من مولاه . والآبق والهارب والفار واحد . قال الحسن : فر من قومه ﴿ إلى الفلك المشحون ﴾ أي المحمل الموقر . وقوله ﴿ فساهم ﴾ قال ابن عباس معناه قارع . وهو قول السدي ﴿ فكان من المدحضين ﴾ قال مجاهد : يعني من المسهومين ، والمساهمة المقارعة ، فلما ساهم يونس قومه وقع السهم عليه ، فالقي في البحر ، فالتقمه الحوت ، فكان من المدحضين ، قال الحسن كان من المقروعين . وقيل : معناه فكان من الملقين في البحر ، والدحض الزلق لأنه يسقط عنه المار فيه . ومنه قوله ﴿ حجتهم داحضة ﴾ (١) أي ساقطة ، ودحض يدحض دحضاً فهو داحض ، وأدحضته ادحاضاً ، وقيل : كان يونس عليه السلام قد توعدهم بالعذاب

(١) سورة ٤٢ الشوري آية ١٦

ان أقاموا على ماهم عليه، فلما رأوا مخايل العذاب واماراته دعوا الله أن يكشف عنهم وتابوا اليه، فكشفه. وكان يونس قد خرج قبل ان يأمره الله - عزوجل - بالخروج من بين قومه استظهاراً، فلما كشف الله عنهم لام نفسه على الخروج ومضى على وجهه إلى ان ركب البحر. وقيل: إنما تساهموا لأنهم أشرفوا على الغرق فرأوا ان طرح واحد أيسر من غرق الجميع. وقيل: لا بل لما رأوا الحوت قد تعرضت لهم، قالوا فينا مذنب مطلوب فتقارعوا فلما خرج على يونس رموا به في البحر فالتقمه الحوت. ومعناه ابتلعه يقال التقمه التقاماً ولقم يلقم لقماً وتلقم تلقماً.

وقوله ﴿وهو مليم﴾ معناه أتى بما يلام عليه، وإن وقع مكفراً عند من قال بتجويز الصغائر على الانبياء، وعندنا قد يلام على ترك الندب، يقال ألام الرجل إلامة فهو مليم، وقال مجاهد وابن زيد: المليم المذنب قال لبيد:

سفها عذلت ولمت غير مليم وهداك قبل اليوم غير حكيم (١)

ثم قال ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ قال قتادة: كان من المصلين في حال الرخاء فنجاه الله من البلاء. وقال سعيد بن جبير: كان يقول لا إله إلا انت سبحانك إني كنت من الظالمين، والتسبيح التنزيه عما لا يليق ولا يجوز في صفته. ويقال: سبح الله يسبح تسبيحاً إذا قال: سبحان الله معظماً له بما هو عليه من صفات التعظيم نافياً عنه ما لا يليق به ولا يجوز عليه من صفات المخلوقين والمحتاجين.

---

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٧٤ واللسان (لوم)

وقوله ﴿ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ إخبار منه تعالى انه لو لاتسبيح يونس لتركه اليه أي كان يبقى في بطنه إلى يوم القيامة الذي يحشر الله فيه الخلائق . وقوله ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم ﴾ إخبار منه تعالى انه لما اراد تخليصه طرحه بالعراء وهو الفضاء الذي لايواريه شجر ولا غيره . قال الشاعر:

فرفعت رجلا لااخاف عثارها ونبذت بالبلدالعراء ثيابي (١)

وقال السدي : ابث في بطن الحوت اربعين يوماً ﴿ وهو سقيم ﴾ أي هو مريض حين القاه الحوت .

ثم اخبر تعالى انه انبت عليه شجرة من يقطين تكنه من حر الشمس. واليقطين كل شجرة ليس لها ساق يبقى من الشتاء إلى الصيف ، فهي يقطين وقال ابن عباس وقتادة : هو القرع . وقال مجاهد وسعيد بن جبير كل شجر لايقوم على ساق كالبطيخ والدبا والقرع فهو يقطين . وهو تفعيل من قطن بالمكان إذا اقام إقامة زائل لا إقامة راسخ كالنخل والزيتون ونحوه والقطاني من الحبوب التي تقيم في البيت ، قال أمية بن ابي الصلت .

فانبت يقطيناً عليه برحمة من اللهلولا الله القى ضاحيا (٢)

وروي عن ابن عباس ان اليقطين كل شجرة لها ورق عريض . وقوله ﴿ وأرسلناه إلى مئة الف او يزيدون ﴾ قيل : أرسل الله يونس الى أهل نينوى من أرض الموصل - في قول قتادة - وقال ابن عباس : كانت رسالته بعد ما نبذه الحوت ، فيجوز على هذا انه أرسل إلى قوم بعد قوم ويجوز أن يكون ارسل إلى الأولين بشريعة فآمنوا بها . وقيل : إن قوم يونس لما رأوا إمارات العذاب ولم يكونوا قد بلغوا حد الاجبار واليأس من البقاء

(١) مجاز القرآن ٢ | ١٧٥ واللسان (عرا)   (٢) تفسير الطبري ٢٣ | ٥٩

آمنوا ، وقبل الله إيمانهم ، لأنهم لو كانوا حصلوا في العذاب لكانوا ملجئين ولما صح إيمانهم على وجه يستحق به الثواب.

وقوله ﴿ او يزيدون ﴾ قيل في معنى ﴿ او ﴾ ثلاثة اقوال :

احدها ـ ان تكون بمعنى الواو ، وتقديره الى مئة الف وزيادة عليهم .

الثاني ـ ان تكون بمعنى (بل) على ما قال ابن عباس .

الثالث ـ ان تكون بمعنى الابهام على المخاطبين ، كأنه قال أرسلناه الى احدى العدتين . ثم حكى تعالى عنهم أنهم آمنوا بالله وأقروا له بالوحدانية وراجعوا التوبة ، وكشف الله عنهم العذاب ومتعهم إلى وقت فناء آجالهم ، فالتمتيع والامتاع هو التعريض المنافع الحاصلة كالامتاع بالبساتين والرياض وشهي الطعام والشراب .

قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَـٰئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١٦٠)

اثنتا عشرة آية.

كلهم قرأ ﴿ أصطفى ﴾ بفتح الهمزة إلا ورشاً واسماعيـل عن نافع ، فانهما وصلاه على الخبر ، وبه قرأ ابو جعفر قال ابو علي الفارسي : يجوز أن يكون على تقدير الكاذبون في قولهم قالوا : اصطفى ، ويجوز ان يكون اصطفى الثبات على ما يقولونه ، والوجه قطع الهمزة ، لأنه على وجه التقريع ، ويقويه قوله ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ قال قتادة والسدي : ان قريشاً كانت تقول : الملائـكة بنات الله تعالى ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يستفتهم بمعنى ان يطلب الحكم منهم في هــذه القضية على وجه التقريع لهم والتوبيخ على قولهم بأن يقول لهم ألربكم البنات ؟ ! يعني كيف يقولوا لربك البنات يامحمد ولهم البنون ؟ ومن أين علموا ان الملائـكة إناثاً اشاهدوا خلق الله لهم ؟ ! فرأوهم اناثاً ؟ فانهم لايمكنهم ادعاء ذلك . البَنات

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ ألا انهم من إفكهم ﴾ أي من كذبهم ـ في قول قتادة والسدي ـ هذا القول ، وهو ان يقولوا ﴿ ولد الله . وإنهم لكاذبون ﴾ في هذا القول . ثم قال ﴿ آصطفى البنات على البنين ﴾ من قطع الهمزة أراد الانكار بلفظ الاستفهام ، والمعنى كيف يكون هذا ، وكيف يختار البنات على البنين . ومن وصل الهمزة اراد الاخبار بذلك ، فالاصطفاء إخراج الصفوة من الشيء ، وهي خالصه . وإنما يصطفي الله تعالى افضل الاشياء ، ومن اصطفى الأدون على الأفضل مع القدرة على الأعلى كان ناقصاً . والله تعالى لا يليق بصفـات النقص في اصطفاء الثبات على البنين مع استحالة اتخاذ الولد عليه ، لما في ذلك من معنى التشبيه ، لأنه إنما يتخذ

الولد من يجوز أن يكون مثل ذاك ولداً له ، ولذلك لا يجوز أن يتخذ الشاب شيخاً ولداً ، ولا أن يتخذ الانسان بعض البهائم ولداً ، لما لم يكن ذلك ممكناً ، فاذا أستحال الولد عليه تعالى ، فما هو مشبه به أولى بأن يستحيل عليه.

وأصل (اصطفى) (اصتفى) فقلبت التاء طاء لتعدل الحروف في الاطباق والاستعلاء بما هو من مخرج التاء ، فالطاء وسط بين الحرفين لمناسبتها التاء بالمخرج ، والصاد بالاستعلاء والاطباق .

قوله ﴿ مالكم كيف تحكمون ﴾ تهجين لهم بوضعهم الشيء في غير موضعه لأنهم وضعوه موضع الحكمة ، وليس الأمر كذلك إذ انتم على فاحش الخطأ الذي يدعو اليه الجهل . وقوله ﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾ معناه هل لكم حجة ظاهرة وبرهان بين في ما تدعونه وتحكمون به . وسمي البرهان سلطاناً ، لأنه يتسلط به على الانكار لمخالفة الحق والصواب . والبيان إظهار المعنى للنفس .

ثم قال على وجه الانكار عليهم ﴿ فأتوا بكتابكم ﴾ إن كان معكم حجة من كتاب انزله الله اليكم فهاتوه ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في هذا القول ، فانهم لا يقدرون على ذلك ابداً .

ثم اخبر تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم ﴿ جعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ قال الحسن : اشركوا الشيطان في عبادة الله ، فهو النسب الذي جعلوه . وقال قوم : بل لأنهم قالوا : إنه تعالى تزوج من الجن ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وقيل : سميت الملائكة جنة لاستتارهم عن العيون . ومعنى الآية أن هؤلاء الكفار بجعلهم الملائكة بنات الله جعلوا بينه وبينهم نسباً ، وهو قول مجاهد وقتادة .

ثم قال تعالى على وجه الرد عليهم ﴿ ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون ﴾

وقال مجاهد وقتادة : قال ذلك لانهم علموا أنهم يحضرون الحساب . وقال السدي : علموا أن قائل هذا القول يحضر الحساب والعذاب . ثم نزه تعالى نفسه عن قولهم وصفتهم ، فقال ﴿ سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين ﴾ استثنى عباده الذين أخلصوا نفوسهم فوجهوا العبادة اليه تعالى ووصفوه بما يليق به من جملة الكفار القائلين بما لا يليق به .

قوله تعالى:

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٧٠)

عشر آيات .

قرأ الحسن ﴿ صائل الجحيم ﴾ بالرفع وهي تحتمل شيئين : احدهما . الجمع . والثاني - القلب ، كقولهم : شاك، وشائك في السلاح ، وهار وهائر . الباقون ﴿ صال ﴾ بكسر اللام على وزن (فاعل) .

هذا خطاب من الله تعالى للكفار الذين كانوا يعبدون الاصنام بأن قال لهم ﴿ فانكم وما تعبدون ﴾ فموضع (ما) نصب عطفاً على الكاف والميم ، وهو في موضع نصب بـ (أن) والتقدير إنكم يا معشر الكفار والذين تعبدونه

﴿ ما انتم عليه بفاتنين ﴾ وقال الفراء : تقديره ، وإنكم وآلهتكم ما أنتم عليه بفاتنين أي بمفتنين ﴿ وما انتم عليه ﴾ أي وما أنتم على ذلك الدين بمصلين عليه وبه وله سواء في المعنى . وأهل نجد يقولون : أفتنت ، وأهل الحجاز فتنت أي لستم عليه بفاتنين ، والفاتن الداعي إلى الضلالة بتزيينه له ، فكل من دعا إلى عبادة غير الله بالاغواء والتزيين فاتن ، لانه يخرجه إلى الهلاك ، وأصل الفتنة من قولهم : فتنت الذهب بالنار إذا أخرجته إلى حال الخلاص ﴿ وفتناك فتونًا ﴾ (١) أي أخرجناك بالأمر الحق إلى حال الخلاص .

وقوله ﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ أي لستم تفتنون إلا من يصلى الجحيم ، ومعناه إلا من يلزم النار ويحترق بها ، ومنه المصطلي ، وهو المستدفيء بالنار ، ومنه الصلاة للزوم الدعاء فيها ، والمصلي الذي يجيء بعد السابق للزومه أثره . والمعنى ان من يقبل من هذا الفاتن وينقاد له ، فهو يصلى الجحيم

وقوله ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ معناه ما منا ملك إلا له مقام ، فحذف ومعناه لا يتجاوز ما أمر به ورتب له ، كما لا يتجاوز صاحب المقام مقامه الذي حدّ له ، فكيف يجوز ان يعبد من هو بهذه الصفة ، وهو عبد مربوب ووصف المقام بأنه معلوم ، لأنه معلوم لله على ما تقتضيه الحكمة ، وهو محدود لا يتجاوز ما علم منه ولا يخرج منه .

وقوله ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ قيل : صافون حول العرش ينتظرون الأمر والنهي من الله تعالى ، وقيل : الصافون في الصلاة : وقوله ﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ معناه المصلون من قولهم : فرغت من سبحتي أي من

---

(١) سورة ٢٠ طه آية ٤٠

صلاتي ، وسميت الصلاة تسبيحاً لما فيها من تسبيح الله وتعظيم عبادته . و (المسبحون) القائلون سبحان الله على وجه التعظيم له تعظيم العبادة، وقوله ﴿ وإن كانوا ليقولون ﴾ فـ (إن) هذه المخففة من الثقيلة بدلالة دخول اللام في خبرها ، كما قال ﴿ وإن ربك ليحكم بينهم ﴾ (١) ويلزمها هـذه اللام ليفرق بين (إن) الثقيلة والخفيفة التي للجحد في مثل قوله ﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ (٢) والمعنى إن هؤلاء الكفار كانوا يقولون ﴿ لو ان عندنا ذكراً ﴾ أي كتاباً فيه ذكر من كتب الأولين الذي أنزله على انبيائه . وقيل : يعني علماً يسمى العلم ذكراً ، لان الذكر من اسبابه ، فسمى بأسمه ﴿ من الأولين ﴾ الذين تقدمونا وما فعل الله بهم ﴿ لكنا ﴾ نحن ايضاً من ﴿ عباد الله المخلصين ﴾ الذين أخلصوا العبادة له ، فجعلوا العذر في امتناعهم من الايمان أنهم لا يعرفون اخبار من تقدمهم ، وهل حصلوا في جنة او نار ، فقال الله تعالى ﴿ فكفروا به ﴾ يعني بالذكر ، لأنهم طلبوا كتاباً كما للاولين التوراة دالا على توحيد الله ، فلما جاءهم القرآن كفروا به ، وبمن جاء بالقرآن ـ في قول ابن عباس والسدي ـ فهددهم الله على هذا ، الكفر فقال ﴿ فسوف يعلمون ﴾ في ما بعد إذا عاقبناهم بعقاب النيران .

قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ

(١) سورة ١٦ النحل آية ١٢٤   (٢) سورة ٦٧ الملك آية ٢٠

حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٨٢) اثنتا عشرة آية بلا خلاف .

اقسم الله تعالى ، لأن هـذه اللام لام القسم بأنه ﴿ سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ الذين بعثهم الله إلى خلقه ﴿ أنهم هم المنصورون ﴾ سينصرون بنصرهم على أقوامهم بالحجج وإنما قـدم الله تعالى الكلمة للمرسلين بأنهم سينصرون ، لما في ذلك من اللطائف للملائكة والسامعين لها ، وسميت جملة من الكلام بانها كلمة لانعقاد بعض معانيه ببعض حتى صار يلحقه صفة التوحيد كخبر واحد وقضية واحـدة . وقال السدي : النصر للمرسلين بالحجة لأن منهم من قتل . وقال الحسن : ما غلب نبي في حرب ، ولا قتل قط .

ثم اخبر تعالى أن جنود الله للكفار لغالبون أي يقهرونهم تارة بالحجة واخرى بالقتل . ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ فتول عنهم ﴾ يعني اعرض عن هؤلاء الكفار ﴿ حتى حين ﴾ إلى ان آمرك بقتالهم ، يعني يوم بدر – في قول السدي – وقال قتادة : الى الموت . وقال قوم : الى يوم القيامة . وقال قوم : الى انقضاء مدة الامهال .

وقوله ﴿ وابصرهم فسوف يبصرون ﴾ معناه انظرهم فسوف يرون العذاب - في قول ابن زيد - وقال غيره أبصر حالهم بقليل . وقيل : ابصرهم في وقت البصر ، وفي الآية دلالة على المعجز ، لأنه تعالى وعدنبيه بالنصر ، فكان الأمر على ما قال .

وقوله ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ معناه الانكار عليهم بأنهم يطلبون العذاب عاجلا قبل وقته . ثم قال ﴿ فاذا نزل ﴾ يعني العذاب ﴿ بساحتهم ﴾ أي بفنائهم فساء صباح المنذرين أي بئس الصباح صباح من خوف وحذر ، فلم يحذر ، ولم يخف ، فالساحة ناحية الدار ، وهو فناؤها ، وهو الفناء الواسع فلذلك وصف بأنه نازل به العذاب لعظمه ولا يسعه إلا الساحة ذات الفناء الواسع . وقال السدي : نزل بساحتهم أي بدارهم وساء إذا كانت بمعنى بئس لا تتصرف مثل هذه . ومثل قوله ﴿ ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ (١) ولو كان بمعنى الاخبار المحض لجاز أن يقال : ساءه يسوءه سوءاً أي اوقع به ما يسوءه .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ أي اعرض عنهم الى حين وقد فسرناه . و ﴿ ابصر فسوف يبصرون ﴾ وقد مضى معناه ، وإنما كرر لانهما عذابان عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فكأنه قال وابصرهم في عذاب الآخرة وابصرهم في عذاب الدنيا .

ثم قال « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » أي التنزيه لربك عما لا يليق به من الصفات ، ربك الذي خلقك ويملك التصرف فيك رب العزة يعني العزة التي يعز الله بها الأنبياء والمرسلين ، وهي صفة القادر الذي

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٦

لا يضام ولا يرام ، فالعزة لله ـ جل عز ـ وهو ربها ، لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء منها ، ولا من غيرها جل وعلا « عما يصفون » يعني ما يصفه به الكفار من اتخاذ الأولاد واتخاذ الشريك « وسلام على المرسلين » الذين أرسلهم الله إلى عباده « والحمد لله رب العالمين » أي والشكر والحمد لله الذي خلق جميع العالم وملك التصرف فيهم .

٣٨ - سورة ص

هي مكية في قول مجاهد وقتادة والحسن ليس فيها ناسخ ولا منسوخ وهي ثمان وثمانون آية في الكوفي وخمس وثمانون في البصري وست في المدني .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ صۤ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (٥) خمس آيات .

قرأ الحسن (صاد) بكسر الدال . وقال عيسى بن عمر بفتحها . الباقون بالوقف ، وهو الصحيح ، لأن حروف الهجاء يوقف عليها . ومن كسر

فلاجتماع الساكنين . وقيل : إنه جعل من المصاداة وهي المعارضة . ومن فتح فلأن الفتحة أخف من الكسرة ، ولم يعدوا (صاد) آية ، لأنه يشبه الاسم المفرد في انه على ثلاثة احرف في هجاء حروف المعجم ، نحو (باب ، وذات ، وناب) وإنما يعدّ آية ما يشبه الجملة وشاكل آخره رؤس الآي التي بعده بالردف ومخرج الحروف . وليس ـ ههنا ـ شيء من ذلك .

واختلفوا في معنى (صاد) فقال قوم : هو اسم السورة على ما أخبرناه في ما مضى . وقال ابن عباس : هو اسم من اسماء الله أقسم به . وقال السدي : هو من حروف المعجم . وقال الضحاك : معناه صدق . وقال قتادة : هو اسم من اسماء القرآن اقسم الله تعالى به . وقال الحسن : هو من المصاداة وهو (صاد) بالكسر أمر للنبي ﷺ أي عارض القرآن بعملك (والقرآن) قسم . فلذلك جر « ذي الذكر » قال ابن عباس : ذي الشرف ، وقال الضحاك وقتادة : ذي التذكر . وقيل : معناه ذي الذكر للبيان والبرهان ، المؤدي إلى الحق الهادي إلى الرشد الرادع عن الغي ، وفيه ذكر الأدلة التي من تمسك بها سعد . ومن عدل عنها شقي . ومن عمل بها نجا . ومن ترك العمل بها هلك .

واختلفوا في جواب القسم ، فقال قوم : هو محذوف وتقديره لجاء الحق وظهر ، لان حذف الجواب في مثل هذا أبلغ ، لان الذكر يقصر المعنى على وجه . والحذف يصرف إلى كل وجه فيعم . وقال قوم : جوابه مادل عليه قوله « بل الذين كفروا » كأنه قال : والقرآن ذي الذكر ما الأمر على ما قالوا ـ ذكر ذلك قتادة ـ وقال الفراء والزجاج : الجواب (كم) وتقديره لكم أهلكنا ، فلما طال الكلام حذفت اللام وصارت (كم) جواباً للقسم

واليمين . ومثله قوله « ونفس وما سوّاها فألهما » (١) فصارت « قد افلح » تابعة لقوله « فألهمها » وكفى عن جواب القسم ، وكأنه قال : والشمس وضحاها . لقد افلح . وقال قوم : الجواب قوله « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » إلا انه قد بعد عن أول الكلام .

وقوله « بل الذين كفروا في عزة وشقاق » اخبار منه تعالى أن هؤلاء الكفار قد مكنهم واعطاهم القوة ليقووا بها على الطاعات ، فتقووا ـ بسوء اختيارهم ـ بها على المعاصي وعلى دفع الحق الذي اتاهم وصاروا في شق غير شق رسولهم الذي من قبل ربهم . ثم اخبر تعالى انه اهلك أمماً كثيرة قبل هؤلاء الكفار حين عصاه الذين كفروا ، فلما نزل بهم العذاب نادوا واستغاثوا « ولات حين مناص » معناه لات حين فرار من العذاب . وقيل : المناص المنجاة يقال : ناص ينوص نوصاً إذا تأخر وباص يبوص بوصاً إذا تقدم قال امرؤ القيس :

أمن ذكر ليلى ان ناتك تنوص ... فتقصر عنها خطوة وتبوص (٢)

ونصب (لاتَ حين) لانها مشبة بـ (ليس) من جهة أنها نفي ولا تعمل إلا في (الحين) خاصة اضعف الشبه عن منزلة (ما) إذ كانت (ما) تشبه (ليس) من جهة النفي والحال قال الشاعر :

تذكر حب ليلى لات حينا ... واضحى الشيب قد قطع القرينا (٣)

والوقف على (لات) بالتاء على قياس نظيرها من (ثمت ، وربت) لان ما قبلها ساكن ـ وهو قول الفراء ـ والكسائي يقف بالهاء (لاه) يجعل الالف

---

(١) سورة ٩١ الشمس آية ٧ (٢) تفسير القرطبي ١٥/١٤٦

(٣) تفسير القرطبي ١٥ / ١٤٧

في نية الحركة . ومن زعم انه (لاتحين) موصولة ، فقد غلط ، لأنها في المصحف وتأويل العلماء مفصولة . وقيل : ان (مناص) جر بـ(لات)وانشدوا لأبي زيد .

طلبوا صلحنا ولات اوان فاجبنا أن ليس حين بقاء (١)

وقال الزجاج : انشده ابو العباس بالرفع ، وقد روي بالكسر . وقال الزجاج : من كسر رأى ان يجعله مبنياً بمنزلة نداء ذالك الأقوام و بناه ، لحذف المضاف اليه وكسر دون ان يضم ، لأنه نوّنه ، فأجراه على نظائره من المنون المبني وأراد ولات أوانا .

ثم اخبر تعالى ان الكفار عجبوا « حين جاءهم منذر » أي مخوف من جهة الله يحذرهم معاصيه ويدعوهم إلى طاعته ، وقالوا : هذا شيء عجاب ، وعجيب وعجاب وعجاب بمعنى واحد ، مثل كريم وكرام ، فعجب هؤلاء الكفار من أن الله بعث نبيهم وهو منهم ، وقالوا : كيف خص بذلك ، وليس باشرفنا ولا اغنانا . وقيل : إن أبا جهل وجماعة من أشراف قريش مشوا إلى أبي طالب وشكوا اليه النبي صلى الله عليه وآله وقالوا له : قد سفه احلامنا وشتم الالهة ، فدعاه ابو طالب وقال له : ما لأهلك يشكونك ، فقال النبي صلى الله عليه وآله أدعوهم إلى كلمتين حقيقتين يسودون على العرب بها ، ويؤدي الخراج اليهم بها العجم ، فقال ابو جهل وغيره : ما هما فقال عليه وآله : تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله . فقال ابو جهل : أنجعل الالهة إلهاً واحداً ؟ ! فانزل الله الآية .

(١) تفسير القرطبى ١٥ | ١٤٧

قوله تعالى:

﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ (٧) أَأُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ (١٠)

خمس آيات في الكوفي واربع في الباقي .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم انهم انطلقوا أي ذهبوا فالانطلاق ذهاب بسهولة ، ومنه طلاقة الوجه وهي سهولة وبشر خلاف العبوس وقوله « أن امشوا » قال الزجاج : أي بهذا القول ، وتقديره بأن امشوا وقال قوم : معنى (أن) أي التي للتفسير لأنه صار انطلاقهم لدلالته على هذا المعنى بمنزلة الناطق به ، كما يقولون : قام يصلي أي أنا رجل صالح . وقال بعضهم : معناه الدعاء لهم بأن يكثر ما شيتكم ، وهذا باطل لفظاً ومعنى فاللفظ لأنه لو كان كما قالوه لكانت الهمزة من (أن امشوا) إذا أمر منها مفتوحة ، لأنه من امشى يمشي إذا كثرت ماشيته والامر منه امشوا بقطع الهمزة ، والقراءة بكسرها ، قال الشاعر :

وكل فتى وإن أثرى وامشى ستسلخه من الدنيا المنون (١)

واما المعنى ، فلانه لايشاكل ما قبله ولا ما بعده .

وقوله «واصبروا على آلهتكم» أمر منهم بعضهم لبعض أن يصبروا على عبادة آلهتهم وتحمل المشاق لاجلها . وقال مجاهد : القائل لذلك عقبة بن أبي معيط فالصبر محمود إذا كان في حبس النفس عن المحارم ، فهؤلاء الجهال اعتقدوا أن الحق في الصبر على آلهتهم ، ولم يعلموا ان ذلك كفر . وفي ذلك دلالة على فساد قول من يقول : إن المعارف ضرورة ، قال الحسن : إن هذا يكون في آخر الزمان .

وقوله « إن هذا لشيء يراد » معناه هذا الذي يدعيه محمد ويدعوهم اليه لشيء يراد به أمر ما من الاستعلاء علينا والرياسة فينا والقهر لنا .

ثم حكى ما قالوه فانهم قالوا « ما سمعنا بهذا » يعنون ما يدعوهم اليه النبي صلى الله عليه وآله من التوحيد وخلع الأنداد من دون الله « في الملة الآخرة » قال ابن عباس يعنون في النصرانية ، لأنها آخر الملل . وقال مجاهد : يعنون في مكة وقريش . ثم قالوا « إن هذا إلا اختلاق » قال ابن عباس ومجاهد : معناه ليس هذا إلا تخرص وكذب . ثم تعجبوا فقالوا « أأنزل عليه الذكر من بيننا » يعنون كيف خص محمد بانزال القرآن دوننا ؟ ! فقال الله تعالى « بل هم في شك من ذكري » معناه ليس يحملهم على هذا القول إلا الشك في الذكر الذي أنزلت على رسولي « بل لما يذوقوا عذاب » ثم قال « أم عندهم خزائن رحمة ربك » ؟ قال الفراء : الأستفهام إذا توسط الكلام

---

(١) قائله النابغة الذبياني . اللسان (مشى)

ابتدىء بألف و بـ (أم) ، وإذا لم يسبق كلام لم يكن إلا بألف او بـ (هل). ووجه اتصال هذا القول بما تقدم هو إتصال الانكار لما قالوا فيه ، أي ذلك ليس اليهم ، وإنما هو إلى من يملك هذه الأمور . و (خزائن رحمة ربك) معناه مقدوراته التي يقدر بها على أن ينعم بها عليهم . وقوله «العزيز» يعني القادر الذي لا يغالب ولا يقهر « الوهاب » لضروب النعم« أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما » فان كان لهم ذلك « فليرتقوا في الاسباب » وهي جمع سبب وكل ما يتوصل به إلى المطلوب ـ من حبل أو سلم او وسيلة او رحم او قرابة او طريق او جهة ـ فهو سبب ، ومنه قيل : تسببت بكذا إلى كذا أي توصلت به اليه .

قوله تعالى:

﴿ جُنْدٌ مَاهُنَا لِكَ مَهْزُومٌ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ ٱلْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥)

خمس آيات .

قرأ حمزة والكسائي « فواق » بضم الفاء . الباقون بفتحها . فالفواق بفتح الفاء معناه ما لها من راحة ، وإذا ضممت الفاء ، فالمعنى مالها من فواق ناقة وهو قدر ما بين الحلبتين . وقيل : هو ما بين الرضعتين . وقيل : هما لغتان

مثل قصاص الشعر وقصاصه ، وحمام الماء وحمامه. وهو الآفة ، وهو الابانة بعد الفترة و(ما) في قوله «جند ما » صلة، وتقديره: جند هنالك ،و (هنالك) للمكان البعيد و (هناك) المتوسط بين القرب والبعد و (هنـا) للقريب ونظيره (ذا) و (ذاك) و (ذلك) ومثل (ما) في كونها صلة قولهم: لأمر ما جدع قصير أنفه. وعندي طعام ما، قال الاعشى:

فاذهبي ما اليك أدركني الحـ لم عداني عن ذكركم اشغالي (١)

وقيل : إنها تقوية للنكرة المبتدأة في (ما) والجند جمع معد للحرب جمعه اجناد وجنود، وجند الاجناد أي جيش الجيوش . ومنه قوله صلى الله عليه وآله (الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)، وقوله « مهزوم » يعني مغلوب عن أن يصعدوا إلى السماء ، والمهزوم من وقعت بهم الهزيمة ، وهي الفرار من الحرب ، ولو فرّ انسان من ضرب لم يكن ذلك هزيمة ، وكذلك من فرّ من الحبس . وقوله « من الاحزاب » معناه من حزب إبليس وإتباعـه .

ثم اخبر تعالى انه كذب مثل هؤلاء الكفار ، فأنث لأنه أراد العشيرة « قوم نوح » فأغرقهم الله ، وقوم « عاد » فاهلكهم الله « وفرعون » وقوم فرعون « ذا الاوتاد » وقيل : في معناه أقوال :

منها ـ انه كانت له ملاعب من اوتاد يلعب له عليها ، وهو قول ابن عباس وقتـادة . وقال السدي والربيع بن أنس : انه كانت له أوتاد يعذب الناس بها . وقال الضحاك : معناه ذو البنيان ، والبنيان اوتاد .

ثم قال « وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة » أيضاً هم الأحزاب يعني

---

(١) ديوانه ١٦٤

احزاب إبليس : و (الايكة) الغيضة . وقال ابو عمرو بن العلا : هي الملتفت من النبع والسدر . وقال السدي : هي الحرجة ، قال الشاعر :

افمن بكاء حمامة في أيكة　　يرفض دمعك فوق ظهر المحمل

يعني محمل السيف . وقوله « إن كل الاكذب الرسل » معناه ليس كلهم إلا كذبوا أنبياء الله وجحدوا نبوتهم فاستحقوا عقابي . ثم قال « وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة » أي ليس ينظر هؤلاء إلا صيحة عذاب لايكون لتلك الصيحة « من فواق » أي مالها من افاقة بالرجوع إلى الدنيا وهو قول قتادة ، والسدي وقال ابن زيد « مالها من فواق » أي من فتور كما يفيق المريض .

قوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) إِصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (٢٠) خمس آيات .

يقول الله مخبراً عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأنهم يقولون على وجه الاستهزاء بعذاب الله يا « ربنا عجل لنا قطنا » أي قدم لنا نصيبنا من العذاب ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : طلبوا حظهم من العذاب تهزءاً

بخبر الله وشكا فيــه . وقال السدي : إنما سألوا أن يريهم حظهم من النعيم في الجنة حتى يؤمنوا . وقيل : إنما سألوا أن يعجل كتبهم التي يقرؤنها في الآخرة استهزاء منهم بهذا الوعيد . والقط الكتاب قال الاعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بأمته يعطي القطوط ويأفق (١)

أي كتب الجوائز ، لانها قطع نصيب لكل واحد بما كتب . والتعجيل فعل الشيء قبل وقته الذي ينبغي أن يفعل فيه . والقط النصيب وأصله القطع من قولك قطه يقطه قطاً مثل قده يقده قداً ، ومنه قولهم : ما رأيته قط أي قطع الدهر الذي مضى « قبل يوم الحساب » أي قبل اليوم الذي يحاسب فيه الخلق ويجازون فيه على أعمالهم على ما يقولونه فقال الله تعالى لنبيه ﷺ « اصبر على ما يقولون » أي احبس نفسك على اذاهم وصبرها على أقوالهم « واذكر عبدنا داود ذاالايد » ترغيباً له في الصبر المأمور به وإن لك يا محمد فيه من إحسان الله اليك على نحو إحسانه إلى داود قبلك ، وأنه لو شاء لاعطاك في الدنيا مثل ما أعطى داود ولكنه دبر الك ما هو أعودلك .

وقوله « ذا الايد » قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : معناه ذا القوة ، ومنه قوله « والسماء بنيناها بأيد » (٢) أي بقوة ، وقوله « إنه اواب » قال ابن زيد : معناه تواب وبه قال مجاهد ، وهو من آب يؤب أي رجع إلى الله فلذلك مدحه .

ثم اخبر تعالى عن نعمه التي أنعم بها على داود ، فقال « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق » ومعنـاه إنها كانت تسير بأمر الله معه حيث سار بالغداة والعشي فسمى الله ذلك تسبيحاً لما في ذلك من

---

(١) ديوانه ١١٧ « دار بيروت » (٢) سورة ٥١ الذاريات آية ٤٧

دلالته على قدرته وغناه من خلقه وصفاته التي لايشاركه فيها غيره ، والاشراق وقت طلوع الشمس يقال : شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا اضاءت « والطير محشورة » وتقديره وسخرنا الطير محشورة أي مجموعة من كل ناحية اليه يعني الطير والجبال « له أواب » أي رجاع إلى ما يريد . وقيل : مسخرة ـ ذكره قتادة ـ وقال الجبائي لايمتنع أن يكون الله خلق في الطيور من المعارف ما تفهم به مراده وأمره من نهيه فتطيعه في ما يريده منها . وإن لم تكن كاملة العقل ، ولا مكلفة .

ثم قال «وشددنا ملكه» يعني قوينا ملكه بالجنود والهيبة «وآتيناه الحكمة» أي علمناه الحكمة « وفصل الخطاب» ومثله قول البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه أى إصابة الحكم بالحق . وقال البلخي : يجوز أن يكون المراد بتسبيح الجبال معه هو ما أعطى الله تعالى داود من حسن الصوت بقراءة الزبور ، فكان إذا قرأ الزبور أو ذكر ما هو تسبيح لله ورفع صوته بين الجبال ردّ الجبال عليه مثله كما يرد الصدى ، فسمى الله ذلك تسبيحاً لما تضمنه من الدلالة والأول أحسن .

قوله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَـٰكَ نَبَؤُ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا ٱلْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ ٱلصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَـٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ

بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ» (٢٥) خمس آيات.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه وصورته صورة الاستفهام والمراد اخباره بما كان من قصة داود من الحكم بين الخصمين وتنبيهه على موضع إخلاله ببعض ما كان ينبغي أن يفعله فقال « وهل أتاك نبؤ الخصم » يعني خبره فالنبأ الخبر بما يعظم حاله « إذ تسوروا المحراب » يعني حين صعدوا اليه . والخصم هو المدعي على غيره حقاً من الحقوق المنازع له فيه ، ويعبر به عن الواحد والاثنين والجماعة بلفظ واحد ، لان أصله المصدر ، فتقول : رجل خصم ، ورجلان خصم ، ورجال خصم ، ولذلك قال « إذ تسوروا المحراب » لأنه أراد المدعي والمدعى عليه ومن أتبعهما ، فلا يمكن أن يتعلق به في أن أقل الجمع اثنان ، لما قال « خصمان بغى بعضنا على بعض » لانه أراد بذلك الفريقين ، والخصم من خصمته اخصمه خصماً . والتسور الاتيان من جهة السور ، يقال تسور فلان الدار إذا أتاها من قبل سورها ، وكانوا أتوه من اعلى المحراب ، فلذلك فزع منهم . والمحراب مجلس الاشراف الذى يحارب دونه لشرف صاحبه ، ومنه سمى المصلي محراباً وموضع القبلة ايضاً محراب

وقوله « إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض » معناه إن هؤلاء حين دخلوا على داود من غير الجهة التي اعتاد

الدخول عليـــه منها فزع منهم ، لانه ظنهم أعداء يريدون به سوء فقالوا له (خصمان) ولم يقولا : نحن خصمان يعني فريقان لأنهما كانا ملكين ولم يكونا خصمين ولا بغى احدهما على الآخر ، وإنما هو على المثل « فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط » معناه ولا تجاوز الحق ولا تجر ولا تسرف في حكمك بالميل مع أحدهما ـ على الآخر ، يقال أشط في حكمه إذا جار يشط فهو مشط وشططت علي في السوم تشط شططاً قال الشاعر :

ألا يالقومي قـــد اشطت عواذلي ويزعمن أن اودى بحقي باطلي (١)

وقال آخر :

يشط غـــداً دار جيراننـــا وللدار بعدغـــد بعـــد

وقوله « وأهدنا إلى سواء الصراط » معناه أرشدنا إلى قصد الطريق الذي هو طريق الحق ووسطه ، كما قال « فاطلع فرآه في سواء الجحيم » (٢) ثم حكى تعالى ما مكان آحد الخصمين اصاحبه ، فقال « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة » قال وهب بن منبة : يعني أخي في ديني وقال اكثر المفسرين انه كنى بالنعاج عن تسع وتسعين إمرأة كانت له وإن الآخر له نعجة واحدة يعني امرأة واحدة . وقال الحسن : لم يكن له تسع وتسعون امرأةوإنما هو على وجه المثل .وقال أبو مسلم محمد بن بحر الاصفهاني : أراد النعاج باعيانها ، وهو الظاهر غير انه خالف أقوال المفسرين . وقال هما من ولد آدم ، ولم يكونا ملكين وإنما فزع منهما لانهما دخلا عليه في غير الوقت المعتاد ، وهو الظاهر غير انه خلاف أقوال المفسرين على ما قلناه .

وقوله « فقال اكفلنيها » معناه اجعلني كفيلا بها أي ضامناً لامرها .

(١) مر في ٧ / ١٥ (٢)سورة ٣٧ الصافات آية ٥٥

ومنه قوله « وكفلها زكريا » (١) وقال ابو عبيدة معناه ضمها اليها، وقال ابن عباس وابن مسعود معنى اكفلنيها انزل لي عنها « وعزني في الخطاب » أي غلبني في المخاطبة من قولهم: من عز بزّ أي من غلب سلب . وقال ابن زيد : معناه قهرني . وقال ابو عبيدة : معناه صار أعزمني ، فقال له داود « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض » ومعناه إن كان الامر على ما تدعيه لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، فاضاف السؤال إلى المفعول به وهي النعجة وإن أضيف اليها . ثم اخبر ان كثيراً من الشركاء والخلطاء ليبغي بعضهم على بعض فيظلمه . وقال أصحابنا : كان موضع الخطيئة أنه قال للخصم لقد ظلمك من غير ان يسأل خصمه عن دعواه وفي آداب القضاء ألا يحكم بشيء ولا يقول حتى يسأل خصمه عن دعوى خصمه ، فما أجاب به حكم به . وهذا ترك الندب في ذلك ، وفي ذلك قول آخر ، وهو إن في الناس من قال : إن ذلك كان صغيرة منه وقعت مكفرة ، والشرط الذي ذكرناه لا بد فيه ، لانه لا يجوز ان يخبر النبي ان الخصم ظلم صاحبه قبل العلم بذلك على وجه القطع ، وإنما يجوز مع تقرير الشرط الذي ذكرناه . ثم استثنى من جملة الخلطاء الذين بعضهم يبغي على بعض الذين آمنوا بالله وعملوا بما يوجب عليهم ، فانهم لا يفعلون ذلك . ثم قال وقليل الذين كذلك ، فروي أن الملكين غابا من بين يديه فظن عند ذلك أن الله اختبره بهذه الحكومة وابتلاه . وقرىء (فتناه) بالتخفيف بمعنى أن الملكين فتناه بها . وقال قوم الظن العلم كأنه قال : وعلم داود ذلك

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٣٧

وقال آخرون : إنما ظن ظناً قوياً وهو الظاهر . وقوله « فاستغفر ربه » معناه سأل الله المغفرة والستر عليه « وخر راكعاً وأناب اليه » أي رجع اليه بالتوبة .

ثم اخبر تعالى انه أجاب دعوته وغفر له ذلك ، وأخبر ان له مع المغفرة عند الله لزلفى ، والزلفى القربة من رحمة الله ، وثوابه في جنته « وحسن مآب » فالمآب والمرجع والمصير والمآل واحد . ومن قال ان ذلك كان صغيرة وقعت مكفرة يقول : معنى قوله « فغفرنا له » بعد الانابة ، وإن كانت الخطيئة غفرت في الدنيا . وقيل : انه خطب امرأة كان اوريا ابن حيان قد خطبها فدخل في سومه ، فاختاروه عليه فعاتبه الله على ذلك ، لان الانبياء يتنزهون عن ذلك ، وإن كان مباحاً لأنه مما ينفر على بعض الوجوه . وقيل : بل انفذ به إلى غزوة ، وكان يحب ان يستشهد ليتزوج امرأته لأنهما كانا تحاكما اليه فوقعت امرأته في قلبه واشتهاها شهوة الطباع من غير أن يحدث أمراً قبيحاً . وأولى الوجوه ما قدمناه انه ترك الندب في ما يتعلق بأدب القضاء ، لأن باقي الوجوه ينبغي ان ينزه الانبياء عنها لانها تنفر في العادة عن قبول أقوالهم ، فأما ما يقول بعض الجهال من القصاص أن داود عشق امرأة أوريا ، وأنه امره بأن يخرج إلى الغزو ، وأن يتقدم امام التابوت وكان من يتقدم التابوت من شرطه ألا يرجع إلى أن يغلب او يقتل ، فخبر باطل موضوع ، وهو مع ذلك خبر واحد لا أصل له ولا يجوز أن تقبل اخبار الآحاد في ما يتضمن في الانبياء ما لا يجوز على ادون الناس ، فان الله نزههم عن هذه المنزلة واعلى قدرهم عنها . وقد قال الله تعالى « الله يصطفي من

الملائكة رسلا ومن الناس » (١) وقال « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » (٢) فكيف يختار تعالى من يتعشق نساء اصحابه ويعرضهم للقتل من غير استحقاق ولا يجوز مثل هذا على الانبياء إلا من لا يعرف مقدارهم ولا يعتقد منزلتهم التي خصهم الله فيها نعوذ بالله من سوء التوفيق .

وقد روي عن علي عليه السلام انه قال : لا أوتى برجل يقول إن داود ارتكب فاحشة إلا ضربته حدين احدهما للقذف والآخر لأجل النبوة . وقرأ ابن مسعود « تسع وتسعون نعجة » انثى ، قال النحويون : هذا تأكيد ، كما قال النبي: ابن لبون ذكر . وكما قال « طائر يطير بجناحيه » وقال ابن جرير : معناه تسع وتسعون نعجة انثى أي حسناء ، قال ابن خالويه هذا حسن جداً ،

قوله تعالى:

﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٧٥

(٢) سورة ٤٤ الدخان آية ٣٢

الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٢٩) أربع آيات .

قرأ يحيى عن ابي بكر « لتدبروا » بالتاء وتقديره لتتدبروا من التدبر فحذف تاء الفعل وبقي تاء المضارعة ، وتقديره : لتتدبر انت يا محمد والمسلمون ومن قرأ بالياء ، فعلى ليتدبر المسلمون فيتقرر عندهم صحتها وتسكن أنفسهم إلى العلم بها .

لما اخبر الله تعالى عن داود انه رجع اليه وتاب واستغفر ربه عن التقصير الذي وقع منه في الحكم ، وانه تعالى غفر له ذلك وأجاب دعوته ، ووعده بالزلفى عنده والقربة من ثوابه ناداه ايضاً فقال له « يا داود إنا جعلناك خليفة في الارض » والخليفة هو المدبر للامور من قبل غيره بدلا من تدبيره ، فداود لما جعل الله اليه تدبير الخلق فكان بذلك خليفة ، ولذلك يقال : فلان خليفة الله في أرضه إذا جعل اليه تدبير عباده بأمره . وقيل : معناه جعلناك خليفة لمن كان قبلك من رسلنا . ثم أمره فقال « فاحكم بين الناس » ومعناه افصل بين المختلفين من الناس والمتنازعين « بالحق » بوضع الاشياء مواضعها على ما أمرك الله « ولا تتبع الهوى » أي ما يميل طبعك اليه ويدعوك هواك اليه إذا كان مخالفاً للحق ، فلا تمل اليه « فيضلك عن سبيل الله » ومعناه انك متى اتبعت الهوى في ذلك عدل بك الهوى عن سبيل الله الذي هو سبيل الحق .

ثم اخبر تعالى « إن الذين يضلون عن سبيل الله » يعني يعدلون عن العمل بما أمرهم الله به « لهم عذاب شديد » يعني شديد ألمه « بما نسوا يوم الحساب »

وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ لهم عذاب شديد يوم الحساب بما تركوا طاعاته في الدنيا ، فعلى هذا يكون يوم الحساب متعلقاً بـ (عذاب شديد) وهو قول عكرمة والسدي :

الثاني ـ قال الحسن « لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » أي بما اعرضوا عنه ، صاروا بمنزلة الناسي ، فيكون على هـذا العامل في (يوم) قوله « نسوا » .

ثم اخبر تعالى انه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما باطلا ، بل خلقهما وما بينهما بالحق لغرض حكمي ، وهو ما في ذلك من إظهار الحكمـة وتعريض انواع الحيوان للمنافع الجليلة وتعريض العقلاء لمنافـع الثواب ، وذلك يفسد قول المجبرة الذين قالوا : إن كل باطل وضلال من فعل الله. وقوله « ذلك ظن الذين كفروا » معنـاه إن خلق السماء والارض وما بينهما باطلا ظن من يكفر بالله ويجحد وحدانيته وحكمته . ثم توعد من هذه صفته فقال « فويل للذين كفروا من النار » ثم قال على وجه التوبيخ والتقريع للكفار بلفظ الاستفهام « أم نجعل الذين آمنوا . . . » معناه هل نجعل الذين صدقوا بالله وأقروا برسله وعملوا الصالحات مثل الذين أفسدوا في الارض وعملوا بالمعاصي؟! ام هل نجعل الذين اتقوا معاصي الله خوفاً من عقابه كالفجار الذين عملوا بمعاصيه وتركوا طاعته ؟ ! فهذا لا يكون ابداً . وكيف يكون كذلك وهؤلاء يستحقون الثواب بطـاعتهم وأولئك يستحقون العقاب بمعاصيهم . وقال ابو عبيدة : ليس لهـا جواب استفهام فخرجت مخرج الوعيد . وقال الزجاج : تقديره ، أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار ، فهو استفهام بمعنى التقرير .

ثم خاطب نبيه صلى الله عليه وآله فقال « كتاب انزلناه اليك مبارك » أي هذا كتاب انزلناه، يعني القرآن الذي أنزله الله عليه ، ووصفه بأنه مبارك ، لان به يستديم الناس ما أنعم الله عليهم به ، وبين أن غرضه تعالى بانزال هذا القرآن « ليدبروا آياته » بأن يتفكروا في أدلته « وليتذكر أولو الالباب » يعني أولو العقول .

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة في خلق القبائح من حيث بين الله انه يعاقبهم جزاء بما نسوا طاعاته في الدنيا .

وقوله « ذلك ظن الذين كفروا » يدل على فساد قول من يقول : ان المعارف ضرورة ، لانهم لو كانوا عارفين ضرورة لما كانوا ظانين .

قوله تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ

بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٤٠) احدى عشرة آية ٠

قرأ ابن كثير وحده « بالسؤق » مهموزة . وقال ابن مجاهد : الرواية الصحيحة عنه « بالسوق » على فعول ، ولما ضمنت الواو همزها . مثل وفيت وأفيت ، فهذه رواية قنبل . وقرأ البزي « بالسوق » مثل أبي عمرو ، جمع ساق مثل باح وبوح . والباحة والصرح والعرصة والفناء واحد ، ومثله قارة وقور للخيل الصغير . ومن همز سوق فعلى لغة من قال : (أحب المؤقدين إلى موسى) ، فهمز أنشده ابو الحسن لابي حبة النميري ، ولأنه لما لم يكن بينها وبين الضمة حاجز صار كأن الضمة عليه فهمز .

اخبر الله تعالى انه وهب لداود سليمان . فقال « نعم العبد » كان سليمان « انه اواب » أي رجاع الى طاعة الله وطلب ثوابه . وقوله « إذ عرض » يجوز أن يتعلق بقوله « نعم العبد » أي نعم العبد حين عرض عليه ، ويجوز ان يكون العامل فيه واذكر يا محمد إذ عرض على سليمان « بالعشي » يعني آخر النهار ﴿ الصافنات الجياد ﴾ والصافنات جمع صافنة ، قال ابن زيد : صفن الخيل قيامها على ثلاث مع رفع رجل واحدة . يكون طرف الحافر على الارض وقال مجاهد : صفون الفرس رفع احدى يديه حتى يكون على طرف الحافر صفنت الخيل تصفن صفونا إذا وقفت كذلك قال الشاعر :

الف الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسيرا (١)

(١) مر في ٧ / ٣١٩

وقال الزجاج والفراء وغيرهما : كل قائم على ثلاث صافن . والجياد السراع من الخيل فرس جواد كأنه يجود بالركض ، كأنه جمع جود ، كما يقال : مطر جود إذا كان مدراراً ونظيره سوط وسياط . والعرض إظهار الشيء بحيث يرى ليميز من غيره ، ومنه قوله ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ واصله الاظهار قال عمرو بن كلثوم :

واعرضت اليمامة واشمخرت		كأسياف بأيدي مصلتينا (١)

أي ظهرت وأعرض عني معناه أظهر جفوة بتوليه عني ، وعرض الشيء إذا صار عريضاً .

وقوله تعالى ﴿ إني أحببت حب الخير ﴾ قال قتادة والسدي المراد بالخير ـ ههنا ـ الخيل والعرب تسمي الخيل الخير ، وبذلك سمي (زيد الخيل) أي زيد الخير . وقيل في ذلك وجهان :

احدهما ـ انه أراد احببت الخير ، ثم اضاف الحب إلى الخير .

والثاني ـ انه أراد احببت اتخاذ الخير ، لأن ذوات الخير لا تراد ولا تحب فلا بدّ من شيء يتعلق بها ، والمعنى آثرت حب الخيل على ذكر ربي ويوضع الاستحباب موضع الايثار . كما قال تعالى ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ (٢) أي يؤثرون . وقوله ﴿ عن ذكر ربي ﴾ معناه إن هذا الخيل شغلني عن صلاة العصر حتى فات وقتها ، وهو قول علي عليه‌السلام وقتادة والسدي ، وروي أصحابنا انه فاته الوقت الأول ، وقال الجبائي : انه لم يفته الفرض ، وإنما فاته نفل كان يفعله آخر النهار ففاته لاشتغاله بالخيل . وقوله ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ معناه توارت الشمس بالحجاب يعني بالغيبوبة

(١) مر في ٧ / ٩٦		(٢) سورة ١٤ ابراهيم آية ٣

وجاز الاضمار قبل الذكر ، لانه معلوم قال لبيد :

حتى إذا القت يداً في كافر وأجن عورات الثغور ظلامها(١)

وقال ابو مسلم محمد بن بحر وغيره : وذكر الرماني أن الكناية عن الخيل وتقديره حتى توارت الخيل بالحجاب بمعنى أنها شغلت فكره إلى تلك الحال .

ثم قال لاصحابه ﴿ ردّوها عليّ ﴾ يعني الخيل فلما ردت عليه ﴿ طفق مسحاً بالسوق والاعناق ﴾ وقيل : ان الخيل هذه حربها من غنيمة جيش فتشاغل باعتراضها حتى غابت الشمس وفاتته العصر ، قال الحسن : كشف عراقيبها وضرب اعناقها ، وقال لاتشغلني عن عبادة ربي مرة اخرى . وقيل : انه إنما فعل ذلك على وجه القربة إلى الله تعالى بأن ذبحها ليتصدق بلحومها لا لعقوبتها بذلك . وإنما فعل ذلك لانها كانت أعز ماله فاراد بذلك ما قال الله تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ (٢) وقال ابو عبيدة : يقولون : مسح علاوته أي ضربها . وقال ابن عباس : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها . وقال ابو مسلم محمد بن بحر : غسل اعرافها وعراقيبها إكراماً لها ، قال : لان المسح يعبر به عن الغسل من قولهم : تمسحت للصلاة .

ثم قال تعالى على وجه القسم ﴿ ولقد فتنا سليمان ﴾ ومعناه اختبرناه وابتليناه وشددنا المحنة عليه ﴿ والقينا على كرسيه جسداً ﴾ قال ابن عباس : القي شيطاناً اسمه صخر على كرسيه . وقال مجاهد : كان اسمه أصف . وقال السدي : كان اسمه خنفيق وكان ملكه في خاتمه يخدمه الجن والشياطين ما دام في يده ، فلما أذنب سليمان نزع الله منه الخاتم ، وجعل مع الجني فاجتمعت

(١) اللسان (كفر) (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٩٢

عليه الجن والشياطين . وقيل : انه كان ذنبه انه وطيء في ليلة عدة كثيرة من جواريه حرصاً على كثرة الولد . وقيل : كان ذنبه انه وطيء امرأته في الحيض .

وقوله ﴿ ثم اناب ﴾ يعني تاب إلى الله من خطيئته ، فرد الله عليه الملك لان الجني لما اخذ خاتمه رمى به في البحر فرده عليه من بطن سمكة - ذكر ما قلناه المفسرون - والذي قاله المفسرون من أهل الحق ومن نزه الانبياء عن القبائح ونزه الله تعالى عن مثل ذلك هو انه لا يجوز أن يمكن الله تعالى جنياً ليتمثل في صورة نبي لما في ذلك من الاستبعاد . وإن النبوة لاتكون في الخاتم وانه تعالى لا يسلب النبي نبوته ، وليس في الآية شيء من ذلك، وإنما قال فيها انه ألقى على كرسيه جسداً . وقيل في معنى ذلك الجسد اقوال :

منها - إن سليمان قال يوماً في مجلسه وفيه جمع كثير لاطوفن الليلة على مئة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله ، وكان له في ما يروى عدد كثير من السراري ، فاخرج الكلام على سبيل المحبة لهذا الحال ، فنزهه الله عما ظاهره الحرص على الدنيا ، لئلا يقتدى به في ذلك ، فلم يحمل من نسائه إلا امرأة واحدة ولداً ميتاً ، فحمل حتى وضع على كرسيه جسداً بلا روح ، تنبيهاً له على انه ما كان يجب ان يظهر منه ما ظهر ، فاستغفر الله وفزع إلى الصلاة والدعاء على وجه الانقطاع ، لاعلى أن ذلك كان صغيرة . ومن قال من حيث انه لم يستثن مشيئة الله في ذلك ، فقوله فاسد ، لأنه وإن لم يذكر مشيئة الله لفظاً فلا بد من تقديرها في المعنى وإلا لم يأمن أن يكون خبره كذباً ، وذلك لا يجوز على الانبياء عند من جوز الصغائر عليهم . قال الحسن وغيره لا يجوز على الانبياء .

ومنها ـ انه روي ان الجن لما ولد لسليمان ولد قالوا : لنلقين منه ما لقينا من سليمان ، فلما ولد له ولد اشفق منهم ، فاسترضعه في المزن ، فلم يشعر إلا وقد وضع على كرسيه ميتاً تنبيهاً على ان الحذر لا ينفع مع القدر .

ومنها ـ انه ذكر انه ولد لسليمان ولد ابتلاه بصبره في إماتة ولده على كرسيه . وقيل : انه أماته في حجره ، وهو على كرسيه ، فوضعه من حجره .

ومنها ـ ما ذكره ابو مسلم فأنه قال : يجوز ان يكون الجسد جسد سليمان وأن يكون ذلك لمرض امتحنه الله به ، وتقديره والقينا منه على كرسيه جسداً لشدة المرض ، كما يقولون : فلان لحم على وضم إذا كان ضعيفاً ، وجسد بلا روح تغليظاً للعلة ، وقوة الضعف .

ثم حكى ما قاله سليمان حين أناب إلى الله ، فانه سأل الله تعالى وقال ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي﴾ أي لا تسلبنه كما سلبته في الدفعة الاولى ، وقال ابو عبيدة معنى (لا ينبغي) لا يكون ، وانشد لابن احمر :

ما ام غفر على دعجاء ذي علق تنفي القراميد عنها الاعصم الوقل
في رأس خلقاء من عنقاء مشرفة لا ينبغي دونها سهل ولا جبل (١)

وقال ابو عبيدة : أي لا يكون فوقها سهل ولا جبل احصن منها .

فان قيل : أليس ظاهر هذه الآية يقتضي الشح والضن لانه لم يرض بأن سأل الملك ، حتى اضاف إلى ذلك ألا يكون لأحد بعده مثله ؟ ! قلنا قد ثبت أن الانبياء لا يجوز أن يسألوا بحضرة قومهم ما لم يأذن الله لهم في ذلك ، فعلى هذا لم لا يجوز ان يكون الله تعالى أعلم سليمان أنه إن سأل ملكاً لا يكون

(١) مر في ٧ / ١٥٣

لغيره كان لطفاً له في الدين ، وأعلمه أن غيره لو سأل ذلك لم يجب اليه ، لانه يكون مفسدة لغيره ولا صلاح له فيه ، ولو أن احدنا صرح بمسألة بهذا الشرط بأن يقول : اللهم اجعلني ايسر اهل زماني وارزقني ما لا يساويني فيه احد إذا كانت المصلحة لي في ذلك لكان هذا جائزاً حسناً ، ولم يكن منسوباً إلى بخل ، فلا يمتنع أن يسأل النبي ايضاً مثل ذلك .

وقيل : انه لا يمتنع أن يسأل النبي مثل هذه المسألة من غير إذن إذا لم يكن بحضر من قومه بعد ان يكون الشرط فيه مقدراً .

وقيل فيه وجه أخر ، وهو انه عليه السلام إنما سأل ان يكون ملكه معجزة لنبوته يبين بها من غيره ممن ليس بنبي . وقوله ﴿ لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ معناه لا ينبغي لاحد غيري ممن أنا مبعوث اليه ، ولم يرد من بعدي إلى يوم القيامة من النبيين .

وقيل : انه لا يمتنع ان يكون المراد انه سأل ملك الآخرة وثواب الجنة الذي لا يناله المستحق إلا بعد أنقطاع التكليف . ومعنى ﴿ لا ينبغي لاحد من بعدي ﴾ لا يستحقه بعد وصولي اليه أحد من حيث لا يصح أن يعمل ما يستحق به الثواب لانقطاع التكليف .

ثم بين بعد ذلك انه اعطاه ما سأله فقال ﴿ فسخرنا له الريح ﴾ أي ذللناها له ، والتسخير التذليل ﴿ تجري بأمره ﴾ يعني الريح تتوجه إلى حيث شاء ﴿ رخاء ﴾ قال قتادة معناه طيبة سريعة ، وقال ابن زيد : لينة . وقال ابن عباس : مطيعة ، وبه قال الضحاك والسدي ، والرخاء الريح : اللينة وهو رخاوة المرور سهولته ، ووصفت باللين ، لأنها إذا عصفت لم يتمكن منها ، وإذا لانت أمكنت .

وقوله ﴿ حيث أصاب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي : معناه حيث أراد، يقول القائل : اصاب الله بك الرشاد أي اراد الله ، والمعنى انها تنطاع له كيف أراد ، وقال الحسن : كان يغدو من أيله ، ويقيل بغزوين ويبيت بكابل . والاصابة لحاق البغية ، يقال اصاب الهدف بالسهم يصيبه إصابة ، ومنه الصواب إدراك الحق بالميل اليه ، وقوله ﴿ والشياطين ﴾ نصبه بالعطف على مفعول ﴿فسخرنا ﴾ وتقديره وسخرنا له الشياطين كل بناء وغواص ونصب (كل) على البدل من الشياطين وهو بعضه فالغواص هو الذي يغوص في الماء أي ينزل فيه تقول : غاص يغوص غوصاً فهو غائص وغوصه تغويصاً وكل الشياطين يغوصون له في البحار وغيرها من الانهار بحسب ما يريد منهم ويبنون له الأبنية العجيبة التي يعجز الناس عن مثلها . وقال قتادة : كانوا يغوصون في البحار يستخرجون له الحلي منها ، وغير ذلك ﴿ وآخرين مقرنين في الاصفاد ﴾ الاصفاد واحدها صفاد ، وهو الغل وجمعه اغلال . وقال السدي : السلاسل تجمع اليدين إلى العنق والصفد الغل . والصفد العطاء ، وبعضهم يقول : اصفدني قال الاعشى :

[تضيفته يوماً فقرب مقعدي] واصفدني على الزمانة قائداً (١)

وذلك أنه ارتبط من شكره بمثل الغل ، و﴿مقرنين﴾ هم الذين قرن بعضهم إلى بعض بالسلاسل .

ثم قال تعالى ﴿ هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب ﴾ قال الحسن : معناه هذا الملك الذي اعطيناك ، فاعط ما شئت وامنع ما شئت . وقال قتادة والضحاك : معناه لانحاسب على ما تعطي وتمنع منه يوم القيامة ليكون اهنأ لك

---

(١) ديوانه ٤٤ وقد مر في ٦ / ٣١٠

ومعناه ليس عليك تبعة . وقيل : معناه بغير مقدار يجب عليك إخراجه من يدك ، ويكون بغير حساب ، فامنن او أمسك . وقال الزجاج : المعنى سخرنا لك الشياطين عطاء لك منا فاطلق منهم من شئت واحبس من شئت فلا حساب عليك منه .

ثم قال تعالى ﴿ وإن له ﴾ يعني سليمان ﴿ عندنا لزلفى ﴾ أي لقربى زيادة على ما أعطيناه في الدنيا ﴿ وحسن مآب ﴾ أي وحسن مآل في العاقبة .

قوله تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَٱضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٤٤) أربع آيات .

قرأ ابو جعفر ﴿ بنصب ﴾ بضم النون والصاد . وقراءة يعقوب بفتحهما . الباقون بضم النون وإسكان الصاد ، وهي لغات أربع . وقراءة هبيرة بفتح النون وإسكان الصاد .

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله ﴿ واذكر ﴾ يا محمد ﴿ عبدنا أيوب إذ نادى ربه ﴾ فقال يا رب ، لان النداء هو الدعاء بطريقة يا فلان ومتى قال اللهم افعل بي وارزقني وعافني كان داعياً ولا يكون منادياً ﴿ أني مسني

الشيطان ﴾ (أني) في موضع نصب لان تقديره انه نادى بهذا القول ، وتقديره بأني مسني فلما حذف الياء نصب (أني) و ﴿ مسني الشيطان ﴾ أي وسوسني وذكرني ما كنت فيه من نعم الله في الأهل والولد والمال ، وكيف زال ذلك كله وما حصل فيه من البلية طمعاً فيه لبزله بذلك ويجد طريقاً إلى اضلاله وتضجره وتبرمه ، فوجده صابراً عند ذلك مسلماً لأمر الله تعالى . وقيل : انه كان وسوس إلى قومه أن يستقذروه ويخرجوه من بيتهم ولا يتركوا امرأته التي تخدمه أن تدخل عليهم ، لان فيه برصاً وجذاماً ربما عدا اليهم وكان أيوب ينادي بذلك ويألم به . والنصب والوصب والتعب نظائر ، وفيه لغات اربع على ما حكيناه نصب ونصب مثل حزن وحزن ورشد ورشد ورشد ، وعدم وعدم ، ثم تسكن الصاد مع فتح النون تخفيفاً وتضم النون والصاد اتباعاً لما قبله . ونقيض النصب الراحة وأصله ألا نصاب يقال انصبني أي عذبني ، وبرح بي ، ومنهم من يقول : نصبني قال بشر بن أبي حازم :

تعناك نصب من أميمة منصب

وقال النابغة :

كليني لهم يا أميمـــة ناصب وليل أقاسية بطيء الكواكب (١)

و ﴿ عذاب ﴾ اراد به ما كان يدخل عليه من ألم الوسوسة ، فاجاب الله تعالى دعاه وقال ﴿ اركض برجلك ﴾ أي ادفع برجلك الارض ، فالركض الدفع بالرجل على جهة الاسراع ، ومنه ركض الفرس لاسراعه إذا دفعه برجله . يقال: ركضت الدابة وركضتها أنا مثل جبر العظم وجبرته أنا ، وحزن وحزنته انا ، وفي الكلام حذف وتقديره فركض برجله وظهر عين ماء ، فقال الله

(١) مر في ٥ | ٣٦٨ و ٦ | ٩٥ ، ٣٢٩

له ﴿هذا مغتسل﴾أي ماء مغتسل ﴿ بارد وشراب ﴾وقال الحسن وقتادة : نبعت له عينان ، فاغتسل من احداها وشرب من الأخرى ، فالمغتسل موضع الاغتسال . وقيل : كل ماء يغتسل فيه فهو مغتسل وغسول -ذكره ابو عبيدة - وفي الكلام حذف ، وتقديره إن أيوب اغتسل من تلك العين ، فأزال الله تعالى عنه جميع ما كان فيه من الامراض .

ثم اخبر بما من عليه زيادة على صلاح جسمه ، وزوال ألمه فقال ﴿ ووهبنا له أهله ﴾ لأنه لما رد عليه أهله كان ذلك هبة منه مجددة ﴿ ومثلهم معهم ﴾ وتقديره ووهبنا له مثل أهله دفعة اخرى . وقد ذكرنا اختلاف المفسرين في ذلك - في سورة الانبياء - وأن فيهم من قال اعطاه بكل امرأة امرأتين وبكل ولد ولدين في دار الدنيا . ومنهم من قال ذلك اخبار عما يهبه الله له في الآخرة . وقيل : إن الله تعالى أمطر عليه جراداً من ذهب وقوله ﴿ رحمة منا ﴾ معناه فعلنا ذلك لرحمتنا إياه ، فهو نصب على انه مفعول له ، ويجوز ان يكون نصباً على المصدر ﴿ وذكرى لاولى الالباب ﴾ أي وليتذكر به ويعتبر ذووا العقول فيصبروا كما صبر .

ثم حكى ما قال له فانه قال له ﴿ خذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ﴾ فالضغث ملء الكف من الحشيش اوالشماريخ وماأشبه ذلك قال عوف بن الجزع:

وأسفل مني فهدة قد ربطتها　　والقيت ضغثاً من حلا متطيب

أي تطيبت لها . وقيل إنه كان حلف على امرأته لامر أنكره من قولها لئن عوفي ليضربنها مئة ، فقيل له ﴿ خذ ضغثاً ﴾ بعدد ما حلفت ، فاضرب به دفعة واحدة ، فانك إذا فعلت ذلك ، فقد بررت قسمك ، ولم تحنث ، وهو قول قتادة والضحاك .

وقوله ﴿ ولا تحنث ﴾ نهي له عن الحنث .

ثم اخبر تعالى عن حال ايوب وعظم منزلته ، فقال ﴿ انا وجدناه صابراً ﴾ لبلائنا مسلماً لامرنا . ثم أثنى عليه فقال ﴿ نعم العبد انه أواب ﴾ أي رجاع إلى الله منقطع اليه ، وعندنا ان من حلف ان يضرب غيره مئة فضربه بشمراخ فيه مئة طاقة ، فقد بر في يمينه . وفيه خلاف بين الفقهاء .

قوله تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرٰهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٧) وَٱذْكُرْ إِسْمٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٨) هٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ (٥٤) عشر آيات.

قرأ ابن كثير ﴿ واذكر عبدنا ابراهيم ﴾ على التوحيد . والباقون على الجمع . وقرأ نافع ﴿ بخالصة ذكرى الدار ﴾ مضافاً . الباقون بالتنوين . من

نون جعل ﴿ ذكرى ﴾ بدلا من (خالصة) وموضعه جر ، ويجوز أن يكون نصباً باضمار (اعني) او يكون معمول خالصة - في قول ابي عبيدة - ويجوز أن يكون رفعاً باضمار هي ذكرى . كما قال ﴿ قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار ﴾ (١) اي هي النار ، قال ابو علي : (الدار) يحتمل ان يكون الدنيا ويحتمل أن يكون الآخرة اي باخلاصهم ذكرى في الدنيا ، فاذا حملت على دار الاخرة ، فعلى تقدير إخلاصهم ذكرى الدار . ويكون ذكرهم لها وجل قلوبهم منها ومن حسابها ، كما قال ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ (٢) فالدار عندهم على هذا مفعول به ، وليست كالوجه المتقدم . فأما من اضاف فانه يكون قد اضاف إلى المفعول ، كأنهم باخلاصهم ذكرى الدار والخوف منها اخلصوا ذكرها والخوف منها لله تعالى ، ويكون على اضافة المصدر إلى الفاعل وتقديره بأن خلصت لهم ذكرى الدار .

وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً ﴿ والليسع ﴾ بلامين . الباقون بلام واحدة من قرأ بلامين ادخل على اللام الالف واللام ، ثم ادغم احداهما في الأخرى كما قال الشاعر :

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركا   شديداً بأعباء الخلافة كاهله (٣)

لانه قدره تقدير النكرة ، وقرأ ﴿ هذا ما يوعدون ﴾ بالياء ابن كثير وابو عمرو ، وفي سورة ق ابن كثير وحده . الباقون بالتاء . من قرأ بالياء فللغيبة ، ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب ، ومن قرأ (عبدنا) على التوحيد يجوز ان يكون خص به ابراهيم بكونه عبداً له كما خصه بالخلة ، ويجوز أن يكون

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٧٢   (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٤٩

(٣) مر في ٤ / ٢٠٨ و ٧ / ٣٥

لان لفظه يدل على القليل والكثير . ومن جمع فلانه ذكر جماعة .

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه ﴿ واذكر ﴾ يا محمد ﴿ عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب ﴾ فمن قرأ بالجمع فلأنه ذكر جماعة . ومن قرأ بالتوحيد فلان لفظة (عبد) لفظ جنس يقع على القليل والكثير ، ثم وصفهم فقال ﴿ اولي الايدي ﴾ يعني اولي القوة على العبادة ﴿ والابصار ﴾ الفقه في الدين ـ في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ وقيل : ﴿ اولي الايدي ﴾ معناه اولي الاعمال الصالحة ، وقيل معناه اولي النعم في الدين ، قال الشاعر :

فاعمل لما يعلو فمـــالك باا ذي لاتستطيع من الأمور تدان

ثم اخبر تعالى عن حال هؤلاء الذين وصفهم . فقال ﴿ انا أخلصناهم ﴾ فالاخلاص إخراج كل شائب من الشيء ليس من شكله ، فهؤلاء الابرار قد اخلصهم الله لنعيم الجنان بلطفه في ما لازموه من الاحسان . وقوله ﴿ بخالصة ذكرى الدار ﴾ معناه إنا اخلصنا ابراهيم وإسحاق ويعقوب بخـلة خلصت لهم . ثم قال ﴿ ذكرى الدار ﴾ بدلا من (خالصة) اي يذكرون بدار الآخرة ويزهدون في الدنيـا ، ويجوز ان يكون المعنى إنهم يكثرون ذكر الآخرة والرجوع إلى الله ، ومعنى ﴿ أخلصناهم ﴾ اصفيناهم ، قال الطبري : معنـاه اخلصناهم بأفضل ما في الآخرة ، هذا على قول من اضاف ، وهو قول ابن زيد . ومن نون فالمعنى الخالصة التي اخلصناهم بها هي ذكرى الدار للعمل لها فناهيك بها من خالصة ادت اليها وهي الجنة .

ثم قال ﴿ وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار ﴾ و الاصطفاء إخراج الصفوة من كل شيء فهم صفوة وغيرهم كدر ، فالله تعالى اصطفى هؤلاء الانبيـاء بأن اختارهم لنبوته بحسب ما سبق في علمه انه يكون منهم من القيـام باعباء

النبوة والمسارعة إلى الخير والتبرز في الفضل . والذكر الذي يحتاج اليه على وجهين : ذكر ما يجب بالرغبة فيه والدعاء اليه وذكر ما يتقى بالرهبة منه والتحذير منه . وفي ذلك تمام الداعي والصارف اللذين تقتضيهما الحكمة .

و ﴿ الاخيار ﴾ جمع خير على وزن (أموات) جمع (ميت) وهو من يفعل الأفعال الكثيرة الحسنة . وقيل هو جمع (خير) ومثله (الابرار) جمع (بر) وصفوا بالمصدر . وقال مجاهد وقتادة : ﴿ ذكرى الدار ﴾ دار الآخرة وقال ابن زيد : هي دار الجنة . كما قال تعالى ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾(١) قيل : إنهم كانوا يذكرونها للعمل لها ودعاء الناس اليها . وقيل : ذكرى الدار بالثناء الذي ليس لغيرهم من اجل قيامهم بالنبوة . وقيل : الاصطفاء الاختصاص بمدحهم بأنهم هم الصفوة . وقيل: إنما خاطب الله النبي صلى الله عليه وآله أن يذكرهم بصبرهم وفضلهم ليسلك طريقهم

ثم قال له صلى الله عليه وآله ﴿ واذكر ﴾ أيضاً ﴿ اسماعيل واليسع وذا الكفل ﴾ بمثل ذلك . ثم اخبر عنهم بأنهم كلهم من الاخيار . وقيل ذو الكفل ذو الضعف من الثواب . وقيل كان اسمه ذلك . وقيل : سمي بذلك لأنه تكفل بأمر انبياء خلصهم الله من القتل به . وقيل تكفل بعمل صالح فسمي به .

ثم قال تعالى ﴿ هذا ذكر ﴾ ومعناه إن ما اخبرنا عنهم ذكر أي شرف لهم وذكر جميل وثناء حسن يذكرون به في الدنيا ﴿ وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ يعني حسن المرجع في الآخرة، لأنهم يرجعون إلى الجنة . ثم بين ذلك المآب ، فقال ﴿ جنات عدن ﴾ وهو في موضع جر على البدل من (مآب) والجنات جمع جنة وهي البستان التي يجنها الشجر ﴿ عدن ﴾ يعني موضع إقامة وخلود ﴿ مفتحة لهم الابواب ﴾ قيل تنفتح من غير كلفة ، قال الحسن تكلم : انفتحي

(١) سورة ١٦ النحل آية ٣٠

انغلق ، ورفعت (الابواب) لان تقديره مفتحة لهم ابوابها ، فدخلت الألف واللام بدلا من الاضافة ، كما يقولون : مررت برجل حسنة عينه قبيح أنفه يريدون قبيح الانف ـ ذكره الفراء ـ وقال الزجاج: تقديره مفتحة لهم الابواب منها ، ولو نصب (الابواب) لجاز، كقول الشاعر :

فما قومي بتغلبة بن سعد ولا بفزارة الشعث الرقابا

هذا على شبه المفعول . ثم وصف تعالى الذين يحصلون في الجنة فقال ﴿ متكئين فيها على الارائك ﴾ فالاتكاء الاستناد الى المساند ، ومنه الوكاء لانه يستمسك به ما في الوعاء ﴿ يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ﴾ أي يستدعون الفواكه للاكل والشراب للشرب ﴿ وعندهم قاصرات الطرف اتراب ﴾ يعني قصرن على ازواجهن فما لهن في غيرهم بغية ، فالقاصر نقيض الماد ، يقال هو قاصر طرفه عن فلان وماد عينه إلى فلان قال امرؤ القيس :

من القاصرات الطرف لودب محول من الذر فوق الاتب منها لأثرا (٢)

والاتراب الأقران على سن واحد ليس فيهن هرمة ولا عجوز . قال الفراء : لا يقال الاتراب إلا في الأناث ، ولا يقال في الذكران قال ابن أبي ربيعة :

ابرزوها مثل المهاة تهادى بين عشر كواعب اتراب (١)

والترب اللذة وهو مأخوذ من اللعب بالتراب . وقيل : اتراب على مقدار سن الازواج من غير زيادة ولا نقصان . ثم قال تعالى ﴿ هذا ما توعدون ﴾ فمن قرأ بالتاء فعلى انه يقال لهم ويخاطبون بهذا القول . ومن قرأ بالياء فعلى الخبر عن حالهم ﴿ ليوم الحساب ﴾ يعني يوم الجزاء . ثم قال تعالى ﴿ إن

(١) ديوانه ٩١ ﴿ شرح السندوسي ﴾ (٢) ديوانه ٥٩ ﴿ دار بيروت ﴾

هذا ﴾ يعني الذي وصفته من الجنة وما فيها من أنواع اللذات ﴿ لرزقنا ماله من نفاد ﴾ يعني من انقطاع لأنه على سبيل الدوام، وهو قول قتادة.

قوله تعالى:

﴿ هٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ (٦٠) ست آيات بلا خلاف.

لما وصف الله تعالى اهل الجنة وما أعدّه لهم من انواع النعيم فيها وصف ما أعده لأهل النار والعصاة من انواع العقاب، فقال ﴿ هذا ﴾ يعني هذا ما ذكرنا لأهل الجنة. ثم ابتدأ فقال ﴿ وإن للطاغين ﴾ وهم الذين طغوا في معاصي الله ﴿ لشر مآب ﴾ يعني شر مرجع. ثم بين ذلك المرجع فقال ﴿ جهنم يصلونها فبئس المهاد ﴾ وإنما وصف جهنم بأنها مهاد لما كانت عوضاً لهم عن المهاد، فسميت باسمه، كما قال ﴿ فبشرهم بعذاب اليم ﴾ (١) وقال قوم: هو على تقدير بئس موضع المهاد، والمهاد الفراش الموطأة تقول: مهدت له تمهيداً كقولك وطأت له توطئة، ومنه مهد الصبي، لأنه يوطأله.

ثم قال ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ وتقديره هذا عذاب جهنم

---

(١) سورة آل عمران آية ٢١

فليذوقوه حميم وغساق . ويجوز أن تجعله مستأنفاً كانك قلت هذا فليذوقوه . ثم قلت منه حميم وغساق .

أمرهم الله بذواق الحميم ، لان الذواق ابتداء إدراك الطعم على طلبه بالفم ، ولذلك يقال : ذقته فلم اجد له طعماً لما فيه من طلب ادراك الطعم بالفم . ومن طلب إدراك الشيء كان أشد احساساً به . والحميم الحار الشديد الحرارة ، ومنه الحمى لشدة حرارتها وحم الشيء إذا دنا وأحمه لهذا أي ادناه قال الشاعر :

احم الله ذاك من لقاء احادا حادفي الشهر الحلال(١)

والغساق ما يسيل من صديد أهل النار . وقال ابن عمر : هو القيح الذي يسيل منهم يجمع فيسقونه ، وقال كعب الأحبار : الغساق عين في جهنم يسيل اليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية . وقيل : هو قيح شديد النتن ، يقال : غسقت القرحة تغسق غسوقاً . والتشديد والتخفيف لغتان . وقيل : الغساق الزمهرير ـ في قول ابن مسعود ـ فلبرده يحرق كما تحرق النار .

ثم قال ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ معناه انواع أخر من شكل العذاب أزواج اي امثال . وقال الحسن : ذكر السلاسل والاغلال ونحوه ، ثم قال ﴿ وآخر من شكله ﴾ مما لم ير في الدنيا . والشكل ـ بفتح الشين ـ الضرب المشابه . والشكل ـ بكسر الشين ـ النظير في الحسن ، ومن قرأ ﴿ وآخر ﴾ أراد الواحد . ومن قرأ ﴿ وأخر ﴾ أراد الجمع ﴿ ازواج ﴾ معناه اشكال . ثم قال ﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ قال الحسن يعني به بني إبليس ، والآخر بنو آدم يقتحمون معكم النار وعذابها ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ أي لا اتسعت لهم أماكنهم ﴿ إنهم صالوا النار ﴾ أي لازموها . قال الفراء:

---

(١) اللسان (حمم)

هي الأمة بعد الأمة تدخل النار . وقوله ﴿لا مرحباً بهم﴾ من قول أهل النار ، كما قال ﴿كلما دخلت أمة لعنت اختها﴾ (١) وقيل هم اتباع الرؤساء في الضلالة قيل لهم لامرحباً بهم ، وهو نصب على المصدر ﴿قالوا بل أنتم لامرحباً بكم انتم قدمتموه لنا فبئس القرار﴾ حكاية ما يردون عليهم من الجواب فانهم يقولون : بل انتم لا اتسعت عليكم أما كنكم قدمتموه لنا فبئس القرار الذي استقررنا عليه ، وهو مثل قوله « ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » (٢) وقرأ حمزة والكسائي وخلف (غساق) ـ بالتشديد ـ الباقون بالتخفيف وهما لغتان . وقرأ ابو عمرو وابن كثير ﴿ واخر ﴾ مضمومة الالف على الجمع . الباقون ﴿ وآخر ﴾ بفتح الالف ممدودة على التوحيد . ومن قرأ على الجمع ، فلقوله ﴿ ازواج ﴾ وهما لاينصرفان ، لان (آخر) وزنه افعل واما أخر فلأنه معدول عن الألف واللام ، لانه لايستعمل في الجارية الكبرى والمرأة الأخرى إلا بالألف واللام ، فلما عدلوه وعرفوه تركوا صرفه مثل (سحر) إذا أردت سحر يوم بعينه تركت صرفه لأنه معدول عن الألف واللام في السحر .

قوله تعالى:

﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي ٱلنَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٣٧   (٢) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٦٨

سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٦٥) خمس آيات.

قرأ ابو عمرو وحمزة والكسائي اتخذناهم موصولة على وجه الاخبار. الباقون بقطع الهمزة على الاستفهام. وقرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿سخريا﴾ بضم السين. الباقون بكسرها.

حكى الله تعالى عن الكفار الذين اتبعوا غيرهم في الضلال وانقادوا لرؤسائهم فيه انهم يقولون يوم القيامة إذا حصلوا في عذاب جهنم يا ﴿ ربنا من قدم لنا هذا ﴾ أي من سبب لنا هذا العذاب ودعانا إلى ما قد استوجبنا به ذلك « فزده عذاباً ضعفاً » أي مثلا مضاعفاً إلى مثل ما يستحقه « في النار » احد الضعفين لكفرهم بالله تعالى والضعف الآخر لدعائهم إيانا إلى الكفر.

ثم حكى عنهم ايضاً انهم يقولون « ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار » قال مجاهد نزلت في أبي جهل والوليد بن المغيرة وذويهما انهم يقولون مع قرنائهم: ما لنا لا نرى عماراً وخباباً وصهيباً وبلالا الذين كنا نعدهم في الدنيا من جملة الأشرار الذين يفعلون الشر والقبيح ولا يفعلون الخير. وفي تفسير اهل البيت إن هذا حكاية عما يقوله اعداء أهل الحق، فانهم لا يرون أهل الحق يوم القيامة لكونهم في الجنة وكون اعدائهم في النار وكانوا يعدونهم في الدنيا من الاشرار.

ثم حكى انهم يقولون ايضاً « اتخذناهم سخرياً » فمن قطع الهمزة أراد

الاستفهام الذي معناه التعجب والتوبيخ ، ومن وصل أراد الاخبار ، يعنون الذين كنا نعدهم من الاشرار « أتخذناهم سخرياً » فمن كسر السين جعله من الهزء أي كنا نسخر منهم في الدنيـا ، ومن ضم السين جعله من السخرة أي كنا نسخرهم ونستذلهم « أم زاغت عنهم الابصار » ومن قطـع الهمزة جعل (أم) معادلة ومن وصلها جعل (أم) بمعنى بل ، قال مجاهد والضحاك « أم زاغت عنهم الابصار » أي ابصارنا ، فلا ندري اين هم . وقال الحسن : كل ذلك قد مثلوا بهم اتخذوها سخرياً وزاغت عنهم ابصارهم محقرة لهم .

ثم اقسم تعالى ان الذي حكاه من تخاصم اهل النار ومجادلة بعضهم لبعض « لحق » أي كائن لامحالة .

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وآله فقال « قل » يا محمد « إنما أنا منذر » أي مخوف من معاصي الله ومحذر من عقابه « وما من إله » أي وليس من يحق له العبادة « إلا الله الواحد » الفرد « القهار » لجميع خلقه المستعلي عليهم بسعة مقدوره لا يقدر احد على الخلاص من عقوبته إذا اراد عقابه ، ومن اختـار وصل الهمزة في قوله «اتخذناهم » قال لأنهم علموا انهم اتخذوهم سخرياً في دار الدنيا وإنما اعترفوا بذلك يوم القيامـة ، يقولون اتخذناهم سخرياً بل زاغت عنهم ابصارنا محقرة لهم . ومن قطع الهمزة قال : هذا على وجه التوبيخ لنفوسهم والتبكيت لها . ثم قال ذلك أي ثم يقولون بل زاغت عنهم ابصارنا فلا نراهم .

قوله تعالى :

﴿ رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَؤٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ

عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧٠) أربع آيات .

قرأ ابو جعفر « إنما انا نذير مبين » بكسر الهمزة . الباقون بفتحها .

لما وصف الله تعالى نفسه بأنه الواحد القهار وصفها ايضاً بأنه « رب السموات والارض » أي مالكهما ومدبرهما ومدبر ما بينهما « العزيز » الذي لا يغالب لسعة مقدوراته « الغفار » لذنوب عباده إذا تابوا .

ثم قال قل لهم يا محمد « هو نبأ عظيم » قال مجاهد والسدي يعني القرآن « هو نبأ عظيم » أي الخبر العظيم وقال الحسن : هو يوم القيامة .

ثم خاطب الكفار فقال « انتم » معاشر الكفار « عنه معرضون » عن هذا النبأ العظيم لا تعلمون بما يوجب مثله من اجتناب المعاصي وفعل الطاعات . تعملون

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وآله ان يقول أيضاً « ما كان لي من علم بالملأ الاعلى إذ يختصمون » يعني بالملأ الأعلى الملائكة اختصموا في آدم حين قيل : لهم « إني جاعل في الارض خليفة » في قول ابن عباس وقتادة والسدي ، فما علمت ما كانوا فيه إلا بوحي من الله تعالى . وقيل : كان اختصام الملائكة في ما كان طريقه الاجتهاد . وقيل : بل طريقه إستخراج الفائدة ، ولا يجوز ان يختصموا في دفع الحق .

وقوله « إن يوحى إليّ إلا أنما انا نذير مبين » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ ليس يوحى إلى إلا لأني انا نذير مبين أي مخوف من المعاصي مظهر للحق .

الثاني ـ ليس يوحى اليّ إلا الانذار البين الواضح .

قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١)
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)
فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ
مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ
بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (٧٥) خمس آيات .

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله قل يا محمد « ما كان لي من علم بالملأ الأعلى » من الملائكة « إذ يختصمون .... إذ قال ربك الملائكة إني خالق بشراً من طين » يعني آدم عليه السلام ، لأن الله تعالى خلقه من طين ، فالخلق فعل الشيء على تقدير وترتيب وكان جعل آدم على مقدار ما تقتضيه الحكمة واصل الخلق التقدير . والبشر مأخوذ من البشرة ، وهي الجلدة الظاهرة ، والانسان مأخوذ من الانس ، لأنه يأنس بمثله في ما يؤنس به ، فجرى عليه الاسم ، لأن هذا من شأنه « فاذا سوّيته » أي سويت خلق هذا البشر وتممت أعضاءه وصورته « فقعوا له ساجدين » أي اسجدوا له . وقد بينا في ما مضى أن السجود كان لله تعالى وعبادة له وفيه تفضيلا لآدم على الملائكة وقوله « ونفخت فيه من روحي » فالروح جسم رقيق هوائي بها يتم كون الحي حياً لتخرقه في مخارق الانسان وهو مشتق من الريح ، ومنه الراحة والاستراحة من الكد للخفة على النفس كالريح ، ومنه الأريحة ، والراحة كف

الانسان لما يتراوح الناس اليها في العمل ، ومنه الرواح إلى المنزل للاستراحة ومعنى « ونفخت فيه من روحي » أي توليت خلقها من غير سبب كالولادة التي تؤدي اليها ، لان الله تعالى شرف آدم بهذه الحال وكرمه . وفي الكلام حذف وتقديره إن الله خلق آدم الذي وعدهم بخلقه ثم إن الملائكة سجدت بأجمعها له إلا ابليس الذي أمتنع ، وقد بينا اختلاف الناس في أن إبليس هل كان من جملة الملائكة ، ومن قبلهم او كان في جملتهم يتناول الأمر له بالسجود فلا نطوّل باعادته فمن قال لم يكن منهم ، قال (إلا) بمعنى (لكن) وتقديره : لكن إبليس استكبر وتجبر وامتنع من السجود له ، وكان بذلك الاباء والمخالفة من جملة الكافرين .

ثم حكى ما خاطب الله تعالى إبليس به حين امتنع من السجود لآدم « ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي » على وجه التقريع له والتهجين لفعله ، وإنما قال « بيدى » على وجه تحقيق الاضافة لخلقة الله تعالى ، لا انه أمر به او كان على سبب أدى اليه تعالى ، والتثنية أشد مبالغة ، كما قال الشاعر :

دعوت لما نابني مسوراً فلبي فلبي يدي مسور (١)

لتحقيق اضافة المبالغة الى مسور ، ومثله قولهم : هذا ما كسبت يداك أى ما كسبته أنت قال الشاعر :

ايها المبتغي فناء قريش بيد الله عمرها والفناء

فوحد لتحقيق الاضافة . ثم قال له بلفظ الاستفهام والمراد به الانكار « استكبرت » يا إبليس أى طلبت التكبر بامتناعك من السجود له « أم كنت من العالين » الذين يعلون على الخلق تجبراً وتكبراً . وقرىء في الشواذ « بيدي

(١) اللسان (سور ، لبب)

أستكبرت » على وصل الهمزة . وروي ذلك عن مجاهد عن شبل ابن كثير اجتزاء بـ (أم) عن الف الاستفهام . ويحتمل أن يكون على اليمين ، كأنه اقسم فقال بنعمتي الدينية والدنياوية تكبرت بل كنت من العالين بهذا الفعل فتكون على هذا (أم) منقطعة وعلى الأول وهو المعروف تكون معادلة لهمزة الاستفهام:

قوله تعالى:

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (٨٨) .

ثلاث عشرة آية في الكوفي واثنتا عشرة اية في ما عداه عد الكوفي « فالحق أقول » ولم يعده الباقون .

قرأ عاصم إلا هبيرة وخلف وحمزة «قال فالحق» بالرفع «والحق» بالنصب. الباقون بالنصب فيهما، من رفع تقديره فأنا الحق، ويجوز على تقدير فالحق لأملأن كما تقول: عزيمة صادقة لآتينك، ويجوز على تقدير حذف الخبر، وتقديره: فالحق مني لأملأن. ومن نصب فعلى فالحق لأملأن على القسم، كما تقول: والله لأفعلن، ويجوز في مثله حقاً لأملأن، ويكون (والحق أقول) اعتراضاً بين الكلامين، ويجوز أن يكون النصب على تقدير اتبعوا الحق، او أقول الحق. وقال ابو علي: من نصب (الحق) الأول فعلى اضمار (فعل) نحو ما ظهر في قوله «ليحق الحق» (١) وفي قوله «ويحق الله الحق» (٢).

لما حكى تعالى ما قال لابليس على وجه الانكار عليه «استكبرت أم كنت من العالين» حكى ما أجاب به إبليس، فانه قال «انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» وقيل إن الله تعالى خلق الملائكة من الريح فسموا بذلك روحانيين، وخلق آدم من الطين وخلق إبليس من النار، فظن إبليس إن النار أشرف من الطين لما فيها من النور، ولما يكون بها من الانضاج لأكثر ما يحتاج اليه ومن الاحراق الذي يقع به الزجر من العقاب فدخلت عليه الشبهة بهذا، وظن أنه افضل منه من حيث كان أصله افضل من اصل آدم، وكيف يجوز أن يفضل آدم عليه السلام عليه. وهذا يدل على ان السجود لآدم كان على وجه التفضيل له على جميع من أمر بالسجود له، وإلا لم يكن يمتنع من ذلك، ولم يعلم إبليس أن الله تعالى إنما امرهم بالسجود لآدم عبادة له. وإن كان تفضيلا لآدم وإن لهم في ذلك لطفاً في تكليفهم فلذلك أمرهم الله بالسجود له، ولو أنعم النظر في ذلك لزالت شبهته. فقال

(١) سورة ٨ الانفال آية ٨ (٢) سورة ١٠ يونس آية ٨٢

الله تعالى له « فاخرج منها » قال الحسن : يعني من السماء . وقال غيره : من الجنة « فانك رجيم » أي مرجوم إن رجعت اليها بمثل الشهب التي ترجم به الشياطين . وأصل الرجيم المرجوم ، وهو المرمي بالحجر « وإن عليك لعنتي » يا إبليس ابعادي لك من رحمتي « إلى يوم الدين » يعني يوم القيامة الذي هو يوم الجزاء . فقال إبليس عند ذلك يا « رب فانظرني » أي اخرني « إلى يوم يبعثون » أي يوم يحشرون للحساب ، وهو يوم القيامة فقال الله تعالى له « فانك من المنظرين » أي من المؤخرين « إلى يوم الوقت المعلوم » أي اليوم الذي قدر الله فيه اماتتك ، فعلى هذا لا يلزم أن يكون إبليس مغرى بالقبائح لعلمه بأنه يبقى ، لأنه لاوقت إلا وهو يجوز أن يخترم فيه ، ولا يقدر على التوبة فالزجر حاصل له . ومن قال إنه اجابه إلى يوم القيامة يقول : كما أعلمه انه يبقيه إلى يوم يبعثون ، اعلمه ايضاً انه من أهل النار لا محالة ، وانه لا يتوب وصح مع ذلك تكليفه ، لأنه يلزمه بحكم العقل أن لا يفعل القبيح من حيث انه متى فعله زاد عقابه ، ويضاعف على ما يستحق له . وتخفيف العقاب عن النفس واجب بحكم العقل ، كما يجب اسقاط العقاب جملة .

ثم حكى تعالى ما قال إبليس فانه اقسم وقال « فبعزتك » يا الهي « لأغوينهم أجمعين » فالعزة القدرة التي يقهر بها غيره من القادرين ، و (الاغواء) التخييب ، وإبليس يغوي الخلق بأن يزين لهم القبيح ويرغبهم فيه . والغي خلاف الرشد ، وهو الخيبة ، يقال : أغواه يغويه إغواء ، فهو مغوي إذا دعاه إلى ما فيه الخيبة .

ثم استثنى من جملة من يغويهم « عباد الله المخلصين » مع حرصه على اغواء الجميع من حيث أنه يئس منهم من حيث علم انهم لا يقبلون منه ولا

ينقادون لاغوائه، وانه ليس له عليهم سلطان إلا بالاغواء، فاذا علم أن منهم من لايقبل منه عرف ذلك عنه ليأسه منه. ومن فتح اللام من « المخلصين » أراد إن الله تعالى اخلصهم بما فعل لهم من اللطف الذي امتنعوا عنده من القبائح. ومن كسر اللام أراد انهم اخلصوا عبادتهم لله، لم يشركوا معه غيره.

ثم حكى تعالى ما أجاب به ـ عز وجل ـ لابليس، فانه قال له « فالحق والحق اقول لأملأن » فمن رفع الأول اراد، فأنا الحق او فالحق لاملأن واقول الحق. ومن نصب فعلى تقدير. فالحق لأملأن، كما تقول حقاً لأملأن، ويكون « والحق اقول » اعتراض بين الكلامين ويكون العامل في (الحق) الثاني قوله « اقول » « لاملأن جهنم منك » يا إبليس « وممن تبعك منهم اجمعين » أي من تابعك على دعائك إلى المعاصي.

ثم خاطب النبي صلى الله عليه وآله فقال « قل » يا محمد « ما أسألكم عليه من اجر » أي ليس اسألكم أجراً على دعائكم إلى الله « وما أنا من المتكلفين » أي ولست ممن يتعسف في طلب الأمر الذي لا يقتضيه العقل، وصفة (متكلف) صفة تجري مجرى الذم، فلذلك قال « وما انا من المتكلفين »، لانه لايدعو إلا الى الأمر الجميل الذي يقتضيه الحق.

ثم قال « إن هو الاذكر للعالمين » أي ليس هذا القرآن إلا شرف للعالمين « ولتعلمن نبأه بعد حين » قال الفراء: معناه ولتعلمن خبر القرآن وانه حق او خبر محمد أنه صادق بعد حين، قال الحسن: عند الموت يأتيك الخبر

القين . وقال ابن زيد : يوم القيامة ، والحين الوقت ، وقال عكرمة : هو كقوله « تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » (١) وذلك حين تصرم النخلة إلى حين تطلع ستة أشهر وهو مثل ما رواه أصحابنا سواء .

---

(١) سورة ١٤ ابراهيم ٢٥ آية

تم المجلد الثامن من التبيان
ويليه المجلد التاسع وأوله
اول سورة الزمر

طبع في مطابع النعمان
في النجف الاشرف
في شعبان سنة ١٣٨٢ هـ
وفي كانون الثاني سنة ١٩٦٣ م

فهارس المجلد الثامن من التبيان

١- فهرس الاحاديث

٢ - فهرس الردود ، والاجوبة ، والادلة

ـ ٣ المباحث اللغوية

٤ـ فهرس المواضيع

التّبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي

٣٨٥-٤٦٠ هـ

تحقيق وتصحيح

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلّد التّاسع

دار
احياء التراث العربي

٣٩ - سورة الزمر

وتسمى ايضاً (سورة الغرف)

وهي مكية - في قول مجاهـد وقتادة والحسن - ليس فيها ناسخ ولا منسوخ عدد آياتها خمس وسبعون آية - في الكوفي - وثلاث، وسبعون - شامي - وسبعون حجازي وبصري .

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٢) أَلاَ لِلّهِ الدِّينُ
الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا
إِلَى اللّهِ زُلْفَى إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * إِنَّ اللّهَ
لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً
لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ
السَّمٰوَاتِ وَالارْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ

عَلَى ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴾ (٥) .

خمس آيات كوفي وست في ما عداه ، عدّ الكوفي ﴿ يختلفون ﴾ رأس آية ، ولم يعده الباقون .

قوله ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ رفع بالابتداء ، وخبره ﴿ من الله ﴾ . ويجوز ان يكون رفعاً على انه خبر الابتداء . والابتداء محذوف ، وتقديره : هذا تنزيل ، والمراد بالكتاب القرآن ـ في قول قتادة ـ وسمي كتاباً لأنه مما يكتب . و (العزيز) هو القادر الذى لا يقهر ولا يمنع ، و (الحكيم) هو العليم بما تدعو اليه الحكمة وما تصرف عنه . وعلى هذا يكون من صفات ذاته تعالى . وقد يكون بمعنى أن افعاله كلها حكمة ليس فيها وجه من وجوه القبيح . فيكون من صفات الأفعال ، وعلى الأول يكون تعالى موصوفاً في ما لم يزل بأنه حكيم ، وعلى الثاني لا يوصف إلا بعد الفعل . وقيل ﴿ العزيز ﴾ في انتقامه من اعدائه ﴿ الحكيم ﴾ في ما يفعله بهم من انواع العقاب . والذي اقتضى ذكر (العزيز الحكيم) في إنزال الكتاب انه تعالى يحفظ هذا الكتاب حتى يصل اليك على وجهه من غير تغيير ولا تبديل لموضع جهته ولا لشيء منه ، وفي قوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ تحذير عن مخالفته .

ثم اخبر تعالى عن نفسه انه أنزل الكتاب الذي هو القرآن ﴿ اليك ﴾ يا محمد ﴿ بالحق ﴾ أي بالدين الصحيح .

ثم امره فقال ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ ومعناه توجه عبادتك اليه تعالى وحده مخلصاً من شرك الأوثان والأصنام . وقوله ﴿ مخلصاً له الدين ﴾ نصب

(مخلصاً) على الحال . ونصب (الدين) بأنه مفعول لـ (مخلصاً) . وقال الفراء : يجوز أن يرفع (الدين) ، ولم يجزه الزجاج ، قال : لأنه يصير ما بعده تكريراً .

ثم قال تعالى ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ والاخلاص لله أن يقصد العبد بطاعته وعمله وجه الله ، لا يقصد الرياء والسمعة ، ولا وجهاً من وجوه الدنيا ، والخالص ـ في اللغة ـ مالا يشوبه شيء غيره ، ومنه خلاصة السمن لأنه تخلصه . وقال الحسن : معناه الاسلام . وقال غيره : معناه ان له التوحيد في طاعة العباد التي يستحق بها الجزاء ، فهذا لله وحده لا يجوز أن يكون لغيره ، لاستحالة أن يملك هذا الأمر سواه .

وقوله ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ معناه الحكاية عما يقول الكافرون الذين يعبدون الاصنام فانهم يقولون : ليس نعبد هذه الأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفى أي قربى ـ في قول ابن زيد ـ وقال السدي : الزلفى المنزلة . و (الأولياء) جمع ولي ، وهو من يقوم بأمر غيره في نصرته ، وحذف (يقولون) لدلالة الكلام عليه ، وهو أفصح ، واوجز .

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ إن الله يحكم بينهم يوم القيامة في ما هم فيه يختلفون ﴾ من إخلاص العبادة لله والاشراك به . ثم قال ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ معناه إن الله تعالى لا يهديه إلى طريق الجنة او لا يحكم بهدايته إلى الحق ، ﴿ من هو كاذب ﴾ على الله في أنه أمره باتخاذ الأصنام ، كافر بما أنعم الله عليه ، جاحد لاخلاص العبادة ، ولم يرد الهداية إلى الايمان ، لأنه قال ﴿ واما ثمود فهديناهم ﴾ (١) .

ثم قال تعالى ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً ﴾ على ما يقول هؤلاء : من أن

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة ﴿ فصلت ﴾ آية ٧

الملائكة بنات الله ، او على ما يقوله النصارى : من ان عيسى ابن الله ، أو مايقوله اليهود : من أن عزيراً ابن الله ، ﴿ لاصطفى ﴾ أي لاختار مما يخلق ما يشاء . ثم نزه نفسه عن ذلك فقال ﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ الذي لا نظير له ، القهار لجميع خلقه . ومن هذه صفته كيف يجوز أن يتخذ الأولاد ؟؟! .

ثم بين عن قدرته فقال ﴿ خلق السموات والارض بالحق ﴾ أي لغرض حكمي دون العبث وما لافائدة فيه . ﴿ يكور الليل على النهار و يكور النهار على الليل ﴾ أي يدخل كل واحد منهما على صاحبه ، ومنه كور العمامة . وقال قتادة : معناه يغشي . ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ بأن أجراهما على وتيرة واحدة وتقدير واحد ، وكل ذلك يجري ﴿ لأجل مسمى ﴾ يعني إلى مدة قدرها الله لهما ان يجريا اليها . وقيل : إلى قيام الساعة .

ثم قال ﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ يعني الله الذي لا يقهر ولا يغالب ، الغفار لمعاصي عباده إذا تابوا واقلعوا عن ذنوبهم . وفائدة الآية أن من قدر على خلق السموات والارض وتسخير الشمس والقمر ، وإدخال الليل في النهار ينبغي ان ينزه عن اتخاذ الولد ، واضافة شريك اليه لأن جميع ذلك لا يليق به ، لأنه من صفات المحتاجين .

قوله تعالى :

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ

لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (٧) آيتان بلا خلاف •

قرأ السوسي ، وابن فرج ، وهبة عن الاخفش والترمذي إلا ابن فرج ، ومدين من طريق عبد الله بن سلام ، والبرجمي و خلف ـ بضم الهاء ووصلها بواو في اللفظ • الباقون ـ بضم الهاء من غير اشباع ـ

وهذا خطاب من الله تعالى لجميع خلقه من البشر ، يقول لهم على وجه تعداد نعمه عليهم وامتنانه لديهم ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ يعني آدم لأن جميع البشر من نسل آدم •

وقوله ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ قيل : أنه خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم • وقال قوم : خلقها من فضل طينته • وفي قوله ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ و (ثم) تقتضي التراخي والمهلة ، وخلق الوالدين قبل الولد ، وذلك يقتضي أن الله تعالى خلق الخلق من آدم ثم بعد ذلك خلق حواء ، وذلك بخلاف المعلوم ، لأن خلق حواء كان قبل خلق ولد آدم ، فيه ثلاثة اقوال:

احدها ـ ان الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر • ثم خلق بعد ذلك حواء من ضلع من اضلاع آدم ـ على ما روي في الاخبار ـ وهذا ضعيف لما بيناه في غير موضع (١) في ما مضى •

و الثاني ـ ان ذلك وإن كان مؤخراً في اللفظ فهو مقدم في المعنى ، ويجري

---

(١) انظر المجلد الخامس ص ٣٤ ـ ٣٥

مجرى قول القائل : قد رأيت ما كان منك اليوم ثم ما كان منك أمس ، وإن كان ماكان امس قبل ما يكون اليوم .

والثالث - انه معطوف على معنى واحدة كأنه قال من نفس واحدة بمعنى اوجدها .

وقيل : إنه لا يمتنع أن يكون المراد بقوله ﴿ زوجها ﴾ غير حواء ، بل يريد المزدوج من نسل آدم من الذكور والاناث ، فكأنه قال تعالى ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ وهي آدم عليه السلام ثم جعل المزدوج من نسل هذه النفس ، وهذا لا محالة متأخر عن خلق النفس الواحدة التي هي آدم . وقيل ايضاً : إن سبب دخول (ثم) أن الاعتداد بهذه النعمة ، والذكر لها على الامتنان ، انما كان بعد ذكر خلقنا من نفس واحدة ، فكأنه قال : هو الذي ذكر لكم واعتد عليكم بأنه خلقكم من نفس واحدة ، ثم عطف على هذا الاعتداد والامتنان ذكر نعمة اخرى ، وهي ان زوج هذه النفس المخلوقة مخلوقة منها . فزمان الخلق الزوج وإن كان متقدماً ، فزمان ذكره والاعتداد به متزاوج ، وزمان الذكر للنعم والاعتداد بها غير الترتيب في زمان الايجاد والتكوين ، كما يقول احدنا لغيره : لي عليك من النعم كذا اليوم ، ثم كذا امس ، وإن كان المعطوف متقدماً على المعطوف عليه إذا كان زمان الامتنان بذلك على خلاف ترتيب زمان ايصال النعم . وقيل : إن المراد بـ (ثم) الواو ، فانه قد يستعمل الواو بمعنى (ثم) و (ثم) بمعنى الواو ، لأن معنى الجمع الانضمام وإن أراد بعضه على بعض . قال الله تعالى ﴿ فالينا مرجعهم ثم الله شهيد ﴾ (١) ومعناه والله شهيد .

وقوله ﴿ وانزل لكم من الانعام ثمانية أزواج ﴾ قال الحسن : معناه وجعل لكم منها . وقال : أنزلها بعد ان خلقها في الجنة ويعني بها : الابل ، والبقر ،

(١) سورة ١٠ يونس آية ٤٦

والضان ، والمعز من كل صنف اثنين . وهما زوجان . وهو قول قتادة ومجاهد والضحاك .

وقوله ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ﴾ قال قتادة ومجاهد والضحاك والسدي : معناه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم يكسي العظام لحماً ثم ينشيء خلقاً آخر . وقال ابن زيد : معناه الخلق في بطون الأمهات بعد الخلق في ظهر آدم .

وقوله ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي وابن زيد : يعني ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . وقيل : صلب الرجل وظلمة الرحم .

ثم خاطب خلقه فقال ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ يعني الذي خلق ما ذكره هو الذي أنشاكم وهداكم و يملك التصرف فيكم ﴿ له الملك ﴾ على جميع المخلوقات ﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستحق للعبادة ﴿ فأنى تصرفون ﴾ المعنى تؤفكون أي كيف تنقلبون عن ذلك إلى اتخاذ الآلهة سواه .

ثم قال تعالى مخاطباً لهم ﴿ إن تكفروا فان الله غني عنكم ﴾ ومعناه إن تجحدوا نعم الله فلا تشكروه ، فان الله غني عن شكركم ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ وفي ذلك دلالة على ان الكفر ليس من فعل الله ، ولا بارادته ، لانه لو كان مريداً له لكان راضياً به ، لأن الرضا هو الارادة اذا وقعت على وجهه . ثم قال ﴿ وان تشكروا يرضه لكم ﴾ أي ان تشكروا نعمه وتعترفوا بها يرضه لكم ويريده منكم ويثيبكم عليه . واشباع الهاء أجود ، لان الهاء أولها متحرك مثل

﴿ شراً يره و ٠٠٠ خيراً يره ﴾ (١) ، والهاء اذا انفتح ما قبلها في نحو الفعل لم يجز الا الاشباع كقولهم كهاهو والهاء ﴿ في يرضه ﴾ كناية عن المصدر الذي دل عليه (وان تشكروا) كقولهم : من كذب كان شراً له أي كان الكذب شراً له . وشكر الله لعبده هو اثابته على الشكر والطاعات ، والشكر من العبد الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم . ومن أسكن الهاء قال ابو الحسن : هي لغة كقول الشاعر :

ونضواي مشتاقان له أرقان

فعلى هذه اللغة يحمل دون أن يجري الوصل مجرى الوقف .

وقوله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ معناه لا يؤاخذ بالذنب الا من يفعله ويرتكبه ، ولا يؤاخذ به غيره ، وذلك نهاية العدل . وفي ذلك دلالة على بطلان قول المجبرة في ان الله تعالى يعذب اطفال الكفار بكفر آبائهم .

وقوله ﴿ ثم اليه مرجعكم ﴾ ومعناه إن مصيركم يوم القيامة إلى حيث لا يملك الامر والنهي سواه ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي يخبركم بما عملتموه ويواقفكم عليه ويجازيكم بحسب ذلك ، انه عليم بذات الصدور لايخفى عليه شيء لا سر ولا علانية .

قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ

(١) سورة ٩٩ الزلزال آية ٧ ـ ٨

عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ (٨)
أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو
رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا
يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَاعِبَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى
ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١٠) ثلاث آيات بلا خلاف ٠

قرأ ابن كثير ونافع وحمزة ﴿ أمن هو قانت ﴾ بتخفيف الميم ٠ الباقون بتشديدها ، من خفف أراد النداء وتقديره يامن هو قانت . قال ابن خالويه : سمعت ابن الانباري يقول : ينادي العرب بسبعة الفاظ : زيد اقبل ، وازيد اقبل ويا زيد اقبل ، وهازيد أقبل ، وأيا زيد اقبل ، وأي زيد اقبل ، وهيا زيد اقبل . وانشد :

هيا ظبية الوعشاء بين جلاجل وبين النقاء أنت أم أم سالم

ويجري ذلك مجرى قول القائل : فلان لا يصوم ولا يصلي ، فيا من يصوم ويصلي ابشر . وقال ابو علي : النداء ـ هنا ـ لاوجه له . والمعنى أمن هو قانت كمن هو بخلاف ذلك ؟ ! لأنه موضع معادلة ، وإنما يقع في مثل هذا الموضع الجمل التي تكون اخبار وليس كذلك النداء . ويدل على الحذف قوله ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ لان التسوية لا تكون إلا بين شيئين وفي جملتين من الخبر ٠ والمعنى أمن هو قانت كمن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، وقال ابو الحسن : القراءة بالتخفيف ضعيفة ، لأن الاستفهام إنما يبني على ما بعده ، ولا

يحمل على ما قبله، وهذا الكلام ليس قبله ما يبنى عليه إلا في المعنى ومن شدّد احتمل أمرين:

احدهما - ان يريد أهذا خير أم من هوقانت.

والثاني - ان يكون جعل (أم) بمنزلة (بل) والف الاستفهام، وعلى هذا يكون الخبر محذوفاً لدلالة الكلام عليه، كما قال الشاعر:

فأقسم لو شيء أتانـا رسوله   سواك ولكن لم نجد لك مدفعاً(١)

والمعنى لو أتانا غيرك ما صدقناه، ولا أهتدينا فحذف. وقال تعالى ﴿ افمن هو قائم على كل نفس بمـا كسبت ﴾ و « افمن يتقي بوجهه سوء العذاب » كل ذلك محذوف الجواب. والقانت الداعي، والقانت الساكت، والقانت المصلي قائماً وانشد:

قانتـاً لله يتلو كتبه   وعلى عمد من الناس اعتزل

وقيل القانت الدائم على الطاعة لله - في قول ابن عباس والسدي -.

يقول الله عز وجل مخبراً عن حال الانسان وضعف يقينه وشدة تحوله من حال إلى حال إنه إذا مسه ضر من شدة فقر ومرض وقحط ﴿ دعا ﴾ عند ذلك ﴿ ربه منيباً اليه ﴾ أي راجعاً اليه راغباً فيه ﴿ ثم إذا خوله نعمة منه ﴾ فانه إذا أعطاه نعمة عظيمة، فالتخويل العطية العظيمة على جهة الهبة، وهي المنحة قال ابو النجم:

اعطى فـلم ينجل ولم يبخل   كوم الذرى من خول المخول (٢)

﴿ نسي ما كان يدعو اليه من قبل ﴾ يعني ترك دعاء الله، كما كان يدعو في حال ضره، قال الفراء: ويجوز أن تكون (ما) بمعنى (من) كما قال ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ (٣).

(١) مر تخريجه في ٥ / ٥٢٩ و ٦ / ٢٥٣ و ٧ / ٣٤١ (٢) مر في ٤ / ٢٢٤

(٣) سورة ٤ النساء آية ٣

« وجعل لله انداداً » أي وسمى له تعالى أمثالا في توجيه عبادته اليهـا من الأصنام والاوثان « ليضل عن سبيله » فمن ضم الياء أراد ليضل بذلك غيره عن سبيل الحق . ومن فتح الياء اراد ليضل هو عن ذلك ، واللام لام العاقبة ، لأنهم لم يفعلوا ما فعلوه وغرضهم أن يضلوا عن سبيل الله ، لكن عاقبتهم كان اليـه . فقال الله تعالى لنبيه ﴿ قل ﴾ له يا محمد على سبيل التهديد ﴿ تمتع بكفرك قليـلا ﴾ يعني مدة حياتك ﴿ إنك من اصحاب النار ﴾ في العاقبة ، وهم الذين يلزمون عذاب جهنم . ثم قال ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾ فآناء الليل ساعات الليل واحدها آن ، وإنيٌ بالياء ﴿ ساجداً وقائماً ﴾ أي في هاتين الحالتين ﴿ يحذر الاخرة ﴾ أي يخاف عـــذاب الاخرة ﴿ ويرجو رحمة ربه ﴾ كمن خالف ذلك ، فانهما لا يتساويان ابداً ، ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم على وجـه الانكار عليهم ﴿ هـل يستوي الذين يعلمون ﴾ الحق ويعملون به ﴿ والذين لا يعلمون ﴾ ولا يعملون به ، فانهما لا يتساويان أبداً ﴿ إنما يتذكر ﴾ فى ذلك ﴿ اولوا الالباب ﴾ أي ذوو العقول وروى جابر عن أبي جعفر عليه السلام فى تفسير هذه الآية انه قال : نحن الذين يعلمون وعدونا الذين لا يعلمون .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ قل ﴾ لهم يا محـمد ﴿ يا عبادي الذين آمنوا ﴾ بالله وصدقوا بوحـدانيته وأقروا برسله ﴿ اتقوا ربكم ﴾ أي عقاب ربـكم باجتناب معاصيه . ثم قال ﴿ للذين احسنوا ﴾ يعني فعلوا الأفعال الحسنة وأحسنوا إلى غيرهم جزاء لهم على ذلك ﴿ فى هذه الدنيا حسنة ﴾ يعني ثناء حسن وذكر جميل ومدح وشكر، وقيل: صحة وسلامة وعافية، ذكره السدي ﴿ وارض الله واسعة ﴾ فتهاجروا فيها عن دار الشرك ـ فى قول مجاهد ـ وقيل : أرض الله يعني أرض الجنة واسعة ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم ﴾ وثوابهم على طاعتهم وصبرهم على شدائد الدنيـا

﴿ بغير حساب ﴾ أي لكثرته لا يمكن عده وحسابه . وقيـل : إن معناه إنهم يعطون من المنافع زيادة على ما يستحقونه على وجه التفضل ، فكان ذلك بغير حساب أي بغير مجازاة بل تفضل من الله تعالى .

قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ ٱلدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ ٱلنَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ (١٦) ست آيات بلا خلاف .

ست آيات في الكوفي وخمس بصري واربع في ما عداه عد الكوفيون والبصريون ﴿ له الدين ﴾ وعد الكوفيون ﴿ له ديني ﴾ ولم يعد الباقون شيئاً من ذلك .

هذا امر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار الذين تقدم ذكرهم ﴿ إني أمرت ان اعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي اخلص طاعتي له وأوجه عبادتي نحوه ، دون الأصنام والأوثان . والآية وإن توجهت إلى النبي ﷺ فالمراد بها جميع المكلفين ﴿ وامرت ﴾ أيضاً ﴿ لأن أكون اول المسلمين ﴾ أي المستسلمين

لما أمر الله به ونهى عنه، وإنما أمر بأن يكون اول المسلمين وإن كان قبله مسلمون كثيرون لأن المراد به أول المسلمين من هذه الأمة، ففي ذلك أنه دعاهم إلى ما رضيه الله له ورضيه لنفسه، وأن يقول لهم ايضاً ﴿ إني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ يعني عذاب يوم القيامة. ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ الله اعبد ﴾ أي اعبد الله ﴿ مخلصاً ﴾ بعبادتي ﴿ له ﴾ تعالى ﴿ ديني ﴾ وطاعتي ﴿ فاعبدوا ﴾ أنتم معاشر الكفار ﴿ ما شئتم من دونه ﴾ من الاصنام والاوثان على وجه التهديد بذلك ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ إن الخاسرين ﴾ في الحقيقة هم « الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » بأن فعلوا المعاصي، فخسروا بذلك أهاليهم الذين كانوا معدين لهم من الحور العين لو اطاعوه ـ في قول الحسن ـ وخسروا أنفسهم أي أهلكوها بالعذاب المهين الظاهر، لمن أدركه، ولا يخفى على احد الحال فيه.

ثم قال تعالى « ألا ذلك هو الخسران المبين » يعني الظاهر الذي لا يخفى.

ثم بين ذلك الخسران بأن قال « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » فالظلة السترة القائمة، وجمعها ظلل، ولذلك قيل من فوقهم ظلل ومن تحتهم ظلل إذ النار أدراك فهم بين أطباقها ـ نعوذ بالله منها ـ فما هو تحت هؤلاء ظلل لمن دونهم ويجوز أن يكون المراد من تحتهم مثل تلك الظلل لأن الظلة لا تسمى كذلك إلا إذا كانت عالية فوق من هي ظلة له ثم قال « ذلك يخوف الله به عباده » أي ما اخبركم به من الوعيد وما أعده للكفار يحذر الله به عباده من إرتكاب معاصيه، ثم ناداهم فقال « يا عباد فاتقون » أي اتقوا معاصي وافعلوا طاعاتي والتخويف الاعلام بموضع المخافة لتتقى ومثله التحذير والترهيب. وقرأ رويس « يا عبادي » باثبات الياء ـ في الحالين ـ الباقون بحذفها، لان الكسرة تدل على الياء.

قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ (١٩) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ (٢٠) .

اربع آيات بلا خلاف ، في جملتها ، وقد اختلفوا في تفصيلها فعد العراقيون والشامي واسماعيل « فبشر عبادي » ولم يعدها المكي ، ولا المدني الأول ، وعد المكي والمدني الأول « من تحتها الانهار » .

لما اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار وما أعده لهم من انواع العقاب ، اخبر - ههنا - عن حال المؤمنين وما أعده لهم من الثواب فقال « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها » يعني الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت والتقرب اليها بأنواع القرب . والطاغوت جماعة الشياطين في قول مجاهد والسدي وابن زيد . وإنما انث تأنيث الجماعة ، ولفظه لفظ المذكر . وقيل إن كل ما عبد من دون الله ، فهو طاغوت « وأنابوا إلى الله » أي تابوا اليه ، واقلعوا عما كانوا عليه « لهم البشرى فبشر عباد » جزاء على ذلك والبشرى والبشارة واحد وهو الاعلام بما يظهر السرور به في بشرة الوجه ، وضده السوءى وهو الاعلام بما يظهر الغم به في

الوجه بما يسوء صاحبه .

ثم امر نبيه صلى الله عليه وآله فقال « فبشر عبادي » فمن اثبت الياء وفتحها ، فلأنه الأصل ومن حذف الياء اجتزأ بالكسرة الدالة عليها ، ثم وصف عباده الذين أضافهم إلى نفسه على وجه الاختصاص فقال « الذين يستمعون القول » يعني يصغون إلى تلاوة القرآن والأقوال الدالة على توحيده « فيتبعون أحسنه » إنما قال «أحسنه» ولم يقل حسنه لأنه اراد ما يستحق به المدح والثواب ، وليس كل حسن يستحق به ذلك ، لان المباح حسن ولا يستحق به مدح ولا ثواب . والأحسن الأولى بالفعل في العقل والشرع .

ثم اخبر تعالى فقال « أولئك » يعني هؤلاء الذين وصفهم من المؤمنين هم « الذين هداهم الله » يعني الى الجنة وثوابها ، وحكم بأنهم مهتدون إلى الحق « وأولئك هم أولوا الالباب » يعني اولوا العقول على الحقيقة ، لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم من حيث اتبعوا ما يجب اتباعه ، والكفار وإن كان لهم عقول فكأنهم لا عقول لهم من حيث أنهم لم ينتفعوا بما دعوا اليه .

ثم قال تعالى على وجه التنبيه « أفمن حق عليه كلمة العذاب » أي وجب عليه الوعيد بالعقاب جزاء على كفره كمن وجب له الوعد بالثواب جزاء على ايمانه وحذف لدلالة الكلام عليه تنبيهاً على أنهما لا يستويان .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « أفأنت تنقذ من في النار » وتقديره افأنت تنقذه ، لايمكنك ذلك ، لان العقاب وجب له بكفره . واخبر تعالى انه لا يغفر له وإنما اتى بالاستفهام مرتين تأكيداً للتنبيه على المعنى ، قال الزجاج : معناه معنى الشرط والجزاء ، والف الاستفهام ـ ههنا ـ معناها التوقيف ، والثانية في قوله « أفأنت

تنقذ » جاءت مؤكدة لما طال الكلام ، لأنه لايصلح أن يأتي بالف الاستفهام تارة فى الاسم والأخرى في الخبر ، والمعنى أفمن حق عليه كلمة العذاب أنت تنقذه او في سياق الكلام حذف . وفيه دليل على المحذوف . والمعنى افمن حق عليه كلمة العذاب ، فيتخلص منه او ينجو منه افانت تنقذه أي لاتقدر عليه ان تنقذه ، وقال الفراء : هما استفهام واحد وتقديره : أفانت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب من النار . ومثله « أيعدكم أنكم إذا متم ..... أنكم مخرجون» (١) وتقديره أيعدكم إنكم تخرجون إذا متم . ثم فسر وبين ما أعده المؤمن كما فسر ما أعده للكافرين فقال « لكن الذين اتقوا ربهم » يعني اتقوا معاصيه « لهم غرف من فوقها غرف مبنية » فى مقابلة ما قال للكافرين لهم من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل لأنها تنقلب عليهم . وقيل : المعنى لهم منازل رفيعة فى الجنة وفوقها منازل ارفع منها ، فللمؤمنين الغرف « تجري من تحتها الأنهار » وتقديره تجري من تحت اشجارها الأنهار ، ثم بين تعالى أن الذي ذكره من ثواب المؤمن « وعد » من « الله » وعد به المؤمن « لا يخلف الله الميعاد » أي لا يخلف الله وعده ولا يكون بخلاف ما اخبر به ، ونصب « وعد الله » على المصدر .

قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَنْ

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٣٥

شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلفين على وجه التنبيه لهم على الأدلة الدالة على توحيده واختصاصه بصفات لا يشركه فيها غيره « ألم تر » يا محمد ومعناه ألم تعلم « أن الله انزل من السماء ماء » يعني مطراً « فسلكه ينابيع فى الأرض » يعني أدخله في عيون الأرض ومنابعها . وقيل : السلوك دخول في الشيء ، ولهذا حسن فى صفة الماء الجاري ، فقيل فسلكه ينابيع في الأرض ، ويقولون : دخل فى الاسلام ، ولا يقال سلك فى الاسلام . والينابيع جمع ينبوع ، وهو خروج الماء من العيون . وقيل : الينبوع المكان الذي ينبع منه الماء تقول : نبع الماء من موضع كذا إذا فار منه ، وعيون الماء مستودع الماء ، ونبع الماء إذا انفجرت به العيون .

وقوله « ثم يخرج به » يعني بذالك الماء « زرعاً » وهو كل ما ثبت على

غير ساق ، والشجر ماله ساق واغصان . والنبات يعم الجميع ، يقال : تنبت النخلة والشجرة والحبّة تنبت نباتاً . وقوله « مختلفاً ألوانه » يعني صنوفه وقيل : مختلف الالوان من اخضر واصفر واحمر وأبيض : من البر والشعير والسمسم والارز والذرة والدخن وغير ذلك .

وقوله « ثم يهيج فتراه مصفراً » معناه يجف ويضطرب ، فالهيج شدة الاضطراب بالانقلاب عن حال الاستقامة والصلاح ، هاج يهيج هيجاً وهياجاً وهاج البعير هيجاً . وقيل : معنى « يهيج » أي يحمى ويجف ، فكأنه عما يلحق الجميع يخرج إلى تلك الحال فيتغير عن لون الخضرة إلى لون الصفرة . وقوله « ثم يجعله حطاماً » فالحطام فتات التبن والحشيش . ثم قال « إن فى ذلك » يعني فى ما ذكره من انزال الماء من السماء وإنبات الزرع به ونقله من حال إلى حال « لذكرى » أي ما يتذكر به ويفكر فيه لاولي الالباب يعني ذوي العقول السليمة .

ثم قال تعالى على وجه التنبيه للحق « أفمن شرح الله صدره للاسلام » أي من لطف الله له حتى آمن وعرف الله ووحده وصدق نبيه « فهو على نور من ربه » يعني فهو على هداية من الله ودين صحيح ، كمن كان بخلاف ذلك ، وحذف لدلالة الكلام عليه . ثم قال « فويل للقاسية قلوبهم » يعني الويل والعقاب الذين قست قلوبهم « عن ذكر الله » حتى لم يعرفوه ولا وحدوه يقال قسى الشيء إذا صلب ، كما قال « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك » (١) ويقال : غسا وعسا وقسا بمعنى واحد ، ويقال ما اقسى قلبه إذا كان لا يلين لشيء . والمعنى كلما تلي عليه ذكر الله قسى قلبه . وقوله « عن ذكر الله » معناه غلظ قلبه عن ذكر الله . والقاسية قلوبهم هم الذين الفوا الكفر وتعصبوا له فلذلك قست قلوبهم . ثم قال

(١) سورة ٢ البقرة آية ٧٤

تعالى « أولئك » يعني القاسية قلوبهم عن ذكر الله « في ضلال » أي عدول عن الحق « مبين » أي واضح ظاهر .

ثم قال « الله نزل أحسن الحديث » يعني القرآن « كتاباً متشابهاً » نصب (كتاباً) على البدل من قوله (احسن) ومعناه « متشابهاً » في الحكم التي فيه من الحجج والمواعظ والاحكام التي يعمل عليها في الدين وصلاح التدبير يشبه بعضه بعضاً لا تناقض فيه « مثاني » أي يثنى فيه الحكم والوعد والوعيد بتصريفها في ضروب البيان ، ويثنى ايضاً في التلاوة فلا يمل لحسن مسموعه في القرآن « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » أي تقشعر جلود المؤمنين الذين يخافون عذاب الله لما يسمعونه فيه من الوعيد « ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » وما ضمنه الله على ذلك من الثواب . ثم قال « ذلك » يعني ما وصف به المؤمن من اقشعرار قلوب المؤمنين تارة ولينها أخرى « هدى الله يهدي به من يشاء » أي اطف الله الذي يلطف به لمن يشاء من عباده الذين يعلم انه لطف لهم . وقال الجبائي : انه خص به أمة محمد صلى الله عليه وآله . ثم قال « ومن يضلل الله فما له من هاد » ومعناه من أضله الله عن طريق الجنة لا يقدر احد على هدايته اليها . ويحتمل ان يكون المراد من حكم الله بأنه ضال لا يقدر احد ان يحكم بأنه هاد . ثم قال منبهاً لخلقه « أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة » وتقديره كمن يدخل الجنة ؟ ! وجاء في التفسير أن الكافر يلقى في النار مغلولا ، لا يمكنه ان يتقي النار إلا بوجهه . ومعنى يتقي يتوقاها كما قال الشاعر :

إذ يتقون بي الأسنة لم اخم عنها ولكني تضايق مقدمي

أي يقدموني الى القتال فيتوقون بي حرها . وحذف كمن كان بخلاف ذلك لدلالة الكلام عليه ، فان هذا لا يكون ابداً . ثم حكى الله تعالى ما يقال

للكافرين الظالمين نفوسهم بالكفر بالله يوم القيامة إذا دخلوا النار ﴿ذوقوا ما كنتم﴾ أي جزاء ما كنتم ﴿تكسبون﴾ من المعاصي . ثم اخبر تعالى عن الامم الماضية من أمثالهم من الكفار بأن قال ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ بآيات الله وجحدوا توحيده وكذبوا رسله ﴿فأتاهم العذاب﴾ جزاء لهم على فعلهم وعقوبة عاجلة «من حيث لا يشعرون» أي حيث لا يعلمون به ولا يحتسبون .

قوله تعالى :

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣١) ست آيات بلا خلاف .

قال المبرد العرب تقول لكل شيء يصل اليك بجارحة من الجوارح : ذق أي يصل معرفته اليك ، كما يصل اليك معرفة ما تذوقه بلسانك من حلو ومر ومنه قوله ﴿فذاقوا وبال امرهم﴾ (١) وقوله ﴿ذق انك أنت العزيز الكريم﴾(٢) والخزي هو المكروه والهوان ، وخزي فلان إذا وقع في المكروه ، فالخزي افراط

(١) سورة ٦٤ التغابن آية ٥ (٢) سورة ٤٤ الدخان ٤٩

الاستحيا ، يقال ما استحيا وما تخزى ، ورأيته خزيان نادماً ، قال الشاعر :

ولا أنت دياني فتخزوني

قرأ ابن كثير ، وابو عمرو ، ويعقوب ﴿ ورجلا سالما ﴾ على وزن ﴿ فاعل ﴾ معناه خالصاً لا يشركه فيه غيره لان الله تعالى ضرب مثلا للمؤمن والكافر ، فشبه الكافر بشركاء متنازعين مختلفين ، والمؤمن من عبد إلهاً واحداً . الباقون « سلما لرجل » على المصدر من قولهم : سلم فلان لله سلماً بمعنى خلص له خلوصاً ، كما يقولون : ربح الرجل في تجارته ربحاً وربحاً : وسلم سلماً وسلماً وسلامة ، وتقديره ذا سلم ، فمعنى « اذاقهم الله » أي جعلهم يدركون الألم ، كما يدرك الذائق الطعام ، والخزي الذل الذي يستحيا من مثله بما فيه من الفضيحة ، وخزيهم في الحياة الدنيا هو ما فعله بهم من العذاب العاجل من إهلاكهم واستئصالهم الذي يبقى ذكره على الأبد . ثم قال تعالى « ولعذاب الآخرة اكبر » مما فعل بهم في دار الدنيا « لو كانوا يعلمون » صدق ما اخبرنا به .

ثم اقسم تعالى بأن قال « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون » فالتذكر طلب الذكر بالفكر ، وهذا حث على طلب الذكر المؤدي إلى العلم ، والمعنى لكي يتذكروا ، ويتعظوا فيجتنبوا ما فعل من تقدم من الكفر والمعاصي ، لئلا يحل بهم كما حل بأولئك . وقوله « قرآنا عربياً » أي انزلناه قرآناً عربياً غير ذي عوج أي غير ذي ميل عن الحق بل هو مستقيم موصل إلى الحق ، ويقال في الكلام عوج ـ بكسر العين ـ إذا عدل به عن جهة الصواب . والمثل علم شبه به حال الثاني بالاول . والمثال مقياس يحتذى عليه ، وإنما قال : ضربنا مثلا واحداً ، ولم يقل مثلين ، لأنهما جميعاً ضربا مثلا واحداً ، ومثله قوله

تعالى « وجعلنا ابن مريم وأمه آية »(١)ولو ثني الكان حسناً - في قول الفراء - وقوله « لعلهم يتقون » معناه لكي يتقوا معاصي الله خوفاً من عقابه .

ثم قال تعالى « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون » فالتشاكس التمانع والتنازع ، تشاكسوا في الأمر تشاكساً ، وفي الشركاء تشاكس في البيع ، وتدبير المملوك ونحو ذلك « ورجلا سلماً لرجل » فضرب المثل الموحد بعبادته الله تعالى وحده - عز وجل - والمشرك بعبادته غير الله - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد - ﴿ هل يستويان مثلا ﴾ في حسن الحال ، لا يستويان لان الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وحياطته ما لايستحقه صاحب الشركاء المختلفين في امره .

ثم قال ﴿ الحمد لله ﴾ يعني المستحق للشكر والثناء على الحقيقية هو الله تعالى ﴿ بل اكثرهم لايعلمون ﴾ حقيقة، لجهلهم بالله ومواضع نعمه . ثم قال لنبيه ﴿إنك﴾ يا محمد ﴿ ميت ﴾ أي عاقبتك الموت ، وكذلك هؤلاء لأن ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ (٢) ﴿ ثم إنكم ﴾ يبعثكم الله ﴿ يوم القيامة ﴾ ويحشركم يوم القيامة فتختصمون عند الله . ومعناه كل طائفة منكم ترد على صاحبتها يوم القيامة وتخاصمها ، فالاختصام رد كل واحد من الاثنين ما اتى به الآخر على وجه الانكار عليه . وقد يكون احدهما - محقاً والآخر مبطلا كالموحد والملحد . وقد يكونان جميعاً مبطلين كاختصام اليهودي والنصراني ، وقد يكونان جميعاً محقين إذا قطع كل واحد منهما على صواب اعتقاده دون غيره ، ويكون اختصامهم في الآخرة بذم رؤساء الضلالة في ما دعوهم اليه ودفع اولئك عن أنفسهم ، فيقول الاولون : لولا أنتم لكنا مؤمنين

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٥١ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٨٥ وسورة ٢١ الانبياء آية ٣٥ وسورة ٢٩ العنكبوت آية ٥٧

ويقول الرؤساء ما كان لنا عليكم من سلطان إلا أن دعوناكم فاستجبتم لنا . واقبل بعضهم على بعض يتلاومون . وقال ابن زيد : الاختصام يكون بين المؤمنين والكافرين . وقال ابن عباس : يكون بين المهتدين والضالين ، والصادقين والكاذبين وقال ابو العالية : يكون بين أهل القبلة . ورجل مشكس إذا كان سيء الخلق . وقال السدي : هذا مثل ضربه الله لأوثانهم . وقال قتادة : هذا المشرك تنازعه الشياطين مغريين بعضهم ببعض ﴿ ورجلا سالمًا ﴾ وهو المؤمن أخلص الدعوة لله والعبادة ، وقال ابو عبيدة : متشاكسون الرجل الشكس ورجلا سالمًا الرجل الصالح . وقال ابو عمرو : معناه خالصاً لله . وقال ابو علي : رجلا فيه شركاء يعني في إتباعه أو في شيعته.

قوله تعالى:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى ٱللهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٣٢) وَٱلَّذِي جَاءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاؤُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ ٱللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣٥) أربع آيات بلا خلاف .

قوله ﴿ فمن اظلم ﴾ صورته صورة الاستفهام والمراد به التقريع والتوبيخ ، والمعنى فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا فادعى أن له ولداً وصاحبة ، او أنه حرم ما لم يحرمه، او أحل ما لم يحله ، وإنما كان من كذب على الله وكذب بالحق أظلم الخلق ، لأنه ظلم نفسه بأفحش الظلم من جهة كفره بربه وجحوده لحق نعمه حين أشرك به

تعالى من لا نعمة له يستحق بها عبادته . وقال قتادة : ﴿ وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ يعني بالقرآن .

ثم قال تعالى مهدداً لمن هذه صفته ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ والمثوى المقام يقال أثوى يثوي اثواء وثوى يثوي ثواء قال الشاعر :

طال الثواء على ربع بيسؤدي   أردى وكل جديد مرت مود

وقوله ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ قال قتادة وابن زيد : المؤمنون جاؤا بالصدق الذي هو القرآن وصدقوا به ، وهو حجتهم في الدنيا والآخرة . وقيل الذي جاء بالصدق جبرائيل وصدق به محمد صلى الله عليه وآله . وفي قراءة ابن مسعود ﴿ والذي جاؤا بالصدق ﴾ قال الزجاج : الذي - ههنا - والذين بمعنى واحد يراد به الجمع . وقال : لأنه غير موقت . وقيل : الذي جاء بالصدق النبي صلى الله عليه وآله من قول لا إله إلا الله ، وصدق به ايضاً هو صلى الله عليه وآله والصحيح أن قوله ﴿ وصدق به ﴾ من صفة الذين جاؤا بالصدق ، لأنه لو كان غيرهم لقال والذي جاء بالصدق والذي صدق به .

وقوله ﴿ اولئك هم المتقون ﴾ يعني من جاء بالصدق وصدق به هم المتقون معاصي الله خوف عقابه ، وإنما جاء بلفظ الجمع ﴿ هم المتقون ﴾ مع أن لفظ (الذي) واحد ، لأنه أراد به الجنس . ومعناه الجمع كقوله ﴿ والعصر ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾(١) وقال الأشهب بن رميلة :

إن الذي حلت بفلج دماؤهم   هم القوم كل القوم يا أم خالد

ثم بين ما اعد لهم من النعيم فقال ﴿ لهم ما يشاؤن عند ربهم ﴾ جزاء على تقواهم ، وبين أن لهم ﴿ ذلك ﴾ وانه ﴿ جزاء المحسنين ﴾ الذين يفعلون الطاعات .

(١) سورة ١٠٣ العصر آية ١ - ٢

وقوله ﴿ ليكفر الله عنهم أسوء الذي عملوا ﴾ أي يسقط عنهم عقاب الشرك والمعاصي التي فعلوها قبل ذلك بتوبتهم ورجوعهم إلى الله ﴿ ويجزيهم اجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ يعني يثيبهم على طاعاتهم من الفرض والنفل، وهي أحسن افعالهم لان المباح وإن كان حسناً لا يستحق بهثواب ولا مدح لان الثواب والمدح إنما يستحق على الطاعات.

قوله تعالى:

﴿ أَلَيْسَ ٱللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللهُ بِعَزِيزٍ ذِي ٱنْتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ ٱللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ (٤٠)

خمس آيات كوفي وثلاث في ما عداه عد الكوفيون ﴿ من هاد ﴾ وعدوا ﴿ فسوف تعلمون ﴾ ولم يعده الباقون. قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ بكاف عباده ﴾ على الجمع. الباقون بكاف عبده على التوحيد. من قرأ على التوحيد أراد النبي صلى الله عليه وآله لقوله ﴿ ويخوفونك ﴾ ومن جمع اراد النبي وسائر الانبياء، لأن أمة

كل نبي خاطبوا نبيهم بمثل ذلك ، كما قال تعالى مخبراً عن قوم هود ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ (١) وقرأ ابو عمرو والكسائي عن أبي بكر ﴿ كاشفات ضره ... ممسكات رحمته ﴾ منون فيهما . الباقون بالاضافة . فمن أضاف فللتخفيف . ومن نون ، فلأنه غير واقع ، واسم الفاعل إنما يعمل إذا كان لما يستقبل قوله ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ (٢) على الحكاية .

وقوله ﴿ اليس الله بكاف عبده ﴾ لفظه لفظ الاستفهام والمراد به التقرير يقرر عباده ، فيقول : اليس الله الذي يكفي عبده كيد اعدائه ويصرف عنه شرهم ، فمن وحد - اراد محمد صلى الله عليه وآله وهو قول السدي وابن زيد . ومن جمع - أراد انبيائه كـ(إبراهيم ولوط وشعيب) .

وقوله ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وآله بأن الكفار يخوفونه بالأوثان التي كانوا يعبدونها - في قول قتادة والسدي وابن زيد - لأنهم قالوا له : أما تخاف ان تهلكك آلهتنا . وقيل : إنه لما قصد خالد لكسر العزى بأمر النبي صلى الله عليه وآله قالوا له ساداتها : إياك ياخالد إن بأسها شديد .

ثم قال ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ يحتمل معناه شيئين :

احدهما - من أضله عن طريق الجنة بكفره ومعاصيه فليس له هاد يهديه اليها .

والثاني - ان من حكم الله بضلالته وسماه ضالا إذا ضل هو عن الحق فليس له من يحكم بهدايته وتسميته هادياً . ثم عكس ذلك فقال ﴿ ومن يهدي الله فما له من مضل ﴾ وهو يحتمل امرين :

احدهما - من يهديه الله إلى طريق الجنة فلا احد يضله عنها .

---

(١) سورة ١١ هود آية ٥٤　　　(٢) سورة ١٨ الكهف آية ١٨

والثاني ـ من يحكم بهدايته ويسميه هادياً فلا احد يمكنه ان يحكم بضلالته على الحقيقة .

ثم قرر خلقه فقال ﴿ اليس الله بعزيز ﴾ اي قادر قاهر لا يقدر أحد على مغالبته ﴿ ذي إنتقام ﴾ من اعدائه والجاحدين لنعمته .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ ولئن سالتهم ﴾ يا محمد يعني هؤلاء الكفار ﴿ من خلق السموات والارض ﴾ وانشأها واخترعها وأوجدها بعد أن كانت معدومة ﴿ ليقولن الله ﴾ الفاعل لذلك ، لأنهم لو أحالوا على غيره لبان كذبهم وافتراؤهم ، لأنه لا يقدر على ذلك إلا القادر لنفسه الذي لا يعجزه شيء . ثم قال ﴿قل﴾ لهم ﴿ افرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ فمن اضاف لم يعمل اسم الفاعل . ومن نون أعمله ، وهما جميعاً جيدان . والمعنى إن من يعجز عن النفع والضر وكشف الكرب عمن يتقرب اليه ولا يتأتى منه ذلك كيف يحسن عبادته ؟ ! وإنما تحسن العبادة لمن يقدر على جميع ذلك ولا يلحقه عجز ولا منع ، وهو الله تعالى .

والوجه في الزام من خلق السموات والارض إخلاص العبادة له أن من خلق السموات والارض هو القادر على النفع والضر بما لا يمكن أحد منعه ويمكنه منع كل أحد من خير او شر ، والعبادة أعلى منزلة الشكر ، لأجل النعم التي لا يقدر عليها غير الله ، فمن اقرّ بخلق السموات والارض لزمه إخلاص العبادة لمن خلقهما ومن لم يقر دل عليه بما يلزمه الاقرار به .

ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ حسبي الله ﴾ أي يكفني الله ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ فالتوكل رد التدبير إلى من يقدر على الاحسان فيه ، فلما كان لا يقدر على الاحسان في جميع التدبير الذي يصلح الانسان إلا الله تعالى وجب على

كل عاقل التوكل عليه بما هو حسبه منه .

ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ يا قوم إعملوا على مكانتكم ﴾ قال مجاهد : على ناحيتكم . وقيل على مكانكم من العمل . وقيل : على مكانتكم أي ديانتكم على وجه التهدد لهم . وقيل : على مكانتكم أي جهتكم التي اخترتموها وتمكنتم في العمل بها .

ثم قال ﴿ إني عامل ﴾ بما أدعوكم اليه ﴿ فسوف تعلمون ﴾ عاقبة اعمالكم وآخر كفركم وتعرفون ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ في الدنيا ويهينه في الآخرة ﴿ ويحل عليه ﴾ أي ينزل عليه ﴿ عذاب مقيم ﴾ أي دائم لايزول ، وذلك غاية الوعيد والتهديد .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤١) أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِلَّهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٤٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي إلا قتيبة وخلف ﴿ فيمسك التي قضي عليها ﴾ على ما لم يسم فاعله . الباقون ﴿ قضى ﴾ بفتح القاف ، وهو الأجود لان اسم الله تعالى قد تقدم في قوله ﴿ الله يتوفى الانفس حين موتها ﴾ وقيل : إن الموت ـ ههنا ـ المراد به النوم . والتوفي ـ ههنا ـ توفى النفس لا الروح ، لأن ابن عباس قال في ابن آدم نفس وروح ، فاذا نام قبضت نفسه وبقيت روحه . والروح هو الذي يكون بها الغطيط . والنفس هي التي يكون بها التميز ، فاذا مات قبضت نفسه وروحه.

فان قيل: كيف قال ههنا ﴿ الله يتوفى الانفس ﴾ وقال في موضع آخر ﴿ توفته رسلنا ﴾ (١) ﴿ وقل يتوفاكم ملك الموت ﴾ (٢) .

قيل : ان الذي يتولى قبض الأرواح ملك الموت بأمر الله ، ومعه رسل واعوان ، فلذلك قال ﴿ توفته رسلنا ﴾ .

وحجة من بنى الفعل للفاعل قوله ﴿ ويرسل الأخرى ﴾ ومن بنى للمفعول به ، فلان المعنى يؤل اليه . وقال الفراء تقديره الله يتوفى الانفس حين موتها ويتوفى التي لم تمت في منامها عندانقضاء اجلها . وقيل : توفها نومها لقوله ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ (٣) .

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه ﴿ إنا انزلنا عليك ﴾ يا محمد ﴿ الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ للناس بالحق ﴾ . ومعناه أنزلناه على انه حق ، فهذه فائدة الباء . وفي ذلك حجة على

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ٦١ (٢) سورة ٣٢ الم السجدة آية ١١
(٣) سورة ٦ الانعام آية ٦٠

من زعم ان الله سبحانه يريد بانزاله إضلال الكافرين عن الايمان ، لانه لو كان كذلك لم يكن منزلا على انه حق وجب النظر في موجبه ومقتضاه ، فما رغب فيه وجب العمل به وما حذر منه وجب اجتنابه ، وما صححه وجب تصحيحه وما أفسده وجب افساده ، وما دعا اليه فهو الرشد ، وما صرف عنه فهو الضلال .

ثم قال ﴿ فمن اهتدى ﴾ يعني بما فيه من الأدلة ﴿ فلنفسه ﴾ لان منفعة عاقبته من الثواب تعود عليه ﴿ ومن ضل ﴾ عنه وحاد ﴿ فانما يضل عليها ﴾ يعني على نفسه ، لان وخيم عاقبته من العقاب تعود عليه . ثم قال ﴿ وما أنت ﴾ يامحمد ﴿ عليهم بوكيل ﴾ أي بحفيظ ولا رقيب وإنما عليك البلاغ والوكيل القائم بالتدبير . وقيل ﴿ ما انت عليهم بوكيل ﴾ معناه وما انت عليهم برقيب فى ايصال الحق إلى قلوبهم وحفظه عليهم حتى لا يتركوه ولا ينصرفوا عنه ، ولا تقدر على إكراههم على ألاسلام ، وإنما الله تعالى القادر عليه .

قوله ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ معناه انه يقبضها اليه إذا أراد إماتتها بأن يقبض روحها بأن يفعل فيها الموت « والتي لم تمت في منامها فيمسك التيقضى عليها الموت » فلا يردها اليه «ويرسل الأخرى ... » التي يريد ابقائها إلى أن تستوفي اجلها الذي قدره لها . وقد ذكرنا ماروي عن ابن عباس من أن قبض الروح يكون منه ميتاً . وقبض النفس يكون به فاقداً للتمييز والعقل ، وإن لم يفقد حياته .

والفرق بين قبض النوم والموت ان قبض النوم يضاد اليقظة ، وقبض الموت يضاد الحياة وقبض النوم تكون الروح معه فى البدن ، وقبض الموت يخرج الروح منه عن البدن . وقال سعيد بن جبير والسدي : ان أرواح الأحياء إذا ناموا تجتمع مع أرواح الاموات ، فاذا أرادت الرجوع إلى الاجساد أمسك الله ارواح

الاموات وأرسل ارواح الاحياء .

ثم قال ﴿ إن في ذلك ﴾ يعني في قبض الأرواح تارة بالموت ، وقبض الأنفس بالنوم أخرى ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات واضحات على توحيد الله ، فانه لا يقدر عليه سواه ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ أي يستعملون عقولهم بالفكر في ذلك فيعرفون الله تعالى بذلك .

ثم اخبر عن هؤلاء الكفار فقال ﴿ أم اتخذوا ﴾ معناه بل اتخذ هؤلاء الكفار ﴿ من دون الله شفعاء ﴾ بزعمهم ، من الأصنام والأوثان فقال ﴿ قل ﴾ لهم يامحمد ﴿ او لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ﴾ تنبيها هم على انهم يتخذونهم شفعاء وإن كانوا لا يقدرون على شيء من الشفاعة ولا غيرها ولا يعقلون شيئاً . والالف في ﴿ او لو ﴾ الف الاستفهام يراد به التنبيه . ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والارض ﴾ أي الشفاعة لمن له التدبير والتصرف في السموات والأرض ليس لاحد الاعتراض عليه في ذلك ﴿ ثم اليه ترجعون ﴾ معاشر الخلق أي إلى حيث لا يملك احد التصرف والامر والنهي سواه ، وهو يوم القيامة فيجازي كل إنسان على عمله على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب.

ثم اخبر عن حالهم وشدة عنادهم ، فقال ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ يعني نفرت نفوسهم عن التوحيد وانقبضت عنه يقال : فلان مشمئز عن كذا إذا انقبض عنه . وفي قوله : اشمأزت قلوبهم دليل على فساد قول من يقول المعارف ضرورة ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ قال السدي : يعني اوثانهم ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي يفرحون ويسرون حتى يظهر السرور في وجوههم .

قوله تعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ عَالِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠)﴾

خمس آيات.

هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله والمراد بهجميع المكلفين ان يدعوه بهذا الدعاء فيقولوا ﴿ اللهم فاطر السموات والارض ﴾ أي خالقهما ومنشئهما ومبتدئهما ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي عالم ما غاب علمه عن جميع الخلائق وعالم ما شهدوه وعملوه، لا يخفى عليك شيء من الاشياء ﴿ أنت تحكم بين عبادك ﴾ يوم القيامة ﴿ في ما كانوا فيه يختلفون ﴾ فى دار الدنيا من أمر دينهم ودنياهم وتفصل بينهم بالحق. و (فاطر السموات) عند سيبويه لا يجوز أن يكون صفة (اللهم) قال لأنه غير الاسم في النداء، ولانه لا يذكر بهذا الذكر إلا بعد ماعرف

كما لا يضمر الاسم إلا بعد ما عرف ، فكما لا توصف المضمرات ، فكذلك هـذا الاسم ، وليس يجب مثل ذلك في قولنا : (الله) لانه قد يذكره العارف لمن لا يعرفه فيعرفه إياه بصفته ، فيقول : الله فاطر السموات والارض وخالق الخلق ورب العالمين ومالك يوم الدين . وقال ابو العباس : يجوز أن يكون صفة (اللهم) حملا له على (يا الله فاطر السموات والأرض) .

ثم اخبر تعالى على وجه المبالغة في وقوع عقاب الكفار وعظمه بأنه لو كان لهم ملك جميع ما في الارض ، ومثله معه ، زيادة عليه وأراد الظالم لنفسه بارتكاب المعاصي أن يفتدي نفسه من شدة ذلك العذاب يوم القيامة لما قبل منه ، ولما فودي به ، وحذف الجواب لدلالة الكلام عليه .

ثم قال ﴿ وبدالهم ﴾ يعني الكفار ما لم يكونوا يحتسبونه ولا يظنونه واصلا اليهم ، والاحتساب الاعتداد بالشيء من جهة دخوله في ما يحسبه ، فلما كان أهل النار لم يكونوا يدرون ما ينزل بهم من العذاب صح ان يقال ﴿ بدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ ولا قدروا أنهم يصيرون اليه .

ثم قال ﴿ وبدالهم ﴾ أي ظهر لهم ايضاً ﴿ سيئآت ما كسبوا ﴾ أي جزاء سيئآت ما كسبوا من اعمالهم ﴿ وحاق بهم ﴾ أي نزل بهم « ما كانوا به يستهزؤن » في الدنيا من قول الله ووعده ووعيده .

ثم اخبر تعالى عن شدة تقلب الانسان وتحوله من حال إلى حال بأنه إذا مسه ضر من مرض ومصيبة وبلاء « دعانا » وفزع الينا « ثم » بعد ذلك « إذا خولناه » أي أعطيناه « نعمة منا » والتخويل العطاء بلا مكافات ولا مجازات بل تفضلا محضاً « قال إنما اوتيته على علم » قال الحسن معناه أني اوتيته بحيلتي وعملي وقال غيره : معناه على علم برضاه عني فلذلك اعطاني ما أولاني من النعمة . وقال

آخرون : معناه على علم بأن تسببت به للعافية وكشف البلية وانه لم ينلها من قبل ربه . ثم قال ليس الامر على ما يقوله « بل هي فتنة » أي بلية واختبار يبتليه الله به فيظهر كيف شكره في مقابلتها ، فيجازيه بحسبها ، لأنه وإن كان عالماً بحاله لم يجز ان يجازيه على علمه ، وإنما يجازيه على فعله « ولكن اكثرهم لا يعلمون » صحة ما قلناه من ان ذلك محنة واختبار لقلة معرفتهم بالله وبصفاته . ثم قال « قد قالها الذين من قبلهم » يعني قد قال كلمة مثل ما قال هؤلاء « فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » من الأموال ويجمعونه بل صارت وبالاً عليهم .

قوله تعالى :

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّآتُ مَا كَسَبُوا وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّآتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾(٥٥)

خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن حال هؤلاء الكفار في الآخرة وما يصيرون اليه

فقال « فاصابهم سيئآت ما كسبوا » قيل فى معناه قولان :

احدها - فاصابهم عقاب سيئآت ما كسبوا وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه لدلالة الكلام عليه.

الثاني - انه اراد فأصابهم عقاب ما كسبوا من المعاصي وسماه سيئآت لازدواج الكلام ، كما قال « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (١) .

ثم قال « والذين ظلموا من هؤلاء » يعني من كفار قوم النبي صلى الله عليه وآله « سيصيبهم » أيضاً « سيئآت ما كسبوا وما هم بمعجزين » أي ليس يفوتون الله ، ثم قال على وجه التنبيه لهم على معرفته « او لم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء » أي يوسعه على من يشاء من عباده بحسب ما يعلم من مصلحته « ويقدر » أي ويضيق على من يشاء منهم بمثل ذلك « إن فى ذلك لآيات » أي دلالات واضحات « لقوم يؤمنون » أي يصدقون بتوحيدالله ويقرون بأنبيائه. وأضاف الآيات إلى المؤمنين لأنهم الذين انتفعوا بها ، ثم قال « قل » لهم يا محمد « يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم » بارتكاب المعاصي « لا تقنطوا من رحمة الله » أي لا تيأسوا من رحمة الله يقال : قنط يقنط قنوطاً إذا يئس « ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » وفى ذلك دلالة واضحة على انه يجوز ان يغفر الله بلا توبة تفضلا منه و بشفاعة النبي صلى الله عليه وآله لانه لم يشرط التوبة بل أطلقها . وروي عن فاطمة عليها السلام أنها قالت : إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي . وروي عن علي عليه السلام وابن عباس : أنهما قالا : إن لأرجى آية فى كتاب الله قوله « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » (٢) فقال عبدالله بن عمرو بن العاص بل أرجى آية فى كتاب الله قوله « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم » وهو المروي عن علي ايضاً .

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠ (٢) سورة ١٣ الرعد آية ٧

وقوله « وانيبوا إلى ربكم » امر مستأنف من الله لخلقه بالرجوع إلى الله والتوبة من معاصيهم. والانابة هي الرجوع « وأسلموا له » معناه آمنوا به وسلموا لاوامره « من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » عند نزول العذاب بكم « واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم » إنما قال « أحسن ما أنزل » لأنه اراد بذلك الواجبات والنفل التي هي الطاعات دون المباحات والمقبحات التي لا يأمر بها. وقال السدي (أحسن) أي ما أمر الله تعالى به في الكتاب. وقال قوم (أحسن ما انزل اليكم من ربكم) يريد به الناسخ دون المنسوخ، وهذا خطأ، لان المنسوخ لا يجوز العمل به بعد النسخ وهو قبيح، ولا يكون الحسن أحسن من قبيح، وقال الحسن احسنه ان يأخذوا بما أمرهم الله به وأن ينتهوا عما نهاهم عنه « من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة » أي فجأة في وقت لا تتوقعونه « وأنتم لا تشعرون » أي لا تعرفون وقت نزوله بكم.

قوله تعالى :

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ ٱللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ ٱلسَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَٰنِي لَكُنْتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)

خمس آيات.

قرأ ابوجعفر من طريق ابن العلاف « يا حسرتاي » بياء ساكنة بعد الألف. وفتح الياء النهرواني عن أبي جعفر . الباقون بلا ياء .

لما امر الله تعالى باتباع طاعاته والانتهاء عن معاصيه تحذيراً من نزول العذاب بهم بغتة وهم لا يعلمون ، بين الغرض بذلك وهو لئلا تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله ، وحذف (لا) كما حذف من قوله ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ (١) وقال الزجاج : معناه كراهية أن تقول نفس ، ومثله قوله ﴿ والقى فى الارض رواسي أن تميد بكم ﴾ (٢) فى قول الفراء . وعلى قول الزجاج : كراهية ان تميد بكم ، والنفس نفس الانسان . والفرق بين النفس والروح أن النفس من النفاسة ، والروح من الريح . وأنفس ما في الحيوان نفسه ، وهي جسم رقيق روحاني من الريح ، ونفس الشيء هو الشيء بعينه . والتفريط إهمال ما يجب ان يتقدم فيه حتى يفوت وقته ، ومثله التقصير ، وضده الأخذ بالحزم ، يقال : فلان حازم وفلان مفرط .

وقوله ﴿ في جنب الله ﴾ معناه فرطت فى طاعة الله او فى أمر الله إلا أنه ذكر الجنب كما يقال : هذا صغير في جنب ذلك الماضي في أمره ، وفي جهته ، فاذا ذكر هذا دلّ على الاختصاص به من وجه قريب من معنى جنبه . وقال مجاهد والسدي : معنى ﴿ في جنب الله ﴾ أي في أمر الله . والألف في قوله ﴿ ياحسرتى ﴾ منقلبة عن (ياء) الاضافة . ويفعل ذلك في الاستفهام والاستغاثة بمدّ الصوت . والتحسر الاغتمام على ما فات وقتـــه لانحساره عنه بما لا يمكنه إستدراكه ، ومثله التأسف .

---

(١) سورة ٤ النساء آية ١٧٥ (٢) سورة ١٦ النحل آية ١٥ وسورة ٣١ لقمان آية ١٠

وقوله ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ قال قتادة والسدي : معناه المستهزئين بالنبي والكتاب الذي معه . وقيل : معناه كنت ممن يسخر بمن يدعوني إلى الايمان ، ومعناه وما كنت إلا من جملة الساخرين إعترافاً منهم على نفوسهم .

وقوله تعالى ﴿ او تقول لو ان الله هداني لكنت من المتقين ﴾ معناه فعلنا ذلك لئلا يقول : لو أراد الله هدايتي لكنت من المتقين لمعاصيه خوفاً من عقابه ﴿ او تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فاكون من المحسنين ﴾ ومعناه إنا فعلنا ذلك لئلا يتمنوا إذا نزل بهم البلاء والعذاب يوم القيامـة لو أن لي رجعة إلى دار الدنيا لكنت ممن يفعل الطاعات .

ونصب ﴿ فاكون ﴾ على انه جواب (لو) ويجوز أن يكون نصباً باضمار (ان) بمعنى لو أن لي كرة فان اكون .

وفي ذلك دليل على بطلان مذهب المجبرة فى أن الكافر لا يقدر على الايمان لأنه لو كان إذا رد لا يقدر إلا على الكفر لم يكن لتمنيه معنى .

ثم قال تعالى منكراً عليهم « بلى قد جاءتك آياتي » أي حججي ودلالاتي « فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » الجاحدين لنعمي عليك . وإنما خاطب بالتذكير والنفس مؤنثة لأنه أراد يا إنسان .

ثم اخبر تعالى عن حال الكفار في الآخرة ، فقال « ويوم القيامـة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » جزاء على كفرهم . ثم قال « اليس في جهنم مثوى » أي موضع إقامة « المتكبرين » الذين تكبروا عن طاعة الله وعصوا أوامره .

قوله تعالى:

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَّهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ (٦٦)﴾ ست آيات بلاخلاف .

قرأ روح «وينجي الله» بالتخفيف . الباقون بالتشديد . وقرأ ابن كثير «تامروني اعبد» مشددة النون مفتوح الياء . وقرأ نافع وابن عامر في رواية الداجوني خفيفة النون . وفتح الياء نافع، ولم يفتحها ابن عامر . وقرأ ابن عامر في غير رواية الداجوني «تأمرونني» بنونين . الباقون مشددة النون ساكنة الياء . وقرأ اهل الكوفة إلا حفصاً «بمفازاتهم» جماعة . الباقون «بمفازتهم» على واحدة . فمن وحده قال : هو بمنزلة السعادة والنجاة ، كما قال الله تعالى «بمفازة من العذاب» (١) وقال قوم المفازة الصحراء ، فهي مهلكة وتسمى مفازة تفاؤلا ، كما قالوا ـ لمعوج الرجلين ـ احنف ، وللحبشي ابو البيضاء . وقال ابن الاعرابي :

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٨٨

ليست مقلوبة بل المفازة المهلكة ، يقولون: فوز الرجل إذا هلك ومات . ومن قرأ « تأمروني » فلانه الأصل . ومن شدد أدغم احدى النونين في الأخرى . ومن خفف حذف احدى النونين ، كما قال الشاعر:

تراه كالثغام يعل مسكا　　بسوء الغانيا إذا قليني (١)

أراد قلينني فحذف . لما اخبر الله تعالى عن حال الكفار وأن الله يحشرهم يوم القيامة مسودة وجوههم ، وأن مقامهم في جهنم ، اخبر انه ينجي الذين اتقوا معاصي الله خوفاً من عقابه ، ويخلصهم . وقوله « بمفازتهم » بمنجاتهم من النار بطاعاتهم التي أطاعوا الله بها . واصل المفازة المنجاة ، وبه سميت الفلاة مفازة على وجه التفاؤل بالنجاة منها ، كما سموا اللديغ سليما . ومن وحد فلأنه اسم جنس او مصدر يقع على القليل والكثير . ومن جمع أراد تخلصهم من مواضع كثيرة فيها هلاك الكفار وانواع عذابهم .

وقوله « لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » معناه إن هؤلاء المؤمنين الذين يخلصهم الله من عقاب الآخرة وأهوالها لا يمسهم عذاب أصلا ، ولا هم يغتمون على وجه . وقوله « لا يمسهم السوء » معناه نفياً عاماً لسائر انواع العذاب ، والعموم في قوله « ولا هم يحزنون » فيه تأكيد له . وقيل: لئلا يظن ظان انه لما لم يمسهم العذاب جاز أن يمسهم بعض الغم ، ففي ذلك تفصيل واضح يزيل الشبهة .

ثم اخبر تعالى انه خلق كل شيء ، ومعناه انه يقدر على كل شيء « وهو على كل شيء وكيل » أي له التصرف في ما يريد حافظ له ، وإن حملنا معنى الخلق على الاحداث ، فالمراد به « خالق كل شيء » من مقدوراته من الأجسام والاعراض . وقوله « له مقاليد السموات والارض » والمقاليد المفاتيح واحده

(١) قد مر في ٦ / ٣٤١

(مقليد) كقولك : منديل ومناديل ، ويقال في واحده ايضاً (إقليد) وجمعه (أقاليد) وهو من التقليد ، والمعنى له مفاتيح خزائن السموات والارض يفتح الرزق على من يشاء ويغلقه عمن يشاء . وقوله « والذين كفروا بآيات الله » يعني كفروا بآياته من مقاليد السموات والارض وغيرها وقوله « أولئك هم الخاسرون » يعني هؤلاء الذين كفروا بأدلة الله وحججه « هم الخاسرون » ، لانهم يخسرون الجنة ونعيمها ويحصلون في النار وسعيرها .

وقوله « قل أفغير الله تأمروني اعبد ايها الجاهلون » أمر للنبي صلى الله عليه وآله ان يقول لهؤلاء الكفار تأمروني أيها الكفار ان اعبد الاصنام من دون الله ايها الجاهلون بالله وبآياته ؟ ! والعامل في قوله « أفغير » على احد وجهين :

احدهما ـ ان يكون « تأمروني » اعتراضاً ، فيكون التقدير : أفغير الله اعبد ايها الجاهلون في ما تأمروني .

الثاني ـ ان لا يكون اعتراضاً ويكون تقديره : اتأمروني اعبد غير الله ايها الجاهلون في ما تأمروني فاذا جعلت « تأمروني » اعتراضاً ، فلا موضع لقوله « اعبد » من الاعراب ، لانه على تقدير اعبد ايها الجاهلون ، وإذا لم تجعله اعتراضاً يكون موضعه نصباً على الحال ، وتقديره اتأمروني عابداً غير الله ، فمخرجه مخرج الحال ومعناه ان اعبد ، كما قال طرفة :

ألا ايهذا الزاجري احضر الوغا وأن اشهد اللذات هل انت مخلد (١)

أي الزاجر أن احضر ، وحذف (أن) ثم جعل الفعل على طريقة الحال .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « ولقد أوحي اليك » يا محمد « وإلى الذين من قبلك » من الأنبياء والرسل « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين »

(١) مر في ١ \ ٣٢٧ و ٨ \ ٢٤٣

لثواب الله . وقال قوم : فيه تقديم وتأخير وتقديره : ولقـد أوحي اليك لئن اشركت ليحبطن عملك ، وإلى الذين من قبلك مثل ذلك . وقال آخرون : هذا مما اجتزىء بأحد الخبرين عن الآخر ، كما يقول القائل : لقد قيل لزيد وعمرو ليذهبن ، ومعناه لقد قيل لزيد : ليذهبن وعمرو ليذهبن فاستغني بقوله وعمرو عن ان يقال ليذهبن بما صار لزيد .

وليس في ذلك ما يدل على صحة الاحباط على ما يقوله اصحاب الوعيد ، لأن المعنى في ذلك لئن اشركت بعبادة الله غيره من الاصنام لوقعت عبادتك على وجه لا يستحق عليها الثواب ، ولو كانت العبادة خالصة لوجهه لا ستحق عليها الثواب ، فلذلك وصفها بأنها محبطة ، وبين ذلك بقوله « بل الله فاعبد » أي وجه عبادتك اليه تعالى وحده دون الأصنام ودون كل وثن « تكن من الشاكرين » الذين يشكرون الله على نعمه ويخلصون العبادة له . ونصب قوله « بل الله » بفعل فسره قوله « فاعبد » وتقديره اعبد الله فاعبد وقال الزجاج : هو نصب بقوله (فاعبد) وتقديره قد بلغت فاعبد الله وقال المبرد : ومعنى (ليحبطن) ليفسدن يقولون : حبط بطنه إذا فسد من داء معروف .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَٱلسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ وَجِيءَ

بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٠) أربع آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن حال الكفار أنهم ما عظموه حق عظمته إذ دعوك إلى عبادة غيره. وقال الحسن: معناه إذ عبدوا الأوثان من دونه. والأول أقوى ـ وهو قول السدي ـ قال محمد بن كعب القرطي « ما قدروا الله حق قدره » معناه ما علموا كيف حق الله. قال المبرد إشتقاقه من قولك: فلان عظيم القدر يريد بذلك جلالته. والقدر اختصاص الشيء بعظم حجم او صغر أو مساواة.

وقوله « والارض جميعاً قبضته. قال الفراء: كان يجوز في (قبضته) النصب. وقال الزجاج لا يجوز ان يقال: زيد دارك أي في دارك على حذف (في) كقولهم شهر رمضان انسلاخ شعبان أي في انسلاخه. قال المبرد: الناصب لـ (جميعاً) محذوفة تقديره والارض إذا كانت جميعاً قبضته، وخبر الابتداء (قبضته) كأنه قال: والارض قبضته إذا كانت جميعاً. ومثله: هذا بسر الطيب منه تمراً أي إذا كان. ومذهب سيبويه أي ثبتت جميعاً في قبضته كقولك هنيئاً مريئاً أي ثبت ذلك، لانه دعاء في موضع المصدر، كما قلت سقياً ومثل الآية قول الشاعر:

إذا المرؤ اعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلا عليه شديد

أي إذا كان كهلا. وقال الزجاج: هو نصب على الحال. والمعنى « والأرض » في حال اجتماعها ﴿ قبضته يوم القيامة. والسموات مطويات بيمينه ﴾ على الابتداء والخبر. ومعنى الآية أن الارض باجمعها في مقدوره كما يقبض عليه

القابض ، فيكون في قبضته وكذلك. قوله ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ معناه أي في مقدوره طيها ، وذكرت اليمين مبالغة في الاقتدار والتحقيق للملك . وقيل اليمين القوة قال الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد　　تلقاها عرابة باليمين(١)

ثم نزه نفسه تعالى عن أن يكون له شريك في العبادة او معين في خلق شيء من الاشياء . وقال سبحانه وتعالى عما يشركون يعني ما يضيفه اليه الكفار من الأصنام والاوثان .

وقوله ﴿ ونفخ في الصور ﴾ قال قتادة هو جمع صورة ، فكأنه ينفخ في صور الخلق وروي في الخبر ان الصور قرن ينفخ فيه الصور . ووجه الحكمة في ذلك انه علامة جعلها الله تعالى ليعلم بها العقلاء آخر أمرهم في دار التكليف . ثم تجديد الخلق ، فشبه بما يتعارفونه من بوق الرحيل والنزول ، ولا يتصور ذلك للنفس بأحسن من هذه الطريقة .

وقوله ﴿ فصعق من في السموات ومن في الارض ﴾ قيل : معناه يموت من شدة تلك الصيحة التي تخرج من الصور جميع من في السموات والارض ، ومنه الصواعق التي تأتي عند شدة الرعد ، وصعق فلان إذا مات بحال هائلة شبيهة بالصيحة الشديدة . وقوله ﴿ إلا من شاء الله ﴾ استثنى من جملة الذين يهلكون قوماً من الملائكة ، لأن الملك الذي ينفخ فيه يبقى بعده ، ويجوز ان يبقى غيره من الملائكه . وقال السدي : المستثنى جبرائيل وميكائيل واسرافيل وملك الموت – وهو المروي في حديث مرفوع – وقال سعيد بن جبير : هم الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله . وقوله ﴿ ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون ﴾ فهذه النفخة

(١) مر تخريجه في ٨ / ٥٢٣ وهو في تفسير الشوكاني ٤ / ٤٦٢

الثانية للحشر . وقال قتادة : وروي أيضاً ان صاحب الصور إسرافيل عليه السلام وقيل : يُفني الله تعالى بعد الصعق وموت الخلق الاجسام كلها ثم يعيدها ومعنى فاذا هم قيام ينظرون إخبار عن سرعة ايجادهم ، لانه إذا نفخ النفخة الثانية اعادهم عقيب ذلك فيقومون من قبورهم احياء ينظرون ما يراد ويفعل بهم .

وقوله ﴿ واشرقت الارض بنور ربها ﴾ قيل : معناه أضاءت بعدل ربها والحكم بالحق فيها .وقال الحسن : معناه بعدل ربها ﴿ ووضع الكتاب ﴾ يعني الكتب التي أعمالهم فيها مكتوبة ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ لانهم يؤتى بهم . والشهداء هم الذين يشهدون على الأمم للانبياء بأنهم قد بلغوا ، وانهم كذبتهم اممهم ، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي يفصل بينهم بالحق ولا ينقص احد منهم شيئاً مما يستحقه من الثواب ولا يفعل به ما لا يستحقه من العقاب ، وقوله ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ معناه انه يعطي كل نفس عاملة بالطاعات جزاء ما عملته على الكمال دون النقصان والله تعالى أعلم من كل احد بما يفعلون من طاعة او معصية لا يخفى عليه شيء منها .

قوله تعالى :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧١) قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ

اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين (٧٣) وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين (٧٤) وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ (٧٥) خمس آيات بلا خلاف

قرأ اهل الكوفة إلا الكسائي عن أبي بكر ﴿ فتحت ... وفتحت ﴾ بالتخفيف فيهما . الباقون بالتشديد . من خفف قال : لانها تفتح دفعة واحدة ، ومن شدد قال : لانها تفتح مرة بعد اخرى . ولقوله ﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ (١) .

لما اخبر الله تعالى عن حال الكافرين والمؤمنين وانه يحشر الخلق فى ارض الموقف ، وانه يعاقب كل احد على قدر استحقاقه ، اخبر - ههنا - عن قسمة احوالهم فقال ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾ فالسوق الحث على السير يقال : ساقه يسوقه سوقاً ، فهو سائق وذاك مسوق ، ومنه قولهم : الكلام يجري على سياقة واحدة ، ومنه السوق لأن المعاملة فيها تساق بالبيع والشراء ، ومنه الساق لانه ينساق به البدن ، و (الزمر) جمع زمرة وهي الجماعة لها صوت المزمار ، ومنه مزامير داود عليه السلام يعني اصوات له كانت مستحسنة ، وقال الشاعر :

له زجل كأنه صوت حاد إذا طلب الوسيقة اوزمير (٢)

---

(١) سورة ٣٨ (ص) آية ٥٠ (٢) قائله الشماخ اللسان (زجل) وسيبويه ١ | ١١

قال ابو عبيدة : معناه جماعات في تفرقة بعضهم في أثر بعض ﴿ حتى إذا جاؤها ﴾ يعني جاؤا جهنم ﴿فتحت أبوابها﴾ أي ابواب جهنم ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ الموكلون بها على وجه الانكار عليهم والتهجين لفعلهم ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ يعني من امثالكم من البشر ﴿ يتلون ﴾ أي يقرؤن ﴿ عليكم آيات ربكم ﴾ أي حجج ربكم ، وما يدلكم على معرفته ووجوب عبادته ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أي ويخوفونكم من مشاهدة هذا اليوم وعذابه ، فيقول الكفار لهم ﴿ بلى ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا ، وخوفونا لانه لا يمكنهم جحد ذلك لحصول معارفهم الضرورية ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ ومعناه أنه وجب العقاب على من كفر بالله ، لانه تعالى اخبر بذلك وعلم من يكفر ويوافي بكفره ، فقطع على عقابه ، فلم يكن يقع خلاف ما علمه واخبر به ، فصار كوننا في جهنم موافقاً لما أخبر به تعالى وعلمه ، فيقول لهم عند ذلك الملائكة الموكلون بجهنم ﴿ إدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أي مؤبدين لا آخر لعقابكم ثم قال تعالى ﴿ فبئس مثوى ﴾ أي بئس مقام ﴿المتكبرين﴾ جهنم . ثم اخبر تعالى عن حال أهل الجنة بعد حال اهل جهنم فقال ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم ﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته « إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤها وفتحت ابوابها » وإنما جاء في الجنة ، وفتحت ابوابها بالواو ، وفي النار فتحت بغير واو ، لأنه قيل : أبواب النار سبعة ، وابواب الجنة ثمانية ، ففرق بينهما للايذان بهذا المعنى ، قالوا : لان العرب تعد من واحد إلى سبعة وتسميه عشراً ويزيدون واواً تسمى واو العشر ، كقوله « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف » ثم قال ﴿ والناهون عن

المنكر ﴾ (١) فاتى بالواو بعد السبعة ، وقال ﴿ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وابكاراً ﴾ (٢) فاتى بالواو فى الثامنة . وقيل : ان المعنى واحد ، وإنما حذفت تارة وجيء بها اخرى تصرفاً فى الكلام . قال الفراء : الواو لا تقحم إلا مع (لما) و (حتى) و (إذا) وانشد .

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى (٣)

أرار انتحى وقيل: دخلت الواو لبيان انها كانت مفتحة قبل مجيئهم وإذا كان بغير واو افادانها فتحت فى ذلك الوقت وجواب (حتى إذا) في صفة اهل الجنة محذوف وتقديره حتى إذا جاؤها قالوا المنى او دخلوها او تمت سعادتهم او ما اشبه ذلك وحذف الجواب ابلغ لاحتماله جميع ذلك ومثله قول عبد مناف بن ربيع .

حتى إذا سلكوهم في قتائدة شلا   كما تطرد الجمالة الشردا (٤)

وهو آخر القصيدة ، فحذف الجواب . وقوله ﴿ وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم ﴾ أي طابت أفعالكم من الطاعات وزكت ﴿ فادخلوها ﴾ أي الجنة جزاء على ذلك ﴿ خالدين ﴾ مؤبدين لا غاية له ولا انقطاع ، وقيل : معناه طابت أنفسكم بدخول الجنة .

ثم حكى تعالى ما يقول أهل الجنة إذا دخلوها ، فانهم يقولون اعترافاً بنعم الله عليهم ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض ﴾ يعنون ارض الجنة . وقيل : ورثوها عن أهل النار ، وقيل : لما صارت الجنة عاقبة أمرهم كما يصير الميراث ، عبر عن ذلك بأنه اورثهم وقوله ﴿ نتبوء من الجنة حيث نشاء ﴾ معناه

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ١١٣   (٢) سورة ٦٦ التحريم آية ٥

(٣) مر تخريجه في ٦ / ١٠٩   (٤) مر فى ١ / ١٢٨ ، ١٤٩ و ٦ / ٣٢٢ ، ٤٥٩ و ٧ / ٣٦٣ .

نتخذ متبوءاً أي مأوى حيث نشاء ، وأصله الرجوع من قولهم : باء بكذا أي رجع به . ثم قال ﴿ فنعم اجر العاملين ﴾ يعني المقام في الجنة والتنعم فيها .

ثم قال تعالى ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ أي محدقين به ـ في قول قتادة والسدي ـ ﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ أي ينزهون الله تعالى عما لا يليق به ويذكرونه بصفاته التي هو عليها . وقيل : تسبيحهم ذلك الوقت على سبيل التنعم والتلذذ ثواباً على أعمالهم لا على وجه التعبد ، لأنه ليس هناك دار تكليف . وقيل : الوجه في ذلك تشبيه حال الآخرة بحال الدنيا ، فان السلطان الأعظم إذا أراد الجلوس للمظالم والقضاء بين الخلق قعد على سريره واقام حشمه وجنده قدامه وحوله تعظيماً لأمره فلذلك عظم الله أمر القضاء في الآخرة بنصب العرش وقيام الملائكة حوله معظمين له تعالى مسبحين وإن لم يكن تعالى على العرش لأن ذلك يستحيل عليه لكونه غير جسم ، والجلوس على العرش من صفات الأجسام .

ثم قال تعالى ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي فصل بين الخلائق بالحق لا ظلم فيه على أحد ، وقيل ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ اخبار منه تعالى أن جميع المؤمنين يقولون عند ذلك معترفين بأن المستحق للحمد والشكر الذي لا يساويه حمد ولا شكر (الله) الذي خلق العالمين ودبرها . وقيل : لأن الله خلق الاشياء الحمد لله الذي خلق السموات والارض ، فلما أفنى الخلق ثم بعثهم واستقر اهل الجنة في الجنة ختم بقوله ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

٤٠ - سورة المؤمن

مكية - في قول مجاهد وقتادة - ليس فيها ناسخ ولا منسوخ . وقال الحسن هي مكية إلا آية واحدة وهي قوله ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار ﴾ يعني بذلك صلاة الفجر والمغرب وقد ثبت أن فرض الصلاة كان بالمدينة . وهي خمس وثمانون آية فى الكوفي وأربع فى المدنيين واثنتان فى البصري .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ ٱللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ ٱللهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٥) .

خمس آيات فى الكوفى وأربع فى ما عداه عدّ الكوفيون (حم) آية ولم يعدها الباقون .

قرأ اهل الكوفة إلا حفصاً وابن ذكوان ﴿ حاميم ﴾ بامالة الألف . الباقون بالفتح من غير امالة وهما لغتان فصيحتان . وقال قوم ﴿ حم ﴾ موضعه نصب، وتقديره اتل ﴿ حم ﴾ اقرأ ﴿ حم ﴾ وقال آخرون : موضعه جرّ بالقسم . ومن جزم قال : لانها حروف التهجي وهي لا يدخلها الاعراب ، وقد فتح الميم عيسى ابن عمر، وجعله اسم السورة ، فنصبه ولم ينون، لأنه على وزن (هابيل) ويجوز ان يكون فتح لالتقاء الساكنين . والقراء على تسكين الميم وهو الأجود لما بيناه.

وقد بينا اختلاف المفسرين واهل العربية في مبادىء السور بحروف التهجي ومعناها ، وأن اقوى ما قيل في ذلك انها اسماء للسور ، وذكرناها في الأقوال، فلا نطول باعادته .

وقال قتادة والحسن : (حم) اسم السورة . وقال شريح بن أوفى العبسي :

يذكرني (حم) والرمح شاهر فهلا تلا (حم) قبل التقدم

وقال الكميت :

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها مناتقي ومعرب

وقوله ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أي هو تنزيل ﴿ من الله ﴾ أنزله على نبيه ﴿ العزيز ﴾ معناه القادر الذي لا يغالب ولا يقهر المنيع بقدرته على غيره ولا يقدر عليه غيره . وهذه الصفة لا تصح إلا لله تعالى واصل الصفة المنع من قولهم : عزّ كذا وكذا أي امتنع ، وفلان عزيز أي منيع بسلطانه او عشيرته او قومه «والعليم» الكثير العلوم والعالم الذي له معلوم .

وقوله ﴿ غافر الذنب ﴾ جرّ بأنه صفة بعد صفة ، ومعناه من شأنه غفران الذنب في ما مضى وفي ما يستقبل ، فلذلك كان من صفة المعرفة ﴿ وقابل التوب ﴾

قال الفراء : إنما جعلهـا نعتاً للمعرفة وهي نكرة ، لأن المعنى ذي الغفران ، وذي قبول التوبة كقوله « ذي الطول » وهو معرفة وإن جعلته بدلا كانت النكرة والمعرفة سواء ، ومعنى « قابل التوب » إنه يقبل توبة من تاب اليه من المعاصي بأن يثيب عليها ويسقط عقاب معاصي ما تقدمها تفضلا منه ، ولذلك كان صفة مدح ، ولو كان سقوط العقاب عندهـا واجباً لما كان فيه مدح و (التوب) يحتمل وجهين :

احدها ـ ان يكون جمع توبة كدوم ودومة وعوم وعومة .

والثاني ـ ان يكون مصدر (تاب يتوب توباً) .

وقوله « شديد العقاب » معناه شديد عقابه وذكر ذلك عقيب قوله « غافر الذنب » لأنه أراد لئلا يعول المكلف على العفو بل يخاف عقـابه أيضاً لأنه كما انه يغفر لكونه غافراً فقد يعاقب لكونه شديد العقاب . وفرق بين شدة العقاب وتضاعف الالام بان الخصلة الواحدة من الألم يكون اعظم من خصال كثيرة من ألم آخر كالالم في أجزا كثيرة من قرض برغوث .

وقوله « ذي الطول » قال ابن عباس وقتادة : معناه ذي النعم . وقال ابن زيد : معناه ذي القدرة . وقال الحسن : ذي التفضل على المؤمنين . وقيل (الطول) الانعام الذي تطول مدته على صاحبـه كما أن التفضل النفع الذي فيه افضال على صاحبه . ولو وقع النفع على خلاف هذا الوجه لم يكن تفضلا . ويقال : لفلان على فلان طول أي فضل .

وقوله « لا إله إلا هو » نفي منه تعالى أن يكون معبود على الحقيقة يستحق العبادة غيره تعالى . ثم قال « اليه المصير » ومعناه تؤل الأمور إلى حيث لا يملك أحد الامر والنهي والضر والنفع غيره تعالى ، وهو يوم القيامة ، لأن دار الدنيا

قد ملك الله كثيراً من خلقه الأمر والنهي والضر والنفع . ثم قال « ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا » معناه لا يخاصم في دفع حجج الله وإنكارها وجحدها إلا الذين يجحدون نعم الله ويكفرون بآياته وأدلته . ثم قال لنبيه « فلا يغررك » يا محمد « تقلبهم في البلاد » أي تصرفهم لقولهم : لفلان مال يتقلب فيه أي يتصرف فيه . والمعنى لا يغررك سلامتهم وإمهالهم ، فان عاقبتهم تصير إليّ ولا يفوتونني . وفي ذلك غاية التهديد .

ثم بين ذلك بأن قال « كذبت قبلهم » أي قبل هؤلاء الكفار « قوم نوح » بان جحدوا نبوته « والاحزاب من بعدهم » أيضاً كذبوا رسلهم « وهمت كل أمة برسولهم » وإنما قال برسولهم لانه اراد الرجال . وفي قراءة عبد الله « برسولها ليأخذوه » قال قتادة هموا به ليقتلوه « وجادلوا بالباطل » أي وخاصموا في دفع الحق بباطل من القول . وفي ذلك دليل على ان الجدال إذا كان بحق كان جائزاً « ليدحضوا به الحق » أي ليبطلوا الحق الذي بينه الله واظهره ويزيلوه ، يقال : أدحض الله حجته . وقال تعالى « حجتهم داحضة عند ربهم » (١) أي زائلة . ثم قال « فاخذتهم » أي فأهلكتهم ودمرت عليهم « فكيف كان عقاب » فما الذي يؤمن هؤلاء من مثل ذلك ؟ !

قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ (٦) ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ

---

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦

كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّآتِ وَمَنْ تَقِ ٱلسَّيِّآتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ (١٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ نافع وابن عامر « حقت كلمات » على الجمع . الباقون على التوحيد . من وحد فلأن الكلمة تقع على القليل والكثير مفردة . ومن جمع فلأن ذلك قد يجمع إذا اختلف اجناسها ، كما قال « وصدقت بكلمات ربها » (١) يعني شرائعه لأن كتبه قد ذكرت . والمعنى وحقت كلمات ربك ، كقولهم : الحق لازم . ووجه التشبيه في قوله « وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا » أن الكفار يعاقبون فى الآخرة بالنار ، كما عوقبوا فى الدنيا بعذاب الاستئصال إلا انهم في الآخرة على ملازمة النار والحصول فيها ، وقد حقت الكلمة عليهم فى الأمرين جميعاً ، فحقت الكلمة على هؤلاء كما حقت الكلمة على اولئك . وموضع « إنهم اصحاب النار » يحتمل أن يكون نصباً على تقدير بأنهم أو لأنهم . ويحتمل أن يكون رفعاً على البدل من (كلمة) . وقال الحسن : حقت كلمة ربك على مشركي

(١) سورة ٦٦ التحريم آية ١٢

العرب كما حقت على من قبلهم .

ثم اخبر تعالى عن حال الملائكة وعظم منزلتهم بخلاف ما عليه الكفار من البشر ، فقال « الذين يحملون العرش » عبادة لله تعالى وامتثالا لأمره « ومن حوله » يعني الملائكة الذين حول العرش يطوفون به ويلجئون اليه « يسبحون بحمد ربهم » أي ينزهونه عما لا يليق به ويحمدونه على نعمه « ويؤمنون به » أي ويصدقون به ويعترفون بوحدانيته « ويستغفرون للذين آمنوا » أي يسألون الله المغفرة للذين آمنوا - من البشر - أي صدقوا بوحدانيته واعترفوا بالالهية . ويقولون : ايضاً مع ذلك « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » ونصبهما على التميز ومعناه وسعت رحمتك أي نعمتك ومعلومك كل شيء ، فنقل الفعل إلى الموصوف على وجه المبالغة ، كما قالوا : طبت به نفساً . وجعل العلم فى موضع المعلوم ، كما قال « ولا يحيطون بشيء من علمه » (١) أي بشيء من معلومه على التفصيل ، وتقديره : وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ، ويقولون أيضاً ربنا « فاغفر للذين تابوا » من معاصيك ورجعوا إلى طاعتك « واتبعوا سبيلك » الذي دعوت خلقك اليه من التوحيد وإخلاص العبادة « وقهم عذاب الجحيم » أمنع منهم عذاب جهنم لا يصل اليهم ، وحذف يقولون قبل قوله « ربنا » لأنه مفهوم من الكلام . واستغفارهم للذين تابوا يدل على ان اسقاط العقاب غير واجب لأنه لو كان واجباً لما كان يحتاج إلى مسألتهم بل الله تعالى كان يفعله لامحالة .

ثم حكى تمام ما يدعوا به حملة العرش والملائكة المؤمنين ، فانهم يقولون ايضاً « ربنا وأدخلهم » مع قبول توبتك منهم ووقاية النار « جنات عدن التي

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٦

وعدتهم ﴾ أي الجنة التي وعدت المؤمنين بها وهي جنة عدن أي إقامة وخلود ودوام ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ كل ذلك في موضع نصب . ويحتمل أن يكون عطفاً على الهاء والميم في ﴿ وأدخلهم ﴾ وتقديره وادخل من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم الجنة ايضاً . ويحتمل ان يكون عطفاً على الهاء والميم في ﴿ وعدتهم ﴾ وتقديره أدخلهم جنات عدن التي وعدت المؤمنين ووعدت من صلح من آبائهم ﴿ إنك انت العزيز ﴾ في انتقامك من اعدائك ﴿ الحكيم ﴾ في ما تفعل بهم وبأولئك ، وفي جميع أفعالك . وقولهم ﴿ وقهم السيئات ﴾ معناه وقهم عذاب السيئات ويجوز أن يكون العذاب هو السيئات وسماه سيئات ، كما قال ﴿ وجزاء سيئة سيئة ﴾ (١) للاتساع وقوله ﴿ ومن تق السيئات ﴾ أي تصرف عنه شر عاقبة سيئاته من صغير اقترفه او كبير تاب منه فتفضلت عليه ﴿ يومئذ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ أي صرف العذاب عنهم هو الفلاح العظيم ، والفوز الظاهر .

ثم اخبر تعالى ﴿ إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم انفسكم إذ تدعون إلى الايمان فتكفرون ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد : مقتوا أنفسهم حين عاينوا العقاب ، فقيل لهم : مقت الله إياكم اكبر من ذلك . وقال الحسن : لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله اكبر من مقتكم انفسكم . وقال البلخي : لما تركوا الايمان وصاروا إلى الكفر فقد مقتوا انفسهم أعظم المقت ، كما يقول احدنا لصاحبه : إذا كنت لاتبالي بنفسك فلما أبالي بك ؟! وليس يريد انه لا يبالي بنفسه لكنه يفعل فعل من هو كذلك . وقال قوم : لمقت الله اكبر من مقت بعضكم لبعض . والمقت اشد العداوة والبغض

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠

ثم بين أن مقت الله إياهم حين دعاهم إلى الأيمان على لسان رسله فكفروا به وبرسلهم فمقتهم الله عند ذلك ، وتقدير ﴿ ينادون لمقت الله ﴾ ينادون إن مقت الله إياكم ، ونابت اللام مناب (إن) كما تقولون ناديت إن زيداً لقائم وناديت لزيد قائم . وقال البصريون هـذه لام الابتداء ، كما يقول القائل : لزيد أفضل من عمرو أي يقال لهم والنداء قول .

قولـه تعـالى :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١٧) .

سبع آيات عند الكل إلا ان الشامي قد خالفهم في التفصيل ، وهي عندهم سبع عدوا ﴿ يوم التلاق ﴾ ولم يعده الشامي ، وعد الشامي ﴿ يومهم بارزون ﴾ ولم

بعده الباقون .

حكى الله تعالى عن الكفار الذين تقدم وصفهم انهم يقولون بعد حصولهم في النار والعذاب يا ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال السدي الاماتة الأولى في الدنيا والثانية في البرزخ إذا أحيي المسألة قبل البعث يوم القيامة ، وهو اختيار الجبائي والبلخي . وقال قتادة : الاماتة الأولى حال كونهم نطفاً فاحياهم الله ، ثم يميتهم ، ثم يحييهم يوم القيامة . وفي الناس من أستدل بهذه الآية على صحة الرجعة ، بأن قال : الاماتة الأولى في دار الدنيا والاحياء الأول حين إحيائهم الرجعة ، والاماتة الثانية بعدها . والاحياء الثاني يوم القيامة ، فكأنهم اعتمدوا قول السدي ، ان حال كونهم نطفاً لا يقال له إماتة ، لان هذا القول يفيد اماتة عن حياة والاحياء يفيد عن إماتة منافية للحياة وإن سموا في حال كونهم نطفاً مواتاً . وهذا ليس بقوي لأنه لو سلم ذلك لكان لابد من أربع احيا آت و ثلاث إماتات أول إحياء حين أحياهم بعد كونهم نطفاً ، لان ذلك يسمى احياء بلا شك . ثم اماتة بعد ذلك في حال الدنيا . ثم أحياء في القبر ثم إماتة بعده ثم إحياء في الرجعة ثم إماتة بعدها . ثم إحياء يوم القيامة لكن يمكن أن يقال : إن إخبار الله عن الاحياء مرتين والاماتة مرتين لايمنع من احياء آخر وإماتة أخرى . وليس في الآية انه احياهم مرتين وأماتهم مرتين بلا زيادة ، فالآية محتملة لما قالوه ومحتملة لما قاله السدي ، وليس للقطع على احدهما سبيل . قال ابن عباس وعبد الله والضحاك : هو كقوله ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون ﴾ (١) .

وقوله ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ إخبار منه تعالى أن الكفار يعترفون بذنوبهم

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٨

التي اقترفوها في الدنيا لا يمكنهم جحدها ، وإنما تمنوا الخروج مما هم فيه من العذاب ، فقالوا ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ والمعنى فهل إلى خروج لنا من سبيل فنسلكه في طاعتك وإتباع مرضاتك . ولو علم الله تعالى انهم يفلحون لردهم إلى حال التكليف ، لانه لايمنع احساناً بفعل ما ليس باحسان ، ولا يؤتى احد من عقابه إلا من قبل نفسه ، وكذلك قال في موضع آخر ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ (١) تنبيهاً أنهم لو صدقوا في ذلك لأجابهم إلى ما تمنوه ، وإنما يقولون هذا القول على سبيل التمني بكل ما يجدون اليه سبيلا في التلطف للخروج عن تلك الحال ، وإنه لا يمكن احداً أن يتجلد على عذاب الله ، كما يمكن ان يتجلد على عذاب الدنيا . ووجه إتصال قوله ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ بما قبله هو الاقرار بالذنب بعد الاقرار بصفة الرب ، كأنه قيل : فاعترفنا بانك ربنا الذي أمتنا وأحييتنا وطال امهالك لنا فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج لنا من سبيل فنسلكه في طاعتك وإتباع مرضاتك . وفي الكلام حذف وتقديره : فاجيبوا ليس من سبيل لكم إلى الخروج ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم ﴾ أي إذا دعي الله وحده دون آلهتكم جحدتم ذلك ﴿ وإن يشرك به تؤمنوا ﴾ أي إن يشرك به معبوداً آخر من الاصنام والأوثان تصدقوا . ثم قال ﴿ فالحكم لله ﴾ في ذلك والفاصل بين الحق والباطل ﴿ العلي الكبير ﴾ فالعلي القادر على كل شيء يجب ان يكون قادراً عليه ، ويصح ذلك منه وصفة القادرين تتفاضل ، فالعلي القادر الذي ليس فوقه من هو أقدر منه ولا من هو مساو له في مقدوره ، وجاز وصفه تعالى بالعلي ، لان الصفة بذلك قد تقلب من علو المكان الى علو الشأن يقال : استعلى عليه بالقوة ، واستعلى عليه بالحجة وليس كذلك الرفعة فلذلك لا يسمى بأنه رفيع ، والكبير العظيم في صفاته

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢٨

التي لا يشاركه فيها غيره . وقال الجبائي : معناه السيد الجليل . ثم قال تعالى ﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ يعني حججه ودلائله ﴿ وينزل من السماء رزقاً ﴾ من الغيث والمطر الذي ينبت ما هو رزق الخلق ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ أي ليس يتفكر في حقيقة ذلك إلا من يرجع اليه . وقال السدي : معناه إلا من يقبل إلى طاعة الله .

ثم امر الله تعالى المكلفين ، فقال ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أي وجهوا عبادتكم اليه تعالى وحده ﴿ ولو كره ﴾ ذلك ﴿ الكافرون ﴾ فلا تبالوا بهم . ثم رجع إلى وصف نفسه فقال ﴿ رفيع الدرجات ﴾ وقيل معناه رفيع طبقات الثواب التي يعطيها الانبياء والمؤمنين في الجنة (ورفيع) نكرة أجراها على الاستئناف أو على تفسير المسألة الأولى ، وتقديره : وهو رفيع ﴿ ذو العرش ﴾ بانه مالكه وخالقه ومعناه عظيم الثواب لهم والمجازاة على طاعتهم ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ قيل : الروح القرآن وكل كتاب أنزله الله على نبي من انبيائه وقيل : معنى الروح - ههنا - الوحي ، لأنه يحيا به القلب بالخروج من الجهالة إلى المعرفة ومنه قوله ﴿ وكذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا ﴾ (١) ذكره قتادة والضحاك وابن زيد . وقيل : الروح - ههنا - النبوة ، وتقديره لينذر من يلقي عليه الروح يوم التلاق : من يختاره لنبوته ويصطفيه لرسالته . وقوله ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ أي ليخوف يوم يلتقي فيه اهل السماء واهل الأرض - في قول قتادة والسدي وابن زيد - وقيل يوم يلقى فيه المرؤ عمله ، وهو يوم القيامة حذر منه . وقيل يوم يلتقي فيه الأولون والآخرون . والضمير في قوله ﴿ لينذر كناية ﴾ عن النبي ﷺ . ويحتمل ان يكون فيه ضمير الله ، والأول أجود ، لانه قد قرىء

(١) سورة ٤٢ الشورة آية ٥٢

بالتاء ، وهو حسن . ومن أثبت الياء فلأنها الأصل ، ومن حذف اجتزأ بالكسرة الدالة عليها .

وقوله ﴿ يوم هم بارزون ﴾ أي يظهرون من قبورهم ويهرعون إلى ارض المحشر وهو يوم التلاق ويوم الجمع ويوم الحشر . ونصب (يوم) على الظرف . وقوله لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ إنما خصهم بأنه لا يخفى عليه منهم شيء وإن كان لا يخفى عليه لا منهم ولا (من) غيرهم شيء لا حد أمرين:

احدها - أن تكون (من)لتبيين الصفة لاللتخصيص والتبعيض .

والآخر - ان يكون بمعنى يجازيهم من لا يخفى عليه شيء منهم ، فذكر بالتخصيص لتخصيص الجزاء بمن يستحقه دون ما لا يستحقه ولا يصح له من المعلوم .

وقيـل : لا يخفى على الله منهم شيء فلذلك صح أنه انذرهم جميعاً .

وقوله ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ قيل في معناه قولان :

احدها - انه تعالى يقرر عباده ، فيقول لمن الملك ؟ فيقر المؤمنون والكافرون بأنه لله الواحد القهار .

والثاني - انه القائل لذلك وهو المجيب لنفسه ، ويكون في الاخبار بذلك مصلحة للعباد في دار التكليف . والاول أقوى لأنه عقيب قوله ﴿ يوم هم بارزون ﴾ وإنما قال ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ مع أنه يملك الانبياء والمؤمنين في الآخرة الملك العظيم لاحد وجهين :

احدها - لانه على تخصيص يوم القيامة قبل تمليك اهل الجنة ما يملكهم .

والثاني - لا يستحق إطلاق الصفة بالملك إلا الله تعالى ، لانه يملك جميع الأمور من غير تمليك مملك ، فهو أحق باطلاق الصفة . وقوله ﴿ اليوم تجزى كل نفس ما كسبت لاظلم اليوم ﴾ اخبار منه تعالى أن يوم القيامة تجزى كل نفس على قدر

عملها لا يؤاخذ أحد بجرم غيره ، لا يظلم ذلك اليوم أحد ولا يبخس حقه ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ لا يشغله محاسبة واحد عن محاسبة غيره ، فحساب جميعهم على حد واحد .

قوله تعالى :

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢٠)

ثلاث آيات في الكوفي وأربع في ما سواه عدوا ﴿ كاظمين ﴾ رأس آية ولم يعده الكوفيون .

قرأ نافع وهشام عن ابن عامر ﴿ والذين تدعون ﴾ بالتاء . الباقون بالياء . من قرأ بالتاء فعلى الخطاب ، وتقديره : قل لهم يا محمد . ومن قرأ بالياء جعل الاخبار عن الغائب .

امر الله تعالى نبيه محمداً أن يخوف المكلفين عقاب يوم الآزفة ، ويخبرهم بما فيه من الثواب والعقاب . والازفة الدانية من قولهم : ازف الامر إذا دنا . وازف الوقت اذا دنا يأزف أزفاً ، ومنه ﴿ ازفة الآزفة ﴾ (١) أي دنت القيامة . والمعنى دنوا المجازاة ، وهو يوم القيامة .

وقوله ﴿ اذ القلوب لدى الحناجر ﴾ أي في الوقت الذي تنتزع فيه القلوب من أمكنتها ، وهي الصدور ، فكظمت به الحناجر ، فلم تستطيع ان تلفظها

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٥٧

ولم تعد الى أماكنها وقيل: الكاظم الساكت على امتلائه غيظاً أو غماً . ونصب (كاظمين) على الحال ـ في قول الزجاج ـ وتقديره قلوب الظالمين لدى الحناجر ﴿ كاظمين ﴾ أي في حال كظمهم ، والحناجر جمع حنجرة وهي الحلقوم . وقيل: انما خصت الحناجر بذلك لأن الفزع ينتفخ منه سحره أي رئته فيرتفع القلب من مكانه لشدة انتفاخه حتى يبلغ الحنجرة . والكاظم للشيء الممسك على ما فيه ، ومنه قوله ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ (١) ومنه قولهم : كظم قربته اذا شد رأسها ، لأن ذلك الشد يمسكها على ما فيها ، فهؤلاء قد اطبقوا أفواههم على ما في قلوبهم لشدة الخوف .

وقوله ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ نفي من الله أن يكون للظالمين شفيع يطاع ، ويحتمل ان يكون المراد بالظالمين الكفار ، فهؤلاء لا يلحقهم شفاعة شافع اصلا . وان حملنا على عموم كل ظالم من كافر وغيره جاز أن يكون انما اراد نفي شفيع يطاع ، وليس في ذلك نفي شفيع يجاب ، ويكون المعنى ان الذين يشفعون يوم القيامة من الأنبياء والملائكة والمؤمنين إنما يشفعون على وجه المسألة اليه والاستكانة اليه لا أنه يجب على الله ان يطيعهم فيه . وقد يطاع الشافع بأن يكون الشافع فوق المشفوع اليه . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله لبريرة (انما أنا شافع) لكونه فوقها في الرتبة ولم يمنع من إطلاق اسم الشفاعة على سؤاله ، وليس لأحد أن يقول الكلام تام عند قوله ﴿ ولا شفيع ﴾ ويكون قوله ﴿ يطاع ﴾ ابتداء بكلام آخر لان هذا خلاف لجميع القراء لانهم لايختلفون ان الوقف عند قوله (يطاع) وهو رأس آية وهو يسقط السؤال وأيضاً فلو وقفت عند قوله ﴿ ولا شفيع ﴾ لما كان لقوله « يطاع »

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٣٤

تعلق به ولا معنى ، لأن الفعل لايلي فعلا ، فان قدر يطاع الذي يعلم كان ذلك شرطاً ليس هو فى الظاهر ، فحمل الآية على مالا يحتاج إلى زيادة أولى .

وقوله تعالى ﴿ يعلم خائنة الاعين ﴾ أي يعلم ما تختان به الأعين من النظر إلى غير ما يجوز النظر اليه على وجه السرقة « وما تخفي الصدور » أي تضمره لايخفى عليه شيء من جميعه . وقيل : النظرة الأولى مباحة والثانية محرمة . فقوله « خائنة الاعين » في النظرة الثانية « وما تخفي الصدور » فى النظرة الأولى فان كانت الأولى تعمداً كان فيها الأثم ايضاً ، وإن لم تكن تعمداً ، فهي مغفورة ثم قال « والله يقضي بالحق » أي يفصل بين الخلائق بمر الحق فيوصل كل واحد إلى حقه « والذين يدعون من دونه » من الأصنام لا يقضون بشيء من الحق . ومن قرأ بالياء فعلى الاخبار عنهم . ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب للكفار .

ثم اخبر تعالى « ان الله هو السميع » أي من يجب ان يسمع المسموعات اذا وجدت المسموعات « البصير » أي يجب ان يبصر المبصرات اذا وجدت المبصرات ، وحقيقتهما يرجع الى كونه حياً لا آفة به . وقال قوم : معناه العالم بالمسموعات العالم بالمبصرات.

قولــه تعــالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ(٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ

ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا ٱقْتُلُوا أَبْنَاءَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَٱسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عباس « اشد منكم » بالكاف. الباقون بالهاء. قال ابو علي: من قرأ بالهاء فلأن ما قبله « او لم يسيروا » على ان لفظه لفظ الغيبة، فحمله على ذلك فقرأ « اشد منهم » ومن قرأ بالكاف انصرف من الغيبة الى الخطاب، كقوله « إياك نعبد » بعد قوله « الحمد لله » وحسن ـ هنا ـ لأنه خطاب لاهل مكة.

يقول الله تعالى منبهاً لهؤلاء الكفار على النظر في ما نزل بالماضين جزاء على كفرهم فيتعظوا بذلك وينتهوا عن مثل حالهم، فقال « او لم يسيروا في الارض » والسير والمسير واحد، وهو الجواز في المواضع، يقال: سار يسير سيراً وسايره مسايرة وسيره تسييراً، ومنه قوله « السيارة » (١) والثياب المسيرة: التي فيها خطوط وقوله « فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم » أي يتفكروا في عواقب الكفار من قوم عاد وقوم لوط، فيرون بلادهم هالكة وآثارهم دارسة ومنازلهم خالية بما حل بهم من عذاب الله ونكاله جزاء على جحودهم نعم الله واتخاذهم معه إلهاً غيره، وكان الأمم الماضية أشد قوة من هؤلاء. والقوة هي القدرة، ومنه قوله « القوي العزيز » (٢) وقد يعبر بالقوة عن الصلابة، فيقال:

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠ (٢) سورة ١١ هود آية ٦٦ وسورة ٤٢ الشورى آية ١٩

خشبة قويه وحبل قوي أي صلب ، وأصله من قوى الحبل ، وهو شدة الفتل ثم نقل إلى معنى القدرة ، كما نقل (كبر) عن كبر الجثة إلى كبر الشأن ، والأثر حدث يظهر به أمر ، ومنه الآثار التي هي الاحاديث عمن تقدم بما تقدم بها من احوالهم وطرائقهم في أمر الدنيا والدين . وقوله « فاخذهم الله بذنوبهم » ومعناه فأهلكهم الله جزاء على معاصيهم « وما كان لهم من الله من واق » في دفع العذاب عنهم ومنعهم من نزوله بهم ـ وهو قول قتادة ـ .

ثم بين تعالى انه إنما فعل بهم ذلك لأنهم « جاءتهم رسلهم بالبينات » يعني بالمعجزات الظاهرات والدلالات الواضحات فكذبوهم وجحدوا رسالتهم فاستحقوا العذاب « فاخذهم الله بذنوبهم » أي اهلكهم الله جزاء على معاصيهم « انه قوي شديد العقاب » أي قادر شديد عقابه .

ثم ذكر قصة موسى عليه السلام فقال « ولقد ارسلنا موسى بآياتنا » أي بعثناه بحججنا وادلتنا « وسلطان مبين » أي حجة ظاهرة نحو قلب العصى حية وفلق البحر وغير ذلك « الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب » يعني موسى . ثم قال تعالى « فلما جاءهم » يعني موسى عليه السلام « بالحق من عندنا قالوا » يعني فرعون وهامان وقارون « اقتلوا ابناء الذين آمنوا » بموسى ومن معه « واستحيوا نساءهم » أي استبقوهم ، قال قتادة : كان هذا الامر بقتل الابناء والاستحياء للنساء امراً من فرعون بعد الامر الاول . وقيل استحياء نسائهم للمهنة . وقيل: معناه استحيوا نساءهم وقتلوا الابناء ليصدوهم بذلك عن اتباعه ويقطعوا عنه من يعاونه ، وإنما ذكر قصة موسى ليصبر محمد صلى الله عليه وآله على قومه كما صبر موسى قبله .

ثم اخبر تعالى ان ما فعله من قتل الرجال واستحياء النساء لم ينفعه وان كيده ، وكيد الكافرين لا يكون الا في ضلال عن الحق واسم (كان) الاولى قوله

« عاقبة » وخبرها (كيف) وانما قدم لان الاستفهام له صدر الكلام ، واسم (كان) الثانية الضمير الذي دل عليه الواو ، وخبره (من قبلهم) ، واسم (كان) الثالثة الضمير ، و(هم) فصل عند البصريين ، وعماد عند الكوفيين « واشد » خبر (كان) الثالثة . فان قيل : الفصل لا يكون الا بين معرفتين (واشد) نكرة كيف صار (هم) فصلا ؟ قيل : ان (افعل) الذى معه (من) بمنزلة المضاف الى المعرفة . قال الله تعالى « وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً » كان خيرا خير فى الاصل فحذفت الهمزة تخفيفاً .

قولـــه تعـــالى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ ٱللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ

يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب « او ان » بالف قبل الواو . الباقون « وأن » بغير الف . وقرأ نافع ويعقوب وابو جعفر وابو عمرو وحفص عن عاصم « يظهر » بضم الياء « الفساد » نصباً . الباقون « يظهر » بفتح الياء «الفساد» رفعاً . من نصب (الفساد) أشركه مع التبديل ، وتقديره إني أخاف ان يبدل دينكم واخاف ان يظهر الفساد . ومن رفع لم يشركه ، وقال تقديره إني اخاف ان يبدل دينكم ، فاذا بدل ظهر في الأرض الفساد . وكلتا القراءتين حسنة فأما (او) فقد تستعمل بمعنى الواو ، كما قلناه في « وأرسلناه إلى مئة الف او يزيدون »(١) أي ويزيدون أو بل يزيدون . ولا تكون الواو بمعنى (او) في قول أبي عبيدة . وقال ابن خالويه إذا كانت (او) اباحة كانت الواو بمعناها ، لأن قولك : جالس الحسن او ابن سيرين بمنزلة الاباحة ، وكذلك قوله « ولا تطع منهم آثما او كفوراً »(٢) لان معناه ولا كفوراً . وقال ابو علي : من قرأ (وأن) فالمعنى إني أخاف هذا الضرب منه كما تقول كل خبزاً او تمراً أي هذا الضرب . ومن قرأ (وأن) المعنى إني اخاف هذين الأمرين وعلى الاول يجوز ان يكون الأمران مخافا ، ويجوز أن يكون احدهما ، وعلى الثاني هما معاً يخافان . ومن ضم الياء في قوله « ويظهر » فلأنه اشبه بما قبله ، لان قبله يبدل فأسند الفعل إلى موسى وهم كانوا في ذكره ، ومن فتح الياء اراد انه إذا بدل الدين ظهر الفساد بالتبديل او اراد يظهر الفساد بمكانه . وقال قوم : اراد بـ (او) الشك لان فرعون قال إني

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٤٧ (٢) سورة ٧٦ الدهر (الانسان) آية ٢٤

أخاف ان يبدل موسى عليكم دينكم ، فان لم يفعله فيوقع الفساد بينكم ، ولم يكن قاطعاً على احدها به . وروي رواية شاذة عن أبي عمرو : انه قرأ « وقال رجل » باسكان الجيم . الباقون بضمها وذلك لغة قال الشاعر :

رجلان من ضبة اخبرانا إنا راينا رجلا عريانا

اراد رجلين فأسكن وهو مثل قولهم : كرم فلان بمعنى كرم .

حكى الله تعالى عن فرعون انه قال لقومه « ذروني » و معناه أتركوني اقتل موسى ، وذلك يدل على ان في خاصة فرعون كان قوم يمنعونه من قتل موسى ، ومن معه ويخوفونه ان يدعو ربه فيهلك ، فلذلك قال ذروني اقتله وليدع ربه ، كما تقولون . وقال قوم : ذلك حين قالوا له هو ساحر فان قتلته قويت الشبهة بمكانه بل « ارجه واخاه وابعث في المدائن حاشرين » (١) « وليدع ربه » في دفع القتل عنه ، فانه لا يخشى من دعائه شيء ، وهذا عنف من فرعون وتمرد وجرأة على الله وإيهام لقومه بأن ما يدعو به موسى لا حقيقة له .

ثم قال فرعون « إني اخاف ان يبدل » يعني موسى « دينكم » وهو ما تعتقدونه من إلهيتي « او ان يظهر في الأرض الفساد » بأن يتبعه قوم نحتاج ان نقاتله فيخرب في ما بين ذلك البلاد ، ويظهر الفساد . وقال قتادة : الفساد عند فرعون ان يعمل بطاعة الله . فمن قرأ « او ان » فانه جعل المخوف احد الامرين وإن جعل (او) بمعنى الواو جعل الأمرين مخوفين معاً . ومن قرأ بالواو جعل المخوف الأمرين معاً : تبديل الدين وظهور الفساد . والتبديل رفع الشيء إلى غيره في ما يقع موقعه إلا انه بالعرف لا يستعمل إلا في رفع الجيد بالردي ، والفساد انتقاض الأمر بما ينافي العقل او الشرع او الطبع ، ونقيضه الصلاح . والاظهار

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٣٦

جعل الشيء بحيث يقع عليه الادراك .

ثم حكى تعالى ما قال موسى عند ذلك فانه قال « إني عذبت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » والعياذ هو الاعتصام بالشيء من عارض الشر ، عذت بالله من شر الشيطان واعتصمت منه بمعنى واحد . ومن أظهر ولم يدغم ، قال : لان مخرج الذال غير مخرج التاء . ومن ادغم فلقرب مخرجهما ، والمعنى اني اعتصمت بربي وربكم الذي خلقني وخلقكم من كل متكبر على الله متجبر عن الانقياد له لا يصدق بالثواب والعقاب فلا يخاف .

وقوله « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه« انقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات » يعني الحجج الواضحة « من ربكم » قال السدي كان القائل ابن عم فرعون ، فعلى هذا يكون قوله « ادخلوا آل فرعون اشد العذاب » (١) مخصصاً ، وقال غيره كان المؤمن إسرائيلياً يكتم إيمانه عن آل فرعون ، فعلى هذا يكون الوقف عند قوله ﴿ وقال رجل مؤمن ﴾ ويكون قوله ﴿ من آل فرعون ﴾ متعلقاً بقوله ﴿ يكتم ﴾ أي يكتم إيمانه من آل فرعون . والأول اظهر في اقوال المفسرين . وقال الحسن : كان المؤمن قبطياً . وقوله ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه﴾ معناه إن المؤمن قال لفرعون إن يك موسى كاذباً في ما يدعوكم اليه فوبال ذلك عليه وان يك صادقاً في ما يدعيه يصيبكم بعض الذي يعدكم ، قيل : انه كان يتوعدهم بأمور مختلفة ، قال ذلك مظاهرة في الحجاج والمعنى انه يلقي بعضه . والمراد يصيبكم بعضه في الدنيا . وقيل : هو من لطيف الكلام ، كما قال الشاعر :

قد يدرك المتأني بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل (٢)

(١) آية ٤٦ من هذه السورة   (٢) قائله عمر القطامي تفسير القرطبي ١٥/٣٠٧

ثم قال ﴿ ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ أي لا يحكم بهداية من كان مسرفاً على نفسه ومتجاوز الحد في معصية الله كذاباً على الله . ويحتمل ان يكون المراد ان الله لا يهدي الى طريق الثواب والجنة من هو مسرف كذاب ويجوز ان يكون ذلك حكاية عما قال المؤمن من آل فرعون . ويجوز ان يكون ذلك ابتداء خبر من الله تعالى بذلك ، ثم قال يعني مؤمن آل فرعون ﴿ ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الارض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ﴾ أي لكم الملك والسلطان على اهل الارض وذلك لا يمنع من بأس الله ﴿ قال فرعون ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد ﴾ في ما ادعوكم من الهيتي وتكذيب موسى . ثم حكى ما قال المؤمن فقال ﴿ وقال الذي آمن يا قوم اني اخاف عليكم ﴾ عذاباً ﴿ مثل ﴾ عذاب «يوم الاحزاب» قال قوم : القائل لذلك موسى نفسه ، لان مؤمن آل فرعون كان يكتم ايمانه ، وهذا ضعيف لأن قوله هذا كقوله ﴿ اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله ﴾ (١) وكما اظهر هذا جاز ان يظهر ذلك .

قوله تعالى :

﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ

(١) آية ٢٨ من هذه السورة

مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ
يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ
حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ
يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ
ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ ٱللَّهِ وَعِنْدَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(٣٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابو عمرو، والأخفش والداجوني عن هشام وقتيبة ﴿ على كل قلب متكبر ﴾ منون. الباقون على الاضافة. من نون جعله نعتاً للقلب، لان القلب اذا تكبر تكبر صاحبه، كما قال ﴿ فظلت اعناقهم لها خاضعين ﴾ (١) لان الاعناق إذا خضعت خضع اربابها، وتكبر القلب قسوته وإذا قسا القلب كان معه ترك الطاعة. ومن اضاف قال: لان فى قراءة ابن مسعود على ﴿ قلب كل متكبر جبار ﴾ قال الفراء: وسمعت احدهم يقول: إن فلاناً مرجل شعره يوم كل جمعة يقوم. والجبار: هو الذي يقتل على الغضب، ويقال: اجبره فهو جبار مثل ادرك فهو دراك. قال الفراء: ولا ثالث لهما، قال ابن خالويه: وجدت لهما ثالثاً اسأر فهو سئّار.

لما حكى الله تعالى عن مؤمن آل فرعون انه حذر قومه بالعذاب مثل عذاب يوم الاحزاب، فسر ذلك فقال ﴿ مثل داب قوم نوح ﴾ يعني كعادته مع قوم نوح.

---

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٤

والدأب العادة يقال : دأب يدأب دأباً فهو دائب فى عمله إذا استمر فيه . والعادة تكرر الشيء مرة بعد مرة . وانما فعل بهم ذلك حين كفروا به ، فأغرقهم الله وكقوم هود وهم عاد . وكقوم صالح : وهم ثمود والذين من بعدهم من الأنبياء واممهم الذين كذبوهم ، فأهلكهم الله بأن استأصلهم جزاء على كفرهم .

ثم اخبر انه تعالى لا يريد ظلماً للعباد ، ولا يؤثره لهم . وذلك دال على فساد قول المجبرة الذين يقولون إن كل ظلم فى العالم بارادة الله .

ثم حكى ايضاً ما قال لهم المؤمن المقدم ذكره ، فانه قال « يا قوم اني اخاف عليكم » عقاب « يوم التناد » وقيل : هو اليوم الذي ينادي بعض الظالمين بعضاً بالويل والثبور ، لما يرى من سوء عقاب الكفر والمعصية . وقيل : انه اليوم الذي ينادي أصحاب الجنة اصحاب النار « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً » (١) وينادي اصحاب النار اصحاب الجنة « أن أفيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله » (٢) فى قول الحسن وقتادة وابن زيد . وقيل : « يوم التناد » هو اليوم الذي يدعى فيه « كل أناس بامامهم » (٣) ومن أثبت الياء فى (التنادي) فلأنها الأصل ، ومن حذفها فلاجتزائه بالكسرة الدالة عليها ، ولأنها آخر الآية ، فهي فصل شبهت بالقوافي . وقرىء « يوم التناد » بالتشديد من قولهم ندّ البعير إذا هرب ـ روي ذلك عن ابن عباس ـ .

وقوله « يوم تولون مدبرين » قال الحسن وقتادة : معناه منصرفين إلى النار وقال مجاهد : مارين غير معوجين ولا معجزين . وقيل : يولون مدبرين والمقامع تردهم إلى ما يكرهونه من العقاب .

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٣ (٢) سورة ٧ الاعراف آية ٤٩
(٣) سورة ١٧ الاسري آية ٧١

وقوله « مالكم من الله من عاصم » أي مانع من عذاب ينزل بكم ، واصله المنع ، وشبه بذلك من فعل به ذلك اللطف الذي يمتنع عنده ، يقال عصمه فهو عاصم وذاك معصوم إذا فعل به ذلك اللطف . ومنه قوله ﴿ لاعاصم اليوم من امر الله إلا من رحم ﴾ (١) أي لا مانع . ثم قال ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أي من يحكم الله بضلاله فليس له من يحكم بهدايته على الحقيقة . ويحتمل ان يكون المراد ومن يضله الله عن طريق الجنة فما له من يهديه اليها .

ثم قال تعالى حاكيًا ما قال لهم موسى فانه قال لهم : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل ﴾ قيل : هو يوسف ابن يعقوب كان قبل موسى جاءهم ﴿ بالبينات ﴾ يعني الحجج الواضحات ﴿ فما زلتم في شك ﴾ من موته حتى إذا هلك ومات ﴿ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ آخر . ثم قال ﴿ كذلك يضل الله ﴾ أي مثل ما حكم الله بضلال أولئك يحكم بضلال ﴿ كل مسرف ﴾ على نفسه بارتكاب معاصيه ﴿ مرتاب ﴾ أي شاك في أدلة الله . ثم بينهم فقال ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أي يسمون بغير سلطان أي بغير حجة آتاهم الله ، وموضع الذين نصب لانه بدل من (من) ويجوز ان يكون رفعًا بتقدير (هم) ثم قال ﴿ كبر مقتًا ﴾ أي كبر ذلك الجدال منهم مقتًا ﴿ عند الله ﴾ أي عداوة من الله . ونصبه على التمييز ﴿ وعند الذين آمنوا ﴾ بالله مثل ذلك . ثم قال ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ما طبع على قلوب اولئك بان ختم عليها علامة لكفرهم يفعل مثله ﴿ ويطبع على كل قلب متكبر جبار ﴾ من نون (قلب) جعل (متكبر جبار) من صفة القلب ومن اضافه جعل (القلب) للمتكبر الجبار . قال ابو علي : من اضاف لا يخلو ان يترك الكلام على ظاهره او يقدر فيه حذفًا ، فان تركه على ظاهره كان تقديره :

---

(١) سورة ١١ هود آية ٤٣

يطبع الله على كل قلب متكبر أي على جملة القلب من المتكبر ، وليس ذلك المراد وإنما المراد يطبع على قلب كل متكبر ، والمعنى انه يطبع على القلوب إذا كانت قلباً قلباً من كل متكبر بمعنى انه يختم عليها .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ ٱلسَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حفص وعاصم ﴿ فاطلع ﴾ نصباً على جواب (لعلي) الباقون رفعاً عطفاً على قوله تعالى ﴿ لعلي ابلغ الأسباب .... فأطلع ﴾ وقيل : إن هامان اول من طبخ الآجر لبناء الصرح ، وقرأ اهل الكوفة ﴿ وصدّ ﴾ بضم الصاد على ما لم يسم فاعله . الباقون بفتحها . فمن ضم اراد صده الشيطان عن سبيل الحق وطابق قوله تعالى ﴿ زين لفرعون سوء عمله ﴾ ومن فتح الصاد اراد انه صدّ غيره

عن سبيل الحق . وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابو بكر عن عاصم ﴿ يدخلون ﴾ بالضم كقوله ﴿ يرزقون ﴾ . الباقون بفتح الياء ، لأنهم إذا ادخلوا ، فقد دخلوا .

حكى الله تعالى ان فرعون قال لهامان ﴿ ياهامان ﴾ وقيل : إنه كان وزيره ﴿ ابن لي صرحاً ﴾ أي بناء ظاهراً عالياً لا يخفى على الناظر وأن بعد ، وهو من التصريح بالأمر . وهو اظهاره بأتم الاظهار ﴿ لعلي ابلغ الأسباب ﴾ ثم فسر تلك الاسباب فقال ﴿ اسباب السموات ﴾ وقال ابن عامر اراد به منزل السماء . وقال قتادة : معناه ابواب طرق السموات . وقال السدي طرق السموات . وقيل: هي الأمور التي يستمسك بها . فهي أسباب لكونها على ما هي به ولا تضطرب ولا تسقط إلى الارض بثقلها ، ولا تزول إلى خلاف جهتها . وقوله « فاطلع إلى إله موسى » معناه فأشرف عليه لا راه . وقيل : إن فرعون كان مشبهاً فطلب رؤية الاله في السماء كما ترى الاشخاص إذا أشرف عليها . وقيل : يجوز ان يكون اراد ، فاطلع إلى بعض الآيات التي يدعيها موسى الدالة على إله موسى ، لانه كان يعلم أن الصرح لا يبلغ السماء ، فكيف يرى من الصرح ما هو فى السماء ، ولو كان فيها على قول المجسمة ، ويجوز أن يكون قال ذاك تمويهاً لما علم من جهل قومه .

وقوله « وإني لاظنه كاذباً » حكاية ما قال فرعون وإنه يظن أن ما يقوله موسى أن له إله خلق السماء والارض كاذب فى قوله . وقال الحسن : إنما قال فرعون هذا على التمويه وتعمد الكذب ، وهو يعلم ان له إلهاً . وقوله « وكذلك زين لفرعون سوء عمله » أي مثل ما زين لهؤلاء الكفار أعمالهم كذلك زين لفرعون سوء عمله ، وقال المزين له سوء عمله جهله بالله تعالى والشيطان الذي اغواه ودعاه اليه لأن الجهل بالقبح فى العمل يدعو إلى انه حسن وصواب ، فلما جهل فرعون ان له إلهاً يجب عليه عبادته وتوهم كذب ما دعاه اليه نبيه موسى ،

سولت له نفسه ذلك من أمره . وقد بين الله تعالى ذلك في موضع آخر فقال « زين لهم الشيطان أعمالهم » (١) .

وقوله « وصد عن السبيل » من ضم اراد انه صده غيره . ومن فتح اراد انه صد نفسه وغيره . ثم قال تعالى « وما كيد فرعون إلا في تباب » يعني في هلاك . والتباب الهلاك بالانقطاع ، ومنه قوله « تبت يدا أبي لهب » (٢) أي خسرت بانقطاع الرجاء ، ومنه تباً له . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : معنى « تباب » خسران .

ثم حكى تعالى ما قال مؤمن آل فرعون في قوله « وقال الذي آمن ياقوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد » وهو الايمان بالله وتوحيده وإخلاص العبادة له والاقرار بموسى عليه السلام وقال لهم ايضاً على وجه الوعظ لهم والزجر عن المعاصي « يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع » يعني انتفاع قليل ، ثم يزول بأجمعه ويبقى وزره وآثامه « وإن الآخرة هي دار القرار » أي دار مقام ، وسميت دار قرار لاستقرار الجنة بأهلها واستقرار النار بأهلها . والقرار المكان الذي يستقر فيه . ثم قال ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ ومعناه أي من عمل معصية فليس يجازى إلا مقدار ما يستحقه عليها من العقاب لا اكثر من ذلك ﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ﴾ جزاء على إيمانهم ﴿ يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أي زيادة على ما يستحقونه تفضلا منه تعالى ، ولو كان على مقدار العمل فقط لكان بحسابه . قال الحسن : هذا كلام مؤمن آل فرعون . ويحتمل أن يكون ذلك اخباراً منه تعالى عن نفسه .

---

(١) سورة ٨ الانفال آية ٤٩

(٢) سورة ١١١ اللهب آية ١

قولـه تعـالى :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤٦) ست آيات بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا ابا بكر ﴿ ادخلوا آل فرعون ﴾ بقطع الهمزة على انه يؤمر الملائكة بادخالهم النار . الباقون بوصلها بمعنى انهم يؤمرون بدخولها ، وعلى الأول يكون ﴿ آل فرعون ﴾ نصباً على انه مفعول به ﴿ وأشد ﴾ المفعول الثاني . وعلى الثاني يكون نصباً على النداء .

حكى الله تعالى ان مؤمن آل فرعون قال لهم ﴿ مالي أدعوكم الى النجاة ﴾ يعني إلى ما فيه خلاصكم : من توحيد الله وإخلاص العبادة له والاقرار بموسى عليه السلام - وهو قول الحسن وابن زيد - و ﴿ تدعونني ﴾ انتم ﴿ إلى النار ﴾ لأنهم إذا دعوا إلى عبادة غير الله التي يستحق بها النار ، فكأنهم دعوا إلى النار ، لأن من

دعا إلى سبب الشيء فقد دعا اليه، ومن صرف عن سبب الشيء فقد صرف عنه، فمن صرف عن معصية الله فقد صرف عن النار، ومن دعا اليها فقد دعا إلى النار. والدعاء طلب الطالب الفعل من غيره، فالمحق يدعو إلى عبادة الله وطاعته وكل ما أمر الله به او نهى عنه والمبطل يدعو إلى الشر والعصيان، فمنهم من يدري انه عصيان ومنهم من لايدري ثم بين ذلك فقال ﴿ تدعونني لأكفر بالله ﴾ واجحد نعمه ﴿ واشرك به ﴾ في العبادة ﴿ ما ليس لي به علم ﴾ مع حصول العلم ببطلانه. لأنه لايصح ان يعلم شريك له وما لا يصح أن يعلم باطل، فدل على فساد اعتقادهم للشرك من هذه الجهة ثم قال ﴿ وأنا أدعوكم ﴾ معاشر الكفار ﴿ إلى ﴾ عبادة ﴿ العزيز ﴾ يعني القادر الذي لا يقهر، ولا يمنع لاستحالة ذلك عليه ﴿ الغفار ﴾ لمن عصاه إذا تاب اليه تفضلا منه على خلقه. وقوله ﴿ لاجرم إن ما تدعونني اليه ﴾ قال الزجاج: هو رد الكلام كأنه قال لامحالة إن لهم النار. وقال الخليل: لاجرم لا يكون إلا جواباً تقول: فعل فلان كذا فيقول المجيب: لاجرم إنه عوين والفعل منه جرم يجرم. وقال المبرد معناه حق واستحق ﴿ ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ والمعنى ليس له دعوة ينتفع بها في أمر الدنيا ولا في الآخرة فأطلق ليس له دعوة، لأنه أبلغ وإن توهم جاهل ان له دعوة ينتفع بها، فانه لا يعتد بذلك لفساده وتناقضه. وقال السدي وقتادة والضحاك: معناه ليس لهذه الأصنام استجابة دعاء احد في الدنيا ولا في الآخرة. وقيل: معناه ليس لها دعوة تجاب بالآلهية في الدنيا، ولا في الآخرة ﴿ وإن مردنا إلى الله ﴾ أي وجب ان مردنا إلى الله، ووجب ﴿ أن المسرفين ﴾ بارتكاب المعاصي. وقال مجاهد: يعني بقتل النفس من غير حلها. وقال قتادة بالاشراك بالله ﴿ هم اصحاب النار ﴾ يعني الملازمون لها. قال الحسن:

هذا كله من قول مؤمن آل فرعون .

ثم قال لهم على وجه التخويف والوعظ ﴿ فستذكرون ﴾ صحة ﴿ ما اقول لكم ﴾ إذا حصلتم فى العقاب يوم القيامة . ثم اخبر عن نفسه فقال ﴿ وافوض أمري إلى الله ﴾ أي اسلمه اليه ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ أي عالم بأحوالهم ، وما يفعلونه من طاعة ومعصية . وقال السدي : معنى أفوض اسلم اليه . ثم اخبر تعالى فقال ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ وقال قتادة : صرف الله عنه سوء مكرهم ، وكان قبطياً من قوم فرعون فنجى مع موسى . وقوله ﴿ وحاق بآل فرعون ﴾ أي حل بهم ووقع بهم ﴿ سوء العذاب ﴾ لان الله تعالى غرقهم مع فرعون ، وبين انهم مع ذلك فى ﴿ النار يعرضون عليها غدّوا وعشيا ﴾ يعني صباحاً ومساء ، ورفع النار بدلا من قوله ﴿ سوء العذاب ﴾ ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ يعني إذا كان يوم القيامة يقال الملائكة ﴿ ادخلوا آ ل فرعون اشد العذاب ﴾ فيمن قطع الهمزة . ومن وصلها اراد ان الله يأمرهم بذلك . والعرض إظهار الشيء ليراه الذي يظهر له . ومنه قوله ﴿ وعرضوا على ربك ﴾ (١) أي اظهروا ﴿ صفاً ﴾ كما يظهرون الرائي لهم . ومنه قولهم : عرضت الكتاب على الأمير ، فهؤلاء يعرضون على النار لينالهم من ألمها والغم بالمصير اليها . والغدوّ المصير إلى الشيء بالغداة غدا يغدو غدواً . وقولهم: تغدى أي اكل بالغداة ، وغدا أي سابق إلى الأمر بالغداة . و (قيام الساعة) وجودها ، ودخولها على استقامة بما يقوم من صفتها ، وقامت السوق إذا حضرْ أهلها على ما جرت به العادة و (اشد العذاب) اغلظه .

وفى الآية دلالة على صحة عذاب القبر لأنه تعالى اخبر انهم يعرضون على النار غدواً وعشياً . وقال الحسن : آل فرعون اراد به من كان على دينه .

---

(١) سورة ١٨ الكهف ٤٩

وكان السدي يقول : ارواحهم فى اجواف طير سود يعرضون على النار غدواً وعشياً ، ويجوز ان يحييهم الله بالغداة والعشي ويعرضهم على النار . ووجه الاحتجاج على رؤساء الضلال بالاتباع انهم كانوا يدعونهم إلى اتباعهم بما يدعون من صواب مذاهبهم . وهذا يلزمهم الرفع بها عنهم وأن يسعوا فى تخفيف عذابهم ، فاذا هي سبب عذابهم . وقال الفراء ، وقوم من المفسرين ـ ذكره البلخي ـ فى الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، ويوم تقوم الساعة يقال : لهم ادخلوا آل فرعون اشد العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشياً ، ويكون معنى غدواً وعشياً مع انهم فيها أبداً أنه تتجدد جلودهم بعد الاحتراق غدواً وعشياً . وقال قوم : يجوز ان يكون المراد انهم بعرضها ، كما يقال : فلان يعرضه شر شديد أي يقرب من ذلك . وقال قوم : يجوز ان يكون المراد إن اعمالهم اعمال من يستحق النار ، فكأنهم يغدون ويروحون اليها باعمالهم . وقال قوم : المعنى يعرضون عليها وهم أحياء بالزجر والتحذير والوعد والوعيد ، فاذا كان يوم القيامة ـ وماتوا على كفرهم ـ ادخلوا اشد العذاب .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ ٱلنَّارِ (٤٧) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ ٱلْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ

رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٥٠) أربع آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه واذكر يا محمد ﴿ إذ ﴾ أي الوقت الذي ﴿ يتحاجون في النار ﴾ ويخاصم بعضهم بعضاً يعني الرؤساء والاتباع ﴿ فيقول الضعفاء ﴾ وهم الاتباع ﴿ الذين استكبروا ﴾ وهم الرؤساء ﴿ انا كنا لكم ﴾ معاشر الرؤساء ﴿ تبعاً ﴾ ويحتمل ان يكون ذلك جمع تابع كغايب وغيب وحايل وحول ، ويجوز أن يكون مصدراً أي تبعناكم تبعاً ﴿ فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ لأنه يلزم الرئيس الدفع عن اتباعه والمنقادين لأمره ، فيسألونهم هؤلاء أن يغنوا عنهم قسطاً من النار أي طائفة منها ، فيقول الرؤساء الذين استكبروا ﴿ إنا كل فيها ﴾ أي نحن وأنتم في النار، فكيف ندفع عنكم . ورفع « كل فيها » على انه خبر (إنا) كقوله ﴿ إن الأمر كله لله ﴾ (١) ويجوز أن يكون رفعاً بالابتداء ، وخبره (فيها) ﴿ ان الله حكم ﴾ بذلك ﴿ بين العباد ﴾ وانه يعاقب من اشرك به وعبد معه غيره ثم حكى ما يقوله ﴿ الذين ﴾ حصلوا ﴿ في النار ﴾ من الاتباع والمتبوعين ﴿ لخزنة جهنم ﴾ وهم الذين يتلون عذاب اهل النار « أدعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ ويقولون ذلك ، لأنه لاصبر لهم على شدة العذاب لا انهم يطمعون في التخفيف ، لان معارفهم ضرورية يعلمون ان عقابهم لا ينقطع ولا يخفف عنهم . ثم حكى ما يجيب به الخزنة لهم فانهم يقولون لهم « او لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات» يعني بالحجج والدلالات على صحة توحيده ووجوب إخلاص العبادة له ؟ فيقولون في جوابهم « بلى » قد جاءتنا الرسل بالبينات فكذبناهم وجحدنا نبوتهم وانكرنا

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٥٤

بسياتهم فيقول لهم الخزنة اذاً « فادعوا » بما لا ينفعكم ويقولون ايضاً « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » لانه في وقت لا ينفع .

قولــه تعــالى :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ ٱلظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (٥٥)

اربع آيات في الشامي وفي عدد اسماعيل وخمس في ما عداهما عدوا « بني اسرائيل الكتاب » ولم يعده الأولان .

قرأ نافع واهل الكوفة (يوم لا ينفع الظالمين) بالياء ، لأن المعذرة ليس تأنيثها حقيقياً ولأنهم ارادوا عذرهم . الباقون بالتاء لتأنيث المعذرة .

اخبر الله تعالى عن نفسه بأنه ينصر رسله الذين بعثهم بالحق إلى خلقه وينصر الذين آمنوا به وصدقوا رسله في دار الدنيا ، وينصرهم ايضاً يوم يقوم الاشهاد . والنصر المعونة على العدو ، وهو على ضربين : نصر بالحجة ونصر بالغلبة في المحاربة بحسب ما يعلم الله تعالى من المصلحة وتقتضيه الحكمة ، هذا إذا كان في دار التكليف . فأما نصره إياهم يوم القيامة فهو اعلاء كلمتهم وظهور حقهم وعلو منزلتهم وإعزازهم بجزيل الثواب وإذلال عدوهم بعظيم العقاب . والاشهاد جمع شاهد مثل صاحب واصحاب

وهم الذين يشهدون بالحق للمؤمنين وأهل الحق وعلى المبطلين والكافرين بما قامت به الحجة يوم القيامة وفي ذلك سرور المحق وفضيحة المبطل في ذلك المجمع العظيم والمحفل الكبير . وقال قتادة الأشهاد الملائكة والانبياء والمؤمنون وقال مجاهـد : هم الملائكة . ثم بين سبحانه وتعالى اليوم الذي يقوم فيه الاشهاد ، فقال « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم » فالمعذرة والاعتـذار واحد . وإنما نفى ان تنفعهم المعـذرة في الآخرة مع كونها نافعة في دار التكليف لأن الآخرة دار الالجاء إلى العمل ، والملجأ غير محمود على العمل الذي ألجيء اليه ، لأنه لا يعمله لداعي الحكمة إلى ما يمكنه أن يعمله ولا يعمله فيضمن الحمد على فعله . وقيل : إنما لم يقبل معذرتهم ، لانهم يعتذرون بالباطل ـ في قولهم والله ربنا ما كنا مشركين .

ثم بين تعالى إن لهم مع بطلان معذرتهم اللعنة ، وهي الابعاد من رحمة الله والحكم عليهم بدوام العقاب ولهم سوء الدار وهو عذاب النار نعوذ بالله منها . والظالمين الذين لا تنفعهم المعـذرة هم الذين ظلموا أنفسهم او غيرهم بارتكاب المعـاصي التي يستحق بها دوام العقاب .

ثم اخبر تعالى على وجـه القسم فقال « ولقد آتينا موسى الهدى » أي اعطيناه التوراة فيها أدلة واضحة على معرفة الله وتوحيده وانزلنا عليه الكتاب وأورثناه بني اسرائيل يعني التوراة ، وهـدى يعني أدلة واضحة على معرفة الله وتوحيده و « ذكرى » أي ما يتذكر به أولو الالباب ، وإنما خص العقلاء بذلك ، لأنهم الذين يتمكنون من الانتفاع به دون من لا يعقل .

ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله فقال « فاصبر » يا محمد على أذى قومك وتحمل المشقة في تكذيبهم إياك « إن وعد الله حق » الذي وعدك به من الثواب والجنة لمن اطاعك والنار والعقاب لمن عصاك حق لا خلف له . واطلب ايضاً المغفرة لذنبك .

ويجوز ان يكون الخطاب له والمراد به أمته « وسبح بحمد ربك » أي نزه الله تعالى واعترف بشكره بما أنعم الله عليك ﴿ بالعشي والابكار ﴾ أي صباحاً ومساء . وقيل (وسبح بحمد ربك) معناه صل بحمد ربك و (بالعشي) معناه من زوال الشمس إلى الليل . و (الابكار) من طلوع الفجر الثاني الى طلوع الشمس .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَـٰهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَلَا ٱلْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٦٠) خمس آيات . وست في المدني الأخير .

قرأ اهل الكوفه « تتذكرون » بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الاخبار عنهم . وقرأ ابو جعفر وابن كثير ورويس ويحيي والبرجمي وابن غالب « سيدخلون » بضم الياء . على ما لم يسم فاعله . الباقون بفتح الياء على اسناد الفعل اليهم .

يقول الله تعالى « ان الذين يجادلون » أي يخاصمون « في » رفع « آيات الله » وابطالها « بغير سلطان » أي بغير حجة « اتاهم » اعطاهم الله إياها يتسلط بها على إنكار مذهب يخالف مذهبهم « إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه » أي ليس في صدورهم إلا كبر. قال مجاهد: معناه الاعظمة وجبرية ماهم ببالغي تلك العظمة، لأن الله تعالى مذلهم. وقيل: معناه إلا كبر بحسدك على النبوة التي اكرمك الله بها « ما هم ببالغيه » لأن الله يرفع بها من يشاء. وقيل: معناه إلا كبر ماهم ببالغي مقتضاه ولا نالوه لان الكبر إنما يعمله صاحبه لمقتضى ان يعظم حاله، وهؤلاء يصير حالهم الى الاذلال والتحقير بكفرهم فلا يبلغون ما في صدورهم من مقتضي كبرهم. وقيل: الآية نزلت في اليهود وان الكبر الذي ليس هم ببالغيه توقعهم امر الدجال، فاعلم الله تعالى ان هذه الفرقة التي تجادل ألا تبلغ خروج الدجال، فلذلك قال تعالى « فاستعذ بالله » ثم امر نبيه بأن يستعيذ بالله من شر هؤلاء المخاصمين « انه هو السميع البصير » ومعناه انه يسمع ما يقول هؤلاء الذين يخاصمون في دفع آيات الله بصير بما يضمرونه وفي ذلك تهديد لهم في ما يقدمون عليه. وقيل: فيه وعدله بكفاية شرهم.

ثم قال تعالى « لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس » معناه إن خلق السموات والارض على ما هما عليه من العظم والثقل مع وقوفهما من غير عمد وجريان الفلك والكواكب من غير سبب اعظم في النفس وأهول في الصدر من خلق الناس، وإن كان عظيماً لما فيه من الحياة والحواس المهيأة لانواع مختلفة من الادراكات إلا ان امر السموات والارض خارج عن مقتضى الطبيعة، او ان يكون فاعلهما وخالقهما يجري مجرى العباد في الجسمية، فهو اكبر شأناً من هذه الجهة « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » لعدولهم عن الفكر فيه والاستدلال على

صحته وإدخال الشبهة على نفوسهم فيه . وذكر كبر خلق السموات والارض وما هو خارج عن الطبيعة حجة على المشركين في انكار النشأة الثانية بما هو خارج عن عادة الولادة.

ثم قال « وما يستوي الاعمى والبصير » أي لا يتساوىٰ من عمي عن طريق الرشد والصواب فلم يهتد اليها، والبصير الذي أبصرها واهتدى اليها « والذين آمنوا وعملوا الصالحات . ولا المسيء » أي ولا يتساوى ايضاً الذين آمنوا بالله تعالى وعملوا الصالحات من الأعمال والذين اساؤا وظلموا نفوسهم بارتكاب المعاصي .

ثم قال « قليلا ما تتذكرون » أي ما أقل ما تتفكرون في ذلك .

والوقف على قوله « قليلا » .

وقوله « ما تتذكرون » يجوز أن تكون (ما) صلة ويجوز أن تكون بمعنى المصدر وتقديره قليلا ما تذكركم . ومن قرأ بالتاء اراد قل لهم وخاطبهم به . ومن قرأ بالياء فعلى وجه الاخبار عنهم بذلك .

ثم اخبر « إن الساعة » يعني القيامة « آتية لاريب فيها » أي جائية واقعة لاشك في مجيئها « ولكن اكثر الناس لا يؤمنون » أي لا يصدقون بذلك لجهلهم بالله وشكهم في اخباره .

ثم قال « وقال ربكم ادعوني استجب لكم » يعني استجب لكم إذا اقتضت المصلحة اجابتكم . ومن يدعو الله ويسأله فلا بد أن يشترط المصلحة إما لفظاً او اضماراً ، وإلا كان قبيحاً ، لانه إذا دعا بما يكون فيه مفسدة ولا يشترط انتفاؤها

كان قبيحاً .

ثم قال تعالى مخبراً ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ أي من يتكبر ، و يتعظم عن إخلاص العبادة لله تعالى ﴿ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ من ضم الياء ذهب الى انهم تدخلهم الملائكة كرهاً ومن فتح الياء قال : لأنهم إذا دخلوافقد دخلوا ، فاضاف الفعل اليهم . ومعنى (يستكبرون عن عبادتي) أي عن دعائي بالخضوع لي . وقال السدي (داخرين) معناه صاغرين .

قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَاراً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ ٱلْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (٦٥)

خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه بأنه « الله الذي جعل لكم ﴾ معاشر الخلق ﴿ الليل ﴾ وهو ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ أي

وغرضه منه سكونكم واستراحتكم فيه من كد النهار وتعبه ﴿ وجعل لكم النهار ﴾ أيضاً وهو ما بين طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس ﴿ مبصراً ﴾ تبصرون فيه مواضع حاجاتكم فجعله (مبصراً) لما كان يبصرون فيه المبصرون. ثم اخبر تعالى ﴿ إن الله لذو فضل ﴾ أي لذو زيادة كثيرة من نعمه ﴿ على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ نعمه أي لا يعترفون بها بل يجحدونها ويكفرون بها . ثم قال مخاطباً لخلقه ﴿ ذلكم الله ﴾ يعني الذي قدم وصفه لكم هو الذي خلقكم ﴿ ربكم خالق كل شيء ﴾ من مقدوراته من السموات والارض وما بينهما مما لا يقدر عليه سواه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي لا يستحق العبادة سواه تعالى ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع وضوح الدلالة على توحيده ، ثم قال مثل ما انقلب وانصرف هؤلاء ﴿ كذلك يؤفك ﴾ أي يصرف ﴿ الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ ومعناه كما خدع هؤلاء بما كذب لهم كذب من كان قبلهم من الكفار ﴿ الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ أي بدلالات الله وبيناته ، ولا يفكرون فيها .

ثم عاد إلى ذكر صفاته تعالى فقال ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً ﴾ أي هيأها لكم بحيث تستقرون عليها ﴿ والسماء بناء ﴾ أي وجعل السماء بناء مرتفعاً فوقنا ولو جعلهما رتقاً لما أمكن الخلق الانتفاع في ما بينهما . ثم قال ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ لان صور ابن آدم أحسن من صور الحيوان . والصور جمع صورة مثل سورة وسور ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ لأنه ليس لشيء من الحيوان من الطيبات المآكل والمشارب مثل ما خلق الله لابن آدم ، فان انواع الطيبات واللذات التي خلقها الله لهم لا تحصى لكثرتها من الثمار وفنون النبات واللحوم وغير ذلك . ثم قال ﴿ ذلكم ﴾ يعني الذى تقدم وصفه هو الذى يحق له العبادة على الحقيقة وهو ﴿ الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ أي جل بأنه الثابت

الدائم الذى لم يزل ولا يزال .

ثم قال ﴿ هو الحي ﴾ ومعناه الحي على الاطلاق هو الذى يستحق الوصف بأنه حي لا إلى اجل ﴿ لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير : إذا قال احدكم (لا إله إلا الله وحده) فليقل فى آخرها ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

قولـــه تعـــالى :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ ٱلْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِٱلْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٠)

خمس آيات بلاخلاف .

هذا امر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ان يقول لكفار قومه ﴿ إني نهيت ﴾ أى نهاني الله ﴿ ان اعبد ﴾ أى اوجه العبادة إلى ﴿ الذين تدعون من دون الله ﴾ التي تجعلونها آلهة ﴿ لما جاءني البينات من ربي ﴾ أى حين أتاني الحجج والبراهين

من جهة الله دلتني على ذلك ﴿ وامرت ﴾ مع ذلك ﴿ أن اسلم لرب العالمين ﴾ أي استسلم لأمر رب العالمين الذى خلقكم وأوجدكم ويملك تدبير الخلائق اجمعين . ثم وصفه فقال ﴿ وهو الذى خلقكم ﴾ معاشر البشر ﴿ من تراب ﴾ ومعناه خلق أباكم آدم من تراب وانتم نسله واليه ترجعون واليه تنتمون ﴿ ثم من نطفة ... ﴾ اى ثم انشأ من ذلك الاصل الذى خلقه من تراب النطفة ثم قلبها الى علقة وهي القطعة من الدم لانها تعلق بما يمر به لظهور اثرها فيه وخلقكم منها ﴿ ثم يخرجكم طفلا ﴾ أي اطفالا واحداً واحداً ، فلهذا ذكره بالتوحيد ، كما قال « بالأخسرين اعمالا » (٢) لان لكل واحد منهم اعمالا قد خسر بها « ثم لتبلغوا اشدكم » وهو حال استكمال القوة وهو جمع شدة واشد كنعمة وانعم . واصل الشدة اللف الذى يصعب منه الانحلال ، ثم « لتكونوا شيوخاً » بعد ذلك « ومنكم من يتوفى من قبل » ان يصير شيخاً ومن قبل ان يبلغ اشدة « ولتبلغوا اجلا مسمى » أى يبلغ كل واحد منكم ما سمي له من الأجل . وقال الحسن : هو النسل الذى يقوم عليه القيامة والأجل المسمى القيامة ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ أى خلقكم لهذه الأغراض التي ذكرها ولكي تفكروا فى ذلك فتعقلوا ما انعم الله عليكم من انواع النعم واراده منكم من اخلاص العبادة . ثم قال ﴿ هو الذى يحيي ويميت ﴾ يعني من خلقكم على هذه الاوصاف التي ذكرها هو الذى يحييكم وهو الذي يميتكم فأولكم من تراب وآخركم إلى تراب تعودون ﴿ فاذا قضى امراً ﴾ اى ارادامراً من الامور ﴿ فانما يقول له كن فيكون ﴾ ومعناه انه يفعل ذلك من غير ان يتعذر عليه ولا يمتنع منه فهو بمنزلة ما يقال له كن فيكون ، لا انه خاطب المعدوم بالتكوين ، لأن ذلك محال .

---

(١) سورة ١٨ الكهف ١٠٤

والله لا يأمر بالمحال .

ثم قال ﴿ الذين يجادلون فى آيات الله ﴾ يعني المشركين الذين يخاصمون فى دفع آيات الله وابطالها ﴿ أنى يصرفون ﴾ أى كيف ومن أين ينقلبون عن الطريق المستقيم إلى الضلال ولو كانوا يخاصمون فى آيات الله بالنظر فى صحتها والفكر فيها لما ذمهم الله . قال ابن زيد اراد بذلك المشركين . ثم وصفهم فقال ﴿ الذين كذبوا بالكتاب ﴾ يعني بالقرآن جحدوه وكذبوا بما ارسلنا به من الكتب فى الشرائع رسلنا قبلك ﴿ فسوف يعلمون ﴾ عاقبة أمرهم إذا حل بهم وبال ما جحدوه ونزل بهم عقاب ما ارتكبوه ويعرفون ان ما دعوتهم اليه حق وما ارتكبوه ضلال وفساد .

قوله تعالى :

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥)

خمس آيات كوفي وشامي وأربع في ما عداها سوى البصري عد إسماعيل والكوفى والشامي « يسبحون » وعد المدني الاول والمكى « فى الحميم » وعد الكوفي والشامي « تشركون » وهي ثلاث آيات بصري لأنه عندهم آخر الاولى « يسبحون » والثانية « الكافرون » والثالثة « تمرحون » .

قوله « إذ الاغلال » متعلق بقوله « فسوف يعلمون ... إذ الاغلال »
أي يعلمون في حال ما تجعل الأغلال وهي جمع غل ، وهو طوق يدخل في العنق للألم والذل . وأصله الدخول من قولهم : انغل في الشيء إذا دخل فيه . والغلول الخيانة التي تصير كالغل في عنق صاحبها ، والاعناق جمع عنق وهو مركب الرأس بين البدن وبينه ، وقوله « فاضربوا فوق الاعناق » (١) أي اصل الرأس وما والاه ، وقوله « والسلاسل » أي وتجعل السلاسل ايضاً في اعناقهم . وقرأ ابن عباس « والسلاسل » بالنصب « يسحبون » بفتح الياء بمعنى يسحبون السلاسل . وحكي عنه الجر أيضاً بتقدير ، وهم في السلاسل يسبحون . والجر ضعيف عند النحويين ، لان حرف الجر لا يجوز إضماره وأجاز بعضهم ذلك على ضعفه بأن يتوهم أن التقدير إذ الاغلال في الاعناق . والسلاسل جمع سلسلة وهي حلق منتظمة في جهة الطول مستمرة . ويقال : تسلسلت المعاني إذا استمرت شيئاً قبل شيء كالسلسلة الممدودة . وقوله « يسحبون » أي يجرون على الأرض . وموضع « يسحبون » النصب على الحال ، وتقديره إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم مسحوبين على النار والسحب جر الشيء على الارض، هذا أصله يقال : سحب عليه ما يلزمه من الأصل الفاسد ، ويسحب الكافر على وجهه في النار سحباً « في الحميم » وهو الماء الذي يبلغ الغاية في الحرارة « ثم في النار يسجرون » فالسجر القاء الحطب في معظم النار كالتنور الذي يسجر بالوقود ، فهؤلاء الكفار لجهنم كالسجار للتنور « ثم قيل لهم » على وجه التوبيخ لايلام قلوبهم كايلام ابدانهم بالتعذيب « اينما كنتم تشركون من دون الله » فتوجهون العبادة اليه من الاصنام والاوثان فيخلصوكم وينصروكم من عذاب الله « قالوا » في الجواب « ضلوا عنا » ثم يستدركون

(١) سورة ٨ الانفال آية ١٢

فيقولون « بل لم نكن ندعو من قبـل شيئاً » ومعناه لم نكن ندعو من قبل شيئاً يستحق العبادة وما ينتفع بعبادته ، فلذلك أطلق القول فقال الله تعالى « كذلك يضل الله الكافرين » قال الحسن : معناه كذلك يضل اعمالهم بأن يبطلها . وقيل : معناه كـذلك يضل الله الكافرين عن نيل الثواب . وقيل : كذلك يضل الله الكافرين عما اتخذوه إلهـاً بأن يصرفهم عن الطمع في نيل منفعته من جهتها . ثم يقول موبخاً لهم « ذلكم » أي ما فعل بكم جزاء « بمـا كنتم تفرحون في الارض » والفرح والمرح والبطر والاشر نظائر « بغير الحق » أي كنتم تفرحون بالباطل والفرح بالحق لا يوبخ عليه « وبما كنتم تمرحون » أي وجزاء بما كنتم تبطرون في معاصي الله . والمرح الاختيال في السرور والنشاط قال الشاعر :

ولا ينسني الحدثان عرضي ولا ارخي من الفرح الازارا (١)

قولـه تعـالى :

﴿ أُدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

(١) مر في ٨ | ١٠٧

الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (٨٠)

خمس آيات بلا خلاف .

لما حكى الله تعالى ما يقال للكفار من قوله « ذلكم بما كنتم تفرحون في الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » حكى ايضاً انه يقال لهم « ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها » أي مؤبدين فيها لا انقطاع لكونكم فيها ولا نهاية لعقابكم . وقيل : إنما جعل لجهنم ابواب كما جعل فيها الادراك تشبيهاً بما يتصور الانسان في الدنيا من المطابق والسجون والمطامير ، فان ذلك أهول واعظم في الزجر . وقيل : لجهنم ابواب ، كما قال تعالى « لها سبعة ابواب » (١) وقوله « فبئس مثوى المتكبرين » أي بئس مقام الذين تكبروا عن عبادة الله وتجبروا عن الانقياد له ، وإنما اطلق عليه اسم بئس مع كونه حسناً لان الطبع ينفر عنه كما ينفر العقل عن القبيح بالذم عليه ، فحسن لهذه العلة اطلاق اسم بئس عليه . ووصف الواحد منا بانه متكبر اسم ذم . ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « فاصبر » يا محمد على أذى قومك وتكذيبهم إياك ومعناه اثبت على الحق ، فسماه صبراً للمشقة التي تلحق فيه كما تلحق بتجرع المر ، ولذلك لا يوصف اهل الجنة بالصبر . وإن وصفوا بالثبات على الحق . وكان في الوصف به في الدنيا فضل ، ولكن يوصفون بالحلم ، لانه مدح ليس فيه صفة نقص . وقوله ﴿ إن وعد الله حق ﴾ معناه إن ما وعد الله به المؤمنين على الصبر من الثواب في

---

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٤٤

الجنة وتوعد الكفار من العقاب (حق) لاشك فيه بل هو كائن لا محالة ثم قال ﴿ فاما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فالينا يرجعون ﴾ معناه إنا إن أريناك يا محمد بعض ما نعدهم من العقاب عاجلا وإهلاكهم في دار الدنيا ، وإن لم نفعل ذلك بهم وقبضناك إلينا ، فالينا يرجعون يوم القيامة ، فنفعل بهم ما وعدناهم من العقاب وأليم العذاب . وقال الحسن : تقديره إما نرينك بعض الذي نعدهم فنرينك ذلك في حياتك او نتوفينك ، فيكون ذلك بعد موتك فأي ذلك كان ﴿ فالينا يرجعون ﴾ .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد ارسلنا ﴾ يا محمد ﴿ رسلا من قبلك منهم ﴾ أي من جملتهم ﴿ من قصصنا عليك ﴾ قصتهم ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ وروي عن علي عليه السلام انه قال (من بعث الله نبياً اسود لم يذكره الله) وقيل : بعث الله ثمانية آلاف نبي اربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من غيرهم . ولم يذكر إلا نفراً يسيراً . ثم قال ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية ﴾ أي بمعجزة ولا دلالة ﴿ إلا باذن الله ﴾ وامره ﴿ فاذا جاء امر الله ﴾ يعني قيام الساعة ﴿ قضي بالحق ﴾ أي فصل بين الخلائق ﴿ وخسر هنالك المبطلون ﴾ لانهم يخسرون الجنة ويحصلون في النار بدلا منها ﴿ وذلك هو الخسران المبين ﴾ ثم قال تعالى على وجه تعداد نعمه على الخلق ﴿ الله الذي جعل لكم الانعام ﴾ من الابل والبقر والغنم ﴿ لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ اي خلقها لتنتفعوا بركوبها وتأكلوا منها ، فانه جعلها للامرين . وقال قوم : المراد بالانعام ـ ههنا ـ الابل خاصة ، لانها التي تركب ويحمل عليها في أكثر العادات . واللام في قوله ﴿ لتركبوا ﴾ لام الغرض ، فاذا كان الله تعالى خلق هذه الانعام واراد ان ينتفع خلقه بها ، وكان تعالى لا يريد القبيح ولا المباح ، فلا بد ان يكون اراد انتفاعهم بها على وجه الطاعة والقربة اليه

﴿ ولكم فيها منافع ﴾ أخرى من ألبانها واصوافها وأشعارها ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ ان تركبوها وتبلغوا المواضع التي تقصدونها لحوائجكم ﴿ وعليها ﴾ يعني على الانعام ﴿ وعلى الفلك ﴾ وهي السفن ﴿ تحملون ﴾ ايضاً لانه تعالى هو الذي يسيرها في البحر بالريح إلى حيث تقصدون وتبلغون أغراضكم منها . وقال ابو عبيدة معنى ﴿ وعلى الفلك ﴾ في الفلك كما قال ﴿ ولا صلبنكم في جذوع النخل ﴾ (١) واراد عليها ، فحروف الجر يقوم بعضها مقام بعض .

قوله تعالى :

﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ ٱللهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي ٱلْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِٱللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٥)

خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى مخاطباً للكفار الذين جحدوا آياته وانكروا أدلته الدالة على

(١) سورة ٢٠ طه آية ٧١

توحيده وإخلاص العبادة له ﴿ ويريكم آياته ﴾ أي يعلمكم حججه ويعرفكم إياها ، منها إهلاك الأمم الماضية على ما اخبر عنهم ووجه الآية فيه انهم بعد النعمة العظيمة صاروا إلى النقم لانهم عصوا فاقتضى ذلك العصيان أولا النقمان ثانياً . وكان فيه اوضح الدليل على تثبيت القديم تعالى الذي لولاه لم يصح فعل ولا تدبير . ومنها الآية في خلق الانعام التي قدم ذكرها ، ووجه الآية فيه تسخيرها لمنافع العباد بالتصرف في الوجوه التي قد جعل كل شيء منها لما يصلح له وذلك يقتضي ان الجاعل لذلك قادر على تصريفه عالم بتدبيره ، وانما يرى الآيات بالبيان عنها الذي يحضر للناس معناها ويخطرها ببالهم ، وينبه عليها ، فانه يحتاج اولا في الآية احضارها للنفس ثم الاستدلال عليها والتمييز بين الحق والباطل منها ، فأول الفائدة إخطارها بالبال والتنبيه عليها . والثاني الاستدلال عليها إلى الحق .

ثم قال ﴿ فاي آيات الله تنكرون ﴾ توبيخاً لهم على جحدها ، وقد يكون الانكار للآية تارة بجحدها أصلا . وقد يكون تارة بجحد كونها دالة على صحة ما هي دالة عليه ، والخلاف في الدلالة يكون من ثلاثة اوجه : اما في صحتها في نفسها ، او في كونها دلالة ، او فيهما . وإنما يجوز من الجهال دفع الآية بالشبهة مع قوة الآية وضعف الشبهة لامور :

منها اتباع الهوى ودخول الشبهة التي تغطي الحجة حتى لا يكون لها في النفس منزلة .

ومنها التقليد لمن ترك النظر في الأمور .

ومنها السبق إلى اعتقاد فاسد لشبهة فيمتنع ذلك من توليد النظر للعلم .

ثم نبههم فقال ﴿ افلم يسيروا في الارض ﴾ بأن يمروا في جنباتها ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اكثر منهم ﴾ عدداً ﴿ واشد قوة ﴾ أي

واعظم آثاراً في الارض بالأبنية العظيمة التي نبوها والقصور المشيدة التي شيدوها . وقال مجاهد : بمشيهم على أرجلهم على عظم خلقهم، فلما عصوا وكفروا بالله اهلكهم الله واستأصلهم « فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » معناه لم يغن عنهم ما كسبوه من الأموال والبنيان . وقيل ان (ما) بمعنى أي ، وتقديره فأي شيء اغنى عنهم كسبهم ؟ ! على وجه التهجين لفعلهم والتقريع لهم ، فتكون (ما) الأولى نصباً وموضع الثانية رفعاً .

ثم قال تعالى « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات » يعني لما أتى هؤلاء الكفار رسلهم الذين دعوهم إلى توحيده وإخلاص العبادة له « فرحوا بما عندهم من العلم » وفي الكلام حذف ، وتقديره لما جاءتهم رسلهم بالبينات فجحدوها وانكروا دلالتها وعد الله تعالى الرسل باهلاك امهم ونجاة الرسل فرح الرسل بما عندهم من العلم بذلك . وقيل : إن المعنى فرحوا بما عندهم من العلم يعني الكفار بما اعتقدوا انه علم إذ قالوا : نحن اعلم منهم لن نعذب ولن نبعث ، فكان ذلك جهلا واعتقدوا انه علم ، فاطلق الاسم عليه بالعلم على اعتقادهم ، كما قال « حجتهم داحضة » (١) وقال « ذق انك انت العزيز الكريم » (٢) يعني عند نفسك وعند قومك ، فالأول قال به الجبائي ، والثاني قول الحسن ومجاهد . وقيل : المعنى إن الكفار فرحوا بما عند الرسل فرح استهزاء وسخرية لا فرح سرور وغبطة وقوله « وحاق بهم » أي حل بهم « ما كانوا به يستهزؤن » أي جزاء ما كانوا به يسخرون برسلهم من الهلاك والعذاب .

ثم اخبر تعالى عنهم انهم « فلما رأوا بأسنا » بأس الله ونزول عذابه « قالوا

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦

(٢) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٩

آمنا بالله وحده » وخلعنا الانداد من دونه « وكفرنا بما كنا به مشركين » في عبادة الله من الاصنام والاوثان. فقال الله سبحانه « فلم يك ينفعهم إيمانهم » عند رؤيتهم بأس الله وعذابه، لانهم يصيرون عند ذلك ملجئين وفعل الملجأ لا يستحق به الثواب . ثم قال « سنة الله التي قد خلت في عباده » نصب « سنة الله » على المصدر، والمعنى طريقة الله المستمرة من فعله بأعدائه والجاحدين لنعمه واتخاذ الولائج من دونه في ما مضى مع عباده الذين كفروا به « وخسر هنالك الكافرون » لنعمه لفوتهم الثواب والجنة واستحقاقهم العذاب والكون في النار .

٤١ - سورة حم السجدة

هي مكية في قول قتادة ومجاهد ليس فيها ناسخ ولا منسوخ وهي اربع وخمسون آية كوفي وثلاث في المدنيين واثنتان وخمسون في البصري والشامي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (٥).

خمس آيات في الكوفي وأربع في الباقي عد الكوفيون «حم» ولم يعده الباقون قرأ بعض الكوفيين (حم) رفع بـ(تنزيل) و(تنزيل) رفع بـ(حم) وقال الفراء: ارتفع (تنزيل) باضمار (ذلك) او هذا تنزيل. وقال البصريون (تنزيل) رفع بالابتداء، وخبره «كتاب فصلت آياته» و «قرآناً» نصب على المصدر او

الحال ذهب اليه قوم .

قد بينا اختلاف المفسرين في معنى قوله (حم) فلا وجه لاعادته . وقيل : في وجه الاشتراك في اسماء هذه السور السبع بـ (حم) انه للمشاكلة التي بينها بما يختص به بما ليس لغيرها ، لانه إسم علم أجري على الصفة الغالبة بما يصح فيه الاشتراك . والتشاكل الذي اختصت به هو ان كل واحدة منها استفتحت بصفة الكتاب مع تقاربها في الطول والقصر ومع شدة تشاكل الكلام في النظام ، وحكم الكتاب البيان عن طريق النجاة الذي يصغر كل شيء في حنب الفائدة به من طريق الهلاك الذي لا صبر للنفس عليه ، وهو على وجوه : منها تبيين الواجب مما ليس بواجب ، وتبيين الأولى في الحكمة مما ليس بأولى ، وتبيين الجائز مما ليس بجائز ، وتبيين الحق في الدين من الباطل ، وتبيين الدليل على الحق مما ليس بدليل ، وتبيين ما يرغب فيه مما لا يرغب فيه ، وما يحذر منه مما لا يحذر مثله . وغير ذلك من وجوه أحكامه وهي اكثر من ان تحصى .

وقوله « تنزيل من الرحمن الرحيم » وصف الكتاب بأنه تنزيل لأن جبرائيل عليه السلام نزل به على محمد صلى الله عليه وآله وفي ذلك دلالة على حدوثه ، لأن التنزيل لا يكون إلا محدثاً .

وقوله « كتاب فصلت آياته » أي هذا كتاب ، وإنما وصف القرآن بأنه كتاب وإن كان المرجع فيه إلى كلام مسموع ، لأنه مما ينبغي أن يكتب ويدوّن لأن الحافظ ربما نسيه او نسي بعضه ، فيتذكر ، وغير الحافظ فيتعلم منه . وقوله « فصلت آياته » معناه ميزت دلائله . وإنما وصفه بالتفصيل دون الاجمال ، لان التفصيل يأتي على وجوه البيان ، لأنه تفصيل جملة عن جملة او مفرد عن مفرد ، ومدار أمر البيان على التفصيل والتمييز في ما يحتاج اليه من أمور الدين إذ العلم

علمان : علم دين وعلم دنيا وعلم الدين أجلهما واشرفهما لشرف النفع به . وقيل : « فصلت آياته » بالأمر والنهي والوعد والوعيد والترغيب والترهيب .

ونصب قوله « قرآناً عربياً » على الحال - في قول الزجاج - وتقديره فصلت آياته في حال جمعه . ووصف بأنه قرآن ، لانه جمع بعضه إلى بعض ، وبأنه عربي لأنه يخالف جميع اللغات التي هي ليست عربية « لقوم يعلمون » أي لمن يعلم العربية. وقوله « بشيراً » أي مبشراً بالجنة وثوابها « ونذيراً » أي مخوفاً من النار وعقابها .

وقوله « فاعرض اكثرهم » اخبار منه تعالى عن الكفار أن اكثرهم يعدل عن التفكر فيه وعن سماعه « فهم لا يسمعون » لعدولهم عنه . ويجوز أن يكون مع كونهم سامعين إذا لم يفكروا فيه ولم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه . وقال البلخي : معناه إنهم يفعلون فعل من لا يسمعه ، لأنهم مع سماعه يستثقلونه ويعرضون عن الفكر فيه .

ثم حكى ما قاله الكفار من قولهم « قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه » قال مجاهد والسدي : معناه في أغطية وإنما قالوا ذلك لييؤسوا النبي صلى الله عليه وآله من قبولهم دينه ، فهو على التمثيل ، فكأنهم شبهوا قلوبهم بما يكون في غطاء فلا يصل اليه شيء مما وراءه ، وفيه تحذير من مثل حالهم في كل من دعي إلى امر أن لا يمتنع ان يكون هو الحق ، فلا يجوز ان يدفعه بمثل ذلك الدفع « وفي آذاننا وقر » أي ثقل عن استماع هذا القرآن « ومن بيننا وبينك حجاب » قيل الحجاب الخلاف الذي يقتضي أن يكون بمعزل عنك . قال الزجاج : معناه حاجز في النحلة والدين أي لا نوافقك في مذهب « فاعمل اننا عاملون » معناه فاعمل بما يقتضيه دينك ، فانا عاملون بما يقتضيه ديننا . وقال الفراء : معناه فاعمل في هلاكنا ، فاننا عاملون

في هلاكك ، تهديداً منهم .

قولـه تعـالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ (١٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو جعفر « سواء » رفعاً . وقرأه يعقوب خفضاً . وقرأه الباقون نصباً . فمن رفعه فعلى الاستئناف . ومن خفضه جعله نعتاً للايام . ومن نصبه فعلى المصدر .

امر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله أن يقول لهؤلاء الكفار « إنما انا بشر مثلكم » لحم ودم ، ومن ولد آدم ، وإنما خصني الله بنبوته وأمرني برسالته وميزني منكم بأني « يوحى إلي أنما إلهكم » الذي يستحق العبادة « إله واحد » لا شريك له في العبادة ﴿ فاستقيموا اليه ﴾ أي استمروا على وجه واحد في الطاعة له وإخلاص العبادة له على ما تقتضيه الحكمة « واستغفروه » أي واطلبوا المغفرة من جهته لذنوبكم .

ثم اخبر فقال « فويل للمشركين » الذين اشركوا بعبادة الله غيره من

الاصنام والاوثان ووصفهم بانهم « الذين لا يؤتون الزكاة » وقال الحسن : معناه لا يؤتون ما يكونون به ازكياء اتقياء من الدخول في دين الله . وقال الفراء : الزكاة في هذا الموضع ان قريشاً كانت تطعم الحاج وتسقيهم فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله . وقال قوم : إنما توعدهم على ترك الزكاة الواجبة عليهم لأنهم متعبدون بجميع العبادات ويعاقبون على تركها وهو الظاهر . وقال الزجاج : معناه وويل للمشركين الذين لا يؤمنون بأن الزكاة واجبة . وإنما خص الزكاة بالذكر تقريعاً لهم على شحهم الذي يأنف منه أهل الفضل ويتركون ما يقتضي انهم ان يعملوه عملوه لاجله . وفي ذلك دعاء لهم إلى الايمان وصرف لهم عن الشرك . وكان يقال : الزكاة قنطرة الايمان فمن عبرها نجا . وقال الطبري : معناه الذين لا يعطون الله الطاعة التي يطهرهم بها ويزكي أبدانهم ، ولا يوحدونه . وقال عكرمة : هم الذين لا يقولون : لا إله إلا الله . وقد بينا أن الأقوى قول من قال إن الذين لا يؤدون زكاةاموالهم ، لان هذا هو حقيقة هذه اللفظة « وهم بالآخرة هم كافرون » معناه وهم مع ذلك يجحدون ما أخبر الله به من الثواب والعقاب في الآخرة .

ثم اخبر الله تعالى عن المؤمنين فقال « ان الذين يؤمنون بالآخرة » أي يصدقون بأمر الآخرة من الثواب والعقاب « وعملوا الصالحات » أي الطاعات « لهم اجر غير ممنون » أي لهم جزاء على ذلك غير مقطوع ، بل هو متصل دائم ، ويجوز ان يكون معناه انه لا أذى فيه من المنّ الذي يكدر الصنيعة .

ثم امر النبي صلى الله عليه وآله ان يقول لهم على وجه الانكار عليهم بلفظ الاستفهام « أإنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين » أي تجحدون نعمة من خلق الارض في يومين « وتجعلون له انداداً » أي تجعلون له اشباهاً وامثالا في استحقاق العبادة .

ثم قال الذي يستحق العبادة « ذلك رب العالمين » الذي خلق الخلائق وملك التصرف فيهم .

وقوله « وجعل فيها رواسي من فوقها » أي وخلق في الأرض جبالا راسيات ثابتات فوق الارض « وبارك فيها » بما خلق فيها من المنافع « وقدر فيها اقواتها في أربعة ايام سواء للسائلين » روي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال (إن الله خلق الارض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق الشجر والماء والعمران والخراب يوم الأربعاء فتلك اربعة ايام وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة الشمس والقمر والنجوم والملائكة وآدم). وقال الحسن والسدي : وابن زيد « قدر فيها اقواتها » أي ارزاقها . وقال قتادة : معناه قدر فيها ما فيه صلاحها . قال ابو عبيدة : الأقوات جمع قوت وهي أرزاق الخلق وما يحتاجون اليه . وقيل : إنما خلق ذلك شيئاً بعد شيء في هذه الأربعة ايام لتعتبر به الملائكة وقيل : لاعتبار العباد في الاخبار عن ذلك إذا تصوروه على تلك الحال . وقال الزجاج : الوجه فيه تعليم الخلق التأني في الامور وألا يستعجلوا فيها بأن الله تعالى كان قادراً على ان يخلق ذلك في لحظة ، لكن خلقها في هذه المدة لما قلنا . وقال قوم إنما خلق ذلك في هذه المدة ليعتبروا بذلك على انها صادرة من قادر مختار عالم بالمصالح وبوجوه الاحكام إذ لو كان صادراً عن مطبوع اوموجب لحصلت في حالة واحدة . وقال الزجاج : « في اربعة ايام » معناه في تتمة اربعة أيام .

وقوله « سواء للسائلين » قال قتادة والسدي : معناه سواء للسائلين عن ذلك لأن كلا يطلب القوت ويسأله . وفي قراءة عبد الله « وقسم فيها اقواتها » ومعناه خلق في هذه البلدة ما ليس في هذه ليتعايشوا ويتجروا . ومن نصب (سواء) فعلي تقدير استوت سواء واستواء لمن سأل في كم خلقت السموات

والارض ؟ فقيل في اربعة أيام سواء لازيادة ولا نقصان .

قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَيْهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلٰئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (١٥) .

اربع آيات في البصري والشامي وخمس في ما عداه . إختلفوا في قوله « وثمود » فلم يعدها البصريون والشاميون وعدها الباقون .

اخبر الله تعالى انه بعد خلق الأرض والجبال وتقدير الأقوات فيها « استوى إلى السماء وهي دخان » قال الحسن : معناه استوى امره ولطفه إلى السماء . وقال غيره : معنى الاستواء إلى السماء العمد والقصد اليها ، كأنه قال : ثم قصد اليها . واصل الاستواء الاستقامة والقصد للتدبير المستقيم تسوية له . وقوله

« ثم استوى على العرش » (١) معناه ثم استوى تدبيره بتقدير القادر عليه . وقيل إن الاستوى بمعنى الاستيلاء ، كما قال الشاعر :

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق (٢)

فاما الاستواء عن اعوجاج فمن صفات الاجسام لا يجوز ذلك على الله تعالى . وقوله « ثم استوى إلى السماء » يفيد انه خلق السماء بعد خلق الأرض وخلق الاقوات فيها ، ولا ينافي ذلك قوله « أأنتم اشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسو اها » إلى قوله ﴿ والارض بعد ذلك دحاها ﴾ (٣) لان ذلك يفيد أن الارض كانت مخلوقة غير مدحوة ، فلما خلق الله السماء دحا بعد ذلك الأرض فبسطها ، وإنما جعل الله السموات أولا دخاناً ثم سبع سموات طباقاً ثم زينها بالمصابيح ، لما في ذلك من الدلالة على أن صانعها وخالقها ومدبرها ليس كمثله شيء من الموجودات غني عن كل شيء سواه ، وإن كل ما سواه يحتاج اليه من حيث انه قادر لنفسه لا يعجزه شيء ، عالم لنفسه لا يخفى عليه شيء . و (الدخان) جسم لطيف مظلم ، فالله تعالي خلق السموات اولا دخاناً ثم نقلها إلى حال السماء من الكثافة والالتئام لما في ذلك من الاعتبار واللطف لخلقه .

وقوله ﴿ فقال لها و للارض ائتيا طوعاً اوكرها قالتا اتينا طائعين ﴾ قال ابن عباس أتت السماء بما فيها من الشمس والقمر والنجوم وأتت الارض بما فيها من الانها والاشجار والثمار ، وليس هناك أمر بالقول على الحقيقة ولا إطاعة ، ولا

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٥٣ وسورة ١٠ يونس آية ٣ وسورة ١٣ الرعد آية ٢ وسورة ٢٥ الفرقان آية ٥٩ وسورة ٣٢ الم السجدة آية ٤ وسورة ٥٧ الحديد آية ٤ (٢) مر في ١ / ١٢٥ و ٢ \ ٣٩٦ و ٤ / ٤٥٢ و ٥ / ٣٨٦ (٣) سورة ٧٩ النازعات آية ٣٠

جواب لذلك القول بل أخبر تعالى عن اختراعه السموات والارض وانشائه لهما من غير تعذر ولا مشقة ولا كلفة ومن غير ملابسة ولا معاناة بمنزلة ما قيل: للمأمور افعل ففعل من غير تلبث ولا توقف، فعبر عن ذلك بالأمر والطاعة وهو كقوله ﴿ كن فيكون ﴾ (١) وقد بينا الوجه في ذلك ويكون التقدير كأنه قيل: أتينا بمن فينا طائعين أي سبحانه فعل الطبائع في ما أمر به وإنما قلنا ذلك لانه تعالى لا يأمر المعدوم ولا الجماد، لان ذلك قبيح يتعالى الله عن ذلك ومثل ذلك قول الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني (٢)

ونظائر ذلك كثيرة بيناها في ما مضى وإنما قال ﴿ طائعين ﴾ ولم يقل طائعتين، لانه لما اسند الفعل اليهما وهو ما لا يكون إلا من العقلاء اخبر عنهما بالياء والنون، وقال قطرب: لان المعنى أتينا بمن فينا من العقلاء فغلب حكم العقلاء. وقال الشاعر:

فاجهشت للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رآني

فقلت له اين الذين عهدتهم بجنبيك في حفض وطيب زمان

فقال مضوا واستودعوني بلادهم ومن ذا الذي يبقى على الحدثان (٣)

وقوله ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ معناه جعلهن سبع سموات على اتمام خلقهن لأن القضاء جعل الشيء على إتمام وإحكام ولذلك قيل: انقضى أي قد تم ومضى، وقضى فلان إذا مات، لان عمره تم ومضى. وقيل: إن السماء موج مكفوف، روي ذلك في الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله. وقال الحسن: هي سبع ارضين

---

(١) سورة ٣٦ يس آية ٨٢ وغيرها (٢) مر في ١ \ ٤٣١ و ٨ \ ٨٥، ٣٦٩

(٣) قد مر في ٨ \ ٣٦٩

بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام . وقوله ﴿ في يومين ﴾ قال السدي : خلق الله السموات وسواها يوم الخميس والجمعة وسمي جمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والارض ، وإنما خلقها في يومين نظير خلق الارض في يومين ، فان قيل : قوله ﴿ خلق الارض في يومين ﴾ وخلق الجبال والاقوات في اربعة أيام وخلق السموات في يومين يكون ثمانية ايام، وذلك مناف لقوله ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة ايام ﴾ (١) قلنا : لا تنافي بين ذلك ،لانه خلق السموات والارض وخلق الجبال والاشجار والاقوات في اربعة أيام منها اليومان المتقدمان ، كما يقول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة ايام ثم الى الكوفة في خمسة عشر يوماً أي في تمام هذه العدة ، ويكون قوله ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ تمام ستة أيام . وهو الذي ذكره في قوله في ستة أيام .وزال الاشكال .

وقوله ﴿ واوحى في كل سماء أمرها ﴾ قال السدي معناه جعل فيها ما اراده من ملك وغيره. وقيل معناه أوحي في كل سماء بما يصلحها « وزينا السماء الدنيا بمصابيح» روي ان الكواكب في السماء الدنيا ،وهي الاقرب إلى الارض دون ما فوقها من السموات .

وقوله ﴿ وحفظاً ﴾ منصوب على المعنى وتقديره جعلناها زينة وحفظاً أي وجعلناها حفظاً من استراق الشياطين السمع بالكواكب التي جعلت فيها . وقيل : حفظاً من ان تسقط على الأرض ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ يعني القادر الذي لا يغالب العليم بجميع الاشياء لا يخفى عليه شيء منها .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ فان أعرضوا ﴾ يعني ان عدل الكفار عن الفكر في ما ذكرنا والتدبر لما بينا وأبوا إلا الشرك والجحود ﴿ فقل ﴾ لهم مخوفا لهم ﴿ انذرتكم

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٥٣ وسورة ١٠ يونس آية ٣

صاعقة ﴾ أي خوفتكم إياها ان ينزل بكم كما نزل بمن قبلكم ونصب (صاعقة) على انه مفعول ثان ﴿ مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ التي أرسلها الله عليهم واهلكهم بها ، فقال السدي : الصاعقة اراد بها العذاب ، وقال قتادة : معناه وقيعة . وقيل : إن عاداً اهلكت بالريح والصاعقة جميعاً . وقوله ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين ايديهم ﴾ فـ (إذ) متعلقة بقوله ﴿ صاعقة ﴾ أي نزلت بهم إذ جاءتهم الرسل من بين ايديهم ومن خلفهم ، منهم من تقدم زمانه ومنهم من تأخر عنه . وقال الفراء : اتت الرسل إياهم ومن كان قبلهم ومن خلفهم أي وجاءتهم انفسهم رسل من بعد اولئك الرسل فيكون الهاء والميم في خلفهم للرسل ، ويكون لهم بجعل ما خلفهم ما معهم . وقال قوم : معناه قبلهم وبعد أن بلغوا وتعبدوا بأمر الرسل الذين تقدموهم ، قال البلخي : ويجوز أن يكون المراد أتتهم اخبار الرسل من ههنا وههنا مع ما جاءهم منهم ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي ارسلناهم بأن لا يعبدوا إلا الله وحده لاشريك له وألا يشركوا بعبادته غيره ، فقال المشركون عند ذلك ﴿ لو شاء ربنا ﴾ أن نؤمن ونخلع الانداد « لانزل ملائكة » يدعوننا إلى ذلك ولم يبعث بشراً مثلنا ، فكأنهم انفوا من الانقياد لبشر مثلهم وجهلوا أن الله يبعث الانبياء على ما يعلم من مصالح عباده ويعلم من يصلح للقيام بها وقالوا لهم ايضاً ﴿ إنا ﴾ معاشر قومنا ﴿ بما أرسلتم به ﴾ من إخلاص العبادة والتوحيد ﴿ كافرون ﴾ جاحدون . ثم فصل تعالى اخبارهم فقال ﴿ فاما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق ﴾ أي تجبروا وعتوا وتكبروا على الله بغير حق جعله الله لهم بل للكفر المحض والظلم الصراح ﴿ وقالوا من أشد منا قوة ﴾ لما كان الله تعالى اعطاهم من فضله قوة تقووا بها على اهل زمانهم ، فقال الله تعالى ﴿ او لم يروا ﴾

ومعناه او لم يعلموا ﴿ ان الله الذي خلقهم ﴾ واخترعهم وخلق فيهم هـذه القوة ﴿ اشد منهم قوة ﴾ واعظم اقتداراً ﴿ وكانوا ﴾ مع ذلك ﴿ بآيات الله ﴾ وادلته ﴿ يجحدون ﴾ أي ينكرونها، ولا يعترفون بها.

قولـه تعـالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع ﴿ نحسات ﴾ ساكنة الحاء ، الباقون بكسرها ، لان (نحسات) صفة ، تقول العرب ، يوم نحس مثل رجل هرم . وقيل : هما لغتان ، وقرأ نافع ويعقوب ﴿ ويوم نحشر ﴾ بالنون كقوله ﴿ ونحشره يوم القيامة اعمى ﴾ (١) وقوله ﴿ ونجينا الذين آمنوا ﴾ بالنون . الباقون بضم اليـاء على مالم يسم فاعـله ، لأنه عطف عليه . قوله ﴿ فهم يوزعون ﴾ فطابق بينهما .

لما حكى الله عن عاد وثمود انه ارسل اليهم رسلا وأمرهم بعبادة الله وحـده

(١) سورة ٢٠ طه آية ١٢٤

وأن لا يشركوا به شيئاً وانهم كفروا بذلك وجحدوه . واخبر انه أهلكهم بأن أرسل عليهم ريحاً صرصراً أي شديداً صوته واشتقاقه من الصرير ولذلك ضوعف اللفظ اشعاراً بمضاعفة المعنى ، يقال صر يصر صريراً ، وصرصر يصرصر صرصرة وريح صرصر شديد هبوبها . وقال قتادة : يعني باردة وقال السدي : باردة ذات صوت . وقال مجاهد : شديدة السموم . وقيل : اصله صرر قلبت الراء صاداً ، كما قيل : ردّه ، وردّده ، ونهه ونهنهه . وقال رؤبة :

فاليوم قد نهنهني تنهنهي وأولى حلم ليس بالمتقه(١)

وكما قيل : كففه وكفكفه ، قال النابغة:

اكفكف عبرة غلبت عبراتي إذا نهنتها عادت ذباحا (٢)

ومنه سمي نهر صرصر لصوت الماء الجاري فيه ،

وقوله ﴿ في أيام نحسات ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي : يعني مشومات ، والنحس سبب الشر ، والسعد سبب الخير ، وبذلك سميت سعود الايام ونحوسها وسعود النجوم ونحوستها ، ومن سكن الحاء خففه ، ومن جرها فعلى الأصل . وقال ابو عبيدة : معناه ايام ذات نحوس أي مشائيم العذاب .

وقوله ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴾ إخبار منه تعالى انه انما يفعل بهم ذلك ليذيقهم حال الهوان في الدنيا ، والخزي الهوان الذي يستحيا منه خوفاً من الفضيحة ، يقال : خزي يخزى خزياً واخزاه الله إخزاء فهو مخزي .

ثم بين تعالى ان عذاب الآخرة اخزى وافضح من ذلك فقال ﴿ ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾ أي لا يدفع عنهم العذاب الذي ينزل بهم .

ثم قال تعالى ﴿ واما ثمود فهديناهم ﴾ فالذي عليه القراء رفع الدال ، وقرأ

(١ ، ٢) تفسير الطبري ٢٤ | ٥٩ ، ٦٠

الحسن بالنصب على تقدير هدينا ثمود هديناهم ، والرفع اجود ، لأن (اما) لايقع بعدها إلا الاسماء ، فالنصب ضعيف . والمعنى واما ثمود دللناهم على طريق الرشاد فعدلوا عنها إلى طريق الغي والفساد ، والهدي يتصرف على وجوه بيناها في ما مضى . وقال ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد : معناه بينا لهم ، وإنما لم يصرف ثمود لأنه اسم القبيلة او الأمة ، وهو معرفة .وإنما رفع لأن (أما) رفع الاسم بعدها اولى .

وقوله ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ معناه اختاروا العمى على طريق الحق والاهتداء اليها وبئس الاختيار ذلك ـ وهو قول الحسن .

وفى الآية دلالة على بطلان قول المجبرة فى ان الله يضل الكفار عن الدين ولا يهديهم اليه لانه صرح بأنه هدى ثمود إلى الدين وانهم اختاروا العمى على الهدى ، وذلك واضح لا اشكال فيه . وقوله ﴿ فاخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ أي ارسل عليهم الصاعقة التي بعثها للعذاب دون غيره ، والهون والهوان واحد ـ فى قول ابي عبيدة ـ وقال السدي : معناه الهوان ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أي جزاء على ما كسبوه من الشرك والكفر .

وقوله ﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ اخبار من الله تعالى انه خلص من جملتهم من آمن بالله واتقى معاصيه خوفاً من عقابه نجاهم الله من ذلك العذاب . ثم قال تعالى ﴿ ويوم يحشر اعداء الله ﴾ يبعثون وهو يوم القيامة . فمن قرأ بالنون فعلى الاخبار من الله عن نفسه بذلك . ومن قرأ بالياء المضمومة فعلى انهم يبعثون ويجمعون إلى النار ﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يمنعون من التفرق ويحبسون ويكفون ، يقال : وزعت الرجل إذا منعته ، ومنه قول الحسن لابد للناس من وزعة وقوله ﴿ اوزعني ﴾ أي الهمني . وقول الشاعر :

وإني بها باذا المعارج موزع

ويروى موزّع ﴿حتى إذا ماجاؤها﴾ معناه حتى إذا أتي هؤلاء الكفار النار ، واراد الله إلقاءهم فيها ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ وقيل : في شهادة هذه الجوارح قولان :

احدهما ـ انها تبنى بنية حي وتلجأ إلى الشهادة والاعتراف بما فعله اصحابها .

والآخر ـ ان يفعل فيها الشهادة ويضاف اليها مجازاً .

ووجه ثالث ـ قال قوم : إنه يظهر فيها امارات تدل على كون اصحابها مستحقين للنار ، فسمى ذلك شهادة مجازاً ، كما يقال : عيناك تشهد بسهرك أي فيها ما يدل على سهرك . وقيل : المراد بالجلود الفروج ، على طريق الكناية . وقيل : لا : بل الجلود المعروفة وهو الظاهر .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ ٱلْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف

هذا حكاية من الله عن الكفار فى الآخرة بعد ما شهدت عليهم ابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون من المعاصي في دار الدنيا أنهم يقولون ﴿ لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ منكرين عليهم إقامة تلك الشهادة . وقيل : اشتقاق الجلد من التقوية من قولهم : فلان يتجلد على كذا ، وهو جلد أي قوي ، فتقول جلودهم في الجواب عن ذلك ﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ فالانطاق جعل القادر على الكلام ينطق إما بالالجاء إلى النطق أو الدعاء اليه . فهؤلاء يلجئهم الله إلى ان ينطقوا بالشهادة . والنطق إدارة اللسان فى الفم بالكلام ، ولذلك لا يوصف تعالى بأنه ناطق ، وإن وصف بأنه متكلم . ومعنى ﴿ أنطق كل شيء ﴾ أي كل شيء لا يمتنع منه النطق كالاعراض والموات ، والفائدة فى الاخبار عنهم بذلك التحذير من مثل حالهم فى ما ينزل بهم من الفضيحة بشهادة جوارحهم عليهم بما كانوا يعملون من الفواحش . فلم يكن عندهم فى ذلك أكثر من هذا القول الذي لا ينفعهم وقال قوم : إن الجوارح تشهد عليهم حين يجحدون ما كان منهم .

وقوله ﴿ وهو خلقكم أول مرة ﴾ اخبار منه تعالى وخطاب لخلقه بأنه الذي خلقهم فى الابتداء ﴿ واليه ترجعون ﴾ فى الآخرة إلى حيث لا يملك احد النهي والامر سواه .

وقوله ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم ﴾ قال مجاهد ﴿ وما كنتم تستترون ﴾ أي تتقون . وقال السدي : معناه لم تكونوا فى دار الدنيا تستخفون عن معاصي الله بتركها وقيل : إن الآية نزلت في ثلاثة

نفر تساروا ، فقال بعضهم لبعض : أترى الله يسمع إسرارنا ؟ وقال الفراء : معناه لم تكونوا تخافون ان تشهد عليكم جوارحكم فتستتروا منها ولم تكونوا تقدروا على الاستتار منها ، ويكون على وجه التعيير أي ولم تكونوا تستترون منها .

وقوله ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ وصف لهؤلاء الكفار بأنهم ظنوا انه تعالى يخفى عليه أسرارهم ولا يعلمها ، فبين الله بذلك جهلهم به تعالى ، وانهم وإن علموه من جهة انه قادر غير عاجز وعالم بما فعلوا فاذا ظنوا انه يخفى عليه شيء منها فهو جاهل على الحقيقة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وفي قراءة عبد الله ﴿ ولكن زعمتم ﴾ قال الفراء : الزعم والظن يكونان بمعنى واحد وقد يختلفان .

ثم حكى ما يخاطبهم به فانه يقال لهم ﴿ وذلكم ظنكم ﴾ معاشر الكفار ﴿ الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ أي اهلككم يقال : ردى فلان يردى إذا هلك قال الاعشى :

أفي الطوف خفت عليّ الردى وكم من رد أهله لم يرم (١)

وقوله ﴿ فاصبحتم من الخاسرين ﴾ معناه فظللتم من جملة من خسر في تجارته لأنكم خسرتم الجنة وحصل لكم النار . ثم قال ﴿ فان يصبروا فالنار مثوى لهم ﴾ قال البلخي : معناه فان يتخيروا المعاصي فالنار مصير لهم ، وقال قوم : معناه وإن يصبروا فى الدنيا على المعاصي فالنار مثواهم ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ - بضم الياء - قرأ به عمرو ومعناه إن طلب منهم العتبى لم يعتبوا أي لم يرجعوا ولم ينزعوا . وقال قوم : المعنى فان يصبروا أو يجزعوا فالنار مثوى لهم ، ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ معناه فان يجزعوا فيستعتبوا ﴿ فماهم من المعتبين ﴾ لأنه ليس يستعتب إلا من قد جزع مما قد اصابه ، فطلب العتبى حينئذ ، كما قال ﴿ اصلوها فاصبروا او لا تصبروا

(١) ديوانه (دار بيروت) ٢٠٠ وقد مر في ٨ / ٤٩٩

سواء عليكم ﴾ (١) ومعنى الآية ﴿ فان يصبروا ﴾ على ماهم فيه فمقامهم فى النار ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ أي وإن يطلبوا العتبى وهي الرضا ﴿ فما هم من المعتبين ﴾ أي ليس بمرضي عنهم ، لان السخط من الله تعالى بكفرهم قد لزمهم وزال التكليف عنهم ، فليس لهم طريق إلى الاعتاب ، والمعتب الذي قبل عتابه وأجيب إلى ما سأل .

وقوله ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين ايديهم وما خلفهم ﴾ قال الحسن : معناه خلينا بينهم وبين الشياطين الذين اغووهم ودعوهم إلى ما استوجبوا العقاب به ، ولم نمنعهم منهم ، جزاء على ما استحقوه من الخذلان ، فمعنى (قيضنا) خلينا ومكنا . قال الجبائي : (التقييض) إحواج بعض العباد إلى بعض كحاجة الرجل إلى المرأة ، والمرأة إلى الرجل ، وكحاجة الغني إلى الفقير يستعمله وحاجة الفقير إلى ان يستعمله الغني وغير ذلك من احواج بعضهم إلى بعض . وقال قوم : التقييض المماثلة ، والمقايضة المقايسة ، قال الشماخ :

تذكرت لما اثقل الدين كاهلي — وغاب يزيد ما اردت تعذرا
رجالا مضوا عني فلست مقايضاً — بهم أبداً من سائر الناس معشرا

فالمعنى على هذا إنا نضم إلى كل كافر قريناً له من الجن مثله فى الكفر فى نار جهنم كما قال ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ (٢) ومعنى ﴿ فزينوا لهم ﴾ يعني فعل اهل الفساد الذين فى زمانهم ، وفعل من كان قبلهم ، وقيل ﴿ ما بين ايديهم ﴾ من أمر الدنيا ﴿ وما خلفهم ﴾ من أمر الآخرة - في قول الحسن والسدي - وذلك بدعائهم إلى انه لا بعث ولا جزاء . وقال الفراء ﴿ فزينوا لهم ما بين ايديهم ﴾ من أمر الآخرة ، فقالوا : لا جنة ولا نار

(١) سورة ٥٢ الطور آية ١٦ (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٣٦

ولا بعث ولا حساب ﴿ وماخلفهم ﴾ من امر الدنيا فزينوا لهم اللذات وجمع الأموال وترك انفاقها في سبيل الله . وقيل : زينوا لهم اعمالهم التي يعملونها ، وهي ﴿ ما بين ايديهم ﴾ وزينوا لهم ما عزموا عليه أن يعملوه وهو (ما خلفهم) .

وقوله ﴿ وحق عليهم القول ﴾ يعني وجب عليهم القول بتصييرهم إلى العذاب الذي كان اخبر انه يعذب به من عصاه ﴿ في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس ﴾ أي حق على هؤلاء الكفار وعلى امم من الجن والانس انهم متى عصوا الله حق القول بأنهم يعاقبون . ثم قال تعالى ﴿ انهم كانوا خاسرين ﴾ خسروا الجنة وحصلت لهم النار .

قولـه تعـالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ ٱللهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا ٱللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلاخلاف

حكى الله تعالى عن الكفار انهم يقول بعضهم لبعض ﴿ لا تسمعوا لهـذا القرآن ﴾ الذي يقرؤه محمد ﷺ ولا تصغوا إليه ﴿ والغوا فيه ﴾ لكي تغلبوه ، ويجوز ان تغلبوه ، فاللغو هو الكلام الذي لا معنى له يستفاد ، وإلغاء الكلمـة إسقاط عملها ، ويقال : لغا يلغو لغواً ، ولغاً ، قال الراجز :

عن اللغا ورفث التكلم (١)

وإذا كانت جملة الكلام لغواً لا فائدة فيه لم يحسن وإذا كان تأكيداً لمعنى تقدم - وإن لم يكن له معنى فى نفسه مفرد - حسن لانه يجري مجرى المتمم للكلمة التي تدل معها على المعنى ، وإن لم يكن له معنى فى نفسه . وقال مجاهد : قالوا خلطوا عليهم القول بالمكاء والصفير ، وقال غيره : هو الضجيج والصياح ، وأقسم تعالى فقال ﴿ فلنذيقن الذين كفروا ﴾ بالله وجحدوا آياته ﴿ عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ﴾ قيل : معناه أسوأ الذي كانوا يعملون من المعاصي من جملة ما كانوا يعملون دون غيرها مما لا يستحق به العقاب . وقال قوم : خص بذلك الكبائر - زجراً وتغليظاً - بعينها . واقتصر في الصغير على الجملة فى الوعيد . ثم قال ﴿ ذلك ﴾ يعني ما تقدم الوعيدبه ﴿ جزاء اعداء الله ﴾ الذين عادوه بالعصيان وكفروا به ، وعادوا أولياءه : من الانبياء والمؤمنين وهي ﴿ النار ﴾ والكون فيها . فـ (النار) رفع بأنه بدل من قوله ﴿ ذلك ﴾ جزاؤهم وهو دخولهم فيها ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ أي منزل دوام وتأبيد ﴿ جزاء ﴾ لهم وعقوبة على كفرهم به تعالى فى الدنيا وجحدهم لآياته . قال الفراء : هو كقولهم : لأهل الكوفة فيها دار صالحة ، والدارهي الكوفة ، وحسن ذلك لما اختلف لفظاها ، فكذلك قوله ﴿ ذلك جزاء اعداء الله النار ﴾ ثم قال ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ وهي النار بعينها .

---

(١) مر في ٢ \ ١٣٢ ، ١٦٤ ، ٢٣٠ و ٧ / ١٣٨ و ٨ \ ١٦٣

وفي قراءة عبد الله ﴿ ذلك جزاء أعداء الله النار دار الخلد ﴾، فهذا بين لا شيء فيه لأن الدار هي النار، فأعداء الله العصاة الذين يعاديهم الله - عز وجل - وليس هو من عداوة الانسان لغيره إلا أن يراد به أنه يعمل عمل المعادي، كما قال ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ... ﴾ (١).

ثم حكى ما يقول الكفار ايضاً، فانهم يقولون ﴿ ربنا ارنا اللذين اضلانا من الجن والانس ﴾ قيل: أراد به إبليس الأبالسة وهو رأس الشياطين، وابن آدم الذي قتل أخاه، وهو قابيل. روي ذلك عن علي عليه السلام، لأن قابيل أسس الفساد في ولد آدم. وقيل: هم الدعاة إلى الضلال من الجن والانس.

وقوله ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ انهم لشدة عداوتهم وبغضهم لهم بما أضلوهم وأغووهم يتمنون ان يجعلوهما تحت اقدامهم ويطؤهم ﴿ ليكونا من الاسفلين ﴾ وقيل: المعنى فيكونا فى الدرك الاسفل من النار.

وقوله ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ اخبار منه تعالى أن الذين يقرون بلسانهم بتوحيد الله ويصدقون أنبياءه ويعترفون بالله ﴿ يقولون ربنا الله ثم استقاموا ﴾ أي استمروا على ما توجبه الربوبية. وقال الحسن وقتادة وابن زيد: معناه ثم استقاموا على طاعة الله ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ قال مجاهد والسدي: يعني عند الموت. وقال الحسن: تتنزل عليهم الملائكة تستقبلهم إذا خرجوا من قبورهم فى الموقف بالبشارة. ويقولون لهم ﴿ لاتخافوا ﴾ عقاب الله « ولاتحزنوا » لفوات الثواب ﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ بها فى دار الدنيا جزاء على الطاعات. وموضع ﴿ أن لا تخافوا ﴾ النصب وتقديره تتنزل عليهم والملائكة بأن لا تخافوا، فلما حذف الباء نصب، وفي قراءة عبد الله ﴿ لاتخافوا ﴾ بلا (أن)

(١) سورة ٢ البقرة آية ٩

قبلها ، وتقديره يقولون لهم : لا تخافوا ، وقال مجاهد : معنى لاتخافوا على ماتقدمون عليه من أمر الآخرة ، ولا تحزنوا على ما تخلفونه فى دار الدنيا . وقيل البشرى فى ثلاثة مواضع : عند الموت ، وفي القبر ، وفي البعث .

قوله تعالى :

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٣٥) خمس آيات بلا خلاف .

لما حكى الله تعالى أن الملائكة تتنزل على المؤمنين المستقيمين على طاعة الله التاركين لمعصيته وتبشرهم بالجنة وتؤمنهم من عقاب الله . ذكر ايضاً انهم يقولون لهم مع ذلك ﴿ نحن أولياؤكم ﴾ وهو جمع ولي أي انصاركم واحباؤكم فى الحياة الدنيا وأولياؤكم أيضاً فى الآخرة ، ففي ذلك البشارة المؤمنين بمودة الملائكة لهم وفي الآية بشارة لهم بنيل مشتهاهم فى الجنة . وتفيد الآية وجوب اعتقاد تودد الملائكة إلى من كان مستقيماً على طاعاته . وفيها حجة على شرف الاستقامة بالطاعة على كل ما عداه من أعمال العباد يتولى الملائكة لصاحبه من اجله :

وقوله ﴿ ولكم فيها ما تشتهي انفسكم ﴾ يعني ما تشتهونه وتتمنونه من المنافع والملاذ حاصلة لكم ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ أي ما تستدعونه . وقيل : معناه ما تدعي انه لك فهو لك بحكم الله لك بذلك . وقوله ﴿ نزلا من غفور رحيم ﴾ تقديره انزلكم ربكم في ما تشتهون من النعمة نزلا . فيكون نصباً على المصدر . ويجوز ان يكون نصباً على الحال ، وتقديره : لكم فيها ما تشتهي انفسكم منزلا كما تقول : جاء زيد مشياً تريد ماشياً . وقال الحسن ﴿ نزلا من غفور رحيم ﴾ ليس منا . وقيل : معناه إن هذا الموعود به مع جلالته في نفسه له جلالة لمعطيه بعد ان غفر الذنب حتى صار بمنزلة مالم يكن رحمة منه لعباده فهو أهنأ لك واكمل للسرور به .

وقوله « ومن احسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين » صورته صورة الاستفهام ، ونصب « قولا » على التفسير ، ومعناه النفي وتقديره وليس أحد أحسن قولا ممن دعا إلى طاعة الله واضاف إلى ذلك أن يعمل الأعمال الصالحات ، ويقول مع ذلك إنني من المسلمين الذين استسلموا لامر الله وانقادوا إلى طاعته . وقيل : المعني بالآية النبي صلى الله عليه وآله لأنه الداعي إلى الله . وروي أنها نزلت في المؤذنين . وفي الآية دلالة على من يقول : أنا مسلم إن شاء الله من أصحاب عبد الله بن مسعود ، لأنه لا أحد احسن قولا منه ، فيجب عليه أن يقول : إني مسلم ويقطع في الحكم إذا لم يكن فاسقاً .

ثم قال « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة » أي لا يتماثلان ، ودخلت (لا) في « ولا السيئة » تأكيداً . وقيل : دخلت لتحقيق انه لا يساوي ذا ذاك ، ولا ذاك ذا ، فهو تبعيد المساواة .

وقوله « أدفع بالتي هي احسن » أمر للنبي صلى الله عليه وآله ان يدفع بالتي هي احسن

وقيل : معنى الحسنة - ههنا - المداراة . والسيئة المراد بها الغلظة . فأدب الله تعالى عباده بهذا الأدب . ثم قال « فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » معناه دار القوم ولا تغلظ عليهم حتى كأن عدوك الذي يعاديك في الدين بصورة وليك من حسن عشرتك له وبشرك له . ويدعو ذلك ايضاً عدوك إلى أن يصير لك كالولي الحميم . وقيل : المراد ان من اساء اليك فأحسن اليه ليعود عدوك وليك . وكأنه حميمك . والحميم القريب الذي يحم لغضب صاحبه .

وقوله « وما يلقاها إلا الذين صبروا » معناه ما يعطى هذه الخصلة في رفع السيئة بالحسنة إلا ذو نصيب في الخير عظيم . وقيل : معناه وما يلقاها يعني البشرى بالجنة والامان من العذاب إلا الذين صبروا على طاعة الله والجهاد في دينه « وما يلقاها » ايضاً « إلا ذو حظ عظيم » من الثواب والخير وقد لقي الله تعالى جميع الخلق مثل ما لقي من صبر ، غير ان فيهم من لم يتلقه كما يتلقاه من صبروا وقبلوا ما امرهم الله به .

قوله تعالى :

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ آيَاتِهِ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلّٰهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَٱلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ

ٱلَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلا خلاف .

قوله « واما ينزغنك » اصله (إن) التي للشرط وزيد عليها (ما) تأكيداً فاشبه ذلك القسم ، فلذلك دخلت نون التأكيد في قوله « ينزغنك » كما تقول : والله ليخرجن . والنزغ النخس بما يدعوا إلى الفساد ومنه قوله « من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي » (١) فنزغ الشيطان وسوسته ودعاؤه إلى معصية الله بايقاع العداوة بين من يجب موالاته ، يقال نزغ ينزغ نزغاً فهو نازغ بين رجلين . وفلان ينزغ فلاناً كأنه ينخسه بما يدعوه إلى خلاف الصواب . والمعنى وإن ما يدعوك إلى المعاصي نزغ من الشيطان بالاغواء والوسوسة « فاستعذ بالله » ومعناه اطلب الاعتصام من شره من جهة الله واحذر منه وامتنع من جهته بقوة الله ، فنحن نستعيذ بالله من شر كل شيطان وشر كل ذي شر من انس وجان .

وقوله « إنه هو السميع العليم » يعني انه سميع لأقوالكم من الاستعاذة وغيرها عليم بضمائركم قادر على إجابة دعائكم وقوله « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » معناه ومن أدلته وحججه الباهرة الدالة على توحيده وصفاته التي باين بها خلقه الليل بذهاب الشمس عن بسيط الأرض والنهار بطلوعها على وجهها بالمقادير التي أجريا عليه ورتبا فيه بما يقتضي تدبير عالم بهما قادر على تصريفهما ،

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٠

لأن ذلك لا يقدر عليه غير الله . والشمس والقمر وجه الدلالة فيهما أن الأجرام الثقيلة لا تقف بغير عمد ولا تتصرف على غير قرار ولا عماد إلا أن يصرفهما قادر ليس كالقادرين من الاجسام التي تحتاج في نقلها وتمسكها إلى غيرها ، وكل جسم ثقيل يصرف من غير عماد فمصرفه هو الله تعالى . والأفعال الدالة على الله تعالى على وجهين :

احدهما ـ ما لا يقدر عليه إلا هو كخلق الحياة والقدرة والأجسام وغير ذلك

والآخر ـ أنه إذا وقع على وجه مخصوص لا يتأتى من القادر بقدرة وإن كان جنسه مقدوراً للعباد كتسكين الأرض من غير عمد وتصرف الشمس والقمر بكونهامرة صاعدة ومرة هابطة ومرة طالعة ومرة غاربة مع ثقل أجرامهما وبعدهما من عماد لها اعظم دلالة على ان لهما مصرفاً ومدبراً لا يشبههما ولا يشبهه شيء. قال تعالى «لا تسجدوا للشمس ولا للقمر» كما يفعل قوم من المجوس بل «اسجدوا لله الذي خلقهن» وانشاهن . وإنما قال «خلقهن» لانه أجري مجرى جمع التكسير ، ولم يغلب المذكر على المؤنث ، لأنه في ما لا يعقل . وقال الزجاج : تقديره الذي خلق هذه الآيات «إن كنتم إياه تعبدون» أي ان كنتم تقصدون بعبادتكم الله فوجهوا العبادة اليه دون الشمس والقمر . ثم قال «فان استكبروا» يعني هؤلاء الكفار أي تكبروا عن توجيه العبادة إلى الله وابوا إلا عبادة الاصنام «فالذين عند ربك» يعني من الملائكة «يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون» أي لا يفترون من عبادته ولا يملونه . والسجود عند اصحابنا عند قوله «إن كنتم إياه تعبدون» وهو مذهب أبي عمرو بن العلا . وعند الباقين عند قوله «وهم لا يسأمون» .

ثم قال تعالى «ومن آياته» أي من ادلته الدالة على توحيده وإخلاص العبادة له «إنك ترى الارض خاشعة» يعني دارسة مهشمة ـ في قول قتادة

والسدي ـ والخاشع الخاضع فكان حالها حال الخاضع المتواضع « فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت » أي تحركت بالنبات « وربت » قال السدي :معناه انفتحت وارتفعت قبل ان تنبت . وقرىء « ربأت » بمعنى عظمت ، ومعنى ربأت ارتفعت ـ ذكره الزجاج ـ ثم قال « إن الذي أحياها » يعني من أحيا الأرض بما انزله من الماء حتى تنبت « لمحيي الموتى » مثل ذلك بعد ان كانوا أمواتاً ويرد فيها الأرواح ،لانه قادر على ذلك . ومن قدر على ذلك قدر على هذا ، لانه ليس احدها بأعجب من الآخر « انه على كل شيء قدير » يصح أن يكون مقدوراً له ،وهو قادر لا تتناهى مقدوراته .

ثم قال « إن الذين يلحدون في آياتنا » معناه الذين يميلون عن الحق في أدلتنا يقال : الحد يلحد إلحاداً . وقيل : لحد يلحد أيضاً . وقال مجاهد : معناه ما يفعلونه من المكاء والصفير . وقال ابو روق : يعني الذين يقعون فيه « لا يخفون علينا » بل نعلمهم على التفصيل ، لا يخفى علينا شيء من احوالهم .

ثم قال على وجه الانكار عليهم والتهجين لفعلهم والتهديد لهم « أفمن يلقى في النار » جزاء على كفره ومعاصيه « خير أم من يأتي آمناً » من عذاب الله جزاء على معرفته بالله وعمله بالطاعات . ثم قال « اعملوا ما شئتم » ومعناه التهديد وإن كان بصورة الأمر ، لأنه تعالى لم يخيرنا ، ويحبينا أن نفعل ما شئنا ، بل نهانا عن القبائح كلها . ثم قال « إنه بما تعملون بصير » أي عالم بأفعالكم لا يخفى عليه شيء منها فيجازيكم بحسبها .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ

عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ
حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ
إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا
أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ
عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (٤٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ « أعجمي وعربي » على الخبر حفص والحلواني عن هشام وابن مجاهد عن قنبل في غير رواية ابن الحمامي عن بكار . الباقون بهمزتين . وحققهما اهل الكوفة إلا حفصاً وروح . والباقون بتخفيف الأولى وتليين الثانية . وفصل بينهما بألف اهل المدينة إلا ورشاً وابو عمرو . ومن قرأ بلفظ الاستفهام اراد الانكار ، فادخل حرف الاستفهام على الف « أعجمي » وهي الف قطع . ومن حققها ، فلأنها الأصل . ومن خففهما او فصل بينهما فلكراهة اجتماع الهمزتين . ومن قرأ على الخبر ، فالمعنى هلا كان النبي عربياً والقرآن اعجمياً . والنبي اعجمياً والقرآن عربياً ، فكان يكون ابهر في باب الاعجاز .

يقول الله تعالى مخبراً « إن الذين كفروا بالذكر » الذي هو القرآن وجحدوه وسمي القرآن ذكراً ، لأنه تذكر به وجوه الدلائل المؤدية إلى الحق ، والمعاني التي

يعمل عليها فيه . واصل الذكر ضد السهو وهو حضور المعنى للنفس « لما جاءهم » أي حين جاءهم ، وخبر (ان) محذوف ، وتقديره : إن الذين كفروا بالذكر هلكوا به وشقوا به ونحوه . وقيل تقديره : إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به ، فحذف لدلالة الكلام عليه . وقيل خبره « أولئك ينادون من مكان بعيد » وقيل قوله « وانه الكتاب عزيز » في موضع الخبر ، وتقديره الكتاب الذي جاءهم عزيز ، وقوله « وإنه » الهاء كناية عن القرآن ، والمعنى وإن القرآن لكتاب عزيز بأنه لا يقدر احد من العباد على ان يأتي بمثله ، ولا يقاومه في حججه على كل مخالف فيه . وقيل : معناه إنه عزيز باعزاز الله ـ عز وجل ـ اياه اذ حفظه من التغيير والتبديل . وقيل : هو عزيز حيث جعله على أتم صفة الاحكام . وقيل : معناه انه منيع من الباطل بما فيه من حسن البيان ووضوح البرهان ، ولأن احكامه حق يقضي بصحتها العقل .

وقوله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » قيل في معناه اقوال خمسة:

احدها ـ انه لا تعلق به الشبهة من طريق المشاكلة ، ولا الحقيقة من جهة المناقضة وهو الحق المخلص والذي لا يليق به الدنس .

والثاني ـ قال قتادة والسدي : معناه لا يقدر الشيطان أن ينقص منه حقاً ولا يزيد فيه باطلا .

الثالث ـ أن معناه لا يأتي بشيء يوجب بطلانه مما وجد قبله ولا معه ولا مما يوجد بعده . وقال الضحاك : لا يأتيه كتاب من بين يديه يبطله ولا من خلفه أي ولا حديث من بعده يكذبه .

الرابع ـ قال ابن عباس: معناه لا يأتيه الباطل من أول تنزيله ولا من آخره .

والخامس ـ ان معناه لا يأتيه الباطل في اخباره عما تقدم ولا من خلفه

ولا عما تأخر .

ثم وصف تعالى القرآن بأنه « تنزيل من حكيم حميد » فالحكيم هو الذي افعاله كلها حكمة فيكون من صفات الفعل ، ويكون بمعنى العالم بجميع الاشياء واحكامها فيكون من صفات الذات . و (الحميد) هو المحمود الذي يستحق الحمد والشكر على جميع افعاله لان افعاله كلها نعمة يجب بها الشكر .

وقوله « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك » قيل في معناه اقوال :

احدها - من الدعاء الى الحق في عبادة الله تعالى ولزوم طاعته .

والثاني - ما حكاه تعالى بعده من « ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم » فيكون على جهة الوعد والوعيد .

والثالث - قال قتادة والسدي : وهو تعزية للنبي صلى الله عليه وآله بأن ما يقول لك المشركون مثل ما قال من قبلهم من الكفار لأنبيائهم من التكذيب والجحد لنبوتهم .

وقوله « إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم » أي وقد يفعل العقاب بالعصاة من الكفار قطعاً ومن الفساق على تجويز عقابهم ، فلا ينبغي ان يغتروا ويجب عليهم أن يتحرزوا بترك المعاصي وفعل الطاعات .

ثم قال تعالى « ولو جعلناه » يعني الذكر الذي قدم ذكره « قرآناً أعجمياً » أي مجموعاً بلغة العجم ، يقال : رجل أعجمي إذا كان لا يفصح وإن كان عربي النسب ، وعجمي إذا كان من ولد العجم وإن كان فصيحاً بالعربية . قال ابو علي : يجوز ان يقال : رجل أعجمي يراد به اعجم بغير ياء كما يقال : أحمري واحمر ، ودواري ودوار « قالوا لولا فصلت آياته » ومعناه هلا فصلت آياته وميزت . وقالوا « اعجمي وعربي » أي ، قالوا القرآن أعجمي ومحمد عربي - ذكره سعيد بن جبير - وقال السدي : قالوا اعجمي وقوم عرب . ومن قرأ على الخبر حمله على أنهم يقولون ذلك

مخبرين . ومن قرأ على الاستفهام أراد انهم يقولون ذلك على وجه الانكار ، وإنما قوبل الأعجمي فى الآية بالعربي ، وخلاف العربي العجمي لان الأعجمي في انه لا يبين مثل العجمي عندهم من حيث اجتمعا في انهما لا يبينان ، قوبل به العربي فى قوله « أعجمي وعربي » وحكى ان الحسن قرأ « اعجمي » بفتح العين قابل بينه و بين قوله « وعربي » فقال الله تعالى لنبيه « قل » لهم يا محمد « هو » يعني القرآن « للذين آمنوا » بالله وصدقوا بتوحيده وأقروا بنبوة نبيه « هدى » يهتدون به « وشفاء » من سقم الجهل « والذين لا يؤمنون » بالله ولا يصدقون بتوحيده « فى آذانهم وقر » يعني ثقل إذ هم بمنزلة ذلك من حيث لم ينتفعوا بالقرآن فكانهم صم او في آذانهم ثقل « وهو عليهم عمى » حيث ضلوا عنه وجاروا عن تدبيره فكانه عمى لهم . وقوله « اولئك ينادون من مكان بعيد » على وجه المثل ، فكأنهم الذين ينادون من مكان بعيد ويسمعوا الصوت ولا يفهموا المعنى من حيث لم ينتفعوا به . وقال مجاهد : ابعده عن قلوبهم . وقال الضحاك : ينادون الرجل في الآخرة كبأشنع اسمائه ، وقيل : معناه أولئك لا يفهمون ذلك كما يقال لمن لا يفهم شيئاً : كبأنك تنادى من مكان بعيد .

ثم اقسم تعالى بأنه آتى « موسى الكتاب » يعني التوراة « فاختلف فيه » لأنه آمن به قوم وجحدوه آخرون ، تسلية للنبي صلى الله عليه وآله عن جحود قومه وإنكارهم نبوته . ثم قال « ولو لا كلمة سبقت من ربك » فى انه لا يعاجلهم بالعقوبة وانه يؤخرهم إلى يوم القيامة « لقضي بينهم » أي لفصل بينهم بما يجب من الحكم . ثم اخبر عنهم فقال « وإنهم لفي شك منه » يعني مما ذكرناه « مريب » يعني اقبح الشك لأن الريب افظع الشك ، وفى ذلك دلالة على جواز الخطأ على اصحاب المعارف لأنه تعالى بين انهم فى شك وانهم يؤآخذون مع ذلك .

قولـه تعـالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨) لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ اهل المدينة وابن عامر وحفص « ثمرات » على الجمع . الباقون « ثمرة » على التوحيد من قرأ على الجمع فلاختلاف أجناس الثمار ، ولانه في المصاحف مكتوباً بتاء ممدودة . ومن وحده قال : الثمرة تفيد الجمع والتوحيد فلا يحتاج إلى الجمع ، لأنه في مصحف عبد الله مكتوب بالهاء ، و « الاكمام » جمع (كم) في قول الفراء ، و (كمة) في قول ابي عبيدة . وهي الكفرى . قال ابن خالويه : يجوز أن يكون (الاكمام) جمع (كم) و (كم) جمع كمة ، فيكون جمع الجمع .

يقول الله تعالى « من عمل صالحاً » أي فعل افعـلا هي طاعة « فلنفسه » لان ثوابه واصل اليه ، وهو المنتفع به دون غيره « ومن أساء » يعني فعالا فعلا قبيحاً ، من الاساءة إلى غيره او غيرها « فعليها » أي فعلى نفسه لأن وبال ذلك وعقابه يلحقه دون غيره .

ثم قال تعالى على وجه النفي عن نفسه مالا يليق به من فعل القبيح والتمدح به « وما ربك » أي وليس ربك « بظلام للعبيد » وإنما قال (بظلام) على وجه المبالغة في نفي الظلم عن نفسه مع انه لا يفعل مثقال ذرة لأمرين :

احدهما ـ انه لو فعل فاعل الظلم ، وهو غير محتاج اليه مع علمه بقبحه وبأنه غني لكان ظلاماً ، وما هو تعالى بهذه الصفة لأنه غني عالم .

الثاني ـ إنه على طريق الجواب لمن زعم انه يفعل ظلم العباد . فقال : ماهو بهذه الصفة التي يتوهمها الجهال ، فيأخذ احداً بذنب غيره . والظلام هو الفاعل لما هو من الخش الظلم . والظالم من فعل الظلم ، وظالم صفة ذم ، وكذلك قولنا فاعل الظلم هما سواء ، وكذلك آثم فاعل الاثم ، وسيء فاعل الاساءة .

وقوله « اليه يرد علم الساعة » معناه اليه يرد علم الساعة التي يقع فيها الجزاء للمطيع والعاصي فاحذروها قبل ان تأتي ، كما يرد اليه علم إخراج الثمار وما يكون من الاولاد والنتاج ، فذاك غائب عنكم وهذا مشاهد لكم ، وقد دل عليه ولزم ، وكل من سئل متى قيام الساعة ؟ وجب أن يقول : الله تعالى العالم به حتى يكون قد ردّه إلى الله « وما يخرج من ثمرة من اكمامها » معناه وعنده علم ذلك . وآكام الثمرة وعائها الذي تكون فيه . وقيل : الآكام جمع كمة ، وهو الطرف المحيط بالشيء . وقال الحسن : الآكام ـ ههنا ـ ليف النخيل . وقيل : من أكمامها معناه خروج الطلع من قشره « وما تحمل من أنثى وما تضع إلا بعلمه » أي وعنده

تعالى علم ما تحمله كل انثى من حمل ذكراً كان او انثى ولا تضع الانثى إلا بعلمه أي إلا في الوقت الذي علمه انه تضع فيه .

وقوله ﴿ ويوم يناديهم اين شركائي ﴾ أي ويوم يناديهم مناد اين شركاء الله الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ﴿ قالوا آذناك ما منا من شهيد ﴾ معناه إنهم يقولون اعلمناك ما منا من شهيد لمكانهم . ثم بين ذلك فقال ﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص ﴾ قال السدي : معناه ايقنوا وقال ابن عباس آذناك معناه أعلمناك . وقيل المنادي هو الله تعالى ، وقال السدي : ما منا من شهيد ان لك شريكاً . وقيل : معناه آذناك اقررنا لك ما منا من شهيد بشريك له معك . وقيل قوله آذناك من قول المعبودين ما منا من شهيد لهم بما قالوا : وقيل هذا : من قول العابدين ما منا من شهيد بأنهم آلهة . وقال آخرون : يجوز ان يكون العابدون والمعبودون يقولون ذلك .

وقوله ﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ أي ايقنوا ليس لهم من مخلص . ودخل الظن على (ما) التي للنفي كما تدخل (علمته) على لام الابتداء ، وكلاهما له صدر الكلام .

وقوله ﴿ لا يسأم الانسان من دعاء الخير ﴾ أي لا يمل الانسان من طلب المال وصحة الجسم ـ وهو قول ابن زيد ـ وقال بعضهم : معناه لا يمل الانسان من الخير الذي يصيبه ﴿ وإن مسه الشر ﴾ أي إن ناله بذهاب مال او سقم في جسمه ﴿ فيؤس قنوط ﴾ أي يقنط من رحمة الله وييأس من روحه ، ففي ذلك إخبار عن سرعة تقلب الانسان وتنقله من حال الى حال . ثم قال تعالى ﴿ ولئن اذقناه رحمة منا ﴾ يعني لئن أذقنا الانسان نعمة وأنلناه إياها ﴿ من بعد ضراء مسته ﴾ أي من بعد شدة لحقته ﴿ ليقولن هذا لي ﴾ قال مجاهد : يقول أنا حقيق بهذا الفعل ﴿ وما

اظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي ان لي عند للحسنى ﴾ أي لو قامت لكان لي الحسنى يعني الجنة . فقال الله تعالى على وجه التهديد لمن هـذه صفته ﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ أي فلنجزين الكفار بعد ان نعلمهم ما عملوه من كفرهم ومعاصيهم ثم نجازيهم عليها بأن نذيقهم من عـذاب غليظ قدر ما يستحقونه .

قولـه تعـالى :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَآ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ (٥٤) أربع آيات بلاخلاف .

اخبر الله تعالى عن جهل الانسان الذي تقدم وصفه بمواضع نعم الله وما يجب عليه من الاعتراف بشكره ، بتركه النظر المؤدي إلى معرفته ،فقال ﴿ وإذا انعمنا على الانسان ﴾ بنعمة من اعطاه مال او ولد او صحة جسم ﴿ اعرض ﴾ عن القيام بشكر الله على ذلك حسب ما يلزمه ﴿ ونآء بجانبه ﴾ أي بعد بجانبه كبراً وتجبراً عن الاعتراف بنعم الله . وقيل : معناه وبعد عن الواجب ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ يعني إذا ناله مرض او مصيبة في مال او نفس ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ قال السدي يدعو

الله كثيراً عند ذلك . وإنما قال ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ ولم يقل : طويل ، لأنه ابلغ ، لان العرض يدل على الطول ، ولا يدل الطول على العرض إذ قد يصح طويل ولا عرض له . ولا يصح عريض ولا طول له ، لان العرض الانبساط في خلاف جهة الطول ، والطول الامتداد في أي جهة كان .

وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة : انه ليس لله على الكافر نعمة ، لأنه اخبر تعالى بأنه ينعم عليه وانه يعرض عن موجبها من الشكر وفي دعائه عند الشدة حجة عليه ، لانه يجب من اجل قلة صبره على الشدة ان يشكر برفعها عنه إلى النعمة ، فقال الله تعالى لهم على وجه الانكار عليهم ﴿ قل ارأيتم إن كان ﴾ هذه النعمة ﴿ من عند الله وكفرتم به ﴾ أي وجحدتموه ﴿ من اضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ أي في مشاقة الله بخلافه له بعيد عن طاعته . والشقاق الميل إلى شق العداوة لالاجل الحق كأنه قال لا احد اضل ممن هو في شقاق بكفره ، وبه يذم من كان عليه ، كما قال علي عليه السلام (يا اهل العراق يا اهل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق) وقيل : الشقاق فراق الحق إلى العداوة وأهله .

وقوله ﴿ سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم ﴾ معناه إن الدلائل في آفاق السماء بسير النجوم وجريان الشمس والقمر فيها بأتم التدبير ، وفي أنفسهم جعل كل شيء لما يصلح له من آلات الغذاء ومخارج الأنفاس ، ومجاري الدم ، وموضع العقل والفكر ، وسبب الافهام ، وآلات الكلام . وقال السدي : آياتنا في الآفاق بصدق ما يخبر به النبي صلى الله عليه وآله من الحوادث عنها . وفي ما يحدث من انفسهم ، وإذا رأوا ذلك تبينوا وعلموا أن خبره حق ، وانه من قبل الله تعالى .

وقوله ﴿ او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ﴾ أي هو عالم لجميع ذلك والباء زائدة ، والتقدير او لم يكف ربك انه عالم بجميع الاشياء . والمعنى أليس في

الله كفاية في معاقبة هؤلاء الكفار على كفرهم إذ كان عالماً بكل شيء مشاهداً لجميع ما يفعلونه قادراً على مجازاتهم عليه ، وكما انه شهيد على ذلك هو شهيد على جميع الحوادث ومشاهد لجميعها وعالم بها لا يخفى عليه شيء من موضعها .

وقوله ﴿ إنه ﴾ يحتمل ان يكون موضعه رفعاً بـ (يكف) ويحتمل ان يكون جراً بالباء . وتقديره بأنه على كل شيء شهيد .

ثم قال ﴿ ألا انهم في مرية من لقاء ربهم ﴾ أي هم في شك من لقاء ثواب ربهم وعقابه ، لأنهم في شك من البعث والنشور ﴿ ألا انه بكل شيء محيط ﴾ أي هو عالم بكل شيء قادر عليه .

٤٢ ـ سورة الشورى

مكية في قول قتادة ومجاهد ، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ ، وهي ثلاث وخمسون آية في الكوفى ، وخمسون فى البصري والمدنيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) عسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣) لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٥) .

خمس آيات فى الكوفى وثلاث فى ما عداه عدّ الكوفيون ﴿ حم ﴾ وعدّوا ﴿ عسق ﴾ ولم يعده الباقون .

قال ابو عبد الله بن خالويه سألت ابن مجاهد ، فقلت : إن القاف أبعد من الميم ، فلم اظهر حمزة النون عند الميم فى (طسٓم) ولم يظهرها عند القاف فى (عسق) فقال والله ما فكرت فى هذا قط ، قال ابو عبد الله الحجة فى ذلك ان (طسم) اول سورة النمل ثم جاءت سورتان فيهما الميم ، فبين ليعلم ان الميم زائدة على هجاء

السين واتفق اهل الكوفة على ان لم يفردوا السين بين حرفين في الكلام هذا على الأصل . واما الحجة من جهة التخفي ، فان النون تدغم في الميم وتخفى عند القاف والمخفي بمنزلة المظهر ، فلما كره التشديد في (طسم) اظهروا لما كان المخفي بمنزلة الظاهر ولم يحتج إلى اظهار القاف ، قال الفراء : ذكر عن ابن عباس انه قال (حمسق) بلا عين . وقال السين كل فرقة تكون . والقاف كل جماعة كانت ، قال الفراء وكانت في بعض مصاحف عبد الله مثل ذلك . وقرأ ابن كثير وحده ﴿ يوحى اليك ﴾ بفتح الحاء على مالم يسم فاعله ، فعلى هذا يكون اسم الله مرتفعاً بمحذوف يدل عليه المذكور قال الشاعر :

ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح (١)

أي يبكيه ضارع ، فيكون التقدير يوحى اليك يوحي الله . قال ابو علي : ذكر أن مثل هذه السورة أوحى إلى من تقدم من الأنبياء ، فعلى هذا يكون التقدير يوحي اليك هذه السورة كما اوحى إلى الذين . وقال الزجاج . والفراء : يقال إن ﴿ حمعسق ﴾ او حيت إلى كل نبي كما اوحيت إلى محمد صلى الله عليه وآله قال ابن عباس : وبها كان علي عليه السلام يعلم الفتن . وقرأ الباقون يوحي ـ بكسر الحاء ـ فيكون على هذا إسم الله مرتفعاً بأنه فاعل (يوحي) وقد قرىء شاذاً ﴿ نوحي ﴾ بالنون مع كسر الحاء فعلى هذا يحتمل رفع اسم الله لوجهين :

احدهما ـ ان يكون رفعاً بالابتداء .

والثاني ـ ان يكون مرتفعاً بفعل مقدر يدل عليه ﴿ يوحى ﴾ الأول ، كما قلناه في من فتح الحاء . ويجوز أن يكون بدلا من الضمير . ويجوز أن يجعل اسم الله خبر ابتداء محذوف ، وتقديره هو الله العزيز الحكيم . وقرا ابو عمرو وعاصم في

(١) مر هذا البيت في ٤/٣١٠ و ٦/ ٣٢٩ و ٧/ ٤٤٠

رواية أبي بكر ﴿ يكاد ﴾ بالياء ﴿ ينفطرن ﴾ بالياء والنون ، لأن تأنيث السموات غير حقيقي ، وقد تقدم الفعل ولذلك أتت (يتفطرن) لما تأخر الفعل عن السموات وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة في رواية حفص (تكاد) بالتاء لتأنيث السموات (وينفطرن) بالياء والنون لما قدمناه . وقرأ نافع والكسائي ﴿ يكاد ﴾ بالياء لما قلناه من ان التأنيث غير حقيقي ﴿ يتفطرن ﴾ بياء، وتاء و ﴿ يتفطرن ﴾ في معنى تنفطر وهو مضارع فطرته فتفطر وفطرته بالتخفيف فانفطر ، ومعنى يتفطرن يتشققن .

قيل إنما عدوا ﴿ حم ﴾ و ﴿ عسق ﴾ آية ولم يعد ﴿ طس ﴾ لأن ﴿ طس ﴾ لما انفرد عن نظيره من ﴿ طسم ﴾ فاشبه الاسم حمل عليه ، ولما لم ينفرد ﴿ حم ﴾ عن نظيره جرى عليه حكم الجملة التامة التي تعد آية من اجل انها آية . فلما اجتمع في (طس) الانفراد عن النظير وأشبه (قابيل) وكل واحد من هذين الوجهين يقتضي مخالفة حكم ﴿طسم﴾ وجب الخلاف . وأما إنفراد(حاميم) بالزنة فقط ، لم يجب الخلاف كما وجب في ما اجتمع فيه سببان . وفي (حم) من الفائدة تعظيم الله - عز وجل - السورة وتسميتها وتشريفاً لها وتنويهاً باسمها وإجراؤها في التفصيل مجرى ما يعقل في فضله على ،الا يعقل من الاجسام والاعراض . وقيل ان ﴿ حم عسق ﴾ انفردت بأن معانيها اوحيت إلى سائر الأنبياء ، فلذلك خصت بهذه التسمية . وقيل إنما فصل ﴿ حم عسق ﴾ من سائر الحواميم بـ (عسق) لان جميعها استفتح بذكر الكتاب على التصريح به إلا هذه السورة فانه دل عليه دلالة التضمين بذكر الوحي الذي يرجع إلى الكتاب ، والوحي أعم من الكتاب في معناه إلا انه دال في هذا الموضع على الكتاب بهذه الصفة .

وقوله ﴿ كذلك يوحي اليك وإلى الذين من قبلك ﴾ قيل في المشبه به في قوله ﴿ كذلك ﴾ وجهان :

احدها ـ كالوحي الذي تقدم يوحي اليك.

والثاني ـ هذا الوحي الذي يأتي في هذه السورة يوحى اليك ،لان ما لم يكن حاضراً يراه صلح فيه (هذا) لقرب وقته و(ذلك) لبعده في نفسه . ومعنى التشبيه في ﴿ كذلك ﴾ أن بعضه كبعض في انه حكمة وصواب بما تضمنه من الحجج والمواعظ والفوائد التي يعمل عليها في الدين ﴿ وإلى الذين من قبلك ﴾ معناه مثل ذلك اوحى إلى الذين من قبلك من الأنبياء وتعبدهم بشريعة كما تعبدك بمثل ذلك .

وقوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ معناه القادر الذي لا يغالب الحكيم في جميع أفعاله. ومن كان بهاتين الصفتين خلصت له الحكمة في كل ما يأتي به ، لانه العزيز الذي لا يغالب والغني الذي لا يحتاج إلى شيء ، ولا يجوز أن يمنعه مانع مما يريده ، وهو الحكيم العليم بالأمور لا يخفى عليه شيء منها لا يجوز أن يأتي إلا بالحكمة . فاما الحكيم غيره يحتاج فلا يوثق بكل ما يأتي به إلا أن يدل على ذلك الحكمة دليل .

قوله ﴿ له ما في السموات والارض ﴾ معناه أنه مالكهما ومدبرهما وله التصرف فيهما ولا احد له منعه من ذلك ويكون ﴿ العلي ﴾ مع ذلك بمعنى المستعلي على كل قادر العظيم فى صفاته التي لا يشاركه فيها احد .

وقوله ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ قيل فى معناه قولان :

احدهما ـ قال ابن عباس وقتادة والضحاك : يتفطرن من فوقهن من عظمة الله وجلاله .

والثاني ـ ان السموات تكاد تتفطرن من فوقهن استعظاماً للكفر بالله والعصيان له مع حقوقه الواجبة على خلقه ، وذلك على وجه التمثيل ليس لأن السموات تفعل شيئاً او تنكر شيئاً ، وإنما المراد ان السموات لو انشقت لمعصيته استعظاماً لها أو لشيء من الاشياء لتفطرت استعظاماً الكفر من كفر بالله وعبد

معه غيره .

وقوله ﴿ الملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ معناه ينزهونه عما لا يجوز عليه من صفات ، ومالا يليق به من افعال ﴿ ويستغفرون لمن في الارض ﴾ من المؤمنين. وفي ذلك صرف الاهلاك لهم ولغيرهم من اهل الأرض بصرفه عنهم.

ثم قال ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ لعباده عصيانهم تارة بالتوبة وتارة ابتداء منه كل ذلك تفضلا منه ورأفة بهم ورحمة لهم .

قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَٱلظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَٱللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (١٠) خمس آيات بلا خلاف .

هذا اخبار من الله تعالى ﴿ أن الذين اتخذوا من دونه اولياء ﴾ يعني الكفار الذين اتخذوا الأصنام آلهة ووجهوا عبادتهم اليها . وجعلوهم أولياء لهم وانصاراً

من دونه . وإنما قال ﴿ من دونه ﴾ لان من اتخذ ولياً بأمر الله لم يتخذه من دون الله .

وقوله ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ أي حافـظ عليهم أعمالهم وحفيظ عليها بأنه لا يعزب عنه شيء منها ، وانه قد كتبها في اللوح المحفوظ مظاهرة في الحجة عليهم وما هو اقرب إلى افهامهم إذا تصوروها مكتوبة لهم وعليهم .

وقوله ﴿ وما انت عليهم بوكيل ﴾ معناه إنك لم توكل بحفظ اعمالهم ، فلا يظن ظان هذا ، فانه ظن فاسد وإنما بعثك الله نذيراً لهم وداعياً إلى الحق ومبيناً لهم سبيل الرشاد . وقيل : معناه إنك لم توكل عليهم أي تمنعهم من الكفر بالله ، لانه قد يكفر من لا يتهيأ له منعه من كفره بقتله .

وقوله ﴿ وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً ﴾ معناه مثل ما اوحينا إلى من تقدمك من الانبياء بالكتب التي أنزلناها عليهم أوحينا اليـك ايضاً قرآناً عربياً لتنذر أم القرى أي لتخوفهم بما فيه من الوعيد وتبشرهم بما فيه من الوعد . قال السدي : أم القرىّ مكة والتقدير لتنذر اهل أم القرى ﴿ ومن حولها ﴾ من سائر الناس . وسميت أم القرى ، لأنه روي أن الله تعالى دحا الأرض من تحت الكعبة قال المبرد : كانت العرب تسمي مكة أم القرى ﴿ ومن حولها ﴾ ومن يطيف بها ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ معناه وتخوفهم يوم الجمع أيضاً ، ونصب (يوم) لانه مفعول ثان وليس بظرف ، لانه ليس ينذر في يوم الجمع ، وإنما يخوفهم عذاب الله يوم الجمع . وقيل هو يوم القيامة ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه وفي كونه .

ثم قسم اهل يوم القيامة فقال ﴿ فريق ﴾ منهم ﴿ في الجنة ﴾ بطاعتهم ﴿ وفريق ﴾ منهم ﴿ في السعير ﴾ جزاء على معاصيهم . ثم قال ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ﴾ معناه الاخبار عن قدرته بأنه لو شاء ان يلجئهم إلى الايمان ودين الاسلام ، لكان

قادراً على ذلك وفعله ، لكن ذلك يبطل الغرض بالتكليف وهو ان يفعلوا العبادة على وجه يستحقون بها الثواب ، ومع الالجاء لايمكن ذلك ، فلذلك لم يشأ ذلك . فالآية تفيد قدرته على الالجاء وتأتيّ ذلك . ثم قال ﴿ ولكن يدخل من يشاء في رحمته ﴾ أي يدخلهم فى الجنة وثوابها من يشاء منهم إذا اطاعوا واجتنبوا معاصيه وبين أن ﴿ الظالمين ﴾ نفوسهم بارتكاب معصية الله ﴿ ما لهم من ولي ﴾ يواليهم ﴿ ولا نصير ﴾ يمنعهم من عذاب الله إذا اراد فعله بهم جزاء على معاصيهم ، ثم قال ﴿ أم اتخذوا من دونه اولياء ﴾ معناه بل هؤلاء الكفار اتخذوا من دون الله أولياء من الاصنام والاوثان يوالونهم وينصرونهم . ثم قال ﴿ فالله هو الولي ﴾ معناه المستحق فى الحقيقة للولاية والتقرب اليه هو الله تعالى دون غيره ﴿ وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ يصح ان يكون مقدوراً له قادر . ومن كان بهذه الصفة فهو الذي يجب ان يتخذ ولياً .

وقوله ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ معناه ان الذي تختلفون فيه من أمر دينكم ودنياكم وتتنازعون فيه ﴿ فحكمه إلى الله ﴾ يعني أنه الذي يفصل بين المحق فيه وبين المبطل ، لانه العالم بحقيقة ذلك ، فيحكم على المحق باستحقاق الثواب وعلى المبطل باستحقاق العقاب .

وقيل : معناه فحكمه إلى الله ، لانه يجب ان يرجع إلى أمره فى الدنيا وفصل القضاء فى الآخرة . ثم قال لنبيه قل لهم ﴿ ذلك ﴾ الذي وصفته من أنه يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿ هو الله ربي ﴾ ومدبري ﴿ عليه توكلت ﴾ بمعنى فوضت أمري اليه واسندت ظهري اليه ﴿ واليه انيب ﴾ أي ارجع اليه في جميع أموري واحوالي .

قولـه تعـالى :

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرٰهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (١٥)

خمس آيات بلا خلاف .

لما قال الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهم الذي وصفته بأنه الذي يحيي ويميت

هو ربي واليه ارجع فى أموري كلها،زاد فى صفاته تعالى ﴿فاطر السموات والارض﴾ أي هو فاطر السموات ، ومعنى فاطر خالق السموات ابتداء . وحكي عن ابن عباس انه قال لم اكن أعرف معنى (فاطر) حتى تحاكم إلى اعرابيان فى بئر فقال احدهما انا فطرته بمعنى أنا ابتدأته ، والفطر ايضاً الشق . ومنه قوله تعالى ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ وقوله ﴿ جعل لكم من انفسكم أزواجاً ﴾ يعني اشكالا مع كل ذكر أنثى يسكن اليها ويألفها . ومن الأنعام أزواجاً من الضان اثنين ومن المعز اثنين ومن البقر اثنين ومن الأبل اثنين ، ذكوراً وإناثاً ووجه الاعتبار بجعل الأزواج ما في ذلك من إنشاء الشيء حالا بعد حال على وجه التصريف الذي يقتضي الاختيار ، وجعل الخير له أسباب تطلب كما للشر أسباب تجتنب ، فجعل لكل حيوان زوجاً من شكله على ما تقتضيه الحكمة فيه .

وقوله ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ أي يخلقكم ويكثركم فيه يعني فى التزويج وفي ما حكم فيه . وقال الزجاج والفراء : معناه يذرؤكم به أي بما جعل لكم أزواجاً وانشد الازهري قول الشاعر يصف امرأة :

وارغب فيها عن لقيط ورهطه ولكنني عن سنبس لست ارغب (١)

أي ارغب بها عن لقيط . فالذرء إظهار الشيء بإيجاده يقال : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً واصله الظهور ، ومنه ملح ذرآني اظهور بياضه . والذرية لظهورها ممن هي منه . وقوله ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ قيل فى معناه ثلاثة اقوال :

احدها ـ إن الكاف زائدة وتقديره ليس مثل الله شيء من الموجودات ولا المعدومات كما قال أوس بن حجر :

(١) مر فى ٦ | ٢٧٨

وقتلى كمثل جذوع النخيل يغشاهم سيل منهمر (١)

وقال آخر :

سعد بن زيد إذا ابصرت فضلهم ما إن كمثلهم في الناس من احد (٢)

وقال الراجز :

وصاليات ككما يؤثفين (٣)

الثاني ـ قال الرماني : إنه بلغ في نفي الشبيه إذا نفى مثله ، لانه يوجب نفي الشبهة على التحقيق والتقدير ، وذلك انه لو قدر له مثل لم يكن له مثل صفاته وابطل ان يكون له مثل وانفرده بتلك الصفات ، وبطل ان يكون مثلا له فيجب أن يكون من له مثل هذه الصفات على الحقيقة لا مثل له أصلا إذ لو كان له مثل لم يكن هو بصفاته وكان ذلك الشيء الآخر هو الذي له تلك الصفات ، لانها لا تصح إلا لواحد في الحقيقة وهذا لا يجوز أن يشبه بشبه حقيقة ، ولا بلاغة فوجب التبعيد من الشبه لبطلان شبه الحقيقة .

الثالث ـ وجه كان المرتضى علي بن الحسين الموسوي (رحمة الله عليه) جارانا فيه فاتفق لي بالخاطر وجه قلته فاستحسنه واستجاده ، وهو ان لا تكون الكاف زائدة ويكون المعنى انه نفى ان يكون لمثله مثل وإذا ثبت انه لا مثل لمثله فلا مثل له ايضاً . لأنه لو كان له مثل لكان له امثال ، لأن الموجودات على ضربين : احدهما ـ لا مثل له ، كالقدرة فلا أمثال لها ايضاً . والثاني ـ له مثل كالسواد والبياض واكثر الاجناس فله امثال ايضاً وليس في الموجودات ماله مثل واحد فحسب ، فعلم بذلك ان المراد انه لا مثل له اصلا من حيث لا مثل لمثله ،

وقوله ﴿ وهو السميع البصير ﴾ معناه انه على صفة يجب ان يسمع المسموعات

(١ ، ٢ ، ٣) تفسير الطبري ٢٥ / ٨ والقرطبي ١٦ / ٨ والشوكاني ٤ / ٥١٤

إذا وجدت ويبصر المبصرات إذا وجدت وذلك يرجع إلى كونه حياً لا آفة به ، وفائدة ذكره ـ ههنا ـ هو انه لما نفى ان يكون له شبه على وجه الحقيقة والمجاز ، وعلى وجه من الوجوه بين انه مع ذلك سميع بصير ، لئلا يتوهم نفي هذه الصفة له على الحقيقة فقط ، فانه لا مدحة في كونه مما لا مثل له على الانفراد ، لان القدرة لا مثل لها . وإنما المدحة في انه لا مثل له مع كونه سميعاً بصيراً ، وذلك يدل على التفرد الحقيقي .

وقوله ﴿ له مقاليد السموات والارض ﴾ معناه له مفاتيح الرزق منها بانزال المطر من السماء واستقامة الهواء فيها وابنات الثمار والاقوات من الأرض . ثم قال ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أي يوسعه له ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق لمن يشاء ذلك على ما يعلمه من مصالحهم ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ مما يصلحهم او يفسدهم .

ثم خاطب تعالى خلقه فقال ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ معنى شرع بين وأظهر ، وهو ﴿ الذي اوحينا اليك ﴾ يا محمد صلى الله عليه وآله وهو ﴿ ما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ وسائر النبيين ، وهو أنا أمرناهم بعبادة الله والشكر له على نعمه وطاعته في كل واجب وندب مع اجتناب كل قبيح ، وفعل ما أمر به مما أدى إلى التمسك بهذه الاصول مما تختلف به شرائع الانبياء .

ثم بين ذلك فقال ﴿ ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ وموضع ﴿ ان أقيموا ﴾ يحتمل ثلاثة اوجه من الاعراب :

احدها ـ ان يكون نصباً بدلا من (ما) في ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾.

الثاني ـ ان يكون جراً بدلا من الهاء في (به).

الثالث ـ ان يكون رفعاً على الاستئناف ، وتقديره هو ان أقيموا الدين .

وقوله ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ﴾ معناه كبر عليهم واستعظموا كونك

داعياً إلى الله ، ودعاؤك يا محمد وأنت مثلهم بشر ومن قبيلتهم إنك نبي ، وليس لهم ذلك . لان الله يجتبي لرسالته من يشاء على حسب ما يعلم من قيامه باعباء الرسالة وتحمله لها ، فاجتباك الله تعالى كما اجتبى موسى ومن قبلك من الانبياء ، ومعنى ﴿ يجتبي ﴾ يختار . وقوله ﴿ ويهدي اليه من ينيب ﴾ معناه ويهديه إلى طريق الثواب ويهدي المؤمنين الذين أنابوا اليه وأطاعوه . وقيل : يهديه إلى طريق الجنة والصواب بأن يلطف له فى ذلك إذا علم ان له لطفاً ، ثم قال ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ ومعناه إن هؤلاء الكفار لم يختلفوا عليك إلا بعد أن اتاهم طريق العلم بصحة نبوتك ، فعدلوا عن النظر فيه بغياً بينهم للحسد والعداوة والحرص على طلب الدنيا وإتباع الهوى . وقيل : إن هؤلاء لم يختلفوا إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة ، لكن فعلوا ذلك للبغي .

ثم قال ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ بأن اخبر بأنه يبعثهم ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ ذكر انه يبقيهم اليه لم يجز مخالفته ، لانه يصير كذباً ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي لفصل بينهم الحكم وانزل عليهم ما يستحقونه من العذاب عاجلا . ثم قال ﴿ وإن الذين اورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ قال السدي : يعني اليهود والنصارى من بعد الذين أورثوا الكتاب الذي هو القرآن ﴿ لفي شك منه مريب ﴾ أي من الدين . وقال غيره : الذين اورثوا الكتاب من بعد الهيود والنصارى في شك من الدين مريب ، وهم الذين كفروا بالقرآن وشكوا فى صحته وانه من عند الله من سائر الكفار والمنافقين .

وقوله ﴿ فلذلك فادع واستقم ﴾ معناه فالى ذلك فادع ، كما قال ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ (١) أي اوحى اليها يقال دعوته لذا وبذا وإلى ذا . وقيل :

(١) سورة ٩٩ الزلزال آية ٥

معناه فلذلك الدين فادع . وقيل : معناه فلذلك القرآن فادع. والاول احسن واوضح

وقوله ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ نهي للنبي ﷺ عن إتباع ما هو به المشركون والمراد به أمته . وقيل : ثلاث من كن فيه نجا : العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، والخشية في السر والعلانية . وثلاث من كن فيه هلك : شح مطاع ، وهوى متبع ، وعجب المرء بنفسه .

وقوله ﴿ وقل آمنت بما انزل الله من كتاب ﴾ أي قل لهم صدقت بما انزل الله من القرآن وبكل كتاب انزله الله على الانبياء قبلي ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾. وقيل في معناه قولان : احدهما ـ امرت بالعدل . والثاني ـ أمرت كي اعدل. وقل لهم أيضاً ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أي مدبرنا ومدبركم ومصرفنا ومصرفكم ﴿ لنا اعمالنا ولكم اعمالكم ﴾ ومعناه أن جزاء أعمالنا لنا من ثواب او عقاب وجزاء اعمالكم لكم من ثواب اوعقاب، لا يؤاخذ احد بذنب غيره ، كما قال ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (١) ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ أي لا خصومة بيننا ـ في قول مجاهد وابن زيد ـ أي قد ظهر الحق فسقط الجدال والخصومة . وقيل : معناه إن الحجة لنا عليكم لظهورها ، وليست بيننا بالاشتباه والالتباس . وقيل : معناه لا حجة بيننا وبينكم لظهور أمركم في البغي علينا والعداوة لنا والمعاندة ، لا على طريق الشبهة ، وليس ذلك على جهة تحريم إقامة الحجة ، لأنه لم يلزم قبول الدعوة إلا بالحجة التي يظهر بها الحق من الباطل فاذا صار الانسان إلى البغي والعداوة سقط الحجاج بينه وبين اهل الحق . ثم قال ﴿ الله يجمع بيننا يوم القيامة واليه المصير ﴾ أي المرجع حيث لا يملك احد الحكم فيه ولا الأمر والنهي غيره ، فيحكم بيننا بالحق . وفي ذلك غاية التهديد . وقيل : إن

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٤ وسورة ١٧ الاسرى آية ١٥ وسورة ٣٥ آية فاطر آية ١٨ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧

ذلك كان قبل الأمر بالقتال والجهاد .

قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنْزَلَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَا إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى إن ﴿ الذين يحاجون فى الله ﴾ أي يجادلون فى الله بنصرة مذهبهم ﴿ من بعد ما استجيب له ﴾ وقيل فى معناه قولان :

احدهما - من بعد ما استجاب له الناس لظهور حجته بالمعجزات التي اقامها الله - عز وجل - والآيات التي أظهرها الله فيه ، لأنهم بعد هذه الحال فى حكم المعاندين بالبغي والحسد . قال مجاهد : كانت محاجتهم بأن قالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن أولى بالحق منكم ، فلذلك قال الله تعالى « حجتهم

داحضة » لأن ما ذكروه لا يمنع من صحة نبوة نبينا بأن ينسخ الله كتابهم وما شرعه النبي الذي كان قبله .

والثاني - معناه من بعد ما استجيب للنبي دعاءه بالمعجزات التي اجاب الله تعالى دعاءه في إقامتها له . قال الجبائي : أجاب الله تعالى دعاءه في كفار بدر حتى قتلهم الله بأيدي المؤمنين ، وأجاب دعاءه عليهم بمكة وعلى مضر من القحط والشدائد التي نزلت بهم ، وما دعا به من إنجاء الله المستضعفين من أيدي قريش فأنجاهم الله وخلصهم من ايديهم وغير ذلك مما يكثر تعداده ، فقال الله تعالى « حجتهم داحضة عند ربهم » وهي شبهة ، وإنما سماها حجة - على اعتقادهم - فلشبهها بالحجة أجرى عليها اسمها من غير اطلاق الصفة بها ، و(داحضة) معناه باطلة « عند ربهم وعليهم غضب من الله » أي لعن واستحقاق عقاب والاخبار به عاجلا « ولهم » مع ذلك « عذاب شديد » يوم القيامة .

وقوله تعالى « الله الذي انزل الكتاب » يعني القرآن « بالحق والميزان » فقوله « بالحق » فيه دلالة على بطلان مذهب المجبرة : بأن الله أنزله ليكفروا به واراد منهم الضلال والعمل بالباطل . وانزل « الميزان » يعني العدل ، لان الميزان إظهار التسوية من خلافها في ما للعباد اليه الحاجة في المعاملة او التفاضل ومثل الموازنة المعارضة والمقابلة والمقايسة . فالقرآن إذا قوبل بينه وبين ما يدعونه ، وقويس بينهما ظهرت فضيلته ، وبانت حجته ، وعلمت دلالته ، فلذلك وصفه بالميزان . وقال مجاهد وقتادة : الميزان - ههنا - العدل . وقال الجبائي : انزل الله عليهم الميزان من السماء وعرفهم كيف يعملون به بالحق وكيف يزنون به . وقيل : إن الحق الذي انزل به الكتاب وصفه على عقد معتقده على ما هو به من ثقة . والحق قد يكون بمعنى حكم ومعنى امر او نهي ومعنى وعد او وعيد ومعنى دليل .

وقوله « وما يدريك » يا محمد ولا غيرك « لعل الساعة قريب » إنما قال (قريب) مع تأنيث الساعة ، لان تأنيثها ليس بحقيقي . وقيل : التقدير لعل مجيئها قريب . وإنما اخفى الله تعالى الساعة ووقت مجيئها عن العباد ، ليكونوا على خوف ويبادروا بالتوبة ، ولو عرفهم عنها لكانوا مغريين بالقبيح قبل ذلك تعويلا على التأني بالتوبة .

وقوله «يستعجل بها » يعني بالساعة « الذين لا يؤمنون بها » أي لا يقرون بها ولا يصدقون لجهلهم بما عليهم في مجيئها من استحقاق العقاب وما للمؤمنين من الثواب . وقال « والذين آمنوا » أي صدقوا بها « مشفقون منها » أي خائفون من مجيئها لعلمهم بما فيها من استحقاق العقاب والاهوال فيحذرونها « ويعلمون انها الحق » أي ويعلمون ان مجيئها الحق الذي لاخلاف فيه . ثم قال تعالى ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد أي يجادلون في مجيئها على وجه الانكار لها لفي ضلال عن الصواب وعدول عن الحق بعيد .

ثم قال تعالى « الله لطيف بعباده » فلطفه بعباده إيصاله المنافع اليهم من وجه يدق على كل عاقل إدراكه ، وذلك في الارزاق التي قسمها الله لعباده وصرف الافات عنهم ، وإيصال السرور اليهم والملاذ ، وتمكينهم بالقدرة والآلات إلى غير ذلك من ألطافه التي لا تدرك على حقيقتها ولا يوقف على كنهها لغموضها . ثم قال تعالى « يرزق من يشاء وهو القوي » يعني القادر الذي لا يعجزه شيء «العزيز» الذي لا يغالب .

وقوله « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه » قيل : معناه إنا نعطيه بالحسنة عشراً إلى ما شئنا من الزيادة « ومن كان يريد حرث الدنيا » أي من عمل الدنيا « نؤته » أي نعطيه نصيبه « منها »من الدنيا لا جميع ما يريده بل على

ما تقتضيه الحكمة دون الآخرة ، وشبه الطالب بعمله الآخرة بالزارع في طلب النفع لحرثه ، وكذلك الطالب بعمله نفع الدنيا . ثم قال « وماله » يعني لمن يطلب الدنيا دون الآخرة «في الآخرة من نصيب » من الثواب والنعيم في الآخرة. وقيل : إن الذي وعدهم الله به أن يؤتيهم من الدنيا إذا طلبوا حرث الدنيا هو ما جعل لهم من الغنيمة والفيء إذا قاتلوا مع المسلمين ، لأنهم لا يمنعون ذلك مع إظهارهم الايمان لكن ليس لهم في الآخرة نصيب من الثواب .

قوله تعالى :

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى ٱلظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٢٢) ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ ٱللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللهُ ٱلْبَاطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابو عمرو ، وابن عامر ، وابو بكر عن عاصم « يفعلون » بالياء . الباقون بالتاء .

من قرأ بالياء ، فعلى أن الله يعلم ما يفعله الكفار فيجازيهم عليه . ومن قرأ بالتاء فعلى وجه الخطاب لهم بذلك ،

لما اخبر الله تعالى ان من يطلب بأعماله الدنيا أنه يعطيه شيئاً منها ، وانه ليس له حظ من الخير فى الآخرة . وقال﴿ أم لهم شركاء ﴾ يعني بل هؤلاء الكفار لهم شركاء في ما يفعلونه أي اشركوهم معهم فيأعمالهم بأن « شرعوا لهم من الدين » الذي قلدوهم فيه « ما لم يأذن به الله » أي لم يأمر به ولا أذن فيه . ثم قال « ولو لا كلمة الفصل » أي كلمة الحكم الذي قال الله : إني اؤخر عقوبتهم ، ولا أعاجلهم به فى الدنيا « لقضي بينهم » وفصل الحكم فيهم وعوجلوا بما يستحقونه من العذاب . ثم قال « وإن الظالمين » لنفوسهم بارتكاب المعاصي « لهم عذاب اليم » أي مؤلم أي هم مستحقون لذلك يوم القيامة . ثم قال « ترى الظالمين » يا محمد « مشفقين » أي خائفين « مما كسبوا » يعني من جزاء ما كسبوا من المعاصي وهو العقاب الذي استحقوه « وهو واقع بهم » لا محالة لا ينفعهم اشفاقهم منه ، ولا خوفهم من وقوعه ، والاشفاق الخوف من جهة الرقة على المخوف عليه من وقوع الأمر ، واصل الشفقة الرقة من قولهم ثوب مشفق أي رقيق رديء ، ودين فلان مشفق أي ردىء .

ثم قال « والذين آمنوا » بالله وصدقوا رسله « وعملوا » الأفعال «الصالحات » من الطاعات « فى روضات الجنات » فالروضة الأرض الخضرة بحسن النبات ، والجنة الأرض التي يجنها الشجر ، والبستان التي عمها النبات أي هم مستحقون للكون فيها « لهم ما يشاؤن عند ربهم » ومعناه لهم ما يشتهون من اللذات ، لان

الانسان لا يشاء الشيء إلا من طريق الحكمة او الشهوة او الحاجة فى دفع ضرر ودفع الضرر لايحتاج اليه فى الجنة ، وإرادة الحكمة تتبع التكليف ، فلم يبق بعد ذلك إلا انهم يشاؤن ما يشتهون . وقوله « عند ربهم » يعني يوم القيامة الذي لا يملك فيه الأمر والنهي غيره . وليس يريد بـ « عند ربهم » من قرب المسافة ، لأن ذلك من صفات الاجسام .

ثم قال « ذلك » يعني الكون عند ربهم وأن لهم ما يشاؤن « هو الفضل الكبير » يعني الزيادة التي لا يوازيها شيء فى كثرتها . ثم قال « ذلك » يعني ما تقدم ذكره مما يشاؤنه هو « الذي يبشر الله عباده » به ومن شدد الشين أراد التكثير ، ومن خفف ، فلأنه يدل على القليل والكثير . وقيل : هما لغتان . وحكى الاخفش لغة ثالثة : أبشرته . ثم وصفهم فقال « الذين آمنوا » بالله وصدقوا رسله « وعملوا » الاعمال « الصالحات » .

ثم قال « قل » لهم يا محمد صلى الله عليه وآله « لا أسألكم عليه » أي على اداني اليكم « أجراً » عن الرسالة ، وما بعثني الله به من المصالح « إلا المودة فى القربى » وقيل في هذا الاستثناء قولان :

احدهما - إنه استثناء منقطع لان المودة فى القربى ليس من الأجر ويكون التقدير لكن أذكركم المودة فى قرابتي .

الثاني - إنه استثناء حقيقة ويكون أجرى المودة فى القربي كأنه أجر ، وإن لم يكن أجر واختلفوا في معنى « المودة فى القربى » فقال علي بن الحسين عليهما السلام وسعيد ابن جبير وعمرو بن شعيب : معناه أن تودوا قرابتي ، وهو المروي عن أبي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام وقال الحسن : معناه « إلا المودة فى القربى » إلى الله تعالى والتودد بالعمل الصالح اليه . وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي والضحاك

وابن زيد وعطاء بن دينار : معناه إلا ان تودوني لقرابتي منكم · وقالوا : كل قرشي كانت بينه وبين رسول الله ﷺ قرابة ، ويكون المعنى إن لم تودوني لحق النبوة افلا تودوني لحق القرابة · والاول هو الاختيار عندنا ، وعليه اصحابنا · وقال بعضهم : إلا ان تصلوا قرابتكم · وقال آخرون : معناه إلا ان تتقربوا إلى الله بالطاعات ·

ثم قال تعالى « ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً » أي من فعل طاعة نزد له في تلك الطاعة حسناً بأن نوجب له عليها الثواب · والاقتراف الاكتساب واصله من قرفت الشيء إذا كشفت عنه ، كقولك قرفت الجلد وهو من الاعتماد والاكتساب « إن الله غفور » أي ستار على عباده معاصيهم بالتوبة وغير التوبة تفضلا منه تعالى وإحساناً منه إلى عباده « شكور » ومعناه انه يعاملهم معاملة الشاكر في توفية الحق حتى كأنه ممن وصل اليه النفع فشكره · وقيل : معناه يجازيهم على شكرهم إياه فسماه شكراً على عادتهم في تسمية الشيء باسم ما كان سببه مجازاً ، كما قال « وجزاء سيئة سيئة مثلها »(١) ·

ثم قال « ام يقولون افترى على الله كذباً » بمعنى بل يقولون هؤلاء الكفار إنك يا محمد افتريت على الله كذباً في ادعائك رسالة على الله فقال له تعالى « فإن يشأ الله يختم على قلبك » قال قتادة : معناه يختم على قلبك بأن ينسيك القرآن · وقيل : معناه لو حدثتك نفسك بأن تفتري على الله كذباً لطبعت على قلبك واذهبت الوحي الذي أتيتك ، لاني أمحوا الباطل واحق الحق. وقال الزجاج : معناه فان يشأ الله ان يربط على قلبك بالصبر على أذاهم لك وعلى قولهم افترى على الله كذباً « ويمحوا الله الباطل » وقوله « ويمحوا الله الباطل » رفع إلا أنه حذف الواو من المصاحف كما حذف من قوله « سندع الزبانية »(٢) على اللفظ وذهابه لا لتقاء

---

(١) آية ٤٠ من هذه السورة   (٢) سورة ٩٦ العلق آية ١٨

الساكنين ، وليس بعطف على قوله « يختم » لأنه رفع ، وبين ذلك بقوله « ويحق الحق بكلماته » أي ويثبت الحق بأقواله التي ينزلها على انبيائه يتبين بها كذب من ادعى على الله كذباً في أنه نبي ، ولا يكون كذلك « إنه عليم بذات الصدور » أي بأسرار ما في الصدور ، لا يخفى عليه شيء منها . ثم قال « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » فتمدحه بأن يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات بأن لا يعاقب عليها دليل على ان إسقاط العقاب عندها تفضل ، ويعلم ما تفعلونه من التوبة وغيرها فيجازيكم عليها . فمن قرأ بالتاء فعلى الخطاب ومن قرأ بالياء فعلى وجه الاخبار عن الغائب .

قوله تعالى :

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِنْ فَضْلِهِ وَٱلْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ ٱللهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٣٠)

خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن عامر ونافع « بما كسبت » بلا فاء ، وكذلك هو في مصاحف اهل

المدينة واهل الشام . الباقون بالفاء ، وكذلك في مصاحفهم ، فعلى هذا يكون جزاء وعلى الأول يكون المعنى الذي أصابكم من مصيبة بما كسبت ايديكم .

لما اخبر الله تعالى انه يقبل التوبة عن عباده وانه يعلم ما يفعلونه من طاعة او معصية وانه يجازيهم بحسبها ، ذكر انه « يستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات » يجيبهم بمعنى و(الذين) في موضع نصب ، وأجاب واستجاب بمعنى واحد ، قال الشاعر:

وداع دعايامن يجيب إلى الندا   فلم يستجبه عند ذاك مجيب (١)

وقيل : الاستجابة موافقة عمل العامل ما يدعو اليه ، لأجل دعائه اليه ، فلما كان المؤمن يوافق بعمله ما يدعو النبي ﷺ من اجل دعائه كان مستجيباً له ، وكذلك من وافق بعمله داعي عقابه كان مستجيباً الداعي بالفعل . وعن معاذ بن جبل : إن الله تعالى يجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دعاء بعضهم لبعض . وقيل : معناه ويجيب المؤمنون ربهم في ما دعاهم اليه ، فيكون (الذين) في موضع رفع ، ويكون قوله « ويزيدهم » راجعاً إلى الله أي يزيدهم الله من فضله . وقيل : معناه ويستجيب دعاء المؤمنين ، ولا يستجيب دعاء الكافرين ، لأنه ثواب ولا ثواب للكافرين . وقيل : بل يجوز ان يكون ذلك إذا كان فيه لطف للمكلفين . وقوله « ويزيدهم من فضله » معناه ويزيدهم زيادة من فضله على ما يستحقونه من الثواب . وقال الرماني : الزيادة بالوعد تصير اجراً على العمل إذا كان ممن يحسن الوعد بها من طريق الوعد ، كما لو كان إنسان يكتب مئة ورقة بدينار ، ورغبه ملك في نسخ مئة ورقة بعشرة دنانير ، فانه يكون الأجرة حينئذ عشرة دنانير وإذا بلغ غاية الأجر في مقدار لا يصلح عليه اكثر من ذلك ، فانما تستحق

(١) مر تخريجه في ٢ / ١٣١ و ٣ / ٨٨ و ٦ \ ٢٣٣

الزيادة بالوعد .

وقوله « والكافرون لهم عذاب شديد » اخبار عما يستحقه الكافر على كفره من العقاب المؤلم الشديد .

وقوله « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض » إخبار منه تعالى بأنه لو وسع رزقه على عباده وسوى بينهم لبطروا النعمة وتنافسوا وتغالبوا ، وكان ذلــك يؤدي إلى وقوع الفساد بينهم والقتل وتغلب بعضهم على بعض واستعانة بعضهم ببعض ببذل الأموال ، ولكن دبرهم على ما علم من مصلحتهم في غناء قوم وفقر آخرين ، وإحواج بعضهم إلى بعض وتسخير بعضهم لبعض ، فلذلك قال « ولكن ينزل بقدر ما يشاء » مما يعلمه مصلحة لهم « إنه بعباده خبير بصير » يعني عالم بأحوالهم بصير بما يصلحهم مما يفسدهم .

ثم قال « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا » أي ينزله عليهم من بعد أياسهم من نزوله ، ووجه إنزاله بعد القنوط انه أدعى إلى شكر الآتي به وتعظيمه والمعرفة بمواقع إحسانه ، وكذلك الشدائد التي تمر بالانسان ، ويأتي الفرج بعدها ، تعلق الأمل بمن يأتي به وتكسب المعرفة بحسن تدبيره في ما يدعو اليه من العمل بأمره والانتهاء إلى نهيه . ونشر الرحمة عمومها لجميع خلقه ، فهكذا نشر رحمة الاه مجددة حالا بعد حال . ثم يضاعفها لمن يشاء ، وكل ذلك على مقتضى الحكمة وحسن التدبير الذي ليس شيء احسن منه « وهو الولي الحميد » معناه هو الأولى بكم وبتدبيركم المحمود على جميع افعاله لكونها منافعاً وإحساناً .

ثم قال « ومن آياته » أي من حججه الدالة على توحيده وصفاته التي باين بها خلقه « خلق السموات والأرض » لأنه لا يقدر على ذلك غيره لما فيهما من العجائب والاجناس التي لا يقدر عليها قادر بقدرة « وما بث فيهما من دابة » أي

من سائر اجناس الحيوان « وهو على جمعهم إذا يشاء قـدير » أي على جمعهم يوم القيامة وحشرهم إلى الموقف بعد إماتتهم قادر ، لا يتعذر عليه ذلك .

ثم قال « وما اصابكم من مصيبة » معاشر الخلق ﴿ فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ قال الحسن : ذلك خاص في الحدود التي تستحق على وجه العقوبة . وقال قتادة : هو عام . وقال قوم : ذلك خاص وإن كان مخرجه مخرج العموم لما يلحق من المصائب على الأطفال والمجانين ومن لاذنب له من المؤمنين . وقال قوم : هو عام بمعنى ان ما يصيب المؤمنين والاطفال إنما هو من شدة محنة تلحقهم، وعقوبة للعاصين كما يهلك الاطفال والبهائم مع الكفار بعذاب الاستئصال . ولأنه قد يكون فيه استصلاح اقتضاه وقوع تلك الاجرام .

وقيل قوله ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده ﴾ بحسب ما يطلبونه ويقترحونه ﴿ لبغوا في الارض ﴾ فانه لم يمنعهم ذلك لعجز، ولا لبخل . وقوله ﴿ إذا يشاء ﴾ يدل على حدوث المشيئة ، لانه لا يجوز ان يكون إذا قدر على شيء فعله ولا إذا علم شيئاً فعله . ويجوز إن شاء ان يفعل شيئاً فعله .

وقوله ﴿ أصابكم ﴾ قال ابو علي النحوي : يحتمل أمرين احدهما ـ ان يكون صلة لـ (ما) . والثاني ـ ان يكون شرطاً في موضع جزم ، فمن قـدره شرطاً لم يجز سقوط الفـاء ـ على قول سيبويه ـ واجاز ذلك ابو الحسن والكوفيون . وإن كان صلة فالاثبات والحذف جائزان على معنيين مختلفين ، فاذا ثبت الفاء كان ذلك دليلا على ان الامر الثاني وجب بالأول كقوله ﴿ الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سراً وعلانيـة فلهم أجرهم ﴾ (١) فثبوت الفاء يدل على وجوب الانفاق وإذا حذف احتمل الأمرين .

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٤

قولـه تعـالى :

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥)

خمس آيات كوفي وأربع فى ما عـداه عدّ الكوفيون ﴿ كالاعلام ﴾ ولم يعد، الباقون .

قرأ ابو عمرو ، ونافع ﴿ الجواري فى البحر ﴾ بيـاء فى الوصل، ووقف ابن كثير بياء ايضاً . الباقون بغير ياء فى الوصل والوقف . وقرأ نافع وابو جعفر وابن عامر ﴿ و يعلم الذين ﴾ رفعاً على الاستئناف ، لان الشرط والجزاء قد تم ، فجاز الابتداء بما بعده . الباقون بالنصب . فمن نصبه فعلى الصرف ، كما قال النابغة :

فان يهلك ابو قابوس يهلك ربيع الناس والبلد الحرام
ونأخذ بعده بذناب عيش اجب الظهر ليس له سنام(١)

قال الكوفيون : هو مصروف من مجزوم إلى منصوب ، وقال البصريون : هو نصب بأضمار (أن) وتقديره ان يعلم ، كما قال الشاعر :

ولبس عباءة وتقر عيني احب إليّ من لبس الشفوف

وتقديره وأن تقر عيني ، قال ابو علي : ومن نصب ﴿ ويعلم ﴾ فلان قبله

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ٣٤ والشوكاني ٤ \ ٥٢٥ والطبري ٢٥ \ ٢٠

شرط وجزاء ، وكل واحد منهما غير واجب ، تقول في الشرط إن تأتني وتعطيني اكرمك فينتصب وتعطيني ، وتقديره إن يكون منك اتيان وإعطاء أكرمك ، والنصب بعد الشرط إذا عطفته بالفاء أمثل من النصب بالفاء بعد جزاء الشرط فأما العطف على الشرط نحو إن تأتني وتكرمني اكرمك ، فالذي يختار سيبويه في العطف على الشرط نحو إن تأتني وتكرمني الجزم ، فيختار ﴿ ويعلم الذين ﴾ إذا لم يقطعه عن الأول فيرفعه ، وإن عطف على جزاء الشرط ، فالنصب أمثل . ومن اثبت الياء في الحالين في قوله ﴿ الجواري ﴾ فلأنها الأصل ، لكن خالف المصحف ، ومن اثبتها وصلا دون الوقف استعمل الاصل وتبع المصحف ، ومن حذفها في الحالين يتبع المصحف ، واجتزأ بالكسرة الدالة على الياء . وواحد الجواري جارية ، وهي السفينة ، وحكي عن ابن مسعود انه قرأ بضم الراء كأنه قلب ، كما قالوا (شاك) في (شائك) فأراد الجوائر فقلب ،

قوله ﴿ وما انتم بمعجزين في الارض ﴾ خطاب من الله تعالى للكفار بأنكم لستم تفوتون الله بالهرب منه في الارض ولا في السماء ، فانه يقدر عليكم في جميع الأماكن ولا يمكن النجاة من عذابه إلا بطاعته ، فواجب عليكم طاعته ، ففي ذلك استدعاء إلى عبادة الله وترغيب في كل ما أمر به وتحذير عما نهى عنه . ووجه الحجة بذلك على العبد انه إذا كان لا يعجز الله ، ولا يجد دافعاً عن عقابه خف عليه عمل كل شيء في جنب ما توعد به .

وقوله ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ اي ليس لكم من يدفع عنكم عقاب الله إذا اراد فعله بكم ولا ينصركم عليه ، فيجب أن ترجعوا إلى طاعة من هذه صفته .

وقوله ﴿ ومن آياته الجواري في البحر كالاعلام ﴾ معناه من آياته الدالة على -

انه تعالى مختص بصفات لا يشركه فيها أحد ، السفن الجارية فى البحر مثل الجبال ، لأنه تعالى يسيرها بالريح لا يقدر على تسييرها غيره ، ووجه الدلالة فى السفن الجارية هو ان الله خلق الماء العظيم وعدل الريح بما يمكن أن يجري فيه على حسب المراد لأنه إذا هبت الريح فى جهة وسارت بها السفينة فيها ، فلو اجتمعت الخلائق على صرفها إلى جهة أخرى لما قدروا ، وكذلك لو سكنت الريح لو قفت . وما قدر احد على تحريكها ، ولا إجرائها غيره تعالى .

ثم بين ذلك بأن قال ﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ وتقديره إن يشأ يسكن الريح أسكنها او إن يشأ ان يسكنها سكنت ، وليس المعنى إن وقعت منه مشيئة أسكن لا محالة ، لانه قد وقعت منه مشيئة لأشياء كثيرة ولم تسكن الريح . والجواري السفن ـ فى قول مجاهد والسدي ـ والاعلام الجبال ـ فى قولهما ـ وقوله ﴿ فيظللن رواكد على ظهره ﴾ قال ابن عباس : معناه تظل السفن واقفة على ظهر الماء ، قال الشاعر :

وإن صخراً لتأتم الهداة به	كأنه علم فى رأسه نار

وقوله ﴿ إن فى ذلك ﴾ يعني فى تسخير البحر وجريان السفن فيها لآيات أي حججاً واضحات ﴿ لكل صبار ﴾ على أمر الله ﴿ شكور ﴾ على نعمه ، وإنما اضاف الآيات إلى كل صبار وإن كانت دلالات لغيرهم أيضاً من حيث هم الذين انتفعوا بها دون غيرهم ، ممن لم ينظر فيها .

وقوله ﴿ او يوبقهن بما كسبوا ﴾ معناه يهلكهن بالغرق ـ في قول ابن عباس والسدي ومجاهد ـ ﴿ بما كسبوا ﴾ أي جزاء على ما فعلوه من المعاصي ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ اخبار منه تعالى انه يعفو عن معاصيهم لا يعاجلهم الله بعقوبتها .

وقوله ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا مالهم من محيص ﴾ اخبار منه تعالى أن

الذين يجادلون في إبطال آيات الله تعالى ويدفعونها سيعلمون انه ليس لهم محيص أي ملجأ يلجؤن اليه - في قول السدي - •

قوله تعالى :

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاؤُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلاخلاف •

قرأ اهل الكوفة إلا عاصما ﴿ كبير الاثم ﴾ على التوحيد . الباقون ﴿ كبائر ﴾ على الجمع جمع التكسير .ومن وحد قال : إنه اسم جنس يقع على القليل والكثير.وقال قوم: اراد الشرك فقط. ومن جمع، فلان انواع الفواحش ، واختلاف اجناسها كثيرة .

يقول الله تعالى مخاطباً لمن تقدم وصفه ﴿ وما اوتيتم ﴾ يعني ان الذي اوتيتموه وأعطيتموه ﴿ من شيء ﴾ من الاموال ، ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أى هو شيء ينتفع به عاجلا لا بقاء له ولا محصول له . والمتاع يخبر به عن الامتاع ويعبر به عن الاثاث ، ففي ذلك تزهيد في الدنيا وحث على عمل الآخرة . ثم قال ﴿ وما عند الله ﴾ يعني من الثواب في الجنة ﴿ خير وأبقى ﴾ من هذه المنافع العاجلة التي هي قليلة والآخرة

باقية دائمة ، وهذه فانية منقطعة . ثم بين انها حاصلة ﴿ الذين آمنوا ﴾ بتوحيد الله وتصديق رسله ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي يفوضون أمرهم اليه تعالى دون غيره فالتوكل على الله تفويض الامر اليه باعتقاد أنها جارية من قبله على أحسن التدبير مع الفزع اليه بالدعاء في كلما ينوب . والتوكل واجب ، الترغيب فيه كالترغيب في جملة الايمان .

وقوله ﴿ والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ﴾ يحتمل ان يكون (الذين) في موضع جر بالعطف على قوله ﴿ للذين ﴾ فكأنه قال وما عند الله خير وأبقى للمؤمنين المتوكلين على ربهم المجتنبين كبائر الاثم والذنوب . والفواحش جمع فاحشة ، وهي اقبح القبيح . ويحتمل ان يكون في موضع رفع بالابتداء ، ويكون الخبر محذوفاً ، وتقديره الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ﴿ واذا ما غضبوا ﴾ مما يفعل بهم من الظلم والاساءة ﴿ هم يغفرون ﴾ ويتجاوزون عنه ولا يكافونهم عليه لهم مثل ذلك . والعفو المراد في الآية هو ما يتعلق بالاساءة الى نفوسهم الذي لهم الاختصاص بها فمتى عفوا عنها كانوا ممدوحين . فأما ما يتعلق بحدود الله ووجوب حدوده فليس للامام تركها ولا العفو عنها ، ولا يجوز له ان يعفو عن المرتد وعمن يجري مجراه . ثم زاد في صفاتهم فقال ﴿ والذين استجابوا لربهم ﴾ في ما دعاهم اليه ﴿ واقاموا الصلاة ﴾ على حقها ﴿ وامرهم شورى بينهم ﴾ أي لا ينفردون بأمر حتى يشاوروا غيرهم ، لانه قيل : ما تشاور قوم إلا وفقوا لأحسن ما يحضرهم ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ في طاعة الله وسبيل الخير .

ثم قال ﴿ والذين اذا أصابهم البغي ﴾ من غيرهم وظلم من جهتهم ﴿ هم ينتصرون ﴾ يعني ممن بغى عليهم من غير ان يعتدوا فيها فيقتلوا غير القاتل ويجنوا على غير الجاني . وفي قوله ﴿ والذين إذا اصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ ترغيب في انكار

المنكر. ثم قال ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ قال ابو نجيح والسدى : معناه إذا قال أخزاه الله متعدياً قال له مثل ذلك اخزاه الله . ويحتمل ان يكون المراد ما جعل الله لنا إلا الاقتصاص منه من ﴿ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ (١) فان للمجني عليه أن يفعل بالجاني مثل ذلك من غير زيادة وسماه سيئة للازدواج ، كما قال ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ﴾ (٢) وقال ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ (٣) ثم مدح العافي عما له أن يفعله ، فقال ﴿ فمن عفى وأصلح ﴾ عما له المؤاخذة فيه « فأجره » في ذلك وجزاؤه « على الله » فانه يثيبه على ذلك .

وقوله ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ قيل فى معناه وجهان :

احدها ـ إني لم ارغبكم في العفو عن الظالم لأني أحبه ، بل لأني أحب الاحسان والعفو .

والثاني ـ إني لا أحب الظالم لتعديه ما هو له إلى ما ليس له فى القصاص ولا غيره .

وقيل الكبائر الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله ، وقذف المحصنات ، وعقوق الوالدين ، واكل مال اليتيم ، والفرار من الزحف ، واكل الحرام .

وعندنا كل معصية كبيرة ، وإنما تسمى صغيرة بالاضافة إلى ما هو اكبر منها لا انها تقع محبطة ، لان الاحباط باطل عندنا . وقيل إن هذه الآيات نزلت فى قوم من المهاجرين والانصار .

---

(١) سورة ٥ المائدة آية ٤٨ (٢) سورة ١٦ النحل آية ١٢٦

(٣) سورة ٢ البقرة آية ١٩٤

قوله تعالى :

﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (٤٣) وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى ٱلظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ (٤٥) خمس آيات بلا خلاف

قوله ﴿ ولمن انتصر من بعد ظلمه ﴾ اخبار من الله تعالى أن من انتصر لنفسه بعد أن كان ظلم وتعدي عليه ، فاخذ لنفسه بحقه ، فليس عليه من سبيل . قال قتادة : بعد ظلمه في ما يكون فيه القصاص بين الناس في النفس او الاعضاء او الجراح ، فأما غير ذلك فلا يجوز أن يفعل لمن ظلمه ولا ذم له على فعله . وقال قوم : معناه إن له أن ينتصر على يد سلطان عادل بأن يحمله اليه ويطالبه بأخذ حقه منه ، لأن السلطان هو الذي يقيم الحدود ، ويأخذ من الظالم المظلوم ، ويمكن أن يستدل بذلك على أن من ظلمه غيره بأخذ ماله كان له إذا قدر أن يأخذ من ماله بقدره ، فلا إثم عليه ، والظالم هو الفاعل للظلم . وقد بينا حكم الظالم في غير موضع ، فلما بين أن المظلوم أن يقتص منه ، وانه متى اخذ بحقه لم يكن عليه سبيل

بين ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ ويأخذون ما ليس لهم ويتعدون عليهم ﴿ ويبغون ﴾ عليهم ﴿ في الارض بغير الحق ﴾ لأنه متى سعى فيها بالحق لم يكن مذموماً به إن طلب بذلك ما أباحه الله له ﴿ اولئك لهم عذاب اليم ﴾ اخبار منه تعالى أن من قدّم وصفه لهم عذاب موجع مؤلم. ثم مدح تعالى من صبر على الظلم ولم ينتصر لنفسه ولا طالب به ويغفر لمن أساء اليه بأن قال ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور ﴾ أي من ثابت الأمور التي أمر الله بها فلم ينسخ. و (عزم الأمور) هو الاخذ بأعلاها في باب نيل الثواب والأجر واحتمال الشدائد على النفس وإيثار رضا الله على ما هو مباح. وقيل: (ان ذلك لمن عزم الامور) جواب القسم الذي دل عليه ﴿ لمن صبر وغفر ﴾ كما قال ﴿ لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ﴾(١) وقيل: بل هي في موضع الخبر. كأنه قال إن ذلك منه لمن عزم الأمور، وحسن ذلك مع طول الكلام.

وقوله ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده ﴾ يحتمل أمرين:

احدها ـ ان من اضله الله عن طريق الجنة إلى عذاب النار فليس له ناصر ينصره عليه ويرفعه عنه من بعد ذلك بالتخليص منه.

والثاني ـ أن من حكم الله بضلاله وسماه ضالا عن الحق فما له من ولي ولا ناصر يحكم بهدايته ويسميه هادياً.

ثم قال ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾ اخبار منه تعالى إنك يا محمد ترى الظالمين إذا شاهدوا عذاب النار يقولون هل إلى الرجوع والرد إلى دار التكليف من سبيل تمنياً منهم لذلك والتجاء إلى هذا القول لما ينزل بهم من البلاء. مع علمهم بأن ذلك لا يكون، لان معارفهم ضرورية.

---

(١) سورة ٥٩ الحشر آية ١٢

ثم قال ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي ﴾ قال ابن عباس : من طرف ذليل . وقال الحسن وقتادة : يسارقون النظر ، لأنهم لا يجترؤن أن ينظروا إلى النار بجميع أبصارهم لما يرون من هول النار وألوان العذاب . وقيل : يرون النار بقلوبهم ، لأنهم يحشرون عمياً ﴿ وقال الذين آمنوا ﴾ يعني الذين صدقوا الله ورسوله ذلك اليوم إذا رأوا حصول الظالمين في النار واليم العقاب ﴿ إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم ﴾ باستحقاق النار ﴿ وأهليهم ﴾ لما حيل بينهم وبينهم ﴿ يوم القيامة ألا إن ﴾ هؤلاء ﴿ الظالمين في عذاب مقيم ﴾ أي دائم لا زوال له . وقد منعوا من الانتفاع بنفوسهم واهليهم ذلك اليوم .

قولـه تعـالى :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلاخلاف

لما اخبر الله تعالى أن الظالمين انفسهم بارتكاب المعاصي وترك الواجبات في عذاب مقيم دائم غير منقطع ، اخبر في الآية التي بعدها انهم لم يكن لهم أولياء في ما عبدوه من دون الله ، ولا فيمن أطاعوه في معصية الله ، أي انصار ينصرونهم من دون الله ويرفعون عنهم عقابه . وقيل : المراد من يعبدونه من دون الله او يطيعونه في معصية الله لا ينفعهم يوم القيامة . فالفائدة بذلك اليأس من أي فرج إلا من قبل الله ، فلهذا من كان هلاكه بكفره لم يكن له ناصر يمنع منه .

ثم قال ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي من أضله الله عن طريق الجنة وعدل به إلى النار ﴿ فما له من سبيل ﴾ يوصله إلى الجنة والثواب . ويحتمل ان يكون المراد ومن يحكم الله بضلاله ويسميه ضالا لم يكن لأحد سبيل الى ان يحكم بهدايته . ثم قال تعالى لخلقه ﴿ استجيبوا لربكم ﴾ يعني اجيبوه إلى ما دعاكم اليه ورغبكم فيه من المصير الى طاعته والانقياد لأمره ﴿ من قبل ان يأتي يوم لامرد له من الله مالكم من ملجأ يومئذ ﴾ أي لامرجع له بعد ما حكم به . وقيل معناه لا يتهيأ لاحد رده ولا يكون لكم ملجأ تلجؤن اليه في ذلك اليوم . والملجأ والمحرز نظائر ﴿ وما لكم من نكير ﴾ أي تغيير انكار . وقيل : معناه من نصير ينكر ما يحل بكم ثم قال لنبيه ﷺ ﴿ فان اعرضوا ﴾ يعني هؤلاء الكفار وعدلوا عما دعوناهم اليه ولا يستجيبون اليه ﴿ فما ارسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي حافظاً تمنعهم من الكفر ﴿ إن عليك ﴾ أي ليس عليك ﴿ إلا البلاغ ﴾ وهو ايصال المعنى الى افهامهم وتبيين لهم ما فيه رشدهم ، فالذي يلزم الرسول دعاؤهم الى الحق ، ولا يلزمه ان يحفظهم من اعتقاد خلاف الحق . ثم اخبر تعالى عن حال الانسان وسرعة تنقله من حال الى حال فقال ﴿ وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة ﴾ واوصلنا اليه نعمة ﴿ فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم ﴾ أي عقوبة جزاء بما قدمته ايديهم من المعاصي ﴿ فان الانسان كفور ﴾ يعدد المصائب

ويجحد النعم وقوله ﴿ لله ملك السموات والارض ﴾ ومعناه له التصرف في السموات والارض وما بينهما وسياستهما بما تقتضيه الحكمة حسب ما يشاء ﴿ ويخلق مايشاء ﴾ من انواع الخلق ﴿ يهب لمن يشاء ﴾ من خلقه ﴿ اناثاً ﴾ يعني البنات بلا ذكور ﴿ ويهب لمن يشاء ﴾ من خلقه ﴿ الذكور ﴾ بلا اناث ﴿ او يزوجهم ذكراناً واناثاً ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك والسدي : معناه ان يكون حمل المرأة مرة ذكراً ومرة انثى ويحتمل ان يكون المراد ان يرزقه توأماً ذكراً وانثى او ذكراً وذكراً وانثى وانثى وهو قول ابن زيد ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ فالعقيم من الحيوان الذي لا يكون له ولد ويكون قد عقم فرجه عن الولادة بمعنى منع ﴿ انه عليم ﴾ بمصالحهم ﴿ قدير ﴾ أي قادر على خلق ما اراد من ذلك .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ ٱللهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ أَلَا إِلَى ٱللهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (٥٣) ثلاث آيات بلا خلاف

قرأ نافع وابن عامر في رواية الداحوني عن صاحبه ﴿ او يرسل ... فيوحي ﴾ بالرفع على تقدير او هو يرسل فيوحي ويكون المعنى يراد به الحال بتقدير إلا موحياً

او مرسلا وذلك كلامه اياهم . الباقون بالنصب ويرسل فيوحي على تأويل المصدر ، كأنه قال إلا ان يوحي او يرسل . ومعنى (او) في قوله ﴿ او يرسل رسولا ﴾ يحتمل وجهين :

احدهما ـ العطف ، فيكون ارسال الرسول احد اقسام الكلام ، كما يقال عتابك السيف كانه قيل الا وحياً او ارسالا .

الثاني ـ ان يكون (الا ان) كقولك لألزمنك او تعطيني حقي ، فلا يكون الارسال في هذا الوجه كلاماً . ولا يجوز ان يكون (او يرسل) فيمن نصب عطفاً على قوله ﴿ أن يكلمه الله ﴾ لأنك لو حملته على ذلك لكان المعنى وما كان لبشر أن يكلمه الله او ان يرسل رسولا ، ولم يخل قولك (او يرسل رسولا) من ان يكون المراد به او يرسله رسولا او يكون المراد او يرسل اليه رسولا ، والتقديران جميعاً فاسدان ، لانا نعلم أن كثيراً من البشر قد ارسل رسولا ، وكثيراً منهم ارسل اليه رسولا ، فاذا بطل ذلك صح ما قدرناه اولا ، ويكون التقدير ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي وحياً او يرسل رسولا ، فيوحي ، ويجوز في قوله ﴿ إلا وحياً ﴾ أمران :

احدهما ـ ان يكون استثناء منقطعاً .

والآخر ـ ان يكون حالا ، فان قدرته استثناء منقطعاً لم يكن في الكلام شيء توصل به (من) لأن ما قبل الاستثناء لا يعمل في ما بعده ، لأن حرف الاستثناء في معنى حرف النفي ، ألا ترى أنك إذا قلت : قام القوم إلا زيداً ، فالمعنى قام القوم لا زيد ، فكما لا يعمل ما قبل حرف النفي في ما بعده كذلك لا يعمل ماقبل الاستثناء ـ إذا كان كلاماً تاماً ـ في ما بعده إذ كان بمعنى النفي ، وكذلك لايجوز أن يعمل ما بعد (إلا) في ما قبلها ، فاذا كان كذلك لم يتصل الجار بما قبل (إلا)

ويمتنع أن يتصل به الجار من وجه آخر ، وهو ان قوله ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ من صلة (يوحي)الذيهو بمعنى(أن يوحي)فاذا كان كذلك لم يجز ان يحمل الجار الذي هو في قوله﴿من وراء حجاب ﴾ على (أو يرسل) لانك تفصل بين الصلة والموصول بما ليس منهما. ألاترى أن المعطوف على الصلة من الصلة إذا حملت العطف على ما ليس في الصلة فصلت بين الصلة والموصول بالاجنبي الذي ليس منها ، فاذا لم يجز حمله على ﴿ يكلمه ﴾ في قوله ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله ﴾ ولم يكن بدّ من ان يعلق الجار بشيء ، ولم يكن في اللفظ شيء يحمل عليه أضمرت (بما يكلم) وجعلت الجار في قوله ﴿ او من وراء حجاب ﴾ متعلقاً بفعل مراد في الصلة محذوف حذفاً للدلالة عليه ، ويكون في المعنى معطوفاً على الفعل المقدر صلة ، لأن الموصول يوحي ، فيكون التقدير : ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى اليه ، او يكلمه من وراء حجاب ، فحذف (يكلم) من الصلة ، لان ذكره قد جرى وإن كان خارجاً من الصلة ، فحسن لذلك حذفه من الصلة .

ومن رفع (أو يرسل رسولا) فانه يجعل (يرسل) حالا والجار في قوله ﴿ او من وراء حجاب ﴾ يتعلق بمحذوف ، ويكون في الظرف ذكر من ذي الحال ، ويكون قوله ﴿ إلا وحياً ﴾ على هذا التقدير مصدراً وقع موقع الحال ، كقولك جئت ركضاً او اتيت عدواً . ومعنى ﴿ او من وراء حجاب ﴾ فيمن قدر الكلام استثناء منقطعاً او حالا : يكلمهم غير مجاهر لهم بكلامه ، يريد ان كلامه يسمع ويحدث من حيث لا يرى ، كما ترى سائر المتكلمين ، ليس ان ثم حجاباً يفصل موضعاً من موضع ، فيدل ذلك على تحديد المحجوب .

ومن رفع (يرسل) كان (يرسل) في موضع نصب على الحال . والمعنى هذا كلامه كما تقول : تحيتك الضرب وعتابك السيف .

يقول الله تعالى إنه ليس لبشر من الخلق أن يكلمه الله إلا أن يوحي اليه وحياً ﴿ او من وراء حجاب ﴾ معناه او بكلام بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب ، لانه تعالى لا يجوز عليه مالا يجوز إلا على الاجسام من ظهور الصورة للابصار ﴿ او يرسل رسولا ﴾ فان جعلناه عطفاً على إرسال الرسول ، كان احد أقسام الكلام كما قلناه في قولهم : عتابك السيف ، كأنه قال إلا وحياً او إرسالا ، وإن لم تجعله عطفاً لم يكن احد اقسامه ، ويكون كقولهم : لألزمنك او تعطيني حقي ، فلا يكون الارسال في هذا الوجه كلاماً ، فيكون كلام الله لعباده على ثلاثة اقسام :

اولها ـ ان يسمع منه كما يسمع من وراء حجاب ، كما خاطب الله به موسى عليه السلام .

الثاني ـ بوحي يأتي به الملك إلى النبي من البشر كسائر الانبياء .

الثالث ـ بتأدية الرسول إلى المكلفين من الناس . وقيل في الحجاب ثلاثة اقوال :

احدها ـ حجاب عن إدراك الكلام لا المكلم وحده .

الثاني ـ حجاب لموضع الكلام .

الثالث ـ إنه بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب ﴿ فيوحي باذنه ما يشاء ﴾ معناه إن ذلك الرسول الذي هو الملك يوحي إلى النبي من البشر بامر الله ما شاءه الله ﴿ إنه علي حكيم ﴾ معناه إن كلامه المسموع منه لا يكون مخاطبة يظهر فيها المتكلم بالرؤية ، لأنه العلي عن الادراك بالابصار وهو الحكيم في جميع افعاله وفي كيفية خطابه لخلقه .

وقال السدي : معنى الآية إنه لم يكن لبشر ان يكلمه الله إلا وحياً بمعنى إلا إلهاماً بخاطر او في منام او نحوه من معنى الكلام اليه في خفاء ﴿ او من وراء حجاب ﴾ يحجبه عن إدراك جميع الخلق إلا عن المتكلم الذي يسمعه كما سمع موسى

كلام الله ﴿ او يرسل رسولا ﴾ يعني به جبرائيل .

وقوله ﴿ وكذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا ﴾ معناه مثل ما اوحينا إلى من تقدم من الانبياء اوحينا اليك كذلك الوحي من الله إلى نبيه روح من أمره وهو نور يهدي به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم بصاحبه إلى الجنة والصراط المستقيم الطريق المؤدي إلى الجنـــة ، وهو صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ملك له يتصرف فيه كيف يشاء ، وهو صراط من تصير الأمور اليه ، ولا يبقى لأحد أمر ولا نهي ولا ملك ولا تصرف ، وهو يوم القيامة . وقوله « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » يعني ما كنت قبل البعث تدري ما الكتاب ولا ما الايمان قبل البلوغ « ولكن جعلناه » يعني الروح الذي هو القرآن « نوراً نهدي من نشاء من عبادنا » يعني من المكلفين ، لان من ليس بعاقل وإن كان عبد الله ، فلا يمكن هدايته لانه غير مكلف .

ثم قال « وانك لتهدي » يا محمد « إلى صراط مستقيم » أي طريق مفض الى الحق ، وهو الايمان ، وإنما جر (صراط الله) بأنه بدل من قوله « صراط مستقيم » ثم قال « ألا الى الله تصير الامور » أي اليه ترجع الامور والتدبير وحده يوم القيامة

٤٣ ـ سورة الزخرف

هي مكية في قول مجاهد وقتادة وهي تسع وثمانون آية بلا خلاف في جملتها .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ (٥) .

خمس آيات في الكوفي وأربع في ما سواه، عدّ الكوفيون «حم» ولم يعده الباقون .

قرأ نافع وحمزة والكسائي وخلف «ان كنتم» بكسر الهمزة جعلوه شرطاً مستأنفاً واستغنى عما تقدم ، كقولك : انت عالم ان فعلت ، فكأنه قال : ان كنتم قوماً مسرفين نضرب . الباقون بفتحها جعلوه فعلا ماضياً أي اذا كنتم ، كما قال « أن جاءه الاعمى » (١) والمعنى اذ جاءه الاعمى ، فموضع (ان) نصب عند البصريين ، وجر عند الكسائي ، لان التقدير افنضرب الذكر صفحاً لأن كنتم ، وبأن كنتم قوماً مسرفين . والمسرف الذي ينفق ماله في معصية الله ، ولا اسراف في الطاعة .

قد بينا معنى « حم » في ما مضى ، واختلاف المفسرين فيه ، فلا معنى لاعادته

---

(١) سورة ٨٠ عبس آية ٢

وقوله « والكتاب » خفض بالقسم . وقيل : تقديره ورب الكتاب ، والمراد بالكتاب القرآن ، والمبين صفة له . وانما وصف بذلك لانه أبان عن طريق الهدى من الضلالة ، وكل ما تحتاج اليه الأمة في الديانة . والبيان هو الدليل الدال على صحة الشيء وفساده . وقيل : هو ما يظهر به المعنى للنفس عند الادراك بالبصر والسمع ، وهو على خمسة أوجه : باللفظ ، والخط ، والعقد بالاصابع ، والاشارة اليه ، والهيئة الظاهرة للحاسة ، كالاعراض عن الشيء ، والاقبال عليه ، والتقطيب وضده وغير ذلك . واما ما يوجد في النفس من العلم ، فلا يسمى بياناً على الحقيقة وكل ما هو بمنزلة الناطق بالمعنى المفهوم فهو مبين .

وقوله « انا جعلناه قرآناً عربياً » اخبار منه تعالى انه جعل القرآن الذي ذكره عربياً بأن يفعله على طريقة العرب في مذاهبها في الحروف والمفهوم . ومع ذلك فانه لا يتمكن أحد منهم من انشاء مثله والاتيان بما يقاربه في علو طبقته في البلاغة والفصاحة ، اما لعدم علمهم بذلك أو صرفهم على حسب اختلاف الناس فيه. وهذا يدل على جلالة موقع التسمية في التمكن به والتعذر مع فقده . وفيه دلالة على حدوثه لان المجعول هو المحدث . ولان ما يكون عربياً لا يكون قديماً لحدوث العربية . فان قيل : معنى جعلناه سميناه لأن الجعل قد يكون بمعنى التسمية . قلنا : لا يجوز ذلك ـ ههنا ـ لأنه لو كان كذلك لكان الواحد منا اذا سماه عربياً فقد جعله عربياً ، وكان يجب لو كان القرآن على ما هو عليه وسماه الله اعجمياً أن يكون اعجمياً او كان يكون بلغة العجم وسماه عربياً ان يكون عربياً ، وكل ذلك فاسد .

وقوله « لعلكم تعقلون » معناه جعلناه على هذه الصفة لكي تعقلوا وتفكروا في ذلك فتعلموا صدق من ظهر على يده .

وقوله « وانه » يعني القرآن « في ام الكتاب لدنيا » يعني اللوح المحفوظ

الذي كتب الله فيه ما يكون إلى يوم القيامة لما فيه من مصلحة ملائكته بالنظر فيه وللخلق فيه من اللطف بالاخبار عنه « وأم الكتاب » أصله لأن أصل كل شيء أمه .

وقوله « لعلي حكيم » معناه لعال في البلاغة مظهر ما بالعباد اليه الحاجة مما لا شيء منه إلا يحسن طريقه ولا شيء أحسن منه . والقرآن بهذه الصفة علمه من علمه وجهله من جهله لتفريطه فيه و (حكيم) معناه مظهر المعنى الذي يعمل عليه المؤدي الى العلم والصواب . والقرآن من هذا الوجه مظهر للحكمة البالغة لمن تدبره وأدركه . ثم قال لمن جحده ولم يعتبر به على وجه الانكار عليهم « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً » معناه أنعرض عنكم جانباً باعراضكم عن القرآن والتذكر له والتفكر فيه « أن كنتم قوماً مسرفين » على نفوسكم بترككم النظر فيه والاعتبار بحججه . ومن كسر الهمزة جعله مستأنفاً شرطاً . ومن فتحها جعله فعلا ماضياً أي إذ كنتم كما قال « أن جاءه الاعمى » (١) بمعنى إذ جاءه الاعمى ، فموضع (أن) نصب عند البصريين وجر عند الكسائي ، لأن التقدير الذكر صفحاً ، لان كنتم وبأن كنتم . قال الشاعر :

أتجزع ان بان الخليط المودع　　وحبل الصفا من عزة المتقطع (٢)

والمسرف الذي ينفق ماله في معصية الله ، لان من انفقه في طاعة او مباح لم يكن مسرفاً وقال علي عليه السلام (لا إسراف في المأكول والمشروب) و (صفحاً) نصب على المصدر ، لأن قوله « افنضرب عنكم الذكر » يدل على ان اصفح عنكم صفحاً وكأن قولهم : صفحت عنه أي أعرضت ووليته صفحة العنق . والمعنى افنضرب ذكر الانتقام منكم والعقوبة لكم أن كنتم قوماً مسرفين ، كما قال « ايحسب الانسان

(١) سورة ٨٠ عبس آية ٢　　(٢) مر في ١/ ٣٤٩ و ٧/ ٩

أن يترك سدى » (١) ومن كسر فعلى الجزاء واستغنى عن جوابه بما تقدم كقولهم : انت ظالم ان فعلت كانه قال إن كنتم مسرفين نضرب ، وقال المبرد : المعنى متى فعلتم هذا طلبتم أن نضرب الذكر عنكم صفحاً . قال الفراء : تقول العرب : أضربت عنك وضربت عنك بمعنى تركتك واعرضت عنك . وقال الزجاج : المعنى افنضرب عنكم الذكر أي نهلكم فلا نعرفكم ما يجب عليكم لأن أسرفتم وأصل ضربت عنه الذكر ان الراكب إذا ركب دابة فأراد أن يصرفها عن جهة ضربها بعصاً او سوط لتعدل به إلى جهة أخرى يريدها ثم يوضع الضرب موضع الصرف والعدل . وصفحاً مصدر أقيم مقام الفاعل ، ونصب على الحال . والمعنى افنضرب عنكم تذكيرنا إياكم الواجب صافحين او معرضين ، يقال صفح فلان بوجهه عني أي اعرض قال كثير :

صفوح فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت

والصفوح فى صفات الله معناه العفو يقال : صفح عن ذنبه إذا عفا . وقال بعضهم : المعنى افظننتم أن نضرب عنكم هذا الذكر الذي بينا لكم فيه امر دينكم صفحاً ، فلا يلزمكم العمل بما فيه ، ولا نؤاخذكم لمخالفتكم إياه إن كنتم قوماً مسرفين على أنفسكم ، وجرى ذلك مجرى قول أحدنا لصاحبه وقد أنكر فعله أأتركك تفعل ما تشاء أغفل عنك إذا أهملت نفسك ، ففي ذلك إنكار ووعيد شديد .

قوله تعالى :

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى

---

(١) سورة ٧٥ القيامة آية ٣٦

مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٩) ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا
وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) خمس آيات بلا خلاف

يقول الله تعالى مخبراً « وكم أرسلنا من نبي في الاولين » يعني في الأمم الماضية (وكم) موضوعة للتكثير في باب الخبر ، وهي ضدّ (رب) لأنها للتقليل . ثم اخبر عن تلك الامم الماضية انه كان ما يجيئهم نبي من قبل الله إلا كانوا يستهزؤن به بمعنى يسخرون منه . فالاستهزاء إظهار خلاف الابطان استصغاراً او استحقاراً فالأمم الماضية كفرت بالانبياء واحتقروا ما أتوا به ، وظنوا انه من المخاريق التي لا يعمل عليها لجهلهم وفرط عنادهم ، فلذلك حملوا أنفسهم على الاستهزاء بهم ، وهو عائد بالوبال عليهم .

فان قيل : لم بعث الله الأنبياء مع علمه بأنهم يستهزؤن بهم ولا يؤمنون عنده ؟ قيل : يجوز أن يكون قوم آمنوا وإن قلوا . وإنما اخبر الله بالاستهزاء عن الاكثر ، ولذلك قال في موضع « ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » (١) وايضاً فكان يجوز ان يكون لولا إرسالهم لوقع منهم من المعاصي أضعاف ما وقع عند إرسالهم ، فصار إرسالهم لطفاً في كثير من القبائح ، فلذلك وجب وحسن ، على ان في إرسالهم تمكينهم مما كلفوه ، لأنه إذا كان هناك مصالح لا يمكنهم معرفتها إلا من جهة الرسل وجب على الله أن يبعث اليهم الرسل ليعرّفوهم تلك المصالح ، فاذا لم يؤمنوا بهم وبما معهم من المصالح أتوا بالقبائح من قبل نفوسهم ، والحجة قائمة عليهم

وقوله « فاهلكنا اشد منهم بطشاً » اخبار منه تعالى انه اهلك الذين هم اشد

(١) سورة ١١ هود آية ٤٠

بطشاً من هؤلاء المشركين الذين كانوا في عصر النبي ﷺ ، فلذلك قال « ومضى مثل الاولين » أي وهو مثل لهؤلاء الباقين ، ومعناه انكم قد سلكتم في تكذيب الرسل مسلك من كان قبلكم فاحذروا أن ينزل بكم من الخزي ما نزل بهم . قال الحسن : أشد قوة من قومك . ثم قال « ولئن سألتهم » يعني الكفار « من خلق السموات والارض » بأن انشاءها واخترعها « ليقولن » أي لم يكن جوابهم في ذلك إلا أن يقولوا « خلقهن » يعني السموات والارض « العزيز » الذي لا يغالب ولا يقهر « العليم » بمصالح الخلق ، وهو الله تعالى ، لانهم لا يمكنهم أن يحلفوا في ذلك على الاجسام والأوثان لظهور فساد ذلك ، وليس في ذلك ما يدل على انهم كانوا عالمين بالله ضرورة ، لانه لا يمتنع أن يكونوا عالمين بذلك استدلالا ، وإن دخلت عليهم شبهة في انه يستحق العبادة سواه . وقال الجبائي : لا يمتنع أن يقولوا بذلك تقليداً لأنهم لو علموه ضرورة لعلموا أنه لا يجوز أن يعبد معه غيره وهو الذي يليق بمذهبنا في الموافاة .

ثم وصف العزيز العليم الخالق للسموات والارض فقال هو « الذي جعل لكم الارض مهداً وجعل لكم فيها سبلا » تسلكونها لكي تهتدوا إلى مقاصدكم في اسفاركم . وقيل : معناه لتهتدوا إلى الحق في الدين والاعتبار الذي جعل لكم بالنظر فيها .

قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ ٱلَّذِي

سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ (١٥) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى إن الذي جعل لكم الارض مهداً لتهتدوا إلى مراشدكم في دينكم ودنياكم هو « الذي نزل من السماء ماء » يعني غيثاً ومطراً ﴿بقدر﴾ أي على قدر الحاجة لا زيادة عليها فيفسد ولا ناقصاً عنها فيضر ولا ينفع ، بل هو مطابق للحاجة وبحسبها وذلك يدل على انه واقع من مختار يجعله على تلك الصفة قد قدره على ما تقتضيه الحكمة لعلمه بجميع ذلك .

وقوله «فانشرنا به بلدة ميتاً » أي احييناها بالنبات بعد أن كانت ميتاً بالقحل والجفاف تقول : أنشر الله الخلق فنشروا أي احياهم فحيوا . ثم قال « وكذلك تخرجون » أي مثل ما أخرج النبات من الارض اليابسة فأحياها بالنبات مثل ذلك يخرجكم من القبور بعد موتكم ، وإنما جمع بين أخراج الانبات وإخراج الاموات لأن كل ذلك متعذر على كل قادر إلا القادر لنفسه الذي لا يعجزه شيء ومن قدر على احدهما قدر على الآخر بحكم العقل .

وقوله « والذي خلق الازواج كلها » معناه الذي خلق الأشكال من الحيوان والجماد من الحيوان الذكر والانثى ومن غير الحيوان مما هو متقابل كالحلو والحامض والحلوا والمر والرطب واليابس وغير ذلك من الاشكال . وقال الحسن : الازواج الشتاء والصيف ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والارض ، والجنة والنار

وقوله « وجعل لكم من الفلك » يعني السفن « والانعام ما تركبون » يعني الابل والبقر وما جرى مجراها من الدواب والحمير التي تصلح للركوب .

ثم بين انه خلق ذلك وغرضه ﴿لتستووا على ظهوره﴾ وإنما وحد الهاء في قوله « على ظهوره » لانها راجعة إلى (ما) كما قال « مما في بطونه » (١) وفي موضع آخر (بطونها) ردها إلى الأنعام ، فذكر في (ما) وانث في الانعام . وقال الفراء : اضاف الظهور الى الواحد ، لأن الواحد فيه بمعنى الجميع ، فردت الظهور إلى المعنى . ولم يقل ظهره ، فيكون كالواحد الذي معناه ولفظه واحد .

ومعنى الآية ان غرضه تعالى ان تنتفعوا بالاستواء على ظهورها « ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه » فتشكروه على تلك النعم وتقولوا معترفين بنعم الله ومنزهين له عن صفات المخلوقين « سبحان الذي سخر لنا هذا » يعني هذه الانعام والفلك « وما كنا له مقرنين » أي مطيقين ، يقال : أنا لفلان مقرن أي مطيق أي انا قرن له ، ويقال : أقرن يقرن إقراناً إذا اطاق وهو من المقارنة كأنه يطيق حمله في تصرفه . وقيل « مقرنين » أي مطيقين أي يقرن بعضها ببعض حتى يسيرها إلى حيث يشاء ، وليقولوا أيضاً « وإنا الى ربنا لمنقلبون » أي راجعون اليه يوم القيامة .

فان قيل : قوله « ولتستووا على ظهوره » يفيد ان غرضه بخلق الانعام والفلك ان يستووا على ظهورها ، وإنه يريد ذلك منهم . والاستواء على الفلك والانعام مباح ، ولا يجوز ان يريده الله تعالى ؟!

قيل : يجوز ان يكون المراد بقوله « لتستووا على ظهوره » في المسير إلى

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٦

ما أمر الله بالمسير اليه من الحج والجهاد وغير ذلك من العبادات ، وذلك يحسن إرادته ، وإنما لا يحسن إرادة ما هو مباح محض . وايضاً ، فانه تعالى قال « ثم تذكروا نعمة ربكم » أي تعترفون بنعم الله بالشكر عليها وتقولوا « سبحان الذي سخر لنا هذا » وذلك طاعة يجوز ان يكون مراداً تتعلق الارادة به .

وقوله « وجعلوا له من عباده جزءاً » اخبار منه تعالى ان هؤلاء الكفار جعلوا لله من عباده جزءاً . وقيل فيه وجهان :

احدهما ـ انهم جعلوا لله جزءاً من عبادته لانهم اشركوا بينه وبين الاصنام .

وقال الحسن : زعموا ان الملائكة بنات الله وبعضه فالجزء الذي جعلوه له من عباده هو قولهم « الملائكة بنات الله » ثم قال تعالى مخبراً عن حال الكافر لنعم الله فقال « إن الانسان لكفور » لنعم الله جاحد لها « مبين » أي مظهر لكفره غير مستتر به .

قوله تعالى :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَيكُم بِٱلْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « او من ينشأ » بضم الياء وتشديد الشين .

الباقون بفتح الياء والتخفيف . وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر « عند الرحمن » بالنون . الباقون « عباد » على الجمع وقرأ نافع « أأشهدوا » بضم الألف وفتح الهمزة من (اشهدت) الباقون « اشهدوا » من (شهدت) من قرأ (ينشأ) بالتشديد جعله في موضع مفعول لأنه تعالى قال « إنا انشأناهن إنشاء » (١) فانشأت ونشأت بمعنى إذا ربيت . وتقول : نشأ فلان ونشأه غيره وغلام ناشىء أي مدرك . وقيل في قوله « ثم انشأناه خلقاً آخر » (٢) قال هو نبات شعر ابطه ومن خفف جعل الفعل لله ، لان الله انشأهم فنشؤوا ، ويقال للجوار الملاح : النشأ قال نصيب :

ولولا ان يقال صبا نصيب   اقلت بنفسي النشأ الصغار (٣)

ومن قرء عباد فجمع (عبد) فهو كقوله « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » (٤) فاراد الله أن يكذبهم في قولهم : إن الملائكة بنات الله ، وبين انهم عباده . ومن قرأ « عند » بالنون ، فكقوله « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته » (٥) وقال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس في مصحفي « عباد » فقال: حكه . ووجه قراءة نافع « أأشهدوا » انه جعله من اشهد يشهد جعلهم مفعولين . وقال تعالى ﴿ ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ﴾ (٦) من قرأ بفتح الهمزة جعله من شهد يشهد فهؤلاء الكفار إذا لم يشهدوا خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم من اين علموا ان الملائكة بنات الله وهم

---

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٣٥   (٢) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٤

(٣) مر في ٤ / ٣٠٤ و ٨ / ١٩٤   (٤) سورة ٤ النساء آية ١٧١

(٥) سورة ٧ الاعراف آية ٢٠٥   (٦) سورة ١٨ الكهف آية ٥٢

لم يشهدوا ذلك ، ولم يخبرهم عنه مخبر؟! .

لما اخبر الله تعالى عن الكفار انهم جعلوا له من عباده جزءاً على ما فسرناه ، وحكم عليهم بأنهم يجحدون نعمه ويكفرون أياديه ، فسر ذلك وهو انهم قالوا « ام اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين » فى هذا القول حجة عليهم لأنه ليس بحكيم من يختار لنفسه أدون المنزلتين ولغيره اعلاها ، فلو كان على ما يقول المشركون من جواز اتخاذ الولد عليه لم يتخذ لنفسه البنات ويصفيهم بالبنين فغلطوا فى الأصل الذي هو جواز إتخاذ الولد عليه ، وفى البناء على الأصل باتخاذ البنات ، فنعوذ بالله من الخطاء فى الدين . ومعنى (أصفاكم) خصكم وآثركم بالذكور واتخذ لنفسه البنات .

ثم قال تعالى « واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا » يعني إذا ولد لواحد منهم بنت حسب ما اضافوها الى الله تعالى ونسبوها اليه على وجه المثل لذلك « ظل وجهه مسوداً » أي متغيراً مما يلحقه من الغم بذلك حتى يسود وجهه ويربد « وهو كظيم » قال قتادة معناه حزين . وفى هذا ايضاً حجة عليهم لأن من اسود وجهه بما يضاف اليه مما لا يرضى فهو احق ان يسود وجهه باضافة مثل ذلك إلى من هو اجل منه ، فكيف الى ربه .

ثم قال تعالى على وجه الانكار لقولهم « او من ينشؤ فى الحلية » قال ابن عباس « او من ينشوء فى الحلية » المراد به المرأة . وبه قال مجاهد والسدي ، فهو في موضع نصب والتقدير او من ينشؤ فى الحلية يجعلون . ويجوز ان يكون الرفع بتقدير أولئك ولده على ماقالوا هم بناته يعني من ينشؤ فى الحلية على وجه التزين بها يعني النساء فى قول اكثر المفسرين . وقال ابو زيد : يعني الاصنام . والاول اصح « وهو في الخصام غير مبين » في حال الخصومة ، فهو ناقص عمن هو بخلاف هذه الصفة نزه

الشبيه على ما يصلح للجدال ودفع الخصم الألد بحسن البيان عند الخصومة ، فعلى هذا يلزمهم ان يكونوا باضافة البنات قد اضافوا ادنى الصفات اليه .

ثم قال تعالى « وجعلوا » يعني هؤلاء الكفار « الملائكة الذين هم عباد الرحمن » متذللون له خاضعون له . ومن قرأ بالنون اراد الذين هم مصطفون عند الله « إناثاً » فقال لهم على وجه الانكار « اشهدوا خلقهم » ثم قال « ستكتب شهادتهم » بذلك « ويسألون » عن صحتها . وفائدة الآية أن من شهد بما لا يعلم فهو حقيق بأن يوبخ ويذم على ذلك وشهادته بما هو متكذب به على الملائكة اعظم من الفاحشة ، للاقدام على تنقصهم في الصفة ، وإن كان في ذلك على جهالة .

ثم حكى عنهم إنهم قالوا « لو شاء الرحمن ما عبدناهم » كما قالت المجبرة بأن الله تعالى أراد كفرهم ، ولو لم يشأ ذلك لما كفروا ، فقال الله لهم على وجه التكذيب « مالهم بذلك من علم ان هم إلا يخرصون » أي ليس يعلمون صحة ما يقولونه وليس هم إلا كاذبين . ففي ذلك إبطال مذهب المجبرة في ان الله تعالى يريد القبيح من افعال العباد . لان الله تعالى قطع على كذبهم في ان الله تعالى يشأ عبادتهم للملائكة ، وذلك قبيح لا محالة وعند المجبرة الله تعالى شاءه . وقد نفاه تعالى عن نفسه وكذبهم في قولهم فيه .

قولــه تعــالى :

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا

آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿ قال اولو جئتكم ﴾ على انه فعل ماض ، وتقديره قال النذير . الباقون ﴿ قل ﴾ على الأمر على وجه الحكاية لما اوحى الله إلى النذير . قال كأنه قال اوحينا اليه أي فقلنا له ﴿ قل اولو جئتكم ﴾ وقرأ ابو جعفر ﴿ جئناكم ﴾ بالنون على وجه الجمع .

لما حكى الله تعالى تخرص من يضيف عبادة الاصنام والملائكة إلى مشيئة الله ، وبين انه لايشاء ذلك قال ﴿ أم آتيناهم كتاباً ﴾ والمعنى التقريع لهم على خطئهم بلفظ الاستفهام ، والتقدير أهذا الذي ذكروه شيء تخرصوه وافتروه ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ﴾؟! فاذا لم يمكنهم ادعاء ان الله أنزل بذلك كتاباً علم انه من تخرصهم ودل على حذف حرف الاستفهام (أم) لأنها المعادلة .

ثم قال ليس الامر على ما قالوه ﴿ بل قالوا ﴾ يعني الكفار ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : يعني على ملة وسميت الديانة أمة لاجتماع الجماعة على صفة واحدة فيها . وقرئ « على إمة » ـ بكسر الهمزة ـ والمراد به الطريقة ﴿ وانا على آثارهم ﴾ أي على آثار آبائنا ﴿ مهتدون ﴾ نهتدي بهداهم . ثم قال مثل ما قال هؤلاء في الحوالة على تقليد آبائهم في الكفر كذلك لم نرسل من قبلك في قرية وجمع من الناس نذيراً ـ لان (من) زيادة ـ ﴿ إلا قال

مترفوها ﴾ وهم الذين آثروا الترفة على طلب الحجة ، وهم المتنعمون الرؤساء ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ يعني على ملة ﴿ وانا على آثارهم مقتدون ﴾ نقتدي بهم فأحال الجميع على التقليد للاباء فحسب ، دون الحجة ، والتقليد قبيح بموجب العقل لأنه لو كان جائزاً للزم فيه أن يكون الحق في الشيء ونقيضه ، فيكون عابد الوثن يقلد أسلافه ، وكذلك يقلد اسلافه اليهودي والنصراني والمجوسي ، وكل فريق يعتقد أن الآخر على خطأ وضلال . وهذا باطل بلا خلاف ، فاذاً لابد من الرجوع إلى حجة عقل او كتاب منزل من قبل الله ، فقال الله تعالى للنذير ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ او لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ فهل تقبلونه ؟ وفي ذلك حسن التلطف في الاستدعاء إلى الحق ، وهو انه لو كان ما تدعونه حقاً وهدى على ما تدعونه ، لكان ما جئتكم به من الحق اهدى من ذلك واوجب ان يتبع ويرجع اليه ، لأن ذلك ، إذا سلموا أنه اهدى مما هم عليه بطل الرد والتكذيب ، وإذا بطل ذلك لزم اتباعه في ترك ماهم عليه .

ثم حكى ما قالوا في الجواب عن ذلك فانهم قالوا ﴿ انا بما أرسلتم به ﴾ معاشر الانبياء ﴿ كافرون ﴾ ثم اخبر تعالى فقال ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ بأن اهلكناهم وعجلنا عقوبتهم ﴿ فانظر ﴾ يا محمد ﴿ كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ لانبياء الله والجاحدين لرسله .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ

وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله واذكر يا محمد ﴿ إذ قال ابراهيم لأبيه وقومه ﴾ حين رآهم يعبدون الاصنام والكواكب ﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ أي بريء من عبادتكم الأصنام والكواكب فقوله (براء) مصدر وقع موقع الوصف ، لايثنى ولا يجمع ولا يؤنث . ثم استثنى من جملة ما كانوا يعبدونه الله تعالى فقال ﴿ إلا الذي فطرني ﴾ معناه اني بريء من كل معبود سوى الله تعالى الذي فطرني أي خلقني وابتدأني ، وتقديره إلا من الذي فطرني . وقال قتادة : كانوا يقولون الله ربنا مع عبادتهم الاوثان ﴿ فانه سيهدين ﴾ في ما بعد . والمعنى انه سيهديني إلى طريق الجنة بلطف من ألطافه يكون داعياً إلى ان أتمسك به حتى يؤديني اليها ، وإنما قال ذلك ثقة بالله تعالى ودعاء لقومه إلى ان يطلبوا الهداية من ربه . والتبري من كل معبود من دون الله واجب بحكم العقل ، كما يجب ذمهم على فعل القبيح لما في ذلك من الزجر عن القبيح والردع عن الظلم ، فكذلك يجب قبول قول من أخلص عبادة الله ، كما يجب مدحه على فعله .

وقوله ﴿ وجعلها كلمة باقية فى عقبه ﴾ معناه جعل هذه الكلمة التي قالها إبراهيم كلمة باقية فى عقبه بما اوصى به مما أظهره الله من قوله إجلالا له وتنزيهاً له ورفعاً لقدره بما كان منه من جلالة الطاعة والصبر على أمر الله . وقال قتادة ومجاهد والسدي : معنى قوله ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ قوله : لا إله إلا الله لم يزل فى ذريته من يقولها وقال ابن زيد : هو الاسلام بدلالة قوله ﴿ هو سماكم

المسلمين ﴾ (١) . وقال ابن عباس : فى عقبه من خلفه . وقال مجاهد : فى ولده وذريته . وقال السدي : فى آل محمد عليهم السلام . وقال الحسن : عقبه ولده إلى يوم القيامة . وقوله ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ قال الحسن : معناه راجع إلى قوم إبراهيم . وقال الفراء : معناه ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عما هم عليه إلى عبادة الله . وقال قتادة : معناه لعلهم يعترفون ويذكرون الله . وقال الله تعالى إنا لم نعاجل هؤلاء الكفار بالعقوبة ﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ﴾ يعني القرآن ﴿ ورسول مبين ﴾ أي مظهر للحق ، يعني محمداً صلى الله عليه وآله .

ثم قال تعالى ﴿ ولما جاءهم الحق ﴾ يعني القرآن ﴿ قالوا هذا سحر ﴾ وهو حيلة خفية توهم المعجزة ﴿ وإنا به ﴾ يعني بالقرآن ﴿ كافرون ﴾ أي جاحدون لكونه من قبل الله تعالى وإنما كان من نسب الحق والدين إلى السحر كافراً بالله ، لانه بمنزلة من عرف نعمة الله وجحدها فى عظيم الجرم ، فسمي باسمه ليدل على ذلك .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً

---

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٧٨

عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٣٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ﴿ سقفاً ﴾ على التوحيد - بفتح السين - الباقون ﴿ سقفاً ﴾ بضم السين والقاف - على الجمع - وقرأ حمزة والكسائي ﴿ لما متاع الحياة الدنيا ﴾ مشددة الميم . الباقون خفيفة . من شدد الميم جعل (لما) بمعنى (إلا) ومن خفف جعل (ما) صلة إلا ابن عامر فانه خفف وشدد . قال ابو علي : من خفف جعل (إن) المخففة من الثقيلة وأدخل اللام للفصل بين النفي والايجاب ، كقوله ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ (١) ومن نصب بها مخففة ، فقال إن زيداً منطلق استغنى عن اللام ، لأن النافية لا ينتصب بعدها الاسم ، و(ما) زائدة . والمعنى : وإن كل ذلك لمتاع الحياة .

حكى الله عن هؤلاء الكفار الذين حكى عنهم أنهم قالوا لما جاءهم الحق الذي هو القرآن ﴿ لولا نزل ﴾ إن كان حقاً ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾ يعني بالقريتين مكة والطائف ، ويعنون بالرجل العظيم من احد القريتين - في قول ابن عباس - الوليد ابن المغيرة المخزومي القرشي من أهل مكة ، أو حبيب بن عمرو ابن عمير من الطائف ، وهو الثقفي . وقال مجاهد : يعني بالذي من أهل مكة عقبة بن ربيعة ، والذي من اهل الطائف ابن عبد ياليل . وقال قتادة : الذى من أهل مكة يريدون الوليد ابن المغيرة ، والذى من اهل الطائف عروة بن مسعود الثقفي . وقال السدى : الذى من أهل الطائف كنانة بن عمرو . وإنما قالوا ذلك لأن الرجلين كانا عظيمي قومهما ، وذوى الأموال الجسيمة فيهما ، فدخلت الشبهة

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٠١

عليهم فاعتقدوا أن من كان كذلك كان أولى بالنبوة . وهذا غلط لان الله تعالى يقسم الرحمة بالنبوة كما يقسم الرزق في المعيشة على حسب ما يعلم من مصالح عباده فليس لأحد ان يتحكم في شيء من ذلك . فقال تعالى على وجه الانكار عليهم والتهجين لقولهم ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ أي ليس لهم ذلك بل ذلك اليه تعالى .

ثم قال تعالى ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ وقيل : الوجه في إختلاف الرزق بين الخلق في الضيق والسعة زيادة على ما فيه من المصلحة إن في ذلك تسخير بعض العباد لبعض باحواجهم اليهم ، لما في ذلك من الأحوال التي تدعو الى طلب الرّفعة وارتباط النعمة ولما فيه من الاعتبار بحال الغنى والحاجة ، وما فيه من صحة التكليف على المثوبة .

ثم قال تعالى ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ يعني رحمة الله ونعمه من الثواب في الجنة خير مما يجمعه هؤلاء الكفار من حطام الدنيا .

ثم اخبر تعالى عن هوان الدنيا عليه وقلة مقدارها عنده بأن قال ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ أي لولا انهم يصيرون كلهم كفاراً ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾ استحقاراً للدنيا وقلة مقدارها، لكن لا يفعل ذلك ، لانه يكون مفسدة . والله تعالى لا يفعل ما فيه مفسدة . ثم زاد على ذلك وكنا نجعل لبيوتهم على كون سقفهم من فضة معارج ، والسقف بالضم سقف مثل رهن ورهن . وقال مجاهد : كل شيء من السماء فهو سقف ، وكل شيء من البيوت فهو سقف بضمتين ، ومنه قوله ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾(١) قال الفراء قوله ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً ﴾ يحتمل أن تكون اللام

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٣٢

الثانية مؤكدة للاولى ، ويحتمل أن تكون الثانية بمعنى (على) كأنه قال لجعلنا لمن يكفر بالرحمن على بيوتهم سقفاً ، كما تقول : جعلنا الك لقومك العطاء أي جعلته لاجلك ﴿ ولبيوتهم ابواباً وسرراً ﴾ جمع سرير ﴿ عليها يتكؤن ﴾ من فضة ايضاً وحذف لدلالة الكلام عليها . وقوله ﴿ وزخرفاً ﴾ قال ابن عباس : هو الذهب . وبه قال الحسن وقتادة والضحاك . وقال ابن زيد :هو الفرش ومتاع البيت . والمزخرف المزين . وقال الحسن الزخرف المنقوش والسقف جمع سقوف كرهون ورهن . وقيل : هو جمع سقف ولا نظير له والأول أولى ، لانه على وزن زبور وزبر . والمعارج الدرج ـ في قول ابن عباس وقتادة ـ وهي المراقي قال جنـدب بن المثنى :

يا رب رب البيت ذي المعارج (١)

﴿ ومعارج ﴾ درجا ﴿ عليها يظهرون ﴾ أي يصعدون . وقال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي لولا ان يكون الناس أمة واحدة أي يجتمعون كلهم على الكفر . وقال ابن زيد : معناه يصيرون كلهم أمة واحدة على طلب الدنيا .

ثم قال ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ معناه ليس كل ذلك يعني ما ذكره من الذهب والفضة والزخرف إلا متاع الحياة الدنيا الذي ينتفع به قليلا ثم يفنى وينقطع .

ثم قال ﴿ والآخرة ﴾ أي العاقبة ﴿ عند ربك ﴾ الثواب الدائم ﴿ المتقين ﴾ الذين يتقون معاصيه ويفعلون طاعاته فصار كل عمل ما للدنيا صغير بالاضافة إلى ما يعمل للاخرة ، لأن ما يعمل للدنيا منقطع وما يعمل للآخرة دائم .

قولـه تعـالى :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ

(١) مجاز القرآن ٢ /٢٠٤

قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰٓ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلاخلاف

قرأ حمزة والكسائي وابو عمرو وحفص عن عاصم ﴿ جاءنا ﴾ بالتوحيد . الباقون ﴿ جاءانا ﴾ على التثنية . من قرأ على التثنية أراد الكافر وقرينه من الشياطين كقوله ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ (١) أي قرنت بنظيرها . ومن أفرد قال : لأن الكافر هو الذي أفرد بالخطاب في الدنيا وأقيمت عليه الحجة بانفاذ الرسول اليه فاجتزى بالواحد عن الاثنين ، كما قال ﴿ لينبذن في الحطمة ﴾ (٢) والمراد لينبذان يعني هو وما له . وقرأ يعقوب والعليمي ﴿ يقيض ﴾ بالياء على لفظ الخبر عن الغائب . الباقون بالنون على وجه الخبر عن الله تعالى .

يقول الله تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾ أي يعرض عن ذكر الله لا ظلامه عليه لجهله ، يقال : عشا يعشو عشواً وعشواً إذا ضعف بصره وأظلمت عينه كأن عليها غشاوة قال الشاعر :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره ... تجد حطباً جزلا وناراً تأججا (٣)

واذا ذهب بصره قيل : عشي يعشى عشاء ، ومنه رجل أعشى وامرأة

(١) سورة ٨١ كورت آية ٧ (٢) سورة ١٠٤ الهمزة آية ٤

(٣) تفسير الطبري ٢٥ | ٣٩ والكتاب لسيبويه ١ | ٣٩٦

عشواء ، فعشي يعشى مثل عمي يعمى ، وعشا يعشو إذا نظر نظراً ضعيفاً . وقرىء ﴿ من يعش ﴾ بفتح الشين . ومعناه يعمى يقال : عشا إلى النار إذا تنورها فقصدها وعشي عنها إذا أعرض قاصداً لغيرها كقولهم مال اليه ومال عنه . وقيل : معناه بالمين من يعرض عن ذكره . وقوله ﴿ نقيض له شيطاناً ﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال:

احدها ـ قال الحسن : نخلي بينه و بين الشيطان الذي يغويه و يدعوه الى الضلالة فلا نمنعه منه .

الثاني ـ وقيل : نجعل له شيطاناً قريناً ، يقال قيض له كذا و كذا أي سهل ويسر .

الثالث ـ قال قتادة : نقيض له شيطاناً في الآخرة يلزمه حتى يصير به إلى النار فحينئذ يتمنى البعد عنه . وأما المؤمن فيوكل به ملك فلا يفارقه حتى يصير به الى الجنة . وإنما جاز ان يقيض له الشيطان إذا أعرض عن ذكر الله حتى يغويه لأنه اذا كان ممن لا يفلح فلو لم يغوه الشيطان لفعل من قبل نفسه مثل ذلك كالفساد الذي يفعله باغواء الشيطان او أعظم منه فلم يمنع لطفاً ، وقيض له الشيطان عقاباً . وفي ذلك غاية التحذير عن الاعراض عن حجج الله وآياته .

ثم قال تعالى ﴿ وانهم ﴾ يعني الشياطين ﴿ ليصدونهم ﴾ يعني الكفار ﴿ عن السبيل ﴾ يعني عن سبيل الحق الذي هو الاسلام ﴿ ويحسبون انهم مهتدون ﴾ الى طريق الحق . وقوله ﴿ حتى اذا جاءانا ﴾ على التثنية أراد حتى اذا جاء الشيطان ومن أغواه يوم القيامة الى الموضع الذي يتولى الله حساب الخلق فيه وجزاءهم . ومن قرأ على التوحيد فالمراد حتى اذا جاء الكافر وعلم ما يستحقه من العقاب ضرورة قال ذلك الوقت لقرينه ﴿ ياليت بيني و بينك بعد المشرقين ﴾ قيل في معناه قولان :

احدها ـ أنه عنى المشرق والمغرب الا انه غلب احدهما ، كما قيل سنة العمرين

وقال الشاعر :

اخذنا بآفاق السماء عليكم   لنا قمراها والنجوم طوالع (١)

يعني الشمس والقمر ، وقال المفضل: أراد النبي محمد وابراهيم عليهما السلام وقال الآخر:

وبصرة الازد منا والعراق لنا   والموصلان ومنا مصر والحرم (٢)

يعني الموصل والجزيرة .

الثاني - انه أراد مشرق الشتاء ومشرق الصيف ، كما قال ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ (٣) وإنما اراد ﴿ ياليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ مسافة فلم أرك ولا اغتررت بك ﴿ فبئس القرين ﴾ كنت أنت ، يقول لهذا الشيطان الذي اغواه ، فقال الله تعالى ﴿ وان ينفعكم اليوم ﴾ هذا الندم ﴿ إذ ظلمتم ﴾ نفوسكم بارتكاب المعاصي ﴿ إنكم فى العذاب مشتركون ﴾ أي لانكم فى العذاب شركاء ، فلذلك لاينفعكم هذا القول . وقيل : إن المراد لا يسليكم عما أنتم فيه من انواع العذاب أن أعداءكم شركاؤكم فيها لأنه قد يتسلى الانسان عن محنة يحصل فيها اذا رأى ان عدوه فى مثلها فبين الله تعالى أن ذلك لا ينفعكم يوم القيامة ولا يسليكم عن العذاب ولا يخفف عنكم ذلك يوم القيامة .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ أفانت ﴾ يا محمد ﴿ تسمع الصم او تهدي العمي ﴾ شبه الكفار فى عدم انتفاعهم بما يسمعونه من إنذار النبي صلى الله عليه وآله ووعظه بالصم الذين لا يسمعون ، وفى عدم انتفاعهم بما يرونه بالعمي الذين لا يبصرون شيئاً ﴿ ومن كان فى ضلال ﴾ عن الحق ﴿ مبين ﴾ أي بين ظاهر لاشبهة فيه . ومن لايطلب الحق ولا يجتهد فيه لسبقه إلى الباطل وإغتباطه به ، فهو الذي يمتنع هدايته ولا حيلة

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٩١ والطبري ٢٥/ ٤٠ (٢) تفسير الطبري ٢٥/ ٤٠

(٣) سورة ٥٥ الرحمن آية ١٧

فيه ولا طريق إلى ارشاده وصار بمنزلة الأصم والاعمى عنه .

وقرأ ابن عامر وحده ﴿ ولن ينفعكم اليوم إنكم ﴾ بكسر الهمزة ، جعل تمام الآية والوقف على قوله ﴿ إذ ظلمتم ﴾ ثم استأنف ﴿ إنكم ﴾ وفتح الباقون ، جعلوا ﴿ أن ﴾ اسماً فى موضع رفع ،

قولـه تعـالى :

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٤٥) خمس آيات بلاخلاف

قوله ﴿ فاما نذهبن بك فانا منهم ﴾ معناه إن نذهب بك ، فلما دخلت (ما) على حرف الشرط اشبه القسم فى التأكيد والايذان بطلب التصديق ، فدخلت النون فى الكلام لذلك لأن النون تلزم فى جواب القسم ولا تلزم في الجزاء ، لأنه شبه به ، وإنما وجب باذهاب النبي إهلاك قومه من الكفار ، لأنه علامة اليأس من فلاح أحد منهم ، كما اسرى لوط بأهله ، وموسى بقومه وغيرهما من النبيين . وكأنه قال : فاما نذهبن بك على سنتنا فيمن قبلك فيكون إذهابه به إخراجه من بين الكفار . وقال قوم : إنما أراد إذهابه بالموت ، ويكون قوله ﴿ فانا منهم منتقمون ﴾ على هذا ما كان من نقم الله على أهل الكفر اكرم بها نبيه حيث أعلمه ما كان من النقمة فى أمته بعده ـ ذهب اليه

الحسن وقتادة ـ وهو الذي روي عن اهل البيت عليهم السلام ورووا أن التأويل :فانا بعلي منهم منتقمون ، وقال الأولون إن ذلك في المشركين ، وقووا ذلك بان الله ذكر ذلك عقيب ذكر المشركين، قالوا : وهو ما كان من نقم الله على المشركين يوم بدر بعد إخراج النبي من مكة وإنه استعلى عليهم واسر منهم مع قلة أصحابه وضعف عددهم وكثرة الكفار وشدة شوكتهم وكثرة عدتهم ، فقتلوهم كيف شاؤا واسروا من احبوا وكان ذلك مصداقاً لما قاله لهم . وقوله ﴿ او نرينك الذي وعدناهم فانا عليهم مقتدون ﴾ يعني ما أراهم بهم يوم بدر في ما قدمناه. وبين تعالى أنه على ذلك قادر وكان كما قال . ومن قال بالتأويل الأخير ، قال معنى ﴿ او نرينك ﴾ او نعلمنك ما وعدناهم وفعلنا بهم . ثم قال انبيه ﴿ فاستمسك بالذى أوحي اليك ﴾من إخلاص العبادة لله تعالى وإتباع أوامره والانتهاء عما نهى عنه ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ وصف الاسلام بانه صراط مستقيم لأنه يؤدي إلى الحق المطلوب حيث يستقيم بصاحبه حتى يوصله اليه .

وقوله ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ قيل في معناه قولان :

احدها ـ ان هذا القرآن شرف لك بما اعطاك الله ـ عز وجل ـ من الحكمة ولقومك بما عرضهم له من إدراك الحق به وانزاله على رجل منهم .

الثاني ـ انه حجة تؤدي إلى العلم لك ولكل أمتك . والاول اظهر . وقال الحسن : ولقومك لامتك. وقيل : إنه لذكر لك ولقومك يذكرون به الدين ويعلمونه وسوف تسألون عما يلزمكم من القيام بحقه والعمل به .

ثم قال انبيه صلى الله عليه وآله ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ قال قتادة والضحاك : سل من أرسلنا يعني أهل الكتابين التوراة والانجيل ، وقال ابن زيد : إنما يريد الانبياء الذين جمعوا ليلة الاسراء . وهو الظاهر ، لأن من قال بالأول

يحتاج ان يقدر فيه محذوفاً ، وتقديره وإرسال أمم من أرسلنا من قبلك . وقيل : المراد سلهم فانهم وإن كانوا كفاراً ، فان تواتر خبرهم تقوم به الحجة . وقيل : الخطاب وإن توجه إلى النبي صلى الله عليه وآله فالمراد به الأمة كأنه قال واسألوا من أرسلنا كما قال ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ (١) وقوله ﴿ اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ معناه سلوا من ذكرناه هل جعل الله في ما مضى معبوداً سواه يعبده قوم : من الاصنام او غيرها ، فانهم يقولون لكم إنا لم نأمرهم بذلك ولا تعبدناهم به .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلا خلاف .

هذا قسم من الله تعالى بأنه أرسل موسى بالآيات الباهرات والحجج الواضحات إلى فرعون واشراف قومه وخص الملاء بالذكر ، وان كان مرسلا إلى غيرهم ، لان من عداهم تبع لهؤلاء ، فقال موسى له ﴿ اني رسول من رب العالمين ﴾ الذي خلق الخلق أرسلني اليكم . ثم اخبر تعالى فقال ﴿ فلما جاءهم بآياتنا ﴾ يعني موسى جاء الى فرعون وملائه بالآيات والحجج ﴿ إذا هم منها ﴾ يعني من تلك

(١) سورة ٦٥ الطلاق آية ١

الآيات ﴿ يضحكون ﴾ جهلا منهم بما عليهم من ترك النظر فيها ، وما لهم من النفع بحصول علمهم بها . وفي الخبر عن ضحك أولئك الجهال عند ظهور الآيات زجر عن مثل حالهم ودعاء إلى العلم الذي ينافي الجهل . وفيه ايضاً أنه لا ينبغي ان يلتفت إلى تضاحك أمثالهم من الأدلة إذا كان الانسان على يقين من أمره . والانبياء كلهم يشتركون في الدعاء إلى الله باخلاص عبادته وطاعته في جميع مايأمر به او ينهى عنه ، ودعوتهم إلى محاسن الأفعال ومكارم الاخلاق وإن اختلفت شرائعهم وتباينت مللهم ونسخت بعضها بعضاً .

وقوله ﴿ وما نريهم من آية إلا هي اكبر من أختها ﴾ معناه إنه تعالى لايريهم يعني فرعون وقومه معجزة ولا دلالة إلا وهي اكبر من الاخرى عند إدراك الانسان لها لما يهوله من أمرها ، فيجد نفسه يقضي أنها اكبر كما يقول الانسان: هذه العلة التي نزلت بي اعظم من كل علة ، وهو يريد أن لها مزية اعظم منها لا انه ذهب هول الأولى بانصرافها وحكم الثانية بحضورها . وقال قوم : المعنى وما نريهم من آية إلا هي أهول في صدورهم من التي مضت قبلها .

ثم قال تعالى ﴿ واخذناهم بالعذاب ﴾ إذ عصوا فيها ، وكفروا بها ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ إلى طاعته وإنما جاز أخذهم بالعذاب ليرجعوا مع العلم بأنهم لا يرجعون لامكان أن يرجعوا اليه ، لأن كلما في المعلوم أنه لايقع لا يجوز أن يفعل العالم شيئاً من أجل انه سيقع ولكن يجوز أن يفعل شيئاً لامكان أن يقع والمعنى - ههنا - لعلهم يرجعون الى طريق الحق الذي ذهبوا عنه الى طريق الباطل .

ثم حكى تعالى ما قال فرعون وملاءه لموسى عند ذلك فانهم ﴿ قالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ﴾ وقال قوم : إنما قالوا له يا أيها الساحر لجهلهم بنبوته وصدقه واعتقادهم انه سحرهم بذلك . وقال قوم :

كان الساحر عندهم هو العالم ولم يكن صفة ذم . وقال الحسن : إنما قالوا ذلك على وجه الاستهزاء بموسى ، كما قال المشركون ﴿ يا ايها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ (١) وقال الزجاج : وجه ذلك انه جرى ذلك على ألسنتهم على عادتهم فيه قبل ذلك . وقال قوم : أرادوا يا أيها الفطن يا أيها العالم ، لأن السحر عندهم دقة النظر والعلم بالشيء كالسحر الحلال ، يقال فلان : يسحر بكلامه . وقال قوم : وخاطبوه بما تقدم تشبيهاً له بالساحر ، فقالوا له ﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ معناه أن يا موسى ادع لنا ربك ليكشف عنا العذاب ـ في قول مجاهد ـ فانه متى كشف عنا ذلك اهتدينا ورجعنا إلى الحق الذي يدعونا اليه . وفي الكلام حذف لأن تقديره فدعا موسى وسأل ربه وضرع اليه أن يكشف عنهم العذاب ، فكشف الله عنهم ذلك فاذا هم عند ذلك ينكثون . ومعناه ينقضون ما عقدوا على أنفسهم . وقال قتادة : معناه يغدرون ، وإنما أخبر الله تعالى وقص خبر موسى وما جرى له تسلية للنبي صلى الله عليه وآله والمعنى إن حال موسى مع قومه وحالك مع قومك سواء ، فاصبر إن أمرك يؤل إلى الاستعلاء ، كما آل أمر موسى عليه السلام .

قولـه تعـالى :

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ * وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٦

فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (٥٦) وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ (٦٠) .

عشر آيات كوفي وشامي . واحدى عشرة في ما عداه، عدوا ﴿مهين﴾ ولم يعده الكوفيون والشاميون .

قرأ حفص عن عاصم ﴿ اسورة ﴾ بغير ألف . الباقون ﴿ أساورة ﴾ بألف . وقرأ حمزة والكسائي وخلف « سلفاً » بضم السين واللام . الباقون بفتحهما . فمن قرأ بالضم فيهما أراد جمع سليف أي جمع قد مضى من الناس . ومن قرأ «أسورة» أراد جمع سوار . وقال أبو عبيدة : وقد يكون أسوار جمع أسورة . ومن قرأ « سلفاً » بضم السين واللام جعله جمع سليف . وقال ابو علي : ويجوز أن يكون جمع (سلف) مثل أسد واسد ، ووثن ووثن . ومن فتح فلأن (فعلا) جاء فى حروف يراد بها الكثرة ، فكأنه اسم من اسماء الجمع ، كقولهم خادم وخدم . والفتح اكثر . وقد روي - بضم السين - وقرأ الكسائي ونافع وابن عامر « يصدون » بضم الصاد بمعنى يعرضون أي يعدلون . الباقون - بفتح الياء وكسر الصاد - بمعنى يضجون .

وقيل : هما لغتان .

لما حكى الله تعالى عن قوم فرعون أنه حين كشف العذاب عنهم نكثوا عهدهم وعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، نادى فرعون في قومه الذين اتبعوه على دينه ، وقال لهم « يا قوم » على وجه التقرير لهم « أليس لي ملك مصر » أتصرف فيها كما أشاء لا يمنعني احد منه « وهذه الانهار » كالنيل وغيرها « تجري من تحتي » أي من تحت أمري . وقيل : إنها كانت تجري تحت قصره ، وهو مشرف عليها « أفلا تبصرون » أن ما ادعيه حق وأن ما يقوله موسى باطل . وقيل : قوله « من تحتي » معناه إن النيل كانت تجري منه أنهار تحت قصره . وقيل (من تحتي) من بين يديه لارتفاع سريره . ثم قال لهم فرعون « أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين » وقال قوم : معنى (أم) بل . فكأنه قال : بل أنا خير من موسى ، وقال قوم : مخرجها مخرج المنقطعة ، وفيها معنى المعادلة لقوله « افلا تبصرون » أم انتم بصراء ، لأنهم لو قالوا نعم لكان بمنزلة قولهم انت خير . والاصل فى المعادلة على أي الحالين أنتم على حال البصر أم على حال خلافه . ولا يجوز ان يكون المعنى على أي الحالين أنتم على حال البصر أم حال غيرها فى أني خير من هذا الذي هو مهين ، وإنما للمعادلة تفصيل ما أجمله . وقيل له ـ ههنا ـ بتقدير أنا خير من هذا الذي هو مهين أم هو إلا أنه ذكر بـ (أم) لاتصال الكلام بما قبله . وحكى الفراء (اما أنا) وهذا شاذ على انه جيد المعنى . والمهين الضعيف ـ في قول قتادة والسدي ـ وقيل : معناه فقير . وقيل يمتهن نفسه فى جميع ما يحتاج اليه ليس له من يكفيه ، ولا يكاد يبين . وقال الزجاج للثغة كانت فى لسانه . وقال قتادة : كانت فى لسانه آفة . وبه قال السدي . وقيل : إنه كان احترق لسانه بالجمر الذي وضعه فى فيه حين أراد أن يعتبر فرعون عقله لما لطم وجهه ، وأراد أن

يأخذ غير النار فصرف جبرائيل يده إلى النار ، فدفع عنه القتل ، وقال الحسن : كان في لسانه ثقل ، فنسبه إلى ما كان عليه أولا .

وقوله « فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب » معناه هلا إن كان صادقاً في نبوته طرح عليه أساورة من ذهب . فمن قرأ (أساورة) بألف أراد جمع أسورة وأسورة جمع سوار وهو الذي يلبس في اليد . وأما اسوار ، فهو الرامي الحاذق بالرمي ، ويقال أسوار - بالضم - ومن جعله جمع أسورة اراد أساوير . فجعل الهاء عوضاً عن الياء . مثل الزنادقة ، فلذلك صرفه ، لانه صار له نظير في الآحاد . ومثله في الجمع الزنادقة . والاسورة الرجل الرامي الحاذق بالرمي من رجال العجم .

وقوله « أوجاء معه الملائكة مقترنين » قال قتادة ومعناه متتابعين ، وقال السدي معناه يقارن بعضهم بعضاً . وقيل معناه متعاضدين متناصرين كل واحد مع صاحبه ممالياً له على أمره . وقال مجاهد : معناه مقترنين يمشون معه .

وقوله « فاستخف قومه » يعني فرعون استخف عقول قومه ، فأطاعوه في ما دعاهم اليه ، لانه احتج عليهم بما ليس بدليل ، وهو قوله « أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي » ولو عقلوا وفكروا لقالوا ليس في ملك الانسان مايدل على انه محق لكون ملوك كثيرة يخالفونك مبطلين عندك ، وليس يجب ان يأتي مع الرسل ملائكة ، لأن الذي يدل على صدق الجميع المعجز دون غيره .

ثم اخبر الله تعالى عنهم بأنهم كانوا قوماً فاسقين خارجين عن طاعة الله إلى معصيته . ثم قال « فلما اسفونا انتقمنا منهم » قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد : معنى اسفونا أغضبونا ، لأن الله تعالى يغضب على العصاة بمعنى يريد عقابهم ، ويرضى عن المطيعين بأن يريد ثوابهم بما يستحقونه من طاعاتهم ومعاصيهم كمايستحقون المدح والذم . وقيل الاسف هو الغيظ من المغتم إلا انه - ههنا - بمعنى

الغضب . ثم بين تعالى بماذا انتقم منهم ، فقال « فاغرقناهم اجمعين » ثم قال « فجعلناهم سلفاً ومثلا للاخرين » فالسلف المتقدم على غيره قبل مجيء وقته ، ومنه السلف في البيع . والسلف نقيض الخلف . ومن قرأ ـ بضم السين واللام ـ فهو جمع سليف من الناس ، وهو المتقدم أمام القوم . وقيل : معناه « جعلناهم سلفاً » متقدمين ليتعظ بهم الآخرون . وقال قتادة : جعلناهم سلفاً إلى النار ومثلا أي عظة للآخرين . والمثل بيان عن أن حال الثاني كحال الأول بما قد صار في الشهرة كالعلم ، فحال هؤلاء المشركين كحال من تقدم في الاشراك بما يقتضي أن يجروا مجراهم في الاهلاك إن اقاموا على الطغيان .

ثم قال الله تعالى « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون » قيل : المراد بذلك لما ضرب الله المسيح مثلا بآدم في قوله « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم » (١) اعترض على النبي صلى الله عليه وآله عن ذلك قوم من كفار قريش ، فانزل الله تعالى هذه الآية . ووجه الاحتجاج في شبه المسيح بآدم ان الذي قدر أن ينشيء آدم من غير ذكر قادر على إنشاء المسيح من غير ذكر ، فلا وجه لاستنكاره من هذا الوجه . وقيل : إنه لما ذكر المسيح بالبراءة من الفاحشة وانه كآدم في الخاصة ، قالوا : هذا يقتضي ان نعبده كما عبده النصارى . وقيل : انه لما نزل قوله « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » (٢) قالوا قد رضينا أن يكون آلهتنا مع المسيح . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال يوماً لعلي عليه السلام (لولا أني اخاف ان يقال فيك ما قالت النصارى في عيسى لقلت فيك قولا لا تمر بملاء إلا اخذوا التراب من تحت قدميك) انكر ذلك جماعة من المنافقين ، وقالوا : لم يرض

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٥٩ (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٨

ان يضرب له مثلا إلا بالمسيح ، فانزل الله الآية .

وقوله « يصدون » بكسر الصاد وضمها لغتان . وقد قرىء بهما مثل يشد ويشد وينم وينم من النميمة . وقيل : معنى يصدون - بكسر الصاد - يضجون أي يضجون سروراً منهم بأنهم عبدوا الأوثان كما عبد النصارى المسيح ومن ضمها أراد يعرضون .

ثم حكى عن الكفار انهم قالوا آلهتنا خير أم هو ؟ ! قال السدي : يعنون أم المسيح . وقال قتادة : يعنون أم محمد صلى الله عليه وآله وقيل : معنى سؤالهم آلهتنا خير ام هو ؟ انهم ألزموا مالا يلزم على ظن منهم وتوهم ، كأنهم قالوا : ومثلنا في ما نعبد مثل المسيح،فأيهما خير أعبادة آلهتنا أم عبادة المسيح ، على انه إن قال عبادة المسيح اقر بعبادة غير الله ، وكذلك إن قال عبادة الأوثان . وإن قال ليس فى عبادة المسيح خير ، قصر به عن المنزلة التي ليست لأحد من سائر العباد . وجوابهم عن ذلك إن اختصاص المسيح بضرب من التشريف والانعام عليه لا يوجب العبادة له كما لا يوجب ذلك انه قد أنعم على غيره النعمة . ووجه اتصال سؤالهم بما قبله انه معارضة لالهية الأوثان بالهية المسيح كمعارضة إنشاء المسيح عن غير ذكر بانشاء آدم عليه السلام من غير ذكر . ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ما ضربوه يعني المسيح مثلا « إلا جدلا » أي خصومة لك ودفعاً لك عن الحق ، لأن المجادلة لاتكون إلا وأحد المجادلين مبطلا . والمناظرة قد تكون بين المحقين ، لأنه قد يعارض ليظهر له الحق .

ثم قال تعالى « بل هم قوم خصمون » أي جدلون فى دفع الحق بالباطل .

ثم وصف المسيح عليه السلام فقال « إن هو الا عبد انعمنا عليه » أي ليس هو سوى عبد خلقناه وانعمنا عليه « وجعلناه مثلا لبني إسرائيل » قال السدي وقتادة : يعني موعظة وعبرة لهم يعتبرون به ويتعظون به . ثم قال « ولو نشاء لجعلنا منكم

ملائكة » أي بدلا منكم معاشر بني آدم ملائكة في الارض « يخلفون » بني آدم غير انه انشأ بني آدم لاسباغ النعمة عليهم . وقرأ قالون عن نافع « آلهتنا » بهمزة واحدة بعـدها مدة . الباقون بهمزتين على اصولهم ، غير انه لم يفصل احد بين الهمزتين بألف ، وانما حققهما اهل الكوفة وروح . ولين الباقون الثانية . وقال ابو عبد الله بن خالويه : هي ثلاث ألفات الأولى للتوبيخ والتقرير بلفظ الاستفهام والثانية الف الجمع والثالثة اصلية . والاصل « ءالهتنا » فصارت الهمزة الثانية مدة ثم دخلت الف الاستفهام .

قولـه تعـالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (٦٥) خمس آيات بلا خلاف .

الضمير في قوله « وانه لعلم للساعة » يحتمل أن يكون راجعاً إلى عيسى عليه السلام لأن ظهوره يعلم به مجيء الساعة ، لانه من أشراطها ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي وابن زيد . وقيل : إنه اذا نزل المسيح رفع التكليف

ائلا يكون رسولا الى اهل ذلك الزمان في ما يأمرهم به عن الله وينهاهم عنه . وقيل : انه عليه‌السلام يعود غير مكلف في دولة المهدي وإن كان التكليف باقياً على اهل ذلك الزمان . وقال قوم : إن الضمير يعود الى القرآن يعلمكم بقيامها ويخبركم عنها وعن احوالها . وهو قول الحسن ، والفائدة بالعلم بالساعة انه يجب التأهب لها من اجل انها تقوم للجزاء لا محالة ، وفي الشك فيها فتور في العمل لهـا ، ويجب لأجلها اجتناب القبائح التي يستحق بها الذم والعقاب واجتناء المحاسن التي يستحق بها المدح والثواب . وروي عن ابن عباس شاذاً أنه من ـ العلم ـ بفتح العين واللام بمعنى انه علامة ودلالة على الساعة وقربها .

ثم خاطب الأمة فقال « فلا تمترن بها » أي لا تشكن فيها . والمرية الشك ويدل على ان المراد به جميع الامة قوله « وأتبعوني هـــذا صراط مستقيم » أي ما أخبرتكم به من البعث والنشور والثواب والعقاب « صراط مستقيم » ثم نهاهم فقال « ولا يصدّنكم الشيطان » أي لا يمنعكم الشيطان عن اتباع الطريق المستقيم الذي بيّنه الذي يفضي بكم إلى الجنة ، ولا يعـدل بكم إلى الطريق المؤدي إلى النار « إنه لكم عدو مبين » فالعداوة طلب المكروه والمكيدة والايقاع في كل مهلكة من أجل العداوة التي في هلاك صاحبها شفاء لما في صدره منها .

ثم اخبر تعالى عن حال عيسى عليه‌السلام حين بعثـه الله نبياً فقال « ولما جاء عيسى بالبينـات » يعني بالمعجزات . قال قتادة يعني بالانجيل « قال » لهم « قـد جئتكم بالحكمة » أي بالذي من عمل به من العباد نجا ومن خالفه هلك . وقوله تعالى « ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه » . قال مجاهد : يعني من احكام التوراة وقال قوم : تقديره قد جئتكم بالانجيل ، وبالبينات التي يعجز عنها الخلق . والذي جاء به عيسى هو بعض ما اختلفوا فيه ، وبين لهم فيه . وقال قوم : البعض يراد به

ـ ههنا ـ الكل كأنه قال : ولأبين لكم جميع ماتختلفون فيه . وقيل أراد به من أمر دينكم دون أمر دنياكم . والاختلاف اصل كل عداوة . والوفاق أصل كل ولاية لأن الخلاف يوجب البغضة ، ثم يقوى بالكثرة حتى يصير عداوة. ثم قال لهم يعني عيسى عليه السلام « فاتقوا الله » بأن تجتنبوا معاصيه وتفعلوا طاعاته « واطيعون » في ما أدعوكم اليه من العمل بطاعة الله . ثم قال لهم ايضاً « إن الله » الذي تحق له العبادة « هو ربي وربكم فاعبدوه » خالصاً ولا تشركوا به معبوداً آخر . ثم قال « هذا صراط مستقيم » يفضي بكم إلى الجنة وثواب الله .

وقوله « فاختلف الاحزاب من بينهم » قال السدي يعني اليهود والنصارى . وقال قتادة : يعني الفرق الذين تحزبوا في أمر عيسى عليه السلام فقال الله تعالى « فويل للذين ظلموا » نفوسهم بارتكاب معاصي الله « من عذاب يوم اليم » وهو يوم القيامة .

قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (٦٦) أَلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَاعِبَادِ لاَخَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) أَلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) أُدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (٧٠) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخاطباً لخلقه وموبخاً لهم « هل ينظرون » أي هؤلاء الكفار ، ومعناه هل ينتظرون « إلا الساعة » يعني القيامة . وقيل : معناه هل ينتظر بهم لأنهم لم يكونوا ينتظرونها ، فاضاف اليهم مجازاً . وقيل سميت القيامة الساعة لقرب أمرها ، كأنها تكون في ساعة . ثم يحصل اهل الجنة في الجنة واهل

النار في النار ، وقيل : سميت بذلك لانها ابتداء أوقات الآخرة ، فهي ابتداء تجديد الساعات.

وقوله « بغتة » أي فجأة ، وإنما كانت الساعة بغتة مع تقديم الانذار بها ، لانهم مع الانذار لا يدرون وقت مجيئها ، كما لا يدري الانسان وقت الرعد والزلازل ، فتأتي بغتة وإن علم انها تكون .

ثم قال تعالى « الأخلاء » وهو جمع خليل « يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » يعني من كانت خلته في دار الدنيا في غير طاعة الله بل كانت في معصية الله ، فان تلك الخلة تنقلب عليه عداوة ، لان صاحبها يتبين فساد تلك الخلة يوم القيامة وإنما كان كذلك ، لان كل واحد من المتخالين في غير طاعة الله يزين لصاحبه خلاف الحق ويدعوه إلى ما يوبقه ويورثه سوء العاقبة بدل ما كان يلزمه من النصيحة له في الدعاء إلى ترك القبيح وفعل الحسن ثم استثنى من جملة الأخلاء الذين اخبر عنهم أنهم يصيرون اعداءاً « المتقين » لأن من كانت مخالته في طاعة الله وعلى ما أمر الله به فانها تتأكد ذلك اليوم ولا تنقلب عداوة .

ثم اخبر تعالى بما يقال المؤمنين المطيعين من عباده فانه يناديهم فيقول لهم « يا عبادي »وخصهم بأنهم عباده من حيث أطاعوه واجتنبوا معاصيه « لاخوف عليكم اليوم » من العقاب « ولا انتم تحزنون » من فوت الثواب . ثم وصف عباده وميزهم من غيرهم فقال « الذين آمنوا بآياتنا » يعني الذين صدقوا بحجج الله فاتبعوها « وكانوا مسلمين » أي مستسلمين لما امرهم الله به منقادين له .

ثم بين انه يقال لهم « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم » اللاتي كن مؤمنات « تحبرون » أي تسرون فيها ، والحبور السرور الذي يظهر في بشرة الوجه اثره ، وحبرته حسنة بما يظهر أثر السرور به . وقال قتادة وابن زيد : معنى « تحبرون »

تنعمون. قال السدي: معناه تكرمون، والمراد بالأزواج من كان مستحقاً للثواب ودخل الجنة. وقيل: المراد بالأزواج اللاتي يزوجهم الله بهن من الحور العين في الجنة.

قولــه تعــالى:

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (٧٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم «ما تشتهيه» الانفس بـ(هاء). الباقون «تشتهي» بلاهاء. وحذف الهاء من الصلة إذا كانت المفعول حسن، كقوله تعالى «أهذا الذي بعث الله رسولا» (١) ومن أثبتها، فلأنه الأصل.

لما استثنى الله تعالى المتقين من جملة الاخلاء الذين تنقلب خلتهم عداوة وأن خلتهم باقية وأنه يقال لهم ولأزواجهم إدخلوا الجنة محبورين، اخبر بما لهم فيها من انواع اللذات، فقال «يطاف عليهم بصحاف من ذهب واكواب» وتقديره تنقل ألوان الطعام اليهم في صحاف الذهب. ثم يؤتون باكواب الشراب على جهة الاستمتاع في جميع تلك الأحوال. والصحاف الجامات التي يؤكل فيها الوان

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٤١

الأطعمة واحدها صحفة . والذي يطوف بذلك الوصف أو الوصايف من الحور العين الذين يخلقهم الله فى الجنة واكتفى بذكر الصحاف والاكواب عن ذكر الطعام والشراب. وواحد الاكواب كوب وهو إناء على صورة الابريق لا أذن له ولا خرطوم قال الأعشى :

صليفية طيبا طعمها ... لها زبد بين كوب ودنّ

وهو كالكأس للشراب . وقال السدي : الصحاف القصاع .

وقوله تعالى « وفيها » يعني فى الجنة « ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين » وإنما اضاف الالتذاذ إلى الاعين وهو للسان لأن المناظر الحسنة سبب من اسباب اللذة ، فاضافتها إلى هذه الجهة احسن وأبلغ لما فيه من البيان مع الايجاز ، لأنه الموضع الذى يلتذ الانسان به عند رؤيته بعينه .

ثم قال « وانتم فيها » يعني فى الجنة وفي هـــذه الأنواع من اللذات « خالدون » أى مؤبدون . وقوله « وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون» قال الحسن : ورّث الله تعالى الذين اطاعوه وقبلوا امره ونهيه منازل الذين عصوه ولم يقبلوا أمره ونهيه . ويجوز ان يكون المراد لما كانت الجنة جزاء على أعمالهم التي عملوها وعقيب ذلك عبر عن ذلك بأنهم أورثوها . ثم بين مالهم في الجنه ايضاً فقال « لكم » معاشر المتقين « فيها » يعني في الجنة « فاكهة كثيرة » أى ثمار عظيمة « منها تأكلون » .

ثم اخبر تعالى عن حال أهل النار والعصاة فقال « إن المجرمين » يعني الذين عصوا الله « في عذاب جهنم » وعقابها « خالدون » أى دائمون « لا يفتر عنهم العذاب » واصل الفتور ضعف الحرارة «وهم فيه » يعني في العذاب «مبلسون» أى يائسون من رحمة الله وفرجه ـ وهو قول قتادة ـ والابلاس اليأس من الرحمة

من شدة الحيرة ، يقال أبلس فلان إذا تحير عند انقطاع الحجة .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ ٱلظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (٨٠) خمس آيات بلاخلاف .

لما بين الله تعالى ما يفعله بالفساق والمجرمين من انواع العذاب بين انه لم يظلمهم بذلك لانه تعالى غني عن ظلمهم عالم بقبح الظلم ، ومن كان كذلك لا يفعل القبيح ، والظلم قبيح . وبين انهم هم الذين ظلموا أنفسهم بارتكابهم المعاصي وفعل القبائح . ثم حكى تعالى ما ينادي به هؤلاء العصاة في حال العذاب ، فانهم ينادون مالكاً خازن النار فيقولون ﴿ يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ أى ليميتنا حتى نتلخص من العذاب ، فيقول مالك مجيباً لهم ﴿ إنكم ما كثون ﴾ أى لابثون فيها . وقال ابن عباس والسدي : إنما يجيبهم مالك خازن جهنم بذلك بعد الف سنة ، وقال عبد الله بن عمر : بعد أربعين سنة . وقال نوف : بعد مئة عام .

ثم اخبر تعالى إنه جاء الخلق بالحق في ما أخبر به من حال اهل الجنة واهل النار . ولكن اكثركم معاشر الخلق كارهون للحق . وإنما لا يكره ذلك المؤمنون منكم .

ثم قال ﴿ أم ابرموا أمراً فانا مبرمون ﴾ أي اجمعوا على التكذيب أي عزموا عليه فانا مجمعون على الجزاء لهم بالتعذيب ـ وهو قول قتادة ـ ويكون ذلك على وجه الأزدواج ، لان العزم لا يجوز عليه تعالى، ومثله ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾(١) وقيل : معناه أم احكموا أمراً في المخالفة ، فانا محكمون أمراً في المجازاة .

ثم قال ﴿ ام يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ أي يظن هؤلاء الكفار انا لا نسمع سرهم ونجواهم أي ما يخفونه بينهم وما يعلنونه . ثم قال تعالى ﴿بلى﴾ نسمع ذلك وندركه ومع ذلك ﴿ رسلنا لديهم يكتبون ﴾ قال السدي وقتادة : معناه إن رسلنا الذين هم الحفظة لديهم يكتبون ما يفعلونه ويقولونه .

وقد روي إن سبب نزول هذه الآية ما هو معروف في الكتب لا نطول بذكره

قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٨٥) خمس آيات بلا خلاف .

قيل في معنى قوله ﴿ قل إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ اقوال :

احدها ـ فانا أول الآنفين من عبادته ، لأن من كان له ولد لا يكون إلا

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠

جسماً محدثاً ومن كان كذلك لا يستحق العبادة ، لأنه لا يقدر على النعم التي يستحق بها العبادة تقول :العرب عبدت فصمت قال الفرزدق :

واعبد ان يهجى كليب بدارم (١)

وقال آخر :

ألا هذيت أم الوليد واصبحت لما أبصرت في الرأس مني تعبد (٢)

الثاني - ما قاله ابن زيد وابن أسلم وقتادة : إن (ان) بمعنى (ما) وتقديره ما كان للرحمن ولد فأنا اول العابدين لله .

الثالث - هو انه لو كان له ولد لعبدته على ذلك كما تقول لو دعت الحكمة إلى عبادة غير الله لعبدته لكنها لا تدعوا إلى عبادة غيره ، وكما تقول : لو دل الدليل على أن له ولداً لقلت به ، لكنه لا يدل ، فهذا تحقيق نفي الولد لانه تعليق محال بمحال .

الرابع - قال السدي : لو كان له ولد لكنت اول من عبده بأن له ولداً ، لكن لا ولد . وهذا قريب من الوجه (الثالث) .

الخامس - إن كان لله ولد على قولكم ، فأنا أول من وحده وعبده على ان لا ولد له - ذهب اليه مجاهد - وإنما لم يجز على الله تعالى الولد لانه لا يخلو من ان يضاف اليه الولد حقيقة او مجازاً ، وحقيقته أن يكون مخلوقاً من مائه او مولوداً على فراشه ، وذلك مستحيل عليه تعالى . ومجازه أن يضاف اليه على وجه التبني وإنما يجوز فيمن يجوز عليه حقيقته ، ألا ترى انه لا يقال تبنى شاب شيخاً لما لم يمكن أن يكون له ولد حقيقة ، وانما جاز ان يضاف إلى شيخ شاب على انه تبناه لما

(١) القرطبي ١٦ / ٢٢٠ والشوكاني ٤ \ ٥٥٠

(٢) تفسير الطبرى ٢٥ / ٥٥

كان حقيقته مقدورة فيه ، وكذلك لا يقال تبنى انسان بهيمة لما كان يستحيل أن يكون مخلوقاً من مائه او على فراشه ، فلما استحال حقيقته على الله تعالى استحال عليه مجازه ايضاً . وإنما جاز أن يقال روح الله ، ولم يجز ان يقال ولد الله لأن روح الله بمعنى ملك الله الروح ، وإنما اضيف اليه تشريفاً . وإن كانت الارواح كلها لله بمعنى انه مالك لها . ولا يعرف مثل ذلك فى الولد . ثم نزه نفسه تعالى عن اتخاذ الولد فقال ﴿ سبحان رب السموات والأرض ﴾ يعني الذي خلقهن ﴿ رب العرش ﴾ أي خالقه ومدبره ﴿ عما يصفون ﴾ من اتخاذ الولد ، لأن من قدر على خلق ذلك وإنشائه مستغن عن اتخاذ الولد .

ثم قال لنبيه ﷺ على وجه التهديد للكفار ﴿ فذرهم ﴾ أي اتركهم ﴿ يخوضوا ﴾ فى الباطل ﴿ ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذين يوعدون ﴾ بمعنى يوعدون فيه بالعذاب الأبدي . وقال تعالى ﴿ وهو الذي فى السماء إله ﴾ أي يحق له العبادة فى السماء ويحق له العبادة فى الأرض ، وإنما كرر لفظة إله فى قوله ﴿ وفي الأرض إله ﴾ لأحد امرين :

احدها – للتأكيد ليتمكن المعنى فى النفس لعظمه فى باب الحق .

الثاني – إن المعنى هو فى السماء إله ، يجب على الملائكة عبادته ، وفي الأرض اله يجب على الآدميين عبادته ﴿ وهو الحكيم ﴾ في جميع افعاله ﴿ العليم ﴾ بجميع المعلومات ﴿ وتبارك ﴾ وهو مأخوذ من البرك وهو الثبوت ، ومعناه جل الثابت الذي لم يزل ولا يزال . وقيل : معناه جل الذي عمت بركة ذكره ﴿ الذي له ملك السموات والارض ﴾ أي الذى له التصرف فيهما بلا دافع ولا منازع ﴿ وما بينهما وعنده علم الساعة ﴾ يعني علم يوم القيامة ، لانه لا يعلم وقته على التعيين غيره ﴿ واليه ترجعون ﴾ يوم القيامة فيجازي كلا على قدر عمله .

فمن قرأ بالتاء خاطب الخلق . ومن قرأ بالياء ردّ الكناية إلى الكفار الذين تقدم ذكرهم .

قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٩) أربع آيات بلاخلاف

قرأ عاصم وحمزة ﴿ وقيله ﴾ بكسر اللام على تقدير وعنده علم الساعة وعلم قيله . والباقون بالنصب . وقال الاخفش : رداً على قوله ﴿ أم يحسبوا أنا لا نسمع سرهم .... وقيله ﴾ وهو نصب على المصدر . وقال قوم : معناه أم يحسبون انا لا نسمع سرهم ولعلهم وقيله ، لأنه لما قال ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ كان تقديره ويعلم قيله . وقرأ قتادة ﴿ وقيله ﴾ بالرفع جعله ابتداء .

يقول الله تعالى مخبراً إن الذي يدعونه الكفار إلهاً ويوجهون عبادتهم اليه من الأصنام والاوثان وغيرها لا يملكون من دون الله الشفاعة . وهي مسألة الطالب العفو عن غيره وإسقاط الضرر عنه ، لأن حقيقة الشفاعة ذلك . وعند قوم يدخل فيها المسألة في زيادة المنافع . ثم استثنى من جملتهم من شهد بالحق وهم عالمون بذلك وهم الملائكة وعيسى وعزير . وقيل : المعنى ولا يشفع الملائكة وعيسى وعزير الامن شهد بالحق ، وهو يعلم الحق ـ ذكره مجاهد ـ وقال قوم ﴿ الامن شهد بالحق ﴾ الملائكة وعيسى وعزير لهم عند الله شهادة بالحق . وقيل : المعنى إلا من يشهد بأنه

أهل العفو عنه ﴿ وهم يعلمون ﴾ ذلك . وهؤلاء أصحاب الصغائر والذين تابوا من الكبائر .

ثم قال تعالى و ﴿ لئن سألتهم ﴾ يامحمد يعني هؤلاء الكفار ﴿ من خلقهم ﴾ وأخرجهم من العدم إلى الوجود ﴿ ليقولن الله ﴾ لانهم يعلمون ضرورة أن الاصنام لم تخلقهم . فقال الله تعالى معنفاً لهم ﴿ فأني يؤفكون ﴾ مع علمهم بأن الله هو خالقهم ، فكيف ينقلبون عن عبادته الى عبادة غيره .

وقوله ﴿ وقيله يا رب ﴾ من نصبه احتمل ان يكون بقوله ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ وقال ﴿ قيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ على وجه الانكار عليهم . وقيل : المعنى أم يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم .... وقيله . وقال الزجاج : الاختيار ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ ويعلم ﴿ قيله ﴾ ومن جر فعلى تقدير وعنده علم الساعة وعلم قيله يا رب . وقيل : معنى ﴿ وقيله ﴾ أنه شكا محمد صلى الله عليه وآله شكوة إلى ربه . ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ فاصفح عنهم ﴾ أي اعف عنهم . قال قتادة : وكان ذلك قبل أمره إياه بقتالهم ﴿ وقل سلام ﴾ رفع على تقديره وهو عليكم سلام أي ما سلم به من شرهم وأذاهم . وقال الحسن : يعني ﴿ وقل سلام ﴾ احلم عنهم ثم هددهم فقال ﴿ فسوف تعلمون ﴾ بالتاء على وجه الخطاب . الباقون بالياء على الخبر عن الكفار الذين مضى ذكرهم .

٤٤ ـ سورة الدخان

وهي مكية في قول قتادة ومجاهد وهي تسع وخمسون آية في الكوفي وسبع في البصري وست في المدنيين والشامي وسنذكر اختلافهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦) .

ست آيات في الكوفي وخمس في الباقين .

قد بينا معنى ﴿حم﴾ في ما مضى وإختلاف الناس فيه وان أقوى الوجوه انه اسم للسورة . وإنما كرر ذكر (حم) لانه ينبيء عن استفتاح السورة بذكر الكتاب على وجه التعظيم إذ على ذلك جميع الحواميم ، فهو اسم علم للسورة مضمن بمعنى الصفة من وجهين :

احدهما ـ انها من الحروف العربية. والآخر أنه استفتحت بذكر الكتاب على طريق المدحة .

وقوله ﴿ والكتاب المبين ﴾ فالمراد بالكتاب القرآن ، وجره بأنه قسم . وقال قوم : تقديره ورب الكتاب المبين ، وإنما أقسم به لينبيء عن تعظيمه . لان القسم يؤكد الخبر بذكر المعظم منعقداً بما يوجب أنه حق كما أن تعظيمه حق . وإنما وصف بأنه مبين وهو بيان مبالغة في وصفه بأنه بمنزلة الناطق بالحكم الذي فيه من غير أن يحتاج إلى استخراج الحكم من مبين غيره ، لأنه يكون من البيان ما لا يقوم بنفسه دون مبين حتى يظهر المعنى فيه .

وقوله ﴿ إنا انزلناه في ليلة مباركة ﴾ إخبار منه تعالى أنه انزل القرآن في الليلة المباركة ، وهي ليلة القدر - في قول قتادة وابن زيد - وقال قوم : هي ليلة النصف من شعبان . والأول أصح لقوله تعالى ﴿ شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن ﴾ (١) وقيل هي في كل شهر رمضان فيها تقسم الآجال والأرزاق وغيرها من الألطاف - في قول الحسن - وقيل : انزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر . ثم انزل نجوماً على النبي صلى الله عليه وآله وقيل ينزل في ليلة القدر قدر ما يحتاج اليه في تلك السنة . وقيل المعنى إن ابتداء انزاله في ليلة مباركة ، ووصفها بأنها مباركة لان فيها يقسم الله تعالى نعمه على عباده من السنة إلى السنة . والبركة نماء الخير ، وضده الشؤم وهو نماء الشر ، فالليلة التي انزل فيها كتاب الله مباركة ، فان الخير ينمى فيها على ما دبره الله لها من علو الخير الذي قسمه فيها .

وقوله ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ فالانذار الاعلام بموضع الخوف ليتقى وموضع الأمن ليرتجى ، فالله تعالى قد انذر العباد بأتم الانذار من طريق العقل والسمع وقوله ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ فحكيم - ههنا - بمعنى محكم ، وهو ما بيناه من انه تعالى يقسم في هذه الليلة الآجال والارزاق وغيرها .

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٨٥

وقوله ﴿ امراً من عندنا ﴾ يحتمل أن يكون نصباً على الحال، وتقديره انزلناه آمرين . ويحتمل أن يكون على المصدر وتقديره يفرق كل أمر فرقاً ، ووضع امراً موضعه .

وقوله ﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ اخبار منه تعالى انه يرسل الرسل ﴿ رحمة ﴾ أي نعمة . ونصبه على المصدر واختار الأخفش النصب على الحال أي انزلناه آمرين راحمين . ويجوز ان يكون نصباً على انه مفعول له أي انزلناه للرحمة . وسميت النعمة رحمة ، لانها بمنزلة ما يبعث على فعله رقة القلب على صاحبه ومع داعي الحكمة إلى الاحسان اليه يؤكد أمره .

وقوله ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ معناه إنه يسمع ما يقوله خلقه من المبطلين والمحقين فيجيب كلا منهم على ما يعلمه من مصلحته من إرساله الرسل اليه وإنعامه عليه

قوله تعالى :

﴿ رَبِّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١١) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا حفصاً ﴿ رب السموات ﴾ خفضاً بدلا من قوله ﴿ رحمة من ربك ... رب السموات ﴾ الباقون بالرفع على الاستئناف . ويجوز أن يكون

خبر (إن) في قوله ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ .

لما ذكر الله تعالى أنه - جل وعز - السميع العليم ، وصف نفسه ايضاً بأنه الذي خلق السموات والأرض ودبرها ، ودبر ما فيهما ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ بهذا الخبر محققين له . وقيل : إن وجه الاحتجاج بذكر رب السموات والارض - ههنا - أن الذي دبرهما على ما فيه مصالح العباد هو الذي دبر الخلق بارسال الرسول رحمة منه بعباده على ما فيه مصالحهم . ومعنى ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي إن كنتم ممن يطلب اليقين ، فهذا طريق اليقين يلج الصدور بالعلم ، وهو حال يجده الانسان من نفسه عند التعقل . ولهذا يقال : من وجد برد اليقين كان من المتقين . ولذلك لا يوصف الله تعالى باليقين وإن وصف بأنه عالم وعليم .

ثم بين تعالى انه لا أحد يستحق العبادة سواه بقوله ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وانه ﴿ يحيي ﴾ الخلق بعد موتهم ﴿ ويميت ﴾ أي ويميتهم بعد احيائهم ﴿ ربكم ﴾ الذى خلقكم ودبركم ﴿ ورب آبائكم ﴾ الذى خلقهم ، دبرهم ﴿ الأولين ﴾ الذين سبقوكم وتقدموكم .

ثم اخبر تعالى عن الكفار فقال ليس هؤلاء بموقنين بما قلناه ﴿ بل هم في شك ﴾ يعني بما أخبرناك به ووصفنا الله تعالى به ﴿ يلعبون ﴾ مع ذلك ويسخرون .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ فارتقب ﴾ قال قتادة : فانتظر ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ والدخان الظلمة التي كانت تغشى أبصار المشركين من قريش لشدة الجوع وحين دعا عليهم النبي صلى الله عليه وآله ، فقال (اللهم سنين كسنين يوسف) - فى قول ابن مسعود والضحاك - وقال ابن عباس والحسن وهو المروي عن النبي صلى الله عليه وآله إن الدخان آية من اشراط الساعة تدخل فى مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالراس الحنيذ ونصيب المؤمن منه مثل الزكمة . و ﴿ يغشى الناس ﴾ يعني الدخان يغشى

الناس . ثم حكى تعالى بأن هؤلاء الكفار يقولون عند ذلك ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أي مؤلم موجع . والغشى اللباس الذي يغمر الشيء ، لأن الانسان قد يلبس الازار ولا يغشيه . فاذا غمه كان قد غشاه . والغاشية من الناس الجماعة يغشون ، وغاشية السرج من ذلك ، ومنه قوله ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ (١) والعذاب استمرار الألم ووصفه بـ (أليم) مبالغة في سببه ، لأجل استمراره وصار بالعرف عبارة عن العقاب ، لان الألم الذي يفعل للعوض والاعتبار ، كأنه لا يعتد به لما يؤل اليه من النفع .

قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (١٦) خمس آيات بلا خلاف .

لما اخبر الله تعالى أن الدخان يغشى الناس عذاباً لهم وعقاباً للكفار ، وحكى أنهم يقولون هذا عذاب أليم ، حكى ايضاً انهم يقولون ويدعون ﴿ ربنا اصرف عنا العذاب ﴾ الذي أنزلته من الدخان ﴿ إنا موقنون ﴾ بأنه لا إله غيرك ، وأن لا يستحق العبادة سواك . فقال تعالى ﴿ أني لهم الذكرى ﴾ قال ابن عباس معناه (كيف) ؟ وقال غيره معناه من أين لهم الذكرى ﴿ وقد جاءهم رسول مبين ﴾ وحثهم على ذلك فلم يقبلوا منه ، وهذا زمان سقوط التكليف لكونهم ملجئين

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٥٣ وسورة ١٣ الرعد آية ٣

فلاتقبل لهم توبة .

وقوله ﴿ ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴾ قال مجاهد : المعنى ثم تولوا عن محمد ﷺ وقالوا هو معلم يعلمه غيره ، ونسبوه إلى الجنون ، وأنه مجنون . ثم قال تعالى ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلا ﴾ على وجه التبكيت لهم على شدة عنادهم إنا لو كشفنا عنكم العذاب ورفعناه عنكم ﴿ إنكم عائدون ﴾ فمن قال إن العذاب بالدخان عند رفع التكليف قال ﴿ إنكم عائدون ﴾ فى العذاب ، وهو قول قتادة ومن ذهب إلى انه فى الدنيا مع بقاء التكليف ، قال معناه ﴿ انكم عائدون ﴾ في الضلال . وهو قول جماعة .

وقوله ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ فالبطش الأخذ بشدة وقع الألم ، بطش به يبطش بطشاً ، ومثله عرش يعرش ويعرش ، وهو باطش ، واكثر ما يكون بوقوع الضرب المتتابع ، فأجري افراغ الألم المتتابع مجراه و (البطشة الكبرى) قال ابن مسعود ومجاهد وابو العالية ، وروى عن ابن عباس وابي بن كعب والضحاك وابن زيد : هو ما جرى عليهم يوم بدر ـ وفي رواية أخرى عن ابن عباس والحسن انه يوم القيامة ، وهو اختيار الجبائي .

وقوله ﴿ إنا منتقمون ﴾ اخبار منه تعالى أنه ينتقم من هؤلاء الكفار بانزال العقوبة بهم ، وقد فرق قوم بين النقمة والعقوبة : بأن النقمة ضد النعمة ، والعقوبة ضد المثوبة ، فهي مضمنة بأنها بعد المعصية فى الصفة ، وليس كذلك النقمة وإنما تدل الحكمة على انها لا تقع من الحكيم إلا لأجل المعصية .

قولـه تعـالى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧)

أنْ أدُّوا إلَيَّ عِبَادَ ٱللهِ إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أمِينٌ (١٨) وَأنْ لَا تَعْلُوا عَلَى ٱللهِ إنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ (٢١) خمس آيات بلا خلاف .

أقسم تعالى انه فتن قبلهم يعني قبل كفار قوم النبي ﷺ ﴿ قوم فرعون ﴾ أي اختبرناهم ، وشددنا عليهم بأن كلفناهم ، لأن الفتنة شدة التعبد في الأخذ بالسراء والضراء ، وأصلها الاحراق بالنار لخلاص الذهب من الغش ، فهذه الشدة كشدة الاحراق للخلاص . وقيل : الفتنة معاملة المختبر ليجازى بما يظهر دون ما يعلم مما لم يعلم ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ أي حقيق بالتكرم في الدعاء إلى الله والبرهان الواضح والدليل القاهر حتى يسلكوا طريق الهدى المؤدي إلى ثواب الجنة ويعدلوا عن طريق الردى المؤدي إلى العقاب . وقيل : معناه كريم عند الله بما استحق بطاعته من الاكرام والاجلال .

وقوله ﴿ أن ادوا إلي عباد الله ﴾ قال الحسن : هو مثل قوله ﴿ إن ارسل معنا بني إسرائيل ﴾ (١) فـ ﴿ عباد الله ﴾ منصوب بـ ﴿ أدوا ﴾ وقيل : هو منصوب على النداء . أي يا عباد الله أدوا ما أمركم به ، في قول الفراء ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ على ما اؤديه اليكم وادعوكم اليه . ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ قال ابن عباس : معناه أن لا تطغوا عليه بافتراء الكذب عليه . وقال قتادة : معناه ان لا تبغوا عليه بكفر نعمه . وقيل معناه أن لا تتكبروا على الله بترك طاعته

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٧

وإتباع أمره . وقيل : معناه أن لا تبغوا على أولياء الله بالبغي عليهم . وقال الحسن : معناه لا تستكبروا عليه بترك طاعته ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ أي بحجة واضحة لأن السلطان الحجة والمبين الظاهر الذي مع ظهوره يظهر الحق ، فكأنه اظهره . ثم قال لهم ﴿ وإني عذت بربي ﴾ الذي خلقني ﴿ وربكم ﴾ الذي خلقكم ﴿ أن ترجمون ﴾ قال ابن عباس وابو صالح : الرجم الذي استعاذ منه موسى هو الشتم ، كقولهم : هو ساحر كذاب ونحوه ، وقال قتادة : هو الرجم بالحجارة . ثم قال لهم ﴿ وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ أي لم تؤمنوا بي ، فاللام بمعنى الباء ومعناه وإن لم تصدقوني في أني رسول الله اليكم وأن ما ادعوكم اليه حق يجب عليكم العمل به فلا أقل من أن تعتزلون بصرف أذاكم عني ، لانكم إن لم تجازوا الاحسان بالاحسان ، فلا اساءة . وإنما دعاهم إلى ترك ملابسته بسوء إن اصروا على الكفر ولم يقبلوا إلى الايمان لان هذا أمر يدعو اليه العقل ببديهته ولا يحتاج إلى برهان .

قوله تعالى :

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ (٢٩) ثمان آيات بلا خلاف .

قرأ ابو جعفر ﴿ فاكهين ﴾ بغير الف ـ ههنا ـ وفي المطففين . وفي الطور

وافقه الداجوني وحفص فى المطففين .

حكى الله تعالى أن موسى حين يئس من قومه ان يؤمنوا به ﴿دعا﴾ الله ﴿ربه﴾ فقال ﴿إن هؤلاء قوم مجرمون﴾ وقيل إنه دعا بما يقتضيه سوء افعالهم وقبح إجرامهم وسوء معاملتهم له ، فكأنه قال: اللهم عجل لهم بما يستحقونه باجرامهم ومعاصيهم بما به يكونون نكالا لمن بعدهم ،وما دعا بهذا الدعاء إلا بعد إذن الله له فى الدعاء عليهم .

وقوله ﴿ فاسر بعبادي ﴾ الفاء وقعت موقع الجواب ، وتقديره فدعا فأجيب بأن قيل له ﴿ فاسر بعبادي ﴾ فهي عطف وقع موقع جواب الدعاء . وأمره الله تعالى بأن يسير بأهله والمؤمنين به لئلا يروهم إذا خرجوا نهاراً ، واعلمه ﴿ إنكم متبعون ﴾ أنه سيتبعهم فرعون وقومه ويخرجون خلفهم ، وامره بأن ﴿ يترك البحر رهواً ﴾ أي ساكناً على ما هو به من كثرته إذا قطعه ، ولا يرده إلى ما كان ويقال : عيش راه إذا كان خفضاً وادعاً . وقال قوم : معناه اترك البحر يبساً . وقيل:طريقاً يابساً . وقال ابن الاعرابي : معناه واسعاً ما بين الطاقات . وقال خالد ابن خيبري : معناه رمثاً أي سهلا ليس برمل ولا حزن . ذكره الأزهري يقال : جاءت الخيل رهواً أي متتابعة . وقال ابن الاعرابي الرهو من الخيل والطير السراع . وقال الكلبي : المرهي من الخيل الذي تراه كأنه لا يسرع ، وإذا طلب لا يدرك . ويقال : أعطاه سهواً رهواً أي كثيراً لا يحصى . وإنما قيل ذلك ، لأنه كان أمره أولا ان يضرب البحر بعصاه ليفلق فيه طرقاً لقومه ثم أمره بأن يتركه على الحالة الأولى ليغرق فيه فرعون وجنده ، قال الشاعر :

طيراً رأت بازياً نضح الدماء به وأمة اخرجت رهواً إلى عيد (١)

أي سكوناً على كثرتهم .

(١) تفسير الطبري ٢٥ / ٦٧

ثم اخبره عن فرعون وقومه بـ ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ أي سيغرقهم الله .
وفي الكلام حذف ، لان تقديره ان موسى سار بقومه وتبعه فرعون وجنده وأن الله أهلكهم وغرقهم .

ثم اخبر عن حالهم بأن قال ﴿ كم تركوا من جنات ﴾ يعني من بساتين لهم تركوها لم تنفعهم حين نزل بهم عذاب الله ﴿ وعيون ﴾ جارية لم تدفع عنهم عقاب الله ﴿ وزروع جمع زرع ومقام كريم ﴾ قيل : هو المجلس الشريف . وقيل : مقام الملوك والامراء والحكام . وقيل : المنازل الحسنة . وقال قتادة : يعني مقام حسن بهج . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : هي المناظر . وقيل : المنابر . وقيل : المقام الكريم هو الذي يعطي اللذة ، كما يعطي الرجل الكريم الصلة ﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ ، فالنعمة ـ بفتح النون ـ التنعيم ـ وبكسرها ـ منفعة يستحق بها الشكر ، وإن كانت مشقة ، لأن التكليف نعمة وإن كانت فيه مشقة . ومعنى الآية انهم كانوا متمتعين . فالفاكة المتمتع بها بضروب اللذة ، كما يتمتع الآكل بضروب الفاكة ، يقال : فكه يفكه فكهاً ، فهو فاكه ، وفكه وتفكه يتفكه تفكهاً ، فهو متفكه .

وقوله ﴿ كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ فتوريثه النعمة إلى الثاني بعد الأول بغير مشقة كما يصير الميراث إلى أهله على تلك الصفة ، وتوريث العلم شبه بذلك ، لأن الأول تعب في إستخراجه وتوطئة الدلالة المؤدية اليه ، ووصل إلى الثاني وهو رافه وادع ، لم يكل لطول الفكر وشدة طلب العلم ، فلما كانت نعمة قوم فرعون وصلت بعد هلاكهم إلى غيرهم ، كان ذلك توريثاً من الله لهم . قال قتادة : يعني بقوم آخرين بني اسرائيل ، لأن بني اسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون على ما قيل ، وكذلك قال في موضع آخر ﴿ وأورثناها بني اسرائيل ﴾ (١).

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٦٠

وقوله ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها ـ قال الحسن فما بكى عليهم ـ حين اهلكهم الله ـ أهل السماء واهل الأرض ، لانهم مسخوط عليهم مغضوب عليهم بانزال الخزي بهم .

الثاني ـ إن التقدير ان السماء والارض لو كانتا ممن يبكى على أحد إذا هلك لما بكتا على هؤلاء ، لانهم ممن أهلكهم الله بالاستحقاق وانزل عليهم رجزاً بما كانوا يكفرون . والعرب تقول : إذا أرادت أن تعظم موت إنسان : اظلمت الشمس وكسف القمر لفقده وبكت السماء والارض ، وإنما يريدوا المبالغة قال الشاعر :

الريح تبكي شجوهـا والبرق يلمع في الغمامه (١)

وقال آخر :

والشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمر (٢)

الثالث ـ انهم لم يبك عليهم ما يبكى على المؤمن إذا مات ، مصلاه ومصعد عمله ـ ذكره ابن عباس وابن جبير ـ ومعناه لم يكن لهم عمل صالح . وقال السدي : لما قتل الحسين عليه السلام بكت السماء عليه وبكاؤها حمرة أطرافها . وقال الحسن : ما بكى عليهم المؤمنون والملائكة ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين .

وقوله « وما كانوا منظرين » أي عوجلوا بالعقوبة ولم يمهلوا .

قولـه تعـالى :

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ١٤٠ نسبه الى يزيد بن يربوع الحميري ، وقد مر في ٢ / ٤٠٠ (٢) تفسير القرطبي ١٦ / ١٤٠ نسبه الى جرير

عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَـٰؤٌ مُبِينٌ (٣٣) إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣٦)

سبع آيات كوفي وست في ما عداه، عدّ الكوفيون « ليقولون » ولم يعده الباقون .

اقسم الله تعالى أنه نجّى أي خلص بني اسرائيل الذين آمنوا بموسى من العذاب المهين الذي كان يفعله بهم فرعون وقومه لأنهم كانوا استعبدوهم ، وكانوا يكلفونهم المشاق ويحملوهم القذارات ويكلفونهم كنسها وتنظيفها وغير ذلك ، فخلصهم الله تعالى حين أهلك فرعون وقومه ووفقهم للايمان بموسى .

ثم اخبر تعالى ان فرعون كان عالياً من المسرفين أي متجبراً متكبراً من المسرفين فى الأرض الذين يتجاوزون حد ما يجوز فعله إلى ما لا يجوز فعله استكباراً وعلواً وعتواً ، يقال : اسرف يسرف اسرافاً فهو مسرف ، ومثله الافراط ، وضده الاقتار ، وإنما وصف المسرف بأنه عال ، وإن كان وصف عال قد يكون صفة مدح ، لانه قيده بأنه عال في الاسراف ، لان العالي في الاحسان ممدوح والعالي فى الاسراف مذموم ، واطلاق صفة عال تعظيم ، وإذا اطلق فالمدح به أولى .

ثم اخبر تعالى مقسماً بأنه اختارهم يعني موسى وقومه على علم على العالمين ، فالاختيار هو اختيار الشيء على غيره بالارادة له لتفضيله عليه . ومثله الايثار ، وليس فى مجرد الارادة تفضيل شيء على غيره ، لانه قد يمكن أن يريد شيئاً من غير أن يخطر بباله ما هو فيه أولى منه فى العقل ، فلا يكون اختياره تفضيلا . وإما ان يريد الأولى ولا يدري انه أولى ، فيختاره عليه لجهله بأنه أولى او يختاره وهو يعلم انه غير

أولى ، ويختاره لحاجته اليه من جهة تعجل النفع به ، ومن اختار الادون في الصلاح على الأصلح كان منقوصاً مذموماً ، لانه بمنزلة من اختار القبيح على الحسن .

وقيل : المعنى اخترناهم على عالمي زمانهم بدلالة قوله لأمة نبينا « كنتم خير أمة اخرجت للناس » (١) وذلك يوجب انه ما اختارهم على من هو خير منهم ، وإنما اختارهم على من هو في وقتهم من العالمين . وقال قتادة ، ومجاهد : على عالمي زمانهم . وإنما قال « اخترناهم على علم على العالمين » بما جعل فيهم من الأنبياء الكثيرين ، فهذه خاصة لهم ليست لغيرهم ، لما في العلوم من مصالح المكلفين بأنبيائهم .

ثم بين ما به اختارهم بأن قال « وآتيناهم » يعني أعطيناهم « من الآيات » يعني الدلالات والمعجزات « ما فيه بلاء مبين » قال الحسن : يعني ما فيه النعمة الظاهرة . قال الفراء : البلاء قد يكون بالعذاب ، وقد يكون بالنعمة ، وهو ما فعل الله بهم من إهلاك فرعون وقومه ، وتخليصهم منه وإظهار نعمه عليهم شيئاً بعد شيء .

ثم اخبر تعالى عن كفار قوم نبينا صلى الله عليه وآله فقال « ان هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى » أي ليس هذا الا الموتة الاولى « وما نحن » أي لسنا بعدها بمبعوثين ولا معادين « بمنشرين » ويقولون « فأتوا بآبائنا » الذين ماتوا قبلنا واعيدوهم « ان كنتم صادقين » في ان الله تعالى يقدر على اعادة الأموات واحيائهم لان من قدر على النشأة الثانية قدر على اعادة الآباء ، وهذا باطل لان النشأة الثانية انما وجبت للجزاء لا للتكليف ، فلا تلزم اعادة الآباء ولا تجب .

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١١٠ .

قولـه تعـالى :

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) أربع آيات بلاخلاف.

ان قيل : لم لم يجابوا عن شبهتهم فى الآية ، ولم يبين لهم أن ذلك لا يلزم ، وما الوجه في جوابهم ؟ « أهم خير أم قوم تبع » قلنا: من تجاهل فى الحجاج الذي يجري مجرى الشغب الذي لا يعتقد بمثله مذهب لنفي الشبهة فيه ، فانه ينبغي أن يعدل عن مقابلته الى الوعظ له بما هو اعود عليه ، فلذلك عدل تعالى معهم الى هذا الوعيد الشديد ، وقال « أهم » هؤلاء الكفار « خير أم قوم تبع والذين من قبلهم » فانا « اهلكناهم » لما جحدوا الآيات وكفروا بنعم الله وارتبكوا معاصيه فما الذي يؤمن هؤلاء من مثل ذلك . وقيل : تبع الحميري كان رجل من حمير سار بالجيوش الى الحيرة حتى حيرها ، ثم أتى سمرقند فهدمها ، وكان يكتب باسم الذي ملك بحراً وبراً وضحا وريحاً ، ذكره قتادة . وقال سعيد بن جبير وكعب الاخبار ذم الله قومه ، ولم يذمه ونهى أن يسب . وحكى الزجاج : ان تبعاً كان مؤمناً ، وان قومه كانوا كافرين . وقيل : انه نظر الى كتاب على قبرين بناحية حمير (هذا قبر رضوي وقبرحبي ابني تبع لا يشركان بالله شيئاً) وقيل : سمي تبعاً ، لانه تبع من كان قبله من ملوك اليمن . والتبابعة اسم ملوك اليمن .

ثم قال تعالى « وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين » أي لم نخلق ذلك لا لغرض حكمي بل خلقناهم لغرض حكمي ، وهو ان ننفع به المكلفين

ونعرضهم الثواب وننفع سائر الحيوان بالمنافع لهم فيها واللذات . وفي الآية دلالة على من انكر البعث ، لانه لوكان على ما توهموه انه لا يجر به الى الجزاء في دار أخرى مع ما فيه من الألم لكان لعباً ، لانه ابتدأ باختيار ألم لا يجر به الى عوض .

ثم قال تعالى « وما خلقناهما » يعني السموات والارض « الا بالحق » قال الحسن معناه الا للحق الذى يصل اليه فى دار الجزاء . وقيل فيه قولان آخران :

احدها ـ ما خلقناهما الا بداعي العلم الى خلقهما ، والعلم لا يدعو الا الى الصواب.

الثاني ـ وما خلقناهما الا على الحق الذى يستحق به الحمد خلاف الباطل الذى يستحق به الذم .

ثم قال « ولكن اكثرهم لا يعلمون » بصحة ما قلناه لعدولهم عن النظر فيه ، والاستدلال على صحته . وفي ذلك دلالة على بطلان قول من قال : المعارف ضرورية ، لانها لو كانت لما نفى تعالى علمهم بذلك .

ثم قال تعالى « ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين » يعني اليوم الذى يفصل فيه بين المحق والمبطل بما يضطر كل واحد منهما الى حاله من حقه او باطله فيشفي صدور المؤمنين ويقطع قلوب الكافرين بما يرون من ظهور الامر وانكشافه ، وهو يوم القيامة ، وبين انه ميقات الخلق أجمعين وهو من له ثواب وعوض او عليه عقاب يوصله اليه .

قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣)

طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)
خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ
عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا
مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ (٥٠) .

عشر آيات كوفي وبصري وتسع في ما عداه ، عدّ الكوفيون والبصريون « الزقوم » ووافقهم عليه الشاميون والمدني الأول . وعدّ أيضاً العراقيون « يغلي في البطون » ووافقهم عليه المكيون والمدني الأخير .

قرأ « يغلي » بالياء كثير وابن عامر وحفص عن عاصم · الباقون بالتاء . من قرأ بالياء رده إلى المهل . ومن قرأ بالتاء رده إلى الشجرة . قال ابو علي : من قرأ بالياء حمله على الطعام ، لان الطعام هو الشجرة في المعنى ألا ترى انه خبر الشجرة والخبر هو المبتدأ بعينه إذا كان مفرداً في المعنى ، ولا يحمل على (المهل) لان المهل إنما ذكر ليشبه به في الذوق ، لان التقدير إن شجرة الزقوم طعام الأثيم تغلي في البطون كالمهل على الحميم .

لما ذكر الله تعالى أن يوم الفصل ميقات الخلق يحشرهم الله فيه ويفصل بينهم بالحق أي يوم هو ؟ فوصفه انه « يوم لا يغني فيه مولى عن مولى شيئاً » ، لأن الله تعالى أيأس من ذلك ، لما علم فيه من صلاح العباد ، ولولا ذلك لجاز أن يغرى . والمعنى إنه ليس لهم من ينتصر لهم من عقاب الله تعالى ، فلا ينافي ذلك ما نقوله : من أنه يشفع النبي والأئمة والمؤمنون في إسقاط كثير من عقاب المؤمنين ، لأن الشفاعة لا تحصل إلا بأمر الله وإذنه . والمراد في الآية أنه ليس لهم من يغني عنهم

من غير أن يأذن الله له فيه على وجه الدفع عنه والنصر له ، وبين ذلك بقوله « ولاهم ينصرون » والمولى ـ ههنا ـ الصاحب الذي شأنه أن يتولى معونة صاحبه على أموره ، فيدخل في ذلك ابن العم والحليف وغيره ممن هذه صفته وقد استثنا ما اشرنا اليه بقوله « إلا من رحم الله » فان من يرحمه الله اما أن يسقط عقابه ابتداء او يأذن في إسقاط عقابه بالشفاعة فيه .

ثم وصف نفسه بأنه القادر الذي لا يغلب ولا يقهر بدفع العقاب عمن يريد فعله به « الرحيم » أي المنعم لمن يريد العفو عنه باسقاط عقابه .

ثم اخبر تعالى « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » الذي يستحق العقاب بمعاصيه وعنى به ـ ههنا ـ أبو جهل ، فالزقوم ما أكل بتكرّه شديد له ، لانه يحشو به فمه ويأكله بشره شديد ، ولهذا حكي عن أبي جهل انه أتى بتمر وزبد ، فقال : نحن نتزقم هذا أي نملأ به أفواهنا فما يضرنا .

ثم شبه ذلك بأنه مثل المهل ، وهو الشيء الذي يذاب في النار حتى يشتد حره كالفضة والرصاص وغيرهما مما يماع بالنار ، وهو مهل ، لأنه يمهل في النار حتى يذوب . وقال ابن عباس : المهل ما أذيب بالنار كالفضة ، وهو قول ابن مسعود وروي عن ابن عباس ايضاً أن المهل دردي الزيت في النار . ثم وصف (المهل) بأنه « يغلي في البطون » من حرارته ، كما يغلي الحميم وهو الماء المغلي على النار ، فالمهل يغلي في بطون أهل النار ، كما يغلي الماء بحر الايقاد والغلي إرتفاع المائع من الماء ونحوه بشدة الحرارة. والحميم الحار ومنه أحم الله ذلك من لقاه أي ادناه وقربه لان ما حم فللاسراع وما برد فللابطاء ،ومنه حمم ريش الطائر إذا قرب خروجه .

ثم بين أنه تعالى يأمر الملائكة بأن يأخذوا الكافر وأن يعتلوه « إلى سواء الجحيم » يعني إلى وسطه . والعتل زعزعة البدن بالجفاء والغلظة للاهانة ، فمعنى

« اعتلوه » اعملوا به هذا العمل ، ومنه العتل ، وهو الجافى الغليظ يقال : عتله يعتله ويعتله عتلا إذا ساقه دفعاً وسحباً . قال الفرزدق :

ليس الكرام بنا حليك إباءهم حتى ترد إلى عطية تعتل (١)

و « سواء الجحيم » وسطه ـ فى قول قتادة ـ وسمي وسط الشيء سواء ، لاستواء المسافة بينه وبين أطرافه المحيطة به ، والسواء العدل كقولهم : هذا سواء بيننا وبينكم أي عدل .

ثم بين تعالى أنه يأمرهم بأن يصبوا فوق رأس الكافر من عذاب الحميم . وهو ما فسرناه . ثم يخاطبه فيقول له « ذق إنك أنت العزيز الكريم » على وجه التهجين له بما كان يدعي له مما ليس به أي أنت كذلك عند نفسك وقومك . ويجوز ان يكون على معنى النقيض ، كأنه قيل : إنك انت الذليل المهين إلا أنه قيل : على تلك الجهة للتبعيد منها على وجه الاستخفاف به . وقيل إن الآية نزلت في أبي جهل ، وقد كان قال : (أنا أعز من بها وأكرم) ـ ذكره قتادة ـ وقيل : المعنى أنت الذي كنت تطلب العز فى قومك والكرم بمعصية الله . وقيل : المعنى إنك انت العزيز فى قومك ، الكريم عليهم ، فما أغنى عنك .

ثم قال « إن هذا » يعني العذاب « ما كنتم به تمترون » أي تشكون فيه في دار الدنيا . وفى الآية دلالة على بطلان قول من قال المعارف ضرورة .

وقرأ الكسائي « ذق أنك » بفتح الهمزة بمعنى لأنك أنت العزيز او بأنك الباقون ـ بكسر الهمزة ـ على وجه الابتداء بالخبر عنه ، ويكون التقدير ذق العذاب. ثم ابتدأ إنك . وقرأ « فاعتلوه » ـ بضم التاء ـ ابن كثير ونافع وابن عامر .الباقون بكسر التاء وهما لغتان على ما حكيناه .

---

(١) تفسير الطبري ٢٥ / ٧٣

قولـه تعـالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ (٥٩) تسع آيات بلا خلاف .

قرأ ابن عامر ونافع « فى مقام » بضم الميم ، وهو موضع الاقامة . الباقون بفتح الميم ، وهو موضع القيام .

لما اخبر الله تعالى عن الكفار وما يفعله بهم من أنواع العقاب ، أخبر عن حال المطيعين وما أعده لهم من الثواب ، فقال « إن المتقين » يعني الذين يجتنبون معاصيه لكونها قبائح ، ويفعلون طاعاته لكونها طاعة « فى مقام أمين » أي موضع إقامة ـ فيمن ضم الميم ـ ومن فتحها يريد أنهم فى موضع قيامهم ، ووصفه بأنهم في « مقام أمين » من كل ما يخاف ، وليس هذا فى الدنيا ، لانه لا يخلو منها احد من موقف خوف من مرض او أذى او غير ذلك .

ثم بين ذلك المقام فقال « فى جنات » يعني بساتين تجنها الأشجار « وعيون »

ماء نابعة فيها « يلبسون من سند واستبرق » فالسندس الحرير ـ في قول الحسن ٠ والاستبرق الديباج الغليظ ـ في قول قتادة ـ وإنما رغبهم في ذلك بحسب ماكانوا يعرفونه ، وإن كان ـ ههنا ـ ما هو ارفع منها واحسن « متقابلين » أي يقابل بعضهم بعضاً بالمحبة ، لامتدابرين بالبغضة ٠ ثم قال ومثل ما فعلنا بهم « كذلك زوجناهم بحور عين » فالحور جمع حوراء من الحور ، وهو شدة البياض ٠ وقال قتادة « بحور » أي ببيض ، ومنه الحور لبياضه ، وحورته أي بيضته من حار يحور أي رجع إلى الحالة الأولى كما يرجع إلى حال الأبيض ، ومنه المحور « والعين » جمع عيناء وهي الواسعة العين الحسنة ، وكذلك لهم فى حكم الله ٠ وقال الحسن : العيناء الشديدة السواد سواد العين ، الشديدة البياض بياضها « يدعون فيها بكل فاكهة آمنين » أي يستدعون أي ثمرة شاؤا غير خائفين فوتها ٠ ثم قال « لا يذوقون فيها » يعني في الجنة « الموت إلا الموتة الأولى » شبه الموت بالطعام الذي يذاق وينكر عند المذاق ٠ ثم نفى ذاك ، وانه لايكون ذلك فى الجنة ، وإنما خصهم بأنهم لا يذوقون الموت مع أن جميع الحيوان يوم القيامة لا يذوقون الموت ، لما في ذلك من البشارة لهم بانتهاء ذلك إلى الحياة الهنيئة فى الجنة ، فأما من يكون فيها هو كحال الموت في الشدة ، فلا يطلق له هذه الصفة ، لانه يموت موتات كثيرة بما يلاقي ويقاسي من الشدة ، واما غير المكلفين ، فليس مما يعقل ، فتلحقه هذه البشارة وإن عم ذلك اهل الجنة ٠

وقوله « إلا الموتة الأولى » قيل ان (إلا) بمعنى (بعد) كأنه قال بعد الموتة الاولى ٠ وقيل : معنى (إلا) سوى كأنه قال : سوى الموتة الأولى ٠ وقيل : إنها بمعنى (لكن) وتقديره لكن الموتة الأولى قد ذاقوها ٠ وقال الجبائي : هذا حكاية حال المؤمنين فى الآخرة ، فلما اخبرهم بذلك فى الدنيا ، وهم لم يذوقوا بعد

الموت جاز أن يقال لا يذوقون الموت فى المستقبل إلا الموتة الأولى يخرجون بها من دار التكليف ، وهذا ضعيف ، لان في ذلك خبر عن حكمهم فى الجنة وأنهم لا يذوقون فيها الموت ثم استثنى من ذلك الموتة الأولى ، وكيف يرد إلى دار الدنيا؟! وحقيقة (إلا)إخراج بعض عن كل وحقيقة (بعد) إخراج الثاني عن الوقت الاول.

وقوله « ووقاهم عذاب الجحيم » أي يصرف عنهم عذاب النار ، وليس فى ذلك ما يدل على أن الفاسق الملي لا يعذب ويخرج من النار ، من حيث أنه لا يكون قد وقي النار ، لانه يحتمل أمرين :

احدها ـ ان يكون ذلك مخصوصاً بمن لا يدخل النار ممن لا يستحقه او بمن عفي عنه .

والثاني ـ ان يكون المراد « ووقاهم عذاب الجحيم » على وجه التأبيد او على الوجه الذي يعذب عليه الكفار .

ثم بين أن ذلك فضل من الله ، ونصبه على المصدر ، وتقديره فضل فضلا منه تعالى . واخبر بأن « ذلك هو الفوز العظيم » يعني الفلاح العظيم .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « إنما يسّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » يعنى باللغة العربية ليفقهوه ويتفكروا فيه ، فيعلموا ان الامر على ما قلناه . ثم أمره صلى الله عليه وآله فقال « فارتقب » أي انتظر يا محمد مجيء ما وعدتك به « إنهم منتظرون » ايضاً وهو قول قتادة ، وإنما قال فيهم « إنهم منتظرون » لانهم فى مثل حال المنتظر فى انه سيأتيه عاقبة حاله كما يأتي المنتظر .

٤٥ ـ سورة الجاثية

مكية في قول قتادة ومجاهد وهي سبع وثلاثون آية في الكوفي وست في البصري والمدنيين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٥) .

خمس آيات في الكوفي واربع في الباقي ، عد الكوفيون « حم » ولم يعده الباقون .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « لآيات » بالكسر في الثلاث مواضع . الباقون بالرفع في الثاني . والثالث . من خفض التاء فعلى أنه في موضع نصب رداً على (إن) وإنما كسرت التاء ، لانها تاء جمع التأنيث . وقال المبرد : هذا بعد الواو لانه عطف على عاملين على « إن » و « في » بحرف الواو ، لانه يكون عطف « واختلاف » على (في) وعطف على (إن) بهذه الواو وحدها ، فأما « آيات » الثانية

فأجاز عطفها على الاولى ، لان معها (فى) وتقديره إن فى خلقكم. قال ابن خالويه ليس ذلك لحناً ، لان من رفع أيضاً فقد عطف على عاملين ، فيكون عطف جملة على جملة ويحتمل ان يكون عطف على موضع (إن) لان موضعها الرفع ، والاخفش كان يجيز العطف على عاملين ، فيقول مررت بزيد فى الدار والحجرة عمرو ، ويحتج بقول الشاعر :

اكل امرىء تحسبين امرأ ونار تأجج للحرب ناراً (١)

عطف على ما عملت فيه (كل) وما عملت فيه (تحسبين) وأجود من العطف على عاملين أن يجعل (آيات) الثانية بدلا من الأول ، فيكون غير عاطف على عاملين ، وتقديره إن فى السموات والأرض لآيات المؤمنين لآيات ، كما تقول: ضربت زيداً زيداً ، فلا يحتاج إلى حرف العطف ، ومن رفع آيات الثانية حملها على الابتداء والخبر ، وجعل الثالثة تكرير الثانية بالرفع ، قال الزجاج : لأنه يرفع (آيات) عطفاً على ما قبلها ، كما خفض (واختلاف) عطفاً على ما قبلها . وقال ابو علي : وجه قراءة الكسائي أنه لم يحمل على موضع (إن) كما حمله من رفع (آيات) فى الموضعين أو قطعه واستأنف ، لكنه حمله على لفظ (إن) دون موضعها ، فحمل (آيات) في الموضعين على نصب (إن) في قوله « إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين » ويكون على تقدير إن ، وإن كانت محذوفة من اللفظ ويجعلها فى حكم المثبت فيه ، لان ذكره قد تقدم فى قوله « إن فى السموات » وقوله « وفي خلقكم » فلما تقدم الجار في هذين الموضعين قدر فى الاثبات فى اللفظ ، وإن كان محذوفاً منه كما قدر سيبويه فى قوله :

اكل امرىء تحسبن امرءاً [ونار تأجج للجر ناراً]

(١) قائله ابو ذؤاد الايادي ، تفسير القرطبي ١٦ | ١٩٧

وقيل (كل) فى حكم الملفوظ به واستغني عن إظهاره بتقدم ذكره، وكذلك فعلت العرب فى الجار ألا ترى أنهم لم يجيزوا (من تمرر أمرر) واجازوا (بمن تمرر أمرر) و (على أيهم تنزل انزل) فحذف الجار حسن لتقدم ذكر الجار، وعلى هذا قول الشاعر:

ان الكريم وأبيك يعتمل إن لم يجد يوماً على من يتكل

لما ذكر (على) و (إن) كانت زائدة - فى قول سيبويه - حسن حذف الجار من الصلة، ولو لم تذكر لم يجزه. وحكي فى بعض القراءات عن أبي إنه قرأ فى المواضع الثلاث «لآيات فى خلقكم وما يبث من دابة لآيات» وكذلك الآخر فدخول اللام يدل على أن الكلام محمول على (إن) وإذا كان محمولا عليها حسن النصب على قراءة حمزة والكسائي وصار كل موضع من ذلك كأن (إن) مذكورة فيه بدلالة دخول اللام، لأن هذه اللام إنما تدخل على خبر (إن) أواسمها، وحكي أن أبيّاقرأ «لآيات» بالرفع مع إدخال اللام عليها، وهذا لا يجيزه اكثر النحويين كالكسائي وغيره، كما لا يجوز في الدار لزيد، واجازه الفراء وانشد لحميد بن ثور:

إن الخلافة بعدهم لذميمة وخلائف طرف لمما أحقر (١)

وحكى الفراء أنه يقول العرب (إن) لي عليك مالاً وعلى أبيك مال بالرفع والنصب، وحكى ابو علي: إنه يجوز أن يعمل الثاني على التأكيد للاول وكذلك في الثالث، ولا يكون عطفاً على عاملين، كما قال بعض شيوخنا في قوله «ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فان له» (٢) حمل الثاني على أنه تأكيد للاول.

قد ذكرنا في ما تقدم ان (حم) اسم للسورة، وانه أجود الأقوال. قال الرماني: وفي تسمية السورة بـ (حم) دلالة على ان هذا القرآن المعجز كله من

(١) تفسير الطبري ٢٥ / ٧٧ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٦٤

حروف المعجم ، لأنه سمي به ليدل عليه بأوصافه ، ومن اوصافه انه مفصل قد فصلت كل سورة من اختها . ومن اوصافه أنه هدى ونور ، فكأنه قيل : هذا اسمه الدال عليه بأوصافه . ثم وصف تعالى الكتاب بأنه تنزيل من الله في مواضع من السور لاستفتاحه بتعظيم شأنه على تصريف القول بما يقتضي ذلك فيه من أضافته إلى الله تعالى من اكرم الوجوه وأجلها وما يتفق الوصف فيه يقتضى انه كالأول في علو المنزلة وجلالته عند الله وإذا أفاد هذا المعنى باقتضائه له لم يكن تكريراً ، ويقول القائل : اللهم اغفر لي اللهم ارحمني اللهم عافني اللهم اوسع عليّ في رزقي فيأتي بما يؤذن أن تعظيمه لربه منعقد بكل ما يدعو به .

وقوله « من الله » يدل على ان ابتداءه منه تعالى « العزيز » ومعناه القادر الذي لا يغالب « الحكيم » معناه العالم . وقد يكون بمعنى أن أفعاله حكمة وصواب

ثم أخبر تعالى ان في السموات والارض لآيات المؤمنين الذين يصدقون بالله ويقرون بتوحيده وصدق انبيائه وإنما اضاف الآيات إلى المؤمنين وإن كانت ادلة للكافرين ايضاً ، لأن المؤمنين انتفعوا بها دون غيرهم من الكفار . والآيات هي الدلالات والحجج . وفي السموات والارض دلالات على الحق من وجوه كثيرة ، منها أنه يدل بخلقها على ان لها خالقاً ، وانه قادر لا يعجزه شيء وانه مخالف لها ، فلا يشبهها وعلى انه عالم بما فيها من الاتقان والانتظام . وفي استحالة تعلق القدرة بها دلالة على ان صانعها قديم غير محدث وبوقوفها مع عظمها وثقل اجرامها بغير عمد ولا سند يدل على أن القادر عليها قادر على الاتيان بما لا يتناهى ولا يشبه احد من القادرين وانه خارج عن حد الطبيعة .

ثم بين تعالى ان في خلقنا آيات ، والوجه في الدلالة في خلقنا ضروب كثيرة : منها خلق النفس على ما هو به من وضع كل شيء موضعه لما يصلح له .

وفي ذلك دلالة على أن صانعه عالم لأنه فعل الحواس الخمس على البنية التي تصلح له مما يختص كل واحد منها بادراك شيء بعينه ، لا يشركه فيه الآخر ، لان العين لاتصلح إلا لادراك المبصرات وكذلك الفم يصلح للذوق ، والأنف للشم ، والبشرة المس ، وكل شيء من ذلك يختص بما لا يشركه فيه الآخر وفي ذلك أوضح دلالة على ان صانعها عالم بها ، وأنه لا يشبهه شيء ، ولو لم يكن إلا خلق العقل الذي يهدي إلى كل أمر ، ويتميز به العاقل من كل حيوان ، ولا يشبهه شيء في جلالته وعظم منزلته لكان فيه كفاية على جلالة صانعه وعظم خالقه . وقيل : معنى اختلاف الليل والنهار تعاقبهما . وقيل : زيادتهما ونقصانهما ، وإنزال الماء من السماء من الغيث والمطر واحياء الأرض بالنبات بعد الجدب والقحط فيثبت الله بذلك رزق الحيوان .

وقوله « وبث فيها من كل دابة » أي فرق فيها من جميع الحيوان بأن خلقها وأوجدها ، وتصريف الرياح بأن يجعلها تارة جنوباً وتارة شمالا ومرة دبوراً ومرة صباً - في قول الحسن - وقال قتادة: يجعلها رحمة مرة وعذاباً أخرى . وقال الحسن : كثافة السماء مسيرة خمسمائة عام وما بين كل سماء إلى سماء فتق مسيرة خمسمائة عام وبين كل أرضين فتق مسيرة خمسمائة عام ، وكثافة الأرض مسيرة خمسمائة عام .

قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً ٱتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَٰئِكَ لَهُمْ

عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي « تؤمنون » بالتاء على وجه الخطاب للكفار على تقدير قل لهم يا محمد . الباقون بالياء على وجه الاخبار عنهم والتعجب منهم .

لما اخبر الله تعالى عن القرآن بأنه تنزيل من الله وأن في السموات والأرض آيات ودلالات لمن نظر فيها تدل على الحق وأن في أنفس الخلق وإنزال الماء من السماء وإخراج النبات وبث انواع الحيوان أدلة لخلقه تدلهم على توحيد الله وحكمته لمن انعم النظر فيها ، بين ههنا أن ما ذكره أدلة الله التي نصبها لخلقه المكلفين لازاحة علتهم وانه يتلوها بمعنى يقرؤها على نبيه محمد ليقرءها عليهم بالحق دون الباطل . والتلاوة الاتيان بالثاني في أثر الأول في القراءة ، فتلاوة الحروف بعضها بعضاً يكون في الكتابة والقراءة ، وفلان يتلو فلاناً أي يأتي بعده ، وفلان يتلو القرآن أي يقرؤه ، والحق الذي تتلى به الآيات هو كلام مدلوله على ما هو به في جميع أنواعه . والفرق بين حديث القرآن وآياته ان حديثه قصص تستخرج منه عبر تدل على الحق من الباطل ، والآيات هي الأدلة التي تفصل بين الصحيح والفاسد فهو مصروف في الأمرين ليسلك الناظر فيه الطريقين ، لما له في كل واحد منهما من الفائدة في القطع بأحد الحالين في أمور الدين .

ثم قال على وجه التهجين لهم إن هؤلاء الكفار إن لم يصدقوا بما تلوناه فبأي شيء بعده يؤمنون .

ثم قال مهدداً لهم « ويل لكل أفاك أثيم » فالويل قيل : إنه واد سائل من جهنم صديد أهلها . وقيل : إن الويل كلمة يتلقى بها الكفار والفساق تتضمن استحقاقهم العقاب . والأفاك الكذّاب ويطلق ذلك على من يكثر كذبه او يعظم كذبه وإن كان في خبر واحد ، ككذب مسيلمة في ادعاء النبوة . والأثيم ذو الاثم ، وهو صاحب المعصية التي يستحق بها العقاب .

ثم وصف هذا الأفاك الاثيم ، فقال « يسمع آيات الله » أي حججه « تتلى عليه » أي تقرأ « ثم يصر » أي يقيم مصرّاً على كفره « مستكبراً » متجبراً عن النظر في آيات الله لا ينظر فيها ولا يعتبر بها « كأن لم يسمعها » أصلا .

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وآله أن يبشر من هذه صفته فقال « فبشره بعذاب اليم » أي مؤلم موجع . ثم عاد تعالى إلى وصفه فقال ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئاً ﴾ اتخذها هزواً أي إذا علم هذا الافاك الاثيم من حجج الله تعالى وأدلته شيئاً وسمعها ﴿ اتخذها هزواً ﴾ أي سخر منها وتلهى بها ، كما فعل ابو جهل حين سمع قوله ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الاثيم ﴾ (١) ثم قال أولئك يعني من هذه صفته ﴿ لهم عذاب مهين ﴾ أي مذل لهم . ثم قال ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أي من بين أيديهم يعني يوم القيامة (جهنم) معدة لهم وإنما قيل : لما بين ايديهم من ورائهم ، والوراء هو الخلف ، لانه يكون مستقبل أوقاتهم بعد تقضيهم ومعناه ما توارى عنهم قد يكون قداماً وخلفاً فهو لهذه العلة يصلح فيه الوجهان ثم قال تعالى «ولا يغني عنهم» إذا جعلوا في جهنم ما كسبوه في دار الدنيا من جمع الاموال ﴿ ولاشيئاً يغني عنهم أيضاً ﴿ ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ يتولونهم ويحبونهم لينصروهم ويدفعوا عنهم ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ ووصفه بأنه عظيم، لانه مؤبد نعوذ بالله منه .

---

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٤

قولــه تعــالى :

﴿ هٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١) اللهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (١٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وحفص ﴿ من رجز اليم ﴾ بالرفع جعلاه صفة للعذاب . الباقون بالخفض جعلوه صفة للرجز ، فكأن قال : من رجز اليم ، والرجز هو العذاب فلذلك صح وصفه بأنه أليم . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ﴿ لنجزي ﴾ قوماً بالنون على وجه الأخبار من الله عن نفسه بأنه يجازيهم . الباقون بالياء رداً إلى ﴿ الله ﴾ على الاخبار عنه .

معنى قوله ﴿ هذا هدى ﴾ أي هذا القرآن الذي تلوناه والكلام الذي ذكرناه ﴿ هدى ﴾ أي دلالة موصلة إلى الفرق بين ما يستحق به الثواب والعقاب ، ويفرق به بين الحق والباطل من امر الدين والدنيا . ثم قال تعالى ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ وجحدوها لهم عذاب من عند الله جزاء على كفرهم ﴿ من رجز اليم ﴾ .

ثم نبه تعالى خلقه على وجه الدلالة على توحيده، فقال ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بامره ﴾ ووجه الدلالة من تسخير البحر لتجري الفلك فيه بأمره، لنبتغي بتسخيره من فضل الله، فهو محسن في فعله يستحق الشكر به على وجه لا يجوز لغيره، وإن احسن، لانه أعظم من كل نعمة. وبين انه إنما فعل ذلك لكي يشكروه على نعمه. ثم قال ﴿ وسخر لكم ﴾ معاشر الخلق ﴿ ما في السموات وما في الأرض جميعاً ﴾ من شمس وقمر ونجم وهواء وغيث وغير ذلك وجعل السماء سقفاً مزيناً وجوهراً كريماً وسخر الأرض للاستقرار عليها وما يخرج من الاقوات منها من ضروب النبات والثمار والبر فيها إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من ضروب نعمه مما لا يحاط به علماً، وسهل الوصول إلى الانتفاع به تفضلا ﴿ منه ﴾ على خلقه. ثم بين ﴿ إن في ذلك ﴾ يعني في ما بينه ﴿ لآيات ﴾ ودلالات ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فيه ويعتبرون به.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أي لا يخافون عذاب الله إذا أنالوكم الأذى والمكروه، ولا يرجون ثوابه بالكف عنكم. وقيل: معناه لا يرجون ثواب الله للمؤمنين، إن الله يعرفهم عقاب سيآتهم بما عملوا من ذلك وغيره. ومعنى ﴿ يغفروا ﴾ ههنا يتركوا مجازاتهم على أذاهم ولا يكافوهم ليتولى الله مجازاتهم. وقال ابن عباس وقتادة وابن زيد والضحاك: هو من المنسوخ. وقال ابو صالح: نسخها قوله ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ (١) و (يغفروا) جواب أمر محذوف دل عليه الكلام، وتقديره: قل لهم اغفروا يغفروا وصار (قل لهم) على هذا الوجه يغني عنه. وقال الفراء: معناه في الأصل حكاية بمنزلة الأمر كقولك: قل للذين آمنوا اغفروا، وإذا ظهر الأمر مصرحاً فهو مجزوم

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٣٩

لأنه أمر وإن كان على الخبر مثل قوله ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ (١) فهذا مجزوم تشبيهاً بالجزاء.

وقوله ﴿ ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ يحتمل معنيين:

احدهما ـ قل لهم يغفروا لهم، فان الله يجازيهم يعني الكفار، فانهم اليه يرجعون.

الثاني ـ ان يكون المعنى ليجزيهم الله يعني المؤمنين، ويعظم أجرهم على احتمالهم وصبرهم ولن يفوتوه يعني الكافرين بل اليه مرجعهم.

ثم قال تعالى ﴿ من عمل صالحاً ﴾ يعني طاعة وخيراً ﴿ فلنفسه ﴾ لان ثواب ذلك عائد عليه ﴿ ومن اساء ﴾ بأن فعل المعصية ﴿ فعليها ﴾ أي على نفسه لان عقاب معصيته يناله دون غيره. ثم قال ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ الذي خلقكم ودبركم تردون يوم القيامة اليه أي إلى حيث لا يملك أحد الأمر والنهي والضر والنفع غيره، فيجازي كل إنسان على قدر عمله.

قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً

(١) سورة ١٤ ابراهيم آية ٣١

وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلاخلاف .

هذا قسم من الله تعالى بأنه أعطى بني إسرائيل الكتاب يعني التوراة وآتاهم الحكم ، وهو العلم بالفصل بين الخصمين وبين المحق والمبطل ، يقال : حكم في الامر يحكم حكما ، وحكمته في أمري تحكيماً ، واحكم العمل إحكاماً ، واستحكم الشيء استحكاماً ، وحاكمته إلى الحاكم محاكمة ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ فالرزق العطاء الجاري على توقيت وتوظيف في الحكم ، وإنما قلنا في الحكم ، لانه لو حكم بالعطاء الموقت في الأوقات الدائرة على الاستمرار لكان رازقاً وإن أقتطعه ظالم عن ذلك العطاء . ثم قال ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ والتفضيل جعل الشيء أفضل من غيره باعطائه من الخير ما لم يعط غيره أو بالحكم لأنه افضل منه ، فالله تعالى فضل بني إسرائيل بما أعطاهم على عالمي زمانهم . قال الحسن : فضلهم الله على أهل زمانهم وقال قوم : فضلهم بكثرة الأنبياء منهم على سائر الامم ، وإن كانت أمة محمد صلى الله عليه وآله أفضل في كثرة المطيعين لله ، وكثرة العلماء منهم ، كما تقول هذا أفضل في علم النحو ، وذاك في علم الفقه ، فأمة محمد صلى الله عليه وآله افضل في علو منزلة نبيها عند الله على سائر الانبياء ، وكثرة العلماء منهم والعاملين بالحق لقوله تعالى ﴿ كنتم خير أمة اخرجت للناس ﴾ (١) فأولئك خالف اكثرهم أنبياءهم ووافق كثير من هؤلاء علماءهم واخذوا عنهم واقتبسوا من نورهم ، والفضل الخير الزائد على غيره وأمة محمد صلى الله عليه وآله أفضل

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١١٠

بفضل نبيها .

ثم قال ﴿ وآتيناهم ﴾ يعني اعطيناهم ﴿ بينات من الأمر ﴾ أي دلالات وبراهين واضحات من الأمر ثم قال ﴿ فما اختلفوا ﴾ أي لم يختلفوا ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ فالاختلاف اعتقاد كل واحد من النفيسين ضد ما يعتقده الآخر إذا كان اختلافاً في المذهب ، وقد يكون الاختلاف في الطريق بأن يذهب احدهما يمنة ، والآخر يسرة ، وقد يكون الاختلاف في المعاني بأن لا يسد احـدهما مسد الآخر في ما يرجع إلى ذاته . وإختلاف بني إسرائيل كان في ما يرجع إلى المذاهب .

وقوله ﴿ بغياً بينهم ﴾ نصب على المصدر ، ويجوز ان يكون على انه مفعول له أي اختلفوا للبغي وطلب الرياسة . ومعنى البغي الاستعلاء بالظلم ، وهو خلاف الاستعلاء بالحجة . والبغي يدعو إلى الاختلاف لما فيه من طلب الرفعة بما لا يرجع إلى حقيقة ولا يسوغ في الحكمة ، وإنما كان ذلـك طلباً للرياسة والامتناع من الانقياد للحق بالانفة . ثم قال ﴿ إن ربك ﴾ يا محمد ﴿ يقضي بينهم يوم القيامة ﴾ أي يحكم ويفصل بين المحق منهم والمبطل في ما كانوا يختلفون في دار التكليف ، وقيل : الحكم العلم بالفصل بين الناس في الامور .

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ثم جعلناك ﴾ يا محمد ﴿ على شريعة من الامر ﴾ فالشريعة السنة التي من سلك طريقها أدته إلى البغية كالشريعة التي هي طريق إلى الماء ، وهي علامة منصوبة على الطريق إلى الجنة كأداء هذا الى الوصول إلى الماء ، فالشريعة العلامات المنصوبة من الأمر والنهي المؤدية إلى الجنة . ثم قال ﴿ فاتبعها ﴾ يعني اعمل بهذه الشريعة ﴿ ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون ﴾ الحق ولا يفصلون بينه وبين الباطل .

ثم اخبر النبي ﷺ فقال ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾ يعني هؤلاء

الكفار لا يغنون عنك شيئاً ﴿ وإن الظالمين ﴾ نفوسهم ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ بفعل المعاصي ﴿ والله ولي المتقين ﴾ الذين يجتنبون معاصيه ويفعلون طاعاته .

ثم قال ﴿ هذا ﴾ يعني هذا الذي ذكرناه ﴿ بصائر للناس ﴾ أي ما يتبصرون به واحدها بصيرة ﴿ وهدى ﴾ أي ودلالة واضحة ﴿ ورحمة ﴾ أي ونعمة من الله عليهم ﴿ لقوم يوقنون ﴾ بحقيقة ذلك . وإنما اضافه إلى المؤمنين لانهم الذين انتفعوا به دون الكفار الذين لم يفكروا فيه .

قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّآتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰيهُ وَأَضَلَّهُ ٱللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ٱللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ٱئْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر ﴿ سواء ﴾ نصباً . الباقون بالرفع . وقرأ اهل

الكوفة إلا عاصماً ﴿ غشوة ﴾ على التوحيد الباقون ﴿ غشاوة ﴾ على الجمع . من رفع ﴿ سواء ﴾ جعله مبتدأ وما بعده خبراً عنه ، ويكون الوقف على قوله ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ تاماً . ويجعل الجملة في موضع النصب ، لأنها خبر لـ (جعل) ورفع (سواء) لانه اسم جنس لا يجري على ما قبله كما لا تجري الصفة المشبهة بالمشبهة إذا كانت لسبب الاول كذلك نحو قولك : مررت بزيد خير منه أبوه . فمثل هذا في الحال والخبر والصفة سبيله واحد إذا كانت لسبب الاول . ومن نصب ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ جعل (سواء) في موضع (مستو) وعامله تلك المعاملة ، فجعل في موضع المفعول الثاني (أن نجعلهم) والهاء والميم المفعول الاول ، وإن جعلت ﴿ كالذين آمنوا ﴾ المفعول الثاني نصب (سواء) على الحال وهو وقف حسن . ويرفع (محياهم) بمعنى استوى محياهم ومماتهم . ومن قرأ ﴿ غشوة ﴾ جعله كالرجفة والخطفة . ومن قرأ ﴿ غشاوة ﴾ جعله مصدراً مجهولا ، والفعلة المرة الواحدة ، وقال قوم هما لغتان بمعنى واحد . وحكي الضم ايضاً . وقيل : في الضمير في قوله ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ قولان :

احدهما ـ إنه ضمير للكفار دون الذين آمنوا .

والثاني ـ انه ضمير للقبيلين. فمن جعل الضمير للكفار قال (سواء) على هذا القول مرتفع بأنه خبر ابتداء متقدم وتقديره محياهم ومماتهم سواء أي محياهم محيا سواء ومماتهم كذلك ، فعلى هذا لا يجوز النصب في (سواء) لانه إثبات الخبر بأن محياهم ومماتهم يستويان في الذم والبعد من رحمة الله . ومن قال الضمير يرجع إلى القبيلين قال يجوز ان ينتصب (سواء) على انه مفعول ثان لانه ملتبس بالقبيلين جميعاً ، وليس كذلك الوجه الاول ، لأنه للكفار دون المؤمنين ، فلا يلتبس بالمؤمن حيث كان للكفار دونهم

يقول الله تعالى على وجه التوبيخ للكفار على معاصيهم بكفرهم بلفظ الاستفهام ﴿ أم حسب ﴾ ومعنى (أم) يحتمل ان تكون الهمزة وتقديره أحسب الذين اجترحوا السيئات ، والحسبان هو الظن . وقد بيناه في ما مضى . والاجتراح الاكتساب اجترح السيئة اجتراحاً أي اكتسبها من الجراح ، لأن له تأثيراً كتأثير الجراح . ومثله الاقتراف ، وهو مشتق من قرف القرحة . والسيئة التي يسوء صاحبها ، وهي الفعلة القبيحة التي يستحق بها الذم ، والحسنة هي التي يسر صاحبها بأستحقاق المدح بها عليها ، ووصفها بهذا يفيد هذا المعنى . وقال الرماني : القبيح ما ليس للقادر عليه ان يفعله . .والحسن هو ما للقادر عليه أن يفعله قال : وكل فعل وقع لا لأمر من الأمور ،فهو لغو لا ينسب إلى الحكمة ولا السفه .والجعل تصيير الشيء على صفة لم يكن عليها ،وهو انقلاب الشيء عما كان قادراً عليه . والمعنى أيظن هؤلاء الكفار المرتكبون المعاصي الذين اكتسبوا القبائح أن يحكم لهم بحكم المؤمنين المعترفين بتوحيد الله المصدقين لرسله العاملين بطاعته ؟ ! .

ثم اخبر عن الكفار فقال ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ أي هم متساوون حال كونهم أحياء وحال كونهم أمواتاً ، لأن الحي متى لم يفعل الطاعات فهو بمنزلة الميت وقال مجاهد : المؤمن يموت على ايمانه ويبعث عليه . والكافر يموت على كفره ويبعث عليه . ثم قال ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي بئس الشيء الذي يحكمون به في هذه القصة . وانما قال ﴿ يحكمون ﴾ مع ان الحكم مأخوذ من الحكمة ، وهي حسنة ، لأن المراد على ما يدعون من الحكمة ، كما قال ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ (١) وقوله ﴿ وما كان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين ﴾ .

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦

ثم قال تعالى ﴿ وخلق الله السموات والارض بالحق ﴾ أي للحق لم يخلقهما عبثاً ، وانما خلقهما لمنافع خلقه بأن يكلفهم فيها ويعرضهم للثواب الجزيل ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ من ثواب طاعة او عقاب على معصية ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يبخسون حقوقهم .

ثم قال ﴿ أفرايت من اتخذ ﴾ يا محمد ﴿ الهه هواه ﴾ وانما سمي الهوى إلهاً من حيث أن العاصي يتبع هواه ويرتكب ما يدعوه اليه ولم يريد انه يعبد هواه أو يعتقد أنه يحق له العبادة ، لأن ذلك لا يعتقده احد . قال الحسن : معناه اتخذ إلهه بهواه ، لأن الله يحب أن يعرف بحجة العقل لا بالهوى . وقال سعيد بن جبير كانوا يعبدون العزى وهو حجر أبيض حيناً من الدهر ، فاذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر . وقال ابن عباس : معناه أفرايت من اتخذ دينه ما يهواه لانه يتخذه بغير هدى من الله ولا برهان . وقوله ﴿ وأضله الله على علم ﴾ معناه حكم الله بضلاله عالماً بعدوله عن الحق . ويحتمل ان يكون المعنى يعدل الله به عن طريق الجنة إلى طريق النار جزاء على فعله ، عالماً بأنه يستحق ذلك ﴿ وختم على سمعه وقلبه ﴾ وقد فسرناه في ما مضى . ومعناه أنه يجعل عليهما علامة تدل على كفره وضلاله واستحقاقه للعقاب ، لا أنه يفعل فيهما ما يمنع من فعل الايمان والطاعات ﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ شبهه بمن كان على عينه غشاوة تمنعه من الابصار ، لان الكافر إذا كان لا ينتفع بما يراه ولا يعتبر به ، فكأنه لم يره ، ثم قال ﴿ فمن يهديه ﴾ إلى طريق الجنة او من يحكم بهدايته ﴿ من بعد الله ﴾ إن حكم الله بخلافه ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي افلا تتفكرون فتعلمون ان الأمر على ما قلناه .

ثم حكى تعالى عن الكفار أنهم ﴿ قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ أي ليس الحياة إلا هذه الحياة التي نحن فيها في دار الدنيا ﴿ نموت ونحيا ﴾ وقيل في

معناه ثلاثة اقوال :

احدها ـ انه على التقديم والتأخير وتقديره ونحيا ونموت من غير رجوع ولا بعث على ما تدعون .

والثاني ـ ان يكون المراد نموت ويحيا أولادنا كما يقال ما مات من خلف ابناً مثل فلان

والثالث ـ ان يكون المعنى يموت بعضنا ويحيا بعضنا ، كما قال تعالى ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ (١) أي ليقتل بعضكم بعضاً . ثم حكى انهم يقولون ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ يعنون مرور الليل والنهار والشهور والاعوام

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ وما لهم بذلك من علم ﴾ أي ليس لهم بما يقولونه علم ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ أي وليس هم في ما يذكرونه إلا ظانين وإنما الأمر فيه بخلافه . ثم قال تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي إذا قرئت عليهم حججنا الظاهرة ﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ﴾ يعني لم يكن لهم في مقابلتها حجة إلا قولهم ﴿ ائتوا بآبائنا ﴾ الذين ماتوا وبادوا ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في أن الله يعيد الأموات ويبعثهم يوم القيامة . وإنما لم يجبهم الله إلى ذلك ، لانهم قالوا ذلك متعنتين مقترحين لا طالبين الحجة .

قوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ

(١) سورة ٢ البقرة آية ٥٤

تَعْمَلُونَ (٢٨) هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف ٠

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ الله يحييكم ﴾ فى دار الدنيا ، لانه لا يقدر على الأحياء احد سواه تعالى لانه قادر لنفسه ﴿ ثم يميتكم ﴾ بعد هذا ﴿ ثم يجمعكم إلى يوم القيامة ﴾ بأن يبعثكم ويعيدكم أحياء ، وإنما احتج بالاحياء فى دار الدنيا ، لأن من قدر على فعل الحياة في وقت قدر عليها في كل وقت . ومن عجز عنها فى وقت وتعذرت عليه مع كونه حياً ومع إرتفاع الموانع عجز عنها فى كل وقت . ثم بين أن يوم القيامة ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لاشك فى كونه ﴿ ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ ما قلناه لعدولهم عن النظر الموجب للعلم بصحة ذلك . ثم قال تعالى ﴿ ولله ملك السموات والارض ويوم تقوم ﴾ أي وله الملك يوم تقوم ﴿ الساعة يخسر فيه المبطلون ﴾ ثواب الله . والمبطل هو من فعل الباطل وعدل عن الحق .

ثم اخبر تعالى عن حال يوم القيامة فقال ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ فالامة الجماعة التي على مقصد ، واشتقاقه من أمه يؤمه أماً إذا قصده ، والأمم أمم الانبياء ﴿ جاثية ﴾ وقال مجاهد والضحاك وابن زيد : معناه باركة مستوفرة على ركبها والجثو البروك . والجثو البروك على طرف الاصابع ، فهو ابلغ من الجثو ٠

وقوله ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ قيل معناه إلى كتابها الذي كان

يستنسخ لها ويثبت فيه أعمالها . وقال بعضهم : كتابها الذي انزل على رسولها ـ حكي ذاك عن الجاحظ ـ والاول الوجه .

ثم حكى إنه يقال لهم « اليوم تجزون ما كنتم تعملون » من طاعة او معصية على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب . ثم قال تعالى « هذا كتابنا » يعني الذي أستنسخ « ينطق عليكم بالحق » جعل ثبوت ما فيه وظهوره بمنزلة النطق ، وإنه ينطق بالحق دون الباطل . ثم قال تعالى « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » قال الحسن : نستنسخ ما حفظت عليكم الملائكة الحفظة . وقيل : الحفظة تستنسخ ما هو مدون عندها من أحوال بني آدم الجزائية في قول ابن عباس ـ وروي عن علي عليه السلام أن لله ملائكة ينزلون في كل يوم يكتبون فيه أعمال بني آدم ، ومعنى نستنسخ نستكتب الحفظة ما يستحقونه من ثواب وعقاب ونلقي ما عداه مما أثبته الحفظة ، لانهم يثبتون جميعه .

ثم قسم تعالى الخلق فقال « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أي صدقوا بوحدانيته وصدقوا رسله وعملوا الاعمال الصالحات « فيدخلهم ربهم في رحمته » من الثواب والجنة . ثم بين ان « ذلك هو الفوز المبين » أي الفلاح الظاهر .

قوله تعالى :

« وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ

بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا وَمَأْوَيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣٧) سبع آيات بلاخلاف

قرأ حمزة وحده « والساعة لا ريب فيها » نصباً عطفاً على « ان وعده » وتقديره ان وعد الله حق وإن الساعة آتية . الباقون بالرفع على الاسيئناف او عطفاً على موضع (إن) .

لما اخبر الله تعالى عن حال المؤمنين العاملين بطاعة الله وانه يدخلهم الجنة أخبر عن حال الكفار ، فقال « واما الذين كفروا » أي جحدوا وحدانيتي وكذبوا رسلي ، يقال لهم « افلم تكن آياتي » وحججي « تتلى عليكم » قال الزجاج: جواب (إما) محذوف والفاء فى « أفلم » دلالة عليه بتقدير فيقال لهم « أفلم » ومثله قوله « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم » (١) وتقديره فيقال لهم اكفرتم بعد إيمانكم . وقال قوم : جواب « اما » الفاء فى « أفلم تكن آياتي » إلا أن الالف تقدمته ، لان لها صدر الكلام .

وقوله ﴿ فاستكبرتم ﴾ فالاستكبار هو طلب التعظيم فى أعلى المراتب فهو صفة

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٠٦

ذم في العباد وكذلك متكبر ، لانها تقتضي التعظيم في أعلى المراتب ، ولا يستحق التعظيم في اعلى المراتب إلا من لا يجوز عليه صفة النقص بوجه من الوجوه « وكنتم قوماً مجرمين » أي عاصين ، فالاجرام الانقطاع إلى الفساد ، واصله قطع الفعل عما تدعو اليه الحكمة . ثم حكى تعالى انه « إذا قيل ان وعد الله حق » أي ما وعدوا به من الثواب والعقاب كائن لامحة « وان الساعة لاريب فيها » أي لاشك في حصولها « قلتم » معاشر الكفار « ما ندري ما الساعة » أي لانعرفها « إن نظن إلا ظناً » ليس نعلم ذلك « وما نحن بمستيقنين » أى لسنا بمستيقنين ذلك .

ثم اخبر تعالى فقال « وبدا لهم سيئات ما عملوا » ومعناه ظهر لهم جزاء معاصيهم التي عملوها في دار التكليف من العقاب « وحاق بهم » أي حل بهم جزاء « ما كانوا به يستهزؤن » باخبار الله واخبار نبيه « وقيل » لهم « اليوم ننساكم » أى نترككم في العقاب - في قول ابن عباس - ونحرمكم ثواب الجنة « كما نسيتم » أى كما تركتم التأهب ل « لقاء يومكم هذا » فلم تعملوا الطاعات وارتكبتم المعاصي وقال مجاهد : كنسيانكم يومكم « ومأواكم النار » أي مستقركم جهنم « ومالكم من ناصرين » يدفعون عنكم عذاب الله ولا لكم من مستنقذ من عذاب الله . ثم بين تعالى لم فعل بهم ذلك بان قال « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً » يعني حججه وآياته (هزواً) أي سخرية تسخرون منها « وغرتكم الحياة الدنيا » أي خدعتكم زينتها ومعناه اغتررتم بها ، « فاليوم لاتخرجون منها » يعني من النار .

وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « يخرجون » بفتح الياء وبضم الراء . الباقون بضم الياء وفتح الراء . ومن فتح الياء ، فلقوله « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها » (١) ومن ضم فلقوله « ولا هم يستعتبون » وطابق بينهما

(١) سورة ٥ المائدة آية ٤٠

ومعنى « ولا هم يستعبتون » أي لا يطلب منهم العتبى والاعتذار ، لان التكليف قد زال . وقيل : معناه لا يقبل منهم العتبى . وقيل : الوجـــه فى ظهور أحوالهم وسيئاتهم فى الآخرة التبكيت بها والتقريع بالتكذيب لما كان يمكنهم معرفتـه لظهور حججه على خلقه .

ثم قال تعالى « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » أي الشكر التام والمدحة التي لا يوازيها مدحة لله الذي خلق السموات والارض ودبرها وخلق العالمين « وله الكبرياء فى السموات والارض » أي له السلطان القاهر وله العظمة العالية التي هي فى أعلى المراتب لا يستحقها سواه « وهو العزيز » أي القادر الذي لا يغالب « الحكيم » فى جميع أفعاله . وقيل : (عزيز) فى أنتقامه من الكفار (حكيم) في ما يفعل بهم وبالمؤمنين من الثواب .

٤٦ ـ سورة الاحقاف

مكية بلا خلاف ، وهي خمس وثلاثون آية في الكوفي واربع وثلاثون في البصري والمدنيين عدأهل الكوفة (حم) آية ولم يعده الباقون . والباقي لاخلاف فيه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ (٥) .

خمس آيات في الكوفي واربع في ما عداه عدّ الكوفي (حم) ولم يعده الباقون.

وقد بينا معنى قوله (حم) وإختلاف العلماء في ذلك ، وبينا ايضاً تأويل قوله « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » فلا وجه لاعادته . وقيل : الوجه في

تكرير ذلك الابانة عن أن هذه السورة حالها حال السورة التي قبلها في أنه تعالى نزلها وشرفها وكرّمها في الاضافة إلى العزيز الحكيم . والعزيز القادر الذي لا يغالب ولا يقهر . وقيل هو العزيز في انتقامه من أعدائه الحكيم في افعاله . وقد يكون الحكيم بمعنى العالم بتصريف الأمور الذي لا يوقعها الا على مقتضى العلم في التدبير وهو صفة مدح ، وضده السفيه ، وضد العزيز الذليل .

ثم قال تعالى مخبراً إنا « ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » ومعناه إنا لم نخلق السموات والارض وما بينهما إلا بالحق ومعناه إنه لم توجد السموات والأرض وما بينهما من الاجناس إلا للحق وتعريض الخلق لضروب النعم وتعريض المكلفين للثواب الجزيل ولم نخلقها عبثاً ولا سدى بل عرّضناهم للثواب بفعل الطاعات وزجرناهم بالعقاب عن فعل المعاصي ، وقدّرنا لهم اوقات نبعثهم اليها وأوقات نجازيهم فيها « واجل مسمى » أي مذكور للملائكة في اللوح المحفوظ .

ثم قال « والذين كفروا » بوحدانية الله تعالى وجحدوا ربوبيته « عما انذروا » به معرضون وعما خوّفوا العمل من خلافه بالعقاب « معرضون » أي عادلون عن الفكر فيه والاعتبار به .

ثم قال « قل » يا محمد ﷺ لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الاصنام ويدعون مع الله إلهاً آخر « أرايتم ما تدعون من دون الله » آلهة وتوجهون عبادتكم اليها بأي شيء استحقوا ذلك « أروني ماذا خلقوا من الارض » فاستحقوا بخلق ذلك العبادة والشكر « أم لهم شرك في السموات » أي في خلقها ، فانهم لا يقدرون على ادعاء ذلك .

ثم قال لهم « ائتوني بكتاب من قبل هذا » يعني هاتوا بكتاب انزله الله يدل على صحة قولكم قبل هذا القرآن « او أثارة من علم » يعني شيء يستخرج منه

فيثار فيعلم به ما هو منفعة لكم ـ وهو قول الحسن ـ وقال مجاهد : معناه او علماً تأثرونه عن غيركم ـ ويؤدي أثره ، وهما لغتان : اثره واثاره ، ومنه الحديث المأثور أي المرفوع ـ يدل على صحة ما تذهبون اليه . وقال ابو بكر وابن عباس : معناه او بقية من علم يشهد بصحة قولكم وصدق دعواكم « إن كنتم صادقين » في ما تذكرونه وتذهبون اليه . ويقال : اثر الشيء اثارة مثل قبح قباحة وسمح سماحة ، قال الراعي :

وذات أثارة اكلت عليه

يعني ذات بقية من شحم . ثم قال تعالى « ومن أضل » أي من اضل عن طريق الصواب « ممن يدعو من دون الله » أي يضرع اليه ويوجه عبادته إلى « من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » مع ظهور الدلالة على توحيد الله ووضوح آثار نعمه على خلقه « وهم » مع ذلك « عن دعائهم » إياهم « غافلون » أي ذاهبون عن الفكر فيه ، لانهم لا يعقلون ولا يفقهون . والغفلة ذهاب المعنى عن نفس العاقل بمعنى يمتنع به إدراكه . وضده اليقظة ، وهو حضور المعنى لنفس العاقل بما يجد إدراكه ، وانما كنى عن الاصنام بالواو والنون مع أنها لا تعقل لما أضاف اليها ما يكون من العقلاء ، كنى عنها بكناياتهم ، كما قال « والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » (١) وقوله « كل في فلك يسبحون » (٢) .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٤ (٢) سورة ٣٦ يس آية ٤٠

لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ ٱلرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ (١٠) خمس آيات بلاخلاف .

لما قال تعالى إنه لا أحد أضل عن طريق الحق ممن يدعو من لا يستجيب له ، يعني الاصنام التي عبدوها وإنهم عن دعائهم غافلون ايضاً ، ذكر انه « إذا حشر الناس » يوم القيامة وبعثهم الله للثواب والعقاب « كانوا لهم اعداء » يعني هذه الاوثان التي عبدوها ينطقهم الله حتى يجحدوا أن يكونوا دعو إلى عبادتها او شعرت بذكر من أمرها « وكانوا بعبادتهم كافرين » يعني يكفرون بعبادة الكفار لهم ويجحدون ذلك . ثم وصفهم ايضاً فقال « وإذا تتلى عليهم » يعني هؤلاء الكفار الذين وصفهم « آياتنا » أي أدلتنا التي انزلناها من القرآن ونصبناها لهم. والآية الدلالة التي تدل على ما يتعجب منه ، قال الشاعر :

بآية يقدمون الخيل زوراً كأن على سنابكها مداماً (١)

ويروى مناكبها و « بينات » أي واضحات « قال الذين كفروا » بوحدانية

(١) مر في ٦ / ٦٣

الله وجحدوا نعمه « للحق لما جاءهم » يعني القرآن ، والمعجزات التي ظهرت على يد النبي صلى الله عليه وآله « هذا سحر مبين » أى حيلة لطيفة ظاهرة ، ومن اعتقد ان السحر حيلة لطيفة لم يكفر بلا خلاف . ومن قال انه معجزة كان كافراً ، لانه لا يمكنه مع هذا القول ان يفرق بين النبي والمتنبي .

ثم قال « أم يقولون افتراه » أي بل يقولون اختلقه واخترعه فقال الله تعالى له « قل » لهم « إن » كنت « افتريته » وأخترعته « فلا تملكون لي من الله شيئاً » أي ان كان الأمر على ما تقولون إني ساحر ومفتر لا يمكنكم أن تمنعوا الله مني إذا أراد اهلاكي على افترائي عليه « هو أعلم بما تفيضون فيه » يقال : أفاض القوم فى الحديث إذا مضوا فيه ، وحديث مستفيض أي شائع ، من قولكم هذا سحر وافتراء ، ثم قل لهم « كفى به » يعني بالله « شهيداً بيني وبينكم » يشهد المحق منا والمبطل « وهو الغفور » لذنوب عباده « الرحيم » بكثرة نعمه عليهم . وفي ذلك حث لهم على المبادرة بالتوبة والرجوع إلى طريق الحق . ثم قال « قل » يا محمد صلى الله عليه وآله « ما كنت بدعاً من الرسل » فالبدع الاول فى الأمر يقال : هو بدع من قوم أبداع قال عدي بن زيد :

فلا أنا بدع من حوادث تعتري رجالا عرت من بعد بؤس واسعد (١)

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : معناه ما كنت بأول رسول بعث وقوله « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » قال الحسن : معناه لا أدري ما يأمرني الله تعالى فيكم من حرب او سلم او تجعيل عقابكم او تأخيره . وقال قل لهم « إن اتبع إلا ما يوحي إلي » أي لست اتبع فى أمركم من حرب او سلم او امر او نهي إلا ما يوحي الله إليّ ويأمرني به « وما أنا إلا نذير مبين » أي لست إلا مخوفاً من

(١) تفسير الطبري ٢٦ / ٤

عقاب الله ومحذراً من معاصيه ومرغباً فى طاعاته . وقيل : إن اصحاب النبي صلى الله عليه وآله شكوا إليه ما يلقون من اهل مكة من الأذى ، فقال لهم ﴿ إني رأيت فى المنام أني اهاجر إلى ارض ذات نخل وشجر ﴾ ففرحوا بذلك ، فلما تأخر ذلك ، قالوا : يا رسول الله ما نرى ما بشرتنا به ، فانزل الله الآية . وقوله ﴿ مبين ﴾ معناه مظهر لكم الحق فيه .

ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ أرأيتم إن كان من عند الله ﴾ يعني هذا القرآن ﴿ وكفرتم به ﴾ يعني بالقرآن ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والحسن وعون بن مالك الاشجعي صحابي ، وابن زيد : نزلت الآية فى عبد الله بن سلام ، وهو الشاهد من بني اسرائيل ، فروي أن عبد الله بن سلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال : يا رسول الله سل اليهود عني فهم يقولون هو أعلمنا ، فاذا قالوا ذلك قلت لهم إن التوراة دالة على نبوتك وأن صفاتك فيها واضحة ، فلما سألهم عن ذلك ، قالوا ذلك ، فحينئذ اظهر ابن سلام إيمانه وأوقفهم على ذلك ، فقالوا هو شرّنا وابن شرنا . وقال الفراء : هو رجل من اليهود . وقال مسروق : الشاهد من بني إسرائيل هو موسى عليه السلام شهد على التوراة كما شهد النبي صلى الله عليه وآله على القرآن ، قال : لان السورة مكية وابن سلام أسلم بالمدينة .

وقوله ﴿ فآمن واستكبرتم ﴾ عن الايمان وجواب ﴿ إن كان من عند الله ﴾ محذوف . قال الزجاج : تقديره ﴿فآمن واستكبرتم ﴾ فلا تؤمنون . وقال غيره تقديره فآمن واستكبرتم إنما تهلكون . وقال الحسن : جوابه فمن أضل منكم .

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ويحتمل أمرين :

احدهما ـ إنه لا يهديهم إلى الجنة لاستحقاقهم العقاب .

والثاني ـ إنه لا يحكم بهداهم لكونهم ضلالا ظالمين . ولا يجوز ان يكون

المراد لا يهديهم إلى طريق الحق ، لأنه تعالى هدى جميع المكلفين بأن نصب لهم الأدلة على الحق ودعاهم إلى اتباعه ورغبهم فى فعله . وقد قال ﴿ واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ (١) فبين أنه هداهم إلى الحق وإن اختاروا هم الضلال .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير - فى إحدى الروايتين عنه - ونافع وابو جعفر وابن عامر

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ١٧

ويعقوب ﴿ لتنذر ﴾ بالتاء على وجه الخطاب . ويجوز ان يكون مردوداً إلى اللسان وهو مؤنث . الباقون بالياء على وجه الاخبار عن الكتاب او القرآن . وقرأ اهل الكوفة ﴿ إحساناً ﴾ بالف . الباقون ﴿ حسناً ﴾ بضم الحاء بلا ألف . وقرأ ابن كثير ونافع والكسائي وابو عمرو ﴿ كرهاً ﴾ بفتح الكاف . الباقون بضمها ، وهما لغتان . وقرأ يعقوب ﴿ وفصله ﴾ بفتح الفاء وسكون الصاد من غير الف . الباقون ﴿ وفصاله ﴾ بكسر الفاء وإثبات ألف ، وهما لغتان وباثبات الالف كلام العرب . وفي الحديث (لا رضاع بعد فصال) وروي بعد (فطام) .

اخبر الله تعالى عن الكفار الذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا نبيه محمد صلى الله عليه وآله أنهم قالوا ﴿ للذين آمنوا ﴾ وصدقوا رسوله ﴿ لو كان ﴾ هذا الذي يدعوننا هؤلاء المسلمون اليه : محمد ومن اتبعه ﴿ خيراً ﴾ أي نفعاً عاجلا أو آجلا يظهر لنا ذلك ﴿ ما سبقونا ﴾ يعني الكفار الذين آمنوا به ﴿ اليه ﴾ أي إلى إتباعه لانا كنا بذلك أولى وبه احرى ، وحكى ان اسلم وغفار وجهينة ومزينة لما اسلموا قال بنو عامر ابن صعصعة وغطفان وأسد واشجع هذا القول ، فحكاه الله . والسبق المصير إلى الشيء قبل غيره ، وكذلك السابق إلى الخير والتابع فيه ، فقال الله تعالى ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ يعني هؤلاء الكفار بهذا القرآن ولا استبصروا به ولا حصل لهم العلم بأنه مرسل داع إلى الله ﴿ فسيقولون هذا أفك قديم ﴾ أي كذب متقدم حيث لم يهتدوا به ، وصفه بالقديم للمبالغة فى التقدم أي ليس أول من ادعى الكذب فى ذلك بل قد تقدم اشباهه . والقديم فى عرف اللغة هو المتقدم الوجود ، وفى عرف المتكلمين هو الموجود الذي لا أول لوجوده .

ثم قال تعالى ﴿ ومن قبله ﴾ يعني من قبل القرآن ﴿ كتاب موسى ﴾ يعني

التوراة ﴿ إماماً ورحمة ﴾ أي جعلناه إماماً ورحمة وانزلناه إماماً يهتدى به ورحمة أي نعمة على الخلق . ثم قال ﴿ وهذا ﴾ يعني القرآن ﴿ كتاب مصدق ﴾ لذلك الكتاب ﴿ لساناً عربياً ﴾ نصبه على الحال ، ويجوز ان يكون حالا من هذا الكتاب ويجوز ان يكون حالا لما فى ﴿ مصدق ﴾ من الضمير . وقوله ﴿ لينذر الذين ظلموا ﴾ أي ليخوفهم ، ويعلمهم استحقاق العقاب على المعاصي واستحقاق الثواب على الطاعات. فمن قرأ بالتاء جاز أن يكون خطاباً للنبي صلى الله عليه وآله ويجوز ان يكون رداً على اللسان على ما قدمناه ، وهو مؤنث . ومن قرأ بالياء رده إلى الكتاب الذي هو القرآن . وقوله ﴿ وبشرى للمحسنين ﴾ معناه ان يكون هذا القرآن بشارة لمن فعل الصالحات واختار الحسنات ، ويجوز في (بشرى) ان يكون رفعاً عطفاً على (مصدق) ويجوز ان يكون نصباً لوقوعه موقع (وبشيراً) فيكون حالا ، كما تقول : اتيتك لازورك وكرامة لك وقضاء لحقك .

ثم اخبر تعالى ﴿ إن الذين قالوا ﴾ بلسانهم ﴿ ربنا الله ﴾ واعتقدوا ذلك بقلوبهم ﴿ ثم استقاموا ﴾ على ذلك لم يعدلوا عنه ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ من العقاب في الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ من أهوال القيامة .

ثم اخبر عنهم فقال ﴿ أولئك ﴾ يعني من تقدم ذكرهم ﴿ اصحاب الجنة ﴾ أي الملازمون لها ﴿ خالدين فيها جزاء ﴾ لهم ﴿ بما كانوا يعلمون ﴾ فى الدنيا من الطاعات .

ثم قال تعالى ﴿ ووصينا الانسان بوالديه إحساناً ﴾ أي امرناه بأن يحسن إلى والديه إحساناً . فمن قرأ بلا الف فالمعنى أن يحسن فعله معهما حسناً ، فالحسن والحسن . لغتان ، يقال : حسن يحسن حسناً ومن قرأ « إحساناً » جعله مصدر احسن « . وكرهاً » بفتح الكاف المصدر وبضمها الاسم . وقيل هما لغتان . وقوله « حملته أمه كرها ووضعته كرهاً » قال الحسن وقتادة ومجاهد : أي بمشقة . ثم

قال « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » نبه بذلك على ما يستحقه الوالدان من الاحسان اليهما ومعاملتهما من حيث أنهما تكفلا به ورбياه ، وانه « حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً » أي بمشقة في حال الولادة وارضعته مدة الرضاع . ثم بين ان أقل مدة الحمل وكمال مدة الرضاع ثلاثون شهراً ، وأنهما تكفلا به حتى بلغ حد الكمال « حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة » قيل اكثر الفصال واكثر مدة الرضاع اربعة وعشرون شهراً واقل مدة الحمل ستة اشهر ، والمعنى وصية بذلك ليكون إذا بلغ اشده أي حال التكليف وحال الاربعين ، قال هذا القول علمه الله إياه . وقال قتادة وابن عباس : أشده ثلاث وثلاثون سنة . وقال الشعبي : هو وقت بلوغ الحلم . وقال الحسن : اشده وقت قيام الحجة عليه . ثم « قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي » فالايزاع المنع من الانصراف عن الشيء فالايزاع الشكر المنع من الانصراف عنه باللطف ، ومنه قولهم يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . ومنه قول الحسن : لا بد للسلطان من وزعة . قال النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألما تصح والشيب وازع

اي مانع . وقيل : إيزاع الشكر هو الهام الشكر وقيل الاعزاء بالشكر « وأن أعمل صالحاً ترضاه واصلح لي في ذريتي إني تبت اليك وإني من المسلمين » تمام ما علمه الله للانسان ووصاه ان يدعو به إذا بلغ اشده : أن يقول : إني تائب الى الله من المعاصي وإني من جملة المسلمين لأمر الله .

قوله تعالى :

« أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَٱلَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ

ٱلْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ « نتقبل ، ونتجاوز » بالنون فيهما حمزة والكسائي وخلف ، على وجه الاخبار من الله عن نفسه ولقوله « ووصينا » الباقون بالياء فيهما ، على ما لم يسم فاعله . وروى هشام « اتعداني » بنون مشددة . الباقون بنونين . وقرأ ابن كثير وأهل البصرة وعاصم إلا الكسائي عن ابي بكر والحلواني عن هشام ﴿ وليوفينهم ﴾ بالياء . الباقون بالنون . وقرأ ابن ذكوان وروح ﴿ أ اذهبتم ﴾ بهمزتين مخففتين على الاستفهام . وقرأ ابن كثير وابو جعفر وهشام بتخفيف الاولى وتليين الثانية وفصل بينهما بالف ابو جعفر والحلواني عن هشام . الباقون بهمزة واحده على الخبر.

لما اخبر تعالى بما أوصى به الانسان ان يعمله ويقوله عند بلوغ أشده اخبره بعده بما يستحقه من الثواب إذا فعل ما أمره به تعالى فقال ﴿ أولئك ﴾ يعني الذين فعلوا ما وصيناهم به من التائبين المسلمين هم ﴿ الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾ من قرأ بالنون اضاف الفعل إلى الله وانه أخبر عن نفسه بأنه يفعل بهم . ومن

قرأ بالياء والضم فيهما لم يذكر الفاعل لانه معلوم أن المراد به أن الله الذي يتقبل الطاعات ويجازي عليها . وقوله ﴿ أحسن ما عملوا ﴾ يعني ما يستحق به الثواب من الواجبات والمندوبات ، لأن المباحات وإن كانت حسنة لا يستحق بها الثواب ولا توصف بأنها متقبلة ، لانه لايتقبل إلا ما ذكرناه من واجب او ندب .

ثم قال ﴿ ونتجاوز عن سيئاتهم ﴾ التي اقترفوها فلا نؤاخذهم بها إذا تابوا منها أو اردنا أن نتفضل عليهم باسقاطها ، وقوله ﴿ فى اصحاب الجنة ﴾ أي هم فى اصحاب الجنة ﴿ وعد الصدق ﴾ أي وعدهم وعد الصدق لا الكذب ، فهو نصب على المصدر ﴿ الذي كانوا يوعدون ﴾ به فى دار الدنيا إذا اطاعوا الله .

ثم اخبر تعالى عن حال ﴿ الذي قال ﴾ أي الذي يقول ﴿ لوالديه أف لكما ﴾ ومعناه أنه فى موضع ضجر منهما ، وقيل : معناه نتناً وقذراً لكما ، كما يقال عند شم الرائحة الكريهة . وقال الحسن : هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث وانه يتأفف بهما إذا دعواه إلى الاقرار بالبعث والنشور . وقال قوم : نزلت الآية فى عبد الرحمن بن ابي بكر قبل ان يسلم .

ثم بين أنه يقول لهما ﴿ أتعدانني أن اخرج ﴾ من القبر وأحيا وابعث ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ أي مضت امم قبلي وماتوا فما أخرجوا ولا اعيدوا ﴿ وهما ﴾ يعني والديه ﴿ يستغيثان الله ﴾ ويقولان له ﴿ ويلك آمن إن وعد الله حق ﴾ والبعث والنشور والثواب والعقاب ﴿ فيقول ﴾ فى جوابهما ﴿ ما هذا إلا اساطير الأولين ﴾ أي ليس هذا إلا أخبار الأولين وسطروها ، وليس لها حقيقة ، فقال تعالى ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ باستحقاق العقاب وإدخالهم النار ﴿ في أمم ﴾ أي مع أمم وجماعات ﴿ قد خلت من قبلهم من الجن والانس ﴾ على مثل حالهم ومثل اعتقادهم . وقال قتادة : قال الحسن : الجن لا يموتون ، قال قتادة :

فقلت ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول . . . ﴾ الآية تدل على خلافه ، ويجوز ان يكون الحسن أراد انهم لا يموتون فى دار الدنيا ويبقون إلى وقت قيام الساعة . ثم يميتهم الله كما ان ذلك سبيل كل خلق من الملائكة .

ثم قال تعالى مخبراً عن حالهم ﴿ إنهم ﴾ يعني الذين وصفهم ﴿ كانوا قوماً خاسرين ﴾ فى أمورهم ، لانهم خسروا الثواب الدائم وحصل لهم العقاب المؤبد . ثم قال ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي لكل مطيع درجات ثواب ، وإن تفاضلوا فى مقاديرها .

وقوله ﴿ وليوفيهم ﴾ من قرأ بالياء معناه ليوفيهم الله . ومن قرأ بالنون فعلى وجه الاخبار من الله عن نفسه انه يوفيهم ثواب اعمالهم من الطاعات «وهم لا يظلمون» أي من غير ان ينقص منه شيئاً .

ثم قال تعالى ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ﴾ أي يقال لهم على وجه التهجين والتوبيخ ﴿ أذهبتم طيباتكم ﴾ أي انفقتم ذلك فى ملاذ الدنيا ، وفي معاصي الله ، ولم تستعملوها فى طاعاته . فمن خفف الهمزتين أراد بالف الاستفهام التوبيخ . ومن لين الثانية كره الجمع بين الهمزتين . ومن قرأ على الخبر ، فعلى تقدير يقال لهم ﴿ أذهبتم ﴾ أو يكون حذف احدها تخفيفاً ويكون المحذوفة الاصلية ، لان همزة الاستفهام ادخلت لمعنى .

وقوله ﴿ واستمتعتم بها ﴾ يعني بالطيبات . ثم حكى ما يقال لهم بعد ذلك فانه يقال لهم ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ يعني عذاب الهوان – في قول مجاهد ﴿ بما كنتم تستكبرون فى الارض ﴾ أي جزاء بما كنتم تطلبون التكبّر والتجبر على الناس ﴿ بغير الحق ﴾ أي بغير استحقاق ﴿ وبما كنتم تفسقون ﴾ أي تخرجون

من طاعة الله الى معاصيه .

قولـه تعـالى :

﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ عاصم وحمزة وخلف ﴿ لا يرى ﴾ بالياء مضمومة ، على ما لم يسم فاعله ﴿ إلا مساكنهم ﴾ برفع النون . الباقون ـ بالتاء ـ ونصب النون . من ضم الياء فعلى ما لم يسم فاعله . ومن فتح التاء ، فعلى الخطاب ، والمعنيان متقاربان .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ واذكر ﴾ يا محمد ﴿ أخا عاد ﴾ يعني هوداً عليه السلام ﴿ اذ أنذر قومه ﴾ أي خوفهم من الكفر بالله وحذرهم معاصيه ودعاهم إلى طاعته ﴿ بالاحقاف ﴾ قال ابن عباس : هو واد بين عمان ومهوة ، وقال ابن اسحاق : الاحقاف الرمل في ما بين عمان إلى حضرموت . وقال قتـادة : الاحقاف رمال

مشرفة على البحر بالشجر من اليمن ، وقال الحسن : الاحقاف أرض خلالها رمال . وقال الضحاك : جبل بالشام يسمى بذلك ، قال العجاج :

بات إلى ارطات حقف أحقفا (١)

أي رمل مشرف ، وقال ابن زيد : الحقف الرمل يكون كهيئة الجبل . وقال المبرد : الحقف هو كثيب المكثر غير العظيم وفيه اعوجاج ، قال العجاج :

سماوة الهلال حتى احقوقفا (٢)

وهو انحناؤه . وقوله ﴿ وقد خلت النذر ﴾ أي مضت الرسل ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ أي قدامه ووراءه ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي انذرهم وخوفهم بان لا تعبدوا إلا الله . وقال لهم ﴿ إني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ يعني عذاب يوم القيامة .

ثم حكى ما اجاب به قومه وانهم ﴿ قالوا اجئتنا ﴾ يا هود ﴿ لتأفكنا ﴾ أي لتلفتنا وتصرفنا ﴿ عن ﴾ عبادة ﴿ آلهتنا ﴾ بالكذب والافك ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب ﴿ إن كنت ﴾ صادقاً ﴿ من الصادقين ﴾ فانا لا نصدقك في ما تقوله ، فقال هود لهم ﴿ إنما العلم عند الله ﴾ يريد العلم بوقت إنزال العذاب بكم عند الله ، وهو العالم به ولا أعلمه مفصلا ﴿ وابلغكم ما أرسلت به ﴾ أي أؤدي اليكم ما بعثت به اليكم من الدعاء إلى عبادة الله وإخلاص القربة اليه ، فلست اراكم تقبلون ذلك ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ أي تفعلون ما يفعله الجهال .

وقوله « فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم » معناه فلما رأو العذاب وشاهدوه أطل عليهم « قالوا هذا عارض » أي سحاب « ممطرنا » والعارض المار بمعنى انه

(١) تفسير القرطبى ١٦\ ٢٠٣ ومجاز القرآن ٢/٢١٣ والطبرى ٢٦\ ١٥

(٢) تفسير القرطبي ١٦\ ٢٠٣ وقد مر في ٦\ ٧٩ و ٨ / ٢٩

لا يلبث من خير أوشر ، فلما رأو العارض ظنوا انه عارض خير بالمطر ، فقيل لهم ليس الأمر كما ظننتم « بل هو ما استعجلتم » أي هو عارض من العذاب الذي استعجلتموه وطلبتموه مكـذبين به ، وقال (عارض) نكرة و (ممطرنا) معرفة ، وإنما وصفه به لان التقدير ممطر إيانا ، كقولك : مررت برجل مثلك أي مثل لك ثم فسره فقـال « هو ريح فيه عذاب عظيم » أي مؤلم ، وسمي السحاب عارضاً ، لأخذه في عرض السماء ، وقال الاعشى :

يامن رأى عارضاًقدبت أرمقه كأنما البرق في حافاته الشعل (١)

وقيل : كانت الريح ترفع الظعينة بحملها حتى ترى كأنها جرادة ـ في قول عمرو بن ميمون ـ وقوله تعالى « تدمر كل شيء » أي تخرب وتلقي بعض الأشياء على بعض حتى تهلك ، قال جرير :

وكان لهم كبكر ثمود لما رغا ظهراً فدمرهم دمارا (٢) .

وقوله « فاصبحوا » يعني اهـل الاحقاف « لا يرى إلا مساكنهم » وما عداها قد هلك . فمن فتح التاء نصب النون من (مساكنهم) على وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله . ومن ضم الياء ضم النون وتقديره فأصبحوا لا يرى شيء في مساكنهم وقرأ الحسن بالتاء والضم . وقال النحويون : القراءة بالياء ضعيفة في العربية ، لأن العرب تذكر ما قبل (الا) في الجحد ، فتقول : ما قام إلا اختك ، لان المحذوف (أحد) وتقديره ما قام احد إلا اختك قامت .

ثم قال تعالى مثل ما أهلكنا اهل الاحقاف وجازيناهم بالعذاب « كذلك نجزي القوم المجرمين » الذين سلكوا مسلكهم .

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٤٦ (٢) تفسير الطبري ٢٦ | ١٦

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى على وجه القسم في خبره أنه مكن هؤلاء الكفار الذين اخبر عنهم بأنه اهلكهم انه مكنهم من الطاعات ومن جميع ما أمرهم به من انه جعلهم قادرين متمكنين بنصب الدلالة على توحيده ، ومكنهم من النظر فيها ، ورغبهم في ذلك بما ضمن لهم من الثواب وزجرهم عما يستحق به العقاب ، ولطف لهم وازاح علالهم في جميع ذلك ، لان التمكين عبارة عن فعل جميع ما لا يتم الفعل إلا معه ، ثم قال « وجعلنا لهم سمعاً » يسمعون به الادلة « وأبصاراً » يشاهدون بها الآيات « وافئدة » يفكرون بها ويعتبرون بالنظر فيها « فما اغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم

ولا افئدتهم من شيء » أي لم ينفعهم جميع ذلك ، لانهم لم يعتبروا بها ولا فكروا فيها « إذ كانوا يجحدون بآيات الله » وأدلته « وحاق بهم » أي حل بهم عذاب « ما كانوا به يستهزؤن » ويسخرون منه .

وقوله « ما ان مكناكم فيه » قال ابن عباس وقتادة : معناه في ما لم نمكنكم فيه . وقال المبرد : (ما) الاولى بمعنى (الذي) و (إن) بمعنى (ما) وتقديره في الذي ما مكناكم ، والمراد بالآية وعيد كفار قريش وتهديدهم وأن الله قد مكن قوم عاد بما لم يمكن هؤلاء منه ، من عظيم القوة وشدة البطش والقدرة على جميع ما يطلبونه ، وأنهم مع تمكينهم لم ينفعهم ذلك لما نزل بهم عذاب الله حين كفروا به وجحدوا ربوبيته ولم يغنهم جميع ذلك .

ثم قال « ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى » يعني قوم هود وصالح ، لأنهم كانوا مجاورين لبلاد العرب وبلادهم حول بلادهم ، فاذا أهلكهم الله بكفرهم كان ينبغي أن يعتبروا بهم « وصرفنا الآيات » وتصريف الآيات تصييرها فى الجهات وتصريف الشيء تصييره فى الجهات ، وتصريف المعنى تصييره تارة مع هذا الشيء وتارة مع ذلك ، وتصريف الآيات تصييرها تارة فى الاعجاز وتارة فى الاهلاك ، وتارة فى التذكير بالنعم وتارة فى وصف الابرار ، وتارة في وصف الفجار ، ليجتنب مثل فعلهم « لعلهم يرجعون » أي لكي يرجعوا إلى طاعته .

ثم قال « فلو لانصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة » ومعناه فهلانصرهم الذين اتخذوا آلهة من دون الله من الاصنام ، توبيخاً لهم على فعلهم واعلاماً بأن من لا يقدر على نصرة أوليائه كيف تصح عبادته « قرباناً آلهة » أي يقربون اليهم قرباناً وسموها آلهة .

ثم قال لم ينصرونهم « بل ضلوا عنهم » واخبر أن « ذلك إفكهم وما كانوا

يفترون » أي كذبهم الذي كذبوه، والذي كانوا يفترونه، ويخترعونه .

ثم قال لنبيه ﷺ واذكر يا محمد « إذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه » يعني القرآن او النبي « قالوا » بعضهم لبعض « انصتوا فلما قضي » أي حين فرغ من تلاوته « ولوا إلى قومهم منذرين » لهم مخوفين من معاصي الله . وقال قوم : إن الله تعالى أمر نبيه ان يقرأ القرآن على الجن، وأمره بأن يدعوهم إلى عبادته . وقال قوم : هم يسمعون من قبل نفوسهم لقراءة القرآن فلما رجعوا « قالوا » لقومهم « يا قومنا إنا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه » يعني التوراة « يهدي إلى الحق » أي يرشد اليه « ويهدي إلى طريق مستقيم » من توحيد الله ومعرفة نبيه المؤدي إلى الجنة . وقال ابن عباس وسعيد ابن جبير : صرفوا اليه بالرجم بالشهب، فقالوا عند ذلك إن هذا الأمر كبير . وقال قتادة : صرفوا اليه من جهة . وفي رواية عن ابن عباس من نصيبين . وقيل : ان نصيبين من أرض اليمن . وقال رزين بن حبيش : كانوا تسعة نفر، وقال ابن عباس : كانوا سبعة نفر . وقال قوم : صرفوا اليه بالتوفيق .

قوله تعالى :

« يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ
قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)
فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ
كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ
يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ يعقوب « يقدر » بالياء جعله فعلا مستقبلا . الباقون ـ بالباء ـ اسم فاعل .

لما حكى الله تعالى أن نفراً من الجن استمعوا القرآن وتدبروه ورجعوا به إلى قومهم مخوفين لهم من معاصي الله وأنهم قالوا إنا سمعنا كتاباً يعني القرآن انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يعني التوراة يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، حكى انهم قالوا ايضاً « يا قومنا أجيبوا داعي الله » يعنون محمداً ﷺ إذ دعاهم إلى توحيده وخلع الانداد دونه ، وقال قوم : يجوز ان يكون المراد كل من دعا إلى الله تعالى . والاجابة موافقة الفعل الدعاء اليه بأنه عمل من أجله ، ولهذا لا تكون موافقة الكافر ـ وإن كان إذا دعا به ـ إجابة له إذ لم يعمل من أجل دعائه اليه ، وإنما عمل لأمر آخر . وعلى هذا قال بعضهم : إنه لا يجيب الله دعاء الكافر لان فيه إجلالا له كما لا يعمل شيئاً لأن فيه مفسدة .

فان قيل : لو ان الكافر دعا إلى حق هل تلزم اجابته ؟

قلنا : يجب العمل بما يدعو اليه ، ولا تلزم إجابته ، وإنما يجب العمل به ، لانه حق . وقيل : يجوز إجابته إذا لم يكن فيه مفسدة .

وقالوا لهم « آمنوا به » أي آمنوا بالله « يغفر لكم من ذنوبكم » (من) زائدة ، والمعنى يغفر لكم ذنوبكم « ويجركم من عذاب اليم » فالاجارة من النار جعلهم فى جوار الأولياء المباعدين من النار . وفي الدعاء : اللهم أجرني من النار والاهم اعذنى منها .

ثم قالوا ايضاً « ومن لا يجب داعي الله » تاركاً له إلى خلافه « فليس بمعجز » أي بفائت « فى الارض وليس له من دونه اولياء » ينصرونهم ويدفعون عنهم العذاب إذا نزل بهم ، ويجوز ان يكون ذلك من كلام الله ابتداء . ثم قال « اولئك » يعني الذين لا يجيبون داعي الله « فى ضلال » أي فى عدول عن الحق « مبين » .

ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته على الاعادة والبعث « او لم يروا » أي او لم يعلموا « ان الله الذي خلق السموات والارض » وانشأهما « ولم يعي بخلقهن » أي لم يصبه فى خلق ذلك إعياء ولا تعب « بقادر » فالباء زائدة وموضعه رفع بأنه خبر (أن) ودخول الباء فى خبر (ان) جائز إذا كان اول الكلام نفياً نحو ما ظننت أن زيداً بقائم ولو قلت : إن زيداً بقائم لا يجوز ، لانه إثبات « على ان يحيي الموتى » ثم قال « بلى » هو قادر عليه « إنه على كل شيء قدير » ثم قال « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » أي يقال لهم على وجه الاحتجاج عليهم أليس هذا الذي جزيتم به حق لاظلم فيه لانكم شاهدتموه الآن « قالوا بلى وربنا » فيحلفون على ذلك ، فيقال لهم عند ذلك « ذوقوا العذاب » جزاء « بما كنتم تكفرون » أي بما كنتم تجحدون من نعمه وتنكرون من وحدانيته ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « فاصبر » يا محمد على أذى هؤلاء الكفار على ترك إجابتهم الك « كما صبر اولوا العزم من الرسل » قبلك على اممهم . وقال قوم : أولوا العزم

هم الذين يثبتون على عقد القيام بالواجب وإجتناب المحارم ، فعلى هـذا الانبياء كلهم أولوا العزم ، ومن قال ذلك جعل (من) ههنا للتبيين لا للتبعيض . ومن قال : إن أولى العزم طائفة من الرسل وهم قوم مخصوصون قال (من) ههنا للتبعيض وهو الظاهر فى روايات اصحابنا ، وأقوال المفسرين ، ويريدون بأولي العزم من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدم من الانبياء ، قالوا وهم خمسة أولهم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد صلى الله عليه وآله .

ثم قال « ولا تستعجل لهم » العقاب « كأنهم يوم يرون ما يوعدون » من يوم القيامة لقرب مجيئه « لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » من قلة لبثهم فى الدنيا . وقوله « بلاغ » قيل فى معناه قولان :

احدها ـ ذلك اللبث بلاغ . والآخر ـ هذا القرآن بلاغ .

ثم قال « فهل يهلك » بهذا النوع من الاهلاك على وجه الاستحقاق « إلا القوم الفاسقون » الذين خرجوا من طاعة الله إلى معصيته ومن ولايته إلى عداوته .

٤٧ ـ سورة محمد صلى الله عليه وآله

هي مدنية كلها إلا آية واحدة قال ابن عباس وقتادة : فالآية الواحدة نزلت حين خرج النبي صلى الله عليه وآله من مكة وجعل ينظر إلى البيت ، وهو يبكي حزناً عليه فنزل قوله « فكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي اخرجتك . . . » الآية وهي ثمان وثلاثون آية في الكوفي وتسع وثلاثون في المدنيين واربعون في البصري .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١)
وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ
ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَاطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِنْ
رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا
مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ
لَٱنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ (٥) .

خمس آيات كوفي وست في ما عداه .

قرأ اهل البصرة وحفص عن عاصم « والذين قتلوا » على ما لم يسم فاعله بضم القاف وكسر التاء . الباقون « قاتلوا » بألف من المفاعلة . وقرىء شاذاً « قتلوا » بفتح القاف وتشديد التاء . من قرأ بألف كان أعم فائدة ، لأنه يدخل فيه من قتل . ومن قرأ بغير الف لم يدخل في قراءته القاتل الذى لم يقتل وكلاهما لم يضل الله أعمالهم ، فهو اكثر فائدة . ومن قرأ بغير الف خص هذه الآية بمن قتل . وقال : علم أن الله لم يضل اعمال من قاتل بدليل آخر ولأن من قاتل لم يضل عمله بشرط ألا يحبط عند من قال بالاحباط ، وليس من قتل كذلك ، لانه لا يضل الله أعمالهم على وجه بلا شرط ، ولأنه لايقتل إلا وقد قاتل فصار معناهما واحد .

قال مجاهد عن ابن عباس إن قوله « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله » نزلت في أهل مكة . وقوله « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » في الانصار .

يقول الله تعالى مخبراً بأن الذين جحدوا توحيد الله وعبدوا معه غيره وكذبوا محمداً نبيه ﷺ في الذي جاء به وصدوا من أراد عبادة الله والاقرار بتوحيده وتصديق نبيه عن الدين، ومنعوه من الاسلام« أظل اعمالهم » ومعناه حكم الله على أعمالهم بالضلال عن الحق والعدول من الاستقامة وسماها بذلك لأنها عملت على غير هدى وغير رشاد . والصدعن سبيل الله هو الصرف عن سبيل الله بالنهي عنه والمنع منه . والترغيب في خلافه ، وكل ذلك صد، فهؤلاء كفروا في أنفسهم ودعوا

غيرهم إلى مثل كفرهم . والضلال الاهـلاك حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل ، وليس في الآية ما يدل على القول بصحة الاحباط إذا حملناها على ما قلناه . ومن قال بالتحابط بين المستحقين لابد ان يترك ظاهر الآية .

ثم قال « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » يعني صدقوا بتوحيـــد الله والاقرار بنبوة نبيه واضافوا إلى ذلـك الاعمال الصالحات « وآمنوا بما انزل على محمد » من القرآن والعبادات وغيرها « وهو الحق من ربهم » الذي لا مرية فيه « كفـر الله عنهم سيئاتهم » وقوله « وهو الحق » يعني القرآن - على ما قاله قوم - وقال آخرون إيمانهم بالله وبالنبي صلى الله عليه وآله « هو الحق من ربهم » أي بلطفه لهم فيه وحثه عليه وأمره به . ومعنى تكفير السيئات هو الحكم باسقاط المستحق عليها من العقاب ، فاخبر تعالى انه متى فعل المكلف الايمان بالله والتصديق لنبيـــه أسقط عقاب معاصيه حتى يصير بمنزلة ما لم يفعل . وقوله « وأصلح بالهم » قال قتادة : معناه وأصلح حالهم في معائشهم وأمر دنياهم . وقال مجاهـــد : واصلح شأنهم ، والبال لا يجمع ، لأنه ابهم أخواته من الحال والشأن .

ثم بين تعالى لم فعل ذلك ولم قسمهم هذين القسمين فقال « ذلـك بأن الذين كفروا » فعلنا ذلك بهم وحكمنا بابطال أعمالهم جزاء على انهم « اتبعوا الباطل » والمعاصي ، وفعلنا بالمؤمنين من تكفير سيئاتهم لانهم «اتبعوا الحق » الذى أمر الله باتباعه . وقيل الباطل هو الشيطان - ههنـا - والحق هو القرآن ، ويجوز ان يكون التقدير الامر ذلك، وحذف الابتداء .

ثم قال تعالى « كذلك يضرب الله للناس امثالهم » أي هؤلاء الذين حكمنا بهلاكهم وضلالهم بمنزلة من دعاه الباطل فاتبعه ، والمؤمن بمنزلة من دعاه الحق من الله فاتبعه ويكون التقدير يضرب الله للناس صفات أعمالهم بأن بينها و بين ما يستحق

عليها من ثواب وعقاب .

ثم خاطب تعالى المؤمنين فقال﴿ فاذا لقيتم ﴾معاشر المؤمنين «الذين كفروا» بالله وجحدوا ربوبيته من أهل دار الحرب ﴿ فضرب الرقاب ﴾ ومعناه اضربوهم على الرقاب ، وهي الاعناق ﴿ حتى إذا اثخنتموهم ﴾ أي اثقلتموهم بالجراح وظفرتم بهم ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ ومعناه احكموا وثاقهم فى الأمر . ثم قال ﴿ فاما منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ ومعناه اثقالها .

وقوله ﴿ فاما منّاً بعد ﴾ نصب على المصدر والتقدير إما أن تمنوا منّاً وإمّا أن تفدوا فداء وقال قتادة وابن جريج : الآية منسوخة بقوله ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (١) وقوله ﴿ فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم ﴾ (٢) وقال ابن عباس والضحاك : الفداء منسوخ . وقال ابن عمر والحسن وعطا وعمر ابن عبد العزيز : ليست منسوخة . وقال الحسن يكره أن يفادى بالمال ، ويقال يفادي الرجل بالرجل ، وقال قوم : ليست منسوخة ، والامام مخير بين الفداء والمن والقتل بدلالة الآيات الاخر ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ أي اثقالها ، وقال قتادة : حتى لايكون مشرك . وقال الحسن : إن شاء الامام أن يستفد الاسير من المشركين ، فله ذلك بالسنة ، والذي رواه اصحابنا ان الاسير إن اخذ قبل انقضاء الحرب والقتال بأن تكون الحرب قائمة والقتال باق ، فالامام مخير بين أن يقتلهم أو يقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف ويتركهم حتى ينزفوا ، وليس له المن ولا الفداء . وإن كان أخذ بعد وضع الحرب أوزارها وانقضاء الحرب والقتال كان مخيراً بين المن والمفادات . إما بالمال او النفس ، وبين الاسترقاق ، وضرب الرقاب ، فان أسلموا فى الحالين سقط جميع ذلك وصار حكمه حكم المسلم .

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦ (٢) سورة ٨ الانفال آية ٥٨

وقوله ﴿ ذاك ﴾ أي الذي حكمنا به هو الحق الذي يجب عليكم إتباعه ﴿ ولو يشاء الله لا نتصر منهم ﴾ وأهلكهم بانزال العذاب عليهم ﴿ ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ ويختبرهم ويتعبدهم بقتالهم إن لم يؤمنوا .

ثم اخبر تعالى أن ﴿ الذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ قال قتادة هم الذين قتلوا يوم احد . ومن قرأ ﴿ قاتلوا ﴾ أراد قاتلوا سواء قتلوا او لم يقتلوا ان يهلك الله أعمالهم ولا يحكم بضلالهم وعدولهم عن الحق . ثم قال ﴿ سيهديهم ﴾ يعني إلى طريق الجنة ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أي شأنهم او حالهم ، وليس في ذلك تكرار البال ، لان المعنى يختلف ، لان المراد بالاول انه يصلح حالهم في الدين والدنيا وبالثاني يصلح حالهم في النعيم ، ، فالاول سبب النعيم ، والثاني نفس النعيم .

قوله تعالى :

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ (١٠) خمس آيات بلاخلاف .

لما اخبر الله تعالى انه سيهدي المؤمنين إلى طريق الجنة ، ويصلح حالهم فيها ، بين أنه ايضاً ﴿ يدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ وقيل في معنى ﴿ عرفها لهم ﴾ قولان : احدها - بانه عرفها لهم بان وصفها على ما يشوق اليها ، ليعملوا بما يستوجبونها

به من طاعة الله وإجتناب معاصيه .

والثاني ـ عرفها لهم بمعنى طيبها بضروب الملاذ ، مشتقاً من العرف ، وهي الرائحة الطيبة التي تتقبلها النفس تقبل ما تعرفه ولا تنكره . وقال ابو سعيد الخدري وقتادة ومجاهد وابن زيد : معناه انهم يعرفون منازلهم فيها كما كانوا يعرفون منازلهم في الدنيا . وقال الحسن : وصف الجنة في الدنيا لهم ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها .

ثم خاطب المؤمنين فقال ﴿ يا ايها الذين آمنوا ﴾ بتوحيد الله وصدقوا رسوله ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ ومعناه إن تنصروا دينه بالدعاء اليه ، واضافه إلى نفسه تعظيماً كما قال ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ (١) وقيل معناه ﴿ تنصروا الله ﴾ تدفعوا عن نبيه ﴿ ينصركم ﴾ الله ، أي يدفع عنكم اعداءكم في الدنيا عاجلا ، وعذاب النار آجلا ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ في حال الحرب . قيل : ويثبت أقدامكم يوم الحساب .

ثم قال ﴿ والذين كفروا ﴾ بنعم الله وجحدوا نبوة نبيه ﴿ فتعساً لهم ﴾ أي خزياً لهم وويلا لهم ، فالتعس الانحطاط والعثار عن منازل المؤمنين ﴿ وأضل اعمالهم ﴾ أي أهلكها وحكم عليها بالضلال . وإنما كرر قوله ﴿ وأضل اعمالهم ﴾ و ﴿ احبط أعمالهم ﴾ تأكيداً ، ومبالغة في الزجر عن الكفر والمعاصي وكرر ذكر النعيم إذا ذكر المؤمنين مبالغة في الترغيب في الطاعات . وإنما عطف قوله ﴿ واضل ﴾ وهو (فعل) على قوله ﴿ فتعساً ﴾ وهو اسم ، لأن المعنى اتعسهم الله وأضل اعمالهم فلذلك حسن العطف .

ثم بين تعالى لم فعل ذلك ، فقال فعلنا ﴿ ذلك ﴾ جزاء لهم على معاصيهم ﴿ بأنهم كرهوا ما انزل الله ﴾ من القرآن والاحكام وأمرهم بالانقياد لها ، فخالفوا

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥ وسورة ٥٧ الحديد آية ١١

ذلك ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ من أجل ذلك أي حكم ببطلانها ، لأنها وقعت على خلاف الوجه المأمور به .

ثم نبههم على الاستدلال على صحة ما دعاهم اليه من توحيده وإخلاص العبادة له ، فقال ﴿ أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ حين أرسل الله اليهم الرسل فدعوهم إلى توحيده وإخلاص العبادة له ، فلم يقبلوا منهم وعصوهم وعملوا بخلافه ، فأهلكهم الله جزاء على ذلك ﴿ ودمر عليهم ﴾ مثل ما فعل بعاد وثمود وقوم لوط وأشباههم . ثم قال ﴿ وللكافرين ﴾ بك يا محمد إن لم يقبلوا ما تدعوهم اليه ﴿ أمثالها ﴾ أي امثال تلك العقوبات أي هم يستحقون مثلها ، وإنما يؤخر عذابهم تفضلا منه .

قوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ ٱلَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ

مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (١٥) ·

ست آيات بصري ، وخمس في ما عداه، عدّ البصريون ﴿ للشاربين ﴾ ولم يعده الباقون ·

قرأ ابن كثير ﴿ أسن ﴾ على وزن (فعل) · الباقون على وزن (فاعل) ومعناها واحد ، لان المعنى من ماء غير متغير ·

لما اخبر الله تعالى انه أهلك الامم الماضية بكفرهم وأن للكافرين أمثالها بين أنه لم كان كذلك ؟ فقال ﴿ ذلك ﴾ أي الذي فعلناه في الفريقين ﴿ بأن الله مولى الذين آمنوا ﴾ ينصرهم ويدفع عنهم لأن الله مولى كل مؤمن ﴿ وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ ينصرهم من عذابه إذا نزل بهم ولا أحد يدفع عنهم لا عاجلا ولا آجلا ·

ثم اخبر تعالى انه ﴿ يدخل الذين آمنوا ﴾ بتوحيده وصدقوا نبيه ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ مضافة اليها ﴿ جنات ﴾ أي بساتين تجنها الاشجار ﴿ تجري من تحتها الانهار ﴾ وقيل : ان أنهار الجنة في أخاديد من الارض ، فلذلك قال من تحتها ·

ثم قال ﴿ والذين كفروا ﴾ بتوحيده وكذبوا رسله ﴿ يتمتعون ﴾ في دار الدنيا ويلتذون فيها ﴿ ويأكلون ﴾ المآكل فيها ﴿ كما تأكل الانعام ﴾ أي مثل ما تأكل الانعام والبهائم ، لانهم لا يعتبرون ولا ينظرون ولا يفكرون ولا يفعلون ما أوجبه الله عليهم ، فهم بمنزلة البهائم · وقيل : إن المعنى بذلك الاخبار عن خستهم في أكلهم بأنهم يأكلون للشره والنهم ، لانهم جهال · ثم قال ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أي موضع مقامهم الذي يقيمون فيه ·

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله مهدداً لكفار قومه ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من

قريتك ﴾ يعني مكة ﴿ التي اخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ الآن فما الذي يؤمن هؤلاء أن يفعل بهم مثل ذلك . ومعنى (وكأين) (وكم) والأصل فيها (أي) قرية إلا أنها إذا لم تضف تؤنث . ثم قال على وجه التهجين للكفار والتوبيخ لهم ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أي حجة واضحة . قال قتادة : يعني محمداً ﷺ. وقال قوم : يعني به المؤمنين الذين عرفوا الله تعالى وأخلصوا العبادة ﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ من المعاصي زينها لهم الشيطان وأغواهم بها ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ أي شهواتهم فى ذلك ، وما تدعوهم اليه طباعهم .

ثم اخبر تعالى عن وصف الجنة التي وعد المتقين بها ، فقال ﴿ مثل الجنة ﴾ أي وصف الجنة ﴿ التي وعد المتقون ﴾ بها ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ أي غير متغير لطول المقام ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ لمثل ذلك ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ يلتذون بشربها ولا يتأذون بها ولا بعاقبتها ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ من كل أذى ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾ تلحقهم أي لا يلحقهم فى الجنة توبيخ بشيء من معاصيهم ، لان الله قد تفضل بسترها عليهم فصارت بمنزلة مالم يعمل بابطال حكمها .

وقوله ﴿ مثل الجنة ﴾ مرفوع بالابتداء ، وخبره محذوف ، وتقديره ما يتلى عليكم مثل الجنة التي وعد المتقون ، ولو جعل المثل مقحماً جاء الخبر المذكور عن الجنة كأنه قيل الجنة التي وعد المتقون فيها كذا وفيها كذا .

وقوله ﴿ كمن هو خالد فى النار ﴾ أي يتساوى من له نعيم الجنة على ما وصفناه ومن هو فى النار مؤبد ! ؟ ومع ذلك ﴿ سقوا ماء حميماً ﴾ أي حاراً ﴿ فقطع أمعاءهم ﴾ من حرارتها ، ولم يقل أمن هو فى الجنة لدلالة قوله ﴿ كمن هو خالد ﴾ عليه . وقيل : معنى قوله ﴿ كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميماً فقطع

امعاءهم ﴾ أي هل يكون صفتهما وحالهما سواء ؟ ! . ويتماثلان فيه ؟ ! فانه لايكون ذلك أبداً .

قولــه تعــالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (٢٠)

خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير فى احدى الروايتين ﴿ انفاً ﴾ على وزن (فعل) الباقون ﴿ آنفاً ﴾ بالمد على وزن (فاعل) قال ابو علي الفارسي : جعل ابن كثير ذلك مثل (حاذر ، وحذر . وفاكه ، وفكه) والوجه الرواية الأخرى .

حكى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله أن من الكفار من إذا جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله واستمع

لقراءة القرآن منه وسمع ما يؤديه إلى الحق من الوحي وما يدعوه اليه، فلا يصغي اليه ولا ينتفع به حتى إذا خرج من عنـده لم يدر ما سمعه ولا فهمه، ويسألون أهل العلم الذين آتاهم الله العلم والفهم من المؤمنين ﴿ ماذا قال آنفاً ﴾ اي أي شيء قال الساعة ؟ وقيل : معناه قريباً مبتدياً . وقيل : إنهم كانوا يتسمعون للخطبة يوم الجمعة وهم المنافقون ، والآنف الجائي باول المعنى ومنه الاستئناف ، وهو استقبال الأمر بأول المعنى ، ومنه الانف لأنه اول ما يبدو من صاحبه ، ومنه الأنفة رفع النفس عن أول الدخول فى الرتبة . وإنما قال ﴿ ومنهم من يستمع اليك ﴾ فرده إلى لفظة (من) وهي موحدة . ثم قال ﴿ حتى إذا خرجوا ﴾ بلفظ الجمع برده إلى المعنى ، لان (من) يقع على الواحد والجماعة .

ثم قال تعالى ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ أي وسم قلوبهم وجعل عليها علامة تدل على انهم كفار لا يؤمنون ، وهو كالختم وإن صاحبه لا يؤمن فطبع الله على قلوب هؤلاء الكفار ذماً لهم على كفرهم أي لكونهم عادلين عن الحق واخبر أنهم ﴿ اتبعوا ﴾ فى ذلـك ﴿ اهواءهم ﴾ وهو شهوة نفوسهم وما مال اليه طبعهم دون ما قامت عليه الحجة يقال : هوى يهوي هوى فهو هاو ، واستهواه هذا الأمر أي دعاه إلى الهوى .

ثم وصف تعالى المؤمنين فقال ﴿ والذين اهتدوا ﴾ إلى الحق ، ووصلوا إلى الهدى والايمان ﴿ زادهم هدى ﴾ فالضمير فى زادهم يحتمل ثلاثة اوجه :

احدها - زادهم الله هدى بما ينزل عليهم من الآيات والاحكام ، فاذا اقروا بها وعرفوها زادت معارفهم ،

الثاني - زادهم ما قال النبي صلى الله عليه وآله هدى .

الثالث - زادهم استهزاء المنافقين إيماناً .

والوجه في إضافة الزيادة في الهـدى إلى الله هو ما يفعله تعالى بهم من الألطاف التي تقوي دواعيهم إلى التمسك بما عرفوه من الحق وتصرفهم عن العدول إلى خلافه. ويكون ذلك تأكيداً لما علموه من الحق وصارفاً لهم عن تقليد الرؤساء من غير حجة ولا دلالة. ثم قال ﴿ وآتاهم ﴾ على زيادة الهدى ﴿ تقواهم ﴾ أي خوفاً من الله من معاصيه ومن ترك مفترضاته بما فعل بهم من الالطاف في ذلك. وقيل معناه ﴿ آتاهم ﴾ ثواب ﴿ تقواهم ﴾ ولا يجوز ان يكون المراد خلق لهم تقواهم لانه يبطل أن يكون فعلهم.

ثم قال ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة ﴾ أي ليس ينتظرون إلا القيامـة ﴿ أن تأتيهم بغتة ﴾ أي فجأة، فقوله ﴿ أن تأتيهم ﴾ بدل من الساعة، وتقديره إلا الساعة إتيانها بغتة، فان حذف الساعة كان التقدير هل ينظرون إلا إتيانهم الساعة بغتة. ثم قال تعالى ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ أي علاماتها. وقيل: منها إنشقاق القمر في وقت النبي صلى الله عليه وآله ومنها مجيء محمـد صلى الله عليه وآله بالآيات لأنه آخر الأنبياء، فالاشراط العلامات. واحدها شرط قال جرير:

ترى شرط المعزى مهور نسائهم وفي شرط المعزى لهن مهور (١)

وأشرط فلان لنفسه إذا علمها بعلامة، وقال أوس بن حجر:

فاشرط فيها نفسه وهو معصم والقى باسباب لهو توكلا (٢)

والفاء في قوله ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ عطف جملة على جملة فيها معنى الجزاء، والتقدير إن تأتهم بغتة، فقد جاء اشراطها. وقـد قرىء شاذاً عن أبي عمرو ﴿ الا إن ﴾ والقراءة بفتح (أن) وقال المبرد: هذا لا يجوز لأنه تعالى أخبر انه لا تأتي الساعة إلا بغتة، فكيف تعلق بشرط. وقال تعالى ﴿ فأنى لهم ﴾ أي من اين لهم ﴿ إذا

(١) الطبري ٢٦ / ٣٠ (٢) الطبري ٢٦ / ٣١

جاءتهم ﴾ يعني الساعة ﴿ ذكراهم ﴾ أي ما يذكرهم أعمالهم من خير او شر ، فانه لا ينفعهم فى ذلك الوقت الايمان والطاعات لزوال التكليف عنهم .

ثم قال لنبيه ﷺ والمراد به جميع المكلفين ﴿ فاعلم ﴾ يا محمد ﴿ أنه لا إله إلا الله ﴾ أي لا معبود يحق له العبادة إلا الله . وفي ذلك دلالة على ان المعرفة بالله اكتساب ، لأنها لو كانت ضرورية ، لما أمر بها ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ فالخطاب له والمراد به الأمة لأنه ﷺ لا ذنب له يستغفر منه ، ويجوز ان يكون ذلك على وجه الانقطاع اليه تعالى .

ثم قال ﴿ والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ أي الموضع الذي تتقلبون فيه وكيف تتقلبون وموضع استقراركم ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم طاعة كانت او معصية . وقيل : يعلم متقلبكم فى أسفاركم ومثواكم فى اوطانكم ، وقيل : متقلبكم فى أعمالكم ومثواكم فى نومكم .

ثم قال تعالى حكاية عن المؤمنين أنهم كانوا يقولون ﴿ لولا نزلت سورة ﴾ أي هلا نزلت سورة لانهم كانوا يأنسون بنزول الوحي ويستوحشون من ابطائه فقال الله تعالى حاكيا عن حالهم عند نزول السورة فقال ﴿ وإذا أنزلت سورة محكمة ﴾ أي ليس فيها متشابه ولا تأويل ﴿ وذكر فيها القتال ﴾ أي أوجب عليهم القتال ﴿ رأيت الذين فى قلوبهم مرض ﴾ أي نفاق وشك ﴿ ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت ﴾ لثقل ذلك عليهم وعظمه فى نفوسهم ﴿ فأولى لهم ﴾ قال قتادة : هو وعيد ، وكأنه قال العقاب اولى بهم ، وهو ما يقتضيه قبح أحوالهم . وروي عن ابن عباس ، انه قال : قال الله تعالى ﴿ فأولى ﴾ ثم استأنف فقال ﴿ لهم طاعة وقول معروف ﴾ يعني المؤمنين فصارت أولى للذين فى قلوبهم مرض . وقيل : المعنى ﴿ أولى لهم طاعة وقول معروف ﴾ من أن يجزعوا عن فرض الجهاد

عليهم . وقال الجبائي : معنى الكلام ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم أن يعاقبوا ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ في ما أمرهم به ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ ودخل بين الكلامين ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ وليس من قصته وإنما هي من صفة المؤمن يأمره الله أن يطيعه ، ويقول له قولا معروفاً . وقرأ ابن مسعود « سورة محدثة » وهو شاذ .

قوله تعالى :

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابو عمرو « وأملي لهم » على ما لم يسم فاعله . الباقون « وأملى لهم » بمعنى الشيطان أملى لهم ويجوز أن يريد ان الله أملى لهم كما قال « إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم » (١) وقرأ يعقوب مثل أبي عمرو إلا انه أسكن الياء بمعنى الاخبار عن الله عن نفسه وابو عمرو جعله لما لم يسم فاعله . وقرأ رويس « توليتم » بضم التاء والواو وكسر اللام . الباقون بفتحهما . وقوله « طاعة وقول معروف » قيل في معناه قولان :

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٨

احدهما - قولوا أمرنا طاعة وقول معروف . قال مجاهد أمر الله بذلك المنافقين . وقيل هو حكاية عنهم أنهم يقولون « طاعة وقول معروف » مثل فرض الجهاد . لأنه يقتضيه قوله « فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » .

الثاني - طاعة وقول معروف أمثل أي اولى بالحق من أقوال هؤلاء المنافقين وقيل : طاعة وقول معروف خير لهم من جزعهم عند نزول فرض الجهاد - ذكره الحسن - والطاعة موافقه الارادة الداعية إلى الفعل بطريق الترغيب فيه . والقول المعروف هو القول الحسن ، وسمي بذلك لأنه معروف صحته ، وكذلك الأمر بالمعروف أي المعروف أنه حق . والباطل منكر ، لانه تنكر صحته ، فعلى هذا المعنى وقع الاعتراف والانكار .

وقوله « فاذا عزم الأمر » معناه اذا انعقد الأمر بالارادة انه يفعله فاذا عقد على انه يفعل قيل عزم الأمر على طريق البلاغة . وقيل معنى عزم أي جد الأمر «فلو صدقوا الله» يعني في ما أمرهم به من القتال وامتثلوا أمره «لكان خيراً لهم» لأنهم كانوا يصلون إلى نعيم الأبد .

ثم خاطبهم فقال « فهل عسيتم » يا معشر المنافقين أن توليتم . وقيل في معناه قولان :

احدهما - « إن توليتم » الاحكام وجعلتم ولاة « أن تفسدوا » في الارض بأخذ الرشا . وقيل أن اعرضتم عن كتاب الله ان تعودوا إلى ما كنتم من أمر الجاهلية أن يقتل بعضكم بعضاً كما كنتم تفعلونه .

والثاني - ان وليتم الأمر أن يقطع بعضكم رحم بعض ، ويقتل بعضكم بعضاً كما قتلت قريش بني هاشم . وقتل بعضهم بعضاً . وقيل المعنى ان اعرضتم عن كتاب الله والعمل بما فيه من وجوب القتال « أن تفسدوا في الارض » بان

تعملوا فيها بالمعاصي « وتقطعوا أرحامكم » فلا تصلونها ، فان الله تعالى يعاقبكم عليه بعذاب الأبد ويلعنكم .

ثم قال « أولئك الذين لعنهم الله » أي أبعدهم الله عن رحمته « فأصمهم وأعمى ابصارهم » أي سماهم عمياً وصماً ، وحكم عليهم بذلك ، لانهم بمنزلة الصم والعمي من حيث لم يهتدوا إلى الحق ولا أبصروا الرشد ، ولم يرد الاصمام في الجارحة والاعماء في العين ، لانهم كانوا بخلافه صحيحي العين صحيحي السمع .

ثم قال موبخاً لهم « افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » معناه أفلا يتدبرون القرآن بأن يتفكروا فيه ويعتبروا به أم على قلوبهم قفل يمنعهم من ذلك تنبيهاً لهم على ان الأمر بخلافه . وليس عليها ما يمنع من التدبر والتفكر والتدبر في النظر في موجب الأمر وعاقبته ، وعلى هذا دعاهم الى تدّبر القرآن .

وفي ذلك حجة على بطلان قول من يقول لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع .

وفيه تنبيه على بطلان قول الجهال من اصحاب الحديث انه ينبغي ان يروى الحديث على ما جاء وإن كان مختلا في المعنى ، لأن الله تعالى دعا إلى التدبر والتفقه وذلك مناف للتجاهل والتعامي .

ثم قال « إن الذين ارتدوا على ادبارهم » أي رجعوا عن الحق والايمان « من بعد ما تبين لهم الهدى » أي ظهر لهم الطريق الواضح المفضي إلى الجنة . وليس في ذلك ما يدل على ان المؤمن على الحقيقة يجوز ان يرتد ، لأنه لا يمتنع ان يكون المراد من رجع عن إظهار الايمان بعد وضوح الأمر فيه وقيام الحجة بصحته . ثم قال « الشيطان سوّل لهم » أي زين لهم ذلك . وقيل : معناه أعطاهم سؤلهم من خطاياهم « وأملى لهم » أي أمهلهم الشيطان ، وأملى لهم بالاطماع والاغترار .

وقيل : المعنى واملى الله لهم أي اخرهم فاغتروا بذلك . ومن قرأ ـ على ما لم يسم فاعله ـ احتمل الامرين ايضاً .

وقيل الآية نزلت فى اليهود ، لأنهم عرفوا صفات النبي صلى الله عليه وآله فى التوراة فلما جاءهم كفروا به . وقيل نزلت فى المنافقين حين صدوا عن القتال معه من بعد ما علموا وجوبه فى القرآن .

قوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « إسرارهم » بكسر الهمزة على انه مصدر . الباقون بفتحها على انه جمع سر .

لما اخبر الله تعالى عن حال المرتدين على اعقابهم والراجعين عن إظهار الحق خلافه ، بين لم فعلوا ذلك ، فقال « ذلك بأنهم » يعني الشياطين « قالوا للذين كرهوا ما انزل الله » من القرآن وما أمرهم به من الأمر والنهي والحلال والحرام

وشبهوا عليهم ذلك ومالوا إلى خلافه . وقيل : هذا قول اليهود المنافقين « سنطيعكم في بعض الأمر » أي نفعل بعض ما تريدونه من الميل اليكم وإعطاء شهواتكم .

ثم قال « والله يعلم اسرارهم » أي بواطنهم ـ فمن فتح الهمزة ، ومن كسرها ـ أراد يعلم ما يسرونه . ثم قال « فكيف إذا توفتهم الملائكة » والمعنى كيف حالهم إذا توفتهم الملائكة وحذف تفخيماً لشأن ما ينزل بهم « يضربون وجوههم وأدبارهم » على وجه العقوبة لهم في القبر ويوم القيامة .

ثم بين تعالى لم يفعل الملائكة بهم ذلك ، فقال « ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله » يعني المعاصي التي يكرهها الله ويعاقب عليها « وكرهوا رضوانه » أي كرهوا سبب رضوانه من الايمان والطاعات والامتناع من القبائح « فأحبط أعمالهم » أي حكم بأنها باطلة محبطة لا يستحق عليها الثواب .

ثم قال « أم حسب الذين في قلوبهم مرض » أي نفاق وشك يظنون « أن ان يخرج الله اضغانهم » أي احقادهم مع المؤمنين ولا يظهرها ولا يبدي عوراتهم للنبي صلى الله عليه وآله « ولو نشاء لأريناكهم » يعني المنافقين بأعيانهم ، ولو شئت لعرفتكهم حتى تعرفهم . ثم قال « فلعرفتهم بسيماهم » أي بعلاماتهم التي نصبها الله لكم ، يعرفهم بها يعني الامارات الدالة على سوء نياتهم . ثم قال « ولتعرفنهم في لحن القول » أي في فحوى أقوالهم ومتضمنها . ومنه قوله صلى الله عليه وآله (ولعل بعضكم ألحن بحجته) أي أذهب بها في الجهات لقوته على تصريف الكلام ، واللحن الذهاب عن الصواب في الاعراب ، واللحن ذهاب الكلام إلى خلاف جهته . ثم قال « والله يعلم أعمالكم » الطاعات منها والمعاصي ، فيجازيكم بحسبها .

قوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَاقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٣٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو بكر عن عاصم « وليبلونكم حتى يعلم .... ويبلو أخباركم » بالياء فيهن رداً على اسم الله في قوله « والله يعلم أعمالكم » الباقون بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه . وقرأ حمزة وابو بكر عن عاصم « إلى السلم » بكسر السين . الباقون بفتحها ، وهما لغتنان على ما بيناه في ما تقدم في الاسلام والمصالحة(١)

يقول الله تعالى مقسماً إنا نبلو هؤلاء الكفار ، ومعناه نختبرهم بما نكلفهم من الامور الشاقة ، فالابتلا والاختبار واحد . وقوله « حتى نعلم المجاهدين منكم » قيل في معناه قولان :

احدها ـ حتى نعلم جهادكم موجوداً لأن الغرض ان تفعلوا الجهاد فيثيبكم

(١) انظر ٥ / ١٧٥

على ذلك ، لانكم لا تستحقون الثواب على ما يعلم الله انه يكون .

الثاني ـ حتى نعاملكم معاملة من كأنه يطلب ان يعلم .

وقيل : معناه حتى يعلم أوليائي المجاهدين منكم ، وأضافه إلى نفسه تعظيماً لهم وتشريفاً ، كما قال « إن الذين يؤذون الله ورسوله » (١) يعني يؤذن أولياء الله . وقيل: معناه حتى يتميز المعلوم في نفسه ، لأنهم إنما يتميزون بفعل الايمان . وقيل : المعنى حتى تعلموا أنتم ، واضافه إلى نفسه تحسناً كما أن الانسان العالم إذا خولف في ان النار تحرق الحطب يحسن ان يقول : نجمع بين النار والحطب لنعلم هل تحرق ام لا ، ولا يجوز ان يكون المراد حتى نعلم بعد ان لم نكن عالمين ، لانه تعالى عالم في ما لم يزل بالأشياء كلها ، ولو تجدد كونه عالماً لاحتاج إلى علم محدث كالواحد منا وذلك لا يجوز أن يكون غرضاً بالتكليف ، لكن يجوز ان يكون الغرض ظهور حق الذم على الاساءة ، وإنما جاز في وصف الله الابتلاء ، لأن المعنى انه يعامل معاملة المبتلي المختبر مظاهرة في العدل بالجزاء لها . والجهاد احتمال المشقة في قتال المشركين واعداء دين الله . وافضل الأعمال علم الدين ، والجهاد في سبيل الله ، لأن علم الدين به يصح العمل بالحق والدعاء اليه . والجهاد داع إلى الحق مع المشقة فيه . والصابر هو الحابس نفسه عما لا يحل له . وهي صفة مدح . ومع ذلك ففيها دليل على حاجة الموصوف بها ، لأنه إنما يحبس نفسه ويمنعها مما تشتهيه او تنازع اليه من القبيح « ونبلو أخباركم » أي نختبر اخباركم ونعلم المطيع من العاصي .

ثم اخبر تعالى « إن الذين كفروا » بوحدانيته وجحدوا نبوة نبيه « وصدوا » أي منعوا غيرهم « عن » إتباع « سبيل الله » بالقهر تارة وبالاغراء أخرى « وشاقوا الرسول » أي عاندوه وباعدوه بمعاداته « من بعدما تبين لهم الهدى » ووضح لهم

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آيه ٥٧

سبيله « لن يضروا الله » بذلك « شيئاً » وإنما ضروا نفوسهم « وسيحبط اعمالهم » ويستحقون عليها العقاب . والهدى الدلالة المؤدية إلى الحق . والهادي الدال على الحق وفي الآية دلالة على أن هؤلاء الكفار كان قد تبين لهم الهدى فارتدوا عنه او يكون ظهر لهم أمر النبي ، فلم يقبلوه . وقيل : تبين لهم الهدى ، لأنهم كانوا قد عرفوا الايمان ورجعوا عنه .

ثم خاطب المؤمنين فقال « يا ايها الذين آمنوا » بالله وصدقوا رسوله « اطيعوا الله وأطيعوا الرسول » أي افعلوا الطاعات التي أمركم الله بهـا وامركم بها رسوله « ولا تبطلوا اعمالكم » بأن توقعوها على خلاف الوجه المأمور به فيبطل ثوابكم عليها وتستحقون العقاب .

ثم اخبر تعالى فقال « إن الذين كفروا » أي جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله « وصدوا عن سبيل الله » بالمنع والاغراء والدعاء إلى غيره « ثم ماتوا وهم كفار » أي في حال كفرهم « فلن يغفر الله لهم » معاصيهم بل يعاقبهم عليها . ثم قال « فلا تهنوا » أي لا تتوانوا . وقال مجاهد وابن زيد : لا تضعفوا « وتدعوا إلى السلم » يعني المصالحة « وأنتم الأعلون » أي وانتم القاهرون الغالبون - في قول مجاهد - « والله معكم » اي ناصركم والدافع عنكم فلا تميلوا مع ذلك إلى الصلح والمسالمة بل جاهدوا واصبروا عليه . وقوله « ولن يتركم اعمالــكم » أي لن ينقصكم اجور اعمالكم يقال : وتره يتره وتراً إذا أنقصه . وهو قول مجاهد . وقال ابن عباس وقتادة وابن زيد والضحاك : لن يظلمكم واصله القطع ، فمنه البتر القطع بالقتل . ومنه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره . وقوله « وتدعوا » يجوز ان يكون جراً عطفاً على « تهنوا » أي لا تهنوا ولا تدعوا إلى السلم ، ويجوز ان يكون في موضع نصب على الظرف (١)

(١) المقصود من (الظرف) واو المعصية الذي تضمر (ان) بعدها

قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (٣٨) ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مزهداً لخلقه في الانعكاف على الدنيا ، ومرغباً لهم في التوفر على عمل الآخرة ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ وإنما زهدهم في الدنيا لكونها فانية ورغبهم في الآخرة لكونها باقية ، فمن اختار الفاني على الباقي كان جاهلا ومنقوصاً ومعنى ﴿ الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ أي ذات لعب ولهو ، لأن غالب أمر الناس في الدنيا اللعب واللهو، وذلك عبث وغرور وانصراف عن الحد الذي يدوم به السرور والحبور . وقيل : شبهت باللعب واللهو لانقطاعها عن صاحبها بسرعة ، فالتقدير على هذا إنما الحياة الدنيا كاللعب واللهو في سرعة الانقضاء ، والآخرة كالحقيقة في اللزوم والامتداد ، فاحداها كالحقيقة ، والأخرى كالمخرقة . ثم قال ﴿ وإن تؤمنوا ﴾ بوحدانيته وتصديق رسوله ﴿ وتتقوا ﴾ معاصيه ﴿ يؤتكم أجوركم ﴾ على ذلك وثوابكم على طاعتكم ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾ أن تدفعوها اليه . وقيل ﴿ لا يسألكم أموالكم ﴾ كلها وإن أوجب عليكم الزكاة في بعض أموالكم . وقيل المعنى ﴿ لا يسألكم أموالكم ﴾ بل أمواله ، لأنه تعالى مالكها والمنعم بها .

ثم بين تعالى لم لايسألـهم أموالهم ، فقال ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾ فالاحفاء الالحاح فى المسألة حتى ينتهى إلى مثل الحفاء ، والمشي بغير حذاء ، احفاه بالمسألة يحفيه إحفاء . وقيل الاحفاء طلب الجميع ﴿ تبخلوا ﴾ أي تمنعونه . والبخل قال قوم : هو منع الواجب . وقال الرماني : البخل منع النفع الذي هو أولى فى العقـل ، قال : ومن زعم أن البخل منع الواجب عورض بأن البخل منع ما يستحق بمنعه الذم ، لأن البخيل مذموم بلا خلاف ، وقد يمنع الواجب الصغير فلا يجوز وصفه بأنه بخيل ﴿ ويخرج أضغانكم ﴾ لأن في سؤال الأموال بالاحفـاء خروج الاضغان وهي الاحقاد التي فى القلوب والعداوات الباطنة. وقيل (الاضغان) هي المشاق التي فى القلوب ،ولذلك ذكر الاخراج . وقيل : ويخرج الله المشقة التي في قلوبكم بسؤال أموالكم . وإنما قدم المخاطب على الغائب فى قوله ﴿ أن يسألكموها ﴾ لأنه ابتداء بالاقرب مع انه المفعول الاول ، ويجوز مع الظاهر أن يسألها جماعتكم ، لأنه غائب مع غائب ، فالمتصل أولى بأن يليه من المنفصل .

ثم قال ﴿ ها انتم هؤلاء ﴾ وإنما كرر التنبيه فى موضعين للتوكـيد ، فقال ﴿ ها أنتم هؤلاء ﴾ وقيل (ها) للتقريب ، ودخل على المضمر لمشاكلة(اليهم) في انه معرفة تصلح صيغته لكل مكنى عنه على جهة جماعة المخاطب ، كما يصلح (هؤلاء) لكل خاص مشار اليه ، ولم يجز مع الظاهر لبعده من المبهم . وقال بعضهم : العرب إذازادت التقريب جعلت المكنى بين(ها) و بين (ذا)، فيقولون ما أنت ذا قائماً ، لان التقريب جواب الكلام فربما اعادت (ها) مع (ذا) وربما اجتزأت بالاولى وحذفت الثانية ، ولا يقدمون (أنتم) على (ها) لأن (ها) جواب ، فلا يقرب بها بعد الكلمة . وقوله ﴿ تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ﴾ لينيلكم الجزيل من ثوابه وهو غني عنكم وعن جميع خلقه ﴿ فمنكم من يبخل ﴾ فلا ينفق ماله فى سبيل الله .

ثم قال ﴿ ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ﴾ أي عن داعي نفسه ، لا عن داعي ربه لأن الله قد صرفه عن البخل بالنهي عنه والذم له . ثم قال ﴿ والله الغني ﴾ الذي ليس بمحتاج لا اليكم ولا إلى احد ﴿ وانتم الفقراء اليه وإن تتولوا ﴾ أي ان تعرضوا عن أمره ونهيه ولا تقبلونهما ، ولا تعملون بما فيهما ﴿ يستبدل قوماً غيركم ﴾ قال قوم يستبدل الله بهم من فى المعلوم أنهم يخلقون بعد ، ويجوز أن يكونوا من الملائكة وقيل : هم قوم من اليمن ، وهم الانصار . وقيل : مثل سلمان واشباهه من ابناء فارس ، ولم يجز الزجاج أن يستبدل الملائكة ، لانه لا يعبر بالقوم عن الملائكة ، لا يكونوا أمثالكم ، لأنهم يكونون مؤمنين مطيعين ، وأنتم كفار عاصون . وقال الطبري لا يكونوا أمثالكم فى البخل والانفاق فى سبيل الله ، ولما نزلت هذه الآية فرح النبي ﷺ وقال : هي أحب إلي من الدنيا .

٤٨ ـ سورة الفتح

مدنية بلا خلاف وهي تسع وعشرون آية بلا خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣) هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤) لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذٰلِكَ عِنْدَ ٱللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (٥)

خمس آيات .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ قال البلخي : الفتح يكون في القتال وبالصلح ، وباقامة الحجج ، ويكون المعنى ﴿إنا فتحنا لك﴾ بحجج الله وآياته ﴿فتحاً مبيناً﴾ لينصرك الله بذلك على من ناواك . وقال قتادة : نزلت

هذه الآية عند رجوع النبي صلى الله عليه وآله من الحديبية، بشر في ذلك الوقت بفتح مكة، وتقديره ﴿ إنا فتحنا لك ﴾ مكة. وقال البلخي عن الشعبي في وقت الحديبية بويع النبي صلى الله عليه وآله بيعة الرضوان، وأطعموا نخيل خيبر، وظهرت الروم على فارس، وبلغ الهدي محله. والحديبية بئر، فروي انها غارت فمج النبي صلى الله عليه وآله فيها فظهر ماؤها حتى امتلاءت به. وقال قتادة: معنى ﴿فتحنا﴾ قضينا لك بالنصر. وقيل: معناه اعلمناك علماً ظاهراً في ما أنزلناه عليك من القرآن واخبرناك به من الدين، وسمي العلم فتحاً، كما قال ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ (١) أي علم الغيب. وقال ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ (٢) وقال الزجاج: معناه ارشدناك إلى الاسلام، وفتحنا لك الدين بدلالة قوله ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ (٣) وقال مجاهد ﴿ فتحنا لك فتحاً مبينا ﴾ يعني نحره بالحديبية وحلقه. وقال قتادة: معناه قضينا لك قضاء بيناً. وفي الحديبية مضمض رسول الله صلى الله عليه وآله في البئر وقد غارت فجاشت بالرواء. والفتح هو القضاء من قولهم: اللهم أفتح لي. وقوله تعالى ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ (٤) والفتح الفرج المزيل للهم. ومنه فتح المسألة إذا انفرجت عن بيان ما يؤدي إلى المطلوب، ومنه فتح عليه القراءة، لانه متعلق بالسهو، وينفتح بالذكر والفتح المبين هو الظاهر، وكذلك جرى فتح مكة.

وقوله ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ قيل جعل غفرانه جزاء عن ثوابه على جهاده في فتح مكة. وقيل في معناه اقوال:

(١) سورة ٦ الانعام آية ٥٩ (٢) سورة ٨ الانفال آية ١٩

(٣) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٧٣ (٤) سورة ٧ الاعراف آية ٨٨

احدها - ما تقدم من معاصيك قبل النبوة وما تأخر عنها .

الثاني - ما تقدم قبل الفتح وما تأخر عنه .

الثالث - ما قد وقع منك وما لم يقع على طريق الوعد بأنه يغفره له إذا كان .

الرابع - ما تقدم من ذنب أبيك آدم ، وما تأخر عنه .

وهذه الوجوه كلها لا تجوز عندنا ، لأن الانبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم فعل شيء من القبيح لاقبل النبوة ولا بعدها ، لاصغيرها ولا كبيرها فلا يمكن حمل الآية على شيء مما قالوه ، ولا صرفها إلى آدم لان الكلام فيه كالكلام في نبينا محمد صلى الله عليه وآله ومن حمل الآية على الصغائر التي تقع محبطة فقوله فاسد ، لأنا قد بينا أن شيئاً من القبائح لا يجوز عليهم بحال . على ان الصغائر تقع مكفرة محبطة لايثبت عقابها ، فكيف يمتن الله تعالى على النبي صلى الله عليه وآله أنه يغفرها له وهو تعالى لو آخذه بها لكان ظالماً وإنما يصح التمدح بما له المؤاخذة أو العفو عنه ، فاذا غفر استحق بذلك الشكر . وللاية وجهان من التأويل :

احدها - ليغفر لك ما تقدم من ذنب امتك . ما تأخر بشفاعتك ولمكانك . وأضاف الذنب إلى النبي وأراد به أمته ، كما قال ﴿ واسأل القرية ﴾ (١) يريد اهل القرية فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه وذلك جائز لقيام الدلالة عليه ، كما قال ﴿ وجاء ربك ﴾ (٢) والمراد وجاء أمر ربك .

الثاني - أراد يغفر ما اذنبه قومك اليك من صدهم لك عن الدخول إلى مكة في سنة الحديبية ، فازال الله ذلك وستر عليك تلك الوصمة بما فتح عليك من مكة ودخلتها في ما بعد ، ولذلك جعله جزاء على جهاده في الدخول إلى مكة . والذنب مصدر تارة يضاف إلى الفاعل وتارة إلى المفعول ، فيكون - ههنا - مضافاً

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٨٢ (٢) سورة ٨٩ الفجر آية ٢٢

إلى المفعول . والذنب وإن كان غير متعدّ إلى مفعول جاز ان يحمل على المصدر الذي هو في معناه، والصد متعد كما قال الشاعر :

جئني بمثل بني بدر لقومهم　　او مثل اسرة منظور بن سيار (١)

لما كان معنى جئني هات أعطني عطف او (مثل) على المعنى فنصبه ، ومثله كثير في اللغة .

وقوله ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ فاتمام النعمة فعل ما يقتضيها من تبقيتها على صاحبها والزيادة منها ، فالله تعالى قد أنعم على النبي صلى الله عليه وآله وتممها بنصره على اعدائه الرادين لها المكذبين بها حتى علا بالحجة والقهر لكل من ناواه . وقيل يتم نعمته عليك بفتح مكة وخيبر والطائف . وقيل بخضوع من تكبر وطاعة من تجبر .

وقوله ﴿ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ أي يرشدك إلى الطريق الذي إذا سلكته أداك إلى الجنة . لا يعدل بك إلى غيرها ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ فالنصر العزيز هو الذي يمنع من كل جبار عنيد وعات أثيم . وقد فعل الله تعالى ذلك بنبيه محمد صلى الله عليه وآله فصار دينه أعز الاديان وسلطانه أعظم السلطان .

وقوله ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴾ وهو ما يفعل الله تعالى بهم من اللطف الذي يحصل لهم عنده بصيرة بالحق تسكن اليها نفوسهم ويجدون الثقة بها بكثرة ما ينصب الله لهم من الأدلة الدالة على الحق فهذه النعمة التامة للمؤمنين خاصة . فأما غيرهم فتضطرب نفوسهم لاول عارض من شبهة ترد عليهم ، لانهم لايجدون برد اليقين في قلوبهم . وقيل : السكينة ما تسكن اليه قلوبهم من التعظيم لله ورسوله والوفاء له .

وقوله ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ أي ليزدادوا معارف أخر بما أوجب

(١) قد مر في ٣ / ٤٥٥ و ٦ / ٣٠

الله عليهم زيادة على المعرفة الحاصلة ، فبين الله تعالى ما لنبيه عنده وللمؤمنين ليزدادوا ثقة بوعده . وقوله ﴿ ولله جنود السموات والارض ﴾ قيل : معناه انصار دينه ينتقم بهم من اعدائه . وقيل : معناه إن جميع الجنود عبيده ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بالاشياء قبل كونها وعالماً بعد كونها ﴿ حكيماً ﴾ في افعاله لانها كلها محكمة وصواب .

وقوله ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار ﴾ إنما لم يدخل واو العطف في (ليدخل) اعلاماً بالتفصيل ، كأنه قال إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ، إنا فتحنا لك فتحاً ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات أي بساتين تجري من تحت اشجارها الانهار « خالدين فيها » أي مؤبدين لا يزول عنهم نعيمها ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ أي عقاب معاصيهم التي فعلوها في دار الدنيا ﴿ وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ أي الظفر ، والصلاح بما طلبوه من الثواب العظيم .

قوله تعالى :

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (١٠) خمس آيات .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ﴿ دائرة السوء ﴾ بضم السين . الباقون بفتحها ، وقد فسرناه في ما تقـدم . فالسوء المصدر والسوء الاسم . وقال قوم ـ بالفتح ـ الفساد مثـل قوله ﴿ وظننتم ظن السوء ﴾ لأنهم ظنوا أن النبي ﷺ لا يعود إلى موضع ولادته أبداً . وقرأ ابن كثير وابو عمرو ﴿ ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه ﴾ بالياء أربعهن ، على وجه الاخبار من الله عز وجل عن نفسه .

لما اخبر الله تعالى عن نفسه أنه يدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ، ووصفها اخبر في هذه الآية انه يعذب المنافقين والمنافقات وهم الذين يظهرون الايمان ويبطنون الشرك . والنفاق إسرار الكفر وإظهار الايمان ، فكل نفاق هو إظهار خلاف الابطان . وأصله من نافقاء اليربوع ، وهو أن يجعل لسربه بابين يظهر أحدهما ويخفي الآخر ، فاذا أتي من الظاهر خرج من الآخر ، فالمنافق يقوي الباطل على الحق بالظن له ، وإلقاء خلافـه لتضييعه الدليل المؤدي اليه ، ﴿ والمشركين والمشركات ﴾ وهم الذين يعبدون مع الله غيره ، ويدخل في ذلك جميع الكفار . ثم وصفهم فقال ﴿ الظانين بالله ﴾ يعني الذين يظنون بالله ﴿ ظن السوء ﴾ أي يتوهمون ان الله ينصرهم على رسوله ، وذاك قبيح لا يجوز وصف الله بذلك . ثم قال تعالى ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ فالدائرة هي الراجعة بخير او شرّ قال حميد بن ثور :

ودائرات الدهر ان تدورا (١)

ومن قرأ ﴿ دائرة السوء ﴾ بضم السين ـ أراد دائرة العذاب . ومن قرأ ـ بالفتح ـ أراد ما عاد عليهم من قتـل المؤمنين وغنمهم أموالهم ، فهذا حسن . وقيل ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أي جزاء ظنهم السوء من العذاب . ومن ضم اراد الشر . ويقال : رجل سوء ـ بالفتح ـ أي رجل فساد . ثم قال ﴿ وغضب الله

(١) قد مر في ٣ / ٥٤٣ او ٥٥١

عليهم﴾ أي لعنه لهم وعذابه ﴿ولعنهم﴾ أي أبعدهم من رحمته. وقوله ﴿وأعد لهم جهنم﴾ يجعلهم فيها.

ثم قال ﴿وساءت مصيراً﴾ أي ساءت جهنم مآلا ومرجعاً، لما فيها من انواع العقاب.

وقوله ﴿ولله جنود السموات والارض وكان الله عزيز حكيماً﴾ قد فسرناه، وإنما أعيد ذكر ﴿ولله جنود .....﴾ لأنه متصل بذكر المنافقين أي وله الجنود التي يقدر على الانتقام منكم بها، وذكر أولا، لأنه متصل بذكر المؤمنين أي له الجنود التي يقدر ان يغنيكم بها. والعزيز القادر الذي لا يقهر. وقيل ﴿هو العزيز﴾ في إنتقامه من أعدائه «الحكيم» في جميع أفعاله. ثم خاطب نبيه محمد صلى الله عليه وآله فقال «إنا أرسلناك» يا محمد «شاهداً» يعني على أمتك بالبلاغ والدعاء إلى إخلاص عبادته، أو شاهداً بما عملوه من طاعة ومعصية (وشاهداً) نصب على حال مقدر على القول الأول، وعلى حال غير مقدرة على القول الثاني. (ومبشراً) نصب على الحال الحاصلة. والمعنى ومبشراً بالجنة لمن أطاع «ونذيراً» أي مخوفاً من النار لمن عصى - ذكره قتادة - ثم بين الغرض بالارسال، فقال: أرسلناك بهذه الصفة «لتؤمنوا» ومن قرأ - بالياء - أي ليؤمنوا هؤلاء الكفار «بالله». ومن قرأ - بالتاء - وجه الخطاب إلى الخلق أي أرسلته اليكم «لتؤمنوا بالله» فتوحدوه «ورسوله» فتصدقوه و «تعزروه» أي تنصروه، فالهاء راجعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال المبرد: معنى (تعزروه) تعظموه يقال: عزرت الرجل إذا كبرته بلسانك «وتوقروه» أي تعظموه يعني النبي صلى الله عليه وآله - في قول قتادة - وقال ابن عباس (تعزروه) من الاجلال (وتوقروه) من الاعظام.

وقوله «وتسبحوه» يعني الله تعالى أي تنزهوه عما لا يليق به «بكرة

واصيلا » أي بالغداة والعشي . وقيل معناه تصلوا له بالغدوات والعشيات .

وقوله « لتؤمنوا بالله ورسوله » فيه دلالة على بطلان قول المجبرة إن الله تعالى يريد من الكفار الكفر ، لأنه تعالى بين انه أراد من جميع المكلفين الطاعة ، ولم يرد أن يعصوا .

ثم قال « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » فالمراد بالبيعة المذكورة ـ ههنا ـ بيعة الحديبية ، وهي بيعة الرضوان ـ في قول قتادة ومجاهد ـ والمبايعة معاقدة على السمع والطاعة ، كالمعاقدة في البيع والشراء بما قد مضى فلا يجوز الرجوع فيه . وقيل : إنها معاقدة على بيع أنفسهم بالجنة للزومهم في الحرب النصرة .

وقوله « يد الله فوق أيديهم » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ عقد الله في هذه البيعة فوق عقدهم لأنهم بايعوا الله ببيعة نبيه صلى الله عليه وآله

والآخر ـ قوة الله في نصرة نبيه صلى الله عليه وآله فوق نصرتهم .

وقيل يد الله في هدايتهم ، فوق أيديهم بالطاعة .

وقوله « فمن نكث فانما ينكث على نفسه » والنكث النقض للعقد الذي يلزم الوفاء به ، فبين تعالى أن من نقض هذه المبايعة ، فانما ينكث على نفسه ، لان ما في ذلك من استحقاق العقاب عائد عليه « ومن أوفى » يقال : اوفى بالعقد ، ووفى . وأوفى لغة الحجاز ، وهي لغة القرآن « بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » أي إذا اوفى بالبيعة و نصر دينه ونبيه آتاه الله في ما بعد أجراً عظيماً وثواباً جزيلا . ومن ضم الهاء في « عليه » وهو حفص ، فلأنها الأصل . ومن كسرها فللمجاورة للياء

قولـه تعـالى :

« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا

فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ ٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِٱللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً (١٣) وَلِلهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذٰلِكُمْ قَالَ ٱللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١٥)

خمس آيات .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « كلم الله » على الجمع . الباقون « كلام الله » على التوحيد ، لانه يدل على الكثير من حيث هو اسم جنس ، قال ابو علي « كلام الله » يقع على ما يفيد ، والكلم يقع أيضاً على الكلام ، وعلى ما لا يفيد والكلم جمع كلمة .

وقرأ حمزة والكسائي « ضراً » بالفتح . الباقون بالضم . فمن قرأ - بالفتح - أراد المصدر . ومن قرأ بالضم أراد الاسم . وقيل بالفتح ضد النفع وبالضم سوء

الحال ، كقوله « مسني الضر » (١) ويقال : ضرني الشيء وأضرني ، ولا يقال : أضر بي ، وضره يضره وضاره يضيره بمعنى واحد .

هذا اخبار عن الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله انه « سيقول الك » يا محمد « المخلفون من الاعراب » قال ابن اسحاق ومجاهد : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله الخروج إلى مكة عام الحديبية أحرم بعمرة ودعا الاعراب الذين حول المدنية إلى الخروج ، فتثاقلوا : أسلم وغفار وجهينة ومزينة، فاخبر الله تعالى بذلك . والمخلف هو المتروك في المكان خلف الخارجين عن البلد ، وهو مشتق من المتخلف وضده المتقدم . تقول خلفته كما تقول قدمته تقديماً ، وإنما تخلفوا لتثاقلهم عن الجهاد وإن اعتذروا بشغل الأموال والاولاد . والاعراب الجماعة من عرب البادية ، وعرب الحاضرة ليسوا بأعراب ، ففرقوا بينهما ، وإن كان اللسان واحد .

وقوله « شغلتنا أموالنا وأهلونا » أخبار بما اعتلوا به ، فالشغل قطع العمل عن عمل ، لا يمكن الجمع بينهما لتنافي أسبابهما كالكتابة والرمي عن القوس والله لا يشغله شأن عن شأن لانه لا يعمل بآلة . وقوله « فاستغفر لنا » حكاية ما قالوه للنبي وسألوه أن يستغفر لهم والاستغفار طلب المغفرة بالدعاء مع التوبة عن المعاصي فهؤلاء سألوا الدعاء بالمغفرة ، وفي قلوبهم خلاف ما أظهروه بافواههم ففضحهم الله وهتك أستارهم ، وأبدى ما نافقوا به في جهادهم ، فقال « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » .

ثم قال للنبي صلى الله عليه وآله « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً » لا يقدر احد على دفعه « أو اراد بكم نفعاً » لا يقدر احد على إزالته « بل كان

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٨٣

الله بما تعملون خبيراً » أي عالماً نافعاً لكم لايخفى عليه شيء منها ، ثم قال له قل لهم « بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم ابداً » أي ظننتم انهم لا يرجعون ويقتلون ويصطلمون . وهو قول قتادة « وزين ذلك في قلوبكم » زينه الشيطان ذلك وسوّله لكم « وظننتم ظن السوء » في هـلاك النبي والمؤمنين ، وإن الله ينصر عليهم المشركين « وكنتم قوماً بوراً » والبور الفاسد وهو معنى الجمع وترك جمعه في اللفظ لانه مصدر وصف به قال حسان :

لا ينفع الطول من نوك القلوب وقد يهدي الا له سبيل المعشر (١)

البور والبوار الهـلاك وبارت السلعة إذا كسدت والبائر من الفاكهة مثل الفاسدة . وقال قتادة « بوراً » أي فاسدين . وقال مجاهد : هالكين . ثم قال تعالى مهدداً لهم « ومن لم يؤمن بالله ورسوله » أي لم يصدق بهما « فانا أعتدنا للكافرين سعيراً » أي ناراً تسعرهم وتحرقهم . ثم قال « ولله ملك السموات والارض » بأن يتصرف فيهما كما يشاء لا يعترض أحد عليه فيها « يغفر لمن يشاء » معاصيه « ويعذب من يشاء » إذا استحق العقاب بارتـكاب القبائح « وكان الله غفوراً رحيماً » أي ساتراً على عبـاده معاصيهم إذا تابوا لا يفضحهم بها رحيماً باسقاط عقابهم الذي استحقوها بالتوبة على وجه الابتداء .

ثم قال تعـالى « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها » يعني غنائم خيبر « ذرونا نتبعكم » أي اتركونا نجيء معكم ، فقال الله تعالى « يريدون أن يبدلوا كلام الله قل » لهم يا محمد « لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل » قال مجاهد وقتادة : يعني ما وعد به أهل الحديبية أن غنيمة خيبر لهم خاصة ، فارادوا تغيير ذلك بأن يشاركوهم فيها فمنعهم الله من ذلـك . وقال ابن زيد : أراد بقوله

(١) تفسير الطبري ٢٦ / ٤٥

﴿ لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ وهـذا غلط لأن هذه الآية نزلت في الذين تأخروا عن تبوك بعد خيبر وبعد فتح مكة ، فقال الله تعالى لهم ﴿ لن تخرجوا معي ابداً ﴾ لان النبي ﷺ لم يخرج بعد ذلك في قتال ولا غزو الى أن قبضه الله تعالى . ثم قال ﴿ كذلك قال الله من قبل ﴾ أي مثل ذلك حكم الله وقال ابن زيد : غنيمة خيبر لأهل الحديبية خاصة لا يشركهم فيها أحد . ثم حكى ما قالوه بأنهم ﴿ فسيقولون ﴾ عند ذلك ليس الأمر كذلك ﴿ بل تحسدوننا ﴾ فقال ليس الأمر على ما قالوه ﴿ بل كانوا لا يفقهون ﴾ الحق وما يدعون اليه ﴿ إلا قليلا ﴾ وقيل معناه لا يفقهون الحق إلا القليل منهم ، وهم المعاندون . وقال بعضهم لا يفقهون إلا فقها قليلا أو الاشياء قليلا . وإنما قالوا : تحسدوننا ، لان المسلمين لما توجهوا إلى خيبر وأخذوا غنائمها ، قال المخلفون ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ قالوا نعم على ان لا شيء لكم من الغنيمة ، فقالوا عند ذلك تحسدوننا ، فقال تعالى ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾ .

قوله تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ

الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩) وَعَدَكُمُ ٱللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ (٢٠) خمس آيات .

قرأ أهل المدينة، وابن عامر ﴿ ندخله ونعذبه ﴾ بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه . الباقون ـ بالياء ـ رداً على اسم الله . يقول الله تعالى لنبيه ﴿ قل للمخلفين من الاعراب ﴾ أي لهؤلاء المخلفين الذين تخلفوا عنك في الخروج إلى الحديبية ﴿ ستدعون ﴾ في ما بعد ﴿ إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون ﴾ قال ابن عباس : اولوا البأس الشديد أهل فارس . وقال ابن أبي ليلى والحسن : هم الروم . وقال سعيد بن جبير وعكرمة وقتادة : هم هوازن بحنين . وقال الزهري : هم بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب ، وكانوا بهذه الصفة .

واستدل جماعة من المخالفين بهذه الآية على إمامة أبي بكر ، من حيث ان أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة ، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم ، وكانوا قد حرموا القتال مع النبي صلى الله عليه وآله بدليل قوله ﴿ لن تخرجوا معي ابداً ، ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ وهذا الذي ذكروه غير صحيح من وجهين :

احدهما ـ أنه غلط في التاريخ ووقت نزول الآية .

والثاني ـ أنه غلط في التأويل ، ونحن نبين فساد ذلك أجمع ، وانا في الكلام في تأويل الآية وجهان :

احدها ـ إنه تنازع فى اقتضائها داعياً يدعو هؤلاء المخلفين غير النبي ﷺ ويبين أن الداعي لهم في ما بعد كان النبي ﷺ على ما حكيناه عن قتادة وسعيد ابن جبير فى ان الآية نزلت فى اهل خيبر ، وكان النبي ﷺ هوالداعي إلى ذلك .

والآخر ـ ان يسلم ان الداعي غيره ، ونبين انه لم يكن أبا بكر ولا عمر بل كان أمير المؤمنين عليه السلام .

فاما الوجه الاول فظاهر ، لأن قوله ﴿ سيقول لك المخلفون ﴾ إلى قوله ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾ قد بينا انه أراد به الذين تخلفوا عن الحديبية باجماع المفسرين ثم قال ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم .... ﴾ إلى آخر الآية ، فبين أن هؤلاء المخلفين سألوا ان يخرجوا إلى غنيمة خيبر فمنعهم الله من ذلك ، وأمر نبيه ﷺ ان يقول لهم ﴿ قل لن تتبعونا .... ﴾ إلى هذه القرية ، لأن الله تعالى حكم من قبل بأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية وانه لاحظ فيها لمن لم يشهدها ، وهذا هو معنى قوله ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ وقوله ﴿ كذلك قال الله من قبل ﴾ ثم قال ﴿ قل للمخلفين من الاعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون ﴾ وإنما أراد الرسول سيدعوهم في ما بعد إلى قتال قوم بهذه الصفة ، وقد دعاهم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة . وقال قوم : أولي بأس شديد ، كموقعه حنين وتبوك وغيرهما ، فمن أين يجب أن يكون الداعي لهم غير النبي ﷺ فأما قولهم إن معنى قوله ﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾ هو انه أراد قوله ﴿ فان رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ مملؤ بالغلط الفاحش فى التاريخ ، لانا قد بينا أن هذه الآية التي فى التوبة نزلت بـ (تبوك) سنة تسع . وآية سورة الفتح نزلت سنة ست ، فكيف تكون قبلها ، وينبغي لمن تكلم فى تأويل القرآن أن يرجع إلى التاريخ ويراعي اسباب نزول

الآية على ما روي ، ولا يقول على الآراء والشهوات . وتبين أيضاً أن هؤلاء المخلفين غير أولئك ، وإن لم يرجع إلى تاريخ . ونقول قوله ﴿ فان تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ فلم يقطع على طاعة ، ولا على معصية بل ذكر الوعد والوعيد على ما يتعلق به من طاعة او معصية وحكم المذكورين فيهم في سورة التوبة ، بخلافه لانه تعالى قال بعد قوله ﴿ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾ إلى قوله ﴿ وهم كافرون ﴾ (١) فاختلاف احكامهم يدل على اختلافهم ، وقد حكينا عن سعيد بن جبير انه قال هذه الآية نزلت في هوازن يوم حنين . وقال الضحاك : هم ثقيف ، وقال قتادة : هم هوازن وثقيف ، وأما الوجه الذي يسلم معه أن الداعي غير النبي صلى الله عليه وآله فهو أن نقول الداعي أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنه قاتل بعده أهل الجمل وصفين وأهل النهروان ، وبشره النبي صلى الله عليه وآله بقتالهم ، وكانوا أولي بأس شديد ، فان قالوا من قاتلهم علي عليه السلام كانوا مسلمين ، وفي الآية قال تقاتلونهم او يسلمون ! كيف تتناولهم الآية ؟ !

قلنا : أول ما نقوله : إنهم غير مسلمين عندنا ، ولا عند جميع من خالفنا من المعتزلة ، لأن عندهم صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ، ولا مسلم . وأما مذهبنا في تكفير من قاتل علياً عليه السلام معروف ، وقد ذكرناه في كتب الامامة لقوله صلى الله عليه وآله (حربك يا علي حربي) وغير ذلك من الاخبار والادلة التي ذكرناها في غير موضع واستوفينا ما يتعلق بذلك في كتاب الامامة ، ويمكن على تسليم أن الداعي ابو بكر وعمر ، أن يقال : ليس في الآية ما يدل على مدح الداعي ولا على امامته ، لانه قد يدعو إلى الحق من ليس عليه ، ويجب ذلك من حيث كان واجباً من

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٤ - ٨٦

أجل دعاء الداعي ، وابو بكر دعاهم إلى الدفاع عن الاسلام ، وهذا واجب على كل واحد بلا دعاء داع ، ويمكن ان يكون المراد بقوله ﴿ ستدعون ﴾ دعاء الله لهم بايجاب القتال عليهم ، لانه إذا دلهم على وجوب قتال المرتدين ودفعهم عن بيضة الاسلام ، وقد دعاهم إلى القتال ووجبت عليهم طاعته ، والكلام فى هذه الآية كالتي قبلها فى أنا إذا قلنا لا تدل على إمامة الرجلين ، لا نكون طاعنين عليهما ، بل لا يمتنع أن يثبت فضلهما وإمامتهما بدليل غير الآية ، لأن المحصلين من العلماء يذهبون إلى امامتهما من جهة الاخبار لامن جهة الآية .

وقوله ﴿ تقاتلونهم او يسلمون ﴾ بالرفع معناه إن احد الأمرين لابد أن يقع لامحالة ، وتقديره أوهم يسلمون . وقرىء شاذاً بالنصب ، والوجه فيه حتى يسلموا ولو نصبه ، فقال او يسلموا لكان دالا على ان ترك القتال من أجل الاسلام .

وقوله ﴿ ليس على الاعمى حرج ... ﴾ الآية ، فالأعمى هو من لا يبصر بجارحة العين . والاعرج الذي برجله آفة تمنعه من المشي مأخوذ من رفعها عند محاولة المشي بغيرها ، ومنه العروج الصعود إلى السماء ، والمريض من به علة تمنعه من الحركة من اضطراب فى البدن حتى يضعف وتحصل فيه آلام ، بين الله تعالى انه ليس على وجه هؤلاء الذين بهم هذه الآفات من ضيق ولا حرج فى ترك الحصول مع المؤمنين والحضور معهم فى الجهاد . قال قتادة : كل ذلك فى الجهاد . ثم قال ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ في ما أمره به و نهاه عنه ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الانهار ومن يتول ﴾ عن إتباعهما وامتثال أمرهما ونهيهما ﴿ يعذبه ﴾ الله ﴿ عذاباً أليماً ﴾ فمن قرأ بالياء رده إلى الله . ومن قرأ بالنون أراد الاخبار من الله عن نفسه .

وقوله ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ إخبار

من الله تعالى انه رضي عن الذين بايعوا تحت الشجرة النبي ﷺ و كانوا مؤمنين في الوقت الذي بايعوه ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ من إيمان ونفاق فرضي عن المؤمنين وسخط على المنافقين . وقيل معناه فعلم ما في قلوبهم من صدق النية في القتال وكراهتهم له ، لانه بايعهم على القتال - ذكره مقاتل - ﴿ فانزل السكينة عليهم ﴾ يعني على المؤمنين ، والسكينة الصبر لقوة البصيرة ﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى : يعني فتح خيبر وقال قوم : فتح مكة ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ فالغيمة ملك أموال اهل الحرب من المشركين بالقهر والغلبة في حكمه تعالى ، وكان القتال من أجلها . و (المغانم) ههنا يراد به غنائم خيبر .

وقوله ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ﴾ يعني سائر الغنائم وقال قوم : أرادبها ايضاً غنائم خيبر . وقوله ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ يعني الصلح وسميت بيعة الرضوان لقول الله تعالى ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين ﴾ وقال ابن عباس كان سبب بيعة الرضوان بالحديبية تأخر عثمان حين بعثه النبي ﷺ إلى قريش أنهم قتلوه ، فبايعهم على قتال قريش . وقال ابن عباس : كانوا ألفاً وخمسمائة نفس . وقال جابر : كانوا ألفاً وأربعمائة نفس . وقال ابن أوفى ألفاً وثلثمائة . والشجرة التي بايعوا تحتها هي السمرة .

واستدل بهذه الآية جماعة على فضل أبي بكر ، فانه لاخلاف أنه كان من المبايعين تحت الشجرة . وقد ذكر الله أنه رضي عنهم ، وانه أنزل السكينة عليهم وانه علم ما في قلوبهم من الايمان ، واثابهم فتحاً قريباً .

والكلام على ذلك مبني على القول بالعموم ، وفي أصحابنا من قال لا صيغة للعموم ينفرد بها . وبه قال كثير من المخالفين ، فمن قال بذلك كانت الآية عنده مجملة لا يعلم المعنى بها ، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من المنافقين بلا خلاف ، فلا بد

من تخصيص الآية على كل حال . على انه تعالى وصف من بايع تحت الشجرة بأوصاف قد علمنا أنها لم تحصل فى جميع المبايعين ، فوجب أن يختص الرضا بمن جمع الصفات لأنه قال ﴿ فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً ﴾ ولا خلاف بين أهل النقل ان الفتح الذى كان بعد بيعة الرضوان بلا فصل هو فتح خيبر . وان رسول الله صلى الله عليه وآله عند ذلك قال: (لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرّاراً غير فرار ، لا يرجع حتى يفتح الله على يده) فدعا علياً فأعطاه الراية ، وكان الفتح على يده ، فوجب ان يكون هو المخصوص بحكم الآية ، ومن كان معه فى ذلك الفتح لتكامل الصفات فيهم . على ان ممن بايع بيعة الرضوان طلحة والزبير ، وقد وقع منهما من قتال علي عليه السلام ما خرجا به عن الايمان وفسقا عند جميع المعتزلة ومن جرى مجراهم ، ولم يمنع وقوع الرضاء فى تلك الحال من مواقعة المعصية في ما بعد ، فما الذي يمنع من مثل ذلك فى غيره . وليس إذا قلنا : أن الآية لا تختص بالرجلين ، كان طعناً عليهما بل إذا حملناها على العموم دخلا ، وكل متابع مؤمن معهما ، فكان ذلك أولى .

وقوله ﴿ ومغانم كثيرة تأخذونها ﴾ يعني ما غنتموه من خيبر من انواع الغنائم ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بمصالح عباده ﴿ حكيماً ﴾ فى جميع أفعاله . ثم قال ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾ يعني غنائم خيبر . والباقي كل ما يغنمه المسلمون من دار الحرب ﴿ وكف ايدي الناس عنكم ﴾ يعني أسداً وغطفان ، فانهم كانوا مع خيبر فصالحهم النبي صلى الله عليه وآله فكفوا عنه . وقيل: يعني اليهود كف ايديهم عنكم بالمدينة من قبل الحديبية ومجيء قريش ، فلم يغلبوكم ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ يستدلون بها على صحة قولكم ﴿ ويهديكم ﴾ أي ويرشدكم ﴿ صراطاً

مستقيماً ﴾ يفضي بكم إلى الحق وما يؤدي إلى الثواب . والواو في قوله ﴿ولتكون﴾ معناه إنا وعدناكم الغنائم لكف أيدي الناس عنكم وليكون ذلك آية للمؤمنين إذ وقع الخبر على ما أخبر به ، لانه علم غيب لا يعلمه إلا الله .

قوله تعالى :

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً (٢٢) سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٢٤) هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (٢٥) خمس آيات .

قرأ ابو عمرو «بما يعملون بصيراً» بالياء على الخبر . الباقون بالتاء على الخطاب

لما ذكر الله تعالى انه وعد المؤمنين مغانم كثيرة يأخذونها وانه عجل لهم هذه منها ، يعني غنائم خيبر وعدهم بالغنائم الأخر ، فقال ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ أي

وغنيمة أخرى ـ عن ابن عباس والحسن ـ إنها فارس والروم • وقال قتادة : هي مكة ﴿ قد أحاط الله بها ﴾ أي قدر الله عليها واحاط بها علماً فجعلهم بمنزلة ما قد أدير حولهم بما يمنع ان يفلت احد منهم ﴿ وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ أي ما يصح أن يكون مقدوراً له ، فهو قادر عليه . ثم قال ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ يعني من قريش يا معشر المؤمنين ﴿ لولوا الأدبار ﴾ منهزمين بخذلانه إياهم ونصرة الله إياكم ، ومعونته لكم ـ في قول قتادة ـ ﴿ ثم لا يجدون ﴾ يعني الكفار ﴿ ولياً ﴾ يواليهم ﴿ ولا نصيراً ﴾ يدفع عنهم •

وقوله ﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ﴾ معناه سنة الله جارية في خذلانه أهل الكفر ونصرة أهل الايمان في ما مضى من الامم السالفة ، ونصره هو أمره بالقتال ﴿ ولن تجد ﴾ يا محمد « لسنة الله تبديلا » أي لن تجد لسنة الله ما يدفعها فالسنة الطريقة المستمرة في معنى ومن ذلك قوله ﷺ (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها • ومن سن سنة سيئة فعليه اثمها واثم من عمل بها) والتبديل رفع احد الشيئين وجعل الآخر مكانه ، في ما حكم أن يستمر على ما هو به ولو رفع الله حكما يأتي بخلافه لم يكن تبديلا لحكمه لأنه لا يرفع شيئاً إلا في الوقت الذي تقتضي الحكمة رفعه • وقال ابن عباس : كان المشركون بعثوا أربعين رجلا ليصيبوا من المسلمين ، فأتى بهم رسول الله ، فخلى سبيلهم ، وهو المراد بقوله « وهو الذي كف أيديهم عنكم » بالرعب « وأيديكم عنهم » بالنهي نزلت في أهل الحديبية وأهل مكة ، لافي أهل خيبر • وقيل لم ينهوا عن قتالهم ، لانهم لا يستحقون القتل بكفرهم وصدهم لكن للابقاء على المؤمنين الذين في ايديهم « ببطن مكة من بعد أن اظفركم عليهم » يعني فتح مكة « وكان الله بما تعملون بصيراً » يدبركم بحسب ماتقتضيه مصالحكم

وقوله « هم الذين كفروا » أي بوحدانية الله ، وهم كفار قريش « وصدوكم

عن المسجد الحرام » في الحديبية ، وصدوكم أن تعتمروا وتطوفوا بالبيت « والهدي معكوفاً أن يبلغ محله » أي المحل الذي يحل نحره فيه . والمعكوف المحبوس أي منعوا الهدي ايضاً ليذبح بمكة ، لأن هدي العمرة لا يذبح إلا بمكة كما لا يذبح هدي الحج إلا بمنى ، ثم قال « ولولا رجال مؤمنون » بالله ومصدقون بالنبي « ونساء مؤمنات » مثل ذلك بمكة - في قول قتادة - « لم تعلموهم » أي لم تعلموا بإيمانهم « أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم » أي ينالكم أثم لاجلهم من غير علم منكم بذلك - في قول ابن زيد - وقال قوم : معناه عنت . وقال ابن اسحاق : هو غرم الدية في كفارة قتل الخطأ عتق رقبة مؤمنة ومن لم يطق فصيام شهرين، وهو كفارة قتل الخطأ في الحرب . وجواب لولا محذوف ، وتقديره ولولا المؤمنون الذين لم تعلموهم لو طئتم رقاب المشركين بنصرنا إياكم . والمعكوف الممنوع من الذهاب في جهة بالاقامة في مكانه ، ومنه الاعتكاف ، وهو الاقامة في المسجد للعبادة ، وعكف على هذا الأمر يعكف عكوفاً إذا اقام عليه . وقوله « ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا » أي لو تميز المؤمنون منهم ، وقيل لو تفرقوا والمعنى واحد « لعذبنا الذين كفروا منهم » يعني من أهل مكة « عذاباً أليماً » بالسيف والقتل والاليم المؤلم ، وكان النبي صلى الله عليه وآله : ساق سبعين بدنة في عام الحديبية ، ودخل في العام المقبل لعمرة القضاء في الشهر الذي صد فيه ونزل قوله « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص » (١) ذكره قتادة .

قولـه تعـالى :

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٩٤

ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ
وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٢٦) لَقَدْ
صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ
شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ
تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (٢٧) هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ شَهِيداً (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى
ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَٰهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ
وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي
ٱلتَّوْرَٰيةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ
فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً
عَظِيماً ﴾ (٢٩) أربع آيات .

قرأ ابن كثير إلا ابن فليح « شطأه » بفتح الطاء ومثله ابن ذكوان . الباقون باسكانها . وقرأ اهل الشام « فازره » مقصور . الباقون بالمد ، وهما لغتان من فعل الشيء وفعله غيره نحو كسبت مالا وكسبني غيرى ، ونزحت البئر ونزحتها ويقال : أزر النبت وآزره غيره . وقوله « إذ جعل » متعلق بقوله « لعذبنا الذين

كفروا منهم عذاباً اليماً إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية » يعني الأنفة . ثم فسر تلك الأنفة ، فقال « حمية الجاهلية » الاولى يعني عصبتهم لآلهتهم من أن يعبدوا غيرها . وقال الزهري : هي أنفتهم من الاقرار لمحمد بالرسالة . والاستفتاح بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) على عادته في الفاتحة ، حيث أراد ان يكتب كتاب العهد بينهم ، ودخولهم مكة لاداء العمرة .

ثم قال تعالى « فأنزل الله سكينته على رسوله » أي فعل به ﷺ من اللطف والنعمة ما سكنت اليه نفسه وصبر على الدخول تحت ما أرادوه منه « وعلى المؤمنين » أي ومثل ذلك فعل بالمؤمنين « وألزمهم كلمة التقوى » قال ابن عباس وقتادة : كلمة التقوى قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقال مجاهد : هي كلمة الاخلاص « وكانوا أحق بها وأهلها » يعني المؤمنين كانوا أهلها واحق بها . قال الفراء : ورأيتها في مصحف الحارث بن سويد التميمي من أصحاب عبد الله (وكانوا أهلها واحق بها) وهو تقديم وتأخير ، وكان مصحفه دفن أيام الحجاج . وقيل : ان التقدير كانوا أحق بنزول السكينة عليهم وأهلاً لها . وقيل : المعنى فكانوا أحق بمكة أن يدخلوها وأهلها . وإنما قال « أحق » لأنه قد يكون حق أحق من حق غيره ، لأن الحق الذي هو طاعة يستحق به المدح أحق من الحق الذي هو مباح لا يستحق به ذلك « وكان الله بكل شيء عليماً » لما ذم الكفار تعالى بحمية الجاهلية ومدح المؤمنين بالسكينة والزوم الكلمة الصادقة بين علمه ببواطن أمورهم وما تنطوي عليه ضمائرهم إذ هو العالم بكل شيء من المعلومات .

وقوله « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام » قسم من الله تعالى ان النبي ﷺ صادق في قوله انه رأى في المنام انه يدخل هو والمؤمنون المسجد الحرام ، وانه لابد من كون ذلك . وقوله « إن شاء الله آمنين » قال قوم

تقييد لدخول الجميع او البعض . وقال قوم : ليس ذلك شرطاً لأنه بشارة بالرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وآله وطالبه الصحابة بتأويلها وحققها . قوله « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » ثم استؤنف على طريق الشرح والتأكيد « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله » على الفاظ الدين ، كأنه قيل بمشيئة الله ، وليس ينكر أن يخرج مخرج الشرط ما ليس فيه معنى الشرط ، كما يخرج مخرج الأمر ما ليس في معنى الأمر لقرينة تصحب الكلام . وقال البلخي : معنى « إن شاء الله » أي أمركم الله بها ، لأن مشيئة الله تعالى بفعل عباده هو أمره به . وقال قوم : هو تأديب لنا ، كما قال « ولا تقولن لشيء ... » (١) الآية .

وقوله « آمنين » أي بلا خوف عليكم « محلقين رؤسكم ومقصرين » أي منكم من يحلق رأسه ومنكم من يقصر « لا تخافون » احداً في ذلك ، وكذلك جرى الأمر في عمرة القضاء وفي السنة الثانية للحديبية . وروي أن عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وآله حيث قاضا اهل مكة يوم الحديبية ، وهمّ بالرجوع إلى المدينة : أليس وعدتنا يا رسول الله أن ندخل المسجد الحرام محلقين ومقصرين ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله (قلت لكم إنا ندخلها العام) ؟ ! فقال : لا ، فقال عليه السلام (فانكم تدخلونها إن شاء الله) فلما كان في القابل في ذي القعدة خرج النبي صلى الله عليه وآله لعمرة القضاء ، ودخل مكة مع أصحابه في ذي القعدة واعتمروا ، وقام بمكة ثلاثة ايام ، ثم رجع إلى المدينة .

ثم قال « فعلم » يعني علم الله « ما لم تعلموا » انتم من المصلحة في المقاضاة وإجابتهم إلى ذلك . وقيل المعنى فعلم النبي صلى الله عليه وآله من دخولهم إلى سنة ما لم تعلموا معاشر المؤمنين . وقيل : فعلم ان بمكة رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٢٤

« فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » قال ابن زيد : يعني بذلك فتح خيبر . وقال الزهري : هو فتح الحديبية .

ثم قال تعالى « هو الذي ارسل رسوله » يعني محمداً صلى الله عليه وآله « بالهدى يعني الدليل الواضح ، والحجة البينة « ودين الحق » يعني الاسلام وإخلاص العبادة « ليظهره على الدين كله » قيل بالحجج والبراهين . وقيل : لان الاسلام ظاهر على الاديان كلها . وقيل : إنه إذا خرج المهدي صار الاسلام في جميع البشر ، وتبطل الأديان كلها .

ثم قال « وكفى بالله شهيداً » بذلك من إظهار دين الحق على جميع الأديان.

ثم اخبر تعالى فقال « محمد رسول الله » صلى الله عليه وآله ارسله إلى خلقه « والذين معه » من المؤمنين يعني المصدقين بوحدانية الله المعترفين بنبوته الناصرين له « اشداء على الكفار » لانهم يقاتلونهم ويجاهدونهم بنية صادقة « رحماء بينهم » أي يرحم بعضهم بعضاً ويتحنن بعضهم على بعض « تراهم ركعاً سجداً » لقيامهم بالصلاة والاتيان بها ، فهم بين راكع وساجد « يبتغون فضلا من الله ورضواناً » اي يلتمسون بذلك زيادة نعيمهم من الله ويطلبون مرضاته من طاعة وترك معصية « سيماهم في وجوههم من اثر السجود » قال ابن عباس : اثر صلاتهم يظهر في وجوههم . وقال الحسن . هو السمت الحسن . وقال قوم : هو ما يظهر في وجوههم من السهر بالليل . وقال مجاهد : معناه علامتهم في الدنيا من اثر الخشوع . وقيل : علامة نور يجعلها الله في وجوههم يوم القيامة ـ في قول الحسن وابن عباس وقتادة وعطية ـ و « ذلك مثلهم في التوراة » اي وصفهم ، كأنه مثلهم في التوراة « ومثلهم في الانجيل » اي وصفهم الله في الانجيل « كمثل زرع اخرج شطأه » يشبههم بالزرع الذي ينبت في حواليه بنات ويلحق به ، فالشطأ فراخ الزرع الذي

ينبت في جوانبه ومنه شاطيء النهر جانبه ، يقال أشطأ الزرع ، فهو مشطيء إذا أفرخ في جوانبه « فازره » أي عاونه فشد فراخ الزرع لأصول النبت وقواها يقال أزرت النبت وآزره غيره بالمد ، ويقال أزر النبت وازرته مثل رجع ورجعته وقال ابو الحسن : هما لغتان . وقال ابو عبيدة : أزره ساواه فصار مثل الأم ، وفاعل (آزر) الشطأ أي أزر الشطأ الزرع ، فصار في طوله « فاستغلظ » أي صار غليظاً باجتماع الفراخ مع الأصول « فاستوى » معه أي صار مثل الأم « على سوقه » وهو جمع ساق وساق الشجرة حاملة الشجر ، وهو عوده الذي يقوم عليه ، وهو قصبته . ومثله قوى المحبة بما يخرج منها ، كما قوي النبي صلى الله عليه وآله باصحابه .

وقوله « يعجب الزراع » يعني الذين زرعوا ذلك « ليغيظ بهم الكفار » قيل: معناه ليغيظ بالنبي وأصحابه الكفار المشركين . ووجه ضرب هذا المثل بالزرع الذي أخرج شطأه هو ان النبي صلى الله عليه وآله حين ناداهم إلى دينه كان ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتى كثر جمعه وقوي أمره كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ ساقه وفراخه ، وكان هذا من أصح مثل وأوضح بيان وقال البلخي : هو كقوله « كمثل غيث أعجب الكفار نباته » (١) يريد بالكفار ـ ههنا ـ الزراع واحدهم كافر ، لانه يغطي البذر ، وكل شيء غطيته فقد كفرته . ومنه قولهم : تكفر بالسلاح . وقيل : ليل كافر لأنه يستر بظلمته كل شيء قال الشاعر :

في ليلة كفر النجوم غمامها (٢)

أي غطاها . ثم قال « وعد الله الذين آمنوا » يعني من عرف الله ووحده

---

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٠ (٢) مر في ١ /٦٠

وأخلص العبادة له وآمن بالنبي صلى الله عليه وآله وصدقه « وعملوا » مع ذلك الاعمال « الصالحات منهم » قيل: انه بيان يخصهم بالوعد دون غيرهم. وقيل يجوز ان يكون ذلك شرطاً فيمن أقام على ذلك منهم ، لان من خرج عن هذه الأوصاف بالمعاصي فلا يتناوله هذا الوعد « مغفرة » أي ستراً على ذنوبهم الماضية « وأجراً » أي ثواباً « عظيماً » يوم القيامة .

وقرأ ابن كثير وحده « على سؤقه » بالهمزة . الباقون بلا همزة ، وهو الأصح . قال ابو علي : من همز فعلى قولهم (أحب المؤقدين إلى موسى) واستعمال السوق فى الزرع مجاز .

٤٩ ـ سورة الحجرات

مدنية إلا آية واحدة وهي قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم ... » إلى آخرها. وقال قوم: كلها مدنيه، وهي ثمان عشر آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ وَرَسُولِهِ
وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا
أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ
لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ
لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ
ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ
إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) خمس آيات.

قرأ يعقوب «لا تقدموا» بفتح التاء والدال. الباقون بضم التاء وكسر الدال

من التقديم . وقيل : انهما لغتان . قدم وتقدم مثل عجل وتعجل وقال ابن عباس والحسن : الآية « لا تقـدموا » فى الحكم أو في الأمر قبل كلامه ﷺ ـ بفتح الدال والتاء ـ وقال الحسن : ذبح قوم قبل صلاة العيد يوم النحر ، فأمروا باعادة ذبيحة اخرى . وقال الزجاج : المعنى لا تقدموا أعمال الطاعـة قبل الوقت الذي أمر الله والنبي ﷺ به حتى قيل : لا يجوز تقدم الزكاة قبل وقتها . وقال قوم : كانوا إذا سألوا عن شيء قالوا فيه قبل النبي ﷺ نهوا عن ذلك ، والأولى حمل الآية على عمومها فيقال : كل شيء إذا فعل كان خلافاً لله ورسوله فهو تقدم بين أيديهما فيجب المنع من جميع ذلك .

هذا خطاب من الله تعالى المؤمنين الذين اعترفوا بتوحيده وإخلاص عبادته وأقروا بنبوة نبيه محمد ﷺ ينهاهم أن يتقدموا بين يدي النبي ﷺ بأن يفعلوا خلاف ما أمر به او يقولوا في الاحكام قبل ان يقول او يخالفوا أوقات العبادة ، فان جميع ذلك تقدم بين يديه ، وأمرهم ان يتقوا الله بأن يجتنبوا معاصيه ويفعلوا طاعاته « إن الله سميع » لما يقولونه « عليم » بما ينطوون عليه ويضمرونه . ثم أمرهم ثانياً بأن قال « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » على وجه الاستخفاف به ﷺ ، فان مجاهد وقتادة قالا : جاء أعراب اجلاف من بني تميم ، فجعلوا ينادون من وراء الحجرات : يا محمد إخرج إلينا ، ولو أن إنساناً رفع صوته على صوت النبي ﷺ على وجه التعظيم له والاجابة اقوله لم يكن مأثوماً . وقد فسّر ذلك بقوله « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » فان العادة جارية أن من كلم غيره ورفع صوته فوق صوته أن ذلك على وجه الاستخفاف به ، فلذلك نهاهم عنه . وجهر الصوت اشد من الهمس ، ويكون شديداً وضعيفاً ووسطاً . والجهر ظهور الصوت بقوة الاعتماد ، ومنه الجهارة فى المنطق . ويقال : نهـاراً جهاراً ، وجاهر

بالأمر مجاهرة . ونقيض الجهر الهمس .

ثم بين تعالى انهم متى فعلوا ذلك بان يرفعوا الصوت على صوت النبي ﷺ على الوجه الذي قلناه أن يحبط اعمالهم ، والتقدير لا ترفعوا أصواتكم لأن لا تحبط قال الزجاج : ويكون اللام لام العاقبة ، والمعنى يحبط ثواب ذلك العمل ، لانهم لو أوقعوه على وجه الاستحقاق لاستحقوا به الثواب ، فلما فعلوه على خلاف ذلك استحقوا عليه العقاب ، وفاتهم ذلك الثواب فذاك إحباط أعمالهم ، فلا يمكن أن يستدل بذلك على صحة الاحباط في الآية على ما يقوله أصحاب الوعيد ، ولأنه تعالى علق الاحباط في الآية بنفس العمل ، وأكثر من خالفنا يعلقه بالمستحق على الأعمال ، وذلك خلاف الظاهر .

ثم مدح تعالى من كان بخلاف من يرفع الصوت بين يدي النبي ﷺ ، فقال « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله » اعظاماً للنبي وإجلالا له ، والغض الحط من منزلة على وجه التصغير له بحالة ، يقال : غض فلان عن فلان إذا ضعف حاله عن حال من هو أرفع منه ، وغض بصره إذا ضعف عن حدة النظر ، وغض صوته إذا ضعف عن الجهر ، وقال جرير :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلاباً (١)

ثم قال « اولئك » يعني الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله هم « الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » أي لاخلاص التقوى فعاملهم معاملة المختبر كما يمتحن الذهب لاخلاص جيده . وقيل « امتحن الله قلوبهم للتقوى » اخلصها - في قول مجاهد وقتادة - وقال قوم : معناه أولئك الذين علم الله التقوى في قلوبهم ، لان الامتحان يراد به العلم ، فعبر عن العلم بالامتحان .

---

(١) ديوانه والطبري ٢٦ / ٦٩

ثم قال تعالى « لهم مغفرة » من الله لذنوبهم « وأجر عظيم » على افعالهم وطاعاتهم

ثم خاطب النبي ﷺ على وجه الذم لمن يرفع صوته من اجلاف الاعراب على النبي ﷺ « إن الذين ينادونك » يا محمد « من وراء الحجرات » وهي جمع حجرة وكل (فعلة) بضم الفاء يجمع بالالف والتاء ، لانه ليس بجمع سلامة محضة إذ ما يعقل من الذكر ألحق به ، لانه اشرف المعنيين ، فهو احق بالتفصيل ، قال الشاعر :

اما كان عباد كفياً لدارم ... بلى ولأبيات بها الحجرات (١)

أي بلى ولبني هاشم . وقرأ ابو جعفر الحجرات بفتح الجيم . قال المبرد : أبدل من الضمة الفتحة استثقالا لتوالي الضمتين ، ومنهم من أسكن مثل (عضد وعضد) وقال ابو عبيدة : جمع حجرة وغرفة يقال : حجرات وغرفات .

ثم قال « اكثرهم لا يعقلون » لانهم بمنزلة البهائم لا يعرفون مقدار النبي ﷺ وما يستحقه من التوقير والتعظيم . وقيل : إن الذين رفعوا أصواتهم على النبي ﷺ قوم من بني تميم . وفي قراءة ابن مسعود (اكثرهم بنو تميم لا يعقلون) .

ثم قال « ولو أنهم صبروا » فلم ينادوك « حتى تخرج اليهم » من منزلك « لكان خيراً لهم » من أن ينادونك من وراء الحجرات « والله غفور رحيم » أي ساتر لذنوبهم إن تابوا منها لان ذلك كفر لا يغفره الله إلى بالتوبة

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ

---

(١) الطبري ٢٦ / ٦٩

ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٠) خمس آيات ·

قوله ﴿ يا ايها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ خطاب من الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بأنه ﴿ إذا جاءكم فاسق ﴾ وهو الخارج من طاعة الله إلى معصيته ﴿ بنبأ ﴾ أي بخبر عظيم الشأن ﴿ فتبينوا ﴾ صدقه من كذبه ولا تبادروا إلى العمل بمتضمنه ﴿ أن تصيبوا قوماً بجهالة ﴾ لانه ربما كان كاذباً وخبره كذباً ، فيعمل به فلا يؤمن بذلك وقال ابن عباس ومجاهد ويزيد بن رومان وقتادة وابن أبي ليلا : نزلت الآية في الوليد ابن عقبة بن أبي معيط ، لما بعثه رسول الله ﷺ في صدقات بني المصطلق خرجوا يتلقونه فرحاً به وإكراماً له ، فظن أنهم هموا بقتله ، فرجع إلى النبي ﷺ فقال : انهم منعوا صدقاتهم ، وكان الأمر بخلافه ·

وفي الآية دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم ولا العمل ، لأن المعنى إن جاءكم فاسق بالخبر الذي لا تأمنون أن يكون كذباً فتوقفوا فيه ، وهذا التعليل موجود في خبر العدل ، لان العدل على الظاهر يجوز أن يكون كاذباً في خبره ،

فالأمان غير حاصل فى العمل بخبره . وفى الناس من استدل به على وجوب العمل بخبر الواحـد إذا كان راويه عدلا ، من حيث انه اوجب تعالى التوقف فى خبر الفاسق ، فدل على أن خبر العدل لا يجب التوقف فيه . وهذا الذي ذكروه غير صحيح ، لانه استدلال بدليل الخطاب ودليل الخطاب ليس بدليـل عند جمهور العلماء . ولو كان صحيحاً فليست الآية بأن يستدل بدليلها على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عـدلا بأولى من ان يستدل بتعليلها فى دفع الأمان من أن يصاب بجهالة إذا عمل بها على ان خبر العدل مثله ، على أنه لا يجب العمل بخبر الواحد ، وإن كان راويه عدلا .

فان قيل : هـذا يؤدي إلى أن لا فائدة في إيجاب التوقف فى خبر الفاسق إذا كان خبر العدل مثله فى الفائدة .

قلنا : والقول بوجوب العمل بخبر الواحد يوجب أنه لا فائدة فى تعليل الآية فى خبر الفاسق الذي يشاركه العدل فيه ، فاذا تقابلا سقط الاستدلال بها على كل حال وبقي الأصل فى انه لا يجوز العمل بخبر الواحد إلا بدليل .

ومن قرأ ﴿ تبينوا ﴾ أراد تعرفوا صحة متضمن الخبر الذي يحتاج إلى العمل عليه ، ولا تقدموا عليه من غير دليل ، يقال : تبين الأمر إذا ظهر ، وتبين هو نفسه بمعنى واحد، ويقال ايضاً : تبينته إذا عرفته . ومن قرأ ﴿ فتثبتوا ﴾ - بالتاء والثاء - أراد توقفوا فيه حتى يتبين لكم صحته .

وقوله ﴿ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ معناه متى عملتم بخبر الواحد وبان لكم كذب راويه أصبحتم نادمين على ما فعلتموه .

ثم خاطبهم يعني المؤمنين فقال ﴿ واعلموا ﴾ معاشر المؤمنين ﴿ أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ﴾ ومعناه لو فعل ما تريدونه فى كثير من

الأمور ﴿ لعنتم ﴾ أي اصابكم عنت ومكروه ، يقال : أعنت الرجل إذا حملت عليه عامداً لما يكره ، يقال : اعنته فعنت ، وسمي موافقته لما يريدونه طاعة لهم مجازاً لأن الطاعة يراعى فيها الرتبة ، فلا يكون المطيع مطيعاً لمن دونه ، وإنما يكون مطيعاً لمن فوقه إذا فعل ما أمره به ، ألا ترى انه لا يقال فى الله تعالى : إنه مطيع لنا إذا فعل ما أردناه . ويقال فينا إذا فعلنا ما أراده الله : انه مطيع . والنبي ﷺ فوقنا فلا يكون مطيعاً لنا ، فاطلاق ذلك مجاز .

وقوله ﴿ ولكن الله حبب اليكم الايمان ﴾ بما وعد من استحقاق الثواب عليه ﴿ وزينه فى قلوبكم ﴾ بنصب الأدلة على صحته ﴿ وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ بما وصفه من العقاب عليه ـ وهو قول الحسن ـ وفي الآية دلالة على أن اضداد الايمان ثلاثة كفر وفسوق وعصيان .

ثم قال ﴿ أولئك ﴾ يعني الذين وصفهم الله بالايمان ،وزين الايمان فى قلوبهم وانه كره اليهم الفسوق وغيره ﴿ هم الراشدون ﴾ أي المهتدون إلى طريق الحق الذين أصابوا الرشد .

ثم قال ﴿ فصلا من الله ونعمة ﴾ أي فعل الله ذلك بهم فضلا منه على خلقه ونعمة مجددة ، وهو نصب على المفعول له ـ فى قول الزجاج ـ ﴿ والله عليم ﴾ بالاشياء كلها ﴿ حكيم ﴾ فى جميع أفعاله .

ثم قال ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ يقتل بعضهم بعضاً ﴿ فأصلحوا بينهما ﴾ حتى يصطلحا . وقرأ يعقوب ﴿ بين أخوتكم ﴾ حمله على أنه جمع (أخ) أخوة لأن الطائفة جمع . ومن قرأ على التثنية رده إلى لفظ الطائفتين . وقرأ زيد ابن ثابت وابن سيرين وعاصم الجحدري ﴿ بين اخويكم ﴾ والمعاني متقاربة .

وقوله ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين ﴾ لا يدل على أنهما إذا اقتتلا بقيا على الايمان ، ويطلق عليهما هذا الاسم ، بل لايمتنع ان يفسق احدالطائفتين او يفسقا جميعاً ، وجرى ذلك مجرى ان تقول : وإن طائفة من المؤمنين ارتدت عن الاسلام فاقتلوها . ثم قال ﴿ فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء ﴾ أي فان بغت إحدى الطائفتين على الأخرى بأن تطلب ما لايجوز لها وتقابل الأخرى ظالمة لها متعدية عليها ﴿ فقاتلوا التي تبغي ﴾ لأنها هي الظالمة المتعدية دون الاخرى ﴿ حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ أي حتى ترجع إلى أمر الله وتترك قتال الطائفة المؤمنة . ثم قال ﴿ فان فاءت ﴾ أي رجعت وتابت وأقلعت وأنابت إلى طاعة الله ﴿ فأصلحوا بينهما ﴾ يعني بينها وبين الطائفة التي كانت على الايمان ولم تخرج عنه بالقول ، فلا تميلوا على واحدة منهما ﴿ وأقسطوا ﴾ أي اعدلوا ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ يعني العادلين ، يقال : أقسط إذا عدل ، وقسط إذا جار . قال الله تعالى ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾ (١) .

وقيل : إن الآية نزلت في قبيلتين من الانصار وقع بينهما حرب وقتال ـ ذكره الطبري ـ .

ثم اخبر تعالى ﴿ إنما المؤمنون ﴾ الذين يوحدون الله تعالى ويعملون بطاعاته ويقرون بنبوة نبيه ويعملون بما جاء به ﴿ أخوة ﴾ يلزمهم نصرة بعضهم بعضاً ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ يعني إذا رجعا جميعاً إلى الحق وما أمر الله به ﴿ واتقوا الله ﴾ أي اجتنبوا معاصيه وافعلوا طاعته واتقوه في مخالفتكم ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ معناه لكي ترحمون لان (لعل) بمعنى الشك والشك لا يجوز على الله تعالى ، قال الزجاج : سموا المؤمنين إذا كانوا متفقين في دينهم بأنهم أخوة ، لاتفاقهم في الدين ورجوعهم إلى اصل النسب

(١) سورة ٧٢ الجن آية ١٥

لأنهم لآدم وحواء .

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ ﴾ (١٥)

خمس آيات .

قرا اهل البصرة ﴿ لا يألتكم ﴾ بالهمزة . الباقون ﴿ لا يلتكم ﴾ بلا همزة ، وهما لغتان ، يقال : ألت يألت إذا أنقص ، ولات يليت مثل ذالك . وفي المصحف بلا الف وقال الشاعر :

وليلة ذات ندى سريت ولم يلتني عن سراها ليت (١)

ومعنى الآية لا ينقصكم من أعمالكم شيئاً ، ومنه قوله ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ (٢) أي ما نقصناهم . وقرأ يعقوب ﴿ ميتاً ﴾ بالتشديد . الباقون بالتخفيف . والتشديد الأصل ، وهو مثل سيد وسيد .

يقول الله مخاطباً المؤمنين الذين وحدوه وأخلصوا العبادة له وصدقوا نبيه وقبلوا ما دعاهم الله اليه ﴿ لا يسخر قوم من قوم ﴾ ومعناه لا يهزأ به ويتلهى منه ، وقال مجاهد : لا يسخر غني من فقير لفقره بمعنى لا يهزأ به ، والسخرية بالاستهزاء ولو سخر المؤمن من الكافر احتقاراً له لم يكن بذالك مأثوماً ، فأما في صفات الله ، فلا يقال إلا مجازاً كقوله ﴿ فانا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ (٣) معناه إنا نجازيكم جزاء السخرية .

ثم قال ﴿ عسى أن يكونوا خيراً منهم ﴾ لانه ربما كان الفقير المهين في ظاهر الحال خيراً عند الله وأجل منزلة واكثر ثواباً من الغني الحسن الحال . وقال الجبائي : يجوز ان يكونوا خيراً منهم في منافع الدنيا ، وكثرة الانتفاع بهم . وقوله ﴿ ولا نساء من نساء ﴾ أي ولا يسخر نساء من نساء على هذا المعنى ﴿ عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ ويقال : هذا خير من هذا بمعنى أنفع منه في ما يقتضيه العقل ، وكذلك كان نسب رسول الله صلى الله عليه وآله خير من نسب غيره . ثم قال ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾

(١) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٢ وقد مر في ٦ \ ٤٤٥ . (٢) سورة ٥٢ الطور آية ٢١
(٣) سورة ١١ هود آية ٣٨

فاللمز هو الرمي بالعيب لمن لا يجوز ان يؤذى بذكره ، وهو المنهي عنه ، فأما ذكر عيبه ، فليس بلمز ، وروي انه، ﷺ قال (قولوا فى الفاسق ما فيــه كي يحذره الناس) وقال الحسن : فى صفة الحجاج أخرج الينا نباتاً قصيراً قل ما عرفت فيها إلا عنه فى سبيل الله ثم جعل يطبطب بشعيرات له ، ويقول : يابا سعيد . ولو كان مؤمناً لما قال فيه ذلك . وقال ابن عباس وقتــادة : معناه لا يطعن بعضكم على بعض كما قال ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ (١) لان المؤمنين كنفس واحدة ، فكأنه بقتله اخاه قاتل نفسه .

وقوله ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ قال ابو عبيدة : الانباز والالقاب واحد فالنبز القذف باللقب ، نهاهم الله أن يلقب بعضهم بعضاً . وقال الضحاك : معنـاه كل اسم او صفة يكره الانسان أن يدعى به ، فلا يدع به . وإنما يدعى بأحب اسمائه اليه . وقوله ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ﴾ لا يدل على ان المؤمن لا يكون فاسقاً لأن الايمان والفسق لا يجتمعان ، لأن ذلك يجري مجرى ان يقال : بئس الحال الفسوق مع الشيب على ان الظاهر يقتضي ان الفسوق الذي يتعقب الايمان بئس الاسم ، وذلك لا يكون إلا كفراً ، وهو بئس الاسم .

ثم قال ﴿ ومن لم يتب ﴾ يعني من معاصيه ويرجع إلى طاعة الله ومات مصراً ﴿ فاولئــك هم الظالمون ﴾ الذين ظلموا نفوسهم بأن فعلوا ما يستحقون به العقاب .

ثم خاطبهم ايضاً فقال ﴿ يا ايهــا الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بوحدانيته ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ وإنما قال ﴿ كثيراً ﴾ لان فى جملته ما يجب العمل عليه ، ولا يجوز مخالفته . وقوله ﴿ ان بعض الظن اثم ﴾ فالظن الذي يكون إثماً

(١) سورة ٤ النساء آية ٢٨

إنما هو ما يفعله صاحبه وله طريق إلى العلم بدلا منه مما يعمل عليه ، فهذا ظن محرم لا يجوز فعله ، فأما ما لا سبيل له إلى دفعه بالعلم بدلا منه ، فليس بإثم ، فلذلك كان بعض الظن أثم ، دون جميعه ، والظن المحمود قد بينه الله ودل عليه فى قوله ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ (١) وقيل : يلزم المؤمن أن يحسن الظن به ولا يسيء الظن في شيء يجد له تأويلا جميلا ، وإن كان ظاهره القبيح . ومتى فعل ذلك كان ظنه قبيحاً .

وقوله ﴿ ولا تجسسوا ﴾ أي لا تتبعوا عثرات المؤمن ـ فى قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ وقال ابو عبيدة التجسس والتحسس واحد وهو التبحث يقال : رجل جاسوس ، والجاسوس والناموس واحد . وقيل للمؤمن حق على المؤمن ينافي التجسس عن مساوئه . وقيل : يجب على المؤمن أن يتجنب ذكره المستور عند الناس بقبيح ، لان عليهم أن يكذبوه ويردّوا عليه ، وإن كان صادقاً عند الله ، لان الله ستره عن النـاس ، وإنما دعى الله تعالى المؤمن إلى حسن الظن فى بعضهم ببعض للألفة والتناصر على الحق ، ونهوا عن سوء الظن لمـا فى ذلك من التقاطع والتدابر .

وقوله ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ فالغيبة ذكر العيب بظهر الغيب على وجه تمنع الحكمة منه . ويروى فى الخبر إذا ذكرت المؤمن بما فيه مما يكرهه الله ، فقد اغتبته وإذا ذكرته بما ليس فيه ، فقد بهته .

وقوله ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيـه ميتاً فكرهتموه ﴾ معناه ان من دعي إلى اكل لحم أخيه فعافته نفسه ، فكرهته من جهة طبعه ، فانه ينبغي إذا دعي إلى عيب أخيه فعافته نفسه من جهة عقله ، فينبغي أن يكرهـه ، لأن داعي العقل أحق بأن يتبع من داعي الطبع لان داعي الطبع أعمى وداعي العقل بصير ، وكلاهما

(١) سورة ٢٤ النور آية ١٢

في صفة الناصح، وهذا من أحسن ما يدل على ما ينبغي ان يجتنب من الكلام. وفي الكلام حذف، وتقديره أيحب احدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً فيقولون: لا، بل عافته نفوسنا، فقيل لكم فكرهتموه، فحذف لدلالة الكلام عليه. وقال الحسن: معناه فكما كرهتم لحمه ميتاً فاكرهوا غيبته حياً، فهذا هو تقدير الكلام.

وقوله ﴿ واتقوا الله ﴾ معطوف على هذا الفعل المقدر، ومثله ﴿ ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك ﴾ (١) والمعنى ألم نشرح، قد شرحنا فحمل الثاني على معنى الأول، لأنه لايجوز ان يقول ألم وضعنا عنك.

ثم قال ﴿ واتقوا الله ﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته ﴿ ان الله تواب ﴾ أي قابل لتوبة من يتوب اليه ﴿ رحيم ﴾ بهم.

ثم قال ﴿ قالت الاعراب آمنا ﴾ قال قتادة: نزلت الآية في اعراب مخصوصين انهم قالوا ﴿ آمنا ﴾ أي صدقنا بالله وأقررنا بنبوتك يا محمد، وكانوا بخلاف ذلك في بواطنهم، فقال الله تعالى لنبيه ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ ان تؤمنوا ﴾ على الحقيقة في الباطن ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ أي استسلمنا خوفاً من السبي والقتل ـ وهو قول سعيد بن جبير وابن زيد ـ ثم بين فقال ﴿ ولما يدخل الايمان في قلوبكم ﴾ بل أنتم كفار في الباطن. ثم قال لهم ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله ﴾ وترجعوا إلى ما يأمرانكم به من طاعة الله والانتهاء عن معاصيه ﴿ لايلتكم من أعمالكم شيئاً ﴾ أي لا ينقصكم من جزاء أعمالكم شيئاً ﴿ ان الله غفور رحيم ﴾ أي ساتر لذنوبهم إذا تابوا رحيم بهم في قبول توبتهم.

ثم وصف المؤمن على الحقيقة فقال ﴿ إنما المؤمنون ﴾ على الحقيقة ﴿ الذين آمنوا بالله ﴾ وصدقوا وأخلصوا بتوحيده ﴿ ورسوله ﴾ أي واقروا بنبوة نبيه

(١) سورة ٩٤ الانشراح آية ١ ـ ٢

﴿ ثم لم يرتابوا ﴾ أي لم يشكوا في شيء من أقوالهما ﴿ وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ﴾ ثم قال ﴿ اولئك هم الصادقون ﴾ في أقوالهم دون من يقول بلسانه ما ليس في قلبه .

وقوله « يا ايها الناس » خطاب للخلق كافة من ولد آدم يقول لهم « إنا خلقناكم » باجمعكم « من ذكر وانثى » يعني آدم وحوا عليهما السلام وقال مجاهد : خلق الله الولد من ماء الرجل وماء المرأة بدلالة الآية « وجعلناكم شعوباً وقبائل » فالشعوب النسب الأبعد ، والقبائل الأقرب ـ في قول مجاهد وقتادة ـ وقيل الشعوب أعم ، والقبائل اخص . وقال قوم : الشعوب الأفخاذ والقبائل اكثر منهم . والشعوب جمع شعب ، وهو الحي العظيم ، والقبائل مأخوذ من قبائل الرأس ، وقبائل الحقبة التي يضم بعضها إلى بعض ، فاما الحي العظيم المستقر بنفسه فهو شعب ، قال ابن احمر :

من شعب همدان او سعد العشيرة او خولان او مذحج جواله طربا (٢)

والقبائل جمع قبيلة . وقوله « لتعارفوا » معناه جعلكم كذلك لتعارفوا ، فيعرف بعضكم بعضاً . ومن قرأ بالياء مشددة ، أدغم أحداهما في الأخرى . ومن خفف حذف أحداهما . ثم قال « إن اكرمكم عند الله أتقاكم » لمعاصيه ، واعملكم بطاعته

قال البلخي : اختلف الناس في فضيلة النسب ، فانكرها قوم ، واثبتها آخرون والقول عندنا في ذلك انه ليس احد أفضل من مؤمن تقي ، فان الحسب والنسب والشرف لا يغنيان في الدين شيئاً ، لأن لهما فضلا كفضل الخز على الكرباس والكتان على البهاري وكفضل الشيخ على الشاب . فان الطبائع مبنية والاجماع واقع على أن شيخا وشابا لو استويا في الفضل في الدين لقدم الشيخ على الشاب

(١) الطبرى ٢٦ / ٨٠ نسبه الى ابن عمر الباهلي وروايته (هاجرا له) بدل (جواله)

وزيد فى تعظيمه وتبجيله ، وكذلك الأب والابن لو استويا فى الفضل فى الدين لقدم الأب ، وكذلك السيد وعبده . وهذا مما لاخلاف فيه بين العقلاء ، وكذلك لو أن رجلين استويا فى الدين ثم كان احدهما له قرابة برسول الله أو بالخيار الصالحين لوجب أن يقدم المتصل برسول الله وبالصالح ، ويزاد إكرامه فى تعظيمه وتبجيله ، وكذلك إذا استويا وكان في آباء احدهما أنبياء ثلاثة وأربعة ، وكان في آباء الآخر نبي واحد كان الأول مستحقاً للتقديم ، وكذلك لو كان لاحدهم أب نبي إلا انه من الانبياء المتقدمين ، وكان ابو الآخر هو النبي الذي بعث الينا كان الثاني اعظم حقاً وأحق بالتقديم ، وكذلك لو كان احدهما له آباء معروفون بالفضل والأخلاق الجميلة والأفعال الشريفة وبالوقار وبالنجدة والادب والعلم كانت الطبايع مبنية على تقديمه على الآخر. فان قيل : الطبائع مبنية على تقديم ذوي المال فيجب ان يكون الغنى وكثرة المال شرفاً ، قلنا : كذلك هو لا ننكر هذا ولا ندفعه. فان قيل : إذا كان لأحدهما مال لا يبذل ، والآخر قليل المال يبذل قدر ما يملكه من الحقوق ويضعه فى مواضعه ؟ قلنا الباذل أفضل من الذي لا يبذل . وإنما تكلمنا فى الرجلين إذا استويا في خصالهما وفضل أحدهما كثرة المال وكان واضعاً له في موضعه باذلاله فى حقوقه وكذلك لو أن رجلا كان ذا حسب وشرف في آبائه إلا انه كان فاسقاً او سخيفاً او وضيعاً في نفسه كان الذي لا حسب له وهو عفيف نبيل افضل منه بالأوصاف التي لا تخفى . وكان حسب ذلك السخيف مما يزيده وبالا ، ومعنى الحسب أنه يحسب لنفسه آباء أشرافاً فضلا ، وعمومة وأخوة ـ انتهى كلام البلخي ـ .

وقوله « إن الله عليم خبير » يعني بمن يعمل طاعاته ويتقي معاصيه «خبير»

بذلك لا يخفى عليه شيء من ذلك . ثم وصف المؤمنين الذين تقدم ذكرهم فقال « اولئك هم الصادقون » على الحقيقة الذين يستحقون ثواب الله تعالى .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰيكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٨) ثلاث آيات .

قرأ ابن كثير وحده « بما يعملون » بالياء على الغيبة . الباقون بالتاء على الخطاب .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله « قل » لهؤلاء الكفار « أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الارض والله بكل شيء عليم » فالتعليم تعريض من لا يعلم حتى يعلم بافهام المعنى اوخلق العلم له في قلبه ، فعلى هذا لايجوز ان يعلم العالم لنفسه الذي يعلم المعلومات كلها بنفسه ، ولا يحتاج إلى من يعلمه ولا إلى علم يعلم به ، كما انه من يكون قديماً بنفسه استغنى عن موجد يوجده ، وإنما يحتاج إلى التعليم من يجوز أن يعلم وألا يعلم ، ومن يخفى عليه شيء دون شيء ، ففي الآية دلالة على ان العالم بكل وجه لا يجوز ان يعلم . والمعني بالآية هم الذين ذكرهم في الآية الأولى وبين أنهم منافقون لقول الله لهم « أتعلمون الله بدينكم » إنا آمنا بالله وبرسوله ، وهو تعالى يعلم منكم خلاف ذلك من الكفر والنفاق ، فلفظه لفظ الاستفهام والمراد

به الانكار .

ثم خاطب نبيه صلى الله عليه وآله فقال « يمنون عليك أن أسلموا » فالمن القطع بايصال النفع الموجب للحق ، ومنه قوله « فلهم اجر غير ممنون » (١) أي غير مقطوع ، ومنه قولهم : المنة تكدر الصنيعة وقيل : إذا كفرت النعمة حسنت المنة . ومن لا أحد إلا وهو محتاج اليه ، فليس في منه تكدير النعمة ، لان الحاجة لازمة لامتناع أن يستغني عنه بغيره . واكثر المفسرين على ان الآية نزلت في المنافقين . وقال الحسن : نزلت في قوم من المسلمين قالوا : أسلمنا يا رسول الله قبل ان يسلم بنو فلان ، وقاتلنا معك بني فلان . وقال الفراء : نزلت في اعراب من بني أسد قدموا على النبي صلى الله عليه وآله بعيالاتهم طمعاً في الصدقة ، وكانوا يقولون أعطنا ، فانا أتيناك بالعيال والاثقال وجاءتك العرب على ظهور رواحلها ، فأنزل الله فيهم الآية . ثم قال « بل الله يمن عليكم » بانواع نعمه و « بأن هداكم للايمان » وارشدكم اليه بما نصب لكم من الأدلة عليه ورغبكم فيه « إن كنتم صادقين » في إيمانكم الذي تدعونه . ومتى كنتم صادقين يجب أن تعلموا ان المنة لله عليكم في إيمانكم ، لا لكم على الله ورسوله .

وموضع « أن اسلموا » نصب بـ « يمنوا » وهو مفعول به . وقيل : موضعه الجر ، لأن تقديره بأن اسلموا . ثم قال إن الله يعلم غيب السموات والارض والله بصير بما يعملون من طاعة ومعصية وإيمان وكفر في باطن او ظاهر لا يخفى عليه شيء من ذلك .

---

(١) سورة ٩٥ التين آية ٦

٥٠ ـ سورة ق

مكية بلا خلاف : وهي خمس وأربعون آية بلا خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ (٥)

لم يعد أحد (ق) آية ، وكذلك نظائره مثل (ن) و (ص) لانه من المفرد ، وكل مفرد فانه لا يعد لعبده عن شبه الجملة . وأما المركب فما اشبه الجملة ووافق رؤس الآي ، فانه يعد مثل (طه) و (حم) و (ألم) وما أشبه ذلك . و (قاف) قيل هو اسم للجبل المحيط بالأرض . وقيل : هو اسم من اسماء السورة ومفتاحها على ما بيناه فى حروف المعجم . وهو الأقوى . وقيل : (ق) من قضى الأمر و (حم) من حم أي دنا.

وقوله « والقرآن » قسم من الله تعالى بالقرآن . وجواب القسم محذوف ، وتقديره لحق الأمر الذي وعدتم به انكم لمبعوثون ، تعجبوا فقالوا « أئذا متنا

وكنا ترابا » ! وقيل : تقديره : ورب القرآن . واستدل بذلك على حدوثه ، وهو خلاف الظاهر . والمجيد العظيم الكرم . ووصف القرآن وبعثه بأنه مجيد معناه انه عظيم القدر عالي الذكر . ويقال مجد الرجل ومجد مجداً وهما لغتان إذا عظم كرمه وأمجد كرمت فعاله ، والمجيد في اسم الله تعالى العظيم الكرم ، ومجده خلقه : عظموه بكرمه ، ورجل ماجد عظيم الكرم . وتماجد القوم تماجداً ، وذلك إذا تفاخروا باظهار مجدهم . والمجد مأخوذ من قولهم : مجدت الابل مجوداً ، وذلك إذا عظمت بطونها لكثرة أكلها من كلأ الربيع . وأمجد القوم ابلهم وذلك في الربيع ، كأنهم أصابوا أكلاً عظيماً كريماً قال الشاعر:

رفعت مجد تميم باهلال لها رفع الطراف على العلياء بالعمد(١)

وقوله « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب » اخبار منه تعالى عن حال الكافرين الذين بعث الله اليهم النبي صلى الله عليه وآله من كفار قريش وغيرهم مخوفاً لهم من معاصيه وترك طاعاته باستحقاق العقاب على ذلك وانه تعالى سيبعثهم ويجازيهم على ذلك بعد الموت ، فقال الكافرون جواباً لهذا القول : هذا شيء عجيب ، والتعجب يثير النفس تعظيم الأمر الخارج عن العادة الذي لا يقع بسببه معرفة ، يقال عجب عجباً وتعجب تعجباً ، فالذي يتعجب منه عجب . وقيل : العجب هو كل ما لا يعرف علته ولا سببه ، وأفحش العجب التعجب مما ليس بعجب على طريق الانكار للحق ، لانه يجتمع فيه سببا القبيح ، فهؤلاء تعجبوا من مجيء النذير من الله تعالى اليهم فقد فحشوا غاية التفحش ، مع انه مما يعظم ضرر الجهل به . ثم قالوا أيضاً في الجواب عن ذلك أئذا متنا وخرجنا من كوننا أحياء وكنا تراباً يبعثنا الله ! ? وحذف لدلالة الكلام عليه . ثم قالوا « ذلك رجع بعيد »

(١) مر في ٦ | ٣٤

أي يبعد عندنا أن نبعث بعد الموت ، لان ذلك غير ممكن ، فقال الله تعالى « قد علمنا ما تنقص الارض منهم » أي علمنا الذي تأكل الارض من لحومهم ، لا يخفى علينا شيء منه « وعندنا كتاب حفيظ » أي ممتنع الذهاب بالبلى والدروس ، كل ذلك ثابت فيه ولا يخفى منه شيء وهو اللوح المحفوظ ثم قال « بل كذبوا بالحق لما جاءهم » يعني بالنبي والقرآن الذي جاء به دالا على صدقه ، وبالبعث والنشور ، الذي أنذرهم به فهم في أمر مريج أي مختلط ملتبس وأصله ارسال الشيء مع غيره في المرج من قولهم : مرج الخيل الذكور مع الأناث وهو مرج بالخيل أي المسرح الذي يمرج فيه ، و «مرج البحرين» ارسلهما في مرج « يلتقيان» ولا يختلطان .

وقوله « من مارج من نار » أي مرسل الشعاع بانتشاره . قال ابو ذؤيب

فخالت فالتمست به حشاها   فخر كأنه غصن مريج (١)

أي قد التبس بكثرة تشعبه ومرجت عهودهم وأمرجوها أي خلطوها ، ولم يفوا بها . وقال ابو عبيدة : مرج أمر الناس إذا اختلط ، قال ابو ذؤيب (فخر كأنه خوط مريج) أي سهم مختلط الأمر باضطرابه ، فهؤلاء الكفار حصلوا في أمر مختلط ملتبس من أمر النبي صلى الله عليه وآله ، فقالوا تارة هو مجنون وأخرى هو كاهن وأخرى هو شاعر ، فلم يثبتوا على شيء واحد ، فلذلك كانوا في أمر مريج .

قوله تعالى :

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ

(١) الطبري ٢٦ | ٨٦ وروايته (فحط كأنه حوط مريج)

مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ» (١١) ست آيات.

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم كذبوا بالحق الذي هو القرآن وجحدوا البعث والنشور والثواب والعقاب، وتعجبوا من ذلك نبههم الله تعالى على ذلك وبين لهم الطريق الذي إذا نظروا فيه علموا صحته، فقال «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها» ومعناه أفلم يفكروا في بناء هذه السماء وعظمها، وحسن تزيينها فيعلموا أن لها بانياً بناها وصانعاً صنعها وانه لا بد أن يكون قادراً عليها، وانه لا يعجزه شيء، لأنه لا يقدر على مثل ذلك إلا القادر لنفسه الذي لا يجوز عليه العجز ويعلمه، لانه عالم بما يرون من إحكام الصنعة فيها وانه الذي لا يخفى عليه خافيه وقوله «وزيناها» يعني حسنا صورتها بما خلقنا فيها من النجوم الثاقبة والشمس والقمر، وانه «ما لها من فروج» أي ليس فيها فتوق يمكن السلوك فيها وإنما يسلكها الملائكة بأن يفتح لها أبواب السماء إذا عرجت اليها.

ثم قال «والارض مددناها» أي بسطناها، وتقديره ومددنا الارض مددناها، كما قال «والقمر قدرناه» (١) فيمن نصب ولو رفع كان جائزاً، والنصب أحسن ـ ههنا ـ لكونه معطوفا على بنيناها، فعطف الفعل على الفعل احسن.

ثم قال «والقينا فيها رواسي» أي طرحنا جبالا تمنعها من الحركة ليتمكن استقرار الحيوان عليها «وانبتنا فيها من كل زوج بهيج» قال ابن زيد: البهيج الحسن المنظر والبهجة الحسن الذي له روعة عند الرؤية، كالزهرة والاشجار الملتفة

(١) سورة ٣٦ يس آية ٣٩

والرياض الخضرة في الأنواع المتشاكلة والمباري المصطفة خلالها الأنهار الجارية .

وقوله « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » أي فعلنا ذلك وخلقناه على ما وصفناه ليتبصر به ويتفكر به كل مكلف كامل العقل يريد الرجوع إلى الله والانابة اليه .

ثم قال « ونزلنا من السماء ماء مباركاً » يعني مطراً وغيثاً « فانبتنا به » بذلك الماء « جنات » أي بساتين فيها أشجار تجنها « وحب الحصيد » يعني البرّ والشعير ، وكل ما يحصد - في قول قتادة - لان من شأنه ان يحصد ، والحب هو الحصيد، وإنما أضافه إلى نفسه ، كما قال « لحق اليقين » (١) وكما قالوا: مسجد الجامع وغير ذلك . وقوله « والنخل » عطف على (جنات) فلذلك نصبه و « باسقات » أي عاليات يقال : بسقت النخلة بسوقاً قال ابن نوفل لابن هبيرة :

يابن الذين بفضلهم بسقت على قيس فزاره (٢)

وقال ابن عباس « باسقات » طوال النخل ، وبه قال مجاهد وقتادة « لها طلع نضيد » أي لهذه النخل التي وصفها بالعلو « طلع نضيد » نضد بعضه على بعض - في قول مجاهد وقتادة - وقوله « رزقاً للعباد » أي خلقنا ما ذكرنا من خب الحصيد والطلع النضيد رزقاً للعباد وغذاء لهم ، وهو نصب على المصدر أي رزقناهم رزقاً ، ويجوز أن يكون مفعولا له أي لرزق العباد والرزق هو ما للحي الانتفاع به على وجه ليس لغيره منعه منه ، والحرام ليس برزق ، لان الله تعالى منع منه بالنهي والحظر وكل رزق فهو من الله تعالى إما بأن يفعله او يفعل سببه ، لانه مما يريده . وقد يرزق الواحد منا غيره ، كما يقال: رزق السلطان الجند .

وقوله « واحيينا به بلدة ميتاً » أي احيينا بذلك الماء الذي انزلنا من السماء

---

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٥١ (٢) تفسير الطبرى ٢٦/٨٧

بلدة ميتاً أي جدباً قحطاً، لاتنبت شيئاً، فأنبتت وعاشت ثم قال «كذلك الخروج» أي مثل ما أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء، مثل ذلك نحيي الموتى يوم القيامة فيخرجون من قبورهم لأن من قدر على أحدهما قدر على الآخر، وإنما دخلت على القوم شبهة من حيث انهم رأوا العادة جارية باحياء الارض الموات بنزول المطر عليها، ولم يروا إحياء الاموات، فظنوا انه يخالف ذلك، ولو انعموا النظر لعلموا ان القادر على احدهما قادر على الآخر.

قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٥) أربع آيات.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ تسلية له عن كفر قومه وتركهم الايمان به ومهدداً لكفار قومه أنه كما كذبوك يا محمد هؤلاء وجحدوا نبوتك مثل ذلك كذب قبلهم من الأمم الماضية قوم نوح فأهلكهم الله واغرقهم واصحاب الرس وهم اصحاب البئر الذين قتلوا نبيهم ورسوه فيها - في قول عكرمة - وقال الضحاك: الرس بئر قتل فيها صاحب يا سين. وقيل: الرّس بئر لم يطو بحجر ولا غيره. قال الجعدي:

تنابلة يحفرون الرساسا (١)

(١) مر في ٧ / ٤٩٠

و « ثمود » هم قوم صالح حيث كذبوه ونحروا ناقة الله التي اخرجها آية له من الجبل « وعاد » وهم قوم هود ، فكذبوه فأهلكهم الله « وفرعون واخوان لوط » أي كذب فرعون موسى ، وقوم لوط لوطاً ، وسماهم اخوته لكونهم من نسبه « واصحاب الأيكة » وهم قوم شعيب ، والايكة الغيظة « وقوم تبع » روي في الحديث لا تلعنوا تبعاً ، فانه كان اسلم ، وإنما ذم الله قومه .

ثم اخبر تعالى عنهم كلهم فقال « كل كذب الرسل » المبعوثة اليهم ، وجحدوا نبوتهم « فحق وعيد » فاستحقوا بما وعدهم به من العقاب ، فاذا كانت منازل الأمم الخيالية إذا كذبوا الرسل الهلاك والدمار ، وأنتم معاشر الكفار قد سلكتم مسلكهم في التكذيب فحالكم كحالهم في استحقاق مثل ذلك .

ثم قال الله تعالى على وجه الانكار عليهم ، بلفظ الاستفهام « أفعيينا بالخلق الأول » قال الحسن الخلق الأول آدم وقد يكون ذلك المراد لاقرارهم به وأنهم ولده يقال : عييت بالأمر إذا لم يعرف وجهه واعييت إذا تعبت ، وكل ذلك من التعب في الطلب . والمعنى إنا كما لم نعي بالخلق الأول لا نعيا بخلقهم على وجه الاعادة ، والعي عجز بانقلاب المعنى على النفس ، ثم قال « بل هم في لبس من خلق » فاللبس منع من إدراك المعنى بما هو كالستر له « من خلق جديد » وهو القريب الانشاء ، يقال : بناء جديد وثوب جديد ، وخلق جديد وأصله القريب العهد بالقطع للبس لأنه من جددته أجده جداً إذا قطعته فهو كفرت العهد بالقطع للبس .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ

وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (٢٠) خمس آيات.

يقول الله تعالى مقسماً إنه خلق الانسان أي اخترعه وانشأه مقدراً . والخلق الفعل الواقع على تقدير وترتيب . والمعنى إنه يوجده على ما تقتضيه الحكمة من غير زيادة ولا نقصان . وأخبر انه يعلم ما يوسوس به صدر الانسان . فالوسوسة حديث النفس بالشيء في خفي ، ومنه قوله « فوسوس اليه الشيطان » (١) ومنه الواسوس كثرة حديث النفس بالشيء من غير تحصيل قال رؤبة :

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق (٢)

ثم اخبر تعالى انه اقرب إلى الانسان من حبل الوريد . قال ابن عباس ومجاهد : الوريد عرق في الحلق وهما وريدان في العنق : من عن يمين وشمال ، وكأنه العرق الذي يرد اليه ما ينصب من الرأس ، فسبحان الله الخلاق العليم الذي احسن الخلق والتدبير ، وجعل حبل الوريد العاتق ، وهو يتصل من الحلق إلى العاتق هذا العرق الممتد للانسان من ناحيتي حلقه إلى عاتقه ، وهو الموضع الذي يقع الرداء عليه لأنه يطلق الرداء من موضعه . قال رؤبة :

كأن وريديه رشا خلب

أي ليف . وقال الحسن : الوريد الوتين : وهو عرق معلق به القلب ، فالله تعالى أقرب إلى المرء من قلبه . وقيل : المعنى ونحن أقرب اليه ممن كان بمنزلة حبل

---

(١) سورة ٢٠ طه آية ١٢٠

(٢) مر في ٤ / ٣٩٧

الوريد فى القرب فى أني أعلم به . وقيل : معناه اقرب اليه بما يدركه من حبل الوريد لو كان مدركاً . وقيل : ونحن أملك به من حبل الوريد فى الاستيلاء عليه ، وذلك أن حبل الوريد فى حيز غير حيزه . والله تعالى مدرك له بنفسه ومالك له بنفسه .

وقوله « إذ يتلقى المتلقيان » (إذ) متعلقة بقوله « ونحن اقرب اليه » حين يتلقى المتلقيان ، يعني الملكين الموكلين بالانسان « عن اليمين وعن الشمال قعيد » أي عن يمينه وعن شماله . وإنما وحد « قعيد » لاحد وجهين :

احدهما ـ إنه حذف من الأول لدلالة الثاني عليه ، كما قال الشاعر :

نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف(١)

أي نحن بما عندنا راضون ، فتقدير الآية عن اليمين قعيد ، وعن الشمال قعيد

الثاني ـ إنه يكون القعيد على لفظ الواحد ، ويصلح للاثنين والجمع كالرسول لانه من صفات المبالغة ، وفيه معنى المصدر ، كأنه قيل : ذو المراقبة . وقال مجاهد : القعيد الرصيد . وقيل : عن اليمين ملك يكتب الحسنات ، وعن الشمال ملك يكتب السيئات ـ فى قول الحسن ومجاهد ـ وقال الحسن : حتى إذا مات طويت صحيفة عمله وقيل له يوم القيامة « إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (٢) فقد عدل ـ والله ـ عليه من جعله حسيب نفسه . وقال الحسن : الحفظة أربعة : ملكان بالنهار وملكان بالليل .

وقوله « ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » أي لا يتكلم بشيء من القول إلا وعنده حافظ يحفظ عليه ، فالرقيب الحافظ والعتيد المعد اللزوم الأمر .

وقوله « وجاءت سكرة الموت بالحق » قيل فى معناه قولان :

احدهما ـ جاءت السكرة بالحق من أمر الآخرة حتى عرفه صاحبه واضطر اليه

(١) مر في ١ | ١٧٢ ، ٢٠٣ ، ٢٦٣ و ٥ | ٤٢٦ ، ٢٨٩ و ٨ | ٤٥٧

(٢) سورة ١٧ الاسرى آية ١٤

والآخر ـ وجاءت سكرة الموت بالحق الذي هو الموت . وروي ان أبا بكر وابن مسعود كانا يقرآن «وجاءت سكرة الحق بالموت» وهي قراءة اهل البيت عليهم السلام و (سكرة الموت) غمرة الموت التي تأخذه عند نزع روحه فيصير بمنزلة السكران .

وقوله «ذلك ما كنت منه تحيد» أي يقال له عند ذلك هذا الذي كنت منه تهرب وتروغ . وقوله «ونفخ في الصور» قيل فيه وجهان :

احدهما ـ إنه جمع صورة ينفخ الله في الصور بأن يحييها يوم القيامة .

الثاني ـ ان الصور قرن ينفخ اسرافيل فيه النفخة الأولى فيموت الخلق ، والنفخة الثانية فيحيون يوم القيامة ، وهو يوم الوعيد الذي وعد الله أن يعاقب فيه من يكفر به ويعصى أمره ، ويثيب من يؤمن به ويمتثل .

قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴾ (٢٥) خمس آيات .

يقول الله تعالى إن يوم الوعيد الذي بينه تجيء كل نفس من المكلفين «معها سائق» يسوقها «وشهيد» يشهد عليها ، وهما ملكان احدهما يسوقه ويحثه على السير ، والآخر يشهد عليه بما يعلمه من حاله ويشاهده منه وكتبه عليه ، فهو يشهد بذلك على ما بينه الله ودبره .

وقوله « لقد كنت في غفلة » أي يقال له « لقد كنت في غفلة » أي في سهو ونسيان « من هذا » اليوم ، فالغفلة ذهاب المعنى عن النفس ، وضده اليقظة . وقوله « فكشفنا عنك غطاءك » أي أزلنا الغطاء عنك حتى ظهر لك الأمر ، وإنما تظهر الأمور في الآخرة بما يخلق الله فيهم من العلوم الضرورية ، فيصير بمنزلة كشف الغطاء عما يرى ، والمراد به جميع المكلفين : برّهم وفاجرهم ، لأن معارف الجميع ضرورية ، وقوله « فبصرك اليوم حديد » معناه إن عينك حادة النظر لا يدخل عليها شك ولا شبهة . وقيل : المعنى فعلمك بما كنت فيه من أحوال الدنيا نافذ ليس يراد به بصر العين ، كما يقال : فلان بصير بالنحو أو بالفقه . وقال الرماني : حديد مشتق من الحد ، ومعناه منيع من الادخال في الشيء ما ليس منه والاخراج عنه ما هو منه ، وذلك في صفة رؤيته للاشياء في الآخرة .

وقوله « وقال قرينه » قال الحسن وقتادة وابن زيد : يعني الملك الشهيد عليه . وقال بعضهم : قرينه من الشياطين . والأول الوجه « هذا ما لدي عتيد » أي معدّ محفوظ « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد » إنما قيل : ألقيا ، لأن المأمور به إلقاء كل كافر في النار إثنان من الملائكة . وقيل : يجوز أن يكون على لفظ الاثنين والمأمور واحد ، لأنه بمنزلة إلقاء اثنين في شدته ، كما قال الشاعر :

فان تزجراني يابن عفان انزجر وإن تدعاني احم عرضاً ممنعا (١)

والأول اظهر ، وحكى الزجاج عن بعض النحويين : ان العرب تأمر الواحد بلفظ الاثنين تقول : قوما ، واقعدا ، قال الحجاج : (يا حرسي إضربا عنقه) وإنما قالوا ذلك ، لأن اكثر ما يتكلم به العرب فيمن تأمر به بلفظ الاثنين نحو :

خليلي مرابي على أم جندب (٢)

(١) تفسير القرطبي ١٧/١٦ (٢) قائله امرؤ القيس ديوانه ٢٧ القصيدة ٢

وقوله : قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل (١)

وقال المبرد هذا فعل مبني للتأكيد ، كأنه قال : ألق ألق ، والعنيد الذاهب عن الحق وسبيل الرشد « مناع للخير » الذي أمر الله به من بذل المال في وجوهه من الزكاة وغيرها ، لأنه صفة ذم تعم منع الخير الذي يجب بذله . ويدخل فيه الأول على وجه التبع « معتد » أي متجاوز للحق في قوله وفعله ﴿ مريب ﴾ أي آت من المنكر بما يشكك في أمره .

قوله تعالى :

﴿ أَلَّذي جعَلَ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخرَ فأَلْقِياهُ فِي ٱلْعذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلٰـكِنْ كَانَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (٣٠) خمس آيات .

قرأ نافع وابو بكر عن عاصم ﴿ يوم يقول ﴾ بالياء بمعنى يقول الله تعالى ﴿ لجهنم ﴾ الباقون بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه و (يوم) متعلق بقوله ﴿ ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ﴾ وقيل : إنه متعلق بمحذوف بتقدير (إذكر) يا محمد يوم ، وقوله ﴿ الذى جعل ﴾ موضعه الجر ، لأنه من صفة ﴿ كفار عنيد مناع للخير معتد مريب ... الذى جعل مع الله إلهاً آخر ﴾ أى اتخذ مع الله معبوداً آخر من الاصنام والاوثان ، ووجه قربانه اليه . والجعل تكوين الشيء على

(١) قائله امرؤ القيس ديوانه ٤٣ . قصيدة ٥٣

غير ما كان بقادر عليه فمن جعل مع الله إله آخر فقد صير ذلك الشيء على غير ما كان عليه باعتقاده انه إله آخر مع الله. وذلك جهل منه عظيم وذهاب عن الصواب بعيد، فيقول الله للملكين الموكلين به يوم القيامة ﴿ ألقيا ﴾ أي اطرحاه ﴿ في العذاب الشديد ﴾ والالقاء الرمي بالشيء إلى جهة السفل، وقولهم: ألقى عليه مسألة بمعنى طرحها عليه منشبه بذلك. واصل الالقاء المماسة، والالتقاء من هذا ففي الالقاء طلب مماسة الشيء الارض بالرمي ﴿ قال قرينه ربنا ما اطغيته ﴾ قال ابن عباس: قرينه - ههنا - شيطانه. وبه قال مجاهد وقتادة والضحاك. وسمي قرينه لأنه يقرن به في العذاب، وهو غير قرينه الذى معه يشهد عليه، والقرين نظير الشيء من جهة مصيره بازائه.

حكى الله من شيطانه الذي أغواه انه يقول « ما أطغيته » فالاطغاء الاخراج إلى الطغيان، وهو تجاوز الحد في الفساد أطغاه وطغى يطغى طغياناً، فهو طاغ. والاول مطغى. وقال الحسن: ما اطغيته باستكراه، وهو من دعاه إلى الطغيان. والمعنى لم أجعله طاغياً « ولكن كان » هو بسوء اختياره « في ضلال » عن الايمان « بعيد » عن إتباعه. ومثله قوله « وما كان لي عليكم من سلطان إلا ان دعوتكم فاستجبتم لي » (١) فيقول الله تعالى لهم « لا تختصموا لدي » أي لا يخاصم بعضكم بعضاً عندي ﴿ وقد قدمت اليكم بالوعيد ﴾ في دار التكليف، فلم تنزجروا وخالفتم أمري ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ معناه إن الذي قدمته اليكم في الدنيا من أني أعاقب من جحدني وكذب برسلي وخالفني في أمري لا يبدل بغيره، ولا يكون خلافه ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ أي لست بظالم لاحد في عقابي لمن استحقه بل هو الظلام لنفسه بارتكاب المعاصي التي استحق بها ذلك. وإنما قال: بظلام للعبيد على وجه المبالغة رداً لقول من أضاف جميع الظلم اليه - تعالى الله عن ذلك -.

(١) سورة ١٤ ابراهيم آية ٢٢

وقوله ﴿ يوم نقول لجهنم ﴾ من قرأ بالنون فعلى وجه الاخبار من الله عن نفسه . ومن قرأ ـ بالياء ـ وهو نافع وابو بكر ، فعلى تقدير يقول الله لجهنم ﴿ هل امتلأت ﴾ من كثرة من ألقي فيك من العصاة ﴿ فتقول ﴾ جهنم ﴿ هل من مزيد ﴾ أي .ما من مزيد ؟؟ أي ليس يسعني اكثر من ذلك . وقال قوم : هذا خطاب من الله لخزنة جهنم على وجه التقريع والتقرير لهم هل امتلأت جهنم ، فتقول الخزنة هل من مزيد ؟ وقال قوم : وهو الأظهر إن الكلام خرج مخرج المثل أي ان جهنم من سعتها وعظمها في ما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة التي إذا قيل لها هل امتلأت فتقول هل من مزيد أي لم امتلىء اي في سعه كثرة ، ومثله قول الشاعر :

امتلأ الحوض وقال قطني ‏ ‏ ‏ ‏ مهلا رويداً قد ملأت بطني (١)

والحوض لم يقل شيئاً ، وإنما أخبر عن امتلائها وانها لو كانت ممن تنطق لقالت قطني مهلا رويداً قد ملأت بطني . وكذلك القول في الآية . وقال الحسن وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء : معنى هل من مزيد ما من مزيد ، وانه بمعنى لا مزيد وانكروا أن يكون طلباً للزيادة ، لقوله ﴿ لأملان جهنم من الجنة والناس اجمعين ﴾ (٢) وقال بعضهم : هذا ليس بمنكر من وجهين :

احدها ـ أن يكون ذلك حكاية عن الحال التي قبل دخول جميع اهل النار فيها ولم تمتلأ بعد وان امتلأت في ما بعد .

والآخر ـ ان يكون طلب الزيادة بشرط ان يزاد في سعتها . وقال قوم : هل من مزيد بمنزلة قول النبي صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة وقد قيل له ألا تنزل دارك ، فقال (وهل ترك لنا عقيل من ربع) لأنه كان قد باع دور بني هاشم لما خرجوا

(١) مر في ١ | ٤٣١ و ٨ | ٨٥ ، ٣٦٩ ، ٤٧١ (٢) سورة ١١ هود آية ١١٩

إلى المدينة ، وإنما أراد ان يقول : لم يترك لنا داراً . وقال انس بن مالك : هل من مزيد طلباً للزيادة . وقال مجاهد : هو بمعنى الكفاية .

قوله تعالى :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (٣٥) خمس آيات .

لما حكى الله تعالى ما أعده للكافرين والعصاة من جهنم وعظم موضعها وسعتها أخبر عما اعده للمتقين المجتنبين لمعاصيه الفاعلين لطاعاته فقال ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ والازلاف التقريب إلى الخير ، ومنه الزلفة ، والزلفى . ويقولون : أزدلف اليه أي اقترب والمزدلفة قريب من الموقف . وهو المشعر وجمع ، ومنه قول الراجز :

ناج طواه الاين مما وجفا طي الليالي زلفا فزلفا
سماؤه الهلال حتى احقوقفا (١)

والجنة التي وعد الله المتقين بها هي البستان الذي يجمع من اللذة ارفع كل نوع في الزينة من الابنية الفاخرة بالياقوت والزمرد وفاخر الجوهر ، ومن الانهار والاشجار وطيب الثمار ومن الأزواج الكرام والحور الحسان وكريم الخدم من الولدان الذين هم زينة لكل ناظر ومتعة لكل مبصر ، قد أمن اهلها العلة وانواع

(١) مر في ٦ / ٧٩ و ٨ / ٢٩

الاذى من فضول الاطعمة والاشربة ، نسأل الله حسن الاستعداد لها بالعمل الصالح المقرب منها الموجب لرضوان مالكها .

وقوله ﴿ غير بعيد ﴾ أي ليس ببعيد مجيء ذلك ، لان كل آت قريب ، ولذلك قال الحسن : كأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل .

ثم قال ﴿ هذا ما توعدون ﴾ من قرأ بالتاء فعلى الخطاب أي هذا الذي ذكرناه هو ما وعدتم به من الثواب ﴿ لكل أواب ﴾ أي رجاع إلى الله تائب اليه ﴿ حفيظ ﴾ لما أمر الله به يتحفظ من الخروج الى مالا يجوز من سيئة تدنسه او خطيئة تحط منه وتشينه . وقال ابن زيد : الأواب التواب ، وهو من آب يؤب اوباً إذا رجع .

وقوله ﴿ من خشى الرحمن بالغيب ﴾ فالخشية انزعاج القلب عند ذكر السيئة وداعي الشهوة حتى يكون فى اعظم حال من طلبه سبع يفترسه او عدو يأتي على نفسه او طعام مسموم يدعى إلى اكله هذه خشية الرحمن التي تنفعه والتي دعا اليها ربه ومعنى ﴿ بالغيب ﴾ أي في باطنه وسريرته ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ أي راجع إلى الله من اناب ينيب إنابة ، وموضع (من) يحتمل وجهين من الاعراب :

احدهما ـ الجر على البدن من (كل) كأنه قيل لمن خشى .

والثاني ـ الرفع على الاستئناف كأنه قال ﴿ من خشى الرحمن بالغيب ﴾ يقال لهم ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ أي بأمان من كل مكروه ويحيون بذلك على وجه الاكرام .

وقوله ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أي الوقت الذي يبقون فيه فى النعيم مؤبدين لا إلى غاية .

وقوله ﴿ لهم ما يشاؤن فيها ﴾ أي ما يريدونه ويشتهونه يجعل لهم فيها ﴿ ولدينا مزيد ﴾ من نعم الله الذي يعطيهم زيادة على مقدار استحقاقهم بعملهم .

قوله تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ ﴾ (٤٠) خمس آيات

قرأ ﴿ وإدبار ﴾ بكسر الألف ابن كثير ونافع واهل الحجاز وحمزة على المصدر من أدبر إدباراً ، وتقديره وقت إدبار السجود . والمصادر تجعل ظرفاً على إرادة اضافة اسماء الزمان إليها وحذفها ، كقولهم جئتك مقدم الحاج وخفوق النجم ونحو ذلك يريدون فى ذلك كله وقت كذا وكذا فحذفوه . الباقون بفتح الألف على انه جمع (دبر) :

يقول الله تعالى مخبراً ﴿ وكم أهلكنا ﴾ ومعناه وكثيراً أهلكنا وذلك أن (كم) تكون إستفهاماً تارة فى معنى الخبر للتكثير وإنما خرجت عن الاستفهام إلى التكثير لتكون نقيضة (رب) فى التقليل وكانت احق به ، لانها (اسم) مع إحتمالها للتقليل ، فأما رب فى الكلام ، فهي حرف يجري مجرى حرف النفي ، لان التقليل أقرب إلى النفي ، وإنما وجب لـ (كم) صدر الكلام فى الخبر إعلاماً بأنها خرجت عن الاستفهام مع انها نقيضة (رب) التي هي بمنزلة حروف النفي ، ودخلت (من) على مفسر (كم) فى الخبر بمنزلة عدد يفسر بالمضاف كقولك عشر أثواب ، وعشرة من الاثواب . فجاز حرف الاضافة

كما جازت الاضافة . وليس كذلك عشرون درهماً ، وجاز ان يفسر فى الخبر بالواحد وبالجمع : والقرن المقدار من الزمان الذي يقترون بالبقاء فيه أهله على مجرى العادة . وقال قوم : هو مئة وعشرون سنة . وقيل : ثمانون سنة وقال آخرون : هو سبعون سنة . وقال قوم : أربعون سنة . وقيل ثلاثون سنة . وقيل : عشر سنين «هم اشد منهم بطشاً» أى الذين أهلكناهم مثل هؤلاء الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء واكثر عدة كقوم عاد وغيرهم فلم يتعذر علينا ذلك ، فما الذى يؤمن هؤلاء من مثل ذلك .

وقوله ﴿ فنقبوا فى البلاد ﴾ أى فتحوا مسالك فى البلاد بشدة بطشهم فالتنقيب التفتيح بما يصلح للسلوك من نقض البنية ، ومنه النقب الفتح الذى يصلح للمسالك وقد يفتح الله على العباد فى الرزق بأن يوسع عليهم فى رزقهم ، ولا يصلح فيه النقب . وكل نقب فتح . وليس كل فتح نقباً ، فالنقب نقض موضع بما يصلح للسلوك . وقال مجاهد : نقبوا فى البلاد أى ضربوا فى الارض ضرب جاعل المسالك بالنقب ، قال امرؤ القيس :

لقد نقبت فى الافاق حتى رضيت من الغنيمة بالآياب (١)

وقوله ﴿ هل من محيص ﴾ أى هل من محيد ، وهو الذهاب فى ناحية عن الأمر للهرب منه ، حاص يحيص حيصاً فهو حايص مثل حاد يحيد حيداً فهو حايد والمعنى إن أولئك الكفار الذين وصفهم بشدة البطش لما نزل بهم عذاب الله لم يكن لهم مهرب ولا محيص عنه . وقيل هل من محيد من الموت ، ومنجاً من الهلاك . قال الزجاج : هؤلاء الكفار طوفوا فى البلاد ، فلم يجدوا مخلصاً من الموت .

وقوله ﴿ إن فى ذلك لذكرى ﴾ يعني في ما أخبرته وقصصته لك لذكرى أى

(١) ديوانه ٤٨ ومجاز القرآن ٢ / ٢٢٤ الشاهد ٨٣٦

ما يتفكر فيه ويعتبر به ﴿ لمن كان له قلب ﴾ قيل معنى القلب - ههنا - العقل من قولهم اين ذهب قلبك ، وفلان ذاهب القلب ، وفلان قلبه معه ، وإنما قال ﴿ لمن كان له قلب ﴾ لان من لا يعي الذكر لا يعتد بماله من القلب .

وقوله ﴿ او القى السمع وهو شهيد ﴾ قال ابن عباس : معناه استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع ، فهو شهيد لما يسمع ويفقهه غير غافل عنه ، وهو قول مجاهد والضحاك وسفيان ، يقال ألق إلي سمعك أي استمع . وقال قتادة : وهو شهيد على صفة النبي صلى الله عليه وآله في الكتب السالفة ، وهذا في أهل الكتاب . والأول اظهر .

ثم أقسم الله تعالى فقال ﴿ ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ﴾ وقد مضى تفسير مثله في غير موضع (١) ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ أي من نصب وتعب - في قول ابن عباس ومجاهد - واللغوب الاعياء . قال قتادة : أكذب الله تعالى بذلك اليهود ، فانهم قالوا : استراح الله يوم السبت ، فهو عندهم يوم الراحة . وقيل : إنما خلق الله السموات والارض وما بينهما في ستة أيام مع قدرته على ان يخلقهما في وقت ، لان في ذلك لطفاً للملائكة حين شاهدوه يظهر حالا بعد حال وقيل : لأن في الخبر بذلك لطفاً للمكلفين في ما بعد إذا تصوروا أن ذلك يوجد شيئاً بعد شيء مع أدب النفس به في ترك الاستعجال إذا جرى في فعل الله لضروب من التدبير .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ فاصبر ﴾ يا محمد ﴿ على ما يقولون ﴾ من قولهم : هو ساحر ، وكذاب ، ومجنون ، واحتمل ذلك حتى يأتي الله بالفرج ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ أي نزهه عما لا يليق به ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ صلاة الفجر ﴿ وقبل الغروب ﴾ صلاة العصر - في قول قتادة وابن زيد - ﴿ ومن الليل ﴾ يعني صلاة الليل يدخل

(١) انظر ٤ / ٤٥١ و ٥ / ٣٨٥ ، ٥١٧ و ٧ / ٥٠٠ و ٨ / ٢٩٣ و ٩ / ٩ ١

فيه صلاة المغرب والعتمة . وقال ابن زيد : هو صلاة العتمة ﴿ وأدبار السجود ﴾ الركعتان بعد المغرب ـ في قول الحسن بن علي عليهما السلام ومجاهد والشعبي وابراهيم . وقال الحسن ﴿ وقبل الغروب ﴾ صلاة الظهر والعصر . وقال الركعتان بعد المغرب تطوعاً . وقيل : التسبيح بعد الصلاة ـ عن ابن عباس ومجاهد ـ وقيل : النوافل ـ عن ابن زيد ـ وأصل التسبيح التنزيه لله عن كل ما لايجوز فى صفة ، وسميت الصلاة تسبيحاً لما فيها من التسبيح ، يقال : سبحان ربي العظيم ، وروي ايضاً أراد بـ ﴿ ادبار السجود ﴾ الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل طلوع الفجر . وروي فى الشواذ عن أبي عمرو أنه قرأ «فنقبوا» بتخفيف القاف ، وهي لغة في التشديد . ورجل نقاب أى حاذق فطن عالم كان ابن عباس نقاباً، والنقبة الجرب ونقب خف البعير إذا انتقب وقرىء على لفظ الأمر وهو شاذ .

قولــه تعــالى :

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٤٥) خمس آيات .

قرأ ابن كثير ﴿يوم تشقق﴾ مشددة الشين على معنى تتشقق وحذف احدى التائين : والتشقق التفطير . يقول الله تعالى لنبيه عليه السلام والمراد به جميع المكلفين ﴿ واستمع ﴾ أي اصغ إلى النداء وتوقعه ﴿ يوم ينادي المنادي ﴾ فالنداء الدعاء بطريقة

يا فلان ، وكأن الناس يدعون فيقال لهم : يا معشر الناس قوموا إلى الموقف للجزاء والحساب . وقيل : ينادي المنادي من الصخرة التي في بيت المقدس ، فلذلك قال ﴿ من مكان قريب ﴾ فيقول : يا أيها العظام البالية قومي لفصل القضاء وما اعد من الجزاء - في قول قتادة - ﴿ من مكان قريب ﴾ أي يسمع الخلق كلهم على حد واحد ، فلا يخفى على احد لا قريب ولا بعيد .

وقوله ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ فالصيحة المرة الواحدة من الصوت الشديد ونقيضها الخفتة تقول صاح يصيح صياحاً وصيحة ، فهو صائح ، وتصايح وتصايحوا في الأمر تصايحا ، وصيح تصييحاً وصايحه مصايحة ، وهذه الصيحة هي النفخة الثانية للحشر إلى أرض الموقف ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ .

وقوله ﴿ إنا نحن نحيي ونميت والينا المصير ﴾ اخبار منه تعالى عن نفسه بأنه هو الذي يحيي الخلق بعد ان كانوا جماداً أمواتاً . ثم يميتهم بعد أن كانوا أحياء ثم يحييهم يوم القيامة وإلى الله يصيرون ويرجعون يوم القيامة ﴿ يوم تشقق الارض عنهم سراعاً ﴾ أي الينا المصير في اليوم الذي تشقق الارض عن الأموات ﴿ سراعاً ﴾ أي بسرعة لا تأخير فيها ثم قال ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أي سهل علينا غير شاق . والحشر الجمع بالسوق من كل جهة .

ثم قال ﴿ نحن اعلم بما يقولون ﴾ يعني هؤلاء الكفار من جحدهم نبوتك وإنكارهم البعث والنشور ، لا يخفى علينا من أمرهم شيء ﴿ وما أنت عليهم ﴾ يا محمد ﴿ بجبار ﴾ قال الحسن : ما أنت عليهم برب تجازيهم بأعمالهم . وإنما أنا المجازي لهم . وقيل : وما انت عليهم بفظ في دعائهم إلى توحيد الله وإخلاص عبادته . والجبار العالي السلطان بأنه قادر على اذلال جميع العصاة بحسب الاستحقاق وهذه الصفة لا تصح إلا لله تعالى وحده ، فان وصف بها الانسان كان ذماً ، لانه جعل

انفسه من المقدرة ما ليس لها ، وانشد المفضل :

عصينا حرمة الجبار حتى صبحنا الخوف الفا معلمينا (١)

وقيل ﴿ وما أنت بجبار ﴾ أي لاتتجبر عليهم ، قال الفراء : يجوز ان يكون لا يجبرهم على الاسلام يقال : جبرته على الامر واجبرته بمعنى واحد . وقال غيره : لم يسمع (فعال) من (أفعلت) إلا (دراك) من (أدركت) ويكون الجبار العالي السلطان على كل سلطان باستحقاق ، ويكون العالي السلطان بادعاء .

ثم قال ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾إنما خص بالتذكير من يخاف وعيد الله ، لانه الذي ينتفع به وإن كان تذكيره متوجهاً إلى جميع المكلفين . قال الزجاج : إنما قال الله للنبي صلى الله عليه وآله ذلك قبل ان يأمره بالقتال .

(١) تفسير الطبرى ٢٦ | ١٠٣

٥١ ـ سورة الذاريات

مكية بلا خلاف . وهي ستون آية بلا خلاف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (١٤) أربع عشر آية .

روى عن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام وابن عباس (رحمة الله عليه) ومجاهد ان ﴿ الذاريات ﴾ الرياح يقال : ذرت الريح التراب تذروه ذرواً ، وهي ذارية إذا طيرته وأذرت تذري إذراء بمعنى واحد وسأل ابن الكوا أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب على المنبر ﴿ ما الذاريات ذرواً ﴾ قال : **الرياح ، قال ما**

﴿ الحاملات وقراً ﴾ فقال السحاب . فقال ما ﴿ الجاريات يسراً ﴾ قال السفن . والمعنى إنها تجري سهلا ، فقال ما ﴿ المقسمات أمراً ﴾ قال الملائكة . وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن ، وهذا قسم من الله تعالى بهذه الأشياء . وقال قوم : التقدير القسم برب هـذه الاشياء لأنه لا يجوز القسم إلا بالله . وقد روي عن أبي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام أنه لا يجوز القسم إلا بالله . والله تعالى يقسم بمـا يشاء من خلقه .

وقيل : الوجه في القسم بالذاريات تعظيم ما فيها من العبرة في هبوبها تارة وسكونها اخرى ، , ذلك يقتضي مسكناً لها ومحركاً لا يشبه الاجسام ، وفي مجيئها وقت الحاجة لتنشئة السحاب وتذرية الطعام ما يقتضي مصرفاً لها قادراً عليها ، وما في عصوفها تارة ولينها أخرى ما يقتضي قاهراً لها ولكل شيء سواها .

والوجه في القسم بالحاملات وقراً ، ما فيه من الآيات الدالة على محمل حملها الماء وأمسكه من غير عماد واغاث بمطره العباد واحيي البلاد وصرفه في وقت الغنى عنه بما لو دام لصاروا إلى الهلاك ، ولو انقطع اصلا ، لاضربهم جميعاً . والوجـه في القسم بالجاريات يسراً ما فيها من الدلائل وبتسخير البحر الملح والعذب بجريانهـا وتقدير الريح لها بما لو زاد لغرق ولو ركد لأهلك ، وبما في هـداية النفوس إلى تدبير مصالحها وما في عظم النفع بها في ما ينقل من بلد إلى بلد بها .

والوجه في القسم بالملائكة ما فيها من اللطف وعظم الفـائدة وجلالة المنزلة بتقسيم الأمور بأمر الله تعالى من دفع الآفة عن ذا واسلام ذاك ومن كتب حسنات ذا وسيئات ذاك ، ومن قبض روح ذا وتأخير ذاك . ومن الدعاء للمؤمنين ولعن الكافرين ، ومن استدعائهم إلى طريق الهدى وطلب ما هو أولى بصد داعي الشيطان والهوى عدو الانسان .

وقوله ﴿ إن ما توعدون لصادق ﴾ جواب القسم . ومعناه إن الذي وعدتم به من الثواب والعقاب والجنة والنار وعد صدق لابد من كونه ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ معناه إن الجزاء الكائن يوم القيامة ، وهذا يفيد ان من استحق عقاباً ، فانه يجازى به ويدخل في ذلك كل مستحق للعقاب ، كأنه قال : إن جميع الجزاء واقع بأهله يوم القيامة في الآخرة . ثم استأنف قسماً آخر فقال ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ فالحبك الطرائق التي تجري على الشيء كالطرائق التي ترى في السماء . وترى في الماء الصافي إذا مرت عليه الريح ، وهو تكسر جار فيه . ويقال للشعر الجعد حبك والواحد حبيك وحبيكة ، والحبك أثر الصنعة في الشيء وإستوائه ، حبكه يحبكه ويحبكه حبكاً « والسماء ذات الحبك » أي ذات حسن الطرائق ، وحبك الماء طرائفه قال زهير :

مكلل باصول النجم تنسجه ريح خريق لصافي مائه حبك(١)

وتحبكت المرأة بنطاقها إذا شدته في وسطها ، وذلك زينة لها ، وحبك السيف إذا قطع اللحم دون العظم . وقال الحسن وسعيد بن جبير : ذات الحبك ذات الزينة بالنجوم والصنعة وللطرائق الحسنة . وقيل : الحبك النسج الحسن ، يقال : ثوب محبوت . وقوله ﴿ إنكم لفي قول مختلف ﴾ معناه إنكم في الحق لفي قول مختلف ، لا يصح إلا واحد منه ، وهو أمر النبي صلى الله عليه وآله وما دعا اليه ، وهو تكذيب فريق به وتصديق فريق . ودليل الحق ظاهر ، وفائدته أن احد الفريقين في هذا الاختلاف مبطل ، لانه اختلاف تناقض فاطلبوا الحق منه بدليله وإلا هلكتم . وقوله ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ معناه يصرف عنه من صرف ، ومنه قوله ﴿ أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ (٢) أي لتصرفنا ، وتصدنا . وإنما قيل ﴿ يؤفك ﴾ عن الحق

(١) ديوانه ١٧٦ ومجاز القرآن ٢/٢٢٥ والقرطبي ١٧/ ٣٢ (٢) سورة ٤٦ الاحقاف آية ٢٢

لأنه يمكن فيه ذلك من غيره، ولا يمكن من نفسه، لان الحق يدعو إلى نفسه ولا يصرف عنها إلى خلافه.

وقوله ﴿ قتل الخراصون ﴾ معناه لعن الكذابون، ومثله ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ (١) والخراص الكذاب. وأصله الخرص وهو القطع من قولهم: خرص فلان كلامه واخترصه إذا افتراه، لانه اقتطعه من غير أصل. والخرص جريد يشقق ويتخذ منه الحصر قال الشاعر:

ترى قصد المران فيهم كأنه تذرع خرصان بأيدي شواطب (٢)

والخرص حلقة القرط المنقطعة عن ملاصقة الاذن، والخريص الخليج من من البحر، والخرص الخرز من العدد والكيل، ومنه خارص النخل، وهو خارزه وجمعه خراص. وقوله ﴿ الذين هم في غمرة ساهون ﴾ صفة للخراصين وموضعه رفع وتقديره في غمرة ساهون عن الحق كقوله ﴿ طبع الله على قلوبهم ﴾ (٣) والغمرة المرة من علو الشيء على ما هو فائض فيه، غمره الماء يغمره غمراً وغمرة، فهو غامر له، والانسان مغمور، ويقال: غمره الشغل وغمره الموت وغمره الحياء وغمره الجهل وأصل الغمرة من الغمر وهو السيد الكثير العطاء، لانه يغمر بعطائه، والغمر الفرس الكثير الجري، لانه يغمر بجريه، والغمر الذي لم يجرب الأمور والغمر الحقد والغمرة رائحة الزهومة في اليد، وغمار الناس مجتمعهم، وغمرة المرأة ما تطلى به من الطيب وغيره مما يحسن اللون. والغمر القدح الصغير، والغمر النبت الصغار، لانه تغمره الكبار والمعنى ان هؤلاء الكفار لجهلهم بما يجب عليهم معرفته ساهون عما يلزمهم العلم به أي غافلون عن الحق متعامون عنه ﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ يعني يسأل

(١) سورة ٨٠ عبس آية ٧ (٢) مر في ٤ / ٢٦٩ مع اختلاف يسير

(٣) سورة ٩ التوبة آية ٩٤ وسورة ١٦ النحل آية ١٠٨ وسورة ٤٧ محمد آية ١٦

هؤلاء الكفار الذين وصفهم بالجهل والغمرة : متى يوم الجزاء ؟ ! على وجه الانكار لذلك لا على وجه الاستفادة لمعرفته ، فاجيبوا بما يسوءهم من الحق الذي لا محالة انه نازل بهم فقيل ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ أي يحرقون بالنار ويعذبون فيها وأصل الفتنة تخليص الذهب باحراق الغش الذى فيه ، فهؤلاء يفتنون بالاحراق كما يفتن الذهب . ومنه قوله ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ (١) أى أخلصناك للحق ، ورجل مفتون بالمرءة أى مخلص بحبها ، وهي صفة ذم ، ﴿ وفتناهم ﴾ أى اختبرناهم بما يطلب به خلاصهم للحق . وقيل : يفتنون أى يحرقون ، كما يفتن الذهب في النار - في قول مجاهد والضحاك - وقوله ﴿ يوم هم ﴾ يصلح أن يكون في موضع رفع ، لانك أضفته إلى شيئين ، ويصلح فيه النصب على الظرف والبناء ، وكله على جواب ﴿ أيان ﴾

وقوله ﴿ ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ معناه انه يقال للكفار الذين يعذبون بها هذا الذي كنتم به تستعجلون فى دار التكليف إستبعاداً له ، فقد حصلتم الآن فيه وعرفتم صحته ،

قولـه تعـالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَيْهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)

(١) سورة ٢٠ طه آية ٤٠

فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (٢٣) تسع آيات.

قرأ حمزة والكسائي وابو بكر عن عاصم ﴿لحق مثل﴾ بالرفع على أنه صفة للحق الباقون بالنصب، ويحتمل نصبه وجهين:

أحدها ـ قول الجرمي أن يكون نصباً على الحال، كأنه قيل: حق مشبهاً لنطقكم في الثبوت.

الثاني ـ قال المازني إن (مثل) مبني، لانه مبهم أضيف إلى مبني، كما قال الشاعر:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة في غصون ذات او قال (١)

وقال: فجعل (مثل) مع (ما) كالأمر الواحد، كما قال ﴿لا ريب فيه﴾ (٢) وقولهم: خمسة عشر، فيكون على هذا (ما) زائدة وأضاف (مثل) إلى ﴿إنكم تنطقون﴾ فبناه على الفتح حين أضافه إلى المبني، ولو كان مضافاً إلى معرب لم يجز البناء نحو: مثل زيد. وقيل: يجوز أن يكون نصباً على المصدر، وكأنه قال إنه لحق حقاً كنطقكم.

لما حكى الله تعالى حكم الكفار وما أعده لهم انواع العذاب، أخبر بما أعده للمؤمنين المطيعين الذين يتقون معاصي الله خوفاً من عقابه، ويفعلون ما أوجبه عليهم فقال ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ أي في بساتين تجنها الاشجار ﴿وعيون﴾ ماء تجري لهم في جنة الخلد، فهؤلاء ينعمون وأولئك يعذبون ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ من كرامته وثوابه بمعنى آخذين ما أعطاهم الله من ذلك ونصب (آخذين) على الحال ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ يفعلون الطاعات وينعمون على غيرهم

(١) مر في ٤ / ٤٧٩ (٢) سورة ٢ البقرة آية ١

بضروب الاحسان ، ثم وصفهم فقال ﴿ كانوا ﴾ يعني المتقين الذين وعدهم بالجنات ﴿ قليلا من الليل ما يهجعون ﴾ فى دار التكليف أي كان هجوعهم قليلا - في قول الزهري وإبراهيم - وقال الحسن : (ما) صلة وتقديره كانوا قليلا يهجعون ، وقال قتادة : لا ينامون عن العتمة ينتظرونها لوقتها ، كأنه قيل هجوعهم قليلا فى جنب يقظتهم للصلاة والعبادة . وقال الضحاك : تقديره كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا ، ثم ابتدأ فقال ﴿ من الليل ما يهجعون ﴾ وتكون (ما) بمعنى النفي والمعنى إنهم كانوا يحيوون الليل بالقيام فى الصلاة وقراءة القرآن وغير ذلك . ولا يجوز ان تكون (ما) جحدا لانه لايقدم عليها معمولها . والهجوع النوم - في قول قتادة وابن عباس وإبراهيم والضحاك ﴿ وبالاسحار هم يستغفرون ﴾ أي يطلبون من الله المغفرة والستر لذنوبهم فى قول الحسن وابن زيد - وقال مجاهد : معناه يصلون فى السحر. وقوله ﴿ وفي أموالهم حق ﴾ وهو ما يلزمهم لزوم الديون من الزكوات وغير ذلك أو ما التزموه من مكارم الاخلاق ، فهو الذي رغب الله فيه بقوله ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ فالسائل هو الذي يسأل الناس ، والمحروم هو المحارف - في قول ابن عباس ومجاهد والضحاك - وقال قتادة والزهري : المحروم هو المتعفف الذي لا يسأل . وقال إبراهيم: المحروم الذي لاسهم له فى الغنيمة. وقيل : المحروم الممنوع الرزق بترك السؤال أو إذهاب مال او سقوط سهم او خراب ضيعة إذا صار فقيراً من هذه الجهة . وقال الشعبي : اعياني أن أعلم ما المحروم . وفرق قوم بين الفقير والمحروم بأنه قد يحرمه الناس بترك الاعطاء ، وقد يحرم نفسه بترك السؤال ، فاذا سأل لا يكون ممن حرم نفسه بترك السؤال ، وإنما حرمه الغير ، وإذا لم يسأل فقد حرم نفسه وحرمه الناس .

وقوله ﴿ وفى الأرض آيات ﴾ أي دلالات واضحات وحجج نيرات ﴿ للموقنين ﴾

الذين يتحققون بتوحيد الله ، وإنما أضافها إلى الموقنين ، لانهم الذين نظروا فيها وحصل لهم العلم بموجبها وآيات الأرض جبالها و نباتها ومعادنها وبحارها ، ووقوفها بلا عمد لتصرف الخلق عليها .

وقوله ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ معناه وفى أنفسكم أفلا تتفكرون بأن تروها مصرّفة من حال إلى حال ومنتقلة من صفة إلى أخرى ، فكنتم نطفاً فصرتم أحياء ثم كنتم أطفالا فصرتم شباباً ، ثم صرتم كهولا وكنتم ضعفاء فصرتم أقوياء ، فهلا دلكم ذلك على ان لها صانعاً صنعها ومدبراً دبرها يصرفها على ما تقتضيه الحكمة ويدبرها بحسب ما توجبه المصلحة . وقيل : المعنى أفلا تبصرون بقلوبكم نظر من كأنه يرى الحق بعينه .

وقوله ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ ينزله الله اليكم بأن يرسل عليكم الغيث والمطر فيخرج به من الارض أنواع ما تقتاتونه وتلبسونه وتنتفعون به ﴿ وما توعدون ﴾ به من العذاب ينزله الله عليكم إذا استحققتموه . وقال الضحاك : وفى السماء رزقكم يعني المطر الذي هو سبب كل خير وهو من الرزق الذي قسمه الله وكتبه للعبد فى السماء . وقال مجاهد : وما توعدون يعني من خير او شر . وقيل وما توعدون الجنة ، لانها في السماء الرابعة .

ثم قال تعالى ﴿ فورب السماء والارض ﴾ قسما منه تعالى ﴿ إنه لحق ﴾ ومعناه إن ما وعدتكم به من الثواب والعقاب والجنة والنار لابد من كونه « مثل ما تنطقون » أي مثل نطقكم الذي تنطقون به فكما لا تشكون في ما تنطقون ، فكذلك لا تشكوا في حصول ما وعدتكم به . وقيل الفرق بين قوله « حق مثل ما إنكم تنطقون » وبين ما تنطقون مثل الفرق بين أحق منطقك وبين أحق إنك تنطق أي أحق إنك ممن

ينطق ، ولم يثبت له نطقاً . والاول قد أثبته إلا أنه قال : أحق هو أم باطل ، ذكره الفراء . ومعنى الآية أن هذا القرآن وأمر محمد ﷺ وما توعدون به من أرزاقكم حق ككلامكم ، كقول القائل : إنه لحق مثل ما أنت ههنا أي كما أنت ههنا . وقال الفراء : وإنما جمع بين (ما) و (إن) مع انه يكتفي باحدهما ، كما يجمع بين اللائي والذين ، وأحدهما يجزي عن الآخر قال الشاعر :

من النفر اللائي والذين إذا هم   يهاب اللئام حلقة الباب قعقعوا (١)

فجمع بين اللائي والذين ، ولو أفرده بـ (ما) لكان المنطق في نفسه حقاً ، ولم يرد ذلك ، وإنما أراد أنه لحق كما حق أن الآدمي ناطق ، ألا ترى ان قولك أحق منطقك معناه أحق هو أم كذب ، وقولك أحق إنك تنطق معناه إن للانسان النطق لا لغيره ، فادخلت (أن) ليفرق بين المعنيين . قال وهذا أعجب الوجهين إليّ

قوله تعالى :

﴿ هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ الْمُكْرَمِينَ [٢٤] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ [٢٥] فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ [٢٦] فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ [٢٧] فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ [٢٨] فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ [٢٩] قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ [٣٠] سبع آيات .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ « هل أتاك » يا محمد « حديث ضيف إبراهيم

(١) تفسير الطبري ٢٦ | ١١٣

المكرمين » قال الحسن : يعني المكرمين عند الله . وقيل : اكرمهم إبراهيم برفع مجالسهم في الاكرام والاعظام الذى يسر بالاحسان . والاجلال هو الاعظام بالاحسان ، وكذلك يلزم اعظام الله وإجلاله في جميع صفاته ، ولا يجوز مثل ذلك في الاكرام ، ولكن الله يكرم أنبياءه والمؤمنين على طاعتهم .

وقوله « إذ دخلوا عليه » يعني حين دخلوا على إبراهيم « فقالوا » له « سلاماً » على وجه التحية له أي اسلم سلاماً « فقال » لهم جواباً عن ذلك « سلام » وقرىء سلم ، فلما ارتاب عليه السلام بهم قال « قوم منكرون » أى انتم قوم منكرون ، والانكار بنفي صحة الأمن ونقيضه الاقرار ، ومثله الاعتراف . وإنما قال : منكرون ، لأنه لم يكن يعرف مثلهم في أضيافه ، وسماهم الله أضيافاً ، لأنهم جاؤه فى صفة الاضياف وعلى وجه مجيئهم . ومعنى (سلاماً) أي اسلم سلاماً ، وقوله « قال سلام » أي سلام لنا . وقوله « فراغ إلى أهله » أي ذهب اليهم خفياً ، فالروغ الذهاب فى خفى ، راغ يروغ روغاً وروغاناً ، وراوغه مراوغة ورواغاً ، وأراغه على كذا إذا أراده عليه فى خفى أنفاً من رده . وقوله « فجاء بعجل سمين» فالعجل واحد البقر الصغير مأخوذ من تعجيل أمره بقرب ميلاده ، وسمي عجولا وجمعه عجاجيل . وقال قتادة : كان عامة مال نبي الله إبراهيم عليه السلام البقر . والسمين الكثير الشحم على اللحم ، سمن يسمن سمناً ، وسمنه تسميناً واسمنه اسماناً وتسمن تسمناً ، ونقيض السمن الهزال . وقوله « فقربه اليهم » أي ادناه لهم وقدمه بين أيديهم وقال لهم : كلوه ، فلما رآهم لا يأكلون عرض عليهم فـ « قال ألا تأكلون » وفي الكلام حذف ، لان تقديره فقدمه اليهم فأمسكوا عن الاكل فقال ألا تأكلون فلما أمتنعوا من الأكل « أوجس منهم خيفة » أي خاف منهم وظن أنهم يريدون به سوء ، فالايجاس الاحساس بالشيء خفياً ، أوجس يوجس إيجاساً وتوجس توجساً.

ومنه قوله « فاوجس فى نفسه خيفة موسى » (١) فقالت حينئذ له الملائكة «لاتخف» يا إبراهيم فانا رسل الله وملائكته أرسلنا الله إلى قوم لوط لنهلكهم . وقيل : إنهم دعوا الله فأحيا العجل له فعلم إبراهيم عند ذلك انهم من الملائكة عليهم السلام « و بشروه » عند ذلك « بغلام عليم » أي يكون عالماً إذا كبر وبلغ . قال مجاهد : المبشر به إسماعيل . وقال غيره : هو اسحاق ، لانه من سارة ، وهذه القصة لها لا لهاجر ، سمعت البشارة امرأته سارة « فأقبلت فى صرة » يعني فى صيحة – فى قول ابن عباس ومجاهد وسفيان – وقال مجاهد وسفيان أيضاً فى رنة « فصكت وجهها » قال ابن عباس لطمت وجهها . وقال السدي : ضربت وجهها تعجباً ، وهو قول مجاهد وسفيان ، فالصك الضرب باعتماد شديد « وقالت عجوز عقيم » فالتقدير أنا عجوز عقيم كيف ألد ؟! والعقيم الممتنعة من الولادة لكبر او آفة . وقال الحسن : العقيم العاقر . وأصل العقم الشدة مما جاء في الحديث (يعقم أصلاب المشركين) أى يشد ، فلا يستطيعون السجود ، وداء عقام إذا أعيا ، أي اشتد حتى أيأس ان يبرأ ، ومعاقم الفرس مفاصله يشد بعضها إلى بعض ، والعقم والعقمة ثياب معلمة أي شدت بها الاعلام ، وعقمت المرأة ، فهي معقومة وعقيم ، وقالوا عقمت ايضاً ورجل عقيم مثل المرأة من قوم عقيمين والريح العقيم التي لا تنشيء السحاب المطر ، والملك عقيم يقطع الولاء لان الابن يقتل أباه على الملك ، فقالت الملائكة عند ذلك لها « كذلك » أي مثل ما بشرناك به « قال ربك » ما بشرناك به فلا تشك فيه « إنه هو الحكيم » في أفعاله « العليم » بخفايا الأمور لا يخفى عليه خافية والمعنى كما ان إخبارنا و بشارتنا لاشك فيه ، كذلك قال الله ما بشرناك به .

(١) سورة ٢٠ طه آية ٦٧

قوله تعالى :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٣٧) سبع آيات .

لما سمع إبراهيم عليه السلام بشرى الملائكة له بالغلام العليم ، وعلم أنهم ليسوا ببشر ولا أضياف « قال » لهم « فما خطبكم أيها المرسلون » أي ما شأنكم . والخطب هو الأمر الجليل ، فكأنه قال قد بعثتم لأمر جليل ، فما هو ؟ ومنه الخطبة ، لانها كلام بليغ لعقد أمر جليل تستفتح بالتحميد والتمجيد . والخطاب أجل من الابلاغ .

وقوله « أيها » لا يثنى ولا يجمع لانه مبهم يقتضي البيان عنه ما بعده من غير أن يلزم ما قبله ، كما يلزم (الذي وهذا) كقولك مررت بالرجلين هذين ، فتبعه فى تثنيته ، كما تبعه فى اعرابه .

فاجابته الملائكة فقالوا « إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » عاصين لله كافرين لنعمه أستحقوا العقاب والهلاك « لنرسل عليهم حجارة من طين مسمومة عند ربك المسرفين » فالمسرف المكثر من المعاصي ، وهو صفة ذم ، لأنه خروج عن الحق . ونقيض الاسراف الاقتار ، وهو التقصير عن بلوغ الحق . وليس فى الاكثار من طاعة الله سرف ، ولا في نعمه اقتار ، لأنه سائغ على مقتضى الحكمة ، وإرسال الرسول إطلاقه بالأمر إلى المصير إلى من أرسل اليه ، فالملائكة أمروا بالمصير إلى

قوم لوط لاهلاكهم وإرسال الحجارة إطلاقها . وليست برسل ولكن مرسلة . والمسومة المعلمة بعلامات ظاهرة للحاسة ، لان التسويم كالسيماء في انه يرجع إلى العلامة الظاهرة من قولهم : عليه سيماء الخير . ومنه قوله « يمددكم ربكم بخمسة الآف من الملائكة مسومين » والمجرم القاطع للواجب بالباطل ، فهؤلاء أجرموا بقطع الايمان بالكفر . وأصل الصفة القطع . وقال ابن عباس : التسويم نقطة فى الحجر الأسود بيضاء ،او نقطة سوداء فى الحجر الابيض . وقيل : كان عليها أمثال الخواتيم وقوله « حجارة من طين » أي أصلها الطين لا حجارة البرد التي أصلها الماء . والمسومة هي المعلمة بعلامة يعرفها بها الملائكة أنها مما ينبغي أن يرمى بها الكفرة عند أمر الله بذلك . وقيل : حجارة من طين كأنها آجر ـ فى قول ابن عباس ـ وقال الحسن : مسومة بأنها من حجارة العذاب . وقيل : مسومة بأن جعل على كل حجر اسم من يهلك به .

وقوله « فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين » أي اخرجنا من كان فى قرية لوط من المؤمنين ، نحو لوط وأهله وخلصناهم من العذاب والاهلاك . وقوله « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » يدل على ان الاسلام هو الايمان والايمان هو التصديق بجميع ما اوجب الله التصديق به . والاسلام هو الاستسلام لوجوب عمل الفرض الذي اوجبه الله والزمه. والمسلم هو المخلص لعمل الفرض على ما أمر الله به ، لان صفة (مسلم) كصفة مؤمن فى انها مدح . والبيت الذي وجده فى تلك القرية من المؤمنين هم أتباع لوط ووجدان الضالة هو إدراكها بعد طلبها ، ووجدت الموجدة إدراك ما يوجب العتاب والأئمة فى القلب ، ووجدت المال أجده أدركت ملكا لي كثيراً ، ووجدت زيداً الصالح بمعنى علمته ، ووجدت الضالة وجداناً . والبيت هو البناء المهيأ للايواء اليه والمبيت فيه .

وقوله « وتركنا فيها آية » فالترك في الاصل ضد الفعل ينافي الاخذ في محل القدرة عليه ، والقدرة عليه قدرة على الأخذ . والمعنى في الآية أبقينا فيها آية ، ومثله قوله « وتركهم في ظلمات » (١) بمعنى لم ينفها مع انه قادر على نفيها ، وفلان ترك السوق أي قطعها بأن صار لا يمضي اليها . ومعنى « تركنا فيها آية » بمنزلة ما فعل ضدما تنافيه الآية . وقيل : إن الآية اقتلاع البلدان لا يقدر عليه إلا الله تعالى

وقوله « للذين يخافون العذاب الأليم » إنما خص الخائفين من العذاب الأليم بالآية لأنهم الذين يعتبرون بها وينتفعون بها .

قوله تعالى :

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ (٤٥) ثمان آيات .

قرأ الكسائي « الصعقة » الباقون « الصاعقة » ، فالصعقة مصدر صعق يصعق صعقاً وصعقة واحدة . والصاعقة الاسم تقول : صاقعة وصاعقة مقدماً ومؤخراً ،

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٧

وصواعق وصواقع ، وقيل : هما لغتان .

قوله « وفي موسى » عطف على قوله « وتركنا فيها آية » فكأنه قال : وتركنا في موسى آية حين أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين أي بحجة ظاهرة « فتولى بركنه » قال ابن عباس وقتادة ومجاهد : معناه بقوته . وقيل : معناه تولى بما كان يتقوى به من جنده وملكه . والركن الجانب الذي يعتمد عليه . والمعنى ان فرعون أعرض عن حجة موسى ولم ينظر فيها بقوته في نفسه « وقال ساحر » أي هو ساحر « او مجنون » فالسحر حيلة توهم المعجزة بحال خفية . واصله خفاء الأمر فمنه السحر الوقت الذي يخفى فيه الشخص . والسحر الرئة لخفاء سببها في الترويح عن القلب بها . والسحارة لخفاء السبب فى تلون خيطها . والمجنون الذي أصابته جنة فذهب عقله . وقال الزجاج (او) ههنا بمعنى الواو ، والتقدير ساحر ومجنون . وقال غيره : في ذلك دلالة على عظم جهل فرعون ، لأن الساحر هو اللطيف الحيلة وذلك ينافي صفة المجنون المختلط العقل ، فكيف يوصف شخص واحد بهاتين الصفتين فقال الله تعالى مخبراً عن نفسه « فأخذناه وجنوده فنبذناه » يعني إنا نبذنا فرعون وجنوده « في اليم » أي طرحناه في البحر كما يلقى الشيء في البر « وهو مليم » أي آت بما يلام عليه من الكفر والجحود والعتو والتجبر والتكبر واحد . والملوم الذي وقع به اللوم ، والمليم الذي أتى بما يلام عليه .

وقوله « وفي عاد » عطف ايضاً على قوله « وتركنا فيها » أي وتركنا في عاد ايضاً آية أي دلالة فيها عظة « إذ ارسلنا » أي اطلقنا « عليهم الريح العقيم » وهي التي عقمت عن ان تأتي بخير من تنشئة سحاب او تلقيح شجرة او تذرية طعام او نفع حيوان ، فهي كالممنوعة من الولادة . وجمع الريح أرواح ورياح ، ومنه راح الرجل إلى منزله أي رجع كالريح ، والراحة قطع العمل المتعب . وقال ابن عباس :

الريح العقيم التي لاتلقح الشجر ولا تنشيء السحاب . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال (نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور) .

وقوله « ما تذر من شيء أتت عليه » أي لم تترك هذه الريح شيئاً تمر عليه « إلا جعلته كالرميم » وهو السحيق الذي انتفى رمه بانتفاء ملاءمة بعضه لبعض ، وأما رمه يرمه رماً فهو رام له والشيء مرموم فهو المصلح بملاءمة بعضه لبعض ، وهو اصل الرميم الذي رمه بنقصه . وقيل : الرميم الذى ديس من يابس النبات . وقيل : الرميم العظم البالي المنسحق .

وقوله « وفي ثمود إذ قيل لهم » أيضاً عطف على قوله « وتركنا فيها آية... وفي ثمود » وهم قوم صالح لما كفروا وجحدوا نبوة صالح وعقروا ناقة الله واستحقوا الاهلاك « قيل لهم تمتعوا حتى حين » أى انتفعوا في اسباب اللذات من المناظر الحسنة والروائح الطيبة والاصوات السجية وكل ما فيه منفعة على هذه الصفة « حتى حين » أى إلى حين قدر الله ابقاءكم اليه . وقيل : إلى حين آجالكم إن اطعتم الله ـ في قول الحسن ـ « فعتوا عن أمر ربهم » فالعتو الامتناع عن الحق ، وهو الجفاء عنه ترفعاً عن إتباع الداعي اليه « فاخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » أى ارسل الله اليهم الصاعقة التي أهلكتهم واحرقتهم وهم يبصرونها « فما استطاعوا من قيام » أى لم يقدروا على النهوض به « وما كانوا منتصرين » أى طالبين ناصراً يمنعهم من عذاب الله ـ عز وجل ـ وقرأ الكسائي « الصعقة » بغير الف . وقد بيناه .

قوله تعالى :

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ (٤٦)

وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ ٱلْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) كَذَٰلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٥) عشر آيات .

قرأ ابو عمرو وحمزة والكسائي « وقوم نوح » جرا عطفا على قوله « وفي عاد » وتقديره وفي قوم نوح آية . الباقون بالنصب على تقدير وأهلكنا قوم نوح ، ويحتمل ان يكون على تقدير فأخذت صاعقة العذاب قوم نوح ، إذ العرب تسمى كل عذاب مهلك صاعقة . الثالث على تقدير : واذكر قوم نوح ، كقوله « وإبراهيم الذي وفى » (١) والقوم الجماعة الذين من شأنهم أن يقوموا بالأمر ، واضافتهم اليه تقتضي انه منهم في النسب . ولم يفرد لـ (قوم) واحد . ثم بين لما أهلكهم فقال « إنهم كانوا قوماً فاسقين » خارجين من طاعة الله - عز وجل - إلى الكفر بالله فاستحقوا لذلك الاهلاك .

وقوله « والسماء بنيناها بأيد » معناه بقوة - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد - والايدي القوة ، ووجه اتصال قوله « والسماء بنيناها بأيد » بما قبله

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٣٧

وهو ان في قوم نوح آية وفي السماء ايضاً آية فهو متصل به في المعنى .

وقوله « وإنا لموسعون » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

احدها ـ قال الحسن : التوسعة في الرزق بالمطر . الثاني ـ قال ابن زيد : بقوة وإنا لموسعون السماء . الثالث ـ انا لقادرون على الاتساع باكثر من اتساع السماء . والاتساع الاكثار من إذهاب الشيء في الجهات بما يمكن أن يكون اكثر مما في غيره يقال أوسع يوسع ايساعاً ، فهو موسع . والله تعالى قد اوسع السماء بما لابناء اوسع منه وايساع الرحمة هو الاكثار منها بما يعم .

وقوله « والارض فرشناها » عطف على قوله « والسماء بنيناها » وتقديره وبنينا السماء بنيناها وفرشنا الأرض فرشناها أي بسطناها « فنعم الماهدون » والماهد الموطىء للشيء المهيء لما يصلح الاستقرار عليه ، مهد يمهد مهداً ، فهو ماهد ، ومهد تمهيداً ، مثل وطأ توطئة .

وقوله « ومن كل شيء خلقنا زوجين » معناه خلقنا من كل شيء اثنين مثل الليل والنهار ، والشمس والقمر والارض والسماء ، والجن والانس ـ في قول الحسن ومجاهد ـ وقال ابن زيد « خلقنا زوجين » الذكر والانثى . وفي ذلك تذكير بالعبرة في تصريف الخلق والنعمة في المنفعة والمصلحة « لعلكم تذكرون » معناه لتتذكروا وتفكروا فيه وتعتبروا به .

وقوله « ففروا الى الله » أي فاهربوا الى الله من عقابه الى رحمته باخلاص العبادة له . وقيل : معناه ففروا الى الله بترك جميع ما يشغلكم عن طاعته ويقطعكم عما أمركم به « اني لكم منه نذير » مخوف من عقابه « مبين » عما اوجب عليكم من طاعته .

ثم نهاهم فقال « ولا تجعلوا مع الله الهاً آخر » أي لا تعبدوا معه معبوداً

آخر من الأصنام والاوثان « اني لكم منه نذير مبين » أي من الله مخوف من عقابه مظهر ما اوجب عليكم وأمركم به . وقيل : الوجه في تكرار ﴿ اني لكم منه نذير مبين ﴾ هو ان الثاني منعقد بغير ما انعقد به الاول اذ تقديره اني لكم منه نذير مبين في الامتناع من جعل اله آخر معه ، وتقدير الاول اني لكم منه نذير مبين في ترك الفرار اليه بطاعته فهو كقولك : انذرك أن تكفر بالله انذرك ان تتعرض لسخط الله ، ويجوز أن يقول الله ولا تجعلوا مع الله قديماً آخر ، كما قال ﴿ ولا تجعلوا مع الله الهاً ﴾ لان جعلهم ذلك باعتقادهم الهاً معه او اظهارهم انه مذهب لهم . ولا يجوز ان يقول : لا تكونوا قدماء مع الله لانه نهي عما لا يمكن ، وهو محال ، وكذلك لا يجوز ان يقول لاتصيروا قدماء ولا آلهة ، لانه محال . والنذير هو المخبر بما يحذر منه ويصرف عنه وهو يقتضي المبالغة . والمنذر صفة جارية على الفعل تقول : انذر ينذر انذاراً ، فهو منذر ، ونذره أي علم به واستعد له والمبين الذي يأتي ببيان الحق من الباطل .

ثم قال مثل ما أتى هؤلاء الكفار نبي فكذبوه ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم ﴾ من الامم ﴿ رسول إلا قالوا ﴾ هو ﴿ ساحر او مجنون ﴾ فالساحر هو الذي يحتال بالحيل اللطيفة . والمجنون الذي به جنون . وإنما قال الجهال ذلك في الرسل لان الاقدام عندهم على إنكار عبادة الاوثان لايكفي فيه الشبهة دون الجنة ، فالمجنون المغطى على عقله بما لا يتوجه للادراك به ، فكذلك شبه حال قريش في التكذيب بحال الامم حتى قالوا : ساحر او مجنون . وإنما جاز منهم الاتفاق على تكذيب الرسل من غير تواص ولا تلاق ، لان الشبهة الداعية اليه واحدة .

وقوله ﴿ اتواصوا ﴾ فالتواصي هو إيصاء بعض القوم إلى بعض بوصية ، والوصية التقدمة في الأمر بالاشياء المهمة مع النهي عن المخالفة ، كالوصية بقضاء الدين ورد

الوديعة والحج والصدقة وغير ذلك ، فكأن هؤلاء الجهال قد تواصوا بعبادة الأوثان بما هم عليه من الملازمة وشدة المحافظة وصورة الكلام صورة الاستفهام والمراد به الانكار والتوبيخ .

وقوله ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ معناه لم يتواصوا بذلك لكنهم طاغون طغوا فى معصية الله وخرجوا عن الحد .

ثم قال للنبي ﷺ ﴿ فتول عنهم ﴾ أي اعرض عنهم يا محمد ـ فى قول مجاهد ـ ﴿ فما أنت بملوم ﴾ فى كفرهم وجحودهم بل اللائمة والذم عليهم من حيث لا يقبلون ما تدعوهم اليه ، وليس المراد أعرض عن تذكيرهم ووعظهم ، وإنما أراد أعرض عن مكافأتهم ومقابلتهم ومباراتهم وما أنت فى ذلك بملوم ﴿ وذكر ﴾ بالموعظة ﴿ فان الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ الذين يتعظون بمواعظ الله ويستدلون بآياته . قال حسين بن صمصم :

أما بنو عبس فان هجينهم ولى فوارسه وافلت اعورا (١)

قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (٦٠) خمس آيات .

(١) مجاز القرآن ٢ \ ٢٢٨

هذا اخبار من الله تعالى أنه لم يخلق الجن والأنس إلا لعبادته ، فاذا عبدوه أستحقوا الثواب ، واللام لام الغرض ولا يجوز أن يكون لام العاقبة لحصول العلم بأن كثيراً من الخلق لا يعبدون الله . وفى الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة القائلين : بأن الله خلق كثيراً من خلقه للكفر به والضلال عن دينه وخلقهم ليعاقبهم بالنيران ، لأنه لا يجوز أن يكون في كلام الله تعالى تناقض ، ولا إختلاف وقوله ﴿ ولقد ذرانا لجهنم ﴾ (١) قد بينا في ما مضى أن اللام لام العاقبة . والمعنى إنه خلق الخلق كلهم لعبادته وتصير عاقبة كثير منهم إلى جهنم بسوء اختيارهم من الكفر بالله وإرتكاب معاصيه .

فان قيل : أليس قد خلق الله كثيراً من خلقه لطفاً لغيرهم ، فكيف يكون خلقهم لعبادته ؟ ! .

قلنا : ما خلقه الله تعالى على ضربين : مكلف ، وغير مكلف ، فما ليس بمكلف خلقه للطف المكلفين ، جماداً كان او حيواناً . وما هو مكلف خلقه لعبادته وإن كان فى خلقه أيضاً لطف للغير ، وكأنه يكون خلقه للأمرين ويكون بمنزلة ما خلقته إلا ليعبد مع عبادة غيره لأن عبادة غيره مما هو غرض فى خلقه ، ولولا ذلك لم يكن في خلق النبي عليه لطف لغيره ، فالتقدير ما خلقته إلا لعبادته مع عبادة غيره به ، وهو بمنزلة قول القائل ما أدبت ولدي إلا ليصلح جميعهم أي بتأديبي له مع تأديب غيره الذي يدعوه إلى خلافه ، وليس المعنى ما خلقت كل مكلف إلا ليعبد هو فقط .

وفى الآية دلالة على انه تعالى لا يريد المباح ، لانه ليس من العبادة .

وقوله ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون ﴾ معناه نفي الايهام عن خلقهم لعبادته ان يكون ذلك لفائدة تقع وتعود عليه تعالى ، فبين انه لفائدة

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٨

النفع العائد على الخلق دونه تعالى لاستحالة النفع عليه ودفع المضار ، لانه غني بنفسه لا يحتاج إلى غيره ، وكل الناس محتاجون اليه . ومن زعم ان التأويل ما اريد ان يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم ، فقد ترك الظاهر من غير ضرورة . وقال ابن عباس : معنى ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ الا ليتقربوا لي بالعبودية طوعاً وكرهاً .

ثم بين تعالى انه ـ جل وعز ـ هو الرازق لعباده فقال ﴿ ان الله هو الرزاق ﴾ والخلق لا يرزقونه ﴿ ذو القوة ﴾ صاحب القدرة ﴿ المتين ﴾ ومعناه انه القوي الذي يستحيل عليه العجز والضعف ، لانه ليس بقادر بقدرة ، بل هو قادر لنفسه ، ولانه ليس بجسم ، والجسم هو الذي يلحقه ضعف . ومن خفض ﴿ المتين ﴾ ـ وهو يحيي ابن وثاب ـ جعله صفة للقوة ، وذكره لانه ذهب الى الحبل والشيء المفتون يريد القوة ، قال الشاعر :

لكل دهر قد لبست أثوبا من ريطة واليمنية المعصبا (١)

فذكر لان اليمنية ضرب من الثياب وصنف منها ، ومن فسر (المتين) بالشديد فقد غلط ، لان الشديد هو المتف بما يصعب معه تفكيكه . ووصف القوة بأنها أشد يؤذن بالمجاز ، وانه بمعنى أعظم .

ثم اخبر تعالى بأن ﴿ الذين ظلموا ﴾ نفوسهم بارتكاب المعاصي ﴿ ذنوباً ﴾ أي نصيباً وأصله الدّلو الممتلىء ماء ، كما قال الراجز :

لنا ذنوب ولكم ذنوب فان ابيتم فلنا القليب (٢)

وقال علقمة :

---

(١) اللسان (ثوب) وتفسير القرطبي ١٧ / ٥٧

(٢) مر في ٢ / ٤٠٥

وفي كل حي قد خبطت بنعمة   فحق لشاش من نداك ذنوب (١)

أي نصيب ، وإنما قيل الدّلو : ذنوب ، لانها فى طرف الحبل ، كأنها في الذنب . وقيل : معناه لهم بلاء وويل . والذنوب الدلو العظيمة يؤنث ويذكر . وقوله ﴿ مثل ذنوب أصحابهم ﴾ أي مثل نصيب اصحابهم من الكفار الذين تقدموهم ﴿ فلا تستعجلون ﴾ قل لهم لا تستعجلون بانزال العذاب عليهم ، فانهم لا يفوتون .

ثم قال ﴿ فويل للذين كفروا ﴾ وحدانيتي وجحدوا نبوة رسولي ﴿ من يومهم الذي يوعدون ﴾ فيه بانزال العذاب بالعصاة وهو يوم القيامة ، والويل كلمة تقولها العرب لكل من وقع فى مهلكة .

(١) تفسير القرطبي ١٧ | ٥٧

٥٢ ـ سورة الطور

مكية بلا خلاف وهي تسع وأربعون آية في الكوفي ، وثمان في البصري ، وسبع فى المدنيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَٱلسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ (٨) .

سبع آيات حجازي وثمان في ما عداه ، عدّ الكوفيون والشاميون ﴿ والطور ﴾ ولم يعده الحجازيون .

الوجه فى القسم بالطور هو ما قدمناه فى قوله ﴿ والذاريات ﴾ وغير ذلك ، وهو أن الله تعالى له أن يقسم بما يشاء من خلقه ، وليس للعباد ان يقسموا إلا به . وقيل : الطور هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى . وقال مجاهد : الطور جبل . وقال المبرد : يقال لكل جبل طور . فاذا ادخلت عليه الألف واللام كان

معرفة الشيء بعينه. ومنه قوله ﴿ ورفعنا فوقهم الطور ﴾ (١) وقيل: إنه سرياني ﴿ وكتاب مسطور ﴾ أي مكتوب - في قول قتادة والضحاك - قال رؤبة:

إني واسطار سطرن سطرا (٢)

وقيل: الكتاب المسطور: هو الذي كتبه الله على خلقه من الملائكة في السماء يقرؤن فيه ما كان ويكون. وقيل: هو القرآن مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، وهو الرق المنشور. وقال الفراء: الكتاب المسطور صحائف الاعمال فمن أخذ كتابه بيمينه، ومن أخذ كتابه بشماله. والسطر ترتيب الحروف. والمسطور المرتب الحروف على وجه مخصوص، سطرته أسطره سطراً، فأنا ساطر وذلك مسطور ﴿ في رق منشور ﴾ فالرق جلد رقيق يصلح للكتابة. وقال ابو عبيدة: الرق هو الورق. وقيل: إنما ذكر الرق، لانه من أحسن ما يكتب عليه، فذكر لهذه العلة، فاذا كتبت الحكمة فيما هو على هذه الصفة كان أبهى وأولى. والمنشور المبسوط. وإنما قيل: منشور، لانه أبهى في العيون.

وقوله ﴿ والبيت المعمور ﴾ قيل: هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة، تعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة. وروي ذلك عن علي عليه السلام وابن عباس ومجاهد. قال علي عليه السلام يدخل كل يوم سبعون الف ملك ثم لا يعودون فيه. وقال الحسن البيت المعمور: البيت الحرام. وقال أمير المؤمنين عليه السلام ومجاهد وقتادة وابن زيد ﴿ السقف المرفوع ﴾ هو السماء. وقوله ﴿ والبحر المسجور ﴾ فالبحر المجرى الواسع العظيم من مجاري الماء، واصله الاتساع. والبحيرة الناقة التي يوسع شق أذنها وتخلى في المرع. وتبحر فلان في العلم إذا اتسع فيه، والمسجور المملوء. ومنه سجرت التنور إذا ملأته ناراً. وعين سجراء ممتلئة فيها حمرة كأنها احمرت

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦٣، ٩٣   (٢) مر في ٤ / ١١٠

مما هو لها كسجار التنور . وقال مجاهد وابن زيد : البحر المسجور الموقد . وقال قتادة : هو المملوء قال لبيد :

فتوسطا عرض السري وصدعا مسجورة متجاوز أقدامها (١)

وروي في الحديث ان البحر يسجر ، فيكون ناراً في جهنم .

وقوله ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ جواب القسم ، أقسم الله تعالى بالاشياء التي تقدم ذكرها ليتحقق عند العباد أن عذابه واقع لا محالة لمن وافى على الصفة التي يستحق بها العقوبة ، وأن لا يطمع أن ينفعه سؤال حميم او قريب منه قال النمر ابن تولب العكلي : شاهداً في المسجور :

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع والسما سما (٢)

وإنما هي بقعة مملوة شجراً .

قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَاءُ مَوْراً (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْراً (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً (١٣) هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَـٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) إِصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٦) .

ثمان آيات كوفي وشامي ، وسبع في ما عداها ، عد الكوفيون والشاميون

(١) مر في ٧ | ١١٨ (٢) تفسير القرطبي ١٧ | ٦١ ومجاز القرآن ٢ | ٢٣٠

﴿ دعاً ﴾ ولم يعده الباقون .

قوله ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ يعني يوم القيامة ، وهو متعلق بقوله ﴿ إن عذاب ربك لواقع ... يوم تمور السماء موراً ﴾ والمور تردد الشيء بالذهاب والمجيء كما يتردد الدخان ثم يضمحل ، مار يمور موراً فهو مائر . وقيل : يمور موراً بمعنى يدور دوراً ـ في قول مجاهد ـ وقال الضحاك : معناه يموج موجاً قال الاعشى انشده أبو عبيدة :

كان مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث ولا عجل (١)

ورواه غيره مر السحابة ﴿ وتسير الجبال سيراً فويل يومئذ للمكذبين ﴾ الذين ينكرون اخبار الله تعالى فهؤلاء الجهال أنكروا ما اخبر به الانبياء بأن نسبوه إلى الكذب ﴿ الذين هم في خوض يلعبون ﴾ فالخوض الدخول في الماء بالقدم وشبه به الدخول في الأمر بالقول ، يقال خاض يخوض خوضاً ، فهو خائض . وخوضه في الشراب تخويضاً ، ومنه المخوض . واللعب طلب الفرح بمثل حال الصبي في إنتفاء العمل على مقتضى العقل ، لعب لعباً فهو لاعب ، ودخلت الفاء في ﴿ فويل ﴾ لما فيه من معنى الجزاء ، لان تقديره إذا كان كذا وكذا فويل ، ومعنى الآية إني سأعلمهم بكفرهم وتصير عاقبتهم العذاب .

وقوله ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ﴾ معناه يوم يدعون إلى نار جهنم للعذاب فيها ، دعه يدعه دعاً إذا دفعه . ومثله صكه يصكه صكاً ، والداع الدافع وقيل : الدع الدفع بانزعاج وإرهاق ـ في قول قتادة والضحاك ـ .

وقوله ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ أي يقال لهم على وجه التوبيخ: هذه النار التي كنتم تكذبون بها في دار التكليف حين جحدتم الثواب والعقاب

(١) ديوان الاعشى ١٤٤ ومجاز القرآن ٢ / ٢٣١

والنشور . ويقال لهم على وجه الانكار عليهم ﴿ أفسحر هذا ﴾ قد غطى على ابصاركم ﴿ أم انتم لا تبصرون﴾ ثم يقال لهم ﴿ اصلوها ﴾ يعني النار ﴿ فاصبروا او لاتصبروا سواء عليكم ﴾ كونكم في العقاب صبرتم أو لم تصبروا ، فانه لا يخيف عليكم ﴿ إنما تجزون ما كنتم ﴾ أي جزاء ما كنتم ﴿ تعملون ﴾ في الدنيا من المعاصي والصلي لزوم النار المعذب بها صلى يصلي صلياً ، ومنه الصلاة للزوم الدعاء فيها ، ومنه :

صلى على دنها وارتسم (١)

أي لزم ، والمصلي الذي يجيء في اثر السابق على لزوم أثره والأصل لزوم الشيء ، والصبر حبس النفس على الأمر بالعمل فكأنه قال : احبسوا أنفسكم على النار لتعاملوا بالحق او لا تحبسوا سواء عليكم في ان الجزاء لا محالة واقع بكم ولاحق لكم . والجزاء مقابلة العمل بما يقتضيه في العقل من خير او شر . والسواء والاستواء والاعتدال بمعنى واحد . والاستواء إمتناع كل واحد من المقدارين من ان يكون زائداً على الآخر او ناقصاً عنه ، فالصبر وترك الصبر لاينفع واحد منهما في رفع العذاب عن أهل النار .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ (٢٠) أربع آيات بلا خلاف .

(١) مر في ١ | ٥٦ ، ١٩٣ و ٢ | ٤١ و ٥ | ٣٣٧

لما أخبر الله تعالى عن حال الكفار وما أعد لهم من أليم العقاب، أخبر أيضاً بما أعده للمؤمنين المتقين من أنواع الثواب فقال ﴿ إن المتقين ﴾ الذين يجتنبون معاصي الله خوفاً من عقابه ﴿ في جنات ﴾ أي بساتين تجنها الاشجار ﴿ ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ﴾ أي متنعمين بما أعطاهم ربهم من أنواع النعم وقال الزجاج : معنى ﴿ فاكهين ﴾ معجبين بما آتاهم . وقال الفراء : مثل ذلك ﴿ ووقاهم ربهم ﴾ أي منع عنهم عذاب الجحيم . والفاكه الكثير الفاكهة ، كقولهم لابن وتامر أي ذو لبن وذو تمر . والفكه المسرور بأحواله كسرور آكل الفاكهة بفاكهته .

وقوله ﴿ متكئين على سرر مصفوفة ﴾ قيل متكئين على النمارق وهي الوسائد إلا انه حذف ذكرها . والمعنى (عليه) ، لأنه أصل الاتكاء ، وتقديره متكئين على النمارق الموضوعة على السرر ، وهو جمع سرير . وقوله ﴿ مصفوفة ﴾ أي مصطفة . وقوله ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ فالحور البيض النقيات البياض في حسن وكمال ، والعين الواسعة الأعين في صفاء وبهاء ، والمعنى قرنا هؤلاء المتقين بالحور العين على وجه التنعيم لهم والتمتيع .

قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِنْ عَمَلِهِم مِن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وأهل الكوفة ﴿ واتبعتهم ﴾ بالتاء ﴿ ذريتهم ﴾ على واحدة ﴿ بهم ذريتهم ﴾ على واحدة أيضاً . وقرأ نافع ﴿ واتبعتهم ﴾ بالتاء ﴿ ذريتهم ﴾ على واحدة ﴿ بهم ذرياتهم ﴾ على الجمع . وقرأ ابن عامر ﴿ واتبعتهم ذرياتهم ﴾ بالتاء على الجمع ﴿ بهم ذرياتهم ﴾ جماعة ايضاً . وقرأ ابو عمرو ﴿ أتبعناهم ﴾ بالنون ﴿ ذرياتهم ﴾ جماعة ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم ﴾ جماعة ايضاً . وقرأ ابن كثير وحده ﴿ وما ألتناهم ﴾ بفتح الألف وكسر اللام . الباقون - بفتح الألف واللام - وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ لا لغوا فيها ولا تأثيم ﴾ نصباً . الباقون بالرفع والتنوين . قال الزجاج : فمن رفع فعلى ضربين : احدهما - على الابتداء و (فيها) الخبر ، والثاني - أن تكون (لا) بمعنى ليس رافعة وانشد سيبويه :

من فر عن نيرانها فأنا ابن قيس لا براح (١)

ومن نصب بنى كقوله ﴿ لا ريب فيه ﴾ (٢) والاختيار عند النحويين إذا كررت (لا) الرفع . والنصب جائز حسن .

يقول الله تعالى ﴿ والذين آمنوا ﴾ بالله وأقروا بتوحيده وصدقوا رسله ﴿ وأتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ من قرأ بالنون معناه ، وألحقنا بهم ذرياتهم أي ألحق الله بهم ذرياتهم يعني حكم لهم بذلك . ومن قرأ ﴿ واتبعتهم ﴾ نسب الاتباع إلى الذرية . والمعنى إنهم آمنوا كما آمنوا ، فمن جمعه فلاختلاف اجناس الذرية ، ومن وحد ، فلانه يقع على القليل والكثير ، وإنما قرأ ابو عمرو

(١) اللسان (برح) وسيبويه ١ /٢٨ ، ٣٥٤

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢

﴿ أتبعناهم ﴾ بالنون لقوله بعـد ذلـك ﴿ ألحقنا ﴾ وقال البلخي : معنى الآية إن ثواب الذرية إذا عملوا مثل أعمال الاباء يثابون مثل ثواب الاباء ، لان الثواب على قدر الاعمال . ولما قال ﴿ واتبعناهم ذرياتهم ﴾ بين أن ذلك يفعل بهم من غير ان ينقص من أجورهم ، لئـلا يتوهم انه يلحقهم نقص أجر . وقال الزجاج : معنى الآية إن الابناء إذا كانوا مؤمنين فكانت مراتب آبائهم فى الجنة أعلا من مراتبهم ألحق الابناء بالآباء ، ولم ينقص الآباء من أعمالهم ، وكذلك إن كان اعمال الآباء انقص ألحق الآباء بالابناء . والاتباع إلحاق الثاني بالاول فى معنى عليه الأول ، لانه لو ألحق به من غير أن يكون فى معنى هو عليه لم يكن إتباعاً ، وكان إلحاقاً . وإذا قيل : اتبعه بصره فهو الادراك ، وإذا قيل : تبعه فهو يصرف البصر بتصرفه.

وقوله ﴿ ألحقنـا بهم ذرياتهم ﴾ قال ابن عباس والضحاك وابن زيد : الحقوا الاولاد بالآباء إذا آمنوا من أجل إيمان الأباء . وفى رواية أخرى عن ابن عباس : أن التابعين الحقوا بدرجة آبائهم ، وإن قصرت اعمالهم تكرمة لآبائهم والاول هو الوجه . وإنما وجب بالايمان إلحاق الذرية بهم مع أنهم قد يكون ليس لهم ذرية لانه إنما يستحق ذلك السرور على ما يصح ويجوز مع أنه إذا اتبع الذرية على ما أمر الله به استحق الجزاء فيه ، فان أبطلته الذرية عند البلوغ بسوء عمل ، وفّي سروره فى أمر آخر كما أن اهل الجنة من سرورهم ما ينزل باعدائهم فى النار ، فلو عفي عنهم لوفوا سرورهم بأمر آخر .

وقوله ﴿ وما ألتناهم ﴾ معناه ما نقصناهم يقال : ألته يألته ألتاً ، وألاته يلته الاتة ، ولاته يليته ثلاث لغات ـ ذكرها ابو عبيدة : إذا نقصه ، فبين ـ عز وجل ـ أنه لا يجوز عليه نقصان شيء من جزاء عمله ، لانه لا يجوز عليه الظلم لاقليله ولا كثيره ولاصغيره ولا كبيره ، وقال ابن عباس ومجاهد والربيع ﴿ وما ألتناهم ﴾ ما نقصناهم

قال الشاعر :

ابلغ بني ثعل عني مغلغلة جهد الرسالة لا ألتا ولا كذبا (١)

وقوله ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ أي كل إنسان يعامل بما يستحقه ويجازى بحسب ما عمله إن عمل طاعة أثيب عليها وإن عمل معصية عوقب بها لا يؤاخذ احد بذنب غيره . والرهين والمرهون والمرتهن هو المحتبس على أمر يؤدى عنه بحسب ما يجب فيه ، فلما كان كل مكلف محتبساً على عمله ، فان صح له اداؤه على الواجب فيه تخلص ، وإلا هلك ، فلهذا قال ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ .

قوله ﴿ وامددناهم بفاكهة ﴾ فالامداد هو الاتيان بالشيء بعد الشيء يقال : مد الجرح وأمد النهر . والفاكهة هي الثمار ﴿ ولحم مما يشتهون ﴾ أي وامددناهم ايضاً بلحم من الجنس الذي يشتهونه .

وقوله ﴿ يتنازعون فيها كأساً ﴾ أي يتعاطون كأس الخمر ، قال الاخطل :

نازعتهم طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة الساري (٢)

والكأس الأناء المملوء بالشراب ، فان كان فارغاً فلا يسمى كأساً ـ ذكره الفراء ـ وقوله ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ معناه لا يجري بينهم باطل ولا ما يلغى فيه ولا ما فيه أثم كما يجري في الدنيا عند شرب الخمر . وقوله ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ يعني في صفائه وبياضه وحسن منظره ، والمكنون المصون . وقيل : ليس على الغلمان مشقة في خدمة أهل الجنة ، بل لهم في ذلك لذة ، لأنه ليس هناك دار محنة . وقوله ﴿ واقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً عن حاله ، وما هو فيه من انواع النعيم فيسرون بذلك ويزداد فرحهم

---

(١) تفسير الطبرى ٢٧ / ١٥ (٢) تفسير الطبرى ٢٧ / ١٦ والقرطبى ١٧ / ٦٨

وقيل: يسأل بعضهم بعضاً عما فعلوه في دار الدنيا مما استحقوا به المصير إلى الثواب والكون فى الجنان بدلالة قوله ﴿إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين﴾.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ (٣٠) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ نافع والكسائي ﴿ندعوه أنه﴾ بفتح الهمزة على تقدير بأنه او لأنه. الباقون بكسر الهمزة على الاستئناف.

لما حكى الله تعالى ان اهل الجنة يقبل بعضهم على بعض ويسأل بعضهم بعضاً عن احوالهم ذكر ما يقولونه فانهم يقولون ﴿إنا كنا﴾ فى دار الدنيا ﴿في أهلنا مشفقين﴾ أي خائفين رقيقي القلب، فالاشفاق رقة القلب عما يكون من الخوف على الشيء، والشفقة نقيض الغلظة. واصله الضعف من قولهم: ثوب شفق أي ضعيف النسج رديئه، ومنه الشفق، وهو الحمرة التي تكون عند غروب الشمس إلى العشاء الآخرة، لانها حمرة ضعيفة. والأهل هو المختص بغيره من جهة ما هو اولى به، وكلما كان أولى به فهو احق بأنه أهله، فمن ذلك اهل الجنة وأهل النار. ومن ذلك اهل الجود والكرم، وفلان من اهل القرآن، ومن أهل العلم، ومن أهل الكوفة. ومن هذا قيل: لزوجة الرجل: أهله، لانها مختصة به من جهة هي أولى

به من غيره .

فقوله ﴿ فى أهلنا مشفقين ﴾ اي من يختص به ممن هو أولى بنا .

وقوله ﴿ فمن الله علينا ﴾ فالمن القطع عن المكاره إلى المحاب ، يقال : من على الاسير يمن منّاً إذا اطلقه واحسن اليه ، وامتن عليه بصنيعه أي اقتطعه عن شكره بتذكير نعمته والمنية قاطعة عن تصرف الحي ﴿ وأجر غير ممنون ﴾ (١) أي غير مقطوع .

وقوله ﴿ ووقانا عذاب السموم ﴾ الوقا : منع الشيء من المخوف بما يحول بينه وبينه ، ومنه الوقاية ، ووقاه يقيه وقاه فهو واق ، ووقاه توقية قال الراجز :

إذ الموقي مثل ما وقيت عذاب السموم

فالسموم الحر الذي يدخل فى مسام البدن بما يوجد ألمه ، ومنه ريح السموم ، ومسام البدن الخروق الدقاق .

ثم قالوا ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه ﴾ يعني فى دار التكليف ندعوه ﴿ أنه هو البر الرحيم ﴾ أي ندعوه بهـذا ، فيمن فتح الهمزة ، ومن كسرها أراد إنا كنا ندعوه ونتضرع اليه ، ثم ابتدأ فقال ﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾ قال ابن عباس : البر هو اللطيف وأصل الباب اللطف مع عظم الشأن ، ومنه البر للطفها مع عظم النفع بها ، ومنه البر لأنه لطف النفع به مع عظم الشأن ، ومنه البرية للطف مسالكها مع عظم شأنها ، والبر بالكسر الفاره ، والبر بر الوالدين ، وقولهم : فلان لا يعرف هره من برّه قيل فى معناه ثلاثة اشياء :

احدها ـ لا يعرف السنور من الفاره .

الثاني ـ لا يعرف من يبره ممن يكرهه .

---

(١) سورة ٩٥ التين آية ٦

الثالث - لا يعرف دعاء الغنم وهو برها من سوقها .

ثم قال تعالى للنبي صلى الله عليه وآله ﴿ فذكر ﴾ يا محمد أي اعظ هؤلاء المكلفين ﴿ فما أنت بنعمة ربك ﴾ قسم من الله تعالى بنعمته ﴿ بكاهن ولا مجنون ﴾ على ما يرمونك به . وقال البلخي : معناه ما أنت بنعمة الله عليك بكاهن ، ولا يلزم ان يكون الله تعالى لم ينعم على الكاهن ، لأن الله تعالى قد عم على جميع خلقه بالنعم وإن كان ما انعم به على النبي أكثر ، وقد مكن الله الكاهن وسائر الكفار من الايمان به ، وذلك نعمة عليه . فالكاهن الذي يذكر انه يخبر عن الجن على طريق العزائم ، والكهانة صنعة الكاهن ، والكاهن الموهم انه يعلم الغيب بطريق خدمة الجن والمجنون المؤف بما يغطي على عقله حتى لايدرك به في حال يقظة ، وقد علموا أنه ليس بشاعر ، كما علموا أنه ليس بمجنون ، لكن قالوا ذلك على جهة التكذيب عليه ليستريحوا إلى ذلك كما يستريح السفهاء إلى التكذب على أعدائهم .

ثم قال ﴿ أم ﴾ ومعناه بل ﴿ يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ قال مجاهد : ريب المنون حوادث الدهر . وقال ابن عباس وقتادة : الموت ، والمنون المنية ، وريبها الحوادث التي تريب عند مجيئها وقال الشاعر :

تربص بها ريب المنون لعلها سيهلك عنها بعلها وشحيح (١)

قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ

(١) تفسير الطبري ٢٧ / ١٧

خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ (٤٠) عشرة آيات بلاخلاف.

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا في النبي صلى الله عليه وآله أنه كاهن ومجنون، وانه شاعر نتربص به ريب المنون أي نتوقع فيه حوادث الدهر والهلاك، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ تربصوا فاني معكم من المتربصين ﴾ فالتربص هو الانتظار بالشيء إنقلاب حال إلى خلافها. والمعنى إنكم إن تربصتم بي حوادث الدهر والهلاك، فاني معكم من المنتظرين لمثل ذلك، فتربص الكفار بالنبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين قبيح، وتربص النبي والمؤمنين بالكفار وتوقعهم لهلاكهم حسن، وقوله ﴿ فتربصوا ﴾ وإن كان بصيغة الامر فالمراد به التهديد.

وقوله ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ على طريق الانكار عليهم ان هذا الذي يقولونه ويتربصون بك من الهلاك. أحلامهم أي عقولهم تأمرهم به، وتدعوهم اليه والاحلام جمع الحلم، وهو الامهال الذي يدعو إليه العقل والحكمة، فالله تعالى حليم كريم، لانه يمهل العصاة بما تدعو اليه الحكمة، ويقال: هذه أحلام قريش أي عقولهم. ثم قال تعالى ليس الأمر على ذلك ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ والطاغي هو الطالب للارتفاع بالظلم لمن كان من العباد، ومنه قوله ﴿ انا لما طغى الماء ﴾ (١) لانه

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ١١

طلب الارتفاع كطلب الظالم للعباد في الشدة ، فحسن على جهة الاستعارة .

وقوله ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ معناه بل يقولون أفتراه واخترعه وافتعله ، لان التقول لا يكون إلا كذباً ، لانه دخله معنى تكلف القول من غير حقيقة معنى يرجع اليه ، وكذلك كل من تكلف أمراً من غير اقتضاء العقل أن له فعله فهو باطل . ثم قال ﴿ بل ﴾ هؤلاء الكفار ﴿ لا يصدقون ﴾ بنبوتك ولا بأن القرآن انزل من عند الله . والآية ينبغي ان تكون خاصة فيمن علم الله انه لا يؤمن .

ثم قال على وجه التحدي لهم ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ يعني مثل القرآن وما يقاربه ﴿ إن كانوا صادقين ﴾ في انه شاعر وكاهن ومجنون وتقوله ، لانه لا يتعذر عليهم مثله . وقيل المثل الذي وقع التحدي به هو ما كان مثله في أعلا طبقة البلاغة من الكلام الذي ليس بشعر . واعلا طبقات البلاغة كلام قد جمع خمسة أوجه : تعديل الحروف في المخارج ، وتعديل الحروف في التجانس وتشاكل المقاطع مما تقتضيه المعاني وتهذيب البيان بالايجاز في موضعه والاطناب في موضعه ، والاستعارة في موضعها والحقيقة في موضعها . واجراء جميع ذلك في الحكم العقلية بالترغيب في ما ينبغي ان يرغب فيه . والترهيب مما ينبغي ان يرهب منه ، والحجة التي يميز بها الحق من الباطل . والموعظة التي تليق للعمل بالحق .

وقوله ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ معناه أخلقوا من غير خالق ﴿ أم هم الخالقون ﴾ لنفوسهم فلا يأتمرون لامر الله ولا ينتهون عما نهاهم عنه . وقيل : معنى ﴿ أخلقوا من غير شيء ﴾ أخلقوا لغير شيء أي أخلقوا باطلا لا لغرض . وقيل : المعنى أخلقوا من غير أب ولا أم فلا يهلكون ، كما أن السموات والارض خلقتا من غير شيء ، فاذا هم أضعف من السماء الذي خلق لامن شيء ، فاذا كان ما خلق لامن شيء يهلك فما كان دونه بذلك أولى . وقوله ﴿ أم خلقوا السموات

والارض ﴾ واخترعوهـا فلذلك لا يقرون بالله أنه خالقهم . ثم قال تعالى ﴿ بل لا يوقنون ﴾ بان لهم إلهاً يستحق العبادة وحده ولا يقرون بانك نبي من جهة الله.

وقوله ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ معناه اعندهم خزائن نعمة ربك وخزائن الله مقدوراته ، لأنه يقدر من كل جنس على ما لا نهاية له فشبه ذلك بالخزائن التي تجمع اشياء مختلفة . والمعنى كأنه قال : أعندهم خزائن رحمة ربك فقد أمنوا أن تجيء الأمور على خلاف ما يحبون « أم هم المسيطرون » على الناس فليس عليهم مسيطر ولا لهم ملزم ومقوم ، فالمسيطر الملزم غيره امراً من الامور قهراً ، وهو مأخوذ من السطر يقال : سيطر يسيطر سيطرة ، وهو (فيعل) من السيطرة ، ونظيره بيطر بيطرة . وقيل : المسيطر الملك القاهر . وقيل : هو الجبار المتسلط ، ومنه قوله « لست عليهم بمسيطر » (١) يقولون : سيطر علي أي اتخـذني خولا ، وقال ابو عبيدة : المسيطرون الارباب ، والمسيطر والمبيقر والمبيطر والمهيمن والكميت اسماء جاءت مصغرة لا نظير لهـا . وقرأ قتادة « بمسيطر » بفتح الطـاء ، بمعنى لست عليهم بمسلط . وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر والكسائي « المسيطرون » بالسين . الباقون بالصاد إلا ان حمزة يشم الصاد زاياً .

وقوله « أم لهم سلم يستمعون فيه » فالسلم مرتقى إلى العلو من مشيد الدرجة مرتقى إلى علو من بناه مصمت . ويقال : جعلت فلاناً سلما لحاجتي أي سبباً . وقال ابن مقبل :

لا يحرز المرء احجاء البـلاد ولا تبنى له في السموات السلاليم (٢)

فكأنه قيل أم يستمعون الوحي من السماء ، فقـد وثقوا بما هم عليه وردوا

(١) سورة ٨٨ الغاشية آية ٢٢

(٢) تفسير الطبري ٢٧ \ ١٩ ومجاز القرآن ٢ \ ٢٣٤

ماسواه « فليأت مستمعهم بسلطان مبين » أي بحجة يظهر صحة قولهم . والاستماع الاصغاء إلى الصوت ، وإنما قيل لهم ذلك ، لان كل من ادعى ما لم يعلم ببداهة العقول فعليه إقامة الحجة .

وقوله « أله البنات ولكم البنون » معناه ألكم البنون ولله البنات ، فصاحب البنين أعلى كلمة من صاحب البنات ، وهذا غاية التجهيل لهم والفضيحة عليهم . وقيل : لو جاز اتخاذ الأولاد عليه لم يكن يختار على البنين البنات فدل بذلك على افراط جهلهم في ما وصفوا الله تعالى به من اتخاذ الملائكة بنات .

وقوله « أم تسألهم اجراً » أي ثواباً على اداء الرسالة اليهم بدعائك إياهم إلى الله « فهم من مغرم مثقلون » فالمغرم إلزام الغرم - في المال - على طريق الابذال . والمغرم انفاق المال من غير إبذال . واصله المطالبة بالحاح فمنه الغريم ، لانه يطالب بالدين بالحاح ، ومنه « ان عذابها كان غراماً » (١) أي ملحاً دائماً . والمغرم لانه يلزم من جهة المطالبة بالحاح لا يمكن دفعه . والمثقل المحمول عليه ما يشق حمله لثقله .

قوله تعالى :

﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٥

يُصعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُم كَيْدُهُم شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذٰلِكَ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٤٧) وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ ﴾ (٤٩) تسع آيات بلاخلاف.

قرأ عاصم وابن عامر ﴿يصعقون﴾ بضم الياء ـ على ما لم يسم فاعله ـ الباقون بفتح الياء على اضافة الفعل اليهم، وهما لغتان. يقال: صعق فلان فهو مصعوق وصعق فهو صاعق. وروي عن عاصم أيضاً «يصعقون» بضم الياء وكسر العين بمعنى يحصلون في الصاعقة. وقيل: الصعق الهلاك بصيحة تصدع القلب. وقيل: الصعق عند النفخة الاولى. قال قوم: إن قوله «أم عندهم الغيب فهم يكتبون» جواب لقولهم ان كان امر الآخرة على ما تدعون حقاً فلنا الجنة كقولهم «ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى» (١) ذكره الحسن. والغيب الذي لا يعلمه إلا الله هو ما لم يعلمه العاقل ضرورة ولا عليه دلالة. والله تعالى عالم به، لانه يعلمه لنفسه، والعالم لنفسه لا يخفى عليه شيء من وجه من الوجوه.

وقوله «أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون» فالكيد هو المكر. وقيل: هو فعل ما يوجب الغيظ في خفي يقال: كاده يكيده كيداً، فهو كائد، والمفعول مكيد وكايده مكايدة مثل غايظة مغايظة. والكيد من الله هو التدبير الذي

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٥٠

يدبره لأوليـــائه على اعدائه ليقهروهم ويستعلوا عليهم بالقتل والاسر . وقال الزجاج: معناه أيريدون بكفرهم وطغيانهم كيداً، فالله تعالى يكيدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله « أم لهم إله غير الله » أي على حقيقية معنى الالهية وهو القادر على ما تحق به العبادة فلذلك عبدوه ؟! فانهم لا يقدرون على دعوى ذلك . ثم نزه نفسه فقال « سبحان الله عما يشركون » من ادعاء آلهة معه من الاصنام والاوثان .

وقوله « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً » فالكسف جمع كسفة كقولك: سدر وسدرة، وهو جواب قولهم « او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً » (١) فقال الله تعالى لو سقط عليهم ما آمنوا ولقالوا ﴿ سحاب مركوم ﴾ والكسف القطعة من الغيم بقدر ما يكسف ضوء الشمس . والكسف من السماء القطعة منها . والسحاب الغيم سمي بذلك لا نسحابه في السماء، والمركوم الموضوع بعضه على بعض . وكل الأمور المذكورة بعد (أم) إلزامات لعبدة الاوثان على مخالفة القرآن . ثم قال تعالى للنبي ﷺ « فذرهم » أي اتركهم « حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون » أي يهلكون فيه بوقوع الصاعقة عليهم . وقيل: الصعقة هي النفخة الاولى التي يهلك عندها جميع الخلائق . ثم وصف ذلك اليوم بأن قال « يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً » أي لا ينفعهم كيدهم وحيلتهم ولا تدفع عنهم شيئاً، لان جميعه يبطل « وهم لا ينصرون » بالدفاع عنهم . والفرق بين الغنى بالشيء والغنى عنه أن الغنى عنه يوجب أن وجوده وعدمه سواء في أن الموصوف غني، وليس كذلك الغنى به، لانه يبطل أن يكون الموصوف غنياً . والغني هو الحي الذي ليس بمحتاج، وليس بهذه الصفة إلا الله تعالى . ومعنى « لا يغني عنهم » أي لا يصرف عنهم شيئاً من

(٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٢

الضرر الذي يقع إلى نفع يصير بمنزلة الغنى لهم .

وقوله « وإن الذين ظلموا عذاباً دون ذلك » قال ابن عباس : هو عذاب القبر ، وبه قال البراء ، وقال مجاهد : هو الجوع في الدنيا . وقال ابن زيد : هو مصائب الدنيا . وقال قوم : هو عموم جميع ذلك .

ثم قال « ولكن اكثرهم لا يعلمون » ومعناه إن اكثر هؤلاء الكفار لا يعلمون صحة ما أمرناهم وأمرناك به لجحدهم نبوتك .

ثم قال تعالى للنبي ﷺ « واصبر » يا محمد « لحكم ربك » الذي حكم به وألزمك التسليم له « فانك باعيننا » أي بمرأى منا ندركك ، ولا يخفى علينا شيء من أمرك ، نحفظك لئلا يصلوا إلى شيء من مكروهك . وأمره بالتنزيه له عما لا يليق به فقال « وسبح بحمد ربك حين تقوم » قال ابو الاحوص : معناه حين تقوم من نومك . وقال الضحاك : معناه إذا قمت إلى الصلاة المفروضة ، فقل سبحانك اللهم وبحمدك . وقال ابن زيد : معناه صل بحمد ربك حين تقوم من نوم القائلة إلى صلاة الظهر . ثم قال « ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » معناه من الليل يعني من المغرب والعشاء الآخرة « وإدبار النجوم » قال الضحاك وابن زيد : هو صلاة الفجر قال ابن عباس وقتادة . هما الركعتان قبل صلاة الفجر . وقال الحسن : هما الركعتان قبل صلاة الفجر تطوعاً . والنجوم هي الكواكب واحدها نجم ، ويقال : نجم النبت ونجم القرن والسن إلا انه إذا اطلق أفاد الكواكب . وقرأ « وادبار النجوم » بفتح الهمزة زيد عن يعقوب على انه جمع . الباقون - بكسرها - على المصدر .

٥٣ ـ سورة النجم

هي مكية ، وهي اثنتان وستون آية في الكوفي وستون في البصري والمدنيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ (١٠)

عشر آيات بلا خلاف .

قوله « والنجم » قسم من الله تعالى . وقد بينا أن الله تعالى له أن يقسم بما يشاء من خلقه ، و ليس للعباد أن يحلفوا إلا به . وقال قوم : معناه ورب النجم فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه ، وفي معنى « النجم » ههنا ثلاثة أقوال :

احدها ـ قال مجاهد : المراد به الثريا إذا سقطت مع الفجر .

الثاني ـ في رواية أخرى عن مجاهد أن المراد به القرآن إذا نزل .

الثالث ـ قال الحسن : معناه جماعة النجوم . « إذا هوى » أي إذا سقط يوم

القيامة كقوله ـ عز وجل ـ « وإذا الكواكب انتثرت » (١) وقيل : النجم على طريق الجنس ، كما قال الراعي :

وباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدي الآكلين جمودها (٢)

(مستحيرة) شحمة مذابة صافية في إهالة، لأنها من شحم سمين.

وقوله « إذا هوى » قيل : معناه إذا هوى للمغيب ودل على ما فيه من العبرة بتصريف من يملك طلوعه وغروبه ، ولا يملك ذلك إلا الله تعالى . وقيل : كان القرآن ينزل نجوماً ، وبين أول نزوله وأخره عشرون سنة ـ ذكره الفراء وغيره ـ والنجم هو الخارج عن الشيء بخروج المنتشيء عنه . والهوى ميل الطباع إلى ما فيه الاستمتاع ، وهو مقصور وجمعه أهواء ، والهواء الذي هو الجو ممدود وجمعه أهوية .

وقوله « ما ضل صاحبكم » يعني النبي ﷺ ما ضل عن الحق « وما غوى » أي وما خاب عن إصابة الرشد ، يقال : غوى يغوي غياً إذا خاب ، وقال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائما(٣)

أي من يخب « وما ينطق عن الهوى » أي ليس ينطق عن الهوى أي بالهوى ، يقال : رميت بالقوس وعن القوس . والمعنى إنه لا يتكلم في القرآن وما يؤديه اليكم عن الهوى الذي هو ميل الطبع « إن هو إلا وحي يوحى » معناه ليس الذي يتلوه عليكم من القرآن إلا وحي أوحاه الله اليه ، فالوحي القاء المعنى إلى النفس في خفي إلا أنه صار كالعلم في ما يلقيه الملك إلا النبي ﷺ من البشر

(١) سورة ٨٢ الانفطار آية ٢

(٢) مجاز القرآن ٢/٢٣٥ واللسان (نجم)

(٣) مر في ٨ / ٣٦ ، ٤٩٣ وهو في القرطبي ١٧ / ٨٤

عن الله تعالى ، ومنه قوله « فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشياً » (١) وقوله « وأوحى ربك إلى النحل » (٢) أي ألهمها مراشدها ، وهو راجع إلى ما قلناه من إلقاء المعنى إلى النفس في خفي .

وقوله « علمه شديد القوى » في نفسه وعلمه . والقوة هي القدرة . وقد تستعمل القوة بمعنى الشدة التي هي صلابة العقد كقوى الحبل .

وقوله « ذو مرة » صفة لجبرائيل عليه السلام أي صاحب مرة ، وهي القوة . واصل المرة شدة الفتل ، وهو ظاهر في الحبل الذي يستمر به الفتل حتى ينتهي إلى ما يصعب به الحل . ثم تجري المرة على القدرة ، لانه يتمكن بها من الفعل ، كما يتمكن من الفعل بالآلة ، فالمرة والقوة والشدة نظائر . وقوله « فاستوى » معناه استولى بعظم القوة ، فكأنه استوت له الامور بالقوة على التدبير . ومنه قوله « استوى على العرش » (٣) أي استولى عليه بالسلطان والقهر . وقال ابن عباس وقتادة : معنى « ذو مرة » ذو صحة بخلق حسن . وقال مجاهد وسفيان وابن زيد والربيع : ذو قوة ، وهو جبرائيل . والمرة واحدة المرر ، ومنه قوله عليه السلام (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي) وقيل « فاستوى » جبرائيل ومحمد عليهما السلام « بالافق الاعلى » أي سماء الدنيا عند المعراج . وقيل في « هو » قولان :

احدهما ـ انه مبتدأ وخبره في موضع الحال ، وتقديره ذو مرة فاستوى في حال كونه بالافق الاعلى .

الثاني ـ إنه معطوف على الضمير في (استوى) وحسن ذلك كي لا يتكرر

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ١٠   (٢) سورة ١٦ النحل آية ٦٨

(٣) سورة ٧ الاعراف آية ٥٣ وسورة ١٠ يونس آية ٣ وسورة ١٣ الرعد آية ٢ وسورة ٢٥ الفرقان ٥٩ وسورة ٣٢ الم السجدة آية ٤ وسورة ٥٧ الحديد آية ٤

(هو) وانشد الفراء :

ألم تر ان النبع تصلب عوده ولا يستوي والخروع المتقصف (١)

وقال الزجاج: لا يجوز عطف (هو) على الضمير من غير تأكيد إلا في الشعر وقال تعالى « أئذا كنا ترابا وآباؤنا » (٢) فرد الآباء على المضمر . وقال الربيع: واستوى يعني جبرائيل عليه‌السلام (وهو) كناية عنه على هذا . وفي الوجه الأول (هو) كناية عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله . وقال قتادة : الافق الأعلى الذي يأتي منه النهار . وقيل : هو مطلع الشمس « شديد القوى » في أمر الله « ذو مرة » أي ذو قوة في جسمه . وقيل : فاستوى جبرائيل على صورته التي خلقه الله ، لأن جبرائيل كان يظهر قبل ذلك للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في صورة رجل .

وقوله « ثم دنا فتدلى » قال الحسن وقتادة والربيع : يعني جبرائيل عليه‌السلام وفيه تقديم وتأخير والتقدير ثم تدلى فدنا . وقال الزجاج : معنى دنا وتدلى واحد ، لأن المعنى إنه قرب وتدلى زاد في القرب ، كما يقال : دنا فلان وقرب . والمعنى ثم دنا جبرائيل إلى محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ، فتدلى اليه من السماء « فكان قاب قوسين او أدنى » معناه كان بينه وبين جبرائيل مقدار قاب قوسين من القسي العربية او أقرب بل أقرب منه . وقيل : معنى (او) في الآية معنى (الواو) كقوله « وأرسلناه إلى مئة ألف او يزيدون » (٣) ومعناه ويزيدون . وقيل : إنه رأى جبرائيل عليه‌السلام في صورته له ستمائة جناح ـ في قول ابن مسعود ـ ومعنى « قاب قوسين » قدر الوتر من القوس مرتين « او أدني » منه وأقرب .

وقوله « فاوحى إلى عبده ما أوحى » قيل اوحى جبرائيل إلى عبد الله محمد

(١) تفسير الطبري ٢٧ / ٢٣ والقرطبي ١٧ / ٨٥ (٢)-و ٢٧ النحل آية ٦٧

(٣) سورة ٣٧ الصافات آية ١٤٧

ما أوحى . وقيل أوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى . ويحتمل ان تكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر والتقدير فأوحى إلى عبده وحياً . ويحتمل ان يكون بمعنى الذي وتقديره فأوحى إلى عبده الذي أوحى اليه . والمعنى أوحى جبرائيل إلى محمد ما أوحى اليه ربه - وهو قول ابن زيد -

وقوله « ما كذب الفؤاد ما رأى » قال ابن عباس رأى ربه بقلبه وهو معنى قوله « علمه » وإنما علم ذلك بالآيات التي رآها . وقال ابن مسعود وعائشة وقتادة : رأى محمد جبرائيل على صورته . وقال الحسن: يعني ما رأى من مقدورات الله تعالى وملكوته . وقال الحسن : عرج بروح محمد ﷺ إلى السماء وجسده في الأرض . وقال اكثر المفسرين - وهو الظاهر من مذهب اصحابنا والمشهور في اخبارهم - أن الله تعالى صعد بجسمه حياً سليماً حتى رأى - ملكوت السموات وما ذكره الله - بعيني رأسه ، ولم يكن ذلك في المنام بل كان في اليقظة . وقد بيناه في سورة بني إسرائيل .

قوله تعالى :

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ (٢٠) عشر آيات بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً ويعقوب « افتمرونه » بمعنى افتجحدونه ، وهو

قول إبراهيم . وقرأ الباقون « افتمارونه » بمعنى افتجادلونه في انه رأى ربه بقلبه أوآيات الله ومعجزاته . وقرأ ابن عامر ـ في رواية هشام ـ وأبي جعفر «ما كذب» مشددة الدال الباقون بالتخفيف . وقرأ ابن كثير والأعشى إلا ابن غالب «ومناءة» مهموزة ممدودة . الباقون « ومناة » مقصورة ، وهما لغتان .

يقول الله تعالى إنه لم يكذب فواد محمد ما رآه بعينه يعني لم يكذب محمد بذلك بل صدق به والفؤاد القلب . وقال ابن عباس : يعني ما رأى بقلبه . وقال الحسن :إنه رأى ربه بقلبه . وهذا يرجع إلى معنى العلم . ومعنى « ما كذب الفؤاد» أي ما توهم أنه يرى شيئاً وهو لا يراه من جهة تخيله لمعناه، كالرائي للسراب يتوهمه ماء ويرى الماء من بعيد فيتوهمه سراباً . ومن شدد أراد لم يكذب فؤاد محمد ما رأت عيناه من الآيات الباهرات فمدّاه . ومن خفف فلأن في العرب من يعدي هذه اللفظة مخففة ، فيقولون صدقني زيد وكذبني خفيفاً ، وصدقني وكذبني ثقيلا وانشد:

وكذبتني وصدقتني والمرؤ ينفعه كذابه (١)

والفرق بين الرؤية في اليقظة وبين الرؤية في المنام أن رؤية الشيء في اليقظة إدراكه بالبصر على الحقيقة ، ورؤيته في المنام لصورة في القلب على توهم الادراك بحاسة البصر من غير ان يكون كذلك .

وقوله « افتمارونه » فمن قرأ « افتمرونه » أراد أفتجحدونه . ومن قرأ « أفتمارونه » أراد أفتجادلونه وتخاصمونه مأخوذ من المراء وهو المجادلة ﴿ على ما يرى ﴾ يعني على الشيء الذي يراه .

(١) مر في ٨ | ٣٩٠

وقوله ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال عبد الله بن مسعود وعائشة ومجاهد والربيع : رأى محمد ﷺ جبرائيل عليه السلام دفعة أخرى .وروي أنه رآه فى صورته التي خلقه الله عليها مرتين . وقوله ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ قيل : هي شجرة النبق وقيل لها : سدرة المنتهي فى السماء السادسة ، إليها ينتهي ما يعرج إلى السماء – في قول ابن مسعود والضحاك – وقيل : لانه ينتهي اليها أرواح الشهداء. وقوله ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ معناه عند سدرة المنتهى جنة المقام وهي جنة الخلد ، وهي في السماء السابعة . وقيل : إنه يجتمع اليها أرواح الشهداء . وقال الحسن : جنة المأوى هي التي يصير اليها أهل الجنة .

وقوله ﴿ إذ يغشي السدرة ما يغشى ﴾ معناه يغشى السدرة من النور والبهاء والحسن والصفاء الذي يروق الابصار ماليس لوصفه منتهى . وقال ابن مسعود ومجاهد – وروي ذلك عن النبي ﷺ أنه غشى السدرة فراش الذهب . وقال الربيع : غشيها من النور نور الملائكة . وقوله ﴿ ما يغشى ﴾ أبلغ لفظ فى هذا المعنى والغشيان لباس الشيء مما يعمه ، يقال غشيه يغشاه غشياناً .

وقوله « ما زاغ البصر» اي ما ذهب عن الحق المطلوب ، والزيغ الذهاب عن الحق المطلوب ، يقال : زاغ بصره وقلبه يزيغ زيغاً ، ومنه قوله « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (١) ومنه قوله « فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه » (٢) والزيغ الميل عن الحق « وما طغى » معناه ما طغى البصر أي ما ذهب يميناً وشمالا . وقيل : ما ارتفع كارتفاع الظالم عن الحق لمن يريده ، والطاغي الذي لا يلوي على شيء . والطغيان طلب الارتفاع بظلم العباد : طغى يطغي طغياناً . والطاغي والباغي نظائر . وهم الطغاة والبغاة ، والمعنى ما زاغ بصر محمد وما طغى

---

(١) سورة ٦١ الصف آية ٥ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٧

أي ما جاوز القصد ولا عدل في رؤية جبرائيل ، وقد ملأ الأفق .

وقوله « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » قسم من الله تعالى ان النبي صلى الله عليه وآله رأى من آيات الله ودلائله أكبرها جنة الخلد وهي في السماء السابعة وقيل : إنه يجتمع فيها أرواح الشهداء وهي الكبرى التي تصغر عندها الآيات في معنى صفتها . والاكبر هو الذي يصغر مقدار غيره عنده في معنى صفته . وقيل رأى رفوفا أخضر من رفارف الجنة قد سد الأفق ـ في قول ابن مسعود ـ .

وقوله ﴿ أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ اسماء أصنام كانت العرب تعبدها ، والعزى كانت تعبدها غطفان ، وهي شجرة سمرة عظيمة ، واللات صنم كانت ثقيف تعبدها ، ومنات كانت صخرة عظيمة لهذيل وخزاعة كانوا يعبدونها فقيل لهم: أخبرونا عن هذه الآلهة التي تعبدونها وتعبدون معها الملائكة وتزعمون ان الملائكة بنات الله ، فوبخهم الله تعالى فقال ﴿ أفرايتم ﴾ هذه ﴿ اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ والمعنى أخبرونا عن هذه الآلهة التي تدعونها من دون الله هل لها من هذه الآيات والصفات شيء .

قوله تعالى :

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (٢٥) خمس يات بلا خلاف .

قرأ اهل مكة ﴿ ضئزى ﴾ مهموز إلا ابن فليح . الباقون بلا همز .

يقول الله تعالى على وجه الانكار على كفار قريش الذين أضافوا إلى الله تعالى الملائكة بأنهم بنات الله ، فقال لهم: كيف يكون ذلك وانتم لو خيرتم لاخترتم الذكر على الأنثى ، فكيف تضيفون إليه تعالى مالا ترضون لانفسكم ، فقد أخطأتم في ذلك من وجهين : احدهما - أنكم أضفتم اليه ما يستحيل عليه ولا يليق به ، فهو قسم فاسد غير جائز . الثاني - أنكم اضفتم اليه مالا ترضون لانفسكم ، فكيف ترضونه لله تعالى . وقيل : إنما فضل الذكر على الانثى لان الذكر يصلح لما لا تصلح له الانثى ، وينتفع به في ما لا ينتفع فيه بالانثى ، ولهذا لم يبعث الله نبياً من الأناث .

وقوله ﴿ تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ أي تلك قسمة فاسدة غير جائزة بأن تجعلوا لانفسكم الأفضل ولربكم الأدون ، ولو كان ممن يجوز عليه الولد لما اختار الأدون على الأفضل ، كما قال ﴿ لو أراد الله ان يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ (١) فهذا على تقدير الجواز لاعلى صحة الجواز . والضيزة الجائرة الفاسدة ووزنه (فعلى) إلا أنه كسر أوله لتصح الياء من قبل انه ليس في كلام العرب (فعلى) صفة ، وصفة (فعلى) نحو (حبلى) يحمل على ماله نظير . وأما الاسم فانه يجيء على (فعلى) كقوله ﴿ فان الذكرى ﴾ (٢) وتقول العرب ضزته حقه أضيزه وضأزته - لغتان - إذا أنقصته حقه ومنعته ، ومنهم من يقول : ضزته - بضم الضاد - أضوزه ، وانشد ابو عبيدة والاخفش :

فان تنأعنا ننتقصك وان تغب فسهمك مضؤز وانفك راغم (٣)

ومنهم من يقول : ضيزى - بفتح الضاد - ومنهم من يقول - ضأزى بالفتح

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٤ (٢) سورة ٥١ الذايات آية ٥٥

(٣) مجاز القرآن ٢ \ ٢٣٧ الشاهد ٨٨٣ والقرطبي ١٧ / ١٠٢

والهمز ، ومنهم من يقول : ضؤزى ـ بضم الضاد والهمزة ـ وقال ابن عباس وقتادة ﴿ قسمه ضيزى ﴾ جائرة . وقال سفيان: منقوصة .

ثم قال ان تسميتكم لهذه الاصنام بأنها آلهة وللملائكة بأنها بنات الله ﴿ ماهي إلا اسماء سميتموها أنتم واباؤكم ﴾ بذلك ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ يعني من حجة ولا برهان إن يتبعون أي ليس يتبعون فى ذلك ﴿ إلا الظن ﴾ الذي ليس بعلم ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ أي وما تميل اليه نفوسكم ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ عدل عن خطابهم إلى الاخبار عنهم بأنهم قد جاءهم الهدى يعني الدلالة على الحق .

وقوله ﴿ أم للانسان ما تمنى ﴾ قيل معناه : بل لمحمد صلى الله عليه وآله ما تمنى من النبوة والكرامة . وقيل التقدير أللانسان ما تمنى ؟ ! من غير جزاء . لا ، ليس الامر كذلك ، ﴿ فلله الآخرة والاولى ﴾ يعطي من يشاء ويمنع من يشاء . وقال الجبائي معناه ليس للانسان ما تمنى من نعيم الآخرة ونعيم الدنيا ، وإنما المالك لذلك الله تعالى المالك للسموات والارض ، لا يعطي الكفار ما يتمنونه ، وإنما يعطي الثواب من يستحقه .

قوله تعالى :

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ ٱللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلٰئِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨)

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ (٣٠) .

خمس آيات كوفي وأربع في ما عداه ، عدّ الشاميون ﴿ فأعرض عن من تولى ﴾ ولم يعده الباقون . وعد الكوفيون ﴿ من الحق شيئاً ﴾ ولم يعده الباقون وعد الكل ﴿ الحياة الدنيا ﴾ إلا الشاميون ، فانهم عدّوا آخر الآية ﴿ اهتدى ﴾ .

يقول الله تعالى مخبراً بان كثيراً من ملائكة السموات ﴿ لا تغني شفاعتهم ﴾ أي لاتنفع شفاعتهم في غيرهم باسقاط العقاب عنهم ﴿ شيئاً إلا من بعد أن باذن الله لمن يشاء ﴾ ان يشفعوا فيه ويطلق لهم ذلك ﴿ ويرضى ﴾ ذلك . وقيل : إن الغرض بذلك الانكار على عبدة الاوثان وقولهم : إنها تشفع لأن الملك إذا لم تغن شفاعته شيئاً فشفاعة من دونه أبعد من ذلك . وفي ذلك التحذير من الاتكال على الشفاعة ، لانه إذا لم يغن شفاعة الملائكة كان شفاعة غيرهم أبعد من ذلك . ولا ينافي ما نذهب اليه من أن النبي صلى الله عليه وآله والائمة والمؤمنين يشفعون في كثير من أصحاب المعاصي ، فيسقط عقابهم لمكان شفاعتهم ، لان هؤلاء - عندنا - لا يشفعون إلا باذن من الله ورضاه ، ومع ذلك يجوز أن لا يشفعوا فيه فالزجر واقع موقعه .

ثم أخبر الله تعالى ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي لا يصدقون بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب ﴿ يسمون الملائكة تسمية الانثى ﴾ قال الحسن كانوا يسمون الملائكة بنات الله . ثم قال ﴿ وما لهم به من علم ﴾ أي بما يقولونه ويسمونه ﴿ من علم ﴾ أي ليسوا عالمين بذلك ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ أي ليس يتبعون في قولهم ذلك إلا الظن الذي يجوز أن يخطىء ويصيب ، وليس معهم شيء من العلم .

وقوله ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ معناه إن الظن لا يغني من العلم لأنه لا بد من علم يحسن الفعل حتى يجوز أن يفعل ، وإن كان الظن في بعض الاشياء علامة للحسن ، فما أغنى عن العلم .

ثم قال للنبي صلى الله عليه وآله ﴿ فاعرض ﴾ يا محمد ﴿ عمن تولى عن ذكرنا ﴾ ولم يقر بتوحيدنا وجحد نبوتك ومال إلى الدنيا ومنافعها ﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ والتمتع فيها أي لا تقابلهم على أفعالهم واحتملهم ، ولم ينهه عن تذكيرهم ووعظهم . ثم قال ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ ومعناه إن علمهم انتهى إلى نفع الدنيا دون نفع الآخرة ، وهو صغير حقير في نفع الآخرة ، فطلبوا هذا وتركوا ذلك جهلا به .

ثم قال ﴿ إن ربك ﴾ يا محمد ﴿ هو أعلم ﴾ منك ومن جميع الخلق ﴿ بمن ضل عن سبيله ﴾ أي بمن جار وعدل عن طريق الحق الذي هو سبيله ﴿ وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ اليها فيجازي كل واحد على حسب ذلك إن عملوا طاعة أثابهم عليها وإن عملوا معصية عاقبهم عليها .

قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢) أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ

فَهُوَ يَرَى﴾ (٣٥) خمس آيات .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً ﴿ كبير الاثم ﴾ على لفظ الواحد . الباقون بلفظ الجمع ﴿ كبائر ﴾ وقد بيناه في سورة ﴿ حم عسق ﴾ .

هذا اخبار من الله بأن له ملك ﴿ ما في السموات ﴾ وملك ﴿ ما في الارض ﴾ من جميع الاجناس بالحق ﴿ ليجزى الذين اساؤا ﴾ أي يعاقبهم ﴿ بما عملوا ﴾ من المعاصي ﴿ ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ أى يثيبهم على طاعاتهم بنعيم الجنة والخلود فيها . ثم وصف الذين احسنوا فقال هم ﴿ الذين يجتنبون كبائر الاثم ﴾ أى عظائم الذنوب ﴿ والفواحش ﴾ . والمعاصي - عندنا - كلها كبائر غير ان بعضها أكبر من بعض ، فقد تكون المعصية كبيرة بالاضافة إلى مادونها وقد تكون صغيرة بالاضافة إلى ما هو اكبر منها . والفواحش جمع فاحشة وهي أقبح الذنوب وأفحشها ، والاساءة مضرة يستحق بها الذم ، ولا يستحق الذم إلا مسيء ، وذم من ليس بمسيء قبيح ، كذم المحسن بالقبيح ، والاحسان فعل ما هو نفع في نفسه أو هو سبب للنفع ليستحق به الحمد ، ولا يستحق الحمد إلا محسن . والكبير من الذنوب هو الذي يعظم به الزجر إلى حدّ لا يكفره إلا التوبة منه - عند من لم يحسن إسقاط العقاب تفضلا - والصغير هو الذي يخف فيه الزجر إلى حد يصح تكفيره من غير توبة - عند من قال بالصغائر -

وقوله ﴿ إلا اللمم ﴾ قال قوم : هو الهم بالمعصية من جهة مقاربتها في حديث النفس بها من غير مواقعتها ولا عزم عليها ، لان العزم على الكبير كبيرة ، ولكن يقرب من مكانها لشهوته لها غير عازم عليها . وقال قوم ﴿ إلا اللمم ﴾ استثناء منقطع ، لأنه ليس من الكبائر ولا الفواحش ، كما قال الشاعر :

وبلدة ليس بها أنيس   إلا اليعافير وإلا العيس (١)

(١) مر في ١ / ١٥١ و ٣ / ٣٢٧ و ٥ / ٤٩٨ و ٧ / ٥٠١

واليعفور من الظباء الأحمر والاعيس الابيض . وقيل ﴿ اللمم ﴾ مقاربة الشيء من غير دخول فيه ، يقال : ألمّ بالشيء يلم إلماماً إذا قاربه . وقيل ﴿اللمم﴾ الصغير من الذنوب ، كما قال ﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم ﴾(١) ذهب اليه ابن عباس وابن مسعود . وقيل ﴿ اللمم ﴾ اتيان الشيء من غير اقامة عليه قال الحسن : هو إصابة الفاحشة من غير إقامة للمبادرة بالتوبة .

ثم أخبر عن نفسه تعالى بأنه واسع المغفرة للمذنبين بقوله ﴿ إن ربك ﴾ يا محمد ﴿ واسع المغفرة هو اعلم بكم إذ أنشأكم من الارض ﴾ يعني أنشأ أباكم آدم من أديم الأرض . وقال البلخي : يجوز ان يكون المراد به جميع الخلق ، من حيث خلقهم الله تعالى من الطبائع الاربع على حسب ما أجرى العادة من خلق الاشياء عند ضرب من تركيبها ، وخلق الحيوان عند تناول أغذية مخصوصة خلقها الله من الأرض ، فكأنه تعالى أنشأهم منها .

وقوله ﴿ وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ﴾ أي هو أعلم بكم في هـذه الأحوال كلها لم يخف عليه من أحوالكم شيء منها .

ثم نهاهم تعالى فقال ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ أي لا تعظموها ولا تمدحوها بما ليس لها ، فاني أعلم بها ﴿ هو اعلم بمن اتقى ﴾ معاصيه وفعل طاعاته والفرق بينه وبين من خالفه . وقال قوم : نهاهم أن يزكوا انفسهم بفعل الواجبات ، وفعل المندوبات ، وترك القبائح لانه اقرب إلى النسك والخشوع . والأجنة جمع جنين . وهو الدفين فى الشيء قال الحارث :

ولا شمطاء لم تترك شفاها ... لها من تسعة إلا جنينا (٢)

(١) سورة ٤ النساء آية ٣٠ (٢) اللسان (جنن)

أي إلا دفينا في قبره . ثم قال للنبي ﷺ ﴿ أفرايت الذي تولى وأعطى قليلا واكدى ﴾ قال مجاهد : نزلت في الوليد ابن المغيرة وكان أعطى قليلا من ماله لمن يتحمل عنه العذاب في الآخرة . ثم منع ما ضمن له . وقيل : إن ﴿ الذي أعطى قليلا واكدى ﴾ هو المنافق الذي يعطي قليلا في المعونة على الجهاد ثم يمنع وقال ابن عباس ومجاهد : معنى ﴿ وأكدى ﴾ قطع العطاء ، كما يقطع البئر الماء واشتقاق (اكدى) من كدية الركية ، وهي صلابة تمنع الماء إذا بلغ الحافر اليها يئس من الماء، فيقول بلغنا كديتها أي صلابتها التي تويئس من الماء ، يقال : اكدى يكدي إكداء إذا منع الخير ، وكديت اظفاره إذاغلظت ، وكديت أصابعه إذا كلت ، فلم تعمل شيئاً ، وكدى النبت إذا قل ريعه ، والاصل واحد . وقيل : الكدية صخرة يبلغ اليها حافر البئر فلا يمكنه الحفر .

وقوله ﴿ اعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ إنكار على من ذكره ، وهو الذي تولى واعطى قليلا من ماله ليتحمل عنه خطأه ، فقال ﴿ اعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ أي يعلم صدق الذي وعده ليتحمل خطاياه ؟ !

قوله تعالى :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ

وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ (٤٦) احدى عشرة آية بلاخلاف ·

لما وبخ الله تعالى الذي أعطى قليلا واكدى، وبين أنه ليس عنده علم الغيب فيصدق من قال إنه يتحمل خطاياه ، بين ان الذى وعده بذلك ﴿ أم لم ينبأ ﴾ أى لم يخبر بما في صحف الانبياء ولم يعلم ذلك فـ (أم) بمعنى (بل) وتقديره بل لم ينبأ بما في صحف موسى والصحف جمع صحيفة والمراد - ههنا - مكتوب الحكمة ، لانها كتب الله .

وقوله ﴿ وابراهيم ﴾ أي ولا فى صحف ابراهيم ﴿ الذى وفى ﴾ أى وفى بما يجب عليه لله - عز وجل - واستحق أن يمدح بهذا المدح · وقال مجاهد ﴿ وابراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر اخرى ﴾ وقيل في رسالة ربه في هـذا أو في غيره - ذكره سعيد بن جبير وقتادة وابن زيد - وهو أليق بالعموم · وقوله ﴿ الذى وفى ﴾ قيل : استحق المدح بذبح ولده وإلقائه فى النار وتكذيبه فى الدعاء إلى الله فوفى ما عليه فى جميع ذلـك. وقوله ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي بين الله تعالى فى صحف ابراهيم وموسى أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، ومعناه أنه لا يؤاخذ احد بذنب غيره · يقال : وزر يزر إذا كسب وزراً ، وهو الاثم ، فهو وازر .

وقوله ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى ﴾ معناه ليس له من الجزاء إلا جزاء ما عمل دون ما عمله غيره ، ومتى دعا إلى الايمان من أجاب اليه فهو محمود عليه على طريق التبع كأنه من أجل عمله صار له الحمد على هـذا ، ولو لم يعمل شيئاً ما استحق شيئاً لا ثواباً ولا عقاباً .

وقوله ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ معناه إن ما يفعـله الانسان ويسعى فيه لابد أن يرى فى ما بعد بمعنى أنه يجازى عليه من ثواب او عقاب ، وبين ذلك بقوله

﴿ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ أي يجازى على اعماله الطاعات بأوفى ما يستحقه من الثواب الدائم ، والهاء في (يجزاه) عائدة على السعي .

وقوله ﴿ وأن الى ربك المنتهى ﴾ معناه وأن إلى ثواب ربك وعقابه آخر الأمور . والمنتهى هو المصير إلى وقت بعد الحال الأولى عن حال مثلها ، فللتكليف منتهى ، وليس للجزاء في دار الآخرة منتهى . والمنتهى قطع العمل الى حال أخرى والمنتهى والآخر واحد . وقوله ﴿ وأنه هو اضحك وأبكى ﴾ قيل اضحك بأن فعل سبب ذلك من السرور والحزن ، كما يقال أضحكني فلان وأبكاني اذا كان سبب ذلك بما يقع عنده ضحكي وبكائي ، فعلى هذا الضحك والبكاء من فعل الانسان . وقد قال الله تعالى ﴿ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً ﴾ (١) ولو لم يكن من فعلنا لما حسن ذلك . وقال تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ﴾ (٢) وقال ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ (٣) فنسب الضحك اليهم . وقال الحسن : الله تعالى هو الخالق للضحك والبكاء ، والضحك تفتح اسرار الوجه عن سرور وعجب في القلب ، فاذا هجم على الانسان منه ما لا يمكنه دفعه فهو من فعل الله الذي أضحك وابكى . والبكاء جريان الدموع على الخد عن غم في القلب ، وإنما يبكي الانسان عن فرح يمازجه تذكر حزن ، فكأنه عن رقة في القلب يغلب عليها الغم .

وقوله ﴿ إنه امات واحيا ﴾ معناه انه تعالى الذي يخلق الموت فيميت به الأحياء لا يقدر على الموت غيره ، لانه لو قدر على الموت غيره لقدر على الحياة ، لأن القادر على الشيء قادر على ضده ، ولا احد يقدر على الحياة إلا الله .

---

(١) سورة ٩ التوبة آيه ٨٣ (٢) سورة ٥٣ النجم آية ٦٠

(٣) سورة ٨٣ المطففين آية ٣٤

وقوله ﴿ وأحيا ﴾ أي هو الذي يقدر على الحياة التي يحيي بها الحيوان لا يقدر عليها غيره من جميع المحدثات .

ثم بين ايضاً ﴿ أنه ﴾ الذي ﴿ خلق الزوجين الذكر ﴾ منهما ﴿ والانثى من نطفة ﴾ أي خلق الذكر والانثى من النطفة ، وهي ماء الرجل والمرأة التي يخلق منها الولد ﴿ إذا تمنى ﴾ يعني إذا خرج المني منهما وجعل في الرحم خلق الله تعالى منها الولد إما ذكراً واما انثى ، ومعنى تمنى أي تلقى على تقدير في رحم الانثى ، واصله التقدير يقولون : منى يمني فهو مان إذا قدر قال الشاعر :

حتى تلاقي ما يمني لك الماني (١)

أي يقدر ومنه التمني تقدير المعنى للاستمتاع به .

قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ (٥٥) تسع آيات بلاخلاف .

قرأ اهل البصرة غير سهل ﴿ عاد الولى ﴾ مدغمة بلا همز ، وعن نافع خلاف فانه ادغم وترك الهمزة إلا قالون ، فانه همز ، الباقون بالهمز والاظهار . من أدغم القى حركة الهمزة على اللام ، فانضمت ثم سكنها وحذف همزة الوصل ، ولقيتها

(١) مر في ١ | ٣١٩ وهو في القرطبي ١٧ | ١١٨

النون فأدغمت في اللام ، ونظير ذلك قول العرب : قم الان عنا ، يريدون قم الآن عنا . وقولهم : صم الثنين أي صم الاثنين . الباقون تركوه على حاله . وقرأ حمزة وحفص عن عاصم ﴿ وثمود ﴾ بلا تنوين . الباقون بتنوين . قال الفراء : وقوله ﴿ وآتينا ثمود الناقة ﴾ (١) ترك صرفها لأنه ليس فيها الف .

لما بين الله تعالى انه هو الذي يخلق الذكر والانثى من النطفة إذا تمنى ذكر ﴿ وان عليه النشأة الاخرى ﴾ وهي البعثة يوم القيامة . والنشأة الصنعة المخترعة خلاف المسببة ، وهما نشأتان : الأولى في الدنيا ، والثانية في الآخرة .

ثم قال « وانه هو اغنى واقنى » ومعناه أغنى بالمال واقنى باصول الأموال . وقال مجاهد : اقنى أي اخدم . وقال الزجاج : ومعناه اغنى بعد الفقر واقنى بالمال الذي يقتنى . وقيل: معنى (اقنى) انه جعل له اصل مال ، وهو القنية التي جعلها الله للعبد ، فاما (اغنى) فقد يكون بالعافية والقوة والمعرفة قال الاعشى :

فاقنيت قوماً واعمرتهم ... واخربت من ارض قوم ديارا (٢)

اى جعل لهم قنية . واصل (اقنى) الاقتناء ، وهو جعل الشيء للنفس على اللزوم ، فمنه القناة ، لانها مما يقتنى . ومن ذلك اقنى الانف ، لانه كالقناة في ارتفاع وسطه ودقة طريقه . والقنو العذق قبل ان يبلغ لأنه كالذي يقتنى في اللزوم حتى يبلغ ، والمقاناة المشاكلة في اللون .

وقوله ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ معناه وان الله الذي خلق الشعرى واخترعها . والشعرى النجم الذي خلف الجوزاء وهو احد كوكبي ذراع الاسد وقم المرزم ، وكانوا يعبدونهما في الجاهلية ـ في قول مجاهد وقتادة ـ ثم قال « وانه اهلك عاداً الاولى » قيل هو عاد بن ارم ، وهم الذين اهلكهم الله بريح صرصر عاتية . وعاد

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٥٩ (٢) ديوانه (دار بيروت) ٨٢ وروايته (فأقللت)

الآخرة أهلكوا ببغي بعضهم على بعض ، فتفانوا بالقتل ـ ذكره ابن اسحاق ـ وقال الحسن: الأولى أي قبلكم ، وإنما فتحت (أن) في المواضع كلها ، لانها عطف على قوله « أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى » وبكذا وكذا ، فلما حذف الباء نصبه . وقوله « وثمود فما ابقى » نصب بـ (اهلك) الذي قبله ، وتقديره وأهلك ثموداً فما ابقى ، ولا يجوز أن يكون منصوباً بقوله « فما أبقى » لان (ما) لا يعمل ما بعدها في ما قبلها ، لاتقول: زيداً ما ضربت ، لأنها من الحروف التي لها صدر الكلام ، كألف الأستفهام .

وقوله « وقوم نوح من قبل » معناه وأهلكنا قوم نوح من قبل قوم صالح « إنهم كانوا هم اظلم وأطغى » فالأظلم الأعظم ظلماً ، والأطغى الاعظم طغياناً ، فالظلم يتعاظم كما يتعاظم الضرر ، وعظم الظلم بحسب عظم الزاجر عنه . وقيل : مكث نوح في قومه يدعوهم إلى الله وكلمادعاهم فما يزدادون إلا تتابعاً في الضلال وتواصياً بالتكذيب لأمر الله ـ في قول قتادة ـ

وقوله « والمؤتفكة » يعني المنقلبة ، وهي التي صار اعلاها أسفلها ، واسفلها اعلاها ائتفكت بهم تؤتفك ائتفاكاً ، ومنه الافك الكذب ، لأنه قلب المعنى عن وجهه . ومعنى « اهوى » نزل بها في الهوى ، ومنه الهوى : أهوى بيده ليأخذ كذا ، وهوى هواء إذا نزل في الهواء ، فأما إذا نزل في سلم أو درجة ، فلا يقال : أهوى ، ولا هوى . وقيل : قرية سدوم : قوم لوط ، رفعها جبرائيل إلى السماء ثم اهوى بها قالباً لها ـ في قول مجاهد وقتادة ـ وقوله « فغشاها ما غشى » يعني من الحجارة المسومة التي رموا بها من السماء ـ في قول قتادة وابن زيد ـ والمعنى فجللها من العذاب ما يعمها حتى أتى عليها (ما غشى) وفيه تفخيم شأن العذاب الذي رماها به ونالها من جهة إبهامه في قوله « ما غشى » كأنه قد جل الأمر عن أن يحتاج

إلى تفصيل وصفه .

وقوله « فبأي آلاء ربك تتمارى » معناه بأي نعم ربك ترتاب يا بن آدم ! - ذكره قتادة - وإنما قيل بعد تعديد النعم « فبأي آلاء ربك تتمارى » لأن النقم التي عددت على من ذكر نعم من الله علينا لما لنا في ذلك من اللطف في الانزجار عن القبيح مع أنه نالهم ما نالهم بكفرهم النعم فبأي نعم ربك أيها المخاطب تتمارى حتى تكون مقارناً لهم في سلوك بعض مسالكهم ، أي فما بقيت لك شبهة بعد تلك الأحوال في جحد نعمه .

قوله تعالى :

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ (٦١) فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ (٦٢) سبع آيات بلا خلاف .

قوله « هذا نذير » إشارة إلى رسول الله ﷺ - في قول قتادة - وقال ابو مالك : هو إشارة إلى القرآن « من النذر الاولى » في صحف إبراهيم وموسى .

يقول الله تعالى « هذا » يعني محمداً « نذير » أي مبين لما ينبغي أن يحاذر منه وما ينبغي ان يرغب فيه بأحسن البيان ، وهذه صفة رسل الله عليهم السلام . والنبي أحسن الناس انذاراً وأكرمهم إبلاغاً لما امر الله بتبليغه إلى أمته . وقوله « من النذر الأولى » من جملة الرسل الذين بعثهم الله ، وإن كان هو آخرهم ، كما تقول : هو من بني آدم ، وإن كان أحدهم .

وقوله « ازفت الآزفة » معناه دنت القيامة ، وهي الدانية . قال النابغة الذبياني

ازف الترحل غير ان ركابنا   لما تزل برحالنا وكأن قد (١)

وقال كعب بن زهير :

بان الشباب وامسى الشيب قد أزفا   ولا ارى لشباب ذاهب خلفا(٢)

وإنما سميت القيامة آزفة ، وهي الدانية ، لان كل آت قريب ، فالقيامة قد قربت بالاضافة إلى ما مضى من المدة من لدن خلق الله الدنيا . وقوله « ليس لها من دون الله كاشفة » معناه لا يقدر أن يقيمها إلا الله وحده ، وليس يجلي عنها ويكشف عنها سواه . وقيل كاشفة أي جامعة كاشفة أي نفس كاشفة ، ويجوز ان يكون مصدراً مثل العافية والعاقبة والواقية ، فيكون المعنى ليس لها من دون الله كشف أي ذهاب أي لا يقدر أحد غير الله على ردها . وقال الحسن : هو مثل قوله « لا يجليها لوقتها إلا هو » (٣) وقيل : كاشفة بمعنى الانكشاف كقوله « ليس لوقعتها كاذبة » (٤) ومثله « ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم » (٥) أي خيانة ، والسامد اللاهي ، يقال دع عنك سمودك أي امرك ، وكأنه المستمر في اللهو ، يقال : سمد يسمد سموداً فهو سامد ، وقال الشاعر :

قيل قم فانظر اليهم   ثم دع عنك السمودا (٦)

ويقال للجارية : اسمدي لنا أي غني . وقوله « فاسجدوا لله واعبدوا » أمر من الله تعالى بالسجود له والصلاة وان يعبدوه خالصاً مخلصاً لا يشركون به احداً في العبادة ، فتعالى الله عن ذلك . وفي الآية دلالة على ان السجود ـ ههنا ـ فرض على ما يذهب اليه اصحابنا لان الأمر يقتضي الوجوب .

---

(١) القرطبي ١٧ \ ١٢٢ والطبري ٢٧ \ ٤٣ (٢) تفسير الطبري ٢٧ \ ٤٣

(٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٦ (٤) سورة ٥٦ الواقعة آية ٢

(٥) سورة ٥ المائدة آية ١٤ (٦) اللسان (سمد)

٥٤ ـ سورة القمر

مكية بلا خلاف . وهي خمس وخمسون آية بلا خلاف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنَ ٱلْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ (٥) خمس آيات .

قرأ ابو جعفر « وكل امر مستقر » بالجر صفة لـ (أمر) . الباقون بالرفع على انه خبر (كل) .

هذا اخبار من الله تعالى بدنو الساعة وقرب أوانها ، فقوله « اقتربت » أي دنت وقربت وفي (اقتربت) مبالغة ، كما أن في (اقتدر) مبالغة على القدرة ، لأن اصل (افتعل) طلب اعداد المعنى بالمبالغة نحو (اشتوى) إذا اتخذ شوى في المبالغة في اتخاذه ، وكذلك (اتخذ) من (اخذ) . والساعة القيامة . وقال الطبري : تقديره اقتربت الساعة التي يكون فيها القيامة . وجعل الله تعالى من علامات دنوها انشقاق القمر المذكور معها ، وفي الآية تقديم وتأخير ، وتقديره انشق القمر واقتربت

الساعة . ومن أنكر إنشقاق القمر وأنه كان ، وحمل الآية على كونه في ما بعد ـ كالحسن البصري وغيره ، واختارة البلخي ـ فقد ترك ظاهر القرآن ، لأن قوله « انشق » يفيد الماضي ، وحمله على الاستقبال مجاز . وقد روى إنشقاق القمر عبدالله بن مسعود وانس ابن مالك وابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم ومجاهد وإبراهيم ، وقد أجمع المسلمون عليه ولا يعتد بخلاف من خالف فيه لشذوذه . لان القول به أشتهر بين الصحابه فلم ينكره أحد ، فدل على صحته ، وأنهم اجمعوا عليه فخلاف من خالف فى ما بعد لا يلتفف اليه . ومن طعن فى إنشقاق القمر بأنه لو كان لم يخف على أهل الافطار فقد أبعد لانه يجوز ان يحجبه الله عنهم بغيم ، ولأنه كان ليلاً فيجوز ان يكون الناس كانوا نياماً فلم يعلموا به ، لأنه لم يستمر ازمان طويل بل رجع فالتأم فى الحال ، فالمعجزة تمت بذلك .

وقوله « وإن يروا آية » احتمل ان يكون اخباراً من الله تعالى عن عناد كفار قريش بأنهم متى رأوامعجزة باهرة وحجة واضحة أعرضوا عن تأملها والانقياد لصحتها عناداً وحسداً ، وقالوا هو « سحر مستمر » أي يشبه بعضه بعضاً . وقيل « سحر مستمر » من الأرض إلى السماء . وقال مجاهد وقتادة معناه ذاهب مضمحل وقال قوم : معناه شديد من أمرار الحبل ، وهو شدة فتله .

وقوله « وكذبوا » يعني بالآية التي شاهدوها ولم يعترفوا بصحتها ولا تصديق من ظهرت على يده « واتبعوا » فى ذلك « أهواءهم » يعني ما تميل طباعهم اليه ، فالهوى رقة القلب بميل الطباع كرقة هواء الجو ، تقول : هوى يهوي هواً ، فهو هاو إذا مال طبعه إلى الشيء ، وهو هوى النفس مقصور ، فأما هواء الجو فممدود ويجمع على أهوية . وهوى يهوي إذا انحدر في الهواء ، والمصدر الهوى . والاسم الهاوي .

وقوله « وكل أمر مستقر » معناه كل أمر من خير او شر مستقر ثابت حتى يجازى به إما الجنة او النار - ذكره قتادة - ثم قال « ولقد جاءهم » يعني هؤلاء الكفار « من الانباء » يعني الاخبار العظيمة بكفر من تقدم من الامم وإهلاكنا إياهم التي يتعظ بها « ما فيه مزدجر » يعني متعظ، وهو مفتعل من الزجر إلا ان التاء ابدلت دالا لتوافق الراء بالجهر مع الدال لتعديل الحروف فيتلاءم ولا يتنافر.

وقوله « حكمة بالغة » معناه نهاية في الصواب، وغاية في الزجر بهؤلاء الكفار وقوله « فما تغني النذر » يجوز في (ما) وجهان:

احدهما - الجحد، ويكون التقدير: لا يغني التخويف.

والثاني - ان تكون بمعنى (أي) وتقديره أي شيء يغني الانذار. والنذر جمع نذير. وقال الجبائي: معناه إن الانبياء الذين بعثوا اليهم لا يغنون عنهم شيئاً من عذاب الآخرة الذي استحقوه بكفرهم، لانهم خالفوهم ولم يقبلوا منهم.

قوله تعالى:

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ (١٠) خمس آيات.

قرأ « خشعاً » على الجمع أهل العراق إلا عاصماً، الباقون « خاشعا » على وزن (فاعل) ونصبوه على الحال. ومن قرأ « خاشعاً » بلفظ الواحد، فلتقدم

الفعل على الفاعل . وقرأ ابن كثير وحده (نكر) بسكون الكاف . الباقون بالتثقيل وهما لغتان . وقال ابو علي النحوي : النكر أحد الحروف التي جاءت على (فعل ، وفعل) وهو صفة . وعلى ذلك حمله سيبويه وأستشهد بالآية . ومثله ناقة أجدومشية سجح . ومن خفف جعله مثل رسل رسل وكتب وكتب ، والضمة فى تقدير الثبات .

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنه ليس ينفع فى وعظهم وزجرهم الحكمة البالغة ، ولا يغني النذر أمر النبي بالاعراض عنهم وترك مقابلتهم على سفههم . فقال « فتولى عنهم » أي اعرض عنهم « يوم يدع الداعي إلى شيء نكر » قيل فى معناه أقوال:

احدها ـ قال الحسن فتولى عنهم إلى يوم يدعو الداعي .

والثاني ـ فتول عنهم واذكر يوم يدع الداعي إلى شيء نكر ، يعني لم يروا مثله قط فينكرونه استعظاماً له .

الثالث ـ ان المعنى فتول عنهم ، فانهم يرون ما ينزل بهم من العذاب يوم يدعو الداعي وهو يوم القيامة ، فحذف الفاء من جواب الأمر . والداعي هو الذي يطلب من غيره فعلا . ونقيضه الصارف ، وهو الطالب من غيره أن لا يفعل بمنزلة الناطق بأن لا يفعل ، تقول : دعا يدعو دعاء فهو داع وذاك مدعو . والنكر : هو الذي تأباه من جهة نفور الطبع ، وهو صفة على وزن فعل ، ونظيره رجل جنب وارض جرز ، وهو من الانكار نقيض الاقرار ، لان النفس لا تقر بقبوله ، وإنما وصف بأنه نكر لغلظه على النفس ، وإنهم لم يروا مثله شدة وهؤلاء كأنهم ينكرونه لما قبح في عقولهم .

وقوله « خاشعا أبصارهم » فمعنى الخاشع الخاضع ، خشع يخشع خشوعاً ، فهو خاشع ، والجمع خشع ، ويخشع الرجل إذا نسك ، وخاشعاً حال مقدمة . والعامل فيها (يخرجون) وقيل « خاشعاً أبصارهم » لتقدم الصفة على الاسم ، كما قال الشاعر:

وشباب حسن أوجههم　　من اياد بن نزار بن معد (١)

وقال آخر :

ترى الفجاج بها الركبان معترضا　　أعناق أبزلها مرخى لها الجدل (٢)

والجديل هو الزمام، ولم يقل مرخيات ولا معترضات «يخرجون من الاجداث» يعني من القبور واجدها جدث وحدف أيضاً لغة، واللحد جانب القبر وأصله الميل عن الاستواء «كأنهم جراد منتشر» أي من جراد منتشر من كثرتهم

وقوله «مهطعين إلى الداعي» قال الفراء وابو عبيدة : مسرعين . وقال قتادة : معناه عامدين بالاهطاع والاهطاع الاسراع فى المشي ، يقال : اهطع يهطع إهطاعاً ، فهو مهطع ، فهؤلاء الكفار يهطعون إلى الداعي بالالجاء والاكراه والاذلال ووصفت الابصار بالخشوع ، لان ذلة الذليل وعزة العزيز تتبين فى نظره «يقول الكافرون هذا يوم عسر» حكاية ما يقوله الكفار يوم القيامة بأنه يوم عسر شديد عليهم

ثم قال مثل ما كذبك يا محمد هؤلاء الكفار وجحدوا نبوتك «كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا» يعني نوحاً عليه السلام «وقالوا مجنون» أي هو مجنون قد غطي على عقله فزال بآفة تعتريه «وازدجر» قال ابن زيد : معناه زجر بالشتم والرمي بالقبيح . وقال غيره : ازدجر بالوعيد ، لانهم توعدوه بالقتل في قوله «لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين» (٣) «فدعا» عند ذلك «ربه» فقال يا رب «اني مغلوب» قد غلبني هؤلاء الكفار بالقهر لا بالحجة «فانتصر» منهم بالاهلاك والدمار نصرة لدينك ونبيك . وقال مجاهد : معنى (ازدجر) استطار واستفز جنوناً .

---

(١) تفسير القرطبي ١٧ / ١٢٩ والطبري ٢٧ / ٤٨　　(٢) الطبري ٢٧ / ٤٨

(٣) سورة ٢٦ الشعراء آية ١١٦

قولـه تعـالى :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (١٦)

ست آيات .

قرأ ابن عامر « ففتحنا » بالتشديد أي مرة بعد مرة وشيئاً بعد شيء ، لانه كثر ودام لما فار التنور وانهمرت الارض والسماء بالماء . الباقون بالتخفيف لانه يأتي على القليل والكثير ، وفي الكلام حذف ، وتقديره ان نوحاً عليه السلام لما دعا ربه فقال إني مغلوب فانتصر يا رب وأهلكهم فأجاب الله دعاءه وفتح أبواب السماء بالماء ، ومعناه أجرى الماء من السماء ، فجريانه إنما فتح عنه باب كان مانعاً له ، وذلك من صنع الله الذي لا يقدر عليه سواه . وجاء ذلك على طريق البلاغة . والماء المنهمر هو المنصب الكثير قال امرؤ القيس :

راح تمر به الصبا ثم انتحى فيه شؤبوب جنوب منهمر(١)

أي منصب مندفق ، انهمر ينهمر إنهماراً ، وفلان ينهمر في كلامه ، كأنه يتدفق فيه مع كثرته .

وقوله « وفجرنا الارض عيوناً » فالتفجير تشقيق الارض عن الماء ، ومنه انفجر العرق وأنفجر السكر ، ومنه قوله « وفجرنا خلالهما نهراً » (٢) وعيون الماء

(١) الطبرى ٢٧ \ ٤٩ و القرطبي ١٧ \ ١٣٢ (٢) سورة ١٨ الكهف آية ٣٤

واحدها عين ، وهو ماء يفور من الأرض مستدير كاستدارة عين الحيوان ، والعين مشتركة بين عين الحيوان وعين الماء وعين الميزان وعين الذهب وعين السحابة وعين الركبة «فالتقى الماء على أمر قد قدر» معناه إن المياه كانت تجري من السماء ومن الأرض على ما أمر الله به وأراده وقدره . وإنما قال « فالتقى الماء » والمراد به ماء السماء وماء الارض ، ولم يثن ، لأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير « على أمر قد قدّر » فيه هلاك القوم فى اللوح المحفوظ . وقيل : معناه إنه كان قدر ماء السماء مثل ما قدر ماء الارض .

ثم قال تعالى « وحملناه » يعني نوحاً « على ذات ألواح ودسر » يعني السفينة ذات ألواح مركبة بعضها إلى بعض ، والدسر هي المسامير التي تشد بها السفينة - في قول ابن عباس وقتادة وابن زيد - واحدها دسار ودسير ، ودسرت السفينة ادسرها دسيراً إذا شددتها بالمسامير او نحوها . وقيل : الدسر صدر السفينة تدسر به الماء أي تدفع - عن الحسن - وقال مجاهد : الدسر أضلاع السفينة . وقال الضحاك : الدسر طرفاها وأصلها . وقال الزجاج : الدسر المسامير والشرط التي تشد بها الألواح .

وقوله « تجري باعيننا » معناه تجري السفينة بمرأى منا ، ونحن ندركها . وقيل : أعين الماء التى أنبعناها . وقيل : تجري بأعين أوليائنا والموكلين بها من الملائكة .

وقوله « جزاء لمن كان كفر » أي كفر به وهو نوح أي لكفرهم به ، كأنه قال غرقناهم لاجل كفرهم بنوح . وقيل : جزاء لنوح واصحابه أي نجيناه ومن آمن معه لما صنع به ، وكفر فيه بالله .

وقوله « ولقد تركناها آية » يعني السفينة تركناها دلالة باهرة « فهل من مدكر » بها ومتعظ بسببها فيعلم أن الذي قدر على ذلك لا يكون من قبيل الاجسام وانه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء . وقال قتادة : أبقى الله تعالى سفينة نوح حتى

ادركها أوائل هذه الأمة ، فكان ذلك آية (ومدكر) أصله متذكر ، فقلبت التاء دالا لتواخي الدال بالجهر . ثم أدغمت الذال فيها . وقيل : وجه كونها آية انها كانت تجري بين ما الارض وماء السماء ، وكان قدغطاها على ماء أمره الله تعالى به . وقوله « فهل من مدكر » قد بينا معناه . وقال قتادة: معناه فهل من طالب علم فيعان عليه .

وقوله « فكيف كان عذابي ونذر » تهديد للكفار وتنبيه لهم على عظم ما فعله بأمثالهم من الكفار الجاحدين لتوحيده ، وإنما كرر « فكيف كان عذابي ونذر » لأنه لما ذكر أنواع الانذار والعذاب انعقد التذكير لشيء شيء منه على التفصيل ، والنذر جمع نذير - في قول الحسن - قال : وتكذيب بعضهم تكذيب لجميعهم . وقال الفراء : هو مصدر ، ومنه « عذراً او نذراً » (١) مخففة ومثقلة و « إلى شيء نكر » ويقال : أنذره نذراً بمعنى إنذاراً مثل أنزله نزلا بمعنى إنزالا .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (٢١) خمس آيات .

أقسم الله تعالى بأنه يسر القرآن الذكر ، والتيسير للشيء هو تسهيله، وأخذه بما ليس فيه كثير مشقة على النفس ، فمن سهل له طريق العلم فهو حقيق بالحظ الجزيل

(١) سورة ٧٧ المراسلات آية ٦

منه ، لان التيسير أكبر داع اليه ، وتسهيل القرآن للذكر خفة ذلك على النفس لحسن البيان وظهور البرهان في الحكم السنية والمعاني الصحيحة الموثوق بها لمجيئها من الله تعالى ، وإنما صار الذكر من اجل ما يدعى اليه ويحث عليه ، لأنه طريق العلم ، لأن الساهي عن الشيء او عن دليله لايجوز أن يعلمه في حال شهوة، فاذا تذكر الدلائل عليه والطريق المؤدية اليه فقد تعرض لعلمه من الوجه الذي ينبغي له ٠

وقوله « فهل من مدكر » معناه فهل من متعظ معتبر بذلك ناظر فيه ٠

ثم قال ﴿ كذبت عاد ﴾ يعني بالرسول الذي بعثه اليهم ، وهو هود عليه السلام فاستحقوا الهلاك فاهلكهم الله ﴿ فكيف كان عذابي ﴾ لهم و ﴿ نذر ﴾ أي وإنذاري إياهم . ثم بين كيفية إهلاكهم فقال ﴿ إنا ارسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ وهي الشديدة الهبوب حتى يسمع في صوتها صرير ، وهو مضاعف صرّ مثل كب وكبكب ونهه ونهنهه ، وقال ابن عباس وقتادة والضحاك : كانت ريحاً باردة ٠ وقال ابن زيد وسفيان : كانت شديدة٠

وقوله ﴿ في يوم نحس ﴾ يعني يوم شؤم - في قول قتادة - ﴿ مستمر ﴾ أى استمر بهم العذاب إلى نار جهنم - في قول قتادة - وقوله ﴿ تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر ﴾ معناه تقتلع هذه الريح الناس ثم ترمي بهم على رؤسهم فتدق رقابهم فيصيرون كأنهم أعجاز نخل ، لان رؤسهم سقطت عن أبدانهم - في قول مجاهد - وقيل : استمرت بهم الريح سبع ليال وثمانية أيام حتى اتت عليهم شيئاً بعد شيء ٠ وقيل ﴿ تنزع الناس ﴾ من حفر حفروها ليمتنعوا بها من الريح ٠ وقال الحسن : فيه اضمار تقديره تنزع أرواح الناس ، واعجاز النخل أسافله ٠ والنخل يذكر ويؤنث ، والمنقعر المنقلع من أصله ، لان قعر الشيء قراره المستقل منه ، فلهذا قيل للمنقطع من أصله : منقعر ، يقال : انعقر إنعقاراً ، وقعره تقعيراً ، وتقعر - في

كلامه ـ تقعراً إذا تعمق. ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ تعظيم للعذاب النازل بهم. والانذار في الآية هو الذى تقدم اليهم به. وفائدة الآية التحذير من مثل سببه لئلا يقع بالمحذر مثل موجبه.

قولـه تعـالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (٣٠) تسع آيات.

قرأ « ستعلمون » بالتاء اهل الشام وحمزة، على الخطاب. الباقون بالياء على الغيبة. اللام فى قوله ﴿ولقد﴾ جواب القسم فالله تعالى أقسم بأنه يسر القرآن للذكر، وقد بينا معناه. وقيل: الوجوه التي يسر الله بها القرآن هو أنه ابان عن الحكم الذي يعمل عليه، والمواعظ التي يرتدع بها، والمعاني التي يحتاج إلى التنبيه عليها والحجج التي تميز بها الحق من الباطل. وإنما أعيد ذكر التيسير لينبيء عن انه يسر بهذا الوجه من الوجوه كما يسر بالوجه الأول. وقد يسر بحسن التأليف للحفظ كما يسر بحسن البيان عما يخاف الوعظ. وقال الزجاج: إن كتب الأنبياء كانوا يقرؤنها نظراً ولم يحفظونها، والقرآن سهل الله تعالى عليهم حفظه فيحفظه الخلق الكثير، والتيسير

التمكين التام لأنه قد يمكن العمل بمشقه وبغير شقة، فالذي تنتفي عنه المشقة للتمكين التام هو المسهل. وفائدة الآية تبيين ما ينبغي أن يطلب العلم من جهته. وإنما كرر لأنه حث على ذلك بعد حث، وأنه ميسر بضروب التيسير.

وقوله ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ إخبار من الله تعالى أن ثمود، وهم قوم صالح كذبت بالانذار. ومن قال: النذر جمع نذير قال لأن تكذيب واحد من الرسل في إخلاص توحيد الله كتكذيب جميعهم، لانهم متفقون في ذلك وإن اختلفت شرائعهم. وفائدة الآية التحذير من مثل حالهم.

ثم حكى ما قالته ثمود فانهم ﴿قالوا أبشراً منا واحداً نتبعه﴾ والمعنى أنتبع بشراً منا واحداً اتبعه؟! ودخلت عليهم الشبهة، فظنوا أن الانبياء ينبغي أن يكونوا جماعة، لان الاشياء ذووا نظائر تجري على حكم واحد، وتركوا النظر في أنه يجوز ان يصلح واحد من الخلق لتحمل النبوة وإن لم يصلح له غيره، فصار بمنزلة مدع لا دليل معه على صحة دعواه عندهم. وفائدة الآية تبيان شبهتهم الخسيسة الضعيفة وانهم حملوا أنفسهم على تكذيب الرسل لاجلها. وجوابهم أن يقال لهم: لأنه لا يصلح له سواه من جهة معرفته بربه وقيامه باداء رسالته وسلامة ظاهره وباطنه.

وقوله ﴿إنا إذاً لفي ضلال﴾ معناه إن اتبعناه مع انه واحد منا إنا إذا لفي ضلال عن الصواب ﴿وسعر﴾ أي وعناء - في قول قتادة - والسعر جمع سعير كأنهم في ضلال وعذاب كعذاب السعير. وقال قوم: معناه وسعر جنون. واصله التهاب الشيء وهو شدة انتشاره، يقال: ناقة مسعورة إذا كان لها جنون. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المراد وعذاب، ويجوز جنون.

وقوله ﴿أألقي الذكر عليه من بيننا﴾ استفهام من قوم صالح على وجه الانكار والجحود والتعجب، ومعنى ﴿أألقي الذكر﴾ يعني الوحي ﴿من بيننا﴾ لما رأوا

أستواء حال الناس في الظاهر لم يكن بعضهم أحق عندهم بانزال الوحي عليه من بعض . وقد وصفوا أنفسهم أن حاله مساوية لأحوالهم فجاء من هذا ألا يكون أحق بالوحي الذي ينزل عليه منهم ، واغفلوا أن الله اعلم بمصالح عباده ومن يصلح للقيام برسالته ممن لا يصلح .

ثم حكى ما قالوه في صالح ، فانهم قالوا ﴿ بل هو كذاب ﴾ في دعواه أنه نبي أوحى الله اليه ﴿ أشر ﴾ أي بطر ، فالأشر البطر الذي لا يبالي ما قال . وقيل :هو المرح الطالب للفخر وعظم الشأن ، يقال : أشر يأشر أشراً كقولك: بطر يبطر بطراً وأشر واشر مثل حذر وحذر ، وعجل وعجل وفطن وفطن ونحس ونحس . فقال: الله تعالى على وجه التهديد لهم ﴿ ستعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ وقرأ ابو قلابة (الكذاب الأشرّ) وهذا ضعيف ، لأنهم يقولون : هذا خير من ذا وشر من ذا ، ولا يقال : أشرّ ، ولا أخير إلا في لغة ردية . ومن قرأ ﴿ ستعلمون ﴾ بالتاء على وجه الخطاب اليهم أي قل لهم ، وهي قراءة ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم . ومن قرأ بالياء فعلى وجه الاخبار عن الغائب وهي قراءة الباقين ، لأن الكذاب الأشر يوم القيامة يعاقبه الله بعذاب النار ، فيعلم حينئذ أي الفريقين هم . وقرب الله تعالى القيامة كقرب غد من اليوم . والفرق بين قوله ﴿ ستعلمون غداً من الكذاب ﴾ وبين قوله لو قال (ستعلمون غداً الكذاب الأشر) أن الأول يفيد فريقين التبس الكذب بكل واحد منهما فيأتي العلم مزيلا لذلك الالتباس وليس كذلك الثاني .

ثم بين تعالى أنه ارسل الناقة وبعثها بأن أنشأها معجز لصالح ، لانه أخرجها من الجبل الأصم يتبعها ولدها . وقوله ﴿ فتنة لهم ﴾ نصب (فتنة) على انه مفعول له . ومعنى ذلك إبتلاءلهم ومحنة ، لأنه تعالى نهاهم ان ينالوها بسوء مع تضيق الشرب

عليهم بأن لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر . والشرب - بكسر الشين - الحظ من الماء - وبضم الشين - فعل الشارب .

ثم حكى تعالى ماقال لصالح فانه تعالى قال له ﴿ واصطبر ﴾ أي أصبر على أذاهم ﴿ ونبئهم ﴾ أي اخبرهم ﴿ أن الماء قسمة بينهم ﴾ يوم للناقة ويوم لهم ﴿ كل شرب محتضر ﴾ أي كل قسم يحضره من هو له . وقيل المعنى نبئهم أيّ يوم لهم وأيّ يوم لها إلا أنه غلب من يعقل ، فقال نبئهم . وقيل : كانوا يحضرون الماء إذا غابت الناقة ويشربونه وإذا حضرت أحضروا اللبن وتركوا الماء لها - ذكره مجاهد - وقيل : كانت الناقة تحضر شربها وتغيب وقت شربهم . وكل فريق يحضر وقت شربه .

وقوله ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ يعني الذي وافقوه على عقر الناقة ، وهو أحمر ثمود ، والعرب تغلط فتقول : أحمر عاد . ويريدون بذلك ضرب المثل في الشؤم ، وإنما هو أحمر ثمود - ذكره الزجاج - وقال قوم : اسمه قدار بن سالف .

وقوله ﴿ فتعاطى فعقر ﴾ قال ابن عباس تعاطى تناول الناقة بيده فعقرها ، وقال معناه تعاطى عقرها فعقرها فأهلكهم الله تعالى عقوبة على ذلك ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ

أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (٤٠) عشر آيات ٠

لما اخبر الله تعالى عن قوم صالح أنهم عقروا الناقة وأنه تعالى أهلكهم بين كيف أهلكهم فقال ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ﴾ وهي المرة من الصوت بشدة عظيمة هلكوا كلهم بها ، يقال : صاح يصيح صياحاً وصايحة ومصايحة وصيح به تصييحا . وإنها صيحة تخلع القلوب وتهدم الأبدان لعظمها وقوله ﴿ فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ أي صاروا كالهشيم ، وهو المنقطع بالتكسير والترضيض ، هشم أنفه يهشمه إذا كسره ومنه الهاشمة وهي شجة مخصوصة ٠ والهشم ـ ههنا ـ يبس الشجر المتفتت الذي يجمعه صاحب الحظيرة و (المحتظر) المبتني حظيرة على بستانه أو غيره ، تقول احتظر احتظاراً ، وهو من الحظر ، وهو المنع من الفعل بحايط أو غيره ، وقد يكون الحظر بالنهي ٠ وقرأ بفتح الظاء وهو المكان الذي يحتظر فيه الهشيم ٠ وقيل : هشيم المحتظر قال الضحاك : هو الحظيرة تتخذ للغنم ييس فتصير رميماً ٠ وقيل : الهشيم حشيش يابس متفتت يجمعه المحتظر لمواشيه ٠ وقيل : الهشيم اليبس من الشجر أجمع الذي يفتت ٠ وقوله ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ قد فسرناه وقال قتادة : فهل من طالب علم يتعلم ؟ وفيها دلالة على بطلان قول المجبرة ، لأنه ذكر انه يسر القرآن ليتذكر العباد به ، ولو كان الأمر على ما يقولون لكان ليتذكر القليل منهم دون سائرهم ٠

وقوله ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ﴾ اخبار منه تعالى أن قوم لوط كذبوا الرسل بالانذار على ما فسرناه . وفائدة ذكر التحذير على ما بيناه من فعل مثله لئلا ينزل بهم مثل ما نزل باولئك ، وفي الكلام حذف وتقديره فأهلكناهم . ثم بين كيف أهلكهم فقال ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ والحاصب الحجارة التي يرمى بها القوم ، حصبوا بها إذا رموا ، ومنه الحصباء الارض ذات الحصى ، لانه يحصب بها وقيل:الحاصب سحاب رماهم بالحجارة وحصبهم بها قال الفرزدق :

مستقبلين رياح الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور(١)

ثم استثنى آل لوط ، وتقديره إنا أرسلنا عليهم حاصباً أهلكناهم به ﴿ إلا آل لوط ﴾ فانا ﴿ نجيناهم ﴾ وخلصناهم من العذاب ﴿ بسحر ﴾ أي بليل لا سحراً بعينه ، لان سحراً إذا اردت به سحر يومك لم تصرفه ، وإذا أردت به سحراً من الاسحار صرفته .

وقوله ﴿ نعمة من عندنا ﴾ قال الزجاج نصبه على انه مفعول له، ويجوز ان يكون على المصدر، وتقديره أنعمنا بها عليهم نعمة . ثم قال ﴿ كذلك نجزي من شكر ﴾ أي مثل ما فعلنا بهم نفعل بمن يشكر الله على نعمه ، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم للمنعم ، ونقيضه كفر النعمة ، ومثله الحمد على النعمة .

ثم اخبر تعالى عن لوط بأنه أنذر قومه بطشة الله وهي الأخذ بالعذاب بشدة فكذلك أخذ الله - عزوجل - آل لوط باشد العذاب بالائتفاك ورمي الاحجار من السماء.

وقوله ﴿ فتماروا بالنذر ﴾ أي تدافعوا على وجه الجدال بالباطل ، يقال :تمارى القوم تمارياً وماراه مماراة ومراء ، ومراه يمريه مرياً إذا أستخرج ما عنده من العلم بالمري .

(١) مر في ٦ / ٥٠٢ و ٨ / ٢٠٩

وقوله ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾ إخبار منه تعالى بأن قوم لوط حاولوا ضيفه وراودوهم على الفساد ، فالمراودة المحـاولة ، فكأن قوم لوط طالبوه بأن يخلي بينهم وبين ضيفه لما يرونه من الفاحشة . والضيف المنضم إلى غيره على طلب القِرى ، إذ كانوا أتوا لوطاً على هذه الصفة إلى ان تبين أمرهم وانهم ملائكة الله أرسلهم لاهلاكهم

وقوله ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ فالطمس محو الاثر بما يبطل معه إدراكه ، طمس يطمس طمساً وطمس الكتاب تطميساً وطمست الريح الاثار إذا دفنتها بما تسفي عليها من التراب ، قال كعب بن زهير :

من كل نضاخـةالذفرى إذاعرفت عرضتهاطامس الاعلام مجهول(١)

وقال الحسن وقتادة : عميت أبصارهم . وقال الضحاك : إنهم دخلوا البيت على لوط ، فلما لم يروهم سألوا عنهم وإنصرفوا .

وقوله ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ معناه قالت لهم الملائكة ذوقوا عذاب الله ونذره أي وما خوفكم به من عذابه .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد صبحهم ﴾ يعني قوم لوط ﴿ بكرة ﴾ نصبه على الظرف فاذا أردت بكرة يومك لم تصرفه . وإذا أردت بكرة من البكرات صرفته . ومثله غدوة وغدواة . وقوله ﴿ عذاب مستقر ﴾ أي استقر بهم حتى هلكوا جميعاً . وقوله ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ قيل : قالت لهم الملائكة ذلك . وقال قوم : القائل هو الله تعالى قال لهم في تلك الحال يعني عند طمس أعينهم . والائتفاك بهم ورميهم بالحجارة ﴿ ذوقوا عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن الذكر فهل من مدكر ﴾ وقد فسرناه وبينا الوجه فيه .

---

(١) مر في ٢ / ٢٢٦ و ٣ / ٢١٦

قولــه تعــالى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (٤٥) بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (٤٦) ست آيات ٠

قرأ روح وزيد ﴿ سنهزم ﴾ بالنون على وجه الاخبار من الله تعالى عن نفسه الباقون بالياء على ما لم يسم فاعله ٠

اخبر الله تعالى عن آل فرعون انه جاءهم النذر ٠ ويحتمل ان يكون جمع نذير ، وهو الرسول المخوف ٠ ويحتمل ان يكون المراد به الانذار على ما بيناه ومعناه إنه جاءهم التخويف من معاصي الله والوعيد عليها ٠

ثم اخبر تعالى عنهم بأنهم ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ يعني حججنا وبراهيننا ﴿ كلها ﴾ وآل فرعون خاصته الذين كانوا ينضافون اليه بالقرابة ٠ والموافقة في المذهب ، ويقال : آل القرآن آل الله ، لأنهم بمنزلة الآل في الخاصة والاضافة ٠ والانذار الاعلام بموقع المخافة ليتقى ٠ والنذر والانذار مثل النكر والانكار ٠ وهو جمع نذير وهم الرسل ٠ والداعي إلى تكذيب الرسل الشبهة الداخلة على العقلاء والتقليد والعادة السيئة وغير ذلك ٠

ثم اخبر تعالى انه اخذهم بالعذاب والاهلاك ﴿ أخذ عزيز مقتدر ﴾ وهو القاهر الذي لا يقهر ولا ينال ، مقتدر على جميع ما يريده لكثرة مقدوراته ٠

ثم قال ﴿ أكفاركم ﴾ يعني قريش وأهل مكة ﴿ خير من اولئكم ﴾ الكفار، والمعنى إنهم ليسوا بخير من كفار قوم نوح وعاد وثمود . وقوله ﴿ أم لكم براءة فى الزبر ﴾ معناه ألكم براءة فى الكتب المنزلة من عذاب الله .

وقوله ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ قال الزجاج : معناه أيقولون ذلك إدلالا بقوتهم . ويحتمل أن يكون أرادوا نحن جميع أي يد واحدة على قتاله وخصومته ﴿ منتصر ﴾ أي ندفعه عنا وينصر بعضنا بعضاً فقال الله تعالى مكذباً لظنونهم ﴿ سيهزم الجمع ﴾ معناه إن جميعهم سيهزمون ﴿ ويولون الدبر ﴾ ولا يثبتون لقتالك ، وكان كذلك فكان موافقته لما أخبر به معجزاً له لانه إخبار بالغيب قبل كونه ، وانهزم المشركون يوم بدر وقتلوا وسبوا على ما هو معروف .

ثم قال ﴿ بل الساعة ﴾ يعني القيامة ﴿ موعدهم ﴾ للجزاء لهم بأنواع العقاب والنيران وقوله ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ فالأدهى الأعظم فى الدهاء . والدهاءعظم سبب الضرر مع شدة انزعاج النفس وهو من الداهية وجمعه دواه ، والداهية البلية التي ليس في إزالتها حيلة ، والمراد مايجري عليهم من القتل والاسر عاجلا لا يخلصهم من عذاب الآخرة بل عذاب الآخرة أدهى وأمر . والأمر الاشد في المرارة ، وهي ضرب من الطعم به يكون الشيء مراً . ويحتمل الأمر الاشد في استمرار البلاء ، لان الاصل التمرر . وقيل مرارة لشدة مرورها وطلبها الخروج بحدة . وقيل : الأمر الاشدمرارةمن القتل والاسر .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ

بِقَدَرٍ(٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ (٥٥) تسع آيات بلا خلاف.

هذا إخبار من الله تعالى بأن المجرمين الذين ارتكبوا معاصي الله وتركوا طاعاته فى ضلال وسعر، ومعناه في ضلال عن الحق وعدول عنه ﴿ وفي سعر ﴾ يعني في عذاب النار تسعرهم ومعناه إنهم يصيرون اليه، وإنما جمع بين الضلال والسعر، لأنه لازمهم ومنعقد بحالهم وإن كان الضلال بعصيانهم والسعر بالعقاب على الضلال، وكأنهم قد حصلوا فيه بحصولهم في سببه الذي يستحق به. وقيل معنى في ضلال يعني في ذهاب عن طريق الجنة والآخرة في نار مسعرة.

وقوله ﴿ يوم يسحبون ﴾ أي يوم يجرون فى النار على وجوههم ﴿ ذوقوا مسّ سقر ﴾ أي يقال لهم مع ذلك ذوقوا مس سقر، وهو كقولهم وجدت مس الحمى وكيف ذقت طعم الضرب. وقيل: إن سقر جهنم وقيل: هو باب من ابوابها، ولم يصرف للتعريف والتأنيث. ولما وصف العقاب قال ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ أي العقاب على مقدار الاستحقاق الذي تقتضيه الحكمة وكذلك غيره فى كل خصلة. وفي نصب (كل) ثلاثة أوجه:

أحدها - على تقدير إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر.

الثاني - انه جاء على زيداً ضربته.

الثالث - على البدل الذي يشتمل عليه، كأنه قال ﴿ إن كل شيء خلقناه بقدر ﴾ أي هو مقدر فى اللوح المحفوظ. وقوله ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح

بالبصر ﴾ فاللمح خطف البصر ، والمعنى وما أمرنا إذا أردنا ان يكون شيئاً إلا مرة واحدة إنما نقول له كن فيكون أي هذه منزلته في سرعته وإنطياعه .

ثم قال تعالى مخاطباً الكفار قريش وغيرهم «ولقد أهلكنا أشياعكم» يعني اتباع مذهبكم في كفرهم بعبادة الأوثان تتابعوا قرناً بعد قرن في الاهلاك بعذاب الاستئصال . والشيعة أتباع القائد إلى أمر . وقيل : المعنى ولقد أهلكنا اشياعكم ممن هو منكم كما أخبر النبي ﷺ فهي لكل أمة فهل من متعظ . وقال الحسن : هوعلى الامم السالفة «فهل من مدكر» معناه فهل من متذكر لما يوجبه هذا الوعظ من الانزجار عن مثل ما سلف من أعمال الكفار لئلا يقع به ما وقع بهم من الاهلاك .

وقوله ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ يعني في الكتب التي كتبتها الحفظة . وقال ابن زيد في الكتاب . وقال الضحاك في الكتب وقوله ﴿ وكل صغير ، وكبير مستطر ﴾ قال ابن عباس معناه إن جميع ذلك مكتوب مسطور في الكتاب المحفوظ ، لانه من أعظم العبرة في علم ما يكون قبل أن يكون على التفصيل ، وبه قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد .

ثم قال تعالى ﴿ إن المتقين ﴾ يعني الذين اتقوا معاصيه وفعلوا واجباته ﴿ في جنات ﴾ يعني بساتين تجنها الأشجار ﴿ ونهر ﴾ أي انهار ، فوضع نهراً في موضع أنهار ، لأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير ، والنهر المجرى الواسع من مجاري الماء ، وهو خلاف الجدول ، لانه المجرى الصغير الشديد الجرى من مجاري الماء ﴿ في مقعد صدق ﴾ معناه في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ أي بالمكان الذي كرمه لأوليائه المليك المقتدر . وقيل : في مقعد صدق عند المليك المقتدر بما هو عليه من صدق دوام النعيم به . وقال الفراء : معنى ﴿ في جنات ونهر ﴾ أي في ضياء وسعة ، ويقال : أنهر دمه إذا سال وانهر بطنه إذا جاء بطنه مثل جرى النهر .

٥٥ ـ سورة الرحمن

قال قوم : هي مكية . وقال آخرون هي مدنية : وهي ثمان وسبعون آية في الكوفي والشامي وسبع وسبعون عند الحجازيين وست وسبعون في البصري .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣)
عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ
يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي
الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)
وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ
الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٣) .

ثلاث عشرة آية كوفي وشامي ، وإثنتا عشرة آية بصري وإحدى عشرة آية في ما عداه ، عد الكوفي والشامي ﴿ الرحمن ﴾ ولم يعده الباقون ، وعدوا ﴿ خلق الانسان ﴾ إلا أهل المدينة فانهم عدوا ﴿ البيان ﴾ آخر الآية . وقرأ ﴿ الحب ذا العصف ﴾ بالنصب شامي ﴿ والريحان ﴾ خفض كوفي غير عاصم ، وعدّ الكوفيون

﴿الرحمن﴾ آية مع أنه ليس بجملة ، لأنه في تقدير الله الرحمن حتى تصح الفاصلة وهو خبر مبتدأ محذوف نحو قوله ﴿سورة أنزلناها﴾(١) أي هذه أنزلناها ، و معنى (الرحمن) هو الذي وسعت رحمته كل شيء ، فلذلك لا يجوز أن يوصف به إلا الله تعالى ، فأما (راحم ورحيم) فيجوز ان يوصف به العباد .

وقوله ﴿علم القرآن﴾ فالتعليم تبين ما به يصير من لم يعلم عالماً . والاعلام إيجاد ما به يصير عالماً ، وفي قوله ﴿الرحمن علم القرآن﴾ تذكير بالنعمة في ما علم من الحكم بالقرآن التي يحتاج اليها الناس في دينهم ليؤدوا ما يجب عليهم وينالوا الفضل بطاعة ربهم ويستوجبوا به الثواب وينالوا الرضوان .

وقوله ﴿خلق الانسان﴾ معناه إنه الذي اخترع الانسان وأخرجه من العدم إلى الوجود ، وقيل : المراد بالانسان ـ ههنا ـ آدم عليه السلام . وقيل : محمد صلى الله عليه وآله . وقيل: جميع الناس وهو الظاهر وهو الأعم في الجميع . وقوله ﴿علمه البيان﴾ أي خلق فيه التمييز الذي بان به من سائر الحيوان . وقيل : معناه علمه الكلام الذي يبين به عن مراده ويتميز به عن سائر الحيوان ، فالبيان هو الأدلة الموصلة إلى العلم . وقيل : البيان إظهار المعنى للنفس بما يتميز به عن غيره كتميز معنى رجل من معنى فرس ، ومعنى قادر من معنى عاجز ، ومعنى عام من معنى خاص ، ومعنى شيء من معنى هذا بعينه ، وفيه تنبيه على أنه تعالى خلق الانسان غير عالم ، ثم علمه البيان ، خلافاً لقول من يقول من الجهال : إن الانسان لم يزل عالماً بالاشياء ، وإنما يحتاج فيه إلى تذكير ، فكيف يكون عالماً من لم يخلق بعد لولا الغباوة وقلة التحصيل .

وقوله ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾ أي يجريان بحسبان فاضمر يجريان وحذفه لدلالة الكلام عليه ، فيكون إرتفاع الشمس بالفعل المقدر . وقال قوم : إرتفعا بتقديرهما بحسبان أي بحساب ، والمعنى علمه البيان أن الشمس والقمر بحسبان

---

(١) سورة ٢٤ النور آية ١

وقيل : المعنى أن أمرهما يجري فى الادوار على مقـدار من الحساب على ما وضعه حكيم عليم بتدبير صحيح ، قد كان يمكن وضعهما على خلافه غير انه اختار ذلك لاستغناء العباد بها فى وجوه المنافع وما فى ذلك من المصالح . وقال ابن عباس وقتادة وابن زيد : بحسبان ، ومنازل يجريان فيها ولا يعدوانها . وقيل : إن القمر يقطع بروج السماء فى ثمانية وعشرين يوماً ، والشمس تقطع ذلك فى ثلثمائة وخمسة وستين يوماً وشيء . وقوله ﴿ بحسبان ﴾ خبر الشمس والقمر على قول من رفعهما بالابتداء (وحسبان) مصدر حسبته أحسبه حسباناً نحو السكران والكفران . وقيل : هو جمع حساب كشهاب وشهبان .

وقوله ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ فالنجم من النبات ما طلع ، يقال : نجم ينجم إذا طلع ، ونجم القرن والنبات إذا طلعا ، وبه سمي نجم السماء ، وهو الكوكب لطلوعه . والنجم - ههنا - النبت الطالع من الارض ، وهو النبات الذي ليس له ساق - فى قول ابن عباس وسعيد وسفيان - وقال مجاهد : هو نجم السماء ، وبه قال قتادة ، والأول أقوى لمصاحبة الشجر . والشجر عند أهل اللغة النبات الذي له ساق وورق وأغصان يبقى ساقه على دور الحول من الرمان وأكثره مما له ثمار تجنى على ما دبرها صانعها من الاتيان بها فى أبانها .

وقوله ﴿ يسجدان ﴾ إخبار من الله تعالى بانهما يسجدان ، وسجودهما هو ما فيهما من الآية الدالة على حدوثهما وعلى وجوب الخضوع لله تعالى والتذلل له لما خلق فيهما من الاقوات المختلفة فى النبات للناس وغيرهم من الحيوان والاستمتاع بأصناف الثمار والفواكه والرياض اللذيذة ، فلا شيء أدعى إلى الخضوع والعبادة لمن أنعم بهذه النعمة الجليلة مما فيه مثل الذي ذكرنا فى النجم والشجر . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : سجودهما ظلالهما الذي يلقيانه بكرة وعشياً ، فكل جسم له ظل

فهو يقتضي الخضوع بما فيه من دليل الحدوث الذي لا يقـدر عليه إلا قادر لا يعجزه شيء .

وقوله ﴿ والسماء رفعها ﴾ أي رفع السماء رفعها فوق الأرض للاعتبار بها والتفكر فيها ، وأنه لا يقدر على رفعها غير القادر لنفسه الذي لا يعجزه شيء ولا يماثله موجود .

وقوله « ووضع الميزان » فالميزان آلة التعديل فى النقصان و الرجحان ، والوزن يعدل فى ذلك ، ولو لا الميزان لتعذر الوصول إلى كثير من الحقوق ، فلذلك نبه على النعمة فيه والهداية اليه .

وقوله « إلا تطغوا في الميزان » نهي كأنه قال أي لا تطغوا ، لأن (أن) تكون بمعنى أي ويجوز ان تكون علة ، وتقديره ووضع الميزان لأن لا تطغوا ، وإنما أعاد ذكر الميزان من غير أضمار لئلا يكون الثاني مضمناً بالأول ، وليكون قائماً بنفسه في النهي عنه إذا قيل ألا تطغوا فى الميزان . وقيل : لأنه نزل في وقتين . والأول أحسن . وقيل : المراد بالميزان العدل لان المعادلة موازنة الاسباب ، والطغيان الافراط في مجاوزة الحد في العدل . وقيل : لا تطغوا فيه لان مالا يضبط في الوزن موضوع عنهم . وقال الزجاج : تقديره فعلت ذلك لئلا تطغوا . ويحتمل ان يكون نهياً مفرداً . ويجوز أن يكون بمعنى (أي) مفسرة

وقوله « واقيموا الوزن بالقسط » أمر من الله تعالى أن يقيموا الوزن إذا أرادوا الاخذ أو الاعطاء « بالقسط » أي بالعدل « ولا تخسروا الميزان » بمعنى لا تنقصوه . والخسران نقصان أصل المال ، وهو ذهاب ما كان من رأس المال : خسر يخسر خسراً وخسراناً ، وخسره تخسيراً ، فهو خاسر ومخسر . قال الزجاج : قولهم :

أخسرت الميزان وخسرت ، فعلى خسرت « لا تَخسر » بفتح التاء ، وقد قرأ به بعض المتقدمين شاذاً لا يؤخذ به .

وقوله « والارض وضعها للانام » ليستقروا عليها . وقال ابن عباس : الانام كل شيء فيه روح . وقال الحسن : الانام الانس والجن . وقال قتادة : الانام الخلق . ويجوز أن يكون الانام من ونم الذباب إذا صوت من نفسه ، ويسمى كل ما يصوت من نفسه أناماً . وقلبت الواو من ونام همزة كقولهم : أناة من (وناة) .

ثم بين وجه المنافع للخلق فوضع الارض « فيها فاكهة » وهي أنواع الثمار التي تؤخذ من الشجر فيها أنواع الملاذ وفنون الامتاع ، فسبحان الذي خلقه لعباده وأجرى فيه ضروب الطعوم بلطفه ، وكله يسقى بماء واحد في ارض واحدة من شجرة يابسة تنقلب إلى حال الغضاضة والنضرة ، ثم تحمل الثمرة الكريمة ، وكل ذلك بعين المعتبر وعلم المفكر .

وقوله « والنخل ذات الاكمام » اسم جنس يقع على القليل والكثير وواحده نخلة ، وهو يذكر ويؤنث ، والاكمام جمع (كم) وهو وعاء ثمر النخل ، تكمم في وعائه إذا اشتمل عليه . وقيل : الأكمام ليف النخلة التي تكمم فيه - في قول الحسن وقتادة - وقال ابن زيد : الأكمام الطلع الذي فيه ثمر النخلة . وقال الزجاج : كم القميص من هذا ، لانه يغطي اليد .

وقوله « والحب ذو العصف والريحان » قال ابن عباس وقتادة وابن زيد : العصف التبن . لان الرياح تعصفه أي تطيره بشدة هبوبها ومنه الريح العاصف ، قال علقمة بن عبدة :

تسقي مذانب قد مالت عصيفتها حدورها من أتي الماء مطموم (١)

(١) ديوانه ١١١ واللسان (عصف) ومجاز القرآن ٢ / ٢٤٢

وهو دقاق الزرع إذا يبس عصفته الريح . وقيل : العصف التبن . ويقال : له العصيفة . والحب حب الحنطة والشعير ونحوهما ، والريحان الرزق ـ في قول ابن عباس ومجاهد والضحاك ـ وقال الحسن وابن زيد : الريحان هو الذي يشم . وفي رواية اخرى عن ابن عباس والضحاك : إن الريحان الحب . والعرب تقول : خرجنا نطلب ريحان الله أي رزقه ويقال : سبحانك وريحانك أي رزقك ، قال النمر بن تولب

سماء الاله وريحانه وجنته وسماء درد (١)

وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « والريحان » جراً على تقدير ، وذو الريحان . الباقون بالرفع عطفاً على (الحب) وقرأ ابن عامر وحـده « والحب ذا العصف والريحان » بالنصب فيها كلها على تقـدير ، وخلق الحب ذا العصف وخلق الريحان الباقون بالرفع على تقدير فيها الحب ذو العصف وفيها الريحان .

وقوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » قال ابن عباس والحسن وقتادة : معناه فبأى نعمة من نعمه يامعشر الجن والانس تكذبان ؟ ! وريحان أصله ريحان ، فخفف . وتلخيصه ريوحان على وزن فيعلان ، فلما التقت الواو واليـاء والثاني ساكن قلبوا الواو ياء وأدغموا . ثم خففوا كراهية التشديد كما قالوا : هين لين .

قولـه تعـالى :

﴿ خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)

(١) مجاز القرآن ٢ | ٢٤٣ واللسان (روح)

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢١) ثمان آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى إنه « خلق الانسان » وأنشأه ويعني به آدم عليه السلام « من صلصال » وهو الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة - في قول قتادة - « كالفخار » أي مثل الطين الذي طبخ بالنار حتى صار خزفاً « وخلق الجان من مارج من نار » فالمارج هو المختلط الأجزاء، قال الحسن أبليس ابو الجن، وهو مخلوق من لهب النار، كما أن آدم ابو البشر مخلوق من طين. وصف الله تعالى الانسان الذي هو آدم ابو البشر انه خلقه من صلصال. وفي موضع آخر « من طين لازب » (١) وفي موضع آخر « من حمأ مسنون » (٢) وفي موضع آخر « خلقه من تراب » (٣) وإختلاف هذه الألفاظ لاتناقض فيها، لانها ترجع إلى أصل واحد وهو التراب، فجعله طيناً. ثم صار كالحمأ المسنون. ثم يبس فصار صلصالا كالفخار.

وقوله « فبأي آلاء ربكما تكذبان » معناه فبأى نعم ربكما يا معشر الجن والانس تكذبان؟! وإنما كررت هذه الآية، لانه تقرير بالنعمة عند ذكرها على التفصيل نعمة نعمة، كأنه قيل بأى هذه الآلاء تكذبان. ثم ذكرت آلاء أخر فاقتضت من التذكير والتقرير بها ما اقتضت الأولى ليتأمل كل واحد فى نفسها وفى ما تقتضيه صفتها من حقيقتها التي تنفصل بها من غيرها.

وقوله « رب المشرقين ورب المغربين » تقديره هو رب المشرقين، فهو خبر ابتداء، ولو قرئ بالخفض رداً على قوله « فبأى آلاء ربكما » لكان جائزاً غير انه

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١١ (٢) سورة ١٥ الحجر آية ٢٦، ٢٨، ٣٣
(٣) سورة ٣ آل عمران آية ٥٩

لم يقرأ به أحد . والمعنى انه الخالق لمشرق الشتاء ومشرق الصيف ، وهو عند غاية طول النهار فى الصيف وغاية قصره فى الشتاء « ورب المغربين » مثل ذلك ـ وهو قول مجاهد وقتادة وابن زيد ـ والمشرق موضع شروق الشمس ، وهو طلوعها تقول : شرقت الشمس تشرق شروقاً إذا طلعت واشرقت إذا أضائت وصفت . والمغرب موضع غروب الشمس . والغروب مصيرها فى حد الغروب وهو المغيب ، غربت تغرب غروباً ، ومنه الغريب وهو الصاير فى حد الغائب عن النفس وأصله الحد ومنه الغروب مجاري الدموع لزوالها من حدها إلى الحد الآخر . وقوله « فبأي آلاء ربكما تكذبان » أي فبأي نعمة ربكما معاشر الجن والانس تكذبان . وقد بينا الوجه فى تكراره . وواحد الآلاء ألى على وزن (معاً) و (ألا) على وزن (قفا) عن أبي عبيدة .

وقوله « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » معنى مرج أرسل ـ فى قول ابن عباس . وقال الحسن وقتادة و (البحران) بحر فارس والروم . وقال ابن عباس فى رواية أخرى هما بحر السماء وبحر الارض « يلتقيان » فى كل عام . وقيل البحران الملح والعذب . وقيل : مرج البحرين خلط طرفيهما عند التقائهما من غير أن يختلط جملتها « لا يبغيان » أي لا يبغي أحدهما على الآخر بأن يقلبه إلى مثل حاله فى الملوحة والعذوبة . ومرج معناه أرسل باذهاب الشيئين فصاعداً في الأرض ، فمرج البحرين أرسلهما بالاجراء فى الارض يلتقيان ، ولا يختلطان ، ذلك تقدير العزيز العليم . والبرزخ الحاجز بين الشيئين ، ومنه البرزخ الحاجز بين الدنيا والآخرة . وقال قتادة : البرزخ الحاجز أن يبغي الملح على العذب أو العذب على الملح . وقال مجاهد : معناه لا يبغيان لا يختلطان ومعناه لا يبغيان على الناس . والنعمة بتسخير الشمس أنها تجري دائبة بمنافع الخلق فى الدنيا والدين ، فبأي آلاء

ربكما تكذبان معاشر الجن والانس .

قوله تعالى :

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٣٠) تسع آيات بلا خلاف .

قرأ « المنشآت » بالكسر حمزة، ويحيى وقرأ « يخرج » بفتح الياء أهل الكوفة ، وابن كثير وابن عامر أسندوا الفعل إلى اللؤلؤ والمرجان . الباقون ، على ما لم يسم فاعله . وإنما أجازوا اسناد الفعل إلى الجوار واللؤلؤ والمرجان ، كما قالوا مات زيد ومرض عمرو وما أشبه ذلك في ما يضاف الفعل اليه إذا وجد منه . وإن كان في الحقيقة لغيره ، وكان المعنى المنشئات السير فحذف المفعول وأضاف السير اليه إتساعاً ، لان سيرها إنما يكون بهبوب الريح . وقال الزجاج : من فتح الشين أراد المرفوعات الشرع ، وبالكسر الحاملات الرافعات الشرع .

لما ذكر الله تعالى النعمة على الخلق بمرج البحرين اللذين يلتقيان ، وإنهما مع ذلك لا يبغيان، بين أيضاً ما فيهما من النعمة ، فقال يخرج منهما يعني من البحرين اللؤلؤ والمرجان . فاللؤلؤ معروف ، ويقع على الصغار والكبار . والمرجان ضرب من الجوهر كالقضبان يخرج من البحر . وقال ابن عباس : اللؤلؤ كبار الدر والمرجان

صغاره . وبه قال الحسن وقتادة والضحاك ، وسمي المرجان بذلك لأنه حب من الجوهر كبير مختلط من مرجت أي خلطت . وإنما جاز أن يقول يخرج منهما ، وهو يخرج من الملح دون العذب ، لان العذب والملح يلتقيان فيكون العذب كاللقاح للملح ، كما يقال يخرج الولد من الذكر والانثى ، وإنما تلده الانثى . وقال قوم : لا يخرج اللؤلؤ إلا من الموضع الذي يلتقي فيه العذب والملح ، وذلك معروف عند الغواصين . وقال الزجاج : لانه إذا أخرجه من أحدها فقد أخرجه من الآخر ، لانه داخل فيهما وقال ابن عباس : إذا جاء القطر من السماء تفتحت الاصداف فكان من ذلك القطر اللؤلؤ . وقال قوم : المعنى من جهتهما ولا يجب إنه من كل واحد منهما ، والأول وجه التأويل .

وقوله « وله الجوار المنشآت » والجوار جمع جارية وهي السفينة لانها تجري في الماء بأمر الله تعالى . والجارية المرأة الشابة ، لأنه يجري فيها ماء الشباب ، والمنشآت المبتدآت للسير برفع القلاع . وقال مجاهد : ما رفع له القلاع ، فهو منشأ وما لم يرفع قلاعه فليس بمنشأ ، فجعل الانشاء برفع القلاع . والاعلام الجبال واحدها علم سمي بذلك لارتفاعه كارتفاع الاعلام المعروفة . وقال جرير :

إذا قطعن علماً بعد علم [حتى تناهين بنا إلى حكم](١)

وقيل كالاعلام في العظم . وقوله « كل من عليها فان » إخبار من الله تعالى أن جميع من على وجه الارض من العقلاء يفنون ويخرجون من الوجود إلى العدم . وإذا ثبت ذلك وكانت الجواهر لاتفنى إلا بفناء يضادها على الوجود ، فاذا وجد الفناء انتفت الجواهر كلها ، لانها إختصاص له بجوهر دون جوهر ، فالآية دالة على عدم جميع الاجسام على ما قلناه ، لانه إذا ثبت عدم العقلاء بالآية ثبت

(١) مجاز القرآن ٢ | ٢٤٤ والقرطبي ١٧ | ١٦٤

عدم غيرهم ، لانه لا يفرق من الأمة أحد بين الموضعين .

وقوله « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » معناه ويبقى ربك الظاهر بأدلته كظهور الانسان بوجهه فالوجه يذكر على وجهين :

احدهما - بعض الشيء كوجه الانسان .

الثاني - بمعنى الشيء المعظم في الذكر كقولهم : هذا وجه الرأى ، وهذا وجه التدبير أي هو التدبير ، وهو الرأي . والاكرام والاعظام بالاحسان ، فالله تعالى يستحق الاعظام بالاحسان الذي هو في أعلى مراتب الاحسان . ومعنى ذو الجلال ذو العظمة بالاحسان .

وقوله « يسأله من في السموات والارض كل يوم هو في شأن » معناه يسأل الله تعالى من في السموات والارض من العقلاء حوائجهم ، ويضرعون اليه . ثم قال « كل يوم هو في شان » فالشان معنى له عظم ، وكذلك قال كل يوم هو في شان ، ويقال : لا يشغله شأن عن شأن . والمعنى إن كل يوم الله تعالى في شأن من احياء قوم وإماتة آخرين ، وعافية قوم ومرض غيرهم ، ونجاة واهلاك ورزق وحرمان وغير ذلك من الامور والنعمة . وقوله « كل من عليها فان » فى التسوية بين الخلق في الفناء « فبأي آلاء ربكما تكذبان » قد فسرناه .

قوله تعالى :

« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِن نَارٍ

وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (٣٦) .

سبع آيات حجازى وست في ما عداه ، عد الحجازيون « من نار » ولم يعده الباقون .

قرأ « شواظ » ـ بكسر الشين ـ أهل مكة . الباقون بضمها ، وهما لغتان مثل صوار وصوار . وقرأ « نحاس » بالجر أهل مكة والبصرة ، غير يعقوب عطفاً على (نار) . الباقون بالرفع عطفاً على « شواظ » وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً « سيفرغ » على تقدير سيفرغ الله لكم . الباقون ـ بالنون ـ على وجه الاخبار من الله عن نفسه يعني قوله « سنفرغ لكم » من أبلغ الوعيد وأعظم التهديد . وقيل في معناه قولان :

أحدهما ـ سنفرغ لكم من الوعيد وينقضي ويأتيكم المتوعد به فشبه ذلك بمن فرغ من شيء وأخذ في غيره .

الثاني ـ إنا نستعمل عمل من يتفرغ للعمل لتجويده من غير تضجيع فيه كما يقول : القائل : سأتفرغ الك . والله تعالى لا يشغله شيء عن شيء ، لانه من صفات الاجسام ، وهو من أبلغ الوعيد لأنه يقتضي أن يجازى بصغير ذنبه وكبيره إذا كان مستحقاً لسخط الله . والفراغ انتفاع القاطع عنه من القادرعليه . والشغل والفراغ من صفات الاجسام التي تحلها الأعراض ، وشغلها عن الاضداد في تلك الحال ولذلك وجب ان يكون في صفة القديم تعالى مجازاً .

وقوله « أيها الثقلان » خطاب للجن والانس ، وإنما سميا ثقلين لعظم شأنهما بالاضافة إلى ما في الارض من غيرهما ، فهما أثقل وزناً لعظم الشأن بالعقل والتمكين

والتكليف لاداء الواجب في الحقوق ، ومنه قول النبي ﷺ (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترني) يريد عظيمي المقدار ، فلذلك وصفهما بأنهما ثقلان .

وقوله « إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض » قال الضحاك : ان استطعتم أن تنفذوها ربين من العذاب يقال : لهم ذلك يوم القيامة. وقال قوم : معناه إن استطعتم أن تنفذوها ربين من الموت فاهربوا فانه حيث كنتم أدركم الموت . وقال ابن عباس: معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والارض فاعلموا أنه لا يمكنكم ذلك .

وقوله « لا تنفذون إلا بسلطان » معناه إلا بحجة وبيان . وقيل معناه : إلا بملك وقهر ، وليس لكم ذلك . وقال الزجاج : المعنى « فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » أي حيثما كنتم شاهدين . ثم حجة الله وسلطانه الذي يدل على توحيده وواحد الاقطار قطر وهي الاطراف - في قول سفيان - فانفذوا في صورة الأمر والمراد به التحدي . ثم قال « لا تنفذون إلا بسلطان » وهو القوة التي يتسلط بها على الأمر « فبأي آلاء ربكما تكذبان » وقد فسرناه . وفائدة الآية أن عجز الثقلين عن الهرب من الجزاء كعجزهم عن النفوذ من الاقطار ، وفي ذلك اليأس من رفع الجزاء بوجه من الوجوه ، فلينظر امرء ما يختار لنفسه مما يجازى به .

وقوله « يرسل عليكما شواظ من نار » فالشواظ لهب النار - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة - ومنه قول رؤبة :

إن لهم من وقعنا أيقاظا ونار حرب تسعر الشواظا (١)

والنحاس الصفر المذاب للعذاب - فى قول ابن عباس ومجاهد وسفيان وقتادة - وفي رواية أخرى عن ابن عباس وسعيد : النحاس الدخان قال النابغة الجعدي :

(١) اللسان (شوظ) ومجاز القرآن ٢ \ ٢٤٤ والطبري ٢٧ \ ٢٣

يضيء كضوء سراج السليـ ... ـط لم يجعل الله فيها نحاساً (١)

أي دخانا . والسليط دهن السمسم . وقال قوم : هو دهن السنام . وقال الفراء : هو دهن الزيت .

وقوله « فلا تنتصران » أي لا تقدران على دفع ذلك عنكما ، ووجه النعمة في إرسال الشواظ من النار والنحاس على الثقلين هو ما لهم في ذلك من الزجر في دار التكليف عن مواقعة القبيح ، وذلك نعمة جزيلة ، فلذلك قال « فبأي آلاء ربكما » معاشر الجن والانس « تكذبان » .

قوله تعالى :

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٥) .

ثمان آيات بصرى وتسع في ما عداه ، عدّ الكل « يكذب بها المجرمين » ولم يعده البصريون .

يقول الله تعالى « فاذا انشقت السماء » ومعناه إن ينفك بعضها عن بعض ، فالسماء تنشق يومئذ وتصير حمراء كالوردة . ثم تجرى كالدهان قال الفراء : الوردة

(١) ديوانه ٧٥ ومجاز القرآن ٢ / ٢٤٥

الفرس الوردة . وقال الزجاج : يتلون كما يتلون الدهان المختلفة أى فكان كلون فرس ورده ، وهو الكميت فيتلون في الشتاء لونه بخلاف لونه في الصيف ، وكذلك في الفصول فسبحان خالقها والمصرّف لها كما يشاء . والوردة واحدة الورد ، وإنما تصير السماء كالوردة في الاحمرار ثم تجري كالدهان ، وهو جمع دهن كقولك قرط وقراط عند انقضاء الأمر وتناهي المدة . وقال الحسن : هي كالدهان أى كالدهن الذى يصب بعضه على بعض بألوان مختلفة . وقيل : تمور كالدهن صافية . وقال قتادة: لونها حينئذ الحمرة كالدهان في صفاء الدهن وإشراقه . وقال قوم : إن السماء تذوب يوم القيامة من حرّ نار جهنم فتصير حمراء ذائبة كالدهن . قال الجبائي : وروي أن السماء الدنيا من حديد وليس في الآية ما يدل ما قاله ، لاحتمال ذلك ما قاله المفسرون . والأقوال التي ذكرناها . وقال الفراء : الدهان الأديم الأحمر ووجه النعمة في إنشقاق السماء حتى وقع التقرير بها فى قوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » هو ما فى الاخبار به من الزجر والتخويف بانشقاق السماء فوقع فى السبب ولا يصلح فى المسبب أن يكون منفعة ، ولكن لسبب النفع الذى هو الزجر فى دار الدنيا ، فلذلك وقع التقرير بقوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

وقوله « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جان » معناه لا يسأل فى ذلك الموطن لما يلحقه من الدهش والذهول الذى تحار له العقول ، وإن وقعت المسألة فى وقت غيره بدلالة قوله « وقفوهم إنهم مسؤلون » (١) وقال قتادة : يكون المسائلة قبل ثم يختم على الافواه عند الجحد فتنطق الجوارح . وقيل : معناه إن يومئذ لا يسأل عن ذنبه آنس ولا جان ليعرف المذنب من المؤمن المخلص ، لان الله تعالى قد جعل عليهم علامة كسواد الوجوه وقبح الخلق ولم يدخل فى ذلك سؤال المحاسبة للتوبيخ

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ٢٤

والتقريع ، لأنه تعالى قال « وقفوهم إنهم مسؤلون » وتقدير الآية فيومئذ لا يسأل أنس عن ذنبه ولا جان عن ذنبه . وقيل : يجوز أن يكون المراد أنه لا يسأل احد من انس ولا جان عن ذنب غيره ، وإنما يسأل هو سؤال توبيخ عن فعل نفسه .

وقوله « يعرف المجرمون بسيماهم » معناه إن الله تعالى جعل للكفار والعصاة علامات تعرفهم بها الملائكة والسيماء العلامة . ومنه قوله « سيماهم في وجوههم من اثر السجود » (١) وهو مشتق من السوم وهو رفع الثمن عن مقداره ، ومنه « مسومين » (٢) أي معلمين بعلامة والعلامة يرفع باظهارها لتقع المعرفة بها والمعرفة هي العلم عند المتكلمين . وقال بعض النحويين : إن متعلق المعرفة المفرد ومتعلق العلم الجملة كقولهم عرفت زيداً وعلمت زيد قائماً ولو جئت بقائم في عرفت لكان حالا ولم يخرج عن معرفة زيد .

وقوله « فيؤخذ بالنواصي والاقدام » قال الحسن : يجمع بين ناصيته وقدمه بالغل فيسحب إلى النار . والناصية شعر مقدم الرأس ، ومنه ناصية الفرس ومنه قوله تعالى « لنسفعا بالناصية » (٣) أي ليقترن بها ما سحقته النار إذلالا لها وأصله الاتصال من قول الشاعر :

في يناصيها بلادقي

أي يتصل بها فالناصية متصلة بالرأس و (الاقدام) جمع قدم وهو العضو الذي يقدمه صاحبه للوطيء به على الأرض . وقيل : يأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم فتسحبهم إلى النار أي تأخذهم تارة بذا ، وتارة بذا . وقال الحسن وقتادة يعرفون بأنهم سود الوجوه زرق العيون ، كما قال تعالى « يوم تبيض وجوه وتسود

---

(١) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٩ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٢٥

(٣) سورة ٩٦ العلق آية ١٥

وجوه » (١) « فبأي آلاء ربكما تكذبان » وجه النعمة بذلك ما فيه من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات وذلك نعمة من الله على العباد في الدين .

وقوله « هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون » معناه يقال لهم يوم القيامة إذا شاهدوا جهنم « هذه جهنم » ويحتمل أن يكون المراد هذه جهنم التي وصفتها هي التي يكذب بها المجرمون الكفار بنعم الله « يطوفون بينها وبين حميم آن » قيل : يطوفون بين أطباقها في عذاب النار ، وبين الحميم آن . والحميم الماء الحار . والآن الذي بلغ نهايته . والمراد - ههنا - هو الذي قد بلغ نهاية حرّه من آنى يأنى إنياً فهو آن ، ومنه قوله « غير ناظرين إناه » (٢) يعني نضاجه وبلوغه غايته « فبأي آلاء ربكما تكذبان » والاخبار بذلك لطف وزجر عن المعاصي فلذلك كانت نعمة اعتد بها وقرر بها .

قوله تعالى :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٥٥) عشر آيات بلا خلاف .

لما وصف الله تعالى ما أعد للكفار من أنواع العذاب ، بين بعد ذلك ما أعد

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٠٦   (٢) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٥٣

المؤمنين والمتقين ، فقال « ولمن خاف مقام ربه جنتان » والمعنى ولمن خاف المقام الذي يقفه فيه ربه للمسائلة عما عمل في ما يجب عليه مما أمره به أو نهاه عنه ، فيكفه ذلك عما يدعوه هواه اليه يصبر صبر مؤثر للهدى على طريق الردى . والمقام الموضع الذي يصلح للقيام فيه وبضم الميم الموضع الذي يصلح للاقامة فيه . والجنتان اللتان وعد الله من وصفه بهما قيل هما جنتان : إحداهما داخل قصره والأخرى خارج قصره على ما طبع الله تعالى العباد عليه من شهوة ذلك وجلالته فشوقوا إلى ما في طباعهم شهوة مثله .

ثم وصف الجنتين فقال « ذواتا أفنان » والافنان جمع (فن) وهو الغصن الغصن الورق ، ومنه قولهم : له فنون ، وهذا فن آخر أي نوع آخر أي ضرب آخر ، وفيه فنون أي ضروب مختلفة ، ويجوز أن يكون جمع فن . وقال ابن عباس: معناه ذواتا ألوان . وقال عكرمة . ظل الاغصان على الحيطان . وقال الضحاك : ذواتا ألوان يفضل بها على ما سواها « فبأي آلاء ربكما تكذبان » قد بيناه .

وقوله « فيهما عينان تجريان » اخبار منه تعالى أن في الجنتين اللتين وعدتهما المؤمنين عينين من الماء تجريان بين أشجارها ، فالجاري هو الذاهب ذهاب الماء المنحدر ، فكل ذاهب على هذه الصفة فهو جار ، وصفت بالعين لصفائها أو بأنها جارية لأنه أمتنع لها « فبأي آلاء ربكما تكذبان » قد فسرناه .

وقوله « فيهما من كل فاكهة زوجان » معناه إن في تلك الجنتين من كل ثمرة نوعين وضربين متشاكلين كتشاكل الذكر والانثى ، فلذلك سماها (زوجين) وذلك بالرطب واليابس من العنب والزبيب والتين الرطب واليابس ، فكذلك سائر الأنواع لا يقصر يابسه عن رطبه في الفصل والطيب إلا أنه امتنع وأعذب بأن يكون على هذا المنهاج . وقيل : فيهما من كل نوع من الفواكه ضربان ضرب

معروف وضرب من شكله غريب ، وكل ذلك للاطراف والامتاع « فبأي آلاء ربكما تكذبان . متكئين على فرش بطائنها من استبرق » فالاتكاء الاستناد للتكرمة والامتناع والمتكى هو ما يطرح للانسان فى مجالس الملوك للاكرام والاجلال إتكا يتكي إتكاءاً ، فهو متكي ، ومنه وكاة السقاء إذا شددته ، ومنه قوله ﷺ (العين وكاء الجسد) والاتكاء شدة التقوية للاكرام والامتاع . وهو نصب على الحال ﴿ على فرش ﴾ وهو جمع فراش وهو الموطأ الممهد للنوم عليه بطائنها ، وهو جمع بطانة وهي باطن الظهار ، فالبطانة من اسفله والظاهرة من أعلاه .

وقوله ﴿ وجنا الجنتين دان ﴾ فالجنى الثمرة التي قد أدركت فى الشجرة وصلح أن تجنى غضه قال الشاعر :

هذا جناي وضياره فيه　　إذ كل جان يده إلى فيه (١)

والاستبرق الغليظ من الديباج - فى قول عكرمة وابن اسحاق - وقيل : ان ثمارها دانية لايرد يده عنها بعد ، ولا شوك - فى قول قتادة - وقيل : الظواهر من سندس وهو الديباج الرقيق ، والبطاين من أستبرق وهوالديباج الغليظ . وقيل : الاستبرق المتاع الصيني من الحرير ، وهو بين الغليظ والرقيق . وقال الفراء : الاستبرق غليظ الديباج . وقوله ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد تكرر تفسيره .

قوله تعالى :

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا

(١) تفسير القرطبي ١٧ / ١٨٠

الْاِحْسَانُ(٦٠)فبِأَيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ(٦١)وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ(٦٢) فَبِأَيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ(٦٤) فبِأَيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ ﴾ (٦٥) عشر آيات بلا خلاف .

قرأ الكسائي ﴿ لم يطمثهن ﴾ بكسر إحداها وضم الأخرى الباقون بكسرها وهما لغتان ، يقال : طمثت المرأة تطمث وتطمث إذا حاضت . قال الزجاج وغيره: فى الآية دلالة على أن الجن تنكح . وقال الفراء : لم ينكحهن إنس ولا جان نكاح تدمية أي لم يقتضهن ، والطمث الدم . والضمير فى قوله ﴿ فيهن قاصرات الطرف ﴾ عائد على الفرش التي بطائنها من استبرق ، لأنه قد تقدم ذكره ، وكان أولى بالعود عليه ، ولو لم يتقدم هذا الذكر لجاز أن يرجع إلى الجنان وإلى الجنتين المذكورتين وغيرهما من الجنان لانه معلوم ، لكن المذكور أولى ، لأن اقتضاءه له أشد . والقاصر المانع من ذهاب الشيء إلى جهة من الجهات ، فالحور قاصرات الطرف عن غير أزواجهن إلى أزواجهن . والطرف جفن العين ، لأنه طرف لها ، فيطبق عليها تارة وينفتح تارة ، ومنه الاطراف بالأمر لانه كالطرف الذي يليك بحدوثه لك . وقوله ﴿ لم يطمثهن ﴾ قيل فى معناه قولان :

أحدها ـ قال مجاهد وابن زيد وعكرمة : لم يمسسهن بجماع من قولهم : ماطمث هذا البعير جمل قط أي ما مسه جمل .

الثاني ـ قال ابن عباس : لم يدمهن بنكاح من قولهم : امرأة طامث أي حائض كأنه قال هن أبكار لم يقتضهن أحد قبلهم . والأصل المس ، كأنه ما مسها دم الحيض . وقيل : إنما نفى الجان ، لأن للمؤمنين منهم هم أزواجاً من الحور ،

وهو قول ضمرة بن حبيب ، قال البلخي : المعنى إن ما يهب الله لمؤمني الجن من الحور العين لم يطمثهن جان ، وما يهب الله لمؤمني الانس لم يطمثهن إنس قبلهم ، على أن هذا مبالغـــة . وقال ضمرة بن حبيب فى : الآية دلالة على أن للجن ثواباً فالانسيات للانس والجنيات للجن ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد مضى تفسيره .

وقوله ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال الحسن : هن على صفاء الياقوت فى بياض المرجان . وقيل : كالياقوت فى الحسن والصفاء والنور . وقال الحسن : المرجان أشد اللؤلؤ بياضياً وهو صغاره ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد بيناه .

وقوله ﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾ معناه ليس جزاء من فعل الاعمال الحسنة وأنعم على غيره إلا أن ينعم عليه بالثواب ويحسن اليه ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد مضى بيانه .

وقوله ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ معناه إن من دون الجنتين اللتين ذكرنا ﴿ لمن خاف مقام ربه ﴾ جنتين أخرتين دون الأولتين ، وإنهما أقرب إلى قصره ومجالسه فى قصره ليتضاعف له السرور بالتنقل من جنة إلى جنة على ما هو معروف فى طبع البشرية من شهوة مثل ذلك . ومعنى (دون) مكان قريب من الشيء بالاضافة إلى غيره ، مما ليس له مثل قربه ، وهو ظرف مكان . وإنما كان التنقل من جهة إلى جهة أنفع ، لأنه أبعد من الملل على ما طبع عليه البشر ، لأن من الاشياء ما لا يمل لغلبة محبته على النفس بالأمر اللازم ، ومنها ما يمل لتطلع النفس إلى غيره ، ثم الرجوع اليه .

وقوله ﴿ مدهامتان ﴾ معناه خضراوتان تضرب خضرتهما إلى السواد من الري على أتم ما يكون من الحسن ، لأن الله شوق اليهما ووعد المطيعين فى خوف مقامه بها ، فناهيك بحسن صفتهما وما يقتضيه ذكرها فى موضعهما . وقال ابن عباس

وابن الزبير وعطية وأبو صالح وقتادة : هما خضراوان من الري . وقال قوم : الجنان الأربع ﴿ لمن خاف مقام ربه ﴾ ذهب اليه ابن عباس . وقال الحسن : إلا وليان للسابقين والأخيرتان للتابعين .

قوله تعالى :

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٧٨)

ثلاث عشرة آية.

قرأ اهل الشام ﴿ ذو الجلال ﴾ على الرفع ، على أنه نعت لـ (إسم) . الباقون ـ بالخفض ـ على أنه نعت لـ (ربك) .

وقوله ﴿ فيهما ﴾ يعني الجنتين اللتين وصفهما بأنهما ﴿ مدهامتان ﴾ ﴿ عينان نضاختان ﴾ فعين الماء المكان الذي ينبع منه الماء ، ومعنى ﴿ نضاختان ﴾ فوارتان بالماء . وقيل : نضاختان بكل خير . والنضخ ـ بالخاء ـ أكثر من النضح ـ بالحاء ـ لأن النضح غير المعجمة الرش وبالخاء كالبرك والفوارة التي ترمي بالماء صعداء ،

نضخ ينضخ نضخاً فهو ناضخ . وفى نضاخة مبالغة ، ووجه الحكمة فى العين النضاخة أن النفس إذا رأت الماء يفور كان أمتع ، وذلك على ما جرت به العادة ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ أخبار منه تعالى أن فى الجنتين المتقدم وصفهما (فاكهة) وهي الثمار (ونخل ورمان) وإنما افرد ذكر النخل والرمان من الفاكهة ، وإن كان من جملتها تنبيهاً على فضلهما وجلالة النعمة بهما ، كما أفرد ذكر جبرائيل وميكائيل فى قوله ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين ﴾ (١) وقال قوم : ليسا من الفاكهة بدلا الآية . وليس له في ذلك حجة ، لاحتمال ما قلناه . قال يونس النحوي : النخل والرمان من أفضل الفاكهة ، وإنما فضلا لفضلهما ، والنخل شجر الرطب والتمر . والرمان مشتق من رم يرم رماً ، لان من شأنه أن يرم الفؤاد بجلائه له ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد مضى بيانه .

وقوله ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قال ابو عبيدة : إمرأة خيرة ورجل خير ، والجمع خيرات . والرجال أخيار قال الشاعر :

ولقد طعنت مجامع الربلات ربلات هند خيرة الملكات (٢)

وقال الزجاج : أصل (خيرات) خيّرات ، وخفف . وفى الخبر المرفوع إن المعنى (خيرات الأخلاق حسان الوجوه) وإنما قيل للمرأة فى الجنة : خيرة ، لانها مما ينبغي أن تختار لفضلها فى أخلاقها وأفعالها ، وهي مع ذلك حسنة الصورة ، فقد جمعت الأحوال التي تجل بها النعمة ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد بينا معناه .

وقوله ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ فالحور البيض الحسان البياض ، ومنه

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٩٨ (٢) مر في ٥/٣١٩ وهو فى مجاز القرآن الشاهد ٢٩٨

الدقيق الحواري لشدة بياضه، والعين الحورا اذا كانت شديدة بياض البياض ، وشديدة سواد ، السواد ، وبذلك يتم حسن العين . وقال ابن عباس والحسن ومجاهد : الحور : البيض . وقوله ﴿ مقصورات ﴾ أي قصرن على أزواجهن ، فلايردن بدلا منهم ـ في قول مجاهد والربيع ـ وقيل : معناه محبوسات في الحجال ـ في قول ابن عباس وأبي العالية ومحمد بن كعب والضحاك والحسن ، وعلى وجه الصيانة لهن والتكرمة لهن عن البذلة . وقال ابو عبيدة : مقصورات أي مخدرات و (الخيام) جمع خيمة وهو بيت من الثياب على الأعمدة ، والاوتاد مما يتخذ للاصحار ، فاذا اصحر هؤلاء الحور ، كانت لهن الخيام في تلك الحال وغيرها مما ينفي الابتذال . وقال الزجاج : يقال للهوارج الخيام وقال عبد الله : الخيام درّ مجوف على هيئة البيت وقال ابن عباس : بيوت اللؤلؤ . وقيل : الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد مضى بيانه .

وقوله ﴿ لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد مضى تفسيره . قال البلخي في الآية دلالة على قول الحسن البصري : أن الحور العين هن أزواجهم في الدنيا إذا كن مؤمنات مطيعات لان الله قال ﴿ لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جا ن ﴾ وقال : من نصر الحسن أن المراد لم يطمثهن بعد النشأة الثانية إنس قبلهم ولا جان . وإنما كرر قوله ﴿ لم يطمثهن ﴾ في الآية للبيان على أن صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة القاصرات الطرف مع تمكين التشويق بهذه الحال الجليلة التي رغب فيها كل نفس سليمة .

وقوله ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾ (متكئين) نصب على الحال ، وقد فسرنا معناه . والرفارف جمع رفرف ، وهي المجالس ـ في قول ابن عباس وقتادة والضحاك ـ وقيل : الرفرف هي فصول المجالس للفرش ، وقال

الحسن : هي المرافق ، وقيل : الرفارف الوسائد . وقيل : الرفرفة الروضة . وأصله من رف النبت يرف إذا صاد غضاً نضراً . وقيل : لما في الأطراف رفرف ، لانه كالنبت الغض الذي يرف من غضاضته . والخضر جمع أخضر (والعبقري) الزرابي - في قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة - وهي الطنافس . وقال مجاهد : هو الديباج : وقال الحسن : هو البسط . وقيل (عبقر) اسم بلد ينسج به ضروب من الوشي الحسن ، قال زهير :

بخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوماً ان ينالوا و يستعلوا (١)

وقيل : الوشى من الديباج عبقري تشبيهاً بذلك ، ومن قرأ ﴿ عباقري ﴾ فقد غلط لانه لا يكون بعد الف الجمع أربعة احرف ولا ثلاثة إلا أن يكون الثاني حرف لين نحو (قناديل) .

وقوله ﴿ تبارك اسم ربك ﴾ معناه تعاظم وتعالى إسم ربك ، لانه يستحق أن يوصف بما لا يوصف به أحد من كونه قديماً وإلهاً ، وقادراً لنفسه وعالماً حياً لنفسه وغير ذلك .

وقوله ﴿ ذي الجلال والاكرام ﴾ خفض ، لانه بدل من قوله ﴿ ربك ﴾ ومعنى الجلال العظمة والاكرام الاعظام بالاحسان والانعام . وقال الحسن : الاكرام الذي يكرم به أهل دينه وولايته . ومن قرأ ﴿ ذو الجلال ﴾ بالرفع أراد ان اسم الله فيه البركة ، وإذا قرىء بالخفض دل على أن اسم الله غير الله ، لأنه لو كان اسمه هو الله لجرى مجرى ذكر وجهه إلا ترى أنه لما قال ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ ورفعه ، لأنه أراد الله تعالى وههنا بخلافه .

---

(١) ديوانه ١٠٣ ومجاز القرآن ٢ | ٢٤٦ واللسان (عبقر)

٥٦ ـ سورة الواقعة

هي مكية بلا خلاف وهي تسع وتسعون آية حجازي وشامي ، وسبع وتسعون بصرى ، وست وتسعون كوفي ، وسبع وتسعون في المدنيين . وروي عن مسروق أنه قال من أراد أن يعلم نبأ الأولين ونبأ الآخرين ونبأ أهل الجنة ونبأ أهل النار ونبأ الدنيا ونبأ الآخرة ، فليقرأ الواقعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَاقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ
رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥)
فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ
مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩)
وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢)
ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ
مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ (١٦) .

ست عشرة آية كوفي ، وسبع عشرة آية بصري وشامي ، وثمان عشرة آية

حجازى ، عد الكل ﴿ وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ﴾ ولم يعده الكوفيون . وعد الحجازيون والكوفيون ﴿ موضونة ﴾ ولم يعده الباقون .

﴿ إذا ﴾ متعلقة بمحذوف ، وتقديره إذ كروا ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ قال المبرد : إذا وقعت معناه إذا تقع ،وإنما وقع الماضي ـ ههنا ـ لأن (إذا) للاستقبال ومعناه إذا ظهرت القيامة وحدثت . والوقوع ظهور الشيء بالحدوث ، وقع يقع وقوعاً فهو واقع ، والانثى واقعة (وإذا) تقع للجزاء ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ معناه قال الفراء ليس لها مردودة ولا رد . وقيل : ليس لوقعتها قضية كاذبة فيها ، لاخبار الله تعالى بها ودلالة العقل عليها . وقال قوم : معناه ليس لها نفس كاذبة في الخبر بها . وقيل الكاذبة ـ ههنا ـ مصدر مثل العاقبة والعافية . وقال الضحاك : القيامة تقع بصيحة عند النفخة الثانية .

وقوله ﴿ خافضة رافعة ﴾ قيل : تخفيض قوماً بالمعصية وترفع قوماً بالطاعة ، لانها إنما وقعت للمجازاة ، فالله تعالى يرفع أهل الثواب ويخفض أهل العقاب ، فهو مضاف إلى الواقعة على هذا المعنى . وقال الحسن : تخفض أقواماً إلى النار ، وترفع أقواماً إلى الجنة . والقراء : كلهم على رفع خافضة بتقدير هي خافضة رافعة . وقرأه الترمذى في اختياره بالنصب على الحال ، وتقديره إذا وقعت الواقعة تقع خافضة رافعة على الحال .

وقوله ﴿ إذا رجت الارض رجاً ﴾ معناه زلزلت الارض زلزالا ـ في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ والزلزلة الحركة باضطراب واهتزاز ، ومنه قولهم : ارتج السهم عند خروجه عن القوس . وقيل : ترتج الأرض بمعنى أنه ينهدم كل بناء على الارض .

وقوله ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ معناه فتت فتاً ـ في قول ابن عباس ومجاهد

وابي صالح والسدى ـ وهو كما يبس السويق أى يلت . والبسيس السويق اوالدقيق يلت و يتخذ زاداً . وقال لص من غطفان:

لا تخبزاً خبزاً وبسا بسا ولا تطيلا مناخ حبسا (١)

وقال الزجاج : يجوز أن يكون معنى بست سيفت وأنشد :

وانبس حيات الكيثب الأهيل (٢)

وقوله « فكانت هباء منبثاً » فالهباء غبار كالشعاع فى الرقة ، وكثيراً ما يخرج مع شعاع الشمس من الكوة النافذة ، فسبحان الله القادر على أن يجعل الجبال بهذه الصفة . والانبثاث افتراق الاجزاء الكثيرة فى الجهات المختلفة ، فكل أجزاء أنفرشت بالتفرق فى الجهات فهي منبثة، وفى تفرق الجبال على هذه الصفة عبرة ومعجزة لا يقدر عليها إلا الله تعالى .

وقوله « وكنتم أزواجاً ثلاثة » معناه كنتم أصنافاً ثلاثة ، كل صنف يشاكل ما هو منه كما يشاكل الزوج الزوجة ، ولذلك قيل على هذه المزاوجة : قد زاوج بين الكلامين أي شاكل بينهما .

وقوله « فاصحاب الميمنة » يعني أصحاب اليمن والبركة والثواب من الله تعالى.وقوله « ما أصحاب الميمنة » بصورة الاستفهام ، والمراد تعظيم شأنهم فى الخبر عن حالهم « واصحاب المشئمة » معناه الشؤم والنكد وعقاب الابد . وقوله « ما أصحاب المشأمة » على تعظيم شأنهم فى الشر وسوء الحال . وقيل : أصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، وخبر (أصحاب الميمنة) ما أصحاب الميمنة ، كأنه قيل : أي

(١ ، ٢) الصحاح واللسان (بسس) والقرطبي ١٧ | ١٩٦

شيء هم ؟ وفيه تعجيب عن حالهم . وقيل : أصحاب اليمين هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم ، وأصحاب الشمال الذين يأخذون كتبهم بشمالهم .

وقوله « والسابقون السابقون » معناه الذين سبقوا إلى اتباع الانبياء فصاروا أئمة الهدى . وقيل : السابقون إلى طاعة الله السابقون إلى رحمته ، والسابقون إلى الخير إنما كانوا أفضل لأنهم يقتدى بهم فى الخير ويسبقوا إلى أعلى المراتب قبل من يجيء بعدهم فلهذا تميزوا من التابعين بما لا يلحقونهم به ولو اجتهدوا كل الاجتهاد والسابقون الثاني يصلح أن يكون خبراً عن الاول ، كأنه قال : والسابقون الأولون فى الخير ، ويصلح أن يكون « أولئك المقربون » وقوله « أولئك المقربون » معناه الذين قربوا من جزيل ثواب الله وعظيم كرامته بالأمر الأكثر الذي لا يبلغه من دونهم فى الفضل . والسابقون إلى الطاعات يقربون إلى رحمة الله فى أعلا المراتب وأقربها إلى مجالس كرامته بما يظهر لأهل المعرفة منزلة صاحبه فى جلالته ويصل بذلك السرور إلى قلبه ، وإنما قال « فى جنات النعيم » مع أنه معلوم من صفة المقربين ، لئلا يتوهم أن التقريب يخرجهم إلى دار أخرى ، وإنما هم مقربون من كرامة الله فى الجنة لأنها درجات ومنازل بعضها أرفع من بعض . والفرق بين النعيم والنعمة أن النعمة تقتضي شكر المنعم من أنعم عليه نعمة وانعاماً ، والنعيم من نعم نعيماً كقولك أنتفع انتفاعاً .

وقوله « ثلة من الأولين » فالثلة الجماعة . وأصله القطعة من قولهم : ثل عرشه إذا قطع ملكه بهدم سريره . والثلة القطعة من الناس ، وقال الزجاج : الثل القطع ، والثلة كالفرقة والقطعة . وهو خبر ابتداء محذوف ، وتقديره : هم ثلة من الأولين ، وهم قليل من الاخرين . وقوله « وقليل من الآخرين » إنما قال ذلك لأن الذين سبقوا إلى إجابة النبي صلى الله عليه وآله قليل من كثير ممن سبق إلى النبيين .

وقوله « على سرر موضونة » فالموضونة المنسوجة المداخلة كصفة الدرع المضاعفة قال الاعشى :

ومن نسج داود موضونة تساق إلى الحي عيراً فعيرا (١)

ومنه (وضين الناقة)وهي البطان من السيور إذا نسج بعضه على بعض مضاعفاً وقيل : موضونة مشبكة بالذهب والجوهر ، وقال ابن عباس ومجاهد : موضونة بالذهب وقال عكرمة : مشبكة بالدر ، وقال ابن عباس ـ في رواية أخرى ـ موضونة معناه مظفورة ، والوضين حبل منسوج من سيور .

وقوله « متكئين عليها متقابلين » معناه مستندين متحاذيين كل واحد بازاء الآخر ، وذلك أعظم في باب السرور . والتقابل والتحاذي والتواجه واحد . والمعنى إن بعضهم ينظر الى بعض وينظر الى وجه بعض لا ينظر في قفاه ، من حسن عشرته وتهذيب أخلاقه ،

قوله تعالى :

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً (٢٥) إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴾(٢٦)

عشر آيات كوفي ومدني الأخير ، وتسع فيما عداه ، عد المكي واسماعيل

(١) ديوانه ٧١ واللسان (وضمن) ومجاز القرآن ٢ / ٢٤٨

«وأباريق» ولم يعده الباقون . وعد المدني والكوفي «وحور عين» ولم يعده الباقون.

قرأ ابو جعفر وأهل الكوفة إلا عاصماً وخلفاً «وحور عين» خفضاً . الباقون بالرفع. فمن رفع حمله على : ولهم حور عين . واختاروا الرفع لأن الحور العين لا يطاف بهن ، وإنما يطاف بالكأس ، وعلى هذا يلزم أن يقرأ «وفاكهة» رفعاً وكذلك «ولحم طير» بالرفع لانهما لا يطاف بهما ، فما اعتذروا في ذلك فهو عذر من قرأ بالخفض . ومن خفض عطف على الاول لتشاكل الكلام من غير اخلال بالمعنى إذ هو مفهوم . وقال الزجاج : ويكون تقديره ينعمون بكذا وحور عين . وقال ابو علي تقديره وفي مجاورة حور عين أو معانقة حور عين ، لأن الكلام الاول يدل عليه وقال الشاعر :

اذا ما الغانيات برزن يوماً   وزججن الحواجب والعيونا (١)

والمعنى وكحلن العيون فرده على قوله (وزججن) ومثله :

(متقلداً سيفاً ورمحاً) (٢)

اي وحاملا رمحاً . وكان يجوز النصب على تقدير ويعطون حوراً عيناً كما قال الشاعر :

جئني بمثل بني بدر لقومهم   او مثل اخوة منظور بن سيار (٣)

لما كان معنى جئني هات عطف او مثل على المعنى وقال الحسن الحور البيض . وقال مجاهد يحار فيهن البصر .

لما ذكر الله تعالى ان السابقين الى الخيرات والطاعات هم المقربون الى نعيم

---

(١) القرطبي ١٧ \ ٢٠٥   (٢) مر في ٤ / ٢٣٢

(٣) مر في ٣ / ٤٥٥ و ٦ \ ٣٠

الجنة وثوابها ، فانهم على سرر موضونة متقابلين ، اخبر انه « يطوف عليهم ولدان » يعني صبيان « مخلدون » فالطوف الزور بالتنقل في المكان ، ومنه الطائف الذي يطوف بالبلد على وجه الحرس. والولدان جمع وليد . ومخلدون قال مجاهد معناه باقون لهم لا يموتون ، وقال الحسن : معناه أنهم على حالة واحـــد لايهرمون ، يقال : رجـل مخلد اي باق زماناً أسود اللحية لا يشيب وقال الفراء : معناه مقرطون والخلد القرط . والا كواب جمع كوب وهي اباريق واسعة الرؤوس بلا خراطيم ـ في قول قتادة ـ قال الاعشى :

صليفيـــة طيباً طعمها لها زبد بين كوب ودن (١)

والاباريق التي لها عرى وخراطيم واحـدها إبريق و « كأس من معين » اي يطوفون عليهم ايضاً بكأس من خمر معين ظاهر للعيون جار « لا يصدعون عنها » اي لا يلحقهم الصداع من شربها « ولا ينزفون » اي لا تنزف عقولهم بمعنى لاتذهب بالسكر ـ في قول مجاهد وقتادة والضحاك ـ ومن قرأ « ينزفون » بالكسر ،وهو حمزة والكسائي وخلف ، حمله على أنه لا تفنى خمرهم قال الأبرد :

لعمري لئن أنزفتم او صحوتم لبئس الندامى كنتم آل أبجرا (٢)

وقوله « وفاكهة مما يتخيرون » أي ويطاف عليهم بفاكهة مما يختارونه ومما يشتهونه ، وينعمون بفاكهة مما يشتهونه . وقوله« ولحم طير مما يشتهون » أي ويطاف عليهم او ينعمون بلحم طير مما يشتهون . وقوله « وحور عين » من رفعه حمله على معنى ولهم فيها حور عين ، لانهن لايطاف بهن وإنما يطاف بالكأس . ومن جر فعلى معنى وينعمون بحور عين او يحصلون في معانقة حور عين . والحور جمع حوراء والحور نقاء البياض من كل شائب يجري مجرى الوسخ. وقوله « كأمثال اللؤلؤ »

(١) مر في ٩ | ٢١٦ (٢) مر في ٨ | ٤٩٦

أي مثل هؤلاء الحور في البياض والنقاء مثل اللؤلؤ « المكنون » يعني الدر المصون عما يلحق به من دنس كأنه مأخوذ من أن الدرة تبقى على حسنها اكثر مما يبقى غيرها لطبعها وصيانة الناس لها قال عمر بن أبي ربيعة :

وهي زهراء مثل لؤلؤ الغواص   ميزت من جوهر مكنون

« جزاء » أي يفعل ذلك بهم جزاء ومكافأة على ما عملوه في دار الدنيا من الطاعات وأجتناب المعاصي ثم قال « لا يسمعون فيها لغواً » أي لا يسمع المثابون في الجنة لغواً يعني مالا فائدة فيه من الكلام ، لأن كل ما يتكلمون به فيه فائدة ﴿ولا تأثيما﴾ ولا يجري فيها ما يؤثم فيه قائله من قبيح القول ﴿ إلا قيلا سلاما سلاما ﴾ يعني لكن يسمعون قول بعضهم لبعض على وجه التحية « سلاما سلاماً » إنهم يتداعون بالسلام على حسن الآداب وكريم الأخلاق الذي يوجب التواد ، لان طباعهم قد هذبت على أتم الكمال . ونصب (سلاماً) على تقدير سلمك الله سلاماً بدوام النعمة وحال الغبطة . وجاز ان يعمل فيه سلام ، لأنه يدل عليه ، كما يدل على قوله « والله أنبتكم من الارض نباتاً » (١) ويصلح أن يكون سلاماً نعتاً لقوله « قيلا » ويصلح أن ينتصب بـ (قيل) فالوجوه الثلاثة محتملة . وقيل « إلا قيلا سلاماً سلاماً » أي قولا يؤدي إلى السلامة .

قوله تعالى :

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ * مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤)

(١) سورة ٧١ نوح آية ١٧

إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (٣٦) عُرُباً أَتْرَاباً (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ (٤٠)

أربع عشرة آية كوفى وعدد اسماعيل و بصري ، وخمس عشرة آية فيما عداه عد المدني والمكي والبصري « وأصحاب اليمين » ولم يعده الباقون . وعد المدنيان والمكي والكوفى والشامي « انشاء » ولم يعده الباقون .

قرأ اسماعيل وحمزة وخلف ويحيى « عرباً » مخففة . الباقون مثقلة ، وهما لغتان . وروي عن علي عليه السلام انه قرأ « وطلع منضود » بالعين . والقراء على الحاء وقال علي عليه السلام : هو كقوله « ونخل طلعها هضيم » (١) وقال كالمتعجب ! وما هو شأن الطلح ؟ ! فقيل : له ألا تغيره ؟ قال : القرآن لا يهاج اليوم ولا يحول .

وقوله « وأصحاب اليمين » قيل فى معناه ثلاثة أقوال :

أولها ـ الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم .

الثاني ـ الذين يؤخذ بهم ذات اليمين الى الجنة .

الثالث ـ اصحاب اليمن والبركة . وقوله « ما اصحاب اليمين » معنا ومعنى « ما أصحاب الميمنة » سواء وقد فسرناه .

وقوله « فى سدر مخضود » فالسدر شجر النبق ، والمخضود هو الذي لاشوك فيه وخضد بكثرة جملته وذهاب شوكه ـ فى قول ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد والضحاك ـ وأصل الخضد عطف العود اللين . فمن ههنا قيل : لاشوك فيه ، لان الغالب على الرطب اللين أنه لاشوك له .

وقوله « وطلح منضود » قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وابن زيد :

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٤٨

الطلح شجر الموز . وقال ابو عبيدة : الطلح كل شجر عظيم كثير الشوك ، وقال الحارثي :

بشرها دليلها وقالا غداً ترين الطلح والجبالا (١)

وقال الزجاج : الطلح شجر أم غيلان . وقد يكون على أحسن حال ، والمنضود هو الذي نضد بعضه على بعض من الموز ـ ذكره ابن عباس ـ وهو من نضدت المتاع إذا عبيت بعضه على بعض. قيل : فقنوا الموز منضود بعضه على بعض « وظل ممدود » معناه دائم لا تنسخه الشمس قال لبيد :

غلب البقاء وكنت غير مغلب دهر طويل دائم ممدود (٢)

وروي في الخبر أن (في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة سنة) .

وقوله « وماء مسكوب » أي مصبوب على الخمر يشرب بالمزاج . وقال قوم : يعني مصبوب يشرب على ما يرى من حسنه وصفائه ، ولا يحتاجون الى تعب في استقائه .

وقوله « وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة » أي وثمار مختلفة كثيرة غير قليلة . وقيل الوجه في تكرار ذكر الفاكهة البيان عن اختلاف صفاتها فذكرت اولا بأنها مما يتخيرون ،وذكرت ـ ههنا ـ بأنها كثيرة وبأنها لا مقطوعة ولاممنوعة . ومعناه لامقطوعة كما تنقطع فواكه الدنيا في الشتاء في اوقات مخصوصة ، ولا ممنوعة بتعذر تناول او شوك يؤذي كما يكون ذلك في الدنيا .

وقوله « وفرش مرفوعة » أي عالية يقال : بناء مرفوع أي عال . وقيل : معناه ونساء مرتفعات القدر في عقولهن وحسنهن وكمالهن . وقال الحسن : فرش

(١) القرطبي ١٧ / ٢٠٨ ومجاز القرآن ٢ / ٢٥٠

(٢) القرطبي ١٧ / ٢٠٩ والطبري ٢٧ / ٩٤

مرفوعة بعضها فوق بعض ، والفرش المهاد المهيأ للاضطجاع ، فرش يفرش فرشاً فهو فارش والشيء مفروش ، ومنه قوله « الذي جعل لكم الارض فراشاً » (١) لانها تصلح للاستقرار عليها .

وقوله « إنا انشأناهن انشاء » معناه إن اخترعنا أزواجهم اختراعاً ، وهذا يقوي قول من حمل الفرش على النساء . وقيل : المعنى انا أنشأناهن من البنية « فجعلناهن أبكاراً » والبكر التي لم يفتضها الرجل ، ولم تفتض وهي على خلقتها الأولى من حال الانشاء . واصله الأول ، ومنه بكرة أول النهار . والابتكار عمل الشيء اولا . والباكورة أول ما يأتي من الفاكهة . والبكر من الابل الفتى فى اول أمره وحداثة سنه . وقال الضحاك : ابكاراً عذارى . وفى الخبر المرفوع (انهن كن عجائز رمصا فى الدنيا) .

وقوله « عربا أتراباً » فالعرب العواشق لأزواجهن المنجبات اليهم ـ فى قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ـ وقال لبيد :

وفى الحدوج عروب غير فاحشة ريّا الروادف يعشى دونهاالبصر (٢)

والعرب جمع عروب على وزن (رسول ، ورسل) وهي اللعوب مع زوجها انساً به راغبة فيه ، كأنس العربي بكلام العرب ، فكأن لها فطنة العرب وإلفهم وعهدهم . والاتراب جمع ترب وهو الوليدة التي تنشأ مع مثلها فى حال الصبى ، وهو مأخوذ من لعب الصبيان بالتراب أي هم كالصبيان الذين على سن واحد . قال عمر ابن ابي ربيعة :

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢

(٢) مجاز القرآن ٢\| ٢٥١ والقرطبي ١٧\| ٢١١

ابرزوهـا مثل المهاة تهادي بين عشر كواعب أتراب (١)

وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك : الاتراب المستويات على سن واحد . وقوله « لاصحاب اليمين » أي جميع ما تقدم ذكره لهم جزاء وثوابا على طاعاتهم . وقوله « ثلة من الاولين وثلة من الآخرين » فالثلة القطعة من الجماعة ، فكأنه قال جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين . وإذا ذكر بالتنكير كان على معنى البعض من الجلة ، كما تقول رجال من جملة الرجال . وفائدة الآية أنه ليس هذا لجميع الأولين والآخرين . وإنما هو لجماعة منهم . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال (إني لأرجو ان تكون أمتي شطر أهل الجنة) ثم تلا قوله « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » وقال الحسن : سابقوا من مضى أكثر من سابقينا ، فلذلك قيل « وقليل من الآخرين » وفي التابعين وثلة من الآخرين .

قوله تعالى :

﴿ وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ * مَا أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ (٥٠) .

عشر آيات كوفي عند جميعهم . وأحدى عشر آية في المدني الأول . عـد

(١) مر في ٨ \ ٥٧٣

الكل « وأصحاب الشمال » ولم يعده الكوفيون . وعد الكل « في سموم وحميم » ولم يعده الكوفيون ، وعد « المكنون » و « كانوا يقولون » ولم يعده الباقون . وعد الكل إلا اسماعيل والشاميين « الأولين والآخرين » وعد اسماعيل والشاميون « لمجموعون »ولم يعده الباقون .

قيل في معنى قوله « وأصحاب الشمال » ثلاثة أقوال :

أحدها ـ إنهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى جهنم .

الثاني ـ هم الذين يأخذون كتبهم بشمالهم .

الثالث ـ الذين يلزمهم حال الشؤم والنكد . وكل هذا من أوصافهم .

وقوله « ماأصحاب الشمال » معناه معنى قوله « واصحاب المشأمة ما اصحاب المشئمة » وقد فسرناه .

وقوله « في سموم وحميم » فالسموم الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن ، ومسام البدن خروقه ، ومنه أخـذ السم ، لانه يسري في المسام . والحميم الحار الشديد الحرارة من الماء ، ومنه قوله « يصب من فوق رؤسهم الحميم » (١) وحم ذلك أي ادناه كأنه حرر أمره حتى دنا . وقيل : في سموم جهنم وحميمها .

وقوله « وظل من يحموم » فاليحموم الاسود الشديد السواد باحتراق النار ، وهو (يفعول) من الحم ، وهو الشحم المسود باحتراق النار . وأسود يحموم أي شديد السواد « وظل من يحموم » أي دخان شديد السواد ـ في قول ابن عباس وابي مالك ومجاهد وقتادة وابن زيد ـ وقوله « لا بارد ولا كريم » معناه لابارد كبرد ظلال الشمس ، لانه دخان جهنم، ولا كريم، لان كل ما انتفى عنه الخير ، فليس بكريم . وقال قتادة : لابارد المنزل ولا كريم المنظر .

(١) سورة ٢٢ الحج آية ١٩

وقوله « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » قال ابن عباس : معناه إنهم كانوا في الدنيا متنعمين . وقوله « وكانوا يصرون على الحنث العظيم » قال قتادة ومجاهد كانوا يقيمون على الذنب العظيم ، ولا يتوبون منه ، ولا يقلعون عنه . وقال الحسن والضحاك وابن زيد : كانوا يقيمون على الشرك العظيم . وقيل : اصرارهم على الحنث هو ما بينه الله تعالى في قوله « واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت »(١) والاصرار الاقامة على الامر من جهة العزم على فعله ، فالاصرار على الذنب نقيض التوبة منه ، والحنث نقض العهد المؤكد بالحلف ، فهؤلاء ينقضون العهود التي يلزمهم الوفاء بها ، ويقمون على ذلك غير تائبين منه ، ووصف الذنب بأنه عظيم أنه اكبر من غيره مما هو أصغر منه من الذنوب .

وقوله « وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الاولون » ؟ ! ! حكاية من الله تعالى عما كان يقول هؤلاء الكفار من انكارهم البعث والنشور والثواب والعقاب وأنهم كانوا يقولون مستبعدين منكرين : أئذا متنا وخرجنا عن كوننا أحياء وصرنا تراباً وعظاما بالية أئنا لمبعوثون ؟ ! ولم يجمع ابن عامر بين الاستفهامين إلا ههنا ، أو يبعث واحد من آبائنا الذين تقدموا قبلنا ويحشرون ويردون إلى كونهم أحياء إن هذا لبعيد . والواو في قوله ﴿ او آباؤنا ﴾ متحركة ، لأنها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل إن الاولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ أي قل لهم يا محمد إن تقدمكم من آبائكم او غير آبائكم ، والآخرين الذين يتأخرون عن زمانكم يجمعهم الله ويبعثهم ويحشرهم إلى وقت يوم معلوم عند الله ، وهو يوم القيامة .

(١) سورة ١٦ النحل آية ٣٨

قولــه تعــالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦١) احدى عشرة آية بلا خلاف.

قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وسهل ﴿ شرب الهيم ﴾ بضم الشين. الباقون بالفتح، وهما لغتان. وقرأ ﴿ نحن قدرنا ﴾ خفيفة ابن كثير. الباقون بالتشديد وهما لغتان. يقال قدرت، وقدرت، وقد فرق بينهما فيما ذكره.

لما امر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لمن انكر البعث والنشور قل لهم إنكم ومن تقدمكم وتأخر عنكم مبعوثون ومحشورون إلى يوم القيامة بين ما لهم في ذلك اليوم فقال ﴿ ثم أنكم أيها الضالون المكذبون ﴾ يعني الذين ضللتم عن الدين وعن طريق الحق وحرمتم عن إتباع الصحيح المكذبون الذين كذبتم بتوحيد الله واخلاص العبادة له وجحدتم نبوة نبيه ﴿ لآكلون ﴾ يوم القيامة ﴿ من شجر من زقوم ﴾ فالزقوم ما يبتلع بتصعب، يقال: تزقم هذا الطعام تزقماً إذا ابتلعه بتصعب. وقيل: هو طعام خشن مر كريه يعسر نزوله في الحلق.

وقوله ﴿ فمالئون منها البطون ﴾ أي تملئون بطونكم من أكل هذا الزقوم

والشجر يؤنث ويذكر ، فلذلك قال ﴿ منها ﴾ وكذلك الثمر يذكر ويؤنث ، فالتذكير على الجنس ، والتأنيث على المبالغة . والبطون جمع بطن وهو خلاف الظهر ، وهو داخل الوعاء وخارجه ظهر ، وبطن الأمر إذا غمض ، ومنه الظهارة والبطانة ، وبطن الانسان ، وبطن الارض ، وبطن الكتاب .

وقوله ﴿ فشاربون عليه من الحميم ﴾ معناه إنكم تشربون على هذا الزقوم الذي ملأتم بطونكم منه ﴿ من الحميم ﴾ وهو الماء الحار الشديد الحرارة ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ أي تشربون مثل ما تشرب الهيم . فمن فتح الشين أراد المصدر ومن ضمه أراد الاسم ، وقيل هما لغتان . وروى جعفر بن محمد أن النبي صلى الله عليه وآله أمر بلالا ان ينادي بمنى إنها أيام اكل وشرب - بفتح الشين - و (الهيم) الابل التي لا تروى من الماء لداء يصيبها ، واحدها (أهيم) والانثى (هيما) ومن العرب من يقول : هايم وهايمة ، وتجمعه على هيم كغايط وغيط . وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة : معناه شرب الابل العطاشى التي لا تروى . وقيل: هو داء الهيام . وحكى الفراء : إن الهيم الرجل الذي لا يروى من الماء يشرب ما يحصل فيه .

وقوله ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ فالنزل الأمر الذي ينزل عليه صاحبه ، ومنه النزل وهو الجاري للانسان من الخير ، وأهل الضلال قد نزلوا على أنواع العذاب في النار ، وكل ما فصله الله تعالى من ذلك ففيه أتم الزجر واعظم الردع . وقيل : معنى الآية هذا طعامهم وشرابهم يوم الجزاء .

وقوله ﴿ نحن خلقناكم ﴾ أي نحن انشأناكم وابتدأناكم في النشأة الأولى ﴿ فهلا تصدقون ﴾ أنكم تبعثون . ثم نبههم على وجه الاستدلال على صحة ما ذكرناه فقال ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ ومعناه الذي يخرج منكم من المني عند الجماع ، ويخلق منه الولد ﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ وتنشئونه ﴿ أم نحن الخالقون ﴾ فهم لا يمكنهم ادعاء إضافة ذلك

الى نفوسهم لعجزهم عن ذلك ، فلا بد من الاعتراف بأن الله هو الخالق لذلك ، واذا ثبت انه قادر على خلق الولد من النطفة وجب أن يكون قادراً على اعادته بعد موته لأنه مثله ، وليس بأبعد منه ، يقال : أمنى يمني ، ومنى يمني، بمعنى واحد ، وكذلك أمذى،ومذى ـ في قول الفراء .

وقوله تعالى ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ فالتقدير ترتيب الأمور على مقدار فالله تعالى أجرى الموت بين العباد على مقدار ما تقتضيه الحكمة ، فانما أجراه الحكيم على ذلك المقدار .

وقوله ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي لسنا بمسبوقين في تدبيرنا ، لأن الأمور كلها في مقدور الله وسلطانه على ما يصح ويجوز فيما مكن منه أو اعجز عنه . وقال مجاهد : تقدير الموت بالتعجيل لقوم والتأخير لغيرهم . وقيل ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ بأن كتبناه على مقدار ، لازيادة فيه ولا نقصان . ويقال : قدرت الشيء مخففاً ، وقدرته مثقلا بمعنى واحد .

وقوله ﴿ على ان نبدل امثالكم ﴾ فالتبديل جعل الشيء موضع غيره ، فتبديل الحكمة بالحكمة صواب وتبديل الحكمة بخلافها خطأ وسفه ، فعلى هذا ينشيء الله قوماً بعدقوم ،لأن المصلحة تقتضي ذلك ، والحكمة توجب إنشاءهم في وقت وإماتتهم في وقت آخر . وانشاؤهم بعد ذلك للحساب والثواب والعقاب . وقيل : إن معنى ﴿ على أن نبدل ﴾ التبدل أي لنبدل أمثالكم ، وبين (على) و (اللام) فرق ، لأنه يجوز أن يقال : عمله على قبحه ، ولا يجوز عمله لقبحه . وتعليم الاستدلال بالنشأة الاولى على النشأة الثانية فيه تعليم القياس .

وقوله ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ معناه فيما لا تعلمون من الهيآت والصور المختلفة ، لأن المؤمن يخلق على أحسن صورة ، والكافر على أقبح صورة . وقيل :

هذا على النشأة الثانية يكوّنها الله في وقت لا يعلمه العباد، ولا يعلمون كيفيته، كما علموا الانشاء الأول من جهة التناسل . وقيل: معناه لو أردنا أن نجعل منكم القردة والخنازير لم يعيينا ذلك، ولا سبقنا اليه سابق . ويجوز أن يقال: أمثال متفقة، ولا يجوز أن يقال اجناس متفقة، لان المثل ينفصل بالصورة كما ينفصل رجل عن رجل بالصورة، وما انفصل بالصورة يجوز جمعه، لان الصورة قد منعت أن تجري على الكثير منه صفة التوحيد، فلا يجوز أن يقال هؤلاء الرجال كلهم رجال واحد ويجوز هذا الماء كله ماء واحد، وهذه المذاهب كلها مذهب واحد، ولا يجوز هؤلاء الأمثال كلهم أمثال واحد، لأنهم ينفصلون بالصورة . وجرى مجرى المختلفة في انه لايقع على صفة التوحيد .

قولـه تعـالى :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧١) تسع آيات بلاخلاف .

قرأ ابو بكر « أإنا لمغرمون » على الاستفهام . الباقون على الخبر .

يقول الله تعالى مخاطباً للكفار الذين أنكروا النشأة الثانية، ومنبهاً لهم على قدرته عليها، فقال ﴿ ولقد علمتم النشأة الاولى فهلا تذكرون ﴾ وتفكرون وتعتبرون

بأن من قدر عليها قدر على النشأة الثانية . والنشأة المرة من الانشاء ، كالضربة من الضرب ، والانشاء إيجاد الشيء من غير سبب يولده ، ومثله الاختراع والابتداع . ثم نبههم على طريق غيره فقال ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ من الزرع ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ أي أأنتم تنبتونه وتجعلونه رزقاً ﴿ أم نحن الزارعون ﴾ فان من قدر على إنبات الزرع من الحبة الحقيرة وجعلها حبوباً كثيرة قدر على إعادة الخلق إلى ما كانوا عليه . وقوله ﴿ لو نشاء لجعلناه ﴾ يعني ذلك الزرع ﴿ حطاماً ﴾ أي هشيماً لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء لفعلنا .وقوله ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ معناه قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ في رواية عنه ـ تعجبون . وقال الحسن وقتادة ـ في رواية ـ فظلتم تندمون أي لوجعلناه حطاماً لظلتم تندمون . والمعنى إنكم كنتم تتروحون إلى التندم ، كما تتروح الفكه الى الحديث بما يزيل الهم . وأصل التفكه تناول ضروب الفاكهة للأكل.

وقوله ﴿ إنا لمغرمون ﴾ المغرم الذي ذهب ماله بغير عوض عنه . وأصله ذهاب المال بغير عوض، فمنه الغريم لذهاب ماله بالاحتباس على المدين من غير عوض منه في الاحتباس ، والغارم الذي عليه الدين الذي يطالبه به الغريم . ومنه قوله ﴿ ان عذابها كان غراماً ﴾ (١) أي ملحاً دائماً كالحاح الغريم . وقال الحسن : هو من الغرم . وقال قتادة معنى ﴿ لمغرمون ﴾ لمعذبون ، قال الاعشى :

إن يعاقب يكن غراماً وإن يعـ ـط جزيلا فانه لا يبالي (٢)

أي يكن عقابه عذاباً ملحاً كالحاح الغريم . وقال الراجز :

يوم النسار ويوم الجفار كانا عذاباً وكانا غراماً(٣) .

أي ملحاً كالحاح الغريم ، وحذف يقولون إنا لمغرمون ، لدلالة الحكاية .

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٥ (٢ ، ٣) مر في ٧ \ ٥٠٥

وقال : معنى لمغرمون محدودون عن الحظ . وقال قتادة محارفون . وقال مجاهد ـ في رواية أخرى ـ إنا المولع بنا . وفي رواية غيره عنه معناه إنا الملقون في الشر . ومن قرأ ﴿ أإنا لمغرمون ﴾ على الاستفهام حمل على أنهم يقرعون ويقولون منكرين . أإنا لمغرمون ؟ ! ومن قرأ على الخبر حمله على أنهم مخبرون بذلك عن انفسهم . ثم يستدركون فيقولون لا ﴿ بل نحن محرومون ﴾ مبخوسون بحظوظنا محارفون بهلاك زرعنا .

ثم قال لهم منبهاً على دلالة اخرى فقال ﴿ افرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ والمعنى إنه تعالى امتن عليهم بما انعم عليهم من انزال الماء العذب ﴿من المزن ﴾ يعني السحاب ليشربوه وينتفعوا به ، فقال لهم ﴿أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ له عليكم نعمة منا عليكم ورحمة بكم . ثم قال ﴿ لو نشاء جعلناه اجاجاً ﴾ قال الفراء : الأجاج المر الشديد المرارة من الماء . وقال قوم : الاجاج الذي اشتدت ملوحته ﴿ فلو لا تشكرون ﴾ أي فهلا تشكرون على هذه النعمة التي لا يقدر عليها غير الله ، وعلمتم بذلك ان من قدر على ذلك قدر على النشأة الاخرى فانها لا تتعذر عليه كما لا يتعذر عليه هذه النعم .

قوله تعالى :

﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ (٧١) ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْشِؤُنَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤) فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (٨٠)

عشر آيات بلاخلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً ﴿ بموقع ﴾ على التوحيـد . الباقون ﴿ بمواقع ﴾ على الجمع .

هذا تنبيه آخر من الله تعالى على قدرته على النشأة الثانية ، وعلى وجه الدلالة على ذلك وعلى اختصاصه بصفات لا يشركه فيهـا غيره ، لانه قال ﴿ افرأيتم ﴾ معاشر العقلاء ﴿ النار التي تورون ﴾ فالنـار مأخوذ من النور ، ومنه قول الحارث ابن حلزة :

فتنورت نارها من بعيد بخزازي هيهات منك الصلاء (١)

وجمع النور انوار ، وجمع النار نيران ، والنار على ضربين : نار محرقة ، ونار غير محرقة . فالتي لا تحرق النار الكامنة بما هي مغمورة به كنار الشجر ونار الحجر ونار الكبد . والتي تحرق هي النار الظاهرة فيما هي مجاورة له مما من شأنه الاشتعال ، وهي معروفة . ومعنى « تورون » تظهرون النار ، ولا يجوز الهمزة ، لأنه من اورى يورى إيراء إذا قدح ، فمعنى تورون تقدحون . وورى الزند يوري ، فهو وار إذا. أنقدحت منه النار، ووريت بك زنادي إذا اصابك أمري كما يضيء القدح بالزناد

ثم قال « أأنتم أنشأتم شجرتها » يعني الشجرة التي تنقدح منها النار أى انتم انبتموها وابتدأتموها « أم نحن المنشئون » لها ، فلا يمكن أحد ان يدعي ان الذي أنشأها غير الله تعالى والعرب تقدح بالزند والزندة ، وهو خشب معروف يحك بعضه ببعض فيخرج منه النار ـ ذكره الزجاج وغيره ـ وفى المثل (كل شجرة فيها نار واستمجد المرخ والعفار) فان قيل : لم لا يكون نار الشجر بطبع الشجر لا من

(١) اللسان (نور)

قادر عليه . قيل : الطبع غير معقول ، فلا يجوز أن يسند اليه الأفعال ، ولو جاز ذلك لزم في جميع افعال الله ، وذلك باطل ، ولو كان معقولا لكان ذلك الطبع لابد ان يكون في الشجر والله تعالى الذي أنشأ الشجرة وما فيها ، فقد رجع الى قادر عليه وإن كان بواسطة ، ولو جاز ان تكون النار من غير قادر عليها لجاز أن يكون من عاجز ، لأنه إذا امتنع الفعل ممن ليس بقادر عليه منا ، لأنه فعل ، وكل فعل ممتنع ممن ليس بقادر عليه .

وقوله « نحن جعلناها » يعني تلك النار « تذكرة ومتاعاً للمقوين » أي جعلنا النار تذكرة للنار الكبرى ، وهي نار جهنم ، فيكون ذلك زجراً عن المعاصي التي يستحق بها النار ـ في قول مجاهد وقتادة ـ ويجوز ان يكون المراد تذكرة يتذكر بها ويتفكر فيها ويعتبر بها ، فيعلم انه تعالى قادر على النشأة الثانية ، كما قدر على إخراج النار من الشجر الرطب . وقوله « ومتاعاً للمقوين » يعني ينتفع بها المسافرون الذين نزلوا الأرض التي وهي القفر ، قال الراجز :

قيّ يناصيها بلاد قيّ (١)

وقال ابن عباس ومجاهدوقتادة والضحاك : للمقوين المسافرين ، وقيل : هو من أقوت الدار إذا خلت من أهلها قال الشاعر :

اقوى واقفر من نعم وغيرها هوج الرياح بها في الترب موار (٢)

وقد يكون المقوي الذي قويت خيله ونعمه في هذا الموضع .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلفين بأن « سبح بحمد ربك العظيم » أي نزه الله تعالى عما لا يليق به وأدعه باسمه العظيم .

وقوله « فلا اقسم بمواقع النجوم » قال سعيد بن جبير : (لا) صلة والتقدير

(١) اللسان (قوا) (٢) تفسير الطبري ٢٧ / ١٠٤

أقسم . وقال الفراء : هي نفي بمعنى ليس الأمر كما تقولون . ثم استؤنف « اقسم » وقيل (لا) تزاد قبل القسم ، كقولك لا والله لا افعل ، ولا والله ما كلمت زيداً وقال امرؤالقيس :

لا وأبيك ابنـة العامري لا يدعي القوم أني أفر (١)

بمعنى وابيك و (لا) زائدة و « مواقـع النجوم » قال ابن عباس ومجاهد أي القرآن ، لانه أنزل نجوماً . وقال مجاهـد ـ في رواية أخرى ـ وقتادة : يعني مساقط نجوم السماء ومطالعها . وقال الحسن : معناه إنكدارها وهو إنتشارها يوم القيامة ، ومن قرأ « بموقع » فلأنه يقع على الكثير والقليل . ومن قرأ على الجمع ، فلا ختلاف أجناسه ،

وقوله « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » اخبار من الله تعالى بأن هذا القسم الذي ذكره بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون عظمه لا نتفعتم بعلمه . والقسم جملة من الكلام يؤكد بها الخبر بما يجعله في قسم الصواب دون الخطأ على طريقة بالله إنه لكذا . وقال ابو علي الجبائي : القسم في كل ما ذكر في القرآن من المخلوقات إنما هو قسم بربه ، وهذا ترك الظاهر من غير دليل ، لأنه قد يجوز ذلـك على جهة التنبيه على ما في الاشياء من العبرة والمنفعة . وقد روي أنه لا ينبغي لأحد أن يقسم إلا بالله ، ولله ان يقسم بما يشاء من خلقه ، فعلى هذا كل من اقسم بغير الله او بشيء من صفاته من جميع المخلوقات او الطلاق او العتاق لا يكون ذلك يميناً منعقدة ، بل يكون كلاماً لغواً . والعظيم هو الذي يقصرعن مقداره غيره فيمايكون منه ، وهو على ضربين : احدهما ـ عظيم الشخص ، والآخر ـ عظيم الشأن .

وقوله « إنه لقرآن كريم » معناه إن الذي تلوناه عليـكم لقرآن تفرقون به

(١) ديوانه (السندوبي) ٩٤

بين الحق والباطل « كريم » فالكريم هو الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير ، فلما كان القرآن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بالادلة التي تؤدي إلى الحق في الدين كان كريماً على حقيقة معنى الكريم ، لا على التشبيه بطريق المجاز . والكريم في صفات الله من الصفات النفسية التي يجوز فيها لم يزل كريماً ، لأن حقيقته تقتضي ذلك من جهة ان الكريم الذي من شأنه ان يعطي الخير الكثير ، فلما كان القادر على التكرم هو الذي لا يمنعه مانع من شأنه ان يعطي الخير الكثير صح أن يقال إنه لم يزل كريماً .

وقوله « في كتاب مكنون » قيل : هو اللوح المحفوظ أثبت الله تعالى فيه القرآن والمكنون المصون .

وقوله « لا يمسه إلا المطهرون » قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : لا يمس الكتاب الذي في السماء إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة - في قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وجابر وابن زيد وأبي نهيد ومجاهد . وقيل « لا يمسه إلا المطهرون » في حكم الله . وقد استدل بهذه الآية على أنه لا يجوز للجنب والحائض والمحدث أن يمسوا القرآن ، وهو المكتوب في الكتاب الذي فيه القرآن أو اللوح . وقال قوم : إنه لا يجوز لهم ان يمسوا الكتاب الذي فيه ، ولا أطراف او راقه ، وحملوا الضمير على انه راجع إلى الكتاب وهو كل كتاب فيه القرآن . وعندنا إن الضمير راجع إلى القرآن . وإن قلنا إن الكتاب هو اللوح المحفوظ ، فلذلك وصفه بأنه مصون ، ويبين ما قلناه قوله « تنزيل من رب العالمين » يعني هذا القرآن تنزيل من رب العالمين أنزله الله الذي خلق الخلائق ودبرهم على ما أراد .

قوله تعالى :

﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ

أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ
تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥)
فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧)
فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩)
وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ
الْيَمِينِ ﴾ (٩١).

إثنا عشرة آية شامي، واحدى عشرة فيما عداه، عد الشاميون «وروح وريحان» ولم يعده الباقون.

قرأ يعقوب «فروح وريحان» بضم الراء. الباقون بفتحها، وهما لغتان. وقال الزجاج: الروح بفتح الراء معناه الراحة وبالضم معناه حياة دائمة لاموت معها.

يقول الله تعالى مخاطباً المكلفين على وجه التقريع لهم والتوبيخ بصورة الاستفهام «أفبهذا الحديث» الذي حدثناكم به وأخبرناكم به من حوادث الامور «أنتم مدهنون» قال ابن عباس: معنى مدهنون مكذبون. وقال مجاهد: معناه تريدون أن تمالؤهم فيه وتركنوا اليهم لأنه جريان معهم في باطلهم. وقيل: معناه منافقون في التصديق بهذا الحديث وسماه الله تعالى حديثاً كما قال «الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً» (١) ومعناه معنى الحدوث شيئاً بعدشيء ونقيض (حديث) قديم، والمدهن الذي يجري في الباطل على خلاف الظاهر، كالدهن في سهولة ذلك

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٢٣

عليه والاسراع فيه ، أدهن يدهن إدهاناً وداهنه مداهنة مثل نافقه منافقة ، وكل مدهن بصواب الحديث مذموم .

وقوله « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » معناه وتجعلون حظكم من الخير الذي هو كالرزق لكم إنكم تكذبون ويجوز شكر رزقكم ، وقال ابن عباس : معناه وتجعلون شكركم،وروي انه كان يقرأ كذلك . وقيل : حظكم من القرآن ـ الذي رزقكم الله ـ التكذيب به ـ في قول الحسن ـ وقيل : إنهم كانوا إذا أمطروا وأخصبوا ، قالوا مطرنا بنؤ كذا ، فأنزل الله تعالى الآية تكذيباً لهم . وكذلك قرأ المفضل عن عاصم « تكذبون » بفتح التاء خفيفاً .

وقوله « فلولا إذا بلغت الحلقوم » قال الحسن : معناه هلا إذا بلغت هذه النفس التي زعمتم أن الله لا يبعثها الحلقوم « وانتم حينئذ تنظرون » أي تنظرون ما ينزل بكم من امر الله قال الزجاج : قوله تعالى « وانتم حينئذ » خطاب لأهل الميت ، وتقديره إذا بلغت الحلقوم وانتم معاشر اهله ترونه على تلك الصورة . ويحتمل ان يكون المراد وأنتم حينئذ تبصرون على ضرب من المجاز . وقوله « ونحن اقرب اليه منكم » معناه إن الله تعالى يراه من غير مسافة بينه وبينه ، فلا شيء اقرب اليه منه ، واقرب من كل من يراه بمسافة بينه وبينه « ولكن لا تبصرون » معناه ولكن لا تعلمون ذلك لجهلكم بالله وبما يجوز عليه ومالا يجوز . ويحتمل أن يكون المراد ولكن لاتبصرون الله ، لأن الرؤية مستحيلة عليه . وقيل معناه : ولكن لا تبصرون الملائكة التي تتولى قبض روحه .

وقوله « فلولا ان كنتم غيرمدينين » معناه هلا إن كنتم غير مجزيين بثواب الله او عقابه على ما تدعونه من إنكار البعث والنشور « ترجعونها » أي تردون هذه النفس إلى موضعها « إن كنتم صادقين » في قولكم وإدعائكم . وحكى الطبري

عن بعض النحويين ان الكلام خرج متوجهاً الى قوم أنكروا البعث ، وقالوا نحن نقدر على الامتناع من الموت ، فقيل لهم : هلا رددتم النفس إذا بلغت الحلقوم إن كنتم صادقين فيما تدعونه . وقال الفراء : جواب (لولا) (ترجعونها) وهو جواب « فلولا إن كنتم غير مدنيين » اجيبا بجواب واحد ، قال ومثله « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب »(١) يعني إن الجواب والخبر فى هذا على قياس واحد ، وإنما جاز ان يجاب معنيان بجواب واحد ، لان كل واحد منهما يوجب ذلك المعنى ، والمعنى فلولا إذا بلغت الحلقوم على ادعائهم انه لا يصح ان يكون القادر على إخراجها قادراً على ردها يلزم ان يكون القادر على ردها غيره ، وكذلك يلزم من قولهم إنه لا يصح ان يقدر على ردها للجزاء ان يكون القادر غيره منهم ومن أشبهاهم . والرجع جعل الشيء على الصفة التي كان عليها قبل ، وهو إنقلابه الى الحال الأولى ، ولو انقلب إلى غيرها لم يكن راجعاً . ووجه إلزامهم على إنكار الجزاء ورجوع النفس الى الدنيا ان إنكار ان يكون القادر على النشأة الأولى قادراً على النشأة الثانية كادعاء ان القادر على الثانية انما هو من لم يقدر على الأولى ، لأن إنكار الاول يقتضي ايجاب الثاني كانكار ان يكون زيد المتحرك حركت نفسه فى اقتضاء ان غيره حركه . ومعنى « غير مدنيين » غير مجزيين . وقيل : معناه غير مملوكين ، والدين الجزاء . ومنه قولهم : كما تدين تدان أي تجزي تجزى والدين العمل الذي يستحق به الجزاء من قوله « ان الدين عند الله الاسلام » (٢) ومنه دين اليهود غير دين النصارى ، وفلان يتدين أي يعمل ما يطلب به الجزاء من الله تعالى ، والعبد مدين ، لانه تحت جزاء

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٨٨ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٩

مولاه ، وإنما يجوز الانقلاب من صفة الى صفة على ان يكون على احدها بجعل جاعل ومن استحق صفة النفس لا لمعنى ولا بالفاعل ، لايجوز ان ينقلب عنها الى غيرها .

وقوله « فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم » اخبار من الله تعالى بما يستحقه المكلفون لمن كان منهم سابقاً الى الخيرات والى افعال الطاعات فله روح وريحان ، وهو الهوى الذي يلذ النفس ويزيل عنها الهم . وقيل : الروح الراحة والريحان : الرزق - في قول مجاهد وسعيد بن جبير - وقال الحسن وقتادة : هو الريحان المشموم ، وكل نبات طيب الريح ، فهو ريحان . وقيل الروح الفرح . وقيل : الروح النسيم الذي تستريح اليه النفس . واصل ريحان روحان ، لأنه من الواو إلا انه خفف ، وأهمل التثقيل المزيادة التي لحقته من الالف والنون - ذكره الزجاج - وقوله « وجنة نعيم » أي ولهذا المقرّب مع الروح والريحان « جنة نعيم » أي بستان ينعم فيها ويلتذ بأنواع الثمار والفواكه فيها .

وقوله « واما ان كان من اصحاب اليمين » وقد فسرنا معناه « فسلام لك من اصحاب اليمين » دخلت كاف الخطاب كما يدخل فى ناهيك به شرفاً ، وحسبك به كرماً أي لا تطلب زيادة جلالة على جلالة ، وكذلك سلام لك منهم أي لا تطلب زيادة على سلامهم جلالة وعظم منزلة . وقال قتادة : معناه فسلام لك ايها الانسان الذي من اصحاب اليمين من عذاب الله وسلمت عليك ملائكة الله . وقال الفراء : وسلام لك إنك من اصحاب اليمين فحذفت إنك . وقيل معناه سلمت مما تكره لانك من اصحاب اليمين . وقال الزجاج : معناه وسلام لك إنك ترى فيهم ما تحب من السلامة ، وذكر اصحاب اليمين فى اول السورة بأنهم « فى سدر مخضود » وذكرهم فى آخرها بأنهم يبشرون بالسلامة من كل ما يكرهون . وقيل : إنما كان التبرك باليمين ، لان العمل يتيسر بها ، واما الشمال فيتعسر العمل بها من

نحو الكتابة والتجارة والاعمال الدقيقة .

قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٩٦) خمس آيات بلاخلاف .

لما اخبر الله تعالى ماللسابقين من انواع الثواب والنعيم ، و بين ما لأصحاب اليمين من الخيرات و الثواب الجزيل ، اخبر بما للكفار المكذبين بيوم الدين المنكرين للبعث والنشور والجزاء بالثواب والعقاب ، فقال « واما إن كان » هذا الانسان المكلف ﴿ من المكذبين ﴾ بتوحيد الله الجاحدين لنبوة نبيه الدافعين للبعث والنشور ﴿ الضالين ﴾ عن طريق الهدى العادلين عنه ﴿ فنزل من حميم ﴾ أي نزلهم الذي أعدلهم من الطعام والشراب من ماء من حميم ﴿ وتصلية جحيم ﴾ أي احراق بنار جهنم ، يقال صلاه الله تصلية إذا ألزمه الاحراق بها ، وتقديره فله نزل من حميم .

وقوله ﴿ إن هذا لهو حق اليقين ﴾ أي هذا الذي اخبرتك به هو الحق الذي لا شك فيه بل هو اليقين الذي لا شبهة فيه وحق اليقين إنما جاز اضافته الى نفسه ، لانها إضافة لفظية جعلت بدلا من الصفة ، لان المعنى إن هذا لهو حق اليقين ، كما قيل هذا نفس الحائط ، بمعنى النفس الحايط ، وجاز ذلك للايجاز مع مناسبة الاضافة للصفة . واما قولهم ﴿ رجل سوء ﴾ فكقولك رجل سوء وفساد . وقيل معنى حق اليقين حق الأمر اليقين .

وقوله ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أمر من الله تعالى لنبيه ان ينزه الله تعالى

عما لا يليق به ويذكره باسمه العظيم . وقيل : انه لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ (ضعوها فى ركوعكم) وقولوا (سبحان ربي العظيم) والعظيم فى صفة الله معناه ان كل شيء سواه مقصر عن صفته بأنه قادر عالم غني إذ هو قادر لا يعجزه شيء ولا يساويه شيء فى مقدوراته ، وعالم لا يخفى عليه شيء على كل وجوه التفصيل ، وغني بنفسه عن كل شيء سواه لا يجوز عليه الحاجة بوجه من الوجوه ولا على حال من الاحوال .

٥٧ ـ سورة الحديد

مدنية بلا خلاف ، وهي تسع وعشرون آية في الكوفي والبصري وثمان وعشرون في المدنيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (٥) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخبراً ان جميع ما في السموات والارض يسبح له . وقد بينا في غير موضع معنى التسبيح وانه التنزيه له عن الصفات التي لا تليق به . فمن كان

من العقلاء عارفاً به فانه يسبحه لفظاً ومعنى ، وما ليس بعاقل من سائر الحيوان والجمادات فتسبيحها ما فيها من الآية الدالة على وحدانيته وعلى الصفات التي باين بها جميع خلقه ، وما فيها من الحجج على أنه لا يشبه خلقه وأن خلقه لا يشبهه، ذلك بالتسبيح . وإنما كرر ذكر التسبيح في غير موضع من القرآن لانعقاده لمعان مختلفة لا ينوب بعضها مناب بعض ، فمن ذلك قوله « وإن من شيء إلا يسبح بحمده »(١) فهذا تسبيح بحمد الله وأما « سبح لله ما في السموات والارض » فهو تسبيح بالله « العزيز الحكيم » فكل موضع ذكر فيه فلعقده بمعنى لا ينوب عنه غيره منابه ، وإن كان مخرج الكلام على الاطلاق « والعزيز الحكيم » معناه المنيع بأنه قادر لا يعجزه شيء العليم بوجوه الصواب في التدبير ، ولا تطلق صفة « العزيز الحكيم » إلا فيه تعالى ، لانه على هذا المعنى .

وقوله « له ملك السموات والارض » اخبار بأن له التصرف في جميع ما في السموات والارض وليس لاحد منعه منه ولا أن احداً ملكه ذلك وذاك هو الملك الاعظم ، لان كل ما عداه فما يملكه ، فان الله هو الذي ملكه إياه ، وله منعه منه .

وقوله « يحيي ويميت » معناه يحيي الموات ، لأنه يجعل النطفة وهي جماد حيواناً ويحييها بعد موتها يوم القيامة، ويميت الاحياء إذا بلغوا آجالهم التي قدرها لهم « وهو على كل شيء قدير » أي كل ما يصح ان يكون مقدوراً له ، فهو قادر عليه .

وقوله « هو الاول والآخر » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال البلخي إنه كقول القائل : فلان اول هذا الأمر وآخره وظاهره وباطنه أي عليه يدور الأمر وبه يتم .

الثاني ـ قال قوم : هو أول الموجودات لانه قديم سابق لجميع الموجودات وما

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٤٤

عداه محدث . والقديم يسبق المحدث بما لا يتناهى من تقدير الاوقات . والآخر بعد فناء كل شيء ، لانه تعالى يفني الأجسام كلها وما فيها من الاعراض ، ويبقى وحده ففي الآية دلالة على فناء الاجسام .

وقوله « الظاهر والباطن » قيل في معناه قولان :

احدهما - انه العالم بما ظهر وما بطن .

الثاني - انه القاهر لما ظهر وما بطن من قوله تعالى « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين » (١) ومنه قوله « ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٢) وقيل : المعنى إنه الظاهر بادلته الباطن من أحساس خلقه « وهو بكل شيء عليم » ما يصح ان يكون معلوماً ، لانه عالم لنفسه .

ثم اخبر تعالى عن نفسه فقال « هو الذي خلق السموات والارض » أي اخترعها وانشأها « في ستة ايام » لما في ذلك من اعتبار الملائكة بظهور شيء بعد شيء من جهة ولما في الاخبار به من المصلحة المكلفين ولو لا ذلك لكان خلقها في لحظة واحدة ، لأنه قادر على ذلك من حيث هو قادر لنفسه .

وقوله « ثم استوى على العرش » أي استولى عليه بالتدبير قال البعيث .

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق (٣)

وهو بشر بن مروان ، لما ولاه اخوه عبد الملك بن مروان . وقيل : معناه ثم عمد وقصد الى خلق العرش ، وقد بينا ذلك فيما تقدم . ثم قال « يعلم ما يلج في الارض » أي ما يدخل في الارض ويستتر فيها ، فالله عالم به لا يخفى عليه منه شيء « وما يخرج منها » أي ويعلم ما يخرج من الارض من سائر النبات والحيوان والجماد

(١) سورة ٦١ الصف آية ١٤   (٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٨٨

(٣) مر في ١/ ١٢٥ ، و ٢ /٣٩٦و٤ | ٤٥٢ و٥ | ٣٨٦

ولا يخفى عليه شيء « وما ينزل من السماء » أي ويعلم ما ينزل من السماء من مطر وغير ذلك من أنواع ما ينزل منها لا يخفى عليه شيء منها « وما يعرج فيها » أي ويعلم ما يعرج في السماء من الملائكة وما يرفع اليها من أعمال الخلق « وهومعكم» بمعنى بالعلم لا يخفى عليه حالكم وما تعملونه « والله بما تعملون بصير » من خير وشر أي عالم به .

ثم قال « له ملك السموات والارض » أي له التصرف فيهما على وجـه ليس لاحد منعه منه « واليه ترجع الامور » يوم القيامة . والمعنى أن جميع من ملكه شيئاً في دار الدنيا يزول ملكه ولا يبقى ملك أحـد ، ويتفرد تعالى بالملك ، فذلك معنى قوله ﴿ واليه ترجع الامور ﴾ كما كان كذلك قبل أن يخلق الخلق .

قولـه تعـالى :

﴿ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٦) آمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ

دَرَجَةً مِنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابو عمرو وحده ﴿ وقد اخذ ميثاقكم ﴾ بضم الألف ، على ما لم يسم فاعله . الباقون ـ بالفتح ـ بمعنى واخذ الله ميثاقكم . وقرأ ابن عامر ووحده ﴿ وكل وعد الله الحسنى ﴾ بالرفع ، وهي في مصاحفهم بلا الف جعله مبتدءاً وخبراً وعدّى الفعل الى ضميره ، وتقديره : وكل وعده الله الحسنى ، كما قال الراجز :

قد اصبحت أم الخيار تدعي علي ذنباً كله لم أصنع

أي لم اصنعه ، فحذف الهاء . الباقون بالنصب على أنه مفعول ﴿ وعد الله ﴾ وتقديره وعد الله كلاً الحسنى ، ويكون (الحسنى) في موضع نصب بأنه مفعول ثان وهو الأقوى .

معنى قوله ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي إن ما ينقص من الليل يزيده في النهار ، وما ينقص من النهار يزيده في الليل حسب ما قدره على علم من مصالح عباده . وقيل : إن معناه إن كل واحد منهما يتعقب صاحبه ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ ومعناه هو عالم بأسرار خلقه وما يخفونه في قلوبهم من الضمائر والاعتقادات لا يخفى عليه شيء منها .

ثم امر تعالى المكلفين فقال ﴿ آمنوا بالله ﴾ معاشر العقلاء وصدقوا نبيه وأقروا بوحدانيته واخلاص العبادة له ، وصدقوا رسوله ، واعترفوا بنبوته ﴿ وانفقوا ﴾ في طاعة الله والوجوه التي أمركم الله بالانفاق فيها ﴿ مما جعلكم مستخلفين

فيه ﴾ قال الحسن : معناه ما استخلفكم فيه بوراثتكم اياه عمن كان قبلكم .

ثم بين ما يكافيهم به إذا فعلوا ذلك ، فقال ﴿ فالذين آمنوا منكم ﴾ بما أمرتهم بالايمان به ﴿ وانفقوا ﴾ مما دعوتهم الى الانفاق فيه ﴿ لهم مغفرة ﴾ من الله لذنوبهم ﴿ واجر كبير ﴾ أي وثواب عظيم .

ثم قال الله تعالى على وجه التوبيخ لهم ﴿ وما لكم ﴾ معاشر المكلفين ﴿ لا تؤمنون بالله ﴾ وتعترفون بوحدانيته واخلاص العبادة له ﴿ والرسول يدعوكم ﴾ إلى ذلك ﴿ لتؤمنوا بربكم ﴾ أي لتعترفوا به وتقروا بوحدانيته ﴿ وقد اخذ ميثاقكم ﴾ معناه إنه لما ذكر تعالى دعاء الرسول الى الايمان بين انه قد اخذ ميثاقكم ايضاً به ، ومعنى اخذ ميثاقكم انه نصب لكم الأدلة الدالة الى الايمان بالله ورسوله ورغبكم فيه وحثكم عليه وزهدكم في خلافه ، ومعنى ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ اي إن كنتم مؤمنين بحق فالايمان قد ظهرت أعلامه ووضحت براهينه .

ثم قال ﴿ هو الذي ينزل على عبده ﴾ يعني ان الله تعالى هو الذي ينزل على محمد صلى الله عليه وآله ﴿ آيات بينات ﴾ أي حججاً وادلة واضحة وبراهين نيرة ﴿ ليخرجكم من الظلمات الى النور ﴾ ومعناه فعل بكم ذلك ليخرجكم من الضلال الى الهدى - في قول مجاهد وغيره - وفي ذلك دلالة على بطلان قول المجبرة : إن الله تعالى خلق كثيراً من خلقه ليكفروا به ويضلوا عن دينه . وإنما اخرجهم من الضلال الى الهدى بما نصب لهم من الأدلة التي إذا نظروا فيها افضى بهم الى الهدى والحق ، فكأنه اخرجهم من الضلال ، وإن كان الخروج من الضلال الى الهدى من فعلهم ، وسمى الدلالة نوراً ، لانه يبصر بها الحق من الباطل ، وكذلك العلم ، لانه يدرك به الامور كما تدرك بالنور ، فالقرآن بيان الاحكام على تفصيلها ومراتبها .

وقوله ﴿ إن الله بكم لرؤف رحيم ﴾ اخبار منه تعالى أنه بخلقه رؤف رحيم .

والرأفة والرحمة من النظائر .

وقوله « وما لكم أن لا تنفقوا فى سبيل الله » استبطأهم فى الانفاق فى سبيل الله الذي رغبهم بالانفاق فيها .

وقوله « ولله ميراث السموات والارض » قد بينا أن جميع ما يملكونه فى الدنيا يرجع الى الله ، ويزول ملكهم عنه ، فان أنفقوه كان ثواب ذلك باقياً لهم .

وقوله «لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل ... » بين الله تعالى أن الانفاق قبل الفتح فى سبيل الله إذا انضم اليه الجهاد فى سبيله أكثر ثواباً عند الله ، والمراد بالفتح فتح مكة . وفي الكلام حذف ، لأن تقديره لا يستوى هؤلاء مع الذين أنفقوا بعد الفتح ، والكلام يدل عليه . وإنما امتنع مساواة من انفق بعده لمن انفق قبله ، لعظم العناية الذي لا يقوم غيره مقامه فيه ، فى الصلاح فى الدين وعظم الانتفاع به ، كما لا يقوم دعاء غير النبي صلى الله عليه وآله الى الحق مقام دعائه ولا يبلغه أبداً ، وليس فى الآية دلالة على فضل انسان بعينه ممن يدعى له الفضل ، لأنه يحتاج أن يثبت ان له الانفاق قبل الفتح ، وذلك غير ثابت . ويثبت أن له القتال بعده. ولما يثبت ذلك ايضاً فكيف يستدل به على فضله .

فأما الفتح فقال الشعبي : أراد فتح الحديبية . وقال زيد بن اسلم ، وقتادة : أراد به فتح مكة . ثم سوى تعالى بين الكل فى الوعد بالخير والجنة والثواب فيها ـ وإن تفاضلوا فى مقاديره ـ فقال « وكلا وعد الله الحسنى » يعني الجنة والثواب فيها « والله بما تعملون خبير » لا يخفى عليه شيء من ذلك من انفاقكم وقتالكم وغير ذلك فيجازيكم بحسب ذلك ،

قوله تعالى :

﴿ مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللهَ قَرْضاً حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ

أجرٌ كريمٌ (١١) يومَ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورُهم
بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جناتٌ تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم (١٢) يوم يقول
المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم
قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسورٍ له بابٌ
باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب (١٣) ينادونهم ألم
نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم
وارتبتم وغرتكم الاماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله
الغرور (١٤) فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا
مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير ﴾ (١٥) .

خمس آيات كوفي وأربع فيما عداه ، عد الكوفيون « من قبله العذاب » ولم يعده الباقون

قرأ ابن كثير « فيضعفه » بالتشديد وضم الفاء ، وبه قرأ ابن عامر إلا انه فتح الفاء . وقد مضى تفسيره في البقرة ، وقرأ حمزة وحده « الذين آمنوا انظرونا » بقطع الهمزة وكسر الظاء . الباقون بوصلها وضم الظاء . وقرأ ابو جعفر وابن عامر ويعقوب وسهل « فاليوم لا تؤخذ » بالتاء لتأنيث الفدية . الباقون - بالياء - لان التأنيث ليس بحقيقي . وقد فصل بين الفعل والفاعل بـ (منكم) .

قال الحسن : معنى قوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ هو التطوع في جميع الدين . وقال غيره : معناه من ذا الذي ينفق في سبيل الله إنفاقاً كالقرض

والقرض اخذ الشيء من المال باذن صاحبه بشرط ضمان رده ، وأصله القطع ، فهو قطعه عن مالكه باذنه لانفاقه على رد مثله . والعرب تقول : لي عندك قرض صدق وقرض سوء إذا فعل به خيراً او شراً قال الشاعر :

ونجزي سلامان بن مفرح قرضها بما قدمت أيديهم وازلت (١)

وقوله ﴿ فيضاعفه له ﴾ فالمضاعفة الزيادة على المقدار مثله او أمثاله ، وقد وعد الله بالحسنة عشر امثالها ، والانفاق في سبيل الله حسنة فهو داخل في هذا الوعد ومن شدد العين ، فلان الله وعد بالحسنة عشر أمثالها . ومن ضم الفاء جعله عطفاً على من ذا الذي يقرض فيضاعفه او على تقدير فهو يضاعفه . ومن نصب فلأنه جواب الاستفهام .

وقوله ﴿ وله أجر كريم ﴾ معناه إن له مع مضاعفة ما أنفقه اجراً زائداً كريمًا ، فالكريم الذي من شأنه ان يعطي الخير العظيم ، فلما كان الأجر يعطي النفع العظيم ،كان الأجر كريمًا ، لانه يوجدشرف النفع بما لا يلحقه ما ليس بأجر .

وقوله ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم ﴾ فـ (يوم) يتعلق بقوله ﴿ لهم اجر كريم ... يوم ترى ﴾ قال قتادة : معناه إنه يسعى نورهم أي الضياء الذي يرونه﴿بين ايديهم و بأيمانهم ﴾ وقال الضحاك : نورهم هداهم . قال ﴿ و بأيمانهم ﴾ كتبهم . وقيل ﴿ و بأيمانهم ﴾ معناه وعن أيمانهم . وقيل : وفي أيمانهم . وقوله ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار ﴾ أي تجري تحت اشجارها الانهار ، أي يقال لهم : الذي تبشرون به اليوم جنات تجرى من تحتها الانهار ﴿ خالدين فيها ﴾ أى مؤبدين لا يفنون .

ثم قال ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ فعظم الفوز والفلاح يتضمن اجلال النعمة

(١) قائله الشنفري ، تفسير الطبرى ٢٧ / ١١٥

والاكرام مع الحمد بالاحسان على طريق الدوام ، فكل ما فعل من أجل الثواب فالنعمة به أجل والاحسان به اعظم .

وقوله ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴾ يجوز أن يتعلق (يوم) بقوله ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ... يوم ﴾ أي في يوم . ويجوز ان يكون على تقدير واذكر يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴿ الذين آمنوا ﴾ ظاهراً وباطناً ﴿ انظرونا ﴾ فمن قطع الهمزة اراد أخرونا ولا تعجلوا علينا واستأخروا نستضيء بنوركم . ومن وصلها اراد ينظرون . وقيل : انظرني ايضاً بمعنى انتظرني ، قال عمرو ابن أم كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا　　وانظرنا نخبرك اليقينا (١)

ويقال : انظرني بمعنى أخرني . وقوله ﴿ نقتبس من نوركم ﴾ فالنور الضياء ، وهو ضد الظلمة ، وبالنور يستضاء في البصر وفي الامور ، وفي البصر نور وكذلك في النار . ومعنى ﴿ نقتبس ﴾ نأخذ قبساً من نوركم ، وهو جذوة منه فقالوا لهم ﴿ ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ أي ارجعوا الى خلفكم فاطلبوا النور فانه لانور لكم عندنا ، فاذا تأخروا ضرب الله بينهم بسور . ومن وصلها أراد انتظرونا .

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ فضرب بينهم ﴾ يعني بين المؤمنين وبين المنافقين ﴿ بسور ﴾ والباء زائدة وهو المضروب بين الجنة والنار ﴿ له باب باطنه فيه الرحمة ﴾ لأن فيه الجنة ﴿ وظاهره من قبله العذاب ﴾ يعني من قبل المنافقين العذاب ، لكون جهنم هناك .

ثم حكى الله تعالى أنهم ﴿ ينادونهم ﴾ يعني المنافقون فيقولون لهم ﴿ ألم نكن معكم ﴾ في دار الدنيا ومخالطين لكم ومعاشرين ، فيجيبهم المؤمنون فيقولون ﴿ بلى ﴾ كنتم معنا ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ أى تعرضتم للفتنة وتربصتم بالمؤمنين

(١) تفسير القرطبي ١٧ / ٢٤٥ والطبري ٢٧ / ١١٦

الدوائر ﴿ وارتبتم وغرتكم الأماني ﴾ أى شككتم فيما اخبركم به رسولنا وغركم ما كنتم تمنون حتى طمعتم في غير مطمع ﴿ حتى جاء امر بالله ﴾ في نصرة نبيه والمؤمنين معه وغلبته إياكم ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ يعني الشيطان وسمي بذلك لكثرة ما يغر الناس. ومن غر غيره مرة واحدة فهو غار . وقرىء بالضم ، وهو كل ما غر من متاع الدنيا ـ ذكره الزجاج ـ والغرور بضم الغين المصدر . ثم يقول لهم الملائكة او المؤمنون ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ أى ما تفدون به أنفسكم لا يقبل منكم ﴿ ولا ﴾ يؤخذ ﴿ من الذين كفروا ﴾ الفداء ﴿ ومأواكم ﴾ أى مقركم وموضعكم الذى تأوون اليه « النار هي مولاكم » أى هي اولى بكم « وبئس المصير » أى بئس المأوى والموضع والمرجع اليه قال لبيد :

قعدت كلا الفرجين تحسب انه　　　مولى المخافة خلفها وأمامها (١)

أى تحسب أن كليهما اولى بالمخافة .

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) إِعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ

(١) مر فى ٥ | ١٤٢

وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ (١٩) إِعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ ﴿ وما نزل من الحق ﴾ بتخفيف الزاي نافع وحفص عن عاصم، لانه يقع على القليل والكثير، ويكون النزول مضافاً الى الحق. الباقون بالتشديد بمعنى أن الله هو الذى نزل الحق شيئاً بعد شيء. وقرأ ابن كثير وابو بكر عن عاصم وابن زيد ﴿ المصدقين والمصدقات ﴾ بتخفيف الصاد يذهبون إلى التصديق الذى هو خلاف التكذيب، ومعناه إن المؤمنين والمؤمنات. الباقون - بتشديد الصاد - يذهبون أن الأصل المتصدقين، فادغمت التاء في الصاد لتقارب مخرجها وشدد.

ومعنى قوله ﴿ الم يأن ﴾ ألم يحن ﴿ للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ أى تخضع لسماع ذكر الله ويخافون عقابه، وينبغي ان يكون هذا متوجهاً الى طائفة مخصوصة لم يكن فيهم الخشوع التام حثوا على الرقة والرحمة. وأما من كان ممن وصفه الله بالخشوع والرحمة والرقة فطبقة فوق هؤلاء المؤمنين، ويقال أنى يأني أنا إذا حان، ومنه قوله ﴿ غير ناظرين إناه ﴾ (٢) أى منتهاه. والخشوع لين القلب

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٥٣

للحق بالانقياد له ، ومثله الخضوع وضده قسوة القلب . والحق ما دعا اليه العقل وهو الذى من عمل به نجا ومن عمل بخلافه هلك ، والحق مطلوب كل عاقل في نظره وإن اخطأ طريقه ، والقسوة غلظ القلب بالجفاء عن قبول الحق ، قسا قلبه يقسو قسوة ، فهو قاس .

﴿ وما نزل من الحق ﴾ من خفف اضاف النزول إلى الحق ومن شدد اراد ما نزله الله من الحق ﴿ ولا يكونوا ﴾ أى وألا تكونوا ﴿ كالذين اوتوا الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ من قبل ﴾ أى من قبلهم فيكون موضعه نصباً . ويحتمل ان يكون مجزوماً على النهي ﴿ فطال عليهم الامد ﴾ يعني المدة والوقت ، فان أهل الكتاب لما طال عليهم مدة الجزاء على الطاعات ﴿ فقست قلوبهم ﴾ حتى عدلوا عن الواجب وعملوا بالباطل . وقيل : معناه طال عليهم الأمد ما بين زمانهم وزمن موسى . وقيل :طال عليهم الامد ما بين نبيهم وزمن موسى . وقيل طال أمد الآخرة ﴿ فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ خارجون عن طاعة الله تعالى الى معصيته فلا تكونوا مثلهم فيحكم الله فيكم بمثل ما حكم فيهم .

ثم قال ﴿ اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها ﴾ بالجدب والقحط فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الايمان بعد موته بالضلال بأن يلطف له ما يؤمن عنده .

ثم قال ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ يعني الحجج الواضحات والدلائل البينات ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى لكي تعقلوا وترجعوا إلى طاعته وتعملوا بما يأمركم به .

وقوله ﴿ إن المصدقين والمصدقات ﴾ من شدد أراد المتصدقين إلا انه ادغم التاء في الصاد ، ومن خفف اراد الذين صدقوا بالحق ﴿ واقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أى انفقوا مالهم في طاعة الله وسبيل مرضاته . ثم بين ما أعد لهم من الجزاء فقال

﴿ يضاعف لهم ﴾ أي يجازون بأمثال ذلك . ومن شدد العين اراد التكثير ، لأن الله تعالى يعطي بالواحد عشراً إلى سبعين إلى سبع مئة . ثم قال « ولهم أجر كريم » أي لهم جزاء وثواب مع إكرام الله إياهم وإجلاله لهم . ثم قال ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ﴾ يعني الذين صدقوا بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وأقروا بنبوة رسله ﴿ أولئك هم الصديقون ﴾ الذين صدقوا بالحق . ثم قال مستأنفاً ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ قال ابن عباس ومسروق وابو الضحى والضحاك : هو منفصل مما قبله مستأنف والمراد بالشهداء الانبياء ﷺ ويجوز ان يكون معطوفاً على ما تقدم وتقديره أولئك هم الصديقون وأولئك هم الشهداء ، ويكون لهم أجرهم ونورهم للجماعة من الصديقين والشهداء ، فكأنه قال : كل مؤمن شهيد على ما رواه البراء بن عازب عن النبي ﷺ وعن عبد الله بن مسعود ومجاهد ، فيكون التقدير أولئك هم الصديقون عند ربهم والشهداء عند ربهم .

ثم قال ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ أي لهم ثواب طاعاتهم ونور إيمانهم الذي يهتدون به إلى طريق الجنة . ثم قال ﴿ والذين كفروا ﴾ بالله ، جحدوا توحيده وكذبوا رسله « وكذبوا بآياتنا » يعني حججه وبيناته « أولئك اصحاب الجحيم » يعني إنهم يلزمهم الله الجحيم فيبقون فيها دائمين . ثم زهد المؤمنين فى الدنيا والسكون إلى لذاتها ، فقال ﴿ اعلموا ﴾ معاشر العقلاء والمكلفين « إنما الحياة الدنيا » يعني فى هذه الدنيا « لعب ولهو » لانه لا بقاء لذلك ولا دوام وإنه يزول عن وشيك كما يزول اللعب واللهو « وزينة » تتزينون بها فى الدنيا « وتفاخر بينكم » يفتخر بعضكم على بعض « وتكاثر فى الاموال والأولاد » أي كل واحد يقول مالي أكثر وأولادي اكثر . ثم شبه ذلك بأن قال مثله فى ذلك « كمثل غيث » يعني مطراً « اعجب الكفار نباته » أي اعجب الزراع ما نبت بذلك الغيث فالكفار الزراع . وقال الزجاج : ويحتمل ان يكون المراد الكفار

بالله لأنهم اشد إعجاباً بالدنيا من غيرهم «ثم يهيج» أي ييبس فيسمع له لما تدخله الريح صوت الهائج «فتراه مصفراً» وهو إذا قارب اليبس ﴿ثم يكون حطاماً﴾ أي هشيماً بأن يهلكه الله مثل افعال الكافر بذلك، فانها وإن كانت على ظاهر الحسن فان عاقبتها الى هلاك ودمار مثل الزرع الذي ذكره. ثم قال وله مع ذلك «وفي الآخرة» ﴿عــذاب شديد﴾ من عذاب النار للعصاة والكفار «ومغفرة من الله ورضوان» للمؤمنين المطيعين. ثم قال «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» معناه العمل للحياة الدنيا متاع الغرور وإنها كهذه الاشياء التي مثل بها في الزوال والفناء، والغرور - بضم الغين - ما يغر من متاع الدنيا وزينتها.

قولــه تعــالى :

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٤) لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ

لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو « بما أتاكم » مقصور يعني بما جاءكم . الباقون بالمد يعني بما اعطاكم وقرأ اهل المدينة واهل الشام «فان الله الغني الحميد» بلا فصل لانهم وجدوا في مصاحفهم كذلك ، والباقون بأثبات (هو) ، كذلك هو في مصاحفهم فمن اسقط (هو) جعل (الغني) خبر (ان) و (الحميد) نعته ومن زاد (هو) احتمل شيئين :

احدهما - ان يجعل (هو) عماداً أو صلة زائدة .

والثاني - أن يجعله ابتداء ، و (الغني) خبره ، والجملة في موضع خبر (إن) مثل قوله « ان شانئك هو الابتر » (١) يقول الله تعالى آمراً للعقلاء المكلفين وحاثاً لهم على الطاعات ، « سابقوا إلى مغفرة من ربكم » والمسابقة طلب العامل التقدم في عمله قبل عمل غيره بالاجتهاد فيه فعلى كل مكلف الاجتهاد في تقديم طاعة الله على كل عمل كما يجتهد المسابق لغيره والمسابقة الى المغفرة بأن يتركوا المعاصي ويفعلوا الطاعات

وقوله « وجنة » معناه سابقوا إلى جنة أي الى استحقاق ثواب جنة « عرضها كعرض السماء والارض » في السعة . وقال الحسن : ان الله تعالى يفني الجنة ويعيدها على ما وصفه في طولها وعرضها ، فبذلك صح وصفها بأن عرضها كعرض السماء والارض . وقال غيره إن الله تعالى قال « عرضها كعرض السماء » الدنيا « والارض » والجنة المخلوقة في السماء السابعة فلا تنافي بين ذلك ، وإذا كان العرض بهذه السعة فالطول اكثر منه او مثله .

وقوله « اعدت » اشتقاقه من العدد والاعداد ، وضع الشيء لما يكون في

(١) سورة ١٠٨ الكوثر آية ٣

المستقبل على ما يقتضيه من عدد الأمر الذي له ، والمعنى أن هذه الجنه وضعت، وادخرت للذين آمنوا بالله ورسوله ، فيوحدوا الله ويصدقوا رسله . ثم قال « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » أي هذا الذي ذكره بأنه معد للمؤمن فضل من الله يؤتيه من يشاء اي يعطيه من يشاء « والله ذو الفضل العظيم » فالفضل والافضال والتفضل واحد وهو النفع الذى كان للقادر ان يفعله بغيره وله ان لا يفعله .

ثم قال تعالى « ماأصاب من مصيبة » اى ليس يصيب احداً مصيبة «في الأرض» في ماله « ولا في انفسكم إلا » وهو مثبت مذكور « في كتاب » يعني اللوح المحفوظ « من قبل ان نبرأها » ، فالضمير راجع الى النفس كأنه قال : من قبل أن نبرء النفس ويحتمل أن يكون راجعاً الى المصائب من الأمراض والفقر والجدب والغم بالثكل .

ثم قال « ان ذلك » يعني اثبات ذلك على ما ذكره « على الله يسير » أى سهل غير عسير . بين تعالى لم فعل ذلك فقال ﴿ لكيلا تأسوا ﴾ أى لا تحزنوا ﴿ على ما فاتكم ﴾ من لذات الدنيا وزينتها ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ منها على وجـــه البطر والاشر ، فمن قصر أراد بما جاءكم ، ومن مدّ اراد بما اعطاكم . ثم قال ﴿ والله لا يحب كل مختال ﴾ أى متجبر ﴿ فخور ﴾ على غيره على وجه التكبر عليه ، فان من هذه صفته لا يحبه الله . وفرح البطر مذموم . وفرح الاغتباط بنعم الله محمود . كما قال تعالى ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ والتأسي تخفيف الحزن بالمشاركة في حاله .

ثم بين صفة المختال الفخور ، فقال ﴿ الذين يبخلون ﴾ بما اوجب الله عليهم من الحقوق فى أموالهم ﴿ ويأمرون الناس بالبخل ﴾ ايضاً . وقيل : نزلت فى اليهود الذين بخلوا بذكر صفة النبي على ما وجدوه فى كتبهم وأمروا غيرهم بذلك . والبخل والبخل لغتان ، وقرىء بهما . وهو منع الواجب .

ثم قال ﴿ ومن يتول ﴾ يعني ومن يعرض عما ذكره الله وخالف ﴿ فان الله

هو الغني الحميد ﴾ ومعناه إنه تعالى الغني عن جميع خلقه محمود في جميع افعاله ، فمنع هؤلاء حقوق الله لا يضره ، وإنما ضرر ذلك عليهم .

ثم اقسم تعالى فقال ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ يعني الدلائل والحجج الواضحة﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾أي مكتوباً فيه ما يحتاج الخلق اليه كالتوراة والانجيل والقرآن ﴿ والميزان ﴾ أي وانزلنا الميزان وهو ذو الكفتين . وقيل : المراد به العدل ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ يعني بالعدل في الامور ﴿ وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ إخبار من الله تعالى انه الذي انزل الحديد . وروي ان الله تعالى أنزل مع آدم العلاءة - يعني السندان والمطرقة والكلبتين - من السماء ، وهذا صحيح ولا بد منه ، لان الواحد منا لا يمكنه أن يفعل آلات من حديد وغيرها إلا بآلات قبلها ، وينتهي إلى آلات يتولى الله صنعها تعالى الله علواً كبيراً .

وقوله ﴿ فيه بأس شديد﴾أي يمتنع به ويحارب به ﴿ ومنافع للناس﴾أي وفيه منافع للناس كأدواتهم وآلاتهم وجميع ما يتخذ من الحديد من آلات ينتفع بها كالسكين وغيرها ﴿وليعلم الله من ينصره ورسله﴾أي فعلت ذلك لما لهم فيه من النفع به ، وليعلم الله من ينصره بنصرة موجودة ، ومن يجاهد مع نبيه جهاداً موجوداً ﴿ بالغيب ﴾ أي ينصر الله ورسله ظاهراً وباطناً ﴿ إن الله قوي عزيز ﴾ أي قادر على ما يصح أن يكون مقدوراً له لا يقدر احد على قهره ولا على منعه . وقيل : في جواب قوله ﴿ الذين يبخلون ﴾ قولان :

أحدها - إنه محذوف كما حذف في قوله ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ (١) وتقديره الذين يبخلون فهم يستحقون العذاب والعقوبة .

وقيل : أيضاً جوابه جواب قوله ﴿ ومن يتولى ﴾ فعطف بجزاءين على جزاء

(١) سورة ١٣ الرعد آية ٣٣

واحد، وجعل جزاءهما واحد، كما تقول: إن تقم وتحسن آتك إلا انه حذف الجواب

قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٢٩) .

خمس آيات بصرى وأربع فيما عداه، عد البصريون «وآتيناه الانجيل» ولم يعده الباقون .

يقول الله تعالى مقسما إنه ارسل نوحاً نبياً الى قومه، وإبراهيم ايضاً أرسله إلى قومه وذكر انه تعالى جعل في ذريتهما - يعني في ذرية نوح وإبراهيم أيضاً بعد ما أرسلهما الى قومهما «النبوة والكتاب» لان الانبياء كلهم من نسلهما. وعليهم أنزل الكتاب .

ثم أخبر عن حال ذريتهما فقال « فمنهم مهتد » إلى طريق الحق واتباعه « وكثير منهم فاسقون » أي خارجون عن طاعة الله إلى ذل معصيته . ثم اخبر تعالى إنه قفى على آثار من ذكرهم برسل أخر الى قوم آخرين . والتقفية جعل الشيء فى أثر الشيء على الاستمرار فيه : ولهذا قيل لمقاطع الشعر قوافي إذا كانت تتبع البيت على أثره مستمرة فى غيره على منهاجه ، فكأنه قال : وأنفذنا بعدهم بالرسل رسولا بعد رسولهم « وقفينا بعيسى بن مريم » بعدهم « وآتيناه » أي اعطينا عيسى ابن مريم « الانجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » وقيل فى معناه قولان :

أحدها ـ إنه جعل فى قلوبهم الرأفة والرحمة بالأمر به والترغيب فيه . ثم أخبر انه رزق الرأفة والرحمة . قال ابو زيد : يقال رؤفت بالرجل ورأفت به رأفة ـ بفتح الهمزة ، وسكونها ـ .

الثاني ـ إنه خلق فى قلوبهم الرأفة والرحمة . وإنما مدحهم على ذلك ، لانهم تعرضوا لهما .

وقوله « ورهبانية ابتدعوها » يعني ابتدعوا الرهبانية ابتدعوها وهي الخصلة من العبادة يظهر فيها معنى الرهبة إما فى لبسه أو إنفراده عن الجماعة أو غير ذلك من الامور التي يظهر فيها نسك صاحبها ، ومعنى الآية ابتدعوا رهبانية لم تكتب عليهم . ثم قال « ما كتبناها عليهم » الرهبانية « إلا ابتغاء رضوان الله » فالثانية غير الأولى إلا انه لما اتفق الاسمان فيهما كنى عنهما بما تقدم ، وقام إعادة لفظها مقامها كما قال حسان :

أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء (١)

فالتقدير ومن يمدحه . والابتداع ابتداء أمر لم يجد فيه على مثال ، والبدعة

(١) مر في ١ | ٤١٠ و ٨ | ١٩٨

إحداث أمر على خلاف السنة . وقال قتادة : الرهبانية التي أبتدعوها رفض النساء واتخاذ الصوامع . وقال قتادة وابن زيد : تقديره ورهبانية ما كتبناها عليهم إلا أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله « فمارعوها حق رعايتها » وقال قوم : الرهبانية التي ابتدعوها لحاقهم بالبراري والجبال ـ فى خبر مرفوع عن النبي صلى الله عليه وآله فما رعاها الذين بعدهم حق رعايتها ، وذلك لتكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وآله ، وقيل : الرهبانية الانقطاع عن الناس للانفراد بالعبادة .

وقوله « ما كتبناها عليهم » معناه ما فرضناها عليهم أي تلك الرهبانية البتة. وقال الزجاج : معناه ما كتبناها عليهم البتة ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فيكون بدلا من (ها) التي يشتمل عليه المعنى ـ ذكره الزجاج ـ وقيل : كان عليهم تتميمها كما على المبتدىء بصوم التطوع أن يتمه . وقال الحسن : فرضها الله عليهم بعد ما أبتدعوها ، وقوله « فما رعوها حق رعايتها » معناه فما حفظوها حق حفظها .

ثم قال ﴿ فآتينا الذين آمنوا ﴾ معناه فأعطينا من آمن بالله ورسوله من جملة المذكورين ﴿ أجرهم ﴾ أي ثوابهم على إيمانهم . ثم قال ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أي خارجون عن طاعة الله إلى معصيته والكفر به .

وقوله « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله » معناه يا أيها الذين اعترفوا بتوحيد الله وصدقوا بموسى وعيسى وأعترفوا بنبوتهما اتقوا الله وآمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وآله ـ ذكره ابن عباس ـ « يؤتكم كفلين من رحمته » قال ابن عباس: معناه يعطكم أجرين أجراً لايمانكم بمحمد صلى الله عليه وآله وأجراً لايمانكم بمن تقدم من الرسل. وأصل الكفل الحظ ـ فى قول الفراء ـ ومنه الكفل الذي يكتفل به الراكب ، وهو

كساء أو نحوه يحويها على الابل إذا أراد أن يرتدف فيه فيحفظه من السقوط ، ففيه حظ من التحرز من الوقوع « ويجعل لكم نوراً تمشون به » قال مجاهد : ويجعل لكم هدى تهتدون به . وقال ابن عباس : النور القرآن ، وفيه الادلة على كل حق وبيان لكل خير ، وبه يستحق الضياء الذي يمشي به يوم القيامة « ويغفر لكم » أي يستر عليكم ذنوبكم « والله غفور رحيم » أي ستار عليكم ذنوبكم رحيم بكم منعم عليكم

وقوله « لئلا يعلم أهل الكتاب ان لا يقدرون على شيء من فضل الله » معناه ليعلم اهل الكتاب الذين يتشبهون بالمؤمنين منهم « أن لا يقدرون » أي انهم لا يقدرون « على شيء من فضل الله » في قول ابن عباس . و(ان) هي المخففة من الثقيلة . وقيل : معناه ليعلم أهل الكتاب الذين حسدوا المؤمنين بما وعدوا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ، فيصرفوا النبوة عن محمد ﷺ إلى من يحبونه و (لا) في (لئلا) صلة وتوكيد . وقيل : إنما تكون (لا) صلة في كل كلام دخل في أواخره جحد ، وإن لم يكن مصرحاً به نحو « ما منعك ان لا تسجد » (١) « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » (٢) وقوله « وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون » (٣) .

وقوله « وإن الفضل بيد الله » معناه ليعلموا أن الفضل بيد الله « يؤتيه من يشاء » أي يعطيه من يحب « من عباده » ممن يعلم انه يصلح له .

ثم قال « والله ذو الفضل العظيم » معناه ذو تفضل على خلقه واحسان على عباده عظيم لا يحصى كثرة ولا يعد .

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١١ (٢) سورة ٦ الانعام آية ١٠٩

(٣) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٥

٥٨ ـ سورة المجادلة

مدنية بلا خلاف ، وهي إثنا وعشرون آية فى الكوفي والبصري والمدني الأول وإحدى وعشرون فى المدني الأخير ٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَىٰ
ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) ٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ
مِنكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا ٱللَّائِي وَلَدْنَهُمْ
وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِنَ ٱلْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢)
وَٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣)
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ
لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ
حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٥) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ المفضل عن عاصم « ماهن أمهاتهم » على الرفع على لغة بني تميم. الباقون بنصب « أمهاتهم » على لغة أهل الحجاز، وهي لغة القرآن، كقوله « ماهذا بشراً » (١) وقرأ عاصم « يظاهرون » بضم الياء بألف. وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو « يظهرون» بغير الف مشددة الظاء والهاء. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي « يظاهرون » بتشديد الظاء والف، وفتح الياء. وقال ابو علي النحوي: ظاهر من امرأته وظهر مثل ضاعف وضعف وتدخل التـــاء على كل واحد منهما، فيصير تظاهر وتظهر، ويدخل حرف المضارعة، فيصير تتظاهر، ويتظاهر. ثم يدغم التاء في الظاء لمقاربتها، فيصير يظاهرون ويظهرون ـ بفتح الياء ـ التي هي للمضارعة، لأنها للمطاوعة، كما تفتحها في (يتدحرج) الذي هو مطاوع (دحرجته، فتدحرج) واختار عاصم أن المظاهرة من المضارعة، لان المفاعلة لا يكون إلا من نفسين. والظهار يكون بين الرجل وامرأته. ومن قرأ (يظاهرون) فأصله يتظاهرون فأدغم التاء في الظاء.

والظهار قول الرجل لامرأته: انت عليّ كظهر أمي، وكان أهل الجاهلية إذا قال الرجل منهم هذا لامرأته بانت منه وطلقت. وفي الشرع لاتبين المرأة إلا انه لا يجوز له وطؤها إلا بعد ان يكفر. وعندنا ان شروط الظهار هي شروط الطلاق سواء من كون المرأة طاهراً طهراً لم يقربها فيه بجماع، ويحضره شاهدين ويقصد التحريم فان اختل شيء من ذلك لم يقع به ظهار. ويقال فيه ظاهر فلان من امرأته ظهاراً ومظاهرة وإظهاراً، فلان ظاهر وتظاهر تظاهراً إلا انه ادغم واظهر إظهاراً.

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٣١

وأصله تظهراً إلا انه ادغمت التاء في الظاء .

وقيل : إن هذه الآية نزلت في خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس ابن الصامت ـ في قول قتادة ـ وكان مجادلتها إياه مراجعتها في أمر زوجها . وقد كان ظاهر منها ، وهي تقول : كبرت سني ودق عظمي ، وان اوساً تزوجني وانا شابة ، فلما علت سني يريد أن يطلقني . ورسول الله ﷺ يقول بنت منه ـ على ما رواه ابو العالية ـ وفي رواية غيره انه قال لها : ليس عندي في هذا شيء ، فنزلت الآية . وقال ابن عباس : نزلت الآية في أوس بن الصامت . وكانت تحته بنت عم له ، فقال لها : أنت عليّ كظهر أمي ، فهو اول من ظاهر في الاسلام . وقيل كان يقال للمرأة خولة بنت خويلد . وكان الرجل في الجاهلية إذا قال لامرأته: انت عليّ كظهر أمي حرمت عليه ، فأنزل الله تعالى في قصة الظهار آيات . ولا خلاف أن الحكم عام في جميع من يظاهر ، وإن نزلت الآية على سبب خاص .

فقال الله تعالى لنبيه « لقد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها » فالجدال والمجادلة هي المخاصمة . وقد يقال : للمراجعة والمقابلة للمعنى بما يخالفه مجادلة . واصل الجدال الفتل . ومن قابل المعنى بخلافه طلباً للفائدة فليس بمجادل . فمجادلة المرأة لرسول الله كان مراجعتها إياه في أمر زوجها ، وذكرها أن كبرت سني ودق عظمي ، والنبي ﷺ يقول بنت منه ـ على ما رواه ابو العالية ـ لأنه لم يكن نزل عليه في ذلك وحي ولا حكم .

وقوله « وتشتكي الى الله » أي تظهر ما بها من المكروه ، تقول : اللهم إنك تعلم حالي فارحمني ، فالاشتكاء إظهار ما بالانسان من المكروه . والشكاية إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه .

وقوله « والله يسمع تحاوركما » أي مراجعة بعضكما لبعض . والتحاور التراجع

وهو المحاورة، تقول: تحاورا تحاوراً وحاور محاورة أي راجعه في الكلام، قال عنترة:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلام مكلمي

و «إن الله سميع بصير» أي على صفة يصح معها ان يسمع المسموعات إذا وجدت، ويبصر المبصرات إذا وجدت.

ثم قال «الذين يظاهرون منكم من نسائهم» أي الذين يقولون لنسائهم: أنت عليّ كظهر أمي، ومعناه إن ظهرك عليّ حرام كظهر أمي، فقال الله تعالى «ما هن أمهاتهم» أي ليست أزواجهم امهاتهم على الحقيقة «إن امهاتهم» أي وليست امهاتهم في الحقيقة «إلا اللائي ولدنهم» من الأم وجداته. ثم اخبر «إنهم ليقولون» أي ان القائل لهذا يقول قولا «منكراً من القول» قبيحاً «وزوراً» أي كذباً، لأنه اذا جعل ظهرها كظهر أمه وليست كذلك كان كاذباً في قوله.

ثم قال تعالى «وإن الله لعفو غفور» أي رحيم بهم منعم عليهم متجاوز عن ذنبهم. وفي ذلك دلالة على ان الله رحمها وغيرها من النساء لرغبتها في زوجها بالتوسعة من جهة الكفارة التي تحل بها.

ثم بين تعالى ما يلزمه من الحكم، فقال «والذين يظاهرون من نسائهم» يعني الذين يقولون هذا القول الذي حكيناه «ثم يعودون لما قالوا» واختلفوا في معنى العود، فقال قتادة العود هو العزم على وطئها. وقال قوم: العود الامساك عزم او لم يعزم. وقال الشافعي: هو أن يمسكها بالعقد، ولا يتبع الظهار بطلاق. وحكى الطبري عن قوم انهم قالوا: فيه تقديم وتأخير وتقديره: والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا فمن لم يجد فصيام شهرين فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ثم يعودون لما قالوا. وقال قوم: معناه ثم يعودون لنقض

ما قالوا وإرتفاع حكمه . وقال قوم : لا تجب عليه الكفارة حتى يعاود القول ثانية . وهو خلاف اكثر اهل العلم .

والذي هو مذهبنا أن العود المراد به إرادة الوطء او نقض القول الذي قاله ، فانه لا يجوز له الوطء إلا بعد الكفارة ولا يبطل حكم القول الأول إلا بعد ان يكفر .

وقال الفراء : يحتمل ان يكون المراد ثم يعودون إلى ما قالوا ، وفيما قالوا ، وفي نقض ما قالوا ، أي يرجعون عما قالوا ، ويجوز فى العربية أن تقول : إن عاد لما فعل،تريد ان فعله مرةأخرى ، ويجوز إن عاد لما فعل أي نقض ما فعل ، كما تقول: حلف ان يضربك بمعنى حلف ألا يضربك ، وحلف ليضربنك .

وقوله « فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا » بيان لكيفية الكفارة ، فان أول ما يلزمه من الكفارة عتق رقبة فالتحرير هو أن يجعل الرقبة المملوكة حرة بالعتق بأن يقول المالك انه حر . والرقبة ينبغي ان تكون مؤمنة سواء كانت ذكراً او انثى صغيرة او كبيرة إذا كانت صحيحة الاعضاء . فان الاجماع واقع على انه يقع الاجزاء بها ، وقال الحسن وكثير من الفقهاء : إن كانت كافرة أجزأت . وفيه خلاف وتفاصيل . ذكرناه فى كتب الفقه . وتحرير الرقبة واجب قبل المجامعة لظاهر قوله « من قبل ان يتماسا » أي من قبل ان يجامعها فيماسا . وهو قول ابن عباس ، فكان الحسن لايرى بأساً ان يغشى المظاهر دون الفرج . وفى رواية اخرى عنه أنه يكره للمظاهر أن يقبل . والذي يقتضيه الظاهر ألا يقربها بجماع على حال ولا بمماسة شهوة وقوله « ذلكم توعظون به » ان تظاهروا ثم قال « والله بما تعملون خبير » أي عالم بما تفعلونه من خير وشر ، فيجازيكم بحسبه .

ثم قال « فمن لم يجد » يعني الرقبة وعجز عنها « فيصام شهرين متتابعين من

قبل ان يتماسا » والتتابع عند أكثر العلماء ان يوالي بين أيام الشهرين الهلاليين او يصوم ستين يوماً . وعندنا انه إذا صام شهراً ومن الآخر ولو يوماً ، فقد تابع ، فان فرق فيما بعد جاز . وعند قوم : ان يصوم شهراً ونصف شهر لا يفطر فيما بينهما فان افطر لا لعذر استأنف . وان افطر لعذر من مرض اختلفوا ، فمنهم من قال يستأنف من عذر وغير عذر . وبه قال إبراهيم النخعي ورواه جابر عن ابي جعفر عليه السلام وقال قوم : يبني ، وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وعطاء والشعبي . واجمعوا على ان المرأة إذا افطرت للحيض في الشهرين المتتابعين في كفارة قتل الخطأ او فطر يوم انها تبني فقاسوا عليه الظهار . وروى اصحابنا انه اذا صام شهراً ومن الثاني بعضه ولو يوماً ثم افطر لغير عذر ، فقد اخطأ إلا انه يبني على ما قدمناه . وإن افطر قبل ذلك استأنف . ومتى بدأ بالصوم وصام بعضه ثم وجد العتق لا يلزمه العتق وإن رجع كان افضل . وقال قوم : يلزمه الرجوع الى العتق .

ومتى جامع في ليالي الصوم وجب عليه الاستئناف وبطل حكم التتابع ، لانه خلاف الظاهر . ومتى جامع قبل الكفارة لزمته كفارة ثانية عند اصحابنا ، وكلما وطأ لزمته كفارة بعدد الوطء .

وقوله « فمن لم يستطع » يعني من لم يقدر على الصوم « فاطعام ستين مسكيناً » يعني - عندنا - لكل مسكين نصف صاع ، فان لم يقدر أعطاه مداً . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله انه اعطى المظاهر نصف وسق ثلاثين صاعاً . وقال أطعم ستين مسكيناً وراجعها وذلك انه كان فقيراً عاجزاً عن جميع الكفارات . وقال الحسن : اعانه رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسة عشر صاعاً . والعدد مراعى ، فان لم يجد العدد كرر على الموجودين تمام الستين .

وإن جامعها قبل ان يتم الاطعام ، فظاهر المذهب يقتضي انه يلزمه كفارة

اخرى ، لأنه وطأ قبل الكفارة .وقال قوم: لا يلزمه. وقال آخرون : يستأنف الكفارة

وقوله « ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » معناه إنا شرعنا لكم ما ذكرناه فى حكم الظهار لما علمناه من مصلحتكم لتؤمنوا بالله ورسوله ، فتصدقوهما وتقروا بتوحيد الله ، وبنبوة نبيه .

ثم قال « وتلك حدود الله » يعني ما ذكرناه من حكم الظهار .

ثم قال « وللكافرين » أي للجاحدين لصحة ما قلناه « عذاب اليم » ومتى نوى بلفظ الظهار الطلاق لم يقع به طلاق . وفيه خلاف بين الفقهاء ، والاطعام لايجوز إلا للمسلمين دون اهل الذمة . وفيه خلاف . ومسائل الظهار وفروعها ذكرناها فى كتب الفقه .

ثم قال «إن الذين يحادون الله ورسوله » والمحادة المخالفة فى الحدود أي من خالف الله ورسوله فيما ذكراه من الحدود « كبتوا » أي اخذوا ـ فى قول قتادة ـ وقال غيره : اذلوا . وقال الفراء : معناه اغيظوا واحزنوا يوم الخندق « كما كبت الذين من قبلهم » يعني من قاتل الانبياء من قبلهم .

ثم قال تعالى « وقد انزلنا آيات بينات » اي حجج واضحات من القرآن وما فيه من الادلة . ثم قال « وللكافرين » أي للجاحدين لما انزلناه من القرآن والآيات « عذاب مهين » أي يهينهم ويخزيهم .

قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة وحده « ويتنجون » بغير الف . الباقون « يتناجون » بألف . وقرأ ابو جعفر ﴿ ما يكون ﴾ بالياء . الباقون بالتاء ، لان تأنيث نجوى ليس بحقيقي

لما قال الله تعالى ان الكافرين لحدود الله لهم عذاب مهين ، بين متى يكون ذلك ، فقال ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ أي يحشرهم الى ارض المحشر ويعيدهم احياء ﴿ فينبئهم ﴾ أي يخبرهم ويعلمهم ﴿ بما عملوا ﴾ في دار الدنيا من المعاصي وإرتكاب القبائح ، ثم قال ﴿ احصاه الله ونسوه ﴾ أي احصاه الله عليهم واثبته في كتاب اعمالهم

ونسوه هم ﴿ والله على كل شيء شهيد﴾ ومعناه انه يعلم الاشياء كلها من جميع وجوهها لا يخفى عليه شيء من ذلك وإن كان كثيراً من الاشياء لا يصح مشاهدتها ولا إدراكها ، ومنه قوله ﴿ شهد الله انه لا إله إلا هو ﴾ (١) أي علم ذلك .

ثم بين فقال ﴿ ألم تر ﴾ ومعناه الم تعلم ،والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلفين ﴿ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض﴾ من الموجودات لا يخفى عليه شيء منها ،لانه عالم لنفسه يجب ان يكون عالماً بما يصح أن يكون معلوماً . وقيل التقدير ألم تر ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض مما ترى من تدبيرهما من مسير الشمس والقمر ومجيء الحر والبرد والزرع والثمار وسائر صنوف الاشجار على ما تقتضي الحكمة عالماً دبر ذلك وجعل كل شيء منه في وقته ولما يصلح له ، وذلك يقتضي انه عالم بكل نجوى ، لأنه عالم لنفسه لا بحدوث علم . واذا ثبت انه عالم لنفسه وجب ان يكون عالماً بكل معلوم .

وقوله ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم اينما كانوا ﴾ والمعنى انه عالم بأحوالهم وجميع متصرفاتهم فرادى وعند الاجتماع ، لا يخفى عليه شيء منها ، فكأنما هو معهم مشاهد لهم . وعلى هذا يقال : إن الله تعالى مع الانسان حيث ما كان ، لانه عالم لا يخفى عليه شيء من أمره حتى انه ظاهر له اتم الظهور لمن شاهده ممن هو معه في المكان ، وحسن هذا لما فيه من البيان ، فأما ان يكون معهم على طريق المجاورة فمحال ، لأن ذلك من صفات الاجسام ، والله تعالى ليس بجسم . ويقولون : فلان رابع أربعة إذا كان احد اربعة ورابع ثلاثة اذا جعل ثلاثة اربعة بكونه معهم . ويجوز على هذا ان يقال : رابع ثلاثة ولا يجوز رابع أربعة ، لانه ليس فيه معنى

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٨

الفعل . ويجوز في (ثلاثة) الجر باضافة النجوى اليها ، ويجوز بأنها صفة النجوى . ويجوز النصب بأنها خبر (يكون).

وقوله ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ﴾ معناه يعلمهم بما عملوه من المعاصي في الدنيا والاعمال ، ويخبرهم بها ، لأن الله بكل شيء عليم ، لايخفى عليه خافية .

ثم قال لنبيه ﷺ والمراد به جميع الأمة ﴿ الم تر ﴾ بمعنى ألم تعلم ﴿ إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ قال مجاهد : كان النبي ﷺ نهى اليهود عن النجوى بينهم لأنهم كانوا لا يتناجون إلا بما يسوء المؤمنين . وقال الفراء : نزلت في المنافقين واليهود ، ونهوا أن يتناجوا اذا اجتمعوا مع المسلمين في موضع واحد . والنجوى هي الاسرار ، والنجوة الارتفاع من الارض ، وهو الاصل ، ومنه النجا الارتفاع في السير ، والنجاة الارتفاع من البلاء .

وقوله ﴿ ثم يعودون لما نهوا عنه ﴾ معناه يعودون فيتناجون ويخالفون نهي النبي ﷺ ﴿ ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول ﴾ والتناجي والمناجاة تكون بين اثنين فصاعداً ، ويقال : انتجوا بمعنى تناجوا ، كما يقال اختصموا وتخاصموا وكذلك انتجوا وتناجوا بمعنى .

وحجة حمزة قول النبي ﷺ في علي عليه السلام (ما انا انتجيته ، ولكن الله انتجاه) وحجة الباقين قوله ﴿ اذا تناجيتم ﴾ وكلاهما حسنان .

قال قتادة : كان المنافقون يتناجون بينهم فيغيظ ذلك المؤمنين . وقال ابن زيد : كانوا يوهمون انه قد حدثت بلية على المسلمين من حرب او نحوه ، فأخبر الله عنهم انهم كانوا يتناجون بالاثم يعني بالمعاصي . والعدوان التعدي الى غير الواجب ومعصيت الرسول أي ما يعصون به الرسول النبي ﷺ .

وقوله ﴿ وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ قال قتادة ومجاهد ـ وهو

المروي عن عائشة ـ انه كانت تحيتهم السام عليكم يابا القاسم . وقال ابن عباس : كان المنافقون يقولون ذلك . وقيل : كان النبي ﷺ يرده على من قال ذلك ، فيقول: وعليك ، وقال ابن زيد : السام الموت . وقال الحسن : كانت اليهود تقول : السام عليكم أي انكم ستسأمون دينكم هذا أي تملونه فتدعونه . ومن هذا سئمت الأمر اسأمه سأماً وسأماً . ومن قال : السام الموت فهو سام الحياة بذهابها .

وقوله ﴿ ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ قال كانوا يقولون : إن كان نبياً صادقاً هلا يعذبنا الله بما نقول من النجوى وغيره . فقال الله تعالى لهم ﴿ حسبهم جهنم ﴾ أي كافيهم جهنم ﴿ يصلونها ﴾ يوم القيامة ويحترقون فيها ﴿ وبئس المصير ﴾ أي بئس المرجع والمآل لما فيها من أنواع العقاب .

ثم امر المؤمنين فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم ﴾ انتم فيما بينكم أي تشاورتم ﴿ فلا تتناجوا بالاثم ﴾ يعني بالمعاصي ولا بـ ﴿ العدوان ﴾ ولا بـ ﴿ معصية الرسول ﴾ ومخالفته ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ أي بافعال الخير والخوف من عذاب الله . ثم قال ﴿ واتقوا الله ﴾ باجتناب معاصيه ﴿ الذي اليه تحشرون ﴾ يعني يوم القيامة .

ثم قال ﴿ انما النجوى من الشيطان ﴾ يعني نجوى المنافقين والكفار بما يسوء المؤمنين ويغمهم ﴿ من الشيطان ﴾ أي بدعاء الشيطان واغوائه يفعل ذلك ﴿ ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا باذن الله ﴾ معناه إلا بعلم الله وتمكينه إياهم لان تكليفهم إيمانهم بذلك ، وقيل معناه إلا بفعل الله الغم والحزن في قلوبهم لان الشيطان لا يقدر على فعل ذلك . ثم قال تعالى ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي يجب على المؤمنين ان يتوكلوا في جميع امورهم عليه تعالى دون غيره .

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي ٱلْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ ٱللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنْشُزُوا فَٱنْشُزُوا يَرْفَعِ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَٱللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ ٱللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٥)

خمس آيات بلاخلاف .

قرأ عاصم وحده «تفسحوا في المجالس» على الجمع لاختلافها . الباقون في «المجلس» على التوحيد ، لأنهم ذهبوا مذهب الجنس ، لانه مصدر يدل على القليل والكثير . لأنهم ارادوا مجلس النبي صلى الله عليه وآله فعلى هذا الوجه الافراد . ومن جمع أراد كل جالس مجلساً أي موضع جلوس . وقرأ «انشزوا» بضم الشين نافع وابن عامر وعاصم إلا حماداً ويحي عن ابي بكر. الباقون بكسر الشين وهما لغتان مثل

(يعرشون ويعرشون ، ويعكفون ويعكفون) .

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين وآمراً لهم بأنه إذا قيل لهم تفسحوا في المجالس بمعنى اتسعوا فيها ، يقال : تفسح تفسحاً وله في هذا الأمر فسحة أي متسع . والتفسح الاتساع في المكان ، وفسح له في المجلس يفسح فسحاً . ومكان فسيح وفسح . والتفسيح والتوسع واحد . قال قتادة : كانوا يتنافسون في مجلس النبي صلى الله عليه وآله فقيل لهم تفسحوا وقال ابن عباس : أراد به مجلس القتال « فافسحوا » أي وسعوا « يفسح الله لكم » أي يوسع عليكم منازلكم في الجنة « وإذا قيل انشزوا فانشزوا » أي إذا قيل لكم ارتفعوا في المجلس فارتفعوا ، والنشوز الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه . ومنه نشوز المرأة عن زوجها ، يقال : نشز ينشز نشوزاً ونشزاً . قال قتادة ومجاهد والضحاك : معناه إذا قيل قوموا الى صلاة او قتال عدو أو أمر بمعروف أي تفرقوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقوموا .

وقوله « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » معناه متى ما فعلتم ما أمرتم به رفع الله الذين آمنوا منكم ، ورفع الذين أوتوا العلم درجات ، لأنهم احق بالرفعة . وفي ذلك دلالة على ان فعل العالم اكثر ثواباً من فعل من ليس بعالم « والله بما تعملون » من التفسح والنشوز وغير ذلك ﴿ خبير ﴾ أي عالم .

ثم خاطبهم ايضاً فقال ﴿ يا ايها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ﴾ أي شاورتموه ﴿ فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ قال الزجاج : كان سبب نزول الآية ان الاغنياء كانوا يستخلون النبي صلى الله عليه وآله فيشاورونه بما يريدون ، والفقراء لا يتمكنون من النبي تمكنهم ، ففرض الله عليهم الصدقة قبل النجوى ليمتنعوا من ذلك ، وتعبدهم بأن لا يناجي احد رسول الله إلا بعد ان يتصدق بشيء ما قل او كثر ، فلم يفعل احد ذلك على ما روي ، فاستقرض أمير المؤمنين علي عليه السلام ديناراً وتصدق به ، ثم ناجى

النبي ﷺ ، فنسخ الله تعالى ذلك الحكم بالآية التي بعدها .

وقوله ﴿ ذلك خير لكم واطهر ﴾ أي ذلك التصدق بين يدي النبي ﷺ خير لكم واطهر ومعناه إن فعل ذلك ادعى الى مجانبة المعاصي من تركه . ثم قال قل لهم ﴿ فان لم تجدوا ﴾ يعني ما تتصدقون به ﴿ فان الله غفور رحيم ﴾ يستر عليكم ترك ذلك ويرحمكم وينعم عليكم .

ثم قال ناسخاً لهذا الحكم ﴿ ا اشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ وظاهر هذا الكلام توبيخ على ترك الصدقة ، وانهم تركوا ذلك اشفاقاً وخوفاً على نقصان المال ، فقال ﴿ فاذ لم تفعلوا ﴾ ذلك ﴿ وتاب الله عليكم ﴾ في تقصيركم في فعل الصدقة ﴿ فأقيموا الصلاة التي اوجبها الله عليكم ﴾ واديموا فعلها وادوا شروطها ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ التي افترضها عليكم ﴿ واطيعوا الله ورسوله ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ أى عالم بما تعملونه من طاعة لله او معصية وحسن وقبيح ، فيجازيكم بحسبه .

ثم قال للنبي ﷺ ﴿ ألم تر ﴾ يا محمد ﴿ الى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ والمراد به قوم من المنافقين ، كانوا يوالون اليهود ويفشون اليهم أسرارهم ويجتمعون معهم على ذكر مساءة النبي ﷺ والمؤمنين ـ وهو قول قتادة وابن زيد ـ ثم قال ﴿ ما هم منكم ﴾ أى ليسوا مؤمنين ﴿ ولا منهم ﴾ أي ولا هم يهود ، فيكونوا منهم بل هم قوم منافقون .

ثم قال ﴿ ويحلفون ﴾ يعني هؤلاء المنافقون ﴿ على الكذب ﴾ يعني يقولون إنا معكم ونحن نتوب ، وليسوا كذلك ﴿ وهم يعلمون ﴾ انه كذلك . ثم بين تعالى ما لهم من العقاب فقال ﴿ اعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ أي لأنهم كانوا يعملون المعاصي والقبائح .

قوله تعالى :

﴿ ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ ٱللهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ (٢٠) .

خمس آيات عراقي وشامي ، والمدني الاول . واربع آيات وبعض آية مكي والمدني الآخر ،عد العراقي والشامي والمدني الأول « في الاذلين » ولم يعده الباقون .

لما ذكر الله تعالى المنافقين بأنهم تولوا قوماً من اليهود الذين غضب الله عليهم وذكر ما أعده لهم من العقاب ، وذكر انهم يحلفون على الكذب مع علمهم بأنهم كاذبون قال انهم ﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ التي يحلفون بها ﴿ جنة ﴾ أي سترة وترساً يدفعون بها عن نفوسهم التهمة والظنة إذا ظهرت منهم الريبة . والاتخاذ جعل الشيء عدة ، كما يقال : اتخذ سلاحاً ، واتخذ كراعاً ورجالا واتخذ داراً لنفسه إذا اعدها لنفسه ، فهؤلاء جعلوا الأيمان عدة ليدفعوا بها عن نفوسهم الظنة . والجنة السترة وأصله التستر ومنه الجنة لاستتارهم عن العيون ، والجنة لاستتارها بالشجر ، والمجن الترس لستره صاحبه عن ان يناله السلاح .

وقوله ﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي صدوا نفوسهم وغيرهم عن سبيل الله التي هي الحق والهدى . وقيل : فصدوا عن سبيل الله من قبلهم بكفرهم . ثم بين تعالى مالهم على ذلك فقال ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ يهينهم ويذلهم والاهانه الاحتقار يقال : اهانه يهينه إهانة ، ومثله أذله يذله إذلالا واخزاه يخزيه إخزاء ، ونقيضه الاكرام . ثم قال ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ﴾ التي جمعوها ﴿ ولا اولادهم ﴾ الذين خلفوهم ﴿ من الله شيئاً ﴾ يدفع عقابه عنهم ، أغنى يغني عنى اذا دفع عنه دفعاً يستغنى عنه . ثم قال ﴿ اولئك ﴾ مع هذا كله ﴿ اصحاب النار ﴾ أي الملازمون لها ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ مؤبدون لا يخرجون عنها ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ و (يوم) يتعلق بـ ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً ... يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ يعنى يوم القيامة ﴿ فيحلفون له ﴾ أي يقسمون لله ﴿ كما يحلفون لكم ﴾ في الدنيا بأنهم كانوا مؤمنين في الدنيا في اعتقادهم وظنهم ، لانهم كانوا يعتقدون أن ما هم عليه هو الحق ، ﴿ ويحسبون انهم على شيء ﴾ معناه يظنون أنهم على شيء في هذه الأيمان . فقال الله تعالى ﴿ ألا انهم هم الكاذبون ﴾ فيما يذكرونه من الأيمان والمعنى إنهم لم يكونوا مؤمنين على الحقيقة ، وإنما كان اعتقادهم اعتقاد جهل . وقيل : معناه انهم ﴿ هم الكاذبون ﴾ في الدنيا . وقيل : معناه ألا إنهم هم الخائبون ، يقال كذب ظنه اذا خاب أمله . وقال قوم ﴿ ويحسبون انهم على شيء ﴾ يعنى في دار الدنيا ، ولا يحسبون ذلك في الآخرة لانهم يعلمون الحق اضطراراً ، وهم ملجئون الى الافعال الحسنة وترك القبيح .

قال الرماني : وهذا غلط ، لانه مخالف لظاهر القرآن بغير دليل ، قال والصواب ما قال الحسن في أن الآخرة مواطن يمكنون في بعضها من فعل القبيح ، ولا يمكنون في بعض ، ويكون كذبهم ككذب الصبي المدهش الذي يلحقهم .

وقال قوم : ان قوله ﴿ ألا انهم هم الكاذبون ﴾ اخبار عن حالهم في الدنيا بأنهم كاذبون في الدنيا في قولهم :انا مؤمنون ، وهم منافقون ، لان الكذب لايجوز ان يقع منهم في الآخرة على وجه .

ثم قال تعالى « ان الذين يحادون الله ورسوله » أي يخالفونه في حدوده . وقال مجاهد: معناه يشاقون الله ورسوله بأن يحصلوا في حد آخر عادلين عن حدود الله.

وقوله « اولئك في الاذلين » اخبار منه تعالى ان الذين يحادونه ويحادون رسوله اولئك في الاحقرين المهانين عند الله . وقال الزجاج : معناه في المغلوبين .

وقوله « استحوذ عليهم الشيطان » معناه استولى عليهم ، فالاستحواذ الاستيلاء على الشيء بالاقتطاع . واصله من حاذه حوذاً مثل جازه يجوزه جوزاً « فانساهم ذكر الله » حتى لايذكرون الله ، ولا يخافونه ثم قال « اولئك » يعني الذين « استحوذ عليهم الشيطان » جنود الشيطان وحزبه . ثم قال « ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون » لانهم يخسرون الجنة ويحصل لهم بدلها النار وذلك هو الخسران المبين

قوله تعالى :

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓاْ آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢٢) .

آيتان و بعض آية في المكي والمدني الأخير ، وآيتان فيما عداه ،عد المكي والمدني الأخير إلى « قوي عزيز » تمام التي قبلها .

قرأ الاعشى ﴿ عشيراتهم ﴾ على الجمع . الباقون ﴿ عشيرتهم ﴾ على الافراد.

قوله ﴿ كتب الله لاغلبن أنا ورسلي ﴾ معناه إنه كتب في اللوح المحفوظ وما كتبه فلا بد من ان يكون . وقال الحسن : ما أمر الله نبياً قط بحرب الا غلب إما في الحال او فيما بعد . ويحتمل ان يكون المراد ﴿ كتب الله لا غلبن أنا ورسلي ﴾ بالحجج والبراهين ، وان جاز ان يغلب في الحرب في بعض الأوقات . والغلبة قهر المنازع حتى يصير في حكم الذليل للقاهر ، وقد يقهر ما ليس بمنازع ، كقولهم قهر العمل حتى فرغ منه . والله تعالى غالب بمعنى انه قاهر لمن نازع أولياءه . وقوله ﴿ ان الله قوي عزيز ﴾ اخبار منه تعالى انه قادر لا يمكن احداً من قهره ولا غلبته لان مقدوراته لا نهاية لها ومن كان كذلك لا يمكن قهره . والعزيز المنيع بكثرة مقدوراته .

وقوله ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ معناه ان المؤمن لا يكون مؤمناً كامل الايمان والثواب يواد من خالف حدود الله ويشاقه ويشاق رسوله ومعنى يواده يواليه ، وان كان ذلك الذي يواده أباه او ابنه او اخاه او عشيرته ، فمن خالف ذلك ووالى من ذكرناه كان فاسقاً ، لا يكون كافراً ، وكل كافر فهو محاد لله ولرسوله . والموادة الموالاة بالنصرة والمحبة ، فهذا لا يجوز إلا للمؤمن بالله دون الكافر ، والفاسق المرتكب للكبائر ، لانه يجب البراءة منهما ، وهي منافية للموالاة . والآية نزلت في حاطب بن ابي بلتعة حين كتب إلى اهل مكة يشعرهم بأن النبي صلى الله عليه وآله عزم على ان يأتي مكة بغتة يفتحها . وكان النبي صلى الله عليه وآله أخفى ذلك ، فلما عوتب على ذلك ، قال أهلي بمكة احببت ان يحوطوهم بيد تكون لي عندهم ، فانزل الله تعالى فيه الآية .

ثم قال تعالى « اولئك » يعني الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر « كتب في قلوبهم الايمان » ومعناه انه جعله بحكمه ، فكأنه مكتوب فيه . وقيل : معناه إنه جعل فى قلوبهم سمة تدل من علمها أنهم من اهل الايمان · وقال الحسن : معناه انه ثبت الايمان فى قلوبهم بما فعل بهم من الالطاف « وايدهم بروح منه » أي قواهم بنور البرهان والحجج حتى اهتدوا للحق وعملوا به ، وقيل : أيدهم بجبرائيل من أمر الله فى كثير من المواطن ينصرهم ويدفع عنهم « ويدخلهم جنات » أي بساتين « تجري من تحتها الانهار » أي من تحت أشجارها الأنهار . وقيل : ان أنهارها أخاديد فى الارض ، فلذلك قال « من تحتها الانهار » . والانهار جمع نهر « خالدين فيها » أي مؤبدين لا يفنون ولا يخرجون منها ، وهو نصب على الحال « رضى الله عنهم » باخلاص الطاعة منهم « ورضوا عنه » بثواب الجنة . ثم قال « اولئك حزب الله » يعني جنده وأولياؤه ، ثم قال « ألا » وهي كلمة تنبيه « إن حزب الله » يعني جنوده واولياءه « هم المفلحون » والمفلح هو المنجح بادراك ما طلب . وقال الزجاج : حزب الله هم الذين اصطفاهم الله. وقرأ المفضل عن عاصم « كتب فى قلوبهم الأيمان » على ما لم يسم فاعله . الباقون بفتح الكاف بمعنى إن الله كتب ذلك عليهم .

٥٩ ـ سورة الحشر

مدنية بلا خلاف . وهي أربع وعشرون آية بلا خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ (١) هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ
دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ فَأَتَيهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا
يَا أُولِي ٱلْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ
فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ (٣) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ
لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ
ٱلْفَاسِقِينَ ﴾ (٥) خمس آيات .

قرأ ابو عمرو وحده «يخربون بيوتهم» بالتشديد قال الفراء : وهي قراءة ابي عبد الرحمن السلمي والحسن . الباقون بالتخفيف . قال قوم : معناهما واحد مثل اكرمته وكرمته . وقال بعضهم : معنى التخفيف انهم ينتقلون عنها فيعطلونها ، وبالتشديد يهدمونها .

قد مضي تفسير «سبح لله ما في السموات وما في الارض وهو العزيز الحكيم» فلا معنى لاعادته .

وقوله «هو الذي أخرج الذين كفروا من ديارهم» معناه ان الذي وصفه بأنه عزيز حكيم هو الله الذي أخرج الكفار من اليهود من ديارهم «لأول الحشر» قال قتادة ومجاهد : هم بنو النضير ، لما نزل النبي صلى الله عليه وآله بالمدينة عاقده بنو النضير على ان لا يكونوا عليه ولا له . ثم نقضوا العهد وأرادوا أن يطرحوه حجراً حين مضى النبي صلى الله عليه وآله اليهم يستعين بهم في تحمل بعض الديتين اللتين لزمتا صاحب النبي صلى الله عليه وآله حين انقلب من بئر معونة فقتل نفسين ، كان النبي صلى الله عليه وآله أجرهما ، ومالوا المشركين على النبي صلى الله عليه وآله فأجلاهم الله عن ديارهم على ان لهم الذرية وما حملت إبلهم والباقي لرسول الله فأجلاهم النبي صلى الله عليه وآله على هذا عن ديارهم ومنازلهم ، فمنهم من خرج إلى خيبر ، ومنهم من خرج إلى الشام .

وقوله تعالى «لاول الحشر» قال قوم : أول الحشر هو حشر اليهود من بني النضير إلى ارض الشام ، وثاني الحشر حشر الناس يوم القيامة إلى ارض الشام أيضاً . وقال البلخي : يريد أول الجلاء ، لان بني النضير أول من أجلي عن ارض العرب . والحشر جمع الناس من كل ناحية ، ومنه الحاشر الذي يجمع الناس إلى ديوان الخراج ، والجمع حشار «ما ظننتم أن يخرجوا» أي لم تظنوا خروجهم منها «وظنو» هم «انهم مانعتهم حصونهم من الله» أي حسبوا ان الحصون التي هم

فيها تمنعهم من عذاب الله وإنزاله بهم على يد نبيه ، فجعل تعالى امتناعهم من رسوله امتناعاً منه .

وقوله تعالى « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » أي اتاهم أمر الله من حيث لم يحتسبوا مجيئه منه « وقذف » أي ألقى « في قلوبهم الرعب » وهو الخوف « يخربون بيوتهم بايديهم وايدي المؤمنين » معناه إنهم كانوا يهدمون بيوتهم بأيديهم من داخل ليهربوا ويخرب المؤمنون من خارج - على ما ذكره الحسن - ثم قال تعالى « فاعتبروا يا أولي الابصار » معناه اتعظوا وفكروا فلا تفعلوا كما فعل هؤلاء فيحل بكم ما حل بهم . والحصون جمع حصن ، وهو البناء العالي المنيع ، يقال : تحصن فلان إذا امتنع بدخوله الحصن .

ومن استدل بهذه الآية على صحة القياس في الشريعة فقد أبعد . لان الاعتبار ليس من القياس في شيء ، وإنما معناه الاتعاظ على ما بيناه ، ولا يليق بهذا الموضع قياس في الشرع ، لانه لو قال بعد قوله «يخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المؤمنين» فقيسوا الأرز على الحنطة ، لما كان كلاماً صحيحاً ولا يليق بما تقدم . وإنما يليق بما تقدم الاتعاظ والانزجار عن مثل افعال القوم من الكفر بالله .

وقوله تعالى « ولو لا أن كتب الله عليهم الجلاء » معناه لولا ان الله كتب في اللوح المحفوظ بما سبق في علمه انهم يجلون عن ديارهم يعني اليهود ﴿ لعذبهم في الدنيا ﴾ بعذاب الاستئصال . والجلاء الانتقال عن الديار والأوطان البلاء . وقيل : هو الفرار عن الأوطان يقال : جلا القوم عن منازلهم جلاء ، وأجليتهم إجلاء . ثم قال ﴿ ولهم في الآخرة ﴾ مع الجلاء عن الاوطان في الدنيا ﴿ عذاب النار ﴾ يعذبون بها . ثم بين لم فعل بهم ذلك فقال ﴿ ذلك ﴾ أي فعلنا بهم ذلك ﴿ بانهم شاقوا الله ورسوله ﴾ وخالفوهما وعصوهما . ثم توعد من يسلك مسلكهم في المشاقة لله

ورسوله ، فقال « ومن يشاق الله ورسوله فان الله شديد العقاب » يعاقبهم على مشاقتهم باشد العقاب .

وقوله « ما قطعتم من لينة » فاللينة كل نخلة لينة سوى العجوة ـ فى قول ابن عباس وقتادة ـ وهي لغة أهل المدينة . وقال بعضهم : إلا البرني والعجوة ، قال مجاهد وعمرو بن ميمون وابن زيد : كل نخلة لينة ولم يستثنوا . وقال سفيان : اللينة كرام النخل . وأصل اللينة اللونة فقلبت الواو ياء للكسرة . ويجمع ليانا ، قال ذو الرمة :

طراق الخوافي مشرق فوق ريعة ندى ليلة فى ريشه يترقرق (١)

فكأنه قال لون من النخل أي ضرب منه . وقيل : يجوز أن تكون من اللين للين ثمرتها ، وقوله « او تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله » أي قطعتموها او تركتموها بحالها كل ذلك سائغ لكم ، وهو بعلم الله وإذنه فى ذلك وأمره به . وقوله « وليخزي الفاسقين » أي فعل ذلك ليذل به الكفار الفاسقين من اليهود ويهينهم به لا أنهم يفعلونه على وجه الفساد فى الارض ، لأن فيما فعلوه إذلال اهل الشرك وعز أهل الاسلام .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ

(١) مر فى ٨ / ٤٤

وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٠) خمس آيات.

قرأ ابو جعفر « كيلا تكون » بالتاء « دولة » بالرفع أضاف الفعل الى (دولة). الباقون بالياء « دولة » نصب أرادوا الفيء والمال.

قوله « وما أفاء الله على رسوله منهم » يعني من اليهود الذين أجلاهم من بني النضير، وإن كان الحكم سارياً في جميع الكفار إذا كان حكمهم، فالفيء ردّ ما كان للمشركين على المسلمين بتمليك الله إياهم ذلك، على ما شرط فيه، يقال: فاء يفيء فيئاً إذا رجع وأفأته عليه إذا رددته عليه. وقال عمر بن الخطاب ومعمر: مال الفيء

هو مال الجزية والخراج . والفيء كل ما رجع من أموال الكافرين إلى المؤمنين ، سواء كان غنيمة او غير غنيمة ، فالغنيمة ما اخذ بالسيف ، فأربعة أخماسه للمقاتلة وخمسه للذين ذكرهم الله فى قوله « واعلموا أنما غنمتم ....» الآية (١) .

وقال كثير من العلماء : ان الفيء المذكور فى هذه الآية هو الغنيمة . وقال قوم : مال الفيء خلاف مال الصدقات ، لأن مال الفيء اوسع ، فانه يجوز ان يصرف فى مصالح المسلمين ، ومال الصدقات إنما هو فى الاصناف الثمانية . وقال قوم : مال الفيء يأخذ منه الفقراء من قرابة رسول الله ﷺ باجماع الصحابة فى زمن عمر ابن الخطاب ، ولم يخالفه فيه احد إلا الشافعي ، فانه قال : يأخذ منه الفقراء والاغنياء ، وإنما ذكروا فى الآية لانهم منعوا الصدقة ، فبين الله أن لهم فى مال الفيء حقاً . وقال عمر بن الخطاب : مال بني النضير كان فيأ لرسول الله ﷺ خاصة « ولذي القربى » قرابة رسول الله ﷺ من بني هاشم وبني عبد المطلب . وقيل : جعل ابو بكر وعمر سهمين : سهم رسوله وسهم قرابته من الاغنياء في سبيل الله ، وصدقة عن رسول الله ﷺ ذكره قتادة . والباقي في اهل الحاجة من اطفال المسلمين الذين لا أبالهم ، وابن السبيـل المنقطع به من المسافرين في غير معصية الله . وقال يزيد ابن رومان : الغنيمة ما أخذ من دار الحرب بالقتال عنوة . وقيل : كانت الغنائم في صدر الاسلام لهؤلاء الاصناف . ثم نسخ بما ذكره في سورة الانفال : بالخمس . والباقي للمحاربين ـ ذكره قتادة ـ .

والذي نذهب اليه أن مال الفيء غير مال الغنيمة ، فالغنيمة كل ما اخذ من دار الحرب بالسيف عنوة مما يمكن نقله إلى دار الاسلام ، وما لا يمكن نقله إلى دار الاسلام ، فهو لجميع المسلمين ينظر فيه الامام ويصرف انتفاعه إلى بيت المال لمصالح

(١) سورة ٨ الانفال آية ٤١

المسلمين . والفيء كل ما اخذ من الكفار بغير قتال او انجلاء اهلها وكان ذلك للنبي ﷺ خاصة يضعه في المذكورين في هذه الآية ، وهو لمن قام مقامه من الأئمة الراشدين . وقد بين الله تعالى ذلك . ومال بني النضير كان للنبي خاصة ، وقد بينه الله بقوله « وما أفاء الله » يعني ما رجعه الله ورده « على رسوله منهم » يعني من بني النضير . ثم بين فقال « فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » أي لم توجفوا على ذلك بخيل ولا ركاب . والايجاف الايقاع ، وهو تسيير الخيل والركاب وهو من وجف يجف وجيفاً ، وهو تحرك باضطراب ، فالايجاف الازعاج للسير ، والركاب الابل « ولكن الله يسلط رسله على من يشاء » من عباده حتى يقهروهم ويأخذوا ما لهم ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ .

ثم قال مبيناً من استحق ذلك ، فقال ﴿ ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى ﴾ يعني بني النضير ﴿ فلله وللرسول ولذي القربى ﴾ يعني اهل بيت رسول الله « واليتامى والمساكين وابن السبيل » من أهل بيت رسول الله لان تقديره ولذي قرباه ويتامى أهل بيته ، وابن سبيلهم ، لان الألف واللام تعاقب الضمير ، وظاهره يقتضي أنه لهؤلاء سواء كانوا أغنياء او فقراء . ثم بين لم فعل ذلك فقال « كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم » فالدولة ـ بضم الدال ـ نقلة النعمة من قوم إلى قوم وبفتح الدال المرة من الاستيلاء والغلبة . ثم قال « وما أتاكم الرسول فخذوه » أي ما اعطاكم رسوله من الفيء فخذوه وارضوا به . وما أمركم به فافعلوه « وما نهاكم عنه فانتهوا » عنه فانه لا يأمر ولا ينهى إلا عن أمر الله .

ثم قال « واتقوا الله » في ترك معاصيه وفعل طاعاته « إن الله شديد العقاب » لمن عصاه وترك أوامره .

ثم قال « للفقراء » يعني الذين لا مال لهم « المهاجرين » الذين هاجروا من

مكة إلى المدينة او هاجروا من دار الحرب إلى دار الاسلام « الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم » الذي كان لهم بمكة فأخرجوا منها « يبتغون فضلا » أي طالبين بذلك فضلا « من الله ورضوانا » فالجملة فى موضع الحال « وينصرون الله ورسوله » يعني ناصرين لدين الله ورسوله « اولئك هم الصادقون » عند الله فى الحقيقة العظيموا المنزلة لديه . وقيل : تقدير الآية « كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم » بل للفقراء المهاجرين .

ثم وصف الانصار فقال « والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم » أي جعلوا ديارهم موضع مقامهم وآمنوا بالله من قبلهم نزلت فى الانصار ، فانهم نزلوا المدينة قبل نزول المهاجرين . وقيل ان كل من نزل بالمدينة قبل هجرة النبي ﷺ فهو من الانصار .

وقوله « والايمان من قبلهم » يعني إن الانصار آمنوا قبل هجرة المهاجرين وإن كان فى المهاجرين من آمن قبل إيمان الانصار « يحبون من هاجر اليهم » من اهل مكة « ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا » قال الحسن يعني حسداً ، قال الزجاج : معناه لا تجد الانصار فى نفوسهم حاجة مما يعطون المهاجرين . وقال البلخي : لا يجدون حاجة فى نفوسهم مما يؤتون المهاجرين من الفضل فى الدين ، وقال الطبري: معناه لايجدون فى نفوسهم حاجة فيما أعطي المهاجرين من مال بني النضير ، فان النبي خص به المهاجرين إلا رجلين من الانصار : أباد دجانة سماك بن خرشة ، وسهل بن حنيف أعطاهما لفقرهما . وإنما فعل النبي ﷺ ذلك لان مال بني النضير كان له خاصة . والمهاجرين بهم حاجة خصهم بذلك . والانصار كانوا فى غنى فرضوا بذلك ، ومدحهم الله على ذلك ـ ذكره ابن زيد ـ

وقوله « ويؤثرون على أنفسهم » أي يختارون على أنفسهم من يولونه من مالهم

من المهاجرين « ولو كان بهم خصاصة » يعني حاجة . والخصاصة الحاجة التي يختل بها الحال . والخصاص الفرج التي يتخللها البصر ، والواحد خصاص . قال الراجز :

والناظرات من خصاص لمحا

وأصله الاختصاص بالانفراد بالامر والخصاص الانفراد عما يحتاج اليه والخصوص الانفراد ببعض ما وضع له الاسم ،والخص إنفراد كل قصبة من أختها فى الاشراج ، والخاصة إنفراد المعنى بما يقوله دون غيره .

وقوله « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » أي من منع شح نفسه. والشح والبخل واحد . وفى أسماء الدين هو منع الواجب « فاولئك هم المفلحون » يعني المنجحين الفائزين بثواب الله ونعيم جنته .

ثم قال « والذين جاؤا من بعدهم » يعني بعد المهاجرين والانصار ، وهم جميع التابعين لهم إلى يوم القيامة - فى قول الحسن - وهو كل من أسلم بعد العصر الأول . وقال الأصم : يعني من جاءك من المهاجرين أي بعد انقطاع الهجرة وبعد إيمان الانصار « يقولون ربنا » الجملة فى موضع الحال ، وتقديره قائلين « ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فيقلوبنا غلا » أي حقداً وغشاً « للذين آمنوا » ويقولون« ربنا إنك رؤف رحيم » أيَ متعطف على عبادك منعم عليهم .

وقسمة الغنيمة عندنا للفارس سهمان والراجل سهم . وقال قوم : للفارس ثلاثة أسهم والراجل سهم إلا ما كان من الارض والاشجار ، فانه للامام أن يقسمها إن شاء ، وله ان يجعلها أرض الخراج ويردها إلى من كانت في أيديهم قبل ، على هذا الوصف بحسب ما يرى ، كما فعل عمر بأرض السواد . وقيل : إن النبي صلى الله عليه وآله فتح مكة عنوة ولم يقسم أرضها بين المقاتلة . وقال قوم : فتحها سلماً . وقسم كثيراً

من غنائم حنين في المؤلفة قلوبهم دون المقاتلة حتى وقع من نفر من الانصار فى ذلك ما وقع ، فقال رسول الله ﷺ اما ترضون ان يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ، فرضوا وسلموا لله ورسوله في قصة مشهورة .

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٥) خمس آيات

قرأ ابن كثير وابو عمرو « من وراء جدار » على التوحيد. الباقون « جدر » على الجمع .

لما وصف الله تعالى المهاجرين الذين هاجروا من مكة وما لهم من الفضل ، وذكر الانصار وما لهم من جزيل الثواب ، وذكر التابعين باحسان وما يستحقونه من النعيم في الجنان ، ذكر المنافقين وما يستحقونه وما هم عليه من الاوصاف . فقال

« ألم تر » يا محمد « إلى الذين نافقوا » فأظهروا الايمان وأبطنوا الكفر « يقولون لاخوانهم » في الكفر وهم « الذين كفروا من أهل الكتاب » يعني يهود بني النضير ﴿ لئن أخرجتم ﴾ من بلادكم ﴿ لنخرجن معكم ﴾ مساعدين لكم ﴿ ولا نطيع فيكم أحداً ابداً ﴾ يعني في قتالكم ومخاصمتكم ﴿ ولئن قوتلتم ﴾ معاشر بني النضير ﴿ لننصرنكم ﴾ ولندفعن عنكم. فقال الله تعالى ﴿ والله يشهد انهم لكاذبون ﴾ فيما يقولونه في مساعدتهم والخروج معهم والدفاع عنهم. وظاهره يدل على انهم لم يخبروا عن ظنهم ، لانهم لو أخبروا عن ظنهم وعن نيتهم لما كانوا كاذبين . ويحتمل : ان يكونوا كاذبين في العزم ايضاً بأن يقولوا إنهم عازمون ولا يكونوا كذلك . ثم قال تعالى ﴿ لئن أخرجوا ﴾ يعني بني النضير ﴿ لا يخرجون معهم ﴾ يعني المنافقون الذين قالوا لهم إنا نخرج معكم ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ﴾ أي ينهزمون ويسلمونهم ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ الجميع ، قال الزجاج : فيه وجهان :

احدهما ـ إنهم لو تعاطوا نصرهم .

الثاني ـ ولئن نصرهم من بقي منهم لولوا الأدبار ، فعلى هذا لا ينافي قوله ﴿ لا ينصرونهم ﴾ قوله ﴿ ولئن نصروهم ﴾ .

ثم خاطب المؤمنين ، فقال ﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ أي أنتم أشد خوفاً في قلوب هؤلاء المنافقين يخافونكم ما لا يخافون الله ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أي لانهم قوم لا يفقهون الحق ولا يعرفونه ولا يعرفون معاني صفات الله ، فالفقه العلم بمفهوم الكلام في ظاهره ومتضمنه عند إدراكه ، ويتفاضل أحوال الناس فيه . وقيل : إن المنافقين الذين نزلت فيهم هذه الآية عبد الله بن ابي سلول وجماعة معه بعثوا إلى بني النضير بهذه الرسالة ـ ذكره ابن عباس ومجاهد ـ

ثم عاد تعالى إلى ذكر الخبر عن أحوال بني النضير ، فقال ﴿ لا يقاتلونكم ﴾ معاشر المؤمنين ﴿ إلا في قرى محصنة ﴾ يعني ممتنعة جعل عليها حصون ﴿ أو من وراء جدر ﴾ أى من وراء الحيطان ، فالجدار الحائط . فمن قرأ على التوحيد فلأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير ، ومن قرأ على الجمع ، فلاختلاف الجدران . ثم قال ﴿ بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ معناه عداوة بعض هؤلاء اليهود لبعض شديدة وقلوبهم شتى بمعاداة بعضهم لبعض أى ظاهرهم على كلمة واحدة وهم متفرقون في الباطن ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ يعنى ما فيه الرشد مما فيه الغي . وقال مجاهد ﴿ وقلوبهم شتى ﴾ يعني المنافقين وأهل الكتاب ، وإنما كان قلوب من يعمل بخلاف العقل شتى لاختلاف دواعيهم وأهوائهم ، وداعي الحق واحد ، وهو داعي العقل الذى يدعو إلى طاعة الله والاحسان في الفعل .

وقوله ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ﴾ معناه مثل هؤلاء كمثل الذين من قبلهم يعنى بني قينقاع ـ في قول ابن عباس ـ وقال مجاهد : هم مشركوا قريش ببدر ﴿ ذاقوا وبال أمرهم ﴾ من الشرك والكفر بالله فان عاقبة أمرهم كان القتل او الجلاء

وفي الآية دلالة على النبوة من جهة علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى

وقوله ﴿ ولئن نصروهم ليولن الادبار ﴾ جاء على تقدير المستقبل كما يجيء في الماضي بـ(لو) لتبين خورهم وضعف قلوبهم ، واللام في قوله ﴿ لئن اخرجوا ﴾ و ﴿ لئن قوتلوا ﴾ و ﴿ لئن نصروهم ﴾ كلها لام القسم . واللام في قوله ﴿ ليولن الادبار ﴾ جواب القسم.

قوله تعالى :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ

أَنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاؤُ ٱلظَّالِمِينَ (١٧) يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ(١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ ﴾ (٢٠) خمس آيات .

معنى قوله ﴿ كمثل الشيطان ﴾ أي مثل هؤلاء المنافقين فيما قالوا لليهود ، مثل قيل الشيطان ﴿ إذ قال للانسان اكفر ﴾ واغواه به ودعاه اليه ﴿ فلما كفر ﴾ يعني الانسان ﴿ قال ﴾ الشيطان ﴿ إني بريء منك اني اخاف الله رب العالمين ﴾ بمعنى أخاف عقابه . وإنما يقول الشيطان للانسان اكفر بأن يدعوه اليه ويغويه به ويقول له : التوحيد ليس له حقيقة والشرك هو الحق وأمره بجحد النبوة ، ويقول لا أصل لها ، وإنما هي مخرقة . والبراءة قطع العلقة إلى ما تقتضيه العداوة فهذه البراءة من الدين ، وقد تكون البراءة قطع العلقة بما يدفع المطالبة كبراءة الدين ، وبراءة الطلاق ، وبراءة الذمي إذا أخذت منه الجزية . والاصل قطع العلقة التي يقع بها مطالبة في نقيض الحكمة ، فالتقدير في الآية إن مثل المنافقين في وعدهم لبني النضير مثل الشيطان في وعده للانسان بالغرور ، فلما أحتاج اليه الانسان أسلمه للهلاك . وقيل : إن ذلك في إنسان بعينه كان من الرهبان فاغواه الشيطان بأن ينجيه من بلية وقع فيها عند السلطان ، فقال له : اسجد لي سجدة واحدة ، فلما احتاج اليه أسلمه حتى قتل ـ روي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ـ وقال مجاهد:

هو عام في جميع الكفار ، فقال الله تعالى ﴿ فكان عاقبتهما ﴾ يعني عاقبة الفريقين الداعي والمدعو من الشيطان ومن أغواه والمنافقين واليهود ﴿أنهما في النار﴾ معذبان فيها ، والعاقبة نهاية العمل في البادية ، فعاقبة الطاعة لله تعالى الجنة ، وعاقبة معصيته النار ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مؤبدين فيها معذبين ثم قال ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ لانفسهم بارتكاب المعاصي .

ثم خاطب المؤمنين فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أي تنظر وتفكر ما الذي تقدمه من الافعال ليوم القيامة من طاعة او معصية ﴿ واتقوا الله ﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي عالم بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها فيجازيكم بحسبها على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب . وقيل معناه ﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ فيما تقدم نفس لغد ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما يعلمه منكم ، وليس ذلك بتكرار

ثم قال ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ أي كالذين تركوا أداء حق الله فانهم نسوه فأنساهم أنفسهم بأن حرمهم حظوظهم من الخير والثواب ، وقال سفيان : نسوا حق الله فأنساهم حظ أنفسهم . وقيل : نسوا الله بترك ذكره والشكر والتعظيم فأنساهم انفسهم بالعذاب الذي نسي به بعضهم بعضاً ، كما قال تعالى ﴿ فاذا دخلتم بيوتاً فسلموا على انفسكم ﴾ (١) أي يسلم بعضكم على بعض ثم اخبر عنهم فقال ﴿ اولئك هم الفاسقون ﴾ الذين خرجوا من طاعته إلى معصيته .

وقوله ﴿ لا يستوي أصحاب النار واصحاب الجنة ﴾ أي لا يتساويان ، لان هؤلاء مستحقون للنار وأولئك مستحقون لثواب الجنة . ثم قال ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ بثواب الله . ولا يدل على أن من معه إيمان وفسق لا يدخل الجنة ،

(١) سورة ٢٤ النور آية ٦١

لأنه تعالى قسم أصحاب الجنة وأصحاب النار الذين يستحقون ثواباً بلاعقاب اوعقاباً بلا ثواب، لانهما لا يتقاربان، ولم يذكر من يستحق الامرين. وعندنا أن الفاسق المسلم يستحق الأمرين فليس هو داخلاً فيه.

قوله تعالى:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٤)

أربع آيات.

يقول الله تعالى معظماً لشأن القرآن الذى انزله عليه مكبراً لحاله فى جلالة موقعه بأنه لو أنزل القرآن على جبل لرئي الجبل خاشعاً، والمراد به المثل، وتقديره لو كان الجبل مما ينزل عليه القرآن ولو شعر به - مع غلظه وجفاء طبعه وكبر جسمه - لخشع لمنزله تعظيماً لشأنه ولتصدع من خشيته، فالانسان أحق بهذا لو عقل الأحكام التي فيه. والتصدع التفرق بعد التلاؤم، ومثله التفطر يقال: صدعه يصدعه صدعا فهو صادع وذاك مصدوع ومنه الصداع فى الرأس وهو معروف، وتصدع تصدعا

وانصدع إنصداعاً فبين انه على وجه المثل بقوله ﴿ وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ ومعناه ليتفكروا ، لان (لعل) بمعنى الشك ، والشك لا يجوز على الله .

وقوله ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو ﴾ معناه هو المستحق للعبادة الذي لاتحق العبادة إلا له ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ معناه عالم بما يشاهده العباد ، وعالم بما يغيب عنهم علمه . وقيل : معناه ﴿ عالم الغيب ﴾ مالا يقع عليه حس من المعدوم او الموجود الذي لا يدرك مما هو غائب عن الحواس كأفعال القلوب وغيرها ﴿ والشهادة ﴾ أي وعالم بمـا يصح عليه الادراك بالحواس . وقال الحسن : الغيب ما اخفاه العباد ، والشهادة ما أعلنوه ، ففي الوصف بها بين كونه عالماً بجميع المعلومات ، لأنها لاتعدو هذين القسمين .

وقوله ﴿ هو الرحمن ﴾ يعني المنعم على جميع خلقه ﴿ الرحيم ﴾ بالمؤمنين ، ولا يوصف بالرحمن سوى الله تعالى . وأما الرحيم ، فانه يوصف به غيره تعالى . ثم اعاد قوله ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك ﴾ يعني السيد المـالك لجميع الاشياء الذي له التصرف فيها على وجه ليس لأحـد منعه منه ﴿ القدوس ﴾ ومعناه المطهر فتطهر صفـاته عن ان يدخل فيها صفة نقص ﴿ السلام ﴾ وهو الذي يسلم عباده من ظلمه ﴿ المؤمن ﴾ الذي أمن العباد من ظلمه لهم إذ قال ﴿ لا يظلم مثقـال ذرة ﴾ (١) ﴿ المهيمن ﴾ قال ابن عباس معنـاه الأمين . وقال قوم : معناه المؤمن إلا انه أشد مبالغة في الصفة ، لا نه جاء على الأصل في المؤمن ، فقلبت الهمزة هاء ، وفخم اللفظ به لتفخيم المعنى . وقال قتـادة : معناه الشهيد كأنه شهيد على إيمان من آمن به أو الشهيد على الأمن في شهادته ﴿ العزيز ﴾ يعني القادر الذي لا يصح عليه القهر

(١) سورة ٤ النساء آية ٣٩

﴿ الجبار ﴾ العظيم الشأن في الملك والسلطان ، ولا يستحق ان يوصف به على هذا الاطلاق إلا الله تعالى ، فان وصف بها العبد ، فانما هو على وضع لفظة في غير موضعها ، فهو ذم على هذا المعنى ﴿ المتكبر ﴾ يعني في كل شيء . وقيل : معناه المستحق لصفات التعظيم .

وقوله ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ تنزيه لله تعالى عن الشرك به كما يشرك به المشركون من الاصنام وغيرها .

ثم قال ﴿ هو الله الخالق ﴾ يعني للاجسام والاعراض المخصوصة ﴿ البارىء ﴾ المحدث المنشيء لجميع ذلك ﴿ المصور ﴾ الذى صور الاجسام على اختلافها من الحيوان والجماد ﴿ له الاسماء الحسنى ﴾ نحو الله ، الرحمن ، الرحيم ، القادر ، العالم ، الحي وما اشبه ذلك . ثم قال ﴿ يسبح له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم ﴾ وقد مضى تفسيره .

٦٠ ـ سورة الممتحنة

مدنية بلا خلاف وهي ثلاث عشرة آية بلا خلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾(١) آية بلاخلاف.

هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين عزم النبي صلى الله عليه وآله على ان يدخل مكة بغتة ، فسأل الله أن يعمي اخبارهم على قريش ومنع احداً ان يخرج من المدينة إلى مكة فكتب حاطب بن أبي بلتعة الى أهل مكة يعلمهم بذلك ، فأوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وآله بذلك ، فدعا علياً عليه السلام والزبير ، وقال لهما : اخرجا حتى تلحقا جارية سوداء متوجهة إلى مكة معها كتاب ، فخذاه منها ، فخرجا حتى لحقاها فسألاها عن الكتاب ، فأنكرت ففتشاها ، فلم يجدا معها شيئاً ، فقال الزبير : ارجع بنا فليس

معها شيء ، فقال علي عليه السلام يقول رسول الله صلى الله عليه وآله : خذ الكتاب منها ، وتقول : ليس معي شيء !!! ثم اقبل عليها ، وسل سيفه . وقال : والله لئن لم تخرجي الكتاب لاضربن عنقك فقالت له أعرض بوجهك عني ، فلما أعرض عنها أخرجت الكتاب من بين ضفيرتين لها ، وسلمته اليه ، فلما عادا سلماه إلى النبي فأمر النبي صلى الله عليه وآله بأن ينادى بالصلاة جامعة فاجتمع الناس ، فصعد النبي صلى الله عليه وآله المنبر وخطب ، ثم قال : (أما إني كنت سألت الله ان يعمي اخبارنا عن قريش حتى ندخل مكة بغتة ، وإن رجلا منكم كتب اليهم ينذرهم خبرنا ، وهذا كتابه فليقم صاحبه) فلم يقم أحد فأعاد ثانياً ، فلم يقم احد ، فأعاد ثلاثاً ، ثم قال : فليقم وإلا فضحه الوحي ، فقام حاطب ، وهو يرعد ، وقال يا رسول الله : والله ما نافقت منذ اسلمت ، فقال ما حملك على ذلك ، فقال إن لي بمكة أهلا وليس لي بها عشيرة ، فأردت ان اتخذ بذلك عندهم يداً ان كانت الدائرة لهم ، فقام عمر بن الخطاب وقال : يا رسول الله مرني بأن أضرب عنقه ، فانه نافق ، فقال رسول الله : إنه من أهل بدر ، ولعل الله تعالى أطلع إطلاعة فغفر لهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية يخاطب فيها المؤمنين وينهاهم أن يتخذوا عدو الله من الكفار وعدو المؤمنين أولياء يوالونهم ويلقون اليهم بالمودة . والباء زائدة وتقديره ويلقون اليهم المودة ، وهي المحبة ، كما قال الشاعر :

ولما زجت بالشرب هز لها العصا ... شحيح له عند الازاء نهيم (١)

أي زجت الشرب ، ويجوز أن يكون المراد يلقون اليهم ما يريدون بالمودة ﴿ وقد كفروا ﴾ يعني الكفار الذين يلقون اليهم المودة ﴿ بما جاءكم ﴾ به النبي صلى الله عليه وآله ﴿ من الحق ﴾ يعني من التوحيد والاخلاص لله في العبادة والقرآن وشريعة الاسلام ﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ يعني إخراجهم لهم من مكة ﴿ أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾

(١) مر في ٧ | ٣٠٧

ومعناه كراهة ان تؤمنوا بالله وقال قوم: اخرجوكم لايمانكم بالله ربكم الذي خلقكم ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ﴾ أي وطلباً لمرضاتي فلا تلقوا اليهم بالمؤدة ان كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله وطالبين مرضاته. قال الزجاج. وهو شرط جوابه متقدم وتقديره إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. و (جهاداً، وابتغاء) منصوبان على المفعول له.

وقوله ﴿ تسرون اليهم بالمودة ﴾ فتكاتبونهم باخبار النبي صلى الله عليه وآله ﴿ وأنا اعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ أي بسركم وعلانيتكم وظاهركم وباطنكم، لا يخفى عليّ من ذلك شيء، فكيف تسرون بمودتكم إياهم مني.

وقوله ﴿ ومن يفعله منكم ﴾ يعني من ألقى اليهم المودة والقى اليهم اخبار النبي صلى الله عليه وآله منكم جماعة المؤمنين بعد هذا البيان ﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ أي قد عدل عن الحق وجار عن طريق الرشد. وفي الآية دليل على ان مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الايمان، لان حاطب بن أبي بلتعة رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قد فعل ذلك، ولا يقول أحد انه أخرجه ذلك من الايمان.

قوله تعالى:

﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣)

آيتان بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع ﴿ يفصل ﴾ بضم الياء وفتح الصاد وسكون الفاء خفيفة . وقرأ ابن عامر ـ بضم الياء وفتح الفاء وتشديد الصاد وفتحها ـ على ما لم يسم فاعله . وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة. وقرأ عاصم ويعقوب وسهل بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد خفيفة : أربع قراءات ، يقال : فصلت بين الشيء أفصله فصلا إذا ميزته ، وفصلته تفصيلا ، بمعنى واحد . فمن قرأ بفتح الياء أراد إن الله يفصل بينهم ويميز بعضهم عن بعض ، ومن ضم الياء جعله لما لم يسم فاعله ومعلوم أن الله هو المفصل بينهم .

وقوله ﴿ ان يثقفوكم ﴾ معناه إن يصادفوكم هؤلاء الكفار الذين تسرون اليهم بالمودة ، يقال : ثقفته أثقفه ثقفاً فأنا ثاقف ، ومنه سمي ثقيف ، ومنه المثاقفة ، وهي طلب مصادفة العزة في المسابقة ، وما يجرى مجراها من المصادفة بالشطب ونحوه و﴿ يكونوا لكم أعداء ﴾ أي يعادونكم ولا ينفعكم ما تلقون اليهم « ويبسطوا اليكم أيديهم » بما يقدرون عليه من الاذى والقتل . ويبسطوا ﴿ ألسنتهم ﴾ ايضاً ﴿ بالسوء ﴾ فيذكرونكم بكل ما تكرهونه وجميع ما يقدرون عليه من السوء ويحثون على قتالكم ﴿ وودوا ﴾ مع هذا كله ﴿ لو تكفرون ﴾ بالله كما كفروا وتجحدون كما جحدوا .

ثم قال ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ﴾ الذين جعلتموهم علة في القاء المودة اليهم والافشاء اليهم بسر النبي صلى الله عليه وآله يوم القيامة ﴿ والله يفصل بينكم ﴾ ذلك اليوم ويميز بعضكم عن بعض إذا كانوا كفاراً وكنتم مؤمنين ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ لا يتعذر عليه تميز بعضكم عن بعض فيأمر بالمؤمنين الى الجنة وبالكفار إلى النار

قوله تعالى :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرٰهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ

قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٥) آيتان بلاخلاف.

قرأ عاصم ﴿ أسوة ﴾ بضم الهمزة في جميع القرآن . الباقون ـ بكسرها ـ وهما لغتان .

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين وحاثاً لهم على ترك موالاة الكفار ومبيناً لهم ان ذلك غير جائز بأن قال ﴿ قد كانت لكم ﴾ في ترك موالاة الكفار وترك الركون إلى جناياتهم ﴿ اسوة حسنة ﴾ أي اقتداء حسن ﴿ في إبراهيم ﴾ خليل الرحمن عليه السلام ﴿ والذين معه ﴾ قال ابن زيد : يعني الانبياء . وقال غيره : يعني الذين آمنوا معه ﴿ إذ قالوا ﴾ أي حين قالوا ﴿ لقومهم ﴾ من الكفار الذين كانوا يعبدون الاصنام ﴿ إنا برآؤ منكم ﴾ على وزن فعلاء ، ومثله ظريف وظرفاء وكريم وكرماء وفقير وفقراء الهمزة الأولى لام الفعل والثانيــة المنقلبة من الف التأنيث والالف التي قبله إلهمزة زيادة مع علامـة التأنيث ، وهو جمع بريء وبراؤ منكم ﴿ ومما تعبدون من دون الله ﴾ أي وبريئون من الاصنام التي تعبدونها ، ويجوز أن تكون (ما) مصدرية ويكون المعنى وبريئون من عبادتكم للاصنام ﴿ كفرنا بكم ﴾ أي يقولون لهم : جحدنا ما تعبدون من دون الله وكفرنا به ﴿ وبدأ بيننا ﴾ أي ظهر بيننا ﴿ وبينكم العداوة

والبغضاء ابداً ﴾ لا يكون بيننا و بينكم موالاة فى الدين ﴿ حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ أي حتى تصدقوا بوحدانيته وإخلاص العبادة له .

وقوله ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن الك ﴾ استثناء لقول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن أي فلا تقتدوا به فيه . فان إبراهيم عليه السلام إنما استغفر لأبيه على ﴿ موعدة وعدها إياه ﴾ لأن اباه كان وعده بالايمان ، فوعده إبراهيم بالاستغفار ، فلما اظهر له الايمان استغفر له إبراهيم فى الظاهر ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله ﴾ وعرف ذلك من جهته ﴿ تبرأ منه ﴾ (١) قال الحسن : إنما تبين ذلك عند موت أبيه ، ولو لم يستثن ذلك لظن إنه يجوز الاستغفار للكفار مطلقاً من غير موعدة بالايمان منهم . وقيل : إنه الاستثناء راجع الى قوله ﴿ وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ﴾ لأنه لما كان استغفار إبراهيم لأبيه مخالفاً لما تضمنته هذه الجملة وجب استثناؤه وإلا توهم بظاهر الكلام انه عامل أباه من العداوة والبراءة بما عامل به غيره . وقال البلخي : هذا استثناء منقطع . ومعناه لكن قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن الك كان لأجل موعدة أبيه بالايمان . ثم قال إبراهيم لأبيه ﴿ وما أملك الك من الله من شيء ﴾ إذا اراد عقابك ، فلا يمكن دفع ذلك عنك ،

وقوله ﴿ ربنا ﴾ أي يقولون ربنا ﴿ عليك توكلنا ﴾ فالتوكل على الله تفويض الأمور اليــه ثقة بحسن تدبيره فى كل ما يدبره به ﴿ واليك أنبنا ﴾ أي رجعنا وتبنا اليك أي رجعنا إلى طاعتك ﴿ واليك المصير ﴾ معناه واليك مرجع كل شيء يوم القيامة ، وقال ايضاً وكانوا يقولون ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ ومعناه لا ترهم فينا ما يشمتون بجهلهم بنا . وقال مجاهد : معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا ببلاء من عندك ، فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما اصابهم هـذا ﴿ واغفر لنا ذنوبنا

(١) سورة ٩ التوبة آية ١١٥

إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ في جميع افعالك . وفي ذلك تعليم انه ينبغي ان يدعو الانسان بهذا الدعاء . وقال الحسن : كان استغفار إبراهيم لأبيه صغيرة ، وقال عمرو ابن عبيد ، واصل دعاء إبراهيم لأبيه بشرط الايمان بأنه إن آمن يستغفر له .

قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٦) عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧) آيتان بلاخلاف .

إنما أعيد ذكر الاسوة في الآيتين ، لان الثاني منعقد بغير ما انعقد به الاول فان الثاني فيه بيان أنه كان أسوة في إبراهيم والذين معه ، وهو لرجاء ثواب الله وحسن المنقلب في اليوم الآخر ، والاول فيه بيان ان الاسوة في المعاداة للكفار بالله حسنة وإذا انعقد الثاني بغير ما انعقد به الأول صارت الفائدة في الثاني خلاف الفائدة في الاول .

ووجه الجواب في قوله ﴿ ومن يتولِ فان الله هو الغني الحميد ﴾ أي من يذهب عما يحتاج اليه دون الداعي له ، لان الداعي له غنى حميد ، فجاء على الايجاز . والحميد هو المستحق للحمد على إحسانه ، والمحمود الذي قد حمد ، فان الله تعالى حميد محمود .

وقوله ﴿ عسي الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ بالاسلام وقال ابن زيد : وكان ذلك حين أسلم كثير منهم . وقيل معنى ﴿ عسي الله ان

يجعل ﴾ أي ليجعل بينكم مودة ، وقيل معناه كونوا على رجاء من ذلك وطمع فيه وهو اوجه ، لأنه الأصل في هذه اللفظة . ثم قال ﴿ والله قدير ﴾ أي قادر على كل ما يصح ان يكون مقدوراً له ﴿ والله غفور ﴾ لذنوب عباده ساتر لمعاصيهم « رحيم » بهم أي منعم عليهم .

قوله تعالى :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾ (٩) آيتان بلا خلاف .

قال الحسن : إن المسلمين استأذنوا النبي ﷺ في أن يبروا قرباتهم من المشركين ، وكان ذلك قبل أن يؤمروا بالقتال لجميع المشركين ، فنزلت هذه الآية وقال قتادة : هي منسوخة بقوله ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (١) وبه قال ابن عباس : يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ « عن » مخالطة « الذين لم يقاتلوكم في الدين » من الكفار « ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم » وتحسنوا اليهم « وتقسطوا اليهم » معناه تعدلوا إليهم « إن الله يحب المقسطين » يعني الذين يعدلون في الخلق . وقيل معناه إن الله يحب الذين يقسطون قسطاً من أموالهم على وجه البر .

وقوله « إن تبروهم » في موضع خفض ، وتقديره : لا ينهاكم الله عن أن

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦

تبروهم، وهو بدل من (الذين) بدل الاشتمال . وقال مجاهد : عنى بالذين لم يقاتلوكم من آمن من أهل مكة ولم يهاجروا ، وقال ابن الزبير : هو عام في كل من كان بهذه الصفة ، والذي عليه الاجماع والمفسرون بأن بر الرجل من شاء من أهل دار الحرب قرابة كان او غير قرابة ليس بمحرم ، وإنما الخلاف في اعطائهم الزكاة والفطرة والكفارات ، فعندنا لا يجوز . وفيه خلاف . وقال الفراء الآية نزلت في جماعة كانوا عاقدوا النبي ﷺ ألا يقاتلوه ولا يخرجوه ، فأمر رسول الله ﷺ ببرهم والوفاء لهم إلى مدة اجلهم . ثم بين تعالى على من يتوجه النهي ببره وإحسانه فقال «إنما ينهاكم الله عن» مبرة «الذين قاتلوكم في الدين» من اهل مكة وغيرهم «واخرجوكم من دياركم» يعني منازلكم وأملاككم «وظاهروا على اخراجكم» أي تعاونوا على ذلك وتعاضدوا، والمظاهرة هي المعاونة ليظهر بها على العدو بالغلبة . وقوله «أن تولوهم» اي ينهاكم عن ان تنصروهم وتوادوهم وتحبونهم ثم قال «ومن يتولهم» أي ومن ينصرهم ويواليهم «فاولئك هم الظالمون» لانفسهم ، لانهم يستحقون بذلك العقاب والكون في النار .

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ٱللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا

ذٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠) آية بلا خلاف

قرأ ابو عمرو واهل البصرة « ولا تمسكوا » بالتشديد . الباقون «تمسكوا» خفيفة وهما لغتان .

يقولون امسكت به وتمسكت به . قيل كان سبب نزول هذه الآية إن النبي ﷺ كان صالح قريشاً يوم الحديبية على ان يرد عليهم من جاء بغير أذن وليه ، فلما هاجر النساء وقيل : هاجرت كلثم بنت أبي معيط فجاء أخواها فسألا رسول الله ﷺ أن يردها ، فنهى الله تعالى ان يرددن الى المشركين ، ونسخ ذلك الحكم ، ذكره عروة بن الزبير .

فقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا » بالله ورسوله « إذا جاءكم المؤمنات » بالله ورسوله « مهاجرات » من دار الحرب إلى دار الاسلام « فامتحنوهن » وقيل في كيفية الامتحان أربعة اقوال :

قال ابن عباس : كانت امتحان رسول الله إياهن أن يحلفن بالله ما خرجت من بغض زوج وبالله ما خرجت رغبة عن ارض ، وبالله ما خرجت التماس دنياً وبالله ما خرجت إلاّ حباً لله ورسوله ـ وفي رواية أخرى ـ عن ابن عباس قال : كان امتحانه لهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . وروي عن عائشة انه كان امتحانهن بما في الآية التي بعدها « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ... » الآية . وقال ابن عباس وقتادة : كان امتحانهن ما خرجن إلا للدين ، ورغبة في الاسلام وحباً لله ورسوله كقول ابن عباس الأول .

ثم قال « الله أعلم بإيمانهن» لأنه يعلم باطنهن وظاهرهن وانتم لا تعلمون باطنهن

ثم قال « فإن علمتموهن مؤمنات » يعني في الظاهر « فلا ترجعوهن إلى الكفار » أي لا تردوهن اليهم « لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن » قال ابن زيد : وفرق بينهما النبي ﷺ ، وإن لم يطلق المشرك . وقيل : إن النبي ﷺ كان شرط لهم رد الرجال دون النساء ، فعلى هذا لانسخ في الآية . ومن قال كان شرط رد النساء والرجال قال : نسخ الله حكم رد النساء .

وقوله « وآتوهم ما أنفقوا » قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد : اعطوا رجالهم ما انفقوا من الصداق . وقال الزهري : لولا الهدنة لم يرد إلى المشركين صداقاً كما كان يفعل قبل . وقيل نسخ رد المهور على الأزواج من المشركين ثم قال « ولا جناح عليكم » معاشر المؤمنين « ان تنكحوهن » يعني المهاجرات لانهن بالاسلام قد بن من أزواجهن « إذا آتيتموهن أجورهن » يعني مهورهن التي يستحل بها فروجهن .

وقوله « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » فالكوافر جمع كافرة ، والعصمة سبب تمنع به من المكروه وجمعه عصم . وفي ذلك دلالة على انه لايجوز العقد على الكافرة سواء كانت ذمية اوحربية او عابدة وثن ، وعلى كل حال ، لانه عام في جميع ذلك وليس لاحد أن يخص الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهم ، لان المعتبر بعموم اللفظ لا بالسبب .

وقوله « واسألوا ما انفقتم » يعني إذا صارت المرأة المسلمة إلى دار الحرب عن دار الاسلام فاسألوهم عن ان يردوا عليكم مهرهن ، كما يسئلونكم مهر نسائهم إذا هاجرن اليكم ، وهو قوله « وليسألوا ما انفقوا » ثم قال « ذلكم » يعني ما تقدم ذكره وشرحه « حكم الله يحكم بينكم والله عليم » بجميع الاشياء « حكيم » فيما يفعله ويأمركم به . وقال الحسن : كان في صدر الاسلام تكون المسلمة تحت الكافر والكافرة تحت المسلم

فنسخت هذه الآية ذلك . والمفسرون على ان حكم هذه الآية منسوخ ، وعندنا أن الآية غير منسوخة ، وفيها دلالة على المنع من تزوج المسلم اليهودية والنصرانية ، لانهما كافرتان والآية على عمومها في المنع من التمسك بعصم الكوافر ، ولا نخصها إلا بدليل .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (١٣) ثلاث آيات .

معنى قوله « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار » أي إن أعجزكم ومضى شيء من أزواجكم إلى كفار أهل مكة . ومعنى شيء أحد ، فكأنه قال وإن فاتكم احد منكم « فعاقبتم » بمصير أزواج الكفار اليكم إما من جهة سبي او مجيئهن مؤمنات « فآتوا الذين ذهبت أزواجهم » إلى الكفار « مثل ما انفقوا » من المهور كما عليهم أن يردوا عليكم مثل ما أنفقتم لمن ذهب من أزواجكم . قال

الزجاج : وقد قرىء « فعقبتم » بلا الف مشدداً ومخففاً ، وجاء في التفسير فغنمتم ومعناه في اللغةفكانت العقبى لكم أي كانت لكم الغلبة حتى غنمتم، قال « وعقبتم » مشددة أجودها في اللغة ، ومخففة جيدة أيضاً أي صارت لكم عقبى ، والتشديد أبلغ ومعنى « فعاقبتم » أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم أي ان مضت امرأة منكم إلى من لا عهد بينكم وبينه « فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا » يعني في مهورهن ، وكذلك إن مضت الى من بينكم وبينه عهد فنكث في اعطاء المهر ، فالذي ذهبت زوجته يعطى المهر من الغنيمة ولا ينقص شيئاً من حقه بل يعطى حقه كاملا بعد إخراج مهور النساء . وقال الزهري : فآتوا الذين ذهبت أزواجهم من المؤمنين مثل ما أنفقوا من مال الفيء . وقال ابن عباس من مال الغنيمة ـ وفي رواية عن الزهري ـ عليهم أن يعطوهم من صداق من لحق بهم وقال قوم : يعطونهم من جميع هذه الاموال . وقال قتادة : معنى الآية « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار » الذين ليس بينهم وبين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عهد « فعاقبتم » يعني الغنيمة يقول :فاذاغنمتم فاعطوا زوجها صداقها الذي كان قدساقه اليها من الغنيمة ثم نسخ هـذا الحكم في براءة ، فنبذ إلى كل ذي عهد عهده . ثم قال « واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » أي اجتنبوا معاصي الله الذي أنتم مصدقون بثوابه وعقابه ومعترفون بنبوة نبيه.

وقوله « يا أيها النبي »خطاب للنبي صلى الله عليه وآله يقول الله له « إذا جاءك المؤمنات يبايعنك » ووجه بيعة النساء مع أنهن لسن من أهل النصرة في المحاربة هو أخـذ العهد عليهن بما يصلح شأنهن في الدين للأنفس والأزواج ، فكان ذلـك في صدر الاسلام لئلا ينفتق بهن فتق لما صيغ من الاحكام ، فبايعهن النبي صلى الله عليه وآله حسماً لذلك وقيل : إنه كان يبايعهن من وراء الثوب . وروي أنه استدعى ماء فوضع يده فيه

ثم أمر النساء ان يضعن أيديهن فيه ، فكان ذلك جارياً مجرى المصافحة بأخذ العهد « على أن لا يشركن بالله شيئاً » من الاصنام والاوثان « ولا يسرقن » لا من أزواجهن ولا من غيرهم « ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن » على وجه من الوجوه لا بالوأد ، ولا بالاسقاط « ولا يأتين ببهتان » يعني بكذب « يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » أي لا يأتين بكذب يكذبنه في مولود يوجد بين أيديهن وأرجلهن . وقال ابن عباس : لا يلحقن بأزواجهن غير اولادهم . وقال الفراء : كانت المرأة تلتقط فتقول لزوجها: هذا ولدي منك ، فذلك البهتان المفترى . وقال قوم : البهتان الذي نهوا عنه فى الآية قذف المحصنات والكذب على الناس وإضافة الأولاد إلى الازواج على البطلان فى الحاضر والمستقبل من الزمان ، ولا يعصينك في معروف ، فالمعروف نقيض المنكر ، وهو ما دل العقل والسمع على وجوبه او ندبه ، وسمي معروفاً لان العقل يعترف به من جهة عظم حسنه ووجوبه . وقال زيد بن أسلم : فيما شرط ألا يعصينه فيه أن لا يلطمن ولا يشققن جيباً ولا يدعون بالويل والثبور ، كفعل أهل الجاهلية . وقال ابن عباس : فيما شرط ألا يعصينه فيه النوح .

وقوله « فبايعهن » والمعنى إذا شرطت عليهن هذه الشروط ودخلن تحتها فبايعهن على ذلك « واستغفر لهن الله » أي اطلب من الله ان يغفر لهن ذنوبهن ويستر عليهن « إن الله غفور رحيم » أي صفوح عنهن منعم عليهن . وقال الحسن : إذا جاءت المرأة اليوم من غير أهل العهد لم ترد إلى زوجها ، ولم تمتحن وهذه الآية منسوخة .

ثم قال « يا ايها الذين آمنوا » يخاطب المؤمنين بالله ورسوله « لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم » أي لا توالوا اليهود ، ولا من يجري مجراهم من الكفار الذين غضب الله عليهم بأن يريد عقابهم « ولعنهم الله » ثم وصف الكفار ، فقال

« قد يئسوا من الآخرة » جملة في موضع الحال أي باياسهم من الآخرة ، فان اليهود ييأسون من ثواب الجنة على ما يقوله المسلمون من الأكل والشرب وغير ذلك من أنواع اللذات كما يئس من لم يؤمن بالبعث والنشور أصلا « كما يئس الكفار من أصحاب القبور » قال الحسن الذين يئسوا من الآخرة أي اليهود مع الاقامة على ما يغضب الله ، كما يئس كفار العرب أن يرجع أهل القبور أبداً ، وقيل هم أعداء المؤمنين من قريش قد يئسوا من خير الآخرة ، كما يئس سائر الكفار من العرب من النشأة الثانية . وقيل « كما يئس الكفار من أصحاب القبور » من حظ الآخرة . وقيل : قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار من النشأة الثانية ذكره ابن عباس ، وقال مجاهد : قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس منه أصحاب القبور ، لانهم قد ايقنوا بعذاب الله .

٦١ ـ سورة الصف

مدنية بلا خلاف، وهي أربع عشرة آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ ٱللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٥) خمس آيات

قد مضى تفسير «سبح لله ما في السموات وما في الارض وهو العزيز الحكيم» في أول الحشر، وقد مضى تفسيره في اول الحديد، وإنما أعيد ـ ههنا ـ لانه استفتاح السورة بتعظيم الله من جهة ما سبح له بالآية التي فيه، كما يستفتح بسم الله الرحمن الرحيم، وإذا جل المعنى في تعظيم الله حسن الاستفتاح به، لأن المقصد به حسب دلالته والفائدة في تعظيم ما ينبغي أن يستفتي به على جهة التعظيم لله، والتيمن بذكره.

وقوله «يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون» قال الحسن : نزلت في المنافقين ، يقول الله لهم «لم تقولون» بألسنتكم ما لا تفعلونه ، فسماهم بالايمان على الظاهر . وقيل : نزلت في قوم كانوا يقولون إذا لقينا العدوّ لم نفر ، ولم نرجع عنهم ثم لم يفوا بما قالوا ، وقال قتادة : نزلت في قوم : قالوا : جاهدنا وأبلينا ولم يفعلوا . وقال ابن عباس ومجاهـــد : نزلت في قوم قالوا : لو علمنا احب الاعمال إلى الله اسارعنا إليها ، فلما نزل فرض الجهاد تثاقلوا عنه ، فبين الله ذلك . وقال قوم : هو جار مجرى قوله «يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود» (١) فان القول الذي يجب الوفاء به هو القول الذي يعتقد بفعل البر على طريق الوعد من غير طلب .

وقوله «كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» إنما اطلق ذلك مع انه ليس كل قول يجب الوفاء به . لانه معلوم انه لا عيب بترك الوفاء فيما ليس بواجب الوفاء به ، وإن الذم إنما يستحق بترك ما هو واجب أو ما أوجبه الانسان على نفسه بالنذر والعهـد . والمقت البغض وهو ضد الحب ، وهو على ضربين : احدهما ـ يصرف عنه العقل . والآخر ـ يصرف عنه الطبع إلا انه جرى على صيغة واحدة للبيان أن صارف العقل في التأكيد كصارف الطبع ، كما أنه في الحب على داعي العقل او داعي الطبع ، وحذف الألف من «لم تقولون» لشدة الاتصال ، ووضع حرف الاعتلال ، لانه حرف تغيير في موضع تغيير .

وقوله «مقتاً» نصب على التمييز ، وتقديره : كبر هـذا القول أي عظم مقتاً عند الله ، وهو أن تقولوا مالا تفعلون . ويحتمل أن يكون تقديره كبر ان تقولوا ما لا تفعلون مقتاً عند الله .

قوله «إن الله يحب الذين يقـاتلون في سبيله صفاً» معناه إنه تعالى يحب

(١) سورة ٥ المائدة آية ١

من يقاتل في سبيله ويجاهد أعداء دينه ويزيد ثوابهم ومنافعهم . وقوله « صفاً » أي يقاتلونهم مصطفين ، وهو مصدر في موضع الحال . وقوله « كأنهم بنيان مرصوص » قيل في معناه قولان :

احدهما - كأنه بني بالرصاص لتلاؤمه ولشدة اتصاله .

الثاني - كأنه حائط ممدود على رص البناء أي احكامه وإتصاله واستقامته والمرصوص المتلائم الذى لاخلل فيه ومثل مرصوص شديد اللصوق في الاتصال والثبوت

ثم قال للنبي صلى الله عليه وآله وأذكر « إذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله اليكم » لأنه مع العلم بنبوته لا يجوز إيذاءه ، وكانوا يؤذونه فيقولون : هذا ساحر كذاب ، ويرمونه بالبرص وغير ذلك . وقوله « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » فالزيغ الذهاب عن الشيء باسراع فيه والاظهر فيه الذهاب عن الحق ، والمعنى إنهم لما ذهبوا عن طريق الحق ، ومالوا إلى طريق الباطل « أزاغ الله قلوبهم » بمعنى انه حكم عليها بالزيغ والميل عن الحق ، ولذلك قال « والله لا يهدى القوم الفاسقين » ومعناه لا يحكم لهم بالهداية . وقيل : معناه فلما زاغوا عن الايمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب ، ولا يجوز ان يكون المراد أزاغ الله قلوبهم عن الايمان لأن الله لا يزيغ أحداً ولا يضله عن الايمان ، وايضاً فانه لا فائدة في الكلام على ما قالوه ، لانهم إذا زاغوا عن الايمان فقد حصلوا كفاراً ، فلا معنى لقوله ازاغ الله

قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَيٰةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَٱللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٩) أربع آيات .

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف « متم نوره » مضافاً . وقرأ الباقون « متم نوره » منصوباً . والقراءتان متقاربتان إلا أن اسم الفاعل إذا كان لما مضى لا يعمل، ولا يجوز إلا الاضافة، وإذا كان للحال والاستقبال جاز فيه التنوين والاضافة .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ إذكر يا محمد « إذ قال عيسى بن مريم » لقومه الذين بعث اليهم « يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقا » نصب على الحال ﴿ لما بين يدي من التوراة ﴾ إنما سماه لما بين يديه وهو قد تقدمه وهو خلفه بمضيها لانها متقدمة . وهو متوجه اليها بالأخذ بها ، فلها جهتان : جهة المضي وجهة التقدم ﴿ ومبشراً برسول ﴾ عطف على قوله ﴿ مصدقاً ﴾ وهو ايضاً نصب على الحال ﴿ يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ يعني نبينا محمد ﷺ .

وقوله ﴿ اسمه أحمد ﴾ فأحمد عبارة عن الشخص . والاسم قول ، والقول لا يكون الشخص . وخبر المبتدأ ينبغي ان يكون هو المبتدأ إذا كان مفرداً . والوجه فيه ان يقدر فيه (قول) فكأنه قال إسمه قول أحمد ، كما تقول : الليلة الهلال ، وانت

تريد الليلة طلوع الهلال فتحذف المضاف وتقيم المضاف اليه مقامه .

وقوله ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ قيل فيه قولان :

احدها ـ إن محمداً لما جاء كفار قومه بالبينات أي المعجزات ، قالوا هذا سحر واضح بين .

وقال قوم : معناه فلما جاء عيسى قومه بالبينات والمعجزات قالوا له هذا القول . ومن نسب الحق إلى السحر فقد جرى فى ذلك مجرى الجحد لنعم الله فى أنه قد كفر ، فان كان دون ذلك كان جاهلا وفاسقاً ، لو لم يكفر . والسحر حيلة توهم امراً ليس له حقيقة كأيهام انقلاب الحبل حية .

وقوله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام ﴾ صورته صورة الاستفهام والمراد به التبكيت . ومعناه لا أحد أظلم لنفسه ممن افترى على الله الكذب وخرص عليه ، وهو يدعى إلى الاسلام يعني الاستسلام لأمره والانقياد لطاعته ، وهو متوجه إلى كفار قريش وسائر فى جميع الكفار .

ثم قال ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ومعناه لا يحكم بهداية القوم الظالمين الذين هم الكفار . وقيل : معناه لا يهدي الكفار إلى الثواب ، لانهم كفار ظالمون لأنفسهم بفعل الكفر والمعاصي التي يستحق بها العقاب ، وكل كافر ظالم لانه أضر نفسه بفعل معصية استحق بها العقاب من الله تعالى ، فكفره ضرر قبيح .

ثم وصف الكافرين الذين عناهم بالآية فقال ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ ومعناه إنهم يريدون إذهاب نور الاسلام والايمان بفاسد الكلام الذي يجري مجرى تراكم الظلام . وقيل : معناه هم كمن أراد اطفاء نور الشمس بفيه .

وقوله ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ معناه إن الله يتم نور الاسلام ويبلغ غايته وإن كره ذلك الكفار الجاحدون لنعم الله .

ثم قال ﴿ هو الذي ﴾ يعني الله الذي اخبر عنه بأنه يتم نوره ﴿ أرسل رسوله ﴾ يعني محمد صلى الله عليه وآله ﴿ بالهدى ودين الحق ﴾ من التوحيد وإخلاص العبادة لله ودين الاسلام وما تعبد فيه الخلق ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ بالحجج القاهرة والدلائل الباهرة ﴿ ولو كره المشركون ﴾ ذلك . وفى الآية دلالة على صحة النبوة ، لأنه تعالى قد أظهر دينه على الاديان كلها بالاستعلاء والقهر ، كما وعد فى حال القلة والضعف.

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (١٤) خمس آيات .

قرأ ابن عامر ﴿ تنجيكم من عذاب اليم ﴾ مشددة الجيم . الباقون بالتخفيف وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو وابو جعفر ﴿ أنصاراً لله ﴾ منونا . الباقون بالاضافة

لقولهم في الجواب ﴿ نحن أنصار الله ﴾ وقرأ نافع وحده ﴿ انصاري إلى الله ﴾ بفتح الياء . الباقون باسكانها وهما جميعاً جيدان .

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بالله واعترفوا بتوحيده وإخلاص عبادته وصدقوا رسوله ﴿ هل أدلكم على تجارة ﴾ صورته صورة العرض والمراد به الامر . والتجارة طلب الربح في شراء المتاع . وقيل اطلب الثواب بعمل الطاعة تجارة تشبيهاً بذلك ، لما بينهما من المقاربة ﴿ تنجيكم ﴾ أي تخلصكم ﴿ من عذاب أليم ﴾ أي مؤلم ، وهو عذاب النار . ثم فسر تلك التجارة فقال ﴿ تؤمنون بالله ورسوله ﴾ أي تعترفون بتوحيد الله وتخلصون العبادة له وتصدقون رسوله فيما يؤديه اليكم عن الله . وإنما قال ﴿ تؤمنون ﴾ مع أنه قال ﴿ يا ايها الذين آمنوا ﴾ لان ذلك جار مجرى قوله ﴿ يا ايها الذين آمنوا آمنوا ﴾ (١) وقد بيناه فيما مضى (٢) ﴿ وتجاهدون في سبيل الله ﴾ يعني قتال اعدائه الكفار ﴿ بأموالكم ﴾ فتنفقونها في ذلك ﴿ وأنفسكم ﴾ فتحاربون بنفوسكم . ثم قال ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ أي ما ذكرته لكم ووصفته أنفع لكم وخير عاقبة إن علمتم ذلك واعترفتم بصحته . وإنما قال ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ مع أن تركه قبيح ومعصية لله ، لان المعنى ذلكم خير لكم من رفعه عنكم ، لان ما أدى إلى الثواب خير من رفعه إلى نعيم ليس بثواب من الله تعالى . والتكليف خير من رفعه إلى الابتداء بالنعم لكل من عمل بموجبه ، وقيل : إيمانكم بالله خير لكم من تضييعه بالمشتهى من أفعالكم ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ مضار الاشياء ومنافعها وإنما جاز (تؤمنون بالله) مع أنه محمول على التجارة وخبر عنها ، ولا يصلح أن يقال التجارة تؤمنون . وإنما يقال التجارة أن تؤمنوا بالله ، لانه على طريق ما يدل على خبر التجارة لا على نفس الخبر إذ الفعل يدل على مصدره وانعقاده بالتجارة في المعنى

(١) سورة ٤ النساء آية ١٣٩ (٢) انظر ٣ / ٣٠٧ ، ٣٥٩

لا في اللفظ . وفى ذلك توطئة لما بنى على المعنى من الايجاز . والعرب تقول : هل لك فى خير تقدم إلى فلان ، فتعوده وأن تقدم اليه .

وقوله ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ أي متى فعلتم ذلك ستر عليكم ذنوبكم ، وجزمه لانه جواب ﴿ تؤمنون ﴾ لأنه فى معنى آمنوا يغفر لكم . وقال الفراء : هو جواب (هل) وإنما جاز جزم (يغفر لكم) لانه جواب الاستفهام . والمعنى هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم يعلمكم بها ، فانكم إن عملتم بها يغفر لكم ذنوبكم وكان ابو عمرو يدغم الراء فى اللام فى قوله ﴿ يغفر لكم ﴾ ولا يجوز ذلك عندالخليل وسيبويه، لان فى الراء تكرار ، ولذلك غلبت المستعلي فى طارد . ﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ﴾ عطف على قوله ﴿ يغفر لكم ﴾ فلذلك جزمه ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مؤبدين ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أي ولهم في الجنة مساكن طيبة مستلذة ﴿ في جنات عدن﴾ أي في بساتين إقامة مؤبدة . ثم قال ﴿ذلك الفوز العظيم ﴾ يعني الذي وصفه من النعيم هو الفلاح العظيم الذي لا يوازيه نعمة . وقيل : الفوز النجاة من الهلاك الى النعيم .

وقوله ﴿ واخرى تحبونها ﴾ معناه ولكم خصلة أخرى مع ثواب الآخرة ﴿نصر من الله ﴾ في الدنيا عليهم ﴿ وفتح قريب﴾ لبلادهم . ثم قال﴿ وبشر المؤمنين﴾ بذلك أي بما ذكرته من النعيم والنصر في الدنيا والفتح القريب .

ثم خاطب المؤمنين فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ ومعناه كونوا أنصار دين الله الذي هو الاسلام بأن تدفعوا اعداءه عنه وعن دينه الذي جاء به ﴿ كما قال عيسى بن مريم للحواريين ﴾ أى مثلكم مثل قول عيسى للحواريين ، وهم خاصته ، وسمي خاصة الانبياء حواريين ، لانهم أخلصوا من كل عيب - في قول الزجاج - وقيل : سموا حواريين لبياض ثيابهم . وقال ابن عباس : كانوا صيادين

للسمك . وقال الضحاك : كانوا غسالين .

وقوله ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ يعني من أنصاري مع الله ، و (الى) تكون بمعنى (مع) ومثله ﴿ ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ﴾ (١) يعني مع أموالكم . وقيل سمي النصارى نصارى لقولهم ﴿ نحن انصار الله ﴾ وقيل : لانهم كانوا من الناصرة وهي قرية في بلاد الروم ، فأجابه الحواريون بأن قالوا ﴿ نحن انصار الله ﴾ وإنما قيل لهم ﴿ كونوا أنصار الله ﴾ مع أن المراد به دين الله ، تعظيماً للدين وتشريفاً له ، كما يقال الكعبة بيت الله ، وحمزة اسد الله ، وما أشبه ذلك ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل ﴾ يعني صدقت بعيسى عليه السلام طائفة من بني اسرائيل ﴿ وكفرت ﴾ به ﴿ طائفة ﴾ اخرى ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ﴾ أي قوينا المؤمنين على عدوهم ﴿ فاصبحوا ظاهرين ﴾ أي غالبين لهم وقال ابراهيم : معناه أيد الذين آمنوا بعيسى بمحمد ، فاصبحوا ظاهرين عليهم . وقال مجاهد : بل أيدوا في زمانهم على من كفر بعيسى عليه السلام وقال بعضهم : لم يكن من المسيح قتال . والتأويل أنهم أصبحوا ظاهرين على مخالفيهم بالحجة . وقال قوم : كانت الحرب بعد المسيح لما اختلف أصحابه فاقتتلوا فظفر أهل الحق ، وهذا ضعيف ، لأنه لم يكن من دينهم بعده القتال . وقال ابن عباس قاتلوا ليلا فاصبحوا ظاهرين .

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٢

تم المجلد التاسع من التبيان ويليه المجلد العاشر وأوله اول سورة الجمعة

طبع في محرم الحرام سنة ١٣٨٣ هـ - حزيران سنة ١٩٦٣ م

فهرس المجلد التاسع من التبيان

١ - فهرس الاحاديث

صفحة

صفحة

٢ ـ فهرس الردود والاجوبة والادلة

صفحة

٣ - فهرس المباحث اللغوية

صفحة

٤ ـ فهرس السور

تم فهرس المجلد التاسع من التبيان